

عبد الحمید رشک

فے  
رَحَابُ التَّفْسِيرِ

المکتبۃ المصریۃ الحدیث



عبد الحميد كشك

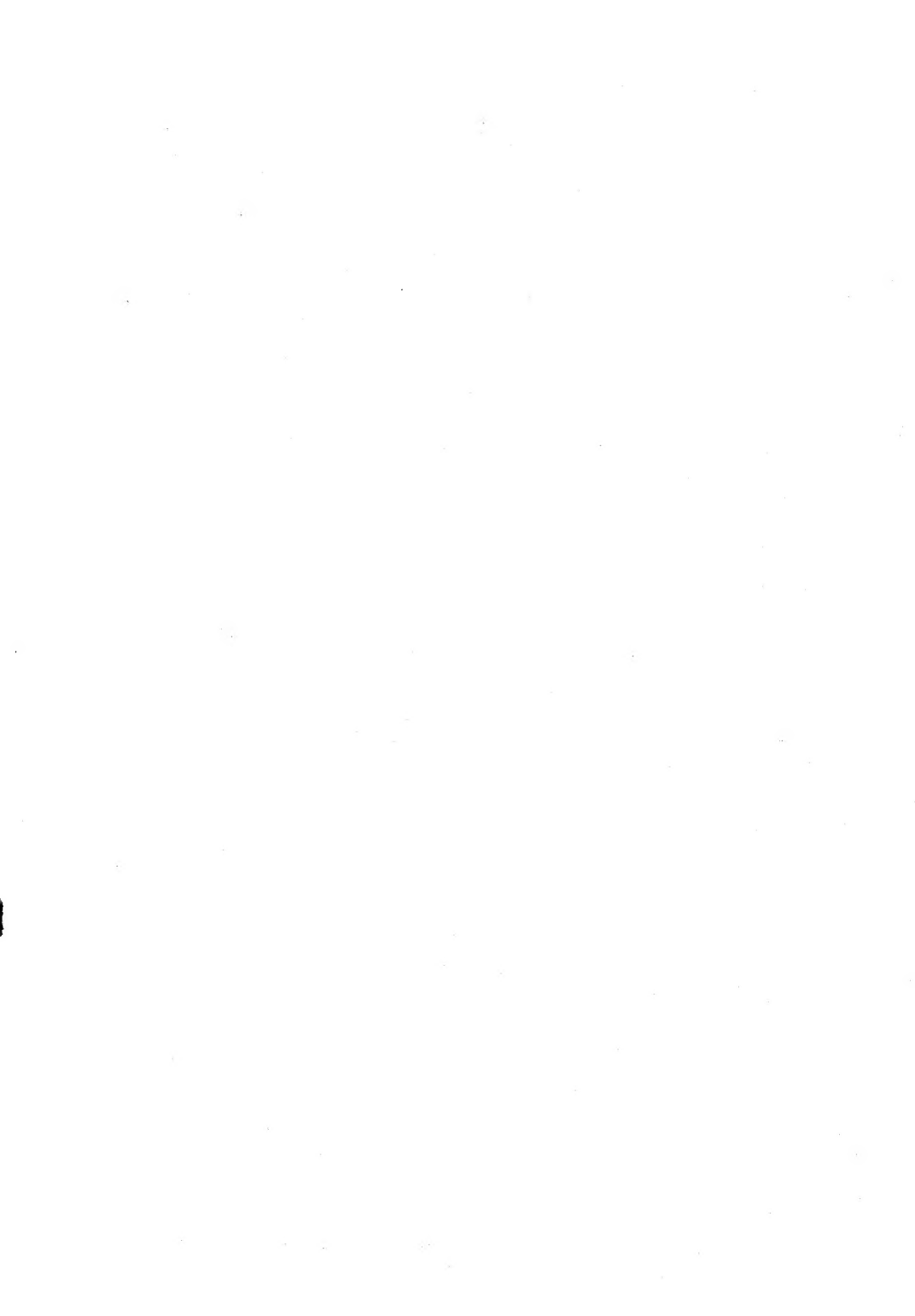
في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

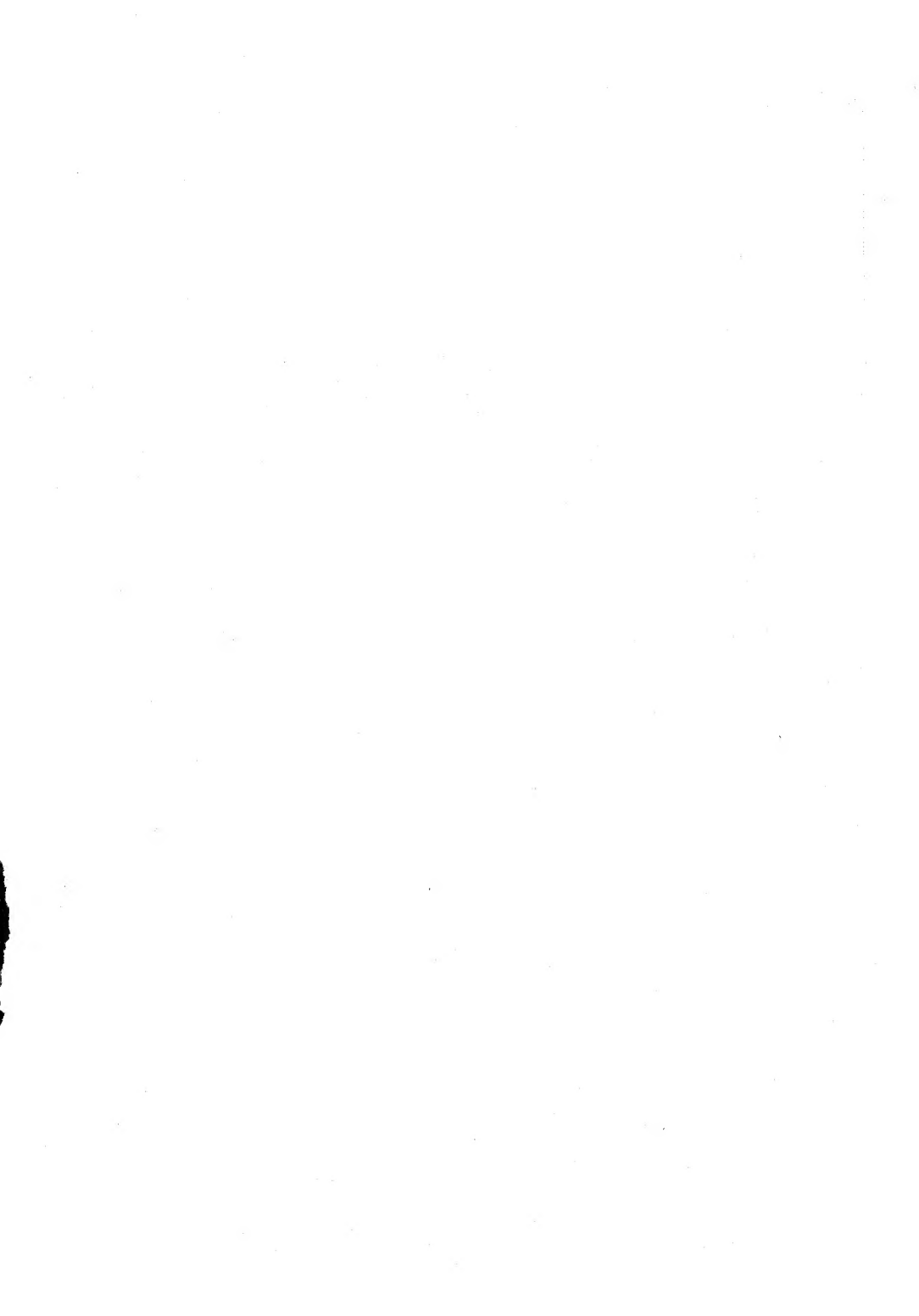
المجلد الأول

المكتبة المصرية الحديث



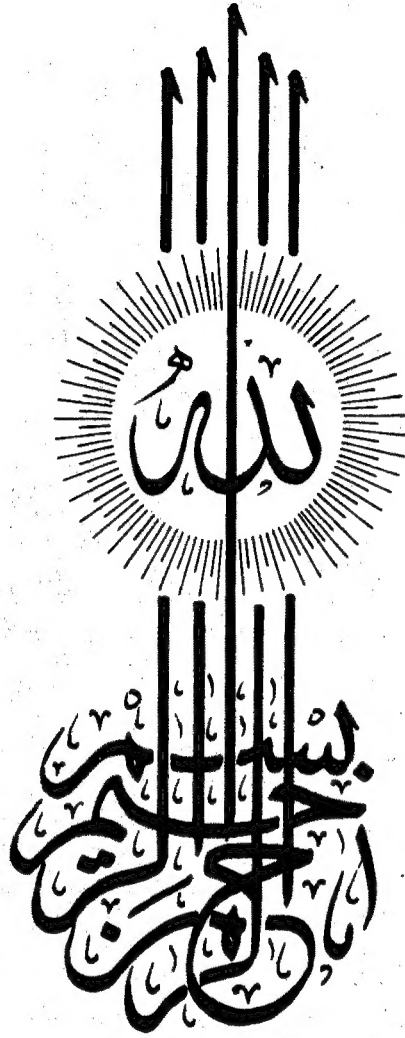












عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :  
قال النبي ﷺ : ( إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه ) .

رواه البخارى

## في رحاب التفسير

ظل الداعية الإسلامي الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقى بأحبابه من المسلمين ، من فوق منبره في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، في خطب الجمعة ، وفي دروسه وفتاويه التي كانت تشغل كل أيام الأسبوع ، فتشرح الصدور ، وتصفو الأفئدة وتطهر النفوس وتتغذى العقول والأرواح .. وتنزل السكينة والرحمة ...

واشتهر مجلس الشيخ ، وذاع صيته حتى بلغ آفاق الأرض إلى عنان السماء .. وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن وقرى .. وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامي كله ، وفي يوم الجمعة يمتلئ المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من المصلين <sup>٣</sup> فيؤمنون ما يحيط المسجد من شوارع وطرق حتى ينتهي الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلطف الأيدي الأشرطة كي تسمعها النساء في البيوت ، ولكي تطير إلى قارات الدنيا الست تنقل للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ما قاله الشيخ فلا يحرمون من نفعه .

وفي سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره .. ومنع من أن يلقي الأحبة .. في دروس أو فتاوى .. فكانت الضارة النافعة .. فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. وعجيبا لأمر المؤمن أن أمره كله له خير .. فعكف الشيخ على القرآن الكريم .. مأدبة الله ، الذي لا تنقضى عجائبه ولا تنفذ أنواره التي تبدد الظلمات .. يحيى به لياليه يطالع آياته .. ويعاينها ويفسرها .. تفسيرا يضيف إلى كل ما سبقه كثيرا ، تفسيرا يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها ، في عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يكتنفه من ظلمات ركाम الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما في الصدور .. فتبتدئ الظلمة .. وتنقش الغمة ..

وعاش الشيخ أيامه في هذه الأعوام الستة — ولا يزال — في رحاب التفسير عاكفاً عليه في بيته ، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة ، مهما برق لمعانه أو اشتد إغراؤه ، أو زاد إلحاحه .. فقد استشعر لذة القرآن وأطلته نعمائمه .. وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظروف للاضطلاع بهذه المهمة التي تحتاج لهذا التفرغ الكامل ..

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه .. وهو لا يزال يمضي في طريقه يشق عباب البحر وشاطئ النهاية يلوح من بعيد .. يزداد منه اقترابا كل يوم .. طالبا منا أن تقدمه إلى المسلمين في كل مكان كما قدمنا من قبل مكتبته التي انتشرت في كل مكان .. وسخر الله لنشرها حتى الكفار من الموارنة والملاحدين يزورون طبعاتها ويصلون بها إلى ما لم نصل إليه من بقاع الأرض ، قاصدين لعاعات الدنيا التي ما قصدناها .. فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومنه وكرمه .

نسأل الله العليّ القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم مبرا من كل ما عداه من أغراض ، فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى الجنة وشفيعا يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ونورا لنا يوم ندخل قبورنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين . آمين يارب العالمين .

## بسم الله الرحمن الرحيم

### المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد ألا إله إلا الله وليّ الصالحين . ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

سبحانه هو اللطيف بعباده ؛ ومن مظاهر لطفه بخلقه أن وهبهم العقل الذى يميزون به بين الخبيث والطيب ، والضار والنافع ، والظلمات والنور . وأرسل إليهم ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٢) . وأنزل كتباً تهدى السالكين إلى طريق الرشاد والسداد ، وعلى رأس هذه الكتب « القرآن العظيم » . نزل به أعظم ملك هو الروح الأمين ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، فى أعظم شهر هو شهر رمضان ، من أعظم مكان هو أم الكتاب ، فى أعظم بلد « مكة » ، بأشرف لغة ، على أعظم نبي هو سيد الأولين والآخرين ، الذى مدحه ربه بما منحه فقال : ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾ \* وإنك لعلّى خلق عظيم ﴿ (٣)

وقال عنه مبيناً الحكمة من إرساله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٤) . وقال عن أتباعه : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ \* الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿ (٥)

وقد أمره مولاه ومصطفيه أن يعلن عموم رسالته فقال : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٦) .

فتأمل معنى قوله جل شأنه : ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ إنه القرآن . فالله نور السموات والأرض ، والقرآن نور ، والنبى الذى جاء بالقرآن نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٧) .  
فعجباً لأمر الأمة : ربه نور ، وكتابتها نور ، ونبيها نور ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى الظلمات ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾ (٨) .

- (٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .  
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .  
(٦) سورة الأعراف آية : ١٥٨ .  
(٨) سورة التغابن آية : ٨ .

- (١) سورة الفتح آية : ٢٨ .  
(٣) سورة القلم آية : ٤ ، ٣ .  
(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .  
(٧) سورة المائدة آية : ١٥ .

وبعد . . . فهذا تفسير للكتاب العزيز ، قصدت به تيسير الطريق لذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفتدة المستنيرة ، لمن أراد أن ينفعه الله بهدى كتابه ﴿ إن هذا القرآن يهdy للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (١) ، لا سيما وقد طغت الماديات على المعنويات ، واشتغل الناس بالدنيا ، وارتكبوا فى سبيل تحصيلها وجمع مالها ما يندى له جبين الحياء خجلاً . فماجى الفتن موج البحر ، وعرضت على القلوب كما تعرض الحصر عوداً عوداً ، فأنكرتها قلوب وأشربتها أخرى . فكانت القلوب على قللين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، وعلى أسود مر بآء مثل الكوزى مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فما المخرج من تلك الفتن ؟ هذا سؤال وجهه الإمام الجليل على بن أبى طالب إلى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية محمد ﷺ . قال على رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا \* يهى إلى الرشء فآمنا به ﴾ (٢) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم (٣) .

### فصل فى فضل القرآن والترغيب فى تلاوته

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور \* ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ (٤) .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله فى فضل القرآن :

وخير جليس لا يمل حديثه	وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته	من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك ينيه مقيلاً وروضة	ومن أجله فى ذروة العز يحتلى
يناشء فى إرضائه لحبيبه	وأجدر به سؤلاً إليه موصلا

(٢) سورة الجن آية : ١ ، ٢ .

(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٤) سورة فاطر آية : ٢٩ ، ٣٠ .

فيا أيها القارى به متمسكا      هُجَلالُه في كل حال مبجلا  
هنيئا مريثا والداك عليهما      ملابس أنوار من التاج والحلى

وإشرفنا أن نكون من أمة القرآن الذى أمر الله بترتيبه ، فقال : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ (١) . . وعلى قارئ القرآن أن يقف عند عجائبه ويحرك به القلوب . فاقروا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

ولنبى القرآن ﷺ حشد مقدس ومسيرة مباركة من الأحاديث رواها الإمام المنذرى فى كتابه الشهير «الترغيب والترهيب» ، رأينا من الخير أن نعطر بها تلك الصفحات ، لأنها تشع نورا وتفيض بركة وسرورا ، وتتقاطر رحمة وجورا ، وأصحاب الأئمة المستنيرة وأولو الألباب الباصرة يدركون ذلك بأعين البصائر . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴾ (٢) . نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا .

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( خيركم من تعلم القرآن وعلمه ) (٣) . أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وكم للقرآن من ثواب جزيل لتأليه ، لو تعلم الأمة حقيقة هذا الثواب ، ما غفلت عن ترتيله وتزكية القلوب به ، وتعطير الألسنة بقراءته . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) (٤) .

فأنت ترى فى الحديث الأول أن خيرية العباد مقدورة بتعلم القرآن وتعليمه ، ويرغب النبى ﷺ فى الوعظ والإرشاد ، ويدعو العلماء إلى تعليم المسلمين ، والعمل بأحكام الدين ، والجهد فى تفهيم الضالين ، والإقناع بالحجة وكثرة الاطلاع .

وترى فى الحديث الثانى أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارئ بكل حرف من حروف كلماته حسنة . وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فى ميادين الجهاد ، فرسانا بالنهار ، رهبانا بالليل ، إذا جنَّ عليهم الليل سمعت لهم دويا بالقرآن كدوى النحل ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مرَّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مرَّ بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، ذلك كله لأنهم اتخذوا القرآن هاديا ورائدا ومعلما ومرشدا . مصداقا لقول البارئ

(١) سورة المزمل آية : ٤ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

(٣) صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٣٦ ط الشعب ١٣٧٨ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

تبارك اسمه : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (١) . وجدوا فيه الدواء والشفاء : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٢) . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ (٣) . ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ \* قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ (٤) .

أعلمت ما منازل السكينة والرحمة والملائكة ، وذكر الله في الملأ الأعلى ؟ إنها في مجالس القرآن تلاوة ودراسة . عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ) (٥) . ومعنى قوله ﷺ نزلت عليهم السكينة : أى الطمأنينة والوقار والسعادة والقبول ، أما غشيتهم الرحمة أى عمتهم وأحاطت بهم .

ومجالس القرآن شاملة لكل مكان . بهذا نطق الحديث الشريف : ( لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ) . ومعنى ذكرهم الله فيمن عنده أى أثنى عليهم سبحانه في الملأ الأعلى تنويهاً بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم ، وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا . وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربته ، والمعسور ليزيل عسره . لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

يعلما رسول الله ﷺ انتهاز الفرص لإجابة الدعاء أن تذهب وتتوضأ وتصلى ركعتين لله تعالى ثم تجلس مع صالحين تذكرون الله وتتلون كتابه ، وتفهمون تفسير آياته ، ثم تكثر من الاستغفار والصلاة على المختار ﷺ ، وحينئذ ينتظر إغداق إحسان الله ونزول رحماته وشمول بركاته .

عن معاوية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : ( ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومن به علينا . قال : آله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة ) (٦) .

فاتقوا الله أيها المسلمون واحرصوا على تعلم القرآن ، وربوا أبناءكم على حفظ آياته تربحوا وتنجحوا ، فهو الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل والغي والفساد إلى نور العلم والاستقامة والصلاح ، وسطع نور هديه في الأكوان ، وظهرت آثار عدله ورحمته في كل مكان . قال تعالى : ﴿ لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٧) ، نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد ﷺ ، فمحا المران عن القلوب ، وفتحت به نوافذ الفطن ، وأزال الغشى عن الأبصار ، وعنت لعظمته وجوه الفصحاء ،

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٢ .

(٤) سورة يونس آية : ٥٧ ، ٥٨ .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٨٠ .

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .

(٣) سورة فصلت آية : ٤٤ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .



وتطاحت لسحر بيانه عزة البلغاء ، فأذعنوا له صاغرين ، وخروا لآيات بلاغته ساجدين ، وأيقنوا أنه تنزيل من رب العالمين .

ومن فضل الله تعالى على أهل القرآن أنه لم يجعل الجزاء الحسن مقصوراً على تاليه ، إنما شمل بمزيد فضله سامعه مادام يلتزم آداب السماع التي أمر الله تعالى بها في كتابه فقال : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ (١) . وما أشد حاجة المسلمين إلى معرفة آداب السماع في مجالس القرآن . إن الأفتدة لتنفطر أسى وإن القلوب لتتخلع حزناً وإن جبين الحياء ليندى خجلاً عندما تسمع القرآن يتلى والجالسون في غفلة معرضون : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ \* لاهية قلوبهم ﴿ (٢) . أليس مما يدعو للأسف أن يقول المستمع للقارئ وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ \* ثم الجحيم صلوه \* ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴿ (٣) ، آيات تشيب من هولها نواصي الولدان ، وتقشعر لجلالها الأبدان ، يقول المستمع الغافل «ربنا يزيدك» . ولست أدري من أى شيء يزيده بعد أن بلغ طول السلسلة سبعون ذراعاً ! ومستمع آخر لعله كان نائماً واستيقظ على قول القارئ : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾ (٤) فصاح بأعلى صوته : «اللهم اجعلنا جميعاً منهم» . إنه لا يدري زمر النار أم زمر الجنة ؟ وهذا دليل على غفلة القلوب . وكما قال شوقي :

لقد أنلتك أذنًا غير واعية      ورُب مستمع والقلبُ في صمم

إن الله تعالى شمل السامع والتالي بعنايته ، إذا التزم كل منهما آداب السماع والتلاوة . عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله : قال : ( من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة ) (٥) . واعلم يا أخى أنك إذا شغلت بتلاوة القرآن عن الدعاء فإن الله تعالى يعطيك بفضل القرآن أعظم مما يعطى السائلين ، وهذه إحدى بركات القرآن والإشتغال به ، لأنه أفضل الكلام وأصدق الحديث . بهذا نطق الرسول الكريم . عن أبي سعيد رضى الله عنه قال : ( قال رسول الله ﷺ : يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفصل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ) (٦) .

واعلم بأن الناس مع القرآن أربعة أنواع من حيث القراءة والعمل . وقد جاء ذلك التقسيم رائعاً وبديعاً في قول رسول الله ﷺ : ( مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها طيب ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الرجحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل المجلس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصيبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل

(١) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢ ، ٤ .

(٣) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) سورة الزمر آية : ٧١ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٢ .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الجلس سوء كمثّل صاحب الكبر إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه<sup>(١)</sup> . والمقصود بالأترجة التي تجمع طيب الطعم والريح : كالتفاحة . وجاء في الفتح : أن التمثيل وقع بالذي يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهى لا مطلق التلاوة . وفي هذا الحديث بيان فضيلة القرآن والدعوة إلى العمل به . جاء في عمدة القارى أن كلام الله المجيد له تأثير في باطن العبد وظاهره ، وأن العباد متفاوتون في ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير ، وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق الحقيقي ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه ، وهو المرائي أو بالعكس وهو المؤمن الذي لم يقرأه ، وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوسات ما هو مذكور في الحديث ، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ، ولا أحسن ولا أجمع من ذلك لأن المشبهات والمشبّه بها واردة على تقسيم الحاضر ، لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن ، والثاني إما منافق صرف أو ملحق به . فعلى هذا قيس الثمار المشبه بها ، ووجه الشبه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح . وقد ضرب النبي ﷺ المثل بما تنبت الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال ، فإنها من ثمرات النفوس ، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والثمرة بالمؤمن ، وبما تنبت الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيهاً على علو شأن المؤمن ، وارتفاع علمه ودوام ذلك ، وتوقيفاً على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه .

شيء بدیع يكسب قارىء القرآن : نفحات صمدية وبركات إلهية صادرة من تلاوة كلام رب العالمين . فأفاد ﷺ أن قارىء القرآن رائحته ذكية ، ومنافعه جليّة وقربه رحمة ، ومصاحبته طاعة ومودته رضوان وكلامه مثمر . وفيه الحث على الإنصات والاستماع ، وتخلّق القارىء بمكارم الأخلاق . وإذا قرأ العاصي القرآن فكالوردة رائحتها ذكية ولا تؤكل . فتمر نفحات عطرية من فيه وهو غير عامل بما يقرأ ، فيستفيد السامع المنصت فقط ، ومن يرضى أن يكون ريحانة لغيره محروماً من شمها ، فاقداً عطرها بعيداً عن ثمرها ؟ .

وكذا العاصي الذي لا يقرأ ولا يسمع ، فكالشجرة المرة كريهة الطعم معدومة الرائحة . فلا حول ولا قوة إلا بالله . . فعليك يا أخى بالإنصات إلى القرآن ، والتأمل في آياته ، وأن تقرأ ما تيسر منه عسى أن تشمّلك رحمة الله جل جلاله . قال تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر من القرآن ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾<sup>(٣)</sup> . ولا تيأس من قراءة القرآن إن كان شاقاً على لسانك ، بل عليك أن تجاهد اللسان بقراءة آياته المحكمة ، فإن كثرة قراءته تيسر تلاوته . قال جل شأنه : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾<sup>(٤)</sup> . واعلم بأن الله يعطى الثواب على قدر المشقة . فإذا ما صرت ماهراً بتلاوته فلك عند الله درجة السفارة الكرام للبررة . بهذا نطق الحديث الشريف . قال ﷺ : ( الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران )<sup>(٥)</sup> .

(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .

(٤) سورة القمر آية : ١٧ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٣) سورة الزمر آية : ١ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ومن الوصايا النبوية العالية ، الوصية بتلاوة القرآن . إذ أن تلاوته نور وذخر . قال أبوذر رضى الله عنه : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : ( عليك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن ، فإنها نور لك في الأرض ، وذخر لك في السماء )<sup>(١)</sup> .

وليس فضل القرآن مقصوراً على الدنيا ، بل يتعدى ذلك إلى يوم الحشر ، يوم يفر المرء من أخيه وأبيه وصاحبته وبنيه . قال ﷺ : ( القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار )<sup>(٢)</sup> . وقال أيضاً صلوات ربى وسلامه عليه : ( اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شافعاً لأصحابه )<sup>(٣)</sup> .

بل إن هذا الفضل لا يقتصر على قارئ القرآن وحده ، بل يتعداه إلى والديه ، حيث نبهنا إلى ذلك الرسول الكريم بقوله : ( من قرأ القرآن وعمل به ألبس والداه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا ) . فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟

إن أقصى ما يتمناه العبد هورضا الله ، فيوم يبلغ هذه المكانة فقد حيزت له السعادة الأبدية . قال أحد الصالحين يناجى ربه :

يا مالک النفس قاصيها ودانيها	رضاك خير من الدنيا وما فيها
سوى رضاك فذا أقصى أمانها	فليس للنفس آمال تحققها
خير إلى من الدنيا وما فيها	فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى

أتعلم ما هى الوسيلة لبلوغ رضا الله ؟ إنه ذلك القرآن . فمن أفضاله يوم الحشر أنه يسأل ربه الرضا لصاحبه فيؤتيه الله سؤله . انصت معى فى خشوع وجلال إلى هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( يحيى صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب حلّه فيلبس تاج الكرامة ثم يقول : يارب زده فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة )<sup>(٤)</sup> .

ومن أفضال القرآن يوم الحشر أنه يصعد بصاحبه فى درج الجنة على قدر ما يحفظ . فكلما قرأ آية صعد بها درجة . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها )<sup>(٥)</sup> .

قال الخطابى : « جاء فى الأثر أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارئ ارق فى الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درج الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءاً منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة »<sup>(٦)</sup> .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٥ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٥ .

وأفضل ما يتجلى به القرآن على أصحابه يوم الفزع الأكبر ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١). إنه يوم ما أطوله ، وباله من خطب ما أهوله ، وباله من جبار ما أعدله ، في هذا اليوم اختص الله ثلاثة أنواع من عباده ، لا يجزئهم الفزع الأكبر ، ولا تهولهم تلك الشدائد ، منهم صاحب القرآن الذى يتلوه ويؤم الناس به وهم راضون عنه . وإليك هذه الأنواع الثلاثة كما بينها الصادق المعصوم . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كتيب من مسك حتى يُفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم به راضون . وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله . وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين مواليه) (٢).

ما أجمل أن يشبه الرسول ﷺ صاحب القرآن بجرباب عشب مسكا ، يفوح شذاه فيملأ المكان طيبا تنشق القلوب والأرواح ، ويفيض على الناس عيبا فواحا وأريحا يبعث في النفس طمأنينة وسكينة . فاستمع معى إلى حث رسول الإسلام على قراءة القرآن . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعنى ما معه من القرآن ، فأق على رجل من أحدتهم سنا ، فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فانت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقروه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب عشب مسكا يفوح ريحه في كل مكان ، ومن تعلمه فيرقده وهو في جوفه فمثل كمثل جراب أوكىء على مسك) (٣).

لو علمت فضل القرآن في محكمة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة ما غفلت عن قراءته ، وما اشتغلت عن نوره وبركاته ، ولظلت أضواؤه متصلة بقلبك ووجدانك ، إنه يقوم بدور الشفيع لك عند الواحد القهار ، ويؤدى في محكمة الله شهادة يقبلها العليم الخبير فيك ، أتدرى ما هى ؟ إنه أسهرك الليالى مما جعل النوم يحفوك مصداقا لقول الله : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون \* آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين \* كانوا قليلا من الليل ما يهجعون \* وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (٤).

فاستمع معى إلى نص هذا الخبر : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعتك الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعتك النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيشفعان) (٥).

لقد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تشاهد هذا المنظر البديع الذى يصوره لنا الصحابي الجليل «أسيد بن حضير» وهو يقصه على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، والرسول يأمره أن يقرأ ، وقد استحضر أسيد الصورة كاملة . إنه مشهد قرآنى رائع ومقام نورانى كريم . إن الملائكة تستمع إلى أسيد وهو

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٤) سورة الذاريات الآيات : ١٥ - ١٨ .

(١) سورة الحج آية : ٢ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٧ .

يقراً ، بل إن فرسه يضطرب من خشية الله حتى كادت أرجل الفرس تطأ ابنه يحيى ، وما هو ذا أسيد أمام رسول الله يقص عليه ما رآه رأى العين :

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مِرْبَدِهِ<sup>(١)</sup> إذ جالت<sup>(٢)</sup> فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضاً . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقممت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السُرُجِ عرجت<sup>(٣)</sup> فى الجوحى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مِرْبَدِي إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضاً ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريباً منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجوحى ما أراها ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم واللفظ له . ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : ( فالتفت فإذا أمثال المصابيح مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله ما استطعت أن أمضى ، فقال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب<sup>(٥)</sup> ) .

لو علمت ميزان القرآن فى العمل وما له من فوائد تعود على تاليه المخلص فى تلاوته ، لعلمت أن هناك كنزا يدخره الله لك يوم تلقاه ، فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . إن لك بكل حرف تتلوه من القرآن حسنة ، وإنها لحسنة مضاعفة أى بعشر أمثالها . فقف عند هذا الحديث منصتاً بأذن قلبك لتنال من بركاته وأنواره . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : ( إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا إلى مأدبته ما استنطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله . والنور المين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيع فيستعجب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولا م حرف وميم حرف )<sup>(٦)</sup> .

هل علمت أن بركة القرآن كما شملت والديك يا قارىء القرآن فإنها تمتد إلى أكثر من ذلك ، إن للقرآن شفاعة تجعل لقارئه بركة تعم عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار ، وما أدراك ما تلك الشفاعة ؟ إن فيها النجاة من نار وقودها الناس والحجارة وكفى بالنجاة فضلاً ، وكفى بالشفاعة منقذاً . هلا سمعت إلى قول الصادق المعصوم : ( من قرأ القرآن فاستظهره فاحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار )<sup>(٧)</sup> .

- (١) مِرْبَدِهِ : المِرْبَدُ الموضع الذى تجس فيه الإبل والغنم .  
 (٢) جالت فرسه : أى دارت وانزعجت .  
 (٣) السرج عرجت : المصابيح صعدت .  
 (٤) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٧ .  
 (٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٧ .  
 (٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٨ .  
 (٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٩ .

ونختتم هذا الفصل بقوله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين<sup>(١)</sup>)<sup>(٢)</sup> .

### فصل في حرمة القرآن وآداب تلاوته وحقوقه على قارئه

هل علمت يا حامل القرآن وقارئه ما حرمة هذا الكتاب ؟ وما يلزمك من أدب عند قراءته ؟

يقول القرطبي : قال الحكيم الترمذى أبو عبد الله في «نوادير الأصول» :

- \* فمن حرمة القرآن ألا يمسه القارئ له إلا طاهرا . ومن حرمة أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمة أن يستاك ويتخلل ، فيطيب فمه إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبي مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ، ونظفوها ما استطعتم .
- \* ومن حرمة أن يلبس نظيفا كما يلبس للدخول على الأمير ، لأنه مناج ربه .
- \* ومن حرمة أن يستقبل القبلة لقراءته . . وكان «أبو العالية» إذا قرأ اعتم<sup>(٣)</sup> (أى لبس العمامة) ، ولبس وارتندي واستقبل القبلة .
- \* ومن حرمة أن يتمضمض كلما تنخع . . روى شعبة عن أبي حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه ماء ، إذا تنخع تمضمض ، ثم أخذ في الذكر ، وكان كلما تنخع تمضمض .
- \* ومن حرمة إذا ثأبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة تعظيما حتى يذهب ثأؤك . قال عكرمة : يريد أن في ذلك الفعل إجلالا للقرآن .
- \* ومن حرمة أن يستعيز بالله من الشيطان الرجيم عند ابتدائه للقراءة ، ويقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ .
- \* ومن حرمة إذا أخذ في القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الأدميين من غير ضرورة .
- \* ومن حرمة أن يخلو بقراءته ، حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذي استعاذ منه في البدء .
- \* ومن حرمة أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل .
- \* ومن حرمة أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به .
- \* ومن حرمة أن يقف على آية (الوعد) فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية (الوعيد) فيستجير بالله منه .
- \* ومن حرمة أن يقف على أمثاله ، فيتمثلها ، وأن يلتمس غرائبه .
- \* ومن حرمة أن يؤدي لكل حرف حقه من الأداء ، حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(١) من المقنطرين : أى ممن كتب له قنطار من الأجر .



- \* ومن حرمة إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : « صدقت ربنا وبلغ رسولك ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط » ثم يدعو بما شاء من الدعاء .
- \* ومن حرمة إذا قرأه ألا يلتقط الأي من كل سورة فيقرأ ، فإنه روى عن رسول الله ﷺ ( أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئاً ، فأمره أن يقرأ على السور ، أو كما قال )<sup>(١)</sup> .
- \* ومن حرمة إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشوراً ، وألا يضع فوقه شيئاً من الكتب حتى يكون أبداً عالياً . لسائر الكتب ، علماً كان أو غيره .
- \* ومن حرمة أن يضعه في حجره إذا قرأه ، أو على شيء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض .
- \* ومن حرمة إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التي توطأ ، فإن لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف الصالح يستشفى بغسلته .
- \* ومن حرمة ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب ، فإن ذلك جفاء عظيم .
- \* ومن حرمة ألا يخلى يوماً من أيامه من النظر في المصحف ولو مرة . وكان أبو موسى يقول : إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة !
- \* ومن حرمة أن يعطى عينيه حظهما منه ، فإن العين تؤدي إلى النفس ، وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن في الصدر : فإذا قرأه عن ظهر قلب ، فإنما يسمع أذنه فتؤدي إلى النفس ، فإذا نظر في الخط ، كانت العين والأذن قد اشتركتا في الأداء وذلك حري للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن .
- روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : ( أعطوا أعينكم حظها من العبادة . قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر في المصحف والتفكير فيه ، والاعتبار عند عجائبه )<sup>(٢)</sup> .
- وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ( أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن نظراً )<sup>(٣)</sup> .
- \* ومن حرمة ألا يتأوله عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا . . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلي ، قال حدثنا هشيم بن بشير ، عن المغيرة عن إبراهيم ، قال : كان يكره أن يتأول شيء من القرآن عندما يعرض له شيء من أمر الدنيا . والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك ﴿ جئت على قدر يا موسى ﴾<sup>(٤)</sup> ومثل قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾<sup>(٥)</sup> ، يقال هذا عند حضور الطعام ، وأشبه ذلك .

(٢) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ج ١ ص ١٧٥ ط دار الفكر .

(٤) سورة طه آية : ٤٠ .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤ ط الشعب .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٤ ط الشعب .

(٥) سورة الحاقة آية : ٢٤ .

- \* ومن حرمة ألا يتلى منكوسا ، كفعل معلمى الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الخدق من نفسه والمهارة ، فإن ذلك مخالفة .
- \* ومن حرمة ألا يقرأ بالخان الغناء ، كلعون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانية فإن ذلك كله زيغ .
- \* ومن حرمة أن يجمل تخطيطه إذا خطه . عن أبي حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة فمر على رضى الله عنه فنظر إلى كتابته ، فقال له : أجل قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلى رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتي . فقال : هكذا نوره كما نوره الله عز وجل .
- \* ومن حرمة ألا يجهر بعض القارئین على بعض فى القراءة ، وألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله .
- \* ومن حرمة ألا يقرأ فى الأسواق ، ولا فى مواطن اللغو واللغو ومجمع السفهاء . . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ؟! هذا لمروره بنفسه ، فكيف مرور القرآن الكريم تلاوة بين ظهرائى أهل اللغو ومجمع السفهاء ؟!
- \* ومن حرمة ألا يتوسد المصحف ، ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله .
- \* ومن حرمة ألا يصغر المصحف : روى الأعمش عن إبراهيم عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يدرجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا . فضربه بالدرة وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله ﷺ أنه ( نهى أن يقال : مسيحد أو مصيحف )<sup>(١)</sup> .
- \* ومن حرمة ألا يخلط فيه ما ليس منه : بأن يحلى بالذهب أو يكتب بالذهب ، فتخلط به زينة الدنيا . روى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب ، أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا زخرفتكم مساجدكم وحليتم مصاحفكم ، فالدبار<sup>(٢)</sup> عليكم )<sup>(٣)</sup> . وقال ابن عباس - وقد رأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق وزينته فى جوفه .
- \* ومن حرمة ألا يكتب على الأرض ، ولا على حائط ، كما يفعل ببعض المساجد المحدثه : حدثنا محمد بن على الشقيقى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر ابن عبد العزيز يحدث قال : مر رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض ، فقال لشاب من هذيل : ( ما هذا ؟ قال : من كتاب الله كتبه يهودى ، فقال : لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه )<sup>(٤)</sup> . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط ، فضربه .

(٢) الدبار : أى الهلاك .

(٤) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٦ ط الشعب .

(١) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٥ ط الشعب .

(٣) تفسير القرطبى ج ١ ص ٢٥ ط الشعب .

\* ومن حرمة أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور . ولذلك كان رسول الله ﷺ (إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون في هيئة المهجور) . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : (عليك بالحال المرتحل . قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : صاحب القرآن ، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يضرب من أوله ، كلما حل ارتحل) <sup>(١)</sup> . (قلت) : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله : ذكر أبو بكر الأنباري ، أنبأنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا جرير عن منصور ، عن الحكم قال : كان مجاهد وعبد بن أبي لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا ، وجهوا إلينا : احضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن ! وأخبرنا إدريس : حدثنا خلف ، حدثنا هشيم العرام ، عن إبراهيم عن اليمنى قال : من ختم القرآن أول النهار صلّت عليه الملائكة حتى يمسي ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح . . قال فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار .

\* ومن حرمة : ألا يقال سورة صغيرة ، وكره أبو العالية أن يقال سورة صغيرة أو كبيرة وقال لمن قالها : أنت أصغر منها ، وأما القرآن فكله عظيم . ذكره مكى رحمه الله . وقد روى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من الفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤم بها الناس في الصلاة <sup>(٢)</sup> .

وبعد : أعلمت يا أخى هذه الآداب ، وتلك الحرمات ؟ وإذا كنت علمتها ، فهل عملت بها ؟

والله إن القرآن الكريم بيننا ونحن في ميسس الحاجة إليه !

فهلا عرفنا له حقه ؟

إن في القرآن آية تسمى «بكاءة المؤمنين» وهى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

كانوا إذا قرئت عليهم فاضت أعينهم بالدمع ، يقول كل منهم : ترى من أى الفريقين أنا ؟ أمن الذين اجترحوا السيئات ، أم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ لقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ونفسه تعاف الطعام ، لما نزل عليه قوله تعالى في وصف أهل النار : ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيا ﴾ \* وطعاما ذا غصة وعذابا أليما <sup>(٤)</sup> . وإن أمير المؤمنين «عمر» - وهو جبار الجاهلية ، وعملاق الإسلام - خر مغشيا عليه ، وظل شهرا مريضا ، عندما سمع القارىء يقرأ سورة ﴿ والطور ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ \* ما له من دافع <sup>(٥)</sup> .

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٣-٢٧ ط الشعب .

(٤) سورة المزمل الآيتان : ١٢ ، ١٣ .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٦ ط الشعب .

(٣) سورة الباقية آية : ٢١ .

(٥) سورة الطور الآيات : ١ - ٨ .

والحسن البصرى رضى الله عنه طلب شربة ماء ، فلما شربها بكى بكاء مرأ ، فقليل له : يا تقى الدين ما أبكاك ؟ قال : تذكرت قول الله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ (١) .

الحث على مدارسة القرآن والواجب على قارئه وحافظه :

عندما يلجأ المسلم إلى الله ويركن إلى جنبه : ينشرح صدره ، ويشعر قلبه بالطمأنينة ، ويستقر فؤاده بالسكينة . . وهل يجد البشرى أرجاء هذه الدنيا متارا يستضيئون به أو يأوون إليه إذا لفحتهم حرور الحياة أفضل وأعز من كتاب الله ؟ .

إننى أقف مرفوع الرأس ، عزيز الجانب ، عندما أقرأ هذا الحديث الشريف ، الذى دار بين معاذ بن جبل وبين نبي الرحمة وإمام الهدى محمد ﷺ . . إذ يقول معاذ : يا رسول الله عظما موعظة ننتفع بها .

فبأى شئ وعظه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟

كانت الموعظة تحديدا للمفاهيم ، وتبيانا للحقائق ، بأسلوب فيه الإعجاز والبلاغة كلها . قال الرسول ﷺ فى موعظته : (إن أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والهدى يوم الضلالة ، والظل يوم الحرور : فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن ، حرز من الشيطان ، ورجحان فى الميزان) .

صدقت يا سيدى يا رسول الله . فالقرآن هو القدوة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، والمنهج المستقيم ، وهو الضياء ، والدواء ، والشفاء ، وهو مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة .

لقد بلغ من ترغيب الرسول ﷺ فى الحرص على تلاوة القرآن ودراسته أنه قال : ( ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ) (٢) . أرايت مكانا أجل وأعظم من هذه الروضة المباركة ؟ إنه مكان تتنزل فيه السكينة . . وما أدراك ما هى ؟ إنها مملكة من ممالك الله العليا ، يختص بها من يشاء من عباده ، إذا حلت بالقلوب أكسبتها طمأنينة واستقرارا ، ومن ثم فقد ورد ذكر السكينة فى كتاب الله تعالى فى مواقف حاسمة تكاد تنخلع منها القلوب لشدة ما فيها من الهول . فإذا بالسكينة تنزل على الأئمة كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى .

ورد ذكر السكينة عندما كان رسول الله ﷺ فى الغار مع أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه . والموقف شديد يفسره قول أبى بكر : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موقف قدميه لرآنا ، فيقول الرسول العظيم محمد ﷺ : ( يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ) ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ (٣) .

(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير ج ٢ ص ٤٧٨ .

(١) سورة الأعراف آية : ٥٠ .

(٣) سورة التوبة آية : ٤٠ .

وعندئذ تنزل السكينة ، وهى النعمة العظمى ، فيقول سبحانه : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾ (١) .

وفى غزوة «حنين» ، وقد احتدم الخطب ، وادلهم الأمر ، كما قال ربنا جلّ وعلا : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (٢) فماذا حدث والشدة قد استحكمت حلقاتها ؟ . فالكثرة العددية لم تغن شيئا ، والأرض بأرجائها الرحبة قد ضاقت ، والنبي ﷺ فى ثبات وعزيمة ينادى : (أنا النبی لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب) (٣) .

إنها السكينة قد نزلت كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾ (٤) .

وجاءت السكينة فى سورة «الفتح» امتنانا من الله تعالى على عباده لتكون غايتها ازدياد إيمان المؤمنين . . قال جل شأنه : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ (٥) .

وتأتى السكينة فى موضع آخر من سورة «الفتح» أيضا فى بيعة الرضوان ، حين وقف الصحابة يبايعون رسول الله ﷺ على القتال صفا واحدا إن كان أهل مكة قتلوا عثمان بن عفان سفير رسول الله إليهم ، فتنزل السكينة تثبيتا وتقوية وتوكيدا . . قال جل شأنه : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾ (٦) .

كما تحيىء فى موضع ثالث من سورة «الفتح» أيضا . . وذلك أثناء توقيع المعاهدة بين المسلمين والمشركين فى صلح الحديبية ، وحين ركب سهيل بن عمرو مندوب المشركين رأسه ويأبى أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ، ويكتب باسمك اللهم ، كما يأبى أن يذكر فى المعاهدة اسم رسول الله ، بعنوان الرسالة ، ويقول : بل اكتب (محمد) بن عبد الله إلى غير ذلك من التعنت والتعسف ، وعندئذ تنور ثورة المسلمين ، لكن الله تعالى — لحكمة يعلمها ، وخير كثير سوف يعود على المسلمين من تلك المعاهدة — ينزل السكينة على المؤمنين تثبيتا وتقوية . . يقول جل شأنه وصفا لهذا الموقف : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليما ﴾ (٧) .

والمراد بكلمة «التقوى» هنا هى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .  
تلك مواقع السكينة فى جلالها وجلالها وكما لها .

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .

(٢) سورة التوبة آية : ٢٥ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٤ ص ٤٠٥ ط الشعب .

(٤) سورة التوبة آية : ٢٦ .

(٥) سورة الفتح آية : ٤ .

(٦) سورة الفتح آية : ١٨ .

(٧) سورة الفتح آية : ٢٦ .

إن تلك النعمة — كما جاء في الحديث الشريف الذي ذكر آنفاً — تنزل مع الرحمة والملائكة على الذين يجلسون يقرأون كتاب الله ويتدارسون فيه بينهم ، إنهم ينالون شرفاً كبيراً وقدرًا رفيعاً ، إذ أن الله جل جلاله يذكرهم فيمن عنده من الملائكة الأعلى . فما أعظم هذا الشرف : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ وما أدراك ما عليون \* كتاب مرقوم \* يشهده المقربون ﴿ (١) .

وإذا علمت أن تلاوة القرآن وتدارسه له من الشرف ما يحل عن الوصف ، فإن العلم به يزيد هذه المكانة قرباً وحباً إلى الله . قال مجاهد رحمه الله : « أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل » والمراد بهؤلاء : هم الذين يقرنون العلم بالعمل . لذلك قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواحيه ، ويذكر ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه ، فإنه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شاهداً يوم القيامة على من خالف من أهل الملل . . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾ (٢) .

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أوكد منها على من قصر عنه وجهله ، ومن أوق علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواحيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحاً ، ومن الجرائم فضوحاً ، كان القرآن عليه حجة ، وخصماً لربه . . فالقرآن حجة لك أو عليك .

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه : أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ، ويتفهم عجائبه ، ويتبين غرائبه . . قال الله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾ (٣) . وقال عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٤) .

واعلم يا أخي — وفقك الله — أن لتفسير القرآن أهمية كبرى ، ليتسنى لك العمل بما فيه ، وإلا فكيف يعمل الإنسان بما لا يفهم معناه ؟

قال إياس بن معاوية رضى الله عنه : « مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ، ولا يدرون ما في الكتاب . . . ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب » .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٤) سورة محمد آية : ٢٤ .

(١) سورة المطففين الآيات : ١٨ - ٢١ .

(٣) سورة ص آية : ٢٩ .



## فصل في أقوال الأئمة والمفكرين في القرآن الكريم

\* ذكر الإمام الطبري : أن القرآن الكريم من أعظم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، الذي لو اجتمع جمع من جنها وإنسها ، وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله لما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فجعله لهم في دجى الظلم نورا ساطعا وفي ظلمة الشبهة شهابا لامعا ، وفي مضلة المسالك دليلا ، وإلى سبل النجاة والحق هاديا : ﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١) . حرسه بعين منه لا تنام ، وأحاطه بركن منه لا يضام . لا تهى على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معلمه ، ولا يجوز عن قصد الحجة تابعه ، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه . من اتبعه فاز وهدى ، ومن حاد عنه ضل وغوى . فهو موثلهم الذي إليه عند الاختلاف يثلون ، ومعقلهم الذي إليه في النوازل يعقلون ، وحصنهم الذي به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التي إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذي إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرن ، وحبله الذي بالتمسك به من الهلكة يعتصمون .

\* ويقول الإمام الزركشى في مقدمة كتابه البرهان : «أما بعد ، فإن أولى ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللواحق : الفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل ، والنعمة الباقية ، والحجة البالغة ، والدلالة الدامغة . وهو شفاء الصدور ، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور ، وهو الكلام الجزل ، وهو الفصل الذي ليس بالهزل . سراج لا يخجو ضياؤه ، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه ، وبحر لا يدرك غوره . بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته وبجازه ، وتقارن في الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوث كل البيان جوامعه وبدائعه . قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه ، وقسم لفظه ومعناه ، إلى ما ينشط السامع ، ويقرط المسامع ، من تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيب ، وتشبيه نبه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ما له مزيد ، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة ، والصناعة الرفيعة .

كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ، ومن طلعتها غرة ، ومن بهجتها درة ، لاحت عليها بهجة القدرة ، ونزل ممن له الأمر ، فله على كل كلام سلطان وإمرة ، بهر النفوس بتمكين فواصله ، وحسن ارتباط أواخره وأوائله ، وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته ، من قصص باهرة ، إلى مواعظ زاجرة ، وأمثال سائرة ، وحكم زاهرة ، وأدلة على التوحيد ظاهرة . بالتنزيه والتحميد سائرة ومواقع تعجب واعتبار ، ومواطن تنزيه واستغفار . إن كان سياق الكلام ترجية : بسط ، وإن كان تخويفا : قبض ، وإن كان وعدا : أبهج ، وإن كان وعيدا : أزعج ، وإن كان دعوة : حذب ، وإن كان زجرة : أربع ، وإن كان موعظة : أقلت ، وإن كان ترغيبا : شوق !

فسبحان من سلكه ينابيع في القلوب ، وصرفه بأبداع معنى وأغرب أسلوب .. لا تستقصى معانيه فهم الخلق ، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق ! .

فالسعيد من صرف همته إليه ووقف فكره وعزمه عليه . والموفق من وفقه الله لتدبره ، واصطفاه للتذكير به وتذكره » .

\* جاء في تفسير الطبرى قوله : « حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما في آيات القرآن من المواعظ والتبيان ، بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ﴾ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلمهم يتقون ﴾ (٢) .

وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثمهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن ، والاتعاظ بمواعظه ، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات ، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان ، إلا على معنى الأمربان يفهمه ويفقهه ثم يتدبره ويعتبر به » .

\* ويقول العلامة ابن كثير في مقدمة تفسيره : « فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله ، وتفسير ذلك وطلبه وتعلم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٤) » .

\* قال تقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم عباده فيها أنزلت ، وماذا عني بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابهها ولا غيره » .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله تعالى وتطلب تفسيره ، ولذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

كان الواحد منهم إذا دخل بيته بادرته زوجته بهذين السؤالين : كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟ .. أما عند خروجه من بيته فكانت توصيه وتقول له : « اتق الله ، ولا تكسب حراما ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب جهنم يوم القيامة » .

(٢) سورة الزمر الآيات : ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٧٧ .

(١) سورة ص آية : ٢٩ .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .

إن هؤلاء نفر - الذين تخرجوا في أعظم مدرسة ، تتلمذوا فيها على يدي الكتاب والسنة - كنت تسمع القرآن منهم وله دوى كدوى النحل .. حفظوه في صدورهم ، وعملوا به في حياتهم ، وفتحوا به الدنيا ، فدانت لهم ، فلما أهملنا نحن هذا النهج تفرقت كلمتنا ، وأصبحنا مطمع الحاقدين ، وهانت علينا أنفسنا ، فهنا على الناس .

أخى في الإسلام : أقبل على القرآن ، وتفهم معانيه ، فليس هناك شك في أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلاً بمقاصد هذا الكتاب الإلهي المجيد .  
ومن هنا قال سعيد بن جبيرة رحمه الله : «من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرج» ( يقصد البدوي الجاهل الذي لم يتعلم ) .

آراء المنصفين من علماء الغرب في القرآن الكريم :

\* قال «جاستون كارمن» من مستشرقى فرنسا المشهورين : «إن القرآن ، وهو منبع هذا الدين العقلي ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم .. ففى إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التي نشرها الإسلام !

\* ويقول المؤرخ الإنجليزي «ادوار جيوتة» : «إن موحداً ذا رأس فلسفى ، لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الإسلام .. فالإسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم» ! .

\* وقال المستشرق «كارلايل» وهو من أساتذة جامعة كامبردج : «إن علوية القرآن في حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التي بلغها محمد إلى العالم حق وحقيقة» .

\* وقال «ستفاس» مؤلف قاموس عربى إنجليزى : «القرآن واحد من أهم الكتب التي انتقلت إلى الناس ليستفيدوا منها .. فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية في حياتهم» .

\* ويقول «ديود» مؤلف كتاب (روح الشرق) : «الإسلام يقدم براءة النجاة للتابعين ، وسجل أخلاق للمتبعين ، ويؤيدهما بالدين» .

\* وقال المستشرق «سيديو» في كتابه «تاريخ بلاد العرب» : «القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة .. فالفضيلة والرذيلة والخير والشر ، وماهية الأشياء الحقيقية كلها مبينة في القرآن .. فقد أوحيت آياته إلى محمد ﷺ بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد» .

\* ومن كتاب «حياة محمد» للفيلسوف الفرنسى «الكس لوازون» : «خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الأخلاق ، وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية التي كشفت حديثاً ، أو المخترعات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية .. فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المسامحة للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية» .

\* وقال الكاتب الأمريكي «واشنطن إيرفينج» : «يحوى القرآن أسمى الآراء وأنفعها وأكثرها إخلاصاً» .

\* وعن المستشرق والفيلسوف الألماني «بوجان يعقوب رايس» : «ما إن يتعلم بعض الناس قليلاً من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ، ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة والعظيمة المؤثرة وأحسوا باللسان المحير للألباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين : يا رسول الله أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك» .

\* ومما قاله «ليون» : «حسب القرآن جلالاتاً ومجداً ، أن الأربعة عشر قرناً التى مرت عليه ، لم تستطع أن تحفف — ولو بعض الشيء — من أسلوبه الذى لا يزال غضاً ، كأن عهداً بالوجود أمس» .

\* ويقول «جيمى متشيز» فى مقال له : «لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو — بكل تأكيد — أيسرها حفظاً ، وأشدّها أثراً فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، فليس طويلاً كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيماناً وسمواً ، وأوزانه ومقاطعته كثيراً ما قورنت بأصداء الطبيعة . . . ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملي يتعلق بالمعاملات بين الناس . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية ، جعل القرآن كتاباً فريداً ، ووحدة متماسكة» ! .

هذا هو القرآن الكريم ، معجزة نبي الإسلام ، وصدق الله العظيم الذى يقول عنه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿ (١) . ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٢) .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٣) . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٤) .

كلمة لا بد منها :

ونحن بين يدي موضوع هذا الكتاب ، وهو تفسير كلام الله تعالى ، نرى لزماً علينا أن نذكر بحثاً خاصاً بالقرآن العظيم (٥) نقصد من ورائه بسط صورة نسأل الله أن تكون وافية كافية عن هذا الكتاب العظيم . يقول البحث فى تعريفه للقرآن الكريم :

(٢) سورة النساء آية : ٨٢ .

(٤) سورة الحشر آية : ٢١ .

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

(٥) هذا البحث لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو شعبة . جاء فى كتاب «مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر» عن مجمع البحوث الإسلامية . شعبان ١٣٩٢ هـ سبتمبر ١٩٧٢ م (المؤخر السابع) .

القرآن الكريم : هو كلام الله عز وجل ، المنزل على خاتم أنبيائه ورسله ، محمد ﷺ ، المعجز بلفظه ، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، المكتوب في المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

والقرآن الكريم : لفظه ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى ، ليس لجبريل — عليه السلام — فيه إلا تبليغه إلى النبي ﷺ ، وليس للنبي ﷺ فيه إلا تبليغه إلى الناس كافة ، وليس للمصحابة ومن جاء بعدهم فيه إلا الحفظ والنقل بأمانة ودقة فائقتين من غير تزويد ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل ، حتى وصل إلينا كما أنزله غضاً طرياً ، كأن عهده بالنزول أمس .

والقرآن الكريم : هو كتاب الهداية الربانية الكبرى ، أنهى الله — سبحانه وتعالى — إليه كل تشريع حكيم ، وناط به سعادق الدنيا والآخرة ، لأنه التشريع العام الخالد الذي تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم ودنياهم : في العقائد والأخلاق ، والعبادات والمعاملات ، والحدود والجنائيات ، وفي الاقتصاد والسياسة والمعاهدات ، والعلاقات الدولية في السلم والحرب .

وهو في كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتريه خلل ولا تناقض ، وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

وهو أصيل غاية الأصالة ، وعادل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة ، وصادق غاية الصدق : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ (٢) ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ (٣) ﴿ وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٤) .

فلا عجب أن كان الشفاء الناجع لأمراض القلوب ، وأدواء المجتمعات ، وأن كان أعظم مصلح لأحوال العباد والبلاد ، فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، وأشرقت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله سبحانه في قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً \* وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً إليماً ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ .. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين \* يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) .

(٢) سورة الأنعام آية : ١١٥ .

(٤) سورة فصلت من الآية ٤١ والآية ٤٢ .

(٦) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

(١) سورة النساء آية : ٨٢ .

(٣) سورة الإسراء آية : ٨٢ .

(٥) سورة الإسراء الآيتان : ٩ ، ١٠ .

والقرآن الكريم : هو المعجزة العظمى ، والحجة البالغة ، والآية الباقية على وجه الدهر لرسول البشرية ، ومنقذ الإنسانية : سيدنا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - تحدى به الإنس والجن ، والعرب وغير العرب ، ووقع التحدى به على مرات متعددة ، كى تقوم عليهم الحجة تلوا الحجة ، وتنقطع المذرة .

تحداهم أولاً : أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وماقدروا ، قال عز شأنه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(١)</sup> . ثم تحداهم ثانياً : أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا ، قال تعالى فى سورة هود المكية : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ \* فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أية سورة مهما قصرت ، كسورة « الكوثر » فما رفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى سورة يونس المكية : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ \* بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم كرر التحدى بسورة ما ، فى القسم المدنى ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

فألقموا حجراً ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة !! وبذلك ثبت إعجاز القرآن على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب ، ثبت عجز غيرهم بطريق الأولى . على أن القرآن العظيم لا يزال يتحدى بأقصر سورة منه البشر جميعاً ، فهل من معارض ؟ ! .

والقرآن : هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى ، وجامعتهم العظمى ، به اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها ، وبه صار العرب أمة واحدة متألّفة القلوب متجانسة المزاج ، متحدة اللسان ، متشابهة البيان ، ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد . لقد مرت باللغة العربية أحقاب من الإهمال لها واضطهادها بل ومحاولات ظالمة آثمة للقضاء عليها وإماتتها ، ولولا هذا الكتاب العربى المين ، لاستعجمت لغة العرب ، وأصبحت فى عداد اللغات الميتة ، ولانقطعت الصلة بين علوم السلف والخلف ، بل وبين ماضى الأمة وحاضرها ، وهنالك تكون الطامة الكبرى ، ولما كانت هذه الثروة الطائلة التى تدور حول القرآن ، ولغة القرآن ، وآداب القرآن . وما

(٢) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨

(٣) سورة يونس الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

من عربي - أيا كان دينه - إلا وله هذا الكتاب مفخرة واعتزاز ، وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ، ووجدانه الأدبي ، وروحه العربية الصافية الشفافة .

والقرآن : هو الذى فك العقول من عقالها وأطلق النفوس من إسارها ، وأنحى على التقليد والمقلدين بالذم والتوبيخ : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾<sup>(١)</sup> . وقد تكرر هذا المعنى فى غير ما آية ( المائدة : ١٠٤ ) ، ( لقمان : ٢١ ) وهو الكتاب الذى وجه العقول والأنظار إلى النظر فى الأنفس ، وما فيها من عجائب ، وغرائز ، وأسرار : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾<sup>(٢)</sup> . وإلى النظر فى الكون : علويه وسفليه ، وظاهره وخفيه ، وما ينطوى عليه من حكم ، وما أودع فيه من خواص وسنن ، وأفاض فى ذلك فى كثير من آياته إفاضة فاقت الحد . قال عز شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار ﴿<sup>(٤)</sup> . وقد روى أن النبى ﷺ قال لما نزلت : ( ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ) إلى غير ذلك من الآيات التى لا يحصيها العد .

والقرآن : حينما دعانا إلى النظر فى الأنفس والآيات الكونية ، لم يرد أن نقف عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب ، وإنما أراد - إلى ذلك - استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار ، والتقصى عما فى الكون من عجائب وسنن وخواص . ولو أن المسلمين استفادوا بما فى هذا الكتاب العظيم من توجيهات وإرشادات ، لكانوا أسبق الأمم إلى الكشف العلمية ، والاختراع والإبداع ، ولصاروا سادة الدنيا ، وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ، ولم يستفيدوا بهدى القرآن وتوجيهاته ، فكانوا على ما ترى !! .

والقرآن : هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على التفرقة العنصرية ، والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس قاطبة ، فالناس كلهم لأدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لشريف على وضيع ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وهو جماع كل هدى وخير وحق ، قال عز شأنه : ﴿ يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾<sup>(٥)</sup> .

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ إلى وجهة الهدى والعدل والحق والخير ،

(٢) سورة الذاريات آية : ٢١ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٩١ .

(١) سورة البقرة آية : ١٧٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤ .

(٥) سورة الحجرات آية : ١٣ .

وأقام أمة كانت مضرب الأمثال في الإيمان ، والإخاء ، والعدل والرحمة ، والاتحاد والمحبة ، وصير من أبناء الصحراء ، رعاة الإبل والشاء ، خلفاء عادلين رحماء ، وعلماء حكماء ، وسادة قادة ، في القيادة والسياسة ، والسلم والحرب ، عقلت الدنيا عن أن تجود بأمثالهم .

وهو الكتاب الذى لا تفتنى ذخائره ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة التكرار ، كلما كررته لا يزداد إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

تزداد منه على ترداده ثقة وكل قول على الترداد مملول

وتلك لعمر الحق : خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان في شك من هذا فليستف الذوق والوجدان ، والقلوب والأذان ، وليوازن في هذا بين كلام الرحمن ، وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اعترف ، ومهما تعاقبت على هذا الكتاب الأجيال ، فلا يزداد إلا جدة وطرافة ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للناس منه العجب العجائب ، وصدق الحق - تبارك وتعالى - حيث يقول : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ (١) . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماده : أنك لن تجد في الكشف عن حقيقة هذا الكتاب العظيم وخفاياه وفضائله ، ومزياه أوفى ولا أبلغ ولا أروع مما وصفه به سيدنا محمد بن عبد الله حين قال : ( ألا إنها ستكون فتنة ! قلت : وما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق - أى يبلى - من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا \* يهذى إلى الرشد فأمنا به ﴾ (٢) . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن اهتدى به هدى إلى صراط مستقيم (٣) رواه الترمذى في سننه .

إن كتابا هذا بعض شأنه لجدير أن تعرف له الدنيا كلها فضله ومنزلته ، لا المسلمون وحدهم ، ولا العرب وحدهم ، لأن أفضاله وبركاته لا على هؤلاء فحسب ، وإنما على البشرية جمعاء .

(٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .

(١) سورة فصلت آية : ٥٣ .

(٣) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .



## فصل في جمع القرآن الكريم

جمع القرآن الكريم يطلق ويراد به : الحفظ في القلوب ، ويطلق ويراد به : الكتابة في الرقاع ونحوها ، والصحف والمصاحف ، وقد اجتمع للقرآن الجمعان : الحفظ والكتابة . ولناخذ في بيان كل فنقول وبالله التوفيق :

### حفظ النبي ﷺ :

كان أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ آيات من صدر سورة « اقرأ » وهو يتعبد بغار حراء ، وكان ذلك في رمضان من السنة الأولى للنبوّة ، وفي اليوم السابع عشر منه ، على ما أجمع عليه المحققون من العلماء . ثم فتر الوحي مدة كى يشاق إليه النبي ﷺ ، ثم نزل . . وكان أول ما نزل بعد ذلك قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ \* قم فأنذر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر \* والرجز فاهجر ﴾ (١) ، ثم حمى الوحي وتتابع حتى تم نزول القرآن كله قبيل وفاة النبي ﷺ بواحد وعشرين يوما وقيل بأقل من ذلك ، وكان آخر ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٢) . وقد روى أن جبريل لما نزل بها قال للنبي ﷺ : « ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة » . وكان النبي ﷺ شديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه من جبريل حتى بلغ من شدة عنايته وحرصه على حفظ لفظه ، أنه كان يحرك به لسانه ، ويعالجه أشد المعالجة ، حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف ، حتى طمأنه ربه ، ووعد أنه يحفظه له في صدره ، وأن يقرئه لفظه ، ويفهمه معناه . قال عز شأنه : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به \* إن علينا جمعه وقرآنه \* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه ﴾ (٣) ، أى جمعه لك في صدرك وإقراءه لك بوساطة أمين الوحي جبريل ، فإذا قرأه جبريل ، فأنصت حتى إذا فرغ فاقرا عقبه ما سمعت منه . ثم إنا سنتكفل لك - أيضا - ببيانه ، وتفسير معناه . وهو ضمان من الله - عز شأنه - بأنه سيحفظه في صدره ، ولن تفلت منه كلمة أو حرف .

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبي - صلوات الله وسلامه عليه - القرآن ، وتثبيتته في قلبه ، معارضة جبريل - عليه السلام - إياه بالقرآن في رمضان من كل عام .

روى الإمام البخارى في صحيحه بسنده عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » (٤) . فكان جبريل والنبي يتدارسان القرآن ، ويعارضان

(١) سورة المدثر الآيات : ١ - ٥ .

(٣) سورة القيامة الآيات : ١٦ - ١٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨١ .

(٤) صحيح البخارى ج ١ ص ٥ ط الشعب .

ما نزل منه من رمضان إلى رمضان ، جبريل يقرأ والنبي يسمع ، والنبي يقرأ ، وجبريل يسمع حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول ﷺ فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد كتاب الوحي لرسول الله ﷺ وهو زيد بن ثابت - رضى الله تعالى عنه .

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : ( دعا النبى ﷺ فاطمة بنته فى شكواه الذى قبض فيها فساڑها بشىء فبكت ثم دعاها فساڑها فضحكت . قالت : فسألتها عن ذلك ، فقالت : ساڑنى النبى ﷺ فأخبرنى أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه فبكت ثم ساڑنى فأخبرنى أنى أول أهل بيته أتبعه فضحكت ) (١) .

وكان القرآن شغل النبى الشاغل فى صلاته وتهجده ، وفى سره وعلايته ، وفى حضره وسفره ، وفى وحدته وبين صحابته ، وفى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لا يغيب عن قلبه ، ولا يألو جهدا فى تعهده وتكراره ، والالتزام بأوامره والانتها عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه وقصصه ، والتأثر بأمثاله وحكمه ، والتأدب بآدابه وأخلاقه ، وتبليغها إلى الناس كافة ، فمن ثم : كان النبى ﷺ مرجع المسلمين فى حفظ القرآن وفهمه ، والوقوف على أسرارهِ ومراميه .

#### حفظ العدد الكثير من الصحابة للقرآن الكريم ودواعيه :

كان النبى - صلوات الله وسلامه عليه - إذا نزلت عليه الآية أو الآيتان أو الخمس أو العشر من الآيات ، أو السورة ، يحفظها ويفقهها ، ويلتزمها عملا وسلوكا ثم يقرؤها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ، ويفقههم بها ، ويبين لهم طريقة أدائها وآداب تلاوتها ، كى يحفظوا اللفظ ، ويفقهوا المعنى ، ويستقيموا عليها ، ويلتزموها عملا وسلوكا .

وقد أحل الصحابة - رضوان الله عليهم - القرآن المحل الأول ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به ، يتنافسون فى حفظ لفظه ، ويتسابقون فى فهم معناه ، وجعلوه متعبد لهم فى ليلهم ، ومسلاتهم فى فراغهم ، وصاحبهم فى أسفارهم ، وأنيسهم فى وحدتهم ، وصديقهم الصدوق فى منشطهم ومكرهم ، ومستشارهم الأمين ، فى شئون دينهم ودنياهم . وما ظنك بكتاب يعتقدون - وحق لهم ذلك - أن تلاوته عبادة ، والاشتغال به من أعظم القربات إلى الله ، وأن عزهم لن يكون إلا به ، وأن سعادتهم فى الدنيا والآخرة لن تتحقق إلا بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ، وأن منازلهم فى الدنيا والآخرة على حسب منازلهم فى حفظه وفقهه وتدبره .

لقد كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بعث بعثا ، جعل

(١) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٦ ط الشعب .

إمامهم في صلاتهم أكثرهم قراءة في القرآن ، بل إذا جمع بين اثنين أو أكثر في قبر لضرورة ، كما حدث في شهداء أحد ، سأل : « أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ » ، فإذا أشير إليه قدمه في اللحد .

ومن ثم كانت الدواعي متوافرة على إجادة حفظه وإتقانه ، حتى بلغوا في ذلك الغاية ، وقد أثني عليهم الحق - تبارك وتعالى - فقال : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون \* وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ <sup>(١)</sup> . وقد وصفهم واصف فقال : كانوا رهباناً بالليل ، فرساناً بالنهار .

وكان اعتمادهم في الحفظ على التلقي والسماع من النبي ﷺ أو ممن سمعه من النبي من الصحابة ، ولا سيما القارئ المجيدين منهم ، كعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت وأمثالهم ، وما كانوا يعتمدون في حفظه على النقل من الصحف أو المصاحف بعد كتابتها ، بل كان اعتمادهم على الرواية والأخذ الشفاهي من الشيوخ أو بالعرض والقراءة عليهم ، وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة متبعة عند الحفاظ القراء المجيدين إلى عصرنا هذا ، لتبقى سلسلة الأسناد متصلة بالقرآن الكريم إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الحفظ بالغيب خصيصة للقرآن وللأمة الإسلامية :

ومن خصائص هذا الكتاب الكريم : أن الله عز شأنه كلف الأمة بحفظه كله ، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر ، وإلا أئمت الأمة كلها ؛ بخلاف التوراة والإنجيل ، فلم تكلف أمتهم بحفظهما ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء اعتمد على المكتوب في القراءة ، وهذا الأخير هو الأعم والأغلب من شأن بني إسرائيل تجاه التوراة وكذلك الإنجيل ولم تتوافر الدواعي لحفظهما كما توافرت للقرآن الكريم ، فمن ثم لم يكن لهما من ثبوت النص القطعي مثل ما للقرآن ، ومن هنا سهل ثبوت التحريف والتبديل فيهما من الأخبار والرهبان والقسيسين ، وذلك يرجع إلى أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن معجزة بلفظها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - أن يكون معجزة بلفظه ، فكان من الضروري المحافظة على النص بالطرق القطعية ، فتوافرت له من الدواعي إلى ذلك ما لم تتوافر لغيره من الكتب السماوية بله الأرضية .

وأيضاً : فالقرآن هو أصل الدين العام الخالد الباقي ما بقي إنسان على وجه الأرض وهو الإسلام ، فكان لا بد من المحافظة على كتابه ، ولا كذلك التوراة والإنجيل ، فقد كانا كتابي دينين يمثلان طورين خاصين من أطوار الدين السماوي . عن جابر بن عبد الله قال : ( قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لي الغنائم . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصه ويبعث إلى الناس كافة ) <sup>(١)</sup> . رواه البخاري .

(١) سورة الذاريات الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ١١٩ ط الشعب .

ويدل على أن الاعتماد في القرآن على الحفظ ، وأن الأمة مكلفة بحفظه ، مارواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ قال : ( إن ربي قال لي : قم في قريش فأنذرهم . قلت : أي ربي إذن يتلفون رأسي ، حتى يدعوه خبزة . فقال : إني مبتليكم ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤوه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق ينفق عليك )<sup>(١)</sup> . فقد أخبر سبحانه وتعالى : أن القرآن لا يكتفى في ثبوته وحفظه بصحيفة تغسل بالماء ، وإنما محله القلوب والصدور ، وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ الكتاب ، فقد ازداد التوثيق والاطمئنان ، كما ورد في وصف الأمة الإسلامية : « أناجيلهم في صدورهم » أي كتابهم المقدس المعول عليه في بقاءه ، وسلامته من التحريف والتبديل - الحفظ - بخلاف أهل الكتاب فإنهم لا يحفظونه إلا من الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن في كثير من المسلمين .

عن سهل بن سعد الساعدي قال : ( جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله جئت أهب لك نفسي . قال : فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها . فقال : وهل عندك من شيء ؟ قال لا والله يا رسول الله . فقال : اذهب إلى أهلِكَ فانظر هل تجد شيئا . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ما وجدت شيئا . فقال رسول الله ﷺ : انظر ولو خاتما من حديد . فذهب ثم رجع فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى . قال سهل : ماله رداء فلها نصفه . فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك ؟ إن لبستته لم يكن عليها منه شيء وإن لبستته لم يكن عليك شيء . فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن ؟ قال : معي سورة كذا وسورة كذا - عددها - فقال : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال : نعم . قال : اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن )<sup>(٢)</sup> .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جم غفير من الصحابة ، منهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وابن عباس ، وابن الزبير وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبوه ، وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد وغيرهم .

ومهما يكن من شيء ، فقد حفظ القرآن الكثير في عهد النبي ﷺ منهم من حفظه من أوله إلى آخره ، ومنهم من حفظ معظمه ، ومنهم من حفظ بعضه ، وقد يتفق على حفظ السورة منه المئون أو الآلاف ، وقد يتفق على حفظ السورة الأخرى مثلهم أو أكثر منهم ، وهكذا . فيخلص لنا من هذا : تواتر نص القرآن كله في جملته وتفصيله ، وليس أدل على هذا من أنه أصيب في يوم « بئر معونة » سبعون من القراء ، وأنه قتل في يوم اليمامة - وهي بعد الوفاة النبوية - نحو من سبعمائة ، وقيل : خمسمائة من القراء حفظة القرآن .

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٣٥ ط عيسى الحلبي . (٢) صحيح البخاري ج ٧ ص ٩٨ ط الشعب .

## من حفظ القرآن من النساء

وكذلك شارك في حفظ القرآن النساء الصحابيات ، منهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله .

قال الإمام السيوطي : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن ، لم يعدها أحد ممن تكلم في ذلك ، فأخرج ابن سعد في « الطبقات » قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، قال : حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال : حدثني جدتي : عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميتها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن : « أن رسول الله ﷺ حين غزا يدرا قالت له : أتأذن لي فأخرج معك أدوى جرحاكم وأمراض مرضاكم ، لعل الله يهدي لي شهادة ؟ » . قال : ( إن الله قد مهد لك شهادة ) ، وكان رسول الله ﷺ أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن ، فغمها غلام لها ، وجارية كانت قد دبرتها ، فقتلها في إمارة عمر - رضى الله عنه - فقال عمر : صدق رسول الله ﷺ وكان يقول : « انطلقوا بنا نزر الشهيدة » . فأكرم بها من مسلمة حافظة حتى استحقت أن تؤم أهل دارها .

إزالة شبهة في هذا المقام :

ولكن قد يشكل على ما ذكرنا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه ، عن أنس بن مالك قال : « مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبوزيد » ، وقد روى ابن أبي داود بإسناد صحيح ، على شرط البخاري عن أنس : « أن أبازيد الذي جمع القرآن اسمه : « قيس بن السكن » قال ( أى أنس ) : وكان رجلا مسنا من بنى عدى بن النجار ، أحد عمومتي ، ومات ، ولم يدع عقباً ونحن ورثناه » (١) .

وفي الحق : أن هذا الإشكال ، لا يتجه إلا إذا كان أنس - رضى الله عنه - أراد الحصر بالنسبة إلى جميع الصحابة ، وهذا لا يتم إلا إذا كان أنس لقي كل الصحابة وسألهم واحدا واحدا عن ذلك ، حتى يتم له الاستقراء ، وهذا أمر مستبعد عادة ، وإنما المراد : إثبات ذلك للخزرج دون الأوس ، فلا ينفي حفظ كثير له من غير القبيلتين من المهاجرين ، قد قال ذلك في معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج ، كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال : « افتخر الحيان : الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة : من اهتز له العرش : سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين : خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة : حنظلة بن أبي عامر ، ومن حمته الدبر : عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح . فقال الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم » . ويؤيد أن مراده هذا : أن الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقاني ، ج ١ ، ص ٢٣٦ ، ط عيسى البابي الحلبي .

كثير غير هؤلاء الأربعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وعبد الله بن عمرو وغيرهم ممن استفاضت الرواية في إثبات حفظهم للقرآن .

ومما لا ينبغي أن يرتاب فيه : أن الصديق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن كله في حياة الرسول لكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف ما ينزل من القرآن ، وقد ثبت في الصحيح ، وفي كتب المغازي : أنه بنى له مسجدا - وهو في مكة - في فناء داره فكان يقرأ القرآن فيه ، حتى لقد خاف المشركون على نسايتهم وأبنائهم وبناتهم أن يفتنوا بقراءته ، ويسلموا ، فقد كان بكاءً بالقرآن ولقراءته من التأثير في نفس السامع ما يفوق السحر .

وأیضا فقد سأل أنسا قتادة عن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ فقال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبي بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزید بن ثابت ، وأبو زید ، قلت : من أبو زید ؟ قال : أحد عمومي » رواه البخاری<sup>(١)</sup> .

فها أنت ترى أنه قيد ذلك بالأنصار ، فلا ينافي أن جملة المهاجرين كانوا يحفظونه ولا سيما أهل الصفة ، الذين كانوا منقطعين لتلاوة القرآن ، وتلبية نداء الجهاد ، كما أنه ذكر في الرواية الثانية : أبي بن كعب بدل أبي الدرداء ، مما يدل دلالة أكيدة أنه لم يرد الحصر الكلي الحقيقي ، وإلا فغير معقول أن يناقض نفسه بنفسه . فالحديث الآخر يدل على أنه كان هناك من الأنصار من يحفظه غيرهم ، ولكن هؤلاء الأربعة أشهر من غيرهم . على أن هذا الحديث وأمثاله ، قد تحيط به ظروف وملابسات توضح ما يراد به ، ولكن الراوى أغفلها نسيانا أو إيجازا راقصا فمن ثم أشكل على البعض .

قال بعض العلماء : لعل مراد أنس أن هؤلاء الأربعة هم الذين أخذوا القرآن عن الرسول مباشرة ، أما غيرهم : فأخذ بعضهم بالتلقين ، وبعضه بالواسطة . وقال آخرون : إن المراد بالجمع الكتابة . وإن المراد أنهم فضلا عن حفظ لفظه كتبوه من أوله إلى آخره ، أما غيرهم فقد كتب بعضهم ، وترك بعضهم .

وسواء أكان الحق في تأويل الحديث هذا أم ذاك ، فالأئمة جميعا على أن الحديث لا يراد به ظاهره ، وأن الذين حفظوا القرآن من الصحابة هم كثير ، وهو ما هدانا إليه الدليل ، والبحث العلمى التزيه .

حفظ القرآن بعد عصر الرسول ﷺ :

وأما بعد وفاة الرسول ﷺ : فقد أتم حفظه الألف من الصحابة ، وعن الصحابة أخذه وحفظه ألف الألف من التابعين ، وعن التابعين : أخذه وحفظه عشرات ألف الألف من تابعي التابعين ، وهكذا دواليك . تلقاه جيل بعد جيل بالحفظ والعناية والرعاية ، حتى أصبح حفظه القرآن وحملته لا يحصون ،

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

وحق وصل إلينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل ، فكان تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(١)</sup> . وسيبقى هكذا ما بقى مسلم على وجه الأرض .

## توثيق حفظ النص بالكتابة

كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ :

لم يكتب النبي ﷺ بحفظ القرآن وإقراءه لأصحابه وحفظهم له ، بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده في الرقاع ونحوها . وكان للنبي كتاب يكتبون الوحي ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب وغيرهم . فكان إذا نزل على النبي ﷺ شيء من القرآن ، دعا بعض من كان يكتب ، فيأمره بكتابة ما نزل ، وإرشاده إلى موضعه ، وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشد إليه أمين الوحي - جبريل - عليه السلام .

روى أصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حبان والحاكم ، من حديث عبد الله بن عباس عن عثمان - رضى الله عنهما - أنه قال : ( كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه شيء يدعو بعض من يكتب عنده ، فيقول : ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا )<sup>(٢)</sup> .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع »<sup>(٣)</sup> . قال البيهقي : يشبه أن يكون المراد تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها بإشارة النبي ﷺ ، ولم يكن الورق ميسرا في ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه حسب ما يتيسر لهم في الرقاع والعصب ، والأكتاف والحجارة والأخشاب ونحوها ، وقد كتب القرآن كله بين يدي النبي ﷺ على هذا النحو ، وكان مكتوبا بالأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .

كتابة الصحابة للقرآن :

وأما الصحابة ، فكان بعضهم لا يكتب القرآن اعتمادا على الحافظة وقوة الذاكرة ، كما هو شأن العرب في حفظ شعرهم ونثرهم وأنسابهم ، وكان بعضهم يكتب على هذا النحو أيضا ، وذلك لما فهموه من الإذن لهم في الكتابة من قوله ﷺ : ( لا تكتبوا عني غير القرآن ، ومن كتب غير القرآن فليمحاه ) . رواه مسلم في صحيحه .

وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيما يكتبون على ما ثبت بالتواتر ، بل كانوا يكتبون بعض

(١) سورة الحجر آية : ٩ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقاني ج ١ ص ٢٤٠ ط عيسى البابي الحلبي .

(٣) المرجع السابق .

المنسوخ ، وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلك كما فعل ابن مسعود وأبي بن كعب وابن عباس وغيرهم .

والخلاصة : أن النبي ﷺ لم يجاوز إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب ومحفوظ ، وأن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه أيضاً ، إلا أن المعول عليه في القرآن هي النسخة المحررة التي كتبت بين يديه ، وبارشاده ﷺ ، والتي حازت أعلى درجات الثقة والاطمئنان .

### حكمة الكتابة :

والسبب الباعث على كتابته في عهد النبي ﷺ :

١ - معاضدة المكتوب للمحفوظ ، ليتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ، ولذا كان المعول عليه عند الجمع في الصحف أو المصاحف الأمرين : الحفظ والكتابة .

٢ - تبليغ الوحي على الوجه الأكمل ، وأن الاعتماد على الحفظ فحسب غير كاف ، لأن الحفظ عرضة للنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقية .

لم يكتب القرآن في مكان واحد ؟

لم يكتب النبي ﷺ القرآن على غير هذا النحو من التفريق لما يأتي :

١ - أن القرآن لم ينزل كله مرة واحدة ، بل نزل منجماً مفرقاً ، فمن ثم كان كل ما نزل منه شيء كتب في رقعة ، أو قطعة من حجر ، أو خشب ، أو عظم .

٢ - ترتيب آيات القرآن وسوره على ما هو عليه في المصاحف ، لم يكن على حسب النزول ، بل كان على حسب تناسب الآي ، وترابطها البلاغي ، وعلى حسب ما يدعو إليه الإعجاز ، وقد تنزل الآية أو السورة بعد الآية أو السورة ، وتكون في ترتيب الحفظ والكتابة قبلها . وقد ذكر السيوطي في الإتيان عن محمد بن سيرين : أنه سأل عكرمة عن تأليف القرآن : ألفوه كما أنزل الأول فالأول ؟ فقال : « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا » ولن يستطيع أحد ذلك ، وإن زعم بعض الأفاكين .

ومن ثم نجد أن كتابته في موضع واحد متعذرة ، إن لم تكن مستحيلة ، في كتاب نزل مفرقاً في بضع وعشرين سنة ، فلما انقضى الوحي ، وتم بوفاء النبي ﷺ وأمن النسخ ، وعرف الترتيب ، ألهم الله الخلفاء الراشدين المهديين ، فقاموا بجمع القرآن في الصحف ، كما حدث في عهد الصديق - رضي الله تعالى عنه - وفي المصاحف ، كما حدث في عهد عثمان - رضي الله عنه .



## كتابة القرآن في عهد الصديق أبي بكر

« رضى الله عنه »

لما تولى الصديق أبو بكر الخلافة ، كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة ، والقضاء على هذه الفتنة ، وبذلك : أقام عمود الإسلام ، وثبت دعائمه بعد أن كادت تتقوض . ولما وقعت موقعة اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة ، استحرّ القتل في الصحابة ، ومات من حفاظ القرآن خلق كثير ، قيل خمسمائة وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر - رضى الله عنه - الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، أن يكثر القتل في القراء في بقية المواطن ، وربما يكون عندهم شيء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على سيدنا أبي بكر بأن يجمع القرآن في موضع واحد ، وصحف مجموعة بدل وجوده مفرقا ، فتردد الصديق أول الأمر ، ولكن لا يزال به الفاروق حتى وافق ، وثبت عنده أن الجمع ليس من المبتدعات المذمومة ، وإنما هو من الواجبات التى تدعو إليها قواعد الدين والشريعة ، فأرسلا إلى زيد بن ثابت ، كاتب الوحي ، وعرضا عليه الأمر ، فراجعهما ، ولكنهما لا يزالان به حتى ظهر له الحق ، واستبان له الرشد ، فجمعه بعد جهد جهيد ، وإليك ما رواه الثقات العدول في هذا :

روى الإمام البخارى في صحيحه بسنده ، عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلى أبو بكر ، بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتاني فقال : إن القتل استحرّ بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحرّ القتل بالقراء في المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن يجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير . فما يزال يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت في ذلك الذى رأى عمر . قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل على مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قالوا : هو - والله - خير . فما يزال أبو بكر يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر - رضى الله عنهما - فتتبع القرآن أجمعه من العصب والخفاف ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ... ﴾ إلى آخر السورة . فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر في حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر <sup>(١)</sup> .

وقد أخرج ابن أبي داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه » . وقد اختلف في المراد بالشاهدين ،

(١) صحيح البخارى ج ٦ ص ٨٩ ط الشعب .

فقال الحافظ ابن حجر : المراد من الشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين : أنها يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ . وكان غرضهم ألا يكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ . والقول أنهم لعلهم راعوا في الجمع الأمرين معا : الحفظ والكتابة ، والشهادة ، على أن المكتوب كتب بين يدي النبي ويعلمه وإرشاده .

ومن هذه النقول الصحيحة يتبين لنا جليا : أن الصحابة - رضوان الله عليهم - قد بالغوا في التوثيق في كتابة القرآن ، فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا ، وهما : الحفظ والكتابة وبعد توثيق ذلك بالشهادة .  
إزالة شبهة في هذا المقام :

ولا يشكلن عليك أيها القارئ قول زيد في الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدهما إلا مع أبي خزيمة الأنصارى ، لأن مراده : أنه لم يجدهما مكتوبتين إلا عنده ، وليس المراد أنه لم يحفظهما غيره ، بل كان يحفظهما كثيراً ويتلونهما في الصلاة ، ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

وبذلك يتبين لنا : أن لا حجة لمن يطعن في تواتر بعض آيات القرآن بهذه الرواية وما شابهها من المستشرقين والمبشرين وأضرابهم ، لأن الحق هو ما ذكرناه في بيانها . فشد عليه يدك ، ولا تلق بالالثرهات الحاقدين المتعصبين على القرآن والسنة .

مميزات الكتابة في عهد الصديق :

- ١ - أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته ، وجرد منها كل ما ليس بقرآن .
- ٢ - أنه لم يقبل فيها إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته .
- ٣ - أنه كان مكتوبا بجميع الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن .
- ٤ - أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذي نقرؤه اليوم ، والذي هو في المصاحف اليوم .

النسخة الأصلية الرسمية الموثوق بها :

ومما ينبغي أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة ، والتثبت البالغ ، والاشتغال على هذه المميزات ، لم تكن لغير صحف أبي بكر - رضي الله عنه - فهي النسخة الأصلية الموثوق بها ، أو بمعنى آخر : النسخة الرسمية التي عليها المعول عند الاختلاف .

نعم قد كانت هناك صحف ، ومصاحف لبعض الصحابة ، كتبوا فيها القرآن لأنفسهم ، إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف الصديق ، فبعض الصحابة كان يكتب النسخ ، وما ثبت برواية الأحاد ، وبعض تفسيرات وتأويلات لآية ، بل بعض أدعية ومأثورات ، ولم يلتزم بما هو قرآن فقط ، فجاء بعض من لم يعرف الحقيقة فاعترض على القرآن المتواتر الموثوق به ، ببعض ما يوجد في هذه المصاحف ، واتخذ من ذلك ذريعة للطعن في القرآن العظيم ، والأمر فيها ما علمت .

## كتابة القرآن في عهد سيدنا عثمان

« رضى الله عنه »

لما كان عهد عثمان - رضى الله عنه - وتفرق الصحابة في البلدان ، وحمل كل منهم من حروف القرآن وقراءاته ما سمعه من رسول الله ﷺ ، وقد يكون عند أحدهم منها ما ليس عند الآخر ، إذ ليس بلازم أن يسمع كل صحابي من النبي جميع الحروف ، ولا جميع القراءات . اختلف الناس في القراءات ، وصار كل قارئ ينتصر لقراءته ، ويخطئ غيره . وعظم الأمر واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان - رضى الله عنه - وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة في التقليل من الثقة بالقرآن الكريم ، وقراءاته الثابتة ، وفي فصم عروة المسلمين ووحدتهم الكبرى . أخرج ابن أبي داود في كتاب « المصاحف » من طريق أبي قلابة قال : لما كان عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون ، فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان ، فقال : « أنتم عندي تختلفون ، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافا » . وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - وأخبره بما جرى بين أهل الشام والعراق من الاختلاف في القراءة ، في غزوة أرمينية ، فهاله الأمر وتشاور هو والصحابة فيما يفعلون ، فرأى ورأوا معه : أن يجمع الناس على مصحف واحد ، لا يتأق فيه اختلاف ولا تنازع . فأرسل إلى حفصة - رضى الله عنها - أن أرسل إلينا بالمصحف ، يعنى التي كتبت في عهد الصديق أبي بكر ، ثم انتقلت بعد موته إلى الفاروق عمر ، ثم بعده إلى ابنته حفصة بوصية منه ، لتكون أساسا لكتابة القرآن في المصاحف ، كتابة تذهب بالاختلاف والتنازع بين الأمة في قراءة القرآن . ثم عهد إلى زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن ينسخوا المصحف في المصاحف ، وقال للرهط القرشيين : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم » . فقاموا بمهمتهم خير قيام ، وكتبوا المصاحف مرتبة السور على الوجه المعروف اليوم ، فلما انتهوا أرسل عثمان - رضى الله عنه - إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ، ليجتمع الناس في القراءة عليه ، وأمر بما سواها من المصاحف الخاصة ، التي كانت عند بعض الصحابة أن يحرق ، وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى هذا العمل الجليل ، ثم رد المصحف إلى السيدة حفصة أم المؤمنين ، فبقيت عندها إلى أن توفيت - رضى الله عنها - فأرسل مروان بن محمد إلى أخيها عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها ، أن يرسل إليه هذه المصحف ، فأرسلها إليه ، فأمر بها مروان فشقت ثم حرقت ، وقال : إنما فعلت هذا لأني خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب في شأن هذه المصحف مرتاب .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر سيدنا عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التي كتبها ووجه بها إلى الأمصار الإسلامية ذريعة للطعن فيه ، مع أنه - رضى الله عنه - ما فعل هذا إلا بموافقة من الصحابة .

ذكر أبو بكر الأنباري عن سويد بن غفلة قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو في عثمان ، وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ » .

وروى أيضا عن علي - رضي الله عنه - أنه قال : « لو كنت الوالي وقت عثمان ، لفعلت في المصاحف مثل الذي فعل عثمان » .

وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح ، الأثر الذي رواه سويد بن غفلة ، عن سيدنا علي ، وفي آخره قال عثمان : « ما تقولون ؟ فقد بلغني أن بعضهم يقول إن قراءتي خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفرا . قلنا - أي الصحابة - ما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا يكون فرقة ، ولا اختلاف ، قلنا فنعم ما رأيت » .

ـ وقد وفق الله - سبحانه - سيدنا عثمان والصحابة لهذا العمل الجليل ، الذي رفع الاختلاف وجمع الكلمة وحفظ للقرآن قدسيته وحرمة ، فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم .

مميزات الكتابة في المصاحف في عهد عثمان رضي الله عنه :

- ١ - الاختصار بها على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ، وهو حرف قريش .
- ٢ - الاختصار فيها على ما ثبت بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وما استقر عليه الأمر في العرصة الأخيرة التي حضرها زيد .
- ٣ - ترتيب آياته وسوره على الوضع الذي عليه المصاحف اليوم .
- ٤ - تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس بقرآن ، بخلاف ما كان مكتوبا عند بعض الصحابة ، فقد كان فيه بعض تفسيرات وتأويلات .

« والخلاصة » : أن القرآن العظيم قد توافرت له من دواعي الحفظ والعناية والنقل المتواتر ، والمفيد للقطع واليقين ، ما لم يتوافر لغيره من كتاب ما . وصدق الله العظيم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ <sup>(١)</sup> .

### فصل في أن القرآن الكريم كتاب معجز

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

(١) سورة الحجر آية : ٩ .

القرآن الكريم هو ذلك الكلام العربي المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر المتحدى بلفظه ، بأقصر سورة من سوره ، المتعبد بتلاوته ، الذى بدأ بالفاتحة وختم بالمعوذتين . إنه كتاب معجز وفى إعجازه إثبات لنبوته سيدنا محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (١) . فتأمل معى كيف كان التحدى لهؤلاء المكذبين ولو بسورة ، وكيف بلغ التحدى أقصاه عندما دعاهم إلى اختيار لجنة التحكيم ممن يرضونهم هم ، ولم يجعل لجنة التحكيم من الملائكة ، والصحابة حتى لا يقول قائل : إنها لجنة متحيزة لمن أنزل القرآن عليه . ثم قف معى متأملاً كيف يثبت الله عجزهم سلفاً ليكون فى ذلك دليل صدق وشاهد حق على صدق الدعوة ، فيقول البارى تبارك وتعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (٢) .

فانظر إلى قوله جل شأن ﴿ ولن تفعلوا ﴾ . لن هنا حرف يفيد تأييد النفى ، وفى هذا التعبير قطع وإبطال لكل دعوى يحاول أصحابها أن يقتحموا على القرآن الكريم أسواره المنيعه . ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٣) . وهنا يزداد أسلوب التحدى . فهناك كان تعبير الآية ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ وهنا ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ . إنه منتهى التعجيز ، فعلى قدر ما تستطيعون ادعوا من أهل الأرض من شئتم . وبعد ذلك يعقب سبحانه قائلاً : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ (٤) .

كفى القرآن جلالاً وعظمة أن أربعة عشر قرناً من الزمان مرت به ، لم تستطع أن تصيب أسلوبه بأى جفاف ، بل ظل أسلوبه غضاً ندياً ، يتقاطر نورا ورحمة كأن عهده بالحياة أمس . وقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى فى قوله عن القرآن : ( لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ) ، وذلك فى حديث جامع أجاب به الرسول عن سؤال على عندما قال : ( ستكون فتن . فقال على : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : عليكم بكتاب الرب تبارك وتعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا تملة الأتقياء ، ولا تشعب معه الأراء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يبلى ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجياً \* يهدى إلى الرشـد فآمنا به ﴾ . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ) (٥) . ثم اسمع معى إلى شهادة ذلك المستشرق الفرنسى الدكتور (موريس) : « إنه ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغة للغويين ، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه ، ودائرة معارف للشرائع

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤ .

(٤) سورة يونس آية : ٣٩ .

(٥) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ .

(٣) سورة يونس آية : ٣٨ .

والقوانين ، وكل كتاب سماوى جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سورة فى حسن المعانى وانسجام الألفاظ . ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكا بهذا الكتاب ، واقتباسا لآية يزینون بها كلامهم ويبنون عليها آراءهم ، كلما ازدادوا رفعة فى القدر ونباهة فى الفكر .

قال الوليد بن المغيرة لقومه بعدما سألوه عن مبعوث العناية الإلهية : لقد سمعت من محمد كلاما ( يعنى به القرآن ) ما سمعت مثله قط : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه . أما الفاروق عمر فقد قال كلاما يكتب بمداد الذهب على صفحات النور ، وكان الفرق بينه وبين الوليد شاسعاً كأن بينهما بعد المشرقين ، فالوليد قال كلمة حق بلسانه ولكن الكبر والعناد والصولة والصولجان ، حال ذلك كله دون أن ينطق كلمة التوحيد مقراً بها قلبه كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ (١) . أما عمر فقد نطق بها لسانه مطمئناً بها قلبه ، وما استطاع الكبر أن يتسرب إلى حصون نفسه المكيئة . قال عمر : أول ما دخل الإسلام فى قلبى كنت أمشى ذات ليلة فسمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة الحاقة ، قلت : إن هذا الكلام كلام شاعر ، فسمعت يقرأ من آخرها : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ (٢) قلت : إن هذا الكلام كلام كاهن ، فسمعت يقرأ : ﴿ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾ (٣) قلت : لعله يكون كلام محمد ، فسمعت يقرأ : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ ولوتقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين \* وإنه لتذكرة للممتقين \* وإننا لنعلم أن منكم مكذبين \* وإنه لحسرة على الكافرين \* وإنه لحق اليقين \* فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (٤) ثم توالى الآيات على قلب عمر الذى كان جباراً فى الجاهلية فأضحى عملاقاً للإسلام . يراه أحد المشركين يمشى كعادته فى عزة وصلف وكبرياء ، فيسأله : إلى أين يا عمر ؟ فيقول له : لقد عزمت على قتل محمد . يقول هذا فى الوقت الذى يرفع الرسول وجهه إلى السماء يدعو الله : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين . فانظر معى : « أريد حياته ويريد قتلى » هذا ينوى قتل الصادق المعصوم ليدخل التاريخ من هذا الباب ليكون باباً عبوساً قمطيراً ، وليصبح شره مستطيراً ؟ وصاحب القلب الرحيم يدعو الله بالهداية ، ويقول المشرك لعمر : أقتل محمداً وكتابه يتلى فى بيتك . ويسرع عمر مهرولاً وكأنه نزلت به قاصمة ويترك الباب بعنف ، وكان فى البيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد ( أحد العشرة المبشرين بالجنة ) وأستاذهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن الكريم . وفى ثورة غضب يضرب عمر أخته فيشج رأسها . وبعد حوار محتدم ، وأمر بالاغتسال تناوله الصحيفة ليقرأ ما بها فإذا بها : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم \* طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ (٥) . وتتمثل الآيات أمام عمر وكأنها ملائكة حملته على أجنحتها النورانية إلى السماوات العلى . لقد زالت الحجب ، وانقضت السحب ، وبرح الخفاء ، ونجع الدواء ، وذهب الداء ، وزالت السكره

(٢) سورة الحاقة آية : ٤١ .

(٤) سورة الحاقة الآيات : ٤٣ - ٥٢ .

(١) سورة النمل آية : ١٤ .

(٣) سورة الحاقة آية : ٤٢ .

(٥) سورة طه الآيات : ١ - ٨ .

وحلت الفكرة وسطعت شمس الحقيقة ، وسُلَّ سيف الفجر من غمد الظلام ، وتعرى الليل من ثوب الغلس . لقد أضاءت مصابيح الآيات في قلب عمر ، وهكذا القرآن : بصر علوى وبصيرة نافذة . فمن قرأ القرآن وبين لسانه وقلبه حجاب ، أو سمعه وبين الأذن والقلب سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

إذن فالقرآن يُقرأ ، والقلب مفتوح والصدر منشرح . وهكذا دخل الإسلام قلب عمر ، فما أحوج الأمة إلى إسلام كإسلام عمر ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ (١) . قال جل شأنه : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ﴾ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا \* ويخرون للأذقان ليكون ويزيدهم خشوعا ﴾ (٢) . صدقت يا ربنا ، يا منزل الكتاب ، يا من أخبرت عنه بقولك : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٣) .

لقد بلغ من إعجاز القرآن وحلاوته وطلاوته أن كبراء المشركين ، وأشد الرعوس عنادا وجودا ، كانوا يذهبون متسللين بالليل ليستمعوا إلى القرآن من رسول الله خفية . يذهب أبو جهل فيظن نفسه يسمع وحده ، وإذا بأبي سفيان يقبل عليه فيسأله : ما أتى بك إلى هنا يا أبا الحكم ؟ فيقول له : جئت لأستمع إلى القرآن . فما الذى أتى بك يا أبا حنظلة ؟ فيقول أبو سفيان : نفس الذى أتى بك . وإذا بالأخنس بن شريق يقبل عليها ، ويدور نفس الحوار ، وينصرفون بعد أن يستمعوا ، وقد تعاهدوا فيما بينهم ألا يعودوا بعد ذلك خشية أن يحول القرآن قلوبهم إلى دين محمد ، ثم يعود كل منهم على انفراد في الليلة التى تلى ليلتهم هذه ويظن أن رفاقه لن يأتوا بناء على ما تعاهدوا عليه ، ولكنه يفاجأ بهم وقد جلسوا بجانبه يستمعون إلى ما يستمع .

نعم إن هذا القرآن شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء . إن الكون قرآن صامت وإن القرآن كون ناطق ، وإن صاحب الرسالة كان قرآنا يمشى بين الناس ، وإن إعجاز الله في خلقه كإعجازه في كلمته . فخلق معجزة ، وكلماته معجزة ، خلق الإنسان من تراب ، أو من سلالة من طين ، وما أكثر التراب وما أكثر الطين ، ولكن هل يستطيع أحد مهما أوتى من قوة وعلم وعبقريّة أن يخلق من التراب إنسانا ، أو يصنع من الطين بشرا سويا ؟ ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (٤) .

هذه آية أنتجت خمس نتائج جاءت عقبا : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير ﴾ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٥) .

(٢) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٤) سورة الحج آية : ٥ .

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .

(٣) سورة الحشر آية : ٢١ .

(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .

بل إن الله تعالى تحدى الدنيا كلها في أن يخلقوا ذبابا فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (١) .

هذا إعجاز الله للخلق في آياته الكونية ، يقال هذا أيضا في إعجاز الله للخلق في آياته التنزيلية . فبعد عشر سور من القرآن يقول تعالى في أول سورة هود : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . ثم تنتقل بنا الآيات إلى موقف التحدى فيقول تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٢) . ثم تأتي النتيجة بعد الحكم : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (٣) . وليس الاستفهام في هذه الآية على حقيقته بمعنى طلب الفهم ، إنما خرج عن حقيقته إلى معنى بلاغى هو الأمر ، فيكون المعنى في قوله تعالى ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أسلموا . لذا يقول من تلا هذه الآية : ( أسلمنا والحمد لله ) ، كما في قوله تعالى في آية الخمر والميسر ﴿ فهل أنتم متتهون ﴾ (٤) أى « انتهوا » يقول التالى : « انتهينا يارب » .

فكما تحدى الله البشرية بكلماته الكونية تحداهم بكلامه القرآنى الأزلى القديم ، وكما أوجد المادة الخام التى أوجد منها الإنسان مثلا ، وهى العناصر المبتوثة فى تراب الأرض ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (٥) أوجد كذلك المادة التى ركب منها كلامه القديم . وأشار إلى ذلك فى فواتح عدة من السور . ففتح بعضها بحرف واحد مثل : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ (٦) ومثل : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾ (٧) . وفتح بعضها بحرفين مثل : ﴿ حم \* والكتاب المبين ﴾ (٨) ومثل : ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ (٩) . وفتح بعضها بثلاثة حروف مثل : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ (١٠) ومثل : ﴿ طسم \* تلك آيات الكتاب المبين ﴾ (١١) . وفتح بعضها بأربعة أحرف مثل : ﴿ المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾ (١٢) . وفتح بعضها بخمسة أحرف مثل : ﴿ كهيعص \* ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ (١٣) .

وأنت أيها القارئ تستطيع أن تلمح بيسير من الفكر أن الله تعالى ذكر عقب هذه الحروف القرآن الكريم ليكون فى ذلك إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب الكريم قد نزل بأحرف عربية . وأنتم يا أرباب الفصاحة وأساطين اللغة تنطقون بهذه الحروف نطقا عربيا سليما ، فإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا

- |                                   |  |
|-----------------------------------|--|
| (١) سورة الحج آية : ٧٣ .          | (٢) سورة هود آية : ١٣ .                                    |
| (٣) سورة هود آية : ١٤ .           | (٤) سورة المائدة آية : ٩١ .                                |
| (٥) سورة الروم آية : ٢٠ .         | (٦) سورة ق آية : ١ .                                       |
| (٧) سورة ص آية : ١ .              | (٨) سورة الدخان الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ ، وسورة الزخرف ٢٤ ، ٢٥ . |
| (٩) سورة النمل آية : ١ .          | (١٠) سورة يوسف آية : ١ .                                   |
| (١١) سورة القصص الآيتان : ١ ، ٢ . | (١٢) سورة الرعد آية : ١ .                                  |
| (١٣) سورة مريم الآيتان : ٢ ، ١ .  |  |



من مثل هذه الحروف بسورة . واعلموا أنكم لن تفعلوا ذلك ولن تستطيعوه وذلك كما عجزتم عن خلق أى شىء من هذا التراب . فعجزكم عن الإتيان بكلمة من كلمات الله الكونية سيكون كعجزكم عن الإتيان بأى آية من آيات الله التنزيلية . فإذا ثبت عجزكم ولم تفعلوا ﴿ فأتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾ (١) .

### وجوه الإعجاز :

لما تقرر أن القرآن معجزة الله الخالدة إلى يوم الدين ، فقد عكف الباحثون فى علوم القرآن على دراسة وجوه الإعجاز . فمن قائل إنه معجز بنظمه وتنسيق ألفاظه وارتباط كلماته . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم . وقد يعجب المرء لهذا الكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير كيف كان هذا التنسيق يسرى فى كل لفظ من ألفاظه ، وكيف تناسبت الكلمات وأخذ بعضها برقاب بعض .

ألا ترى إلى هذا الأعرابى الذى سمع قارئاً يتلو قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ففزع العربى الأمى الذى لم يسمع الآية من قبل وقال : والله ما هكذا أنزلت ، ثم أمر القارئ أن يعيد تلاوتها فإذا ختامها ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ (٢) فقليل للأعرابى : ما الذى استرعى انتباهك حتى أعدت القارئ إلى الوجه الصحيح فى تلاوتها فقال : لأنه تعالى عزّ فحكم فقطع . ولو أنه غفر ، رحم وما قطع . ففى أى الجامعات تخرج ذلك العربى وعلى يذى أى أستاذ تلقى علومه ؟ كلا إنه نداء الفطرة السليمة .

ثم أرأيت إلى الفاروق عمر وهو يكتب الوحي المنزل على رسول الله ﷺ من سورة « المؤمنون » لقد أملاه النبى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ﴾ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر . . . ﴿ وقبل أن يكمل الرسول ﷺ الآية قال عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٣) . فقال له الصادق المعصوم : هكذا نزلت فاكتبها يا عمر .

وهكذا قال جماعة بأن القرآن معجز بنظمه ، وقال آخرون بل معجز بلفظه ، وقال فريق ثالث بل معجز بتشريعاته وأحكامه ونظمه ، وقال فريق رابع إن إعجازه فى إخباره بالغيوب التى لم تقع بعد . وقال آخرون : بل إن فيه من الحقائق العلمية ما يثبت إعجازه إذ أنه قد أنزل على النبى الأمى الذى لم يذهب إلى جامعة ولم يختلف إلى أستاذ . حتى قال المستر براون عالم البحار الانجليزى لعلماء الهند : هل ركب نيكيم البحر قالوا : لا . قال : لقد قرأت فى القرآن آية لا يعرفها إلا من درس علوم البحار وهى قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم

(٢) سورة المائدة آية : ٣٨ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤ .

يكذبها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴿١﴾ . فمن الذى علم نبيكم هذا وهو لم يركب البحر فى حياته ؟ فأشهد أن القرآن صدق وأن نبيكم حق . وأعلن إسلامه بسبب فهمه لهذه الآية . لقد تحرى القرآن الأوائل والأواخر فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ﴿٢﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴿٣﴾ ، وأيقنوا أنه من لدن حكيم خبير .

وللعلماء آراء فى وجوه إعجاز القرآن نجملها فيما يلى :

قال الإمام الخطابى : إن إعجاز القرآن هو فى الصورة التى جاء عليها القرآن لفظا ومعنى وروحا يجمع بين اللفظ والمعنى . . . فالإعجاز فى القرآن هو القرآن .

يقول الخطابى : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط ناظم لهما . . . وإذا تأملت القرآن ، وجدت هذه الأمور منه ، فى غاية الشرف والفضيلة . واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظم التأليف ، مضمنا أصح المعانى : من توحيد الله - عزت قدرته - وتنزيهه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمناهج عبادته . . . من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر » .

ثم يقول : « ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله ، ثم صار المعاندون له ممن كفر به ، وأنكره ، يقولون مرة : إنه شعر ، لما رأوه كلاما منظوما ، ومرة سحر ، إذ رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وفقا فى القلوب وقرعا فى النفوس ، يربيههم ويحيرهم » .

ولهذا نراه يعقب على هذا بقوله : « قلت فى إعجاز القرآن وجه آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك هو صنيعة بالقلوب وتأثيره فى النفوس . فإنك لا تسمع كلاما غير منظوم أو منشور إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى - ما يخلص من القرآن إليه . . . »

ثم يمضى قائلا : « تستبشر به النفوس ، وتشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتترعج له القلوب . . . يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . . فكم من عدو للرسول ﷺ - من رجال العرب وفتاكها - أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالته ويدخلوا فى دينه » .

(٢) سورة النحل آية : ٨٧ .

(١) سورة النور آية : ٤٠ .

ويقول الإمام الباقلاني في إعجاز القرآن :

ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

الوجه الأول : الإخبار عن الغيوب . . وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . . فمن ذلك ما وعد الله به نبيه - عليه الصلاة والسلام - من أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ <sup>(١)</sup> ففعل الله ذلك . . .

وكان أبو بكر - رضى الله عنه - إذا غزا جيوشه عرفهم ما وعدهم الله به من إظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح ، وكان عمر - رضى الله عنه - يفعل ذلك في أيامه . .

الوجه الثانى : أنه كان معلوما من حال النبى ﷺ أنه كان أميا - لا يكتب ولا يقرأ - وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع وما حدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من خلق آدم إلى حين مبعثه .

الوجه الثالث : نظم القرآن . . فهو بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . من ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن الكلمات المعتادة . . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ، فتطلب فيه الوصاية والأناة ، وإفهام المعانى على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له . . وهو كذلك ليس من قبيل الشعر . ولهذا إذا تأمله المتأمل تبين له خروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ، وأنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه .

ويرى القاضى عبد الجبار : أن إعجاز القرآن يتمثل فى جزالة لفظه وفى حسن معناه ، مما لا يوجد مثله فى أى كلام بشرى مهما علا مقامه فى الفصاحة والبلاغة .

ولعبد الجبار القدح المعلى فى إثبات الإعجاز بالإخبار عن الغيب أو انفراد القرآن بهذا الأسلوب من النظم الذى اتخذ طريقا بين الشعر والنثر أو سلامته من الاختلاف والتناقض . .

(١) سورة التوبة آية : ٣٣ ، الصف آية : ٩ .

أما رأى الإمام الزمخشري في الإعجاز فيتلخص في حقيقتين :

أولاهما : العجز عن إمكان حصر وجوه الإعجاز في القرآن .. لأنه لو أمكن حصرها لانقطع بحث الباحثين في آيات الله وكلماته ، ولما كان لمجتهد مطلب يطلبه فيه بعد أن قيلت الكلمة الأخيرة عنه .

وثانيتهما : أنه جعل القرآن الكريم كله آيات معجزة تطلع من كل حرف من حروفه ومن كل كلمة من كلماته وفي كل آية من آياته ، وبهذا يرى الناظرون في القرآن الكريم على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ، وجوها لا تنتهى من وجوه الإعجاز ، دون أن ينتهوا جميعا إلى غاية يقفون عندها . وهكذا يظل القرآن الكريم جنة سماوية فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فحيث نزل الناس في ساحة القرآن ، كانوا منه في جنة عالية قطوفها دانية : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ (١) .

يزيد على طول التأمل بهجة كأن العيون الناظرات صياقل

ويكفى أن نشير هنا إلى منهج الزمخشري هذا ، بمثل واحد من نظره في وجه آية من آيات الله تعالى ، لتكون شاهدا على هذا المنهج ، وعلى قيمته في الكشف عن وجوه كثيرة لا تحصى من وجوه إعجاز القرآن ، حيث يتمثل في كل آية أكثر من وجه ، وحيث ينكشف من كل لفظة أكثر من سر .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ (٢) يقول :

« فإن قلت : كيف قيل : ﴿ إلا أمم ﴾ مع أفراد الدابة والطائر ؟ .. قلت : لما كان قوله تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر ﴾ و ﴿ إلا ﴾ على معنى الاستغراق وتغنيينا عن أن يقال : « وما من دواب ولا طير » حمل قوله تعالى ﴿ إلا أمم ﴾ على هذا المعنى .. ثم يقيم الزمخشري اعتراضا ثانيا ، ويحجب عليه فيقول : فإن قلت : فهلا قيل : وما من دابة في الأرض ، ولا طائر إلا أمم أمثالكم ، وما معنى زيادة قوله : ﴿ في الأرض ﴾ و ﴿ يطير بجناحيه ﴾ . قلت معنى ذلك : التعميم والإحاطة .. كأنه قيل : وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط في جو السماء ، من جميع ما يطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ، محفوظة أحوالها غير مهملة أمرها » .

ثم يورد اعتراضا ثالثا ويحجب عليه كذلك فيقول : « فإن قلت : فما الغرض من ذكر ذلك ؟ .. قلت : للدلالة على عظم قدرته تعالى ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لها ، قائم عليها ، مهيم على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين - أى البشر - ليسوا بمخصوصين بذلك ، دون من عداهم ، من سائر الحيوان .. » .

(١) سورة البقرة آية : ٢٥ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

وبعد هذا العرض السريع لإعجاز الكتاب الكريم نلج باب التفسير سائلين الله جل شأنه أن يجعل لنا نوراً نمشى به ونهتدى بهديه . فالله نور السماوات والأرض . والرسول المبعوث إلينا نور جاء من عند الله ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (١) . والقرآن الذى جاء به نور ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾ (٢) . فهو الروح الذى يحى الله به الموات ، والنور الذى يخرج الله به البشرية من غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهتدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهتدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿ (٣) .

والآن من الصراط المستقيم إلى الصراط المستقيم حيث سورة الفاتحة وفيها نسال الله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿ (٤) .

ونبدأ بالاستعاذة : قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ (٥) . ومعنى أعوذ بالله : أى أستجير به وأستغيث وأستعين بقوته من وساوس الشيطان وكبره وسحره . وليس الشيطان مقصوراً على شياطين الجن ، إنما هو يشمل الجنسين من الجن والإنس . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (٦) .

وقد بين لنا القرآن العظيم علاج كل من النوعين . جاء ذلك فى سورة « الأعراف » . قال تعالى فى علاج شياطين الإنس : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ (٧) . لما نزلت هذه الآية سأل الرسول ﷺ جبريل عنها . فقال جبريل : لا أدري حتى أسأل رب العزة ، فلما هبط على الصادق المعصوم قال له : يا رسول الله معناها أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

أما علاج شياطين الجن فى سورة « الأعراف » فقوله جل شأنه : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ (٨) . ثم قال فى علاج النوعين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ وإخوانهم يمدوهم فى الغي ثم لا يقصرون ﴿ (٩) . فإذا ما انتقلنا إلى علاج النوعين فى سورة « المؤمنون » وجدنا علاج شياطين الإنس فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ (١٠) . وعلاج شياطين الجن فى قوله جل شأنه : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴿ (١١) . وفى سورة « فصلت » نرى علاج الإنس فى قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي

(١) سورة المائدة آية : ١٥ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) سورة النحل آية : ٩٨ .

(٤) سورة الأعراف آية : ١٩٩ .

(٥) سورة الأعراف الآيتان : ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٦) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .

(٧) سورة التغابن آية : ٨ .

(٨) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧ .

(٩) سورة الأنعام آية : ١١٢ .

(١٠) سورة الأعراف آية : ٢٠٠ .

(١١) سورة المؤمنون آية : ٩٦ .

حيم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿١﴾ . وفي حق شياطين الجن يقول تعالى : ﴿ وما ينزغك من الشيطان نزع فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ (٢) .

والمراد بقوله جل شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ (٣) أى إذا أردت قراءته كما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ (٤) أى إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فاستعذ بالله ﴾ (٥) أى اطلب الاستجارة به واللجوء إليه والاحتباء بجنبه والركون إلى حصنه الحصين ، فهو القريب يجب من ناداه . ﴿ الرجيم ﴾ هو اللعين الذى طرد من رحمة الله جزاء عصيانه وإصراره واستكباره .

إني بليت بأربع يرموننى      بالنبل عن قوس لها توتير  
إبليس والدنيا ونفسى والهوى      يا رب أنت على الخلاص قدير

روى أن النبى ﷺ كان إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير والثناء ثم يقول : ( أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه ) .

وكلمة الشيطان تطلق ويراد بها كل من بعد عن الخير لأنه مأخوذ من شطن إذا بعد . يقال تشيطن فلان أى أصبح بعيدا عن الخير متصفا بفعل الشيطان ، وهذا هو القول الراجح فى معنى هذه الكلمة .

ومن مكاييد الشيطان التى تبعده وتزجره أن تقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

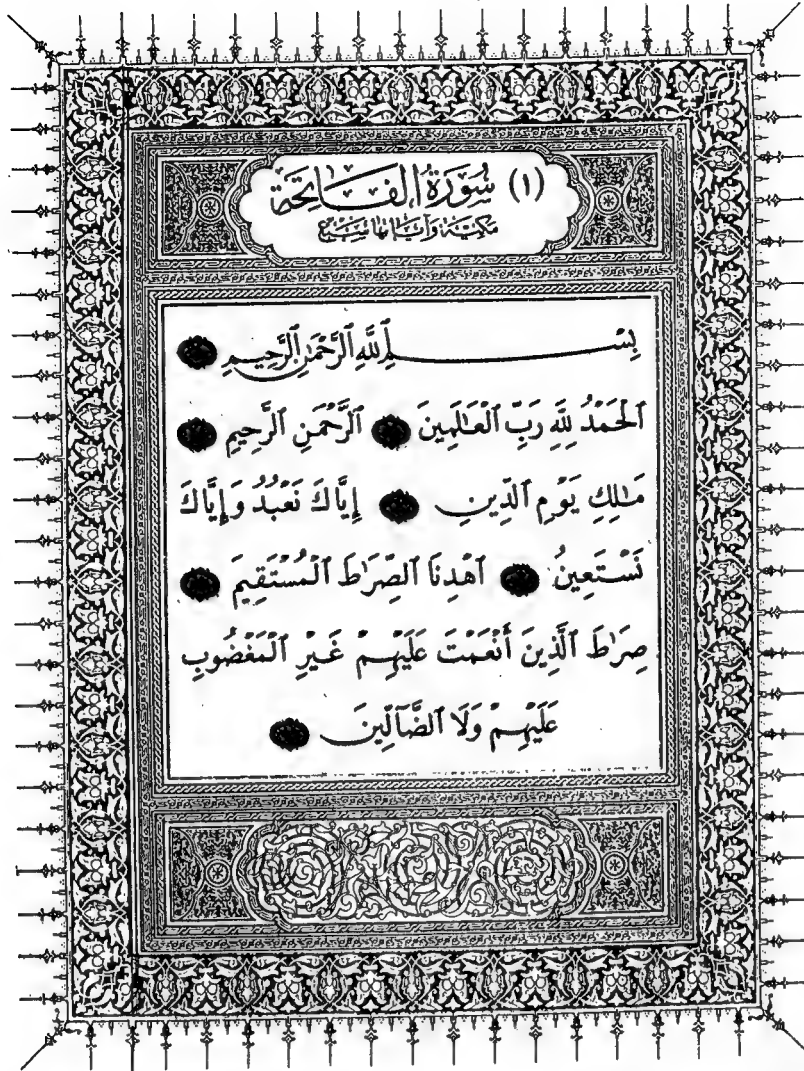
(٢) سورة فصلت آية : ٣٦ .

(٤) سورة المائدة آية : ٦ .

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) سورة النحل آية : ٩٨ .

(٥) سورة النحل آية ٩٨ .



### أسماء سورة الفاتحة :

تسمى « الفاتحة » لأنها تفتتح بها القراءة في الصلوات ، ويقال لها أيضا « أم الكتاب » ولها أسماء منها « الحمد » و « الشفاء » و « الوافية » و « الكافية » و « أساس القرآن » و « سورة الصلاة » و « السبع المثاني » و « سورة الثناء » و « الرقية » و « أم القرآن » . قال البخاري : « وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابها في المصاحف ، ويبدأ بقراءتها في الصلاة » .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن : ( هي أم القرآن ، وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم ) (١) .

### فضلها :

ورد في سورة الفاتحة آثار تدل على عظم فضلها ورفعة قدرها عند الله . ونذكر هذه الأحاديث فيما يلي :

عن أبي سعيد بن المعلّى رضى عنه قال : ( كنت أصلى فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت ، قال : فاتيته ، فقال : ما منعك أن تأتيني ؟ قال : قلت يا رسول الله إنى كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج ١ ص ٢١ ط وزارة الأوقاف .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة في القرآن ، قال : نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته<sup>(٢)</sup> .

عن أبي بن كعب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل « أم القرآن » وهي السبع المثاني ، وهي مقسومة بيني وبين عبدى نصفين )<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثني على عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مجدنى عبدى ، وقال مرة : فوض إلى عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال الله : هذا بيني وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم \* صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل )<sup>(٤)</sup> .

وقد بلغ من بركات الفاتحة أنهم كانوا يرقون بها المريض فيشفى بإذن الله تعالى . فما أعظمها من رقية وما أكثر بركاتها من آيات بينات . عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كنا في مسير لنا فزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم « أى لديغ » ، وإن نفرنا غيب فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه ، فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن ؟ أو أكنت ترقى ؟ قال : لا ، ما رقيت إلا بأم الكتاب ، قلنا : لا تحدثوا شيئا حتى نأتى أو نسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبي ﷺ فقال : ( وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقساموا واضربوا لى بسهم )<sup>(٥)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبي ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفا منها إلا أوتيته )<sup>(٦)</sup> .

ولأنها لجديرة بأن تسمى أساس القرآن وأم الكتاب ، فقد اشتملت على مبادئ الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكا . وكانت بمثابة البذرة الطيبة التى غرست فى أرض طيبة ، فأنبتت شجرة طيبة بأسقة الأغصان وارفة الظلال كريمة الجنى . لقد لخصت سورة الفاتحة المبادئ التى فصلها القرآن العظيم . فقد اشتملت على الوجدانية بكل معانيها ، توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، كذلك اشتملت على الجزاء والبعث بعد الموت ،

(٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٠ ط الشعب

(٤) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٥٨ .

(١) سورة الأنفال آية : ٢٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣ ط الشعب .

(٥) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٧٠ ط الشعب .



واشتملت أيضا على العبادة واشتملت على السلوك القويم ، وسيرة الصالحين . فأنت إذا بسملت وأثبت الحمد لله ، وذكرت صفات الكمال الواجبة لله فأنت بذلك من الذين عرفوا الله وأثبتوا ما يليق بذاته الأقدس . وعندما تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، فقد أثبت أن هناك دارا للجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهذا ما يسمى بالمعاد وهو عودة الحياة بعد الموت . وعندما تقرأ : ﴿ إياك نعبد ﴾ فتلك هي العبادة في أسمى معانيها ، وفي تقديم الضمير على الفعل ما يدل دلالة قاطعة على توحيد الألوهية . وكذلك في قوله : ﴿ وإياك نستعين ﴾ ما يفيد تخليص العقيدة من أى شائبة ، وبهذا يكون المسلم قد اعتصم بالله وأخلص دينه لله . فإذا ما قرأت : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فذاك جانب السلوك في الإسلام . فإن تطلب الهداية فهذا أغلى ما يتمناه المسلم . فالهداية نعمة لا تعدلها نعمة أخرى . قال تعالى لصفية وحبيبه : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا \* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾ (١) . وقال جل شأنه : ﴿ والله يدعوك إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) . فإذا ما قرأت تفسير الصراط في قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأنت بذلك قد استعرضت تاريخ الصالحين الذين ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ (٣) . وعندما تحترز وتحترس في طلب الصراط المستقيم تبعد عن نفسك كل فرق الضلال الذين استهوتهم الشياطين . وما أعظمها من كلمة جامعة لكل الذين انحرفوا عن سلوك الجادة وتنكبوا الطريق . ما أجمعها من كلمة ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما أعظم أن يفتح الله الكتاب الكريم بتلك الآية التي تفيض جلالا ، وتشع كمالا وتغفر العباد رحمة وإحسانا ، وتعم الأكوان فضلا وإكراما . فيها التبرك باسم الله ، فأنت عندما تقرؤها كأنك تقول : أبدا عملي باسم الله أو أستعين باسم الله في عملي ، فإذا العمل تحوطه العناية وتحفظه الرعاية وتملؤه البركة . لذلك قال الصادق المعصوم : ( كل أمر لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع ) (٤) .

وقد ذكروا أمورا تستحب فيها البسملة حتى يكون المسلم على معرفة بها : فتستحب في أول الوضوء لقوله عليه السلام : ( لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ) (٥) ، وتستحب عند الذبيحة في مذهب الشافعي وأوجبها آخرون ، وتستحب عند الأكل لقوله عليه السلام : ( .. فإذا أكل أحدكم طعامه ، فليذكر اسم الله عليه ، فإن نسي في أوله فليقل باسم الله في أوله وآخره ) (٦) ، وتستحب عند الجماع لقوله عليه السلام : ( لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا ) (٧) .

(١) سورة الفتح الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) سورة النساء آية : ٦٩ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٠٨ .

(٧) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٢) سورة يونس آية : ٢٥ .

(٤) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٦) للصدر السابق ج ٣ ص ١٠٠ .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ، وقد ذكروا أن نبي الله سليمان لما أرسل هدهد بالكتاب إلى ملكة سبأ وجاء فيه ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾<sup>(١)</sup> قال سليمان للهدهد : ألا تخاف أن يصطادك أحد وأنت في الطريق إليها ؟ قال الهدهد : يا نبي الله وكيف أخاف وأنا أحمل معي بسم الله الرحمن الرحيم ؟ .  
نعم إنها الصيانة والرعاية والتمنية . وكيف لا وأنت لا تستعين بأحد من ملوك الدنيا ، إنما تستعين بمالك الملك وملك الملوك ، وكأنك تقول :

أيدركنى ضيم وأنت ذخيرى وأظلم فى الدنيا وأنت نصيرى

إن اسم الله هكذا بلفظ الجلالة إذا ذكر وجلت القلوب لجلاله ، وخشعت الأصوات لقوته ، وعنت الوجوه لعظمته . وهو الله الذى إذا ذكر نزلت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين لجلاله ورحمته . قال تعالى فى مقام الهيبة والجلال : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾<sup>(٢)</sup> . وقال فى مقام الرحمة والطمأنينة : ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾<sup>(٣)</sup> . ألا تدرى أن من السبعة الذين يظلمهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع ؟ وأن هناك أعينا لا تمسها النار ، من تلك العيون عين بكت من خشية الله ؟ أو ما علمت أن يوسف الصديق عندما ضاقت به الدنيا وضربت سلسلة الشدائد حلقاتها حوله ، واحتدم الخطر وادهم الخطب ، عندما غلقت امرأة العزيز الأبواب وقد راودته عن نفسه ، وقالت له ﴿هيت لك﴾<sup>(٤)</sup> ، أى أقبل ، فماذا قال يوسف وقتها ؟ لم يصرخ ولم يولول كما أنه لم يضعف أمام نداء الشيطان ولم يستكن لرغبات النفس ولم يضعف أمام الشدة . إنما كل ما قاله : ﴿معاذ الله﴾<sup>(٥)</sup> ، فأعاده الله واستبقا الباب بعدما جاء الله بالفرج : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾<sup>(٦)</sup> . ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾<sup>(٧)</sup> .

ولفظ الجلالة ﴿الله﴾ علم على الذات الأعلى ، فلا معبود بحق إلا هو ولا يستغنى عن سواه إلا هو ولا يفتقر إليه جميع من عداه إلا هو ، إذ هو القائم بذاته . لذا فهذا العلم خاص بالله وحده ، لا يصح أن يسمى به غيره . وقد وصف الله ذاته فى البسملة بصفيتين : الرحمن والرحيم . وكما لا يصح أن يطلق اسم الله إلا على الذات الأقدس ، كذلك لا يصح أن يسمى بالرحمن غير الله . والرحمن هو مصدر الرحمة الذى يفيض على الأكوان رقة وعطفا ولطفا . فكيف يسمى غيره بالرحمن ؟ . إن مسيلمة لما سُمى نفسه رحمن اليمامة لقب بالكذاب ، وظل هذا اللقب ملازما له وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد اشتقت الرحم من الرحمن فهو مصدرها وأصلها والمفيض عليها من خير وبركاته . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : ( أنا

(٢) سورة الأنفال آية : ٢ .

(٤) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .

(١) سورة النمل آية : ٣٠ .

(٣) سورة الرعد آية : ٢٨ .

(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٧) سورة التغابن آية : ١١ .

الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته (١) .  
ومن الرحمن أكرم الله الرحماء . جاء في الحديث الشريف : ( الراحون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في  
الأرض يرحمكم من في السماء ) (٢) .  
وجاء في الحديث القدسي : ( إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي ) (٣) .

وجاء في الوعيد : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى . من لا يرحم لا يرحم » . ولما كان الرحمن أشد  
مبالغة في الرحمة ، فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، أى أن الرحمن عمت رحمته الكائنات كلها في الدنيا سواء  
في ذلك الطائع وغير الطائع ، فالكل يرزق وينشق الهواء ويستضيء الشمس ويشرب الماء وينعم بالنوم  
والراحة . قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم  
بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ (٤) .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل      الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا      لكنه خلق الإنسان من عجل

وإذن فالرحمن هو الذى عمت رحمته الكائنات كلها في الدنيا ، والرحيم هو الذى اختصت رحمته  
المؤمنين . قال جل شأنه : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ (٥) . وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى  
فقال : ﴿ والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ (٦) .  
وقال ﷺ : ( إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ) (٧) .

وإذا صح أن نصف الإنسان بأنه رحيم وكريم وسميع بصير ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا  
الإنسان من نقطة أمشاج نبئله فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (٨) ، فإنه لا يصح شرعاً ولا عقلاً بأن نصفه بأنه  
رحمن أو خالق أو رزاق ، لأنه لا يليق بأحد أن يسمى بهذه الأسماء إلا الله ، لذا جاء اسم الرحمن مقترناً بلفظ  
الجلالة فى آية الدعاء . قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (٩) .

ولما جهل المشركون اسم الرحمن وقالوا لا نعرف إلا رحمن اليمامة — يقصدون مسيلمة الكذاب — رد  
عليهم جل شأنه مبينا لهم عظمة الرحمن وحكى حالهم فى قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما  
الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ (١٠) ، رد الله عليهم بعد ذلك قائلاً : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢٦ ط دار الفكر .

(٤) سورة البقرة آية : ١٢٦ .

(٦) سورة الأعراف آية : ١٨٠ .

(٨) سورة الإنسان آية : ٢ .

(١٠) سورة الفرقان آية : ٦٠ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٦٥ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .

(٧) صحيح مسلم يشرح النووى ج ٥ ص ٥٣٥ ط الشعب .

(٩) سورة الإسراء آية : ١١٠ .

بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا \* وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿١﴾ .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

ما أجمل هذا الحديث الشريف الذى ذكر فيه الرسول ﷺ نعمة الحمد فقال : (الظهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، وكل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها) ﴿٢﴾ .

وللعلماء فى كلمة الحمد أقوال : فبينما يرى ابن جرير أن ﴿ الحمد ﴾ هو الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصىها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا ، و ﴿ الحمد لله ﴾ ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يشنوا عليه . فكأنه قال : قولوا الحمد لله ، ثم قال : وأهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر .

بينما يقرر ابن جرير هذا المعنى نرى ابن كثير يقول : هذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالحنان واللسان والأركان . ويقول الجوهري : والحمد أعم من الشكر ، والشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف .

وقد جاءت آية الحمد بعد البسملة لأن البسملة اشتملت على أعظم النعم وهى الرحمة ، فناسب ذلك أن يقدم الشكر لله على تلك النعمة . ومن أفضال الحمد أن الله تعالى جعله ذكرا يشيب عليه مع أن النعمة منه هو . قال موسى لربه : يا رب خلقت آدم بيديك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وتبت عليه بعدما أدخلته جنتك ، فكيف استطاع أن يؤدى شكر تلك النعم ؟ فقال له الله : يا موسى يكفيه أنه قال : الحمد لله .

وقد سمع أحد الصالحين رجلا يذكر الله فيقول : الحمد لله أستغفر الله . فسأله : لم تلتزم هذا الذكر ، فقال : أحمدته على نعمه التى أنعم بها علىّ وأستغفره لذنوب اقترفتها .

وقد سأل موسى ربه فقال : يا رب كيف أشكرك ؟ فقال له : يا موسى تذكرنى ولا تنساني إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى .

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٣٣٩ ط دار الفكر .

ثم قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (١) .

مر أحد الصالحين برجل يذكر الله فيقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فنظر إليه فإذا هو فاقد البصر وقد شلت إحدى يديه ورجليه فقال له : عجباً لك ! لم تردد هذا الذكر ؟ فقال له الرجل : عافاني مما ابتلى به كثيرا من خلقه : وهب لي لساناً يذكره وقلبا يشكره ، ثم أنشد :

حمدت الله ربى إذ هداني إلى الإسلام والدين الحنيف  
فبذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

والمراد بالألف واللام في الحمد الاستغراق لجميع أنواع الحمد كما جاء في الحديث : ( ... اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، ولك الخلق كله ، وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله ) (٢) .

والحمد لله لها أفضال يشيب الله قائلها ثواب الشاكرين . فمن أفضاها أنها خير الدعاء ، قال ﷺ : (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله) (٣) . وعنه ﷺ أنه قال : (ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله ، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ) (٤) .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم : (أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعصيت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله - وهو أعلم بما قال عبده - ماذا قال عبدي ؟ قالا : يا رب إنه قال : لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها) (٥) .

عن أبي أمامة رضى الله عنه قال : ( رأى النبي ﷺ وأنا أحرك شفتى ، فقال لى : بأى شيء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله . فقال : ألا أخبرك بشيء إذا قلته ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى ، قال : تقول الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شيء ، والحمد لله على كل شيء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك ) (٦) .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا عن رسول الله ﷺ قال : (من قال الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال حمدا يوافي نعمه ، ويكافئ مزيده ثلاث مرات ، فتقول الحفظة : ربنا

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١١ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٤٨٦ .

(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣٠٩ .

(١) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٨٨ .

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١٠ .

لا نحسن كنه ما قدسك عبدك هذا وحمدك ، وما ندري كيف نكتبه ؟ فيوحى الله إليهم أن يكتبوه كما قال عبدى<sup>(١)</sup> .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال أبى بن كعب : لأدخلن المسجد فلا أصلي ولا أحمدن الله بحامد لم يحمده بها أحد ، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه ، فإذا هو بصوت عالم من خلفه يقول : ( اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره . لك الحمد إنك على كل شيء قدير . اغفر لي ما مضى من ذنوبي ، واعصمني فيما بقى من عمري ، وارزقني أعمالا زاكية ترضى بها عني وتب علي . فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال : ذلك جبرائيل عليه السلام<sup>(٢)</sup> .

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شيء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شيء للملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شيء لقدرته ، فقاها يطلب بها ما عند الله كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة<sup>(٣)</sup> .

عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : ( قال رجل عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شيء يكرهه . فقال رسول الله ﷺ : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صوابا ، فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكا يتدرون كلمتك أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟<sup>(٤)</sup> .

عن على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ ( نزل عليه جبرائيل عليه السلام ، فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أو يوما فقل : اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك ، ولك الحمد حمدا لا ينتهى له دون مشيتك ، ولك الحمد حمدا لا آخر لقائله إلا رضاك<sup>(٥)</sup> .

﴿ رب العالمين ﴾ المراد بالرب هنا هو الله . والمقصود بالربوبية أنه تعالى هو المالك المتصرف فى خلقه الذى يربى عباده ويفيض عليهم من نعمه ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار<sup>(٦)</sup> .

والمالك المتصرف هو الذى يدبر الأمر وفقا لعلمه وإرادته وقدرته ، لا ينازعه أحد ولا يشرك فى حكمه أحدا إنه رب العالمين علا فقهر وبطن فخير وملك فقدر ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١٠ .

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١٠ .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١١ .

(٥) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ - ٣٤ .

(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣١٣ .

الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴿١﴾ . إنه تصرف الربوبية القادرة ﴿٢﴾ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴿٣﴾ لا تهب في هذا الكون نسمة هواء ولا تطرف طرفة عين ولا يحدث حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله ﴿٤﴾ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٥﴾ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴿٦﴾ .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا	وهذي الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما	وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا
فلوجن هذا الليل وامتد سرمدا .	فمن غير رب يرجع الصبح ثانيا
ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم	سوى الله يحريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت	أنى كونكم من يمسك الريح ناهيا

وتربية الله للناس نوعان : تربية خلقية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد وتنمية قواهم النفسية والعقلية ، وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفراد منهم ليلبغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم ، وليس لغيره أن يشرع للناس عبادة ولا أن يحل شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه في موله عزيز مصر ﴿٧﴾ إنه ربى أحسن مثواي ﴿٨﴾ ، وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشي : أما الإبل فانا ربها ، وأما البيت فإن له ربا يحميه .

﴿العالمين﴾ ومفردها عالم ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متميزة لأفرادها صفات تقر بها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هي التي يظهر فيها معنى التربية الذي يفيد لفظ ﴿رب﴾ إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

إن كل ثناء جميل هو لله تعالى ، إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذى يسوس العالمين ويربهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى والشكر على ما أولى .

إنما سميت هذه الكائنات بالعالمين لأنها علم ودلالة قاطعة على وجود الخالق ، فإن الأثر يدل على المسير : سماوات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج . كل هذه عوالم . ألا يدل كل هذا على وحدانية العليم الخبير ؟

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٧ .

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٩ .

(١) سورة آل عمران آية : ٣٦ .

(٣) سورة هود آية : ١٣٣ .

(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .

## ﴿ الرحمن الرحيم ﴾

صفتان كريمتان من صفات الباري تبارك اسمه . فالرحمن هو المفيض النعم على جميع خلقه ، والذي عمت رحمته الدنيا وما فيها حتى إن الفرس لترفع رجلها عن ولدها خشية أن تصيبه ، من هذا الجزء من رحمة الله الذي جعله في الدنيا . وهو سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الأم بولدها ، ومن ثم فإن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل النائم إلى أحضان أمه ﴿ ورحمته وسعت كل شيء ﴾<sup>(١)</sup> .

ومن دعاء عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه : إلهي إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغني . فأنت القائل ﴿ ورحمته وسعت كل شيء ﴾<sup>(٢)</sup> ، وأنا شيء فلتسعن رحمتك .

هذا دعاء كان يقوله عمر الذي كان يخاف من الله خوف من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده . سبحانه يا رب العالمين : شعاع من رضاك يطفى غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا .

إن صفة الرحمة وسعت الكون كله . دخل أعرابي على رسول الله ﷺ فدعا الله قائلاً : اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فالتفت إليه النبي ﷺ فقال : (لقد تجبرت واسعا)<sup>(٣)</sup> .

و ﴿ الرحيم ﴾ : هو المتصف بالرحمة الدائمة التي تخص المؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾<sup>(٤)</sup> . وإنما ذكر هاتين الصفتين الكريمتين مرة أخرى بعدما أثبتتهما في البسملة ليجيب عن سؤال قد يختلج في النفوس . فقد يقول سائل : لماذا ربّاهم ؟ ألعلة أم حاجة ؟ فجاء الجواب : إنما ربّاهم بدافع رحمته ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾<sup>(٥)</sup> . لا لعلة ولا حاجة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿<sup>(٦)</sup> .

وقد تكون الصلة بين الآيتين ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الرحمن الرحيم ﴿ صلة اقتران الوعد بالوعد والترغيب بالترهيب . فرب العالمين هو السيد المالك المتصرف : نلمح في هذا المعنى أن السيد المتصرف الذي ينسوس خلقه ويربيهم من صفاته أن يجمع بين الوعد والوعيد كما في قوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾<sup>(٧)</sup> وفي قوله جل ذكره : ﴿ نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم ﴾ وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴿<sup>(٨)</sup> .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .

(٦) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٨) سورة الحجر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

(١) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

(٣) الأدب المفرد للبخارى ج ٢ ص ٨٥ ط السلفية .

(٥) سورة النور آية : ٢١ .

(٧) سورة المائدة آية : ٩٨ .



وقد ثنى الله الوعد بالوعيد ليقف المؤمن بين نور الوعد ونيران الوعيد طامعا في رحمة الله حذرا من عقابه حتى قال بعض الصالحين يناجى ربه :

إذا كنت ذا بطش أليم وشدة  
وإن كنت بالنيران أوعدت من عصي  
فعلنا خطايانا وسترك مسبل  
إذا نحن لم نخطيء وتعفو تكرما  
فمن وصفك بالإحسان والبر واللطف  
فوعدك بالغفران ليس له خلف  
وليس لشيء أنت ساتره كشف  
فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

### ﴿مالك يوم الدين﴾

صلة هذه الآية بما قبلها هي صلة الوعد بالوعيد ، ف﴿الرحمن الرحيم﴾ وعد يشرق بنوره على قلوب عباده ليندد غياهب ظلمات اليأس . و﴿مالك يوم الدين﴾ ، وعيد يرسل الإنذارات الشديدة إلى النفوس المارقة لتعود إلى ساحة الرضوان : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ . وبين الوعد والوعيد تدور أساسيات التربية . قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

فعلى كل الذين يعنون بشئون التربية أن يراعوا هذين الجانبين لتكتمل الوسائل وتستقيم السبل . وقد أصاب الصادق المعصوم كبد الحقيقة عندما قال : ( لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد )<sup>(١)</sup> .

وفي مالك يوم الدين قراءتان ﴿مالك﴾ و﴿ملك﴾ فالملك يملك وقد لا يحكم ، والملك يحكم وقد لا يملك . هذا بالنسبة للعباد . أما الذى يملك ويحكم فهو الله وحده ، فهو المالك الملك . وقد ورد في القرآن الكريم ما يفسر ذلك . يقول الله المالك الملك : ﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾<sup>(٢)</sup> ويقول : ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾<sup>(٣)</sup> . قال الصادق المعصوم : ( يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض )<sup>(٤)</sup> . وفي رواية أخرى لمسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ( يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ؟ )<sup>(٥)</sup> .

و﴿الدين﴾ هو الجزاء ، وإنما جعل للجزاء يوما ليعلم البشرية جمعاء أن الدنيا ليست هي النهاية . فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء وما الجيل في زمان إلا لبنة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . قال ﷺ : ( كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ) . والدنيا نحن

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٢٩ ط دار الفكر . (٢) سورة مريم آية : ٤٠ .

(٣) سورة الفرقان آية : ٢٦ . (٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .

فيها عارية مسافرون ، ولا بد للعارية أن تردّ كما لا بد للمسافر أن يرتحل . وما نحن في هذه الدنيا إلا كراكب استظل بظل شجرة ما يلبث أن يغادرها . والحياة ألم يخفيه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرئ بما فعل .

ولما قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وهو جل جلاله مالك كل شيء ليبعث المهابة في القلوب لهذا اليوم من باب قوله جل شأنه : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ (١) .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . فقال له : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وافطر على الموت وأعدّ الزاد الليلة صباحها يوم القيامة .

اعلم يا أخى أن هناك محكمة قاضيتها عالم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسوف يسأل فيها كل امرئ عن شبابه فيم أبلاه ، وعمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا صنع فيه . إن قلت يارب : لم لم ترسل إلى إنذاراً بحضور الجلسة ، فسوف يقال لك : لقد كنت تقرأ الإنذار كل يوم سبع عشرة مرة . ألم تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فهذا هو يوم الدين والله مالكة . فإن قلت يارب من الذى أوصلى الإنذار ؟ فسوف يقال لك : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ (٢) . فإن قلت يارب : دعنى حتى أحضر الشهود فسوف يقال لك : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٣) . فإن قلت يارب : دعنى حتى أوكّل محامياً للدفاع عنى . فسوف يقال لك : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (٤) . فإن قلت يارب : أتقبل منى فدية مالية أو شخصية ؟ فسوف يقال لك : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٥) . يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٦) . . فإن قلت يارب سأستأنف الحكم . فسوف يقال لك : ﴿ ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (٧) .

ثم ماذا بعد هذا ؟

الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

(٢) سورة التوبة آية : ١٢٨ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١٤ .

(٦) سورة لقمان آية : ٣٣ .

(١) سورة الرحمن آية : ٣١ .

(٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .

(٥) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

(٧) سورة ق آية : ٢٩ .

إن محكمة العدل الإلهية الكبرى لا تقبل أحكامها النقض . ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد ﴾ \* وأزلقت الجنة للمتقين غير بعيد ﴿ (١) .

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ناسب ذلك أنه لا معبود سواه ولا يستعان إلا به . فمن الحقيق بالعبادة إلا المالك ؟ ومن الجدير بطلب العون إلا هو ؟ . فبين الآيتين تمام ارتباط واتصال ، وفيهما التفات من الغيبة إلى الخطاب ، فإن العبادة وطلب العون ثناء على الله بما هو أهله فناسب ذلك أسلوب الخطاب في ﴿ إياك ﴾ ﴿ وإياك ﴾ . والضمير هنا نصب على المفعولية والكاف حرف خطاب وإنما قدم الضمير على الفعل لإفادة الاختصاص بمعنى أنه لا معبود إلا أنت ولا يستعان بأحد إلا بك . وفي هذا التقديم ما يفيد توحيد الإلهية ، وهو اختصاص الله تعالى بالعبادة وطلب العون منه . وقد كان أهل الجاهلية يقرّون الله بالربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ (٢) . ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾ (٣) . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض آمن بملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ (٤) . ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ (٥) .

فهذه الآيات كلها تدل دلالة قاطعة على أنهم آمنوا بالله رباً ولكنهم أشركوا به إلهاً وقالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٦) فأشركوا في عبادته غيره . ومن ثم جاءت العبادة الصحيحة بما لها من أهمية لتنفذ الإنسانية من أرجاس الشرك . قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ \* حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين ﴾ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ (٨) .

إذن فلا بد من توحيد الإلهية مقترناً بتوحيد الربوبية ، وإنما يكون توحيد الإلهية خالصاً لله ، بإخلاص العبادة له : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ (٩) . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (١٠) . فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صواباً خالصاً ، ومعنى كونه صواباً أي على وفق ما شرع الله ، وإخلاصه ، بعده عن شوائب الشرك . وقد شمل الوعيد قوما اعترفوا لله بالربوبية ، ولكنهم أشركوا في إلهيته . وفيهم يقول جل ذكره : ﴿ وما يؤمن أكثرهم

(٢) سورة الزخرف آية : ٨٧ .

(٤) سورة يونس آية : ٣١ .

(٦) سورة الزمر آية : ٣ .

(٨) سورة الحج الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

(١٠) سورة الكهف آية : ١١٠ .

(١) سورة ق الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ٦١ .

(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٣ .

(٧) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٩) سورة النحل آية : ١٢٠ .

بالله إلا وهم مشركون ﴿١﴾ ، فهؤلاء آمنوا بالله رباً وأشركوا به إلهاً . قال الله تعالى : ﴿ ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ ﴿٢﴾ .

وقد أوعد الله هؤلاء وعيداً شديداً ، وبعد الوعيد أرشد العباد إلى طريق الرشاد . قال في الوعيد : ﴿ أفامنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ ﴿٣﴾ . ثم قال في الإرشاد : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ ﴿٤﴾ .

ولما للعبادة من أهمية قصوى جعلها الله غاية للخلق في قوله جل شأنه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ﴿٥﴾ ، وهذه الأهمية قدمت العبادة على الاستعانة في قوله جل شأنه : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبادة هي الغاية ، والاستعانة بالله مظهر من مظاهرها ، وإنما عبر بنون الجمع ﴿ نعبد ﴾ ﴿ نستعين ﴾ هكذا ، لأن الإسلام هو دين الجماعة التي لا تجحد حق الأفراد ، ومصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد ، وفي نفس الوقت فإن حق الفرد مقدس لا يجوز المساس به .

وكان أمير المؤمنين عمر الفاروق يقول : لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها : لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ .

فما هي حقيقة العبادة والاستعانة حتى نكون على معرفة بأخص خصائص إسلامنا ؟ .

العبادة لغة : مأخوذة من الذلة ، يقال طريق معبد ، وبغير معبد أى مذلل .

العبادة شرعاً : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره ، أو يرقى إليه إدراكه ، فمن يتذلل للملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما لخوف من جوره وظلمه وإما رجاء كرمه وجوده . .

صور العبادة : ليست العبادة أمراً مقصوراً على الصلاة مثلاً كما قد يتبادر إلى الذهن إنما العبادة لها صور وأشكال ، فمنها : العبادة القولية والقلبية والعملية والمالية والبدنية .

فالقولية : كذكر الله تعالى والاستغفار والدعاء قال ﷺ .  
( ... خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله ... ) ﴿٦﴾ . وكان يقول لأصحابه :  
( جددوا إيمانكم . قالوا : وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله ) ﴿٧﴾ .

(٢) سورة الزمر آية : ٣ .

(٤) سورة يوسف آية : ١٠٨ .

(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٩٣ .

(١) سورة يوسف آية : ١٠٦ .

(٣) سورة يوسف آية : ١٠٧ .

(٥) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٨٩ .

قال الله تعالى على لسان نوح : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ \* يرسل السماء عليكم مدرارا \* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴿ (١) . ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

وأما الدعاء فقد قال الله في شأنه : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (٢) . قال رسول الله ﷺ : ( الدعاء مخ العبادة ) (٣) . وقال ﷺ : ( إذا سألت الله تعالى فاسأله الفردوس ، فإنه سرور الجنة ) (٤) . وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (٥) . وما من سؤال وجه إلى النبي ﷺ - كما ورد في القرآن الكريم - إلا قال الله له : قل . إلا آية الدعاء ، قال تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾ (٦) الآية . وقال جل شأنه : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ (٧) . وقال سبحانه : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ (٨) الآية . وقال : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾ (٩) . وقال : ﴿ يسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ (١١) . وقال : ﴿ يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ﴾ (١٢) .

فأنت ترى في هذه الآيات كلها أن الله لقّن نبيه الإجابة بقوله : قل . أما في آية الدعاء : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ (١٣) فإن الإجابة جاءت فيها مقترنة بالسؤال دون ذكر قل حتى لا يكون بين العبد وربّه واسطة في الدعاء وذلك لأن الدعاء عبادة والعبادة يجب أن تكون مباشرة لله دون واسطة . فهذه لمحة لطيفة تفيدنا في باب العبادة .

أما العبادة القلبية : فتتمثل في النية الصادقة والتوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضا واليقين والتوكل .

أما العبادة العملية : فالصلاة والصيام والحج .

أما العبادة المالية : فالزكاة والكفارات والנדور . .

أما العبادة البدنية : فالجهاد في سبيل إعلاء كلمة التوحيد .

- |   |  |
|---|--|
| (٢) سورة غافراًية : ٦٠ .                          | (١) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .                  |
| (٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ١٠٢ ط دار الفكر . | (٣) الترغيب والترهيب للمحافظ المنذرى ج ٢ ص ٣٤١ . |
| (٦) سورة البقرة آية : ٢١٥ .                       | (٥) سورة البقرة آية : ١٨٦ .                      |
| (٨) سورة البقرة آية : ٢١٩ .                       | (٧) سورة البقرة آية : ٢١٧ .                      |
| (١٠) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .                      | (٩) سورة البقرة آية : ٢٢٠ .                      |
| (١٢) سورة طه آية : ١٠٥ .                          | (١١) سورة الأحزاب آية : ٦٣ .                     |
|   | (١٣) سورة البقرة آية : ١٨٦ .                     |

وفي هذه الصور من العبادات مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، لكننا مركزنا عناصرها الأساسية وعنصرنا مراكزها الأصلية بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير ، فمن أراد أن يستزيد فليرجع إليها في مظانها ليوقف على حقائق الأسرار ويسلك مدارج الأنوار ويعيش في مقعد صدق عند ملك مقتدر .

أما الاستعانة : فهي طلب العون ، إذ السين والتاء يدلان على الطلب وهي في الشرع تفويض الأمر إلى الله بعد الأخذ بالأسباب . قال تعالى : ﴿ أفأرىتم ما تخرجون \* أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ (١) . فعلى العبد أن يحرق الأرض ويذر فيها الحب والله هو الذي ينبت الحب . ولذا بلغ من صفاء التوحيد عند ابن عباس أنه قال : من قال لولا الكلب لدخل اللص فقد أشرك . ويقاس عليه قول الناس : لولا الطبيب ما شفيت ، ولتصحح العقيدة يقول القائل : لولا أن الله سخر الكلب لدخل اللص . ولولا أن الله سخر الطبيب ما شفيت ، وذلك حتى تستقيم العقيدة لصاحبها فلا يخلط بين الخالق ومخلوقاته . قال تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض . وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٢) . وقد جاء في الحكمة : « على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد » . وقال قائلهم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده

نسأل الله أن يرزقنا العبادة الخالصة والاستعانة الصادقة . فيا أخى إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

لما ذكرت الآية السابقة العبادة والاستعانة وأنها يجب أن يكونا خالصين لله ، ناسب ذلك أن يأتي بآية الدعاء بعد العبادة والاستعانة ، فقال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . فالدعاء مخ العبادة ، وطلب الهداية من الله إنما هو استعانة به سبحانه أن يوفق إليها ، فكان بين الآيتين تمام ارتباط . والصراط هو الطريق ، والمستقيم هو الذى لا اعوجاج فيه ، أو كما يقولون : هو أقرب صلة بين نقطتين . وقد يطلق الصراط ويراد به الإسلام كما في قوله ﷺ : ( ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط . فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتح فإنك إن تفتحته تلجه . فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله ، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم ) (٣) .

وقال مجاهد : الصراط المستقيم هو الحق ، وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم . وقال ابن جرير في هذه الآية : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا للشبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من

(٢) سورة هود آية : ١٢٣ .

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى والبيهقى والحاكم : الدر المنثور للسيوطى ج ١ ص ١٥ .

عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وُفِّقَ لما وفق له من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام .

والمراد بالهداية قد يكون معنى خلق قدرة الطاعة في العبد وهي هداية خاصة لا يقدر عليها إلا الله ، وفيها يقول جل شأنه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١) . ولا يحسب أحد أن هذه الآية تسلب العبد كسبه واختياره ، لأن مشيئة الله ليست عبثا إنما تقوم على الحكمة والعلم والإرادة والقدرة ، ومن ثم فقد جاء ختام الآية ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ فالله سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون . والعلم صفة انكشاف وليس صفة إلزام ، وعلى وجه المثال فهو كالمرأة إذا نظرت إليها بوجه مبتسم بدت صورتك مبتسمة فإذا نظرت فيها عابس الوجه بدت صورتك كذلك . وما أجمل قوله ﷺ : ( مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم ، فكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ، وكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله ) .

وعلم الله مبنى على حكمته وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل تلك الحكمة ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَبَايَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (٢) . ومن ثم فقد بين الله أن الهداية تأتي بمعنى الإرشاد ، فهو سبحانه يرشد ويبين ويزود الإنسان بالوسائل التي تمكنه من سلوك الطريق القويم . قال تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةِ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ \* إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴿ (٣) .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ \* ولسانا وشفقتين ﴿ (٤) . ثم بين وظيفة العقل لأنها الأهم من ذكره ، فلم يقل ووهبنا له عقلا ، إنما قال : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النُّجْدَيْنِ ﴾ (٥) . وقال سبحانه : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ \* فألهمها فجورها وتقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ﴿ (٦) .

والإلهام نوع من أنواع الهدايات ، وكيف يكون هناك جبر أو سلب لكسب العبد واختياره وقد قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (٧) . وكيف يكون هناك قهر للعبد وقد قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ \* وصدق بالحسنى \* فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى ﴿ (٨) .

(١) سورة القصص آية : ٥٦ .

(٣) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٥) سورة البلد آية : ١٠ .

(٧) سورة فصلت آية : ١٧ .

(٢) سورة الفتح آية : ١٨ .

(٤) سورة البلد الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٦) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠ .

(٨) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

لقد قال جل شأنه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(٢)</sup> . . وقال عظمت حكمته : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾<sup>(٣)</sup> . فأنت ترى أن الذين لا يهديهم الله هم الذين اختاروا لأنفسهم طريق الفسق والظلم والضلال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾<sup>(٤)</sup> . ألم تسمع إلى قوله جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ \* ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون<sup>(٥)</sup> .

ومن نعم الله علينا أنه هدانا ولطف بنا ، ويتمثل لطفه في ثلاثة جوانب : فقد خلق لنا عقلا وأرسل إلينا رسلا وأنزل إلينا كتباً ، وهو قبل ذلك وبعد ذلك يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات فلا يلومن الظالمون إلا أنفسهم . قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

للهداية إطلاقات أخرى غير ما سبق ، فكما أنها قد يراد بها خلق فطرة الطاعة في العبد ، كذلك يراد بها الإرشاد والبيان كما في قوله تعالى ، يخاطب رسوله : ﴿ . . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ \* صراط الله . . . ﴿<sup>(٧)</sup> ويراد بها الهداية الفطرية أو الإلهام كهداية الرضيع إلى ثدي أمه . ويراد بها الهداية الحسية كهداية الإنسان إلى أن يستعمل أعضائه في وظائفها الخاصة : فالعين للإبصار واللسان للذوق والأذن للسمع . . . الخ . ويراد بها الهداية العقلية وهي وظيفة العقل في التمييز بين ما يضر وينفع . . ويراد بها الهداية الدينية وذلك عن طريق الشرائع السماوية ومعنى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا وأعنا على سلوكه . ولسائل أن يقول : كيف يطلب العبد من ربه الهداية في الصلاة ، والصلاة في ذاتها هداية ؟ ونقول : إن المراد بطلب الهداية من المؤمن لربه أن يوفقه للثبات عليها . فقد كان من دعاء الصادق المعصوم عليه السلام : ( يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ) . ومن دعائه : ( يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ) . أو ما قرأت قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾<sup>(٨)</sup> فامرهم بالإيمان وخاطبهم بصفة الإيمان ، أى اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله .

(٢) سورة الصف آية : ٥ .  
(٤) سورة النحل آية : ١٠٤ .  
(٦) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .  
(٨) سورة النساء آية : ١٣٦ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦ .  
(٣) سورة الصف آية : ٧ .  
(٥) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ ، ١٧٦ .  
(٧) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .



## ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

قوله تعالى ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ : فالصراط هو نفس الصراط السابق ، ولذا فإن الارتباط بينهما غنى عن البيان ، وقد نصب الصراط الثانى على البدلية مما قبله . ولقد جاءت هذه الآية كأنها جواب عن سؤال مقدر . فكأن سائلا قال : ما هو الصراط المستقيم ؟ فجاء الجواب : صراط الذين أنعمت عليهم ، أى تفضلت عليهم بطاعتك ورحمتك ورضوانك . وقد فصلت سورة النساء ما أجملته سورة الفاتحة ، وخير ما تفسر به القرآن ، القرآن نفسه .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴿ (١) . وفى تلك الآية دلالة قاطعة على أن عقيدة الأنبياء واحدة وهى التوحيد . فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . وكل الأنبياء مسلمون . قال نوح لقومه : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ (٢) . وجاء فى شأن إبراهيم : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) . وجاء فى شأن موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ (٤) . وفى شأن يوسف : ﴿ سوفى مسلما وحققى بالصالحين ﴾ (٥) . وفى شأن عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون ﴾ (٦) . وفى شأن سليمان : ﴿ ألا تعلوا على وأتوا مسلمين ﴾ (٧) . وفى حق أمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (٨) . وفى حق النبيين : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ (٩) . وفى حق البشرية جمعاء : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (١٠) .

ثم بعد ذلك ، وبعد ذكر الذين أنعم الله عليهم احتراز عن فرق الضلال والهوى فقال : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . والمغضوب عليهم قوم عرفوا الحق كما يعرفون أبناءهم ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم ولم يقبلوه ، واليهود على رأس هؤلاء الذين استحقوا غضب الله . لما دخل عبد الله بن سلام الإسلام - وكان من أحبار اليهود - قال يارسول الله : سل اليهود عنى قبل أن أعلن إسلامى . فسألهم الرسول عنه قالوا : يا محمد هو سيدنا وابن سيدنا . قال عبد الله بن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال اليهود : يا محمد هو سفيهننا وابن سفيهننا .

أما الضالون فهم الذين لم يعرفوا الحق ولم يبحثوا عنه فضلوا وحاروا . قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء

- |                               |                                     |
|-------------------------------|-------------------------------------|
| (٢) سورة يونس آية : ٧٢ .      | (١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ . |
| (٤) سورة يونس آية : ٨٤ .      | (٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .         |
| (٦) سورة المائدة آية : ١١١ .  | (٥) سورة يوسف آية : ١٠١ .           |
| (٨) سورة المائدة آية : ٣ .    | (٧) سورة النمل آية : ٣١ .           |
| (١٠) سورة آل عمران آية : ٨٥ . | (٩) سورة المائدة آية : ٤٤ .         |

قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴿١﴾ وعلى رأس هؤلاء : النصارى . قال عدى ابن حاتم سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال : هم اليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ قال : النصارى .

آمين : اسم فعل أمر بمعنى استجب . روى في الأثر أن النبي ﷺ قال : ( لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة الفاتحة وقال : إنه كالحتم على الكتاب ) ، وأوضح ذلك على كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده - يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المختوم والتصرف فيه ، يمنع الخيبة عن دعاء العبد .

قال جبريل عند نزوله بفاتحة الكتاب : يا محمد ما زلت خائفا على أمتك حتى نزلت بفاتحة الكتاب فأمنت بها عليهم .

## (٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَكِّيَّةٌ وَأَنبَأَهَا سَبْعُ وَثَمَانُونَ وَمِائَتَانِ

عدد آياتها : مائتان وست وثمانون آية . وهي أول سورة نزلت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .  
عدد كلماتها : ستة آلاف كلمة ، ومائة وإحدى وعشرون كلمة .

أسمائها : أربعة : الأول « البقرة » ، إحياء لذكرى تلك المعجزة الباهرة التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله وينجبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت .

الثاني : « سورة الكرسي » لاشتمالها على آية الكرسي التي هي أعظم آيات القرآن .

الثالث : « سنام القرآن » لقوله ﷺ : ( إن لكل شيء سناماً وسنام القرآن سورة البقرة . . . )<sup>(١)</sup> .

الرابع : « الزهراء » لقوله ﷺ : ( اقرأوا الزهراوين<sup>(٢)</sup> البقرة وآل عمران )<sup>(٣)</sup> .

مقاصد هذه السورة الكريمة : اشتملت على معظم الأحكام التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية سواء في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وأمور الزواج والطلاق والعدة و . . . .

فتناولت الآيات الحديث عن صفات المؤمنين ومدحهم ، وذم الكفار والمنافقين ، والرد على منكرى النبوة ، وقصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري ثم تناولت السورة الحديث عن اليهود بالإسهاب لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم وما تنطوى عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، وإلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبتها هؤلاء المفسدون مما يوضح عظيم خطرهم وكبير ضررهم . فتناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة بدءاً من قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾<sup>(٤)</sup> ، فشمل ذلك ملامة علماء اليهود ، وقصة موسى واستسقائه ومواعדתه ربه ومنته على بني إسرائيل وشكواهم منهم ، وحديث البقرة وقصة سليمان وهاروت وماروت والسحرة . ثم انتقل إلى الرد على النصارى وابتلاء إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة ، ووصية يعقوب لأولاده ، وتحويل القبلة ، وبيان الصبر على المصيبة وثوابه ، ووجوب

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢١٠ . (٢) الزهراوين أى المنيرين .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢١٠ . (٤) سورة البقرة آية : ٤٠ .

السعى بين الصفا والمروة ، وبيان حجة التوحيد وطلب الحلال ، وإباحة الميتة حال الضرورة وحكم القصاص والأمر بصيام رمضان ، والأمر باجتنب الحرام ، والأمر بقتال الكفار ، والأمر بالحج والعمرة ، وتعديد النعم على بنى إسرائيل وحكم القتال في الأشهر الحرم ، والسؤال عن الخمر والميسر ومال الأيتام والحيف ، والطلاق والمناكحات وذكر العدة والمحافظة على الصلوات ، وذكر الصدقات والنفقات ، وملك طالوت وقتل جالوت ، ومناظرة الخليل ، عليه السلام غرود ، وإحياء الموتى بدعاء إبراهيم ، وحكم الإخلاص في النفقة ، وتحريم الربا وبيان المداينات ، وتخصيص الرسول ﷺ ليلة المعراج بالإيمان حيث قال : ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى آخر السورة حيث ختمت بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة .

فضل السورة :

عن أبي أمامة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة<sup>(١)</sup> )<sup>(٢)</sup> .

وقال ﷺ : ( .. إن الشيطان لا يدخل بيتنا يقرأ فيه سورة البقرة )<sup>(٣)</sup> .

وعن عكرمة قال : « أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة من قرأها في بيته نهرا لم يدخل بيته شيطان ثلاثة أيام . ومن قرأها في بيته ليلا لم يدخله شيطان ثلاث ليال »<sup>(٤)</sup> .

وروى أن من قرأها كان له بكل حرف أجر مرابط في سبيل الله .

وعن أبي مسعود قال : كنا نعد من يقرأ سورة البقرة من الفحول .

وقد أمر رسول الله ﷺ ( فتى على جماعة من شيوخ الصحابة كان يحسن سورة البقرة )<sup>(٥)</sup> . وقال ﷺ : ( اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنها يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما )<sup>(٦)</sup> .

وعنه ﷺ أنه قال : ( يا على من قرأ سورة البقرة لا تنقطع عنه الرحمة مادام حيا ، وجعل الله البركة في ماله ، فإن في تعلمها ألف بركة وفي قراءتها عشرة آلاف بركة ولا يتعاهدها إلا مؤمن من أهل الجنة ، وله بكل آية قرأها ثواب شيث بن آدم عليها السلام ، فمن مات من يوم قرأها إلى مائة يوم مات شهيدا ) .

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول ( يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران )<sup>(٧)</sup> .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا . واستخرجت ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ من تحت العرش فوصلت بها ، أو

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢١٠ .

(٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٣ .

(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢١٠ .

(١) البطلة . السحرة .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢١٠ .

(٥) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٣٢ .

(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٦١ .

فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيق من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته (٢) .

وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه أنه قال : ( يارسول الله بيننا أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى فظننت أن فرسى انطلق ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ أبا عتيك ، فالتفت فإذا مثل المصباح مدلى بين السماء والأرض ، ورسول الله ﷺ يقول : اقرأ أبا عتيك ، فقال : يا رسول الله فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب (٣) .

وعن أبي ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزته الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنها صلاة وقرآن ودعاء (٤) .

### بين الفاتحة والبقرة

جاءت سورة البقرة بمثابة التفصيل لما أجملته سورة الفاتحة ، فكانت سورة الفاتحة كأنها البذرة الطيبة التى جمعت كل العناصر والمبادئ الإسلامية الرفيعة ، غرست هذه البذرة فى أرض طيبة علوية المكانة فأنبثت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تلك الشجرة هى سورة البقرة . ولتوضيح ما ذكرنا نقول : اشتملت سورة الفاتحة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادئ الأحكام وقواعد النظام . وجاءت سورة البقرة ففصلت القول فى تلك القضايا تفصيلا لا لبس فيه ولا غموض . ففى أصول العقائد ذكرت أول ما ذكرت ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : المؤمنة التقية وصفاتها : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ الذين يؤمنون بالغيب وقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون \* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون \* أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴿ .

والفرقة الثانية : كافرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

والفرقة الثالثة : فرقة النفاق ، وفيهم يقول البارى جل ذكره : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

وكان هذه الفرق جميعا دارت حول أنواع القلوب . فالقلوب ثلاثة : قلب سليم وقلب ميت وقلب مريض . فالقلب السليم هو القلب المؤمن وأصحابه يمثلون الفريق الأول فى سورة البقرة ، والقلب الثانى

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٥٩ . (٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٥٨ .  
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٦١ . (٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٢٦٢ .

وهو الميت أصحابه يمثلون الفريق الثاني فريق الكافرين ، والقلب الثالث وهو المريض وأصحابه يمثلون الفريق الثالث وهم أهل النفاق . وقد يكون مرض القلوب مرض شبهة وهو النفاق ، وقد يكون مرض شهوة كما في قوله تعالى : ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ . وفي مجال العقيدة أيضا وجه الواحد الديان بيانا إلى البشرية جمعاء أن يفردوه وحده بالعبادة فقال : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ . ثم أقام الأدلة الباصرة الناطقة بلسان الحال والمقال والشاهدة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين على وحدانيته فقال : ﴿ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت العقائد إجمالا فإن سورة البقرة قد فصلتها في خطوط عريضة ، فذكرت الإلهية بأخص الخصائص وهو التوحيد وحقيقته أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، ثم أردفت ذلك بذكر الجانب الثاني من العقائد وهو النبوة قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

ثم ذكرت الجانب الثالث من العقائد وهو البعث والجزاء . فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت هذا الجانب في قوله جل شأنه : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، والمقصود بالدين هو الجزاء ، فإن سورة البقرة قد فصلت هذا الجزاء في قوله تعالى شأنه : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . ثم ختمت هذا الجزء من العقائد ببيان أركان الإيمان في قوله تبارك اسمه : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وفي جانب العبادة جاء في سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد ﴾ هكذا بذلك الأسلوب الموجز المبني ، العظيم المعنى . وجاءت سورة البقرة تبين لنا أركان العبادة من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد . وفي البقرة آية فذة تعتبر مركز الدائرة الذي تدور حوله آياتها وتحيط به إحاطة بديعة رائعة هي آية البر التي جمعت العقيدة والعبادة والسلوك . اقرأها وتأملها كثيرا وارجع البصر فيها كرتين . إن تلك الآية التي توسطت سماء العلا هي قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . وفي قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . كذلك قوله جل شأنه : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . كل هذه الآيات تعطينا إشارة قوية الدلالة على ما في الصلاة من أهمية في الإسلام ، فهي الركن الأول بعد الشهادتين ، وهي أول ما يحاسب عنه

العبد يوم القيامة ، وهى مفتاح باب الجنة ، ويكفى فى ذلك قوله جل شأنه : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون .

وكما فصلت سورة البقرة الركن الأول من العبادات ، وهو الصلاة ، كذلك فصلت الركن الثانى وهو الزكاة ، وترى ذلك على امتداد آيات واضحات مشرقا كما فى قوله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كممثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ .

ويستمر الزحف المقدس وتحرك المسيرة المباركة فى آيات الزكاة إلى أن يصل إلى قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . وحيث تؤدى الزكاة فلا ربا حيث لا تجتمع الزكاة والربا فى مجتمع واحد ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ يحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ . وجاء الوعيد لأكلة الربا كالرعود القواصف والرياح العواصف : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله .

وحيث حارب الإسلام الربا فى كل مواقعه فإنه أجاز الدين ومنح الدائن أجرا عظيما . وحيث أجاز الدين فقد أجاز الرهن للاستيثاق من أداء الدين فقال : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ﴾ .

كذلك فصلت سورة البقرة فى جانب العبادات فريضة الصيام من أول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ أياما معدودات ﴿ إلى قوله جل شأنه : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ .

كذلك فصلت فريضة الحج تفصيلا جليلا من أول قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ إلى قوله تبارك اسمه : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ .

أما عن الجهاد فحدث عنه ولا حرج ، ففيه جاءت مبادئ الأحكام ثابتة الأركان فى كل زمان ومكان ، فمن تلك المبادئ الجهادية قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ . ومن تلك المبادئ قوله تبارك وتعالى : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ .

وفى سورة البقرة جاءت أحكام بينها الله لنا تنير لنا الطريق إلى رضاه : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ . ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ . ﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ . ﴿ يسألونك عن المحيض ﴾ .

وما فصلته سورة البقرة مناهج السلوك . فقد أجملته سورة الفاتحة بإشارة لطيفة فى قوله جل شأنه : ﴿ اهتدوا الصراط المستقيم ﴾ ، وهل الصراط المستقيم إلا النهج القويم والخلق العظيم والسلوك المستقيم . ولقد بسطت سورة البقرة القول فى هذا المقام بسطا يفيض جلالا وجمالا وكمالا ويشع نورا وضياء وبهاء . ترى تفصيل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ . وهل التقوى إلا الخوف من

الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . . . وفي قوله جل شأنه : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ وهل الإيمان بالغيب إلا تأديب للنفس بحيث تعلم أن الله رقيب عليها في سرها وعلنها . ثم بعد ذلك اقرأ في مناهج السلوك : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ .

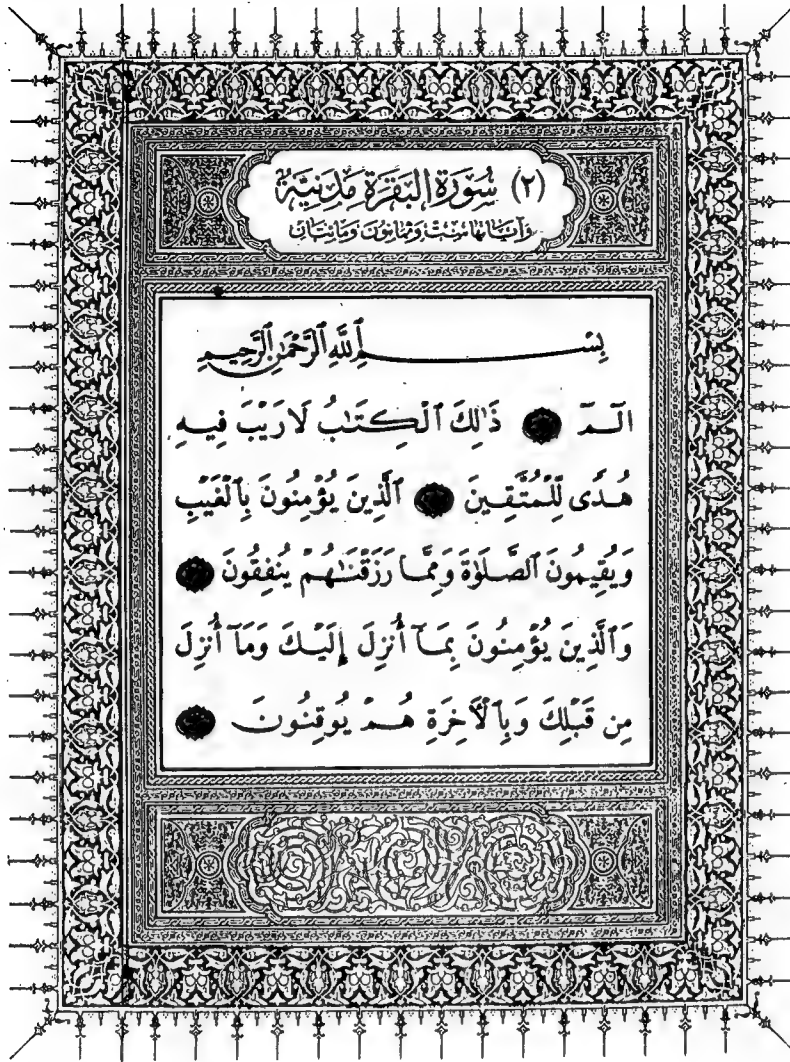
وعن العمل الصالح حدث ولا حرج :

إن المكارم أخلاق مطهرة	الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها	والجود خامسها والفضل سادها
والبر سابعها والشكر ثامنها	والصبر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أنى لا أصادقها	ولست أرشد إلا حين أعصيا

ثم تأمل معى مناهج السلوك في قوله تعالى : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ . وفي قوله جل ذكره : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾ وفي قوله تبارك وتعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ إلى غير ذلك من مناهج الأخلاق والسلوك التي لا تنتهى عند عد ولا يحيط بها حد .

كما فصلت سورة البقرة ما أجملته سورة الفاتحة من سير الصالحين وقصص الأولين . جاء في سورة الفاتحة قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . وجاءت قصة آدم مفصلة في سورة البقرة من أول قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . ثم تبعت هذه القصة تفصيلات عن بنى إسرائيل مع نبي الله موسى ، وقطعت السورة في ذلك شوطا بعيدا ثم جاءت قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت الحرام من أول قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ إلى قوله عز من قائل : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ . كذلك جاءت قصة طالوت مع بنى إسرائيل من أول قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الملاء من بنى إسرائيل من بعد موسى ﴾ إلى قوله جل جلاله : ﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ . وجاء بعد ذلك موقف الخليل مع النمرود : ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ﴾ وأتبع بقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . جاء بعد ذلك طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى . وهكذا ذكرت سورة البقرة جانبا غير قليل من القصص . كذلك فصلت سورة البقرة فرق الضلال التي جاءت مجملة في سورة الفاتحة في قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصرارى على شىء وقالت النصرارى ليست اليهود على شىء ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ وقال جل ذكره : ﴿ وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا ﴾ إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيه . فأنت ترى بعد هذا كله أن بين الفاتحة والبقرة صلوات قوية ووشتائج متينة وأواصر مكينة . فسبحان من هذا كلامه وصلوات الله تعالى وتسليماته على من كان القرآن معجزته الخالدة .





﴿ أَلَمْ ﴾ هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأي القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين .

ومن لطائف ما ذكره بعض المفسرين أننا لو جمعنا كل الحروف التي افتتحت بها هذه السور وحذفنا المكرر منها لكونت لنا جملة تقول : « نص حكيم قاطع له سر » . وجاء ذكر القرآن بعد هذه الحروف للتنويه بإعجازه وعجز الخلق عن الإتيان بمثله .

قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ بذكر لام البعد في اسم الإشارة للدلالة على بعد طبiquته في البلاغة وعلو مكانته في الشرف . قال تعالى : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ وإنه في أم الكتاب لدينا لعل حكيم ﴿ (١) . . وقد جاء الكتاب معرّفا بالألف واللام بعد اسم الإشارة لإفادة الحصر والقصر عن طريق تعريف المسند والمسند إليه كأنه قيل « ذلك هو الكتاب الذي اجتمعت له جميع صفات الحسن والكمال ومعاني الجلال والجمال » .

ثم بعد ذلك وصفه الله تعالى بأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا يعتريه شك ولا ريب إذ أن الرية تدعو إلى القلق وهذا الكتاب لأنه صدق فإن جميع ما فيه يدعو إلى الطمأنينة إنه ذكر حكيم من الله العلى العظيم . ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٢) . قال تعالى مبينا وظيفة هذا الكتاب ورسالته ﴿ هدى للمتقين ﴾ : والهدى أجل نعمة ينعم الله بها على العبد ، لذا جاء في سورة الفاتحة دعاء تدعوه الجماعة ربها وخالقها ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وكان هذه الآية من سورة البقرة جاءت بيانا للذين يطلبون الهدى من الله وكان القرآن ينادى عليهم : يا من تطلبون الهدى التمسوه في هذا الكتاب وإنما قال ﴿ هدى ﴾ ولم يقل « هاد » لأن الهادى هو المتصف بالهدى ، أما ذلك الكتاب فهو الهدى نفسه كما تقول « عمر عدل » أى هو العدل نفسه . وقد يطلق الهدى ويراد به خلق قدرة الطاعة في العبد ويراد به البيان والإرشاد كما سبق بيان ذلك في تفسير سورة الفاتحة . لمن الهدى ؟ للمتقين ، ومن المتقى ؟ إنه الذى جعل بينه وبين محارم الله وقاية فلا يفتقه الله حيث أمره ولا يجده حيث نهاه . سأل عمر « أبى بن كعب » عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمريت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى . وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خل الذنوب صغيرها      وكبيرها ذاك التقى  
واصنع كماش فوق أر      ض الشوك يحذر ما يرى  
لا تحقرن صغيرة      إن الجبال من الحصى (٣)

وفى سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله ) (٤) .

أين التقوى ؟ أشار النبى ﷺ إلى صدره وقال : ( التقوى هاهنا ) (٥) . فمن هم المتقون ؟ هم الخائفون من الليل ، العاملون بالتنزيل ، الراضون بالليل ، المستعدون ليوم الرحيل . فما أوصافهم ؟ ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴾ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . فبم حكم الله لهم ؟ ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ . فما بيان ما ذكر ؟ ﴿ الذين يؤمنون ﴾ أى يصدقون وإنما عبر هنا بالاسم الموصول لتفيد جملة

(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٠ ط الشعب .

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٣) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٦٢ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٦٥ ط دار الفكر .

الصلاة (وهي يؤمنون) استمرار الإيمان . والإيمان تصديق قلبي ، أى محله القلب ، قال تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ ؛ وقال صلوات الله وسلامه عليه : ( ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل )<sup>(١)</sup> . وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ؛ وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

وأول ركن من أركان الإيمان في هذه الآية : الإيمان بالغيب ، وهو ما غاب عنا من الأمور التي لا تعلم إلا بالسمع من الصادق ، وهو ما يسمى في علم العقائد بالسمعيات : كالجنة والنار والصراف والميزان إلى غير ذلك .

وليس الإيمان مقصوراً على الغيب ، إنما لابد أن يصحبه عمل صالح . قال تعالى بعد ذلك : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ وإنما عبر بالإقامة دون الأداء لأن الأداء هو الإتيان بأركانها وشروطها وسننها .

أما الإقامة : فهو الإتيان بها مستقيمة الأركان والشروط والسنن ، أى مع التزام الخشوع والطمأنينة في كل وقت ، وذلك من باب أقمت الشيء إذا عدلته . قال تعالى : ﴿ فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾<sup>(٢)</sup> . قالت عائشة رضی الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » . وسئل حاتم الأصم رضی الله عنه : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : « إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامي والنار ورائي والجنة عن يميني والنار عن شمالي والصراف تحت قدمي والله مطلع عليّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدري أقبلها الله أم ردّها عليّ » .

وكان الحسن البصري رضی الله عنه يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » . ألا تدري ماذا يقول الملك عندما يؤذن للصلاة ؟ عن أنس بن مالك رضی الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( إن الله ملكاً ينادى عند كل صلاة : يا بني آدم قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها فاطفئوها )<sup>(٣)</sup> ، والنيران هنا هي نيران الذنوب ، والصلاة هي الماء الذي يطفىء هذه النيران . إن الصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحات العادات ، رياضة أبدان وطهارة أدران وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم قادرون . عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازيق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر جلال الجمع وتأمل أثرها في المجتمع وكيف ساوت العلية بالزعم ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة شرعوا في عتبة الله .

(١) ابن النجار ، الديلمي في مسند الفردوسى .

(٢) سورة الكهف آية : ٧٧ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٥٧ .

اسمع معي إلى ما قاله سيد الخلق صلوات ربي وسلامه عليه في فضل الصلوات الخمس ، وضرورة المحافظة عليها والإيمان بوجوبها ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء . قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا )<sup>(١)</sup> . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا )<sup>(٢)</sup> .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( المسلم يصلي وخطايا مرفوعة على رأسه ، كلما سجد تحات عنه فيفرغ من صلاته وقد تحات عنه خطايا )<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون )<sup>(٤)</sup> .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة وآخر ما يبقى الصلاة وأول ما يحاسب به الصلاة ، ويقول الله : انظروا في صلاة عبدي ، فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة يقول : انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ فإن وجد له تطوع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قال : انظروا هل زكاته تامة ؟ فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل له صدقة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته )<sup>(٥)</sup> .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور )<sup>(٦)</sup> .

وعن عبد الله بن قرط رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله )<sup>(٧)</sup> . وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد )<sup>(٨)</sup> .

هذا بعض مما قاله الصادق المعصوم في فضل الصلوات الخمس المفروضة ، ولنتنقل إلى سماع بعض

(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٦١ .  
(٦) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ج ٢ ص ٥٣٧ .  
(٧) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ج ١ ص ٤٣٢ .  
(٨) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ج ٢ ص ٧٢٦ .

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .  
(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .  
(٣) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٥٨ .  
(٤) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٩٤ .

ما قاله صلوات ربي وسلامه عليه فيمن يؤدي هذه الصلوات في بيوت الله :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( صلاة الرجل في الجماعة تُضَعَّفُ على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجها إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رُفِعَتْ له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه مادام في مُصَلَّاهُ : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة )<sup>(١)</sup> . وفي رواية : ( اللهم اغفر له ، اللهم تَبَّ عليه ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه ) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( أتاني الليلة آت من ربي ، وفي رواية : رأيت ربي في أحسن صورة ، فقال لي يا محمد قلت : لبيك رب وسعديك . قال : هل تدري فيم يختصم المَلَأُ الأعلى ؟ قلت : الله أعلم ، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي . أو قال : في نحري فعلمت ما في السموات وما في الأرض أو قال : ما بين المشرق والمغرب . يا محمد أتدري فيم يختصم المَلَأُ الأعلى ؟ قلت : نعم في الدرجات والكفارات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء في السبرات )<sup>(٢)</sup> ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال يا محمد : قلت لبيك وسعديك<sup>(٣)</sup> . فقال : إذا صليت فقل اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة<sup>(٤)</sup> فاقبضني إليك غير مفتون . قال والدرجات : إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام )<sup>(٥)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله ليضئ للذين يتخللون إلى المساجد في الظلم بنور ساطع يوم القيامة )<sup>(٦)</sup> .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ثلاثة كلهم ضامن على الله ، إن عاش رُزِقَ وكُفِيَ ، وإن مات أدخله الله الجنة : من دخل بيته فسَلَّمَ فهو ضامن على الله ، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله ، ومن خرج في سبيل الله فهو ضامن على الله )<sup>(٧)</sup> .

وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : ( أي البقاع خير ؟ قال : لا أدري . قال : فاسأل عن ذلك ربك عز وجل . قال : فبكى جبريل عليه السلام ، وقال يا محمد : ولنا أن نسأله هو الذي يخبرنا بما يشاء ، فعرج إلى السماء ، ثم أتاه فقال : خير البقاع بيوت الله في الأرض ، قال : فأى البقاع شر ؟ فعرج إلى السماء ثم أتاه فقال : شر البقاع الأسواق )<sup>(٨)</sup> .

﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ : هذا النص الكريم يضيف صفة أخرى إلى المتقين : إنه الإنفاق مما رزق

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٧٣ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) شدة البرد .

(٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٤٥ .

(٣) اجابة بعد اجابة .

(٧) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٤١ .

(٤) امتحان واختبار .

(٨) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٤٧ ١٤٨ .

الله . ومن رحمة الله بالعباد أنه جعل المقدار الذى يُزكى به جزءا قليلا من المال فقال ﴿مما﴾ . والرزق هو ما يسوقه الله تعالى إلى العباد من مال وصحة وذكاء وعافية ، وليس مقصورا - كما ذكر بعضهم - على المأكول والمشروب ، فذلك جزء لا كل . فالعلم على وجه المثال رزق، وزكاته تعليم الناس وإرشادهم والبعد عن كتمانهم ، والصحة رزق وزكاتها إعانة الضعفاء وإغاثة الملهوفين . وقد علم الله ما فى النفوس من الشح بالمال فقال فى ذلك : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ <sup>(١)</sup> ومن ثم جعل المقدار الذى يخرج عن المال يسيرا ، فهو ربع العشر فى النقدين وزكاة التجارة وهو العشر أو نصفه فى زكاة الزروع والثمار وهو الخمس فى زكاة الركاك . قال تعالى : ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾ <sup>(٢)</sup> أى كلها ، ثم بين الحكمة من ذلك فقال : ﴿ إن يسألكموها فيحسفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾ \* ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تولوا يبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقد جاء الإسلام ليروض البخل فى النفوس ويقلم أظفاره ومخالبه ، فرغب فى العطاء والبذل . قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وفى فضل الزكاة : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لمن حوله من أمته : ( اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة . قلت ماهى يا رسول الله ؟ قال : الصلاة والزكاة والأمانة والفرج والبطن واللسان ) <sup>(٥)</sup> . وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله : أرايت إن أدّى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( من أدّى زكاة ماله ، فقد ذهب عنه شره ) <sup>(٦)</sup> .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع ) <sup>(٧)</sup> .

وعن عبيد بن عمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : ( إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله عليه ويصوم رمضان ، ويحسب صومه ، ويؤتى الزكاة محتسبا طيبة بها نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها ، فقال رجل من أصحابه يا رسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن الإشراف بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقوم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمدا - ﷺ - فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب ) <sup>(٨)</sup> .

(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٢٧ .

(٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٢٨ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٢٨ .

(٨) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٢) سورة محمد آية : ٣٦ .

(٣) سورة محمد الأيتان : ٣٧ ، ٣٨ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أديت الزكاة فقد قضيت ماعليك ، ومن جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره عليه )<sup>(١)</sup> . والإصر هو الإثم .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالزكاة أن قرنها بالصلاة ، وبين الصلاة والزكاة تمام اتصال وارتباط . فالصلاة طهارة للقلب والزكاة طهارة للمال ، ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء . وقد بلغ من عناية الإسلام بهما أن ذكرهما بأساليب متنوعة ، فقد يذكرهما بصيغة الماضي كما في قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾<sup>(٢)</sup> . وذكرهما بصيغة المضارع كما في قوله تبارك اسمه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾<sup>(٣)</sup> . وذكرهما بصيغة الأمر : قال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> . وذكرهما بصيغة المصدر . قال عز من قائل : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾<sup>(٥)</sup> . وذكرهما سبحانه وتعالى بصيغة الوصف . قال سبحانه : ﴿ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٦)</sup> .

كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تكنى بأب الطيب لأنها كانت تمسك دراهم الصدقة ( أى تضعها في المسك ) وسئلت في ذلك فقالت : لأننى أضعها في يد الله قبل أن أضعها في يد المسكين . وكانت إذا تصدقت ودعا لها المسكين دعوة ردت على دعوته بدعوة مثلها فسئلت في ذلك فقالت : حتى تكون دعوى مقابل دعوته وتظل الصدقة خالصة لوجه الله .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يتصدق بقطع السكر فسئل في ذلك فقال : لأننى أحبه والله تعالى يقول : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾<sup>(٧)</sup> . وقد بلغ من عظم الصدقة عند الله أنها تعالج ما في النفوس من أحقاد وضغائن . قال صلوات الله وسلامه عليه : ( أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح )<sup>(٨)</sup> ، والكاشح هو الذى يضمم السوء والبغضاء . ذلك لأن الصدقة عليه لها غايتان شريفتان : الغاية الأولى أن فيها جهادا للنفس ، فعندما يتصدق الإنسان على المسىء إليه فهو بذلك قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . والغاية الثانية : أن الصدقة تطفىء مافى القلوب من أحقاد وشحناء وبهذا تكون الصدقة قد قامت بدور اجتماعى وإصلاح خلقى . وكفى بالصدقة مكانة عند الله أن رسول الله ﷺ قال في شأنها : ( صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفيا تطفىء غضب الرب . وصلة الرحم تزيد في العمر . وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .

(٤) سورة النور آية : ٥٦ .

(٥) سورة النور آية : ٣٧ .

(٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .

(٧) سورة آل عمران آية : ٩٢ .

(٨) الجامع الصغير ج ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

هم أهل المنكر في الآخرة . وأول من يدخل الجنة أهل المعروف <sup>(١)</sup> .

وقد بلغ من سخاء الرسول وكرمه أنه كان أجود من الريح المرسلة . وكان يقول : ( اصنع المعروف في أهله وغير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فانت أهله ) <sup>(٢)</sup> .

أزرع جميلا ولو في غير موضعه      فلن يضيع جميل أينما زرعا  
إن الجميل ولو طال الزمان به      فليس يحصده إلا الذي زرعا

فيا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها      على الناس واعلم أنها تتقلب  
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت      ولا البخل يبقها إذا هي تذهب

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ : من صفات المتقين الإيمان بالكتب كلها توراة وزبوراً وإنجيلاً وقرآناً قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال عز من قائل : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين ﴾ <sup>(٥)</sup> . فلا بد للمؤمن أن يؤمن بالغيب والكتب المنزلة على أنبياء الله ، كما لا بد له أن يؤمن بإيماننا يقينا بالآخرة ، أي البعث بعد الموت كما قال عز من قائل في وصف المتقين : ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . وقد ورد في القرآن من الأدلة ما يثبت قضية البعث إثباتا جازما لا مرية فيه ، ونسوق في هذا المجال آية من سورة الحج ، هذه الآية أنتجت خمس نتائج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث الأرواح فاعلموا أن الله لا يعلم ما في أنفسكم من شيء ولا يعلم الساعة التي تبعثون فيها ﴾ . ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ <sup>(٦)</sup> .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج : أولاها : قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ . ثانيها : ﴿ أنه يحيى الموتى ﴾ . ثالثها : ﴿ أنه على كل شيء قدير ﴾ . رابعها : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ . وخامستها : ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ .

ولما جاء أبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بقطعة من عظام الموتى وفركها بين كفيه ونفخها وقال ساخرا : يا محمد : أترى أن الله يحيى هذه العظام بعدما رمت وبليت ؟ فأجابه الرسول على الفور قائلا : ( نعم يميتك

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

(٣) سورة الحج آية : ٥ .

(٤) الجامع الصغير ج ٢ ص ١٠٠ ط دار المعارف .

(٥) الجامع الصغير ج ١ ص ١٦٥ ط دار المعارف .

(٦) سورة النساء آية : ١٣٦ .



الله تعالى ثم يبعثك ، ويدخلك النار) (١) . وإذا بكبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء يحوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق وينزل بهذا المشهد المهيّب على أمين الأرض والسماء : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ \* وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ . وهنا يجيب القرآن بخمسة أدلة يلزم فيها المعاندين والمكابرين بحججه الساطعة وبراهينه القاطعة . أما الدليل الأول : فقوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ \* والدليل الثانى قوله جل شأنه : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ . والدليل الثالث قوله تبارك اسمه : ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ . والدليل الرابع قوله تبارك وتعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . والدليل الخامس قوله جل جلاله : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (٢) .

إن الذى أنشأ الإنسان من العدم قادر على الإعادة من باب أولى ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ \* وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون ﴾ \* وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٣) . وقال فى سورة مريم : ﴿ ويقول الإنسان إذا مامت لسوف أخرج حياً ﴾ \* أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ (٤) . إن الذى خلق العالم الأكبر وهو خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيد خلق الإنسان بعد تفرق أجزائه . وإن الذى جمع بين الضدين من الخضرة والنار فجعل النار كامنة فى الشجر الأخضر قادر على أن يعيد الحياة بحرارتها إلى الأجسام الفانية ببرودتها . إن هذا الذى سيعيد الحياة إلى الموتى هو الذى أمره بالكاف والنون وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ﴾ \* وما كان الله ليعجزه من شيء فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليهما قديرا ﴾ (٥) . وإنما سميت بالآخرة لأنها تأتى بعد الدنيا . وفى القرآن الكريم سورتان بدأهما الله تعالى ببدء موجه إلى الناس أولاها دلت على مبدأ الخلق ، والثانية على إعادته وهو ما يعرف عند علماء العقيدة بالمبدأ والمعاد . كان ترتيب السورة الأولى الرابع من النصف الأول من القرآن وهى سورة النساء . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (٦) . وكان ترتيب السورة الثانية الرابع من النصف الثانى من القرآن وهى سورة الحج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٧) . ولنا كتاب فى هذا الموضوع اسمه « البعث والجزاء » فمن أراد مزيدا من التفصيل فليرجع إليه .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٦ ص ٥٧٩ ط الشعب .

(٢) سورة يس الآيات : ٧٧ - ٨٣ .

(٣) سورة الروم الآيات : ٢٥ - ٢٧ .

(٤) سورة مريم الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .

(٥) سورة فاطر آية : ٤٤ .

(٦) سورة النساء آية : ١ .

(٧) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ  
وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ : هذه الآية بمثابة الحكم بعد ذكر الحثيات ،  
فهؤلاء المتصفون بالتقى والإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق والإيمان بالكتب المنزلة واليوم الآخر حكم  
الله لهم بأنهم على هدى وبأنهم المفلحون الفائزون بدرجات الجنة والسعادة في الدنيا ، وإنما عبر باسم الإشارة  
الدال على البعد ﴿ أولئك ﴾ ولم يقل هؤلاء لبعد مكانتهم وعلو أقدارهم وإنما كرر اسم الإشارة ليفيد عظم  
الأجر وذلك لإفادة أن كل واحد منهم على هدى وأن كل واحد منهم مفلح ويكون ذلك أعظم عندما جمع الله  
لكل واحد منهم الأمرين : الهداية والفلاح وإنما جاء التعبير بحرف الجر ﴿ على ﴾ لإفادة التمكن والتثبيت  
والاستقرار على الهدى ، وما أعظم الهدى من نعمة وما أجل الفلاح من غاية ، وإنما جاء بضمير الفصل  
﴿ هم ﴾ بين المسند والمسند إليه لإفادة الحصر والقصر كأنه قال : أولئك هم المفلحون لا غيرهم والفائزون  
لا سواهم .

قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ <sup>(١)</sup> أى لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة .  
وقال عز من قائل : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى تاخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة

ويتنقل بنا النظم الكريم من الحديث عن المتقين إلى الحديث عن الكافرين ، ومن أصحاب القلوب  
السليمة إلى أصحاب القلوب الميتة ، والضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتميز الأشياء .

﴿ إن الذين كفروا ﴾ : الكفر ستر الشيء وتغطيته وإنكار الحق وجحوده ، وإنكار ما هو معلوم من  
الدين بالضرورة كإنكار الوجدانية والبعث بعد الموت والملائكة والكتب والرسل والقدر . وقد يكون ناشئا  
عن الاستكبار ككفر إبليس . قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾ فإذا سويته  
ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ إلا إبليس استكبر وكان من  
الكافرين ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقد يكون الكفر ناشئا عن عناد ككفر فرعون . قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات  
بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ قال لقد علمت ما أنزل  
هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٣) سورة ص الآيات : ٧١ - ٧٤ .

(٤) سورة الإسراء الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

(١) سورة طه الآية : ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٣٨ .

فتأمل معي هذا النص ﴿ لقد علمت ﴾ يفيد أن فرعون كان عالماً بأن رسالة موسى من رب السماوات والأرض وأن الآيات من عند المولى جلّ وعلا ومنها اليد والعصا . . . وقد يكون الكفر ناشئاً عن جحود كجحود الشيوعية لخالق الأكوان . وقولهم لا إله ، والحياة مادة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ (١) .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى      حتى أريك بديع صنع البارى  
الأرض حولك والسماء اهتزتا      لروائع الآيات والأثار  
من شك فيه فنظرة في خلقه      تمحو أثيم الشك والإنكار

قيل لأبي بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى . قالوا : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحد الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

فواعجبا كيف يعصى الإله      أم كيف يجحده الجاحد  
وفى كل شىء له آية      تدل على أنه الواحد

وقد يكون الكفر ناشئاً عن الشرك بأن يعبد مع الله غيره من بشر أو حجر أو بقر أو غير ذلك . . . وقد يكون الكفر ناشئاً عن إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كإنكار البعث بعد الموت . قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾ (٢) .

وقد يكون الكفر ناشئاً عن عدم الإيمان بأحد الأنبياء والتفريق بين الله ورسله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴿ (٣) .

وقد يكون الكفر ناشئاً عن عدم الإيمان بخاتم الأنبياء محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿ (٤) .

وقد يكون الكفر ناشئاً عن الاستهزاء بالله ورسوله وآياته كالاستهزاء بالمصحف والتحقير من شأنه .

(١) سورة الكهف آية : ٥ .

(٢) سورة التغابن آية : ٧ .

(٣) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون \* لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ (١) .

وقد يكون الكفر ناشئاً عن النفاق كما سيأتى بيان ذلك فى الآيات الخاصة بالمنافقين . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ : الإنذار هو الإخبار المصحوب بالتحذير والوعيد ، قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾ (٣) . وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب ﴾ (٤) .

وهؤلاء الكافرون لا أمل يرجى منهم ، يستوى عندهم الإنذار وعدمه ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (٥) . ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائي إلا فزاً ﴾ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ﴾ (٦) . قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٧) . وقال جلّت قدرته : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٨) . وقال عزّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ (٩) . ما جزاء هؤلاء الذين قالوا : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ (١٠) ، جزاؤهم الختم على القلوب والأسماع ، فقد أصبحت قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر . والختم هو الطبع الذى يحول دون وصول النور ، وذلك لكثرة ما اقترفوه من الذنوب التى تراكمت وتكاثرت حتى كوّنت طبقة عازلة كطبقة الشمع التى تحول بين المغناطيس وبرادة الحديد . قال ﷺ : ( إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك هو الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (١١) ﴾ (١٢) ، فأخبر ﷺ أن المذنب إذا تابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف .

هؤلاء الكافرون قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم داعى الحق حجاب مستور . لذلك يندمون يوم الحشر لتعطيلهم تلك النعم التى أنعم الله بها عليهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو

(٧) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .

(٨) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٩) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .

(١٠) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .

(١١) سورة المطففين آية : ١٤ .

(١٢) مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٢٩٧ .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) سورة النساء آية : ١٤٥ .

(٣) سورة غافر آية : ١٨ .

(٤) سورة إبراهيم آية : ٤٤ .

(٥) سورة فاطر آية : ٨ .

(٦) سورة نوح الآيات : ٥-٧ .

نعقل ما كنا في أصحاب السعير \* فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴿١﴾ . قال جلت حكمته : ﴿ ولقد ذرأنا لجنهم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ﴿٢﴾ . أما في الآخرة فلهم عذاب عظيم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ ﴿٣﴾ . قال تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصدا \* للطاغين مآبا \* لاثين فيها أحقابا \* لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا \* إلا حميا وغساقا \* جزاء وفاقا \* إنهم كانوا لا يرجون حسابا \* وكذبوا بآياتنا كذبا \* وكل شيء أحصيناه كتابا \* فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ ﴿٤﴾ .

ويتنقل بنا النظم الكريم من أصحاب القلوب الميتة ، وهم الكافرون ، إلى أصحاب القلوب المريضة ، وهم المنافقون ، فيذكر في شأنهم ثلاث عشرة آية . قال تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بَكْمٌ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .

(٤) سورة النبا الآيات : ٢١ - ٣٠ .

(١) سورة الملك الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

أَصْبَحَهُمْ فِيءٍ إِذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوْءِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ  
الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ  
شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

النفاق مرض اجتماعي خطير ، وهو إظهار خلاف الباطن كإظهار الخير وإضمار الشر أو إظهار  
الإسلام وإضمار الكفر ، ومن ثم فقد ورد في شأنه ثلاث عشرة آية لأنه أشد من الكفر . . ومن صفات  
المنافقين ماورد في قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون  
المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا<sup>(١)</sup> . كذلك وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وقد نزل عليكم  
في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم  
إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا<sup>(٢)</sup> . ومن أوصافهم ما جاء في قوله تعالى :  
﴿ الذين يترصدون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم  
نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين<sup>(٣)</sup> . ومن أوصافهم ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون  
الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ مذبذبين بين  
ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء<sup>(٤)</sup> . ثم حكم الله على أهل هذه الأوصاف بقوله : ﴿ إن المنافقين في  
الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا<sup>(٥)</sup> . ومع ذلك كله فإن رحمة الله لا تضيق بأحد فقد فتح باب  
التوبة لمن تاب فقال : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين  
وسوف يؤتي الله المؤمنين أجرا عظيما<sup>(٦)</sup> .

والنفاق قسمان : اعتقادي وعملي . أما الاعتقادي فهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام . قال تعالى :  
﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين  
لكاذبون<sup>(٧)</sup> . وهذا نفاق يخرج عن الملة ويخلد في النار .

أما النفاق العملي فهو انحراف في السلوك : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان وإذا  
عاهد غدر وإذا خاصم فجر .

فهذه صور للنفاق السلوكي الذي لا يخرج عن الملة وإنما تجب التوبة منه والتخلي عنه ويعلو بنفسه إلى  
مراقى الفلاح ، فإذا حدث صدق وإذا وعد أوفى وإذا أؤتمن أدى وإذا عاهد التزم وإذا خاصم عدل .

(٥) سورة النساء آية : ١٤٥ .

(٦) سورة النساء آية : ١٤٦ .

(٧) سورة المنافقون آية : ١ .

(١) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢) سورة النساء آية : ١٤٠ .

(٣) سورة النساء آية : ١٤١ .

(٤) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .

وهذه الآيات التي ذكرناها من سورة البقرة تحدثنا عن النفاق الاعتقادي المخلد في النار المخرج عن الملة . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ ثم عقب على قولهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وذلك لأنهم قالوها بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فخالفوا بذلك حقيقة الإيمان لأن الإيمان كما قال الصادق المعصوم : ( ما وقر في القلب وصدقه العمل ) . إذن فماذا يريدون بهذا القول ؟ يريدون الخداع والمكر ، فمن يخادعون ؟ إنهم في زعمهم الفاسد وتزيين الشيطان لهم يخادعون الله . والخداع إظهار ما لا يبطن المرء ونسوا أن الله تعالى يعلم ما في الصدور : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ (١) . وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٣) .

الله يدري كل ما تضرع  
وإن خدعت الناس لم تستطع  
يعلم ما تخفى وما تظهر  
خداع من يطوى ومن ينشر

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ : فكيف يخدعون المؤمنين ؟ ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ . وقد حدد الله مواقفهم في خمسة أشياء :

أولا : يقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ وحكم الله عليهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ . ثانيا : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ وقد كشف الله زيفهم وضلالهم بقوله : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ . أنهم يخدعون أنفسهم فهم كالنعامة التي دفنت رأسها في الرمال وظنت أن الصياد لا يراها .

ودع الكذب فلا يكن لك صاحبا  
يلفكك يقسم أنه بك واثق  
إن الكذب يشين حرا يصحب  
وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يسقيك من طرف اللسان حلاوة  
ويسروغ منك كما يسروغ الثعلب

لماذا فعلوا هذا ؟ ابحث عن القلوب وفتش عن الصدور وقرأ قوله جل شأنه : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ والنفاق من أشد الأمراض . ولما كانوا كذلك زادهم الله مرضا على مرضهم ورجسا إلى رجسهم في الدنيا ولهم عذاب أليم في الآخرة بسبب كذبهم . وقد حذر الرسول ﷺ من الكذب تحذيرا شديدا فقال : ( وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ) (٤) . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . . . . . وما عمل أهل النار ؟ قال : ( الكذب ، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر ، دخل النار ) (٥) .

(١) سورة طه آية : ٧٠ .  
(٢) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .  
(٣) سورة غافر آية : ١٩ .  
(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .  
(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .

الموقف الثالث : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ووجوه الإفساد كثيرة لا تحصى ومواقعه لا تستقصى .

وقد نهى الإسلام عن أشياء وجاءت الحكمة في النهي عنها واضحة جليلة ، فمن ذلك ما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ (١) . ثم فتح باب الأمل في التوبة ونعت بالظلم من لم يتب فقال : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ (٢) . فالسخرية بالناس فساد ولمز الناس وطعنهم فساد والإشراك بالله فساد والسحر فساد وقتل النفس التي حرم الله قتلها فساد . بل إن من أعان على قتل مسلم جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله . وأكل الربا فساد ، فقد لعن الله الربا وآكله ومؤكله وكتابه وشاهديه ، كذلك قذف المحصنات الغافلات المؤمنات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ \* يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ (٣) ، ولقد وقع المنافقون في هذا المستنقع العفن عندما رموا أم المؤمنين عائشة بما برأها الله منه من فوق سبع سموات والدنيا كلها تعلم علم اليقين أن عائشة أنصع من ماء الغمام وأظهر من السحابة في سمائها ، والمنافقون لما فشلوا في ميادين الشرف وساحات القتال وانتصر الإسلام عليهم في كل المواقع دفعتهم قيمهم الحقيمة ونفوسهم الصغيرة أن يتهاووا في ميادين السب وقذف الأعراس ، وهو فساد دونه أى فساد ، كذلك الاعتداء على الأعراس وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، بل إن بسببها الموازين وتضييع الحقوق ، كذلك الاعتداء على الأعراس وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، بل إن حب إشاعتها يعتبر في حد ذاته فسادا ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (٤) . وشرب الخمر فساد بل هي ملعونة ولعن الله شاربيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها بل إن الجلوس على مائذنها فيه مخالفة لطاعة الله ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . والميسر فساد بينه الله تعالى في قوله : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ (٥) . وأكل مال اليتيم فساد كذلك أوعد الله الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فقال : ﴿ إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾ (٦) ، إذ أن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم . وقد بشر رسول الله كافل اليتيم بشرى تهتز لها القلوب فرحا ، وقد أشار بإصبعيه الشريفين وقال : ( أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ) (٧) . ومن أبشع أنواع الفساد : الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة ، والظلم هو الذي يدمر الأمم ويحتاجها وتزلزل الأرض تحت أقدامها . ولو أخذنا نحصى آيات القرآن في تاريخ الأمم التي ظلمت فأبيدت لطال بنا الحديث وكيفينا هنا قول الله جل

(٤) سورة المائدة آية : ٩١ .

(٥) سورة النساء آية : ١٠ .

(٦) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ج ١ ص ٤١٦ .

(١) سورة الحجرات آية : ١١ .

(٢) سورة النور الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٣) سورة النور آية : ١٩ .



شأنه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله عز وجل : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله جل جلاله : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله سبحانه : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله عز وجل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون ﴾ <sup>(٦)</sup> . إن الله جل جلاله حرم الظلم على نفسه ، وجعله محرماً بين عباده . بل إن هناك امرأة دخلت النار في ماذا ؟ في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً . سبحانه الله . في هرة عذبتها ؟ لك الأمر كله يارب يا أرحم الراحمين ، يا كاشف الضر عن البائسين ، يا من تعلم السر والنجوى هب لنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً واجعل معونتك العظمى لنا سنداً . فالرحمة لا تنزع إلا من شقى . بل إن الإسلام يفتح باب الجنة أمام رجل مذب لماذا ؟ لأنه سقى كلباً كان قد اشتد به العطش ، شكر الله له صنيعه فغفر له ذنبه . فالراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء . يا أرحم الراحمين ويارب المستضعفين إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغني فأنت القائل ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ <sup>(٧)</sup> وأنا شيء فلتسعني رحمتك .

أنت الذي تهب كثيراً وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات ؟ .

أيها الناس : من لا يرحم لا يرحم ، وبالكيل الذي يكيل به للناس سيكال به عليه ، وبعد صفو الليالي يحدث الكدر .

يانائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد تأتيين أسحارا

البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان . اعجب معي لدين يفتح أبواب الجنة أمام رجل أسرف على نفسه في الذنوب ولكنه سقى كلباً كان قد اشتد به العطش حتى جعل الصحابة يسألون صاحب الرسالة العصماء : أئن لنا في البهائم لأجراً ؟ قال : نعم ، فإن لكم في كل ذات كبد رطبة أجر ، ويفتح أبواب النار أمام امرأة عذبت هرة بالحبس حتى ماتت جوعاً .

دين يشيد آية في آية لبناته السورات والأضواء  
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناء

فماذا كان رد المنافقين عندما يقال لهم ﴿ لا تفسدوا في الأرض ﴾ قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ هكذا بأسلوب الحصر والقصر ، أي ما نحن إلا مصلحون . وهكذا أهل الضلال في كل زمان ومكان يلقاك

(٥) سورة يونس آية : ١٣ .  
(٦) سورة هود آية : ١١٧ .  
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

(١) سورة الحج آية : ٤٥ .  
(٢) سورة الحج آية : ٤٨ .  
(٣) سورة الكهف آية : ٥٩ .  
(٤) سورة القصص آية : ٥٩ .

أحدهم عناقا ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا ، ملك كريم في مظهره شيطان رجيم في مخبره ، يلقاك بوجه أبي ذر وقلب أبي لهب . ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ . سبحان الله ! إذا لم يكن هذا هو الفساد بعينه فماذا يكون الفساد ؟ وأي إصلاح يقصدون ؟ الفتنة ، إشاعة الإشاعة وترويجها ؟ الرشوة التي قال عنها الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : ( لعن الله الراشى والمرتشى والرائش )<sup>(١)</sup> ، وهو الذى يأخذها من الراشى ويدفعها إلى المرتشى هذا أيضا شملته اللعنة . نعم أى إصلاح يريدون ؟ إيذاء المؤمنين وتعذيبهم وتحريض اليهود عليهم . ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ : السخرية بأهل التوحيد ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون \* وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين \* وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾<sup>(٢)</sup> . أهذا هو الإصلاح ؟ كلا والله . إنه منطق النفاق والتضليل والإضلال والزور والبهتان والكذب والإفك والخسران ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد \* وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد ﴾<sup>(٣)</sup> لكن شئت حكمة الله ألا يترك هؤلاء المهاترين ومايقولون . هل هم مصلحون كما قالوا ؟ لا . إن حكم الله قاطع فى الصدق . فإذا قال وحكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ولا مبدل لكلماته . لقد حكم الله عليهم بقوله : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ . هكذا بالتقرير والتوكيد ، فعندما قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ بأسلوب القصر رد الله عليهم بما يناسب حالهم ومقالمهم فجاء بأداة التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجاء بحرف التوكيد ( إن ) وجاء بضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وجاء بأداة التعريف ( أل ) كل هذا ليلقمهم الحجة ويفحمهم بالمنطق السديد الذى لا يدركه إلا كل ذى عقل رشيد ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ هم لا غيرهم ، فقد انحصر فيهم الفساد بكل أشكاله وألوانه وفى كل من لف لفهم وسار على دربهم واتخذوه بطانة لهم : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾<sup>(٤)</sup> . قال تعالى : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وهكذا الذين ينغمسون فى الفساد ، يفقدون انغماسهم فى لججه العنيفة ودواماته المتغلغلة ، يفقدون الإحساس ، والإحساس نعمة من نعم الله العظمى بحيث إنهم بانغماسهم أصبحوا لا يشعرون بشيء إذا قيل لهم ﴿ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ أجابوا بكل جرأة وتبجح ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ، وقد صدق الخليل بن أحمد إذ يقول : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك مكابر فامقتوه . والمنافقون مكابرون معاندون ، إنهم فى كل مجتمع عالة فى السراء ، وسوس ينخر فى الأمة حالة الضراء . فما أشقى مجتمعا إذا قيل للمفسدين فيه لا تفسدوا قالوا إنما نحن مصلحون ، وما أتعس أمة أصبح الحق فيها باطلا وبالباطل حقا والمعروف فيها منكرا والمنكر فيها معروفا ، وما أياس شعبا أصبح الذئب فيه

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر . (٣) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

(٢) سورة المطففين الآيات : ٢٩ - ٣٢ . (٤) سورة الفرقان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

راعيًا والخصم العنيد قاضيًا يُحَوِّنُ فيه الأمين ويؤتمن فيه الخؤون ويصدق فيه الكذوب ويكذب فيه الصدوق ويصبح اللثام أسعد الناس فيه .

الموقف الرابع : والموقف الرابع من مواقف المنافقين يقول فيه تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ : ذلك داهية الدواهي وثالثة الأثافي . كيف انقلبت حقائق الأشياء والعقلاء في كل عصر ومصر مجمعون على أن حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافاً للسفسطائية ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ (١) . ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ \* ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق \* ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٢) . سبحان الله . كيف صار الإيمان عند هؤلاء سفها وخفة عقل، والإيمان في حقيقته العقل كله والفكر الرشيد والمنطق السديد ؟ أليس الإيمان هو التصديق القلبي بوحداية الله ووصفه تعالى بما وصف به ذاته من صفات الكمال والجلال والجمال والأسماء والصفات ؟ أليس الإيمان تصديقا بكتب الله ورسله وملائكته وقدره والبعث بعد الموت ؟ أليس الإيمان كما أخبر عنه الصادق المعصوم في قوله : ( ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل ) (٣) .

أى سفه في كل من أقر بأن لهذا الكون خالقاً مدبراً يتصرف فيه بحكمته ومشيئته وأى سفه في مكارم الأخلاق ؟ وقد قال نبي الإسلام : ( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) (٤) ، وأى سفه فيمن آمن بأن كل شيء بقضاء وبقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ (٥) . ليس هذا هو السفه إنما السفه غير هذا ، وأى سفه فيمن آمن بأن بعد الموت بعثاً ونشوراً : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٦) . وكان المسيح عليه السلام يقول : يا بني إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ولكن البسوا لباس الملوك وألبنوا قلوبكم بخشية الله . أأست معى أن النفس تشعر بالمرارة عندما ترى الأمر بالإيمان يقابل بقولهم ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ ؟ نعم إنها المرارة بعينها .

إذا وصف الطائي بالبخل مادر	وعير قساً بالسفاهة باقل
وقال السها للشمس أنت ضئيلة	وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة	وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة مريرة	ويانفس جدى إن دهرك هازل

أَيُّمى المؤمنون بالسفه وهم أعقل العقلاء وأفضل الناس على وجه البسيطة ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ (٧) . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون

(٥) سورة التوبة آية : ٥١ .

(٦) سورة النجم آية : ٢١ .

(٧) سورة الجن آية : ١٤ .

(١) سورة الحج آية : ٣

(٢) سورة الحج الآيات : ٨ - ١٠ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ط دار الفكر .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣٩٥ ط دار الفكر .

بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴿١﴾ . أرأيت أضل من الأنعام ؟ إنهم هؤلاء الذين رموا المؤمنين بالسفه أضل من الأنعام لأنك لو سألت الأنعام من خلقها لأجابت بلسان الحال أنا مخلوقة للواحد الديان ، أما هؤلاء الأناس الذين عطلوا حواسهم فأصبحوا لا يعقلون بالقلوب ولا يفقهون بها ولا يبصرون بالأعين ولا يسمعون بالأذان أضل من الأنعام ، لأن وحدانية الله مركوزة في طباع العجماوات وفطر الصبيان ، شهد له العالم كله بأنه الواحد من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه .

والبر والبحر فيض من عطايه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبره والحوث ناجاه	والطير سبّحه والوحش مجّده
والنحل يهتف حمداً في خلاليه	والنمل تحت الصخور الصم قدّسه
والعبد ينسى وربّه ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

أليس مما تنخلع له الأفئدة وتسيل من هوله الكبد مرارة أن يوصف المؤمنون بأنهم سفهاء ؟ ولكن إذا عرف السبب بطل العجب .

وإذا أنتك مسبتي من ناقص  
أيها المؤمنون : لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

وما ضر الورود وما عليها  
نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ما يضر البحر أمسى زاحرا  
نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ومن يكن ذا فم مرمريض  
نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد  
نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

وتمثلوا قوله تعالى دائماً ﴿٢﴾ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴿٣﴾ .

ويأبى أن أكون له مجيباً	يخاطبني السفيه بكل قبح
كعود زاده الإحراق طيباً	يزيد سفاهة وأزيد حلماً

ليس الحكم هؤلاء السفهاء خفاف العقول سخاف الأحلام ، إنما الحكم ما حكم به الواحد القهار ، إذ يقول تعقيباً على ما قالوه : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ وأنت هنا ترى بثاقب فكرك وصائب رأيك أن تلك الجملة قد أكدت عدة توكيدات : فقد افتتحت بأداة التنبيه ( ألا ) وأكدت ( بأن ) وضمير الفصل ( هم ) وأداة التعريف ( أل ) لتؤكد حصر السفه والسخف فيهم وحدهم ومن لف لفهم وسار على دربهم ، وإنما عبر في الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وفي هذه الآية بقوله جل شأته ﴿ ولكن لا يعلمون ﴾ ، لأن الآية السابقة كان فيها نهى عن الفساد ؛ والفساد كثيراً ما يكون حسياً والشعور إلى الحس أقرب ، أما هذه الآية ففيها أمر بالإيمان والإيمان تصديق قلبي ، فهو إلى العلم أقرب ، فكان كل من الختامين مناسباً تماماً المناسبة لما جاء في الآيتين .

الموقف الخامس : ويتمثل في قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴿ . وهذه حال أخرى تبين لنا بيانا كافيا أحوال هؤلاء المارقين المعاندين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ (١) .

ونعتهم الله جل جلاله بقوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿ (٢) . فقولهم للمؤمنين إنا معكم كذب ، لأنهم قالوها بألسنتهم ولم يدخل الإيمان في قلوبهم . والإيمان تصديق بالقلب ، أما إذا خلوا بشياطين الإنس وما أكثرهم وما أشد خطرهم من أهل الطغيان والفسوق والعصيان وقولهم لهم إنا معكم فهم معهم في فساد قلوب الجميع ، ولكن ليسوا معهم في الشدائد إذا نزلت بهم ، لأنهم مذبذبون لا يثبتون على رأي ولا يستقرون على مبدأ ، إنهم الأكلون على كل الموائد المتشدقون بكل الأحاديث ، لا خير فيهم فاحذرهم أن يفتنوك ، واحذرهم أن يضلوك ، واحذرهم أن يصحبوك .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً      إن الكذوب يشين حراً يصحب  
يلقاك يقسم أنه بك واثق      وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يسقيك من طرف اللسان حلاوة      ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ودع المنافقين الدجالين الذين لا يعرفون إلا منافعهم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إن كان في جييك قرش فانت تساوى عندهم قرشاً وإن كان معك جنيه فانت تساوى عندهم جنيهاً ، وإن لم يكن معك شيء فانت لا تساوى عندهم شيئاً .

(١) سورة النساء آية : ١٤١ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .

إن قل مالى فلا خل يصاحبني وفى الزيادة كل الناس خلانى  
كم من علق لأجل المال صادقنى وكم صديق لفقر المال عادانى

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾<sup>(١)</sup> . لأنهم لم يكونوا فى الدنيا نصراء فى الحق ولا أولياء لأهل الإيمان إنما كانوا كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾<sup>(٢)</sup> .

احذر أن تصاحب هؤلاء ، وقف عند قوله تعالى فى وصف المؤمنين متدبراً متفكراً : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٣)</sup> . هذا هو المجتمع الفاضل والأمة الطيبة ، بعضهم أولياء بعض ، ولاية نصرة ومحبة ومودة ورحمة .

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضمر نفسه لينفعك  
ومن إذا ريب الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك

ثم تأمل معى ألعيب هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ ، وكلمة خلوا هنا لها معناها ، فإنهم يخافون من النور ويخشون الضوء ، إنهم كالخفافيش التى عميت أبصارها عن رؤية الشمس فى وضوح النهار ، فهم دائماً فى خلواتهم وفى ظلماتهم يراوغون ويخادعون . ثم تأمل التعبير القرآنى الحكيم عن أهل الشر والفساد بأنهم شياطين ، بل إن شياطين الإنس شر من شياطين الجن بدليل قوله جل شأنه : ﴿ وأتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾<sup>(٤)</sup> . اتبعه الشيطان بمعنى أن الإنسان صار متبوعاً والجن أصبح تابعاً ، ولذا لم يقل تعالى : فتبع الشيطان . رأى الحسن البصرى رضى الله عنه إبليس ذات ليلة فى المنام فسأله : كيف حالك اليوم مع الناس ؟ قال له إبليس : بالأمس كنت أعلم الناس طرق الضلال واليوم أصبحت أعلم منهم طرق الضلال . ولذا يقول القائل :

وكنت امرأ من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

قولهم ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ أى مستهزون بالمؤمنين إذا قلنا لهم آمنا فلماذا ذلك سخريه بهم ، فبماذا رد عليهم أصدق القائلين ؟ قال تعالى : ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ وهذا حكم من الله جل شأنه ، ويستهزئ بهم بمعنى يجازيهم على استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين ويعاقبهم على ذلك ، فالجزاء من جنس العمل ، فيوم القيامة تبدل الحال غير الحال ﴿ فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ على الأرائك ينظرون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري

(٤) سورة الأعراف آية : ١٧٥ .

(٥) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

(١) سورة النساء آية : ١٤٥ .

(٢) سورة التوبة آية : ٦٧ .

(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .

من تحتهم الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم \* يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب \* ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وجرمكم بالله الغرور \* فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير <sup>(١)</sup>.

فتأمل معى موقف هؤلاء المنافقين فى الدنيا من المؤمنين وكيف استهزؤوا بهم وسخروا منهم ؟ ثم تأمل حال المؤمنين من المنافقين فى الآخرة وكيف طلب المنافقون منهم أن ينتظروهم ليمشوا فى نورهم وكيف كان رد المؤمنين عليهم ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾ <sup>(٢)</sup>. أى ارجعوا إلى الدنيا واعملوا صالحا فإن العمل الصالح يكون نورا فى الآخرة وهم يعلمون أن الرجوع إلى الدنيا محال، ولكنها كلمة تنخلع لها الأئدة وتنفطر لها الأكباد ، إنه الجزء من جنس العمل. وقوله جل شأنه : ﴿ يمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان هو تجاوز الحد و ﴿ يعمهون ﴾ بمعنى يترددون ويتحIRON ، والله جل جلاله يمهلهم ويمدهم ويملى لهم ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وأملى لهم إن كيدى متين ﴿ <sup>(٣)</sup> فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا <sup>(٤)</sup> ﴾ . ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين <sup>(٥)</sup> . وجلت حكمة الله ، فإنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ <sup>(٦)</sup>.

لا تظلمن إذا ماكنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عيناك والمظلوم متبته      يدعوك عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ . هذه الآية الكريمة بمثابة الحكم بعد بيان الحثيات ، وقد سبق تبيانها فى خمسة أشياء : ﴿ ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ ثم ثانيا : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ثم ثالثا : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ثم رابعا : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ خامسا : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون ﴾ كل هذه الحثيات أدت إلى حكم الله فيهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ فليس البيع والشراء فى السلع خاصة إنما هو أيضا فيمن ترك شيئا مقابل شيء آخر فهو لاء تركوا الهدى واشتروا الضلالة ، تركوا الهدى وهو أجل نعمة ينعم الله بها على عبده ، ألسنا نقرأ فى سورة الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وله كان هناك ما هو أفضل من الهدى لأمرنا الله فى

(١) سورة الحديد الآيات : ١٢ - ١٥ .

(٢) سورة الحديد آية : ١٣ .

(٣) سورة القلم الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٤) سورة مريم آية : ٨٤ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١٧٨ .

(٦) سورة هود آية : ١٠٢ .

سورة الفاتحة أن ندعوه ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾<sup>(١)</sup> ، فما أعظمها من نعمة إذا جلت في قلب العبد ، وما أجملها من هبة يهبها الله لعبده ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾<sup>(٢)</sup> . مثل هذه التجارة التي وقع فيها المنافقون تجارة خاسرة وسوقها كاسدة ومن وقع في مثل هذه التجارة فقد سلب نعمة الهداية ، وشتان بين السحاب والتراب ، ثم شتان بين مسابح الأسماك ومدارج الأفلاك ، شتان بين هذه السوق الخاسرة وبين سوق المؤمنين الرابعة في قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ ليوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾<sup>(٣)</sup> ، وهكذا صدرت الأحكام من الحاكم الأعلى في محكمة العدل الإلهية الكبرى ﴿ فلا تعظم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حلسيين ﴾<sup>(٤)</sup> . نعم صدرت الأحكام بعد بيان حياتها : فريق المؤمنين حكم الله لهم بقوله : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، لماذا ؟ لأنهم متقون مؤمنون بالغيب مقيمون للصلاة منفقون بما رزقهم الله ، مؤمنون بما أنزل على النبي وبما أنزل من قبله ، موقنون بالآخرة ، وعلى الفريق الثاني ، وهم الكافرون ، حكم الله بقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ لماذا ؟ لأن قلوبهم في أكنة وفي آذانهم وقر وبينهم وبين الحق حجاب مستور ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ، وعلى الفريق الثالث حكم الله بقوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ وذلك بعد بيان الحيات التي سبق ذكرها . ثم ضرب الله تعالى مثلي للمنافقين ، وللأمثال وظيفة بعيدة الأثر في البيان والوضوح حتى يخيل لك أن الأمر المعقول أصبح بعد ضرب المثل ملموسا تتحسسه الأنامل وملحوظا تبصره العيون شحما ولحما ، قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ صم بكم عى فهم لا يرجعون \* أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين \* يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ..

المثل والمثيل كالشبه والشبه والشبيه وزنا ومعنى ، ثم استعمل في بيان حال الشيء وصفته التي توضحه وتبين حاله كقوله : ﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾<sup>(٥)</sup> الآية . وقوله ﴿ والله المثل الأعلى ﴾<sup>(٦)</sup> . واستوقد النار : طلب وقودها ، أى سطوعها وارتفاع لهبها بفعله أو فعل غيره ، ويقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءت النار ، أى أظهرته بضوئها ، وترك : أى صير ، والصمم : آفة تمنع السماع . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يُبصر ، الصيب : المطر يُصوب وينزل من الصوب وهو النزول ، والرعد : هو الصوت الذى يُسمع فى السحاب أحيانا عند تجمعه ، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب

(٤) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .

(٥) سورة الرعد آية : ٣٥ .

(٦) سورة النمل آية : ٦٠ .

(١) سورة الأنعام آية : ٧١ .

(٢) سورة الكهف آية : ١٧ .

(٣) سورة فاطر الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .



غالبا ، وربما لمع في الأفق حيث لا سحب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد كهربية السحاب الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك في علم الطبيعيات . والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الكهربية التي في السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والإحاطة بالشئ : الإحداق به من جميع جهاته ، والخطف : الأخذ بسرعة . قاموا : أى وقفوا فى أماكنهم منتظرين تغير الحال ليصلوا إلى المقصد ، أو يلجأوا إلى ملجأ يعصمهم من الخطر .

الإيمان والكفر والنفاق كلها من أعمال القلوب . والقلوب قد أخبر عنها الصادق المعصوم في قوله : ( القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراج فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه ) .

والمؤمنون قسمان : السابقون ، وأصحاب اليمين ، كما ورد ذلك في سورة الواقعة . والكافرون قسمان : دعاة ، ومقلدون ، وقد جاء ذلك في سورة النور . قال تعالى في شأن دعاة الكفر : ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١) . وقال في شأن المقلدين : ﴿ أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (٢) .

والمنافقون قسمان : منافقون خلص ، ومنافقون أتباع . وقد ضرب الله تعالى لكل من الفريقين مثلا للإيضاح والبيان حتى يصير المعقول كأنه محسوس مجسد . فضرب للفريق الأول مثلا ناريا ، وضرب للثاني مثلا مائيا ، وبين النار والماء دارت أحوالهم وتحدت شخصياتهم ووضحت معالمهم . فمثل الفريق الأول ( أى حالهم ) كحال من استوقد نارا ، وأضاءت النار ماحوله وأصبح المكان الذى هو فيه مشرقا بالضياء ، ولكنه لم يستفد بهذا الضوء ولم يهتد به في سلوك الطريق ، ولما كان ذلك كذلك ذهب الله بنور هذه النار وترك النار على الحرارة والدخان ، فأصبح هؤلاء لا يبصرون لأنهم في ظلمات داكنة وليل أليل بهيم ، فمثل هؤلاء القوم منطبق عليهم ، فقد رأوا الهدى بأعينهم ورأوا الطريق ببصرهم ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الهدى ، فلم يؤمنوا بنبي الهدى ولا الكتاب المنزل عليهم ، بل عاشوا وقلوبهم في أكنة وأعينهم في غشاوة وفي آذانهم وقر وبينهم وبين الهدى حجاب مستور ، ولذلك لما عطلوا نوافذ المعرفة نعتهم الله تعالى بقوله : ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ . صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، عمى لا يبصرون . فيترتب على كل هذا أنهم لا يرجعون إلى الهدى ، أى فهم لا يهتدون ، لأنهم عطلوا نعمة جعلها الله وسائل للمعرفة ، فهم في غيهم يترددون وفي طغيانهم يعمهون .

(١) سورة النور آية : ٣٩ .

(٢) سورة النور آية : ٤٠ .

أما المثل الثاني ، وهو المثل المائي ، الذى جاء تعبيراً عن الأتباع المقلدين من المنافقين ، فإن أى كاتب لو أعطى سحر البيان الذى تحرله العمالة، ومنح ريشة أدق من ميزان الذهب ما استطاع بفكره وعبقريته أن يعطينا صورة تعبر مثل هذا التعبير الدقيق : إنهم قوم يعيشون فى حيرة يصير الحليم فيها حيران ﴿١﴾ أو كصيب من السماء ﴿٢﴾ ، والصيب هو المطر الغزير، وكان السماء تحولت إلى أفواه القرب ومن السماء بالذات ليعطي المعنى قوة دافعة لا يستطيع أحد ردها بحكم ما أودعه الله فى الكون من قانون الجاذبية . هذا الوابل الصيب فيه ظلمات : ظلمة الليل والسحاب والمطر يتخلل هذا الصيب رعد ويرق ، فالرعد قاصف لأنه صوت احتكاك الهواء والبرق خاطف فى لمعانه ، والصواعق مدمرة . هؤلاء الحائرزون المترددون من المنافقين يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، وإنما جاء التعبير بالأصابع مع أن المقصود بها الأنامل من باب المجاز المرسل من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء مبالغة فى سد الأذان ، يفعلون ذلك حذر الموت ، ولو عرفوا الحقيقة لعلموا أن الله يحيط بهم ، فكل شىء قائم به وكل شىء خاشع له، من عاش فعليه رزقه ومن مات فالإله منقلبه ومن تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سببه ، ولو آمنوا واتقوا لعلموا أن الله قوة كل ضعيف وعز كل ذليل وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، هو الجناح الأعلى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه ، ولكن هؤلاء الحائرزين فى قلوبهم مرض جعلهم مذنبين كأن كل واحد منهم خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴿٣﴾ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴿٤﴾ من شدة لمعانه وزيف أبصارهم . إنهم مترددون ﴿٥﴾ كلما أضاء لهم ﴿٦﴾ البرق ﴿٧﴾ مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴿٨﴾ أى وقفوا فى مكانهم . وهكذا حالهم ، رأوا نور الإيمان فمشوا فيه ، فلما خلوا بشياطينهم قالوا : ﴿٩﴾ إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴿١٠﴾ . وهكذا عاشوا حياتهم فى قلق وفزع وهلع ، عاشوا فى ظلمات لا يبصرون ظلمة الشرك وظلمة النفاق ، وظلمة الريبة ، وعاشوا فى فزع كما قال تعالى : ﴿١١﴾ يحسبون كل صيحة عليهم ﴿١٢﴾ ، وكما قال جل شأنه : ﴿١٣﴾ ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون \* لو يجدون ملجئاً أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يمحون ﴿١٤﴾ . أى خوف أشد وأى فزع أشنع من قوم عاشوا فى هذا الجو المكفهر : مطر غزير وبرق خاطف ورعد قاصف وظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج المرء يده لم يكدرها ، وصواعق محرقة ، وهم فى ذلك فى حيرة حائرة ، إذا أضاء لهم البرق مشوا ولكن سرعان ما يخبى ضوءه فيصير الجو ظلمة داكنة فيقفون تكاد أقداهم تغوص فى أعماق الأرض ، لو كان فى قلوب هؤلاء نور يهديهم إلى الصراط المستقيم لعلموا أن الأمر لله فلا يمنعهم من قضاء الله أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت . فالله جلت قدرته لو شاء ﴿١٥﴾ لذهب بسمعهم وأبصارهم ﴿١٦﴾ وهما الحاستان اللتان تتصدران وسائل المعرفة . قال جل شأنه : ﴿١٧﴾ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴿١٨﴾ . نعم إن الله على كل شىء قدير ، فمشيئة الله صالحة لكل ما أراد الله وقدره الله صالحة لإنجاز ما شاء الله ﴿١٩﴾ فما لهم لا يؤمنون \* وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون \* بل الذين كفروا يكذبون \* والله أعلم بما يعون \* فبشرهم بعذاب أليم ﴿٢٠﴾ . وهكذا جاء المثلان النارى والمائى منطبقين تمام الانطباق على أجناس المنافقين .

(٣) سورة النمل آية : ٧٨ .

(١) سورة المنافقون آية : ٤ .

(٤) سورة الانشقاق الآيات : ٢٠ - ٢٤ .

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .

هذه جولة استعرض القرآن فيها أحوال المنافقين وخطرهم على المجتمع وكيف صيرهم النفاق إلى صم بكم عمى ، فما أتعب المجتمع الذي يعيش المنافقون في جنباته ، وما أياس الأمة التي يتحرك النفاق في قلوب أبنائها ، إنهم عالة على الأمم في حال السراء ، وسوس ينخر في عظامها في حال الضراء . وقد حذر الصادق المعصوم عليه السلام في أقواله من النفاق وقال في ذلك :

عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جريء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقرأ عالم ، وقرأت القرآن ليقرأ هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقرأ هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار )<sup>(١)</sup> .

وعنه رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يخرج في آخر الزمان رجال يخيلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عز وجل : أبى يغترون أم على يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثن على أولئك ، منهم فتنة تدع الحليم حيران )<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رجل : يا رسول الله إني أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( من رايأ بشيء في الدنيا من عمله ، وكله الله إليه يوم القيامة ، وقال : انظر هل يغنى عنك شيئاً ؟ )<sup>(٤)</sup> .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من تزين بعمل الآخرة وهو لا يريد لها ولا يطلبها لعن في السماوات والأرض )<sup>(٥)</sup> .

وروى عن الجارود قال : قال رسول الله ﷺ : ( من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ، ومحق ذكره ، وأثبت اسمه في النار )<sup>(٦)</sup> .

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ط وزارة الأوقاف . (٤) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠ . (٥) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ . (٦) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من تحب إلى الناس بما يحبون وبارز الله بما يكرهون لقي الله وهو عليه غضبان )<sup>(١)</sup> .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : ( تعوذوا بالله من جُبِّ الحُزن . قالوا يارسول الله وما جُبُّ الحزن ؟ قال : واد في جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرة . قيل : يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله عز وجل الذين يزورون الأمراء )<sup>(٢)</sup> .

ورواه أيضا عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : ( إن في جهنم لواديا تستعيز جهنم من ذلك الوادى في كل يوم أربعمئة مرة أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد ﷺ : لحامل كتاب الله ، والمتصدق في غير ذات الله ، والحاج إلى بيت الله ، وللخارج في سبيل الله )<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربّه تبارك وتعالى )<sup>(٤)</sup> .

وعن محمود بن لبيد قال : خرج النبي ﷺ فقال : ( يا أيها الناس إياكم وشرك السرائر . قالوا يارسول الله وما شرك السرائر ؟ قال : يقوم الرجل فيصلي فيزيّن صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه ، فذلك شرك السرائر )<sup>(٥)</sup> .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج إلى المسجد ، فوجد معاذا عند قبر رسول الله ﷺ يبكي ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : ( اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة : إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة )<sup>(٦)</sup> .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء )<sup>(٧)</sup> .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة ، وكان من الصحابة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة - ليوم لا ريب فيه - نادى مناد : من كان أشرك في عمله الله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك )<sup>(٨)</sup> .

وروى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : ( يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ،

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ٣١ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠ .

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

(٨) المصدر السابق ج ١ ص ٣٢ ط وزارة الأوقاف .

حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها، وما أعد الله لأهلها فيها، نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرة مارجع الأولون بمثلها فيقولون: ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأولياك كان أهون علينا، قال: ذاك أردت بكم، كنتم إذا خلوتكم بارزتموني بالعظام، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم محبتين، تراءون الناس بخلاف ما تعطون من قلوبكم، هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني وتركتهم للناس ولم تتركوا لي - اليوم أذيقكم أليم العذاب مع ما حرمتهم من الثواب (١).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا كان آخر الزمان صارت أمتي ثلاث فرق: فرقة يعبدون الله خالصا، وفرقة يعبدون الله رياء، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذي يستأكل الناس: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ فيقول: وعزتك وجلالك أستأكل به الناس، قال: لم ينفعك ما جمعت انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذي كان يعبد رياء: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك رياء الناس، قال: لم يصعب عليّ منه شيء، انطلقوا به إلى النار، ثم يقول للذي كان يعبد خالصا: بعزتي وجلالي ما أردت بعبادتي؟ قال: بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به أردت ذكرك ووجهك؟ قال: صدق عبدی انطلقوا به إلى الجنة (٢).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: (يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدي الله تعالى، فيقول تبارك وتعالى: ألقوا هذه واقبلوا هذه، فتقول الملائكة: وعزتك وجلالك ما رأينا إلا خيرا، فيقول الله عز وجل: إن هذا كان لغير وجهي وإن لا أقبل إلا ما ابتغى به وجهي (٣).

### نداء إلهي كريم

لما بين سبحانه وتعالى مواقف الناس من العقيدة وذكر المؤمنين وثني بذكر الكافرين، ثم بين لنا مواقف المنافقين، لما كان ذلك كذلك: وجه الإله الكريم نداء عاما إلى البشرية جمعاء أمرهم فيه بعبادته وحده فقال سبحانه وتعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾  
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ  
مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ١ ص ٣٥ ط وزارة الأوقاف.

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٦.

العبادة : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود ، والرب : هو الذى يسوس من يريبه ويدبر شئونه ، والفراش : واحد الفرش ، وفرش الشئ يفرشه بالضم فراشا : بسطه ، والبناء : وضع شئ على شئ آخر بحيث يتكون من ذلك شئ بصورة خاصة ، والنَّد : الشريك والكفء ، يقال فلان ند فلان إذا كان مماثلاً له فى بعض الشئون . العلم بوحداية الله مركز فى طباع المخلوقات ، فقد فطروا على التوحيد ( كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه )<sup>(١)</sup> . والتوحيد هو أفراد المعبود سبحانه وتعالى بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالا ، ولا بد للموحد أن يعتقد بتوحيد الإلهية والربوبية وذلك بأن يعبد الله وحده ، مع اعتقاد أنه الخلاق الرزاق الذى سخر ما فى السموات وما فى الأرض طوع وإرادته ومشيبه ، ولذا لما أمر الله الناس بعبادته وحده نصب الأدلة الناطقة بأنه الواحد وذلك فى الآفاق والأنفس ، قال جل جلاله : ﴿ سنبهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد \* ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط ﴾<sup>(٢)</sup> ، ومن هذه الأدلة أنه الخالق فأى خالق سواه ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين \* فجعلناه فى قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* فقدرنا فنعم القادرون ﴾<sup>(٣)</sup> . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٤)</sup> .

بنظرة فاحصة فى قوله تعالى ﴿ لاتعلمون شيئا ﴾ تفيد نفى العلم بالكلية ، إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ولتقابل هذا بالشكر ، والشكر لله أن تسخر نعم الله فى طاعته وألا تستعملها فى معصيته ، قال موسى عليه السلام لربه : « يارب كيف أشكرك ؟ قال له : يا موسى تذكرنى ولا تنسانى إنك إن ذكرتنى شكرتني وإن نسيتنى كفرتني » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾<sup>(٥)</sup> . وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلا : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له الرجل : فمن أى شئ عافاك ؟ قال له : وهب لى قلباً ذاكرة ولساناً شاكراً ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربي إذ هَداني إلى الإسلام والدين الخفيف  
فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

وقد أقام القرآن من الأدلة على وحدانية الخالق ما تعنوله الوجوه خشوعاً وتحشع له الأصوات خضوعاً ، وخلق الإنسان منذ كان نطفة وإيجاده من العدم دليل ملموس محسوس على وحدانية الخالق الذى أنقذ كل شئ ، وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على وحدانية الخالق وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق الرسول الكريم فى رسالته .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٧ ط دار الفكر . (٤) سورة النحل آية : ٧٨ .

(٢) سورة فصلت الأيتان : ٥٣ ، ٥٤ . (٥) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣ .

إن الأطوار التي يمر الإنسان بها في الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿<sup>(١)</sup> . فيم خلقنا ؟ خلقنا في أرحام نخبّر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٢)</sup> . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلي كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم . ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين ونصف من السنتيمترات . والقرآن الكريم يسمي هذا الرحم ﴿ قرار مكين ﴾ حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ فجعلناه في قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* فقدرنا فنعم القادرون ﴿<sup>(٣)</sup> . هل خلقنا وصورنا في أضواء أو أشعة ؟ كلا . بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾<sup>(٥)</sup> ؟ مم خلقنا ؟ من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته في الطريق إلى الرحم نصف مليمتر في الثانية الواحدة . اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان . فكيف كان حالنا في عالم الأرحام ؟ كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالأكسجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة في الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو في الأرحام خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية . فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق دقيق ؟ ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج أمر الرحم أن تقلص عضلاته حيث أصبح الإنسان ضعيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبّر الإنسان هذا المضيق الدقيق . والقرآن يجمع تلك الحقائق في آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شيء خلقه ﴾ من نطفة خلقه فقدره \* ثم السبيل يسره ﴿<sup>(٦)</sup> . فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ يقول عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٧)</sup> .

وبعدما أقام الدليل على الوحدانية بآية الخلق ، بين الغرض السامى والهدف الأعلى المترتب على عبادته وحده فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ولعل هنا تفيد الغاية والتعليل ، أى لتتقوا ولا تفيد الترجى ، لأن الترجى توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع فيه جهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ، إذاً فلتأت هذه الكلمة بمعنى يليق بذات الله فيكون معناها الحكمة والغرض . والتقوى هى السلاح الأقوى ، فمن عرف الله اتقاه ومن اتقى الله خافه ومن خاف الله أطاعه ومن أطاع الله اجتنب النواهي وامتنثل الأوامر ، ومن كان كذلك

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٦ .

(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣ .

(٤) سورة الزمر آية : ٦ .

(٥) سورة الطارق آية : ٥ .

(٦) سورة عبس الآيات : ١٨ - ٢٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٧٨ .

فقد انخرط في سلك المقرين الذين قال فيهم جل شأنه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴿ ١ ﴾ . والتقوى كما قال الإمام على رضى الله عنه : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل :

ولست أرى السعادة جمع مال      ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً      وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذى يأتى قريب      ولكن الذى يمضى بعيد

وينتقل بنا النظم الكريم من آية الخلق إلى آية أخرى ، هى خلق الأرض وكيف شملتها العناية الإلهية بكل رعاية فجعلتها مهية للعيش عليها كما جعلتها صالحة للحياة فوقها ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٢) . قال جل شأنه ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ أى مهادة مبسطة وهو قوله جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴿ (٣) . وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٤) . وقوله جل شأنه : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ (٥) . وقال عز وجل : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٦) . وفي هذه الآيات دعوة إلى كل عاقل أن يأخذ منها درساً وعبرة ، فيكون كالإبل فى الصبر وقوة التحمل ، ويكون كالسما عزة وكرامة ، ويكون كالجبال رسوخاً وشموخاً ، ويكون كالأرض تواضعاً وكرماً .

أندرى ماذا تقول الحقائق العلمية عن هذه الأرض ؟ .

يقول الدكتور فرانك الين فى بيان حكمة الله الرائعة والبديعة فى خلق الأرض على ماهى عليه : لو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو حتى لو أن قطرهما كان ربع قطرها الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت . أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ماهى عليه وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائى وزاد الضغط الجوى من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة على سطح الأرض . ولو كانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها مائة وخمسين ضعفاً ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى إلى أربعة أميال بدلا من خمسمائة ميل ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولا ترتفع الضغط الجوى إلى مايزيد على مائة وخمسين كيلو جراما على السنتيمتر المربع ، ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حالياً

(٤) سورة الملك آية : ١٥ .

(٥) سورة النبأ آية : ٦ .

(٦) سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .

(١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) سورة طه آية : ٥٥ .

(٣) سورة نوح الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .



رطلاً واحداً إلى مائة وخمسين رطلاً ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها تهبط للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا . سبحان القائل : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهي ﴿ (١) 》 .

إن ما ساقه العلم من حقائق دليل على العناية والإتقان لا يقوى عليه إلا باري السموات والأرض . فاسألوا الدنيا بأسرها من الذي أوجد الأرض على هذا الوجه المتقن : هل الطبيعة الصماء ؟ هل الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

يقول الدكتور كريس موريسون : « والكرة الأرضية تدور حول الشمس بسرعة معدلها ثمانية عشر ميلاً في الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية ، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا . ثم إن الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ، ولهذا دواعٍ دعت إليه ، فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالاً وجنوباً مكدياً في طريقه قارات من الجليد ، وربما ترك صحراء عند خط الاستواء من الملح ، وفي هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح لتكون بركاً مؤقتة من الملح الأجاج ، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين فيؤدي ذلك إلى فرط خط الاستواء أو فورانه أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض ويقلل هطول المطر في كافة أرجاء العالم بما ينتج عن ذلك من عواقب مخيفة . ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلاً بدلاً من المسافة الشاسعة التي يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين في اليوم بماء متدفق يزيج بقوته الجبال نفسها ، وفي هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذي في الهواء يحدث أعاصير كل يوم » . ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ (٢) 》 .

وينتقل بنا النظم الكريم من الأرض إلى السماء فيقول جل شأنه : ﴿ والسماء بناء ﴾ وإنما قدم الحديث عن الأرض على الحديث عن السماء لأن الأرض أمنا التي نحيا بين أحضانها ونغذى باللبانها وننشق هواءها ونشرب ماءها ، وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (٣) ، وإنما جعلت السماء بناء ، أي في إتقان نجومها وكواكبها وما أودع الله فيها

(١) سورة طه الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة فصلت آية : ١٠ .

(٣) سورة لقمان آية : ١١ .

من سدم ونيازك ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾<sup>(١)</sup> . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والسما بنيانها بأيد  
وإنا لموسعون ﴾ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾<sup>(٢)</sup> ،  
يفسر هذه الآية قوله جل شأنه : ﴿ سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما  
لا يعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> . فالمملكة النباتية التى تتركب من الخلايا فيها الذكر والأنثى ، والمملكة الحيوانية كذلك فيها  
الذكر والأنثى ، وعالم الجماد يتركب من الذرات والذرة فيها السالب والموجب فكل المخلوقات كما أخبر  
الخالق ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾<sup>(٤)</sup> . أما الذى لا يوصف بالزوجية فهو الله الأحد الفرد الصمد الذى  
﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ولم يكن له كفوا أحد ﴾<sup>(٥)</sup> . إذا كان ذلك كذلك ففروا إلى الله ، فإنه لا ملجأ ولا منجى  
منه إلا إليه ، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ،  
ومفرغ كل ملهوف ، ورضى كل يؤوس . من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه  
رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد  
وفى كل شيء له آية تدل أنه الواحد

وسبحان من أقسم قائلاً : ﴿ والسما ذات الحبك ﴾<sup>(٦)</sup> وسبحان من أرشد خلقه إلى النظر فى عالم  
السما بإتقان وفكر ثاقب فقال : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع  
البصر هل ترى من فطور ﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ ولقد زينا السما  
الدنيا بمصابيح ﴾<sup>(٧)</sup> .

فأنصت معى إلى لسان العلم يحدثك حديث الدارس الواعى عن عالم الفلك . يقول الدكتور سيسل  
هامان : إذا رفعنا أعيننا نحو السما فلا بد أن يستولى علينا العجب من كثرة مانشاهده فيها من النجوم  
والكواكب السابحة فيها والتى تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى وتعاقت عليها  
الفصول والأعوام والقرون . إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا أن نوحّد خالق هذا النظام البديع .

إن عالم الفلك عالم عجيب نطق بعظمته وبروعته قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس  
والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(٨)</sup> .

إن فى لفظ التسخير ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر  
الله ، وفى قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ إشارة عجيبة ، فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر  
وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والابداع . فماذا  
يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق

(٥) سورة الاخلاص الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٦) سورة الذاريات الآية : ٧ .

(٧) سورة الملك الآيات : ٣ - ٥ .

(٨) سورة النحل آية : ١٢ .

(١) سورة النمل آية : ٨٨ .

(٢) سورة الذاريات الآيات : ٤٧ - ٤٩ .

(٣) سورة ياسين آية : ٣٦ .

(٤) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

بها كلماته ؟ وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العالم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العالم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل ، ففي كل مرة يصل العالم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رصدًا إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة وما زال العالم يواصل أبحاثه في استحداث وسائل جديدة للرصد . ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير جيمس جينز في كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حببيات الرمل التى تغطى شواطئ البحار فى العالم كله » ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكتها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ستين نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » . ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساوٍ تقريباً لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات كل يوم فلا بد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التى نعيش عليها فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ، وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته ، فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب كما للشمس فقط فياترى كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم » .

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود . فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً فى كل يوم ٢٤ ساعة وفى كل ساعة ستون دقيقة وفى الدقيقة ستون ثانية لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدم وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة ١٥ ألف ميل فى الثانية . فمتى بدأ فى حركته ومتى يقف وإلى أين ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوءه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام الوحدات فى بداية الكون . فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تبين إشعاعها . وأمر هذا الوجود ليس عجيباً فى عدد النجوم والكواكب

والمسافات التي تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذي ظل العلماء في عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم ، إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم والتي يرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التي نعرفها ؟ ولكن كيف لا تحمد لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة لكان يكفي ملايين السنين التي مرت منذ القدم أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت ملايين الدرجات ، الأمر الذي بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقليل إن السبب هو وجود عناصر مشعة في النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأي كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ثم بالانفجار الأيدروجينى في تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها . ومازال العلماء في بحوثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة وهو : كيف لا تنفنى كتلة النجم إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ؟ سبحانه ربى يا من قلت ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

يامن يحار الفهم في قدرتك      وتطلب النفس حمى طاعتك  
تخفى على الناس سنا طلعتك      وكل ما فى الكون من صنعتك

يامبدع الكائنات يامن كل فعلك حكمة بالغة يامن قلت وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ (٢) ويامن قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ أنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ . وهذان دليلان على عظمة ووحدانية الخالق بعد ما ساق من الأدلة آية الأرض وبناء السماء . فماذا يقول العليم فى حقائقه عن الماء ؟ يقول الدكتور توماس دافيز باركس : « ولكن هذا النظام الذى نشاهده فى العالم من حولنا ليس مظهرًا من مظاهر القدرة على كل شىء فحسب ، بل إنه يتصف فوق ذلك بالحكمة والاتجاه نحو تحقيق مصالح الإنسان مما يدل على أن عناية الخالق بنفع عباده لا يقل عن عنايته بالسنن والقوانين التى تنظم هذا الوجود . انظر حولك إلى الحكمة البالغة التى ينطوى عليها خروج بعض الظواهر عن العادة أو المألوف ؛ فإلى مثلاً يتوقع الإنسان من وزنه الجزئى ( ١٨ ) أن يكون غازياً تحت درجة الحرارة المعتادة والضغط المعتاد ، فالنواشدر مثلاً ووزنها الجزئى ( ١٧ ) تكون غازية عند درجة حرارة ( - ٥٩ ) ، ولذلك فإن وجود الماء على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر . وللماء فوق ذلك كثير من الخواص

(٣) سورة فصلت آية : ١٢ .

(١) سورة الأنعام آية : ٩٧ .

(٢) سورة يس الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

الأخرى ذات الأهمية البالغة والتي إذا نظر الإنسان إليها في مجموعها وجدها تدل على التصميم والتدبير . فالماء يغطي نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض ، وهو بذلك يؤثر تأثيراً بالغاً على الجو السائد ودرجة الحرارة ، ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض تغيرات في درجة الحرارة تؤدي إلى حدوث الكوارث . وللماء خواص أخرى فريدة في نوعها وتدل كلها على أن مبدع هذا الكون قد خلقه بعناية وإتقان بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التي تقل كثافتها عندما تتجمد . إن من الحقائق العلمية التي أوضحتها التجارب العلمية : إن جميع المواد إذا تجمدت زادت كثافتها فيما عدا الماء فإنه المادة الوحيدة التي تناقض هذه الحقيقة إذ تقل كثافتها عند التجميد ، لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد في البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح مخالفة بذلك القوانين العلمية التي تختص بالمواد الأخرى . وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؛ فعندما يغوص الجليد في البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحمي النباتات التي في البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

سبحان من أحيا قلوب عباده      بلوائح من فيض نور هدايه  
فالعارفون مشاهدون لفضله      مستأنسون بذكرهم إياه

أليس في ذلك أبلغ الرد على من يقول بميكانيكية الحياة ؟ ماذا يقول المكابرون في هذه الآيات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (١) والقائل : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ \* عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿ (٢) .

لا الصدفة العمياء ولا الطبيعة البكماء الصماء . كلا بل هو الله العزيز الحكيم . وقد رتب الله على إنزال الماء من السماء إخراج الثمرات من الأرض . قال سبحانه : ﴿ فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿ (٣) . ولو علمت كيف يكون هذا النبات الذى كان في أصله غضاً طرياً لنا ، لو علمت كيف يكون الخشب في جسمه لهتفت بلسان قلبك وعقلك وفكرك تقول : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ (٤) . لنجلس في محراب العلم لحظة نستمع إلى حقائقه وهو يجيب عن هذا السؤال : كيف يكون الشجر الخشب في جسمه ؟ إن للعلم كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهي . يقول المهندس عثمان حلمي في كتابه « من آيات الله في الكون » تحت عنوان « النار من الشجر الأخضر » : في عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول في إدراكها

(٣) سورة الأنعام آية : ٩٩ .

(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

(١) سورة الفرقان آية : ٢ .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ ، ٩ .

وتعليل كيفية حدوثها لأننا في الواقع لانرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة الذى تابعها النبات إلى أن وصل إلى هذه النتيجة . فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة مسألة تكون الخشب في جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لاغنى لنا عنها في حياتنا اليومية . وفي القرآن آيات تشير إلى ذلك وتذكر الناس بقدرة الخالق الخلاق العظيم لعلمهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفأرىتم النار التى توروون \* أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ (١) وعندما نتدبر نجد أنها تشير إلى أصول البحث في علوم مختلفة مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه وتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله في السماوات والأرض . وسنعالج فيما يلي تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع لها المقام . فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها وقدرها ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن في هذه الظاهرة . وفيما يلي شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكون الخشب :

دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتي منه وادخاره ليوقده عند الحاجة ، وما الفحم الحجري الذى يستخرج من المناجم الغائرة في بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت في الأرض وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن استغرقت آلاف آلاف السنين وطراً عليها في غضون تغيرات مختلفة فتكربنت ، أى تفحمت ، وأصبحت ذلك الفحم المعروف . والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أوكسجين الهواء ويدخل في تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه في جسمه . ومن عجب أن هذه الكتلة من الخشب وماتتج عنها من الفحم إنما بناها النبات من غاز ثاني أكسيد الكربون الذى يوجد في الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوى ويمثله في جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية في درجة الحرارة العادية دون غناء ملحوظ ولا أعراض ظاهرة ، في حين أن فصل الكربون عن ثاني أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائي درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها في المعمل لهذا الغرض .

والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثاني أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخصير أو الكلوروفيل ، ولذا فإن الشجر الأخضر دون سواه هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصية امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى في خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثاني

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٧١ ، ٧٢ .

أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ، ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر ، على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة في علم الذرة الحديث ، ومتى تم تحليل هذا المحلول السكرى لينتقل من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب فيخزن فيها ثم يتركز تدريجياً ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة مثل اللجنين والسبرين فتستقر في موضع التخزين وتصبح مادة صلبة هو الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت في تكوين الخشب لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن  $\frac{1}{100}$  من المليمتر بكثير مثلها من الخلايا ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة في تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات فقامت بعملها المعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض فيكوّن الخشب كما كونه النبات ؟ كلا . . لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التى أودعها الله سبحانه وتعالى في مادة الخلية وهما لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها ، فهو الذى قدر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية وقد جعل الله لعقله أفقاً محدوداً ولم يؤته من العلم إلا قليلاً ، فإذا طعن في السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله في الخلق لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ (١) . هذا الإنسان الذى يجار اليوم بقره الذرة وتحطيمها فيصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالأدماة يهلك حرثهم ويفنى نسلهم قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب خالقه مثلاً فقال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ (٢) . فأنزل الله في القرآن على نبيه ﷺ : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٣) ، ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى . وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان ما لم يعلم ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد فقال : إن الذى أنشأ العظام أول مرة ثم يحييها هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ (٤) .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً في موضعه قد استطاع أن يصيغه من الهواء والماء والضوء وفشل الإنسان في هذا المضمار الضيق وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت في تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً . ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٥) ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف

(٤) سورة يس آية : ٨٠ .

(٥) سورة الحشر آية : ٢١ .

(١) سورة الحج آية : ٥ .

(٢) سورة يس آية : ٧٨ .

(٣) سورة يس آية : ٧٩ .

الطالب والمطلوب ﴿١﴾ . فانظر كيف ضعف الإنسان وآلته التي كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة بل عن استرداد ماتسليه منه .

ألا فكم تكون ضالة قدرة الإنسان الذي قهرته الخلية الضعيلة والذبابة الدنيئة بإزاء خلق السموات والأرض وهي أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) .

وتأمل بلاغة القرآن في هذه الآيات المعجزة والتي تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا وعلم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستهزام الإنكارى في قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٣) لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم : سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذا كلفهم بالإجابة والتمعن في الكيفية التي أنشئت بها هذه المخلوقات . والفاء في قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره « أعموا » فلا ينظرون ؟ سبحانك يا قاتل : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (٤) .

وبعد أن ساق القرآن من الأدلة الساطعة والبراهين الناطقة ما يدل دلالة جازمة على وحدانية الخالق عقب بقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ والأنداد الشركاء . والله يقول في حديثه القدسي الجليل : ( أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذي أشرك ) (٥) . والإخلاص في العبادة قد بينه المولى تبارك اسمه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ فيه إلزام لهم بالحجة . فكل القلوب موقنة بأن الله وحده خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، وهو الذى سخر الشمس والقمر والنجوم والشجر :

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
ياحى ياقيوم أنت المرتجى      وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ولما بينت الآيات السابقة موقف المؤمنين والكافرين والمنافقين ووجهت دعوة عامة إلى الناس أجمعين بأن يعبدوا الله وحده لا شريك له ونصبت من الأدلة ما هو ناطق بعظمة الخالق ووحدانيته ونهت عن الشرك ، كان لابد لنا أن نسجل هنا نبذة عن الإخلاص ، وهو أن يقصد المرء بعمله وجه الله وحده ، وأردنا بذلك أن نسوق بعض الأحاديث الشريفة عن الصادق المعصوم لنعلم أن الإخلاص شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء وأن النفاق شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

(٤) سورة يوسف آية : ١٠٥ .  
(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٢٢ .  
(٦) سورة الكهف آية : ١١٠ .

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .  
(٢) سورة غافر آية : ٥٧ .  
(٣) سورة الفاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .



عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ : ( من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض ) (١) .

وعن أبي فراس قال : نادى رجل فقال يا رسول الله : ما الإيمان ؟ قال : ( الإخلاص ) (٢) . وفى لفظ آخر قال قال رسول الله ﷺ : ( سلوني عما شئتم فنأدى رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . قال فما الإيمان ؟ قال : الإخلاص . قال : فما اليقين ؟ قال : التصديق ) (٣) .

وعن معاذ بن جبل أنه قال حين بعث إلى اليمن : يا رسول الله أوصني قال : ( اخلص دينك يكفك العمل القليل ) (٤) .

وروى عن ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول : ( طوبى للمخلصين . أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء ) (٥) .

قال رسول الله ﷺ : ( إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم ) (٦) .

وعن أبي أمامة قال : ( جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( لا شيء له ) فأعاده ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : ( لا شيء له ) ثم قال : إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتغى وجهه ) (٧) .

### نبوة الصادق المعصوم

لما بين الله لعباده أنه المعبود بحق ، أثبت بعد ذلك أن معجزة القرآن معجزة خالصة تدل على صدق من نزل عليه القرآن ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ (٨) . لما كان ذلك كذلك فقد أفحم القرآن أهل الريب والشك في نبوة خاتم الأنبياء ، قال تعالى :

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

على كل مسلم أن يكون على علم بالعقائد الإسلامية ، وأولها ما يجب لله تعالى وما يجوز في حقه وما يستحيل ، فيجب لله تعالى كل كمال يليق بذاته ويجوز في حقه فعل ما يريد ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٨ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ١٨ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ١٨ .

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٩ .

(٥) المصدر السابق ج ١ ص ١٩ .

(٦) المصدر السابق ج ١ ص ١٩ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٢٠ .

(٨) سورة النساء آية : ١٦٦ .

الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴿١﴾ ، ويستحيل في حق الله كل نقص ، لأنه تعالى صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . كما يجب على كل مسلم أن يعرف ما يتعلق بالنبوات وما يدور حول المعجزات وما يتصف به الرسل من الصدق والأمانة والتبليغ والفظانة وما يتعلق بهم من العصمة ، كما يجب على المسلم أن يؤمن بالسمعيات ، وهي الأمور التي أخبرنا بها الصادق المعصوم عليه السلام من الملائكة والبعث بعد الموت والحشر والنشر والكتب والميزان والصراط والجنة والنار ، وهي التي أوجزها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ . وقد وجه القرآن في هذا المجال وفي الآيتين اللتين بين أيدينا ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ . وجه الخطاب إلى كل جاحد مراتب أو عنيد مكابر في إثبات النبوة للصادق المعصوم عليه السلام وتحداهم جميعاً أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن التي أنزلها الله على النبي الأمي الذي ثبت بالتاريخ والتواتر والعقل أنه مذهب إلى أستاذ ولا يختلف إلى معهد فمن الذي علمه هذا القرآن ؟ قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذ نزلنا به من قبله بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحجد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ (٢) . وأقصى ما قالوه في حق صاحب الرسالة أنه تعلم هذا القرآن من رجل يسمى جبراً وكان يعمل حداداً وكان رجلاً أعجمياً لا عربياً فرد عليهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولم عذاب أليم ﴿ (٣) ولقد تدرج القرآن معهم في التحدي فقال ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٤) . ثم تحداهم بعشر سور فقال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٥) ثم تحداهم بسورة فقال : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ (٦) . ثم بعد ذلك أرشدهم إلى أنهم لا يستطيعون ذلك فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٧) . ثم تأمل معي في التعقيب على هذا التحدي ، ففي سورة البقرة يقول جل شأنه : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ففي قوله جل شأنه ﴿ ولن تفعلوا ﴾ إنباء بالغيب لما سيكون عليه حالهم من العجز الشنيع بعد ما قال تعالى : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، أي هاتوا سورة وادعوا لجنة التحكيم منكم ، ومع ذلك فإنكم لن تفعلوا . وفي سورة هود يتحداهم مولانا أن يأتوا بعشر سور ، ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ (٨) ، وفي سورة الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (٩) . وقد سبق أن قدمنا بحثاً في هذا الكتاب يدور حول الإعجاز . وأى تحد بعد ما قال الله لهم ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ ثم قال لهم : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة النحل الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٤) سورة الطور آية : ٣٤ .

(٥) سورة هود آية : ١٣ .

(٦) سورة يونس آية : ٢٨ .

(٧) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

(٨) سورة هود آية : ١٤ .

(٩) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

الله ﴿١﴾ . إنه القرآن وعظمته . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٢) وشاءت حكمة الله تعالى أن يقدم إليهم النصيح الخالص فيقول لهم : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ ، وهذا نصيح لو عملوا به ما تحذوا كتاب الله الذي أفحم المعاندين ورماهم بقذائف الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٣) والمراد بالوقود هو ماتوقد به النار ، والمراد بالناس هم المشركون والمخالفون لأوامر الله ، والمراد بالحجارة الأصنام التي عبدوها ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ﴿ (٤) هذه النار أعدت للكافرين ، فهي موجودة فعلاً ، قال تعالى في شأن قوم نوح : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ (٥) ، وقال في شأن آل فرعون : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ (٦) .

عن أنس رضى الله عنه قال : ( كان أكثر دعاء النبي ﷺ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ) (٧) .

وعن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : ( اتقوا النار . قال وأشاح ثم قال اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ) (٨) .  
وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ( لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتک الأقرین ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريباً فاجتمعوا فعم وخص فقال : يا بني كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار . . يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار . . يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . . يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . . يافاطمة أنقذى نفسك من النار . فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ) (٩) .

### نور الوعد

جرت سنة القرآن الكريم أن يقرن الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب لتكون حال العبد دائرة بين الخوف والرجاء ، ومن ثم فقد جاء الوعد بعد الوعيد . فبعد ما قال الله تعالى للكافرين : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ قال في شأن المؤمنين :

وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا

(١) سورة هود آية ١٣ .

(٢) سورة الحشر آية ٢١ .

(٣) سورة الأنبياء آية ١٨ .

(٤) سورة الأنبياء الأيتان : ٩٨ ، ٩٩ .

(٥) سورة نوح آية ٢٥ .

(٦) سورة غافر آية ٤٦ .

(٧) الجامع الصغير .

(٨) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير ج ١ ص ٢٨ .

(٩) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٧٧ ط الشعب .

## وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة هي الإخبار بما يسر ، وقد تأتى بخلاف ذلك ، ويراد بها التبكيت كما في قوله تعالى : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ (١) . والذين بشروا في الآية قوم آمنوا واقتنوا إيمانهم بالأعمال الصالحة وما أكثرها وما أجلها . والإيمان : تصديق بالقلب لا بد أن يصدق العمل ، وعلى كل مسلم أن يجتمع له ثلاثة أركان : نطق باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، هذه الثلاثة تساوى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ . وفي القرآن العظيم نماذج للأعمال الصالحة نراها متمثلة في قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (٢) . كما نرى الأعمال الصالحة متمثلة في قوله عز وجل : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ (٣) . ونراها متمثلة في قوله جل جلاله : ﴿ إلا المصلين ﴾ الذين هم على صلاتهم دائمون \* والذين في أموالهم حق معلوم \* للسانل والمحروم \* والذين يصدقون بيوم الدين \* والذين هم من عذاب ربهم مشفقون \* إن عذاب ربهم غير مأمون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم بشهاداتهم قائمون \* والذين هم على صلاتهم يحافظون \* أولئك في جنات مكرمون ﴾ (٤) ، والجنات جمع جنة ، وهي الحدائق والبساتين ، والتذكير هنا للتعظيم ، هذا هو الجزء الأول : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم إن الأنهار ، جمع نهر بفتح الهاء وسكونها ، وهو الشق في الأرض يجرى فيه الماء ، ومعنى تجرى من تحتها الأنهار أو تجرى من تحتهم الأنهار أى من تحت القصور والأشجار ، قال تعالى : ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ (٥) . لماذا استحقوا هذا الجزاء ؟ لأنهم : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً \* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً \* إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً \* فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ (٦) .

هذه الجنات يقول فيها مولانا في الحديث القدسي الجليل : ( قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل :

(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ - ٣٥ .

(٥) سورة الإنسان آية : ٦ .

(٦) سورة الإنسان الآيات : ٧ - ١١ .

(١) سورة التوبة آية : ٣٤ .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١ .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .

أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واقرءوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ (١) .

وأهل الجنة إذا جيئ لهم بشمارها وفاكهتها قالوا : لقد رزقنا مثل هذا من قبل فتقول لهم الملائكة : كلوا إن اللون إن كان متشابهاً فإن الطعم مختلف . وإما أن يكون المعنى لقد رزقنا مثل هذا في الدنيا فيقال لهم : إن تشابهت الألوان فقد اختلفت الطعوم والروائح . قال ابن عباس : « لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء » . ثم ماذا ؟ ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ . والمقصود بهن الحور العين ، وهن مطهرات طهارة حسية من الحيض والنفاس والبول والغائط ، وطهارة معنوية من أذى اللسان والحقد والحسد والبغضاء .

روى مسلم أن النبي ﷺ قال : ( إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يتبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ويلهمون التسييح والتحميد كما تلهمون النفس ) (٢) . قال تعالى : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ . فبعد الجنات والأنهار والرزق من الثمار العجيبة والأزواج المطهرة جاءت النعمة العظمى وهي نعمة الخلود . إذ كيف يكون هناك نعيم ينقضه الفناء ؟ إن كل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية .

أن السلامة فيها ترك ما فيها	النفس تبكى على الدنيا وقد علمت
إلا التي كان قبل الموت بينها	لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
وإن بناها بشر خاب بانها	فإن بناها بخير طاب مسكنه
فالموت لاشك مفينا وبفيها	لا تركزن إلى الدنيا وما فيها
والجار أحمد والرحمن ناشيها	واعمل لدار غدا رضوان خازنها
والزعفران حشيش نابت فيها	قصورها ذهب والمسك طينتها

ومن أراد أن يعيش عيشة مطمئنة في مساكن طيبة ، فالعيش عيش الآخرة حيث الخلود الذي لا تشوبه قدرة الفناء والرحيل وفرقة الأحباب والصحاب والأهل والأقرباء . ومن أراد أن يعيش لحظة في الجنة وهو على وجه الأرض فليقرأ ما أعدده الله لعباده الصالحين في سور الرحمن والواقعة والدهر . خذ هذه النماذج الشريفة ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فبأى آلاء ربكما تكذبان \* ذواتا أفنان \* فبأى آلاء ربكما تكذبان \* فيهما عINAN تجريان ﴾ (٣) . . إلى آخر الآيات . وقال في سورة الواقعة : ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أولئك المقربون \* في جنات النعيم \* ثلثة من الأولين \* وقليل من الآخرين \* على سرر موضونة \* متكئين عليها متقابلين ﴾ (٤) إلى أن قال جل شأنه في نساء الجنة ، وهن النساء اللاتي كن صالحات في الدنيا : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ فجعلناهن أبكاراً \* عرباً أتراباً \* لأصحاب اليمين ﴾ (٥) . وقال تعالى في سورة الدهر : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا

(٤) سورة الواقعة الآيات : ١٠ - ١٦ .

(٥) سورة الواقعة الآيات : ٣٥ - ٣٨ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٣٦ .

(٣) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ - ٥٠ .

زمهرياً \* ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴿١﴾ إلى أن قال جل شأنه : ﴿ وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ \* إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴿٢﴾ .

عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( ربح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ) ﴿٣﴾ .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه : ( ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب . فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله . فقال فى الخامسة : رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتئت نفسك ولدت عينك . فيقول رضيت رب . قال : رب ما أعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ) ﴿٤﴾ .

### ضرب الأمثال

\* إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ لا يستحي ﴾ : الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به ويذم . والمراد به هنا لازمه وهو الترك والامتناع . ﴿ فما فوقها ﴾ : فما دونها فى الصغر . ﴿ الفاسقين ﴾ : أصل الفسق فى كلام العرب الخروج عن الشيء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه . ﴿ ينقضون ﴾ : النقض فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء أو حبل . ﴿ الميثاق ﴾ : العهد المؤكد باليمين ، وهو أبلغ من العهد .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل

(٣) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٧ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣١٨ .

(١) سورة الإنسان الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة الإنسان الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴿١﴾ . وقوله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ ﴿٢﴾ . أثر تنزيهه من مطلق الرب بما تحداهم به في الآيات السابقة إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن في القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم والحقير يمثل له بالحقير . فأى عيب في ضرب الأمثال ولها حكمته البالغة ؟ فقد تضرب الأمثال للتوضيح والبيان ، وحتى ينزل المعقول منزلة المحسوس ، ولذا لما ضرب الله مثلاً بالعنكبوت عقب على ذلك بقوله : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ﴿٣﴾ . وقال جل شأنه في آية أخرى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ ﴿٤﴾ . وضرب الأمثال مأخوذ لغة من ضرب النقود ، أى بالتأثير فيها بالنقش والكتابة . كذلك لضرب المثل أثر في النفوس من تبين ووضوح ، والمثل هو الحال العجيبة ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وما كان ذلك إلا ليكون كلام الله واضحاً في نفوس عباده . وقد صدق الله إذ يقول : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ ﴿٥﴾ . ويقول : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ ﴿٦﴾ . ويقول : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ ﴿٧﴾ . وقد ضرب الله الأمثال في مواقع كثيرة ومواطن متعددة ؛ فمن ذلك قوله جل شأنه : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ ﴿٨﴾ . أعلمت كيف أصبح المثل موضعاً تمام الإيضاح لقضية من أدق قضايا العقائد في توحيد الله ؟ ومثل آخر يقول الله فيه : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿٩﴾ . يريد سبحانه أن يقول : كيف ترضون الشركاء لى وأنتم لا ترضون لعبيدكم وخدمكم أن يكونوا شركاء لكم في أرزاقكم ؟ إن الذى لا ترضونه لأنفسكم وأنتم عبيد كيف ترضونه لخالقكم وهو الواحد القهار ؟ هل ترضون أن تكونوا سواء مع ما ملكت أيمانكم تخافونهم كخيفتكم أنفسكم فكيف ترضون ذلك لى ؟ ثم يبين جل جلاله الحكمة من ضرب هذا المثل فيقول : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿١٠﴾ ، ومثل آخر يقول فيه سبحانه : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ ﴿١١﴾ . فهل ضرب الأمثال بالأشياء التى رآوها حقيرة يكون سبباً في امتناع الله عن ضرب المثل ؟ ﴿ إن الله لا يستحي ﴾ ، أى يمتنع ولا يترك ضرب المثل من أجل أن يكون المضروب له المثل حقيراً ، فالمثل العظيم يضرب للعظيم وغيره يضرب لغيره .

- (٧) سورة القيامة آية : ١٩ .  
 (٨) سورة آل عمران آية : ٥٩ .  
 (٩) سورة الروم آية : ٢٨ .  
 (١٠) سورة الروم آية : ٢٨ .  
 (١١) سورة النمل آية : ١١٢ .

- (١) سورة الحج آية : ٧٣ .  
 (٢) سورة العنكبوت آية : ٤١ .  
 (٣) سورة العنكبوت آية : ٤٣ .  
 (٤) سورة الحشر آية : ٢١ .  
 (٥) سورة هود آية : ١ .  
 (٦) سورة الإسراء آية : ١٢ .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتي على قدر الكرام المكارم  
ويعظم في عين الصغير صغيرها      وتصغر في عين العظيم العظائم

بل إن الله تعالى قد يضرب المثل بما هو فوق البعوضة صغيراً وضالّة . ثم بعد ذلك يبين العلي الحكيم موقف المؤمنين والكافرين من ضرب الأمثال فقال : ﴿ فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ : أى أن المؤمن عندما يسمع المثل يعتقد اعتقاداً جازماً لا يعتريه شك أن الله ماساق هذا المثل إلا لحكمة بالغة وهدف أسمى ، لأن العتب على الله محال ، بل إن رسول الله ﷺ قد ضرب المثل بما هو أقل من جناح البعوضة في قوله ﷺ : ( لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء ) (١) . فالؤمنون ثابتون على أن كلام الله حق ، والمثل من كلام الله ، فهو حق . وأما الكافرون فإنهم مرتابون شاكون ، يسألون سؤال معاند وجاحد كؤود : ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ؟ وكيف يكون كلام الله قد ذكر فيه البعوض والنمل والذباب ؟ هل جهل هؤلاء أن الله تحدى بالذباب قوماً عبدوا غيره أن يأتوا أو يخلقوا ذباباً ؟ إنهم عاجزون عن استنقاذ أى شيء يسلبهم الذباب ضعف الطالب والمطلوب . وأى عجب أن يضرب الله الأمثال بما خلق ؟ أليس هو القائل : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ (٢) ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ﴾ ( ما ) أى أى مثل . فسبحانه يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة .

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الآيات للإمام الزمخشري وهو يناجى ربه فأقول سبحان الله ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام . والآيات هى :

يامن يرى مد البعوض جناحه      فى ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها فى نحرها      والمخ فى تلك العظام النحل  
ويرى ويسمع ما يرى مادونها      فى قاع بحر زاخر متجندل

وازداد عجبى عندما قرأت هذا البحث الذى قام به البروفيسير « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد : « يقوم الدكتور أردين ليا من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب مستخدماً أدوات جراحية دقيقة مثل التى يستعملها صانع المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور ( ليا ) أكثر من خمس دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض الطيران . ويقوم الدكتور ( ليا ) أستاذ علم الحشرات وطبائعتها بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض والذى ينتشر فى المستنقعات ، وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور ( ليا ) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من مخ البعوضة ، وكذلك بعض الغدد من الرقبة . وقد وجد الدكتور ( ليا ) أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة » .

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر . (٢) سورة الزمر آية : ٦٢ .



فإذا كان هذا شأن البعوضة التي ضرب القرآن بها مثلاً فقال : ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً مابعوضة فما فوقها ﴾ ، فما بالك بهذه الخليقة وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها واجمة عبقریات العباقرة والمفكرين ! .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ﴾ ومشية الله منزهة عن العتب . إن الإضلال والهداية هنا جاءا بناء على موقف كل من الفريقين . أما الذين قالوا ﴿ إنه الحق ﴾ فهو لاء هم أهل الهداية ، وأما الذين تشككوا وارتابوا وقالوا ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ ، فهم أهل الإضلال والغواية ، وهذا منطق العدالة الإلهية ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾<sup>(١)</sup> ، إذ العدل وضع الشيء في موضعه . قال تعالى في حق أهل الغواية : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال أيضاً : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال في النص الذي بين أيدينا : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ ، والفسق هو الخروج عن طاعة الله . ثم وصف هؤلاء بما جعلهم أهلاً للإضلال والضلال والغواية والبعد عن طاعة الله فقال : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ ، فهم أولاً فاسقون خارجون على حدود الله وإطاعة أوامره . وهم ثانياً : ناقضون للعهد ، ونقض العهد بمعنى التحلل منه وعدم الوفاء به ، وعهد الله هو ميثاقه المؤكد باليمين ، وهؤلاء نقضوا عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهو الميثاق العام الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أو تقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون<sup>(٤)</sup> . ﴿ كما أن هناك عهداً وميثاقاً أخذته الله على الأنبياء . قال تبارك اسمه : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾<sup>(٥)</sup> . وهناك عهد أخذته الله تعالى على العلماء في قوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبش ما يشترون ﴾<sup>(٦)</sup> . وقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾<sup>(٧)</sup> . وحذر سبحانه من نكث العهود فقال : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾<sup>(٨)</sup> . وهؤلاء الفاسقون الناقضون للعهد بعد توكيدها بالميثاق نقضوا عهد الله عندما كفروا به بعد أن أراهم الله آياته في الآفاق وفي أنفسهم ، وبعد ماتبين لهم أنه الحق ، وقد أمدهم سبحانه بالفعل المميز وأرسل إليهم رسلاً وأنزل كتباً تهدي إلى صراط مستقيم . ولم يكن أمرهم مقصوراً على ذلك بل قطعوا ما أمر الله به

(٥) سورة آل عمران آية : ٨١ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .

(٧) سورة النحل آية : ٩١ .

(٨) سورة النحل آية : ٩٢ .

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .

(٢) سورة فصلت آية : ١٧ .

(٣) سورة الصف آية : ٥ .

(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ - ١٧٤ .

أن يوصل ، فقطعوا ما أمر الله بوصله عندما آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴿١﴾ . وقطعوا ما أمر الله بوصله عندما قطعوا الأرحام ، والله تعالى يقول : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ ﴿٢﴾ ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فإن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله . فمخالفة أمر الله فيها أمر بوصله يعتبر قطيعة ، والاعتداء على أهل الخير والصلاح وظلم أهل الإيمان بتعذيبهم وتشريدهم إنما هو قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : ( من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ) ﴿٣﴾ . وقتل الذين يأمرون الناس بالقسط قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ﴿٤﴾ . ثم ماذا ؟ ﴿ ويفسدون فى الأرض ﴾ . والإفساد فى الأرض له وجوه لا تحصى ومواقع لا تستقصى . فالاعتداء على النفس أو المال أو العرض أو العقل أو العقيدة أو غير ذلك فساد وإفساد ، ونسوق هنا بعض وجوه الفساد التى حذر منها خير العباد محمد ﷺ .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى : كنت آمر بالمعروف ولا آتية وأنهى عن المنكر ؟ وآتية ) ﴿٥﴾ . رواه البخارى ومسلم .

وروى عن الوليد بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم وصلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل ) ﴿٦﴾ رواه الطبرانى . ومن وجوه الفساد ماورد النهى عنه فى قوله ﷺ : ( يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغفلوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته ) ﴿٧﴾ رواه أبو داود . ومن وجوه الفساد ماورد التحذير منه فى قوله ﷺ : ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ) ﴿٨﴾ رواه البخارى .

ومنها قوله ﷺ : ( لعن الله الخمر وشاربها وساقياها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه ) ﴿٩﴾ رواه أبو داود .

(٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٩ . ط وزارة الأوقاف .

(٧) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٠ .

(٨) المصدر السابق ج ٣ ص ١٩٦ .

(٩) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٩٦ .

(١) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) سورة النساء آية : ١ .

(٣) رياض الصالحين للإمام النووى ص ١٣١ ط دار التراث .

(٤) سورة آل عمران آية ٢١ .

(٥) رواه الشيخان .

وقال ﷺ : ( والذى نفسى بيده ليبتن أناس من أمتى على أشرب ويطر ولعب وهو فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم واتخاذ القينات وشربهم الخمر وبأكلهم الربا ولبسهم الحرير )<sup>(١)</sup> رواه عبد الله بن الإمام أحمد . وقال ﷺ : ( يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير )<sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجه وابن حبان .

وتأمل معى ما ذكره الله تعالى فى حق هؤلاء الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، تجد الأسلوب هنا قد جاء بصيغة الفعل المضارع : ينقضون - يقطعون - يفسدون . وهذا الفعل يفيد الحال وقد يفيد الاستقبال بمعنى أنهم متلبسون بأفعالهم لم ينتهوا عنها ، فاستحقوا بذلك أن يحكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ . وهكذا بأسلوب اسم الإشارة وضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وأداة التعريف ( ال ) وهو أسلوب يدل على الحصر والقصر ، أى أولئك هم الخاسرون لا غيرهم ، فقد خسروا سعادة الدارين وخسروا أنفسهم وهم فى جهنم خالدون . وإنما كانت خسارتهم لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان واشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فيا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك . ويا حى يا قيوم برحمتك نستغيث .

### شئ عجيب

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

إنه لشئ عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء بمن أوجدهم من العدم ، وهل يقوى على ذلك غيره ؟ وإنه لشئ عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء الجاحدون بمن أقام من الأدلة ماتنبهر به النفوس وتندعش له العقول : سماوات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ، ألا يكفى كل هذا على وجود العليم الخبير ؟ . سئل الإمام على رضى الله عنه : هل رأيت ربك ؟ فقال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا : فكيف رأيت ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ فقال : ومتى غاب عنى سبحانه ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحد الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

دواؤك فيك وما تبصر      ودواؤك منك وما تشعر  
وأنت الكتاب المبين الذى      بأحرفه يظهر المضمهر  
وتزعم أنك جرم صغير      وفيك انطوى العالم الأكبر

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧ .

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ وهو الذى أحياكم بعد موتكم ، وهو الذى يميتكم بعد حياتكم ، وهو الذى سيحييكم بعد موتكم ، وهو الذى إليه المآب والرجعى ، وذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ (١) . فالموتة الأولى هى التى كانت قبل نفخ الأرواح فى الأشباح ، والموتة الثانية هى التى ستكون فى الدنيا . والحياة الأولى كانت بعد نفخ الأرواح ، والحياة الثانية تكون بعد إعادة الأرواح إلى أجسادها يوم القيامة . فهناك موتتان وحياتان ورجوع إلى الله ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ كلا لاوزر \* إلى ربك يومئذ المستقر \* ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴿ (٢) . كيف تكفرون بالله وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ، يغذيكم بنعمه ويربيكم بآلائه وكرمه .

والبر والبحر فيض من عطياه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبره والحوت ناجاه	والطير سبحه والوحش مجده
والنحل يهتف حمداً فى خلاياه	والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى وربى ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

أتكفرون بمن هذا شأنه وقد سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، ثم قصد إلى السماء بعد خلق الأرض فأنتم خلقهن سبع سموات ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبثنا فيها من كل زوج كريم ﴾ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿ (٣) فيسألون من الذى أبدع الكائنات وخلق الكونيات : الطبيعة الصماء أم الصدقة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ﴾ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ (٤) . أتكفرون بهذا الخالق الذى أحل لكم ما فى الأرض ؟ فالأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد دليل على الحظر : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءالله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ (٥) ، إن الذى أمات وأحيا ثم أمات وأحيا هو بكل شئ عليم ، فقد رته باهرة وعلمه شامل كامل أزلى قديم ، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ آية اشتملت على الزمان كله بآزاله وآماده وآباده ، وإن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(٤) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .

(٥) سورة يونس آية : ٥٩ .

(١) سورة غافر آية : ١١ .

(٢) سورة القيامة الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٣) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١ .

## قصة البشرية

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۚ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ ۖ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢٢﴾ قَالَ يَتَّبِعُ آدَمَ أَنْبَهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَاهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٢٣﴾

للقصة في القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى ، ففيها إثبات النبوة للنبي الأُمي صلوات رب وسلامه عليه . وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة . وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (١) .

فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن في القصة ما يدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبي صادق كل الصدق مؤيد كل التأيد في نبوته . فمن الذي أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم في أوطانهم ولم يعاصرهم في أزمانهم ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد ؟ ومن ثم فإننا لنرى كثيرا من القصص القرآني يختم بما يدل على هذا . فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ (٢) . يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (٣) . فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وتحركنا مع أحداثها من بلد إلى بلد ، ومن حدث إلى حدث ، وواكبنا وقائعها ، ألفينا أن الله تعالى وجه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه ، بعد ما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ (٤) . توجه الخطاب الرباني إلى النبي الأُمي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (٥) ، ثم يختم السورة الكريمة بما

(٤) سورة يوسف آية : ١٠١ .

(٥) سورة يوسف آية : ١٠٢ .

(١) سورة هود آية : ١٢٠ .

(٢) سورة هود آية : ٤٨ .

(٣) سورة هود آية : ٤٩ .

يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(١)</sup> . فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة في سورة طه . . نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ <sup>(٢)</sup> . وإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى في سورة القصص وجدنا أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يوجه الخطاب في نهايتها إلى مبعوث العناية الإلهية فيقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين \* ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين \* وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ <sup>(٣)</sup> . فإذا ما انتقلنا إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

فمن الذى أوحى إلى نبيه بأنباء الغيب ؟ إنه العليم الخبير : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾ <sup>(٥)</sup> . والوحي دليل النبوة ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ <sup>(٦)</sup> . قال تعالى مخاطباً شمس الهداية الربانية : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾ <sup>(٧)</sup> .

ولحكمة ما أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آية وكمالاً لرسوله الكريم . قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون \* بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ <sup>(٨)</sup> . حتى لا يقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أثيم إن محمداً قرأ الكتب السابقة ووعى مافيهما ثم أداها كما قرأها . والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت ، والتواتر يروى أن محمداً ﷺ قضى حياته بينهم في مكة قبل البعثة أربعين عاماً . وقد جاء ذلك صريحاً في كتاب الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم \* قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون \* فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ <sup>(٩)</sup> .

فإذا ما انتقلنا إلى الغرض الثانى من القصة القرآنية ، وهو الجانب التربوى وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ <sup>(١٠)</sup> ، فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله تعالى قد تكون بالقُدوة الصالحة والتي بينها القرآن الكريم بياناً كافياً

- |                                   |                                      |
|-----------------------------------|--------------------------------------|
| (١) سورة يوسف آية : ١١١ .         | (٦) سورة النساء آية : ١٦٦ .          |
| (٢) سورة طه آية : ٩٩ .            | (٧) سورة النساء آية : ٧٩ .           |
| (٣) سورة القصص الآيات : ٤٤ - ٤٦ . | (٨) سورة العنكبوت الآيات : ٤٨ ، ٤٩ . |
| (٤) سورة آل عمران آية : ٤٤ .      | (٩) سورة يونس الآيات : ١٥ - ١٧ .     |
| (٥) سورة هود آية : ٤٩ .           | (١٠) سورة يوسف آية : ١١١ .           |

شافيا ، وحذر الدعاة أن تخالف أقوالهم أفعالهم . قال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ . وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ (١) ، وقال جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون \* كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٢) .

وكما أن التربية تكون بالقدوة ، كذلك تكون بالموعظة الحسنة ، ولا بد من متابعة النفس بالموعظة ، إذ أن النفس كزجاجة الدواء إن لم ترج قبل استعماله ترسبت فيها العقاقير ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وإن لم يملأها شيء ملأها الهواء . قال تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٣) .

كذلك تكون التربية بالقصة ، ويكفيك أن تأخذ مثلا على هذا قصة يوسف وما احتوته من عبرة وحكم بالغة . فقد انتقل يوسف من بين أحضان أبيه عندما انتزعه أيدي لإخوته وألقي في غيابة الحب ثم انتقل إلى قصر العزيز واستعصم بالله واجتاز محنة المراودة ، ولم تنسه شدة السجن أن يدعو إلى ربه . وانتقل بعد ذلك إلى ملك مصر فكان على خزائن الأرض وجمعه الله بإخوته ، وكانت هناك أحداث ومباحثات إلى أن جمع الله شمل الأسرة ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . . وهكذا تكون التربية باستنباط العبر وتكون الدعوة باستخلاص الدروس . نعم لقد كان في قصصهم عبرة .

كذلك تكون التربية والدعوة بالتعليق على الأحداث الجارية على وجه الأرض أول بأول بحيث يضرب الداعية والحديد ساخن . كذلك تكون التربية بتطبيق العقوبات على الذين لا تردعهم الحجج الساطعة ولا البراهين القاطعة . وقد جمع الله الفريقين في قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴾ (٤) . فالناس قسمان : قسم تكفيه الحجة والبرهان ، وقسم : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولئى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ (٥) . . يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ (٦) . هذا القسم يردع بالعقوبة حتى لا تنتقل عدواه المدمرة إلى غيره من أصحاب العقول الرشيدة .

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبى ﷺ وتصديره على ما يلائقه من أذى قومه . وقد جاء مصداق ذلك فى سورة هود ، فبعدما قص الله عليه قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، قال الله له فى نهاية السورة : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون \* وانظروا إنا منتظرون \* والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٧) . وفى هذا المجال يقول سبحانه لصفوة خلقه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى

(٥) سورة لقمان آية : ٧ .

(٦) سورة الحج آية : ٨ .

(٧) سورة هود الآيات : ١٢٠ - ١٢٣ .

(١) سورة هود آية : ٨٨ .

(٢) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الذاريات آية : ٥٥ .

(٤) سورة الحديد آية : ٢٥ .

يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون \* ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين \* وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين \* إنما يستجيب الذين يسمعون ﴿١﴾ . ويقول جل شأنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ﴿٢﴾ . إلى غير ذلك من الآيات التي كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ برذا وسلاما تخفف عنه ما يلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم ، قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ﴿٣﴾ .

ولنأخذ الآن في تفسير قصة آدم : فإنه تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والإيجاد في قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ بين لهم بعد ذلك تشريفه لأبيهم الذين جاءوا من صلبه ، وكيف ذكره في العالم العلوي والملائي الملائكي ، وأنه تعالى لما خلق لنا ما في الأرض جميعا وسخر لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه امتن على أبنينا آدم بالخلافة ليقيم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة . وليس ثمة أدنى شك في أن تشريف الآباء تشريف للأبناء ، وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد . فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ . تقديره اذكر لقومك يا محمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المربي عباده على كرمه ورزقه . ماذا قال ؟ إنه قرار إلهي لا يقبل النقض : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أى يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض . أو إني جاعل في الأرض أقواما يخلف بعضهم بعضا . فالمعنى الأول من باب قوله جل شأنه : ﴿ يادادونا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ﴿٤﴾ . والمعنى الثانى من باب قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ ﴿٥﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إني جاعل في الأرض ﴾ يفيد أنه خلق لعامة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها لحكمة بل لحكم . من تلك الحكم : أنه سيأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه . كذلك أبنائوه يخالفون ثم يتوبون . ففعل الله منزّه عن العيب . ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمرها وتعمرها أبنائوه من بعده . قال : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ ﴿٦﴾ . ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ﴿٧﴾ .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : عجبت لابن آدم يتكبر على وجه الأرض وهو حفنة من ترابها ، وكيف يتكبر وهو الذى تنته عرقه وتؤذيه بقعة وتقتله شرقة ؟ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قدرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل في جوفه العذرة :

(٥) سورة الأنعام آية : ١٦٥ .

(٦) سورة الأعراف آية : ٢٥ .

(٧) سورة طه آية : ٥٥ .

(١) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ - ٣٦ .

(٢) سورة فصلت آية : ٤٣ .

(٣) سورة فاطر آية : ٨ .

(٤) سورة ص آية : ٣٦ .



يا مدعى الكبر إعجابا بصورته      انظر خلالك إن التثني تثير  
لو فكر الناس فيها في بطونهم      ما استشعر الكبر شيان ولا شيب  
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا      أكثر فإنك مأكول ومشروب  
كيف تتكبر يا ابن آدم والقبر يناديك كل يوم : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهري لأننى غدا سأضمك في بطنى .

أتيت القبور فناديتها      فأين المعظم والمحتقر  
وأين المذل وسلطانه      وأين المباهى إذا ما افتخر  
تساووا جميعا فما غبر      وماتوا جميعا ومات الخبر  
تروح وتغدو بنات الثرى      فتمحو محاسن تلك الصور  
فيا سائل عن أناس مضوا      أمالك فيما مضى معتبر ؟  
فماذا قالت الملائكة في هذه الحضرة الإلهية المقدسة ؟ ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ؟ إن هذا استفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم ، وهو استفهام خالٍ من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . قال تعالى في حقهم : ﴿ بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ (١) ، وقال في شأنهم : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٢) . وإنما قالت الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ لأنها رأت ما كان يفعله الجن قبل خلق آدم من وجوه الفساد والإفساد . وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون \* والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٣) أى من قبل آدم . فقااست الملائكة هؤلاء الذين سيخلقون على الذين خلقوا من قبل . قالت الملائكة لرب العزة : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ . التسبيح هنا المراد به التثنية . ومعنى التسبيح بالحمد أى نسبح تسبيحا مقترنا بالحمد فنقول : « سبحان الله وبحمده » والتقديس هو التعظيم والتطهير . ولتسبيح الله فضل عظيم عند الله ، قال النبي ﷺ : ( الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض ) (٤) .

ولذا جاء التسبيح في القرآن الكريم بصيغ مختلفة : جاء بصيغة الماضي ﴿ سبَّحَ الله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ (٥) وجاء بصيغة المضارع : ﴿ يسبَّح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ (٦) . وجاء بصيغة الأمر : ﴿ سبِّحْ اسم ربك الأعلى ﴾ (٧) وجاء بصيغة المصدر : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ (٨) . وجاء بصيغة الصفة : ﴿ فلولوا أنه كان من المسبحين \* للبت فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ (٩) .

- (١) سورة الأنبياء الأيتان : ٢٦ ، ٢٧ .  
(٢) سورة التحريم آية : ٦ .  
(٣) سورة الحجر الأيتان : ٢٦ ، ٢٧ .  
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .  
(٥) سورة الصف آية : ١ .  
(٦) سورة الجمعة آية : ١ .  
(٧) سورة الأعلى آية : ١ .  
(٨) سورة الصافات آية : ١٨٠ .  
(٩) سورة الصافات الأيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .

قال لهم مولانا جلّ جلاله : ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ أي إن في علمي من الحكم البالغة ما لا تعلمونه أنتم ، فإن في ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير ، فإن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . إن الملائكة دائما مطبوعة ومجبولة على طاعة الله . قال النبي ﷺ : ( أطت الساء أطا وحق لها أن تنط . ما من موضع قدم في الساء إلا وفيه ملك قائم أو راع أو ساجد لله ثم يقولون : وعزتك وجلالك ما عبدناك حق عبادتك ، والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا ) . ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ (١) .

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لظلمهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب (٢) .

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر ، أو بالإجماع إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى في جماعة صالحين كذلك كما فعل عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبيعته أو مبايعته واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور . ويجب أن يكون الخليفة ذكرا حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء .

ولما كان آدم عليه السلام جديرا بالاستخلاف في الأرض وتعميرها ، فقد أراد ربك أن يظهر فضله على آدم ويبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة . قال تعالى : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ . ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها . فلولا أن الله تعالى سَمَّى الأسماء بأسمائها وجعل الأسماء علامة عليها لتوقفت مصالح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم . فخبرني بربك لو لم نعلم أسماء الأشياء كيف كنا نتعامل ؟ فإذا كنت تريد مثلا أن تباع فرسا وأنت لا تعرف اسمه أو تريد التنزه على شاطئ النهر ، فهل كنت ستأخذ صاحبك حتى تريه الفرس وتقول له : أريد بيع هذا ؟ ! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابئك أن يشتريه فماذا كنت تقول له ؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لا تعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له ؟ أعلمت لماذا علم الله آدم الأسماء كلها ؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته ؟ العلم نور والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلماء ورثة الأنبياء ﴿فوجدنا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنني مما علمت رشدا ؟ قال إنك لن تستطيع معي صبرا \* وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا \* قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴿٣﴾ . إن الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يستطيعون عمارة الأرض . أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزواج والتكاثر والمأكول والمشرب والملبس والتنقيب عما في

(٣) سورة الكهف الآيات : ٦٥ - ٦٩ .

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٢٦٤ وما بعدها .

باطن الأرض ؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة ، فإنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، بل يسبحون الليل والنهار لا يفترون . شهيقهم وزفيرهم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومن ثم فإن المكلف بمعرفة الأساء هو آدم ، لأنه سيتعامل معها . وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة ويقول لهم أنبئوني بأسماء هذه المسميات ، ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله فتزده الله التنزيه الذي يليق بذاته قائلة : ﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم ﴾ وحذك الذي أحاط علمك بكل شيء ، فقد وسعت كل شيء رحمة وعلما ، وأنت ﴿ الحكيم ﴾ الذي تضع الأشياء في نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها . فالعبث عليك محال يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . وهنا قال الله تعالى : ﴿ يا آدم أنبئهم بأسمائهم ﴾ أى أخبرهم بها ، فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى . فقال لهم المولى جل جلاله : ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ﴾ ، أى ما غاب عنكم في السماوات والأرض ، فهو سبحانه وتعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> . بل إنه تعالى يعلم القول : ﴿ قال رب يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم : ﴿ أنجعل فيها من يفسد فيها ﴾ وما كنتم تكتمونه في أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم . فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة في الأرض ينشر العدل ويقيم أسس الحق . أما قوله تعالى : ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى في قولكم إن الله لن يخلق أعلم منا ، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات . وجلت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحا زوجين وأنجبا من الذرية ما بلغ اليوم خمسة آلاف مليون من البشر : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

### آدم والملائكة وإبليس

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَقُلْنَا يَتَّخِذُمْ آسَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

(٣) سورة النساء آية : ١ .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٤ .

مِمَّا كَانَا فِيهِ ۚ وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ  
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ  
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلُ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ  
عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا  
لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۚ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتَقُونَ  
﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
وَاءْتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ \* أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ  
وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ  
إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ اسجدوا ﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يسجد له ، والتعظيم ، وهو في اللغة :  
التذلل والخضوع ، وفي الشرع : وضع الجبهة على الأرض . ﴿ إبليس ﴾ : اسم للشيطان وهو أعجمي ،  
وقيل إنه مشتق من الإبلان وهو الإياس . ﴿ أبى ﴾ : امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل .  
﴿ استكبر ﴾ : الاستكبار : التكبر والتعظيم في النفس . ﴿ رعداً ﴾ : واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرعد :  
سعة العيش ، يقال : رعد عيش القوم إذا كانوا في رزق واسع .

قال الشاعر :<sup>(١)</sup>

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث في عيش رعد

﴿ فازلها ﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم ، يقال : زلت قدمه ، أى زلقت ، ثم استعمل في  
ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زل الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبب له ذلك .  
﴿ مستقر ﴾ موضع استقرار ، ﴿ ومتاع ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه .

(١) هو امرؤ القيس : ذكره أبو حيان والطبري « القرطبي » ج ٨ ص ٣٠٣ .

﴿ فتلقى ﴾ التلقى في الأصل : الاستقبال ، تقول خرجنا نتلقى الحجيج . ﴿ إسرائيل ﴾ اسم أعجمي معناه : عبد الله وهو اسم يعقوب عليه السلام ، وقد صرح به في آل عمران ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ <sup>(١)</sup> الآية . ﴿ أوفوا ﴾ الوفاء : الإتيان بالشئ على التمام والكمال ، يقال أوفى ووفى ، أى أداه وافياً تاماً . ﴿ تلبسوا ﴾ اللبس : الخلط تقول العرب : لبست الشئ بالشئ خلطته ، والتبس به اختلط ، قال تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ <sup>(٢)</sup> وفي المصباح : لبس الثوب من باب تعب لبسا بضم اللام ، ولبست عليه الأمر لبسا من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿ الزكاة ﴾ مشتقة من زكا الزرع ، يزكو ، أى نمأ لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هى من الزكاة ، أى الطهارة لأنها تطهر المال ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية . ﴿ بالبر ﴾ البر : سعة الخير والمعروف ، ومنه البر والبرية للسعة وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتها ، وفي الحديث : ( البر لا يبل والذنب لا ينسى ) . ﴿ وتسنون ﴾ تتركون ، والنسيان يأتى بمعنى الترك كقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وهو المراد هنا ، ويأتى بمعنى ذهاب الشئ من الذاكرة كقوله : ﴿ فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ <sup>(٥)</sup> ﴿ تتلون ﴾ : تقرأون وتدرسون . ﴿ الخاشعين ﴾ الخاشع : المتواضع ، وأصله من الاستكانة والذل ، قال الزجاج : الخاشع الذى يرى أثر الذل والخشوع عليه ، وخشعت الأصوات : سكنت . ﴿ يظنون ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد ، قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنً وللشك ظن . وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ، ومنه ﴿ إني ظننت أنى ملائح حسابيه ﴾ <sup>(٦)</sup> .

التفسير ولنأخذ الآن في المعنى الذى تدور حوله الآيات .. قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

المعروف أن آدم خلق من طين ، وأن الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وقد أقسم الله بهم في بعض الآيات كما في قوله جل شأنه : ﴿ والصافات صفا \* فالزاجرات زجرا \* فالتاليات ذكرا ﴾ <sup>(٧)</sup> وفي قوله جل شأنه : ﴿ والمرسلات عرفا \* فالعاصفات عصفا \* والناشرات نشرا \* فالفارقات فرقا \* فالملقيت ذكرا \* عذراً أو نذراً ﴾ <sup>(٨)</sup> . وفي قوله جل شأنه : ﴿ والنازعات غرقاً \* والنشاطات نشاطاً \* والسابحات سبحاً \* فالسبقات سبقاً ﴾ <sup>(٩)</sup> . وقد جبلت الملائكة على الطاعة كما وصفهم الله جل شأنه في قوله : ﴿ بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ <sup>(١٠)</sup> . والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ <sup>(١١)</sup> أى لا يضعفون ولا يملون ولا يسمنون قال تعالى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ <sup>(١٢)</sup> وأما إبليس فقد خلق من نار ، وهو أصل الجن ، وقد

(٧) سورة الصافات الآيات : ١ - ٣ .

(٨) سورة المرسلات الآيات : ١ - ٦ .

(٩) سورة النازعات الآيات : ١ - ٤ .

(١٠) سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(١١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .

(١٢) سورة فصلت آية : ٣٨ .

(١) سورة آل عمران آية : ٩٣ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٩ .

(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

(٤) سورة التوبة آية : ٦٧ .

(٥) سورة طه آية : ١١٥ .

(٦) سورة الحاقة آية : ٢٠ .

صرح بذلك الكتاب الكريم في قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾ (١) . وليس إبليس ملكا ، لأن الملائكة لاتتزوج ولا تناسل ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة ، أما ، إبليس فله ذرية لأنه متزوج ، قال تعالى : ﴿ أفنتخذونه ذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو ﴾ (٢) . والملائكة لاتعصى الله تعالى ، لأنهم فطروا على الطاعة ، وإبليس قد أبى وعصى واستكبر وكان من الكافرين . والآية التي بين أيدينا قد جمعت ثلاثة نماذج من المخلوقات : آدم ، والملائكة ، وإبليس . وقد أخبر الصادق المعصوم عن الملائكة بأنهم يأمرون بالخير ، أما الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . روى الترمذي بسنده إلى رسول الله ﷺ : إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (٣) . واللمة : الإلمام والإصابة .

أما السجود ، فقد يراد به التحية ويراد به العبادة ، وقد يكون من العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله . وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ (٤) .

ولقد كان السجود لآدم سجود تحية وإكرام لاسجود عبادة وتقديس . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يسجد لك فقال : ( لو كنت أمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق ) (٥) . أما الملائكة فقد أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله ، أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عناداً وجحوداً فصار بذلك من الكافرين ، واستعمل القياس الفاسد فقال أنا خير منه ، ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية ، فجمع به خياله العقيم حيث قاس عنصراً على عنصر ، وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر ، ونسى أن الميزان العادل الذي توزن به كرامات الخلق : التقوى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٦) . وفي الخبر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : ( إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إني جعلت نسباً وجعلت نسباً فجعلت أكرمكم أتقاكم وأيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون ) (٧) .

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية ، فلا تنظر إلى المعصية من حيث أنها معصية فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه . لقد أمرك الله أن تسجد ، فكيف تنصرف من طاعة الأمر إلى البحث في العناصر ؟ قال ﷺ : ( لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر ) (٨) .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٣٤٧ . ط دار الفكر

(٦) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٧) تفسير القرطبي ج ٩ ص : ٦١٦٥ ، ٦١٦٦ . ط الشعب

(٨) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤١٣ ط وزارة الأوقاف .

(١) سورة الكهف آية : ٥٠ .

(٢) سورة الكهف آية : ٥٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .

(٤) سورة الحج آية : ١٨ .

قيل لبلال بن رباح : يا بلال ابن من أنت ؟ فقال أنا ابن من أسجد الله له الملائكة .

وقيل لسلمان الفارسي : يا سلمان من أبوك ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . أنا ابن الإسلام . فلما بلغ ذلك القول أمير المؤمنين عمر صاح قائلاً : وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام . وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له ، كما كرمه من قبل بجعله خليفة في الأرض وتعليمه الأسماء كلها ، وسيكرمه بعد ذلك بسكناه الجنة فيلإ هناك :

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته . قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (١) . وجلت حكمة الله أن يقول لآدم اسكن ولم يقل له خالدين فيها ، لأن آدم خلق للأرض وتعميرها ، فلا مفر من عيشه على ظهرها ، وقال له أنت وزوجك ، وهذا دليل على أن صلة الرجل بالمرأة لاسبيل لها إلا الزواج وليس هناك من سبيل آخر إذا لم تكن محرماً له . والجنس في الإسلام قد أحاطه الله بالرعاية والعناية والصيانة حيث قال جل شأنه في وصف المؤمنين : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ (٢) ، ثم أغلق الباب أمام أى طريق آخر فقال : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ (٣) . وليس في الإسلام ما يسمى عشق أو عشيقه ، قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ (٤) . وقال في وصف المؤمنات : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ (٥) ، ومن ثم فإن الخطاب الذى وجه إلى آدم بالسكنى له دلالة ، إذ أن الخطاب لم يأت بضمير التثنية ، فلم يقل مولانا وبهاذان اسكنا الجنة ، إنما جاء موجهاً إلى آدم أصلاً ثم عطف عليه زوجه تبعاً ، بمعنى أن المرأة مسئولة من زوجها وأن زوجها مسئول عنها من حيث الرعاية والنفقة وحقوق الزوجية ، وقد جاءت الحكمة واضحة في قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴾ فقلنا يا آدم إن هذا عدوك ولزوجك فلا تخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ (٦) . فتأمل قوله جل شأنه ﴿ فتشقى ﴾ ولم يقل فتشقى بعدما قال يخرجنكما ، فقد ثنى الضمير في النهى عن الإخراج وأفرده حين وقوع الشقاء ، لأن الشقاء في الدنيا سيكون على رأس الرجل ، أما المرأة فهي مستقرة في بيت زوجها ، أما الرجل فهو الذى سيضرب في مناكب الأرض سعياً وراء القوت لاسمياً إذا غدا القوت في يد الناس كالياقوت . وجاء بعد ذلك الضمير مفرداً كذلك في قوله جل شأنه : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ \* وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ (٧) .

(٥) سورة النساء آية : ٢٥ .

(٦) سورة طه الآيتان : ١١٦ ، ١١٧ .

(٧) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

(١) سورة الإسراء آية : ٢٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٣) سورة المؤمنون آية : ٧ .

(٤) سورة المائدة آية : ٥ .

وتأمل حكمة العليم الحكيم حيث جمع بين الجوع والعري وبين الظمأ والحر . وقد يبدو الأمر لأول وهلة في صورة أخرى ، فلسائل أن يقول : لماذا لم يجمع بين الجوع والظمأ وبين العري وحر الشمس ؟ لكن حكمة الحكيم اقتضت أن يكون هناك جمع بين الجوع والعري ، لأن الجوع يفقد الجسم حرارته حيث تكون طاقة الطعام قد تبددت ، والعري يزيد الإنسان جوعاً ، فناسب أن تكون الصورة على هذه الكيفية من شدة المعاناة : جوع يصحبه عري ، وعري بسبب شدة البرد ، وجوع يفقد الجسم طاقته ، فتأتى الصورة في أشد معانيها . كذلك الجمع بين الظمأ وشدة الحر ، فشدة الحر تزيد الظمأ لهيباً وتزيد الكبد ظمأً ، فناسب أن يجمع بينهما في آية واحدة وصدق من قال عن كتابه : ﴿ أَرَأَيْتَ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٌ ﴾ (١) . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم .

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهْمُ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ﴾ (٢) ، وبعد ذلك قال الله لهما : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَغْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ أى أكلًا هيناً ذاسعة ، وهذه منحة من الله ، وقد جرت سنة المولى جل ذكره أن يقرن المنحة بالمنحة ليكون العبد بين الترغيب والترهيب والخوف والرجاء ، فتستقيم حاله وتنظم خطاه ، ورحم الله أصحاب رسول الله ﷺ ، نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وهل سلم الأنبياء من الابتلاء ؟ كلا لقد ابتلى نوح في ابنه . ألم يقل له : ﴿ يَا بَنِيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴾ \* قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴿ (٣) . ألم تعتلج لواعج الشوق في قلب نوح فقال لربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِ وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ (٤) . ألم يقل له ربه : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٥) . ألم يتل إبراهيم في ابنه بعدما من الله عليه به ؟ ألم يرفى المنام أنه يذبحه ؟ ورؤيا الأنبياء وحى . ألم يذهب بابنه لينفذ فيه أمر الله وفي هذا يقول العلى الأعلى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ \* فلما بلغ معه السعى قال يابنى إني أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴿ (٦) . ثم ماذا ؟ لقد أسلم الوالد وولده الأمر لله . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ \* ونادينا أن يا إبراهيم \* قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين \* إن هذا هو البلاء المبين ﴿ (٧) . ويعقوب عليه السلام ، ألم يتل بفقد يوسف ؟ ألم يسلم الأمر لله ويقول لأولاده : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (٨) . ثم ألم يتل يوسف بمراودة امرأة العزيز له وهو ابتلاء من أشد أنواع ما يتلى به المرء ؟ ألم يقل لها يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنُ

(٥) سورة هود آية : ٤٦ .

(٦) سورة الصافات الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ ، ١٠٦ .

(٨) سورة يوسف آية : ١٨ .

(١) سورة هود آية : ١ .

(٢) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٣) سورة هود الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

(٤) سورة هود آية : ٤٥ .



مثنواي ﴿١﴾ . ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . ألم يقل يوسف لربه : ﴿ السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ ﴿٢﴾ . ألم يقل أيوب في نفسه وماله وأهله ؟ ألم يقل لربه : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ ﴿٣﴾ . ألم يقل يونس ببطن الحوت ؟ ألم يقل مولانا العظيم : ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ﴿٤﴾ . فنادى في الظلمات هذا النداء الكريم ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة في قاع بحر زاخر متجدد : ﴿ فاستجبنا له فنجينااه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ﴿٥﴾ . ألم يقل في شأنه رب العزة : ﴿ فلولاً أنه كان من المسبحين \* للبت في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ ﴿٦﴾ .

ولولا أن يطول الكلام ولا يتسع له المقام لقلنا في الأنبياء جميعاً ما قلناه في هذه الكوكبة الطاهرة ، ويكفى أن تعلم أن سيدهم الأعظم وإمامهم الأكرم قد لاقى من البلاء ما تزول من هوله الجبال الشاخات . ألم يرم بالحجارة يوم الطائف حتى دمت قدماء ؟ ألم يرسل برقية عاجلة إلى رافع الساء بلا عمد يطلب النجدة والممدد : ( اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هي أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله ) ﴿٧﴾ . ألم يمت أولاده في حياته ما عدا فاطمة ؟ ألم يتجرأ المنافقون عليه حتى بلغ من سوء فعلهم أنهم رموا أم المؤمنين عائشة الناسكة الحصان العفيفة ، رموها بالإفك ، وظلت المدينة شهراً تغلى غليان الرجل حتى قال الرسول لعمر : ما تقول في عائشة يا عمر ؟ وكان عمر معروفاً بالصرامة فى الحق . قال : يارسول الله من الذى زوجها لك ؟ فقال الرسول الكريم : الله . قال عمر بصراحته المعهودة وهو الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه : يارسول الله أترى أن الله دلس عليك فى زواجها ؟ وظلت المدينة فى فزع طيلة شهر . لو وضعت نفسك فى هذه المحنة ساعة لتصدع فؤادك تصدع الزجاج ، فما بالك بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، والدنيا كلها تشهد من هى عائشة ! والعالم أجمع يعرف من أبوها ، إنها الصديقة بنت الصديق أنصع من ماء الغمام وأظهر من السحابة فى سمائها . بهذا شهد الله من فوق سبع سموات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ﴾ \* يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون \* يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ ﴿٨﴾ . ثم لمن تقال هذه الأقوال الخبيثة ؟ إنها لاتقال إلا للخبيثين . أما الأقوال الطيبة فإنها للطيبين . ومن أطيب من أم المؤمنين ؟ إن الطيبين مبرعون مما يقول عنهم مرضى القلوب ، قال جل شأنه : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرعون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ ﴿٩﴾ . صلى عليك الله يا علم الهدى ما هبت النسائم وما ناجت على الأيك الحمائم .

(٧) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٢٢١

(٤) سورة الأنبياء آية : ٨٧ .

(١) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٨) سورة النور الآيات : ٢٣ - ٢٥ .

(٥) سورة الأنبياء آية : ٨٨ .

(٢) سورة يوسف آية : ٣٣ .

(٦) سورة الصافات الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ . (٩) سورة النور آية : ٣ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٨٣ .

فلا عجب أن يبتلى آدم بالنهى عن قرب الشجرة ، لأن الابتلاء سنة الله لمن يعيش على ظهر الأرض ولمن قدر له أن يعيش عليها ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون \* أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿<sup>(١)</sup> . أما الشجرة التى نهى آدم عن قربها فإنها شجرة لم يرد تعيينها فى الكتاب أو السنة ، إنما كل ماورد فيها أقوال لم تثبت أمام البحث ، فمن قائل أنها شجرة الكرم ، أى العنب ، ومن قائل أنها شجرة الحنطة ، ومن قائل أنها شجرة التين ، ولو كان فى تعيينها فائدة لعينها الله كما عين النخلة التى أمرت مريم بهزها ، والله حكمة فى عدم تعيينها حتى لا يشمئز العباد من الأكل منها . فالشجرة لا ذنب لها ولا حيلة ، إنما كانت أداة اختبار .

وليس بصحيح ما قاله بعض الذين تعثرت أقدامهم وزلت أقلامهم وانفلت خيالهم فقال : إن المراد بها شجرة الجنس ، أو المقصود بها الشر . لأن اللغة لا تساعد على ذلك . فالأصل فى الألفاظ حقائقها لا مجازاتها ، وإنما يلجأ إلى المجاز إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى كقولهم سمعت بحراً يخطب ، ويراد به العالم ذا المعرفة الواسعة ، فأى مجاز فى قوله تعالى : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وقد قال الله تعالى : ﴿ فأكلا منها ﴾ فهل يؤكل الجنس ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . أما الجنة التى كان فيها آدم فقد صال فيها العالمون وجالوا . فمن قائل إنها كانت فى السماء وإنها جنة الخلد ، ومن قائل إنها بستان فى ربوة عالية . كذلك اختلفوا فى مكانها من الأرض . ولما بحثت هذه الأقوال كلها رأيت أن القوم يضربون فى حديد بارد ، وسألت نفسى : ما ثمرة هذا الخلاف ؟ إن الجنة التى دخلها آدم وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴿<sup>(٢)</sup> . فلنقف عند قول الله سبحانه وليس لنا أن نتجاوز الحدود . إنها جنة دخلها آدم وكلف فيها ألا يقرب الشجرة ، ووصفها الله بأوصاف خاصة . فلنؤمن بها كما وردت ولناخذ العبرة مما حدث فيها . وهذا القدر يكفيننا . قوله تعالى : ﴿ فتكونا من الظالمين ﴾ أى آدم وحواء ، أى من الظالمين لأنفسكما وذلك بإخراجكما من الجنة . فماذا حدث ؟

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

والزلل معناه السقوط ، وذلك عن طريق الوسوس الشيطانية . قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتها وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين \* وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين \* فدلها بغيرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان

(٢) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

(١) سورة البقرة الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .

لكم اعدو مبين \* قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين \* قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين \* قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴿١﴾ .

فأنت ترى في هذه الآيات أن إبليس أقسم لأدم بالله وقال إني لكم من الناصحين ، ولم يكن آدم يتوقع أن هناك من يقسم بالله كذبا ، فهذا أمر عزيز على نفس آدم ، وهذا يذكرنا بما دار بين المسيح ابن مريم وبين أحد اللصوص ، فقد رأى المسيح لصاً يسرق فقال له المسيح : لماذا سرقت ؟ قال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح . صدق الله وكذبت عيناى ، قالها تمجيداً وتقديساً وتعظيماً لاسم الله ، وهكذا ما كان يدور بخلد آدم أن هناك من يتعرض ليمين الله بالكذب . وفي قراءة ﴿ فأزاهما ﴾ أى أبعدهما عنها ، عن الجنة ، وترتب على ذلك إخراجهما منها ، قال تعالى : ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ وهو تعبير موجز عن معنى كثير ، أى ماكانا فيه من راحة وهناء وأكل رغد ولكنها سنة الله .

وهكذا كما قال جل شأنه : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ ، والهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان أسفل ، وهذا هو الهبوط الحسى ، وقد يكون هبوطاً معنوياً كما قال موسى لقومه وقد قالوا له : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ قال لهم : ﴿ اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم ﴾ . فهذا هبوط من المن والسلوى إلى القثاء والفوم والبقل والعدس والبصل . نعم إنه هبوط كما قال جل شأنه : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ ، والمراد بمصر أى مكان ينبت هذه الأشياء ، أى غير هذا المكان الذى ينزل فيه المن والسلوى . قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ المقصود بين آدم وحواء وبين إبليس وذريته : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين \* وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم \* ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٢) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٤) . وليس بلازم أن يكون إبليس قد دخل الجنة التى كان فيها آدم وحواء ، فقد وسوس لهما من خارج الجنة ، قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ، وقد ذكرت في هذا المقام أقوال من الإسرائيليات كقولهم إنه دخل في فم الحية إلى غير ذلك مما تنفر منه العقول السليمة . ولا بد لنا هنا من سؤال : كيف يقع آدم في المخالفة ؟ وقد قال أبوذر : أرأيت آدم أنبى كان ؟ قال : « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قيلا » يعنى عياناً . وللإجابة عن هذا السؤال إن آدم أصاب وكان وقتها ناسيا ، قال تعالى في سورة طه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم

(٣) سورة فاطر آية : ٦ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٢٧ .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩-٢٥ .

(٢) سورة يس الآيات : ٦٠-٦٢ .

نجد له عزماً ﴿١﴾ أى قصدا ، وإنما سماها الله معصية في قوله : ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ ﴿٢﴾ . ذلك لما كان لأدم من مكانة عظيمة ، فحسنت الأبرار سيئات المقربين .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

لقد بلغ من مكانة آدم عند الله أن يوم الجمعة نال الكرامات لأن الله خلق آدم فيه . عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ( خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ) ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ . المراد بمستقر : الاستقرار والعيش فيها ، وهذا مقتضى الأمر الإلهي ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ . ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ ﴿٤﴾ . والحين زمان غير محدود المقدار ، وهكذا نحن في الدنيا ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾ ﴿٥﴾ . فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في زمان إلا لبنة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ ﴿٦﴾ . وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾ ﴿٧﴾ .

تالله لو عاش الفتى في دهره	ألفاً من الأعوام ماله أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة	متنعماً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله في أن يفنى	مبببت أول ليلة في قبره

يابن آدم اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

ياناظراً يرنو بعينى راقداً	ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى	درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدم	منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال تعالى : ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ . سبحانه ربى ياكاشف الضر والبلوى ، يا عالم السر والنجوى ، يامن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

(٥) سورة طه آية : ٥٥ .

(٦) سورة النساء آية : ٧٨ .

(٧) سورة النساء آية : ٧٧ .

(١) سورة طه آية : ١١٥ .

(٢) سورة طه آية : ١٢١ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٦٣٠ .

(٤) سورة الأعراف آية : ٢٥ .

أنت الذى تهب الكثير وتجير القلب الكسير وتغفر الزلات  
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد تاب آدم لتوب ذريته ، وقبل الله التوبة حتى لا يئأس العباد من رحمة الله . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ <sup>(١)</sup> . شاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ <sup>(٤)</sup> . قال العلماء : إن الكلمات التى تلقاها آدم مفسرة بقوله تعالى : ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقال ابن عباس : قال آدم يارب ألم تخلقني بيدك ؟ قيل له بلى ، ونفخت في من روحك ؟ قيل له بلى ، عطست فقلت يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى ، وكتبت على أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى ، قال أرايت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ .

وقال بعض العلماء الكلمات هى : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فارحمني إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسي فتب على إنك أنت التواب الرحيم » <sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى أنه يتوب على من تاب إليه وأتاب كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ <sup>(٧)</sup> ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾ <sup>(٨)</sup> ، وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾ <sup>(٩)</sup> ، وغير ذلك من الآيات . . وعندما أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مقترنا بقوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ ، أعاد الأمر بالهبوط مقترنا بقوله تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ قال سبحانه :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . هذا الأمر بالهبوط اقترن بالحكم

(٦) القرطبي جـ ١ ص ٣٢٤ .

(٧) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

(٨) سورة النساء آية : ١١٠ .

(٩) سورة الفرقان آية : ٧١ .

(١) سورة الإسراء آية : ٨٤ .

(٢) سورة غافر آية : ٣ .

(٣) سورة الحجر آية : ٤٩ .

(٤) سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٥) سورة الأعراف آية : ٢٣ .

الإلهى النافذ ﴿إما يأتينكم منى هدى﴾ وإن هنا شرطية مقترنة (بما) تغلب تأكيد الفعل بعدها كما فى قوله تعالى : ﴿فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً﴾<sup>(١)</sup> ، وإما هنا جيء بها بين (إن) والفعل لإفادة تأكيد الإتيان ، كأنه تعالى قال : سيأتىكم منى هدى وسوف يترتب على هذا الهدى الذى قد يراد به الإرشاد إلى طريق الحق من باب قوله تعالى : ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴿٢﴾ وقوله جل شأنه : ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾<sup>(٣)</sup> . والرسول داخلون فى هذا الباب دخولاً أولياً . قال تبارك اسمه : ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾<sup>(٤)</sup> . كذلك قد يراد بالهدى الكتب المنزلة على الرسل وعلى رأسها وفى قمة رفعتها القرآن العظيم ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾ . فما الذى ترتب على إتيان الهدى ؟ قال جل شأنه : ﴿فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت . فقد أرسلت إلينا رسلاً وأنزلت عليهم كتباً وخلقت لنا عقلاً ، ذلك كله من باب رحمتك وبرك ولطفك ، وأرشدتنا إلى الطريق فظهر الأمر جلياً ، فمن تبع هداك واتبع رسلك عاش آمناً من خوف ، مطمئناً لا يمسهم سوء ولا هم يحزنون ، لا يخاف مما سياتى ولا يحزن على مافات : ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿نزلاً من غفور رحيم﴾<sup>(٥)</sup> .

إن نفى الخوف والحزن نعمة لاتدانيها نعمة ، وطمأنينة القلب بلقاء الله هى أعظم مملكة يتربع المؤمن على عرشها ، ولذلك أدرك الصالحون هذا . . قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . قال الحسن يأمر المؤمنين : صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صباحها يوم القيامة .

ولما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة قيل له : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى ، إن ابن آدم يوم يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بهما أحد غيره . الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عن ماله كله . ومن هنا فإن التأمين الحقيقى على الحياة لا يكون بإيداع الأموال فى شركات التأمين التجارية الربوية ، إنما هو كما قال تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم﴾<sup>(٦)</sup> . ماذا يفعلون يارب ؟ قال : ﴿فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾<sup>(٧)</sup> . فتقوى الله والقول السديد خير ثمرة فى خير شجرة تظل على أبنائك بعد موتك . فصاحب

(٥) سورة فصلت الآيات : ٣٠-٣٢ .

(٦) سورة النساء آية : ٩ .

(٧) سورة النساء آية : ٩ .

(١) سورة مريم آية : ٢٦ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) سورة الرعد آية : ٧ .

(٤) سورة النحل آية : ٣٦ .

المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكئاً . البر لا يبلى والذنوب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان . ومن أجل ذلك فإن الله يطمئن أهل الصلاح ألا تخافوا مما سياتى ولا تحزنوا على ما فات . أما الفريق الثانى فقوم كفروا وكذبوا بالآيات ، جحدوها ولم يصدقوا بها ، فجمعوا بين أكبر جريمتين : الكفر والتكذيب : ﴿ وما يحجد بآياتنا إلا الظالمون ﴾ (١) . ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ وكذبوا بآياتنا كذاباً \* وكل شئ أحصيناه كتاباً \* فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴿ (٢) .

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . ما أقسى النار ، ولكن الأقسى منها هو الخلود فيها . فالكرب كلما اشتد انتظر الإنسان الفرج ، والليل إذا اشتد ظلامه قرب فجره ، ولكن تنخلع القلوب لوعة وتسيل الكبد مرارة إذا فقد الإنسان الأمل . إنهم قوم قال الله فيهم : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴿ (٣) . وقد جاء فى سورة طه قوله جل شأنه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿ (٤) .

فانظر معى كيف جمع الله للذين اتبعوا هداى وسلکوا سبيل مرضاته ، جمع لهم بين سعادة الدارين ، لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وليست السعادة فى الانتشاء بالكثوس المترعة أو بالاستمتاع بالغيد الأمليد ، إنما السعادة فى رضا الله ، ولقد كان قوم من الصالحين يبيتون على الطوى ويقولون نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . وفى سورة النحل ما يجمع للمؤمنين بين خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٥) ، وقال جل شأنه : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (٦) ، وقال تبارك اسمه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٧) ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ شاكراً لأنعمه اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم \* وأتيناها فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿ (٨) .

وهكذا لا يضل من اتبع هدى الله فى الدنيا . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ولا يشقى فى الآخرة : قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ لا يسمعون

(٥) سورة النحل آية : ٤١ .

(٦) سورة النحل آية : ٣٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٩٧ .

(٨) سورة النحل الآيات : ١٢٠-١٢٢ .

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٩ .

(٢) سورة النبا الآيات : ٢٧-٣٠ .

(٣) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .

(٤) سورة طه الآيات : ١٢٣-١٢٧ .

حسيسها وهم في ما اشتتهت أنفسهم خالدون \* لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿١﴾ . أما الفريق الثاني ، وهو الذي أعرض عن ذكر الله ، فقد حقت عليه الشقاوة في الدنيا والآخرة . فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

يابارى الكون في عز وتمكين      وكل أمر جرى بالكاف والنون  
يامن لطف بحالى قبل تكويني      لا تجعل النار يوم الحشر تكويني

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ (٢) ، أى يعيش في ضيق ولو كان يملك من الأموال جبلاً ومن الذهب والفضة القناطير المقنطرة ، ومن الخيل المسومة ماتضيق به أودية مكة ، ومن النساء والجوارى مايفوق جمالهن ملكات الجمال . سوف تضيق عليه الأرض بما رحبت ، لأنه مثل الذى يشرب الماء المالح ولا يزيده إلا ظمأً على ظمأ ، تراه دائماً في كرب ، إن أقبلت عليه الدنيا طلب المزيد ، وإن أعرضت عنه تقلب في فراشه ليلاً أو نهاراً لا يطمئن جنبه في المضاجع ولا يذوق للراحة طعماً .

إن الصادق المعصوم عليه السلام قال لابن عمر : ( كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور ) (٣) ، وقال لأبي ذر : ( جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كثود ) . ولذا كان أحدهم يقول : « حفر يثرين بابرتين ونزح بحرین بغربالین وغسل عبدین أسودین حتى يضيرا كأبيضين وهش أرض الحجاز في يوم شديد أهواء بريشتين خير لي أن أقف على باب لثيم يضيع فيه ماء عيني » . وليت العذاب قد اقتصر على دار الدنيا ، إنما هو ممتد إلى دار الآخرة ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وما أدراك ما العمى في الآخرة ؟ إنه الحيرة كلها والشقاء كله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا ﴿ (٤) . حتى يقول العبد : ﴿ رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ (٥) فيأتيه الجواب الصادق : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (٦) .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أخذ مضجعه لينام يقول لنفسه : ماذا تقول لربك غداً يا عمر ؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، وكنت وضعياً فرفعك الله . وكان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٧) . وكان يقول : لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحداً خشيت أن أكون أنا ذلك الواحد .

(٥) سورة طه آية : ١٢٥ .

(٦) سورة طه آية : ١٢٦ .

(٧) سورة الحاقة آية : ١٨ .

(١) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١-١٠٣ .

(٢) سورة طه آية : ١٢٤ .

(٣) الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٩٦ ط دار الفكر .

(٤) سورة الإسراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .



فمن يبارى أبا حفص وسيرته      أو من يحاول للفاروق تشبيها  
يوم اشتدت زوجه الحلوى فقال لها      من أين لي ثمن الحلوى فأشربها  
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به      أولى فقومي لبيت المال رديها

وكان على كرم الله وجهه إذا أرخى الليل سدوله يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تلمل  
السليم ، أى الذى لدغته حية ، ويبكى بكاء اليتيم ويقول : يادنيا غرى غرى ألى تعرضت ؟ أم إلى  
تشوقت ؟ هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير وخطرك حقيق . آه من قلة الزاد  
وبعد السفر ووحشة الطريق .

تزود من التقوى فإنك لاتدرى      إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً      وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى  
وكم من عروس زينوها لزوجها      وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر  
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم      وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر  
وكم من صحيح مات من غير علة      وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

تباركت ربنا وتعاليت . حكمت لمن اتبع هداك بأنه لا يخاف ولا يحزن ولا يعتل ولا يشقى ، وحكمت  
على من كذب بآياتك وكفر بها بأنه مخلد في النار وبأن له معيشة ضنكا وتحشره يوم القيامة أعمى . سبحانك  
أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق واللجنة حق والنار حق . اللهم عليك توكلت  
وإليك أنبت ولك حاكمت وبك خاضعت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى  
لا إله إلا أنت .

يا من يجيب العبد قبل سؤاله      ويجود للعاصين بالغفران  
وإذا أتاه الطالبون لعفوه      ستر القبيح وجاد بالإحسان

أستحى أن أسألك وأنا أنا ، وكيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك  
لا حد له ولا نهاية .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة      فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا محسن      فبمن يلوذ ويستجير الأثم  
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً      فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم  
مالى إليك وسيلة إلا الرضا      وعظيم عفوك ثم أنى مسلم

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك  
الخير كله .

﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون \* وءامنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون \* ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتسبوا الحق وأنتم تعلمون \* وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . لما ذكر الله تعالى قصة آدم وما يتعلق بها من تعليمه الأسماء وجعله خليفة في الأرض وإسجاد الملائكة له وإدخاله الجنة وأكله من الشجرة وتوبة الله عليه، يبين بعد ذلك الطريق المؤدى إلى الجنة ونعيمها فقال : ﴿ فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . كما يبين مصير الذين انحرقوا عن الصراط وتجنبوا الجادة فقال : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لما بين الله كل هذا ذكر نموذجاً بشرياً من أبناء آدم ، وهم بنو إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب نبي الله ، وسمى إسرائيل لأنه كان صفيّاً لله مجاهداً في الله . فإسرائيل معناه صفي الله ، والمقصود به يعقوب .

روى أبو داود بسنده إلى عبد الله بن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى نبي الله ﷺ فقال لهم : ( هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ قالوا : اللهم نعم . فقال النبي ﷺ : اللهم اشهد ) . ونعمة الله التي أنعم بها على بني إسرائيل كثيرة . قال مجاهد : « نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمي وفيما سوى ، ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون » .

قال أبو العالية : نعمته أن جعل فيهم الرسل والأنبياء وأنزل عليهم الكتب . قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وءاتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ (١) .

والمراد بعهد الله هو العهد الذي أخذه عليهم أن يؤمنوا بخاتم أنبيائه محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ﴾ . كذلك يشمل الإيمان بالله إيماناً جازماً صادقاً . وهذا العهد الأول ، قال الله تعالى : ﴿ واذا أوحيت إلى الخواريين أن ءامنوا بي وبرسولي قالوا ءامنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ (٢) ، فإذا كان الله قد أمرهم بالإيمان بعيسى في هذه الآية ، فقد أمرهم عيسى بالإيمان بمحمد ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (٣) . كما أمرهم موسى أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه ، وكل الأنبياء الذين أرسلوا إليهم أمروهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه . قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصداق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقرتم وأخذتم على ذلك إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (٤) . قال الحسن البصري رضى الله عنه : إن المراد بعهد الله الذي أخذه عليهم مجاء في قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وءامتم برسلي

(٣) سورة الصف آية : ٦ .  
(٤) سورة آل عمران آية : ٨١ .

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .  
(٢) سورة المائدة آية : ١١١ .

وعزرتهم وأقرضتم الله قرصاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴿١﴾ . وقال آخرون : هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين .

وقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها : هل تجد لرسول الله ﷺ وصفاً في التوراة ؟ فقال : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ؛ قال الله تعالى له في التوراة : ( يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين أنت عبدى ورسولى سميكت المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ) . وقد جاء تفصيل ذلك في سورتي الأعراف والفتح ؛ قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿٢﴾ . وفي سورة الفتح يقول تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلف فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾ ﴿٣﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ أوف بعهدكم ﴾ هكذا مجزوماً في جواب الطلب ، وكأنه تعالى يقول لهم إن توفوا بعهدى وتدخلوا الإسلام أوف بعهدكم فأرضى عنكم وأدخلكم الجنة ، وإنما خاطبهم في صورة أبيهم يعقوب فقال : ﴿ يا بنى إسرائيل ﴾ ، ولم يخاطبهم بذواتهم لإثارتهم وحفزهم وتقوية همهم للإيمان والإسلام الكامل ، أى يا أبناء الرجل العظيم المؤمن الذى وصاكم بالإسلام كونوا مثل أبيكم قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لبوب العالمين ﴾ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهنا واحداً ونحن له مسلمون ﴿٤﴾ . قوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أى لا تخافوا أحداً سواى وخافونى أنا ، فأننا الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله . سبحانه

(٣) سورة الفتح آية : ٢٩ .

(٤) سورة البقرة الآيات : ١٣٠ ، ١٣٣ .

(١) سورة المائدة آية : ١٢ .

(٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

علا فقهر وبطن فخبز وملك فقدر . فمن خاف الله خوف الله منه جميع خلقه ، ومن لم يخف الله خوفه الله من جميع خلقه ، ومن أَرْضَى الله بِإِسْخَاطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله مَا يَبِينُ النَّاسَ ، ومن أَسْخَطَ الله بِإِرْضَاءِ النَّاسِ وَكَلِهَ الله إِلَى النَّاسِ ، ومن أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ أَصْلَحَ اللهُ عِلَانِيَتَهُ . ومن الوفاء بعهد الله الإيمان بكل ما أنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ . وهو مصدق لما جاء في الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (١) . وقال لبي إسرائيل : ﴿ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴾ فأنتم أولى الأمم بتصديق ما أنزل على محمد والإيمان به ، فأنتم تعرفونه حقاً كما تعرفون أبناءكم . لما نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (٢) ، قال عبد الله بن سلام : والله إني لأعرف أنه نبي الله حقاً أكثر مما أعرف ابني بأنه ابني ، قالوا : وكيف يا ابن سلام ؟ قال : لأن ابني قد يجوز أن يكون من غيري ، أما محمد فقد نزل الأمين من السماء على أمين الأرض والسماء بأنه رسول الله ، فما أشك في هذا ؟

ثم قال تعالى في مجموعة الأوامر والنواهي التي وجهها إلى بني إسرائيل : ﴿ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ ﴾ ، وهذا موقف يدعو إلى الأسى والأسف . فأنتم الذين يجب عليكم أن تكونوا أول مؤمن به ، فقد أخبرتكم كتبكم المنزلة بأنه نبي الله حقاً وصديقاً ، وبأن القرآن حق وصديق لا مزية فيه ولا ريبة . ثم قال لهم تعالى بعد ذلك : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ ، والتمن القليل هنا هو الدنيا ، أي لا تجحدوا الآيات المنزلة على خير خلق الله وتبيعوها مقابل الدنيا وسلطانها وزخارفها ومناصبها ، فإنها ثمن قليل ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ؛ فصفوها كدر ، والوصل هجران ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلِمُونَ فِتِيلًا ﴾ (٣) . ثم قال لهم مولانا : ﴿ وَإِيَّايَ فَاتَّقُوا ﴾ أي أنا الأولى بالتقوى ، والتقوى هي السلاح الأقوى . وقد أشار النبي ﷺ إلى صدره وقال : ( التقوى ها هنا ) . قال تعالى : ﴿ وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (٤) .

إذ المرء لم يلبس ثياباً من التقى      تقلب عرياناً ولو كان كاسياً  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصياً

والتقوى كلمة جامعة لشعب البر كلها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ (٥) ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى ﴾ (٦) ، وفسر هذه الكلمة العظيمة في آية جامعة لأنواع الخير كله ، فقال سبحانه : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (٧) .

(٥) سورة النساء آية : ١٣١ .

(٦) سورة البقرة آية : ١٨٩ .

(٧) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

(١) سورة المائدة آية : ٤٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٦ .

(٣) سورة النساء آية : ٧٧ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

لقد وجه الله تعالى إلى بني إسرائيل من الأوامر والنواهي ما لو عملوا به واستمسكوا به لنالوا سعادة الدنيا ورضوان الله في الآخرة ، فأمرهم تعالى أن يذكروا نعمته فقال : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ ، وأمرهم ثانياً بالوفاء بعهده فقال : ﴿ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم ﴾ ، وأمرهم ثالثاً أن يخافوه وحده فقال : ﴿ وإياي فارهبون ﴾ ، وأمرهم رابعاً أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم الأنبياء فقال : ﴿ وءامنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ﴾ ، ثم نهاهم أولاً عن أن يكونوا أول الكافرين به فقال : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ ، ثم نهاهم ثانياً عن أن يبيعوا آيات الله ويشتروا الدنيا فقال : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ ، ثم أمرهم خامساً بتقواه وحده ، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فقال : ﴿ وإياي فاتقون ﴾ ، ثم نهاهم الله ثالثاً عن أن يلبسوا الحق بالباطل ويخلطوا هذا بذلك ويخلطوا الصدق بالكذب والعدل بالظلم والرشوة بالأحكام ، وكل هذا خلط لا يليق ولا يجمل ، وفي نفس الوقت يكتمون الحق الذي قرأوه ودرسوه في التوراة ، ومنه إنكار نبوة سيد المرسلين ، وهم يعلمون علم اليقين أنه حق لا مرأى فيه ، قال تعالى : ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ . فما أسوأ العبد إذا خلط الظلمة بالنور وكتّم الحق وخلط الأمور بعضها على بعض مع علمه بكل ما يفعل أنه خلط وباطل وإنكار وجحود ! إنه عليم فلم يعمل بما علم فاستحق أن يكون من المغضوب عليهم . نسأل الله أن يحول بيننا وبينهم ، فاهدنا الصراط المستقيم يارب العالمين ، ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . ثم أمرهم مولانا سادساً بإقام الصلاة ، وسابعاً بإيتاء الزكاة ، وثامناً بالركوع مع الراكعين . فهذه تسعة أوامر وثلاثة نواه وجهت إلى بني إسرائيل . وقد أمرهم الله بإقام الصلاة لأن فيها طهارة للقلب ؛ قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : ( إنما أتقبل الصلاة من تواضع بها لعظمتي ، ولم يستطل على خلقي ، ولم يبت مصراً على معصيتي ، وقطع نهاره في ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ؛ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلؤه بعزقي ، واستحفظه ملائكتي ؛ أجعل له في الظلمة نورا ، وفي الجهالة حلماً . ومثله في خلقي كمثله الفردوس في الجنة . ففي الصلاة طهارة للقلب ، وفي الزكاة طهارة للمال ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ \* ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ (١) . وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وقال ﷺ : ( حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستعينوا على حمل البلاء بالدعاء والتضرع ) (٢) . ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، ولذلك لم تكن الزكاة مئة يمن بها الغنى على الفقير ، إنما هي حق معلوم الثبوت واجب الأداء ، وإنما سميت صدقة أو زكاة لأنها دليل الصدق مع الله ، فالمال عزيز على النفس ، والنفس مطبوعة على الشح ، فمن دفعها فقد صدق الله في النية . وسميت زكاة لأنها طهر وغاء قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (٣) . ثم أمرهم تعالى تاسعاً بقوله :

(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٧٦ دار الفكر .

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ ، أى الزموا جماعة المسلمين ، وسيروا فى هدى المصطفى الأمين ، وأخلصوا النية للإسلام ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة والتزموا الجماعات فى أعظم الأركان ، فاركعوا معهم والتزموا هديهم وامثلوا الأوامر واجتنبوا النواهي .

### لا يليق بالعقلاء

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ \* واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخشعين \* الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

ألقى الله تعالى باللائمة على كل من يأمر الناس ولا يأتمر ، وينهاهم ولا ينتهى . وهذا حكم شامل لبني إسرائيل وغيرهم ، فالقدوة أساس الدعوة ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب ، وهو يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ \* كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ <sup>(٣)</sup> . إن النفس تذبذب خجلاً ، وإن الفؤاد يذهب شعاعاً أمام الهمة الاستفهامية مع قوله تعالى : ﴿ أتأمرون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ كيف يتأتى ذلك منكم ؟ ما كان يليق أن يصدر هذا من عاقل ، وفى هذا يقول القائل :

يا واعظ الناس قد أصبحت متها      إذ عبت فيهم أموراً أنت تأتيها  
تعيب دنياً وناساً عاملين لها      وأنت أكثر منهم رغبة فيها

ومن ثم كان الوعيد شديداً والإنكار بالغا : ﴿ أتأمرون ﴾ ﴿ وتنسون ﴾ ؟ أتأمرون غيركم ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ . أتأمرون اناس بالبر ، وهو حسن الخلق والتقوى والكلمة الجامعة لشعب الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً ، ولا تتوجهون بالأمر إلى أنفسكم وأنتم أولى الناس بالامثال ؟ إنه لا يفعل هذا إلا من سفه نفسه وأصيب بالخيال . ولذا جاءت الفاء فى قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره : أجنستم فلا تعقلون ؟ أسفهتم أنفسكم فلا ترشدون ؟ قال ﷺ : ( مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه ) <sup>(٤)</sup> ، ويقول ﷺ : ( مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ؛ قال قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ) <sup>(٥)</sup> . وقال ﷺ : ( يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتترلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول لهم : كنت آمركم

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٢٩ ط دار الفكر .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ ط الشعب .

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .

(٢) سورة هود آية : ٨٨ .

(٣) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .

بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية) (١) . وقال ﷺ : ( إن الله يعافى الأمين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء) (٢) . وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٣) . وقد ورد في بعض الآثار : « أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم » . وقال ﷺ : ( إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل) (٤) .

ثم أمر الله تعالى عباده أن يستعينوا على مرضاته وطلب ما عنده من رضوان بالصبر والصلاة فقال : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . والصبر والصلاة من خير ما يستعان به في طلب ما عند الله . وقد جاء كل منهما منصوباً على الاختصاص لما له من جليل القدر وكريم المنزلة . جاء ذكر الصابرين منصوباً على الاختصاص في آية البر في قوله جل شأنه : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ (٥) .

فقد جاء ذكر الصابرين منصوباً ، كأنه تعالى يقول : وأخص الصابرين من بين الأبرار ، كما جاء المقيمين الصلاة منصوباً على الاختصاص في قوله تعالى : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ (٦) .

فأنت ترى هنا أن لفظ ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ جاء منصوباً على الاختصاص كأنه تعالى يقول : وأخص المقيمين الصلاة بالمدح . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه أعم ، فالصبر في الأعمال كلها مرغوب فيه وممدوح صاحبه ، وهو في الصلاة أوقع وأفضل ، إذ الصبر في الصلاة يسرى في أوصالها ويتغلغل في خلاياها سريان ماء الورد في الورد ، أو كما يسرى الماء في العود الأخضر . وصلاة بلا صبر شواء لا خشوع فيها . وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (٧) . قالت أم المؤمنين عائشة : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

وقيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامي والموت ورائي والجنة عن يميني والنار عن شمالي والصراف تحت قدمي والله تعالى مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها فإذا سلّمت لا أدري أقبلها الله أم ردّها عليّ . الصبر مع الله وفاء ، والصبر في الله رضا ، والصبر بالله ولاء ، والصبر لله استغناء ، والصبر عن الله جفاء .

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٨٥ ط وزارة الأوقاف . (٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٢٩١ ط دار الفكر . (٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .

(٣) سورة الزمر آية : ٩ . (٧) سورة المؤمنون الآيةان : ١ ، ٢ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ط دار الفكر .

فما هو الصبر ؟ هو مقاومة النفس الهوى لثلاث تنقاد إلى القبائح .

وقيل : إن الصبر هو ثبات باعث الدين مقابل باعث الشهوات . وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصي ، ولهذا قرنه الله بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

والصبر قد يكون جسمانيا وقد يكون نفسانيا ، فإذا كان احتمالا للكدر وتحملا لمشقات الحياة كان صبرا جسمانيا ، وقد يكون نفسانيا ؛ فالصبر على جهل الجاهلاء حلم ، والصبر عن الشهوات عفة ، والصبر عن جمع المال قناعة ، والصبر على تحمل الشدائد شجاعة . وقد وردت عن النبي ﷺ أحاديث ترغب في الصبر وتبين ما للصابرين من مثوبة عند رب العالمين . وقد نزلت هذه الأحاديث على أهل البلاء كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى . ولما كنت واحدا من أهل البلاء رأيتني أناجى ربي قائلا :

ما مسنى قدر بكره أو رضا إلا اهتديت به إليك طريقا  
أمضى القضاء على الرضا منى به إلى عرفتك في البلاء رفيقا

نعم عرفت ربي في البلاء رفيقا عندما سلبني موهبة البصر وجعل أفئدة من الناس تهوى إلى . فما أجمل الصبر ، وما أعظم أجر الصابرين ، وما أكرم قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

قال ﷺ في الترغيب في الصبر : عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( من يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر ) (٢) . عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : لسان ذاك ، وقلب شاك ، وجسد على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خوفا في نفسها ولا ماله ) (٣) . وعن علقمة قال قال عبد الله : الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله .

إن الأمور إذا اشتدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل مارتجا  
لا تياسن وإن طالت مطالبه إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا  
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ) (٤) .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ١٤٠ ط دار الفكر .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٤٧ ط دار الفكر .

(١) سورة الزمر آية : ١٠ .

(٢) رياض الصالحين للإمام النووي ص ٢٤ ط دار التراث .



وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : ( إن الله عز وجل قال : يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيتهم من حلمي وعلمي )<sup>(١)</sup> .

إذا ما أتاك الدهر يوما بنكبة      فأفرغ لها صبرا وأوسع لها صدرا  
فإن تصاريف الزمان عجيبة      فيوما ترى يسرا ويوما ترى عسرا

وروى عن شجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أعطى فشكر وابتلى فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظلم فغفر ، ثم سكت فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون )<sup>(٢)</sup> .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما ابتلى الله عبدا ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل أو يدعو غير الله في كشفه )<sup>(٣)</sup> .

كن حليما إذا بليت بغیظ      وصبوراً إذا أتتك مصيبة  
فالليالي من الزمان حبالی      مثقلات يلدن كل عجيبة

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله أى الناس أشدُّ بلاء ؟ قال : ( الأنبياء ثم الأئمة فالأئمة ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة )<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينصب لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا ، حتى إن أهل العافية ليتمنون ، في الموقف ، أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله )<sup>(٥)</sup> .

تصبر أيها العبد اللبيب      لعلك بعد صبرك ما تحب  
وكل الحادثات إذا تناهت      يكون وراءها فرج قريب

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا أحب الله عبدا أو أراد أن يصابه صب عليه البلاء صبا وشجه عليه شجا . فإذا دعا العبد قال : يارباه ، قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك وإما أن أدخره لك )<sup>(٦)</sup> .

أما عن الصلاة ، فيكفيك أن تعلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . ولقد أخبر

(١) الإنحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ط ٢ ، محمد على صبيح وأولاده ١٩٦١ م .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٦٣ ط وزارة الأوقاف .

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٦ .

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٤ .

(٥) المصدر السابق ج ٤ ص ١٦٦ .

(٦) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٥ .

عبد الله بن عباس بوفاة أخيه فنزل عن دابته وصلى ، فقيل له في ذلك فقال : أوما قرأتم قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (١) . وقد أخبر الصادق المعصوم أن الصلاة نور ، والصبر ضياء . والضياء مصدر النور ، فنور الصلاة مستمد من ضياء الصبر . قال جل شأنه : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ (٢) ، ومن الثابت المعلوم أن القمر يستمد نوره من ضوء الشمس ، فما أجمل الشمس والقمر إذا اجتمعا في قلب المؤمن ، وما أعظم الصبر والصلاة إذا استعان بهما المؤمن على طلب مرضاة الله .

وقد مر عليه الصلاة والسلام بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : ( أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم . قال : قم فصل فإن الصلاة شفاء ) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ . الضمير هنا عائد على الصلاة ، فالصلاة التي أوصانا الله بأدائها عهد بيننا وبينه حتى قال الرسول ﷺ : ( بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ) (٣) . فآداء الصلاة بأركانها وشروطها والمحافظة عليها في أوقاتها والمداومة على أدائها أمر ثقيل على فريق من الناس إلا الخاشعين منهم ، وهم الذين امتلأت قلوبهم من خشية الله وتواضعوا في أدائها لله ، ودرسوا شروط وجوبها وشروط صحتها ووقفوا عند شروط قبولها ، وغاصوا في بحار قول الله عز وجل في الحديث القدسي الجليل : ( إِنَّمَا أَتَقَبَّلُ الصَّلَاةَ مَنْ تَوَاضَعَ بِهَا لِعَظْمَتِي وَلَمْ يَسْتَظِلْ عَلَى خَلْقِي ، وَلَمْ يَيْتَ مَصْرًا عَلَى مَعْصِيَتِي ، وَقَطَعَ نَهَارَهُ فِي ذِكْرِي ، وَرَحِمَ الْمَسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالْأَرْمَلَةَ ، وَرَحِمَ الْمَصَابِ . ذَلِكَ نُورُهُ كَنُورِ الشَّمْسِ أَكْلُوهُ بَعَزَى وَاسْتَحَفَّظَهُ مَلَائِكَتِي ، أَجْعَلَ لَهُ فِي الظُّلْمَةِ نُورًا ، وَفِي الْجَهَالَةِ حِلْمًا ، وَمِثْلَهُ فِي خَلْقِي كَمِثْلِ الْفَرْدُوسِ فِي الْجَنَّةِ ) (٤) .

كفاكم أيها الصابرون فخراً أن الله قد استثناكم من ذوى الطباع السيئة فأنتذكم منهم . قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنكُمْ كَفُورًا \* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْ لَيَكُونُ مِنكُمْ مَنكُورًا \* إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٥) .

وكفاكم أيها المصلون عزاً أن الله تعالى استثناكم من ذوى الطباع السيئة كما استثنى الصابرين واستنتذكم منهم . قال تعالى : ﴿ إِنْ الْإِنْسَانُ خَلَقَ هَلُوعًا \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا \* إِلَّا الْمُسْلِمِينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (٦) . فمن هؤلاء الخاشعون الذين نفذوا وصية الله وصانوا عهده والذين شملهم قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٧) ؟ إنهم هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . المراد بالظن هنا العلم اليقيني لا الظن الذى هو إدراك الطرف الراجح فإنه لا يفيد فى العقائد . وقد ورد من كلام العرب

(٢) سورة يونس آية : ٥ .

(١) سورة البقرة آية : ١٥٣ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٤٨٩ ط دار الفكر .

(٤) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٣٦ ط ٢ محمد علي صبيح ١٣٨٠ - ١٩٦١ .

(٥) سورة هود الآيات : ٩ - ١١ .

(٦) سورة فصلت آية : ٣٥ .

(٧) سورة المارج الآيات : ١٩ - ٢٣ .

وأشعارهم مايدل على أن الظن يأتي بمعنى اليقين والعلم ، ومنه قول عمير بن طارق :  
فإن يعبروا قومي. وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيبا مرجحا  
يعنى وأجعل مني اليقين غيبا مرجحا .

ومن الظن الذى يفيد العلم اليقيني قوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾ (١) ، وقوله جل شأنه : ﴿ فأما من أوق كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ إلى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾ (٢) . فهؤلاء الخاشعون هم الذين علموا علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل عين اليقين أنهم ملاقوا ربهم ، وذلك بعدما يفارقون الدنيا ليضعوا أقدامهم على عتبة اللانهاية ﴿ فلولا إذا بلغت الخلقوم ﴾ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ فأما إن كان من المقربين ﴾ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ فنزل من حميم ﴾ وتصلية جحيم ﴾ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ فسيح باسم ربك العظيم ﴾ (٣) .

فأيامنا خمسة : يوم مفقود ، وهو الذى مضى ولن يعود ؛ ويوم مشهود ، وهو الذى نحن فيه ، وهو الذى ينادى على ابن آدم : « أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » ؛ ويوم مورود ، وهو الغد الذى لا يعلم مافيه إلا الله وحده ؛ ويوم موعود ، وهو يوم لقاء الروح بخالقها . ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ وقيل من راق ﴾ وظن أنه الفراق ﴾ والتفت الساق بالساق ﴾ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (٤) ، وهذا هو المقصود بلقاء الله ؛ ويوم معدود ، وهو اليوم الذى ينادى فيه مالك الملك وملك الملوك : يادنيا أين بحارك وأين أنهارك وأين قصورك وأين جبالك ؟ أين الجبارة وأبناء الجبارة ؟ أين الذين عاشوا فى خيرى وعبدوا غيرى ؟ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (٥) . ﴿ فإذا برق البصر ﴾ وخسف القمر ﴾ وجمع الشمس والقمر ﴾ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ كلا لاوزر ﴾ إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ينبئ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ (٦) .

### نعم الله على بنى اسرائيل

يٰٓبَنِي إِسْرَءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ بَحَّيْنَكُمْ مِنَ الْفِرْعَوْنَ بِسُوءِ مَوَدَّتِكُمْ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَدَّبْحُونَ أَبْنَاءَكُمْ

(٤) سورة القيامة الآيات : ٢٦ - ٣٠ .

(٥) سورة مريم آية : ٤٠ .

(٦) سورة القيامة الآيات : ٧ - ١٣ .

(١) سورة الكهف آية : ٥٣ .

(٢) سورة الحاقة الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

(٣) سورة الواقعة الآيات : ٨٣ ، ٩٦ .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِنَّا نَكُفِّرُ عَنْكُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

وعاد الخطاب مرة أخرى إلى بني إسرائيل يذكرهم فيه الخالق العظيم بنعمه عليهم ، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من النعم ، كتفجير الحجر ، وإنزال المن والسلوى ، وما ذكرهم به موسى في قوله تعالى : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ﴾ (١) . وإنما كرر الخطاب لما عرف منهم من كثرة الجحود والإنكار . أليسوا هم الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ وهم الذين قالوا : يد الله مغلولة ؟ . والجاحد في حاجة إلى تذكير دائم . إنهم بإرسال الرسل إليهم ، وبما أنزل عليهم من نعم يعتبر تفضيلا لهم على عالم زمانهم خاصة لا على العالمين في كل زمان ، لأن الله تعالى قال : ﴿ أمة محمد ﷺ ﴾ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٢) . وهذا إن كان فيه تذكير للذين حضروا وعاصروا نزول القرآن ، فإن تكريم الآباء ولا شك فيه شرف للأبناء ، وإد الإنعام على الأجداد يستدعى أيضا شكر النعمة من الأحفاد . وقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد فقال : ﴿ واتقوا يوما لا تجزي نفس نفس شيئا ﴾ . وتذكير يوم يدل على تفضيحه ومافيه من أهوال جسام . فياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، فاحذروا ما يقع في هذا اليوم من قبل أن يأتي .

كان عمر رضي الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا . ومن أهوال هذا اليوم ما ذكره الله تعالى في هذه الآية : ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئا ﴾ ، أي لا تغني نفس عن غيرها ولا تحاسب بالنيابة عنها ، بل كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٣) . وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾

(٣) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

وتكون الجبال كالعهن \* ولا يسأل حميم حميماً \* يُبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التي تؤويه \* ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه \* كلا إنها لظى ﴿١﴾ . وكما قال جل شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة \* يوم يفر المرء من أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبه وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ ﴿٢﴾ .

يلقى الولد والده فيقول له : يا أبت لقد كنت بك باراً وإليك محسناً وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو .

وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى : لقد كان بطنى لك وعاءً ، وكان حجرى لك غطاءً ، وكان ثدى لك سقاءً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها يا أماه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فلا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ \* وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴿٣﴾ . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ ﴿٤﴾ . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ ﴿٥﴾ . ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ ﴿٦﴾ .

ويأتى الهول الثانى المذكور فى هذه الآية فيقول تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ ، لأن الشفاعة لا تكون إلا للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فلا شفاعة لهم . قال تعالى : ﴿ إلا أصحاب اليمين ﴾ \* فى جنات يتساءلون \* عن المجرمين \* ما سلككم فى سقر \* قالوا لم نك من المصلين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نخوض مع الخائضين \* وكنا نكذب بيوم الدين \* حتى أتانا اليقين \* فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ﴿٧﴾ . وقال جل شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ فكبكبو فيها هم والغاوون \* وجنود إبليس أجمعون ﴾ \* قالوا وهم فيها يختصمون \* تالله إن كنا لفى ضلال مبين \* إذ نسويكم برب العالمين \* وما أضلنا إلا المجرمون \* فما لنا من شافعين \* ولا صديق حميم ﴾ ﴿٨﴾ .

أما الشفاعة الحقيقية فتكون للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ ﴿٩﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ﴿١٠﴾ . ولرسول الله ﷺ عدة شفاعات ، منها الشفاعة العظمى بتعجيل الحساب ؛ وحتى أن أهل الموقف يتوجهون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل منهم لست هنالك ، فيتوجهون إلى خاتم الأنبياء ، نبي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتى العرش العظيم ويسجد لله سجدة ويسأله فصل القضاء ، فينادى : يا محمد ، ارفع رأسك وقل ماتشاء نسمع ، واشفع تُشفع .

(٦) سورة الطور آية : ٢١ .

(٧) سورة المدثر الآيات : ٣٩ - ٤٨ .

(٨) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ - ١٠١ .

(٩) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .

(١٠) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

(١) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥ .

(٢) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٣٧ .

(٣) سورة فاطر آية : ١٨ .

(٤) سورة لقمان آية : ٣٣ .

(٥) سورة المدثر آية : ٣٨ .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقاء فلا أحد في الرسل يشفع إلا به  
فيسجد تحت العرش لله سجدة ويسأل من فصل القضاء فيعطاه

وهذا هو المقام المحمود الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ (١) .

وهناك شفاعة للرسول يدخل بها قوما الجنة بغير حساب ، وشفاعة للمذنبين ، وذلك ماجاء في قوله ﷺ : ( شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي ، فمن كذب بها لم ينلها ) (٢) . وهناك شفاعة يخرج بها بعض عصاة الموحدين من النار .

قوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ ، أى فدية . قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ (٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدوا به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ (٤) . قال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ (٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ ولا نخزى يوم يبعثون \* يوم لا ينفع مال ولا بنون \* إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٦) . فقوله جل شأنه : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ هـول ثالث . ويأتى الهول الرابع ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ، أى لا يجدون لهم ناصراً ﴿ يوم تبلى السرائر \* فما له من قوة ولا ناصر ﴾ (٧) . قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون \* من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم \* وقفوهم إنهم مسئولون \* ما لكم لا تناصرون \* بل هم اليوم مستسلمون ﴾ (٨) . وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ (٩) .

ثم أخذت الآيات تفصل النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ؛ قال تعالى : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ . واذكروا يا بنى إسرائيل نعمة الله عليكم حين نجاكم من آل فرعون والمقصود بالـ ﴿ آل ﴾ الأهل ، إلا أنها تستعمل لأصحاب البيوتات الكبيرة ، وفرعون اسم لملك مصر . لماذا نجاهم من آل فرعون ؟ إنقاذاً لهم من ظلمهم ، فقد كانوا يكلفون بنى إسرائيل من الأعمال ما يسوؤهم ، ويذيقونهم أشد العذاب . فقد دخل بنو إسرائيل مصر أيام كان يوسف على خزائن الأرض ، وتناسلوا وتكاثروا حتى بلغ عددهم ستمائة ألف طوال أربعة قرون وثلاثين سنة . ولقد رأى فرعون فى المنام ناراً تأتى من جهة القدس ، فسرّها له علماء الرؤى بأن هذه النار التى جاءت من القدس إلى مصر أن زواله سيكون على يد رجل من بنى

(٦) سورة الشعراء الآيات : ٨٧ - ٨٩ .

(٧) سورة الطارق الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٨) سورة الصافات الآيات : ٢٢ - ٢٦ .

(٩) سورة آل عمران آية : ٢٢ .

(١) سورة الإسراء آية : ٧٩ .

(٢) الجامع الصغير ج ٢ ص ٧٩ ط دار الفكر .

(٣) سورة الحديد آية : ١٥ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٩١ .

(٥) سورة المائدة آية : ٣٦ .

إسرائيل . فجن جنونه وثار ثورته وغلت مراحل الغضب في عروقه ولم يبق لديه في قوس الصبر مترع ، فأمر بذبح الأبناء من بني إسرائيل ، واستحياء النساء ، أى تركهم أحياء . قال تعالى : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ \* إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ <sup>(١)</sup> . ثم بين لهم الله تعالى أن ما قام به فرعون من التذبيح والعذاب إنما هو بلاء عظيم ، والبلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى فقال : ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ . والمقصود بفرق البحر فصل بعضه عن بعض وتحويله إلى طرق يابسة بعدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر ؛ والسبط ولد الولد ، وهو في بني إسرائيل كالقبائل في العرب ، فبعدما دارت المعركة الفاصلة بين سحرة فرعون وموسى أوحى الله إلى موسى أن يلقي عصاه ﴿ فإذا هي تلقى عصاه ﴾ فإذا هي تلقف ما يأفكون \* فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين \* وألقى السحرة ساجدين \* قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون \* قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون \* لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين \* قالوا إنا إلى ربنا منقلبون \* وما تنقم منا إلا أن ءامنا بثايات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ <sup>(٣)</sup> . وتملك فرعون الغضب وركب الشيطان رأسه ، فصلبهم في جذوع النخل . وسبحان مقلب القلوب ؛ كانوا في الصباح يقسمون قائلين : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وبعد ظهور الحق قالوا وهم يقسمون بالله قائلين : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ \* إنا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ <sup>(٥)</sup> . سبحانك يا مقلب القلوب ؛ لقد كانوا في الصباح سحرة كفرة ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة . وتمت المأساة الفرعونية ، فاسم فرعون إذا أطلق يراد به ملك مصر ، كما يطلق القيصر ويراد به ملك الرومان ، ويطلق كسرى ويراد به ملك الفرس ، ويطلق النجاشي ويراد به ملك الحبشة . ثم أميط اللثام عن المشهد الحاسم : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون ﴾ \* فأرسل فرعون في المدائن حاشرين \* إن هؤلاء لشردمة قليلون \* وإنهم لنا لغائظون \* وإنا لجمع حذرون \* فأخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم \* كذلك وأورثناها بني إسرائيل \* فاتبعوهم مشرقين ﴾ <sup>(٦)</sup> . وهنا نصل إلى حافة الهاوية لأعداء الله ؛ قال تعالى : ﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ \* قال كلا إن معى ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين ﴾ <sup>(٧)</sup> . لما عبر موسى وقومه البحر الأحمر ظن فرعون أن

(٥) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ .

(١) سورة القصص الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٦) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ - ٦٠ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .

(٧) سورة الشعراء الآيات : ٦١ - ٦٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١١٧ - ١٢٦ .

(٤) سورة الشعراء آية : ٤٤ .

الطريق مازالت مهياة له في البحر ، فأراد موسى أن يطبق البحر كما كان فيضربه بالعصا حتى لا يستطيع فرعون وقومه العبور ، فأوحى الله إليه أن يا موسى اترك البحر رهوا ، أى ساكنا كما هو ، إنهم جند مغرقون ؛ ويصف الله هذا المشهد الرهيب فيقول : ﴿ وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال ءامنت أنه لا إله إلا الذى ءامنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (١) ، فكان الجواب : ﴿ ءالثن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين \* فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءاية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ (٢) .

إن نجاة بنى إسرائيل من فرعون نعمة ، وتلك نعمة أخرى ذكرها الله في قوله : ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ . فنظر الناجى إلى عدوه الهالك نعمة بعد نعمة النجاة كان يجب أن تقابل بالشكر ، لكنهم ، والأسف شديد ، قابلوها بخلاف ذلك وأقدمهم مازال بها أثر البلل من ماء البحر . ماذا قالوا لموسى ؟ اسمع إلى قوله جل شأنه : ﴿ وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة قال إنكم قوم تجهلون \* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون \* قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾ (٣) . وذكرهم الله بنعمة أخرى ، فقد وعد موسى أربعين ليلة لينزل التوراة بما فيها من أحكام وهداية ، قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ﴾ وأخذ موسى خيار بنى إسرائيل ليتلقى التوراة . فماذا فعل بنو إسرائيل في غيبة موسى ؟ اسمع إلى قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (٤) . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ . نعم لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . وبعد ذلك عفا الله عنهم ليشكروه ، قال تعالى : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ . وهناك نعمة أخرى هى إتيان موسى التوراة فيها هدى ونور ليحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، كما آتاه الله الفرقان ، وهى الآيات المعجزة التى لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء . فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهر على أيدي الأنبياء تصديقا لهم فى دعواهم مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله ، قال تعالى : ﴿ ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات ﴾ (٥) ، وكان ذلك كله ليهتدوا ويعلموا أن الله هو الحق المبين ، وحيث إنهم عبدوا العجل وأشركوا بالله ، و﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة ﴾ فلا بد لهم من توبة ؛ ولكن ما شروط هذه التوبة ؟ إنها توبة لا بد أن يدفعوا ثمنها بسخاء ، وما ثمنها لكى يتوب الله عليهم ؟ أن يقوم الموحدون المخلصون الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوه ، وإنما قال تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ لأن المؤمن للمؤمن كنفسه ، قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ (٦) أى لا تصيبوا غيركم ، فنفذوا أمر الله وقتلوا الذين وقعوا فى تلك الزلة ، فتاب الله عليهم بعدما نفذوا الأمر الإلهى ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب

(٤) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .

(٥) سورة الإسراء آية : ١٠١ .

(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

(١) سورة يونس آية : ٩٠ .

(٢) سورة يونس الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ .



الرحيم ﴿١﴾ ، وبارئكم هو خالقكم ، وتاب عليكم بمعنى قبل التوبة منكم ، إنه عظيم المتاب على عباده ، رحيم بهم ، يرفع العذاب عنهم في الآخرة ، وهذه توبة خاصة بهم .

### المأساة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسِي لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ  
تَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣﴾

﴿الصاعقة﴾ ، نار محرقة تنزل من السماء ، وسيبها اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو باتحادها مع كهربية الأرض السالبة .

عجيب أمر بني إسرائيل وأى عجب ، إنهم قوم اعتادوا العناد والجحود بعدما أنجاهم الله من فرعون وأغرقه أمامهم وهم ينظرون إليه ، وتجاوزوا البحر إلى اليابس وأقدامهم مبتلة بماء البحر . كان قياس العقلاء يقتضى أن ينجروا لله ساجدين سجود شكر ، ولكنهم خالفوا كل قياس وخرجوا على كل منطق سديد . لقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، ثم ازداد الأمر سوءاً ؛ لقد عزم موسى على الذهاب إلى منطقة الطور بسيناء ليتلقى التوراة التى قال الله فيها : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوها أحسنها ﴾ (١) . واختار موسى لهذه الرحلة سبعين رجلاً من خيرة بني إسرائيل ، وكلمه الله ، فما كان من بني إسرائيل السبعين المختارين بعناية ودقة إلا أن قالوا لموسى ﴿ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ذلك لأنهم قوم يؤمنون بالمحسوسات . وقد قال أهل الحكمة : ومن طلب المحسوس فى غير المحسوس يغم عن المحسوس كعشاء عين الخفافش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس ، هذا هو مطلب السبعين المختارين أما بقية القوم الذين وصى موسى هارون بهم خيراً ، وقال له : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ (٢) فماذا صنعوا فى غيبة نبي الله موسى ؟ ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ (٣) . بل إنهم فعلوا أكثر من ذلك ؛ لقد قالوا عن العجل إنه إلههم واله موسى ، نسى موسى إلهه هنا فذهب يبحث عنه هناك ، قال تعالى : ﴿ أفلا يرون أنه لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾ (٤) . أما السبعون المختارون فقد ظنوا أن من لا يرى لا يوجد ، وهل نحن رأينا كل شىء ؟ إن ما لا نراه أكثر مما نراه . هل رأينا الأشعة الحمراء أو فوق البنفسجية ؟ وهل عرفنا حقيقة الكهرباء والمادة ؟ وهل رأينا الروح التى بين جنابتنا ؟ وهل رأينا الهواء ؟ هل رأينا الأثير الذى ينقل إلينا الأصوات والصور فى المذياع والتلفاز ؟ . إن الله تعالى أقسم قائلاً : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون \*

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .

(٤) سورة طه آية : ٨٩ .

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٥ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٢ .

وما لا تبصرون ﴿١﴾ . أحهل هؤلاء أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزى ولا متناه ولا متلون ولا متكيف ؟ لا يسأل عنه بمنى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يقال أين هو سؤال إحاطة لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الحق ما قاله الله عن نفسه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٢) ، وما قاله : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ (٣) . لما سأل المشركون رسول الله ﷺ : حدثنا عن ربك أمن ذهب هو أم من فضة ؟ نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد \* ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . فتعالى الله الملك الحق لا اله إلا هو رب العرش الكريم . سئل الإمام على كرم الله تعالى وجهه فقيل له يا على : هل رأيت ربك ؟ قال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين  
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين

لقد أنزل الله على هؤلاء صاعقة ، أى نار محرقة ، أمانتهم كما يموت ابن آدم بالسكتة القلبية ، ونظر بعضهم إلى بعض وهو يموت . قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ . وانظر إلى قولهم ﴿ لن نؤمن ﴾ هكذا بلن التى تفيد تأييد النفى كما حكى الزمخشري ، وتأمل مافيهما من إصرار واستكبار واستمرار ، انظر إلى مدى العناد ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ ومع ذلك فقد شكوا موسى لربه : ماذا يقول للقوم إذا رجع بدون السبعين ؟ وطلب من الله إحياءهم ، فأحياهم الله ليشكروه ويعترفوا بفضلهم ، وهيئات هيئات ، إنها نفوس جبلت على العناد . إذا كان هذا حال المختارين فما بال غيرهم ؟ قال تعالى : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ﴿ (٤) . أما الذين عبدوا العجل فى غيبة موسى ، فقد أمروا بالتوبة ، ومن شروط قبولها أن يقتلوا أنفسهم فيتوب عليهم خالقهم ومصورهم .

### نعم أخرى

وَوَضَعْنَا عَلَىٰ كُفْرِكُمُ الْغَمَامَ ۖ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ ۚ وَالسَّلْوَىٰ ۚ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ  
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ الغمام ﴾ : هو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقبهم حر الشمس .

(٣) سورة طه آية : ١١٠ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ .

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة الشورى آية : ١١ .

﴿ المن ﴾ مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد فيجمعها الناس .

﴿ والسلوى ﴾ ( السيمان ) الطائر المعروف .

مازلت أكرر عجبى لبني إسرائيل . أعطاهم الله نعماً لاتعد ، ومنحهم أرزاقاً لا تحصى . عبروا البحر واشتكوا إلى موسى شدة الحر فظللهم الله بالسحاب الأبيض ، وما أجمل الظل الظليل على قوم خصهم الله بذلك . شكوا إلى موسى الطعام وشدة الجوع ، فأرسل الله عليهم طعاماً فريداً « المن » وهو مادة سكرية كالعسل ، « والسلوى » وهو طائر طيب . شكوا إلى موسى شدة الظما فاستسقى موسى لقومه فأمره الله أن يضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، عدد الأسباط ، أى القبائل ، واختص كل سبط بعين حتى لا يتنازعا ولا يتشاجروا وقال الله لهم ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ . أما الثياب فقد حفظها الله من البلى فظلت محتفظة بجديتها . فأى نعم أعظم من تلك النعم : غمام يقي من حر الشمس ، ومن وسلوى وماء يتفجر من العيون مغزاراً ومدراراً وثجاجاً خالصاً سائغاً للشاربين ، وثياب لا تبلى جدتها ؟ ومع ذلك جحدوا وظلموا أنفسهم بالجحود والإنكار بدل الشكر والعرفان . لذلك استحقوا ما حكم الله به عليهم في قوله : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (١) .

إن شكر المنعم واجب . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرنى ولا تنساني ، إنك إن ذكرتني شكرتني وإن نسيتني كفرتني . قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ (٢) . والعبد إذا جحد نعمة الله وقابلها بالكفران فإنما ظلم نفسه ونقصها خيراً كثيراً وما ظلم الله شيئاً ، قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٣) . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٤) .

إذا كنت في نعمة فارعها      فإن المعاصى تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الاله      فإن الإله سريع النقم

ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم، على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد . لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوا في كثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا الله فيه ، وأمرهم فملاً وأكل وعاء معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء ، سألوا الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكر . هذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ .

(٣) سورة الزخرف آية : ٧٦ .

(٤) سورة يونس آية : ٤٤ .

(١) سورة البقرة آية : ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

### الأمر بدخول القرية

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وتلك واقعة خطيرة ما كان ينبغي لهؤلاء القوم أن يقعوا فيها ، لقد أمروا بأمر ما أيسره على النفوس وما أجل أثره عند الله ، أمرهم الله أن يدخلوا القرية ، والمراد بها هنا بيت المقدس كما حكاها المفسرون ، وقال لهم : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغدا ﴾ أى أكلاً هنيئاً ذا سعة . أبعد هذا الفضل فضل ؟ أبعد هذا الإناعم إناعم ؟ وأمرهم الله إذا دخلوا بيت المقدس أن يسجدوا إذا دخلوا الباب سجود شكر على ما أنعم الله به عليهم من عظيم النعم وجليلها . أيستحق هذا الأمر الميسور الذى لا عنت فيه ولا مشقة أن يقابل بالعناد والمخالفة ؟ خاصة وقد رتب الله عليه مغفرة الذنوب والخطايا ، وأى شيء يستحق هذا العناد ؟ ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً ﴿ ثم ماذا ؟ قولوا وأنتم داخلون : اللهم حط عنا خطايانا وذنوبنا . وحطة خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمرنا حطة أى نسأل الله أن يحط عنا خطايانا وذنوبنا . ووعد الله حتى ﴾ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ <sup>(١)</sup> . فما كان أجدر القوم أن يعملوا بما أمروا ، فالله إذا وعد أنجز كريماً وفضلاً ، وإذا أوعده فهو إن شاء عفا وإن شاء عاقب . وقال الله لهم ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ ، وهذا هو مقام الإحسان أن يزيد على العدل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ <sup>(٢)</sup> . فإن ثبنا فمحض الفضل ، وإن يعاقب فمحض العدل .

والمحسنون هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، وهذا هو مقام المشاهدة ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، وهذا هو مقام المراقبة . فماذا كان موقف هؤلاء من هذه الأفضال ؟ . غيروا القول الذى قيل لهم وبدلوه لأنهم بتركه وعدم الامتثال له كأنهم بدلوه وغيروه من عمل إلى ترك ومن امتثال إلى مخالفة . فما سجدوا ، إنما دخلوا مرفوعى الرؤوس كبراً وعجباً ، وتلك طبائع معتلة ، وهذا سلوك مختل ، والشيء من معدنه لا يستغرب . أليسوا هم الذين قالوا : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ أليسوا هم الذين عبدوا العجل فى غيبة نبيهم ؟ أليسوا هم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ؟ أليسوا هم الذين قالوا يد الله مغولة ؟ أليسوا هم الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ إنهم أساءوا الأدب حتى مع الله وأسأوه مع الأنبياء . ألم يقولوا لموسى أتخذنا هزواً وهو من أولى العزم الذين ورد ذكرهم فى قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين

(١) سورة الروم آية : ٦ .

(٢) سورة النحل آية : ٩٠ .

ولا تتفرقوا فيه ﴿١﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٢) . أليس موسى هو الذى قال الله له : ﴿ وأنا اخترتك ﴾ (٣) ، وقال له : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾ (٤) . وقال له : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (٥) . وقال فى حقه : ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ (٦) ؛ ومع ذلك اجترأوا عليه وقالوا له : ﴿ أتتخذنا هزواً ﴾ (٧) ؟ أمروا بأن يدخلوا الباب سجداً فدخلوه غير سجد وأمروا أن يسألوا الله مغفرة ذنوبهم ويقولوا حطة فلم يفعلوا ، وظلموا بتغييرهم أوامر الله وتبديلهم إياه فاستحقوا من الله الجزاء الأوفى ، لأنهم كما قال الله عنهم : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ (٨) . وهنا يظهر فضل أصحاب محمد ﷺ : ﴿ قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٩) . وهيأت هيهات ثم شتان بين من قالوا سمعنا وعصينا وبين من قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . وهكذا أنزل الله عليهم من العقوبة ما يستحقونها ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ أى عذاباً ؛ وقد ورد أنه الطاعون . قال ﷺ : ( الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ؛ فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه ، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها ) (١٠) . وقد أوعد النبي ﷺ قوما ظهرت فيهم الفاحشة فقال : ( لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ) (١١) . ولم تكن العقوبة بالطاعون لهؤلاء ظلماً ، فالله أعدل العادلين وأسرع الحاسيين وأحكم الحاكمين ، بل كان الجزاء عادلاً ، فقد قال تعالى : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ والفسق خروج عن طاعة الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ (١٢) ، والخروج عن طاعة الله ظلم . ولقد كان ابن تيمية يقول : إن الله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة على الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (١٣) ، وقال ﷺ : ( اتق دعوة المظلوم ) (١٤) .

(١) سورة الشورى آية : ١٣ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٧ .

(٣) سورة طه آية : ١٣ .

(٤) سورة طه آية : ٣٩ .

(٥) سورة طه آية : ٣٩ .

(٦) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .

(٧) سورة البقرة آية : ٦٧ .

(٨) سورة البقرة آية : ٩٣ .

(٩) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(١٠) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٤٠ ط دار الفكر .

(١١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٢٥ ط وزارة الأوقاف .

(١٢) سورة يونس آية : ١٣ .

(١٣) سورة هود آية : ١١٧ .

(١٤) الجامع الصغير ج ١ ص ٢٤ ط دار الفكر .

## الأمْر بضرب الحجر

\* وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾

الاستسقاء هو طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته ، لأن السين والتاء يدلان على الطلب ، كقولك : اللهم إني أستعينك وأستغفرك وأستهديك ، أى أطلب منك العون والمغفرة والهداية . وانفجرت وانبجست بمعنى واحد . والمشرّب مكان الشرب . وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتوا ﴾ أى ولا تتجاوزوا الحدود فتفسدوا .

وتلك نعمة ومعجزة . فقد اعتاد بنو إسرائيل عند الضيق أن يلقوا باللائمة على موسى ؛ شكوا إليه شدة الظمّ ولهب العطش ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه التى فلق الله البحر بعدما ضربه موسى بها . فالسقيا : نعمة ، وضرب الحجر بالعصى وتفجير الماء عقب ذلك معجزة ، فالمعجزة قد تكون فعلاً كأنفجار الماء من الحجر بعد ضربه بالعصا ، وقد تكون تركاً كترك الإحراق بالنار عندما ألقى إبراهيم فيها ، فقد توافرت الأسباب وزالت الموانع ، ولكن اختلفت النتائج . فالنار من طبعها الإحراق ، وقد ألقى إبراهيم فيها ، فما حرقت إلا قيوده التى قيدوه بها ، وظل إبراهيم بها حتى خمدت ، ورآه النمرود يجلس أحسن مما كان صحة وعافية . لقد نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق . حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ، ﴿ قالوا حرّقه وانصروا أهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ \* قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿ (١) . جمع له بين البرودة والسلامة ، لأنه لو قال لها كونى برداً على إبراهيم لتجمد من برودتها ، ولو قال لها كونى سلاماً على إبراهيم لأذته بحرارتها ، فجمع لها بين البرودة والسلامة حتى يظل فيها وكأنه فى روضة غناء وربوة حاملة . كذلك من المعجزات ترك الذبح من السكين التى أراد إبراهيم أن يذبح بها ولده إسماعيل . فالأسباب متوافرة وقد زالت الموانع ، فما الذى حال بين السكين وبين الذبح ؟ إنها المعجزة ، أراد الخليل أن يذبح ، ولكن الجليل أراد أن لا يذبح ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ \* ونادى به أن إبراهيم ﴿ قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ \* إن هذا هو البلاء المبين \* وفديناه بذبح عظيم ﴿ (٢) . وقد تكون المعجزة قولية كمعجزة الإسلام الخالدة : القرآن الكريم المنزل على سيد الأنبياء والمرسلين ، من أفضل مكان هو اللوح المحفوظ ، وبأفضل ملك هو جبريل ، وبأفضل لغة هى العربية ، وفى أفضل بلد هى مكة ، وفى غار حراء ، فى أفضل شهر هو رمضان ، فى خير ليلة هى ليلة القدر ، لخير أمة أخرجت للناس ، على أفضل الأولين والآخرين هو نبي الرحمة محمد ﷺ . ومن هنا فإن

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ - ١٠٧ .

المعجزات الفعلية تكررت على يدي موسى ، كفلق البحر وضرب الحجر وانفجاره بالماء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وإحياء الله موتاهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وبعد انفجار الحجر قال الله لهم : ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ أى لقد أبحت لكم الأكل والشرب من رزقى فأنا الرزاق ذو القوة المتين :

لا تعجلن طلب الأرزاق بالعجل الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا لكنه خلق الإنسان من عجل

ولوركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فم ابن آدم . قال ﷺ : ( إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فأتقوا الله وأجلوا في الطلب )<sup>(١)</sup> . وقال صلوات ربى وسلامه عليه : ( لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً )<sup>(٢)</sup> . حتى قال بعضهم للإمام على كرم الله وجهه : لو حبس إنسان في مكان فمن أين يأتيه رزقه ؟ فقال الإمام : من حيث يأتيه أجله .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيري ولا الأمور التي تجرى بتقديري  
لى خالق رازق ماشاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

إن الرزق يقتضى الشكر ؛ قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾<sup>(٣)</sup> . ومن ثم فقد نهاهم عن الفساد والإفساد . فقال لهم : ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ . فماذا كان موقفهم وهم الشعب المدلل ؟ ماذا كان موقفهم بعد كل هذه النعم ؟

### الذلة والمسكنة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا . قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَحْبَبُوا مَضْرَافِينَ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بَانَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّيْنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وذلك أيضا موقف يثير العجب : قوم أنزل الله عليهم المن والسلوى ، وهما من أعظم أنواع الطعام

(٣) سورة سبا آية : ١٣ .

(١) الجامع الصغير ج ١ ص ٣٤٦ ط دار الفكر .

(٢) رياض الصالحين للنووى ص ٤٢ ط دار التراث العربى .

قدرا وذوقا وطعما وغذاء . رزق ينزل بلا عناء : مادة كالعسل ، وطير من أشهى أنواع الطير ، ورب كريم يقول لهم : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ (١) . . ولكن طباعهم أبت عليهم إلا العناد . فماذا طلبوا من موسى ؟ لقد طلبوا منه ما يدعو إلى الدهشة ويشير في النفس كوامن الأسى . قالوا : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ . وكان تعبهم بالصبر يفيد أنهم يأكلونه على مضض . فالصبر حبس النفس على الشدائد ، وكأنهم قوم بلغوا من الجهد ما بلغوا . فماذا يريدون من موسى ؟ قالوا له : بما لك من مكانة عند ربك فادعه يخرج لنا بما تنبت الأرض من بقلها . قال المفسرون المراد بالبقل : النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا ما يطعمه الإنسان من أطيب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما ؛ والقشاء هي ما يسمى بلغة العامة ( القطة ) ؛ والفوم : هو الثوم ؛ والعدس والبصل معروفان . . . قال لهم الكليم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مستنكرا هذا الطلب : أتستبدلون الذي هو أدنى من الطعام من البقل والقشاء والفوم والعدس والبصل تاركين الذي هو خير من المن والسلوى ؟ والمراد بالأدنى هنا الأقل قدرا . ومادمت قد أردتم ذلك فاهبطوا مصرا من الأمصار ، أى اذهبوا إلى بلد من البلاد التى تنبت هذه الأشياء ، فإن الأرض التى أنتم بها الآن لا تنبت ما طلبتم . هذا هو الرد الذى رد به موسى عليهم . فماذا صنع الله بهم وهم الذين استكبروا وأصروا على استكبارهم وجحدوا وعاندوا واستمرأوا ذلك ، وكلما نزلت بهم شدة ألقتوا باللائمة على موسى . لقد عاقبهم الله على عنادهم وكبرهم عقوبة تطابق فعالهم ، فضرب ﴿ عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ؛ والتعير ﴿ ضربت عليهم ﴾ يفيد الإحاطة والإلزام ، والذلة هوان وضيم يأتي من خارج النفس ؛ أما المسكنة فإنها ضعة وذل نابع من النفس وملازم لها . ولذا جاء في آية أخرى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ﴾ (٢) .

فنحن نرى في هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب عليهم الذلة قال : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ . والمراد بالحبل هنا العهد ، أى إلا أن يكون بمقتضى عهد من الله أو عهد بينهم وبين الناس . أما المسكنة فلا استثناء فيها ، لأنها نابعة من النفس ذاتها متغلغلة في خلاياها . ولم يكن هذا الجزاء عبثا أو ظلما ، فمعاذ الله أن يكون في حكمه عبث أو أدنى ظلم ، إنه تعالى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . لقد جاءت حيثيات الحكم على الوجه التالى ، وهى أربعة تناهت في الفحش والطغيان ومجاوزة الحد ؛ أولها ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ﴾ . ألم يقولوا من قبل : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ؟ . ثم ألم يتخذوا العجل إلها ؟ . ثانيها : ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ . قال ﷺ : ( أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتل نبي أو قتل نبيا ) .

وهكذا يبدو الفعل في أبشع صورة من صوره عندما يقترن قتل النبيين بغير الحق . والقتل للنبيين قد وقع منهم بإسراف وسفه ، فإذا كان القتل في حد ذاته بغير الحق ، فما بالنا إذا اقترن بهذه الصورة ؟ إنه يكون في أشنع صورة وأبشع فعل . وهل الحق إلا وضع الشيء في موضعه الذى أمر الله أن يوضع فيه ؟ وهل بعد



الحق إلا الضلال ؟ وهل الكبر إلا غمط الناس وبطر الحق ؟ . ثم تأمل معى مجيء الفعلين فى صيغة المضارع الذى يفيد الحال وقد يفيد الاستمرار ، كأن الأمر لم يقف عند حد من الحدود ، إنما تجاوز الأزمان وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يكفرون ﴾ و ﴿ يقتلون ﴾ .

ثم تأتى الحيشة الثالثة فى قوله تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ . والمعصية هى الخروج عما نهى الله عنه قوله : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ . ثم ختم الله هذه الحشيات بقوله : ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ . والاعتداء تجاوز عن سبل الهداية والإرشاد والخروج عن كل ما هو خير وإصلاح . وهكذا جمع القوم بين الكفر بآيات الله وقتل أنبياء الله وعصيان الله والاعتداء على حدود الله . أليس من العدالة أن ييؤوا بغضب من الله ؟ ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

### فرق وعقائد

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾

هذه أربع فرق بدأها الله تعالى بالمؤمنين ، وهم أتباع محمد ﷺ والذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٢) ، وهذه هى الفرقة الناجية ، لأنها آمنت بكل ما أمر الله عباده أن يؤمنوا به . فهم الموحدون المصدقون بالملائكة ، المؤمنون بالكتب كلها والرسل جميعا . لم يفرقوا فى الإيمان بهم بين نبي ونبى ولا بين رسول ورسول . هؤلاء ما عرف الكفر إليهم طريقا ولا اتخذ إليهم سبيلا ، لأن قلوبهم ملئت بصدق اليقين . أما الفرق الباقية من اليهود والنصارى والصابئين ، فإنما يحكم لهم بالنجاة إذا تبعوا سبيل المؤمنين ، فأمنوا بالله والملائكة والكتب والرسل وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ . فلن يكمل إيمان ولن يصح إسلام ولن يقبل عمل إلا بالإيمان بخاتم الأنبياء . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وعاءمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثلهم ﴾ (٣) . وهل هناك ما ينجى من النار إلا الإسلام : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٤) . ﴿ ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (٥) . قال تعالى فى حديث قدسى : ( وعزى وجلالى لو سلخوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد ) . اليهود قوم سلخوا فى عقيدتهم مسالك شتى ، انحرفت بهم عن طريق الجادة وتنكبت بهم عن سواء

(١) سورة آل عمران آية : ١١٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٣) سورة محمد الأيتان : ٢ ، ٣ .

(٤) سورة آل عمران آية : ١٩ .

(٥) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

الصراط . فمنهم من يقول : عزيز ابن الله ، ومنهم من يرى تجسيد الإله وتشبيهه ، ويرى أن الله صرع يعقوب وكاد يعقوب يصرعه !! .

وإنما سموا باليهود لميلهم<sup>(١)</sup> ، وهورجوعهم من شيء إلى شيء . والهود : الميل . وقيل لأنهم من ولد يهوذا بن يعقوب عليه السلام . وقد ذكر الله عز وجل في القرآن الكريم من اعتقادهم ما يدل على كفرهم من قولهم : ﴿ عزيز ابن الله ﴾ وقولهم هم والنصارى : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾<sup>(٢)</sup> ، وغير ذلك مما نزل به القرآن . ومع ذلك بدلوا صفة النبي ﷺ التي وجدوها في التوراة حسداً منهم له وعناداً ، وبدلوا أحكام التوراة ، فأحلوا الحرام ، وحرّموا الحلال ، وشرعوا لأنفسهم شرعاً باطلاً غير ما شرع الله لهم ، فأحلوا نكاح بنات الإخوة وبنات الأخوات ، ومن طلق منهم زوجته أى طلاق كان ، استحلبها بعقد نكاح جديد ما لم تتزوج غيره ، فإن تزوجت غيره وطلقها الزوج الثانى ، أو مات عنها لم تحل للزوج الأول أبداً . ومن مات منهم عن امرأة وله أخ ، فإن كان له منها ولد أو من غيرها لم تحل لأخيه أن يتزوجها أبداً . وإن لم يكن له منها ولد ولا من غيرها فإنها توقف عليه ولا يجوز لأحد منهم نكاحها قبل أن يحلها منه .

ومما شرعوه لأنفسهم خلاف ما شرع الله تعالى لهم في التوراة فيما بينهم — أن من مات منهم وخلف أبا وأما وزوجة فإنهم يجعلون المال كله للأب بغير صداق الزوجة ولا شيء للأُم وللزوجة من الميراث ، وذلك إذا لم يكن للميت أولاد ، فإن خلف أولاداً كان المال كله لهم ولا شيء للأب والأُم ، فإن كان الأولاد ذكورا وإناثا فإنهم يعرضون للبنات الأولى عشر المال والتي بعدها عشر ما بقى ، وعلى هذا إلى انقضائهن ، وما بقى قسم بين البنين بالسوية إلا أن يكون أحدهم بكرة لأبيه دون أمه فإنه يكون له سهمان ، ولكل واحد من إخوته ، وغير ذلك مما بدلوه من الأحكام .

وأما النصارى : فهم منسوبون إلى قرية بفلسطين تسمى ناصرة ، لأنه كان بدء خروجهم منها ، وهم من قوم عيسى عليه السلام . ومنهم من قال : إن الآلهة ثلاثة ، ظهر منها اثنان هما مريم وعيسى عليهما السلام ، وخفى منهم واحد وهو الله تعالى .

ومنهم من قال : إن الله تعالى هو المسيح ابن مريم ، وهم اليعقوبية أصحاب يعقوب ( ليس بأبى يوسف عليهما السلام ) وكذبوا في ذلك كله . وهم مفترقون على اثنتين وسبعين فرقة كما أخبر النبي ﷺ . وقد قالوا في ابتداء أمرهم : نؤمن بالله واحد : الله تعالى ، خالق ما يرى وما لا يرى . ثم نقضوا ذلك فقالوا : المسيح خالق غير مخلوق . ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو ابن الله ، ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو الله .

وإذا كتبوا كتابا كتبوا في أوله : باسم الأب والابن والروح القدس . وهم يعتنقون الصلبان . فهذا ما أجمعوا عليه ، وأما ما اختلفوا فيه فكثير .

وأما الصابئون : فاسمهم مأخوذ من صبا إذا خرج من شيء ، ومن دين إلى دين . ومن العلماء من

(١) ارجع إلى كتاب البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان . تأليف عباس بن منصور السكسكى الحنبلى دار التراث العربى .

(٢) سورة المائدة آية : ١٨ .

يقول إنهم من النصارى فصبأوا إلى المجوسية . ومنهم من قال إنهم قوم عبدوا النجوم وأمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . وقال بعض العلماء إنهم قوم عبدوا الملائكة وقرأوا الزبور . وقال آخرون : هم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب ، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها .

هذه الفرق التي ورد ذكرها بعد المؤمنين بيّن القرآن لها طريق النجاة في ثلاثة أركان : الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، العمل الصالح . ولابد من الإتيان بهذه الأركان لينضموا بها إلى فريق المؤمنين . وقد يقول سائل : فأين الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ؟ ونقول : إن مقتضى الإيمان بالله يقتضى الإيمان بكل ما أنزل على رسوله . وقد قال الله في الكتاب المنزل على سيدنا محمد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ءامنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ (١) . وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ (٢) . فمن آمن بالله ورضى به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فقد ذاق حلاوة الإيمان . فلو أن هذه الفرق سلكت الطريق فأمنت بالله وأيقنت باليوم الآخر وعملت صالحاً لكانت جديرة بما حكم الله به للمؤمنين في قوله : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣) ، والأجر يفسر هنا بسعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (٤) . أى لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (٥) . وقال عز من قائل : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٦) ؛ ثم زاد على ذلك الأجر أن نفى عنهم الخوف والحزن فبدل خوفهم أمناً وحزنهم سروراً : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ (٧) ، والأمن والسرور نعمتان لا تعدلها أى سعادة إلا الفوز برضوان الله . قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٨) ، ومن ثم فإن الله جلّت قدرته وتعالى عظمته رفع عن أوليائه الصالحين الخوف والحزن ، الخوف مما سيأتى والحزن على ما فات ، وشر ما تبئى به النفس أن تعيش في قلق وتصاب بما يسميه علماء النفس عقدة الخوف من المستقبل . ومن ثم تأتى ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٩) .

(٦) سورة النمل آية ٩٧ .  
(٧) سورة فاطر الأيتان : ٣٤ ، ٣٥ .  
(٨) سورة التوبة آية : ٧٣ .  
(٩) سورة التوبة آية : ٥١ .

(١) سورة النساء آية : ١٣٦ .  
(٢) سورة هود آية : ١١٢ .  
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٤ .  
(٤) سورة طه آية : ١٢٣ .  
(٥) سورة النحل آية : ٣٠ .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج      أبشر بخير فإن الفارج الله  
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه      لا تيأسن فإن الكافي الله  
الله يحدث بعد العسر ميسرة      لا تجزعن فإن الصانع الله  
إذا بليت فثق بالله وأرض به      إن الذي يكشف البلوى هو الله  
والله مالك غير الله من أحد      فحسبك الله في كل لك الله

إن السعادة كلها في الرضا ، وإن الشقاء كله في الاعتراض والجزع . لقد كان بعض الصالحين ينام على الطوى ، ويقولون : نحن في سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف .

فليتك تحلو والحياة مريرة      وليتك ترضى والأنام غضاب  
وليت الذى بينى وبينك عامر      وبينى والعالمين خراب  
إذا صح منك الود فالكل هين      وكل الذى فوق التراب تراب

والخلاصة أن هذه الآية التى بين أيدينا ركزت النجاة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . فأى فرقة من الفرق التى انحرفت عن هدى الرسالة إن توافرت لها هذه الأركان كانت مع المؤمنين ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ (١) .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ تَبَيْنَكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

فى هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى بنى إسرائيل بمواقف أجدادهم وآبائهم حتى يكون لهم فيها عبرة وموعظة فينتفعوا بدروسها ، فمن تلك المواقف أن الله تعالى أخذ عليهم ميثاق ، منها قوله جل شأنه : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ (٢) . ومنها : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ (٣) . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ (٤) .

ولما كان القوم يؤمنون بالمحسوسات ، فإن الله تعالى رفع الجبل فوقهم ، وظل فوق رؤوسهم كأنه ظلة

(٣) سورة البقرة آية : ٨٤ .

(٤) سورة النساء آية : ١٥٤ .

(١) سورة النساء آية : ١٤٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ٨٣ .

حتى ظنوا أنه واقع بهم . وما أروع القرآن في التعبير : بواقع بهم ، ولم يقل واقع عليهم ، إذ لو كان التعبير بعليهم لوقع فوق رؤوسهم ، لكن التعبير بواقع بهم يدل على أن الجبل سيأخذهم ويقع بهم في أعماق الأرض . وقال لهم الله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى خذوا ما في التوراة من أحكام واعملوا بها ، إذ لا قيمة لعلم بلا عمل . قال أحد الحكماء :

العلم كالغيث والأخلاق تربته      إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر  
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة      والناس تلعه في البدو والحضر

قال الإمام عليّ : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال الإمام الغزالي : إذا حصل انفصال بين العلم والعمل فما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتابا إلى أحد أمرائه ، وأمره أن يبنى له قصرا في ناحية من مملكته ، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبنى القصر ، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذي أرسل به إليه ؟ .

قوله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى بحزم وعزم وتصميم وتنفيذ . كما قال جلّ شأنه : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾<sup>(١)</sup> ، فإن القوم كانوا غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، حتى جاء فيهم قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾<sup>(٢)</sup> . ثم قال لهم تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . لأن نسيان العهود والتشريعات والأحكام الإلهية ضلال بعيد . ويوم ينسى الإنسان ما أمره الله بذكره ، فقد هوت به الريح في مكان سحيق . قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال تعالى في حق اليهود : ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد ينسى الإنسان خلقه فيضل . قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ﴾<sup>(٥)</sup> . وجعل عاقبة ذلك ، أى الأخذ للأحكام بقوة ، جعل عاقبته التقوى ، فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، والتقوى هي طريق النجاة ، إذ هي السلاح الأقوى . أما من حمل الأحكام ولم يعمل بها فهو كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾<sup>(٦)</sup> .

قال تعالى مذكرا إياهم : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ ، أى أعرضتم عن صيانة المواثيق وحفظ العهود . ولولا أن رحمة الله تداركتكم ، فهو سبحانه وسع كل شيء رحمة وعلما ، لولا ذلك لكتتم من الخاسرين الهالكين . وتلك سنة الله يتدارك العصاة برحمته فيتوبوا إليه ، فإذا تآمدا وسدروا في طغيانهم ، فإن قول الله تعالى يتحقق فيهم : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وأملى لهم إن كيدى متين<sup>(٧)</sup> . إن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي مظلمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٨)</sup> .

(٥) سورة يس آية : ٧٨ .

(٦) سورة الجمعة آية : ٥ .

(٧) سورة القلم الآيتان : ٤٤ ، ٤٥ .

(٨) سورة هود آية : ١٠٢ .

(١) سورة مريم آية : ١٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ٧٤ .

(٣) سورة الكهف آية : ٥٧ .

(٤) سورة المائدة آية : ١٤ .

أما من عمل بما علم فإن الله تعالى سيورثه علم ما لم يكن يعلم ، أى يفتح أمامه مغاليق المعارف وكنوز المعرفة . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . ويعد الفضل والرحمة يذكرهم الله تعالى باعتماد جسيم ، فقد أمرهم مولانا سبحانه أن يتفرغوا يوم السبت من كل أسبوع لعبادته ، ونهاهم عن اصطياذ الحيتان في هذا اليوم ، ولكنهم اعتدوا وتجاوزوا الحد . قال تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُكُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) . قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ . فماذا كان جزاء المعتدين ؟ لقد مسخهم الله قردة أذلاء صاغرين . روى جمهور العلماء أن الله مسخ صورهم فصارت صور القردة . وروى أن المسوخ لا ينسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام . وبين الله الحكمة من هذا الجزاء فقال : ﴿ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة عبرة للذين سيأتون بعدهم ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ لِمَا يَبِينُ يَدِيهَا ﴾ ، كما جعلها الله عبرة للذين عاشوا زمانها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلْفَهَا ﴾ ، كما جعلها الله موعظة ودرسا للمتقين . فإن التقوى سبب قوى من أسباب الانتفاع بنوب الدهر وأحداث الليالي . وهكذا ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ (٢) . والله تعالى يقرر أنه لا يعتبر بالأحداث إلا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (٤) .

### قصة البقرة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٧٨﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبِينَ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالُوا آدَعْ لَنَا رَبَّكَ يَبِينَ لَنَا مَا هِيَ إِنْ أَلْبَقَرُ تَشْبَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٨٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذُلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيبَةَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَءُكُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٨٢﴾ فَقُلْنَا

(٣) سورة الزمر آية : ٩ .

(٤) سورة النازعات آية : ٣٦ .

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٣ .

(٢) سورة الحاقة آية : ١٢ .

أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

وسميت السورة الكريمة بسورة البقرة ، لأنه اسم لقصة بلغت من العجب مبلغا بعيدا . فبنوا إسرائيل إن أردنا أن نسميهم باسم يدل على نفوسهم المعقدة ، استطعنا أن نقول إنهم قوم مصابون بعقدة البقرة ، وللبقرة في هذه السورة قصة تنخلع لها القلوب وتنفطر لها النفوس وتحار فيها العقول . ولعل ذوى الألباب الباصرة وأولى الأفئدة المستنيرة لو نخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد رأيهم لعلجوا ما تحتويه تلك القصة من موقف متصلب لقوم شددوا فشدد الله عليهم . ولما أخبرهم نبيهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، قالوا له بلسان جرى وحماسة شنيعة : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴾ ، ما كان يليق أن يوجه مثل هذا الخطاب إلى نبي رسول كريم من أولى العزم قال في شأنه ربه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى فَبَرَأَ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ (١) ، وقال له مولاه : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٢) ، وقال له ربه : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ (٣) ، وقال له سبحانه : ﴿ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةٌ مِنِّي ﴾ (٤) ، وقال له : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ (٥) . يخلع عليه ربه هذه الأوسمة وتلك النياشين ويقول له قومه بحماسة ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا ﴾ فيقول لهم بلسان الحليم الناصح الأمين الشفوق الكريم : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ . ياله من أدب ، وما أجمله من خلق ، وما أعظمه من حلم . قوم يسخرون ونبي يُربي ويعلم ويصبر ويحتسب : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَى ﴾ وأي أذى ، ولكنه حلم الأنبياء .

المفردات : البقرة : اسم الأنثى ، والثور : اسم الذكر ، والهزو : السخرية ، والجهل : هنا فعل ما لا ينبغي أن يفعل ، وقد يطلق اعتقاداً لشيء بخلاف ما هو عليه ، والفارض : المسنة التي انقطعت ولادتها ، والبكر : الصغيرة التي لم تحمل بعد ، والعوان : النصف في السن من النساء والبهايم ، والذلول : الريض الذي زالت صعوبته ، ويقال دابة ذلول بينة الذل ( بالكسر ) ، ورجل ذلول بين الذل ( الهمز ) والإثارة : قلب الأرض للزراعة ، والحرث : الأرض المهيأة للزراعة ، والمسئمة : التي سلمت من العيوب ، والشية : العلامة ، أى لا لون فيها يخالف لونها ، من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان ، والآيات : هى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور الغريبة ، وأذارتهم : أى تدارت من الدراء وهو الدفع ، ويقال عقلت نفسى عن كذا : أى منعتها منه .

جاء في تفسير المراغى مانصه : في هذا القصص بيان نوع آخر من مساوئهم لنعتبر به ونتعظ ، وفيه من وجوه العبرة :

(١) أن التنطع في الدين والإلحاف في السؤال مما يقتضى التشديد في الأحكام ، ومن ثم نهينا عن

(٤) سورة طه آية : ٣٩ .

(٥) سورة طه آية : ٤١ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

(٣) سورة طه آية : ١٣ .

ذلك بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> . وبما جاء في صحيح الحديث من قوله ﷺ : ( وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال ) .

(٢) أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ماعبدوه ، وهو العجل ، ليهون عندهم ماكانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ماكان في نفوسهم من حب عبادته .

(٣) استهزأؤهم بأوامر الأنبياء .

(٤) أن يحيا القتل بقتل حي ، فيكون أظهر لقدرته تعالى في خلق الأشياء من أضدادها .

وأول القصة معنى قوله : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ الخ ، إذ هي المخالفة التي صدرت منهم : ثم ذكر المنة في الخلاص منها في قوله : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا ﴾ الخ ، وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها ، وهي ذبح البقرة . وهذا الأسلوب ادعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب في ذبح البقرة ، والمفاجأة بحكاية ماكان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة في أمر الله بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها .

والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين في تنسيق الكلام بحسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذي يستثير اللب ، ويأخذ بمجامع القلب ، ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث . ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ﴾ . روى في سبب الذبح أنه كان في بني إسرائيل شيخ موسر قتله بنو عمه طمعا في ميراثه ، وحملوه إلى قرية أخرى والقوة بفنائها ، ثم جاءوا يطالبون بديته وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما خفى من أمر القاتل ، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر عن قاتله .

﴿ قَالُوا أَتُتَّخَذُ هَذَا هُزُوًا ﴾ ، أى قالوا : أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟ نسألك عن أمر القتل فتأمرنا بذبح بقرة ، وهذا غاية في الغرابة ، وبعيد كل البعد عما نريد ؛ وقد كان الواجب عليهم أن يمشلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام ، ثم ينتظروا ما يحدث بعد ، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدره الله تعالى .

﴿ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى ألتجئ إلى الله من الهزء والسخرية بالناس ، إذ هو في مقام تبليغ أحكام الله دليل السفه والجهل .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ﴾ ، أى سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها ، وقد سألكوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهدوه ، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم .



﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ ، أى ليست بالكبيرة ، ولا بالصغيرة ، بل هى وسط بينهما .

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ ، أى فامتثلوا الأمر ولا تتوانوا فى نفاذه . ولا يخفى ما فى هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت ؛ وكان يجب عليهم الاكتفاء به والمبادرة إلى الامتثال ، لكنهم أبوا إلا تنطعا واستقصاء فأعادوا الطلب .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ ، سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية فى بيان مميزاتها ، لكنهم ما قنعوا بهذا ، بل زادوا فى الإلحاف وإعادة السؤال مرة أخرى .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ ، هذا سؤال لطلب إيضاح وإظهار ، زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة ، لأنه لم يحصل لهم تمام البيان . ثم ذكروا السبب فى إعادة السؤال : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أى لأن وجوه البقر تتشابه .

﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ إلى البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفى من أمر القاتل أو إلى الحكمة التى من أجلها أمرنا ، وقد روى أنه ﷺ قال : ( لو لم يستنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد ) .

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ . أى إنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحرثة والسقى ، وهى سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ، أى إنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التى ذكرتها لنا .

﴿ فذبحوها ﴾ ، أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة ، حتى وجدوها فذبحوها .

﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع ما كان من تنطعهم وتعتتهم . والخلاصة : فذبحوها بعد توقف وبطء .

روى ابن جرير عن ابن عباس : ( لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ) .

﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ ، هذا مؤخر لفظا مقدم معنى ، لأنه أول القصة — أى وإذ قتلتم نفسا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى ، فقال موسى إن الله يأمركم . . . إلى آخر الآيات ؛ ولم يقدم لفظا ، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ، وأسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبي ﷺ ، لأنهم سلائل أولئك ، وهم راضون بفعلهم ، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمة فى مجموعها كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب :

وَجُرْمُ جَرَّةِ سَفَهَاءِ قَوْمٍ فَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعِقَابُ

﴿ فَادَارَأْتُمْ فِيهَا ﴾ ، أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها ، وكل واحد يدرا عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه .

﴿ وَاللَّهُ مَخْرَجُ مَا كَتَمْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ ، أى والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل ، فمن كان يعرف أمراً يكتمه لهُوى فى نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن ، والعداوة ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ . أى اضربوا المقتول ببعض البقرة ، أى بعض كان ، وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها .

﴿ كَذَلِكَ يَحْيَى اللَّهُ الْمَوْتِ ﴾ ، أى فضرِبوه فَحْيَى ، وقلنا : كذلك يحى الله الموتى ، أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحى الله الموتى يوم القيامة ، وقد روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تَشَخَّبَ دما ، وقال قتلنى فلان وفلان ، وهما ابنا عمه ، ثم سقط ميتا ؛ فآخذا وقتلا .

وإنما أمرهم بالضرب ، ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة ، كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة .

﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ ، وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضوميت ، وإخبار الميت بقاتله ، مما ترتب عليه الفصل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتنة والعداوة .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ، أى لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

وقد ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن عبيدة السلماني ، قال : « كان رجل من بنى إسرائيل عقيلا لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فاتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ ؛ قال فلوم يعترضوا لأجزاء عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهابا ، فأخذوها بملء جلدتها ذهابا فذبحوها ، فضرِبوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا ، لابن أخيه ، ثم مال ميتا ، فلم يعط من ماله شيئا ؛ فلم يورث قاتل بعد » . ورواه ابن جرير .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لَا فَارِضَ ﴾ يعنى لا هرمة ولا بكر ، يعنى ولا صغيرة ﴿ عَوَانَ بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى نصف بين البكر والهرمة ﴿ قَالُوا ادْع لَنَا رَبَّكَ بَيِّن لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْع لُونَهَا ﴾ ، أى صاف لونها ، ﴿ تَسِرُ النَّظِيرِينَ ﴾ ، أى تعجب الناظرين . ﴿ قَالُوا ادْع لَنَا رَبَّكَ بَيِّن لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ، أى لم يذلها العمل . ﴿ تَثِيرُ الْأَرْضَ ﴾ ، يعنى وليست بذلول تثير الأرض ﴿ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ ﴾ ، يعنى ولا تعمل فى الحرث .

﴿مسلّمة﴾ يعنى مسلّمة من العيوب ، ﴿ لا شية فيها ﴾ ، يقول لا يياض فيها ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ . قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا ﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ لما هدوا إليها أبدا ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى ، وهى القيمة عليهم ؛ فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها ضاعفت عليهم الثمن ؛ فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى : إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم ، فاعطوها رضاها وحكمها ؛ ففعلوا واشتروها فذبحوها ، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ، فأخذ قاتله ، وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه ، فقتله الله على سوء عمله .

وهناك روايات أخرى نذكرها فيما يلى ، فإنها تزيد المعنى وضوحا وتبين لنا مدى ما كان عليه القوم من تمويه وضلال وبعد عن الحق : روى محمد بن جرير بسنده إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال فى شأن البقرة : إن شيخا من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته ، فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله . وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديتة ، وذلك أنها كانتا مدينتين كانوا فى إحداها ، وكان القتل إذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية . وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها ، فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ قائلين : عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرم لنا دية عمنا . قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام ، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ : عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم ، فقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا ، وأن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام ، فقال : قل لهم ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ فتضربوه ببعضها .

قال السدى ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قال : كان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه ، فغضب الفتى ، وقال : والله لأقتلن عمى ولاخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولاكلن ديتة . فأتاه الفتى ، وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل ، فقال : يا عم انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعل أن أصيب منها ، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى . فخرج العم مع الفتى ليلا ؛ فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله . فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه — كأنه لا يدرى أين هو — فلم يجده ، فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال : قتلتم عمى فأدوا إلى ديتة . فجعل يبكى ويحثو

التراب على رأسه ويندب : واعماه . فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية . فقالوا له : يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية ، فوالله إن ديتنا علينا لهينة ، ولكن نستحي أن نعبر به . فذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ فقال لهم موسى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قالوا نسألك عن القتل وعمن قتله فتقول اذبحوا بقرة ! أتتهزأ بنا ؟ . قال : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ . قال ابن عباس : فلو اغترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم . فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ . والفارض : الهرمة التي لا تلد ، والبكر : التي لم تلد إلا ولدا واحدا . والعوان : النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها \* قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴿ ، قال نقي لونها ﴿ تسر الناظرين ﴾ ، قال تعجب الناظرين . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشبه الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴿ ، من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴾ قالوا الآن جئت بالحق ﴿ ، فطلبوها فلم يقدروا عليها . وكان رجل في بني إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وأن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبي فأخذه منك بثمانين ألفا . قال الآخر : أيقظ أباك وهولك بستين ألفا . فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : والله لا أشتريه منك بشيء أبدا . وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة ، فأبى ، فأعطوه اثنتين ، فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرة ، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك . وأخذ يزيد عليهم ، وأخيرا أعطوه ما طلب . ذلك لأنهم شددوا فشدد الله عليهم ، وهذا جزاء المنتظعين . فانظر إلى بركات بر الوالدين هذا الذي بلغ من شدة إحسانه لأبيه أنه أبى أن يوقظه من نومه مهما كان الثمن ، ذلك لأن رضا الوالدين من رضا الله وسخطه من سخطهما ، وكأن هذا الولد البر يقول لرب العزة :

يا مالك النفس قاصيها ودانيها	رضاك خير من الدنيا وما فيها
سوى رضاك فذا أقصى أمانها	فليس للنفس آمال تحققها
خير إلى من الدنيا وما فيها	فنظرة منك يأسؤلى وما أملى

فالبر لا يبل والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ فضربوه بالضعة التي بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك ؟ فقال لهم ابن أخى قال : أقتله فأخذ ماله وأنكح ابنته . فأخذوا الغلام فقتلوه .

قوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ، قال ابن عباس : كادوا ألا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذي أرادوا لأنهم أرادوا ألا يذبحوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد

الجهد ، وفي هذا ذم لهم ، وذلك أنهم لم يكن غرضهم إلا التبعث ، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قوله تعالى : ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ قال صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول : ما عمل رجل حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله . وما عمل رجل سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك في كلام الله ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ اهـ .

فسبحان من يعلم السر وأخفى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ (١) . وسبحان من يعلم ديبب أرجل النملة السمراء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ (٢) .

صدقت يارسل الله إذ قلت للأمين جبريل لما سألك عن الإحسان قلت له : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) (٣) .

إن هؤلاء القوم الذين قتلوا ابتغاء مرضاة الدنيا والمال والميراث وحاولوا إخفاء الجريمة وخططوا لها وأرادوا أن يرموا غيرهم بها ، هؤلاء لم يستطيعوا أن يفلتوا من عقوبة الله . إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة . ماذا يريدون ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾ (٤) . قال تعالى : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (٥) . يقتلون وبينهم رسول ينزل عليه الوحي من لدن حكيم خبير ؟ لكن سحائب الغفلة حجبته عن نور الله ومعرفته .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ولا دنيا لمن لم يحسب ديناً

ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قريناً

قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ أى بعض منها وأى جزء منها ، ولو كان في تعيين البعض أى فائدة لعين ولكن الله وحده هو الذى سيحى القليل ، وما الضرب ببعضها إلا سبب ظاهرى وقدرة الله تعالى صالحة على الإيجاد والإعدام بدون أسباب . ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون \* وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿ (٦) . وإنما أمرهم الله بذبح بقرة ولم يأمرهم بذبح حيوان آخر ، لأنهم قبل ذلك عبدوا العجل فأراد ربك أن يذبحوا من جنس ما عبدوا حتى يكون فى ذلك دليل عملى على أن عبادة غير الله باطلة .

وتجلت عظمة القرآن الكريم فى ذكر القصة فى أن الله تعالى ذكر قصة البقرة أولاً فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، ثم ذكر سبب إحيائها ثانياً ، فكان القرآن قدم المسبب على

(٤) سورة النساء آية : ١٠٨ .

(٥) سورة النساء آية : ١٠٨ .

(٦) سورة القصص الآيات : ٦٨ - ٧٠ .

(١) سورة طه آية : ٧ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٨ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ج ١ ص ١٣٨ ط الشعب .

السبب ليجعل منها موقفين لبني إسرائيل ما كان ينبغي أن يقعوا فيها : الموقف الأول قولهم لموسى اتخذنا هزوا وجداهم وتشديدهم وكثرة سؤالهم . كل هذا ما كان ينبغي أن يكون . والموقف الثاني قتلهم النفس التي حرم الله قتلها وتدافعهم واختلافهم الذي أدى إلى النزاع الشديد في سبيل معرفة القاتل وبينهم نبي يوحى إليه ، ومن ثم تجلت عظمة القرآن وروعته حيث جاء أسلوبه الرفيع على هذا النحو ، قصة يليها سبب ، وكلاهما مأخوذ على بنى إسرائيل في عنادهم وعقده أنفهم التي لا تنفك . قال الله تعالى ﴿ كذلك يحمي الله الموق ﴾ ، أى كما أحيا هذا القاتل فقام وأخبر عن قاتله بل وذكر الدافع الذي من أجله قتل ، ورأيت ذلك رأى العين ، قال تعالى : ﴿ ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ . وهل بعد إحياء القاتل وإزهاق روحه آية أقوى عبرة وأجل موعظة ؟ لكن القوم كما قال فيهم مولانا جل جلاله :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ  
الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا  
اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله ، وإحيائه الموق ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ كله ، فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ولهذا نهي المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (١) . يقول ابن كثير عن ابن عباس : لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس حيا ، فقيل له : من قتلك ؟ فقال : بنو أخى قتلوني ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه (٢) ، فقال الله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ يعنى أبناء أخى الشيخ ، ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ ، فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهي فى قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله . وفيه إدراك لذلك بحبه كما قال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (٣) . وعن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يترهى من رأس جبل ، لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وعن ابن عباس : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهر وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ ، أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق .

(٣) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

(١) سورة الحديد آية : ١٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦٢ ط الشعب .

قال الإمام القرطبي وغيره من الأئمة : إن الله يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾ (١) . وقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾ (٢) . وقال : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (٣) . ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله ﴾ (٤) ، ﴿ أثبتنا طوعاً ﴾ (٥) . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾ (٦) . ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله ﴾ (٧) . وفي الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه » (٨) . وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفي صحيح مسلم : « إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إني لأعرفه الآن » (٩) . وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة . أما في قوله تعالى : ﴿ أو أشد قسوة ﴾ ، فقد قال بعض علماء اللغة : إنها بمعنى بل ، فتقديره : فهي كالحجارة بل أشد قسوة كقوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ (١٠) . وكقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ (١١) ، وكقوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ (١٢) . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كل ما يبعث القسوة في القلب ؛ قال الحافظ أبو بكر بن مردويه قال رسول الله ﷺ : ( لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى ) ورواه الترمذى في كتاب الزهد (١٣) .

وقال ﷺ : ( أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا ) (١٤) . وقد نبه الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد .

وقد ذكر الله تعالى في هذه السورة بما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع أولها قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ (١٥) . وثانيها ما جاء في قصة البقرة من إحياء القتل . وثالثها قصة الذين خرجوا من ديارهم ﴿ وهم ألو ف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾ (١٦) . ورابعها قصة الذى مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها ﴿ قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾ (١٧) . وخامسها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١٨) .

(١٠) سورة النساء آية : ٧٧ .

(١١) سورة الصافات آية : ١٤٧ .

(١٢) سورة النجم آية : ٩ .

(١٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦٤ ط الشعب .

(١٤) تفسير القرطبي ج ١ ص ٣٦٣ ط الشعب .

(١٥) سورة البقرة آية : ٥٦ .

(١٦) سورة البقرة آية : ٢٤٣ .

(١٧) سورة البقرة آية : ٢٥٩ .

(١٨) سورة البقرة آية : ٢٦٠ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٧٢ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

(٣) سورة الرحمن آية : ٦ .

(٤) سورة النحل آية : ٤٨ .

(٥) سورة فصلت آية : ١١ .

(٦) سورة الحشر آية : ٢١ .

(٧) سورة فصلت آية : ٢١ .

(٨) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٤١ ط دار الفكر .

(٩) صحيح مسلم ج ٥ ص ١٢٤ ط دار الشعب .

كذلك نبه الله بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما كما قال . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي رزين العتيل قال : قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : ( أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضرأ . قلت بلى . قال : كذلك النشور ، أو قال : كذلك يحيى الله الموتى )<sup>(١)</sup> . وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وءاية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبعد فما زالت الآيات الكريمة تبين لنا مواقف القوم وما لهم من هنات ليست بهينات قال تعالى :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وَإِذَا الْقَوَا أَلَذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سُبُلًا لِّمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

الطمع : تعلق النفس بإدراك ما تحب تعلقاً قوياً وهو أشد من الرجاء . أن يؤمنوا لكم : أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم إليهم ، والفريق : الجماعة . لا واحد له من لفظه . من بعد ما عقلوه : أى ضبطوه وفهموه ولم تشبه عليهم صحته ، وفى ذلك إيماء إلى تعمدهم وسوء قصدهم وإبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم . وهم يعلمون : أى وكانوا فى حال العلم بالصواب لا ناسين ولا ذاهلين ، وفى هذين الوصفين نعى عليهم وتسجيل لتعمق الفسوق والعصيان فيهم .

كما بين الله تعالى قسوة قلوب اليهود ، وأنها كالحجارة أو أشد قسوة ، وعدد ما لهم من مواقف سيئة وشنيعة من نبيهم موسى ، وكيف قالوا له مرة ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ، وقالوا له مرة أخرى : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم ءالهة ﴾<sup>(٤)</sup> وقالوا ، له مرة ثالثة ورابعة وخامسة من الأشياء ما تنبؤ عنه الأذواق السليمة مما يطول شرحه ، فقد اتخذوا العجل إلها ، وقالوا له لن نصبر على طعام واحد ، ونقضوا العهود والمواثيق ؛ لما كان شأنهم كذلك قال الله تعالى للرسول وأصحابه : أبعد هذا كله تطمعون فى إيمانهم وهم الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله فى كتابه التوراة المنزل على رسوله موسى ، على نبينا وعليه الصلاة

(٣) سورة الاعراف آية : ١٣٨ .

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ٣٩٤ ط الشعب .

(٢) سورة يس الأيتان : ٣٢ ، ٣٣ .



والسلام ، وذلك كما في قوله جل شأنه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾ (١) . فسماع كلام الله لا يشترط أن يكون من الله مباشرة إنما يكون عن طريق كتبه المنزلة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتب ولا الإيمان ﴾ (٢) . ثم ماذا بعد سماعهم لكلام الله في التوراة ؟ حرفوه وغيروه وبدلوه بعد ما عقلوه وفهموه وأدركوه ، مصداقا لما حكاه الله عنهم في قوله : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ (٣) . وفي قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن نملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٤) . هؤلاء هم أحبارهم وعلمائهم ، سمعوا كلام الله في كتابه التوراة وعقلوا ما فيه ودرسوه كما قال جل شأنه : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن ياتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴾ (٥) . فإذا كان هذا شأن علمائهم ، وهو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ ، أى يعلمون ما فيه من الحق الذى غيره ، فقد جمعوا بين جنابة التحريف وجنابة العلم ، وما أشدها من مصيبة أن يخالف الإنسان فيعمل بغير ما يعلم ، وهذا موقف آخر جمعوا فيه بين النفاق واليهودية : ﴿ وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ﴾ .

إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ذو الوجهين ، يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ﴿ وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا ﴾ أى بصاحبكم رسول الله ﷺ ، ولكنه إليكم خاصة ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا ﴾ لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم .

وقال السدى : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وقال الحسن البصرى : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما في كتابكم فيحاجوكم به عند ربكم ، فيخصموكم (٦) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ أى بما حكم الله عليكم في كتابكم ببعثته ، وأنه نبي آخر الزمان ، وأنه كثير المحامد . لقد حرفوا التوراة وبدلوا فيها . ولما كان هذا حديثهم في خلواتهم ، قال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أى ألا يعلم هؤلاء وهم

(٤) سورة المائدة آية : ٤١ .

(٥) سورة الاعراف آية : ١٦٩ .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ط الشعب .

(١) سورة التوبة آية : ٦ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٣) سورة المائدة آية : ١٢ .

ينصح بعضهم بعضاً ألا يخبروا أصحاب محمد بما ورد عن ذكره في التوراة وأنه نبي آخر الزمان ، أو لا يعلمون أنهم في خلواتهم أن رسلنا لديهم يكتبون ؟ ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (١) ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) . إنه يعلم ما يسرون في خلواتهم وما يعلنون عندما يرون المؤمنين فيقولون بأفواههم آمنا . كان هذا شأن علمائهم ، أما الأميون منهم الذين لا يحسنون الكتابة وليسوا على دراية بالكتب المنزلة ، فإن كل ما يعلمونه من التوراة التي حرقها الأحرار إنما هي الأمانى ، أى الأكاذيب التي تمنوها واتباع الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ومن هذه الأمانى ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٣) . قال تعالى : ﴿ ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها ﴾ (٤) .

أمانيتكم الأحلام زخرفها الكرى      وقُلْ على الأيام أن يصدق الحلم  
سمعنا كلاماً لذ في السمع وقعه      ورب لزيد شاب لذته السم

وقد أخبر الله عن الأميين منهم فقال : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ﴾ والأمور لا تبني على الظن والتخمين ، خاصة العقائد الإلهية ، قال تعالى : ﴿ قتل الخراصون ﴾ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ يسئلون أيا يوم الدين ﴾ (٥) .

والحرص : معناه الظن والتخمين . ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك موقفاً لفريق من اليهود كتبوا التوراة بأيديهم ليزوروا ما فيها من أحكام ؛ فجعلوا الحلال حراماً والحرام حلالاً ، وأفتوا الناس بما يعلمون أنه الباطل مقابل عرض من الدنيا ، وقبلوا الرشى ، وقد لعن الله الراشى والمرتشى والرائش . ومن هنا جاء الوعيد شديداً تنخلع لهوله القلوب ، قال عز وجل : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ . والويل هو الهلاك الشديد ، وقيل هو واد في جهنم . وليس بعد الهلاك كلام يقال ، وإنما جاز الابتداء به مع أنه نكرة ، لأن تنكيهه فيه تفخيم وتهويل ، فصار المعنى فويل شديد لهؤلاء القوم الذين كتبوا التوراة من عند أنفسهم بأيديهم حتى جعلوا الحق باطلاً والباطل حقاً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً ، وغيروا وبدلوا وأنكروا صفة الرسول الكريم في التوراة مقابل عرض زائل وعارية مسترجعة هي الدنيا وزخارفها ومناصبها وأمواها . هؤلاء هم الويل بسبب ما كتبت أيديهم من الباطل . وقد أمرهم الله أن يحفظوا التوراة من التبديل ، قال تعالى : ﴿ إنا

(٤) سورة النساء الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٠ - ١٢ .

(١) سورة المجادلة آية : ٧ .

(٢) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ١١١ .

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴿١﴾ . فانت ترى هنا أن الله قد طلب منهم أن يحفظوا التوراة من التبديل والتغيير ، ونهاهم أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً هو الدنيا فغيروا وخالفوا واشتروا بآيات الله دنيا فانية زائلة فاستحقوا الويل بسبب ما كتبوا ويسبب ما كتبوا .

لقد كانت الجن أعقل من هؤلاء عندما وصفهم الله تعالى في هذا المشهد بما يليق بالمؤمنين الصادقين . قال جل شأنه : ﴿ وإذ صرنا إليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ قالوا ينقومنا إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ ينقومنا أجيئوا داعى الله وءامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم ﴿٢﴾ .

وينتقل بنا النظم الكريم من تلك المساوىء إلى جنايات آخر . قال تعالى :

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ  
أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطِبَتُهُ فَأُولَٰئِكَ  
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

وتلك بعض المزاعم التي قالها القوم : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ . وهذا تحريف في العقيدة بعد تحريفهم الكلم عن مواضعه كما سبق في قوله جل شأنه ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ . قال العلامة أبو السعود : روى أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ في التوراة وكانت هي فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة » فغيروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » ، فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لما في التوراة فيكذبونه .

قولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ المراد باللمس هنا اللمس ، والمقصود بالنار نار الآخرة ، وما نار الدنيا بالنسبة إليها إلا كنسبة ١ : ٧٠ . وقد جاء في صفتها ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان . قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ ﴿٣﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾ ﴿٤﴾ .

(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .

(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

(١) سورة المائدة آية : ٤٤ .

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .

وقال جلّ شأنه . ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً \* للطغين مآباً \* لبئين فيها أحقاباً \* لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً \* إلا حميماً وغساقاً \* جزاءً وفاقاً \* إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاباً \* وكل شيء أحصيناه كتباً \* فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ (١) .

وهذه الآية الأخيرة أشد آية على الكافرين ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقتلنا ربك قال إنكم متكثون ﴾ (٢) بعد قوله عز وجل : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون \* وما ظلمتهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٣) . قال ﷺ في صفة النار : عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءاً من نار جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية قال : إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها ) (٤) .

وعنه رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( لو كان في هذا المسجد مائة ألف أويزidon وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لا تحترق المسجد ومن فيه ) (٥) .

وعنه رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها . قال فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحفت بالمكاره . فقال ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها ، فإذا هي قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن يدخلها أحد ، وقال اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضها . فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجم منها أحد إلا دخلها ) (٦) .

وعنه أيضاً رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهي سوداء كالليل المظلم ) (٧) .

وكان اليهود يقصدون بالأيام المعدودة الأيام التي عبدوا العجل فيها ، عندما كان نبهم موسى يتلقى التوراة ، وكانت أربعين يوماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (٨) . وهنا وجه الله تعالى إليهم سؤالاً قال فيه : ﴿ قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ، أى إن كان لكم عند الله وعد بذلك فإن الله لا يخلف الميعاد ، لكن الحقيقة أنكم ليس بينكم وبين الله وعد ، فلم يبق إلا الشق الثانى ، وهو أنكم تقولون على الله

(٥) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٨٩ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة البقرة آية : ٥١ .

(١) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .

(٢) سورة الزخرف آية : ٧٧ .

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٨٨ ط وزارة الأوقاف .

ما لا تعلمون . والقول على الله بغير علم سفه في العقول وخفة في الأحلام وجهل وتضليل وسفسطة . ثم عقب الله تعالى على قولهم بقوله : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وبلى حرف جواب أريد به هنا إبطال ما زعموه من قبل ، أى أن ما قلموه باطل لا أساس له من الصحة ، إذ ليس بينكم وبين الله وعد بذلك ، فلم يبق إلا أنكم تهرفون بما لا تعرفون ، وتلك فرية ما فيها مزية . فاستمعوا إلى حقيقة الأمر لتعلموا أن الجزاء مبنى على عدالة مطلقة ، وأن الثواب والعقاب لا مساومة فيها ولا مجاملة على حساب الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿ (١) ﴾ . ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴿ (٢) ﴾ . ﴿ يوم تشهد عليهم السستهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴿ (٣) ﴾ .

والمراد بالسيئة في هذه الآية ﴿ من كسب سيئة ﴾ الشرك ، لأنه الذنب الذى لا يغفر ويخلد صاحبه في النار ويغلق عليه منافذ الرحمة . قال جل شأنه : ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ . وقد قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالا بعيدا ﴾ (٤) ، وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا ﴾ إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴿ (٥) ﴾ . أما غير الشرك من الذنوب فيلزمه التوبة . والذنوب كالأمراض والتوبة كالدواء ولكل داء دواء يستطب به . فالتوبة مثلا من الربا قال فيها مولانا : ﴿ وإن تبتم فلکم رءوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (٦) . ومن شروط التوبة رد الحقوق إلى أصحابها وطلب السماح من كل من أسىء إليه ، وأداء الفرائض التي وقع التقصير فيها ، والاستغفار وعدم الإصرار ، فإنه لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

روى الترمذى عن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال : ( إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت (٧) في قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر صُقلت (٨) ، وإن عاد زيد منها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كلاً بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٩) .

كما روى : أن النبى ﷺ قال لسفيان بن عبد الله الثقفى ، وقد قال له : يارسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : ( قل آمنت بالله ثم استقم ) (١٠) رواه مسلم .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن وجههم إلى التوبة ودعاهم إليها وأعلمهم أنه غفار الذنوب ؛ قال

- |                                       |  |
|---------------------------------------|--|
| (١) سورة الأعراف الآيتان : ٨ ، ٩ .    | (٦) سورة البقرة آية : ٢٧٩ .                      |
| (٢) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .          | (٧) نكتت : النكتة الأثر . والمراد أثر الذنوب .   |
| (٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .    | (٨) صقلت : أزيلت .                               |
| (٤) سورة النساء آية : ١١٦ .           | (٩) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٣٣ ط وزارة الأوقاف . |
| (٥) سورة النساء الآيتان : ١٦٨ / ١٦٩ . | (١٠) رياض الصالحين للنووى ص ٤٤ ط دار التراث .    |

تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴿ (١) . وحذر سبحانه وتعالى من الندم على ما فات بعد فوات الأوان فقال سبحانه : ﴿ أن تقول نفس يَحْسَرُ عَلَى مَا فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السَّخِرِينَ ﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كره فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿ (٢) .

لقد اعتاد اليهود أن يقولوا على الله ما لا يعلمون فكذبوا حين قالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ .

ويقرن القرآن بين الوعيد والوعد ، وبين نيران الوعيد ونور الوعد بحيث يكون حال العبد بين الخوف والرجاء . وبعد ذكر النار يأتى ذكر الجنة وما فيها من نعيم مقيم وخلود في مستقر رحمة الله ، فيقول سبحانه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصُّلُحَاتِ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . هكذا يأتى الإيمان مقترنا بالعمل الصالح . قال سبحانه في آيات عديدة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصُّلُحَاتِ سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ (٣) ، وقال في آية أخرى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصُّلُحَاتِ يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهر في جنات النعيم ﴾ (٤) ، وقال جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصُّلُحَاتِ كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾ (٥) ، وقال جل جلاله في سورة العصر : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصُّلُحَاتِ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٦) . وهل كمال الإيمان إلا تصديق بالجنة ونطق باللسان وعمل بالأركان ؟ .

يا مسلما تدعى الإسلام مجانا هلا أقمت على دعواك برهانا

ما أكرمك يا ربنا . العمل الصالح أنت الذى وفقت إليه ، والجنة أنت الذى تفضلت بها ؛ ومع ذلك تجعلنا أصحابها وورثتها فتقول ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ (٧) . وتقول : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ (٨) . ما أكرمك . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياء ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا . شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا . أنت الذى تهب كثيرا ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . ما أجمل الجنة وما أجمل الخلود فيها ، وأجمل من هذا وذاك رضوان الله .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها

(٥) سورة الكهف آية : ١٠٧ .

(٦) سورة العصر آية : ٣ .

(٧) سورة مريم آية : ٦٣ .

(٨) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(١) سورة الزمر الآيات : ٥٢ - ٥٥ .

(٢) سورة الزمر الآيات : ٥٦ - ٥٩ .

(٣) سورة مريم آية : ٩٦ .

(٤) سورة يونس آية : ٩ .

فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها  
فنظرة منك يأسؤلى ويا أملى خير إلى من الدنيا وما فيها

إن النفس لتشتاق إلى ذكر شيء من صفة الجنة حتى تنشق نسيم الرضوان ، وتعيش في كرم الرحمن .  
ومما قاله الرسول ﷺ يشوقنا إلى جنة الرحمن : روى عن ابن عمر رضى الله عنها قال : قال رسول الله  
ﷺ : ( إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ،  
وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا ) . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وجه يومئذ ناضرة ﴾ إلى ربه  
ناظرة ﴿ (١) . وروى ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن ثوبان قال : أراه عن ابن عمر قال : إن أدنى أهل الجنة  
منزلة لرجل له ألف قصر بين كل قصرين مسيرة سنة يرى أقصاها كما يرى أدناها ، في كل قصر من الحور  
العين والرياحين والولدان ما يدعو بشيء إلا أتى به (٢) .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ  
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ  
إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وهذا ميثاق عظيم وعهد مؤكد ، أخذه الله على بني إسرائيل ، واشتمل على بنود ، أولها :  
﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ وثانيها : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وثالثها : ﴿ وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾  
ورابعها : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وخامسها : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وسادسها : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ .

وقد اشتمل هذا العهد على ثلاثة جوانب : جانب العقيدة ، وجانب السلوك ، وجانب العبادة . أما  
جانب العقيدة فنراه جلياً في قوله جل شأنه : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ ، وهذه العبارة في حقيقتها نهى عن  
الشرك ، وجاءت في صورة النفي لوجه من وجوه البلاغة ، كان من وجه إليهم النهى قد أمثلوه ونفذوه ،  
فنفى عنهم ما كان قد نهوا عنه ، كأنه قيل لهم : لا تشركوا ، فامثلوا ؛ ففيل عنهم : إنهم لا يشركون .  
وهذا أبلغ من أن يأتي التصوير بأسلوب النهى .

والتوحيد هو الركن الركين والحصن المكين والأساس الأول في رسالات الأنبياء . فجميع الأنبياء  
عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال الله جل شأنه :  
﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ ولقد بعثنا في  
كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٤) . حتى لما جمع الله تعالى الأنبياء والمرسلين في المسجد

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٢٢ ط وزارة الأوقاف . (٣) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٢٣ ط وزارة الأوقاف . (٤) سورة النحل آية : ٣٦ .

الأقصى ليلة الإسراء ، قال لرسوله : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾<sup>(١)</sup> . ولقد رفع النبي هذا اللواء عالياً خفاقاً عندما قال : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي « لا إله إلا الله » )<sup>(٢)</sup> .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجي	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
مافي الوجود سواك رب يعبد	كلا ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذي	كل الوجود له يقر ويشهد

وقرن الله بين إفراده بالعبادة وتوحيده وبين الإحسان إلى الوالدين فقال : ﴿ وبالوالدين إحسنا ﴾ . ذلك لأنه جل شأنه الخالق الحقيقي للإنسان ، والوالدان هما السبب المباشر ، حتى جمع الله الشكر له وللوالدين في آية واحدة فقال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ . عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : ( الصلاة على وقتها ) . قلت : ثم أي ؟ قال : ( بر الوالدين ) . قلت : ثم أي ؟ قال : ( الجهاد في سبيل الله )<sup>(٣)</sup> . ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال يا رسول الله من أبر ؟ قال : ( أمك ) قال : ثم من ؟ قال : ( أمك ) قال : ثم من ؟ قال : ( أباك ، ثم أدناك ثم أدناك )<sup>(٤)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال : ( أحى والدك ؟ قال : نعم . قال : فيها فجاهد )<sup>(٥)</sup> . وعنه رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايك على الهجرة ، وتركت أبوي يبيكان ؟ فقال : ( ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما )<sup>(٦)</sup> . وعن أنس رضي الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه . قال : ( هل بقي من والدك أحد ؟ قال : أمي ، قال : قابل الله في برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتزم ومجاهد )<sup>(٧)</sup> . وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : ( هما جنتك ونارك )<sup>(٨)</sup> .

وكثيراً ما قرن الله تعالى الأمر بتوحيده بالإحسان إلى الوالدين . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسناً ﴾<sup>(٩)</sup> ، وقال في سورة الإسراء : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسناً ﴾<sup>(١٠)</sup> . ثم بين حقوقهما على الأولاد خاصة حال الكبر فقال : ﴿ إما يبلغن

(١) سورة الزخرف آية : ٤٥ .

(٢) كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث بين الناس للعجلوني ج ١ ص ١٧٣ ط الفنون . حلب سوريا .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ج ١٩ ص ٣٨ ط الأولى ١٩٣٥ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة الإسراء آية : ٢٣ .

(٩) سورة النساء آية : ٣٦ .



عندك الكبير أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً \* واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴿١﴾ . وتأمل معي قوله تعالى : ﴿ عندك ﴾ ولم يقل إما يبلغن الكبير ، لأن العندية هنا تشير إلى معنى إنساني كبير ، هو أن الوالدين حال الكبير كالضيف الموجود عندك ، ما يلبث أن يرتحل ، فعليك بإكرامه . كذلك الوالدان قد قرب ارتحالهما من هذه الدار إلى الدار الباقية ، وقد قال الصادق المعصوم عليه السلام : ( رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه ) . قيل من يا رسول الله ؟ قال : ( من أدرك والديه عند الكبير أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة ) ﴿٢﴾ .

ثم بعد ذلك أمرنا بالإحسان إلى ذوى القربى . وقد عبر القرآن عنهم بالأرحام ، وأمر الله تعالى بصلتهم سواء أكانت القرابة من جانب الأب أو الأم ، فقال : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ ﴿٣﴾ ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها :

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من سره أن يمد له في عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه وليصل رحمه ) ﴿٤﴾ . وعن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ) ﴿٥﴾ .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون ، فقال : ( يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ربح الجنة توجد من مسيرة ألف عام . والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جارٌ إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين . والكذب كله إثم إلا ما نفع به مؤمناً ودفعت به عن دين ، وإن في الجنة لسوقاً ما يباع فيها ولا يشتري ، ليس فيها إلا الصور ) ﴿٦﴾ . فمن أحب صورة من رجل أو امرأة ظل فيها ) ﴿٧﴾ .

كذلك أوصى الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، واليتيم هو الصغير الذى مات أبوه . وقد جاء بيان حقوقه في سورة كاملة هي سورة النساء . وقد بين الله درجة كافل اليتيم في الآخرة ، حيث أشار نبيه ﷺ بإصبعيه قائلاً : ( أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ) ﴿٨﴾ . وقال ﷺ : ( إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم ) ﴿٩﴾ .

ومن السلوك القويم الإحسان إلى المساكين . والمساكين هو الذى لا يقوى على العمل لعجزه بحيث أسكنته الحاجة . وقد أوصى الله تعالى رسوله بهما خيراً فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ ﴿١٠﴾ .

(١) سورة الاسراء آية : ٢٣ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .

(٣) سورة النساء آية : ١ .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الصور : الشبه والهيئة .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٦٠ ط وزارة الأوقاف .

(٨) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٧٢ ط وزارة الأوقاف .

(٩) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٧٤ ط وزارة الأوقاف .

(١٠) سورة الكهف آية : ٢٨ .

كذلك أوصانا الله تبارك وتعالى أن نقول للناس قولاً حسناً . فالكلمة الطيبة صدقة ، وتبسمك في وجه أخيك صدقة . وهكذا جمعت الآية بين الإحسان العملى والإحسان القولى . كذلك أمر الله تعالى بتطهير القلوب بإقامة الصلاة ، وتطهير الأموال بإيتاء الزكاة . وهكذا أمروا بفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، ولكنهم تولوا عن تنفيذ ما أمروا به إلا القليل منهم . والقلة لا تكفى في وجود الكثرة الفاسدة . فقد أمر الله تعالى جبريل ذات يوم أن يخسف الأرض بقرية . فقال جبريل : يارب إن فيها فلاناً الصالح ؟ فقال الله له : به فابدأ ، فإنه رأى المنكر فلم يتغير وجهه من أجل . ثم قال الله تعالى : ﴿ وأنتم معرضون ﴾ إمعانا في توليهم عن الحق وانصرافهم عن تنفيذه . فإن من تولى قد يعود . أما من تولى وأعرض فأنى يعود ؟

وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقَرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

المفردات : السفك : الصب والإراقة . التظاهر : هو التعاون . الإثم : هو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم . العدوان : تجاوز الحد في الظلم .

وهذا ميثاق آخر أخذه الله على القوم بعدما أخذ عليهم ميثاقاً في الآية السابقة ، أمرهم فيه أن يوحده ، وأن يحسنوا إلى الوالدين واليتامى والمساكين وذوى القربى ، وأمرهم فيه أن يقولوا للناس حسناً ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وكانت النتيجة كعهدها بهم نكثاً للعهد ونقضاً للميثاق وقطعاً لما أمر الله به أن يوصله . قال تعالى تعقيباً على الميثاق السابق : ﴿ ثم توليتم وأنتم معرضون ﴾ ، ولم يقل ثم توليتم وأعرضتم ، إنما جاء التعبير بالجملة الإسمية وأنتم معرضون ، لأنها تفيد الثبات والدوام كأن الإعراض تغلغل في خلاياهم وتمكن من أنسجتهم وأعضائهم وأجهزتهم ، فأصبح سداهم الإعراض ولحمتهم نقض الموائيق . وجاء في الميثاق الذى بين أيدينا ، وهو موجه إلى اليهود المعاصرين للعصر المحمدى : ﴿ وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ . ولهذا الآية

قصة . ففي هذا الميثاق نهاهم الله عن أمرين : الأول : سفك الدماء . الثاني : الإخراج من الديار ؛ وأقروا بهذا . والاقرار سيد الأدلة ، إذ هو حجة مقصورة على المقر وشهدوا على ما أقروا ، والإشهاد حجة من أقوى الحجج . فهل صانوا هذا الميثاق وحفظوه من الخيانة ؟ كلا . اسمع معي إلى كلام العليم الخبير : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ . فكيف كان ذلك كذلك ؟ كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، كما كان فيها قبيلتان من العرب كافرتان هما : الخزرج والأوس ؛ فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء للخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء للأوس ، وكانت الحرب بين الأوس والخزرج دائمة على قدم وساق لاتكاد تضع أوزارها . وبحكم ما بين اليهود وبين القبيلتين من تحالف ، كان بعض اليهود يقتل البعض الآخر وفق انتمائه لإحدى القبيلتين ويخرجونهم من ديارهم ويتعاونون عليهم بالإثم والعدوان ، فبذلك كانوا يقتلون أنفسهم ، لأن أبناء الملة الواحدة كالنفس الواحدة . جاء في الحديث الشريف عن الصادق المعصوم : ( مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى )<sup>(١)</sup> .

ولما تظاهر بعضهم على بعض استنصاراً للقبيلة التي تحالف معها . لكن يأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة ، أن بعض اليهود إذا وقع أسيراً ، كان البعض الآخر يأخذ ديتة ويطلق سراحه ، ولو كان يحارب مع قبيلة معادية . وهكذا وقعوا في التناقض كعهدنا بهم . قال جل شأنه : ﴿ وإن يأتوكم أسارى فنادوهم ﴾ . كيف كان ذلك ؟ ﴿ أفؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ؟ والمقصود بالكتاب هنا هو التوراة ، فقد نهاهم الميثاق عن سفك الدماء والإخراج من الديار ، فكفروا بهذا وخالفوه ، فسفكوا وأخرجوا . وأمرهم الميثاق في التوراة أن يفدوا أسراهم ، فأمنوا بذلك ، فسفكوا من جهة ودفعوا فدية الأسرى من جهة أخرى ، فالقى الله تعالى عليهم اللاتمة ، ونعى عليهم أفعالهم المحيرة . قال : ﴿ أفؤمنون ببعض الكتب وتكفرون ببعض ﴾ . إن الإيمان لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فهو متماسك الأركان وطيد البنيان ، إذا اضطرب أحد أركانه اضطرب كيانه كله ، وهذا قول حق ؛ ثم حكم الله تعالى عليهم بالجزاء العادل ، قال : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم ﴾ أى الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض ، وهذا خلل في الإيمان كما تنحرف الإبرة المغناطيسية عندما يحال بينها وبين الاتجاه المرسوم لها ، ما جزاء هؤلاء إلا خزي في الدنيا وعار وشقاء ، وهذا شأن أصحاب المبادئ المنكوسة والقيم المعكوسة والمفاهيم المنكوسة . هذا في الدنيا ، ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، أما في الآخرة فإنهم سيردون إلى أشد العذاب ، وما أدراك ما أشده . اسمع معي إلى قوله جل شأنه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ \* طعام الأثيم \* كالمهل يغلي في البطون \* كغلي الحميم \* خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم \* ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم \* ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾<sup>(٢)</sup> . فاعلموا يا هؤلاء أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الله يدري كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٣٢ ط دار الفكر . (٢) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٤٩ .

وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

وفي أشد العذاب كلمة نحب أن نسجلها عن فم رسول الله ﷺ . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لو أن مقمعا من حديد جهنم وضع في للأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض )<sup>(١)</sup> . وفي رواية لأحمد قال : قال رسول الله ﷺ : ( لو ضرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت ثم عاد )<sup>(٢)</sup> .

عن عبد الله بن الحارث بن جزير الزبيدي قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن في النار حبات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً . وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة )<sup>(٣)</sup> .

وحكم الله عليهم حكماً آخر جزاء ما قدموا فقال : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ . وما أعظم الفرق وما أبعد البون بين حياة البون بين حياة فانية وحياة باقية . هؤلاء باعوا الباقية واشتروا الفانية ، فلا يخفف عنهم العذاب . وهذا شديد الوقع على النفس أن يظل العذاب شديداً لا هوادة فيه ولا تخفيف . قال تعالى : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون \* وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين \* ونادوا يامالك ليقتض علينا ربك قال إنكم مكثون \* لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون \* أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون \* أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴿<sup>(٤)</sup> . فهو لا يخفف عنهم العذاب في الآخرة ولا يجدون من ينصرهم من دون الله حتى ولو اجتمع أهل السموات والأرض . قال تعالى : ﴿ ومن بين الله فما له من مكرم ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال : ﴿ ومن يضلل فلن نجد له ولياً مرشداً ﴾<sup>(٦)</sup> ، وقال جل شأنه : ﴿ مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾<sup>(٧)</sup> .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ  
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا  
كُذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

المفردات : قفاه به : إذا أتبعه إياه ، ﴿ عيسى ﴾ بالسريانية : يسوع ، ومعناه السيد أو المبارك .  
﴿ مريم ﴾ بالعبرية : الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس . ﴿ البيئات ﴾ : الحجج الواضحة التي  
أوتيتها عليه السلام من المعجزات . ﴿ أيدناه ﴾ : أى قويناه . روح القدس : أى الروح القدس المطهر ،

(٥) سورة الحج آية : ١٨ .

(٦) سورة الكهف آية : ١٧ .

(٧) سورة السجدة آية : ٤ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٩٩ ط وزارة الأوقاف .

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٨٠ .

وهو جبريل عليه السلام ، الذى ينزل على الأنبياء ويقدر نفوسهم ويزكيها ، ويطلق عليه الروح الأمين كما قال : ﴿ نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربى مبين ﴾ (١) . والغلف : واحداً أغلف وهو الذى لا يفقه ما يقال له .

اقتضت سنة الله تعالى أن يرسل إلى عباده رسلاً مبشرين ومنذرين ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٢) . ولما كان بنو إسرائيل قوماً غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع قساة القلوب ، كثرت الرسل إليهم ، وذلك لفساد أحوالهم . فما الرسل إلا دعاة إلى الله ، يهدون بالحق وبه يعدلون . ولقد أقام الله فى تلك الآية الحجة على بنى إسرائيل لتقطع معاذيرهم ، فقال : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ووقفنا من بعده بالرسل ﴾ فكيف تضلون وفيكم كتاب الله وقد اشتمل على الأحكام التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وما أعقل مؤمنى الجن عندما استمعوا إلى القرآن من سيد المرسلين محمد ﷺ ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ (٣) . لقد كان هذا النفر من الجن ذا فقه ومعرفة ، إذ قالوا كتاباً أنزل من بعد موسى ولم يقولوا من بعد عيسى ، وهم يعلمون أن الرسالة المحمدية جاءت بعد عيسى ، وإنما قالوا من بعد موسى ، لأن التوراة كتاب أحكام ، كما أن القرآن كذلك ، أما الإنجيل فقد جاء بعد التوراة بالوصايا الروحية التى تذيب جليد المادة المتراكمة فوق القلوب ، ولذا كان المسيح يقول : ( يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ولكن البسوا ثياب الملوك وألبنوا قلوبكم بخشية الله ) . فكيف يضل قوم بينهم رسول ومعه كتاب ولم تنقطع الرسالات بعد موسى إليهم ، بل ظلت متتابعة كما قال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ (٤) ، وكما قال جل شأنه هنا : ﴿ وقفنا من بعده بالرسل ﴾ أى وأتبعنا إرسال الرسل إليهم ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، أى المعجزات الواضحات ، كإحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله . والأكمه هو الذى ولد فاقد البصر ، والبرص مرض جلدى خطير . وأيدنا عيسى بروح القدس ، أى جبريل ، والقدس هو الطهر ، أى بالروح الطاهرة . قال ﷺ : ( إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ) (٥) . قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ (٦) . وجاء عيسى ببعض التخفيف عن بنى إسرائيل فقال لهم : ﴿ ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٧) . ثم ألقى الله تعالى على القوم باللائمة لمواقفهم المشينة من الرسل ، وكان الأجدر بهم أن يصدقوهم ويطيعوهم وينصروهم ، لكن كان الواقع يدعو إلى الرثاء والأسى . صارت وقائع الأشياء حسب الهوى ، والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن عرف

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ - ١٩٥ .

(٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .

(٣) سورة الأحقاف آية : ٣٠ .

(٤) سورة المؤمنون آية : ٤٤ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٤٧ ط دار الفكر .

(٦) سورة المائدة آية : ١١٠ .

(٧) سورة آل عمران آية : ٥٠ .

الهُوى فقد هوى . وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، فسارت الأمور على حسب ما قال الله فى شأنهم : ﴿ أَفَكَلِمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ . كذبوا موسى وعيسى ومحمداً ، وقتلوا زكريا ويحيى ، وإنما قال تقتلون هكذا بصيغة المضارع ، لأن القتل ظل عادة فيهم ، فهم قوم متعطشون إلى الدماء كالذئاب تنعشهم رؤية الدم .

ثم اسمع ماذا قالوا استكباراً وعناداً :

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ غلف ﴾ ، أى مغلفة فى أكنة محجوبة عن إدراك الحق وسماعه ؛ وقد قال حذيفة : قلب أغلف مغضوب عليه . وذلك قلب الكافر . هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴿٨٩﴾ . فاستحقوا من الله بعد ذلك اللعنة والطرده من رحمة الله ، لا ظلماً ، إنما بسبب كفرهم . قال تعالى ﴿ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، أى إذا آمنوا فإيمانهم قليل ، حيث قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، والقليل هنا كالعدم ، وقد يكون المعنى أنه لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ إلا القليل . وقد يطلق العرب لفظ القليل على لا شيء كما فى قولهم هذه الأرض قلماً تنبت أى لا تنبت شيئاً .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى آلِ دِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ بَشَرًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ . وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

المفردات : ﴿ يستفتحون ﴾ : أى يستنصرون ، وشري واشترى يستعملان حيناً بمعنى باع ، وأخرى بمعنى ابتاع وأخذ ، والمراد هنا المعنى الأول . والبغى فى الأصل : الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شيء ، وباء : رجع . ومهين : أى فيه إهانة وإذلال ، ووراء بمعنى سوى ، كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام : ما وراء هذا الكلام شيء .

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ، ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ .

وهكذا أعمى القوم عنادهم فضلو ساء السبيل . لقد بشرُوا واستفتحوا وطلبوا النصر لبعثة النبى ، كما وجدوه فى التوراة ، وجدوا نعته وصفته ، وكانوا يستنصرون ببعثته على المشركين ، ويقولون إنه سياتى موحداً كما بعث موسى بالتوحيد ، وسوف نكون معه فنقتلكم قتل عاد وإرم ، وإن هذا النبى قد أظننا زمانه ، وهنا اعتراف صريح لا يعتريه شك ولا يعلوه أدنى غبار ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ . فماذا حدث ؟ فلما جاءهم ما عرفوا من الحق وبعث النبى الذى نعتوه ووصفوه وبشروا به واستفتحوا به على الكافرين واستنصروا به ، كفروا به وجحدوه حسداً من عند أنفسهم : لماذا جاء من ولد إسماعيل ولم يأت من ولد إسحق ؟ وهكذا انغمسوا فى ظلمات الباطل وتخبطوا فى دياجير الحسد ، حتى لقد سأل المشركون أحد كبار اليهود حياً بن أخطب وقالوا له : إنكم أهل كتاب فهل تجدوننا فى التوراة أهدى أم محمداً ؟ فقال لهم حياً : بل أنتم أهدى من محمد . وهكذا قلب الحق باطلاً والباطل حقاً . ونزل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين ءامنوا سبيلاً ﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴿ (١) . ثم بين الله الدافع الذى من أجله زور الحق وغالط نفسه فقال : ﴿ أم يحسدون الناس على ما ءاتاهم الله من فضله ﴾ (٢) . قال المفسرون : المراد بالناس فى هذه الآية رسول الله محمد ﷺ ، وهكذا ألج القوم فى طغيانهم يعمهون . جاءهم كتاب من عند الله مصداً لما معهم ، وهو القرآن الذى جاء مصداً لما فى التوراة التى بين أيديهم ، وكانوا قبل مجىء هذا الكتاب وبعثة النبى يستنصرون ببعثته ويعترفون بنبوته ، فلما بُعث هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى قلوبهم ، وكفروا بما عرفوا ، فاستحقوا لعنة الله . ولعنة الله على الكافرين الذين كفروا بالقرآن ونبى القرآن ، واستحقوا التعذيب بقوله تعالى : ﴿ بثسما اشتروا به أنفسهم ﴾ ، أى بثس الشيء الذى باعوا به أنفسهم ، وشرى هنا بمعنى باع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وشروه بثمان ببخس دراهم معدودة ﴾ (٤) أى باعوه . فبثس الشيء الذى باع اليهود به أنفسهم ؛ إنه الكفر بغياً وحسداً من أجل أن أنزل الله الرسالة على محمد ، وهذا فضل من الله . وقد قال الكافرون قبل ذلك بعد بعثة النبى ﷺ : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (٥) ويقصدون بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجلين عروة ابن مسعود الثقفى من الطائف ، والوليد بن المغيرة من مكة ؛ فقال لهم الله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً

(٤) سورة يوسف آية : ٢٠ .

(٥) سورة الزخرف آية : ٣١ .

(١) سورة النساء الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) سورة النساء آية : ٥٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٠٧ .

ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴿١﴾ . لقد قالوها عناداً واستكباراً . قالوا : لا نؤمن بما أنزل على يتيم أبي طالب . وهؤلاء اليهود أنكروا الرسالة والرسول : لماذا لم يكن منهم من بنى إسرائيل ؟ ولماذا جاء عربياً من ولد إسماعيل ؟ فباءوا بغضب على غضب : باءوا بغضب من الله بكفرهم بموسى وعيسى ، وبغضب آخر بكفرهم بمحمد ورسالته . وهؤلاء الكافرين ، ولكل كافر ، عذاب مهين يجعله حقيراً ذليلاً . ثم إن من مساوئ هؤلاء القوم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله على محمد ، وهم يعلمون أن رسالته خاتمة الرسالات ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن كتابه جاء مصداقاً لما معهم من التوراة والإنجيل ، وبشر به كل الأنبياء ، والله يقول في الحديث القدسي الجليل : ( لو سلخوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلقتك يا محمد ) . ماذا كان جوابهم ؟ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما سواه ، وهو الحق الذي لا ريب فيه والذي جاء مصداقاً لما معهم . وقد لقن الله جل جلاله رسوله تلك الحجة : قل لهم يا محمد : إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم وكفرتُم بما سواه ، فلماذا تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ أهذا هو الإيمان ؟ لا ثم لا . . فشر الناس من قتل نبيّاً أو قتله نبي . فأخبروني إن كنتم صادقين : لم تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ إنهم عنصر دموى رهيب .

نسأل الله أن يوحد الأمة ، وأن يكشف الغمة ، وأن يبدد الظلمة .

\* وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءً آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بَشِّرْهُمْ بِعَذَابِكُمْ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَالْعِجَلِ قُلْ لِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى مَنْ يَدْعُنَا إِلَى ظُلْمٍ فَلْيُمْنِكُمْ بِهِمْ لَوْلَا ظُلْمُهُمْ لَمْ يَكُن لَكُمْ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنْ الَّذِينَ أُشْرِكُوا يَوْمَ أَحَدِهِمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِّجٍهُ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿البينات﴾ : هي الآيات والدلائل التي تدل على صدق النبي والمعجزات التي تؤيد نبوته كالعصا واليد . ﴿العجل﴾ : هو الذي صنعه لهم السامري من حليهم وجعلوه إلهاً وعبدوه . وأشرب قلبه كذا : أى حل محل الشراب ، كأن الشيء المحبوب شراب يساغ ، فهو يسرى في قلب المحب ويمارجه كما



يسرى الشراب العذب البارد في اللهات . وحقيقة أشرب كذا : جعله شارباً له ، والمراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، ﴿ خالصة ﴾ : أى خاصة بكم . ﴿ تمنوا الموت ﴾ : أى تشوقوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه . ﴿ بمزحزحه ﴾ : أى بمنجيه من العذاب . و﴿ البصير ﴾ : العالم بكنه الشئ ، الخبير به .

ما زالت الآيات البيّنات تترى في بنى إسرائيل . وعزيز على النفس أن يرى قوماً يعيشون في رزق الله وخيره ويعبدون غيره . ويرون الآيات البيّنات واضحة وضوح الشمس في ضحاها ، جلية جلاء القمر إذا تلاها ، مشرقة إشراق النهار إذا جلاها ، ويأبون مع ذلك إلا أن يعيشوا في ظلمة الليل إذا يغشاها ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ﴾ بالمعجزات الواضحات . . ثم ماذا ؟ بدلاً من أن يزيد هذا الإيضاح إيمانكم على إيمان ، كانت النتيجة عكسية . اتخذتم العجل إلهاً وقلتم هذا إلهكم وإله موسى فنسى موسى إلهه هنا ، فذهب يبحث عنه هناك . قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (١) . وقال هنا : ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبيّنات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ . هذا موقف تسيل له النفس مرارة ، وتتصدع له الكبد . ثم اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم والعهد المؤكد ورفعنا فوقكم الجبل ، لتأخذوا أحكام الله بقوة وعزم ، وقلنا لكم : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ﴾ فقلتم سمعنا وعصينا . إنه لموقف شنيع .

تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمري في القياس بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع

﴿ سمعنا وعصينا ﴾ !! أنعد هذا تمرداً على طاعة الله ؟ حتى ولولم يقولوا عصينا بألسنتهم فقد قالوها بأفعالهم ، وما يصدر عنهم من مخالفات . ويرحم الله أصحاب محمد ﷺ ، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . هذا ويعبادتهم للعجل ، تغلغل حبه فيهم كأنهم أشربوا حبه في قلوبهم فتغلغل وتمكن أيما تمكن . قال تعالى لهم : ﴿ قل بشئ يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ ، أى بشئ الذى يأمركم به إيمانكم المدعى إن كان إيمانكم بأمركم بعبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، وتكذيب الرسل ، فبشئ هذا الإيمان الذى يؤمن بالموبقات إن كنتم صادقين فيما ادعيتهم .

ثم تحداهم الله بعد ذلك فقال : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ . لقد كانوا يدعون أن الآخرة لهم وحدهم ، ولن يدخل أحد الجنة سواهم ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٢) . فتمنوا الموت يا من تدعون أنكم شعب الله المختار ، ويا من تقولون إننا أبناء الله وأحباؤه . قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر من خلق . فإن كان عندكم الشجاعة الأدبية فليتمن أحدكم الموت ، إن كنتم صادقين في دعواكم . والله جلّت قدرته لما تحداهم بتمنى الموت يعلم علم اليقين أنهم لن

يتمنوه أبداً ، وذلك بسبب ما كسبت أيديهم من شنيع الخصال وجرائم الأعمال . فكيف يتمنون الموت وهم يكرهون لقاء الله ؟ ولو تمناه أحدهم لما مات على الفور . ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وبما هم فيه من ضلال بعيد . وقد أخبر الصادق المعصوم عليه السلام فقال : ( من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ) . وقد أنشد عبد الله بن رواحة هذه الأبيات ، وروحه تتشوق إلى لقاء الله يوم مؤتة :

يا حبذا الجنة واقتراها طيبة وبارد شرابها

وأن عمار بن ياسر في حرب صفين قال :

غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه

وكان سلمان رضى الله عنه يقول : « عجبت لثلاثة وبكيت لثلاثة : عجبت لمؤمل في الدنيا والموت يطلبه ، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه ، وعجبت لضاحك لم يدرى ألهى الله راضٍ عنه أم غاضب عليه . وبكيت لفراق الأحبة محمداً وصحبه ، وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت ، وبكيت للوقوف بين يدي الله تعالى لا أدري أينطلق بي إلى الجنة أم إلى النار ؟ » . ولما حضرت بلالاً الوفاة صاحت زوجته : وامصيتاه . قال لها : بل قولى وافرحته . . غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه .

ثم بين الله تعالى حقيقة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل فقال : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ﴾ . قوله تعالى : ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير هكذا ولم يقل على الحياة ، ويدل على أنهم أحرص الناس على أى حياة مهما كانت ذليلة وضيفة حقيرة ، والحرص على الحياة يورث صاحبه الجبن والبخل والذل ، فهو يخشى الجهاد ، لأنه حريص على الحياة ، فهو جبان ، ومن ثم فقد قالوا لنبيهم موسى : ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غلبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴿ قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ (١) .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ لما قال لهم يوم بدر : ( أشيروا على أيها الناس ، فقام أحدهم وقال : يا رسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه ورائك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون ) . وهذا هو الفرق بين الذين يحبون لقاء الله وبين الذين يحرصون على الحياة . والرجل الحريص على الحياة بخيل بماله ، ضنين بالمرءة ، وغد عند الشدائد ، لا يثبت أمام الأحداث ، ليس عنده وفاء وليس عنده صديق ، إنما هو نهاز للفرص . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴿ وإذا قيل له

اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴿١﴾ . والرجل الحريص على الحياة ذليل في سبيل الحصول على المادة ، يتسولها من الناس ولو أدى ذلك إلى ضياع ماء وجهه ، ورحم الله من قال : نزع بحرين بغربالين ، وحفر بثرين بإبرتين ، وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لي من أن أقف على باب لثيم يضيع فيه ماء عيني . وإنما قال الله تعالى في شأنهم ﴿ أحرص الناس ﴾ أفعل تفضيل ، لأننا جميعا حريصون على الحياة مهما كان هواؤها سموماً وطعامها زقوماً وماؤها آسناء ، فكل المخلوقات يستزيدون من الدنيا مهما شكوها ، ولو ملح عذبها وخشن لثيها . وما كان قول النملة لأخواتها : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ ﴿٢﴾ ، ما كان هذا إلا حرصاً على الحياة . من ثم فإن هؤلاء اليهود ليسوا حريصين فحسب ، إنما هم أحرص الناس ، بل وأحرص من الذين أشركوا وهم لا يؤمنون بالبعث ، إلا أن اليهود أشد منهم حرصاً ، يود أحدهم لو عاش على وجه الأرض ألف سنة ، ولكن لن يرحزحه ذلك العيش الطويل عن عذاب الله مهما عمر .

فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر  
والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر

لما حضرت الوفاة نبى الله نوحاً قالت له الملائكة : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟ قال : رأيت الدنيا كدار لها بابان : دخلت من باب وخرجت من باب .

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ، فإنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوْ كَلَّمَآ عَلَيْهِدُ وَعَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : العدو : ضد الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع . والنبد : طرح الشيء والقائه . الفريق : العدد القليل .

جبريل ملك كريم ، وهو رئيس الملائكة ، وقد ورد ذكره في غير موضع من كتاب الله بالاسم والصفة . ففي هذه الآية الكريمة ورد ذكره باسمه ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ . وجبريل أو جبرائيل معناه عبد الله ، وقد وردت له في القرآن العظيم صفات منها قوله جل شأنه : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ذو مرة

(٢) سورة النمل آية : ١٨ .

(١) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦ .

فاستوى ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ على قلبك لتكون من المنذرين ﴿٢﴾ ، وقوله عز وجل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ مطاع ثم أمين ﴿٣﴾ . ولقد حدد جبريل مكانته حسب ما علمه الله عندما انقطع عن الرسول خمسة عشر يوماً ، فسأله الرسول بعد عودته وقال : يا أخى يا جبريل ، لقد احتجبت عني حتى اشتقت إليك ، فقال له الأمين جبريل : لقد كنت يارسول الله أشد شوقاً منك إليك ، ولكنى عبد مأمور ، إذا أمرت تنزلت وإذا منعت احتبست ، ثم تلا عليه قوله تعالى : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴿٤﴾ .

إذاً فجبريل هو سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، ينزل بالآيات والنذر ، كما ينزل بالانتقام على قوم غضب الله عليهم . أما ميكائيل فإنه ملك موكل بالغيث ، ينزل بالرحمة . ولقد شبه النبى ﷺ يوم بدر ، شبه أبا بكر بإبراهيم وعيسى فى الأنبياء ، وبميكائيل فى الملائكة ، وشبه عمر بنوح وموسى فى الأنبياء ، وبجبريل فى الملائكة . إذن فلماذا عادى اليهود الملك الكريم جبريل ؟ لقد ورد فى تفسير هذه الآية روايات عدة نوجزها فيما يلى لما فى كل رواية من المعانى ما يحتاج إليه طالب تفسير هذه الآية .

روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال : « حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى ، فقال رسول الله ﷺ : ( سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتكموه لتتابعنى على الإسلام ) . فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : ( سلوا عما شئتم ) . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ : ( عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنى ؟ ) . فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق . فقال : ( نشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه ، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟ ) . فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله ﷺ : ( اللهم اشهد عليهم ) . ( وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض ، وأن ماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل ؟ ) . قالوا : اللهم نعم . قال : ( اللهم اشهد ) . ( وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ ) . قالوا : اللهم نعم . قال : ( اللهم اشهد ) . قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجىء معك أو نفارقك . قال : ( فإن ولى

(٣) سورة التكوين الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٤) سورة مريم الآيات : ٦٤ ، ٦٥ .

(١) سورة النجم الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .

جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه ) . قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواء من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : ( فما يمنعكم أن تصدقوه ؟ ) . قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه ﴾ إلى قوله ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ فعندها باءوا بغضب على غضب<sup>(١)</sup> .

وجاء في رواية أخرى أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : أخبرنا عن الروح ؟ قال : ( أنشدكم بالله وبآياته عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذي يأتيني ؟ ) قالوا : اللهم نعم ، ولكنه عدولنا وهو ملك ، إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء ، فلولا ذلك لاتبعناك . فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ قل من كان عدوا لجبريل . . ﴾<sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس قال : أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء ، فإن أنبأنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : والله على ما نقول وكيل . قال : ( هاتوا ) ، قالوا : فأخبرنا عن علامة النبي ؟ قال : ( تنام عيناه ولا ينام قلبه ) . قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : ( يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت ) . قالوا : أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : ( كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يلائمه إلا ألبان كذا ) . قال أحمد قال بعضهم : يعني الإبل فحرم لحومها . قالوا صدقت . قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : ( ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب ، بيديه ، أو في يديه ، مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى ) . قالوا : فما هذا الصوت الذي نسمع ؟ قال : ( صوته ) ، قالوا : صدقت . قالوا : إنما بقيت واحدة وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها : إنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : ( جبريل عليه السلام ) ، قالوا : جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ؟ لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والمطر والنبات لكان ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾<sup>(٣)</sup> إلى آخر الآية .

وروى عن الشعبي قال : نزل عمر الروحاء فرأى رجلاً يتدرون أحجاراً يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هنا . قال : فكفر ذلك ، وقال : أيما رجل أدركته الصلاة بواد صلاها ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مررنا بهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ؛ فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا . فقلت : إني أتيتكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن . قالوا : ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به . قال فقلت لهم عند ذلك :

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٦ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٦ ط الشعب .

نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيئوه . قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت . قال : أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فإننا نعلم أنه رسول الله . قلت : وبحكم إذا هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة وسلماً من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة . قلت : ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل . قالوا : إن جبرائيل ملك الفضاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا . قال قلت : وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال فقلت : فوالذى لا إله إلا هو إنها والذى بينهما لعدو لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، وما ينبغي لجبرائيل أن يسلم عدو ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسلم عدو جبرائيل . قال : ثم قمت فاتبعت النبى ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبني فلان فقال : ( يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل ) ، فقرأ على : ﴿ من كان عدوا لجبرائيل فإنه نزل على قلبك بإذن الله ﴾ حتى قرأ الآيات : قال قلت : أبى وأمى أنت يارسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر<sup>(١)</sup> .

قال البخارى : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله وهو فى أرض يخترف<sup>(٢)</sup> فأتى النبى ﷺ فقال : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : ( أخبرنى بهذا جبرائيل أيضاً ) . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدواً لجبريل فإنه نزل على قلبك ﴾ . ( وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع المرأة وإذا سبق ماء المرأة تنزعت ) . قال : أشهد ألا إله إلا الله وأنتك رسول الله ، يارسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتون . فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ : ( أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟ ) قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . قال : ( أرأيتم إن أسلم ؟ ) قالوا : أعاده الله من ذلك . فخرج عبد الله فقال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : هو شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه فقال : هذا الذى كنت أخاف يارسول الله<sup>(٣)</sup> .

ومن جو هذه الروايات مجتمعة لمسنا مدى عند العوم وإصرارهم على الباطل . إنهم بمعاداتهم أمين الوحي جبريل استحقوا من الله أن يؤذنه بالحرب . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : ( من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ) . ومن يقدر على حرب الله ؟ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد حكم الله عليهم حكماً جاء جزاء وفاقاً ، فقال : ﴿ كلما أوقدوا نارا للحرب

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٧ ط الشعب .

(٤) سورة هود آية : ١٠٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٨٨ ط الشعب .

(٢) يخترف : يخنى الثمر .

أطفأها الله ﴿١﴾ . وهل عادوا جبريل إلا لأنه ينزل بالقرآن على سيد الأنبياء ؟ والقرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ جاء مصداقاً لما بين يديه ومصدقاً لما معهم من التوراة ، ومن اتبعه وعمل بما فيه كان على هدى وبشارة ، فإنه لا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، لا يملأه الاتقياء . وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ويرحم الله عقلاء الجن الذين قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرءانا عجياً \* يهدى إلى الرشـد فقامنّا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ (٢) .

إن عداوة جبريل كعداوة أى ملك ، كعداوة أى رسول ، كلها تؤدى إلى الكفر . لأن الإيمان لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول . بهذا حكم العلى الكبير إذ يقول : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملئـكـته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٣) ، وقال سبحانه فى حق قوم فرقوا : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً \* أولئك هم الكـفـرـون حقا وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (٤) .

وقال فى حق قوم سلكوا الصراط المستقيم : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٥) .

والرسل يشملون رسل الملائكة ورسل الإنس . قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ (٦) . ثم قطع الله المعاذير على كل معاند جحد فقال : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ . فبعد وصف الآيات بالبيان التام والدليل الساطع والبرهان القاطع ، لا عذر ولا حجة ، إذ لا يجحد الشمس فى كبد النهار إلا من كان على بصره غشاوة ، ولذا جاء أسلوب الحصر قويا عندما حصر الكفر فى الفاسقين الخارجين عن حدود الله ، الناكثين للعهود ، الناقضين للمواثيق والوعود والذين ﴿ إذا ذكروا لا يذكرون \* وإذا رأوا آية يستسخرون ﴾ (٧) . وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون \* ويل يومئذ للمكذبين \* فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ (٨) . ﴿ قد تبين الرشـد من الغى فمن يكفر بالطغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (٩) . فاللهم اجعلنا من أوليائك وتول أمرنا ، وكن ولينا ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .

(٦) سورة الحج آية : ٧٥ .

(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

(٨) سورة المرسلات : الآيات : ٤٨ - ٥٠ .

(٩) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

(١) سورة المائدة آية : ٦٤ .

(٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٤) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٥) سورة النساء آية : ١٥٢ .

وهؤلاء القوم لما كانت عاداتهم العناد والجحود ، وصفهم الله بما ركز ورسب في طباعهم من نقض العهود ، فجاء المعنى معبراً عنه بأداة شرط تفيد التكرار والاستمرار . قال تعالى : ﴿ أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، والنبد معناه الطرح والرمى ، وهو يفيد عدم الاكتراث . ولما كان الفريق يشمل العدد القليل والكثير ، بين الله في تلك الآية الكريمة أن الفريق هنا يراد به الكثرة ، فقال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقول الله صدق ، وحكم الله حق ، فما آمن منهم برسول الله ﷺ إلا القليل .

ويتنقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخرين الله فيه من المساوىء ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان ؛ قال سبحانه :

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سَلِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرُوا مَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَآتَقَوْا لِمَثُوبَةٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : كفر : أى سحر ، والسحر : لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره : خدعه ، وجاء في كلامهم : عين ساحرة وعيون سواحر ، وفي الحديث : ( إن من البيان لسحراً ) . والإنزال : الإلهام ، وسمى بذلك لأنها ألهماه واهتديا إليه من غير معلم ، والملكان رجلان صاحباً هيئة ووقار يجلبهما الناس ويحترمونها ؛ بابل : بلد بالعراق لها شهرة تاريخية قديمة . والخلاق : النصيب والحظ ، وشروا : أى باعوا .

لقد سجل الله تعالى على اليهود مواقف تنبئ منها الأذواق السليمة والفطر الصحيحة . ففي آية سبقت قال الله تعالى في شأنهم : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١) . وفي هذه الآيات التي بين أيدينا



قال جلّ ذكره : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ . ويستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين أن الكتاب مصدق لما معهم من التوراة . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وأن الرسول مصدق لما معهم أيضاً من التوراة ، والمراد به رسول الله محمد ﷺ ، فكفروا بالكتاب ونبذوا ما جاء به الرسول وراء ظهورهم . وفي هذا دلالة على مدى استهزائهم بأحكام الله وهم يعلمون أنه الحق . قال تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾ الحق من ربك فلا تكونن من الممتريين ﴿ (١) . ولقد صرح القرآن الكريم عما انطوت عليه نفوس القوم من العناد والإصرار . قال سبحانه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك ﴾ (٢) . ولما نبذ هؤلاء القوم ما في الكتاب وما جاء به الرسول وهم يعلمون أنه الحق ، صور القرآن حالهم بأنهم لا يعلمون ، فلا خير في علم لا يصحبه عمل .

ثم أضاف العلي الحكيم في كتابه موقفاً آخر لليهود يدعو إلى الأسى والحزن العميق . إنهم لم يكتفوا بنبذ العهد ونقض المواثيق ونكث الوعود . لقد اقترفوا جرماً لا يقل شناعة عما اقترفوه من قبل . قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ .

إن اليهود اتبعوا كلام السحرة من الشياطين وما كانوا يروونه من كتب السحر على عهد نبي الله سليمان بن داود ، وأساءوا الأدب على سليمان نفسه . فقد اتهموه بأنه يعمل بالسحر ليثبت ملكه !! معاذ الله أن يكون نبي الله كذلك ، وهو الذي قال فيه رب العزة : ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب ﴾ (٣) . وقال الله تعالى في شأنه : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ (٤) . وأى سحر هذا الذي يثبت ملكاً أراد الله تربيته ؟ لقد دعا سليمان ربه قائلاً : ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ (٥) . وهل السحر إلا صرف الأشياء عن حقيقتها ؟ فهو تخيلات في الخس وأوهام في العقل ، وتأثيره لا يتجاوز هذا المعنى ، والسحر كفر ، قال ﷺ : ( من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ) (٦) ، وقال رب العزة في هذه الآية : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ ، أى وما سحر سليمان ولكن الشياطين سحروا فكفروا بذلك . وفرق شاسع بين سحر السحرة ومعجزة الأنبياء . فتأثير السحر تخيلات في الخس وأوهام في العقل ناتجة عن اتصال شياطين الإنس بشياطين الجن ، فيقوم شيطان الجن بتكفير شيطان الإنس بأن يأمره أن يتخذ صنماً يعبد ، أو يأمره بوضع المصحف تحت قدمه في مكان النجاسات ، إلى غير ذلك من صور الكفر . فإذا ما فعل شيطان الإنس ذلك وكفر ، استطاع شيطان الجن

(١) سورة البقرة الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٢) سورة البقرة آية : ٣٥ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٤٩ ط دار الفكر .

(٤) سورة البقرة الآيات : ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٤٥ .

(٦) سورة ص آية : ٣٠ .

أن يقدم له من أنواع الأذى والضرر ما يستطيع به شيطان الإنس أن يعربد بشروره . وسوف نفصل حكم السحر والسحرة فيما سأتى . أما المعجزة التى يجريها الله على أيدي الأنبياء فإنها حقيقة واقعة ، يخرق الله بها العادة ، فإذا ما انقلبت عصا موسى حية فتلك حقيقة لا وهم فيها ولا تخيل ، وإذا ما سمع للجدع أنين ، بعدما فارق رسول الله ﷺ ، فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم . وإذا ما انشق القمر فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم ، ومن ثم فإن القرآن الكريم ذكر مشهدا مهيبا جمع فيه بين ما ورد عن سحرة موسى وبين ما جاء على يدى موسى من المعجزات . قال تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ فوق الحق ويطل ما كانوا يعملون ﴾ فغلبوا هنالك وانقلبوا صغرين ﴾ وألقى السحرة ساجدين ﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهرون ﴾ (١) . وفى هذه الآية الكريمة ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ مواقف للعلماء نخلوا فيها مخزون فكرهم ، وقدحوا زناد رأيهم ، ونحن نسوق بعضها لتوضح الصورة فى فهمها . جاء فى تفسير المراغى ما نصه : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ أى واتبع فريق من أحبار اليهود وعلماهم الذين نبذوا التوراة تجاهلا منهم بما هم به عالمون ، اتبعوا السحر الذى تلت الشياطين فى عهد سليمان بن داود وعملوا به ، وذلك هو الخسران المبين . وقد زعموا أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسیه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها ، وهذا من مفتریات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبا وبهتاناً .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ أى وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيا ينفى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وغمويه ، والأنبياء مبرءون من ذلك .

﴿ ولكن الشياطين كفروا ﴾ أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا . ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، قد جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، ولا سيما فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا ، كما قال : ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ (٢) ، وقال فى آية أخرى : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ (٣) .

والآية نص صريح على أن السحر كان يُعلم ويلقن ، والتاريخ يؤيد هذا .

والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفى ، يعرفه الناس ويجهله كثير منهم ، ومن ثم يسمون العمل به سحرا لحفاء سببه عليهم . وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى .

(٣) سورة الأعراف آية : ١١٦ .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١١٣ - ١٢٢ .

(٢) سورة طه آية : ٦٦ .

وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلموا بأساء غريبة وألفاظ مبهمة ، واشتهر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن ليوهمهم أن الجن يستجيبون دعاءهم ويسخرون لهم ، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب ، ولثل هذا تأثير في إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده ، وهو يغني منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر .

﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾ في الملكين قراءتان : فتح اللام وكسرهما ، وهما رجلان شبيها إماما باللائكة لانفرادهما بصفات محمودة ، وقد جرت العادة أن يقولوا هذا ملك وليس بإنسان ، وإمام بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يظهر الغنى عن الناس : هذا من الملوك . وكان الناس في عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم ، لا يقصدون للفصل في شئونهم الروحية إلا أهل السمات والوقار ، الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى .

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملكين غير السحر ، لكنه من جنسه ، وقد ألهماه واهتديا إليه بلا استاذ ولا معلم ، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما في قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ أى وما يعلم الملكان أحدا حتى ينصحا ويقولوا له : إنما نحن ابتلاء من الله عز اسمه ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به . وفي هذا إيحاء إلى أن تعلم السحر وكل ما لا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا ، وإنما الذى يحظر ويمنع هو العمل به فحسب ، وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما ، إذ كانا يقولان إنها ملكان ، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض . نوصيك بالألا تكتب هذا لجلب امرأة إلى حب غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين عاشقين فاسقين ، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلهية وصناعتهم روحية .

﴿ فيتعلمون منها ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أى كانوا يتعلمون منها ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين ، مما يسمى الآن ( كتاب البغضة ) . والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر : أمؤثر بطبعه أو بسبب خفى أو بخارق من خوارق العادات ، أم غير مؤثر ؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه : أتمائم وكتابة هو ، أم تلاوة رقى وعزائم ، أم أساليب سعاية ، أم دسائس تنفير ونكاية ، أم تأثير نفساني ، أم وسواس شيطاني ؟ فأى ذلك أثبت العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ، ولا نتحكم في حمله على نوع منها ، ولو علم الله الخير في بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم في العلم ، فهو الذى يجلى الغامض ويكشف الحقائق .

(١) سورة النحل آية : ٦٨ .

(٢) سورة القصص آية : ٧ .

قال تعالى : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، أى إن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله بها مسيبتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإنما ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ، من قبل أنه سبب فى إضرار الناس ، وهذا مما يعاقب الله عليه ، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه ، فإننا نرى منتحلي هذه المهن من أفقر الناس وأحقهم ، وذلك حالهم فى الدنيا ، فما بالك بهم فى الآخرة ، يوم يجزى كل عامل بما عمل . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ ، أى إنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التى توصل إلى السعادة فى الدارين ، فليس له حظ فى الآخرة ، لأنه قد خالف حكم التوراة التى حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان ، كعقوبة عابدى الأصنام والأوثان .

﴿ ولبسوا ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى ولبسوا ما باعوا به أنفسهم السحر ، وعبر عن بيع الإيمان ببيع النفس ، لأنها إنما خلقت لمعرفة الدين والعمل به ، أى أنهم لو كانوا يعلمون حرمة السحر علما يصدر عن اعتقاد له أثر فى النفس ، ويصدقون بما توعد به مرتكبه من العقوبة ، لما ارتكبوه ولا أصرروا عليه ، ولكنهم خانهم هذا النوع من العلم واكتفوا بعلم مبهم لا أثر له فى النفس ، فتسرب إليهم كثير من التأويل والتحريف لنصوص التوراة .

وهذا هو ما يفعل مثله بعض المسلمين اليوم ، إذ ينتهكون بعض حرمان الدين بمثل تلك التأويلات ، فيمنعون الزكاة بحيلة ، ويأكلون أموال الناس بحيلة أخرى ، ويشهدون الزور بحيلة ثالثة . . . وهكذا .

أما صاحب التفسير الواضح فيقول فى هذه الآية : « من قبائح اليهود أنهم نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تلتة الشياطين من السحر والشعوذة فى زمن ملك سليمان ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ويضمون إليه أكاذيب ثم يلقونها الكهنة فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وماتم لسليمان ملك إلا بهذا . فيرد الله عليهم هذه الدعوى : إن سليمان ما فعل شيئا من هذا ، وما كفر باعتقاد السحر والعمل به ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه .

هؤلاء اليهود يعلمون الناس بقصد إغوائهم وإضلالهم ، ويعلمونهم ما أنزل على الملكين بابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران إلا أنها كانا صالحين قانتين ، فأطلق الناس عليهما ملكين من باب التشبيه ، وفى قراءة ملكين على التشبيه أيضا بالملوك فى الخلق وسماع الكلمة .

ولكن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحدا من الناس حتى يقولوا له إنما هذا ابتلاء واختبار من الله ، فلا تتعلم السحر وتعمل به وتعتقد تأثيره وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته لتعلمه فقط ولتعرف شيئا تجهله ولا تعمل به ما يضر ، فلا محذور فى ذلك ؛ فتعلم الناس من الملكين ما كانوا يعتقدون أنه يفرق بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث فى العقد ، أو تأثير نفس وغير ذلك مما يحدث عنده التفريق غالبا .

والحقيقة أن السحر لا يؤثر بطبعه أو ما هم بضارين به أحدا من الناس إلا بأمر الله وإرادته ؛ فهذا كله ، إن صح ، فسبب ظاهري فقط ، وأما من تعلم السحر وعمل به فإنه تعلم ما يضره ولا ينفعه ، إذ به استحق غضب الله عليه لما ينشأ عنه من إفساد الناس وضررهم ؛ وتالله لقد علم اليهود لمن ترك كتاب الله واستبدل به كتب السحر ماله في الآخرة إلا العذاب ، وليس له نصيب من الثواب . ولبس ما اشتروا به عذابهم وألمهم لو كانوا يعلمون ، نفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ، فكانوا أسوأ من الجهلة .

ولو أن اليهود آمنوا بالنبي ﷺ والقرآن وتركوا كتب السحر والشعوذة وأخذوا الوقاية من عذاب الله بامتثال أوامره ، لاستحقوا الثواب من عند الله ، وهو خير وأعظم أجرا ، لو كانوا يعلمون ذلك « اهـ .  
ونرى أن للمفسرين رأيين في مفهوم الملكين : رأى يرى أنهما رجلان صالحان كاملان . ورأى يرى أنهما ملكان حقيقيان ؛ كما أن لهما رأيين في لفظ ﴿ ما ﴾ في قوله تعالى ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ ، فرأى يرى أنها اسم موصول بمعنى الذى ، وأنها معطوفة على لفظ السحر في قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، ورأى يرى أن ﴿ ما ﴾ حرف نفى ، وأن الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، كأن النفى حرف مسلط على الكفر والإنزال ، وهذا كله لإثبات عصمة الملكين . ونحن نرى أن ليس هناك مانع من إرادة المعنى الحقيقي للملكين ، وأنها ملكان نزلوا إلى الأرض وفي مدينة بابل لمهمة كلفا بها ، وهى إبطال سوق السحر والسحرة ، فقد راجت سوق السحر في تلك المدينة حتى ادعى السحرة أنهم يعلمون الغيب ، وهذا هو الذى نفاه الله جلّت قدرته في قوله حكاية عن جن سليمان : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ فلما قضينا عليه الموت مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴿ (١) .  
قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (٢) . وقال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾ (٣) . من هنا نعلم أن الملكين هاروت وماروت كانا مكلفين بتعليم الناس أن السحر مفسد للنفوس ، أنه يضر ، لا بذاته ، ولكن بإذن الله ، فتأثيره كتأثير السبب فى السبب . أما الأصل كله والأمر كله فبإذن الله . ومما يدل على عصمة الملكين وأنها لم يفعلوا ما يخالف العصمة قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى بقولا إغما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، أى فلا تعمل بالسحر ، والفتنة هنا الابتلاء والمحنة كذلك ، يقولون للناس : إن هذا السحر يفرق بين المرء وزوجه ، وذلك بإلقاء الوسواس فى صدور كل منها بالكراهية ، وإن السحر تخيلات فى الحس بحيث يجعل المرء يرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، كما حدث من سحرة فرعون ، قال تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ (٤) وكما قال فى حق موسى : ﴿ نجعل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ (٥) .

(١) سورة سبأ الآيات : ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة النمل آية : ٦٥ .

(٣) سورة الجن آية : ٢٦ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٠٢ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٠٢ .

كذلك إذا اتضحت حقيقة السحر والسحرة فسدت أسواقهم ، فليس السحر إنباء بالغيوب ، وليس السحر قدرة على الضر والنفع إلا بإذن الله وحده ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ولا تطرف فيه طرفة عين ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، فإذا كان السحرة يحاولون بسحرهم إلقاء الشر في النفوس ، فمثلهم كمثل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وما من شك في أن التفريق بين الزوجين من الكبائر ؛ قال ﷺ : ( ليس منا من خب بين امرأة وزوجها )<sup>(١)</sup> ، أى سعى بالإفساد بينهما . وللسحر علاج كعلاج الحسد ، وهو قراءة المحصنات الثلاث : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ؛ تقرأها في كفيك وتتفل ثلاث مرات ، وهو إخراج النفس بدون إخراج ريق ، وتمسح جسمك بكفيك ؛ كذلك قراءة آية الكرسي ؛ كذلك قراءة سورة البقرة . فقد ورد في الحديث الشريف أن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، أى السحرة ، ولا يفرح إبليس بشيء كفرحه بمن فرق بين الزوجين ؛ قال ﷺ : ( إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، ينجي أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ؛ وينجي أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت )<sup>(٢)</sup> .

قال العلماء : وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل للرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو نقيصة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ؛ والمراد بالمرء : الرجل . قوله تعالى : ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . قال سفيان الثوري : إلا بقضاء الله ، وقال محمد بن إسحاق : إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصري : لا يستطيعون النيل من أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه قوله تعالى : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ، أى يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره . قال ﷺ : ( اجتنبوا السبع الموبقات : الإشرار بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات )<sup>(٣)</sup> .

وهذا النص الكريم : ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ إبطال لمزاعم السحرة الفجرة الذين يزعمون كذباً وبهتاناً أنهم يستطيعون أن يتصرفوا في الكون كما يشاؤون ، فيضرون وينفعون ، وهم في الحقيقة يضررون أنفسهم بعصيانهم لله ، ويدخلون النار في الآخرة أول الداخلين . وهم في الدنيا أشد الناس بؤساً وفقراً وضيقاً وضنكاً ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿<sup>(٤)</sup> .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .

(٤) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٦٦ ط دار الفكر .

(٢) صحيح مسلم ج ٥ ص ٦٧٩ ط الشعب .

فعليك أيها العاقل ألا تغشى مجالسهم ، فقد يغفر الله لأمة محمد ليلة القدر إلا لمدمن الخمر ، والمصدق بالسحر ، والعاقل لو ألداه ، والقاطع للرحم ؛ حتى من ذهب إليهم ولم يصدقهم لا يقبل الله منه عملاً أربعين يوماً . وهم في الحقيقة كذابون دجالون محتالون مخادعون ؛ فاستعد بالله من شرهم وقل : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ﴾ ، أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر متابعة الرسول ﷺ ولبن فعل فعلهم ذلك ، أنه ماله في الآخرة من خلاق ، أى من نصيب . وقال الحسن ليس له دين . قال قتادة : ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له في الآخرة ؛ وهكذا الحكم على كل من اشترى السحر واشتغل به وباع اتباع الهدى والسير وراء نهج النبوة الصادقة .

قوله تعالى : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ ، ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول . لو كان لهم علم بما وعظوا به : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ ، أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا المحارم لكانت مثوبة الله على ذلك خير لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ (١) .

وهكذا اشترى هؤلاء الناس السحر وباعوا أنفسهم ، وكان الثمن خسرانا وضللاً وهتاناً وكذباً وضراً واعتوا في الأرض ، فاستحقوا من الله أن يقول فيهم : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ . وقد استدلل العلماء من قوله تعالى : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير ﴾ ، استدللوا بها على تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعي وأحمد بن حنبل قال : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجاللة بن عبيدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخاري في صحيحه .

وصح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر . وروى الترمذي من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدي أنه قال قال رسول الله ﷺ : ( حد الساحر ضربه بالسيف ) (٢) .

### فصل في الأحكام الشرعية المتعلقة بالسحر والسحرة

ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، رحمه الله ، في كتابه ( الإشراف على مذاهب

(٢) الجامع الصغير ج ١ ص ٥٧٠ ط دار الفكر .

(١) سورة القصص آية : ٨٠ .

(الأشراف) بابا في السحر ، فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبي حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ؛ من تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر .

وقال الشافعي رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر ؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي ، فإنه قال : يقتل . والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور عنهم : لا تقبل . وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى : تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب ، فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك وأحمد والشافعي : لا يقتل ، يعني لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا في المسلمة الساحرة ؛ فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ، ولكن تحبس ؛ وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل . والله أعلم .

حكى القرطبي عن وهب أنه قال في علاج السحر : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه ، فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن امرأته . ( قلت ) : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في إذهاب ذلك ، وهو المعوذتان . وفي الحديث : ( لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما ) ، وكذلك قراءة آية الكرسي ، فإنها مطردة للشيطان .

### أدب وتوجيه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا آنظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾  
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ

وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

من قبائح القوم تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وكان من ذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ « راعنا يا محمد » لا يقصدون بها معناها الحقيقي ، بمعنى راعنا سمعك أو راقبنا ، إنما كانوا يقصدون بها معنى سيئا ، ويريدون بها المسبة ، فهي عندهم من الرعونة والحمق . ولما كان المؤمنون يقولونها للهادي البشير ، صلوات ربي وسلامه عليه ، كانوا يقصدون بها معناها الحقيقي ، وهو راقبنا ، فوجههم رب العزة



وأديهم الأدب الرفيع في مخاطبة الصادق المعصوم فقال لهم : ﴿ وقولوا انظرونا ﴾ آى : انتظرونا وأمهلنا حتى نعى ما تقول . ولم يكن تحريف القول أمرا غريبا على اليهود ؛ فقد قال تعالى في شأنهم : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ (١) . بل بلغ بهم السفه إلى حد أنهم حرفوا التحية التي كانوا يلقونها على رسول الله ﷺ . لقد حياه الله تبارك وتعالى فقال له : « السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » ، ولكن اليهود إذا مروا به كانوا يقولون : السام عليك يا محمد . والسام هو الهلاك والموت ، فكانت السيدة عائشة رضى الله عنها ترد عليهم قائلة : وعليكم السام واللعة إخوان القردة والخنازير . فكان الرسول ﷺ يقول لها يا عائشة : ( إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش .. ) (٢) . قالت يارسول الله ألا تسمع ماذا يقولون ؟ فقال لها : ألا تعلمين ماذا قلت لهم ؟ لقد قلت لهم : وعليكم ! إن الله تعالى أمرني بقوله : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ (٣) . ولقد قص الله تعالى في القرآن الكريم هذا المشهد فقال : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ (٤) . ومن عظمة الإسلام أنه جعل شخصية المسلم شخصية قوية مستقلة ، بحيث لا يكن أحدنا إمعة ، فنهى عن التشبه بالكافرين قال ﷺ : ( من تشبه بقوم فهو منهم ) (٥) .

قوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ خطاب يعلمنا الله به الأدب في مجالس القرآن . قال جل شأنه : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ (٦) . وما أشد حاجة المسلمين إلى هذا الأدب لاسيما في عصر تحولت فيه مجالس القرآن إلى ضجيج وعجيج ، بحيث يتمايلون ويضطربون للنغم الذي يؤديه القارئ ، وهم في غفلة معرضون عما في الآيات من وعيد تنخلع له القلوب ، لاهية قلوبهم عن إجلال منزل القرآن وخشيته . وقد يستولى عليك الأسى ، عندما تسمع أحدهم وقد سمع قول الله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه ﴾ ثم الجحيم صلوه \* ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ (٧) يصيح بأعلى صوته قائلا : « الله يزيدك » . قلت : سبحان الله ! أيطلب المستمع للقارئ أن يزيده الله على السبعين ذراعا ؟ لو كان هذا يفقه معناها ويعيش في هولها لكان كالسلف الصالح . نظر الله إليهم في جوف الليل وأضلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ؛ وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شقق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وقد حذر رسول الله ﷺ من أداء القرآن بلحون أهل العشق فقال : ( إياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاين ، وسيأتى بعدى قوم يرجعون في القرآن ترجيع أهل الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ) .. صدقت يارسول الله . لكأنك تنظر

(١) سورة النساء آية ٤٦ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٩٠ ط دار الفكر .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

(٦) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .

(٣) سورة فصلت آية : ٣٤ .

(٧) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

(٤) سورة المجادلة آية : ٨ .

من وراء الحجب وتستشف الغيوب بما منحك الله من نفاذ البصيرة ونور النبوة . فقد أصبح قوم يرجعون في القرآن حسب المقامات الموسيقية من الصبا والرصد والنهاوند والسيكا . فإن كانت الآية تبشر بالجنة قرأت من مقام السيكا ، وإن كان فيها وعيد وعذاب قرأت من مقام الصبا . واحر قلباه ، واحر قلباه . إن مائدة القرآن حافلة بألوان الجلال والكمال والجمال ، لكننا لا نحب أن نسمع فوقها طنين الذباب . لقد عجبت لمستمع في أحد محافل القرآن ، لما سمع قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾<sup>(١)</sup> انتفض من مكانه انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر . وصاح بأعلى صوته : « اللهم اجعلنا منهم » ، وهو لا يدرى زمر النار من زمر الجنة . وقد يكون غافلا لاها عن سماع القرآن كما قال شوقي في نهج البردة : =  
لقد أنلتك أذنا غير واعية ورب مستمع والقلب في صمم

وقد بلغ السيل الزبى عندما أصبح كثيراً لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه . همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم . إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك . السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، لا يصلون إلا في رمضان ولا يسمعون القرآن إلا من ذى صوت حسن .  
قال الله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ ، ومنهم الذين يستهزئون برسول الله ويؤذونه بالكلام أو العمل . وأليم بمعنى : مؤلم موجه .

وبعد ذلك نبه الله المؤمنين إلى حقيقة واقعة لا مرأى فيها فقال : ﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ . هذه حقيقة قررها علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وفصلها في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور \* إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن نصبكم سيئة ففرحوا بها وإن نصبروا وتحملوا لاضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾<sup>(٢)</sup> . إذن لقد برح الخفاء وانكشف الغطاء عن قلوب هؤلاء ، ما يودون ولا يتمنون أى خير ينزله الله على المؤمنين ، متجاهلين أن الله يختص برحمته من يشاء ، متناسين أن رحمة الله قريب من المحسنين وهو الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾<sup>(٣)</sup> . فسبحانك يا ذا الفضل العظيم والخير العميم .  
قطرة من قبض جودك تملأ الأرض رياً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر ولياً .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(١) سورة الزمر آية : ٧١ .

(٢) سورة آل عمران الآيات : ١١٨ - ١٢٠ .

## آيات النسخ

\* مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تَرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَتَّبِعِ الْكُفْرَ يَأْتِ بِإِيمَانٍ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

النسخ مبحث من مباحث أصول الفقه ، وهو في لغة الأصوليين : بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة . وقالوا : هورفع الحكم بدليل شرعى متأخر . وسبب نزول آية النسخ أن المشركين واليهود قالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً ؛ فقد أمر في حد الزاني بإيذاء الزانين باللسان حيث قال : ﴿ فَأَذْوَمَاهَا ﴾ <sup>(١)</sup> ثم غيره وأمر بإسكانهم في البيوت حيث قال : ﴿ فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾ <sup>(٢)</sup> ثم غيره بقوله : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ <sup>(٣)</sup> . سبحانه هذا بهتان عظيم . إن العلم الخبير عالم بأحوال عباده ومصالحهم وما يعود عليهم بالنفع . فإذا ما حكم بحكم في زمان أو مكان ورأى من مصلحة العباد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر فليس ذلك عبثاً ، معاذ الله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ \* فتعالى الله الملك الحق ﴿ <sup>(٤)</sup> ، أى تنزه عن العبث ، فكل فعله حكمة بالغة وإن خفيت على الناس . وإذا ما اقتضت حكمته نسخ حكم بحكم آخر فليس ذلك عن جهل كما يدعى اليهود ، فإن علم الله صفة من صفاته القديمة الأزلية ؛ فالله تعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، إذ العلم صفة انكشاف . فأى جهل أمام هذا العلم الذى أحاط بكل شيء ؟ وهل يقال للطبيب إذا صرف للمريض دواء لفترة زمنية ثم غير هذا الدواء بدواء آخر لفترة أخرى ، أيقال للطبيب إنه عابث أو جاهل ؟ لا بل يقال عنه إنه نظامى حاذق وبطبه عالم . فإذا كان هذا لا يجوز أن يقال للطبيب الذى جدد الدواء بدواء آخر والطبيب بشر له علم يدل به إن كان للمرء في الأيام تأخير . فما بالك بمن له المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . ومن ثم فقد تقتضى الحكمة الإلهية أن ينسخ آية ( أى حكمها ) أو ينسها أو ينسأها . فالنسخ والنسيان والإنسَاء كل هذا لحكمة عليا بينها الله تعالى في قوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ . والخيرية هنا إما أن تكون في الثواب والأجر ، وإما أن تكون في المصلحة والمنفعة ، وإما أن تكون مثلها في الحكم ؛ هذا وقد يكون النسخ تدرجاً في التشريع كما في تحريم الربا ، فقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في

(١) سورة النساء آية : ١٦ .

(٢) سورة النساء آية : ١٦ .

(٣) سورة النور آية : ٢ .

(٤) سورة المؤمنون الآيةان : ١١٥ ، ١١٦ .

أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴿١﴾ . ثم تدرج الحكم إلى محريم الربا في أبشع صوره ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) ؛ ثم تدرج الحكم إلى التحريم النهائي القطعي ، قال تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ (٣) ، ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (٤) .

وما يقال في تحريم الربا يقال في تحريم الخمر ؛ فقد تدرج التشريع في تحريم الخمر من قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها ﴾ (٥) ، إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ (٦) ، إلى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ (٧) .

ولا يقع النسخ في الأخبار ، إذ يلزم على نسخها الكذب ، وهو محال على أصدق القائلين ، إنما يقع في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة .

وللنسخ صور نجمها فيما يلي : فقد يكون إلى الأيسر ، كما في عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ؛ فبعد أن كانت حولا كاملا ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾ (٨) ، خففت هذه العدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ، كما في قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ (٩) .

وقد يكون النسخ بالمثل ، كما في نسخ القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (١٠) .

وقد يكون النسخ إلى الأشد لزيادة الأجر والمثوبة ، كما حدث في ترك موادة المعتدين إلى مجاهدتهم وقتالهم . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ (١١) .

وقد وقع النسخ أيضا في السنة ، كما في قوله ﷺ : ( كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها . وكنت قد نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحي ألا فكلوها منها ) (١٢) . . وليس في العقل ما يدل على امتناع النسخ

(٧) سورة المائدة آية : ٩٠ .

(٨) سورة البقرة آية : ٢٤٠ .

(٩) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .

(١٠) سورة البقرة آية : ١٤٤ .

(١١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

(١٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٩٧ ط دار الفكر .

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٥) سورة البقرة آية : ٢١٩ .

(٦) سورة النساء آية : ٤٣ .

في أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد . وقد وقع ذلك في كتبه المتقدمة وشرائعها الماضية ، كما أحل لأدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بني إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ؛ هذا استفهام يفيد التقرير ؛ فالله تعالى لا يمنع مانع ولا يعجزه شيء من أن يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء ، ونسخ الأحكام داخل تحت قدرته جل في علاه ؛ فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار . فله ملك السماوات والأرض ، وهو المالك الملك الحاكم المتصرف ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، وهذا استفهام أيضا للتقرير . فمن غيره يحكم ومن غيره يتصرف ؟ ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ؛ الولي هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ؛ والولاية الحقيقية لله : ﴿ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٤) .

فمن اعتمد على عقله اختل ، ومن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس مل ؛ ومن اعتمد على الله فلا اختل ولا قل ولا ضل ولا ذل ولا مل : ﴿ إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥) .

قال رافع بن خزيمة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : اثنتا بكتاب من السماء نقرؤه ، وفجر الأنهار تنبعك . فنزل قوله تعالى : ﴿ أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . ﴿ أَمْ يَعْزُبُ عَنْكُمْ الْإِيمَانُ أَنْ تَقُولُوا سَاءَ مَا نَحْنُ بِفَاعِلِينَ ﴾ (٦) . إن من فعل هذا فقد تبدل الكفر بالإيمان ، أى باع الإيمان واشترى الكفر . ومن كان ذلك شأنه فقد ضل وحاد وجار عن سواء السبيل ، أى عن السبيل المعتدل والصراط المستقيم . وسواء الشيء وسطه ، وسواء السبيل أعظمه اعتدالا .

(٤) سورة النور آية : ٤٠ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١٦٠ .

(٦) سورة البقرة آية : ٥٥ .

(١) سورة يوسف آية : ٤٠ .

(٢) سورة الزمراية : ٣٧ .

(٣) سورة الحج آية : ١٨ .

## حسد أهل الكتاب

وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

المفردات : الحسد : تمنى زوال نعمة الغير . ﴿ فاعفوا ﴾ العفو ترك العقاب على الذنب . ﴿ واصفحوا ﴾ الإعراض عن الذنب وترك العقاب وترك اللوم .

الحرب بين الكفر والإسلام حرب عقيدة ، والصراع بين الحق والباطل سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثاني إسرافيل نافع الصور . ولا تزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين بالحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله . ولا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختبئ اليهود وراء الحجر فينادى الحجر قائلاً : يا مسلم إن ورائي يهودياً فاقتله . وقد أخبرنا القرآن الكريم باستمرارية تلك الحرب ، قال تعالى : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً ﴾ (٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ (٣) .

ولست الحرب مقصورة على امتشاق الحسام أو ضرب السيوف أو رمي الرماح ، إنما هناك حرب كامنة في النفوس تتحرك عقاربها وتهيج ثعابينها ؛ فهاهم أولاء أهل الكتاب يودون من صميم قلوبهم لو يردون المؤمنين كفاراً بالله ورسوله . والدافع من وراء هذا ما في قلوبهم من حسد ، والحسد هو تمنى زوال نعمة الله ، وهو داء عضال ومرض وخبال ؛ ذلك ناشئ من عند أنفسهم . بماذا نصح الله الأمة الإسلامية المؤمنة ؟ أمرهم بالعفو ، وأمرهم بالصفح ، كما أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ والعفو هو ترك العقوبة على الذنب ، كما أن الصفح هو ترك العقوبة والملام إلى أن يأتي الله بأمره ويأذن لهم بالقتال . ولقد جاء الإذن بالقتال بعدما لم يبق في قوس الصبر منزع وغلى الرجل ثم انفجر . قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ \* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير \* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿ (٤) .

(٣) سورة البروج آية : ٨ .

(٤) سورة الحج الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

(١) سورة البقرة آية : ٢١٧ .

(٢) سورة الكهف آية : ٢٠ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . وهل يأتي النصر إلا من القدير سبحانه ؟ هذا تثبيت لقلوب المؤمنين وبعث للطمأنينة في نفوسهم ، وإلى أن يأتي الله بأمره فليكن هناك عفو وصفح ، ولتكن هناك مداومة على أداء الصلوات لتطهير القلوب ، وليكن هناك طهارة للمال بدفع الزكاة ، وليكن هناك وعد صدق من الله وحده بأن ما يقدمه العبد من الخير فسيجده عند الله خيراً وأعظم أجراً ؛ فالبر لا يبلى والذنوب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ؛ فإن الذي وعد بهذا هو البصير بالأعمال ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ؛ فجدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كثود .

### موقف كل من اليهود والنصارى بالنسبة للآخر

وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ هودا ﴾ جمع هائد وهم اليهود . ﴿ النصارى ﴾ قوم انحرفوا عن شريعة عيسى بن مريم ، فاعتقدوا بصلبه ، وثلثوا التوحيد ، وزعموا بنوته لله . ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ جعل وجهه خالصاً لله وانقاد له .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (١) ، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال : ﴿ تلك أمانيتهم ﴾ . وقال أبو العالية : أمانى تمنوها على الله بغير حق . وكذا قال قتادة والربيع بن أنس . ثم قال تعالى : ﴿ قل ﴾ أى يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ . قال أبو العالية : حججتكم . وقال قتادة : بينتكم على ذلك ، ﴿ إن كنتم

(١) سورة المائدة آية : ١٨ .

صادقين ﴿ ، أى فيما تدعونه . ثم قال تعالى : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ ، أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾<sup>(١)</sup> الآية . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ بلى من أسلم وجهه الله ﴾ من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : ﴿ بلى من أسلم ﴾ أخلص ﴿ وجهه ﴾ أى دينه ﴿ وهو محسن ﴾ أى اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشرعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : ( من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد )<sup>(٢)</sup> رواه مسلم . فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات وءامنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ عاملة ناصبة ﴾ تصلى ناراً حامية ﴾ تسقى من عين أنية ﴾<sup>(٦)</sup> .

وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان . وأما إن كان العمل موافقاً للشرعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾<sup>(٧)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين ﴾ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ الذين هم يراءون ﴾ ويمنعون الماعون ﴾<sup>(٨)</sup> . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾<sup>(٩)</sup> . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ وقوله : ﴿ فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحظورات فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما مضى مما يتركونه . كما قال سعيد بن جبير : ﴿ لا خوف عليهم ﴾ يعنى فى الآخرة ، ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ يعنى لا يحزنون للموت ، أى لا يحزنون على ما فاتوه فى الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ . بين الله تعالى فى هذه الآية ما بين اليهود والنصارى من التباغض والتناقض والعداوة

(٦) سورة الغاشية الآيات : ٢ - ٥ .

(٧) سورة النساء آية : ١٤٢ .

(٨) سورة الماعون الآيات : ٤ - ٧ .

(٩) سورة الكهف آية : ١١٠ .

(١) سورة آل عمران آية : ٢٠ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦٢٥ ط دار الفكر .

(٣) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

(٤) سورة محمد الآيات : ١ - ٣ .

(٥) سورة النور آية : ٣٩ .



والعناد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أخبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولها : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب ﴾ . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وهم يتلون الكتاب ﴾ أن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يد صاحبه .

أما قوله تعالى : ﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾ ، أى العرب الذين عارضوا دعوة الإسلام وناصبوها العدا ، وقالوا عن الهادى البشير ﷺ ليس محمد على شيء .

وقد حسم الله تلك القضايا حسماً مبرماً لا نقض فيه حين قال : ﴿ فإله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ ، أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم الميعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجوز فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وذلك كقوله تعالى في سورة الحج : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ (١) ، وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ (٢) .

### تخريب المساجد

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَافِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا۟ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾

المساجد بيوت الله . قال تعالى : ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار \* ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴿ (٣) ، وهى منازل السكينة ومهابط الرحمة . عن سلمان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ( من توضأ في بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر لله (٤) وحق على الموزر أن يكرم الزائر (٥) . وقد أوصى الإسلام أن تكون المساجد بسيطة لا زخرفة ولا تصفير ولا تحمير . قال عمر : لا تصفر ولا تحمر ،

(١) سورة الحج آية : ١٧ .

(٢) سورة سبأ آية : ٢٠ .

(٣) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨ .

(٤) زائر الله : أى ضيف الله .

(٥) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٤٦ ط وزارة الأوقاف .

وكنّ الناس من المطر . وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد )<sup>(١)</sup> . وقد كان مسجد الهادى البشير عليه صلوات ربي وتسليماته غاية في البساطة ؛ كان سقفه الجريد وأرضه الحصباء ؛ إمامه محمد ومؤذنه بلال وخادمته أم محجن ، وخرج عمالقة الرجال الذين لن يجود الزمان بأمثالهم إلا أن يشاء الله : تخرج فيه المصلح العظيم كأبي بكر ، والزعيم الملهم كعمر ، والحمى الكريم كعثمان ، والعبرى الفذ كعلي ، والزاهد الأمين كأبي ذر ، والعالم النحرير كابن عمر ، والمفتي الخبير كابن عباس ، والقائد الجبار كخالد ، والمحدث الحجة كأبي هريرة ، والفيلسوف البار كسلمان . فاسألوا التاريخ في أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ إنهم لم يتخرجوا في جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا في جامعة لا شرقية ولا غربية ؛ إنها إسلامية قرآنية ، فيها العميد المصطفى لا يلحق . ولقد كانوا يفخرون عندما يتخرجون من المساجد وقد علمهم الله العلم النافع ؛ فكانوا يقولون إن فلاناً مسجدي ، كما نقول نحن إن فلاناً جامعي . واسمع معي إلى تلك الشهادة الربانية لعمار المساجد ، قال جلّ شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾<sup>(٢)</sup> ، قال ﷺ : ( إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان )<sup>(٣)</sup> . ولقد نفى الله ذلك الشرف الرفيع عن المشركين فقال في محكم كتابه : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ﴾<sup>(٤)</sup> ، هؤلاء هم الذين يخربون بيوت الله ويسعون في خرابها ، ما حالهم عند الله ؟ اسمع معي إلى هذا النص الكريم : ﴿ ومن أظلم ؟ الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفي ، فيكون المعنى : لا أحد في الدنيا أظلم ممن منع مساجد الله ، لأنه يخرب بيوت أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأسرع الحاسيين ؛ وخرابها يكون بمنع الذكر فيها ، أى بمنع ذكر الله من صلاة وخطبة ودروس علم . فإذا كان الله قد أوعد الذين يسعون في خرابها ، فيما بالك في الذين خربوها ؟ هؤلاء حكم الله عليهم بأحكام جاءت جزاءً وفاقاً ، لأنهم كانوا لا يرجون حساباً ؛ حكم عليهم بالخوف إذا دخلوا المساجد ، خوف رعب وفزع ، لأن ملائكة الله غاضبة عليهم لغضب الله عليهم ، كما حكم عليهم بالخزي في الدنيا ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾<sup>(٥)</sup> ، لأنهم خوفوا الناس وأرهبوه ومنعوه من بيوت الله . وقد وردت في المساجد أحاديث شريفة نطق بها الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه نورد بعضها فيما يلي :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة )<sup>(٦)</sup> . وعن أبي ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( من بنى لله مسجداً قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة )<sup>(٧)</sup> .

- (١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٤٣ ط دار الفكر .  
 (٢) سورة التوبة آية : ١٨ .  
 (٣) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٤٨ ط وزارة الأوقاف .  
 (٤) سورة التوبة آية : ١٧ .  
 (٥) سورة البقرة آية : ١٦٧ .  
 (٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .  
 (٧) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .  
 المفحص العش الصغير والقطاة نوع من العصافير .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( من بنى بيتاً يعبد الله فيه من مال حلال بنى الله له بيتاً فى الجنة من در وياقوت ) (١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته ) (٢) .

وروى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة كانت تلتقط القذى من المسجد فتوفيت فلم يؤذن النبى ﷺ بدفنها فقال النبى ﷺ : ( إذا مات لكم ميت فأذنونى وصلى عليها وقال إني رأيته فى الجنة تلتقط القذى من المسجد ) (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ، جاء فى سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس ، فظل هكذا ستة عشر شهراً ، ولكنه كان يحب قبلة إبراهيم البيت الحرام ، واشتد به الحنين ، فكان يدعو الله تعالى أن يأذن له بذلك ، فأنزل الله عليه : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (٤) ، فاعتناظت اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وقد وصفهم الله تعالى بالسفهاء لما قالوا ذلك فقال ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ (٥) ، ورد الله تعالى عليهم قولهم فقال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) ، وجاء فى سبب نزولها أيضاً عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة ، فقلنا يارسول الله : لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة . فأنزل الله تعالى ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ . فما من شك فى أن الله تعالى رب المشارق والمغارب ، ورب المشرقين ورب المغربين ، ورب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذهُ وكيلاً . وهو سبحانه مع الجميع بعلمه وقدرته ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾ (٧) . وهو سبحانه وتعالى واسع ؛ وسع كل شىء رحمة وعلماً ، عليم علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ، أى فهناك وجه الله متزهاً عن التحيز ، متزهاً عن المحسوسات ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

(٥) سورة البقرة آية : ١٤٢ .

(٦) سورة البقرة آية ١٤٢ .

(٧) سورة المجادلة آية : ٧ .

(١) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٤ .

## مفتريات أهل الكتاب والمشركون

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

المفردات : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيهاً له عما يصفون . ﴿ بَدِيع ﴾ : مبدع . ﴿ قَانِتُونَ ﴾ : منقادون . قال البخارى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال قال الله تعالى : ( كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقله إن لى ولداً فسبحانى أن ألتخذ صاحبة أو ولداً ) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيه )<sup>(١)</sup> .

لقد افترى أهل الكتاب وبعض مشركى العرب ، افتروا على الله فرية ما فيها مزية عندما نسبوا لله الولد ، وهو سبحانه تنزه عن الشريك ذاته وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ؛ أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ؛ واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا جسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزئ ولا متناه ولا متلون ولا متكيف ، وكل ما خطر ببالك فإن الله تعالى بخلاف ذلك . والقول السديد الذى يخاطب الله به العقل الرشيد هو قوله جل شأنه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقوله جل جلاله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾<sup>(٣)</sup> . ولقد صحح القرآن الكريم مفاهيم قوم جاءوا يسألون الهادى البشير صلوات ربى وسلامه عليه ويقولون : خبرنا يا محمد عن ربك ، أمن ذهب هو أم من فضة ؟ فأنزل الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء بتلك السورة التى تفيض إخلاصاً وتوحيداً ، وتشع بهاءً وضياءً ، وتملأ الكون جلالاً وتسيحاً وكمالاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً وتمجيداً وجمالاً : ﴿ قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ؛ فمن قرأها مرة أعطاه الله ثواب من قرأ ثلث القرآن ، ذلك لما احتوت عليه من أشرف القضايا ، وهى قضية التوحيد . لقد رد الله على هؤلاء المفترين رداً حاسماً جازماً يدعو العقول إلى أن تتفهم ما تنطق به

(٣) سورة طه آية : ١١٠ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٣١ ط الشعب .

(٢) سورة الشورى آية : ١١ .

الألسنة . قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿ (١) .

أندرون عمن تتكلمون ؟ وإلى من تنسبون الولد ؟ أشابه المخلوقات فى شيء ؟ سبحانه . هو الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، لقد ضجت السموات العلاء والأرض من هذا القول الكاذب الشنيع ، قال سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ لقد جئتم شيئاً إداً ﴾ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ لقد أحصاهم وعدهم عدداً ﴾ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿ (٢) .

وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ إن النصارى الذين ادعوا هذا القول الباطل رد عليهم مولانا جل ذكره بقوله : ﴿ بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ أى طائعون عابدون مخلصون مسبحون الليل والنهار لا يفترون . إن الإنسان قد يحتاج إلى الولد ليقوم بالإفناق عليه إذا كبرت سنه أو ضعفت قواه ؛ والله له ما فى السموات والأرض ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ (٣) .

وفى الآية الأخرى قال سبحانه : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ (٤) ، وسمى هذا افتراء فقال : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ (٥) ، ثم حدد مصيرهم وجزاءهم فقال : ﴿ متاع فى الدنيا ثم إنا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ (٦) . فما الداعى إلى اتخاذه ولداً وهو الغنى الواحد فى ذاته ، لا قِيم له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له ؟ وكيف يتخذ ولداً وقد سمي الولد لهواً فى قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما للعبث ﴾ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذته من لدنا إن كنا فاعلين ﴿ (٧) . فالغنى لا حاجة به إلى الولد ، فما بالك إذا كان المنسوب إليه الولد هو مالك السماوات والأرض رب العرش العظيم ؟ إن الإنسان قد يتخذ الولد ليخلد ذكره بعد موته ، والله حى لا يموت . قال سبحانه : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ (٨) . فما هى الحاجة إلى أن يتخذ الرحمن ولداً ؟ أمن أجل أن يسأله ويقويه ويعتز به : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ (٩) . لقد حل الله تلك القضية حلاً موجزياً عندما قال لعبده المسيح وأمه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان

(٦) سورة يونس آية : ٧٠ .

(٧) سورة الأنبياء الآيات : ١٦ ، ١٧ .

(٨) سورة الفرقان آية : ٥٨ .

(٩) سورة فاطر آية : ١٠ .

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥ .

(٣) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٤) سورة يونس آية : ٦٨ .

(٥) سورة يونس آية : ٦٩ .

الطعام ﴿١﴾ ؛ هذه الكلمة ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ مفتاح القضية كلها : فالذى يأكل الطعام يجوع ويظمأ ، والطعام هو الذى يكون الخلية ، والخلية هى التى تكون الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة ، والذى شأنه كذلك ينام ، ومن جاز عليه النوم جاز عليه المرض ، ومن أكل وشرب لا بد له أن يتخلص من الفضلات بالذهاب إلى الخلاء . فأى إله هذا الذى تكون تلك شؤونه ؟ سبحانه هذا بهتان عظيم . ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ قبيلاً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ مكثين فيه أبداً ﴾ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ (٢) . إن هذا الذى ينسبون إليه الولد ، من صفاته وأفعاله أنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

قال سبحانه : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ ، أى خالقهما ومنشئهما على غير نسق سابق ، لأنه أوجدهما من العدم ، وإذا قضى أمراً : أى أراحه ، لا يحتاج إلى معين أو مساعد أو مخطط أو مهندس إنشاء أو بناء أو مخترع أو عالم فى أصول الصناعات ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٣) . ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٤) . وهؤلاء الذين يعجبون لخلق عيسى لغير أب أليس عيسى أهون من خلق آدم الذى لا أم له ولا أب ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وهذا موقف آخر من مواقف العناد والإصرار على اللجاج . قال ابن عباس قال رافع بن حرملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله فى ذلك قوله : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ قال النصارى تقوله وهو اختيار ابن جرير قال : لأن السياق ورد فيه ، وقال الإمام القرطبي : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد ، وهذا ظاهر السياق . وقال آخرون : هذا قول كفار العرب . أما قوله تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ ، فالمقصود بهم أهل الكتابين من اليهود والنصارى . أما قوله تعالى : ﴿ أو تأتينا آية ﴾ ، فقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات حسية ، من ذلك قولهم ، كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلقتها فجيراً ﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٦) . وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا

(٤) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .

(٦) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

(١) سورة المائدة آية : ٧٥ .

(٢) سورة الكهف الآيات : ١ - ٥ .

(٣) سورة النحل آية : ٤٠ .

أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴿١﴾ ، وكما في قوله جل شأنه : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ ﴿٢﴾ . قوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ يبينه قوله جل شأنه : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ ﴿٣﴾ ، وقوله تبارك اسمه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ﴿٤﴾ ، فكان قلوبهم كانت على قلب رجل واحد منهم ، فالأمراض واحدة ، والجدال هو الجدال ، واللجاج هو اللجاج ، وذلك كله نابع عن قلوب عشش فيها الشيطان ، وفرخ فيها الإلحاد ، وباض فيها الزندقة .

وماذا يحدث لو جاءتهم هذه الآيات ؟ هل كانوا سيؤمنون أو يغيرون مواقف العناد في نفوسهم ؟ إن ظاهر الآيات القرآنية يدل أن علام الغيوب مطلع على ما في قلوبهم من العناد والإصرار والاستكبار ، قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ ﴿٦﴾ ، وقال جل ذكره : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ ﴿٧﴾ . ومن قبل هؤلاء المشركين قال الناس لموسى : ﴿ مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ ﴿٨﴾ . فكان عنصر الزمن ملغى بين هؤلاء وأولئك ، وكأنهم تخرجوا في مدرسة واحدة ودرسوا على أستاذ واحد هو الشيطان . أعاذنا الله منه . فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

قوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . المراد بالآيات : الحجج القاطعة والبراهين الساطعة والأدلة الصادقة على صدق المرسلين وثبوت النبوة لهم . قد بيناها ووضحناها بما لا يدع مجالاً للشك ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ ﴿٩﴾ ، ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ ﴿١٠﴾ .

وهذه الآيات إنما ينتفع بها أهل اليقين الذين يريدون الوصول للحق ولا يحرون وراء الهوى ولا يتبعون شهوات النفس . وطريق الحق لا يختلف ، فالحق أبلج والباطل لجلج ، وقد انكشف الغطاء وبرج الخفاء ، فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح ، فطوبى لقوم سمعوا النداء فقالوا : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاعف لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾ ربنا وآتانا وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ ﴿١١﴾ . وهنئنا لقوم من الجن استمعوا إلى القرآن

(٧) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٨) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .

(٩) سورة الكهف آية : ٢٩ .

(١٠) سورة لقمان آية : ٣٢ .

(١١) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .

(١) سورة الفرقان آية : ٢١ .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٤ .

(٣) سورة الذاريات آية : ٥٣ .

(٤) سورة فصلت آية : ٤٣ .

(٥) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .

(٦) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قرآنًا عجباً \* يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ (١) . هنيئاً لهم وقد أثنى عليهم رب العزة في قوله : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ \* قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ \* يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِمَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

### مع خاتم الأنبياء

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

هذا خطاب رباني لصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى إرسالاً متلبساً بالحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأنت مبعوث العناية الإلهية ، فأكرم به من نبي ، أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وأقلام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيدى يارسول الله معذرة	إذا كبا فيك تبيان وتعبيرى
مإذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالبدر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجاً	وفى يديك لواء العدل والنور

قال ابن عباس : ما خلق الله ولا برأ ولا ذراً أفضل من محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (٣) .

والله ما خلق الإله ولا برا	بشراً يرى كمحمد بين الورى
ياسيد العقلاء ياخير الورى	يامن أتيت إلى الحياة مبشراً
وبعثت بالقرآن فينا هادياً	وطلعت فى الأكوان بدرأ نيراً

قال ابن مسعود :- اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختره لنبوته ؛ ثم اطلع على قلوب العباد بعده فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاخترهم لصحبته .

وما خاطب الله نبياً فى القرآن إلا باسمه ، ولكنه خاطب محمداً ﷺ بعنوان النبوة والرسالة ، قال تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (٤) ، ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ (٥) ،

(٤) سورة الأعراف آية : ١٩ .

(٥) سورة هود آية : ٤٨ .

(١) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .

(٣) سورة الحجر آية : ١٢ .



﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ يا موسى إني أنا ربك ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ يا عيسى إني متوفيك ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾<sup>(٦)</sup> .

فإذا ما خاطب سيد المرسلين خاطبه قائلاً : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾<sup>(٧)</sup> ، ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾<sup>(٨)</sup> . هذا تكريم له ، حتى إذا خاطب نساءه قال : يا نساء النبي ، وحتى في مقام الملاطفة والعتاب يقول له : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

أرسلناك بشيراً بالجنة ونذيراً بالنار ، وأنت القاتل : ( كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبي )<sup>(٩)</sup> . لقد ورد ذكرك في التوراة مشتملاً على بعض ما ورد في القرآن .

قال عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، فقال : ( أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأمينين ؛ وأنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ؛ لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ) . رواه أحمد<sup>(١٠)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولا يسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ، أى لست مسئولاً عما اقترفوا من الجرائم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب<sup>(١١)</sup> ، ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾<sup>(١٢)</sup> ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾<sup>(١٣)</sup> ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾<sup>(١٤)</sup> . إنما أنت المبلغ لأحكام الله . ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾<sup>(١٥)</sup> ، ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾<sup>(١٦)</sup> ، ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾<sup>(١٧)</sup> ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾<sup>(١٨)</sup> ، ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبذرون وما تكتمون ﴾<sup>(١٩)</sup> ، ﴿ إنما أنت منذر لكل قوم هاد ﴾<sup>(٢٠)</sup> ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٢١)</sup> ، ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾<sup>(٢٢)</sup> ، ﴿ وقل

(١٢) سورة الغاشية آية : ٢٢ .

(١٣) سورة الأنعام آية : ١٠٧ .

(١٤) سورة ق آية : ٤٥ .

(١٥) سورة القصص آية : ٥٦ .

(١٦) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .

(١٧) سورة النحل آية : ٣٧ .

(١٨) سورة فاطر آية : ٨ .

(١٩) سورة المائدة آية : ٩٩ .

(٢٠) سورة الرعد آية : ٧ .

(٢١) سورة سبأ آية : ٢٨ .

(٢٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

(١) سورة الصافات الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) سورة طه الآيتان : ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة آل عمران آية : ٥٥ .

(٤) سورة ص آية : ٢٦ .

(٥) سورة مريم آية : ٧ .

(٦) سورة مريم آية : ١٢ .

(٧) سورة المائدة آية : ٦٧ .

(٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥ .

(٩) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

(١٠) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٢٩ ط الشعب .

(١١) سورة الرعد آية : ٤١ .

للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون \* وانتظروا إنا منتظرون \* والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿١﴾ ، ﴿٢﴾ قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم \* فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿٥﴾ ، ﴿٦﴾ فإن تولوا فقل ءاذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون \* إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴿٧﴾ ، ﴿٨﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿٩﴾ .

هذا دليل قاطع على أنه هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وعوت الظلمة ، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين ؛ فجزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، ورسولاً عن قومه . أأست أنت الذي قلت : ( لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أخبىء دعوى شفاعة لأمتي في الآخرة ؟ ) . فيا صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والموقف المشهود ، نسأل الله ألا يجرمنا أجرك ، ولا يفتنا بعدك حتى نشرب من يدك الشريفة شربة ماء لا نظماً بعدها أبداً . ﴿١٠﴾ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴿١١﴾ .

### تنبيه وتحذير

وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۚ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾

وبعدما خاطب الله تعالى رسوله بالبشارة والندارة بين له سبحانه أن الصراع بين الحق والباطل دائم دائم مستمر ، وأن الكفر كله ملة واحدة ؛ فاليهود والنصارى لن يرضوا عنك مهما بذلت معهم من الأدلة والبراهين ﴿١٤﴾ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴿١٥﴾ . وإذا كان الأمر كذلك فاحذرهم ، لأنهم لن يرضوا عنك إلا إذا اتبع قبيلتهم . والمقصود بهذا الخطاب وفي هذه العبارة بالذات أمته ، فهو ﷺ قد ثبته الله على الحق وأيده به وقال له في محكم كتابه : ﴿١٦﴾ قل يا أيها الكافرون \* لا أعبد ما تعبدون \* ولا أنتم عابدون ما أعبد \* ولا أنا عابد ما عبدتم \* ولا أنتم

(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ .

(١) سورة هود الآيات : ١٢١ - ١٢٣ .

(٥) سورة النساء آية : ٦٩ .

(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٦) سورة البقرة آية : ١٤٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .

عابدون ما أعبد \* لكم دينكم ولي دين ﴿١﴾ ، وقال له : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ ﴿٢﴾ . ثم بين الله تعالى عاقبة اتباع ملتهم بعدما لقنه الحجة البالغة في قوله : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ ، وهذه عبارة حصر وقصر تفيد أن غير هذا ليس بهدى ؛ وفي آية أخرى : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ ﴿٣﴾ ، وفي آية : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ ﴿٤﴾ ، وفي آية : ﴿ من يضل الله فلا هادي له ﴾ ﴿٥﴾ ، وفي آية : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ﴿٦﴾ ؛ ثم قال سبحانه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ . فالولي هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ولولم يكن قريباً ، فمن خالف الله وعصى أوامره وأشرك به ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾ ﴿٧﴾ ، ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ ﴿٨﴾ ، ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ﴿٩﴾ .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على عقله زل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على ذكائه اختل ؛ ومن اعتمد على الله فلا مل ولا ضل ولا زل ولا ذل ولا مل ولا اختل .

قال رسول الله ﷺ : ( لا تزل طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ) ﴿١٠﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله ..

صلت عليك ملائكة الرحمن  
لما طلعت على الوجود مزوداً  
وسرى الضياء بسائر الأكوان  
بحمى الإله وراية القرآن

قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا يتلون الكتاب حق تلاوته ﴾ ؛ المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم ، والمراد بحق التلاوة أى الإحسان فى قراءته بأحكامه ، سواء كان الذين أوتوا الكتاب من أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة سيدنا محمد ﷺ أم من أمة سيدنا محمد ﷺ الذين قال الله فيهم : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾ \* ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿١١﴾ ، والذين قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ ﴿١٢﴾ . وقد يكون المراد بالذين أوتوا الكتاب هم أهل الكتاب الذين أسلموا ويتلون ، أى يتلون

- |                                    |  |
|------------------------------------|--|
| (١) سورة الكافرون الآيات : ١ - ٦ . | (٧) سورة الشورى آية : ٤٧ .                   |
| (٢) سورة الزمر آية : ٦٤ .          | (٨) سورة الحج آية : ٣١ .                     |
| (٣) سورة البقرة آية : ١٢٠ .        | (٩) سورة آل عمران آية : ١٦٠ .                |
| (٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .        | (١٠) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٧٣٤ ط الشعب |
| (٥) سورة الأعراف آية : ١٨٦ .       | (١١) سورة فاطر آية : ٣٠ .                    |
| (٦) سورة النور آية : ٤٠ .          | (١٢) سورة فاطر آية : ٣٢ .                    |

القرآن ، قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ \* وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ \* قل آمنوا به أولاً تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ \* ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴿ (١) ، والذين قال الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ﴾ \* وإذا يتلى عليهم قالوا ءأمانا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ \* أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴿ (٢) . وحق التلاوة يشمل إتقان قراءته مرتلاً بتؤدة ، كما يشمل التأثير بتلاوته : ( اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، واقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاب . وسيأتى بعدى قوم يرجعون في القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يتجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ) . والمراد بحق تلاوته أن يقف الإنسان عند وعده ووعيده ؛ ورحم الله أصحاب محمد ﷺ ، نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وحق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وحق تلاوته أن يكون خلقه القرآن ؛ فإذا كان الكون قرآناً صامتاً فإن القرآن كون ناطق ، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان نبي الله ﷺ قرآناً يعيش بين الناس . ويرحم الله مجتهداً تأثر بالقرآن كانت الزوجة إذا خرج زوجها أول النهار قالت له : اتق الله ولا تأكل حراماً ، إننا نصبر على الجوع في الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد آخر يومه سألته : ماذا نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله ؟ فإذا ما صلى العشاء وجاء إلى بيته وأخذ مضجعه لينام تزينت له بالوضوء وسألته : هل لك من حاجة إلى ، فإذا كانت له حاجة قضائها وإلا استأذنته أن تقوم لله فتؤدي ركعاتها في جوف الليل . هذا مجتمع القرآن في حومات الوعى وساحات القتال . كتب سعد بن أبي وقاص بعد نصر الله له في موقعة القادسية كتب يقول لعمر : إن المسلمين إذا جن عليهم الليل سمعت لهم دويماً بالقرآن كدوى النحل ، فهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار .

قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، أى من يكذب بهذا القرآن ولا ينفذ أحكامه ولا يقيم حدوده ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ \* تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ \* ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴿ (٣) .

(١) سورة الإسراء الآيات : ١٠٥ - ١٠٩ .

(٢) سورة القصص الآيات : ٥٢ - ٥٤ .

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٣ - ١٠٥ .

## خطاب إلى بني إسرائيل

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وهذا هو الخطاب الثالث الذي خاطب الله به بني إسرائيل بهذا العنوان في هذه السورة . قال تعالى :

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ (١) . وفي الخطاب الثاني قال : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ﴾ واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ (٢) . وهذا هو الخطاب الثالث ، والله تعالى يمين عليهم ويتكرم ويذكرهم بنعمه ؛ فقد أرسل إليهم رسلاً ، وجعل منهم ملوكاً ، وأرسل لهم من الخيرات ما تعجز الأفئدة عن أداء شكره . وقد سبق تعداد تلك النعم : نجاهم من آل فرعون ، وفرق بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر من الحجر عيوناً ، ورزقهم من الطيبات ؛ ومن ثم فقد حذرهم من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . وفي الآيات السابقة قال لهم : إن هذا اليوم لا يقبل فيه عدل ، وفي هذه الآية قال لهم إن هذا اليوم لا تنفع فيه شفاعاة ، وتلك قضية منطقية ؛ فحيث إن الشفاعاة لم تقبل هناك فإنها لا تنفع هنا . وفي الآية السابقة على هذه الآيات قال : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ (٣) ، وقال هنا : ﴿ لا يقبل منها عدل ﴾ ، وحيث لا يؤخذ فإنه لا يقبل ؛ فالمعاني يكمل بعضها بعضاً ، فحيث لا قبول للشفاعة فلا نفع لها ، وحيث لا أخذ للقدية فإنه لا قبول لها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٤) . هذا وقد سبق تفسير هاتين الآيتين فليرجع إليه من شاء .

## ابتلاء الله إبراهيم

\* وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ إذ ﴾ هنا ظرف في محل النصب على المفعولية على تقدير : اذكر يا محمد للكفار ولأهل الكتاب منهم ما حدث للخليل إبراهيم عندما طلب الله منه وابتلاه بكلمات . وخص إبراهيم بالذكر لأنه أبو الأنبياء ، فهو أبو إسماعيل الذي كان من ذريته سيد الأنبياء والمرسلين ، وأبو إسحق الذي كان من ذريته أنبياء بني

(٣) سورة البقرة آية : ٤٨ .

(٤) سورة لقمان آية : ٣٣ .

(١) سورة البقرة آية : ٤٠ .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ .

إسرائيل ، فالعرب وبنو إسرائيل من ذرية الخليل إبراهيم . ولقد كان إبراهيم حنيفاً مسلماً ﴿١﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴿٢﴾ ، ﴿٣﴾ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين \* إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴿٤﴾ ، ﴿٥﴾ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين \* شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم \* وأتينا في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين \* ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿٦﴾ ، ﴿٧﴾ قل إنني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿٨﴾ .

وإبراهيم هو الذي ضرب جبهات الشرك بيد من حديد ؛ مرة في جبهة الأصنام والتماثيل : ﴿٩﴾ واتل عليهم نبأ إبراهيم \* إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون \* قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين \* قال هل يسمعونكم إذ تدعون \* أو ينفعونكم أو يضرون \* قالوا بلى وجدنا آباءنا كذلك يفعلون \* قال أفأرأيتم ما كنتم تعبدون \* أنتم وعآباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدوا لي إلا رب العالمين \* الذي خلقني فهو يهدين \* والذي هو يطعمني ويسقين \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذي يميتني ثم يحيين \* والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴿١٠﴾ ثم أقسم بالله قاتلاً : ﴿١١﴾ وتالله لأكيذن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين \* فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴿١٢﴾ .

وضرب جبهة الشرك في قلعة الكفر بعدما أرحى العنان للخصم : ﴿١٣﴾ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين \* فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدين ربي لأكونن من القوم الضالين \* فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برئ مما تشركون \* إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴿١٤﴾ .

هذه صورة قرآنية معبرة أتم تعبير عن موقع هذا النبي ومكانته ؛ فهو إمام الموحدين الذي رفع راية التوحيد خفاقة عالية تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس في الجلاء على ربوع قلعة الأصنام وعاصمة الشرك . ومعنى الابتلاء : الاختبار ليعلم الناس مكانة هذا المبتلى بتلك الأحكام وكيف قام بها خير قيام وأداها على أتم وجه وأحسن صورة . وكلمات الله قد يراد بها الكلمات القدرية كما في قوله جل شأنه : ﴿١٥﴾ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴿١٦﴾ ، وقد يراد بالكلمات الكلمات التشريعية من الأوامر والنواهي ، كما في قوله جل شأنه : ﴿١٧﴾ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴿١٨﴾ . والكلمات التي بين أيدينا في آية الابتلاء كلمات تشريعية ، اختبر الله بها خليله فأداها على خير وجه وأكملة . فما هي تلك الكلمات ؟

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٩ .

(٣) سورة التحريم آية : ١٢ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١١٥ .

(١) سورة البقرة آية : ١٣١ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .

(٣) سورة النحل الآيات : ١٢٠ - ١٢٣ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٦١ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٨٢ .

قال ابن عباس : المقصود بها المناسك والطهارة : خمس في الرأس ، وخمس في الجسد ؛ في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ؛ وفي الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونف الإبط ، والاستنجاء . وجاء في صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة ) . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء<sup>(١)</sup> .

وقال ابن عباس : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم . قال الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ ، قلت لهم : وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، منها عشر في سورة براءة : ﴿ التَّيْبُونَ الْعَبْدُونَ الْحِمْدُونَ السُّبْحُونَ الرَّاكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> . وعشر في أول سورة قد أفلح المؤمنون قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . وعشر في سورة الأحزاب ، قال تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال الحسن : إر الابتلاء كان في الكوكب والقمر والشمس والقذف في نار الدنيا وذبح ولده والهجرة من وطنه فوفى بكل هذا فاستحق ثناء الله عليه في قوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال آخرون : إن الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم جاءت في هذه الآيات ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾<sup>(٥)</sup> . ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾<sup>(٦)</sup> .

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله التى سبق بيانها وأداهن كما أمره الله ، سأل ربه بعدما قال الله له ﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾ ، أى رسولاً يبلغ شرع الله ، أميناً على وحى الله ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وفيأ لدين الله ، أسوة حسنة للناس ، وقدوة طيبة لعباد الله ؛ سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٥٤٣ ط الشعب . (٤) سورة النجم آية : ٣٧ .

(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ . (٥) سورة البقرة آية : ١٢٥ .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ . (٦) سورة البقرة آية : ١٢٨ .

أئمة ، قال له الله : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ ، أى سأجعل الصالحين من ذريتك أئمة ، أما الظالمون فإن عهدي لا ينالهم . وقد أفاض السلف فى تفسير هذا النص الكريم : فمن قائل إن المقصود بالظلم هنا هو الشرك ، والمشرک لا ينال عهد الله ، لأنه ليس له عند الله عهد ولا ذمة ؛ فقد برئت منه ذمة الله . ومن قائل إن المراد بالعهد طاعة الله ، وطاعة الله لا تنال الظالم ، فليس للظالم طاعة . ومن هنا فقد قالوا : إن الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً . وقد أخبر الله عن ذرية إبراهيم وإسحق فقال : ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ (١) ، فالمحسن يناله عهد الله سواء كان ذلك العهد نبوة أو طاعة أو خلافة فى الأرض ، أما الظالم لنفسه فلا مجال له فى تلك المسؤوليات .

### البيت مثابة وأمن

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ البيت ﴾ : غلب استعماله فى بيت الله الحرام بمكة . ﴿ مثابة ﴾ : أى مرجعاً يثوب إليه هؤلاء الزوار وأمثالهم . ﴿ وأمناً ﴾ : أى موضع أمن . و ﴿ مقام إبراهيم ﴾ : هو الحجر الذى كان يقوم عليه حين بناء الكعبة . ﴿ المصلى ﴾ : موضع الصلاة ، أى الدعاء والثناء على الله تعالى . ﴿ وعهدنا ﴾ : إذ أوصاه به . ﴿ الثمرات ﴾ : المأكولات مما يخرج من الأرض والبحر . والاضطرار : الإكراه . يقال اضطررت فلاناً إلى كذا ، أى أجلته إليه وحملته عليه .

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه الهادى البشير : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾ . أى اذكر لقومك ما نالهم من الشرف العظيم والكرم الرفيع بسبب البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل فى مكة ، واستجبنا دعوة إبراهيم فجعلنا البيت مثابة يثوب إليه الناس ويأتون إليه من كل فج عميق ، فإذا ما رجعوا إلى بلادهم أخذهم الحنين والشوق إليه ، فيثوبون إليه مرة ومرة ، وذلك من ثمرات الدعوة المباركة : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا ﴾ (٢) ، فكان الأمر كما دعا الخليل واستجاب الله ، فما من مسلم يذهب إلى البيت ويعود إلى دياره إلا ولواعج الشوق تعتليج فى



قلبه ، فيطير على جناح السرعة معتمراً أو حاجاً أو معتمراً وحاجاً ، ليطفىء غليل الشوق ، كذلك يطفىء الغلة المنهل العذب حتى أصحاب الأعداء يقولون :

يا ذاهبين إلى البيت الحرام لقد سرتن وسرنا نحن اليوم أرواحا  
لقد أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

إن الله تعالى لما أمر خليله ببناء البيت وبنائه ، أمره أن يؤذن في الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوق ؟ قال : يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا الإبلاغ . فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه . فقالت الأرواح في عالم الغيب الأمين : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . فما زالت الأفئدة وستظل تهوى إلى البيت شوقاً وتأتى إليه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . مصداقاً لقوله جل شأنه : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق \* ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ﴿ (١) .

فالمثابة هو البيت الذي يثوب الناس إليه لينالوا ما عند الله من المثوبة والأجر . والنعمة الثانية من أنعم الله على المسلمين في البيت الحرام نعمة الأمن والأمان ، وهي نعمة لا تعدلها نعمة بعد نعمة الإسلام . وقد وصف الله أهل الجنة بقوله : ﴿ إن المتقين في مقام أمين \* في جنات وعيون \* يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ﴾ كذلك وزوجناهم بحور عين \* يدعون فيها بكل فاكهة آمنين \* لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴿ (٢) .

وقد قدم الله نعمة الأمن على نعمة الرزق في قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٣) .

وقد امتن الله تعالى على قريش بأن جعل البيت آمناً فقال : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكنهم حرماً آمناً يجيب إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٥) .

لك الدين يارب الحجيج جمعهم  
أرى الناس أفواجاً ومن كل بقعة  
ليت طهور الساح والشرفات  
إليك انتهوا من غربة وشتات

(٤) سورة القصص آية : ٥٧ .

(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٧ .

(١) سورة الحج الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة الدخان الآيات : ٥١ - ٥٦ .

(٣) سورة النحل آية : ١١٧ .

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت  
أقدم أعذارى وذلى وخشيتى  
وأنت ولى العفو فاعمو بناصع  
لديك ولا الأقدار مختلفات  
وجئت بضغفى شافعاً وشكأت  
من الصفع ماسودت من صفحات

إن هذا البيت آمن ، حتى أن الرجل يرى فيه قاتل أبيه فلا يقتله ، إنه الأمان كله : نباته وطيره ووحشه وبره ، نعمة من الله وفضلاً .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، المقام هو مكان الحجر الذى كان إبراهيم يقوم فيه وهو بينى البيت . وقد قال عمر يارسول الله : ما ضرر لو صلينا فى مقام إبراهيم ؟ قال الهادى البشير : لم أومر بذلك يا عمر : فتزل قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، أى مكاناً للصلاة يصلى فيه المسلم ركعتين بعد الطواف استحباباً .

قال البخارى باب ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ مثابة يثوبون ويرجعون . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فتزلت ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ، وقلت يارسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغنى معاتبه النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو ليدلن الله رسوله خيراً منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : يا عمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات ﴾ (١) . الآية .

قوله تعالى : ﴿ وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾ . والعهد هنا معناه الأمر أو الوحي ، أى وأمرناهما أو أوحينا إليهما أن يبنيا هذا البيت بنية طاهرة خالصة لله ، وأن يقوما بتطهيره من كل أذى ورجس ونجس ، ومن كل ما يعبد من دون الله ، لأنه أشرف بيت . طهراه للطائفين به والعاكفين ، أى المقيمين عنده والمصلين من الراكعين الساجدين وقد وسع ربنا كل شيء رحمة وعلماً ، فإنه ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة : ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

ومن فضله جل شأنه أن أبواب السماء تفتح عند النظر إلى البيت الحرام ، وعند إقامة الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند الالتحام فى القتال ؛ وما أدراك إذا ما فتحت أبواب السماء : تنزل الرحمات ، وتستجاب الدعوات ؛ وهناك يكون القبول كله .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ . جاء فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : ( لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح ) (٢) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ج ٣ ص ٥٠٧ ط الشعب .

(١) سورة التحريم آية : ٥ .

وروى النسائي عن رسول الله ﷺ : ( إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإن حرم المدينة ما بين لابتها ، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاها )<sup>(١)</sup> . وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ( إن إبراهيم حرم مكة وإن حرمت المدينة ما بين لابتها )<sup>(٢)</sup> لا يقطع عضاها<sup>(٣)</sup> ولا يصاد صيدها<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : ( اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مجدنا ، وبارك لنا في مدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإن عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإن أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه ) . ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر<sup>(٥)</sup> .

وإنما قال في هذه الآية : ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ ، وقال في سورة إبراهيم : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾<sup>(٦)</sup> بالتعريف ، لأنه يحتمل والله أعلم أن الدعوة الأولى كانت قبل بناء البيت ، ثم دعا الدعوة الأخرى بالتعريف بعد بناء البيت وبعد ما رزق بإسحق الذي كان يكبره إسماعيل بثلاثة عشر عاماً ، ومن ثم قال : ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى سميع الدعاء ﴾<sup>(٧)</sup> .

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ . من حب إبراهيم للمؤمنين وحرصه عليهم أنه سأل الله أن يجعل رزقه مقصوراً على المؤمنين فحسب ، ولكن رب العزة قال له : ومن كفر ، فليس الرزق في الدنيا مقصوراً على المؤمنين ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن يحب . قال جل شأنه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً \* كلاً عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً<sup>(٨)</sup> ، وقال جل شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون<sup>(٩)</sup> ، وقال جل جلاله : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبيهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور ﴾ نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ<sup>(١٠)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون<sup>(١١)</sup> ، وقال تبارك اسمه : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٣٣٠ ط دار الفكر .

(٢) اللاتان : الحرتان . واحدها لابة . وهي الأرض المليسة حجارة سوداء . وللمدينة لاتان شرقية وغربية وهي بينهما .

(٣) العضة : كل شجر فيه شوك .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٥١٢ ط الشعب .

(٥) سورة هود الآيات : ١٥ ، ١٦ .

(٦) سورة لقمان الآيات : ٢٣ ، ٢٤ .

(٧) سورة إبراهيم آية : ٣٥ .

(٨) سورة إبراهيم آية : ٣٩ .

(٩) سورة يونس الآيات : ٦٩ ، ٧٠ .

يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارض عليها يظهرن \* وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكثون \* وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿١﴾ .

وفي الصحيحين : ( لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيه ) ﴿٢﴾ . وفي الصحيح أيضاً : ( إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم أضطره إلى عذاب النار ﴾ ، الاضطراب : هو الإلجاء إلى الشيء ، وهو من باب قوله جل شأنه : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ ﴿٤﴾ ، وليس هذا إلا لما اقترفه من الذنوب ، ﴿ وكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ﴿٥﴾ . ﴿ وبش المصير ﴾ . أسلوب ذم ، والمذموم هنا جهنم ، أى بش المثوى جهنم وبش ما يصيرون إليه جهنم ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ ﴿٦﴾ ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ ﴿٧﴾ .

### دعاء إبراهيم

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ القواعد ﴾ : واحداها قاعدة ، وهى ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من المسافات (طاقات البناء) ، ورفعها : إعلاء البناء عليها ، وتقبل الله العمل : قبله ورضى به ، ﴿ مسلمين ﴾ أى منقادين لك ، يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ، الأمة الجماعة ، والمناسك : واحداها منسك (بفتح السين) من النسك ، وهو غاية الخضوع والعبادة ، وشاع استعماله فى عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج وأعماله ؛ تاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه ، لأن اقتراف

(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .

(٦) سورة النساء آية : ٥٦ .

(٧) سورة الأعراف آية : ٤١ .

(١) سورة الزخرف الآيات : ٣٣ - ٣٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٤٨ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ط الشعب .

(٤) سورة الحج آية : ٤٨ .

الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد : رحمه وعطف عليه ، والكتاب : القرآن ، والحكمة : أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة . قال ابن دريد : كل كلمة وعظمتك أو دعتك إلى حكمة أو نهتك عن قبيح فهي حكمة ؛ ويزكيهم : أى يظهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصي ، العزيز : أى القوى الغالب ؛ الحكيم : أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال الإمام ابن كثير : لما قرأ وهيب بن الورد هذه الآيات : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ أخذ يبكى ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك ؟ وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخالص في قوله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿ (١) ، أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة ، أى خائفة ، أن لا يتقبل منهم .

﴿ وحتى يكون بناء البيت واضحاً جلياً وما يتعلق به من زمزم والسعى بين الصفا والمروة ، نسوق هذا الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليقفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هناك ووضع عندها جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركننا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شئ ؟ وقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم ؛ قالت إذا لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾ (٢) حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب من الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذ بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ؛ قال ابن عباس : قال النبى : ( فلذلك سعى الناس بينها ) . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت « صه » - تريد نفسها - ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غوث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس قال الرسول ﷺ ( يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً ) ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . كان البيت مرتفعاً من الأرض

كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة ، فرأوا طائراً عائفاً فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جرياً أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا . قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : قال ( فأكفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم . وشب الغلام وتعلم العربية منهم وألفهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيتهم فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً ، فقال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : جاءنا شيخ كذا كذا ، فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخزى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال : فما شرباكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبي ﷺ : ( ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم لدعى لهم فيه ) . قال : فهما لا يخلو عليهما أحد يفد مكة إلا لم يوافقه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشيء؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك ، وكان إسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالولد ، ثم قال : إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرنى أن أبني ههنا بيتاً ، فأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو بينى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولون : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . قال : فجعلا بينان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ <sup>(١)</sup> . ١ . هـ .

لذلك يستحب لكل من عمل عملاً صالحاً أن يختمه بهذا الدعاء ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ ط ١ الشعب .

العليم ﴿١﴾ . ثم دعا إبراهيم ربه قائلاً ومعه إسماعيل يدعو : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾ ويقصد بالإسلام هنا أدق معانيه ، وهو الإخلاص . فالإخلاص سنام الأمر وذروته ، وهل الإسلام إلا أن يسلم لله وجهه ؟ والإخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عباده . والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة . وقد ذاق حلاوة الإسلام من قال : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ومحمد ﷺ نبياً ورسولاً ولما كان الأنبياء قوماً أصفياء القلوب أنقياء السريرة أنقياء الأفئدة ، فإن الدعوة الإبراهيمية الإسماعيلية امتد أثرها في بطون الأزمان حيث جاءت ﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ . وقد استجاب الله . ثم قالوا : ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أى عرفنا مواضع النسك من الإحرام والطواف والسعى وعرفات ومنى ، فإن المناسك هى مواضع العبادات ، وغلب إطلاقها على أفعال الحج . ثم قالوا : ﴿ وتب علينا ﴾ أى وفقنا للتوبة حتى نتوب فترضى عنا . قال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليه إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ .

فالمراد بالتوبة على النبي رضاه عنه وعن المخلصين معه ﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾ أى كثير التوب ؛ فليس لأحد سواك هذه الصفة ؛ فأنت الرحيم بعبادك ، غافر الذنب وقابل التوب . أليس أنت الذى تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل . ألسنت أنت الذى تنادى في ثلث الليل الأخير : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه .

يا من له علم الغيوب ووصفه      ستر العيوب وكل ذاك سماح  
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى      كرمأ فليس عليه ثم جناح  
منك التفضل والتكرم والرضا      أنت الإله المنعم الفتاح

ثم دعوا الله جل جلاله دعوة نفع الله بها البلاد والعباد : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ فيهم ﴾ ، أى في هذه الأمة . ﴿ منهم ﴾ ، أى عربياً . فكانت هذه الدعوة خير خلق الله ، مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين . فهو الأُمِّي الذى علّم المتعلمين ، وتلا عليهم كتاب رب العالمين ، ودرس لهم الحكمة الصافية ، وهى سنة سيد المرسلين ، وذكا نفوسهم وطهرها من الغيظ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء والظلمات والشرك والظلم والفساد ، فكان خير المفلحين وسيد الموحدين وإمام المتقين ؛ فهو النبي الخاتم الذى قال متحدثاً بنعمة الله عليه : (أنا دعوة أبى إبراهيم ، وكان آخر من بشرى عيسى ابن مريم) (٢) . لقد وقف عيسى خطيباً في بنى إسرائيل وقال : يا بنى إسرائيل ﴿ إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٣) ، فكان ذلك النبي الأُمِّي الفقير ، الذى بعث الأمل في قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الخائرة في خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطئ الله رب العالمين .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٤١٤ ط دار الفكر .

(١) سورة التوبة آية : ١١٧ .

(٣) سورة الصف آية : ٦ .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

نور أضاء فبدد الظلماء والأرض صارت جنة خضراء  
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء  
أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء  
يا نور أحمد فى جلالك روعة الله بارك ذكره وأضاء

ويختتم الخليل وابنه هذه الدعوات بالثناء على الله بما هو أهله فيقول : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾  
﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلب ، فهو القاهر فوق عباده ، ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يبعث ؛ إذ هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق .

### ملة إبراهيم وحكم المخالفين

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ  
لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ  
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾ أَمْ كُنْتُمْ  
شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ  
آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٨﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا  
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

المفردات : رغب فى الشيء : أحبه ، ورغب عنه كرهه ، وسفه نفسه : أذلها واحتقرها ،  
واصطفيناه : أى اخترناه ، وأصل الاصطفاء أخذ صفوة الشيء ، وهى خالصة ، أسلم : أى أخلص لى  
العبادة ، التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى  
أمر دينى أو دنيوى ، مسلمون : أى مخلصون بالتوحيد ، والشهداء واحد هم شهيد ، أى حاضر ، حضور  
الموت : حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا ، الأمة : الجماعة ، وحلت : مضت وذهبت ، لها  
ما كسبت : أى ما عملت ، ولكم ما كسبتم : أى أنتم مجزيون بأعمالكم .

ويتحرك بنا زحف الآيات فى قدسية وطهارة ونقاء ، يضىء أمام الموحدين . فبعد الحديث عن إبراهيم  
وما ابتلاه الله به ، وذكر الدعوات الطيبات التى دعا بها ربه ، ومنها أن يبعث فى هذه الأمة رسولا منهم يتلو  
عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، واستجاب الله جلّت قدرته وعظمت حكمته هذه  
الدعوات ، قال سبحانه : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته



ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴿١﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ يسبح  
لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ ﴿٢﴾ ؛ ثم ذكر أجل نعمه على عباده فقال :  
﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من  
قبل لفى ضلال مبين ﴾ \* وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴿٣﴾ .

وكفى بهذا الفضل فضلاً ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ﴿٤﴾ . فكفانى عزا  
أن أكون لك عبداً ، وكفانى فخراً أن تكون لى رباً :

ومما زادنى شرفاً وقدرأ وكدت بإخصى أطأ الشريا  
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ولقد وجدت هذه الأمة التى شرفها الله ببعثة نبيها ، وكانت أمة لا تغيب عنها الشمس ، امتدت  
حدودها من الصين شرقاً إلى باريس غرباً ، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً ، وجعلت من  
البحرين الأبيض والأحمر بحرين يجريان فى أمة الإسلام ، وجعلها الله خير أمة أخرجت للناس إذا تكاملت  
فيها تلك المقومات : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، فإذا كان الله فضل بنى إسرائيل على  
العالمين ، فإنما ذلك على عالمى زمانهم ؛ وفرق بين التفضيل والخيرية ، فالخيرية نابعة من ذات الأمة متأصلة  
فى كيانها ، والتفضيل يأتى من خارج الأمة لأمر يجود المولى الكريم بها عليهم ، ككثرة بعثة الأنبياء منهم ، كما  
قال نبينا ونبههم موسى : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم  
يؤت أحداً من العالمين ﴾ ﴿٥﴾ ، ولذا عقب الله تعالى فى آية الخيرية بقوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً  
لهم ﴾ ﴿٦﴾ ، فكان إبراهيم جديراً بالإمامة ، حقيقاً بالقيادة ، حرياً بالراية ، ومن يرغب عن ملته ويكرهها  
ويبغضها كان دليلاً على أنه سفه نفسه واحتقرها وأذلها ، لأنه كره مله نبي رفع راية التوحيد فى جميع الجهات .  
ولقد اصطفاه الله واجتباؤه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً  
قيماً مله إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ﴿٧﴾ . واذكروا أيها الناس إذ قال له ربه أسلم ، أى استقم على  
إسلامك وإخلاصك ، لا بمعنى ادخل الإسلام ، فقد كان مسلماً موحداً من مهده إلى لحده ، كما يقول مولانا  
لحبيبه ومصطفاه : ﴿ يأياها النبى اتق الله ﴾ ﴿٨﴾ ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن تقياً قبل الأمر بالتقوى ، إنما  
المعنى : اثبت وداوم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يأياها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ ﴿٩﴾ ، فترى أن الله  
خاطبهم بالإيمان وأمرهم به ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا كان المقصود بالأمر هنا المدوام والثبات . وقد صدق  
سيدنا رسول الله ﷺ وهو يقول لعمه أبى طالب عندما قال له دع هؤلاء القوم وشأنهم ، قال له الرسول  
الأكرم : ﴿ والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى  
يظهره الله أو أهلك دونه ﴾ ، فاغرورقت عيناه أبى طالب بالدمع وقال كلمته المشهورة : يا بن أخى قل  
ما شئت ، فوالله لا أسلمك إليهم أبداً ﴿١٠﴾ .

(٩) سورة النساء آية : ١٣٦ .

(٥) سورة المائدة آية : ٢٠ .

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(١٠) السيرة النبوية لابن هشام ج ١

(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٢) سورة الجمعة آية : ١ .

ص ٢٦٦ ط دار التراث .

(٧) سورة الأنعام آية : ١٦١ .

(٣) سورة الجمعة الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٨) سورة الأحزاب آية : ١ .

(٤) سورة الجمعة آية : ٤ .

إن إبراهيم الحنيف أخلص قلبه لله وأسلم كيانه كله لرب العالمين ، السيد المالك الملك المتصرف القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، وهل خرج من ملك الله شيء عن علمه وإرادته وقدرته؟ إنك لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال أنه مخلوق للواحد الديان .

تأمل في الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال  
فكل الكائنات غداً ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

ولكى يرى نور الإسلام في ذرية إبراهيم ويمتد ضياءه في عقبه ، جعل كلمة التوحيد باقية فيهم إلى يوم يبعثون ، فعندما حضرته الوفاة وصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه ، وجاء نص الوصية : ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ <sup>(١)</sup> ، وتلك أيضاً وصية الله لكل مؤمن : ﴿ يأياها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا <sup>(٢)</sup> .

إن الإسلام هو الروح العظيم الذى ينساب في جنبات الأرض كالبحر الطهور ، يغسلها من أرجاسها وأدائها وأنجاسها ؛ أليس هو أن تسلم لله وجهك ؟ أليس هو السلام ؟ أليس أن يسلم الناس من لسانك ويدك ؟ أليس الإسلام هو الانقياد والخضوع والرضا والتصديق بكل ما جاء به سيد الأنبياء ؟

ثم يوجه الله هذا الخطاب إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الذين انحرفوا عن طريق الجادة وتنكبوا الصراط فرموا إبراهيم باليهودية والنصرانية وذريته كذلك قال لهم : ﴿ أم كنتم شهداء ﴾ أى بل أكنتم شهداء ، أى حاضرين ، عندما حضر يعقوب الموت ؛ أتدرون ماذا قال لبيه في وصيته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ لقد سألهم : ﴿ ما تعبدون من بعدى ﴾ ؛ فماذا قالوا : ﴿ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ هؤلاء هم الصفوة المختارة ، إنهم كوكبة التوحيد الذين سطعوا في سماء الهدى والعدل ؛ ثم يزيدون الأمر وضوحاً فيقولون : إلهنا وحدها حتى لا يظن جاحد أو جهول أن الآلهة تعددت في قولهم إلهك وإله آبائك ، فجاء التفسير واضحاً في قولهم : ﴿ إلهنا واحداً ونحن له مسلمون ﴾ وقد جعلوا إبراهيم أباً ليعقوب مع أنه جده ، لأن يعقوب بن إسحق وذلك لأن الجد أب ، إذ هو أصل من أصول الإنسان ؛ وجعلوا إسماعيل أباً ليعقوب مع أنه عمه ، لأن عم الرجل صنو أبيه ، أى مثله . وهكذا أعطينا لغة القرآن ثروة دفاقة بالمعاني ، فالقرآن أستاذ معلم ، ومدرسة عليا . ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى هؤلاء القوم ، فيقول لهم : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ : أى جماعة قد سبقت ومضت ، لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ؛ فكل نفس بما كسبت رهينة ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ولقد قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه : ( يا فاطمة بنت محمد اعملى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً ) . إن من عظمة هذا الدين المسئولية الفردية ، كل امرئ بما كسب رهين ؛ فإن الله أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشياً . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون \* فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴿١﴾ .

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب  
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

### زعم باطل

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٢٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَبِّحْهُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٢٨﴾

المفردات : الحنيف : المائل ، وأطلق على إبراهيم لأنه خالف الناس جميعاً ومال عن الكفر إلى الإيمان ؛ الأسباط : واحد هم سبط ، وسبط الرجل ولد ولده ؛ والأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ؛ وما أوتى موسى : هو التوراة ، وما أوتى عيسى : هو الإنجيل ، والشقاق : مأخوذ من الشق ، وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد في شق غير شق صاحبه لما بينهما من عداوة ، الصبغة : في اللغة اسم لهيئة صبغ الثوب وجعله بلون خاص .

زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، فدمغهم الإسلام بتلك الحجة قال لهم : إنكم جميعاً مؤمنون بأن إبراهيم كان على هدى ؛ فكيف يكون على هدى ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، بل كان حنيفاً مسلماً ؛ إذن فإن كلامكم زعم باطل . أما القول السديد والرشيد فإنه واضح في اتباع ملة إبراهيم ، فهذا هو الطريق الموصل إلى الجنة المنجى من عذاب النار ، فقد كان إبراهيم حنيفاً مائلاً عن الشرك ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ﴿١﴾ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴿٢﴾ . وكيف يدخل الجنة من فرق بين الله ورسله وقال : إن الإيمان بالبعث والكفر بالبعث منج ، بل إن القول الحق هو ما قاله الله في كتابه : ﴿٣﴾ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴿٤﴾ .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١٠٣ . (٢) سورة آل عمران آية : ٦٥ . (٣) سورة النساء آية : ١٥٢ .

[ فيا أمة محمد . . إذا سمعتم هؤلاء يرددون هذا الهراء فقولوا : آمنا بالله وحده لا شريك له ، وآمنا بما أنزل إلينا على رسولنا محمد ، وهو الكتاب الكريم ، والقرآن العظيم ، وما أنزل من الكتب والصحف إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وآمنا بما أوتى موسى من التوراة الصحيحة ، وأوتى عيسى من الإنجيل الصحيح ، وآمنا بما أوتى النبيون من ربهم ، فالكل عملوا في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لا إله إلا الله . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا ، ومن يتبغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿١﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ﴿٢﴾ ، ووصف النبيين بقوله : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ؛ فمن جاء بغير الإسلام فقد برئت منه ذمة الله . قال نوح لقومه : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ﴿٣﴾ ، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب بقوله : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ﴿٤﴾ . وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمتمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال يوسف : ﴿ توفني مسلماً وألحقني بالصالحين ﴾ ﴿٦﴾ ، وقال سليمان : ﴿ ألا تعلوا على وأتوني مسلمين ﴾ ﴿٧﴾ ، وقال عيسى : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ ﴿٨﴾ ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ ﴿٩﴾ ، وأنزل الله على رسوله ومصطفاه يوم عرفة أربع بشرى ، الأولى : ﴿ اليوم يشس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ﴿١٠﴾ والثانية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ ﴿١١﴾ ، والثالثة : ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ ﴿١٢﴾ والرابعة : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ﴿١٣﴾ ؛ فإذا كان الله أكمل دينه ، فدين الله لا ينقص أبداً ، وإذا كان أتم نعمته فنعمة الله لا تضيع أبداً ، وإذا كان رضى لنا الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدًا ﴾ ﴿١٤﴾ . إن الإسلام دين رشيد ، يخاطب العقل السليم بالمنطق السديد ، يأمر بالإيمان بكل الأنبياء ، فلا يأمر بالإيمان بمحمد وحده ، وإنما بجميع الأنبياء بما فيهم موسى وعيسى ، ومن ثم يقول تعالى في الحديث القدسي الجليل : ( وعزى وجلالى لو سلخوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلقتك يا محمد ) . فإن آمن هؤلاء القوم إيماناً مثل إيماننا فقد اهتدوا ، ومن يهد الله فهو المهتد ، وإن تولوا وانصرفوا وركبوا رؤوسهم كبيراً وعدواً وظلماً ، فلنأثمهم في شقاق وعداء وخلاف .

﴿ ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ﴿١٥﴾ ، وهذا الخطاب موجه إلى البشرية التي تنكبت سواء السبيل ، فزلت أقدامها وتعثرت أقدامها ، وانفلت خيالها ، واتبعت الهوى ، ومن عرف الهوى فقد هوى فحل عليه غضب الله ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ ، وما داموا في شقاق ، فثق من حفظ الله لك يا محمد ﴿ فسيفكهم الله ﴾ سيفك مكرهم وأذاهم ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ ﴿ ونحرفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فماله من هاد ﴾ ومن يهد الله فماله من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴿ قل

- |                              |                              |                                     |
|------------------------------|------------------------------|-------------------------------------|
| (١) سورة آل عمران آية : ٨٥ . | (٧) سورة النمل آية : ٣١ .    | (١٣) سورة المائدة آية : ٣ .         |
| (٢) سورة آل عمران آية : ١٩ . | (٨) سورة آل عمران آية : ٥٢ . | (١٤) سورة الجن آية : ١٤ .           |
| (٣) سورة يونس آية : ٧٢ .     | (٩) سورة النمل آية : ٤٤ .    | (١٥) سورة الكهف آية : ١٧ .          |
| (٤) سورة البقرة آية : ١٣٢ .  | (١٠) سورة المائدة آية : ٣ .  | (١٦) سورة الزمر الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ . |
| (٥) سورة يونس آية : ٨٤ .     | (١١) سورة المائدة آية : ٣ .  |                                     |
| (٦) سورة يوسف : ١٠١ .        | (١٢) سورة المائدة آية : ٣ .  |                                     |

حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿١﴾ . نعم سيكشفك الله شرهم ، والله يعصمك من الناس ، وكان وعد الله مأتياً ، فانتصر الرسول على يهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ويهود خيبر ، وفرض الجزية على نصارى نجران ، وانتصرت أمته على الفرس والروم ، كما انتصرت على جميع الأعداء فى كل الميادين .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوى قتيلا  
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

إن الذى سيكشفك شرهم هو السميع الذى يعلم القول فى السماء والأرض ، يسمعه ويعلمه ، العليم بحقائق الأشياء ودقائقها . قل لهم لقد صبغنا الله صبغة التوحيد ، فما نحن عليه هو صبغة الله وفطرته ، ومن أحسن من الله صبغة ﴿٢﴾ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٣﴾ ليس أحد أحسن صبغة من الله الذى حلانا بتلك الصبغة التى لا تزول أبداً ، ولا تستطيع يد الدهر أن تمحوها ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وما كتبه الله لا يمحوه أحد ، ونحن له عابدون قانتون ثابتون حامدون راعون ساجدون ، أمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، وحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين .

الله ربنا وربكم

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿٤﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطَ كَانُوا يَهُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

أقام الله تبارك وتعالى فى هذا المشهد ثلاثة براهين ، ألزم فيها المعارضين الحجة القاطعة بصحة الإسلام وصدقه ، فوجه الخطاب إلى رئيس الأمة ونبيها ، محمد ﷺ ، قل هؤلاء المجادلين المتخاصمين : أتجادلوننا فى دين الله ، وتزعمون أنكم أحق بالله منا ، وأعرف به منا ، وهوربنا وربكم ، ليس رباً لقوم بأعيانهم ، إنما هورب العالمين أجمعين ، وهولا يجازى العبد بناء على انتسابه إلى قوم سبقوا ، إنما يجازى العباد بميزان حق ﴿٧﴾ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴿١٠﴾ .

والميزان الصادق الذى حكم الله تعالى به الأمور هو المسؤولية الفردية : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، قال جل شأنه : ﴿١١﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴿١٢﴾ .

فما جزاء هؤلاء المحاجين المجادلين بعد بيان الحق ؟ قال تعالى : ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ (١) ، وبعد ذلك قال تعالى : قولوا لهم ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ والإخلاص من أجل النعم التي ينعم الله بها على عبده ، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والإخلاص أن تقصد بعملك وجه الله وحده لا شريك له . ثم خاطب الله أهل الكتاب بقوله : ﴿ أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴾ : أى بلغ من جحودكم وإنكاركم للحق أنكم رميتم قادة التوحيد ونجوم الهدى باليهودية والنصرانية ؟ ثم أقام عليهم الله برهاناً ثانياً فقال : ﴿ أنتم أعلم أم الله ﴾ ؟ أى من الذى يحكم فى قضايا العقيدة إلا علام الغيوب ؟ فإن العقيدة من أعمال القلوب ، فهل كشفتم عن قلوب هؤلاء فحكمتم على ما فيها ؟ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، بل كانوا موحدين حثفاء لله غير مشركين به ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢) . ثم أقام القرآن عليهم برهاناً ثالثاً . قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ أى لا أحد أظلم ممن كتم شهادة بينها الله له ، فأنتم كتمتم وحجبتكم عن الناس ما جاء فى كتبكم من الشهادة ببعثة محمد ﷺ ، وأنتم تقرأونها وتعلمون مدلولها علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل حين اليقين . ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ، ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ (٣) ؛ ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ (٤) . ثم فصل الله فى القضية فصلاً قاطعاً جازماً فقال : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ ، أى سبقت . فإذا كنتم تفخرون بالانتساب إلى هؤلاء الأنبياء ، فإن انتسابكم إليهم لا ينفع يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ، لأن المقياس الصحيح هو العمل الصالح ؛ لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وتلك الأمة التى سبقت لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ، وكما أنهم لا يسألون عن أعمالكم ، كذلك أنتم لا تسألون عما كانوا يعملون ، فكل مشغول عن عمله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ، فمن أحب فى الله أو بغض فى الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان .

(١) سورة الشورى آية : ١٦ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٣) سورة البقرة آية : ٧٧ .

(٤) سورة البقرة آية : ٨٩ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثاني

سورة البقرة

من الآية رقم ١٤٤ / ٢٥٢





## تحويل القبلة

\* سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّيْنَاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلِ اللَّهُ الْمَشْرِقُ  
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا  
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ  
عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ۚ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى  
الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾

المراد بالسفهاء ها هنا مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون : والسفه : خفة في العقل وطيش في  
الأحلام . وقد روى البخارى رضى الله عنه في سبب نزول هذه الآية : عن البراء رضى الله عنه أن رسول  
الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ؛  
وأن أول صلاة صلاها هي العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم  
راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان من قد  
مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليضيع  
إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ . وروى الإمام مسلم بسنده عن الإمام البراء بن عازب قال : كان  
رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب  
وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، فقال رجال من المسلمين :  
وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله :  
﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ . وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التي  
كانوا عليها فأنزل الله ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾ إلى آخر الآية . وحاصل الأمر أنه قد كان رسول  
الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو  
مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

ولقد جاء الأمر بتحويل القبلة نحو المسجد الحرام والرسول ﷺ قد صلى ركعتين من فريضة الظهر في  
مسجد بنى سلمة ، ولذا سمي « مسجد القبلتين » : ووصلت الأخبار بعد ذلك إلى مسجد قباء في صلاة  
الفجر من اليوم الثانى ، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء في  
صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة

فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة<sup>(١)</sup> . ولما تم ذلك ثارت ثائرة اليهود وتحركت ثعابين الشك فى قلوبهم ، وهاجت عقارب التشكيك فى صدورهم ، وتساءلوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ ما الذى دفع هؤلاء الناس أن يغيروا قبلتهم ؟ وأخذوا ينفثون سمومهم محاولين تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، لكن الله ، جلت قدرته ، حسم القضية حسماً لا يحتمل ريبة ولا شكاً ، قال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . وما دفع اليهود إلى هذا الموقف إلا الحسد الدفين فى نفوسهم على الإسلام ونبي الإسلام ؛ إذ أن الجميع يعلم ما بين اليهود وما بين المسلمين من سموم الحقد ، وزاد القرآن الموقف جلاءً ووضوحاً ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

وقد بين الرسول ﷺ ما فى نفوس اليهود من حسد وحقد على هذا الدين ، فقال فى أهل الكتاب : ( إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هداها الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التى هداها الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين )<sup>(٢)</sup> . إن سر قوة هذه الأمة الإسلامية كامن فى قوة التوحيد . إنها أمة . . الله ربها ، ومحمد نبيها ، والمصحف كتابها ، والكعبة قبلتها ، فكيف لا تكون قوية وهذه أسسها وأركانها ؟ الله نور السموات والأرض . ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾<sup>(٥)</sup> . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾<sup>(٦)</sup> . وإذا كان اليهود قد تحالفوا مع المشركين والمنافقين فى فجر الإسلام وظهر الإسلام وعصر الإسلام ، فإنهم لا يكفون عن الدس ضد الإسلام ونبي الإسلام وكتاب الإسلام وقبله الإسلام . لقد تحالفوا قديماً مع المشركين والمنافقين ، واليوم يتحالفون مع الشيوعيين والصليبيين ، وصار الإسلام يواجه الثالث المدمر : شيوعية عالمية ، صهيونية عالمية ، وصليبية عالمية . والإسلام ينادى على أبنائه ويقول : — ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولو كان حافظ إبراهيم موجوداً بيننا الآن لقال على لسان الإسلام :

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى  
أمن الحق أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدى  
نظر الله لى فأرشد أبنائى فشدوا إلى العلا أى شد  
إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندى  
نحن نجتاز موقفا تعثر الآراء فيه ، وعشرة الرأى تردى

(٤) سورة المائدة آية : ١٥ .

(٥) سورة التباين آية : ٨ .

(٦) سورة الشورى آية : ٥٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ ط دار الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٥ ط دار الشعب .

(٣) سورة يونس آية : ٥٧ .

قد وعدت العلا بكل أبي من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى  
وارفعوا دعوى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدى  
ولو كان شوقى حياً بيننا لقال فى الإسلام :

شهيد الحق قم تره يتيماً بأرض ضيعة فيها اليتامى  
أقام على الشقاء بها غريباً ومر على القلوب فما أقاما

على الأمة أن تحذر ما يحاك لها من مؤامرات فى الظلام . فقد وقف المستر جلاستون رئيس وزراء بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وقف فى مجلس العموم البريطانى وبيده كتاب الله ونادى أعضاء المجلس وقال لهم : إننا لن نستطيع القضاء على الإسلام إلا إذا قضينا على ثلاثة أشياء هذا الكتاب ، وصلاة الجمعة ، وعرفات . فهب أحد الأعضاء مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه ، فغضب رئيس الوزراء وقال له : ما أحقك ، وما أردت تمزيق أوراقه ، إنما أردت تمزيق مبادئه من صدور المسلمين . أعلمتم أيها المسلمون ماذا يراد بكم ؟  
يا أخا الإسلام .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد	وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة	لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية	وفاح أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله ياخير مرسل	أبشك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف فى عميق ثبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة	فما بالهم فى حالك الظلمات

إننى لا أخشى على الإسلام من أعدائه ، فقد شهد التاريخ وأثبت الحقائق أنه انتصر على جميع أعدائه فى كل المعارك والمواطن والمواقع ؛ انتصر على المشركين فى كل الغزوات ، وانتصر على الصليبيين فى مواقع مع الروم ، وعلى رأسها موقعة اليرموك ، وانتصر على الفرس فى كل المواقع ، وعلى رأسها القادسية ونهاوند ، إنما أخشى على الإسلام من أديائه الذين قال فيهم رب العزة : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين \* لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين \* لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون \* ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطه بالكافرين ﴾ (١) . وليست الفتنة هنا مقصورة على فتنة النساء ، وإنما هى أعم وأشمل ؛ فإن منها فتنة المال ، قال تعالى : فى شأن هؤلاء الأدعياء : ﴿ إن تصببك حسنة تسؤهم وإن تصببك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا

من قبل ويتولوا وهم فرحون \* قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون \* قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون \* قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴿١﴾ قال ﷺ : ( أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان ) (٢) .

ولما أفحم هؤلاء الأعداء وألقموا الحجارة في أفواههم ، بقول الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وجه الخطاب إلى الأمة الإسلامية وأتباع مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى عدولا وخيارا ، فأنتم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وأنتم شهداء الله في الأرض ، وأنتم الشهداء على الأمم يوم القيامة ، والرسول الكريم هو الذى قال الله له : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ وهو الذى قال الله له : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (٣) .

يا رسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ . قال الرسول ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه . قال فنزل قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ . قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم . رواه البخارى .

وعن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : ( يجيئ النبی يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمه ، فيدعى محمد وأمه فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا ) . فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ قال : عدلا ، ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ .

وقال ﷺ : ( أنا وأمتي يوم القيامة على كومة مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ؟! وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل ) .

(٣) سورة النحل آية : ٨٩ .

(١) سورة التوبة الآيات : ٥٠ - ٥٢ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ط دار الفكر .

وعن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان . . . وأثنوا عليه خيراً ، فقال رسول الله ﷺ : أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسراثر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال النبي ﷺ : وجبت . ثم شهد جنازة في بني حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : يا رسول الله بشئ المرء كان ، إنه كان فظاً غليظاً ، فأثنوا عليه شراً . فقال رسول الله ﷺ لبعضهم : أنت بالذي تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسراثر ، فأما الذي بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . ثم قال الحاكم : ( هذا حديث صحيح الإسناد ) .

وعن أبي الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها ، وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً فجلست إلى عمر بن الخطاب ، فمرت به جنازة فأثنى عليها خير . فقال : وجبت . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر . فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة . قال فقلنا : وثلاثة ؟ . قال فقال : وثلاثة . قال فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن الواحد . وقال ﷺ : ( يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم . قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيئ . أنتم شهداء الله في الأرض )<sup>(١)</sup> .

ثم بين الله تبارك اسمه الحكمة من تحويل القبلة فقال : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ، أي وما أمرناك بالتوجه إلى الكعبة بعدما كنت تصلى إلى بيت المقدس ، ما فعلنا هذا إلا ليظهر مدلول علمنا وليعلم الناس مواقف العباد من الذي يتبع ومن الذي ينقلب ، فعلمنا قديم أزل . فإله جل قدرته علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . فقلوه تعالى : ﴿ لنعلم ﴾ أي ليظهر مدلول علمنا ، فنعلم الناس الحكمة مما جعلنا . وشتان ثم شتان ، وهيئات هيئات بين الاتباع والانقلاب ؛ فالاتباع التزام وسمع وطاعة ، ولذلك لما وصل الخبر بتحويل القبلة إلى المصلين في مسجد قباء ، كانوا راكعين فتحولوا إلى الكعبة وهم راكعون التزاماً وسمعا وطاعة لأمر الله جل شأنه . أما الانقلاب على العقب ، فالعقب هو مؤخر القدم ، والانقلاب عليه هو الارتكاس والانتكاس . قوله جل شأنه : ﴿ وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ ، أي لقد كان تحويل القبلة أمراً عظيماً وشاقاً على النفوس المؤمنة الواثقة التي امتلأت يقيناً ونوراً ، فإنها تقف من أوامر الله موقف التسليم والإذعان والرضا . وفي القرآن الكريم آيات تبين لنا مواقف الفريقين من أوامر الله تعالى ، قال عز وجل ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ط الشعب .

وهم كافرون ﴿١﴾ . وقال سبحانه : ﴿ فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ ﴿٢﴾ . وقال تبارك اسمه : ﴿ وَنَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ ﴿٣﴾ . وقال تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ﴿٤﴾ . ولا بد من الاختبار حتى يمحض الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . ﴿ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ \* ولقد فتننا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿٥﴾ . ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، المراد بالإيمان هنا الصلاة ، لأنها أعظم الأركان ، وهى الفريضة التى فرضت على الرسول فى السموات العلى ؛ والمقصود : ما كان الله ليضيع صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة . وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ . وعن ابن عباس : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ ، أى بالقبلة الأولى ﴿٧﴾ ، وتصديقكم ببيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ ، أى عظيم الرأفة ، كثير الرحمة بكم . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألصقته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه . قالوا : لا يا رسول الله . قال : فوالله . . . الله أرحم بعباده من هذه بولدها) ﴿٨﴾ .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . . .

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ يدفع الألم والضرر عنهم رحيم بهم ، يدفع عنهم البلاء ويحلب الإحسان .

### الإذن بتحويل القبلة

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ

(٥) سورة المنكيات الآيتان : ٢ ، ٣ . ط الشعب .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٤٢ .

(٧) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٨) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦ .

(٣) سورة الإسراء آية : ٨٢ .

(٤) سورة فصلت آية : ٤٤ .

الْحَرَامَ<sup>١</sup> وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ<sup>٢</sup> وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ<sup>٣</sup> وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ<sup>٤</sup> وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ<sup>٥</sup> وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ<sup>٦</sup> الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ<sup>٧</sup> وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ<sup>٨</sup> الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ<sup>٩</sup>

المفردات : ﴿ تقلب وجهك في السماء ﴾ : تردده طلبا للوحي والتجاء إلى الله ، ﴿ فلنولينك ﴾ : فلنوجهنك جهتها ، ﴿ فول وجهك ﴾ : فوجه وجهك ، ﴿ شطر المسجد الحرام ﴾ : يعنى جهته ، ﴿ الممترين ﴾ : الشاكين .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ ، إلى قوله ﴿ فولوا وجوهكم شطره ﴾ ، فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قل الله المشرق والمغرب ﴾ وقال : ﴿ فأينا تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول من ينقلب على عقبيه ﴾ . وروى ابن مروان عن ابن عباس قال : كان النبی ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله ﴿ فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ إلى الكعبة ، إلى الميزاب ، يؤم به جبرائيل عليه السلام<sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض إلى مشارقها ومغاربها من أمتي )<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، أى وجه وجهك جهته ، وهذا أمر موجه إلى قائد الأمة ، ثم وجه الأمر بعد ذلك إلى أمته لما فى ذلك من الشأن العظيم فقال : ﴿ وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ . واستقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة للمسلمين فى مشارق الأرض

(٢) تفسير القرطبي ج ١ ص ٥٤١ ح ١ الشعب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

ومغاربها ، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، ولا يستثنى من هذا شيء سوى صلاة النافلة في حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قلبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا في حال القتال والتحام الصفوف ، يصلى على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئاً في نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وهنا مسألة : استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : لقوله ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ، فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافى كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلى في قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر في حالة قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة ، لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع . وقد ورد به الحديث ، وأما في حالة ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفي موضع سجوده إلى موضع أنفه ، وفي حالة قعوده إلى حجره .

قوله جل شأنه : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ . وهذا تسجيل عليهم لما أتوه من الفعال الشنيعة . لقد علموا علم اليقين أن تحويل القبلة أمر سيكون ، وذلك من كتبهم ، ولكنهم وهم يعلمون أنه حق ثابت لا مرأى فيه ، ارتابوا وشكوا وشككوا وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، أى ما الذى حرفهم عنها ، لذلك جاء ختام الآية تهديداً ووعيداً لما فعلوه من إنكار الحق وكتمانه ، والجدال بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا \* لقد أحصاهم وعدهم عدا \* وكلهم آتية يوم القيامة فردا . ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون .

قوله جل شأنه : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ ﴾ . كان رسول الله ﷺ حريصاً على هداية اليهود ، لأنهم لو أسلموا لكان في إسلامهم خير كثير . فقد ذكرت أوصاف الرسول في كتابهم التوراة ، وثبتت رسالته عندهم من غير شك ، فأراد ربك سبحانه وتعالى أن يخفف عن نفس رسوله ما يعانیه في هذه السبيل ، فأخبره عما في قلوبهم ، والله به عليم بأن هؤلاء الناس جُبلوا على العناد وصارت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، فلو جئتهم بكل آية سواء أكانت آيات كونية أم آيات قرآنية ، ما تبعوا قبلك ، لأنهم قد ملأ الكبر نفوسهم ، وهاج الحسد في قلوبهم ، وحيث إنك يا محمد على الحق المبين فلن تتبع قبلتهم أبداً ، بل إن بعض أهل الكتاب ليس بتابع قبلة البعض الآخر ، فلا اليهود يصلون إلى قبلة النصارى ، ولا النصارى يصلون إلى قبلة اليهود . قال تعالى : ﴿ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٌ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ . قوله جل شأنه : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذْنٌ لِمَنِ الظَّالِمِينَ ﴾ . هذا خطاب موجه إلى الرسول ﷺ بصفته رئيس الأمة ، والمراد به أمته ، لأن الله تعالى عصمه عن التلبس بأى منى عنه . والأهواء جمع هوى ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، وهوداء قد أعيا الأطباء ؛ فمن يتبع أهواء الظالمين وقد جاءه العلم من قبل الله جلّت قدرته ، فهو منهم ، والله جل جلاله يبين الآيات ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .



قوله جل شأنه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ \* الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴿ . هذه حجة قاطعة دمج الله بها أهل الكتاب ، فإنهم يعرفون أن محمداً حق ، وأن الله قد أخبرهم بذلك في كتابهم ، بل إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم كتموا هذا الحق وأنكروه ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتوح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلاتعقلون ﴾ \* أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿ (١) . والمراد الفريق في الآية الكريمة هم العلماء منهم وغير العلماء تبع لهم ، ويوم القيامة سيبتأ كل منهم من الآخر ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ \* وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ، كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴿ (٢) . قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته ، وإنني لا أدري من ابني ما كان من أمه . قلت وقد يكون المراد ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه بين أبناء الناس كلهم . قوله تعالى : ﴿ الحق من ربك ﴾ ، هذا إخبار من الحق جل جلاله بالحق عن الحق ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ فثبت للرسول الكريم وأصحابه بأنهم الأمة الناجية والفرقة التي كتب الله لها في كتابه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٣) .

### مسائل تتعلق بالقبلة

وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَإِنِّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ ۖ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۚ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ۚ وَلَا تَمْنَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيَكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمُ

(٢) سورة النور آية : ٥٥ .

(١) سورة البقرة الأيتان : ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) سورة البقرة الأيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ .

مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا إِلَيَّ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ فاستبقوا ﴾ : تسابقوا . ، ﴿ الحكمة ﴾ : العلم النافع مع العمل ، كل هذا تأييد للدعوى وبطلان لكلام المنكرين .

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالتوجه إلى البيت الحرام ، بين سبحانه أن لكل فرقة وجهة تتوجه إليها : فاليهود وجهة ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين ، وليست العبرة بأن يتشبه كل فريق بوجهته ، إنما العبرة باستباق الخيرات إلى الحق ، لأن القبلة إنما تأتي بإذن من الله ، فهي أمر توقيفي لا مجال للاجتهاد البشري فيه . فيامن وليتم وجوهكم قبل المشرق والمغرب من اليهود والنصارى أنسيتم أن البر ليس في أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ؟ وهل يتحقق إيمان بالله مع مخالفة أمره وعدم الامتثال لإذنه ؟ ليس هذا هو البر . واعلموا أنكم أينما توجهتم ، فإن الله تعالى محيط بكم أينما تكونوا ، وإن تفرقت في شعاب الأرض وسرتم في مناكبها فإن الله قادر على أن يجمعكم في أقل من لمح البصر . فأى فائدة في أن تولوا وجوهكم قبله لم يأذن الله بها وأنتم تقرأون في كتبكم أن النبي حق وسوف يوجه إلى قبلة الحق ؟ ثم ذكر تعالى بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى شطر المسجد الحرام مرة ثانية وثالثة . فقال : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ﴾ . وقال بعد ذلك : ﴿ ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ .

ولسائل أن يقول : لماذا تكرر الأمر باستقبال الكعبة ؟ ونقول : ذلك لحكمة بالغة اقتضتها العناية الإلهية ، فهذا أول نسخ ورد بإزالة حكم بحكم آخر متأخر عنه . فقد نسخ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فاقضى ذلك التوقيت حتى لا تكون هناك فتنة أو تردد إلا عند الذين ظلموا . وثانياً : لأن كل آية من هذه الآيات لم تخل من فائدة ، مع الآية الأولى ، قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ﴾ ، وفي الآية الثانية قرن الله تعالى الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ وإنه للحق من ربك ﴾ . وفي الآية الثالثة قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله مبيناً الحكمة من ذلك : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ . ويرى بعض المفسرين أن التكرار جاء لفائدة عظيمة . فالآية الأولى : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ خطاب لمن في المسجد ، والآية الثانية : ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ خطاب لمن هم خارج الحرم في مشارق الأرض ومغاربها . ومن هنا فقد أفاد التكرار فوائد جمّة . وسبحان من قال في كتابه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (١) . ونأخذ من الآية الحكمة من تحويل القبلة ، كما نصت

(١) سورة هود آية : ١ .

على ذلك الآية . فالحكمة الأولى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ . هذا قطع لمعاذير المبطلين . لقد علموا أن الحق في ما أمر الله به ورسوله وبأن لهم ذلك ﴿ حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ (١) . فهؤلاء حججهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . أما الظالمون فإنهم في طغيانهم يعمهون ، وفي غيهم سادرون ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٢) ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٣) . الحكمة الثانية قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ . . إنكم يا أمة محمد على حق ، وهم على الباطل ، وصاحب الحق لا يخشى أحداً إلا الله ، فالحق أبلج والباطل لجلج ؛ فأنتم كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وهم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار . أنتم الذين تبلغون رسالات الله وتخشونه ولا تخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . الحكمة الثالثة قوله تعالى : ﴿ ولأنتم نعمتي عليكم ﴾ ومن تمام النعمة أنه تعالى قد عرفكم كيف تتجهون في صلاتكم حتى توحدوا صفوفكم وتكونوا على قلب رجل واحد (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . فالمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتوجهون في صلاتهم إلى الكعبة مهما بعدت مواقعهم .

ولست أدري سوى الإسلام لى وطناً      الشام فيه وادى النيل سيان  
وكلما ذكر اسم الله في بلد      عدت أركانها من لب أوطاني

والحكمة الرابعة قوله تعالى : ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ ، وكلمة «لعل» هنا يراد بها «اللام» الدالة على الغاية ، أى ولتهدتوا ، لأن الترجى يفيد توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع يفيد الجهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ونعمة الهداية من أجل النعم ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ (٤) ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٥) ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) . قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ . «الكاف» هنا بمعنى لام التعليل كما في قوله تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ (٧) ، وكما في قوله جل شأنه : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ (٨) . ويكون المعنى على هذا : لتهدتوا بسبب إرسالنا فيكم رسولاً منكم ، وتلك نعمة كبرى جعلها الله منة منه على المؤمنين ، فهو الرسول المعظم والرئيس المقدم . ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٩) ، والمراد بالكتاب ، القرآن ، وبالحكمة السنة . ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (١٠) . وهنا قال

(٦) سورة الحج آية : ٥٤ .

(٧) سورة الإسراء آية : ٢٤ .

(٨) سورة الأنعام آية : ١١٠ .

(٩) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .

(١٠) سورة الحشر آية : ٧ .

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٢٥ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .

(٥) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ . وكم علم الرسول وكم تخرج في مدرسته من مصلح عظيم كأبي بكر ، وزعيم ملهم كعمر ، وعادل كريم كعثمان ، وعبقري فذ كعلي ، وقائد جبار كخالد ، ومحدث جليل كأبي هريرة ، وزاهد صادق كأبي ذر ، وفيلسوف بارع كسلمان . إذا كان ذلك كذلك من إتمام نعمة وهداية وإرسال وتلاوة وتزكية وتعليم ، ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ .

ومن أجل النعم التي يشكر الله عليها . . محمد ﷺ ، ولذلك ذم الله من جحد هذه النعمة فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾<sup>(١)</sup> . قال ابن عباس : المراد بنعمة الله هنا محمد ﷺ .

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : (تذكرني ولا تنساني ، فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني) .

قال بعض السلف : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره . وقال بعضهم في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . قيل لابن عمر : أرايت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله وقد قال الله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ . قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلغته حتى يسكت . وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ قال اذكروني فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجب لكم على نفسي . وعن سعيد ابن جبير : اذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي ؛ وفي رواية : برحمتي . . .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي<sup>(٢)</sup>) وأتابعه<sup>(٣)</sup> إذا ذكرني . فإن ذكرني في نفسه<sup>(٤)</sup> ذكرته في نفسي<sup>(٥)</sup> وإن ذكرني في ملأ<sup>(٦)</sup> ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا ، تقرب إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً تقرب إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيته هرولة<sup>(٧)</sup> .

فالذكر هو استحضار عظمة الله تعالى في قلب العبد ، والشكر هو تسخير كل ما وهبك الله لطاعته جل في علاه . فالصحة والمال والحسب والسلطان إذا سخرتها في طاعة الله فأنت شاكر . قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ .

إذا كنت في نعمة فارعها      فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله      فإن الإله سريع النقم

(٥) ذكرته في نفسي : أي أثبتته ورحمته .

(٦) ذكرني في ملأ : أي جماعة .

(٧) الترغيب والترهيب - ج ٢ ص ٢٧١ - وزارة الأوقاف .

(١) سورة إبراهيم آية : ٢٨ .

(٢) أنا عند ظن عبدي بي : أي أعامله حسب اعتقاده .

(٣) أتابعه : أي بالتوفيق والرحمة والنصر .

(٤) ذكرني في نفسه : أي ذكرني سرا .

## توجيهات ربانية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : الصلاة في اللغة الدعاء ، وهى من الملائكة الاستغفار ومن الله الرحمة .  
والصبر : هو مقاومة النفس للهوى لثلاث تنقاد للقباح .  
لنبلونكم : لنمحضنكم والمراد نصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم : الخوف ؛ ضد الأمن  
نقص من الأموال : ذهاب بعضها . نقص الأنفس : موت الأنفس .  
نقص الثمرات : قتلها ، وقيل موت الأولاد .

خطاب إلهى كريم إلى الجماعة المؤمنة أن تطلب العون من الله على أذى المعاندين الجاحدين الذين ناصبوهم العدا . وقال السفهاء منهم : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ وكنتموا الحق ﷺ يعلمون أنه الحق ، وتشابهت قلوبهم . . فمواقف العدا واحدة وإن اختلفت مللها ونحلها من يهود ونصارى ومشركين . نعم أمر الله الجماعة المؤمنة أن تطلب العون بالصبر والصلاة . ففي الصبر النصر ، وفي الصلاة النجاة ، وفي كليهما الفوز المين . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه الأعم الأشمل ، فهو في العبادات روحها ، يسرى فيها سريان ماء الورد في الورد ، وهو في المعاملات جمالها ، يزينها بلباس التقوى ، وهو في العقائد سياجها الذى يحميها من عوادي المعتدين .

ويكفى الصابرين فخرا أن الله تعالى معهم قال جل شأنه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ومعية الله حفظ ورعاية وصيانة وعصمة من الناس . فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لما جمع الله تعالى بين يوسف وإخوته والتقوا بعد طول فراق ودخلوا عليه وهو مترجع على عرش مصر بعدما رفعه الله من غيابة الحب إلى غاية الحب ، قالوا له : ﴿ أثنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف <sup>(١)</sup> ﴾ وكأنه في نفوسهم سؤال حائر يطلب الجواب عليه ، وكان هذا السؤال : ما الذى رفعك إلى تلك المكانة العالية ؟ فكان الجواب : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين <sup>(٢)</sup> ﴾ . وإنما قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولم

يقول « مع المصلين » مع أنه تعالى أمر بالصبر والصلاة ، لأن الصبر روح الصلاة وصلاة بلا صبر جسد بلا روح ، ومن ثم فمعية الله للصابرين يدخل فيها الذين عرفوا الله فصبروا عند البلاء ورضوا بالقضاء وشكروا في الرخاء .

عن صهيب الرومي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء <sup>(١)</sup> شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء <sup>(٢)</sup> صبر فكان خيرا له ) <sup>(٣)</sup> .

وللصبر حقيقة ، وأقسام ، وفضل ؛ فما حقيقته ؟ : الصبر هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات لثلاث يتردى في القبائح . وقيل هو احتمال الكد وقيل هو حبس النفس على ما تكره ، وقيل هو مقاومة النفس الهوى لثلاث تنساق وراء الشهوات . وكل هذه التعريفات مجتمعة تكون حقيقة الصبر في أعلى معانيها وأكمل صورها . وللصبر فضل ، وللصابرين درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . قال تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي في فضل الصبر كلاما جليلا جاء في كتاب الإحياء ، ونسوق بما ذكره الإمام الغزالي في هذا الباب بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدور حول بيان فضل الصبر والصابرين . قال رحمه الله تعالى : « وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٧)</sup> . وقال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ <sup>(٨)</sup> قال ﷺ في بيان عظم مكانة الصبر : ( الصبر نصف الإيمان ) وقال صلوات ربي وسلامه عليه : ( من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منها لم يبال بما فاتته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ؛ فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه ) . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٩)</sup> . وروى جابر أن النبي ﷺ سئل عن الإيمان فقال : ( الصبر والسماحة ) . وقال أيضا : ( الصبر كنز من كنوز الجنة ) . وقال أيضا ﷺ : ( أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ) . وقيل : ( أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور ) . وقال رسول الله ﷺ : ( لو كان الصبر رجلا لكان كريما ، والله يحب الصابرين ) <sup>(١٠)</sup> .

(٦) سورة الأعراف آية : ١٢٧

(٧) سورة النمل آية : ٩٦

(٨) سورة الزمر آية : ١٠

(٩) سورة النحل آية : ٩٦

(١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي جـ ١٢ ص ٢١٧ ط الشعب

(١) سراء : أى نعمة .

(٢) ضراء : أى شدة .

(٣) الترغيب والترهيب ص ٤ ص ١٦٢ ط الشعب .

(٤) سورة هود آية : ١١

(٥) سورة السجدة آية : ٢٤

والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان . وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر .

وقال على كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وينقسم الصبر انقسامات عديدة باعتبار أحواله . ونحن هنا نختار ذلك التعريف الذى يقسم الصبر إلى قسمين : أحدهما بدنى : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل : كتعاطى الأعمال الشاقة ( إما من العبادات أو من غيرها ) ، وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ، ولكن الم محمود التام هو القسم الآخر ، وهو صبر النفس عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى : فإن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة ؛ وإن كان على احتمال مكروه اختلقت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر : فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى البطر ؛ وإن كان فى حرب ومقاتلة سمي شجاعة ، ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمي حلما ، ويضاده التذمر ؛ وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ؛ وإن كان فى إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ؛ وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ، ويضاده الشره ؛ فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

وبعد هذا الطواف المبارك فى مجال الصبر ينتقل بنا النظم الكريم إلى مجال الشهادة وكأن بينهما تمام ارتباط ؛ فالصبر والجهاد قرينان متلازمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

هناك صبر على كيد الكائدين ، ولكن قد يكون العدو لثيما ينظر إلى صبر المؤمن على أنه ضعف فيستأسد عليه . هنا يقول تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٢) ولكى يكون هناك انتصار لابد أن يكون هناك استشهاد ، فلا يفلى الحديد إلا الحديد .

قال جل شأنه : ﴿ إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ \* وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ \* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٣) .

إن طريق الوصول إلى الحق مخوف بالصبر والجهد ، مزين بدماء الشهداء ؛ فإذا كان في الصبر حياة للنفوس ، فإن في الشهادة حياة كاملة لا يشوبها نقص ولا يطرأ عليها قدرة تغير من صفاتها وبهاثها وروائها وجمالها . ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ﴾ ، أى لا تقولوا هم أموات ﴿ بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ . ذلك لأن ما وراء البرزخ محيط أعنف من أن يمخر عباة سباح ماهر . وقد منح الله الشهداء من أوسمة الشرف ونياشين الزفة وسمو الدرجة ما يجعل الشهيد يسأل الله العودة إلى الدنيا حتى يقتل مرة أخرى . وما من أحد يطلب من الله هذا الطلب إلا الشهيد . ولما تمثلت روح الشهيد عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله ، قال له الله : تمنّ علىّ يا عبد الله . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا لأخبر إخواني بما أنا فيه من النعيم المقيم . قال له الله : لقد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فمن يخبر إخواني ؟ قال له الله : أنا الذي أخبرهم . فنزل الأمين جبريل بقوله جل شأنه : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ (١) .

إن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مكانه في الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزوج بائنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها . جاء في صحيح مسلم أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ياربنا وأى شيء نبغى وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ؛ لما يرون من ثواب الشهادة . فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وقد اقتضت سنة الله تعالى في خلقه أن يبتليهم بأنواع من البلاء ليتبين الصابر من الجزع ، وليجزى الصابرين ويوفيه أجرهم بغير حساب . وقد تعدد ألوان البلاء من جوع وخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وما من شك في أن هذه الأنواع التي وردت في قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ . ما من شك أنها جاءت مخففة ، وذلك من لطف الله بعباده . وجاء التعبير في الآية ﴿ بشيء ﴾ ولم يقل ولنبلونكم بالخوف والجوع وإبادة الأموال والأنفس والثمرات . ذلك كله دليل على أن الله لطيف بعباده . وجاء التعقيب في آية البلاء مبشرا للصابرين . وهنا يعلم الله الصابرين ماذا يقولون عند حلول البلاء فيقول : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

قال عمر رضي الله عنه : « ما أصابتني مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى أنها لم تكن في ديني . الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت . الثالثة : أن الله يجازي عليها الجزاء الكبير . ثم تلا قوله تعالى :



﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين ، وهى زيادة فى الحمل ؛ فكذاك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا .

قال ﷺ : ( إذا مات ولد لعبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد )<sup>(١)</sup> .

وقال على بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتلقاهم الملائكة - فيقولون : إلى أين يابنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾<sup>(٢)</sup> وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول الله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به . قال : ( لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ) ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أبغى إهابا لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة آدم حشوها ليف ، ففعد عليها فخطبني إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فى غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : ( أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فأما عيالك عيالى ) قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ . فتزوجها رسول الله ﷺ ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> .

يروى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقبل لها : أما تجددين الوجع فقالت : إن لذة ثوابه أزالته عن قلبى مرارة وجعه . . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٥ ط الشعب .

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٣١ ط دار الفكر .

(٢) سورة الزمر آية : ١٠

بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup>

قال ﷺ : ( اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير ) .

واعلم بأن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل في معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه      والصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل :

الصبر يجمل في المواطن كلها      إلا عليك فإنه لا يجمل

### الصفة والمروة

\* إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

بعدما أمر الله تعالى الجماعة المسلمة بالتوجه إلى المسجد الحرام بمكة ، ناسب ذلك أن يبين بعض أفضال هذا البلد الأمين ، فوجه الأنظار إلى بعض شعائر الحج . ولما كان الحج إلى البيت الحرام بمكة ، فإن السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج . في هذا البلد الذي أمر الله بالتوجه إليه في الصلوات ، ولكل مسلم مهما بعدت دياره ، فالقبة واحدة للأمة كلها في مشارق الأرض ومغاربها . ولناخذ في بيان المفردات الصفا والمروة : جبلان . شعائر الله : جمع شعيرة ، وهي العلامة . والمراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج .

حج البيت أو اعتمر : الحج في اللغة : القصد ، وفي الشرع : قصد مكة لأداء النسك . والعمرة : الزيارة ، واعتمر : زار ، وفي عرف الشارع هي كالحج في الطواف والسعى ، لكن ليس فيها وقوف بعرفة ، وليس لها زمان محدود . فلا جناح : فلا إثم . تطوع . . فعل الطاعة فرضاً أو نفلاً .

وقد وردت أحاديث نبوية في سبب نزول هذه الآية نذكر بعضها لتتضح الصورة ويتبين القصد : روى الإمام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : « رأيت قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ »

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴿ قلت فوالله ما على أحد جناح أن يطوف بهما . فقالت عائشة : بشما قلت يا ابن أخي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتخرج أن يطوف بالصفاء والمروة . فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله إنا كنا نتخرج أن نطوف بالصفاء والمروة في الجاهلية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قالت عائشة ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » أخرجه الصحيحان .

وقال رجال من أهل العلم : يقولون إن الناس ، إلا من ذكرت عائشة ، كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفاء والمروة . فأنزل الله تعالى : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت في هؤلاء وهؤلاء .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : صح أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفاء وهو يقول : ﴿ إن الصفاء والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال ( أبدأ بما بدأ الله به ) .

وكان رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفاء والمروة يقول للناس : ( اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي ) (١) . ومن هذه الأحاديث رأى الشافعي ورواية عن أحمد والمشهور من مذهب مالك أن السعي بينهما ركن من أركان الحج . ورأى بعض الفقهاء أنه واجب ، فإن تركه لزمه دم . ورأى أبو حنيفة أنه مستحب ، والراجح الرأي الذي يرى أنه ركن ، وذلك لأن الأدلة تساعد .

ولقد سعى رسول الله ﷺ وقال : ( لتأخذوا عني مناسككم ) . وقد ورد عن ابن عباس أن أصل ذلك السعي مأخوذ من طواف هاجر وطلبها وتردادها بين الصفاء والمروة في طلب الماء لولدها لما نفذ ماؤها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفذ ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فمازالت تردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفاء والمروة متذللة خائفة وجلّة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها « طعام طعم وشفاء سقم » . فعلى الساعي بينهما أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يتجه إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يشبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام (٢) .

قوله تعالى : ﴿ من شعائر الله ﴾ أي مما شرع الله ، أما قوله جل شأنه : ﴿ من تطوع خيراً ﴾ ، فهذا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٧ ، و ٢٨٨ ط الشعب .

النص يشمل جميع العبادات ، أى فمن زاد عن الفريضة فى الصلوات والزكاة والصيام والحج ﴿ فإن الله شاكراً ﴾ يجزى الجزء الأوفى ، فيكافىء على الحسنة مكافأة كبيرة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (١) .  
﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (٢) .

ولست أرى السعادة جمع مال      ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً      وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذى يأتى قريب      ولكن الذى يمضى بعيد

وما من شك فى أن التطوع فى العبادات كلها له عند الله منزلة عليا . أخبر مولانا جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل : ( ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ) .

والمحسنون لهم على إحسانهم      يوم الإثابة عشرة الأمثال  
وجزاء رب المحسنين يجل عن      عدد وعن وزن وعن مكيال

### النهى عن كتمان العلم

٧  
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ  
أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ أُولَٰئِكَ  
أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ  
لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ  
وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المفردات ﴿ يكتُمون ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر . ﴿ يُنظَرُونَ ﴾ : يمهلون .

العلم أمانة ، والأمانة واجبة الأداء ، فمن كتم العلم فقد خان الأمانة . وقد قال مولانا جل جلاله :  
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (٣) والعالم الذى يؤدى الأمانة  
ويبلغ العلم للناس يرفعه الله درجات ؛ قال النبى ﷺ : ( بلغوا عنى ولو آية ) (٤) وقال : ( نضر الله امرأ سمع  
مقالتي فوعاها ثم أداها كما سمعها . . فرب مبلغ أوعى من سامع ) (٥) واعلم بأن الله تعالى وملائكته وحمة

(٤) الجامع الصغير ج١ ص ٤٨٨ ط دار الفكر .

(٥) المصدر السابق ج٢ ص ٦٧٤ ط دار الفكر .

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٢٧ .

عرشه ، حتى النملة في جحرها والحوت في البحر ، يصلون على معلم الناس الخير . هذا جانب مشرق مضيء ، يقابله على الجانب الآخر كتمان العلم ، وهو جانب مظلم معتم ؛ قال فيه النبي ﷺ (من سأل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) (١) .

وجاء في الصحيح عن أبي هريرة قال : لولا آية في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى ... ﴾ (٢) .

وقد أخذ الله العهد على العلماء أن يبينوا ما في الكتاب ونهاهم عن كتمانهم ؛ قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ (٣) والذين كتموا أو يكتُمون ما أنزل الله من البينات والدلائل على صدق رسول الله ﷺ وإثبات نبوته وما أنزل الله من طرق الهدى والرشاد ، بعدما وضح الله كل ذلك في كتبه ، وظهر للناس واضحاً جلياً ، كان على العلماء أن يرشدوا ويبينوا ويبلغوا رسالات الله ، كما قال تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾ (٤) . وإثنان إن صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء ؛ وقد رفع الله مكانة العلماء ، حيث جعلهم مع الذين شهدوا أنه لا إله إلا الله حيث قال تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٥) ، وقال فيهم رسول الله ﷺ ( العلماء ورثة الأنبياء ) (٦) وجعلهم الله تعالى أهل خشيته فقال : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٧) .

إذا كان هذا الفضل للعلماء العاملين المبلغين ، فإن الذين يكتُمون العلم استحقوا من الله أن يلعنوا ، واستحقوا أن يلعنهم كل شيء ، حتى الحوت في الماء والطير في الهواء ، وليس اللعن أمراً سهلاً ، إنما هو طرد من رحمة الله ؛ ومع هذا كله فقد اقتضت سنة الله تعالى ألا يقنط الناس من رحمته ، ففتح باب التوبة ؛ وسبحانه وسعت رحمته كل شيء ، والذنب كالدواء ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به . . فما توبة هؤلاء الكاتمين للعلم ؟ .

قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم ﴾ أى أقبل منهم توبتهم وأرضى عنهم ، وذلك شأن من شئون الله فإنه هو التواب الرحيم : أما الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فإنهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، أولئك مأواهم النار وما لهم من ناصرين . وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وجزاؤهم كذلك خلود في النار لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، أى لا يمهلون ، أى يدخلون النار عقب موتهم : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٦٠٨ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٨٢ ط الشعب .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .

(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٩ .

(٥) سورة آل عمران آية : ١٨ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٩٠ ط الشعب .

(٧) سورة فاطر آية : ٢٨ .

(٨) سورة الأنفال الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴿١﴾ وقال تعالى في شأن قوم نوح : ﴿ بما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ ﴿٢﴾ .

وفي شأن آل فرعون قال تعالى : ﴿ وحق بال فرعون سوء العذاب \* النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ ﴿٣﴾ . فهل هناك إمهال لهؤلاء الظالمين ؟ إنهم يبدءون العذاب وهم في سكرات الموت .

﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ ﴿٤﴾ .

فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

### التوحيد وأدلته

وَاللَّهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ  
مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ  
الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ وإلهكم ﴾ الإله : المعبود بحق أو باطل ، والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين ( الفلك ) ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع . وبث : فرق ونشر ومنه كالفرش المبتوث . ﴿ دابة ﴾ الدابة في اللغة : كل ما يذب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب ، وهو المشى رويداً ، وقد خصه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوي قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ﴾ ﴿٥﴾ ، فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان . ﴿ تصريف الرياح ﴾ : الرياح جمع ريح ، وهي نسيم الهواء ، وتصريفها : تقليبها في الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعقياً ﴿ المسخر ﴾ : من التشخير ، وهو التدليل والتيسير .

قضية التوحيد فطرية مركوزة في طباع الخلائق ، قال سبحانه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ ﴿٦﴾ . ولقد أقام القرآن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على هذه القضية الصادقة التي كانت الركن الأول من رسالات الأنبياء . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن

(١) سورة الأنعام آية : ٩٣ .

(٢) سورة نوح آية : ٢٥ .

(٣) سورة غافر آية : ٤٦ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٩٣ .

(٥) سورة النور آية : ٤٥ .

(٦) سورة الروم الآيةان : ٣٠ ، ٣١ .

أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم \* قال يا قوم إني لكم نذير مبين \* أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴿١﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ ﴿٣﴾ . ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ ﴿٤﴾ . وقال جل شأنه ، حكاية عن موسى وفرعون : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين \* قال لمن حوله ألا تستمعون \* قال ربكم ورب آبائكم الأولين \* قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون \* قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون \* قال إن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ ﴿٥﴾ . الخ .

وغنى عن البيان ما دار بين إبراهيم وقومه في قوله جل شأنه : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ . والآية الجامعة لرسالات الأنبياء نجدها واضحة الدلالة على أن التوحيد رائدهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ﴿٦﴾ . ولقد قال النبى ﷺ فى شأن كلمة التوحيد : ( من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ) ﴿٧﴾ ، وقال : ( لقتوا موتاكم لا إله إلا الله ) ﴿٨﴾ . وبين القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء كانت تقوم على التوحيد ، قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ﴿٩﴾ ، وقال جل قدرته : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ ﴿١٠﴾ . ولعظم هذه الكلمة فإن الله أكد بها قضية التوحيد ، فبعد ما قال وإلهكم إله واحد ، أكدها بقوله لا إله إلا هو ، فهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، ومجير كل ملهوف ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد ، تنزه عن الشريك ذاته وتقدسست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ؛ بالبر معروف وبالإحسان موصوف ؛ أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ؛ ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزى ، ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون ؛ لا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان . قيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ قال : ومتى لم يكن ؟ هو الأول فلا شيء قبله ، الآخر فلا شيء بعده ، الظاهر فلا شيء فوقه ، الباطن فلا شيء دونه ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ له

(٦) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٧) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦٢٨ ط دار الفكر .

(٨) المصدر السابق .. ج ٢ ص ٤١٢ ..

(٩) سورة النمل آية : ٢ .

(١٠) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(١) سورة نوح الآيات : ١ - ٣ .

(٢) سورة الأعراف آية : ٦٥ .

(٣) سورة هود آية : ٦١ .

(٤) سورة هود آية : ٨٤ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٢٣ - ٢٩ .

ملك السموات والأرض يحى ويميت وهو على شىء قدير \* هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم (١).

قيل للإمام الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وحدانية الله ؟ فقال : ورقة التوت : تأكلها الدودة فتخرجها حريراً ، ويأكلها الغزال فيخرجها مسكاً ، وتأكلها الشاة فتخرجها بعراً وتأكلها النحلة فتخرجها شهداً ، فمن الذى نوع الأشياء والأصل واحد ؟ .

والبر والبحر فيض من عطاياه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبرة والحيوت ناجاه	والوحش مجده والطير سبحة
والنحل يهتف حمداً فى خلياه	والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى وربى ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

إننى ما زلت أذكر ، ونحن فى مراحل التعليم الأولى ، وكنا أطفالاً صغاراً ، هذه الأناشيد التى نرددها فى الصباح ، قبل استقبال الدراسة ، وكانت تفيض إيماناً وتوحيداً ونوراً وتشع جمالاً وجلالاً وكمالاً :

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى	يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

\* \* \*

وانظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من الذى جهزه	بقدرة مفتكرة
ذاك هو الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

\* \* \*

وانظر إلى الشمس التى	جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها	حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها	فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

\* \* \*



وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمرة  
وزائمه بأنجم كالدرر المنتثرة  
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة  
ذو حكمة بالغلة وقدره مقتدرة

إن هذه الآيات إنما ترشدنا إلى قاعدة أصيلة دارت حولها الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً ، وأنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، لا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ ليس كمثله شئ ﴾ وهو السميع البصير ﴿<sup>(١)</sup>﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ . إن هذا الدليل الذى عقد عليه المفكرون أدلتهم ، هو دلالة الأثر على المؤثر ، وتحت هذا القانون تندرج أدلة فرعية هى : دليل التكوين ودليل الارتباط ودليل الإتيان ودليل العناية ، ودليل الواجب الذى قال به الفلاسفة ، ودليل الشكل الذى قال به رينيه ديكارت ؛ وما أغنانا عن كل هذه الأدلة بجانب قوله جل شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ هذه الآية جمعت فأوعت ودلت فصدقت وبينت فأحكمت ، ولا شك أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . إن الله جلت قدرته لما قرر أدلة التوحيد سبقها بصفتين كريمتين من صفاته ، فقال ﴿ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ أى أنه هو المالك المتصرف فى ملكه ، إلا أنه وصف نفسه بالرحمة ، فهو رحمن الدنيا الذى رحم الجميع وشملهم بلطفه وبره ، ورحيم الآخرة الذى اختصت رحمته بالمؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ ، فمن حق هذا الواحد الأحد أن يُعبد وحده وألا تقابل رحمته بالجحود والإنكار . ولنأخذ الآن فى بيان الأدلة :

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والأفلاك ومدارها ، والأرض واتساعها ، والبحار وأمواجها ؛ الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ، ويسبح بحمده ، ويعلمن بشكره ولا يغفل عن ذكره .

ولقد بدأت الأدلة فى تلك الآية بذكر الكونين : الكون المكانى والكون الزمانى ، فالكون المكانى جاء فى خلق السموات والأرض ، والكون الزمانى جاء فى اختلاف الليل والنهار ، واختلافها يدور حول الطول والقصر والحر والبرد والظلمة والضوء ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغى لها

(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤  
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣

(١) سورة الشورى آية : ١١  
(٢) سورة طه آية : ١١٠

أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴿١﴾ . ثم تنتقل بنا الآيات من الكون إلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس من البضائع والسلع والتجارة والصناعة وغير ذلك ، وإنها لسفن عظيمة تمخر عباب الماء طولاً وعرضاً ﴿٢﴾ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٣﴾ .

ونأتى بعد ذلك إلى عالم الماء والرياح والسحاب ، فنستمع إلى منطق العلم ولغة الحقائق تحدثنا عن هذه الآيات ؛ تقول الحقائق العلمية : فما هو السحاب ؟ هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العليا كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرها فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخر ، والثانى أن يكون الهواء محتويًا عدداً كبيراً من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريداً كافياً ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر . فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء ، وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولاً برودة الجوفى تلك المناطق ، وثانياً قلة الضغط فى المناطق الجوفية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدرج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع ؛ أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ، لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ؛ فالهواء إذا صعد يبرد مرتين : مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً ، حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة ، قاعدتها أفقية ، حيث ابتداء التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو ، وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل من تمددها ؛ هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق والارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الرياح الدافئة المحملة بالبخر إذا التقت برّيح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيراً ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى كثيراً ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينها عند احتكهما ويكون السحاب آنئذ متموجاً الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح فضل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه ، لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التي تصطدم بأعاليها ، لأن أعالي الجبال الشاخنة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشعب ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ويصبح الماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق ، والطريق الثاني طريق مجرى الرياح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية ، حيث يتكاثف بخارها سحاباً ، ويتكاثف سحابها مطراً على أعالي تلك الجبال . لكن التبريد إلى ما فوق التشعب لا يكفي وحده في تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغاً عظيماً ، بخلاف ما إذا كان في الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلاً عن درجة التشعب أو درجة ( الندى ) ، كما يسمونها ، وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء ، ولو كانت هي كل ما يمكن أن يصلح ندى لقطيرات الماء في الهواء فوق المشيع ، لعز تكوين السحاب ولاقتصر على المناطق التي يكثر في أجوائها العليا هذا الغبار . لكن الذي قدر الأشياء وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار في أعالي الجوائشياء أخرى غير الهواء ، هي الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات ، جمع الأويلب تصغير ألْب من الفعل ألْب بمعنى ساق وجمع واجتمع وأسرع كما في القاموس .

وعوامل أولين أو تأيين الهواء ، أى تكوين الأيونات أو الأويلبات ، فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار ، فيها غازات محملة بالنوعين ، الموجب والسالب . ومنها الضوء فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء آيئته أو أولبته ، فيتكون في مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجسيمية التي تخرج من العناصر الشعاعية الموجودة في القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر ؛ المعروفة بأشعة رنتجن ، ومنها احتكاك الماء في البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض ، وبالساحل أو بالصخور . فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك ، والبخار الذي يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء ، بعضها أو كلها ، إلى الطبقات العلوية ، وكل جزء من جزئيات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات ، يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار . فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود في الطبقات العليا الجوية سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشعب ولو قليلاً بالتبريد .

إن هذه الآية الكريمة كأنها أسطول قرآني استعرض قطعه على أمواج بحر زاخر ، واشتمل هذا الأسطول على ست قطع كلها ترفع رايات التوحيد : خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الليل والنهار ، ثم الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، ثم وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، ثم تصريف الرياح ، ثم السحاب المسخرين السماء والأرض . ولقد تبين لنا مما قاله العلم الصلة الوثيقة بين السحاب والرياح ، ومعنى تصريفها ، أى تنوعها واختلافها ، ولندكر الآن عن المطر الذي ينزل من السماء .

إن تكوّن السحاب لا ينفع الناس شيئاً إذا لم يكن في الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطراً ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطراً إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقاً للجاذبية ، فهي تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ، ولو كان ساكناً ، يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تؤدي مهمتها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية ، وهذا التحول قد يسر الله أسبابه في الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحيط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ لا يات لقوم يعقلون ﴾ ، الآيات هي البراهين والدلائل لمن كان له قلب يعقل به أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن لم يعقل هذه الآيات فقد فقد كل شيء : فقد القلب والعقل ، فقد الفكر والتدبر ، وهنا ينطبق عليه قوله جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) .

### لا محل للمصادفة في هذا الكون

إن كوناً يقوم على العناية والقصد والإرادة الإلهية والإتقان ، لا يمكن أن يكون للمصادفة محل فيه ؛ ولقد وقع الماديون في خطأ جسيم عندما قالوا إن العالم نشأ مصادفة ، حيث تجمعت الجزيئات لتكون الذرة مصادفة ، وتجمعت الذرات على نسب وأوضاع مخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة ، ثم تلاقت العناصر الأصلية وتجمعت بنسب صالحة وفي مدد كافية وفي أجواء ملائمة ، فكان الإنسان وكل الحيوانات والنباتات وكل هذا حدث مصادفة .

وبأبسط الأدلة وأيسر الأمثلة . يتضح لنا بطلان ما نادى به الماديون الملحدون ، وقد ساق الأستاذ نديم الجسر في كتابه « قصة الإيمان بين العلم والفلسفة » أمثلة أبطل بها ما يقوله هؤلاء الذين صدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿ (٢) ، يقول الأستاذ نديم الجسر : لو أعطينا رجلاً عاقلاً مبصراً صندوقاً به مئات الآلاف من حروف الطباعة ، وطلبنا منه بعد إغلاقه أن يستمر في تحريكه لأي مدة شاء وليأت لنا في النهاية بقصيدة لا مرء القيس أو لعنترة ، فهل يمكن بالمصادفة أن يحدث ذلك ؟ إننا نقول لمن يجيب بنعم أن يبدأ بإجراء التجربة إلى نهاية عمره وليقل لنا ما هي النتيجة ؟ وإذا كانت المصادفة مع الأشياء المتزاحمة المحدودة مستحيلة فكيف يتصور عاقل حدوث هذا الكون بالمصادفة ؟

يقول « كريس موريسون » الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : « إن الأكسجين والهيدروجين وثاني أكسيد الكربون والكربون هي العناصر الرئيسية البيولوجية ، وهي عين الأساس الذي تقوم عليه

(٢) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ .

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها في وقت واحد ومن كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلماء إيضاح بهذه الحقائق ، وأما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية .

ويقول جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون : « عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر في الطبيعة مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين من العناصر التي تدخل في تركيبه ، فإننا نجد أن عمر الأرض الذي يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر ، لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة .

ويقول سوارتزن عضو جمعية علم التربة بأمریکا بعد حديث طويل عن الكون والنظام فيه : « من الطبيعي أن يتساءل الإنسان بعد ذلك : لماذا وجدت هذه القوانين ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات ؟ تلك العلاقات العديدة التي تتسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين ، مما يؤدي إلى تحقيق النفع والفائدة . كيف نفسر كل ذلك الإبداع الذي يسود هذا الكون ؟ هنالك حالات : فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو مالا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، ومالا يتفق في الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلم ؛ وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر ، وهو الرأي الذي يقبله العقل والمنطق . وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره .

### بطلان القول بالطبيعة

يقول صاحب كتاب « في العقيدة الإسلامية والأخلاق » : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادي في مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه . وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة . بينما هو في نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هي خالقة كل ما في الوجود ، أو هي التي تمنح الحياة لكل حي في الكون . فكيف يكون إله ذلك الذي يقهره الإنسان ، ومن ثم يعبده ؟ إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشري إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ، وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخر ، فأله الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسائل السماوية لتنير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما في الكون ؛ إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ، بل تطمح وتعشق العبودية ، ولهذا راحت في عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة تحت اسم الطبيعة وتدعى أنها هي الخالقة .

ولنا أن نسأل : ما هي الطبيعة ؟ أي الماء والنار والتراب والهواء ؟ أي الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أي القوانين التي يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أي الصفات والخصائص التي تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أي الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة ، فأيا كان الجواب ، فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟ والإجابة نعرفها جميعاً : إنه حيوان ناطق مريد . ولقد اقتضى النطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة ، واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ، ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ، فهل استطاع أن يخلق أى شىء ، وهو جزء من الطبيعة وأرقى ما فيها ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ .

والإنسان ، وهو السيد العاقل المدبر المخترع للمعلومات والمسخر لكل الآلات ، لم يخلقه لأنه مخلوق ، فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء - مع كل ما يحيط بها من قوانين - الإنسان العاقل ؟ .

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تعنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن لا سمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له .

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون النسبية وقانون التناقض . . فالأرض تخلق الأرض والشمس تخلق الشمس والنبات يخلق النبات والإنسان يخلق الإنسان وهكذا ، أو قل - إن شئت - إن صفات الإنسان تخلق الإنسان ، وصفات الأرض تخلق الأرض ، ويعنى هذا أن المعلوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظاهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم الجيولوجى بجامعة أمريكا : ( الحق من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الإنسان إلا أن يجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديددها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ، ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ، فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ لا بد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى ، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً ) .

ويرد سانتلاتا على من يقول بأن الطبيعة هي الخالقة قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين مواردها ؟ وكيف بقيت على تألفها ؟ وكيف تجددت على غط واحد المرة بعد المرة ؟ . هذا .. إذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ ، من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .. هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء ؟ .

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فمن باب أولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا فى درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم هاتاواى ، مصمم العقل الالكترونى للجمعية العلمية للدراسة الملاحية الجوية بمدينة لانجلى فيلد : ( إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها .. إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ولا بد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته ، إنه هو الله اللطيف الخبير ) .

صدقت يارب العالمين إذ قلت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾ (١) .

نشهد أنك أنت الواحد لا شريك لك وأنت القائل وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم ﴾ \* هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ (٢) وصدقت وقولك الحق : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . ولو أخذنا نعدد آلائك وكلماتك ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولما استطعنا أن نصل إلى شاطئ البحر الخضم .

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣) . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٤٣ - ٤٥ .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة لقمان .

(٣) سورة لقمان الآية : ٢٧ .

بمثله مددا \* قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴿١﴾ قال موسى : يارب علمنى شيئاً أدعوك وأذكرك به . قال له يا موسى قل : لا إله إلا الله قال موسى : يارب كل عبادك يقولونها . قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة لمالت بهن لا إله إلا الله .

### المشركون وأهنتهم

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

المفردات : ﴿ أنداداً ﴾ : جمع ند وهو المماثل ، والمراد بها الأوثان والأصنام .  
﴿ أسباب ﴾ : جمع سبب ، وأصله الحبل ، والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصدقة .

﴿ كرة ﴾ : الكرة الرجعة والعودة إلى الحالة التي كان فيها .  
﴿ حسرات ﴾ : جمع حسرة ، وهي أشد الندم على شيء فائت ، وفي التنزيل : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ .

وبعد وضوح الأدلة وقوة البراهين على وحدانية الله ، يخبر تعالى أن هناك من الناس فريقاً أشرك معه غيره ، فاتخذ أنداداً وأصناماً وأوثاناً أحبهم كحب الله وهم يعلمون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقون . وإن تدعوهم فلن يسمعوا ولن يبصروا . قال جل جلاله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (٢) .

أما الذين آمنوا فهم أشد حباً لله ، فهو صاحب الإنعام والإكرام ، هو الرحمن الرحيم ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور . ولو أن هؤلاء الظالمين رأوا

(٢) سورة فاطر آية : ١٤ .

(١) سورة الكهف الآيات : ١٠٩ ، ١١٠ .



العذاب لعلموا أن القوة لله جميعاً ، فهو القوى المتين المتصف بصفات الكمال والجلال : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ \* إنه هو يبدى ويعيد ﴿ (١) ﴾ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ فالقوة له جميعاً وهو شديد العذاب : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴿ وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ (٢) ﴾ .

أما حال هؤلاء في الآخرة فإنها حال تدعو إلى الأسى والألم ، فالأسياد منهم والمستكبرون يتبرأون من الأتباع المستضعفين : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ (٣) . وتقطعت الصلات بين الضعفاء والمستكبرين فتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا مرة أخرى ليتبرأوا من المتبوعين ، ولكن هيهات . . هيهات ؛ إنها الحسرة ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴿ (٤) ﴾ . نعم إن حكم الله عادل ، نعم إنها كلمة الله وما هم بخارجين من النار ﴿ وقال الذين في النار لخنزيرة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴿ (٥) ﴾ ، إنهم بعد ذلك يتوجهون إلى خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ \* لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴿ (٦) ﴾ فيتوجهون بعد ذلك إلى الجبار جل جلاله و ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ \* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴾ \* إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ فاتخذتموهم سخرى حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾ \* إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿ (٧) ﴾ . وهكذا تنفصم العرى بين قوم اجتمعوا على ما يغضب الله فلا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون .

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ \* يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴿ (٨) ﴾ .

فيا أيها العاقل الرشيد لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقي ، واعلم بأن خير الأصحاب من إذا ذكر الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ؛ وشر الأصحاب من إذا ذكر الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك . فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم .

(١) سورة البروج الآيات : ١٢ ، ١٣ .

(٢) سورة . الفجر الآيات : ٢١ - ٢٦ .

(٣) سورة إبراهيم آية : ٢١ .

(٤) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٤٨ .

(٥) سورة غافر الآيات : ٤٩ - ٥٠ .

(٦) سورة الزخرف الآيات : ٧٧ - ٧٨ .

(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ - ١١١ .

(٨) سورة الزخرف الآيات : ٦٧ - ٦٩ .

إن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة فعودها القناعة .

تزود من حياتك للمعاد      وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركز إلى الدنيا كثيراً      فإن المال يجمع للنفاد  
أترضى أن تكون رفيق قوم      لهم زاد وأنت بغير زاد

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾<sup>(١)</sup> ، واعلم بأن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ؛ واسأل الله حسن الخاتمة ، وأكثر من قول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث يا ذا الجلال والإكرام ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء ﴾<sup>(٢)</sup> .

### توجيه وإرشاد

يَتَّبِعُهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِى الْاَرْضِ حَلٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوْا خُطُوٰتِ الشَّيْطٰنِ اِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيْنٌ ﴿١٦٨﴾ اِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوْءِ وَالْفَحْشَآءِ وَاَنْ تَقُوْلُوْا عَلٰى اللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿١٦٩﴾ وَاِذَا قِيْلَ لَهُمْ اتَّبِعُوْا مَا اَنْزَلَ اللّٰهُ قَالُوْا بَلْ نَتَّبِعُ مَا اَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاؤُنَاۙ اَوْ لَوْ كَاْنَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُوْنَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ اِلَّا دُعَاۗءً وَنِدَاۗءً صُمُّۢمْ بِكُمْ عَمٰٓى۟ فَهُمْ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿ خطوات الشيطان ﴾ : جمع خطوة ، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى ، وتستعمل مجازاً فى تتبع الآثار . السوء : أصل السوء ما يسوء الإنسان ، أى يحزنه ، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً ، لأنها تسوء صاحبها ، أى تحزنه فى الحال أو المآل . و ﴿ الفحشاء ﴾ : ما يستعظم ويستفحش من المعاصى ، فهى أقبح أنواع المعاصى . ﴿ ألفتنا ﴾ : وجدنا ، ومنه ﴿ وألفتنا سيدها ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ إنهم ألقوا آباءهم ضالين ﴾<sup>(٤)</sup> ، أى وجدوا . ﴿ ينعق ﴾ : يصيح . يقال : نعق الراعى بغنمه نعيقاً ، إذا صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فانق بضأنك يا جرير فإنما      متتك نفسك فى الخلاء ضللاً

(٣) سورة يوسف آية : ٢٥ .

(٤) سورة الصافات آية : ٦٩ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧ .

(٢) سورة النور آية : ٢١ .

بعد ما بين الله حال فريق من الناس اتخذ من دون الله أنداداً أحبهم كحب الله ؛ والأنداد قد يكونون بشراً أحلوا لأتباعهم أشياء وحرّموا عليهم أشياء ، وأطاعهم الأتباع فضلوا وأضلوا . قال تعالى : ﴿ وقال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ \* اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴿ (١) .

وقد يكون الأنداد أوثاناً عبدوها واعتقدوا أنها تقرّبهم إلى الله زلفى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (٢) .

وكلا الفريقين ضال مضل ؛ فالحكم لله وحده ، والتحريم منه وحده : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراماً قل آله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ \* وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿ (٣) . أما الذين اتخذوا الأنداد وسائط وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإن الله تعالى يبطل حججهم ويدحض أدلتهم فيقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ﴾ (٤) ، ويقول : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (٥) . هؤلاء المتبوعون والتابعون سيكونون أعداء يوم القيامة : ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ (٦) ، وتكون العاقبة أن يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم كما سيكون المصير خلوداً في النار وبئس القرار .

ويتوجه النداء الربّاني بعد ذلك إلى الناس أمراً ونهيّاً : أما الأمر : ﴿ كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ ، وأما النهى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ . أما الحلال فهو ما أحله الله ، وهو طيب . قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ (٧) . وقد كانت الزوجة المسلمة توصى زوجها وهو ذاهب يستقبل يومه لكسب لقمة عيشه وتقول له : يا فلان اتق الله ولا تأكل حراماً ، فإننا نصبر على الجوع في الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

والحرام ضد الحلال ؛ وقد يكون الحرام محرماً لذاته أو لأمر عارض ، وسيأتى بيان المحرم لذاته في قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾ (٨) ، وفي قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قل لا أجد في ما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهلّ لغير الله به ﴾ (٩) ، وقد يكون الحرام لأمر عارض كاستغلال النفوذ لأكل أموال الناس بالباطل ، وكما قال

(٦) سورة البقرة آية : ١٦٦ .

(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(٨) سورة النحل آية : ١١٥ .

(٩) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٢٥ .

(٣) سورة يونس الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

(٥) سورة ق آية : ١٦ .

تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ (١) ، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً « الرشوة » ، قال ﷺ : ( لعن الله الراشي والمرتشي والرائش ) (٢) .

قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾ (٣) . ﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ (٤) . وقال جلّت قدرته : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ (٥) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون \* إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون ﴾ (٦) . وكيف يتبع العقلاء آثار الشيطان وخطواته وقد حذرنا الله من عداوته البينة : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٧) .

إن الذين يتبعون خطوات الشيطان قد ضلوا سواء السبيل ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (٨) . وإنما نهى الله عن اتباع الخطوات لأن الشيطان لكي يوقع ابن آدم في المعصية ، فإنه يتدرج به خطوة خطوة بعد ما يزين له سوء عمله فيراه حسناً . قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ (٩) ، ومن ثم فإن للشيطان خطوات ومقدمات يمهّد بها الطريق أمام من يريد إغواءه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرختي إني كُفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (١٠) . وقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين \* فكان عاقبتهما أنها في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (١١) .

وهل نهانا الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان إلا لأن ذلك فيه نفعنا وصلاحنا ؟ ولأن اتباع خطواته فيه شقاؤنا وضلالنا ؟ ﴿ يريد الله ليبين لكم يهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم

(٧) سورة فاطر آية : ٦ .

(٨) سورة النور آية : ٢١ .

(٩) سورة فاطر آية : ٨ .

(١٠) سورة إبراهيم آية : ٢٦ .

(١١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٨ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .

(٣) سورة المائدة آية : ١٠٣ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٣٩ .

(٥) سورة النحل الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

(٦) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

حكيم \* والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿١﴾ .

قال تعالى مبيناً حكمة النهي عن اتباع الخطوات : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ، وكان سائلاً قال : بم يأمرنا هذا العدو المبين ؟ فين الله لنا الحكمة البالغة بأسلوب يفيد الحصر والقصر فقال : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ ، فكان أمره مقصور على السوء ، وهو كل ما يسيئك فعله من الذنوب ، والفحشاء : وهو كل ما فحش من الموبقات المهلكات بحيث أصبح شنيعاً . وقد تطلق الفحشاء ويراد بها البخل كما في قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ ﴿٢﴾ .

والفحشاء أشد جرماً من السوء . قال تعالى في شأن يوسف الصديق لما راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ﴾ ﴿٣﴾ ، قال جل جلاله بعد ذلك : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ﴿٤﴾ .

ورأى بعض المفسرين أن السوء : هو الشروع في الذنب ، أى مقدماته ، والفحشاء هو الذنب نفسه ، وهذا قول يوضح الفرق بينهما . وكما يأمر الشيطان بالسوء والفحشاء ، كذلك يأمر أتباعه أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، أى يقولون على الله بالجهل : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ﴿٥﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ ﴿٦﴾ . وكما يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم في الشرائع ، كذلك يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم في العقائد ، بأن يقولوا إن الله تعالى صاحبة وولدا : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾ ﴿٧﴾ ؛ كذلك يأمرهم الشيطان أن يقلدوا الآباء في الكفر ويسيروا على نهجهم في الشرك . وما يزيد الأمر سفهاً وقبحاً أنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ، أى أيتبعونهم ولو كان الآباء لا يعقلون أى شيء ولا يفقهون ولا يهتدون إلى سبيل الحق ؟ وقال تعالى في آية أخرى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴿٨﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ ﴿٩﴾ . ولما كان تقليد هؤلاء القوم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، بين الله حالهم وصفتهم في مثل ضربه لهم ، والمثل نجاء به لبيان الحال ، حتى إنه يجعل من الأمور المعقولة كأنها أمور محسوسة لشدة وضوحها وبيانها ، قال تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .

(٣) سورة يوسف آية : ٢٣ .

(٤) سورة يوسف آية : ٢٤ .

(٥) سورة الشورى آية : ٢١ .

(٦) سورة النحل آية : ١١٦ .

(٧) سورة التوبة آية : ٣٠ .

(٨) سورة الزخرف الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٩) سورة لقمان آية : ٢١ .

ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴿١﴾ ، أى مثلهم فى التقليد واتباع كل ناعق كمثل الراعى الذى يصيح بالعجماوات التى لا تعقل ، وإنما تسمع الدعاء والنداء فتقبل مرة وتدبر أخرى دونما تعقل أو تدبر أو فكر ؛ فهؤلاء الذين عطلوا حواسهم وعقولهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة فقلدوا الباطل ، هؤلاء صم لا يسمعون ، بكم لا يتكلمون ، عمى لا يبصرون ؛ وفوق ذلك كله لا يعقلون . قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) .

### نداء إلى المؤمنين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٦﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾

المفردات : الإلهال : رفع الصوت ، وكانوا إذا ذبحوا لاهتهم يرفعون أصواتهم بذكرها ، ويقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ؛ ثم قيل لكل ذابح ( مُهل ) وإن لم يجهر بالتسمية ، والباغى الطالب للشيء الراغب فيه ، والعاذى المتجاوز قدر الضرورة ، كما جاء فى التزويل : ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ (٣) ، أى لا تتجاوز إلى غيرهم ، والإثم : الذنب والمعصية .

بعد ما أمر الله تعالى الناس أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، خص المؤمنين بالذكر ، وأمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، ذلك لأنهم أسرع الناس امتثالاً لأمر الله واجتناباً لنهيهِ ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ . وعظمة الإسلام تتجلى فى أنه دين الفطرة ، يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فهو دين الله الذى يعلم من خلق : ﴿ قل أنتم أعلم أم الله والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ . قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بإيجاز وجيز : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل ليته ما نهى .

ولقد شرع الله لعباده من الطيبات ما يصلح به أبدانهم ونفوسهم ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى حرم على زبانيته ما أحل ، كالبخيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكما حرم على أتباعه أكل ما فيه روح أو ما اتخذ مما فيه روح ، ويسمون ذلك صياماً . الله تعالى يعلم أن الشياطين لهم شهوة وليس لهم عقل ، وأن

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

(١) سورة الحج آية : ٤٦ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

الملائكة جواهر مجردة من الشهوة ، فهم أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وأن الإنسان مزيج من الجسد والروح . فغذاء الروح من لطائف المعارف ، وفي رياض ذكر الله ، وغذاء البدن في الأكل والشرب من طيبات رزق الله : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

ثم أمرهم تعالى بالشكر على نعمائه ، وهل الشكر إلا تسخير الإنسان كل عضو فيه في طاعة الله : فشكر العينين البكاء ، وشكر الأذنين الإصغاء ، وشكر اليدين العطاء ، وشكر اللسان الثناء ، وشكر الروح الخوف والرجاء ، وشكر القلب التسليم والرضاء . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرني ولا تنساني ، إنك إن ذكرتني شكرتني ، وإن نسيتني كفرتني . . اقرءوا إن شئتم : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٢) . ولما للشكر من مكانة ، فقد جعله الله تعالى شرطاً في إخلاص العبادة له فقال : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . وهل العبادة إلا خضوع مصحوب بالتقديس والتعظيم ؟ ولا يكون ذلك إلا لله وحده .

ثم عدد الله بعد ذلك أنواعاً من المطعومات حرمها على عباده ، فقد حرم الميتة ، والميتة ما مات حتف أنفه ، أو ما لم يُدك ذكاة شرعية ، كما حرم الدم المسفوح . ومن أنواع الميتة : المنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . وقد أحل الله لنا ميتتين ودمين : السمك والجراد ، والكبد والطحال . كذلك حرم علينا لحم الخنزير لما فيه من الأضرار الصحية التي سببها فيما بعد . كذلك حرم علينا ما يتعلق بانحراف في العقيدة عند ذبحه ، كأن يذكر عليه اسم غير اسم الله .

وبعد ما بين الله هذه المحرمات من الأطعمة قال : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ ، أي دون بغى أو تجاوز للحدود ، بل كان مضطراً ألجأته الحاجة والضرورة التي بينها الله تعالى في قوله : ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ (٣) ، فمن اضطرته الحاجة في حال الضرورة إلى أكل شيء من هذه المطعومات ، فإن الله غفور لهذا العمل الذي أتاه المرء دون أن يكون منه بغى ولا عدوان ؛ فالضرورات تبيح المحظورات ، لكن يجب أن يُعلم أن الضرورة تقدر بقدرها بأن تكون بقدر الحاجة دون زيادة عليها ، والله تعالى رحيم بعباده ، لا يكلفهم بما لا يطيقون ، بل يشرع لهم من الدين ما اقتضته رحمته بهم ، وجعل اليسر من خصائص التشريع ، قال تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (٥) . وما حرم الله شيئاً إلا وفيه من وراء التحريم حكمة : ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ (٦) . ولنصغ إلى لسان العلم يحدثننا بتلك الحقائق ، فقد جاء في كتاب الغذاء والدواء في القرآن الكريم ما نصه : حرم القرآن الكريم لحكمة سامية أكل الميتة والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والذبح للأوثان . وورد

(١) سورة الأعراف آية : ٣٢ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

(٣) سورة المائدة آية : ٣ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٨٥ .

(٥) سورة الحج آية : ٧٨ .

(٦) سورة الأنعام آية : ١٤٩ .

هذا التحريم في الآيات الآتية : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوْحِي إِلَىٰ مَحْرَمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وما حرم الله كل ذلك إلا لحكمة ما ولتجنب الإنسان الأضرار التي تنشأ عن أكلها ، وجميع أنواع اللحوم ما عدا لحم الخنزير حلال أكلها إذا ذبحت وذكيّت بالطريقة المشروعة وذكر عليها اسم الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> . وعلاوة على أن هذه أمور تعبدية ، يجب على المؤمن الحق أن يمثل لأوامر الله ونواهيه ويطيع جميع أوامره ، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك أسس ولبنات التغذية الصحية ، وكل هذه النواهي إنما كانت من المولى القدير لحكمة بالغة يدركها الإنسان كلما اتسعت مدارك علمه ، وأظهر له البحث والعلم ما في هذه الأمور من ضرر بالغ يتلف صحته ويودي بحياته ، فالله سبحانه وتعالى أحل الطيبات وحرم الخبائث لصالح البشرية وسعادتها . ﴿ وَيَحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتُ وَيَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثُ ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقد يكون موت الحيوان نتيجة لشيخوخة أو مرض عضوي أو طفيل ، أو نتيجة لتسممه من مصدر خارجي ، ومن ثم يشتمل لحمه على مواد تؤذي من يأكله ، هذا فضلا عن أن الحيوان الذي يموت دون تذكية ينحبس فيه الدم ، وقد يمضي على موته وقت طويل لا يُستطاع تحديده فيتعرض جسمه للتحلل والفساد .

وعند موت الحيوانات بمرض ما ، يكون هذا المرض قد استنفد من الحيوان في مكافحة قواه الحيوية للتخلص منه ، ولما لم يستطع مات بعد أن اضطربت أعضاؤه بتأثير العوامل التي ولدت المرض ، كالجراثيم والسموم الناشئة من فساد أنسجة الحيوان أو قصور أجهزته الإفرازية كالكلية للتخلص من السموم التي تتراكم بلحومها وأعضائها ، ولذلك كان هذا اللحم وتلك الأعضاء مصدرا للضرر بصحة آكليها ، وقد تكون الجراثيم مسببة المرض والوفاة في الميتة والتي تنتقل بدورها إلى الإنسان فتفتك به .

والدم : هو السائل الذي يتجول في جميع أجزاء الجسم ويقوم بوظائف فسيولوجية عديدة ، فيأخذ من أنسجة الجسم فضلاتها من سموم وغازات بعد أن يكون قد أوصل لهذه الأنسجة المواد الغذائية لتكوين الخلايا وبناء الجسم ، ويبدو الدم مفعما بالجراثيم في معظم أمراض الحيوان ، لأن الدم يعتبر مزرعة مناسبة لنمو كثير منها ، وبيئة صالحة لنمو الميكروبات ، وهو أسرع وسائل عدوى الأمراض ، ولذلك كان التغذي به يعرض الإنسان لانتقال الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان وهي عديدة ، وتنتقل عن طريق الدم

(٤) سورة الأنعام آية : ١٢١ .

(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

(١) سورة المائدة آية : ٣ .

(٢) سورة النحل آية : ١١٥ .

(٣) سورة الأنعام آية : ١١٨ .



الموبوء والذي يعتبر مخزنا لعديد من الجراثيم الضارة . ويزيد من خطر استعمال الدم في الغذاء صعوبة اكتشاف أكثر الجراثيم والميكروبات التي تصيبه ، وهو بحكم عمله الحيوى يحمل فضلات السموم في الحيوانات المريضة ، ويحمل الدم بعض الإفرازات الداخلية لبعض الغدد ، وإذا زاد بعضها عن المعدل المناسب يسبب أعراضا سمية مختلفة .

• حيث إن الدم قد يخزن الميكروبات والسموم والإفرازات التي تجعل الدم خطيرا بنفسه ، كما تجعل اللحم عرضة للفساد والتعفن مما يؤثر في صحة آكل هذه اللحوم ؛ فقد كانت حكمة الله الرحيم بعباده أن حرّم أكله ، وأوجب التخلص منه بذبح الحيوان قبل استعمال لحومه للأكل ، لما في ذلك من محافظة على صحة الإنسان .

لحم الخنزير : الخنزير من الحيوانات التي تأكل القمامة والقاذورات والنفايات ، فهو جامع لمعان القبح والقذارة والرجس والنجاسة ، ويشتهر بطباع عارية من الحياء في تزاوجه ، بالإضافة إلى ما يتعرض له من إصابة بعدد كبير من الطفيليات التي تصيب الإنسان ، كذلك من الفيروسات مثل فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء والسببكتيات ( اللبتوسيرا ) الذي يسبب مرض « حمى العقل » ، وكذلك العديد من الحيوانات الأولية ( البروتوزوا ) مثل الزحار البلتيدي وبعض أنواع « التريبانوسوما » . والخنزير من العوامل الخازنة الإضافية لبعض الطفيليات . ويصاب الخنزير بأنواع عديدة من الديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس . وأهم هذه الطفيليات :

١ - الحيوان الأولي الهلبي المسمى « بالأنتيديوم كولاى » المسبب للزحار البلتيدي الذي يماثل الزحار الأميبي شدة وضراوة وضررا ، ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير ، ويكاد يكون مرضا مهينا لا يصيب سوى المشتغلين بتربية الخنزير وذبحها وبيع لحومها .

٢ - الوشائع الكبدية والمعوية في الشرق الأقصى وبخاصة وشيعة الأمعاء الكبيرة ( فاسيولوس بوسكاى ) الواسعة الانتشار في الصين ، ووشيعة الأمعاء الصغيرة ( جاسترود سكويرس هينوفيس ) التي تصيب أهالى البنغال وبورما ، ووشيعة الكبد الصينية ( كلونوركس سينسز ) المنتشرة في الصين واليابان وكوريا على الأخص . ويعتبر الخنزير العامل الخازن الرئيسى لهذه الطفيليات وبخاصة الدودتين الأوليين اللتين تنطلقان منه لتمضيا دورة حياتهما في عوائلهما الأخرى ، حتى تصيبا الإنسان ، ومن ثم فمقاومتها في الإنسان وحده لا تكفى ، حيث إن الخنزير ( مخزن ) رئيسى لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة في أنواع معينة من القواقع والأسماك ، وهى تسبب أعراضا شديدة والتهابا موضعيا ونزفا وتقرحا في جدران الأمعاء الدقيقة ، واضطرابات معوية وإسهالا مزمنا وأنيميا ، وقد تحدث الوفاة نتيجة للإجهاد العام وانحطاط شديد في القوى .

٣ - دودة لحم الخنزير الشريطية ( شينياسوليوم ) ، وهى تعيش في طورها البالغ في أمعاء الإنسان حيث قد يبلغ طولها أربعة أمتار أو أكثر من ذلك ، والدودة ذات رأس أصغر من رأس الدبوس ، وعنق

قصير ، تنمو منه قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعاً وتأخذ في النمو لتكون ذلك الشريط الطويل ، وكل أسلة كأنه حيوان قائم بذاته ، إذ توجد به أجهزة التناسل المذكورة والمؤنثة ، ولا تلبث عند تأنيث الشدفة الناضجة أن يمتلئ بآلاف البويضات حتى تصبح الشدفة مجرد كيس ممتلئ بذلك بيض كثير ينمو في كل واحدة منه جنين كروى ذو ست أشواك تشبه الخطاطيف ، ومن ثم تعرف البيضة بالكرات ذات الخطاطيف .

وتنفصل الشدف المثقلات عن الدودة وتخرج مع إبراز الإنسان المصاب ، وفي التربة الملوثة الرطبة تستطيع الشدفة أو ما فيها من بيض أن تبقى زمناً ليس بالقصير حتى يأتى خنزير رمام يأكل ما فى الأرض من نفايات ، فيبتلع معها شدفة أو بضع شدفات أو على الأقل بويضات ، فتعمل العصارات الهاضمة على أن تطلق الأجنة من محابسها ، فتشق طريقها بأشواكها مخترقة جدار القناة الهضمية حتى تصل إلى أوعية الدم أو اللمف ، فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر فى أنحاء شتى من جسم الخنزير حيث تنمو عضلاته ، وبخاصة اللسان والرقبة والكتف والبطن ، مكونة حويصلات أو مثانات كروية منتفخة معروفة باسم الديدان المثانية ، فى كل منها رأس يصلح لأن تنمو منه دودة شريطية كاملة ، ويحدث هذا عندما يأكل هذا اللحم المصاب طاعم غافل دون أن ينضجه نضجاً كافياً لقتل ما فيه من ديدان ، وعادة ما تنجح دودة واحدة فى سكنى أمعاء الشخص المصاب .

وفى هذه الدورة يقوم الخنزير بدور ما يسمى العائل الوسيط ، بينما يسمى الإنسان العائل النهائى ، وليس الخنزير هو العائل الوسيط الوحيد ، فقد تبتلع الكلاب والجمال والقردة بعض الديدان ، فتتم فى عضلاتها الحويصلات أو الديدان المثانية ، ولكن الخنزير يعتبر فى الواقع المصدر الوحيد ، أو يكاد ، لعدوى الإنسان . ويصاب الإنسان بدودة أخرى من نفس الجنس ، وهى دودة لحم البقر الشريطية ( ساجيناتا ) ، والعائل الوسيط لها ، كما هو ظاهر ، الأبقار والثيران . ولحم الخنزير المصاب يكون فى العادة أكثر إصابة من لحم البقر المصاب ، وقد يربو عددها على عشرة آلاف فى كيلو اللحم الواحد من الخنزير .

ودودة لحم البقر تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، وإن كانت أطول منها ، وعدد شدفاتها أكثر ، ودورة الحياة متشابهة فى الحالتين ؛ بيد أن الذى تنفرد به دودة لحم الخنزير دون دودة لحم البقر هو إمكان انعكاس الدورة انعكاساً جزئياً فيصبح الإنسان هو العائل الوسيط ، أى أنه يحل محل الخنزير فى هذه الدورة ، فيؤوى جسمه يرقات الدودة ، أى ديدانها المثانية ، وينشأ هنا الانعكاس الجزئى فى دورة حياة دودة لحم الخنزير من ابتلاع الإنسان بيض هذه الدودة إذا تلوث يده أو طعامه بشيء منها لسبب من الأسباب ، كما أن هذه العدوى قد تكون ذاتية ، أى أن يكون مصدر البيض المعوى هو الدودة التى يؤوىها الشخص نفسه فى أمعائه . وقد اتضح أن البيض الناضج أو الشدافات المثقلة بالبيض الناضج قد ترتد من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية إلى معدته ، وفى جميع هذه الأحوال يفسد البيض فى المعدة ، وتنطلق منه الأجنة ذوات الأشواك أو الخطاطيف الستة ، وتنطلق مع دورة الدم وتنتشر فى أجزاء الجسم لتستقر فى عضلاته مكونة ديدانا مثانية مثلما يحدث للخنزير مبتلع البيض . أما إذا وصل بيض دودة لحم البقر إلى معدة الإنسان فإنه لن

يترتب على ذلك شيء على الإطلاق ، من حيث إن الإنسان غير قابل لتكوين يرقاتها أو ديدانها المثانية في جسمه ، وهذا هو الفرق الرئيسى بين الدودتين ، وهو أس البلاء كله في الإصابة بدودة لحم الخنزير .

٤ - مرض الديدان المثانية : تبدأ الإصابة بهذا المرض بالبيض الذى تخرج منه الأجنة وتذهب إلى أى عضو من الجسم وبخاصة عضلات الأطراف واللسان والعنق ، وأحياناً الرئتين والقلب والعين أو النخاع الشوكى ، وتستقر وتولد ديداناً مثانية ، وعندما تستقر فى المخ تولد حالات من الصداع والشلل العضوى الجزئى واضطرابات بصرية ونفسية ، وأحياناً تتكلس الحويصلات متحولة إلى مادة حجرية .

٥ - الديدان الشعرية الحلزونية ( تريكتيلا سبيراليس ) : وأعراضها الخطيرة مترتبة على انتشار يرقاتها فى عضلات الجسم ، وأعراض الإصابة بها شديدة متنوعة ، منها الاضطرابات المعدية المعوية والحمى والآلام الروماتيزمية وصعوبة المضغ والتنفس وتحريك العينين والتهاب المخ والنخاع الشوكى والسجايى المحيطة بهما ، والأعراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك ، والتسمم والإجهاد العام والارتشاح والمضاعفات التنفسية ، وفى الإصابات القاتلة تحدث الوفاة بين الأسبوعين الرابع والسادس فى معظم الأحوال ، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الويل باستثناء المناطق القطبية . ومواطن انتشار المرض هى أوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . والمحاولات المضنية لتجنب هذا البلاء بترية الخنازير بطريقة صحية وفحص ذبائحها ومعالجة لحومها بوسائل باهظة التكاليف غير مجدية من الناحية العملية ، ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أمريكا بها ٣ أمثال عدد الإصابات فى العالم أجمع ، وأن متوسط نسب الإصابة فى ولاياتها المختلفة هو ١٦ ٪ ، مع الوثوق بأن هذا الرقم أقل كثيراً من الحقيقة ، وأن نسبة إصابة الخنازير تتراوح بين ٥ ، ٢٧ ٪ فى الولايات المختلفة .

٦ - مرض التريكتينا ( تريكتينوسز ) : كما هو الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعرية البالغة هى الخطيرة ، وإنما يرقاتها هى رأس البلاء ، حيث تخرج الديدان من حويصلاتها عندما يأكل الإنسان اللحم المصاب ، وتضع يرقاتها فى أى جزء من عضلات الجسم إلا عضلة القلب ، وتسبب أعراضاً مرضية شديدة تؤدى غالباً إلى الوفاة فى غضون أسابيع قليلة .

وبالإضافة إلى كل هذه الأمراض فإن دهن الخنزير مختلف اختلافاً تاماً فى درجة تشبعه عن الزيوت النباتية والدهون الحيوانية الأخرى ، ومن ثم فصلاحيته للغذاء موضع شك كبير بين العلماء ، بجانب أنه ليس سهل الهضم . وينصح الأستاذ دام أستاذ الكيمياء الحيوية الدنماركى ، والحاصل على جائزة نوبل ، بعدم المداومة على تناوله ، حيث إنه قد ثبت بالتجربة أنه من أهم أسباب تكوين حصى المرارة وانسداد قنواتها وتصلب الشرايين وبعض أمراض القلب الأخرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الفقهاء يعتبرون لفظ اللحم شاملاً للحم وللدهن جميعاً .

## جزاء الذين يكتُمون الحق

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

**المفردات :** ﴿الضلالة﴾ : هي العماية التي لا يمتد في الإنسان لمقصده ، والهدى : الشرائع التي أنزلها الله على لسان أنبيائه ، والشقاق : هو العداء والتنازع ، وهو أثر الاختلاف ، وحقيقته أن يكون كل من الخصمين في شق ، أى جانب غير مافيه الآخر .

إن جنابة كتمان الحق جنابة لا تغفر ، وكاتم الحق كالساكت عنه شيطان أخرس ، وفي ما مضى من الآيات جاء الوعيد شديداً للذين يكتُمون ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (١) ، وهل اللعن إلا طرد من رحمة الله ؟ وهنا أضاف الله أحكاماً أخرى على الكائمين حيث قال سبحانه : ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترُونَ به ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ . ومن أشنع ما كتموه صفة النبي ﷺ التي ورد ذكرها في الكتب المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، فقد أنكروها وادعوا زوراً وبهتاناً عدم ورودها ، واشتروا الدنيا ومتاعها وزخارفها ثمناً لهذا الإنكار وإرضاء لرؤسائهم ، وباعوا الحق ، والدنيا مهما أقبلت فهي قليلة .

لكل شيء إذا ما تم نقصان  
فلا يغرب بطيب العيش إنسان  
هي الحياة كما شاهدها دول  
من سره زمن ساءته أزمان

والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ؛ وكم من قبور تبني وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفع له علامات فلما علامات . الدنيا مهما أعطت فهي قليلة كما صورها النبي ﷺ في قوله : ( لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ) (٢) ، والدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر .

هي الأيام لا تبقى عزيزا  
وساعات السرور بها قليلة  
إذا نشر الضياء عليك نجم  
وأشرق فارتقب يوماً أفوله

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر .

(١) سورة البقرة آية : ١٥٩ .

والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

فما من كاتب إلا ويفنى      ويبقى الدهر ما كتبت يداه  
فلا تكتب بكفك غير شيء      يسرك في القيامة أن تراه

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا ﴾ \* أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . إن العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ابتغاء رضا الرؤساء مقابل رشوة خائنة ، هؤلاء مهملات أوتوا فإن الحق لا مساومة عليه ، ومهما أوتوا فإنه قليل ، وإن ما يأكلونه من الرشا إنما هو نار تظلي في الدنيا ، لأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام دمر ؛ أما في الآخرة فإن الله عليهم غضبان لا يكلمهم ، لأنهم أعداؤه الألداء ، ولا يزيكهم ، أي لا يظهر نفوسهم ، لأن الشيطان عشش فيها ، وباض فيها الظلم ، وفرخ فيها السحت . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ \* أي مؤلم موجه ؛ فأى خزي بعد هذا الخزي في الدنيا والآخرة : نار في البطون تسرى سريان النار في الخلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء ، وغضب من الله يوم القيامة ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴿ \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾<sup>(٢)</sup> . ما أقل عقل هؤلاء وما أشد غباءهم وما أخسر تجارتهم ، هؤلاء الذين اشتروا الضلالة العمياء والجهالة الجاهلاء وخبطوا خبط عشواء في ليلة ظلماء باعوا الهدى واشتروا الضلالة ، وباعوا المغفرة والرحمة والرضوان واشتروا العذاب ، فما أشد صبرهم على نار جهنم ، وما نارنا هذه بالنسبة لنار جهنم إلا جزء من سبعين جزءًا . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾<sup>(٣)</sup> . فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر شوقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ؛ ولا تنظر للمعصية من حيث إنها معصية ، إنما انظر إليها نظرة ثاقبة وسل نفسك في حق من تعصى ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ له دعوة الحق ﴾<sup>(٦)</sup> ، ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾<sup>(٧)</sup> ، ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾<sup>(٨)</sup> ، ﴿ الحق من ربك ﴾<sup>(٩)</sup> ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾<sup>(١٠)</sup> ، ﴿ يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(١١)</sup> ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾<sup>(١٢)</sup> ، ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾<sup>(١٣)</sup> ، ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علام

(٨) سورة الصافات آية : ٢٧ .

(٩) سورة البقرة آية : ١٤٧ .

(١٠) سورة الأنبياء آية : ١٨ .

(١١) سورة النور آية : ٢٥ .

(١٢) سورة الحج آية : ٦ ، وآية : ٦٢ ، وسورة لقمان آية : ٣٠ .

(١٣) سورة الأنعام آية : ٧٣ .

(١) سورة النساء الايتان : ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة طه الايات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .

(٤) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

(٥) سورة يونس آية : ٣٢ .

(٦) سورة الرعد آية : ١٤ .

(٧) سورة سبأ آية : ٢٦ .

الغيوب ﴿١﴾ ، ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ ﴿٣﴾ .

فالذين اختلفوا في الكتاب ولم يردوا هذا الاختلاف إلى أصول الحق ، واختلفوا في عقائد الله وشرائعه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، والله تعالى يقول : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ﴿٤﴾ ، ويقول : ﴿ وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ ﴿٥﴾ ، ويقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾ ﴿٦﴾ ، ويقول : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ ﴿٧﴾ ؛ فقد أحلوا وحرموا واختلفوا فيما أنزل الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وغيروا وبدلوا بعدما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ؛ هؤلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وهم فى شقاق بعيد المدى ، وعداء ضارب فى الأعماق ، وخلاف ممتد الجذور ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متشعب المسالك يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الحمل . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، فإنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

### آية البر

\* لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ  
السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا  
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ البر ﴾ : لغة التوسع فى الخير ، وأصله من البر المقابل للبحر ، وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق . ﴿ قبل المشرق والمغرب ﴾ أى ناحيتهما ﴿ وآتى المال ﴾ أى أعطاه . والمسكين : هو الدائم السكون ، لأن الحاجة أسكنته والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه . ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أوبذى قرابة . والسائل من

(٥) سورة الشورى آية ١٠ .

(٦) سورة النحل آية : ٦٤ .

(٧) سورة النمل آية : ٧٦ .

(١) سورة سبأ آية : ٤٨ .

(٢) سورة سبأ آية : ٤٩ .

(٣) سورة النمل آية : ٧٩ .

(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .

أجلاته الحاجة إلى السؤال ، وتكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة يجب على السائل ألا يتعدها . ﴿ وفي الرقاب ﴾ أى فى تحرير الرقاب وعتقها ، ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى أداها على أقوم وجه وأحسنه . والعهد : ما يلتزم به إنسان لآخر . و ﴿ البأساء ﴾ : من البؤس ، وهو الفقر والشدة ، ﴿ والضراء ﴾ : كل مايضر الإنسان من مرض أو فقد حبيب من أهل أو مال . ﴿ صدقوا ﴾ : أى فى دعوى الإيمان . ﴿ والتقوى ﴾ : هى الوقاية من سخط الله وغضبه بالبعد عن الآثام والذنوب .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية : اشتملت هذه الآية على جل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة ، كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبي حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ، قال : ثم سألته أيضاً فتلاها عليه ، ثم سألته فقال : ( إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك ) . وقال المسعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبى ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ حتى فرغ منها فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتني عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : ( المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها ، وإذا عمل سيئة أحرزته وخاف عقابها ) . رواه ابن مردويه والله أعلم .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فانزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد هو طاعة الله عز وجل وامتنال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ، كما قال فى الأضاحى والهدايا : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ (١) ، وقال السيوطى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك ، وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصراني تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله ، وقال مجاهد : ولكن البر ما ثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل . وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها . وقال الثورى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية . قال : هذه أنواع البر كلها ، وصدق ، رحمه الله ، من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة

الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ والكتاب ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيم على ما قبله من الكتب ، الذي انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : ( أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتحشى الفقر ) . وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ، والثوري عن منصور عن زبيد عن عروة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتحشى الفقر . وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴿ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ <sup>(٣)</sup> . غط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له . وقوله : ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى الصدقة ، كما ثبت في الحديث : ( الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصله ، فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك ) . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز . ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات أبائهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن جوير عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي عن رسول الله ﷺ قال : ( لا يتم بعد حلم ) . ﴿ والمساكين ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وختلتهم . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفظن له فيتصدق عليه ) . ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً في طاعة ، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه ، ويدخل في ذلك الضيف ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالوا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبي يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن بن الحسين بن علي قال قال رسول الله ﷺ : ( للسائل حق وإن جاء على فرس ) . ﴿ وفى الرقاب ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابهم ، وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى .

(١) سورة الإنسان الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٢ .

(٣) سورة الحشر الآية ٩ .



وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبي حمزة عن الشعبي حدثني فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ : أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت : فتلا على ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ ، ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبي إياس ويحيى بن عبد الحميد كليهما عن شريك عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ : ( فى المال حق سوى الزكاة ) ثم قرأ : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ إلى قوله ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، وقوله : ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمانيتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى . وقوله : ﴿ وآتى المال ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ وقد خاب من دساها ﴿ ، وقول موسى لفرعون : ﴿ هل لك إلى أن تزكى ﴾ وأهديك إلى ربك فتحشى ﴿ ، وقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم .

وقوله : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ، وعكس هذه الصفة النفاق ، كما صح فى الحديث : ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ) ، وفى الحديث الآخر : ( وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ) . وقوله : ﴿ والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء ، ﴿ وحين البأس ﴾ أى فى حال القتال والتقاء الأعداء ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم . وإنما نصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم .

وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ ، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات<sup>(١)</sup> .

### كلمة فى عتق الرقاب

جاء فى كتابنا « رياض الجنة » تحت عنوان ( الإسلام محرر البشرية ) ما نصه : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٩٦ - ٢٩٩ ط الشعب .

البشرية إليه . والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ، والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد وجعل منهم سادة أقوياء . لقد حاول أعداء الإسلام فجعلوا من مسألة ( الرق ) ثغرة يحاولون النفاذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز ؛ ولو تدبر هؤلاء مسألة ( الرق ) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

ويقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتأمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام قياساً على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم فى الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة ( النخاسة ) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا ( النخاسة ) قديماً وحديثاً ، وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم تاريخ ( النخاسة ) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال كفيفة بإقناع من يستمع إليها مسلماً كان أو غير مسلم ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، فلا امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفي صناعة التبشير . إن الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخرهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ؛ وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإِسار عن الأسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة . لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإِسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن يحنث فى يمينه ومن يظاهر من زوجته ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب ، ولم يبق

الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى أو ببذل التعويض الذى تعرضه الدول الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدول الإسلامية وهى تتولى صرف الزكاة ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق فهى المسئولة عن هذا التقصير وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الرقاب منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة لفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون . ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنعاً أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان ؟ إن صنع الإسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرناً هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندرى كيف يكون ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن تستقر عليه . على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية ، كما تسميها ؛ فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح . إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدي الأرقاء ولا تنفق عليها أجوراً ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غية المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت . وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى بعد طول التعثر لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ولكنها كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال ، والفارق الأكبر في مسألة الرق من جانب الواقع التاريخي هو ذلك الفارق الذي تخصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء في البلاد الإسلامية وعددهم في البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكيين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزدوا في البلاد الإسلامية بعد ثلاثة عشر قرناً على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود في الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد من هذا الفارق في العدد : فارق المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الإسلامية والمعاملة التي لقيها إخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاماً من الأسود الذي يرفع هذه الحواجز بينه وبين ساداته البيض .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التي تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التي يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهي هذا البحث التحليلي للدعاية المغرضة التي يشنها سماسة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذي عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هي في الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذي عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذي أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق في هذه الدنيا كأنه بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلّمت بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبدها بحكمة معروفة فيه . . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادي الذي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعي ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه : ( في الدين والأخلاق القومية ) ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، وعن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار . وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربة العبودية ؟ وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله ؟

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ وأن تعجب لشيء فاعجب هؤلاء الذين يلصقون هذه التهم بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوا ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاعتصاب ؛ وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب . فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصدقه فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين ﴿ . وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيع له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة والردائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج . كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبي الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتأكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تتدلج إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ريثما يتيسر لهم الخروج منها . . وسأفسر ذلك .

ويعضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

أما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة ، فذلك هو الدواء الوقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه

بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فالיום لا الخطف ولا البيع والشراء ولا التغلب في المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسيرة ولا العجز عن وفاء الدين ولا السرقة ولا القتل ، لم يعد شيء من ذلك كله منذ ظهر الإسلام يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الإسلام بتحسين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلاهم ذرية تستعيد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا في حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ في العلاج الشافي من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . غير أن هاهنا شبهة تجول في الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ، وهي التي يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين في هذا الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟ والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية .

فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببذل أو بغير بدل ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ ، كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطيرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم عقوبة ( مجرمي الحرب ) . بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كمنظرة إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما كان ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء الخطر وكسراً لشوكته وشوكة قومه ، إنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي وإنما يتخذة مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ويلج في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرر الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحتها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه

الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يجرّض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وما أدراك ما العقبة \* فك رقة ﴿ ، وقال عليه الصلاة والسلام : ( من أعتق رقة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار ) .

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مكرراً في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث هو مفتاح : قانون الكفارات ، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ، كالحنث في اليمين والفطر في رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : كفارة الإساءة : التى تقع من السيد في حق العبد نفسه ، وفي ذلك يقول رسول الرحمة صلوات الله وسلامه عليه : ( من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه ) .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن من حكمه عند أكثر الأئمة أن يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم . لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق بين هذين الطرفين ، نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة في فترة الانتظار .

نعم . . لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدمين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت إيديكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم ) .

صدقت يابى الرحمة صلوات الله وسلامه عليك .

هذا هو موقف الإسلام من الرق .

( ١ ) منع لإنشائه وابتدائه .

( ٢ ) عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

( ٣ ) عطف سابغ عليه في أثناء محنته ويليته .

أما بعد .. فهل من منصف يقولها ، أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام .

وهكذا ينتهي هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .

وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق ومعه الحزم والعزم كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله ..

داويت مثدأ وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

أبعد كل هذه الوصايا البشرية وإحاطتها بالكرامة يجرو أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ماهومنه

براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد ( إن أباكم واحد وإن ربكم واحد ) ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وهذه المساواة العامة فى الإنسانية تتحطم معها فوارق الانحراف البشرى والجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرية والظلام الإنسانى ، فوارق الجاهلية الفتاكة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع ، وهو تميز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق فى قليل أو كثير من طبيعة الخلق والولادة والمآكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

### القصاص فى الإسلام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ كتب ﴾ فرض ولزم عند مطالبة صاحب الحق به .

﴿ القصاص ﴾ : لغة يفيد العدل والمساواة ، ومنه سمي القصاص مقصاً لتعادل جانبيه ، والقصة قصة



لأن الحكاية تساوى المحكى ، وشرعا : أن يقتل القاتل لأنه مساو للمقتول في نظر الشارع :

﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ : أى فمطالبته للدية بالمعروف بلا تعسف .

﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ : أى أداء بلا ماطلة ولا بخس حق .

﴿ اعتدى ﴾ : أى انتقم من القاتل بعد العفو .

﴿ الألباب ﴾ : واحدها لب ، وهو العقل .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين حيين من العرب دماء فى الجاهلية ، وكان لأحدهما طول ( شرف ) على الآخر ، فأقسموا ليقتلن الحر فيكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ فنزلت الآية وأمرهم أن يتبارعوا ( يتساووا ) .

وقد كان القصاص على القتل أمرا محتوماً عند اليهود ، كما فى الفصل التاسع عشر من سفر الخروج ، وكانت الدية أمراً مقضياً عند النصارى وكانت العرب تتحكم فى ذلك بحسب قوة القبائل وضعفها ، فكثيرا ما كانت القبيلة تأبى أن تقتص من القاتل ، بل تقتص من رئيس القبيلة وربما طلبوا بالواحد عشرة ، وبالأنتى ذكراً ، وبالعبد حراً فإن أجيبوا فيها ونعمت وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة ، وهذا ظلم عظيم وقسوة شديدة . وقتل القاتل فحسب وهو ما جاء فى التوراة إصلاح لهذا الظلم .

ولكن قد تقع أحيانا بعض جرائم يكون الحكم فيها قتل القاتل ضاراً ، وتركه لا مفسدة فيه ، كأن يقتل المرء أخاه أو أحد أقاربه لغضب فجائى اضطره إلى قتله ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت ، فإن قتل يفقدون بفقدته النصير والمعين ، بل قد يكون فى قتل القاتل مفسد ومضار ، وإن كان القاتل أجنبياً عن المقتول فيكون من الخير لوليه عدم قتله دفعا للضرر أو استفادة للدية ؛ ففى أمثال هذه الحالات يجوز لأولياء المقتول العفو مع أخذ الدية أو تركها . وإذا ارتفعت عاطفة الرحمة لدى شعب أو بلد صار يستنكر القتل ويرى أن العفو أفضل فالأمر موكل إليهم والشرعية ترغبهم فيه ، وهذا هو الإصلاح الكامل الذى جاء به الكتاب الكريم فى القصاص . ومن أحكام الشرعية الغراء أنه لا يقتل الوالد بولده ، لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الاستمرار فى مثل هذه الجناية ، والوالد بفطرته محمول على الشفقة على ولده حتى ليبدل ماله وروحه فى سبيله ، وقلما يقسو عليه ، ولكن كثيرا ما يقسو الولد على والده وللحاكم أن يعزر ولده بما يراه زاجراً لأمثاله ومريياً لهم .

إن جناية القتل من الجنايات الكبرى فى الإسلام ، وهى إحدى السبع الموبقات ، فهى فى سلك واحد مع الشرك والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

ولقد وقف الرسول ﷺ ذات يوم يقول للكعبة المشرفة : ( ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفسى بيده إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك )<sup>(١)</sup> ، وقد بين الهادى البشير حرمة المؤمن فقال : ( كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله )<sup>(٢)</sup> . وفى خطبة الوداع قال

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣١ ط وزارة الأوقاف . (٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

في كلمات موجزة : ( إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا )<sup>(١)</sup> .

إن الإسلام يأمر بالحفاظ على هذه الكليات الخمس : الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، فلا اعتداء على العقل بالمسكرات ولا اعتداء على العرض بما يحدشه ولو بكلمة ، ولا اعتداء على المال بالسرقة وما شابهها . قال النبي ﷺ : ( من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ) وحرمة الوفاء في الإسلام وصيانة النفوس حكمت الشريعة الغراء أن الجماعة تقتل في الواحد . قال عمر رضي الله عنه . في شأن ثمانية من الرجال قد اشتركوا في قتل واحد ، وكان من صنعاء اليمن ، قال كلمته المشهورة : ( لو تمألاً عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً ) . لذلك اقتضت حكمة الله أن ينفي تلك الجناية عن عباد الرحمن ، وأن يترههم عنها . قال عز من قائل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً \* يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾<sup>(٢)</sup> . وجاء في بيان هذه الجناية ومدى الوعيد عليها قوله جل شأنه : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾<sup>(٣)</sup> وقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾<sup>(٤)</sup> أى لا يقتل أكثر من القاتل . وإذا جرى بالقاتل ليقص منه فلا يمثل به قبل القصاص ولا بعده ، لأن لفظ القصاص ينبيء بالمساواة . ولما كانت الشريعة الإسلامية تنزيلاً من حكيم حميد ، فقد شملت الخير كله ، فلم توجب القصاص إذا عفا أولياء القتيل عن القاتل . ففي الإسلام جانبان : جانب القصاص وجانب العفو ، قال تعالى في صفة المؤمنين : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال في آية أخرى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين \* ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾<sup>(٧)</sup> وقد ورد أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله : من كان أجره على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح .

فإذا ما عفا أولياء الدم عن القاتل ورضوا بالدية أو تصدقوا بها ، فقد سقط القصاص عن القاتل ، فإذا مارضوا بالدية فعليهم أن يتبعوا القاتل مطالبين بالدية المعروف دون تعسف أو مغالاة ، وعلى القاتل أن يؤديها بإحسان دون ماطلة أو تسويق .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه ﴾ فالأخوة في الإسلام أقوى رابطة تؤكد أواصر المحبة ووشائج المودة ، ذلك العفو تخفيف من ربكم ورحمة ، تخفيف عن القاتل ورحمة بأولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ، فقد يكونون في حاجة إلى المال ، فإذا عفوا من غير دية فإن رحمة الله تشملهم في الدنيا والآخرة :

(٥) سورة الاسراء آية : ٣٣ .

(٦) سورة الشورى آية : ٣٩ .

(٧) سورة الشورى آية : ٣٧ .

(٨) سورة الشورى الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

(١) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي ج ٦ ص ١٩٥ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٣٢ ط وزارة الأوقاف .

(٣) سورة الفرقان الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .

(٤) سورة النساء آية : ٩٣ .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ : قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ : هذا خطاب موجه إلى أولياء الدم إذا اعتدوا على القاتل بعد العفو ، إذ أن كلمة الحردين عليه ، وما دام العفو قد حدث فإن الاعتداء بعد ذلك ظلم يوقع صاحبه في مسئولية خطيرة هي العذاب الأليم . ثم بين الله جلّت حكمته الحكمة من القصاص فقال : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ : أى ولكم يا أولى العقول فيما شرعت من القصاص حياة وأى حياة ، لأنه من علم أنه إذا قتل نفساً قتل بها يرتدع ويتزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله ، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس . ﴿ لعلكم تتقون ﴾ : أى لعلكم تتزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه .

وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ باللغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب في هذا المعنى قولهم « القتل أنفى للقتل » ولكن لورود الحكمة في القرآن فضل من ناحية حسن البيان وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر ، فانظر إلى العبارتين ، فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص ، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل ، والمثل العربى جعل سبب الحياة القتل ومن القتل ما يكون ظلماً . فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً . والآية جاءت خالية من التكرار اللفظى ، والمثل كرر فيه لفظ القتل ، ففيه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية . ومن الفروق الدقيقة بينها أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة ، والمثل جعل القتل سبباً لنفى القتل وهو لا يستلزم الحياة . . . الخ .

وقد عد العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية ، وقد ذكرها السيوطى في الإتقان ، فارجع إليه تجد فيه ما يشفى الغليل .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (١) .

### الوصية عند الموت

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

المفردات ﴿ كتب ﴾ : أى فرض . و ﴿ خيراً ﴾ : أى مالا كثيراً .  
 ﴿ الوصية ﴾ : الإيصاء والتوصية ، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل .  
 ﴿ بالمعروف ﴾ : مالا يستنكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرة التى تضر الورثة ، وتقدر  
 الكثرة باعتبار الصرف ، ففى القرى غيرها فى الأمصار ، فهى تقاس بحسب حال الشخص لدى الناس ،  
 وإنما يكون ذلك بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين .  
 ﴿ خاف ﴾ : أى علم . (والجنف) : الخطأ ، و(الإثم) تعمد الإجحاف والظلم .

أوجب الله تبارك وتعالى الوصية عندما تأتى الأمارات على دنو الأجل وقبل أن يدخل الإنسان فى مرحلة  
 الغرغرة ، وذلك ليكون الختام طيباً « وإنما الأعمال بالخواتيم » . وهذه الوصية تكون للوالدين ، كما تكون  
 للأقربين دون ظلم أو حيف ، بمعنى أن تكون قائمة على العدل والمساواة ، وألا تزيد على الثلث ، وهذا على  
 رأى من قال بالوصية الواجبة ، وذلك بأن يموت الابن أو البنت فى حياة المورث ويترك أولاداً ، فإن من قال  
 بالوصية الواجبة من الفقهاء يرى أن الأولاد لهم الحق فى ميراث الجد الذى مات ابنه أو ابنته فى حياته عدلاً  
 وقسطاً ، وذلك بافتراض الابن أو البنت حين يأخذ أولادهما نصيبهما ، بحيث لا يزيد عن الثلث . وقد  
 جاء فى تفسير هذه الآيات مانصه للشيخ المراغى : ( كان الكلام فى الآية السابقة فى القصاص فى القتل وهو  
 ضرب من ضروب الموت ، مناسب أن يذكر ما يطلب ممن يحضره الموت من الوصية ؛ والخطاب عام موجه  
 إلى الناس كلهم بأن يوصوا بشىء من الخير ولا سيما فى حال حضور أسباب الموت وظهور أماراته لتكون خاتمة  
 أعمالهم خيراً . وقد تقدم أن قلنا إن الأمة متكافلة يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد ، وقيام الأفراد  
 بحقوق الشريعة لا يتم إلا بالتعاون والتكافل والائتمار بأوامرها والتناهى عن نواهيها ، فإن لم يأتمر البعض  
 وجب على الباقيين حمله على ذلك ) .

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ : أى  
 فرض عليكم معشر المؤمنين إذا حضرت أسباب الموت وعلمه والأمراض المخوفة ، وتركتم مالا كثيراً  
 لورثتكم ، أن توصوا للوالدين وذوى القربى بشىء من هذا الخير ، لا يعد فى نظر الناس قليلاً ولا كثيراً ،  
 وقد قدره بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين وجمهرة العلماء وأئمة السلف وروى عن بعض الصحابة أن  
 هذه الوصية إنما تكون لهم ما لم يكونوا وارثين ، لقوله عليه الصلاة والسلام : ( إن الله أعطى كل ذى حق  
 حقه ألا لا وصية لوارث )<sup>(١)</sup> ، وجوز بعض الأئمة للمورث بأن يخص بها بعض من يراه أحوج من الورثة ،  
 كأن يكون بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً عاجزاً عن الكسب ، فمن الخير والمصلحة ألا يسوى بين الغنى والفقير  
 والقادر على الكسب ومن يعجز عنه . وإذا أسلم الكافر وحضرته الوفاة والوالد كافران فله أن يوصى لهما بما  
 يؤلف به قلوبهما ، وقد أوصى الله بحسن معاملتهما وإن كانا كافرين كما قال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه  
 حسناً وإن جاهداك لتشرك بي مالميل لك به علم فلا تطعهما ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ حقا على المتقين ﴾ : أى أوجب ذلك حقا على المتقين إلى المؤمنين بكتابه .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٨ .

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ﴾ : أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى ، فإنما إثم التبديل على من بدل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه .

والتغيير إما بإنكار الوصية أو بالنقص فيها بعد أن علمها حق العلم .

﴿ إن الله سميع عليم ﴾ : أى إنه سميع لأقوال المبدلين والموصين ويعلم نياتهم ويجازيهم وفقها .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد للمبدلين والوعد بالخير للموصين .

وهذه الوصية واجبة عند بعض علماء السلف كما ترشد إلى ذلك هذه الآية والحديث : « ماحق امرئ مسلم بيت ليلتين وله شيء يريد أن يوصى إلا ووصيته عند رأسه<sup>(١)</sup> » . وعند جمهور العلماء مندوب ثم استثنى من إثم التبديل حالة ما إذا كان للإصلاح وإزالة التنازع ، فقال ﴿ فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه ﴾ أى اذا خرج الموصى فى وصيته عن نهج الشرع والعدل خطأ أو عمداً فتنازع الموصى لهم فى المال أو تنازعوا مع الورثة فتوسط بينهم من يعلم بذلك وأصلح تبديل هذا الجحف والحيف فلا إثم عليه فى هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل بحق وإزالة مفسدة بمصلحة ، ولما يكون إصلاح إلا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يروونه حقاً لهم .

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ : أى فمن خالف وبدل للإصلاح ، فالله يغفر له ويثيبه على عمله . ا . هـ .

التركة وكيف تقسم :

لما كنا بصدد الحديث عن الموت كان لزاماً علينا أن نذكر هنا ما يفعل بتركة الميت ، وهاكم بيان ذلك كما وضحه الفقهاء :

تعريفها : التركة هى ما يتركه الميت من الأموال مطلقاً ، ويقرر هذا ابن حزم فيقول : إن الله أوجب الميراث فيما يخلفه الإنسان بعد موته من مال ، لا فيما ليس بمال ؛ وأما الحقوق فلا يورث منها إلا ما كان تابعاً للمال ، أوفى معنى المال ، مثل حقوق الارتفاق والتعل ، وحق البقاء فى الأرض المحتكرة للبناء ، والغرس ، وهى عند المالكية والشافعية والحنابلة تشمل جميع ما يتركه الميت من أموال وحقوق سواء أكانت الحقوق مالية أم غير مالية .

الحقوق المتعلقة بالتركة : وهى أربعة ، وكلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

( ١ ) الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

( ٢ ) الحق الثانى : قضاء ديونه ، فابن حزم والشافعى يقدمون ديون الله كالزكاة والكفارات على ديون العباد ، والحنفية يسقطون ديون الله بالموت ، فلا يلزم الورثة أدائها إلا إذا تبرعوا بها أو أوصى الميت بأدائها ، وفى حالة الإيصاء بها تصير كالوصية يخرجها الوارث أو الوصى من ثلث الفاضل بعد التجهيز وبعد

دين العباد ، هذا إذا كان له وارث ، فإذا لم يكن له وارث فتخرج من الكل ، والحنابلة يسوون بينها كما نجد أنهم جميعاً اتفقوا على أن ديون العباد العينية مقدمة على ديونهم المطلقة .

( ٣ ) الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقي بعد قضاء الدين .

( ٤ ) الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الوصية : ولما كانت الآية التي بين أيدينا هي آية الوصية فقد ناسب ذلك أن نذكر هنا ما قاله الفقهاء في كل شيء يتعلق بالوصية فنقول وبالله توفيق :

تعريفها : الوصية مأخوذة من وصيت الشيء أوصيه إذا أوصلته ، فالموصى وصل ما كان في حياته بعد

موته

وهي في الشرع : هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة ، على أن يملك الموصى له الهبة بعد الموصى . وعرفها بعضهم : بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع ، ومن هذا التعريف تبين الفرق بين الهبة والوصية ، فالتمليك المستفاد من الهبة يثبت في الحال ، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلا بعد الموت ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالهبة لا تكون إلا بالعين ، والوصية تكون بالعين وبالدين وبالمنفعة .

مشروعيتها : وهي مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع .

ففي الكتاب يقول سبحانه : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾<sup>(١)</sup> ويقول عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وجاء في السنة الأحاديث الآتية :

( ١ ) روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ ما حق امرئ مسلم له شيء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده ﴾<sup>(٣)</sup> ، قال ابن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصية . . ومعنى الحديث أن الحزم هو هذا فقد يفاجئه الموت .

قال الشافعى : ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده إذا كان له شيء يريد أن يوصى فيه لأنه لا يدري متى تأتبه منيته فتحول بينه وبين ما يريد من ذلك .

( ٢ ) وروى أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ( إن الرجل ليعمل المرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران في الوصية فتجب لهما النار ) ، ثم قرأ أبو

(١) سورة النساء آية : ١٢ .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٦ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٦ ط وزارة الأوقاف .

هريرة : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾ (١) .

( ٣ ) وروى ابن ماجه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ( من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له ) (٢) .  
وقد أجمعت الأمة على مشروعية الوصية .

وصية الصحابة : لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يوص لأنه لم يترك ما يوصى به .  
وروى البخارى عن ابن أبى أوفى أنه ﷺ لم يوص . قال العلماء فى تعليل ذلك : لأنه لم يترك بعده مالاً ، وأما الأرض فقد كان سبلاًها ، وأما السلاح والبغلة فقد أخبر أنها لا تورث . ذكره النووى . أما الصحابة فقد كانوا يوصون ببعض أموالهم تقرباً إلى الله ، وكانت لهم وصية مكتوبة لمن بعدهم من الورثة .  
أخرج عبد الرزاق بسند صحيح أن أنساً رضى الله عنه قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصى به فلان بن فلان أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنه ويعقوب : ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) .

حكمها : جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله تصدق عليكم بثلاث أموالكم زيادة فى أعمالكم فضعوها حيث شئتم أو حيث أحببتم ) (٤) . أفاد هذا الحديث أن الوصية قرينة تقترب بها الإنسان إلى الله عز وجل فى آخر حياته كى تزداد حسناته أو يتدارك بها مافاتة ، ولما فيها من البر بالناس والمواساة لهم .

حكمها : أما حكمها ، أى وصفها الشرعى من حيث كونها مطلوبة الفعل أو الترك ، فقد اختلف العلماء فيه إلى عدة آراء نجم لها فيما يلى :-

الرأى الأول : يرى أن الوصية واجبة على كل من ترك مالاً ، سواء أكان المال قليلاً أم كثيراً . قاله الزهرى وأبو مجلز ، وهذا رأى ابن حزم ، وروى الوجوب عن ابن عمر وطلحة والزبير وعبد الله بن أبى أوفى وطلحة بن مطرف وطاوس والشعبى قال : وهو قول أبى سليمان وجميع أصحابنا ، واستدلوا بقول الله تعالى : ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

الرأى الثانى : يرى أنها تجب للوالدين والأقربين الذين لا يرثون الميت ، وهذا مذهب مسروق وإياس وقتادة وابن جرير والزهرى .

( ٣ ) سورة البقرة آية : ١٣٢ .

( ٤ ) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٢٦١ ط دار الفكر .

( ١ ) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .

( ٢ ) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .

الرأى الثالث : وهو قول الأئمة الأربعة والزيدية ، أنها ليست فرضاً على كل من ترك مالا كما فى الرأى الأول ، ولا فرضاً للوالدين والأقربين غير الوارثين كما هو الرأى الثانى ، وإنما يختلف حكمها باختلاف الأحوال ، فقد تكون واجبة أو مندوبة أو محرمة أو مكروهة أو مباحة .

وجوبها : فتجب فى حالة ما إذا كان على الإنسان حق شرعى يخشى أن يضيع إن لم يوص به كوديعة ودين لله أو لآدمى ، مثل أن يكون عليه زكاة لم يؤدها ، أو حج لم يقم به ، أو تكون عنده أمانة يجب عليه أن يخرج منها ، أو يكون عليه دين لا يعلمه غيره ، أو يكون عنده وديعة بغير إشهاد .

استحبابها : وتندب فى القربات وللأقرباء وللصالحين من الناس .

حرماتها : وتحرم إذا كان فيها إضرار لورثة ؛ وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الرجل لعمل يعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل لعمل يعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة )<sup>(١)</sup> .

روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح قال ابن عباس : ( الإضرار فى الوصية من الكبائر ) ثم تلا ( وتلك حدود الله )<sup>(٢)</sup> رواه النسائى . ومثل هذه الوصية التى يقصد بها الإضرار باطله ، ولو كانت دون الثلث ، وتحرم كذلك إذا أوصى بخمر أو بناء كنيسة أو دار للهو .

كراهيتها : وتكره إذا كان الموصى قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه . كما تكره لأهل الفسق متى علم أو غلب ظنه أنهم سيستعينون بها على الفسق والفجور ، فإذا علم الموصى ، أو غلب على ظنه ، أن الموصى له سيستعين بها على الطاعة ، فإنها تكون مندوبة .

إباحتها : وتباح إذا كانت لغنى سواء أكان الموصى له قريباً أم بعيداً .

ركنها : وركنها الإيجاب من الموصى . والإيجاب يكون بكل لفظ يصدر منه متى كان هذا اللفظ دالاً على التملك المضاف إلى ما بعد الموت بغير عوض مثل : أوصيت لفلان بكذا بعد موتى ، أو وهبت له ذلك أو ملكته بعدى .

وكما تنعقد الوصية بالعبارة تنعقد كذلك بالإشارة المفهمة متى كان الموصى عاجزاً عن النطق كما يصح عقدها بالكتابة .

ومتى كانت الوصية غير معينة بأن كانت للمساجد أو الملاجىء أو المدارس أو المستشفيات ، فإنها لا تحتاج إلى قبول ، بل تتم بالإيجاب وحده لأنها فى هذه الحال تكون صدقة .

أما إذا كانت الوصية لمعين بالشخص ، فإنها تفتقر إلى قبول الموصى له بعد الموت أو قبول وليه إن كان

(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

(١) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .



الموصى له غير رشيد ، فإن قبلها تمت وإن ردها بعد الموت بطلت الوصية وبقيت على ملك ورثة الموصى .  
والوصية من العقود الجائزة التي يصح فيها أن يغيرها أو يرجع عما شاء منها أو يرجع عما أوصى به .  
والرجوع يكون صراحة بالقول ، كأن يقول : رجعت عن الوصية ويكون دلاله بالفعل مثل تصرفه في الموصى به تصرفاً يخرج به عن ملكه ، مثل أن يبيعه .

متى تستحق الوصية : ولا تستحق الوصية للموصى له إلا بعد موت الموصى وبعد قضاء الديون ، فإذا استغرقت الديون التركة كلها فليس للموصى له شيء لقول الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ .

الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط : وتصح الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط ، أو المقترنة به ، متى كان الشرط صحيحاً ، والشرط الصحيح هو ما كان فيه مصلحة للموصى أو الموصى له أو لغيرهما ولم يكن منهيّاً عنه ولا منافياً لمقاصد الشريعة ، ومتى كان الشرط صحيحاً وجبت مراعاته ما دامت المصلحة منه قائمة ، فإن زالت المصلحة المقصودة منه أو كان غير صحيح لم تجب مراعاته .

شروطها : الوصية تقتضى موصياً وموصى له وموصى به ، ولكل شروط نذكرها فيما يلي :-

شروط الموصى : يشترط في الموصى أن يكون أهلاً للتبرع بأن يكون كامل الأهلية ، وكامل الأهلية بالعقل والبلوغ والحرية والاختيار وعدم الحجر لسفه أو غفلة .

فإن كان الموصى ناقص الأهلية بأن كان صغيراً أو مجنوناً أو عبداً أو مكرهاً أو محجوراً عليه ، فإن وصيته لا تصح .

ويستثنى من ذلك أمران :- ( ١ ) وصية الصغير المميز الخاصة بأمر تجهيزه ودفنه ، ما دامت في حدود المصلحة .

( ٢ ) وصية المحجور عليه للسفه في وجه من وجوه الخير ، مثل تعليم القرآن وبناء المساجد وإقامة المستشفيات . ثم إن كان له وارث وأجازها الورثة نفذت من كل ماله ، وكذا إذا لم يكن له وارث أصلاً .  
وأما إن كان له ورثة ولم يجيزوا هذه الوصية فإنها تنفذ من ثلث ماله فقط ، هذا مذهب الأحناف ، وخالف ذلك الإمام مالك فأجاز وصية ضعيف العقل والصغير الذي يعقل معنى التقرب إلى الله تعالى قال : ( الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف في عقله والسفيه والمصاب الذي يفقد أحيانا ، تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به ، وكذلك الصبي الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول ، فوصيته جائزة ماضية ) .

وقد أجاز القانون في مصر وصية السفيه وذوى الغفلة إذا أذنت بها الجهة القضائية المختصة .

شروط الموصى له : يشترط في الموصى له الشروط الآتية :-

( ١ ) ألا يكون وارثاً للموصى . روى أصحاب المغازي أن رسول الله ﷺ قال عام الفتح :

( لا وصية لوارث )<sup>(١)</sup> . رواه احمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

وهذا الحديث وإن كان حديث آحاد ، فإن العلماء تلقته بالقبول وأجمعت العامة على القول به .

«وأما آية ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً ، الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقا على المتقين ﴾ . فقد قال الجمهور من العلماء بنسخها .

وقال الشافعى : إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية الموارث ، فاحتمل أن تكون آية الوصية باقية مع الميراث ، واحتمل أن تكون الموارث ناسخة للوصايا . وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين فوجدوه في سنة رسول الله ﷺ . فقد روى عنه أصحاب المغازى أنه قال عام الفتح : ( لا وصية لوارث )<sup>(١)</sup> . ا . هـ . واتفقوا على اعتبار كون الموصى له وارثاً يوم الموت حتى لو أوصى لأخيه الوارث ، حيث لا يكون للموصى ابن ثم ولد له ابن قبل موته صحت الوصية للأخ الذكر ، ولو أوصى لأخيه وله ابن فمات الابن قبل موت الموصى فهي وصية لوارث .

( ٢ ) ومذهب الأحناف أن الموصى له إذا كان معيناً يشترط لصحة الوصية له : أن يكون موجوداً وقت الوصية تحقيقاً أو تقديرًا ، أى يكون موجوداً بالفعل وقت الوصية ، أو يكون مقدراً وجوده في أثنائها ، كما إذا أوصى لحمل فلانة وكان الحمل موجوداً وقت إيجاب الوصية .

أما إذا لم يكن الموصى له معيناً بالشخص ، فيشترط أن يكون موجوداً وقت موت الموصى تحقيقاً أو تقديرًا .

فإذا قال الموصى : أوصيت بدارى لأولاد فلان ، ولم يعين هؤلاء الأولاد ثم مات ولم يرجع عن الوصية ، فإن الدار تكون مملوكة للأولاد الموجودين وقت موت الموصى سواء منهم الموجود حقيقة أو تقديرًا ، كالحمل ، ولو لم يكونوا موجودين وقت إيجاب الوصية ويتحقق من وجود الحمل وقت الوصية أو وقت موت الموصى متى ولد لأقل من ستة أشهر من وقت الوصية ، أو من وقت موت الموصى . وقال الجمهور من العلماء : إن من أوصى أن يفرق ثلث ماله حيث أرى الله الوصى إنها تصح وصيته ، ويفرقه الوصى في سبيل الخير ولا يأكل منه شيئاً ولا يعطى منه وارثاً للميت .

وخالف في ذلك أبو ثور ، أفاده الشوكانى في نيل الأوطار .

( ٣ ) ويشترط ألا يقتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً ، فإذا قتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً بطلت الوصية له ، لأن من تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وهذا هو مذهب أبى يوسف .

وقال أبو حنيفة ومحمد : لا تبطل الوصية ، وتتوقف على إجازة الورثة .

شروط الموصى به : يشترط في الموصى به أن يكون بعد موت الموصى قابلاً للتملك بأى سبب من أسباب الملك ، فتصح الوصية بكل مال متقوم من الأعيان ، ومن المنافع وتصح الوصية بما يثمره شجره وبما

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

في بطن بقرته ، لأنه يملك بالإرث ، مما دام محققاً وقت موت الموصى استحققه الموصى له .  
وهذا بخلاف ما إذا أوصى بمعدوم .

وتصح الوصية بالدين وبالمنافع كالسكنى والوصية بالخلو ، ولا تصح بما ليس بمال ، كالميتة ، وما ليس  
مستقوماً في حق العاقدين كالخمر للمسلمين .

### مقدار المال الذي تستحب الوصية فيه

قال ابن عبد البر : اختلف السلف في مقدار المال الذي تستحب فيه الوصية أو يجب عند من أوجبها ،  
فروى عن علي أنه قال ستمائة درهم أو سبعمائة درهم ليس بمال فيه وصية . وروى عنه ألف درهم قال فيه  
وصية .

وقال ابن عباس : لا وصية في ثمانمائة درهم .  
وقالت عائشة في امرأة لها أربعة من الولد ولها ثلاثة آلاف درهم : « لا وصية في مالها » . وقال إبراهيم  
النخعي : ألف درهم إلى خمسمائة درهم .

وقال قتادة في قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ ألفاً فما فوقها . وعن علي : من ترك مالا يسيراً فليدعه لورثته  
فهو أفضل . وعن عائشة فيمن ترك ثمانمائة درهم : لم يترك خيراً فلا يوصى ﴿ اهـ .

الوصية بالثلث : وتجوز الوصية بالثلث ولا تجوز الزيادة عليه ، والأولى أن ينقص عنه ، وقد استقر الإجماع  
على ذلك .

روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : جاء النبي ﷺ  
يعودني وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها ، قال : يرحم الله ابن عفراء . قلت يارسول الله  
أوصى بمالي كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ( النصف ) ؟ قال : لا . قلت : -الثلث ؟ قال : فالثلث  
والثلث كثير ، إنك إن تدع ( تترك ) ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة ( فقراء ) يتكففون الناس  
« يبسطون للسؤال أكفهم » في أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى في  
( فم ) امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك أناس ويضر بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة<sup>(١)</sup>  
( كان هذا قبل أن يولد له الذكور . وقد ولد له بعد ذلك أربعة بنين ، ذكره الواقدي ، وقيل : أكثر من  
عشرة ومن البنات اثنتا عشرة بنتاً )

الثلث يحسب من جميع المال :

ذهب جمهور العلماء إلى أن الثلث يحسب من جميع المال الذي تركه الموصى . وقال مالك : يحسب  
الثلث مما علمه الموصى دون ما خفى عليه أو تجدد له ولم يعلم به .

وهل المعتبر الثلث حال الوصية أو عند الموت ؟ ذهب مالك والنخعي وعمر بن عبد العزيز إلى أن  
المعتبر ثلث التركة عند الوصية .

(١) صحيح البخاري ٤ ص ٦٧ ط الشعب

وذهب أبو حنيفة وأحمد والأصح من قولي الشافعية إلى اعتبار الثلث حال الموت . وهو قول على وبعض التابعين .

### الوصية بأكثر من الثلث :

الموصى إما أن يكون له وارث أولا ، فإن كان له وارث فإنه لا تجوز له الوصية بأكثر من الثلث كما تقدم . فإن أوصى بالزيادة على الثلث فإن وصيته لا تنفذ إلا بإذن الورثة ، ويشترط لنفاذها شرطان : -

( ١ ) أن تكون بعد موت الموصى ، لأنه قبل موته لم يثبت للمجيز حق ، فلا تعتبر إجازته ، وإذا أجازها بعد الحياة نفذت الوصية . وقال الزهري وربيعه : ليس له الرجوع مطلقا .

( ٢ ) أن يكون المجيز وقت الإجازة كامل الأهلية غير محجور عليه لسفه أو غفلة .

وإن لم يكن له وارث فليس له أن يزيد على الثلث أيضا . وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب الأحناف وإسحاق وشريك وأحمد في رواية ، وهو قول على وابن مسعود ، إلى جواز الزيادة على الثلث ، لأن الموصى لا يترك في هذه الحال من يخشى عليه الفقر ، ولأن الوصية جاءت في الآية مطلقة ، وقيدتها السنة بمن له وارث ، فبقى من لا وارث له على إطلاقه .

### بطلان الوصية :

وتبطل الوصية بفقد شرط من الشروط المتقدمة ، كما تبطل بما يأتي : -

١ - إذا جن الموصى جنونا مطبقا واتصل الجنون بالموت .

٢ - إذا مات الموصى له قبل موت الموصى .

٣ - إذا كان الموصى به معينا وهلك قبل الموصى له .

### الوصية الواجبة :

صدر قانون الوصية الواجبة رقم ٧١ لسنة ١٣٦٥ هجرية سنة ١٩٤٦ وقد تضمن الأحكام الآتية :

١ - إذا لم يوص الميت لفرع ولده الذي مات في حياته أو مات معه ولو حكماً بمثل ما كان يستحق هذا الولد ميراثاً في تركته لو كان حياً عند موته - وجبت للفرع وصية في التركة بقدر هذا النصيب في حدود الثلث ، بشرط أن يكون غير وارث ، وألا يكون الميت قد أعطاه بغيره عوضاً من طريق تصرف آخر قدر ما يجب له ، وإن كان ما أعطاه له أقل منه وجبت له وصية بقدر ما يكمله . وتكون هذه الوصية لأهل الطبقة الأولى من أولاد البنات ولأولاد الأبناء من أولاد الظهور وإن نزلوا ، على أن يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره ، وأن يقسم نصيب كل أصل على فرعه وإن نزل قسمة الميراث كما لو كان أصله أو أصوله الذين يدلى بهم إلى الميت ماتوا بعده وكان موتهم مرتباً كترتيب الطبقات .

٢ - إذا أوصى الميت لمن وجبت له الوصية بأكثر من نصيبه كانت الزيادة وصية اختيارية ، وإن أوصى له بأقل من نصيبه وجب له ما يكمله ، وإن أوصى لبعض من وجبت لهم الوصية دون البعض الآخر وجب لمن لم يوص له قدر نصيبه ، ويؤخذ نصيب من لم يوص له ويوفى نصيب من أوصى له بأقل مما وجب من باقى الثلث ، فإن ضاق عن ذلك فمعه وما هو مشغول بالوصية الاختيارية .

٣ - الوصية الواجبة مقدمة على غيرها من الوصايا ، فإذا لم يوص الميت لمن وجبت لهم الوصية وأوصى لغيرهم استحق كل من وجبت له الوصية قدر نصيبه من باقى ثلث التركة إن وفى ، وإلا فمعه وما أوصى به لغيرهم .

طريقة حل المسائل التى تشتمل على الوصية الواجبة :

- ١ - يفرض الولد الذى مات فى حياة أحد أبويه حيا وارثا ، ويقدر نصيبه كما لو كان موجوداً .
- ٢ - يخرج من التركة نصيب المتوفى ويعطى نوعه المستحق للوصية الواجبة إن كان يساوى الثلث فأقل ، فإن زاد على الثلث يرد إلى الثلث ، ثم يقسم على الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين .
- ٣ - يقسم باقى التركة بين الورثة الحقيقيين على حسب فرائضهم الشرعية .

### الصيام

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينَ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

المفردات : الصيام فى اللغة : الإمساك والكف عن الشيء ، وفى الشرع الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب احتساباً لله ، وإعداداً للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بمراقبته فى السر والعلن . والإطاعة : القدرة على الشيء مع تحمل المشقة الشديدة . والفدية : هى طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهلهم بقدر كفايته أكلة واحدة عن كل يوم يفطرونه ، واليسر : السهولة والتخفيف ، وضده العسر .

الصيام فى الإسلام عبادة كريمة الشأن رفيعة المستوى ، إذ أنه يقوم بتهذيب الدوافع الفطرية من المأكول والمشرب والمباشرة الجنسية . ولعلنا نلاحظ دور الصيام فى تربية الضمير ، فهو أستاذ فى علم الأخلاق ، يغرس فى النفس قوة مراقبة الله للعبد . وهنا نسأل : لماذا كان الصيام بين الإيمان والتقوى فى قوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، ذلك لأن الإيمان

تصديق بالقلب ، وما استقر في القلب سر من أسرار الله لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى . والتقوى ، وهى مخافة الله محلها القلب أيضا ؛ فقد أشار النبي ﷺ إلى صدره الشريف وقال : التقوى ها هنا . وجاء الصيام بينهما كأنه واسطة العقد ، إذ الصيام عبادة سرية لا يطلع عليها إلا الله ، فهو إمساك عن المفطرات من شهوات البطن والفرج من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ، ولذا أضافه الله تعالى إلى ذاته الأقدس حيث قال في حديثه القدسي الجليل : ( كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزي به )<sup>(١)</sup>

فالإنسان فى صيامه تحت رقابة الله ، لا يطلع عليه غيره ، ومن هنا كانت المناسبة قوية بين الصيام والإيمان والتقوى ، وهل الضمير إلا شدة الرقابة من العبد فى أفعاله ؟ فأنت تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من المثلجات وتخرج لتشكو للناس شدة الحر والعطش فى نهار رمضان ، وأنت تعلم أنك تخدع نفسك .

الله يدري كل ما تضرع ويعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ولقد صدق الهادى البشير ﷺ وهو يقول لجبريل : ( الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )<sup>(٢)</sup> فهنا مقامان : مقام المشاهدة ، ومقام المراقبة ، وإذا كان فى القصاص حياة للنفس فإن الصيام حياة للأرواح ، فالشبع بحر تجرى فيه الشياطين ، والجوع نهر تسبح فيه الملائكة . وهكذا يتبين لنا أستاذية الصيام فى علم الأخلاق ؛ أما أستاذيته فى علم الاجتماع فإنها تتجلى فى قول الصادق المعصوم : ( يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء ) . كما أن حكمته اجتماعية تتجلى فى صيام الحكام الذين إذا تربعوا على كراسى الحكم لا يكادون يشعرون بقوم يبيتون على الطوى ، يعبث الجوع بأمعانهم ، يستحلبون الصخور ، وقوم آخرون تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويشتهون أن يدوسوها بأقدامهم . كان نبي الله يوسف الصديق يصوم يوما ويفطر يوما ، فقليل له : لم تكثر من الصيام ، وقد جعل الله خزائن الأرض تحت يديك ؟ فقال كلمته الشهيرة : ( أخشى أن أشبع فأنسى الجائع ) ويرحم الله الفاروق عمر ، كان بطنه يحدث أصواتاً من كثرة ما أكل بالزيت ، فكان يقول لبطنه : قرقر أو لا تفرقر ، لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين .

إن جاع فى شدة قوم شركتهم	فى الجوع أو تنجلي عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحانه موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهدت زوجه الحلوى فقال لها	من أين لى ثمن الحلوى فأشربها
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به	أولى فقومى لبيت المال رديها
كذاك أخلاقه كانت وما عهدت	بعد النبوة أخلاق تحاكيها

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١٣٣ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥١ ط وزارة الأوقاف .

والصيام أستاذ في السياسة والاقتصاد ، فهو عامل وحدة بين الأمة الإسلامية في رمضان مهما ترامت أطرافها واتسع مداها في مشارق الأرض ومغاربها ، إذ الكل عند مطلع الفجر في حالة إمساك عن المفطرات ، فإذا ما غربت الشمس علم الجميع أن الإذن قد ورد من رافع السماء بلا عمد بإباحة ما كان محرماً من قبل ، فقال كل منهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، الحمد لله ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . وكان واجبا على المسلمين أن يعلموا الحكمة من الصيام فيقتصدوا في الطعام والمشرب والإنفاق ، فقد كان إفطار الرسول ﷺ متواضعاً مقتصداً ، بعض ثمرات وبعض اللبن ، فإن لم يجد فعلى شيء من الماء . وما ملأ ابن آدم وعاءً قط شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه . وهنا يأتي دور الصيام طبيياً . قال أحد المجادلين لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلى من الطب . فقال له العالم المسلم : بل إن كتابنا جمع الطب كله في نصف آية ، قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ . ولما أرسل المقوقس ، عظيم مصر ، هدية إلى سيد المرسلين قبلها الهادي البشير ، ولكنه رد الطبيب وقال له : لسنا في حاجة إليك ، ولما رجع الطبيب إلى المقوقس سأله : لماذا ردك محمد ؟ قال الطبيب : لقد أرسلتني إلى رجل جمع الطب كله في كلمتين : نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا ، وإذا أكلنا لا نشبع . فماذا يقول الطب عن الصيام ؟ قال الأطباء : إن من الناس من يتوهم أن في صيام رمضان مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمي خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب ، وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام في شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال في طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر على بضع لقيمات ، لأنه لا ضرر من الجوع في حد ذاته . لقد ظهر أن الصيام يفيد في حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد في أحوال أخرى . وهو أهم علاج ، إن لم يكن العلاج الوحيد ، للوقاية من أمراض كثيرة ، فللعلاج يستعمل في :

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر في المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما في صيام رمضان ، ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر ، وهذه الطريقة هي أنجح طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشئة من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار في الطعام والاكتفاء بالماء في السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتي ، وهو آخذ في الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففي هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعي لمثله .

٤ - البول السكري ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون في مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالباً بزيادة في الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر في

الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي في حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي بكثير ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات في الغذاء أهم علاج من هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعي . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى في شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

إن فائدة الصيام للأصحاء هي الوقاية من هذه الأمراض التي مر ذكرها .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء في الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذي يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هي الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى وزيادة الضغط الذاتى والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ، ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

والصيام شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ؛ فقد انتشرت في أوروبا أكثر . وفي مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جداً من الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر في أن الصيام في الإسلام أشد منه في الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، جاء في زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

وللصيام أفضال جاءت في أحاديث الرسول ، وعلى رأس هذه الأفضال قوله ﷺ : ( لو تعلم أمتي ما في رمضان من الخير لتمنت أن تكون السنة كلها رمضان )<sup>(١)</sup> .

وعنه ﷺ : ( للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه )<sup>(٢)</sup> .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( الأعمال عند الله عز وجل سبع : عملان موجبان ، وعملان بأمثالهما ، وعمل بعشر أمثاله . وعمل بسبعمائة ، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل ، فأما الموجبان : فمن لقي الله يعبد مخلصاً لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة ، ومن لقي الله وقد

(٢) صحيح سلم ج ٣ ص ٢٠٨ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٧ ط وزارة الأوقاف .



أشرك به وجبت له النار . ومن عمل سيئة جزى بها ، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها جُزِيَ مثلها ، ومن عمل حسنة جزى عشرًا . ومن أنفق ماله في سبيل الله ضُغِفَتْ له نفقته ، الدرهم بسبعمائة ، والدينار بسبعمائة ، والصيام لله عز وجل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عز وجل (١) .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أسندت النبي ﷺ إلى صدرى فقال : ( من قال : لا إله إلا الله ختم له بها دخل الجنة ، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة ) (٢) .

وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرني بعمل قال : ( عليك بالصوم . فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرني بعمل ، قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرني بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له ) (٣) .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من صام يوماً في سبيل الله بعدت منه النار مسيرة مائة عام ) (٤) .

وقد ورد في صيام رمضان خاصة من الفضل ما هو به جدير ، فقد جاء فيه عن البشير النذير قوله : ( من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ) (٥) .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( احضروا المنبر فحضرننا ، فلما ارتقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين . فلما نزل قلنا : يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ؟ قال : إن جبريل عليه السلام عرض لى فقال : بُعد من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك . فقلت آمين . فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبير عنده أو أحدهما فلم يدخله الجنة قلت آمين ) (٦) .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( أعطيت أمتي في شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبي قبلى : أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عز وجل إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة . وأما الرابعة فإن الله عز وجل يأمر جنته فيقول لها استعدي وتزيني لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦١٣ ط دار الفكر

(٥) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٦٢٩ ط دار الفكر .

(٦) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٦٠ ط وزارة الأوقاف .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٢ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٥ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٦ ط وزارة الأوقاف .

جميعا . فقال رجل من القوم : أهى ليلة القدر ؟ فقال : لا . ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم (١) .

وقد كان ﷺ إذا جاء رمضان بشر أصحابه قائلاً : ( أتاكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِم خيرها فقد حرم ) (٢) .

لقد جاءت آيات الصيام في شهر قرآني مشبع بالرحمات تهب عليه ، وتتخلله نسمات تحمل في ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الجنة . والصائم في هذا الجو ينساب في أخلاق أرق من النسيم وأندر من صفحة الروض الوسيم . إن الصيام لما كان تهدياً للدوافع الفطرية من مأكَل ومشرب ، فإن رحمت الله تبارك وتعالى قد أحاطت بالصائمين من كل مكان ، لذا جاءت آيات الصيام وفي ثناياها تخفيفات ربانية كريمة ، جاء التخفيف الأول في صيغة الخطاب للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وبالإيمان يصبح كل شيء ميسوراً . فالإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكناً . والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا . ومن ثم فإن المؤمن يسمع نداء الحق تبارك وتعالى ولسانه يلهج بالشئاء على الله ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وكأنه يقول :

رضاك خير من الدنيا وما فيها	يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها	سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى	خير إلى من الدنيا وما فيها

وكيف لا يستقبل المؤمن خطاب ربه بنفس مفعمة بالرضا جياشة بالطمأنينة ، وهو دائماً يقرأ قول الله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ \* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿ (٣) .

إن المؤمنين يأتون مما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجله ، أنهم إلى ربهم راجعون ، ولسان حال الواحد منهم يقول لربه :

لما علمت بأن قلبي فارغ	من سواك ملأته بهداك
وملأت كل منك حتى لم أدع	منى مكاناً خالياً لسواك

ويأتى التخفيف الثاني متمثلاً في قول البارئ جل شأنه : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ، فإدام الذى كتب

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ ط وزارة الأوقاف . (٣) سورة الأنفال الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٤ ط وزارة الأوقاف .

هذا هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، فلتستقبل النفوس الواقعة هذا المكتوب بكرم وسعادة ولسان الحال يقول : شعاع من رضاك يطفى غضب ملوك أهل الأرض . ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا .

ويأتى التخفيف الثالث متمثلاً في قوله جل شأنه : ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ ، أى لقد كان هذا الصيام فرضاً على من سبقكم من الأمم فصاموه وامثلوا أمر الله ، فأنتم يا خير أمة أخرجت للناس أولى الناس امتثالاً لأمر الله ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ \* ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴿ (١) .

ويأتى التخفيف الرابع متمثلاً في قوله تعالى : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، وهل التقوى إلا جماع الخير كله . أتى الإمام على كرم الله وجهه المقابر ذات يوم فقال : يا أهل المقابر هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم . ثم أنصت قليلاً وقال لمن حوله : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى . فإذا كان الصيام يؤدى إلى أشرف غاية وهى التقوى لله . فما أعظم تلك الغاية وما أجل ما أدى إليها ، فالتقوى هى السلاح الأقوى . قيل للحسن البصرى رضى الله عنه : يا إمام عظنا ، فقال : يا هذا صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى      تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان الله عاصيا

ويأتى التخفيف الخامس متمثلاً في قوله جل جلاله : ﴿ أياماً معدودات ﴾ أى ليس الصيام الدهر كله ، إنما هو أيام سرعان ما تمر مر السحاب ، ما تلبث أن تنقضى ويصبح رمضان كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر . وكثيراً ما أتمثل هذه الأبيات عندما تأتى الأيام الأخيرة من رمضان :

فيأشهر الصيام فدتك نفسى      تهل بالرحيل والانتقال  
فما أدرى إذا ما الحول ولى      وعدت بقابل في خير حال  
فهذه سنة الدنيا دواما      فراق بعد جمع واكتمال  
وتلك طبيعة الأيام فينا      تبدد نورها بعد الكمال

ويأتى التخفيف السادس متمثلاً في قوله تبارك وتعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . فقد اقتضت رحمة الله العلى الكريم أن يكلف عباده بما يستطيعون . ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (٢) .

ثم يأتى التخفيف السابع متمثلاً في قوله جل شأنه : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ،

وهذا في حق كبار السن الذين لا يستطيعون الصيام والمرضى بأمراض مزمنة عليهم أن يطعموا مسكيناً عن كل يوم أفطروه في رمضان .

مما تقدم نعرف أن الوعيد شديد لمن أفطر يوماً من رمضان بغير عذر . قال ﷺ : ( من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه <sup>(١)</sup> ) وقال ﷺ : ( عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان ) <sup>(٢)</sup> .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول ﷺ يقول : ( بينما أنا نائم أتاني رجلان فأخذا بضبعي ، فأتيا بي جبلاً وعراً ، فقالا : اصعد : فقلت : إني لا أطيق ، فقلا : إنا سنسهله لك ، فصعدت حتى إذا كنت في سواء الجبل إذا بأصوات شديدة قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالا : هذا عواء أهل النار ، ثم انطلق بي ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشقة أشداقهم تسيل أشداقهم دما ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم ) <sup>(٣)</sup> .

وبعد فإن الله جلت قدرته يفتح أبواب المثوبة لكل راغب في رحمته فيقول : ﴿ فمن تطوع خيراً فهو خير له ﴾ ، أي فمن زاد في الإطعام على مسكين واحد فذلك خير وبركة ، لأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد في العمر .

قوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ خطاب للمسافرين والمرضى الذين يستطيعون الصيام ، لأن في الصيام تهذيباً للنفس وتصفية للروح فضلاً عن المثوبة العظمى عند الله .

روى أن أبا أمامة قال للنبي ﷺ : مرني بأمر آخذه عنك قال : ( عليك بالصوم فإنه لا مثل له ) .

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُم وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

روى عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى ؛ أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوماً من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان ، فصادفوا فيه الحر الشديد ، فحولوه إلى وقت لا يتغير ، ثم قالوا عند ذلك : نزيد فيه ، فزادوا عشراً ، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فنذر سبعا فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧١ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .

الثلاثة ؟ فآتمه خمسين يوما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا ﴾ <sup>(١)</sup> .

أنزل الله تعالى فرض صيام رمضان على النبي وأمه في شهر شعبان من العام الثاني من الهجرة . وقد شرفه الله تعالى بأعظم شرف ، فقد أنزل أعظم ملك هو جبريل ، بأعظم كتاب هو القرآن ، وبأعظم لغة هي العربية ، في أعظم شهر هو رمضان ، في أعظم بلد هي مكة ، في أعظم ليلة هي ليلة القدر ، لأعظم أمة هي أمة الإسلام ، على أعظم نبي هو مبعوث الهداية الإلهية وشمس الهداية الربانية ؛ فهو الأُمِّي الذي علم المتعلمين ، اليتيم الذي بعث الأمل في قلوب البائسين ، القائد الموفق الذي قاد سفينة العالم الحائرة في خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطئ الأمان ، إلى صراط الله رب العالمين . ثم بين سبحانه وظيفة هذا الكتاب ورسالته الخالدة فقال : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ ، فهو الهادي إلى الصراط المستقيم ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ؛ من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ؛ لا تزيف به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ؛ ومع الهدى بينات ودلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، من هذا الهدى والفرقان الذي يفرق به الله بين الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والكفر والإيمان . فيا أمة الإسلام ، يا من شرفكم الله بهذا القرآن : ﴿ من شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، أى من حضر هلاله ، وهو صحيح غير مريض ، مقيم غير مسافر ، مكلف ، فعليه بالصيام .

ثم يعيد سبحانه وتعالى الرخصة للمسافرين والمرضى مرة أخرى ، حتى لا يُظن أنه لعظم هذا الشهر قد رفع الرخص ، وأنه لا عذر لأحد في الإفطار ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . ثم يبين سبحانه وتعالى الروح الذي يسرى في التشريع سريان الماء في العود الأخضر ، وسريان نور القمر في الليل الساري ، فيقول سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ﴾ ، فصوموا هذا الشهر ، ومن أفطر فيه لعذر كالمسافر والمريض والشيخ الفاني والشيخة الفانية ، والحامل والمرضع ، إذا تعذر عليهما الصيام ، والحائض والنفساء ؛ كل هؤلاء عليهم أن يكملوا العدة بقضاء ما أفطروا ، وعلى الجميع أن يكبر الله تكبير شكر واعتراف بالجميل ، فلا أحد أكبر من الله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ولتشكروا هذا الإله المنعم المتفضل على ما أولاكم من نعم ، وأسبغها عليكم ظاهرة وباطنة ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### آية الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۚ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

قال رجل : يا رسول الله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فترلت ﴿ وإذا سألك عبادى عنى . . . ﴾ . ونحن هنا نلاحظ أن الأسئلة التى كانت توجه للنبي ﷺ ، كان الله تبارك اسمه يلقنه إجابتها بلفظ قل . فمثلا : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ (١) ؛ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ (٢) ، ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾ (٣) ، إلى غير ذلك من الأسئلة . أما فى آية الدعاء فلم يوسط لفظ قل فى الإجابة ، بل قال سبحانه مباشرة ﴿ فإنى قريب ﴾ ، وذلك لسببين : أولهما : نفى الوسائط بين العبد وربّه . وثانيهما : الدلالة على عظم القرب الإلهى للعباد ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ (٤) . ولذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته) (٥) .

قال الإمام ابن تيمية : « وهو سبحانه فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ؛ فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله : ﴿ عبادى ﴾ بالإضافة إلى ضمير الذات الإلهية ، إضافة رحمة وشفقة وتشريف . قوله : ﴿ أجب دعوة الداع إذا دعان ﴾ ، يفيد أن الله تعالى يجيب الدعوة وقت دعائها ، بدليل الظرف إذا ؛ ويجيب الدعوة على حسب ما يريد ويختاره سبحانه وتعالى ، فإن كان الخير فى التعجيل عجل ، وإن كان الخير فى التأجيل أجل ، وإلا فإن الدعاء عبادة تخفف البلاء النازل من السماء . ويستجيب الله من العبد الدعاء ما لم يقل : دعوت فلم يستجب لى . ولذا قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة) (٦) . وقال : (أفضل العبادة انتظار الفرج) (٧) (إذا سألت الله الجنة فاسأله الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تنفجر أنهار الجنة) (٨) ، وكان يأمرهم أن يسألوا الله العافية ويعلمهم أن يقولوا : (اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) (٩) . قال تعالى : ﴿ فليستجيبوا لى ﴾ ، استجابة طاعة بامثال الأوامر واجتناب النواهى . وأول دلائل الاستجابة الإيمان . قال تعالى : ﴿ وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ﴾ . إذا فطريق الرشاد والسداد والتوفيق متوقف على الاستجابة والإيمان . وإنما جاءت آية الدعاء بين آيات الصيام لأن بين الصيام والدعاء تمام ارتباط ، فإن للصائم عند فطره دعوة لا ترد . وهناك ثلاثة لا ترد لهم دعوة : الإمام العادل ، ودعوة الصائم ، ودعوة المظلوم . وكان من الهدى النبوى دعوات الرسول ﷺ عند الإفطار : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت . الحمد لله . ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . والدعاء المطلوب هو الدعاء بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب ، ومن ثم سماه النبى ﷺ مخ العبادة .

(٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣١٣ ط دار الفكر .  
(٧) المصدر السابق ج ١ ص ١١٢ ط دار الفكر .  
(٨) تفسير ابن كثير ج ٥ ص ١٩٩ ط الشعب .  
(٩) المصدر السابق ج ٨ ص ٤٧٢ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .  
(٢) سورة البقرة آية : ٢١٧ .  
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٩ .  
(٤) سورة ق آية : ١٦ .  
(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣١٣ ط الشعب .

## عفو إلهي كريم

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفْتُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

سبب النزول : قال العلامة ابن كثير في هذه الآية : هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ؛ فإنه كان إذا أفطر أحدهم ، إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة (١) .

المفردات : ﴿ ليلة الصيام ﴾ : هي الليلة التي يصبح منها المرء صائماً ، والرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن . قال الأزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . واللباس : الملابس والمخالطة . ﴿ تختانون أنفسكم ﴾ : أى تخونون أنفسكم بعمل شيء تعدونه حراماً . ﴿ الخيط الأبيض ﴾ : أول ما يبدو من بياض النهار ، كالخيط الممدود رقيقاً ثم ينتشر . ﴿ الخيط الأسود ﴾ : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار . فالصبح إذا بدا في الأفق بدا كأنه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود في جنب خيط أبيض . والإتمام : الأداء على وجه التمام ، وحقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر : أى ظاهر جلده ، والمراد بها ما أريد بالرفث . والاعتكاف شرعاً : المكث في المسجد طاعة لله وتقرباً إليه ، والحدود : واحداً حد ، وهو في اللغة : الحاجز بين شيئين ، ثم سمي بها ما شرعه الله لعباده من الأحكام ، لأنها تجدد الأعمال ، وتبين أطرافها وغاياتها ، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة وكان عمله باطلاً .

والمراد بالآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام .

روى الإمام أحمد في سبب نزول هذه الآية ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : إن الناس كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له قيس بن

صِرْمَةً (بكسر الصاد) صلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ، فأصبح مجهدا . وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأقى النبي ﷺ فذكر له ذلك ، فأنزل الله ﴿ أحل لكم ليلة الصيام . . . ﴾ ، وهذا يدل على أنه حين فرض الصيام كان كل إنسان يذهب في فهمه مذهبا كما يؤديه إليه اجتهاده ، ويراه أحوط وأقرب للتقوى حتى نزلت هذه الآية (١) .

نعم إن رحمة الله وسعت كل شيء ؛ ومن آثار تلك الرحمة أن أباح للصائمين الأكل والشرب ومباشرة النساء ليلة الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، حتى يرفع عنهم العنت والمشقة . فإذا كان الصائم قد حظر عليه أن يأتي نساءه وهو صائم نهرا ، فقد أباح الله له ذلك ليلا . وعبر القرآن عن الجماع تعبيرا أدبيا رفيعا بكلمة ﴿ الرفث ﴾ ، كما عبر عنه في موضع آخر بقوله : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ فلما تغشاها حملت حملا خفيفا ﴾ (٢) وبين شدة الاتصال بين الرجل وزوجته بقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ، أى أن بينكم وبينهن تمام تداخل واتصال ، وقد علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، أى تخونونها بالتشديد عليها ، فتأب عليكم فيما حدث ، وعفا عنكم فيما وقع ؛ فالآن باشروا الزوجات ، واطلبوا ما كتب الله لكم من الولد الصالح . كذلك فقد أبيع لكم الأكل والشرب ليلا حتى يتبين الفجر ، كما يتبين الخيط الأبيض من الأسود . والمراد بالخيط الأبيض نور النهار ، وبالخيط الأسود ظلمة الليل . بعدها : ﴿ أتموا الصيام إلى الليل ﴾ ، وكما يفسد الصيام بالجماع ، كذلك يفسد الاعتكاف بالجماع ، قال تعالى : ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ .

ثم نهى سبحانه عن قرب حدوده خشية الوقوع في الحرام ، فالنهى عن القرب نهى عن الفعل من باب أولى . قال ﷺ : (إن لكل ملك حمى ، وإن حمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه) . قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ ، أى يتقون ما حرم الله . والمراد من الآيات الأحكام الشرعية .

### النهى عن أكل أموال الناس بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْءُوا بِهَا إِلَى الْحُكْمِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : المراد بالأكل : الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أعم الحاجات التى ينفق فيها المال وأكثرها ، إذ الحاجة إليه أهم ، والباطل : من البطلان ، وهو الضياع والخسران . وأكله بالباطل : أخذه بدون مقابلة شيء حقيقى ، والشريعة حرمت أخذ المال بدون مقابلة يعتد بها ، وبدون رضا من يؤخذ منه ،

(٣) سورة الأعراف آية : ١٨٩ .

(١) المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٢) سورة النساء آية : ٢١ .



وإنفاقه في غير وجه حقيقى نافع . والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء ، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى . وقوله بها : أى بالأموال . والفريق من الشيء : الجملة والطائفة منه . والإثم : هو شهادة الزور ، أو اليمين الفاجرة أو نحو ذلك .

إنما جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات الصيام لما لها من وقع شديد في النفوس ؛ فإذا كنتم أيها الصائمون قد أمسكنكم في النهار عن أكل ما أحل الله ، فلا يحل لكم أن تأكلوا ما حرم الله ، إذ أنه رب صائم لا يناله من صومه إلا الجوع ، ورب قائم لا يناله من قيامه إلا السهر ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه . فهذا الخطاب بالنسبة للصائمين أشد وأوقع ، كأنه قيل : أتمسكون عن الطعام في الصيام ، وتأكلون أموال الناس بالباطل ، وإنما عبر هنا (بالأكل) دون غيره من الملبس والمركب ، لأن الإنسان أشد ما يكون إلى الطعام ، فكلما كثرت واشتدت حاجته إليه ، كان النهي أوقع .

وإنما جاء التعبير القرآنى : ولا تأكلوا أموالكم ولم يقل (ولا تأكلوا أموال غيركم) ، لأن المجتمع الإسلامى كله رجل واحد وجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . والباطل هو الخسران والضياع ، فأكل الربا باطل ، ودفع الرشوة باطل ، والسرقة والغصب كل هذا وجوه حرم الله ما لها ؛ وللمال حرمة في الإسلام ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، ولا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب نفسه منه ، وما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، حتى لقد ذكروا أن الإمام أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، كان ينتظر أحد الناس وهو واقف في حر الشمس ، وأمامه بيت له ظل ظليل ، فقيل له : يا أبا حنيفة ما ضر لو وقفت في ظل البيت ؟ فقال : إن هذا البيت مرهون عندى ، واخشى إن وقفت في ظله أن يسألنى الله عن ذلك ، إذ لا يجوز الانتفاع بالشيء المرهون .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته	أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصماً	فإنه الركن إن خانتك أركان

قال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة . فقال له الصادق المعصوم : (يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفسى بيده إن الرجل ليقذف باللقمة من الحرام في جوفه فلا يقبل الله منه دعاءً ، أو لا يقبل منه عمل ، أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به) .

وأشد ما ابتلى به الإنسان دفع الرشوة وأكلها ومن الناس من يدلى ويلجأ إلى الحكام بدفع شيء من المال في سبيل أن يأكل مال غيره ، ونسى أو تناسى أنه يأكل في بطنه ناراً وسوف يصلى سعيراً ، ويأكل فريقاً من أموال الناس بالإثم والعدوان ، وهو يعلم أنه آثم خاطىء مذنب ، ويوم القيامة سيعض يديه ندماً ، ويقلب كفيه ألماً ، يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

## الأهلة

\* يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَاتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية : أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي صالح عن ابن عباس : (أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن غنيمه قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال ؟ فنزلت الآية) (١) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات الصيام ، لأن الأهلة كما كانت مواقيت للناس والحج ، كذلك هي مواقيت لشهر الصيام والإفطار ؛ قال ﷺ : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته) (٢) ، فبينهما تمام ارتباط وتناسب .

لما سألوا رسول الله ﷺ عن الحكمة من منازل الهلال ، بين الله تعالى فائدة ذلك ، لأنه لمعرفة المواقيت الزمانية ، وما أشد حاجة الناس إلى تلك المواقيت : فبالمواقيت يزرعون ويحصدون ويصومون ويحجون ويجاهدون بها ، وتعتد المرأة وتعرف أيام حيضها ونفاسها إلى غير ذلك . قال تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٣) ، ثم صحح لهم أموراً كانوا يفعلونها في الحج ، فقال : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ .

وروى البخارى وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم عن جابر قال : كانت قريش تدعى الخمس (جمع أحس من الحماسة وهي الشدة والصلابة لتشددهم في دينهم) ، وكانوا يدخلون البيوت من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى ، فقالوا يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، قال : إنى رجل أحسنى ، قال له : فإن ديني دينك ، فأنزل الله الآية . . (٤) .

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٣٦ ط دار زهران للنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م .

(٢) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى ج ٢ ص ١٠٣ دار الفكر .

(٣) سورة يونس آية : ٥ .

(٤) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ط الشعب .

وبعد ما صحح الإسلام لهم ما انحرفوا عنه ، بين لهم حقيقة البر ، وأنه التقوى ، والتقوى خوف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل . والتقوى هي السلاح الأقوى ، والمتقون مفلحون ، يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وإتيان البيوت من ظهورها ليس من البر أو العقل ، ولا يفعله من اتقى الله ، إنما وضع الأمور في نصابها يكون بإتيان البيوت من أبوابها ، وحال المسلم يجب أن يكون سمعاً وطاعة لأوامر الله ، وأن يكون باطنه وظاهره على وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (١) ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٢) ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ (٣) .

### مشروعية القتال في الإسلام

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ سبيل الله ﴾ : دينه لأنه طريق إلى مرضاته . ﴿ يقاتلونكم ﴾ : أى يتوقع منهم قتالكم . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : أى لا تبدءوهم بالقتال . ومحبة الله لعباده : إرادة الخير والثواب لهم . والمعتدون : أى الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام . والثقف : الحذق في إدراك الشيء علماً كان أو عملاً . وقد يستعمل في مطلق الإدراك . ﴿ من حيث أخرجوكم ﴾ : أى من مكة . والفتنة من قولهم فتن الصائغ الذهب ، إذا أذابه في النار ليستخرج منه الزغل ، ثم استعملت في كل اختبار شاق ، كالإخراج من الوطن المحبب من الطباع السليمة ، والفتنة في الدين ، ويكون الدين لله ، أى ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن بصدده عنه ولا يؤذى فيه ، ولا يحتاج إلى مداينة ومحابة أو استخفاء ومدارة .

(٣) سورة الطلاق آية : ٤ .

(١) سورة النور آية : ٥٢ .

(٢) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

بعد ما بين الله تعالى منافع الأهل وأنها مواقيت للناس والحج ، فإنها أيضا مواقيت للأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال ، والتي جاء ذكرها في قوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (١) ، وفي قوله جل شأنه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ (٢) ، وهذه الأشهر هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

فإذا ما اعتدى على المسلمين في هذه الأشهر ، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله ، وقد جاء الإذن بالقتال في الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة ، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، وما زالت وستظل ، قال تعالى لنبيه ومصطفاه : ﴿ يا أيها المدثر \* قم فأندر \* وربك فكبر \* وثيابك فطهر ﴾ (٣) ، ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٤) .

ثم : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ (٥) ، ثم : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير \* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٦) ، ثم : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إذن ، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الأثمين ، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم من ديارهم مكة ، قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٧) ، ثم قال عز من قائل : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ ، والمقصود ، بالفتنة هنا فتنة الرجل في دينه حتى يرتد عنه ، فقد أذاقوا المسلمين ألوانا من العذاب ، لو صبت على الأيام صرن ليالي ، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وسمية وياسر وغيرهم من المستضعفين ، ما شأنهم ببعيد ، من ثم فإن الفتنة أشد من القتل ، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها ، ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده ، ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق ﴾ (٨) . ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته ، فإنه الأمن كله : طيراً ونباتاً ووحشاً ، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه ، إذ يقول : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ، أما إن نكثوا

(٥) سورة الشعراء آية : ٢١٤ .  
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .  
(٧) سورة الحشر آية : ٨ .  
(٨) سورة الشورى آية : ٤٢ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٤ .  
(٢) سورة التوبة آية : ٣٦ .  
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ : ٤ .  
(٤) سورة النحل آية : ١٢٥ .

أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون . وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، فالظالم عدو الله ورسوله ، لا بد أن يقلم الإسلام أظفاره ، ويكسر أنيابه ، ويبحث مغالبه ، لأن وجوده في الأرض شر مستطير . فالؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا ، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

من هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا في وجه العدوان ، وضد القوى الطاغية ، التي وقفت حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس .

فالأصل في الإسلام السلام ، ولكنه سلام عزيز مسلح ، فالله هو السلام ، والجنة دار السلام ، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام ، وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام ، وتحية سبحانه لنبيه : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . فهذا هو الأصل في معاملات الإسلام الخارجية ، سلام مبني على العزة والكرامة ، أما السلام الذليل للمستكين ، فالإسلام لا يعرفه ولا يقره ، قال تعالى : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾ (١) .

واسألوا التاريخ : أي المعسكرين اعتدى على الآخر ، معسكر الشرك أم معسكر التوحيد ؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادئ بالعدوان ، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدي معسكر الشرك ؟ لا والله ، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما رفع الإسلام السيف إلا في وجه السيف ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ؟ .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالخرب أجدى على الدنيا من السلم
والخرب إن تلقها بالسلم ضقت بها	ذرعاً إن تلقها بالسيف تنحسم

قال رباعي بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه : ما الذي جاء بكم إلينا ؟ قال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحدة ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحرب في حق لديك شريعة ومن السموم الناقعات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين : ما قامت دعوة الإسلام على السيف ، إنما قامت على الحجة والبرهان ، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد ، كان وحده ، ويوم انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم

بالسيف ، ويوم انضم إليهم عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف ، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب ، ولا سلطان للسيف على ما في القلب ، ونسبة البلاد التي فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر في المئة ، والباقي دخلوا الإسلام بطريق التجارة التي كان يتولاها تجار المسلمين في شرق البلاد وغربها . ثم أسألوا التاريخ : متى استعمل الإسلام السيف ؟ ضد القوى المادية الضاغطة التي وقفت كابوساً ضاغطاً يصد عن سبيل الله . ثم أسألوا التاريخ : كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا في غزوات الرسول كلها ؟ من الجانبين لا يتجاوزون ألفاً وثمانية عشر رجلاً ، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيداً والباقي من المشركين ، بينما سقط في الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليوناً ، وفي الحرب العالمية الثانية خمسون مليوناً ما بين قتيل وجريح ومعوق . ألا يأخذ هؤلاء الحياء ؟ ثم ألا يشعرون بالخزي وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفوا خيراتها تحت اسم الاستعمار ، وما هو استعمار وإنما استخرا ب . واسألوا التاريخ عن بلد المليون من الشهداء ؟ الجزائر التي وقفت وصمدت أمام الامبراطورية الفرنسية ، وزيادة في الإيضاح فإننا نذكر في قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب في كتابه ( الرسول القائد ) تحت عنوان ( القتال في الإسلام ) : معنى القتال في الإسلام : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في الإسلام .

### متى شرع القتال في الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين في القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضرب ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويشبثوا عقيدة ، ويقولوا في حرارة وصدق : ربنا الله . فلما اشتد عداة قريش وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة . فهل وقف البغي وخفت حدة العداوة ؟ كلا . . . ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين في القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿ (١) . لقد خرج الرسول ﷺ غازياً في صفر على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال فعلاً في الإسلام .

### أهداف القتال في الإسلام

#### ١ - حماية حرية نشر الدعوة :

ليس من أهداف الحرب في الإسلام نشر الدعوة ، بل حماية حرية نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٢) ، ولو كان القتال في

(١) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) البقرة آية : ٢٥٦ .

انتشار الإسلام بسيف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم ، ولكن هدف الحرب في الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح شرف ، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين ، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين .. الخ .

## ٢ - توطيد أركان السلام

تكون الأمة بغير جيش قوى عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها ؛ فإذا كان لها جيش قوى احترمت العدو إرادتها ، فلا تحدته نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذلك السلام ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ \* وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن الإسلام ، كما تدل عليه تسميته ، دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، ولا يجوز الحرب إلا في حالات محدودة بحيث تعتبر فيها عداها جريمة .

## آداب القتال في الإسلام

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين ، لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

وليست الجزية عبوياً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هي لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء .. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية في العقائد والأموال . وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف .

« إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة .. فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم » .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٨ .

(١) سورة الأنفال الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطروا المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن : « إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم ، فهذه هي أموالكم نردها إليكم » .

لقد كان فرض الجزية في الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع في أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : أعلاها ، وهو (٤٨) درهما في السنة على الأغنياء ( حوالى دينارين ونصف دينار عراقي أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً ) ، وأوسطها ، وهو (٢٤) درهماً في السنة على المتوسطين من تجار وزراة . وأدناها : وهو (١٢) درهماً في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف في المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبي والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعّد وذوى العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة في تحصيلها . وقد جاء في عهد خالد لصاحب قس الناطف : « إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله » . ليس ذلك فحسب ، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش ، والذمى الذى يقبل التطوع في الجيش الإسلامى تسقط عنه الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البديل النقدي للخدمة العسكرية في عصرنا الحاضر ؛ كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحترجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « وأيما شخص ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » .

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال ، ومعنى ( صاغرون ) في آية الجزية ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾<sup>(١)</sup> ، هو الخضوع إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ، ومنه أطلق « الصغير » على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حيثئذ ، الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون ، فى دفع الجزية ومن الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ \* إنما



ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿١﴾

واقراً الآية الكريمة ، وهي من أواخر القرآن نزولاً ، فهي تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم : ( اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴿٢﴾ .

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هي : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

أما عن تنظيم القتال في الإسلام فإنه يدور حول ما يلي :

#### ١ - تقوية المعنويات :

يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين في سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون لإنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجيروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ \* وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ \* الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿٣﴾ .

واستأصل الإسلام جميع النواحي التي ينبعث من قلبها الجبن والخور ، وحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله والحق . . في سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التي يخشى كسادها ولا المساكن ، لا شيء من ذلك كله يصلح أن يحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ ﴿٤﴾ .

بمثل هذا الأسلوب القوي حارب الإسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف ، وغرس في نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة في سبيل الحق ونصرتة ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾ ﴿٥﴾ .

(١) سورة الممتحنة الآيتان : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

(٣) سورة النساء الآيات : ٧٤ - ٧٦ .

(٤) سورة التوبة آية : ٢٤ .

(٥) سورة الحجرات آية : ١٥ .

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية ، وقد كانت المعنويات العالية ، ولا تزال ، من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

## ٢ - إعداد القوة المادية :

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتتناول العدد والعدة ، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة منها لحمايتها .

يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو ، حتى لا تحدّثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل : ﴿ وَذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (١) .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بالحديد ، بصورة خاصة ، للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرَسُولَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

إن الجهاد في الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافعة عن الحق وحمايته .

## ٣ - التنظيم العملي للقتال :

### ( أ ) الإعفاء من الجندية :

أسباب الإعفاء من الجندية في الإسلام محصورة في الضعف ، ويشمل الضعف : المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٣) .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدي ، ولا البنوة لحاكم كبير ، مما عهدناه في عصور الانحلال ، بل كان العمل في عصر النبي ﷺ والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير في جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة في حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً في أن يستحر القتل فيهم .

(٣) سورة التوبة آية : ٩١ .

(١) سورة النساء آية : ١٠٢ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٥ .

## (ب) إعلان الحرب :

حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدرًا : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (١) .

تطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحاً .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان في القتال .

## (ج) الدعوة للجهاد :

حذر الإسلام من التباطؤ في تلبية داعي الجهاد والثاقل عنه : ﴿ يأيا الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ \* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

## (د) عقاب المتخلفين :

عاقب الإسلام المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله ، حتى زوجته ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ (٣) .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى .

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط ، ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث في القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته ، في بعض الأحيان ، بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف أو يناههم العقاب .

## (هـ) تطهير الجيش :

يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومن الذين يختلفون عن أفرادهم بالعقيدة ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة ، يعمل لتحقيقها ، ويذل كل ما يملكه في سبيلها ، وبذلك يستطيع الفوز في الحرب : ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ (٤) .

(٣) سورة التوبة آية ١١٨

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٠ .

(١) سورة الأنفال آية : ٥٨ .

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

## (و) أساليب القتال :

ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ، ويوزع وحداته على تلك المواضع ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾<sup>(١)</sup> ، ويبتكر القتال بأسلوب الصف ، الذي لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان .

## (ز) الضبط :

يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة ، والثبات في المواقف ، وتجنب أسباب الفشل ، والاعتصام بالله ، وباليقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

كما حذر الإسلام من الفرار ، وبين سوء عاقبته : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ \* ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾<sup>(٤)</sup> .

## (ح) الكتمان :

حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ؛ كما طلب من المسلمين أن يشتبوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾<sup>(٥)</sup> .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾<sup>(٦)</sup> .

## (ط) الهدنة والصلح :

أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب ، إذا جنح إليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ \* وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾<sup>(٧)</sup> .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٦٠ .

(٦) سورة النساء آية : ٨٣ .

(٧) سورة الأنفال الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(١) سورة آل عمران آية : ١٢١ .

(٢) سورة الصف آية : ٤ .

(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٤) سورة الأنفال الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

## (ي) الأسرى :

خير الإسلام القائد بين أن يمين عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشددوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (١) .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ، ولو لخوف ، فهو كالمسلم الأصلي ، يحرم دمه أيضاً .

(ك) حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق ، والوقية بالضعفاء : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ولا تكونوا كالتى نقضت غزها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ (٢) .

## الحرمات قصاص

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)

المفردات : الحرمات : واحداً حرمة ، وهى ما يجب احترامه والمحافظة عليه . القصاص : المقاصة والمقابلة بالمثل . اتقاء الشيء : طرحه حيث تراه ، ثم استعمل فى كل ما يطرح ، ويلقى مطلقاً . سبيل الله : هى طريق الخير والبر المؤدى إلى إعزاز دينه ، كجهاد الأعداء ، وصلة الأرحام . والتهلكة : الهلاك ، المراد به هنا الإمساك عن النفقة فى الاستعداد للقتال وترك الجهاد .

لما قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، بين تعالى بعد ذلك أن هناك أشهراً حرماً يحرم فيها القتال ، فقال : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ ، أى قابلوا حرمة هذه الأشهر بحرمة من جهتكم ، إلا إذا اعتدى عليكم فيها ، فإن الحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فى هذه الأشهر فعليكم أن تردوا العدوان بمثله ، حتى تكون كلمة الله هى

العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والمثلثة هنا بمثل ما اعتدى عليكم ، تفيد منتهى العدالة في رد الاعتداء ، وأن هذا الدين يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، لا يعرف الإكراه ؛ قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (١) ، وقال له : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار ﴾ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴿ (٢) وقال له : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً ﴾ (٣) وقال له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿ (٤) .

قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسي : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ، وما يتجنى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف فقول يكذبه التاريخ ولا يؤيده ، من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهرياً . انتهى كلامه .

وقد جاء الإسلام للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، كان كالنسيم الهادي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحجارة الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، ثم طمأن القلوب الواثقة وثبت الجماعة المؤمنة عندما أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى      تقلب عرياناً ولو كان كاسياً  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قيل للحسن البصري رضى الله عنه ، تقى عصره : ياتقى الدين أى الأيام عندك عيد ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد .

ولست أرى السعادة جمع مال      ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً      وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذى يأتى قريب      ولكن الذى يمضى بعيد

أى عدالة تلك ؟ بل أى خلق هذا حتى مع الأعداء ؟ قابلوا احترامهم للشهر الحرام باحترامكم له ، فإن اعتدوا عليكم فليكن ردكم للعدوان قصاصاً ، والقصاص ينبىء بالمساواة دون ما تجاوز للحد ، وليكن ردكم على عدوانهم مثلاً فى السلاح والأداء ، وعادلاً فى نفس الوقت : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٥) والتقوى هى السلاح الأقوى ، واعلموا أن الله مع المتقين ؛ وهل بعد معية الله من قوة تذكر ؟ كفى فخراً بأن تكون لى رباً ، وكفى عزاً أن تكون لك عبداً . فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد صحة فالله يعطيه ، ومن أراد غنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا ، فإن النار تكفيه .

(٤) سورة الغاشية : الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٥) سورة المائدة : آية ٨

(١) سورة يونس : آية ٩٩

(٢) سورة ق : آية ٤٥

(٣) سورة الفرقان : آية ٥٢

إن العز كل العز في طاعة الله والذل كل الذل في معصية الله ، ومعية الله هنا بمعنى الحماية والرعاية والصيانة ؛ ألم يقل السيد المعصوم لصاحبه في الغار : لا تحزن إن الله معنا ؟ ألم يقل موسى لبني إسرائيل عندما قالوا له إنا لمدركون ﴿١﴾ قال : كلا إن معنى ربى سيهدين ﴿٢﴾ ألم يقل الله تعالى للملائكة ، وقد أخذوا الأهباء للهبوط في الميدان يوم بدر : ﴿٣﴾ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴿٤﴾ ؟ ألم يتفضل مولانا ، جل ذكره ، على المتقين والمحسنين بقوله : ﴿٥﴾ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿٦﴾ ؟

جاء في سبب نزول هذه الآية مارواه عكرمة عن ابن عباس : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحسبه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذى القعدة ، وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿٧﴾ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى فيغزو ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ ، وهو غيم بالحديبية ، أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسألة والمصالحة ، وكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ، وتحصن فاروهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة ، واعتمر من الجعرانة ، حيث قسم غنائم حنين ، وكانت عمرته هذه في ذى القعدة أيضاً عام ثمان ، صلوات الله وسلامه عليه .

وبعدما أمرهم تعالى بالجهاد بالنفس في قوله : ﴿٨﴾ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴿٩﴾ ، أمرهم سبحانه أن يجاهدوا بالمال فقال : ﴿١٠﴾ وأنفقوا في سبيل الله ، كثيراً ما يقترن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال ، قال تعالى : ﴿١١﴾ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٢﴾ ، وقال عز من قائل : ﴿١٣﴾ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿١٤﴾ ، وقال تبارك اسمه : ﴿١٥﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم \* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴿١٦﴾ . وسبيل الله يشمل طرق الخير ، وعلى رأسها الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ثم نهاهم سبحانه عن الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة ، وإنما يكون الإلقاء إلى التهلكة بالإمساك عن النفقة وبالبخل ، كما جاء ذلك عن كثير من أهل العلم .

قال حذيفة : نزلت هذه الآية في النفقة . وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير

(٥) سورة التوبة آية : ٤١ ،

(٦) سورة التوبة آية : ١١١ .

(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١ .

(١) سورة الشعراء : آية ٦٢

(٢) سورة الأنفال : آية ١٢

(٣) سورة النحل : آية ١٢٨

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسري ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وعن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد أثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما ، فنزل فينا : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذي والنسائي .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدي فقتلوني ، أكنت ألقى بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا . قال الله لرسوله ﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلْ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وإنما هذه في النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه .

وقد ورد أن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى إلى التهلكة ولا يتوب .

فتحصل لنا من هذا أن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة إما أن يكون بالبخل كما قال تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنَفْسِكُمْ أَنْ تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقد تكون التهلكة بفعل الذنوب وترك التوبة ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> . وبعد الأمر بالإِنْفَاق جاء الأمر بالإِحْسَان ، والإِحْسَان درجة عليا تفوق الإِنْفَاق ، فهي درجة الإِثَار ، قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنُ نَفْسِهِ فَاُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وقال جل شأنه : ﴿ وَأَقِ الْمَالِ عَلَى حَبِّ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وقال عز من قائل : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَبِّهِمْ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وإنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً <sup>(٧)</sup> .

فالإِحْسَان هو الفضل ، والفضل بعد العدل ، وقد أمر الله به في قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى ﴾ <sup>(٨)</sup> . وقد كتب الله الإِحْسَان في كل شيء ، حتى في القول عندما قال : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا ﴾ <sup>(٩)</sup> ، والإِحْسَان بالوالدين ، فقال : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ <sup>(١٠)</sup> . وكما أن الله مع

(٦) سورة الإنسان الآيتان : ٩ ، ١٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٩٠ .

(٨) سورة البقرة آية ٨٣ .

(٩) سورة البقرة آية : ٨٣ .

(١) سورة النساء آية : ٨٤ .

(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٦ .

(٤) سورة الحشر آية : ٩ .

(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .



المتقين ، فهو يحب المحسنين ، فالتقوى والإحسان يؤديان إلى معية الله ومحبته ، ومحبة الله كامنة في رضاه ، وإذا رضى الله ، فماذا بعد الرضا ؟ .

رضاكَ خير من الدنيا وما فيها      يا مالك النفس قاصيها ودانيها  
فليس للنفس آمال تحققها      سوى رضاكَ فذا أقصى أمانها  
فنظرة منك يأسؤلى ويأملى      خير إلى من الدنيا وما فيها

### الحج والعمرة

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَخْلُقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

المفردات : الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه ، والهدى : يطلق على الواحد والجمع ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على الفقراء ، والمحل (بكسر الحاء) : مكان الحلول والنزول . حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

بعد ما ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالصيام من أول قوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (١) وختمها بقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ (٢) ، ثنى بعد ذلك بذكر الجهاد وما يتعلق به من حرمة للشهر الحرام ، ووجوب الإنفاق ، ذكر بعد ذلك الأمر بالإحسان ، فقال : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) ، عطف بعد ذلك الأمر بإتمام الحج والعمرة على الأمر بالإحسان ، فالإحسان واجب في كل شيء ، وهو الإخلاص في العمل لله تعالى ، وأن يراد به وجهه وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ ، وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أى عام الحديبية ، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك سورة الفتح

(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥ .

(١) سورة البقرة آية : ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى ، وكان سبعين بدنة ، وأن يخلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم ؛ فعند ذلك أمرهم ، عليه السلام ، بأن يخلقوا رءوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، انتظاراً للنسخ ، حتى خرج فخلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يخلق ، فلذلك قال ﷺ : ( رحم الله المحلقين ) ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؛ فقال في الثالثة و ( المقصرين )<sup>(١)</sup> . وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل بل كانوا على طرف الحرم . والله أعلم .

وفي هذه الآية بيان لأحكام الحج والعمرة وذكر لأحكام الإحصار ، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحل قبل بلوغ الهدى محله إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها ، فإنه يخلق ، وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين (الفرق بالتحريك مكيال بالمدينة وزن ستة عشر رطلاً) ، فإذا زال الخوف من العدو ، فمن أتم العمرة وتحلل وبقي متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم ، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات ، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده ، إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات .

﴿ وأتموا الحج والعمرة ﴾ ، أى وأتوا بالحج والعمرة تامين كاملين ، ظاهراً بأداء المناسك على وجهها ، وباطناً بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة . والتجارة لا تنافي الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾<sup>(٢)</sup> . الرياء والسمعة إذا كانا هما الباعث على الحج ، فالحج ذنب للمرائي لا طاعة ، وهكذا حكم من يحج ليقال له ( الحاج فلان ) ، أو ليحتفل بقدومه ، أو يقترض بالربا ، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحج ، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانه وإنما يقصد زيارة النبي ﷺ ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة . وقد كان الحج معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل وأقره الإسلام بعد أن أزال ما فيه من ضروب الشرك والمنكرات ، وزاد فيه مناسك وعبادات .

وهو فريضة لقوله تعالى : ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾<sup>(٣)</sup> ، وللأحاديث الواردة في ذلك .

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بامرة أبي بكر رضى الله عنه ، وكانت تمهيداً لحجة النبي ﷺ سنة عشر ، وفيها أذن أبو بكر بالمشركين الذين حجوا : ألا يطوف بعد هذا العام مشرك ، ونزلت الآية : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فإن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما ، وأردتم أن تتحللوا ، فعليكم أن تذبحوا ما تيسر لكم من بدنة أو بقرة أو شاة ثم تحللوا .

(١) تفسير القرآن الكريم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٣٥ ط الشعب . (٢) سورة آل عمران آية : ٩٧ .

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

وذبحها يكون في موضع الإحصار ولو في الحل ، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهي من الحل .

﴿ ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله ﴾ ، قد جعل الشارع أمانة الدخول في الحج أو العمرة ، الإحرام بنية النسك عند الابتداء به بالتلبية ، ولبس غير المخيط من إزار ورداء ، وكشف الرأس للرجل ، ولبس النعلين ، وأمانة الخروج منها (ويعبر عنه بالإحلال والتحلل) بحلق الرأس أو التقصير . فالنهي عن الحلق نهى عن الإحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذي يحل ذبحه فيه ، وذلك حيث يحصر الحاج وإلا فالكعبة ، لقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ (١) .

﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ ، أى فمن كان منكم مريضاً يحتاج إلى الحلق ويؤذيه تركه ، أو به أذى من رأسه من جراح أو داء ، فعليه فدية إن حلق ، وهي إما صيام أو صدقة أو نسك .

وقد بين مقدارها فيما أخرجه البخارى من حديث كعب بن عجرة قال : (وقف على رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسى يتهافت قملاً ، فقال : يؤذيك هوامك ؟ قلت : نعم ، قال : فاحلق رأسك ، قال : فنزلت هذه الآية وذكرها فقال النبي ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر) (٢) .

﴿ فإذا أمتم ﴾ من خوفكم من عدوكم ، أو برأتم من مرضكم الذى منعكم من حجكم أو عمرتكم .

﴿ فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج ، فعليه ما استيسر من الهدى ، أى فعليه دم نسك شكراً لله أن أتاح له الجمع بين النسكين ، ويأكل منه كالأضحية ، ويذبح يوم النحر .

﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت ﴾ ، أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده أو عدم المال الذى يشتري به ، فعليه صيام ثلاثة أيام في أيام الإحرام بالحج ، وتمتد إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى بلده ، أو شرع في الرجوع ، فيجزئ الصوم في الطريق .

﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ ، أى هذه الأيام الثلاثة والسبعة الأيام ، عشرة كاملة ، وهذا نتيجة لما تقدم مبين لجملة العدد الواجب بعد أن بينه تفصيلاً ، وفائدته إزالة وهم من قد يظن أن الواو للتخيير بمعنى أو كقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ (٣) . وفائدة وصفها بالكمال الإشارة إلى أن رعاية العدد من المهام التى لا يجوز إغفالها ، بل يجب المحافظة عليها دون نقص فى عددها ، ولا تهاون فى أدائها ، وإلى أن هذا البذل كامل فى قيامه مقام المبدل منه ، وهما فى الفضيلة سواء .

(١) سورة المائدة آية : ٩٥ .

(٣) سورة النساء آية : ٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٣٧ ط الشعب .

ثم بين سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج ، وما يتبعه من الأحكام ؛ خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم قال : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ ، أى إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ، ثم السفر إلى العمرة وحدها ، أما أهل الحرم فليسوا في حاجة إلى ذلك ، فلا متعة ولا قران لحاضري المسجد الحرام .

﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، أى اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاز عن نواهيه ، واحذروا أن تعتدوا في ذلك ، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرمة وركب معاصيه .

### الحج المبرور

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونِ يَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾

المفردات : ﴿ فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه ، والرفث لغة : قول الفحش ، وشرعاً قربان النساء ، والفسوق لغة : التنازع بالألقاب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ بشئ الاسم الفسوق ، وشرعاً : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً في الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط ، والجidal : المراء والخصام ، ويكون عادة بين الرفقة والخدم في السفر ، لأنه مشقة تضيق بها الصدور ، والزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر ، والتقوى : هى ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتزهد عن المنكرات والمعاصي .

وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث شريفة بين فيها فضل الحج ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور) (١) . رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه) (٢) رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) (٣) رواه البخارى ومسلم .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٠٩ ط الشعب .

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

وعن ابن شماسه رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : ابسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده فقبضت يدي فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لي . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟<sup>(١)</sup> رواه ابن خزيمة ومسلم<sup>(٢)</sup> .

وعن الحسن بن علي رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : إني جبان ، وإني ضعيف . فقال : (هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج)<sup>(٣)</sup> .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد فقال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى وغيره .

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده بإتمام الحج والعمرة وبين حكم الإحصار والتمتع ، بين سبحانه بعد ذلك أن الحج عبادة موقوتة بأشهر معلومات ، وهى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، وإنما أطلق الأشهر على شهرين وعشرة أيام من باب التغليب ، أى تنزيل العشرة منزلة الشهر ، ومن ثم فإن بعض الفقهاء يرى أن الأشهر المعلومات ثلاثة : شوال وذو القعدة وذو الحجة . والحج لا يجوز في العام إلا مرة واحدة ، لأن الحج عرفة ، وعرفات في اليوم التاسع من ذى الحجة ، أما العمرة فإنها جائزة طوال العام ، وأفضل ما تكون في رمضان ، قال ﷺ : (عمرة في رمضان تعدل حجة معي)<sup>(٥)</sup> ، والعمرة طواف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ، أما الحج فيزيد عليها الوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، والمبيت بمنى . قوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ، أى فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والنية فعليه أن يلتزم بهذه الآداب ، إذ الحج مدرسة أخلاقية عليا ، ومثل رفيعة من كريم السجايا ، فعلى من أوجب الحج على نفسه أن يجتنب الرفث ، وهو الجماع ودواعيه من القبلة واللمس والكلام بهذا الشأن مع النساء ، وعليه أن يجتنب الفسوق ، والمقصود به المعاصي ، ويشمل السباب كما في قوله ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، كما يشمل التنازب بالألقاب ، وهو أن تنادى أخاك باسم يكرهه ، وذلك أن تسميه بعاهة فيه كقولك له يا أعرج يا أعمش ، قال تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾<sup>(٦)</sup> ، وهذا جانب عظيم من جوانب الأخلاق الإسلامية .

(١) يعنى أن الحج يسبب غفران الذنوب ويزيل الخطايا إلا حقوق الأدمى ، فإنها في الذمة حتى يجمع الله أصحاب الحقوق ليأخذ كل حقه ، ومن الجائز أن الله تعالى يتكرم فيرضى صاحب الحق بما أعد له من النعيم وحسن الجزاء فيسامح المدين تفضلاً وتكرماً ، ولا بد من أداء حقوق الأديين وحقوق الله مبنية على تسامح الكريم الغفور الرحيم .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ص ١١١ .

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ١٢٣ ط الشعب .

(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق  
فإذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

قوله تعالى : ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ ، أى لا جدال في مناسكه بعدما بينها الله ، وذلك من الوقوف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، أو الوقوف بعرفة ، أو المبيت بمنى ، وقد يكون المراد بالجدال المراء والمخاصمة واللجاج ، وكلها تغضب الناس ، بل يجب على الحاج أن يكون سمحا إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى .

وإن كانت هذه الأخلاق واجبة على كل حال ، إلا أنها في الحج أكد ؛ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : (من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه) قال تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ ، والخير هنا يشمل وجوه البر من إغاثة الملهوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصلة الأرحام والقيام بالليل والناس نيام ، وتعلق علم الله تعالى بهذه الخيرات ، مع أنه سبحانه قد وسع كل شيء رحمة وعلما ، إلا أن تخصيص العلم فيه دلالة على عظم هذا الخير عند الله كما في قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (١) ، وكما في قوله تعالى : ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾ (٢) ، ثم أمر الله تعالى بعد ذلك بالتزود ، أى أخذ الزاد من طعام ونفقة حتى يكف وجهه عن سؤال الناس ، وأن يكون ذلك من حلال ، لأن الحاج إذا قال : لبيك اللهم لبيك ، قال له الملك : لبيك وسعديك ، زادك من حلال ونفقتك من حلال وحجك مأجور غير مأزور . هذا هو الزاد للحج الذى قال الله فيه ﴿ وتزودوا ﴾ ، أما الزاد للآخرة فقد قال فيه تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ ، والتقوى كما فسرهما العلى الأعلى في مطلع سورة البقرة بقوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون \* والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ (٣) ، فالتقى هو الذى آمن بالغيب وأقام الصلاة وأنفق مما آتاه الله وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء وأيقن بالبعث بعد الموت .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركز إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد  
أترضى أن تكون رقيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى ذوى العقول عامة فقال : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾ ، فما أجمل العقل إذا استعمله صاحبه في طاعة ربه ، وما أتعسه إذا استعمل في الشر والفساد ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٤) .

(٣) سورة البقرة الآيات : ٢ - ٤ .

(٤) سورة الاعراف آية : ١٧٩ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٦ .

## أحكام تتعلق بالحج

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

المفردات : الجناح : الحرج ، والإثم من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿ أَنْ تَبْتَغُوا ﴾ : أى تقصدوا وتطلبوا . و ﴿ فضلاً ﴾ : أى عطاء ورزقا منه بالربح فى التجارة أيام الحج . والإفاضة من المكان : الدفع منه ، أى أفضتم أنفسكم ودفعتموها ، ويقال : أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق . و ﴿ عرفات ﴾ : موقف الحاج فى أداء النسك ، وسمى بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه ، وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه الحاج بعرفات وهو التاسع من ذى الحجة . والذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد ، والمشعر الحرام : هو جبل المزدلفة ، يقف عليه الإمام ، وسمى بهذا الاسم لأنه معلّم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته ، فلا يفعل فيه ما نهى عنه .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه البخارى ، رضى الله عنه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فى موسم الحج<sup>(١)</sup> . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يتقنون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر فأنزل الله : ﴿ ليس عليكم جناح ﴾<sup>(٢)</sup> . وقد سئل ابن عمر عن الرجل يحج ومعه تجارة ، فقرأ ابن عمر : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ . وقد سئل ابن عمر فقيل له : إنا نكرى ، أى نستأجر ، فهل لنا من حج ؟ فقال : أستم تطوفون بالبيت وتأتون المعروف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ ، فدعاه النبى ﷺ فقال : (أنتم حجاج)<sup>(٣)</sup> . قوله تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ . اعلم بأن الحج عرفة ، أى هو الركن الأعظم ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج . وعرفة هو موضع الوقوف ، كما أن عرفة محدد باليوم التاسع من ذى الحجة ، وقد ورد فى فضله ما يدل على عظم الأجر للواقفين فيه ، فخير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة ، وهو أكثر الأيام عتقا من النار ، وإن الله تعالى ليدنوكم يباهى الملائكة بأهل عرفة ويقول لهم : ما أراد هؤلاء ؟ ويقول : هؤلاء عبادى أتوني شعثا غبرا ضاحين يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم . أفيضوا عبادى مغفورا لكم ولمن شفعتم فيهم .

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٤٩ ط الشعب .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق .

قال ﷺ : ( الحج عرفات ) قالها ثلاثا ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ؛ وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : ( لتأخذوا عني مناسككم )<sup>(١)</sup> . وإنما سميت عرفة لأن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات .

عن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : ( أما بعد ، وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد ، فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رعوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإننا ندفع بعد أن تغيب الشمس ، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت في رعوس الجبال كأنها عمائم الرجال في وجوهها ، وإننا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك )<sup>(٢)</sup> ، والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم .

#### ما حكم الوقوف بالمشعر الحرام ؟

قال الفقهاء : الوقوف بالمشعر الحرام ركن عند البعض ، لا يصح الحج إلا به ، ومن هؤلاء طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي . وقال البعض : هو واجب يلزم بتركه دم ، كما هو أحد قولي الشافعي . وقال الآخرون : هو مستحب لا يلزم بتركه شيء وهكذا تبين أن الحجاج بعد أن يفيضوا من عرفات يتوجهون إلى المزدلفة ليدكروا الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرا مطابقا لهدى الله تبارك وتعالى لهم . ولقد كانوا من قبل أن يهديهم الله يذكرون الله تعالى ذكرا يشوبه الشرك كقولهم : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك ملكته وما ملك . فعلمهم الله على لسان رسوله أن الذكر يجب أن يكون خالصا صافيا من كل شائبة ، فكانت التلبية لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك . ومعنى لبيك أي أجيبك مسرعا مرة بعد مرة . قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ ، ﴿ إن ﴾ هنا مخففة من الثقيلة ، والتقدير : وإن كنتم من قبل تعليمه لكم وبيان الهدى من الضالين الغافلين .

وبعد ما بين الله تعالى الوقوف بعرفات ، وهو ركن الحج الأعظم ، والوقوف بالمزدلفة بعد ذلك . وقد رأى بعض الفقهاء ، كما ذكرنا سابقا ، أنه ركن لا يصح الحج إلا به ، ورأى البعض أنه واجب يلزم بتركه دم ، ورأى آخرون أنه مستحب لا يلزم بتركه شيء . وأمرهم تعالى بذكره بعد ذلك ذكرا خاليا من شوائب الشرك . أمرهم سبحانه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، والناس يفيضون من عرفات إلى المزدلفة . أما قریش فقد كانت تقف بالمزدلفة وتفيض منها إلى منى ولا تقف مع الناس بعرفات ، وكانوا يجدون في ذلك ميزة لهم وخاصية عن بقية الناس ، فأمرهم تعالى أن يقفوا بعرفات كما يقف بقية الناس ، وأن يفيضوا من عرفات

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٥٢ .

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠ - ٣٥١ .



إلى المزدلفة كما يفيض بقية الناس . وقريش هم الخمس ، ومفرد الخمس أحمس ، وهو الشديد الصلب . ولما جاء الإسلام قضى على العصية وأعلنها صريحة مدوية ( كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ) . ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) . لما كان ذلك كذلك فلا ميزة لأحد على أحد في المناسك : فعليكم يا قريش أن تلتزموا هذه التعليمات الإلهية . قوله تعالى : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ . . . روى الإمام البخارى رضى الله عنه بسنده عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : ( سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة ) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبابكر قال يارسول الله علمنى دعاء أدعوه فى صلاتى فقال : ( قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم ) (٢) . وكثيرا ما يأمر الله بالاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات ، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا ، (٣) وفى الصحيحين أنه ندب الى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين وخبر : أما الأمر الأول فقوله تعالى : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ، وقد روى الإمام البخارى فى معنى هذا الحكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الخمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها (٤) .

والأمر الثانى قوله : ﴿ واستغفروا الله ﴾ . ولقد تبين أن الاستغفار من لازمه جعل الله له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل شدة مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وقد جاء رجل إلى الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فشكا له قلة المطر ، فأمره الحسن بالاستغفار . وجاء ثان فشكا له قلة المال ، فأمره بالاستغفار وجاء ثالث فشكا له قلة البنين فأمره بالاستغفار ، وجاء رابع فشكا له قلة النبات فأمره بالاستغفار ، وجاء خامس فشكا له قلة الأنهار فأمره بالاستغفار ؛ فعجب الجالسون وقالوا : أوكلما جاءك شك أمرته بالاستغفار ؟ فقال لهم : أوما قرأتم قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾ يرسل السماء عليكم مدرارا \* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (٥) .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيم ﴾ (٦) . وما أجمل قوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله مجداً ﴾

(٤) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

(٥) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .

(٦) سورة النساء آية : ٦٤ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .

غفوراً رحيماً ﴿١﴾ . وما أكرم قوله جل شأنه : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ ﴿٢﴾ .

ومن فضل الله تعالى على المؤمنين أن الملائكة تستغفر لهم ويطلبون من الله المغفرة إكراماً وإنعاماً . قال جل شأنه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ ﴿٣﴾ . وما أجل قوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ ﴿٤﴾ . وما أكرم قوله جل شأنه على لسان نبيه هود : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ ﴿٥﴾ .

قال أبو بكر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ﴿٦﴾ ، فشاكلة العبد المعصية ، وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : وقرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ ﴿٧﴾ . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ ﴿٨﴾ . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ﴿٩﴾ .

وهكذا تبين لنا الأمر بالإفاضة مقترناً بالأمر بالاستغفار ، وجاء الخبر مقترناً بالأمر بالاستغفار في قوله تعالى : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ، أى اطلبوا المغفرة من الله لأن من شأنه أن يغفر ويرحم ، وما أكثر اقتران المغفرة بالرحمة ، لأن رحمة الله بعد المغفرة تتجلى فى ستره للعبد . بل هناك ما هو أبعد من ذلك كرماً ، فإنه تعالى ينسى الحفظة الكاتبين ذنوب العبد الذى تاب وأناب واستغفر حتى لا يكون لأحد عليه كشف يترتب عليه الشماتة .

يامن له علم الغيوب ووصفه	ستر الذنوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى	كرماً فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم الفتاح

(٦) سورة الاسراء آية : ٨٤

(٧) سورة غافر آية : ٣

(٨) سورة الحجر آية : ٤٩

(٩) سورة الزمر آية : ٥٣

(١) سورة النساء آية ١١٠ .

(٢) سورة هود آية : ٣ .

(٣) سورة غافر آية : ٧ .

(٤) سورة الشورى آية : ٥ .

(٥) سورة هود آية : ٥٢ .

## قضاء المناسك

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ \* وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

المفردات : الخلاق : الحظ والنصيب ، وحسنة الدنيا هي العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة أو العلم والمعرفة ، وحسنة الآخرة هي الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة ، والأولى التعميم في كل هذا .

إن المقصود بالمناسك هنا أعمال الحج ، والمراد بقضائها ، أداؤها كما في قوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (١) . ولكل منسك من تلك المناسك أجر عظيم لمن أداه مخلصا لله وجهه . وفي حديث للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الأجر جليا يأخذ بالآل باب ويشد القلوب إلى هناك وما أدراك ما هناك : هناك الصفاء كله والسمو الرفيع والشفافية الروحية . وهذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة الناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف ، فسما ثم قالا : يا رسول الله جئنا نسألك ، فقال : إن شئكما أخبرتكما بما جئتما تسألاني عنه فعلت ، وإن شئكما أن أمسك وتسألاني فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يا رسول الله ، فقال الثقفى للأنصارى : سل . فقال أخبرنا يا رسول الله . فقال : جئتنى تسألني عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه . مع الإفاضة . فقال : والذي بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك . قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفا ، ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة ، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول : عبادى جاءونى شعنا من كل فج عميق يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو

كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفورا لكم ، ولن شفعتم له ؛ وأما رميك الجمار فمذخور لك عند ربك ، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما تستقبل فقد عُفِرَ لك ماضى . ( رواه الطبرانى فى الكبير والبرار ) .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أن العرب فى الجاهلية كانوا يجتمعون بعد فراغهم من حجهم ومناسكهم ، يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يُطعم ويحمل الحملات والديات ، ليس له ذكر غير فعال آبائه ، فأنزل الله هذه الآية . ويروى أنهم كانوا يقفون بين المسجد والجبل يتفاخرون ويتناشدون ، فأمرهم الله أن يذكره بعد قضاء مناسك الحج ، كما كانوا يذكرون آباءهم فى الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم .

وقد جاء الأمر بالذكر يفوح طيبا ومسكا فى هذا الجو الذى تعانق فيه القلب واللسان فى تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وتهليله . نرى ذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ ﴾ (١) ، كما نراه بعد قضاء المناسك فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ۖ ﴾ ، كما نراه فى أيام منى فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ۖ ﴾ . والذكر هو استحضر عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ولا بد أن يصحبه تفكير يوقظ القلب ويبعده عن الغفلة . فالذكر بلا تفكير غفلة ، والفكر بلا ذكر جفاء . لذلك وصف الله عباده الصالحين بقوله : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ ﴾ (٢) ، فإذا كان الذكر بلا فكر غفلة ، فإن الفكر بلا ذكر جفاء . وإذا كان ذلك كذلك فإن الذكر مع الفكر وفاء . وأنت ترى أن اللسان وحده إذا كان بينه وبين القلب سور ، فإن ذكر اللسان لا يترك للذاكر أثرا من آثار النورانية المشرقة . ذهب بلال ليؤذن الفجر فى مسجد الهادى البشير صلى الله عليه وسلم فوجد النبى يبكى فسأله : مايبيك يارسول الله ؟ قال : يا بلال لقد أنزل على الليلة آية ، ويل لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه ثم قرأ : ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۖ ﴾ . فليعلم الذاكرون أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

ذكروا أن رجلا من الصالحين اسمه ثابت كان يمر ذات يوم فى إحدى طرقات الكوفة فوجد شجرة قد سقطت منها تفاحة خارج سور الحديقة فأخذها وأكل نصفها ثم تذكر أنه ما كان له أن يفعل ذلك ، فذهب إلى حارس الحديقة وقال له : ساعحنى فيما أكلت ودفع إليه نصفها الآخر ، فقال له الحارس : لا أملك السماح لأننى لا أملكها . قال له : فأين صاحبها ؟ فدلّه عليه فذهب إليه ثابت وأخبره الخبر ، فقال له

(٢) سورة آل عمران الآيةان : ١٩٠ ، ١٩١ .

(١) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

صاحب البستان : لا أسامحك حتى تقبل شرطى عليك . قال وماذا ؟ قال : أن تقبل الزواج بابنتي وسأعرض عليك أوصافها : إنها عمياء بكماء صماء مقعدة . وهنا ذهب الرجل في موجات عاصفة من الفكر ، فقد هبت عليه رياح هوج تحمل قيظ الهواجر وكأن في نفسه سؤالاً قد اعتمل : أمن أجل نصف تفاحة ألقى هذا الجزاء ؟ ولكن سرعان ما نزلت السكينة قلبه واستنار فؤاده بالرضى : ولماذا لا أتزوجها لأنال رضا الله فيها ؟ ومن الذى يتزوجها إن لم أتزوجها أنا ؟ . وقال لأبيها : لقد قبلت زواجها ياسيدى . وتم زواجها ولم يرها ، وذهب ليعد نفسه لاستقبالها ، ولكن أباهما قد هيا له المكان في بيته ، ودخلت الفتاة لتكون في استقبال زوجها ، وقال أبوها له : ادخل على زوجك بارك الله لكما في ليلتكما ، ودخل ثابت عليها وألقى السلام ، وقد أخبر من قبل أنها صماء ، ولكن الملائكة سترت ، فمن ألقى السلام في بيته على أهله كثر الخير في بيته وطردت منه الشياطين ، ولكن ما أن ألقى السلام عليها حتى نهضت واقفة وصافحته وردت عليه السلام ، قال الرجل : فنظرت إلى وجهها فكأنه قطعة قمر . وبعد أن استجمع أنفاسه سأها : لقد أخبرنى أبوك بأنك عمياء صماء بكماء مقعدة ! قالت له : نعم لقد صدق أبى فيما أخبر : إننى عمياء لا أرى ما حرم الله ، صماء لا أسمع ما يغضب الله ، بكماء لا أتكلم إلا بما يرضى الله ، مقعدة لا أمشى إلى ما يسخط الله . ودخل بها فرزقه الله منها إماماً جليلاً ملأ طباق الأرض علماً وفقهاً ، انفرد بثلاثة أرباع العلم ، وشارك العلماء الباقيين في الربع الباقي ، إنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت . وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ﴾ (١) ، وصدق رسوله إذ يقول : (فاظفر بذات الدين تربت يداك) (٢) ، وإذ يقول : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض) (٣) . وقد صدق بعض الصالحين إذ يقول : « لا تزوج بتك إلا لتقى ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لا يظلمها » . فهذا رجل من أجل نصف تفاحة ذكر الله فطلب السماح من صاحبها . فما أجمل استحضر عظمة الله في القلب ، وما أعظم أن يشيع ذكر الله في كيان الإنسان كله . قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأذكاهم عند مليككم وأرفعهم في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى . قال : ذكر الله) (٤) . والحجيج ، على وجه الخصوص ، مطالبون بالإكثار من ذكر الله ، من تهليل وتكبير وتلبية ، حتى إن الأصوات لتنبج من كثرة الذكر . لقد كانوا إذا فرغوا من أداء المناسك يذكرون أمجاد الآباء ويفخرون بهم ، فلما أظلمهم الإسلام بظلمه أمرهم أن يلهجوا بالذكر الله كما كانوا يلهجون بذكر الآباء ، بل أمرهم أن يكونوا أشد ذكراً ؛ ثم فرّع على ذلك مسألة من مسائل الذكر ، فقسّم الناس قسمين :

قسم يطلب من الله الدنيا ولا نصيب له في الآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق ﴾ ، وهؤلاء قد أصيبوا بالغفلة ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . قال

(١) سورة الأعراف آية : ٥٨ .

(٢) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ٥١٧ ط دار الفكر .

(٣) الجامع الصغير في شرح أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ٥٧ ط دار الفكر .

(٤) نفس المصدر

تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤثمه منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ (١) . والفريق الثاني جمع في دعائه بين خيري الدنيا والآخرة ، وقد قال الله تعالى في وصف هذا الفريق : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ . وهكذا يعلمنا الله الأدب في الدعاء فاسأل الله أن يؤتيك الحسنة في الدنيا والآخرة ، ثم سلم إليه الأمر في تحديد تلك الحسنة ، فإن يد الله تعمل في الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وحسنة الدنيا تشمل الدار الواسعة ، والزوجة الطائعة التي إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك . كذلك تشمل المركب السريع ، والجار الطيب . وقد قالوا : إن من رزق لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد جمع بين حسنتي الدنيا والآخرة . والصنعة والمال وراحة البال والرضا بما قسم الله ، والعلم والمعرفة من حسنات الدنيا ؛ والجنة ورضوان الله والنجاة يوم الحشر من حسنات الآخرة . ولا تحسبن أن حسنة الدنيا مقصورة على صرف مرتبك من الصراف ، فإن الصراف إذا صرف لك فإن الله تعالى سيصرف عنك . الصراف يصرف راتباً والله يصرف عنك الهم والحزن والسقام والشقاء ويرزقك الرضا . وقد كان من دعاء الصالحين : اللهم رضا بقضائك وبارك لنا في قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

لا تقترح على الله أن يرزقك المال أو الولد ، فقد يكثر المال وتكثر معه الهموم والأحزان ، وقد تأتى الأولاد وتأتى معها البأساء والضراء والشقاء . ولكن اسأله الحسنة وفوض له الأمر بعد سؤلها ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

كان بعض الصالحين ينام على الطوى وكانوا يقولون : نحن في سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف - لقد عاد النبي ﷺ مريضاً فوجد المرض قد برّح به حتى صار كالفرخ الضعيف ، فقال له الرسول ( ص ) : ألا تدعو الله ؟ قال : يا رسول الله أدعوه . قال : فماذا تقول في دعائك ؟ قال أقول : اللهم إن كنت معذبى بشيء في الآخرة فعجله لى في الدنيا . فقال له الهادى البشير : إنك لا تطيق ذلك ، هلاً قلت : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (٢) . وما أجمل أن يسأل العبد ربه الوقاية من عذاب النار ، وذلك بالبعد عن الأسباب المؤدية لغضب الله من الشبهات والشهوات . فاللهم إنا نسألك علماً نافعا ، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يُسمع .

وقد حكم الله لهذا الفريق الذى جمع في دعائه بين حسنتي الدنيا والآخرة بقوله : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ أى نصيب من خير الدنيا ، لأنهم سلكوا في تحصيل ذلك الأسباب التى شرعها الله وأحلها ، فأكلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، واجتنبوا خطرات الشيطان . ولهم نصيب مما كسبوا فى الآخرة لأنهم أخذوا الأسباب إلى رضوان الله ؛ وما أجمل تلك النصيحة التى وجهها القوم إلى قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٦ ط الشعب .

(١) سورة الشورى آية : ٢٠ .

إن الله لا يحب الفرحين \* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ ، ذلك لأن الله لا يعوقه شيء ، فكل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ؛ من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . نعم إنه سريع الحساب ، ليس في حاجة إلى آلة حاسبة ولا مستشار ولا معين ولا قضاة ، فهو القائم بذاته ، الغنى عمن سواه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ (٢) ، إنه سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٣) . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (٤) . ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر \* وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٥) . وكيف لا يكون سريع الحساب وهو القائل : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ ، قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر من ذى الحجة . وقال عكرمة : ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ يعنى التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر . الله أكبر .

قال رسول الله ﷺ : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله) (٧) .

والمراد بأيام التشريق الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر ، قال تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ أى من رمى الجمار في يومين من أيام التشريق الثلاثة ثم رحل واكتفى بهذين اليومين فلا إثم عليه ولا جناح . ومن تأخر إلى اليوم الثالث ورمى الجمار فلا إثم عليه ، فكلا الأمرين جائز ، ولكن الأمر كله يدور على تقوى الله ، فمن تعجل متقيا مخلصا عمله لله فلا إثم عليه ، ومن تأخر ملتزما تقوى الله فلا إثم عليه . وقد ختم الله مشهد الحج عندما ينصرف الحجاج إلى بلادهم ويرجعون بعد أداء المناسك ، ختم الله هذا المشهد المهيب بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى لا ترجعوا بعد أداء الفريضة مشتغلين بالدنيا لاهين عن ذكر الله ، لأن المرجع إلى قبل الانصراف وبعده ، فقد وقفتكم في صعيد عرفات متجردين من المخيط والمحيط ، لا ألقاب ولا رتب ولا أوسمة ولا نياشين ، كذلك ستشرون يوم الحشر في صعيد القيامة . قال تعالى : ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ .

ولنأخذ الآن في بيان كيفية الحج ، كما تحدثت عن ذلك كتب الفقه :

- |                                    |   |
|------------------------------------|---|
| (١) سورة القصص الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ . | (٥) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .                          |
| (٢) سورة لقمان آية : ٢٨ .          | (٦) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .                          |
| (٣) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .       | (٧) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٢٥٧ ط الشعب . |
| (٤) سورة ياسين آية : ٨٢ .          |   |

## كيفية الحج

إذا قارب الحاج الميقات استُحبَّ له أن يأخذ من شاربه ويقص شعره وأظافره ويغتسل أو يتوضأ ويتطيب ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم - أي نوى الحج إن كان مفرداً ، أو العمرة إن كان متمتعاً أوهما معا إن كان قارناً ، وهذا الإحرام ركن لا يصح النسك بدونه . أما تعيين نوع النسك من أفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً ، ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفاً ، أو هبط وادياً ، أو لقي ركبا أو أحداً ، وفي الأذكار وفي دبر كل صلاة . وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ، ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لا فائدة فيه ، وألا يتزوج ولا يزوج غيره .

ويتجنب أيضاً لبس المحيط والمخيطة والحذاء الذي يستر ما فوق الكعبين ، ولا يستر رأسه ، ولا يمس طيباً ولا يخلق شعراً ولا يقص ظفراً ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ، ولا لشجر الحرم وحشيشه .

فإذا دخل مكة المكرمة استُحبَّ له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكرة أدعية دخول المسجد ومراعي آداب الدخول وملتزمًا الخشوع والتواضع والتلبية .

فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه فيسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب في ذلك ، ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود ، فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه . ثم يقف بحذاء الحجر . ملتزمًا الذكر المسنون ، والأدعية المأثورة ثم يشرع في الطواف .

ويستحب له أن يضطجع ويرمل في الأشواط الثلاثة الأولى ، ويمشي على هيئته في الأشواط الأربعة الباقية . ويُسنُّ له استلام الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود في كل شوط .

فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) . فيصلى ركعتي الطواف ثم يأتي « زمزم » فيشرب من مائها ويتصلع منه .

وبعد ذلك يأتي « الملتزم » فيدعو الله عزَّ وجلَّ بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة . ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ .  
(الآية (٢))



ويصعد ويتجه إلى الكعبة فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى في السعى ذاكرًا داعيًا بما شاء . فإذا بلغ « مابين الميئين » يهرول ، ثم يعود ماشيًا على رسله حتى يبلغ المروة ، فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيًا ذاكرًا . وهذا هو الشوط الأول ، وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم . فإذا كان المحرم متمتعًا حلق رأسه أو قصر . وبهذا . تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظورًا من محرمات الإحرام حتى النساء . أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفي اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد ثمة ، واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام وإلا صلى جمعا وقصرًا حسب استطاعته .

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال ، فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريبًا منها ، فإن هذا موضع وقوف النبي ﷺ .

والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم . ولا يُسن ولا ينبغي صعود جبل الرحمة . ويستقبل القبلة . ويأخذ في الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل .

فإذا دخل الليل أفاض إلى « المزدلفة » فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ويبت بها .

فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيرًا حتى يُسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى « منى » .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه . ويحلق شعره أو يقصره . وبالحلق يحل له كل ما كان محرّمًا عليه . ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة . وهو طواف الركن - فيطوف كما طاف في طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضًا طواف الزيارة . وإن كان متمتعًا سعى بعد الطواف .

وإن كان مُفردًا أو قارنًا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر . وبعد هذا الطواف يحل له كل شيء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها ، والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئا بالجمرة التى تلى « منى » ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى . داعيا ذاكرا . ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها .

وينبغى أن يرمى فى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك . ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة . ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة والمبيت بـ « منى » والذبح والحلق أو التقصير . هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

### حجة رسول الله ﷺ

فى العام العاشر من الهجرة أذن المؤذن فى الناس أن رسول الله ﷺ قد عزم بمشيئة الله على أداء الحج ، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع ، لأن الرسول لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، وتسمى حجة الإسلام ، لأن الرسول ﷺ بلغ فيها وبين أصول الإسلام ، كذلك تسمى حجة البلاغ ، لأنه ﷺ بلغ فيها قواعد الدين وشعائر العبادات وأصول العقائد ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك . ولنذهب الآن إلى الصحابى الجليل جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، يحدثنا عن هذه الحجة المباركة ، وذلك فيما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلى ؟ فقلت : أنا محمد بن على بن حسن ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فترع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثدى ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يا بن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجة ملتحقا بها ، فلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ ، فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم

أذن في الناس في العاشرة : إن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتيهم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلي واستغفري بثوب واحرمي [ معنى الاستغفار : أن تشد في وسطها شيئا ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها لمنع سيلان الدم ] . فصلى رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب القصواء [ معنى القصواء اسم لناقة النبي ﷺ ] ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مدبصري بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شيء عملنا به . فأهل [ معناها من الإهلال ] ، وهو رفع الصوت بالتلبية . فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذي يهلون به ، فلم يرُدُّ رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوي إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن ، فَرَمَلْ ثَلَاثًا ، ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ في الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج إلى باب الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى ، سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال : « لو أتي استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسقِ الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل . ويجعلها عمرة .

فقام سراقه بن مالك بن جعشم ، فقال : يا رسول الله العَامِنَا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه ، واحدة في الأخرى ، وقال دخلت العمرة في الحج مرتين لا . بل لأبد أبد .

وقدم على من اليمن ببدن النبي ﷺ ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حَلَّ ، ولبست ثيابا صبغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . قال : فكان على يقول بالعراق ، فذهبت إلى

رسول الله ﷺ مُحَرَّشًا [ التحريش : الإغراء . والمراد هنا أن يذكر له ما يقتضى عتابها ] على فاطمة للذي صنعت ، مستفتيا رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها ، فقال : صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

قال : قلت : اللهم إني أهل بما أهل به رسولك ..

قال : فإن معي الهدى فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذي قدم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا ، إلا النبي ﷺ ، ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية [ يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذي الحجة ] ، توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج .

وتوجه رسول الله ﷺ ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة . فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفه فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فرحلت له . فأتى بطن الوادي فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا ، دم ابن ربيعة بن الحارث [ كان مسترضعا في بني سعد ، فقتله هزيل ] ، وربما الجاهلية موضوعة ، وأول ربا أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوعة كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخترتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاثة مرات » .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فضلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شق [ أى ضم وضيق ] للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس . السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا . فرفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به طُعن [ الطعن : جمع طعينة ، وهي البعير الذى عليه امرأة ، ثم سميت به المرأة مجازا لملاستها البعير ] ، مرت به طُعن يجري ففطق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر فوضع يده على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر لئلا ينظر ، حتى أتى بطن محسر ، فحرك قليلا . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف ، رمى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة : أى القطعة من اللحم فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : « انزعوا بنى عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس على سقائكم لتزعت معكم » . فناولوه دلوفا فشرب منه .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ، ونفائس من مهمات القواعد : قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه . قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى ، وعلى استئفار الحائض والنفساء ، وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ . فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوبا منك ومرغوبا إليك .

وأنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن - الحجر الأسود - قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى - والرمل أسرع المشى مع تقارب الخطأ ، وهو الخُتب . وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين . ثم يمشى أربعا على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين . ويقرأ فيهما فى الأولى - بعد الفاتحة - سورة ( الكافرون ) وفى الثانية - بعد الفاتحة - سورة ( الإخلاص ) . ودل الحديث أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن الاستلام سنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ، ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه ، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويرمل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له « بين الميلىن » ، وهو - أى الرمل - مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأولى كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .

وبتمام ذلك تتم عمرته . فإن حلق أو قصر صار حلالاً . وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارناً ، فإنه لا يحلق ولا يقصر ، ويبقى على إحرامه ثم في يوم التروية - وهو الثامن من ذي الحجة - يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى . والسنة أن يصلى بمبنى الصلوات الخمس ، وأن يبيت بها هذه الليلة - وهي ليلة التاسع من ذي الحجة . ومن السنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ «عرفات» فإنه ﷺ نزل بنمرة ، وليست من عرفات .

ولم يدخل - ﷺ - الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج .

والثانية : - أى من الخطب المسنونة - يوم السابع من ذي الحجة ، يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة : - أى من الخطب المسنونة - يوم النحر .

والرابعة : يوم النفر الأول . وفي الحديث سنن وآداب منها : أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين . وأن يقف - فى عرفات - ركباً أفضل . وأن يقف عند الصخرات ، عند موقف النبي ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس ؛ ويكون فى وقوفه داعياً لله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً . فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا فى سببه ، فقليل : إنه نسك ، وقيل : لأنهم مسافرون - أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا فى كونه - أى المبيت - واجباً أو سنة . ومن السنة ، أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك ، فيأتى المشعر الحرام فيقف به ، ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك . . ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً ، فيأتى بطن محسر فيسرع السير فيه ، لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل ، فلا ينبغي الأناة فيه ، ولا البقاء فيه .

فإذا أتى الجمرة - وهى جمرة العقبة - نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات ، كل حصاة كعبة الباقلاء - أى الفول - يكبر مع كل حصاة . ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر - إن كان عنده هدى - ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة - وهو الذى يقال له : طواف الزيارة .  
ومن بعده يحلُّ له كل ما حُرِّمَ عليه بالإحرام ، حتى وطَّء النساء .  
وأما إذا رمى جمره العقبة ، ولم يطف هذا الطواف ، فإنه يحلُّ له كل شيء ما عدا النساء .  
هذا هو هدى رسول الله ﷺ في حجه ، والآتي به مُقتد به - ﷺ - وممثِّل لقوله : ( خذوا عني مناسككم ) . وحجه صحيح .

### نماذج مختلفة من الناس

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ۖ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾  
وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا  
قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي  
نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

المفردات : يقال : أعجبه الشيء ، أى راقه واستحسنه ، ورآه عجباً ، أى طريفاً جديداً غير مبتذل ، وتقول العرب : الله يشهد أو الله يعلم ، أى أريد كذا ، تقصد بذلك الحلف واليمين ، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ (١) . واللد : شدة الخصومة ، والخصام : الجدال ، وتولى : أى أدبر وانصرف عن مجلسك ، والسعى : السير السريع بالأقدام ، والمراد به هنا الجد في العمل والكسب ، ويهلك : أى يضيع ، والحراث : الزرع ، والنسل : ما تناسل من الحيوان ، والمراد من : هلاكهما الايذاء الشديد ، أخذته : أى لزمته ، والعزة في الأصل خلاف الذل ، والمراد بها هنا الانفة والحمية ، بالإثم : أى على الذنب الذى نهى عنه واسترسل في فعله ، حسبه : أى كفيه ، والمهاد : الفراش يأوى اليه المرء للراحة ، ويشري : يبيع ويذل ، ابتغاء : أى طلبا .

هذا المشهد القرآني بين الله فيه حال صنفين من الناس ، وقد جاء هذا المشهد عقب بيان صنفين سبق ذكرهما ، كان الصنف الأول يقول : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ﴾ (٢) . وكان الصنف الثاني يقول : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ (٣) . وقد أمر الله بعد ذلك عباده بالتقوى ، فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ (٤) . ولما كانت التقوى محلها القلب ،

(١) سورة يس آية : ١٦ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٠٣ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٠٠ .

كما أشار بذلك النبي ﷺ في قوله : ( التقوى ها هنا ) ، مشيراً إلى صدره ، فإن هناك فريقاً من الناس ينجذع عباد الله ، فيضمرون في قلبه مالا يظهر على لسانه ويظن بذلك أنه التقى النقي الطاهر الورع ؛ هذا الفريق يعجبك قوله في الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (١) . هذا الفريق يُشَهِد الله على ما في قلبه وهو يعلم أنه كاذب غادر أَفَّاكَ أَيْم . قال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (٢) . فإذا قلت لقد حلفوا وأقسموا في قولهم والله يعلم أنك لرسوله . وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ ﴾ قال لك الله : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (٣) ، أى جعلوا من الحلف وقاية من الكذب أمام الناس ، لكن الله يعلم ما في قلوبهم . ذلك لأن علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . كان المسيح ابن مريم يقول : ( يا بني إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن لبسوا ثياب الملوك وألبنوا قلوبكم بخشية الله ) ، قال جل ذكره في الحديث القدسي الجليل : ( لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتبخنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبى يغترون ، أم على يجترئون ) .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً إن الكذوب يشين حراً يصحب  
يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

★ ★ ★

كم من صاحب يلقاك عناقاً ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً

ملاك في مظهره شيطان في مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . هذا الفريق معسول الكلام ، كثير الحلف ، ألدُّ في الجدال ، عنده المقدرة الكلامية في الجدال والإفحام بالباطل . ومن صفات هذا الفريق أنه إذا تولى وانطلق وراء نفسه المعتلة المليئة بالعقد والحقد سعى في الأرض بالإفساد ، وما أكثر وجوه الإفساد ، فالنميمة والغيبة والسحر وشهادة الزور والقتل وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والظلم ، وإهلاك الحرث ، أى إفساد الزرع بقطعه ، وإهلاك النسل ، بقتل الحيوان سما وإتلافه ، والله تعالى لا يحب الفساد ولا يرضى عن المفسدين .

وهذا الفريق من صفاته أنه لا يقبل الحق ولا يستجيب لنصح الناصحين ، إذا قيل له اتق الله لزمه الصلف وأحاطت به الحمية والأنفة بالباطل ، فما جزاؤه ؟ حسب جهنم ، أى يكفيه ما في جهنم من شديد العذاب وبئس الفراش الذى يأوى إليه في جهنم ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (٤) .

أما الفريق الثانى ففريق الإخلاص والوفاء لله ، فريق باع نفسه في سبيل الله : ﴿ ومن الناس من

(٣) سورة المنافقون آية : ٢

(٤) سورة الاعراف : آية ٤١

(١) سورة المنافقون آية : ٤

(٢) سورة المنافقون آية : ١



يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴿ لا من أجل عرض ولا مغنم ولا منصب ولا كرسى مزور ولا جاه يفنى ، إنما ابتغاء ما عند الله من مرضاته ، ورضوان من الله أكبر ، وكأنه يقول لرافع السماء بلا عمد :  
فليتك تحلو والحياة مريرة      وليتك ترضى والأنام غضاب  
وليت الذى بينى وبينك عامر      وبينى وبين العالمين خراب  
إذا صح منك الود فالكل هين      وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ يدفع عنهم البلاء ويرحمهم إذا حل القضاء ، وهو القائل : أنا أراف بعبادى من الأم بولدها .

قيل لعمر رضى الله عنه : اتق الله . فوضع خده على الأرض تواضعا ، قال بعض الجالسین للقائل : أتأمر أمير المؤمنين بتقوى الله ؟ فقال لهم عمر : لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . وكان رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوى . ولقى رجل هارون الرشيد يطوف بالبيت فقال له : يا هارون اتق الله . قال هارون : أتناديني باسمى ؟ فقال له : نعم . . إذا كنت أنادى على الله باسمه فأقول يا الله ، فكيف لا أناديك باسمك ؟ . وكان لأمر المؤمنين عمر بن عبد العزيز مستشار خاص يسمى عمر بن مهاجر ، قال له أمير المؤمنين : يا عمر ، إذا رأيتنى بُعدت عن الحق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر ، فإنك ستموت . فما أجمل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (١) ، وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) ، وما أجمل قوله جل جلاله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ (٣) ، وما أكرم قوله جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا \* يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾ (٩) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾ (١٠) .

(٦) سورة التوبة آية : ١١٩ .

(٧) سورة يوسف آية : ٩٠ .

(٨) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٩) سورة الطلاق آية : ٤ .

(١٠) سورة الطلاق آية : ٥ .

(١) سورة النساء آية : ١ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .

(٣) سورة الحج آية : ١ .

(٤) سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .

(٥) سورة الحشر آية : ١٨ .

## توجيه رباني كريم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

المفردات : أصل السلم : التسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الإسلام . والخطوات : واحدها خطوة (بالضم) ما بين قدمي من يخطو . والزلل في الأصل : عثره القدم ، ثم استعمل في الانحراف عن الحق ، والبيّنات : الحجج والأدلة التي ترشد إلى أن ما دُعيتُم إليه هو الحق : عقلية كانت أو نقلية . والعزیز : الغالب الذي لا يعجزه الانتقام . والحكيم : الذي يعاقب المسيء ويكافئ المحسن . ينظرون : أى ينتظرون . يأتِيهم الله : أى يأتِيهم عذابه . والظلل : واحدها ظلة (بالضم) وهى ما أظلك . والغمام : السحاب الأبيض الرقيق . وقضى الأمر : أى أتم أمر إهلاككم وفرغ منه .

بعد أن بين سبحانه فيما سلف من الآيات أن الناس في الصلاح والفساد فريقان : فريق يسعى في الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، وفريق يبغى بعمله رضوان الله وطاعته - أرشدنا إلى أن شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد ، لا التفريق والانقسام .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ كافة ، أى في أحكامه كلها التى أساسها الاستسلام والخضوع لله والإخلاص له ، ومن أصوله : الوفاق والمسالمة بين الناس ، وترك الحروب بين المهتدين بهديه ، والأمر بالدخول فيه ، أمر بالثبات والدوام ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ ﴾ (٢) . وهذه دعوة من الله إلى جماعة المسلمين أن يأخذوا الإسلام بكل شعبه عقيدة وشريعة ، فلم التفرقة ، ولم الشقاق والنزاع ؟ لقد أخبر الصادق المعصوم في دعوته إلى وحدة الصف فقال : ( لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ) . وقد بين الصادق المعصوم أيضا أن الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة ، قالوا : يا رسول الله وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي . وقوله جل شأنه : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ كقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ (٣) ، ثم حذر سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه مفرق الجماعات ، ومبيد الأمم ، ومفسد العلاقات . قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ، ثم بين الغاية والحكمة من ذلك فقال : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ، أى ظاهر العداء والشقاق : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا ﴾

(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٣

(١) سورة الأحزاب آية : ١ .

(٢) سورة الحديد آية : ٢٨ .

إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١﴾ ، ثُمَّ حَذَرَ سُبْحَانَهُ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الزَّلْزَلِ وَالْإِبْتِعَادِ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ وَمِنْهُجِهِ فَقَالَ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ، أَيْ حَدَّثْتُمْ وَابْتَعَدْتُمْ عَنِ الْحَقِّ بَعْدَ وَضُوحِهِ وَقِيَامِ الْأَدْلَةِ ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ غَالِبٌ وَحَكِيمٌ ، يَضَعُ الْأُمُورَ فِي نَصَابِهَا : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبُّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مَصلِحُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ﴿ وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلِهَا ظَالِمُونَ ﴾ ﴿٤﴾ فَاحْذَرُوا يَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْفِرْقَةِ وَاتَّبَاعِ خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَالْوُقُوعِ فِي الزَّلْزَلِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ يَهْلِكُ الْأُمَمَ بِذُنُوبِهَا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ ﴾ . قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مهدياً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَرْجِعَ الْأُمُورُ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا \* وجاء ربك والملك صفاً صفاً \* وجاء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ ، وقال : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتَىٰ رَبُّكَ أَوْ يَأْتَىٰ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاءوا إليه قال : ( أنا لها أنا لها ) ، فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله في أن يأتى لفصل القضاء بين العباد ، فيشفعه الله ، ويأتى في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : « سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبحان قدوس رب الملائكة والروح ، سبحان قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذا السلطان والعظمة ، سبحان سبحانه أبداً أبداً » . وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : ( يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي ) ﴿٦﴾ .

(٤) سورة القصص آية : ٥٩

(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ ط الشعب

(١) سورة فاطر آية : ٦

(٢) سورة هود آية : ١٠٢

(٣) سورة هود آية : ١٠٧

قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾<sup>(١)</sup> ، وكقوله جل شأنه : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾<sup>(٣)</sup> ، وكقوله تبارك وتعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله جل جلاله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾<sup>(٥)</sup> .

### مع بنى اسرائيل

سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المفردات : الآية : المعجزة الظاهرة التي لا يخفى أنها من عند الله كالعصا واليد البيضاء . والتبديل : تغيير الشيء من حال إلى حال . ونعمة الله وهي آياته الباهرة التي آتاها أنبياءه وجعلها مصدر الهدى والنجاة . والعقاب : عذاب يعقب الذنب . وزين له الشيء : حسن له . وسخر منه : استهزأ به . والحساب : التقدير .

بعد ما أمر الله تعالى المؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة وأن يأخذوا شعب الإسلام كلها ، حذرهم سبحانه وتعالى من الزلل والانحراف فقال : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ .

بعد ذلك ذكر الله لهم عبرة بالغة في شعب غير وبدل ، إنه الشعب المعروف بنى إسرائيل ، قال الله تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ﴾ ، أى أسألهم سؤال تقرير ، فقد أرسل الله إليهم من الأنبياء كثيراً وكثيراً نظراً لما جلبوا عليه من الفساد والإفساد والشر المستطير ، فكمن من آية نزلت على يد نبيهم موسى ، وكمن من غمام ظللهم ؟ وكمن من طعام شهى من المن والسلوى نزل عليهم ؟ وكمن من عيون فجرت في حجر ؟ ومن أعظم تلك الآيات أن جاوز الله بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون . وكمن من آيات ظهرت على أيدي المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم ، ومع ذلك كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا وفريقاً

(٤) سورة الانفطار آية : ١٩

(٥) سورة الشورى آية : ٥٣

(١) سورة الحج آية : ٤١

(٢) سورة هود آية : ١٢٣

(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٤

يقتلون . فيا أمة الإسلام : إن الطريق واضح ، وإن الحق لائح ، وإن المنادى صائح ، وقد جاءكم من الأنبياء ما فيه مزدجر . فاستقيموا على طريق الجادة وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، واعلموا أنه من يبدل نعمة الله كفراً فإن مصيره دار البوار جهنم : وقد تكون نعمة الله المقصود بها الإسلام ، فمن بدل دينه وتنكب طريق الحق من بعد ما صاح المنادى : يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ، فليعلم الذين يبدلونه من بعدما سمعوه أن الله شديد عقابه ، أليم عذابه ؛ ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ﴾ ولا يوثق وثاقه أحد ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾<sup>(٢)</sup> قوله تعالى : ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ لأن قلوبهم خاوية من الإيمان ، فأصبحت كالحرائب تنعق فيها البوم والغربان ، لقد أجمعوا أمرهم وذهبوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد إن كنت تريدنا فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، يقصدون فقراء المسلمين كابن مسعود وخباب وصهيب فماذا كانت النتيجة ؟ لقد هبط الأمين جبريل على ناشر الهدى وواسع الندى بقوله جل شأنه : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾<sup>(٣)</sup> ، وكان النبي ﷺ ييسر رداءه لفقراء المسلمين ويجلسهم عليه ويقول لهم : مرحباً بمن أوصاني ربى بهم خيراً ، بل قال الله لهم ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ، بل لقد أمره جل جلاله أن يشرح لهم صدره ويفسح لهم في الترحاب فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾<sup>(٤)</sup> ، بل لقد زلزلت الأرض زلزالها عندما سخر بعض المنافقين بأحد المسلمين الفقراء ، وقد دخل بحفنة من الشعير متبرعاً بها لجيش المسلمين يوم تبوك ، فأنزل الله الأمين جبريل بقوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ . بل لقد أنزل الله آيات بينات فيها ملاطفة رقيقة لمبعوث العناية الإلهية عندما شغله بعض صنديد القوم عن الحديث مع رجل فقير مسلم هو عبد الله بن أم مكتوم ، قال تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ أن جاءه الأعمى ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴿ أما من استغنى ﴾ فأنت له تصدى ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ وأما من جاءك يسعى ﴿ وهو يخشى ﴾ فأنت عنه تلهى ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾<sup>(٦)</sup> بل لقد ضجت السموات العلا عندما قال قائلهم : ألم يجد الله إلّا يتيم أبى طالب ﴿ وقالوا لولا

(٤) سورة الأنعام آية : ٥٤ .

(٥) سورة التوبة الآيات : ٧٩ ، ٨٠ .

(٦) سورة عبس الآيات : ١ - ١١ .

(١) سورة الفجر الآيات : ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿١﴾ قال لهم رافع السماء بلا عمد : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ \* ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون \* وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون \* وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴿٢﴾ .

قوله تعالى ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ . نعم ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ \* على الأرائك ينظرون ﴿٤﴾ وقال جل شأنه : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ \* إلا أصحاب اليمين ﴾ \* في جنات يتساءلون ﴾ \* عن المجرمين ﴾ \* ماسلككم في سقر ﴾ قالوا لم نك من المصلين ﴾ \* ولم نك نطعم المسكين ﴾ \* وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ \* وكنا نكذب بيوم الدين ﴾ \* حتى أتانا اليقين ﴿٥﴾ ﴿وما أجل قوله تعالى : ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ \* الذين اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون ﴿٦﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ كقوله تعالى : ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ (٧) ، وكقوله تبارك اسمه : ﴿ليجزينهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضلة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ (٨) وكقوله جل جلاله : ﴿إنما يؤوف الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (٩) أى بدون عدٍّ ولا حد ولا تقدير ، فالله تعالى يعطي كثيراً ، ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات .

### بعثة الأنبياء بالتبشير والإنذار

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۚ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي

(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .  
(٧) سورة غافر آية : ٤٠ .  
(٨) سورة النور آية : ٣٨ .  
(٩) سورة الزمر آية : ١٠ .

(١) سورة الزخرف آية : ٣١ .  
(٢) سورة الزخرف الآيات : ٣٢ - ٣٥ .  
(٣) سورة الإسراء آية : ١٩ .  
(٤) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .  
(٥) سورة المدثر الآيات : ٣٨ - ٤٧ .

مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٢﴾

قوله تعالى « أمة » جاء لعدة معان :

(١) الملة : أى العقائد وأصول الشرائع كما فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١).

(٢) الجماعة : الذين تربطهم رابطة يعتبرونها وحدة تسوغ أن يطلق عليها اسم الأمة كما فى قوله : ﴿ ومن خلقا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ (٢).

(٣) الزمن كما فى قوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾ (٤).

(٤) للإمام الذى يقتدى به كما فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾ (٥).

(٥) إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (٦).

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل الله معهم الكتاب والميزان بالحق ، فدعت الرسل إلى التوحيد الخالص ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ (٧) ولقد وقعت اختلافات بين الناس ، فكان الكتاب حكما بينهم فيما اختلفوا فيه . وقد تعجب عندما تعلم أن الذين اختلفوا هم الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، وما كان الدافع إلى اختلافهم إلا الحسد والبغى الذى استشرى فى نفوسهم ، ومن بعد ما جاءتهم البينات الواضحات والآيات الباهرات ، وهنا تجلت نعمة الله على المؤمنين ، قال جل شأنه : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك . عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولا الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغدا لليهود وبعد غد للنصارى) (٨) .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى : ﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾ ، فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمة محمد ﷺ ليوم

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٢ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٨١ .

(٣) سورة هود آية : ٨ .

(٤) سورة يوسف آية : ٤٥ .

(٥) سورة النحل آية : ١٢٠ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .

(٧) سورة النحل آية : ٣٦ .

(٨) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٥ ط الشعب .

الجمعة ؛ واختلفوا في القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس ، فهدى الله أمة محمد للقبلة ؛ واختلفوا في الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلي وهو يتكلم ، ومنهم من يصلي وهو يمشي ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في الصيام ، فمنهم من يصوم بعض النهار ، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت النصارى : كان نصرانياً ، وجعله الله حنيفاً مسلماً ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا في عيسى عليه السلام ، فكذبت به اليهود وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً ، وجعلته النصارى الهاً ولداً ، وجعله الله روحاً منه وكلمته ألقاها إلى مريم ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْوَحْدُ لَا يُعَدُّ لَهَا شَرِيكٌ لَّهُ فَكَيْفَ يُعْبَدُ لَهَا ؟ إِنْ هِيَ إِلَّا أَعْيُنُ النَّاسِ يَنْصِبُونَ لَهَا وَإِنَّ قُلُوبَهُمْ خَلْقٌ لِّغُلُوبِهِمْ فَأَتَتْهُمْ حُسْنُهُمْ أَهْلِيكُمْ وَأَبْنَاءُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَبْنَاءُ بَنَاتِكُمْ لَدَيْكُمْ يَتْلُونَ أَيْدِيَهُمْ لِيُحْطِيَ بِكُمْ إِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

جاء في صحيح البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : ( اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنى لما اختلف فيه من الحق يا ذاك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم ) (٢) .

وفي الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، فلا تجعله ملتبساً فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً .

### الثبات والنصر

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٣١﴾

المفردات : المثل : الوصف العظيم والحال التي لها شأن بحيث يضرب بها المثل . والبأساء : الشدة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة . والضراء : ما يصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض . والزلازل : الاضطراب في الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه كما قال تعالى في المؤمنين يوم الأحزاب : ﴿ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٣) .

روى أن هذه الآية نزلت في غزوة الأحزاب حين اجتمع المشركون مع أهل الكتاب وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين ، وأصاب المؤمنين يومئذ جهد وشدة وجوع وضروب من الأذى ، وأبدى المنافقون صفحة

(١) سورة الزخرف آية : ٥٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٣٦٦ ط الشعب .

(٣) سورة الأحزاب آية : ١١ .



العداوة والبغضاء للمؤمنين الصادقين ، وقالوا كما قال الذين في قلوبهم مرض : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال صادقوا بالإيمان على قلتهم وضعفهم وجوعهم وعريهم : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفي قوله تعالى : ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ <sup>(٣)</sup> ، بين الله تعالى أن هناك فريقين بينهما صراع ، فريق أوتوا الكتاب فاختلّفوا وتنازعوا في الحق حسداً من عند أنفسهم على أهل الإيمان ، وفريق هداه الله إلى الحق بإذنه ، فلا بد لأهل الحق أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا . وفي هذه الآية : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ بيان لما يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة ؛ فالصراع بين الحق والباطل دائم ومستمر من يوم هبط آدم إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكأن هذا الصراع سلسلة متصلة الحلقات يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثاني إسرافيل نافخ الصور ، فلتوطنوا أنفسكم يا أهل الحق على الجهاد والتمرس بالشدائد ، فلستم بدعاً من الأمم ؛ لقد سبق لما كان قبلكم الإيذاء والابتلاء ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ <sup>(٤)</sup> . ﴿ إن يحسبكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ \* ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين \* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ <sup>(٥)</sup>

يا أمة الإسلام لقد كان من قبلكم أمم نشر فيها الموحدون بالمناسير ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ؛ ولقد قتل الأنبياء ونالوا بذلك شرف الجهاد ، وقد كان المؤمنون يحرقون بالنار كما حدث لأصحاب الأخدود : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ \* الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ <sup>(٦)</sup> . فاعلموا أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الضيق ، وأن اليسر مع العسر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ <sup>(٧)</sup> . فهل يضيع جهاد هؤلاء عند الله ؟ لا والله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾ <sup>(٨)</sup> . فاصبروا على كل الشدائد من البأساء والضراء ولا تستبطثوا نصر الله فإن نصر الله قريب ، ولكنكم تستعجلون . . إن يد الله تعمل في الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ .

(٦) سورة البروج الآيتين : ٨ - ٩ .

(٧) سورة يوسف آية : ١١٠ .

(٨) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(١) سورة الأحزاب آية : ١٢ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٣ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٣٤ .

### ماذا ينفقون

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ ۖ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ  
وَابْنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

الخير هنا هو المال وسمى به لأن حقه أن ينفق في وجوهه . والأقربون : هم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة .

جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أن ابن الجموح - وكان شيخاً كبيراً وله مال عظيم - سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من نفق ؟ فنزلت الآية .

وروى أحمد والنسائي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( تصدقوا ، فقال رجل : عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر به )<sup>(١)</sup> .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ أى شىء يتصدقون به من أصناف أموالهم ؟ ﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ أى قل لهم : على المنفق أن يقدم الوالدين لأنها قد ربياه صغيراً وتعبا في تنشئته ، ثم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة ، لأنهم أولى الناس بعطفه ورعايته ، ولأنه إذا تركهم يحتاجون إلى غيره كان في ذلك عاراً وشناراً عليه ، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الكسب لصغر سنهم ، ثم المساكين وأبناء السبيل للتكافل العام بين المسلمين ، فهم أعضاء أسرة واحدة ، فيجب أن يتعاونوا في السراء والضراء . وقد جاءت الآية في بيان نفقة التطوع لا في الزكاة المفروضة ، لأنها لم تعين مقدار المنفق والزكاة الشرعية معينة المقدار بالاجماع ، ولم يذكر سبحانه السائلين والرقاب لذكرهما في مواضع أخرى . ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أى وما تنفقوه في وجوه البر والطاعة في أى زمان وأى مكان على الأصناف المذكورة أو غيرها فالله عليم به لا يغيب عنه شىء ، فلا ينسى المثوبة والجزاء عليه ، بل يضاعف عليه الجزاء

### القتال والشهر الحرام

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٤ ط الشعب .

شَيْعًا وَهُوَ شَرُّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقْتُلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

المفردات : ﴿ كتب عليكم ﴾ : أى فرض عليكم . والصد : المنع . والفتنة : أى فتنة المسلمين في دينهم بإلقاء الشبهات في قلوبهم أو بتعذيبهم . ﴿ يرتدد ﴾ : أى يرجع . وحبط العمل : بطل وفسد . ﴿ آمنوا ﴾ : أى ثبتوا على إيمانهم . ﴿ هاجروا ﴾ : أى فارقوا الأهل والوطن . ﴿ واجاهدوا ﴾ : من الجهد وهو المشقة . ﴿ يرجون ﴾ : أى يتوقعون المنفعة بعمل الأسباب التى سنّها الله . ﴿ رحمة الله ﴾ : أى ثوابه .

جاء في تفسير المراغى : أنه كان الكلام فيما مضى في الإنفاق وبذل المال في سبيل الله على أصناف من المؤمنين في احتياج إلى مد يد المعونة والمساعدة لهم بإيجاداً لروح التعاون بين الإخوة في الإيمان وتثبيتاً لمبدأ التكافل العام في الأسرة الإسلامية لتصلح جميع أعضائها ، وتكون كالبدن السليم لا يشتكى منه عضو من الأعضاء ، فيؤدى كل عضو وظيفته في الحياة ويعمل العمل الذى هيم له بمقتضى النظام العام . ففى ذلك بذكر القتال وبذل النفس لإعلاء دين الله وجعل كلمته العليا وكلمة الكفر هى السفلى ، ونشر النور الإسلامى فى أرجاء المعمورة لهدى الخلق ومعرفتهم للحق .

ومن البين أن المال أخو الروح ، فالصلة بينها وثيقة ، فناسب ذكر آيات القتال بعد ذكر أحكام الصدقة على النحو الذى عرفت .

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ، أى فرض عليكم قتال الكفار فرض كفاية ، إذا قام به جماعة كفى ولم يلزم الباقين ، إلا إذا دخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين .

وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ ، أى شاق عليكم ، تتضرر منه الطباع لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ، وهذه الكراهة الطبيعية لا تنافى الرضا بما يكلف به الإنسان ، كالمرضى يشرب الدواء المر البشع الذى تعافه نفسه لما يرى فيه من منافع فى العاقبة ؛ وهذه أول آية فرض فيها القتال ، وكان ذلك فى السنة

الثانية للهجرة ، وقد كان القتال محظوراً على النبي ﷺ مدة إقامته في مكة ، فلما هاجر إلى المدينة أذن له في قتال من يقاتله من المشركين بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾ <sup>(١)</sup> ، ثم أذن له في قتال المشركين عامة ، ثم فرض الجهاد .

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ، أي إن من الأشياء المستلذة طبعاً ما يفعله الإنسان لما يرجو فيه من نفع وخير فيما بعد ، فقد يتحمل الإنسان أخطار الأسفار لتحصيل الربح في التجارة ، ويتحمل المتاعب في طلب العلم للفوز بالسعادة في الدنيا والعقبى ، كذلك من الأشياء المكروهة طبعاً ما يتوقع فاعلها الضرر والأذى في نفسه أو من جهة منازعة الناس له فيه ؛ وهكذا الحال في ترك الجهاد ، فإنه يصون النفس عن خطر القتل ، ويصون المال عن الانفاق حالاً ، لكن فيه مفسد ومضار مآلاً ، كتسليط الكفار على بلاد المسلمين وأموالهم واستباحة حريمهم ، وقد يكون في ذلك القضاء عليهم ، وكفى بذلك خسراناً مبيناً .

إلا أن في الجهاد الظفر بالغنائم والفرح بالاستيلاء على بلاد العدو وحفظ بيضة الإسلام وترغيب الناس في الدخول فيه وإعلاء كلمة الحق والثواب في الآخرة ومرضاة الله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، أي إذا تصورتهم قصور علمكم وكمال علم ربكم ، علمتم أنه تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة لكم ، فعليكم أن تمتثلوا وإن كرهت نفوسكم ، فاشتغلوا بطاعة الله ولا تلتفتوا إلى مقتضى طباعكم وما تهواه قلوبكم .

وقال بعض المفسرين : المراد بذلك أن المسلمين رأوا أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به ، فخافوا أن يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا ويضيع الحق الذي هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعوة إليه ، فأبان لهم سبحانه أن سنته قد جرت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأهله ، فاستمسكوا به وادعوا إليه ودافعوا عنه ، وإن القعود عن المدافعة ضعف في الحق يغري به أعداءه ويطمعهم بالتكليل بحزبه والتأليب عليه للإيقاع به .

وقد سبق في علم الله أنه لا بد أن يظهر دينه وينصر أهله على قتلهم ويخذل أهل الباطل على كثرتهم كما قال : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقد علم الله هذا ، فأنتم لا تعلمون ما خبا لكم في غيبه وستجدون صدق هذا في امتثال أمره والعمل بما يرشدكم إليه في كتابه .

وبعد أن ذكر أن القتال كتب على هذه الأمة ، بين مسألة سألوا عنها ، وهي القتال في الشهر الحرام ، فقال : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ، أي يسألونك عن القتال في الشهر الحرام إذ اختلج في صدورهم أن الأمر به في غير الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فسألوا النبي ﷺ : أيحل لهم القتال في هذا

(٣) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

(١) سورة الحج آية : ٣٩ .

(٢) سورة التوبة آية : ٧٣ .

الزمان وهذا المكان أم لا ؟ ويؤيده ما روى أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش ، وهو ابن عمته ، في ثمانية من المهاجرين في جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين ، ليرصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمي وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين ، واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنون من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، وهو الشهر الذى يأمن فيه الخائف ويسعى الناس فيه إلى معاشهم .

ولما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ولم يأخذ منها شيئاً ولما قال لهم رسول الله ﷺ ذلك : ندموا على ما فعلوا وظنوا أن قد هلكوا فنزلت الآية ، فأخذ النبي ﷺ العير وعزل منها الخمس وقسم الباقي بين أصحاب السرية وفدى الأسيرين<sup>(١)</sup> .

﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ ، أى إن أى قتال فيه ، وإن كان صغيراً في نفسه أو كبيراً ، مستنكر ، الوقوع ، لعظم حرمة ، وأن ما فعله عبد الله بن جحش وما يفعله المسلمون فيما بعد من القتال فيه مبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إذا لم يكن من أحدهما بد ، فالقتال في نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، ولكنه ارتكب لإزالة ما هو أعظم منه ، وذلك ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ﴾ . أى إن منع المشركين للمؤمنين عن الطريق الذى يوصل إلى الله تعالى ، وهو الاسلام ، باضطهادهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم بقتالهم من يسلم تارة وإيذائه في نفسه وأهله وماله ومنعه من الهجرة إلى النبي ﷺ تارة أخرى ، ومنعهم المسلمين عن المسجد الحرام في الحج والعمرة وإخراجهم أهله منه ، وهم النبي ﷺ والمهاجرون ، وكفرهم بالله تعالى - كل جريمة من هذه الجرائم التى يرتكبها المشركون أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . فما بالك بها وقد اجتمعت معاً ؟

ثم ذكر عز اسمه السبب الذى من أجله شرع القتال وهى فتنة المؤمنين عن دينهم فقال : ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ ، أى فتنة المسلمين في دينهم بإلقاء الشبهات في قلوبهم أو بتعذيبهم كما فعلوا بعمار بن ياسر وبلال وخباب بن الأرت وغيرهم ، فقد عذبوا عماراً بالكي بالنار ليرجع عن دينه ، وعذب أبوه وأمه ، فمر بهم النبي ﷺ فقال : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)<sup>(٢)</sup> ومات ياسر من العذاب ، وطعنت أمه بحربة في موضع عفتها فماتت . وكان أمية بن خلف يعذب بلالاً بالجوع والعطش ليلة ويوماً ، ثم يطرحه على ظهره في الرمضاء (الرمل المحمى بحرارة الشمس) ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فبأى بلال ، وتهون عليه نفسه في سبيل الحفاظ على دينه . وما امتنع منهم إلا من له عصبية من قومه ، على أنه لم يسلم من أذاهم ذوو العصبيات ، فقد آذوا رسول الله ﷺ فوضعوا سلا الجزور (الكرش المملوءة بالفرت) على ظهره وهو يصلى حتى نحتت عنه فاطمة رضى الله عنها ، وتعرضوا له بضروب أخرى من الإيذاء وقاه الله شرها ، كما قال تعالى : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ بتصرف ط الشعب

(٢) سبل الهدى والرضا في سيرة خير العباد للصالحى ج ٢ ص ٤٨٢ تحقيق مصطفى محمد ط ١ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .

(٣) سورة الحجر آية : ٩٥ .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وكثر عددهم صاروا يقاتلونهم في مهجرهم لفتنتهم في الدين إن استطاعوا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ ، أى إن هؤلاء لا هم لهم إلا منع الإسلام عن الانتشار في الأرض لاستحكام عداوتهم وحرصهم على فتنكم ، فانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع في غير مطمع ، والقتال في الشهر الحرام أهون من الفتنة — عن الإسلام إذا كان وحده ، فكيف إذا اقترن به غيره من الآثام كالصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام والكفر بالله والاعتداء بالقتال ؟ .

وفى قوله : ﴿ إن استطاعوا ﴾ استبعاد لاستطاعتهم وشك في حصولها وتنبية إلى سخف عقولهم وكون فعلهم هذا عبثاً لا يوصل إلى غرض ، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لا يرجع عنه إلى الكفر . وهكذا حال الكافرين في كل عصر ومصر ، يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا .

ثم بينت الآية عاقبة من يتأثر بهذه الفتنة فيرتد عن دينه فقال : ﴿ ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ؛ أى ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر ويمت على هذه الحال ، بطلت أعماله ، حتى كأنه لم يعمل صالحاً قط ، لأن قلبه قد أظلم ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ويخسر الدنيا والآخرة . أما خسارة الدنيا فلما يفوته من فوائد الإسلام العاجلة ، إذ يقتل عند الظفر به ، ولا يستحق موالاة المسلمين ولا نصرتهم ، وتبين منه زوجته ، ويحرم الميراث ؛ وأما خسارة الآخرة فيكفى بيانها في قوله : ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

والردة تارة تحصل بالقول ، كإنكار شيء مما علم من الدين قطعاً ، وأخرى بالفعل الذى يوجب استهزاء صريحاً بالدين ، كالسجود للشمس والصنم والاستهانة بالمصحف ونحو ذلك . وظاهر الآية يدل على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت صاحبها على الكفر ، وبه أخذ الشافعى ، ورأى أبو حنيفة أن الردة تحبط العمل حتى ولورجع صاحبها إلى الإسلام تمسكاً بعموم قوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾ (٢) .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين بين جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فقال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ﴾ ، أى إن المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم والذين هاجروا مع رسول الله ﷺ أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ، والذين بذلوا جهدهم في مقاومة الكفار وتقوية المؤمنين ، هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه ، وهم جديرون بأن يعطوا ذلك ، لأنهم استنفدوا ما في وسعهم وبذلوا غاية جهدهم ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا فعلوها ، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة .

(١) سورة الأنعام آية : ٨٨ .

(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

وقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فراراً بنفسه وقومه من أذى قريش وفتنتهم في دينهم بعد أن عاهد أهل المدينة على أن يمنعوهم عما يمنعون منه أنفسهم ، وتبعه المؤمنون في هجرته ليعتزلوا الإسلام بأهله ويقدروا على الدفاع عن أنفسهم إذا هم اجتمعوا واستمروا على ذلك ، حتى فتح مكة ، وخذل الله المشركين وجعل كلمتهم السفلى وكلمة الله هي العليا .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، أى والله واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين ، يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طوله . قال قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، قد جعلهم الله أهل رجاء ، ومن رجا طلب ، ومن خاف هرب .

### الخمر والميسر ومسائل أخرى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا  
وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَلِخَوْنِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ  
الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

المفردات : ﴿ الخمر ﴾ مأخوذ من خمر الشيء إذا ستره وغطاه سميت بها لأنها تستر العقل وتغطيه .

﴿ الميسر ﴾ : القمار من اليسر ، وهو السهولة ، لأنه كسب بلا مشقة ولا كد . والإثم : الذنب ، ولا ذنب إلا فيما كان ضالاً من قول أو فعل ، والضرر يكون في البدن والنفس والعقل والمال ، والعفو : الفضل والزيادة على الحاجة .

والعنت : المشقة وما يصعب احتماله ، يقال عنت العظم عنتاً إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر .

جاءت هذه الآيات في سلك الأحكام الشرعية التي تتعلق بالسلوك ؛ ففي سابقتها سألوا عن القتال في الشهر الحرام ، فجاءت الإجابة الربانية ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ وفي هذه الآية يسألون عن الخمر والميسر ، فجاءت الإجابة الربانية : ﴿ قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنها فنزلت الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا ، إنما قال : إثم كبير . وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلى رجل من المهاجرين وأمّ الناس في المغرب فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ

منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾<sup>(١)</sup> . ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان﴾ إلى قوله : ﴿فهل أنتم متهون﴾<sup>(٢)</sup> ، قالوا : انتهينا ربنا .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يعالج مسألة الخمر علاجاً رتبياً وحكيمياً ؛ فكان كالنسيم الذي يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

ولننصت الآن إلى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير﴾ ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في النساء ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿فهل أنتم متهون ؟﴾ قال عمر انتهينا انتهينا<sup>(٣)</sup> وبين أيدينا ثلاث آيات نزلت في مسألة الخمر ، وكل آية منها تفيد التحريم لمن تأمل معناها ، فأية البقرة : ﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ ذكر فيها مولانا جلّت قدرته أن فيهما الإثم الكبير . وما دام الإثم كبيراً فإن هذا يعتبر أصلاً من أصول تحريم المحكوم عليه ، فإذا ما انتقلنا إلى آية النساء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾<sup>(٤)</sup> رأيناها أيضاً تفيد تحريم الخمر ، ذلك لأن أوقات الصلاة متقاربة . والسكر يطول بصاحبه ، فتأتيه الصلاة عقب الصلاة وهو ما زال سكران تعبت الخمر بعقله ، فكيف يجتنب ما نهى الله في قوله : ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ ؟ فالآية في حقيقتها تفيد النهي عن شرب الخمر ، لأنها تؤدي إلى السكر ، والسكر قد يطول ، وأوقات الصلاة متقاربة فإذا ما انتقلنا إلى آية المائدة : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾<sup>(٥)</sup> ، علمنا أن الآية غنية كل الغنى في بيان التحريم . ولأول وهلة يدرك قارئها أن في قوله تعالى ﴿فاجتنبوه﴾ ما يفيد التحريم البعيد المدى ، أى خذوا جانباً غير الجانب الذي فيه الخمر . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . ومن ثم فقد جاء الأمر بالاجتناب في أكبر الذنوب والآثام ، بل جاء التعبير به في ذنب لا يغفره الله ، وهو الشرك ، قال تعالى : ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾<sup>(٦)</sup> ، وقال تعالى : ﴿الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش﴾<sup>(٧)</sup> أبعد هذا يقول غافل عن ذكر الله أو جاهل بأحكام الله أو مجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أو مكابر عن قبول الحق ، يقول : إن تحريم الخمر لم

(٥) سورة المائدة آية : ٩٠ .

(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٧) سورة النجم آية : ٣٢ .

(١) سورة النساء آية : ٤٣ .

(٢) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ ط الشعب .

(٤) سورة النساء آية : ٤٣ .



يجيء صريحاً في القرآن . وأى حرمة أكبر من التعبير ﴿ اجتنبوه ﴾ ؟ لكأنى أتصور أن هذا الأمر يفيد حرمة المشى أمام خمار ، لأن الاجتناب يفيد أخذ جانب غير الجانب الذى فيه الخمر ؛ فمن أراد التصريح بالحرمة فليعلم أن الله حكم على الخمر بأنها رجس ، كما فى آية المائدة ، وحكم على الرجس بأنه حرام كما جاء ذلك فى سورة الأنعام فى قوله جل شأنه :

﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى محرم على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ (١) . فأنت ترى هنا أن الله تعالى حكم على الرجس بأنه حرام بصريح العبارة ، والخمر رجس . إذن هى بصريح العبارة حرام . وهل غفل هؤلاء المجادلون المكابرون عما جاء فى أحاديث الرسول ﷺ من النصوص الصحيحة فى تحريم الخمر كقوله : ( كل مسكر خمر وكل مسكر حرام ) (٢) .

( وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : ( الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر - ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته ) (٣) .

( وعن أنس أن رسول الله ﷺ لعن فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقها وبائعها وآكل ثمنها ، والمشتري لها والمشتري له ) (٤) .

( عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ) (٥) .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ( إن الله حرّم الخمر وثمرتها وحرّم الميتة وثمرتها وحرّم الخنزير وثمرته ) .

وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادماً فقالت له : إنا ندعوك لشهادة فدخل فطفقت كلما يدخل باباً أغلقته دونه حتى إذا أفضى إلى امرأة وضئته جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت : إنا لم ندعك لشهادة ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام أو تقع على أو تشرب كأساً من الخمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك . قال : فلما رأى أن لا بد له من ذلك قال : اسقيني كأساً من الخمر ، فسقته كأساً من الخمر فقال : زيدينى ، فلم تزل حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر فى صدر رجل أبداً وليوشكن أحدهما يخرج صاحبه (٦) .

(١) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

(١) رواه أبو داود فى سننه فى باب الأشربة ج ٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٦٣٧ ط دار الفكر .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ص ٢ ج ٤٠٥ ط دار الفكر .

## ما الخمر؟

قال الإمام الشافعي : كلمة الخمر يقصد بها كل شرب مسكر . وساق على ذلك الحجج الآتية :

(١) أن الصحابة ، وهم صميمو العرب ، فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ، ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره .

(٢) ما رواه أبو داود والترمذي من قوله ( ﷺ ) : ( كل مسكر خمر<sup>(١)</sup> ) .

(٣) ما رواه النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن من العنب خمرا ، وإن من التمر خمرا ، وإن من العسل خمرا ، وإن من البر خمرا ، وإن من الشعير خمرا ) .

(٤) ما أخرجه البخاري عن أنس قال : حُرمت الخمر حين حرمت ، وما يتخذ من خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرنا من البر والتمر<sup>(٢)</sup> .

قال بعض العلماء : وقد جرى ذكر هذه الأشياء لكونها معهودة في ذلك العصر ، فكل ما في معناها من ذرة أو عصارة شجر أو تفاح أو بصل أو نحو ذلك مما يستخرج منه الخمر الآن ، فحكمه حكم هذه الأصناف .

وكما أن الخمر محرمة في الإسلام فهي محرمة في المسيحية كذلك وقد استفتت جماعة منع المسكرات رؤساء الديانة المسيحية بالوجه القبل بجمهورية مصر فأفتوا بما خلاصته : أن الكتب الإلهية جميعها قضت على الإنسان أن يبتعد عن المسكرات ، كذلك استدل رئيس كنيسة السوريين الأرثوذكس على تحريم المسكرات بنصوص الكتاب المقدس . ثم قال : « وخلاصة القول : أن المسكرات إجمالا محرمة في كل كتاب سواء أكانت من العنب أم من سائر المواد كالشعير والتمر والعسل والتفاح وغيرها »<sup>(٣)</sup> .

ومن شواهد العهد الجديد في ذلك قول بولس في رسالته إلى أهل إفسس ( ٥ : ٨ ) : « ولا تسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة » ونبيه عن مخالطة السكير ﴿ إكوة ١١ ﴾ وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات ﴿ غلاه : ٢١ ﴾ ﴿ إكوة ٦ : ٩ : ١٠ ﴾ .

ما أضرارها ؟

جاء في كتاب « الغذاء والدواء في القرآن الكريم » وفي كتاب القرآن والطب : إن ضررها على أجزاء الجسم وأعضائه كبير ووخيم ، يتمثل في الحقائق العلمية الآتية :

## ١ - التأثير على الجهاز الهضمي

تهيج الخمر الغشاء المخاطي للمعدة ، وتغير طبيعة العصير المعدي وتذكر كتب علم المادة الطبية في تأثير الكحول على المعدة : أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعالة ، ولكنه يساعد على إفراز

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٣ ط الشعب .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٤٠ .

كمية أكبر قليلاً من الحامض لا غير ، ويشل الإفراز المعدى ، ويحدث ضموراً في الغدد المعدية ، والخمر تؤثر على الزلاليات في المعدة ( كاللحوم ) فيجمدها ، وكذلك يفعل مع البسبين في العصارة المعدية . وتنصح كتب علم المادة الطبية ، بل تأمر ، بعدم استعمال الخمر في حالات التهاب المعدة . والخمر بجانب ذلك يبلغ تأثيرها إلى مدى يحف معه الفم ، وتعوق إفراز اللعاب . وهكذا نرى كيف تحدث الخمر سوء الهضم ، وتسبب القيء والتهوع ، وتصيب المعدة بالتمدد وتغير طعم الفم إلى غير ذلك من المضار .

## ٢ - التأثير على الجهاز الدوري الدموي والتنفسى :

يظن كثير من الجهلاء أن الدليل على فائدة الخمر للصحة ما يشاهدونه من تورد خدود شاربي الخمر واحمرارها وامتلأها بالدم !! ألا فليعلم هؤلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلا مرض وحادث غير طبيعى فى بدنهم ، لأن الخمر تحدث تمداً كبيراً فى الأوعية الدموية التى على سطح الجسم فيندفع إليها الدم ، ويقل الدم الموجود فى الأوعية التى فى الداخل بانكماشها ، وهكذا تحتل الدورة الدموية كما تسبب الخمر ارتفاعاً فى ضغط الدم وسرعة فى النبض وفى ضربات القلب . ويضعف القلب نتيجة لتوالى تأثير الخمر عليه وعلى الضغط الدموى الذى يرتفع ثم يهبط . كما تحدث فى الجهاز التنفسى تأثيرات وأعراض عديدة ، من بينها الالتهابات الشديدة المتواصلة فى القصبة الهوائية والرئتين ، مما يسبب ضعفها واحتمال تعرضها للأمراض الصدرية . وقد يسبب الكحول تسكين آلام الذبحة الصدرية ، ولكن هذا التأثير المسكن راجع إلى تخدير مركزى وليس إلى توسيع الأوعية .

## ٣ - التأثير على الكلى :

يتبع تناول الخمر إفراز كمية كبيرة من البول شديد الحموضة ، ويرجع ذلك إلى تشييط الأعصاب المركزية وليس إلى تأثيرها على الكلى ، ولذلك لا يعتبر مدرراً للبول ، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، ويرجع ذلك إلى إضعاف إفرازات الغدة الكظرية . إن تناول الخمر لما فيها من الكحول يزيد فى إفراز كمية البول وزيادة حجمه . إلا أنه يكون شديد الحموضة قليل الملوحة ، فهو يزيد فى إفراز الماء فى البول ويقلل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، حيث إنه يقلل من إفرازات الكظره ( الغدة فوق العكوة ) التى تعمل إفرازاتها على تنظيم وتنسيق إفراز الأملاح فى البول .

## ٤ - التأثير على الكبد :

تسبب الخمر تأثيراً ساماً مباشراً على الكبد ، وقد يحدث التأثير السام فى غضون أربع ساعات من تعاطيها وتهبط كمية الجليكوجين فى الكبد ، وتزيد الدهون ، وتهبط كفاءة تمثيل الجلاكتوز ، مما يدل على فساد فى وظائف الكبد ويعقب ذلك تضخمه وتشحمة وقلة إفرازه ، ثم تليف الكبد وعدم قدرته على القيام بوظائفه الحيوية .

## ٥ - التأثير على الجهاز العصبى المركزى

من أخطر مضار الخمر سواء ما كان منها كحولياً أو مخدراً ، كالأفيون والحشيش ، أنها تؤثر على الجهاز

العصبى وتضعف مراكز المخ العليا الراقية التي تميز الإنسان عن الحيوان . وأما الشعور الكاذب بالمرح والسعادة الذي يحدث لشارب الخمر ، فهو شعور كاذب عارض حيث لا يلبث الحال أن ينعكس فيحدث الخمول في هذه الأعصاب وينتهى الأمر بتخديرها وتعطيل عملها ، ومن ثم تفسد أجهزة الجسم فتصاب المعدة بالآلام والقرحات وتضعف خلايا الكبد والكلية ، وتؤدي إلى أمراض الكبد والكلية وتليفها ، ويحدث التهاب الأعصاب وتدهور القوة العقلية ويضطرب الإحساس وقد يعقبه الموت .

والخمر تبعد شاربها عن كل القيم الإنسانية التي يجب أن يتحلى بها الإنسان ، وللخمر آثار وبيلة على المجتمع : فمنها مثلاً الضعف البدني والفساد الخلقي وكثرة الإصابة بالأمراض ، خاصة الأمراض العصبية والعيوب الخلقية وتدفع إلى الإجرام ، كما أن لها أثراً سيئاً في العلاقات العائلية ، لأن الزوج السكير زوج غير صالح وأب غير سليم ، فيرث نسله منه غيه وضعفه ووهنه ، وقد وجد أن كثيراً من حوادث المرور سببها شرب الخمر .

كما أن الانحرافات النفسية والاضطرابات العقلية وفقد القدرة على العمل والتعرض لالتهابات الرئوية ، وكذلك ما تؤدي إليه الخمر من جمود العاطفة ، وعدم التبصر في العواقب ، ومن الإحصائيات وجد أن ١٧٪ من المحكوم عليهم بالإعدام كان إجرامهم من الخمر و ٤٩٪ من حوادث السرقات و ١٥٪ من المشاحنات والعراك سببها الخمر .

#### ما حد شارب الخمر ؟

الفقهاء متفقون على وجوب حد شارب الخمر ، وعلى أن حده الجلد ، ولكنهم يختلفون في مقداره : فذهب الأحناف ومالك إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الشافعي إلى أنه أربعون . روى أن عمر استشار الناس في حد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف « جعله كأخف الحدود ثمانين » ، فضرب عمر ثمانين ؛ وكتب به إلى خالد وأبي عبيدة بالشام .

#### بم يثبت الحد ؟

يثبت هذا الحد بأحد أمرين :

- ١ - الإقرار : أى اعتراف الشارب بأنه شرب الخمر
- ٢ - شهادة شاهدين عدلين .

#### شروط إقامة الحد :

يشترط في إقامة حد الخمر الشروط الآتية :

- ١ - العقل : لأنه مناط التكليف ، فلا يجد المجنون بشرب الخمر ويلحق به المهتوه .
- ٢ - البلوغ : فإذا شرب الصبي فإنه لا يقام عليه الحد لأنه غير مكلف .

٣ - الاختيار : فإن شربها مكرها فلا حد عليه ، سواء أكان هذا الإكراه بالتهديد بالقتل ، أم بالضرب المبرح أم بإتلاف المال كله ، لأن الإكراه يرفع عنه الإثم . يقول الرسول ﷺ : ( رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه )<sup>(١)</sup> ، وإذا كان الإثم مرفوعا فلا حد عليه لأن الحد من أجل الإثم والمعصية .  
تحريم الميسر :

وكما حرم الله تعالى الخمر حرم الميسر ، لأنه ضرب من ضروب أكل أموال الناس بالباطل ، وفيه وفي الخمر مجال فسيح لإيقاع العداوة والبغضاء كما فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإنما سمى ميسرا لأنه يؤدي إلى الحصول على المال بيسر ودون عناء . وقد تختلف أدواته فقد يكون بالمرهانات ، كما يكون بلعب الورق والنرد « أى الطاولة » وغير ذلك من الألوان التي اخترعها إخوان الشياطين في سبيل أن يملأوا جيوبهم مالا ، وهم بذلك غافلون عن قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٢)</sup> . وإذا كان في الخمر والميسر بعض المنافع عن طريق الحصول على المال ، فإن الله تعالى لما حرمهما نزع المنافع منهما ، فلا خير في شيء يلهمي عن ذكر الله ؛ حتى التداوى بالخمر ، قال عنه النبي ﷺ : ( ما جعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليها )<sup>(٣)</sup> . فدخل الخمر من البيع والشراء ودخل الميسر ، كذلك حرام ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . قال ﷺ (إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : يا أمعاء اتسعى يا بركة ارتفعي يا عين لا تشبعي )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . المقصود بالعفو ما زاد عن حاجة المالك ، والحاجة تقدر حسب كل شخص وتختلف باختلاف أحوال العباد ، ففي المال زكاة واجبة وفيه صدقات تطوع . أما إذا جاع أحد المسلمين فلا مال لأحد . وأما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله . . قال ﷺ ( ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم )<sup>(٥)</sup> .

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام تشريع رباني شاف كاف واف : ( مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحُمى والسهَر )<sup>(٦)</sup> بل إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن ثلاثة أشياء : يقول له : عبدى : مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول الله مرض عبدى فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ؟ . عبدى . استطعمتك فلم تطعمني ، فيقول العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟ . فيقول : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ؟ . عبدى : استسقيتك فلم تسقني ، فيقول العبد : وكيف أسقيك وأنت الله ؟ فيقول الله تعالى : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندي<sup>(٧)</sup> ؟

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٣ ص ٢٨٣

(٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٣٢ ط الشعب

(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٤ ص ١٩٠

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٩ ط الشعب .

(٢) سورة المائدة آية : ١٠٠ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى .

فما أعظم الإسلام في رحمته ، وما أجله في تكافله . والله لو حكمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا شريعته لرفعت راية الإسلام في كل بلد . ولو عملنا بمنهج الإسلام ما رأيت في الطريق سائلا ولا في البيوت عاطلا ولا في السجون قاتلا . إن أردتم رحمتي فارحموا خلقي . عبدى أنفق أنفق عليك . الأغنياء وكلائي والفقراء عيالى فإذا بخل وكلائي على عيالى أخذتهم ولا أبالى . . . ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ولا طمأنت الجنوب في المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحون نور الصباح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأتقياء ، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ . المقصود بالآيات هنا الأحكام الشرعية والتفكير هو إعمال النظر في جزئيات الأمور للوصول بها إلى القضايا الكلية . والإسلام جعل من الدنيا مزرعة للآخرة ، وقد شملت أحكامه الدارين ، وقد بعث النبي ﷺ بأصول العقائد ، فوحد العقائد ولم يفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ؛ جاء بكتاب كالشمس في ضحاها ، وبسنة كالقمر إذا تلاها ؛ فمن عمل بها سار في ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنها تخبط في ظلمات الليل إذا يغشاها . لقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ (١) . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ . اليتيم هو الصغير الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم يكرم . وقد أشار النبي ﷺ بإصبعين قائلاً : ( أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة ) (٣) . وقد جاء أول حكم في سورة النساء ، بعد الأمر بتقوى الله ، متعلقاً باليتامى ، قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ (٤) . والإصلاح لليتامى يكون بحسن تربيتهم والرعاية لأموالهم وصيانة حقوقهم ومراقبة الله فيما يتعلق بشئونهم . وقد كانوا في الجاهلية يتأذون من مخالطة اليتامى ومؤاكلتهم ، أنفة وحمية ، فرغبهم الله في مخالطتهم وحسن الإرعاء لهم ، فقال : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ ، والأخوة في الله أقوى من أخوة النسب والدم ، قال تعالى : ﴿ فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ (٥) وقال جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٦) ، ثم حذر من العبث بمال اليتامى فقال : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٧) . فاحذروا عقاب الله ، وارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية حيث كلفكم من الأحكام ما فيه صلاحكم وسعادتكم وعزكم . وأراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر ، ولو شاء الله بكم العنت والمشقة

(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣

(٦) سورة الحجرات آية : ١٠

(٧) سورة النور آية : ٦٣

(١) سورة الجن آية : ١٤

(٢) سورة آل عمران آية : ٨٥

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٤١٦ ط دار الفكر

(٤) سورة النساء آية : ٢

لشدد عليكم في الأحكام ، فإنه عزيز لا يُغلب ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حكيم لا يعث . بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف . معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

### أحكام تتعلق بالزواج

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ ۚ وَلَا أُمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبَدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۚ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية مارواه الواحدى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من قبيلة غنى يقال له مرثد بن أبي مرثد ، وكان حليفاً لبني هاشم ، إلى مكة ، ليخرج جماعة من المسلمين أسارى بها ، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق ، وكانت خلية له في الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها ، فأنته وقالت : ويحك يا مرثد ألا تحلو؟ فقال لها : إن الإسلام قد حال بينى وبينك وحرمة علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك ، فقالت : نعم . فقال : إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته في ذلك ثم تزوجتك . فقالت له : وأبى ، تتبرم ؟ ثم استعانت عليه فضربه ضرباً وجيعاً ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها ، فقال يا رسول الله : أتعمل لى أن أتزوجها ؟ فنزلت الآية (١) .

هذه الآيات وما بعدها بين الله فيها الأحكام التى تتعلق ببناء الأسرة . فقد عنى الإسلام عناية عظمية ببناء الأسرة عن طريق بناء الفرد ، فقد يكون من السهل بناء المصانع وإنشاء ناطحات السحاب ، ولكن بناء النفوس أهم وأجدى من إنشاء القلاع الصناعية ، لأن النفوس لو هدمت وهزمت من داخلها فلن تقوم في الدنيا حضارة لقوم أظلمت نفوسهم وأجدبت من الخير فأمست لا غناء فيها . وكان الإسلام ينادى بأعلى صوته على أهل الأرض ويقول لهم ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾ (٢) .

فالنفس البشرية كالزجاجة ، إن لم يملأها شيء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، ومن ثم فقد كانت رسالات الأنبياء تركّز على بناء النفوس ، ذلك لأن الإسلام يؤمن بالواحد ، فقد كان الصديق المعصوم ﷺ بين الناس رجلاً ، وكان بين الرجال بطلاً ، وكان بين الأبطال مثلاً ﴿إن إبراهيم كان أمةً ، قانتا لله حنيفاً﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج﴾ (٤) . فهذا رجل واحد أشرق الحق في قلبه ، فقال لموسى : ﴿إن لك من الناصحين﴾ (٤) . وهذا

(٣) سورة النحل آية : ١٢٠ .

(٤) سورة القصص آية : ٢٠ .

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٥١ ط الأنوار المحمدية .

(٢) سورة النساء آية : ١ .

آخر يسمى مؤمن يس يقول فيه جل شأنه : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾<sup>(١)</sup> وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أنقتلون رجلاً أن يقول رب الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾<sup>(٢)</sup>

فهؤلاء رجال ورجال قليل ، فليست العبرة بالكثرة ، إنما العبرة بالرجولة ، وهي عملة نادرة . لقد وقف عمر رضى الله عنه يسأل أصحاب الرسول ماذا يتمنى كل منهم ؟ قال أحدهم : أتمنى ملء المدينة خيلاً أغزوها في سبيل الله ، وقال آخر : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعنتهم في سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى مثل أحد ذهباً أنفقته ابتغاء مرضاة الله ، وتمنى آخر وآخر وآخر ، وفي النهاية سألوها عمر : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال الفاروق المحدث الملهم الذى أجرى الله الحق على قلبه ولسانه ؟ لقد قال فضلاً ، وحكم عدلاً ، قال : وأنا أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبى بكر . يرحمك الله يا أبا حفص ، لقد أصبت كبد الحقيقة .

يارافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبتها  
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها

في الوقت الذى ربي فيه الإسلام أبنائه على العقيدة الراسخة والمعنويات العالية والوازع الدينى وتربية الرقابة في نفس المؤمن ، قامت الحضارة الغربية على التفسخ الأخلاقى والانحلال الاجتماعى وانكار شرائع الله ، حتى قال ماركس : إن الأخلاق قيد لأمعنى له ، وقالت سيمون دى بفرار : إن الزواج مبدأ فاضح ، حتى وقف الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون واعترف بتلك الحقيقة فقال : إن الولايات المتحدة لا تعاني أزمة في السلع إنما تعاني أزمة في الروح ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع ولكننا فقراء في الروح . فما أعظم نبي الإسلام وما أكرمه ، وما أحلمه وما أعقله حيث أوجز رسالته في كلمات فقال : ( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) .

وفي هذه الآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ حكم باختيار الزوجة المؤمنة ، ولو كانت أمة فهي عند الله خير من مشركة تعبد صنماً ، أو جاحدة تنكر خالق الوجود ؛ قال ﷺ : ( لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى أن يطغيهن ، ولكن تزوجوهن لدينهن ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل )<sup>(٣)</sup> .

قال ﷺ : ( الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة )<sup>(٤)</sup> . ثم يبين صلوات الله وسلامه عليه مواصفات تلك الزوجة فقال : ( ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خير من زوجة صالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك )<sup>(٥)</sup> . ثم يقول : ( إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة ادخلي الجنة من أى أبوابها الثمانية شئت )<sup>(٦)</sup> .

(٤) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٦) الترغيب والترهيب ج ١ ص ١١١ ط دار الفكر .

(١) سورة ياسين آية : ٢٠ .

(٢) سورة غافر آية : ٢٨ .

(٣) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٤ ط وزارة الأوقاف .



وقال صلوات الله وسلامه عليه : ( فاظفر بذات الدين تربت يداك )<sup>(١)</sup> . وكان نبي الله داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول : ( اللهم إني أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعينني على أمر ديني ودنياي ، وأعوذ بك من مآل يكون وبالا على ويتمتع به غيري ، ومن ولد يكون على سيّدا ، ومن جار سوء إن لاقى مني خيرا كتمه وإن رأى مني شرا أذاعه ، ومن زوجة تشيبنني قبل المشيب ) وكما نهى الله المسلمين أن يتزوجوا المشركات فقد نهاهم سبحانه أن يزوجوا المسلمات للمشركين فقال : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ ؛ قال تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾<sup>(٢)</sup> . وكما ذكر سبحانه : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ قال هنا : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبتكم ﴾ أى ولو أعجبتكم منصبه أو جاهه أو حسبه أو ماله . ثم بين الخط الفاصل بين الإيمان والشرك فقال : ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ ؛ والحياة الزوجية إن بنيت على الإيمان أنبتت الأبناء نباتا حسنا ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، فإن قامت على غير ذلك خبث نباتها . قال تعالى : ﴿ والذي خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال سبحانه ﴿ أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ فكيف يسول الشيطان لنا أن نرجح العرض الفاني من الجمال والمال والحسب ونغفل عن حقيقة الإيمان والسمو الروحي ؟ ما من شك أن الفرق شاسع والفرق بعيد ، فستان بين الثرى والثريا ، وهيئات هيهات بين السحاب والتراب ، ثم يمن سبحانه على عباده بما بين لهم من النعم في الأحكام الشرعية فقال : ﴿ ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ ، فداء الإنسان النسيان ولو تذكر ما خاب سعيه ولا ضل سؤله ولا زلت قدماء .

وقبل أن تنتقل إلى آية المحيض ، نود هنا أن نذكر بعض الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، فقد جاء في كتاب « ذخيرة الواعظ » للعالم الجليل الشيخ إبراهيم عبد الباقي تحت عنوان ( السعادة الزوجية ) :  
نظم الله تعالى بالشريعة الإسلامية حياة الناس جميعاً ، وجعلها صالحة لمعاشهم ومعادهم إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ إلى قوله : ﴿ أشد وأبقى ﴾ .

وإن تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الزاحف لم يكن إلا من عدم تمسكهم بأمور دينهم وتقاعدهم عن العمل ، ولا أدل على ذلك مما يحدثنا به التاريخ من أن النهضة العلمية التي يفخر بها أبناء الجيل الحاضر قد وضع أساسها الإسلام بتعاليمه الرشيدة ، فكان شعار المسلمين في العصور الأولى للإسلام . « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ، لهذا اتسعت أرضها وفخم أمرها وهيب سلطانها ودان لها أعداؤها ، ولم يقم على أرض الله ملك فخم ، ولا سلطان أعظم منها ؛ هذا ولئن أصاب المسلمين نكسة في الأيام الأخيرة ، فقد أخذوا الآن والحمد لله ، يردون اعتبارهم ويتداركون ما فاتهم . نعم لقد قامت فيهم

(٣) سورة الأعراف آية : ٥٨

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٣ ط. وزارة الأوقاف .

(٢) سورة الممتحنة آية : ١٠ .

يقظة جديرة بالإعجاب ، فتخلصوا من ذل الاستعمار وصاروا أحراراً في بلادهم كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، إلا بقية لا تكاد تذكر ، وعماً قليل ستحرر من ربة الاحتلال .

فهل هؤلاء الذين يفخرون بعلومهم أن يخبرونا عما أصاب الإنسانية من تدهور الأخلاق وانتشار الفساد وطغيان المادة وإهمال القيم الروحية والحروب القاهرة التي عمت الكرة الأرضية حتى صارت رجوماً من نار ؟

تعالوا بنا لنريكم حكم الشريعة الإسلامية في الزواج ، لتعلموا علم اليقين أن الفوضى التي ترونها في المحاكم وغيرها لم تكن إلا من الانحراف عن تعاليم الإسلام . ولنذكر قولاً مجملًا فيما يجب في الزواج من تعاليمه . أمر الله بالزواج ليتعاون الاثنان في تربية الأولاد ، وهذا ضروري في الأجناس البشرية ، لأن حضانة الأولاد تحتاج لمدة طويلة ومطالب عدة ، أما في الحيوان ففصائله لا تحتاج إلا إلى أمها في البدء لهذا استغنت عن أبيها بخلاف الأجناس البشرية .

فالزواج من أجل نعم الله على الإنسان فيه دنيا ودين ، وهو سكن للزوج وحرث له ، والزوجة أم أولاده ومهوى فؤاده وموضع سره وحرث له : قال رسول الله ﷺ : ( ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرتة وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله )<sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه عن أبي أمامة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء )<sup>(٢)</sup> رواه البخارى وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة )<sup>(٣)</sup> رواه مسلم وفي رواية : ( إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة ) .

أول الأعمال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، وإن وافقوا يرسل امرأة أمينة لتتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها ، ثم ينظرها بحضور محارمها : إلى الوجه والكفين فقط ، ثم بعد هذا يقدم الشبكة غير مغال فيها ، وهى من قبيل الهدايا التى قال الرسول ﷺ فيها : ( تهادوا ، تحابوا )<sup>(٤)</sup> وفاتنا أن نذكر قبل الشبكة الاستخارة ، وكيفيتها : « أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت

(١) الترغيب والترهيب - ج ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .

(٢) المصدر السابق ص ٣٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٩ .

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥١٨ ط دار الفكر .

علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ( ويسميه ) خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدريه لي ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر ( ويسميه ) شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدري الخير حيث كان ثم رضني به فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

أما الذهاب إلى العرافين والمنجمين وضاربى الودع والرمل ليستكشفوا عندهم سر الزواج الخطير أفیه خير فيقدمون عليه أم ضرر فيحجمون عنه ؛ فهذا دجل وتضليل ، وفي هذا يقول الأديب :

لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع ؟

وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ (١) وقال رسول الله ﷺ : ( الطيرة شرك . الطيرة شرك . الطيرة شرك . وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك - ولكن الله يذهبه بالتوكل ) (٢).

فإذا ما انشراح صدره إلى الزواج يستأذن من ولي أمرها أن يرى كفيها ووجهها بحضرة محرم ، ويتفق على المهر المناسب من غير غلوفيه ، ولا فيما وراءه من شبكة وغيرها ، وكما لا يفوته أن يتفق مع أهلها أن تترف إليه ليفض بكارتها وحده بينه وبينها .

نتائج إهمال هذه الأمور :

[ أولاً ] : من الناس من يستبدل النظر إلى خطيبته بمعاشرتها مدة ، حتى يتعرف على سلوكها قبل زفافها إليه ، ولكن دلت التجارب أن هذه المخالطة تنتهى إلى فضائح تجلب عاراً للعائلة لا يمحي وتكسد سوق الزواج لها ، ولم ينبج من هذه المأساة الخلقية إلا القليل ، وحسبنا في ذلك ماترويه عناوين الصحف صباحاً ومساءً مما يندى له الجبين وتقشعر منه الأبدان .

[ ثانياً ] يتغالى بعض الناس في الحجاب فلا يسمح للخطيب أن يرى خطيبته ، ويرى أن هذا من الدين ، وهذا جهل فادح ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية تارة تتفق وتارة تختلف ، وليس للجمال فيها أى مدخل . يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ : ( الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ) (٣) رواه مسلم وغيره .

وقد أمر رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبه فقال له : ( انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما ) (٤) رواه النسائي وغيره . ومعنى يؤدم بينكما : تدوم المحبة بينكما ، ونتيجة عدم النظر تؤدى غالباً إلى الفشل والطلاق .

[ ثالثاً ] استبدال النظرة بالصورة الشمسية ، فإنها لا تحقق المعنى المقصود ، لأن الصورة تخالف الأصل بكثير .

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ج ٦ ص ٩٤ ط مصطفى البابي الحلبي  
(٤) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

(١) سورة النمل آية : ٦٥  
(٢) الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٣ ط وزارة الأوقاف

[ رابعاً ] : التغالى فى المهر والجهاز . ولقد نجم عن ذلك أضرار جمة : منها إجحام الشباب عن الزواج مما كان سبباً فى فساد الشبان وبوار الفتيات ، ومنها الاستدانة ، فيبدأ الزوج حياته بالهم الدائم والعذاب الواصب وتكليف ولى الأمر مالا طاقة له به ، فيظل أبو العروس يقاسى مضض الدين وآلامه ، ويكون معظم الجهاز قد فنى وتبدد .

علام هذا كله ؟ والرسول ﷺ يقول : ( خير الصداق أيسره )<sup>(١)</sup> ، وقال أيضاً ( إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة )<sup>(٢)</sup> . ويقول الله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾<sup>(٣)</sup> .

وهذه الآية لا تدل على الغلو فى المهر ، لأن المقصود منها على فرض أن المهر قنطار لا يحل أخذ شيء منه ، وهذا مثل قول الرسول ﷺ : ( من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضاها ، بنى الله له بيتاً فى الجنة )<sup>(٤)</sup> .

ويدهى أن مفحص القطاة : أى مكان البيضة ، لا يتصور أن يكون مسجداً .

[ خامساً ] : إزالة البكارة بالإصبع :

هذا الغشاء الرقيق يفضيه الرجل وحده من غير عنت ولا مشقة ، ولقد فشت هذه العادة فى الأرياف ، فتراهم يحضرون نساء جاهلات لهذا الغرض ، ويدخل الزوج بحالة تقشعر منها الابدان فيتملكها الخوف . ويتمكن منها الرعب من شدة الصدمة . يرتكبون هذه الجريمة النكراء لا من أجل إزالة البكارة التى لا صعوبة فيها ولا مشقة ، ولكن ليحصلوا من وراء هذه على دم البكارة التى لبسها عليهم إبليس وأعوانه من شياطين الإنس فيظهروا بهذا الشرف المزعوم أمام أعدائهم ومن يتربصون بهم الدوائر ، وقد لا يجدون هذا الدم لكون البكارة غوراء أو لأنها زالت بسبب غير الوطء كمرض أو وثبة أو عترة ، فماذا تكون حال الزوجة المسكينة وحال أهلها ولا ذنب عليها ؟ وقد أثبتت التجارب أن البكارة تارة تكون فى زاوية من زوايا الرحم ، فلا تظهر حتى بعد الولادة ، اطلع على مؤلفنا ( ارشاد الأمة ) تجد الأدلة واضحة ، واسم الأطباء الشرعيين الذين أثبتوا ذلك ، منهم الدكتور محمد عمار أستاذ الطب الشرعى بكلية الطب بجامعة القاهرة . لهذا نجد بعض البلاد يصطحب فيها النساء دماً مستعاراً وبعضهم يصطحب آلة حادة يشق بها عضو التناسل يسترون بذلك موقفهم . وأفضل علاج لهذه المأساة هو ما جاء به النبى ﷺ ، فهو البلسم الشافى والطب الوقاى ، وذلك بترك الزوج لزوجه تاتنس به ويأتنس بها ، وتسكن إليه ويسكن إليها ، فتحصل المودة وتصفو القلوب ، ثم تمر هذه العملية بسلام .

[ سادساً ] : بدع الولائم :

من البدع التى تنافى قوانين الاقتصاد وشريعة الله ، ما نراه من التبذير فى إعداد الولائم للأغنياء دون

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٦٢٠ ط دار الفكر  
(٢) نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبي  
(٣) سورة النساء آية ٢٠  
(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

الفقراء ، ولمن لا يحتاجون دون من يحتاجون ؛ وقد ذم الرسول ﷺ هذا الصنيع وعده من شر الأعمال . قال ﷺ : ( شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الشبعان ويحس عنه الجائع )<sup>(١)</sup> رواه الطبراني في الكبير عن ابن عباس ولو أحسنوا هداهم الله - لجعلوا ولائهم عامة ، فشملت الكل ، وعمموا الدعوة ، ولكان خيراً لهم . وما يزيد الطين بلة أن تقوم طائفة فتغني بأغنيات يندى لها جبين الفضيلة وتأبأها نفس الحر الكريم وتبترأ منها العزة والكرامة . نعم لا مانع من اللهو البريء والطرب الممتع من ذوى صوت حسن أو إلقاء القصائد الفياضة بالمعاني السامية والتي تدعو إلى الأخلاق الفاضلة فلا شيء فيها ، بل هو من المباح في الأعياد والأفراح والحرب ، وقد أذن فيه رسول الله ﷺ ورخص فيه .

### حقوق الزوجة :

أولاً : الإنفاق عليها من غير إسراف ولا تقتير ، لقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثانياً : الكسوة : لقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثالثاً : السكن الشرعى : لقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكتن من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾<sup>(٤)</sup> .

رابعاً : العدل بين الزوجات إذا تعددت : فقد صح حديث رسول الله ﷺ : ( من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل )<sup>(٥)</sup> . والعدل إنما يكون في النفقة والمبيت وتوابعهما ؛ أما الحب فهو لا يملكه الإنسان كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾<sup>(٦)</sup> ، الآية واردة في الحب . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : ( اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك )<sup>(٧)</sup> يعنى القلب ، فإن لم يستطع فواحدة .

خامساً : إرشادها إلى طريق الحق وإبعادها عن مواطن الشر لقوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾<sup>(٨)</sup> .

سادساً : معاشرتها بالمعروف : لقوله تعالى : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾<sup>(٩)</sup> .

وجاء في خطبة الوداع أنه ﷺ قال : ( الله الله في النساء فإنهن عندكم عوان ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ) .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٦ ط دار الفكر .

(٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .

(٥) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .

(٦) سورة النساء آية : ١٢٩ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة التحريم آية : ٦ .

(٩) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

وفى البخارى وغيره أنه ﷺ قال : ( استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شيء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمة كسرتة ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً )<sup>(١)</sup> .

وقال ﷺ : ( خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى )<sup>(٢)</sup> .

وأجمع آية فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾<sup>(٣)</sup> .

سابعاً : ومن حسن المعاشرة أن يكون بأشأ فى وجهها ، فلا يقطب وجهه عند ملاقاتها ، بل يداعبها مداعبة لا تسقط هيئته عندها ، فإن ذلك أطيب لقلبها وأدعى إلى حبها وإخلاصها . قال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون مع أهله مثل الصبى ، وما أحسن وصف أعرابه لزوجها : كان ضحوكاً إذا ولج ، سكيناً إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير سائل عما فقد .

ثامناً : ألا يفشى سرها ، لقوله ﷺ : ( إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .

تاسعاً : الغيرة عليها ، حماية لها ، وحفظاً لكرامتها . والغيرة من علامات الإيمان ، ومن لا غيرة له لا إيمان له ، ومن الغيرة ألا يصرح بالخلوة معها لأجنبى وإن كان أخاً له ، وألا تخرج من البيت لغير الضرورة ، قال على كرم الله وجهه : ألا تستحيون ألا تغارون ، يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها . وقالت فاطمة رضى الله عنها : خير للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

عاشراً : تعليمها حقوق الزوجية والعفة والأمانة وتدبير المنزل والعقائد الدينية والعبادات والمعاملات .

حادى عشر : احتمال أذاها . فقد كانت أزواج الرسول ﷺ يراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن اليوم والليلة حتى صبح أنه آلى منهن شهراً كاملاً .

### حقوق الزوج :

أولاً : الولاية والرياسة : يؤدبها ويأخذ على يدها حتى لا تخالفه فى معروف ، قال تعالى : ﴿ للرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ويما أنفقوا من أموالهم ﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾<sup>(٦)</sup> والدرجة تقتضى الرياسة ، لأنها حياة اجتماعية ، وكل حياة اجتماعية تحتاج إلى رياسة ، والرجل أجدر بالرياسة ، لأنه أبعد نظراً من المرأة وأقوى إرادة منها وأعلم بالمصلحة وأملك لعواطفه وأقدر على التنفيذ بقوته وماله .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٨١ ط دار الفكر .

(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٦) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٦ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٣٥ ط وزارة الأوقاف .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

ثانياً : طاعة الزوج فيما يطلب مما لا معصية فيه ، ومن حقه ألا تخرج إلا بإذنه ، ومن حقه إذا أرادها ، ولو كانت على ظهر بعير أو أمام التنور لا تمنعه ، ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه إلا في الأشياء اليسيرة فيجوز لها إذا غلب على ظنها إرضاءؤه ، كذلك من حقه عليها ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه أما الفرض فتصومه ولو بغير رضائه .

ثالثاً : ألا تكلف زوجها ما لا يطيقه ، بل ينبغي لها إذا نزلت به نازلة تواسيه بما لها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ﴾ (١) .

رابعاً : ألا تدخل أحداً يكرهه زوجها إلى بيته إلا بإذنه ، لقوله ﷺ : ( ألا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً . فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لما تكرهون ) (٢) .

خامساً : إظهار البشر له ، فتقابل به فرحة مسرورة ملازمة لما يرضيه ، لقوله ﷺ : ( خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك ) (٣) .

سادساً : أن تصون نفسها وتستر عورتها ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ (٤) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَسَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيَعْلَمَ مَا يَخْفَيْنَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ﴾ (٦) . ودخلت أسماء رضي الله عنها على رسول الله ﷺ في ثياب رفاق فأعرض عنها وقال : ( يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه ) (٧) .

أعرابه توصي ابنتها ليلة زفافها :

« أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة العاقل . أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفه وقريب لم تألفه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرة : أما الأولى والثانية فاصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة وتنغيص العيش مغضبة . وأما السابعة والثامنة : فالاحتباس بماله ، والإرعاء على حشمه وعياله وملاك الأمر حسن التقدير ، وفي العيال حسن التدبير . وأما التاسعة والعاشرة : فلا تعصى له أمراً ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفته أو غرت صدره ، وإن أنت أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح

(١) سورة النساء آية : ٤ .

(٢) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٧ ط وزارة الأوقاف .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٦٢٣ ط ١ دار الفكر .

(٤) سورة النساء آية : ٣١ .

(٥) سورة النور آية : ٣١ .

(٦) سورة النور آية : ٣١ .

(٧) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي ج ٢ ص ١٠٤ ط الرابعة .

بين يديه إن كان مهتماً ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً ، وكوفي أشد الناس له إعظماً يكن أشدهم لك إكراماً . واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت .

وأخرج النسائي عن حذيفة - رضى الله عنه - أن رجلاً قد خضب فاستعدى عليه أهل المرأة عمر ، قالوا حسبناه شاباً . فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت بالقوم .

وروى أيضاً أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما : من أنتما ؟ فقال بلال : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله . فقالوا : بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ . فقال : اسكت ، فقد صدقت فأنكحنا الصدق .

### أحكام الحيض

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقَةٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

المفردات : الحيض : لغة السيلان ، يقال حاض السبيل وفاض وشرعاً : دم ذوا أوصاف خاصة يخرج من الرحم في مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى . والأذى : الضرر ، واعتزال النساء في الحيض : ترك غشيانهن في هذه المدة . والطهر : انقطاع دم الحيض . والتطهر : هو الاغتسال بالماء إن وجد ولم يمنع منه مانع ، أو التيمم خلفاً عنه عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن طهرت لأقل من عشرة أيام فلا تحل له إلا إذا اغتسلت ، أو مضى وقت الصلاة والدم منقطع ، وإن طهرت لأكثر مدته ، وهى العشرة ، حلت له ولو لم تغتسل . والحرق : موضع النبت ، أى الأرض التى تستنبت ، شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات ﴿ أى شئتم ﴾ أى كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، متى كان المأتى واحداً وهو موضع الحرق .

بعدما بين الله تعالى بعض الأحكام المتعلقة بالزواج بالآية السابقة ، ذكر فى هذه الآية أحكاماً أخرى تتعلق أحكاماً بالنساء ، وهو الحيض ، ويتعلق بعضها بالرجال فى المعاشرة الزوجية ، قال تعالى :



﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ولم يقل ويسألونك عن الحيض ، لأن المحيض لفظ يشمل ثلاثة معان : يشمل الحيض ، ومكان نزوله ، وزمانه وقد أجاب الله تعالى على هذه المعاني الثلاثة في الآية نفسها . أما عن الحيض فقال تعالى : ﴿ قل هو أذى ﴾ ، وأما عن مكانه فقال تعالى : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ ، وأما عن زمانه فقال سبحانه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ . وسوف نذكر هنا الأحكام المتعلقة بالحيض وما ذكره الفقهاء من هذه الأحكام . يقول الإمام أبو حنيفة : إن الحيض دم ينفضه رحم الأنثى البالغة التي لا داء بها ولا حبل ولم تبلغ سن اليأس ، ويحرم به ويدم النفاس : الصلاة والصيام وقراءة آيات من القرآن ومسها إلا بغلاف ، ودخول المسجد ، والطواف ، والجماع ، والاستمتاع إلى ما بين السرة ومنتهى الركبة .

ويقول الفقهاء : إن وقت الحيض لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين ، فإذا رأت الدم قبل بلوغها هذه السن لا يكون دم حيض بل دم علة وفساد ، وقد يمتد إلى آخر العمر ، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهي إليها ، فمتى رأت العجوز المسنة الدم فهو حيض .

لونه : يشترط في دم الحيض أن يكون على لون من ألوان الدم الآتية :

( أ ) السواد : لحديث فاطمة بنت أبي حبيش أنها كانت تستحاض ، فقال لها النبي ﷺ : ( إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فامسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلي فإنما هو عرق )<sup>(١)</sup> رواه أبو داود .

( ب ) الحمرة : لأنها أصل الدم .

( جـ ) الصفرة : وهي ماء تراه المرأة كالصديد يعلوه اصفرار .

( د ) الكدرة : وهي التوسط بين لون البياض والسواد كالماء الوسخ ، لحديث علقمة بن أبي علقمة عن أمه مرجانة مولاة عائشة رضی الله عنها قالت : « كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسف ( وعاء تضع المرأة فيه طيبها ومتاعها ) فيه الصفرة ، فتقول : لا تعجلن حتى ترين القصة البيضاء » رواه مالك . إنما تكون الصفرة والكدرة حيضاً في أيام الحيض ، وفي غيرها لا تعتبر حيضاً ، لحديث أم عطية رضی الله عنها قالت : كنا لا نعد الصفرة والكدرة بعد الطهر شيئاً .

( هـ ) مدته : لا يتقدر أقل الحيض ولا أكثره ولم يأت في تقدير مدته ما تقوم به الحجة ، ثم إن كانت لها عادة متقرة تعمل عليها ، لحديث أم سلمة رضی الله عنها : أنها استفتت رسول الله ﷺ في امرأة تهراق الدم فقال : ( لتنظر قدر الليالي والأيام التي كانت تبيضهن وقدرهن من الشهر ، فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستنفر ( أى تشد خرقة على فرجها ) ثم تصلي<sup>(٢)</sup> رواه الخمسة إلا الترمذي ، وإن لم تكن لها عادة متقرة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم ، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش المتقدم ، ومنه قول النبي ﷺ : ( إذا كان دم الحيضة فإنه أسود يعرف ) فدل الحديث على أن دم الحيض متميز عن غيره معروف لدى النساء .

(٢) المصدر السابق .

(١) نيل الأوطار للشوكاني ج ١ ص ٢٣٦ ط الحلبي .

(و) مدة الطهر بين الحيضتين : اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر المتخلل بين الحيضتين ، واختلفوا في أقله ، فقدره بعضهم بخمسة عشر يوماً ، وذهب فريق منهم إلى أنه ثلاثة عشر ، والحق أنه لم يأت في تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج به .

النفاس :

تعريفه : هو الدم الخارج من قبل المرأة بسبب الولادة ، وإن كان المولود سقطاً .

(مدته) لا حد لأقل النفاس ، فيتحقق بلحظة ، فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة ، أو ولدت بلا دم ، وانقضى نفاسها لزوماً ما يلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرها ، وأما أكثره فأربعون يوماً لحديث أم سلمة رضي الله عنها قالت : ( كانت النساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً )<sup>(١)</sup> رواه الخمسة إلا النسائي ، وقال الترمذي بعد هذا الحديث : قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم على أن النفاس تدع الصلاة أربعين يوماً إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فإنها تغتسل وتصل ، فإن رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

ما يحرم على الحائض والنفاس :

تشترك الحائض والنفاس مع الجنب في جميع ما تقدم مما يحرم على الجنب ، وفي أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة يقال له محدث حدثاً أكبر ، ويحرم على الحائض والنفاس — زيادة على ما تقدم — أمور

(١) الصوم : فلا يحل للحائض والنفاس أن تصوم ، فإن صامت لا ينعقد صيامها ووقع باطلاً ، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الحيض والنفاس في شهر رمضان ، بخلاف ما فاتها من الصلاة ، فإنه لا يجب عليها قضاؤه دفعةً للمشفقة ، فإن الصلاة يكثر تكرارها بخلاف الصوم ، لحديث أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : ( يا معشر النساء تصدقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن : ولم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن . فقلن : ما نقصان عقولنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك نقصان دينها )<sup>(٢)</sup> رواه البخاري ومسلم .

وعن مغاظة قالت : « سألت عائشة رضي الله عنها فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ قالت : كان يصيبننا ذلك مع رسول الله ﷺ . فتؤمر بقضاء الصوم ولا تؤمر بقضاء الصلاة » رواه الجماعة<sup>(٣)</sup> .

(٢) الوطء : وهو حرام بإجماع المسلمين بنص الكتاب والسنة ، فلا يحل وطء الحائض والنفاس حتى

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .

تظهر ، لحديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها . ولقد سأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : ( اصنعوا كل شيء إلا النكاح ) (١) . وفي لفظ إلا الجماع رواه الجماعة إلا البخارى . قال النووي : ولو اعتقد مسلم حل جماع الحائض في فرجها صار كافراً مرتداً ، ولو فعله غير معتقد حله ناسياً أو جاهلاً الحرمه أو وجود الحيض فلا إثم عليه ولا كفارة ، وإن فعله عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة يجب عليه التوبة منها . وفي وجوب الكفارة قولان : أصحهما أنه لا كفارة عليه ، ثم قال : النوع الثانى أن يباشرها فيما فوق السرة وتحت الركبة ، وهذا حلال بالإجماع ، والنوع الثالث : أن يباشرها فيما بين السرة والركبة غير القبل والدبر . وأكثر العلماء على حرمة . ثم اختار النووي الحل مع الكراهة ، لأنه أقوى من حيث الدليل . انتهى ملخصاً .

والدليل الذى أشار إليه ما روى عن أزواج النبي ﷺ أن النبي كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها شيئاً رواه أبو داود (٢) . قال الحافظ إسناده قوى .

### الاستحاضة :

١ - تعريفها : هى استمرار نزول الدم وجريانه فى غير أوانه .

٢ - أحوال المستحاضة : المستحاضة لها ثلاث حالات :

( أ ) أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل الاستحاضة ، وفى هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هى مدة الحيض والباقى استحاضة ، لحديث أم سلمة أنها استفتت النبي ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : ( لتنتظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستنفر ثم تصلى ) (٣) رواه البخارى والشافعى . قال الخطابى : هذا حكم المرأة يكون لها من الشهر أيام معلومة تحيضها فى أيام الصحة قبل حدوث العلة ، ثم تستحاض فتتهريق الدم ويستمر بها السيلان ، أمرها النبي ﷺ أن تدع الصلاة من الشهر قدر الأيام التى كانت تحيض قبل أن يصيبها ما أصابها ، فإذا استتوفت عدد تلك الأيام اغتسلت مرة واحدة وحكمها حكم الطواهر .

( ب ) أن يستمر بها الدم ولم يكن لها أيام معروفة ، إما لأنها نسيت عادتاً أو بلغت مستحاضة ، ولا تستطيع تمييز دم الحيض ، وفى هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة على غالب عادة النساء ، لحديث حمنة بنت جحش قالت : كنت أستحاض حيضة شديدة كثيرة ، فجئت رسول الله ﷺ أستفتيه وأخبره ، فوجدته فى بيت أختى زينب بنت جحش ، قالت فقلت : يا رسول الله إني أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فما ترى فيها ، وقد منعتنى الصلاة والصيام ؟ فقال : ( أنعت لك الكرشف ( تلجمى بالقطن ) فإنه يذهب

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

الدم . قالت : هو أكثر من ذلك ، قال : فتلجمي . قالت : إنما أئج ثجاً . فقال : سأمرك بأمرين أيهما فعلت فقد أجزأ عنك من الآخر ، فإن قويت عليهما فأنت أعلم ، فقال لها : إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان فتحيضين ستة إلى سبعة أيام في علم الله ، ثم اغتسلي حتى إذا رأيت أنك قد طهرت واستنقيت فصلي أربعاً وعشرين ليلة أو ثلاثاً وعشرين ليلة وأيامها ، وصومي ، فإن ذلك يجزئك ، وكذلك فافعلي في كل شهر كما تحيض النساء وكما يطهرن بميقات حيضهن وطهرهن ، وإن قويت على أن تؤخرى الظهر وتعجلي العصر فتغتسلين ثم تصلين الظهر والعصر جميعاً ، ثم تؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين فافعلي ، وتغتسلين مع الفجر وتصلين فكذلك فافعلي ، وصلي وصومي إن قدرت على ذلك . وقال رسول الله ﷺ : هذا أحب الأمرين إلى<sup>(١)</sup> . رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

قال الخطابي تعليقا على هذا الحديث : إنما هي امرأة مبتدئة لم يتقدم لها أيام ولا هي مميزة لدمها . وقد استمر بها الدم حتى غلبها ، فرد رسول الله ﷺ أمرها إلى العرف الظاهر والأمر الغالب من أحوال النساء ، كما حمل أمرها في حيضها كل شهر مرة واحدة على الغالب من عاداتهن ، ويدل على هذا قوله : « كما تحيض النساء ويطهرن بميقات حيضهن وطهرهن » . قال ( وهذا أصل في قياس أمر النساء بعضهن على بعض في باب الحيض والحمل والبلوغ وما أشبه هذا من أمورهن ) .

(ج) ألا تكون لها عادة ، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره ، وفي هذه الحالة تعمل بالتمييز ، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش : أنها كانت تستحاض فقال لها النبي ﷺ : ( إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فأمسكي عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئي وصلي فإنما هو عرض )<sup>(٢)</sup> وقد تقدم .

### ٣ - أحكامها : للمستحاضة أحكام نلخصها فيما يأتي :

(أ) أنه لا يجب عليها الغسل لشيء من الصلاة ولا في وقت من الأوقات إلا مرة واحدة حينما ينقطع حيضها ، وبهذا قال جمهور السلف واختلف .

(ب) أنه يجب عليها الوضوء لكل صلاة لقوله ﷺ في رواية البخاري : ( ثم توضئي لكل صلاة ) ، وعند مالك يستحب لها الوضوء لكل صلاة ولا يجب إلا بحدث آخر .

(ج) أن تغسل فرجها قبل الوضوء وتحشوه بخرقه أو قطنه دفعا للنجاسة وتقليلها لها ، فإذا لم يترفع الدم بذلك شدت مع ذلك على فرجها وتلجمت واستثفرت ، ولا يجب هذا ، وإنما هو الأولى .

(د) ألا تتوضأ قبل دخول وقت الصلاة عند الجمهور ، إذ طهارتها ضرورية ، فليس لها تقديمها قبل وقت الحاجة .

(هـ) أنه يجوز لزوجها أن يطأها في حال جريان الدم عند جماهير العلماء ، لأنه لم يرد دليل بتحريم

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ .

جماعها . قال ابن عباس : للمستحاضة يأتيها زوجها إذا صلبت ، الصلاة أعظم . رواه البخارى . يعنى إذا جاز لها أن تصلى ودمها جار ، وهى أعظم مايشترط لها الطهارة ، جاز جماعها . وعن عكرمة بنت حمزة أنها كانت مستحاضة ، وكان زوجها يجامعها . رواه أبو داود . وقال النووى إسناده حسن .

(و) أن لها حكم الطاهرات : فتصلى وتصوم وتعتكف وتقرأ القرآن وتمس المصحف وتحمله وتفعل كل العبادات ، وهذا مجمع عليه .

وحيث قد انتهينا من ذكر أحكام الفقهاء ، ننتقل بعد هذا إلى ما جاء فى تفسير آية المحيض فى كتاب ( القرآن والطب ) . قال المؤلف :

إن بلاغة القرآن الكريم لاتزال من أكبر معجزاته الخالدة التى حيرت عقول البلغاء ، وأفحمت جهابذة الخطباء ، وأعجزت فطاحل الكتاب والشعراء . نزل القرآن الكريم والعرب لايشق لهم فى البلاغة غبار ، فتحداهم بقوله : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ <sup>(١)</sup> ، فعجزوا ولجأوا إلى الطعن والنزال حين خذلهم المقال ، واستعانوا ببذاءة اللسان حين خانهم البيان ، فلزمتهم الحجة كما لزمت المصريين حين خذل سحرة فرعون .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصص حياة ﴾ <sup>(٢)</sup> ، كيف أن اللفظ اليسير قد حوى المعنى الكبير ؛ ثم انظر إلى آية المحيض فى جزالة لفظها وسلامة تركيبها كم تحوى من معان سامية ، تنظر إليها من أى جهة فتبهر بصرك وتأخذ عليك عقلك ، فلرجل اللغة فيها مقالات ، وللفقيه جولات ، وللطبيب عجائب وحالات .

وعندما أصل إلى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ أقف مشدوها ، وقد أسرنى بديع النظم ، وأخذنى جلال المعنى ، وسحرتنى دقة البيان . إن لفظ ﴿ أذى ﴾ ، هذا اللفظ المتواضع فى هذه الآية المعجزة سوف نرى كم يضم من المعانى ، وكم يحوى من الأغراض .

والله لقد حاولت أن أجد كلمة تستطيع أن تقوم مقامها أو تحمل حملها فأعيانى البحث ، وسنرى كيف أن أمثال إثم ونجس وضرر . . الخ ، لا تفسر المعنى الطبى الذى تؤديه كلمة ﴿ أذى ﴾ ، وسنرى كيف أن هذه الكلمة فى هذه الآية درة من دررها ومعجزة من معجزاتها .

حكم المحيض عند اليهود :

إن وطء الحائض يحرمه الدين اليهودى تحريماً باتاً ، وقد جاء فى كتبهم : ( ولا تقترب إلى امرأة فى نجاسة طمثها لتكشف عورتها ) لاوين ١٧-١٩ . بل لم يقتصر الحكم على تحريم الوطء فقط ، بل تعداه إلى الحكم على نجاسة كل ماتمسه الحائض من فراش أو متاع أو ثياب ، بل كل من لمسها من الناس يصير كذلك نجساً ، ويحكم بنجاسة من لامس الحائض سبعة أيام يصير أثناءها منجساً لكل من مسه من الأشياء أو مسه

من الناس مما هو مفصل في سفر اللاويين بالأصحاح الخامس عشر حيث يقول : ( وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً في لحمها فسبعة أيام تكون في طمئتها وكل من مسها يكون نجساً ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمئتها عليه يكون نجساً سبعة أيام ، وكل فرش اضطجع عليه يكون نجساً ، وهذا هو الحكم في اليهودية .

حكمه عند المسيحيين :

أما المسيحيون فإنجيلهم لا ينقض هذا الحكم ، بل ينص على أن جميع أحكام التوراة واجب العمل بها ؛ فقد جاء في كتابهم أن عيسى عليه السلام صرح بأنه ما جاء لينقض الناموس الإسرائيلي ، بل ليكمله . كما جاء في إنجيلهم على لسان المسيح : ( لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض ، بل لأكمل ، فإنما الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل ) متى ٥ - ١٧ ، ١٨ . بالرغم من ذلك فإن المسيحيين عموماً لا يرون في وطء الحائض إثماً .

حد من وطأ الحائض في الإسلام :

وللخطورة التي تترتب على وطء الحائض أجمع المسلمون على اعتباره محرماً ، عملاً بالآية الشريفة . ولو اعتقد مسلم حله كان كافراً ، وإنى أعلم أن كثيراً من المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، لا يتورعون عن مخالفة أوامر الله تعالى ، بل تراهم يقلدون غير المسلمين تقليداً أعمى لا سبيل فيه للتروى ولا للعقل فيه مجال ، ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ (١) ، بل يريدون أن يحوروا كلام الله تعالى حسب أهوائهم المضلة ويفسروه كما يتراءى لعقولهم الطائشة .

والحمد لله أن هذه الفئة قليلة ، هتك الله سترها ووقى المسلمين شرها ، وإلا فما حكمك على دعوى في العلم يحسب أن نهاية المعرفة ترك الدين والتنفير من أحكامه ، ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ (٢) .

والإسلام يرى أن من يباشر امرأته بالجماع في الحيض ، وكان ناسياً أو غير عالم بوجود الحيض ، لا إثم عليه ولا كفارة ؛ أما إذا كان متعمداً ، فقد ارتكب معصية . نص الشافعي على أنها كبيرة ووجب عليه التوبة . قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون \* أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٣) .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ .

(١) سورة النساء آية : ١٤٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٦ .

## توجيه النهى للرجال :

والحكمة العظيمة في توجيهه سبحانه وتعالى النهى إلى الذكور دون الإناث مع اشتراكهما جميعاً في كل ما يترتب على هذا الفعل من الويلات ، وفيما يجره من الأذى والأهوال ، هي لما عرف عن النساء من ضعف الإرادة وقلة الحيلة وخور العزيمة ، ولكون هذا الأمر يكاد يكون في أيدي الرجال دونهم ، ولكون امتناع أحد الطرفين هو ذاته الامتنال إلى التحريم والاذعان له ، والحكمة كلها في تكليف أقوى الجنسين وأقدرهما على ضبط النفس ومقاومتها ، والتغلب على العاطفة الجنسية وعدم الاستسلام لها ؛ قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ (١) .

## دورة الحيض :

وليس يهنا هنا البحث في فسيولوجيا الحيض ، بل يكفي أن نذكر أن الطمث حالة طبيعية تمر بدورتها بنات حواء عامة ، وهذه الدورة تقبل في كل شهر قمرى حيث تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يوماً ؛ ويبدأ الحيض من السنة الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة من سنى الحياة ، وذلك في بلادنا المعتدلة الحرارة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ، ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهى حين تبلغ الأنثى سن الخامسة والأربعين أو الخمسين .

## آلام الحيض :

ودورة الحيض ، رغم كونها طبيعية ، إلا أنها تسبب للنساء آلاماً شتى ، فإنهن يجدن عادة في زمن الحيض انحرافاً في مزاجهن ، ويشعرن بتعب عام في أجسامهن ، ويقاسين في بعض الأحيان آلاماً شديدة في أصلاهن ، ويعانين حدة في طبعهن إلى غير ذلك من الآلام التي تعتبر في ذاتها أعراضاً للطمث . والطمث ، ولو أننا لا نستطيع أن نسميه مرضاً بالاصطلاح العلمى ، حالة لا تقل عن المرض خطورة ، من حيث الآلام التي قد تحدثها ، والضعف الجسماني الذي يترتب عليها ، والأمراض التي تكون الأنثى أثناءها عرضة لها ؛ وهذه الحالة أشبه بالحمل ، قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾ (٢) أى ضعفاً على ضعف كلما كبر حجم الجنين ، ولكن الحيض ، فوق ما يسببه من الضعف ، يسبب للأنثى متاعب قد تبلغ حدّاً لا يطاق وآلاماً لا تحتمل ؛ خلاف ما تتعرض له من المضاعفات التي سنذكر أمثلة لها .

كثيراً ما تتضاعف أعراض الحيض السالفة الذكر وتشتد وطأتها حتى تعاني منها المرأة آلاماً مبرحة وتعباً شديداً يزيد في أيامه الأولى ، وقد تشعر الحائض بمغص شديد تصحبه عادة أعراض ( هستيرية ) قد تنتهى بالإغماء . وإنّ أشير إلى هذه الحالة لأن المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يقاسى كل هذا العناء وينوء وحده تحت أهوال هذا العبء ؛ ولعل عسر الطمث أكثر الأمراض شيوعاً بين بنات حواء وأشدّها ملازمة لهن ، ولعل الواجب يقتضى اعتزال الحائض لما تعانیه وتكتمه أو تبديه من الآلام ، هينها وشديدها ، هذا الأمر هو

(١) سورة النساء آية : ٢٤ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٤

بعض ما حوته كلمة «أذى» من المعاني المتشعبة ، بل هناك قذارة الدم ورداءة الموضع ، مما يدعو الرجل المهذب أن يكون عفيفاً لا يستعبده هواه ولا تذله نفسه .

### عرضة الحائض للأمراض :

إن الجهاز التناسلي للمرأة هو في الواقع أهم أعضائها ، وإننا نستطيع أن نقرر أن الحالة الطبيعية لها هي الحمل والرضاع ، والحيض يمتنع في أثناء هذين الزمنين لاحتياج الجسم إلى المدخر من المواد الغذائية ، فيما عدا ذلك يأتي الطمث حتى يتوازن نظام الوارد والمنصرف ، فإذا حصل أى خلل في الجهاز التناسلي كالالتهابات مثلاً ، اختلفت دورة الحيض وترتب على ذلك عسر الطمث ، وهو ما أشرنا إليه . وسنرى فيما يلي كيف أن الوطء في الحيض من الوسائل القوية في إحداثه :

إن المرأة أيام الحيض معرضة لكثير من العلل التي تؤثر تأثيراً ليس مقصوراً على صحتها العامة فقط ، بل على حياتها التناسلية ، ولا يفوتني أن أذكر أن اضطرابات الحيض أو البرد أثناء دورة الطمث أو الإفراط في الشهوات من أقوى الأسباب المهيئة للتهابات المبيض التي تكون أقرب نتيجة مباشرة لها هي العقم ، ولو علمت بالأمراض الخطرة التي تتعرض لها الأنثى من الوطء في الحيض لرحمت نفسك ورحمتها ، ولأمنت شراً يصيبك ويصيبها . ولعل مباشرة المرأة بالجماع في أثناء الطمث من أكبر الكبائر ، لأن الضرر لو كان عائداً على الرجل وحده لكان الأمر ولقلنا : أحق ، يريد بنفسه ضرراً ، ولكنها هي نفسها التي سوف تقاسى الألم الأكبر وتعاني العذاب الطويل . ولا يغيب عن البال أن الضرر لا يقتصر على الرجل والمرأة وحدهما ، بل هو على الهيئة الاجتماعية أشد وبلا وأعظم مصيبة ، فحسبك أنه يسبب قلة النسل ، حتى إذا ما فشا بين الناس قطعه بالكلية ، وعندها تكون الطامة على المجتمع الإنساني .

### الوسط المهبل وتغيره بالحيض :

إنه في الأحوال العادية في أثناء الصحة يفرز المهبل إفرازاً خاصاً لتلينه ، وهذا الإفراز حمضي في تفاعله وسبب ذلك يرجع إلى احتوائه على حامض اللينيك ، ويحتوى هذا الإفراز كذلك على جراثيم باسلية عديدة تسمى «باسلات المهبل» ، وبجانب ذلك يعيش نوع من الكائنات الحية الفطرية لا يسبب مرضاً ، ويسمى هذا الفطر «مونيليا كانديدا» ، وهذا الأخير لا يمكنه التكاثر مطلقاً إلا في وجود باسلات المهبل .

وما هو جدير بالذكر أن هذا الإفراز ، بما يحتويه ، يمنع نمو الجراثيم الرمية والصديدية . وإذا تغير هذا الإفراز وأصبح قلوياً أو متعادلاً انعدمت فيه باسلات المهبل والمونيليا جميعاً ، وحلت محلها جراثيم أخرى فتاكة ، كالجراثيم العفنة والاستافيلوكوكس (مكروبيات البذور العنينة) ، والاستربتوكوكس (البذور السبحية) ، وفي بعض الحالات الجونوكوكس ؛ وكل هذه جراثيم فتاكة تحدث آفات مهبلية ورحمية ، بل قد يمتد ضررها إلى جميع الجهاز التناسلي ، ولكي نقرب إلى الأذهان ماهية هذه الجراثيم فنضرب مثلاً بالاستربتوكوكس ، وهو جرثومة مستديرة الشكل أبيضية ، يبلغ طولها من سبعة من العشرة من الميكرونات



إلى ميكرون واحد وتتصل هذه الجراثيم بعضها ببعض على هيئة سلاسل مختلفة الطول ، وهذه الجراثيم تتحمل الحرارة القوية حتى درجة ٥٤ سنتجرام ، والاستربتوككس هو العامل المعفن في بعض الالتهابات البوقية ، كالعنق النفاس مثلاً ، حيث وجد في القيح بين الخلايا البشرية . ولقد وجد أن الإستافيلوكس يعمل عمل الإستربتوككس في هذه الحالة ، ولقد وجد معه كثيراً ، ولو أن وجوده في القيح يعد نادراً .

ولقد عثر كل من « شيفر » و « منجه » على الاستربتوككس في المبيض مسبباً التهاباً مبيضياً حاداً ، وما هو جدير بالذكر أن الإفراز المهبل العادى له فعل مطهر شديد المفعول ، وهذا الفعل يعود إلى وجود حامض اللينيك الذى تنتجه الباسلات المهبلية ، فتكون جميع أنواع الالتهابات ناجمة عن هجوم البكتريا وإصابتها للمهبل . والأسباب المهيمنة لهذه الالتهابات هى أية حالة تؤثر في الإفراز ، فتجعله قلوياً أو متعادلاً .

والحالات التى تحدث ذلك أهمها وجود الدم الذى يحول الوسط الحامضى إلى القلوية أو التعادل ، ووجود الدم يحدث طبيعياً في أثناء الحيض . ويدعو كذلك إلى تحويل الوسط الحامضى إلى القلوى ، أى مهيئ آلى للغشاء المخاطى كوجود أشياء غريبة في المهبل أو الوطء أثناء الطمث .

### أذى وطء المرأة في أثناء الحيض :

من هنا يتضح لك أن الحيض ، والوطء في أثناءه ، هو أهم الأسباب المهيمنة لالتهاب المهبل ، وهذا أكثر أنواع التهاب المهبل شيوعاً ، وفيه تكبر البابلى ، وتأخذ في الازدياد في الحجم حتى ينتهى الأمر بتلف الغشاء المخاطى لها ، وينجم عن ذلك نمو نتوءات على جميع سطح المهبل ، وعند هذه الحالة يسمى الالتهاب اسماً خاصاً ، وهذه الالتهابات تحدث ألاماً شديدة في الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وفي الوقت نفسه يظهر رشح وترتفع درجة حرارة الأعضاء التناسلية ويحترق الغشاء المخاطى ، وفي الأحوال الحادة تجد المصابة ألاماً مبرحة وتعانى ورماً شديداً ويلتهب الجهاز التناسلى ويحدث رشح شديد وترتفع درجة الحرارة وتزداد ضربات القلب ، وتظهر أعراض أخرى كثيرة ناشئة عن امتصاص الجسم لمواد سامة .

وأريد أن أوجه النظر إلى مرض غاية في الخطورة ينشأ عن الالتهاب المهبلى ، هذا المرض يسميه الطب ( فجينسمص ) ، ويكفى أن تعرف أنه يسبب العقم . ولاشك أن الالتهاب المهبلى هو من أكبر العوامل المسببة للالتهاب الذى يصيب الغشاء المخاطى للمثانة ، فيظهر فيها التهاب شديد ، وتمتاز إذ ذاك بصلابتها ، وتشعر المريضة بالميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه ، ويصبح البول شديد الكدرة مصحوباً بقيح ومدة وبعض الزلال ، وفي الأحوال الحادة جداً يكون مصحوباً بدماء ، وعند فحص البول بالمجهر تجد فيه كثيراً من البكتريا ، وفي الأحوال المزمنة تشاهد تقرحات في الغشاء المخاطى للمثانة .

إن الجماع هو من وسائل حمل البكتريا إلى داخل المهبل ، وهذا الأمر لم يعرف في الطب إلا حديثاً ؛ وقد علمنا أن الوسط المهبل فى أثناء الحيض صالح لنموها . فالجراثيم الصديدية التى توجد فى الالتهابات الحادة المختلفة فى أحوال التقيح والتى تكون مصحوبة دائماً بالمدة لا تعيش مطلقاً إلا فى الوسط القلوى ، ولقد وجد

بالتجارب أنك إذا أدخلت بعض أنواع هذه الجراثيم في المهبل السليم لا تلبث أن تموت في ساعات قليلة . وأنواع البكتريا التي ينتظر أن تصيب المهبل هي : الجونوككس ، والاستافيلوككس ، والاستربتوككس ، والبالسلس كلای كميونس . وأنواع مختلفة من الدبلوككس والباكتريا السابروفيتك باسلات الدفترید ، وهناك ، كذلك ، أصناف مختلفة من الفطر تصيب المهبل وتسبب مرضاً يسمى ( ميكونك فجينيتس ) ، وأهم أنواع هذه الفطريات هي أونيدیم البيكاتز ولبتوتركس فجينالز . وأريد أن أقول هنا إن الحيض والوطء في أثناءه هو من أهم الأسباب المهيئة لتعفن الرحم الذي فضلاً عن أنه يسبب العقم ، فهو من أشد الأمراض إيلاماً للمرأة ، حيث تقاسى منه آلاماً في الحوض لا تطاق ، فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة والمضاعفات الأخرى الخطرة التي تكون نتيجة ذلك التعفن ، ولعل أهمها إصابة ملحقات الرحم .

### منايع العدوى :

والرجل إما أن يكون هو الناقل للعدوى إلى الحائض ، وهو الأكثر وقوعاً ، ثم يظهر المرض لوجود الوسط الصالح لنمو الجراثيم المذكورة ، أو تصل هي إليه من الحائض حين تكون العدوى ذاتية ، وذلك لوجود بكتريا مرضية في المهبل والرحم السليمين في حالة خمول ، وهذا الحمل لا يلبث أن يتحول إلى نشاط إذا وجد الوسط الصالح لنمو الجراثيم وتكاثرها ، وكل ذلك متوفر طبعاً في أثناء الحيض من حيث يصاب الرجل .

ومنايع العدوى كثيرة بالرغم من أن بعض الناس قد يظن خلاف ذلك ، وتلك المنايع تشمل الفتحة التناسلية وجميع الأعضاء التي تحف بها ، كالإست والعجان ، وذلك بسبب إفراز العرق والدهن من غدد كل منها ، وهو ما يؤدي إلى تجمع الجراثيم وامتدادها وسهولة غزوها للأعضاء التناسلية ؛ أما الأوساط الآلية فأولها الجماع ، ثم تأتي بعده الملابس والمناشف وغيرها ، بل الهواء والغبار وكل ما ذهب مذهبهما وسائل لإيصال الجراثيم .

### الأذى الذي يصيب الرجل :

من ذلك يتضح جلياً أن المهبل في أثناء الحيض عرضة لكل ما ذكرت من الجراثيم المعدية التي تصيب الرجل ، فتحدث عنده التهابات مختلفة في أعضائه التناسلية ، إذ تمتد الجراثيم إلى داخل القناة البولية ، بل قد تصيب المثانة والحالبين ، بل قد يمتد الالتهاب حتى يصيب غدة كوبر والبروستاتا والحويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ . إن الجماع في الحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو في غنى عنه وعن مضاعفاته لو عفت نفسه ووعى أمره ، فليست إصابة القناة البولية بالأمر الهين أو الخطب اليسير ، بل هذه الإصابة هي التي تجر ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات إذا ما ولجت هذه القناة أحدثت التهاباً شديداً يتعذر معه التبول الذي يحدث في بعض الأحيان آلاماً لا تطاق ومتاعب لا تحتمل ، وهذا الالتهاب يصحبه عادة إفراز مدي شديد يلوث عند اشتداد الحالة بالدماء ، ولا يخفى أن ذلك يكون مصحوباً كذلك بأعراض عامة مختلفة في جميع أجزاء الجسم كالحمى والقشعريرة ، وذلك بجانب ما يطرأ من الضعف العام والانحطاط في جميع

الأعضاء . أما إذا امتد الالتهاب إلى المجرى الخلفى ، فهناك تكون الطامة الكبرى ، حيث يكثر القيح الذى تتخلله خيوط من الدماء ، ويصعب التبول وتتضاعف مع ذلك الآلام ويشتد الضعف وتقل الشهية للطعام ، ويسير هذا الحال بجانب الحمى وسرعة ضربات القلب وإجهاده . . . إلخ . . . ولأسباب شتى يزمن المرض وتصحبه مضاعفات عامة فى غاية الحدة والخطورة ، فمن ذلك التهاب الحشفة والقلقة مما قد يؤدى إلى حدوث الغنغرينة فيها ، وذلك يكون خاصة فى حالة الانكماش أو الاختناق ، مما يدعو إلى وجوب القيام بعملية البتر حتى لا يتسمم سائر البدن .

وإذا علمت أن مجرى البول ملتصق الجدران حتى أنه لا يظهر بمظهر القناة إلا إذا سرت فيه أجسام غريبة ، كالبول مثلاً ، إذا علمت ذلك سهلت عليك معرفة كيفية امتداد الجراثيم المرضية إلى سائر الجهاز التناسلى . وفى المجرى البولى توجد فتحتان لقناتى غدة ( كوبر ) ، من حيث تصاب الغدة المذكورة فتحدث الآلام الشديدة سواء أكان ذلك عند التبول أم التبرز ، ويحس المصاب ألماً كبيراً عند العجان ، وهو الموضع الذى بين الخصيتين والشرح ، وقد ينتهى الأمر بتقرح الغدة وامتلائها بالقيح . وتوجد فتحات كثيرة لغدد البروستاتا فى الجزء البروستاقى من القناة البولية ، وعند إصابة هذه الغدد تتشنج المثانة ويختل فعلها ، فتشتد الآلام ويصير البول مصحوباً بمدة ودم ، وقد ينتهى الأمر بتقيح البروستاتا مما يستدعى تدخل الجراح ، وهذه العملية من الخطورة بمكان ، ولا يخفى أن حالة المريض إذ ذاك يرثى لها وتعتريه الحمى ، وعند ذلك يختل نظام القلب ، وعند إصابة الحويصلتين المنويتين يشتد الألم فى العجان ويتضاعف هذا الألم عند التبول أو التغوط كما يحدث نفس الأمر عند المشى أو عند مجرد الجلوس ، وعند امتداد الإصابة إلى البربخ والخصيتين يعانى المصاب آلاماً متشعبة ، إذ قد يصاب البربخ بالورم حتى يبلغ حجمه بيضة الدجاجة ، وقد ينسد الحبل المنوى الذى قد يستمر انسداد مدى الحياة ، وفى هذه الحالة يتألم المريض عند الوقوف ، وقد تعتريه نوبات هستيرية ، كل هذه الحالات لا ينجو من إحداها من ركب رأسه وأق هذا العمل الشائن الذى حكم الشرع بضرره وخطورته وحذر من ويلاته ومصائبه ونهى عن إلقاء النفس بين مخالبه .

ولقد عرف الطب هذا الخطر الداهم للبشر واهتدى إلى أصل أمراضه وعلمه ، وقد أشرت إلى كل ذلك إشارة أظن أنها كافية لإعطاء المرء فكرة عامة صحيحة عن مبلغ الأذى الذى ينجم عن الوطء فى المحيض . ليس عدم إصابة رجل وطأ امرأته مرة وهى حائض دليلاً على عدم وجود الأذى ، والعاقل هو الذى يتجنب الشيء الذى يتحتم وصول الضرر إليه منه ، ولكن كثيراً من الناس ، لضعف عقولهم واستهتارهم ، لا يبالون بالضرر حتى يصيبهم . ﴿ وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿ (١) ﴾ . وكيف يتعامى الإنسان عن آيات ربه ويتغافل عنها ؟ ولقد نبهه إلى سبيل الأمراض والعلل وحذره من الوقوع فى حبال الرذيلة والفساد وأمره بالمحافظة على جسمه وحثه على تهذيب نفسه وتطهيرها من أدران القبائح والمساوىء حتى يصبح رجلاً كاملاً صحيح الجسم والنفس سعيداً فى الدنيا وسعيداً فى الآخرة ؛ وهل ترى السعادة فى الدنيا غير سلامة الجسم

وطهارة الروح وصفاء النفس ؛ الأمر الذى يدعو إليه الدين الإسلامى قال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ (١) . إن الالتهاب البسيط فى القناة البولية هو الذى يسبب كل هذه المضاعفات التى ذكرتها ، وكيف لا ؟ وهذا الالتهاب سببه الجراثيم الفتاكة التى سميتها آنفاً ، وليس ببعيد أن يمتد الالتهاب فى الحالبين وقاعدة الكليتين ، حيث يمتنع نزول البول فى الحالة الأولى ، فيترتب عليه التسمم الدموى ( يوريميا ) ، أما فى الحالة الثانية فالموت هو أقرب النتائج لها .

وإن إصابة البربخ ، فضلاً عن كونها تنشأ عن امتداد الإصابة من القناة البولية ، فهى نتيجة مباشرة كذلك للجماع فى المحيض ، ويجب ألا يغيب عن البال أن كثيراً جداً من أحوال العقم تتسبب عن هذه الإصابة التى تنذر العالم بشر مستطير وتهدد كيانه بخطر داهم .

مما تقدم يستطيع القارئ اللبيب أن يلم بالأذى المتشعب الذى عناه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ، ذلك الأذى الذى يحمل بنى آدم ، رجالاً ونساء ، ما لا طاقة لهم به من الآلام والأمراض ، بل ذلك الأذى الذى يترتب عنه عقم المرأة وعقم الرجل جميعاً ، وهو ما يهدد العالم بالفناء والزوال .

وإنى لأظن أنه كاف للمرء أن يذكر الله له ضرر الشيء ليتحاشاه ويتجنبه ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ (٢) . وكيف لا يكون فاسقاً من يعصى أمر ربه ويسلك سبيل الغواية الذى حذره منه بعد أن تبين له ضرره وشاهد بعينى رأسه خطورته . قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ (٣) .

### المنع وتقوية الإرادة :

ولا يخفى أن من حكم تحريم المباشرة فى أثناء الطمث تعويد الرجل على الصبر على بعد المرأة مدة من الزمن ، إذ أن الرجل كثيراً ما تدعوه أعماله الخاصة إلى السفر والتغيب عن أهله مدداً مختلفة ، ففى التحريم رحمة به وتقوية لعزيمته ، ولعل ذلك كحكمة الصيام فى تدريب المرء على الصبر على الجوع واحتمال قلة الطعام أو عدمه فى سفره وترحاله وما قد يلاقه فى أثناء صيامه ، والمنع فى الحالتين تعويد للجسم على احتمال الطوارئ حتى لا يفاجأ البدن بما لم يتدرب عليه ، ولا تؤخذ النفس على غرة منها .

### وطء الحيض لا إنبات فيه :

هنالك نقطة أخرى أريد الإشارة إليها إشارة لا تتعدى الحصر ، ولو أنها لها أهمية خلقية كبيرة ، وهى أن الوطء فى ذاته لم يخلقه سبحانه وتعالى لمجرد الشهوة البهيمية ، بل خلقه لغاية هى أسمى بكثير من ذلك ، ألا وهى النسل وحفظ كيان العالم والعمل على عدم فنائه وبواره . وكلنا يعلم ، فضلاً عما تقدم ، أن الوطء

(٣) سورة البقرة آية : ٩٩ .

(١) سورة النساء آية : ١٣٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٨٧ .

في المحيض لا يعقب ولا يحدث حملاً مطلقاً ، بل هو كواضع الشيء في غير موضعه وكبذر البذور في أرض قاحلة جرداء لا تنبت زرعاً ولا تأتى بشمر ؛ وحسبك قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، والحرث مكان الإنبات ، وليس في وقت الحيض تلقيح أو نسل ؛ ولا يظن أحد أن هذا وحده سبب كاف للنهى عن هذا الفعل ، بل هو ، كما ذكرت ، يعطيه مظهر الحيوانية وعدم التعفف وقلة العقل لما بينته من آلام المحيض وقذارة الدم وأضرار الوطء في أثناء الطمث ا . هـ .

وبعد بيان الجانب الطبى في دم الحيض وما احتواه من أذى ، نفق خاشعين أمام قول الله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ ، وكيف اقتضت الحكمة الإلهية أن تحتتم آية المحيض بالتوبة والطهر ، ذلك لأن الله يعلم ما بالإنسان من ضعف الإرادة أمام نداء الغرائز ، وأن هناك من ضعفاء الإرادة من ينهزم أمام نداء الشهوة ، فيياشر في الحيض أمام ضعف عزيمته ، فأراد ربك ألا يقنط أحد من رحمته ، ففتح باب التوبة لكل من هوى في سحيق الرذيلة ومضمار الجريمة فلا يأس من رحمة الله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ \* والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ (١) . وكما أنه تعالى يحب التوابين فإنه يحب المتطهرين ، سواء أكان المقصود بالطهارة هنا الطهارة الحسية بالغسل والوضوء أم الطهارة المعنوية كطهارة النفس من الذنوب والمخالفات ، وطهارة القلب من الشحناء والبغضاء ، وسبحان من زكى عقائد المؤمنين فقال في أول سورة المؤمنين ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وطهر قلوبهم فقال : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ ، وطهر ألسنتهم فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ وطهر أموالهم فقال : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ، وطهر أعراضهم فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، وطهر معاملتهم فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ووصفهم بالالتزام في العبادة فقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وحكم لهم حكمه الكريم الذى يفيض رحمة وكرماً ويشع نوراً وبهاء وجلالاً وجمالاً وكمالاً فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون ﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ وما أدراك ما الفردوس ، إنه أعلى الجنات ، سقفه عرش الرحمن جل جلاله .

ونختتم الكلام عن المحيض بما جاء في كتاب «الإسلام والطب الحديث» قال المؤلف : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ .

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم ، مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته إلخ . وهذا النوع يسمى (Secretion) ، وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت في الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض ، وهذا النوع يسمى (Excretion) . فهذه الآية الكريمة علمت الإنسان ، قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الإفرازات ، أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾

فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون في حالة احتقان ، والأعصاب تكون في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ؛ فالاختلاط الجنسي يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبي ، وقد يكون سببا في التهاب الأعضاء التناسلية ، من النساء وقت الحيض . ا . ه .

قوله تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ ﴾ ، المقصود بهن الزوجات ، والحَرْث هو مكان الزرع والغرس والنسل . وفي التعبير بالحَرْث إشارة لطيفة إلى حسن اختيار الزوجة ، فالمكان الطيب ينبت النبات الطيب ، ومن هنا وجب التحير للنطفة ، فإن العرق دساس ، ومن حق الولد على والده أن يستنجب أمه ، إذ البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً .

إياك تجنى سكرًا من حنظل فالشيء يرجع في المذاق لأصله

كما أن في كلمة الحَرْث إشارة إلى مكان المباشرة ، ومن هنا فإن الله تعالى قال بعد ذلك : ﴿ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أُنَى شَتْمٍ ﴾ ، ليعلم البشرية أنه لا يؤتى النساء إلا في هذا المكان الذي حدده الله بالحَرْث ، ولو شاء لقال : فَأَتُوا نَسَاءَكُمْ أُنَى شَتْمٍ ، فحتى يقطع أقاويل الجاهلين العابثين فإنه حدد مكان الحَرْث للإتيان . قال ﷺ : (ملعون من أتى امرأة في دبرها) (١) ، وقال : (ملعون من عمل بعمل قوم لوط) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أُنَى شَتْمٍ ﴾ ، أى على أى وضع وكيفية ، بشرط أن يكون من حيث أمركم الله وبينه لكم في قوله نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ . قال جل شأنه : ﴿ وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ ﴾ ، أى قدموا العمل الصالح ليكون لكم ذخراً يوم العرض على الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَقْدِمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٣) . ثم أمر تعالى بتقواه فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، أى احذروا مخالفته في ما أمركم به ، فعليكم بالترام ما أمر واجتناب ما نهى . ثم قال سبحانه : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ﴾ ، فلا مفر من لقائه ، فنفذوا أحكامه ومنها ما جاء في هذه السورة مما سبق بيانه ، فحاسبوا أنفسهم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم . ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، بشرهم بالجنة ونعيمها .

### الْإِيمَانُ

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾  
لَا يَأْخُذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

(٣) سورة المزمل آية : ٢٠ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِن عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

المفردات : العرضة كالغرفة : المانع المعترض دون الشيء ، والمراد من الأيمان ، الأمور المحلوف عليها ، كما جاء في الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) . واللغو : ما يقع في حشو الكلام من الأيمان من غير قصد ولا روية كقول الإنسان : أى والله ، ولا والله ، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين ، فلا يؤخذ الله به بفرض كفارة ولا بعقاب حتى لا يكون في ذلك حرج على المؤمنين . والإيلاء : لغة الحلف ، وشرعا حلف الرجل ألا يقرب امرأته إما لمدة معينة أو غير معينة كأن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر ، أو لا أقربك ، والتربص : الانتظار ، وفاءوا : أى رجعوا إلى نسائهم ، وعزموا الطلاق : أى صمّموا في قصده وعزموا ألا يعودوا إلى ملازمة نسائهم .

في الآيات السابقة حذّرنا الله تبارك اسمه من الوقوع في أشياء حرّمها علينا ، كقرب الحائض في قوله جلّ شأنه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ ، وفي هذه الآيات حذّرنا جلّ شأنه من الوقوع في أشياء أخرى تتعلق بالأيمان ، فقال : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، ومعنى عرضة أى مانعا من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فقد اقتضت رحمة الله الحكيم أن يزيل الموانع والعوائق من طريق البر ، إذ أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء . وصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكتئا . فاصنع المعروف في أهله وفي غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله . فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

ازرع جميلا ولو في غير موضعه      فلن يضيع جميل أينما زرعا  
إن الجميل وإن طال الزمان به      فليس يحضده إلا الذى زرعا

ولو كان المانع من فعل الخير حلقا ، فإن الله عظمت حكمته يأمر بفعل الخير ويكفر الخالف يمينه حتى لا تكون اليمين مانعة من البر والتقوى والإصلاح .

قال ﷺ : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه) (١) .

ولما حلف أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أن يمنع العطاء عن مسطح ، بعد ما خاض مع الخائضين في حادثة الإفك ، أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، كما أنزل : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفووا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (٢) .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . (٢) سورة النور آية : ٢٢ .

قال أبو بكر : والله إني أحب أن يغفر الله لي فأعطاه وأجزل له العطاء وكان مسطح من ذوى القربى . . . قال ﷺ : (أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح) <sup>(١)</sup> ، أى الذى يضمم السوء والحقد والبغضاء ، ذلك لأن فى التصديق عليه هدفين من أسمى الأهداف : أولهما أن المتصدق يجاهد نفسه ، وجهاد النفس فى أعلى مراتب الجهاد ؛ فالنفس هنا تقول : لا تعطه فإنه يضمم لك السوء ، والله تعالى يقول : اعطه لأغفر لك ، فإن أطعت ربك وعصيت نفسك وأعطيته فأنت ممن قال الله فيهم : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ <sup>(٢)</sup> .

والهدف الثانى أنك بالعطاء تطفىء غيظ قلبه وتحول سوء نفسه إلى محبة ووفاء ، فتكون قد أصبت الهدفين ، وبها تنال الرضا من الله ، ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى \* إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى \* ولسوف يرضى﴾ <sup>(٣)</sup> .

وهناك من الأحاديث ما يفيد اتباع الخير وترك الشر ولو كان هناك حلف . قال ﷺ : (إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحملتها) <sup>(٤)</sup> .

وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك) <sup>(٥)</sup> .

وقال ﷺ : (لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفراتها) <sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿والله سميع عليم﴾ ، أى سميع لأقوالكم وأيمانكم ، عليم بنياتكم وما فى قلوبكم . وفى تلك الآية يتجلى جانب الإنسانية فى الإسلام ، فالإسلام خير كله وبر كله وإصلاح كله . (ألا أدلكم على ما هو خير من الصلاة والصدقة والصيام والحج ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، فإن قطيعة ذات البين هى الخالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين) <sup>(٧)</sup> . ولقد نهى الإسلام نهيا قاطعا وحذّر تحذيرا شديدا للهجة من الإيقاع بين الناس وإفساد الصلوات بينهم . قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ <sup>(٨)</sup> ، فسماه الله تعالى فاسقا ولو كان صادقا فى نقل ما يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، فإن كان كاذبا فقد سماه الله تعالى مشاء بنميم ، وخرطه فى سلك المنحرفين عن طريق الجادة . قال تعالى : ﴿ولا تطع كل حلاف

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ ط الشعب .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٧٢ ط وزارة الأوقاف .

(٨) سورة الحجرات آية : ٦ .

(١) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

(٣) سورة الليل الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .



مهيّن \* همّاز مشاء بنميم \* مناع للخير معتد أثيم ﴿١﴾ . قال ﷺ : (لا يدخل الجنة ثمام) ﴿٢﴾ . وقال : (شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف لسانه أو يخاف شره) ﴿٣﴾ ، وقال : (ألا أخبركم بشراكم ؟ قلنا : بلى . قال : من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقبل عشرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه) ﴿٤﴾ .

فأنعم بالإسلام وأكرم به وأعظم بتعاليمه :  
لو أن إنسانا تخير ملة ما اختار إلا دينك الفقراء  
المصلحون أصابع جمعت يدا هي أنت بل أنت اليد البيضاء  
دين يُشيد آية في آية لبناته السورات والأضواء  
الحق فيه هو الأساس وكيف لا ؟ والله جلّ جلاله البناء

ومن بيان أحكام الإيمان قوله جل شأنه : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ ، والمقصود باللغو ما يجري على الألسنة من غير قصد ، كقول الخالف : نعم والله ولا والله . قالت عائشة رضي الله عنها : إن رسول الله ﷺ قال : (اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله وبلى والله) ﴿٥﴾ .

وليمين اللغو وجوه نذكرها فيما يلي :  
فمن تلك الوجوه ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت : هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه .  
وقيل : هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه .  
وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجني الله من مالي ، وإن لم آت كذا فهو هذا .  
وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

وفي حديث مرسل - عن الحسن بن أبي الحسن - قال : مر رسول الله ﷺ يقوم يتنفلون - يعني يرمون - ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ، قال : (كلا ، أيمان الرماة لغو ، لا كفارة فيها ولا عقوبة) ﴿٦﴾ .

وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة ! فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك !

(٤) المصدر السابق .

(١) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٢ .

(٢) رياض الصالحين للإمام النووي ص ٣٩٣ ط دار التراث العربي .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٧ ط دار الفكر .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩١ ط الشعب .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٢ ط الشعب .

كفر عن يمينك وكلم أخاك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ، ولا في قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك )<sup>(١)</sup> .

قال الإمام مالك في الموطأ : أحسن ما سمعت في ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذي يحلف على الشيء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحداً ويقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن تكون له كفارة .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ ، أى من القصد والنية ، ويشمل ذلك نوعين من الأيمان : اليمين المنعقدة ، أن يحلف على شيء سيفعل ثم لا يفعل . وإنما سميت يمين الغموس لأنها تغمس حالفها في النار ، لأنه تعمد الكذب على الله ، وتسمى الكاذبة والفاجرة ، وكثيرا ما تقع من شاهد الزور أمام القاضي حتى قال بعض الفقهاء : إنها أعظم من الكفارة فلا كفارة له .

أما اليمين المنعقدة إذا حنث فيها حالفها فلها كفارة ، جاء بيانها في سورة المائدة . فعلى الحالف أن يراعى ثلاثة أمور : ألا يحلف إلا بالله ، وألا يحلف إلا للضرورة ، وأن يكون صادقا إذا حلف . قال تعالى : ﴿ واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٢)</sup> . أما الذى يحلف بما شاء وبمن شاء فهو الله وحده ، لأنه خالق الأشياء ، يحلف بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، ويحلف بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . ويحلف بالعاديات والصفات والمرسلات والنازعات . كما يحلف بحياة سيد الكائنات محمد ﷺ فيقول : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال تعالى : ﴿ والله غفور حلیم ﴾ ، حيث تجاوز عن أيمان اللغو مغفرة منه وحلما ، وحيث فتح باب التوبة وشرع الكفارات أمام الأيمان التي فيها كسب للقلوب وقصد ونية ، فهو الغفور الذى يستر الذنوب ويخفيها ، والحليم الذى يتجاوز عن السيئات .

مازلت أعرف بالإساءة دائما	ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصني إن أسأت وزدتنى	حتى كأن إساءتي إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا	أنت الإله المنعم المنان

\*\*\*

يا من له علم الغيوب ووصفه	ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى	كرما فليس عليه ثم جناح
تولى الجميل على القبيح تكرما	أنت الإله الواحد الفتاح

(٣) سورة الحجر آية : ٧٢ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٩٣ ط الشعب .

(٢) سورة المائدة آية : ٨٩ .

وهذه أحكام تتعلق بالإيمان ورد ذكرها في أحاديث الرسول ﷺ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت )<sup>(١)</sup> وعنه رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : « لا والكعبة » فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك )<sup>(٢)</sup> .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( من حلف على يمين صبر يقطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان )<sup>(٣)</sup> . قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقا من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الخارثي رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : وإن كان قضيا من أراك )<sup>(٥)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس )<sup>(٦)</sup> .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب )<sup>(٧)</sup> .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يسأل بوجه الله إلا الجنة )<sup>(٨)</sup> .

قال الفقهاء في الإيمان : جمع يمين وهى فى الشرع : تحقيق الأمر أو توكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته . أو هو عقد يقوى به الخالف عزمه على الفعل أو الترك . واليمين والحلف والإيلاء والقسم بمعنى واحد . واليمين لا يكون إلا بذكر الله أو صفة من صفاته : سواء أكانت صفات ذات أم صفات أفعال كقوله : والله وعزة الله وعظمته وكبريائه وقدرته وإرادته وعلمه . وكذا الحلف بالمصحف أو القرآن أو سورة أو آية منه .

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾ فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿<sup>(٩)</sup> . ويقول : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ على أن نبذل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴿<sup>(١٠)</sup> .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كانت يمين النبي ﷺ : ( لا ومقلب القلوب )<sup>(١١)</sup> . وعن أبي

- |   |                                       |
|---|---------------------------------------|
| (١) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٢٩٧ ط دار الفكر . | (٧) المصدر السابق .                   |
| (٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . | (٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٧٥٦ .         |
| (٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . | (٩) سورة الذاريات الأيتان : ٢٢ ، ٢٣ . |
| (٤) سورة آل عمران آية ٧٧ .                        | (١٠) سورة المعارج الأيتان : ٤٠ ، ٤١ . |
| (٥) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٣٠٠ ط دار الفكر . | (١١) نيل الأوطار للشوكاني ج ٨ ص ١٨٨ . |
| (٦) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٩١ ط دار الفكر . |                                       |

سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد في الدعاء قال : ( والذي نفس أبي القاسم بيده )<sup>(١)</sup> .

أي الله وعمر الله وأقسمت عليك : قسم :  
أي الله يمين ، لأنها بمعنى : والله - أو : وحق الله . ويمين الله يمين عند الأحناف والمالكية لأن معناها أحلف بالله .

الحلف بأنه غير مسلم ، أو الحلف بالبراءة من الإسلام :

من حلف بأنه يهودى أو نصرانى أو أنه برىء من الله أو من رسوله ﷺ ، إن فعل كذا ففعله . روى أبو داود والنسائي عن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال : ( من حلف فقال : إني برىء من الإسلام فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً )<sup>(٢)</sup> وعن ثابت بن الضحاك أن النبي ﷺ قال : ( من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال )<sup>(٣)</sup>

شرط اليمين وركنها : يشترط في اليمين : العقل والبلوغ والإسلام وإمكان البر ، والاختيار ، فإن حلف مكرها لم تنعقد يمينه . وركنها : اللفظ المستعمل فيها .

حكم اليمين : حكم اليمين أن يفعل الحالف المحلوف به فيكون باراً . أولاً يفعله فيحنت وتجب الكفارة .

أقسام اليمين : تنقسم الأيمان أقساماً ثلاثة : اليمين اللغو - اليمين المنعقدة - اليمين الغموس .

١ - اليمين اللغو وحكمها : يمين اللغو : هي الحلف من غير قصد اليمين ، كأن يقول المرء : والله لتأكلن أو لتشربن أو لتحضرن . ونحو ذلك لا يريد به يمينا ولا يقصد به قسماً ، فهو من مسقط القول . فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أنزلت هذه الآية ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ . في قول الرجل : لا والله . وبلى والله . وكلا والله .

٢ - اليمين المنعقدة وحكمها : اليمين المنعقدة هي اليمين التي يقصدها الحالف ويصمم عليها ، فهي يمين متعمدة مقصودة وليست لغواً يجرى على اللسان بمقتضى العرف والعادة . وقيل : اليمين المنعقدة هي أن يحلف على أمر من المستقبل أن يفعله . وحكمها : وجوب الكفارة فيها عند الحنث .

يقول الله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم ﴾ . ويقول : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٤)</sup>

(٣) المصدر السابق ص ١٣ .

(٤) سورة المائدة آية : ٨٩ .

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق ج ٣ ص ١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١٢ .

٣ - اليمين الغموس وحكمها : واليمين الغموس وتسمى أيضا الصابرة ، وهي اليمين الكاذبة التي تهضم بها الحقوق أو التي يقصد بها الغش والخيانة . وهي كبيرة من كبائر الإثم ، ولا كفارة فيها ، لأنها أعظم من أن تكفر ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها في نار جهنم ، وتجب التوبة منها . ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ (١) .

روى أحمد رضى الله عنه وأبو الشيخ عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( خمس ليس هن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق ) (٢) وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : ( الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ) (٣) . وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال : ( من حلف على يمين مصبورة كاذبا فليتبوأ بوجهه مقعده من النار ) (٤) .

لاحث مع النسيان أو الخطأ :

من حلف ألا يفعل شيئا ففعله ناسيا أو خطأ فإنه لا يحنث لقول الرسول ﷺ : ( إن الله تجاوز لى عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ) (٥) . والله يقول : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ (٦) يمين المكره غير لازمة :

لا يلزم الوفاء باليمين التي يكره المرء عليها ، ولا يأنث إذا حنث فيها للحديث المتقدم ، ولأن المكره مسلوب الإرادة ، وسلب الإرادة يسقط التكليف . ولهذا ذهب الأئمة الثلاثة إلى أن يمين المكره لا تتعقد . كفارة اليمين :

تعريف الكفارة : الكفارة صيغة مبالغة من الكفر ، وهو الستر ، والمقصود بها هنا الأعمال التي تكفر بعض الذنوب وتستترها حتى لا يكون لها أثر يؤخذ به في الدنيا ولا في الآخرة .

والذى يكفر اليمين المنعقدة إذا حنث فيها الخالف : ١ - الإطعام ، ٢ - الكسوة ، ٣ - العتق ، على التخيير ، فمن لم يستطع فليصم ثلاثة أيام مرتبة ترتبها تصاعديا ، أى تبدأ من الأدنى للأعلى فالإطعام أدناها ، والكسوة أوسطها والعتق أعلاها .

جواز الحنث للمصلحة :

الأصل أن يفى الخالف باليمين . ويجوز له العدول عن الوفاء ، إذا رأى في ذلك مصلحة راجحة .

(٤) مصبورة : أى ألزم بها وجس عليها وكانت لازمة من جهة الحكم .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٠ .

(٦) سورة الأحزاب آية : ٥ .

(١) سورة النحل آية : ٩٤ .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٠ .

(٣) المصدر السابق ص ٢١ .

يقول تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ ، أى لا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من البر والتقوى والإصلاح . ويقول عز وجل : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ (١) . أى شرع الله لكم تحليل الأيمان بعمل الكفارة . روى أحمد والبخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : ( إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك ) (٢) أقسام اليمين باعتبار المحلوف عليه :

- وعلى هذا يمكن تقسيم اليمين باعتبار المحلوف عليه إلى الأقسام الآتية :
- ١ - أن يحلف على فعل واجب أو ترك محرم . فهذا يحرم الحنث فيه ، لأنه تأكيد لما كلفه الله به من عبادة .
  - ٢ - أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم . فهذا يجب الحنث فيه لأنه حلف على معصية كما تجب الكفارة .
  - ٣ - أن يحلف على فعل مباح أو تركه . فهذا يكره فيه الحنث ويندب البر .
  - ٤ - أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه . فالحنث مندوب ، ويكره التماضى فيه وتجب الكفارة .
  - ٥ - أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة لله ، فيندب له الوفاء ويكره الحنث .

### الإيلاء

قوله تعالى : ﴿ للذين يؤولون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ . بعدما بين الله جل ذكره أحكام الأيمان فى الآيات السابقة ، ذكر هنا حكما خاصا يتعلق بيمين الرجل ألا يقرب زوجته ، وهذا ما يسمى بالإيلاء ، وله أحكام يذكرها الفقهاء فيما يلى :

تعريفه : الإيلاء شرعا هو الامتناع باليمين من وطء الزوجة . وقد كان الرجل فى الجاهلية يحلف على ألا يمس امرأته السنة والستين والأكثر من ذلك بقصد الإضرار بها ، فيتركها معلقة ، لا هى زوجة ، ولا هى مطلقة . فأراد الله - سبحانه - أن يضع حدا لهذا العمل الضار ، فوَقَّته بمدة أربعة أشهر ، يتروى فيها الرجل ، عليه يرجع إلى رشده ، فإن رجع فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنث فى اليمين ولامس زوجته وكفر عن يمينه فيها وإلا طلق .

مدة الإيلاء : اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كان موليا ، واختلفوا فيما بين حلف ألا يمسها أربعة أشهر ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : يثبت له حكم الإيلاء . وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء ، لأن الله جعل له مدة أربعة أشهر وبعد انقضائها : إما الفىء وإما الطلاق .

**حكم الإيلاء :** إذا حلف ألا يقرب زوجته فإن مسها في الأربعة الأشهر انتهى الإيلاء ولزمته كفارة اليمين . وإذا مضت المدة ولم يجامعها ، فيرى جمهور العلماء أن للزوجة أن تطالبه إما بالوطء وإما بالطلاق . فإن امتنع عنها فيرى مالك أن للحاكم أن يطلق عليه دفعا للضرر عن الزوجة . ويرى أحمد والشافعي وأهل الظاهر أن القاضي لا يطلق وإنما يضيق على الزوج ويجبسه حتى يطلقها بنفسه . وأما الأحناف فيرون أنه إذا مضت المدة ولم يجامعها فإنها تطلق طلقة بائنة ، بمجرد مضي المدة . ولا يكون للزوج حق المراجعة لأنه أساء في استعمال حقه بامتناعه عن الوطء بغير عذر ، ففوت حق زوجته وصار بذلك ظالما لها . ويرى الإمام مالك أن الزوج يلزمه حكم الإيلاء إذا قصد الإضرار بترك الوطء وإن لم يحلف على ذلك ، لوقوع الضرر في هذه الحال كما هو واقع في حالة اليمين .

### الطلاق الذي يقع بالإيلاء :

والطلاق الذي يقع بالإيلاء طلاق بائن لأنه لو كان رجعيا لأمكن للزوج أن يجبرها على الرجعة ؛ لأنها حق له ، وبذلك لا تتحقق مصلحة الزوجة ولا يزول عنها الضرر ، وهذا مذهب أبي حنيفة . وذهب مالك والشافعي وسعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن إلى أنه طلاق رجعي ، لأنه لم يقم دليل على أنه بائن ، ولأنه طلاق زوجة مدخول بها من غير عوض ولا استيفاء عدة .

### عدة الزوجة المولى منها :

ذهب الجمهور إلى أن الزوجة المولى منها تعتد كسائر المطلقات لأنها مطلقة ، وقال جابر بن زيد : لا تلزمها عدة إذا كانت قد حاضت في مدة الأربعة أشهر ثلاث حيضات ، قاله ابن رشد ، وقال بقوله طائفة ، وهو مروى عن ابن عباس ، وحجته أن العدة إنما وضعت لبراءة الرحم ، وهذه قد حصلت لها البراءة .

### أحكام تتعلق بالأسرة

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

المفردات : التربص : الانتظار . والقروء : واحدها قرء ( بضم القاف وفتحها ) ، يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها ، ومن ثم قال الحنفية والحنابلة : المراد به الحيض : وقال المالكية والشافعية : المراد

به الطهر ، وما في أرحامهن يشمل الولد والحيض . والبعولة واحداهم بعل ، وهو الزوج ، والمراد بالدرجة هنا ما جاء في قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ (١) .

هذه آية جامعة لأحكام عظيمة تقوم عليها حياة الأسرة ، فبعدما بين الله تعالى حكم الإيلاء وقال : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴿ (٢) ؛ بين هذا أن المطلقة لا يحل لها أن تتزوج من آخر إلا بعد انقضاء عدتها ، وعلى المطلقة أن تتربص بنفسها ، أى تنتظر حتى تحيض ثلاث مرات إن كانت من ذوات الحيض . والله تعالى حكمة بالغة في وجوب العدة . قال الفقهاء : وحكمة مشروعية العدة معرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب بعضها ببعض ، وتهيئة فرصة للزوجين لإعادة الحياة الزوجية إن رأيا أن الخير في ذلك . كذلك التنويه بفخامة أمر النكاح ؛ حيث لم يكن أمراً ينتظم إلا بجميع الرجال ، ولا يفك إلا بانتظار طويل ، ولولا ذلك لكان بمنزلة لعب الصبيان ، ينظم ثم يفك في الساعة . إن مصالح النكاح لا تتم حتى يوطنا أنفسهما على إدامة هذا العقد ظاهراً ، فإن حدث حادث يوجب فك النظام لم يكن بد من تحقيق صورة الإدامة في الجملة بأن تتربص مدة تجد لتربصها بالآ وتقاسى لها عناء .

ولنأخذ الآن في بيان أحكام العدة : فقد عرفها الفقهاء بأنها مأخوذة من العد والإحصاء : أى ما تحصيله المرأة وتعدّه من الأيام : والأقراء ، وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها : وكانت العدة معروفة فى الجاهلية ، وكانوا لا يكادون يتركونها ، فلما جاء الإسلام أقرها لما فيها من مصالح ، وأجمع العلماء على وجوبها لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

وقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس : ( اعتدى في بيت ابن أم مكتوم ) .

وقد بين الفقهاء أنواعها فقالوا العدة أنواع : ١ - عدة المرأة التى تحيض هى ثلاث حيضات . ٢ - عدة المرأة التى يئست من الحيض وهى ثلاثة أشهر . ٣ - عدة المرأة التى مات عنها زوجها وهى أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً . ٤ - عدة الحامل أن تضع حملها . ونفصل أحكام العدة فيما يلى :

عدة الزوجة غير المدخول بها : والزوجة غير المدخول بها إن طلقت فلا عدة عليها لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ (٣) .

فإن كانت غير مدخول بها وقد مات عنها زوجها فعليها العدة كما لو كان قد دخل بها لقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ (٤) ، إنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .



عدة المدخول بها : وأما المدخول بها فإما أن تكون من ذوات الحيض أو من غير ذوات الحيض . فإن كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ ، والقروء جمع قرء والقرء : الحيض ، ورجح ذلك ابن القيم ، فقال : إن لفظ القرء لم يستعمل في كلام الشارع إلا للحيض ولم يحى عنه في موضع واحد استعماله للطهر ، فحمله في الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى بل يتعين ، فإنه قد قال به ﷺ وهو المعبر عن الله وقد بلغه قومه وبه نزل القرآن ، فإذا أورد المشترك في كلامه على أحد معنييه ؛ وجب حمله في سائر كلامه عليه إذا لم يثبت إرادة الآخر في شيء من كلامه البتة ، وبصير هو لغة القرآن التي خوطبنا بها وإن كان له معنى آخر في كلام غيره ، وإذا ثبت استعمال الشارع للقرء في الحيض علم أن هذا لغته ، فيتعين حمله عليها في كلامه ، ويدل على ذلك ما في سياق الآية من قوله تعالى :

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ ، وهذا هو الحيض والحمل عند عامة المفسرين . والمخلوق في الرحم إنما هو الحيض الوجودي وبهذا قال السلف والخلف ولم يقل أحد أنه الطهر . وأيضاً فقد قال سبحانه :

﴿ واللاتئى يشسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتئى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (١) فجعل كل شهر بإزاء حيضة ، وتعليق الحكم بعدم الحيض لا بعدم الطهر والحيض .

وقال في موضع آخر : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ (٢) ، معناه لاستقبال عدتهن لا فيها ، وإذا كانت العدة التي يطلق لها النساء مستقبلية بعد الطلاق ، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض ، فإن الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هي فيه وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التي هي فيها .

أما عدة غير الحائض . فهي ثلاثة أشهر ، ويصدق ذلك على الصغيرة التي لم تبلغ والكبيرة التي لم تحض سواء أكان الحيض لم يسبق لها أم انقطع حيضها بعد وجوده ، لقول الله تعالى : ﴿ واللاتئى يشسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتئى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (٣) .

وتنتهى عدة الحامل بوضع الحمل سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها لقول الله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (٤) .

أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشراً ما لم تكن حاملاً لقول الله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ (٥) ، وإن طلق امرأته طلاقاً رجعياً ثم مات

(١) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٢) سورة الطلاق الآية : ١ .

(٣) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٤) سورة الطلاق الآية : ٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

عنها وهي في العدة ، اعتدت بعدة الوفاة لأنه توفي عنها وهي زوجته .

أما انقضاء العدة فيحدث فيها يلي : إذا كانت المرأة حاملاً فإن عدتها تنقضي بوضع الحمل ، وإذا كانت العدة بالأشهر فإنها تحتسب من وقت الفرقة أو الوفاة حتى تستكمل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر وعشراً ، وإذا كانت بالحيض فإنها تنقضي بثلاث حيضات ، وذلك يعرف من جهة المرأة نفسها .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ . المراد بما خلق الله في أرحامهن : الحيض والولد كما سبق بيانه ، وتعلق ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هذا الأمر مرجعه إلى إيمان المرأة ومدى خشيتها من الله وخوفها من حسابه ، فعليها أن تكون صادقة في شأن عدتها ، لا تنقص ولا تزيد ولا تكذب ابتغاء النفقة أو تعجيل الزواج بغير المطلق ، ومن هنا فقد كان الإسلام حريصاً على إبقاء الحياة الزوجية حيث جعل للزوج الذي طلق زوجته طلاقاً رجعيّاً الحق في أن يراجعها ما دام ذلك في العدة . قال تعالى : ﴿ ويعولتهن أحق بربدهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ . ومما يشجع على ردها في العدة أن الشرع الحكيم ألزمها أن تقضي العدة في بيت الزوجية . قال الفقهاء : يجب على المعتدة أن تلزم بيتها ( بيت الزوجية ) حتى تنقضي عدتها ، ولا يحل لها أن تخرج منه ولا يحل لزوجها أن يخرجها منه ، ولو وقع الطلاق أو حصلت الفرقة وهي غير موجودة في بيت الزوجية ، وجب عليها أن تعود إليه بمجرد علمها :

يقول تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة وانقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ (١) .

ومن حرص الإسلام على السعادة الزوجية أنه ناشد الرجال أن تتوفر إرادتهم على الإصلاح ، قال تعالى : ﴿ إن أرادوا إصلاحاً ﴾ وقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (٢) . كما أوصى الزوجات بحسن المعاشرة حيث قال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (٣) . وقد نظم الإسلام الحقوق والواجبات بين الزوجين ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات ، فمن حق المرأة الإنفاق عليها ، ومن واجباتها التربية والتدبير لأولاد الرجل ، والحرص على ماله بحيث تحفظه في عرضها وماله . « إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في عرضها ومالك » . وقد بلغ من عناية المسلمين بهذه الحقوق وتلك الواجبات أن ابن عباس كان يقول : إنني لأتزين لامرأتى كما تتزين لي ، ومن ثم جاء قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ ، أي لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، وتلك عدالة الإسلام النظيفة التي لا تعرف الظلم ولا تهضم الحقوق . أما قوله جل شأنه : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فيفسره ، قوله عز وجل :

(٣) سورة النساء آية : ٣٤ .

(١) سورة الطلاق آية : ١ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٩ .

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾<sup>(١)</sup> ومهما قال الكتاب السوفسطائيون الذين يهرفون بما لا يعرفون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فإن الله تعالى أقام الوزن بالقسط ولم يخسر الميزان . فهل من حق المرأة أن تكون قيمة على زوجها وقد خلق الله الرجال أقوى جسماً وعقلاً ؟ فأى الفريقين أحق بقيادة البيت ؟ لقد خلق الله المرأة أكثر حناناً وعطفاً ، وتلك خاصية التربية تحققها على أكمل الوجوه ، فإذا كان الرجل أقوى عقلاً وجسماً فهو الحقيق بالقيام على شئون البيت الخارجية ، وإذا كانت المرأة أكثر حناناً فهي الجديرة بالتربية والتدبير ورعاية الأولاد . والمسئولية في الإسلام موزعة توزيعاً حكيماً عادلاً ، قال ﷺ : ( كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيته )<sup>(٢)</sup> . أما ما يردده هؤلاء المتغربون الذين صنعت رؤوسهم في عواصم الشرق الملحد والغرب المنحل ، فليس هذا تشريفاً أو تكريماً للمرأة ، إنما هو تدمير وتحطيم لها عندما تزاحم الرجال في أعمال لا شأن لها بها ، وعندما تغادر بيتها وتسلم أطفالها للحاضنات . . إنها بذلك تكون كالطفل الذي يحمل السلاح في يده ، فيجنى به عليه وعلى غيره ، أما مكانها الصحيح اللائق برسالتها فهو الذي قال فيه الحكيم الخبير : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾<sup>(٣)</sup> .

### الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

تلك عدالة الاسلام ، فليست المساواة أن تزاحم المرأة الرجال في الأعمال ووسائل المواصلات ، وتكشف ما أمر الله تعالى بستره ، إنما العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات ، فلكل من الرجل والمرأة حقوق وعلى كل واجباته . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾<sup>(٤)</sup> . ومن الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء أن يقال إن هذه الآيات خاصة بأمهات المؤمنين ، وهن نساء رسول الله ﷺ ، ونحن نقول : إن الخطاب في هذه الآيات موجه إلى نساء المؤمنين وإلا فهل نساء المؤمنين غير مأمورات بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله المتمثل في آياته وسنة رسوله ؟ وهل نساء المؤمنين غير منهيات عن التبرج في قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾<sup>(٥)</sup> . أما قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾<sup>(٦)</sup> ، فإن المقصود بلستن هنا ، الثواب والعقاب المتمثل في قوله جل جلاله : ﴿ يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾<sup>(٧)</sup> ، جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يانساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ ، فقد جاءت لستن بعد الثواب والعقاب ، وإلا فكان المنطق يقتضى أن تأتى الآية : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ بعد تمام الأوامر والنواهي . وقد بين الله تعالى ذلك الأمر بياناً شافياً وهو يحذر من التبرج قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .

(٧) سورة الأحزاب الأيتان : ٣١، ٣٠ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٢٨٩ ط دار الفكر .

(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٤ .

المؤمنين يدين عليهم من جلايبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً<sup>(١)</sup> ، فعطف نساء المؤمنين في الحكم على أزواج النبی الأمين حتى يقطع المعاذير والحجج الواهية على الذين يعضفون الهواء ويحاولون أن يقتلوا من الرمال حبلاً ، يدعون أنهم بذلك أنصار المرأة ، والله يعلم أنهم أعداؤها ومحطموها ومدمروها ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء ، فالسقاء والإسلام صنوان ، والشمس وتعاليم الله متلازمان في الوضوح والصفاء والنقاء والسمو الروحي . وتبارك الله إذ يختم آية الأحكام المتعلقة بالأسرة فيقول : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ . فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز الذي شرع من الأحكام ما فيه عزة الزوجين وكرامة الأسرة ، حكماً يضع الأمور في نصابها ، ويقيم المعايير إقامة لا عوج فيها ولا التواء .

الله أكبر إن دين محمد      وكتابه أقوى وأقوم قила  
لا تذكروا الكتب السوالم عنده      طلع الصباح فأطفأ القنديلا

من الذي شرع هذه الاحكام ؟  
﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

### أحكام تتعلق بالطلاق

الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَاءٍ أَيْتَمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٨﴾

ومن أحكام الحياة الزوجية أحكام تتعلق بالطلاق ، وهو أبغض الحلال إلى الله تعالى كما أخبر بذلك الصادق المعصوم . وقد شرع الله الطلاق ليكون دواء لداء استعصى علاجه ؛ فشرعة الإسلام شرعية علمية ، فلا بد أن يتوافر في صيدليته كل الأدوية . وقد جعل الله الزواج شركة رأسمالها المودة والرحمة ، وجعله آية من آياته ونعمة من نعمه ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد صحح النبي ﷺ مفاهيم قوم ظنوا أن ترك الزواج مقربة إلى الله فقال : ( أما إنى لأتقاكم وأخشاكم لله لكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني )<sup>(٥)</sup> . لكن قد يطرأ على الحياة الزوجية ما يعكر صفوها فتتراكم

(٤) سورة الروم آية : ٢١ .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١١ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٤٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

الغيوم في سمائها ، عندئذ يعالج الإسلام تلك المنغصات علاجاً حكيماً فيقول : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (١) فهذه مراتب وأحوال عندما يقع النشوز من المرأة . . تعالج بالوعظ فيذكرها بالله ويذكرها بأقوال رسول الله ﷺ ويذكرها بأولادهما وبالأيام التي مضت وبالنعم التي أنعم الله بها عليهما وأن الحياة لا تخلو من كدر ولكن الله تعالى جعل مع الضيق فرجاً ومع الصبر نصراً ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسراً ، فالليل مهما طال فلا بد له من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وعليه في وعظه أن يخوفها من السنة السوء وقالة الحاسدين المبغضين ، فإن لم يجد الوعظ طريقه إلى قلبها فليهجرها في المضاجع ، بحيث لا يفارق المكان الذي تنام فيه إلى مكان آخر ، لأن الله يقول في المضاجع ولم يقل اهجروهن من المضاجع ، وذلك حتى يستطيع أن يروض سلاح كبريائها الذي تدل به عليه وهو الإغراء بالجنس ، ففي ذلك تهديئة لثورتها إذا ما أرادت أن تضع زوجها في اليم مكتوفاً وتقول له إياك إياك ان تبتل بالماء ، فإن لم يؤثر فيها الهجر ، بأن كانت باردة ، فعليه أن يؤديها بالضرب الخفيف ، فإن من الطباع طباعاً تفرعها العصي ، كما أن هناك طباعاً تكفيها المقالة . وقد يكون الضرب أهون بكثير من الذهاب إلى المحاكم وساحات القضاء حيث تذاع أسرار البيوت فتلوكها الألسنة ويحدث هناك فجور في الخصومة ، فيرمى كل من الزوجين الآخر بماليس فيه ؛ وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (٢)

هذا إن كان النشوز من جانب المرأة ، أما إن كان من جانب الرجل ، فقد بين الله سبيل الإصلاح في قوله : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ (٣) فقد يكون الرجل من الذين يصلحهم المال إن كانت زوجته ذات مال فلا بأس أن تطفئ غضب قلبه ببذل شيء من ماله ، فقد طبعت النفوس على الشح وجبلت على البخل إلا ما رحم ربي ، فبذل المال أهون من تحطيم صرح الزوجية وتركه قاعاً صفيصفاً تنعق فوقه اليوم والغربان بعد ما كان روضة غناء ، تصدح فوق أشجارها بلابل السعادة . أما إن كان النشوز من الزوجين كليهما فإن الله جلت قدرته بين سبيل الإصلاح في قوله : ﴿ وإن خفتن شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ (٤) . وما أجمل ما كان يفهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله ، فقد كان محدثاً ملهماً نافذ البصيرة عميق الفهم قوى الحجة عبقرى الفؤاد صائب الرأي ثاقب الفكر . حدث أن أرسل حكيمين ليصلحا بين زوجين ولكنها عادا ولم يصلحا ، فعلاهما بدرته ، أي عصاه ، قالوا : يا أمير المؤمنين وما ذنبنا إذا لم يصطلحا ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لو كان في نيتكما أن يصطلحا لأصلح الله بينهما ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . وما أمس حاجة المسلمين في هذا العصر الذي تقطعت فيه أواصر المحبة وتمزقت

(٣) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٤) سورة النساء آية : ٣٥ .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

فيه وشائج الألفة ، وما أمس حاجتهم إلى المصلحين الذين طهرت قلوبهم من الحقد وأيديهم من الرشوة وثيابهم من الدنس ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ (١) 》 .

فإذا لم يجد الوعظ والهجر والضرب سبيلاً إلى قلب المرأة الناشز ، ولم يجد الصلح وبذل المال سبيلاً إلى قلب الزوج الناشز ، ولم يجد التحكيم سبيلاً إلى قلب كل منهما ، فهل يترك الإسلام الموقف بينهما جامداً متحجراً كالماء الراكد حتى يعتدى كل منهما على الآخر للتخلص منه إما بالقتل أو الضرب المبرح أو إذاعة الأسرار التي حرم الله نشرها ، قال ﷺ : ( إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة والمرأة تفضي إلى الرجل ثم ينشر كل منهما حديث الآخر ) (٢) . إن الإسلام لا يعرف السلبية ، بل هو إيجابى فى الخير دائماً ، هل يترك الزوجين متنازعين متنافرين متناحرين ، إن هذه سلبية قاتلة ، إن الإسلام فى علاج مشاكل الدنيا كالنسيم الهادئ يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحارارة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ ۝ (٣) 》， فتأمل هذا التعبير العظيم الذى يعبر عن الطلاق بالتفريق ليشعر كل من الزوجين بمرارة الفراق ، وعندئذ يحسن كل منهما إلى الآخر فيكون الوفاق ويقع الإصلاح . وقد بلغ من حساسية الإسلام فى تلك المواقف أنه لا ينتظر وقوع البلاء ، بل إنه بمجرد الخوف من شبح المشكلة يدعو إلى إصلاحها قبل أن يصير الشر نارا عظيماً فيقول تعالى فى حق تعدد الزوجات : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ۝ (٤) 》， مجرد الخوف ، ويقول : ﴿ وَاللَّاتِ تَخَافُونِ نَشُوزَهُنَّ ۝ (٥) 》， ويقول : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا ۝ (٦) 》， ويقول : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا ۝ (٧) 》， وعندما يعين الطلاق علاجاً لداء استعصى علاجه قال : ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ۝ ، أى مرة بعد مرة ، فقد يأتى الله بالفرج الذى قال فيه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۝ (٨) 》 ثم يقول تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝ (٩) 》 ولحكمة أرادها الله يقول فى سورة الطلاق : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ (١٠) 》， ويقول جلّت قدرته : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۝ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا ۝ (١١) 》 . ويقول عظمت حكمته : ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝ (١٢) 》 ويقول وسعت رحمته فى نفس السورة :

(٧) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٨) سورة الطلاق آية : ١ .

(٩) سورة الطلاق آية : ١ .

(١٠) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .

(١١) سورة الطلاق الآيتان : ٤ ، ٥ .

(١٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .

(٢) حديث شريف .

(٣) سورة النساء آية : ١٣٠ .

(٤) سورة النساء آية : ٣ .

(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٦) سورة النساء آية : ٣٥ .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ (١).

هذا هو الإسلام وتلك عظمته ، ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل ليته ما نهى .

وللطلاق أحكام نبينها فيما يلي :

قال الفقهاء في تعريف الطلاق : هو حل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية ، ثم يعقب الفقهاء بقولهم : إن استقرار الحياة الزوجية غاية من الغايات التي يحرص عليها الإسلام ، وعقد الزواج إنما يعقد للدوام والتأبيد إلى أن تنتهي الحياة ليتسنى للزوجين أن يجعلوا من البيت مهداً يأويان إليه وينعمان في ظلاله الوارفة وليتمكنوا من تنشئة أولادهما تنشئة صالحة .

ومن أجل هذا كانت الصلة بين الزوجين من أقدس الصلات وأوثقها ، وليس أدل على قدسيتها من أن الله سبحانه سمي العهد بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ فقال : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ (٢) .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين هكذا موثقة مؤكدة ، فإنه لا ينبغي الإخلال بها ولا التهوين من شأنها ، وكل أمر من شأنه أن يوهن من هذه الصلة ويضعف من شأنها فهو بغضض إلى الإسلام لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ( أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق ) (٣) ، وأى إنسان أراد أن يفسد ما بين الزوجين من علاقة فهو في نظر الإسلام خارج عنه وليس له شرف الانتساب إليه ؛ يقول الرسول ﷺ : ( ليس منا من خيب (٤) امرأة على زوجها ) (٥) .

وقد يحدث أن بعض النسوة يحاول أن يستأثر بالزوج ويحل محل زوجته ، والإسلام ينهى عن ذلك أشد النهي ، فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ صحتها ) (٦) وتنكح ، فإنما لها ما قدر لها (٧) . والزوجة التي تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتض حرام عليها رائحة الجنة فعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : ( أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة ) (٨) . وقد كان الطلاق في الجاهلية كما ذكرته أم المؤمنين عائشة قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهي امرأته إذا راجعها وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لأطلقك فتبينى منى ولا آويك أبداً ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتكم أن تنقضى راجعتكم . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ومن لم يكن طلق .

(١) سورة الطلاق آية : ١١ .

(٢) سورة النساء آية : ٢١ .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤١ .

(٤) خيب : أفسد .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٦) أى لتخل عصىم أختها من الزواج ولتخطى بزواجها .

(٧) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٨) المصدر السابق .

وقد جعل الإسلام الطلاق من حق الرجل وحده ، لأنه أحرص على بقاء الزوجية التي أنفق في سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق وأراد عقد زواج آخر . وعليه أن يعطى المطلقة مؤخر المهر ومتعة الطلاق ، وأن ينفق عليها في مدة العدة . ولأنه بذلك ويمقتضى عقله وحكمته يكون أصبر على ما يكره من المرأة فلا يسارع إلى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئة منها يشق عليه احتمالها ، وقد تكون المرأة أسرع منه غضباً وأقل احتمالاً وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما عليه ، فهي أجدر بالمبادرة إلى حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب أو لما لا يعد سبباً صحيحاً إن أعطى لها هذا الحق . والدليل على صحة هذا التعليل الأخير أن الإفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين .

### مسائل تتعلق بالطلاق

من يقع منه الطلاق ؟ اتفق العلماء على أن الزوج العاقل البالغ المختار هو الذي يجوز له أن يطلق وأن طلاقه يقع . فإذا كان مجنوناً أو صبيّاً أو مكرهاً فإن طلاقه يعتبر لغوا لو صدر منه . لأن الطلاق تصرف من التصرفات التي لها آثارها ونتائجها في حياة الزوجين ، ولا بد من أن يكون المطلق كامل الأهلية حتى تصح تصرفاته . وإنما تكتمل الأهلية بالعقل والبلوغ والاختيار ، وفي هذا يروى أصحاب السنن عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال : ( رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل )<sup>(١)</sup> ، وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله )<sup>(٢)</sup> ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما - فحين يكرهه اللصوص فيطلق - فليس بشيء ( البخارى ) .

### الطلاق قبل الزواج

لا يقع الطلاق إذا علقه على التزوج بأجنبية كأن يقول : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، لما رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك )<sup>(٣)</sup> ، قال الترمذى : حديث حسن وهو أحسن شيء روى في هذا الباب وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم .

### الإشهاد على الطلاق

ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون إشهاد ، لأن الطلاق من حقوق الرجل ولا يحتاج إلى بينة كى يباشر حقه ، ولم يرد عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد ، وذلك لأن الطلاق حق من حقوق الزوج وقد جعله الله بيده ولم يجعل الله لغيره حقاً فيه ، قال

(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .



تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ .

قال ابن القيم : فجعل الطلاق لمن نكح لأن له الإمساك وهو الرجعة .

وعن ابن عباس قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال يا رسول الله : سيدى زوجنى أمتى ، ويريد أن يفرق بينى وبينها ! قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : ( يا أيها الناس : ما بال أحدكم يزوج عبده أمتة ثم يريد أن يفرق بينها إنما الطلاق لمن أخذ بالساق ) .

وخالف فى ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا : إن الإشهاد شرط فى صحة الطلاق ، واستدلوا بقول الله سبحانه فى سورة الطلاق : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

فذكر الطبرى : أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق وأنه مروي عن أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنه للوجوب وشرط فى صحة الطلاق<sup>(١)</sup> .

وبعد بيان تلك المسائل المتعلقة بالطلاق ننصح لكل مسلم أن يملك نفسه عند الغضب ، فإن الله تعالى جعل لكل ضيق فرجاً ولكل شدة مخرجاً ، وقد حدث أن أحد الصالحين ابتلى بزوجة ناشز فقيل له ما ضر لو طلقها ؟ فقال : أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى ، ومعاذ الله أن أكون سبباً فى أذى عباد الله . قالوا فماذا أنت صانع ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثلما أعطى آسيا امرأة فرعون . وعلى المسلم أن يتأدب بأدب الإسلام ، إذا طلق فلا يفشى سرّاً كان بالأمس قد خفى ، ولا ينكر عيشاً قد تقادم عهده ، فإن حسن العهد من الإيمان . لما طلق « قتادة » زوجته قيل له : لم طلقها ؟ فقال : العاقل لا يذيع سر أهله .

قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ . فمن طلق مرتين فإن الإسلام يؤدب أتباعه ويصحح سلوكهم الأخلاقى . فبعد التطلق يقال للمطلق إما أن تراجعها قبل انقضاء عدتها وتمسكها بالمعروف لا ضرر ولا ضرار ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكاً ، والبر لا يبلى ، ومن زرع الخير حصده خيراً ، ولن يضيع جميل أينما زرع ، والحياة الزوجية احترام وتخلق ومودة ورحمة : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾<sup>(٢)</sup> .

والمعروف هو ما تعارف الناس عليه من الحق والخير والجمال . فمن لم يمسك بمعروف فعليه التسريح بإحسان ، والإحسان مرحلة فوق العدل ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ والله تعالى إن يُثبنا فبمحض الفضل ، والفضل إحسان ، وإن يعاقب فبمحض العدل ، والعدل حق ، فمن لم يعاشر بالمعروف فليفارق بإحسان .

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) سورة النساء آية : ١٩ .

ومعنى تسريحها بإحسان ، أى ينتظر الرجل حتى تنتهى عدة المطلقة فيعطىها حقها كاملاً غير منقوص ، قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾<sup>(١)</sup> وليذهب كل لما يسر الله له .

إذا شئت أن تحيا سليماً من الأذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ	فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً	فصنها وقل يا عين للناس أعين
فعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ .

أقام الإسلام الميزان بالقسط ولم يحسر الميزان ، فالعدل لحمه الإسلام ، والحق سداه ، ومن وجوه هذه العدالة أن الله تعالى نهى الأزواج عن أن يضيقوا على زوجاتهم حتى لا يضطروهن أن يفتدين أنفسهن بدفع شيء من المال للرجال ، كما نهى الزوجات أن يطلبن الطلاق لغيرما حاجة ، قال النبي ﷺ : ( أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة )<sup>(٢)</sup> . قال الفقهاء : الحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وحسن المعاشرة وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق ، وقد يحدث أن يكره الرجل زوجته أو تكره هى زوجها ، والإسلام فى هذه الحال يوصى بالصبر والاحتمال ، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية ، قال الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾<sup>(٣)</sup> . وفى الحديث الصحيح : ( لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقاً رضى خلقاً آخر )<sup>(٤)</sup> .

إلا أن البغض قد يتضاعف ويشد الشقاق ويصعب العلاج وينفذ الصبر ويذهب ما أسس عليه البيت من السكن والمودة والرحمة وأداء الحقوق ، وتصبح الحياة الزوجية غير قابلة للإصلاح ، وحينئذ يرخص الإسلام بالعلاج الوحيد الذى لا بد منه .

فإن كانت الكراهية من جهة الرجل فبيده الطلاق ، وهو حق من حقوقه ، وله أن يستعمله فى حدود ما شرع الله . وإن كانت الكراهية من جهة المرأة ، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع ، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية لينهى علاقته بها ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ . وفى أخذ الزوج الفدية عدل وإنصاف ، إذ أنه هو الذى أعطاها المهر وبذل تكاليف الزواج والزفاف وأنفق ، وهى التى قابلت هذا كله بالجحود وطلبت الفراق ، فكان من الإنصاف أن ترد عليه ما أخذت .

(٣) سورة النساء آية : ١٩ .

(٤) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٩٤ .

(١) سورة النساء آية : ١٢٠ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٤٥٤

وإن كانت الكراهية منها معاً : فإن طلب الزوج التفريق فيبده الطلاق وعليه تبعاته ، وإن طلبت الفرقة فيبدها الخلع وعليها تبعاته كذلك .

قيل إن الخلع وقع في الجاهلية ، ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه عامر بن حارث ، فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها فقال : لا أجمع عليك فراق أهلِكَ ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

### الخلع

تعريفه : والخلع الذي أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله ، لأن المرأة لباس الرجل والرجل لباس لها قال الله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ .

ويسمى الفداء ، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها ، وقد عرفه الفقهاء بأنه : « فراق الرجل زوجته ببدل يحصل عليه » . والأصل فيه ما رواه البخاري والنسائي عن ابن عباس قال : « جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت : ( يا رسول الله ما أعتب عليه في خلق ولا دين ولكني أكره الكفر في الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فقال : رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة ) (١) .

ألفاظ الخلع : والفقهاء يرون أنه لا بد في الخلع من أن يكون بلفظ الخلع أو مشتق منه أو لفظ يؤدي معناه ، مثل المبرأة والفدية ، فإذا لم يكن بلفظ الخلع ولا بلفظ فيه معناه كأن يقول لها : أنت طالق في مقابل مبلغ كذا ، وقبلت ، كان طلاقاً على مال ولم يكن خلعاً .

وناقش ابن القيم هذا الرأي فقال : « ومن نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها ، يعد فسخاً بأي لفظ كان حتى بلفظ الطلاق » .

وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونقل عن ابن عباس ، ثم قال ابن تيمية : « ومن اعتبر الألفاظ ووقف معها واعتدها في أحكام العقود ، جعله بلفظ الطلاق طلاقاً » .

ثم قال ابن القيم مرجحاً هذا الرأي : « وقواعد الفقه وأصوله تشهد أن المرعى في العقود حقائقها ومعانيها لا صورها وألفاظها » وما يدل على هذا أن النبي ﷺ ، أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته في الخلع تطليقة ، ومع هذا أمرها أن تعتد بحیضة ، وهذا صريح في أنه فسخ ، ولو وقع بلفظ الطلاق ، وأيضاً فإنه - سبحانه - علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية ، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ ، ولم يعين الله - سبحانه - لها لفظاً معيناً . وطلاق الفداء طلاق مقيد ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق ، كما لا يدخل تحتها في ثبوت الرجعة والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٩٥ .

العوض في الخلع : الخلع - كما سبق - إزالة ملك النكاح في مقابل مال ، فالعوض جزء أساسي من مفهوم الخلع ، فإذا لم يتحقق العوض لا يتحقق الخلع ، فإذا قال الزوج لزوجته : خالعتك ، وسكت لم يكن ذلك خلعا ، لأنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً رجعياً ، وإن لم ينو شيئاً لم يقع به شيء لأنه من ألفاظ الكناية التي تفتقر إلى النية .

كل ما جاز أن يكون مهراً جاز أن يكون عوضاً في الخلع :

ذهب الشافعية إلى أنه لا فرق في جواز الخلع بين أن يخالع على الصداق أو على بعضه أو على مال آخر ، سواء كان أقل من الصداق أم أكثر ، ولا فرق بين العين والدين والمنفعة ، وضابطه : أن كل ما جاز أن يكون صداقاً جاز أن يكون عوضاً في الخلع لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، ولأنه عقد على بضع فأشبه النكاح ، ويشترط في عوض الخلع أن يكون معلوماً متمولاً مع سائر شروط الأعواض ، كالقدرة على التسليم واستقرار الملك وغير ذلك ، لأن الخلع عقد معاوضة ، فأشبه البيع والصداق ، وهذا صميم في الخلع الصحيح . أما الخلع الفاسد فلا يشترط العلم به ، فلو خالعتها على مجهول كتب غير معين أو على حمل هذه الدابة ، أو خالعتها بشرط فاسد ، كشرط ألا يتفق عليها وهي حامل ، أو لا سكنى لها ، أو خالعتها بألف إلى أجل مجهول ونحو ذلك ، بانت منه بمهر المثل .

أما حصول الفرقة ، فلأن الخلع إما فسخ أو طلاق ، فإن كان فسخاً فالنكاح لا يفسد بفساد العوض ، وكذا فسخه ، إذ الفسخ تحكى العقود ، وإن كان طلاقاً فالطلاق يحصل بلا عوض ، وما له حصول بلا عوض فيحسن مع فساد العوض ، كالنكاح ، بل أولى لقوة الطلاق وسرايته .

أما الرجوع إلى مهر المثل ، فلأن قضية فساد العوض ارتداد العوض الآخر ، والبضع لا يرتد بعد حصول الفرقة ، فوجب رد بدله ، ويقاس بما ذكرنا ما يشبهه ، لأن ما لم يكن ركناً في شيء لا يضر الجهل به كالصداق .

ومن صور ذلك ما لو خالعتها على ما في كفها - ولم يعلم - فإنها تبين منه بمهر المثل ، فإن لم يكن في كفها شيء ففي الوسيط أنه يقع طلاقاً رجعياً ، والذي نقله غيره أنه يقع بائناً بمهر المثل ، أما المالكية فقالوا : يجوز الخلع بالغرر كجنين بيطن بقرة أو غيره ، فلو تفق الحمل فلا شيء له وبانت .

وجاز بغير موصوف وبثمرة لم يبد صلاحها وبإسقاط حضانتها لولده ويتنقل الحق له . وإذا خالعتها بشيء حرام كخمر أو مسروق علم به فلا شيء له وبانت وأريق الخمر ورد المسروق لربه ، ولا يلزم الزوجة شيء بدل ذلك حيث كان الزوج عالماً بالحرمة - علمت هي أم لا - أما لو علمت هي بالحرمة دونة فلا يلزمه الخلع .

الزيادة في الخلع على ما أخذت الزوجة من الزوج :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجوز أن يأخذ الزوج من الزوجة زيادة على ما أخذت منه ، لقول الله

تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما اقتدت به ﴾ ، وهذا عام يتناول القليل والكثير . روى البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : « كانت أختي تحت رجل من الأنصار فارتفعنا إلى رسول الله ﷺ فقال : أتردين حديقته ؟ قالت : وأزيد عليها ، فردت عليه حديقته وزادته » (١) .

ويرى بعض العلماء : أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ منها أكثر مما أخذت منه . لما رواه الدارقطني بإسناد صحيح أن أبا الزبير قال : « إنه كان أصدقها حديقة ، فقال النبي ﷺ : أتردين عليه حديقته التي أعطاك ؟ قالت : نعم وزيادة ، فقال النبي ﷺ : أما الزيادة فلا ولكن حديقته . قالت : نعم » (٢) .

وأصل الخلاف في هذه المسألة خلاف في تخصيص عموم الكتاب بالأحاديث الأحادية . فمن رأى أن عموم الكتاب يخص بأحاديث الأحاد . قال : لا تجوز الزيادة ، ومن ذهب إلى أن عموم الكتاب لا يخص بأحاديث الأحاد رأى جواز الزيادة .

وفي « بداية المجتهد قال » : « فمن شبهه بسائر الأعواض في المعاملات رأى أن القدر فيه راجع إلى الرضا ، ومن أخذ بظاهر الحديث لم يجز أكثر من ذلك ، فكأنه رآه من باب أخذ المال بغير حق » .

الخلع دون مقتض :

والخلع إنما يجوز إذا كان هناك سبب يقتضيه ؛ كأن يكون الرجل معيباً في خلقه ، أو سيئاً في خلقه ، أو لا يؤدي للزوجة حقها ، وأن تخاف المرأة ألا تقيم حدود الله فيما يجب عليها من حسن الصحبة وجميل المعاشرة كما هو ظاهر الآية ، فإن لم يكن ثمة سبب (٣) يقتضيه فهو محظور : لما رواه أحمد والنسائي من حديث أبي هريرة : ( المختلعات هن المنافقات ) وقد رأى العلماء الكراهة .

الخلع بتراضى الزوجين :

والخلع يكون بتراضى الزوج والزوجة ، فإذا لم يتم التراضى منها فللقاضى إلزام الزوج بالخلع ، لأن ثابناً وزوجته رفعا أمرهما للنبي ﷺ ، وألزمه الرسول بأن يقبل الحديقة ويطلق كما تقدم في الحديث .

الشقاق من قبل الزوجة كاف في الخلع :

قال الشوكاني : وظاهر أحاديث الباب أن مجرد وجود الشقاق من قبل المرأة كاف في جواز الخلع ، واختار ابن المنذر أنه لا يجوز حتى يقع الشقاق منها جميعاً ، وتمسك بظاهر الآية ، وبذلك قال طائفة من الشيعى وجماعة من التابعين ، وأجاب عن ذلك جماعة ، منهم الطبرى ، بأن المراد أنها إذا لم تقم بحقوق الزوج كان ذلك مقتضياً لبغض الزوج لها ، فنسبت المخالفة لذلك . . ويؤيد عدم اعتبار ذلك من جهة الزوج أنه - ﷺ - لم يسأل ثابناً عن كراهته لها عند إعلانها بالكراهة له .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٦١

(١) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٩٨ .

(٢) فقه السنة للشيخ سابق ج ٢ ص ٢٢٨ .

### حرمة الإساءة إلى الزوجة لتختلع :

يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتختلع نفسها ، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حكم به قضاء .

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ (١) .

ولقوله - سبحانه - : ﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ (٢) .

ويرى بعض العلماء نفاذ الخلع في هذه الحالة مع حرمة العضل ، وأما الإمام مالك فيرى أن الخلع ينفذ على أنه طلاق ويجب على الزوج أن يرد البدل الذي أخذه من زوجته .

### جواز الخلع في الطهر والحيض :

يجوز الخلع في الطهر والحيض ولا يتقيد وقوعه بوقت ، لأن الله - سبحانه - أطلقه ولم يقيد بزمان دون زمن ، قال الله تعالى : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ﴾ ولأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أطلق الحكم في الخلع بالنسبة لامرأة ثابت بن قيس من غير بحث ولا استفصال عن حال الزوجة ، وليس الحيض بأمر نادر الوجود بالنسبة للنساء .

قال الشافعي : ( ترك الاستفصال في قضايا الأحوال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم في المقال ، والنبى - ﷺ - لم يستفصل هل هي حائض أم لا ؟ ولأن المنهى عنه الطلاق في الحيض من أجل ألا تطول عليها العدة . وهي - هنا - التي طلبت الفراق واختلعت نفسها ورضيت بالتطويل ) (٣) .

### هل الخلع طلاق أم فسخ ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الخلع طلاق بائن لما تقدم في الحديث من قول رسول الله ﷺ : ( خذ الحديقة وطلقها تطليقة ) (٤) ولأن الفسوخ إنما هي التي تقتضى الفرقة الغالبة للزوج من الفراق مما ليس يرجع إلى اختياره ، وهذا راجع إلى الاختيار فليس بفسخ .

وذهب بعض أهل العلم ، منهم أحمد وداود من الفقهاء وابن عباس وعثمان وابن عمر من الصحابة ، إلى أنه فسخ ، لأن الله تعالى ذكر في كتابه الطلاق فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، ثم ذكر الافتداء ثم قال :

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج-٢ ص ٢٠٠

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج-٢ ص ٢٩٥

(١) سورة النساء آية : ١٩ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٠ .

﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾<sup>(١)</sup> ، فلو كان الافتداء طلاقاً لكان الطلاق الذي لا تحل له فيه إلا بعد زواج هو الطلاق الرابع . ويجوز هؤلاء أن الفسوخ بالتراضي قياساً على فسوخ البيع كما في الإقالة .

قال ابن القيم : والذي يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ثلاثة أحكام كلها متفية عن الخلع .

أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه .

الثاني : أنه محسوب من الثلاث ، فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .

الثالث : أن العدة فيه ثلاثة قروء .

وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع ، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طليقتين ووقوع ثالثة بعده ، وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق .

وثمره هذا الخلاف تظهر في الاعتداد بالطلاق ، فمن رأى أنه طلاق احتسبه طلاقاً بائناً ، ومن رأى أنه فسخ لم يحتسبه ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعهما ، ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك وإن لم تنكح زوجاً غيره ، لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لغو .

ومن جعل الخلع طلاقاً قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث .<sup>(٢)</sup>

### هل يلحق المختلعة طلاق ؟

المختلعة لا يلحقها طلاق ، سواء قلنا بأن الخلع طلاق أو فسخ ، وكلاهما يصير المرأة أجنبية عن زوجها ، وإذا صارت أجنبية عنه فإنه لا يلحقها الطلاق . وقال أبو حنيفة : المختلعة يلحقها الطلاق ، ولذلك لا يجوز عنده أن ينكح مع المبتوتة أختها .

عدة المختلعة : ثبت من السنة أن المختلعة تعتد بحيضة ، ففي قصة ثابت أن النبي ﷺ قال له : ( خذ الذي لها عليك وخل سبيلها . قال : نعم فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها ) . رواه النسائي بإسناد رجاله ثقات . وإلى هذا ذهب عثمان وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وهو مذهب إسحق بن راهويه واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة في مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفي فيه حيضة كالاستبراء .

وقال ابن القيم : هذا مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعبد الله بن عمر والربيع بنت معوذ

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٠ .

وعمها - رضى الله عنهم - وهو من كبار الصحابة ، فهو لاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم ، كما رواه الليث بن سعد عن نافع مولى ابن عمر : أنه سمع الربيع بنت معوذ بن عفراء ، وهى تخبر عبد الله ابن عمر أنها اختلعت من زوجها على عهد عثمان بن عفان فجاء عمها إلى عثمان فقال له : إن ابنة معوذ اختلعت من زوجها اليوم أفنتقل ؟ فقال عثمان : لتنتقل ولا ميراث بينهما ولا عدة عليها ، إلا أنها لا تنكح حتى تحيض حيضة ، خشية أن يكون بها حبل . فقال عبد الله بن عمر : فعثمان خيرنا وأعلمنا .

ونقل عن أبي جعفر النحاس في كتاب « الناسخ والمنسوخ » أن هذا إجماع من الصحابة . ومذهب الجمهور من العلماء أن المختلعة عدتها ثلاث حيض إن كانت ممن يحيض أ . هـ . (١) .

وهكذا يقيم الإسلام الحلول الواقعية على أساس من الحق والعدل والخير ، فما من داء إلا وله في الإسلام دواء ، وما من مشكلة إلا ولها في ضوء الإسلام حل .

قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ ، المراد بالحدود تعاليم الإسلام من أوامر ونواه التى تشمل أحكامه ، ومعنى لا تعتدوها أى لا تتجاوزوها بالمخالفة ، فله تعالى فرائض فأدوها ، وله حدود فلا تعتدوها ، وله حرمان فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها وإنما قال هنا ﴿ فلا تعتدوها ﴾ لأن الآية فيها أمر يجب التزامه كقوله تعالى : ﴿ فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، والأمر يقتضى عدم الاعتداء ، وإنما قال فى آية الصيام : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ (٢) لأن الآية فيها نهى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبashروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ (٣) ، والنهى يقتضى عدم القرب ، وهذا كتاب الله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ، (٤) أى من يتجاوز أحكام الله بالمخالفة فقد انخرط فى سلك الظالمين ، فهو ظالم لنفسه باقتراف المعصية ، ظالم لغيره بتجاوز العدل ، فلا يلومن إلا نفسه .

### الطَّلَقُ الثَّالِثَةُ

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

أى إنه إذا طلق رجل امرأته طلاقاً ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح . فلو تزوجت ولم يدخل بها الزوج الثانى فإنها لا تحل للأول . فعن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها

(٣) سورة البقرة آية : ١٨٧

(٤) سورة هود آية : ١

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧



فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى الأول قال : ( لا .. حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتك )<sup>(١)</sup>.

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج .

والمراد بالعسيلة الجماع ، روى الإمام أحمد بإسناده عن أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( ألا إن العسيلة الجماع )<sup>(٢)</sup> : ومن هنا فلا يشترط إنزال المنى ، فإن كان قصد الزوج الثاني أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذهمه ولعنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : ( لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله )<sup>(٣)</sup> . وروى ابن ماجه بإسناده عن عقبة بن عامر قال . قال رسول الله ﷺ : ( ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال . « هو المحلل » لعن الله المحلل والمحلل له )<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل فقال : ( لا .. إلا نكاح رغبة لا نكاح دلة ولا استهزاء بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها )<sup>(٥)</sup> .

قال الحاكم في مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم عن عمر عن نافع عن أبيه أنه قال : ( جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال : لا .. إلا نكاح رغبة ، وكنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ ) . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد<sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا ﴾ ، أى الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾ أى المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أى يتعاشرا بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف ﴾<sup>(٧)</sup> ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾<sup>(٨)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ ، المقصود بالحدود ، كما ذكرنا ، الأحكام والتعاليم والشرائع ، والله تعالى يبين لعباده كما قال جل شأنه : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾<sup>(٩)</sup> .

(٦) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٣ .

(٧) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٨) سورة النساء آية : ١٩ .

(٩) سورة النساء آية : ٢٦ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٢٧٨

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤١٠ ط الشعب .

(٣) ابن كثير ج ١ ص ٤١١ ط الشعب .

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٢ .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٤١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَوْمٌ يَعْلَمُونَ ﴾ ، لأن العلم أساس المعرفة ، والمعرفة الصحيحة ينبنى عليها العمل الصحيح ، فمن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين .

مسألة :

اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فيما إذا طلق الرجل امرأته طليقة أو طليقتين وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقى من الثلاث ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ؟ فإذا عادت إلى الأول تعود لمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه ، رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث فإنه يهدم ما دونها بطريق الأولى والأخرى .

ولسائل أن يقول : ما الحكمة في الزواج الثاني والدخول بها فيه إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً ؟ ونقول : إن فيه تأديباً للزوج الأول الذى لم يضع الأمور في نصابها ، فقد جعل الله الطلاق من حقه فطلق مرة ، ولم يصبر فطلق الثانية ، ولم يتخذ جانب الحكمة فطلق الثالثة ؛ إنه بذلك ضيع فرصة منحه الله إياها ، فإذا ما رغب فيها بعد الثالثة فإنه عندئذ لا بد أن يعرف قيمة الزوجة ، فبناء عليه يجب أن يصونها وألا يتخذ آيات الله هزواً ، فجعل الله الزواج الثاني تأديباً له وتهذيباً ، والله عزيز حكيم ، يريد لعباده الخير حتى تسير سفينته الحيلة في جو معتدل .

### آداب إسلامية

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ  
ضُرَارًا لِنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا  
نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٤١﴾

المفردات : يقال بلغ البلد : إذا وصل إليه ، ويقال أيضاً بلغه إذا شارفه ودنا منه ، يقول الرجل لصاحبه : إذا بلغت مكة فاغتسل بذي طوى ، يريد دنوت منها ، لأن ذى طوى قبلها . والأجل يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، فيقال لعمر الإنسان أجل وللموت الذى ينتهى به أجل ، والمراد هنا زمن العدة . والمراد بالإمساك المراجعة ، والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعاً وعرفاً وعادة ، والمراد

بالسريخ ترك المراجعة حتى تنقضى عدتها . والضرار : الضرر والاعتداء : الظلم . وآيات الله : هي آيات أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك . وهزوا : أى مهزوءاً بها بالإعراض عنها والتهاون فى المحافظة عليها لقلة الاكتراث بالنساء وعدم المبالاة بهن . ونعمة الله هى الرحمة التى جعلها بين الزوجين . وما أنزل عليكم من الكتاب أى من آيات أحكام الزوجين التى تحفظ لكم الهناءة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة والحكمة هى سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح .

جاء فى تفسير هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك ليضارها ويعضلها ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن السدى قال : نزلت فى رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار ، طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة ثم راجعها ثم طلقها مضارة لها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ .

إن الاسلام بتعاليمه السمحة يطارد الظلم أيا كان موقعه ، إنه وهوبين لنا أحكام الطلاق يرشدنا أن المرأة إذا طلقت وقرب انتهاء عدتها فعلى الرجل إما الإمساك بمعروف وإما التسريح بإحسان ، وليس بعد المعروف والإحسان إلا الإضرار بها ، وذلك إذا راجعها قبل انتهاء عدتها ، يريد إطالة العدة والإضرار بها كلما قربت العدة على الانتهاء راجعها ثم طلقها . إن الله تعالى لا يحب الظلم ، ومن ثم فإنه يؤكد الأمر بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان فيقول : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ ، ويحكم على من فعل هذا بأنه قد ظلم نفسه ، والظلم عاقبته وخيمه ، وهو ظلمات يوم القيامة ، فالنساء لا يكرمهن إلا كريم ، وكان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله ؛ ولا يبينهن إلا لثيم . وأنا أحب أن أكون كريماً مغلولاً من أن أكون لثيماً غالباً .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعوك عليك وعين الله لم تنم

قال ﷺ : ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره .. ) (١) ، وقال ﷺ : ( استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت لتقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ ، المراد بالآيات هنا آيات الطلاق التى بين فيها أحكامه ، يدل على ذلك سياقها ، أى لا تطلقوا ثم تراجعوا ثم تطلقوا ، وكأن الحياة الزوجية مسرح أعد للهزل ، قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ النعمة هنا لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ (٣) ومن أخص هذه النعم نعمة الزوجية التى قال فيها جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم

(٣) سورة إبراهيم آية : ٣٤ .

(١) الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٢٧٧ ط الشعب .  
(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٥٤ ط دار الفكر

مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿١﴾ وقال ﷺ : ﴿ يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ﴾ (٢) وما أراد الرسول بذلك إلا تهذيب الغرائز وتنظيم الدوافع وتصليح السلوك . وقد حذر النبي ﷺ من الانحراف حيث قال : ( اتق المحارم تكن أعبد الناس ) (٣) وقال : ( شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم ) (٤) وقد ورد أن رجلاً من الصالحين ماتت زوجته ، فلما فرغ من دفنها مرقوم كان له بهم صداقة ، فتزوج منهم ودخل في نفس الليلة ، ف قيل له في ذلك فقال : خشيت أن ألقى الله عزبا .

ألسنت معي أن الزواج نعمة عظمى من نعم الله على عباده ؟ فاذكروا هذه النعمة بالشكر ، واذكروا ما أنزل الله عليكم من الكتاب وما فيه من إرشاد وتوجيه وتأديب وتهذيب ، وما في السنة من بيان وتفصيل وتوجيه وتشريع ، فقد اشتمل كل منها على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادئ الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك وتصحيح الفكر المنحرف ما لو أخذتم به لنلتم السعادة في الدنيا والآخرة . والله تعالى يعظكم بهذه الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ . دليل قاطع وبرهان ساطع على أن أساس الحياة الزوجية هو تقوى الله ، ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ﴾ (٥) . قيل لمحمد بن كعب القرظي وكان غنياً وقد حضرته الوفاة ماذا تركت لأولادك فقال ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ (٦) إن التقوى هى السلاح الأقوى ، هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ ، هذا لإيقاظ الهمم ، فليعلم العبد أن الله تعالى مطلع على سره وعلايته ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فليحذر أن يراه الله على معصية ، وليجتهد أن يراه الله دائماً على طاعة .

### لا تعضلوا النساء

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ كَمَآرُكُمْ وَأَنتُمْ بِأَعْيُنِكُمْ رَوَيْنَ الْكُنْهَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٢٢﴾

(٤) الجامع الصغير للسيوطي ح ١ ص ٧٦ ط الشعب .

(٥) سورة التوبة آية : ١٠٩

(٦) سورة النساء آية ٩

(١) سورة الروم آية : ٢١

(٢) الترغيب والترهيب ح ٣ ص ٢٩ ط الشعب

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ح ١ ص ٢٤ ط الشعب .

المفردات : البلوغ : الانتهاء . والأجل هنا آخر المدة المضروبة لانقضاء العدة لأقربها كما في الآية التي قبلها ، لأن الإمساك بالمعروف والتسريح لا يتأتى بعد انقضاء العدة ، إذ انقضاؤها إمضاء للتسريح ، فلا غل معه للتخير ، والتخير يستمر إلى قرب الانقضاء ، والمذكور هنا النهي عن العضل وإجازة النكاح ، وهذا لا يكون إلا بعد انقضاء العدة ، ومن ثم أثر عن الشافعي أنه قال : دل السياق على افتراق البلوغية والعضل : الحبس والتضييق والعظة : النصيح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل . والزكاء : النماء والبركة .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طليقة أو طليقتين فتتقاضى عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعي والزهري والضحاك : أنها أنزلت في ذلك وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لا بد في النكاح من ولي كما قاله الترمذي وابن جرير .

قال ﷺ : ( لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل )<sup>(١)</sup>

وفي هذه المسألة اختلاف بين العلماء .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في معقل بن يسار الحزني وأخته ، فقال البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن معقل بن يسار قال : كانت لي أخت تخطب إلى . وقال البخاري : وعن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل ، فنزلت : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، ذلك الذي جاء في قوله تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ إنما يتعظ به ويتنفع ويأثر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، حيث يعلم أن في عضل النساء ومنعهن من الزواج ظلم ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر يعلمون أنهم غداً بين يدي الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

قال ﷺ : ( إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض )<sup>(٣)</sup> ، وسنة رسول الله التيسير في الزواج ، حتى قال لأحد الصحابة يريد الزواج : ( التمس ولو خائفاً من حديد ، قال : لا أجد ، قال : تزوجها بما تحفظ من القرآن )<sup>(٤)</sup> وقال ( إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة )<sup>(٥)</sup> ويقول : ( من يمن المرأة يسر نكاحها وحسن خليقتها )<sup>(٦)</sup> . قوله تعالى : ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي ما بينته لكم من الأحكام أعظم بركة وأطهر سلوكاً ، ثم يقول تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٦ .

(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٨ .

(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ١٥٨ .

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

(٢) سورة الشعراء آية : ٢٣٧ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٦ دار الفكر .

لا تعلمون ﴿١﴾ أى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) أين الخير من الشر ، إذ هو غيب لا يعلمه إلا الله ، فنفذوا أحكامه وطبقوا شرائعه وأقيموا دولة الإسلام في بيوتكم تقم على أرضكم ، فإن الذي شرع هذه الأحكام هو الذي علم ما يكون وعلم ما كان وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

### أحكام تتعلق بالرضاعة

\* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعُهَا لَا تُضَارُّ وَلَدَةٌ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَاءً آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٣﴾

المفردات : - الحول والعام يقعان على صيفه وشتائه كاملين ، والسنة تبتدىء من أى يوم عددته من العام إلى مثله ، والمولود له : هو الوالد ، والتكليف : الإلزام ، والوسع ضد الضيق ، وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ آخر مداها ، والطاقة آخر درجات القدرة ، فليس بعدها إلا العجز التام مأخوذة من آخر طاقة ، ( فتلة ) من الطاقات التي يتألف منها الحبل ، والمضارة : مشاركة كل من الوالدين للآخر في الضرر ، فيفيد أن كل إضرار من أحدهما للآخر بسبب الولد إضرار بنفسه ، إذ هذا يستلزم ضرر الولد ، وكيف نحسن تربية ولد بين أبوين هم كليهما إيذاء الآخر وضرره ، والفصال : الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها منه ، فيكون مستقلاً في غذائه دونها ، والتشاوُر والمشاورة : استخراج الرأى من المستشارين ، ولا جناح عليهما : أى لا حرج ، واسترضعت المرأة الطفل : أى اتخذتها مرضعاً له ، ما آتيت : أى ما ضمتتم ، والتزمتتم بالمعروف : أى على الوجه المتعارف المستحسن شرعاً وعادة .

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية من حيض وإيلاء وعدة وطلاق وأدب وتخلق بخلق الإسلام ، بعد هذا كله ذكر سبحانه وتعالى أحكاماً هنا تتعلق تعلقاً وثيقاً بالحياة الزوجية ونظام الأسرة . ألا وهى أحكام الرضاعة : فغذاء الطفل بعد الولادة أمر من الأمور التي اهتم بها الشارع الحكيم ؛ فبعد أن كان الطفل في رحم الأم جنيناً يتغذى بغذاء الأم ويتنفس بتنفسها أصبح بعد ولادته في حاجة إلى غذاء ، فكانت الرضاعة غذاءً له وهو لا يستغنى عن الغذاء ، فأرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وهذا أمر في

صورة الخبر ، وبين سبحانه أن مدة الرضاعة حولان كاملان وذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، والأم هي أولى الناس برضاعة أولادها ، لأنها لا تغذية لبنا فحسب إنما تغذية عطفًا وحنانًا وقدرات عقلية وخلقية ونفسية ، فقد نرى الطفل إذا بكى وحملته غير أمه ازداد بكاءً ، فإذا ما حملته أمه استراح وكف عن البكاء ، فما الذي أعلمه أنها أمه ؟ إنه يعرفها بدقات قلبها ، لذا فإن الإسلام يحيط الأولاد بعناية فائقة ، وتزداد عنايته بهم وهم في المهد ، ذلك لأن المهد ، هو النواة الأولى التي ينمو الطفل على أساسها وقد عني الإسلام أيضًا بالجانب الصحي للطفل حيث أوصى برضاعته وجعل أولى الناس بالرضاعة الأمهات ، لأنها أعظم الناس به رحمة وأكثرهم به عناية وأحفظهم له أمانة .

وقد اشتملت آيات الكتاب العزيز على الصحة الغذائية ، ومنها آية الرضاعة ، كما اشتملت أيضًا على الصحة الوقائية ، فحرم الإسلام الميتة والدم ولحم الخنزير ، كما حرم الخمر ؛ كما اشتملت على الطب الاجتماعي ، فشرع الإسلام الزواج وجعله نعمة ينعم الله بها على عباده . قال عز من قائل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١) . لما اشتملت الآيات على الطب النفساني ، قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (٢) .

وبالإضافة إلى هذه العناية فقد بين الإسلام خطوط التربية وفق مراحل النمو ، فأمر بأن تكون التربية على الوجه التالي : جاء في الأثر : لاعبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا .

وللفقهاء أحكام تتعلق بالرضاعة لا بد من معرفتها قالوا :

قال الشيخ السيد سابق : المحرمات بسبب الرضاع : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهن : الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، وبنات الأخت . وهي التي بينها الله تعالى في قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ (٣) وعلى هذا فتتزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على الموضع ، هي وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب . فتحرم :

- ١ - المرأة المرضعة ، لأنها يارضعها تعد أما للرضيع
- ٢ - أم المرضعة لأنها جدة له .
- ٣ - أم زوج المرضعة - صاحب اللبن - لأنها جدة كذلك .
- ٤ - أخت الأم ، لأنها خالة الرضيع .
- ٥ - أخت زوجها - صاحب اللبن - لأنها عمته .
- ٦ - بنات بنيتها وبناتها ، لأنهن بنات إخوته وأخواته .
- ٧ - الأخت سواء أكانت أختًا لأب وأم ، أم أختًا لأم ، أم أختًا لأب .

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٣) سورة النساء آية : ١٢٣ .

الرضاع الذي يثبت به التحريم :

الظاهر أن الإرضاع الذي يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع ، ولا يتحقق إلا برضعة كاملة ، وهي أن يأخذ الصبي الثدي ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعا من غير عارض يعرض له . فلو مص مصة أو مصتين ، فإن ذلك لا يحرم لأنه دون الرضعة ولا يؤثر في الغذاء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : ( لا تحرم المصاة ولا المصتان ) ، رواه الجماعة إلا البخاري .

وللعلماء في هذه المسألة عدة آراء نجملها فيما يأتي :

١ - إن قليل الرضاع وكثيره سواء في التحريم أخذاً بإطلاق الإرضاع في الآية ، ولما رواه البخاري ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أَرْضَعْتُكُمَا » ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال : ( وكيف قيل ؟ دعها عنك ) فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات ، وأمره بتركها دليل على أنه لا اعتبار إلا بالإرضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه . ولأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له . ولأن إنشاز العظم ، وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره وهذا مذهب « علي » وابن عباس والحسن البصري وأبي حنيفة .

٢ - إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن عائشة قالت : « كان فيما نزل من القرآن » عشر رضعات معلومات يحرمن ؛ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ « وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود ، وإحدى الروايات عن عائشة والشافعي .

٣ - إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر ، لأن النبي ﷺ قال : ( لا يحرم المصاة ولا المصتان ) . وهذا صريح في نفي التحريم بما دون الثلاث فيكون التحريم منحصرًا فيما زاد عليهما . وإلى هذا ذهب أبو عبيد وأبو ثور ، وابن المنذر ورواية عن أحمد .

لبن المرزعة يحرم مطلقا :

التغذية بلبن المرزعة محرم ، سواء أكان شربا أو وجورا<sup>(١)</sup> أو سعوطا<sup>(٢)</sup> حيث كان يغذى الصبي ويسد جوعه ، ويبلغ قدر رضعة ، لأنه يحصل بالإرضاع من إنبات اللحم ، وإنشاز العظم ، فيساويه في التحريم .

اللبن المختلط بغيره : إذا اختلط لبن المرأة بطعام أو شراب أو دواء ، أو لبن شاة أو غيره ، وتناولها الرضيع فإن كان الغالب لبن المرأة حرم وإن لم يكن غالبا فلا يثبت به التحريم . وهذا مذهب الاحناف والمزني وأبي ثور .<sup>(٣)</sup>

(١) الوجور : أن يصب اللبن في حلق الصبي من غير ثدي .

(٢) السعوط أن يصب اللبن في أنفه .

(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٧٤ .



## الشهادة على الرضاع :

شهادة المرأة الواحدة مقبولة في الرضاع إذا كانت مرضية ، لما رواه عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » فلما ذكرت ذلك للنبي ﷺ قال : ( وكيف وقد زعمت أنها أرضعتكما ؟ فنهاه عنها . ) . احتج بهذا الحديث : طاووس . والزهرى وابن أبي ذئب والأوزاعي ورواية عن أحمد على أن شهادة المرأة الواحدة مقبولة في الرضاع . وذهب الجمهور إلى أنه لا يكفي في ذلك شهادة المرضعة لأنها شهادة على فعل نفسها . وقد أخرج أبو عبيد عن عمر ، والمغيرة بن شعبة وعلى بن أبي طالب وابن عباس أنهم امتنعوا عن التفريق بين الزوجين بذلك . ولو فتح هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين زوجين إلا فعلت . ومذهب الأحناف أن الشهادة على الرضاع لا بد فيها من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ولا يقبل فيها شهادة النساء وحدهن ، لقول الله عز وجل : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾ (١) . وروى البيهقي : أن عمر رضى الله عنه أتى بامرأة شهدت على رجل وامراته أنها أرضعتهما . فقال لا ، حتى يشهد رجلان أو رجل وامرأتان .

وعن الشافعي رضى الله عنه : أنه يثبت بهذا ، وبشهادة أربع من النساء لأن كل امرأتين كرجل ، ولأن النساء يطلعن على الرضاع غالباً كالولادة . وعند مالك : تقبل فيه شهادة امرأتين بشرط فشوقيهما بذلك قبل الشهادة .

## أبوة زوج المرضع للرضيع :

إذا أرضعت امرأة رضيعاً صار زوجها أباً للرضيع وأخوه عمّاً له ، لما تقدم من حديث حذيفة ، ولحديث عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : ( ائذنى لأفلح أخى أبى القعيس فإنه عمك ) . وكانت امرأته أرضعت عائشة رضى الله عنها . وسئل ابن عباس عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلاماً : أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ قال : « لا » اللقاح واحد . وهذا رأى الأئمة الأربعة ، والأوزاعي والثوري . ومن قال به من الصحابة على وابن عباس رضى الله عنهما .

وما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الناس يتساهل في أمر الرضاع فيرضعون الولد من امرأة ، أو من عدة نسوة ، دون عناية بمعرفة أولاد المرضعة وأخواتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب على ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق هذه القرابة الجديدة التي جعلها الشارع كالنسب فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدري . والواجب الاحتياط في هذا الأمر حتى لا يقع الإنسان في المحذور (٢) .

## حكمة التحريم بالرضاع :

وأما حكمة التحريم بالرضاعة فمن رحمته تعالى بنا ؛ أن وسع لنا دائرة القرابة بإلحاق الرضاع بها ، وأن بعض بدن الرضيع يتكون من لبن المرضع ، وأنه بذلك يرث منها صفاتها كما يرث ولدها الذي ولدته .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٢ ص ٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، المراد بالمولود له هو الأب ، وإنما عبر بهذه الصيغة ليفيد نسبة الولد إلى أبيه . والوالد عليه أن يقوم بالإنفاق من مطعم ومشرب وكسوة بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ : نهي الإسلام نهياً شديداً عن الضرر أيًا كان نوعه . فمن أصول الإسلام المقررة قوله ﷺ : ( لا ضرر ولا ضرار ) (٢) ، فلا يجوز أن يضر الرجل زوجته : بسبب ولدها وذلك بانتزاعه منها ، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تضر زوجها بسبب الولد بأن تطرحه عليه ، فلا ينبغي أن يكون الولد سبباً في وقوع الضررين الزوجين ، وذلك لأن نعمة الزوجية يجب أن تظل صافية بعيدة عن الأكدار ، كما أنه لا يجوز للضرر بسبب الولد ولوزالت الزوجية بالطلاق . وقد بلغ من حرص المسلمين على دفع الضرر أن رجلاً صالحاً تزوج بامرأة ناشز فقيل له : ما ضر لو طلقته ؟ فقال أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيري ، فلا يستطيع معها صبراً . فقيل له : فماذا أنت فاعل معها ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلاً أعطى أيوب على بلائه ، وأما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاه الله مثلاً أعطى آسية امرأة فرعون . وسبحان الذي قال : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ المراد به التزام الأقارب بعدم الضرر وأمرهم بالإحسان والمعروف لأقاربهم ، كما تفيد أن على الوارث النفقة على الأقارب ، فكما أن له الغنم بالميراث فعليه الغرم بالنفقة ، وهذا منطلق العدالة . إذ الغنم بالغرم .

قوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصلاً عن تراض منها وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ هذا حكم من أحكام رضاعة الطفل ، وهو يبين مدى دقة الإسلام وحساسيته وعنايته بالتربية ، حيث جعل الفصال ( أى فطام الطفل ) مبنيًا على التشاور والاتفاق بين الزوجين ، لا يجوز أن يستبد به أحدهما . قال تعالى : ﴿ فإن أرادا ﴾ أى الزوجين ﴿ فصلاً ﴾ أى فطاماً قبل الحولين برضاها والتشاور بينهما ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ (٤) .

فانظر إلى آثار رحمة الله بالرضيع حيث نظم له غذاءه ، وهو في عالم الأجنة ، ثم أمدّه بلبن الأم بعد الولادة ، ثم جعل فطامه مبنيًا على المشورة لا على الاستبداد خشية أن يخطيء الناس الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

فإذا كانت المشورة في فطام الرضيع قد نص عليها القرآن الكريم ، إنها بالأولى والأوجب في شئون

(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .

(١) سورة الطلاق آية : ٧ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٧٤٦ ط دار الفكر .

الأمم والقضايا المضيرية ويرحم الله أمير المؤمنين عمر إذ يقول : « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوي » . ويرحم الله من قال في عمر :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محيها  
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ . المراد بالاسترضاع طلب الرضاع . وذلك بدفع الرضيع إلى مرضعة غير أمه لسبب من الأسباب . قال تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ <sup>(١)</sup> . قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ ، أى أن تفعلوا هذا إذا سلمتم المرضعة ما التزمت به من الأجر بالمعروف . وقد شاعت كلمة المعروف في الحياة الزوجية وأصبحت كالزهرة الناضرة فواحة الشذى طيبة العبير ، لأن الإسلام يدعو إلى تقوية العلاقات تقوية تقوم على الألفة والمودة والمحبة والرحمة لا استبداد فيها ولا تسلط ولا إرهاب ولا تهديد . وكما شاعت كلمة المعروف في الأحكام الشرعية شاع كذلك الأمر بتقوى الله . قال تعالى في ختام هذه الآية الكريمة : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ ، أى اتقوه سبحانه فلا تخالفوا أمره ، فهو بصير بأحوالكم عليم بشئونكم ، ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فأما أسرة قامت على المعروف والتقوى كان العز رائدها والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف . وأما أسرة ابتليت بالذنوب والانحراف كان الذل رائدها والشقاء حليفها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

### عدة المتوفى عنها زوجها

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ ۚ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ

(١) سورة الطلاق آية : ٦ .

(٢) سورة الحديد آية : ٤ .

حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

المفردات : ﴿ يتوفون منكم ﴾ : أى يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم ، ﴿ ويذرون ﴾ : أى يتركون الزوج يطلق على الذكر والأنثى كما قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ ، وأصله العدد المكوّن من شيئين اتحدا وصارا شيئا واحداً فى الباطن وإن كانا شيئين فى الظاهر ، وسمى به كل من الرجل والمرأة للدلالة على أن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعليها ، بتمازج النفوس ووحدة المصلحة حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر . ويتدبرصن : أى ينتظرن ، وبلغن أجلهن : أى أتممن عدتهن وانتهت مدة التربص والانتظار ، والتعريض فى الكلام أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح بدون تصريح ، والخطبة ( بكسر الخاء ) هى طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس ، والإكنان فى النفس هو ما يضمّره مريد الزواج فى نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة . والقول المعروف : ما لا يستحى منه فى المجاهرة كذكر حسن المعاشرة وسعة الصدر للزوجات إلى نحو ذلك . وعزم الشيء وعزم عليه واعتزمه : إذ صمم على تنفيذه ، والكتاب : بمعنى المكتوب أى المفروض ، وأجله : أى نهايته .

قال الفقهاء وعلماء الحديث فى آية العدة : هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتدّن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال أقول فيها برأى ، فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً . وفى لفظ ، لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً . وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ (١) .

وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تدبرص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشراً للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلّك قوى ، لولا ما ثبت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو

السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرا . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابي حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى<sup>(١)</sup> . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به .

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتتمال اشتغال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً ، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما : ( إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح ) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم<sup>(٢)</sup> . ولقد سئل سعيد بن المسيب : ما بال العشر ؟ قال : فيها ينفخ الروح ، وقال تعالى : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : ( لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا )<sup>(٣)</sup> وفى الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت : يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عنها أفنكحلها ؟ فقال : « لا » كل ذلك يقول لا — مرتين أو ثلاثا ثم قال : ( إنما هى أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة )<sup>(٤)</sup> .

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى ، وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً ، وذلك لفوات نعمة الزوجية ، فهو وجه من وجوه الوفاء وحسن العهد من الإيمان .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف ﴾ ، المراد به الزواج بعد انقضاء العدة والخطاب فى قوله : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ لأولياء أمر المرأة ، أى إذا ما انقضت عدتها فلا إثم عليكم إذا ما تزوجت ، فذلك أمر أحله الشارع ودعا إليه ، قال تعالى : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾<sup>(٥)</sup> ففى الزواج وقاية وعصمة وتعفف ، ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى عالم بدقائق الأشياء ، لا يعلمها إلا هو ، فاحذروا عقابه وارجو ما عنده من الثواب والأجر .

وبعد الفراغ من بيان أحكام العدة والإحداد على الزوج ، شرع يبين لنا الحكم فى خطبة المتوفى عنها زوجها أثناء العدة . قال تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ أى لا إثم عليكم فى

(٤) المصدر السابق

(٥) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

(١) فقه السنة للشيخ . السيد سابق ج ٢ ص ٢٣٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق .

التعريض بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح ، قال ابن عباس في قوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ : التعريض أن يقول إني أريد التزويج ، وإني أحب امرأة من أمرها ومن أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف ، وفي رواية : ووددت أن الله رزقني امرأة ، ونحو هذا ، ولا ينتصب للخطبة ، وفي رواية : إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ، ولوددت أن وجدت امرأة صالحة ، ولا ينتصب لها مادامت في عدتها ، ورواه البخاري تعليقاً فقال : وقال لي طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ ، هو أن يقول : إني أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة .

قوله تعالى : ﴿ أو أكنتم في أنفسكم ﴾ ، أى أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنت ﴾<sup>(١)</sup> ولهذا قال : ﴿ علم الله أنكم ستذكروهن ﴾ أى في أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سرّاً ﴾ ، وهو قول الرجل للمرأة في عدتها : عاهديني ألا تتزوجي بغيري . قوله تعالى : ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ ، أى بأسلوب التعريض والتلويح لا بأسلوب العبارة والتصريح ، وكأن يقول لها : إني فيك لراغب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ ، أى لا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنتهي عدتها ، وهذا معنى بلوغ الكتاب أجله ؛ والمراد بالكتاب ما حكم الله به من العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في مدة العدة :

وبعد بيان هذه الأحكام المتعلقة بالمتوفى عنها زوجها من العدة والإحداد والخطبة ؛ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ أى كونوا على حذر من مخالفة الله في أمره ، فلا تضمروا في أنفسكم إلا ما هو خير ، وإياكم أن تضمروا شراً ، فإن الذى شرع الأحكام يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبعد الوعيد يشرق علينا نور الوعد فيقول تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غفور حلیم ﴾ إنه سبحانه وتعالى يعلم ضعفنا فيقول : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً<sup>(٣)</sup> ويقول جل شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة

(١) سورة الممتحنة آية : ١ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

(٣) سورة النساء الآيتان : ٢٧ : ٢٨ .

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴿١﴾ . جل جلال الله ، يغفر الذنوب ، وهو الحليم لا يعجل العقوبة ، بل يمهّل لعل العبد يرعوى ويحجل .

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة      فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا محسن      فبمن يلوذ ويستجير الأثم

### الطلاق والصدّاق

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ ﴿٣٢﴾

المفردات : الجناح هنا التبعة ( المسئولية ) كالإتزام بمهر وغيره ؛ والميسر : اللمس باليد من غير حائل ، ويراد به في لسان الشرع ما يراد بالمماسه والملاصه والمباشرة وهو غشيان المرأة ، والفريضة : المهر ، وفرضها : تسميتها ، والمتعة والمتاع : ما ينتفع به مع سرعة انقضائه ، ومن ثم يسمى التلذذ بالشئ تمتعاً لسرعة انقطاعه ، وأوسع الرجل : إذا صار إذا سعة في المال وبسطة وغنى ، وأقتر : إذا قل ماله وافتقر وأقتر على عياله ، وقتر : إذا ضيق عليهم في النفقة ، وإلقدر : ( بفتح الدال وسكونها ) قدر الإمكان والطاقة ، ومتاعاً : أى حقاً ثابتاً واجباً ، والمعروف : ما يتعارفه الناس بينهم ويليق بهم بحسب اختلاف أصنافهم ومعايشهم وبيئاتهم ، والمحسنون : هم الذين يحسنون في معاملة المطلقات ، والذي بيده عقدة النكاح هو الزوج المالك لعقد النكاح وحله ، وعفوه : تركه ما يعود إليه من نصف المهر الذي ساقه إليها كاملاً تكريماً منه ، والفضل : المودة والصلة .

نحن قد علمنا ان أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق ، وقد شرعه الله سبحانه ليكون دواء لداء استعصى علاجه بعد اتخاذ خطوات عديدة ومتنوعة في العلاج : فعظوهن ، واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ، ﴿٢﴾ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴿٣﴾ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح

خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً<sup>(١)</sup> إلا أن النفوس قد تكون غير قابلة . لأى حل ، ذلك لأن الشيطان قد يستبد بالنفس فيجعل صاحبها لا يعى ولا يسمع ، وكأن الدنيا قد سدت عليه المنافذ ، عندئذ يكون آخر العلاج الكى ، قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ \* وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً<sup>(٢)</sup> . . والآية التى بين أيدينا قد اشتملت على أحكام فصلها فقهاء المسلمين تفصيلاً لا يذر ولا يدع حكماً إلا جاء على الوجه الصحيح ؛ قال الفقهاء : أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها ، قال ابن عباس والحسن البصرى : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان فى هذا إنكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها ، وهو تعويضها عما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسراً بثلاثة أثواب . وقال الشعبي : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب . قال : وكان شريح يتمتع بخمسمائة . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال : كان يتمتع بالخادم أو بالثففة أو بالكسوة : قال : ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف . ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعى فى المذهب الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزئ فيه الصلاة . وقال فى المذهب القديم : لا أعرف فى المتعة قدراً ، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً : هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾<sup>(٣)</sup> ، ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقد كان مفروضاً لهن ومدخولاً بهن ، وهذا قول سعيد بن جبيرة وأبى العالية والحسن البصرى . والقول الثانى : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكن عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾<sup>(٥)</sup> . القول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ، وهذا قول ابن عمر ومجاهد ، ومن العلماء من استحباها لكل

(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٨ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٩ .

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٤١ .



مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ ، وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقاً .

قال تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ . هذه الآية الكريمة اشتملت على حكم المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها وقد سمي لها الزوج مهراً محدداً ، فالحكم أن لها نصف المهر المسمى إلا أن يكون هناك عفو من جهة النساء فيتنازلن عن حقهن في النصف ، أو أن يكون هناك عفو من جهة الرجال فيتنازلوا عن المهر كله ، والله تعالى يذكر الناس بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ . قال الشيخ المراغي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية : إن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمي لهن مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع إلى الزوج النصف الثاني ، وهذا جار على ما كان يعمل الناس من سوق المهر كله للمرأة حين العقد لاعلى ما استحدثوه من تأخير ثلث المهر أو أقل لرغبتهم في حب الظهور والتفاخر بكثرة المهر ، مع اجتناب إرهاق الزوج بدفعه كله .

وإن مات أحد الزوجين قبل الدخول وجب المهر كله للزوجة إذا مات الزوج ، أو لوأرثها إذا ماتت هي ، لأن الموت كالدخول بها يوجب المهر كله إن كان هناك مهر مسمى أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهر :

﴿ إلا أن يعفون ﴾ ، أى إلا أن يعفو المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه ، فتقول المرأة : ما رأتى ولا خدمته ولا استمتع بي ، فكيف آخذ منه شيئاً ؟ فيسقط حينئذ ما وجب عليه ، وحق الإسقاط إنما يكون للمرأة البالغة الرشيدة .

﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ ، أى أو يعفو الزوج ويترك ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها تكملاً منه ، وحينئذ تأخذ الصداق كاملاً ، النصف الواجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف وعبر بقوله : ﴿ بيده عقدة النكاح ﴾ ، للتنبيه إلى أن الذى ربط المرأة وأمسك العقدة بيده لا يليق به أن يحلها ويدعها بدون شيء ، بل يستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى ، وإن كان الواجب المحتم نصفه ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، أى إن من عفا من الرجال والنساء فهو المتقى ، فأحياناً تكون المصلحة في عفو الرجل عن النصف الآخر ، وأحياناً في عفو المرأة عن النصف الواجب لها ، لأن الطلاق قد يكون من قبله بلا سبب داعٍ منها ، وقد يكون بالعكس . والمراد بالتقوى هنا ؛ تقوى الله المطلوبة في كل أمر ، إذ العفو أكثر ثواباً وأجراً . أو المراد تقوى الدين بما يترتب على الطلاق من التباعد ، إذ السماح بالمال يذهب هذا الأثر ويعيد الصفاء إلى القلوب ، وهذا ما بينه سبحانه بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ ، أى ينبغي لمن تزوج من أسرة ثم طلق ألا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم ، ولكن المسلمين نسوا دينهم أو تناسوا وجروا على عكس هذا فصارت روابط الصهر وسائر أنواع القرابة واهنة ضعيفة ، وإنك لورأيت ما يجري بين الأزواج من المخاصمات والمنازعات وما يكيد به بعضهم

(١) سورة البقرة آية : ٢٤١ .

لبعض ، لوجدت أنهم تجافوا وأمر شريعتهم ، وجعلوا إلههم هواهم ؛ فالرجال يتركون نساءهم بلا نفقة حتى يضطرون أحياناً إلى بيع أعراضهن ، أو يذرونهن كالمعلقات ، فلاهم يمسون بمعروف ولا هم يسرحونهم بإحسان حتى يفتردين منهم بالمال .

والمطلقات المعتدات بالإقراء يزعمن أن الحيض قد حُبس عنهن فتمضى السنة أو أكثر منها ولا تنقضى عدتهن بزعمهن ، وما الغرض من هذا إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة انتقاماً منه ، ولكن العمل الآن في المحاكم المصرية على أن نفقة العدة لا تزيد على سنة قمرية ( ٣٥٤ يوماً ) .

وإذا حدث طلاق ، كان بين أسرق الزوجين حرب عوان ، ونصبت كل منهما للآخرى الجبائل والأشراك لتوقعها في مهاوى الهلاك . فأين هؤلاء من كتاب الله وشرعه ؟ إنهم ليسوا منه في شيء ، فقد عميت أبصارهم وراى على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ ، ختم سبحانه الآية بالتذكير باطلاعه تعالى وإحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضاً ترغيباً في المحاسبة والفضل ، وترهيباً لأهل المخاشنة والجهل لتكون مقرونة بالموعظة التي تغذى الإيمان وتبعث على الامثال .

### الأمر بالمحافظة على الصلاة

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

المفردات : حافظ على الشيء وداوم عليه وواظب عليه : فعله المرة بعد المرة ، وحفظ الصلاة المرة بعد الأخرى : الإتيان بها كاملة الشرائط والأركان بالخشوع والخضوع القلبي ، والصلوات : هي الخمس المعروفة بالبيان العملى من النبى ﷺ والتي أجمع عليها المسلمون من جميع الفرق ، حتى أن من جحدتها أو شيئاً منها لا يعد مسلماً ، وقد استنبطوا عددها من آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ \* وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴿١﴾ ، والصلاة الوسطى : هي إحدى هذه الخمس ، والوسطى إما بمعنى المتوسطة بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وإما بمعنى الفضلى ، ويكل من المعنيين قال جماعة من العلماء ومن ثم اختلفوا : أى الصلوات أفضل ؟ وأيتها المتوسطة ؟ وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر لما رواه الإمام أحمد عن على قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ( شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا ) ثم صلاها بين العشاءين . المغرب

والعشاء<sup>(١)</sup> وعن سمرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ﴿ حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى ﴾ وسماها لنا إنها هي صلاة العصر )<sup>(٢)</sup> .

والقنوت : الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله والتوجه إليه لذكره ودعائه ، والرجال : واحد منهم راجل ، وهو الماشى ، والركبان : واحد منهم راكب .

روى أحمد والشيخان من حديث زيد بن أرقم قال : كنا نتكلم في الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام<sup>(٣)</sup> . وقد جاءت آية المحافظة على الصلاة كواسطة العقد من آيات تتعلق بنظام الأسرة لتفيد آية الصلاة أنها ( أى الصلاة ) صمام الأمن في سعادة الأسرة ، فما من بيت يحافظ على الصلاة إلا اتسع لأهله وسكنته الملائكة وطردت منه الشياطين ، لذا فقد أمر رسول الله ﷺ أن يجعل الرجل من صلاته في بيته ، أى يصلى النوافل في البيت . قال الصادق المعصوم : ( صلاة الرجل في بيته تطوعاً نور فمن شاء نور بيته ) . وقال : ( اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً )<sup>(٤)</sup> فالبيت الذى يذكر فيه الله وتقام فيه الصلوات وتقرأ فيه الآيات تنزل عليه البركات وتحفه الملائكة وتهبط عليه السكينة وتغشاه الرحمة ويذكر الله أهله فيمن عنده ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، ومن سره أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن سره أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . والصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحات العادات : رياضة أبدان ، وطهارة أدران ، وتهذيب وجدان ، وشقى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازيق ، وأفضل ما يردده المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر خلال الجمع وتأمل أثرها في المجتمع وكيف سارت العلية بالرفع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء في عتبة الله ، وإذا كان الله تعالى قد أمر بالمحافظة عليها كلها ، فالمقصود بالمحافظة أداؤها بأركانها وشروطها في وقتها مع حضور القلب وخشوع الجوارح . وقد خص الصلاة الوسطى ، وهى صلاة العصر ، بمزيد من المحافظة ذلك لأن الناس يكونون قد فرغوا من أداء أعمالهم فيميلون إلى الكسل ويخلدون إلى الراحة ، فذكرهم سبحانه بصلاة العصر ، فإن من تركها فقد حبط عمله ، ومن فاتته فكأنما وتر أهله وماله . وقد أمر تعالى بالقنوت فيها ، وهو تفرغ القلب لله بعيداً عن لهُو الدنيا وفى صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاوية بن الحكم حين تكلم في الصلاة « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هي التسبيح وذكر الله »<sup>(٥)</sup> . وقد حذر الإسلام من ترك الصلاة وضياع وقتها .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٢٩ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٠ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ٣٤ ط دار الفكر .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

وروى أحمد وأصحاب السنن من حديث بريدة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر )<sup>(١)</sup> .

وروى أحمد والطبراني من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : ( من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ؛ ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف )<sup>(٢)</sup> .

وروى الترمذي قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

ولما كانت الصلاة عماد الدين فإنه لا عذر لأحد في تركها ، فالمرضى يصلي كما يصلي الصحيح ، فهي فرض في حقه ، ولكن للمريض صلاة بالكيفية التي لا تشق عليه قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ، كما أن الخائف والأمن ، كما أن السليم وصاحب الأعذار ، كل هؤلاء لا تسقط عنهم الصلاة ، والخائف من العدو أو من وحش يصلي راكباً أو راجلاً ، ويسقط عنه استقبال القبلة ، ولصلاة الخوف أحكام سوف نعرض لها في موطئها ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ ، فإذا ما كان الإنسان في حالة أمن من العدو والوحش فعليه أن يذكر الله ويشكره بما علمه من الأحكام ما فيه سعادة دنياه وآخره .

### أحكام تتعلق بالطلاق وغيره

وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾

المفردات : يذرون : أى يتركون زوجات بعد وفاتهم . وصية لأزواجهم : أى وصية من الله لأزواجهم . متاعاً إلى الحول : أى جعل الله لهم ذلك متاعاً مدة الحول . غير إخراج : أى لهن ذلك المتاع وهن مقيمات في البيت غير مخرجات منه ولا ممنوعات من السكنى فيه .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على أحكام شرعية تتعلق بالزوجات اللاتي توفى أزواجهن ، كذلك تتعلق بأحكام المتعة للمطلقات ، وقد لخص الفقهاء هذه الأحكام فيما يلي :

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ ﴾ ، أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن بوصية وليمتعهن متاعاً إلى آخر

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ١٩٦ ط دار الفكر .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ط دار الكتاب العربي .

الحول غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنعنهن السكنى فيها . . والخلاصة : أن على الأزواج أن يوصوا لمن بشيء من المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت مدة سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التي يتذكرون أزواجهن فيها . وهذا الأمر أمر ندب واستحسان لا أمر وجوب وإلزام ، وقد تهاون فيها الناس كما تهاونوا في كثير من المندوبات .

﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف ﴾ ، أى فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيما فعلن في أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة كالتعرض للخطاب بعد العدة والتزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه كل مكلف .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ، أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ، حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده .

ومن عزته وقدرته أن يحول الأمم من عادات ضارة إلى عادات نافعة ؛ تقتضيها المصلحة كتحويل العرب من عاداتهم فى العدة والحداد ، إذ كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة فى عقر دارها سنة كاملة ، إلى ما هو خير من ذلك ، وهو إكرامها فى بيت زوجها بين أهله وعدم الحجر على حريتها ؛ إذا أرادت الخروج منه مادامت فى حظيرة الشرع وآدابه .

﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب إذا كانت غير مدخول بها وعلى سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف من عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطيباً للقلوب وإزالة للضغن .

والخلاصة : أن المطلقات أصناف أربعة :

- ١ - مطلقة مدخول بها وقد فرض لها مهر ، وهذه لها كل الفروض وهى التى عناها الله سبحانه بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ (١)
- ٢ - مطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها ، وهذه يجب لها المتعة بحسب يسار الزوج ولا مهر لها ، وهى التى عناها الله بقوله : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ﴾ (٢) إلى آخر الآية ، ولا عدة لها .
- ٣ - مطلقة مفروض لها وغير مدخول بها ولها نصف المهر المفروض ولا عدة لها ، وفيها نزل قوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . ﴾ (٣)
- ٤ - مطلقة مدخول بها غير مفروض لها ولها مهر مثلها من قريباتها وأسررتها .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ المراد من البيان ذكر الحكم وفائدته ثم قرنه بالموعظة

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

وقوله : ﴿ تعقلون ﴾ : أى تدبرون الأشياء وتدعون لما أودع فيها من الحكم والمصالح إذعانا يكون له الأثر في الأعمال :

والمعنى : إن الله جلت قدرته بين لعباده أحكام دينهم على هذا النحو من البيان الذى تقرن فيه الأحكام بعلمها وأسبابها وبيان فوائدها ليعدهم بذلك لكمال العقل ؛ حتى يتحرروا الاستفادة من كل عمل وليكونوا على بصيرة من دينهم عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم ، فدينهم هو دين العقل ، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر في كل زمان ومكان .

### إحياء الموتى والقتال في سبيل الله

\* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

روى ابن عباس أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل استنفر عسكره للقتال ، فقالوا إن الأرض التى سنذهب إليها موبوءة ؛ فدعنا حتى يزول الوباء ، فأماهم الله ثمانية أيام حتى عجز بنو إسرائيل عن دفنهم لكثرتهم فأحياهم الله .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد بيان الأحكام التى تتعلق بالأسرة ونظامها وحياتها ، وهذه الآية تتعلق بأحكام الأمم ونظمها وأحكامها ، ولكى تعيش الأمة فى عزة وكرامة لا بد لها من الجهاد ، قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ؛ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (١) .

قال على رضى الله عنه : بقية السيف هى الباقية : أى هى التى يحيا بها أولئك المجاهدون .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كُتِمَ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ (٢) ويرحم الله سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى قال وهو على فراش الموت : وها أنذا أموت على فراشى وقد خضت مائة معركة فى سبيل الله وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو

رمية بسهم ، أموت على فراشى كالبعير ، وقد كنت أود أن أموت شهيداً في سبيل الله ، فلانامت أعين الجبناء ، يرحمك الله ياسيف الله يا من قال فيك أبو بكر رضى الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وسأوس الشيطان بخالد بن الوليد ، إن خالداً سيف سله الله على أعدائه ، ويرحم الله من قال فيك :

غزا فأبلى وخيل الله قد عقدت	ياليمين والنصر والبشرى نواحيها
ولم يجز بلدة إلا سمعت بها	الله أكبر تدوى في نواحيها
أتاه أمر أبى حفص فقبله	كما يقبل أى الله تاليها
وما اعترته شكوك في خليفته	ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها
لذلك أوصى بأولاد له عمراً	لمادعاه إلى الفردوس داعيها
وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا	فيها وقد كان أعطى القوس باريها
فقال خفت افتتان المسلمين به	وفتنة النفس أعتت من يداويها

ويرحم الله الصديق العظيم إذ يقول : احرص على الموت توهب لك الحياة . إن الإسلام لا يرضى بالذل ولا يقبل الضيم ، وإن الله تعالى قد ساق هذه القصة بأسلوب التعجب ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تعلم ، ثم ألم ينته إلى علمك أمر هذه الجماعة الذين بلغ عددهم الألوف خرجوا من ديارهم يخافون الموت ويرفضون القتال فأماهم الله ليعلم الناس أن الآجال بيد الله ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد . قال جل جلاله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا . قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال سبحانه : ﴿ ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾ <sup>(٢)</sup> لقد أمات الله هؤلاء الخائفين من الموت ثم أحياهم بعد موتهم وقد ماتت مع موتهم غرائز الخوف والجبن والحرص على الحياة وهذا فضل من الله على عباده ، يدعوهم لما يحييهم ويحیی فيهم عزة الإيمان ونظافة الإسلام وطهارة الوجدان وإعزاز الجنان .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فيا أمة الإسلام قاتلوا في سبيل الله لا لمغنم أو مكانة أو لإظهار الحماسة والشجاعة ، إنما من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وما غزى قوم في عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة . واعلموا أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم ، فاصدقوا الله في الجهاد ؛ يصدقكم في النصر .

(١) سورة آل عمران آية : ١٥٤ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

## القرض الحسن

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٩﴾

يقول الإمام ابن كثير : بحث تعالى عباده على الاتفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع . وفي حديث النزول أنه يقول تعالى : ( من يقرض غير عديم ولا ظلوم ) . وقال ابن أبي حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود قال : لما نزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله : وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال أرني يدك يا رسول الله . قال فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربّي عز وجل حائطي قال : وكان حائطه به ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فنادها يا أم الدحداح ؟ قالت : لبيك . قال : اخرجي فقد أقرضته ربّي عز وجل وقد روى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه . وقوله : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة في سبيل الله ، وقيل هو النفقة على العيال ، وقيل هو التسييح والتقديس . وقوله : ﴿ فيضاعفه له أضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ (١) الآية ، وسيأتى الكلام عليها . وقال الإمام أحمد عن أبي عثمان النهدي قال : أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له : إنه بلغني أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة . قال : وما أعجبك من ذلك قد سمعته من النبي ﷺ يقول : ( إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة ) . وعن زياد الحصاص عن أبي عثمان النهدي قال : لم يكن أحد أكثر منى مجالسة لأبي هريرة ، فقدم قبلى حاجاً ، قال : وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة ) فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة منى فما سمعت هذا الحديث . قال : فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج لأجل أن ألقاه في هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت : يا أبا هريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأترونه عنك قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة . قال : يا أبا عثمان وما العجب من ذلك والله يقول : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ ويقول : ﴿ وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ ، والذي نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة ) . وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : ( من دخل سوقاً من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحام عنه ألف ألف سيئة ) . الحديث .



وعن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ إلى آخرها ، قال رسول الله ﷺ : ( رب زد أمتي ) ، فنزلت : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، قال : ( رب زد أمتي ) ، فنزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وعن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال : إنني سمعت رجلاً يقول : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف غرفة من در ؛ وياقوت في الجنة أفأصدق بذلك ، قال : نعم أو عجبت من ذلك ؟ قال : نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ فكثير من الله لا يحصى <sup>(١)</sup> . وقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ ، أى أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيّق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويوسع على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة .

بنو اسرائیل مع نبی لهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آتِ بِنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ  
 اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ الْقِتَالُ أَلا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَالُنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ  
 أَخْرَجَنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا لَاقِبِيلاً مِنْهُمْ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ  
 ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ  
 أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ  
 وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

المفردات: الملأ : القوم يجتمعون للتشاور ، ولا واحد له ، سموا بذلك لأنهم يملأون العيون رواء والقلوب هيبة ، والنبي هو شمويل معرب صمويل أو صموئيل ، عسى : كلمة تفيد توقع الحصول وقرب تحققه .

كتب : أي فرض . وطالوت : معرب شاول لقب لطلوه ، فقد جاء في سفر صموئيل الأول من العهد

(١) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ط الشعب .

العتيق (فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق) . اصطفاه : أى بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك . وبسطة الجسم عظمته .

هذه قصة من قصص القرآن العظيم . وقصص القرآن عبرة وعظة ومدرسة ، حفلت مناهجها بالدروس النافعة ، فبعدما بين الله تعالى حال الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وأمر بالقتال في سبيل الله ، كما حث على النفقة إذ بالجهد والنفقة تنهض الأمة وترتفع كلمتها ولا يستطيع العدو أن يقتحم عليها أسوار عزتها المنيرة . بعد ذلك ساق القرآن هذه القصة والعبرة التى يجب على كل عاقل أن يعرفها ، وألا يغتر بالكثرة من الناس ، فقد تختفى وراء عواطف الناس الحقائق المرة ، وأعظم الرجال في تربية الناس هو سيدنا محمد ﷺ الذى وصف أصحابه ذات يوم في كلمتين اثنتين فقال : إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ، ذلك لأن الرجال يعرفون بالمواقف ، كما يعرفون بالحق ، لكن المواقف والحق لا تعرف بالرجال ، كما أن القلة إذا كانت صادقة فسوف تكون إيجابية .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾<sup>(١)</sup> ولا بد من اختيار النفوس حتى لا يقع القائد في شباك اللؤم والخداع ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾<sup>(٢)</sup> وهكذا صفت القلة على قلة ، ولكنهم كانوا صامدين ثابتين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ قال أحد الشعراء :

تغيرنا أنا قليل عديدنا      فقلت لها إن الكرام قليل  
وما ضرنا أنا قليل وديننا      صحيح ودين الآخرين عليل

كما أن هذه القصة صححت مفهوماً خطيراً وهو أن الرجال لا يوزنون بالمال ، إنما يوزنون بالقيم والعلم ، فإذا كان قائداً للجيش يكفى أن يكون قد أوتي بسطة في العلم والجسم ، والمال ليس عاملاً مؤثراً ، إذ القيادة السليمة تحتاج إلى تخطيط علمي وقوة في الجسم ، فالمعارك قبل أن تدور في حومة الوغى دارت على مكاتب القادة تفكيراً وتوجيهاً .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم ينته إلى علمك قصة الملاء من بني اسرائيل من بعد موسى وفي عصر داود لقد قالوا لنبيهم صموئيل ابعث لنا ملكاً ليقودنا للقتال في سبيل الله ، فقال لهم نبيهم وكأنه يستشف الحجب وينظر بنور الله : هل أتوقع منكم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ وهل سيحدث منكم النكوص والعصيان ؟ فقالوا له متعجبين ﴿ ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وآبنائنا ﴾ ومع ذلك ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالفرار والتولى ، وظلموا أمهم بضرب الذلة عليهم والهوان ، فقد قاتلهم أهل فلسطين وقتلوا منهم عدداً كثيراً ولما استجاب

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

لهم نبيهم قال لهم : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وطالوت هذا من عظماء القوم علماً وجسماً ، ولما كان القوم قد أشربت قلوبهم حب الذهب وعبادة المال ، عجبوا وقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ﴾ ، ولماذا الأحقية ؟ لأنه ﴿ لم يؤت سعة من المال ﴾ عجيب أمر هؤلاء القوم إنهم كما قال القائل :

رأيت الناس قد مالوا	إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال	فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا	إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب	فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضه	إلى من عنده فضه
ومن لا عنده فضه	فعنه الناس منفضه

وجاء الرد حكيماً على لسان نبيهم : ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ فما أجمل هذا التعبير الرائع : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ هل بعد اصطفاء الله العليم بكوامن النفوس ، الخبير بحقائقها ودقائقها يقول قائل : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ وهذا هو الأصل في أحقيته بالقيادة ، فالذى اختاره هو علام الغيوب ، ثم إنه قد جمع أصول القيادة من عظمة العلم والجسم ، فهو واسع العلم صحيح الجسم .

﴿ والله يؤت ملكه من يشاء ﴾ فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى ، فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته . فهو الواسع العليم ، الواسع الرحمة ، المحيط بعلمه كل شيء . ( لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ) (١) .

#### أحداث القصة

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ۖ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ ۖ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ

أَنَّهُمْ مُلْقُوا اللَّهَ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المفردات الآية : العلامة . والتابوت : صندوق وضعت فيه التوراة أخذه العمالقة ثم رد إلى بني إسرائيل . وفي سفر تثنية الاشتراع : أن موسى لما أكمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملِي تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل على عهد عالي الكاهن انتصر فيها الفلسطينيون وأخذوا التابوت من بني إسرائيل ونكلوا بهم تنكيلاً فمات عالي كمداً وكان صموئيل أو شمویل قاضياً لبني إسرائيل من بعده وهو نبِيهم الذي طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل وجعل رجوع التابوت إليهم آية للملك طالوت الذي أقامه لهم . والسكينة : ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب . وتحمله : أى تحرسه ، وقد جرت عاداتهم بأن من يحفظ شيئاً في الطريق ويحرسه يقال إنه حمّله وإن كان الحامل غيره . وفصل بالجنود : أى فصل عن بلده مصاحباً لهم لقتال العمالقة . والجنود : واحد هم جندي ، وهم العسكر ، وكل صنف من الخلق ، كما جاء في الحديث « الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . والابتلاء : الاختبار والامتحان . والنهر : ( بسكون الهاء وفتحها ) مكان بين فلسطين والأردن . والشرب : تناول الماء بالضم من موضعه وابتلاعه دون أن يشرب بكفين ولا إناء .

وطعم الشيء : أى ذاقه مأكولاً كان أو مشروباً . والغرفة ( بالضم ) المقدار الذي يحصل في الكف بالاغتراف . والغرف : أخذ الماء بالكف ونحوه . والطاقة : أدنى درجات القوة . وجالوت : أشهر أبطال الفلسطينيين أعدائهم . والفئة : الجماعة من الناس قليلاً كان عددهم أو كثيراً . والبراز ( بالفتح ) الأرض المستوية الفضاء . والإفراغ : إخلاء الإناء مما فيه بصبه .

وثبات القدم : كمال القوة وعدم التزلزل عند المقاومة . وداود : هو داود بن يسي ، وكان راعي غنم وله سبعة إخوة هو أصغرهم .

والحكمة : النبوة ، وعليه نزل الزبور كما قال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ وتعليمه مما يشاء : هو صِنعة الدروع ، كما قال : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَةَ لِبَاسٍ لَكُمْ لَتَحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ . ومعرفة منطق الطير كما

قال : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾ <sup>(١)</sup> وفصل الخصومات لقوله : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

سارت أحداث هذه القصة سيراً رتيباً منسقاً ، وكل حدث أسلم إلى ما بعده ، فأخذت الأحداث يعانق بعضها بعضاً في ترتيب بديع ونسق رتيب ، وكأن القوم لم يقتنعوا بقول نبيهم : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤث ملكه من يشاء ﴾ ، فأراد أن يقيم لهم آية أخرى تدل على صدق ملكه ، وأن الله تعالى هو الذي اصطفاه ، قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت فيه سَكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ أى وقال لهم نبيهم « إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن قلوبكم ( وقد كان له عندهم شأن ديني خاص ) وفيه بقية من رضاضة الألواح ( فئاتها ) ، وعصا موسى وثيابه وشيء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون . وقد أضيف إلى آل موسى وآل هارون لأنه قد تناولته القرون بعدهما إلى وقت طالوت .

وفي صدور هذا القول من النبي دليل على أن بني إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم من استحقاق طالوت للملك للأسباب المتقدمة ، ومن ثم جعل لهم علامة أخرى تدل على عناية ربه به ، وقد وصف التابوت في كتب بني إسرائيل بأوصاف هي غاية في الغرابة في كيفية صنعه وجمال منظره وما تحلى به من الذهب ودخل في تركيبه من الخشب الثمين .

والسبب في صنعه أن المصريين الوثنيين حينذاك استعبدوا الإسرائيليين طويلاً ، فملك قلوب بني إسرائيل عظمة الهياكل الوثنية وما فيها من الزينة وجمال الصنعة ، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه وتذكر به . وقد سمي التابوت أولاً تابوت الشهادة : أى شهادة الله سبحانه ، ثم تابوت الرب ، وتابوت الله ، وقد جاء الإسلام ومنع الزخارف والزينة في المساجد وبيوت العبادة حتى لا يشغل المصل شىء منها عن مناجاة ربه . ولكن وأسفاه ، قلد المسلمون أرباب الملل الأخرى في الزخرف والنقش في المساجد والمنابر وأقيمت الأضرحة ، ولبس رجال الدين مثل لباسهم ، بل سبقوهم في كثير من ذلك ، فأصبحت المساجد كأنها هياكل ومعابد للوثنيين ، ونسوا أو تناسوا الحكمة التي من أجلها امتنع المسلمون في الصدر الأول عن تجميلها وفرشها بالطنافس وعمل الحلى فيها ، وصدق فيهم ما جاء في الأثر : « لتبتعن سنن من قبلكم باعاً فباعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

﴿ تحمله الملائكة ﴾ . قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة ( العربية ) من بعض بلاد فلسطين إلى بني إسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بإلهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق . وقد جرت العادة بأن ما يحدث بإلهام ولا كسب فيه للبشر ، وهو من الخير ، يسند إلى إلهام الملائكة .

وقالوا في سبب إتيان التابوت : إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران في زرعهم والبواسير في أنفسهم فتشاءموا منه وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم ، فأعادوه على عجلة تجرها بقرتان ، ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب ، وجعلوا ذلك كفارة لذنبهم .

﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن في مجيء التابوت علامة على عناية الله بكم ، واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تفرقوا عنه ، بل عاونوه ، يرق بكم إلى مراقي السعادة والفلاح . ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ، أى فلما خرج طالوت من البلد يصحبه هؤلاء الجنود قال لهم هذه المقالة .

وقد روى أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا في النصر ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال لهم طالوت : لا يخرج معي شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء ولم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبين بها ، ولا أبتغى إلا الشاب النشيط الفارع ، فاجتمع إليه من اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً ( شديد الحر ) ، وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء وسألوا الله أن يجرى لهم نهراً ، فقال لهم : إن الله سيختبر حالكم ويعلم المطيع منكم من العاصي والراضي من الساخط ، وستقابلون نهراً ، فمن شرب منه فليس من أشياعى المؤمنين إلا أن يكون ما يتناوله قليلاً ، وهو غرفة تؤخذ باليد ، ومن لم يذقه فهو الذى يوثق به ويركن إليه عند الشدائد . وحكمة هذا الابتلاء أن يختار المطيع الذى يرجى بلاؤه في القتال وثباته حين النزال ويبعد من يظهر عصيانه ويخشى في الوغى خذلانه ، فطاعة الجيش لقائده من أهم أسباب الظفر ، وأحوج القواد إلى ذلك من ولي على قوم وهم له كارهون .

والخلاصة أن مراتب الاختبار ثلاث :

- ١ - من يشرب فيروى ولا يبالي بمخالفة الأمر وهذا يتبرأ منه .
- ٢ - من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول على ما به من نقص في الجملة .
- ٣ - من لا يذوق الماء أبداً ، وهذا هو المولى والنصير الذى يوثق به ويعول على جهاده .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ لأنهم كانوا قد اعتادوا العصيان وفسد بأسهم وتزلزل إيمانهم ولم يبق منهم من أهل الإيمان والغيرة على الدين إلا النفر القليل . والقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التى أشربت حب الإيمان وامتألت غيرة عليه بفعل مالا يفعله كثير من ذوى الأهواء المختلفة والنزعات المتقاربة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى فلما تخطى طالوت النهر هو ومن آمن معه ، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما نذبهم إليه ، قال بعض من آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، وهم الذين يظنون أنهم ملاقوا الله : لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده ؛ فضلاً عن أن يكون لنا الغلب عليهم لما شاهدوا من كثرتهم وقوتهم ، فرد عليهم الفريق الثانى لوثوقه بنصر الله وقوة أهل الحق على قلتهم وخذلان أهل الباطل على كثرتهم كما حكى الله عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم

ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴿١﴾ ، أى قال الذين يستيقنون بقاء ربهم بالبعث ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيراً ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، وهذا دليل منهم على ثقتهم بنصر الله وتوفيقه ﴿٢﴾ والله مع الصابرين ﴿٣﴾ فهو ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه . وفى هذا حض على الصبر المؤدى الى الغلبة والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له من عباده . ﴿٤﴾ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿٥﴾ ، أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العدد والقدد لجأوا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم بالصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملا نفوسهم ثقة واطمئناناً وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين أشربوا حب الدنيا ، وامتلاّت قلوبهم بالترهات والأباطيل . ولقد راعوا الترتيب الطبيعى فى الدعاء بحسب الأسباب الغالبة ، إذ الصبر سبب الثبات ، والثبات سبب النصر ، وأولى الناس بنصر الله المؤمنون ، ﴿٦﴾ فهزمهم بإذن الله ﴿٧﴾ ، أى فاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزمهم وانتهى أمرهم بالهرب فى المعركة وفقاً لسنته تعالى فى نصر أهل الحق المؤمنين الصابرين على أهل الباطل الضالين ، ﴿٨﴾ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ﴿٩﴾ . كان جالوت جبار الفلسطيني طلب المبارزة ، فلم يمرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته حتى جعل طالوت مكافأة لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، فبرز له داود ، وكان صغير السن ولم يلبس درعاً ولم يحمل سلاحاً ، بل حمل حجارتة ومقلعه الذى كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد ، فسخر منه جالوت وقال ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة لأبدن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع ، فرماه داود بمقلعه فأصاب الحجر رأسه وجاء به فألقاه بين يدي طالوت وانهمز من كان معه ، واشتهر داود بين الناس ، وكان له من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع ومعرفة منطق الطير وعلوم الدين وفصل الخصومات كما قال تعالى : ﴿١٠﴾ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴿١١﴾

﴿١٢﴾ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه بما يشاء ﴿١٣﴾ . ولم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله ، إذ كان من أحوالهم أن يبعث الله إليهم نبياً ، ويملك عليهم ملكاً يأتمر بأمر ذلك النبى ، وكان نبى هذا العصر شمويل والملك طالوت ؛ فلما توفيا صار له الملك والنبوة .

ثم بين سبحانه الحكمة فى الأمر بالقتال الذى استفيد من الآيات السالفة فقال : ﴿١٤﴾ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴿١٥﴾ ، أى ولولا دفع الله أهل البغى والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان فى الأرض . فكان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن للمصلحين بقتال البغاة المفسدين ،

وهو سبحانه جعل أهل الحق حرباً لأهل الباطل وهو ناصرهم ما نصره وأصلحوها في الأرض .  
وقد نسب عز اسمه الدفع إلى نفسه ، لأنه سنة من سنته في المجتمع البشرى وعليه بنى نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين ﴾ ، أى هذه القصص السالفة من حديث الألوف الذين خرجوا من ديارهم ، وتمليك طالوت ، وإتيان التابوت ، وانهمام الجبابرة ، وقتل داود جالوت - آيات الله نقصها عليك على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب ، إذ هم يجدونه مطابقاً لما جاء في كتبهم الدينية والتاريخية ، فأنت من المرسلين لما دلت عليه هذه الآيات ، ولو كنت قد تعلمتها لجئت بها على النهج الذى عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاص ، ولم تشاهد أزمته وقوعها حتى تراها رأى العين وقد أشار سبحانه إلى مثل هذه الحجة للدلالة على نبوته ﷺ فقال : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ \* ولكننا أنشأنا قروناً فتناول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ﴿ <sup>(١)</sup> .

#### العبارة من هذه القصص :

- ١ - إن الأمم إن سيمت الخسف تنتهى أفكارها إلى دفع الضيم ، فتعلم أن لا سبيل إلى ذلك إلا بانضوائها تحت لواء زعيم عادل باسل ، كما وقع من بنى اسرائيل حين نكل بهم أهل فلسطين .
- ٢ - إن أول من يشعر بالحاجة إلى ذلك هم خواصها وأشرافها ، كما حدث من الملأ من بنى اسرائيل ، ثم تنتقل الفكرة من ذلك إلى عامتهم حتى إذا وصلت إلى حيز العمل نكص ضعفاء العزائم على أعقابهم كما يدل عليه قوله : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ﴾ .
- ٣ - إن من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الملك ، ومن ثم لجأ الملأ من بنى اسرائيل إلى نبهم ليختار لهم ملكاً . وقد جاء الإسلام وجعل المرجح اختيار أرباب المكانة في الأمة ، وهم أهل الحل والعقد وعون الحاكم وقوته لاحترام الأمة لهم وثقتها بهم .
- ٤ - إن الأمم زمن الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة هم أصحاب الجاه والثروة كما يدل على ذلك قول المنكرين لملك طالوت ﴿ ولم يؤت سعة من المال ﴾ مع أن الأجدر بهذا الاختيار أهل الشرف بمعارفهم وعلومهم وأخلاقهم الفاضلة ونفوسهم الكريمة .
- ٥ - إن الأمم إذا ارتقت في علومها ومعارفها وحضارتها اختارت ملوكها من سلاسل الملوك والأمراء وحافظت على قوانين الوراثة ولم يشذ عن ذلك إلا أصحاب الحكومات الجمهورية التى تختار رئيسها بالانتخاب .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثالث

سورة البقرة

من الآية رقم ٢٥٣ / ٢٨٦

سورة آل عمران

من الآية رقم ١ / ٩٢



٦ - إن الظفر لا يتم للقائد إلا إذا أطاعه جنده في كل ما يأمر وينهى وعلى هذا مضت قوانين الجندية في العصر الحديث .

٧ - إن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة إذا اختبرت وثبتت وأطاعت رؤساءها ، والتجارب والمشاهد تدل على صدق هذا .

٨ - إن من سنن الله في خلقه دفع الناس بعضهم بعضا ، وهو المعبر عنه في العصر الحديث ( بنظرية تنازع البقاء ) ، ومن ثم قالوا إن الحرب طبيعية في البشر ، إذ بها يبقى الأصلح والأمثل وإلى هذا يشير سبحانه : ﴿ فَمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكِّثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى أن سنة الله أن يقذف زبد الباطل الضار بالمجتمع ويمحوه من الوجود ، ويبقى إبريز الحق النافع الذى ينمو فيه عمران العالم ، ويحفظ به الخلق من أعاصير الظلم والفساد حتى يتغلب الخير على الشر والحق على الباطل ولا يزال هذا سنة الوجود مابقى الإنسان على ظهر البسيطة .

### حديث عن الرسل

\* تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّا اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٦﴾

لما خاطب الله تعالى رسوله ومصطفاه خطابا أكد فيه إثبات الرسالة له فقال : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ (١) ، أكد بعد ذلك شيئا عن هؤلاء المرسلين فقال : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ . نعم لقد اقتضت مشيئة الباري جل شأنه أن يفضل بعض المخلوقات على البعض الآخر : ففضل جبريل على جميع الملائكة ، وفضل مكة على جميع البلاد ، وفضل القرآن على جميع الكتب ، وفضل المسجد الحرام على جميع المساجد ، وفضل بعض الجبال على بعض كعرفات ، وفضل بعض الساعات على بعض كساعة الإجابة ، وفضل ليلة القدر على جميع الليالي ، وفضل يوم عرفات على جميع أيام السنة ، وفضل يوم الجمعة على أيام الأسبوع ، وفضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . قال رسول الله ﷺ في شأن يوم عرفة : ( ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ويقول : ما

أراد هؤلاء ؟ (١) ، وقال ﷺ : ( خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ) (٢) ، وفضل بعض النساء على بعض : كمریم ابنة عمران ، وآسية زوج فرعون ، وخديجة زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل بعض الرسل على بعض كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وفضل محمداً ﷺ على جميع المخلوقات . وإذا كان بعض الرسل أفضل من بعض إلا أن الإيمان بهم جميعاً واجب . وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صدق الإسلام ، إذ أنه يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه مشدداً الوعيد على قوم كفروا بالله ورسله وفرقوا في الإيمان بين بعض الأنبياء والبعض الآخر فقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ (٥) .

ثم وعد المؤمنين بالخير العميم والثواب الكريم فقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٦) .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو الإسلام ، وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » . قال ﷺ : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي « لا إله إلا الله » ) (٧) . وقد جاء الإسلام يؤكد تلك الحقيقة ، ألا وهي وجوب الإيمان بكل الأنبياء دون تفریق . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٨) . وقد بين الله تعالى بعض وجوه التفضيل في قوله : ﴿ منهم من كلم الله ﴾ والمراد به موسى . قال تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ (٩) . وقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ (١٠) ، وقال : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ (١١) .

(٧) رواه الجماعة

(٨) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .

(٩) سورة النساء آية : ١٦٤ .

(١٠) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .

(١١) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٧١١ ط دار الكتاب العربي .

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٢٨٦ ط دار الكتاب العربي .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٣٦ .

(٥) سورة النساء الآيات : ١٥٠ ، ١٥١ .

(٦) سورة النساء آية : ١٥٢ .

قوله تعالى : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ المقصود به محمد ﷺ الذي خاطبه موله بقوله : «وعزني وجلالي لو سلكوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد» ، إنه النبي الذي ذكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (١) ، وذكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٢) ، وذكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (٣) ، وذكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٤) ، وذكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (٥) ، وذكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٦) ، وذكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٧) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحبناك
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله يا علم الهدى	ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

ولقد أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد وأن ينصروه وأن يوصوا أتباعهم بذلك . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (٨) .

لقد رفع الله محمدا ﷺ درجات فمنحه الخلق الكريم . ولقد مدحه بما منحه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٩) .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل	يُغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة	تعرو الندى وللقلوب بكاء

(٦) سورة النجم آية : ١٧ .

(٧) سورة القلم آية : ٤ .

(٨) سورة آل عمران آية : ٨١ .

(٩) سورة القلم آية : ٤ .

(١) سورة النجم آية : ٢ .

(٢) سورة النجم آية : ٣ .

(٣) سورة النجم آية : ٤ .

(٤) سورة النجم آية : ٥ .

(٥) سورة النجم آية : ١١ .

وإذا رحمت فأنت أم أو أب      هذان في الدنيا هما الرحماء  
وإذا غضبت فإنما هي غضبة      للحق لا ضغن ولا شحناء

وقد رفع الله درجته لما جعل معجزته القرآن وهي المعجزة الخالدة على مر العصور والأزمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (١) .

وقد رفعه الله درجات عندما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس . قال ﷺ متحدثا بفضل الله عليه : (ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) (٢) .

وروى عنه أنه قال : (فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون) (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ ، المقصود بالبينات المعجزات الدالة على صدق نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله . والمقصود بروح القدس أى الروح المقدس الطاهر ، وهو الأمين جبريل . وأيدناه أى قويناه . وقد جاء ذكر صاحب الدرجات العلا سيدنا محمد ﷺ بين موسى وعيسى لأنه صاحب الأمة الوسط . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٤) .

بعد ذلك قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ﴾ أى لو أراد الله عدم اقتتال الناس بعد أنبيائهم ما اقتتلوا ، وأى داع يدعو إلى الاقتتال بعد وضوح الحجة وجمي البينات ؟ لكنهم اقتتلوا لما اختلفوا فصاروا بين مؤمن وكافر ، فوقع الصراع المير بين الفريقين . ثم قال تعالى : ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ أى لرفع الخلاف والاختلاف من بينهم ، وهو السبب الذى أدى للاقتتال . قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٥) .

قوله جل شأنه : ﴿ ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ ، أى أنه سبحانه ﷻ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون ﴾ (٦) فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته : «عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد» .

(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .

(٥) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

(٦) سورة القصص آية : ٦٨ .

(١) سورة الاسراء آية : ٩ .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٢١٦ ط دار الفكر .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيري      ولا الشئون التى تجرى بتقديرى  
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى      أحاط بى علمه من قبل تصويرى

### الحث على النفقة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ  
وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

هذا خطاب كريم من رب كريم بصفة كريمة هى الإيمان : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وقد جاءت آية الأمر بالإنفاق بعد آية الرسل لتفيد أن الإنفاق مما جاءت به الرسل وأمرت به الأمم فإذا كان الإيمان يحبى القلوب فإن الإنفاق يحببها أيضا بإزالة الشح والبعضاء منها . وقد جاء الحث على الإنفاق ترغيبا مرة وترهيبا أخرى . جاء ترغيبا فى قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ (١) . وجاء ترهيبا فى هذه الآية . ذلك لأن النفوس مختلفة المنازع والمذاهب والمشارب فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة . وعندما أمر الله بالإنفاق قرن الأمر بقوله ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى أن المال ماله والأرزاق من عنده ، فما الغنى إلا موظف فى مال الفقير . قال تعالى : ﴿ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (٢) . وقال النبى ﷺ : ( صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب وصله الرحم تزيد فى العمر ) (٣)

وقال : ( لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ) . كما بين أن للإنفاق وظائف اجتماعية فقال : ( حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء ) (٤) . وليست الزكاة منة يمن بها الغنى على الفقير إنما هى حق معلوم كما أنها ذمة وفريضة . قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ (٥) . وقال فى الحديث القدسى الجليل : ( الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى . فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى ) (٦) . وقد أخبر الصادق المعصوم أنه ما منع قوم الزكاة إلا منعوا القتر من السماء ولولا البهائم لم يمتطروا . وقد رغب الله تعالى فى الإنفاق فقال فى الحديث الجليل : ( أنفق أنفق عليك ) (٧) . وقال النبى ﷺ : ( صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا ) (٨) . وما أجمل ما قاله الله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ (٩) ﴿ وَمَنْ يُّوقْ شِحْنًا فَلَوْلِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١٠) . ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٥ .

(٢) سورة الحديد آية : ٧ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٠٠ ط دار الفكر .

(٤) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٣ ص ٧٦٥ .

(٥) سورة المعارج الأيتان : ٢٤ ، ٢٥ .

(٦) الجامع الصغير المرجع السابق .

(٧) الأحاديث القدسية ص ١٦٠ ص المجلس الأعلى .

(٨) الجامع الصغير المرجع السابق .

(٩) سورة التين آية : ١٦ .

(١٠) سورة الحشر آية : ٩ .

الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴿١﴾ . وما أجلُّ قوله جلُّ شأنه : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ ﴿٢﴾ .

وما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ارزق خلفاً ويقول الآخر : وارزق ممسكاً تلفاً .

وقد حذر الله تعالى من إتيان يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعاة ، وهو كما قال جلُّ شأنه : ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ ﴿٣﴾ .

وما أجلُّ ما حكاه القرآن الكريم عن إبراهيم يدعوره فيقول : ﴿ولا تخزني يوم يبعثون﴾ \* يوم لا ينفع مال ولا بنون \* إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿٤﴾ ، فياله من يوم ما أطوله . ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . أما اليوم فيقول فيه تعالى : ﴿وانفقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾ ﴿٥﴾ . وأما الهول فيقول فيه تعالى : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ ﴿٦﴾ . وأما الجبار فهو الذي يقول : ﴿لمن الملك اليوم الله الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾ ﴿٧﴾ . وهو الذي يقول : ﴿وانذرهم يوم الأزفة إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ ﴿٨﴾ . فلا بيع في هذا اليوم : أي لا فدية ، ولا خلة أي لا صداقة ولا شفاعاة : أي لا شفيع يرفع منازل بالنفوس وحقاق بها ، ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ \* لأنهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم : ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ \* إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ ﴿٩﴾ . قال تعالى : ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ ﴿١٠﴾ .

### آية الكرسي

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ

(٦) سورة الحج آية : ١ ، ٢ .  
(٧) سورة غافر آية : ١٦ ، ١٧ .  
(٨) سورة غافر آية : ١٨ .  
(٩) سورة الملك الآيات : ٦ - ٩ .  
(١٠) سورة الزخرف آية : ٧٦ .

(١) سورة التباين آية : ١٧ .  
(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .  
(٣) سورة إبراهيم آية : ٣١ .  
(٤) سورة الشعراء آية : ٨٧ - ٨٩ .  
(٥) سورة البقرة آية : ٤٨ .



إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

يقول ابن كثير :

جاء في فضل تلك الآية أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ : - روى الإمام أحمد بإسناده إلى أبي بن كعب أن النبي ﷺ سأله : ( أى آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسي . قال : ليهنك العلم أبا المنذر والذي نفسى بيده إن لها لسانا وشفعتين تقدس الملك عند ساق العرش ) .

- عن عبد الله بن أبي بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر ، قال فكان أبى يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبيهه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى . قال : جنى . قال : قلت ناولنى يدك قال : فناولنى يده فإذا يد كلب وشعر كلب . فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ لقد بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحبينا أن نصيب من طعامك قال فقال له أبى فما الذى يجيرنا منك ؟ قال هذه الآية « آية الكرسي » ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره فقال النبي ﷺ : ( صدق الخبيث ) .

- عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال : « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندى ما أتزوج به قال : « أوليس معك . قل هو الله أحد » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « إذا زلزلت ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : ليس معك « إذا جاء نصر الله ! » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : ليس معك « آية الكرسي » « الله لا إله إلا هو » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » .

- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبي ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت : لا . قال : « قم فصل » قال : فقممت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله أو للإنس شياطين ! قال : نعم . قال : قلت يا رسول الله ، الصلاة قال : خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يا رسول الله فالصدقة ، قال : « أضعاف مضاعفة ، قلت يا رسول الله فأبها أفضل ، قال : جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يا رسول الله ونبى كان . قال : « نعم نبى مكلم » . قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ . قال : « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال : آية الكرسي ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

- وقد ذكر البخارى فى كتاب فضائل القرآن : عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان

فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال النبى ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قال : قلت يا رسول الله شكاً حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله شكاً حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات ، انك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هى : قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» حتى تختتم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله . قال : «ما هى» . قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختتم الآية (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شىء على الخير فقال النبى ﷺ : «أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة» قلت لا قال : «ذاك شيطان» .

- وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لكل شىء سنام وسمام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة أى القرآن : آية الكرسي» .
- روى الإمام أحمد بإسناده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» و«الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم» «إن فيها اسم الله الأعظم» .
- عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» .
- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ «حم» المؤمن إلى «إليه المصير» وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح»<sup>(١)</sup> .

تفسير الآية :

أخبر الله جل جلاله عن ذاته بأنه لا إله إلا هو أى هو المتفرد بالسلطان والجلال والوحدانية وهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عذاه ، سبحانه تنزه عن الشريك ذاته ، وتقديست عن مشابهة الأغيار صفته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد بلا

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٥ ط الشعب .

عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . سبحانه هو القائل في الحديث القدسي الجليل : أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملك وملك الملوك . قلوب الملوك في يدي<sup>(١)</sup> .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجي	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهباً وكل الكائنات تمجد
أنت الإله الواحد الحق الذي	كل القلوب له تقرر وتشهد

يا أخا الإسلام : انظر إلى السماء وارتفاعها، والشمس وشعاعها، والأفلاك ومدارها، والبحار وأمواجها والأرض واتساعها . الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويعلم عن شكره ولا يغفل عن ذكره . ثم انظر إلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن . كل شيء قائم به . وكل شيء خاشع له . قوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف وعز كل ذليل وغنى كل فقير . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . أخبر جل جلاله عن ذاته بأنه الواحد وهذا مركز في طباع الخلائق . ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ ثم أخبر سبحانه بأنه الحي ، والحياة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تصحح الانصاف بصفات الكمال من علم وإرادة وقدرة وسمع وبصر وكلام . وإذا كان غير الله قد يوصف بأنه حي إلا أن حياته ليست لذاته إنما هي مكتسبة من الله جل شأنه . أما حياة الله فإنها واجبة لذاته لا يعترها الفناء . قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

كما وصف سبحانه ذاته بالقيومية ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم على تدبير ملكه ؛ فالأمر أمره والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾<sup>(٤)</sup> . فمن صفاته جل شأنه أنه القائم بذاته غير محتاج إلى غيره : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ . ومن صفاته جل شأنه لا يغفل ولا ينام . قال سبحانه: ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ المقصود بالسنة النعاس وهو أخف من النوم ومعنى لا تأخذه أى لا تغلبه . وهذا أسلوب في الترقى أى أنه جلت قدرته لا يغلبه النعاس ولا ما هو أشد منه وهو النوم ، ذلك لأن النعاس والنوم من باب الضعف البشري والله هو القوى العزيز وهو ذو القوة المتين فمن الذى يدبر الأمر إذا نام . سبحانه علا فقهر وملك فقدر وبطن فخبر لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل . إذا كان ثلث الليل الأخير نادى : هل من تائب فأتوب عليه، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر

(١) الأحاديث القدسية ط المجلس الأعلى .

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) سورة الفرقان آية : ٥٨ .

(٤) سورة الروم آية : ٢٥ .

(٥) سورة المؤمنون الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

فأغفر له . سبحانه ربى أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

أنت الذى تهب الكثير وتجب      بحر القلب الكسير وتغفر الزلات  
وتقول هل من تائب مستغفر      أو سائل أقضى له الحاجات

جاء فى الصحيح عن أبى موسى قال : قام فىنا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجاب النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) (١) .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ، ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروهما أن يكسرها قال : فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداها بالأخرى فكسرها . قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول : فكذلك السماوات والأرض فى يده (٢) .

قوله تعالى: ﴿ له ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ تقديم الخبر يدل على الحصر والقصر أى أن ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه لا يشاركه أحد فيه ، والله تعالى المثل الأعلى ، فقد تنزه عن كل الشركاء ولا يشرك فى حكمه أحدا وهو القائل : ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ (٣) وقد فصل هذا الشأن فى قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب (٤) .

يقول ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ هو كقوله جلَّ شأنه: ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكقوله جلَّ شأنه: ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وكقوله: ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وكقوله جلَّ شأنه: ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

جاء فى حديث الشفاعة «أتى تحت العرش فأخر ساجدا فیدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع — قال : فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة» (٥) .

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ط الشعب .

(٢) المرجع السابق

(٣) سورة الرحمن آية : ٢٩ .

قوله تعالى ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ . هذا إخبار عن علمه تعالى والعلم صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها جميع الكائنات . والله تعالى قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (١) .

قال النبي ﷺ : (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أفلتكم . فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله . وكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله) (٢) .

ومعنى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم : الإحاطة والشمول . فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قال تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾ أى لا يعلمون ذاته أو صفاته إلا بما أعلمهم به سبحانه ، وهو معنى قوله جل شأنه ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أى إلا بما أعلمهم عن طريق الوحي . قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾ إلا من ارتضى من رسول ﴿ (٣) . فلا إحاطة من شيء من علم الله إلا بمشيئة الله . وهذا الكون لا تطرف فيه عين ولا تهب فيه نسمة هواء ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله .

قوله تعالى ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ . قال ابن عباس : كرسيه أى علمه . وقال آخرون : الكرسي موضع القدمين . وعن ابن عباس قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله عز وجل ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ﴾ قال : «كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل» . قال ابن زيد : حدثني أبى قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس» . وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة» (٤) .

قوله تعالى ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أى لا يثقله ولا يتعبه حفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما . ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ الحمد لله الذى له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴿ (٦) . قوله تعالى ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ أى كقوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٧) فالحمد لله الذى وصف ذاته بما هو أهل له ، فهو رفيع الدرجات ذو العرش وهو الكبير الذى لا تدرك العقول مدى عظمته . فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

(٥) سورة الأنعام آية : ١ .

(٦) سورة سبأ الآيتان : ١ ، ٢ .

(٧) سورة الرعد الآية : ٩ .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .

(٢) ابن كثير المرجع السابق .

(٣) سورة الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ط الشعب .

## لا إكراه في الدين

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ  
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ  
إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ  
النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

المفردات: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ : أى لا إكراه في دخول الدين . وبان الشيء واستبان : وضع وظهر ،  
ومنه المثل : تبين الصبح لدى عيني . والرشد : بالضم والتحريك والرشد : الهدى وكل خير وضده الغي  
والجهل كالغي إلا أن الأول في الاعتقاد والثاني في الأفعال ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغي  
بالرشد . والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة الحد في الشيء ويجوز تذكيره وتأنيسه وإفراذه وجمعه بحسب  
المعنى كما قال تعالى ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ وقال « يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به »  
والعروة من الدلو والكوز ونحوهما : المقبض الذي يمسك به من يأخذها والوثقى : مؤنث الأوثق وهو الحبل  
الوثيق المحكم . . والانفصام : الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه .  
والولى : الناصر والمعين ، والظلمات : هى الضلالات التى تعرض للإنسان فى أطوار حياته كالكفر  
والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء  
التي تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه والشهوات التي تشغل عنه .

يروى فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من  
الأنصار ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً . فقال للنبي ﷺ : ألا استكرههما :  
فإنهما قد أبيا إلا النصرانية . فأنزل الله الآية . وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبي  
ﷺ فقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت فخلاهما (١) .

لما كان الإسلام يخاطب الناس بالمنطق السديد والعقل الرشيد ، ما كان فى أدنى حاجة إلى إكراه أحد  
على الدخول فيه ولقد نطقت آية الكرسي بأصول العقائد من توحيد خالص وصفات خاصة بالله وحده ، فهو  
الحى القيوم الذى لا يغلبه نعاس ولا نوم ولا تعتريه غفلة ولا غيبة قال تعالى « فلنقصن عليهم بعلم وما كنا  
غائبين » وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٢) وقد جاء فى آية  
الكرسى أن الله وحده له ملك السموات والأرض كما أن علمه شمل الأزمان كلها وأحاط بالكون كله وأنه هو

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٩ ط الشعب .

(٢) سورة المؤمنون آية : ١٧ .

العلی العظیم فقد تبین من هذا أن الفطرة السلیمة لا تعارض صفة من صفات الألوهية ولا تناقض أصلاً من أصول الإسلام ، قال تعالی ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ (١) وقال جل شأنه: ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) إن الطريق لائح وإن الحق واضح وإن المنادی صائح ؛ وقد بدا الصبح لذی عینین ، وبرح الخفاء وتبین الرشد من الغی والحق من الباطل والهدی من الضلال فكيف يكون هناك إكراه على دخول الدين . . إن الإسلام عقائد وقواعد وتصديق ، وكل هذه مركوزة في القلب وما في القلب لا سلطان لأحد عليه إلا الله وحده قال تعالی : «ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» (٣) وقال جل شأنه «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» (٤) وقد ذكر الله تعالی بعد ذلك أن توحيد الله يقتضى الكفر بالطواغيت أيا كانت صورها فكل ما عبد من دون الله يخالف التوحيد وكل من تجاوز الحد في الطغيان يجب ألا يكون له مكان في قلوب الموحدين . وبعد تخلية القلب عما سوى الله يكون الإيمان الخالص ويكون الاستمسك بالعروة الوثقى والصلة القوية قال جل شأنه : ﴿ فمن يكفر بالطواغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ . وهذا مؤشراً قوياً يدل دلالة صادقة على بشاشة الإيمان إذا خالطت شغاف القلوب لا يمكن أن تنفصم أو تنفصل عن قلب المؤمن إنها تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، ﴿ والله سميع عليم ﴾ سميع لأقوال العباد عليم بأحوالهم . وبعد الإيمان بالله والكفر بالطواغيت يطمئن الله المؤمن بأنهم مولاهم وناصرهم ومعينهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأنها كثيرة متنوعة فهناك ظلمة الشبهات وظلمة الشهوات وظلمة الشرك وظلمة الهوى وظلمة النفاق إلى غير ذلك ، أما طريق النور فإنه واحد لأنه الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » أما الكافرون الذين عبدوا الطواغوت وأطاعوا أمره فإنه وليهم والطواغيت أنصارهم يضلونهم بغير علم ويخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الكفر ، هؤلاء محكوم عليهم بالخلود في النار . نسأل الله العافية .

### الذى حاج إبراهيم في ربه

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

المفردات : الاستفهام للتعجب والإنكار . وحاج : جادل وقابل الحجة بالحجة . فبهت : أى صار مبهوراً

(١) سورة البقرة آية : ١٣٨ .

(٢) سورة الروم آية : ٣٠ .

(٣) سورة يونس آية : ٩٩ .

(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

دهشاً وأخذ الحصر من سطوع نور الحجة فلم يجد جواباً . الظالمين : أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

هذا مثل واقعى لطاغوت من طواغيت الأرض . إنه النمرود بن كنعان على عهد ابراهيم الخليل ، جادل فى شأن رب العالمين وكان جداله سفسطة وتضليلاً ومكابرة ، والذى دفعه إلى ذلك طغيانه وتجبره ؛ فقد نسى نفسه وتلك أقصى مراحل الضلال أن ينسى الانسان نفسه فينسى ربه قال تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ (١) وقال جل شأنه : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) قال الحسن رضى الله عنه : عجبت لابن آدم ، يتكبر على الله وهو حفنة من التراب تداس بالأقدام . . كيف يتكبر على الله وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة وهوين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة تبتته عرقه وتؤذيه بقة وتقتله شرقة .

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته	انظر خلاك ، فإن التثن تشريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم	ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا	اقصر فإنك مأكول ومشروب

رضى الله عن أبى بكر الصديق ؛ أرسل إلى كسرى عظيم الفرس إنذاراً شديداً باللهجة قال له ياكسرى : كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبك ومرة من رحم أمك . لك العظمة والكبرياء يارافع السماء بلا عمد .

أتيت القبور فناديتهما	فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه	وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فما غبر	وماتوا جميعاً ومات الخبر
فيا سائلى عن أناس مضوا	آمالك فيما مضى معتبر

ماذا قال النمرود الذى أطغاه ملكه . قال لإبراهيم أنا أحيى وأميت . . قالها تعقيباً على حقيقة نطق بها إبراهيم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ قال إبراهيم ربى الذى يحى ويميت ﴾ قال النمرود : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ كيف كان ذلك جاء برجلين وأصدر حكمه عليهما بالإعدام فخفف الحكم عن واحد فادعى بذلك أنه أحياء ونفذ الحكم فى الآخر فادعى أنه أماته ، وهكذا يفعل الضلال بأهله . . تهريج وفوضى ضاربة أطنابها ، لقد نسى أو تناسى أن الإحياء والإماتة شأن من شئون الله ، فالإحياء يكون بنفخ الروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٣) . وكما أن الحياة مخلوقة فإن الموت أيضاً مخلوق قال سبحانه : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ﴾ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿ ولما كان النمرود ﴾ يجادل فى الله بغير علم ولا

(٣) سورة الاسراء آية : ٨٥ .

(٤) سورة الملك الآيتان : ١ ، ٢ .

(١) سورة التوبة آية : ٦٧ .

(٢) سورة الحشر آية : ١٩ .



هدى ولا كتاب منير \* ثانی عطفه لیضل عن سبیل الله ﴿١١﴾ أفحمه الخلیل بقوله : ﴿ فإن الله یأتی بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت ﴾ ودهش وأندحر ، بعدما ألقم الحجاره فی حلقه ﴿ والله لا یهدی القوم الظالمین ﴾ لأنهم اختاروا الظلم منهجا والجدل سبیلا والباطل طریقا فاستحقوا أن یحرموا نعمة الهدایة .

### الذی مر علی قرية

أَوْكَالَ الذی مرَّ عَلَی قَرْیَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَی عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ فَأَنظَرُ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنظَرُ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَأَنظَرُ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢﴾

هذه الآية ساقها الله تعالى دليلا على أنه هو الذي يحيى ويميت إحياء حقيقيا ، لا كما صنع طاغية الأرض النمرود فهذا عزيز يمر بقرية ، المشهور أنها بيت المقدس وقد خربها (بختنصر) فأصبحت ساقطة العروش والجدران على الأرض فسأل نفسه متعجبا أنى يحيى هذه الله بعد موتها . . أى كيف يحيى الله أهل هذه القرية وقد أصبحوا بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى أجسادا هامدة ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزاً . فجاءت الإجابة من الله عملية مطبقة عليه ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه وساق الملك إليه هذا السؤال كم لبثت ؟ فأجاب العزيز لبثت يوما أو بعض يوم ؛ ذلك لأنه مات بعد طلوع الشمس وبعثه الله بعد مائة عام عند غروبها فقال له الملك بل لبثت مائة عام وهكذا يطوى الموت الزمن تأتى أقوام وتموت أقوام ويدرك الناس الموت والإعدام ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال  
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

ذكر المفسرون أن الله تعالى أحيا عينيه أولا فأبصرت بإذن الله ليرى الحياة وهى تسرى فى جميع أوصاله وكان معه طعام وشراب فلم يتغير الطعام ولا الشراب كان معه كما ذكر المفسرون عصير وتين وعنب فلم يتغير العصير ولم يفسد التين ولم يحف العنب وكان معه حمار يركبه فأمره الله أن ينظر إليه والحياة تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر كما أمره أن ينظر إلى العظام كيف ينشزها الله أى يرفعها من الأرض ويعيدها إلى أماكنها بترتيب ونظام ثم يكسوها لحما أصله الخلايا التى قامت بتكوين الأنسجة التى قامت بتكوين الأعضاء التى

قامت بتكوين الأجهزة وسبحان القائل ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين \* ثم جعلناه نطفة في قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا مضغة فخلقنا مضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون \* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولى في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راق  
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

فلما تبين للعزير كيف أحيا الله أهل هذه القرية بعد موتها أقر بلسانه وقلبه قائلاً أعلم أن الله على كل شيء قدير . نعم وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليهما قديراً .

### إبراهيم وإحياء الموتي

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْطَمِّنَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

المفردات: ﴿فصُرهن﴾ : أى ضمهن ، ﴿سعيًا﴾ : أى مسرعات طيراناً ومشياً ، وعزير : أى غالب على أمره ، حكيم : أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

قال ابن كثير :

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام : أسباباً منها أنه لما قال النمرود ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال ( رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أو لم تؤمن . قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي ) . فلم يكن سؤال إبراهيم شكاً ومعاذ الله أن يكون كذلك ، فإبراهيم هو الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾ (١) روى الامام البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (٢) يريد الرسول ﷺ أن يقول ما شك إبراهيم عندما سأل الله هذا السؤال لأننا أحق بالشك منه فقد أمرنا باتباعه وحيث انتفى الشك عن التابع فإنه بالأولى ينتفى عن المتبوع قال شراح الحديث : لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكوا فى أنه هل يجيئهما إلى ما سألا . وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ط الشعب .

(١) سورة الأنعام آية : ٧٥ .

ابراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفى الشك عنها ، يقول إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فأبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع ، وكذلك قوله « لو لبثت في السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعي » . والمراد بالداعي ما جاء في قوله تعالى ﴿ وقال الملك اتئثوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ (١) كأنه ﷺ يريد أن يقول اسألوا الله العافية ، وسؤال إبراهيم لا يفيد شكاً ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم : شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه .

قوله تعالى ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ فنفذ إبراهيم أمر ربه ، فأخذ أربعة من الطير لم يعين الكتاب العزيز أنواعها ، إذ لا طائل تحت بيان أنواعها حتى لا يشغل الذهن بها عن القضية الحقيقية ، ومع إحياء الموتى وذبح إبراهيم الطير ونفث ريشه وخلط أجزائه بعضها ببعض ، ووضع كل جزء منها على جبل ونادى عليها فأحيهاها الله بعدما اختلف بعض أجزائها في بعض ، وجاءت تسعى ترفرف بأجنحتها ، وسبحان القائل : ﴿ ثم ادعهم يأتينك سعيًا ﴾ وهذا أيضا إحياء حقيقي بعدما اختلطت العظام باللحم وهذا الإحياء رد مفحم لعدو الله نمرود الذي قال أنا أحيى وأميت .

قوله تعالى ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ المراد من الأمر بالعلم الدوام عليه كما في قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٢) والعزيز هو الذي لا يغلب والحكيم هو الذي تنزه فعله عن العتب .

### مثل للانفاق في سبيل الله

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمُهُ ﴿٢١١﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَآوِلًا أَدَّى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢١٢﴾ \* قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢١٣﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٤﴾

(١) سورة يوسف آية : ٥٠ .

(٢) سورة النساء آية : ١٣٦ .

المفردات: ﴿سبيل الله﴾ ما يوصل إلى مرضاته تعالى . الحبة : واحدة الحب وهو ما يزرع ليقتات به ، المن : أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى : أن يتناول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : انى قد اعطيتك فبا شكرت قول معروف : أى كلام حسن ورد جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله أو عد إلى مرة أخرى أو نحو ذلك . ومغفرة : أى ستر لما وقع منه من الإلحاف في السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله : وخير : أى أنفع وأكثر فائدة . رثاء الناس أى مراعاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحري ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوذين وترقية شأن الأمر بالقيام بما يصلح شئونها فمثله : أى قصته . وصفوان : أى حجر أملس . والوايل : المطر الشديد والصلد : الأملس الذى ليس عليه شيء من الغبار ويقال فلان لا يقدر على درهم : أى لا يجده ولا يملكه .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء ، كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ قال : (من أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم)<sup>(١)</sup> وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبا الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عن علم العباد .

بعدما بين الله تبارك وتعالى أن البعث حق وبين حقيقتين على ذلك ، أولاهما الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فأمات الله مائة عام ثم بعثه ، والحقيقة الثانية إحياء الطير عندما سأل إبراهيم ربه ﴿رب أرنى كيف تحمى الموتى﴾ وكان فى الموقنين إحياء للأجساد ، جاءت آية الإنفاق بعد ذلك لتكون مثلاً على إحياء النفوس التى مسها الضر وعضها الفقر بنابه ، فجاءت الآية ترغيباً للنفوس لتنفق مما رزقها الله ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾<sup>(٢)</sup> ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد﴾ وجاءت آية الترغيب فى الإنفاق فى صورة مثل رائع وتصدير بديع إنها كحبة أنبتت سبع سنابل لأنها زرعت بأرض خصبة جيدة وهى حبة واحدة لكن ساقها أراد ربك أن يحمل سبع سنابل ، وكل سنبل منها فيها مائة حبة ولا يقتصر الأمر على ذلك ، أى على سبع مائة بل قال تعالى : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ لأنه واسع الرحمة عليهم بنيات المنفقين . قال داود يارب كيف يستطيع العبد أن يملأ كفة الميزان حسنات ؟ قال له : يا داود . إذا تصدق بنصف ثمرة لا يقصد بذلك إلا وجهى . وفى هذه الآية حقيقة علمية ، فقد عنى بتطبيق هذا المثل علمياً بعض أعضاء الجمعية الزراعية بمصر فى مزارع القمح التى تملكها فى التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبله واحدة بل أكثر وقد وصلت أحياناً إلى أربعين وأحياناً إلى ست وخمسين وأحياناً إلى سبعين كما دلثهم أيضاً على أن السنبله الواحدة تنبت أحياناً ستين حبة أو أكثر وقد عثر فى عام ١٩٤٢ أحد مفتشى الجمعية على سنبله أنبتت سبعاً

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٩ ط الشعب .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٤ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٧ .

ومائة حبة ، وعرض نتيجة بحثه على الأخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم في حفل جامع ورأوا تلك السنبلة وعدوها عدا فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدّ ورأى وشكروه على جهوده الموفقة .

وبعد ما حث الله تعالى على الصدقة ورغب فيها دعا المتصدق إلى الالتزام بآداب الصدقة فقال ﴿ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ذلك لأن للصدقة آداباً وتخلقا يجب على المتصدق أن يلزمها ، من هذه الآداب أن يكون المقصود بالصدقة وجه الله وحده ومنها ألا يمن على الفقير كأن يقول له لقد أحسنت إليك ولي الفضل عليك ويذيع على الناس إحسانه وهو لا يدري أن ذلك يبطل ثواب صدقته مع أن الله بين هذا في كثير من آيات الكتاب كذلك من آدابها ألا يؤذى الفقير بأن يقول له لقد أحسنت إليك ولم تشكرني ولم تعترف بالجميل ، مع أن رسول الله ﷺ يقول : « أفضل الصدقة الصدقة على ذا الرحم الكاشح »<sup>(١)</sup> أي الذي يضمّر السوء والبغضاء لأنك بالصدقة عليه تكون قد أطفأت نار حقه ، وتكون قد جاهدت نفسك وخالفت شيطانك فأصنع المعروف في أهله وفي غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله .

ازرع جيلاً ولو في غير موضعه      فلن يضيع جميل أينما زرعا  
إن الجميل وإن طال الزمان به      فليس يحصده إلا الذي زرعا

هؤلاء الذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيت أنفسهم ، ولم يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى لهم الأجر العظيم عند الله ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا يحزنون على ما مضى فإن لم يكن هناك ما تصدق به ، فقول معروف وكلمة طيبة ومغفرة وستر على حال المسكين ، خير من صدقة مقترنة بالأذى ، ذلك لأن الإسلام يحترم الإنسانية في الإنسان ولا يرضى بتصفير الوجوه ، وقد صدق من قال : « نزع بحرین بغربالین وحفر بثرین بإبرتين وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين خير لي من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء وجهي » . وليعلم هؤلاء أن الله غنى حلیم ، غنى عن عباده ولكنه حلیم بهم ، يدعوهم إلى ما يصلح أحوالهم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

ثم خاطب الله أهل الإيمان أن يلتزموا التزاماً شديداً بآداب الصدقة وألا يبطلوها بالمن والأذى ، وإن مثل من تصدق ثم أتبع الصدقة بالمن والأذى كمثل حجر عليه تراب فهبطت عليه السماء من مائها فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب فتركه صليداً أملس ناعماً ، كذلك المن والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة فتقلب لا ثواب عليها ، فهل يقدر أحد على شيء مما كسب ، لأن المالك الحقيقي هو الله فما دمت عاجزاً أيها

(١) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي ج ١ ص ١٦٠ ط دار الفكر .

الإنسان لا تقدر على شيء من كسبك لأن الرزق بيد الله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ \* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطمعون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿ (١) ﴾ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وأشكروا له إليه ترجعون ﴿ (٢) ﴾ والله لا يهدي القوم الكافرين لأنهم اختاروا الكفر طريقاً ، لذلك لا يعملون لله شيئاً إذا أنفقوا بقصد الرياء ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إذ لو آمنوا بالله وأنفقوا ابتغاء مرضاته ولو آمنوا باليوم الآخر لعملوا بقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ (٣) هؤلاء مهملوا فسيحبط الله أعمالهم قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ (٤) .

### الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

وَمِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٥﴾ أَيْبُودُ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ أى طلباً لرضوانه ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أى لتمكين أنفسهم في مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص و ﴿ الجنة ﴾ البستان . و ﴿ الربوة ﴾ المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطاقة هوائها وفعل الشمس فيها . و ﴿ آتت أكلها ﴾ أى أعطت صاحبها أكلها . والأكل كل ما يؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشيء : مثله و ﴿ الطل ﴾ المطر الخفيف . والإعصار : ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار : أى السجوم الشديد .

هذا مثل عظيم للذين ينفقون أموالهم لا يقصدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة إنما يهدفون إلى أشرف غاية . ويقصدون بذلك أسمى هدف ، فهم لا يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى ، إنما يريدون من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فذلك أقصى أمانهم كما يقصدون تثبيت أنفسهم وتمكينها من الإيمان بطرق السخاء فبذل المال فيه جهاد للنفس ، لأن حب المال رأس كل خطيئة ، إذا تمكن من القلوب ، وهذا هو الفرق بين أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبين ثعلبة بن حاطب . فالمال لم يستطع أن يتسرب إلى قلب الصديق ولم يقدر أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعه ، فكأنه في يديه ولم ينفذ إلى قلبه ، لذلك بذله بسهولة ويسر . وقد جاء بماله

(٣) سورة النحل آية : ٩٦ .

(٤) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .

(٢) سورة العنكبوت آية : ١٧ .

كله يوم تجهيز جيش العسرة . جاء به إلى رسول الله ﷺ بنفس راضية مطمئنة . ولقد سألته الهادي البشير ﷺ : ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ . فرد على الفور تركت لهم الله ورسوله . أما ثعلبة فقد أغناه الله بعد فقر وبسط عليه الرزق بعد ضيق وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الشاكرين . فماذا كانت العقابة ؟ لقد طلب منه أن يؤدي حق الله في ماله فما كان جوابه إلا أن قال : لا أراها إلا أخت الجزية يقصد بذلك الزكاة . قال تعالى : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون \* ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴿ ١ ﴾ . لقد تسربت الدنيا وحب المال إلى قلب ثعلبة وتمكن ذلك أيما تمكن ، فلم يكن من الميسور انتزاعه بعد ما أشرب قلبه بحبه وهكذا ضرب الله المثلين وصوّر لكل موقف ما يليق به : فالذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم مثلهم كجثة باسقة الظلال مغدقة الثمار بأرض عالية خصبة جيدة . أصابها مطر غزير فأعطت ثمارها ضعفين أى مثلين فقد بارك الله فيها وفي ثمارها فإن لم يصبها المطر الغزير أصابها مطر خفيف وهو الطل فلم تحرم الناس عطاءها وثمارها : كذلك أهل الجود والكرم يعطون دائما سواء أكان ما عندهم كثيرا أم قليلا . فهم على خير وبركة . أشربت قلوبهم بحب الكرم والعطاء . بل إنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ترى أحدهم في حبه للعطاء كما قال القائل :

تراه إذا ما جئته متهللا      كأنك تعطيه الذي أنت نائله  
ولو لم يكن في كفه غير روحه      لجاد بها فليثق الله سائله

إنهم تخرجوا في مدرسة عميدها أكرم الخلق الذي وصفه خالقه بقوله : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ فقد كان أجود من الريح المرسلة .

ماذا يقول المادحون وما عسى      أن تجمع الكتاب من معنك  
صلى عليك الله يا علم الهدى      ما اشتاق مشتاق إلى مثواك  
فقد كنت أكرم الخلق على الإطلاق :

له هم لا منتهى لكبارها      وهمته الصغرى أجل من الدهر  
له راحة لو أن معشار جودها      على البر صار البر أئدى من البحر

قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ : أى بصير بحال المنفقين . عليم بأعمالهم . إن كانوا ينفقون جريا وراء السمعة وحبا في الرياء أو كانوا ينفقون ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم . فما أجل ابتغاء مرضاة الله في الأعمال وليعلم المنفقون أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق وليكونوا واثقين بأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب : عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ( قال رسول الله ﷺ : من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل ) (٢) .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٧ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٢ ص ٧ ط وزارة الأوقاف .

والمقصود بعدل : مقدار - طيب : حلال . والمراد باليمين كما قال القاضي عياض : لما كان الشيء الذى يرتضى ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل فى مثل هذا واستعير للقبول والرضا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل ) (١) .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له . وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتحبوا ) (٢) .

وهكذا يبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضى الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول . ومعنى تحبوا : تحب دعواتكم وتغتنوا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يقول العبد مالى مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فافتنى ، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس ) (٣) .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ﷺ : ( ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها ) (٤) .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التى كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسطرة	حتى سقاها بكأس الموت ساقها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قوله تعالى : ﴿ أبيض أحذكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ هذا تصوير قرآنى فى أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الرفعة لحال قوم اتبعوا الأعمال بالرياء والسمعة . كان لأحدهم جنة أى بستان عظيم اشتمل على أعظم الأشجار المثمرة من نخيل وأعناب ومياه الأنهار تجري تحت الأشجار . وهذا البستان أعطى صاحبه من كل الثمرات فهذا هو الخير بعينه والنعيم والرفاهية . ثم هاجمه ، أى صاحب البستان ، الكبر وهذته السنون فهزمت فى بدنه العافية وذريته ضعفاء لا يقدرّون على شيء وإذا بالجنة التى كان فيها النخيل الباسقات والأعناب المثمرة تصيبها ريح عاصفة وإعصار فيه نار ، فتذرها قاعاً صفصفاً ورماداً تذروه الرياح بعدما احترقت الأشجار . هذه حال الذين عملوا للرياء والسمعة فأبطلوا أعمالهم كما قال سبحانه:

( ٣ ) المصدر السابق ص ٧ .

( ٤ ) المصدر السابق .

( ١ ) المصدر السابق ص ٦ .

( ٢ ) المصدر السابق .



﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً﴾ (١)

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها      على الناس واعلم أنها تتقلب  
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت      ولا البخل يقيها إذا هي تذهب

وهكذا ويضرب الأمثال يبين الله تعالى لعباده الآيات والأحكام لعلمهم يتفكرون في الدنيا والآخرة حتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

### الإنفاق من الكسب الطيب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٧﴾

المفردات : الطيب : هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، ولا تيمموا أى لا تقصدوا ، وتغمضوا : أى تتساهلوا وتتساعحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمض أى لا تستقص كأنك لا تبصر ، وحيد: أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ومن ثم فقد أمر عباده أن ينفقوا من جيد أموالهم التى اكتسبوها والتى أخرجها الله تعالى لهم من الأرض ، من الزروع والثمار والركاز والمعادن المختزنة فى باطن الأرض فكل هذه من رزق الله وفضله على عباده . وهو سبحانه المنعم . وشكر المنعم واجب وإخراج الزكاة سمة من سمات الشكر . وكما أمر تعالى بالإنفاق من الطيب الجيد فقد نهى عن الإنفاق من الخبيث الردىء فقال : ﴿ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون﴾ أى لا تقصدوا وتعمدوا إلى ردىء الأموال فتخرجوها صدقة ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم﴾ (٢) . ثم بين سبحانه أمراً يتعلق بنفس المتصدق فقال : ﴿ولستم بآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ أى لن تقبلوا أخذ الخبيث الردىء إلا إذا تساهلتم فى أخذه اضطراباً لحاجتكم إليه . واعلموا أن الله غنى عن أموالكم وصدقاتكم إنما يدعوكم إلى الصدقة ليعود عليكم خيرها وثوابها ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم﴾ (٣) . ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٤﴾ . والله تعالى حميد كثير المحامد مستحق لشكر محامده وذلك بأعمالكم الطيبة ومنها الإنفاق من طيب الكسب .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بئرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال

(٣) سورة الحج آية : ٣٧

(٤) سورة الذاريات الآيات من ٥٦ : ٥٨

(١) سورة الفرقان آية : ٢٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٩٢

أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ ، وإن أحب أموالى إلىَّ بُرٌّ ، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح (١) .

عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما تقول فى الصلاة ؟ قال : تمام العمل . قلت يا رسول الله : تركت أفضل عمل فى نفسى أو خيرُهُ ؟ قال : ما هو ، قلت : الصوم ؟ قال خير وليس هناك . قلت يا رسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بشق تمر . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر . فإنها صدقة تصدق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : ( تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً ) (٢) .

### وعد الله حق

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢١٩﴾

المفردات : ﴿ يعيدكم ﴾ أى يخوفكم . و﴿ الفقر ﴾ سوء الحال وضيق ذات اليد . و﴿ يأمركم ﴾ أى يغريكم . والمراد بالفحشاء هنا البخل . و﴿ المغفرة ﴾ الصفح عن الذنب . و﴿ الفضل ﴾ الرزق والخلف . و﴿ الحكمة ﴾ العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

بعدما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق من طيبات الكسب حذر سبحانه من وعود الشيطان ذلك لأن الشيطان يعد ابن آدم الفقر إذا أنفق وضيق ذات اليد ويأمره بالفحشاء والمقصود بها هنا البخل . أما الله سبحانه وتعالى فوعده المغفرة والصفح الجميل والفضل العميم وسعة الرزق والله واسع الرحمة عليم بأحوال عباده . قال ﷺ : ( إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ) (٣) .

(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ط الشعب .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .

قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. الحكمة : حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق ، وقد منَّ الله بها على عباده الذين اصطفى . . جاء في الدعاء الذي دعاه الخليل إبراهيم وابنه اسماعيل ﴿ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾<sup>(١)</sup> قال تعالى : ﴿لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين﴾<sup>(٢)</sup> . فكانت هذه الآية استجابة لدعوة الخليل وابنه . ولقد منَّ الله بالحكمة على داود فقال : ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾<sup>(٣)</sup> وقال في حق لقمان : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله﴾<sup>(٤)</sup> وقال في حق يوسف : ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما﴾ وقال في حق موسى : ﴿ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما﴾ . وقال في حق يحيى : ﴿وآتيناه الحكم صبيا﴾ ، ومن دعاء الخليل إبراهيم : ﴿رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين﴾<sup>(٥)</sup> . وقد ورد في معنى الحكمة أقوال نذكرها فيما يلي عن ابن كثير عن ابن عباس : المقصود بالحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وعن مجاهد : الحكمة الإصابة في القول . وفي قول آخر لمجاهد لمعنى ﴿يؤتي الحكمة من يشاء﴾ ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة . وفي رواية أخرى : عنه أيضا : الحكمة : الكتاب والفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنة . وقال زيد بن مسلم : الحكمة العقل . . قال مالك : إنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله . . وما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا في أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا في أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله . . وقال السدي : الحكمة النبوة .

والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها ، وأعلها النبوة والرسالة أنخص ولكن لا تباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبعية ، كما جاء في بعض الأحاديث : ( من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه )<sup>(٦)</sup> .

قال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ( لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها )<sup>(٧)</sup> .

قوله تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ أي لا يعتبر ويتدبر ويتذكر ما تهدف إليه الحكمة وما فيها من خير كثير في الدارين إلا أصحاب العقول والنهى . نعم إن في الحكمة خيرا كثيرا فليست السعادة في

(٥) سورة الشعراء آية : ٨٣

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ ط الشعب

(٧) جامع الأحاديث للسيوطي ج ٧ ص ٣٤٨ .

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩

(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤

(٣) سورة ص آية : ٢٠

(٤) سورة لقمان آية : ١٢

الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، ولكن ترى السعادة في إشراق العقل وانتصار الذهن وتزكية النفس . وعلى عرش السعادة يتربع القول الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ (١) .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾

النذر في اللغة : العزم على التزام شيء خاص فعلاً أو تركاً . وفي الشرع التزام طاعة تقرباً إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه .

الإتفاق في سبيل الله عبادة إذا ابتغى بها وجه الله . يدرك ذلك أصحاب الألباب كما أن النذر عبادة وهو إلزام الإنسان نفسه بفعل طاعة كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلى إطعام كذا من المساكين أو فعلى صيام كذا من الأيام . ولا يجوز النذر إلا لله تعالى ، لأنه عبادة ، والمعبود هو الله وحده ويجب الوفاء به . قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً \* عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيروا \* يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ (٢) . ولا يكون النذر إلا بطاعة . فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه . ولا يكون إلا في حدود ما يستطيع الإنسان . قال ﷺ : « ليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك » (٣) . فالنفقة والنذر من العبادات . وقد علق الله تعالى هذه العبادة بعلمه فقال : ﴿ فإن الله يعلمه ﴾ أى يعلم المراد إن كان إخلاصاً أو رياء .

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم فأحبطوا بالرياء أعمالهم وضيعوا بعدم الإخلاص لله ثوابهم ، ليس لهم من الله ولي ولا نصير . قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هي ﴾ أى إن أديتم الصدقات علانية فنعمة الشيء هي وهذا أسلوب مدح . ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ . أى أن إخفاءها والإسرار بها خير وأفضل فالله جل شأنه يحب الإخلاص في كل شيء أمر به عباده . والسرية أدعى إلى الإخلاص . وفعل الطاعات ، ومنها الصدقات مكفرة للسيئات ، مقربة إلى الرب ، منها عن الإثم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ عليم بدقائق الأمور وحقائقها ، عليم بالنيات وما تخفى الصدور . وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية . يقول الإمام ابن كثير : قال رسول الله ﷺ : ( الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمرسر بالصدقة ) . وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول

(٣) نيل الأوطار للشوكاني ج ٨ ص ٢٠٢ ط عيسى البابي الحلبي .

(١) سورة مريم آية : ٩٦

(٢) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٧

الله ﷺ : ( سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ) .

عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : ( لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل في خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار . قال نعم الماء . قالت يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء . قال نعم الريح قالت : يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح . قال : نعم ، ابن آدم يتصدق يمينه فيخفيها من شماله ) .

عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي الصدقة أفضل . قال : ( سر إلى فقير أو جهد من مقل ) وفي الحديث المروى : ( صدقة السر تطفى غضب الرب عز وجل ) .

وقال ابن أبي حاتم عن عامر الشعبي في قوله تعالى : ﴿ إِن تَدُوا الصَّدَقَاتِ فَنَعِمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهُهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ قال أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما أفاعمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ ( ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر ) قال : خلفت لهم نصف مالي . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه عن نفسه حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له : ( ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر ) فقال : عدة الله ورسوله . فبكى عمر رضي الله عنه وقال بأبي أنت وأمي يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . روى ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفا<sup>(١)</sup> .

### الله يهدي من يشاء

\* لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ط الشعب .

تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٧﴾  
الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ  
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٨﴾

المفردات : الهدى ضربان : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبي ﷺ . ابتغاء وجه الله : طلب مرضاته . أحصروا : منعوا وحبسوا في طاعته لغزو أو تعلم علم . ضربا في الأرض : أى سيروا فيها للكسب والتجارة . التعفف : إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد . السيميا : العلامة التى يعرف بها الشيء إخفا : أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

بعد أن أرشد في الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لا ينبغي التخرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خلته ، ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجلود . أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية وأخرج ابن جرير وغيره أن ناسا من الأنصار لهم صهر وقراة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يُسلمو فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبيرة قال : قال رسول الله ﷺ : إنه كان يأمر ألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزل الله تعالى : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ الآية (١) .

﴿ ليس عليك هداهم ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهي عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث . ﴿ ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أى أن أمر الناس في الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم ، فهو الذى يوفقه إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم ﴾ أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فلا أنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وأذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن في الأمة .

وأما في الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الديني راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ أى أنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير ، إذا كان مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحداً من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : ﴿ كلا غمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ أى يوف إليكم في الآخرة لا تنقصون منه شيئاً ، فأنتم على استفادتكم من الإنفاق فى رقى أنفسكم ، وثبوتها فى مقامات الإيمان والاحسان ، وإرادة وجه الله وابتغاء مرضاته — لا يضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئاً . وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، وابتغوا أن يراهم الله كملة ، يعملون الحسن ، لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر . ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله .. لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجل الأوصاف قدرا :

١ - الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهد أو العمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال . ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه ؛ لم يحل له الأخذ من الصدقة .

٢ - العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : ﴿ لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ﴾ .

٣ - التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدي الناس ، فإذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء . وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ .

٤ - أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثاءة فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثراً ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بزة ، فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس . وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ .

٥ - ألا يسألوا الناس شيئا مما في أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكؤودية . وقد يكون المعنى - أنهم لا يسألون أحدا شيئا لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرّة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ، ويقوم فيسأل الناس شيئا ) (١) .

والسؤال محرم لغير ضرورة . يروى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى » والمرة بكسر الميم ، والسوى هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب . وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : ( من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغذيه أو يعيشه » . وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : ( من سأل الناس : أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو ليستكثر ) .

وروى أحمد والبخارى ، ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لأن يغدو أحدكم فيحطّط على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا : أعطاه أو منعه ) (٢) .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثرا كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل - لا يعطى شيئا ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت في أهل الصّفة وهم أربعمائه من فقراء المهاجرين رصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم والجهاد في سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون في صُفّة المسجد ( موضع منه مُظلل ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون في سبيل الله بهذه الهجرة ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن ، وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون ببيان النبى ﷺ بسنته القولية وسنته العملية . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : ( أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفقاى ) (٣) .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزوفى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله في هذه التكايا فهى لهم كالأديار

(١) صحيح مسلم بشرح النووي - ج ١ - ص ٧٧ ، ٧٨ ط الشعب .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى - ج ٢ - ص ٣٩٩ ط دار الفكر .



لنصارى وهم فيها كالرهبان وإن كان بعضهم قد يتزوج. وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح شيئا كثيراً من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين ، وفي معرض الكرامات ، وهؤلاء يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلا في الكتاب والسنة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فلا يخفى عليه حسن النية والاخلاص له في العمل ، ولا تحرى النفع به وابتاؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه بحسب هذا ولا يخفى ما في هذا الترغيب في الانفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم ..

قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . يقول ابن كثير : هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وجميع الأحوال من سر وجهر حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضا كما ثبت في الصحيحين. أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضا عام الفتح ، وفي رواية حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في في امرأتك » روى الامام أحمد بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ( إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقه يحسبها كانت له صدقة ) . قوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى ثواب ما أنفقوا عند الله في الآخرة ولا خوف عليهم مما سأتى ولا هم يحزنون على ما مضى فأى أمن وأمان أعظم من هذا لا خوف ولا حزن (١) .

### الربا وأكلوه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ط الشعب .

أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ  
تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ  
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المفردات: يأكلون : أى يأخذون ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، والربا : لغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الرباية ، لما علا من الأرض فزاد على ما حوله. والخبط : الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا ضربت الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل يتصرف فى الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء . والعشواء : الناقة الضعيفة البصر والمس : الجنون ، يقال مس الرجل فهو ممسوس إذا جن ، والموعظة : العظة والزجر ، والمحق : نقص الشيء حالا بعد حال كمحاق القمر . ويرى : يزيد ويضاعف ، لا يجب : أى لا يرتضى ، والكفار : المقيم على الكفر المتعادل له . والأثيم : المنهمك فى ارتكاب الآثام ، اتقوا الله : أى قوا أنفسكم عقابه ، وذروا : أى أتركوا . فأذنوا : أى فاعلموا ، بحرب من الله : أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل فى عصره ، واعتباركم أعداء له فى كل عصر ، لا تظلمون : أى لا تفعلون الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بنقص شيء من رأس المال ، العسر : الإعسار ، ويكون بفقر المال أو كساد المتاع . والنظرة : الانتظار ، والميسرة : اليسار والسعة .

كان الكلام قبل هذا فى آيات الصدقة والندور ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله — وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله ، وقد أفاض القرآن الكريم فى ترغيب المسلمين فى الصدقات حتى يسد الخلة ويغنى الناس عن اللجوء إلى سبل الحرام ، حتى لقد بلغ أن القرآن جمع بين الإنفاق والندور فى آية بلغت من العظمة إلى حد أنها اقترنت بعلم الله قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ (١) فإن لم يكن هناك صدقات أو ندور وإن لم تسمح نفس ابن آدم بالصدقة ابتغاء مرضاة الله فليعط المال قرضا ، جاء ذلك فى آية الدين التى ذكرت بعد آيات الربا ، فإن لم يثق فيمن يقرضه فليطلب الرهن من المقترض للاستيثاق من أداء الدين. قال تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فإلهان مقبوضه ﴾ (٢) وهكذا سد الإسلام كل باب يؤدى إلى الربا ، فالصدقات والوفاء بالندور والقرض الحسن والرهن كل هذه تقف سدا أشد من سد يأجوج ومأجوج ، لتسد كل ثغرة تؤدى إلى هذا البلاء الجسيم والنار التى ترعى فى المجتمع وتسرى سريان السم الزعاف فى الاحشاء والسعير فى الهشيم ؛ حتى لقد قال تعالى فى شأن هذا الربا ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿ فماذا قال الفقهاء عن الربا ؟

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٠ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

الربا في اللغة : الزيادة ؛ والمقصود به هنا : الزيادة على رأس المال ، قلت أو كثرت يقول الله سبحانه : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

حكمه : وهو محرم في جميع الأديان السماوية ، ومحظور في اليهودية والمسيحية والإسلام ، جاء في العهد القديم : ( إذا قرضت مالا لأحد من أبناء شعبي ، فلا تقف منه موقف الدائن . لا تطلب منه ربا لمالك ) . آية ٢٥ فصل ٢٢ من سفر الخروج وجاء فيه أيضا : ( إذا افتقر أخوك فاحمله . . لا تطلب منه ربحا ولا منفعة ) . آية ٣٥ فصل ٢٥ من سفر اللاويين . إلا أن اليهود لا يرون مانعا من أخذ الربا من غير اليهودي . وقد رد عليهم القرآن ، ففي سورة النساء : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ ، وفي كتاب العهد الجديد : ( إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة ، فأى فضل يعرف لكم ؟ ولكن افعلوا الخيرات ، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها وإذا يكون ثوابكم جزيلا ) . واتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريما قاطعا ، استنادا إلى هذه النصوص . قال سكويار : إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحدا خارجا عن الدين .

وقال القسيس بوني : « إن المرايين يفقدون شرفهم في الحياة الدنيا ، وليسوا أهلا للتكفين ، بعد موتهم » . والقرآن الكريم تحدث عن الربا في عدة مواضع مرتبة ترتيبا زمنيا ، ففي العهد المكي نزل قول الله سبحانه : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ (١) . وفي العهد المدني نزل تحريم الربا صراحة في قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٢) وآخر ما ختم به التشريع قول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (٣) .

وفي هذه الآية رد قاطع على من يقول : إن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، لأن الله لم يبح إلا رد رؤوس الأموال دون الزيادة عليها . وهذا آخر ما نزل في هذا الأمر ، وهو من كبائر الإثم ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ : ( اجتنبوا السبع الموبقات ) ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات (٤) ، وقد لعن الله كل من اشترك في عقد الربا ، فلعن الدائن الذي يأخذه ، والمستدين الذي يعطيه ، والكاتب الذي يكتبه والشاهدين عليه ، روى البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وصححه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : ( لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه ) (٥) روى الدارقطني عن عبد الله بن حنظلة أن النبي ﷺ

(٣) الجامع الصغير للسيوطي جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .

(٤) جامع الأحاديث جـ ٥ ص ٢٨٧ .

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠ .

قال : ( الدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية في الخطيئة )<sup>(١)</sup> . . وقال ﷺ : ( الربا تسعة وتسعون بابا أدناها كأن يأتي الرجل بأمه )<sup>(٢)</sup> .

### الحكمة من تحريم الربا :

الربا محرم في جميع الأديان السماوية ، والسبب في تحريمه ما فيه من ضرر عظيم :

- ١ - أنه يسبب العداوة بين الأفراد ، ويقضى على روح التعاون بينهم . والأديان كلها ، ولا سيما الإسلام ، تدعو إلى التعاون والإيثار وتبغض الأثرة والأنانية واستغلال جهد الآخرين .
- ٢ - وأنه يؤدي إلى خلق طبقة مترفة لا تعمل شيئا ، كما يؤدي إلى تضخم الأموال في أيديها دون جهد مبذول ، فتكون كالنباتات الطفيلية تنمو على حساب غيرها . والإسلام يمجّد العمل ويكرم العاملين ويجعله أفضل وسيلة من وسائل الكسب ، لأنه يؤدي إلى المهارة ، ويرفع الروح المعنوية في الفرد .
- ٣ - وهو وسيلة الاستعمار ، ولذلك قيل : الاستعمار يسير وراء تاجر أو قسيس . ونحن قد عرفنا الربا وآثاره في استعمار بلادنا .
- ٤ - الإسلام بعد هذا يدعو إلى أن يقرض الإنسان أخاه قرضا حسنا إذا احتاج إلى المال ويشب عليه أعظم مثوبة .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

والربا قسمان (١) ربا النسئة (٢) وربا الفضل .

ربا النسئة : وربا النسئة ، هو الزيادة المشروطة التي يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة .

ربا الفضل : وربا الفضل ، وهو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسئة . وأطلق عليه اسم الربا تجوزا . كما يطلق اسم المسبب على السبب . روى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : ( لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين ، فإن أخاف عليكم الرماء ) أى : الربا . نهى عن ربا الفضل لما يخشاه عليهم من ربا النسئة وقد نص الحديث على تحريم الربا في ستة أعيان :

الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح . فعن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ( الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الأخذ والمعطى سواء ) . رواه أحمد والبخارى .

علة التحريم : هذه الأعيان الستة التي خصها الحديث بالذكر تنظم الأشياء الأساسية التي يحتاج

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربي .

الناس إليها والتي لا غنى لهم عنها ؛ فالذهب والفضة هما العنصران الأساسيان للنقود تنضبط بهما المعاملة والمبادلة فهما معيار الأثمان الذي يرجع إليه في تقويم السلع . وأما بقية الأعيان الأربعة فهي عناصر الأغذية وأصول القوت الذي به قوام الحياة .

فإذا جرى الربا في هذه الأشياء كان ضارا بالناس ومفضيا إلى الفساد في المعاملة ، فمنع الشارع منه رحمة بالناس ورعاية لمصالحهم ويظهر من هذا أن علة التحريم بالنسبة للذهب والفضة كونها ثمنا ، وأن علة التحريم بالنسبة لبقية الأجناس كونها طعاما ، فإذا وجدت هذه العلة في نقد آخر غير الذهب والفضة أخذ حكمه ، فلا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد . وكذلك إذا وجدت هذه العلة في طعام آخر غير القمح والشعير والتمر والملح ، فإنه لا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد .

روى مسلم عن معمر بن عبد الله عن النبي ﷺ : أنه نهى عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ، فكل ما يقوم مقام هذه الأجناس الستة يقاس عليها ويأخذ حكمها ، فإذا اتفق البدلان في الجنس والعلة حرم التفاضل وحرّم النساء أى التأجيل ، فإذا بيع ذهب بذهب أو قمح بقمح فإنه يشترط لصحة هذا التبادل شرطان :

١ - التساوى في الكمية بقطع النظر عن الجودة والرداءة للحديث المذكور ، ولما رواه مسلم ( أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ بشيء من التمر ، فقال له النبي ﷺ : ما هذا من تمرنا ؟ فقال الرجل : يا رسول الله بعنا تمرنا صاعيه بصاع : فقال ﷺ : ذلك الربا ، وردوه ثم يبيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا ) . وروى أبو داود عن فضالة قال : ( أتى النبي ﷺ بقلادة فيها ذهب وخرز اشتراها رجل بتسعة دنائير أو سبعة ؛ فقال النبي ﷺ : لا ، حتى تميز بينهما قال : فرده حتى ميز بينهما ) . ولمسلم : ( أمر بالذهب الذي في القلادة فترع وحده ، ثم قال : الذهب بالذهب وزنا بوزن ) .

٢ - عدم تأجيل أحد البدلين ، بل لابد من التبادل الفوري ، لقوله ﷺ : ( إذا كان يدا بيد ) ، وفي هذا يقول الرسول ﷺ :

( لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تُشفوا : أى تفضلوا . بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا غائبا منها بناجز ) . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد .

وإذا اختلف البدلان في الجنس واتحدا في العلة ، حل التفاضل وحرّم النساء . فإذا بيع ذهب بفضة أو قمح بشعير فهنا يشترط شرط واحد وهو الفورية . ولا يشترط التساوى في الكم بل يجوز التفاضل .

روى أبو داود أن النبي ﷺ قال : ( لا بأس ببيع البر بالشعير ، والشعير أكثرهما ، يدا بيد ) ، وفي حديث عبادة عند أحمد ومسلم : ( فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد ) وإذا اختلف البدلان في الجنس والعلة فإنه لا يشترط شيء فيحل التفاضل والنساء . فإذا بيع الطعام بالفضة حل التفاضل والتأجيل ، وكذا إذا بيع ثوب بثوبين أو إناء بإنائين . والخلاصة أن كل ما سوى الذهب والفضة

والمأكول والمشروب لا يحرم فيه الربا ، فيجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً ونسيئته ، ويجوز فيه التفرق قبل التقابض ، فيجوز بيع شاة بشاتين نسيئة ، ونقداً ، وكذلك شاة بشاة لحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يأخذ في قلائص الصدقة البعير بالبعيرين إلى الصدقة ، أخرجه أحمد وأبو دواد والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . ورواه البيهقي ، وقوى الحافظ ابن حجر إسناده . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ اشترى عبداً بعبدين أسودين ، واشترى جارية بسبعة أرؤس وإلى هذا ذهب الشافعي .

### مسائل تتعلق بالربا

قال جمهور الأئمة : لا يجوز بيع حيوان يؤكل بلحم من جنسه ، فلا يجوز بيع بقرة مذبوحة ببقرة حية يقصد منها الأكل ، لما رواه سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الحيوان باللحم .

لا يجوز بيع الرطب . بما كان يابساً . روى مالك وأبو دواد عن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ سئل عن بيع الرطب بالتمر ؟ فقال : أينقص الرطب إذا ييس ؟ قالوا نعم . فنهى عن ذلك . ونهى رسول الله ﷺ عن بيع العينة ، لأنه ربا وإن كان في صورة بيع وشراء . ذلك أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشتري سلعة بثمن معين إلى أجل ، ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل ، فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذي أخذه عاجلاً . وهذا البيع حرام ويقع باطلاً .

١ - روى ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ( إذا ضمن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله أنزل الله بهم بلاء ، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم ) .

٢ - وقالت العالية بنت أيفع بن شرحبيل ( دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامراته على عائشة رضي الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم : إني بعت غلاماً من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة ، ثم اشتريته بستمائة درهم نقداً ، فقالت بثس ما اشتريت ، أبلغني زيد بن أرقم : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب » أخرجه مالك والدارقطني<sup>(١)</sup> .

الآيات: وبعد أن بين لنا الفقهاء رحمهم الله تعالى المسائل التي تتعلق بالربا نأخذ بعد ذلك في تفسير الآيات ، حتى يتضح الأمر لمن أراد أن يذكر ، وليكون في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال الشيخ المراغي الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول : يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة في نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن في المصارف المالية وهو الذي نص القرآن الكريم على تحريمه وكان متعارفاً في الجاهلية وقت التنزيل قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول الذي عليه المال : أخر عني دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل في إسلامهم عنه : اهـ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربي .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر وقد ورد في الحديث « لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده » .

والثاني يكون في بيع الشيء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندي بثلاث عشرة كيله من القمح البلدي أو أقة عنب مصرى بأقة ورابع من عنب أزميز أو قنطارا من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا ، وهكذا الحكم في جميع المكيلات والموزونات والنقدين ( الذهب والفضة ) لما جاء في الخبر من قوله ﷺ : ( لا تبيعوا الذهب بالذهب والورق بالورق ) ( الفضة ) والبر بالبر والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين يدأ بيد )<sup>(١)</sup> . والتعامل به محرم أيضاً .

ويضيف الشيخ المراغى قائلاً : وقد زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب بلاد المدينة والحضارة ونهلوا من مناهل العلم هناك ، إن تحريم الربا في الإسلام هو العقبة الكثود في مجارة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية في الثروة التي هي مناط العزة والقوة في العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين مأمونوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدي الأجانب إلا بتحريم الربا فإنهم لاحتياجههم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لا يعطى ماله بالربا فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لا ينمو وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء في أهم مسألة عمرانية اجتماعية ، وهذه حجة أوهمى من بيت العنكبوت وأوهم يزينها لهم الشيطان لم يحصوها حق التمهيص ، فإن المسلمين في هذا العصر لا يحكمون الدين في شيء من أعمالهم ومكاسبهم إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمر جميعاً قد سبقنا إلى إتقان ذلك فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم وديننا يدعونا إلى السبق في إتقان كل شيء ؟ .

وفي الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهرياً ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى بل هو خير الأديان في الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين مع الجهل بالسبب الذي أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً في الانحطاط فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب ، لما ضاعت ثروتنا ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العصم لنا فالربا : مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت في حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان فاليهود كانوا يرابون غيرهم والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة ردحا طويلاً من الدهر ، ثم قلدوا

(٣) سورة الجمعة آية : ٩ .

(١) الجامع الصغير للسوطى ج ١ ص ٦٦٩ .

(٢) سورة الملك آية : ١٥ .

غيرهم فيها ثم انتشرت بينهم في العصر الحديث في أكثر الأقطار ، والسرف في هذا أنهم قلدوا حكامهم في هذا السبيل بل كثيراً ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التي يفرضونها عليهم . ويلخص الشيخ المراغى أسباب تحريم الربا فيقول : ويمكن أن نلخص الأسباب التي لأجلها حرم الدين الربا فيما يلي :

١ - إنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة ، كأنواع الحرف والصناعات لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إغناء ماله ، خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش فيألف الكسل ويمقت العمل ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل وتزداد شراسته في الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزّه من أموالهم فلا يرأف بفقر ولا يشفق على بائس ولا يرحم مسكيناً ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط في البلاد أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

٢ - إنه يؤدي إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات إذ هو ينزع عاطفة التراحم من القلوب ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعاً ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارة التي تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال وأضربوا عن العمل الفينة بعد الفينة والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا في البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم وأصبح المرء لا يثق بأقرب الناس إليه ولا يقرضه إلا بمسند وشهود بعد أن كان المقرض يستوثق من المقرض ولو أجنبياً عنه بالألا يحدث أحداً بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض في حاجة في وصول حقه إليه إلى مطالبة ، بلا محاكم ومقاضاة .

٣ - إن الله جعل طريق التعامل بين الناس في معاشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر في نظير عوض لكن في الربا أخذ مال بلا عوض وهذا نوع من الظلم لأن للمال حقاً وحرمة فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهراً بطريق غير مشروع قال ﷺ : ( حرمة مال الإنسان كحرمة دمه )<sup>(١)</sup> .

ولا ينبغي اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال في يد المدين زمناً لو كان فيه في يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل وإن حصل فرمما لا تحقق الاستفادة ؛ أما أخذ الزائد في الربا فمتيقن ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

٤ - أن عاقبة الخراب والدمار فكثيراً ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم بأكلهم الربا وفي حديث ابن مسعود عن أحمد وابن ماجه وابن جرير : ( إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قتل ) .

والسرف في هذا أن المقرضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه في وجوه من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها وغيرهم بالمزيد من الاستدانة ولا يزال ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ولا يزالون يملطون

(١) الجامع الصغير للسيوطي ج ١ ص ٥٧٣ ط دار الفكر .



ويؤجلون ، والدين يزيد يوماً بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون فيصبحون فقراء معدمين ، وصدق الله : ﴿ يحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ هذا تصوير لحال أكلة الربا عندما يقومون من قبورهم بعد الموت ، إنهم يقومون من القبور يوم القيامة كمن به صرع من الشيطان. وما من شك فى أن أكلة الربا من أولياء الشيطان فقد ملأوا بطونهم من الوباء والبلاء ، ولم يتحروا الحلال من الحرام ، ويرحم الله نساء المؤمنين كانت الواحدة منهن توصى زوجها كل صباح فتقول له يا فلان : اتق الله فينا ولا تأكل حراماً ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا لكننا لا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . . إن تخبط الشيطان لهم إنما هى الحيرة فى أسوأ أحوالها ، إنهم كمن به جنون تراه دائماً شارداً ، غير مستقر فزعاً غير مطمئن ، وقد وردت للمفسرين أقوال يجمل بنا أن نذكرها مفصلة . . عن ابن عباس رضى الله عنه قال : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنى . . وعنه أيضاً قال : « يقال يوم القيامة لأكل الربا خذ سلاحك للحرب » . وقرأ : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ﴾ وذلك حين يقوم من قبره .

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان : (أنه عليه السلام مر ليلتئذ يقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا) . رواه البيهقى مطولاً<sup>(١)</sup> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ . قال : هؤلاء أكلة الربا)<sup>(٢)</sup> رواه أحمد .

وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة فيفغر له فاه ، فيلقمه حجراً . . وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا<sup>(٣)</sup> يقول ابن كثير : وقوله : ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : « إنما الربا مثل البيع » وإنما قالوا : « إنما البيع مثل الربا » أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أى هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون<sup>(٤)</sup> .

وليس الجنون والحيرة والاضطراب الذى يصيب أكلة الربا ليس ذلك كله مقصوراً على قيامهم من

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٨٣ ط دار الشعب .

(٢) المصدر السابق .

قبورهم بل إن حالهم في الدنيا كذلك فهم في فزع دائم يقومون من نومهم مشدودين إلى جمع المال بأى وسيلة محرمة ولو كان لأحدهم وإديان من ذهب لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوفهم إلا تراب القبر . فهم دائماً في حال صرع وجنون كأن بهم مساً من الشيطان ، فترى الواحد منهم كالذى استهواه الشياطين في الأرض حيران بين موائد القمار والتعامل بالربا ، وقد يكون قولهم إنما البيع مثل الربا إمعاناً منهم وإصراراً على حل الربا بل هو في باب الحلال أوقع من البيع حيث جعلوا البيع مشبهاً والربا مشبهاً به وشتان ثم شتان بين المشبه والمشبّه به . . ومن ثم وقد رد عليهم العلى الحكيم قائلاً: ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ . إذ أن البيع معاملة بعيدة عن الاستغلال والترهل وامتصاص الدماء ، أما الربا ففيه كل تلك العلل وشتان بين أن يشتري الإنسان سلعة كالقمح أو اللحم أو الفاكهة ليستفيد بها وبين أن يقترض شيئاً من المال من أحد المرابين فيستغل عذره ويفرض عليه الزيادة على الشيء الذى أخذه من المال فيكون مثله كالحشرات التى تعيش على دماء الأصحاء حتى تتركهم تحت أطباق الثرى أجساداً هامدة ، ومن هنا فإن الإسلام أغلق باب الربا إذ فتح باب البيع وإغاثة الملهوف ، كذلك باب الصدقات والقرض الحسن والرهن للاستيثاق من أداء الدين ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ . فأى وجه من وجوه الشبه بين البيع والربا وقد أحب الله هذا وحرم ذاك ؟ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله .

أى من بلغته الأحكام بتحريم الربا فانتهى عنه ولم يتعامل به فله ما سلف أى فقد عفا الله عما كان يتعامل به قبل بلوغ الأحكام وتجاوز عنه ربه إذ أنه لا ذنب له قبل مجيء موعظة الله ، وأمره إلى الله ، أى وقد أمر الله فيها بالعفو ، وهذا بالنسبة إلى الذين عاصروا الوحي ، أما الذين جاءوا بعد نزول الأحكام على رسول الله ﷺ فليس لهم عذر بعدما أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام ديناً . وقد جاء النبى بتلك الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولذا قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ أى بعد نزول الحكم ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ أما من عاد بعد بيان الحكم ، فينتقم الله منه قال تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لأنهم عادوا إلى اقتراف المخالفات بعدما وضحت الأحكام وانجلت الظلمات وبرح الخفاء . ومن هنا فقد حرم الإسلام صوراً من المعاملات ، كالعينة وصورتها أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشتري سلعة بثمن معين إلى أجل ثم يبيعها عن اشتراها منه بثمن حال أقل فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلاً وهذا البيع حرام ويقع باطلاً . . كذلك حرم الإسلام بيع المزائنة ، وهو بيع الرطب بالجاف كذلك حرم المحاقلة وهو بيع القمح فى سنابله فى الحقل بالقمح على الأرض ، فعلى المسلم أن يتحرى ويعلم أن الحرام بين والحلال بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام . فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فاستفت قلبك وإن أفنك الناس وأفنوك ، واعلم بأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم

لا يدوم ، وإذا دام دمر ، قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ فالتعبير بالمحق فيه من الدلالة ما فيه ، فالله يسحق الربا من أصوله فيذر الديار بلاقع - ومهما كثر مال المرابي فهو قليل لا بركة فيه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴿يَقُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ قال شعيب لقومه «بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين» فاللهم ارزقنا الحلال وبارك لنا فيه وواعد بيننا وبين الحرام كما باعدت بين المشرق والمغرب إن شجرة الربا ثمرتها مرة كالحنظل لأنها خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، أما ثمرة الحلال فإنها مباركة قال تعالى: ﴿يُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ أى يزيدها وينميها وبارك فيها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤق أكلها كل حين بإذن ربها ، والمرء فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يقضى بين العباد ومن أراد الله فليلتمسه فى الفقراء عبدى أنفق أنفق عليك .

والمحسنون لهم على إحسانهم يوم الإثابة عشرة الأمثال  
وجزاء رب المحسنين يجل عن عدّ وعن وزن وعن مكيال

قال رسول الله ﷺ ( من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلو حتى تكون مثل الجبل ) (١) .

قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ هاتان صيغتان من صيغ المبالغة ( كفار أثيم ) أى كثير الكفر والجحود لنعمة الله لا يعرف الشكر إلى قلبه سبيلا ، جيفة بالليل ، خمار بالنهار ، جعظريا جواظا : أى قاسى القلب سىء الخلق ، فظ غليظ مهموم بأمر الدنيا ، غافل عن شئون الآخرة أثيم كثير الذنوب إنهم أكلة الحرام الذين رضعوا ألبان الاثم وشربوا من مائها الأسن . وعلى الجانب المقابل تشرق علينا أنوار الإيمان والعمل الصالح فيقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هؤلاء آمنوا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فأحلوا ما أحل الله وحرّموا ما حرّم وجعلوا بينهم وبين النواهي حجاباً مستوراً وقتعوا بما قسم الله مصداقاً لقول الصادق المعصوم : ( اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك كما تحب لنفسك تكن مسلماً ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب ) (٢) وعلى رأس تلك الأعمال الصالحة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، عبادة قلبية وعبادة مالية فمن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا أرادت أن تتصدق مست درهم الصدقة بالمسك فيقال لها فى ذلك فتقول لأننى أضعه فى يد الله قبل أن أضعه فى يد المسكين أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ (٣) . وما جزاء هؤلاء ؟ . لهم أجرهم عند ربهم . . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العالمين . . ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا هم يحزنون على ما مضى .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفينا ويفنيها

(٣) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٦ ص ١٣٤

(٢) الجامع الصغير للسيوطى ج ١ ص ١٤ دار الفكر

واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بتقواه فإنهم أسرع الناس امتثالاً لأمر الله وذروا ما بقى من الربا ، أى أتركوا ما كان لكم عند الناس من زيادة على رأس المال فإن فعلتم ذلك فهذا دليل على إيمانكم فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل .

وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل وابن حبان والسدى أن هذا السياق نزل في بني عمرو بن عمير من ثقيف وبني المغيرة من بني مخزوم كان بينهم ربا في الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذ منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا في الإسلام بكسب الإسلام فكتب في ذلك عتاب ابن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الإنذار . .

قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعنه قال : يقال يوم القيامة لأكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن أبى عباس ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا يتزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيه فإن نزع وإلا ضرب عنقه .

قوله تعالى : ﴿ فإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

التوبة ندم على ما فات وعزيمة على عدم العود وأداء الحقوق لأصحابها ، وليست التوبة كلمات تلوكها الألسنة وتتحرك بها الشفاه ، إنما التوبة كالدواء والذنوب كالداء ولكل داء دواء يستطب به ، وتوبة المرابى أن يأخذ رأس ماله دون زيادة حتى لا يظلم غيره وله الحق أن يأخذ رأس المال كاملاً حتى لا يظلم نفسه ﴿ لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ . إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً . .

قوله تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ أمر من الله تعالى لأصحاب اليسار أن ينظروا المعسر الذى ضاقت يده إلى وقت الميسرة ، وذلك لأن الراحين يرحمهم الرحمن ، وقد كان من عادة الجاهليين إذا حل دين أحدهم أن يقول للمدين إما أن تقضى وإما أن تربى فجاء الأمر من أرحم الراحمين بالإنظار بل وندبهم إلى أن يتصدقوا بالدين فإن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء فما نقص مال من صدقة ، فإن كنتم تعلمون ما عند الله من عظيم الأجر وتفريج الكرب ، وزوال الغم وشفاء المريض لتصدقتم بالمال على ذوى الحاجات . .

﴿ وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾ . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ . جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر من الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كثود .

قال ﷺ: (من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه) <sup>(١)</sup> وعن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ) ، قال ثم سمعته يقول: ( من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ) قلت سمعتك يا رسول الله تقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة » ثم سمعتك تقول: ( من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ) قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثله صدقة » <sup>(٢)</sup> وعن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبئ منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو في البيت فناداه . فقال يا فلان : اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا . فخرج إليه فقال ما يغيبك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء قال الله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة . ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ من نفس عن غريمه أو محبا عنه ، كان في ظل العرش يوم القيامة ﴾ <sup>(٣)</sup> رواه مسلم في صحيحه .

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا ؟ قال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها — قالها ثلاث مرات — قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتني فضل مال وكنت رجلاً أباع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة » <sup>(٤)</sup> .

وعن عبد الله بن سهل بن خيف أن سهلاً حدثه أن رسول الله ﷺ قال: « من أعان مجاهداً في سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرتة أو مكاتباً في رقبته أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » <sup>(٥)</sup> .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » <sup>(٦)</sup> .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : ( من كان له على رجل حق فأخره ، كان له بكل يوم صدقة ) <sup>(٧)</sup> .

قوله تعالى ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ روى أن

(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(٦) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(٧) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩١ ط الشعب .

(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

هذه الآية ، آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة : حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

جاءت هذه الآية الكريمة ختاماً لآيات الربا حتى يعلم الناس أن الدنيا مهما أقبلت فهي مدبرة ، وأن العمر مهما طال فلا بد من دخول القبر . فليحذروا عقاب الله في يوم يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً . ﴿ وَأُنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزفةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور \* والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿ . فياله من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله ، ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذريوم التلاق ﴾ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴿ غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون مازرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فبئس ما صنعوا .

#### آية المدائنة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فِيهِ فَبِئْسَ مَا تَفَعَّلُوا فُسُقُوكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

المفردات : تدايتم : دأين بعضكم بعضاً . إلى أجل مسمى : أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم لا بالحصاد وقدم الحاج ، مما فيه جهالة ، بالعدل : أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، ولا يابى : أى لا يمتنع . كما علمه الله : أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق . وليلمّل : أى وليلق على الكاتب ما يكتبه والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أملّ على الكاتب وأملّى عليه . ولا يبخس : أى ولا ينقص . سفيهاً : أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله . أو ضعيفاً : أى صبيهاً وشيخاً هرمًا . أو لا يستطيع أن يمل : أى بأن كان جاهلاً أو أبكم أو أخرس ، واستشهدوا شهيدين : أى اطلبوا أن يشهد رجلان . ترضون : أى ترضون دينهم وعدالتهم . أن تفضل أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها . ولا تسأموا : أى لا تملوا ولا تضجروا . أقسط : أى أعدل . وأقوم أى وأعون على إقامتها على وجهها ، وأدنى : أى أقرب ألا ترتابوا : أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدين وقدره وأجله . تديرونها : أى تتعاطونها بالتعامل يدأ بيد . والجناح : الإثم والذنب ولا يضار أى ولا يفعل الضرر بالمعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص . فسوق : أى خروج عن الطاعة . والرهان واحذا رهن بمعنى مرهون ..

لما رغب الله تعالى عباده فى الإنفاق وضرب لذلك الأمثال ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة ﴾ وبين أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم مثلهم فى ذلك ﴿ كمثل حبة برية أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فظل ﴾ بعد ذلك نهى سبحانه وتعالى عن التعامل بالربا نهياً بلغ إلى حد أن قال الله سبحانه ﴿ فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وذكر العباد باليوم الآخر فقال ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ لما كان ذلك كذلك جاءت آية الدين وهى أطول آية فى كتاب الله ، بين الله فيها أحكاماً تتعلق بالمعاملات المالية ، ذلك لأن الإسلام أمر بالحفاظ على النفس والعقل والمال والعرض ( فنعم المال الصالح للعبد الصالح ) وللفقهاء كلام فى الدين نذكره مفصلاً :

يقول الشيخ السيد سابق : شرع الله الدين قرينة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم وتيسير أمورهم وتفريج كربهم . وإذا كان الإسلام ندب إليه وحجب فيه بالنسبة للمقرض فإنه أباحه للمقرض ولم يجعله من باب المسألة المكروهة لأنه يأخذ المال ليتنفع به فى قضاء حوائجه ثم يرد مثله .

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : ( من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ : ( رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بشمانيه عشر فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة ) .

وعقد الدين عقد تمليك فلا يتم إلا بمن يجوز له التصرف ، ولا يتحقق إلا بالإيجاب والقبول كعقد البيع والهبة . وينعقد بلفظ القرض والدين والسلف وبكل لفظ يؤدي إلى معناه . فإذا ما تم العقد وحدد الأجل فليس للدائن أن يطالب بدينه قبل حلول الأجل ، قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ فهذا أمر بكتابة الدين حفاظاً على المال وعدم ضياعه . ويجوز الدين في الثياب والحيوان فقد ثبت أن الرسول ﷺ استلف بكرة ، كما يجوز قرض ما كان مكيلاً أو موزوناً أو ما كان من عروض التجارة كما يجوز قرض الخبز والخمير لحديث عائشة ( قلت يا رسول الله إن الجيران يستقرضون الخبز والخمير ويردون زيادة أو نقصاً فقال : لا بأس إنما ذلك من مرافق الناس لا يراد به الفضل ) .

وعن معاذ أنه سئل عن اقتراض الخبز والخمير فقال : سبحانه الله إنما هذا من مكارم الأخلاق ، فخذ الكبير وأعط الصغير وخذ الصغير وأعط الكبير ، خيركم أحسنكم قضاء . . سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك (١) .

ولما شرع الله تعالى القرض ورغب فيه وأثاب عليه فإن حكمة المشروعية الرفق بالناس وتيسير أمورهم وبعيد كل البعد عن روح الإسلام إرهاب الناس والتعسير عليهم ، لذا فإن هناك قاعدة تقول « كل قرض جر نفعا فهو ربا » فلا يجوز لصاحب المال أن يقصد من وراء القرض أى فائدة من المقرض وإنما عليه أن يقصد بعمله هذا وجه الله .

#### التعجيل بقضاء الدين قبل الموت :

روى الإمام أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أخيه مات وعليه دين فقال : هو محبوس بدينه فاقض عنه . فقال يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة ليس لها بينة فقال : أعطها فإنها محقة . وروى أن رجلاً قال : ( يا رسول الله أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أدخل الجنة ؟ قال : نعم فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً قال : إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاء وأخبرهم بتشديد أنزل فسألوه عنه فقال : الدين . . والذي نفسى بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه ) .

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله ( قال كان رسول الله ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : أعليه دين ؟ قالوا : نعم ديناران فقال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصاري : هما على يا رسول الله قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فلما فتح الله على رسوله ﷺ قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك ديناً فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته ) .

وحديث البخارى عن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال : ( من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله ) .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٧ ط ١ دار الفكر .



مطل الغنى ظلم :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على مليء فليتبع ) رواه أبو داود وغيره .

استحباب إنظار المعسر : يقول الله سبحانه : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

روى عن أبي قتادة أنه طلب غريباً له فتواري ثم وجده فقال إني معسر فقال . آله ، قال: فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه » وعن كعب بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله في ظله ) (١) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تدايتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده أن يكتبوا الدين خشية النسيان والجنود الذي قد يفضى إلى النزاع ويؤدي إلى العداوة والبغضاء . قال تعالى : ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أى بالقسط والحق ولا يجر في كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ﴾ أى ليس للكاتب أن يمتنع عن الكتابة إذ سئل ذلك وذلك كما علمه الله فليكتب . . قوله تعالى ﴿ وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أى وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ولا ينقص منه شيئاً . . قوله جل شأنه : ﴿ فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً ﴾ أى سىء التصرف في ماله مجوراً عليه للإسراف والتبذير ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أى صغيراً أو مجنوناً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ وذلك لعجزه عن الكلام كأن يكون أبكم أو ألكن ﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ أى ولي أمره بالعدل ؛ أى بالقسط والحق ، قوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهادتين من رجالكم ﴾ أى اطلبوا شهادة رجلين حتى تكون شهادتهما بينة لإثبات الدين . قوله تعالى : ﴿ فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ وإنما قامت شهادة الرجل بامرأتين في المعاملات لأن رسالة المرأة في بيتها وتدبير المعيشة والإشراف على التربية ، فليست ذات خبرة في المعاملات والأسواق فهي كثيراً ما يعتريها النسيان في مثل هذه الأمور ، لذا بين الله تعالى الحكمة فقال : ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ أى تبتعد عن المطلوب للنسيان أو عدم الخبرة فتذكر إحداهما الأخرى وسبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى وسبحان من يسر لعباده ما يليق بكل منهم فكل ميسر لما خلق له : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ وقال في حق النساء : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ (٢) .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٢ ط ١ دار الفكر

(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الإستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لدى لب منكهن ، قالت يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى: ﴿مَنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ أى أن الشاهدين يكونان معروفين بالعدالة حتى تقع شهادتهما موقع الرضا . قوله جل شأنه: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ نهى من الله تعالى موجه إلى الشهداء ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة إذا دعوا إليها وذلك حتى لا تضيق حقوق العباد ، قوله تعالى ﴿وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾ هذا توجيه إلهى كريم حفاظاً على الحقوق ؛ فالله تعالى ينهى عن الملل من كتابة الحقوق صغيرة كانت أو كبيرة ، كل إلى أجله ، وقد بين الله تعالى الحكمة من ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ أَمْسَطَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أى أعدل ، « وأقوم للشهادة » ، أى أعون على إقامتها على وجهها « وأدنى ألا ترتابوا » أى أقرب الطرق إلى نفى الريبة والشك والظن السيئ وسوء النية .

قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أى إذا تم البيع والشراء وقبض البائع الثمن فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ذلك لأنه لا نزاع ولا شحناء .

﴿واشهدوا إذا تباعتم﴾ وذلك أيضاً لإثبات الحق في البيع والشراء ، كما أمر سبحانه وتعالى قبل ذلك بكتابة الدين والإشهاد ، كل هذا حتى لا يكون هناك اختلافات تؤدى إلى العداوة والبغضاء قال سبحانه : ﴿وَلَا يَضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ نهى موجه إلى كل كاتب وشهيد فليس للكاتب أن يحرف في كتابته أو يغير حتى لا يكون هناك ضرر بأحد المتعاقدين ، والإسلام يقول في قواعده الأصيلة : « لا ضرر ولا ضرراً » . وعلى الشهيد ألا يكتنم أو يغير في شهادته ، إذ أن في الكتمان والتغيير ضرراً بأحد المتعاقدين . قال تعالى : ﴿وَأِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسَوْقٌ بِكُمْ﴾ أى إن وقع الضرر فذلك خروج عن طاعة الله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه ، وكما أمر الله تعالى بكتابة الدين في أول الآية أمر بالتقوى في ختامها إذ التقوى هى العاصمة والواقية من الوقوع في المخالفات ، إذ هى خوف من الجليل فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ومن أحبه فقد استضاء بنوره ثم قال سبحانه : ﴿وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ﴾ أى يبين لكم الأحكام التى فيها سعادتكم . ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ﴾ أى يزيل عنكم الغم ويحبب إليكم ما طاعتموه والله عليم حكيم<sup>(٢)</sup> . ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ<sup>(٣)</sup>﴾ ، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٤)</sup>﴾ .

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٥٨٥

(٢) سورة النساء آية : ٢٦

(٣) سورة البقرة آية : ١٤٠

(٤) سورة البقرة آية : ٢١٦

(٤) سورة البقرة آية : ٢٣٢

(٤) سورة آل عمران آية : ٦٦

(٤) سورة النور آية : ١٩

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢

\* وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْكُمْ بَعْضٌ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

هذا إرشاد من الله تعالى لعباده إن كانوا مسافرين وتعذرت الكتابة أى كتابة الحقوق لعدم وجود الكاتب أو من يحسن الكتابة ، فليكن هناك رهن يأخذه الدائن للاستيثاق من أداء دينه ، ولا يتم ذلك إلا بقبض الشيء المرهون وقد أجاز الإسلام الرهن للاستيثاق من أداء الدين فإن كان هناك أمان وثقة بين الدائن والمدين بأن كان المدين معروفاً بحسن الأداء وكرم المعاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى الكتابة وعلى المدين أن يؤدي الدين في وقته لأنه مؤتمن لدى الدائن ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فلا يجحد ما عليه من الحق بحجة أنه ليس هناك كتابة تثبت ذلك وكما قال تعالى : ﴿ ولا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ﴾ وقال هنا: ﴿ ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ﴾ لأن كتمانها يؤدي إلى ضياع الحقوق ووقوع الظلم فيأكل بعض الناس أموال بعض بالباطل ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ لأن الكتمان عمل يؤدي إلى الإثم وسوء القصد وفساد النية والعداوة والبغضاء وكل هذه من أعمال القلوب وليعلم الجميع أن الله عليم بأعمال العباد وأفعالهم وخلجات نفوسهم وخطرات أفئدتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم .

### المالك هو الله

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

لهذه الآية الكريمة تمام ارتباط بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) فإن الذي أحاط علمه بكل شيء له ما في السموات وما في الأرض . قال سبحانه : « والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٢) . إنه المالك المتصرف الذي أحصى كل شيء عدداً ، العليم بذات الصدور . الخير بمكنون النفوس وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴿ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٣

(٢) سورة هود آية : ١٢٣

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ المراد بما في النفس ما استقر فيها وقوى بحيث أصبح ثابتاً ، وذلك مثل الحسد الذي يؤدي إلى البغى ، ومثل الظن السيئ ومثل كتمان الشهادة ومثل البغضاء . كل هذه الأشياء من أعمال النفوس التي إذا استقرت وبلغت حد التمكن فإن الله تعالى يحاسب عليها بسببها ، أما حديث النفس الذي لم يصل حد العزم والتمكن والاستقرار ، فإن الله تعالى ، بفضلله وكرمه قد تجاوز لهذه الأمة عما تحدثها بها أنفسها ما لم يعمل أحدهم أو يتكلم . وقد عاقب الله أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ذلك أن ما في نفوسهم قد وصل إلى حد العزم والتصميم على الفعل ، فعاجلهم الله بالعقوبة وهم نائمون . فإذا أما أبدى الإنسان وأظهر ما استقر في نفسه من الآثام أو أخفاها فلم يظهرها فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك فيغفر لمن يشاء بمحض فضله ويعذب من يشاء بمحض عدله ، وذلك بمقتضى حكمته وعلمه وإرادته . وقد تنزه سبحانه عن الظلم والعبث فهو الحكم العدل المقسط ، وهو العفو الكريم الحليم الرحيم المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم . وكان الله شاكراً عليهما ﴾ . وقد جاء ختام الآية ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ فإن من له ما في السموات وما في الأرض من أخص خصائصه ، القدرة ﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية توجه فريق من الصحابة إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه شدة الحساب على ما في النفس فماذا حدث ؟ لنستمع إلى ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال : ( لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ؟ فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله في إثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ إلى آخرها ) . وقوله نسخها الله : أي أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر (٢) .

### أركان الإيمان

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير ج ١ ص ٥٠١ ط الشعب

لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۚ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

### المفردات :

﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ أى إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ، سمعنا : أى سماع تدبر وفهم . والتكليف : الإلزام بما فيه كلفة . والوسع : ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر ، والاكْتِسَاب يفيد الجِد فى العمل . والمُواخِذَةُ : المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ، ﴿ ما لا طاقة لنا ﴾ أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، والإِصر : العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه مكانه ، إذ لا يطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، مولانا : أى مالكننا ومتولى أمورنا .

ورد فى فضل هاتين الآيتين أحاديث رويت عن رسول الله ﷺ ونسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد ويوفقنا إلى العمل الصالح ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

— عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : ( من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه ) .  
— عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ ( أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى ) .

— عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش .

— وعن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : ( إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فىقربها شيطان ) .

— عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسي ضحك وقال : ( إنها من كنز الرحمن تحت العرش ) وإذا قرأ ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ استرجع .

— عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك فألقى النبى ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته (١) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٥ - ٥٠٧ ط الشعب .

قوله تعالى: ﴿ آمَنَ الرُّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ إخبار عن إيمان الرسول ﷺ بكل ما أنزل الله عليه من الوحي المعصوم ، وكذلك المؤمنون كلهم آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، كما آمنوا بالملائكة ، هم سفراء الله إلى خلقه وهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون . ما من موضع قدم في السماء إلا وفيه ملك قائم أو راعٍ أو ساجد لله ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، وكما آمن المؤمنون بالله والملائكة آمنوا كذلك بالكتب المنزلة على الأنبياء تورا وإنجيلاً وزبوراً وقرآناً . كذلك آمنوا بالرسول ولم يفرقوا في الإيمان بين رسول ورسول ، بل آمنوا بأن الله رسلاً وأنبياء وبدون استثناء كان الإيمان شاملاً لهم جميعاً . هذا على طريق الإجمال أما على طريق التفصيل فقد آمنوا بالرسول الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وهم خمسة وعشرون جمعهم أحدهم في قوله :

في تلك حجتنا منهم ثمانية . من بعد عشر ويبقى سبعة وهم  
إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وجب عليه أن يؤمن بكل ما جاء به محمد ﷺ ، وذلك كالبعث بعد الموت والقدر خيره وشره . وقد جاء بعد ذلك التصديق بالقلب بالالتزام المطلق . قال تعالى : ﴿ وسمعنا وأطعنا ﴾ إذ حقيقة الإيمان كما قال الهادي البشير : ﴿ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ﴾ . ثم طلبوا من الله غفران الذنوب لأنهم يعتقدون أن المصير والمرجع والمآب إليه . ولقد من الله عليهم بعد ذلك بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أي لا يحملها إلا ما تطيق حمله . فإن الله تعالى فرض فرائض فأدوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم حرمات فلا تنتكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . وقد دعا المؤمنون ربهم بتلك الدعوات : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ والنسيان هو فعل الشيء بدون تذكر ، كمن شرب أو أكل ناسياً في نهار رمضان . والخطأ هو فعل الشيء بدون قصد كمن سبق ماء المضمضة إلى جوفه وهو صائم ، ولقد بشر الصادق المعصوم الأمة بتلك البشارة فقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ المراد بالإصر مائتل من التكليف كما كان ذلك في بني إسرائيل كقطع مكان النجاسة من الثوب ودفع ربع المال في الزكاة . ثم جاءت هذه الدعوة الكريمة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من الشدائد والبأساء والضراء والمصائب والبلاء . إذ أننا عبید إحسانه ونسأله العافية . ثم جاء بهذه الدعوات ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ اعف عنا فلا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا واغفر لنا فلا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا وارحمنا فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به . فتوجهت كل دعوة من هذه الدعوات إلى ما يناسبها من الدعوات السابقة .

﴿ أنت مولانا ﴾ أى مالك أمرنا فليس لنا مولى سواك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ برفع راية التوحيد ولواء الإسلام .

وقله اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون لكل نفس ما كسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من السوء لا تُظلم نفس شيئاً . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وقد اشتملت سورة البقرة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادئ الأحكام وقواعد النظام فكان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة ( أى السحرة ) والبيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان . وقد بدأها الله تعالى بالحديث عن الإيمان وختمها كذلك . وجاء فى آخرها آيتان نزلتا من كنز تحت العرش فكانت هذه السورة شافية كافية ، وافية فمن أخذها فقد أخذ بحظ وافر ، وله عند الله أجر كبير . نسأل الله ثوابها والعمل بها إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير .

وصلّى الله عليه سيدنا محمد البشير النذير .



## سورة آل عمران

من أسمائها : آل عمران والزهراء .

عدد آياتها : مائتان بإجماع القراء .

وهذه السورة مدنية : باتفاق جميع المفسرين . وكذلك كل سورة تشتمل على ذكر أهل الكتاب .  
وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون . وحروفها : أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمس وعشرون

حرفاً .

مجموع فواصل آياتها ( ل ق د ا ط ن ب م ر ) يجمعها قولي : ( لقد أظنُّ مَرَّ ) والقاف آخر آية واحدة ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ والهمز آخر ثلاث آيات ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

مضمون السورة : مناظرة وفد نجران ، إلى نحو ثمانين آية من أولها ، وبيان المحكم والمتشابه ، وذم الكفار ، ومذمة الدنيا ، وشرف العقبى ، ومدح الصحابة ، وشهادة التوحيد ، والرد على أهل الكتاب ، وحديث ولادة مريم ، وحديث كفالة زكريا ، ودعائه ، وذكر ولادة عيسى ومعجزاته ، وقصة الحوارين ، وخبر المباهلة ( من البهلة وهى اللعنة ) وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . والاحتجاج على النصارى ، ثم أربعون آية فى ذكر المرتدين ، ثم ذكر خيانة علماء يهود ، وذكر الكعبة ، ووجوب الحج ، واختيار هذه الأمة الفضلى والنهى عن موالة الكفار ، وأهل الكتاب ، ومخالفة الملة الإسلامية . ثم خمس وخمسون آية فى قصة حرب أحد ، وفى التخصيص ، والشكوى من أهل المركز ( هو الموضع يؤمر الجند أن يلزموه . وأهل المركز هم الرماة الذين أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلزموا أماكنهم بجانب أحد ) . وعذر المنهزمين ومنع الخوض فى باطل المنافقين ، وتقرير قصة الشهداء وتفصيل غزوة بدر الصغرى ثم رجوع إلى ذكر المنافقين فى خمس وعشرين آية ، والظعن على علماء اليهود ، والشكوى منهم فى نقض العهد ، وترك بيانهم نعت رسول الله ﷺ المذكور فى التوراة ، ثم دعوات الصحابة ، وجدهم فى حضور الغزوات واغتنامهم درجة الشهادة ، وختم السورة بآيات الصبر والمصابرة والرباط .

فضل السورة : عن أبى بريدة عن أبىه رضى الله عنه مرفوعاً : « تعلموا البقرة وآل عمران فانها الزهراوان يظلان صاحبها يوم القيامة كأنها غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »<sup>(١)</sup>

### وجه اتصالها بما قبلها

١- إن كلاً منها بدى بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به - فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبون بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائفين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة

(١) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ط الأوقاف .



الراسخين في العلم الذين يؤمنون بحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

٢- إن في الأولى تذكيراً بخلق آدم ، وفي الثانية تذكيراً بخلق عيسى وتشبيه الثاني بالأول في أنه جرى على سنة سابقة في الخلق .

٣- إن في كل منها حاجة لأهل الكتاب ، لكن في الأولى إسهاب في محاجة اليهود واختصار في محاجة النصارى ، وفي الثانية عكس هذا ، لأن النصارى متأخرون في الوجود عن اليهود فليكن الحديث معهم تالياً في المرتبة للحديث الأول .

٤- إن في آخر كل منها دعاء ، إلا أن الدعاء في الأولى ينحون نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا مما يناسب بداءة الدين . والدعاء في الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك في الآخرة .

٥- إن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿١﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٢﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٦﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ المـ ﴾ حروف هجائية فيها إشارة أن هذا القرآن معجز لا يستطيع أحد أن يأتي بسورة من مثله ﴿ الله ﴾ : علم على واجب الوجود لذاته وهو المتصف بالجلال والكمال والجمال والإله هو : المعبود بحق المستغنى عمّن سواه المفتقر إليه جميع ما عداه ﴿ الحى ﴾ ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ﴿ القيوم ﴾ : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ﴿ نزل ﴾ يفيد التدريج ، والقرآن ، نزل كذلك فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث وعبر عن الوحي مرة بالتنزيل وأخرى بالإنزال للإشارة إلى أن منزلة الموحى أعلى من الموحى إليه ومعنى كونه بالحق أن كل ما جاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه . ﴿ بين يديه ﴾ هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، ﴿ التوراة ﴾ : المقصود بها الكتاب المنزل على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ومعنى هذه الكلمة الشريعة ﴿ الإنجيل ﴾ : المراد به الكتاب المنزل على نبي الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهذه الكلمة معناها البشارة ﴿ الفرقان ﴾ هو الحق الذى يفرق الله به بين الهدى والضلال . ﴿ الانتقام ﴾ : مأخوذ من النعمة يقال : انتقم منه إذا عاقبه بجنائته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف . ﴿ الأرحام ﴾ واحداها رحم ، وهى مستودع الجنين من المرأة والمحكم من أحكام الشىء بمعنى وثقه وأتقنه . والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء والمتشابه : يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وتارة أخرى على ما يشبهه من الأمور ويلتبس . والزيف : الميل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل : من أول وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموضع الذى يرجع إليه ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ : هم المتفقهون فى الدين ، ﴿ من لدنك ﴾ : أى من عندك والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه . وجمع الناس الحق حشرهم للحساب والجزاء . ﴿ لا ريب فيه ﴾ : أى إننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

نزل صدر هذه السورة الكريمة فى وفد نجران وقد بلغ عدد الآيات التى نزلت بهذا الصدد ثلاث وثمانون آية ، وقصة هذا الوفد كما رواها ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر ، قالوا : إن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا نحو ستين راكباً وخاصموه فى عيسى ابن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ! قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا لا قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم ، كيف شاء وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً . فأنزل الله : ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر

تلك الآيات وهى الآية الثالثة والثمانون<sup>(١)</sup>

قال المفسرون ووجه الرد عليهم فيها - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادىء ذى بدء ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبي مثلهم ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل وعيسى لم يكن واهباً للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شيء ليرد على استدلالهم على إلهوية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شيء مطلقاً سواء أكان فى هذا العالم أم فى غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً على الإلهوية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء وعيسى لم يصور أحداً فى رحم ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بتلك الحروف الهجائية ﴿ أَلَمْ ﴾ التى جاءت إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى نزل بتلك الحروف كتاب معجز : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٢)</sup> وقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾<sup>(٣)</sup> . وقد جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ كالإجابة عن سؤال تقديره من أنزل هذا الكتاب المعجز ، وهذه كلمة حق ، فالله وحده هو الذى أنزله إذ غيره عاجز كل العجز أن يأتى بسورة من مثله ، قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال عز وجل : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾<sup>(٥)</sup> . وجل جلال الله ، إذ يصف ذاته الأقدس بالحياة والقيومية ففى آية الكرسي قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ . وفى سورة آل عمران ، يقول الله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ وفى سورة طه : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾<sup>(٦)</sup> . وقد قال فريق من المفسرين : إن الحى القيوم هو اسم الله الأعظم ، الذى ما سئل به إلا أعطى وما دعى به إلا أجاب<sup>(٧)</sup> . وما أعظم أن يخبر الله عن ذاته بالوحدانية والحياة والقيومية ، وقد جاء فى الدعوات الماثورة : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٦٨ ، ٦٩ ط دار زهران للنشر . (٥) سورة النساء آية : ١٦٦ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

(٣) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٤) سورة هود آية : ١٤ .

(٦) سورة طه آية : ١١١ .

(٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٩٣ ط وزارة الأوقاف .

كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . . فلفظ الجلالة ( الله ) هو العلم العظيم على الذات الأقدس والإختيار عنه بلا إله إلا هو إختيار بالوحدانية ، قال ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبل لا إله إلا الله » وجميع الأنبياء من لدن آدم إلى أشرف الخلق محمد ﷺ عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﷻ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﷻ (١) . والحياة صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى تصحح الإلتصاف بصفات الكمال ، فهو الحى العالم المريد السميع البصير صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، القيوم على عباده الذى به قامت السموات والأرض ﷻ ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ﷻ (٢) . القائم على كل نفس بما كسبت ﷻ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﷻ (٣) . له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﷻ (٤) . إن صفة الحياة واجبة لذاته سبحانه فهو جل جلاله أول بلا بداية وآخر بلا نهاية لا يعتريه نقص ، ولا يطرأ على حياته فناء .

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسيح يحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ (٥) .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخص و أشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

قوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب بالحق﴾ أى هذا الإله الواحد الحى القيوم هو الذى نزل عليك الكتاب منجماً على حسب مقتضيات الحال وقد اقتضت حكمته العليا ومشيئته العظمى أن يتدرج فى التشريع لعباده لأنه عليم بذات الصدور وهذا الكتاب الذى نزل عليه قال عنه منزله ﷻ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعى حكيم ﷻ (٦) . هو فى منزلة عظمى ودرجة عليا وقد نزل متلبساً بالحق ﷻ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﷻ (٧) . وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﷻ (٨) . والحق ضد الباطل وهو اسم من أسماء الله تعالى . قال تعالى ﷻ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﷻ وهذا الكتاب نزل مصداقاً ومؤيداً للكتب السابقة المنزلة على الأنبياء من قبل ؛ إذ صح كلها تتبع من مشكاة واحدة فهو الذى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس قال تعالى ﷻ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين \* وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون \* وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

(٥) سورة الفرقان الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .

(٦) سورة الزخرف آية : ٤ .

(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .

(٨) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٢ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴿١﴾ . فالكتب السماوية من توراة وإنجيل وزبور وقرآن يصدق بعضها بعضاً فسابقها يمهد للاحقها ولاحقها يكمل سابقتها . . قال عليه الصلاة والسلام : ( مثل ومثل النبيين قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت تلك اللبنة فأنا تلکم اللبنة وأنا خاتم النبيين ) ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ المراد به الحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الباهرة والبيّنات الواضحة التي يفرق بها العقلاء بين الحق والباطل والهدى من الضلال . ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ ﴿٣﴾ . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾ ﴿٤﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ ﴿٥﴾ وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ ﴿٦﴾ وتقوى الله تجعل المؤمن ينظر بنور الله فيرزقه الله فرقاناً يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ ﴿٧﴾ ليس لأحد حجة على الله بعد بيان الطريق المستقيم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾ ﴿٨﴾ ، وكفرهم بآيات الله حجود وإنكار وكبر وإستعلاء مع علمهم واستيقانهم أن الله حق ، قال سبحانه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٩﴾ . وقال موسى لفرعون قال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشوراً ﴾ ﴿١٠﴾ وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ \* ألا إنهم في مربة من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴿١١﴾ ، والعذاب الشديد هو المؤلم الموجه ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ \* نار الله الموقدة \* التي تطلع على الأفئدة \* إنها عليهم مؤصدة \* في عمد ممددة ﴿١٢﴾ ، والله عزيز غالب لا يغلبه أحد ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علياً قديراً ﴾ ﴿١٣﴾ ، وهو المنتقم الذي يجازى بالعقاب الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ومن على شاكلتهم من أهل سوء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ دليل العليم المحيط والبصير فهو العليم البصير علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وكلمة ﴿ شيء ﴾ نكرة جاءت في سياق النفي فأفادت عموم العلم ودقته أي لا يخفى عليه أي شيء في الأرض التي نعيش عليها

(٨) سورة آل عمران آية : ٤ .

(٩) سورة النمل آية : ١٢ .

(١٠) سورة الإسراء آية : ١٠٢ .

(١١) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .

(١٢) سورة الهمة الآيات : ٥ - ٩ .

(١٣) سورة فاطر آية : ٤٤ .

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٦ - ٤٨ .

(٢) جامع الأحاديث للسيوطي ج ٦ ص ١٢

(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

(٥) سورة الإسراء آية : ١٢ .

(٦) سورة يونس آية : ٥٧ .

(٧) سورة الانفال الآية : ٢٩

ولا في السماء التي تظلنا ، وهذا هو الكون الذي نحيا فيه ، فالأرض تحتنا والسماء فوقنا ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (١) ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

يامن يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحل  
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها في قاع بحر زاهر متجندل

إن هذا الذي أحاط بكل شيء علماً وأحاط بكل شيء عدداً ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ أى يخلقكم في الهيئة والصورة التي يشاؤها .. هو سبحانه .. وعالم الأرحام عالم عجيب ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ فجعلناه في قرار مكين ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ فقد رنا نعم القادرون ﴿ (٣) ﴾ . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (٤) . وقال سبحانه : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿ (٥) ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ (٤) ﴿ أى يعلم حقيقتها وأرزاقها وعددها وآجالها ويعلم ما في الأرحام كلها من إنسان وحيوان فلا يقولن قائل إن العلم قد تقدم واستطاعت الأشعة أن تعرف ما في الأرحام من ذكورة وأنوثة فنقول لمن قال : لقد غابت عنك أشياء كثيرة لأن تعبير النص القرآني جاء بما ، لا ، بمن وما تطلق ويراد بها حقيقة الشيء فهل يستطيع العلم بأشعته أن يتوصل إلى حقيقة النطفة وهى نطفة إن كان المخلوق منها ذكراً أو أنثى ؟ وهل يستطيع أن يصل إلى حقيقة ما في الأرحام من إنسان وحيوان وغير ذلك من المخلوقات والكائنات التي تتوالد وتتكاثر وهل يستطيع العلم بأشعته أن يعرف الأشياء المتعلقة بما في الأرحام من كم وكيف وأجل ورزق وسعادة وشقاء وعمل إن هذه المسألة في خمسة أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله .

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (٧) .

هذا خلق الله : وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدرة الله الذي أنزل القرآن

(٥) سورة الرعد الآيات : ٨ ، ٩

(٦) سورة لقمان آية : ٣٤

(٧) سورة لقمان آية : ٣٤

(١) سورة الرحمن آية : ٣٣

(٢) سورة المجادلة آية : ٧

(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣

(٤) سورة الحج آية : ٥

وعلى صدق الرسول سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن فإن الأطوار التى يمر بها الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ \* ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿ (١) .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام نخبّر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمي هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين ﴾ \* إلى قدر معلوم \* فقدردنا فنعم القادرون ﴾ .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ (٢) . ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ (٣) ؟ .

﴿ مم خلق ﴾ : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم ، نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ويتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف كان عالمنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر . وهو فى الأرحام - خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر - كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟ .

ذلك لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تقلص عضلاته - حيث أصبح الإنسان ضيقاً ثقيلاً عليه - فتقلصت العضلات فعبّر الإنسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شئ خلقه ﴾ \* من نطفة خلقه فقدره ﴾ \* ثم السبيل يسره ﴿ (٤) فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ : يقول الله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٥) . وبمنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ ، تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله

(٤) سورة عبس الآيات : ١٨ : ٢٠ .

(٥) سورة النحل آية : ٧٨

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(٢) سورة الزمر آية : ٦

(٣) سورة الطارق آية : ٥

ولتقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن نسخر نعم الله في طاعته وألا نستعملها في معصيته :  
 قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » قال له يا موسى : « تذكرني ولا تنساني .  
 إنك إن ذكرتني : شكرتني ، وإن نسيتني كفرتني » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا  
 لي ولا تكفرون ﴾ وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز في يديه وهو يردد  
 بلسانه قائلاً : « الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه » فقال له الرجل : فمن أي شيء عافاك ؟  
 قال له : « وهب لي قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً » .  
 ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربى إذ هداني إلى الإسلام والدين الحنيف  
 فيذكره لساني كل وقت ويعرفه فؤادي باللطيف

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي إن الذي صوركم في الأرحام واحد لا شريك له ،  
 عزيز لا يغلبه حكيم لا يعيب ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن  
 يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

يا ابن آدم

أنت الذي ولدتك أمك باكياً والناس حولك يضحكون سروراً  
 فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً  
 تذكر جميل مذ خلقتك نطفة ولا تنس تصويري ولطفي في الحشا  
 وسلم إلى الأمر واعلم بأنني أدبر أحكامي وأفعل ما أشاء

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك لأجابه بلسان  
 الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة  
 كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة  
 فانظر وقل من ذا الذي يخرج منها الثمرة  
 ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة  
 ذو حكمة بالغلة وقدرة مقتدرة

\*\*\*

انظر إلى الشمس التي جذوتها مستعرة  
 فيها ضياء وبها حرارة متشعة  
 من ذا الذي أوجدها في الجومثل الشرة  
 ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة  
 ذو حكمة بالغلة وقدرة مقتدرة

\*\*\*



انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه	بقوة مفتكرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة
انظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم	كالدرر المنتثرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

قيل لأحد العارفين بالله ما الدليل على وجود الله قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألوني عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وأنكره الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله وقيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال رضى الله عنه ومتى لم يكن : هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، وهو بكل شىء عليم .

حبيبى لا يعادله حبيب وما لسواه فى قلبى نصيب  
حبيب جل عن شخص وعينى ولكن عن فؤادى لا يغيب

قيل للإمام على : هل رأيت ربك ؟ قال وكيف أعبد ما لا أرى . فقالوا فكيف رأيته ؟ قال إن كانت الأعين لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين  
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين  
إن آيات الملكوت كلها ناطقة بوحداية الخالق .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات وفى أبصارها الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ الله خير أمّا يشركون \* آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون \* آمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون \* آمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلاً ما تذكرون \* آمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون \* آمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين \* قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴿ (١) .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك أنت الغني ونحن الفقراء إليك سبحانه أنت القائل : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

المفردات : ﴿ محكمات ﴾ : ظاهرات الدلالة لا خلاف فى معناها .

﴿ متشابهات ﴾ يقال اشتبه الأمر عليه أى التبس ، فالمتشابهات التى لم يظهر معناها وتتضح ، بل خلف ظاهر اللفظ المعنى المراد ، وقيل ما استأثر الله بعلمه . ﴿ زيف ﴾ ميل عن الحق . ﴿ تأويله إلا الله ﴾ معرفة حقيقته وبيان ما يؤول إليه فى الواقع ﴿ الراسخون ﴾ الثابتون فى العلم المتأكدون منه

التفسير : قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ يفيد أن الذى أنزل الكتاب هو الله وحده ، وذلك فيه رد على الذين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾ <sup>(١)</sup> . وقالوا : إنه ﴿ سحر مفترى ﴾ <sup>(٢)</sup> وقالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾ <sup>(٣)</sup> فإذا كان الله وحده هو الذى أنزله ، فقد تنزه الكتاب الكريم عن البشرية والسحر والأساطير ، فهو كما قال منزله جل شأنه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ هذا تقسيم لآيات القرآن إلى : محكم ومتشابه .

وفى القرآن الكريم آيات تفيد أن آيات القرآن محكمة كلها ، كما فى قوله جل شأنه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ <sup>(٥)</sup> كما أن فى القرآن الكريم ما يفيد أن القرآن متشابه كله ، وفى هذه الآية التى بين أيدينا ما يفيد أن بعض آياته محكم وبعضها متشابه ؛ فكيف التوفيق بين هذه النصوص ؟ .

إذا قلت : إن آيات الكتاب محكمة كلها فأنت صادق ؛ لأن الأحكام معناها أنها جاءت فى نسق رتيب ونظام بديع متقن ، وإذا قلت : إن آيات القرآن متشابهة كلها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً ﴾ <sup>(٦)</sup> فأنت صادق ؛ لأن التشابه هنا معناها : أن آياته يشبه بعضها بعضاً فى الصدق والسلامة من العيوب والخلل والاختلاف ، وأن القرآن كله من عند الله ، نقل إلينا بطريق التواتر نتعبد بتلاوته ، ونتحدى جميع العالم أن يأتوا بسورة مثله أما قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فإن المراد « بالمحكمات » الآيات الظاهرة الدلالة لفظاً ومعنى ، والمتشابهات هى الآيات التى يخفى على كثير من الناس ما تدل عليه ، فلها لفظ ولها معنى يدركه ويعرف حقيقته الله ، كما أن تفسيره يعرفه الراسخون والثابتون فى العلم ، وذلك كالأيات التى يوهم ظاهرها المشابهة فى قوله جل شأنه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ <sup>(٧)</sup> وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ <sup>(٨)</sup> وقوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ <sup>(٩)</sup> وقوله : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ <sup>(١٠)</sup> . فعلماء السلف ومنهم الإمام مالك بن أنس يقولون : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » فإنه تعالى كان ولا

(١) جزء من الآية ١٠٣ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٣٦ من سورة القصص .

(٣) جزء من آيات كثيرة منها الآية ٢٥ من سورة الأنعام .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الرحمن .

(٥) من الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٦) من الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٧) من الآية ٣٩ من سورة طه .

(٨) من الآية ١ - من سورة هود .

مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان وهذا في قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ وهكذا يقال في الآيات الباقيات ، يقولون : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب ، وقل ذلك : في كل الآيات المتشابهات ، إذ أنهم يردون هذه الآيات إلى الآيات المحكمات ، ومن هذه الآيات المحكمات قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ويرى الخلف تأويل هذه الآيات وتفسيرها تفسيراً يليق بذات الله : فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الهيمنة الكاملة والعلو والرفعة ، ويفسرون الوجه بمعنى الذات ، واليد بمعنى القدرة ، والعين بمعنى العناية والرعاية ، ويفسرون الحديث الشريف « إن قلوب بني آدم جميعاً بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » <sup>(٤)</sup> يفسرون الإصبعين بالإرادة والقدرة .

والفرق بين السلف والخلف أن السلف يثبتون الاستواء والوجه والعين واليد والإصبعين لكن بلا كيف ولا تمثيل ، إنما بدون تشبيه أو تجسيد ، وهذا هو المعنى الذي يليق بذات الله ؛ فلا العرش يحمله ولا الكرسي يسند ، بل العرش وحملته والكرسي وعظمته : الكل محمول بجلال قدرته ، مقهور بعظيم إرادته .

أما الخلف فإنهم يؤولون هذه الآيات إلى المعاني التي تليق بالذات الأقدس ، ومن ثم فقد قالوا : إن قول السلف أسلم ، وقول الخلف أحكم ، والكل يهدف إلى التنزيه والتعظيم ، ونفى التجسيد والتشبيه ، والكل هدفه سليم وبريء من الزيغ .

أما قوله تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾ هؤلاء هم أصحاب القلوب المريضة التي تميل بالهوى ، ويميل بها الهوى فتتنكب الصراط السوى ، وتجنأ سبيل الحق ، إنهم لا يردون التشابه إلى المحكم ؛ إنما يتبعون التشابه بعيداً عن المحكم فيشبهون ويحسدون ، يتبعون بذلك الفتنة . أى : فتنة الناس في دينهم ، وإشعال نار الكفر ، أو يشبهون الله بالحوادث ، هو سبحانه مخالف لخلقه ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقصدت عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، واحد لا من عله ، وموجود لا من قلة ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متكيف ولا متلون ، لا يسأل عنه بما ، إذ لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى ؛ لأنه خالق الزمان ، فلا يحكم عليه بالزمان ، وما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك والقول الحق في ذلك . ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ <sup>(٥)</sup> .

إن الذين في قلوبهم زيغ يتبعون التشابه من الآيات ، بعيداً عن المحكمات التي هي أم الكتاب

(٤) متفق عليه ..

(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١١١ من سورة طه .

(٣) سورة الإخلاص .

وأصله ، ابتغاء إشعال الفتن وابتغاء تأويله ، أى البعد به عن مراد الله من التنزيه والتقديس والتمجيد والتعظيم .

ومن الذين فى قلوبهم زيغ ، والذين اتبعوا المشابهة ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، هؤلاء الذين انحرفوا بشريعة المسيح فألهوه وعبدوه .

فقد كانوا يتبعون المشابهة من آيات القرآن ، فيميزون بها المسيح عن بقية البشر مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ <sup>(١)</sup> فرد القرآن عليهم بأن القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ، بعض آياته محكمات واضحات ظاهرات لا خلاف بين ظاهر اللفظ والمعنى المراد منها كقوله تعالى مثلاً : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله فى شأن عيسى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وكآيات الأحكام مثل : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> وهكذا المحكم كل ما لا يحتمل من التأويل المعتد به إلا وجهاً واحداً .

وهن - أى المحكمات : ﴿ أَمْ الْكِتَابُ ﴾ وعماده ومعظمه وأصله الذى دعى الناس إليه ، ويمكنهم فهمه ، وعنهما يتفرع غيرها ويحمل عليها ، وهى أكثر ما فى القرآن فإن اشتبه علينا من الآيات آية ، ردت إلى المحكم وحملت عليه ، مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ ترد وتحمل على قوله : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله : ﴿ إِنْ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ ﴾ <sup>(٦)</sup> بمعنى أننا نؤمن بأن الكل من عند الله وأنه لا ينفى الأصل المحكم .

أما الآيات المتشابهات كقوله تعالى فى عيسى : ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ من سورة النساء ، وكقوله ﴿ مَتَوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى ﴾ <sup>(٧)</sup> فى شأن عيسى ، وكقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ . ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . فهذه آيات متشابهات تحمل عدة معان ، ويخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد ، فهى مما استأثر الله بعلمه ، فليس لكم أيها النصارى أن تحتجوا بأمثال هذه الآيات ، فإنها من المتشابهة الذى يحتمل عدة معان ، والله أعلم بها ، وكيف لا تدينون بقوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ <sup>(٨)</sup> وتتمسكون بآيات استأثر الله بعلمها هو ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ وميل عن الحق إلى الباطل ، فيتبعون المتشابهة من القرآن وغيره ، ويتركون المحكم ابتغاء فتنة الناس وإضلالهم ، ولكى يتأولوا تأويلاً غير سائغ فى العقل ، ولكنه موافق لأوهامهم وضلالهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ المراد بالتأويل هنا ما يؤول إليه الشئ ويرجع ، مأخوذ من المأل وللتأويل هنا معنيان : فإن أريد به معرفة ما يؤول إليه من حقائق ، كحقيقة ما يجرى فى الدار الآخرة من

( ٦ ) من الآية / ٥٩ من سورة الزخرف .

( ٧ ) من الآية / ٥٩ من سورة آل عمران .

( ٨ ) من الآية / ٥٥ من سورة آل عمران .

( ٩ ) من الآية / ١٧٢ من سورة النساء .

( ١ ) من الآية / ١٧١ من سورة النساء .

( ٢ ) من الآية / ٣٣ من سورة الأسراء .

( ٣ ) الآية / ٥٩ من سورة الزخرف .

( ٤ ) من الآية / ١٥١ من سورة الأنعام .

( ٥ ) من الآية / ١٧١ من سورة النساء .

حساب وميزان وكتاب وصراط ؛ فقف على لفظ الجلالة ، وقل : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ إذ هذه من الأمور التي استأثر الله تعالى بعلم حقيقتها ، وذلك كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾<sup>(١)</sup> فقله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا ما يؤول إليه حقيقة هذا اليوم ، ولا يعلم حقيقته إلا الله وحده .

وإن كان التأويل بمعنى التفسير فعليك أن تعطف قوله تعالى : ﴿ والراسخون في العلم ﴾ على لفظ الجلالة فتقرأ : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم ﴾ إذ أن التأويل هنا يأتي بمعنى التفسير كما في قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾<sup>(٢)</sup> أى تفسيرها ، وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : متحدنا بنعمة الله عليه ، إني أعلم تأويله فأنا من الراسخين في العلم ، وذلك ببركة دعوة النبي ﷺ له : ( اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل ) وتكون جملة ﴿ يقولون آمنا به كل من عند ربنا ﴾ جملة حالية أى في محل نصب على الحال .

ولما خص الراسخين في العلم حتى لا يفتح الباب أمام أصحاب الأهواء والجهلة .

أما إذا وقفت على لفظ الجلالة ، فإن جملة ﴿ والراسخون في العلم ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ يقولون آمنا به ﴾ ومعنى ﴿ آمنا ﴾ أى صدقنا وأيقنا أن آيات الكتاب سواء في ذلك محكمة ومتشابهة ، كل من عند ربنا .

ولما خص الله تعالى الراسخين بهذا الفضل قال : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة والعقول الراجحة ، التي امتازت بالتدبر والتفكر في جميع الآيات المحكمة التي هي الأصول ، حتى إذا عرض لهم التشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ، ويردوا المتشابه إليها ، ويقولوا في التشابه الذي هو نبأ عالم الغيب إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق ، لا ينبغي للعقل أن يعتبروه .

ثم ذكر ما يدعون به ليهبهم الثبات على فهم التشابه فقال : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ أى أن أولئك الراسخين في العلم مع اعترافهم وإيمانهم بالتشابه ؛ يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة ، فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا في الخطأ والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : « وليس من قلب إلا وهو بين

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف .

إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاعه ﴿١﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء في يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به لأنك أخبرت به ، وقولك الحق ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه وأنت لا تخلف وعذك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ؛ ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

ولسائل أن يقول : لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكماً يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هادياً ، والمتشابه يحول دون الهداية ، لوقوع اللبس فى فهمه وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل . أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة منها :

- ١ - أن فى إنزال المتشابه امتحاناً لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه لأحد لما كان فى الإيمان به شيء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .
- ٢ - إن فى وجوده فى القرآن حافزاً لعقول المؤمنين إلى النظر فيه ، كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لا عمل للعقل فيه ، وإذا لم يجد العقل مجالاً للبحث مات ، والدين أعز شيء على الإنسان ؛ فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شيء ، ومن ثم قال : ﴿والراسخون فى العلم﴾ ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعم وأشمل . فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .
- ٣ - إن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة ، وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى ، الحكم الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها ؛ فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعدادده ، فإطلاق كلمة الله ﷻ وروح من الله ﷻ على عيسى ، يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير ، إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه ، واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله ﷻ ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم﴾ ﴿٢﴾ .

لا عبرة إلا بالحق

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٥﴾ كَذَابٍ ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٦﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٧﴾ قَدْ كَانَ

(١) رواه مسلم .

(٢) من الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَتِ الَّذِينَ اتَّكَفَأُ فِتْنَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى  
الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ تغنى ﴾ : أى تنفع . ﴿ وقود ﴾ : بفتح الواو أى حطب ونحوه و ﴿ الدأب ﴾ : العادة . من  
دأب على العمل إذا جد فيه وتعبد ثم غلب فى العادة . و ﴿ المهاد ﴾ : الفراش . يقال مهد الرجل المهاد إذا  
بسطه . و ﴿ الآية ﴾ : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

لما ذكر الله تعالى حال الراسخين الذين آمنوا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ،  
وأعلنوها صريحة مدوية لا لبس فيها ولا غموض ، وقالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ذكر بعد ذلك حال  
الكافرين ، ومنهم الذين فى قلوبهم زيغ فاتبعوا ما تشابه من الآيات ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وكان  
قصدهم مريضاً وهدفهم شراً مستطيراً ، ومن ثم : فإن لابن عباس رضى الله عنه كلمة فى محكم الكتاب  
ومتشابهة يقول فيها : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير لا يعذر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من  
لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

وعن مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال ، أن يكثروا  
لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذوه المؤمن يتغنى تأويله ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله  
والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ﴾ وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه ) .  
وعن رسول الله ﷺ : ( إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه  
فآمنوا به ) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ إخبار منه سبحانه بأن  
من كفر بالله وكذب بآياته ورسله لن ينفعه عند الله شىء ولن يغنيه ماله وولده فى دفع العذاب عنه ، فإنه كما  
قال سبحانه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (١) وكما قال جل شأنه : ﴿ ومن يشرك  
بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٢) وقوله : ﴿ فلا تعجبك  
أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون ﴾ (٣) وقد جاء الرد  
مفحماً لهم عندما قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ (٤) قال لهم سبحانه : ﴿ وما

(٣) الآية ٥٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٣٥ من سورة سبا .

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج .

أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿١﴾ فالمال والولد لا يغنيان شيئاً ، وما أجل ما دعا به إبراهيم الخليل ربه : ﴿ ولا تحزنى يوم يبعثون ﴾ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ ﴿٢﴾ وقد ردع القرآن هذا المفتري ، الذى ورد ذكره في قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿ كلا سنكتب ما يقول ونمده من العذاب مدا ﴾ ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴿٣﴾ ، فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالفقاعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ أى حطبها كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ ﴿٤﴾ .

عن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : ( هل بلغت ) يقولها ثلاثاً - فقام عمر بن الخطاب - وكان أواها - فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجاهدت ونصحت فاصبر !! فقال النبي ﷺ : ( ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى موطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن فيقرؤونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟؟ فما في أولئك من خير ) قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : ( أولئك منكم هم وقود النار ) ﴿٥﴾ .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أى صنيع هؤلاء الكفار وحالهم وشأنهم ؛ مثل ذلك كله كصنيع آل فرعون وحالهم وشأنهم ، فالكل مكذب بآيات الله مستحق لعقابه ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ أكفركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴿٦﴾ ، فكما كان مصير آل فرعون ، فسوف يكون مصير هؤلاء المكذبين على كر العصور والدهور ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ﴿٧﴾ . ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ ﴿٨﴾ ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴿٩﴾ ، ﴿ قد خلعت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ ﴿١٠﴾ . ﴿ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ ﴿١١﴾ نعم إن الذنوب تهلك الأمم ، وتلبسها لباس الخوف والجوع ، قف كثيراً عند قوله جل شأنه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم

(٧) من الآية : ٦٢ من سورة الأحزاب .

(٨) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٩) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(١٠) الآية : ١٣٧ من سورة آل عمران .

(١١) الآية : ٢١ من سورة غافر .

(١٢) الآية : ٦ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٣٧ من سورة سبأ .

(٢) الآيات : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

(٣) الآيات : ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من سورة مريم .

(٤) الآية : ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) رواه مسلم .

(٦) الآيات : ٤١ - ٤٦ من سورة القمر .



وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿١٢﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ؛ إنه قوى شديد العقاب ﴾ (١) وشدة عقابه هي العدالة التي لا يشوبها ظلم ، فإنه تعالى يهمل ولا يهمل ، اقرأ قوله جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٤) .

إن الظلم لا يدوم ! وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق باقية حتى قيام الساعة .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعو عليك وعين الله لم تنم

قال سبحانه في الحديث القدسي الجليل : ( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ) (٥) .

قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ جاء في سبب نزول تلك الآية الكريمة ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه قال : إن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله ﷺ للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبي الأُمى الذي بشرنا به موسى وفي التوراة نعتة وهُموا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت .

وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا له : لا يغرنك أنك لقيت قوماً أعماراً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أننا نحن الناس فنزلت (٦) .

في هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد وويل وثبور . جاء هذا التهديد للكافرين ، ومنهم اليهود الذين غرتهم أموالهم وأولادهم ، فحسبوا أن الماديات مقاييس للنصر ، ونسوا أن في السباء مملكة ، وأن للكون إلهاً ، من خصائصه أنه يقول للشيء كن فيكون ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ولقد جاء هذا الإنذار بأنهم سيغلبون في الدنيا بأيدي الجماعة المؤمنة والفئة الموحدة : إنه إنذار لهم بأنهم سيغلبون في الدنيا وسيحشرون في الآخرة إلى جهنم ، وبئس المهاد جهنم ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ (٧) .

(٤) من الآية : ٥٩/ من سورة القصص .

(٥) من حديث رواه البخاري ومسلم .

(١) الآية : ٢٢/ من سورة غافر .

(٢) الآية : ١٠٢/ من سورة هود .

(٣) الآية : ١١٧/ من سورة هود .

(٦) وتمة كلام الرسول ﷺ : « فقد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم » من تفسير القرطبي عن ابن اسحاق ج ٤ ص ٢٤ .

(٧) الآية : ٤١/ من سورة الأعراف .

ولما كان القوم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات الملموسة فقد أقام لهم القرآن الكريم دليلا ماديا قاطعا على صدق ما قررته تلك الآية من حقائق ، وأثبتته من وعيد بالخزى في الدنيا والعذاب في الآخرة : قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ هاتان الفئتان فئة المؤمنين وفئة الكافرين ، التقتا يوم بدر ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ (١) . ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله . والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ (٢) .

وموضع العبرة أن المسلمين قبل نزول المعركة كانوا يرون المشركين قلة ! هكذا أراد الله حتى لا يشتد عليهم الموقف فينتابهم شيء من الضعف ، وكان المشركون كذلك قبل المعركة يرون المسلمين قلة ! أراد الله ذلك حتى يطمعوا في قتالهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ (٣) . وبعد وقوع المعركة والتحام الصفوف ، كان المشركون يرون المسلمين مثليهم رأى العين ، أى رؤية لا خداع فيها ، وذلك ليقذف الله الرعب في قلوب أعدائه ، وتم النصر لأولياء الله ، كما أحاطت الهزيمة بأعداء الله .

فليست العبرة بالقوى المادية ؛ إذ النصر الحقيقي لا يملكه إلا من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فإليه يرجع الأمر كله : قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴿ (٤) . . صدقت ربنا وقولك دائما صدق : ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ .

نعم إنهم أصحاب الأفئدة المستنيرة والقلوب الباصرة ؛ التى تدرك حكمة الله فى الأشياء ، فتسلك ببصرها مدارج الأنوار ، وتقف على حقائق الأسرار ، وتحيا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

### متاع الحياة الدنيا

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَآبِ ﴿١٤﴾

المفردات :

﴿ الشهوات ﴾ : واحدها شهوة ، وهى رغبة النفس فى الحصول ، والمراد بها المشتبهيات كما يقال :

( ٣ ) الآية : ٤٤ من سورة الأنفال .

( ٤ ) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الأنفال .

( ١ ) من الآية : ١٩ من سورة الحج .

( ٢ ) الآية : ٧٦ من سورة النساء .

هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهي ، ﴿ والأنعام ﴾ واحدا نعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة . و ﴿ المسومة ﴾ : هى التى ترعى فى الأودية والقيعان و ﴿ الحرث ﴾ الزرع والنبات .

هذه الآية الكريمة اشتملت على ستة أمور سماها الله تبارك وتعالى الشهوات ، والشهوات كل ما تشتهي النفس ، فإن سار فى طريق الله هذا الأمر وسلك سبيل الخير كان حبا خيرا ، أما إذا انحرف المسار عن طريق الجادة فقد هوى صاحبها ، لأن غضب الله قد حل عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ <sup>(١)</sup> فحب النساء إن كان فى حدود ما شرع الله فى الحياة الزوجية فهو نعمة من نعم الله ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ <sup>(٢)</sup> أما إن كان ذلك فى طريق الغواية ، كالتخاذن والمسافة ، فهو وقوع فى الرذيلة ، وهبوط إلى مستقع آسن ، وما قيل فى حب النساء يقال فيها بعدها من البنين والمال ، فقد قال ﷺ : ( نعم المال الصالح للعبد الصالح ) أما إذا أدى المال إلى الشح والبخل والجبروت فبشر صاحبه بعذاب أليم قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم \* يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ <sup>(٤)</sup> وحب البنين الذى جاء بين حب النساء وحب المال : إن كان لتقواهم وصلاحهم وجهادهم فى سبيل الله وما يقدمونه من نفع للإسلام فذلك خير عظيم ، أما إن كان هذا الحب مجبنة مبخلة ، أى داعيه إلى الجبن والبخل ، فذلك شر مستطير ، وقل فى ذلك ما شئت من وجوه اللهو والبعد عن الله ، بسبب كثرة الأولاد ، قال تعالى على لسان الكافرين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعدين ﴾ <sup>(٥)</sup> . فإن كانت الأولاد ستغرى الوالد وتطمعه فى الاعتداء على الآخرين ، فقد صار الأمر منذرا بالخطر ، وما قيل فى حب النساء والبنين والمال ، يقال فى الخيل والأنعام والحرث ، ولكن الحقيقة التى يجب أن يتبها الجميع لها : أن متاع الدنيا قليل ، وكما قال مولانا جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا \* أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وكما قال سبحانه : ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ <sup>(٧)</sup> ، أى الحياة الكاملة الباقية الخالدة ، أما المرجع الحسن والمال السعيد والمسكن الطيب فهو عند الله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٨)</sup> .

### فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشتري دنيا المني والضلال

(١) من الآية : ٨١ من سورة طه .

(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .

(٣) الآية : ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية : ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .

(٦) من الآية : ٩٦ من سورة النحل .

## الخير عند الله للمتقين

\* قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِيْنَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّٰبِرِيْنَ وَالصَّٰدِقِيْنَ وَالْقَانِتِيْنَ وَالْمُنْفِقِيْنَ وَالْمُسْتَغْفِرِيْنَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المفردات : النبأ والأنباء: لم يردا في القرآن إلا لاله شأن عظيم: والتقوى : هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . والرضوان : الرضا والمطهرة : الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية . والصبر : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله . والصدق يكون في القول والعمل والوصف . يقال فلان صادق في قوله وصادق في عمله وصادق في حبه و﴿القانتين﴾ : أى المداومين على الطاعة والعبادة و﴿المستغفرين بالأسحار﴾ : أى المصلين وقت السحور .

بعدما أخبر الله سبحانه بقوله ﴿والله عنده حسن المآب﴾ ذكر بعد ذلك تفصيلا لحسن المآب ، فخطب نبيه ومصطفاه ﷺ بقوله ﴿قل﴾ أى أخبرهم يا محمد بما هو خير مما تقدم من حب الشهوات الذى ذكر مفصلاً ، من النساء والبنين إلى آخره ، إنه الخير الكبير الذى أعده الله للمتقين من النعيم الحسى والمعنوى ، فقد تمثل النعيم الحسى فى جنات تجرى من تحتها الأنهار والأنهار فى الجنة كما بينها الله تعالى فى قوله : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ (١) ويكمل نعيم الجنة بالخلود فيها، فهذا هو معنى الأمن ، إذ لا فرع ولا قلق ولا طرد ، كذلك يتمثل النعيم المادى فى الأزواج المطهرة ، والطهارة هنا بمعناها الواسع : حسية من الفضلات والإفرازات ومعنوية بطهارة القلوب من الحقد والحسد والبغضاء ، قال سبحانه : ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ (٢) ثم يأتى بعد ذلك النعيم المعنوى عندما يقول الله تعالى لأهل الجنة : أرضيتم فيقولون وكيف لا نرضى ياربنا وقد آتيتنا ما لم تؤت أحداً من خلقك ، فيقول أنا أعطيكم أكثر من هذا ، أحل عليكم رضوانى الذى لا أسخط بعده أبداً ، وهذا مصداق قوله جل شأنه : ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ (٣) .

يامالك النفس قاصيها ودانيها	رضناك خير من الدنيا وما فيها
سوى رضاك فذا أقصى أمانيتها	فليس للنفس آمال تحققها
خير إلى من الدنيا وما فيها	فنظرة منك يأسؤلى ويأملى

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ دليل على أنه سبحانه حكيم يعطى الخير لأهله ، فمن رضى فله الرضا ، قد تنزه سبحانه عن العبث ، وقد منح هؤلاء العباد النعيم في أكرم صورة ، فهم الذين قالوا : ﴿ ربنا آمنا ﴾ وهم الذين دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يقيهم عذاب النار ، إنهم الذين وصفهم سبحانه بالصبر والصدق والطاعة وإنفاق المال في سبيل الخير والاستغفار وقت السحر .

كان النبي ﷺ يأمر أصحابه بالتوبة والاستغفار فيقول : ( أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره في اليوم مائة مرة )<sup>(١)</sup> .

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وقد ورد في الحديث ما يبين فضل الاستغفار في الأسفار ، وثبت في الصحيحين عن جماعة من الصحابة : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » وفي الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « . . من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فأنتهى وتره إلى السحر » .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يصلى من الليل ثم يقول : « يانافع<sup>(٢)</sup> هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ! أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح » ، وعن إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه<sup>(٣)</sup> . . . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة .

### الوحدانية الخالصة

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِثَايِتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١) متفق عليه .

(٢) نافع هو غلام عبد الله بن عمر وأحد أفراد سلسلة الذهب في أسانيد الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) خير نافع وابن حاطب رواهما القرطبي في التفسير ج ٤ ص ٣٩ ، ٤٠ .

المفردات: يقال: ﴿شهد﴾ الشيء وشاهده إذا حضره كما قال ﴿وما شهدنا مهلك أهله﴾<sup>(١)</sup> وقال: ﴿فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾<sup>(٢)</sup>. والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم، إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهى الحجة والبرهان، و﴿أولوا العلم﴾ هم أهل البرهان القادرون على الإقناع، وهم يوجدون فى هذه الأمة وفى جميع الأمم السالفة ﴿بالقسط﴾ أى بالعدل فى الدين والشريعة، وفى الكون والطبيعة و﴿الدين﴾ له فى اللغة عدة معان: منها الجزاء، والطاعة والخضوع، ومجموعة التكاليف التى بها يدين العباد لله، وما يكلف به العباد يسمى شرعاً باعتبار وضعه وبيانه للناس، ودنيا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع، وملة باعتبار أنها كتبت و﴿الإسلام﴾ يأتى بمعنى الخضوع والاستسلام، وبمعنى الأداء تقول أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى الدخول فى السلم أى الصلح، والسلامة، وتسمية الدين الحق إسلاماً يناسب كل هذه المعانى.

و﴿حاجوك﴾: جادلوك و﴿أسلمت﴾: أى أخلصت و﴿الأميون﴾ مشركو العرب واحداهم أمى نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ﴿البلاغ﴾: أى التبليغ للناس.

روى الامام أحمد باسناده إلى الزبير بن العوام: قال: سمعت النبى ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ (وأنا على ذلك من الشاهدين يارب)<sup>(٣)</sup>.

هذه أعظم شهادة فى الإسلام وإنما خص الملائكة وأولى العلم تشريفاً لهم وتكريماً، قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبىون من قبل لا إله إلا الله)<sup>(٤)</sup> وكل المخلوقات من العرش إلى الفرش لو سألتها من خالقك ل قالت بلسان الحال والمقال أنا مخلوقة للواحد الديان.

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنيئة كالحىال  
فكل الكائنات غداً ستفى ويبقى وجه ربك ذى الجلال

وعجبت لمن أنكر الوحداية، وهذا الكون باتساقه وانسجامه؛ ينطق بلسان اليقين: ﴿لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) من الآية: ٤٩/ من سورة النمل.

(٢) من الآية: ٨٥/ من سورة البقرة.

(٣) روى الإمام القرطبى عن الكلبي، قال: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أجبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبى الذى يخرج فى آخر الزمان! فلما دخلا على النبى ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالوا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالوا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها أمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: «سلا». فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله. فأنزل الله تعالى نبيه ﷺ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ. أهـ ٤١ ص.

(٤) متفق عليه.

(٥) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حي يا قيوم أنت المرتجي      وإلى علاك عنا الجبين الساجد

قال غلب القطان : أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ؛ فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة ، فقام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ \* إن الدين عند الله الإسلام ﴿ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهي لى عند الله وديعه ﴾ \* إن الدين عند الله الإسلام ﴿ قالها مرارا قلت : لقد سمع فيها شيئا ، فغدوت إليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إني سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة وكتب على بابه ذلك اليوم فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة قال : حدثني أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ( يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلى وأنا أحق من وفى بالعهد ادخلوا عبدى الجنة ) (١) .

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي بين الله فيها صفات المتقين من الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار ، لأن هؤلاء الذين اتصفوا بتلك السجايا الحميدة من أوائل الموحدين الشاهدين لله بأنه الواحد في ذاته ، فلا قسيم له ، الواحد في صفاته فلا شبيه له ، الواحد في أفعاله فلا شريك له ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخير ، وملك فقدر ، تنزه عن الشريك ذاته ، فهو الذى له الأمر كله ، و ﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٢) تقدرت عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل ، هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ (٣) : ﴿ له ملك السماوات والأرض يحى ويميت وهو على كل شىء قدير ﴾ (٤) ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ قائما بالقسط ﴾ حال لازمة وصفة ثابتة لله جل شأنه فهو المهيمن على هذا الكون بالعدل فكل فعله مبنى على الحكمة ، والقسط فى حق الله هو العدل المطلق ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (٦) ثم قال سبحانه : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أى أن كلمة التوحيد هى العدل نفسه وأن الشرك هو الظلم عينه ، قال لقمان

(١) رواه القرطبي في تفسيره ج ٤ ص ٢٤ وقال : غالب القطان وثقة أحمد بن حنبل ابن معين وأبو حاتم ، ثم قال : حسبك أن خرج له البخارى ومسلم في كتابيهما : روى من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : « من قرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو وملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة » وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنبا أو صنمان ، فلما نزلت هذه الآية أصبحت هذه الأصنام قد خرت ساجدة ... ٥١ .

(٢) من الآيتين ٧٠ ، ٨٨ من سورة القصص .

(٣) من الآية ٣ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٢ : من سورة الحديد .

(٥) الآية ٦ : من سورة الحديد .

(٦) الآية ٩٠ : من سورة النحل .

لابنه : ﴿ يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 ﴿ العزيز ﴾ : هو القاهر الغالب ، الذي لا يقهر ولا يغلب ، الحكيم : أى المنزه عن العيب ، المبرأ من  
 الظلم ، الحكم العدل المقسط .

قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد  
 وتحت لواء واحد ، هو الإسلام ، قال تعالى حكاية عن نوح يقول لقومه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر  
 إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال حكاية عن إبراهيم ويعقوب : ﴿ ووصى بها  
 إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ \* أم كنتم شهداء إذ  
 حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق  
 إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال سبحانه : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم  
 وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد  
 منهم ونحن له مسلمون ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال حكاية عن يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وقال  
 حكاية عن موسى وقومه : ﴿ ويا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ <sup>(٧)</sup> وقال حكاية عن  
 سليمان وملكة سبأ : ﴿ أن لا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين ﴾ <sup>(٨)</sup> ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إني ظلمت نفسى  
 وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ <sup>(٩)</sup> وقال مخاطباً عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى  
 وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ <sup>(١٠)</sup> وقال عن النبيين : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم  
 بها النبيون الذين أسلموا ﴾ <sup>(١١)</sup> وبشر أمة محمد ﷺ بأربع بشرى فى حجة الوداع : أولها ﴿ اليوم يش  
 الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ <sup>(١٢)</sup> وثانيها : ( اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ <sup>(١٣)</sup> وثالثتهما :  
 ( وأتممت عليكم نعمتى ﴾ ورابعها : ﴿ ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وإذا كان الله قد أكمل دينه فدين الله  
 ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لا تنقص أبداً ، وإذا كان قد رضى لنا  
 الإسلام ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ وقد حسم القرآن الموقف حسماً لا يقبل جدلاً حيث قال  
 تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ <sup>(١٤)</sup> اللهم إنا نشهدك  
 ونشهد ملائكتك وحمة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ونبيك  
 ورسولك ، رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى  
 وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ولا ترغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة : « اللهم لك الحمد  
 أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات

(٨) - الآية : ٣١ من سورة النمل .

(٩) من الآية : ٤٤ من سورة النمل .

(١٠) الآية : ١١١ من سورة المائدة .

(١١) من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .

(١٢) من سورة الآية : ٣ من سورة المائدة .

(١٣) من الآية : ١٤ من سورة الجن .

(١٤) من الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .

(١) من الآية : ١٣ من سورة لقمان .

(٢) من الآية : ٢٥٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٧٣ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .

(٦) من الآية : ١٠١ من سورة يوسف .

(٧) من الآية : ٨٤ من سورة يونس .



والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق والنبون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ولك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي ؛ لا إله إلا أنت »<sup>(١)</sup> « نامت العيون وأنت الحي القيوم لا تأخذك سنة ولا نوم أغلقت الملوك أبوابها وبابك لا يغلق أستحي أن أسألك وأنا أنا ، ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ، إن كانت ذنوبي لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية »<sup>(٢)</sup> .

يامن يجيب العبد قبل سؤاله      ويجود للعاصين بالغفران  
وإذا أتاه الطالبون لعفوه      ستر القبيح وجاد بالإحسان

ما بالكم يا قوم في غفلة عن الله ، والله يقول في كتابه : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون \* لاهية قلوبهم ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ ويقول : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ \* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون \* أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون \* أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾<sup>(٤)</sup> . ألم تقرأوا قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾<sup>(٥)</sup> . لما كانت الساعة متحققة الوقوع عبر عن وقوعها بالفعل الماضي ( أتى ) كأنها قد وقعت وعبر عنها بالاقتراب فقال : ( اقتربت الساعة وانشق القمر )<sup>(٦)</sup> .

ياأخا الاسلام :

تزود من التقوى فإنك لا تدري      إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً      وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري  
وكم من عروس زينوها لزوجها      وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر  
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم      وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر  
وكم من صحيح مات من غير علة      وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

قوله تعالى : ﴿ وما يختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ هذا إخبار من الله جل جلاله عن الدافع النفسى الذى دفع أهل الكتاب إلى الاختلاف على أنبيائهم والخروج على شرائعهم وشعائهم ، فقد تقرر أن الدين عند الله الإسلام ، فما السر في اختلاف هؤلاء ؟ ! إن السر هو البغى والحسد الذى وقع بين رؤسائهم وملوكهم وأحبارهم ورهبانهم ، فقد بغى بعضهم على بعض ، طلبا للرياسة ، ولما هاجت عقارب البغضاء في صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد في نفوسهم ؛ تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، واختلفوا في طبيعة المسيح : أهو الله أم هو ابن الله ؟ هل الإله شركة مساهمة : الأب والابن والروح القدس ؟ ! وانقسموا إلى يعقوبيين وملكانيين وشمعونيين ومارونيين : قال تعالى : ﴿ إن الذين

( ١ ) من أدعية الرسول ﷺ إذا قام الليل ذكرها التوى في الأذكاء والكاندهلوى في حياة الصحابة . ( ٤ ) الآية الأولى من سورة النحل .

( ٢ ) الآيات الأولى من سورة الأنبياء .

( ٣ ) الآيات من : ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون ﴿١﴾ ثم وجه حبيبه ومصطفاه إلى أن يعلنها في سمع الزمان صريحة مدوية : ﴿ قل إنني هداة ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيميا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ﴿٢﴾ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين \* لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿٣﴾ قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿٤﴾ . لقد بلغ من اختلافهم المبني على الحسد والحقد أنهم كانوا يبشرون ببعثة النبي محمد ﷺ ؛ فلما جاء عربياً قرشياً ، قالوا كنا نطمع أن يكون منا من بنى إسرائيل ، فناصبوه العداة وتآمروا مع المشركين على حربته : قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ \* بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين \* وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ هذا حكم من الله على الذين جحدوا آياته وأنكروا آلاءه وكفروا بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة التي قامت في الآفاق والأنفس ، وسواء أكانت الآيات هنا آيات تكوينية أم تشريعية ﴿٥﴾ ، فإنها دالة على وحدانية الله وقدرته ، فمن كفر بها فسوف يحاسب حساباً عسيراً ، وسوف يدعو ثبورا ﴿٦﴾ ويصلى سعيراً ، فإن الله سريع الحساب ، وإن الله حكم حكماً عادلاً إذ يقول : ( ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ) ﴿٧﴾ .

هؤلاء الذين اختلفوا على شرائع أنبيائهم من أهل الكتاب ، وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً ؛ إن جاءوك يجادلوك فماذا أنت قائل لهم ؟ لقن الله تعالى نبيه ماذا يقول لهم : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى إن جادلوك فلا تجادلهم فإن جدالهم مبنى على العناد والكبر ، ولكن قل لهم : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾ أى أخلصت إسلامى وانقيادى لله وحده ، ثم ماذا ؟ قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾ أى وجه هذا الأمر الذى جاء فى صيغة الاستفهام ﴿ أأسلمتم ﴾ أى قل لهؤلاء الذين اختلفوا على الأنبياء بغياً وحسداً ، وقل للأميين من مشركى العرب : قل لهم أسلموا ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ إلى صراط الله المستقيم ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿٨﴾ . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع

( ٦ ) الثبور: الويل والهلاك بعد الندم على ما تقدم من حابط العمل .

( ٧ ) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

( ٨ ) من الآيتين : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

( ١ ) الآية : ١٥٩ من سورة الأنعام .

( ٢ ) الآيات : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

( ٣ ) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .

( ٤ ) الآيات : ٨٩ - ٩١ من سورة البقرة .

( ٥ ) الآيات التكوينية ما كان من عجب صنع الله فى خلق السموات والأرض وما فيهن . والآيات التشريعية ما كان مما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وحدود لتنظيم معاشهم والاستعداد لمعادهم .

بيننا وإليه المصير \* والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب لهم حاجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴿١﴾ . ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ ﴿٣﴾ .

إن الله تعالى يريد بهذه الآيات أن يرفع المشقة عن نبيه ﷺ ويدفع الأسى الذي كان يعانيه من شدة حرصه على إيمان هؤلاء فيقول: ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ﴿٤﴾ ويقول : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ \* إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين \* وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعملون \* ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين \* إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿٥﴾ .

ويقول تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ \* ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين \* وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ \* إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى مطلع على خفايا النفوس عليم بذات الصدور .

يا من يرى مد البعوض جناحه	في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويسرى نياط عروقها في نحرها	والخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها	في قاع بحر زاهر متجندل

﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ ﴿٧﴾

الله يدرى كل ما تضمّر	يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع	خداع من يطوى ومن يشتر

### جزاء عادل

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ

(٥) الآيات : ٣٦ - ٤٠ من سورة النحل .

(٦) الآيات : ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنعام .

(٧) الآية : ٧ من سورة طه .

(١) الآية : ١٥ ، ١٦ من سورة الشورى .

(٢) الآية : ٩٩ من سورة المائدة .

(٣) من الآية : ٨ من سورة فاطر .

(٤) من الآية : ٢٧٢ من سورة البقرة .

بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ وَمَالُهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿١٢﴾

المفردات : المرادب ﴿ الذين يكفرون ﴾ هم اليهود خاصة وقوله ﴿ بغير حق ﴾ أى بغير شبهة لديهم  
(حبط العمل) : بطل . و (البشارة والبشرى) : الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر  
جاء على طريق التهكم والسخرية .

ما جزاء هؤلاء القوم الذين قتلوا أنبياء الله ، وقتلوا الذين يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر من  
المصلحين ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾ (١) . . قتلوهم كبراً وبطراً بغير  
حق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

لقد وردت عن الصادق المعصوم عليه السلام أحاديث حول قتلهم الأنبياء واستهتارهم ، هذه الأحاديث تنفطر  
القلوب لهولها ، وتنخلع الأفتدة أسى ولوعة ، وتسيل الكبد لها مرارة :

عن عبدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال  
( رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ) . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله  
ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرهم بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ثم قال رسول  
الله ﷺ يا أبا عبدة : قتل بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون  
رجلاً من بنى إسرائيل فأمرؤا من قتلهم بالمعروف ونهؤهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك  
اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل ) . رواه ابن جرير . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتل  
بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره « لقد حكم الله على هؤلاء بأحكام قال  
فيها : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون  
النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٢) وقال سبحانه : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا  
بجبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات  
الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٣) .

جنايات يندى لها جبين البشرية حياةً وخجلاً : كفر بآيات الله وقتل لأشرف الخلق ؛ لأنبياء الله  
والأميرين بالمعروف ؛ وعصيان لأوامر الله ، واعتداء على محارم الله وإساءة أدب مع الله تعالى . . . ألم  
يقولوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ (٤) . ألم يقولوا ؟ : ﴿ يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل  
يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾ (٥) . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما

(٤) من الآية : ١٨١ من سورة آل عمران

(٥) من الآية : ٦٤ من سورة المائدة .

(١) من الآية : ٣٩ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ٦١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ١١٢ من سورة آل عمران .

قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق \* ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿١﴾ .

واسمع معي إلى تلك الصحيفة المليئة بالجنايات التي اقترفوها ، قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتيناهم موسى سلطاناً مبيناً \* ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً \* فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً \* ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً \* وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا \* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً \* وإن من أهل الكتاب ألا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً \* فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً \* وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ (٢) .

فكانوا جديرين بأن يبشرهم الله بعذاب أليم ويحبط أعمالهم في الدنيا والآخرة ( وما لهم من ناصرين ) ينصرونهم من دون الله .

### الإعراض عن حكم الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ ألم تر ﴾ : استفهام لتعجب النبي ﷺ من حالهم . ﴿ الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ : هم اليهود و ( النصيب ) : الحظ و ﴿ الكتاب ﴾ : التوراة ﴿ ليحكم بينهم ﴾ : أى ليفصل بين اليهود والداعى لهم وهو النبي ﷺ و ( التولى ) : الإعراض بالبدن و ( الإعراض ) يكون بالقلب و ( الافتراء ) الكذب و ( اليوم ) : هو يوم الحساب والجزاء . ﴿ ما كسبت ﴾ : أى ما عملت من خير أو شر .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « دخل رسول الله ﷺ بين المدراس ( مدرسة اليهود لدراسة التوراة ) على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت

( ١ ) الآيتان : ١٨١ / ، ١٨٢ من سورة آل عمران

( ٢ ) الآيات : ١٥٣ / - ١٦١ من سورة النساء .

يا محمد ؟ قال : ( على ملة إبراهيم ودينه ) قالوا : فإن إبراهيم كان يهودياً ، فقال لهما رسول الله ﷺ :  
( فاهلموا إلى التوراة فهي بيننا وبينكم ) فأنزل الله الآية .

وهذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها مدى ما عليه اليهود من إعراض عن الحق ونكوص عن الدعوة إلى الله ، هؤلاء الذين أوتوا جزءاً من التوراة ؛ إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليحكموه فيها شجر بينهم ، كانوا إذا لم يكن الحكم على هواهم تولوا ، وانصرفوا بالأبدان وأعرضوا بالقلوب ، وقد حذر الله تعالى نبيه ﷺ من أفعالهم فقال : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم \* سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ (١) .

هؤلاء القوم كانت لهم جرأة على الحق ، وكانوا مصابين بالصلف والكبرياء بعدما امتلأت نفوسهم وقلوبهم خداعاً وغروراً ، أعرضوا عن حكم الله وعن الرضا بما حكم ، وأعرضوا عن قبول الحق لأنهم قالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة ﴾ (٢) وهي الأيام التي عبدوا فيها العجل والتي قال الله فيها : ﴿ وإذ أاعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وغرهم في دينهم ماكانوا يفترون ﴾ أى إن هؤلاء القوم بلغ من ضلالهم : أن الأمر الذى كانوا يفترونه في دينهم من قولهم ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (٤) ومن زعمهم أن لهم بالأنبياء صلة قرابة ونسب . كل ذلك غرهم وهذا محض افتراء ، فإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ؛ ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لكل عاص ؛ ولو كان شريفاً قرشياً . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون \* فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ (٥) فهؤلاء القوم الذين غرهم افتراؤهم في دينهم : ﴿ وقالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ (٦) إنهم بافترائهم في الدين يكونون قد ضربوا أسوأ الأمثال في الانحطاط الخلقي ويكونون قد تبوءوا مستنقاعاً عفناً من الرذائل ، ولذا قال تعالى بعد ذلك بأسلوب التعجب ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ إنه يوم القيامة يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً . قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حمياً \* يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التي تؤويه \* ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه \* كلا إنها لظى ﴾ (٧) .

إن الله تعالى خاطب هؤلاء القوم الذين اغتروا بافترائهم في دين الله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، فقال لهم مولانا : ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين \* واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعاة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾ (٨) .

(٥) الآيات : ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٦) من الآية : ٧٥ من سورة آل عمران .

(٧) الآيات : ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .

(٨) الآيات : ٤٧ ، ٤٨ من سورة البقرة .

(١) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة المائدة .

(٢) من الآية : ١٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٨٠ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ١٨ من سورة المائدة .

نعم ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعِقَةُ﴾ يوم يفر المرء من أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبته وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿<sup>(١)</sup>﴾ قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه . . إلى ریحانته فاطمة : ( يا فاطمة بنت محمد : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا عباس يا عماء : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة محمد : اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً ) <sup>(٢)</sup> .

ليس هناك في دين الله ما يسمى بشعب الله المختار ، فالناس جميعاً عبيد الله وهو ربهم ، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى ، وليس هناك ما يقال نحن أبناء الله وأحباؤه ، بل ميزان العدالة عند الله : ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) <sup>(٣)</sup> وليس في منطق العدالة الإلهية ما يقال : إن لنا نسباً بالأنبياء ، بل إن هناك المنطق القرآني العادل : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى \* وإبراهيم الذي وفى ﴾ \* أن لا تزرر وازرة وزر أخرى \* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى \* وأن سعيه سوف يرى \* ثم يجزاه الجزاء الأوفى \* وإن إلى ربك المنتهى ﴾ <sup>(٤)</sup> .

إن الولد يوم القيامة يلقي والده ويقول له يا أبت لقد كنت بك براً وإليك محسناً وعليك مشفقاً فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول والده : يا بني ليتني أستطيع ذلك إنني أشكوكما منه تشكو !! صدقت يا ربنا ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(٥)</sup> . ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ <sup>(٦)</sup> . ( ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين ) <sup>(٧)</sup> وتلقى الأم ولدها يوم القيامة فتقول يا بني : لقد كان بطني لك وعاء وثدي لك سقاء وحجري لك غطاء ؛ فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ . فيقول : يا أماء ليتني أستطيع ذلك إنني أشكوكما منه تشكين . . هذا هو منطق العدالة الإلهية : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ <sup>(٨)</sup> .

### الله مالك الملك

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْخِلُ مَنْ تَشَاءُ فِي الْحَيَاتِ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمَاتِ وَتُخْرِجُ الْمَمَاتِ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الملك ﴾ : السلطة والتصرف في الأمر ﴿ بيدك الخير ﴾ الخير كله تتصرف فيه أنت وحدك ( الولوج ) : الدخول ( الإيلاج ) : الإدخال .

( ٥ ) من الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .

( ٦ ) من الآية : ١٧ من سورة غافر .

( ٧ ) من الآية : ٤٧ من سورة الانبياء .

( ٨ ) من الآية : ١٨ من سورة فاطر .

( ١ ) الآيات : ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس .

( ٢ ) رواه الشيخان .

( ٣ ) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .

( ٤ ) الآيات : ٣٦ - ٤٢ من سورة النجم .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله الآية<sup>(١)</sup> .

وهاتان الآيتان ناطقتان بالجلال والعظمة لملك الملك ، فبعدما أخبرنا سبحانه بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه ، أخبر هنا بأنه الملك المتصرف بمشيئته وحكمه فهو يؤتى الملك من يشاء ، كما آتاه لداود وسليمان ، وينزع الملك ممن يشاء ، كما نزع من القياصرة والجبابرة والأباطرة ، وغيرهم من عاد وثمود وفرعون والنمرود ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحبى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول الله تعالى عن ملك مصر فرعون ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾<sup>(٣)</sup> قال تعالى بعد ذلك فى سورة الدخان ﴿ كم تركوا من جنات وعيون \* وزروع ومقام كريم \* ونعمة كانوا فيها فاكهين \* كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾<sup>(٤)</sup> فاللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، ومن الفقر بعد الغنى ، ومن الضلالة بعد الهداية ، نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين .

وكما أن مولانا جلت قدرته ، مالك الملك وملك الملوك ، يؤتى الملك وينزعه ، فهو الذى يعز من يشاء بالطاعة ، ويذل من يشاء بالمعصية .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى      تقلب عرياناً ولو كان كاسياً  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فى من كان لله عاصياً

لقد أعز الله الحبيب محمداً بالرسالة، وأذل عبد الله بن أبى بن سلول بالنفاق ولما قال ابن أبى : لئن رجعت إلى المدينة لأخرجن محمداً منها ذليلاً وأنا العزيز !! قال الله تعالى : ﴿ والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾<sup>(٥)</sup> .

فليعلم جبابرة الأرض أن دوام الحال من المحال ، وأن العدل أساس الملك ، وأن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفذ ، وأن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، وأن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت

( ١ ) ورواه القرطبى عنهما ج - ٤ ص ٥ ، وإن ذكر روايات أخرى كاسباب للنزول ، منها دفع باطل نصارى نجران إذ قالوا : إن عيسى هو الله

وروى عن معاذ بن جبل تعليم النبى ﷺ قراءة هاتين الآيتين عند الدين فإن سبحانه كفيل بالتوسعة لسداد الدين وقضائه وخرج أبو نعيم كما روى مثله عطاء الخراسانى عن معاذ .

( ٢ ) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

( ٣ ) الآية : ٤٠ من سورة القصص .

( ٤ ) الآيات : من ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان ، أما : ﴿ فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم ﴾ كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴿

فهى الآيات : ٥٧ - ٥٩ من سورة الشعراء .

( ٥ ) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .



جفت ، وكم من قبور تبني وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا .. مات (١) .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخصاً وأشكالاً تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ أى أنت المتصرف ، فالخير كله بيدك ، لا يملكه غيرك ، وأنت الذى يحار الفهم فى قدرتك لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، ومن مظاهر تلك القدرة الباهرة : أنك ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ ، من غيرك يستطيع ذلك ؟ أنت الذى تدخل جزءاً من الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وتدخل جزءاً من النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار (٢) كرة معلقة فى فضاء رهيب ، تدور حول نفسها فيكون الليل والنهار ، وتدور حول الشمس مرة كل عام فتكون الفصول الأربعة ، من غيرك يستطيع هذا يا من تحديد الجبال والطواغيت ، وقلت : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون \* ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ (٣) .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً	وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والإصباح والطير شاديا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمداً	فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت	أفى كونكم من يمسك الريح ناهياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم	سوى الله يجريه كما شاء راويا

ومن مظاهر القدرة الباهرة أنه سبحانه : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهذا الإخراج . قد يكون فى المعنويات مثل إخراج المؤمن من صلب الكافر ، وإخراج الكافر من صلب المؤمن ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل يقول : « سبحانه الله يخرج الحى من الميت » وقد يكون ذلك الإخراج فى المحسوسات ، كإخراج الخلايا الحية من الغذاء الميت وإخراج الإفرازات الميتة من الأجسام الحية .

ومن مظاهر مشيئتك الحكيمة أنك يا مولانا ترزق من تشاء بغير حساب ، أى بدون تعب ومشقة كما رزق الأمة الإسلامية بالبتروىل يجرى فى عروق الأرض .

( ١ ) يعرض الشيخ هنا عجائب الدنيا التى لا يدوم حال منها لصاحبه فإن الدنيا إذا حلت فى عين صاحبها آذنت بالوجل كناية عن الخوض فى أحوال المعاصى ، وإذا جلت من الجلوة وهو الشهرة آذنت بالوجل وهو الخوف ومداومة الاحداث ، وإذا كست صاحبها مظهرها براقاً أو كسته بالخيبة والخسران بعد حين ، وإذا أُنعت أى ازدهر حالها ، آذنت بالنعى وهو انقضاء النعمة والازدهار .

والقبور تبني ولا يتوب الناس وكم من مريض عدنا فلم بالموعظة وخوف المرض والموت ، واعلامهم فإن العلامهم نذير بالموت .  
( ٢ ) كما يفهم من الآية الحقيقة الكونية التى تتمثل فى قدوم الليل على النهار وقدوم النهار على الليل فلا ينسلخ أحدهما فجأة ولا يدخل فجأة وهو المعنى اللغوي للإيلاج وهو رأى ابن مسعود ، وما ذكر الشيخ هو رأى ابن عباس وبجاهد والحسن وقنادة والسدى .

( ٣ ) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

هذا وقد ورد لفظ الحساب في القرآن على ثلاثة أوجه :

- ١ - بمعنى التعب كما في هذه الآية .
- ٢ - بمعنى العدد كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).
- ٣ - بمعنى المطالبة كما في قوله : ﴿ فَاْمَنْنَ أَوْ أَمْسَكَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٢).

### ولاية الكافرين

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعْلِمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ يُحْذِرُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

المفردات : (الأولياء) واحدهم ولي وهو النصير . ﴿ تقاة ﴾ أى اتقاء وخوفا ﴿ ويحذركم ﴾ : أى يخوفكم و ﴿ أمدا ﴾ : المدة لها حد محدود . ﴿ محضراً ﴾ : أى حاضراً لديها .

روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون في الإسلام يغتروا بعزة الكافرين وقوتهم فيوالونهم ويركنون إليهم وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعي في البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبي الحقيق وقيس بن زيد من اليهود ؛ يلزمون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ؛ فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود . فأبى أولئك النفر إلا ملازمتهم . فأنزل الله الآية . وهذا نهى من الله تعالى موجه إلى الجماعة المؤمنة ، وهو إرشاد وتوجيه في نفس الوقت للجماعة المؤمنة أن تتخذ المؤمنين أولياء ونصراء ، وألا تتخذ الكافرين أصفياء ونصراء من دون المؤمنين ، فمن اتخذهم أولياء وأصفياء من دون المؤمنين ، فليس عمله هذا من طاعة الله في شيء ، إنما هو بعيد كل البعد إلا أن يكون ذلك تقية لدفع ضرر أو جلب منفعة للأمة .

قال الشيخ المراغى رحمه الله في تفسيره لهذه الآية : « أى لا يصطفِ المؤمنون الكافرين فيكاشفونهم

( ١ ) من الآية : ١٠ من سورة الزمر .

( ٢ ) من الآية : ٣٩ من سورة ص .

بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ، ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ في هذا تفضيل لهم عليهم ، وإعانة للكفر على الإيمان . وخلاصة هذا نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقربة أو صداقة جاهلية ، أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ؛ بل ينبغي أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم في دينهم من موالاة الكافرين . فإن كانت الموالاة والمخالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبي ﷺ خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته في أمور الدنيا ، ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين ، فليس من ولاية الله في شيء أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء في الآية الأخرى . ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاه ﴾ أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم في كل حال ؛ إلا في حال الخوف من شيء تتقونه منهم ، فلکم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشيء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفسد مقدم على جلب المصالح » وإن جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، وإذا فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة ، لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن تواليها في شيء يضر المسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف بل هي جائزة في كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية ؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق ، لأجل توقي ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال ، فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا ، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر ، حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها ، وقلبه ملىء بالإيمان وفيه نزلت الآية : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ <sup>(١)</sup> وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فتركه وقتل رفيقه الذى سألته هذا السؤال فقال إنى أصم « ثلاثاً » فقدمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : ( أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه ) ، وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة لا من أصول الدين المتبعة دائماً ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال : ﴿ فلا تحشوا الناس واخشون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) الآية : ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحملون الأذى في سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل في التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة ، ولين الكلام لهم والتبسم في وجوههم ، وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالة المنهى عنها ، بل هو مشروع ؛ فقد أخرج الطبراني قوله ﷺ : ( ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة ) ، وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده . . فقال رسول الله ﷺ : ( بش ابن العشيرة أو أخو العشيرة ) ثم أذن له فالان له القول ، فلما خرج ، قلت يا رسول الله قلت ما قلت ، ثم ألت له القول ! ؟ فقال يا عائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه » رواه البخاري ، وروى قوله ﷺ ( إنا لنكثير ) ( نبتسم ) في وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتقلبهم ) ( تبغضهم ) . ويحذركم الله نفسه ﴿ أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر ﴿ نفسه ﴾ الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى ، وهو قادر على إنفاذه ولا يعجزه شيء عنه . وفي ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالة أعدائه ؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقب وقدرته .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى وإلى الله مرجع الخلق وجزاؤهم فيجزى كلا بما عمل : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ، ولم يؤخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لهما . كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ (١) . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ، فهو يقدر على عقوبتكم فلا تجسروا على عصيانه وموالة أعدائه ، إذ ما من معصية خفية كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على عقاب فاعلها . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضرا لديها ، فيكون ذلك غبطة وسرورا لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتس مسيئة وتغتيم بما أساءت ، وتود أن ما عملت من سوء كان بعيدا عنها لم تره حتى لا تؤاخذ بجريته ، ومعنى كونه محضرا أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى احذروا من سخط الله ، بترجيح جانب الخير وعمله على ما يزينه لكم الشيطان من عمل سوء ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (٢) .

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ . قال الحسن البصرى : ومن رآفته أن حذرهم نفسه وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه ، ومن رآفته أيضا أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير ، مبغضة لما يعرض لها من الشر ، وأن جعل أثر الشرفى النفس قابلا للمحبة بالتوبة والعمل الصالح .

( ١ ) من الآية : ١٤ من سورة الملك .

( ٢ ) جزء من الآية : ٣١ من سورة النور .

## محبة الله في اتباع رسوله

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

المفردات : ( المحبة ) : ميل النفس إلى الشيء لكمال أدرسته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ﴿ يغفر لكم ﴾ . أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ : أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله ﷺ : كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (١) فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إني رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعوني وامثلوا أمرى يحبكم الله ويرضى عنكم .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله ... ﴾ قال عبد الله بن أبي ابن سلول : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى فنزل قوله : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول ﴾ أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته والاهتداء بهديه . وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعتة لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

وقد أخبر النبى ﷺ أنه : ﴿ لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ﴾ (٢) وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله ، فقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ (٣) وقال فى آيات أخرى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ﴾ خالد بن سعيد لا يجدون وليا ولا نصيرا \* يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ (٤) وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٥) وهنا لفتة طيبة فى قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ ولم يقل إذا دَعَاكُمْ أى الله ورسوله بغير المثني ، لأن دعوة الرسول هى من دعوة الله تعالى ، وقال تعالى : ( والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ (٦) ولم يقل أحق أن يرضوها ، لأن إرضاء الرسول من إرضاء الله ، وقال جل جلاله : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ (٧) . فمن تولى عن هذا وأعرض ، وأصر على الباطل ، واستكبر عن الحق وأعرض عن ذكر ربه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ الجاحدين للإيمان بالله والطاعة لرسوله .

(٥) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٦) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .

(٧) الأيتان : ٨ ، ٩ من سورة الفتح .

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .

(٢) رواه الشيخان .

(٣) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .

(٤) الآيات : ٦٤ - ٦٦ من سورة الأحزاب .

## إصطفاء الله

\* إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ  
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي  
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ  
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾  
فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا  
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ إِنِّي لِكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ  
يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

المفردات : ( الاصطفاء ) أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء و ( الذرية ) في أصل اللغة الصغار  
الأولاد ، ثم استعملت عرفا في الصغار والكبار للواحد ولأكثر من الواحد ، و ( النذر ) : ما يوجهه الإنسان على نفسه  
( المحرر ) : المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشيء آخر ، و ( التقبل ) : أخذ الشيء على وجه الرضا  
والقبول : ﴿ أعيذها بك ﴾ : أى أمنعها وأجيرها بحفظك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ،  
يقال : عاذ بفلان : إذا استجار به و ﴿ الرجيم ﴾ : أى المرجوم المطرود من الخير و ﴿ مريم ﴾ : بالعبرية خادم  
الرب و ﴿ تقبل الشيء ﴾ : وقبله أى رضيه لنفسه ﴿ وأنبتها ﴾ : أى رباها بما يصلح أحوالها ، ﴿ وكفلها  
زكريا ﴾ : أى وجعل زكريا كافلا لها وزكريا من ولد سليمان بن داود عليها السلام و ﴿ المحراب ﴾ هنا هو  
المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة في مقدمة المعبد ، لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة ،  
يكون من فيه محجوبا عن من في المعبد<sup>(١)</sup> ﴿ أنى لك هذا ﴾ : أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجذب  
﴿ بغير حساب ﴾ : بغير عد ولا إحصاء لكثرتة .

بعدما بين الله تعالى أن محبته مبنية على طاعة رسوله واتباعه ، ذكر هنا أنه ﴿ اصطفى ﴾ هذه الكوكبة  
الطاهرة ﴿ آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ فإيمان أنكرتم اصطفاء الله لخاتم الأنبياء حسداً وبغيا من  
عند أنفسكم ، يا من أنكرتم ذلك على رسول الله ﷺ لماذا أقررتم باصطفاء الله لأنبياء سابقين ؟ ! قال  
تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ \* ووهبنا له  
إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

( ١ ) والأصل اللغوى فى المحراب صدر المكان أو على مكان فيه ، أو خلوة العبادة .

وكذلك نجزي المحسنين \* وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين \* وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين \* ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم \* ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون \* أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين \* أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين \* ﴿١﴾ .

إن اصطفاء الله تعالى لآدم من وجوه كثيرة : فقد خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأدخله جنته ، وأهبطه منها لحكمة يعلمها سبحانه ، وتاب عليه وشرفه بالنبوة ، كما اصطفى نوحا بالرسالة وبداية الخلق ، وجعله أبا للبشرية بعد آدم ، وفتح به قلوبا غلغا وأرشد به الحائرين ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، كما اصطفى آل إبراهيم بجعل النبوة فيهم ، وآل عمران كذلك . . قوله تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أى إن هؤلاء الأنبياء سلائل بعضها يلد بعضاً ، أو يكون المقصود من هذا النص الكريم أنهم متمثلون في الأخلاق العلية والاصطفاء الرباني والرسالات السامية ، فهم نور على نور ، وأصولهم طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، قال عمران من آل إبراهيم ، وآل إبراهيم من نوح ، ونوح من آدم . ﴿ والله سميع عليم ﴾ فقد سمع دعاء امرأة عمران واسمها « حنا » وعمران هذا غير عمران الذى ورد ذكره في الآية السابقة في قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ فإيمان في تلك الآية هو أبو موسى وهارون ، وعمران في الآية التى بين أيدينا الآن هو أبو مريم وجد عيسى لأمه ، لقد نذرت أم مريم : إن رزقها الله بمولود لتجعله خالصا متفرغا لخدمة بيت المقدس . وسمع الله دعاءها لأنه السميع لأقوال عباده ، ﴿ يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾ ﴿٢﴾ . ﴿ فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ﴾ ورب العزة يقول : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ وهذا تعبير يقصد به تشريف ما وضعت حيث أسند علم الله إليه وهو العليم بكل شيء ، كما في قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾ ﴿٣﴾ . وكما في قوله جل جلاله : ﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ ﴿٤﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أى ليست هذه الحقيقة كتلك الحقيقة ، فقد يتحمل الذكر من المشاق واحتمال الكد ما لا تستطيعه الأنثى ، خاصة وأن المقام مقام خدمة وعمل في بيت المقدس قالت : ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ أى العبادة الخادمة لبيتك ، ولما رزق النبي ﷺ بإبراهيم ، قال : « لقد رزقت الليلة بمولود سميت إبراهيم » ، وفيه دليل على جواز تسمية المولود عندما يولد ، قالت امرأة عمران : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ وكان لقولها هذا بركة من عند الله ورعاية ، فقد لجأت إلى الله واستجارت به ليحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم واستجاب الله تعالى : فحفظ مريم وابنها من الشيطان : روى الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( كل بنى آدم ينخسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها ) ﴿٥﴾ .

(٣) من الآية : ٢٧٠ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٢٦ من سورة الكهف .

(١) الآيات : ٨٣ - ٩٠ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ٤ من سورة الأنبياء .

(٥) لفظ مسلم هكذا : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل إلا ابن مريم وأمها ، ثم قال أبو هريرة : أقرأوا إن شئتم : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾

فقبل الله مريم لخدمة بيته ﴿ بقبول حسن وأنتها ﴾ ورباها ﴿ نباتا حسنا ﴾ وضمها إلى زكريا فكفلها بعناية ورعاية ، وقد أجرى الله الخير على يديها ، ففي أيام القحط والجذب ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ﴾ وهو الذي يسوقه الله إليها من مأكّل ومشرب ، فيسألها زكريا سؤال تعجب ﴿ يا مريم أنى لك هذا ﴾ أى من أين لك هذا فتجيبه بلسان اليقين ومنطق الحق المين ﴿ هو من عند الله ﴾ ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (١) . ثم تضيف مريم قائلة : ﴿ إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فالمشيئة هنا مبنية على علم وحكمة و﴿ بغير حساب ﴾ أى بغير تعب ولا كد .

### مع زكريا ويحيى

هَنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَآذْكُرُّ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالنَّعْشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

المفردات:

﴿ الدرية ﴾ : الولد وتقع على الواحد وأكثر و ( الطيب ) : ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ﴿ سميع الدعاء ﴾ أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع . و﴿ كلمة الله ﴾ عيسى عليه السلام و( السيد ) : الرئيس الذى يسود قومه ( الحصور ) من الحصر (٢) وهو الحبس أى يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال . ﴿ من الصالحين ﴾ : أى من أصلاهم والصلاح صفة تجمع الخير كله ، ﴿ أنى يكون لى ﴾ أى كيف يحصل لى . ﴿ بلغنى الكبير ﴾ : أى أدركنى كبر السن وأثرنى ، ﴿ عاقر ﴾ : أى عقيم لاتلد . ﴿ آية ﴾ : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر . ﴿ ألا تكلم الناس ﴾ أى لاتستطيع الكلام . و( الرمز ) : أى الإشارة بيد أو رأس أو غيرها ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد ما يفيد الكلام ، ويدل على ما دل عليه ، و﴿ العشى ﴾ : البوقت من الزوال إلى الغروب . و﴿ الإبكار ﴾ : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

( ١ ) الآية : ٣ من سورة فاطر .

( ٢ ) والحصور الذى لا يأتى النساء كأنه ممنوع يكون فى الرجال : عن ابن مسعود وغيره وعن ابن عباس وابن جبر وقتاده وعطاء وغيرهم . الذى يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة ، واستحسن القرطبي الرأى الثانى لما فيه من مدح وثناء على يحيى : الجامع لأحكام القرآن : ج ٤ ص ٧٨ .



لما رأى زكريا ما رأى من صلاح مريم وتقواها ، والرزق الذى تكرم الله تعالى به عليها فى هذا المكان المبارك ، ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ : وكانت امرأته عاقرا . وقد كان طاعنا فى السن . قال تعالى فى سورة مريم : ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾ إذ نادى ربه نداء خفيا \* قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم أكن بدعائك رب شقيا \*<sup>(١)</sup> وفى سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ هنا لك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ .

فتأمل معى كيف وصف الذرية التى طلبها بالطيبة ، وفى سورة مريم قال : ﴿ واجعله رب رضيا ﴾<sup>(٢)</sup> إذ إن لم يكن طيبا رضيا كان وبالا على أهله . كان نبي الله داود يدعو الله فيقول : « أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعينني على أمر ديني ودنياي ، وأعوذ بك من مال يكون وبالا على ، ويستمتع به غيري ، ومن ولد يكون على سيدي ، ومن جار سوء ، ومن زوجة تشينني قبل المشيب » .

لقد وصف زكريا ابنه بصفتين ، وأعطاه الله ولدا جمع فيه صفات الكمال ، فقد كان نبيا سماه الله يحيى ، لما فى ذلك الاسم من روح التفاؤل بأنه سيحيا ، ووصفه بأنه سيكون مصدقا بكلمة من الله ، والمقصود به المسيح ابن مريم ، الذى خلقه الله تعالى بكلمته ﴿ كن فيكون ﴾ . كما وصف الله يحيى بأنه سيكون سيد قومه ، ذا شرف ونباهة ذكر ، وهو أيضا من الصالحين ، أى هو صالح ومن ذرية قوم صالحين ، كما سبق . قال تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ قال جل شأنه : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ﴾ فتأمل معى الحال التى كان عليها حين نادته الملائكة ، كان قائما يصلى ! إنها حالة من أشرف الحالات ! لم يكن لاهيا ولا ساهيا ولا غافلا ، لذا كان جديرا بأن تناديه ملائكة السماء : فبأى شئ أخبروه : ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ . الله هو الذى يبشر ! فما أشرف هذه البشرى ، إنها من الله القادر المقتدر مالك الملك وملك الملوك ، ويبشر بمولود هو الذى سماه ولم يُسمَ بذلك الاسم أحد قبله ، قال تعالى : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا ﴾<sup>(٣)</sup> . ما أجمل هذه البشرى . . المبشر بها هو الله ، وهى بشرى بمولد غلام لأبوين ؛ الأب قد بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقرا ، وبأى غلام ؟ سماه الله وجعله مصدقا بنبية عيسى ، وجعله سيدا وحصورا ، أى محبوسا عن الشهوات عفيفا ، ثم يأتى الشرف الذى لا يدانيه شرف . . إنه شرف النبوة . . ثم يصفه بأوصاف تمتلئ النفس لها سعادة ، فهو من الصالحين .

ويصفه فى سورة مريم فيقول : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا ﴾ وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا \* وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا \* وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا \*<sup>(٤)</sup> ماذا قال زكريا عندما بشر بيحيى ؟ ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقرا ﴾ لم يكن هذا الاستفهام استبعادا ، فهو يعلم أن الله على كل شئ قدير ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شئ علما ،

(٣) الآية : ٧ من سورة مريم .

(٤) الآيات : ١٢ - ١٥ من سورة مريم .

(١) الآيات : ٢ - ٤ من سورة مريم .

(٢) من الآية : ٦ من سورة مريم .

وأحصى كل شيء عددا ، إنما كان المقصود بالاستفهام الكيفية التي سيرزق بها الولد ، هل سيرزقان ، وهما على هذه الكيفية ، بلغه الكبر وامرأته عاقر ، أم أنها سيرجعان إلى سن الشباب ؟؟ فجاء الرد من الله تعالى : ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وفي سورة مريم : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ قال كذلك ، قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (١) .

فطلب زكريا من ربه أن يجعل له آية وعلامة يستدل بها على أن امرأته حامل ، فقال له الله : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ أى سيحبس لسانك عن الكلام ، فلا تتكلم إلا بالإشارة ، ثم أوصاه بكثرة الذكر فقال : ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار ﴾ أى غدوة وأصيلا ، ولكن كيف يحبس لسانه عن الكلام ويؤمر بالتسبيح ؟ أليس التسبيح باللسان ؟ قالوا إن الكلام مع الناس هو الذى كان فيه حبس اللسان أما ذكره لله فتسبيحه إياه بكرة وأصيلا فكان لسانه ينطق به . . وولد يحيى وأعطاه الله من لدنه فضلا عظيما . روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت .

### مريم والمسيح

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤٌ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾  
يَمْرُؤٌ أَفْتَنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ  
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿١٨﴾

المفردات : ( الاصطفاء الأول ) قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال و ( التطهير ) يعنى التطهير الحسى كعدم الحيض والنفاس ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفاسف الأخلاق وذميم الصفات ( الاصطفاء الثانى ) بما اختصت به من ولادة نبي من غير أن يمسه رجل وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى متهيئة ومعدة له وفيه شهادة ببراءتها مما قذفها به اليهود . ( القنوت ) . الطاعة مع الخضوع !

روى ابن جرير وابن اسحق وابن المنذر : أن هذه الآيات وما بعدها نحو ثمانين آية ، نزلت فى نصارى نجران : إذ وفدوا على رسول الله ﷺ ، وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : أنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ! قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا . قالوا لا . قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

قال : أستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعت كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبي ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحوداً ! . . فأنزل الله ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر هذه الآيات .

ووجه الرد عليهم - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادية ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب ، وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحي وشرع الشرائع قبل وجوده ، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده القرآن ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء ، وإنما هو نبي مثلهم . ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واحداً العقول ثم قال ﴿ إنه لا يخفى عليه شيء ﴾ ليرد على استدلالهم على ألوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى شيء مطلقاً ، سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى من غير أب إذ الولادة من غير أب ليست دليلاً على الإلهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف شاء ، وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد ويوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قيمياً محكم العبارة محفوظاً من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعا الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ، وإليه يرجع فى فهم التشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شيء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ، ولم يمكن الترجيح كالأستواء على العرش وكون روح عيسى روح الله وكلمته ، ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين : فرقة زائفة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمناً به ونفوض علمه إلى ربنا وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

وإنما أعدنا هنا ذكر سبب نزول الآيات التى وردت من أول السورة إلى نحو ثمانين آية ، لأن المقام هنا ذكر فيه المسيح وأمه ، والآيات الكريمة نزلت لإثبات وحدانية الخالق جل فى علاه ، ونفى الألوهية عمن سواه وإثبات بشرية المسيح وأمه ، قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ومن الصالحين \* قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء \* ﴿ .

فهذا المشهد القرآنى هو المناط الذى تبنى عليه الأحكام من الوحدانية لله الخالق والبشرية للمسيح المخلوق فليكن القارئ على ذكر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ المقصود بالملائكة هنا الأمين جبريل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ (١) ولا يمنع هذا من أن يكون المقصود الملائكة عند إخبارها بالاصطفاء والتطهير ، أما جبريل فهو المقصود بتبشيرها بمولد المسيح عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ (٢) .

وهذه الآية : ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ جاءت تخصيصاً لمريم ، بعد تعميم الاصطفاء بقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ والمقصود بالاصطفاء الأول في الآية الكريمة اختيارها لخدمة بيت المقدس . مع أنها أنثى ، والتطهير هنا حسي ومعنوي ، أما كونه حسياً فقد طهرها الله من دم الحيض والنفاس وغير ذلك ، والمراد بالتطهير المعنوي تطهير قلبها ونفسها من الرذائل وتوابع الأشياء فقد كانت رضى الله عنها ذات همة عالية .

والمقصود بالاصطفاء الثاني : هو أن الله اختصها : بمولد المسيح على غير العادة المتبعة ، فقد خلقه الله في رحمها بدون أن تتزوج ، وقد يكون المقصود بالاصطفاء الثاني ما جاء في الحديث الشريف : ( كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة ) .

قوله تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ هذا توجيه إلهي كريم لمريم أن تقدم الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليها من الاصطفاء والتطهير وذلك بطاعتها لله وسجودها وركوعها في الصلاة ، فالسجود والركوع من أهم الأركان لما فيهما من معنى الخضوع والتضرع لله ، وإنما قدم السجود على الركوع في الذكر لأنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ، ولذا فإن السجود من مواضع استجابة الدعاء .

قوله جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ يطلق الوحي في القرآن الكريم على معان :

- (١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ نوحي إليهم ﴾ (٣) .
  - (٢) وللإلهام كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ (٤) .
  - (٣) وللإلقاء المعنى المراد في النفس كما قال تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ (٥) .
  - (٤) وللإشارة كما قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيّاً ﴾ (٦) .
- فالوحي : تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرها .

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم .

(٢) الآيات : ١٦ - ١٨ من سورة مريم .

(٣) جزء من الآيات : ١٠٩ من سورة يوسف ، ٤٣ من سورة النحل ، ٧ من سورة الأنبياء .

(٤) من الآية : ٧ من سورة القصص .

(٥) الآية : ٥ من سورة الزلزلة .

(٦) من الآية : ١١ من سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

المراد بالأقلام السهام التي كانوا يضربون بها القرعة<sup>(١)</sup> ومعنى يختصمون أى يتنازعون فى كفالة مريم من الذى يضمها إليه ليربيها ويقوم على رعايتها وشأنها .

ومعنى الآية الكريمة أن هذا القصص الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدا أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأ فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى وما كنت شاهداً وهم يتنازعون ويختصمون فى كفالتها ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل الفضل والدين ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيساً لهم ، فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب ديني إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أُمى ، ولم يروها سماعاً عن أحد ، كما يعترف بذلك منكروا نبوته ، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحي أو المشاهدة ، والوحي ينكرونه ؛ فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم ، لاستحالتها ونظير هذه الآية قوله : عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله بعد قصة موسى وشعيب : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾<sup>(٣)</sup> والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيها وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح ؛ لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق ، للأدلة القائمة على نبوة النبى ﷺ ، وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلطها ، لا نقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام ؛ لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولاً .

[ نص على هذا الشيخ المراغى فى تفسيره ]

### التبشير بالمسيح ..

إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾

(٣) من الآية ٤٦ من سورة القصص .

(١) وروى أنها أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَحْلَلْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المفردات : ( الوجيه ) : ذو الجاه والكرامة و ﴿ المهد ﴾ : مقر الصبي حين رضاعه . و ( الكهل ) من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، ﴿ الكتاب ﴾ الكتابة والخط ، ﴿ والحكمة ﴾ : العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، ﴿ التوراة ﴾ : كتاب موسى ، وقد كان المسيح عليماً به يبين أسرارهِ لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، ﴿ الإنجيل ﴾ : هو الكتاب الذي أوحى إليه به ، ( والخلق ) التصوير والإبراز على مقدار معين وليس الإنشاء والاختراع ( الهيئة ) : الصورة ، و ﴿ الأكمه ﴾ : الذي يولد أعمى ، ﴿ الأبرص ﴾ : هو الذي به برص أى بياض في الجلد يتطير به ويهرب الناس منه خوف العدوى .

هذه آيات تحدد معالم الحق في شأن المسيح عليه السلام ، فهو مخلوق وهو بشر وأمه كما قال الله تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (١) فقد حلَّ الإسلام كل المشاكل بقول الله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ تلك حقيقة لا يمارى فيها أحد . إنها كانا يأكلان الطعام ، فمن أكل الطعام فهو جسم إذ الخلية الحية تتكون من هذا الغذاء ، ومن الخلايا تتكون الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة . وهل الإنسان إلا مجموع هذه الأشياء ، ومن الطعام والشراب تكون الإفرازات التي تذهب إلى الأمعاء والمثانة ، هل ينكر أحد على وجه الدنيا أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن كان شأنه كذلك فحتم عليه أن يذهب إلى الخلاء ... تعالى

الله عن ذلك علواً كبيراً ، قال جل شأنه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لى إسرائيل ﴾ (١) .  
 والمراد بالكلمة التى بشر بها مريم ، هو قوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٢) .  
 قوله جل شأنه : ﴿ وجيهاً فى الدنيا والآخرة ﴾ أى أنه ذو قوة ووجاهة عظيمة : فهو فى الدنيا ، له وجاهته فى  
 قلوب المؤمنين بالله ، وهو فى الآخرة له شفاعته ومكانته عند الله ، فهو من أولى العزم من الرسل ، وهو من  
 المقربين من الله وجنته ورضوانه ﴿ والسابقون السابقون ﴾ أولئك المقربون \* فى جنات النعيم ﴿ (٣) . ومن  
 صفاته أنه يكلم الناس فى المهد ، أى وهو فى أيامه الأولى بعد مولده ، فقد قال لأمه ساعة الولاده ، ويعد أن  
 أخرجه الله من رحمها : ﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً  
 جنياً \* فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم  
 إنسيا \* فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً \* يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء  
 وما كانت أمك بغياً \* فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً \* قال إني عبد الله آتاني الكتاب  
 وجعلنى نبياً \* وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* وبرأ بالحق ولم يجعلنى جباراً  
 شقياً \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت وأبعث حياً \* ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه  
 يمترون \* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون \* وإن الله ربى وربكم  
 فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿ (٤) ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكهلاً ومن الصالحين ﴾ أى كما كلمهم فى المهد  
 كذلك يكلمهم فى سن الكهولة ، وهى من الثلاثين إلى الأربعين (٥) ، ومن الصالحين أى هو صالح من ذرية  
 قوم صالحين ، وقد أخبرنا النبى ﷺ عن الذين تكلموا فى المهد ، وقد تعجب عندما تعلم أن أكثرهم تكلموا  
 دفاعاً عن الأعراض التى حاولت الكلاب أن تهشها ، وذلك لما للأعراض من قدسية ومكانة .

#### الذين تكلموا فى المهد

روى الإمام مسلم بن الحجاج : بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لم يتكلم فى المهد إلا  
 ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأتته أمه ،  
 وهو يصلى ، فقالت : يا جريج . فقال : يا رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان  
 من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أمى وصلاتى ؛ فانصرفت ، فلما كان من الغد  
 أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج : فقال : أى رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا  
 تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ،  
 فقالت : إن شئت لأفتنته لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته ،  
 فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزله وهدموا صومعته ،  
 وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زينت بهذه البغى فولدت منك ، فقال : أين الصبى .

( ١ ) الآية : ٥٩ من سورة الزخرف .

( ٢ ) الآية : ٤٠ من سورة النحل .

( ٣ ) الآيات : ١٠ - ١٢ من سورة الواقعة .

( ٤ ) الآيات : ٢٤ - ٣٦ من سورة مريم .

( ٥ ) وذلك عندما بدأ انتقاد الفريسيين والكتبة فى الهيكل .

فجاءوا به ، فقال : دعوني حتى أصل فصلى ، فلما انصرف أتى الصبي فطعن<sup>(١)</sup> في بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب !! قال : لا . أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . وبينما صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال ، اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ، قال :<sup>(٢)</sup> فكأنى انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه ، فجعل يمصها ، قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنت . . سرقت ! وهى تقول : « حسبى الله ونعم الوكيل » فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ؛ فقال : اللهم اجعلني مثلها ، فهناك تراجع الحديث ، فقالت : حلقى : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلني مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنت سرقت ، فقلت : اللهم لا تجعل ابني مثلها ! فقلت : اللهم اجعلني مثلها ، قال : إن ذاك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم اجعلني مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنت ولم تزن وسرقت ولم تسرق ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها . »

وقد أخرج البخارى هذا الحديث فى كتاب الصلاة باب إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة ، وفى كتاب أحاديث الأنبياء باب ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾ الآية .

### ( لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة الخ ) شرح الحديث

المهد هو وطاء الصبي وكل ما يسوى له وقد يكون سريره ، وعن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾<sup>(٣)</sup> حجر أمه ، وقد ذكر فى هذا الحديث الثلاثة : وهم عيسى عليه السلام ، وصبى جريج ، والصبى المتعوذ من الجبار أن يكون مثله ، ولم يذكر غيرهم ، وقد ثبت فى الروايات الأخرى تكلم غير هؤلاء ، فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم ، من حديث صهيب فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة فى آخر الصحيح ، وهو : أن امرأة جيء بها لتلقى فى النار ومعها صبى يرضع فتقاعست<sup>(٤)</sup> ، وقال لها : « يا أمه اصبرى فإنك على الحق » فإذا انضم هذا إلى الثلاثة صاروا أربعة . وروى أحمد والبخارى وابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنه : لم يتكلم فى المهد إلا أربعة ، فذكر الأولين المذكورين فى حديث مسلم ، ولم يذكر الثالث ، وذكر شاهد يوسف ، والصبى الرضيع الذى قال لأمه وهى ماشطة بنت فرعون لما أردوا إلقاء أمه فى النار : اصبرى يا أمه فإننا على الحق .

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبى هريرة ، فإذا ضممننا الاثنين الزائدين اللذين جاء بهما الحديث صاروا ستة ، وذكر الضحاك فى تفسيره أن يحكى عليه السلام تكلم فى المهد ، أخرجه الثعلبى . . فإن كان هذا ثابتاً صاروا سبعة .

(٣) من الآية : ٢٩ من سورة مريم .

(٤) تراجع وقاومت الالتقاء فى النار .

(١) أى دفع بأصبعه فى بطن الصبي دون إيذاء .

(٢) القائل أبو هريرة - روى الحديث عن رسول الله ﷺ .



وذكر البغوى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم فى المهد أيضاً ، وما ينبغى أن يعلم أنه اختلف فى شاهد يوسف فقيل كان صغيراً ، وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبیر ، وأخرج عن ابن عباس أيضاً ومجاهد أنه<sup>(١)</sup> كان ذا لحية ، وعن قتادة والحسن أيضاً كان حكيماً ، فإذا استبعدنا شاهد يوسف الذى اختلفت الرواية<sup>(٢)</sup> فيه ويحى وإبراهيم اللذين لم نتأكد من ثبوت روايتهما ، كان المتكلمون فى المهد خمسة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نوفق بين هذا وبين قوله ﷺ : ( ولم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة ) ؟ .

وقد سلك العلماء فى الجواب عن هذا مسالك ، فقال الإمام القرطبى « فى هذا الحصر نظر » ولعله ﷺ إنما أوحى إليه أولاً بثلاثة أخبرها ثم بعد ذلك أوحى إليه بما شاء الله تعالى مما أخبر به فى الأحاديث الأخرى<sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد أما كلام غيرهم من الأطفال ففى غير المهد » ، ولكن يعكر عليه أن فى رواية ابن قتيبة : أن الصبى الذى طرحته أمه فى الأخدود كان ابن سبعة أشهر ومثله لا شك يكون فى المهد ، فما قاله النووى من أن الطفل الذى طرحته أمه فى الأخدود لم يكن فى المهد غير صحيح .

فإن قيل كلام هؤلاء الذين تكلموا فى المهد ؛ أكان بخلق العقل والتمييز الكاملين لهم ؟ أم بإجراء الكلام على ألسنتهم من غير تعقل له ؟ قلنا قد أجاب على ذلك الإمام القرطبى فقال : « ثم كلام عيسى عليه السلام هو بأن الله تعالى خلق له فى المهد ما خلق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى حال كمالهم من العقل والفهم كما شهد القرآن ، وأما غيره فيحتمل أن الله تعالى خلق فيه عقلاً كما يخلقه فى الكبار ، ويحتمل أن الله تعالى أجرى ذلك الكلام يعنى على لسانه وهو لا يعقل ، كما خلقه فى الذراع والخصى مع بقائهما على جماديهما » .

هذه نبذة عن الذين تكلموا فى المهد ذكرناها بمناسبة الكلام عن عيسى ابن مريم فى قوله تعالى : ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ﴾ . أداة الاستفهام هنا ﴿ أنى ﴾ ومعناها كيف ، وهذا الاستفهام لا يقصد به الاستبعاد فهى تعلم أن الله على كل شىء قدير ؛ لكن تريد أن تستفهم عن الكيفية ! ولذا جاء الجواب : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ . أى أنه سبحانه وتعالى الذى خلق الأسباب والمسببات وجرت العادة على ذلك قادر أن يخرق العادة بقدرته فيغنى المسببات عن أسبابها ؛ وإلا فمن أبو آدم ومن أمه ؟

( ١ ) أى أن إبراهيم كان ذا لحية وتكلم فى المهد .

( ٢ ) اختلاف الرواية فى صغره أو كان كبيراً بالغاً عاقلاً .

( ٣ ) نص كلام القرطبى : « ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان فى عمله مما أوحى إليه فى تلك الحال ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به » ص ٩١ ج ٤ .

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾<sup>(١)</sup> ، والله جل شأنه لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان علماً قديراً .

﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم أخذت الآيات بعد ذلك تبين النعم الجليلة التي أنعم الله بها على المسيح ابن مريم قال جل شأنه : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ المراد بالكتاب : الكتابة والخط ، أما الحكمة فهي علم غزير وحكم صواب وعمل موفق ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾<sup>(٣)</sup> والتوراة هو الكتاب المنزل على نبي الله موسى وبه أحكام وتشريعات ، والإنجيل هو الكتاب المنزل على نبي الله عيسى ، وبه وصايا وتوجيهات ، وقد جاء الإنجيل مصداقاً لما في التوراة قال تعالى : ﴿ وقفنا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصداقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل مصداقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾<sup>(٤)</sup> وجاء القرآن الكريم مصداقاً لما أنزل الله في التوراة والإنجيل ، ومهيماً على جميع الكتب . . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصداقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال جل جلاله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فصانه عن التحريف والتغيير والتبديل قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(٧)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحى الموتى بإذن الله ﴾ .

هذا بيان لتخصيص رسالة المسيح ببني إسرائيل ، فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، إلا أن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾<sup>(٨)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾<sup>(٩)</sup> ، وقال ﷺ : « كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود ، والمقصود بالأحر غير العرب - وجعلت لى الأرض مسجداً وتربتها طهوراً فأيا رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ونصرت بالعرب بين يدي مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »<sup>(١٠)</sup> .

(٦) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران . . وسيأتى الحديث عنها .

(٧) الآية : ٥٧ من سورة غافر .

(٨) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٩) الآية : ٤٦ من سورة المائدة .

(١٠) من الآية : ٤٨ من سورة المائدة .

(٦) الآية : ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .

(٧) الآية : ٩ من سورة الحجر .

(٨) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٩) الآية : ٢٨ من سورة سبأ .

(١٠) رواه الشيخان .

ثم بعد ذلك عدد القرآن المعجزات وخوارق العادات التي أجزاها الله على يدي عبده ونبيه ورسوله المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين والمراد بالخلق هنا التصوير إذ أن مادة الطين موجودة فكان المسيح يصور من الطين ما هو في هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وحده .

وقد روى أنه عليه السلام لما أعملهم النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه<sup>(١)</sup> .

أما إبراء الأكمه وهو الذي ولد فاقد البصر ، والأبرص وهو مرض بالجلد يورث به بياضاً ، فقد كان ذلك أيضاً من معجزات المسيح التي أجزاها الله على يديه ، والمعجزة أمر خارق للعادة . يجريه الله على أيدي الأنبياء تصديقاً لهم مع عجز جميع المخلوقات عن الإتيان بمثله وتأتى المعجزة مناسبة لما اشتهر في عصرها .

فالمصريون لما اشتهروا وبالسحر جاءت معجزة موسى إبطالاً لهذا السحر : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين \* وألقى السحرة ساجدين \* قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ . ولما اشتهر الطب في عصر المسيح وأصبح في درجة عالية من التفوق ؛ كانت معجزته إبراء الأكمه فيرتد بصيراً ، وإبراء الأبرص فيعود جلده كما كان جميلاً لا تشويه فيه .

ولما كان العرب قوم فصاحة وبلاغة ، جاء القرآن معجزة باهرة : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

والمعجزة إما تكون قولية كالقرآن الكريم وإما تكون تركية كترك إحراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وزوال الموانع : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ .

حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء لإبراهيم بالإفراج فوراً ، إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها فقد نزع الله تعالى من النار الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضافة والإشراق ، وجمع إبراهيم بين البرودة والسلامة ، إذ لو اقتصرت النار على البرودة لتجمد إبراهيم من شدة البرودة ، ولو اقتصرت على السلامة لتألم إبراهيم من شدة حرارتها ، لكن البرودة مع السلامة جعلته يعيش الأيام التي قضها فيها كأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد تكون المعجزة فعلية كعصى موسى ويده ، ومعجزات المسيح ، وحنين الجذع وتسبيح الحصى وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ والإسراء والمعراج ، كل هذه معجزات أجزاها الله على يدي حبيبه ومصطفاه ﷺ .

(٣) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .

(٤) الآيات : ٦٨ ، ٦٩ من سورة الأنبياء .

(١) القرني : ج ٤ ص ٩٤ .

(٢) الآيات : ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .

ولقد جمع الله له من المعجزات ما لا يحصره عد ، ولا يحيط به حد تكريماً له وتشريفاً . . . وسبحان من قال له: ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً ﴾<sup>(١)</sup> وقال له : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾<sup>(٢)</sup> .

### إحياء الموتى

كان من المعجزات التي أجراها الله على يدى المسيح عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله ، فقد ورد أنه أحيا فتاة قبل دفنها . قال قومي بإذن الله : فقامت ، ثم ماتت بعد ذلك ، كما أحيا موسى بإذن الله قتيل بنى إسرائيل عندما ضرب ببعض البقرة ، قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ \* فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> . وهذا كله بإذن علام الغيوب لا شريك له . كذلك جرت سنة القرآن الكريم : أنه يمهد بقصة زكريا ويحيى قبل أن يحدثنا عن قصة المسيح عليه السلام وخلقه ، لأن الله تعالى يعلم أن البشر يربطون المسببات بالأسباب ، وقد يغفلون أن خالق الأسباب قد يخلق بغير الأسباب ، قال يوسف النجار لمريم لما جاءت بالمسيح تحمله « يا مريم إن في النفس لشيئاً . قالت له وما هو قال : أينبت زرع بدون ماء ؟ قالت له : يا يوسف إن الذى خلق الزرع والماء قادر على أن يخلق الزرع بدون ماء .

نرى في سورة آل عمران أن الله تعالى مهد بقصة زكريا فقال ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ . . الخ القصة . ثم قال بعد ذلك : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ وفى سورة مريم قال تعالى ﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾<sup>(٤)</sup> الخ الآيات . ثم قال : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾<sup>(٥)</sup> وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾<sup>(٦)</sup> . الخ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ والذى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾<sup>(٧)</sup> . فلا يحسن عاقل أن معجزات الأنبياء من صنعهم ؛ إنما هى خوارق للعادات ، أجراها الله تعالى على أيديهم ، تصديقاً لهم ، مع تحدى الخلق حتى يكون فى ذلك آية بينة ، ودلائل واضحة على صدق الأنبياء . أما خالق المعجزات فهو الله .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾<sup>(٨)</sup> . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾ \* لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير \* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾<sup>(٩)</sup> . قال العلماء تحت

(١) الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٩١ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية : ٦٢ من سورة الزمر .

(٤) الآية : ١٠٢ - ١٠٤ من سورة الأنعام .

(١) من الآية : ٧٩ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ١٦٦ من سورة النساء .

(٣) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٢ من سورة مريم .

(٥) الآية : ١٦ من سورة مريم .

عنوان : ( الطبيعة لا تعقل ) من كتاب ( فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ) : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة !!

بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ؛ أوهى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون !!

فكيف يكون إلهاً ذلك الذى يقهره الإنسان ؛ ومن ثم يعبده ؟ ! إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ؛ وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخرى فأله الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسائل السماوية لتفسير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون . إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ؛ بل تطمح وتعشق العبودية ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة ، تحت اسم الطبيعة ، وتدعى أنها الخالقة ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟ أهى النار والماء والتراب والهواء ؟ أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق ؟ ! وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟ وللحقيقة : فأيا كان الجواب فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟

والإجابة نعرفها جميعاً ، : إنه كائن ناطق له إرادة ، ولهذا يقتضى المنطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع عناصر الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ؛ فهل استطاع أن يخلق أى شئ ؟ وهو جزء من الطبيعة ، وأرقى مافيهما ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به ، وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ ! لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ !

والإنسان وهو السيد العاقل المدبر المخترن للمعلومات والمستخر لكل الآلات لم يخلقه ، لأنه مخلوق فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ ! وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ ! وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء مع كل ما يحيط بها من قوانين — الإنسان العاقل ؟ !

إن فاقد الشئ لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تغنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن

لاسمع له ، والبصر في الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له !!

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل في الإنسان ، وبإلغاء قانون السببية وقانون التناقض فالأرض تخلق الأرض ، والشمس تخلق الشمس ، والنبات يخلق النبات ، والإنسان يخلق الإنسان ، وهكذا .. أو قل : إن شئت إن صفات الإنسان تخلق الإنسان وصفات الأرض تخلق الأرض، ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم البيولوجى بجامعة أمريكا : الحق أنه من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار الكبير، لا يسع الإنسان إلا أن يعترف بأن خالق هذا النظام وتلك الدقة البالغة ، والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه هو الله ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديد ما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ... ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ؛ فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ ! لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى !! فليس مما يعقله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم ومبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد ، فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً .

ويرد « سانتلانا » على من يقولون بأن الطبيعة هى الخالق قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول؟ وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها ، وكيف بقيت على تألفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ .. هذا وإذا افترضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يمجدها كل واحد فى نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .. هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء .. إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها، فمن باب أخرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأنًا فى درجة الوجود وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع منه وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم مصمم العقل الألكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحظة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : « إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها .. إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ، ولا بد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته : إنه هو اللطيف الخبير .

## الإنباء بالغيب

قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾<sup>(١)</sup> هذه الآية الكريمة جاءت بعد بيان عدد من المعجزات التي أجراها الله على يد المسيح عليه السلام من إحياء الموتى إلى غير ذلك ومعنى ﴿ أَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ ﴾ . أنه كان عليه السلام يخبر الواحد منهم بما أكل وما سبأكل : وهذا أيضاً بوحى من الله ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله . . قال جل شأنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدٌ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصْدًا \* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا كان السيد المسيح ينبئ قوموه بما أكلوا أو بما سبأكلون ، فهذا ليس من عندياته وإنما هو بإذن الله له ، قال جل شأنه : لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال عظمت حكمته : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيِ مِنَ التَّوْرَةِ ﴾ أى أن الشريعة المنزلة على المسيح لا تهدم ما جاء في التوراة ؛ بل هى مكمله ومتممة ، وهكذا رسالات الأنبياء يمهّد سابقهم للاحقهم ويكمل لاحقهم لسابقهم ، فهى كعقارب الساعة تبنى ولا تهدم ، وتضيف وتكمل ، فالثواب تكون الدقائق ، والدقائق تكون الساعات والساعات تكون الليل والنهار وهكذا دواليك .

قول تعالى: ﴿ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بِعَظْمِ الَّذِينَ هَرَبُوا مِنْكُمْ ﴾ لقد حرم الله تعالى على اليهود أموراً ؛ جزاء بغيهم قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شَحُومُهُمْ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمِ ذَلِكَ جَزِينَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال جلّ قدرته : ﴿ فَظَلَمَ مَنْ ظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبُصِّدَهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا \* وَأَخَذَهُمُ الرُّبَا وَقَدْ نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُمُ الْفَوَاحِشَ وَأَكْلَهُمْ آمَوَالُ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾<sup>(٦)</sup> فلما بعث المسيح أنزل الله فى شريعته تخفيفاً ، فأحل الله تعالى على لسان المسيح بعض أحكام كانت تفيد تحريم أشياء عليهم ، من ذلك أنه أباح لهم لحوم الإبل والسمك والشحوم والعمل يوم السبت .

قوله جل شأنه: ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ المراد بالآية هنا المعجزات التى سبق بيانها من النفخ فى الطين بعد تصويره فيكون طيراً بإذن الله وإبراء الأعمى والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله، والإنباء بما أكلوا أو ما سبأكلون بإذن الله وإنما ذكرها هنا مجملة فى قوله تعالى : ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ليبنى عليها الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ هذا كقوله ﷺ لسفيان بن عبد الله ، وقد سأله سفيان فقال يا رسول الله : قل لى فى الإسلام شيئاً لا أسأل بعده أحداً غيرك ، فقال له مبعوث العناية الألهية : ﴿ قل

( ١ ) الآيتان : ٢٧ - ٢٨ من سورة الجن . ( ٣ ) للآية : ٦٥ من سورة النمل . ( ٥ ) الآية : ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء .

( ٤ ) الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .

( ٢ ) من الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .

آمنت بالله ثم استقم ﴿١﴾ نعم ؛ وهل الاستقامة إلا في طريق الله ؛ إن إقرار المسيح بالربوبية لله دليل قاطع وبرهان ساطع على أنه مخلوق ومولود من رحم أمه وتلك خصائص صفات البشر، ثم بعد ذلك يؤكد هذا المعنى بأنه عبد الله فيقول : ﴿ فاعبدوه ﴾ كما في قوله جل شأنه : ﴿ قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً \* وبراً بالدين ولم يجعلني جباراً شقيماً \* والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً \* ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون \* ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون \* وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿٢﴾ . وقد شاءت حكمة الله أن يختم سورة مريم بقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا \* لقد جئتم شيئاً لئدا \* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا \* أن دعوا للرحمن ولدا \* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا \* إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عدداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ ﴿٣﴾ .

إن الصراط المستقيم هو توحيد الله وعبادته وحده ، فكل المخلوقات من السوس إلى الفرس ومن السماء إلى الأرض ، لو سألتها من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوقة للواحد الديان . كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ورضا كل يائس ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه - وكما قال العلماء : « إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين » ، فإن التوحيد الخالص والعبادة الخالصة أقرب طريق إلى الجنة ﴿٤﴾ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴿٥﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿٦﴾ .

### مع المسيح

\* فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ؕ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ؕ

( ٤ ) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .  
( ٥ ) الأيتان الأخيرتان من سورة الشورى .

( ١ ) رواه الشيخان .  
( ٢ ) الآيات : ٣٠ - ٣٦ من سورة مريم .  
( ٣ ) الآيات : ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .



ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ  
عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ  
وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

المفردات : في الأساس : أحسست منه مكرًا ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسستنا منه خيرا وهل تحس من  
فلان بخير وفي الكشف : ( أحس ) : علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ﴿ الأنصار ﴾ :  
واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف و ﴿ الحواريون ﴾ : واحدهم حوارى وحوارى الرجل صفيه  
وناصره ، ( والمكر ) تبرير خفى يفضى بالمكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله في التدبير  
السيء ، وإن كان يستعمل في الحسن والسيء معاً ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا  
بأهله ﴾ (١) . . والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره  
لجهله ، فكانت حاجة المرى أو القوام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن  
يعرفه ، مثل الوصول إليه . . و ( التوفى ) : أخذ الشيء وافياً تاماً ، ثم استعمل بمعنى الإمامة ، كما قال  
تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ (٢) . و ﴿ تطهيره ﴾ من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه بتهمة  
أمه بالزنا .

هذا مشهد قرآنى اشتمل على كثير من المواقف الناطقة بالحق والعدل والقسطاس المستقيم ، فقد سبق  
من الآيات ما يفيد أن السيد المسيح عليه السلام أعلن كلمة التوحيد عالية ، فقال : ﴿ إن الله ربى وربكم  
فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ (٣) . وهذه الركيزة الأولى والقاعدة الأصيلة فى رسالات الأنبياء ، فقد بعثوا  
لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد فكان رد الفعل لهذه لكلمة أن صدق البعض وكفر البعض ، وهذه عادة  
الناس مع الأنبياء ، فقد قال قوم سيدنا محمد ﷺ - كما أخبر القرآن : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال  
الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ \* أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴿ (٤) ، هذا وقد دخل قومه  
بعدئذ فى دين الله أفواجا ، وهذا منطوق قوله جل شأنه : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ \* ورأيت الناس  
يدخلون فى دين الله أفواجا ﴾ \* فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴿ (٥) . وقال قوم المسيح عليه  
السلام : ﴿ نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ وقال آخرون ما قالوا : من الافتراء الذى  
يؤدى إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم

(٤) (الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة ص .

(٥) سورة النصر .

(١) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٤٢ من سورة الزمر .

(٣) من سورة آل عمران وقد سبق الحديث عنها .

قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً \* ويكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً (١) ، وهكذا : آمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فلما علم عيسى منهم الكفر نادى : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون ﴾ وهم الأصفياء ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى الناصرون لدينه المعلنون لكلمته ﴿ آمنا بالله ﴾ وصدقنا أنه رب العالمين ، تصديقاً قلبياً جازماً ﴿ واشهد ﴾ يا نبى الله ﴿ بأننا مسلمون ﴾ . وهكذا فالأنبياء جميعاً عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . ثم أضافوا ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ واتبعنا الرسل ﴾ الذى جاءنا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ على ذلك الإيمان والاتباع .

أما الطائفة الأخرى : فقد فكرت ودبرت لقتل المسيح بمساعدة الرومان وكادت له ، ونسيت أوتناست أن يد الله تعمل فى الخفاء ، وأنه سيفسد مكرهم وخداعهم وتدور الدائرة على من مكر ، فإن هناك إلهاً قادراً عالماً علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وثلاثة إذا كن لك كن عليك : البغى ، والمكر والنكث ، قال تعالى : ﴿ يأيتها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾ (٣) وقال تبارك اسمه : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ (٤) .

لقد مكروا ودبروا ليصلوا إلى قتل نبى الله . والله تعالى دبر لينتقم وهو خير من يدبر وينتقم فألقى شبه المسيح على من مكربه ، ورفع المسيح إليه ونجاه ، وقتل صاحب المكر السىء قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً \* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٥) .

قال جل شأنه : ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ إذ أنه تعالى لا يظلم أحداً ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٦) . ومن خير الله تعالى أنه رفع المسيح روحاً وجسداً قال سبحانه ممثناً عليه : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومظهرك من الذين كفروا ﴾ .

هذه من نعم الله التى أنعم الله بها على المسيح . والوفاء تطلق ويراد بها كثير من المعانى فقد يقصد بها : توفية الأجر لأصحاب الدعوات والرسالات والمجاهدين والمسيح منهم ، بل من أوائلهم ، لأنه من أولى العزم ، وقد تطلق الوفاء ويراد بها النوم قال تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾ (٧) . وقد يراد بالوفاء الموت ، قال تعالى على لسان المسيح يوم القيامة : ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ (٨) . أى فلما أمتنى فى الدنيا قبل القيامة ، كنت أنت الرقيب عليهم . والذى نختره فى قوله تعالى لعيسى : ﴿ إني متوفيك ﴾ أى متوفيك أجرك على ما قدمته هؤلاء القوم من نصح ، وعلى صبرك على آذاهم ، وما بذلوه فى سبيل قتلك ، لأن الآية سبقت لبيان ما أنعم الله به على المسيح ، بدليل قوله تعالى بعد

(٥) الأيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .

(٦) من الآية : ٤٤ من سورة يونس .

(٧) من الآية : ٦٠ من سورة الأنعام .

(٨) من الآية : ١١٧ من سورة المائدة .

(١) الأيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ٢٣ من سورة يونس .

(٣) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .

(٤) من الآية : ١٠ من سورة الفتح .

ذلك ﴿ ورافعك إلى ﴾ أى منجيك من مكرهم ، فقد خدعوا ودبروا ، وأنا انتقمت منهم ورفعتك إلى ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى عما قالوه من سب أمك ورميها بالبهتان العظيم ، فقد قال تعالى :

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ وقد رفع المسيح كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ (١) وسينزل إلى الأرض فيكون نزوله علامة من علامات الساعة الكبرى ، قال النبی ﷺ في الحديث الصحيح : ( لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية ) (٢) .

وفي القرآن الكريم آيات بينات ستزيد القول فيها تفصيلاً عندما نأتى إليها في سورة النساء : والزخرف . قال تعالى في سورة النساء ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ (٣) أى قبل موت المسيح هذا تفسير للآية بمعنى أن الإسلام سيعم أرجاء الأرض ، حيث يرفع المسيح راية الإسلام عالية ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ (٤) وقال تعالى في سورة الزخرف ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾ (٥) والضمير هنا عائذ على عيسى الذى ذكر في الآيات السابقة ، ومعنى علم الساعة أنه علامة على قربها ، وليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً من نزول المسيح ودعوته الناس إلى الإسلام ، فلا داعى أبداً إلى الجدل العقيم في هذه المسألة ، لأن النصوص في الكتاب والسنة صريحة فضلاً عن كونها صحيحة .

قوله تعالى ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ أى أن الذين اتبعوك فآمنوا بالله رباً وبك نبياً ويقولك لهم ﴿ إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٦) فهو لاء مؤمنون ، ولا شك أن درجة المؤمن المعنوية والحسية أفضل عند الله من الكافرين ، ذا حكم حكم الله به . وهو مستمر إلى يوم القيامة .

قوله تعالى ﴿ ثم إلى مرجعكم فأنحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ خطاب من الله تعالى إلى الذين اختلفوا مع المسيح وطال عنادهم وكثر جحودهم ، فالله تعالى سوف يفصل بينهم ، فإنه يقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، وسيكون الحكم والجزاء عادلاً ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ . وقوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ﴾ (٧) ، أى بأنواع البلاء والشدائد والمصائب والهزائم : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (٨) .

قوله سبحانه : ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يجزيهم بالأجر غير منقوص كقوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (٩) ، لا يضل في الدنيا ولا يشقى في

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) متفق عليه وتتمة الحديث « ولتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهب الشحنة والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » واللفظ لمسلم .

(٣) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٤) من الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٥) ، (٧) ، (٨) من الآية : ١٢٤ من سورة طه .

(٦) تتمه الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٩) من الآية : ١٢٣ من سورة طه .

(٥) من الآية ٦١ من سورة الزخرف .

الآخرة . قال سبحانه : ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ كقوله جل جلاله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ <sup>(١)</sup> . فالله تعالى إن يعاقبنا فبمحض العدل وإن يثنا فبمحض الفضل : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أى إن ما سبق أن ذكرناه لك وتلوانه عليك من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم والمسيح وقومه كل هذا جاءك به النبأ اليقين والذكر الحكيم الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ <sup>(٣)</sup> كقوله تعالى فى سورة هود : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

### المسيح وآدم والمباهلة

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الحال العجيبة والشأن البديع ، الامتراء : الشك ، البهلة ( بالضم والفتح ) اللعنة والدعاء . يقال ( بهلة الله ) : أى لعنه ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته : أى يدعوه . و ﴿ القصص ﴾ : تتبع الأثر ومنه قوله تعالى ﴿ وقالت لأخته قصية ﴾ <sup>(٥)</sup> أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث ، لأن القاص يتبع المعانى ليوردها ، و ﴿ العزيز ﴾ : أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة التى لا يساميه فيها أحد .

قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ هذا إخبار من الله جل شأنه ، وخطاب لكل من أوقى شيئاً من التدبر والعقل ، فبالمثل يتضح المراد من القضية ، وضوحاً أجلى من الشمس فى ضحاها ، فإن عيسى : إن كان الله تعالى قد خلقه من أم لا زوج لها ، فهذا ليس أغرق فى العجب ولا أبعد من خلق آدم ،

﴿ ( ٤ ) الآية : ٤٩ من سورة هود .

﴿ ( ٥ ) من الآية : ١١ من سورة القصص .

﴿ ( ١ ) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

﴿ ( ٢ ) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

﴿ ( ٣ ) من الآية : ٤٢ من سورة فصلت .

فآدم لا أب له ولا أم ، إنما خلقه الله من تراب اختلط بالماء ، فصار طيناً ، تغيرت رائحته ، فكان حمأً مسنوناً ، ثم جف فكان صلصالاً ، ثم ازداد جفافاً فكان كالفخار ، ثم سواه الله إنساناً بعد أن أتى عليه حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان آدم ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ (٣) وقال تبارك وتعالى : ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار ﴾ (٤) وقال عز وجل : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالقي بشراً من طين \* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٥) . إن الذي خلق من الطين بشراً سوياً ، قادر بالأولى أن يخلق عيسى بلا أب ، فمن أبو آدم وأمه وما حقيقته ؟ ! أليس الطين الذي لا حياة فيه ، فكيف نستبعد على الإله القادر الذي خلق آدم بلا أب ولا أم أن يخلق عيسى بلا أب ، بل أن عيسى إذا قيس بآدم لكان خلقه أهون ، لقد خلق في زحام عادي ، وكان بشراً عادياً ، وقضى مدة الحمل في بطن أمه ، وتغذى بغذائها وتنفس بتنفسها ، وعاش كما تعيش الأجنة في الأرحام . ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٦) إن الذي خلق آدم بالكاف والنون ، هو الذي خلق عيسى بكلمة منه ، وهي الكاف والنون ، ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ . وكما قال سبحانه في سورة مريم في شأن المسيح : ﴿ ولنجعل له آية للناس ﴾ (٧) قال هنا في سورة آل عمران : ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ وهذا أسلوب تعريض بالمتشككين المتردد في قبول الحق ، وفيه تثبيت لدعوة الحق ، إذ الحق لا يتعدد ، لأنه من الواحد جل شأنه ، وقد كان الصادق المعصوم ﷺ إذا قام من الليل ليصلي أثنى على الله بما هو أهله فقال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ولك حاكمت أنت إلهي ولا إله إلا أنت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت » (٨) .

قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

كان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول سورة آل عمران في وفد نجران : أن النصاري لما قدموا فجعلوا يحتاجون في عيسى ، ويزعمون فيه ما يزعمون من النبوة والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق في سيرته المشهورة وغيره : « وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصاري نجران ستون ركباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس

(١) الآية : ٢٠/ من سورة الروم .  
 (٢) من الآية : ٢/ من سورة الأنعام .  
 (٣) من الآية : ٢٦/ من سورة الحجر .  
 (٤) من الآية : ٢١/ من سورة مريم .  
 (٥) من الآية : ٧١/ ، ٧٢ من سورة ص .  
 (٦) الآية : ٦/ من سورة آل عمران .  
 (٧) الآية : ١٤/ من سورة الرحمن .  
 (٨) رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما ورواه النووي في الأذكار والكاندهلوي في حياة الصحابة .

ابن حارث ، وزيد وقيس ويزن وابناه ، وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ، وهم العاقب ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارسهم ، وكان رجلاً من العرب من بني بكر بن وائل ، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها ، وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته في دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب السابقة ، ولكن حملة ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . . قال ابن إسحق : وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الخبرات : جيب وأردية في جمال رجال بني الحارث بن كعب ، قال : يقول من قابلهم من أصحاب النبي ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «دعوه» فصلوا إلى المشرق ، قال : فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم ، يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة — تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً — وكذلك النصرانية فهم يحتجون في قولهم هو الله ، بأنه كان يحى الموق ويبرئ الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً ، وذلك كله بأمر الله وليجعله الله آية للناس ، ويحتجون في قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد بشيء لم يصنعه أحد من بني آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقنا ، ولكنه هو وعيسى ومريم — تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والخابسون علواً كبيراً — وفي كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ؛ فلما كلمه الخبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : «أسلما» قالا : قد أسلمنا قال : «إنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما : يمنعكما من الإسلام ادعائكما لله ولداً ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما ، فلم يجيبها ، فأُنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم تكلم ابن إسحق عن تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك قالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر في أمرنا ، ثم تأتينا بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأى فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟ قال : والله يا معشر النصارى : لقد عرفتم أن محمداً لنبي مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لا عن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . . فاتوا النبي ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ولكن ابعت معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا فإنكم عندنا رضا ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : «اثنوني العشيّة أبعث معكم القوى الأمين» ، فكان عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبي إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً<sup>(١)</sup> فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أطاول له ليراني ، فلم يزل يلتبس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : « اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس : قال أبو جهل قبحه الله إن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ؛ قال : فقال : « لوفعل لأخذته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً » . وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قدم على النبي ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعة ، فوعدها على أن يلاعنه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد علي وفاطمة والحسن والحسين ؛ ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا ، وأقرا له بالخراج<sup>(٢)</sup> قال : فقال رسول الله ﷺ « والذي بعثني بالحق لو قالوا لا ، لأمطر عليهم الوادى ناراً » قال جابر : وفيهم نزلت ﴿ ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ وقال جابر : ﴿ أنفسنا وأنفسكم ﴾ رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب ﴿ وأبناءنا ﴾ الحسن والحسين ﴿ ونساءنا ﴾ فاطمة وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ أى ما قصصناه عليك يا محمد وأخبرناك به فى شأن عيسى من أنه بشر يأكل كما يأكل البشر ويشرب كما يشربون ، وينام ويمرض ويموت : هذا كله حق ، وهو حق اليقين بل عين اليقين ، فمن كذب به ، فاعلم أن الله عليم بالمفسدين ، وما من إله إلا الله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم \* أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم \* ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون \* قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم \* قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل (٣) .

قوله تعالى : ﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أى إن أعرضوا عن هذا الحق فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ (٢) واعلم بأن الله

( ٣ ) الآيات : ٧٢ - ٧٧ من سورة المائدة .

( ٤ ) الآية : ١٢٧ من سورة النحل .

( ١ ) أى وقت الهجير يعنى جاء مبكراً وكانوا يؤخرون الظهر عن الهجير .

( ٢ ) يعنى الجزية .

عليهم بهم فإنهم مفسدون في الأرض ، والله لا يحب المفسدين ، ولا يصلح عملهم فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

### دعوة إلى أهل الكتاب

قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٥﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمُحَاجَّةٍ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ هَئِذَا تُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمُ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ أهل الكتاب ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ تعالوا ﴾ : أئق اقبلوا ووجهوا النظر إلى مادعيتهم إليه . ﴿ سواء ﴾ : أى عدل وإنصاف من بعضنا لبعض و ﴿ الإله ﴾ : هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة ، لأنه وحده ذو السلطة الغيبية و ( الرب ) : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ﴿ مسلمون ﴾ : أى متقادون لله مخلصون له ، ﴿ محاجون ﴾ : أى تجادلون ، و ( الحنيف ) : المائل عن العقائد الزائفة ، ( المسلم ) : هو الموحد المخلص المطيع له .

وجه الله تعالى الدعوة إلى أهل الكتاب أن يقبلوا على كلمة حق وعدل وإنصاف ، لا تعصب فيها ولا انحياز ، إنما يكون الغرض من كلمة الحق : أن يعبدوا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئاً ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ؛ يشرع الحلال والحرام ، إنما تكون التبعية فى ذلك للإله المعبود الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارئ المصور الحكيم ، الخافض الرافع القابض الباسط المحيى المميت المعز المذل الواسع الجامع الباعث الوارث ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ (١) ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ (٢) .

(١) من الآية : ١١٥ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ٤٠ من سورة يوسف .



فإن تولوا عما دعوتهم إليه يا محمد ، فقل أنت وأمتك ﴿ اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ ثابتون على دين الحق رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

وقد حوت هذه الآية وحدانية الإلهية في قوله : ﴿ ألا نعبد إلا الله ﴾ ووحدانية الربوبية في قوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

وهذا القدر متفق عليه في جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد وجاء به موسى فقد ورد في التوراة قول الله له : (إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامي لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما في السماء من فوق وما في الأرض من تحت وما في الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدن) .

وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ؛ ففي إنجيل يوحنا : (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) . وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمثل هذا : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ (١) .

وخلاصة المعنى : أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد .

روى عدى بن حاتم قال : «أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب : فقال : (يا عدى اطرح عنك هذا الوثن) وسمعته يقرأ في سورة براءة : ﴿ اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ (٢) فقلت له : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : (أما كانوا يملكون لكم ويحرمون فتأخذون بأقوالهم ؟ قلت نعم : فقال عليه الصلاة والسلام ، هو ذاك) (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأخبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله ﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ الآية .

﴿ ياهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ﴾ أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون في إبراهيم ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟

وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين لما في كتبهم من الثناء عليه في العهد العتيق . وقد أنجى القرآن باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية ، وإلى التوراة أو الإنجيل ، مع أن العقل يقضى بأن المتقدم في الزمان — كيف يكون — تابعاً لما سياتى بعده وقد كان إبراهيم قبل أن تنزل التوراة والإنجيل فكيف يكون متقدماً وتابعاً لما بعده ؟! إن هذا دليل على الحق والسفاهة ، ولذا قال الله في ختام

(١) آية الكرسي ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣١ من سورة التوبة أو براءة .

(٣) رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

الآية : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجنتم فلا تعقلون ، وقد جاء هذا القول كما جاء في آية أخرى في سورة البقرة : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

معنى ﴿ حاججتم فيما لكم به علم ﴾ أى من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال إنه دعوى كذاب ، ولم يكن علمكم بمنع من الخطأ .

قال تعالى : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ أى في شأن الخليل إبراهيم فقد وقعت في جهل مطبق لأحداث التاريخ وقواعد العقائد ، وهذا الجهل أدى بكم إلى الجدل العقيم الذى سللكم في سلك الجاهلية جهلاً مركباً ، فليتكم تستمعون إلى ما قاله الله أصدق القائلين ، هو الذى يعلم وأنتم لا تعلمون .

قال الخليل بن أحمد (٢) : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فأسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فبهوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مكابر فاتقوه .

ثم بين الله تعالى حقيقة شأن إبراهيم فقال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً ﴾ أى مائلاً عن العقائد الفاسدة ﴿ مسلماً ﴾ لله ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴿ (٣) .

قال سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لكل نبي ولاية من النبيين وإن وليّ منهم أبى و خليل ربي عز وجل ) ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ (٤) .

هذه الآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى الذى زعموا كذباً وبهتاناً أن إبراهيم ينتمى في العقيدة إلى دين كل منهم ، فقال الله تعالى : لستم أولى الناس بإبراهيم لأنكم قد انحرفتم عن الجادة ، وكفرتم بالله ورسوله ، بل إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه ونصروه وعبدوا الله وحده ، وهذا النبي محمد - ﷺ - ومن معه من الأنصار والمهاجرين هم أولى الناس بإبراهيم .

( ١ ) الآية : ١٣٥ من سورة البقرة .

( ٢ ) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، من أعلام القرن الثانى الهجرى أول من صنف علم أوزان الشعر وأحصى لسيبويه عالم النحو المعروف .

والخليل أول من ألف المعاجم في العربية .

( ٣ ) الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢ من سورة البقرة .

( ٤ ) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران .

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى هو الذى يتولى الصالحين بالرعاية والنصر المبين ﴿إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١).

### حديث عن أهل الكتاب

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ يَتَّهَلَّوْنَ بِالْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٦٦﴾ يَتَّهَلَّوْنَ بِالْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ اللَّهُ إِلَىٰ شَيْءٍ لَّا يُوَفِّي أَحَدًا مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٠﴾ \*

المفردات : ﴿ود الشئ﴾ : أحبه ، ﴿طائفة﴾ : أى جماعة وهم الأحرار والرؤساء ، ﴿والآيات﴾ : هنا ما يدل على صدق نبوة محمد ﷺ ، ﴿وتلبسون﴾ : أى تخلطون ، ﴿وجه النهار﴾ : أى أوله . تقول : أتيت بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار . ﴿آمن له﴾ : صدقه وسلم له ما يقول ، كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ (٢) و ﴿الفضل﴾ : الزيادة والمراد به هنا النبوة .

هذا المشهد القرآنى الكريم اشتمل على المواقف المليئة بمكر اليهود ، والقبايح التى كادوا بها للإسلام ، والحقيقة أن اليهود هم اليهود لو تركت الثعالب مكرها والكلاب نباها والحيات لدغها والشعابين عضها ؛ ما ترك اليهود عداءهم للإسلام ومكرهم به .

قوله تعالى: ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم﴾ لو هنا مصدرية مثل أن ، ما ، كى ، أن ، والتقدير تمنى طائفة من أهل الكتاب إضلالكم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأق الله بأمره إن الله على كل شئ قدير﴾ (٣) ، وغفل هؤلاء عن أنهم بذلك يضلون أنفسهم وما يشعرون ، فإن يد الله

(١) الآية : ١٩٦ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية : ١٧ من سورة يوسف .

(٣) الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴿<sup>(١)</sup> ثم وجه الله تعالى إليهم هذين السؤالين توبيخاً وتقريعاً :

﴿ ياهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ أى لم الكفر بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنتم تشهدون أنها حق ، قال تعالى: ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى لرؤساء اليهود وأخبارهم : ﴿ ياهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ المراد بالحق هنا نبوة الرسول محمد ﷺ وقد كتموها ابتغاء مناصب الدنيا والسيطرة على العامة ، فقد يخشون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ورسالته فينصرفوا عن رؤسائهم وأخبارهم الذين كانوا يحلون لهم ويحرمون عليهم .

قال تعالى : ﴿ اتخذوا أخبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾<sup>(٣)</sup> كما سبق في حديث عدى بن حاتم ، فابتغاء الباطل من الجاه والرئاسة أضلهم وأعمى أبصارهم ، وهم يعلمون أن النبي ﷺ حق فإنه خاتم الأنبياء قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى: ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ .

هذه إحدى الأعياب اليهود ومكروهم بالمسلمين فقد تآمروا فيما بينهم أنهم إذا وأوا أصحاب النبي ﷺ أول النهار ، يؤمنون إيماناً ظاهرياً ، فإذا ما جاء آخر النهار كفروا ، وظنوا أنهم بذلك سيلقون الشكوك في قلوب

(٣) من الآية : ٣١ من سورة التوبة .

(٤) الآيات : ١٥٥ - ١٥٨ من سورة الأعراف .

(١) الآيتان : ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .

(٢) آخر آية في سورة الفتح .

المسلمين ، فيرجعون عن دينهم وينقلبون كفاراً ، إذ قد يظن ظانّ أنهم أهل الكتاب ، ويعرفون أكثر مما يعرف المسلمون .

ثم قال بعضهم لبعض ﴿ وَلَا تَوَدُّوا إِلَّا لِمَنِ تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ أى لا تصرحوا لأحد بما فى التوراة إلا إذا كان يهودياً، وذلك حتى لا يؤتى أحد من العلم مثل ما أوتيتم، وحتى لا يحتج عليكم أحد بما أوتيتم من عند الله، فيقيم عليكم البراهين بأنكم خاطئون فى تكذيبكم برسالة محمد ﷺ ونبوته ، إذ كيف يكون ذلك ! ؟ وقد ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، فرد عليهم المولى تبارك وتعالى قائلاً : ﴿ قُلْ إِنْ أِهْدَى اللَّهُ هَدًى لِّأُمَّةٍ فَلَا تُكُونُ رَافِقَةً لِّأَيِّ مَظْهَرٍ مِّنْهُ ﴾ (١) ورد عليهم مولانا تبارك وتعالى قائلاً ﴿ قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفُضْلَ بَعْدَ الْإِيمَانِ لَوْلَا نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَوَسَّاسُ الْأَشْجَارِ أَصْحَابُ الْأَشْجَارِ لَا يُفْقِدُونَ فِيهَا الْبَنِينَ وَالنَّسَاءَ وَالْأَنْعَامَ وَلَا شَيْئًا مِّنْهُ لَئِنْ لَّمْ يَفْعَلِ اللَّهُ بِهَذِهِ السَّامِيَّةِ حَقَّهَا لَجَسَدَتْ أَكْثَرُ الْفُلُكِ فِي الْبَحْرِ نَدْبًا لِّمَنَ يَخْلُكُ فِيهَا مِمَّا يَرْكَبُونَ الْفُلَ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ اللَّهَ إِلَّا جَزْئًا مِّنْ عِلْمِهِ فَابْتِغَا فِي سَبِيلِ الْكِبَرِ ﴾ (٢) قال المفسرون المقصود بالناس هنا محمد ﷺ وأمتة .

### مواقف لأهل الكتاب

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنٌ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّةِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَاحِقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

(١) آخر آيات سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

**المفردات :** ﴿ تأمنه ﴾ : من أمنتته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنتته بكذا وعلى كذا والمراد بقنطار : عدد كثير ، و ﴿ بالدينار ﴾ : العدد القليل ، و ﴿ الأميون ﴾ : هم العرب ، و ﴿ السبيل ﴾ : المؤاخضة والذنب ، و ﴿ بلى ﴾ كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا . ﴿ ويشترون ﴾ : أى يستبدلون والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالآيمان : الآيمان الكاذبة . والضمن القليل : هو العوض الذى يأخذونه أو الرشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ، و ﴿ لا خلاق لهم ﴾ : أى لا نصيب لهم . ﴿ ولا يكلمهم الله ﴾ : أى يغضب عليهم . ﴿ ولا ينظر إليهم ﴾ : أى يسخط عليهم ويستعين بهم . ﴿ ولا يزكيهم ﴾ : أى لا يثنى عليهم .

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم ، وصددهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم ، لا يعدوهم إلى شعب آخر ولا إلى أمة أخرى ، أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم ، تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل تأويلا للكتاب وغرورا فى الدين .

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ﴾ أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيدهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم : زعما منهم أن الكتاب لم ينهم إلا عن خيانة إخوانهم من بنى إسرائيل والخلاصة : أن أهل الكتاب طائفتان :

١ - طائفة تؤمن على كثير وقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية من ذهب خالص فأداها إليه .

٢ - طائفة أخرى تخون الأمانة فإذا استودعتها القليل حجبته ولا تؤده إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ، ملحا فى المطالبة أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف <sup>(١)</sup> استودعه قرشى دينارا فجحده ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ أى أن ذلك الترك لأداء الأمانة من قبل أنهم زعموا أنه لا تبعه ولا ذم فى أكل أموال العرب ، وخلاصة هذا أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه فلا حقوق له ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين ، واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه . روى بن جرير : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم الثمن <sup>(٢)</sup> فقالوا : ليس علينا أمانة لا اقتضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم . فرد الله عليهم

(١) أو فتاح بن عازوراء .

(٢) أى طلبوا ثمن ما باعوه لهم من قبل .

بقوله : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأمين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، ﴿ وهم يعلمون ﴾ ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أخبارهم ديناً ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ليؤيدوا آراءهم وقد وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب - إلى قوله - ليس علينا فى الأمين سبيل ﴾ قال النبى ﷺ : كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى من أوفى بعهدده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ أى بلى ، وعليكم فى الأمين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بضمن مؤجل ، واثمنتك على شىء ، وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه ، دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحكمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقاً واجباً لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيلياً وجب الوفاء له ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد نوعان :

١ - عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .

٢ - عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشىء منها ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد - المتقين الإخلاف والغدر - محبة تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى : أن الوفاء بالعهود واتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا هو الذى يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلاً لمحبة ، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله . وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ . أى أن الذين يتعاهدون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما سيتعاهدون عليه ويتعاهدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ،

وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه في جميع الأمور ، بما حلفوا عليه من قوله لهم : ﴿ لتؤمنن به ولتنصرنه إلى قوله - ثمناً قليلاً ﴾ هو العوض أو الرشا - أولئك لا نصيب لهم في منافع الآخرة ونعيمها ، ويغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ، ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب أليم هو الغلبة في الألم قال القفال : « هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه هو ويقول : لا أكلمك ولا أرى وجهك ، وإذا جرى ذكره لم يذكر بالجميل » ا. هـ . وصيغة القول : إن الله توعد الناكثين للعهد المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم بالعذاب الأليم ، وبأنهم يكونون في غضب الله بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبي الكبائر من الزنا وشاربي الخمر ولا عبى الميسر وعاقى الوالدين بينما توعد ناكثي العهود وخائني الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التي لأجلها حرمت تلك الجرائم . فالوفاء بها آية الدين البينة ، والمحور الذي تدور عليه المصالح العمرانية ، فمتى نكث الناس في عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام ، والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبي ﷺ جعله علامة النفاق فقال : ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ) (١) .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال : ( لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ) فما بال كثير من المسلمين - حتى المتدينين منهم - استهانوا بالعهود . وأصبحوا لا يحفظون الأيمان ويرون ذلك شيئاً صغيراً ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ، ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية . أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية في أبي رافع ولبابة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحبي بن أخطب ؛ حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله ﷺ ، وحكم الأمانات وغيروها وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخاري وغيره أن الأشعث بن قيس قال : « كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحد فيها ، فقدته إلى رسول الله ﷺ ، فقال : ألك بينة ؟ قلت لا : فقال لليهودي احلف فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي . فأنزل الله ﷻ : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله ﴾ الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول أو ذاك ، والعمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح .

أن الأيمان في الإسلام لها خطورتها فعلى المسلم أن يعلم أن أشد الأيمان خطورة عند الله اليمين الغموس وهو الذي يتعمد صاحبه الكذب فيه كاليمين أمام القاضي ، وسمى غموساً لأنه يغمس صاحبه في



نار جهنم ، وعلى الخالف أن يعلم أن اليمين يجب مراعاتها من ثلاث جهات :

- ١ - إذا حلف فلا يحلف إلا للضرورة .
- ٢ - وإذا حلف فلا يحلف إلا بالله .
- ٣ - وإذا حلف وجب عليه أن يراعى الصدق في يمينه .

قال ﷺ : « اليمين الغموس تذر الديار بلاقع » <sup>(١)</sup> أى خراباً يباباً لا خير فيها ولا بركة في مالها أو أهلها .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أمرنا بالصدق ، وحذرننا من الكذب ، ففي حديث صحيح الثبوت صحيح العبارة ، يقول الهادى البشير : ( عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ) <sup>(٢)</sup> .

قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك .

قيل لرسول الله ﷺ أياكون المؤمن كذاباً قال : لا .

وأشد الكذب ، الكذب على الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى كَذِباً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ : ( من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ) وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ \* والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴿ <sup>(٤)</sup> .

### من كذبهم وافترائهم على الله

وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقٌ يَلْعُونُ أَلْسِنَتَهُم بِأَلْكُتَبِ لَتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات : ﴿ يلعون ألسنتهم ﴾ من اللى وهو اللف أى يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة .

﴿ وإن منهم ﴾ جماعة من أحبارهم وعلمائهم ، يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة : بأن يزيدوا في كلام الله أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويقرأوا كلامهم بنغم وترتيل ؛ فيوهما الناس

( ١ ) رواه الشيخان .

( ٢ ) رواه الشيخان .

( ٣ ) من الآيتين : ٣٧ من سورة الأعراف ، ١٧ من سورة يونس .

( ٤ ) متفق عليه .

( ٥ ) الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ من سورة الزمر .

بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك ﴿ لتحسبوه من الكتاب ﴾ والواقع أنه ليس منه ، ﴿ ويقولون على الله الكذب ﴾ ويفجرون ﴿ وهم يعلمون ﴾ أنه ليس من عند الله ؛ ولكن من عند الشيطان والهوى .  
فهم لا يعرضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفرط جرأتهم وغرورهم .

### الرد على أهل الكتاب في إشراكهم بالله

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ ربانين ﴾ نسبة إلى الرب وهو المتشدد في الدين الملتزم طاعة الله ﴿ أربابا ﴾ جمع رب .  
قيل إن رافع القرظي من اليهود ، ورئيس وفد نجران من النصارى قالوا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : ( معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بغير عبادة الله ، فما بذلك بعثني ولا بذلك أمرني ) فتزلت هذه الآية .

والآية في جملتها تكذيب لأهل الكتاب الذين يعتقدون عبادة عيسى والعزير .

والمعنى لا يصح لبشر يمن الله عليه بالكتاب ، ويهديه إلى الحكمة والصواب في فهم ما أنزل الله عليه ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم بعد هذا يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله : أى اعبدوني وحدي أو اعبدوني مع الله ، فهذا هو الشرك بعينه ؛ ولكن يقول : كونوا أيها الناس ربانين متمسكين بالدين مطيعين لله أتم طاعة ، بسبب كونكم تعلمون الكتاب لغيركم ، وبسبب كونكم تدرسون وتعلمونه ، ولا يعقل أن يأمركم باتخاذ الملائكة والأنبياء آلهة تعبد من دون الله ؛ كما فعلت اليهود مع عزير والنصارى مع المسيح !! أو يأمركم هذا النبي بالكفر والفسوق ، والعصيان بعد أن أرسل هادياً لكم وكنتم مسلمين منقادين لله بالطبيعة والفطرة التي فطر الناس عليها ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن التعليم الديني والدراسة للإسلام إن لم تكن مصحوبة بالعمل والطاعة كانت وبالأعلى صاحبها بل كان كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه .

## الميثاق المأخوذ على أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا  
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾  
أَفْغَيْرِ دِينٍ اللَّهُ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المفردات ﴿أخذ الميثاق﴾ قبوله ، الميثاق : العهد المؤكد ، ﴿لأقرار﴾ قر الشيء إذا ثبت ولزم قراره مكانه وأقر بالشيء إذا نطق بما يدل على ثبوته ﴿إصرى﴾ الإصر : العهد المؤكد الذى يمنعه من التهاون .

هذه السورة من أولها إلى هنا يدور معناها على إثبات رسالة محمد ﷺ ؛ الذى يجب أن يؤمن به الكل ، وأن دينه الحق وهو الإسلام ، وكل من تقدمه من الأنبياء والأمم قد أخذ عليهم الميثاق : أن يؤمنوا به إذا أدركوه فما بال أهل الكتاب اليوم قد نقضوا العهد وأعرضوا عن هذا الدين .

ومعنى الآيات : واذكر يا محمد وقت أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء ، وتدخل أمهم معهم تبعاً لهم ؛ مهما آتيناكم أيها المخاطبون من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءكم رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله مصداقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

قال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق أقدرتم وقبلتم ذلك الذى ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرتموه . أقبلتم عهدى وميثاقى المؤكد ؟؟

قالوا : أقررنا ونطقوا بما يدل على ثبوته ؛ قال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم جميعاً لا يغيب عن علمى شيء .

﴿فمن تولى﴾ بعد هذا الميثاق المأخوذ قديماً ، ولم يؤمن بالنبي المبعوث فى آخر الزمان المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبي ﷺ ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الخارجون من ميثاق الله الناقضون عهده .

وإذا كان الدين واحداً والرسول متفقين فى الأصول العامة للأديان ، فما بال أهل الكتاب المعاصرين ؟ أيتولون بعد هذا البيان ؛ فيبغون غير دين الله الذى هو الإسلام . والله استسلم من فى السموات والأرض ، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه بالتكوين والإيمان هنا ؛ إذ هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون له فكل ما يحل بالناس إن كان عن رضى فهم طائعون ، وإن كان عن غير رضى فهم كارهون ، وإلى الله المرجع والمآب .

## إيمان المؤمنين بكل الأنبياء

قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ  
وَمَا أَوْتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾  
وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات : أى ﴿ قل ﴾ يا محمد أنت وأمتك ﴿ آمنا بالله ﴾ الواحد الأحد ﴿ وما أنزل علينا ﴾ نحن الأمة  
المحمدية ، وقدم الإيمان بالله على الإيمان بالمنزل ، لأنه الأصل والأساس ، وقدم المنزل علينا على المنزل على  
الأنبياء السابقين لأنه هو الأصل ، فهو مصدر المعرفة ، وما سواه قد غير وبدل ؛ فلا يصلح أساساً للمعرفة ،  
والمنزل علينا هو القرآن الكريم ، ﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ أولاده  
﴿ وما أوتي موسى ﴾ من التوراة ﴿ وعيسى ﴾ من الإنجيل ﴿ والنبيون ﴾ كداود وسليمان وغيرهم ممن  
لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى .

لقد أمرنا الله بشيئين : الإيمان بالله والنبين إيماناً لا نفرق فيه بين أحد منهم ، بل نؤمن بالكل على أنه  
نبي مرسل ، من قبل المولى جل شأنه لأتمه يهديها سواء السبيل ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب : يؤمنون  
ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ متقادون ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ﴾ الذى هو دين  
الأنبياء ، والدين الذى ارتضاه الله لعباده ، ومن يتبع غيره ﴿ فلن يقبل ﴾ منه قطعاً ﴿ وهو فى الآخرة من  
الخاصرين ﴾ الذين خسروا أنفسهم ولم يزكوها بالإسلام فى الدنيا والآخرة .

## حكم الكفر بعد الإيمان

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا  
مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

ورد فى سبب النزول : أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت النبى ﷺ فى

كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب ، وأنكروه وكفروا به بعد إيمان ، وروى في أسباب النزول عدة روايات أخرى في الذين ارتدوا بعد إسلامهم<sup>(١)</sup> .

﴿ كيف يهدي الله قوماً ﴾ كهؤلاء اليهود والنصارى ﴿ كفروا بعد إيمانهم ﴾ وشهادتهم ﴿ أن الرسول حق ﴾ وجاءتهم الآيات الواضحات على صدقه وصدق رسالته .

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ لأنفسهم فهم قد عرفوا الحق ، وتنبكوا عنه فلا أحد أظلم لنفسه منهم ، و ﴿ أولئك جزاؤهم ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله و ﴿ أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ فالملائكة يدعون عليهم بالطرد من رحمته وكذلك الناس كلهم .

﴿ خالدين ﴾ في النار ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ يمهلون بل سيؤخذون أخذ عزيز مقتدر هذا جزاؤهم ، إلا من تاب منهم بعد ذلك ، ورجع إلى الله وأصلح عمله وقلبه ﴿ فإن الله غفور ﴾ لما سبق ﴿ رحيم ﴾ بعباده حيث يقبل توبة التائب .

### أصناف الكفار

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾  
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَاقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِّلٌ ۚ الْأَرْضُ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ ۚ  
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

هؤلاء الكفار ثلاثة أصناف : صنف كفر بعد إيمانه ، ثم تاب توبة صادقة من بعد ذلك ، فأولئك يقبل الله توبتهم إنه هو الغفور الرحيم .

وصنف كفر بالله ثم تاب ورجع ، ثم عاد إلى الكفر ، فلن تقبل توبته ، وقيل هم الكافرون يتوبون عن بعض الذنوب مع بقائهم على الكفر ، وهذا هو معنى ﴿ لن تقبل توبتهم ﴾ .

وصنف كفروا بالله وماتوا وهم كفار فلن يقبل من هؤلاء فدية مهما كثرت ولو كانت ملء الأرض ذهباً ، ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم في الآخرة من ناصر ولا شفيع ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) روى القرطبي عن ابن عباس : أن رجلاً من الأنصار أسلم ثم ارتد والحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى قومه : سلوا لي رسول الله ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ﴾ إلى قوله ﴿ غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائي - القرطبي ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) قال قتادة وعطاء الخراساني والحسن : نزلت في اليهود كفروا بعباسي والانجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن ، وقال أبو العالية : نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم .

## الإنفاق أيضاً

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

بعد أن حاج الله أهل الكتاب ، وأبان أنهم يلبسون الحق بالباطل ، وأنهم لم يؤمنوا بالله بل يكتمون الحق ، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ ، رسول الله قد بشر به في التوراة والإنجيل ، بعد هذا : أراد أن يدلل على عدم إيمانهم بشح نفوسهم وبخلهم بالإنفاق . . والإنفاق لعمري أكبر دليل على صدق الإيمان .

وأنهم لن يصلوا إلى البر ، ولن يكونوا يارين بالله إلا إذا أنفقوا عما يحبون ومن كريم ما يملكون ، أما وقد شحت نفوسهم بردىء المال ؛ فضلاً عن كريمه ، فهم بعيدون عن الصدق في دعواهم الإيمان والطاعة لمولاهم ، ﴿ وما تنفقوا من شيء ﴾ سواء أكان كريماً أم رديئاً ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ ولا يخفى عليه إخلاصكم ورؤياكم .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في  
رِجَالِ الْيَقِينِ

الجزء الرابع

سورة آل عمران

من الآية رقم ٩٣ / ٢٠٠

سورة النساء

من الآية رقم ١ / ٢٣





## فرية اليهود في تحريم بعض المطعومات

\* كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ الطعام ﴾ المراد به المطعومات كلها وكثر استعماله في الخبز والبر ، ﴿ حلا ﴾ حلالاً ، ﴿ إسرائيل ﴾ لقب يعقوب بن إسحق ، ومعناه الأمير المجاهد مع الله ، ثم شاع إطلاقه على جميع ذريته ، وهو المراد هنا . ﴿ افترى ﴾ اختلق وكذب ، ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الباطل إلى الحق .

ما زال النص الكريم يحدثنا عن مكائد اليهود للإسلام ونبي الإسلام ، وهذه الآيات التي بين أيدينا تدحض شبهة أثاروها ضد نبي الإسلام ﷺ ؛ إذ قالوا : لو كان محمد نبياً حقاً ما استحل لنفسه الطعام الذي حرمه الله على إبراهيم ويعقوب ؛ مثل لحوم الإبل وشحوم البقر والغنم فجاء الرد مفحماً لهم .

إذ أن كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، فلم يكن هناك طعام حرمه الله على إبراهيم أو إسحق أو يعقوب ، إنما حرم الله على إسرائيل أي شعب إسرائيل ما حرمه من الطعام في قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ (١) ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ (٢) ثم قوله سبحانه لرسوله الكريم : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ (٣) فكل الطعام قبل أن تنزل التوراة كان حلالاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما قوله تعالى : ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾ . أي إلا ما حرم شعب إسرائيل ؛ أي كان سبباً في تحريمه على نفسه ، بما اقترفوه من ظلم وبغى ، وهذا صريح قوله جل شأنه : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدونهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ (٤) فالباء هنا في قوله تعالى : فبظلم ، ويصدونهم تفيد السبب أي بسبب ما ظلموا وما صدوا ،

(١) من الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ١٤٧ من سورة الأنعام .

(٣) الآية : ١٦٠ من سورة النساء .

جزيناهم فحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ؛ عقوبة رادعة لعلهم يتقون ويتتهون ، ومن هنا فقد ثبت أن ادعاءهم فرية ما فيها مرية ؛ فما استحل رسول الله ﷺ شيئاً من الطعام كان محرماً على إبراهيم ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا ﴾ وسوف تتبينون صدق قولنا ، ومع ذلك ، لم يجرؤوا أن يأتوا بالتوراة ؛ وتلك عادتهم ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾ \* وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين \* أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿ <sup>(١)</sup> ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ، بعد إقامة الحجة عليهم ودحض شبههم : ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ وأى إنسان أشد ظلماً ممن كذب على الله وافترى وظل سادراً في غيه وطغيانه ، إنه الظلم المبين وهم أهل الظلم ، والظلم في دمائهم .

ثم بعد ذلك ذكر مكانة البيت الحرام ، وتشريف الله لإبراهيم فقال : ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ فإبراهيم هو أبو الأنبياء كان من ذريته إسماعيل وإسحق وأنبياء بني إسرائيل من ذرية إسحق . . ومن ذرية إسماعيل ، جاء خاتم الأنبياء ، فإن كنتم صادقين أيها اليهود في ادعائكم محبة إبراهيم ، ﴿ فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ ولا تفتروا على نبينا كذباً ، ﴿ وما كان ﴾ إبراهيم ﴿ من المشركين ﴾ ، بل كان مسلماً موحداً مخلصاً . ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### البيت الحرام والحج

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٧﴾

المفردات : ﴿ بيكة ﴾ : أى مكة والعرب كثيراً ما تبدل الباء ميماً وبالعكس . ﴿ مباركاً ﴾ : كثير الخيرات والبركة ﴿ مقام إبراهيم ﴾ : موضع قيامه وعبادته ﴿ حج ﴾ الحج . . والحج : القصد ، وفى الشرع : قصد بيت الله الحرام للنسك .

هذه هي الشبهة الثانية التى أثارها أهل الكتاب ؛ تكذيباً للنبي ﷺ فى دعوى : أنه على ملة إبراهيم : كيف تدعى أنك على ملة إبراهيم ، وأنت أولى الناس به ؛ وإبراهيم وإسحاق والأنبياء بعدهم كانوا يعظمون

(١) الآيات : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ من سورة النور .

(٢) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

بيت المقدس ، ويصلون إليه ، فلو كنت على ما كانوا لعظمته ، ولما تحولت إلى الكعبة فخالفت الجميع ، والآية الكريمة تزيل الشبهة بأوضح بيان .

في قوله تعالى : ﴿ إِن أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً ﴾ ، رد على اليهود الذين أثاروا الشبه المريضة ضد نبي الإسلام ، فإنه ﷺ لما أمره الله تعالى بالصلاة جهة الكعبة المشرفة وتحولت القبلة من بيت المقدس ، قال : ﴿ السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾<sup>(١)</sup> وقالوا : لو كان محمد على ملة إبراهيم ما تحول عن بيت المقدس الذي توجهت إليه الأنبياء من ذرية إبراهيم ، فجاء الرد صريحاً وواضحاً ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾<sup>(٢)</sup> وأى شيء في تحويل القبلة وهل العبرة بالمشرق والمغرب ؟ .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾<sup>(٣)</sup> فهل آمنتم بالنبيين وأقرتم برسالة خاتم النبيين . قال تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾<sup>(٤)</sup> وأى القبليتين أولى ؟ أليس البيت الحرام أول بيت وضع للناس ؟ أليس إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قال الله في شأنهما : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾<sup>(٥)</sup> إنه بيت مبارك قال الله في بركته : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجيبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(٦)</sup> فتأمل معي جلال الله وسعة رحمته !! بيت يبنى في صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء ؛ تصله الثمرات والفواكه رطبة ندية ؛ كأنها زرعت فيه ، بيت قال إبراهيم في دعوته لربه : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾<sup>(٧)</sup> بعد أن دعا له بالأمن : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام ﴾<sup>(٨)</sup> فإذا ما وقفت في محراب الآيتين ؛ علمت أن دعوة الأمن قدمت على آية الثمرات ، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الأمن أعظم نعمة من الثمرة ؛ فحياة غير آمنة فزع وقلق وجحيم مستعر ؛ قال الله تعالى في آية من سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾<sup>(٩)</sup> فقدم الأمن والطمأنينة على الرزق الرغد ، فما بالك إذا جمع الله لهذا البيت وهذا البلد الأمن والطمأنينة وتحبى إليه الثمرات ؛ ثمرات كل شيء ، اجتمعت النعمتان العظيمتان الأمن والثمرات ، وهذا البيت فيه هدى للعالمين ، حيث من أتاه وطاف به شرح الله صدره وهدى قلبه ، إن الله ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين ، وفي هذا البيت آيات بينات ، ودلائل قاطعات على مكانة إبراهيم ، ففيه المقام ، أى المكان الذى كان إبراهيم يقوم فيه يعبد الله تعالى ، ونزل

(٦) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .

(٧) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٨) الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .

(٩) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .

(١) الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ١٤٣ من سورة البقرة .

(٥) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

الحكم في القرآن باتخاذ هذا المقام مصلى . . قال تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) وجاء هذا الحكم مؤيداً لاستشارة عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عندما قال : « ماضر لو صلينا في مقام إبراهيم » فأى شيء يؤخذ على نبي الإسلام عندما يتوجه إلى أول بيت وضع للناس . إن تحويل القبلة له حكمته وشرفه .

### تحويل القبلة\*

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (٢) .

هذه الآية الكريمة في شأن القبلة الإسلامية نقطة التحول بين عهدين من التشريع :

( تشريع مؤقت ) كانت فيه القبلة إلى بيت المقدس ، وذلك منذ قدم رسول الله ﷺ المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة إلى نصف رجب من السنة الثانية ، وجملة ذلك ستة عشر شهراً وثلاثة أيام .

( وتشريع ثابت دائم ) أصبحت به القبلة هي الكعبة البيت الحرام ، وذلك من نصف رجب المذكور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها (٣) .

والذي يقرأ هذه الآية وسابقتها ولاحقاتها ، يلمس مقدار عناية القرآن بشأن هذا التشريع وأطواره ، ففي بضع وعشرين آية ؛ يسطر القرآن قضية القبلة ويفصل فيها الفصل النهائي ، بعد أن يمهد لهذا الفصل تمهيداً شافياً كافياً .

تبدأ الآيات الكريمة بذكر إبراهيم عليه السلام وأن الله جعله إماماً للناس وأمره ببناء البيت المطهر وجعله مثابة للناس وأمناً ومطافاً ومصلى ، وبعد أن تقص الآيات كيف أن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قاما برفع قواعد البيت كما أمر الله ، وبعد أن تنبه إلى الصلة الروحية والصلة النسبية بين هذين الإمامين ونبي الإسلام ؛ تشير إلى أن تحول المسلمين عن قبلتهم السابقة المؤقتة إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل سيثير عند خفاف الأحلام وضعاف العقول شيئاً من الريب والشكوك ، ثم تكرر الآيات على هذه الشبهات نقضاً ودحضاً ، مجلية وجه الحق في هذا التشريع ، ثم تخلص من ذلك كله إلى إصدار نطقها الحاسم فيه :

(١) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .

(\*) استطراد من المؤلف بمناسبة الحديث عن البيت الحرام كأول بيت وضع للناس .

(٢) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .

(٣) لم تتفق الأخبار على النصف من رجب كتاريخ لتحويل القبلة فقد روى أبو حاتم البستي ، صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهراً وثلاثة أيام ، وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾<sup>(١)</sup> ولا تكتفى بإصدار هذا الأمر السماوى مرة واحدة بل نراها تكرر وتؤكد ثلاث مرات فى آيات متقاربة متوجهة إلى الرسول تارة وإلى المؤمنين تارة أخرى .

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ بتغيير القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور فى تشريعها ؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات الماثورة ، التى لا يشترط فى صحتها ولا فى قبولها أن يتخذ الداعى وضعاً خاصاً من الأوضاع ، ولا أن يلزم أسلوباً معيناً من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفراداً وجماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربّه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب والتماس المعونة منه ؟ أو ليس الله يسمع لمن حمدّه على أى وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ؟ ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلي وجه الحكمة فيها ؛ أجل إن قليلاً من التأمل يهديننا إلى أن الله جلت حكمته حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد فى أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماماً نبياً نفتدى به وبمن ينوب عنه ، وحين أقام لنا بيتاً نتوجه إليه فيها بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا وبأبداننا ، أراد بذلك كله أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علاقتى الايمان : المحبة لله ، والمحبة فى الله ، أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة ؛ بل مجموعة من الصلات ، صلة بين العبودية ، وصلة بينه وبين أئمة من المرسلين ، أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين ، هذه الرابطة الروحية المثلثة بين المصلّى وبين ربه وبين إمامه وبينه وبين سائر المأمومين . هذه الرابطة الروحية كثيراً ما تتمثل فى صورة مجسمة ، فى جماعة حاضرة نراها رأى العين ، ونحس فيها تراحم المناكب وتجاوب الأصوات ، وتناسق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ؛ وإذا تجردت من الأشباح فإنها تبقى ماثلة فى القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغى للذى يصلى فى خلوته أن يظن نفسه منفرداً فى موقفه ؛ كلا بل يذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ، ألوفاً من الصفوف فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشدون أزره ويؤيدونه فى جوهر مطالبه ، إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها ويرددون مقالته عينها ، إنه ليس فيهم من يقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » بل كلهم يقولون : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . ليس فيهم من يقول : « اهدنى » بل كلهم يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وليس فيهم من يقول ( السلام على ) بل كلهم يقول : ( السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين )<sup>(٣)</sup> .

هكذا ينبغى لكل مصل أن يعد نفسه عضواً فى وفد الرحمن ، لا يتاجى ربه بلسانه بل بلسان إخوانه المؤمنين الحاضرين منهم والغائبين ، ألا وإن الوحدة التى يرمى هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالاً وأبعد

(١) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١١٥ من سورة البقرة .

(٣) من الشق الأول من التشهد فى الصلاة .

مدى من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ؛ إنها تريد أن تنتظم في سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلية ، بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، إنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشع هذه القبلة إنشاءً ، وإنما جاءت مصدقة مقررّة للقبلة التي أسستها النبوات السابقة ، وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام ، وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها .

ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين : ففي المرحلة الأولى انضم إلى صف إخوانه من الأنبياء السابقين ، وفي المرحلة الثانية والأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل إلى الكعبة التي هي أول بيت وضع للناس ، منضماً بذلك إلى صف أبي الأنبياء الذي يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته ، وإن لم يستقبلوها في صلاتهم .

أما بعد فقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس وحسبوه لهواً وعبثاً أو حيرة وتردداً ، وما هو بعيب ولا تردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعداً نحو الهدف الأخير ، ولقد سماه علماء الظاهر نسخاً ، وما هو بنسخ إلا في الصورة والرسم ، أما في جوهره فهو التدرج في توحيد كلمة الأديان ، أرأيت الولد البار حيث يسير قاصداً إلى بيت أبيه فإذا مر في طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقم بينهم فترة ما ، تطبيقاً لخاطره ثم يكون مستقره في البيت المشترك ، الذي يحمل اسم الأسرة كلها ، فذلك مثل التطور الذي حدث في تشريع القبلة ، فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هي بيت رأس الأسرة وهي منزل الجد الأعلى ، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبليتين ؛ فإنه لم يكن همه ذات القبلة في الأولى ولا في الثانية ، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتحام بين أسرة المؤمنين في وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى ، تحت لواء النبيين المرسلين : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ (١) ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

« اللهم اهدنا صراطك المستقيم وزدنا هدى ، آمين » .

### مكة وطن روحي لجميع المسلمين (٣)

أيها الحجاج الأبرار :

هذا حرم الله تفتح لكم سماؤه تكريماً لوفودكم ، وتطامن لكم أرضه ترحيباً بقدومكم ، وهذه ملائكة الرحمن تستقبلكم وتحييكم وتقود خطاكم وتهديكم أيها الضيف المكرمون : حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا في هذا القبط الملتهب هواؤه ، المحترقة رمضاؤه أعلن حين يتهيب الناس في بيوتهم أن يخرجوا من الكن إلى

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

(٢) من الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .

(٣) استطراد من المؤلف تال للاستطراد السابق .

الضح ، وأن يتعرضوا للفتح الريح في الوقت الذي يخرج فيه القادرون على السعى إلى مراعيل الظل الظليل ، ومسايطر النسيم العليل ، في مناطق الشمال وعلى شواطئ البحار ، تقبلون أنتم ضاحين في العراء ضاريين في أحشاء الصحراء ، تكابدون عناء الحل والارتحال ، تخوضون بحاراً من العرق والغبار ، في بلد غير ذي زرع ولا قطر ، هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية لمدة أخرى من السنين ، حتى يدور الزمان دورته ، فيجىء موسم الحج في الشتاء ، أو في الربيع . . هكذا يخوف الشيطان أوليائه ويخذل الضعفاء من أعدائه وهكذا يفكر أولو النعمة والمترفون في كل أمة ، أما أنتم فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات ، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهمزت أمام حرارة إيمانكم ، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة عزائمكم ، وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الحسى ، الذى تدركه الأبصار ، وأن قيادته وتصريف زمانه ليس كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية ، برهنتم على أن في الإنسان جوهرة أخرى أعظم من أن ينالها الحس ، السلطان في الحقيقة سلطانهم والأمر النافذ على الجوارح هو أمرهم ، تلك هى المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب .

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب يتردد صدها بين جوانحك ، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعاً : ليكن . . ليكن لا نعرض محجمين ، ولا نقعد متثاقلين ، كذلك يفعل أولو الحزم والعزم ، هم أبداً سباقون إلى الخير مسارعون إلى البر ، لا يحتمل النداء الواجب عندهم تسويفاً ولا تأجيلاً ، ولا يبالغون في سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ﴾ (١) فيه ﴿ ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ﴾ (٢) ، ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ (٣) ووفوا عليه جزاءهم . ألا فليكن في سبيل الله ما كابدتم وتكابدون وفي صحيفة الحسنات ما بذلتهم وتبذلون ؛ وليكن جزاؤكم عند الله موفوراً وسعيكم لديه مشكوراً ، أيها الضيف المكرمون ، لا تحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين ، أنى أعدكم ضيفاً ها هنا على أحد من البشر ، فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمن ، إنكم ها هنا لستم بدار غربة ولكنكم في أرضكم ودياركم لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم الخاصة المتفرقة ؛ لقد حللتهم هنا في وطنكم المشترك الجامع ، هذا هو البلد الحرام الذى جعله الله ﴿ للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾ (٤) فالمسلمون فيه سواسية : المقيمون والقادمون إليه ، لهم جميعاً حق مشاع من مناسكه ومشاعره وآثاره ومعامله ، لا ينازع فيه أحد أو تستأثر به أمة دون أمة ، أيها الحجيج البررة : كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات ، وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محبيات إلى القلوب ، ها هنا هبط الوحي من السماء ، ها هنا استوطن الأنبياء ، ها هنا بزغ نور الإسلام ، ها هنا مشى محمد ﷺ وصحبه ، ها هنا انتصر الحق وحزبه ، ها هنا طاف الأنبياء والصالحون ، ها هنا سعوا وهزلوا ، ها هنا صعدوا وانحدروا ، ها هنا ذبحوا ، ها هنا دعوا وابتهلوا ، ها هنا تصدقوا وبذلوا . فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءكم في الكتاب الذهبى الذى أعده الله لهم فسيروا

(١) من الآيتين : ١٢٠ ، ١٢١ من سورة التوبة .

(٤) من الآية : ٢٥ من سورة الحج .

على مواضع أقدامهم واقتفوا سنتهم وآثارهم في نصها وروحها ، ومظهرها ومخبرها ، ثم هذه الكعبة التي كنتم تحجون إليها بقلوبكم في الصلوات ، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الآفاق كل يوم عشرات المرات ها هي ذى منكم الآن رأى الأعين ، فاغتنموا وتزودوا إنها البقعة المطهرة . مطهرة لأن الله أمر أن تنزه عن كل رجس ، وعن كل إثم ، وعن كل ظلم ، حتى من الرفث والخصومة والجدال ، الصغيرة فيها كبيرة ، والخبث اليسير فيها ظلم عظيم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ <sup>(١)</sup> ومطهرة جعلها الله مغتسلاً للذنوب التي ترتكب في كل مكان وفي كل شأن ، إلا ظلم الإنسان للإنسان فإنه لا تكفره صلاة ولا صوم ولا حج ولا قربان ، إنما يحويه رد التبعات إلى أهلها أو استبراؤهم منها .

أيها الحجاج المبرورون : لقد حدثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة حديثاً يعرفه كل امرئ منكم في نفسه ، وأود أن أحدثكم عنها حديثاً آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل ؛ فعامّة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مآدبة روحية أعدها الله لعباده ، عند أول بيت وضعه للناس ، ليتزودوا فيها من أنواع القربات ، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمت ، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها ، وشأن واجباته وتأديتها ؛ غير أن الإسلام أوسع أفقاً وأبعد نظراً من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة في أن نؤدي هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين ، في أى وقت من العام يشاؤه الواحد منا ، ولماذا أمرنا لزماً أن نؤديها مجتمعين في صعيد واحد ، وفي وقت واحد وفي زى واحد ، لا بد أن هنالك سراً أو أسراراً يهدف إليها التشريع الإسلامى من وراء هذا التجمع والتكتل ، ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلاً ، ولكنى أكتفى بواحد منها : أتدرون ما الأواصر التي ربط الله بها الأمة الإسلامية لتكون كالجسد الواحد ؟ كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين : وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، إله واحد وكتاب واحد ، آصرتان عقليتان معنويتان ، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة ، فبعث منادياً في الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة هي أرض الوطن الروحي ، وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة في وحدة الوطن الأعلى ، ذلك ليذكر المسلمون أنهم - وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم - فسوف تجمعهم جامعة الدين والله والوطن ، وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحى كل فريق منهم بمصالحه الخاصة في سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا ، إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامى ترينا كيف أنه يمتد في قلب العالم كتلة واحدة متصلة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وأنه كله يدور على محور واحد هو مكة المكرمة ، التي هي قلب الوطن الإسلامى ، وقطب رحاه ، إن هذا الوضع الجغرافى المتماسك القوى ، قد اختص به الإسلام بين سائر الأديان . ومع ذلك : فمن أعجب العجب أن الذى ينظر إلى الماضى القريب للأمة الإسلامية ؛ لا يجدها في المكانة التي يؤهلها لها هذا الموقع الفريد ، ذلك أن تفتتها الإقليمى وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى ، ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية ، فكان التجار والراحلون ينتقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر



إلا كلمة الإسلام ، فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب والترابط لتعود للوطن الإسلامي مناعته وحصانته ، فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التي تمتص دماء أبنائه وتحنى أعناقهم ؟ وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة !! . إنها ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

فرض الله تعالى الحج على كل مستطيع ، وجعله أحد الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام ، وقد رأينا تنمة للفائدة أن نذكر أحكاماً تتعلق بالحج ، ثم نعقب عليها ببيان كيفية الحج ، ثم نبين حجة الوداع التي أداها رسول الله ﷺ ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى .

تعريفه :

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر المناسك ، استجابة لأمر الله وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة .

فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ <sup>(١)</sup> ، وهذا مبنى على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض ، ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي : ﴿ وأقيموا ﴾ رواه الطبراني بسند صحيح ، ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

فضله :

رغب الشارع في أداء فريضة الحج وإليك بعض ما ورد في ذلك :

ما جاء في أنه من أفضل الأعمال :

عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : ( إيمان بالله ورسوله ) قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( ثم جهاد في سبيل الله ) قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( ثم حج مبرور ) <sup>(٢)</sup> .

والحج المبرور هو الحج الذى لا يخالطه إثم . وقال الحسن : أن يرجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة ، وروى مرفوعاً — بسند حسن — إن به إطعام الطعام ولين الكلام .

ما جاء في أنه جهاد :

١ — عن الحسن بن علي رضي الله عنهما : أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني جبان وإني ضعيف فقال : ( هلم إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج ) رواه عبد الرزاق والطبراني ورواته ثقات .

(١) من الآية : ١٩٦ من سورة البقرة .

(٢) رواه الشيخان .

٢ - وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج ) رواه النسائي بإسناد حسن .

٣ - وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : ( لكن أفضل الجهاد حج مبرور ) رواه البخارى ومسلم .

٤ - وروى عنها أنها قالت : يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ قال : ( لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج ، حج مبرور ) قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ .

ما جاء في أنه يحق الذنوب :

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ) رواه البخارى ومسلم .

٢ - وعن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام في قلبى أتيت رسول الله ﷺ : فقلت : أبسط يدك فلا يبيعك . قال : فبسط فقبضت يدي . فقال : مالك يا عمرو ؟ قلت : أشترط ، قال : تشتري ماذا ؟ قلت أن يغفر لى قال : ( أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله ) رواه مسلم .

٣ - وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( تابعوا بين الحج والعمرة فإنها ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة ) رواه النسائي والترمذى وصححه .

ما جاء في أن الحجاج وفد الله :

عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ( الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم ) رواه النسائي وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ولفظهما ( وفد الله ثلاثة : الحجاج والمعتمر والغزى ) .

ما جاء في أن الحج ثوابه الجنة :

١ - روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ) .

٢ - وروى ابن جريج - بإسناد حسن - عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده ، رده بأجر وغنيمة ) .

## فضل النفقة في الحج :

عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : ( النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله : الدرهم بسبعمائة ضعف ) رواه ابن أبي شيبة وأحمد والطبراني والبيهقي وإسناده حسن .

## الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر وأنه لا يجب في العمر إلا مرة واحدة - إلا أن ينذر فيجب الوفاء بالنذر - وما زاد فهو تطوع .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا ) فقال رجل : أكل عام يارسول الله ، فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال - ﷺ - ( لو قلت : نعم ، لوجبت ولما استطعتم ) ثم قال : ( ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم فإذا نهيتكم عن شيء فدعوه ) رواه البخاري ومسلم .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يَا أَيُّهَا النَّاسُ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفي كل عام يارسول الله ؟ فقال : ( لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوها ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع ) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه . وجوبه على الفور أو التراخي :

ذهب الشافعي والثوري والأوزاعي ومحمد بن الحسن<sup>(١)</sup> : إلى أن الحج واجب على التراخي فيؤدى في أى وقت من العمر ، ولا يأتى من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ؛ فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ . قال الشافعي : فاستدللنا للناس على أن الحج فرضه مرة واحدة في العمر أوله البلوغ وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعي وأبو يوسف<sup>(٢)</sup> : إلى أن الحج واجب على الفور . لحديث ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : ( من أراد الحج فليعجل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة ) . رواه أحمد والبيهقي والطحاوي وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : ( تعجلوا الحج - يعنى الفريضة - فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له ) . رواه أحمد والبيهقي وقال : ما يعرض له من مرض أو حاجة .

(١) صاحب أبي حنيفة .

(٢) صاحب أبي حنيفة .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أدائه .

### شروط وجوب الحج :

اتفق الفقهاء على أنه يشترط لوجوب الحج الشروط الآتية :

- ١ - الإسلام .
- ٢ - البلوغ .
- ٣ - العقل .
- ٤ - الحرية .
- ٥ - الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج . وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل ، شرط التكليف في أية عبادة من العبادات .

وفي الحديث : أن النبي ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل) <sup>(١)</sup> .

والحرية شرط لوجوب الحج ؛ لأنه عبادة تقتضي وقتاً ويشترط فيها الاستطاعة بينما العبد مشغول بحقوق سيده وغير مستطيع . وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

### بم تتحقق الاستطاعة :

تتحقق الاستطاعة التي هي شرط من شروط الوجوب بما يأتي :

١ - أن يكون المكلف صحيح البدن ؛ فإن عجز عن الحج لشيخوخته أو زمانة <sup>(٢)</sup> أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال ، وسيأتى في (مبحث الحج عن الغير) .

٢ - أن تكون الطريق آمنة بحيث يأمن الحج على نفسه وماله . فلو خاف على نفسه من قطاع الطريق أو وباء أو خاف على ماله من أن يسلب منه فهو ممن لم يستطع إليه سبيلاً .

وقد اختلف العلماء فيما يؤخذ في الطريق من المكس والكوشان <sup>(٣)</sup> ، هل يعد عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟ ذهب الشافعي وغيره إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج وإن قل المأخوذ .

وعند المالكية : لا يعد عذراً إلا إذا أجحف بصاحبه أو تكرر أخذه .

(١) رواه الشيخان .

(٢) مرض مزمن .

(٣) أنواع من الضرائب كرسوم المرور بين حدود البلاد .

٣ - أن يكون مالكا للزاد والراحلة .

والمعتبر في الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملابس ومسكن ومركب وآلة حرفة حتى يؤدى الفريضة ويعود .

والمعتبر في الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب سواء أكان ذلك عن طريق البر أم البحر أم الجو وهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبعده من مكة .

فأما القريب الذى يمكنه المشى فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه لأنها مسافة قريبة يمكنه المشى إليها .

وقد جاء فى بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .

فعن أنس رضى الله عنه قال : قيل يا رسول الله ما السبيل قال : ( الزاد والراحلة ) . رواه الدارقطنى وصححه .

قال الحافظ : والراجح إرساله : وأخرجه الترمذى من حديث ابن عمر أيضاً وفى إسناده ضعف .

وقال عبد الحق : طرقه كلها ضعيفة وقال ابن المنذر لا يثبت الحديث فى ذلك مسنداً والصحيح رواية الحسن المرسل ، وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً ) وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ رواه الترمذى وفى إسناده « هلال » ابن عبد الله وهو مجهول ، « والحارث » وكذبه الشعبى وغيره .

والأحاديث وإن كانت كلها ضعيفة إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج الزاد والراحلة لمن نأت داره ومن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث - مسندة من طرق حسان . ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة مع علم النبى ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرّون على المشى .

وأيضاً فإن الله قال - فى الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعبرة فى جميع العبادات - وهو مطلق المكنته - أو قدراً زائداً على ذلك ، فإن كان المعبر الأول لم يحتج إلى هذا التقيد كما لم يحتج إليه فى آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .

ودليل الأصل قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴾ <sup>(١)</sup> إلى قوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) من الآية : ٩١ من سورة التوبة .

(٢) من الآية : ٩٢ من سورة التوبة .

وفي المذهب : وإن وجد ما يشتري به الزاد والراحلة - وهو محتاج إليه . لَدَيْنَ عليه - لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً ، لأن الدين الحال على الفور والحج على التراخي فقدم عليه الدين ، والمؤجل يحل عليه فإذا صرف ما معه في الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لابد من مثله أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح ، وهو يخاف العنت ، قدم النكاح لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه في بضاعة يتجر فيها ليحصل منها ما يحتاج إليه للنفقة فقد قال أبو العباس بن سريج : لا يلزمه الحج ؛ لأنه محتاج إليه فهو كالمسكن والخادم .

وفي المغنى : إن كان دين على ملىء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر وإن كان على معسر أو تعذر استيفاءه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض ؛ لم يلزمه قبولها لأن عليه في قبول ذلك مئة وفي تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه لأنه أمكنه الحج من غير مئة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لا يلزمه الحج ببذل غيره له ، ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء أكان الباذل قريباً أم أجنبياً ، وسواء بذل له الركوبة والزاد أو بذل له مالاً .

٥ - ألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج كالحبس والخوف من سلطان جائر يمنع الناس

منه .

### حج الصبي والعبد :

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ : ( أيما صبي حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى ) . رواه الطبراني بسند صحيح .

وقال السائب بن يزيد « حج أبي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين » رواه أحمد والبخاري والترمذي ، وقال قد أجمع أهل العلم : على أن الصبي إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك وكذلك المملوك إذا حج في رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلاً .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت : ألهذا حج ؟ قال : ( نعم ولك أجر ) .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم » . رواه أحمد . ثم إن كان الصبي مميزاً أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج وإلا أحرم عنه ولبي

عنه وطاف به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولو بلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام ، كذلك العبد إذا أعتق .

وقال مالك وابن المنذر : لا يجزئهما لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

### حج المرأة :

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل ، سواء بسواء ، إذا استوفت شرائط الوجوب التي تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم<sup>(١)</sup> .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ) ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : ( انطلق فحج مع امرأتك ) رواه البخارى ومسلم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى ، إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها إنك ممن لم يجعل الله له سبيلاً .

وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من جملة الاستطاعة . ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المنحرم ، أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول - نقله الكرابيى - وصححه فى المذهب - تسافر وحدها إذا كان الطريق آمناً وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : قال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم ، وقد استدلل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج ؛ إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمناً - بما رواه البخارى عن عدى ابن حاتم قال : بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : ( يا عدى هل رأيت الحيرة ، قال : قلت لم أرها وقد أنبت عنها قال : ( فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله ) .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبى ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف .

وكان عثمان ينادى : ألا لا يدنو أحد منهن ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل .

وإذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم ؛ صح حجها . وفى سبل السلام « قال ابن تيمية » : يصح الحج من المرأة بغير محرم وفى غير المستطيع .

(١) المحرم القريب الذى يحرم عليه الزواج منها كالأب أو الأخ . . الخ

وحاصله : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة ؛ مثل المريض والفقير والمعصوب والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغير ذلك ؛ إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج ، ثم منهم من هو محسن في ذلك كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مريض في ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة والمعصية إن وقعت في الطريق لا في نفس المقصود .

وفي المغنى : لو تحشم غير المستطيع المشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج كان حجه صحيحاً مجزئاً .

استئذان المرأة زوجها :

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها في الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرئ ذمتها ، كما لها أن تصلي أول الوقت <sup>(١)</sup> . وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .

وأما حج التطوع فله منعها منه . لما رواه الدارقطني عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ في امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها في الحج قال : ( ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها ) .

من مات وعليه حج :

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ؛ وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : ( نعم حجى عنها ، أرايت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله ؛ فالله أحق بالوفاء ) رواه البخارى .

وفي الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أم لم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وزيد بن ثابت وأبو هريرة والشافعى ؛ ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

وظاهر الحديث أنه يقدم على دين آدمى ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله : ﷺ ( فالله أحق بالوفاء ) .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى ، أما إذا لم يوص فلا يحج عنه ؛ لأن الحج عبادة غلب فيها جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

(١) أى كما أن الصلاة تجب لأول دخول وقتها ، فإن حجة الفريضة يلزم تعجيلها عند الاستطاعة وتقام الشروط عند كثير من العلماء .



## الحج عن الغير :

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه لمرض أو شيخوخة ، لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيس من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالميت فينبو عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله : إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ . قال : نعم . وذلك في حجة الوداع . . رواه الجماعة .

وقال الترمذى أيضاً : « وقد صح عن النبي ﷺ في هذا الباب غير حديث ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم ، من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم يرون أن يحج عن الميت ، وبه يقول الثوري وابن المبارك والشافعي وأحمد وإسحاق .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حُج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحي إذا كان كبيراً ، وبحال لا يقدر أن يحج وهو قول ابن المبارك والشافعي .

وفي الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة وكذلك الرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

## إذا عوفى المريض :

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه فإنه يسقط الفرض عنه ولا تلزمه الإعادة لثلاث تفضى إلى إيجاب حجتين وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ؛ لأنه تبين أنه لم يكن ميئوساً منه ، وأن العبرة بالانتهاء ؛ ورجح ابن حزم الرأي الأول فقال : إذا أمر النبي ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخيراً إن دين الله يقضى عنه ، فقد تأدى الدين بلا شك وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك إلا بنص ولا نص ها هنا . أصلاً بعودته ، ولو كان ذلك عائداً لبين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطبق الركوب .

فإذا لم يخبر النبي ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته عنه .

## شرط الحج عن الغير :

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه . لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة . فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال : ( فحج عن نفسك ثم حج عن شبرمة ) رواه أبو داود .

قال ابن تيمية : إن أحمد حكم - في رواية ابنه صالح عنه - أنه مرفوع ، على أنه وإن كان موقوفاً ، فليس لابن عباس فيه مخالف ، وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً مستطيعاً كان أو غير مستطيع : لأن ترك الاستفصال والتفريق في حكاية الأحوال دال على العموم .

من حج لنذر وعليه حجة الإسلام :

أفتى ابن عباس وعكرمة ، بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أجزأه ذلك عنها . وأفتى ابن عمر وعطاء بأنه يبدأ بفريضة الحج ثم يفى بنذره .

الاقتراض للحج :

عن عبد الله بن أبي أوفى قال : سألت رسول الله ﷺ عن الرجل لم يحج أيستقرض للحج ؟ قال : ( لا ) رواه البيهقي .

الحج من مال حرام :

ويجزئ الحج وإن كان المال حراماً ، ويأثم عند الأكثر من العلماء !!

وقال الإمام أحمد : لا يجزئ وهو الأصح ؛ لما جاء في الحديث الصحيح : ( أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ) .

وروى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله في الغرز<sup>(١)</sup> فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله في الغرز ؛ فنادى لبيك ، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور ) .

أيها أفضل في الحج : الركوب أم المشي ؟ :

قال الحافظ في الفتح : قال ابن المنذر : اختلف في الركوب والمشى للحجاج أيها أفضل ؟

قال الجمهور : الركوب أفضل لفعل النبي ﷺ ، ولكونه أعون على الدعاء والابتهاال ، ولما فيه من المنفعة . وقال إسحاق بن راهويه . المشي أفضل لما فيه من التعب .

ويحتمل أن يقال : يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . . .

(١) الغرز هو الذي يمسك رجل راكب الدابة ، وأصبح كناية عن الأخذ بأسباب الحج الفعلية كركوب السيارة أو الطائرة أو الباخرة .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه . فقال : ( ما بال هذا ) ؟ .

قالوا : نذر أن يمشى . قال : (إن الله عز وجل نهى عن تعذيب هذا نفسه لغنى ، وأمره أن يركب) .

التكسب والمكارى<sup>(١)</sup> فى الحج :

لا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بـ « منى » وعرفة وسوق « ذى المجاز » ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم . فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾<sup>(٢)</sup> قال : كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات » رواه أبو داود .

وعن أبى أمامة التيمى : أنه قال لابن عمر : إني رجل أكرى فى هذا الوجه وإن ناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت بلى ! قال : فإن لك حجاً : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : « لك حج » رواه أبو داود .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أوجر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك إلى أجر ؟ قال ابن عباس نعم ( أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب )<sup>(٣)</sup> رواه البيهقى .  
حجة رسول الله ﷺ :

روى مسلم : قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن جعفر<sup>(٤)</sup> بن محمد عن أبيه قال : « دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلى ؟ فقلت : أنا محمد بن على الحسين فأهوى بيده إلى رأسى فبزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثدى وأنا يومئذ غلام شاب فقال : مرحباً بك يا ابن أخى سل عما شئت ؟ فسألته ( وهو أعمى ) وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجة ملتحقاً بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاًها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ : فقال بيده<sup>(٥)</sup> : فعقد تسعاً ؛ فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة حشد كثير كلهم يلتمس أن يأتهم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

(١) المكارى من يؤجر دابته للحاج ، وفى عصرنا من يؤجر سيارته ونحو ذلك .

(٢) من الآية : ١٩٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٢٠٢ من سورة البقرة .

(٤) هو المشهور بجعفر الصادق حفيد على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى عنهم أجمعين .

(٥) قال بيده أى أشار بيده فعقد تسعاً من أصابع يديه .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة<sup>(١)</sup> فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبي بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : « اغتسلي واستغفري<sup>(٢)</sup> بثوب وأحرمي ، فصلي رسول الله ﷺ في المسجد ثم ركب « القصواء »<sup>(٣)</sup> حتى إذا استوت به ناقته على البداء نظرت إلى مدبصري بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذي يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ شيئاً منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوي إلا الحج ؛ لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل<sup>(٤)</sup> ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾<sup>(٥)</sup> فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ في الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن<sup>(٦)</sup> فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾<sup>(٧)</sup> . أبداً بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادى سعى حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا . حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : ( لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت<sup>(٨)</sup> ) لم أسق الهدى وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ) .

فقام سراقه<sup>(٩)</sup> بن مالك فقال : يا رسول الله ألعاننا هذا أم لأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة في الأخرى وقال : دخلت العمرة في الحج مرتين لا بل لأبد أبداً .

وقدم على من اليمن بيذن النبي ﷺ . فوجد فاطمة رضى الله عنها من حل ولبست ثياباً صبيغاً<sup>(١٠)</sup> ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبى أمرنى بهذا ، قال : فكان على يقول بالعراق<sup>(١١)</sup> : فذهبت

(١) في الموضع الذى يسمى اليوم آبار على ، على بعد اثني عشر كيلومتراً من قلب المدينة .

(٢) تجعل ثوباً بين فخذيها لتحفظ دم النفاس .

(٣) ناقه الرسول ﷺ .

(٤) الرمل الجرى الخفيف .

(٥) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .

(٦) الركن هو مكان الحجر الأسود .

(٧) من الآية : ١٥٨ من سورة البقرة .

(٨) كناية عن أنه لو استطاع العودة إلى بدء إحرامه لجعلها إحراماً بعمرة .

(٩) هو الفارس الذى خرج يوم الهجرة يريد القبض على رسول الله ﷺ ليفوز بجائزة قريش - مائة ناقة من حمر النعم - فساخت قوائم فرسه ثلاث مرات فاستأمن رسول الله ﷺ فأمنه وبشره بلبس سوارى كسرى ، وقد لبسها في خلافة عمر رضى الله عنه .

(١٠) ثياباً ملونة .

(١١) أى لما صار خليفة وجعل الكوفة عاصمة خلافته .

إلى رسول الله ﷺ محرّشاً على فاطمة للذي صنعت ، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكر عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها ، فقال صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ .

قال : قلت : « اللهم إني أهل بما أهل به رسولك » .

قال : فإن معي الهدى فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن والذى أتى به النبي ﷺ مائة .

قال : فحلّ الناس كلهم وقصّروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدى ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر<sup>(١)</sup> ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة<sup>(٢)</sup> فسار رسول الله ﷺ ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس<sup>(٣)</sup> أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا - ربا عباس بن عبد المطلب ؛ فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فىكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس اللهم أشهد ، اللهم أشهد ثلاث مرات .

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر<sup>(٤)</sup> ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف<sup>(٥)</sup> فجعل ناقلته القصواء إلى الصخرات وجعل جبل المشاة بين يديه يستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ وقد شق<sup>(٦)</sup> للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رجله ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة ، كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ؛ فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح<sup>(٧)</sup> بينهما شيئاً ، ثم اضطجع رسول

(١) فجر يوم عرفة ، وسمى يوم التروية لأنهم يبعثون بالروايا - حاملات الماء إلى منى وعرفات تسبق الحجيج .

(٢) وفى مكان القبة - خيمة الرسول - بنى مسجد نمرة فى عرفات . (٣) أى زالت عن كبد السماء وهو أول وقت الظهر .

(٤) فى روايات أخرى أن صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين بأذان وإقامتين .

(٥) حيث توجد اليوم علامة قائم أبيض على الصخرات بوسط الوادى .

(٦) شد زمامها حتى لا تسرع . (٧) أى لم يصل نافلة بينهما .

الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهله ووحّده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس . وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً - فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن<sup>(١)</sup> يجري فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى أتى بطن محسر<sup>(٢)</sup> . فحرك قليلاً « ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الحذف يرمى من بطن الوادي .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر<sup>(٣)</sup> وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر ، فطبخت فأكلوا من لحمها ، وشربوا من مرقها ، ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم<sup>(٤)</sup> فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم الناس على سقائكم لتزعت معكم ، فناولوه دلوأ فشرب منه « ا . هـ

قال العلماء :

اعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد ، قال القاضي عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعاً . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه .

قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استئفار الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامهما وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبي ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس ، فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن : لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك .

وإنه ينبغي للحاج القدوم أولاً إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن - الحجر الأسود - قبل طوافه ويرمل في الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل أسرع المشى مع تقارب الخطأ وهو الخبب وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته ، وأنه يأتي بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

(١) نساء في الهواذج تجرى بين الابل .

(٢) مكان قريب من عرفات .

(٣) ما بقى من المائة .

(٤) يسقون الناس لأن السقاية كانت فيهم ، لأن آباهم أعاد حفر زمزم .

ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين ويقرأ فيهما في الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون وفي الثانية بعد الفاتحة الإخلاص . ودل الحديث على أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول ، واتفق العلماء على أن الاستلام سنة ، وأن يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ، ويقف عليه مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ويدعو ثلاث مرات ، ويرمل في بطن الوادي وهو الذي يقال له « بين الميلىن »<sup>(١)</sup> وهو أى الرمل مشروع في كل مرة من السبعة الأشواط ، لا في الثلاثة الأول كما في طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضاً على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو ويتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالاً وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم في يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى والسنة أن يصلى بمبنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة ، وهى ليلة التاسع من ذى الحجة ، ومن السنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً في « عرفات » فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات . ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج ؛ والثانية أى من الخطب المسنونة ؛ يوم السابع من ذى الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر ، والثالثة أى من الخطب المسنونة يوم النحر . والرابعة - يوم النفر الأول وفي الحديث سنن وآداب منها . أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين ، وأن يقف في عرفات ركباً أفضل ، وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبي ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة ، وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس ، ويكون في وقوفه داعياً لله عز وجل رافعاً يديه إلى صدره وأن يدفع بعد تحقيق غروب الشمس بالسكينة ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات ، وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء وإنما اختلفوا في سببه .

ف قيل : إنه نسك وقيل لأنهم مسافرون أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع ، ومن السنن المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك وإنما اختلفوا في كونه أى المبيت واجباً أو سنة .

ومن السنة أن يصلى الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتى المشعر الحرام ، فيقف ويدعو والوقوف عنده من المناسك : ثم يدفع منه عند إشعار الفجر إشعاراً بليغاً فيأتى بطن محسر<sup>(٢)</sup> فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل فلا ينبغي الأناة فيه ولا البقاء فيه .

(١) علامتان خضراوان في المسعى .

(٢) فيه رجم أصحاب الفيل رجمتهم الطير الأبايل .

فإذا أتى الجمرة وهي جرة العقبة نزل بطن الوادي ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء ؛  
أى الفول يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر إن كان عنده هدى ، ثم يحلق بعد نحره ثم يرجع إلى مكة  
فيطوف طواف الإفاضة ، وهو الذى يقال له طواف الزيارة ، ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام ،  
حتى وطء النساء ، وأما إذا رمى جرة العقبة ، ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شئ ما عدا النساء ،  
هذا هو هدى رسول الله ﷺ فى حجه والآتى به مقتد به ﷺ وممثل لقوله : « خذوا عني مناسككم » وحجه  
صحيح .

### كيفية أداء الحج :

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شاربه وقص شعره وأظافره ، ويغتسل أو يتوضأ ،  
ويتطيب ويلبس لباس الإحرام ، فإذا بلغ الميقات<sup>(١)</sup> صلى ركعتين وأحرم بأى نوع : الحج إن كان مفرداً أو  
العمرة إن كان متمتعاً ، أوهما معاً إن كان قارناً .

وهذا الإحرام ركن لا يصح النسك بدونه .

أما تعيين نوع النسك من أفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح  
إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة ، وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع ، كلما علا شرفاً  
أو هبط وادياً ، أو لقي ركباً أو أحداً ، وفى الأسحار وفى دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواغيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لافائدة فيه ، وأن  
لا يتزوج ولا يزوج غيره ، ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذى يستر ما فوق الكعبين .

ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً ولا يقص ظفراً ، ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ،  
ولا لشجر الحرم وحشيشه ، فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها ، بعد أن يغتسل من بئر  
ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له ، ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكراً أدعية دخول المسجد  
ومراعياً آداب الدخول ، وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية ، فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله  
من فضله ، وذكر الدعاء المستحب فى ذلك ، ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه  
بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ، ثم يشرع فى الطواف ويستحب له أن  
يضطبع<sup>(٢)</sup> ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول .

(١) الميقات هو أحد الأماكن التى حددها رسول الله ﷺ للقادمين من الأفاق إلى الحرم ، حيث يلزمه عنده بدء الإحرام

(٢) الاضطباع : تعرية الكتف الأيمن ووضع طرف الرداء تحت الإبط .



ويمشى على هيئته فى الأشواط الأربعة الباقية ، ويسن له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود فى كل شوط ، فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فيصلى ركعتى الطواف ثم يأتى « زمزم » فيشرب من مائها ويتصلع<sup>(١)</sup> منه ، وبعد ذلك يأتى « الملتزم »<sup>(٢)</sup> فيدعو الله عز وجل بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة ، ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ الآية .

ويعصده عليه ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكراً داعياً بما شاء ، فإذا بلغ ( ما بين الميلىن ) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعياً ذاكراً وهذا هو الشوط الأول وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط . وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم ، فإذا كان المحرم متمتعاً حلق رأسه ، أو قصر وبهذا تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء . أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ، ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات . ونزل عند مسجد ثمة واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام ، يقصر فيهما الصلاة هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً حسب استطاعته حيث يكون من ساحة عزفات ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها ، فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ولا ينبغي صعود جبل الرحمة ، ويستقبل القبلة ، ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهاال ، حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل<sup>(٣)</sup> أفاض إلى المزدلفة فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ، ويبى بها فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام ، وذكر الله كثيراً حتى يسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى منى .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه ويحلق شعره أو يقصره وبالخلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ما عدا النساء ، ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة وهو طواف الركن فيطوف كما طاف طواف القدوم ، ويسمى هذا الطواف أيضاً طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارناً وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شئ حتى النساء . ثم يعود إلى منى فيبيت بها . والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم . وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث مبتدئاً بالجمرة التى تلى منى ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمي داعياً ذاكراً ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها . وينبغي أن يرمى كل جمرة بسبع

(١) أى يملا ما بين أضلاعه ، وذلك يعنى الشرب الوفير .

(٢) ما بين باب الكعبة والحجر الأسود .

(٣) أى تأكد غروب الشمس .

حصيات قبل الغروب ، ويفعل في اليوم الثاني عشر مثل ذلك ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثاني عشر ، وبين أن يبيت ويرمى في اليوم الثالث عشر ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب . وعلى تاركة أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع ، إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات ، وإلا ذبح شاة ، ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هي الإحرام من الميقات ، والطواف ، والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة ، ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة ، والمبيت بمنى ، والذبح ، والحلق أو التقصير ، هذه هي خلاصة أعمال الحج والعمرة .

#### طواف الوداع والدعاء :

طواف الوداع سُمي بهذا الاسم لأنه لتوديع البيت ويطلق عليه طواف الصدر لأنه عند صدور<sup>(١)</sup> الناس من مكة وهو طواف لا رمل فيه وهو آخر ما يفعله الحاج غير المكي عند إرادة السفر من مكة . . . روى مالك في الموطأ عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « آخر النسك الطواف بالبيت » أما المكي والحائض فإنه لا يشرع في حقها ولا يلزم بتركها له شيء .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « رُخص للحائض أن تنفر إذا حاضت » رواه البخارى .  
وفى رواية قال : « أُمِر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خُفف عن المرأة الحائض » .

وروى عن صفية زوج النبي ﷺ : أنها حاضت فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « أحابستنا هي ؟ » فقالوا : إنها قد أفاضت قال : « فلا إذا » .

حكمه : اتفق العلماء على أنه مشروع . لما رواه مسلم وأبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الناس ينصرفون في كل وجه . فقال النبي ﷺ : « لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت » .

واختلفوا في حكمه فقال مالك وداود وابن المنذر : إنه سنة لا يجب بتركه شيء وهو قول للشافعى : وقالت الأحناف والحنابلة ورواية عن الشافعى : إنه واجب يلزم بتركه ذم .

وقته : وقت طواف الوداع بعد أن يفرغ المرء من جميع أعماله ويريد السفر ليكون آخر عهده بالبيت كما تقدم في الحديث . فإذا طاف الحاج سافر تَوّاً دون أن يشتغل ببيع أو شراء ولا يقيم زمناً فإن فعل شيئاً من ذلك أعاده .

اللهم إلا إذا قضى حاجة في طريقه أو اشترى شيئاً لا غنى له عنه من طعام ، فلا يعيد لذلك ، لأن هذا لا يخرج منه عن أن يكون آخر عهده بالبيت ، ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك مملكتي على ما سخرت لى من خلقك وسيرتني في بلادك

حتى بلغتني بنعمتك إلى بيتك ، وأعتنتني على أداء نسكي ، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا ، وإلا فمن الآن فأرض عني قبل أن تنأى عن بيتك داري ، فهذا أوان انصرافي ، إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبنى العاقية في بدني والصحة في جسمي والعصمة في ديني ، وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك ما أبقيتني واجمع لي بين خيري الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير .

قال الشافعي : أحب إذا ودع البيت أن يقف في الملتزم . وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

### أهل الكتاب وعنادهم وما يضمرونه للإسلام

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۚ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ شهيد ﴾ : الشهيد العالم بالشيء المطلع عليه ﴿ تصدون ﴾ : تعرضون . ﴿ تبغونها ﴾ : تطلبونها ﴿ عوجا ﴾ : العوج الميل عن الاستواء في الأمور المعنوية كالدين مثلاً والمراد هنا الزيف والتحريف .

في هاتين الآيتين سؤالان وجههما الله تعالى على لسان نبيه ومصطفاه ﷺ قصد بهما تقرير أهل الكتاب الذين كفروا بآيات الله خاصة ، الآيات الناطقة بنبوة خاتم المرسلين ﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ﴾ أى ما كان ينبغي لكم أن تكفروا بتلك الآيات وأنتم تعلمون أن الله تعالى شهيد ومطلع على ما تخفى صدوركم وعليم بخلجات نفوسكم ، وما كان يليق بكم وينبغي لكم أن تصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، تقصدون بذلك اعوجاج الطريق وهو مستقيم واضح ، والحق أجلى من الشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، وأوضح من ضوء النهار إذا جلاها ، فلماذا تريدون أن تنحرفوا بالسبيل وهى مستقيمة لا اعوجاج فيها ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (١) .

(١) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ﴾ : أى أنكم تعلمون هذه الحقائق علم الشاهد الذى يرى الحق كالشمس ، فلماذا الإنكار ولماذا الصد والله تعالى يقول : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ (١) بل لقد قال عبد الله بن سلام : « إني والله لأعرف أن محمداً رسول الله أكثر مما أعرف ابني ، قيل له وكيف ؟ قال : الله أعلم بابني أما هذا فقد نزل الأمين من السماء بنبوته » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى اعلموا أن الله رقيب عليكم شهيد على أعمالكم وسوف يجازيكم بها ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٢) .

الله يدرى كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

### توجيهات وعظات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ يعتصم ﴾ اعتصم بالشئ تمسك به فمنع نفسه من الوقوع في الهلاك ﴿ حق تقاته ﴾ : تقاته وتقواه بمعنى واحد ، والحق أى الواجب الثابت وأصل الكلام : اتقاء حقاً : والمراد اتقوه التقوى الواجبة ﴿ حبل الله ﴾ : هو العهد أو القرآن و ﴿ شفا حفرة ﴾ : طرفها وأشفى على الشئ أشرف عليه .

(١) من الآية : ١٤٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ٤٢ من سورة ابراهيم .

## سبب النزول :

روى أنه مر شماس بن قيس اليهودي - وكان شديد الكفر كثير الحسد على المسلمين ، مر بنفر من المسلمين من الأنصار - الأوس والخزرج - يتحدثون ، فغاظه ذلك حيث اتحد الأوس والخزرج ، واجتمعوا بعد الذي كان بينهم في الجاهلية - من حروب أججها اليهود - وقال اللعين : مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه أن اذهب إليهم وذكركم بيوم بعث وما كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس . وما قيل فيه من الأشعار ، فتنازع القوم وتصايحوا : السيوف السيوف !! وجمع كل فريق منهم جموعه فبلغ النبي ﷺ هذا ؛ فخرج إليهم ومعه المهاجرون والأنصار ، وقال : ( أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم ) . فعرف القوم أنها نزغة الشيطان وكيد العدو ، فألقوا السلاح وبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ .

خطاب كريم من رب كريم بعنوان كريم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لبيك اللهم لبيك ؛ يأتي بعد ذلك التوجيه الحاسم الجازم ﴿ إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب ﴾ المقصود بهم اليهود .

ماذا يا علام الغيوب ، يا من تعلم خفايا الصدور ، يا من تعلم حقائق الأمور ، ودقائق خطرات النفوس ، ماذا لو أطعنا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب : ﴿ يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ بش المصير الارتداد بعد الإيمان ، وبش الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ (١) إن الصراع بين الحق والباطل ؛ دائم دائم مستمر ، حتى تقوم الساعة ، والصراع بين جماعة الحق وجماعة الباطل صراع عقيدة ، قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ (٢) فعلى الجماعة المسلمة أن تحذر الأصابع التي تحيك لها المصايد والمكايد والشباك ، وعلى الجماعة المسلمة أن تلجأ إلى كتاب الله ، قال ﷺ : « ستكون فتنه . قال على فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » . نعم . وهل بعد كتاب الله من معتصم ، إنه العاصم من القواصم ؛ فيه خبر من بعدكم وحكم ما بينكم إنه حبل الله المتين ونوره المبين وذكره الحكيم .

ثم يأتي التعجب في صيغة الاستفهام ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوماً : ( أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا : الملائكة قال : وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ؛ قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ . قالوا : فأى الناس أعجب إيماناً ؟ قال : قوم يحيثون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها ) .

لن يكون هناك انحراف عن سبيل الجادة ، مادامت آيات الله تتلى عليكم ومادام فيكم رسوله ، فإن آيات الله عصمة من الزلل ، إنها حبل الله المتين ونوره المبين ، وذكره الحكيم ، ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ٨ من سورة البروج .

إلى صراط مستقيم ﴿ هذه حقيقة لا تختلف ولا تتخلف ، ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ \* ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿ <sup>(١)</sup> . فاللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والعصمة من كل ذنب .

ثم أمر تعالى بأن يتقى حق التقوى فقال سبحانه : ﴿ يأأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ حق تقاته ﴾ . قال ابن مسعود : أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ هذه دعوة أراد الله تعالى بها التمسك بالإسلام ، فالسعيد هو من مات مسلما ، والشقى من مات على غير الإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ <sup>(٣)</sup> وأقال جل شأنه : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تبارك وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ <sup>(٥)</sup> فإذا كان الله أكمل ديننا فدين الله لا ينقص أبدا ، وإذا كان أتم نعمته علينا ، فنعمة الله ليست فى حاجة إلى زيادة . من أقوال من لا يعلمون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإذا كان الله رضى الإسلام لنا ديناً ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ <sup>(٦)</sup> ، ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ \* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿ <sup>(٧)</sup> إن الله تعالى أوصانا أن نموت على الإسلام ﴾ ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ <sup>(٨)</sup> قال جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : ( لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل ) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله قال أنا عند ظن عبدي بى فإن ظن بى خيرا فله وإن ظن بى شرا فله ) .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريض ، فجاءه النبى ﷺ يعوده ، فوافقه فى السوق ؛ فسلم عليه فقال له : ( كيف أنت يا فلان ؟ قال بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الوطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف ) .

(١) من الآيات : ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .

(٢) روى البخارى عن عروة بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ( حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر ) وروى ولما نزلت هذه الآية : قالوا يا رسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد .

(٣) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .

(٥) من الآية : ٣ من سورة المائدة .

(٦) من الآية : ١٤ من سورة الجن .

(٧) الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٨) الآية : ٨ من سورة آل عمران .

بعد أن أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بتقواه حق تقاته ؛ أمرهم جل شأنه أن يستمسكوا بحبله المتين ونهاهم عن الفرقة فقال : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ وحبل الله هو : كتابه الحكيم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو الذى لا تزيع به الأهواء ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملأ الأتقياء ، ولا تنقضى ، عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ \* يهدى إلى الرشd فأمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴿ <sup>(١)</sup> . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، قال الإمام الشاطبى عن القرآن الكريم :

وخير جليس لا يمل حديثه	تراوده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته	من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة	ومن أجله في ذروة العز يجتلى
يناشد في إرضائه لحبيبه	وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيا أيها القارى به متمسكا	مجللا له في كل حال مبجلا
هنيئا مريئا والداك عليهما	ملابس أنوار من التاج والحلى

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ) .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ النعمة هنا هى نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وقد كان بين الأوس والخزرج محن وعدا وقاتل قبل الإسلام ، وكان اليهود ينفخون فى هذه النار فتزداد اشتعالا ، ويعملون جهد طاقتهم أن تظل ألسنة اللهب مندلعة بين هاتين القبيلتين العظيمتين إلى أن أشرق فجر الإسلام ، وامتدت خيوطه إلى القلوب فبددت غياهب الظلمات ، وأضاءتها بنور التوحيد ، فانقلب العداة إخاء ، والبغضاء محبة والشحناء وفاء ، والفرقة ولاء . ﴿ فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار ﴾ أى لو ظللتم على العداة الذى كنتم عليه ، والفرقة الضاربة أطنابها ؛ فقد دفعت بكم تلك الفرقة إلى حافة الهوية ، فأنقذكم الله منها بالإسلام ، وقد حذر الإسلام من الفرقة ، ودعا إلى الجماعة حيث قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾

واصبروا إن الله مع الصابرين ﴿١﴾ وقد بين النبي ﷺ الفرقة الناجية إذا اختلفت الأمة ، فقال : ( أهل السنة والجماعة قليل وما السنة والجماعة يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي ) . يمثل ذلك البيان بين الله آياته وأحكامه للأمة ، فيقول : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ فيا أمة الإسلام ليس بعد بيان الله من بيان ، وليس بعد آيات الله من آيات ، وليس بعد هداية الله من هداية : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين \* وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون ﴾ (٢) .

### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من التفرقة

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٤٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٥١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٥٤﴾

المفردات : ﴿ أمة ﴾ : جماعة متحدة مؤتلفة ﴿ إلى الخير ﴾ : أى المنافع فى الدنيا والآخرة ﴿ تبيض ﴾ : تشرق وتسر ﴿ تسود وجوه ﴾ : تكتسب وتحزن ﴿ ظلما ﴾ : هو وضع الشيء فى غير موضعه .  
خاطب الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بأسلوب الأمر الصريح فقال : ﴿ ولتكن منكم ﴾ أيها المسلمون ﴿ أمة ﴾ لها كيان ونظام ، أمة مؤتلفة الأعضاء موحدة الجهات ، لا ترهب أحدا ولا تخاف شيئا ، دينها قول الحق ورفع الظلم ، ولو كان عند سلطان جائر ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، لها رياسة وقانون ، كل ذلك أشارت إليه كلمة واحدة وهى ﴿ أمة ﴾ إذ هناك فرق بين قولك : جماعة وأمة .

فعلى المسلمين جميعا واجب ؛ وهو تكوين تلك الأمة لتكون بهذا الوضع ، وعلى الأمة المكونة ، واجب : أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والذب عن حياض الدين ، ورفع منارة الحق والعدل ، فالمسلمون جميعا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف

(١) من الآية : ٤٥ من سورة الأنفال .

(٢) من الآيتين : ٧١ ، ٧٢ من سورة الأنعام .



والنهي عن المنكر ، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق ، لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين ، وهذا أشبه بمجلس النواب ، على الأمة جميعاً اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة ، على سبيل الوجوب ، وفي سبيل قيامها بواجبها ، يجب أن تتوافر فيها شروط : العلم الديني والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس ، ويؤثر فيهم ، والتقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء ، وأن يكون الداعية مثلاً أعلى في الخلق الكامل ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة .

فإذا توافرت هذه الشروط (فأولئك) البعيدون في درجات الكمال ﴿ هم المفلحون ﴾ في الدنيا والآخرة ، والأمة التي هدايتها وقادتها بهذا الوضع ؛ لا بد أن تكون العزة والكرامة لها ، ﴿ ولا تكونوا ﴾ أيها المسلمون ﴿ كالذين تفرقوا واختلفوا ﴾ اختلافاً كثيراً ، كما حصل لليهود والنصارى ﴿ من بعد ما جاءهم البينات ﴾ الواضحات التي تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها ، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير وترشدتهم إلى الطريق ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴿ (١) .

والاختلاف المنهي عنه هو : الاختلاف في الأصول العامة للدين ، وتحكيم الهوى ، وإدخال السياسة المذهبية ، والبعد عن مناهل الشريعة والأخذ بالمتشابه .

أما الخلاف في الوسائل ، وكيفية الأداء : كاختلاف المذاهب عندنا في كيفية الوضوء ؛ لتعدد فعل النبي ﷺ ولأن القرآن يسمو بكل صورة قال بها إمام من الأئمة ، فلا شيء فيه ، إذ كلهم من رسول الله ﷺ ملتمس ، والمسلمون قد اختلفوا شيعاً وأحزاباً ، لما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتركوا روح الدين واشتغلوا بالأمر الشكلي .

والأمة التي فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فأولئك جميعاً هم المفلحون ، وأولئك المختلفون المتفرقون ، التاركون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ لهم عذاب عظيم ﴾ لا يعرف له حد ولا يدرى له كنه ﴿ يوم تبيض وجوه ﴾ المؤمنين وتشرق ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيامهم ، ﴿ وتسود وجوه ﴾ المختلفين ، الذين لم يتواصوا بالحق والصبر ، من أهل الكتاب والمنافقين ، وتظلم وتكثب حينما يرون ما أعد لهم من العذاب المقيم \* .

وقد وصفوا كذلك بأن الذل قد ألصق بهم حتى أثر فيهم ، كما يؤثر الضرب في النقد (٢) ، فلا خلاص لهم من الذل أبداً ، إلا بسبب عهد لهم من الله ، وهو ما قرره الشريعة لهم من المساواة في الحقوق والقضاء ،

(١) الآيتان : ٧٨ ، ٨٩ من سورة المائدة .

\* هنا موضع الفجوة حيث تناول الشيخ تفسير قوله : « ضربت عليهم الذلة .. الخ » بينما لم يذكر تفسير كنتم خیرامة .. الخ .  
(٢) لصناعة العملات المعدنية أساليب من صنع القوالب قديماً والضرب على القوالب لترك أثرها على وجهي العملة ، بينما أصبحت المسألة اليوم بالآلات أوتوماتيكية ، فتخرج قطع بالآلاف صورة واحدة .

وتحريم الإيذاء وعهد من الناس ، وهو ما تقتضيه المشاركة في الوطن ، والحاجة والانتفاع في الصنعة والتجارة ، وصاروا مستحقين لغضب الله ، مستوجبين سخطه ، قد أحاطت بهم المسكنة إحاطة المكان بما فيه ، فهم في الذل والفقر والحاجة أبدا ، ولا شك أنهم كذلك إلى الأبد ، وإن كانوا مياسير وأغنياء ، لأنهم ورثوا صفات الذل وضعف النفس وامتهاها ، بل باعوا الشرف لأجل المال ، فهم في فقر دائم وذل مستمر ويتأهلون المال . . ذلك الذي ذكر من هذه الصفات ، بسبب : أنهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء ، معتقدين أنهم على حق فيما يفعلون إذ يقتلون رجلاً يقولون ربنا الله ، وفي هذا تشنيع عليهم ، وأى تشنيع .

وما جرأهم على ذلك إلا فعل المعاصي ، واستمرارهم على معصية الله ؛ فإنه يجعل الران على قلوبهم ، ويفضي بهم إلى الوقوع في الكبائر فمن جعل الصغائر ديدنه ، لم يكن بعيدا عليه الكفر وقتل الأنبياء ونسبة القتل إلى المعاصرين من اليهود كما قلنا ، لأنهم منتسبون إلى من فعل هذا الفعل ، وراضون عنه بل معتزون بهذا النسب ، على أنهم حاولوا قتل النبي ﷺ مرارا وعصمه الله منهم .

قوله تعالى : ﴿ فَأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾  
أي فأما الذين تفرقوا واختلّفوا فاسودت وجوههم ، فيقال لهم هذا القول في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فلا بد أن يوجد في الناس من يقول للأمة التي وقع فيها هذا الاختلاف — مثل هذا القول ، تغليظا لها ، لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين ، وأما في الآخرة فيؤيخهم الله تعالى بمثل هذا السؤال .

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين في الدين من الكفار والمشرّكين كما جاء في قوله : ﴿ ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء ﴾<sup>(٢)</sup> .

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقة من الكفر ، لأن الإيمان اعتقاد وقول عمل ، وهو ذو شعب كثيرة من أجلها تحرى العدل ، واجتناب الظلم ، فمن استرسل في الظلم كان كافرا كما قال تعالى ﴿ والكافرين هم الظالمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق ، والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان .

﴿ وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ :

أي وأما الذين أبيضت وجوههم باتحاد الكلمة ، وعدم التفرق ، فيكونون في الدنيا خالدين في النعمة ماداموا على تلك الحال ، وخلودهم في الرحمة في الآخرة أظهر .

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الروم .

(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ :

أى هذه الآيات نتلوها عليك مقررّة ما هو الحق الذى لا مجال للشبهة فيه ، فلا عذر لمن ذهب فى الدين مذاهب شتى ، واتبع سنن السابقين ، وجعل القرآن عضيّين .

فعلينا أن نستمسك بما به أمر ووعد عليه بالفوز والنجاح ، ونترك ما عنه نهى وأوعد عليه بالعذاب الأليم ، حتى نكون أمة متفقهة المقاصد ، ممتدة فى الدين ، فتجمع بين سعادتي الدنيا والآخرة .

﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ :

أى أن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، فإنما يريد به هدايتهم إلى ما يكمل فطرتهم ، ويتم به نظام جماعتهم ، فإذا هم فسقوا عن أسرة حل بهم البلاء ، وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بترقيهم واختلافهم ، إلى نحو ذلك من الذنوب التى تفسد نظم المجتمع ، وتجعل أهله فى شقاء .

ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشافها ، فزحزحها عن الصراط المستقيم ، كما قال عز وجل :  
﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهُ أليم شديد﴾<sup>(١)</sup> .

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفى الظلم عنه تعالى ، فقال سبحانه .

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ : أى أنه تعالى مالك العباد والمتصرف فى

شئونهم بحسب سنته الحكيمة التى لا تغيير فيها ولا تبديل ، كما قال : ﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾<sup>(٢)</sup> .

وليس من أسباب ملكه شىء ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولأن الظلم يناهى الحكمة والكمال فى النظام وفى التشريع ، ومن حمل عبده أو دوابه ما لا تطيق يقال إنه ظلمها ، ومن نقص أمراً حقه ظلمه ، قال تعالى : ﴿كلنا الجنتين أتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾<sup>(٣)</sup> .

خير أمة

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ  
ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ  
إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقْتَلُوا يَمْلِكُوا الْآدِبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب

(٣) الآية ٣٣ من سورة الكهف .

مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَغَضَ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ  
الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بَأْنَهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ  
بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُتِمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ :  
أى أنتم خير أمة في الوجود الآن ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بإيماناً  
صادقاً يظهر أثره في نفوسكم ، فينزِعكم عن الشر ، ويصرفكم إلى الخير ، وغيركم من الأمم قد غلب عليهم  
الشر والفساد . فلا يأمرُونَ بِمَعْرُوفٍ ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يؤمنون بإيماناً صحيحاً .  
وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولاً ، وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه وقت  
التنزيل ، فهم الذين كانوا أعداء ، فألف بين قلوبهم ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ، وكانوا يأمرُونَ  
بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخاف ضعيفهم قويمهم ، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم ؛ وملك الإيمان  
قلوبهم ومشاعرهم ، فكانوا مسخرين لأغراضه في جميع أحوالهم .  
وهذا الإيمان هو الذى قال الله في أهله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا  
بِمَاوَاهِمِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال فيهم أيضاً : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ  
اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما تركتهما إلا باستبداد  
الملوك والأمراء من بنى أمية ، ومن حذا حذوهم .  
وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان ، حين قال على المنبر : من قال لى  
اتق الله ضربت عنقه .

وما زال الشر يزداد ، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية في دينها ودنياها بعد  
الإيمان ، وهى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .  
وإن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، الأمر بالمعروف ،  
والنهي عن المنكر والإيمان بالله فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية ، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة في آيات هذه  
السورة بما لم يعرف له نظير في الكتب السابقة .

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .

وقدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر ، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأنها سياج الإيمان وحفاظه ، فكان تقديمهما في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أى ولو آمنوا إيماناً صحيحاً يستولى على النفوس ، ويملك أزمة القلوب ، فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة ، كما تؤمنون- لكان ذلك خيراً لهم مما يدعونهم من إيمان لا يزع النفوس عن الشرور ، ولا يبعدها عن الرذائل ، إذ هو لم يؤت ثمرات الإيمان الصحيح الذى يحبه الله ورسوله ، ولا كان أثراً من إثارة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وهذا تعلم أن الإيمان عنهم إيمان خاص له تلك الآثار التى تقدمت ، لا الإيمان الذى يدعيه كل من له دين وكتاب ، كما أنه إنما نفاه عن أكثر أفراد الأمة ، وأنهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة - لا عن جميعها ، إذ لا تخلو أمة ذات دين سماوى من هذا الإيمان ، ومن ثم قال : ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى منهم المؤمنون المخلصون في عقائدهم وأعمالهم ، وأكثرهم فاسقون عن دينهم ، متمردون في الكفر .

وما من دين إلا يوجد فيه الضالون والمعتدلون والمفرطون المائلون إلى الفسوق والعصيان ، ويكثر الاستمسك بالدين في أوائل ظهوره ، كما يكثر الفسق بعد طول الأمد عليه ، كما قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) .

وعلى الجملة فالقرآن الكريم إذا عرض لوصف الأمم وبيان عقائدها وأخلاقها ، وزن ذلك بميزان دقيق يتحرى فيه ذكر الحقيقة مجردة عن كل مغالاة أو مبالغة ، بما لم يعهد مثله في كتاب آخر .

فلو تصفحنا الأحكام التى حكم بها على أهل الكتاب ، وعرضناها على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم لقالوا : إنها الحق الصراح .

﴿ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ : أى أن هؤلاء الفاسقين لا يقدرّون على إيقاع الضرر بكم ، بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح ، والطعن في الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص ، والخوض في النبى ﷺ .

﴿ وَإِنْ يِقَاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أى وإن يقاتلوكم في ميدان القتال ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء ، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله ، ويستدبره في هربه منه . فيكون قفاه إلى وجهه من انهزم منه .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أى ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبدا ماداموا على فسقهم ، ودمتم على خير فيكم ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .

وفى الآية ثلاث بشارات من أخبار الغيب تحققت كلها ، وقد صدق الله وعده .

ومما سبق تعلم أن هذا الحكم إنما يثبت لهم إذا حافظوا على نصر الله بنصر دينه ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾<sup>(١)</sup> وكما قال فى وصف المؤمنين المجاهدين : ﴿ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحفاظون لحدود الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾

أى إنهم ألزموا الذلة فلا خلاص لهم منها ، فما لهم معكم أنهم أذلاء فهزموا الحقوق ، رغم أنوفهم ، إلا بعهد من الله وهو ما قرره الشريعة إذا دخلوا فى حكمها من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء ، وعهد من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة ، من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾

أى وصاروا مستحقين غضب الله مستوحيين سخطه ، وأحاطت بهم المسكنة والصغار ، فهم تابعون لغيرهم ، يؤدون ما يضرب عليهم من المال وادعين ساكنين .

وهذا الوصف صادق على اليهود إلى اليوم فى كل بقاع الأرض ، وقد ارتفع الذل عنهم فى بلاد الإسلام بحبل من الله ، وهو ما ذكرناه فيما سلف من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد إنقاذهم من ظلم حكامهم السابقين ، وبحبل من الناس كما تقدم بيانه .

وأما ارتفاع المسكنة بأن يكون لهم ملك وسلطان يوما ما ، فالقرآن ينفيه عنهم ، لأنه لم يستثن من ذلك شيئا ، كما استثنى فى الذلة ، فاقضى بقاء ذلك عليهم إلى الأبد . لكنهم يقولون إنهم مبشرون بظهور مسيح

(١) الآية ٧ من سورة محمد .

(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(مسيا) فيهم ؛ ومعناه ذو الملك والشرية ، والنصارى يقولون : إن هذا الموعود به هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، والمراد بالملك الملك الروحاني .

ثم ذكر سبحانه سبب ذلك وعلة فقال : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ﴾ .

أي ذلك الذي ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم للغضب الإلهي بسبب كفرهم ، وقتلهم النبيين بغير حق تعطيتهم إياه شريعتهم .

وفي النص على أن ذلك بغير حق مع أنه لن يكون إلا كذلك تشنيع عليهم وإثبات لأن ذلك حدث عن عمد لا عن خطأ . ثم أشار إلى سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال تعالى :

﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي أنه ما جرأهم على ذلك إلا سبق المعاصي ، واعتداؤهم على حدود الله ، والاستمرار على الصغائر يفضي إلى الوقوع في الكبائر . فمن جعلها ديدناً له واتخذها عادة وصل به ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء المرشدين .

وقتل الانبياء وإن كان لم يصدر من اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ، بل كان من أسلافهم ، لكنهم لما كانوا راضين به مصويين له نسب إليهم ، إذ صار خلقاً لهم يتوارثه الخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء .

والأمم متكاملة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيها ، وإن ظهر بعض آثاره في زمن دون آخر .

## المؤمنون من أهل الكتاب

\* لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ أَنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾  
يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي  
الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

المفردات : ﴿ قائمة ﴾ : مستقيمة عادلة مأخوذة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام . ﴿ آناء الليل ﴾ : جمع آن والمراد ساعات الليل . ﴿ يسارعون في الخيرات ﴾ : يبادرون إلى فعل الخيرات . ﴿ يكفروه ﴾ : يمنعون ثوابه .

هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها أن أهل الكتاب ليسوا<sup>(١)</sup> سواء في الكفر ، بل إن هناك منهم أمة مستقيمة على أوامر الله ونواهيه ، تمثل الأوامر وتجتنب النواهي ، إنها أمة عرفت الله حق المعرفة فأخذت تتلو آياته في ساعات الليل ، عندما نامت العيون ، وهجعت الأبدان ، وغارت النجوم ، وأرخص الليل سدوله ، هذه الأمة نظر الله إليها وأصلابها منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، إن هؤلاء الصالحين من أهل الكتاب يقومون بالليل والناس نيام ، وهم يسجدون امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبحلق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ ويخرون للأذقان ليكون ويزيدهم خشوعاً<sup>(٢)</sup> .

(١) روى عن ابن مسعود : ليس أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ سواء ، وروى القرطبي عن أبي خيثمة - زهير بن حرب بسنده عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى في هذه الساعة غيركم » قال وانزلت هذه الآية : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة » إلى قوله تعالى : والله عليم بالمتقين .

(٢) الآيات : ١٠٥ - ١٠٩ من سورة الإسراء .



إن هذه الأمة الصالحة أمثال عبد الله بن سلام ؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعتقدون بالقدر اعتقاداً جازماً ، ومن آمن بالله واليوم الآخر يلزمه بمقتضى إيمانه بالله : أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله ، إن هذه الأمة القائمة يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، إذ الأمر والنهي لا يمكن لمجتمع أن يستقيم بدونها ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ (١) وجاء على لسان لقمان لابنه : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٢) . وهؤلاء الصالحون يسارعون في الخيرات قال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ (٣) إذا لقد وصف الله هذه الأمة أولاً : بالاستقامة ، وثانياً : بتلاوة آياته آناء الليل ، وثالثاً : بالسجود وهو أعظم أركان الصلاة ، إذ أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، رابعاً : ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ خامساً : ﴿ ويأمرون بالمعروف ﴾ سادساً : ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ سابعاً : ﴿ ويسارعون في الخيرات ﴾ ، فاستحقوا من الله بناء على هذه الحثيات : أن يحكم لهم ﴿ وأولئك من الصالحين ﴾ وحيث كان ذلك كذلك فلن يضيع ما فعلوه عند الله ، ﴿ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ (٤) . ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ﴾ (٥) . ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ ولن يضيع ولن يمحذ ولن ينسى لأن الذي يثيب على الأعمال ﴿ عليم بالمتقين ﴾ بصير بأحوالهم خير بقلوبهم ، لا تضيع عنده الودائع ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٦)

### الكافرون وأعمالهم يوم القيامة

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران

(٢) الآية : ١٧ من سورة لقمان .

(٣) من الآية : ٧٧ من سورة الحج .

(٤) من الآية : ٣٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية : ٩٤ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ لن تغني ﴾ : لن تجزى عنهم . ﴿ صر ﴾ : برد شديد . ﴿ حرث ﴾ : الحرث .  
إثارة الأرض للزرع والمراد النبات المزروع .

يخبر الله سبحانه وتعالى بأن أعداءه من الكفار ، مهما تنوعت فرق الكفر واختلفت مذاهبه ومشاربه ، فإنهم جميعاً ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ﴾ التي ينفقونها للصد عن سبيل الله ، والتي يقصدون من ورائها الرياء والسمعة والشهرة الزائفة ، هذه الأموال لن تغني عنهم من الله شيئاً كذلك ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين يظنونهم أنصاراً لهم ، كما أخبر الله تعالى عنهم في قوله : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ (١) . جاءت هذه الآية التي بين أيدينا في سورة آل عمران ، لتخرس هذه الألسنة الكافرة ﴿ إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أى أنها لن تنجيهم من العقاب النازل بهم ، لأنهم ملازمون للنار وهم أصحابها : ﴿ إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون \* ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ (٢) .

ثم ضرب الله مثلاً لإنفاق هؤلاء الكافرين : بأن هذه الأموال التي تنفق في هذه الحياة الدنيا ؛ مثلها ﴿ كمثل ريح ﴾ فيها برد شديد هبت على زرع يرجى الخير منه فأهلكته ، وكان هذا منطق العدالة الإلهية ؛ قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : « أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه » (٣) فهؤلاء الكافرون لما أنفقوا ابتغاء الفتنة ، طلباً للرياء والسمعة ، وسعياً وراء الجاه والسلطان ، أهلك الله مطالبهم ، وجاءت العاقبة بخلاف ما كانوا يتوقعون ، ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ وإنما جازاهم على ما قدمت أيديهم ، والحقيقة أنهم هم الذين ﴿ يظلمون ﴾ أنفسهم فقد وقفوا يحاربون الإسلام بكل ما يملكون ، من مال وجاه وسلطان وقعدوا بكل صراط يوعدون ﴿ ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويغفونها عوجاً ﴾ (٤) فإذا أنزل الله بهم المهلكات والجائحات ، فذلك منطق العدل الذي يجازى كلاً بما قدمت يدها ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) .

(١) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .

(٢) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) من الآية : ٨٦ من سورة الأعراف .

(٥) الآية : ٤٤ من سورة يونس .

## إرشاد وتوجيه للمؤمنين

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَاعِنِمْ قَدْ بَدَتِ  
 الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾  
 هَٰئِنتُمْ أُولَٰئِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُوكُم قَالُوا ءَامَنَّا  
 وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
 الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تَصِيبَكُمُ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا  
 وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

المفردات : (بطانة الرجل) : خاصته الذين يستبطنون أمره ، مأخوذة من بطانة الثوب للوجه الذي  
 يلي البدن ، ويسمى الوجه الظاهر ظهارة ، وهي تستعمل للواحد والجمع مذكراً ومؤنثاً ، ﴿و﴾ من  
 دونكم ﴿﴾ : أى من غيركم و ﴿يألونكم﴾ : من إلى في الأمر يألو إذا قصر فيه ويقال : لا ألك نصحاً ولا  
 ألك جهداً أى لا أمنعك نصحاً ولا أنقصك جهداً ، والخبال : النقصان ومنه رجل مخبول ومخبل ومخبل إذا  
 كان ناقص العقل ، والفساد أى فساداً وضرباً . ووددت كذا : أى أحببته . والعنت : المشقة .  
 و ﴿البغضاء﴾ : شدة البغض كالضراء شدة الضر . و ﴿الكتاب﴾ : هنا : المراد به جنس الكتب كما  
 يقال كثر الدرهم فى أيدي الناس ، و [عض الأنامل] : يراد به شدة الغيظ أحياناً ، كما يراد به الندم أحياناً  
 أخرى ، و ﴿ذات الصدور﴾ : الخواطر القائمة بالقلب ، والدواعى التى تدعو إلى الأفعال أو الصوارف  
 التى ترفعها عنه ، و ﴿المس﴾ : أصله ما كان باليد كاللمس ، وسمى كل ما يصل إلى الشئ مساً ،  
 فقالوا : مسه التعب والنصب قال تعالى ﴿وما مسنا من لغوب﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿وإذا مسكم الضر فى  
 البحر﴾<sup>(٢)</sup> و (الحسنة) : المنفعة حسية كانت أو معنوية كصحة البدن والفوز بالغنمة وأعظمها انتشار  
 الإسلام وحصول الألفة بين المسلمين و (السيئة) : الفقر والهزيمة وحصول التفرقة بين الأقارب من ساء  
 يسوء بمعنى قبح فهو سيئ والأثنى سيئة قال تعالى : ﴿ساء ما يعملون﴾<sup>(٣)</sup> و (الكيد) : الاحتيال لإيقاع  
 غيرك فى مكروه ، و (المحيط بالشئ) : هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، ويراد به فى حق الله العلم بدقائقه

(١) من الآية : ٣٨ من سورة ق .

(٢) من الآية : ٦٧ من سورة الاسراء .

(٣) من الآية : ٦٦ من سورة البقرة .

وتفاصيل أجزائه ، فلا يعزب عنه شيء منه قال تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾<sup>(٢)</sup> .

كانت الآيات السالفة حجاجاً من أهل الكتاب والمشركين ، وإلزامهم بالحجة ، وبياناً لأحوال المؤمنين ، وتذكيراً لهم بما يكون من سوء العاقبة يوم القيامة ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والكلام في هذه الآيات تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين ؛ مخالطة تدعو إلى الإباحة بالأسرار ، والاطلاع على شئون المسلمين ، مما تقضى المصلحة بكتمانه ، وعدم معرفة الأعداء له .

ومما دعا إلى هذا النهي ، أنه كانت بين المؤمنين وغيرهم صلات خاصة تدعو إلى الإباحة بالأسرار إليهم ، كالنسب والمصاهرة والرضاعة والعهد والمخالقة ، إلى أن من طبيعة المؤمن أن يبني أمره على اليسر والأمانة والصدق ، ولا يبحث عن عيوب غيره ، ولكن لما كان همّ المناصبين العداء من أهل الكتاب والمشركين إطفاء نور الدعوة ، وإبطال ما جاء به الإسلام ، والمسلمون لم يكن لهم غرض إلا نشر هذه الدعوة بسائر الوجوه التي يرونها كفيلة بإعلاء كلمة الدين - اختلف المقصدان وافترق الغرضان ، فلم يكن من الحزم أن يفرض الإنسان بسره إلى عدوه ، ويطلعه على خططه التي يدبرها للفوز ببيغيته على أكمل الوجوه وأحكمها ، وأقربها للوصول إلى الغرض ، ومن ثم حذر الله المؤمنين من إطلاع عدوهم على أسرارهم . لما في ذلك من تعريض مصلحة الملة للخبال والفساد .

عن ابن عباس قال : « كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ينهاهم فيها عن مبايعتهم خوف الفتنة » أخرجه ابن إسحاق .

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبلاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾ أى لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص لكم دون المؤمنين إذا كانوا على تلك الأوصاف التي ذكرت في هذه الآية .

١ - ﴿ لا يألونكم خبالاً ﴾ أى لا يقصرون في مضرتكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

٢ - يتمنون ضرركم في دينكم ودنياكم أشد الضرر .

٣ - يبدون البغضاء بأفواههم ويظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم ، وينسبونكم إلى الحمق والجهل ومن اعتقد حق غيره وجهله لا يحبه .

٤ - ما يظهرونه على ألسنتهم من علامات الحقد أقل مما في قلوبهم منه .

فهذه الأوصاف شروط في النهي عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين فإذا اعترأها تغير وتبدل ، كما وقع من اليهود ، فبعد أن كانوا في صدر الإسلام أشد الناس عداوة للذين آمنوا انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ صاروا عوناً للمسلمين على الروم في فتح مصر ، فلا يمتنع حينئذ

(١) الآية : ٢٠ من سورة البروج .

(٢) من الآية : ١٩ من سورة البقرة .

اتخاذهم أولياء وبطانة للمسلمين ، فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم<sup>(١)</sup> وجرى الخلفاء من بعده على ذلك إلى أن نقل عبد الملك بن مروان الدواوين من الرومية<sup>(٢)</sup> إلى العربية ، وعلى هذه السنة جرى العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين ، في إسناد أعمال الدولة باليهود والنصارى حتى العصر الحاضر ، فإن كثيراً من سفراء الدولة العثمانية ووكلائها من النصارى . ومع كل هذا يرمينا الأجانب بالتعصب ويقولون : إن الإسلام لا تساهل فيه ، وهذا النهى المقيد بتلك الأوصاف شبيه بالنهى عن اتخاذ الكفار أنصاراً وأولياء ، في قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿ (٣) .

﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ أى قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التى يتميز بها الولي من العدو ، ومن يصح أن يتخذ بطانة ومن لا يصح أن يتخذ ؛ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته ﴿ إن كنتم ﴾ تدركون حقائق هذه الآيات التى تفرق بين الأعداء والأولياء ، وتعلمون قدر مواعظ الله وحسن عواقبها . ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالطة الكافرين واتخاذهم بطانة ؛ وفيه تنبيه لهم على خطئهم في ذلك ، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم .

١ - ﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ أى أنكم تحبون هؤلاء الكفار الذين هم أشد الناس عداوة لكم ، ولا يقصرون في إفساد أمركم وتمنى عنتكم ، ويظهرون لكم العداوة والغش ، ويتربصون بكم ريب المنون ، فكيف بكم توادونهم وتواصلونهم ؟ وحب المؤمنين لهم وهم على تلك الشاكلة من أقوى البراهين على أن هذا الدين دين رحمة وتساهل لا يمكن أن يتصور ما هو أعظم منه في ذلك .

٢ - ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أى أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب ؛ سواء منها ما نزل عليكم وما نزل عليهم ، فليس في نفوسكم جحد لبعض الكتب الإلهية ، ولا للنبين الذين جاءوا بها ، حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب ، أما هم فيجحدون بعض الكتب ، وينكرون بعض النبيين .

وخلاصة هذا : أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابتهم وكتابكم ، فما بالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابتهم ، كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أخرى يبغضهم ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم .

(١) روى القرطبي أن : عمر بن الخطاب قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا ، واستعينوا على أموركم ورعيتكم بالذين يخشون الله تعالى ، وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا نصرانيا من أهل الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا أخذ بطانة من دون المؤمنين ، والحقيقة أن عمر بن الخطاب أخذ بنظام الدواوين دون أن يستعمل الروم أو الفرس .

(٢) عبد الملك بن مروان أول من سك نقوداً عربية كوسيلة للاستقلال الاقتصادي ولم يذكر أى مصدر أن الدواوين كانت تكتب بالرومية ، ولكن أوراق البردى التى كانت تصنع في مصر كان عليها شعار النصرانية فأمر عبد الملك بالغائه ، فلما هدده امبراطور القسطنطينية بسك عملة تسب الإسلام ونييه ، أمر عبد الملك بسك عملة اسلامية «ملخصاً عن رسالة النقود للمقرئ» .

(٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

قال ابن جرير : في الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان ١ . هـ .  
وقال قتادة : فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه (أفناه وأهلكه) ١ . هـ .

وفي هذا توبيخ للمؤمنين بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم ، ونحو الآية قوله : ﴿ فَإِنَّهُمْ يَأْمُلُونَ كَمَا تَأْمُلُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ (١)

٣ - ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ ، أى وإذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ألانوا لهم القول ، حذراً على أنفسهم منهم ، فقالوا : آمنا وصدقنا بما جاء به محمد ﷺ ، وإذا هم صاروا في خلأ حيث لا يراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغيط منهم ، حتى ليبلغ الأمر إلى عض الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه . وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفى منهم فاضطروا إلى مداراتهم .

﴿ قُلْ مَاتُوا بَغِظِكُمْ ﴾ هذا دعاء عليهم بازدياد الغيط ، حتى يهلكوا كقولهم : دُم بعر . وبت قرير عين ، ونحو ذلك والمراد بذلك ازدياد قوة الإسلام وعز أهله .

وفي هذا عبرة للمسلمين لعلهم يتذكرون فيعلموا أن ما حل بهم من الازدراء ما كان إلا بزوال هذا الاجتماع والتفرق بعد الاعتصام .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فيعلم ما تنطوى عليه صدوركم من البغضاء والحقد والحسد ، ولا يخفى عليه ما تقولون في خلواتكم ، وما يبيديه بعضكم لبعض من تدبير المكاييد ونصب الحيل للمؤمنين ، وما تنطوى عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم ، ويجازى كلا على ما قدم من خير أو شر واعتقد من إيمان أو كفر .

﴿ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾ أى إذا نالكم خير كانتصاركم على أعدائكم المقاومين لدعوتكم ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، أحزنهم ذلك وعز عليهم .

وإن نالتكم مساءة كالإخفاق في حرب أو إصابة عدو لكم أو حدوث اختلاف بين جماعتكم فرحوا بذلك .

قال قتادة في بيان ذلك : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافاً ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك ،

وأعجبوا به وابتهجوا ، وهم كلما خرج منهم قرين أكذب الله أحدوثه وأوطأ حملته وأبطل حجته وأظهر عورته ، وذلك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقى إلى يوم القيامة ا . ه .

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ أى وإن تصبروا على مشاق التكليف فتمثلوا الأوامر وتتقوا كل ما نهيتم عنه وحظر عليكم ، ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة — فلا يضركم كيدهم ، لأنكم قد وفيتم لله بعهد العبودية ، فهو يفي لكم بحق الربوبية ، ويحفظكم من الآفات والمخافات ، كما قال سبحانه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴿ (١) .

قال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد في اكتساب الفضائل .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر في كل مقام يشق على النفس احتماله ، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده وعشيرته ومعاملته وقريبه مما يشق عليه ، فإن من لذات النفوس أن تفضى بما في الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم ، لما بدا منهم من البغضاء والحسد ؛ حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم ، واتقاء ما يجب اتقاؤه للسلامة من عواقب كيدهم .

وفي الآية عبرة للمسلمين في معاملة الأعداء ، فإن الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين ، واتقاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقاولة الشر بمثله ، إذ من دأب القرآن ألا يأمر إلا بالمحبة والخير ، ودفع السيئة بالحسنة كما قال : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ (٢) فإن تعذر تحويل العدو إلى محب يدفع سيئاته بما هو أحسن منها ؛ جاز دفع السيئة بمثلها ، من غير بغى كما فعل النبى ﷺ مع بنى النضير ، فإنه حالفهم ووآدهم فنكثوا العهد ، وخانوا وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب ، وحاولوا قتله فلم يكن هناك وسيلة لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاءهم من ديارهم .

﴿ إن الله بما يعملون محيط ﴾ أى إنه تعالى عالم بعمل الفريقين ، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما ، ومقدماته ونتائجه وغاياته ، فهو الذى يعتمد على إرشاده في معاملة أحدهما للآخر ، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله ، وعمل من يناهضه ويناصبه العداوة ، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلة للوصول إلى أغراضهم ومآربهم .

وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر ، والتمسك بالتقوى شرطية للنجاح ، وخلاصة المعنى — أن الله قد دلکم على ما ينجيکم من كيد أعدائکم ، فعليکم أن تمثلوا وتعلموا أنه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم فتقوا به وتوكلوا عليه .

(١) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة فصلت .

## مع بدر وأحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

المفردات : (غدا) : خرج غدوة - والغدوة والغداة : مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس و﴿تُبَوِّئُ﴾ أي تهيم وتسوى و(المقاعد) واحدها مقعد : مكان القعود والمراد المواطن والمواقف . و(الهم) : حديث النفس وتوجهها إلى الشيء و(الطائفتان) : الجماعتان : وهما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار ﴿أن تفشلا﴾ : أي تضعفا وتجبنا . ﴿وليها﴾ : أي ناصرها . و(التوكل) : من وكل فلان أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه في كفايته ولم يتوله بنفسه . والأذلة : واحدهم ذليل وهو من لا منعة له ولا قوة ، وقد كانوا قليلي العدة من السلاح والدواب والزاد ، و(الكفاية) : سد الحاجة وفوقها الغنى . و[الإمداد] : إعطاء الشيء حالا بعد حال ﴿بلى﴾ : كلمة للجواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي وتفيد إثبات ما بعدها ، و(الفور) : الحال التي لا ببطء فيها ولا تراخي ، فمعنى ﴿من فورهم﴾ : أي من ساعتهم بلا إبطاء و﴿مسوِّمين﴾ (بكسر الواو) من قولهم : مسوِّم على القوم : أي أغار عليهم ففتك بهم ، وقيل من التسويم بمعنى إظهار سيما الشيء وعلامته : أي معلمين أنفسهم أو خيلهم . و﴿طرفا﴾ : أي طائفة وقطعة منهم . و﴿يكتبهم﴾ : من الكبت وهو شدة الغيظ أو الوهن الذي يقع في القلب .



تحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد من أول قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فهذه ستون آية تناولت غزوة أحد بكل ما فيها من دروس وعبر ، والواقع أن هذه الغزوة مدرسة عظيمة من مدارس التاريخ ، كان من أهم دروسها درس التمحيص ، قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين \* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين \* نعم كان لابد من أحد ولذا كان الرسول ﷺ إذا مر بهذا الجبل يقول : ( أحد جبل يحبنا ونحبه ) ولقد وقف الرسول ﷺ على هذا الجبل ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فارتج الجبل فقال له الصادق المعصوم وهو ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب بوحى من علام الغيوب قال له : « أثبت أحد فإن فوقك نبياً وصديقاً وشهيداً » . وكان ما قاله الرسول حقاً ، فقد زكى الله عقله فقال : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ماضل صاحبكم وما غوى ﴿ (١) ﴾ وزكى لسانه فقال : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ (٢) وزكى شرعه فقال : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (٣) وزكى جليسه فقال : ﴿ عِلْمُهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ (٤) وزكى فؤاده فقال : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ (٥) وزكى بصره فقال : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ (٦) وزكاه كله فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٧) .

نعم كان لا بد من أحد في حياة المسلمين حتى يميز الله الخبيث من الطيب قال سبحانه وتعالى في هذه الآيات التي نزلت في أحد : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ (٨) لقد كانت غزوة أحد بوتقة انصهرت فيها المعادن وأعنى بها معادن الرجال ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٩) إن الشدائد هي مقياس الصمود والوفاء ومقادير الرجال .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ .

إن التضحية بالروح شيء يهون على أصحاب العقائد المؤمنين بالشهادة ، وهذا ماقرره الله تعالى في قوله ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فإنهم إذا صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ودماء تهر .

كأن مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(٦) الآية : ١٧ من سورة النجم .

(٧) الآية : ٤ من سورة (ن) .

(٨) من الآية : ١٧٩ من سورة آل عمران .

(٩) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .

(١) الأيتان : ١ ، ٢ من سورة النجم .

(٢) الآية ٣ من سورة النجم .

(٣) الآية ٤ من سورة النجم .

(٤) الآية ٥ من سورة النجم .

(٥) الآية : ١١ من سورة النجم .

وضجت صدور العاديات ضبحاً ، فرأيت الميدان حركة دائبة متواصلة وصفها القرآن الكريم أدق وصف في قوله جل شأنه : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ فالموريات قدحاً ﴾ فالمغيرات صبحاً ﴾ فأثرن به نفعاً ﴾ فوسطن به جمعاً ﴾ (١) إذا كان ذلك كذلك فإن المؤمنين يشتاقون إلى الجنة أكثر من اشتياق الجنة إليهم فترخص أرواحهم في أسواق الموت ، ويتلقون ضربات السيوف كأنها قبلات الملائكة .

وإذا كانت غزوة أحد قد غربلت القلوب ، ونخلت الرجال نخلاً ، فقد سبق أن حدثنا الكتاب العزيز عن الملأ من بنى إسرائيل ، الذين قال الله فيهم : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم ﴾ (٢) وقال فيهم ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ (٣) وقال في حق المؤمنين منهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ (٤) وجاء ذلك رداً على الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ (٥) وهكذا صمدت القلة أمام الكثرة الجالوتية فكانت النتيجة أن القلة المؤمنة هزمت الكثرة الباغية الطاغية ، قال تعالى : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (٦) إن الذين وصفوا غزوة أحد بأنها كانت هزيمة كذبوا ، فلو هزم الرسول وأصحابه فمن الذين ينتصرون والله تعالى يقول : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ (٧) ويقول : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٨) ويقول : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز ﴾ (٩) فهل هناك أدنى شك أن الرسول ﷺ وأصحابه أقوى الناس إيماناً ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

إذا فما الذى حدث يوم أحد ؟ كل الذى حدث خلل في النظام لا أكثر ، عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ فإن شئت فسم هذه الغزوة « مدرسة التمحيص » وإن شئت فسمها « يوم حمزة » وإن شئت فسمها : « ساعات شدة » أما أن تقول

(٦) الآيتان : ٢٥٠ ، ٢٥١ من سورة البقرة .

(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الروم .

(٨) الآية : ٥١ من سورة غافر .

(٩) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .

(١) الآيات الأولى من سورة العاديات .

(٢) من الآية : ٢٤٦ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .

(٥) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .

أنها هزيمة ، وتبلغ بنا الجرأة على الله ، أن أحدهم أراد أن يتملق طاغية من طغاة العصر ، فشبّه هزيمته يوم النكسة بيوم أحد . !!

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ! إنها جرأة على الله ونفاق رخيص ، وتزلف ممقوت ، وإن أردت دليلاً على ذلك ؛ فاقراً قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ (١) أفى سبيل المناصب الزائلة نبيع ديننا وننسى مبادئنا ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ﴾ (٢) إننى مازلت أؤكد : أن غزوة أحد كانت نصراً مبيهاً مؤزراً ، وأقوى مافى النصر نصر الإنسان على نفسه ، ولم يكن فيها لون من ألوان الهزيمة ، فإن الهزيمة تتحقق بإحدى ثلاثة أشياء : إما بسلب الأرض ! ! ولم يحدث هذا يوم أحد ؛ فما أخذ المشركون من المسلمين أرضاً ، كما حدث فى نكسة يونيو ، وإما بالقضاء على الجيش ؛ وذلك لم يحدث يوم أحد ؛ لقد صمدوا وأعادوا النظام ، قال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم \* إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣) وإما أن تكون الهزيمة بتغيير عقيدة القوم ، ولقد عاد القوم مع رسول الله ﷺ وهم أشد إيماناً وأصلب عوداً ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتفقوا أجر عظيم ﴾ (٤) فأى شىء من هذه الثلاثة وقع يوم أحد ! ؟ لا شىء ؛ فكيف تصف تظهير الصفوف بأنه هزيمة ، لا يقول هذا إلا مفتر كذاب ، يجرى وراء منصب وزارى ويسعى وراء المغنم أينما كان ، وحيثما حل ، ويبيع دينه بعرض من الدنيا ، وحساب هؤلاء عند الله يفصل بينهم ، وهو خير الفاصلين .

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله تعالى فى شأن غزوة أحد تحت عنوان «مواطن العبرة من غزوة أحد» : ستون آية من سورة آل عمران ، من قوله تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . . إلى قوله والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ (٥) نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلاً لوقائعها وتفسيراً لأسبابها ونتائجها ، وغزوة أحد ثانى الغزوتين المشهورتين فى صدر الجهاد الإسلامى ، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى ، غزوة بدر تغمر قلوبهم عند ذكرها موجة من البهجة والغبطة ، لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذلهم واستضعافهم ، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم ، نصر القلة على الكثرة ، ونصر الضعف على القوة ، بل نصر قوة الحق والإيمان ، على قوة الجبروت والطغيان .

(٤) من الآيتين : ١٧١ ، ١٧٢ من سورة آل عمران .

(١) الآية : ١٤١ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ٧١ من سورة الأنعام .

(٥) من الآية : ١٢١ إلى ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٣) الآيات : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ من سورة آل عمران .

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى غزوة أحد يكادون يستقبلون ذكرها بملء قلوبهم حزناً وأسفاً لما أصابهم فيها من قرح ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء .

ولو فقه الناس ، لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر ، ذلك أن يوم بدر كان لونا واحداً من النصر ، وكانت منه عبدة واحدة من معجزة النصر ، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطواراً ثلاثة ، وكان لكل طور منها سره وعبرته .

لقد كان أوله نصراً ظاهراً كيوم بدر ، بل كان النصر فيه أظهر وأبهر ، كان المشركون يوم بدر ألفاً وكان المسلمون يومئذ ثلثمائة ونيفا ، أى أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم .

أما في يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف ، وكان المسلمون عند خروجهم ألفاً ، ولكن نقص عددهم في الطريق ، حيث تخلف عنهم عبد الله بن أبي في ثلثمائة من المنافقين ، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضاً ولكن الله ثبتهما ؛ فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط ، أى أقل من الربع ، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأخذوهم تفرجاً وتقتيلاً .

هذه هي الجولة الأولى أشارت الآية العزيزة إليها ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أى تحسونهم حش الأعشاب وتحصدونهم حصد الهشيم وتستأصلونهم بإذن الله وتيسيره ، فلننظر الآن كيف تحول الموقف .

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم صلوات الله عليه قد بوأ المؤمنين مقاعد للقتال ، وخصص لكل طائفة منهم مجالا لا تتخطاه ، جعل فريقاً من الرماة فوق الجبل ، يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه ، وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا في مراكزهم مهما تكن النتيجة قاتلاً لهم : ( لا تبرحوا مكانكم نصرنا أو غلبنا حتى لو تخطفتنا الطير <sup>(١)</sup> ) ولكن الذى حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب ، ظنت فرقة الرمي أنه قد وضعت الحرب أوزارها وأنه لن يكون للمشركين رجعة فتحولت عن مراكزها واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم .

وهكذا تركت في ظهر الجيش ثغرة فطن لها فرسان المشركين ، فتسللوا منها ، وتتابع القوم وراءهم ، هنالك أخذ المسلمون على غرة من خلفهم ، فأصابهم الاضطراب والخور ، وفر أكثرهم مصعدين في الوادى ، أى منحدرين فيه لا يلوون على شيء ، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا حوله ، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات حتى نادى مناد : إن محمداً كان من بين القتلى فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين : غم على ما فاتهم من النصر ، بعد إحرازه ، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل ، وغم على تركهم الرسول خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه .

(١) روى البخارى عن البراء بن عازب : قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين ، اجلس رسول الله ﷺ أناساً من الرماة وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : « لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتمونا قد ظهرنا علينا فلا تعينونا عليهم » الحديث .

وتلك هي الجولة الثانية التي يقول الله تعالى في شأنها : ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ويقول : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ﴾ .

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذي يقترن في نفوسهم بذكرى هذه الموقعة لأنها في نظرهم قد انتهت بكارثة ، هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرهما وهي جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل ، في صهر النفوس ، وشحد العزائم ، ورفع الروح المعنوية ، في الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان ، ولعمري لقد كان للوحي القرآني أكبر نصيب في إعلاء هذه الروح .

نعم لقد حزن المسلمون في أول الأمر لما أصابهم ، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا ، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارا تحرق القلوب ، ولكنها كانت نورا يضيء الطريق ، لقد كانت نارا وحسرات في قلوب المنافقين وضعاف النفوس ، أولئك الذين ﴿ أهمتهم أنفسهم ﴾ فجعلوا يقولون : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلناها هنا ﴾ ولكنها عادت برداً وسلاماً في قلوب المؤمنين ؛ إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمناً ناعساً يغشى طائفة منكم ﴾ وما أن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم ، ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم ، ويتأهبون في الوقت نفسه بالكر على أعدائهم ، لئن كان قد جرح منهم كثير لقد جرحوا هم أيضاً كثيراً ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون ، لقد قتلوا في الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ .

وفي الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم ، وأنه كان بسبب معصية بعضهم لأمر القائد ، وتطلع بعضهم إلى عرض الدنيا ، ولكن ها هم أولاء يضمّدون الآن جروحهم ، ويستعدون في عزم وحزم لملاقاة عدوهم ، لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم ، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم ؛ أن ولى الأعداء راجعين إلى ديارهم وتلك هي الجولة الثالثة التي أشارت إليها الآيات الكريمة ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ .

ويتساءل الناس بعد ذلك : لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة في الأرواح ؟ فيجيب القرآن بأنه لو دام النصر هكذا ، لدخل الناس كلهم في الإسلام ظاهراً لا اقتناعاً بالحق ، ولكن انضماماً إلى صف المنتصرين ، وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق ، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبد في السراء والضراء ، ولو دام النصر هكذا ، ما نال المجاهدون شرف التضحية ، ودرجة الشهادة ، ولو دام النصر هكذا ، لداخل نفوس المؤمنين شيء من الزهو والغرور ، ولو دام النصر هكذا ما انكشفت رءوس

الجريمة والفساد ، السفاكون لدماء أولياء الله ، المستحقون بذلك لمقت الله ، وهكذا يقول الله جلّت حكمته ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين ﴾ \* وليعلم الذين نافقوا ﴿ ﴾ ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴿ ﴾ ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين \* ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿ ﴾<sup>(١)</sup> .

وبعد فقد اشتاقت النفس إلى معرفة وقائع تلك الغزوة ولا ينبئك مثل خبير : وبين أيدينا كتاب (الرسول القائد) للواء الركن (محمود شيت خطاب) فلنصغ إلى ما جاء فيه عن غزوة أحد ؛ وما من شك في أن أهل الخبرة إذا تحدثوا ؛ فإنما يتحدثون من منطق المعرفة التي لا تقبل تحريفاً أو زيفاً .

### غزوة أحد

#### ١ - المسلمون :

سيطر المسلمون على الطرق التجارية المؤدية إلى الشام وإلى العراق سيطرة تامة ، ومنعوا قوافل قريش من سلوك هاتين الطريقين ، فلم يبق أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وهي تجارة غير رابحة بالنسبة إلى التجارة مع الشام ، وبذلك حلت بتجارة قريش - التي تعتمد عليها في حياتها كل الاعتماد - نكبة قاضية . كما سيطر المسلمون على المدينة ؛ وجعلوا منها قاعدة أمينة لدعوتهم وحركاتهم العسكرية المقبلة .

#### ٢ - المشركون واليهود :

##### (١) قريش :

حرصت قريش بعد نكبتها الكبرى في بدر على الأخذ بثأرها من المسلمين ، وصممت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها . ولم تغنّها غزوة « السويق » شيئاً بل زاد فرارها المشين أمام مطاردة المسلمين لها عاراً جديداً على عارها بيدر ، كما أثارت سرية زيد بن حارثة كوامن حقدّها على المسلمين . وقرر كبراء قريش تخصيص ربح تجارة قافلة أبي سفيان - التي جرت من أجلها معركة بدر - لإنجاز استعدادات معركة الثأر القادمة ، وإمدادها بالمواد والسلاح والرجال .

##### (ب) مشركو المدينة وما حوّلها :

أصبح مشركو المدينة ضعفاء جداً لإسلام أكثرهم ، وتظاهر الآخرون منهم بالإسلام كما هابت القبائل المجاورة قوة المسلمين ، فحالف أكثرهم المسلمين وانكمش الآخرون في ديارهم خائفين .

(١) إلى هنا ينتهي حديث الدكتور محمد عبد الله دراز .

(جـ) اليهود :

لم يبق داخل المدينة بعد طرد بنى قينقاع أحد من اليهود ، أما اليهود الذين يسكنون فى ضواحي المدينة فقد خافوا من المسلمين ؛ خاصة بعد جلاء بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف ، فتظاهروا بالمحافظة على عهودهم ولو أنهم أخفوا نقض تلك العهود .

## قوات الطرفين

١ - المسلمون :

قوات المسلمين ستمائة وخمسون رجلاً وخمسون فارساً بقيادة الرسول ﷺ .

٢ - المشركون :

قوات المشركين ألفان وتسعمائة من قريش ومواليها وأحاييشها ومائة من بنى ثقيف . . بينهم سبعمائة دارع<sup>(١)</sup> فقط ، ومع القوة مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بغير وهذه القوات بقيادة أبى سفيان ، وقد اصطحب أكثر زعماء قريش نساءهم للتشجيع ورفع المعنويات .

## أهداف الطرفين

١ - المسلمون :

الدفاع عن المدينة ، وصد قريش عنها ، لتتوفر لهم الحرية الكاملة لنشر الدعوة إلى الإسلام بحرية وسلام .

٢ - المشركون :

أخذ ثاراتهم من المسلمين فى معركة بدر وسرية زيد بن حارثة ، لاستعادة كرامتهم وشرفهم بين العرب .

## قبل المعركة

١ - المشركون

(أ) بعد إنجاز قريش استعداداتها للمعركة ، سلكت طريق مكة - المدينة ، حتى وصلت موضعاً قريباً من المدينة يسمى : « الصمغة » فأطلقت إبلها وخيلها ترعى زرع الأنصار هناك ، وتابعت سيرها حتى بلغت « العقيق » ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل « أحد » على بعد خمسة أميال من المدينة .

(ب) كان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها . . عكرمة بن أبى جهل ، وكان اللواء عند طلحة ابن أبى طلحة من بنى عبد الدار .

(جـ) نظم المشركون قوتهم للقتال بأسلوب الصف وأمنوا حماية ميمنة الصفوف وميسرتها بالفرسان .

(١) الدارع لابس الدروع وكان هذا النوع من الجند يومئذ ، يعد جندياً حسن التجهيز والإعداد .

(د) بذلت نساء قريش - خاصة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان - أقصى جهودهن لتشجيع قريش وبعث الحماسة في نفوسهم لأخذ ثاراتهم من المسلمين .

## ٢ - المسلمون :

(أ) أرسل العباس عم الرسول ﷺ رسالة مع أحد الرجال ، يخبر بها الرسول ﷺ عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قواتها فأسرع الرجل بالرسالة ، حتى قطع الطريق بين مكة والمدينة في ثلاثة أيام ، فوجد الرسول ﷺ ماکثاً بمسجد « قباء » فدفع إليه بالرسالة .

(ب) قرأ أبي بن كعب الرسالة على الرسول ﷺ فطلب ألا ييوح بمضمونها لأحد وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة .

(ج) بعث النبي ﷺ رجلين من أصحابه ، لمعرفة الموضع الذى وصلته قريش فوجداها قاربت المدينة ، وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

(د) خشى المسلمون عاقبة هذه الغزوة ، لأن قريشاً أكملت استعداداتها بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ حروبها ، فبات المسلمون من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد ، كما بات الحراس في مداخل المدينة لحراستها .

(هـ) جمع الرسول ﷺ أهل الرأى من المسلمين ، صباح يوم الجمعة ١٥ شوال من السنة الثالثة للهجرة لأخذ رأيهم في كيفية لقاء العدو .

كان رأى النبي ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها ، فإذا دخلتها قاتلهم فيها قتال الشوارع ، في منطقة يعرفها المسلمون كل المعرفة ولا تعرفها قريش ، مما يساعد المسلمين على ضرب قريش وإيقاع الخسائر الفادحة بها ، وكان رأى كبار الصحابة مثل هذا الرأى كما كان هذا رأى عبد الله ابن أبي .

ولكن الرجال الذين لم يشهدوا « بدرأ » - خاصة الشباب منهم - تحمسوا للخروج ، وأيدهم رجال اشتركوا في بدر حتى لا يرمى المسلمون بالجبن ، لاضطرارهم إلى القتال داخل المدينة ، فرأى الرسول ﷺ أن الأكثرية تؤيد الخروج فقال لهم : « إني أخاف عليكم الهزيمة . . » فأبوا مع ذلك إلا الخروج ، فتزل على رأى الأكثرية لأن الشورى كانت أساس نظامه الذى لا يجيد عنه .

(و) أمر الرسول ﷺ صحابته أن يتهيئوا للخروج ، ودخل داره وتقلد سيفه وارتنى عدة القتال ثم خرج إلى الناس .

شعر القوم أنهم استكروها الرسول ﷺ على رأيهم ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه ، إلا أن النبي ﷺ وجد غضاضة في الاضطراب بين شتى الآراء والتردد في قراراته ، فقال : « ما ينبغي لنبي لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ثم طلب إليهم الصبر عند البأس .



( ز ) تقدم محمد ﷺ بألف رجل حتى نزل « الشخين » وهي « موضع في ضواحي المدينة » وهناك رأى مع المسلمين مفرزة لا يعرف أهلها فلما سأل عنها علم أن أفرادها من اليهود حلفاء عبد الله بن أبي ، فرفض معاونتهم له إلا أن يسلموا أو يعودوا أدراجهم وقال : « لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك » فعادوا إلى المدينة .

انسحب بعدهم عبد الله بن أبي مع ثلاثمائة من أنصاره من المنافقين فبقى النبي ﷺ مع سبعمائة من أصحابه يستعد بهم لقتال ثلاثة آلاف .

( ح ) عسكر المسلمون بالشعب من موضع « أحد » في عدوة الوادي ، حيث جعل ظهر المسلمين إلى جبل « أحد » وكانت بمجمل خطة الرسول ﷺ للقتال ما يلي :

أولاً : وضع خمسين من الرماة بإمرة عبد الله بن جبير في موضع على طريق تؤدي من الجبل إلى خلف قواته ، وكان هدفه من وضع هذه القوة هو حرمان العدو من الالتفاف على قواته من الخلف ولتكون هذه القوة قاعدة أمنية لقواته : تحمي ظهرها وتستند إليها وتستر انسحابها عند الحاجة .

وأصدر لهذه القوة الأمر الجازم التالي : « احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يمحثوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نقبل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل » .

ثانياً : نظم أصحابه صفوفاً للقتال بهم بأسلوب الصف وتخير الأشداء ليكونوا طليعة الصفوف .

ثالثاً : أصدر أوامره ألا يقاتل أحد إلا بأمر منه .

رابعاً : أخذ يشجع أصحابه ويحثهم على الصبر في القتال .

( ط ) ولبعث التنافس الشريف بينهم في إظهار البطولة أخذ الرسول ﷺ سيفاً بيده فقال مخاطباً أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام أبو دجانة سمالك بن خرشة .

فقال « وما حقه يارسول الله ؟ » فقال الرسول : « أن تضرب به العدو حتى ينحني » وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصاة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فأخذ السيف وأخرج عصابته الحمراء التي كانوا يسمونها « عصاة الموت » وعصب بها رأسه ، وجعل يتبخر بين الصفين ، على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه الرسول ﷺ يتبخر قال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن » .

( ي ) بهذه الخطة وبهذا الاندفاع كان وضع المسلمين قبل نشوب القتال في أحد .

## سير القتال

## ١ - بدء المناوشات :

(أ) قامت مفرزة من قوات قريش ، بقيادة أبي عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى بالهجوم على قوات المسلمين ، فنشبت الحرب ، وكان أبو عامر هذا قد انتقل من المدينة إلى مكة ، يحرض قريشاً على قتال محمد ﷺ . ولم يكن شهد « بدرأ » مع قريش فخرج إلى أحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس ، ومن عبيد أهل مكة ، وكانت المفرزة التى تحت إمرته مؤلفة من هؤلاء فقط ، وكان يزعم لقريش أنه إن نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون فى صفوف محمد ﷺ ؛ استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً !! خرج أبو عامر منادياً : « يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر » فأجابه الأوس المسلمون : « لا أنعم الله بك عينا يافاسق » ثم هاجموا ونشب القتال بين الطرفين بعد أن أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالقتال .

(ب) حاول أبو عامر وعكرمة بن أبي جهل أن يلتفأ على أجنحة المسلمين ، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة ولم يكن من السهل الالتفاف على أجنحة المسلمين لاستنادها على هضاب جبل « أحد » ففشلت محاولات التفاف المشركين .

(ج) هتف حمزة بن عبد المطلب بكلمة التعارف للمسلمين فى أحد : « أمت أمت » . ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين ونادى حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة : « من يبارز ؟ » فخرج إليه على بن أبي طالب ؟ فقتله . واندفع أبو دجانة وفى يده سيف النبى ﷺ ، وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقي أحداً إلا قتله ، حتى شق صفوف المشركين . ثم رأى إنساناً يحث المشركين على القتال فحمل عليه بالسيف فإذا بهند بنت عتبة تولول فارتد عنها أبو دجانة مكرماً سيف الرسول ﷺ أن يضرب به امرأة ، فلهه درك يا أبادجانة ما أكرمك .

## ٢ - اشتداد القتال

(أ) اندفعت قريش إلى القتال يثور فى عروقه طلب الثأر لمن قتل من أشرفها منذ عام ، وكان من ورائهم نساؤهم للتشجيع والحث على الاستبسال ، وقد أعدت غير واحدة منهن مولى ، وعدته بالخير الوفير ليستقم لها من فجعتها ببدر فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز ، وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشى مولى جبير خيراً كثيراً ، إن هو قتل حمزة ، كما قال له جبير بن مطعم مولاه : وكان عمه قد قتل ببدر « إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق » وتربص وحشى بين الصفوف يترصد حمزة حتى رآه فى عرض الناس يحطم أبطال المشركين ، فصبوب عليه حربته وقذفه بها فصابت بطن حمزة أسفل سترته وخرجت من بين رجله فاستشهد على أثرها .

(ب) على الرغم من الخسارة الفادحة التى لحقت بالمسلمين باستشهاد حمزة ، فإن قواتهم بقيت مسيطرة على الموقف تماماً ، وأخذ لواء المشركين يسقط بين حين وآخر ، حمل عثمان بن أبي طلحة اللواء بعد أن قتل

على طلحة بن أبي طلحة ، فلما لقي هذا مصرعه حمله أبو سعيد بن أبي طلحة ، فقتله على بن أبي طالب أو سعد بن أبي وقاص .

وتعاقب حملة لواء المشركين من بنى عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، ثم حمله مولى لهم ، وحملته امرأة بعد ذلك لتفرق المشركين عنه .

(ج) زحفت صفوف المسلمين على صفوف المشركين بعد تصدعها ، فانهمز المشركون حتى أحاط المسلمون بنساء المشركين ، وحتى وقع الصنم الذى احتملوه للتبرك به من فوق الجمل الذى كان يحمله .

وأخذ المسلمون يطاردون المشركين حتى أبعدهم عن معسكرهم ، ثم عادوا يجمعون الغنائم !! ورأى الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم ، حتى ولورأوه وأصحابه يقتلون ، فقال بعضهم لبعض : « لم تقيمون ها هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم ؟ »

واختلفوا فيما بينهم أيتروكون مواضعهم أم يبقون فيها ؟ فأصر قائدهم عبد الله بن جبير على البقاء وعصاه أكثرهم وانطلقوا ، ولم يبق معه غير نفر دون العشرة واشترك المنطلقون من الرماة فى النهب .

### ٣ - هجوم المشركين المقابل :

(أ) انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك رماة المسلمين لمواضعهم ، وكان على ميمنة خيل المشركين ، فهجم على مواضع الرماة التى تركوها ، واستطاع إجلاء الباقين منهم عن مواضعهم ؛ لقلة عددهم ، وعدم إمكانهم الصمود فى موضعهم الواسع بالنسبة لعددهم الذى أصبح قليلاً : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله ﴾ (١) ولم يفتن المسلمون لهذه المباغته ، وصاح خالد يعلن لقريش بأنه التف وراء المسلمين ، فعادت قوات قريش المنهزمة للقيام بهجوم مقابل حيوى ، ونادوا بشعارهم : ياللعزى ياهبل ، بينما قام خالد بالالتفاف من الخلف فأصبح المسلمون محاطين من كافة جوانبهم ؛ وتخرج موقفهم للغاية خاصة أن صفوفهم لم تكن رصينة فى مواضعها لتستطيع الصمود ، إذ تبعثر أفرادها لجمع الغنائم .

(ب) كانت هذه الحركة مباغته تامة للمسلمين ؛ لم يكونوا يتوقعونها ، فتبعثر أكثرهم وبقي القليل منهم إلى جانب الرسول ﷺ ، يقاتلون ليشقوا لهم طريقاً من بين قوات قريش ، التى أطبقت عليهم من كل جانب ، واستشهد كثير من المسلمين وهم يحاولون شق طريقهم ، واستطاع المشركون أن يصلوا قريباً جداً من موضع الرسول ﷺ فرماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته ، وتمالك الرسول نفسه وسار مع أصحابه الباقين ، فإذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأسرع إليه على بن أبي طالب وأخذ بيده ورفع طلحة بن عبيد الله حتى استوى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾ (٢) .

(١) من الآية : ١٦٦ آل عمران .

(٢) الآية : ٣١ من سورة محمد ﷺ

(ج) أخذ المشركون يديمون زخم هجومهم للقضاء على الرسول ﷺ وأصحابه ونادى أحدهم : بأنه استطاع قتل محمد ؟ ولكن أصحابه استماتوا في الدفاع عنه .

كانت أم عمارة نسيية الخزرجية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء لها فيه ماء ، تدور على المسلمين لتسقى منهم من استسقى ، فلما أحاط المشركون بالمسلمين ، وأصبح الخطر الداهم محدقاً بالرسول ﷺ نفسه ، ألقت نسيية سقاءها ، واستلت سيفاً وأخذت تذود عن محمد ﷺ بالسيف ، وترمى عن القوس<sup>(١)</sup> ، حتى خلصت الجروح إليها ، وصد أبو دجانة بجسمه النبال المنهالة صوب محمد ﷺ ، فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه ، ووقف سعد بن أبي وقاص إلى جانب محمد ﷺ ، يرمى بالنبل دونه والرسول يناوله النبل ويترصد له لإصاباته .

ورمى الرسول بنفسه عن قوسه حتى تحطمت القوس ، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحداً بعد الآخر ، مستقتلين في الدفاع عنه ، حتى استطاعوا شق طريقهم عبر صفوف قريش إلى رابية مشرفة من روابي جبل أحد ، وتركت هذه الاستماتة أثرها في قريش ، فتوقف زخم الهجوم قليلاً ، واستفاد المسلمون من هذه الفرصة السانحة ، فصعد الرسول ﷺ بهم إلى جبل أحد ، وفي طريق صعوده رآه كعب بن مالك ، الذي كان مع المسلمين الذين تفرقوا عنه ، لهول صدمة مباغته قريش لهم . ولانتشار إشاعة قتل الرسول ﷺ ، فنادى كعب بأعلى صوته : « يامعشر المسلمين .. أبشروا .. هذا رسول الله » فلما سمعت قريش صيحة كعب لم يصدقها أكثرهم ، وحسبها صيحة أريد بها شد عزائم المسلمين ، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد ﷺ وصحابته ، وتقدم أبي بن خلف ، وهو يقول : « أين محمد ؟ لانجوت إن نجا » فطعنه الرسول ﷺ بحربة الحارث بن الصمة طعنة جعلته ينقلب عن فرسه ويعود أدراجه ليموت في الطريق ، وهو أول قتيل قتل بيد الرسول ﷺ .

(د) وصل المسلمون إلى هضبة مرتفعة من جبل أحد ، ولكن خالد بن الوليد وصل بفرسانه قريباً منهم فقام المسلمون عليه بهجوم مقابل واستطاعوا صد قواته .

(هـ) ذهبت كافة محاولات قريش للقضاء على المسلمين أدراج الرياح ، إذ تجمعوا حول الرسول ﷺ ، وأصبحوا تحت قيادته ، بعد أن فرقهم جمع الغنائم ، وصدمة المباغته عنه ، فأصبحوا متفرقين وبدون قيادة . وبلغ الإعياء برجال قريش حداً بالغاً ، وفشلت محاولاتهم الهجومية المتكررة للقضاء على المسلمين نهائياً ، فقررت قريش إنهاء القتال .

وقبل العودة ، أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : « أفيكم محمد ، » فلم يجيبوه فقال : « أفيكم ابن أبي قحافة ؟ » فلم يجيبوه . فقال : « أفيكم عمر بن الخطاب ؟ » فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قريش أن قيام الإسلام بهم . فقال : « أما هؤلاء فقد كفيتموهم<sup>(٢)</sup> » ، فلم يتمالك عمر أن

(١) ترمى بالنبال ، فكأنها كانت تقوم بدور مقاتلين اثنين ، مقاتل يصد البعيد بالرمي ، والثاني يدفع القريب بالسيف .

(٢) أى كفيتهم جدهم في توحيد المسلمين بموتهم وذهابهم وكان صمت المسلمين عن الإجابة بأمر من الرسول ﷺ .

أجاب « ياعدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقي الله لك ما يسوؤك ، وإن محمداً يسمع كلامك الآن . . . » فقال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ؛ والحرب سجال » ثم جعل يرتجز ويقول : « أعل هبل . . أعل هبل » فقال رسول الله ﷺ : « ألا تحيونه ؟ » قالوا : يارسول الله بماذا نجيبه ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تحيونه ؟ » فقالوا : وبماذا نجيبه ؟ فقال : « فقولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : « وإن موعدكم بدر للعام القابل » . فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه : « قل : نعم هو بيننا وبينك مواعده وصدق الله العظيم : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ؛ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ (١) » .

### عودة الطرفين

#### ١ - المشركون :

عاد المشركون أدراجهم إلى مكة ، فلما وصلوا موضع « الروحاء » على طريق المدينة - مكة سمع أبو سفيان بخروج المسلمين لقتاله ، فخاف أن يكون الرسول ﷺ قد جاء من المدينة بقوات جديدة ، فمر به معن الخزاعي ، وكان قد مر بمحمد ﷺ ومن معه ؛ فسأله أبو سفيان عن المسلمين فأجابه معن ؛ وكان لا يزال مشركاً . « إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حقداً ومنكم للثأر طلباً . . »

فكر أبو سفيان أن انكسار قواته إذا اصطدم بالمسلمين ثانية ؛ معناه خسارة انتصاره في ( أحد ) ، والقضاء على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ، فلجأ إلى الحيلة وبعث مع ركب من بني عبد القيس ، يقصدون المدينة أن يبلغوا محمداً ﷺ : أن أبا سفيان قد قرر السير إليهم ليستأصل بقيتهم ، ثم سارع بالرجوع إلى مكة .

#### ٢ - المسلمون :

بعد عودة المشركين ووصول الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة ، قرر الرسول ﷺ القيام بحركة جريئة ، تخفف من وقع الهزيمة في « أحد » ، وترد إلى المسلمين معنوياتهم ، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد إلى المسلمين سلطانهم بالمدينة المنورة قوياً كما كان .

لذلك خرج بأصحابه الذين شهدوا غزوة أحد فقط يوم الأحد ١٦ شوال من السنة الثالثة للهجرة ، أى في اليوم الثاني من يوم أحد لمطاردة قوات قريش حتى وصل موضع « حمراء الأسد » ، وهي على مسافة

ثمانية أميال من المدينة ، وعلى طريق المدينة - مكة ، جاءه من يخبره بأن قريشاً قررت السير إليه فلم تتضعض معنويات المسلمين ، وقرروا لقاء قريش ، وبقوا ينتظرون هناك هذا الوعيد ثلاثة أيام ، فلما علموا بانسحاب قريش ، عادوا أدراجهم إلى المدينة . وبهذه الحركة الجريئة استرد المسلمون كثيراً من مكانتهم التي فقدوها في « أحد » ، ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾<sup>(١)</sup>

### خسائر الطرفين

- ١ - المشركون : قتل من قريش اثنان وعشرون رجلاً .
- ٢ - المسلمون : استشهد من المسلمين واحد وسبعون رجلاً

### أسباب المحنة

#### ١ - أنصبر أم اندحار ؟

لا أتفق مع المؤرخين في اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين ، واندحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً ، تظهر انتصار المسلمين ، على الرغم من خسائرهم الفادحة في هذه المعركة ، ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

لقد انتصر المسلمون في ابتداء المعركة ، حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم ، والإحاطة بنسائهم وأموالهم ، وتعفير لوائهم بالتراب ، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين ، وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام ، جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، هذا الموقف في المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقي النصر . بجانبهم إلى الموقف الأخير ؛ ذلك لأن نتيجة كل معركة لا تقاس في الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط ، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً .

#### فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً ومعنوياً ؟

إن حركة خالد كانت مباغته للمسلمين بلا شك ، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب ، وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كافة قوات المسلمين ، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها ، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة بالمائة فقط من موجودها إلا انتصاراً لتلك القوة الصغيرة .

ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة في القضاء على القوة الصغيرة مادياً ومعنوياً ، في مثل هذا الموقف الحرج للغاية ، إلا فشلاً لها .

(١) من الآية : ٨٤ من سورة النساء .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم « أحد » ، دون أن تتجراً قريش على لقاء المسلمين ، بعيداً عن المدينة ، خاصة أن الرسول ﷺ خرج للقاء قريش بقوته التي اشتركت ( فعلاً ) بمعركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذي كانوا فيه « بأحد » نصر عظيم لهم ، لأن أولى نتائج إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كان المفروض أن تكون القضاء التام ، ثم إن معركة « أحد » أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين صفوفهم بصورة لا تقبل الشك والممارسة ، وهذا مكسب عظيم لا يقدر بثمن ولا تعد خسائريهم بالأرواح إلى جانبه شيئاً مذكوراً .

## ٢ - أسباب خسائر المسلمين :

إن أسباب كثرة خسائر المسلمين في معركة « أحد » هي مايلي :

### ( أ ) عدم المطاردة :

لم يقيم المسلمون بالمطاردة في الصدمة الأولى من المعركة ، بعد انهزام المشركين بعيداً عن معسكرهم ، بل انشغلوا بالغنائم ، ولو أنهم قاموا بالمطاردة فوراً بعد انهزام المشركين ، لقضوا على قواتهم بسهولة ومن بعد ذلك يعودون لجمع الغنائم .

### ( ب ) مخالفة الأوامر <sup>(١)</sup> :

تنفيذ الأوامر هو الضبط العسكري الذي يعتبر روح الجندية ، والسبب المباشر المؤدى لكل انتصار في كل معركة ، ومخالفة الرماة في ترك مواقعهم والإسراع لجمع الغنائم ، خطأ كبير وقع فيه المسلمون حينذاك إذ كشف للعدو ظهورهم فاستفاد خالد من هذه الفرصة السانحة لتطويقهم من الخلف ، مما أدى إلى الإطباق عليهم من كافة الجهات .

### ( ج ) المباغته :

المباغته مبدأ من أهم مبادئ الحرب ، ومعناها ضرب العدو من مكان أو في زمان ، أو بأسلوب لا يتوقعه ، بحيث يمكن تحطيم قوى العدو المادية والمعنوية ، وكان قيام خالد بن الوليد بالالتفاف وراء قوات المسلمين ، في الوقت الذي انهزم فيه المشركون ، مباغته تامة للمسلمين ، فارتبكت صفوفهم بدرجة لم يفرقوا معها بين قوات عدوهم وبين قواتهم ، كما تحطمت معنويات كثير منهم ، وأصبحوا لا يعرفون ما يصنعون .

(١) يعد السبب الثاني هو الأول في المفهوم الإيجابي يلزوم طاعة الرسول ﷺ طاعة مطلقة ؛ بينما السبب الأول هو الأول فعلاً في الأداء العسكري البحت ، والحقيقة أن السبيين ، وجهان لعملة واحدة إذ الطاعة المطلقة والأداء العسكري الجاد من أهداف الرسول ﷺ وبهما يتحقق نصر الله .

إن هذه المباغطة أتاحت الفرصة لقريش للقضاء على المسلمين وإبادة قواتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستفادة من موقفهم الممتاز هذا ، فضيعوا هذه الفرصة السانحة ، لجعل معركة « أحد » حاسمة في نتائجها .

### دروس من أحد

#### ١ - الحصول على المعلومات :

حصل المسلمون على المعلومات الكافية عن نوايا قريش وقوتها وحركتها ، من رسالة العباس عم النبي ﷺ ، قبل وقت مناسب من حركة قريش باتجاه المدينة لغزو المسلمين ، كما أرسل المسلمون دوريات استطلاعية قبل معركة « أحد » فعرفوا مواضع قوات قريش وأرسلوا دوريات استطلاعية بعد المعركة ، باتجاه حركة عودة المشركين .

لقد كان عمل المسلمين في الحصول على المعلومات مفيداً في منع المشركين من مباغتتهم في المدينة .

#### ٢ - القيادة :

كان لقريش في معركة « أحد » قائد عام هو أبو سفيان ، ولم تظهر أية حنكة لهذا القائد في المعركة ، كما كانت سيطرته ضعيفة على ما يظهر ؛ بدرجة أن نساء المشركين مثلوا بشهداء المسلمين دون رغبته فلم يستطع أن يفعل شيئاً . ولو كانت قيادة أبي سفيان على شيء من الكفاءة ، لاستطاع الإيقاع بالمسلمين بعد تطويقهم التام أما قيادة الرسول ﷺ ، فقد ظهرت بشكل ظاهر في هذه المعركة .

انتخب الموضع المناسب للمعركة ، واضطرت قريشاً إلى قبول المعركة فيه ، ونظم خطة القتال فانتخب مواضع الرماة لحماية ظهور المسلمين ، وخصص لهذه المواضع قوة كافية للدفاع عنها بإمرة قائد مسئول .

إن كل ذلك على أهميته لا يعتبر شيئاً بالنسبة إلى ظهور عبقرية قيادته في أثناء القتال ، خلال الصفحة الثانية من معركة « أحد » حين طوق المشركون المتفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين قوة المسلمين القليلة ، بعد أن انهارت معنويات كثير منهم ؛ لما سمعوا خبر مقتل الرسول ﷺ في المعركة ؛ فلجأوا إلى الهضاب بعيداً عن ساحة المعركة ، وبقي الرسول ﷺ ومعه شزيمة قليلة من المسلمين ، يقاومون وحدهم زخم هجوم قريش في أوج قوته وعنفوانه .

لقد استطاع الرسول بهذا الموقف الصعب للغاية بالنسبة للمسلمين ؛ الموفق للغاية بالنسبة للمشركين ، أن يسيطر على الموقف في معركة يائسة جداً ، ويقود الباقين من المسلمين لشق طريقهم من بين القوات المعادية المتفوقة المحيطة بهم ، ثم يحتل موضعاً مشرفاً ويقوم بإعادة تنظيم قواته الباقية ، ويعيد إليها



معنوياتها وبأسها وقوتها ؛ ويصد بها هجمات مقابلة شديدة للمشركين فيحيل الهزيمة المتوقعة إلى نصر ، لأنه اضطر قريشاً إلى اليأس من القضاء على المسلمين ، بعد أن كان فناء المسلمين أمراً « حتماً » ثم اضطروهم إلى الانسحاب من المعركة ؛ بعد اليأس من إبادة المسلمين .

ولم يكتف بذلك بل خرج في اليوم الثاني للمعركة لمطاردة قوات المشركين ، حتى اضطروهم إلى استعمال الحيلة بإرسال المعلومات الكاذبة للمسلمين ، عن اعتزامهم إعادة الكرة على قوات الرسول ﷺ ، فلم يكثر بهذا التهديد وإنما أعد العدة وقرر لقاء المشركين مهما تكن الظروف والأحوال<sup>(١)</sup> .

هذه قيادة عبقرية ؛ ظهرت للرسول ﷺ بهذه المعركة بشكل واضح كل الوضوح ، كان من بعض نتائجها أنها جعلت النصر إلى جانب المسلمين المغلوبين : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾<sup>(٢)</sup> .

### ٣ - القضايا التعبوية :

#### ( أ ) مخالفة الأوامر :

أخطأ رماة المسلمين في مخالفتهم لأوامر الرسول ﷺ ، وانسحابهم من مواضعهم الأصلية لجمع الغنائم ، ولولا انسحابهم لما استطاع خالد بن الوليد ضرب مؤخرتهم ، ولما استطاعت قريش تطويق المسلمين . « إن مخالفة الأوامر في « أحد » درس في نتائج كل مخالفة عسكرية للأوامر في الحرب ، وإن نتائجها المعروفة كافية لغرس هذا الدرس في النفوس لكي لا يعود أحد لمثلها أبداً » . ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

#### ( ب ) عدم المطاردة :

بعد كل هجوم ناجح لا بد من مطاردة عنيفة للقضاء على العدو . وقد أخطأ المسلمون في عدم مطاردتهم للمشركين ، بعد فرار المشركين من مواضعهم ، وابتعادهم عن معسكرهم ، والتفاف المسلمين حول نساء المشركين ، ومواسيهم وإبلهم ، في الصفحة الأولى من يوم « أحد » ، ولو قام المسلمون بالمطاردة إلى مسافة عشرة أميال على الأقل لأوقعوا بالمشركين خسائر فادحة ، ولانتهت معركة « أحد » بنتائج في مصلحة المسلمين .

(١) وهو ما تشير إليه الآيات ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴿ ١٧٣ ، ١٧٤ آل عمران .

(٢) آية : ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) آية : ١٣٢ من سورة آل عمران . . والمخالفة التي حصلت من الرماة هي التي أشارت إليها الآية ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة . . الآية : ١٥٢ من آل عمران .

(ج) أسلوب القتال :

لقد جرى القتال بين الطرفين بأسلوب الصفوف ، وبذلك استطاعت قريش أن تسيطر على المعركة ؛ بشكل أفضل من سيطرتها التي تجرى بأسلوب الكرّ والفر .

٤ - القضايا الإدارية :

(أ) الإدامة والتنقلية :

كان المشركون متفوقين على المسلمين بإدامة قواتهم وإعاشتها وتسليحها وفي نقليتها تفوقاً محسوساً مما كان له أثر طيب على سير القتال لصالح المشركين .

(ب) الدفن :

دفن المشركون قتلاهم وتركوا قتلى المسلمين ، ولم يكتفوا بذلك بل مثلوا أشنع تمثيل ، فقد انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يمثلن بالشهداء : يجدن الأذان والأنوف .. الخ .

أحد في التاريخ :

لقد أجمع المؤرخون على اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين على المسلمين ولكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه المؤرخون .

لقد كان بإمكان المشركين القضاء على قوات المسلمين في معركة « أحد » بعد أن استطاعوا إحاطتهم من كافة الجوانب بقوات متفوقة عليهم تفوقاً ساحقاً .

ومع ذلك استطاع محمد ﷺ أن يشق طريقه بين القوات المحيطة به ويخلص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد .

إن فشل المشركين في القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوقة يعتبر اندحاراً لهم . وإن نجاح المسلمين في الخروج من تطويق المشركين بخسائر عشرة بالمائة من قواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم .

بالإضافة إلى نجاح المسلمين في التخلص من الفناء التام في معركة « أحد » ؛ فقد نجحوا في معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها ، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام في صفوفهم بعد « أحد » ، على هدى وبصيرة . وجزى الله الشدائد كل خير<sup>(١)</sup> . وبذلك تظهر الفائدة العظيمة لغزوة أحد للمسلمين .

إن نتيجة معركة أحد نصر « تعبوى » للمشركين على المسلمين ولكنها فشل (سوقى) للمشركين ، ولا يعد النصر التعبوى شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السوقى<sup>(٢)</sup> .

(١) وهذا ما عتته الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة آل عمران .

(٢) يعنى بذلك تحقيق النصر بالفعل بحسم المعركة تماماً لصالح السلامة التعبوية .

وصدق الله العظيم : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين \* إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين \* ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين \* أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

شهداء المسلمين في أحد رضى الله عنهم :

١ - المهاجرون :

(أ) من قريش ثم من بنى هاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب :

١ - حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم .

(ب) من بنى أمية بن عبد شمس :

٢ - عبد الله بن جحش « حليف لهم من بنى أسد بن خزاعة »

(ج) من بنى عبد الدار بن قصي :

٣ - مصعب بن عمير .

(د) من بنى مخزوم بن يقظة :

٤ - شماس بن عثمان .

٢ - الأنصار :

(أ) من الأوس ثم من بنى عبد الأشهل :

٥ - عمرو بن معاذ بن النعمان .

٦ - الحارث بن أنس بن رافع .

٧ - عمارة بن زياد بن السكن .

٨ - سلمة بن ثابت بن وقش .

٩ - عمرو بن ثابت بن وقش .

١٠ - ثابت بن وقش « والد عمرو وسلمة » .

١١ - رفاعة بن وقش « أخو ثابت » .

١٢ - فيض بن قيطي .

١٣ - حباب بن قيطي .

١٤ - عباد بن سهل .

- ١٥ - الحارث بن سهل بن معاذ « ابن أخى سعد بن معاذ » .  
 ١٦ - حسيل بن جابر « اليمان » والد حذيفة بن اليمان .  
 (ب) من أهل لاتج « اسم أطم من أطام المدينة » من بنى عبد الأشهل :  
 ١٧ - إياس بن أوس بن عتيك بن عمرو .  
 ١٨ - عبيد بن التيهان .  
 ١٩ - عتيك بن التيهان .  
 ٢٠ - حبيب بن زيد بن تيم .

(ج) من بنى ظفر :

- ٢١ - يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع .  
 (د) من بنى عمرو بن عوف ثم من بنى ضبيعة بن زيد :  
 ٢٢ - أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد .  
 ٢٣ - حنظلة الغسيل بن أبي عامر بن صيفى بن النعمان<sup>(١)</sup> .  
 ٢٤ - قيس بن زيد بن ضبيعة .  
 ٢٥ - مالك بن أمة بن ضبيعة .  
 (هـ) من بنى عبيد بن زيد .  
 ٢٦ - أنيس بن قتادة .  
 (و) من بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف :  
 ٢٧ - أبو حبة بن عمرو بن ثابت « أخو سعد بن حيثمة لأمه » .  
 ٢٨ - عبد الله بن جبير بن النعمان « أمير الرماة<sup>(٢)</sup> » .  
 (ز) من بنى السلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس :  
 ٢٩ - حيثمة « والد سعد بن حيثمة » .  
 ٣٠ - عبد الله بن سلمة « حليف من بنى العجلان » .

(ح) من بنى معاوية بن مالك :

- ٣١ - سبيع بن حاطب بن الحارث بن قيس بن هيثة .  
 ٣٢ - سويق بن الحارث بن حاطب بن هيثة .  
 ٣٣ - مالك بن عميلة « حليف لهم » .

(١) وذلك لأن الملائكة غسلته . . إذ قاتل وكانت به جنابة .

(٢) استمر في موقعه مع قليل من الرماة التزاما لأمر الرسول ﷺ فاستشهدوا .

(ط) من بنى حطمة :

٣٤ - الحارث بن عدى .

٣٥ - عمير بن عدى .

(ى) من بنى النجار ثم من بنى سواد بن مالك بن غنم :

٣٦ - عمرو بن قيس بن زيد .

٣٧ - قيس بن عمرو بن قيس « ابنه » .

٣٨ - ثابت بن عمرو بن زيد .

٣٩ - عامر بن مخلد .

(ك) من بنى مبدول :

٤٠ - أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة .

٤١ - عمرو بن مطرف بن علقمة بن عمرو .

(ل) من بنى عمرو بن مالك بن النجار :

٤٢ - أوس بن ثابت بن المنذر « أخو حسان بن ثابت » .

(م) من بنى عدى بن النجار :

٤٣ - أنس بن النضير بن خضم « عم أنس بن مالك خادم النبى ﷺ » .

(ن) من بنى مازن بن النجار :

٤٤ - قيس بن مخلد .

٤٥ - كيسان « عبد لهم » .

(س) من بنى دينار بن النجار :

٤٦ - سليم بن الحارث .

٤٧ - نعمان بن عبد عمرو .

(ع) من بنى الحارث بن الخزرج :

٤٨ - خارجة بن زيد بن أبى زهير .

٤٩ - أوس بن أرقم بن زيد .

٥٠ - سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير .

(ف) من بنى الأنجر وهم بنو خدر :

٥١ - مالك بن سنان « والد أبى سعيد الخدرى » .

٥٢ - سعيد بن سويد بن قيس .

٥٣ - عتبة بن ربيع بن رافع .

(ص) من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج :

٥٤ - ثعلبة بن سعد بن مالك بن خالد .

٥٥ - ثقف بن فروة بن البدن :

(ق) من بنى طريف رهط سعد بن عبادة :

٥٦ - عبد الله بن عمرو بن وهب .

٥٧ - حمزة « حليف لهم من جهينة » .

(ر) من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى سالم ثم من بنى مالك بن العجلان :

٥٨ - نوفل بن عبد الله .

٥٩ - عباس بن عبادة بن نضلة .

٦٠ - نعمان بن مالك بن ثعلبة بن فهد .

٦١ - المحذر بن زياد العلوى « حليف لهم » .

٦٢ - عبادة بن الحسحاس .

(ش) من بنى سلمة بن حرام :

٦٣ - عبد الله بن عمرو بن حرام « والد جابر بن عبد الله » .

٦٤ - عمرو بن الجموح .

٦٥ - خلاد بن عمرو بن الجموح .

٦٦ - أبو أعين « مولى عمرو بن الجموح » .

(ت) من بنى سواد بن غنم :

٦٧ - سليم بن عمرو بن حديده .

٦٨ - عنترة « مولى سليم بن عمرو » .

٦٩ - سهل بن قيس بن أبي كعب .

(ث) من بنى زريق بن عامر :

٧٠ - ذكوان بن عبد بن قيس .

٧١ - عبيد بن عبد المولى بن لودان من بنى حبيب .

قال الشيخ المرافي<sup>(١)</sup> تحت عنوان « استطراد دعت إليه الحاجة » :

« من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها ، نزلت في غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الواقعة ، ليستعين به القارئ على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ، ويستيقن من حكمها وأحكامها ، ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتازت من هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيواءهم للمسلمين ، وتهددوهم ، فكان لا بد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبي ﷺ داعية للدين ، ورئيساً لحكومة المدينة ، وقائداً لجيشها . هذا وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات ، بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد في التاريخ ، وقد اشترك النبي ﷺ في تسع من أشهرها أ . هـ .

وقعة بدر :

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شرذمة من الثوار ، يجب أن تقتل ، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة في المدينة ، وهى على طريق التجارة إلى الشام ، فجند المسلمون في مهاجمة قوافل مكة ، ونالوا أول انتصارهم في السنة الثانية من الهجرة ، في غزوة بدر - بثرين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدرأ فسميت باسمه - وكانت هذه الواقعة نصراً مؤزراً للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين وكان لها دوى عظيم في أرجاء البلاد العربية ، من أقصاها إلى أقصاها .

وقعة أحد :

أحد جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال .

ولما خذل المشركون في وقعة بدر ، ورجع فلهم إلى مكة مقهورين - أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ ، إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتل من صناديد قريش ، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس وقائدهم أبو سفيان بن حرب ، ومعهم زوجته هند بنت عتبة ، وكان حجلة النساء خمس عشرة امرأة ، ومعهن الدفوف يضربن بها ويبيكين على قتلى بدر ، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين ، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة ، في شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وكان رأى رسول الله ﷺ المقام في المدينة وقتلهم بها ، ورأى باقى الصحابة الخروج لقتالهم ، فخرج في ألف من الصحابة ، إلى أن صار بين المدينة وأحد ، فانخزل عنه عبد الله بن أبي ابن سلول في ثلث الناس ، ونزل رسول الله ﷺ الشعب من أحد ، وجعل ظهره إلى الجبل .

وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبعمائة ، فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين ، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرهم عكرمة بن أبي جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار .

(١) شيخ الجامع الأزهر في فترتين من الثلاثينيات والأربعينيات أيام الملكين فؤاد وفاروق .

ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهي تقول : وبها بنى عبد الدار .. وبها حماة الأديار .. ضربا بكل بتار .

وقاتل حمزة قتلاً شديداً ، ولما قتل مصعب بن عمير ، أعطى النبي ﷺ الراية لعل بن أبي طالب .

ولما انهزم المشركون طمعت الرماة في الغنيمة ، وفارقوا المكان الذي أمرهم النبي ﷺ بملازمته ؛ فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل ، وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين ، وكان عدد الشهداء سبعين رجلاً ، وعدد قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارته ، حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشج في وجهه وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يقول : « كيف يفلح قوم قد خضبوا وجه نبيهم بالدم » وجعل يدعوهم إلى ربهم فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (١) .

ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجه رسول الله ﷺ في الشجرة ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ ، فسقطت ثنية من ثنياته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، وامتنص مالك ابن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (٢) وأصاب طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده ، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ ، ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ فجعدعن الأنوف وصلمن الأذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت عن كبده حمزة ، ولاكتها ولم تستغفها ، وضرب أبو سفيان شدة حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل وصرخ بأعلى صوته : الحرب سجال يوم بيوم ، اعل هبل ( صنم الكعبة ) أي ظهر دينك ، ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال النبي ﷺ : قولوا : هو بيننا وبينكم ، ثم سار المشركون إلى مكة وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة ، فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن ، فقال : ( لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم ) ، ثم أمر أن يسجى ببرده ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحد ، حتى صلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة . فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : ( ادفنوهم حيث صرعوا ) .

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات وما بعدها ، مما له صلة بهذه الواقعة الهامة في تاريخ الإسلام ، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم في كل حروبيهم وأعمالهم ، في حياة النبي ﷺ وبعده - إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر إليه الطمع في الغنيمة وجمع حطام الدنيا وهو ظل زائل وعرض مفارق .

(١) الآية : ١٢٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٦٧ من سورة المائدة .



## المعنى الجملى :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوه بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ، ثم أمرهم بالصبر والتقوى ، وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً ، ذكرهم في هذه الآيات بوقعة أحد ، وما كان فيها من كيد المنافقين ، إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا ، ثم خرجوا معهم وانشقوا عنهم في الطريق ، ورجعوا بثلاث الجيش ليقعوا الفشل بين صفوفهم ، ويخذلوهم أمام عدوهم ، وما كان من كيد المشركين ، وتألبهم عليهم ، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر حتى عن الغنيمة التى طمع فيها الرماة ، فتركوا مواقعهم ، وإلا تقوى الله ، ومن أهم دعائهم طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى ، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قتلهم إذ جعلوا الصبر جنتهم ، وتقوى الله عدتهم ، فأصابوا من عدوهم ما أصابوا ، وكان لهم النصر عليهم ، مما لا يزال مكتوباً في صحيفة الدهر ، مثلاً خالداً لصدق العزيمة ، والبعد عن مطامع هذه الحياة .

## الإيضاح :

﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ . أى واذكر لهم أيها الرسول وقت خروجك من بيتك غدوة سحر يوم السبت سابع يوم من شوال سنة ثلاث للهجرة ؛ تهىء أماكن للقتال ، منها مواضع للرماة للفرسان ، ومواضع لسائر المؤمنين .

﴿ والله سميع عليم ﴾ أى والله سميع لما يقول المؤمنون ؛ فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم ، كقول من قال : أخرج بنا إليهم حتى نلقاهم في خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا ، ولما تشير به أنت عليهم ، عليم بأصلح تلك الآراء لك ولهم وبنية كل قائل ؛ من أخلص منهم في قوله ، وإن أخطأ في رأيه ، كالقائلين بالخروج إليهم ، ومن لم يخلص في قوله ، وإن كان صواباً كعبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين .

قال ابن جرير : ضرب الله مثلاً أو مثلين على صدق وعده في الآية السابقة :

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ بتذكيرهم بما كان يوم أحد يوم وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر - وذنب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه مقصوراً على من اقترفه ، بل يكون عاماً - وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قتلهم وذلتهم .

﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ أى : والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى عسكر رسول الله ﷺ - أن تضعفا وتجنبنا عن القتال ، حين رأوا انخزال عبد الله بن أبى ومن معه عن رسول الله ﷺ .

وهذا المهم لم يكن عزيمة ممضاة ، ولكنه كان حديث نفس ، وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، فإن ساعدها صاحبها ذم ، وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ، ومما يدل على أن ذلك المهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى : ﴿ والله وليهما ﴾ أى متولى أمورهما لصدق إيمانها ، لذلك صرف الفشل عنها وثبتها فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع المنافقين ، وكانوا نحو ثلث العسكر بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين فوثقوا به وتوكلوا عليه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى إن المؤمنين ينبغي أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه ، بالتوكل على الله لا بحولهم وقوتهم ، ولا بأنصارهم وأعوانهم ، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله فى خلقه ، إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات وهو الخالق للسبب والمسبب ، والموجد للصلة بينهما .

فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم فى العدد والعدد والسلاح ، وفى سائر عتاد الجيش ، ولذا قال : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ أى إنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم ، وأنتم يومئذ فى قلة من العدد ، وفى غير منعة من الناس ، حتى أظهركم على عدوكم ، مع كثرة عددهم وعظيم منعتهم ، فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم فى ذلك اليوم ، ولا ضير فى الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين ، ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا بمستذلين من الكفار وإنما كانت قوتهم فى بداية تكوينها .

﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أى فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتناب محارمه ، لتعدوا أنفسكم لشكره على ما منَّ به عليكم ، من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ؛ إذ من لم يروض نفسه بالتقوى ، يغلب عليه الهوى واتباع الشهوات ، فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله ، بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع .

﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ أى ولقد نصركم الله ببدر فى ذلك الحين ، الذى كنت تقول فيه : ﴿ ألن يكفيكم ﴾ .. إلخ .

أخرج ابن أبى شيبه وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم ﴾ .. إلى قوله : ﴿ من الملائكة مسومين ﴾ فبلغته هزيمة المشركين ، فلم يمد أصحابه ، ولم يمدوا بالخمسة آلاف .

﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، « أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تقا تل الملائكة سوى فى يوم بدر ، وفيما سواه كانوا عدداً ومداً لا يقاتلون ولا يضربون » .

﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾

أى بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر والتقوى ، حثا لهم عليها وتقوية لقلوبهم ؛ أى إن تصبروا على لقاء العدو ومناقضتهم وتتقوا معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ، يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ليعجل نصركم ويسهل فتحكم .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين : ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴾ ثم وعدهم بعد الآلاف الثلاثة بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذى ثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ولا خير فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أنه فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمَدِّمٌ بِالْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (١) . أما فى أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، وذلك أنهم لم يقعوا فى المحنة ونيل منهم ما نيل .

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾ قال الزجاج : وما جعل الله ذكر المدد إلا بشرى يعنى وما جعل الله ذلك القول الذى قاله الرسول ﷺ لكم ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ ﴾ الآية إلا بشرى ، يفرج بها روعكم وطمأنينة لقلوبكم التى طرقها الخوف من كثرة عدد عدوكم ، وعظيم استعداده ، وفى هذا إيماء إلى أن فى ذكر الإمداد غايتين :

١ - إدخال السرور فى القلوب .

٢ - حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته معهم فلا يجنبوا عن المحاربة .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو القوى الذى لا يمتنع عليه شىء ، والحكيم هو الذى يدبر الأمور مى خير السنن وأقوم الوسائل ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ويصرفها عمن يشاء .

والمراد - أنه يجب توكلكم على الله ، لا على الملائكة ، فيجب على العبد ألا يتكل على الأسباب فقط بل يقبل على مسبب الأسباب ، إذ هو الذى لا يعجز عن إجابة الدعوات ، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته ولا المعونة إلا من فضله وكرمه .

فإن حصل الإمداد بالملائكة فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر ، وهناك أسباب أخرى كاللقاء العرب فى قلوب الأعداء ، ومعرفة المواقع كما فعل النبی ﷺ ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو ، وعسكر فى أحسن موضع وهو الشعب ( الوادى ) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من

ورائهم ، إلى نحو ذلك من الأسباب التي تمكنه من الظهور على عدوه والغلبة عليه . فلما اختل بعض هذه التدبيرات ، وفات الرماة مواضعهم ، وقعوا في الشدة .

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائئين ﴾ أى أن المقصود من نصركم بإمداد الملائكة أن يهلك طائفة منهم ، ويخزي طائفة أخرى بالهزيمة ، فيرجعوا خائئين لا أمل لهم في نصر .

وعبر بالطرف لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط ، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ، وقد أهلك الله من المشركين طائفة أول الحرب يوم أحد ، قدر عددهم بنحو ثمانية عشر رجلاً ، وعبر بالخيبة دون اليأس لأن الأولى لا تكون إلا بعد توقع النصر وانتظاره ، والثانية بعده وبدونه ، وضد الخيبة الظفر وضد اليأس الرجاء .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، لبيان أن الأمر كله بيد الله ، فقال : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ أى ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمري ، وتنتهى فيهم إلى طاعتي ، ثم أمرهم بعد ذلك والقضاء فيهم بيدى دون غيرى ، أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة أو عاجل العذاب بالقتل والنقم ؛ أو أجله بما أعددت لأهل الكفر بى من العذاب في الآخرة .

﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ أى ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ليس لك من الأمر في شيء .

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : ( اللهم ألعن أباسفيان ، اللهم ألعن الحارث بن هشام ، اللهم ألعن صفوان بن أمية ) ، فنزلت هذه الآية فتأب الله عليهم كلهم<sup>(١)</sup> . وروى أحمد ومسلم عن أنس « أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج في وجهه ، حتى سال الدم على وجهه . فقال : كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا ، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ الآية .

وإن لما حدث في وقعة أحد لحكمة دينية واجتماعية وحربية يمكن أن نجملها لك فيما يلى :

كان المؤمنون في وقعة بدر واثقين بنصر الله لنييه وإظهار دينه ، لم يضعف إيمانهم بسبب قتلهم وضعفهم ، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم ، ولما رأوا تبشير النصر ازدادوا إيماناً بأنهم المنصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، ولكن خيل إلى كثير منهم : أن النصر سيكون بالآيات وخوارق العادات ، من غير التزام السنن الإلهية التي جعلها الله في هذا الكون ، وبنى عليها نظم الحياة ، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم ودعاه ربه واستغاثته إياه ، أشد نكالاً بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التي من أهمها التزام النظام العسكري ، وإطاعة القائد ، وجودة التعبئة ، وحسن الحيلة والتدبير في وضع الخطط الحربية ، وما إلى ذلك ، وفاتهم أن الدين الإسلامى دين الفطرة ، لا دين خوارق العادات وسلوك طريق المعجزات .

(١) وتوبة الله عليهم بإسلامهم يوم فتح مكة .

فلما قَصَرُوا بالأخذ بالأسباب يوم أحد ، ظهر عليهم عدوهم وجرح الرسول ﷺ ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ، ولكن البلاء إذا نزل لا يخص من كان السبب في وجوده ، كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصين الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ <sup>(١)</sup> وكان من هذا درس عظيم للمؤمنين لمسوه بأيديهم ، وعلموا أن الرسول ﷺ بشر ليس له من أمر العباد شيء ، وإنما هو معلم وأسوة حسنة فيما يعلم ، والأمر كله لله يدبره بمقتضى سننه في الخلق .

هذا البيان الإلهي في تلك الموقعة التي رأوا نتائجها بأعينهم ، برهان ساطع أمام الملأ على نبوة محمد ﷺ ، إذ لو كان زعيماً سياسياً ، ومؤسساً لبناء مملكة يريد توطيد دعائمها بفتوحه لأطراف البلاد ، لما قال مثل هذا القول في مواطن الدفاع ، وحب النصر على الأعداء ، ولا سبيل للنصر على العدو إلا بالاستعداد والحيلة وحسن التدبير ، والكياسة الحربية ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ <sup>(٢)</sup> ولا قوة إلا بالعلم والمال ، ولا مال إلا إذا انتشر العدل في الأمة ، وبث بين أفرادها روح التعاون والشورى في مهام الأمور ، كما قال : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿ والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ قال ابن جرير : أى الله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ويقضى فيهم بما أحب ، فيتوب على من يشاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من يشاء منهم على جرمه ، فينتقم منه ، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح ، وهو الرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم .

وفي هذا تأديب من الله لرسوله ، وإعلام له بأن الدعاء على المشركين ولعنهم مما لم يكن ينبغى منك ، إذ الأمر كله لله ، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ، ولا رأى ولا تدبير فيهما وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلأ ، إلا من سخره الله للقيام بشيء من ذلك ، فيكون خاضعاً لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة ، التي قام بها نظام الاجتماع .

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الأنفال .

(٢) من الآية : ٦٠ من سورة الأنفال .

(٣) من الآية : ٤٦ من سورة الأنفال .

## أوامر وتوجيهات

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾  
 وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٢٢﴾  
 \* وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾  
 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن  
 يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُم مَّغْفِرَةٌ  
 مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ضعف الشيء : مثله الذي يثنيه ، فضعف الواحد واحداً ، لأنه إذا أضيف إليه ثناه ، وإذا ضاعفت الشيء منحت إليه مثله مرة فأكثر ، وهذه المضاعفة إما في الزيادة فقط التي هي الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال ، كما هو حاصل الآن فقد يستدين الإنسان المائة بثلاثمائة . ﴿ واتقوا الله ﴾ أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه . ﴿ أعدت ﴾ أى هيئت ، والمصارعة إلى المغفرة والجنة ؛ المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من الأعمال الصالحة ، ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ : يراد وصفها بالسعة والعرب تقول : دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . ﴿ السراء ﴾ الحال التي تسر ، ﴿ والضراء ﴾ الحال التي تضر ، وفسرهما ابن عباس باليسر والعسر ، أى السعة والضيق ، ويقال كظم القربة أى ملأها وسد رأسها ، وكظم الباب سده ، وكظم البعير جرتة ؛ وإذا ازددتها وكف عن الاجترار ، ثم قالوا : كظم الغيظ : فهو كاظم ، وكظمه الغيظ والغم ، أخذ بنفسه فهو مكظوم ، وكظيم ، قال الله تعالى : ﴿ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ <sup>(١)</sup> وأخذ فلان يكظم فلاناً : إذا أخذ بمجرى نفسه و﴿ الغيظ ﴾ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال ، أو المعنوية كالشرف ، والعرض ، فيزعجها ذلك ، ويحفرها على التحفظ والانتقام . والعفو عن الناس : التجاوز عن ذنوبهم ، وترك مؤاخذتهم ، مع القدرة على ذلك ، والإحسان : هنا الإنعام ، والتفضل على غيرك ، على وجه لا مذمة فيه ولا قبح . الفاحشة : الفعل الشنيع القبح ، التي

(١) جزء من الآية : ٥٩ من سورة النحل ، ومن الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

يتعدى أثرها إلى غيرك ، كالزنا والغيبة ونحوهما ، وظلم النفس : هو الذنب الذى يكون مقصوداً على الفاعل . وذكر الله عند الذنب يكون بتذكر وعده ووعيده ، وأمره ونهيه وعظمته وجلاله ، الإصرار : الشد ، من الصر ويراد به شرعاً الإقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾ أى لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافاً مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال ، وزيادة المال إلى ضعف ما كان ، كما كنتم تفعلون فى الجاهلية ، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك ؛ لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته .

قال ابن جرير : لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة فى إسلامكم ، بعد إذ هذاكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم : أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل . فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ؛ فيقول له الذى عليه المال : أخر دينك عني وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه .

وقال الرازى : كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال ، قال الدائن زد فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فرمما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ﴾ .

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا بالربا الفاحش ، وهوربح مركب ، وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل ، ولا شىء منها فى العقد الأول ، كأن يعطيه المائة بالمائة وعشرة أو أكثر أو أقل وكأنهم يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح ، فإذا حل الأجل ولم يقض الدين ، وهو فى قبضتهم ، اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإنساء ، وهذا هو الربا النسيئة ، قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم ينصرف إلى ربا النسيئة الذى كان معروفاً عندهم .

وعلى الجملة فالربا نوعان :

١ - ربا النسيئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وهو أن يؤخر دينه ، ويزيده فى المال ، وكلما أخره زاد فى المال ، حتى تصير المائة آلاف مؤلفة .

وفى الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج ؛ فهو يبدل الزيادة ليفتدى من أسر المطالبة ، ولا يزال كذلك يعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابي من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ، ويوقعه فى المشقة والعذر ، فمن رحمة الله وحكمته وإحسانه إلى خلقه ؛ أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكتبه وشاهده ، وأذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجىء مثل هذا الوعيد فى كبيرة غيره ، ولهذا كان من أكبر الكبائر .

٢ - ربا الفضل كأن يبيع قطعة من الحلى كسوار بأكثر من وزنها دنانير ، أو يبيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنة من التمر الرديء ، مع تراضى المتبايعين ، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه .

ومثل هذا لا يدخل في نهى القرآن ، ولا في وعيده ، ولكنه ثبت بالسنة : فقد روى ابن عمر قوله ﷺ : ( لا تبيعوا الذهب بالذهب ، إلا مثلاً بمثل ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، ولا تشفوا بعضه على بعض إن أخشى عليكم الرءاء - الربا - )<sup>(١)</sup> .

ولقد ورد في الأثر : « إن أخذ الربا لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حج ولا صلاة » .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى احذروا أن تقعوا فيما نهاكم عنه ، أو أن تتركوا ما أمركم به فطريق فلاحكم : أن تمتثلوا الأوامر ، وتجتنبوا النواهي ، ثم أمر سبحانه وتعالى بتقوى النار فقال : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ . ومعنى ذلك : أن يحذر المسلم الأسباب التى تؤدى إلى عذاب النار ، كفعل الذنوب واقتراف المآثم ، وهذه الآية الكريمة تفيد أن النار خلقت وأعدت وهيئت . قال الله تبارك وتعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى فى شأن آل فرعون : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب \* النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾<sup>(٣)</sup> وهاكم بعض الأحاديث النبوية التى ذكرت فيها النار وأصحابها والذنوب التى اقترفوها ، لعل الله تعالى يرزقنا البعد عما يفضيه ويهدينا سواء الصراط .

١ - عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، قولوا : ( اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ) رواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

٢ - وعن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : سمعنى رسول الله ﷺ وأنا أقول : اللهم أمتعنى بزوجه رسول الله وبأبي سفيان وبأخى معاوية ، فقال : ( سألت الله لأجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً منها قبل أجله ولا يؤخر ، ولو كنت سألت الله أن يعيدك من النار وعذاب القبر ، كان خيراً وأفضل ) . رواه مسلم .

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : يا رب إن عبدك فلاناً استجار منى فأجره ، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يا رب إن عبدك فلاناً سألنى فأدخله الجنة ) . رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخارى ومسلم .

(١) متفق عليه .

(٢) الآية : ٢٥ من سورة نوح .

(٣) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة غافر .



٤ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار : اللهم أجره من النار ) . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ولفظهم واحد ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر - فذكر الحديث - إلى أن قال : فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادٍ لك يسبحونك ويكبرونك ، ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : فما يسألون ؟ قالوا يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى رب ، قال : فكيف لورأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجبرونك . قال ومم يستجبروننى ؟ قالوا : من نارك يارب . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لورأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا ) . الحديث رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

صدقت ربنا وتعاليت فأنت القائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(١)</sup> وصدق رسولك الكريم : إذ أمرنا أن نستعيز من النار ، ونأخذ من الأعمال ما نتزود به للجنة ، فنعم الجنة دار المتقين ، وبئس المهاد فى جهنم مهاده الفاسقين .

١ - عن أنس رضى الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى .

٢ - وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار ، قال وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . رواه البخارى ومسلم .

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾<sup>(٣)</sup> دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص ، فقال : ( يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً ) . رواه مسلم واللفظ له ، والبخارى والترمذى والنسائى بنحوه .

(١) الآية : ٦ من سورة التحريم .

(٢) من الآية : ٢٠١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٢١٤ من سورة الشعراء .

وما للقلوب أصبحت لا تخشع ، وما للأذان أصبحت لا تسمع ، وما للعيون أصبحت لا تدمع ، وما للأبدان أصبحت لا تسجد لله ولا تركع .

يا أخا الإسلام اعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، واسمع إلى هذا الحديث الذى رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب فيقول : ( أنذرتكم النار أنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا ، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه ) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( إنما مثلى ومثل أمتى : كمثلى رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراس يقعن فيها ، فأنا أخذ بحجزكم وأنتم تقعون فيها ) . رواه البخارى ومسلم .

٦ - وروى عن كليب بن حزن رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( اطلبوا الجنة جهدكم ، واهربوا من النار جهدكم ، فإن الجنة لا ينالها طالبها ، وإن النار لا ينالها هاربها ، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره ، وإن الدنيا محفوفة بالملاذات والشهوات ، فلا تلهينكم عن الآخرة ) . رواه الطبرانى .

٧ - وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( يا معشر المسلمين : ارغبوا فيما رغبكم الله فيه ، واحذروا عما حذركم الله منه ، وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ، ومن جهنم ، فإنها ولو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها حلتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم ) . رواه البيهقى - ولا يحضرنى الآن إسناده .

صور متنوعة :

٨ - عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : أتى بفرس يجعل كل خطو منه أقصى بصره<sup>(١)</sup> فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترسخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رءوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ، وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم<sup>(٢)</sup> ورضف جهنم قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس

(١) هو البراق وكان ذلك فى خلال رحلة الإسراء .

(٢) الضريع والزقوم طعام أهل النار ، والرضف كذلك .

لا يستطيع أداؤها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاهم وألستهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ؛ ثم أتى على حجر صغير يخرج منه نور عظيم ، فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ؟ قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، فيندم عليها ، فيريد أن يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيباً ، ووجد ريح مسك مع الصوت ، فقال : ما هذا ؟ قال : صوت الجنة تقول : يا رب ائتني بأهلي ، وبما وعدتني فقد كثر غرسى وحريرى وسندسى وإستبرقى ومرجانى وفضتى وذهبي ، وأكوابى وصحافى وأباريقى وفواكهى وعسلى ومائى ولبنى وخمى ائتني بما وعدتني ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى شيئاً ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا خلف ليعادى ، قد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين . فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً . فقال : يا جبريل ما هذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يا رب ائتني بأهلي وبما وعدتني ؛ فقد كثرت سلاسل وأغلالى وسعيرى وحيمى وغساقى وغسلينى وقد بعد فعزى واشتد حرى ، ائتني بما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت ، فذكر الحديث فى قصة الإسراء وفرض الصلاة وغير ذلك . رواه البزار عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أو غيره عن أبى هريرة . أ . ه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالطاعة بعد أن أمر بالتقوى ، ومع تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله تكون الرحمة ، وليس بعد الرحمة من هدف ينشده المؤمنون لسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لقد وصف الله تعالى المجتمع الإيمانى وصفاً دقيقاً فى قوله : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) ففى هذه الآية ستة أركان لا بد أن يقوم عليها المجتمع الإيمانى :

أولها : ولاية بعضهم بعضاً بالنصرة والمحبة والمودة ؛ بحيث يكونون فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وثانيها : الأمر بالمعروف إذ أن ذلك يؤدى إلى استمساك الناس بالخير والحق والصدق والأمانة .

الدين أولها والعقل ثانيها	إن المكارم أخلاق مطهرة
والجود خامسها والفضل سادسها (٢)	والعلم ثالثها والحلم رابعها
والصبر تاسعها واللين باقيها	والبر سابعها والشكر ثامنها

(١) الآية : ٧١ من سورة التوبة .

(٢) يعنى سادسها وإنما حورت الكلمة لضرورة وزن الشعر .

والنفس تعلم أنى لا أصدقها      ولست أرشد إلا حين أعصيا  
لا تركن إلى الدنيا وما فيها      فالموت لاشك يفنيها ويفنيها  
واعمل لدار غداً رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن منشيا  
قصورها ذهب والمسك طينتها      والزعفران حشيش نابت فيها

**وثالث الأركان :** النهى عن المنكر ، فقد لعن الله بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، فصبت اللعنة على الذين كفروا منهم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ثم ماذا ؟ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه<sup>(١)</sup> ، وقد جاء في حديث جامع للنبي ﷺ ، رواه الإمام الترمذى عن على رضى الله عنه قال فيه النبي ﷺ : (إذا صار المغنم دولاً والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وأكرم صديقه وجفا أباه وأكرم الرجل مخافة شره ، وتعلم لغير الله ، وارتفعت الأصوات في المساجد ، وصار زعيم القوم أرذلهم ، وشربوا الخمر واتخذوا القينات والمعازف ، وليسوا بالحرير ، ولعن آخر هذه الأمة أولها) . قال النبي ﷺ : (إذا فعلت الأمة ذلك حل بهم البلاء ، وقال في آخر الحديث فليترقبوا ريحاً حمراء أو خسفاً ومسحاً .

**ورابع الأركان الصلاة .** والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين<sup>(٢)</sup> ، وهى أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة<sup>(٣)</sup> ، كما أنها مفتاح الجنة ، ومن حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة<sup>(٤)</sup> ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبى بن خلف<sup>(٥)</sup> .

**وخامس الأركان :** ويؤتون الزكاة . وهى تمثل الجانب المالى فى الإسلام ، لأنها تشمل زكاة النقيدين وعروض التجارة والأنعام والزرع والثمار ، والركاز فى باطن الأرض ، فلو طبقت بكل مصادرها ومقاديرها ما رأينا فى الطريق سائلاً ، ولا فى البيوت عاطلاً ، ولا فى السجون قاتلاً ، ذلك أيضاً بجانب صدقات الفطر ، والأضاحى ، والهدى الذى يذبح فى منى ، ويمثل ثروة حيوانية من أصواف وأوبار وأشعار ولحوم وجلود وعظام وقرون .

فلو أن هذه الثروات علبت بعد تصنيعها ووزعت على مستحقيها بالمجان ، لأطعمت بطوناً جائعة ،

(١) وذلك مفهوم الآية : ٧٨ من سورة المائدة .

(٢) من حديث نبوى رواه الشيخان .

(٣) معنى حديث رواه مسلم .

(٤) من حديث رواه الشيخان .

(٥) من الحديث السابق .

وكست أجساماً عارية ، وسدت ديوناً ، وزوجت عزاباً ، وأعتقت رقاب ذوى الحاجات ، وخلصتها من ذل السؤال ، فاللهم اهدنا صراطك المستقيم<sup>(١)</sup> .

والركن السادس : وهو طاعة الله ورسوله ، كما نص على ذلك الله تعالى فى قوله : ﴿ وَيطيعون الله ورسوله ﴾ قال ﷺ : ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به )<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .  
الحكم الإلهى :

لقد حكم الله تعالى لهذا المجتمع الإيماني إذا توافرت له تلك الأركان الستة بقوله : ﴿ أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ قال الله تعالى فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن رب العزة قال : ( إن أردتم رحمتي فارحموا خلقى ) .

وقال النبى ﷺ : ( الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ) .

نعم ما أعظم مجتمع التراحم ، فلو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ، ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفر الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح سواد الظلام ، فيأبها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

الوعد الحق :

ما وعد الله لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات فى الآخرة ؟ .

قال جل شأنه : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

صدقت ياربنا فأنت القائل : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴿ .

إذا كان الأمر أمر الآخرة جاء الأمر بالمسارعة والمسابقة : ﴿ سابعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾<sup>(٤)</sup> والاستباق : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾<sup>(٥)</sup> التنافس : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾<sup>(٦)</sup> . والحث على العمل : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾<sup>(٧)</sup> كما قال عمر رضى الله عنه :

(١) من فضل الله أن هدى بعض القائمين على شئون الحج إلى تنظيم هذه العملية بإشراف إدارى وتنفيذى لبعض بيوت التنمية الإسلامية وتم توزيع لحوم هدى وذبائح أكثر من موسم من مواسم الحج وبدأ التنفيذ سنة ١٤٠٤ هـ . وتم التوزيع فى مخيمات لاجئى أفغانستان ، السودان والصومال ، إلخ .

(٥) من الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٢) رواه مسلم .

(٦) من الآية ٢٦ من سورة المطففين .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة التوبة .

(٧) من الآية ٦١ من سورة الصافات .

(٤) من الآية ٢١ من سورة الحديد .

التؤدة في كل شيء إلا إذا كان الأمر أمر الآخرة وذلك كقوله تعالى في شأن الدنيا : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ (١) وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٢) .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل      الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا      لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم يا ابن آدم أن ما قدر على ماضيك أن يمضغه فلا بد أن يمضغه ، فامضغه بعزة ، ولوركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فم ابن آدم ، وصدق أحدهم إذ يقول : نزح بحرين بغربالين وحفر بثرين بإبرتين وغسل عبيدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز في يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لي من أن أقف على باب لثيم يضيع فيه ماء عيني .

لا تخضعن مخلوق على طمع      فإن ذلك نقص منك في الدين  
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة      إلا بإذن الذي سواك من طين  
فلا تصاحب غنياً تستعز به      وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين  
واستعزق الله مما في خزائنه      فإن زرقك بين الكاف والنون  
واستغن بالله عن دنيا الملوك      كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وما أجمل ما قاله النبي ﷺ : ( إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فانتقوا الله واجملوا في الطلب ) (٣) رواه مسلم .

إن الأمر بالمسارعة إلى أسباب المغفرة من التوبة والاستغفار ، وذكر الله وأداء الواجب ، والبعد عن المحرم ، كل هذا يؤدي إلى جنة واسعة كسعة السموات والأرض .

فالمراد بالعرض هنا السعة ، فلا يقولن قائل إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض ؛ فأين توجد النار ؟ لأن السموات والأرض شيء من ملك الله . وما السموات والأرض ، بالنسبة للكرسي ليس إلا كحلقة في فلاة ، وما الكرسي بالنسبة للعرش إلا كحلقة في فلاة ، وما العرش بالنسبة لعلم الله إلا حلقة في فلاة ، فسبحان الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، وسبحان من له ما في السموات وما في الأرض ، وسبحان من وسع كرسيه السموات والأرض وسبحان من لا يؤده حفظها وهو العلي العظيم .

هذه الجنة بسعتها أعدت للمتقين وخلقت وهيئت : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ \* عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجييراً \* يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً \* ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً \* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء

(١) من الآية ١٠ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ١٥ من سورة الملك .

(٣) رواه مسلم .

ولا شكوراً \* إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً \* فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً \* وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً \* متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً \* ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً \* ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً \* قواريراً من فضة قدروها تقديراً \* ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً \* عينا فيها تسمى سلسبيلاً \* ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً \* وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً \* عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً \* إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴿١﴾ .

بم وصف الله المتقين ؟

قال جل شأنه : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ . أى فى الرخاء والشدة واليسر والعسر والضيق والسرور ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ أى الذين يملكون أنفسهم عند الغضب فليس الشديد بالقوة البدنية إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، قال تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ ﴿٢﴾ وقال ﷺ : ( لا تغضب ) .

﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال سبحانه : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال : ﴿ ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ ﴿٤﴾ .

يخاطبنى السفية بكل قبح وأبى أن أكون له جييا  
يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيباً

﴿ والله يحب المحسنين ﴾ والإحسان فى كل شىء أدائه على وجهه الأكمل ، أو كما قال الصادق المعصوم : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) ﴿٥﴾ وكان لأحد الناس غلام ﴿٦﴾ يصب له الماء فوق الإبريق فى الطشت فطار الرشاش على وجه سيده ، فغضب السيد غضباً شديداً كأنه أسد ديس عرينه فقال له الغلام ياسيدى أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال له يا غلام : كظمت غيظى ،

(١) الآيات : ٥ - ٢٢ من سورة الإنسان .

(٢) من الآية : ٣٧ من سورة الشورى .

(٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٤٣ من سورة الشورى .

(٥) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عن ، عن مجيء جبريل يسأل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام .. الخ .

(٦) اشتهر الخبر عن جعفر الصادق .. كما روى مثله عن ميمون بن مهران إذ جاءته جاريته ذات يوم بصحفة فيها مرق حار ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرق عليه ، فأراد ميمون أن يضر بها ، فقالت الجارية : يا مولاي استعمل قول الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال لها قد فعلت ، فقالت اعمل بها بعده ؛ ﴿ والعافين عن الناس ﴾ فقال قد عفوت عنك ، فقالت الجارية ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فقال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله وروى مثله عن الأحنف بن قيس . ١ . هـ . قرطبي ج ٤ ص ٢٠٧ .

قال الغلام : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : عفوت عنك . قال الغلام : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال السيد : أنت حر ولك منى ألف درهم . فانظر إلى آثار رحمة الله ، كيف نزل القرآن في شدة الغضب على ابن آدم كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظامئة فأطفأ غضب القلوب وهدأ من ثورتها .

ومن صفات هؤلاء : أنهم إذا فعلوا شيئاً يغضب الله ، أو ظلموا أنفسهم بشيء من الذنوب ، بادروا بالتوبة فأقلعوا عن الذنب ، وندموا على ما فات ، وعزموا على عدم العودة ، وأدوا الحقوق لأصحابها ، والفرائض التي تكاسلوا عنها ، ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (١) .

ما جزاء هؤلاء ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا يغفر الذنوب إلا الله كما قال تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ . ما جزاؤهم ؟ وهم الذين وصفهم الله بالمنفقين في السراء والضراء ، والكاذمين الغيظ والعافين عن الناس ، والتائبين المستغفرين ، الذين لا يصرون على ما فعلوا من المخالفات .

#### الحكم العادل :

قال جل شأنه : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ . تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين \* وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ (٢) .

نعم لهم مغفرة لذنبهم فقد ذكروا الله واستغفروا لذنبهم ، ولم يصروا على ما فعلوا : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (٣) لهم مع المغفرة جنات وخلود ، ولهم في الجنات نعيم مقيم ﴿ ييشرونهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿ (٤) .

وها نحن أولاء نسوق قبساً من السنة المطهرة ، ومن الأحاديث التي رويت عن رسول الله ﷺ في صفة الجنة ونعيمها حتى نكون على علم بالوعد والوعيد وهكذا تكون حال المؤمن ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٥) .

(٤) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .

(٥) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

(١) الآية : ٢٠١/ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الزمر .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .



١ - عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ربح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم ) . رواه الطبراني من رواية جابر الجعفي .

٢ - عن علي رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (١) إلى آخرها قال : قلت يا رسول الله ما الوعد إلا ركب ؟ قال النبي ﷺ : ( والذي نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة ، عليها رجال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلأأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب وإذا شجرة على باب الجنة ، ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً ، فيضربون الحلقة بالصغيرة فلو سمعت طنين الحلقة ياعلى ؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخرله ساجداً مما يرى من النور والبهاء ، فيقول أنا قيمك الذي وكلت بأمرك فيتبعه فيقفو أثره ، فيأتى زوجته ، فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبيبى وأنا حبيبك وأنا الراضية فلا أسخط أبداً ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر وطرائق خضر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبته ، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشاً ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن في مقدار ليلة ، تجرى من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية ، إذا اشتهوها انبعث الغصن إليهم ، فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائماً وإن شاء متكئاً وذلك قول الله تعالى : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾ (٢) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب صفة الجنة عن الحارث وهو الأعور عن على مرفوعاً هكذا ، ورواه ابن أبى الدنيا أيضاً والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن حمزة عن على موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر .

٣ - وعن المغيرة بن شعبه رضى الله عنه عن النبي ﷺ : ( أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يحىء بعدما دخل أهل الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ؟ فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتتهت نفسك ولدت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال رب : فأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر ) . رواه مسلم .

## عبرة وعظة

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾

المناسبة :

كان الكلام في وقعة بدر وأحد وما حصل للمؤمنين فيها ، وموقف الكفار وصفتهم ، مع بيان صفة المؤمنين وجرائهم ، ثم بعد هذا ذكر القرآن سنة الله في الخلق وأن ما حصل كان موافقاً للسنّة مع بيان الحكمة فيما وقع .

أى انظروا أيها المسلمون فأنتم أولى بالنظر والاعتبار ، انظروا إلى من تقدمكم من الأمم ، وسيروا في الأرض حتى تقفوا على أخبار الماضين ، فستجدون أن الله طريقاً واحداً لا يتخلف :

قول تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ <sup>(١)</sup> أى فإن أنتم أيها المسلمون سرتهم سير الطائعين الموفقين ، وصلتم إلى ما وصلوا إليه حتماً ، وإن سرتهم سير العصاة المكذبين كانت عاقبتكم خسراً .

وفي هذا تنبيه لمن خالف النبي ﷺ يوم أحد ، فكأنهم انتصروا يوم بدر لسلوكهم سبيل الطائعين المتوكلين على الله ، وامتحنوا يوم أحد لأنهم تنازعوا ، ففشلوا وخالفوا أمر الرسول ولم يصبروا ولم يتقوا كما أمروا .

ففي الآية الكريمة سبيل الأمن والخوف ، وفي طيها الوعد والوعيد ، والقرآن الكريم يشير في جملة إلى أن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة ، قد ربطت فيها الأسباب بالمسببات ، والله قدير على كل شيء ، ففي الحرب أو الزرع أو التجارة مثلاً إذا سار فيها صاحبها على الطرق المألوفة والنظم المحكّمة نجح ، وإن كان شريزاً مجوسياً ، وإن جانب المألوف وركب رأسه واتبع غير المعقول ، كان من الخاسرين ولو كان شريفاً علوياً .

(١) الآية : ٦٢ من سورة الأحزاب ، وهناك : ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ ٢٣ من سورة الفتح .

وأحق الناس بالسير على المعقول والاستفادة بهدى القرآن هم المؤمنون ، في كل ما يأتون ويذرون ، والسير في الأرض ومشاهدة الآثار أثبت في معرفة الأخبار من التاريخ ورواية الأخبار « فمراء كمن سمعا » . كل إنسان له عقل يفكر به ، يعرف أن الله سنة في الكون لا تختلف عند جميع الناس في كل العصور ، مؤمنهم وكافرهم ، وبارهم وفاجرهم ، والله يهدي من يحب إلى صراط مستقيم .

فبيان سنن الكون للناس جميعاً ، وأما كون ما ذكر هداية وعظة ، فهو خاص بالمتقين ، لأنهم المنتفعون بهدى القرآن ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾<sup>(١)</sup> ، ولذا قال الله : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ .

وإذا كان المؤمنون هم المنتفعون بما ذكر ، فيجب ألا يضعفوا لما أصابهم من مس السلاح عند القتال ، وما يلزمه من التدبير ، ولا يحزنوا على من قتل منهم في أحد ، فهو شهيد مكرم عند الله يوم القيامة ، وما وقع ليس نصراً للمشركين ولكنه درس للمسلمين ، لما في تلك الغزوة من التربية لكم على المشاق ، وبيان أن خروجكم على نبيكم ومخالفة أمره ، خروج على سنة الله في أسباب الظفر ، فلا تعودوا لمثله أبداً ، وكيف تهنون وتحزنون والحال أنكم الأعلون ، بمتقضى سنة الله في جعل العاقبة للمتقين ؟ ألا تعلمون أن قتلاهم في النار وقتلاكم في الجنة ، والمراد بالنهي عن الوهن والحزن : النهي عن الاستسلام إلى ذلك ، بمعنى التأهب والاستعداد مع العزيمة الصادقة ، والتوكل على الله ، والثوق بالنصر ، فإن الله وعد بذلك ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ فاعملوا بهذا .

وكيف تضعفون ولا تعملون ؛ لما أصابكم من الألم ، فأنتم إن أصابكم ألم في أحد فقد أصاب الكفار ألم أكثر منه في بدر ، وإن امتحنتم في أحد فقد انتصرتكم في بدر .

فيوم لنا ، ويوم علينا ، ويوما نساء ، ويوما نسر ، والأيام دول ، والحرب سجال . . . وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، فنجعل للباطل جولة في ساعة وللحق دولة إلى قيام الساعة ، والعاقبة والنصر في النهاية للمتقين الصابرين ، كل ذلك ليستقر العدل ويعم ، ويعلم الناس أن الدنيا لمن سلك طريق النجاح والفوز . . .

فعل الله ما فعل مع المؤمنين لحكم يعلمها ، وليتحقق إيمان المؤمنين ، ويظهر واضحاً ، ولذا قال النبي ﷺ بعد موقعة أحد : « لا يذهب معنا في القتال ( في غزوة حمراء الأسد )<sup>(٢)</sup> إلا من قاتل » فذهب المؤمنون وهم في أشد التعب والنصب . ﴿ ليعلم الله الذين آمنوا ﴾ هذه العبارة وأمثالها تفيد تحقق الإيمان ، وحصوله في الخارج حتى يحصل علم الله به ، فإذا علم الله إيمان فلان كان لا بد أن يكون إيمانه حاصلًا في الواقع ، إذ علم الله لا بد أن يكون مطابقاً للواقع ، وعلى ذلك فالمعنى : فعل الله بكم ذلك ، لحكم هو

(١) الآية ٢ : من سورة البقرة .

(٢) في اليوم التالي ليوم أحد مباشرة .

يعلمها وليتحقق إيمان المؤمنين ويظهر ، وليكرم الله أناسا منكم بالشهادة ، والقتل في سبيل الله ؛ والاستشهاد درجة عظيمة سيأتي بيانها : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ﴾ (١) .

وهذه الشهادة لا يعطيها الله إلا لمن أحبه واصطفاه ، والله لا يحب الظالمين أبدا ، ﴿ وللمحصى الله الذين آمنوا ﴾ وإيمانهم ، فهذه الحوادث العنيفة التي ترج المجتمع تمحص الإيمان الخالص ، من الإيمان المشوب بالضعف والاستكانة ، حتى تصفوا النفوس ، فلا يبقى فيها درن ، وكثير من الناس مصابون بداء الغرور الديني ، فهم يفهمون في أنفسهم أنهم كاملو الإيمان ، حتى إذا ما محصوا بالابتلاء اهتزوا ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ (٢) . ففي غزوة أحد تخلف البعض وفر البعض وأصعدوا في الجبل لا يلوون على أحد ، وثبت البعض حول النبي ﷺ حتى استشهدوا ، واتخذ البعض نفسه ترساً واقياً للنبي ﷺ ورضى الله عن الجميع ، ووفقنا حتى تقتدى بهم .

ومن الحكم العالية لله ، محق الكافرين فإنهم إذا ظفروا مرة طغوا وبغوا فيكون هلاكهم مرة واحدة وإذا هزموا كما في بدر تقلعت أظفارهم وأصابهم الضعف والهلاك شيئا فشيئا حتى يبادوا والعاقبة للمتقين .

### عتاب لبعض من شهد غزوة أحد

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا يَنْمَاتُ أَوْ كُنْتُمْ تُخْلِقُونَ أَنْفُسَكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ ولما ﴾ بمعنى لم إلا أن مدخولها متوقع الحصول فالمراد نفى الجهاد في الماضي ، وتوقعه في المستقبل

الجهاد : احتمال المشقة ومكافحة الشدائد ﴿ تمنون الموت ﴾ المراد تمنى الشهادة في سبيل الله .  
﴿ تلقوه ﴾ شاهدوا هوله وترؤا خطره ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ انقلب على عقبه ، ونكص على عقبه رجع وراءه والمراد رجعتكم كفارا بعد إيمانكم .

(١) من الآية ٦٩ من سورة النساء .

(٢) الآية : ١٤٣ من سورة آل عمران .

يبين الله في هذه الآيات أن الثواب في الآخرة منوط بالجهاد والصبر ، كما أن الفوز في الدنيا منوط بإقامة العدل وسلوك الطرق المألوفة ، فسنة الله لا تختلف ، وقد ذكر مع هذا عتاباً لبعض من شهد أحداً .

لا ينبغي لكم أن تظنوا بالله الظنون ، وتصابوا بداء الغرور ، فتفهموا أن دخول الجنة يكون من غير جهاد في الله ، وصبر على البأساء والضراء ، وحين البأس ، لأن دخول الجنة لا يكون إلا بالجهاد الكامل لإعلاء كلمة الله ، ورفع راية الوطن وهذا بجهاد العدو وجهاد النفس ، خاصة في الشباب وجهاد حب المال عند البذل في الأعمال العامة النافعة وغير ذلك .

ويمكن الصبر في أنفسكم تمام التمكن على أداء التكليف وعلى الطاعة وعلى البلاء والحوادث ، ونفى العلم من الله دليل على عدم وقوع الجهاد والصبر منكم ، فهو أبلغ من نفى الجهاد والصبر ، إذ هو كالدعوى ودليلها ، شبه بهذا قوله تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ .

روى عن الحسن أنه قال : بلغني أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون لئن لقينا مع النبي ﷺ لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صادق ، فأنزل الله : ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ﴾ .

نعم لقد كان كثير منكم يتمنى لو يستشهد في سبيل الله تمنياً من نفسه استحق أن يعبر عنه المولى بهذا التأكيد ﴿ ولقد كنتم ﴾ ، حتى إذا جد الجد وقامت الحرب ، وشهدتم بأعينكم مشاهدة كاملة ، وأنتم تنظرون نظرة فاحصة ، ليست عاجلة ، توانيتم وانحزتم إلى الجبل وأصعدتم فيه لا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فلا يجيبه أحد ! .

وهذا عتاب . وأى عتاب ؟ نعم كان مع النبي من بايعه على الموت ، ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، حتى قتل البعض ، ونجا البعض كما ثبت في أحداث الغزوة ، ومع هذا كان الخطاب عاماً ، ليكون الإرشاد عاماً ، فيتهم المؤمنون الصادقون أنفسهم ليزدادوا إيماناً ، وليرعوى المقصرون فلا يعودوا لمثلها أبداً .

في هذه الغزوة أشيع قتل النبي ﷺ ، وكانت هذه الإشاعة سبباً في شيوع قالة السوء ، حتى قال بعض المنافقين لو كان نبيا ما قتل ، من لنا برسول إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا الأمان عند أبي سفيان ؟ وهكذا مما جعل أنس بن النضر يبرأ إلى الله من مثل هذا الكلام ، ويقاقل حتى يقتل دفاعاً عن الدين . وكانت هذه الإشاعة سبباً في انفضاض بعض الناس عن النبي ﷺ فعاتبهم الله بقوله : ﴿ وما محمد إلا رسول ﴾ كمن سبقه من الرسل ، فهم قد خلوا وانتهت حياتهم بموت كموسى وعيسى ، أو قتل كزكريا ويحيى ، ومع هذا ظلت ديانتهم كما هي ، وأتباعهم متمسكون بها ، فالمعقول أن تظلوا كما كنتم ، ولو مات أو قتل ، فإن الرسول بشر كسائر الأنبياء له في الدنيا مهمة تنتهي بانتهاء أجله ، ومن كان يعبد الله فإن الله باق ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .

أفتنقلبون على أعقابكم ، فترتدون عن دينكم ، أو يطير صوابكم لو مات أو قتل مع أنه رسول كسائر الرسل ، لم يدع أنه إله ، ولم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل تركتم دينه ورجعتم كفاراً .  
 ﴿ ومن يتقلب على عقبيه ﴾ ويعود إلى الكفر ﴿ فلن يضر الله ﴾ بشيء من الضرر وإنما يضر نفسه ، وأما من ثبت على دينه ، وجاز هذا الامتحان الدقيق فهو من المجاهدين الصابرين الشاكرين ، الذين سيجزيهم الله الجزاء الأوفى ، وقد كانت هذه الآية تمهيداً لموت النبي ﷺ بعد أداء رسالته وقولاً فصلاً لأمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

### عتاب للمؤمنين وإرشادهم

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

المفردات : ﴿ مؤجلاً ﴾ ذو أجل وهو المدة المضرورية للشيء ﴿ كأين ﴾ كلمة تفيد الكثرة ﴿ ربيون ﴾ جماعات كثيرة واحد ربي وهو الجماعة . الوهن : الضعف عامة ، وقيل في القلب ، والضعف : اختلال في الجسم ﴿ استكانوا ﴾ الاستكانة : الاستسلام والخضوع لأن صاحبها يسكن للخصم ﴿ إسرافنا ﴾ مجاوزة الحد في كل شيء .

المناسبة :

بعد ما لام القرآن المؤمنين على ما بدر منهم حينما بلغهم قتل النبي ﷺ لامهم : بأنه رسول كبقية الرسل لم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم كافرين ، إنما كان يأمركم بعبادة الله والله حي لا يموت . ومهمة الرسول البلاغ فقط ، فإذا لم يوجد له دخل في استمرار عبادة الله .

وهنا يلومهم أيضاً على أن النبي لو قتل كما أشيع ، ما كان لكم أن تفعلوا ما فعلتم .

ليس من شأن النفوس ، ولا من سنة الله فيها ، أن تموت بغير إذنه أو مشيئته ، التي يجري بها النظام العام في الكون ، وارتباط الأسباب بالمسيبات ، فالله وحده هو المتصرف في كل شيء ، له الأمر ، فيأذن للملك بقبض الروح في الموت العادي وغيره في الإنس والجن ، حتى في الملك نفسه الموكل بقبض الأرواح ، كتب هذا كتاباً محكماً ، موقتاً بوقت لا يتعداه ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾ (١) . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٢) .

وإذا كان العمر بيد الله ، وانقضاؤه بإذنه وإرادته ، فكيف يصح الجبن والوهن والضعف والتخاذل ؟؟

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا ﴾ بجهاده وعمله ، أعطاه الله شيئاً من ثوابها ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة ﴾ وجزاءها ، أعطاه الله شيئاً من ثوابها ، على حسب إرادته ومشيئته ، في كلا الحالين ، وأما أنتم يا من ضعفتم وفشلتم وتنازعتم وخالفتم أمر نبيكم وقائدهم ، لأجل الغنيمة ، وما الذي تريدونه بعملكم ؛ إن كنتم تريدون الدنيا ، فالله لا يمنعكم من ذلك ، ولكن ليس هذا طريقها ، إذ العمل الذي يدعوكم إليه محمد ﷺ هو للدنيا والآخرة .

والتعبير بقوله : ﴿ يرد ﴾ دليل على أن الإرادة للشخص هي التي تكيف العمل ، فتارة يكون خيراً ، وتارة يكون شراً . (إنما الأعمال بالنيات) وأن الله سبحانه وتعالى سيجزي الشاكرين عند حدوده ، الثابتين مع نبيه .

وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم في سبيل الله وإعلاء كلمته ، جماعات في أخرج الأوقات وأشدّها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا خضعوا للدنيا ومتاعها ، بل ظلوا كما هم لم تزعزعهم الأعاصير ، صابرين ثابتين والله يحب الصابرين ، الذين صابروا وصبروا وربطوا واثقوا الله ، فهو : يهديهم ويرشدهم ، ولا شك أن هؤلاء مبالغون في التعلق بربهم سبحانه وتعالى ، هذا عملهم ، أما قولهم فهو ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ واستر ما ألمنا به ، مما تعلمه ولا نعلمه ، واغفر لنا ﴿ إسرافنا ﴾ وتجاوزنا أمرك ، فهم مما فعلوا من الخير ، يرون أنفسهم مقصرين أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ على صراطك المستقيم وأمام عدوك الميين ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ والسعادة فيها بالرضا والقناعة والعزة وحسن التوكل على الله ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الجزاء الأوفى ؛ أولئك رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ ذلك هو الفوز العظيم ، وأنتم يا أصحاب الرسول وأمة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أولى بهذا .

(١) من الآية : ١١ من سورة المنافقون .

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

## متابعة الكافرين وعاقبتها

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾  
 بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا  
 أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

المفردات : ﴿الرعب﴾ شدة الخوف ، ﴿سلطاناً﴾ برهاناً وحجة ولما فيها من القوة على دفع  
 الباطل ، سمي سلطاناً ﴿مثنوى﴾ : المثنوى المكان الذي يكون مقر الإنسان ومأواه .  
 سبب النزول :

روى أن بعض المنافقين حينما أذيع خبر مقتل النبي ﷺ ، قال : من لنا برسول إلى ابن أبي يأخذ أماناً  
 لنا عند أبي سفيان ، وقال بعضهم لو كان نبياً ما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم ، وهذا أبو سفيان  
 ينادى : العزى لنا ولا عزى لكم ، فنزلت هذه الآيات .

بعد ما رغب الله المؤمنين في الاقتداء بأنصار الأنبياء السابقين ، وبين جزاء هذا ، حذرهم من متابعة  
 الكفار فإن في ذلك خسارة لهم .

﴿يأياها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا﴾ كأبي سفيان وعبد الله بن أبي والداعين إليهما ، إن  
 تطيعوهم يردوكم كافرين كما كنتم خاسرين في الدنيا ، بالذلة بعد العزة ، وتحكم العدو فيكم ، وحرمانكم  
 من السيادة والملك ، الذي وعده الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴿ليستخلفهم في الأرض كما  
 استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ (١) .

وأما خسران الآخرة فعذاب شديد يوم القيامة ، بل الله مولاكم ولا مولى لهم ، فلا يليق أن تفكروا في  
 ولاية أبي سفيان أو غيره ، ولا تأهبوا بكلام المنافقين الجبناء ، فالله نعم المولى وهو خير الناصرين .

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (٢) . ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى  
 لهم﴾ (٣)

(١) من الآية : ٥٥ من سورة النور .

(٢) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .

(٣) الآية : ١١ من سورة محمد ﷺ .



﴿ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسبب شركهم بالله أصناماً وحجارة ، ليس لهم في هذا حجة ولا برهان ، بل هم إذا خلوا وأنفسهم وجدوها تعبد معبودات ، كل حجتهم في عبادتها ، أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ <sup>(١)</sup> وعبادتهم الأصنام تورث في عقولهم خبالاً ، وفي نفوسهم ضعفاً وأى ضعف ؟ وإذا رأوكم متمسكين بدينكم ، كان ذلك أدعى إلى إلقاء الرعب في قلوبهم وشكهم في أنفسهم ، وهذا ما حصل ويحصل دائماً .

هذا حالهم في الدنيا ، وفي الآخرة مأواهم النار وبئس القرار ، فإنهم الظالمون المشركون ، أما إذا رأيت المؤمنين مع الكافرين ، وقد انعكست الآية وقد ألقى الله الرعب في قلوب المؤمنين ، فاعلم أنهم ليسوا مؤمنين حقاً ولكنهم مسلمون بالورثة والاسم فقط .

### ما أصاب المسلمين في أحد ، وسببه

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعْدَ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَا يُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوَنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجِكُمْ فَأَتَيْتُكُمْ غَمًّا بَغِيًّا لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ

(١) من الآيتين : ٢٢ و ٢٣ من سورة الزحرف .

مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

المفردات : ﴿ تحسبونهم ﴾ تقتلونهم ، من حسه أى أذهب حسه بالقتل . ﴿ ياذنه ﴾ : بأمره ودعوته ﴿ فشلتهم ﴾ : جببتم وضعفتم . ﴿ صرفكم عنهم ﴾ : كفكم عنهم وحولكم . ﴿ لئيتليكم ﴾ : ليختبركم ، والمراد ليعاملكم معاملة من يختبر ، والإفالة عالم لا يحتاج إلى اختبار ﴿ تصعدون ﴾ : من أصدد بمعنى أبعد في الذهاب وأمعن فيه ﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ : ولا تلتفتون لأحد . ﴿ أخراكم ﴾ : جماعتكم المتأخرة التي وقفت تدافع عن النبي ﷺ . ﴿ فأتأابكم ﴾ : فجازاكم ﴿ أمنة ﴾ : الأمانة والأمن سواء ﴿ الغم ﴾ : ألم وضيق في الصدر من الأمر الذي لا يدري الخلاص منه ﴿ لبرز ﴾ : لخرج ﴿ مضاجعهم ﴾ : مصارعهم التي يصرعون فيها ﴿ استزلهم ﴾ : أوقعهم في الزلل والخطأ .  
سبب النزول :

روى الواحدى عن محمد بن كعب قال : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد قال ناس : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى النصر ؟ فأنزل الله : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ الآية . وتلاها ذكر الحوادث وأسبابها .

وتالله لقد وفى لكم ربكم وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم المشركين ، وقت أن أخذتم تقتلونهم قتلاً ، وتفتكون بهم فتكاً ، كل ذلك بتيسير الله ومعونته وإذنه وإرادته .

نعم : صدقكم الله وعده ، حتى ضعفتم في الرأى ، وجببتم في الحرب ، وفشلتم وتنازعتم واختلفتم ، فقال قائل : فلم وقوفنا وقد انهزم المشركون ؟

وقال بعضهم لا نخالف أمر الرسول أبداً ، وما ثبت مكانه إلا عبد الله بن جبير في نفر قليل من أصحابه ، وكان ما كان من أمر محتكم مما ذكر في ( غزوة أحد ) .

﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ : وهم الذين تركوا أماكنهم طلباً للغنيمة ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وهم الذين ثبتوا في مكانهم ، ولم يخالفوا أمر الرسول ﷺ ، ثم كفكم عنهم حتى تحولت الحرب ودالت دولة المشركين ، فعل هذا بكم ليمتحن إيمانكم ويتبين أمركم ، فيظهر الصادقون من المنافقين ، وقد عفا الله عنكم بذلك الابتلاء الذى محأ أثر الذنب من نفوسكم ، وتاب عليكم لما ندمتم على ما فرط منكم ، إنه هو التواب الرحيم ، وهو ﴿ ذو الفضل العظيم ﴾ على المؤمنين ؛ وكم نعمة في طيها نعم ﴿ صرفكم عنهم ﴾

وقت أن كنتم ﴿ تصعدون ﴾ في الجبل ، وتبعدون في السير لا تلتفتون وراءكم ، والحال أن رسول الله ﷺ ﴿ يدعوكم ﴾ قائلاً : « إلى عباد الله إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكره له الجنة » . . ﴿ يدعوكم ﴾ في الجماعة المتأخرة الذين ثبتوا مكانهم ولم تنخلع قلوبهم وظلوا يدافعون عن النبي ﷺ ، ﴿ صرفكم ﴾ الله عنهم ﴿ فجازاكم ﴾ غمًا ﴿ وغما حين ابتلاكُم بالحنة ، بسبب غم الحقتُموه للنبي ﷺ بعصيانكم أمره ، ومخالفة رأيه .

ويصح أن يفهم ﴿ أصابكم غمًا ﴾ ، بعد غم بإشاعة قتل النبي ﷺ ، وقتل الأحبة ، وفوات النصر والغنيمة ، وما فعل بكم ذلك كله إلا ليمرنكم على الشدائد ، فإنها هي التي تبني الأفراد والأمم ، ولئلا تحزنوا على شيء فات ، ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من عدوكم ﴿ والله خير ﴾ بأعمالكم مجازيكم عليها .

روى عن ابن الزبير رضى الله عنه أنه قال ، لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ ، حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم ، والله إني لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشاني ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ .

ثم أنزل الله الأمن على القلوب ، والطمأنينة على النفوس بالنعاس عليهم ، حتى كان يسقط السيف من أحدهم فيأخذه ، والنعاس في هذه الحالة نعمة من نعم الله ، وحاد فاصل بين حالتي الأمن والخوف .

هذا النعاس غشى طائفة من الناس هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ ، ﴿ وطائفة قد أهتمهم أنفسهم ﴾ وملاً الخوف قلوبهم ، ما بهم هم أنفسهم ، إلهم الدين ولاهم الرسول والمسلمين ، وذلك لأنهم لا يثقون بنصر الله ولا يؤمنون بالرسول ﷺ ، فقلوبهم هواء ، هؤلاء هم المنافقون كمعتب بن قشير ومن لف لفه من أتباع ابن أبي ﴿ يظنون بالله غير ﴾ الظن ﴿ الحق ظن الجاهلية ﴾ الأولى ﴿ يقولون ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ هل لنا من الأمر ﴾ والنصر نصيب ؟ يسألون كالمؤمنين في الظاهر والواقع أنهم ينكرون أن لهم شيئاً من النصر والغلب .

﴿ قل ﴾ يا محمد : ﴿ إن الأمر ﴾ والنصر ﴿ كله لله ﴾ ولا يكون من غيره ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ . (١) ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (٢) .

وهم يضمرون في أنفسهم العداوة والحقد لكم ، ويظهرون غير ذلك ، ولا غرابة فهم المنافقون المخادعون .

﴿ يقولون لو كان لنا ﴾ من النصر والفوز نصيب ، ما قتلنا هاهنا ، فمحتتنا دليل واضح على أن النصر لن يأتي لنا ، وأن محمداً ليس نبياً ، إذ لو كان نبياً ما حدث لنا ما حدث ، فهم يربطون بين النبوة والنصر ، وما علموا أن النصر من عند الله ، وتوفيقه ، وأن المحنة من أعمالهم ومخالفتهم ومع ذلك فالعاقبة للمتقين .

(١) من الآية : ٢١ من سورة المجادلة .

(٢) الآية : ١٧٣ من سورة الصافات .

وهؤلاء ختم الله على قلوبهم ، فغفلوا عن أن الأعمار بيد الله ، وأن النصر من عنده ، وأن الذين كتب عليهم القتل لا بد من حصوله ، ولو كانوا ﴿ في بروج مشيدة ﴾ قل لهم : ﴿ لو كنتم في بيوتكم ﴾ وقد كتب عليكم القتل ﴿ لبرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ إلى حيث يصرعون ويقتلون فالحذر لا ينجى من القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير ، والأمر كله بيد الله ، والعاقبة للمتقين ، وقد فعل الله ما فعل ؛ ليمتحن الله ﴿ ما في صدوركم ﴾ من الإخلاص والتقوى ، ﴿ وليمحص ما في قلوبكم ﴾ من وساوس الشيطان حتى تصل إلى الغاية القصوى في اليقين ، ﴿ والله عليم ﴾ بصاحبات ﴿ الصدور ﴾ التي لا تنفك عنها من الأسرار والضمائر ، فهو لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو الغني عن الابتلاء والاختبار ، ولكن يفعل هذا لينكشف حال الناس بعضهم لبعض ، فلا ينخدع إنسان بظاهر أخيه .

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ من المشركين والمسلمين وتركوا أماكنهم ، أو تولوا فارين ، إنما أوقعهم الشيطان في هذا الخطأ ، بسبب بعض أفعالهم السابقة ، فإن الذنب الذي يفعله الإنسان يترك نكتة سوداء في القلب ، يركز عليها الشيطان فينفذ منها إلى الإنسان ويوحى إليه بالسوء .

﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لما تابوا وأنبأوا وكانت عقوباتهم في الدنيا جواير لهم ، ﴿ إن الله غفور ﴾ .

للذنوب ﴿ حلیم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

### بث روح التضحية والجهاد في نفوس المؤمنين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ  
أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ  
وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مِتُّمْ لَمْ غَفِرَةً  
مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةً خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

تفسير المفردات :

﴿ ضربوا ﴾ : سافروا في الأرض للتجارة والكسب  
﴿ لإخوانهم ﴾ : لأجل إخوانهم أى في شأنهم والمراد بالأخوة ما هو أعم من أخوة النسب والدين والمودة  
﴿ غزى ﴾ : جمع غاز وهو المقاتل (حسرة) ندامة في قلوبهم لما بين الله فيما مضى سبب المحنة، وأن الشيطان قد استزلمهم) ببعض ما كسبوا بين هنا ما كسبوا به الشيطان لهم فيعتقدون هذا الخطأ الفاسد .

ما زالت الآيات الكريمة تلقن الأمة المسلمة والجماعة المؤمنة دروساً ربانية ، إذا استمسكت بها الأمة كان السعد رائدها ، والتوفيق حليفها .

وفي هذه الآيات تثبيت للعقيدة وتوكيد للإيمان ، فإن الله واحد لا شريك له يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ \* ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴿ (١) .

فيا أيها المؤمنون لا تكونوا كهؤلاء الكافرين ، ومرضى القلوب الذين أغشيت قلوبهم قطعاً من الليل مظلماً ، فقالوا في شأن إخوانهم الذين خرجوا يضربون في الأرض سعياً وراء الكسب الحلال ، أو خرجوا مقاتلين في سبيل الله ، قالوا في شأنهم : ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ كأنه لا يموت إلا من خرج ساعياً أو مجاهداً ، ونسوا أن الموت حق ، وأن العمر واحد لا يتقدم ولا يتأخر ، ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ، ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد وقد قال أحد الحكماء : « يموت الشجاع مرة ويموت الجبان مائة مرة » .

وقال أحد الحكماء :

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وعندما حضرت خالد بن الوليد الوفاة على فراشه قال كلمته الماثورة :

« لقد خضت مائة معركة أوزهاها ، وليس في جسدي قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشي كالبعير وكنيت أود أن أموت شهيداً في سبيل الله فلا نامت أعين الجبناء » .

هذا هو سيف الله المسلول ، الذي سله الله على أعدائه ، والذي قال فيه أبو بكر الصديق : « عقت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وقال عنه مارشال الجو الألماني ( هندنبرج ) : « إن خالد بن الوليد أستاذ السرعة في الحرب ، فقد طوق أعظم امبراطوريتين بذراعيه في مدة لا تزيد على ثلاثة عشر شهراً . ومع ذلك مات على فراشه » . فليس الضرب في الأرض أو القتال في سبيل الله سبباً في الموت وليس القعود في البيوت سبباً في الحياة .

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة المنافقون .

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

تزود من التقوى فإنك لا تدري  
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً  
وكم من عروس زينوها لزوجها  
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم  
وكم من صحيح مات من غير علة  
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري  
وقد نزعتم أرواحهم ليلة القدر  
وقد أدخلتم أجسادهم ظلمة القبر  
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذين قالوا لإخوانهم ﴿لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا﴾ . إنما قالوا ما قالوه ليكون مصير قلوبهم  
﴿حسرة في قلوبهم﴾ فإن لو تفتح عمل الشيطان .

هل نسي هؤلاء أن الله هو الذى يحيى ويميت فلا يملك أحد الإحياء والإماتة إلا الله وهو البصير  
بأعمال العباد . وقد رد الله تعالى عليهم رداً مفحماً ألقمهم الحجارة في حلقهم .

قال تعالى : ﴿وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين﴾ وليعلم الذين نافقوا وقيل  
لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتلاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان  
يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون \* الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا  
ما قتلوا ، قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين \* ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل  
أحياء عند ربهم يرزقون \* فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم  
ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وأنتم أيها المؤمنون مادمتم تجاهدون في سبيل الله فسواء قتلتم أو متم ؛ فإن مغفرة الله ورحمته خير لكم  
مما يجمع هؤلاء من عرض الدنيا وحطامها الزائل ، واعلموا أنكم لو أدرككم الموت أو القتل فإلى الله  
مصيركم وهو وليكم فنعم المولى ونعم النصير ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره  
الله لقاءه ، وقد صدق أبو بكر الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

## صاحب الخلق العظيم

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

المفردات : (اللين في المعاملة) : الرفق والتلطف فيها ، (الفظ) : الخشن ، شرس الأخلاق ، الجافي في المعاشرة وفي القول والفعل ، (والغليظ) : القاسى الذى لا يتأثر قلبه من شيء (وانفض القوم) : تفرقوا كما قال ﴿ وإذا رأوا تجارة أو هوا انفضوا إليها ﴾<sup>(١)</sup> . المشاورة : من قولك شرت العسل إذا اجتنيته واستخرجتها من موضعها ، والمراد بالأمر سياسة الأمة في الحرب والسلام والخوف ، إلى نحو ذلك من المصالح الدنيوية والتوكل : إظهار العجز والاعتماد على الله والاكتفاء به في فعل ما تحتاج إليه .

نزلت هذه الآيات عقب غزوة أحد التي وقع فيها ما وقع من الشدة والمحنة ، والتي أصيب فيها النبي ﷺ مع من أصيب ، فصبر وتجلد ولان في معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق واللين ، ولم يعاقبهم ، وكان العتب مقترناً بالعفو من الله جلّت قدرته ، وكان الصفح الجميل من رسوله الكريم ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ .

وجاء عفو الله وصفح رسوله ، ووعد الله بالنصر لهم ، وتأيد كلمة الحق إلى أن تقوم الساعة ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم في الأمر الذى يشمل سعادتهم في الدارين ، وقد جاء نزول هذه الآية في وقت يفيد أهمية الشورى ، فقد ذهب الرسول ﷺ إلى أحد وكان ما كان ، ونزلت هذه الآية بعد الغزوة ، ليقول له الله جلّت قدرته ويبين له أنه مهما حدث من محنة وشدة ، فلا تترك مشاورتهم في الأمر ، وسوف نعرض لبحث شامل كامل في أهمية الشورى ومالها من مكانة . في نظام الحكم في الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أى لقد جاءت الرحمة الإلهية فجعلتك رحيم القلب بأصحابك ، وسوت الخلق الكريم فيك فأنت الرفيق ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾<sup>(٢)</sup> فأنت النعمة المسداة والرحمة المهداة ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة

(١) من الآية : ١١ من سورة الجمعة .

(٢) الآية : ١٢٨ من سورة التوبة .

للعالمين ﴿ . وقد قال الرسول ﷺ : ( ما من مؤمن يشاك بشوكة إلا وجدت ألمها في قلبي ) . ولو كنت يا محمد سيء الأدب أو قاسى القلب لانصرف هؤلاء من حولك ، ولكنك أنت الرحيم القلب العظيم الخلق ﴿ فاعف عنهم ﴿ وتجاوز عما وقع منهم في هذه الغزوة ، واطلب من الله المغفرة لهم ، ولا تترك مشاورتهم في الأمر ، فإن الشورى من أسباب الفلاح والنجاح .

وقد هلك من استبد برأيه ، فإذا ما أخذت الرأى ، وعزمت على الفعل ؛ فاعلم أنه لا خاب من استخار الخالق ، واستشار المخلوق ﴿ فتوكل على الله ﴿ أى فوض له عواقب الأمور ، فقد أخذت بالأسباب ﴿ والله عاقبة الأمور ﴿ <sup>(١)</sup> ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴿ <sup>(٢)</sup> ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿ <sup>(٣)</sup> .

ثم قال تعالى : ﴿ إن نصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ، أى اعلّموا أيها المسلمون أن النصر من عند الله ؛ إن اتبعتم أوامره ، وسرتم وراء نبيكم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ؛ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

﴿ يأيا الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ <sup>(٤)</sup> وإذا نصركم الله فلا غالب لكم ، ولا تستطيع قوة من قوى الشر أن تغلبكم وتنتصر عليكم ، ذلك لأن الله غالب على أمره ، وقد رأيتم ذلك واقعاً حقيقياً يوم بدر ، وكما أن الله هو الناصر فإنه إن سلب قوماً التوفيق لعصيانهم ومخالفتهم لأمره ، حل بهم الخذلان والفشل ، ولن يجدوا لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، فتوكلوا على الله وحده وجرّدوا النية لله ، واعتصموا بالله وأخلصوا دينكم لله ، وعندها سيؤيدكم الله بروح من عنده ، ويثبت أقدامكم بعد النصر ، فلن يستطيع الغرور أن يقتحم عليكم أسوار أنفسكم المنيعه ، لأن الغرور مقبرة النجاح .

### بحث فى الشورى :

جاء فى كتاب « فى النظام السياسى للدولة الإسلامية » للدكتور محمد سليم العوا ، ما نصه : « مبدأ الشورى من أهم المبادئ الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية ، أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادئ الإسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ونطاقها ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، ( وهو البحث المعروف بعنوان : هل الشورى ملزمة أم معلمة ) .

(١) من الآية : ٤١ من سورة الحج .  
(٢) الآية الأخيرة : ١٢٣ من سورة هود .  
(٣) الآية الأخيرة : ١٠٩ من سورة يونس .  
(٤) الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .



## أدلة حجية الشورى في القرآن الكريم :

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب في إحداها ، وكوصف يمدح فاعلوه المتصفون به في الثانية .

ففي الآية الأولى يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ (١) . وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التي خرج إليها الرسول ﷺ نزولاً على رأى أصحابه ، وكان رأيه أن يبقوا في المدينة ويدافعوا عنها من داخلها ، وبيئت الأحداث التي مرت بالمسلمين في أثناء هذه الغزوة ، أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح ، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه وبأن يشاورهم في كل ما يحتاج إلى مشاورة ، والنص بهذه الصورة وفي هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالاً للشك في أن الشورى مبدأ أساسى من مبادئ النظام السياسى الإسلامى ، وقيمة عليا يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائماً وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية ، فهي قول الله تعالى في سورة الشورى : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٢) وهذه الآية مكية نزلت في مكة ، ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن ﴿ أمرهم شورى ﴾ يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التي يجب أن يتحل بها المؤمنون ، سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد ، وذلك كان هو حال المسلمين في مكة ، أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين في المدينة .

وبالإضافة إلى هاتين الآيتين ، يرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن في قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

دليلاً أقوى على وجوب الشورى من الدليل المستمد من الآيتين السابق ذكرهما ، وهو يقرر ذلك ببيان : أن آية سورة الشورى تبين أن التشاور في الأمور وصف ممدوح عند الله تعالى ، وأن آية سورة آل عمران الأخرى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ توجب على الحاكم المشاورة ، ثم يستدرك قائلاً : ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله ( أى الحاكم ) للأمر فماذا يكون إذا هو تركه ؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدون وأقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عام في الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم .

(١) وهي الآية التي نحن بصدد تفسيرها ، وتفرع البحث استطراداً في شأن بيان حكمها الشرى والسياسى والعرفى .

(٢) الآية : ٣٨ من سورة الشورى .

(٣) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

## الشورى في السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها ذاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة رضى الله عنه « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج يوم بدر ، وفي المنزل الذى ينزله عندها ، وفي الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد ، وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير ، ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة ، مؤداها : أن الحاكم أو الإمام يستشير الأمة - أو أولى الراى فيها - فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء ، وذلك في شأن الرسول ﷺ مسلم قاصر على الأمور التى لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن كان محلاً لوحى فلا مجال للمشاورة فيه .

أما بعد عصر الرسالة ، فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها ، إذا كانت المناقشة خلال الشورى ، ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم - لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان - لتطبيق النصوص ، بالإضافة إلى شمول الشورى - بطبيعة الحال - لتلك الأمور التى لم يرد فيها نص معين ، أى الأمور التى تركت للاجتهاد .

## وجوب الشورى :

والراى الراجح بين الفقهاء هو : أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة في الأمور العامة ، بحيث إذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيا - ولو لم يطلب منها - فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريميتين اللتين قدمت ذكرهما ، في أدلة حجية الشورى ، ففى الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ : بأن يشاور أصحابه ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ . وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ - وهو يحكم دولة الإسلام الأولى - فإنها تجب كذلك - من باب أولى - على كل حاكم لدولة إسلامية بعده ، ويبدو ذلك واضحاً إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان في واقع الأمر مستغنياً عن المشاورة ، إذ يأتية الوحى بحل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور ، بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الراى في الأمة .

وأما الآية الثانية : فقد جعلت الشورى وصفاً لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها - فى النص القرآنى - وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وإقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى ، وذلك كله من فرائض الإسلام ، وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هى الشورى ، التى مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب - فى شأن الشورى - هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب وأن المقصود بهذا « الندب » هو تطيب قلوب الصحابة » . والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً فى معنى الآية الكريمة ، وسبب نزولها .

وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطيب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ، ولكنه ليس السبب الوحيد ، وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه في كثرة مشاورته لأصحابه ، وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعاني كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التي لا بد من نفاذها ( والعزائم الواجبات التي لا يجوز تركها ) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف .

### نطاق الشورى :

أما نطاق الشورى : أى المسائل التي يمكن أن تكون محلاً لها ، فذلك ما لا نجد له في النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً ، فقد ورد الأمر بالشورى في القرآن الكريم ، واصفاً إياها بأنها الشورى في ( الأمر ) ، وفي هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة في كل نواحي حياتها ، فإذا قمنا مع هذا الإطلاق والعموم في كلمة ( الأمر ) فإننا نستطيع القول بأن جميع الشئون العامة للأمة المسلمة يمكن - أو يجب - أن تكون محلاً للشورى ، غير أن مثل هذا الإطلاق - في الواقع - لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التي تأمر بالشورى ، ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما في هذا الخصوص أولهما : أن الشورى لا تكون في أى مسألة ورد فيها نص في القرآن الكريم أو السنة التي تعد تشريعاً عاماً ، فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ؛ ولا يمكن - بعد ورود النص - أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك - بداهة - إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور ، إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثاني : هو أنه حين تعرض مسألة ما على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين أو المستشارين إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة في القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إذ مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذي تنتهى إليه الشورى ، ويجعلها من ثم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين اللذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد ( هو التزام النصوص في الموضوعات التي تعرض للشورى وفي النتيجة التي تنتهى إليها ) . فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلاً للشورى ، ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشئون العامة للأمة .

### إلزام الشورى :

ثم يقول الأستاذ المؤلف : « والصحيح هو التزام الحاكم بما تنتهى إليه الشورى » .

وإذا تبين هذا ، فإنه يصبح بيناً ، أن الحاكم وقد وجبت عليه الشورى ، يجب عليه أن يلتزم بنتيجتها ؛ والتي ينتهى إليها رأى أكثر المشورين ، وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه في تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة .

وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعاً - من فعل الرسول ﷺ وصاحبيه - أن الشورى متى انتهت إلى رأى ؛ وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه .  
ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ في الخروج في غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة ، واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم ، أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية ، ويجب أن تكون الأقلية التى لم يؤخذ برأىها ؛ أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية ، وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ، ولا يصح اتباع غيره .  
وليس للأقلية أن تناقش من جديد رأياً اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ ، وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنّها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إيجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله : « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر ، والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر ، فكان ﷺ يستشير أصحابه ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » . وقال الأستاذ محمد رشيد رضا : « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله تبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى - أو مجال الشؤون الدستورية - تثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية .

### الغلول وأشياء أخرى

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُيْمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾

المفردات : الغلّ : الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله فى السرقة من المغنم . قبل القسمة ، ويسمى الغلول أيضاً ، و ﴿ توفى كل نفس ما كسبت ﴾ ، أى تعطى جزاء ما عملت تاماً وإفياً . ﴿ باء ﴾ : رجع

والسخط : بفتحين وبضم وسكون : الغضب العظيم ، والمأوى : المصير ﴿ هم درجات ﴾ ، أى ذو درجات ومنازل ، البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يغرب عنه ما تحت الثرى . ﴿ من ﴾ : أى أنعم وتفضل ﴿ من أنفسهم ﴾ أى من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهرهم من أدران الوثنية والعقائد الفاسدة ﴿ من قبل ﴾ : أى من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿ ضلال مبين ﴾ : أى ضلال بين لا ريب فيه .

نفى الله تعالى نفيًا قاطعاً الخيانة عن أنبيائه ، وجاء هذا النفي فى صيغة بلغت من القوة مداها : ﴿ وما كان لنبي أن يغفل ﴾ والغلول يتمثل فى الخيانات فى أى مال ، وقد كثر استعماله فى المغانم ، ولما كان النبي ﷺ هو الرئيس للأمة ، والقائد للمجاهدين فى ميادين القتال ، فهو الصادق الأمين ، والأمين فى كل شىء ، أمين فى نظره وسمعه وقلبه ولسانه وعرضه ووجدانه ، فقد كان سيد الأمانة إذا قسم قسم بالعدل والقسطاس المستقيم ، وإذا حكم فحكمه العدل كله ، « لو سرت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها »<sup>(١)</sup> فليطمئن المسلمون جميعاً إلى هذا القلب الرحيم ، والخلق العظيم ، ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ .

روى الامام أحمد بإسناده عن أبى مالك الأشجعى عن النبي ﷺ أنه قال : ( أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض - أو فى الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة ) .

وعن المستورد بن شداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ولى لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم ، فليتخذ خادماً ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال » رواه الإمام أحمد .

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب ، حدثنا حفص بن بشر ، حدثنا يعقوب القمى ، حدثنا حفص بن حميد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ، ينادى يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ! ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملًا له رغاء ، يقول : يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرساً له حمحة ، فينادى يا محمد : فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسماً من آدم ، ينادى يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك » .

روى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبى حميد الساعدى ، قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد ، يقال له ابن اللثبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لى ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر

فقال : ( ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدي لى . أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أهدي إليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لا يأتي أحدكم فيها بشيء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ؛ إن كان بغيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ) ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه !! ثم قال : ( اللهم هل بلغت )<sup>(١)</sup> ثلاثاً .

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبي حميد ، أن رسول الله ﷺ قال : ( هدايا العمال غلول ) .

وروى أبو عيسى الترمذى في كتاب الأحكام ، عن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل في أثرى ، فرددت فقال : ( أتدرى لم بعثت إليك ؟ لا تصيبن شيئاً بغير إذن ، فإنه غلول ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ) لهذا دعوتك فامض لعملك .

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن عدى بن عميرة الكندى ، قال : قال رسول الله ﷺ ( يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا خيطاً فما فوقه فهو غل ، يأتي به يوم القيامة ) قال : فقام رجل من الأنصار أسود — قال بجاهد : هو سعد بن عبادة كأنى انظر إليه — فقال يا رسول الله اقبل منى عملك قال ( وما ذاك ؟ ) قال سمعتك تقول كذا وكذا قال : ( وأنا أقول ذاك الآن من استعملناه على عمل فليجىء بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذه وما نهى عنه انتهى ) .

وروى الإمام أحمد ، عن أبي رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ، ربما ذهب إلى بنى عبد الأشهل ؛ فيتحدث معهم ، حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما<sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال : « أف لك أف لك » فلزق في درعى وتأخرت ، وظننت أنه يريدنى ، فقال : « مالك ؟ » قلت أحدثت حديثاً يا رسول الله : قال « وما ذلك ؟ » قال : إنك قلت لى . قال لا « ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً على آل فلان فغل غمرة ، فدرع الآن مثلها من نار » .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : « ما لى فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ، وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم » رواه أحمد .

وعن عمرو بن شعيب عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ( ردوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة ) رواه أحمد .

وروى أبو داود بإسناده عن أبي مسعود الأنصارى قال : بعثني رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال : ( انطلق

(١) روى الشيخان مثله بلفظ مقارب .

أبا مسعود لا ألفتك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غلثته قال : إذا لا أنطلق . قال : (إذا لا أكرهك) .

وعن أبي بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ( إن الحجر يرمى به في جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به ائت به ؛ فذلك قوله : ﴿ ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خير أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : ( كلا إني رأيته في النار في بردة غلها - أو عباءة ) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اذهب فناد في الناس ، إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » . قال فخرجت فناديت « إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله جل جلاله : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تبارك وتعالى ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

فعلى كل عاقل مدرك أن يعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

يامن بدنياه اشتغل وغره طول الأمل  
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

عجبت لمن يؤمن بالموت كيف هو يفرح وعجبت لمن يؤمن بالنار كيف هو يضحك ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعجل ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم هو يطمئن إليها .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى لا إله إلا الله أفنى بها عمري  
لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي لا إله إلا الله أدخل بها قبري  
لا إله إلا الله ألقى بها ربي

(١) ص ٤٢٣ ابن كثير ج ١٠ .

(٢) الآية : ٢٨١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .

(٤) الآية : ١١١ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه ، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ، وهذه لها نظائر كثيرة في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ (١) وقوله : ﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ (٢) قال تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ قال الحسن البصرى ومحمد بن اسحاق : يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة الكسائى : منازل يعنى متفاوتون فى منازلهم ، درجاتهم فى الجنة ودرجاتهم فى النار ، كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ (٣) ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ . أى وسيوفهم إياها لا ينقصهم خيراً ولا يزيدهم شراً ؛ بل يجازى كل عامل بعمله .

قوله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسلاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ﴾ .

هذه نعمة عظيمة أنعم الله بها على عباده ، فقد شاءت حكمته جل شأنه أن يكون الرسول الكريم من أنفسنا ، أى من جنسنا ، وليس من جنس آخر ، وهذه من نعم الله على المؤمنين فهو من أنفسهم ، ليمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ (٤) أى من جنسكم وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ (٨) فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعنى القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتركوا نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعنى القرآن والسنة ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أى من قبل هذا ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أى لفي غي وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد .

يا سيدى يا رسول الله معذرة	إذا كبا فيك تيبانى وتبصيرى
ماذا أوفيك من قدر ومعرفة	وأنت تعلقو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
علا جبينك نور الحق منبلجاً	وفى يديك لواء العدل والنور

(٥) من الآية الأخيرة من سورة الكهف/ ١١٠ .  
 (٦) من الآية : ٢٠ من سورة الفرقان .  
 (٧) من الآية : ١٠٩ من سورة يوسف .  
 (٨) من الآية : ١٣٠ من سورة الأنعام .

(١) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .  
 (٢) الآية : ٦١ من سورة القصص .  
 (٣) من الآية : ١٣٢ من سورة الأنعام .  
 (٤) من الآية : ٢١ من سورة الروم .



## إرشاد وبيان

أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبِيَّةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِيهَا قُلْتُمْ أَنِّي هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمُ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المفردات : المراد بالمصيبة : ما أصابهم يوم أحد من قتل وفرار .

﴿ مثليها ﴾ : أى ضعفها بقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين منهم يوم بدر .

﴿ أنى هذا ﴾ : أى من أين لنا هذا وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصائب .

﴿ من عند أنفسكم ﴾ : أى لمخالفتم أمر رسول الله ، ﴿ الجمعان ﴾ : جمع المؤمنين وجمع

المشركين . ﴿ فبإذن الله ﴾ : أى بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها .

﴿ فادرءوا ﴾ : أى فادفعوا ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ : أى فى رفع المكارة بالخطر .

لما حدث ما حدث يوم أحد من محنة ، أدت إلى وقوع الفرار وتفرق الصف ، قال جماعة ﴿ أنى هذا ﴾

أى من أين هذا الذى حدث فقال لهم الله تعالى : ﴿ هو من عند أنفسكم ﴾ أى بما حدث منكم من مخالفة

للأوامر ، حتى إذا فشلتم فى الأمر وتنازعتم ، وكان ما كان من عصيان ؛ كل هذا أدى إلى تلك النتائج ﴿ إن

الله على كل شىء قدير ﴾ فهو القادر على وقوع ما حدث بكم ، وما حدث لأعدائكم .

ثم بين سبحانه أنه المريد فقال : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أى بإرادته وأنتم

يا أصحاب الرسول الكريم ﷺ إن كانت قد نزلت بكم مصيبة يوم أحد ، فقد أصبتم قبلها يوم بدر ، لقد

استشهد منكم سبعون يوم أحد ، وأنتم يوم بدر قتلتم من المشركين سبعين ، وأسرتم سبعين ، وما حدث يوم

أحد لم يكن عبثاً ؛ إنما كان لحكمة بالغة ، ليظهر أمامكم مدلول علم الله بالمؤمنين والمنافقين ، قال جل

شأنه : ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو

نعلم قتالاً لا تبعناكم ﴾ أى لو نعلم أن قتالاً سيؤدى إلى شىء أو مصلحة لا تبعناكم ، وقاتلنا ، وهذه معاذير

تدل على المرض الكامن في النفوس ، والجبن والحرص على الدنيا ، وقد حكم الله تعالى على هذه الفئة التي مرضت قلوبها وتعقدت نفوسها ؛ فقال : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ﴾ .

إن الانسان المؤمن دائماً يكون سليم القلب لا يخفى العداً ويظهر الود ، لا يلقاك بوجه أبى بكر وقلب أبى لُب ، إنما هو شجاع في الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وهذا هو الذي وصف الله به حظه فقال : ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون \* ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴿ (١) .

أما الذين يضمرون في القلوب سوءاً ، ويقولون بالأفواه كلاماً معسولاً . لقد نسوا أو تناسوا أن الله يعلم ما يكتمون ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ثم حدثنا القرآن الكريم عن هؤلاء المتخاذلين ، الذين ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ (٢) .

قال الله في شأنهم : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ .

لقد أصيب هؤلاء بمصيبتين : لقد قعدوا عن الجهاد جبناً وخوفاً ، وطمعاً في مغنم رخيص ، والمصيبة الثانية أنهم خذلوا غيرهم عن القتال ، وحاولوا محاولات شتى في سبيل تشييطهم ، ولما استشهد الأبرار الأخيار قال عنهم هؤلاء ﴿ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ إنه النفاق إذا هاجت عقاربته في الصدور ، وتحركت ثعابين بغضائه في النفوس المريضة ، واشتعلت فيها البغضاء اشتعال النار في الحلفاء (٣) ، وهاج فيها الحقد فسرى سريان السم الزعاف في الأحشاء ، وقد جاء الرد من الله جلّت قدرته على هؤلاء المنافقين الجبناء الرعايد ﴿ قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ ومن الذي يستطيع ذلك ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٤) .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حديد منقول  
فإذا حلت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول (٥)

(١) من الآيات : ٥٤ - ٥٦ من سورة المائدة .

(٢) الآية : ٨٧ من سورة التوبة .

(٣) الحلفاء بفتح الحاء وسكون اللام نبات نيل ينمو قريباً من الشواطئ سريع الجفاف سريع الاشتعال .. وله فوائد طبية في معالجة بعض الأمراض .

(٤) الآية : ٨ من سورة الجمعة .

(٥) من قصيدة كعب بن زهير عندما عاد تائباً مسلماً بعد كفر وهجاء للإسلام والمسلمين .. فعفا عنه رسول الله ﷺ .

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَاءِ اتِّلَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ \* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهْمُ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

ما أعظم الشهادة وما أجل قدرها عند الله ، وما أكرم الشهداء وما أرفع منازلهم ودرجاتهم ؛ وكيفهم فخراً أن الله جلت قدرته قال فيهم : ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ <sup>(١)</sup> وكيفهم مكانة أن الله تعالى قال فيهم : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ <sup>(٢)</sup> وكيفهم قرباً من الله تعالى أنه جل شأنه قال في شأنهم ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

قال محمد بن جرير عن أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدري أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحديد .

(٢) من الآية : ١٤٠ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء ، ففقدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ، فقال - أراه أبو ملحان الأنصاري - أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حول بيوتهم واجتثى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة إني رسول رسول الله إليكم ؛ إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فأمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه في الغار ، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل .

وقد قال مسلم في صحيحه : عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا ، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس بهم حاجة تركوا) .

وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن أنس أن رسول الله ﷺ ، قال : ( ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة ) تفرد به مسلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن جابر قال : قال لي رسول الله ﷺ : (أعلمت أن الله أحيأ أباك فقال له : ثمن . فقال له أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى . قال إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون) .

وروى أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وما بعدها ) .

عن جابر بن عبد الله قال : نظر إلى رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : (يا جابر مالى أراك مهتماً ؟ . قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك ديناً وعبالاً ، قال : فقال : «ألا أخبركم ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً» . قال على : والكفاح المواجهة . « قال سلنى أعطك ؛ قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول إنهم إليها لا يرجعون ، قال أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ﴾ الآية .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية » تفرد به أحمد .

وروى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي ، عن مالك بن أنس عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( نسمة<sup>(١)</sup> ) المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، قوله « يعلق » أى يأكل ، وفي هذا الحديث (إن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنة) وأما أرواح الشهداء فكما تقدم في حواصل طير خضر ، فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها . فنسأل الله الكريم المنان أن يثبتنا على الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ أى إن هؤلاء الشهداء البررة في حال فرح وسرور ، بما آتاهم الله من ﴿ جنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴿ (٢) ﴾ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ أخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ كانوا قليلاً من الله ما يهجعون ﴾ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أى أن الشهداء الذين سبقوا إلى الله يطلبون البشارة والسرور باستشهاد الذين لم يلحقوا بهم ، ولم يقدموا عليهم ، لما في الشهادة من درجة عليا وإكرام وفضل ، فالشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويأمن يوم الفرع ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوته فيه خير من الدنيا وما فيها ﴿ ألا خوف عليهم ﴾ عما سيأتى ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما مضى ، لأنهم ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ﴾ والله جلت حكمته وعظمت قدرته ﴿ لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ الذين قاتلوا في سبيله لا لمغنم أو لمنصب ، أو عرض أو سمعة أو رياء ، إنما جاهدوا لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، واستجابوا لله والرسول ، فلبوا النداء ، عندما هتف الداعي ونادى بالجهاد ، وقد أصيبوا بالقرح والجروح يوم أحد ، وكان هذا يوم حمراء الأسد .

رُوى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء «موضع بين مكة والمدينة» ندموا ؛ وهموا بالرجوع ، حتى يستأصلوا من يقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهبهم ، ويريه من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج في إثر أبي سفيان ، وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال

(١) النسمة : النفس يعنى نفس المؤمن .

(٢) من الآيتين : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات .

من المدينة ) وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب في قلوب المشركين ، فذهبوا إلى مكة مسرعين ، فنزلت الآية .

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهي متصلة بغزوة أحد .

قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعي ومن وافقه وأذاع قوله ، وهم أربعة : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم<sup>(١)</sup> .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة : أن الآية نزلت في غزوة بدر الصغرى . ذاك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ؛ فقال النبي ﷺ : ذاك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان في أهل مكة حتى نزل (مجنة)<sup>(٢)</sup> من ناحية (مر الظهران) فألقى الله الرعب في قلبه ، فبدأ له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود ، وقد قدم معتمرا ، فقال له أبو سفيان : إني واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقي بموسم بدر ، وإن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لي أن أرجع وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج ، فيزيدهم ذلك جرأة ، فألحق بالمدينة فثبطهم ولك عندي عشرة من الإبل أضعتها في يدى سهيل بن عمرو ، فأقى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبي سفيان ، فقال لهم : ما هذا بالرائى أتوكم في دياركم وقراركم ولم يقلت منكم إلا شريد ، وتريدون أن تخرجوا إليهم ، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فوالله لا يقلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد في نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى) فخرج معه سبعون راكبا يقولون : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . حتى وافى بدرأ الصغرى « بدر الموعد » فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلتق أحداً ، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة وكان معه ألفا رجل ، فسماه أهل مكة جيش السوق وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السوق .

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أذماً وزبيبا ، فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

﴿ فزادهم إيماناً ﴾ أى زادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة به ، ولم يلتفتوا إلى تخويفهم ، بل حدث في قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين ، وطاعة للرسول ﷺ في كل ما يأمر به وينهى عنه ، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم ، لما بهم من جراحات عظيمة وقد كانوا في حاجة إلى قسط من الراحة وشيء من التداوى ، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم ، أنساهم كل هذه المصاعب ، فلبوا الدعوة سراعاً .

(١) سبحانه مقلب القلوب ، فقد أسلم نعيم بن مسعود في غزوة الخندق وجاء إلى الرسول ﷺ يستأذن في أن يصنع شيئاً لخدمة الاسلام فقال له الرسول ﷺ : «خذل عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب إلى قريش ويود مرة ليشكك فيما كان الطرفان اتفقا عليه من النصر حتى أتت الرياح ففرقت جموع المشركين .

(٢) كانت سوقاً من أسواق الموسم «موسم الحج» في الجاهلية .

## والخلاصة :

أن هذا القول الذى سمعوه زاد شعورهم بعزة الله ، وعظمته وسلطانه ، ويقينهم بوعد الله ووعيده ، وتبع ذلك زيادة فى العمل ودأب على إنفاذ ما طلب الرسول ﷺ ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ (١) .

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله : الله يكفيننا ما يهمننا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا ، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قتلنا وكثرتهم ، أو يلقي فى قلوبهم الرعب فيكفيننا شربغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كما ظنوا ! فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عددهم وتوافر عددهم ، فولوا مدبرين ، وكان فى ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وقعت فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » : وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها « أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفس الصعداء وقال : حسبى الله ونعم الوكيل » .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف) .

قوله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ روى البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن غيراً مرت فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل .

وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أعطى رسول الله ﷺ حين خرج فى بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها فى الموسم فأصابوا ربحاً كثيراً .

إن هؤلاء القوم الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لما قالوا : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وهى أمان الخائف ، ملأ الله قلوبهم طمأنينة وسكينة ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فانقلبوا راجعين ، ترفرف عليهم رايات الشيطان ، وبجللهم عار الهزيمة ، أما المؤمنون الصادقون فقد انقلبوا إلى أهلهم بنعمة التثبيت والسكينة وفضل من الله ، بما منّ عليهم من الرزق .

وهكذا قال الإمام جعفر الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعاً ، عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقد قال جل شأنه : ﴿ الذين قال لهم الناس

إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١﴾ وقال الله بعد ذلك : ﴿ فأنقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ (١) وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ (٢) وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ (٣) وقد قال الله بعد ذلك : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ (٤) وعجبت لمن ابتلى بمكر الأعداء كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ (٥) وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾ (٦) .

إن هذه الصفوة المختارة اتبعوا رضوان الله فساروا وراء كل ما يحقق هذا الرضوان من فعل الخيرات وترك المنكرات والفضل كله لله وحده ، يؤتية من يشاء والله ذو فضل عظيم ، يختص برحمته من يشاء ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً ﴾ (٧) قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ . أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم ، فتوكلوا علىّ والجاؤا إلىّ فإني كافيكم وناصرکم عليهم ، قال تعالى : ﴿ ليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ (٨) إلى قوله ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ (٩) وقال تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياءه الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (١٠) وقال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ (١١) وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ (١٢) وقال ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ (١٣) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ﴾ (١٤) وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ \* يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ (١٥) .

(٨) : (٩، ٨) : الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزمر .

(١٠) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .

(١١) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .

(١٢) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .

(١٣) من الآية : ٤٠ من سورة الحج .

(١٤) من الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .

(١٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

(١) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .

(٢) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٤) من الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٥) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .

(٦) من الآية : ٤٥ من سورة غافر .

(٧) الآية : ٤ من سورة الفتح .



## تثبيت النبي ﷺ

وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُغْلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ ولا يحزنك ﴾ : حزن يحزن أو حزن يحزن بمعنى يكدر ويؤلمك ، ﴿ حظا ﴾ : نصيباً ، ﴿ اشتروا الكفر ﴾ : أخذوا الكفر بدلا من الإيمان كما يفعل المشتري يعطي شيئا ويأخذ بدله . ﴿ غلى ﴾ : غهل والإملاء الإمهال والتلمية بين الإنسان وشأنه يفعل ما يشاء وتأخذ هذا من قولهم أملى لفرسه إذا أرخى لها الحبل لترعى ما تشاء . ﴿ ليذر ﴾ : ليرك ، ﴿ يميز ﴾ : أى يميز من مازه بمعنى ميزه ، ﴿ الخبيث من الطيب ﴾ : المراد بهما المؤمن والمنافق ، ﴿ يجتبي ﴾ : يختار .

لما أظهر الكافرون والمنافقون ما كانوا يضمرونه للنبي ﷺ من أمثال قولهم لو كان محمد نبياً ما قتل وما هزم ، وأسرعوا في نصره الكفار وتثبيت المؤمنين عن القتال ، كل هذا كان يؤلم النبي ﷺ ويحزنه فنزلت هذه الآيات تسلياً له وتثبيتاً لقلبه .

لما حدث يوم أحد ما حدث من محنة ، وتنازع في الأمر وجروح وقرح ، وأصاب النبي ﷺ والمؤمنين شيء كثير من الأذى ، أظهر بعض المنافقين كفرهم ، وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم ، ويقولون لهم : إن محمداً طالب مُلك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولاً من عند الله ما غلب ؛ إلى نحو هذه المقالة ، مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ، ويسرف في الحزن ، فنزلت هذه الآيات تسلياً له ، كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان ، أو طعنهم في القرآن أو في شخصه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً ﴾ (١) وقوله : ﴿ فاعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٢) .

(١) من الآية : ٦٥ من سورة يونس .

(٢) الآية : ٦ من سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ أى ولا يحزنك أيها الرسول مسارعة المنافقين وطائفة من اليهود ، إلى نصره الكافرين واهتمامهم بشأنهم ، والإيجاف في مقاومة المؤمنين ، بكل ما أوتوا من الوسائل ، ومن التثبيط للعزائم والنيل من نبیهم ودعوته ، وتآليب المشركين عليهم ، إلى نحو ذلك مما يدور في خلد العدو لإيذاء عدوه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ﴾ (١) .

وتوجيه الخطاب للنبي ﷺ تسلياً له ، وإيدان بأنه الرئيس المعنى بشئونه ، ثم علل هذا وأكمل التسلياً بتحقيق نفى ضررهم أبداً بقوله : ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ أى أنهم لن يضرُوا أولياء الله ، وهم النبي وصحبه ، شيئاً من الضر ، فعاقبة هذه المسارعة في الكفر وبال عليهم لا عليك ، ولا على المؤمنين ، فإنهم لا يحاربونك فيضروك ، وإنما هم يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أعجز من أن يفعلوا ذلك ، فهم إذن لا يضرُونَ إلا أنفسهم ، وفي جعل مضرتهم مضرة لله تعالى تشريف لهم ، ومزيد مبالغة في تسليته ﷺ .

ثم بين أنهم لا يضرُونَ إلا أنفسهم فقال : ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴾ أى أن سر ابتلائهم ، ما هم فيه من الانهماك في الكفر ، وقد قضى ذلك بحرمانهم من نعيم الآخرة ، وفق ما تقتضيه سنة الله وإرادته ، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أى أنهم على حرمانهم من الثواب ؛ لهم عذاب عظيم لا يقدر قدره .

وبعد أن بين حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصره الكفر ، والدفاع دونه ، ومقاومة المؤمنين لأجله ، وأرشد إلى أنه لا يؤبه بهم ، ولا يهتم بشأنهم ، فهم إنما يحاربون الله ، والله غالب على أمره ؛ أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به فقال : ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرُوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ ، أى أن الذين أخذوا الكفر بدلاً من الإيمان ، رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ، فلن يضرُوا الله شيئاً وإنما يضرُونَ أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم ، الذى لا يقدر قدره وفي هذا إيحاء إلى شيئين :

- ١ - تأكيد عدم إضرارهم بالنبي ﷺ .
- ٢ - بيان سُخْف عقولهم وخطأ آرائهم ، إذ هم كفروا أولاً ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك ، وهذا دليل على شدة اضطرابهم ، وعدم ثباتهم ، ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شيء ، مما يحتاج إلى أصالة الرأي وقوة التدبير .

ثم بين أن رغبة الكافرين عن الجهاد حباً في الحياة ليس من الخير لهم فقال : ﴿ ولا يحسن الذين كفروا أنما نغلي لهم خيراً لأنفسهم ، إنما نغلي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ أى ولا يحسن هؤلاء

الكافرون ؛ أن إمهالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملاً صالحاً ، ينتفعون به في أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأدران وسوء الخلق ، وينتفع به الناس في تهذيبهم وتحسين معاشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثماً يضرهم في أنفسهم ، بالتمادي في مكابرة الحق ، وتأييد سلطان الشر في الخلق ، فحياة هؤلاء المتخلفين عن الجهاد ليست خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا يوم أحد ، إذ بقاؤهم صار وسيلة للخزى في الدنيا والعقاب الدائم في الآخرة ، وقتل هؤلاء صار سبيلاً للثناء الجميل في الدنيا ، والثواب الجزيل في الآخرة .

فترغب أولئك المبطلين عن الجهاد في مثل هذه الحياة ، وتزينها لهم ، مما لا ينبغي أن يروج إلا عند الجهال ، الذين لا يفهمون قيمة الحياة الحقة ، التي يجب أن تكون نصب عين العاقل .

والخلاصة - أن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو قد جرى على سنته في الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة : أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسبباً لاسترساله في فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذي يكسبه ، العذاب المهين .  
وفي الآية من العبرة :

- ١ - إن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره ، ويتمكن من العمل بحسب استعداداته .
- ٢ - إن من شأن المؤمن : إذا أنسا الله أجله ، أن تكثر حسناته وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه ، ومحاسب نفسه على مقتضاه ، فإذا فقهه وعمل به ، خرج من الظلمات إلى النور ، وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين .

ثم بين أن الشدائد هي محك صدق الإيمان فقال :

﴿ ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أى ما كان من سنن الله في عباده ، أن يذر المؤمنين على مثل الحال التي كانوا عليها حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هي التي تميز قوى الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين ، أما تكليف ما لا مشقة فيه ، كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما ، فيقبلها المنافق كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحدثه والتمتع بمزايا الإسلام .

وفي الشدائد من الفوائد شيء كثير منها :

- ١ - اتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة ، إلى المنافق لما يغلب من حسن الظن به ، حين يراه يؤدي الواجبات الظاهرة ويشارك الصادقين في سائر الأعمال ، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذر المسلمون الصادقون .

- ٢ - أن تدرس الجماعة حالها ؛ إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لا لها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربهم الشدائد .

٣ - إنها تدفع الغرور عن النفس إذ يغتر المؤمن الصادق ؛ فلا يدرك ما في نفسه من ضعف في الاعتقاد والأخلاق ، حتى تحمسه الشدائد وتبين له حقيقة أمره ، وقد يدور بخلد بعض الناس : أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب ، حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، فيعرفوا أن فلاناً من أهل الجنة ، وفلاناً من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أى لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه ، يحصل رغائبه ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبي ، الذى تهدي إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال في سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون في وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من المخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالاً شديداً ، وثبت كملة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسى التى لا ترزعزعها الرياح والأعاصير .

﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطلعه على ما في قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم ، ونحو الآية قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ﴾ إلا من ارتضى من رسول ﴿<sup>(١)</sup> وفى التعبير بالاجتباء ؛ إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل ، تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتبه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون في نبوة محمد ﷺ ، من وقوع الكوارث التى حصلت في أحد ، وبين أن فيه كثيراً من الفوائد : كتمييز الخبيث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أى فآمنوا بالله ورسله ، الذين ذكرهم الله في كتابه ، وقص علينا قصصهم ، وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً ، مع أن سوق الكلام في الإيمان بالنبي ﷺ ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء على صحة نبوته .

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظیم ﴾ أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلکم أجر عظیم لا يستطيع الوصول إلى معرفة كنهه .

وقل أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى ، كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة ، حثاً على عمل البر والرأفة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما .

## البخل والادعاء الكاذب

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ  
 سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
 خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا  
 وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ  
 اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى  
 يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ يَالْبَيِّنَاتِ وَإِلَازِي قُلْتُمْ فَلِمَ  
 قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءَ يَالْبَيِّنَاتِ  
 وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

المفردات : ﴿ ما آتاهم ﴾ : أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه ، ﴿ سيطوقون ما بخلوا به ﴾ :  
 أى سيلزمون إثمهم فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة . ﴿ ميراث السموات والأرض ﴾ : أى ما يتوارثه أهلها  
 من مال وغيره ، ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ : أى سنعاقب عليه ولا نهمله ، ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ :  
 أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك سائر المحسوسات ، والحريق المحرق المؤلم ،  
 ﴿ وعذاب الحريق ﴾ : أى عذاب هو الحريق أى سنتقم منهم ، ﴿ عهد إلينا ﴾ : أى أمرنا فى التوراة  
 وأوصانا ، ﴿ القربان ﴾ : ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من النار : النار التى تنزل  
 من السماء <sup>(١)</sup> ، ﴿ البيّنات ﴾ : هى المعجزات الواضحة ، ﴿ الزبور ﴾ : واحدها زبور : وهو الكتاب ،  
 ﴿ المنير ﴾ : الواضح .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم  
 سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ .

(١) والنار التى تنزل من السماء هى الصواعق .

روى البخارى ، بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ؛ مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه - يعنى بشدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا هذه الآية : ﴿ ولا يحسبن الذين يدخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بإسناده ، عن ثوبان عن النبى ﷺ : (من ترك بعده كنزا مثل له شجاعا أقرع له زبيبتان ، يتبعه فيقول : من أنت ويلك فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده ) إسناده جيد قوى .

وروى ابن جرير بإسناده عن أبى قرزة عن رجل عن النبى ﷺ قال : ( ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه ) .

قوله تعالى : ﴿ والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ (١) فإذا كان الملك كله لله ، والأمر بيده جل فى علاه ، فالتزموا قوله جل شأنه : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ (٢) ولما كان الإنفاق وراءه من الدوافع ما هو كثير ، فقد ينفق الإنسان من المال ما يبتغى به وجهه الله . وحده ، فيكون كما قال جل شأنه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منأ ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣) وكما قال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة برية أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ (٤) .

وقد يكون الدافع للصدقة سمعة ورياء ، ومنأ وأذى ، فيكون المنفق كما حدثنا القرآن الكريم عنه : ﴿ يأبى الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ (٥) وكما قال جل شأنه : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ (٦) فالمال مال الله ، والكون ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، فإذا أنفقتهم فابتغوا بالإنفاق وجه الله وحده ، ومن هنا فقد ختم الله الآية بقوله : ﴿ والله ميراث

(١) الأيتان : ٢ ، ٣ من سورة الحديد .

(٢) الآية : ٧ من سورة الحديد .

(٣) الأيتان : ٢٦١ ، ٢٦٢ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ٢٦٥ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٦) الآية : ٢٦٦ من سورة البقرة .

السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴿١﴾ أى عليم بدقائق الأشياء وبواطن الأمور وحقائق الدوافع ، إن كانت لله ، أو للرياء والسمعة ، قال سبحانه في الحديث القدسي الجليل « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه » وقال في الحديث القدسي الجليل « عبدى أنفق أنفق عليك » (١) .  
وكان يحيى بن معاذ يقول : عندما يموت ابن آدم يصاب بمصيتين أولاهما أنه يترك ماله كله ، والثانية أنه يسأل عنه كله .

يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفנית ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت وما عدا ذلك فذهب وتاركه آیا كان .

وقد وردت عن النبي ﷺ أحاديث ، تدعو إلى البذل والعطاء ينشرح لها صدر المؤمن نورا ، منها على وجه المثال ما يلي ، حتى يقف المؤمن راغباً في نور الوعد راهباً من نيران الوعيد :

● عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوله (٢) ) ، حتى تكون مثل الجبل) . رواه البخارى ومسلم .

● وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوله أو فصيله (٣) حتى تكون مثل أحد ) رواه الطبرانى وابن حبان .

● عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله عز وجل ليدخل باللحمة الخبز وقبضة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ؛ ثلاثة ، الجنة : رب البيت الأمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدماً ) . رواه الحاكم والطبرانى .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : ( ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل ) رواه مسلم والترمذى .

قوله تعالى : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ .

قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ (٤) قالت لليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

(١) رواهما مسلم ، والأول رواه البخارى .

(٢) فلوله أى فرسة التى يعتز بها أو دابته التى يركبها .

(٣) الفصيل ولد الناقة .

(٤) من الآية : ٢٤٥ من سورة البقرة .

وجاء في سبب نزول هذه الآية أيضاً ، ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس<sup>(١)</sup> فوجد من يهود ناساً كثيرة ، قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ومعه جبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضي الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » فقال : يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت الله مما قال ؛ فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ما قلت ذلك فأنزل الله فيها قال فنحاص : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ الآية . رواه ابن أبي حاتم .

قوله تعالى : ﴿ سكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أى هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزئهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ \* ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريباً ، وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، وقوله تعالى ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا تؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها ، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما قال الله عز وجل : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أى بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ فلم تقتلتموهم ﴾ أى فلم قابلتهموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ؟؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فاتبعوا الحق وانقادوا للرسول .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ أى لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا ، مع ما جاءوا به من البينات ، وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿ والزبر ﴾ وهى الكتب المتلفة من السماء ، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ والكتاب المنير ﴾ أى الواضح الجلى .

وهكذا بين القرآن الكريم لنا ما انطوت عليه قلوب القوم من حقد وحسد وبغضاء للإسلام ، فقد أساءوا الأدب حتى مع الله خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، فقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا يد الله

(١) دار كانت لليهود في المدينة يجتمعون فيها حول علمائهم يدارسونهم التوراة ويلقون إليهم بتعاليمهم .



مغلولة ، وأساءوا الأدب مع الأنبياء وقتلوهم ، وناصبوهم العدا ، وادعوا كذباً وبهتاناً أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وادعوا أنهم شعب الله المختار ، وما زالوا وسيطلون يعيشون في الأرض فساداً ، ويناصبون أهل الحق العدا ، أليسوا هم الذين قالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ <sup>(١)</sup> وكانت أقدامهم ما تزال مبتلة من ماء البحر قال : ﴿ أغير الله أبغيتكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> أليسوا هم الذين قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ <sup>(٣)</sup> أليسوا هم الذين قالوا لخاتم الأنبياء : ﴿ لن نؤمن لك حتى تأتينا بقربان تأكله النار ﴾ فألزمهم القرآن الحجة ودفعهم بالبينات ، إذ قال تعالى : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموه إن كنتم صادقين ﴾ هذه عادتهم وتلك طبيعتهم ، عادتهم اللجاج وطبيعتهم الالتواء ، والسخرية بأهل الحق والاستهزاء بأهل الإصلاح .

### الموت والابتلاء

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمْتَعٌ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ \* لَتَبْلُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

المفردات : ﴿ تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ ﴾ : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ﴿ زُحِرَ عَنِ النَّارِ ﴾ نحى عنها ففاز وسعد ونجا و ﴿ متاع ﴾ ما يتمتع به ويستمتع بما يباع ويشتري و ﴿ الغرور ﴾ إصابة الغرّة والغفلة فيمن تخدعه وتغشه . ﴿ تلبون ﴾ أى لتختبرن أى لتعاملن معاملته المختبرين ، لتظهر حالكم على حقيقتها ﴿ فى أموالكم ﴾ أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح <sup>(٤)</sup> والآفات ﴿ وفى أنفسكم ﴾ أى بالقتل والأسرى فى سبيل الله وبالأفراض وفقد الأقارب ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ والذين أشركوا ﴾ هم كفار العرب ﴿ أذى كثيراً ﴾ كالطعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله و [ الصبر ] تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع دفعه بروية ومقاومة ما يحدث من الجزع ، و [ التقوى ] الابتعاد عن المعاصى ﴿ من عزم الأمور ﴾ أى من صواب التدبير وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ، ويأخذ نفسه به من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا ؛ أى ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

(٣) من الآية : ٥٥ من سورة البقرة .

(١) من الآية : ١٣٨ من سورة الأعراف .

(٤) جمع جائحة وهى الكوارث التى تعم والنوائب التى تخص .

(٢) الآية : ١٤٠ من سورة الأعراف .

أخبر الله تعالى أن كل نفس لا بد أن تذوق الموت ؛ وذلك بمفارقة بدنها عندما يحين أجلها الذي قدره الله لها ، قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان \* ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ <sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تبارك اسمه : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون \* كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال عز من قائل مخاطباً حبيبه ومصطفاه ﷺ ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون \* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال تبارك اسمه : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴾ <sup>(٦)</sup> قال ابن أبي حاتم حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا علي ابن أبي علي الهاشمي عن جعفر <sup>(٧)</sup> بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : لما توفى النبي ﷺ ، وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فتقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام .

فالموت حكم قضاه الله على عباده ، ولو بقي أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لها ، والمقعدان رجل وامرأته بلغا من الكبر عتيا كان لها ابن فتى قوى ، يحملها إلى مسجد رسول الله ﷺ ليؤديا الصلاة ، وتحلفا ذات يوم فسأل الرسول ﷺ : « أين المقعدان ؟ قيل له يارسول الله لقد مات ابنها !! فقال الصادق المعصوم « لو بقي أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لها » .

نعم كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت .

الموت كأس وكل الناس شاربه	يأليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

ثم ماذا بعد الموت ؟ البعث والجزاء ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فالدنيا قنطرة للآخرة ومزرعة

لها .

- |  |  |
|--|--|
| (١) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .   | (٥) الأيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون . |
| (٢) الآية ٨٨ من سورة القصص .           | (٦) الآية ١١ من سورة المنافقون .       |
| (٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء . | (٧) هو الملقب بجعفر الصادق .           |
| (٤) الآية ٣٠ من سورة الزمر .           |  |

غداً توفي النفوس ما كسبت  
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا !  
و يحصد الزارعون ما زرعوا !

والسعيد هو الذى ينجو من النار ويدخل الجنة ، ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾  
فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت  
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها  
فإن بناها بخير طاب مسكنه  
أين الملوك التى كانت مسلطة  
أموالنا لذوى الميراث نجمعها  
كم من مدائن فى الآفاق قد بنيت  
لا تركزن إلى الدنيا وما فيها  
واعمل لدار غداً رضوان خازنها  
قصورها ذهب والمسك طيبتها  
والزعفران حشيش نابت فيها  
أن السلامة فيها ترك ما فيها  
إلا التى كان قبل الموت بينها  
وإن بناها بشر خاب بانيها  
حتى سقاها بكأس الموت ساقياها  
ودورنا لخراب الدهر نبنيها  
أمت خراباً وأفنى الموت أهليها  
فالموت لاشك يفنيها ويفنيها  
والجار أحمد والرحمن منشيها  
والزعفران حشيش نابت فيها

قال ﷺ : « لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ .

وعن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .  
الدنيا دار فناء وما مثلها بالنسبة للآخرة إلا كما قال الصادق المعصوم .

« والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع إليه » لذا جاء التعبير القرآن عن الحياة الدنيا بأنها ﴿ متاع الغرور ﴾ أى منفعة قليلة فانية ، تصيب وتخدع الغافلين ، وما الغرور إلا السراب الخداع ، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا انتبهوا ندموا فإذا ندموا لا ينفع الندم .

حكم المنية فى البرية جار  
بيننا يرى الإنسان فيها مخبراً  
فالعيش نوم والمنية يقظة  
جُبلت على كدر وأنت تريدها  
ومكلف الأيام ضد طباعها  
متطلب فى الماء جذوة نار  
ما هذه الدنيا بدار قرار  
حتى يرى خبيراً من الأخبار  
والمرء بينهما خيال سارى  
صفواً من الأحزان والأكدار

وكما قضى الله تعالى بالموت على عباده ، قضى بالابتلاء فى المال والنفوس ، فمن نجح فى هذا

الابتلاء ، فقد فاز بالخير العظيم ، قال جل شأنه : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (١) فلا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة ، زيد في البلاء .

قوله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ هذا خطاب من الله جل شأنه للمؤمنين عند مقدمهم المدينة ، قبل وقعة بدر ، مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وأمرهم بالصفح والصبر والعفو ، حتى يأتي الله بالفرج . فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

ذكر البخارى عند تفسير هذه الآية فقال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهري أخبرني عروة بن الزبير : أن أسامة بن زيد حدثه : أن رسول الله ﷺ ، ركب على حمار عليه قطيفة فذكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عباد بن الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبي - أى قبل أن يظهر الإسلام - وإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفي المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ؛ خر<sup>(٢)</sup> عبد الله بن أبي أنفه بردائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً ، فلا تؤذنا به في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، بلى يارسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثأرون ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب النبي ﷺ دابته فسار ، حتى دخل على سعد بن عباد ، فقال له النبي ﷺ : « يا سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب » : يريد عبد الله بن أبي ، قال كذا وكذا ، فقال سعد يارسول الله اعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة<sup>(٣)</sup> على أن يتوجه فيعصبوه بالعصاة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله ، شرق بذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ (٤) وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين

(١) الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) غطى أنفه - وفي بعض الروايات قبض أنفه .

(٣) يقصد المدينة المنورة .

(٤) وروى مسلم قريبا من معناه ، وقيل نزلت بعد ما قال فنحاص اليهودى « إن الله فقير ونحن أغنياء » فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فشكاه إلى النبي ﷺ فنزلت الآية ، وقيل زدا على أشعار كعب بن الأشرف .. الخ .. القرطبي ج ٤ ص ٣٠٣ .

أشركوا أذى كثيراً ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿٢﴾ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ﴿٣﴾ .

وكان النبي ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله له فيهم فلما غزا رسول ﷺ بدرأ ، فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبي ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدية الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا . . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلا بد أن يؤذى ، فماله دواء إلا الصبر في الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

### من مساوئ أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المفردات : [ الميثاق ] : العهد المؤكد . و ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ : هم اليهود والنصارى ﴿ لتبيننه للناس ﴾ : أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نبوة محمد ﷺ : ﴿ ولا تكتُمونه ﴾ : أى لا تؤولونه ولا تلقون الشبه الفاسدة والتأويلات المزيفة ﴿ فنبدوه وراء ظهورهم ﴾ : أى طرحوه ولم يعتدوا به ، ويقال للأمر المعتنى به : جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه ﴿ واشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ : أى شيئاً من حطام الدنيا الفانية ﴿ بما أوتوا ﴾ أى بما فعلوا ﴿ أن يحمدا ﴾ أى يحمدهم الناس . ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ : : أى بمنجاة منه من قولهم فاز فلان : إذا نجا .

لقد أخذ الله تعالى العهد المؤكد على علماء اليهود والنصارى من الأخبار والرهبان وهم الذين عناهم الله بقوله ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ وكان نص العهد ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتُمونه ﴾ ولكنهم فى سبيل أن يشتروا به ثمناً قليلاً وهو الدنيا الفانية الزائلة كتموا العهد ، وخانوا الميثاق ، وأنكروا نبوة الهادى البشير ﷺ ، لما جندوا ذكر النبى الكريم فى التوراة والإنجيل ، ونبذوا هذا العهد وراء ظهورهم ، ولفظوه لفظ النواة ؛ حرصاً على الجاه الزائل ، والمنصب التافه ، والمغنى الفانى .

وقد توعد الإسلام الذين يكتمون العلم وعيداً شديداً : قال ﷺ : ( من سئل عن علم فكتمه أجم يوم القيامة بلجام من نار )<sup>(١)</sup> .

وإذا كانت الآية قد نزلت في علماء أهل الكتاب ؛ فإنها تعم كل من أعطاه الله علماً ينفع الله به العباد ، فعلى كل عالم أن يبين للناس الأحكام الربانية والتشريعات الإلهية ، وعليه أن يحذر الكتمان ، فإن هو خاف أن يُبلِّغ الحق ، وخشى الناس ولم يخش الله ؛ ابتغاء الوصول إلى غرض دنيوى تافه وحقير ؛ فبش ما اشترى به ، لقد اشترى بالكتمان دنيا يصيبها ( إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم )<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ قال البخارى حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أنبأنا محمد بن جعفر ، حدثني زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن رجلاً من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ؛ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو ، تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ الآية<sup>(٣)</sup> . ومعنى قوله تعالى : ﴿ يفرحون بما أتوا ﴾ أى بما فعلوا من الخداع والمكر والنقاظ يظنون أنهم قد نجحوا ، وفازوا وخدعوا المؤمنين ، وهم فى الحقيقة قوم خاسرون ، إذ أن الله تعالى حكم عليهم بأنهم ليسوا بمنجاة من العذاب ، ومن يفرح بفعل السوء ، ويجب أن يشكره الناس ويمدحوه ، ويمدحوه على شىء لم يفعله من الخير ؛ فهو يراوغ نفسه ويخدعها ، وليعلم هؤلاء أن الله جلّت قدرته له ملك السموات والأرض ؛ فلا يخدع ، وله الملكوت كله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، فإذا فعلت الخير فابتغ به وجه ربك ولا تكذب على الناس ، مدعياً أنك فعلت كذا وكذا ، وأنت لم تفعل ، تنتظر بذلك مدح الناس لك .

الله يدرى كل ما تضرر      يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع      خداع من يطوى ومن ينشر

كان المسيح ابن مريم عليه السلام يقول : يابنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن ألبسوا ثياب الملوك وألینوا قلوبكم بخشية الله .

(٢) الآية : ٧٧ من سورة آل عمران .

(١) رواه مسلم .

(٣) ورواه مسلم أيضاً ، عن أبى سعيد وفى الصحيحين أن مروان - بن الحكم وكان أميراً على المدينة - قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقال : لئن كان كل امرئ منافح بما أوق وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذب أجمعون ، فقال ابن عباس : مالكم ولهذا الآية : إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ و ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ وقال ابن عباس : سألهم النبی ﷺ عن شىء فكتموا إياه ، وأخبروا بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه .

## الذكر والتفكر

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٤﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٥﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٦﴾ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٧﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٨﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا أَوْ قَتِلُوا لَا كُفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا أُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّةٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٩﴾

المفردات : [ الخلق ] التقدير والترتيب الدال على النظام والإتقان . و ﴿ السموات ﴾ : ما علاك مما تراه فوقك ﴿ والأرض ﴾ : ما تعيش عليه ﴿ اختلاف الليل والنهار ﴾ تعاقبها ومجيء كل منها خلف الآخر ﴿ آيات ﴾ لأدلة على وجود الله وقدرته ﴿ الأبواب ﴾ واحدها لب وهو العقل ﴿ قياماً وقعوداً ﴾ واحدهما قائم وقاعد ﴿ باطلاً ﴾ أى عبثاً لا فائدة منه ﴿ سبحانهك ﴾ : أى تنزيهاً لك عما لا يليق بك ﴿ قنا عذاب النار ﴾ : أى اجعل العمل الصالح وقاية لنا من عذاب النار ويقال [ أخزاه ] : أى أذله وأهانته [ الذنب ] : هو التقصير في المعاملة بين العبد وربّه و [ السيئة ] : هى التقصير في حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضاً ﴿ وتوفنا ﴾ : أى أمتنا و ﴿ الأبرار ﴾ واحدهم بار وهو المحسن في العمل ﴿ على رسلك ﴾ : أى على تصديق رسلك و ﴿ الميعاد ﴾ الوعد ﴿ استجاب ﴾ : أى أجاب ﴿ لا أضيع عمل عامل ﴾ أى لا أترك ثوابه ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى مختلطون متعاونون ﴿ فى سبيلى ﴾ : أى بسبب طاعتي وعبادتي وديني .

اشتمل هذا المشهد القرآني الكريم على الذكر والفكر والدعاء ، والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى في قلب العبد ، ووصفه جل ذكره بنعوت الجمال والجلال والكمال ، وذكر الله أكبر الوسائل في النهي عن الفحشاء والمنكر ، لذا أمر الله به على كل حال في الصلاة وغير الصلاة ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا \* وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ <sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال في هذه الآية : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ وقال جل ذكره : ﴿ فَلِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> قال ﷺ : ( ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى ! قال : ذكر الله ) .

واعلم يا أخى أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر العينين البكاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ولابد للذكر أن يقترن بالتفكير ، فالذكر بلا تفكير خواء ، والتفكير بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكير وفاء وولاء ورضاء .

وفي هذا المشهد دعوات من الذاكرين المتفكرين ، توجهوا بها إلى الله جلّت قدرته ، وذكروا فيها اللفظ الكريم خمس مرات ( ربنا ) لذا قال جعفر الصادق <sup>(٤)</sup> : من سره أن يستجيب الله له فليذكر في دعائه لفظ ربنا خمس مرات ، ثم تلا هذه الآيات الكريمة وقال : ألا تقرأون قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة ؛ من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ، ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى تعاقبها وتقارضها الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لَا يَاتِ لَأُولَى الْأَلْيَابِ ﴾ أى العقول التامة الزكية ، التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ \* وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> ثم

(١) الأيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ١٠٣ من سورة النساء .

(٤) هو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه .

(٥) الأيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .



وصف تعالى أولى الألباب ، فقال : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » أى لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم ؛ بسرايرهم وضمايرهم وألستهم ﴾ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أى يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته ، وقال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصرى على شيء إلا رأيت الله على فيه نعمة ، ولى فيه عبرة » رواه ابن أبي الدنيا .

وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك ، وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شيء له عبرة

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوي لمن كان قلبه تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً ، قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة أهم للفكرة ، وطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة ، وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم ، ولا فهم امرئ قط إلا علم ، ولا علم امرئ قط إلا عمل ، وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة ، وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم بفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين ؛ إلى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يبكى عند ذلك حتى يرفع صريعاً من بين أصحابه وقد ذهب عقله .

وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزيلة فناده فقال : ياراهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال .

وعن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتي الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (١) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة ، والقلب ساه ، وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم كل في ثلث بطنك واشرب في ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .

وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر (٢) قلبه بقدر تلك الغفلة . .  
وقال بشر الخافى : لو تفكر الناس في عظمة الله تعالى لما عصوه .

(١) من الآية : ٨٨ من سورة القصص .

(٢) بصر القلب هو البصيرة .

وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : « إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر » .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : يا ابن آدم الضعيف ؛ اتق الله حيثما كنت وكن في الدنيا ضعيفاً ، واتخذ المساجد بيتاً ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال : « فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر فإن فيها مواضع لمن اذكر » .

وقال ابن أبي الدنيا : أنشدني الحسين بن عبد الرحمن :

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر	تحمد الله وحده * نحن كل على خطر
رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر	رب عيش قد كان فوق * المن مونتق الزهر
في خريز من العيون ، وظل من الشجر	وسرور من النبات ، وطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير	نحمد الله وحده * إن في ذا لمعتبر

إن في ذا لعبرة \* للبيب إن اعتبر

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يحسرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ \* وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿ <sup>(١)</sup> ومدح عباده المؤمنين : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أى ما خلقت هذا الخلق عبثاً ؛ بل بالحق لتجزى ﴿ الذين أساءوا بما عملوا ﴾ <sup>(٢)</sup> وتجزى ﴿ الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل ؛ فقالوا بالحق ﴿ سبحانه ﴾ أى عن أن تخلق شيئاً باطلاً ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أى يأمن خلق الخلق بالحق والعدل ، يأمن هو منزّه عن النقائص والعيوب والعبث ؛ قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ، ووقفنا لأعمال ترضى بها عنا ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتحيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى يوم القيامة لا يجير لهم منا ، ولا يجير لهم عما أردت بهم ، ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان ﴾ أى داعياً يدعو إلى الإيمان وهو الرسول ﷺ : ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنوا ﴾ أى يقول آمنوا بربكم فآمنوا ، أى فاستجبنا له واتبعناه ، أى بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى استرّها

(١) الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .

(٢ ، ٣) من الآية : ٣١ من سورة النجم .

﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أى الحقنا بالصالحين ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك وقيل : معناه ما وعدتنا على السنة رسلك وهذا أظهر .

قوله تعالى : ﴿ ولا تحزننا يوم القيامة ﴾ أى على رؤوس الخلائق .

﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أى لا بد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، إذا قام من الليل لتهجده ؛ فقال البخارى رحمه الله : <sup>(١)</sup> بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنها قال : بت عند خالتي ميمونة <sup>(٢)</sup> فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الآيات . . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة <sup>(٣)</sup> ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح وكان النبي ﷺ بعد قراءة هذه الآيات يدعو الله فيقول : ( اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وعن يمينى نوراً وعن شمالى نوراً ومن بين يدي نوراً ومن خلفى نوراً ومن فوقى نوراً ومن تحتى نوراً وأعظم لى نوراً يوم القيامة ) .

قال ابن مردويه : حدثنا على بن إسماعيل حدثنا أحمد بن على الحرانى حدثنا شعاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطى ، حدثنا أبو مكرم عن الكلبي وهو ابن جناب . عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ؛ فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر زر غبا تزدد حبا - فقال ابن عمر ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ ؛ فبكت وقالت كل أمره كان عجباً ، أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال : « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قال فقال : يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر : فقال : ويحك يا بلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله على فى هذه الليلة : ﴿ إن فى

(١) وروى مسلم مثله .

(٢) إحدى زوجات النبي ﷺ ، ذكر الحاكم عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ من العام القابل عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صده المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يابج - مكان - بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزن العامرية فخطبها عليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت أختها أم الفضل تحته - أى زوجة العباس - فزوجه العباس رسول الله ﷺ ، فأقام بسرف - مكان بعد ذلك بحين ، حتى قدمت ميمونة فبنى بها بسرف ، وقدر الله تعالى أن يكون موت ميمونة بنت الحارث بعد ذلك بحين ، فكان موتها حيث بنى بها رسول الله ﷺ - قال الحاكم وهو حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) وفى رواية : « ثلاث عشرة ركعة » .

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴿ ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

ومعنى الآية كما قال العلامة ابن كثير : أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره ، فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلمهم يرشدون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾

هذا تفسير للإجابة ؛ أى قال لهم مخبراً : إنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ أى جميعكم فى ثواب سواء ﴿ فالذين هاجروا ﴾ (٢) أى تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أى ضايقتهم المشركون بالأذى حتى ألبسهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ وأوذوا فى سبيلى ﴾ أى إنما كان ذنبهم إلى الناس ؛ أنهم آمنوا بالله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا وقتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله فيعقر جواده ، ويعفر وجهه بدمه وترا به ، وقد ثبت فى الصحيحين : أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ؛ أيكفر الله عنى خطاياى ؟ قال : ( نعم ) ، ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه ما قال ، فقال : « نعم ! إلا الذى قال لى جبريل أنفا » ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى تجرى من خلالها الأنهار من أنواع المشارب ؛ من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم ؛ لا يعطى إلا جزئياً كثيراً ، كما قال الشاعر :

إن يعذب يَكِن غراماً وإن يعط جزيلاً فإنه لا يبالي

(١) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

(٢) تفصيل بعد إجمال لنوع من الأنواع التى لا يضيع الله عمل عامل منهم .

(٣) من الآية الأولى من سورة الممتحنة .

(٤) الآية : ٨ من سورة البروج .

وقوله : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً قال ابن أبى حاتم : ذكر عن دحيم بن إبراهيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم أخبرني جرير بن عثمان ؛ أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس لا تتهموا الله في قضائه ؛ فإنه لا يبغي على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئاً مما يجب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئاً مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب .

### الجزاء العادل

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾  
لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا  
أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

المفردات : تقول : [ غرنى ] ظاهره ؛ أى قبلته على غفلة عن امتحانه <sup>(١)</sup> . ويقال في الثوب إذا نُشر ثم أعيد إلى طيه رددته على غره <sup>(٢)</sup> ، ﴿ تقلب الذين كفروا ﴾ : تطرفهم في التجارات والمكاسب : ﴿ متاع قليل ﴾ أى ذلك الكسب والربح متاع قليل ، وإنما وصفه بالقلّة لأنه قصير الأمد ﴿ مأواهم ﴾ مصيرهم ﴿ جهنم ﴾ هى الدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة و ﴿ المهاد ﴾ المكان الموطأ كالفرش [ النزول ] : ما يهبط للضيف النازل و ﴿ الأبرار ﴾ : واحد هم بار وهو المتصف بالبر ﴿ خاشعين ﴾ : أى خاضعين ﴿ اصبروا ﴾ : أى احبسوا نفوسكم عن الجزع مما ينالها و ﴿ صابروا ﴾ : أى اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله و ﴿ رابطوا ﴾ : أى أقيموا فى الثغور رابطين خيولكم ، حاسبين لها ، مترصدين للغزو ، و [ التقوى ] : أن تقى نفسك من غضب الله وسخطه ، و [ الفلاح ] : هو الفوز والظفر بالبغيّة المقصودة من العمل .

(١) أى دون امتحان لحقيقته .

(٢) أى أعدته إلى ظاهره .

بعدما بين الله تعالى ما أعدّه للمؤمنين والمؤمنات ؛ الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيله ، وقاتلوا وقتلوا ، أعد لهم الله الدرجات العلى ، وأثابهم من فضله ورحمته ومغفرته ؛ ذكر الله تعالى بعد ذلك ما يفيد أن قلب الكفار وتصرفهم وتنقلهم في البلاد سعيًا وراء تحصيل المال ، والحرص على الدنيا ، كل هذا عرض فان ﴿ متاع قليل ﴾ لكن مصيرهم في الآخرة نار وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ﴿ وبس المهاد ﴾ مهادهم ( لهم من جهنم مهاده ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين )<sup>(١)</sup> فأى بلاء هذا !! الفراش نار ، والغطاء نار ، اللهم أجربنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، أما ﴿ الذين اتقوا ربهم ﴾ فامثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، فأولئك لهم جنات ( فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم )<sup>(٢)</sup> هل يستوى ﴿ بس المهاد ﴾ الذى أعد للكافرين ؛ مع قوله تعالى : ﴿ نزلنا من عند الله ﴾ هل تستوى الأنهار التى تجرى مع ﴿ من هو خالد فى النار وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾<sup>(٣)</sup> إن الذى عند الله خير للأبرار الأتقياء .

ثم أخبر سبحانه عن فريق من أهل الكتاب ؛ آمن بالله وما أنزل إلى رسول الله ، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل ، هذا الفريق خشعت قلوبهم<sup>(٤)</sup> لله جل شأنه ، فقاموا له يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم ، كذلك ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ فالدنيا إلى شتات وكل حى إلى ممات ، وقد أخبر الله تعالى عن هذا الفريق بأن ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ والذى حكم بهذا هو الله الذى سيحاسب الجميع ؛ دون ما عجز فهو سريع الحساب ، ودون ما نسيان : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى<sup>(٥)</sup> ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ؛ بتلك التوجيهات السديدة الرشيدة ، التى لو عمل بها المؤمنون لسعدوا فى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

أربعة أوامر ، ثم تعقبها نتيجة ، الأمر الأول : الصبر وهو ثبات باعث الدين ، وحبس النفس على ما تكره ، ومقاومة النفس الهوى ، لا تنقاد للقبائح ، فمعنى ﴿ اصبروا ﴾ أى احبسوا أنفسكم على تحمل الشدائد .

(١) الآية : ٤١ من سورة الأعراف .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة محمد ﷺ ويقال لها أيضا سورة القتال .

(٤) هؤلاء هم عبد الله بن سلام وزيد بن سعدة وكعب الأحمري وغيرهم لم يبتغوا الأجر الكريم عند الله بشراء المجد الزائف مع الكفر فى الدنيا كغيرهم من أحبار اليهود ومن أصر على النصرانية من نصارى نجران وطارقة هرقل ملك الروم الذين منعه من الإيمان بمحمد ﷺ حفاظا على ملك أزاله الله بجهاد جند الإسلام .

(٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة طه .

الأمر الثاني : ﴿ وصابروا ﴾ أى صابروا مع الأعداء فتحملوا أذاهم وجاهدوهم ، ولا تيأسوا من جهادهم .

الأمر الثالث : ﴿ ورابطوا ﴾ أى فى سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾<sup>(١)</sup> وكذلك الرباط بجميع أنواع الأسلحة ، حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة فى الأرض .

الأمر الرابع : ﴿ واتقوا الله ﴾ أى خافوه فلا تعصوه ، واعملوا بما أنزل ، ولا تهملوه ، وارضوا بما قسم فلا تكفروه ، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه ، ثم تأتى النتيجة بعد ذلك ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أى لتفلحوا وتلك نتيجة أكيدة و يقينية ، فمن صبر وصابر وربط وارتبط واتقى الله ؛ نال السعادة فى الدنيا ، ودار الكرامة فى الآخرة ، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم .

(١) من الآية : ٦٠/ من سورة الأنفال .

## سورة النساء

- \* عدد آياتها : مائة وسبعون وست ، نزلت بعد الممتحنة .
  - \* عدد كلماتها : ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون ، وحروفها ستة عشر ألفا وثلاثون حرفا .
- هذه السورة مدنية كلها : فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ( ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ ) .

وقد بنى النبي بعائشة في المدينة في شوال من السنة الأولى من الهجرة ووجه المناسبة بينها وبين آل عمران :

- ١ - أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ؛ وافتتحت هذه السورة بذلك ، وهذا من أكد المناسبات في ترتيب السور .
- ٢ - أن في السابقة ذكر قصة أحد مستوفة ، وفي هذه بقية لها وهو قوله : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ فإنه نزل في هذه الغزوة على ما ستعرفه بعد .
- ٣ - إنه ذكر في السورة السالفة الغزوة التي بعد أحد وهي : « غزوة حمراء الأسد » بقوله : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ وأشير إليها هنا في قوله : ﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم ﴾ الآية .

- \* اسم السورة : سورة النساء الكبرى ، واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى .
- \* ما اشتملت عليه السورة :

الأمر بتقوى الله في السر والعلن ، وتذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة ، بيان خلق آدم وحواء ، الأمر بصلة الرحم والنهي عن أكل مال اليتيم ، وما يترتب عليه من عظم الإثم والعذاب لأكليهما ، بيان المناكحات وعدد النساء وحكم الصداق ، وحفظ المال من السفهاء ، وتجربة اليتيم قبل دفع المال إليه .

والرفق بالأقارب وقت قسمة الميراث ، وحكم ميراث أصحاب الفرائض ، وذكر ذوات المحارم .

وبيان طول الحرّة ، وجواز التزوج بالأمة ، والاجتناب عن الكبائر ، وفضل الرجال على النساء .

وبيان الحقوق ، وحكم السكران وقت الصلاة<sup>(١)</sup> ، وآية التيمم ، وذم اليهود . وتحريفهم التوراة ، وردّ الأمانات إلى أهلها ، وصفة المنافقين في امتناعهم عن قبول أوامر القرآن ، والأمر بالقتال .

ووجوب رد السلام ، والنهي عن موالاة المشركين ، وتفصيل قتل العمد والخطأ .

(١) وذلك قبل نزول تحريم الخمر تحريماً تاماً ، وإن كان حكم صلاة السكران قائماً .



وفضل الهجرة ، ووزر المتأخرين عنها ، والإشارة إلى صلاة الخوف من حال القتال ، والنهي عن حماية الخائتين ، وإيقاع الصلح بين الأزواج والزوجات ، وإقامة الشهادات ، ومدح العدل ، وذم المنافقين .  
وذم اليهود ، وذكر قصدهم قتل عيسى عليه السلام ، وفصل الراسخين في العلم .  
وإظهار فساد اعتقاد النصارى ، وافتخار الملائكة والمسيح بمقام العبودية ، وذكر ميراث الكلاله ،  
والإشارة إلى أن الغرض من بيان الأحكام صيانة الخلق من الضلالة ، في قوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾  
أى كراهة أن تضلوا .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ  
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ  
رَقِيبًا ﴿١﴾

المفردات : ﴿ الناس ﴾ : اسم للجنس البشرى ﴿ تساءلون به ﴾ : أى يسأل به بعضكم بعضاً بأن  
يقول : سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، ﴿ والأرحام ﴾ : أى خافوا من حق إضاعة الأرحام ،  
و [ الرقيب ] : المراقب ، وهو المشرف من مكان عال والمراد هنا بالرقيب الحافظ لأن ذلك من لوازمه .

قال ابن مسعود : إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها قوله تعالى : ﴿ إن  
الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً  
عظيماً ﴾ (٣) .

(١) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

(٢) الآية : ٣١ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٤٨ من سورة النساء .

وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (٥) .

ثم ذكر قول ابن مسعود فى الآيات الباقيات .

وقد ورد فى تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ يأبى الناس اتقوا ربكم ﴾ أقوال عن المفسرين ، نرى أن خير ما قيل فى هذه الآية ؛ ما ذكره العلامة ابن كثير فى تفسيره العظيم ، حيث كان حريصاً كعادته ؛ أن يستشهد بالأحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة ، وخبر ما نفسره القرآن : هو القرآن نفسه ، أو سنة رسول الله ﷺ ، لذا فإننا لا نريد شتاتاً فى الفكر ، أو شذوذاً فى رأى ، فاخترنا أن نذكر هنا ما قاله ابن كثير .

قال رحمه الله تعالى :

يقول تعالى أمراً خلقه بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها ﴿ من نفس واحدة ﴾ وهى آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهى حواء عليها السلام ؛ خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل ، وخلق الرجل من الأرض ، فجعلت نهمته فى الأرض فاحبسوا نساءكم (٦) .

وفى الحديث الصحيح : ( إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شئ فى الضلع أعلاه فإن ذهب تقويمه كسرته وإن استمتعت استمتعت بها وفيها عوج ) (٧) .

(٥) الآية : ٢٨ من سورة النساء .

(٦) النهم .. شدة الرغبة فى الشئ .

(٧) رواه الشيخان .

(١) من الآية : ٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية : ١١٠ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٢٦ من سورة النساء .

(٤) الآية : ٢٧ من سورة النساء .

وقوله : ﴿ وبث منها رجالا كثيرا ونساء ﴾ أى وذرا منها أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم فى أقطار العالم ، على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى واتقوا الله بطاعتكم إياه قال إبراهيم ومجاهد والحسن ﴿ الذى تساءلون به ﴾ أى كما يقال أسألكم بالله وبالرحم ، وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ؛ ولكن بروها وصلوها ، وقرأ بعضهم ﴿ والأرحام ﴾ بالخفض<sup>(١)</sup> على العطف على الضمير فى به ، أى تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال ﴿ والله على كل شئ شهيد ﴾<sup>(٢)</sup> وفى الحديث الصحيح : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )<sup>(٣)</sup> . وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت فى صحيح مسلم ؛ من حديث جرير بن عبد الله البجلي : أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر - وهم مجتابو النمار ، أى من عريهم وفقهم - قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ .

ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾<sup>(٤)</sup> ثم حضهم على الصدقة فقال : ( تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره ) وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود فى خطبته الجامعة ، وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ﴾ الآية .

### بحث فى حقيقة النفس أو الروح

قال العلماء : اختلف المسلمون فى حقيقة النفس أو الروح الذى يحيا به الإنسان ، وتحقق وحدة جنسه ، على اختلاف أصنافه ، وأشهر آرائهم فى ذلك ، رأى القائل :

إنها جسم نورانى علوى خفيف حى متحرك ، ينفذ فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد والنار فى الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار التى تفيض عليها من هذا الجسم

(١) الخفض هو الاعراب بالجر .

(٢) من الآية : ٦ من سورة المجادلة ، ومن الآية : ٩ من سورة البروج .

(٣) من الحديث الذى رواه الشيخان بسندهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر » الحديث « فيه يسأل جبريل رسول الله ﷺ ليعين للناس أمور دينهم . كما ذكر الرسول ﷺ فى ختام الحديث .

(٤) من الآية : ١٨ من سورة الحشر .

اللطيف ؛ وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها ، وإذا فسدت هذه الأعضاء وعجزت عن قبول تلك الآثار ؛ فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر ؛ وهى أمور ثابتة قطعاً ؛ ليست من صفات هذا الجسد ، فلا بد لها من منشأ وجودى عبر عنه الأقدمون بالنفس أو الروح . وما مثلها إلا مثل الكهرباء .

فالماديون الذين يقولون لا روح إلا هذه الحياة ، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائى ، فهو بوضعه الخاص وبما يودع فيه من المواد ؛ تتولد فيه الكهرباء ، فإذا زال شيء مما أودع فيه أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء ، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة ، وبزوالها تزول الحياة .

والذين يقولون إن للأرواح استقلالاً عن الجسد يكون مثل الجسد مثل الآلة التى تدار بكهرباء تأتى إليها من المولد الكهربائى ، فإذا كانت الآلة على وضع خاص فى أجزائها وأدواتها ؛ كانت مستعدة لقبول الكهرباء التى توجه إليها حتى تؤدي وظيفتها ، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء ، ومن ثم لا تؤدي وظيفتها الخاصة بها .

### الحفاظ على مال اليتيم

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ وَرَبِّعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

المفردات : [ اليتيم ] لغة : من مات أبوه مطلقاً ، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال .  
﴿ ولا تبدلوا ﴾ : أى لا تستبدلوا ، ﴿ الخبيث ﴾ : هو الحرام ، ﴿ الطيب ﴾ : هو الحلال ، ﴿ حوباً كبيراً ﴾ : أى إثماً عظيماً ، [ القسط ] : النصيب ، وقسط : جار ، قال الله تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ (١) وأقسط : عدل ، قال الله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾ (٢) ﴿ ما

(١) الآية : ١٥ من سورة الجن .

(٢) من الآية : ٩ من سورة الحجرات .

طاب لكم ﴿ : أى ما مال إليه القلب منهن ، ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ : أى اثنتين ، اثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، ﴿ ذلك أدنى ألا تعملوا ﴾ : أى ذلك أقرب إلى عدم العول والجور ، ﴿ صدقاتهن ﴾ : مهورهن ، ﴿ نحلة ﴾ : عطية وهبة ، ﴿ هنيئاً مريئاً ﴾ : الهنىء ما يستلذ به الأكل ، المرىء : ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته .

بعد أن أمر الله تعالى عباده بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى اتقوا الله فلا تعصوه واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، أمر سبحانه عباده أن يعرفوا لليتيم قدره ، وأن يحافظوا على ماله ، وحذرهم بعد ذلك <sup>(١)</sup> من أكل مال اليتيم فقال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ أمرهم سبحانه أن يؤتوا اليتيم ماله ، إن أنسوا منه رشداً ، واليتيم هو الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أخبر الصادق المعصوم قائلاً : «أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة» <sup>(٢)</sup> .

وقد ولد ﷺ يتيماً ، فكان فى مولده إشارة واضحة إلى إكرام اليتامى قال تعالى ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ <sup>(٣)</sup> أى آواك إلى كفالة جدك ثم عمك .

وبعد أن أمر الله تعالى بإيتاء اليتامى أموالهم ، نهى الأوصياء أن يتبدلوا الخبيث بالطيب ، والخبيث هنا هو الحرام ، والطيب هو الحلال فالحرام لا يدوم ، وإذا دام دمر ، ولو اختلط الحرام بالحلال لأكل الحرام الحلال .

أى لا تأكلوا مال اليتيم وهو خبيث حرام ، وتركوا أموالكم وهى الحلال الطيب ، وقد ورد فى تفسير هاتين اللفظتين أقوال للمفسرين نجملها فيما يلى :

قال سفيان الثورى عن أبى صالح : « لا تعجل بالرزق الحرام ، قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذى قدر لك » قال سعيد بن جبير : « لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تتبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام » .

وقال سعيد بن المسيب والزهرى : « لا تعط مهزولاً وتأخذ سمينا » . وقال إبراهيم النخعى والضحاك : « لا تعط زيفاً <sup>(٤)</sup> وتأخذ جيداً » . وقال السرى : « كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد وي طرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ قال مجاهد : أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً ، وقوله : ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ قال ابن عباس : أى إنها عظيماً .

(١) من الآية رقم ١٠ وهى التى ذكرت بعد ذلك الكلام .

(٢) حديث صحيح رواه الشيخان « ونص البخارى : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين .

(٣) الآية : ٦ من سورة الضحى .

(٤) النقود التى كانوا يتعاملون بها ذهب دنانير وفضة دراهم ، وكان منها زيوف وهى ما فى سكتة غش فى عيار الذهب أو الفضة .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ . قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، قال : « أخبرني عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَى ﴾ قالت يا ابن أخي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقتها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، وبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ وَتَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ <sup>(١)</sup> قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى ﴿ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴾ <sup>(٢)</sup> فرغبة أحدكم عن يتيمة إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

قوله تعالى : ﴿ مَثْنَى وَثِلَتٍ وَرِبَاعٍ ﴾ أى انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين أو ثلاثاً ثلاثاً ، أو أربعاً أربعاً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ جَاعِلُ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَثْنَى وَثِلَتٍ وَرِبَاعٍ ﴾ <sup>(٣)</sup> وهو أسلوب عربى فصيح كما تقول للقوم : اقتسموا هذه الدراهم الألف اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً ، أى ليأخذ كل منكم اثنين لا يزيد عنها ، أو ثلاثاً لا يزيد عنها ، أو أربعاً لا يزيد عنها ، فكل منكم خير بين هذه الأنصب الثلاثة ، اثنين أو ثلاث أو أربع ، ولا تجوز الزيادة في التعدد عن أربع ، ذلك لأن هذه الآية وردت في مقام الإباحة والامتنان فلو كانت الزيادة عن ذلك جائزة لذكرها الله تعالى ، وقد ورد من الأحاديث ما يدل على ذلك :

\* روى الإمام أحمد ، عن سالم عن أبيه : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحتة عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : « اختر منهن أربعاً » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ؛ فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك . ولعلك لا تلبث إلا قليلاً ! وإيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك ، أو لأورثنهن منك ، ولأمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال <sup>(٤)</sup> وهكذا رواه الشافعى والترمذى وابن ماجه .

\* قال الشافعى : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه بين العلماء .

(١ ، ٢) من الآية : ١٢٧ من سورة النساء .

(٣) من الآية الأولى من سورة فاطر .

(٤) فهم عمر من ذلك الفعل الذى فعله أنه يريد حرمان زوجاته من الميراث بطلاقهن ، ولا يجوز لانس أن يقسم ميراثه قبل وفاته لأن ذلك مرهون بالأجال .

\* روى أبو داود وابن ماجه عن عميرة الأسدي قال : أسلمت وعندي ثمانى نسوة ، فذكرت للنبي ﷺ فقال « اختر منهن أربعاً » .

\* وقال الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلى ، قال أسلمت وعندي خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ﷺ : « اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى ، فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ ستين سنة فطلقتها » .  
فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقى .

الحكمة من التعدد :

أباح الإسلام تعدد الزوجات لحكمة بالغة ، ذلك لأن الإسلام عالمى الرسالة ، فلم يبعث نبى الإسلام ﷺ لشعب دون شعب ، أو لأمة دون أمة ، إنما بعث رحمة للعالمين ، ومشاكل الناس لا تكاد تنتهى ، وكأنها سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر ، وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور ، ولما كان الإسلام كما قال رب العزة لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ <sup>(١)</sup> لما كان ذلك كذلك ، فلا بد أن يكون فى صيدليته الدواء لكل داء ، وتعدد الزوجات فى الإسلام علاج مشروط بالعدل ، فيه الوفاء وفيه الإبقاء على حسن المعاشرة ، ومن ثم فقد زلت أقدام قوم ، وتعثرت أقدامهم ، وانفلت خيالهم ، عندما قالوا إن التعدد للزوجات فى الإسلام أمر محال ، لأنه علق على العدل ، والعدل بينهن غير ممكن ، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ ويقول جلى شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ <sup>(٢)</sup> ولو صلح لهم ذلك : للزم على قولهم أن يكون فى القرآن تناقض ؛ وحاش لله أن يكون فى كلامه تناقض ، فلقد أباح الله التعدد فكيف يعلقه على أمر محال ، إن الله جل شأنه لما أباح تعدد الزوجات ، كان فى ذلك امتنان منه تعالى على خلقه ، حيث أوجد لهم متسعاً ، وامتن عليهم بأنهم فى حاجة إليه ، فكيف ينفى ما أباحه وامتن به .

إن النفى والإثبات هنا لم يردا على محل واحد حتى يلزم التناقض ، أو حتى ينفى التعدد ، بل إن الجهة منفكة بين العدلين .

فالعدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ إنما هو عدل فى الأمور المادية كالمسكن والنفقة من مطعم وملبس ، أما العدل فى قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فذلك عدل قلبى ، قال عنه النبى ﷺ : ( اللهم إن هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك ) <sup>(٣)</sup> .

العدل المادى أمر ممكن ، أما العدل القلبى فإن الله تبارك وتعالى لم يؤاخذ الإنسان فى ميله القلبى لإحدى الزوجات ، إنما نهى عن الميل الكلى ، قال جل شأنه : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٢) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٣) رواه مسلم . الحديث لا يصح فضلاً عنه .  
(٤) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

والمرأة المعلقة هي التي أساء زوجها عشرتها ، فلا هي متزوجة ولا هي مطلقة ، ومن ثم فأى تناقض ؟ اللهم لا تناقض في كلامك ، وأى شيء الذي علق على مستحيل ، والعدل في الآيتين مختلف ، عدل ممكن الوقوع جائر التحقيق ، وعدل فيه شيء من جهاد النفس ، وجه الله فيه الرجال إلى أن يقيموا الوزن بالقسط ما استطاعوا .

إن الله تعالى أباح تعدد الزوجات في ظل العدالة ، فأى الموقفين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون .  
أعيش الرجل مع حليمة فيرضى ربه ؟ أم مع خلية فيقع في غضب الله ، خاسراً الدنيا والآخرة ؟ إذا فليس التعدد في الإسلام عبثاً ، فقد لعن الله كل مزواج مطلق كما لعن الذواقين والذواقات .  
مزايا تعدد الزوجات عند الحاجة :

ذكر الشيخ المراغى في تفسيره تحت هذا العنوان ما نصه : «الأصل في السعادة الزوجية أن يكون للرجل زوج واحدة ، وذلك منتهى الكمال الذي ينبغي أن يربى عليه الناس ، ويعتروا به ، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك ، لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين ، أو حاجة الأمة ، فيكون التعدد ضربة لازب لا غنى عنه ، ومن ذلك :

- ١ - أن يتزوج امرأة عاقراً ، وهو يود أن يكون له ولد ، فمن مصلحتها أو مصلحتها معا ، أن تبقى زوجا له ؛ ويتزوج بغيرها ، ولا سيما إذا كان ذا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً .
- ٢ - أن تكبر المرأة وتبلغ سن اليأس ، ويرى الرجل حاجته إلى العقب ، وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة ، وكفاية الأولاد الكثيرين وتعليمهم .
- ٣ - أن يرى الرجل أن امرأة واحدة لا تكفيه لإحصانه ، لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء ، ومزاجها بعكس هذا ، أو يكون زمن حيضها طويلاً ؛ يأخذ جزءاً كبيراً من الشهر ، فهو حينئذ أمام أحد أمرين : إما الزوج بثنائية ، وإما الزنا الذي يضيع الدين والمال والصحة ، ويكون هذا شراً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما كما هو شرط الإباحة في الإسلام .
- ٤ - أن تكثر النساء في الأمة كثرة فاحشة ، كما يحدث عقب الحروب التي تحتاج البلاد ، فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال ، فلا وسيلة للمرأة في التكسب في هذه الحال ؛ إلا ببيع عفافها ، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التي تقوم بالإئناق على نفسها ، وعلى ولد ليس له والد يكفله ، لا سيما عقب الولادة ومدة الرضاعة .

والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال في المعامل ومحال التجارة وغيرها من الأماكن العامة ، قد جر إلى كثير من هنك الأعراض والوقوع في الشقاء والبلاء ، حتى كتبت غير واحدة من الكاتبات الإنجليزيات ، وأبانت أن هذا التدهور الخلقي لا علاج له إلا بتعدد الزوجات ، مع أن هذا ضد مصلحة المرأة وهي تنفر منه بمقتضى شعورها ووجدانها ، وهاك ما قالته إحداهن في بعض جرائدهن بإيجاز وتلخيص :



«لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وقل الباحثون عن أسباب هذا البلاء ، وإنى لأنظر إليهن وقلبي ينفطر أسى وحزناً عليهن ، وماذا يفيد بشي وحزنى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ؟ لا فائدة إلا العمل على ما يمنع هذه الحال ، وهو كما رأى (تومس) إباحة الزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الوسيلة تصبح بناتنا ربات بيوت .

إذ لم يجر إلى هذا البلاء إلا إجبار الأوربي على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهو الذى جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى أعمال الرجال ، ولابد أن يتفاقم الشر إذا لم يبيع للرجل الزوج بأكثر من واحدة ، فأى ظن وحسد يحيط بعدد الرجال المتزوجين ، الذين لهم أولاد من السفاح ، وقد أصبحوا عائلة وعارا على المجتمع ، ولو أبيع التعدد لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من عذاب ، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن من فداحة الحال التى نراها الآن » .

ونشرت كاتبة أخرى (مس إنى رود) فى جريدة أخرى تقول :

لأن يشتغلن فى البيوت خوادم ، أو شبه خوادم خير لهن وللمجتمع من اشتغالهن فى المعامل ، حيث تلوث البنت بأدران الرذيلة التى تبقى لاصقة بها مدى حياتها . . ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف والطهارة ، والخادم والرقيق ينعمان بأرغد عيش ، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ، ولا تمس الأعراض بسوء ، وإنه لعار على بلاد الانجليز ؛ أن تجعل بناتها مثلاً للردائل ، بكثرة مخالطتهن الرجال .  
فما بالناس لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها ، وتقوم بأعمال البيت وتترك أعمال الرجل للرجال ، فذلك أضمن لعفافها ، وهو الكفيل بسعادتها . ا . هـ .

وصفوة القول :

أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة ، وهى أركان سعادة الحياة الزوجية ، فلا ينبغي لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة ، مع الثقة بما أوجبه الله من العدل ، وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه وامرأته وولده وأمته .

ولقد راعى النبى ﷺ المصلحة فى اختيار كل زوجة من زوجاته ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلم أتباعه احترام النساء ، وإكرام كرائمهن ، والعدل بينهن ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين ، يعلمن نساءهم الأحكام الخاصة بالنساء ، مما ينبغي أن يعلمنه منهن ، لا من الرجال ، ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء ، كما لو ترك التسع .

وقصارى القول أنه عليه السلام ما أراد بتعدد الزوجات ما يريد الملوك والأمراء والمترفون ؛ من التمتع بالنساء ، إذ لو كان قد أراد ذلك لاختارهن من حسان الأبيكار ، لا من الكهلات الشيبات ، كما قال لمن اختار ثيباً : «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك» رواه الشيخان .

## الربط بين الشرط والجواب :

في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكَحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ في هذا النص الكريم حرف شرط هو «إن» وفعل شرط هو «خفتم» وجواب شرط هو «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» .

﴿ فإن ﴾ : أداة الشرط ، ﴿ خفتم أَلَّا تَقْسُطُوا ﴾ : فعل الشرط ، ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ : جواب الشرط ، فما هو الربط بين الخوف من عدم الإقساط والعدالة في اليتامى وبين إباحة تعدد الزوجات .

لقد وردت للمفسرين آراء كثيرة في شأن هذا الربط وقد اخترنا رأياً جديراً بالاعتبار ، ذكره فضيلة الشيخ محمد محمد المدني<sup>(١)</sup> في تفسير هذه الآية فقال رحمه الله<sup>(٢)</sup> : «يتلخص هذا الربط في :

١ - أن العرب في الجاهلية كانوا يستضعفون اليتامى والنساء وكان من مظاهر هذا الاستضعاف : أنهم كانوا يحرمون الصبي والمرأة من الميراث .

وأنهم كانوا يطمعون في أموالهم ، إذا كانت لهم أموال غير الميراث أيضاً ، فكانوا يخلطونها بأموالهم ، ويتبدلون رديتهم بالجيد منها إذا شاؤوا ، ويميلون عليها في أزماهم ، ولا يتخرجون في إنفاقها في مصالحهم الخاصة .

وأنهم كانوا يعضلون<sup>(٣)</sup> النساء كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك ، كى ينتفعوا من هذا العضل ، فإذا ورث الرجل زوجة أبيه أو زوجة أخيه كان له أن يعضلها حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كره زوجته التي معه علقها فلم يطلقها ولم يعاملها معاملة الزوجة ، وذلك حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كانت تحت يده يتيمة عضلها عن الزواج حتى لا تفلت أموالها منه . . . هكذا .

٢ - وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله ، وجعل لليتامى حقوقاً ، وارتفع بهم عن أن يكونوا في المجتمع محلاً للاستضعاف في صورة من الصور ، فلما أخذ المسلمون تلك الأحكام ، وشدد النكير على من يظلم اليتامى والنساء ، وأصبح هناك روح عام متغلغل في المجتمع الإسلامي ؛ ذلك هو الخوف من مخالطة اليتامى ، لئلا يصيبهم الوعيد بالعذاب ، فجاء القرآن بالرخصة في ذلك ، فأباح لهم أن يخلطوا أموالهم بأموال اليتامى ؛ ماداموا لا يبتغون إلا الإصلاح ، وعرفهم بأن اليتامى ما هم إلا إخوتهم ، والأخ مُساوٍ لأخيه ، ويجب أن يكون بينهما كل مظاهر التعاون بين الأخوة ، فانتهدت بذلك مشكلة الخلط حيث استجازوه بعد أن كانوا يتخرجون منه ، وبدت مشكلة أخرى هي : كيف يمكن أن يقوموا لليتامى بالقسط في كل شيء ؟ .

(١) كان رحمه الله رئيساً لقسم الشريعة بكلية دار العلوم ، ثم عميداً لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وأستاذاً ورئيساً لأقسام الفقه بتلك الجامعة وتوفي رحمه الله في عام ١٩٦٨ عائداً من الحج .

(٢) من كتابه : « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء » من الصفحات ٢٦٩ - ٢٧٥ .

(٣) يعضلون عن الزواج رغبة في الانتفاع بأموالهم .

٣ - ولذلك كان الرجل ربما تخرج من ولاية شئون اليتامى ، وقد يكون مضطراً في سبيل رعايتهم إلى أن يداخلهم ، وفيهم فتيات أو يرى أمهاتهم الأيامى ، وهو يدخل عليهم ويخرج ، وذلك فيه من الحرج ما فيه ، حيث لا تؤمن الدواعى النفسية ، من رجل يدخل على أيم من النساء ، وعلى بناتها ، وله الحق بحكم وصايته أن يراهن ، ويتحدث إليهن ، ويجلس معهن ، فإذا أراد أن يتعد عن ذلك ، وأن يصد عن نفسه عوامل الفتنة بالابتعاد ، أو بتقليل الزيارة ، والتصرف ، فإنه سيكون مقصراً غير قائم لليتامى بالقسط على الوجه الذى أمر الله به ، وعلى الوجه الذى يقتضى إصلاح أموالهم ، ومعرفة مشاكلهم وإصلاح أنفسهم بالمعروف .

٤ - فالأوصياء إذا كانوا بين نارين ، من هذين الواجبين : واجب القيام بالقسط لليتامى على وجهه الصحيح ، وهو يقتضى ملابتهم ومداخلتهم والجلوس إليهم ، وفيهم من هى صالحة للزواج ، وبينهم - فى كثير من الأحيان - أمهم نفسها تلك الأم التى مات عنها زوجها ، ولعل فيها بقية من شباب ، وصلاخية للزواج - ومن واجب آخر هو واجب الاعتصام والابتعاد عن الفتنة ، والمؤمن لا ينبغى أن يضع نفسه وضعاً يكون فيه فاتناً أو مفتوناً ، فما السبيل إلى الخلوص من هذا المأزق ؟

إنه هو الحكم الذى شرعته الآية ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ أى ألا تقوموا فيهم - وأقول فيهم لأنى أفهم أن الضمير لليتامى عامة ذكورا وإناثاً - فإن خفتم ألا تقوموا فى شأنهم بالقسط تخرجاً من مداخلتهم ومجالستهم فى بيوتهم التى لا تخلو من يتيمات أو أيامى ، فالمخلص من ذلك هو : «تعدد الزوجات» .

إنه هو الذى يوجد فيه الحل لهذا الإشكال ، فقد أباح الله للرجل فى مثل هذا الظرف أن يكون له أكثر من واحدة ؛ إذا أمن الجور ، فليدخل الأوصياء من هذا الباب ، ومن كان منهم متزوجاً بواحدة ، فلا بأس عليه أن يضم إليها ما طاب له من النساء ، فيتزوج إحدى يتيماته ، أو يتزوج الأم نفسها ، وبذلك يصح دخوله هذا البيت دخولاً مأموناً العاقبة ، فيجمع بذلك بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب ، وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء والفتنة .

٥ - والآية الأخرى على هذا التفسير ، يبدو ارتباطها بهذه الآية ؛ وبغيرها من آيات إصلاح اليتامى واضحاً جلياً ، وذلك أنها تحدثنا عن سؤال المسلمين للنبي ﷺ فى النساء ، وعن بقايا تخرجهم من شئونهن ؛ كرجبة الولى فى يتيمته ، ومن عرف المجتمع فى عدم توريثهن ، أو توريث الولدان عامة ، فتقول : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ ثم تحيل على ما سبق تقريره فى الكتاب من أحكامهن وأحكام المستضعفين من الولدان ، وما أمروا به من القيام لليتامى عامة بالقسط ، كاملاً دون عبث أو تهاون فى إقامته ، فتقول : ﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى اليتامى النساء ﴾ وانظر إلى قوله : ﴿ اليتامى النساء ﴾ وكيف يشير إلى ما سبق من قوله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ثم تقول : ﴿ اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ وذلك هو نصيبهن فى

الميراث ، فالتعبير بقوله ﴿ ما كتب لمن ﴾ لا يليق إلا بشيء مكتوب مقرر مفروض ، وقد وصف الله الأنصبة بقوله في آية الموارث : ﴿ فريضة من الله ﴾ وقد بينا أنه إذا فسر ذلك بفرض الصداق فإنه لا يناسب لأنه لم يتم زواج حتى يقال صداق ، وكتاب مكتوب ثم تقول : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ وهى الرغبة فى نكاح الأيم أو اليتيمة وهى المعبر عنها فى الآية السابقة بقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ أى أن إباحة التعدد ملاحظ فيها الرغبة ، وطيب المرأة فى نظر الراغب فيها ، إلى جانب الغرض الذى قدرناه وهو التمكن من أن يقام لليتامى بالقسط كاملاً ، ثم تقول : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ فتعطف المستضعفين من يتامى الصبيان ؛ على المستضعفين من يتامى النساء ؛ لأن الولدان جمع وليد للصبى ، أما الأنثى فوليدة وجمعها ولائد ، وتختتم بقوله تعالى : ﴿ وأن تقشوموا لليتامى بالقسط ﴾ أى لليتامى عامة بالقسط التام على ما أمر الله به فى مواضعه من الكتاب العزيز .

ا . هـ .

#### تعدد زوجاته ﷺ

جاء فى كتابنا «حديث من القلب» بحث مستفيض عن الحكمة البالغة من تعدد زوجاته ﷺ وفى هذا البحث رد على المبطلين كتبناه تحت عنوان (دعوى باطلة) .

قلنا فى هذا الباب :

«نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ، وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام - ﷺ - ، ونبتت من قلوب تفرز البغضاء ، كما يفرز الكبد عصارة الصفراء ، لذلك رأينا - ونحن نتكلم عن زواج المصطفى - ﷺ - بالسيدة خديجة رضى الله عنها ، أن نعقب بهذا البحث لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين ، الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة ، على التعدد فى أزواج رسول الله - ﷺ - وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيف ، فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين ، ليثيروا التراب على السماء ، فسيثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السّن بسامة المحيا .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة أن لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ، ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة ، وأنباء الغزو الثقافى ، إن الرسول لن يضره أن تنبج عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها  
نعم ثم نعم .

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة ؟ إنه الرجل الذى بعثه الله ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿ (١) .

(١) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

ما يضر البحر أمسى زائراً أن رمى فيه غلام بحجر

وها نحن أولاء نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع ، فنأق عليها جميعاً فنذرهما قاعاً صفيصفاً .

إن قصة زواجه - ﷺ - من خديجة رضى الله عنها ، كما سنذكر توضح للإنسان وضوحاً لا تلبس معه الرؤية ؛ أن رسول الله - ﷺ - لم يكن في اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك - كبقية أقرانه من الشبان - لطمع فيمن هي أقل منها سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ولقد ظل هذا الزواج قائماً ؛ حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبي ﷺ الخمسين من العمر ؛ دون أن يفكر خلاها في الزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان ؛ هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء ، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ، ولكنه ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر ، دون أن يفكر - كما قلنا - بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة ، وكثيراً من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً ، أو يخرج على مألوف أو عرف الناس يومئذ ؛ هذا فضلاً عن أنه تزوج خديجة وهى أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين ، وعبيدهم الذين يسرون من ورائهم ، ينعمون بما لا يسمعون ﴿ إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (١) .

إنهم يهرفون (٢) بما لا يعرفون ، يحاولون أن يطاولوا السماء ، وأن يمدوا إلى الشمس يداً شلاء .

إنهم يعضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالا : لقد ظنوا أنهم واجدون في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب به الإسلام ، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوانى الغارق في لذة الجسد ، العازف في معيشته المنزلية ورسائله العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا يا رسول الله !! والله ما علمنا عليك من سوء ، إنها فرية ما فيها مرية ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ (٣) .

(١) من الآية : ١٧١ من سورة البقرة .

(٢) يهرف يقول كلاماً قبل قبله دون فهم أو إدراك كالبيغاء .

(٣) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

علمتنا سر الحياة وقدتنا	للخير والتوفيق والبركات
جنبنا الزلل الكبير وصتنا	من شهوة تطغى ومن نزوات
إن شرق القوم الكبار وغربوا	فإليك حتماً منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم	وتعرضوا لمهالك خطرات
وتكبوا سبل السلام وأقبلوا	يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا	ما غير دينك سلم لنجاة

ما ثمة أدنى شك في أن المنتشرقين والمبشرين ؛ هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون القدح في هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاضعون للإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيه أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا نوعاً من الشارة التي قد يعلقها الرجل على صدره ، لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذي يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامى في شيء ، وإن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعماري ، الذي يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى ، من مبشرين ومستشرقين ، فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ، ودون محاولة أى فهم .

أجل إن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم ، وبني جلدتهم ، وليست عملاً فكرياً بقصد البحث أو الحجاج وإلا فموضوع زواج النبی ﷺ ، من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ ، صورة الرجل الشهوانى الغارق في لذات الجسد .

وموضوع زواجه ﷺ ، هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها ، عفيف النفس دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج من حوله ، والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره<sup>(١)</sup> ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما

(١) كانت خديجة رضى الله عنها - عندما تزوجها الرسول ﷺ - في الخامسة والأربعين من عمرها ، بينما كان النبی ﷺ في الخامسة والعشرين على بعض الروايات ، والأربعين على روايات أخرى .

حوله ، وإن من حوله كثيراً ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل في مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة رضى الله عنها ثم غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسببا ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ، ورفعة شأنه وكمال أخلاقه ، أيا كانت الحكمة والسبب ، فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أخرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية في الوقت الطبيعي لهذه الرغبة وندائها ، خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالي الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية .

عناية الله به في شبابه :

لقد أحاطه الله بعنايته ، وحماه برعايته ، فحفظه عن التلبس بما تنبو عنه الأذواق السليمة ، وتنفر منه الطباع المستقيمة ، فكان ﷺ في شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه<sup>(١)</sup> :

(ما هممت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمني الله بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال أفعل : فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ؛ سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ؛ فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبي فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا من لحضرته الشفاعة واللوا  
لولا كتابك في البرية لم يقم  
للحق قسطاس ولا ميزان  
فلك التحيات الزكيات العلى  
ما هينئت للعاملين جنان  
والخوض قد أعطاكها المنان

تجارته في مال خديجة :

يروى ابن الأثير وابن هشام : أن السيدة خديجة كانت تاجرة ، وكانت ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم<sup>(٢)</sup> إياه بشيء تجعله لهم منه ، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ - صدق الحديث

(١) رواه ابن الأثير والحاكم عن علي بن أبي طالب ، وقال عنه صحيح على شرط مسلم ورواه الطبراني عن حديث عمار بن ياسر .  
(٢) المضاربة لون من المشاركة التي يقبلها الاسلام ، يشارك صاحب المال بماله ، والشخص أو الشريك الثاني بعمله ، ويتفق الشريكان على قسمة الأرباح ، ونسبة كل منهما والحجازيون يسمون المضاربة «قراضاً» .

وعظمة الأمانة وكرم الأخلاق ؛ أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة ، وقد قبل محمد بن عبد الله ﷺ هذا العرض ، فرجل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيره ، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبيل عظيم .

#### شهادة ميسرة له :

وجد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه ؛ ما ملأ قلبه دهشة له وإعجاباً به .

رأى الصديق في صورته الحقيقية ، ورأى الأمانة مجسمة في معاملته ، رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى (١) ، سمحاً إذا اقتضى (٢) ، رأى فيه الأمانة في أسمى معانيها ، وقد صدق أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - إذ يقول : إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر ، ورفقاؤه في السفر ، ومعاملوه في الأسواق ، فلا تشكوا في دينه .

نعم ، ليس الإسلام خطباً رنانة ، ولا عبارات طنانة ، ولا فلسفات عقيمة ، إن الإسلام في حقيقته عقيدة وعمل ، وقد صدق الرسول ﷺ إذ يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» (٣) أدلى ميسرة بهذه الشهادة ، وإنها لشهادة حق ، وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً ، فأنت يا رسول الله أهل لذلك ، وأكثر من ذلك :

يا صاحب الأخلاق والآيات	القول فيك معطر الكلمات
في كل ماض في الزمان وآت	أيام مولدك الكريم مضيئة
تاج الزمان وغرة السنوات	يوم أتى بك في الوجود فإنه
وترد كل جديده لموات	تتعاقب الأيام في دورانها
ويزيد في الإشراق والنفحات	وضياك يسطع كل يوم نوره

#### قصة زواجه بالسيدة خديجة

##### رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة ، فوجدت في نفسها قلباً طهوراً طيباً ، فتمكنت من القلب كل تمكن ، لقد أعجبت بصدقه وأمانته ، وكفى بهما ، إنه رأس مال ضخيم ، ورصيد لا يلحق به ، ولا يشق له غبار ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة ، فالسعد رائدها ،

(١) أدى ما عليه لغيره .

(٢) إذا طلب ماله عند غيره .

(٣) متفق عليه .



والتوفيق حليفها ، ويلبسها الله لباس العز والشرف ، وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة ؛ فالذل رائدها ، والخذلان حليفها ، ويذيقها ﴿الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾<sup>(١)</sup> .

لقد نال خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين ، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه ، تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول ﷺ في خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة إلا قليلا ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها<sup>(٢)</sup> ولا إلى حسبها ، وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم      وتأتى على قدر الكرام المكارم  
وتعظم في عين الصغير صغارها      وتصغر في عين العظيم العظائم

كلم الرسول ﷺ أعمامه فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبها له من عمها عمرو بن أسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول : منها (عتيق بن عائذ التميمي) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمي) ، واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتها ، طرقت كثير من الرجال بابها ، لتكون لهم زوجاً ، فلم تفتح لهم بابها لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة ، حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط ، كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت في محمد ﷺ الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد ﷺ السيدة العفيفة الطاهرة فرضيها زوجاً .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقي خطبة الزواج ، وقف يقول :

«الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس ، أما بعد : فإن محمد بن عبد الله - ابن أخي - لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال كلا ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وإن لمحمد رغبة في خديجة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما طلبتم من الصادق فعلى» .

يقول بعض المحققين الباحثين في الرد على هذه الفرية<sup>(٣)</sup> ما نصه :

«لقد طعن كثير من سفلة البشر ، ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير ، في محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا إنه رجل شهواني يميل إلى النساء .

﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾<sup>(٤)</sup> .

(٣) فرية أنه مزواج شهواني حاشاه ﷺ .

(٤) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

(١) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .

(٢) وقد كانت ذات جمال ومال وحسب .

في حين أن زواجه ﷺ ، يسمو بإنسانيته إلى الحد الذي لا يجاريه فيها إنسان ، ولا يباريه فيها بشر .  
فلو أراد أن يضم في بيته كرائم العقائل ونفائس الخرائد<sup>(١)</sup> لكان له ما يريد ، من أسمى بيوت العرب ، وأجل الجوارى من سبايا فارس والروم يرفلن في حلل الدمقس<sup>(٢)</sup> ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه<sup>(٣)</sup> كسماط قيصر وكسرى .

كيف لا ؟ وقد كانت تحمل إليه الأموال ، حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفي كفه منها شيء ، وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمناه وما وصفناه .

ولم يضم في حريمه سوى المغتربات المكتهلات ؛ التي مات عنها زوجها فلم تجد مأوى ، والتي عز عليها العيش في كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة هي عائشة ، ابنة رفيقه وصديقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾<sup>(٤)</sup> وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ﴾ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار ، وقلن جميعاً : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فتمت لهن بذلك السعادة ، ولنلن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة رضي الله عنها ؛ ولها أربعون سنة ، وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزوجها سوى أنها خطبته لنفسها ، وكانت من أعف النساء ، وأعرقهن نسباً وحسباً ، ولها بعد ذلك فضل السابقة في الإسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضي الله عنها ؛ وفاء المتعة والحس ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة ، وهي أصغر زوجاته وأحبهن إليه<sup>(٦)</sup> .

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ، ولم يتزوج عليها ، وإنما تزوجها لعفافها . وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه . .

(٤) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) الأيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

(١) الخريدة : الفريدة التي لا يوازيها شيء .

(٢) الدمقس الحرير الدمشقي الذي لا يقارن بغيره .

(٣) السماط : بساط يمد للطعام ، ويطلق على الموائد والولائم .

(٦) جاء في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها : قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديا إلى خلائها ، واستأذنت عليه أختها فارتاح لها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

وروى عنها أنها قالت له ﷺ مرة : هل كانت إلا عجوزاً ، بذلك الله خيراً منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا والله ما أبدلني خيراً منها . . آمنت بي إذ كفر الناس ، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بما لها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء » .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، وكانت زوجاً للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها بعد موت زوجها - لعذبوها وفتنوها فى دينها فكفلها ﷺ ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ، ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصاً على إيمانه ، فأراً بعقيدته وتألماً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ، ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها ، وكلنا يعلم من هو أبوبكر الصديق الذى كان معه ﷺ ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا <sup>(١)</sup> ولم يتزوج بكراً غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ، علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ، خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها ، وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته بيدر ، فتزوجها ﷺ مكافأة لها ، وحباً فى أبيها الذى سره كل سرور هذا النسب الشريف ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها ؛ الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكبير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أهلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد ، بوحي من الله تعالى لتشريع : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقد كان زواجه بها إعفاء لها من

(١) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٣) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟ ! .

زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة :

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش رضى الله عنها ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبراً لمصاها في زوجها ، وحفظاً لدينها . . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟ ! .

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم سلمة «هند بنت أبي أمية» وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلماً قديماً وهاجراً إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه في غزوة أحد ، فتزوجها ﷺ ، ويروى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرني في مصيبي واخلفني خيراً منها إلا أخلفه الله خيراً منها» فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت في نفسها : ومن خير من أبي سلمة ؟ ! رجل نال الصحبة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ ، فأواها وحفظها . فترى من هذا ؛ أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد فأواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟ ! .

زواجه بالسيدة أم حبيبة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان ، وكانت زوجاً لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تنصر معه وخالفته واختارت الإسلام عليه ، فأتم الله لها الإسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف لزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباهَا أبا سفيان قدم المدينة فدخل عليها فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ نجس . فقال : لقد أصابك بعدى شر قالت : بل خير .

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة ، حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟ !

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها<sup>(١)</sup> :

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها وتألّفاً لقومها ، وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ ! .

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجاً لمسافع بن صفوان المصطلقى<sup>(٢)</sup> ، وقد قتل كافراً يوم المريسيع<sup>(٣)</sup> وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق ، وكانت سيدة بنى المصطلق ، وبنت سيدهم ، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق . وقالوا : هم أصحاب رسول الله ﷺ ، فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ ! .

زواجه بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت زوجاً لسلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر<sup>(٤)</sup> ، فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول ﷺ فاختارت الخير ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها من اليهود ، وقد أسلم كثير منهم .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟ ! .

### حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية ؛ لامت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة . هذا ما عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ؛

(١) ذكرنا فى الهامش ٢ - عند تفسير قوله تعالى : ﴿إِنْ فى خَلْقِ السَّمَوَاتِ . . .﴾ الآيات أن رسول الله ﷺ تزوجها فور رجوعه من الحديبية بقرية «سرف» وكانت أختها أم الفضل زوجة لعمة العباس رضى الله عنه .

(٢) من بنى المصطلق .

(٣) من غزوات الرسول ﷺ وكانت مع بنى المصطلق ، وكانت فى السنة السادسة من الهجرة ، وقالت عائشة رضى الله عنها «فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها» .

(٤) كانت غزوة خيبر فى صفر من السنة السابعة من الهجرة .

وهي نشر الأحكام الخاصة بالنساء ؛ والتي لا يستطيع تبليغها الرجال ؛ كالطهارة والغسل والحيض والنفاس ، والولادة والرضاع ، إلى غير ذلك من الأحكام التي لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين . على اختلاف طبقاتهم - في ذلك الحين امرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل ، وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره ، وبسط شرائعه ، وقد ثبت أنهم أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء ، من التمتع واللذة ليس غير ، لانتخب الحسان الأبقار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل يأتى بعد هذا مبشرٌ غرٌ سمح عتل زنيم ؛ ويقول عنه ﷺ ، إنه شهوانى يميل إلى النساء في حين أن في دياناتهم ومعتقداتهم ما تنزه الستتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟ فسبحان من هدانا لدين الحق ، ودين النور دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، وفضلاً عن ذلك فلم تكن علاقاته - عليه أفضل الصلاة وأتم السلام - بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، وبأى زوجة مهما علت !

فقد عاش منهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل بلغ ما بلغ من المروءة والرقوة وسعة الصدر ، إلا واستحال رضاه إلى غضب في ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضجر بأزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ، ونذر السوء حيال عمل ما ، ولكن الرسول ﷺ ، الذى أوقى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق ، الرسول الذى أرسل من البشر ، ليعلى من أقدار البشر ، ويرفع من شأنهم ، ويسمو بنوعهم ، لم يكن كذلك ، ولم يكن هذا منه عليه الصلاة والسلام تردداً أو ضعفاً ، بل كان كمالاً وجلالاً ، فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية في أجمل صورها وأرفع مراتبها .

فإن من يقهر نفسه باختياره ليرتقى بضعيف لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، فهو الشجاع الباسل القوى .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة .

## قصة التخيير

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ مِنْ كُنْتَن تَرَدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا فَتَعَالَيْنِ أُمْتَغْنِكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾ \* وَإِنْ كُنْتَن تَرَدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً ﴿١﴾ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقية ، لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا ، والإيمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وقال في ذلك ( أجوع يوماً فأذكرك ، وأشبع يوماً فأشكرك ) ورفض الحياة في زخارفها ومباهجها ومفاتها ، ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماء وحشياً وترفاً لكان له ذلك .

ورأودته الجبال الشم من ذهب      عن نفسه ، فأراها أيما شمم  
وأكدت زهده فيها ضرورته      إن الضرورة لا تعدو على العصم  
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته      قوم نيام ، تسلوا عنه بالحلم

يقال على هذا النبي ﷺ إنه كان غارقاً في ملذات الحياة ، وكان شهوانياً إلى النساء ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبي ﷺ هي كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : « إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد في بيت رسول الله نار يطبخ عليها » (٢)

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول ﷺ في بيته ؟

كان طعامهم في معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، إن السعادة مملكة قائمة بالتنفس ما صورها السيد الجليل محمد ﷺ في هذه الكلمات « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » (٣) .

ليست السعادة في إئتشاء الكتوس المترعة ، ولا في الاستمتاع بالغيد الأماليد (٤) ، إنما السعادة في رضاك عن الله ، وفي رضا الله عنك ، وفي تزكية النفس وإشراق العقل ، وانتصار الذهن ، واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادئ التي تحقق في الإنسان إنسانيته .

(١) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

(٢) من حديث رواه الشيخان عن عروة بن الزبير .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) الناعمات ، والأملود واحدة الأماليد .

كيف يقال على هذا النبي إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية ، وهو الذى كان يمكث في بيته شهرين ، ولم توقد في بيته نار يطبخ عليها ؟ لله درك يا رسول الله .

الحق أنت وأنت إشراق الهدى      ولك الكتاب الخالد الصفحات  
من يقصد الدنيا بغيرك يلقيها      تيهها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين ، في أمر عرض له من أزواجه ، عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ؛ لوferهن هذه وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ، ولكن ماذا حدث ؟

اسمع إلى العلامة ابن كثير : يفسر هذا المشهد القرآني ، بما تيسر من التقدير . يقول رحمه الله تعالى :  
« هذا أمر من الله تبارك وتعالى : لرسوله ﷺ ، أن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة » .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ ؛ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله ﷺ ، فقال : « إني ذاك لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمران بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوي ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبي الزبير ، عن جابر رضى الله عنه ، قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس بيابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس ، فلم يؤذن له ؛ ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن ، فلم يؤذن له ! ثم أذن لأبي بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلوا ، والنبي ﷺ جالس ؛ وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله ؛ لو رأيت ابنة زيد ( امرأة عمر ) سألتني النفقة أنفأ فوجأت عنقها ؟ فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « من حولي يسألنني النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبي ﷺ ماليس عنده ؟ فهما رسول الله ﷺ ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها ،



فقال : ( إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجل في فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ قال : فتلا عليها ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ . . الآية ! قالت عائشة رضى الله عنه : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ ( إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً ميسراً لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ) . . انفراد بإخراجه مسلم دون البخاري .

أرأيت يا أخا الإسلام لم كان التخيير وفيها كان ؟

لأنهم أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى : ﴿ أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ أى أعطىكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع في أنه يأتي من بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى لقد بعثته أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

إن هذا البيت - بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت : ﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ (١) بيت يهبط فيه الأمين جبريل ، ورفقاؤه من كبار الملائكة ، بيت يتلقى الوحي من رب السماء ، بيت قرأ في فوح منه أريج القرآن عطراً وريحاناً ، إنه البيت الذى قال الله تعالى في شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ (٢) .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد الكون في ذكراك تذكرة	وفي رحابك يسمو نظم أشعارى
من أنقذ الكون من شرك يدنسه	وخلص الناس من تأليه أحجار
من نظم العرب من فوضى ومهزلة	وطهر الأرض من رجس وأوضار
من لقن الناس أخلاقاً مهذبة	وشاد للناس ديناً غير منهار
من حرر العبد من رق يكبله	وحرر العقل من سخف بأفكار
من علم الكون قرآناً يرتله	فتنصت الجن إعجاباً بتذكار

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

بحث قيم :

جاء في كتاب الإسلام والعصر الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل بحث قيم في زواج الرسول ﷺ ، وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف :

« لم تظهر حكمة زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن ؛ إلا عندما اتسع أفق الفكر في العصر الحديث ، فإذا استعرضنا زواج النبي ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً ، أو كسباً للدين ، أو عملاً بتشريع جديد ، وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقاً المخزومي ، ولما مات تزوجت أبا هالة التميمي ، فمات أيضاً ، بذلك ورثت عنها مالا وفيراً ، علاوة على ما كانت تملكه ، وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، مما جعلها مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم ، وأشرف قريش .

ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازقة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبي الله ﷺ ليشرف على هذه التجارة ، لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحاً لم تعهدها ، ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسرة - الذي صاحب الرسول ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ﷺ وجمال نفسه ، وصفاء قلبه وطهارة سريرته ، وحدثها عما شاهدته من أمانته المطلقة ونزاهته وعفته ، فأرسلت له صديقتها ( نفيسة بنت منبه ) تقترح عليه أن يتزوجها ، وتزوجها الرسول ﷺ وهو شاب في ريعان شبابه إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، في حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد ﷺ رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغولاً بالنساء ؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسة عشر عاماً ! لقد شدت خديجة أزر الرسول برجالها وعصبتها ، حتى إنه عندما جاءه الوحي وخشى منه ؛ سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذي كان أول من بشر بنبوته وشجعه على إعلان الدعوة ؛ حيث قال له ، وقد قابله في طواف بالكعبة « والذي نفسى بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكدِّبنَّ ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبي على أن يدعو قريشاً ؛ فيعلن لهم دعوة الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول - ﷺ - في جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له ، وتدفعه إلى النضال والصبر ، وعاشت معه خمسة وعشرين عاماً أمضت منها خمس سنوات في جهاد الدعوة تقاسمه ما يلقي من عنت وشدة حتى لقيت ربها ، ولها من العمر خمس وستون سنة .

وبعد موت خديجة ازدادت قريش في أذاها للنبي ﷺ ، فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام ، فوجد من ثقيف التكذيب والإعراض .

وبعد عام من جهاده ، عاد إلى بيته بمكة فوجده قفراً ، فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول ﷺ - به من وحشة ، أوعزوا إلى خولة بنت حكيم<sup>(١)</sup> حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه وتقضى حاجة بيته وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبي بكر رضى الله عنها ، أوسودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد في العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها لربط المسلمين الأول ببعضهم ببعض ، وتزوج الرسول ﷺ بعائشة بنت وزيره الأول أبي بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج الرسول بنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبي طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً ﷺ برجاله الأوائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ، أقوى الرجال في الإسلام ، وأول من أسلموا وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول ﷺ - بزواجه ؛ فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخوانه وأصدقائه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراماً لزوجها وذلك للإشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين في الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به في سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقي حتفه في سبيل دين الله ، فتزوج الرسول ﷺ من بعض نساء شهداء المسلمين ، ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجهن ، إما لكبر سنهن ، أو لكثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ﷺ ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل في سبيل الله ؛ لم يعدم رجلاً يشرف على بيته ، ولم يعدم أباً يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبي الله نفسه ﷺ بل حبيب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا ، ولذلك تزوج الرسول ﷺ من زينب - أم المساكين - زوجة عبد الله بن جحش - أحد أمراء جيش المسلمين الذى قتل في وقعه أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو في الإسلام ، كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة ، زوجة أبي سلمة أحد مهاجري المسلمين إلى الحبشة الذى أبلى بلاء حسناً في الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار المسلمين ومنهم أبو بكر وعمر

(١) روى خبر ذلك الطبراني عن عائشة رضى الله عنها ، ورواه أحمد عن أبي سلمة ويحيى بن عبد الرحمن في حديث طويل .

فرفضت ، حيث قالت : « إني امرأة مسنة وأم أيتام ! » وعز على الرسول ﷺ أن تظل هذه السيدة حزينه وحيدة ؛ فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام في زواج الرسول ﷺ يقول الله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

وقد كان الرق منتشرًا في بلاد العرب ، فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقيق ، وكان للسيدة خديجة زوجة النبي ﷺ عبد اسمه زيد ، وهبته لسيدنا محمد ﷺ ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة ، وقربه الرسول إليه ، حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد ، هذا العبد الذي تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندًا له ، فيزوجه من ابنته مثلاً ؟ لقد طلب زيد يوماً من الرسول - ﷺ - أن يزوجه زينب بنت جحش - ابنة عمه الرسول - فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أسرتها ، وفي ذلك نزل القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ مِنْهُ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٢) .

وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب وكان ذلك تشريعاً جديداً للمسلمين وعملاً يقول الله تعالى : ﴿ وَلِعَبْدٌ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ (٣) .

ولم يدم ذلك الزواج طويلاً ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبي ﷺ كما جاء في سورة الأحزاب ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (٤) وأراد الله سبحانه وتعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى (٥) أن يتزوج من كانت زوجاً لمن ادّعاه ، كما لا تجيز للمتبنّي أن يتزوج من كانت زوجاً لمتبنائه ، ولا للسيد أن يتزوج من كانت زوجة غيره فهي عن ذلك الله تعالى إذ يقول : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾ (٦) .

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول ﷺ القدوة للناس في ذلك ، وخشى في نفسه أن يقول عنه الناس تزوج من كانت زوجاً لدعيه ، وكان يخفى في نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما البعض ، حتى لا يتزوجها ، ولكن الله يبدي هذا التنافر ، فيقول المولى عز وجل في سورة الأحزاب : ﴿ وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٧) .

(١) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية : ٢٢١ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

(٥) من ادعى بنوة شخص أى « المتبنى » .

(٦) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

(٧) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

هذه هي حكمة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش ، وهي بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام ، من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها .

وأيّن كان الرسول ﷺ يوم أن كانت زينب عذراء ، وهي ابنة عمته ، والتي كان يعرفها تماماً ؟ أو لم تستهوه محاسنها وهي عذراء ؟

ولكنه الحقد على الإسلام ونبي الإسلام ؛ الذي يجعل الخصوم يغترون ، وهناك حكمة في زواج الرسول - ﷺ إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هزم المسلمون بني قريظة - بعد حصار طويل - كانت ربحانة بنت عمرو - زوجة الحاكم أحد كبار بني قريظة من نصيب الرسول ﷺ في الغنائم ، فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لزوجها منها أكبر الأثر في نشر الدعوة الإسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثأرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول ﷺ لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

وكذلك عندما انتصر المسلمون في غزوة بني المصطلق كانت جويرية بنت الحارث ، بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس ، الذي طلب منها<sup>(١)</sup> أن تفتدي نفسها ، فاستعانت بالرسول ﷺ على فك أسرها - فعرض عليها الإسلام وأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره في نفس بني المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ﷺ فدخلوا جميعاً في الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر كانت صفية بنت حيي بن أخطب ضمن الأسرى فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة ، إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء في الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام في جزيرة العرب أرسل الرسول إلى النجاشي ملك الحبشة ، الذي آوى المسلمين المهاجرين ، وأكرمهم ، ليكون النجاشي رسوله في طلب الزواج من أم حبيبة - رملة بنت أبي سفيان - بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذي كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم ، وتمسكت بدينها تحافظ عليه ، وتقيم شعائره في دولة غريبة ، كما كانت لفتة سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبة بنت أبي سفيان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمي الإسلام ، وبزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك في قريش ، انتصاراً دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول في نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء منهم : هرقل وكسرى والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط في مصر ؛ أنه أرسل للرسول هدايا فيها جارتان إحداها مارية القبطية التي تزوجها الرسول ﷺ ، وسيرين التي أهداها إلى حسان بن ثابت .

(١) الذي أخرجه ابن اسحاق وابن سعد والحاكم أنها هي التي كاتبته وجاءت إلى النبي ﷺ تستعينه على كتابها .

ولما أحل للنبي ﷺ الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة - بعد صلح الحديبية - دخل الرسول على رأس المسلمين في عمرة القضاء وظلوا أياماً ثلاثة هي ما اتفق عليه في المعاهدة ، وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمرأ ولا يأتون معصية ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً ، وإنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر ، زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث ، خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول ﷺ وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها ، وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التي كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ ، كما كانت تصح دائماً ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذي هدم العزى وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذي هدم سواعاً ، وكذلك أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ فهل منه ما يثير في أى نفس الشك في أنه تزوج لحبه للنساء ؟ وهل في أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سبباً في زواجه منها ؟

وهذه هي الأهداف التي هدف إليها الرسول ﷺ من زواجه ، لمصلحة الدعوة والدين ، لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التي من أجلها أحل الله لنبيه تعدد الزوجات ، (زوجاته) نزل قول الله تعالى : ( لا يحل لك النساء من بعد )<sup>(١)</sup> .

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه ما يثير في أى نفس الشك في أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أوليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبي ﷺ وعلى الحق أى افتراء ؟ اهـ .

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التي من أجلها تعددت زوجات الرسول ﷺ .

سيدى أبا القاسم يارسل الله :

لما أراد الله جل جلاله	أن ينقذ الدنيا من العشرات
أهداك ربك للورى ياسيدى	فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته	ويسطته في حكمة وأناة
وطلعت في الليل البهيم مؤذناً	بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوماً ضللوا	ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا	وأقمت بين إساءة وأذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت في	أعناقهم في عزة وثبات

فحظيت بالنصر المبين مؤزرا وأقمت حقك خافق الرايات  
وضربته مثلاً لكل مكابر لا يستوى حق بغير حماة

### الإسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا رسول الله ﷺ ، أن نعقب هذه بكلمة عن حكمة الإسلام البالغة في إباحة تعدد الزوجات ، وقبل أن نسجل هذه السطور ؛ نود أن نبدأ بهذه القواعد التي تبني عليها دائماً الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين .

١ - عالمية الدعوة :

القاعدة الأولى من تشريعات الإسلام : أنه شريعة عالمية وليس حكماً إقليمياً ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢) . وقال جل جلاله ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٣) . وقال عظمت حكمته : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾ (٤) . وقال ﷺ : ( كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى كل أمة وأمة ) (٥) .

وإذ قد تقرر ذلك فلا بد أن يكون تشريع الإسلام شاملاً لكل مقتضيات الزمن ومحيطاً بكل نواحي الحياة .

### ٢ - عدالة النساء

القاعدة الثانية : أن الإسلام دين العدالة ، فهو في كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من مسائله ، ولذلك فإن العدالة هي السمة الحقيقية في تشريعات الله ، فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن في تعدد الزوجات - أو غير ذلك من القضايا الإسلامية ، جوراً أو ظلماً ، لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة ، قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٦) .

وقال عز من قائل : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (٧) .

(١) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٤) من الآية : ٣٣ من سورة التوبة ، ومن الآية ٢٨ من سورة الفتح ، ومن الآية : ٩ من سورة الصف .

(٥) رواه الشيخان ، وهو جزء من إحدى روايات حديث « أعطيت خمسا لم يعطهن نبي قبلي ... » .

(٦) الآية : ٢١ من سورة الروم .

(٧) من الآية : ٣ من سورة النساء .

وقال سبحانه وتعالى في موضع آخر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۖ ﴾ (٢) .

### ٣ - الإسلام يخاطب العقل :

القاعدة الثالثة : أن الإسلام في تشريعاته منطقي وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .

جاء ليوحد العقائد ، لا ليفرق القواعد ، وقد قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء : وقال العقل : ليت ما أمر ، ولم ينه عن شيء . وقال العقل : ليت ما نهى .

وقد صدق الله إذ يقول ﴿ فطره الله التي فطر الناس عليها ۖ ﴾ (٣) .

وإذ يقول : ﴿ قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ۖ ﴾ (٤) .

وإذ يقول : ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى \* ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ۖ ﴾ (٥) .

وبناء على ما تقرر من قواعد ، فإن كل تشريع إسلامي ، له حكمته البالغة ، وله هدفه الرفيع .  
الإسلام : دين عالمي . الإسلام : دين العدالة ، الإسلام : لا يجافي العقل الرشيد ولا المنطق السديد .

وقد جاءت حكمة الإسلام بالغة في تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لا بد من وجوده في صيدلية الإسلام العالمية ، وإلا فما الذي يعالج مشاكل العالم ، إذا لم يكن الدواء الذي يعالج به الداء هو تعدد الزوجات ؟

إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة فلا بد أن يعالج الإسلام جميع مشاكلها ، ويداوى بالحكمة جروحها ، والإسلام كما عهدناه في علاجه ؛ كالنسيم الهادي ، يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم ؛ دون أن تحرق المريض .

(١) من الآية : ٨ من سورة المائدة .

(٢) من الآية : ٢٣٧ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٣٠ من سورة الروم .

(٤) الآية : ١٦١ من سورة الأنعام .

(٥) من الآية : ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه .



إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء ؛ لم يدع شيئاً لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمراً فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فعله .

وقد كان أوائل هذه الأمة - رضى الله عنهم - حين يحزبهم أمر ؛ أو تعترضهم مشكلة ، يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر ، ويتنهون عما نهى عنه وزجر ، ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلاً يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شر داء تبتلى به المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ، ولا مجال لأصحاب الهوى في فهمه ، قال سبحانه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (١) .

الله سبحانه وتعالى أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ (٢) .

وهذه الإباحة ليس فيها غموض ، إذ الأمر في هذه الآية الكريمة دليل الإباحة كما في قوله تعالى : ﴿ يأأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ (٣) .

وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ (٤) .

وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ (٥) .

فالأمر في هذه الآيات لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل في قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ (٦) علم أن هناك صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل . وثانيهما : تعدد مع الجور ، الصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة ، أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز لأنه مبنى على العدل ؛ والعدل منفي كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (٧) غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق كما فهموا ، لكان تناقضاً ولغواً ، والقرآن الكريم منزّه عن ذلك ، تنزيهاً كاملاً ، ألم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٨) .

ألم يقرأوا قوله جل شأنه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ (٩) .

إذ ليس من المعقول ولا من المستساغ ولا من المقبول ؛ أن يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون في حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب ويعد ذلك يقول : الجور محقق في كل واحد من راغبي التعدد .

(١) من الآية : ٨٢ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ٣ من سورة النساء .

(٣) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٤) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

(٥) من الآية : ٨٣ من سورة النساء .

(١) الآية : ٨٢ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ٣ من سورة النساء .

(٣) من الآية : ١٦٨ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ١٧٢ من سورة البقرة .

(٥) من الآية : ١٤١ من سورة الأنعام .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكان الأحرى والأجدر - إذا كان هذا المعنى هو المقصود - ألا يذكر التعدد أصلاً إباحة أو حظراً ، أما وقد ذكر التعدد في القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية في شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع ، وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع ؛ إنما هو العدل في الميل القلبي ، والمحبة القلبية ؛ إذ أن قلوب بني الإنسان بين يدى الرحمن ، يصرفها ويقلبها كيف شاء قال سبحانه ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ (١) .

لذا كان الرسول ﷺ ، يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : ( اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك ) (٢) ، ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريمة وهو قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ (٣) لعلموا أن العدل هنا قلبي ، إذ أن الله لم يقل : فلا تميلوا بعض الميل ، لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن : فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذي يؤدي إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجروح المؤلمة بها ، ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمعلقة ﴾ (٤) والمعلقة هي المرأة التي أساء زوجها معاشرتها ، فلا هي متزوجة ولا هي مطلقة ، وبناء على ما سبق فلا تناقض في كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾ (٥) . المقصود به العدل فيما يملك الإنسان من الأمور المادية المحسوسة ، كالمساواة بين الزوجات في المسكن والكسوة والنفقة والمبيت ، أما العدل في الآية الثانية وهو قوله جل شأنه : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (٦) فالمراد به العدل القلبي والمحبة القلبية وهذا عاجله القرآن بقوله : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ (٧) وعلى هذا يستقيم الميزان في الفهم ، وينتفى التناقض والاختلاف ، عن أحكام الله سبحانه وتعالى ، جلّت حكمته وعظمت رأفته . ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعاً مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه في قوله : ﴿ فَاذْكُرُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنِ وَثَلَاثٍ وَرَبَاعٍ ﴾ (٨) وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة ، منها ما هو صريح القرآن وما هو الإجماع .

فإذا ما ذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول ﷺ : ( لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ) (٩) .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن ، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ﴾ (١٠) جواز الجمع بين من عداهما ، وقد أمر ﷺ : غيلان الثقفي حين أسلم وله عشر نسوة ، أن

الحمد لله الذي جعل هذا الكتاب من أجله

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٢) وفي رواية أخرى فلا تلمني فيما تملك ولا أملك رواه البخاري ومسلم وأحمد والقرطبي ج ٥ ص ٤٠٧ وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » . (٦ ، ٧) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٣) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٤) من الآية : ٢٣ من سورة النساء .

(٥ ، ٨) من الآية : ٣ من سورة النساء .

يستبقى أربعاً منهم . . كل هذا يدل دلالة قاطعة - لا تقبل الشك أو الجدل - أن التعدد من بديهيّات المباحات ، وأن التكلم في منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله ، وهو جريمة : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ \* وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴿ ١ ﴾ .

ليس في تعدد الزوجات أى مناس بمصلحة المرأة ، سواء أكانت متزوجة على أخرى أم متزوجاً عليها بأخرى .

فأما الحالة الأولى : فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ، ولا تتزوج إلا برضاها ، فإن كان ذلك يضرها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج ، وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأولادها ، فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يدفع عن كاهلها عبء الفاقة وذلل العوذ ، وغائلة الجوع .  
وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها ، فلا بأس من طلبها الطلاق ، لأن الإسلام لا يرضى بالضرر ، وشريعتنا السمحة لا تأبى ذلك .

ومهما يكن من شىء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ ﴿ ٢ ﴾ .

فقل لهؤلاء المجادلين : ﴿ أنتم أعلم أم الله ﴾ ﴿ ٣ ﴾ .  
ثم قل لهم : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ﴿ ٤ ﴾ .

ويراعى الإسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الإسفاف والإسراف ، إذ أن الإسلام لا يرضى بالضرر أو الضرر فقاعده الأولى « لا ضرر ولا ضرار » .

وقد يكون فى التعدد ناحية إنسانية أخلاقية ، قد تكون الزوجة مريضة مرضاً لا يمكنها من أداء واجبها نحو زوجها ، من ناحية المباشرة ، أو القيام بخدمته ، فهل الأولى والأفضل أن يرميها بعيداً ؛ ويقطع ما بينه وبينها من علاقة ، أو يبقى عليها مع زوجة تؤدى له حقوقه الشرعية .

وقد تكون الزوجة عاقراً لا تنجب ، والزوج يريد ولداً ، فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة العاقر بعيداً عن كنفه ؛ بعد طول معاشرة ، أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الإنسانية التى أمر الله بها فى قوله : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ﴿ ٥ ﴾ ما من شك فى أن جانب الإنسانية يبدو واضحاً فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .

(١) من الآيتين : ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(٢) من الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية : ١٤٠ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٢٣٢ من سورة البقرة ، ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران ، الآية : ١٩ من سورة النور .

(٥) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدي إلى إفساد العلاقات بين الإخوة غير الأشقاء ؛ فهي دعوة فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحايين ، هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التي حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة ، وملئت فيها الملاجم بأبناء الزنا والبيوت بالأبناء غير الشرعيين .

إن خالق الناس ومن هو أدري بالناس من الناس ، قال بالتعدد ؛ فهل يجوز لإنسان مهما أوقى من علم وفهم أن يأتي فيقول : ألا إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما في تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة ، فإن الرجال - فضلاً عن زيادة عدد النساء عليهم - معرضون لنقصان مستمر ، بسبب قيامهم بشاق الأعمال ، وبأعباء الحروب وغيرها ، وتعرضهم للمهالك ، وليس من الحكمة في شيء أن ندع جانباً كبيراً من بناتنا بدون إحصان .

إن الأوربي يرفض تعدد الزوجات في الوقت الذي يبيع لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ، ويرى والد الفتاة فتاته مع عشيقها فيسر ويغبتط بل ويعد لها جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتها وطمأنيتها .

### عظمة الإسلام

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء ، التي تحرم على الرجل النظر إلى المرأة ، وتحرم على المرأة النظر إلى الرجل ، فقد كان من العدالة أن توجد توازناً لهذه القاعدة ؛ فجعلت الزواج مكان السفاح ، ووضعت الحلال مكان الحرام ، وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر ، ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟ .

وهل من المستحسن أن يكن حرائر أم يكن فواجر ؟ .

إن الإسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ، ليحمي المرأة من عدوان الرجل الظالم ، فلم يقبل أن تكون في علاقاتها معه إلا على حالة واحدة ، وهي أن تكون زوجة ؛ لها ولأولادها حقوق مقررة ، ولا يستطيع الرجل التنصل منها ، وفي الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة ، وجميع ما من شأنه الخط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الإنسانية ؛ إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك : أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ، ويضرب بيد من حديد على أيدي المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين في ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما : يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة ويحيز التلاعب بالأعراض والخوض في ضروب الفحشاء .

بديهي أنه لا يوجد إنسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثاني ، ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجباء ، وفي أى دين ، أو أى نظام ، أو أى عرف ؛ تكون الخليفة أفضل من الخليفة ؟ .

ويقولون أيضاً : إن الرجل الذى يعقب أولاداً من زوجتين يعتبر في نظر المجتمع آثماً ؛ لأنه يخلق العدواة بين نسائه ، والبغضاء بين أبنائه ، فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولاداً من امرأتين ؛ إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية ، لا يعتبر آثماً ؟ ولا يكون خالفاً للعدواة بين نسائه وأبنائه ؟ وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿ (١) .

هذه شريعة الله ، شريعة الحق ، شريعة العدل . وهذا منهاج الخالق البارئ المصور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) .

### شهادة الخصوم لنبي الإسلام

لم تكن شهادة الخصوم لنبي الإسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين ؛ في القرن العشرين أو ما قبله من القرون القريبة ، إنما سبقت ذلك شهادات له ﷺ من بنى قومه ، الذين لقبوه قبل بعثته بالصادق الأمين ، لما رأوا فيه من كريم الخلق ، وحميد السجايا ورفيع الشماثل .

ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر ، هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة . وقوة الإدراك ، ذلك المشهد هو اشتراكه ﷺ في بناء الكعبة بعدما تصدعت ، ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ؛ ألا وهى وضع الحجر الأسود !! من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟؟ لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم في الخلاف .

إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله ، وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس في الجلاء ، الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه

(١) الآيات : ١ - ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية : ١٤ من سورة الملك « تبارك » .

السلام ، بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التي نصبت ، بناها بوحى من الله تعالى ، وأمره له بذلك .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ (١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٢) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التي أوهت بنيانها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادى سيل عرم ؛ جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بدءاً من إعادة تشييد الكعبة ، حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ، ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب ، ولقد شارك الرسول ﷺ قبل البعثة في بناء الكعبة ، وإعادة تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا إزاره ، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة في الأصح . ولقد كان له ﷺ أثر كبير في حل المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلاً للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع ، لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر .

لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر في هذا المكان ، واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم ، حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ، وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لأيمانهم ، لذلك سماها لعقة الدم ، فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومي ، ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فلما رأوا محمداً ﷺ أول من دخل قالوا : هذا الأمين ؛ رضينا بحكمه ، وقصوا عليه قصتهم ، وسمع قولهم ، ورأى العداوة تبدو في أعينهم ، ففكر قليلاً ثم قال : هلم إلى ثوباً ؛ فأتى به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعاً إلى ما يجازى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه في موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر ، وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض .

(١) من الآيتين : ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

هكذا وقف الصادق الأمين ﷺ موقفاً شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، ثاقب الفكر صائب الرأي عبقرى القواد ، زكى القلب .

### شهادات للفلاسفة والمفكرين تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان : « من هو محمد » ؟

« إن محمداً ﷺ هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس ( يعنى فى حساب وزمان تولستوى ) ثم قال : ولد النبى محمد ﷺ فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، من أبوين فقيرين ، وكان فى حداثة سنه راعياً يرعى الغنم ، وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية ، حيث كان يتأمل فى الله وخدمته . أى طاعته .

إن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، فأقاموا لها أنواع التعبد ، وقدموا لها الضحايا المختلفة ، ومنها الضحايا البشرية ، ومع تقدم سن محمد ﷺ كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب ، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب ، وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد ﷺ حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ، ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى<sup>(١)</sup> . وهو أن الله اصطفاه لإرشاد أمته . وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة ، وإنارة أبصارهم بنور الحق ، فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم الواحد القهار ، وذلك بحسب ما أوحى الله إليه ، وبمقتضى اعتقاده الراسخ ؛ وبعد ما وصف تولستوى الديانة الإسلامية وصفاً صحيحاً موجزاً قال : « وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيراً من الاضطهاد ، شأن كل نبي بعث قبله ، نادى أمته إلى الحق ، ولكن هذه الاضطهادات لم تكن عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمداً لم يقل إنه النبى الوحيد ، بل جاء متممًا للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً » .

وبما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

### كارليل

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال « وإنى لأحب محمداً ﷺ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ ، توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ، وما كان بمكنته أن يقودهم ويعاشرهم

(١) لم يفهم الكتاب الغربيون أن الله أوحى إليه عن طريق الملك الذى أخبر ﷺ أنه رآه ، وأكد القرآن ذلك ، وشهد الصحابة بذلك حينما كان يأتى فى صورة بشر .

معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة ، وهم ملتفون به ، يقاتلون بين يديه ، ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة ، وكانوا حماة الأنوف وأبابة الضيم ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم ؛ حتى رضخوا له واستفادوا ، فذلك وإيم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ؛ لما خضعوا له ولا أذعنوا .

وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد ﷺ قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ؛ لما كان مصيباً في طاعتهم مقدار ما ناله في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا يكون الأبطال .

### دائرة المعارف البريطانية

جاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

« كان محمد ﷺ أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً . »

### دينسون

يقول دينسون عنه ﷺ في كتابه : « الحركات كأساس للحضارة » ، « وفي القرنين الخامس والسادس الميلاديين كان العالم المتمدن على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة ، كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة ، مشرقة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر بلا قانون ولا نظام ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم بأجمعه . »

### جيمس متشنر

يقول عن رسول الله ﷺ : « إن محمداً ﷺ هذا الرجل الملهم الذي أقام الإسلام ، ولد حوالي ٥٧٠ ميلادية في قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين ، والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين ، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله ، قد حطم الأصنام بيديه ، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده ، فأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيراً ونذيراً . »

### البروفيسور جارسون دى تاس

قال في كتابه « الإسلام » : إن محمداً رسول الله — عليه الصلاة والسلام — كان منذ نعومة أظفاره مجانباً للرديلة ، محباً للفضيلة ، حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين والمصلح العظيم محمد ﷺ أعاد ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أقى الوحي من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه



العقلية السديدة أعين أمة جاهلة ، فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين في أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينها رأوا أصنامهم تكسر على مرآى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة في الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائرهم ويهبون لقتل محمد ﷺ ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه ، فقد كانوا يشعرون بذلك ، حيث يجدون في نبرات صوته هدى وتأثيراً كبيراً ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ، ولم يجدوا بدا من السلوك في التقاء الحديد ، لأنه اجتاحت كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شىء يقف في طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة وأخذت قوة الله هاتيك الشرور والآثام وحررت الإنسانية من قبضة الوحشية .

وفى الختام قال :

« وبالإجمال أتى الوحي من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة . »

### لوليل توماس

قال الكاتب الإنجليزي الكبير لويل توماس :

« قبل أن يكتشف خريستوف كولب أمريكا بألف سنة ، أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور في مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان في طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالي الجبال التي تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا في تجارة بمال إحدى نساء قريش ( يشير إلى السيدة خديجة ) وسرعان ما شعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال ، يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله كل إنسان بدون مشقة ، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين . »

ثم قال توماس :

لقد كان محمد العربي القرشى النبی الهاشمی والرسول التهامی ؛ أول من وحد قبائل العرب المتنافرة في تلك الجزيرة ، وأول من ألفت قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة .

جاء محمد وجمع كلمة العرب ووجد صفوف العرب ، ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به ، وقد فاق فتى مكة جميع الرسل ، وقادة الرجال ، بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلباً واحداً .

مات النبي محمد ﷺ ، وتدفقت بعده موجة فتوحات الإسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكراً خالداً أبدياً لذلك الرجل العظيم الذى أنتجته وأنبته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمراً لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وإفريقيا ، إلى أن استولت على أواسط أوروبا تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان في إبان مجدهم وعهد عظمتهم . »

وفي الختام قال توماس :

« وفي ذلك العصر عصر فتوحات الإسلام ، قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الإسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة ، وبذلك ؛ فإن الإسلام قد حل بالعالم وانتشر في ربوعه بسرعة البرق » .

ادوارد مونتيه مدير جامعة جنيف

قال في محاضراته التي ألقاها :

« . . ولقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد بل لا توجد أبداً ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيماً وباهراً ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة ؛ التي وطدت سلطة نبي الإسلام ﷺ ، وإصلاحه بعيداً عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن ؛ إن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف في عهد محمد ﷺ ، وعهود خلفائه الأولين ( يريد الخلفاء الأربعة ) .

ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار ؛ العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها ، والوقوف على حقيقتها » وقال مونتيه في محاضرة أخرى بجنيف :

« الإسلام في واقع الأمر ينتشر نوعاً ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم لأن كل مسلم في البلاد الوثنية كان رسولاً لدينه مبدئياً ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، وتلك خاصة من خاصيات الدين الإسلامي . أن يستحوذ تماماً على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين ، فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الإسلامي ، وإنني أكرر أن المسلم غالباً يحمل في جسمه أنسجة البشر ، فالإسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التي تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية أو الديار التي تعبد فيها الأصنام ، فرسل الإسلام تدفعهم الغيرة للتبشير ، إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة ، خاصة في البلاد ، وفي الشعوب التي يقومون فيها ، بأداء عملهم الديني وهنا نرى العامل الديني . يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعي والاقتصادي ، فالإسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها يمتد نفوذه وينبئ لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية في أرقى الحالات وتباعاً يعتبر من أول وسائل التقدم والرقى » .

الدكتور لينز

يقول : « إنني لأجرؤ بكل أدب أن أقول : إن الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات لو كان يوحى إلى عباده : فدين محمد ﷺ هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هي الشاهدة على الإلهام .

فرسالة محمد هي هذا الإلهام .

## البروفيسور يورسورت سميت

يقول : « عندما ألقي نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد - ﷺ ويطولته ، ما كان منها في بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة - وكم من بطولات المعجزة أحدثوا - أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة ، حتى أن الإنسانية لم تعرف له مثيلاً . »

## عود على بدء

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ المراد هنا أن الاقتصار على الواحدة ، إن خيف عدم العدل أو في سبيل إلى رفع الجور والظلم ، وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ألا تعولوا ﴾ فالإسلام لحمته العدل ، وسداه الإنصاف ، ولحمته وسداه الحق<sup>(١)</sup> ، فإذا سئلت عن الإسلام فقل : إنه الصديق المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق ، إنه في علاج المشاكل كالنسيم الهادي يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، وكالحراة التي تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، إنه يداوى الجروح الدامية بمزاجهم الروحانيات الصافية ، وقد صدق مولانا جل شأنه إذ يقول : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾<sup>(٢)</sup> .

والله أكرمنا بكتاب الله ما أهاننا أحد ولو طبقنا تعاليمه لرُفرت راية الإسلام على كل بلد ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾<sup>(٤)</sup> . الخطاب للأزواج ؛ أي وأعطوا النساء اللواتي تعقدون عليهن المهور عطاء هبة ، يكون رمزاً للمودة التي ينبغي أن تكون بينكما ، وآية من آيات المحبة ، ودليلاً على وثيق الصلة والرابطة التي تجمع شملكما ، وتحيط بسماء المنزل الذي تحلان فيه ، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء ، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف ، من مأكول وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك ، مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التي يريد أن يجعلها شريكته في الحياة .

﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ أي فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئاً من الصداق من غير ضرار ولا خديعة ؛ فكلوه هنيئاً مريئاً ولا ذنب عليكم ولا إثم في أخذه .

ومن ثم لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته ، إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فإذا طلب منها شيئاً وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب ؛ فلا يحل له ، ألا ترى أن الله تعالى نهي عن أخذ شيء

(١) اللحمه والسدا ، هما خيوط النسيج في الأنوال ، واللحمه هي الخيوط الغرضية في المكوك خيوط السدا الطولية .

(٢) الآية ١٤ من سورة الرعد ١٨٧ .

(٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٤ من سورة النساء .

من المرأة في طور المفارقة فقال : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ (١) .

فالتحذير من أخذه في طور الرغبة والتحبب ، وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية ؛ من كفالة المرأة والإنفاق عليها يكون أشد وأكد ، ولكن حب المال جعل الرجال يماكبون في المهر ، كما يماكبون (٢) في سلع التجارة ، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار .

### الحفاظ على المال

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٢٧﴾ وَأَبْتَلُوا أَلَيْسَ لِي بِمَا أُخْلِفْتُ إِلَى آلِي إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ السفهاء ﴾ واحدهم سفيه : وهو المبذر للمال المنفق له فيما لا ينبغي ، وأصل السفه الخفة والاضطراب ، ومنه قيل زمان سفيه : إذا كان كثير الاضطراب ، وثوب سفيه : ردىء النسيج ، ثم استعمل في نقصان العقل في تدبير المال وهو المراد هنا ﴿ قياما ﴾ : أى تقوم بها أمور معاشكم وتمنع عنكم الفقر .

قال الراغب : القيام والقوام ما يقوم به الشيء ويثبت كالعماد والسناد (٣) لما يعمد ويسند به ، ﴿ وارزقوهم ﴾ : أى واعطوهم . و [ القول المعروف ] : ما تطيب به النفوس ، وتألفه ، كإفهام السفيه أن المال ماله لا فضل لأحد عليه ﴿ آنستم منهم رشداً ﴾ أى أبصرتهم منهم حسن التصرف في الأموال ، [ الإسراف ] : مجاوزة الحد في التصرف في المال ، و [ البدار ] : المبادرة والمسارة إلى الشيء ، يقال بادرت إلى الشيء وبندرت إليه ﴿ فليستعفف ﴾ : أى فليعف ، والعفة : ترك ما لا ينبغي من الشهوات ، [ الحسيب ] : الرقيب ..

أمر الله تعالى بالمحافظة على : الدين ، والعقل ، والنفوس ، والعرض ، والمال ، وهذه الأمور تسمى في الإسلام بالكلية الخمس ، وما من شك في أن المال نعمة لمن أحسن استعماله ، قال رسول الله ﷺ : ( نعم

(١) من الآية ٢٠ من سورة النساء وسيأتى تفسيرها إن شاء الله .

(٢) المماكسة المساومة في زيادة المهر أو إنقاصه ، كالمساومة في ثمن بضاعة .

(٣) العماد : أعمدة البناء أو عمد الخيام لا يقوم البناء ولا الخيام ترفع إلا بها والسناد أى الأكتاف التى تقام خارج جدران البناء إذا أوشكت على الانهيار لتسندها .

المال الصالح للعبد الصالح) (١) لذا وجب على المسلم أن يكون حسن التصرف في المال ، فلا إسراف ولا تقتير ، قال جل شأنه ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ \* إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴿ (٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ (٣) ووصف الله تعالى سلوك المؤمنين في المال فقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (٤) .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود « ما عال من اقتصد » .

وروى عن ابن عمر « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

وما من شك في أن المال عصب الأمم ، ومصدر قوتها ، إذا كانت الأمم رشيدة في تصرفها .

ونحن في عصر أصبح المال فيه كما يقول الاقتصاديون « الورقة الراححة على مائدة الدبلوماسية العالمية » ومن هنا فإن الإسلام حارب الثالوث المدمر « الفقر والجهل والمرض » فقد كاد الفقر يكون كفراً ، وكان النبي ﷺ يستعيز بالله من : الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال ، ولم يذهب الفقر إلى بلد إلا قال له الكفر خذني معك ، ولم تذهب البطالة إلى بلد إلا قالت الرذيلة لأصحابها خذيني معك ، وهل وجدت الشيوعية المضللة الملحدة أرضاً ترتع فيها وتلعب وتعشش وتبيض وتفرخ ؛ إلا أرضاً فيها الفقر قد ضرب أطنابه (٥) ، ونشب أظفاره هناك ، تبيض الشيوعية الإلحاد وتفرخ الزندقة ، بحجة القضاء على الفقر ، وهي في الحقيقة توزع الفقر بسخاء ، وهي الظلم الاجتماعي الفادح الفاضح ، التي تغرس في النفوس الصراع والحقد والبغضاء والشحناء ، وكلها تؤدي إلى حمامات الدم .

فما أعدل الإسلام عندما ينادى أبناءه فيقول رسول الإسلام ﷺ (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) (٥) .

وما أعظم عدالة الإسلام عندما تقول الآيات : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ (٦) . فالملكية في الإسلام ملكية خاصة ، لكن المنفعة في المال عامة . قال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برأى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾ (٧) .

(١) هو جزء من حديث طويل روته الكتب الأربعة .

(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٤) الأطناب جمع طناب ، وهي أطراف الخيمة الممتدة على ما تحتها من الأرض .

(٥) رواه الإمام أحمد .

(٦) من الآية : ٧ من سورة الحديد .

(٧) الآية : ٧١ من سورة النحل .

لقد وجه الله تعالى الخطاب إلى الأوصياء وأولياء الأمر ، فنهاهم عن إيتاء الأموال للسفهاء الذين لا يحسنون التصرف ، بل يبذرون المال تبذيراً ، والمال قد جعله الله قياماً ؛ تقوم به مصالح الحياة ، وركيزة تقضى بها المصالح ، وأضاف المال إلى الأولياء - مع أنه مال اليتامى أو القصر - وذلك لأن المجتمع الإسلامى جسد واحد ، فمال السفهه فى المحافظة يجب أن يكون كمال الوصى .

ثم أن القرآن الكريم نحا بالمال منحى عجيباً ، عندما قال تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ . والرزق يشمل النفقة المعلقة بالمطعم والمشرب والسكن والكسوة وإنما نص على الكسوة هنا ، لأنه كثيراً ما يقع الإهمال بشأنها ، هذا من الناحية المادية ، وإنما قال تعالى ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أى فى الأموال ولم يقل ارزقوهم منها ، ليدفع الأوصياء إلى استثمار المال بالطرق المشروعة ؛ من تجارة ومضاربة وغير ذلك ، فيكون الرزق فى أرباح الأموال ، ولو قال منها لكان الرزق من المال نفسه فسرعان ما ينفد ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) ويقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (٢) ثم يأتى بعد ذلك الجانب المعنوى فى المعاملة فيقول تعالى للأولياء : ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ سواء أكان السفهه رجلاً أم امرأة ، والقول المعروف هو الذى يشمل على الإرشاد والتوجيه وتطبيب الخاطر ، كأن يقول الوصى للسفهه لا تجزع فإلما مالك ، وكأن يقول له احرص على مالك ، واغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت ؛ فقد أمرت بالمحافظة على مال اليتيم ، وجل جلالك إذ تقول : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ وما أعظمك وأحلمك وما أكرمك وأنت القائل : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ (٣) لقد بلغ من حرص الإسلام على مال اليتيم أن الله جل ذكره أمر الأوصياء قبل أن يؤتوا اليتيم ماله ، أن يجتنبوه فى السلوك والتصرف ؛ فإن آنسوا منه رشداً وسلوكاً مستقيماً فليدفع إليه ماله بنفس راضية مطمئنة ، وذلك عندما يبلغ اليتيم مبلغ النكاح ، أى السن التى يصلح بها أن يكون زوجاً ورب بيت وأباً ، وهذه السن تؤهله أن يكون كذلك ، فإن كان رشيداً سليم التصرف مستقيماً الحال وجب على الوصى أن يدفع إليه ماله دون ما تردد .

قوله جل شأنه : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ هذا نهى صريح عن الإسراف فى مال

(١) من الآية : ٢١٦ ، ٢٣٢ من سورة البقرة ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٣) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .

اليتم سواء أكان الإسراف من جهة الوصى أم كان بالإنفاق على اليتيم ، فالإسراف ممقوت مذموم .  
كذلك نهى الله تعالى الأوصياء أن يبادروا بإتلاف مال اليتيم قبل أن يكبر ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال لا يجد عند الوصى مالا ، فقد بادره الوصى بأكل ماله .

قوله جل شأنه : ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ هذا أمر من الله تعالى موجه إلى الأوصياء الذين يستثمرون مال اليتيم : أن يكونوا حريصين كل الحرص على ماله ، فإذا كان الوصى المستثمر غنياً ، فأولى به أن يعف عن المال ، حيث أن الله تعالى أغناه عنه ، وإن كان الوصى المستثمر فقيراً فعليه أن يتقى الله في مال اليتيم ، فلا ييسط يديه كل البسط ، إنما يتقاضى منه بالمعروف ، مقابل تعبته في استثمار مال اليتيم .

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالا للولى ، فليس له أن يأكل منه شيئاً ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة ، إذا كان اليتيم محتاجاً إلى ذلك ، كما يستأجر له غيره من الأجراء ، غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، وهكذا الحكم في أموال المجانين والمعاتية<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالاشهاد عند الدفع ، وذلك قطعاً للخصومة وقطعاً لدابر النزاع ، يقتضى الوجوب كما رأى الإمامان مالك والشافعى ؛ في أن الإشهاد واجب حتى لا تكون هناك خصومة بين الوصى واليتيم ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أى رقيباً ومحاسباً وشهيداً ، فأنتم أيها الأوصياء : إذا زورتم وحاولتم أن تضللوا فيما كتبتم وأشهدتم ؛ فاعلموا أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يعلم المفسد من المصلح ، وتذكروا جيداً قوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ نارا في الدنيا وسعيراً في الآخرة فما أشقى هذا الذى باع آخرته بدنياه ، وخالف أوامر مولا ، وسلك طريق الغواية واتبع هواه ﴿ ومن أظلم ممن اتبع هواه بغير علم ﴾<sup>(٢)</sup> .

### بيان حقوق اليتامى والنساء

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٢٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

(١) المجنون فاقد العقل تماماً ، أما المعتوه فهو الذى لا يهديه ماله من عقل محدود إلى حسن التصرف .

(٢) ليست آية ولعله يقصد قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ الآية/ ٥٠ من سورة القصص ، أو الآية/ ٢٩ من سورة الروم : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ .

وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ  
ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ  
الَّذِينَ آمَنُوا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿٩٠﴾

المفردات : ﴿ مفروضاً ﴾ : أى محتوماً لابد لهم أن يأخذوه . [ الخشية ] : الخوف محل الأمن ،  
[ السديد ] : العدل والصواب والسداد ( بالكسر ) ما يسد به الشئ كالثغر . ( موضع الخوف من  
العدو ) ، والقارورة ( الزجاجية ) .

و [ صلى ] اللحم صلياً شواه ، فإذا أراد إحراقه يقال أصلاه إصلاء وصلاه تصليه . وصلى يده  
بالنار : — أدفأها ، واصطلى : استدفأ و [ السعير ] : النار المستعرة المشتعلة يقال سمرت النار وسمرت بها .

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، لا يورثون النساء ولا الأطفال  
شيئاً ، فأنزل الله : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى  
يستوون فى أصل الوراثة ؛ وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدل به إلى الميت من قرابة أو زوجية  
أو ولاء ، فإنه لحمة كلحمة النسب .

وروى ابن مردويه عن جابر ، قال : أتت أم كحجة إلى رسول الله ﷺ ؛ فقالت يا رسول الله ﷺ : إن لى  
ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شىء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان  
والأقربون ﴾ (١) .

وهكذا اقتضت عدالة الإسلام : أن يكون للرجال نصيب من الميراث ، وأن يكون للنساء نصيب  
أيضاً ، سواء أكان ما تركه الميت قليلاً أم كثيراً ، وسواء أكان الوارث ذكراً أم أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، حتى  
ولو كان حملاً فى بطن أمه ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ وهذا النصيب الذى شرعه  
الله مفروض ومشروع من قبله جل شأنه : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله  
سميع عليم ﴾ (٢) .

(١) الميت هو أوس بن ثابت الانصارى ، مات عن زوجته أم كحجة ، وثلاث بنات فقام ابنا عمه : سويد وعرفجة ، فأخذوا المال ولم  
يعطيا المرأة وبنات أوس شيئاً فلما نزلت الآية أمرهما النبي ﷺ بإيقاف التصرف فى المال حتى يفصل الله تعالى فى الأمر ، فنزلت  
﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ... الآية ﴾ مختصراً عن الجامع لأحكام القرآن : ج ٥ ص ٤٦ ، ٤٧ فلما نزلت الآيات أمر سويدا  
وعرفجة أن يعطيا الزوجة الثمن والبنات الثلثين ، ويأخذوا ما بقى من المال .

(٢) الآية : ١٨١ من سورة البقرة .



قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ .

ما أعظم سماحة الإسلام وما أكرم تعاليمه : إنه يعالج النفوس بالحكمة ، ويداويها بالسماحة ، فهؤلاء المذكورون من أولى القربى واليتامى والمساكين غير الوارثين ؛ إذا حضروا قسمة المال ، فعليكم يا أصحاب الحقوق في التركة أن تعطوهم من المال شيئاً تطيباً لخواطريهم ، وجبراً لكسرهم ، ومداواة لجروحهم ، حتى تظل النفوس راضية غير حاقدة ، ونظيفة غير حاسدة ، وطيبة غير حاقدة ﴿ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۖ ﴾ وقد شرع الإسلام الهدية وجعلها سبباً من أسباب المحبة .

قال ﷺ : ( تهادوا تحابوا ) وقال : ( اصنع المعروف في أهله وفي غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنتم أهله ) وقال : ( صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكاً ) .  
يا أخا الإسلام :

ازرع جميلاً ولو في غير موضعه      فلن يضيع جميل أينما وُضِعَا  
إن الجميل وإن طال الزمان به      فليس حصاده إلا الذي زرعا

يا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها      على الناس واعلم أنها تتقلب  
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت      ولا البخل يبقها إذا هي تذهب

وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : ( الصلة والصدقة تعمران الديار وتزيدان في الأعمار ) وإذا يقول : ( الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان : صلة وصدقة ) وما أعظمه صلوات الله وسلامه عليه إذ يعالج الجروح الدامية بتنسم الوحيات الصافية فيقول :

( أفضل الصدقة ، الصدقة على ذي الرحم الكاشح ) أي الذي يضرر السوء والبغضاء لقريبه ، وإنما جاء هذا المعنى على هذا الوجه لأنك إذا تصدقت على من يبغضك ، فإن الصدقة تطفىء نار حقه ، فيصبح صديقاً حبيباً بعد ما كان عدواً لدوداً ، ولأنك إذا تصدقت على من يكرهك فقد جاهدت نفسك ، وخالفت هواك ، وجردت الصدقة وأخلصتها لله .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى \* فإن الجنة هي المأوى ﴾ (١) صلوات ربي وسلامه عليك سيدي يا رسول الله : يا من كنت تعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وكنت في عطائك أجود من الريح المرسلة ، يا من وصفت بالسخاء والحياء والكرم :

له همم لا تنتهي لكبارها      وهمة الصغرى أجل من الدهر  
له راحة لو أن معشار جودها      على البر صار البر أندى من البحر

(١) الأيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات .

لقد علمتنا السخاء ، حتى كان أصحابك إذا أعطوا عطاءً ودعا لهم المسكين دعوة رد على المسكين بمثلها ، فيسأل في ذلك لماذا ترد على المسكين بدعوته ؟ . فيقول : حتى تكون دعوى مقابل دعوته ؛ وتظل الصدقة خالصة لوجه الله :

تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذى أنت نائله  
ولولم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتنق الله سائله

روى ابن أبي حاتم عن عبد الرزاق ، قال أخبرنا ابن جريج عن ابن أبي مليكة : أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق والقاسم بن محمد أخبراه : أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشه حية ، فلم يدع في الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قالاً : وتلا ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾ . قوله تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾ .

هذا توجيه من الله تعالى للأوصياء على مال اليتامى وغيرهم ، فعلى كل من أراد أن يؤمن على حياة أولاده التأمين الصحيح ، أن يراعى في معاملته للناس ما يحبه لأولاده ، وليتقوا الله في أموال الغير من يتيم وغيره ، وليقولوا قولاً سديداً نافعاً طيباً ، فالكلمة الطيبة صدقة .

حكى ابن جرير عن طريق العوفي عن ابن عباس قال : المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً ﴾ وهذا قول حسن يؤيده قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ أى كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ؛ فعامل الناس في ذرايرهم إذا وليتهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال لك به أو عليك :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

واعلم يا أخا الإسلام أن الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة ، وأن النفس طماعة ، فعودها القناعة ، فلا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولو قرب منك ، ولا راحة في الدنيا ، ولا شفاعة في الموت ، ولا حيلة في الرزق ، ولا راد لقضاء الله :

دنياك ساعاتٌ سرَّاعُ الزوال وإنما العقبى خلود المآل  
فهل تبيع الخلد بأعاقلاً وتشترى دنيا المنى والضلال

\*\*\*

عش راضياً واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم  
نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً واعتبرها عدم

\*\*\*

تملك الناس الهوى والغرور      وفنته الغيد وسكنى القصور  
ولو تزال الحجب بانث لهم      زخارف الدنيا وعقبى الأمور

يا من تريد السعادة لذريتك الضعاف ؛ اعمل على إسعاد الآخرين .

لا تهين الفقير علك أن      ترقع يوماً والدهر قد رفعه

روى أن رجلاً من بني إسرائيل : كان يأكل مع زوجته وأمامها دجاجتان فطرق الباب مسكين فنهزه الرجل وزجره ، ودارت الأيام دورتها ، إذ البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، وافترق الرجل وطلقت زوجته وإذا بها تتزوج بآخر ، وتجلس مع زوجها يأكلان ، فطرق الباب مسكين ؛ وكان أمام الرجل دجاجة ، فقال لزوجته اذهبي بها إلى المسكين ، فأعطته الدجاجة ورجعت باكية ! فعجب زوجها وقال أتبين على الصدقة ؟ قالت : ماهذا أبكى ! قال : فما ييكىك ؟ قالت له : أتدرى من السائل ؟ إنه زوجى الأول ! فقال لها زوجها : أتدرين من أنا ؟ وأنا السائل الأول .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴿١﴾ .

سبحانك ربى ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ . نعم : البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ما شئت كما تدين تدان .

يا نائم الليل مسروراً بأوله      إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

لقد أعلم الله الذين يجترئون على حدوده ؛ فيأكلون أموال اليتامى ظلماً بغير وجه حق ؛ أعلمهم سبحانه : أنهم فى حقيقة الأمر يأكلون فى بطونهم ناراً ، وإنما عبر بالأكل هنا دون سواه من حاجات الحياة ؛ لأن الأكل هو الدافع الفطرى الأول ، الذى يجهد الإنسان نفسه فى سبيل الحصول عليه ، ولا يمنع هذا من أن أخذ مال اليتيم بغير حق فى أى وجه من الوجوه ، إنما هو عار وشنار ونار .

وفى الآخرة سيكون مألهم إلى السعير ، فما أعقل من نهى النفس عن الهوى ، وعف عن الحرام ، فالحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر .

تالله لو عاش الفقى فى دهره      ألفاً من الأعوام مالك أمره  
متلذذاً فيها بكل نفيسة      متنعماً فيها بأنعم عصره  
لا يعتريه السقم فيها مرة      كلا ولا ترد الهموم بباله  
ما كان هذا كله فى أن يفى      بمبيت أول ليلة فى قبره

فأى عاقل يرضى لنفسه أن يأكل مالا يتأجج في بطنه ناراً : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (١) .

لما حضرت محمداً بن كعب القرظي الوفاة ، وكان غنياً ، سأله أصحابه ماذا تركت لأولادك من المال فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى (٢) .

يا ابن آدم ترفرف الروح على نعش الميت ، وتقول : يا أهلى يا أبنائى يا من أخذتم أموالنا وسكنتم ديارنا ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بنا ، لقد جمعت المال من الحلال والحرام ، وتركته لكم ، تستمتعون به وسأسال عنه وحدى يوم القيامة .

ماذا تقول يا ابن آدم إذ وضعت في القبر وحيداً لا جليس ولا أنيس ولا صديق ولا رفيق ، ونادى عليك الملك فقال : ( عبدى رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحى الذى لا أموت )

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ (٣) ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ \* ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً \* وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً \* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٤) .

احذر أيها العاقل أكل الحرام ، واحذر مال اليتيم فإنه نار .

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ) .

يروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدرى قال : قلنا يا رسول الله : ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال ( انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير ، رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وقد وكل بهم رجال

(١) من الآيتين : ٢٠ ، ٢١ من سورة الحديد .

(٢) وما فعل القرظى ذلك إلا لما رواه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أحسن الصدقة جاز على الصراط ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله في تركته » .

(٣) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات : ٤٦ - ٤٩ من سورة الكهف .

يفكون لحاء أحدهم ثم يحاء بصخرة من نار فتقذف في<sup>(١)</sup> أحدهم حتى يخرج من أسفله ، ولهم جؤار وصراخ . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء : ﴿ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ .

وقال السدي : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ؛ ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ؛ وأنفه وعينه ؛ يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم .

وقال ابن مردويه عن أبي برزة ، أن رسول الله ﷺ قال : ( يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تاجج أفواههم ناراً ) قيل يارسول الله من هم ؟ قال : « ألم تر أن الله قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ الآية . قال ابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أخرج مال الضعيفين المرأة واليتيم ﴾ أى أوصيكم باجتنب ما لها .

وعن ابن عباس رضى الله عنها قال : لما نزلت ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ الآية ، انطلق من كان عنده يتيم ؛ فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم ، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾<sup>(٢)</sup> الآية . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .

فانظر معي وتأمل عناية الاسلام بالفائقة بالنساء واليتامى ، وكيف وردت أحكامهم بعد الأمر بتقوى الله مباشرة : ﴿ يأياها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ وآتوا اليتامى أموالهم ﴿

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ .

ثم يقول جل ذكره : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ .

ولله تعالى حكمة بالغة في أن يولد النبي ﷺ يتيماً ، ففي يتمه عبرة وعظة ، فإكرام اليتيم إكرام لسيد اليتامى ﷺ الذى قال : ( خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ) والذى قال ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . واستوصوا بالنساء خيراً ) والذى قال : ( واتقوا الله فى النساء )<sup>(٣)</sup> .

(١) أى فى فم أحدهم .

(٢) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٣) كلها من أحاديث الصحاح .

## أحكام تتعلق بالميراث

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ \* وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ونذكر أحكاماً تتعلق بالميراث حتى نضىء الطريق بأحكام الله تعالى .  
قال ﷺ : ( العلم ثلاثة : وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عاملة )  
رواه ابن ماجه والحاكم في مستدركه عن أبي هيريرة (١) .

## أصحاب الفروض

أصحاب الفروض : كل من له سهم مقدر في كتاب الله ، أو سنة رسول الله ﷺ ، أو بالإجماع ،

وهم اثنا عشر<sup>(١)</sup> : أربعة من الذكور ، الزوج ، والأب والجد الصحيح والأخ لأم وثمانية من الإناث وهن : الزوجة ، والبنت ، وبنت الابن لأم ، والجدة الصحيحة ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، ولكل أحوال خاصة .

### ١ - الزوج :

يأخذ النصف عند عدم الفرع الوارث للزوجة ، مذكراً أو مؤنثاً ، من هذا الزوج أو من غيره : كالابن وابن الأبن ، والبنت وبنت الابن ، ويأخذ الربع عند وجود فرع وارث ، مذكراً أو مؤنثاً .

### ٢ - الزوجة :

تأخذ الربع سواء أكانت واحدة أم أكثر<sup>(٢)</sup> ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج ، مذكراً أو مؤنثاً وتأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

### ٣ - البنات :

يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، سواء أكن واحدة أم أكثر فتقسم بينهم التركة أو مابقي منها للمذكر مثل حظ الأنثيين .

وتأخذ الواحدة النصف ؛ إذا لم يكن معها أخ ولا أخت ، وتأخذ الثلثان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ هن وإلا فللمذكر مثل حظ الأنثيين .

### ٤ - بنات الابن :

هن ست حالات : الثلثان التي للبنات عند عدم البنات والأبناء :

(١) أن تأخذ الواحدة السدس مع البنت الصُّلبيّة الواحدة ، تكملة للثلثين ، سواء أكانت بنت الابن واحدة أم متعددة ، إلا إذا كان يحدّثها غلام فإنها تصير عصبية به ؛ ولا تأخذ إلا إذا بقي شيء فإن لم

(١) لم ينكر الشيخ الابن وابن الابن لعدم تحديد فرض محدد لهم ولم ينكر الأخ لأب والأخ الشقيق وابن الأخ ، وقد ذكرت كتب الفرائض والتفسير عدة الوارثين سبعة عشر عشرة من الرجال : وهم الابن وابن الابن وإن سفل ، الأب وأبو الأب ، الجد ، وإن علا ، والأخ وابن الأخ ، والعم وابن العم ، والزوج ومولى النعمة .

ويرث من النساء سبع : البنت وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدّة وإن علت والأخت والزوجة ومولاة النعمة ، والمعيقة ، ونظمهم الناظم في مايلي :

• والوارثون إن أردت جمعهم	• مع الإناث الورثات معهم
• عشرة من جملة الذكور	• وسبع أشخاص من النسوان
• وهم وقد حصرتهم في النظم	• الابن وابن الابن وابن العم
• والأب منهم وهو في الترتيب	• والجد من قبل الأخ القريب
• وابن الأخ الأدنى أجل والعم	• والزوج والمسيّد ثم الأم
• وابنة الابن بعدها والبنت	• وزوجة وجدة وأخت
• والمرأة المولاة أعنى المعيقة	• خذها اليك عدة محققة

(٢) عند تعدد الزوجات يقسم الربع أو الثمن بينهما جميعاً .

يبقى شيء سقطت معه ، ويسمى لذلك : « القريب المشتم » ؛ وإذا كان الغلام أنزل منها درجة فإنه لا يعصبها في هذه الحال لعدم حاجتها إليه .

(٢) أن تحجب بالبنتين ، إلا إذا كان بحذائها أو أسفل منها غلام ؛ فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقي وهو « القريب المبارك » . من هذا يظهر أن الغلام المحاذي لبنت الابن يعصبها حتماً أما السافل فلا يعصبها إلا إذا احتاجت إليه .

(٣) أن تحجب بكل غلام أعلا منها درجة ؛ فبنت الابن تُحجب بالابن ، وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا الأب .

#### ٥ - وللأب ثلاث حالات :

(أ) أن يأخذ السدس فرضاً فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل ، وحده أو مع غيره .

(ب) أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون الذكر .

(ج) أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

#### ٦ - الجدل الصحيح :

هو من لا تدخل في نسبته إلى الميت أنثى : كالأب وأبى أب الأب فإن دخل في نسبته إلى الميت أنثى كالأب والأم وأبى أم الأب فهو الجد الفاسد وهو من ذوى الأرحام .

والجد الصحيح كالأب إجماعاً لأن لفظ الأب يطلق عليه كما في قوله تعالى : ﴿ واتبع ملة آباءى إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ يابنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فللجد أربع حالات : الثلاث المتقدمة في الأب عند عدم الأب : والرابعة : أن يحجب بالأب وبكل جد أقرب منه لأنه يمت به .

#### ويخالف الجد الأب في مسائل :

(١) أن أم الأب تحجب بالأب دون الجد لأنها تدلى بالأول دون الثانى .

(٢) أن الأخوة الأشقاء أو لأبٍ يحجبون بالأب دون الجد عند الصاحبين <sup>(٣)</sup> وهو رأى على وابن مسعود

(١) من الآية : ٣٨ من سورة يوسف .

(٢) من الآية : ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) الصاحبان : محمد بن الحسن وأبو يوسف - صاحباً أبى حنيفة



وزيد بن ثابت رضى الله عنهم ، وعليه الأئمة الثلاثة رضى الله عنهم ، وهو المختار للعمل ، وللجد مع الأخوة أحوال سيأتى بيانها .

(٣) المسألة العمرية : وهى ما إذا اجتمع الأبوان وأحد الزوجين ، فإن الأم تأخذ ثلث الباقي بعد نصيب أحد الزوجين ، ولو كان بدل الأب جد لأخذت ثلث المال كله .

٧ - الأم :

(أ) تأخذ ثلث التركة إذا لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من الإخوة والأخوات .

(ب) أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة والأخوات من أى نوع .

(ج) تأخذ ثلث الباقي بعد نصيبها من أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب - وأحد الزوجين ، وليس معها فرع وارث ولا جمع من الأخوة أو الأخوات ، فتكون مع الأب كالحاجب بغيره وهى المسألة العمرية .

٨ - الجدة الصحيحة :

هى التى لا يدخل نسبتها إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبتها إليه جد فاسد كأم أبى الأم ، وأم أبى أم الأب ، فهى الجدة الفاسدة وهى من ذوى الأرحام .  
وللجدة الصحيحة حالان :

(١) أن تأخذ السدس ؛ سواء أكانت واحدة أم أكثر ، وسواء أكانت من جهة الأب أم من جهة الأم ، وينقسم السدس بين الجدات بالتساوى ، ولو كانت إحداهن تدلى إلى الميت بجتهين أو أكثر كأم أم أم الميت التى هى أم أبى أبى الميت .

(٢) أن تحجب بالأم ، سواء أكانت الجدة أبوية أم أموية ، وتحجب الأبوية بالأب وبالجد إن أدلت به ، وتحجب البعدى من الجدات من أى جهة بالقرى منهن من أى جهة ، ولو كانت القرى محجوبة ، فتحجب أم أم الأم بأم الأب وإن كانت الثانية محجوبة بالأب .

٩ - الأخوات الشقيقات : للأخوات الشقيقات خمس حالات :

(١) أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت .  
(٢) أن تأخذ الثلثان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق ، وإنما كان نصيب الأخوات كنصيب الأختين لأن نصيب البنات بالنص لا يزيد عن الثلثين ، والأخوات أولى بعدم الزيادة من البنات .  
(٣) أن يرثن بالتعصيب بالغير إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما بقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين ، وإذا استغرقت الفروض التركة ، ولم يبق للأشقاء شىء بأن وجد معهم زوج وأم وأخوان لأم شارك الأشقاء أولاد الأم باعتبارهم أولاد أم مثلهم وقسم الثلث بينهم جميعاً من غير تفريق بين الذكر والأنثى وتسمى هذه : « المسألة المشتركة » .

(٤) أن يرثن بالتعصيب مع الغير : وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر فلهن ما بقى بعد أصحاب الفروض .

(٥) أن يحجب بالفرع الوارث المذكر وهو الابن وابنه وإن نزل وبا لأب دون الجد .

#### ١٠ - الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياساً على بنات الأبناء مع بنات الصلب ، فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التي للشقيقات ، والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات ، وإذا وجد معهن أحد من أولاد الأعيان كان لهن معه ثلاثة أحوال أخرى وهى :

١ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان عصبية : كالأخ الشقيق وحده ، أو مع الأخت الشقيقة ، وكالأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، وحينئذ تحجب الأخوات لأب ، سواء أكان معهن معصب وهو الأخ لأب أم لم يكن .

٢ - أن يكون الموجود من أولاد الأعياد شقيقين فأكثر ، ولسن عصبية فإنهن يحجبن الأخت لأب إلا إذا كان معها من يصحبها وهو الأخ لأب ، دون ابنه ، فتأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض للذكر مثل حظ الأنثيين وهو « الأخ المبارك » .

٣ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان واحدة ليست عصبية ، فللأخت لأب معها السدس تكملة للثلثين ، إلا إذا كان مع الأخت لأب من يعصبها ، فإنها تأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض ؛ إن بقى شيء وهو « الأخ المشثوم » .

#### ١١ - الجد مع الإخوة : للجد مع الإخوة ثلاث حالات :

(١) أن يكون الموجود من الأخوة أو الأخوات وارثاً بالتعصيب ؛ كالأخ الشقيق أو لأب ، أو كالأخت الشقيقة أو لأب مع البنت أو بنت الابن ، وحينئذ يجعل الجد أخاً شقيقاً مع الأشقاء ، وأخاً لأب مع الأخوة الأب ، ولا يدخل فى المقاسمة حينئذ من يكون محجوباً من الإخوة أو الإخوات لأب .

(٢) أن يكون الموجود من الأخوات وارثاً بالفرض ؛ كأخت شقيقة أو لأب أو أختيه ، ولا معصب ، وحينئذ يرث الجد بالتعصيب فيأخذ ما يبقى بعد الفروض .

(٣) أن يأخذ السدس وذلك إذا كان توريثه على أحد الوجهين السابقين يحرمه أو ينقصه عن السدس ، وكل هذا من مذهب على رضى الله عنه ، إلا مقاسمة الجد للأخت إذا كانت عصبية مع البنت أو بنت الابن ، فإنها من مذهب زيد بن ثابت رضى الله عنه .

#### ١٢ - الأخوات للأم :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

(١) أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكراً كان أو مؤنثاً .

(٢) أن يأخذ الاثنان فأكثر الثلث يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكوراً فقط أم إناثاً فقط أو ذكوراً أم إناثاً .

(٣) الحجب بالفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً وبالأصل الوارث المذكر أو جد ، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها - ومن هنا نعلم أن الإخوة مطلقاً لا يرثون مع الفرع المذكر الوارث وكذلك مع الأب .

#### العصبة النسبية :

هى ثلاثة أنواع : (١) العاصب بنفسه وهو : كل ذكر لم يدخل فى نسبته إلى الميت أنثى ، ولا يحتاج فى عصوبته إلى غيره وهو منحصر فى جهات أربع :

- ١ - جهة البنوة كالابن وابن الابن وإن نزل .
- ٢ - جهة الأبوة كالأب والجد الصحيح وإن علا .
- ٣ - جهة الأخوة كالأخ الشقيق وابنه والأخ لأب وابنه .
- ٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق وابنه ، وعمه لأب وابنه ، وعم أب الميت الشقيق وابنه ، وعم أب الميت لأب وابنه ، وأما العم لأم وهو أخو أب الميت لأم ، وأخو جده لأم : فمن ذوى الأرحام .

#### العاصب بغيره :

هو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى غيرها من العاصب بنفسه ، وشاركته فى العصوبة ولا يكون هذا النوع إلا بمن فرضهن النصف أو الثلثان فينحصر فى أربع :

- ١ - البنات مع الابن .
  - ٢ - بنات الابن مع ابن الابن المحاذى مطلقاً والسافل إذا احتجن إليه .
  - ٣ - الأخوات الشقيقات مع الأخ الشقيق .
  - ٤ - الأخوات لأب مع الأخ لأب .
- وعلى ذلك لا تكون العمة عصبة مع العم ، ولا بنت العم عصبة مع ابن العم ، ولا بنت الأخ الشقيق أو لأب عصبة مع أخيها .

#### العاصب مع غيره :

وهو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى أنثى لم تشاركها فى العصوبة ، وهو منحصر فى اثنتين :

- ١ - الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن .
- ٢ - الأخت لأب كذلك ، واعلم أن تقسيم العصبة إلى هذه الأنواع الثلاثة ؛ لا دخل له فى الترتيب فى استحقاق الميراث ، بل لذلك نظام روعى فيه تقديم الأقرب فالأقرب من غير نظر إلى نوع العصوبة وهو التقديم :

(أ) - بالجهة : فتقدم جهة البنوة ، ثم جهة الأبوة ، ثم الأخوة ثم العمومة ؛ فيقدم الابن وابن الابن وإن سفل على الأب والجد وإن علا ، وعلى الأخ وعلى العم ، ويقدم الأب على الأخ وعلى العم ، والجد يشارك الأخوة كما سبق ، ويقدم على العم ، ويقدم الأخ على العم .

(ب) - بالدرجة : وذلك عند اتحاد الجهة . فالابن مقدم على ابن الابن ؛ والأب مقدم على الجد والأخ مقدم على ابن الأخ ، وعم الميت مقدم على عم أبيه ، وهكذا . والله أعلم .

(ح) - بقوة القرابة : وذلك عند اتحاد الجهة والدرجة ، فيقدم الأخ الشقيق على الأخ لأب ، كما تقدم عليه الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، ويقدم ابن الأخ الشقيق على ابن الأخ لأب ، ويقدم العم الشقيق على العم لأب وهكذا .

الإدلاء بجهتين :

قد يتصل الوارث بالمورث من جهتين : كزوج هو ابن عم ، وكابن عم هو أخ لأم ، وكأم أم الأم التي هي أم أم الأب ، فإذا ترتب على تعدد الجهة تعدد صفة الوارث بالإضافة إلى المورث ؛ ورث من جهتين كالمثالين الأول والثاني ، وإذا لم تختلف الصفة مع تعدد الجهة ؛ ورث من جهة واحدة ، كالمثال الثالث ، وإذا حجب النوع الأول من جهة ورث من الجهة الأخرى ، وقل لحظه ، أما إذا حجب النوع الثاني من جهة فإنه يرث من الجهة الأخرى ولا يتأثر نصيبه .

الحجب :

هو منع الشخص من كل الميراث أو بعضه ، مع قيام أهليته بألا يكون هناك مانع من موانع الإرث السابقة ، وهو نوعان :

- ١ - حجب حرمان كحجب الأخ لأم البنت وكحجب الأخ بالابن .
- ٢ - حجب نقصان كحجب الأم بالبنت من الثلث إلى السدس ، وقد علم بالا استقرار ستة لا يجنبون حجب حرمان وهم : الأبوان والزوجان والولدان .

الرد :

إذا بقي من التركة شيء بعد إلحاق فرائضها بأهلها ؛ ولم يكن هناك عاصب ؛ يرد الباقي على أصحاب الفروض ، وهذا رأى على - رضى الله عنه - وجهور الصحابة والفقهاء ، وعليه العمل ، وذهب جمهور القائلين بالرد إلى أنه يكون على أصحاب الفروض إلا الزوجين ، لأن سبب الإرث في حقهما الزوجية وهي تنقطع بالموت ، بخلاف القرابة ، ومعروف أن من يرى الرد على أحد الزوجين إذ لم يكن هناك أحد من ذوى الفروض والعصبات النسبية ، وأولى الأرحام ، وعند الرد على ذوى الفروض لا يعتبر قرب الدرجة ولا قوة القرابة ، إلا بمقدار ما اعتبر في الفروض المقدرة ، ولذلك لا يعطى الباقي كله لأقربهم كما في العصبات بل يقسم بينهم بنسبة أنصبتهم بالطرق الآتية :

- ١ - إذا لم يكن في المسألة من لا يرد عليه . وهو أحد الزوجين . فإن كان الورثة صنفاً واحداً ؛ فأصل المسألة عدد رؤوسهم .
- ٢ - وإن كانوا صنفين فأكثر ؛ فأصل المسألة مجموع السهام التي يستحقونها .
- ٣ - وإذا كان فيها من لا يرد عليه ، يجعل أصل المسألة مأخذ نصيب من لا يرد عليه ويعطى فرصة ، يقسم الباقي على من يرد عليهم بنسبة أنصبتهم ، وقد يحتاج في أثناء ذلك إلى التصحيح إذا انكسرت السهام على الانصاء ، أو على عدد الرؤوس ، وقد تنكسر عليهما ، فيكون في المسألة تصحيحان .

## نموذج

( ١ ) توفي عن : ٥ بنات ، بنت ابن ، أخ لأم			
ج ١	$\frac{٢}{٣}$	م	م
الأصل ٣			
وبالرد ٥	٥	.	.

( ٢ ) توفي عن : أم ، أخت شقيقة ، أخت لأم			
ج ٢	$\frac{١}{٦}$	$\frac{١}{٢}$	$\frac{١}{٦}$
الأصل ٦			
	١	٣	١

( ٣ ) توفي عن : زوجة ، ٣ أخوات لأم			
ج ٣	$\frac{١}{٤}$	$\frac{١}{٣}$	
الأصل ١٢			
وبالرد ٤	٣	٤	
ومنه تصح	١	٣	

( ٤ ) توفي عن : ٤ زوجات ، ٣ بنات ، ٦ جدات ص			
ج ٤	$\frac{١}{٨}$	$\frac{٢}{٣}$	$\frac{١}{٦}$
الأصل ٢٤			
وبالرد ٨	٣	١٦	٤
جزء السهم ٥	١	٧	
التصحيح ٤٠	٥	٢٨	٧

جزء السهم ١٢	٤	٣	٦
التصحيح ٤٨٠	٦٠	٣٣٦	٨٤

## أصول المسائل

المراد بأصل المسألة في اصطلاح الفرضيين : أقل عدد يمكن أن تؤخذ منه سهام الورثة صحيحة من غير كسر ، فإذا كان في المسألة صاحب فرض واحد ؛ فأصلها مأخذ ذلك الفرض ، وهو الأثنان للنصف ، والثلاثة للثلث والأربعة للربع ، وهكذا ، وبعبارة أخرى : أصل المسألة مقام الكسر الدال على الفرض ، وإذا كان في المسألة أكثر من فرض ينظر إلى مقامات الكسور :

١ - فإذا كان بينهما تماثل ( أى تساوى ) مثل :  $\frac{1}{3}$  ،  $\frac{2}{3}$  فأصل المسألة ذلك المأخذ المشترك وهو الثلاثة .

٢ - وإذا كان بينهما تداخل ( وهو أن يكون أحدهما مضافاً لغيره ) مثل  $\frac{1}{2}$  ،  $\frac{1}{4}$  ،  $\frac{1}{8}$  فأصل المسألة ذلك المضاعف وهو الثمانية .

٣ - وإذا كان بينهما توافق ( وهو أن يكون للعددین عدد ثالث يقبل كل منهما القسمة عليه ) مثل  $\frac{1}{4}$  ،  $\frac{1}{6}$  فإن كلا من الأربعة والستة يقبل القسمة على الاثنين ) .

فأصل المسألة حاصل ضرب أحد العددين في وفق الآخر ، ووفق العدد خارج قسمته على القاسم المشترك الأعظم ، فيكون أصل المسألة في المثال السابق :

$$4 \times \frac{6}{2} \text{ أو } 6 \times \frac{4}{2} = 12$$

٤ - وإذا كان بينهما تباين ( وهو ألا يكون بينها نسبة من النسب الثلاث الماضية ) مثل :  $\frac{1}{4}$  ،  $\frac{1}{3}$  فأصل المسألة حاصل ضرب العددين وهو في المثال المفروض  $12 = 4 \times 3$  .

والخلاصة أن أصل المسألة هي المضاعف البسيط للمقامات .

وإذا نظرت إلى الفروض المقدرة منفردة ومجمعة ؛ تبين لك أن أصول المسائل تنحصر في سبعة وهي :

٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ٢٤ .

## نموذج

( ١ ) توفي شخص عن : أب ، ابن ابن		
ج ١	$\frac{1}{4}$	ع
	١	٥
فالأصل ٦		
ومنه تصح		

( ٢ ) توفي شخص عن : أم ، أخ لأم ، أخ شقيق		
ج ٣	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{6}$
	١	ع
فالأصل ٦		
ومنه تصح		

(٣) توفي شخص عن : أب ، بنت ، بنت ابن			
ج ٣	$\frac{1}{4}$ وع	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$
فالأصل ٦			
ومنه تصح	١ + ١	٣	١
(٤) توفي شخص عن : أب ، زوج ، ابن			
ج ٤	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{4}$	ع
فالأصل ١٢			
ومنه تصح	٢	٣	٧
(٥) توفي شخص عن : أم ، زوجة ، بنتيه ، أخ لأب			
ج ٥	$\frac{1}{4}$	$\frac{1}{8}$	$\frac{2}{3}$
فالأصل ٢٤			ع
ومنه تصح	٤	٣	٨ + ٨
(٦) توفي شخص عن : أب ، أم ، زوجة ، أخ لأم			
ج ٦	ع	$\frac{1}{3}$ الباقي	$\frac{1}{4}$
فالأصل ٤			م
ومنه تصح	م	١	لا شيء

## العول

في المسائل السابقة لم يزد مجموع السهام التي استحقها الورثة عن أصل المسألة ، وقد يزيد عليه ، وذلك ما يسمى عند الفرضيين بالعول ، وحينئذ يهمل الأصل الأول ويعتبر العول أصلاً تقسم التركة بحسبه ليدخل النقص على كل وارث بنسبة نصيبه .

وبالاستقراء علم أن من أصول المسائل ما لا يعول وهو : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، وأن الستة تعول إلى ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وأن الاثنى عشر تعول إلى ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، وأن الأربعة والعشرين تعول إلى ٢٧ .

## نموذج

(١) توفي عن : زوج ، أختين شقيقتين ، أخوين لأم			
ج ١	$\frac{1}{2}$	$\frac{2}{3}$	$\frac{1}{3}$
الأصل ٦			
وبالعول ٩	٣	٤	٢

( ٢ ) توفي عن : زوجة ، أختين شقيقتين ، أخت لأم			
ج ٢	$\frac{1}{4}$	$\frac{2}{3}$	$\frac{1}{6}$
الأصل ١٢	$\frac{1}{6}$	$\frac{2}{3}$	$\frac{1}{6}$
وبالعول ١٣	٢	٨	٣

( ٣ ) توفي عن : زوجة ، بنتين ، أبى أب ، أم أم			
ج ٣	$\frac{1}{8}$	$\frac{2}{3}$	$\frac{1}{6}$ ع $\frac{1}{6}$
الأصل ٢٤	$\frac{1}{8}$	$\frac{2}{3}$	$\frac{1}{6}$ ع $\frac{1}{6}$
وبالعول ٢٧	٣	١٦	٤

### أولو الأرحام

يرث ذوو الأرحام إذا لم يوجد ذو فرض ولا عاصب أو كان هناك أحد الزوجين فقط كانت التركة كلها أو ما بقي منها لأولى الأرحام .

وهم اسم يشمل في الأصل جميع الأقارب ، والفقهاء يطلقونه هنا على الأقارب غير ذوى الفروض والعصباء ، وقد اختلف في توريثهم .

أصناف أولى الأرحام هم أصناف أربعة :

- ١ - أولاد البنات وإن نزلوا ، وأولاد بنات الابن وإن نزل .
- ٢ - الأجداد الساقطون والجدات الساقطات وإن علوا .
- ٣ - فروع أولاد الأم وإن نزلوا ، وفروع الأخوات الشقيقات أو لأب كذلك ، وبنات الإخوة الأشقاء أو لأب وفروعهن ، وإن نزلوا ، وبنات أبناء هؤلاء الإخوة وفروعهن كذلك .
- ٤ - ست طوائف مرتبون في الاستحقاق على النحو الآتي :

١ - أعمام الميت لأم وعماته مطلقاً ( وقرابة هؤلاء من جهة الأب ) وأخواته وخالاته جميعاً ( وقرابة هؤلاء من جهة الأم )

٢ - أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكر وإن نزلوا .

٣ - أعمام أبى الميت لأم وعماته وأخواته وخالاته جميعاً ، ( وقرابتهم من جهة الأب ) وأعمام أم الميت وعماتها وأخواتها وخالاتها ( وقرابتهم من جهة الأم )

٤ - أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبى الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا .



- ٥ - أعمام أبي أبي الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أبي الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها ( وقرابة هؤلاء من جهة الأب ) وأعمام أبي أم الميت وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أم أبي الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها ( وقرابة هؤلاء من جهة الأم )
- ٦ - أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبي أبي الميت الأشقاء أولاد ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكرن وإن نزلوا وهكذا .

### كيف يرث أولو الأرحام ؟

كل طائفة من الطوائف السابقة تحجب ما بعدها ، فإذا لم يوجد الطائفة المستحقة إلا واحد - أخذ المال كله ، ذكراً كان أو أنثى ، وإذا وجد فيها أكثر من واحد - قدم الأقرب درجة ولو كان أنثى على الأبعد وإن كان ذكراً .

فإذا اتحدت الدرجة ولم يوجد مرجح من المرجحات الآتية : قسم المال على المستحقين للذكر مثل حظ الأنثيين .

#### الصف الأول :

يشمل هذا الصف الفروع غير الوارثة كما تقدم ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ - أن يكون بعضهم ولد صاحب فرض أى إن الأصل المباشر الذى يدلى به إلى الميت - لو كان حياً - لورث بالفرض ، وبعضهم ليس كذلك ، وحينئذ يحجب الأول الثانى كبنت بنت الابن مع ابن بنت البنت .

٢ - أن يكون كلهم ولد صاحب فرض ، أو كلهم ليس كذلك فتقسم التركة عليهم للذكر مثل حظ الأنثيين كابن بنت ابن مع بنت بنت ابن ، وكابن بنت بنت بنت بنت بنت . ولا يعتد بالإدلاء بجهتين هنا لأن جهة القرابة - وهى البنوة - واحدة .

#### الصف الثانى :

يشمل هذا الصف الأجداد الساقطين والجندات الساقطات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ - أن يكون بعضهم مدليا إلى الميت بصاحب فرض دون بعض ، فيحجب الأول الثانى كالأمثلة ( ا ، ب ، ج )

(ا)	(ب)	(ج)
أبى أم	أبى أبى	أبى أم
أم أبى	أم أبى	أم أبى
أم	أم	أبى أم
أبى	الميت	الميت

— الميت فالأول فى كل منها يدلى بذى فرض فيحجب الثانى .

### الصف الثالث :

يشمل هذا الصف من ذكرنا قبل : من فروع الأخوة والإخوات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ - أن يكون بعضهم ولد عصبه دون بعض ، فيحجب الأول الثانى : كبنات ابن الأخ لأب مع ابن بنت أخ شقيق .

٢ - أن يكون كلهم ولد عصبه أو كلهم ولد ذى رحم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ، ثم من كان أصله لأم .

فإذا استووا فى قوة القرابة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، ولو كانوا من فروع أولاد الأم .

### الصف الرابع :

يشمل هذا الصف ما ذكرنا قبل من الطوائف الست :

١ - الطائفة الأولى : أعمام الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، ولا يأتى هنا اختلاف الدرجة ، وهم عند التعدد حالان :

(ا) أن تتحد جهة قرابتهم بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابه ، فالعمة الشقيقة مقدمة على العمة لأب ، وهذه مقدمة على كل من العم والعمة لأم ، وكل من الخال والخالة الشقيقين ، مقدم على الخال والخالة لأب ، وكل من هذين مقدم على الخال والخالة لأم .

فإذا استووا فى القوة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابه الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، ولا يفضل الأقوى فى جهة على الأضعف فى الأخرى ، فلا تفضل العمة الشقيقة مثلاً على الخال لأم ، ثم يقسم نصيب كل جهة بين آحادها على النحو السابق .

٢ - الطائفة الثانية : تشمل أولاد الطائفة الأولى ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكور وإن نزلوا ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

(أ) أن تتحد جهة قرابتهم : بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم ولد العاصب ولو كان أنثى ، وإنما يتأق هذا في قرابة الأب دون قرابة الأم ، إذ لا عاصب من جهتها على غيره ، فبنت العم الشقيق مثلاً تقدم على ابن العم لأم ، فإذا كانوا كلهم ولد عاصب ، أو كلهم ولد ذى رحم - قدم الأقوى قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ثم من كان أصله لأم .  
(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابة الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، وما أصاب كل فريق يقسم بين أحاده على النحو السابق .  
تنبيه : حكم الطائفتين : الثالثة والخامسة كحكم الطائفة الأولى .  
وحكم الطائفتين : الرابعة والسادسة كحكم الطائفة الثانية .

#### موانع الإرث :

أولاً : القتل : وهو ما وقع عمداً ، من مكلف<sup>(١)</sup> بغير حق أو عذر ، والعامد هو المباشر للقتل مستقلاً أو شريكاً ، ولو كان أصلاً للمقتول ، وقوله ﷺ : ( لا يقاد الوالد بولده )<sup>(٢)</sup> معناه لا يقتل به ، وهو لا يستلزم بقاء حقه في الميراث .

ويلحق بالعامد المتسبب الراغب في القتل أو المعين : كالأمر والمحرض ، والدال وشاهد الزور ، الذى بنى على شهادته الحكم بالإعدام وتنفيذه ، والمكلف هو البالغ العاقل : فكل من الصبى والمجنون والمعتوه لا يمنع من الميراث بقتل مورثه ، لعدم التكليف . وحد البلوغ خمسة عشر عاماً<sup>(٣)</sup> . ولا يمنع من الميراث قتل بحق : بأن كان قصاصاً ، كقتل القاتل ، أو حداً ؛ كقتل المرتد ، أو دفاعاً عن النفس ، وكذلك لا يمنع من قتل بعذر : كقتل الزوج زوجته ، أو الزانى بها عند مفاجأتها حال الزنا ، وكالقتل مبالغة في الدفاع .

ثانياً : اختلاف الدين ؛ لقوله ﷺ : ( لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم )<sup>(٤)</sup> ولأن الإرث مبنى على النصرة التامة ، ولا تناصر مع اختلاف الدين ، فلا توارث بين المسلمين وغيرهم ولو ذميين<sup>(٥)</sup> ، أما المرتد عن دينه من المسلمين ، فسواء أكان ذكراً أم أنثى لا يرث أحداً من المسلمين ولا من غيرهم باتفاق ،

(١) المكلف : هو الحر البالغ العاقل

(٢) رواه الأربعة

(٣) وعلامة البلوغ الاحتلام أو القدرة على الانجاب

(٤) متفق عليه

(٥) ورث معاذ ومعاوية المسلم من الكافر الكتابى وغير الكتابى : الجامع لأحكام القرآن ج ٥ / ص ٥٩ ويراجع فتح البارى ج ١٢ ص

ويورث عنه ما اكتسبه من المال في إسلامه أوردته عند الصاحيين ، وكذلك عند أبي حنيفة ؛ إلا كسب المرتد الذكر في رده ؛ فقد جعله فيئاً لبيت مال المسلمين . وجهة التسوية بين كسبي المرتد والمرتدة في ردهما عند الصاحيين : أن كلاً منهما لا يقر على رده بل يجبر على الرجوع إلى الإسلام ، فيعتبر حكم الإسلام في حقه مراعاة لمصلحة وارثه لا لمصلحته .

ووجه التفرقة بينهما عند الامام . أن المرتدة لا تقتل بسبب ردها بل تستتاب وتعزر حتى تعود إلى الإسلام أو تموت ، فلا يمكن اعتبار ردها موتاً ، فيعتبر حكم الإسلام في حقها ، أما المرتد فإنه يستتاب ثلاثة أيام ؛ فإن تاب وإلا قتل بسبب رده ، فتعتبر رده موتاً من باب إقامة السبب مقام المسبب فلا يمكن اعتبار حكم الإسلام في حقه حال رده ، ولا يكون أهلاً للملك ، فلا يثبت حق الورثة فيما اكتسبه فيها ، فيصبح ككل الأموال التي لا مالك لها حقاً لبيت مال المسلمين ، أما الكفار بعضهم مع بعض فيتوارثون والمراد بلا اختلاف في الدين الكفر والإسلام .

المستحقون للتركة :

لا تقسم التركة على الورثة إلا بعد تجهيز الميت ، وتجهيز من مات قبله ممن تلزمه نفقته من غير إسراف ، ولا يعتبر ما زاد عن الحاجة المعروفة في الشرع ، ثم وفاء الدين وهذا هو مذهب الإمام أحمد ، أما الأئمة الثلاثة فيقدمون الديون على التجهيز ، وعلى هذا يكون التجهيز على أقارب الميت ، أو على من حضر من المسلمين ، أو على بيت المال .

قواعد عامة في أحكام الموارث :

أولاً : أقارب الميت هم على الترتيب : البنوة - الأبوة - الحواشي هم : الإخوة الأشقاء ، ثم الإخوة للآباء ، ثم بنو الإخوة الأشقاء ، ثم بنو الإخوة للآباء ثم الأعمام ، ثم منهم الأعمام الأشقاء ، ثم بنو الأعمام للآباء وهؤلاء هم عصبة .

ثانياً : أما الإخوة لأم فليسوا من العصبة ؛ بل هم من أصحاب الفروض ، ففرض الأخ لأم ذكر كان أو أنثى السدس ، وإذا تعددت الإخوة لأم فهم شركاء في الثلث .

ثالثاً : العاصب إذا انفرد أخذ التركة كلها ، أما إذا تعدد فيقدم الأقرب فالأقرب كما ذكرنا ، وإذا كان معه صاحب فرض ، فيأخذ صاحب الفرض حقه أولاً والباقي للعاصب .

رابعاً : خمسة لا يسقطون بحال وهم : الأب - الأم - الزوج - الزوجة - ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى .

خامساً : إن بنات الأعمام وبنات الإخوة والعمات لا يرثن ، لأنهم من ذوى الأرحام إلا إذا عدت العصبة جميعهم .

سادساً : الأخ الشقيق يحجب الأخ للأب ، ولا يحجب الأخ لأم ، كذلك الأخ للأب لا يحجب الأخ لأم ، أما الذي يحجب الأخ لأم أصل ذكر أو فرع ، ذكراً كان أو أنثى .

سابعاً : الإخوة والأخوات مع البنات عصبه ، بمعنى أن البنات يأخذن نصيبهن ، وهو الثلثان والبنات تأخذ النصف . والباقي للإخوة والأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين .

ثامناً : البنت مع بنت الابن لها نصف التركة ، وبنت الابن لها السدس تكملة الثلثين ، وأما بنت الابن مع البنتين ، فليس لها حق في الميراث ، إلا إذا وجد أخ يعصبها فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين . كذلك الأخت الشقيقة لها النصف والأخت لأب لها السدس تكملة الثلثين ، وعلى هذا لا ترث الأخت لأب إلا إذا وجد أخ يعصبها ، فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .

تاسعاً : الأب يحجب الجد كما أن الجد الأقرب يحجب الجد الأبعد .

عاشراً : الأب لا يحجب الجدة إلا الجدة من جهته فقط .

الحادى عشر : الأم تحجب الجدات مطلقاً ، سواء كانت الجدات من جهة الأب أو الأم .

الثانى عشر : القربى من كل جهة تحجب البعدى من جهتها .

الثالث عشر : القربى من جهة الأم تحجب البعدى من جهة الأب ؛ ولا عكس ، بمعنى أن الجدة القربى من جهة الأب لا تحجب البعدى من جهة الأم بل يشتركان في السدس على الصحيح .

الرابع عشر : الأجداد يشاركون الأخوات في الميراث على رأى الجمهور ، وهناك طائفة من الصحابة وطائفة من التابعين والإمام أبو حنيفة يرون عدم توريث الإخوة والأخوات مع الأجداد .

الخامس عشر : قاتل الموروث لا يرث وكذلك الاختلاف في الدين على رأى الجمهور وغير الجمهور<sup>(١)</sup> يرث المسلم الكافر ولا عكس .

السادس عشر : الأب نصيبه من الميراث السدس فرضاً والباقي تعصيباً وكذلك الجد .

السابع عشر : الأم لها الثلث إذا لم يوجد فرع وارث للميت ، أو أخوان فأكثر ذكوراً أو إناثاً ولو لم يكونوا وارثين ، وسواء كانوا أشقاء أو غير أشقاء وإلا فلها السدس .

الثامن عشر : الجدة نصيبها السدس .

التاسع عشر : للزوج نصف التركة إلا إذا كانت الزوجة لها ولد ذكراً أو أنثى فله الربع .

العشرون : للزوجة الربع إذا لم يكن للزوج ولد ولا بنت ، وإلا فلها الثمن والزوجات إذا تعددن يشتركن في الربع أو الثمن .

الحادى والعشرون : إذا بقى شىء من التركة بعد استيفاء أصحاب القروض يرد عليهم ما عدا الزوج والزوجة .

(١) وهذا رأى معاذ ومعاوية

الثاني والعشرون : لا يرث ذوو الأرحام إلا إذا عدت العصبة وتوريثهم ( في كتاب الميراث لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف ) .

الثالث والعشرون : لا تقسم التركة إلا بعد تنفيذ الوصية ، ونريد بالوصية الشرعية ، فإذا كانت غير شرعية كأن كان فيها امتياز لبعض الورثة من غير سبب يقتضى ذلك ، أو فيها مخالفة للشرع الشريف ؛ كأن أوصى بأن تجعل له مقصورة ، أو ينصب له سراق ، أو يدفن في كفن من حرير ، وهكذا فلا ينفذ شيء منها .

والوصية لا تنفذ إلا بعد أداء الدين ، ولا تنفذ إلا في ثلث ما بقى من بعد الديون ، ولا تنفذ فيما زاد على الثلث ، إلا بإجازة الورثة ، وإذا كانت لوارث لم ينفذ فيها شيء إلا بإجازتهم جميعاً .

وإذا اجتمعت الوصية بدين الله والوصية لأجنبي نفذتا معاً ؛ وسعها الثلث ، أو أجاز الورثة ، فوسعها الكل ، فإن لم يسعها الثلث أو الكل ؛ قسم عليهما بنسبة أسهمهما إذا كانتا مقدرتين لسهام وبعدد الجهات إن لم يكونا مقدرتين بها ، ولا يقدم أحد النوعين على الآخر ولا يجعل الوصايا التي لله جهة واحدة .  
غفلة مستحكمة :

جرت العادات بأن من مات يحفظ من تركته حق الناس ، ولا يدخل في حساب التركة حق الله تعالى كالزكاة والحج والنذر ، وهذا جحود وتقصير في حق المتوفى ؛ ففي هذا عقوق له وتعذيب له . وسواء وصى أو لم يوص ، نعم إذا لم يتمكن من أداء هذا الحق في حياته ووصى بالأداء من التركة فلا ذنب عليه ، وإنما الذنب على الورثة إذا لم ينفذوها .

#### حق الورثة :

ما يبقى بعد هذه الحقوق الثلاثة هو حق الورثة ، وهم مرتبون في الاستحقاق على الوجه الآتي :

- ١ - أصحاب الفروض وهم كل من له فرض مقدر في كتاب الله كالزوج ، أو في سنة رسول الله ﷺ كالجدة ، أو بالإجماع كحلل الجد الصحيح محل الأب ، وحلول بنت الابن محل البنت .
- ٢ - العصباء النسبية : وهم من أقارب الميت الأقربين غير ذوى الفروض - كل من يأخذ من التركة - ما أبقتة الفرائض ، ويأخذ جميع التركة عند الانفراد .  
وإنما يقدم صاحب الفرض على العاصب ، إذا لم يكن محجوباً فإذا كان محجوباً لم يقدم عليه ، كالأخت مع الابن ، فإنها وإن كانت من ذوى الفروض وهو من العصباء لا تقدم عليه لأنها محجوبة به .
- ٣ - الرد على أصحاب الفروض غير الزوجين ، وذلك إذا بقى من التركة شيء بعد إلحاق الفرائض بأهلها ولم يوجد عاصب ، فيرد الباقي على من عدا الزوجين بنسبة سهامهم .

٤ - ذوو الأرحام : وهم الأقارب غير ذوى الفروض والعصبات ، كابن البنت والخال ، فلا يرثون إلا إذا انعدم أصحاب الفروض والعصبات ، أو كان من أصحاب الفروض ، أحد الزوجين فقط .

٥ - الرد على أحد الزوجين : إذا لم يوجد غيره من أصحاب الفروض والعصبات وذوى الأرحام .

تنبيه : مذكرته في أحكام الموارث بالنسبة للأبناء والأحفاد ؛ كان قبل الوصية الجبرية التي صدرت في سنة ١٩٤٦ فقد ورثت الأحفاد الذين يموت والدهم في حياة جدهم ، بشرط أن يكون الإرث في دائرة الثلث ، وأن يكون للطبقة الأولى فقط لأولاد البنات أما أولاد الذكور فتكون لجميع الطبقات : الأقرب فالأقرب .

### تفسير آيات الميراث :

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالميراث ، نأخذ بعون الله تعالى في تفسير النص الكريم الذى أنزله الله على عبده ورسوله ﷺ بشأن الميراث ؛ فنقول وبالله التوفيق : بعد أن بين سبحانه حكم الميراث مجملًا في قوله : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ ذكر هنا تفصيل ذلك المجمل ، فبين أحكام الموارث وفرائضها ، لإبطال ما كان عليه العرب من نظام التوارث في الجاهلية ؛ من منع الأنثى وصغار الأولاد وتوريث بعض من حرمه الإسلام من الميراث .

وقد كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة :

١ - النسب : وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو ويأخذون الغنائم ، وليس للضعيفين المرأة والطفل من ذلك شىء .

٢ - التبني : فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره ؛ فيكون له أحكام الولد في الميراث وغيره .

٣ - الحلف والعهد : فقد كان الرجل يقول لآخر ؛ دمي دمك وهدمي هدمك ( أى إذا أهدر دمي أهدر دمك ) وترثني وأرثك ، وتطلب بي وأطلب بك ، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما قبل الآخر كان للحي ما اشترط من مال الميت .

فلما جاء الإسلام أقرهم على الأول والثالث دون الثانى ، فقال : ﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ والمراد التوارث بالنسب وقال : ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ والمراد به التوارث بالعهد . وقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ <sup>(١)</sup> والمراد به التوارث بالتبني . وزاد شيئين آخرين :

١ - الهجرة ، فكان المهاجر يرث من المهاجر إليه وإن كان أجنبيًا عنه إذا كان بينها مخالطة وود ولا يرثه غير المهاجر من أقاربه .

(١) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

٢ - المؤاخاة - كان رسول الله ﷺ يؤاخى بين كل اثنين من الرجال ، وكان ذلك سبباً للتوارث ؛ ثم نسخ التوارث بهذين السببين بقوله : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ <sup>(١)</sup> .  
ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب ، والنكاح ، والولاء .

وسبب نزول الآية ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى من حديث جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك في أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا تنكحان إلا ولهما مال ، فقال : ( يقضى الله في ذلك ) فنزلت آية الميراث ﴿ يوصيكم الله في أولادكم ﴾ الآية ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أعط بنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك » قالوا وهذه أول تركة قسمت في الإسلام .

صدقت يا رسول الله ﷺ لقد علمتنا ورغبنا في تعلم علم الفرائض ؛ فهو نصف العلم . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم ، وهو ينسى ، وهو أول شيء ينزع من أمتى ) رواه ابن ماجه .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية يوصيكم الله في أولادكم ﴿ عن جابر بن عبد الله قال : عادن رسول الله ﷺ وأبو بكر في بنى سلمة ماشيين ، فوجدنى النبی ﷺ لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت ، فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله . فنزلت ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ <sup>(٢)</sup> . ومعنى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ أى يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ؛ فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة . والكلفة ، ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفى ما تأخذه الأنثى .

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقهم من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء فى الحديث الصحيح ؛ وقد رأى امرأة من السبى فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبى أخذته ، فألصقته بصدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : ( أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ) . قالوا : لا يا رسول الله ! قال : ( فوالله الله أرحم بعباده من هذه بولدها ) .

قال البخارى رواية عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل

(١) من الآية : ٦ من سورة الأحزاب .

(٢) ورواه مسلم بمثله ، وزاد الترمذى : فقلت يابنى الله كيف أقسم مالى بين ولدى ؟ فلم يرد على شيئا فنزلت : ﴿ يوصيكم الله فى

أولادكم ﴾ الآية



للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع وإنما قال تعالى : ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ أى للذكر منهم نصيب اثنتين من إناثهم ، إذا كانوا ذكوراً وإناثاً .

واختير هذا التعبير ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر إيماء إلى أن إرث الأنثى كأنه مقرر معروف ، وللذكر مثله مرتين ، وإشارة إلى إبطال ما كانت عليه العرب في الجاهلية من منع توريث النساء .

والحكمة في جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجته فجعل له سهمان ، وأما الأنثى فهي تنفق على نفسها فحسب فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها .

ويدخل في عموم الأولاد :

١ - الكافر لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث قال عليه الصلاة والسلام ( لا يتوارث أهل ملتين ) .

٢ - القاتل عمداً لأحد أبويه ، ويخرج بالسنة والإجماع .

٣ - الرقيق : وقد ثبت منعه بالإجماع لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من المال فهو ملك لسيده ومالكه ، فلو أعطيناه من التركة شيئاً كنا معطين ذلك للسيد ، فيكون هو الوارث بالفعل .

٤ - الميراث من النبي ﷺ فقد استثنى بحديث : ( نحن معاشر الأنبياء لا نورث ) (١) .

قوله تعالى : ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ أفاد هذا النص الكريم أن للبنات الصلبية ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن ترث بطريق التعصيب كما قال الله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ .

الحالة الثانية : أن الثلثين للأنثيين فأكثر ، إذا لم يكن معهن ابن أو أكثر قال ابن قدامة : أجمع أهل العلم على أن فرض البنتين الثلثان .

الحالة الثالثة : النصف للواحدة ، قال تعالى : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث ﴾ .

أحوال الأب :

للأب ثلاثة أحوال : حالة يرث فيها بطريق الفرض ، وحالة يرث فيها بالتعصيب وحالة يرث فيها بالفرض والتعصيب معاً .

(١) رواه الترمذى عن الحارث عن علي كرم الله وجهه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى الدين قبل الوصية .. وروى الدارقطنى من حديث عاصم بن ضمره عن علي كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين قبل الوصية وليس لوأرث وصية »

## الحالة الأولى :

يرث فيها بطريق الفرض ؛ إذا كان معه فرع وارث مذكر منفرداً ، أو مع غيره ، وفي هذه الحالة فرضه السدس .

## الحالة الثانية :

يرث فيها بطريق التعصيب ؛ إذا لم يكن للميت فرع وارث مطلقاً ، مذكراً كان أم مؤنثاً ، فيأخذ كل التركة إذا انفرد ، أو الباقي من أصحاب الفروض إن كان معه أحد منهم .

## الحالة الثالثة :

يرث فيها بطريق الفرض والتعصيب معاً ، وذلك إذا كان معه فرع وارث مؤنث ، وفي هذه الحال يأخذ السدس فرضاً ؛ ثم يأخذ الباقي من أصحاب الفروض تعصيباً .

## أحوال الأم :

- ١ - تأخذ السدس ، إذا كان معها ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة أو الأخوات . مطلقاً سواء أكانوا من جهة الأب والأم ، أم من جهة الأب أو من جهة الأم .
- ٢ - تأخذ ثلث جميع المال ، إذا لم يوجد أحد ممن تقدم ذكرهم .
- ٣ - تأخذ ثلث الباقي ، عند عدم من ذكر بعد فرض أحد الزوجين ، وذلك في مسألتين تسميان بالغراوين .

الأولى : في حالة ما إذا ترك زوجاً وأبوين ، والثانية : ما إذا ترك زوجين وأبوين .

قوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ أى يوصيكم بأن لأولاد من يموت منكم كذا من التركة ، ولأبويه كذا منها ، من بعد وصية يقع الإيصاء بها من الميت ، ويتحقق نسبتها إليه ، ومن بعد قضاء دين يتركه عليه وقدمت الوصية على الدين في الذكر مع أن الدين مقدم عليها وفاء ، كما قضى به رسول الله ﷺ فيما رواه على<sup>(١)</sup> كرم الله وجهه ، وأخرجه عنه جماعة ، لأنها تؤخذ كالميراث بلا عوض فتشق على الورثة وجاء عطف الدين على الوصية بأو دون الواو إشارة إلى أنها متساويان في الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين أو منفردين .

قوله تعالى : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا ﴾ أى أنكم لا تدرون أى الفريقين أقرب لكم نفعا آباؤكم أو أبناؤكم ؟ فلا تتبعوا في قسمة التركات ما كان يتعارفه أهل الجاهلية ؛ من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال والنساء ، لأنهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما أمركم الله به ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعا لكم ، مما تقوم به في الدنيا مصالحكم وتعظم به في الآخرة أجوركم .

﴿ فريضة من الله ﴾ أى فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هواة في وجوب العمل بها .

﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أى إنه تعالى لعلمه بشئونكم ، ولحكمته العظيمة ، لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم ، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع ، إلى أنه منزه عن الغرض والهوى ؛ للذين من شأنها أن يمنعا من وضع الشيء في غير موضعه ، ومن إعطاء الحق لمن يستحقه .  
حالة الزوج :

قال تعالى : ﴿ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ﴾ ذكرت هذه الآية أن للزوج حالتين :

الحالة الأولى : يرث فيها النصف ، وذلك عند عدم وجود الفرع الوارث وهو الابن وإن نزل ، والبنت وبنت الابن وإن نزل أبوهما ، سواء أكان منه أم من غيره .

الحالة الثانية : يرث فيها الربع عند وجود الفرع الوارث .

ميراث الزوجة :

قال الله تعالى : ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾ إن للزوجة حالتين :

الحالة الأولى : استحقاق الربع عند عدم وجود الفرع الوارث سواء أكان منها أم من غيرها .

الحالة الثانية : استحقاق الثمن عند وجود الوارث ، وإذا تعددت الزوجات إذا اقتسم الربع أو الثمن بينهن بالسوية .

الزوجة المطلقة : والزوجة المطلقة طلاقاً رجعيّاً ترث من زوجها إذا مات قبل انتهاء عدتها ، ويرى الحنابلة تورث المطلقة قبل الدخول والخلوة من مطلقها في مرض الموت إذا مات في مرضه ما لم تتزوج ، وكذلك بعد الخلوة ما لم تتزوج ، وعليها عدة الوفاة .

أحوال الأخ لأم :

قال تعالى : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم ﴾ .

الكلالة من لا والد له ، ولا ولد ذكراً أو أنثى ، والمقصود بالأخ أو الأخت هنا الإخوة لأم ، ويتبين من الآية أن لهم أحوالاً ثلاثة :

١ - أن السدس للشخص الواحد ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

٢ - أن الثلث للثنتين فأكثر يستوى فيه الذكور والإناث .

٣ - لا يرثون شيئاً مع الفرع الوارث : كالولد ، وولد الابن ، ولا مع الأصل الوارث للذكر ، كالأب ، والجد ، فلا يحجبون بالأُم أو الجدة .

## كلمة عن الوصية :

قال الإمام النخعي : قبض رسول الله ﷺ ولم يوص ( ومعنى هذا أن الرسول ﷺ لم يكن في حاجة إلى أن يوصى ذلك لأن ما تركه ﷺ بعد وفاته فهو صدقة حيث قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة <sup>(١)</sup> .

وقبض أبو بكر وقد وصى ، فإن أوصى الإنسان فحسن ، وإن لم يوص فحسن أيضاً ، ومن الحسن أن ينظر الإنسان في قدر ما يخلف ومن يخلف ؛ ثم يجعل وصيته بحسب ذلك ، فإن كان ماله قليلاً وفي الورثة كثرة لم يوص وإن كان في المال كثرة أوصى بحسب ماله ، وبحسب حاجاتهم بعده كثرة وقلة .

وقد روى عن علي أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، والضرار في الوصية والدين يقع على وجوه :

١ - أن يوصى بأكثر من الثلث ، وهو لا يصح ولا ينفذ ، وعن ابن عباس أن الضرار فيها من الكبائر .  
٢ - أن يوصى بالثلث فما دونه ، لا لغرض من القرية والتصدق لوجه الله ، بل لغرض تنقيص حقوق الورثة .

٣ - أن يقر يدين لأجنبي يستغرق المال كله أو بعضه ، ولا يريد بذلك إلا مضارة الورثة ، وكثيراً ما يفعله المبغضون للوارثين ، ولا سيما إذا كانوا كلاله ومن ثم جاء ذكر هذا القيد ﴿ غير مضار ﴾ في وصية ميراث الكلاله ، لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الأولاد ، وكذا الأزواج نادر .

٤ - أن يقر بأن الدين الذي كان له على فلان قد استوفاه ، ووصل إليه .

﴿ وصية من الله ﴾ أي يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل ، فهي جدية أن يعتنى بها ويدعن للعمل بموجبها .

﴿ والله عليم حلیم ﴾ أي : ﴿ والله عليم ﴾ بما ينفعكم ، وبنيات الموصين منكم ، ﴿ حلیم ﴾ لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه ، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا ، كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه ، فتضاروه في الوصية ، كما لا يرضى لكم بحرمان النساء والأطفال من الإرث .

وفي هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها ، وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا ، فمن الواجب أن نذعن لوصاياه وفرائضه ، ونعمل بما ينزل علينا من هدايته كما لا ينبغي أن يغري الطامع في الاعتداء وأكل الحقوق ، تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل ، فيظن أنهم بمنجاة من العذاب ، فيتجرأ على مثل ما تجرأوا عليه من الاعتداء ، فإنه إهمال يقتضيه الحلم لا إهمال من العجز وعدم العلم .

## الحقوق المتعلقة بالتركة :

بعد تفسير الآيتين الكريميتين المتعلقتين بأحكام الميراث ، نرى أن نبين الحقوق المتعلقة بالتركة ؛ حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكام الإسلام ، وحتى لا تنزل قدم بعد ثبوتها .

قال الفقهاء : الحقوق المتعلقة بالتركة أربعة وهى كلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيتقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

- ١ - الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .
- ٢ - الحق الثانى : قضاء ديونه .
- ٣ - الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقي ؛ بعد قضاء الدين .
- ٤ - الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الترهيب من الدين :

الإسلام دين يدعو إلى حسن المعاملة ، قال رسول الله ﷺ : ( رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى<sup>(١)</sup> ) ومن عظمة الإسلام أنه يحافظ على الدين والنفس والعقل والمال والعرض ، ومن المحافظة على مال العباد نرى أن الله جلت قدرته لما أعطى الورثة حقوقهم قال : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ . فللدين خطورته ، ولما تفشى بين الناس أكل الديون ، والمماطلة فى أدائها . كان لابد أن نعيش مع أقوال الصادق المعصوم التى حذر فيها من أكل أموال الناس بالباطل ، والمماطلة فى أداء حقوق العباد .

١ - عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أعوذ بالله من الكفر والدين ) فقال الرجل : يا رسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : ( نعم ) رواه النسائى .

المفردات : الكفر : الإشراف بالله وجحود نعمه .

الدين : الاستدانة وأخذ المال من الغير سلفة ، وقد رهب ﷺ من الدين حتى ساوى عقابه الكفر والطغيان أتعدل الكفر بالدين قال : « نعم » أى الدين مثل الكفر يدعو إلى الذلة والمسكنة ، ويجلب العار والدمار والشقاء ، ويبعد المروءة والشهامة ويضع المستدين فى سلاسل الأسر والتحقير وفى عدمه طلب الاقتصاد والرغبة فى التوفير .

٢ - وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « الدين راية الله فى الأرض فإذا أراد أن يُدَلَّ عبداً وضعه فى عنقه » . رواه الحاكم .

٣ - عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يوصى رجلاً فيقول له : ( أقل من الذنوب يهن عليك الموت ، وأقل من الدين تعش حراً ) . رواه البيهقى .

٤ - وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : ( لا تحيفوا أنفسكم بعد أمنها ، قالوا : وماذا لك يا رسول الله ؟ قال : « الدين » ) رواه أحمد .

٥ - وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول ، والدين ، والكبر ) رواه الترمذى .

المفردات : الغلول : السرقة من المغنم . الدين : أخذ مال الغير استدانة . الكبر : الخيلاء ، والبطر ، والعجب ، والكبرياء ، هذه صفات ذميمة من ابتعد عنها فاز بالجنة .

٦ - وعن أبي أمامة رضى الله عنه مرفوعاً : ( من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله عز وجل لغريمه يوم القيامة ) رواه الحاكم .

المفردات : تجاوز : عفا الله عن ذنوبه التى ارتكبها من جراء ضياع حقوق غيره . أرض غريمه : دأته : بأن زاد فى حسناته وكافأه وأغدق عليه من نعمه . اقتص : عذبه : لأنه أخذ وفى نفسه الغندر والنكت والخيانة ، ففيه طلب حسن النية وعقد العزيمة على الوفاء عند الميسرة .

٧ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله ) . رواه البخارى .

المفردات : من أخذ أموال الناس : أى تسلمها بوجه من وجوه التعامل كالقرض أو للحفظ وديعة لله أو غير ذلك ، حال كونه ينوى ردها . أتلفه الله : أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المصائب ، ومحق البركة ، أو المراد إتلاف نفسه فى الدنيا ، أو تعذيبه فى الآخرة .

وفى الفتح<sup>(١)</sup> : وظاهره يحيل المسألة المشهورة ؛ فيمن مات قبل الوفاء بغير تقصير منه ، كأن يعسر مثلاً أو يفاجئه الموت ، وله مال مخبوء ، وكانت نيته وفاء دينه ، ولم يوف عنه فى الدنيا والظاهر أن لا تبعة عليه ، والحالة هذه فى الآخرة بحيث يؤخذ من حسناته لصاحب الدين . بل يكتفى الله عنه لصاحب الدين .

( قوله أتلفه الله ) ظاهره أن الإتلف يقع له فى الدنيا وذلك فى معاشه أو فى نفسه ، وهو علم من أعلام النبوة ، لما تراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين .

وقيل المراد بالإتلاف عذاب الآخرة : قال ابن بطال : فيه الحض على ترك استئكال أمر الناس ، والترغيب فى حسن التأويه إليهم عند المدينة ، وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل .

وقال الدوادى ، فيه أن من عليه دين لا يعتق ولا يتصدق وإن فعل رد أ . هـ . [ ج ٥ ص ٣٥ الفتح ] .

٨ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( من حمل أمتى ديناً ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه ) رواه أحمد . ( أنا وليه ) أى أنا الذى أدفع عنه .

٩ - وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها : ما لك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان له من الله عون ) . فأنا التمس ذلك العون . رواه أحمد .

المفردات : مندوحة : خلاص أو مهرب . عون : مساعد .

١٠ - وعن عمران بن حصين ، رضى الله عنهما ، قال : كانت ميمونه تَدَان فتكثر ، فقال لها أهلها في ذلك ولاموها ، فقالت : لا أترك الدين وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من أحد يدان ديناً يعلم الله أنه يريد قضاءه ألا أداه الله عنه في الدنيا ) . رواه النسائي .

١١ - وعن صهيب الخير رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( أيما رجل تدَّين ديناً وهو يجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقاً ) . رواه ابن ماجه والبيهقى .

١٢ - وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : ( من تدَّين بدين وهو يريد أن يقضيه حريص على أن يؤديه ، فمات ولم يقض دينه ؛ فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ، ويغفر للمتوفى ، ومن تدَّين بدين وهو يريد أن لا يقضيه ؛ فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أن لن نوفي فلانا حقه منك ؟ فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة في حسنات رب الدين . فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت في سيئات المطلوب ) . رواه البيهقى .

١٣ - وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثم دينار ولا درهم ) رواه ابن ماجه .

١٤ - وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعداً حيث توضع الجناز ، فرفع رأسه قبل السماء ، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : سبحان الله ، سبحان الله ، ما أنزل من التشديد ، قال فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا ما التشديد الذى نزل ؟ قال : ( فى الدَّيْنِ ، والذى نفسى بيده لو قُتِل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى دينه ) . رواه النسائي .

المفردات : يؤدى : والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين ، وأن عقابه صارم ويدخل النار ، ولو كان المدين صالحاً مجاهداً .

١٥ - وعن أبي هريرة رضى الله عنه : ( أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ! فقال : أثنتى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيداً ، فقال : فائتني بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ؛ فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم

أنى تسلفت فلانا ألف دينار ، فسألنى كفيلاً ، فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضى بك ، وسألنى شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضى بك ، وإنى اجتهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهدت فى طلب مركب لأتىك بمالك ؛ فما وجدت مركباً قبل الذى جئت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً ) . رواه البخارى .

### شرح الحديث :

أن رجلاً اقترض مبلغاً من آخر إلى زمن معلوم ، ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركباً فأتى بخشبة ووضع المبلغ فيها ورمأها فى البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة ، فأخذها للدفع ، فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يروىها لنا سيدنا رسول الله ﷺ ، عن صالحين مؤمنين معتمدين على الله جلّ وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فىنا الآن هذا الإيمان وحب الخير والتوكل على الله ؟ ! وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ؟ والوفاء والصدق ورد الودائع ؟ وقد قال الله تعالى فىنا : ﴿ كُتِبَ خَيْرَ أَمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) اكتسبت الأمة الشرف العظيم ، والتفوق الباهر ، والخيرية من رسولها الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ ؛ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن تعمل مثلهما ، وتتقى الله وثق به ، وندعوه رغباً ورهباً ونخشاه ، قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (٢) وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتوح : فى الحديث جواز الأجل فى القروض ، ووجوب الوفاء به ، وقيل : لا يجب ؛ بل هو من باب المعروف ، وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب ، للاتعاظ والأئسء ، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه ، وفيه بداءة الكاتب بنفسه ، وفيه طلب الشهود فى الدين ، وطلب الكفيل به ، وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن صح توكله تكفل الله بنصره وعونه أ . هـ [الفتح] .

١٦ - وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من تزوج امرأة على صداق ، وهو ينوى أن لا يؤديه إليها ، فهو زان ! ومن أدان ديناً وهو ينوى أن لا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال فهو سارق ) . رواه البزار وغيره .

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٥٨ من سورة النساء .



المفردات : صداق : مهر . زان : مرتكب الفاحشة . سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

١٧ - وعن ميمون الكردي عن أبيه رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو أكثر ؛ ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤدي إليها حقها ، لقي الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه ، خدعه ، حتى أخذ ماله فمات ولم يؤدي إليه دينه لقي الله وهو سارق ) . رواه الطبراني .

١٨ - وعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : ( يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ؛ فيقال : يا ابن آدم : فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يا رب : إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم ألبس ، ولم أضيع ولكن أتى على : إما حرق ، وإما سرق ، وإما وضيعه ، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه ؛ فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته ) . رواه أحمد والطبراني .

١٩ - وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل الله ؛ فيستدين بتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة ؛ فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة ) . رواه ابن ماجه .

٢٠ - وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ، ما لم يكن فيما يكرهه الله ) . قال : كان عبد الله بن جعفر يقول لحازنه : اذهب فخذ لي بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى ، بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ : رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٢١ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ؛ فقد ضار الله في أمره ، ومن مات وعليه دين ، فليس ثم دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم لم يزل في سخط الله حتى ينزع ، ومن قال في مؤمن : ما ليس فيه حبس في ردغة ( طعام أهل النار ) الخبال ، حتى يأتى بالمخرج مما قال ) . رواه الحاكم .

المفردات والشرح : حالت : منعت عقاباً في الانتقام وتنفيذ أوامر الله . ضاد الله : كان لله عدواً وضداً ، وأعلن الحرب على الله تعالى ، لأنه ساعد المجرمين ، وضيع حقوق الله في وساطة ! قال تعالى : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز \* لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى

الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿١﴾ . أى الذين يحادون الله هم العصاة . والفساق ، ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار ، لذهاب معالم الحق وتفشى الباطل ، وضياح مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه ، أى من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال مبالغة فى الزجر من مجانبه أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم أ . هـ [نسفى] .

وأنا أعد شركاء المجرمين شركاء لهم فى الذنب ، وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾ (٢) .

يتزع : يرجع والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله ؛ يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ، ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

٢٢ - وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( ها هنا أحد من بنى فلان ) ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : « ها هنا أحد من بنى فلان » ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : ( ها هنا أحد من بنى فلان ) ؟ فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله فقال : ( من منعك أن تحيىنى فى المرتين الأوليين ؟ ) قال : ( إني لم أنه بكم إلا خيراً ، إن صاحبكم مأسور بدينه ) . فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشيء . رواه أبو داود ، والنسائى .

٢٣ - عن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة ) . رواه الطبرانى .

٢٤ - عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه عبد - بعد الكبائر التى نهى الله عنها - أن يموت رجل وعليه دين ؛ لا يدع له قضاء ) . رواه أبو داود .

٢٥ - وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : ( أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور ، يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ، قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت ، ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؛ فيقول إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد له قضاء أو وفاء ) .

٢٦ - عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : ( نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه ) . رواه أحمد والترمذى .

(١) الآيات : ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية : ١٤ من سورة النساء .

٢٧ - وعن جابر رضى الله عنه ، قال : توفي رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم آتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ؛ ثم قال : ( أعلية دين ؟ قلنا ديناران فانصرف فتحملهما أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران على ، فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرئ منها الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد ؛ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : ( الآن بردت جلدته ) . رواه أحمد بإسناد حسن . [ الترهيب من مطل الغنى ، والترغيب في إرضاء صاحب الدين ] .

٢٨ - عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على ملء فليتبع )<sup>(١)</sup> رواه البخارى .

المفردات : مطل : تأخير الحق وتسويق دفعه للدائن . الغنى : القادر على سداد الدين لديه بعد استحقاقه . ظلم : محرم عليه ، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى : ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب ، فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلماً .

حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى عزيمة من إضافة المصدر للفاعل ، وقيل من إضافته للمفعول ، والمعنى أنه يجب وفاء الدين ، وإن كان مستحقه غنياً ، ولا يكون غناه سبباً لتأخره عنه ، وإذا كان كذلك في حق الغنى فهو في حق الفقير أولى .

٢٩ - وعن علي رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يجب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال ) .

٣٠ - وروى عن خولة بنت قيس - امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : ( ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيف الحق من قوبها غير متعنت ) ثم قال : ( من انصرف غريمه وهو عنه راض صلت عليه دواب الأرض ونون الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط ، كتب عليه في كل يوم ليلة وجمعة وشهر ظلم ) . رواه البخارى .

#### فقه الأحاديث :

أولاً : الدين يعادل في العقاب الكفر في الذلة والإهانة ، وغلبة الدائن وسلطته على المدين .

ثانياً : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين بضعته .

ثالثاً : عدم الدين يجلب السعادة ، وتنسم الحرية ، والشعور بالكرامة والمروءة ( أقلل من الدين ) .

رابعاً : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة ، وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامساً : ترك الدين في الرخاء أحسن ، خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدي به ، وبذا يدخل جهنم

(١) وفي بعض الروايات « مطل الواجد ظلم »

بسبب دينه ، وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضاً ، انتقاماً منه وترضية لصاحب الدين .  
سادساً : كثرة الاستدانة تجلب الفقر ، وتنزع البركة من المال ، وتنذر بالخراب والخسران ( أتلفه الله ) .

سابعاً : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط ، شريطه نية الوفاء وحسن الأداء .  
ثامناً : قضاء حاجات الناس ، وفك كربهم محمداً ومجلباً للخير ، ورضوان الله .  
تاسعاً : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء ، كالغصب والنهب ( لقي الله سارقاً ) .  
عاشراً : الزوج اذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم ، وعيشتها معها محرمة ، وهو عاص ربّه ( زان ) .  
الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسناً فى نصر دين الله « وعليه دين ما دخل الجنة » .  
الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء ، سعادة ومحبة من الله ، وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله . ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه ، ( صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك ) .

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس ؛ مشمول بعز الله ورحمته ( الله مع الدائن ) .  
مايريده ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

أولاً : عدم المماطلة وترك التسويف ، إذا كان قادراً على الدفع .  
ثانياً : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه .  
ثالثاً : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سبب عرضه وشتمه وغيبته .  
رابعاً : كل من قدر على أداء ما افترض ، ولم يف ؛ حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين ، وحل عليه غضب الله وكرامته .  
خامساً : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ، ويوقعها فى الذنوب المهلكة ، ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها ، أى طهرها من الخطايا .

سادساً : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ، ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .  
سابعاً : المقصر فى الأداء الذى هجر دأبه وأغضبه ، سجلت عليه الآثام بمرور الأزمان ، ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه « يا خولة عديهِ واقضيه » ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف اللفظ الغليظ ، الذى اشتد عليه حتى قال : « أخرج عليك إلا قضيتنى » أى أعلن عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى !! مسكين أيها الأعرابى شىء قليل أقرضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت

وليس عنده شيء مطلقاً لكن أبى كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ويغدق عليه بإحسانه ويرد ما أخذه مضاعفاً ، ثم دعا ﷺ الأعرابي : « أوفيت أوفى الله عنك » .

هكذا تكون مكارم الأخلاق وحسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود ، وهنا درس مفيد وعظة بالغة لعننا نعمل بها ، ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابي ويفهموه درجة السفير الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضرهم ﷺ على نصر الضعيف ومجارة الحق ، والأخذ بيد الضعيف ، وهلا مع صاحب الحق كنتم « أرايت أبداع من هذا ؟ يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا في صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكتة وعز سلطانه .

والأبداع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا مستغرق في طاعة الله ؛ فقرض من الأعرابي ، ثم قرض من خولة ما يؤدي به حق الأعرابي حتى أفرحه وأكسبه رضاه ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ، ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء وطيب القضاء .

ثم قال ﷺ : ( أولئك خيار الناس ) أى الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ويساعدون على تنفيذه ، وكذا دافع الحق بسهولة من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايهم وأحسنهم ، فعليك أخى بحسن المعاملة ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ﷺ فتفى بوعدك وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتحشاه وتحسن كما أحسن الله إليك قال تعالى : ﴿ من كان يريد الآخرة نزل له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ (١) .

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه :

( أ ) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (٢) .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة ﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ كفيلاً ﴾ أى شهيداً شاهداً بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراعى لحال المكفول به ، رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ورأيت حفظ الله ماله الذى رماه في البحر في خشية .

وقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن

(١) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية : ٩١ من سورة النحل .

تكون أمة هي أربى من أمة إنما يملوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

( ب ) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ (٣) .

( جـ ) قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يلبس المجرمون ﴾ (٤) .

( د ) قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .

( هـ ) قال تعالى : ﴿ ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون \* ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون \* وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .

ذلك إشارة إلى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه ، أو ملتبسين بظلم وهم غافلون ، لم ينبهوا برسول ، سبحانه لا يخفي عليه عمل ، بل قدر عليه ثواباً أو عقاباً ﴿ الغنى ﴾ عن العباد والعبادة يترحم على عباده بالتكليف تكميلاً لهم ، ويمهلهم على المعاصي ، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال والأوامر ليس نفع الله ، بل لترحمه على العباد ورأفة بهم .

( و ) وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (٧) .

أى مُبدلاً إياها بالنعمة لخيانتهم ومعاصيهم ، يزيل الخير ويحفظهم بالضر ، سبحانه ، وقال تعالى : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ (٨) .

( ز ) قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (٩) .

الترغيب في كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور :

\* عن علي رضي الله عنه أن مكاتباً جاءه فقال : « إني عجزت عن مكاتبتك فأعني فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك بمثل جبل صبير ديناً أداه الله عنك !! قل : اللهم أكفني بحلالك عن حرامك ، واغنني بفضلك عن سواك » رواه الترمذي .

\* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ؛ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : ( يا أبا أمامة ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة ) ؟ قال : هموم لزممتني وديون يا رسول الله ، قال : ( ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك ) ؟ ! فقال : بلى يا رسول الله ، قال قل : ( إذا أصبحت وإذا أمسيت ؛ اللهم إني

(٦) من الآيات : ١٣١ - ١٣٣ من سورة الأنعام .

(٧) الآية : ٥٣ من سورة الأنفال .

(٨) الآية : ٣ من سورة الأنعام .

(٩) الآية : ٣٨ من سورة الحج .

(١) الآية : ٩٢ من سورة النحل .

(٢) الآية : ٩٥ من سورة النحل .

(٣) الآية : ٣٤ من سورة الاسراء .

(٤) الآية : ١٢ من سورة الروم .

(٥) الأيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ) . قال فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عني ديني ، رواه أبو داود .

\* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : ( ألا أعلمك دعاء تدعوه به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك ) ؟ ! قل يا معاذ : اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك ) . رواه الطبراني .

\* عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل على أبو بكر فقال : سمعت من رسول الله ﷺ دعاء علمنيه ، قلت : ما هو ؟ قال : ( كان عيسى ابن مريم يعلم أصحابه ، فقال : لو كان على أحدكم جبل ذهباً ديناً فدعا الله بذلك لقضاه الله عنه : اللهم فارج الهم وكاشف الغم ومجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمني ، فارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة سواك ) قال أبو بكر رضي الله عنه ، وكانت على بقية من الدين وكنت للدين كارهاً فكنت أدعو الله بذلك فأثاني الله بفائدة<sup>(١)</sup> فقضى عني ديني ، رواه البزار .

\* عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ( ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي ) إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً ، قال : يا رسول الله : ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال : ( أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن ) . رواه أحمد .

\* عن أبي بكر رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ؛ فلا تكلفني إلى نفسي طرفة عين ، أصلح لي شأني كله » . رواه الطبراني . وزاد في آخره : لا إله إلا أنت .

\* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ( من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ) رواه أبو داود .

\* وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له » . رواه الترمذي .

(١) الفائدة هنا ما يستفيده الإنسان من مال من عمل أو تجارة ، وليس الفائدة المعروفة الآن وهي الربا

✽ عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر بينى إسرائيل ؟ ! ) فقلت بلى يا رسول الله قال : ( قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ) . قال عبد الله : فما تركته منذ سمعته من رسول الله ﷺ . رواه الطبرانى .

✽ وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( إذا نادى المنادى<sup>(١)</sup> فتحت له أبواب السماء ، واستجيب الدعاء ، فمن نزل به كرب أو شدة ؛ فليتحين المنادى ، فإذا كبر كبر ، وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حى على الصلاة ، قال : حى على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح . قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها ، دعوة الحق وكلمة التقوى ، أحينا عليها وأمتنا عليها ، وأبعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته ) . رواه الحاكم .

✽ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما كربنى أمر إلا تمثل لى جبريل ؛ فقال يا محمد قل : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الدل ، وكبره تكبيراً ) . رواه الطبرانى .

✽ عن محمد بن إسحاق رحمه الله ، قال : جاء مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ ، فقال : أسر ابنى عوف فقال له : ( أرسل إليه أن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ) فذكر الحديث<sup>(٢)</sup> .

(١) المنادى هنا هو المؤذن ينادى بالصلاة

(٢) وتام الحديث : « فاتاه الرسول فأخبره ، فأكذب عوف يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله وكانوا قد شذوه بالقدر - السير من جلد غير مذبوغ يقيد به الأسير - فسقط القدر عنه ، فخرج فإذا هو بناقاة لهم فركبها ، فأقبل فإذا هو بسرح القوم - ماشيتهم - فصاح بها ، فاتبع آخرها أولها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة !! فقالت أمه : واسواته !! وعوف كتيب بألم مافيه من القدر - فاستيق الأب الباب والخام إليه ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إيلا ، فقصص على أبيه أمره وأمر الأبل .

فاتى أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بخبر عوف وخبر الأبل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصنع بها ما أحببت وماكنت صانعا بإيلك » ونزل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ٣ / الطلاق كذا فى التبرغيب ( ١٠٥ / ٣ ) وذكر ابن كثير فى تفسيره ( ٣٨٠ / ٤ ) عن أبى حاتم ، وابن جرير فى تفسيره ( ٢٨ / ٨٩ ، عن السدى مختصراً ولم يذكر الحوقلة .. الخ .



## الجزاء العادل

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ تلك حدود الله ﴾ حدود الشيء : أطرافه التي يمتاز بها من غيره ، ومنه حدود الدار ، سميت بها الشرائع التي أمر الله باتباعها ونهى عن تركها ، فمدار الطاعة على البقاء في دائرة هذه الحدود ، ومدار العصيان على اعتدائها . ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ طاعة الله : هي ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول : هي اتباع ما جاء به من الدين عن ربه ، فطاعته هي بعينها طاعة الله ، كما قال في هذه السورة ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١) فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله ؛ بما فيه منافع لنا في الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغنى بعقله وعلمه عن الوحي ، وأنه لا بد له من هداية الدين ، إذ لم يكن العقل وحده في عصر من العصور كافياً لهداية أمة ولا مرقياً لها بدون معونة الدين ، فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية ، والارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المادي ، فالآداب والفضائل التي هي أسس المدينيات تستند كلها إلى الدين ، ولا يكفي فيها بناؤها على العلم والعقل ، ونحن نؤمن ونعتقد أنها أرفع مما نرى في هذه الدنيا ، وليس لنا أن نبحث عن كيفيةها لأنها من عالم الغيب ، و﴿ الفوز العظيم ﴾ الظفر والفلاح الذي لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة بالأكدار . ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها ﴾ وقال في ذكر أهل الجنة ﴿ خالدين ﴾ وفي ذكر أهل النار ﴿ خالداً ﴾ إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع ، وأنس بعضهم ببعض ، والمترفون يسرون بمثل هذا التمتع ، وأما الذي في النار فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس ، فكأنه وحيد لا يجد لذة في الاجتماع بغيره ، ولا أنساً به يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ (٢) وتعدي الحدود الموجب للخلود في النهار : هو الإصرار على الذنب وعدم التوبة عنه فللمذنب حالان :

١ - غلبة الباعث النفسي من الشهوة أو الغضب على الإنسان ، حتى يغيب عن ذهنه الأمر الإلهي ، فهو يقع في الذنب وقلبه غائب عن الوعيد لا يتذكره ، أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل يلوح في ظلمة ذلك الباعث المتغلب ، ثم لا يلبث أن يزول أو يختفى ، حتى إذا سكنت الشهوة أو سكنت الغضب وتذكر النهي

(١) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .

(٢) الآية : ٣٩ من سورة الزخرف .

والوعيد ، ندم وتاب ، ولام نفسه أشد اللوم ، ومثل هذا جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى في أوصافهم : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ (١) .

٢ - أن يقدم المرء على الذنب ، جريئاً عليه متعمداً فعله عالماً بتحريمه ، مؤثراً له على الطاعة ، لا يصرفه عنه تذكر النهي والوعيد عليه ؛ ومثل هذا قد أحاطت به خطيئة فآثر شهوته على طاعة الله ورسوله ، فدخل في عموم قوله تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٢) .

إذ من يصر على المعصية عامداً عالماً بالنهي والوعيد لا يكون مؤمناً بصدق الرسول ﷺ ولا مذنئاً لشرعه الذي تنال الرحمة والرضا بالتزامه ، والعذاب والنكال بتعدى حدوده ، فالإصرار على العصيان وعدم استشعار الخوف والندم ، لا يجتمعان في قلب المؤمن بالإيمان الصحيح ؛ المصدق بوعده الله ووعيده .

﴿ وله عذاب مهين ﴾ المهين المذل له ، وهو عذاب الروح فللعصاة عذابان : عذاب جسماني للبدن العاصي باعتباره حيواناً يتألم ، وعذاب روحاني باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة والشرف ويتأكم بالإهانة والحزى .

وهاتان الآيتان تنطقان بمنطق العدالة الإلهية ، فمن أطاع والتزم فله الجنة والفوز العظيم ، ومن عصى وتعدى الحدود فله النار والعذاب المهين ، ما لم يتب توبة نصوحاً ، فإن رحمة الله وسعت كل شيء ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (٣) . ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴿ (٤) وقال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً \* إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً \* ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴿ (٥) .

يا ليت شعري بعد الموت ما الدار	القبر باب وكل الناس داخله
يرضى الإله وإن خالفت فالنار	الدار دار نعيم إن عملت بما
فانظر لنفسك أى الدار تختار	هما محلان ما للمرء غيرهما
وأن هفوا هفوة فالرب غفار	ما للعباد سوى الفردس إن علموا

(١) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ٨١ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ١١٠ من سورة النساء .

(٤) الآيات : ٥٣ - ٥٥ من سورة الزمر .

(٥) الآيات : ٦٨ - ٧١ من سورة الفرقان .

## عقاب الفاحشة

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ يأتين الفاحشة ﴾ يفعلنها ، والفاحشة ما فحش ذنبه وقبح جرمه كالزنا .  
﴿ يتوفاهن ﴾ يقال توفيت ما لى على فلان واستوفية قبضته ، والمراد توفى أرواحهن ملك الموت .

للمفسرين أقوال في هاتين الآيتين ، وقد ذكر صاحب كتاب ( المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء )<sup>(١)</sup> ذكر أقوال المفسرين ، وأختار من بينها رأي أبي مسلم الأصفهاني عن مجاهد ، وهذا الرأي نرجحه أيضاً ونميل إلى صحته ، حيث إنه فهم الآيتين فهماً يفيد معنى مستقلاً ؛ فالآية الأولى وهي قوله تعالى : ﴿ وَاللّٰقِ يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ﴾ تتحدث عما يجري بين النساء وهو ما يسمى بالسحاق وهو جريمة من جرائم الانحراف الجنسي ، والآية الثانية وهي قول تعالى : ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهِمَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا ﴾ تتحدث عما يجري بين الرجال من اللواط والشذوذ الجنسي ، وتقتضينا الأمانة العلمية أن نذكر أقوال المفسرين في هاتين الآيتين كما ذكرهما صاحب الكتاب ( المجتمع الإسلامي ) فقد ذكر تفسير هاتين الآيتين تحت عنوان ( جرمتان فاحشتان )<sup>(٢)</sup> قال : ( اختلاف بين المفسرين وبيان الراجح من الآراء ) : عرضت سورة النساء لجرمتين من أشنع الجرائم الخلقية التي من شأنها أن تودي بالمجتمع ، وأن تسلب أعضائه رجالاً ونساء ما لكل منها من خصائص ، وذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاللّٰقِ يَأْتِيْنَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾ \* واللذان يأتياها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها إن الله كان تواباً رحيماً ﴾ وقد اختلف المفسرون في مواضع من هاتين الآيتين : فاختلفوا في المقصود من ﴿ الْفَاحِشَةَ ﴾ هنا ، واختلفوا في المراد من ﴿ اللّٰقِ يَأْتِيْنَ ﴾ ومن ﴿ اللذان يأتياها ﴾ وفي العقوبة المقررة في هذا الشأن ، وهلى نسخ حكمهما أو لم ينسخ ؟

ونحن نلخص الخلاف في ذلك ونذكر ما هو الراجح من أقوال المختلفين باعتبار النظر في القرآن وما يتفق وبلاغته ودلالته :

١ - يرى الجمهور أن الحديث في هاتين الآيتين عن جريمة الزنا ، وأن العقوبة التي كانت على هذه الجريمة في أول الإسلام تختلف باختلاف الجنسين ، فالنساء يعاقبن إذا ثبت عليهن جريمة الزنا بعقوبتين .

(١) هو فضيلة الشيخ محمد محمد المدني - رحمه الله - عميد كلية الشريعة الاسبق

(٢) ص ٢٩٨ - ٣٠٣ من كتاب المجتمع الاسلامي كما تنظمه سورة النساء

أحدهما : مأخوذة من قوله تعالى ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . ﴾ الآية وهى إمساكنهن فى البيوت ، أى حبسهن فيها إلى أن يتحقق واحد من أمرين : إما أن يتوفاهن الموت ، وإما أن يجعل الله لهن سبيلاً غيره ، وهنا يأتى خلاف آخر فى المراد بهذه السبيل ، فبعضهم يقول : إن المراد بها أن يشرع الله فيهن حكماً آخر ، ويشيرون بذلك إلى حكم الزانية والزانى الذى جاء فى سورة النور ، بناء على أن سورة النور نزلت بعد سورة النساء ، وقد رووا فى ذلك حديثاً عن النبى ﷺ يقول فيه : « خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً : الثيب ترجم البكر تجلد » .

وبعضهم يرى أن السبيل هى النكاح المغنى عن السفاح أى أن يرزقهن الله تعالى بمن يتزوج بهن على ما كان منهن ، فيغفر لهن هذا الماضى الآثم .

والعقوبة الثانية : هى الإيذاء ويكون بالتوبيخ والتأنيب ؛ وقيل : بل هذا تعبير عن عقوبة تفويضية للأمة وهى المعروفة فى لسان الفقهاء « بالتعزير » وقيل : بل المراد الإيذاء الذى حددته فيما بعد سورة النور وهو الجلد ، وهذه العقوبة التى هى الإيذاء مأخوذة من الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ وعلى هذا يكون ﴿ اللذان ﴾ مقصوداً به « الزانيان » أى الرجل والمرأة وتكون عقوبة الرجل الزانى هنا هى الإيذاء خاصة .

وخلاصة هذا رأى أن الجريمة المقصودة هى الزنا ، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هى الإمساك فى البيوت أى الحبس إلى أحد الأمرين المذكورين ، والإيذاء ، إما العقوبة بالنسبة للرجل فهى الإيذاء فقط .

٢ - وقد اختلف الجمهور القائلون بهذا : فمنهم من قال إن هذا الحكم نسخ بما جاء فى سورة النور من قوله تعالى : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ وقيل : لا نسخ ، ويجمع بين العقوبتين ، وقال بعضهم : إن عقوبة الإمساك فى البيوت المذكورة فى الآية الأولى نسخت لعقوبة الأذى المذكورة فى الآية الثانية ، وقالت فرقة : بل كان الإيذاء هو الأول ، ثم نسخ بالإمساك ، ولكن التلاوة أخرت وقدمت . . . الخ .<sup>(١)</sup>

٣ - ومن هذا يتبين أن الجمهور مضطرب اضطراباً كبيراً فى تفسير هاتين الآيتين ، وأن بعضهم يرى نسخ ما فيها ، وبعضهم لا يراه ، ثم الذين يرون النسخ يختلفون فى النسخ ، وأنهم يجعلون الآية الثانية فى الرجال والنساء جميعاً على التغليب ، ويجعلون عقوبة الرجل هنا أقل من عقوبة المرأة ، ويختلفون فى السبيل التى ذكرت فى الآية الأولى ، وهذا مثل واضح من أمثلة الاختلاف والاضطراب التى تجعل الناظر فى القرآن الكريم فى حيرة .

رأى أبى مسلم وبيان رجحانه :

٤ - ولكن الذى يجرد نفسه من عاطفة تقليد الجمهور ؛ يستطيع أن يجد فى أقوال غيرهم ما هو أقرب

(١) تراجع كتب التفسير ، ومنها تفسير القرطبى ج ٥ ص ٨٤

إلى القبول ، وأدنى إلى إظهار بلاغة القرآن ، وفهم حكمته التشريعية على وجه يناسب عظمتة وهدايته . ونريد بذلك : الوجه الذى اختاره أبو مسلم الأصفهاني ، ونقله عن مجاهد ، وبيانه : [ أن هاتين الآيتين تتحدثان عن جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، إحداهما تقع بين النساء خاصة ، ولا دخل للرجال فيها ، وهى الجريمة المعروفة « بالسحاق » والجريمة الثانية تقع بين الرجال خاصة ، ولا دخل للنساء فيها ، وهى الجريمة التى تعرف « بالواط » فكل من الآيتين تتحدث عن واحدة من هاتين الجريمتين بالترتيب وتسد هذه الجريمة إلى من ارتكبها على وجه التحديد ؛ فتقول الآية الأولى : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ وتقول الآية الثانية : ﴿ واللذان يأتياها منكم ﴾ وتضع كل من الآيتين العقوبة المناسبة للجريمة التى تتحدث عنها . فعقوبة النساء اللاتى يرتكبن هذه الفعل المنكرة ؛ أن يمسكن ويحبسن فى البيوت كى يتعدين عن الجو الذى يتمكن فيه من الاتصال بنساء غيرهن ، إلى أن يتوفاهن الموت ، فينتهى بذلك أمرهن ، أو يجعل الله لهن سبيلاً بزوجة يصلحن بها ، وتنسيهن هذا الداء الويل ، وتمكنهن من أداء واجبهن الطبيعى فى ظل الزواج ، وتعيد إليهن اعتبارهن كمناث خلقهن الله لغير ما انحرفن إليه من فساد عظيم .

أما الرجال ﴿ اللذان يأتياها منكم ﴾ فعقوبتهم هى الإيذاء ، وهى عقوبة وضعها الشارع لولى الأمر ، فله - إذا ثبتت تلك الجريمة المنكرة على رجلين - أن يؤذيها ، والأذى على درجات .

وللقانون المستمد من هذا التفويض أن ينظمه ، ويحدده كما تقضى بذلك المصلحة ، وكما يتناسب مع شيوع هذه الجريمة فى مجتمع ، أو قلتها فى مجتمع آخر ، فقد يرى تغليظ العقوبة إذا فشت الجريمة ردعاً لمرتكبيها ، ومن يخشى أن يقلدوهم ، وقد يرى تخفيفها لقلة مرتكبيها ، وأنها لم تعد داء عاماً يخشى على المجتمع من تفشيه .

وبذلك يتبين أن الآيتين فى جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، وأن القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث : الجريمة التى تكون بين رجل وامرأة ، والجريمة التى تكون بين امرأة وامرأة ، والجريمة التى تكون بين رجل ورجل ، فالأولى جاء حكمها فى سورة النور والثانية والثالثة جاء حكمهما فى سورة النساء . وعلى هذا فلا حاجة إلى القول بالنسخ ولا إلى ذلك الاضطراب الذى رأينا عليه الجمهور .

٥ - وعلينا أن نبين بعد هذا وجه الحكمة فى تشريع عقوبة لهاتين الجريمتين ، ولم عنيت سورة النساء بهما ، ولم خصصت سورة النور بالتشريع لجريمة الزنا ؟ وبيان ذلك كله : أن سورة النور تتحدث عن الآداب الطبيعية والسلوك المعتاد فى المجتمع ، وتبين حديثها عما يكون بين الرجال والنساء ، فتذكر الزانية والزانى ، وتذكر الذين يرمون المحصنات ، وتذكر الذى يرمون أزواجهم ، وتذكر الذين جاءوا بالإفك على سيدة شريفة هى عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وتذكر أن الحبثيات والخبثين والخبثيات ، وأن الطبيات للطيبين والطيبين للطيبات ، وتشرع حكم الاستئذان عند دخول البيوت وحكم غض الرجل بصره عن المرأة ، وغض المرأة بصرها عن الرجل ، وتذكر أحكام النساء من جهة الزينة ، وما يجوز إبدائها منها وما لا يجوز ، وعلى من تبدى المرأة زينتها وترشد إلى آداب من يعيشون معاً ، وأنه يجب على بعضهم

الاستئذان في أوقات معينة ، وتذكر حكم القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً ، إلى غير ذلك : فجميع ما ذكرته سورة النور متعلق بما يكون بين الرجل والمرأة فلذلك لم يأت الحديث فيها عن جريمة الرجل والرجل ، ولا عن جريمة المرأة والمرأة .

أما مجيء ذلك في سورة النساء فلأنها السورة التي تتحدث عن المقدمات الأساسية للمجتمع ، وكل واحدة من هاتين الجريمتين من شأنها أن تفسر رجولة الرجل ، وأن تفسر أنوثة المرأة ، فتجعل الرجل يخسر نفسه ، ولا يصلح لأن يكون زوجاً ورجلاً له شخصيته وكماله وسموه ، على النحو الذي هيأه الله عليه ، ويجعل المرأة تخسر نفسها ولا تصلح لأن تكون زوجة كذلك ، وتنفر منها فمن ذا الذي يرضى بأن يتزوج امرأة تكون مريضة بهذا الداء ؟ ومن هذه التي ترضى بأن تتزوج رجلاً يكون ملتوياً عن سنة الرجال ، متطلباً أو متقبلاً لهذا اللون من الجريمة والفاحشة المنكرة ؟ ثم متى تقوم المرأة بوظيفتها كأنثى إذا اتجهت هذا الاتجاه ، واكتفت من اللذة بهذا اللون الذي لا يثمر ثمرته ومتى يقوم الرجل بوظيفته وهو مكتف بما يرتكبه من شذوذ . . لهذا كانت هاتان الجريمتان أخطر على المجتمع من جريمة الزنا نفسها ، وكأنا أفعل في هدم كيان المجتمع منها ، لأن احدهما تفسد رجولة الرجل ، والأخرى تفسد أنوثة المرأة ، فتأق على الصنفين - اللذين يتكون منهما المجتمع من الأعماق وإذن فالسورة التي تهتم بوضع الأسس والقواعد لبناء مجتمع سليم ، ومن حقها أن تهتم بهذا الجانب الذي هو حماية الرجال من الرجال ، وحماية النساء من النساء ويتضمن ما قلناه بيان الحكمة في هذا التشريع . أه . بنصه .

### التوبة وأحكامها

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الشَّنَّ وَلَا آلَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ السوء ﴾ العمل القبيح الذي يسوء فاعله فيشمل الصغائر والكبائر . ﴿ بجهالة ﴾ المراد بها الجهل والسفه ، بارتكاب ما لا يليق بالعاقل ، لا عدم العلم ، وذلك يكون عند ثورة الشهوة أو الغضب ، وكل من عصا الله فهو جاهل . ﴿ أعتدنا ﴾ هيأنا وأعدنا .

المراد بقوله تعالى : ﴿ يعملون السوء بجهالة ﴾ أي بسفه وحمق ، وكل من عصا الله فهو سفيه أحمق ، قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل ، حتى ينزع عن الذنب .

وقال قتادة عن أبي العالية : أنه كان يُحدّث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : « كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة » رواه ابن جرير . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ، فزأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره .

قال ابن جرير : أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد ، قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها قال ابن جرير ، وقال لي عطاء بن أبي رباح : نحوه ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء . وليس المراد بالجهالة هنا عدم المعرفة ! فالحلال بين والحرام بين ، إنما الذين يأتون السوء جاهلون سفهاء حمقى ، ورحمة الله تبارك وتعالى وسعت كل شيء ، فإنه ( يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، فإذا كان الثلث الأخير من كل ليلة نادى ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من سائل فأعطيه )<sup>(١)</sup> .

فيا من تشكو مرض البعد عن الله ؛ عليك بعروق الاخلاص ، وورق الصبر ، وعصير التواضع ، ضع ذلك في إناء التقوى ، وصب عليه ماء الخشية ، وأوقد عليه بنار الحزن ، وصفه بمصفاة المراقبة ، وتناوله بكف الصدق واشربه من كأس الاستغفار ، وتمضمض بالورع ، وابعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرضك بإذن الله .

وصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، يا من رسمت لنا الطريق ووضحاً إلى الله ، طريق الطاعة والهدى والرشد والعفاف والسداد ، فقلت : « المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوق ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهد خلقى ، وقرة عيني في الصلاة »<sup>(٢)</sup> .

قوله جل شأنه : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ أى ليس ذلك من باب الالتزام ، فليس هناك أحد يلزم الله بشيء ، لأنه الفاعل المختار ، إنما ذلك من باب الفضل والكرم ، فهو صاحب الإنعام ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وإنما كان ذلك كذلك لأنه المريد العليم الحليم ، فتعطف وتكرم على الذين يتوبون من قريب ، ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> تعطف عليهم بالتوبة متى علم منهم بصدق النية ، فالتائب حبيب الرحمن ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتائب من الذنب وهو مصر عليه ؛ كالمستهزئ بربه ، فأولئك الذين يتوبون من قريب يتوب الله عليهم ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بما تنطوى عليه القلوب من صدق أو خداع ، واقتضى علمه الحكمة البالغة ، فإنه جل شأنه يتوب على الصادقين المخلصين في توبتهم

(١) اقتباس من حديث رواه البخارى

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقى

(٣) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ \* يوم لا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ .

أما الذين يعملون السيئات ويسوفون في التوبة ؛ حتى إذا ما دخلت شمس العمر منطقة الكسوف ، وانفض سوق الدنيا ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وأرخصى الستار على الحياة ، وكورت شمس الأجل ، وانكدرت نجومه وانتثرت كواكبه ، وبعثت أيامه وأرخصى الحجاب ﴿ قَالَ ﴾ أحدهم ﴿ إِنِّي تَبْتُ الْآنَ ﴾ ﴿ فَمَا هَؤُلَاءِ مَخَادِعُونَ كَذَابُونَ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُمْ تَوْبَةً ﴾ ، لأنهم رأوا مصيرهم المؤلم ، فكانوا كما قال تعالى : ﴿ فَمَا رَأَوْا بِأَسْنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ \* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴿ (٢) ﴾ كذلك الذين ماتوا كفاراً لا يقبل منهم صرف ولا عدل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿ (٣) ﴾ كذلك الذين سيدركون طلوع الشمس من مغربها وغروبها من مشرقها ، لن تقبل توبة من عصاتهم ولا إيمان من كفارهم ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ ﴿ (٤) ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ ﴿ لأنه لما وقع الإياس من الحياة ، وعاین الملك ، وخرجت الروح في الحق وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم وغرقت النفس صاعدة في الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص .

### حسن معاشرۃ النساء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

(١) الآية : ٨ من سورة التحريم .

(٢) من الآيتين : ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .

(٣) الآية : ٩١ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .



المفردات : ﴿ العضل ﴾ داء عضال أى شديد ، وعضلت المرأة بولدها ؛ إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقي بعضه ، فالعضل الشدة والتضييق والحبس . ﴿ الفاحشة ﴾ الفعل الشنيع القبيح . ﴿ مبينة ﴾ واضحة ظاهرة . ﴿ بالمعروف ﴾ مالا ينكره الشرع والعرف والطبع . ﴿ البهتان ﴾ الكذب . ﴿ أفضى ﴾ وصل إليها وصولاً خاصاً ، وهو ما يكون بين الزوجين . ﴿ وميثاقاً غليظاً ﴾ عهداً مؤكداً رابطة برباط قوى محكم .

روى البخارى وأبو داود « أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته ؛ إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية في ذلك . وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ، قال : جاءت كبيشة ابنة معن بن عاصم من الأوس إلى النبي ﷺ ، وكانت تحت أبي قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنع عليها ( ضيق ) ابنه ، قالت له : لا أنا ورثت زوجي ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت الآية .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية ، في هضم حقوق النساء ، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعبيد ، وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه ، وإن شاء زوجها غيره ، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج .

﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى لا يحل لكم إرث النساء ولا التضييق عليهن ومضارتهن ، ليكرهنكم ويضطرون إلى الاقتداء منكم بالمال ، من ميراث وصداق ونحو ذلك ، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسننها ، ويتزوجون من لا تعجبهم ، أو يسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث ، أو ما كانت أخذت من صداق ونحوه ، أو كل هذا ، وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها . أخرج ابن جرير عن زيد قال : « كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة ، ولعلها ما توافقه فيفارقها ، على ألا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطت وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها وكثيراً ما كانوا يضيقون عليهن ليفتدين منهن بالمال » .

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أى لا تعضلوهن في أى حال إلا في الحال التى يأتين فيها بالفاحشة المبينة ، دون الظنة أو الشبهة ، فإذا نشزت عن طاعتكم وساءت عشرتهن ، ولم ينفع معهن التأديب ، أو تبين ارتكابهن للزنا أو السرقة ، أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس ، فلكن حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال ، لأن الفحش قد أتى من جانبها وإنما اشترط في الفاحشة أن تكون مبينة : أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، لأنه ربما ظلم الرجل المرأة بإصابتها الهفوة الصغيرة ، أو بمجرد سوء الظن والتهمة ، فمن الرجال الغيور السيئ الظن ، الذى يؤاخذ بأتفه الأمور ويعهده عظيماً .

ولأنما أبيع للرجل أن يضيق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة ، لأنها ربما كرهته ومالت إلى غيره فتؤذيه بفاحشة القول أو الفعل ، ليملها ويسأم معاشرتها فيطلقها ، فتأخذ ما كان أعطاها وتزوج غيره ، وتتمتع بمال الأول ، وربما فعلت مع الثاني ما فعلت مع الأول ، فإذا علم النساء أن العُص والتضييق بيد الرجال ، ومما أبيع لهم إذا هن أنهم ، فإن ذلك يكفهن عن ارتكابها والاحتتيال بها على أرذل أنواع الكسب .

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أى وعليكم أن تحسنوا معاشرة نساكم ، فتخالطوهن بما تألفه طباعهن ، ولا يستنكره الشرع ولا العرف ، ولا تضيقوا عليهن فى النفقة ، ولا تؤذوهن بقول ولا فعل ، ولا تقابلوهن بعبوس الوجه ولا تقطيب الجبين . وفى كلمة ( المعاشرة ) معنى المشاركة والمساواة ، أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر ، وسبب هنائه وسعادته فى معيشته ومنزله ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١) .

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ أى فإن كرهتموهن لعيب فى أخلاقهن ، أو دمامة فى خلقهن ، مما ليس لهن فيه كسب ، أولتقصير فى العمل الواجب عليهن ، كخدمة البيت والقيام بشئونه ، مما لا يخلو عن مثله النساء فى أعمالهن أو لميل منكم إلى غيرهن ؛ فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا بمفارقتهن فرمما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين ، وأوفى إلى الخير ومن ذلك :

١ - الأولاد النجباء ، فرب امرأة يملها زوجها ويود فراقها ، ثم يجيئه منها من تقر به عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك .

٢ - أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته ، فتكون من أعظم أسباب سعادته وسروره فى انتظام معيشته ، وحسن خدمته ، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض ، بالفقر والعوز ، فتكون خير سلوى وعون فى هذه الأحوال . فيجب على الرجل أن يتذكر مثل ذلك ، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته فى أحوال والاستقبال . وقد جاء قوله : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ فى سياق حديث النساء دستوراً إذا نحن اتبعناه كان له الأثر الصالح فى جميع أعمالنا ، وهدانا إلى الرشd فى جميع شئوننا ، فكثيراً مما يكرهه الإنسان يكون له فيه الخير ، ومتى جاء ذلك الخير ظهرت فائدة ذلك الشئ المكروه ، والتجارب أصدق شاهد على ذلك .

فالقتال لأجل حماية الحق والدفاع عنه يكرهه الطبع لما فيه من المشقة ، لكن فيه إظهار الحق ونصره ورفع أهله ، وخذلان الباطل وحزبه ، إلا أن الصبر على احتمال المكروه يمرن النفس على احتمال الأذى ، ويعودها تحمل المشاق فى جسيم الأمور .

والخلاصة : إن الإسلام وصى أهله بحسن معاشره النساء ، والصبر عليهن إذا كرههن الأزواج ، رجاء أن يكون فيهن خير ، ولا يبيح عضلهن واقتداءهن أنفسهن بالمال إلا إذا أتت بفاحشة مبينة ، بحيث يكون إمساكهن سبباً في مهانة الرجل واحتقاره ، أو إذا خافاً ألا يقيماً حدود الله ، وفيما عدا ذلك يجب عليه إذا أراد فراقها أن يعطيها جميع حقوقها ، وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أي وإذا رغبتُم أيها الأزواج في استبدال زوج جديدة ، مكان زوج سابقة كرهتموها لعدم طاقتكم الصبر على معاشرتها ، وهي لم تأت بفاحشة مبينة ، وقد كنتم آتيتموها مالاً كثيراً مقبوضاً ، أو ملتزماً دفعه إليها ، فصار ديناً في ذمتكم ، فلا تأخذوا منه شيئاً بل عليكم أن تدفعوه لها ، لأنكم إنما استبدلتم غيرها بها لأغراضكم ومصالحكم ، بدون ذنب ولا جريرة تبيح أخذ شيء منها ، فبأي حق تستحلون ذلك ؟ وهي لم تطلب فراقكم ، ولم تسيء إليكم لتحملكم على طلاقها ؟ وإرادة الاستبدال ليست شرطاً في عدم حل أخذ شيء من مالها ، إذا هو كره عشرتها وأراد الطلاق ، لكنه ذكر لأنه هو الغالب في مثل هذا الحال .

ألا ترى أنه لو طلقها وهو لا يريد تزوج غيرها لأنه اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء وحاجاتهم الكثيرة ، فإنه لا يحل له أخذ شيء من مالها . ثم أنكر عليهم هذا الفعل ووبخهم عليه أشد التبخيخ فقال : ﴿ أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾ أي تأخذونه باهتين آثمين ، وقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا تطليق الزوجة ؛ رموها بفاحشة حتى تخاف وتشتري نفسها منه بالمهر الذي دفعه إليها .

وزاده إنكاراً آخر مبالغة في التنفير من ذلك فقال : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أي : إن حال هؤلاء الذين يستحلون أخذ مهور النساء إذا أرادوا مفارقتهن بالطلاق ، لا لذنب جنيته ولا لإثم اجتراحه من الإتيان بفاحشة مبينة ، أو عدم إقامة حدود الله ، وإنما هو الرأي والهوى وكراهة معاشرتهن - عجيب أيما عجب - فكيف يستسيغون أخذ ذلك منهن ، بعد أن تأكدت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوى بين البشر ، ولا يس كل منها الآخر حتى صار أحدهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده ، فبعد أن أفضى كل منها إلى الآخر إفضاءً ولا بسه ملابسة يتكون منها الولد ، يقطع تلك الصلة العظيمة ، ويطمع في مالها ، وهي المظلومة الضعيفة ، وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل التي هدى الله إليها البشر .

﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ قال قتادة : هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ <sup>(١)</sup> وقد ورى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزداد في الصداق على أربعمئة درهم ، ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول :

﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً﴾ فقال : اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : إني كنت نهيتكم أن تزيدوا في صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب<sup>(١)</sup> .

هذا وإن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق بل تركت ذلك للناس لتفاوتهن في الغنى والفقر ، فكل يعطى بحسب حاله ولكن جاء في السنة الإرشاد إلى اليسر في ذلك وعدم التغالى فيه ، فمن ذلك ما رواه أحمد والحاكم والبيهقي عن عائشة : « إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » . وإن التغالى في المهور الآن قد صار من أسباب قلة الزواج ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ، والغبن أخيراً على النساء أكثر ، وإنك لترى هذه العادة متمكنة لدى بعض الناس ، حتى إن ولى المرأة ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذى لا يرجى من هو خير منه ، إذا كان لا يعطيه ما يراه لاثقاً بكرامته ، ويزوجها لمن هو دونه ديناً وخلقاً ، ومن لا يرجو لها سعادة عنده ، إذا هو أعطاه كثيراً من الذى يراه محققاً لأغراضه ، وهكذا تتحكم التقاليد والعادات حتى تفسد على الناس سعادتهم ، وتقوض نظم بيوتهم وهم لها منقادون بلا تفكير في العواقب .

### من يحرم الزواج بهن

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿سلف﴾ أى مضى . ﴿فاحشة﴾ أى شديد القبح . ﴿مقتاً﴾ أى ممقوتاً مبغوضاً عند ذوى الطباع السليمة ، ومن ثم كانوا يسمونه نكاح المقت ، ويسمى الولد منه مقيتاً : أى مبغوضاً

(١) أخرج أبو حاتم البستي في مسنده عن أبي العجفاء السلمي ، قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : ألا لاتغالوا في صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمه في الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : يا عمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَاراً﴾ فلا تأخذوا منه شيئاً ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وفي رواية فأطرق عمر ثم قال : كل الناس أفقه منك يا عمر ! ورواه ابن ماجه في سننه عن أبي العجفاء بزيادة عن ذلك .

محتقراً . ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أى بشس طريقاً ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه فى الجاهلية ، وبشس من يسلكه لم يزد السيرة فيه إلا قبحاً . [ الجناح ] الإثم والتضييق .

بعد أن بين فى أوائل السورة حكم نكاح اليتامى ، وعدد من يحل من النساء ، والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج ، وما يجب من المعروف فى معاشرتهن ، وصل هذا بيان ما يحرم نكاحه منهن .

قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء ﴾ ذكر الله هذا النكاح أولاً ، ولم يذكره مع سائر المحرمات فى الآية التالية ، لأنه كان فاشياً فى الجاهلية ، وقد ذمه الله أقبح ذم ، فسماه فاحشة ، وجعله مبغوضاً أشد البغض ، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال : « كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه ، أو ينكحها من شاء فلما مات أبو قيس بن الأسلت ، قام ابنه محسن فورث نكاح امرأته ، ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً ، فأتى النبي ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : « ارجع لعل الله ينزل فيك شيئاً ، فنزلت ﴿ ولا تنكحوا ﴾ الآية ، ونزلت أيضاً ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾ الخ . والمراد بالنكاح العقد كما قال ابن عباس ، فقد روى ابن جرير والبيهقى عنه (١) أنه قال : « كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل فهي حرام » والمراد من الآباء ما يشمل الأجداد إجماعاً ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ أى لكن ما سلف من ذلك لا مؤاخذه عليه . والخلاصة - إنكم تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آبائكم إلا ما قد سلف ومضى قبل نزول الأحكام .

﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ أى إن نكاح أزواج الآباء تمجده الأذواق السليمة ، وتؤيد ذلك الشريعة التى هدى الله الناس بها . فهو قبيح محتقر ، والسالك فى طريقة مزدري عند ذوى العقول الراجحة . قال الإمام الرازى - القبح ثلاثة أصناف : عقلى ، وشرعى ، وعادى ، وقد وصف الله النكاح بكل ذلك ، فقلوه سبحانه ﴿ فاحشة ﴾ إشارة إلى الأول ، وقوله : ﴿ مقتاً ﴾ إشارة إلى الثانى ، وقوله ﴿ وساء سبيلاً ﴾ إشارة إلى الثالث .

بعد هذا بين الله أنواع المحرمات لأسباب وعلل تنافى ما فى النكاح من الصلة بين بعض البشر وبعض ، وهى عدة أقسام :

القسم الأول : منها ما يحرم من جهة النسب وهو أنواع :

- ١ - نكاح الأصول ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ والمراد بالأم ما يشمل الجدات ؛ أى إن الله قد حرم عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم والمراد أنه حكم الآن بهذا التحريم والمتبع .
- ٢ - نكاح الفروع . وذلك قوله : ﴿ وبناتكم ﴾ والمراد بهن ما يشمل بنات أصلابنا ، أو بنات أولادنا ، ممن كنا سبباً فى ولادتهن وأصولاً لهن .

(١) يعنى عن ابن عباس

٣ - نكاح الحواشي القريبة ، وذلك ما عناه سبحانه تعالى بقوله : ﴿ وأخواتكم ﴾ سواء أكن شقيقات لكم أم كن لأم أو لأب .

٤ ، ٥ - نكاح الحواشي البعيدة من جهة الأب والأم ، وإليهما الإشارة بقوله : ﴿ وعماتكم وخالاتكم ﴾ والمراد بهما الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخؤولة ، فيشمل أولاد الأجداد وإن علوا وأولاد الجدات وإن علون .

٦ - نكاح الحواشي البعيدة من جهة الأخوة ، وذلك قوله : ﴿ وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ من جهة أحد الأبوين ، أو كليهما .

القسم الثاني : ما حرم من جهة الرضاعة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة ﴾ وقد نزل الله سبحانه وتعالى الرضاعة منزلة النسب فسمى المرضعة أمًا للرضيع ، وبناتها أختًا له ، فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاع كجهة النسب .

وقد وضحت السنة ذلك ؛ فقال النبي ﷺ ، لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة « إنها لا تحل لي ، إنها ابنة أخي من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وعلى ذلك جرى المسلمون جيلاً بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أباً للرضيع ، تحرم عليه أصوله وفروعه ، ولو من غير المرضعة ، لأنه صاحب اللقاح الذي كان سبب اللبن الذي تغذى منه الرضيع ، وقد روى البخاري عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جارتان أرضعت إحداهما بنتاً ، والأخرى غلاماً ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ ( قال لا ، اللقاح واحد ) .

وقد غلب على الناس التساهل في أمر الرضاعة ، فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ، ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة وأخوتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب عليهم في ذلك من الأحكام ؛ كحرمه النكاح وحقوق القرابة الجديدة التي جعلها الشارع كالنسب ، فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدري .

وظاهر الآية : أن قليل الرضاعة ككثيرها ، ويروى عن علي وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك . وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا تحرم المصّة والمصتان » وقد روى العمل به عن الإمام أحمد ، وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات ، ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن الزبير ، وهو مذهب الشافعي وأحمد في ظاهر مذهبه .

ولا يحرم الرضاع إلا في سنة ومدته المحدودة بقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه أخذ الشافعي وأحمد وصاحب أبي حنيفة : أبو يوسف ومحمد .

وقد روى الدارقطني عن ابن عباس قوله ﷺ : « لا رضاع إلا ما كان في الحولين » وروى عن ابن عباس في رواية أخرى والزهرى وحسن وقتاده أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم ، فإن فطم الرضيع ولو قبل الستين امتنع تأثير رضاعه في التحريم ، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد الستين ، ولم يفطم : كان رضاعه محرماً .

القسم الثالث : محرمات المصاهرة التي تفرض بسبب الزواج وتحت الأنواع الآتية :

١ - ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ويدخل في الأمهات الجدات ، ولا يشترط في تحريم أم المرأة دخوله بالبنات ، بل يكفي مجرد العقد ، وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة .

٢ - ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم ﴾ الربائب جمع ربيبة وربيب الرجل ولد امرأته من غيره ، سمي ربيياً لأن الرجل يربيه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده ، وقوله : ﴿ اللاتي في حجوركم ﴾ وصف لبيان الحال الغالب في الربيبة وهي أن تكون في حجر زوج أمها ، وللإشعار بالمعنى الذي يوضح علة التحريم ، ويحرك عاطفة الأبوة في الرجل ، وهو كونها في حجره يحنو عليها حنوه على بنته ، ويدخل في التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها ، لأنهن من بناتها في عرف اللغة ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أى إن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها ، وقال الحنفية : إن من زنى بامرأة يحرم عليه أصولها وفروعها وكذلك إذا لمسها بشهوة أو قبلها ، أو نظر إلى ما هنالك منها بشهوة . وكذلك أيضاً إذا لمس يد أم امرأته بشهوته ، فإن امرأته تحرم عليه تحريماً مؤبداً ، ولم يوافقهم على ذلك كثير من الأئمة ، لأنه لم يؤثر فيه خبر ، ولا أثر عن الصحابة فيه شيء ، وقد كانوا قريبي العهد بالجاهلية التي كان الزنا فاشياً فيها بينهم ، فلو كانوا فهموا لذلك مدركاً من الشرع وعلمه ، لسألوا عنه وتوافرت الدواعي على نقل ما أفتوا به .

٣ - ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ الحلائل واحداً حليلة وهي الزوجة ، ويقال أيضاً للرجل حلي إذا أن الزوجين يحلان معاً في مكان وفراش واحد . ويدخل في الأبناء أبناء الصلب مباشرة أو بواسطة ، كابن الابن وابن البنت فحلائلها تحرم على الجد ، كما يدخل الابن من الرضاعة ، فتحرم حليلته لما تقدم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

القسم الرابع : ما حرم بسبب عارض ، إذا زال يزول ، وهو ما ذكره سبحانه بقوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين في الاستمتاع الذي يراد به الولد ، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين ، بملك اليمين أو بالنكاح أو بالنكاح والملك ، كأن يكون مالكاً لإحداها ،

(١) من الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

ومتزوجاً الأخرى ، فيحرم عليه أن يستمتع بها ، ويجب عليه أن يحرم إحداها على نفسه ، كأن يعتق المملوكة أو يهبها ويسلمها للموهوبه له .

ومثل هذا الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، لأن العلة موجودة فيه أيضاً ، وهي إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصله ، كما يدل عليه قوله ﷺ « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » . والضابط لذلك أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة ، لو كانت إحداها ذكراً لحرم عليه بها نكاح الأخرى .

﴿ إلا ما قد سلف ﴾ أى لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤخذون عليه ، وقد كانوا يجمعون بين الأختين . أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن فيروز الديلمي : أنه أدركه الإسلام وتحت أختان فقال له النبي ﷺ : « أيتها شئت » وعن ابن عباس : أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله ؛ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين .

﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ فلا يؤخذكم بما سلف منكم في زمن الجاهلية إذا أنتم عملتم بشريعة الإسلام ، ومن مغفرته أن يحو من نفوسكم آثار الأعمال السيئة ، ويغفر لكم ذنوبكم إذا أنبتم إليه ، ومن رحمته أن شرع لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحة لكم ، وتوثيق الروابط بينكم لتتراحوا وتتعاونوا على البر والتقوى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في  
رِجَالِ التَّقْوَى

الجزء الخامس

سورة النساء

من الآية رقم ٢٤ / ١٤٧



\*وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِحْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ فَلِأُنْتَيْنِ بِفَحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾

## المفردات :

﴿ المحصنات ﴾ واحدتهن محصنة ( بفتح الصاد ) يقال حصنت المرأة ( بضم الصاد ) حصنا محصانة : إذا كانت عفيفة ، فهي حاصن وحاصنة وحصان ( بفتح الصاد ) . ويقال أحصنت المرأة : إذا تزوجت ، لأنها تكون في حصن الرجل وحمايته ، وأحصنها أهلها زوجها . ﴿ ما ملكت أيمانكم ﴾ أى بالسبى في حروب دينية وأزواجهن كفار في دار الحرب ، فيفسخ عند ذلك نكاحهن ، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها ، وحيض غير الحامل ثم طهرها ، والإحصان : العفة و [ المسافح ] : الزاني ، والاستمتاع بالشئ : هو التمتع به و [ الأجور ] واحدها أجر : وهو في الأصل الجزاء الذي يعطى في مقابلة

شئ ما من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر . ﴿ فريضة ﴾ أى حصة مفروضة محدودة مقدرة . ﴿ ولا جناح ﴾ أى لا حرج ولا تضيق [ الاستطاعة ] كون الشئ في طوعك لا يتعاضى عليك ، و [ الطول ] الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، ﴿ والمحصنات ﴾ هنا الحرائر ، والفتيات ﴿ الإماء ﴾ . ﴿ محصنات ﴾ أى عفيفات ، ﴿ مسافحات ﴾ مستأجرات للبقاء ، و [ الأخدان ] واحد هم خدن وهو صاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سرا فلا تبذل نفسها لكل أحد ، و ﴿ الفاحشة ﴾ الفعل القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا : الحرائر . و ﴿ العذاب ﴾ هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف . ﴿ العنت ﴾ الجهد والمشقة .

المراد بالمحصنات من النساء هنا المتزوجات ، وهن من المحرمات اللاتي ذكرهن الله تعالى في قوله : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ إلى آخر الآيات فقد حُرِّمَ الله الزواج بالمرأة المحصنة أى التى لها زوج ، وهى على عصمتها ، وقد جاء الإحصان فى القرآن الكريم على أربعة معان :

١ - الزوج كما فى هذه الآية ﴿ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ .

٢ - العفة كما فى قوله تعالى : ﴿ مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ ﴾ .

٣ - الحرية كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتُ ﴾ .

٤ - الإسلام كما فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا أُحْصِنُ ﴾ أى أسلمن .

واستثنى الله تعالى من المحصنات المملوكات ملك اليمين ، وهن النساء اللاتي وقعن أسيرات فى حرب دينية ، فقد رأى الإسلام من باب إكرامهن ورعايتهن أن يقسمن على المجاهدين ، إذا كانت المصلحة فى ذلك .

فإن كانت المصلحة فى غير ذلك ؛ بأن يكون هناك تبادل أسرى ، فإنهن يرجعن إلى أزواجهن من باب درء المفاسد .

هؤلاء السبى يحل نكاحهن ولو كن فى عصمة الرجال الكافرين ، ما دمن قد وقعن فى السبى فى حرب دينية ، ليس الهدف منها متاع الدنيا .

أخرج مسلم<sup>(١)</sup> عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : أصبنا سييا يوم (أوطاس)<sup>(٢)</sup> وهن أزواج فكرهن أن نقع عليهن ، فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن .

وقال الحنفية إن من سبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب ...

إن الإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ولكنه أدى إلى القضاء عليه فالإسلام هو محرر العبيد الذى كرم البشرية ، ونظقت آياته مصرحة بذلك قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾<sup>(٣)</sup> . جاء فى كتابنا رياض الجنة ، تحت عنوان «الإسلام محرر البشرية» ما نصه :

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم ، وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه ، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ! والإسلام هو الذى حرر العقل من

(١) ، (٢) أوطاس واد فى ديار هوازن ، وكانت غزوة أوطاس فى غزوة حنين بعد فتح مكة ونص حديث أبى سعيد كما رواه مسلم :

« أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشا إلى « أوطاس » فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تخرجوا من غشيانهم من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك

﴿ وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾

(٣) الآية : ٧٠/ من سورة الاسراء .

الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ! والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة الرق ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز . ولو تدبر هؤلاء مسألة «الرق» لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه «ما يقال عن الإسلام» .

مسألة الرق فى الإسلام موضع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتأمر عليها الذين لا يتفقهون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون ؛ لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ؛ أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أن الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأ الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون ؛ فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ؛ قياسا على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم على حكومات الدول الغربية .

فالماديون والمبشرون يجتهدون - غاية الجهد - لنشر دعوتهم إغراء بالمال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب . ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم ، إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشاركون معهم فى الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة «النخاسة» ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا «النخاسة» قديما وحديثا وهم - أى دعاة المادة والتبشير - أول من يعلم من تاريخ «النخاسة» أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين .

ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة ، وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المثال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلما كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعا - قبل الإسلام - أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخرهم في خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله ..

وجاء الإسلام ، فشرع العتق ، ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإِسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء ؛ مع استحسان فك الإِسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن يظهر من زوجه ، ومن يؤدي الزكاة في مصارفها ، ومنها فدية الرقاب - ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة .

وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون ؛ قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدولة الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المستولة عن التقصير ، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها ، فنعلم أن هذه الدول الأخرى ، قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء ، منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أذعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الإسلام ، يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان<sup>(١)</sup> ؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه - قبل أربعة عشر قرنا - هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فلما أن يكون لها صنيع أكرم منه ؛ فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

(١) وذلك ما نصت عليه الآية الكريمة من سورة « محمد » ﷺ : « حتى إذا أختتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها .. » الآية/٤

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها ، فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها : فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطراب إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء ، جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى ، فى بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع ، وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدي الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معا ، حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم ، أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ؛ يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون ، وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحزرت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم ، فى سباق التنافس على التحرير ، واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الطريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى ، بعد طول التعثر ، لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال مساومة واضطراباً ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطوة من خطط التأجير والاستغلال . .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق - من جانب الواقع التاريخي - هو ذلك الفارق الذى تخصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية . حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فإن الأرقاء من الزوج لم يزدوا فى البلاد الإسلامية - بعد ثلاثة عشر قرناً - على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ، ولم يمض على قيام الحكم «الأبيض» هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وبعد هذا الفارق فى العدد ، هناك : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاماً من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته «البيض» ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية ، والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتحاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام . . فإذا انعكست الآية ، وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب

الحملة الشعواء على الإسلام ، بسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟ . وهكذا ينتهى هذا البحث التحليل للدعاية المفرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير .

وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظيمة ، للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟ إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض فأخذ الإسلام يسלט أشعته الكاشفة الهادئة ، على تلك الظلمات فيبدها بحكمة معروفة فيه . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادئ الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة ، التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

#### فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «فى الدين والأخلاق والقومية» ما نصه: محمد ﷺ محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان ، إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله ؟ . . إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ .

وإن تعجب لشيء فأعجب هؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده ، وأنهم الذين أفسوه ، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : عن طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاعتصاب ! وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام. لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان ، وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ؛ ومصادقه فى قصة يوسف — عليه السلام — قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين \* قال جزاؤه من وجد فى رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴿١﴾ وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها ، يبيع له أن يقتل منهم



من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والردائل الموروثة المستحكمة . . لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتأكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى في الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

ويعضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً في ظلال الإسلام فيقول : فأما النطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذي أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . ذلك هو القانون الذي منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فاليوم لا الخطف ولا البيع والشراء ، ولا التغلب في المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل لم يعد شيء من ذلك كله - منذ ظهر الإسلام - يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان .

ولم يكف الإسلام بتحسين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلاهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا في حالة الاضطراب ، وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام - قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل - أراد بهذه التشريعات الوقائية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . .

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها ؛ أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها ، والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك - إلى جانب هذه الأبواب - منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهي التي يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين - في هذا الحال - أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟ .

والجواب : أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية ؛ فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببذل أو بغير بدل ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (١) كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا في حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطيرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم ؛ عقوبة «مجرمى الحرب» .

بقى الاسترقاق ؛ وواضح أنه يلى القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كمنظرة إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ ؛ تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ، ولا في نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير فلأنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء لخطره وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي ، وإنما يتخذه إجراء مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ، ويلج في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، أعنى ٣ تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحتها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب . كان هو مفتاح القلوب فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل . قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة \* وما أدراك ما العقبة \* فك رقبة ﴾ (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار » (٣) .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مقررأ في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين . .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح «قانون الكفارات» وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ؛ كالحنث في اليمين ، والفطر في رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك . . ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة ، التي تقع من السيد في حق العبد نفسه ، وفي ذلك يقول رسول الرحمة صلوات

(١) من الآية : ٤/ من سورة محمد ﷺ

(٢) الآيات : ١١/ - ١٣ من سورة البلد

(٣) رواه ابن ماجه والترمذى

الله وسلامه عليه : «من لطم مملوكه أو ضربه ؛ فكفارته أن يعتقه»<sup>(١)</sup> . هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه - عند أكثر الأئمة - أن يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينزعه من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم ؛ لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى أستنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدمين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخدمتهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ؛ هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين « إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم»<sup>(٢)</sup> صدقت يا نبي الرحمة - صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

- ١ - منع لإنشائه وابتدائه . ٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .
- ٣ - عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معي : أما والله لعبد فى ظل الإسلام : خير من كثير من الأحرار فى كل نظام .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متثدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

أبعد كل هذا الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة ؛ يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟ إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . «إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد»<sup>(٣)</sup> يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم<sup>(٤)</sup> . وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق - فى قليل أو كثير - من طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

(١) رواه ابن ماجه والبيهقى

(٢) رواه البخارى ومسلم وياقنى السنة

(٣) متفق عليه ، وهو من وصايا خطبة الوداع المشهورة

(٤) من الآية : ١٣/ - من سورة الحجرات

قوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ لما كانت هاتان الآيتان تتعلقان بالأحكام فإننا نذكر ما ورد فيها على السنة العلماء الفاهقين فنقول وبالله التوفيق .

وحريم عليكم نكاح المتزوجات ؛ إلا ما ملكت الأيمان بالسبي في حروب دينية ، تدافعون بها عن دينكم ، وأزواجهن كفار في دار الكفر ، وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن ، فحيثما ينحل عقد زوجيتهن ويكن حلالاً لكم .

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب في الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق ؛ كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر ، كافل يكفيها البحث عن الرزق ، أو بذل العرض وفي هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبي ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهن في بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة «درء المفسد مقدم على جلب المصالح» فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملوك ، فلا يباح فيها السبي .

وقوله ﴿ من النساء ﴾ قد جرى به لإفادة التعميم ، وبيان أن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات .

وقد جاء الإحصان في القرآن لأربعة معان ؟

- ١ - التزوج كما في هذه الآية .
- ٢ - العفة كما في قوله ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ .
- ٣ - الحرية كما في قوله ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات ﴾ .
- ٤ - الإسلام كما في قوله ﴿ فإذا أحصن ﴾ أى : أسلمن .

أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدرى ، أنه قال : أصبنا سبياً يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن تقع عليهن فسألنا النبي ﷺ فنزلت الآية فاستحللنهن .

وقال الحنفية إن من سبي معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لا بد من اختلاف الدار بين الزوجين ، دار الإسلام ودار الحرب .

﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتاباً مؤكداً ، وفرضه فرضاً ثابتاً محكماً ، لا هوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة ، لا يدخلها شك ولا تغيير . ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم ، مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ، ولا يتناوله بنص أو دلالة فيدخل بطريق الدلالة في الأمهات الجدات وفي البنات بنات الأولاد ، وفي الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة

وعمتها وخالتها ، كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحريم الشركات ، والمطلقة ثلاثاً على مطلقتها في سورة البقرة<sup>(١)</sup> .

﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه وتطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهراً للزوجة ، أو ثمناً للأمة . محصنين أنفسكم ومانعين لها من الاستمتاع بالمحرم ، باستغناء كل منكم بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى والأنثى إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا وينتجا .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذى يمنع النفس أن تذهب أى مذهب ، فيتصل كل ذكر بأى امرأة ، وكل امرأة بأى رجل ، إذ لو فعلاً ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة فى سفح الماء الذى تفرزه الفطرة إيثاراً للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين لتكون بذلك الأسرة ، ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما فإذا انتفى هذا المقصد انحسرت الداعية الفطرية فى سفح الماء وصبه وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناره الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين ، وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز<sup>(٢)</sup> بمخالفة بعض الدول الأخرى .

﴿ فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة ﴾ أى وأى امرأة من النساء اللواتى أحللتن لكم تزوجتموها ، فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا : أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام ، وحق رئاسة المنزل الذى يعيشان فيه : وحق الاستمتاع بها ، فرض لها فى مقابلة ذلك جزاء وأجرأ تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها وبين زوجها .

والخلاصة : أن أى امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتتفعوا بتزوجها ، فأعطوها المهر الذى تتفقون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم ، وذلك أن المهر يفرض ويعين فى عقد النكاح ، ويسمى ذلك إتياء وإعطاء ، ويقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفاً ، كما يقال فرض لها ألفاً ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وقد فرضتم لهن فريضة ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾<sup>(٤)</sup> فالمهر يتعين بفرضه فى العقد ويصير فى حكم المعطى ، وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول ، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئاً قبل الدخول وجب عليه كله بعد .

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة ﴾ أى ولا تضيق عليكم إذا تراضيتن على النقص فى المهر بعد تقديره ، أو تركه كله ، والزيادة فيه ، إذ ليس الغرض من الزوجين إلا أن يكونا فى عيشة راضية يستظلمان فيها بظلال المودة والرحمة ، والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورقى الشؤون الخاصة والعامه .

(٣) من الآية : ٢٣٧ من سورة البقرة

(٤) من الآية : ١٣٦ من سورة البقرة

(١) وهو قوله تعالى : « ولا تنكحوا الشركات حتى يؤمن .. » الآية

وقوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره .. » الآية .

(٢) أى طلب العزة

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذى يحفظ الأموال والأنساب ، وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهراً يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ، ثم أذن للزوجين أن يعملوا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحفظا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة «وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر» كان مرخصاً فيه في بدء الإسلام ، وأباحه النبي لأصحابه في بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم ، فرخص فيه في مرة أو مرتين ، خوفاً من الزنا ، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهياً مؤبداً ، لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصان وإنما يكون مقصده المسافحة وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ، ونهى عمر في خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر ، وإقرار الصحابة له .

قوله تعالى : ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ المحصنات : هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبي ﷺ على سبيل التعجب : أو تزني الحرة ؟ وعبر عن الإيحاء بالفتيات تكريماً لهن وإرشاداً لنا إلى ألا ننادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة وقد روى البخارى قوله ﷺ : «لا يقولن أحدكم عبدى ! أمتى ! ولا يقل المملوك ربى ! ليقل المالك فتاى وفتاى ، وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل» (١) .

والمعنى : ومن لم يستطع منكم طولاً في الحال أو المال نكاح المحصنات ، اللواتي أحل لكم أن تتبنوا نكاحهن بأموالكم ، وتقصدوا بنكاحهن الإحصان لهن ولأنفسهم فلينكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول «هو السعة المعنوية أو المادية» يختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يعجز الرجل عن التزوج بحرة ، وهو ذو مال يقدر به على المهر ، لنفور النساء منه لعب في خلقه أو خلقه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة ، فإن لها حقوقاً كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك ، وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدراهم معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار وقال بعضهم : عشرة دراهم . وليس في الكتاب ولا في السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبي ﷺ قال لمن يريد الزواج «التمس ولو خاتماً من حديد» (٢) وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئاً من القرآن .

﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾ أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة في الإيمان ، بعضكم من بعض ، كما قال : ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾ (٣) فلا ينبغي أن تعدوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه .

(١) رواه ابن ماجه

(٢) رواه الشيخان

(٣) من الآية : ٧١/ من سورة التوبة

وفي هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات ، وساوى بينهن وبين الحرائر ، وهو العليم بحقيقة الإيمان ودرجة قوته ، وكماله ، فرب أمة أكمل إيماناً من حرة ، فتكون أفضل منها عند الله ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (١) .

﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ الأهل هنا الموالى المالكون لهن ؛ أى فإذا أحببتم نكاحهن ورجبتم فيه لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن مواليهن .

وقال بعض الفقهاء : المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ، ولو غير المالكين ، كالأب والجد والقاضى والوصى ، إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه في إباحة الاستمتاع بها .

وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج ، وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاه ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه ، لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها ، ويكون تطبيقاً لنفسها ، في مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخير بين أن يأخذه منها بحق الملك ، أو يتركه لها لتصلح به شأنها ، وهو الأفضل والأكمل ومعنى قوله ﴿ بالمعروف ﴾ أى بالمعروف بينكم في حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل .

﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم ، لا مستأجرات للبقاء جهرًا ، وهن المسافحات ، ولا سرًا وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا في الجاهلية قسمين : سرى وعلى ، فالسرى يكون خاصاً فيكون للمرأة خدن يزنى بها سرًا ، ولا تبذل نفسها لكل أحد ، والعلى يكون عاماً وهو المراد بالسفاح ؛ قاله ابن عباس :

وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن . وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يجرمون ما ظهر من الزنا ، ويقولون إنه لؤم ، ويستحلون ما خفى ويقولون : إنه لا بأس به ، وقد نزل في تحريم هذين النوعين قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (٢) وقصارى القول : أن الله فرض نكاح الإماء ، مثل ما فرض نكاح الحرائر ، من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح في نكاح الحرائر من قبل الرجال أولاً وبالذات ، فقال : ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ لأن الحرائر ولا سيما الأبقار أبعد من الرجال عن الفاحشة ، وأقل انقياداً لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء ، والقوامون عليهن ، وجعل قيد الإحصان في جانب الإماء ، فاشتراط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة في السر والجهر ، فقال : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾ وذلك أن الزنا كان غالباً في الجاهلية على الإماء ، وكانوا يشترونهن للاكتساب ببيغائهن ،

(١) من الآية : ١٣/ من سورة الحجرات

(٢) من الآية : ١٥١/ من سورة الأنعام

حتى أن عبد الله بن أبي كان يكره إماءه على البغاء بعد أن أسلمن ، فنزل في ذلك ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾<sup>(١)</sup> إلى أنهن لذهن وضعفهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى لم تمرن نفوسهن على الاختصاص برجل واحد ، يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن في الحياة الزوجية ، التي هي من شؤون الفطرة .

﴿ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أى : أن الإماء إذا زنين بعد إحصائهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات ، وهن الحرائر ، إذا زنين ، وهذا العقاب ما بينه سبحانه بقوله ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾<sup>(٢)</sup> فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة، وتجلد الحرة مائة جلدة ، والسرف في هذا هو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة والأمة ضعيفة . عن مقاومتها ، فرحم الله ضعفها ، وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات هنا بكونهن أبكاراً ، لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج ، وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترجم بالحجارة إذا زنت .

وفي الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : « أن الرجم في كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف ، وأمر النبي ﷺ يرمم ماعز الأسلمي والغامدية لا عترافهما بالزنا ، لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها » رواه مسلم وأبو داود .

﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴾ أى ذاك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء ، عند العجز عن الحرائر ، جائز لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعي الفطرة ، والتزام الإحصان والعفة ، ففي كثير من الأحيان تفضى هذه المقاومة إلى أمراض عصبية وغير عصبية ، إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾ أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم . من نكاحهن ، لما في ذلك من تربية قوة الإرادة ، وتنمية ملكة العفة ، وتغليب العقل على عاطفة الهوى ، ومن عدم تعريض الولد للرق ، وخوف فساد أخلاقه ، بإرثه منها المهانة والذلة ، إذ هي بمنزلة المتاع والحيوان ، فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه وإذا نكح الحر الأمة فقد أرق نصفه » ورحم الله القائل :

إذا لم تكن في منزل المرء حرة تدبره ضاعت مصالح داره

( ١ ) من الآية : ٣٣ من سورة النور

( ٢ ) من الآية : ٢ من سورة النور



إن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى ، كل منهما نصفها ، فهما شخصان في صورة واحد ، اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لاتحاده بالآخر ، وإن كان فرداً في ذاته مستقلاً في شخصه .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ فهو غفار لمن صدرت منه الهفوات ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ، ببيان أحكام شريعته ، فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

### رحمة الله بعباده

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾  
وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ  
اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ سنن ﴾ : جمع سنة وهى الطريقة والشرعة . ﴿ ضعيفاً ﴾ : غير قادر على مخالفة نفسه وهواه .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره أن يسأل - ما الحكمة في هذه الأحكام ؟ وما فائدتها للعباد ؟ وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها ؟ فلم يبح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ؟ وهل كان ما أمرنا الله به أو نهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا ؟

والمعنى : يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام ؛ أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين ، لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان ، كما قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ <sup>(١)</sup> فهى متفقة فى مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعاً توحيد الله وعبادته ، والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التى تقوم بها وتهذيب الأخلاق ، لتبعد عن سىء الأفعال والأقوال .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين ؛ عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة ، التى كان فيها انحراف عن سنن الفطرة ، إذ كنتم تنكحون ما نكح آبؤكم ،

وتقطعون أرحامكم ، ولا تلتفتون إلى المعاني السامية التي في الزوجية ، من تقوية روابط النسب ، وتجديد قرابة الصهر ، والسعادة التي تثلج قلوب الزوجين ، والمودة والرحمة اللتين تعمربهما نفوسهما .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ فبعلمه المحيط بما في الأكوان ، شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم ، وبما فيه الأذى والضرر لكم ، وبما يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ أى أنه تعالى بما كلفكم من تلك الشرائع ، يريد أن يطهركم ويزكى نفوسكم فيتوب عليكم .

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم ، وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامثلوا أمرها ، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة .  
أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره ، لا اتباع شهواتهم ولا الجرى وراء لذاتهم .

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء ؛ قاله مجاهد وطاووس وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها ، ولم يجعل عليكم في الدين من حرج فشريعتمكم هي الحقيقية السمحة كما ورد في الحديث .

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ يستميله الهوى والشهوات ، ويستشيطه الخوف والحزن ، ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء ، ولا يقوى على الضيق عليه في الاستمتاع بهن .

وقد رحم الله عباده ، فلم يحرم عليهم منهن إلا ما في إباحته مفسدة عظيمة ، وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ، ويغرونهن بالأموال ، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لغير جاهل ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته ، كما احتال هو على امرأة سواه ؟

فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته في الفسق والفجور ، وفي الحديث: «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» . رواه الطبراني من حديث جابر .

## الدين المعاملة

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿ لا تأكلوا ﴾ : المراد لا تأخذوا وإنما عبر بذلك عن الأخذ ، لأن الأكل هو المقصود المهم . ﴿ الباطل ﴾ : ما قابل الحق ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ : لا يقتل بعضكم بعضا . ﴿ عدواناً ﴾ : العدوان التعدى على الغير مع القصد ﴿ وظلماً ﴾ : هو تجاوز الحق بالفعل . ﴿ نصليه نارا ﴾ : ندخله ونحرقه .

لما كان الإسلام مستقيماً في كل شئونه ، معتدلاً في جميع أموره ، عدلاً في كل قضاياه ، لما كان ذلك ، كذلك فقد أمر بالحفاظ على الدين عقيدة وشريعة ، كما أمر بالحفاظ على النفس والعرض والعقل والمال ، ونهى عن الاعتداء على المال ، وذلك بأكله بالباطل كالربا والرشوة والغصب والسرقة ، لكن إذا كان تجارة عن تراض فذلك حلال طيب ، كذلك إذا كان هبة ، فإن النبي ﷺ قال : « تهادوا تحابوا » (١) .

كذلك إذا دفع مضاربة وهو ما يسمى « بعقد القراض » وصورته أن يكون هناك مال من أحد الطرفين ، وعمل من الآخر ، فإن هذا كله مما شرعه الله ، وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : ادفعوا مال اليتيم مضاربة .

واعلم أنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، وأن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام .

إن الإسلام أحاط المال بالصيانة والعناية والرعاية ، فقال الله تبارك وتعالى في هذا الشأن بعد آيات الصيام ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ (٢) .

كما أحاط مال اليتامى خاصة بأسوار منيعة حصينة فقال : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالكم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ (٣) .

(١) أخرجه الإمام مالك في حسن الخلق (١٦) .

(٢) الآية ١٨٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢ من سورة النساء .

وشدد الوعيد والنكير على الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً فقال سبحانه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ (١) .

وقال ﷺ في شأن الرشوة ، وهي أيضاً من باب الباطل : ( لعن الله الراشي والمرتشى والرائش ) (٢) .

ولما كان المال شقيق الروح ؛ فقد جمع الله بين حرمة المال وحرمة النفس في هذه الآية حيث قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ والنفس هنا تشمل اعتداء الانسان على نفسه أو على نفس غيره ، فالمؤمنون جميعاً كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى (٣) .

لذا كانت نفس الغير كنفسك أنت ، ( ولا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة ) (٤) .

واعلم أن الأدمى بنیان الرب ، ملعون من هدمه ، ومن أعان على قتل مسلم ولو بشرط كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : ( أيس من رحمة الله ) .

﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ (٥) .

والقتل أحد السبع الموبقات ، أى المهلكات ، بل إن حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة البيت الحرام ، أو ما علمت أن امرأة دخلت النار في هرة ! لماذا ؟ لأنها ( حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض ) (٦) حتى ماتت جوعاً ، أو ما علمت أن رجلاً دخل الجنة ، لأنه سقى كلباً كان قد اشتد به العطش فشكر الله له صنيعة ، فغفر له ؟ .

هذا هو الإسلام إذا سُئِلت عنه فقل : إنه دين الرحمة ، ربه رحمن رحيم ، وكتابه يقول فيه مولانا : ﴿ يأياها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٧) ونبهه يقول فيه مولانا : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٨) . لذا جاء ختام الآية ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ .

(١) الآية ١٠ من النساء .

(٢) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٩) . وأبو داود فى الأقضية (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨) وفى (٥ : ٢٧٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .

(٤) أخرجه البخارى فى الديات (٦) . ومسلم فى القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود فى الحدود (١) . والترمذى فى الحدود (١٥) وفى الديات (١٠) . والنسائى فى القسامة (٦) وفى التحريم (٥) . وابن ماجه فى الحدود (١) . والدارمى فى الحدود (٢) وفى السير (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفى (٤ : ١٨١) .

(٥) الآية ٩٣ من سورة النساء .

(٦) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (١٦) وفى الأنبياء (٥٤) وفى المساقاة (٩) . ومسلم فى الكسوف (٩ ، ١٠) وفى البر (١٣٣ ، ١٣٥) . وفى التوبة (٢٥) . والنسائى فى الكسوف (١٤ ، ٢٠) . وابن ماجه فى الإقامة (١٥٢) وفى الزهد (٣٠) . والدارمى فى الرقاق (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٩ ، ١٨٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٠١) وفى (٣ : ٣١٨ ، ٣٣٥ ، ٣٧٤) وفى (٤ : ٣٥١) .

(٧) الآية ٥٧ من سورة يونس .

(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ثم يقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد لتدور حال المسلم بين الترهيب والترغيب ، فيقف بين نور الوعد ونيران الوعيد ، راغباً في رحمة الله ، خائفاً من عقابه ، قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ أى من يخالف أوامرنا فيعتدى على المال والنفس وغير ذلك مما نهى الله عنه فقد ظلم نفسه ، وسوف ندخله ناراً . ﴿ وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (١) ، ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٢) ، ﴿ ونادوا يا مالک ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون \* أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون \* أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ (٣) . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٤) . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) . ﴿ فكلأ أخذنا بذنبة فممنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٦) .

إننى أكتب هذه السطور والجفاف يحتاج القارة الأفريقية ، والقحط يهدد بسوء المصير ، ولعل في هذا بلاغاً لقوم عابدين ، وإنذاراً يذكر البشرية بأن للكون لها خالقاً . ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ يرسل الساء عليكم مدراراً \* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٧) .

فإلهنا إنا نسألك ونتوجه إليك أن تستر العورات ، وتؤمن الروعات ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، وإرحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيء قدير ، فإننا نعلم أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ، وأن الذنوب هي التي ترفع البركة من الأرض ، وإذا أراد الله بقوم قحطاً نادى مناد من قبل الله تعالى : « يا أمعاء اتسعى يابركة ارتفعى ياعين لا تشبعى » .

إذا كنت في نعمة فارعها      فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله      فإن الإله سريع النقم

وليت البشرية تتأمل سنة الله في خلقه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا الساء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ (٨) .

والله تعالى لا يقهر ولا يستطيع أحد أن يعطل إرادته ، قال تعالى : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (٩) وقال جل شأنه : ﴿ كذبت ثمود بطغواها \* إذ أنبعث أشقاها \* فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها \* فكذبوه ففقروها \* فقدمم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها \* ولا يخاف عقباها ﴾ (١٠) .

(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .  
(٧) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح .  
(٨) الآية ٦ من سورة الأنعام .  
(٩) الآية ١٩ ، ٣٠ من سورة الأحزاب .  
(١٠) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .

(١) الآية ٦ من سورة التحريم .  
(٢) الآية ٧٦ من سورة الزخرف .  
(٣) الآيات ٧٧ - ٨٠ من سورة الزخرف .  
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .  
(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .

## المبشرات

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا ﴿٣١﴾

## المفردات :

الاجتناب : ترك الشيء جانباً . والكبائر : واحدتها كبيرة ، وهي المعصية العظيمة . والسيئات : واحدتها سيئة ، وهي الغفلة التي تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً والمراد بها هنا الصغيرة . ونكفر : نغفر ونمحو . ومدخلاً كريماً : أى مكاناً كريماً وهو الجنة .

هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللطم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١) .

فالله تعالى ، جلّت قدرته ، وعمت رحمته ، علم أن فينا ضعفاً ، ففتح لنا أبواب الأمل ، إذ يقول : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) . إذ يقول : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ (٣) . إذ يقول : ﴿ نبيء عبادي أنا الغفور الرحيم ﴾ (٤) .

والله جل جلاله بعد أن نهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن قتل النفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات ، نهى عن جميع الكبائر التي يعظم ضررها وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ووعد من تركها بالمدخل الكريم .

قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أى إن تركوا جانباً كبائر ما ينهاكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام نفع عنكم صفاتها ، فلا تؤاخذكم بها .

وقد اختلف في عدد الكبائر ، فقيل : هي سبع ، لما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ) (٥) ، وفي رواية لها عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( ألا أنبئكم

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٣ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر .

(٥) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٣) وفي الحدود ، وفي الطب (٤٨) . ومسلم في الإيمان (١٤٤) . وأبو داود في الوصايا .

بأكبر الكبائر ؛ قلنا بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشرار بالله وعقوق الوالدين — وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت <sup>(١)</sup> . وفيها أيضاً من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ؛ قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ) <sup>(٢)</sup> .

والأحاديث الصحيحة مختلفة في عددها ، ومجموعها يزيد على سبعة ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع : قال : هي إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطه غضب ، أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من دينه يخاف الله ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التي يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس ، لم يكن ليجتريها تهاونا بالدين ؛ إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيراً في صورته أو في ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ، والهمز واللمز ( عيب الناس والطعن في أعراضهم ) لمن تعود ، كل ذلك كبيرة ولا شك !! وكان النبي ﷺ يذكر في كل مقام ما تطلبه الحاجة ولم يرد الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حداً ، أو صرح فيه بوعيد . ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ أى وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم ، وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار . والعرب تقول : أرض كريمة وأرض مكرمة أى طيبة جيدة النبات . قال تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ﴾ وكنوز ومقام كريم ﴿ <sup>(٣)</sup> .

يقول الشيخ « محمد المدنى رحمه الله تعالى » تحت عنوان « الآيات المبشرة » ما نصه : قديماً تصور أحد الفلاسفة ما سماه « المدينة الفاضلة » أو « المجتمع المثالى » وفهم بعض الذين انساقوا مع الخيال أن تلك المدينة ، وهذا المجتمع هما أمل الإنسان الذى يصبو إليه ، وأن الحياة البشرية على هذا الكوكب ربما وصلت إلى تحقيقه يوماً ما ، فيصبح الناس ولا أخطاء ولا ذنوب ولا جرائم ولا عقوبات ولا حدود ؛ لأن كل فرد يعمل ما يجب عليه دون موجب إلا من ضميره ، وينتهى عما ليس من شأنه وعما يضر غيره أو يفسد شأناً من شئون الحياة ، ولا وازع له إلا من نفسه ، وحينئذ تكون الحياة متعة صافية خالية من كل ما يكدرها ، أو يجعل الناس على حبهم إياها يألمون منها ، ويود بعضهم لو استطاع التخلى عنها .

والحقيقة أن هذا خيال فيه تسلية للنفوس ، وأمل حلو قد يراود بعض الناس ، فيستريحون إليه من لأواء الحياة حيناً ، كما يستريح المرء عادة إلى الآمال التى لا تكون ، فشأن الإنسان وطبيعة تكوينه أنه إنسان ،

( ١ ) أخرجه مسلم فى الإيمان ( ١٤٣ ) . والترمذى فى الشهادات ( ٣ ) وفى تفسير ( سورة ٤ : ٥ ) والإمام أحمد فى ( ٥ : ٣٧ ) .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٢ : ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ) . ومسلم فى الإيمان ( ١٤٥ ) . والترمذى فى البر ( ٤ ) .

( ٣ ) الأيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الشعراء .

ركبت فيه عوامل الإساءة والإحسان ، والخطأ والصواب ، والشر والخير ، والفساد والصلاح ، وهكذا من المتقابلات والأضداد ، ولولا ذلك ما صلح للحياة على الأرض ولا استحق أن يكون هو الخليفة فيها ، المخلوق لعمارها بإذن الله ، دون غيره من الملائكة ﴿ الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، ودون الجان الذين خلقوا من مارج من نار ، ليمثلوا قوى العصيان والشر والتمرد .

إن الإسلام قد صور الإنسان على هذه الطبيعة الجامعة بين الصلاح والفساد ، فيما جاء به القرآن من قصة آدم حين أراد الله أن يخلقه ، وأن يجعله خليفة في الأرض من دون الملائكة ، فتساءل هؤلاء قائلين : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١) .

فقولهم : ﴿ من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ معناه من يقع منه ذلك أحيانا ، وفي ذلك دلالة على أن أمر هذا الإنسان وطبيعة تكوينه ووظائف جسمه وأعضائه كانت منبئة بحاله ، مفصحة عما سيكون من أمره في عمل الشر والفساد أحيانا . أما الخلق الآخر - الذين هم الملائكة - فإن طبيعة خلقهم ووظائفهم التي هيئوا لها ، تجعلهم على حالة لا يقع معها الخطأ ولا يقترب معها الاثم ولا العصيان والتمرد ، وإذن فيمقتضى علمهم وتفكيرهم قالوا إنهم أصلح لعمارة الأرض والخلافة فيها ، ولكن الله تعالى رد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون وأجرى أمامهم من مقدرات هذا المخلوق وإمكانياته ما دلهم على أنه أليق منهم بعمارة الأرض على حاله التي خلق عليها ومع ما وصفوه به من أنه يأتي الفساد ويسفك الدماء ، ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (٢) .

فتعليم آدم الأسماء كلها . هو عبارة عما ركب فيه من غرائز وقوى يستطيع بها أن يعرف الخواص ، ويفحص الأشياء ويتتبع بالتجارب دخائلها ومنافعها وما فيها من قوى ظاهرة وباطنة ، فالإنسان بطبيعته طلق ؛ ولذلك نرى الطفل إذا أمسك بيده لعبة أو شيئا من الأشياء يقلبه ويديره ويتأمله ويحاول أن يحطمه ، ليعلم ما فيه أو ما ينتهي إليه ، ولا يستريح حتى يصل في ذلك إلى حد يرضى شهوته الطبيعية في التطلع والتعرف ، وبذلك كان الإنسان مخترعا مبتدعا ، وكان خراجا ولأجا طموحا مجازفا في سبيل إرضاء نفسه التواق إلى الاستطلاع والكشف والمعرفة .

وما كان تعبير ابن عباس وغيره في هذا المقام - بأن الله علم آدم الأسماء لكل شيء - حتى القصعة وحتى كذا وكذا والخ - إلا تمثيلا على ما يتصورون ، وإلا تقريبا لما خلق عليه الإنسان من إمكانه تصور الأشياء وتمثلها تمثل من يعرفها بأسمائها وأعلام أشخاصها .

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة البقرة .



وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في أن هذه الآيات تصور واقعاً قد كان حساً بين الله والملائكة ، أو تصور حقيقة الأمر ، ومعناه في صورة أخذ ورد على النحو القولي ، وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك ، فإن الذي يهنا هو أن القرآن الذي هو كتاب الإسلام ، يصور الإنسان من أول عهده بالأرض على صورته التي تؤذن بأنه مخلوق يصيب ويخطئ ويصلح ويفسد ، ويأن خلقه على هذه الطبيعة مقصود وملائم لوظيفته التي ندب لها وأوثر بها على غيره ، وأن هذا كله إنما وقع من الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته وتام مشيئته .

وهذا التصوير القرآني لمبدأ الخلق ، ولطبيعة الإنسان الأول هو جزء من بيان الحقيقة الكونية الكبرى ، وهناك أجزاء أخرى في بيان هذه الحقيقة منها ما ورد في سورة ( الحجر ) : وفيه تصوير جانب العداوة بين الإنسان والشیطان ، وأن هذا الأخير يتوعد غريمه الأبدى فيقول : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ﴾ \* إلا عبادك منهم المخلصين \* قال هذا صراط على مستقيم \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴿ (١) .

وقد جاء هذا الحوار على الأسلوب نفسه الذي جاء عليه الحوار في سورة البقرة وفسر بالتفسيرين السابقين ، والذي يعنينا من ذلك هو أن هناك بمقتضى الخلق ومشیئة الله تعالى الصادرة عن الحكمة والعلم ، عوامل إغواء بجانب هذا المخلوق المعهود إليهم بالخلافة في الأرض ، وقد جاء مثل ذلك في سورة الإسراء حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً ﴾ \* قال أرى أنك هذا الذي كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ \* قال اذهب فممن تبعك منهم فإنّ جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً ﴾ \* واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركتهم في الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴿ (٢) .

وقد عرضت سورة النساء نفسها إلى هذا الشأن حين تحدثت عن بعض الصور التي كانت تمثل ضلال المشركين ، وذلك حيث تقول : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ \* لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً \* ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليستكنّ أذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً \* يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً \* أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ﴿ (٣) .

والغرض من هذا هو أن نعرف أن هذا الإنسان مخلوق على طبيعة تجعله مستعداً للخير والشر جميعاً . وأنه محاط بعوامل الإغراء والإغواء من الشيطان الذي يمثل قوة الشر والإفساد ، وقد أبقاء الله وخلده إلى يوم القيامة قائماً بهذا الدور مع التحذير منه . وتحصين الإنسان من دعوته بالهداية والإرشاد .

(١) الآيات ٣٩ - ٤٢ سورة الحجر .

(٢) الآيات ٦١ - ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) الآيات ١١٧ - ١٢١ من سورة النساء .

وأن هذا الخلق على هذا النحو وعلى إحاطته بتلك العوامل هو ما أراده الله عن علم وحكمة ، لأنه هو المناسب لقدرات الخلافة والمستخلف وما استخلف عليه .

وليس من سبيلنا أن نتوسع في البحث لنصل إلى بيان تلك المناسبة ، أو بعبارة أخرى إلى بيان كيف يناسب الأرض وعمارتها وإقامة الحياة ووجوه النشاط فيها ، أن يكون ساكنها والخليفة فيها على هذا الطراز الجامع بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، ليس من سبيلنا أن نتوسع في بيان ذلك ، وإنما نريد أن نصل إلى أن الإسلام كما ينطق كتابه — يعرف وضع الإنسان حق المعرفة ، ولا يكلف الناس أن ينسوا هذا الوضع الطبيعي ، وأنه لذلك يسلك معاملته ، والتشريع له ، وتنظيم مجتمعه ، ما يتفق وهذه الحقيقة الواقعية من السبل .

فالإسلام لا يفرض أن الإنسان يمكن أن يكون مجتمعاً ملائكياً لا تقع فيه معصية ما ، ولا مجتمعاً مبرأ من كل عيب أو إثم ، فلا يقع فيه إلا الخير والصلاح والاستقامة وأداء الحقوق ونحو ذلك ، ولكنه فرض المجتمع الإنساني مجتمعاً إنسانياً فعامل الفريقين على أنه قد يخطئ وقد يميل على الصراط المستقيم وقد يأتى الشر ، ويقع في الفساد ، ولم يضق بهذا ، ولم ينظر إليه على أنه أمر يثير اليأس ، ويبعث على القنوط والإيأس ، وإنما نظر إليه في كثير من السماحة والرفق والإناس والتبشير ، والمعالجة التي تعتمد الاعتراف بحقوق الفطرة ، وتتقبل المعذرة عما لا يمكن أن يجنب دائماً بحكم الطبيعة .

#### رسالة الإسلام في المجتمع رسالة رحمة وتيسير وتبشير :

لهذا كله كانت رسالة الإسلام في بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير ، لارسالة قسوة ولا تبييس ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت ونستطيع أن نجد ذلك في آيات من سورة النساء تصور أهداف التشريع الإسلامى للمجتمع تصويراً واضحاً رائعاً ، وهى قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (١) .

وكأنى بهذه الآيات الثلاث تصور لنا دعوة إلهية توجه إلى الناس ، يقول الله فيها : يا عبادى : إنما أريد مما أشرعه لكم من الأحكام ، ومما أوجهكم إليه من المبادئ والمثل والإرشاد ، أن آيبن لكم ، فإن رحمتى تأبى أن أكلكم إلى مجرد تفكيركم ، فإن الإنسان قد يلتوى به التفكير ، وقد يرى حسناً ما ليس بالحسن ، وقيحاً ما ليس بالقيح ، وللعقول خداعها كما للحواس خداعها ، وللنفوس شهواتها ، وإملاءتها دون أن يشعر أصحابها في كثير من الأحيان أنهم متأثرون بهوى ، أو نازعون عن شهوة ، فأنا أريد معاونتكم بالبيان والتوجيه لأخذ بأيديكم إلى الطريق القويم ، والحق المبين .

يا عبادى : إن رحمتى تأبى ترككم وتغلى بينكم وبين المرور لعصور من التجارب واستكشاف ما مر به الذين من قبلكم من سنن الحياة ، فأنا أقربها لكم ، وأهديكم إليها . وأوفر عليكم أحقاباً طوالاً ، تعقبونها

في تتبعها ودراستها ، وإعادة تجربتها ، فخذوها منى مصفاة مهيأة في صور تشريع وتنظيم وإرشاد وتوجيه .

ياعبادى : إنما أريد أن أتوب عليكم وأطهركم من كل ما عسى أن يدنسكم ، أو يلوث أعمالكم ، وأنا أعلم أنكم مخلوقون على وضع يجعلكم تذبون أحياناً ، وتخطئون أحياناً ، ومن رحمتي وحكمتي أن أطهركم من الذنوب ، ولا أترككم تسترسلون فيها ، وتغوصون في حماها وأن أفتح لكم باب التخلص من الأخطاء ، والتنقي من الأدناس والأرجاس ، فأريد أن أتوب عليكم ، أى أرجع لكم بالتطهير والتنقية والتنظيف ، بما أشرعه لكم من الشريعة ، فتطهروا بذلك أطهركمهم ، وتوبوا أتب عليكم .

ياعبادى : إن لى دعوة ولأعدائكم دعوة :

إن دعوى هى تطهيركم ، وإفساح المجال أمامكم لتعودوا إلى ، فأعود إليكم . وذلك لا يكون إلا بأن تتوجهوا إلى ، وأن تأخذوا عني ، وأن تقبلوا منى ، وأن تسمعوا إلى ندائى وتوجيهى :

وأن هناك دعوة أخرى تصدر عن إرادة أخرى هى إرادة عدوكم ، الذين يتبعون الشهوات ويؤثرونها تلبية لدعوة الشيطان المتربص بكم الذى آل على نفسه ليغوينكم ، إن هذه الدعوة تقابل دائماً فى كل مجتمع دعوى - أنا ربكم - فما من مجتمع إلا وفيه صوتان يناديان :

صوت الفضيلة والحق ، وصوت الرذيلة والباطل ، صوت الإصلاح والخير وصوت الإفساد والشر ، صوت التماسك والاعتصام ، وصوت الانهيار والانحلال ، فأنا ربكم ، ومصدر كل خير ، وكل دعوة إلى الحق والصلاح ، فإلى إلى - وهؤلاء أعداءكم ، ومصدر كل دعوة إلى الباطل والفساد ، فعنهم عنهم .

ياعبادى : إننى أنا ربكم ، أريد لكم التوبة والتطهر ، ولا تكون التوبة والتطهر إلا من ذنب ومن خطأ تقعون فيه ، وأنا لم أرفض أنكم ملائكة أبرار لا تعصون ولا تذبون ، فأنا الذى خلقتكم ، وأنا الذى ركب فيكم طبائعكم ، فإذا أذنبتم أو أخطأتم فذلك هو الشأن فيكم ، وكل ما أريده منكم هو أن تعودوا إلى ، وأن تستغفرونى ، وتوبوا ، وعندئذ أقبلكم مرحباً بكم ، ولا أترككم تستمرثون العصيان وتغوصون فى أعماق الرذيلة والكبيرة أما أعدائى وأعداؤكم فيريدون لكم بدعوة التحلل والتفريط أن تميلوا ميلاً عظيماً ، فإذا ملتم هذا الميل العظيم فسد مجتمعكم ، واضطرب ، وعمتكم الفتن ، وخالطتكم عوامل الشقاء ، وتغلغلت فيكم مظاهر السوء ، فتحق عليكم كلمتى وسنتى فى الأمم :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ (١)

ياعبادى : إنكم ضعفاء ، خلقتكم محاطين بالشهوات والرغبات والحاجات ، وطبعتم على طابع التلبية لهذه الملكات البشرية . الحيوانية ، ولذلك لم أشرع لكم من الأحكام ما يتنافى وتلك الطبيعة التى خلقتها بيدي ، وسويتها ونفخت فيها من روحى ، لحكمة أعلمها ، ومصلحة أقدرها ، وما أريد بتشريعى

إلا تنظيم هذه الطبيعة والاشراف على إعطائها حظوظها في نسق منظم يعينها ولا يصادرها ، ويهذبها ولا يجرمها ، ويجذبها دائماً إلى الوسط ، فلا تفريط ولا إفراط ، تلك هي دعوة الله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

حق الإنسان في أن يخطئ وفي أن يعفى عن خطئه :

يتجلى مما ذكرناه في هذا التمهيد أن القرآن يريد للمجتمع أن يكون متمسكاً بأهداب الأمل دائماً ، لا يئس من روح الله ، ولا يشعر أفرادها بأنهم مكبلون ، مترصدة عليهم المفوات ، محاسبون على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيراً فيه كثير من القسوة ، وكثير من الصرامة ، كما يتجلى مما ذكرناه أن القرآن يريد المجتمع في الوقت نفسه متمسكاً غير متحلل ، ولا منساقاً مع الغرائز دون أن يعدلها ، ولا مع الدعوات المنحرفة دون أن يقاومها ، ولذلك نجد دعوة القرآن دائماً في سورة النساء وفي غيرها دعوة وسطاً ، فلا هي بالدعوة التي تعتمد التخويف إلى درجة التئيس والإقنات الذين يفضيان بالمرء إلى الإبلas والتحير والبلبله ، ولا هي بالدعوة التي تطلق للإنسان عنان شهواته وآماله ورغباته إلى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به إلى الارتطام والتردى والعجز عن مكابدة ما لا بد منه من الصواب .

فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق له قيمته وله كرامته ، وله حق الاعتراف بميله ، وحق الاعتراف بفرائزه ، وحق الصفح عن أخطائه والتقبل منه ، ولكنه مع هذا ليس بالمدلل المرفه والمتروك سدى ، وإنما هو مسئول مخاطب ، مكلف في حدود ما يطيق وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخلقية والخلقية . وسورة النساء تأخذ قسطاً عظيماً من تركيز المجتمع على هذين المبدأين ، وهنا نبين قسط سورة النساء من ناحية التبشير وبث روح الأمل في المجتمع ، والقضاء على عوامل القنوط والخوف المفسدين .

الآيات المبشرات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت :

نجد في كتب التفسير روايات متعددة تشير إلى اشتغال سورة النساء على آيات مبشرات ، من شأنها أن تملأ قلوب الناس . بمحبة الله ، وأن تحمي فيهم الآمال ، وأن تنفي عنهم عوامل اليأس والانقطاع عن الله .

فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال : أن في سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لي بها الدنيا وما فيها :

- ١ - ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٤٠)
- ٢ - ﴿ إن تحتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ (٣١)
- ٣ - ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٧٦/٤٨)
- ٤ - ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (٦٤)
- ٥ - ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (١١٠)

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنها قال : ثمان آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت أو لهن :

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ .  
والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

والثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء فى الخمس الباقية .

### دراسة للآيات المبشرات :

وقد قدمنا ما نكتفى به من الحديث عن الآيات الثلاث الأولى التى جاءت بها رواية ابن عباس ، أما الخمس الباقية التى جاءت بها رواية ابن مسعود فتتكلّم عنها هنا حسب ترتيب السورة .

الآية الأولى : ﴿ إن تحببوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ .  
إن الصلاح والفساد مرتبطان بالأعمال والنوايا ، وما لأفراد المجتمع من اتجاهات ، فإذا استقام أفراد المجتمع وعملوا الصالحات ، وكفوا عن السيئات ، كانت لهم نوايا واتجاهات طيبة ، استقام المجتمع على الطريقة وكان مجتمعاً صالحاً راشداً سعيداً والعكس بالعكس :

فإذا كان المجتمع يغلب على أفراد عمل السيئات ، وفساد النيات والاتجاهات ، وعدم الرغبة فى الأعمال الصالحة ، فإن هذا المجتمع لابد أن يضطرب ولا بد أن يصبح العيش فيه ضنكاً وشقاء ، وأن يكون من المجتمعات الفاسدة التى لا يستطيع الفرد الوسط أن يطمئن إليها ، أو ينال القرار والرضا النفسى فيها .  
اجتناب الكبائر يكفر عن الصغائر ويدخل الناس مدخلاً كريماً :

غير أن هذا الارتباط بين الحالة الخلقية والعملية والنفسية للأفراد وبين سعادة المجتمع وشقائه لا يمكن أن يتجاهل معه ما لابد منه من الأخطاء الجزئية أو المؤقتة أو الصغيرة ، أو ما يعبر عنه بالهفوات ، فلا يمكن أن نتصور مجتمعاً خالياً من الهفوات ومن الهنات الهيئات .

ولا يمكن أن يكون أفراد المجتمع كلهم على الطريقة المثلى فى كل شىء ، لذلك لم يكن هدف القرآن الكريم أن يقيم مجتمعاً لا يخطئ أفراد ، ولم يكن من شروط التقوى فى المؤمن ألا يقع منه الذنب أصلاً .  
ولو كان الأمر كذلك لما كان المجتمع صورة ممكنة واقعية متمشية مع طبيعة الخلق وغرائز البشر ، وإنما يرمى القرآن إلى تخفيف ذلك ، ووضع الضوابط والقيود التى تهذب من هذه الغرائز ، وتحول بينها وبين الاندفاع النائر المشطط المؤذى ، وهو فى سبيل ذلك ينظر إلى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الإنسان الذى خلق ضعيفاً ، والذى هو محل لتأثيرات داخلية - نفسية وهى الشهوات والمطامع - وخارجية شيطانية - ومنها المغريات الحسية أو الأدبية - .

ولذلك يعلن فى صراحة ووضوح أن يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر ، بل لا يقف عند هذا

الحد ، ولكنه يعد بجزاء إيجابى لمن ترك الكبائر ، أى تعفف عن مواقف الإثم الكبرى ، وذلك أن يدخله مدخلاً كريماً ، وليس فى الكلام ما يدل على أن هذا المدخل الكريم هو الآخرة فحسب حيث الجنة وما أعدّه الله للصالحين من نعم ، ولكن الوعد صالح لأن يراد به أيضاً المدخل الكريم فى الدنيا ، حيث النجاح فى الحياة وأن يتبوأ الفرد فيها منزلة كريمة ومركزاً محترماً .

عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمين :

وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب على ما كان يعرف عنه من الشدة والحفاظ والتمسك ، فقد روى أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك ، فقدم وقدموا معه ، فلقى عمر رضى الله عنه فقال له عمر : متى قدمت ؟

فقال : منذ كذا . . . كذا !

قال : أبأذن قدمت ؟ . . .

فقال : يا أمير المؤمنين إن ناساً لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .  
قال : فاجمعهم لى . قال : فجمعتهم له فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال : اللهم لا .

قال : فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ فهل أحصيته فى أثرك ؟ ثم تبعهم حتى أتى على آخرهم فقال : ثكلت عمر أمه : أتكلفون الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ وتلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ ثم قال : هل علم أهل المدينة أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ قالوا : لا : قال : لو علموا لوعظت بكم . — أى لعاقبتكم على هذا التزم والتشدد — عقوبة تكون عظة لغيركم .

وهذا إنصاف عظيم من الإسلام . وحكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه ، أما أنه إنصاف فذلك لما فيه من ملاحظة الطباع والفطر والمؤثرات التى لا ينفك عنها إنسان ولا مجتمع مؤلف من أفراد الإنسان .

وأما أنه حكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه فذلك لأنه يرمى إلى عدم فضل الألفة التى تربط الإنسان بالدين وقيادته وتأثيره ، فالله تعالى يقول بهذا لعباده إذا كنتم أخطأتم باقتراف بعض الصغائر فلا تبتسوا ولا تقنطوا ، فإن ترككم للكبائر هو فى ذاته عمل صالح من شأنه أن يطهر مجتمعكم ، وأن يدرأ عنكم كثيراً من ألوان الفساد ، بل من شأنه أن يجعلكم صالحين لأن تتلقوا فضل الله وتكرمه بإدخالكم فى الدنيا والآخرة مدخلاً كريماً ، ولا شك أن هذا يبعث فى الأفراد وفى المجتمع لونا من الطمأنينة والاستبشار ، وبحول بين النفوس وما قد يعترها من القنوط والهم والحزن وغير ذلك مما يفضى إلى الاسترسال فى فعل السيئات ،

وارتكاب الموبقات وفيه من ناحية أخرى : تقوية الإنسان على محاربة الرذيلة في أقوى صروحها ، حيث تتوافر على هذه الحرب كرائم الجهود وتتجه إلى ميادينها العزيمات في قوتها . دون أن تشعر بأنها إذا خسرت المعركة في ميدان الصغائر ، قد خسرت كل شيء فلا تستطيع أن تنهض من بعد .

إن القائد الحكيم لا يجزع ، ولا يترك لجنوده أن يجزعه ، لأنهم خسروا معركة جزئية ، بل يوجههم إلى كسب المعارك الكبرى ، ولا يدع روح الهزيمة تتمكن من قلوبهم ، فيشغلهم ويضعفهم :

فهى إذن سياسة حكيمة ، وطريقة لبقة يسلكها المشرع الإسلامى على بصيره . ويدرك علماء التربية ما لها من تأثير إصلاحى نفسى وعملى ، وما لها من إنجاء بترك عظام الذنوب التى من شأنها إفساد النفوس ، وإفساد البيئات والمجتمعات .

ما هى الكبائر :

والكبائر التى أشير إليها فى هذه الآية قد مر كثير منها فيما تقدم قبل ذلك من سورة النساء ، فأكل أموال التيامى من الكبائر ، وتعدد الزوجات مع عدم العدل بينهن من الكبائر ، والتفريط فى شئون الضعفاء والمحجور عليهم من الكبائر ، وتغيير ما فرضه الله فى الموارث من الكبائر ، وارتكاب الفاحشة بين الرجال أو بين النساء من الكبائر ، والإصرار على الذنوب وعدم التوبة منها من الكبائر ، وإساءة الرجال إلى النساء أو النساء إلى الرجال فى العشرة من الكبائر ، وظلم أحد الجنسين للآخر واهتصام حقه من الكبائر ، وتعدى حدود الله فى المحرمات من النسب أو من الرضاع أو من غيرهما من الكبائر . . . هكذا .

ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ بعد ثلاثين آية من سورة النساء ذكر فيها حكم الله تعالى فى كثير من المسائل التى تتصل اتصالاً وثيقاً بصلاح المجتمع ، ودرء المفاسد والموبقات العملية عنه .

ولهذا ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها . ثم تلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾

والواقع أن الكبائر لا تقف عندما ذكر فى هذه السورة قبل هذه الآية ، وأن ابن مسعود لا يقصد هذا ، وإنما يقول ابن مسعود ما يقول بيانا ، لأن هذه الآية جاءت فى ترتيب السورة بعد ذكر جملة من الكبائر مجيء القاعدة العامة التى تطبق على جزئيات كثيرة ، منها هذه الجزئيات التى مرت فى آيات السورة .

قد ورد فى بيان الكبائر كثير من الروايات ونذكر منها — بحسب ما يؤخذ من الروايات : الإشراف بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزحف ، ورمى المحصنات ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس — وهى التى يحلفها صاحبها عالماً بكذبه — وأن يعرض الإنسان أبويه لللعن بلعنه الناس — قال ﷺ : ( من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ) ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ، قال : ( يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ) .

ومن الكبائر الخوض في أعراض المسلمين والسبتان بالسبة - أى إذا سب رجل آخر سبة فردها إليه سبتين .

ومن الكبائر : اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، وسوء الظن بالله ، وتفضيل بعض الأولاد على بعض في الوصية ، والوصية التي يقصد بها العذر ، والغلول - وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها - وفي حكمه أكل أموال الأمة ظلماً - وغير ذلك .

والقاعدة أن كل ذنب من شأنه أن يترتب عليه فساد كبير ، أو أن يخرج بالمؤمن إلى دائر الفسق والفجور أو الظلم والطغيان أو الجحود بنعمة الله تعالى ، فهو كبيرة من الكبائر التي يجب على المؤمن أن يكون قوياً في مقاومتها والتحفظ منها .

تنبيه :

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن الصغائر لا تقاوم ولا يعتد بها ، كأنها مباحات ، فإن الذنب ذنب ، والإصرار على الصغائر ربما كان من الكبائر أصلاً ، وربما جر إليها فعلاً ، وغاية ما نريده من هذا الفصل هو أن نبين ما في الإسلام من سماحة ، وما للقرآن من تبشير وتيسير وإدراك لطبيعة البشر ، وتوجيه إلى عدم اليأس والإبلاس ، وأن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان قريب الرجوع إلى ربه ، سريع الإقلاع عن ذنبه ، وأن يحول بينه وبين أن يفقد ثقته بنفسه .

### اسألوا الله من فضله

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ التمني ﴾ : تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون .  
﴿ من فضله ﴾ : أى إحسانه ونعمه المتكاثرة .

جاء في سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت : يارسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ <sup>(١)</sup>

وفي رواية أخرى ، قالت أم سلمة : يارسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث ، فترلت الآية ، ثم أنزل الله : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه الترمذى في تفسير (سورة ٤ : ٨) .

(٢) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .



وفي هذه الآية : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ توجيه رباني ، وإرشاد إلهي إلى التأدب مع الله تبارك وتعالى . فقد اقتضت المشيئة الإلهية والحكمة الربانية أن يكون لكل إنسان ما قسم الله له ، فلا ينبغي أن يتمنى ويستهي ما فضل الله به غيره عليه . فالله جل شأنه جعل لكل من الفريقين نصيبا من اكتسابه ، سواء أكان ذلك النصيب في الدنيا أم في الآخرة .

فقد خص الله الرجال بما يناسب حالهم خلقاً وخلُقاً وعقلاً وجسماً ، وخص النساء بمثل ذلك بما يناسب أحوالهن . فالرجل أقوى من المرأة عقلاً وخلُقاً ، ليناسب ذلك الكدّ الدؤوب سعياً وراء تحصيل الرزق والمشى في مناكب الأرض ، كما أن المرأة أقوى من الرجل حناناً وعاطفة ، ليناسب ذلك أمومتها ورعايتها للطفولة وتربية الأبناء ، والكل مأجور على عمله ، فالبر لا يبل والذنوب لا يُنسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان . ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أصيب عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ <sup>(١)</sup> . وفضل الله واسع لا يضيق ولا حجر عليه .

قال تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ قال رسول الله ﷺ : ( سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العباداة انتظار الفرج ) <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أى عليماً بمصالح العباد ، فالمرء من الحق هو الذي يرضى بما قسم الله ، فإن ما قد يراه شراً قد يكون الخير كامناً فيه ، وما قد يراه خيراً ، قد يكون الشر كامناً فيه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

### إيتاء كل ذي حق حقه

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَمَّا تُؤْمِنُ نَصِيبُهُمْ  
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ الموالى ﴾ : من يحق لهم الاستيلاء على التركة ﴿ مما ترك ﴾ : أى وارثين مما ترك [ والذين عقدت أيمانكم ﴾ : هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس في العقد أن يكون بالمصافحة باليدين .

بعدما نهى الله تعالى عن أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفس ، وتمنى بعض الناس ما فضل الله به البعض الآخر ، بعد ذلك كله بين الله جل شأنه ، إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ومن النساء اللواتي هن نصيب مما اكتسبن ، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

( ١ ) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

( ٢ ) أخرجه الترمذى في الدعوات ( ١١٥ ) .

( ٣ ) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال سبحانه : ﴿الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم﴾ أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

﴿فآتوهم نصيبهم﴾ أى فاعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ، ولا تنقصوهم منه شيئاً .

﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أى أن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يطمعن من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً ، سواء أكان ذكراً أم أنثى ، كبيراً أم صغيراً ، وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين فى بعض .

### إصلاح الحياة الزوجية

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّالِحَاتُ قَنِينَتٌ حَفِظَتْ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعُثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات : يقال هذا قيم المرأة وقوامها ، إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها : وما به الفضل قسمان : فطري ، وهو قوة مزاج الرجل وكاله فى الخلقة ، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر فى مبادئ الأمور وغاياتها ، وكسبى وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإتفاق على النساء ، والقيام برياسة المنزل . والقنوت : السكون والطاعة لله وللأزواج . والحافظات للغيب : أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة .

وتخافون أى تظنون . ونشزت الأرض : ارتفعت عما حوالها ، ويراد بها هنا معصية الزوج والترفيع عليه . والبغى : الظلم وتجاوز الحد والشقاق : الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين من شق أى جانب ، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه ، والحكم من له حق الحكم والفصل بين الخصمين . وبعث الحكمين : إرسالهما إلى الزوجين ، لينظرا فى شكوى كل منهما ، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما .

جاء فى سبب نزول هذه الآية : « أن سعد بن الربيع - وكان من النقباء - نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها ، فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال النبى ﷺ

« لتقتص من زوجها ، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبي ﷺ : ارجعوا ، هذا جبريل أتاني وأنزل الله هذه الآية فتلاها ﷺ وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذي أَرَادَهُ اللهُ خيراً .

وقد جاء في تفسير هاتين الآيتين أحكام قيمة ومواقف عظيمة ، شأن الإسلام في كل أحكامه ، قال صاحب كتاب « المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء » ، قال رحمه الله تعالى تحت عنوان : « حق كل من الزوجين على صاحبه » : عنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة ، فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب والكره ليستا دائماً أمانة على المستقبل السعيد أو الشقي ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ (١)

كما عنيت ببيان الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء ، فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة ، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبته ، وقرأ في ذلك قوله تعالى :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ .

وتتلخص الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات فيما يأتي :

- ١ - على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .
- ٢ - على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه في نفسها وبيت زوجها ، فقد جعلها الله أمانة على ذلك .
- ٣ - على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله في تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه ، فلا يتطلع النساء إلى ما خص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ، ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء ، وجعلهن مفضلات فيه .

### أحوال الخلاف بين الزوجين؛

(١) نشوز المرأة وكيف يعالج :

رسمت سورة النساء الخطة التي تتبع في حالة وقوع خلاف بين الزوجين ، وإذا تدبرنا الأقسام التي يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ، ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها ، وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هي حالة الزوجة التي يخشى منها النشوز ، وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها في قوله تعالى : ﴿ واللاتي يخافون نشوزهن فعضوهن وانهجهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ .

(١) الآية ١٩ من سورة النساء .

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز ، وهو في الأصل الارتفاع ، ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، ولما كان خلاف النساء يرجع غالبا إلى ترفع المرأة وتعاليتها عن قبول رياسة زوجها وطاعته ، سمي استعصاؤها عليه نشوزاً ، كأنها قد ارتقت عنه نشزا من الأرض . وفي الآية معنى يجب أن نلتفت إليه ، وأن نوجه به وجهة الإسلام في وضع هذه العقوبات بين يدي الأزواج على زوجاتهم ، وخطته في تنفيذها على سنة التدرج . ذلك أن الآية تقول ﴿ واللاتي يخافون نشوزهن ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ، ولكن على توقعه ، فخوف وقوع الشيء هو توقع حصوله ، وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر في أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته ، وتسير في الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل على الأواخر ، وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيراً ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاءً مستحكماً ، وبغضاً ليس من السهل اقتلاعه من القلوب ، فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج ، وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلي ليدأوا علاجهم ، ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف :

أولاً : ﴿ فعظوهن ﴾ : فالبواذر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة في طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء ، يناسبها الخطوة الأولى وهي خطوة النصح والإرشاد في رفق ولين ، وتلك هي المذكورة بقوله تعالى : ﴿ فعظوهن ﴾ .

وما أبلغ هذا اللفظ في الدلالة على المراد ، فإن الوعظ نصح مبنى على التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، فالزوج يبادر زوجته في هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستتراً ، أو على استحياء ، فينصحبها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقته وحصافته ، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة ، ويثني في تلطف على أخلاقها وأخلاق أسرتها ، ويحذر شتمات الأعداء ، وأسف الأصدقاء ، ونحو ذلك دون أن يظهر بمظهر الضعف أو التذلل ، ولا بمظهر التهديد والتوعد .

وهذه الخطوة الأولى من خطوات العلاج الزوجي هي خطوة طبيعية ، وكل زوج وزوجة يعرفان ما لها من أثر في إزالة كثير من أسباب الخلاف ، ومن حسم الشر في منابه ، وعدم السماح له بأن يأخذ طريقه إلى جو الأسرة ، فيفسده ويكدر صفاءه .

وينبغي أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبواذر الأولى ، لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة ، فإن الشأن في هذه المرحلة تطول بعض الوقت ، وأنها تقابل في الحين بعد الحين بالتذكير ، وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحياناً ، وأن يغفر عن قدرة وتمكن ، لتعرف الزوجة فضله في ذلك ، وأنه ليس متهوراً مندفعاً من أول الأمر ، فإن ذلك يصلح كثيراً من النساء اللواتي لا تصلحهن الشدة والعنف .

ثانياً : ﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾ : فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف، أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا الشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها، ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض ، وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ، ولكنها بليغة في صمتها، مؤثرة تأثيراً كبيراً في المرأة ، فإن أكبر ما تعتر به المرأة أن ترى زوجها هائماً بها ، شديد الميل إليها ، فإذا وجدت منه ما يدل على الانصراف عنها ، وعدم التأثر بأنوثتها ، أحست أنها بدأت تدخل في منطقة من الخطر ، وأن عليها ألا تسترسل ، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران في المضاجع ، ليظهر هذا الموقف السلبي من الرجل في أقصى مداه ، لتشعر به المرأة واضحا ، وهذا هو السر في أن التعبير جاء بقوله : ﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾ ، ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع مع كونه هجراً إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حيناً والصبر عليه وقتاً ما ، ولكن الهجر في المضجع أشد إفصاحاً عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعي وتسرها .

وبعض الناس يظن أن هذه الخطوة ليست بمجدية ، لأن المرأة مادامت متجهة إلى مخالفة الرجل ، سائرة في طريق منازعته ، لا يهملها أن يتعد عنها ، بل إن بعض النساء يرين ذلك خيراً لهن ، ولا يعبان بهذا الأمر ، ولا يبالين كثيراً بأن يحدث أولاً يحدث ، ويزداد هذا الشعور بوجود الخلاف فإن الخلاف يجعل المرأة منصرفة عن هذا اللون من المتاع الزوجي الذي لا يحسن عادة إلا حين يكون الصفاء ، وخلو النفس من الأحزان ، فكيف يتصور حينئذ أن يكون هذا علاجاً للمرأة في حالة الخوف من نشوزها وترفعها وامتناعها ؟ .

وهذا الظن ليس بمقبول ، لأن العبرة بالغالب على طبيعة المرأة ، فإذا كان بعض النساء يرحبن بمثل ذلك فهن ولا شك ناقصات من حيث التكوين الجنسي وأولاء قليلات ، والشأن في العلاج أن يعنى على الحالات الغالبة لا على الحالات الشاذة .

ثم إن هذا العلاج ليس مقصوداً لذاته ولكنه مقصود لتتخذ منه الزوجة دليلاً على امتعاض الزوج من تصرفها ، فإذا كان الزوج بعد عصيان نصحه ووعظه يبدو متلهفاً على زوجته ، ويصلها في مضجعها ، متأثراً بدافع شهوته ، فإنه بذلك يظهر بمظهر غير جاد ، ويجعل الزوجة تشعر في أعماق نفسها بأنها أقوى منه ، وأكبر تأثيراً عليه وأن لديها من المقدرة على تطويعه أعظم مما لديه ، وهنا تفسد الخطوة الأولى ، وتضيق هباء وبذلك يتبين أن هذه الخطوة الثانية لو أدت على وجهها ، وفي وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة وأنها على الأقل تكون سناداً طبيعياً للخطوة الأولى وإلا كان الرجل متصنعاً في نصائحه وعظاته ، ممثلاً لدور الغاضب أو الأسف بينما هو الراغب الطالب .

ثالثاً : ﴿ واضربوهن ﴾ : ولكن ينبغي أن نعلم أيضاً أن أسلوب الهجران الزوجي لا يمكن أن يستمر طويلاً ، فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه ، فهو إما أن يؤدي الغاية منه سريعاً وإما أنه يعلم أنه هو أيضاً غير مفيد في تطويع هذا الإباء ، وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتي الخطوة الثالثة ، لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتنحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته

إليه ، عارفة أن ذلك خيرا لها ، وإذن فقد تنازلت هي عن بعض حقها ورضى الزوج بأن يبقيا ، ويقوم بجميع نفقاتها مع كونها غير موافقة له .

وقد يتصلحان على الطلاق بعوض ، فيعطيها الرجل مالا ومتاعا ، أو تتنازل هي له عن شيء من مالها أو من صداقها ، فلا جناح عليهما في ذلك إذا تراضيا عليه .

٢ - وفي الآية الأولى بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثر الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما ، فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب في الغالب من النوع الحساس ، والتخاصم في مثل هذه الحالة يكون عرضا لأسرار الأمر في صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه ، وقد يؤدي الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة ، فربما تعرض الزوج في سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة في نفسها ويسىء أقاربها تبعا لذلك ، فيغضبون ويفكرون في الانتقام من الزوج وربما يغضب للزوج أيضا أقاربه فيتسع مجال النزاع ، ولهذا أرشد الله كلاما من الزوجين إلى ما هو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراضى فقال : ﴿ والصلح خير ﴾ .

ولعل في هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس في عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء ، وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه دعوة منافية للمصلحة ، وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيرا من الويال ، وحسبنا أن المرأة التي يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظورا إليها من الناس بنظرات الشك والتظن ، فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر ، وبأنها في سبيل إثبات هذا الضرر كثيرا ما أفاضت وتعرضت لأسرار ، وأن الأزواج يلاقون من ذلك شيئا كثيرا فلا يضرهم ، ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظن أو الاحتقار .

نقول : لا يصح أن يعترض بذلك ، لأن هذا قياس مع الفارق كما يقولون ، فإن وضع المرأة في المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ، ولا كذلك للرجل .

٣ - ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التي قد تحول بينهما وبين إتمام هذا الصلح ، فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق في منتصف الطريق ، فهذا يضحي بعض التضحية ، والآخر يبادل تضحيته بمثلها ، أو بأكثر منها ، ولكن النفوس يحضرها الشح والظن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما في نفسيهما هذه الموانع النفسية وعلى الرجل في ذلك القسط الأوفر ، فإنه بحكم وضعه من أول الأمر هو الطرف الباذل ، ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز أو الإعراض ، فبدرت منه بواده ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وماضيها معه ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

فالخطاب للأزواج ، وهو ترغيب لهم في أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسنا يخفف وقعه على الزوجات ، وتحذير لهم من أن يخرجوا فيه عن حدود التقوى والخوف من الله فيشتدوا حيث لا موجب للشدة ، أو يسرفوا في الادعاء على الزوجات ، أو يحمدوا عن بذل ما يصلح نفوسهن ولا يبعث فيها الرضا والقبول .

٤ - ولما كان أكثر ما يبعث الكراهية نشوزا أو إعراضا في قلب الرجل ، هو اتجاهه إلى زوجة أخرى ، فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبني على هذا الغرض ، ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين ، فإذا استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن في الميل القلبي والمحبة الزوجية التي من شأن المرأة أن تحسها بها بمقتضى غريزة الأنثى ، فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع ، فإنه لا تكليف إلا في حدود الاستطاعة ، ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيدا لما يأتي بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهوهن ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلا هي بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولا هي بمعلقة تلتمس السعادة الزوجية في تجربة أخرى ، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه في هذا الشأن فيُصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانباً كبيراً من ميله النفسى وذلك بأن يجبر نقصه العاطفى بالتلطف في المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة ، لكيلا يجرح شعور المرأة ، فهذا في الحقيقة نهى عن الاسترسال في عاطفة البغض ، وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضا ترغيباً للرجال في الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدي إليه ، وتحذيراً من الخروج على أمر الله بالظلم والتماذى في الإساءة ، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبي ، إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم رحمة بكم .

خطأ مشهور :

وبعض الناس يركب من هذه الجملة والجملة التي جاءت في آية التعدد قياساً فيقول : إن الله تعالى نهى الرجال عن التعدد إذا خافوا العدل ، ثم قرر أن العدل بين النساء مستحيل على الرجال ، فالنتيجة أن التعدد منهي عنه .

وهذا شبيه بما يسمى في علم المنطق « بالسفسطة » ، ومثله كمثله أن يشار إلى رسم مصور لفرس ثم يقال هذا فرس ، وكل فرس صاهل ، فهذا صاهل .

ولأنما جاء الكذب في النتيجة من أن « الفرس » في القضية الصغرى غير الفرس في القضية الكبرى ، فإن الذى فى الورق ليس فرسا وإنما هو صورة فرس ، والذى يصهل ليس من أفراد الذى فى الورق ، ولكن الذى فى الخارج حيوان متحرك ذو حياة .

وكذلك هنا ، فخوف العدل في قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾ هو خوف الرجل من عدم القيام بحقوق الزوجات على سنة التوازن الدقيق والتكافؤ التام ؛ وهذا إنما يتصور ملاحظته في التكليف إذا فسر العدل فيما يملك الزوج من النفقة وتوابعها ، ومن مقاومة الميل التام عن إحدى الزوجتين لتلطيف حديثه ، وإلا كان إدخاله في نطاق التكليف واشترائه في إباحة الحكم عبثاً - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

أما العدل في قوله جل شأنه : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ فهو المساواة في الميل القلبي والحب ، أى توزيع العاطفة القلبية على الزوجات بالقسطاس المستقيم ، وذلك هو المحال المنفى بحرف ﴿ لَنْ ﴾ والدليل على ذلك أنه أتبع بقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ ﴾ أى لا أكلفكم العدل المطلق في ذلك فهو محال ، وليس من شأنى أن أكلفكم محالاً : ﴿ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾<sup>(١)</sup> ولكن أكلفكم ما هو في وسعكم ، وذلك هو عدم الاسترسال في الميل وتغذيته بما يقويه ويجعله ميلاً تاماً ، وبهذا يتبين أن العدل المشترط هو العدل فيما يملك الرجال ، وأن العدل المنفى هو العدل الذى لا يستطيع .

ولأما أوضحنا هذا مع اشتهاؤه في كتب التفسير ، ومع دلالة الروايات المروية في أسباب النزول عليه لأننا أردنا أن يعلمه الذين تعودوا أن يثيروا هذا الاحتجاج ممن لا يقرءون كتب التفسير ، ولا يتيسر لهم فهم أسلوها .

٥ - وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك إلا التفرق بين الزوجين ، والتماس كل منهما حياة أهدأ في ظل زوجية جديدة ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ .

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء في هذا كله وفي غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجي إلا في هذه الآية ، وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجي ، ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفصيله كما جاء في سورة البقرة مثلاً ، وذلك لأن السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء ، أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تمر به السورة مرأً ، وما تقرنه بفتح باب الأمل في أن يغنى الله كلا من سعته ، حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به ، وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته ، وفيه الخير المرجو له ، فإن الرجاء في استقبال حياة جديدة ، خير من العيش في حياة كلها كراهية ونزاع ، ولذلك تذكر الآية في ختامها ما يبعث على الأمل ، وهو وصفه تعالى بأنه كان وما يزال ﴿ وَاسِعًا ﴾ وتذكر أيضاً ما يدل على أن الافتراق في مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله : ﴿ حَكِيمًا ﴾ .

وإذن فهذا أيضاً بناء في المجتمع ، أو هو عصمة من أن تنهار نفوس هى لبنات في بناء المجتمع ، أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .



## (ح) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هي الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها في قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليماً خبيراً ﴾ .

قد تقدم أن الحالة الأولى هي حالة الخوف من نشوز الزوجة ، وأن الحالة الثانية هي حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين ، وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهي حالة الشقاق الذي يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه في نظيره من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التعبير عن هذا الخلاف بأسلوب إضافة الشقاق إلى ﴿ بينهما ﴾ وذلك قوله تعالى : ﴿ شقاق بينهما ﴾ فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه بمعنى : شقاق بينهما ، أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه مشاققة .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول إن خفتم شقاقاً فابعثوا حكماً . . . الخ ، فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين ، وإنما المراد هو الخوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين ، وهذا يفيد جعل البين نفسه مصدراً للشقاق ، كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع ، وهذا موقف إن دلت الدلائل على أنه قريب الوقوع ، كان على الأمة أو على ولاية الأمر فيها أن يتداركه قبل أن يكون ، وأن يعالجه بأن يبعثوا حكماً من أهل الزوج وحكماً من أهل الزوجة كي يدرسا أمر الزوجين والصعاب التى توشك أن تعصف بما بينهما ، ويحاولا تذليلها ، وإصلاح ذات البين إذا أمكنها ذلك ، وإنما جعل الحكماء من أهلها لأن أهل الزوج والزوجة هم أقرب الناس إليهما ، والأمر فى نجاح هذه الزوجة أو فشلها ذو أثر فيهم على نحو ما ، وهم أدنى إلى الإخلاص فى حل مشكلة الزوجين ، وكل طرف منهما يمثل واحداً من الزوجين ويتحدث باسمه دون أن يكون الحديث صادراً من الزوجين ، ففى ذلك ابتعاد عن أسباب التوتر والمراء والمعاتبة التى قد تفسد مشروع الصلح إذا خرجت عن حدها ، وكثيراً ما تخرج .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاد كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ، ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز ، وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق ، كما جاء فى آية أخرى تقول : ﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ﴾ <sup>(١)</sup> وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكناً ، على ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(٢)</sup> ولهذا جاءت بها الصورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح ، وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .

## العبادة والإحسان

\* وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ  
لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ  
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا  
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

المفردات : عبادة الله : الخضوع له والاستشعار بتعظيمه في السر والعلن ، بالقلب والجوارح ،  
والإخلاص له بالاعتراف بوحديته ، إذا لا يقبل عملاً بدونها . والإحسان إلى الوالدين : قصد البر بهما  
بالقيام بخدمتهما ، والسعى في تحصيل مطالبهما ، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة ، وعدم الخشونة في  
الكلام معهما . وذى القربى : صاحب القرابة من أخ وعم وخال وأولاد هؤلاء ﴿ والجار ذى القربى ﴾ :  
هو الجار القريب . الجوار : ﴿ والجار الجنب ﴾ : هو البعيد القرابة ، ﴿ والصاحب بالجنب ﴾ : الرفيق في  
السفر ، أو المستقطع إليك ، الراجى نفعك ورفدك ﴿ وابن السبيل ﴾ : هو المسافر أو الضيف .  
﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ : عبيدكم وإماءكم . المختال : ذو الخيلاء والكبر . الفخور : الذى يعدد محاسنه  
تعاظماً وتكبراً ﴿ وأعتدنا ﴾ هيأنا وأعدنا المهين : ذو الإهانة والذلة ﴿ ورثاء الناس ﴾ : أى للمراءة والفخر  
بما فعل القرين : الصاحب والخيال . و ﴿ ماذا عليهم ﴾ أى أى ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟ .

العبادة خضوع تام ، وانقياد وتسليم وتفويض ويقين قلبى ، بأن الأمر كله لله ، وأنه وحده المستحق  
للعبادة ، وهذا هو توحيد الألوهية ، وله أثر عظيم للعبد عند الله .

قال ﷺ لمعاذ بن جبل : ( أتدرى ما حق الله على العباد ؟ ) قال : الله ورسوله أعلم . قال : ( أن  
يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ) ، ثم قال : ( أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم ) (١) .

(١) أخرجه البخارى في اللباس (١٠١) وفي الجهاد (٤٦) وفي الاستئذان (٣٠) وفي الرقاق (٣٧) وفي التوحيد (١) . ومسلم في الإيمان (٤٨ - ٥١) .  
والترمذى في الإيمان (١٨) . وابن ماجه في الزهد (٣٥) . والإمام أحمد في (٢ : ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥) وفلا (٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١) .

سبحانك ربى :

ما فى الوجود سواك رب يعبد      كلا ولا مولى هناك فيقصد  
يامن له عنت الوجوه بأسرها      رهباً وكل الكائنات توحد  
أنت الإله الواحد الحق الذى      كل القلوب له تقرر وتشهد

وبعد الأمر بعبادته سبحانه وحده أوصى بالإحسان إلى الوالدين ؛ وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء فى الحديث : ( الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صدقة وصلة ) <sup>(٤)</sup> ، وقال ﷺ : ( الصلة والصدقة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار ) . ( إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ) <sup>(٥)</sup> كما أوصى سبحانه بالإحسان إلى اليتيم ، وهو الذى مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم ، ويكون ذلك بحسن معاملته وصيانة ماله والإرعاء لشئونه ، قال عليه الصلاة والسلام : ( أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة ) <sup>(٦)</sup> .

كما أوصى تعالى بالمساكين ، والمسكين هو الذى أسكتته الحاجة ، واستحى أن يسأل فيحرم ، قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ <sup>(٧)</sup> وقد يكون المسكين هو الذى لا يقوى على العمل لعاهة من العاهات ، فيكون أولى بالرعاية ، والإسلام هو دين الرحمة . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : ( لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟ ) .

ولن يضيع إحسان عند الله ، فاصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فانت أهله ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكأ .

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه      فلن يضيع جميل أينما وُضعا  
إن الجميل وإن طال الزمان به      فليس يحصده إلا الذى زرعاً

(١) الآية ١٤ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه النسائى فى الزكاة (٨٢) . والترمذى فى الزكاة (٣٦) . والدارمى فى الزكاة (٣٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٠٢) وفى (٤ : ١٨ ، ٢١٤ ، ٢٩٩) وفى (٥ : ٤١٦) .

(٥) أخرجه مسلم فى البر (١٧) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩) .

(٦) أخرجه البخارى فى الطلاق (٢٥) وفى الأدب (٢٤) . ومسلم فى الزهد (٤٢) . وأبو داود فى الأدب (١٢٣) . والترمذى فى البر (١٤) . والإمام مالك فى الشعر (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٧٥) وفى (٥ : ٣٣٣) .

(٧) الأيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

وروى مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه قال للقهرمان له هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : ( كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم )<sup>(١)</sup> .  
ورواه مسلم بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ( للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق )<sup>(٢)</sup> .

وروى البخارى ومسلم رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناول له لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجه )<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل أو ليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أى مختالاً فى نفسه ، معجباً متكبراً ، فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

قال مجاهد فى قوله : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً ﴾ يعنى متكبراً ﴿ فخوراً ﴾ يعنى بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى ، يعنى يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ ، هذا بيان للمختال الفخور ، روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس : كان جماعة من اليهود يأتون رجلاً من الأنصار ينصحون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإننا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين ييخلون ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ .

والمراد بالبخل فى الآية : البخل بالإحسان الذى أمر به فيما تقدم ، فيشتمل البخل بلين الكلام واللقاء السلام والنصح فى التعليم وإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

ثم بين عقوبة أمرهم وعظيم نكالهم فقال : ﴿ وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أى وهيناً لهؤلاء بكبرهم ويخلفهم وعدم شكرهم عذاباً يهينهم ويذلهم ، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة ، جزاء لهم على ما اقترفوا ، وسماهم الله كفاراً للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور لا من المؤمن الشكور .

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (٤٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٤١) . والإمام مالك فى الاستئذان (٤٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤٧ ، ٣٤٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى العتق (١٨) وفى الأطعمة (٥٥) . ومسلم فى الإيمان (٤٢) . وأبو داود فى الأطعمة (٥٠) . والدارمى فى الأطعمة (٣٣) .

والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠) وفى (٣ : ٣٤٦) .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان (٢٢) وفى الأدب (٤٤) . ومسلم فى الإيمان (٤٠) . وأبو داود فى الأدب (١٢٤) . وابن ماجه فى الأدب (١٠) .

﴿والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس﴾ الرثاء والرياء والمراعاة سواء ، أى أن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكراً لله على نعمه ، ولا اعتراكا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرائين الناس : أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شيء في نفس الشخص تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب ، والمرائى أقل شرا من البخيل ، إذ هو يحمل الناس على قبول فخره ، وإختياله في مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخيل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه وأمواله مدخرة في الصناديق .  
والمرائى بخيل في الحقيقة ، إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين ، ولا يتحرى في إنفاقه النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضاراً كالمساعدة على فسق أو فتنه ، فهو تاجر يشتري تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ أى أن المرائين في إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله في نظرهم أهون من الناس ، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخييل ليس له ما يؤيده من أثر في القلب ، ولا إذعان للنفس ، فهم لا يعرفون الله ، وإنما يسمعون الناس يقولون قولا فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات ، النافذ علمه وقدرته فيما في الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر ، وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائى أن الأول قلما يتذكر عمله ، أو يذكره إلا لمصلحة ، كترغيب بعض الناس في البذل ، كأن يقول إني على ما بى من فقر قد أعطيت كذا درهما في مصلحة كذا ! فاللائق بمثلك أن تبذل كذا وكذا درهما .

أما الثانى فهو يلتبس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب .

﴿ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا﴾ أى أن هؤلاء المتكبرين ما حلهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بش الساحب والخليل ، والمقصد من هذا أن حالهم في الشر كحال الشيطان .

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرنائه المرء في مسيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء ، وتعريفه لتغير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا يهتدونهم على الإنفاق في سبيل الله ، وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر وينهون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغوب فيه منقر بسيرته ونصحه عن الشر مبعد عنه مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً وكم أفسد قرين السوء صالحاً .

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ أى وما الذى كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيماناً صحيحاً يظهر أثره فى العمل ؟ وفى هذا الأسلوب إثارة تعجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فاتتهم متعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى ، فكثيراً ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من هم أن أحداً يعرف ما عمل فيكون الأول قد رجع بخفى حين بينا الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لكان فى هذا سعادته ، فالإيمان سلوى من كل فائدة وفقده عرصة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الإيمان وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه فى المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره رحمة الله التى بها تتحول النعمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهديب .

وقد يتلى الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأنس أحياناً بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان نادراً فهو واقع حاصل .

﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى اتصافه ولا يبال بعلم الناس فهو الذى لا ينسى عمل العالمين ولا يظلمهم من أجرهم شيئاً .

وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ، ولبعضهم بعضاً ، ولكن المسلمين قصرُوا من اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين والشواهد على هذا كثيرة .

### آية مبشرة

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾

إلهنا ما أعدلك ، ما أكرمك ، ما أحلمك ، إن فضلك عظيم ، وجودك كريم ، حكمت فعدلت ، وقدرت فعفوت ، وعلمت فحلمت ، الظلم حرمة على نفسك ، وجعلته بين عبادك محرماً ، ونهيتهم عنه فقلت فى حديثك القدسى : ( يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا )<sup>(١)</sup> وهل تهلك الأمم إلا بالظلم ؟ وهل تقوض أركانها ويخر بنيانها إلا بالظلم ؟

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ﴾<sup>(٥)</sup> . ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾<sup>(٦)</sup> . ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾<sup>(٧)</sup> . ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾<sup>(٨)</sup> . ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾<sup>(٩)</sup> . ﴿ وكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾<sup>(١٠)</sup> .

إن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، تفتح لها أبواب السماء ، ويستقبلها الرب تبارك وتعالى ، ويقول وعزى وجلالى لأنصرتك ولو بعد حين .

يا بن آدم :

لا تظلمن إذا كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عقابه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم متنبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

ما أجل قوله تعالى : ﴿ فكلأ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(١١)</sup> . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(١٢)</sup> .

ابن آدم :

وإذا رُميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصب  
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعو من حبل الوريد وأقرب

لا تغرنك قوتك ، فإذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب  
واحفظ لسانك واحترس من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب  
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً إن الكذوب يشين حراً يصحب  
يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

(٧) الآية ٢١ من سورة القصص .

(٨) الآية ٢٥ من سورة القصص .

(٩) الآية ١١ من سورة التحريم .

(١٠) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(١١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(١٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(١) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٦) الآية ١٠ من سورة الشعراء .

إذا غرتك قوتك فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً .

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

وإذا غرك سلطانك فاعلم أنه لو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

وكم من جبال قد علت شرفائها رجال فزالوا والجبال جبال

واعلم بأن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست . وإذا جلت أوجلّت ، وكم من ملك رفعت

له علامات فلما علامت .

ولى في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راق

شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهيمن باق

شيئان لا تقربهما : الإشراف بالله ، والإضرار بالناس .

جل جلال الله ، فقد اقتضى منطق العدالة الإلهية ألا يظلم مثقال ذرة ، وهي الهبة التي نراها تتأرجح في شعاع الشمس المتسلسل من ثايا النافذة ، وجل جلالك إذ تضاعف الحسنات ، وتقول للملائكة الكاتين : ( إذا هم عبدى بفعل سيئة فلا تكتبوها حتى يفعلها ، فإن فعلها فاكذبوها له سيئة مثلها . وإن تركها من أجل فاكذبوها له حسنة ، وإذا هم بفعل حسنة ولم يفعلها فاكذبوها له حسنة ، فإن فعلها فاكذبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف )<sup>(١)</sup> . أنت الذى تهب كثيراً ، وتجبر قلباً كبيراً ، وتغفر الزلات . وتقول هل من تائب فاغفر له ؟ أو سائل أقضى له الحاجات ؟

يقول الشيخ ( محمد المدنى رحمه الله تعالى ) في تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ يقول ما نصه : « هذه مرتبة أخرى من مراتب الفضل الإلهي غير السابقة وفيها تبشير بأمرين عظيمين : أحدهما : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ والذرة واحدة الذر وهو صغار النمل أو الهباء المتشرف في الهواء ، والمراد أصغر ما يتصور من الأشياء ، فالله تعالى لا يظلم الناس شيئاً ولو كان قليلاً في وزنه كالذرة ، وذلك العدل الإلهي واقع في الدنيا وفي الآخرة .

### لكل درجات مما عملوا :

أما في الدنيا فإن لكل عامل جزاء ما عمل ، وقد وضع الله تعالى من السنن الكونية ما يجعل النجاح والصلاح والفوز وأضدادها مرتبطة بعمل العامل وجوداً وعدماً ، وإتقاناً وإهمالاً ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ (٢) .

(١) أخرجه البخارى في الإيمان (٣١) وفي الرقاق (٣١) . ومسلم في الإيمان (٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) وفي الصيام (١٦٤) . والترمذى في فضائل الجهاد (٤) . وابن ماجه في الصيام (١) . والنسائى في الصيام (٤٢) . والدارمى في الصوم (٥٠) . والإمام مالك في الصيام (٥٨) . والإمام أحمد في (١ : ٤٤٦) .

(٢) الأيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .



فلا يمكن أبداً في سنة الله وعدله الكوني أن يعمل إنسان عملاً صالحاً إلا كان لهذا العمل الصالح نتائج وثمراته الموازنة له بالقسطاس المستقيم ، فمن زرع أرضاً فبمقدار ما يعطيها من العناية ، وما يوفر لها من أسباب الصلاحية تعطيها من ثمراتها كثرة وجودة ، ومن أهملها فلم يعطيها قسطها من العناية أو من البذر أو من العمل أو أهمل أسباب الصلاحية التي يجب أن توفر لمثلها تجاوبه على ذلك بالنسبة نفسها قلة في الثمرات وضعفاً .

وقل مثل ذلك في الذي يخلص في نواياه ، وفي الذي يسلك الطريق المستقيم في الحياة ، وفي الذي يحفظ أماناته التي ائتمن الله أو الناس عليها ، وفي الذي يأخذ ويؤدى ما أسند إليه من عمل أخذاً قوياً وأداء قوياً ، يأخذ الأعمال بقوة ويؤديها بقوة - والقوة في ذلك هي الصدق والثبات والعناية الواجبة التي هي حق كل عمل ، وسناد كل عمل ، وما به قوام كل عمل - إن لذلك العدل الإلهي الكوني نتائجه بالضرورة لا يمكن أن تنفك عنه أو يختل ميزان تقديرها .

وإذا كنا نرى صوراً غير ذلك في الحياة بين الحين والحين فننسب بعضها إلى الحظ الحسن ، وبعضها إلى الحظ السيئ ، فإن علمنا هو القاصر ، ولو علمنا كل الظروف وتبعناها في حيدة ونصفة لآمنا بأن سنة الحكيم العليم وطرده لا تتخلف ولا تظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

والخلاصة أن الله تعالى لا يمكن أن ينقص العاملين أو يبخسهم أعمالهم وأن الأعمال نفسها لها ثمراتها الطبيعية كالمقدمات والنتائج ، فكما أن الإنسان لا يمكن أن يزرع عبثاً فيجنى رماناً كذلك لا يمكن أن يعمل ويسعى على أصول صحيحة سليمة ثم يضيع عمله سدى ويذهب سعيه هباء .

هذا في الدنيا بحسب التواميس التي هيأ الله عليها الكون والناس والأعمال والثمرات .

أما في الآخرة فقد ورد من الآثار والأخبار ما يدل على مثل ذلك ، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينقص عبداً من عبادته في دار الجزاء خيراً فعله ، غير أنه قد يرد على الفاعل فعله ، فلا يقبله ، لأنه لم يفعله ابتغاء وجهه ، أو لم يأت به على الصورة التي رسمها له ، وحيث لا يكون هذا الرد نقصاً للعبد ، وظلماً لحقه ، فإن العبد في الحقيقة لم يعمل الخير ، ولكن عمل ما صورته صورة الخير ، أو ما اعتبره هو خيراً وإن لم يكن خيراً .

ومما ورد في السنة من التبشير بإيفاء العاملين أجر أعمالهم يوم القيامة ما روى في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ الذي جاء فيه : ( فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فاخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ) (٢) . ثم يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : اقرعوا إن شئتم : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . . . . ﴾ الآية .

(١) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥) وفي الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفي الفتن (١٣) وفي التوحيد (٢٤ ، ٣٦) . وسلم في الإيمان (١٤٧ - ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفي الفتن (٥٢ ، ١١٦) . وأبو داود في اللباس (٢٦) والترمذي في الفتن (١٧) وفي جهنم (١٠) . وابن ماجه في المقدمة (٩) وفي الزهد (١٦ ، ٣٧) . والدارمي في المقدمة (٨) . والإمام أحمد في (١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) .

## لا حظ للكافرين من ثواب الآخرة :

وهنا يرد سؤال كثير ما يراود القلوب : هل الحكم في عدم الظلم والنقص من جزاء الأعمال في الدنيا والآخرة عام يشمل المؤمنين والكافرين جميعاً ، فالكافر أيضاً لا يظلم مثقال ذرة ؟ أو هذا شيء خاص بالمؤمنين ؟

والجواب : أن الآية تقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ فقد حذف المفعول الأول للفعل فأفاد العموم ، ودل على ذلك تصريح الآية الأخرى التي تقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ فقد ذكرت المفعولين وكان المفعول الأول هو الناس والناس لفظ يعم المؤمن والكافر .

وهذه الدلالة بالنسبة للجزاء الدنيوى - لا معارض لها نقلاً ولا عقلاً ، فقوانين الحياة وسننها الطبيعية لا تفريق فيها بين مؤمن وكافر ، فمن استقام لشيء وأعطاه حقه استقام ذلك الشيء وتجاوب معه على قدر استقامته له ، وما وفى إليه من حقه ، لا فرق في تلك السنة الكونية بين مؤمن وكافر .

أما في الآخرة فالقرآن الكريم صريح في أن أعمال الكافرين هباء ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ (١) ، ﴿ أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ (٢) .

وقد اختلف المروى من السنة في هذا الشأن ، فجاء في بعض الأحاديث أن المشرك الذي فعل الخير يخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولكن لا يخرج من النار ، فيكون التخفيف عنه هو جزاء حسناته ، وجاء في حديث آخر : « إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجازى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً » (٣) .

وإذن فهناك قدر متفق عليه بين الحديثين ، وهو أن الكافر لا ينال في الآخرة ثواباً على عمله في الدنيا ، وإن جاز أنه سيخفف عنه من العذاب .

## سر التفرقة بين المؤمن والكافر :

والتفرقة بين المؤمن والكافر على هذا النحو أو ذاك قد تثير سؤالاً آخر : هل الله تعالى يجابى المؤمنين على الكافرين ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن الأمر في ذلك جاء على تمام العدل نفسه ، وأن التفرقة بينهما بما يقتضيه العدل ، وذلك أن المؤمن يعمل الخير والصالح مبتغياً جزاءين : جزاء الدنيا الذى هو نتيجة إحسان الأعمال وإقامتها على سنن الصلاح ، وجزاء الآخرة الذى هو الثواب في الجنة ، فهو مؤمن بأن هناك إلهاً يجازى ، وأن

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٣٩ من سورة النور .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ١٢٥ ، ١٢٣ ، ٢٨٣) .

هناك داراً أخرى ، وأن بها جنة وناراً الجنة للمتقين ، والنار للعاصين ، أما الكافر فإنما يعمل ما يعمل ابتغاء الدنيا فقط وليس مؤمناً بالله رباً ، ولا بالآخرة داراً للجزاء ، حتى يتوجه في عمله إلى قصد ذلك .

فالله يعطى كل إنسان الجزاء الذى تطلبه وابتغاه دون أن ينقصه منه شيئاً ، ومثل ذلك كمثل رجلين : أحدهما باع سلعة بثمان بعضه معجل وبعضه مؤجل ، فإذا لم يعط المؤجل كالمعجل كان قد بخس حقه ، والثاني باع سلعته بثمان معجل فقط فليس له حق في أن يأخذ شيئاً بعد هذا المعجل ، ولا يقال أنه بخس ، ولا أن صاحبه حوى ، فكل منهما نال حقه وحصل على ثمن سلعته كاملاً . هذا تقريب للأمر وبيان للسر يتضح منه أنه لا محاباة لمؤمن ولا ظلم لكافر .

ثم إن الكافر الجاحد بربه وبتدار الجزاء قد ارتكب بهذا الكفر أشنع الجرائم التى تنافى العقول ، وتكابر الدلائل الواضحة في الكون ، ومثل هذا في الواقع لا يُرجى منه خير ولا نفع ، ولا عمل صالح في شئون الحياة ، ولو أننا أحصينا عدد الذين ينكرون الله ولا يؤمنون برسله ولا بالدار الآخرة لوجدناهم على حالة من الاضطراب في حياتهم العملية وعلى نحو من الفساد النفسى الذى لا يكاد يصلح معه عمل .

فافتراض نجاح الملحد في الحياة افتراض لصور قليلة ، ومع ذلك فإن للحياة قوانينها وقد طبقت عليه ، أما افتراض أن يعمل الملحد الجاحد بربه عملاً من أعمال الخير والبر والصلاح يستحق به ثواب الآخرة فهو افتراض لما لا يكاد يكون ، ولو أنه حدث لكان دليلاً على اتجاه إلى الإيمان بدأ يراود نفس صاحبه وحينئذ يكون من عدل الله معه أن يجيبه فيما اتجه إليه ، ولذلك ورد أن أعمال الخير تحتم لصاحبها بخاتمة الخير فلو علم الله من إنسان صدقاً وبرا واتجهاً إلى فعل الخير ، وكان كافراً فإنه كثيراً ما يوفقه إلى الإيمان ، وهذا على السنة المستفادة من قوله تعالى : ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ (١) ، ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ (٢) .

الإحسان فوق العدل :

الأمر الثاني من الأمرين المبشر بهما في هذه الآية ، هو ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

وهذا إحسان فوق العدل ، ولا تنافى بينه وبين العدل ، فالعدل يقتضى ألا يظلم العامل مثقال ذرة من جزاء عمله ، وهذا ما قرره الجزء الأول من الآية ، وسبق بيانه ، ولكن العدل لا يقتضى منع الزيادة في جزاء الخير على سبيل الإحسان ، كما لا يقتضى منع العفو عن السيئة على سبيل الغفران ، وإذن فمقتضى ﴿ لا يظلم ﴾ غير مناف لمقتضى ﴿ يضاعف ﴾ .

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى يعامل عباده بمقتضى الإحسان حين يجزى

(١) الآية ٧٥ من سورة مريم .

(٢) الآية ١٧ من سورة محمد .

بالحسنة ، ولا يزيدهم عما يستحقون حين يجزى بالسيئة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى في هذه الآية الأخيرة ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ مثل قوله في آية النساء ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وذلك أن عطاءه تعالى واسع غامر من جهتين ، فهو أولاً يضاعف الحسنة فيجعلها حسنات عشرأ ليعط الجزاء على عشر ، ثم يمنح بعد ذلك أضعافاً كثيرة من لدنه لمن يشاء ، فأية البقرة تقرر ذلك حيث تقول : ﴿ يضاعف لمن يشاء ﴾ فلا تذكر مفعول ﴿ يضاعف ﴾ كما قالت سورة النساء ﴿ يضاعفها ﴾ ولكن سورة النساء تكمل هذا المعنى فيقول : ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيدل قوله تعالى : ﴿ من لدنه ﴾ على أنه يضاعف غير مضاعفة الحسنة ، وأما تسمية ذلك أجراً فلأنه ملحق بأجر الحسنة تابع لها ، وإن كان ﴿ من لدنه ﴾ أى زيادة بدون مقابل .

معنى مضاعفة العذاب للمجرمين وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين :

ويرد هنا سؤال : إذا كان الله يضاعف السيئات ويضاعف الحسنات فما معنى قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاماً \* يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً \* إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فإن في هذه الآيات ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ ومضاعفة العذاب تتنافى مع قاعدة : ﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ وفي هذه الآيات أيضاً : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ وتبديل السيئات حسنات شيء غير مضاعفة الحسنات المفهوم من قاعدة ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ، ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ ؟

والجواب - كالسؤال - يتألف من نقطتين :

الأولى : أن « مضاعفة العذاب » لم ترد فقط في هذه الآيات من سورة الفرقان وإنما وردت في عدة مواضع من القرآن الكريم ، ونحن جميعاً هنا لنعرف مواقعها المعنوية فيساعدنا ذلك على إدراك مراميها ، وتبين السرفى تلك المضاعفة على الذنوب فيها .

ففى سورة هود : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة هود .

وفي سورة الأحزاب : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (١).

وفيها أيضاً : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ (٢).

وفي سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا آذركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ (٣).

وفي سورة الإسراء خطاباً للرسول ﷺ : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾ (٤).

وفي سورة (ص) : ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ (٥).

وهذه المواضع كلها تتحدث عن نوع خاص من الذنوب ، هو الذنوب التي ليس حذرهما قاصراً على المذنب في نفسه ، ولكنه يتعداه إلى غيره ، لأنه قدوة أو متبوع أو متصد لإضلال غيره ، فعليه إثماني : إثم كسبه لنفسه ، وإثم احتمله بإفساد غيره .

وهذا هو شأن الصّادقين عن سبيل الله ، الذين تذكّرهم سورة هود ، وشأن نساء النبي اللواتي هن في مركز القدوة ، وشأن السادة والكبراء الذين ضلوا وأضلوا كما حدثتنا عن هؤلاء وأولئك سورة الأحزاب ، وسورة الأعراف وسورة (ص) .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله فهو القدوة العظمى ، وركونه إلى المشركين لو وقع فعلاً - حاشاه - فقد صانه الله وعصمه - لكان أكبر كارثة تحق على الدعوة وتصيب صميم الإسلام ، فماذا يحدث لو ضعف حامل لواء الدعوة وسقط صريعاً أمام الشرك ؟ .

وإذن فالمضاعفة في هذا كله إنما هي جزاء وفاق لذنوب له صفة التكرار والتعدد وتجاوز النفس إلى الغير ، وهذا على ما جاء في قوله ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » (٦) ، وما من جريمة قتل نفس بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول وزر منها - يريد ابن آدم الذي قتل أخاه بغير الحق ، فكان أول من سن هذه السنة السيئة .

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحزاب .

(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب .

(٣) الآيتان ٣٨ و ٣٩ من سورة الأعراف .

(٤) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٦١ من سورة ص .

(٦) أخرجه مسلم في العلم (١٥) وفي الزكاة (٦٩) . والنسائي في الزكاة (٦٤) . والإمام أحمد في (٤ : ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) .

وآية الفرقان تتحدث عن ذوى جرائم مزدوجة فتقول : ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ والإشارة إلى ما تقدم من دعوة إله آخر مع الله ، وقتل النفس بغير الحق ، والزنا ، وذلك أن الشرك ظلم للنفس بما فيه من إضلالها ، وسوء أدب في حق الألوهية ، وقتل النفس فيه هدم لبناء أقامه الله ، وفيه اعتداء على حق المقتول في الحياة ، والزنا فيه تلويث لشرف الزاني ، وتلويث لشرف من زنى بها ، فالمضاعفة جزاء وفاق في هذا كله ، وليس فيها ظلم ولا تجاوز عن سنة المجازاة بالمثل .

النقطة الثانية من نقطتي الجواب عن السؤال الأول : أن تبديل السيئات حسنات جاء في آية الفرقان جزاء على ثلاثة أشياء : التوبة والإيمان وعمل الصالحات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

فالتوبة تمحو الذنب ، والإيمان يمحو الشرك ويحجبه ، وعمل الصالحات حسنات منشأة تحل مكان السيئات المحوكة ، فبعد أن كان الشخص مشركاً داعياً مع الله إلهاً آخر ، مرتكباً للفواحش ، تاب من شركه ، فأمن وتاب من عمله واستأنف أعمالاً صالحة جديدة ، فحلت هذه مكان السابقة ، فهذا هو تبديل سيئاتهم حسنات ، وليس معناه أن الله يقلب السيئة نفسها ويغير حقيقتها إلى العكس ، فإن الحقائق لا تغير ، وليس معناه كذلك أن الله يجزيهم عن السيئة جزاء الحسنه ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولكن المعنى كما أوضحنا أن التوبة تمحو السيئات والعمل الصالح الجديد يأتي مكان العمل السيئ السابق .

وقد جاء بعد آية الفرقان هذه ما يشبه أن يكون إشارة إلى هذا وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾<sup>(١)</sup> ، فمعنى ﴿ فمن تاب ﴾ ومن رجع عن ذنبه واستبرأ منه وتطهر ، ومعنى ﴿ وعمل صالحاً ﴾ استأنف جديداً من الصالحات بعد توبته وتطهره ، ومعنى ﴿ فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ فإنه يرجع بهذا إلى ربه رجوعاً قوياً غلصاً ، فيكون أهلاً لأن يقبل ويتحول بذلك من حال إلى حال .

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾<sup>(٢)</sup> ، وإذا بدلنا آية مكان آية ﴿ وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً ﴾<sup>(٣)</sup> ، وفي ذلك تصريح بمعنى التبديل الذي ذكرناه من أنه وضع شيء مكان شيء ، لا قلب الحقائق ، ولا قلب الجزاء على الأعمال .

(١) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٩٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٠١ من سورة النحل .

(٤) الآية ٥٥ من سورة النور .

## مكانة الصادق المعصوم

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
وَعَصَوْا الرُّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ( اقرأ على ) ، فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : ( نعم إني أحب أن أسمعه من غيري ) ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال ( حسبك الآن ) ، فإذا عيناه تذرفان <sup>(١)</sup> .

أما الفاء في قوله تعالى : ﴿ فكيف ﴾ فإنها فاء الفصيحة التي أعربت عن شرط مقدر ، فيصير المعنى : إذا كنا لا نظلم مثقال ذرة فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد على أعمال أمته ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء كما في قوله جل شأنه : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن منطق العدالة الإلهية قد بلغ مداه ، إذ لا ظلم اليوم مع إقامة الشهادة على أعمال الأمم : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ و﴿ لو ﴾ هنا تفيد التمني ، كما أنها تؤول ما بعدها بمصدر ، فكأنهم ودوا وتمنوا تسوية الأرض بهم كما في قوله جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

إن الله جل شأنه وصف المؤمنين بقوله : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ \* إن عذاب ربهم غير مأمون <sup>(٥)</sup> . ويقول : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾ \* والذين هم بآيات ربهم يؤمنون \* والذين هم بربهم لا يشركون \* والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله أنهم إلى ربهم راجعون \* أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخارى في تفسير (سورة ٤ : ٩) وفي فضائل القرآن (٣٢ ، ٣٥) . ومسلم في المسافرين (٢٤٧ ، ٢٤٨) . وأبو داود في العلم (١٣) .  
والترمذى في تفسير (سورة ٤ : ١١) .

(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .  
(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .  
(٤) الآية ٤٠ سورة النبأ .  
(٥) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة المؤمنون .  
(٦) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة المعارج .

تلك حال المؤمنين خوف وإشفاق ووجل ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه يقول : يا ليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن . وكان عمر يقول : ليت أمتى لم تلدنى ليتها كانت عقيماً . فماذا نقول نحن ؟ لا يسعنا إلا أن نقول : اللهم عاملنا بفضلك ، وعاملنا بما أنت أهله ، ولا تعاملنا بما نحن أهله ، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولا ينفع التمنى من هؤلاء الذين تمنوا أن تسوى بهم الأرض ، لأن اليوم لا تقبل فيه معذرة ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴾ فإنه تعالى علیم بذات الصدور : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه علیم بذات الصدور ﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ ، سبحانه علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول - يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة - أنهم قالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا : تعالوا فلنجحد ، فقالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ، ﴿ ولا يكتُمون الله حديثاً ﴾ .

#### أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا غَيْرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٣﴾

المفردات : الغائط : المنخفض من الأرض كالوادي ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس . ملامسة النساء : الإفضاء إليهن . تيمموا : اقصدوا . الصعيد : وجه الأرض . الطيب : الطاهر . العفو : ذو العفو . العفو عن الذنب : محوه وجعله كأن لم يكن . الغفور : ذو المغفرة . المغفرة : ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

ذكر الله تعالى مشهداً من مشاهد القيامة فى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴿ فهذا مقام يقوم العبد فيه

( ١ ) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .

( ٢ ) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .



الله رب العالمين ، وفي هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ مقام آخر يقوم العبد فيه لله رب العالمين ، فلا بد أن يكون حاضر القلب والعقل ، فقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴿ (١) 》 .

وهل الخشوع إلا حضور القلب وسكون الجوارح ؟ فلو حضر قلبك لسكنت جوارحك .

قال الحسن رضى الله عنه : من أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ، ومن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » .

وكان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال » (٢) .

إذ الصلاة كهف المؤمن ، ومفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله .

وقد قيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامي ، والموت ورائي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، والصراط تحت قدمي ، وأن الله مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا صليت لا أدري أقبلها الله أم ردها على .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ قبل أن ينزل تحريم الخمر قاطعاً في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

ولما كانت هذه الآية التي نهى الله فيه المؤمنين أن يقربوا الصلاة حالة السكر ، لما كانت تتعلق بأحكام شرعية ، فإننا نذكر هنا ما ذكره الفقهاء من أحكام عملية .

قال الفقهاء : لا تصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما تقرأونه وماستمعملونه ، ذاك أن حال السكر لا يتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه ، وذكره ودعائه ، وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون ، ليحتاطوا ، فيجتنبوه في أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيداً لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه ، إذ من ينفى أن يجيء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس في هذه المدة ، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر ، فيقل الشراب لمزاحمة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٧٨) . والإمام أحمد في (٥ : ٣٦٤ ، ٣٧١) .

(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل . وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر . وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن على كرم الله وجهه قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا وشهانا من الخمر ، فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدموني ، فقرأت ( قل يا أيها الكافرون \* لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون )<sup>(١)</sup> فنزلت الآية . وروى ابن جرير عن على كرم الله وجهه أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن ، وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ولا تقربوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة ، فيفضى إلى أدائها فى أثنائها .

وخلاصة المعنى عليه أخطروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة ، فتصلوا وأنتم سكارى ، فامثال هذا النهى إنما يكون بنهى السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، والثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب ، وأما نهىهم عن الصلاة جنباً فلا يتضمن نهىهم عن الجنابة قبل الصلاة لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة فى أثنائها ، حتى يغتسلوا ، ولهذا قال : ﴿ جنباً ﴾ فى أى حال إلا حال كونكم ﴿ عابري سبيل ﴾ أى مجتازين الطريق .

وقد ورى أن رجلاً من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد ، وكان يصيبهم الجنابة ، ولا يجدون ممراً إلا فيه ، فرخص لهم فى ذلك ، ولم يأمر النبى ﷺ بسد تلك الأبواب والكوى إلا فى آخر عمره الشريف ، ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه . والخوخة الكوة والباب الصغير ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ أى لا تقربوا الصلاة جنباً إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل إلى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة : أن الجنابة تحدث تهيجا فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ، ويحدث فتور وضعف فيه ، يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث : « إنما الماء ند الماء »<sup>(٢)</sup> . رواه مسلم .

والخلاصة : أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر ، وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً وذلك لا يكون إلا بإزالة الجنابة . ولما كانت الصلاة فريضة موقوته لا هواده فيها لأنها تذكر المرء ربه وتعدده للتقوى ، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر فى بعض الحالات ويتعذر فى بعضها الآخر رخص سبحانه لنا فى ترك الماء والاستعاضة عنه بالميم ، فقال : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ المراد بالمرض المرض الذى يخاف زيادته باستعمال الماء ك بعض الأمراض الجلدية والقروح كالخصبة والجدرى أو نحو ذلك ، والسفر يشمل الطويل والقصير ، والمراد

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ١٢) .

(٢) أخرجه مسلم فى الحيض (٨١) . وأبو داود فى الطهارة (٨١) . والنسائى فى الطهارة (١١٣) . وابن ماجه فى الطهارة (١١٠) . والدارمى فى الوضوء (٧٤) . والإمام أحمد فى (٣ : ٢٩ ، ٣٦) وفى (٥ : ١١٥ ، ١١٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١) .

بالمجيء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شيء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء : غشيانهن .

ففى هذه الحالات ( المرض - السفر - فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل ) اقصدوا وتحروا صعيدا طيبا : أى وجهها طاهرا من الأرض لا قدارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجهكم وأيديكم منه ثم صلوا .

والخلاصة : أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو ملامسة النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط ، قاله الأستاذ الإمام .

لكن المعروف فى المذاهب الأربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء ، فلا يجوز مع وجودة ، وهنا بخلاف ظاهر الآية . ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة ، وإباحة الفطر فى رمضان ، لا يستنكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء ، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ، فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواحد للماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر ، فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مغاور الحجاز وجبالها ؟ فأشق ما يشق فى السفر الغسل والوضوء ، وإن كان الماء حاضرا مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ، ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يركبون فى الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر منه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال فى قطر السكك الحديدية ، أو فى قوافل الجمال والبغال ؟ .

روى أن هذه الآية نزلت فى بعض أسفار النبى ﷺ ، وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبى ﷺ يلتمسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلوا بالتيمم جاء أسير بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر . وفى رواية يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

ثم ذكر منشأ السهولة واليسر فقال : ﴿ إن الله كان عفوا غفورا ﴾ العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله ﷺ : « قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق » <sup>(٢)</sup> ، أى اسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوّه وتسهيله أن أسقط فى حال المرض والفر وجوب الوضوء والغسل .

وفى ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ فى صلاة السكارى كقولهم : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون - مغفورا لهم لا يؤخذون عليه .

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزكاة (٤ ، ١٥) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ١١) . والإمام مالك فى الزكاة (٣٩ ، ٤٠) وفى الجهاد (٢١) . والإمام أحمد فى (١ : ١٨ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨) .

قال السيد حسن صديق خان في شرحه « الروضة الندية » : قد كثرت الاختباط في تفسير هذه الآية : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ الخ ، والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله : ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء ﴾ فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء في الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول : إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيداً لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيداً للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضاً لأنه قد وجد المانع هنا من تقييد السفر والمرض بعدم وجود الماء ، وهو أن كل واحد منها عذر مستقل غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا التيمم التي وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر . أهـ .

ومنه تعلم أن رأيه كراى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف في التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

### حديث عن أهل الكتاب

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾  
وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ  
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَبًّا بِالسِّنَنِهِمْ  
وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ  
وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تنظر ، ﴿ نصيباً ﴾ حظاً ، ﴿ السبيل ﴾ الطريق القويم ، ﴿ ولياً ﴾ أى يتولى شئونكم ، ﴿ نصيراً ﴾ معيناً يدفع شرهم عنكم . ﴿ من الذين هادوا ﴾ هم اليهود ، ﴿ غير مسمع ﴾ يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، أن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه ، ﴿ وراعنا ﴾ إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها ، وهى ( راعينا ) ، ﴿ لباً ﴾ أى فقلالها وتحريفا . طعنا في الدين : قدحا فيه ، ﴿ أقوم ﴾ أعدل وأسد ، ﴿ إلا قليلاً ﴾ أى إلا قليلاً من الايمان لا يعاب به .

بعد أن ذكر الله سبحانه في سابق الآيات كثيراً من الأحكام الشرعية ، ووعد فاعلها بجزيل الثواب ، وأوعد تاركها بشديد العقاب ، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم ، واشتروا الضلالة بالهدى ، لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصرُوا بالعقاب الذى رتبته على ترك أحكام دينه في الدنيا والآخرة .

والمؤمنون بالله حقاً بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصول إلى إصلاح الأنفس ، وذلك هو الأثر المطلوب منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها ، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط ، كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرايين وأحكام الدين الظاهرة ، وهذا لا يكفي في اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراد الله ، فأرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن عمل الرسوم الظاهرة في الدين كالغسل والتيمم لا يغني عنهم شيئاً إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ، ويكونوا أهلاً لكرامته ، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترّون الضلالة ويريدون أن تضلّوا السبيل ﴾ أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهي ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ، ويريدون أن تضلّوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلّوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، والتعبير بالشراء دون الاختيار للإيماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ، ولم يكتبوا منه نسخاً متعددة في العصر الأول كما فعلنا ، حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة من التوراة هي التي كتبها موسى عليه السلام فقدت . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ .

والخلاصة : أنهم لم يأخذوا الكتاب كله ، بل تركوا كثيراً من أحكامه لم يعملوا بها ، وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا ، وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علماءهم ورؤساءهم كثيراً من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها ، وهي ليست من التوراة ، ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذي لم يعمل به التوراة قسمان : أحدهما ما أضاعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به ، وهو كثيراً أيضاً ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أى والله أعلم منكم بمن هو عدوكم ، فأنتم تظنون في المنافقين أنهم منكم وماهم منكم ، فهم يكيدون لكم في الخفاء ، ويغشونكم في الجهر ، فيبرزون الخديعة في معرض النصيحة ، ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة ، والله أعلم بما في قلوبهم من العداوة والبغضاء .

﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ﴾ فهو الذي يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذي ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون ، وسائر الوسائل التي تؤدي إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصر من سواه ، وعليكم باتباع السنن التي وصفها في هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

﴿ من الذين هادوا ﴾ هذا بيان للمراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، ثم بين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى فقال : ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ التحريف يطلق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له كما يؤولون البشارات التى وردت فى النبى ﷺ ، ويؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر ، ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم ، وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من وضع من الكتاب ووضعها فى موضع آخر ، وقد حصل هذا فى كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمان طويل ، وكذلك ما وقع فى كلام غيره من أنبيائهم .

واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح فى زعمهم ، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قرايطس متفرقة من التوراة ، بعد فقد النسخة التى كتبها موسى عليه السلام ، وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار .

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ أى يقول هؤلاء اليهود للنبى ﷺ : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى ﷺ : سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك كانوا يقولون له : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله فى الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين : لا سمعت أذى ، أولا سمعت مكروها .

وكذلك كانوا يقولون له : راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتسأبون بكلمة ( راعينا ) العبرانية ، فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبى ﷺ : راعنا ، من المراعاة ، فافتروضوها ، وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

﴿ ليأ بالسنتهم وطعنا فى الدين ﴾ أى هم يلوون ألسنتهم فيجعلونها فى الظاهر راعنا ، وبلى اللسان وإمالاته ( راعينا ) قصدا منهم للسباب والشتم والسخرية ، أو جعله راعيا من رعاة الغنم ، أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليه خطابهم للنبى ﷺ وتحيته بقولهم : ( السام - الموت - عليكم ) يوهمون بقتل اللسان وجهته أنهم يقولون له ( السلام عليكم ) وقد ثبت هذا فى صحيح الأحاديث كما ثبت أن النبى ﷺ بعد أن علم عنهم ذلك كان يحییهم بقوله ( وعليكم ) أى كل أحد يموت .

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ﴾ أى ولو أنهم قالوا سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك ، لعلمهم بصدقك ، ولوجود الأدلة والبيانات المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا : اسمع منا ما نقول وانظرنا : أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيرا لهم وأصوب مما قالوه ، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولكن خذهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب كفرهم ، إذ قضت سنة الله فى البشر بأن الكفر يمنع صاحبه من التفكير والتروى والأدب فى الخطاب ، ويجعله بعيدا من الخير والرحمة ، فلا يمت إليهما بسبب ، ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أى فهم لا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً لا يعتد به . فهو لا يصلح عملاً ولا يظهر نفساً ، ولا يرقى عقلاً ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملاً لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصداقاً لما معهم من الكتاب ، وبين لهم ما نسوا منه ، وما حرفوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة في الاجتماع والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

### توجيه وتحذير

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

المفسردات : ﴿ الكتاب ﴾ التوراة ، ﴿ نطمس ﴾ الطمس : إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها وإما بأن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال في قوله تعالى : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ <sup>(١)</sup> أى أزها وأهلكها ، والطمس على العين في قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ﴾ <sup>(٢)</sup> إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما توجه إليه من المقاصد ، كما قال تعالى : ﴿ أسلمت وجهي لله ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ <sup>(٥)</sup> .

والأدبار واحدها دبر ، وهو الخلف والقفا ، والارتداد : هو الرجوع إلى الوراء ، إما في الحسيات وإما في المعاني ، ومن الأول الارتداد والفرار في القتال ، ومن الثاني قوله : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ﴾ <sup>(٦)</sup> ، ﴿ نلعنهم ﴾ نهلكهم ، ﴿ كما لعنا أصحاب السبت ﴾ أى كما أهلكنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

هذا خطاب من الله تبارك وتعالى إلى أهل الكتاب ، يأمرهم فيه سبحانه أن يؤمنوا بالكتاب الذى نزل على خاتم أنبيائه محمد ﷺ ، إذ هو الحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وهو الصديق المطلق الذى لا تعتریه شبهة ، ولا تشوبه شكوك ، وهو مصداق لما جاء فى الكتب السماوية تصديقاً يدل على أنه من عند الله وحده ، فآمنوا يا أهل الكتاب بما فى هذا القرآن من عقائد وشرائع وشعائر .

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٦ من سورة يس .

(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

(٥) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٦) الآية ٢٥ من سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها ﴾ قال بعضهم : معناه من قبل أن نطمس وجوها ، فطمسها هوردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقي لها سمعا ولا بصرا ولا أنفا ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار .

وقال العوفي عن ابن عباس في الآية وهي ﴿ من قبل أن نطمس وجوها ﴾ وطمسها أن تعمى .  
﴿ فنردها على أدبارها ﴾ يقول نجعل وجوههم من قبل أفقيتهم فيمشون القهقري ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه .

قال مجاهد من قبل أن نطمس وجوها عن صراط الحق فنردها على أدبارها أى في الضلال .

قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس والحسن نحوه هذا .

وقوله تعالى : ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ يعنى الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ﴾ (٢) ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون لا تأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (٣) ، وقال جل جلاله : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ (٤) .

قوله جل شأنه : ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ المراد بالأمر هنا الأمر التكويني ، أى إذا أراد الله شيئا فهو بالغ أمره ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٥) ، ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (٦) .

(١) الآية ٦٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٦٠ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١٦٦ من سورة الأعراف .

(٥) الآية ٤٠ من سورة النحل .

(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .



## آية مبشرة

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ، وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

من الآيات المبشرات التي وردت في سورة النساء ، وفيها يخبر العلي الكريم أنه لا يغفر لمن لقيه مشركاً ، وذلك لأن الشرك ذنب من الذنوب التي تحجب المغفرة عن العبد ، أما ما دون ذلك فإن الله يغفر لمن يشاء ، فالكل محكوم بمشيئة الله ، والذنب الوحيد الذي لا يغفر هو الشرك ، إذ أن من يشرك بالله فقد افترى واقترف إثماً متناهياً في الإجماع ، إذ أن التوحيد هو الفطرة الصافية ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه .

وأنت إذا سألت العالم كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالفك ؟ لأجابه بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (١) . جاءت هذه الآية بعد قوله جل شأنه : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً \* سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾ (٢) .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجن شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقد وردت في معنى هذه الآية الكريمة أحاديث نورد بعضها فيما يلي :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضی الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله ثلاثة ، ديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية . وقال : ﴿ أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله من حرم يوم تركه أو صلاة فإن الله لا يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة » .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) لايتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .

الحديث الثاني : روى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً : فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك ، وقال : ﴿ إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وأما الظلم الذى يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض » .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد بإسناده عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » (١) :

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله يقول : يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإني غافر لك على ما كان منك ، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة ) (٢) .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ، ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر ) (٣) .

### من قبائح القوم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٩٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : الفتيل : ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل فى الشئ الحقيق كما يضرب بمثقال الذرة ، قال الراغب : الإثم والآثام اسم للأفعال المبطنة عن الثواب : أى عن الخيرات التى يثاب المرء عليها . وقد يطلق الإثم على ما كان ضاراً .

من شر ما يبتلى به المرء أن يزكى نفسه ، إذ فى تزكيته نفسه ما يشعر بالأنانية والاعتداد بالذات ومركب النقص . قال جل شأنه : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي

(١) أخرجه أبو داود فى الفتن (٦) . والنسائى فى التحريم (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٩٩) .  
(٢) أخرجه مسلم فى الذكر (٢٢) . والترمذى فى الدعوات (٩٨) . وابن ماجه فى الأدب (٥٨) . والدارمى فى الرقاق (٧٢) ، والإمام أحمد فى (٥ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠) .  
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (١) وفى بدء الخلق (٦) وفى اللباس (٢٤) وفلا الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى التوحيد (٣٣) . ومسلم فى الإيمان (١٥٣ ، ١٥٤) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . والترمذى فى الإيمان (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٨٥) وفى (٦ : ٤٤٢ ، ١٦٦) .

بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴿١﴾ . وكان رسول الله ﷺ يقول : ( رحم الله امرأً عرف قدر نفسه ) .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : ياليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن .

وكان الفاروق يقول وهو على فراش الموت : ولا تزكوني بما ليس فى فإن الله أعلم بحالى منكم .

وقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على قوم زكوا أنفسهم فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ (٢) ، وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴿٣﴾ . ورد عليهم القرآن فى الآية الأولى : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وفى الآية الثانية بقوله : ﴿ قل أخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ وهذا استفهام تقريرى موجه إلى كل من يعقل الخطاب .

﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أى أعلم أيها المخاطب أن من قبائح هؤلاء القوم أنهم يدعون التزكية والطهر لأنفسهم ، وكان عليهم أن يوقنوا بأن الله يزكى من يشاء ، إذ هو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأمور .

وقد بلغ من أدب أحد الصالحين أن رجلا أثنى عليه ، فردَّ عليه العبد الصالح بتلك الكلمات النورانية قائلا : « اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون » . قال تبارك اسمه ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ (٤) .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتىلا ﴾ . وهذا مظهر من مظاهر العدل . ومن أسمائه تعالى أنه الحكم العدل . فهؤلاء القوم مع كثرة ما اقترفوه من جرائم ومخالفات وجنایات فإن الله مع ذلك لا يظلمهم شيئا ، ولو كان هذا الشيء كالخيط فى شق النواة ، حتى أن الله تعالى يخفف العذاب عن قوم أتوا أفعالا ينفع الله بها العباد فى الدنيا ، ولكنهم ماتوا على الكفر : يخفف العذاب عن أبى طالب لكفالاته رسول الله ﷺ يوم مات جده عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنوات ووقوفه كجبهة دفاع خارجية ، يقول للرسول الكريم : يا ابن أخى قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبدا :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا  
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

قال ﷺ : ( أخف الناس عذابا يوم القيامة أبو طالب ) .

كما يخفف العذاب عن أبى لهب يوم الأثنين ، ذلك لأنه لما بُشر بمولد الهادى البشير ، وكان ذلك يوم

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .

(٢) الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٨٠ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

الاثنين أعتق جاريته ثوبية التي زفت إليه هذا النبأ السعيد . قال أحد الصالحين في أبي لهب :

إذا كان هذا كما فرا جاء ذمه      وتبت يدها في الجحيم مغلدا  
أق أنه في يوم الاثنين دائها      يخفف عنه للسرور بأحمد  
فما الظن بالعبد الذي كان عمره      بأحمد مسرورا ومات موحدًا

وقد كانت أول جرعة لبن نزلت في جوف المصطفى من جارية عمه أبي لهب ، وكان عتقها إيذانًا للعالم  
أجمع بأن هذا المولود السعيد هو محرر العبيد . ولقد كان ذلك كذلك .

فمبعوث العناية الإلهية هو الذي جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة . جعل من  
رعاة الغنم زعماء للأمم . ومن عباد الحجر قادة للبشر :

سيدي أبا القاسم يارسول الله :

أنت الذي قاد الجيوش محطما      عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموت بالبشر الذين تعلموا      سنن الشريعة فارتقوا سعداء

قوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثنا مبينا ﴾ هذا تعقيب على ما اقترفه  
القوم من جرائم وما اقترفوه من كذب على الله . فقد قال بعضهم : عزيز ابن الله ، وقال آخرون : المسيح  
ابن الله . وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . فانظر أيها المخاطب وتعجب ! كيف يفترون على الله ما لم ينزل به  
سلطانا وما ليس لهم به علم ، وكفى بالكذب على الله إثنا وبهتانًا ، وسقوطًا إلى الهاوية ، وعذابًا أليما .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾ (١) ، وقال جل شأنه : ﴿ فمن أظلم ممن كذب  
على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ (٢) . وقد حذر الصادق المعصوم من  
الكذب ومن سوء مصير الكاذبين فقال : ( إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي  
إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا ) (٣) .

### ضلال القوم وتضليلهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّنُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا  
هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿١٥٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن مَّجِدَّ  
لَهُ نَصِيرًا ﴿١٥٦﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿١٥٧﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزمر .

(٣) أخرجه الترمذی فی البر (٤٦) . ومسلم فی البر (١٠٤ ، ١٠٥) . وأبو داود فی الأدب (٨٠) . والإمام أحمد فی (١ : ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣٢ ،

(٤٤٠) .

عَلَىٰ مَاءٍ أَنَّهُمْ لَمِنْ فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ أَتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٥﴾ فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾

**المفردات :** الجبت : هو الرديء الذي لا خير فيه ويراد به هنا : الأصنام والأوهام والخرافات والدجل . والطاغوت : ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج من الحق من مخلوق يُعبد ، ورئيس يُقْلَد ، وهوى يُتَّبَع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان ، والنقيير : النقرة التي في ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل في الشيء الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التي على النواة بينها وبين التمرة ، والحسد : تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والمراد بالناس هنا محمد ﷺ ومن آمن معه . والفضل : النبوة والكرامة في الدين والدنيا ، والكتاب : العلم بظاهر الشريعة ، والحكمة : العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم : ما كان لأنبياء بني إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصدَّ عن الشيء : أعرض عنه ، ونار مُسْعرة : موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

جاء في سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبني قريظة ، هم حُيَّ بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، وأبو عمار ، وهوذة بن قيس ، وباقيهم من بني النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ؛ فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه ومن اتبعه ، فأنزل الله : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ ملكا عظيما ﴾ قاله السيوطي في لباب النقول . .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاثهم على النبي ﷺ ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال : إنا معكم نقاتله ، فقالوا : إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا : نحن أهدى أم محمد ؟ فنحن ننحر الكؤماء ( الناقة الضخمة السنام ) ونسقى اللبن على الماء ، ونصل الرحم ، ونقرى الضيف ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال : بل أنتم خير وأهدى .

فتأمل معي كيف ضل هؤلاء الناس ! لقد ضلوا ضلالاً بعيداً وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، لقد شهدوا شهادة زور عندما أخبروا المشركين من أهل مكة بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، لقد آمنوا بالجبت والطاغوت ، واعتقدوا في الأوهام والدجل والخرافات ، واتبعوا كل طاغوت طغى وتكبر ، واتخذوا الشيطان وليا من دون الله . ومن يتخذ الشيطان قرينا فساء قرينا ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلّالا بعيدا ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣١ من سورة الحج .

وكان واجبا عليهم وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، وقرأوا ما فيه من نبوة سيدنا محمد ﷺ أن يقرأوا ويعترفوا للمشركين ، وقد سألوهم أن محمدا وأتباعه على هدى . إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (١) .

كانت العاقبة كما أخبر سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ وكفى باللعن عاقبة ، وكفى به سوءاً . إن الذى طُرد من رحمة الله لا ناصر له فى الدنيا والآخرة ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم من دونه من وال ﴾ (٢) ، ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ (٣) ، ﴿ وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ﴾ هذا توبيخ وتقريع لليهود على بخلهم . و ﴿ أم ﴾ هنا بمعنى بل . والهمزة أى بل أم لهم نصيب من الملك لقد ضيعوه بظلمهم وبغيهم وطغيانهم . ولو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بما آتاهم الله ، ولأمسكوا عن إعطاء النقيير وهو الغشاء الرقيق على ظهر النواة .

ثم انتقل من الحديث عن بخلهم إلى الحديث عن حسدهم فقال سبحانه : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ .

قال المفسرون : المراد بالناس : محمد ﷺ ، فقد حسدوه لما أنزل الله عليه الرسالة . حسدوه عليها ، وكانوا يريدونها فيهم . قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ : يريد سبحانه وتعالى أن يبين ما عليه اليهود من الحسد للرسول الكريم ، ولماذا يحسدونه بالذات ، ولم تكن نبوته بدعا من الرسل ، فقد سبق أن آتى الله آل إبراهيم وهم إسحاق ويعقوب وما تناسل منها من الأنبياء ، آتاهم الكتب من تورا وانجيل وزبور وقرآن وحكمة وهى أسرار التشريع أو السنة ، وصحف ، كما آتاهم ملكا عظيما ، فما الغرابة فى إنزال الكتاب على محمد ﷺ .

وفى الآية دلالة ونبوءة على التمكين لهذه الأمة فى قوله تعالى ﴿ وآتيناهم ملكا عظيما ﴾ وقد مكن الله تعالى لهذه الأمة بقيام دولة كانت نواتها الأولى بالمدينة المنورة ، وامتدت فى أرجاء الدنيا من حدود الصين شرقا

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .

(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٥٢ من سورة غافر .

(٤) الآية ١٨ من سورة غافر .

(٥) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

إلى أبواب باريس غربا ، ومن حدود سيبيريا شمالا إلى المحيط الهندي جنوبا ، تعانق الجوزاء ، وتراحم الشمس في الجلاء ، خير أمة أخرجت للناس ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله . أمة تصون ولا تبدد ، تحمي ولا تهدد ، تبنى وتشيد ، تشد أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، تنشر ألوية الأمن والأمان على ربوع البسيطة .

لقد حسد اليهود هذه الأمة على نبينا وكتابتها ، على عيدها يوم الجمعة ، على تحية السلام ، كما حسد الكفار من أهل مكة نبي هذه الأمة على رسالته : وقالوا ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ (١) قصدوا بالقريتين مكة والطائف ، وقصدوا برجل مكة الوليد بن المغيرة ، وقصدوا برجل الطائف عروة بن مسعود الثقفي فقال لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ثم قال : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ (٢) .

قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ﴾ أى من الأمم من آمن بما أنزلنا من الكتاب والحكمة وسلك طريق النجاة ، ومنهم من كفر وصد عنه غيره ، فكفى بجنهم نارا مستعرة له . ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا ﴾ (٣) فلا تحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ (٤) ، ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٥) .

### مصير الكافرين والمؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ نصليهم ﴾ : نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية أى مشوية . ﴿ نضجت ﴾ : احترقت وتهرأت وتلاشت ، من قولهم نضج اللحم نضجا : إذا أدركا . ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ : أى ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزیز : أعزك الله ، أى أدام لك العز و زادك فيه ، والعزیز : هو القادر الغالب

(٤) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٦ من سورة الكهف .

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ١٦٧ من سورة النساء .

على أمره ، والحكيم : هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، ومطهرة : أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ﴿ ظلاً ظليلاً ﴾ كقوله ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى : أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ، ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقال : « السلطان ظل الله فى أرضه » . والآيات : الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجلها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والغفلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسدا . والخلود : الدوام وقد أكد به قوله أبداً ، ومطهرة : أى بريئات من المعاييب الجسمانية والطباع الردية .

لما أخبر الله تعالى عن الفريقين : فريق المؤمنين وفريق الصادين المكذبين بقوله : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ﴾ . لما أخبر سبحانه بذلك فصل مصير كل فقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ أى جحدوا بها وكذبوا ، وآياته ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى ، جليلة فى مغزاها ومرماها ومعناها ومبناها . ما مصير هؤلاء الجاحدين المكذبين ؟ قال سبحانه : ﴿ سوف نصليهم نارا ﴾ . وقد قالوا : إن التكفير فى لفظ نار يفيد عظمها ، والتفخيم من شأنها .

ثم بين سبحانه مدى ما سيلقاه هؤلاء فى تلك النار فجاء التعبير بأداة الشرط ﴿ كلما ﴾ التى تفيد التكرار فقال جل شأنه : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ . ويكفيك أن تقف عند قوله جل شأنه : ﴿ نضجت ﴾ أى احترقت وتهرأت وتلاشت ، والتعبير بالجلود دون اللحم يفيد حقيقة علمية ، إذ أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان .

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه « الإسلام والطب الحديث » إن أعصاب الألم هى فى الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً ؛ فالله يقول لنا : إن النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب نجده ، كى يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

وبعد بيان هذه الصورة التى تسيل لها النفس مرارة وألماً ، وينصدع لها الفؤاد لوعة وحسرة ، بين الله الحكمة من ذلك فقال : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ أى ليدوم لهم العذاب كما استمروا على الكفر فى الدنيا وأصروا عليه واستكبروا استكباراً .

ويكفى أن أسوق لك هذا المشهد من مشاهد القرآن عن أهل النار فى طعامهم وشرابهم ، قال سبحانه : ﴿ إن شجرت الزقوم \* طعام الأثيم \* كالمهل يغلى فى البطون \* كغلى الحميم \* خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم \* ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم \* ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (١) .



هذا طعامهم . فما شربهم ؟ قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشَرِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١) .

لا يفعل هذا إلا عزيز حكيم غالب لا يغلبه أحد ، وحكيم تنزه ذاته عن العبث . إنه الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ هذا من باب اقتران الوعد بالوعيد ، وسمى القرآن مثاني لأنه يثنى الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، يصف الله المؤمنين بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (٢) .

وهكذا حال المؤمن الصالح مع الله . وليس الإيمان كلاماً تلوكه الألسنة ، وتنس به الشفاه ، وإنما الإيمان كما ورد في هذه الآية ما اقترن بالعمل الصالح ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ وقد جاء في الحديث الشريف : ( ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما قر في القلب وصدقه العمل . وإن قوما غرتهم الأمان حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ! لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ) .

ما مصير هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ سيدخلهم ربهم جنت تجري من تحتها الأنهار . فقارن بين هؤلاء وأولئك : أما الكافرون فسوف ﴿ نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ .

أما هؤلاء المؤمنون ﴿ سندخلهم جنت تجري من تحتها الأنهار ﴾ . ثم تأتي بعد ذلك نعمة الخلود لتمتلي النفس أماناً وطمأنينة ، فالخلود في النعيم يعدل النعيم . ثم ماذا ؟ لهم فيها أزواج وأى أزواج ! ﴿ أزواج مطهرة ﴾ : طهارة معنوية من الحقد والحسد والغل والبغضاء ، إنهن قاصرات الطرف إنهن حور مقصورات في الخيام ، وطهارة حسية من الخيض والنفاس والعرق والفضلات ، ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ والتعبير بالظل فيه معنى العيشة الهانئة الراضية المطمئنة ، ووصف الظل بأنه ظليل ، فيه المبالغة في هذا النعيم .

وكما سقنا في أهل العذاب صورة من مشاهد القيامة ، فإننا نسوق في أهل النعيم صورة من صور الهناء والخبور : قال تعالى : ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً \* متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً \* ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا \* ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريراً \* قواريراً من فضة قدروها تقديراً \* وَيَسْقُونَ فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً \* عينا فيها تسمى سلسبيلاً \* ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً \* وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكا كبيرا \* عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً \* إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴿ (٣) .

(٣) الآيات ١١ - ٢٢ من سورة الإنسان .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .

## الأمانة والحكم

\* إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

المفردات : الأمانة الشيء الذي يحفظ ليؤدي إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأميناً ووفياً ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائناً . والعدل : إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، والتأويل : بيان المآل والعاقبة .

ذكر ابن إسحق بسنده في سبب نزول هذه الآية عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عبيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس في المسجد . قال ابن إسحق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : ( لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ) وذكر بقية الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال : ( ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك فقال رسول الله ﷺ : ( أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم وفاء وبر )<sup>(١)</sup> .

قال ابن جرير : حدثني القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج في الآية قال : نزلت في عثمان بن طلحة : ( قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح ) .

(١) أخرجه أبو داود في الدييات (١٧ ، ٢٤) . والإمام أحمد في (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفي (٣ : ٤١٠) وفي (٥ : ٤١٢) .

الأمانة هي الرعاية لحقوق الله تعالى ، وقد جاء ذكرها في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز . قال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ (١) ، وقال جلُّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) . وقال سبحانه في صفة المؤمنين : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ (٣) . وقال عظمت حكمته : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٤) . وفي الأحاديث الشريفة ما يدل على عظم الأمانة وخطر شأنها : من ذلك قول الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : ( أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك ) (٥) وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتئون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله عز وجل بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتصر للشاة الجاهل من القرناء ) (٦) .

روى ابن أبي حاتم بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل في سبيل الله فيقال : أد أمانتك فيقول : فأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة في قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقه . قال فتترل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبد الآبدين .

وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : ( أربع إذا كن فيك فلا تبالي بما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليفة ، وعفة طعمة ) وقال عليه الصلَام والسلام : ( لا إيمان لمن لا أمانة له ) (٧) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ، إنما جاء الأمر بالحكم مقترنا بأداء الأمانة لأن الحكم بالعدل أمانة ، فمن جار وظلم فقد خان الأمانة ، وقد نهى الله تعالى عن خيانتها ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨) ، وأمر سبحانه بالعدل فقال : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩) .

(١) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ٨ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .

(٥) أخرجه أبو داود في البيوع (٧٩) . والترمذي في البيوع (٣٧) . والدارمي في البيوع (٥٧) . والإمام أحمد في (٣ : ٤١٤) .

(٦) أخرجه مسلم في البر (٦٠) . والترمذي في القيامة (٢) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٣٣ ، ٤١١) .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ١٣٥ ، ١٥٤ ، ٢٠١ ، ٢٥١) .

(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

(٩) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام .

وبين أن هذا العدل صراط مستقيم فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (١) .

وهل المستقيم إلا أقرب صلة بين نقطتين ، وهذا هو العدل بعينه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ (٢) .

وقد بلغ الإسلام فى العدل مبلغ بلغ الآفاق ، وعرف فى أرجاء الدنيا شرقاً وغرباً ، بل لقد وصل إلى درجة جعلت على بن أبى طالب وقد كانت بينه وبين يهودى خصومة ، كان القاضى فيها عمر ، أن غضب على بن أبى طالب عندما ناداه أمير المؤمنين عمر بكنته فقال له : يا أبا الحسن ، وفى الكنية تكريم ، كيف يناديه بكنته وينادى على اليهودى باسمه ، وقد ورد فى الحديث الشريف ما يدعو إلى عدل الحاكم أيا كان موقعه والقاضى أيا كان مكانه ، قال ﷺ : ( إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه ) (٣) .

وجاء فى الحديث أنه يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى معه أنه لم يقض بين اثنين فى ثمرة « وما من وال يلى أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يده مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » (٤) .

وقد ورد فى كتب الفقه أحكام تتعلق بالعدل والقضاء نرى من الأهمية بمكان أن نسجلها على تلك الصفحات لما لها من وقع مؤثر فى حياة الأمة الإسلامية ، لقد كان الإمام عبد الله بن عباس يقول : أكثروا من ذكر عمر فإنكم إذا ذكرتموه فإنكم ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر الله تعالى ، ذلك لأن الله هو الحاكم العدل .

جاء فى كتب الأحكام الشرعية تحت عنوان القضاء ما نصه :

إن العدل قيمة من القيم الإسلامية العليا ، ذلك أن إقامة الحق والعدل هى التى تشيع الطمأنينة وتنشر الأمن وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتنمى الثروة ، وتزيد فى الرخاء ، وتدعم الأوضاع ، فلا تتعرض للخلخلة أو اضطراب ، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل والإنتاج ، وخدمة البلاد دون أن يقف فى طريقه ما يعطل نشاطه ، أو يعوقه عن النهوض وإنما يتحقق العدل بإيصال كل حق إلى مستحقه ، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، ويتجنب الهوى بالقسمة بين الناس بالسوية ، وما كانت مهمة رسل الله إلا القيام بهذا الأمر وإنفاذه ، وما كانت وظيفة أتباع الرسل إلا السير على هذا النهج كى تبقى النبوة تمد الناس بظلها الظليل . ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٥) .

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل .

(٣) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٤٣١) .

(٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

## القضاء في الإسلام :

ومن أهم الوسائل التي يتحقق بها القسط وتحفظ الحقوق وتسان الدماء والأعراض والأموال : إقامة النظام القضائي الذي فرضه الإسلام ، وجعله جزءاً من تعاليمه وركيزة من ركائزه التي لا بد منها ولا غنى عنها ، وكان أول من تولى هذه الوظيفة في الإسلام الرسول ﷺ ، فقد جاء في المعاهدة التي تمت بعد الهجرة بين المسلمين واليهود وغيرهم : « إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » .

وقد أمره الله عز وجل أن يحكم بما أنزل فقال : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ \* واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴿ (١) .

وتولى قضاء مكة على عهد رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد ، كما تولى على بن أبي طالب كرم الله وجهه قضاء اليمن .

روى أهل السنن وغيرهم أن علياً لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً قال : يا رسول الله بعثني بينهم وأنا شاب لا أدري ما القضاء فضرب رسول الله ﷺ في صدري وقال : ( اللهم اهده وثبت لسانه ) (٢) . قال علي : فوالذي فلق الحبة ما شككت في قضاء بين اثنين .

وعن علي كرم الله وجهه أن الرسول ﷺ قال : ( يا علي إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء ) (٣) .

## فيم يكون القضاء :

والقضاء يكون في جميع الحقوق سواء أكانت حقوقاً لله أم حقوقاً للأدمنين وقد أفاد ابن خلدون أن منصب القضاء استقر آخر الأمر على أن يجمع مع الفصل بين الخصوم « استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر في أحوال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنة وفي وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيتام عند فقد أوليائهم على رأى من يراه والنظر في مصالح الطرقات والأبنية وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته » .

## منزلة القضاء :

والقضاء فرض كفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم ويجب على الحاكم أن ينصب للناس قاضياً ومن أبى أجبره عليه .

(١) الأيتان ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة النساء .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (١) . والإمام أحمد في (١ : ١١١) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأقضية (٦) .

وإذا كان الإنسان في جهة لا يصلح للقضاء غيره تعين عليه ووجب عليه الدخول فيه ، وقد رغب الإسلام في الحكم بين الناس بالحق وجعله من الغبطة .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس »<sup>(١)</sup> .

ووعده القاضي العادل بالجنة :

فعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوروه فله الجنة ، ومن غلب جوروه عدله فله النار )<sup>(٢)</sup> . وعن عبد الله بن أبي أوفى أن النبي ﷺ قال : ( إن الله مع القاضي ما لم يجر فإذا جار تحلى الله عنه ولزمه الشيطان ) .

أما ما جاء من الأحاديث في التحذير من الدخول في القضاء مثل ما رواه سعيد المقبرى أن الرسول ﷺ قال : ( من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين )<sup>(٣)</sup> ، فإنها ترجع إلى الأشخاص الذين لا علم لهم بالحق ، ولا قدرة لهم على الصدع به ، ولا يتمكنون من ضبط أنفسهم ، ولا كبح جماحها ومنعها من الميل إلى الهوى .

والذى يرشد إلى هذا حديث أبي ذر - رضى الله عنه - قال قلت يا رسول الله : ( ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبيه ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها )<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي موسى الأشعرى قال : دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يا رسول الله أمرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل . وقال الآخر . مثل ذلك ، فقال : ( لا أنا والله لا نولى هذا العمل أحداً يسأله أو أحداً يحرص عليه )<sup>(٥)</sup> .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده )<sup>(٦)</sup> .

والخوف من العجز عن القيام بالقضاء على الوجه الأكمل هو السبب في امتناع بعض الأئمة عن الدخول في القضاء .

(١) أخرجه البخارى في الأحكام (٣) وفي العلم (١٥) وفي الزكاة (٥) وفي الاعتصام (١٣) . ومسلم في المسافرين (٢٦٨) . وابن ماجه في الزهد

(٢٢) . والإمام أحمد في (١ : ٣٨٥ ، ٤٣٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية (٢) .

(٣) أخرجه الترمذى في الأحكام (١) . وأبو داود في الأقضية (١) . وابن ماجه في الأحكام (١) والإمام أحمد في (٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦) . والإمام أحمد في (٥ : ١٧٣ ، ٢٦٧) .

(٥) أخرجه البخارى في الأحكام (٧) . ومسلم في الإمارة (١٤) . والإمام أحمد في (٥ : ١٧٣) .

(٦) أخرجه أبو داود في الأقضية (٣) . والترمذى في الأحكام (١) . وابن ماجه في الأحكام (١) . والإمام أحمد في (٣ : ١١٨ ، ٢٢٠) .

ومن طريف ما يروى في هذا : أن حياة بن شريح دعى إلى أن يتولى قضاء مصر فلما عرضه عليه الأمير امتنع فدعا له بالسيف فلما رأى ذلك أخرج مفتاحاً كان معه وقال : هذا مفتاح بيتي ولقد اشتقت إلى لقاء ربى فلما رأى الأمير عزمته تركه .

من يصلح للقضاء :

ولا يقضى بين الناس إلا من كان عالماً بالكتاب والسنة ، فقيهاً في دين الله ، قادراً على التفرقة بين الصواب والخطأ ، بريئاً من الجور ، بعيداً عن هوى .

وقد اشترط الفقهاء في القاضى أن يبلغ درجة الاجتهاد ، فيكون عالماً بآيات الأحكام وأحاديثها ، عالماً بأقوال السلف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، عالماً باللغة ، وعالماً بالقياس ، وأن يكون مكلفاً ، ذكراً ، عدلاً ، سمياً بصيراً ، ناطقاً .

وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان ، ويجب تولية الأمثل فالأمثل ، فلا يصح قضاء المقلد ولا الكافر ولا الصغير ولا المجنون ولا الفاسق ولا المرأة ، لحديث أبى بكره قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : ( لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ) (١) .

وقد اشترط الفقهاء أيضاً مع هذه الشروط تولية الحاكم للقاضى ، فإنها شرط في صحة قضائه ، وهذا بخلاف المتداعيين إذا ارتضيا حكماً يقضى بينهما من ليس له ولاية القضاء ، فقد أجازاه مالك وأحمد .

وقد ذكر الله لنا المثل الأعلى في القضاء فقال جل شأنه : ﴿ يادادود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٢) .

وإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى داود عليه السلام فهو في الواقع موجه إلى ولاية الأمور ، لأن الله لم يذكر ذلك إلا ليعين لنا المثل الأعلى في الحكم وأن داود - وهو نبي معصوم - يخاطبه الله بقوله : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، فإذا كان النبي وهو معصوم يخشى عليه من اتباع الهوى فأولى بأن يخشى على غيره من غير المعصومين .

وعن أبى بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ( القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار : فأما الذى في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ) (٣) .

ومع الكتاب والسنة كان بعض القضاة يرجع في قضائه إلى أقوال الأئمة واختيار الرأى القوى الذى يتفق مع الحق .

(١) أخرجه البخارى في المغازى (٨٢) وفي الفتن (١٨) . والترمذى في الفتن (٧٥) . والنسائى في القضاة (٨) .

(٢) الآية ٢٦ من سورة ص .

(٣) أخرجه أبوداود في الأقضية (٢) . وابن ماجه في الأحكام (٣) .

## ( أحكام تتعلق بالقضاء )

ذكر محمد بن يوسف الكندي أن إبراهيم بن الجراح تولى القضاء في سنة ٢٠٤ هـ ، وقد قال عمر بن خالد : ما صحبت أحداً من القضاة كإبراهيم بن الجراح ؛ كنت إذا عملت له المحضر وقرأته عليه أقام عنده ما شاء الله أن يقيم ويرى فيه رأيه ، فإذا أراد أن يقضى به دفعه إلى لأنشىء منه سجلاً فأجد في ظهره : قال أبو حنيفة كذا ، وفي سطر قال ابن أبي ليلى كذا ، وفي سطر آخر قال أبو يوسف ، وقال مالك كذا ، ثم أجد على سطر منها علامة كالخط فأعلم أن اختياره وقع على ذلك القول ، فأنشع السجل عليه .

وقد رأى بعض العلماء إلزام القضاة بالقضاء بمذهب معين منعاً للاضطراب ولبلبلة الأفكار . قال الدهلوى : إن بعض القضاة لما جاروا في أحكامهم صار أولياء الأمور يلزمون القضاة بأن يحكموا بمذهب معين لا يعدونه ولم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة ويكون شيئاً قد قيل من قبل .

قضاء من ليس بأهل للقضاء :

قال العلماء : كل من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فهو آثم ولا ينفذ حكمه ، وسواء وافق الحق أم لا ، لأن إصابة الحق اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعى ، فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا ، وأحكامه مردودة كلها ، ولا يعذر في شيء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ هذا أسلوب من أساليب المدح في لغتنا الجميلة ، أى نعمة ما يأمركم به الله ويرشدكم إليه ، فكل أمر الله خير لكم وكل إرشاد منه فيه سعدكم : ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُذًى فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى ﴾ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى <sup>(١)</sup> . فما بالك إذا كان هذا الأمر الناهى هو السميع البصير ؟ قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ، يسمع دبيب أرجل النحلة السمراء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

يا من يرى مد البعوض جناحه      فى ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها فى نحرها      والمخ فى تلك العظام النحل  
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها      فى قاع بحر زاهر متجندل

ومن أصدق من الله قيلاً ومن أصدق من الله حديثاً ومن أحسن من الله حكماً ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً <sup>(٢)</sup> .

(١) الآيات من ١٢٣ : ١٢٦ من سورة طه .

(٢) الآيات : ٢٦ - ٢٨ من سورة النساء .



قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ ، هذه الآية الكريمة مبينة لأصول الدين في الحكومة الإسلامية :

- ١ - الأصل الأول : القرآن الكريم والعمل به ، هو طاعة الله تعالى .
- ٢ - الأصل الثاني : سنة رسوله ﷺ والعمل به ، طاعة الرسول ﷺ .
- ٣ - الأصل الثالث : إجماع أولى الأمر ، وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء في الجيش والمصالح العامة ، كالتجار والصناع والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها ، وطاعتهم حينئذ هي طاعة أولى الأمر .
- ٤ - الأصل الرابع : عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة في الكتاب والسنة ، وذلك قوله : ﴿ فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ﴾ .

فهذه الأصول الأربعة هي مصادر الشريعة ، ولا بد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة فمن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن ، ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه .

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين : الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن «الهيئة التشريعية» ، والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين ، وهم الذين يسمون «الهيئة التنفيذية» . وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سرّاً وجهراً ، وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله ﷺ بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها . ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أى ردوا الشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحفظ الدنيا .

وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمناً حقاً .

﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ أى ذلك الرد للشئ المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثم لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق النزاع ، وسد ذرائع الفتنة . قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : ( بم تقض ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبرأى )<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه أبو داود فى الأفضية رقم (١١) . وأخرجه الترمذى فى الأحكام رقم (٣) . وأخرجه الدارمى فى المقدمة رقم (٢٠) . وأخرجه الإمام أحمد فى (٥) - رقم ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

## من مواقف المنافقين

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ  
يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾  
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾  
فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعِدُنَا إِنْ كُنَّا  
إِحْسَنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ  
لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

المفردات : الزعم في أصل اللغة : القول حقا كان أو باطلاً ، ثم كثر استعماله في الكذب . قال  
الراغب : الزعم حكاية قول يكون فطنة للكذب ، وقد جاء في القرآن في كل موضع ذم القائلين به كقوله :  
﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل يربى لتبعثن ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا  
يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾ (٢) ، والطاغوت : معناه طغيان كثير . ضلالا بعيدا : أى بعيدا  
صاحبه عن الحق ، إذ هو لا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه . صدوداً : أى إعراضاً متعمداً عن قبول  
حكمك . إحسانا : أى في المعاملة بين الخصوم . وتوفيقاً : أى بينهم وبين خصومهم بالصلح . فأعرض  
عنهم : أى اصرف وجهك عنهم . وعظهم : أى ذكرهم بالخير على الوجه الذى ترق له قلوبهم . قولاً  
بليغاً : أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

لما أوجب الله تعالى التحاكم إلى كتابه وسنة رسوله في قوله جل شأنه : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه  
إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (٣) .

لما كان ذلك كذلك ألقى الله تعالى باللائمة على قوم زعموا زوراً وبهتاناً أنهم آمنوا بالله ورسوله وآمنوا بما  
أنزل على الأنبياء من قبله ، لكن سلوكهم كان يناقض ما يزعمونه ، فقد روى : ( أن عمر رضى الله عنه كان  
يمر ذات يوم فوجد رجلين أحدهما يهودى والآخر يزعم أنه مسلم وكان بينهما خصومة ، فقال لليهودى :

(١) الآية ٧ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

رضيت بمحمد حكماً . وقال الذي يزعم الإسلام : رضيت بكعب بن الأشرف - وهو يهودى - حكماً . فلما ذهب إلى رسول الله ﷺ لم يرض المنافق بحكم رسول الله ، فلما سمع عمر هذا القول سأل الذي يزعم الإسلام ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت - كعب بن الأشرف - قال لهما : انتظر حتى أفضى بينكما ، وعاد ومعه سيفه ، ثم سمع منهما مرة أخرى ، ثم سأل المنافق : هل رددت حكم رسول الله ولم ترض به ؟ فلما أقر المنافق بأنه رده ولم يرض به ضرب عمر عنقه . وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ . فنزلت الآيات على الصادق المعصوم تبين وقائع هذا الحادث ، وفي هذا دليل على أن مجرد الإرادة في التحاكم إلى الطاغوت تعتبر زعماً كاذباً ينافى ما ورد في قوله جل شأنه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ (١) هل هناك عاقل يملك فكراً سليماً يرفض حكم الله ورسوله ؟ .

إن الله تعالى يقرر حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض ، وألستهم أحلى من العسل ، فيقول في شأنهم : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون \* وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين \* أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿ (٢) .

فما موقف المؤمنين الصادقين من هذا ؟ . . ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ \* ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقّه فأولئك هم الفائزون ﴿ (٣) .

هؤلاء المؤمنون هم الذين صدق فيهم قول الله تعالى ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ (٤) وقول رسوله ﷺ : ( ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ) (٥) .

أمّا مَرْضَى القلوب من المنافقين فإنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، والطاغوت هو كل من زاد طغيانه وتجاوز حدود الحق ، ولم يرض بالله حكماً ، ولا برسوله تشريعاً ، وقد أمرنا جميعاً أن نكفر به . إنهم يريدون التحاكم إليه ويريد الشيطان في نفس الوقت أن يضلهم ضلالاً بعيداً ، ومع ذلك فإن الله تعالى يدعوهم إليه ويرشدهم إلى الحق وهم مصرون على باطلهم ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ ، إنهم لا يكتفون بضلالهم ، إنما يصدون ويمنعون غيرهم عن حكم الله ورسوله ، فكيف حال هؤلاء إذا أصابتهم مصيبة بسبب ما قدمته أيديهم من العصيان والمخالفة ، فقتل منهم ذلك الذي أراد أن يتحاكم إلى كعب بن الأشرف ، إنهم عند نزول المصائب سيأتونك

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .

(٢) الآيات ٤٧ - ٥٠ من سورة النور .

(٣) الأيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة النور .

(٤) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب .

(٥) أخرجه البخارى في الإيمان رقم (١٨) .

يخلفون الأيمان الكاذبة ، ويقولون إنهم ما أرادوا إلا إحسانا وتوفيقا ، وأى إحسان وأى توفيق فى الإعراض عن حكم الله ورسوله ، والذهاب إلى غيره من الطواغيت ، يقولون له رضينا بك حكما ، هل غفل هؤلاء أن الله يعلم ما فى قلوبهم ؟ .

فما موقفك أنت يا محمد ؟ أعرض عنهم ، فإنهم حيات وعقارب تلدغ وهى ناعمة الملمس ، والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة فى الضراء ؛ ومع إعراضك عن الأعيبيهم عظمهم لتقطع المعاذير عليهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولاً يبلغ قرار قلوبهم ﴿ لثلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (١) .

وللمنافقين فى القرآن مشاهد يندى لها جبين الحياء خجلاً : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً ﴿ (٢) ثم يأتى الحكم عليهم فى قوله جل شأنه : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ (٣) ثم يأتى نور الأمل فى رحمة الله لمن تاب وأتاب ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحو واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ (٤) .

### طاعة الرسول

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٤٣﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿١٤٤﴾

المفردات : إذن الله : إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق أذانكم ، كقوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . استغفروا الله : أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا . واستغفر لهم الرسول : أى دعا الله أن يغفر لهم . يحكموك حكماً ويفوضون الأمر إليك . وشجر : اختلف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض . حرجاً : ضيقاً . قضيت : حكمت . التسليم : الانقياد والإذعان .

(١) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٢) الأيتان ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٤٥ من سورة النساء .

(٤) الآية ١٤٦ من سورة النساء .

ينحبر الله سبحانه وتعالى بأنه ما أرسل رسولاً إلا وجبت طاعته على من أرسله إليهم ، فإذا ما كان ذلك كذلك فقد حرم عليهم أن يخالفوه لأنه مبلغ عن الله تعالى ، فطاعته من طاعة الله ، وذلك كله بإذن الله وقدرته ومشيتته وتوقيفه ، وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التي تحدثت عن مواقف المنافقين ، وكيف لم يرضوا برسول الله حكماً ، وهو الذي ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما كان ينبغي هؤلاء المنافقين أن يخالفوا لرسول الله أمراً ، أو يعصوا له حكماً ، لأن الله تعالى أوجب طاعته على قومه ، ومع ذلك فإنه سبحانه لا يقنط أحداً من رحمته ، فلو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب والمخالفات جاءوك يا محمد فطلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم ، فإن رحمة الله لن تضيق بهم ، لأنه التواب الرحيم ، عظيم التوبة واسع الرحمة من شأنه المغفرة .

أنت الذى تهب الكثير وتقول هل من تائب مستغفر  
وتجير القلب الكبير وتغفر الذلات أو سائل أقضى له الحاجات

وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ ، وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربى . ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيهن القاع والأكم  
نفسى الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي ، فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في منامي فقال : ( يا عتبي ، ألحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له ) .

قوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ . روى الإمام البخارى بإسناده عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً في شجار الحرة فقال النبي ﷺ : ( اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك ) فقال الأنصارى : يا رسول الله إن كان ابن عمك ؟ فتلون وجه رسول الله ﷺ ثم قال : ( اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك )<sup>(١)</sup> ، فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى وكان أشار عليهما ﷺ بأمرهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت في ذلك : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية .

(١) أخرجه البخارى في المساقاة (٦ - ٨) وفي الصلح (١٢) وفي تفسير سورة (٤) رقم (١٢) . وأخرجه أبو داود في الأفضية (٣١) . والترمذى في تفسير سورة (٤) رقم (١٣) . والنسائى في القضاة (١٩ ، ٢٧) . وابن ماجه في المقدمة (٢) وفي الرهون (٢٠) . والإمام أحمد في (١) رقم (١٦٥) وفي (٤) رقم (٥) .

وهذه الآية الكريمة يقسم فيها سبحانه بذاته - وهو رب كل شيء ومليكه - على أن إيمان هؤلاء موقوف على ثلاثة أشياء :

- ١ - أن يحكموك فيما شجر بينهم من خصومة ونزاع .
- ٢ - ألا يكون في أنفسهم ضيق ولا حرج من قضائك .
- ٣ - أن يُسلموا ويفوضوا ويذعنوا من غير أن يكون في النفوس أدنى اعتراض . قال ﷺ : ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ) .

وفي هذه الآية دليل على عصمة النبي ﷺ ، وأنه لا يقضى إلا بالحق ، ولا ينطق عن الهوى . كما أن فيها دليلاً على أن دلائل الإيمان الحق في الرضا بحكمه ، وسلامة الصدور من الضيق ، والتسليم الكامل الذي لا يشوبه اعتراض أو ضجر .

### إمتحان ونتائج

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِيَنَّهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾

المفردات : كتبنا : أى فرضنا ، ما يوعظون به : أى من الأوامر والنواهي المقررة بذكر حكمها وأحكامها ، والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صد عنها ، والتثبيت : التقوية وجعل الشيء ثابتاً راسخاً .

الإيمان الحق طاعة وتسليم وإذعان ، فإذا ما أمر الله أو نهى فالؤمن يمتثل الأمر ويحجب النهي أياً كان المأمور به والمنهى عنه ، وقد أخبر الله جل شأنه في هذه الآيات أن هناك نوعاً من البشر لم تسلم قلوبهم ولم تتمكن بشاشة الإيمان من شغاف أفئدتهم ، يدل على ذلك أن الله لو أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو يهاجر أحدهم من داره إلى بلد آخر ما فعل ذلك إلا القليل منهم ، فإنهم يحرصون على الحياة والإقامة في دورهم ، ولو علموا جزاء الامتثال لأمر الله ، وفعلوا ما يعظهم الله به لكان ذلك خيراً لهم وأعظم تمكيناً ، وكان لهم عند الله الأجر العظيم ، والمثوبة الكبرى ، وحسبهم أن الله تبارك وتعالى سينعم عليهم بنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم ، والهداية توفيق وإرشاد وتوجيه قويم وسداد وفضل من الله وإنعام ورفعة منه وإكرام ، قال تعالى : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ (١) .

## طاعة الله والرسول

وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٧٠﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧١﴾

المفردات : الصديق : من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق في قوله واعتقاده كما قال : ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ﴾ (١) ، والشهيد : هو الذي يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسنان ، والصالح : من صلحت نفسه وصلاح عمله ، وغلبت حسناته سيئاته .

قالت عائشة رضي الله عنها : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إلى من نفسي وأحب إلى من أهلي وأحب إلى من ولدي ، وإنى لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ يقول : ( ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة ) ، وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعتة يقول : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ فعلمت أنه خير .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع قوله : ﴿ ومن يطع الله والرسول ﴾ الآية قال : إن أصحاب النبي ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبي ﷺ له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ، فأنزله الله . في ذلك يعني هذه الآية فقال - يعني رسول الله ﷺ - ( إن الأعلى ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون في رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويشنون عليه ويتزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فهم في روضة يجبرون ويتنعمون فيه ) .

ما أعظم نعمة الله على الذين يطيعون الله ورسوله ، وطاعة الله ورسوله تتمثل في اتباع الكتاب والسنة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف

(١) الآية ٥٦ من سورة مريم .

ونها عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿١﴾ . وما من أمة تسير على نهج الله ورسوله إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ﴿٢﴾ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴿٣﴾ .

وما من أمة تنحرف عن هذا المنهج الكريم إلا كان الذل رائدها ، والانحطاط سبيلها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . قال تعالى : ﴿٤﴾ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿٥﴾ .

فما جزاء الذين يطيعون الله في الدنيا والآخرة ؟ إنهم مع النبيين في جوار الله في الجنة ومع الصديقين والشهداء والصالحين ، ونعم الجوار جوارهم ، ونعم الرفيق هذا ، ونعم الفضل ذلك ، لأنه من الله العليم الذي علم ما في الصدور ، وما في النفوس ، بل إنه يعلم السر وأخفى من السر .

في حديث قدسى صحيح يقول الله تعالى : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولسانه الذى يتكلم به ، وقلبه الذى يعى به ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استنصرنى لأنصرنه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) ﴿٦﴾ .

فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة .

### توجيه وبيان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَعِيضًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَن لَّيْبِطُنَّ فَإِنْ أَخْبَرَكُمْ مَعْصِيَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَكِنْ أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِيتُنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .

(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣٨) .



**المفردات :** جذركم ، الحِذْر والحَذَر : الاحتراس والاستعداد لانتقاء شر العدو . النُفْر : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء ، كالنزوع عن الشيء وإلى الشيء . ومن الأول : ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾ <sup>(١)</sup> ، ومن الثاني النفور إلى الحرب . والثبات : واحداً : ثبة وهي الجماعة المنفردة . والتبطؤ : يطلق على الإبطاء وعلى الحمل على البطء . والتأخر عن الانبعاث في السير ، مصيبة : كقتل وهزيمة ، شهيدا : أى حاضرا معهم . فضل : كفتح وغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا جذركم ﴾ هذا بيان وإرشاد وتوجيه من الله تبارك اسمه إلى الأمة الإسلامية في الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، وقد جاء ذلك بعد بيان الأحكام التي تتعلق ببناء المجتمع ، ببناء الفرد والأسرة ، وفي ذلك ، لتكون الأحكام شاملة كاملة ، والتوجيهات شافية كافية ، فالله سبحانه يبين لنا من الأحكام ما فيه سعادتنا وفوزنا ، فبعد حماية الجبهة الداخلية باتباع الأحكام التي تبني المجتمع السليم ، يأمر سبحانه وتعالى بحماية الجبهة الداخلية من الأعداء ، وذلك بأخذ المسلمين جذرهم واحتراسهم ، وذلك بإعداد القوة ، وتوحيد الصف ، وتوضيح الهدف ، قال تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ويكون ذلك أيضاً ببذل المال في سبيل الله ، وإعداد المقاتلين ، فمن جهز غازيا في سبيل الله فقد غزى ، قال سبحانه : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم \* تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

والإسلام في سياسته الخارجية يدعو إلى السلام إلا إذا اعتدى على أرض الإسلام معتد ، أو وطأت أقدام العدو أرض المسلمين ، هنا يجب التغيير العام ، يقول تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ <sup>(٥)</sup> فإذا تباطأ المسلمون ألقى عليهم ربهم ذلك التحذير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل \* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وما غزى قوم في عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة ، وأمة الإسلام أمة دعوة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن

(١) الآية ٤١ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .

(٤) الأيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .

(٥) الآية ٤١ من سورة التوبة .

(٦) الأيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .

ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فإذا وقف لهذه الدعوة بالمرصاد جبار عنيد ، أو شيطان مريد ، أو أفاق أثيم ، وقاتل في سبيل الصد والإضلال ، ومنع الناس عن الدخول في هذا الدين ، وجب التصدي له ، ذلك لأن الإسلام ما استعمل السيف إلا للقضاء على السيف . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾<sup>(١)</sup> .

قالوا غزوت ورسل الله ما بُعثوا	بقتل نفسى ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالسيف ينحسم

وقال آخر :

ووضع الندى في موضع السيف بالفتى      مضر كوضع السيف في موضع الندى

وقال شوقي في همزته :

الحرب في حق لديك شريعة      ومن السموم الناقعات دواء  
وإذا غضبت فإنما هي غصبة      للحق لا ضغن ولا شحنةاء

وقد بين الله للمسلمين أن يأخذوا بأساليب القتال حتى لا يتمكن منهم عدو ، فيقول : ﴿ فأنفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ وذلك حسب ما يملية عليكم واقع الميدان .

يقول الشيخ المراغى في تفسيره لهذه الآيات : ﴿ يأياها الذين آمنوا خذوا جذركم ﴾ أى احترسوا واستعدوا لاثناء شر العدو بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداداته وقوته ، وإذا كان لكم أعداء كثير فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل في ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده وأسلحته واستعمالها ، وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال ، وعلى الجملة اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيها ، من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات ، إلى نحو ذلك ، حتى لا يهاجمكم على غرة ، أو يهددكم في دياركم ، وحتى لا يعارضكم في إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبي ﷺ والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار ، « قلم المخابرات » ولما أخبروه بنقض قریش للعهد « إخلالهم بشروط المعاهدة في صلح الحديبية » استعد لفتح مكة ، ولم ينجح أبو سفيان في تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد في حرب اليمامة : حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف ، والرمح بالرمح . وما رواه الحاكم عن عائشة : « لا يغني حذر من قدر »<sup>(١)</sup> لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل في القدر ، فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء ، لا لندفع القدر ونبطله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتى فيه الأسباب على قدر المسببات ، والحذر من جملة الأسباب ، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

﴿ فأنفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾ ، أى فأنفروا جماعة في إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا — إذا كان الجيش كبيراً ، أو موقع العدو يستدعى ذلك ، أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك بحسب قوة العدو .

والخلاصة : إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو .

وامثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد ، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه في هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله في كل زمان بما يناسبه . ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها ، لا أن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعدوا عليه ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيتها في ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها ، واجتاحتها من أطرافها ، واجتثت كثيرا من كورها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد في هذا الأمر فجاء مثل هذا في قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ، وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ أى ليطأطن ويتأخر عن الجهاد والخطاب لجماعة المؤمنين بحسب الظاهر ، ومنهم المنافقون وضعفة الإيمان والجبناء ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ، ولا أن يدافعوا عنه ، ويحموا بيضته ، فهم يبطئون عن القتال ، ويبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خوفاً من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو .

وهو شاكى السلاح . ثم فصل أحوال هؤلاء الضعفاء فقال : ﴿ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا ﴾ ، أى قال ذلك المبطئ فرحاً بما فعل ، حامداً رأيته ، شاكراربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة إن الله قد أنعم على بالقعود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبني مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

(١) وأخرجه الإمام أحمد في (٥) رقم (٢٣٤) .

﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ ، أى ولئن منَّ الله عليكم بالظفر ، وفتح البلاد فغنمتم ، وأخذتم السبايا والأسرى ، ليقولن قول من ليس منكم ، ومن لم تجمعوه مودة بكم - ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا - فهو قد نسى ما يجب عليه من مد يد المعونة إليكم ، وبذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليتم ذلك الظفر ، ولكن ضعف إيمانه أو جنبه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل ، وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة .

وفى قوله : ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ تقريع وتوبيخ بالظف بالقول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغى أن يمنح مثل هذا التمنى ، وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ، ولا ما يصيبهم من جهد وبلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرح بأن المؤمنين إخوة ، والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد كالبنيان يشد بعضه بعضا . ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر فى نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكير فى حقيقة حاله ، ومعاتبة نفسه ، والتوبة إلى ربه ، والرجوع إلى أوامر دينه .

### الترغيب فى الجهاد

\* فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقَاتِلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

المفردات : سبيل الله : هى تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ، ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا ، أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس .

ويشرون : أى يبيعون كما جاء فى قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ ولبس ما شروا به أنفسهم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ <sup>(٣)</sup> . الطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة الحق والعدل والخير إلى الباطل والشر . والكيد : السعى فى الفساد على وجه الحيلة .

بعد أن بين الله تعالى حال المعوقين والمبطين والمبطين عن القتال فى سبيله جل جلاله ، أمر سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين الذين يبيعون الحياة الدنيا وما فيها من عرض ومال وولد فى سبيل أن ينالوا ما عند الله فى الآخرة من نعيم مقيم ، فقال سبحانه : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ ويشترى بمعنى يبيع من باب قوله جل شأنه ﴿ ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ وقوله تبارك اسمه : ﴿ بش ما شروا به أنفسهم ﴾ ، فالذين يشرون ويبيعون الدنيا الفانية الزائلة فى سبيل الآخرة الباقية يقول فيهم جل وعز : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ \* يشترهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم \* خالدون فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وبين الله تعالى عاقبة المجاهدين بعد ذلك فقال : ﴿ ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ ، وإنما قال فيقتل ولم يقل أو يغلب ، لأن المقاتل فى سبيل الله فائز دائماً ، فإذا قتل فإنه ينال الشهادة ، وعندئذ لا يقال عنه قد غلب ، لأن الشهادة فوز ورفعته إلى أعلى الدرجات ، ألا ترى أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، وأنه يرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعة من أهل بيته ويزود باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا والآخرة .

ثم يأتى هذا الاستفهام العجيب الذى فيه حث وحض وتحريض على القتال فى سبيل الله ، فيقول سبحانه : ﴿ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله ﴾ أى لإعلاء كلمته والارتفاع بشأن دينه ، فتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا غرض من أشرف الأغراض وأنبهها ، كذلك من دوافع القتال حماية المستضعفين الذين بسط الجبابرة سطوتهم عليهم لتخرجوهم مما هم فيه من ذل وهوان ، إذ العزة لله ورسوله والمؤمنين .

ثم يبين سبحانه من هم المستضعفون ، فيقول : ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ - الذين - لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون . سبيلاً ويبين فى هذا المقام أن هؤلاء يلهجون بأكف الضراعة يسألونه سبحانه قائلين : ﴿ ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ إن الظالم مهما طال فجره ، وامتد ليله ، لا بد له من نهاية ، فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام

(١) الآية ٢٠ من سورة يوسف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة التوبة .

لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، وويل للظالم من يوم ما أطوله ، وخطب ما أهوله ، وجبار ما أعدله ، وويل له من يوم يقول الله فيه للمظلوم أيها المظلوم : تقدم ، ويقول للظالم : أيها الظالم لا تتكلم .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعو عليك وعين الله لم تنم

يقول سبحانه في الحديث القدسي الجليل : «اشتد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيري ، واشتد غضبي على من وجد مظلوما فقد أن ينصره فلم ينصره»<sup>(١)</sup> وصلى الله وسلم على الصادق المعصوم إذ يقول : ( من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام )<sup>(٢)</sup> وإذ يقول : (إن الله لا يعجل كمجلة أحدكم) ، (ان الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)<sup>(٣)</sup> . أقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٤)</sup> فيا أخا الإسلام :

احذر من المظلوم سهماً صائدا      واعلم بأن دعاءه لا يحجب  
وإذا رُميت من الزمان بشدة      وأصابك الأمر الأشق الأصب  
فاضرع لربك إنه أدنى لمن      يدعوه من حبل الوريد وأقرب

وهذا غرض نبيل من أغراض مشروعية القتال في الإسلام ، ليخرج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

ثم بين سبحانه أن الناس فريقان هما : حزب الرحمن ، وحزب الشيطان . فيقول جل جلاله : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ . والشهيد هو من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لمغنم ولا لعرض ، ولا ليقال إنه شجاع ، والذين يقاتلون في سبيل الطاغوت هم حزب الشيطان ، والطاغوت هو كل من تجاوز حدود الخير والحق والصدق ، والأصل فيه أنه طاغ ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة في الطغيان ، وتجاوز الحد .

فيا حزب الله ويا جماعة الإسلام قاتلوا أولياء الشيطان وأعوانه ونصرائه وقرنائه ولا تهولنكم كثرة عددهم وعددهم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، واعلموا ان حيل الشيطان ومكائده ومصائده ، وشراكه وشباكه ، كلها أوهام وخيال وأحلام ، أما القوة الحقيقية فكامنة في الاعتماد على الله

(١) رواه الطبراني في الصغير والأوسط . (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٤٧) .

(٢) رواه الطبراني في الكبير ، وهو حديث غريب (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير سورة (١١) رقم (٣) . وأخرجه مسلم في البر (٥) . والترمذي في التفسير سورة (١١) رقم (٢) . وابن ماجه في الفتن (٢٢) .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (١) . إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ، ﴿ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

سیدی أبا القاسم یا رسول الله :

أنت الذی قاد الجیوش محطاً عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموت بالبشر الذین تعلموا سنن الشریعة فارتقوا سعداً

### فلا نامت أعین الجبناء

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ كفوا أيديكم ﴾ : أي عن القتال . ﴿ كتب عليهم ﴾ : أي أمروا به . ﴿ يخشون الناس ﴾ : أي يخافون أن يقتلهم المشركون . ﴿ كخشية الله ﴾ : أي كما يخافون أن ينزل عليهم بأسه وعذابه . ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ : أي هلا تركتنا حتى نموت حتف أنوفنا بأجلنا القريب . ﴿ متاع الدنيا ﴾ : ما يستمتعون به من لذاتها . ﴿ قليل ﴾ : أي سريع الزوال . ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ : أي في أي مكان كنتم يلحقكم الموت . (البروج المشيدة) : القصور العالية المطلية بالشيد وهو الجص أو الحصون والقلاع المتينة التي تعتصم فيها حامية الجند . ﴿ حسنة ﴾ : أي شيء يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنمة . ﴿ سيئة ﴾ : هي ما تسوء صاحبها كالشدّة والبأساء والضراء والهزيمة والجروح والقتل . ﴿ يفقهون حديثاً ﴾ : يفهمون كلاماً يوعظون به .

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .

يقص الله تعالى علينا في هذه الآيات حالة قوم كانت الحرب بينهم ضرورياً قبل الإسلام وعلى أنفه الأسباب كانوا يشهرون سيوفهم وتظل الحرب بينهم سنين عدداً ، فلما جاء الإسلام وأضاء نوره أمرهم الله تعالى أن يكفوا أيديهم عن إراقة الدماء ، لأن الدماء في الإسلام غالية ، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فالصلاة كهف المؤمن وتاركها ملعون ، وجاره إن رضى به ملعون ، وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهى مفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وكلما أذن المؤذن لها قالت الملائكة : يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها ، والمقصود بها نار الذنوب ، وإنما تطفأ نار الذنوب بماء الصلاة العذب الفرات السلسيل ، وكما قال وليم وير لقد جاء محمد والعرب يشربون الخمر خمس مرات فى اليوم فلما صدر الأمر بتحريمها أراقوا كؤوسها فى الطرقات ، وأدوا الصلاة خمس مرات فى اليوم ، فإذا كانت الصلاة لتطهير النفوس ، فإن الأمر فى الزكاة لتطهير الأموال ، فكما قال النبى ﷺ : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) ، وفى الزكاة تطهير للأموال كما أن فيها تطهيراً للقلوب من الغل والحقد والحسد والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهيرهم وتزكيتهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وإن الله هو التواب الرحيم ﴿ (١) . قال ﷺ ( حصنوا أموالكم بالزكاة وداؤوا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء ) (٢) ، وقال : ( صنائع المعروف تقي مصارع السوء ، وصدقة السر تطفئ غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وما منع قوم زكاة ما لهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ) (٣) .

أمر الله هؤلاء كما أمر عباده بكف الأذى ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لكن العجب العجيب لحال هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون ويتناحرون قبل الإسلام فلما فرض الله عليهم القتال فى سبيله لإعلاء دينه ونصرة لا إله إلا الله ، إذ بفريق منهم يضعف ويحين ، وقالوا : ﴿ ربنا لم كتب علينا القتال ﴾ وفى هذه العبارة ما فيها من الاعتراض واللوم وحب الدنيا ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أى هلا تركتنا حتى نأخذ متاعنا من الدنيا ، ونموت على فراشنا ، فيرد عليهم المولى تبارك اسمه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ . فالدنيا مهملها أعطت وتزينت لأصحابها ، وأخذت زخرفها ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أنها أمر الله ليلاً أو نهاراً ، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وكم أذاقت أناساً أفاريق استحلوها ، ثم جمحت بهم طامعة ، ورحمتهم مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، ذلك لأنها إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قصور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علامات .

هى الدار ما الانفاس إلا نهائب      لديها وما الأجسام إلا عقائر  
إذا أحسنت يوماً أساءت ضحى غدٍ      فإحسانها سيف على الناس باتر

(١) الأيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة التوبة .  
(٢) رواه أبو داود فى المراسيل . ورواه الطبرانى والبيهقى مرفوعاً . والمرسل أسبه (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٦٤) .  
(٣) رواه ابن ماجه ، والبخارى ، والبيهقى من حديث ابن عمر . واللفظ لفظ البيهقى (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٧٠) .



يرحم الله أبا بكر كان يقول : « احرص على الموت توهب لك الحياة » . وكم كان حزن خالد بن الوليد وهو على فراش الموت وهو يردد هذه الكلمات : « لقد خضت مائة معركة أوزهاءها ، وليس في جسمي قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم في سبيل الله ، أموت على فراشي كالبعير وكنت أود أن أموت شهيداً فلا نامت أعين الجنباء » .

﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ . أما الدنيا فمثلها كسوق قامت ثم انفضت ، ربح فيها من ربح ، وخسر فيها من خسر .

تزود من حياتك للمعاد      وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركز إلى الدنيا كثيراً      فإن المال يجمع للنفاد  
أترضى أن تكون رفيق قوم      لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم يقول تعالى : ﴿ ولا تظلمون قليلاً ﴾ . نعم الآخرة عند ربك للمتقين ، وعدالة الله تشمل الجميع ، وتعم الأولين والآخرين ، فلا ظلم ولو بمقدار ذلك الخيط الذي في شق نواة البلح ، ويسمى قليلاً ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ (١) ، وقال جل ذكره : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ \* والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ (٣) . ولقد رد الله تعالى بأعظم رد وأقوى حجة على هؤلاء الجنباء الذين ﴿ قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٤) فمن أراد مؤسناً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته      يوماً على آلة حدباء منقول  
فلإذا حملت إلى القبور جنازة      فاعلم بأنك بعدها محمول

فاعلم أن الموت آتيك ولو سكنت البروج المشيدة في شواحق الجبال ، ولو أقمت في الحصون المنيعه في جو السماء ، مهما كنت وأينما وجدت فأنت في ملك الله ، وهذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، أو تطرف فيه طرفة عين ، أو يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام ، الوجود ملكه ، والقضاء

(١) الآية ١٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة غافر .

(٤) الآية ٨ من سورة الجمعة .

حكيمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ \* وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون \* وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون \* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسين ﴿<sup>(١)</sup> . قال جبريل للصادق المعصوم عليه السلام : (يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقة) .

واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس ، لا خير في دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عقاب . نعم ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ وميت اليوم يشيعه ميت الغد .

فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، الموت نوم أكبر ، والنوم موت أصغر ، فتجربة الموت تمر بنا كل ليلة .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة

ومما سجله القرآن على ضعفاء الإيمان ، ما حكاه الله تعالى في قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ .

هؤلاء الناس عندهم ضعف ومرض في قلوبهم ، إن كانوا في سعة من الرزق وعافية في أبدانهم نسبوا ذلك إلى الله ، فإن أصابتهم شدة من فاقة أو مرض نسبوا ذلك إلى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وتشاءموا به ، كما حدث ذلك لكليم الله موسى ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ \* فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿<sup>(٢)</sup> والطيرة هي الشاؤم ، وهي شرك بالله ، فإذا تطاير أحدكم فلا يرجع ، قال الرسل لقومهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ \* وما علينا إلا البلاغ المبين \* قالوا إنا تطيرنا بكم لكن لم تنتهوا لرجعتكم ولیمسنكم منا عذاب أليم ﴿<sup>(٣)</sup> .

وقد جاء الرد صريحا من الله جل في علاه إذ يقول : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ إذ الله خالق كل شيء ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ما لهم لا يفهمون ، وما لهم في بعد عن الإدراك ، وما

(١) الآيات ٥٩ - ٦٢ من سورة الأنعام .

(٢) الأيتان ١٣٠ ، ١٣١ من سورة الأعراف .

(٣) الآيات ١٦ - ١٨ من سورة يس .

لقلوبهم في أكنة ، وفي آذانهم وقر ، ومن بينهم وبين الهدى حجاب ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ ، أي بتوفيقه وإرشاده وفضله ﴿ وما أصابك ﴾ أيها المخاطب ﴿ من سيئة فمن نفسك ﴾ كسباً واختياراً . أما أنت أيها الرسول الكريم ، فما عليك إلا البلاغ ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وعزق وجلالى لو سلكوا إلى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد .

### طاعة الرسول من طاعة الله

مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَدُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْعَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

جاء في سبب نزل هذه الآية : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ روى مقاتل أن النبي ﷺ كان يقول : ( من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله ، فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك قد نهى أن نعبد غير الله ، ويريد أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصارى عيسى فأنزل الله هذه الآية ) .

نعم إن طاعة الرسول من طاعة الله ، لأنه مبلّغ عنه جل في علاه ، والأمر الناهي في الحقيقة هو الله ، وقد جرت سنته سبحانه وتعالى أن يوحى إلى أنبيائه ورسله بما يأمر وينهى ، قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ﴾ \* ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً \* رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿ (٣) .

(١) الآية ٧٩ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٦٦ من سورة النساء .

(٣) الآيات ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء .

وإذا كانت طاعة الرسول من طاعة الله فإن اتباعه من محبة الله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ \* قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴿ (١) ، كذلك رضاه من رضا الله قال تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ ﴿ (٢) ، كذلك الاستجابة له من الاستجابة لله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ ﴿ (٣) . وسوف يندم العصاة وهم في جهنم على عدم طاعتهم لله ورسوله : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول ﴾ ﴿ (٤) .

وقد حذر الله من مغبة مخالفة رسوله الكريم قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾ ﴿ (٥) ، ثم قال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ﴿ (٦) . فطاعة الرسول ﷺ واجبة ، وعصيانة ضلال مبین ، وليس في طاعته شيء مما ادعى المنافقون من أنها كما ذهب النصارى في المسيح ابن مريم ، فالطاعة غير العبادة : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلاهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ﴿ (٧) .

أما اليهود والنصارى فقد قال الله في شأنهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ ﴿ (٨) .

قال أهل الحق من علماء العقائد :

فالؤمن الحق لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك وهو

نوعان :

١ - أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها ، وتخاف ضررها ، وتدعوها وتذل لها . وذلك هو الشرك في الألوهية .

٢ - أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتجليل والتحريم ، كما فسر النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ ﴿ بطاعتهم فيما يجللون ويحرمون ، وذلك هو الشرك في الربوبية ، ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً ، وأعظمهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ، ولا حاكم مستعبد ، إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى ، يخضعون لأمره ، وأن ذلك منتهى سعادتهم في الدارين .

(١) الأيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٦٢ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الأنفال .

(٤) الآية ٦٦ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ٦٣ من سورة النور .

(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .

(٧) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٨) الآية ٣١ من سورة التوبة .

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ، أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكبره عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشراً ونذيراً ، ولم ترسل مسيطراً أَوْ قَبِيحاً ، تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

﴿ ويقولون طاعة ﴾ ، أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبى ﷺ بأمر : أمرك طاعة - أى أمرك مطاع إظهاراً لكمال الانقياد والخضوع ، ﴿ فإذا برزوا من عندك بيئت طائفة منهم غير الذى تقول ﴾ . البراز - بفتح الباء - الأرض الفضاء ، والتببيت وما يدبر فى الليل من رأى ونية ، وعزم على عمل ، ومنه تببيت العدو للإيقاع به ليلاً ، أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم دبر جماعة منهم ليلاً غير الذى قالوا لك . وأظهروه من الطاعة نهراً .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « هم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ : آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعاتبهم الله على ذلك » .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ ، أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات وفى هذا من التهديد شئ كثير .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تهتم بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى فوض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله يكفيك شرهم ويتنقم لك منهم ، ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه لا يعجزه منه شئ .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ . أصل التدبر التأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل فى كل تأمل سواء كان نظراً فى حقيقة الشئ وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعاقبه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر فى غاياته ومقاصده التى يرمى إليها ، وعاقبه من يعمل به ومن يخالفه . أى أجهل هؤلاء القوم حقيقة الرسالة ، وكنت هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذى يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم ، وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق فى الإخبار عما يبيتون فى أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والويل ، والنكال فى عاقبتهم .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ، أى من بشر أو ملك أو جن ، أو من أى مخلوق لا من عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً لأسباب كثيرة :

١ - أن أى مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت فى شئ منها .

٢ - أنه حكى عن الماضى الذى لم يشهده أحد منهم ولم يقف على تاريخه ، وعن الآتى فوقع كما أنبأ

به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر ، كما أخبر عما بيته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول أو ما يقوله لها ، فتقبله في حضرته وترفضه في غيبته .

٣ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك .

٤ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله في سنن الاجتماع ، ونواميس العمران ، وطبائع الملل والأقوام ، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال ، وتكرار القصة الواحدة بالعبارة البليغة ، تنوعاً للعبارة وتلويحاً للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق وبرأته من الاختلاف والتناقض .

٥ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات في الأرض أو في السموات ، فقد تكلم على الخلق والتكوين ، ووصف جميع الكائنات كالكوكب ونظامها ، والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان في كل ذلك يؤيد بعضه بعضاً ، لا تفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه .

٦ - أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة ، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان في كل ذلك جارياً على سنة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح ، مع الالتئام بين آيات كثيرة وهو غاية الغايات في ذلك ، عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجماً بحسب الوقائع والأحوال ، وكان النبي ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع في محلها من سورة كذا ، وهو يحفظه حفظاً ، وقد جرت العادة بأن من يأتي بكلام من عنده في مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له في السنين الطوال ، ولا يستحضره ، حتى يجعل الآخر موافقاً للأول ، مع أن بعض الآيات كان ينزل في أيام المحن والكروب ، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام ، إلا أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدة ، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتاً ورسوخاً ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ، ونمت أحوال العمران ، زاد إيمان الناس به ، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم ، وتنتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشئون الكون .

والخلاصة : أن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم ، وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله ، وإلى وجوب الاهتداء به ، وإلى أنه معقول في نفسه ، موافق للقطرة ، ملائم للمصلحة ، وفيه سعادة الخلق في الدنيا والآخرة ، ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به في كل زمان لما فسدت أخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكمهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة في معاشهم على سواهم . وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة في السياسة والقضاء والإدارة وتتبعهم فيها سائر الأمة .

## من قبائح المنافقين

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ  
لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

المفردات : أذاع الشيء وأذاع به : نشره وأشاعه بين الناس . ورد الشيء : أرجعه وأعادته .  
والاستنباط : استخراج ما كان مستتراً عن الأبصار . فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول . إلا قليلاً :  
أى قليلاً منكم ممن أوتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

هذا توجيه إلهي وإرشاد رباني يتعلق بأسرار الأمة في السلم والحرب والأمن والخوف ، وهذا التوجيه  
يدعو الأفراد أن لا يذيعوا ما أمر الله برده إلى الرسول ﷺ في حياته ، وإلى العلماء المتخصصين بعد وفاته ، إذ  
في إذاعته ونشره أضرار تعود على المجتمع الإسلامي ، فإذا ما رددوه إلى أهل الحل والعقد ، وإلى أهل المشورة  
والمجالس المتخصصة ، والذين عناهم القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ  
يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ وخلاف الجميل إذاعة الأسرار ، خاصة ما يتعلق منها بالشئون العسكرية والأمن ، ثم  
يختم الله تبارك اسمه بقوله : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أى لولا فضله  
عليكم ببيان الأحكام والإرشاد إلى طريق النجاة ، ولولا رحمته بكم في الشدائد والمحن ، وأنه جل في علاه  
يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، لولا ذلك لسلكتم طرق الشياطين فسلخوا بكم إلى الهاوية ، وما  
أدراك ما هي ، نار حامية ، لولا ذلك لترديتم إلى الدرك الأسفل ، وانحدرتم إلى حضيض الضبراء ، ولا  
عاصم لكم من أمر الله إلا من رحم ، وما نجا من ذلك منكم إلا القليل الذي امتلأ قلبه نوراً وهدى وضياء .

## وحرص المؤمنين

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : التحريض : الحث على الشيء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه . والبأس : القوة ، وكان بأس  
الكافرين متجهاً إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم . والتكيل : معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة ونكال لغيره بحيث  
يمنعه أن يفعل مثل فعله .

خطاب من الله تبارك اسمه لرسوله الكريم ، يحثه فيه على قتال الجاحدين المنكرين ، فكل فعل في سبيل الله وابتغاء مرضاته له عند الله مكانة عظمى ، فلا يكن في صدرك حرج مما قاله المنافقون ، عندما أمرهم الله بالقتال : ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وحرض المؤمنين على القتال ، كما أمرك الله في قوله : ﴿ يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ (١) . وأعلم أنك لست مشغولاً عن أفعال هؤلاء ، فإنك لا تكلف إلا نفسك .

وفي هذه الآية إشارة إلى شجاعة الرسول الكريم ، ومدى إقدامه في حومات الوغى وساحات القتال ، لقد وقف يوم حنين في جموع المشركين تحيط به قلة من المؤمنين ينادى بأعلى صوته : (أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب) . سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا داعياً للواحد الديان يا هازماً للبغي والطغيان  
يا رافعاً صوت العدالة عالياً ومؤذناً في الناس بالقرآن

وكما قالوا : إن القتل أنفى للقتل ، فإن الحرب أنفى للحرب ، وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ، والإسلام لا يعرف السلم الأعزل ، إنما السلم في الإسلام سلم مسلح . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾ (٢) ، وقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ ، يفيد الوعد في قوله ﴿ عسى ﴾ والله لا يخلف الوعد ، فيكون هذا أمراً حقاً ووعداً صدقاً ، والبأس : المراد به القوة التي كان الكافرون يصدون بها من آمن ، ويريدون أن يذلوا بها جماعة المسلمين ، والله أشد بأساً . وقوة . قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون \* فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ (٤) والله أشد تنكيلاً وعقوبة رادعة ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٥) .

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

(٤) الأيتان ١٥ ، ١٦ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٦٤ من سورة الأنفال .



## الشفاعة نوعان

مَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعُ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ  
مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المفردات : قال الراغب : الشفع : ضم الشيء إلى مثله ، والشفاعة : الانضمام إلى آخر ناصرا له  
وسائلا عنه ، نصيب : حظ ، كفل : نصيب ، مقبئا : أى مقتدرا أو حافظا أو شاهدا . قال الراغب :  
وحقيقته قائما عليه يحفظه ويعينه ، فهو مأخوذ من القوت ، وهو ما يمسك الرمح من الرزق ، وتحفظ به  
الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوته ، والتحية : مصدر حياة إذا قال له  
حياك الله ، وهى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحا ، وأنعم مساء ،  
وعم صباحا وعم مساء . وجعل الشارع تحية المسلمين «السلام عليكم» إشارة إلى أن الدين دين سلام  
وأمان . الحسيب : المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس وقد يراد به المكافئ والكافى من قولهم :  
حسبك كذا إذا كان يكفيك .

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بقتال أعداء الله ، وأمره بتحريض المؤمنين على القتال ووعد به برد كيد  
الخائنين ، وأخبره بأنه تعالى أشد بأسا وأشد تنكيلا ، بين بعد ذلك خطر الشفاعة ، وأنها مسئولية يتحمل  
الإنسان الشافع عاقبتها إن خيرا أو شرا ، فإذا كانت الشفاعة حسنة بأن كانت لنصرة مظلوم ، أو تقوية الحق  
بضم رأى الإنسان إلى غيره ، فللشافع نصيب من الحسنات ، لأن من دل على الخير فهو كفاعله ، ومن شفع  
لمظلوم فقد أغاثه من ظلم وقع عليه ، وإغاثة المظلوم موقف نبيل .

وقد اشتد غضب الله على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره ، كذلك اشتد غضبه تعالى على  
من ظلم من لم يجد له ناصرا إلا الله . فمن ضم رأيه إلى رأى المشفوع عنده ، انقادا للمشفوع له فى الحق ودفع  
الظلم فسوف يؤتیه الله من لدنه أجراً عظيماً ، لأن شفاعته حسنة .

أما من شفع شفاعة سيئة ، بأن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حاد الله ورسوله ، وضاد  
أحكام الله فى العدالة والله سبحانه وتعالى عند ما يقرر أن من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها فذلك لما  
يترتب على الشفاعة السيئة من ضياع الحقوق ، ووضع الأمور فى غير نصابها ، والنقاط على غير حروفها ،  
وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووضع الرجل المناسب فى المكان اللا مناسب وذلك بالشفاعة السيئة مما يشبط

همة أصحاب الهمم ، ويقوض حوافز المجتهدين ، لأن في ذلك ظلماً مبيئاً ، والظلم مرتعه وخيم . والله تعالى ينادى في حديثه القدسي الجليل فيقول : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)<sup>(١)</sup> .

وكم كان غضب رسول الله ﷺ شديداً عندما جاءه الحُب بن الحُب أسامة بن زيد يشفع لامرأة سرت وكانت من شريفات قومها . هنا يحسم الرسول ﷺ الموقف بكلمات موجزة المبني عظمة المعنى : (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة) ؟ ثم يبين الخطر المترتب على الشفاعة إذا كانت في غير حق فيقول : (إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطع محمد يدها)<sup>(٢)</sup> .

هذا منطق العدالة في الإسلام ، والعدل في الإسلام لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، ويوم يخطئ ميزان العدل فسوف يخطئ الحساب فيأتى بأوخم العواقب وكم من أناس اعتمدوا على ما لهم من محسوبة ووجهة ووساطة ، فكانوا غير أكفاء . وتبوءوا مقاعد في شواهد الجبال ، فكانوا عالة على الأمة في السراء وسواساً ينخر في نظام المجتمع ساعة الضراء . وخسرت الأمة بسببهم خسرانا مبيئاً .

فمن هنا أمر الله المؤمنين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾<sup>(٣)</sup> وأخبرهم بقوله : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾<sup>(٤)</sup> . ويقول : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾<sup>(٥)</sup> وحثهم على الخير بقوله : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٦)</sup> ووعدهم بقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾<sup>(٧)</sup> .

فلو أننا طبقنا تلك الأصول ما رأيت في البيوت عاطلاً ، ولا في الطريق سائلاً ، ولا في السجون قاتلاً ، ولمحت العدالة الشقاء من المجتمع كما يمحون نور الصبح مداد الظلام .

وقد صدق الرسول الكريم إذ يقول في الشفاعة الحسنة : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء)<sup>(٨)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شيء مقبلاً ﴾ أى مقتدراً . فهو الذى يملك الثواب والعقاب ويده

(١) أخرجه مسلم في البر (٥٥) .

(٢) أخرجه البخارى في فضائل أصحاب النبى (١٨) وفى الأنبياء (٥٤) وفى الحدود (١٢) . وأخرجه مسلم في الحدود (٨ ، ٩) . وأخرجه أبو داود فى الحدود (٤) . والترمذى فى الحدود (٦) . والنسائى فى السارق (٥ ، ٦) ، وابن ماجه فى الحدود (٦) . والدارمى فى الحدود (٥) . والإمام أحمد فى

(٣) ٣٨٦ ، ٣٩٥ . وفى (٥) ٤٠٩ . وفى (٦) ٣٢٩ .

(٣) الآية ١١٩ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٨١ من سورة يونس .

(٥) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٦) الآية ٧٧ من سورة الحج .

(٧) الآية ٩٦ من سورة الأعراف .

(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة (٢١) وفى الأدب (٣٦ ، ٣٧) وفى التوحيد (٣١) . وأخرجه مسلم فى البر (١٤٥) . وأبو داود فى الأدب (١١٧) . والترمذى فى العلم (١٤) . والنسائى فى الزكاة (٦٥) . والإمام أحمد فى (٤) ٤٠٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ .

موازن القسط يثيب على الشفاعة الحسنة ، ويعاقب على الشفاعة السيئة ، وهو سبحانه إن يثب فبمحض الفضل وإن يعاقب فبمحض العدل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وينتقل بنا النظم الكريم من أحكام الشفاعة إلى التحية في الإسلام فيقول سبحانه : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ . والتحية في الإسلام هي السلام ، والسلام ، كلمة طيبة الوقع على القلوب المؤمنة . ويكفي التحية شرفاً أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى ، كما يكفيها شرفاً أنها تحية الله إلى رسوله ومصطفاه «السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته» . ويكفيها شرفاً أنها كانت الرد الكريم من رسول الله على ربه . «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، والجنة دار السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾ (٢) . قال جل شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ (١) . وتحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾ (٣) . وتحية الله لعباده المؤمنين يوم القيامة سلام : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ (٤) . والمتقون في الجنة ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً \* إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ . وليلة القدر ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ .

ولو علم المسلمون ما في تحية الإسلام من حسنات ما عدلوا عنها إلى غيرها من تحيات الأجانب ، ولا اعتزوا بتحية الإسلام . فالله تعالى يعطى على تلك التحية ثلاثين حسنة : السلام عليكم عشر حسنات ، ورحمة الله مثل ذلك ، وبركاته مثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ أى زيدوا على من بدأ بها فتلك أحسن من التحية ، ﴿ أو ردوها ﴾ : أى قولوا مثلها قال البادئ بها فإن الرد مفروض ، والزيادة مندوب إليها ، قال سلمان الفارسي رضى الله عنه : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : (وعليك السلام ورحمة الله) ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمته ، فقال له رسول الله ﷺ : (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته) . ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : (وعليك) ، فقال له الرجل : يا نبي الله بأبي أنت وأمي أنك فلان وفلان فسلمنا عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على . فقال : (إنك لم تدع لنا شيئاً قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم) (٥) . .

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٧٥ من سورة يونس .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٣ ، ٩٤) . وأبو داود في الأدب (١٣١) . والترمذي في الاستئذان (١) . وفي القيامة (٥٦) . وأخرجه ابن ماجه في المقدمة (٩) وفي الأدب (١١) . وأخرجه الإمام أحمد في (١) ١٦٥ ، ١٦٧ . وفي (٢) ٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٥١٢ .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة المنورة واجتمع أهلها عليه قال لهم : (أيها الناس أفسحوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) (١) . .

وقد نظم الرسول ﷺ إلقاء السلام بسنته بحيث يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاقى الرجلان يبدأ الكبير في السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء في الصحيحين أنه : «يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير» (٢) وروى : «أن النبي ﷺ مر بصبيان فسلم عليهم» . وروى الترمذي : «أنه مر بنسوة فأومأ بيده بالتسليم» (٣) . وقد ورد في الصحيحين قوله ﷺ : (إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) (٤) وروى الحاكم قوله ﷺ : (أفسحوا السلام تسلموا) .

دخلت جارية للحسين بن علي رضي الله عنه . دخلت عليه ويدها باقة من الريحان فأهدتها له تحية خالصة من قلبها فأعتقها الحسين . فقال له بعض أصحابه : أتعتقها من أجل شيء من الريحان ؟ فقال : إنما أعتقتها لأنها حيتني والله تعالى يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ ولم أجد أحسن من تحيتها إلا عتقها .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾ أى يجزى كلا بعمله ويحاسب كلا حسب نيته وفعله . قال جل شأنه : ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٥) . فمن رد التحية بأحسن منها فله عند الله أجره ، ومن يفعل مثقال ذرة خيراً يره .

وبعد بيان الأحكام السابقة فيما مضى من الآيات ينتقل بنا النظم الكريم إلى حقيقة الحقائق ونور الأنوار ، إلى ضياء التوحيد والبعث قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ . نعم . . إنها الحقيقة التي رفع الأنبياء لواءها . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٦) . فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال صلوات ربى وسلامه عليه : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبل : لا إله إلا الله) .

سبحانك ربى :

ما فى الوجود سواك رب يعبد      كلا ولا مولى هناك فيُقصد  
يا من له غنت الوجوه بأسرها      رهبا وكل الكائنات توحده  
أنت الإله الواحد الحق الذى      كل القلوب له تقرر وتشهد

(١) أخرجه الترمذي في الأظعمة (٤٥) وفي القيامة (٤٢) . وأخرجه ابن ماجه في الأظعمة (١) وفي الإقامة (١٧٤) . وأخرجه الدارمي في الأظعمة (٣٩) وفي الصلاة (١٥٦) وفي الاستئذان (٤) . وأخرجه الإمام أحمد في (٢) ١٥٦ ، ١٧٠ ، ١٩٦ . وفي (٥) ٤٥١ .

(٢) أخرجه البخارى في الاستئذان (٥ ، ٦) . ومسلم في الأدب (٤٦) . وأبو داود في الاستئذان (٦) . والترمذي في الاستئذان (١٤) . والإمام مالك في السلام (١) . والإمام أحمد في (٣) ٤٤٤ . وفي (٦) ١٩ ، ٢٠ .

(٣) أخرجه الدارمي في الاستئذان (٦) .

(٤) أخرجه البخارى في الاستئذان (٩) . ومسلم في الإيمان (٦٣ ، ٦٥) . وأبو داود في الأدب (١٣١) . والنسائي في الإيمان (١١ ، ١٢) وابن ماجه في الأظعمة (١) والدارمي في الرقاق (٤) . والإمام أحمد في (٣) ٣٧٢ .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

إنك إن سألت العالم كله من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه وقلت له : من خالقك ؟ لأجابه بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . والدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر . وميت اليوم يشيعه ميت الغد ، فخذ من مفرك لمفرك ، واعلم أنه لا بد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حي وتدخل معه وأنت ميت ، فإن كان صالحا أكرمك وإن كان لثيما خذلك ، فاجعله صالحا ، فإنه عملك . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . واذكر يوم ينفض عنك أحيائك ويطول عواؤك وينادي عليك ملك الملوك فيقول : عبادي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ، ولو ظللوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحي الذي لا أموت .

الله تعالى يقسم على أن البعث حق فيقول : ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ ، وفي هذا اليوم تُوفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا :  
 إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

فاغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها	فالموت لا شك يفينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها	والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها	والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ . سبحانه اللهم لا أحد أصدق منك ، فأنت أصدق القائلين ، فلك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن . أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والنبيون حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ولك خاصمت ولك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهي ولا إله إلا أنت .

## حديث عن أهل النفاق

\* فَمَالَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنِينَ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لِنَجْدَلَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُقَتِّلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَتْلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يَقْتُلُوكُمْ وَالْقَوَاءُ إِلَيْكُمْ أَلَسَلَّمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَّمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾

المفردات : الفتنه : الجماعة ، والرکس بوزن النصر : إرجاع الشيء منكوسا على رأسه إن كان له رأس ، أو متحولا عن حال إلى أردأ منها كتحويل الطعام والعلف إلى الرجيع والروث ، والمراد به هنا تحوهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين ، والسبيل : الطريق ، والولى : النصير والمعين ، يتصلون : أى يتصلون بهم ، الميثاق : العهد ، حصرت : ضاقت ، السلم : الاستسلام والانقياد ، الفتنة : الشرك ، ثقفتموهم : وجدتموهم ، السلطان المبين : الحجة الواضحة .

جاء في سبب نزول هذه الآية :

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت في قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فاختلف المسلمون في شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

- وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون فأنزل الله : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ ﴾

فثنتين ﴿ فقال رسول الله ﷺ : (إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد) <sup>(١)</sup> .

- ذكر محمد بن إسحق بن يسار في وقعة أحد أن عبد الله بن أبي بن سلول رجع يومئذ بثلاث الجيش ، رجع بثلاثة مائة وبقي النبي ﷺ في سبعة مائة .

- وقال العوفي عن ابن عباس : نزلت في قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس . وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله أو كما قالوا : أقتلوا قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا دماءهم وأموالهم فكانوا بذلك فثنتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شيء فنزلت : ﴿ فما لكم في المنافقين فثتين ﴾ .

يخاطب الله تعالى جماعة المؤمنين بهذا الاستفهام الإنكارى فيقول : ما لكم قد انقسمتم في الحكم على هؤلاء المنافقين إلى جماعتين : جماعة ترى أنهم مسلمون ، وآخرون يرون أنهم كافرون . والله سبحانه وتعالى يحكم عليهم بأنهم كافرون فقد أركسهم بما كسبوا ، أى ردهم على رؤسهم منكوسين ، وأهلكهم بسبب ما قدمت أيديهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وخيانتهم وخداعهم وتأميرهم على المسلمين ونبي الإسلام . ومن أجرى الله عليه سنته بسبب ضلاله وعناده ، فلن يهديه أحد : ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين . قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى ﴿ <sup>(٢)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ <sup>(٣)</sup> . ﴿ ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ <sup>(٤)</sup> إلى الهدى ، فقد صار صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء . وهؤلاء الذين نافقوا لم يقتصر أذاهم على الضرر الظاهري بل ما تخفى صدورهم أكبر . قال تعالى في شأنهم : ﴿ ودّوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ﴾ : أى أن هؤلاء يتمنون لكم الكفر لتكونوا سواء في الكفر مثلهم فماذا أنتم فاعلون مع هؤلاء ؟ .

قال تعالى : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ أى لا تتخذوا منهم أنصارا ولا أعوانا حتى يحسنوا إليكم وذلك بإظهار المودة والإسلام ويكون ذلك بالهجرة في سبيل الله والانضمام إلى معسكر المسلمين فإن تولّوا عن الإيمان وانصرفوا عن الانضمام إلى معسكر التوحيد بالهجرة فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، أى في أى مكان ، ولا تتخذوا منهم وليّا يلى شئونكم ولا نصيرا تستعينون به .

(١) أخرجه البخارى في فضائل المدينة (٢ ، ١٠) وفي تفسير سورة (٤) رقم (١٥) . وفي الأحكام (٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠) وفي الاعتصام (١٦) . وأخرجه مسلم في البر (٥٣) . وأبو داود في الجنائز (١) . والنسائي في الحج (١٢ ، ١٣) وفي البيعة (٢٢) . وأخرجه ابن ماجه في المناسك (٣) وفي الطب (١٨) وفي الفتن (٣٣) . والإمام مالك في المدينة (٤ ، ٥) . والإمام أحمد في (١) ٢٥ ، ٣٨٧ . وفي (٢) ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٤٣٩ . وفي (٣) ٢٩٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ . وفي (٥) ٤٤٦ ، ٤٤٧ . وفي (٥) ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل .

(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة النساء .

وقد استثنى الله تعالى من هؤلاء فريقين رفع عنهم السيف قال في شأن الفريق الأول : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أى جماعة لهم اتصال بقوم عُقدت بينكم وبينهم عهود ومواثيق . والفرقة الثانية يقول الله في شأنهم : ﴿ أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ﴾ أى ضاقت صدورهم عن قتالكم أو قتال قومهم ولم تنشرح صدورهم للقتال فهم واقفون موقف الحياد ما حكم هؤلاء ؟

قال تعالى : ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم ﴾ ، أى انقادوا لكم ، ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلا ﴾ أى إلى قتالهم وليس لكم عليهم حجة في القتال ، وقد أظهر الله تعالى على المؤمنين نعماءه واضحة إذ يقول : ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ وهو سبحانه الذى كف أيديهم عنكم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سُرَاقَةَ بن مالك المذلجى حدثهم قال : ( لما ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر وأسلم من حولهم قال سُرَاقَةُ : بلغنى أنه عليه الصلاة والسلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي من بنى مُذَلِج فأتيته فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا : مَهْ ، فقال دعوه ، تريد ؟ قلت بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال : ( اذهب معه فافعل ما يريد ) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ودوا لو تكفرون ﴾ حتى بلغ : ﴿ إلا الذين يصلون ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

قوله تعالى : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ . نزلت هذه الآية في قوم مذنبين لا هم مسلمون ولا هم كافرون ، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا لقوا الكافرين قالوا إنا معكم . روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبی ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يتتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمروا بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

هؤلاء القوم المذبذبون ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ ، أى كلما دعاهم المشركون إلى الشرك وقعوا فيه مرة ، إنهم يتظاهرون بالإسلام مرة ويتظاهرون بالكفر أخرى ، ليأمنوا جانب الكافرين . فما موقف الإسلام منهم ؟ .

بين الله الحكم في هؤلاء المترددين فقال : ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا ﴾ ، أى حجة دافعة ودليلا قاطعا على قتالهم ، لأنهم إن لم يعتزلوا ويلقوا الانقياد والإذعان لكم ، ويكفوا أيديهم عن العدوان ، فإنهم عندئذ يكونون خطرا يهدد الجماعة المسلمة ، فهم عندئذ لا أمان لهم مع توافر الأدلة على وجوب قتالهم حماية لأمة الإسلام . وهذا حكم الله في أولئك المذبذبين المترددين .



قال الرازي : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجوز لنا قتالهم ولا قتلهم . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يِقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ﴾ (١) إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا . وقوله جل شأنه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢) .

### القتل الخطأ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلِمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾

لما كانت الآيات المتقدمة بصدد بيان أحكام القتال بين المسلمين وأعدائهم ، جاءت - هذه الآية تنفي بشدة أن يقع القتل العمد بين أفراد الجماعة المسلمة ، وجاء التعبير عن هذا المعنى بأسلوب الحصر في القتل الخطأ الذي انتفى فيه عنصر القصد . ذلك لأن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، فهو صانع العجائب ، كما صور ذلك الرسول الكريم في قوله : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) (٣) . وكما صورته في قوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (٤) وفي قوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) (٥) ، وفي قوله : (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى) . فما بالك برسالة يقول الله لصاحبها : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٦) ، ويتحدث صاحبها عن بعثته فيقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (٧) ، إنه تشريع جاء الرسول به كالشمس في ضحاها

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٦١ من سورة الأنفال .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٢٧) . ومسلم في البر (٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٨٨) وفي الأدب (٣٦) وفي المظالم (٥) . وأخرجه مسلم في البر (٦٥) . والترمذي في البر (١٨) . والنسائي في الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد في (٢ - ١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٧١ ، ٧٢) . والبخاري في الإيمان (٧) . والترمذي في القيامة (٥٩) والنسائي في الإيمان (١٩ ، ٢٣) . وابن ماجه في المقدمة (٩) وفي الجنائز (١) . وأخرجه الدارمي في الاستئذان (٥) وفي الرقاق (٢٩) والإمام أحمد في (١) ٨٩ . وفي (٣) ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٩ .

(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٧) أخرجه الإمام مالك في حسن الخلق (٥) . والإمام أحمد في (٢) ٣٨١ .

وسنة كالقمر إذا تلاها . فمن تبعهما وسلك منهجهما عاش في ضوء النهار إذا جلاها ومن أعرض عن هذا النهج عاش في ظلمة الليل إذا يغشاها .

قال الفاروق لرسول الله ﷺ يوما : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ فقال له الصادق المعصوم : ( أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ - أى متحIRON - لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى )<sup>(١)</sup> .

نعم لقد جاء بها الرسول نقية بيضاء وجاء بها غيره دموية حمراء .

يا سيدى يا رسول الله معذرة	إذا كبا فيك تيبانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجا	وفى يديك لواء العدل والنور

إذن ما كان للإسلام أن يتصور أن يقع بين المؤمنين قتل عمد لأن الإيمان يكسب أصحابه حسا مرهفا ويغرس فيهم المشاعر النبيلة والسجايا الحميدة والشمائل الكريمة ، فإن كان هناك قتل فإنه خطأ غير مقصود ، كمن يرمى صيدا فيصيب إنسانا ، وهنا فإن الإسلام لا يقف موقفا سلبيا من الدماء ولو كانت خطأ ، فالإسلام يكره رؤية الدماء إلا فى ميادين القتال ، وفى حدود ما شرع الله ، لا يعرف حمامات الدم ولا معتقلات سيبيريا بل إن نبي الإسلام يقول : ( لا تنزع الرحمة إلا من شقى )<sup>(٢)</sup> ، ويقول : ( من لا يرحم لا يرحم )<sup>(٣)</sup> .

لقد انتفض عملاق الإسلام عمر انتفاضة العصفور إذا بله ماء المطر عندما رأى فى رحلته إلى الشام رجلا يقف فى حر الشمس ، وعلم أنهم أوقفوه هكذا لأنه ذمى لم يدفع الجزية المفروضة عليه ، فصاح غاضبا : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا ، ألم تسمعوا قوله ﷺ : ( إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا ) .

لقد أوجب الإسلام الكفارة فى القتل الخطأ حتى لا يدع مجالا للإهمال واللامبالاة والعبث بأرواح العباد : فإن كان القتل مؤمنا وجبت فيه أحكاما ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ﴾ . ولما كانت هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أحكام فقهية فإننا نذكر تلك الأحكام كما وردت فى مظانها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣) ٣٨٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٠١ ، ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٥٤٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (١٨ ، ٢٧) . ومسلم فى الفضائل (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (١٤٥) . والترمذى فى البر (١٢) . والإمام أحمد فى

(٢) ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٥١٤ .

قال الفقهاء : قوله تعالى : ﴿ فتحريروا رقبة مؤمنة ﴾ المقصود بتحرير الرقبة عتقها من الرق ، أى ومن قتل مؤمنا خطأ بأن أراد رمى صيد أو غرض فأصاب مؤمنا أو ضربه بما لا يقتل عادة كأن صفعه باليد ، أو ضربه بعصا فمات ، وهو لم يكن يقصد قتله ، فعليه عتق رقبة من أهل الإيمان ، لأنه لما أعدم نفسا مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفسا «والعتق كالإيجاد من العدم» .

﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ الدية : هى المال الواجب بالجناية على الحر فى النفس أو فيما دونها ، ويعطى إلى ورثة المقتول عوضا عن دمه : أى وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول ، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذى كان مقبولا عند العرب وهى مائة بعير مختلفة فى السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل ، لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقدته أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدتها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا جاء فيه : « إن من اعتبط ( قتل بغير سبب شرعى ) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود ( أى قصاص يقتل به ) إلا أن يرضى أولياء المقتول وإن فى النفس الدية مائة من الإبل ، ثم قال : وعلى أهل الذهب ألف دينار » (١) .

وفى هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها إذا كانت هى رأس أموالهم ، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة ، وعلى أن هذا أصل لا قيمة للإبل .

﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ ، أى أن الدية تجب على القاتل قتلا خطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم ، لأنها إنما وجدت تطيبا لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل ، وتعويضا عما يفوتهم من المنفعة بقتله ، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتقى المحذور وكانوا هم ذوى الفضل على القاتل . وقد سمى الله هذا العفو تصدقا ترغيبا فيه .

﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحريروا رقبة مؤمنة ﴾ أى فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحارث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبى ﷺ والمؤمنون فى حرب معهم ، ولم يعلم المسلمون إيمانه لأنه لم يهاجر ، وقد قتله عياش حين خروجه مهاجرا وهو لم يعلم بذلك ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم .

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقتلونهم كما هو حال الدول فى العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدوا . ﴿ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فالواجب فى قتل المعاهد كالواجب فى قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٦) . والنسائى فى القسامة (٤٧) . والإمام مالك فى الزكاة (٤٣) . وفى العقول (٢) .

المعاهد ، كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للإشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمة ، ولا سيما إذا ذكر ذلك في عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء فى دية غير المسلمين لاختلاف الرواية فى ذلك . روى أحمد والترمذى أن النبى ﷺ قال : (عقل «دية» الكافر نصف دية المسلم)<sup>(١)</sup> وروى عن أحمد «أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلا فنصف ديته» ، وذهب الزهرى وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآية فى أهل الميثاق ، وهم المعاهدون ، وأهل الذمة . وعلى الجملة فالروايات متعارضة ، ومن ثم اختلف الفقهاء ، وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ، ولكن السنة بينت أن العاقلة «العائلة» وهم عصبتة الأقربون هم الذين يدفعون الدية . وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت فى بيت المال «وزارة المالية» .

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ ، أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد ما لا يشتريها به من مالها ليحررها من الرق أو لم يجد رقيقا «وهذا مقصد من مقاصد الإسلام» فعليه صيام شهرين متتابعين قمرين لا يفصل بين يومين منها إفطار فى النهار فإن أفطر يوما بغير عذر شرعى استأنفه وكان ما صامه قبل كان لم يكن .

﴿ توبة من الله ﴾ أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويظهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى القتل الخطأ .

﴿ وكان الله عليا حكيما ﴾ ، أى وكان الله عليا بأحوال النفوس وما يظهرها ، حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

### القتل العمد

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ  
عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ خالدا فيها ﴾ : أى ماكثا إلى الأبد أو ماكثا طويلا ، ﴿ غضب الله عليه ﴾ : أى انتقم منه ، ﴿ لعنه ﴾ : أبعدته عن رحمته ، ﴿ أعدله ﴾ : أى هيا له .

القتل العمد هو : أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم بما يغلب على الظن أنه يُقتل به . ويفهم من هذا التعريف أن جريمة القتل العمد لا تتحقق إلا إذا توفرت فيها الأركان الآتية :

(١) أخرجه الترمذى فى الديات (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ١٨٣ . ٢٢٤ .

١ - أن يكون القاتل عاقلا ، بالغا ، قاصد القتل . أما اعتبار العقل والبلوغ : فلحديث على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أن النبي ﷺ قال : ( رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يُفريق وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم )<sup>(١)</sup> .

وأما اعتبار العمد : فلما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : « قتل رجل في عهد رسول الله ﷺ ، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فدفعه إلى وليِّ المقتول ، فقال القاتل : يا رسول الله ، والله ما أردت قتله ، فقال النبي ﷺ للولي : ( أما أنه إن كان صادقا ثم قتلته دخلت النار ) فخلاه الرجل وكان مكتوبا بنسعه «سير من الجلد» فخرج يجر نسعته قال : فكان يسمى «ذا النسعة»<sup>(٢)</sup> .

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : ( العمد قود (قصاص) ، إلا أن يعفو ولي المقتول )<sup>(٣)</sup> . وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال : ( من قتل عامدا فهو قود ، ومن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا )<sup>(٤)</sup> .

٢ - أن يكون المقتول آدميا ، ومعصوم الدم : أى أن دمه غير مباح .

٣ - أن تكون الأداة التي استعملت في القتل مما يُقتل بها غالبا . فإذا لم تتوفر هذه الأركان . فإن القتل لا يعتبر قتلا عمدا .

أداة القتل :

ولا يشترط في الأداة التي يقتل بها سوى أنها مما تقتل غالبا . وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ رضى (كسر) رأس يهودى بين حجرين ، لأنه فعل ذلك بجارية من الجوارى<sup>(٥)</sup> .

ومن هذا القبيل القتل بالإحراق بالنار ، والإغراق بالماء ، والإلقاء من شاهق ، وإلقاء حائط عليه وخنق الأنفاس ، وحبس الإنسان ، ومنع الطعام والشراب عنه حتى يموت جوعا ، وتقديمه لحيوان مفترس .

ومنه ما إذا شهد الشهود على إنسان معصوم الدم بما يوجب قتله ، ثم بعد قتله يرجعون عن الشهادة ، ويقولون : تعمدنا قتله ، فهذه كلها من الأدوات التي غالبا ما تقتل . ومن قدم طعاما مسموما لغيره وهو يعلم أنه مسموم دون آكله ، فمات به اقتص منه .

(١) أخرجه البخارى في الحدود (٢٢) وفي الطلاق (١١) ، وأخرجه أبو داود في الحدود (١٧) . والترمذى في الحدود (١) . وابن ماجه في الطلاق (١٥) . والدارمى في الحدود (١) ، والإمام أحمد في (٦) ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

(٢) أخرجه أبو داود في الدييات (٣) . والنسائى في القسامة (٦) ، (٧) . وابن ماجه في الدييات (٣٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الدييات (٤) . والإمام أحمد في (٢) ، ١٨٣ .

(٤) أخرجه البخارى في الجزية (١٠ ، ١٧) . ومسلم في العتق (١٩) . وأبو داود في الدييات (١٥) . والنسائى في القسامة (٣٢) . وابن ماجه في الدييات (٨) . والإمام أحمد في (١) ، ٦ ، ٨١ ، ١٥١ . وفي (٢) ، ٤٥٠ ، ٥٢٦ .

(٥) أخرجه البخارى في الخصومات (١) وفي الوصايا (٥) وفي الدييات (٤) ، (١٢) . وأخرجه مسلم في القسامة (١٧) وأبو داود في الدييات (١٠) . وابن ماجه في الدييات (٢٤) . والدارمى في الدييات (٤) . والإمام أحمد في (٣) ، ١٩٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ .

روى البخارى ومسلم : «أن يهودية سمت النبي ﷺ في شاة ، فأكل منها لقمة ثم لفظها ، وأكل معه بشر بن البراء ، فعفا عنها النبي ﷺ ولم يعاقبها» . أى أنه عفا عنها قبل أن تحدث الوفاة لواحد من أكل «فلما مات بشر بن البراء قتلها به»<sup>(١)</sup> .

### الآثار المترتبة على القتل العمد :

إن القتل العمد يوجب أموراً أربعة :

- ١ - الإثم .
- ٢ - الحرمان من الميراث والوصية .
- ٣ - الكفارة .
- ٤ - القود أو العفو .

فلا يرث القاتل من ميراث المقتول شيئاً ، لا من ماله ولا من دينه إذا كان من ورثته ، سواء أكان القتل عمداً أم كان خطأ . وقاعدة الفقهاء في ذلك : «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه» وروى البيهقي عن خلاص أن رجلاً رمى بججر فأصاب أمه فماتت من ذلك ، فأراد نصيبه من ميراثها ، فقال له إخوته : لا حق لك ، فارتفعوا إلى على كرم الله وجهه فقال على رضى الله عنه : «حقك من ميراثها الحجر ، فأعزمه الدية ، ولم يعطه من ميراثها شيئاً» . وقال الإمام مالك : إن القتل إن كان خطأ — ورث من المال دون الدية .

### أحاديث في الوعيد للقتل العمد :

- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء)<sup>(٢)</sup> .

- وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات : قيل : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)<sup>(٣)</sup> .

- وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً)<sup>(٤)</sup> ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إن من ورطات الأمور التي لا تخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله .

- وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق)<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه البخارى في الهبة (٢٨) .

(٢) أخرجه البخارى في الديات (١) وفي الرقاق (٤٨) . وأخرجه مسلم في القسامة (٢٨) . والترمذى في الديات (٨) . والنسائى في التحريم (٢) . وابن ماجه في الديات (١) والإمام أحمد في (١) ٣٨٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى في الوصايا (٢٣) وفي الحدود (٤٤) وفي المحاريب (٣٠) . وأخرجه مسلم في الإيمان (١٤٤) .

(٤) أخرجه البخارى في الديات (١) . وأبو داود في الفتن (٦) . والإمام أحمد في (٢) ٩٤ .

(٥) أخرجه الترمذى في الديات (٧) . وابن ماجه في الديات (١) . والنسائى في التحريم (٢) .

- وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : ( ما أطيبك ، وما أطيب ريحك ، وما أعظمك وما أعظم حرمتك والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه )<sup>(١)</sup> .

- وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : ( لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار )<sup>(٢)</sup> .

- وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله )<sup>(٣)</sup> .

- وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم امرئ مسلم أن يهريقه كما يذبح به دجاجة كلما تعرض لباب من أبواب الجنة حال الله بينه وبينه ، ومن استطاع منكم أن لا يجعل في بطنه إلا طيبا فليفعل فإن أول ما يتن من الإنسان بطنه )<sup>(٤)</sup> .

- وعن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا )<sup>(٥)</sup> .

- وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله سائل : فقال : يا أبا العباس هل للقاتل من توبة ؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه : ماذا تقول ؟ فأعاد عليه مسأله ، فقال : ماذا تقول ؟ مرتين أو ثلاثا . قال ابن عباس سمعت نبيكم ﷺ يقول : ( يأتي المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه متلبيا قاتله باليد الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتي به العرش ، فيقول المقتول لرب العالمين : هذا قتلنى فيقول الله عز وجل للقاتل : تعست ويذهب به إلى النار )<sup>(٦)</sup> .

- وعن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول : من أخذل اليوم مسلما ألبيسته التاج . قال : فيجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : يوشك أن يتزوج . ويجىء لهذا فيقول : لم أزل به حتى عتق والديه ، فيقول : يوشك ، أن ييرهما . ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك . فيقول : أنت ، أنت ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول ، أنت أنت ، ويلبسه التاج ) .

(١) أخرجه الترمذى فى البر (٨٥) . وابن ماجه فى الفتن (٢) . والدارمى فى المناسك (٧٦) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدييات (٨) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الدييات (١) .

(٤) وأخرج البخارى الحديث مختصرا فى الأحكام (٩) .

(٥) أخرجه النسائى فى التحريم (١١) والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ .

(٦) أخرجه النسائى فى التحريم (٢) وفى القسامة (٤٩) . وأخرجه الترمذى فى التفسير سورة (٤) رقم (١٥) . والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٤ .

- وعن أبي سعيد رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : (يخرج عُتْق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير حق فينطوى عليهم فيقذفهم في حمراء جهنم)<sup>(١)</sup> .

هل لقاتل العمد توبة ؟

للعلماء في توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة :

١- يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة وهو خالد في النار أبدا ، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائي عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)<sup>(٢)</sup> وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة : آيس من رحمة الله تعالى)<sup>(٣)</sup> ، وروى عن البراء بن عازب أن النبي ﷺ قال : (لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار) ، وعن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال : (لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم في النار وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والأمربه)<sup>(٤)</sup> .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ، ولا تقبل توبة المؤمن الذي ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التي تحرم هذه الأمور ، فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحا كان جديرا بالعفو .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة ، وحرمة القتل ، فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير ، فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه ، وتوهين أمر دينه ، بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهون المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا . وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجع شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود في النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرأوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة في قلوبهم .

قال في الكشف : هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد ، والإبراق والإرعاد أمر عظيم ، وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . . والعجب من قوم يقرءون هذه

(١) أخرجه الترمذى في جهنم (١) . والدارمى في الرقاق (٩٥) . والإمام أحمد في (٢) ٣٣٦ . وفي (٣) ٤٠ .

(٢) أخرجه النسائي في التحريم (١١) . والإمام أحمد في (١) ٢٤٠ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) سبق تخريجه .



الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (التي تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم ، وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا في العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (١) .

٢ - يرى فريق آخر أن المراد بالخلود : المكث الطويل لا الدوام ، لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما في الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء في قوله عز اسمه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (٢) ، فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزي كل سيئة بمثلها لعارض قوله جل شأنه : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، ومن ثم روى عن النبي ﷺ مرفوعاً أنه قال هو جزاؤه إن جازاه . وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا : هو كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذاباً ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضاً ، وقال في الآية هي جزاؤه ، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

٣ - ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه . وعكرمة وابن جريج فسرا متعمداً مستحلاً في الآية . أى : ومن يقتل مؤمناً متعمداً لقتله مستحلاً له ، فجزاؤه جهنم خالداً فيها أبداً .

### الأمر بالتبئ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

المفردات : الضرب في الأرض : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، ﴿ في سبيل الله ﴾ : أى لجهاد أعدائكم فتيبوا أى تبتوا وتأنوا ، ﴿ ألقى إليكم السلام ﴾ : أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، ﴿ عرض الحياة الدنيا ﴾ : أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ﴿ مغانم كثيرة ﴾ : أى رزق وفضل كثير .

جاء في سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة منها : ما أخرجه البخارى والترمذى والحاكم وغيرهم عن

(١) الآية ٢٤ من سورة محمد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

والآية تنفى المساواة بين القاعدين الذين لا عذر لهم وبين المجاهدين بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، إذ أن المساواة غير واردة فكيف يسوى بين قوم قعدوا وآخرين خرجوا يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؟ قال تعالى : ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وقد أخبر النبي ﷺ عن فضل المجاهدين فقال : (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) (١) ، وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (من رمى بسهم فله أجره درجة) ، فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : (أما أنها ليست بعتبة أمك ما بين الدرجتين مائة عام) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ المراد بالحسنى هي الجنة ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (٣) بعد قوله جل شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ (٤) ، والمراد بالزيادة في قوله جل شأنه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ رؤية الله تعالى قال سبحانه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة \* إلى ربها ناظرة ﴾ (٥) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر) (٦) ، وإنما حكم الله لكل منهم ، أي من القاعدين والمجاهدين ، بالجنة ، لأنهم مؤمنون رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ثم قال سبحانه : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجر عظيم ﴾ . ولا يدرك مدى هذه الدرجة وذلك الأجر العظيم إلا الله ، لذا فصلها سبحانه بعد ذلك بقوله : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ وهذا دليل على عظم الأجر وعلى أن رحمة الله وسعتهم فضلاً وتكرماً ، وإن مغفرته قد شملت ذنوبهم حيث ثبتت أقدامهم على طاعة الله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .

### الهجرة وفضلها

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ ظَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

(١) أخرجه البخارى في الجهاد (٤) وفي التوحيد (٢٢) . وأخرجه النسائي في الجهاد (١٨) . والإمام أحمد في (٢) ٢٣٥ ، ٣٣٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في العتاق (١٤) . والإمام أحمد في (٤) ١١٣ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة يونس .

(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .

(٥) الأيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٦) أخرجه البخارى في المواقيت (١٦ ، ٢٦) وفي الأذان (١٢٩) . وفي التفسير سورة (٥٠) رقم (٢) وفي الرقاق (٥٣) وفي التوحيد (٣٤) . وأخرجه

أبو داود في السنة (١٩) . والترمذى في الجنة (١٦) . والإمام أحمد في (١٣) ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ .

سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : توفي الشيء : أخذه وافيا تاماً ، وتوفي الملائكة للناس : قبض أرواحهم حين الموت .  
والمأوى : المسكن . ﴿ مراغماً ﴾ : مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوف من كانوا مستضعفين له . ﴿ وقع أجره على الله ﴾ : أى وجب ، والوقوع والوجوب يتواردان على معنى واحد .

جاء في سبب نزول هذه الآية ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال : « أن سبب نزول الآية أن قوماً من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقى بمكة منهم ، وأنه لا عذر لهم ، فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنوهم ، فرجعوا فنزلت : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ (١) فكتب إليهم المسلمون بذلك ، فتحزنوا فنزلت : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (٢) ، فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجوا من نجا وقتل من قتل » .

بعد أن بين الله تعالى أجر المجاهدين من درجات ومغفرة ورحمة ، وبين فضل الجهاد بالنفس والمال ، بين بعد ذلك ما للهجرة من أحكام وما على تركها من وعيد للمتقاعسين ، ووعد للمهاجرين ، وقد أمر النبي ﷺ بالسمع والطاعة والهجرة والجهاد والجماعة ، وقد رفع الله شأن قوم هاجروا فقال سبحانه : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿ (٣) ، وقال سبحانه : ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (٤) ، وقال عز وجل : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٥) ، وقال سبحانه : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ (٦) .

(١) من الآية ١٠ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١١٠ من سورة النحل .

(٣) الأيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٦) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

وقد أوعد الله الذين قعدوا عن الهجرة وهم قادرون عليها ورضوا بالذل والهوان كما رضوا بأن يقيموا في دار الكفر وتحلفوا عن نصره الرسول وأصحابه ، أوعدهم جهنم وساءت مصيرا ، كما وعد الذين هاجروا بأن أجرهم قد وقع على الله حتى لو ماتوا قبل الوصول ، قال ﷺ : ( إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه )<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ أى إن الذين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة في دار الذل والظلم حيث لا حرية لهم في أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأيبه ﴿ قالوا فيم كنتم ؟ ﴾ أى تقول لهم الملائكة بعد توفيقها لهم في أى شئ كنتم من أمر دينكم ؟ أى أنهم لم يكونوا في شئ منه إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .

﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ هذا اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه ، أى إننا لم نستطع أن نكون في شئ يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تقبلها الملائكة ، ومن ثم ردوا عليهم المذرة فقالوا لهم : ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا منها ؟ ﴾ وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض تقدر أن فيه على إقامة الدين وتحجروا أنفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ولا هو من خصاله .

﴿ فأولئك مأواهم جهنم ﴾ أى أن أولئك الذين فصلت حاهم القطيعة نسكنهم في الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضاً عليهم ، إذ كانت الهجرة واجبة في صدر الإسلام .

﴿ وساءت مصيرا ﴾ أى وقبح جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوؤهم وفي هذا إيماء إلى أن الرجل إذا كان في بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أو علم أنه في غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، وجبت عليه الهجرة ، أما المقيم في دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذ هو عمل بدينه ، وأقام أحكامه بلا تكبر ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين في بلاد الإنكليز الآن ، إلا أن الإقامة فيها ربما كانت سبباً من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

﴿ إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ﴾ أى أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين في اعتذارهم ، أما الاستضعاف الحقيقي فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعباس بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

(١) أخرجه البخارى في بدء الوحي (١) وفي العتق (٦) وفي مناقب الأنصار (٤٥) وفي الطلاق (١١) وفي الأيمان (٢٣) وفي الحيل (١) . وأخرجه مسلم في الإمارة (١٥٥) . وأبو داود في الطلاق (١١) . والنسائي في الطهارة (٥٩) وفي الطلاق (٢٤) وفي الأيمان (١٩) . وأخرجه ابن ماجه في الزهد (٢٦) .

﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ أى أنهم قد ضاقت بهم الحيل فلم يستطيعوا ركوب حيلة واحدة منها وغميت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقاً منها إما للعجز كمرض وزمانه وإما للفقر وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقتها بحيث لو خرجوا لهلكوا كما قالوا فى أمثالهم : « قتلت أرض جاهلها » . وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلاً ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ وعقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقون بهم فى التكليف بوجوب الهجرة معهم أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر . ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أى أن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر .

وفى هذا إيماء إلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو باستعمال الحيل والبحث عن مضايق السبل وبذا لا يخدع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعد ما ليس بمانع مانعاً .

وفى هذا رمز إلى تعظيم أمر الهجرة وإلى أن تركها جرم عظيم وإلى أنه ينبغي أن يترصد لها الفرصة السانحة ويعلق قلبه بها .

﴿ وكان الله عفوا غفورا ﴾ أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

ثم رغب سبحانه فى أمر الهجرة ونشط المستضعفين لما جرت به العادة من أن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له ، وأن عسرها إلى يسر فقال : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ، أى أن من يهاجر فى سبيل الله : أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى يجد فى الأرض سبيلاً يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل ، وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

وبعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يجب ومن وجد أن السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش ، وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذى ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته وإقامة سننه بعد وفاته ، وكان مستحقاً لهذا الأجر ، ولومات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فقال : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ . وفى إيهام هذا الأجر وجعله حقاً واجباً عليه تعالى إيدان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه . والله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً ، إذ لا سلطان فوق سلطانه .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، أى وكان شأن الله الغفران أزلاً وأبداً لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعطفه وإحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير : أنها نزلت فلا جندب بن ضمرة ، وكان بلغه قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها فقال لبنيه : احملوني فإني لست من المستضعفين ، وإني لأهتدى إلى الطريق ، وإني لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله ويقول : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ ، أبايك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبنيه : مات بالمدينة فنزلت .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب ، كطلب علم وحج وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد ، فله هذا الحكم . أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة) (١) .

### السبب في شرع الهجرة في صدر الإسلام

شرعت الهجرة في صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة :

١ - البعد عن الاضطهاد في أمور الدين بإقامة شعائره ، بحيث يكون المسلم حراً في تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يُفتن عن دينه ، أو يكون ممنوعاً من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا خطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثماً كبيراً ، وحمل وزراً عظيماً .

٢ - تلقى الدين والتفقه فيه ، وقد كان ذلك في عصر النبي ﷺ حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذراً لتصدى المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش .

وهذا الحكم في كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه ، وأحكام شريعته .

٣ - إنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية ، تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحمى دعائه وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم ، وشط مزارهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعينين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك في جزيرة العرب كلها ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وأرسل النبي ﷺ إلى أطراف الجزيرة وغيرها من

يعلم الناس شرائع الإسلام ، زالت هذه الأسباب . وقد روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ( لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا )<sup>(١)</sup> . وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة في أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

### صلاة الخوف

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةً مِنْهُمْ مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُغْفَلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ ضربتهم في الأرض ﴾ : أى سافرتم فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه ، أو بقوائم راحلته . والقصر بالفتح من القصر ضد الطول . وقصرت الشيء : جعلته قصيراً ، والجناح : التضييق من جناح البعير إذا انكسرت جوانحه ( أضلاعه ) لثقل حمله . ﴿ يفتنكم ﴾ : يؤذوكم بقتل أو غيره . إقامة الصلاة : الذكر الذى يدعى به للدخول فيها . والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس والبندقية من أسلحة العصر الحاضر . ﴿ قضيت الصلاة ﴾ : أى أدبتموها فأقيموا الصلاة أى ائتوا بها مقومة تامة الأركان والشروط . ﴿ كتاباً موقوتاً ﴾ : فرضاً منجماً في أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها .

كان الكلام في سابق الآيات في الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه ، وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه فيها ، والجهاد يستلزم السفر وذكر هنا أحكام من

(١) أخرجه البخارى في الجهاد (١٩٤) . وأبو داود في الجهاد (٢) . والنسائى في البيعة (١٥) .

سافر للجهاد أو هاجر في سبيل الله إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن بها عنها ، فيبين أنه يجوز له أن يقصر منها ، وأن يصلى جماعتها بالطريقة التي ذكرت في الآية الثانية من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، أى إذا سافرت أى سفر ، فليس عليكم تضيق ولا ميل عن محجة الدين إذا قصرتم الصلاة ، أى تركتم شيئاً منها فتكون قصيرة بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما ، وليس هذا خاصاً بمن الحرب ، بل إذا خاف المصلى قطع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة الرباعية في السفر المبين في كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة ، بل المراد هنا القصر في صلاة الخوف المذكور في الآية الأولى والمبين في الآية التي بعدها وفي سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ .

فالآية التي هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة واحدة فإذا أتمتها تأتى الطائفة الأخرى وهى التى كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة في القصر من هيئة الصلاة بالترخيص في عدم إقامة صورتها بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

### صلاة القصر في السفر وشرطها

كان النبى ﷺ يصلى الظهر والعصر والعشاء في السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ؛ ففي صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «صحبت رسول الله ﷺ فكان في السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان»<sup>(١)</sup> ، يعنى في صدر خلافته ، وإلا فعثمان قد أتم في آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التى أنكرت عليه وقد خرج لفعله تأويلات .

قال ابن القيم : وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه تزوج بمعى ، والمسافر إذا أقام في موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه ، وهو قول الحنفية والمالكية .

وقد روى الشيخان عن عائشة قالت : «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر»<sup>(٢)</sup> .

وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ وقد خاب من افترى . وكان قد سأل النبى ﷺ ما بالنأ نقصر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : ( صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته )<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه البخارى في التفسير (١١) . والنسائي في التفسير (٥) . وابن ماجه في الإقامة (٧٣ ، ١٢٤) . والإمام أحمد في (١) ٣٧ ، ٢٣٧ . ٢٥٤ ، ٢٤٣ . وفى (٢) ٢٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى في الصلاة (١) . ومسلم في المسافرين (١) . والنسائي في الصلاة (٣) . والإمام مالك في السفر (٨) . (٣) أخرجه مسلم في المسافرين (٤) . وأبو داود في السفر (١) . والترمذى في تفسير سورة (٤) رقم (٢٠) . والنسائي في الخوف (١) . وابن ماجه في الإقامة (٧٣) . والدارمى في الصلاة (١٧٩) . والإمام أحمد في (١) ٢٥ ، ٣٦ . وفى (٦) ٦٣ .



وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنما نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن ولا نجد صلاة السفر في القرآن ، فقال له ابن عمر : يا أخى إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر في السفر خلافاً للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر في الصلاة والإفطار في رمضان : أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام ، بالاقتصاد في البر ، وجرى السفينة والريح معتدلة في البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة : « كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين » . رواه أحمد .

وقدره الشافعي بمسيرة يومين ، وحقق المرحوم أحمد الحسني بك في كتابه (دليل المسافر) أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ كم عند الحنفية ، و ٨٩ كم لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالمسافر من القاهرة إلى طنطا فما فوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ كم ، وإلى المحطة التي تليها (شبرا النملة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ كم .

### كيفية صلاة الخوف

ثم بين سبحانه ما قبله من النص المجمل الوارد في مشروعية القصر وبيان كيفيته عند الضرورة ، وذكر هذا البيان في القرآن ، واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه ، لما فيه من كثرة التغير عن الهيئة الأصلية فقال : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ﴾ ، أى : وإذا كنت أيها الرسول في جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين ، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو يحرسون المصلين خوفاً من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك في الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة ، لئلا يضطروا إلى المكافحة عقبها مباشرة ، أو قبل إتمامها ، فيكونوا مستعدين لها .

﴿ فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ﴾ أى فإذا سجد الذين يقومون معك في الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم إذ أحوج ما يكون المصل للحراسة حين السجود لأنه يرى من يهم به ويجب حينئذ أن يكون الباقي مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبي ﷺ كما صلوا وهو قوله : ﴿ ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ﴾ أى ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم في الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدو قلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها ، إذ هو إذا رآهم

صفاً ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فإذا رآهم سجدوا علم أنهم في صلاة فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها في الصلاة كما يترصد ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بين الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى في الصلاة في قوله : ﴿ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً ﴾ أى تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التى بها بلاغكم فى سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيرون منكم غرة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون ما استطاعوا نهبه فلا تغفلوا عنهم وقد يعرض لبعض المحاربين أعداء يشق عليكم حمل السلاح مع ثقله فى ثيابكم وربما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجروح أو غير الجروح من العلل ، ولكن يجب عليكم فى جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فإن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

﴿ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ بما هداكم إليه من أسباب النصر بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة ، رجاء ما عند الله من المثوبة والأجر ، فهذا العذاب المهين هو عذاب غلبة المسلمين وانتصارهم عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إِنْهُمْ يَأْمُرُونَ كَمَا تَأْمُرُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ ، وقوله : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

روى البخارى أن هذه الرخصة التى فى الآية نزلت فى عبدالرحمن بن عوف وكان جريحاً . وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عباس الزرقى قال : « كنا مع رسول الله ﷺ فى عُسفان فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد بن الوليد ، وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا النبى ﷺ الظهر ، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : يأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم . فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآيات : ﴿ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴾ .

وقد روى عن النبى ﷺ يوم ذات الرقاع : « أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو (اتجاهه) فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتوا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتوا فسلم بهم» (٢) ، وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقتب أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق . وقد قال بهذه الصلاة أفقه الصحابة عليهم الرضوان : على وابن عباس وابن مسعود وابن عمرو وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ، ومن فقهاء الأمصار : مالك والشافعى وغيرهما .

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين (٣٠٥ ، ٣١٠) . وأبو داود فى السفر (١٤ ، ١٦) . والنسائى فى الخوف (١٠ ، ١٣ ، ١٨) . والدارمى فى الصلاة (١٨٥) . والإمام مالك فى الخوف (٢) . والإمام أحمد فى (٢) (١٣٢ ، ١٤٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) .

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ أى فإذا أديتم الصلاة على هذه الصورة فادكروا الله تعالى في أنفسكم بتذكر وعده بنصر من ينصرونه في الدنيا ونيل الثواب في الآخرة ، وبألستكم بالحمد ، والتكبير والدعاء ، وعلى كل حال تكونون عليها من قيام في المسابقة والمقارعة وقعود للرمى أو المصارعة واضطجاع من الجروح أو المخادعة ، فذكر الله مما يقوى القلوب ويعلى المهم ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة ، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر ، كما قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فُتَّةً فَاثْبِتْوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

والخلاصة : إننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها في الحرب ، كما يدل على ذلك السياق ، فأجذب بأن نؤمر به في حال السلم ، إذ أن المسلمين في جهاد مستمر وحروب دائمة ، فهم تارة يجاهدون الأعداء ، وأخرى يجاهدون الأهواء ، ومن ثم أمرهم الله بالذكر في كثير من الآى كقوله : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (٢) لما في ذلك من تربية النفس وصفاء الروح ، وتذكير جلال الله وعظمته ، وأن كل شيء هين في سبيله وابتغاء مرضاته .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها فلا حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلوباً على عقله ، فقال : « فادكروا الله قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ » : أى بالليل والنهار في البر والبحر وفي السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال .

﴿ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ الاطمئنان : السكون بعد اضطراب وانزعاج : أى فإذا سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتكم بعد أن تضع الحرب أوزارها فأدوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ولا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف . ثم علل وجوب المحافظة على الصلاة حتى في وقت الخوف ولو مع القصر منها فقال : ﴿ إِنْ الصَّلَاةُ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ ، يقال وقت العمل يقته ووقته توقيتا إذا جعل له وقتاً يؤدي فيه ؛ أى أن الصلاة كانت في حكم الله فرضاً مؤقتاً في أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها بقدر الإمكان فأداؤها في أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدي كاملة تامة .

والحكمة في توقيتها في تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجمع الغفير من الناس .

إلى ما في هذا النوع من الذكر المذهب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها في أوقات معينة مع عدم الهوادة فيها ومن قصر فيها في تلك الأوقات الخمسة في اليوم واللييلة ، فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق في بحار الغفلة ، ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته ، بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

(١) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٩١ من سورة آل عمران .

والخلاصة : أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوته لتكون مذكرة للمؤمن بربه في الأوقات المختلفة لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير في الخير ولمن يريد الكمال في النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التي يرى أنها أوفق بحاله .

### أحكام تتعلق بصلاة الخوف

اتفق العلماء على مشروعية صلاة الخوف لقول الله تعالى : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذرکم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ .

قال الإمام أحمد : ثبت في صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز .

قال ابن القيم : أصولها ست صفات وإليك بيانها :

١ - أن يكون العدو في غير جهة القبلة فيصلى الإمام في الثانية بطائفة ركعة ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويذهبوا فيقوموا تجاه العدو ، ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلون معه الركعة الثانية ، ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويسلم بهم ، فعن صالح بن خوات عن سهل بن أبي خيثمة «أن طائفة صفت مع النبي ﷺ وطائفة وجاه العدو فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم»<sup>(١)</sup> رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

٢ - أن يكون العدو في غير جهة القبلة فيصلى الإمام بطائفة من الجيش ركعة والطائفة الأخرى تجاه العدو ، ثم تنصرف الطائفة التي صلت معه الركعة وتقوم تجاه العدو ، وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه ركعة ثم تقضى كل طائفة لنفسها ركعة ، فعن ابن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة للعدو ثم انصرفوا وقاموا في مقام أصحابهم مقبلين على العدو ، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبي ﷺ ركعة ثم سلم ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . رواه أحمد والشيخان .

والظاهر أن الطائفة الثانية تتم بعد سلام الإمام ، من غير أن تقطع صلاتها بالحراسة فتكون ركعتها متصلتين ، وأن الأولى لا تصلى الركعة الثانية إلا بعد أن تنصرف الطائفة الثانية من صلاتها إلى مواجهة العدو . فعن ابن مسعود قال : ثم سلم وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا .

٣ - أن يصلى الإمام بكل طائفة ركعتين ، فتكون الركعتان الأوليان له فرضاً ، والركعتان الأخريان

له نفلا ، واقتداء المفترض بالمتفل جائز ، فعن جابر أنه ﷺ «صلى بطائفة من أصحابه ركعتين ثم صلى بآخرين ركعتين ثم سلم» . رواه الشافعي .

٤ - أن يكون العدو في جهة القبلة فيصلى الإمام بالطائفتين جميعاً مع اشتراكهم في الحراسة ومتابعتهم له في جميع أركان الصلاة إلى السجود ، فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى ثم تسجد ، وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفة المتقدمة وتأخرت المتقدمة ، فعن جابر قال : (شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصفنا صفين خلفه والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبي ﷺ فكبرنا جميعاً ، ثم ركع وركعنا جميعاً ، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه وقام الصف الآخر في نحر العدو ، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ، ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى ، وقام الصف المؤخر في نحر العدو ، فلما قضى النبي ﷺ السجود بالصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً<sup>(١)</sup> .

٥ - أن تدخل الطائفتان مع الإمام في الصلاة جميعاً ثم تقوم إحدى الطائفتين بإزاء العدو وتصلى معه إحدى الطائفتين ركعة ثم يذهبون فيقومون في وجه العدو ، ثم تأتي الطائفة الأخرى فتصلى لنفسها ركعة والإمام قائم ثم يصلى بهم الركعة الثانية ، ثم تأتي الطائفة القائمة في وجه العدو فيصلون لأنفسهم ركعة والإمام والطائفة الثانية قاعدون ثم يسلم الإمام ويسلمون جميعاً .

فعن أبي هريرة قال : «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف عام غزوة نجد فقام إلى صلاة العصر فقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو وظهورهم إلى القبلة ، فكبر فكبروا جميعاً الذين معه والذين مقابل العدو ثم ركع ركعة واحدة وركعت الطائفة التي معه ثم سجد فسجدت الطائفة التي تليه والآخرين قيام مقابل العدو ثم قام وقامت الطائفة التي معه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم ، وأقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو ، ثم قاموا فركع ركعة أخرى وركعوا معه وسجد وسجدوا معه ، ثم أقبلت الطائفة التي كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه ، ثم كان السلام فسلم وسلموا جميعاً ، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل طائفة ركعتان» رواه أحمد وأبو داود والنسائي .

٦ - أن تقتصر كل طائفة على ركعة مع الإمام فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ، فعن ابن عباس : أن النبي ﷺ صلى بذى قرد فصف الناس خلفه صفين صفاً خلفه و صفاً موازى العدو فصلى بالذين خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء وجاء أولئك فصل بهم ركعة ولم يقضوا ركعة . رواه النسائي .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤) . وفي التهجد (٣٦) . وأخرجه مسلم في الجهاد (١٦) . والنسائي في الصلاة (٢٠) .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : (فرض الله الصلاة على نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعة) (١).

وعن ثعلبة بن زهدهم قال : « كنا مع سعيد بن العاص بطيرستان فقال : أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا » . رواه أبو داود والنسائي .

الإسلام ينهى عن الوهن

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فِي أَنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٥﴾

المفردات : الوهن : الضعف . والابتغاء : الطلب .

هذا نهى كريم يوجهه الله تعالى إلى أمة الإسلام ، ينهاهم فيه عن الضعف في طلب الأعداء جهاداً في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ذلك لأن الجهاد عزة وكرامة ورفعة ، وشهامة يرفع الله به أقواماً ويخفض بتركه آخرين ، وإن كان في الجهاد آلام وجراح ومخمصة ونصب ، إلا أن للمجاهد بكل أمر من تلك الأمور أجراً عظيماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن هم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٢) . وقال في حق هؤلاء المجاهدين : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين \* ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

فإن كنتم أيها المؤمنون تألمون ألماً نفسياً أو بدنياً ، فإن عدوكم كذلك يألم كما تألمون ، إلا أن الذي يهون عليكم آلامكم ويأسوا جراحاتكم ويرضى أنفسهم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فأنتم ترجون الجنة ونعيمها ، وما أعده الله لكم من النعيم المقيم ، فقد أعد لكم سبحانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ \* فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴿ (٤) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في (١) ٣٧، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٥٤. وفي (٢) ٢٠، ٣١، ٥٧، ٨٣، ٨٤، ٨٦، ١٣٥، ١٥٤.

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٣) الأيتان ١٢٠ ، ١٢١ من سورة التوبة .

(٤) الأيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

أما أعداؤكم فقد حرموا هذا النعيم بكفرهم وعصيانهم لله ، ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ (١) . ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ (٢) . فأنتم ترجون الجنة والمثوبة وهم لا يرجون ذلك ، وكان الله علياً بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، حكيماً تنزهه عن العبث ، فوضع الأمور في نصابها ، أعطاكم الجنة فضلاً ، وأدخل أعداءكم النار عدلاً ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٣) .

### من دروس القرآن الكريم

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً ﴿١٠٩﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١١١﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١١٢﴾ هَتُّوْا جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١١٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيثًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿١١٦﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٧﴾

(١) الآية (١١) من سورة محمد .

(٢) الآية (١٢) من سورة محمد .

(٣) الأيتان (٧ ، ٨) من سورة الزلزلة .

المفردات : ﴿ بما أراك الله ﴾ : أى بما عرفك وأوحى به إليك . ﴿ خصيماً ﴾ : أى تخاصم وتناضل عنهم . ﴿ يختانون أنفسهم ﴾ : يخونونها ويتكلمون ما يخالف الفطرة مما يعود عليهم بالضرر . والمجادلة : أشد المخاصمة . والوكيل : هو الذى يوكل إليه الأمر فى الحفظ والحماية . والمراد بالسوء هنا : ما يسوء الإنسان به غيره : وبالظلم : ما كان ضرره خالصاً بالعامل كالحلف الكاذب . والاستغفار : طلب المغفرة من الله مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه ، والكسب : ما يجز منفعة ، أو يدفع مضرة . والإثم : الذنب . والخطيئة : الذنب غير المتعمد ، والإثم ما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب . يرم به : أى يقذفه به ويسنده إليه . ﴿ احتمل ﴾ : كلف نفسه أن تحمل . والبهتان : الكذب على غيرك بما يبهت منه ويحير عند سماعه .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله تبارك اسمه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله جل شأنه : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ فيه بيان للحكمة التى أنزل الله من أجلها الكتاب على رسوله ، فإن الهدف الأسمى والغاية العليا والحكمة القصوى من إنزال الكتاب على نبيه ومصطفاه ، ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾<sup>(٦)</sup> ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾<sup>(٧)</sup> وقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾<sup>(٨)</sup> ، وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾<sup>(٩)</sup> .

وكما قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ أغير الله ابتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين \* وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾<sup>(١٠)</sup> . قوله : ﴿ بما أراك الله ﴾ أى بما أعلمك وأوحى إليك .

وما من شك فى أن القرآن كله عدل لا يعرف الظلم من قريب أو بعيد ، وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن يقضى بين الناس بحذرهم من الغش والزور والبهتان ويقول هم كلمات تشيب من هوها الولدان وتقشعر منها الأبدان .

(١) الأيتان (٤١ ، ٤٢) من سورة فصلت .

(٢) الآية (١٠٥) من سورة الإسراء .

(٣) الآية (١٤) من سورة الرعد .

(٤) الآية (٥٧) من سورة الأنعام .

(٥) الآية (٤٤) من سورة المائدة .

(٦) الآية (٤٥) من سورة المائدة .

(٧) الآية (٤٧) من سورة المائدة .

(٨) الآية (٤٩) من سورة المائدة .

(٩) الآية (٥٠) من سورة المائدة .

(١٠) الأيتان (١١٤ ، ١١٥) من سورة الأنعام .



ثبت في الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بيباب حجرته فخرج إليهم فقال : (ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها) (١) . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درثت ليس عندهما بينة فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلي وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها انتظاماً في عتقه يوم القيامة) ، فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله ﷺ : (أما إذا قلتما فاذهبا فاقتما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه) (٢) .

### قصة الآيات

لهذه الآيات قصة اشتملت على المعاني والعبر شأن قصص القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يُفتري ﴾ (٣) وقال : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (٤) .

روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت في شأن طعمة بن أبيرق ، وكان رجلاً من الأنصار وهو أحد بني ظفر سرق درعاً لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودى إلى نبي الله ﷺ يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبي الله ﷺ ليعذروا صاحبهم وكان نبي الله عليه الصلاة والسلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل الله في شأنه : ﴿ ولا تجادل ﴾ الخ . وكان طعمة قذف بها بريثاً فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ أى لا تخاصم ولا تناضل ولا تدافع عن من خانوا إذ لا مكانة للخيانة في الإسلام . وهذا تثبيت لموقف الرسول ، فإنه لم يكن قد قضى في القضية ، بل كل ما في الأمر أنه قد هم بالقضاء ، فنزلت الآيات مبينات حقيقة الموقف قال تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ﴾ . وقال جل شأنه في نهاية القصة : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

(١) أخرجه البخارى في المظالم (١٦) وفي الأحكام (٢٠ ، ٢٩ ، ٣١) . وأخرجه مسلم في الأفضية (٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأفضية (٧) . والإمام أحمد في (٦) ٣٢٠ .

(٣) الآية (١١١) من سورة يوسف .

(٤) الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

وهكذا انكشف أمر المنافقين ، وافتضح مكنون أسرارهم ، إنهم كالحفافيش لا يسرون إلا في الظلمات ، وتغشى أعينهم أنوار الحق ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ، إذ أن قلب رسول الله ﷺ أنظف القلوب وأنقاها وأخشاها لله وأتقاها وأطيبها وأزكاها ، قال عبد الله بن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختره لرسالته ، لقد زكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (١) ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٢) ، وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ (٣) ، وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٤) ، وزكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (٥) ، وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (٦) ، وزكى أصحابه فقال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾ (٧) ، وزكى الله أهل بيته فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ (٨) .

ولن يستطيع المنافقون أن يثيروا الشبهات على هذا الجو الصافي الكريم .

ما ضر شمس الضحى في الأفق ساطعة أن لا يرى نورها من ليس ذا بصرٍ  
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمدٍ وينكر المرء طعم الماء من سقمٍ

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها  
ومهما حاول المنافقون أن يثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونها على أنفسهم وتبقى السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ما يضر البحر أمسى زائحاً إن رمى فيه غلام بحجر

وأنى لهم أن يحجبوا ضوء الشمس أو نور القمر ؟ إنهم كذبابة وهنأة تحاول بجناحيها أن تكسف ضوء شمسنا ، ونخسف نور قمرنا ، بل وأنى لهم ذلك وقد زكى الله نبينا كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (٩) . نعم ﴿ واستغفر الله ﴾ أى ألزم الاستغفار فى كل أمر من أمورك ، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب . ولقد كان الصادق المعصوم يقول : ( يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله وأستغفره فى اليوم مائة مرة ) (١٠) . قوله

(٥) الآية (١١) من سورة النجم .

(٦) الآية (١٧) من سورة النجم .

(٧) الآية (٢٩) من سورة الفتح .

(٨) الآية (٣٣) من سورة الأحزاب .

(١) الآية (٢) من سورة النجم .

(٢) الآية (٣) من سورة النجم .

(٣) الآية ٤ من سورة النجم .

(٤) الآية (٥) من سورة النجم .

(٩) الآية (٤) من سورة القلم .

(١٠) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الديات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٢٥٧) . والإمام أحمد فى (٤)

٢١١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤١٠ . وفى (٥) ٤١١ .

تعالى : ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة فعول وفعل ، أى عظيم المغفرة عظيم الرحمة لمن يقف ببابه ويلوذ بجانبه . وقد كان أحد الصالحين يناجى ربه فيقول : الهى . . أستحى أن أسألك وأنا أنا . . ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية . وقال آخر :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة      فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا محسن      فبمن يلوذ ويستجير الأثم  
أدعوك ربّ كما أمرت تكرماً      فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم  
مالى إليك وسيلة إلا الرضى      وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم ﴾ أى لا تنافح ولا تدافع عن الذين يخفون أنفسهم بارتكاب المخالفات عندما يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأى صورة من صور الإيذاء سواء كان ذلك أذى بالعين أو الأذن أو السرقة أو الغيبة أو غير ذلك مما يضر المسلمين . ﴿ إن الله لا يحب من كان خواناً أثمياً ﴾ أى كثير الخيانة والإثم . وعجيب أمر هؤلاء يستخفون من الناس ويخافونهم ، ولا يستخفون من الله والله معهم أينما كانوا .

الله يدرى كل ما تضرر      يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع      خداع من يطوى ومن ينشر

وكيف يكون منهم ذلك ويبيتون ما لا يرضى الله من القول ويعزمون على إحداث الفتنة والضلال ويكذبون على رسول الله ويريدون أن يتهموا البرىء ، وكان الله بما يعملون محيطاً .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ﴾ ، خطاب إلى المنافقين فيه توبيخ وتبكيت وتقريع ، فقد وقفوا موقف الدفاع عن صاحبهم الذى سرق وأخذوا يجادلون عنه أمام الصادق المعصوم ﷺ ، فقال لهم الله تعالى : ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ . لا أحد يستطيع ذلك . قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ (٢) ، وقال جل شأنه : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ أمن يكون عليهم كيلاً ﴾ ، أى يكونون إليه أمرهم ويفوضون إليه شئونهم ، وكل مسئول عن عمله . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ إلا أصحاب اليمين ﴿ ، ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ﴾ وصاحبته وأخيه ﴾ وفصيلته التى تؤويه ﴾ ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيهِ ﴿ (٤) . قال تعالى فى سورة عبس : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (٥) .

(٤) الآيتان (١١ - ١٤) من سورة المعارج .

(٥) الآية (٣٧) من سورة عبس .

(١) الآية (٣٨) من سورة النبأ .

(٢) الآية (١٠٥) من سورة هود .

(٣) الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة المرسلات .

ثم لماذا يصبر الباطل على موقفه ويحاول أن يصارع الحق في عرصات الدنيا ؟ وماذا على أهل الباطل لو آمنوا بالله واليوم الآخر وتابوا إلى الله وأنابوا واستغفروا ؟ أو ما قرءوا قوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ . وقوله جل شأنه ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ <sup>(١)</sup> . أو لم يعلم هؤلاء أن المسؤولية في الإسلام مسئولية فردية ؟ قال تعالى : ﴿ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى \* وإبراهيم الذي وفى \* أن لا تزر وازرة وزر أخرى \* وأن ليس للإنسان إلا ما سعى \* وأن سعيه سوف يرى \* ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكيف تصل الحال بهؤلاء المنافقين إلى حد أنهم يريدون أن يرموا البراء بما اقترفوا هم من الخطايا والآثام ؟ ألم يعلموا حكم الله في هذا ؟ ألم يسمعوا قوله تبارك اسمه : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ نعم البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

وفي نهاية المطاف : في هذه القصة يبين الله تعالى فضله على نبيه ومصطفاه وأنه ثبت على الحق وعصمه من شرك أهل الضلال وشباكهم فقال : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

وكيف يستطيع أحد على وجه الأرض أن يضل من عصمه الله من الخطأ وأحاطه بالعناية والرعاية والصيانة وخاطبه قائلاً : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ <sup>(٣)</sup> .

### أحكام تتعلق بالقضاء

ماذا يجب على القاضى

على القاضى أن يسوَّى بين الخصمين في خمسة أشياء :

٢ - والجلوس بين يديه

٤ - والاستماع لهما

١ - في الدخول عليه

٣ - والإقبال عليهما

٥ - والحكم عليهما .

(١) الآية (٨٢) من سورة طه .

(٢) الآيات (٣٦ - ٤١) من سورة النجم .

(٣) الآية (٦٧) من سورة المائدة .

والمطلوب منه التسوية بينهما في الأفعال ، ولا ينبغي أن يلقن واحداً منها حجته ولا شاهداً شهادته ، لأن ذلك يضر بأحد الخصمين .

ولا يلقن المدعى الدعوى والاستحلاف ، ولا يلقن المدعى عليه الإنكار والإقرار ، ولا يلقن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا ولا أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر ، لأن ذلك يكسر قلب الآخر ولا يجيب هو إلى ضيافة أحدهما ولا إلى ضيافتهما مادام متخاصمين .

وروى : أن النبي ﷺ كان لا يضيف الخصم إلا وخصمه معه ولا يقبل الهدية من أحد .  
عن بريدة أن النبي ﷺ قال : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً<sup>(١)</sup> » فما أخذه بعد ذلك فهو غلول .

وقال عليه الصلاة والسلام « لعنة الله على الراشي والمرتشي في الحكم » رواه أحمد .

### رسالة عمر بن الخطاب في القضاء

لقد وضع عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الدستور المحكم للقضاء في الرسالة التي أرسلها إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - ونذكرها فيما يلي : بسم الله الرحمن الرحيم . « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس<sup>(٢)</sup> سلام عليك أما بعد :

« فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أولى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس . بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ؛ إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهُديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى في الباطل » .

« الفهم الفهم فيما تَلَجَّلَجَ في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدأ ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعَمَى » .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنياً في ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام » .

(١) « رزقناه رزقاً » أى أدبنا إليه أجر عمله والفُلول أخذ المال بغير استحقاق .

(٢) عبد الله بن قيس هو اسم أبى موسى وأبو موسى كنيته ولقبه الأشعرى .

## المفردات

- ١ - آس بين الناس : سو بينهم  
 ٢ - حَيْفَكَ : أى ميلك معه لشرفه  
 ٣ - تَلَجَّلَج : تردد  
 ٤ - ظَنِينَ : متهم  
 ٥ - درأ : دفع  
 ٦ - القلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر  
 ٧ - تَخْلُقُ الناس : أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

## جزاء من يفعل الخير

\* لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

المفردات : النجوى : المسارة بالحديث ، أو هو جمع واجده نجى بمعنى المتناجين : أى المتسارين .  
 المعروف : ما تعرفه النفوس وتقره وتتلقاه بالقبول . ابتغاء الشيء : طلبه .

أخرج البيهقي عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى ﷺ قال له : « يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم ؟ فقال : بلى يا رسول الله ، قال : تصلح بين الناس إذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم إذا تباعدوا » ، وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

النجوى : عبارة عن الحديث الذى يدور بين الناس سرّاً ، وقد نفى الله تعالى الخيرية عن كثير من هذا الحديث ، أما الذى رغب فيه الشرع الكريم ، فذلك كالأمر بالصدقة والمعروف أو الإصلاح بين الناس ، وقد ألقى الله تعالى باللائمة على قوم نهاهم عن النجوى فعادوا إليها قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ (١) ثم وجه الله المؤمنين إلى النجوى التى يحبها فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ (٢) ثم بين سبحانه وتعالى مصدر النجوى المنهى عنها فقال ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣) .

(٣) سورة المجادلة آية رقم : ١٠ .

(١) سورة المجادلة آية : ٨ .

(٢) سورة المجادلة آية : ٩ .

فياحبذا النجوى إذا كانت بالبر والتقوى والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، ولا حبذا النجوى إذا كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، كما حدث من المنافقين الذين سبق ذكرهم في قوله تعالى ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾ <sup>(١)</sup> وقد سبق شرح ذلك في قصه طعمة بن أبيرق المنافق ، وقد وعد الله تعالى الأمرين بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس أجراً عظيماً ، إن هم فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله بعيداً عن الرياء والسمعة ، فهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيره تركه وشريكه ومن أَرْضَى الله بإسخطائهم كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته . فالإخلاص كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والرياء كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أُجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله .

### إتباع غير سبيل المؤمنين

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

المفردات : المشاقة : المعادة والمخالفة مأخوذة من الشَّقَّ كأن كل واحد من المتعادين يكون في شِقِّ غير الذي فيه الآخر .

بعد أن وعد الله تعالى أهل الخير بالجزاء الحسن والأجر العظيم ، أوعد أهل الضلال الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى واتبعوا غير سبيل المؤمنين ، أوعدهم بأنه سيوليهم الوجهة التي تولوها وأرادوها ؛ هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فقد أوعدهم بأنه سبحانه سيصليهم جهنم وساءت مصيرا .

إن الذين شاقوا الرسول وخرجوا على تعاليمه وناصبوه العداوة ؛ لاسيما بعد ما تبين لهم الهدى واضحا ، هؤلاء لاخلاق لهم في الآخرة ، ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴾ \* يوم يبعثهم الله جميعا فينبؤهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴿ <sup>(٢)</sup> وقال سبحانه : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾ <sup>(٣)</sup> ومن

(١) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .

(٢) سورة المجادلة آية رقم : ٥ ، ٦ .

(٣) سورة المجادلة آية رقم : ٢٠ .

يتبع غير سبيل المؤمنين ويخرج على إجماعهم الذي قال فيه الصادق المعصوم « لا تجتمع أمتي على ضلالة ». فإن الله تعالى يوجهه إلى ما توجه إليه وكان له فيه كسب واختيار وفي الآخرة مصيره النار وبئس القرار قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ \* ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ \* قال رب لما حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ﴾ \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿ (١) » .

### الشرك ذنب لا يغفر

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذَّنْ مِنْ عِبَادِكِ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا أَضِلَّهُمْ وَلَا مَنِئِهِمْ وَلَا مُرَنَّهُمْ فَلْيَبْتَكَنَّ إِذَا نَالَ نَعِيمٌ وَلَا مُرَنَّهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

المفردات : يدعون : أى يتوجهون ويطلبون منها المعونة لهية غيبية لا يعقل الإنسان معناها ، والشيطان : هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، والمريد والمارد : من مرد على الشيء إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بلا تكلف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر عن الطاعة .

واللعن : هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة ، والنصيب : الحصة والسهم من الشيء ، والمفروض : المعين والأمانى : جمع أمنية يقال تمنى الشيء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه .

والتمنى : تقدير شيء فى النفس وتصويره فيها سواء أكان عن تخمين وظن أم كان عن رؤية وبناء على أصل ، ولكنه يغلب فيما يبنى على الخدس والتخمين وما لا حقيقة له ، البتك : القطع ، وسيف باتك : أى



قاطع ، والتبتيك : التقطيع ، والغرور : الباطل ، والمحيص : المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا في حيص بيص وفي حاص باص أى في أمر يعسر التخلص منه .

الشرك كفر بوحداية الله ، فقد يكون الكفر ناشئاً عن النفاق<sup>(١)</sup> وقد يكون ناشئاً عن الشرك<sup>(٢)</sup> ، وقد يكون ناشئاً عن العناد<sup>(٣)</sup> ، وقد يكون ناشئاً عن الكبر<sup>(٤)</sup> .

وقد تجلت رحمة الله تعالى بعباده أنه يغفر من الذنوب ما دون الشرك : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٥)</sup> .

ولما كان الشرك أكبر الذنوب لما فيه من جحود الوجدانية بعد ظهور الآيات الدالة على إفراذ المعبود بالعبادة واعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ؛ لما كان ذلك كذلك فإن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، قال جل جلاله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾<sup>(٦)</sup> ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر الله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غني حميد \* وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴿<sup>(٧)</sup> فما عاقبة الشرك ؟ .

قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ جافى الحق وتنكب الجادة ، وحاد عن الصراط المستقيم ، وخاب وخسر وسفّه نفسه وعقله ، يتمثل ذلك في أن المشركين لا يلجأون إلى الله إنما يلجأون إلى أصنام ومخلوقات لا تملك موتاً ولا حياة ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، إن يدعون من دونه إلا إناثاً كمناة والعزى ، وإن يدعون إلا شيطانا مريداً من الجنة والناس ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾<sup>(٨)</sup> وقد يكون شيطان الإنس شراً من شيطان الجن .

ووصف الشيطان بأنه مريد لطغيانه وتمرده على أوامر الله ، لذلك استحق اللعنة ، قال تعالى : ﴿ لعنه الله أى طرده من رحمته مذهباً مدحوراً لذا قال : ﴿ لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ قال له الله : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾<sup>(٩)</sup> لذا فإن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وجاءت صور الضلال في قوله جل شأنه : ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ .

أما الإضلال فيكون بالشرك وعدم قبول الحق والإصرار على الباطل ، وأما الأماني فتكون بتزيين الشهوات واللذات ، وأما التبتيك فهو شق آذان الأنعام كالبحيرة التي تنذر لآهتهم ، وأما تغيير خلق الله فقد

(١) النفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر .

(٢) الشرك عبادة من لا يستحق أن يعبد من الكائنات من دون الله .

(٣) العناد معرفة الحق ورفضه رغم معرفته .

(٤) الكبر التعالى وعدم الاستجابة للحق كما فعل إبليس حينما رفض أمر الله بالسجود لآدم .

(٥) الآية رقم : ١١٠ من سورة النساء .

(٦) جزء من الآية رقم : ٣١ من سورة الحج .

(٧) سورة لقمان الآية رقم / ١٢ ، ١٣ .

(٨) جزء من الآية رقم : ١١٢ من سورة الأنعام .

(٩) جزء من الآية رقم : ٦٥ من سورة الإسراء .

يكون حسياً كالواصلة<sup>(١)</sup> والموصلة والواشمة والمستوشمة والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، وقد يكون معنوياً ، وذلك بتغيير الفطرة التي فطر الناس عليها ، وهى أى الفطرة دين الله قال تعالى : ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> : قال ﷺ ( كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه ) .

﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبيناً ﴾ فى الدنيا والآخرة فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى : ﴿ يعدهم ﴾ أى بالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله ، وبالغنى إذا مارسوا الميسر وأكل الربا وقبلوا الرشى ، ﴿ ويمنيهم ﴾ . بمغفرة الله لهم بعد اقترافهم هذه الذنوب : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقد حكم الله على أفعال الشيطان من الوعد والأمان فقال : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ أى باطلاً وخداعاً كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . أو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف كما حكم على أتباعه بقوله : ﴿ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أى مفراً ولا مهرباً .

ثم حكم سبحانه لأوليائه الذين آمنوا به رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً وعملوا الصالحات « فاجتمع لهم التصديق بالجنات والإقرار باللسان والعمل بالأركان حكم لهم سبحانه بقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ . فما أجل الخلود الأبدى فى النعيم المقيم ، هذا وعد من الله والله تعالى إذا وعد أنجز : ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ لا أحد أصدق من الله قولاً ولا أحد أصدق من الله حديثاً ولا أحد أصدق من الله وعداً .

### منطق العدالة الإلهية

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

(١) الواصلة من تصل شعرها بما ليس منه والموصلة من تحترف وصل الشعر والواشمة من تحترف صناعة الوشم والمستوشمة من تطلب الوشم من الوشم والمنتزعة التى تنتف شعر الحواجب وما أشبه للتجمل والمتفلجات اللات يلجان إلى تغليج ما بين الأسنان للحسن .

(٢) سورة الروم آية رقم : ٣٠ .

(٣) سورة فاطر ، آية رقم : ٦ .

المفردات : الأمانى : واحدها أمنية وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشئ وتقديره ، وكثيراً ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال عثمان رضى الله عنه : « ما تعنيت ولا تمنيت منذ أسلمت » ، ولياً : أى يلى أمره ويدفع العقاب عنه ، ولا نصيراً : أى ينصره وينقذه مما يحل به ، والنكير والنقرة : النكته التى تكون فى ظهر النواة وبها يضرب المثل فى القله ، الحنيف : المائل عن الزيغ والضلال ، والخليل : المحب لمن يحبه من الخلّة ( بالضم ) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس وتمازجها قال شاعرهم (١) .

قد تخللت مسلك الروح منى وبذا سمى الخليل خليلاً  
محيطاً : أى عالماً بالأشياء قادراً عليها .

أخرج ابن أبى شيبه عن الحسن موقوفاً « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما قر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملؤون بالذنوب ولو صدقوا الظن لأحسنوا العمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين . نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ﴿ ليس بأمانيكم ﴾ . الخ الآية ، فأفلج (٢) الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان الأخرى .

قوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾ أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاه أهله به أن يقول القائل منهم : إن دينه أفضل وأكمل ؛ بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه فإن الجزاء إنما يكون على العمل ، لا عمل التمنى والغرور : فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاه أهل الكتاب منوطاً بالأمانى فى الدين فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

ثم أكد ذلك وبينه بقوله : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ أى أن من يعمل سوءاً يلقى جزاءه ، لأن الجزاء بحسب سننه تعالى أثر طبيعى للعمل ، لا يتخلف فى اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون ، فعلى الصادق فى دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار فى سعادته ، لا أن يجعل تكاته أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

(١) الشاعر هو بشار بن برد ذكره الإمام القرطبي فى الجزء الخامس ص ٤٠٠ .

(٢) أفلج الله حجبتهم جعلها ظاهرة غالبية على غيرها .

روى « أنه لما نزل قوله ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبي ﷺ ، قال : من ينج مع هذا يارسول الله ؟ فقال له النبي ﷺ : أما تحزن ؟ أما تمرض أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يارسول الله قال : « هو ذاك »<sup>(١)</sup> .

وأخرج مسلم وغيره عن أبي هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « سدودا وقاربوا فإن في كل ما أصاب المسلم كفارة ، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ومن ثم . يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ويرى بعضهم أن المصائب لا تكفر إلا إذا أثرت في النفس تأثير صالحاً ، وكانت سبباً في قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة في صالح العمل بما تحدثه من العبرة ، فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصائب التي تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئاً من الخطايا بل تزيدها .

﴿ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أى من يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له ولياً غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيراً ينصره وينقذه مما يحل به ، لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التي اتخذها بعض البشر آلهة وأرباباً ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار في ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التي تصلح بها النفوس في أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى ، وهو مطمئن القلب بالإيمان — فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بركاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئاً ولو حقيراً كالنقير .

وفي هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التي يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين ؛ الذين يظنون أن الله يحابى من يسمى نفسه مسلماً ويفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا اللقب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرّموا الاهتداء بهديه هم في ضلال مبين .

وبعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان<sup>(٢)</sup> بصالح الأعمال مع الإيمان ، أردف ذلك ذكر درجات الكمال فقال : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى لا أحد أحسن ممن جعل

(١) رواه القرطبي ج ٥ ص ٣٩٧ ، ٣٩٨ بألفاظ مختلفة روايات عدة .

(٢) منوط به مرتبط به وجوداً وعدماً .

قلبه خالصاً لله وحده فلا يتوجه إلى غيره في دعاء ولا رجاء ، ولا يجعل بينه وبينه حجاباً من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى في الوجود إلا هو ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ؛ فلا يطلب شيئاً إلا من خزائن رحمته ، ولا يأق بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها . وهي السنن والأسباب التي سنّها في الخليقة . وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص . محسن للعمل متحل بأحسن الأخلاق والفضائل . وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه لأن الوجه أعظم مظهر لما في النفس من إقبال وسرور وكآبة ، وفيه هو الذي يدل على ما في السريرة .

﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أى واتبع إبراهيم في حنيفيته التي كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون \* إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴿ (١) .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ أى اصطفاه الله لإقامة دينه في بلاد غلبت عليها الوثنية ، وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلغى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلاً ، فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته وتؤتس طريقته ، والخلاصة - إنه من عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه في التوحيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة لما سبق بقوله : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أى أن كل ما في السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره ، ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدبير ، وإحاطة وجود ؛ لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ، ولا هي ابتدعت نفسها ، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهي هو المحيط بكل موجود ، فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

١ - بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه في كل حال : لأنه هو المالك لكل شيء وغيره لا يملك لنفسه شيئاً .

٢ - نفى ما يتوهم في اتخاذ الله إبراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة في حقيقة الذات والصفات .

٣ - التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده في الآيات التي قبلها إذ من له ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد .

## استفتاء وإفتاء وإرشاد

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَىٰ النِّسَاءِ  
الَّتِي لَا تُولَدْنَ لَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا  
لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرَةٌ خَافَتْ مِنْ  
بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ  
أَلْفُ نَفْسٍ الشَّعْ وَ إِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا  
بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ  
كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

المفردات : يستفتونك : أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه  
إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له . ما كتب لهن : أى ما فرض لهن من الميراث ، وأن  
تقوموا : أى تعنوا عناية خاصة ، بالقسط : أى بالعدل ، خافت : أى توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه  
أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا : ترفعا وتكبيرا ، إعراضا : ميلا وانحرافا ، فلا جناح : أى لا إثم  
ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح : أى إن الشح حاضر لها لا يغيب عنها ، والمعلقة التى ليست مطلقة  
ولا ذات بعل ، من سعته : من غناه . واسعا : غنيا .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث  
الصغير ولا المرأة شيئا ، فلما نزلت آيات الموارث فى أول سورة النساء شق ذلك على الناس ، وقالوا : أيرث  
الصغير الذى لا يقوم فى المال ، والمرأة التى هى كذلك ، فيرثان كما يرث الرجل ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك  
حديث من السماء ، فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حديث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد ، ثم  
قالوا : سلوا ؛ فسألوا النبى ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية قوله تعالى ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ﴾ أى  
يطلبون منا الفتيا فى شئونهم المالية والاجتماعية ، فإن للنساء فى الإسلام رسالة تقوم بها على تربية النساء  
وصيانة الرجال ؛ فلو قام الرجال بمعرفة الحقوق والواجبات التى بينها الله تعالى فى كتابه وسنة رسوله ﷺ  
كذلك لو قامت النساء بمعرفة الحقوق والواجبات ، فأدى كل من الرجال والنساء من الواجبات ما أوجبه الله  
عليه وأخذ حقوقه بالمعروف ؛ لاستقامت شئون الفرد والأسرة والمجتمع .

ولقد بين الله تعالى الحقوق والواجبات في قوله : ﴿لهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة﴾<sup>(١)</sup> والمقصود بالدرجة ما بينه الله تعالى في قوله : ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾<sup>(٢)</sup>.

ولما كثر السؤال في شئون النساء فقد فصل القرآن الكريم أحكام تلك الشئون في مواضع عديدة من سورة البقرة والنساء والنور والأحزاب والطلاق والتحريم ، وفي هذه السورة يقول تعالى : ﴿قل الله يفتيكم فيهن﴾<sup>(٣)</sup> والله جلّت قدرته وعظمته حكمته قوله الحق وحكمه الصدق ، فما أجدر الأمة أن تأخذ بأحكام ربط ، ثم يقوله سبحانه : ﴿وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ أي والذي سبق بيانه في هذه السورة الكريمة ، والذي يتلى عليكم فيها ، فيه بيان وإيضاح وتفصيل في يتامى النساء ، فلقد تحدثت السورة عن حقوق اليتيم وقد جاء الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم في الآية الثانية ، بعد أن أمرت الآية الأولى بتقوى الله وتقوى الأرحام من القطيعة ، جاءت الآية الثانية تأمر برعاية اليتيم في ماله قال تعالى : ﴿وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً﴾<sup>(٤)</sup>.

قوله تعالى : ﴿في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن﴾ بين الله تعالى الحكم في هذا ، فقد كانوا يمنعون الإناث من الميراث وكذلك الولدان الذين لم يبلغوا الحلم فجاء الحكم واضحاً وصريحاً في قوله جل شأنه ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾<sup>(٥)</sup> ثم فصل الله تعالى ذلك الحكم في قوله : ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف﴾<sup>(٥)</sup> فأثبت بذلك حقوق النساء والمستضعفين من الولدان ، أما قوله تعالى في شأن يتامى النساء ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ الرغبة هنا تحتل معنيين : إما أن تكون رغبة في نكاحهن لجمالهن وإما أن تكون رغبة عن نكاحهن وعدم تزويجهن لغيركم ؛ طمعاً من الولي في مال اليتيمة ، فيقيها تحت يده دون أن يزوجه لغيره ، حتى يستولى على مالها ، وقد بين الله الحكم في ذلك فيما يتلى علينا في الكتاب في قوله ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾<sup>(٦)</sup> فعلى الولي أن يرعى حق الله في اليتيمة ، فلا يمنعها من الزواج إن تقدم لها من يرضى دينه وأمانته ، وعليه أن يجاهد نفسه ويتقى الله فلا يمدن عينيه إلى مالها فإن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أشار النبي ﷺ بأصبعيه قائلاً « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » وقد جاء فيما يتلى علينا في الكتاب ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً﴾<sup>(٧)</sup> فليعلم ولي اليتيم أن « البر لا يبلى وأن الذنب لا ينسى وأن الديان لا يموت فاعمل

(٥) جزء من الآية رقم : ١١ من سورة النساء .

(٦) جزء من الآية رقم : ٣ من سورة النساء .

(٧) الآية رقم : ١٠ من سورة النساء .

(١) جزء من الآية رقم : ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٢) جزء من الآية رقم : ٣٣ من سورة النساء .

(٣) الآية رقم : ٢ من سورة النساء .

(٤) الآية رقم : ٧ من سورة النساء .

ما شئت كما تدين تدان»<sup>(١)</sup> وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال به عليك ، فمن أراد أن يحفظ الله عليه ماله ، ويبارك فى ذريته من بعده ، فليعمل بقوله جل شأنه : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكما أوصى الله باليتامى خيراً فى ما هن وزواجهن ومعاملتهن ، أوصى بالمستضعفين من الولدان فقال : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ وقد كانوا يجرمون من الميراث ، ففصل الله فى الأمر وأمر بايتائهم حقوقهم كما أمر بالقيام لليتامى بالقسط ورعاية الشئون الخاصة بالمعاملة من حيث جميع نواحيها ، ثم رغب الله تعالى فى فعل الخير حتى يشحذ الهمم ويحرك كوامن النفوس فقال : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ .

### نشوز الرجل

قال تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ إذا كان النشوز من جهة المرأة تخيف خروجها على طاعة الزوج وتمردها على حسن المعاشرة فإن الله تعالى بين طرق الإصلاح فى قوله : ﴿ واللاى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليماً كبيراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

وإن كان النشوز من جهة الرجل ، فإن الله تعالى يبين طريق الإصلاح فى ذلك فقال : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ وقد يكون الصلح بإعطائه شيئاً من مالها على سبيل أن ترضى نفسه ويطيب قلبه وقد يكون الصلح بتنازلهما عن بعض حقوقها<sup>(٤)</sup> .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت : لا تطلقنى ودعنى أقوم بتربية ولدى وتقسم لى فى كل شهرين . فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب لى والصلح خير من الطلاق والشقاق والخلاف الذى يهدم كيان الأسرة ويقطع رابطة من أقدس الروابط .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾<sup>(٥)</sup> وإن كان النشوز منها معاً يبين الله الحكم فى ذلك فقال : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) استخدام وتضمنين من حديث نبوى شريف لفظه : « البر لا يبل والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان » .

(٢) الآية رقم : ٩ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآية رقم / ٣٤ من سورة النساء .

(٤) ذكر الإمام القرطبى رأياً لمقاتل بن حيان : أن يعطيها من ماله ليعوضها عن نشوزها ج ٥ ص ٤٠٥ .

(٥) جزء من الآية رقم : ٢٢٩ من سورة البقرة .

(٦) الآية رقم : ٣٥ من سورة النساء .



أما قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ فمعناه أن النفوس قد لا يغيب البخل عنها إلا من شاء الله له الفلاح فهو ممن أدركهم الحق بلطف بره في قوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾<sup>(١)</sup> فإذا كان الإصلاح بإعطاء شيء من المال أو بالتنازل عن بعض الحقوق في سبيل إصلاح الأسرة ودوام المعاشرة فإن ذلك أمر محبوب ومرغوب بل إن ذلك من عزم الأمور التي رغب الله تعالى فيها بقوله : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ .

### العدل بين النساء

قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ . العدل في هذه الآية غيره في قوله تعالى : ﴿ فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة ﴾<sup>(٢)</sup> ، إذ العدل في آية التعدد المقصود به العدل المادي في النفقة والسكنى أما العدل في هذه الآية ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فالمقصود به العدل القلبي فقد يميل القلب إلى إحداهن بعض الميل فعلى المرء أن يقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك »<sup>(٣)</sup> ، فالميل من أعمال القلوب ، لذا كان المنهي عنه كل الميل لا بعضه ، وهذا أمر ممكن فلا تناقض بين الآيتين ، حاشا لله أن يقع في كلامه أدنى تناقض ؛ وذلك لأن العدل هناك عدل مادي وهو ممكن أما العدل هنا فهو ميل قلبي قد يقع بعضه فلا شيء فيه ، والمنهي عنه أن يقع كله لذلك قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ والمرأة المعلقة هي التي أساء زوجها عشرتها فلا هي متزوجة ولا هي مطلقة ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى : أن صدق النية في الإصلاح وتقوى الله يغفر الله به ما قد يتجاوز العبد من صفات الأمور ، قال سبحانه : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

### داء استعصى دواؤه

إذا تعمس العلاج وتعذر الدواء ولم يكن هناك مفر من الطلاق فإن الله تعالى عالج هذا الموقف بقوله : ﴿ وإن يفرقا يغن الله كلا من سعته » ، وذلك حتى لا يخطئ الحساب فيأت بأوخم العواقب والقاعدة في ذلك أنه « لا ضرر ولا ضرار » فليذهب كل من الزوجين إلى حال سبيله ، وكان الله واسعاً حكيمياً ، واسع الرحمة والمغفرة موصوف بالحكمة منزّه عن العبث .

(١) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الحشر .

(٢) في الآية الثانية من سورة النساء .

(٣) حديث نبوي شريف رواه الإمام القرطبي ج ٥ ص ٤٠٧ وقد روى في نفس السياق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

### التقوى هى السلاح الأقوى

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾  
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَتَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾

المفردات : وصينا : أى أمرناهم أمراً مؤكداً ، أوتوا الكتاب من قبلكم : المقصود بالكتاب التوراة والزبور والإنجيل ، غنيا : أى مستغنيا عن كل ما سواه . حميدا : أى محمود في ذاته وصفاته وأفعاله .

بعدما بين الله تعالى من الأحكام ما فيه سعادة الخلق ، ذكر سبحانه هنا أنه مالك الملك المتصرف العليم المرید القدير الغنى الحميد الوكيل المقتدر السميع البصير ، وأنه سبحانه شرع ما شرع وبين من الأحكام ما بين لصالح الخلق ، وأنه تعالى قد وصى الأمم السابقة كما وصى أمة خاتم الأنبياء بتقواه جل في علاه ، فالتقوى هى السلاح الأقوى ، وهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السيد  
فتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

جاء في الحديث القدسي « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي

(١) جزء من الآية رقم : ٧ من سورة الزمر .

(٢) الآية رقم : ٤٦ من سورة فصلت .

لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل في البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم واللفظ لمسلم :

هو سبحانه الوكيل القائم على كل نفس بما كسبت ، القيوم على جميع خلقه ، الذي يجب أن تكلوا إليه أموركم ، وتعتمدوا عليه في قضاء حوائجكم ، قال تعالى : ﴿ والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

كن عن همومك معرضاً      وکیل<sup>(١)</sup> الأمور إلى القضاء  
وانعم بطول سلامة      تسليك عما قد مضى  
فلربما اتسع الضيق      وربما ضاق الفضاء  
ولرب أمر مسخط لك      في عواقبه رضا  
الله يفعل ما يشاء      فلا تكن متعرضاً

ومن مظاهر قدرته جل في علاه أنه القادر على إفنائكم ؛ ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد \* إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد \* وما ذلك على الله بعزيز ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله جل في علاه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكقوله جل جلاله : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾<sup>(٤)</sup> .

إذا كان ذلك معلوماً لديكم أيها الناس فابتغوا ما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة ، وادعوا الله مخلصين له الدين ، وقولوا : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾<sup>(٥)</sup> ولا تجعلوا همكم ومبلغ علمكم الدنيا ، « فإن من أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتبه الله له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة »<sup>(٦)</sup> ومن ثم جاء قوله تعالى مرشداً وهادياً : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾<sup>(٧)</sup> فاطلبوهما معاً ، فالدنيا قطرة للآخرة ، وهي كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر

(١) فعل أمر من وكل : بكل .

(٢) الآيات رقم : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ - من سورة فاطر .

(٣) الآية رقم : ١٧ من سورة المائدة .

(٤) جزء من الآية رقم / ٣٨ من سورة القتال أو عمده - .

(٥) جزء من الآية رقم : ٢٠١ من سورة البقرة وهو من أدعية القرآن الكريم التي علمها رسول الله ﷺ لأصحابه وأهله .

(٦) من تحذير رسول الله ﷺ لأصحابه .

(٧) من الآية رقم : ١٣٤ من سورة النساء .

فيه من خسر ، والدنيا دار مفرو والآخرة دار مقر ، فخذوا من مفركم لمفركم ، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم رقيب على حركاتكم وسكناتكم فاعبدوا الله كأنكم ترونه فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم .

### كونوا شهداء لله

\* يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدِينَ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوَّلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۚ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰئِكَتِهِ ۖ وَكُتُبِهِ ۖ وَرُسُلِهِ ۖ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾

المفردات : ﴿ قوامين ﴾ جمع قوام وهو المبالغ في القيام بالشىء حتى يأتى به على خير وجه ، انظر إلى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ (١) : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾ (٢) : ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾ (٣) ، ﴿ تلووا ﴾ أى أليستكم بالشهادة والمراد تحرفونها ولا تأتون بها على وجهها ، فإن اللئى هو التحريف وتعمد الكذب ﴿ تعرضوا عنها ﴾ لا تؤدوها .

قال عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص (٤) على أهل خير ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : ( والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ولأنتم أبغض إلى من أعدائكم من القردة والخنازير ) (٥) وما يحملنى حبى إياه ويغضى لكم على أن لا أعدل فيكم ؟ فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض ) . وقال ﷺ : ( خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسئله ) .

وفى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ أى بالعدل ، والعدل لا يتجزأ ، كما أن الشهادة إذا أديت لله وابتغاء مرضاته فإنها أيضا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فإذا رأيت كالشمس فاشهد وإلا فلا ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، والعدل هو العدل ، والشهادة : هى الشهادة على نفسك وعلى والديك والأقربين والغنى والفقير ، فلا مراعاة

(١) جزء من آيات كثيرة فى سور القرآن أولها سورة البقرة الآية رقم : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ .

(٢) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الرحمن .

(٣) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الطلاق .

(٤) أرسله رسول الله ﷺ ليقدر ما عليهم من أموال وثمار .

(٥) إشارة منه إلى ما عذب الله به بعضهم فى الآية ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ... ﴾ الآية : ٦٠ من سورة المائدة .

ولا انحراف ولا إعراض ، فلا يحملنكم الهوى كما لا تحملنكم العصبية والمحسوبية على ترك العدل : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (١) والحق أحق أن يتبع ، وإن تلووا الشهادة بالسنتكم لتحرفوها أو تعرضوا عن قول الحق فإن الله كان بما تعملون خبيراً بدقائق الأمور وحقائقها .

ثم يأتي الخطاب الثاني بالثبات على الإيمان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ، أى اثبتوا وداوموا على الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله داعياً إلى الله بإذنه ، وآمنوا بالقرآن الذي نزل على رسوله منجماً حسب الأسباب ومقتضيات الأحوال ، كما أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل : من توراة وزبور وإنجيل ، فمن كفر بنبي أو بكتاب فقد كفر كفراً مخلداً في النار ، كذلك قال الله تعالى : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ . فما من نبي بعثه الله إلا ودعا قومه بالإيمان بهذه الأصول فمن خرج عن أصل منها فقد خسر خسرانا مبيناً وضل ضلالاً بعيداً .

### صفات المنافقين وخصائصهم

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٢٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٢٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٣٠﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٣١﴾

(١) جزء من الآية رقم : ٨ من سورة المائدة .

المفردات : ﴿ بشر ﴾ المراد أنذر وإنما قال بشر تهكما بهم . ﴿ العزة ﴾ القوة والمنعة <sup>(١)</sup> ﴿ يترصدون بكم ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم . ﴿ نستحوذ عليكم ﴾ الاستحواذ هو الاستيلاء والمراد ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم ومنعنا المؤمنين من قتلكم .

أخبر الله تعالى في قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ﴾ أخبر عن قوم لم يتمكن الإيمان في قلوبهم ، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر ، لا يثبتون على حال ولا يستقرون في أى مجال ، لقد آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا وازدادوا ضلالا فازدادوا كفرا : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> من أحوال هؤلاء : ﴿ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزون ﴾ <sup>(٣)</sup> . إنهم من ذوى الوجوه المتقلبة والقلوب المريضة ، يلبسون لكل مقاما لبوسه ، يأكلون على كل الموائد ، قلوبهم أمرٌ من الصبر <sup>(٤)</sup> وألستهم أحلى من العسل ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إذا رأوك حسدوك ، وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، هؤلاء الذين ازدادوا كفرا لن يغفر الله لهم حيث ماتوا على ذلك ، ولن يهديهم سبيلا إلى الجنة إذ أنهم سيبعثون على ما ماتوا عليه .

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهاباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾ البشارة لا تستعمل غالباً إلا في سار الأخبار إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعملها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ ، أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقدر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب .

ثم بين الله بعض صفاتهم التى تستوجب الذم فقال : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ أى هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا ، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ، ويمالئون الكافرين عليهم اعتقاداً منهم أن الدولة ستكون لهم ، فيجعلون لهم يداً عندهم .

ثم وبخهم الله على ما فعلوا فقال : ﴿ أبيتون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ العزة : القوة والمنعة : أى إن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه ، وبينوا هم أسبابها ، وقد آتاها

(١) (بخوضوا) لما كان الكلام من المنافقين منافياً لطبيعة الإيمان والحق كانوا كمن يلقون بأنفسهم في لجة ويخوضوا فيها .

(٢) الآية رقم ٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية رقم ١٤ من سورة البقرة .

(٤) كناية عن الحقد الشديد المرارة ، والصبر والصبار نبات مر الطعم شديد المارة .

(٥) الايتان رقم : ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .

المؤمنين ، حينما اهتمدوا بكتابه ، وساروا على سنته ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التي اعتر بها أسلافهم ذلوا وخنعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين ، يبتغون عندهم عزة وشرفا وما هم بمدركين .

قوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ .

في هذه الآية الكريمة نهى من الله تعالى للمؤمنين عن القعود مع هؤلاء النفر المارقين ، الذين مرضت قلوبهم بداء النفاق وهو كما قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ إنكم إذا مثلهم ﴾ أى إذا جالستموهم وهم يكفرون ويستهزئون بالآيات فإنكم تشركون معهم في الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وقد حكم الله على كل من المنافقين والكافرين بحكمه العادل القاطع الذى لا يقبل نقضا ، فقال : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا ﴾ فالكفر كله ملة واحدة ؛ سواء أكان ناشئا عن نفاق أو جحود أو شرك أو عناد أو كبر .

قوله تعالى ﴿ الذين يترصدون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ . هذه أحوال المنافقين في كل زمان ومكان ، تراهم دائما إذا الريح مالت مالوا حيث تميل فهم دائما في حالة تربص وانتظار ، إن كان النصر للمؤمنين أطلقوا لسبقانهم الريح طمعاً في الغنائم وعرض الدنيا ، ويقولون لهم ﴿ ألم نكن معكم ﴾ وإن كانت الدائرة للكافرين سعوا إليهم ، وقالوا لهم ﴿ ألم نستحوذ عليكم ﴾ الاستفهام هنا للتقرير أى : لقد تمكنا منكم وكنا نستطيع هزيمتكم ولكننا لم نفعل ذلك ، ولقد منعناكم من المؤمنين وحميناكم منهم ، كل ذلك يبتغون به عرض الحياة الدنيا الزائل ومتاعها الفانى ، وماذا عليهم لو صدقوا الله ورسوله ؟ لذا جاء الحكم من الله العلى الكبير ﴿ فאלله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ فكلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ (٢) .

### من صفات المنافقين

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١) جزء من الآية رقم : ٦٨ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان رقم : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

المفردات : الخداع : إيهام غيرك أن الشيء على ما يجب ويريد ، بتزيينك له وهو على غير ذلك ، كسالى : واحد هم كسلان وهو المتناقل المتباطئ المراءاة : من الرؤية وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل . الذبذبة حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ، ثم استعملت في كل اضطراب وحركة .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من صفات المنافقين إلى صفات المنافقين ، أن أفعالهم مبنية على الخداع ، حتى بلغوا من ذلك مبلغاً ظنوا به أنهم يخادعون الله علام الغيوب ، وعميت قلوبهم عن حقيقة الأمر ونسوا أن الله يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور ، والله خادعهم أى مجازيهم على فعلهم هذا .

الله يدري كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ومن صفاتهم أيضاً أنهم : إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم في حالة كسل وتباطؤ وتناقل ، كأنهم يحملون على ظهورهم جبالا ، مع أن الله تعالى جعل في الصلاة راحة للقلوب إذا صلت ، وسكينة للنفوس إذا كلت كان رسول الله ﷺ يقول لبلال رضى الله عنه « ارحنا بها يا بلال » والصلاة مفتاح الجنة وهى كهف المؤمن قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ (١) وقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ (٢) وقال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً \* إذا مسه الشر جزوعاً \* وإذا مسه الخير منوعاً \* إلا المصلين \* الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ (٣) .

وقد سأل الإمام على كرم الله وجهه رسول الله ﷺ قائلاً له : « ما سنتك يا رسول الله ؟ قال : المعرفة رأسمالي والعقل ديني ، والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى والصبر ردائى ، والرضا غيمتى ، والفقر فخرى والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهد خلقى ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحه العادات رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم المصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع ، وكيف سادت العلية بالزراع حين مست الأرض الحياة ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاء سواء فى عتبة الله .

إن المؤمنين إذا وقفوا بين يدى الله فى الصلاة عاشوا فى روحانيات صافية ، إنهم عندئذ يسلكون مدارج الأنوار ، ويقفون على حقائق الأسرار ، ويعيشون فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

(١) الأيتان الأوليان من سورة المؤمنون .

(٢) الآية التاسعة من سورة المؤمنون .

(٣) الآيات رقم : ١٩ إلى ٢٣ من سورة المعارج .



أما المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة فهم كسالى متباطئون ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لا يقصدون بها وجه الله ، ولا يؤدونها ابتغاء مرضاته ، إنما يراءون بها الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، أى عندما يراهم الناس ، حتى يظهروا أمامهم محبتين خاشعين ، فإذا ما خلوا بأنفسهم بارزوا الله بالعظام : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾ (١) إنهم مذبذبون مترددون متحيرون لا هم كافرون ولا هم مؤمنون ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم وراء الهوى ووراء المصلحة والمنفعة والغنائم ، ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ (٢) إنهم محكوم عليهم بالضلال لأنهم سدوا منافذ المعرفة عن رؤية الحق ، ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ (٣) ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٤) فلن تجد هؤلاء سبيلا إلى طريق الهدى والحق أعاذنا الله منهم وعافانا من أفعالهم .

### نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ  
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾  
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ  
يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا  
عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ أولياء ﴾ أى لا تتخذوا الكافرين أعواناً ونصراء . ﴿ من دون المؤمنين ﴾ أى حالة كونكم متجاوزين لهم . ﴿ سلطاناً ﴾ حجة قوية ظاهرة ﴿ الدرك الأسفل ﴾ الطبقة التى فى قعر جهنم .  
لما بينت الآيات السابقة قبائح المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ، ونسوا أن العزة لله جميعاً ، فمن أراد قوة فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن أراد مؤنساً فتقوى الله تكفيه ومن لم يكفه شئ من هذا فإن النار تكفيه .

(١) جزء من الآية رقم : ١٠٨ من سورة النساء .

(٢) الآية رقم : ١٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية رقم : ١٨ من سورة البقرة .

(٤) من الآية رقم : ٥ من سورة الصف .

لما كان ذلك كذلك فقد وجه الله النهى الحازم الجازم إلى الجماعة المسلمة المؤمنة ينهاهم سبحانه عن اتخاذ الكافرين أعواناً ونصرأء من دون المؤمنين ، فإن الكفر كله ملة واحدة ، سواء أكان كفر نفاق أو كفر شرك أو عناد أو مكابرة ثم قال لهم سبحانه ﴿ تريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أى حجة قوية على استحقاقكم العقاب .

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾ والمقصود به قعر جهنم فالنار دركات كل درك أسفل من غيره والجنة درجات لأن كل درجة<sup>(١)</sup> أعلى مما قبلها .

ذلك لأن النفاق فى العقيدة أشد من الكفر فاستحق المنافقون أن يكونوا فى الدرك الأسفل ، لأن الكافر يُظهرُ كفره ، أما المنافق فيظهر الإيمان ويضمّر الكفر ، لذا استحقوا الدرك الأسفل ولن تجد لهم من ينصرهم من دون الله .

### هل لهم من توبة

الذنوب كالأمراض ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به ، وقد أراد الله وسعت رحمته أن يفتح باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وتغرب فى مشرقها ، عندئذ لا يقبل الله توبة من كافر قال تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولما كانت الأمراض مختلفة اختلف الدواء باختلافها ، فتوبة آكل الربا كما قال الله تعالى : ﴿ وإن تبتم فلکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾<sup>(٣)</sup> وتوبة آكل مال اليتيم أن يرد الحقوق إلى أصحابها ، وتوبة المغتاب أن يستسمح من اغتابه ، ويمدحه فى المجالس الذى ذمه فيها ، إلى غير ذلك وقد جاءت توبة المنافقين مبينة فى قوله جل شأنه : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ فيشترط فى هذه التوبة أن تكون إقلاعاً عن الذنب وعزماً على عدم العود وندماً على ما فات ، وإصلاحاً بين الناس وبين الإنسان ونفسه ، واعتصاماً بالله وكتابه وسنة رسوله ، وإخلاصاً فى الدين لا رياء فيه ولا سمعة ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾<sup>(٤)</sup> قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾<sup>(٥)</sup> . إذا تمت لهم تلك الشروط فى توبتهم حكم الله بهم بقوله : ﴿ فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى

(١) الدرك المنزلة الوضعية والدرجة المنزلة الرفيعة .

(٢) جزء من الآية رقم : ١٥٨ من سورة الأنعام .

(٣) جزء من الآية رقم : ٢٧٩ من سورة البقرة .

(٤) الآية رقم : ١١٠ من سورة الكهف .

(٥) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الزمر .

الله المؤمنين أجراً عظيماً \* درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً \* ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴿١﴾ . إن الله تعالى لا يعذب العاصي حياً في العقاب ، ولا تعطشاً إلى العذاب ، ولا تصيداً للأخطاء إنما بمنطق العدالة الإلهية ﴿٢﴾ أفنجعل المسلمين كالمجرمين \* ما لكم كيف تحكمون ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ﴿٥﴾ ؟ فإن شكر هؤلاء العصاة وآمنوا واعتصموا بالله وجعلوا وجهتهم إرضاء الله رفع الله عنهم كل ابتلاء وانتقام ، وشكر الله لهم صنيعهم وأثابهم عليه جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومنحهم رضوانه وأولاهم مغفرته ، وكان الله شاكراً عليماً .

(١) الآيتان رقم ٢٥ ، ٢٦ من سورة القلم .

(٢) من الآية رقم ٢٨ من سورة ص .



## محتويات المجلد الأول

الصفحة

٧	مقدمة الناشر .....
٩	مقدمة الشيخ عبد الحميد كشك .....

### الجزء الأول

( سورة الفاتحة ، سورة البقرة الآيات من ١ - ١٤١ )

٥٥	سورة الفاتحة مكية وآياتها سبع .....
٥٥	تفسير الآيات من ١ - ٧ .....
	سورة البقرة مدنية وآياتها ست وثمانون ومائتان .....
٧٥	مقدمة السورة .....
٨١	الآيات من ١ - ٤ الم . ذلك الكتاب لاريب فيه .....
٩٠	الآيات من ٥ - ٧ أولئك على هدى من ربهم .....
٩٣	الآيات من ٨ - ٢٠ ومن الناس من يقول آمنا بالله .....
١٠٩	الآيات من ٢١ - ٢٢ يأبها الناس أعبدوا ربكم .....
١٢١	الآيات من ٢٣ - ٢٤ وإن كنتم في ريب .....
١٢٣	الآية ٢٥ وبشر الذين آمنوا .....
١٢٦	الآيات من ٢٦ - ٢٧ إن الله لا يستحي .....
١٣١	الآيات من ٢٨ - ٢٩ كيف تفكرون بالله وكنتم أمواتا .....
١٣٣	الآيات من ٣٠ - ٣٣ وإذا قال ربك للملائكة .....
١٣٩	الآيات من ٣٤ - ٤٦ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم .....
١٦٣	الآيات من ٤٧ - ٥٤ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي .....
١٦٩	الآيات من ٥٥ - ٥٦ وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن .....
١٧٠	الآية ٥٧ وظللنا عليكم الغمام .....
١٧٢	الآيات من ٥٨ - ٥٩ وإذا قلنا ادخلوا هذه القرية .....
١٧٥	الآيات من ٦٠ - ٦١ وإذا استسقى موسى لقومه .....
١٧٧	الآية ٦٢ إن الذين آمنوا والذين هادوا .....
١٨٠	الآيات من ٦٣ - ٦٦ وإذا أخذنا ميثاقكم .....
١٨٢	الآيات من ٦٧ - ٧٣ وإذا قال موسى لقومه .....
١٩٠	الآية ٧٤ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك .....
١٩٢	الآيات من ٧٥ - ٧٩ أفنطمعون أن يؤمنوا لكم .....
١٩٥	الآيات من ٨٠ - ٨٢ وقالوا لن تمسنا النار .....
١٩٩	الآية ٨٣ وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل .....
٢٠٢	الآيات من ٨٤ - ٨٦ وإذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم .....
٢٠٤	الآية ٨٧ ولقد آتينا موسى الكتاب .....

٢٠٦	وقالوا قلوبنا غلف	الآيات من ٨٨ — ٩١
٢٠٨	ولقد جاءكم موسى بالبينات	الآيات من ٩٢ — ٩٦
٢١١	قل من كان عدوا لجبريل	الآيات من ٩٧ — ١٠٠
٢١٦	ولما جاءهم رسول من عند الله	الآيات من ١٠١ — ١٠٣
٢٢٤	يأياها الذين آمنوا لاتقولوا	الآيات من ١٠٤ — ١٠٥
٢٢٧	مانسخ من آية	الآيات من ١٠٦ — ١٠٨
٢٣٠	ود كثير من أهل الكتاب	الآيات من ١٠٩ — ١١٠
٢٣١	وقالوا لن يدخل الجنة	الآيات من ١١١ — ١١٣
٢٣٣	ومن أظلم ممن منع مساجد الله	الآيات من ١١٤ — ١١٥
٢٣٦	وقالوا اتخذ الله	الآيات من ١١٦ — ١١٨
٢٤٠	إنا أرسلناك بالحق بشيراً	الآية ١١٩
٢٤٢	ولن ترضى عنك اليهود	الآيات من ١٢٠ — ١٢١
٢٤٥	يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي	الآيات من ١٢٢ — ١٢٤
٢٤٨	وإذ جعلنا البيت مثابة	الآيات من ١٢٥ — ١٢٦
٢٥٢	وإذ يرفع إبراهيم القواعد	الآيات من ١٢٧ — ١٢٩
٢٥٦	ومن يرغب عن ملة إبراهيم	الآيات من ١٣٠ — ١٣٤
٢٥٩	وقالوا كونوا هوداً أو نصارى	الآيات من ١٣٥ — ١٣٨
٢٦٢	قل أحتاجوننا في الله وهو ربنا	الآيات من ١٣٩ — ١٤١

## الجزء الثاني

( سورة البقرة الآيات من ١٤٢ — ٢٥٢ )

٢٦٥	سيقول السفهاء من الناس	الآيات من ١٤٢ — ١٤٣
٢٧٠	قد نرى تقلب وجهك في السماء	الآيات من ١٤٤ — ١٤٧
٢٧٣	ولكل وجهة هو موليها	الآيات من ١٤٨ — ١٥٢
٢٧٧	يأياها الذين آمنوا استعينوا بالصبر	الآيات من ١٥٣ — ١٥٧
٢٨٢	إن الصفا والمروة من شعائر الله	الآية ١٥٨
٢٨٢	إن الذين يكتُمون ما أنزلنا	الآيات من ١٥٩ — ١٦٢
٢٨٦	وللهكم إله واحد	الآيات من ١٦٣ — ١٦٤
٢٩٦	ومن الناس من يتخذ من دون الله	الآيات من ١٦٥ — ١٦٧
٢٩٨	يأياها الناس كلوا مما في الأرض	الآيات من ١٦٨ — ١٧١
٣٠٢	يأياها الذين آمنوا كلوا من طيبات	الآيات من ١٧٢ — ١٧٣
٣٠٨	إن الذين يكتُمون ما أنزل الله	الآيات من ١٧٤ — ١٧٦
٣١٠	ليس البر أن تولوا وجوهكم	الآية ١٧٧
٣٢٠	يأياها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص	الآيات من ١٧٨ — ١٧٩
٣٢٣	كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت	الآيات من ١٨٠ — ١٨٢
٣٣٣	يأياها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام	الآيات من ١٨٣ — ١٨٤
٣٤٠	شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن	الآية ١٨٥

٣٤١	..... وإذا سألك عبادى عني	١٨٦	الآية
٣٤٣	..... أحل لكم ليلة الصيام	١٨٧	الآية
٣٤٤	..... ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل	١٨٨	الآية
٣٤٦	..... يستلونك عن الأهله	١٨٩	الآية
٣٤٧	..... وقاتلوا في سبيل الله	١٩٠ - ١٩٣	الآيات من
٣٥٧	..... الشهر الحرام بالشهر الحرام	١٩٤ - ١٩٥	الآيات من
٣٦١	..... وأتموا الحج والعمرة لله	١٩٦	الآية
٣٦٤	..... الحج أشهر معلومات	١٩٧	الآية
٣٦٧	..... ليس عليكم جناح	١٩٨ - ١٩٩	الآيات من
٣٧١	..... فإذا قضيت مناسككم	٢٠٠ - ٢٠٣	الآيات من
٣٨٣	..... ومن الناس من يعجبك قوله	٢٠٤ - ٢٠٧	الآيات من
٣٨٦	..... يأبها الذين آمنوا ادخلوا في السلم	٢٠٨ - ٢١٠	الآيات من
٣٨٨	..... سل بنى إسرائيل	٢١١ - ٢١٢	الآيات من
٣٩٠	..... كان الناس أمة واحدة	٢١٣	الآية
٣٩٢	..... أم حسبم أن تدخلوا الجنة	٢١٤	الآية
٣٩٤	..... يستلونك ماذا ينفقون	٢١٥ - ٢١٨	الآيات من
٣٩٩	..... يستلونك عن الخمر	٢١٩ - ٢٢٠	الآيات من
٤٠٧	..... ولا تنكحوا المشركات	٢٢١	الآية
٤١٦	..... ويستلونك عن المحيض	٢٢٢ - ٢٢٣	الآيات من
٤٣٠	..... ولا تجعلوا الله عرضة	٢٢٤ - ٢٢٧	الآيات من
٤٣٩	..... والمطلقات يتربصن	٢٢٨	الآية
٤٤٤	..... الطلاق مرتان	٢٢٩	الآية
٤٥٦	..... فإن طلقها فلا تحل له	٢٣٠	الآية
٤٥٨	..... وإذا طلقتم النساء	٢٣١	الآية
٤٦٠	..... وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن	٢٣٢	الآية
٤٦٢	..... والوالدات يرضعن	٢٣٣	الآية
٤٦٧	..... والذين يتوفون منكم	٢٣٤ - ٢٣٥	الآيات من
٤٧١	..... لا جناح عليكم إن طلقتم النساء	٢٣٦ - ٢٣٧	الآيات من
٤٧٤	..... حافظوا على الصلوات	٢٣٨ - ٢٣٩	الآيات من
٤٧٦	..... والذين يتوفون منكم	٢٤٠ - ٢٤٢	الآيات من
٤٧٨	..... ألم تر إلى الذين	٢٤٣ - ٢٤٤	الآيات من
٤٨٠	..... من ذا الذى يقرض الله	٢٤٥	الآية
٤٨١	..... ألم تر إلى الملا من بنى إسرائيل	٢٤٦ - ٢٤٧	الآيات من
٤٨٣	..... وقال لهم نبيهم أن	٢٤٨ - ٢٥٢	الآيات من

## الجزء الثالث

(سورة البقرة الآيات من ٢٥٣ - ٢٨٦ - سورة آل عمران الآيات من ١ - ٩٢)

٤٨٩	..... تلك الرسل فضلنا	٢٥٣	الآية
٤٩٣	..... يأبها الذين آمنوا	٢٥٤	الآية

٤٩٤	الله لا إله إلا هو	٢٥٥	الآية
٥٠٠	لا إكراه في الدين	٢٥٦ — ٢٥٧	الآيات من
٥٠١	ألم تر إلى الذي حاج	٢٥٨	الآية
٥٠٣	أو كالذي مر على قرية	٢٥٩	الآية
٥٠٤	وإذ قال إبراهيم	٢٦٠	الآية
٥٠٥	مثل الذين ينفقون أموالهم	٢٦١ — ٢٦٤	الآيات من
٥٠٨	ومثل الذين ينفقون أموالهم	٢٦٥ — ٢٦٦	الآيات من
٥١١	يأبى الذين آمنوا	٢٦٧	الآية
٥١٢	الشیطان يعدكم الفقر	٢٦٨ — ٢٦٩	الآيات من
٥١٤	وما أنفقتم من نفقة	٢٧٠ — ٢٧١	الآيات من
٥١٥	ليس عليك هدام	٢٧٢ — ٢٧٤	الآيات من
٥١٨	الذين يأكلون الربا	٢٧٥ — ٢٨١	الآيات من
٥٣٢	يأبى الذين آمنوا إذا تدانتم	٢٨٢	الآية
٥٣٧	وإن كنتم على سفر	٢٨٣ — ٢٨٤	الآيات من
٥٣٨	آمن الرسول	٢٨٥ — ٢٨٦	الآيات من
٥٤٢	تقديم سورة آل عمران		
٥٤٣	الم . الله لا إله إلا هو	٩ — ٩	الآيات من
٥٥٦	إن الذين كفروا	١٠ — ١٣	الآيات من
٥٦٠	زين للناس حب الشهوات	١٤	الآية
٥٦٢	قل أؤنبئكم بخير	١٥ — ١٧	الآيات من
٥٦٣	شهد الله	١٨ — ٢٠	الآيات من
٥٧٠	إن الذين يكفرون بآيات	٢١ — ٢٢	الآيات من
٥٧٢	ألم تر إلى الذين	٢٣ — ٢٥	الآيات من
٥٧٣	قل اللهم مالك الملك	٢٦ — ٢٧	الآيات من
٥٧٦	لا يتخذ المؤمنون	٢٨ — ٣٠	الآيات من
٥٨٠	قل إن كنتم تحبون	٣١ — ٣٧	الآيات من
٥٨٢	هنالك دعا زكريا ربه	٣٨ — ٤١	الآيات من
٥٨٤	وإذ قالت الملائكة	٤٢ — ٤٤	الآيات من
٥٨٧	إذ قالت الملائكة يامريم	٤٥ — ٥١	الآيات من
٥٩٨	فلما أحس عيسى منهم	٥٢ — ٥٨	الآيات من
٦٠٢	إن مثل عيسى	٥٩ — ٦٣	الآيات من
٦٠٦	قل يا أهل الكتاب	٦٤ — ٦٨	الآيات من
٦٠٨	وددت طائفة من أهل الكتاب	٦٩ — ٧٤	الآيات من
٦١١	ومن أهل الكتاب	٧٥ — ٧٧	الآيات من
٦١٥	وإن منهم لفريقاً	٧٨	الآية
٦١٦	ما كان لبشر أن يؤتیه	٧٩ — ٨٠	الآيات من
٦١٧	وإذ أخذ الله ميثاق	٨١ — ٨٣	الآيات من
٦١٨	قل آمنا بالله وما أنزل علينا	٨٤ — ٨٩	الآيات من
٦١٩	إن الذين كفروا	٩٠ — ٩١	الآيات من
٦٢٠	لن تنالوا البر	٩٢	الآية



## الجزء الرابع

( سورة آل عمران الآيات من ٩٣ - ٢٠٠ - سورة النساء الآيات من ١ - ٢٣ )

٦٢١	..... كل الطعام كان حلا	٩٥ - ٩٣	الآيات من
٦٢٢	..... إن أول بيت وضع للناس	٩٧ - ٩٦	الآيات من
٦٤٧	..... قل يا أهل الكتاب	٩٩ - ٩٨	الآيات من
٦٤٨	..... يأيها الذين آمنوا	١٠٣ - ١٠٠	الآيات من
٦٥٢	..... ولتكن منكم أمة	١٠٩ - ١٠٤	الآيات من
٦٥٥	..... كنتم خير أمة	١١٢ - ١١٠	الآيات من
٦٦٠	..... ليسوا سواء من أهل	١١٥ - ١١٣	الآيات من
٦٦١	..... إن الذين كفروا	١١٧ - ١١٦	الآيات من
٦٦٣	..... يأيها الذين آمنوا	١٢٠ - ١١٨	الآيات من
٦٦٨	..... وإذا غدوت من أهلك	١٢٩ - ١٢١	الآيات من
٦٩٨	..... يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا	١٣٦ - ١٣٠	الآيات من
٧١٠	..... قد خلت من قبلكم	١٤١ - ١٣٧	الآيات من
٧١٢	..... أم حسيم أن تدخلوا	١٤٤ - ١٤٢	الآيات من
٧١٤	..... وما كان لنفس أن تموت	١٤٨ - ١٤٥	الآيات من
٧١٦	..... يأيها الذين آمنوا	١٥١ - ١٤٩	الآيات من
٧١٧	..... ولقد صدقكم الله	١٥٥ - ١٥٢	الآيات من
٧٢٠	..... يأيها الذين آمنوا لا تكونوا	١٥٨ - ١٥٦	الآيات من
٧٢٣	..... فبها رحمة من الله لنت	١٦٠ - ١٥٩	الآيات من
٧٢٨	..... وما كان لنبي أن يغفل	١٦٤ - ١٦١	الآيات من
٧٣٣	..... أو لما أصابتكم مصيبة	١٦٨ - ١٦٥	الآيات من
٧٣٥	..... ولا تحسبن الذين قتلوا	١٧٥ - ١٦٩	الآيات من
٧٤١	..... ولا يحزنك الذين يسارعون	١٧٩ - ١٧٦	الآيات من
٧٤٥	..... ولا يحسبن الذين يدخلون	١٨٤ - ١٨٠	الآيات من
٧٤٩	..... كل نفس ذائقة الموت	١٨٦ - ١٨٥	الآيات من
٧٥٣	..... وإذا أخذ الله ميثاق	١٨٩ - ١٨٧	الآيات من
٧٥٥	..... إن في خلق السموات والأرض	١٩٥ - ١٩٠	الآيات من
٧٦١	..... لا يغرنك تقلب الذين	٢٠٠ - ١٩٦	الآيات من
٧٦٤	..... مقدمة سورة النساء		
٧٦٥	..... يأيها الناس اتقوا	١	الآية
٧٦٨	..... وآتوا اليتامى	٤ - ٢	الآيات من
٨٠٨	..... ولا تؤتوا السفهاء أموالكم	٦ - ٥	الآيات من
٨١١	..... للرجال نصيب	١٠ - ٧	الآيات من
٨١٨	..... يوصيكم الله	١٢ - ١١	الآيات من
٨٥٣	..... تلك حدود الله	١٤ - ١٣	الآيات من
٨٥٥	..... والتي يأتيها الفاحشة	١٦ - ١٥	الآيات من

٨٥٨	..... إنما التوبة على الله	١٨ — ١٧	الآيات من
٨٦٠	..... يأياها الذين آمنوا	٢١ — ١٩	الآيات من
٨٦٤	..... ولا تنكحوا ما نكح آبائكم	٢٣ — ٢٢	الآيات من

## الجزء الخامس

## (سورة النساء الآيات من ٢٤ — ١٤٧)

٨٦٩	..... والمحصنات من النساء	٢٥ — ٢٤	الآيات من
٨٨٣	..... يريد الله ليبين لكم	٢٨ — ٢٦	الآيات من
٨٨٥	..... يأياها الذين آمنوا	٣٠ — ٢٩	الآيات من
٨٨٨	..... إن تجتنبوا كبائر	٣١	الآية
٨٩٨	..... ولا تتمنوا ما فضل الله	٣٢	الآية
٨٩٩	..... ولكل جعلنا موالى مما ترك	٣٣	الآية
٩٠٠	..... الرجال قوامون على النساء	٣٥ — ٣٤	الآيات من
٩١٠	..... واعبدوا الله ولا تشركوا	٣٩ — ٣٦	الآيات من
٩١٦	..... إن الله لا يظلم	٤٠	الآية
٩٢٥	..... فكيف إذا جئنا من كل أمة	٤٢ — ٤١	الآيات من
٩٢٦	..... يأياها الذين آمنوا لا تقربوا	٤٣	الآية
٩٣٠	..... ألم تر إلى الذين	٤٦ — ٤٤	الآيات من
٩٣٣	..... يأياها الذين أوتوا الكتاب	٤٧	الآية
٩٣٥	..... إن الله لا يغفر أن يشرك به	٤٨	الآية
٩٣٦	..... ألم تر إلى الذين يزكون	٥٠ — ٤٩	الآيات من
٩٣٨	..... ألم تر إلى الذين أوتوا	٥٥ — ٥١	الآيات من
٩٤١	..... إن الذين كفروا	٥٧ — ٥٦	الآيات من
٩٤٤	..... إن الله يأمركم	٥٩ — ٥٨	الآيات من
٩٥٢	..... ألم تر إلى الذين يزعمون	٦٣ — ٦٠	الآيات من
٩٥٤	..... وما أرسلنا من رسول	٦٥ — ٦٤	الآيات من
٩٥٦	..... ولو أنا كتبنا عليهم	٦٨ — ٦٦	الآيات من
٩٥٧	..... ومن يطع الله والرسول	٧٠ — ٦٩	الآيات من
٩٥٨	..... يأياها الذين آمنوا	٧٣ — ٧١	الآيات من
٩٦٢	..... فليقاتل في سبيل الله	٧٦ — ٧٤	الآيات من
٩٦٥	..... ألم تر إلى الذين	٧٩ — ٧٧	الآيات من
٩٦٩	..... ومن يطع الرسول	٨٢ — ٨٠	الآيات من
٩٧٣	..... وإذا جاءهم أمر من	٨٤ — ٨٣	الآيات من
٩٧٥	..... من يشفع شفاعة	٨٧ — ٨٥	الآيات من
٩٨٠	..... فما لكم من المنافقين	٩١ — ٨٨	الآيات من
٩٨٣	..... وما كان لمؤمن	٩٢	الآية
٩٨٦	..... ومن يقتل مؤمناً	٩٣	الآية
٩٩١	..... يأياها الذين آمنوا	٩٤	الآية

الصفحة

٩٩٣	لايستوى القاعدون من المؤمنين	٩٥ — ٩٦	آيات من
٩٩٤	إن الذين توفاهم	٩٧ — ١٠٠	آيات من
٩٩٩	وإذا ضربتم في الأرض	١٠١ — ١٠٣	آيات من
١٠٠٦	ولا تنهوا في ابتغاء	١٠٤	آية
١٠٠٧	إنا أنزلنا إليك الكتاب	١٠٥ — ١١٣	آيات من
١٠١٤	لا خير في كثير	١١٤	آية
١٠١٥	ومن يشاقق الرسول	١١٥	آية
١٠١٦	إن الله لا يغفر أن يشرك به	١١٦ — ١٢٢	آيات من
١٠١٨	ليس بأمانيتكم ولا أمانى	١٢٣ — ١٢٦	آيات من
١٠٢٢	ويستفتونك في النساء	١٢٧ — ١٣٠	آيات من
١٠٢٦	ولله مافى السموات ومافى الأرض	١٣١ — ١٣٤	آيات من
١٠٢٨	يا أيها الذين آمنوا	١٣٥ — ١٣٦	آيات من
١٠٢٩	إن الذين آمنوا ثم كفروا	١٣٧ — ١٤١	آيات من
١٠٣١	إن المنافقين يخادعون الله	١٤٢ — ١٤٣	آيات من
١٠٣٣	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا	١٤٤ — ١٤٧	آيات من

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثانى

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء السادس

المكتبة المصرية الحديث



# بسم الله الرحمن الرحيم

## الجهر بالسوء

\* لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

المفردات : ﴿الجهر﴾ : الإعلان يقال جهر برأيه أعلنه ، ﴿السوء﴾ : كل ما يسوؤك فعله أو قوله ، ﴿إلا من ظلم﴾ : أى وقع عليه ظلم . ﴿سميعاً﴾ : أى للأقوال . ﴿عليماً﴾ : أى بالأفعال والنيات . ﴿إن تبدوا﴾ : أى تظهروا ﴿عفواً﴾ : يتجاوز عن السيئات .

## التفسير

اشتملت هذه الآية الكريمة على خلق إسلامي ، عسى أن يستمسك به المسلمون في عصر كثير فيه القيل والقال ، والجهر بالسوء في كل مجال ومكان وقد ورد في هذه الآية أقوال للأئمة المفسرين **عليهم السلام** عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أُرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله «إلا من ظلم» وإن صبر فهو خير له .

وقال الحسن البصري : لا يدعو عليه ، وليقل اللهم أعني عليه وأستخرج حقي منه<sup>(١)</sup> ، وفي رواية عنه قال : قد أُرخص له أن يدعُو على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه ، وقال عبد الكريم بن مالك الجزري : في هذه الآية هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفر عليه لقوله تعالى : ﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) وتمة الدعاء : «اللهم خل بينه وبين ما يريد ما يريد من ظلمي» الفرطبي ج ٦ ص ١

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ٢٩ من سورة فاطر (٤) الآية رقم ٣١ من سورة إبراهيم

وعن أنى هريرة أن رجلاً أتى النبی ﷺ فقال : إن لی جاراً یؤذینى فقال له : « أخرج متاعک فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فکل من مر به قال : مالک ؟ قال جاری یؤذینى فيقول اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : أرجع إلى منزلك والله لا أودیک أبداً قوله تعالى ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا ﴾

بعدما بین سبحانه أنه لا یحب الجهر بالسوء من القول ، إلا من كانت له مظلمة ، فله الحق أن یجهر بها طلباً للإِنصاف والعدل ، وضرب الرسول ﷺ أمثالاً فی سنته الشریفة ، بعد ذلك رغب الله فی الخیر وفعله ، سواء أکان على سبیل العلن أو السر ، ما دامت النیات خالصة لله ، قال تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (٢) وقال جلت قدرته ﴿ إِن تَبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِن تَخَفُوهُا وَتَوْتُوهُا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٣) وقال عظمت حکمته ﴿ الَّذِينَ يَنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٤) وهنا فی هذه الآیة ﴿ إِن تَبْدُوا خَيْرًا أَوْ تَخَفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا ﴾ وإذا کان فعل الخیر سرّاً أو علانية عملاً جلیلاً ؛ فإن العفو عن السوء خصلة من خصال الکرم إذ العفو عند المقدرة صفة من أجل الصفات .

ورد فی الأثر أن حملة العرش یسبحون الله فيقول بعضهم سبحانک على حلمک بعد علمک ، ويقول بعضهم سبحانک على عفوک بعد قدرتک . وفی الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبداً یعفو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه » .

### عاقبة الکفر والإیمان

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ سبيلًا ﴾ : طريقاً . ﴿ أعتدنا ﴾ : هيأنا وأعدنا .

(٣) الآية رقم ٢٧/ من سورة البقرة

(٤) الآية رقم ٢٦/ من سورة البقرة

(١) الآية رقم ٢٩/ من سورة فاطر

(٢) الآية رقم ٣١/ من سورة ابراهيم

بين الله سبحانه هذه الآيات أن للإيمان ركنين يبنى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما ، وهما الإيمان به وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر ، ومن أنكرهما<sup>(١)</sup> أو أحدهما فقد كفر ، وعاقبته العذاب الأليم في جهنم وبئس القرار .

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْتَوْنَ أَجْرًا مِمَّا عَمِلُوا وَيَكْفُرُونَ بِلَهُمْ ﴾ . أولئك هم الكافرون حقا ﴿

إن الكافرين بالرسول فريقان : فريق لا يؤمن بأحد منهم لإنكارهم النبوات ، وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين في هذا العصر من ذلك الفريق .

وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض ، كقول اليهود يؤمن بموسى ونكفر بيسى ومحمد ، فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى يؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد ، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدَّعون إيماناً .

﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ . أى وأعددتنا لكل كافر سواء أكان منهم أم من غيرهم عذاباً فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة .

ذاك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحىه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحاً ، ولا يهتدى إلى ما يجب لله من الشكر ، ولا يعرف كيف يعبد على الوجه الذى يرضيه ، ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لا تهتمهم إلا شهواتهم .

كما أن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض . كأهل الكتاب - لا يعتد بقولهم ، لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق : إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم ، ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها فى محمد ﷺ ، فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر ، مع إنه نشأ بين قوم أميين ، وثقل كتابه وأصول دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفي الذكر ، ذكر حال فريق ثالث فقال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ ﴾ أى والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم ، علما منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله وما مثلهم إلا كمثل ولادة يرسلهم السلطان إلى البلاد ، ومثل الكتب التى جاءوا بها مثل القوانين التى يصدر السلطان مراسيمه للعمل بها ، فكل وال منهم إنما ينفذ أوامر السلطان ، وكل قانون يعمل به لأنه منه ، وكل قانون جديد ينسخ ما قبله ويمنع العمل به ، أولئك يؤتيهم الله أجورهم بحسب حالهم فى العمل ، لأنهم وقد صح إيمانهم به وبرسله ،

(١) من أنكر الألوهية الحققة لله فقد كفر ، ومن أنكر الرسالات جملة أو تفصيلاً فقد كفر



ويهديهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك الإيمان الصحيح .

ولم يقل في هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقاً كما قال ، ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ لئلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح ، فيغتر بذلك ويترك العمل النافع ، وهذا مما يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقاً بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (١)

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى وكان الله غفوراً لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيماً به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلاً منه ورحمة .

### من قبائح أهل الكتاب

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٢) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٣) فَمَا نَقْضِهِمْ مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٤) وَكُفْرِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا (١٥٥) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٦) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٧) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (١٥٨)

المفردات : ﴿ جهرة ﴾ : المراد رؤيته جهرة (٢) .. ﴿ الصاعقة ﴾ : نار تنزل من السماء والظاهر أنها الشرارة الكهربائية التي تظهر في السماء .. البينات : الدلائل الواضحة على نبوة موسى كفلق البحر واليد البيضاء والعصا . ﴿ الطور ﴾ : اسم الجبل الذي كانوا مقيمين أسفله ... لا تعدوا في السبت : لا تظلموا أنفسكم بالصيد فيه .. ﴿ غلف ﴾ : جمع غلاف وهو الظرف والمراد أوعية للعلم

(٢) أى كما يرى الناس بعضهم مواجهة تعالى الله عن ذلك

فليست في حاجة إلى ما يقول ، ويصح أن يكون جمع أغلف والمراد : مغطاة بأغطية خلقية لا يصل إليها شيء مما تقول ... ﴿ طبع الله عليها ﴾ : ختم الله عليها بالخاتم وقيل صارت كالنقود المسكوكة فلا تقبل غير النقش الذي عليها ... ﴿ بهتاناً ﴾ : كذباً يهت صاحبه عند سماعه ويتعجب منه

قوله تعالى : ﴿ يستلک أهل الكتاب أن تنزل عليهم کتاباً من السماء ﴾ ، قال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وقال ابن جريج : سأله أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان<sup>(١)</sup> بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور في سورة « سبحان »<sup>(٢)</sup> في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالهالة كقبلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترفق في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾<sup>(٣)</sup> ولقد أظهر الله مكنون نفوسهم ، وما انطوت عليه من عناد ، فقال في سورة الأنعام ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ وذلك كما جاء بيانه في سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾<sup>(٥)</sup> وهنا يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ والصاعقة نار من السماء ، أو ما يعبر عنه بالشرارة الكهربائية ، أزهقت أرواحهم

ومن قبائحهم : أنهم اتخذوا العجل في غيبة موسى كما جاء ذلك مفصلاً في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار لم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾<sup>(٦)</sup> وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾<sup>(٧)</sup> وقد جاءت قصة العجل مفصلة في سورة طه في قوله جل شأنه ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري . . . إلى أن يقول تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري .

(٥) الآية رقم ٥٥/ من سورة البقرة

(٦) الآية رقم ١٤٨/ من سورة الأعراف

(٧) الآية رقم ١٥٢/ من سورة الأعراف

(١) أي إلى أشخاص بأسمائهم وأعيانهم

(٢) سورة الاسراء و بنى اسرائيل

(٣) الآيات رقم ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠ من سورة الاسراء

(٤) الآية رقم ٧ من سورة الأنعام

قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿١﴾

كل ذلك حدث بعدما جاءهم موسى بالآيات اليبينات ، كاليد و العصا و فلق البحر فعفا الله عن ذلك كما جاء في قوله جل شأنه في سورة البقرة : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾ (٢) وفي قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٣) وآتى الله موسى سلطاناً ميبناً وحجة قوية على صدق رسالته قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ الطور (٤) هو الجبل الذى كانوا يقيمون في واديه فإن اليهود لما تمردوا واستكبروا على الأخذ بأحكام الله في التوراة وعتوا عتواً كبيراً ، لأنهم كما يقول بعض الحكماء : إن شعب بنى إسرائيل شعب ملح الرقة ، لما كان منهم ذلك رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ليدفعهم دفعاً إلى الأخذ بما في التوراة كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ بميثاقهم ﴾ أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً ﴾ . المقصود به باب بيت المقدس أخبرناهم بذلك على السنة رسلنا إليهم ، والمقصود : ادخلوا الباب ساجدين خاضعين لله تواضعاً ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ فقد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت ، ولكنهم خادعوا واستعملوا الحيل . كما هو شأنهم في كل زمان ومكان - قال تعالى في سورة الأعراف . ﴿ وأسألمهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيتهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يستطيعون Latأتيتهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ (٦)

قوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ الميثاق الغليظ العهد المؤكد ، أى : وأخذنا عهداً ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يتعدونها ويتبع ذلك البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن في الفصل التاسع والعشرين ومن بعده من سفر تثنية الاشتراع ، وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

قوله تعالى : ﴿ فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ﴾

هذه جرائم اقترفها اليهود ، نقضوا العهود والمواثيق وهذا طبعهم ودينتهم ، قال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾ (٧) . وكفروا بآيات الله وأنكروا المعجزات قال تعالى ﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً

(٢) الآية رقم ٥٢ من سورة البقرة

(١) الآيات من ٨٣ إلى ٩١ من سورة طه

(٤) من جبال سيناء وهو جبل المناجاة انزلت التوراة على موسى عنده

(٣) الآية رقم ٥٤ من سورة البقرة

(٥) الآية رقم ١٧١ من سورة الأعراف وتلق الجبل رفعه من مكانه فوقهم حتى ظنوا أنه سيسقط عليهم

(٦) الآية رقم ١٦٣ من سورة الأعراف

(٧) الآية رقم ٥٢ من سورة الأنفال

كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغىكم إلهاً ﴿١﴾ وأعجب معى لقوم رأوا الآيات بأعينهم وأحسوها وعاشوا فيها ، فالبحر قد أنفلق وصار كل فرق كالطود العظيم وأقدامهم لا تزال مبتلة بماء البحر ، جحدوا كل هذا ونسبوا من أنجاهم ، (وقالوا ياموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ومن جرائمهم أنهم يقتلون الأنبياء ثم يقيمون أسواقهم كأن شيئاً لم يكن ومن الذين قتلوهم زكريا ويحيى .

قوله تعالى ﴿بغير حق﴾ هذا للبيان لا للاحتراز ، فليس هناك من الأنبياء ما يقتل بحق ، لأنهم إذا ذكروا بآيات الله ﴿قالوا قلوبنا غلف﴾ أى مغلفة محجوبة عن الحق كما قال مشركوا العرب لرسول الله ﷺ ﴿قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب﴾ ﴿٢﴾ .

قوله تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ والمراد بالطبع الختم ، وذلك بحجب النور عنها بسبب كفرهم وجحودهم ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ والإيمان القليل كالعدم كإيمانهم ببعض الأنبياء وكفرهم بالآخرين .

قوله تعالى ﴿وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً﴾ ، أى وبكفرهم بعيسى ، ورمى أمه وقذفها بالبهتان ، وهو أعظم الكذب والمراد به الزنا ، قال تعالى : ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فرياً . ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغياً﴾ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله﴾ وهذا منهم إدعاء باطل وكذب على الله ورسوله ، وقد وصفوه بأنه رسول الله لا لإيمانهم بذلك ، إنما قالوها على سبيل التهكم والسخرية ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ أى وما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما أشاعوا إنما خلع الله شبهه على الذى دل عليه ، وهو يهوذا الأسخريوطى قال الشيخ المراغى فى تفسيره :

هذا القول المؤذن بالجرأة على الحق بالباطل والاستهزاء بآيات الله وذكره بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته ، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم ، لا الألوهية - كما ادعت النصرى - إذ جاء فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته »

﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم﴾ أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ، ولكن وقع لهم الشبه ، فظنوا أنهم صلبوا عيسى ، وهم إنما صلبوا غيره ، ومثل هذا الشبه يحدث كثيراً فى كل زمان ، وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها قد وقعت فعلاً .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنجليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصاً للتعرف على شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو ،

(١) الآيات رقم / ١٣٨ ، ١٣٩ ، وجزء من ١٤٠ من سورة الاعراف ومعنى متبر ما هم فيه أن عملهم باطل يعاقب فاعله بالعذاب الشديد

(٢) الآية رقم ٥/ من سورة فصلت السجدة (٣) الآيات رقم / ٢٧ ، ٢٨ من سورة مريم

وقال خمسون إنه غيره ، والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً ، ثم اتضح من التحقيق ان هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محوطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات ، وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأحضر ثلاثين شاهداً أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون

على أن هذا الحادث<sup>(١)</sup> من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم عليه السلام وأنقذه من أعدائه ، فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾

المعنى أن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي تردد من حقيقة أمره ، إذ ليس لهم به من علم قطعي الثبوت وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التي ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء في بعض الأناجيل التي يعولون عليها أنه قال لتلاميذه : ( كلكم تشكون في هذه الليلة ) أي الليلة التي يطلب فيها للقتل ( إنجيل متى )

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس بأنهم سيشكون فيه في ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعاً ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره ؟

قوله تعالى : ﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ أي وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه ، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التي يعول عليها صريحة في أن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي ، وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو المسيح ، فلما قبله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا<sup>(٢)</sup> يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

الخلاصة : أن روايات المسلمين جميعها متفقة على : أن عيسى عليه السلام نجاً من أعدائه ومريد قتلته فقتلوا آخر ظناً منهم أنه هو - فإن قال قائل : إذا كان المسيح قد نجى من القتل والصلب ، فأين ( هو ) ؟؟

نقول : إن الله تعالى أجاب عن هذا ﴿ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ وهذه عقيدة المسلم ، وليس رفع عيسى أمراً غريباً بعد أن أخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾<sup>(٣)</sup> فليس رفع أهل الأرض إلى السماء بمستبعد على من يمسك

(١) أي إلقاء الله الشبه على يهوذا الخاوري الذي خان رسول الله عيسى عليه السلام

(٢) ينظر في الفصول : الخامس عشر بعد المائتين وما بعده من إنجيل برنابا بتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - وطبع محمد علي

(٣) جزء من الآية رقم ٤/ من سورة الحديد

السموات والأرض أن تزولا وليس ببعيد على من قال وقوله الحق : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾<sup>(١)</sup> وبعد قوله تعالى : ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ يجب التسليم واليقين فيما قاله أصدق القائلين ، وليس لأحد أن يتجاوز حدود العبودية ، فيسأل كيف رفع وكيف حاله في السماء ؟ لأن ما أخبرنا الله به وجب التصديق به والوقوف عنده ، ومعاذ الله أن يقول المسلم رجماً بالغيب

قوله تعالى : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ عزيزاً لا يغلب ولا يعجز حكيماً لا يعيب ، فقد رفعه بعزته وقدرته وفي الوقت الذي هجموا عليه ليقتلوه فكان حكيماً إذ نجاه منهم

قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ الضمير في قوله تعالى ﴿ ليؤمنن به ﴾ أى بالمسيح ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ قبل موته ﴾ أى قبل موت الكتابي ، فما من أحد من أهل الكتاب يحضره الموت : يهوديا كان أو نصرانيا إلا ويرى المسيح وقد برأ من أقوالهم فيه ، يأتيه مقرأ بأنه عبد الله ورسوله موبخاً إياه بما قاله فيه من أنه الله أو ابن الله ، فإذا ما قامت الساعة وقف المسيح شهيداً عليهم بالضلال ومجازة الحق ﴿ وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتي كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾<sup>(٢)</sup> وإنما يسأله الله هذا السؤال وهو العليم بكل شيء ويعلم أنه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، يسأله ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجارة في حلوقهم على لسانه ، أى هذا الذي زعمتموه إنها أو أبنا لله يبرأ من قولكم ويعلنها صريحة واضحة في ساحة العرض على الله .

قال بعض العلماء<sup>(٣)</sup> في تفسير هذه الآية : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾

الخ ...

أى وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وسواه من أمور الدين ، فيؤمن بعيسى إيماناً حقاً لازيغ فيه ولاضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق في رسالته وليس بالكذاب ، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا هو يابن لله وفائدة إخبارهم بذلك بيان أنه لا يتفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه ، مع عدم الجدوى والفائدة ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم ، كما حكى الله عنه من قوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً

(١) جزء من الآية رقم ٤٤ من سورة فاطر

(٢) الآيتان رقم ١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة

(٣) قال بذلك ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة ، رواه القرطبي ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

مادمت فيهم ﴿١﴾ فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار ، وعلى الكافر بالكفر ، إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ ﴿٢﴾

وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصّامت قال : قال رسول الله ﷺ « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا أحضر ( حضره الموت ) بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار »

وهذا يؤيد ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروجه روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتفويض .

### جرائمهم وعقوبتهم

فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا أَحْرَمًا عَلَيْهِمْ طَيَّبَتْ أُحْلَتْ لَهُمْ وَيَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١١٧﴾ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ زُجْرًا وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالُ النَّاسِ بِالْبُطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١١٨﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿ هادوا ﴾ : المقصود بهم اليهود . ﴿ بظلم ﴾ : أى بسبب الظلم فالباء تفيد السببية . ﴿ بصددهم ﴾ : منهم . ﴿ الراسخون ﴾ : الثابتون في العلم المتقنون له .

### كلمة عن المسيح ابن مريم

قبل أن نأخذ في تفسير هاتين الآيتين نرى من المفيد - وقد سبق الحديث عن المسيح ابن مريم - نرى أن نذكر هنا ماورد في شأن المسيح من نزوله قبل الساعة ، وذلك تنمة للفائدة .

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه مائة سؤال عن الإسلام الجزء (٤) الثاني

وردت أحداث بين يدي الساعة نحب أن نشرح بعضها من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر

(٣) القرطبي ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

(٤) ص ٧٩ وما بعدها

(١) جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة المائدة

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة النساء

كريم ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلهاً أو ابن إله وكتابنا يقول فيه : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْد أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلَ بَنِيِّ إِسْرَآئِيلَ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم يقول : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهَا وَاتَّبِعُونْ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح ، قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية » ولماذا ينزل ؟ ليكذب بنفسه من زعموه آلهامهم جماهير غفيرة ، وفي حديث آخر : أنه سينزل بين المسلمين وهم أتباعه الحقيقيون فيقاتل معهم الصليبيين حتى يهزمهم ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « لاتزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول له أميرهم : تعالى صلى بنا - يعرض عليه إمامة المسلمين - فيقول عيسى : لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمه الله تعالى لهذه الأمة .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات وأن عيسى لن يجيء بمجديد»<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبَصَدَّهُمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ . ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية سببين من الأسباب الكثيرة التي عاقب الله اليهود بها عقاباً دنيوياً وأخروياً ، وكفى بالظلم داءً وهل أهلك الله الأمم إلا عندما استشرى فيها هذا الداء الويل ، وآيات القرآن العظيم خير شاهد على ما ذكرنا ، من ذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾<sup>(٤)</sup> وقوله جل شأنه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾<sup>(٥)</sup> وقوله تبارك اسمه ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾<sup>(٦)</sup> وقوله عز وجل : ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾<sup>(٧)</sup> وقوله جل جلاله : ﴿فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾<sup>(٨)</sup> وقوله عظمت حكمته : ﴿وَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾<sup>(٩)</sup> وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وقال : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج عن الإسلام » وقال تعالى : ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾<sup>(١٠)</sup> وجاء في الحديث القدسي الجليل عن الله تعالى ، قال : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا »

وجاء في حديث قدسي آخر عن الله تعالى قال : « أشد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصراً غيري ، واشتد غضبي على من وجد مظلوماً . فقد أن ينصره فلم ينصره »

- |  |                                       |
|--|---------------------------------------|
| (١) سورة الزخرف الآية ٦١               | (٦) الآية رقم ١١٧ من سورة هود         |
| (٢) سورة الزخرف الآية ٦٢               | (٧) جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة القصص |
| (٣) مائة سؤال عن الإسلام ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ | (٨) الآية رقم ٤٥ من سورة الحج         |
| (٤) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة يونس   | (٩) الآية رقم ٤٨ من سورة الحج         |
| (٥) جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة الكهف | (١٠) الآية رقم ١١٣ من سورة هود        |



فإذا أضيف إلى ظلم اليهود صدهم ومنعهم كثيرا من الناس عن سبيل الله وطريق الهداية ، كان الجرم فظيحا وكانوا جديرين بأن يحرم الله عليهم طيبات كانت قد أحلت لهم ، وذلك كما جاء في قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ، أى يسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على ألسنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوانهم دون الأجانب ، فقد جاء في سفر الخروج : « إن أقرضت فضة لشعبي الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرأى لا تضعوا عليه ربا » وفى سفر تثنية الاشتراع « لا تقرض أخاك ربا ربا فضة أو ربا شيء ما مما يقرض ربا للأجنبي تقرض ربا تقرض ربا » ولكن لأخيك لا تقرض ربا وهذه عبارة التوراة التى كتبت بعد السبي<sup>(٢)</sup> ، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التى كتبها موسى فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى ، وأنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً ، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود في المزمور الخامس عشر : « فضته يعطونها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البريء » وقول سليمان في سفر الأمثال : « المكثر ماله بالربا والمراحمه فلن يرحم الفقراء بجمعه » .  
﴿ وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ أى بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾<sup>(٣)</sup> والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .  
وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها يبين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ أى وأعدنا للذين كفروا منهم برسل الله عذاباً مؤلماً فى نار جهنم خالدين فيها أبداً .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يؤهم أنه شامل لكل أفرادهم ، جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم ، فقال : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ﴾ أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم ، المستبصرون فيه غير التابعين للظن ، الذين لا يشترون به ثمناً قليلاً من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى ، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله

(١) الآية رقم ١٤٦/ من سورة الأنعام

(٢) عندما حارب البابليون المعبد أسروا جميع شعب اليهود وساقوهم عبيداً إلى بابل

(٣) جزء من الآية رقم ٤٢/ من سورة المائدة ، وقد كان الفرنسيون والكنيسة فى ساحة المعبد يبيعون النصوص منسوبة إلى الله وماهى من عند الله

يهوى ولا عصية .

روى ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى عبد الله بن سلام وأسيد بن سعيه وثعلبة بن سعيه حين فارقوا يهود وأسلموا .

﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ أى وأخص منهم المقيمى الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان . إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

« والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » أى والمؤمنون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمى الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة ، فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تزكى النفس وتعالى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمَصْلِينَ ﴾ (١)

﴿ أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾ أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيههم أجرا عظيما لا يُذكرُ وصفه إلا علام الغيوب .

### لا نبوة بلا وحى

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ (٢) ورسلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلًا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليمًا (٣) رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزًا حكيمًا (٤) لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا (٥)

المفردات : ﴿ أوحينا ﴾ : الإيحاء يأتى فى اللغة على معان ، فيها : الإشارة كقوله تعالى :

﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ (١) والإلهام ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ (٢) . وعلى ما يكون غريزة ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾ (٣) وعلى الإعلام فى خفاء ﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾ (٤) الأسباط جمع سبط وهو ولد

(١) الآيات رقم / ٢١، ٢٠، ١٩ من سورة المعارج

(٤) جزء من الآية رقم / ٦٨ من سورة النحل

(٢) جزء من الآية رقم / ١١ من سورة مريم

(٥) جزء من الآية رقم / ١١١ من سورة الأنعام

(٣) جزء من الآية رقم / ٧ من سورة القصص

الولد والمراد أبناء يعقوب لصلبه أو أولاد أولاده ... ﴿زبوراً﴾ : مكتوباً وكل كتاب زبور والمراد به الكتاب المنزل على داود عليه السلام ﴿المناسبة﴾ : نعى الله على أهل الكتاب عموماً أنهم يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ثم تعرض القرآن لليهود خاصة وأنهم سألوا محمداً ﷺ ﴿عناداً واستكباراً﴾ : أن ينزل عليهم كتاباً من السماء آية لهم ، ولم يكن هذا العناد جديداً على اليهود ، فقد سألوا موسى قديماً أكبر من هذا ، وفعلوا القبائح وكفروا بـعيسى<sup>(١)</sup> وبهتوا أمه وحاولوا قتله وصلبه الخ ما ذكر .

ولولا هذا لآمنوا بك وصدقوك ، فأنت أوضح دليلاً وأقوم قيلاً ، على أن الإيحاء من الله إليك كان كالأنبياء السابقين ، فمالهم يفرقون بين نبي ونبي ؟ وما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟

إنما بما لنا من العظمة والقدرة ، قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن إيحاءً كما إيحائنا إلى الأنبياء قبلك ، فلست بدعاً من الرسل وهم قد آمنوا بهم ، فكيف يطلبون منك أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ؟ على أنهم لو آمنوا بالرسالة حقيقة لآمنوا بك ، فالوحي جنس واحد لم يتغير ، وفي كتبهم البشارة بك ووصفك ، وحقيقة الإيحاء - كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد .

عرفان يحده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة

إنما أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى المشهورين من الأنبياء قبلك ، كنوح ، وخص بالذكر أولاً لأنه أقدم نبي مرسل على أن قومه كذبوه فعذبوا ، وهو الأب الثاني للبشر ، وأوحى إلى النبيين من بعده لاسيما إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، والذي يدين له العرب وأهل الكتاب ، وإسماعيل ابنه الأكبر وأبو العرب وجد المصطفى ﷺ ، وإسحاق ابن إبراهيم وأبو يعقوب المسمى بإسرائيل ، وإليه تنسب اليهود والأسباط ، وهم حفدة يعقوب ، وقيل أولاده لصلبه وعددهم عشرة ، وأولاد يوسف اثنان فكان المجموع اثني عشر سبطاً ، وهم في نسل إسحاق كالقبائل في نسل إسماعيل ، وعيسى بن مريم ، وقدم على غيره لأنه محل طعن اليهود ، وأيوب ويونس وهارون وسليمان بن داود ، وخص هؤلاء جميعاً بالذكر مع اندراجهم في لفظ النبيين لشرفهم وكرامتهم على الله .

وآتيناه داود كتاباً زبوراً ، قال القرطبي<sup>(٢)</sup> : كان فيه مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هي حكم ومواعظ ، وتمجيد وثناء على الله تعالى ، وأرسلناك كما أرسلنا رسلاً غير هؤلاء ، قد قصصناهم عليك من قبل في سورة الأنعام ، ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾<sup>(٣)</sup> الآيات وأجمع السور لقصصهم سورة هود والشعراء<sup>(٤)</sup> .

(١) بهتوا من البهتان وهو التهمة الباطلة وهو ما سبق ذكره في الآية رقم ١٥٦ وكفروهم وثولهم على مريم بهتاناً عظيماً

(٢) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي ج ٦ ص ١٧

(٣) الآيات من رقم ٨٤ إلى ٨٧ من سورة الأنعام

(٤) وكذلك سورة الأعراف ، بينها لخصت أخبارهم سور أخرى كالأنبياء والصافات وص

وهناك أرسلنا رسلاً لم نقصصهم عليك لأن أمهم مجهولة غير معروفة ، وليس في ذكرهم كبير فائدة ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ سورة هود<sup>(١)</sup> ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وخص موسى بهذه الكرامة على سبيل التأكيد ، لأن قومه هم المقصودون بالحديث ، وقد كلم الله موسى تكليماً خاصاً ممتازاً عن غيره ، أما كيف كان ؟ وهل كان مشافهة أم لا ؟ فالله أعلم بذلك كله ، على أن وقوفنا على أسرار الأثير واستخدامه ونقل الحديث بالراديو والتلفزيون ، جعل الاعتراضات القديمة شيئاً بسيطاً لا يعاب به فالله الذي أقدر بعض المخلوقات على الوصول إلى هذا قادر جداً على خلق أشياء ليس لها مقياس معروف ولا حد مألوف .

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾<sup>(٢)</sup> والظاهر أن تكليم موسى عليه السلام كان من النوع الثاني .

**الخلاصة :** إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى فلان وفلان من الأنبياء ، وآتيناك كتاباً كما آتيناهم بعضهم كتاباً ، وأرسلناك للناس كافة رسولا ، كما أرسلنا لهم رسلاً ، فما لهؤلاء القوم يفرقون بين نبي ونبي ، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أرسلنا أولئك الرسل الذين قصصنا عليك بعضاً منهم مبشرين من يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر بالثواب الأبدى جنة خالدين فيها أبداً ، ومنذرين من يكفر بالله ورسله واليوم الآخر بالعقاب الصارم ناراً وقودها الناس والحجارة ، أرسلنا لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا رسولا إلينا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونغزى ﴾<sup>(٣)</sup> .

وحجتهم أنهم يقولون لولا أرسلنا إلينا رسلاً تبين لنا الشريعة ، وتعلمنا ما لم نعلم إذ القوة البشرية مهما تكن تعجز عن إدراك كل جزئيات الخير والشر ، على أن عامة الناس لا يفرقون بين الضار والنافع ، مع احتياج الكل إلى قادة يقودونهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، ومن الذي كان يأتي بأخبار الغيب من حساب وجزاء وثواب وعقاب ؟ وما أتى به الرسل موافق لسنن الفطرة السليمة ملائم للطبائع الزكية ، ومع ذلك يترتب عليه ثواب عظيم وعقاب أليم .

وكان الله عزيزاً لا يغلبه متعنت ولا مكابر ، حكيماً في كل صنع صنعه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾<sup>(٤)</sup> .

وهؤلاء اليهود قد أنكروا نبوة النبي ﷺ ، ولم يشهدوا برسالته وهي أوضح من الشمس فسألوه كتاباً من السماء إنهم لا يشهدون بذلك ، ولكن الله يشهد بالقرآن ، وكفى به شاهداً فالله أنزله عليك بعلمه الخاص ، الذي لا يعلمه سواه ، ولقد صدق الله في وصفه ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾<sup>(٥)</sup> تحدت به الكل فعجزوا ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

(٤) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٥) جزء من الآية الثانية من سورة البقرة

(١) الآية رقم ١٢٠ من سورة هود

(٢) من الآية رقم ٥١ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ١٣٤ من سورة طه

بعضهم لبعض ظهيراً ﴿١﴾ وهو القرآن الكامل في كل شيء ، المشتمل على قوانين وشرائع تكفل لمن يتبعها حياة سعيدة وعزة ورخاء .

فكان القرآن بهذا يشهد للنبي ﷺ بصدقه ولسان حاله يقول صدق محمد في كل ما يبلغه عن ربه ، والملائكة ومنهم جبريل يشهدون لك بالرسالة ، فثبتت شهادة الله تعالى بما أنزله عليك من القرآن ، إذ لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولو اجتمع الإنس والجن ، ولا يعقل أن يكون من وضعك ، فأنت النبي الأمي العربي الذي نشأ في بيته: جاهلية .

﴿ قل أى شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ (٢) الأنعام .

### جزاء الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٧٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَكَانُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٨٠﴾

### التفسير

بعد أن دلت الآيات على نبوة محمد ﷺ ، وأنه لاحجة للكفار المعاندين ، وأن الله شهد له بما أنزله عليه بعلمه من القرآن ، أخذ ينذر الكفار ويهددهم بالعذاب الشديد ، وينذرهم سوء العاقبة وبئس المصير ، إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وصدوا عن سبيل الله بأعمالهم التي يقدّم فيها غيرهم ، قد ضلوا وأضلوا ضلالاً بعيداً عن الصواب جداً ، إن الذين كفروا وظلموا أنفسهم وغيرهم ياتباعهم الشيطان ، ويعدّهم عن هدى الرحمن ، لم يكن من شأن الله وصفته أن يغفر لهم ، فالله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولم يكن ليهديهم ويوفقهم إلى طريق أبداً إلا طريق جهنم وبئس المصير ، فهم قد ملأوا النفس والقلب من ظلام الكفر والضلال ، حتى لم يعد فيه متسع للنور والهداية ، هؤلاء لهم جهنم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، الله أعلم بما يتناسب مع ما قدموا من أعمال وما جبلوا عليه وكان ذلك على الله سهلاً ويسيراً .

يا أيها الناس : قد جاءكم الرسول الكامل والمعهود عند أهل الكتاب ، جاءكم بالقرآن والحق والخير والهدى والفلاح ، فآمنوا يكن الإيمان خيراً لكم ، آمنوا واقصدوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فاعلموا أن الله معذبكم ومجازيكم على كفركم فليس هناك عذر لمعتذر ، وليس وراء الموت إلا الجنة أو النار ، وليس

يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ولا يجهل شيئاً فيهما، وهو الغنى عن عبادتكم وما ذلك كله إلا أن لله ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً وعبداً وتصريفاً وحكماً ، سبحانه وتعالى العليم بخلقه الحكيم في صنعه .

### المسيح بن مريم في نظر القرآن

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا خَيْرَ الْكَلِمِ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾

**المفردات :** ﴿ لا تغلوا ﴾ : الغلو مجاوزة الحد من جهة التفريط أو الإفراط <sup>(١)</sup> « وكلمته » المراد أنه حدث بكلمة « كن » التكوينية لا بمادة أخرى كغيره من الناس ﴿ وروح ﴾ : وجد بنفخ من روح الله وهو جبريل ﴿ يستكبر ﴾ : الاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة غروراً منه وإعجاباً بها المناسبة :

بعد أن حاجَّ الله اليهود وألزمهم كلمة التقوى والطريقة المثلَّى أردف ذلك بمحاجة النصارى وألزمهم جميعاً الرأى الوسط في عيسى بن مريم .

### التفسير

يأهل الكتاب لا تكونوا مغالين في الدين ، ومتجاوزين الحدود فيه فلا تكفروا بعيسى وتبهتوا أمه ، وتحقروه وتهينوه كم فعلت النصارى ، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالنقل المتواتر ، الذى يستحيل معه الكذب ، أو المؤيد بالحجج العقلية الدامغة ، أما القول بالحلول واتخاذ الصاحبة والولد ، فكذب وبهتان وخرافة وثنية ، موسى وعيسى والأنبياء جميعاً براء منها .

إنما المسيح عيسى بن مريم البتول الطاهرة الصديقة النقية التى أنبتها الله نباتاً حسناً ، وكفلها زكريا الرجل الصالح ، والتى برأها القرآن الكريم ، إنما المسيح عيسى رسول الله إلى بنى إسرائيل ، أمرهم

(١) التفريط أى التقصير عن الواجب من الحق ولافراط أى الزيادة فى الآثام والخطايا

بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم عن الكفر به والشرك والتثليث ، وزهدهم في الدنيا ، وحثهم على التقوى ، وبشرهم بخاتم النبيين والمرسلين : ﴿ وبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾<sup>(١)</sup> وإنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وهو مكون بكلمته « كن » التكوينية : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾<sup>(٢)</sup> نعم كل مولود له سبب ظاهر وهو اتصال الجنسين ، وله سبب حقيقى وهو إرادة الله المعبر عنها بكلمة ﴿ كن ﴾ فلما انتفى مع عيسى السبب الأول بالبرهان ، ثبت أن عيسى خلق بالسبب الثانى ، وهو كلمة « كن » ، أوصلها إلى مريم بواسطة جبريل : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾<sup>(٣)</sup> وهو مؤيد بروح كائنة منه سبحانه وتعالى ، لا بعضاً منه كما فهم المسيحيون ، وإلا لكان كل شىء بعضاً من الله بدليل قوله : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾<sup>(٤)</sup> وكونه مؤيداً بروح منه يؤيده قوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾<sup>(٥)</sup> وقيل المعنى أن عيسى خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل ويوضحه قوله تعالى : ﴿ التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾<sup>(٦)</sup> ، ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾<sup>(٧)</sup>

وقال بعضهم المعنى أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورحمة<sup>(٨)</sup> منه وبقوله قوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾<sup>(٩)</sup> وما لنا نعجب من خلق عيسى بلا أب ؟ حتى تنكب المسيحيون الطريق ، وانغمسوا فى الشرك والتثليث لهذا !  
فهذا آدم خلق بلا أب وأم : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾<sup>(١٠)</sup> وهذه حواء خلقت من آدم فقط .

وبماذا نرد أصول الحيوانات جميعاً ، وكما يقولون هل البيضة أصل أم الفرخة ؟ أيا كان فمن الذى أوجد الأصل الأول من الفرخة أو البيضة ؟ هو الله بلا تناسل وتزواج معروف .

ومن الغريب أن بعض النصارى يفهمون قوله تعالى « وروح منه » أن عيسى ابن الله ، أو جزء الإله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والذى أوقع المسيحيين فى هذا هو التشابه فى التوراة والإنجيل ، وما وصل إليهم عن طريق الوثنيين من اليونان والرومان والمصريين القدماء ، والبراهمة . فالديانة المسيحية الصحيحة ديانة مبنية على أساس التوحيد الخالص البرىء لله سبحانه : ذاتا وصفة وفعلا ، ولكن الكنيسة أدخلت هذه الوثنيات والعقائد الزائفة فى عقول أبنائها لأمر فى أنفسهم ، ولما رأوا

- |      |   |
|------|---|
| (١)  | من الآية رقم ٦/ من سورة الصف  |
| (٢)  | جزء من آيات عديدة فى سور القرآن الكريم / ١١٧ من سورة البقرة ، ٤٧ من سورة آل عمران ٣٥ من سورة مريم ٦٨ من سورة غافر |
| (٣)  | جزء من الآية رقم ٤٥ من سورة آل عمران  |
| (٤)  | جزء من الآية رقم ١٣/ من سورة المجاثية   |
| (٥)  | جزء من الآية رقم ٨٧/ من سورة البقرة   |
| (٦)  | جزء من الآية رقم ١٢/ من سورة التحريم ، ٩١ من سورة الأنبياء  |
| (٧)  | جزء من الآية رقم ١٧/ من سورة مريم   |
| (٨)  | ذكره الامام القرطبى فى تفسيره ص ٢٣ من الجزء السادس  |
| (٩)  | جزء من الآية رقم ٢١ من سورة مريم  |
| (١٠) | جزء من الآية رقم ٥٩/ من سورة آل عمران   |

القرآن يعارضهم في ذلك كذبوه وأنكروه ، وهو الذي برأ مريم من قول اليهود ، ووضع عيسى الموضع اللائق ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾<sup>(١)</sup> وفي أقوال الأحرار من المسيحية ما يؤيد هذا ، وهى موجودة في كتاب الشيخ رشيد رضا ( تفسير الشيخ محمد عبده ) الجزء السادس عند تفسير هذه الآية ، وإذا كان الأمر كذلك : فآمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وآمنوا برسله جميعاً لا فرق بين نبي ونبي ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة « الأب والابن والروح القدس » أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد فإن هذا إشتراك بالله وترك للتوحيد الذي هو ملة أبيكم إبراهيم ، وهذا كلام ينا في العقل الراجح والفكر السليم ، إذ كيف يكون واحداً وثلاثة ؟ وكيف يحل الإله في بعض خلقه وكيف يتحد ، وهل طبيعة : الإله كطبيعة البشر أظن<sup>(٢)</sup> لا.. بل طبيعة البشر تتنافى مع طبيعة الملك فهذا لا يأكل ولا يشرب وعيسى وأمه كانا يأكلان ويشربان<sup>(٣)</sup>.

وما ميزة عيسى عن غيره من الأنبياء ؟ أرسل مؤيداً بالمعجزات ، وكانت كفرها لم تجر على سنن الطبيعة ، بل بقدرة الله وقوته كما نص القرآن الكريم ، وموسى الكليم ومحمد ﷺ كذلك ، فكيف تقولون إن عيسى إله ؟ ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ وقولوا قولاً يكن خيراً لكم ، وأجدي من هذا العبث والوثنية والعصبية الحمقاء إنما الله إله واحد لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ، سبحانه أن يكون له ولد فليس المسيح ابنه ، إذ الولد يقتضى اتصالاً جنسياً بالأُم ، وحاجة إليه وإلى أمه حتى يبرز إلى الوجود ، أفليق هذا ؟ لا ... يا قوم : الله له مافى السموات ومافى الأرض ملكاً وخلقاً وعبداً وتصريفاً ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾<sup>(٤)</sup>

لا فرق فى ذلك بين الملائكة والنبين والناس أجمعين ، وهل الإله فى حاجة للولد ؟ ليفيم اسمه ويحفظ ذكره ويرثه بعد موته ، وهل هو فى حاجة إلى الولد ليعينه ؟ كلا فالله قوى قادر مالك الملكوت حتى دائم باق بعد فناء خلقه ، صاحب الأمر والتصرف ، وكفى بالله وكيلًا .

وهذا عيسى نفسه يقول فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » فهذا نص صريح فى أن المسيح رسول الله فقط ، وفى الإنجيل أيضاً « من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الله الذى أرسلنى » لن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة الذين هم أعظم من المسيح خلقاً وقوة ، فهم أعلم بذات الله ومكانته . ومن يستنكف عن عبادة الله وحده ويتكبر ويدعى الإشراف أو التشليث فيحشرهم إليه جميعاً ، ويجازيهم على كل ذلك فأما

(١) الآية رقم ٣٤/ من سورة مريم

(٢) الظن هنا بمعنى اليقين الجازم

(٣) وقد جاء ذلك فى الآية رقم ٧٥/ من سورة المائدة : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ... » الآية

(٤) الآيات رقم ٩٣، ٩٤، ٩٥ من سورة مريم



من آمن بالله وحده والعاملون الصالحات ، فيوفيه أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله ، فهو واسع الفضل كثير الخير .

وأما الذين استنكفوا وتكبروا فهم المعذبون عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، ﴿ لا يجحدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾ (١).

### الدعوة العامة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧٥﴾

المناسبة :

بعد أن حاج القرآن النصارى فأفحمهم ، ومن قبل ذلك حاج اليهود فألزمهم ، وناقش المنافقين وكشف سترهم ، وظهرت نبوته ﷺ ظهور الشمس في رابعة النهار ، نادى الناس جميعاً ودعاهم إلى اتباعه .

أيها الناس قد جاءكم برهان واضح ونور ساطع ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله ، وهو من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ذلك البرهان هو محمد ﷺ النبي العربى الأمى ، الذى نشأ فى الجاهلية لم يجلس إلى معلم ولم يؤدبه مؤدب ، ولم يتعلم فى جامعة ولا تخرج فى معهد ، ولم يعد إعداداً لتحمل أكبر رسالة فى الوجود من إنسان !

كان فى شبابه الأمين الصادق ، وعند رجولته الكاملة كان الداعية إلى الله بأقوى أسلوب وأوضح بيان ، وقد كان المثل الأعلى فى عمله وعلمه ورسالته ، وسياسته وقيادته وزعامته ، فحقاً أدبه ربه فأحسن تأديبه ، نعم كان برهانا عن صدق رسالته ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢)

وأنزل الله إليكم مع هذا البرهان نوراً مبيناً هو القرآن الكريم ، ظهر فى الوجود بعد ما عميت القلوب وغشيت الأبصار من الوثنية المشركة واليهودية الكاذبة والمسيحية الضالة ، ظهر فى الكون فأنار الوجود وأضاء القلوب وأحيا النفوس ، وأوضح الطريق لعبادة الله حق العبادة وكان محكم التنزيل كاملاً فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعمران والعلوم الكونية والإلهية والسياسية الحربية للأمم

فحقاً هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ (٣) فمن تأمل هذا البرهان القوى ، وذلك النور

(٣) الآيات من ١٩١ إلى ١٩٥ من سورة الشعراء .

(١) الآية رقم ١٦ من سورة الانفطار

(٢) من الآية رقم ١٢٤ من سورة الأنعام

السمائي ، ظهر له أن محمداً ﷺ برهان من الله وحجة على أحقية هذا الدين ، وأن كتابه القرآن أنزله الله بعلمه وشهد له بصدقه .

فأما الذين آمنوا به واتبعوا نوره واعتصموا بحبله فسيدخلهم ربهم في رحمته وفضله في الدنيا والآخرة ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، فمن يعمل بالقرآن وحكمه كانت له العزة في الدنيا والكرامة ، وفي الآخرة الجنة والرضوان والسلامة .

### حق الأخوة في الميراث

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حِظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿ هلك ﴾ : مات .

سبب النزول :

روى أحمد والشيخان<sup>(١)</sup> عن جابر بن عبد الله قال : « دخل على رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت ، فقلت : إنه لا يرثني إلا كلاله<sup>(٢)</sup> فكيف الميراث ؟ فنزلت آية المواريث »

وقال الخطاى أنزل الله في الكلاله آيتين إحداهما في الشتاء وهي التي في أول السورة وفيها إجمال ، ثم أنزلت الأخرى في الصيف وفيها كمال البيان وقيل إنها من آخر الآيات نزولاً<sup>(٣)</sup>

يطلبون منك الفتيا أيها الرسول ، فيمن يورث كلاله - كجابر بن عبد الله - الذي ليس له ولد وارث ولا والد ، وله إخوة من أب وأم ، إذ هؤلاء لم يفرض لهم شيء ، إن الذي تقدم أول السورة الأخ لأم ونصيبه السدس فإن زاد فالثلث فقط كنصيب أمه .

والتفصيل إن امرؤ مات وليس له ولد ولا والد ، وله أخت لأب أو شقيقة ( لأب وأم ) ، فلها

(١) أحمد بن حنبل والشيخان : البخاري ومسلم

(٢) الكلاله من مات ليس له ولد ولا والد هذا رأى جمهور أهل العلم وقال غيرهم هم الورثة غير الأباء والآباء : باختصار عن الجامع لاحكام

القرآن ج ٥ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

(٣) ذكره الامام مسلم عقب الحديث السالف ذكره

نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ذكر أو أنثى على الصحيح ، فإن كان من يرث بالأخوة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين - كأخوات جابر - فقد كن تسعاً ، وفي رواية سبعة ، فلهن الثلثان والباقي لمن يوجد من العصابة على ما هو مفصل في أبواب الميراث وإن كان الأخوة : رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين في حظهما وهو الثلثان ، يبين الله لكم هذه الأحكام لتعرفوها وتعملوا بها ، فلا تضلوا أبداً ، ﴿والله بكل شيء عليم﴾ فعليكم التمسك بهذه الأحكام إذ هي مصدر الخير والبركة لكم .

## سورة المائدة

جاء في كتاب بصائر ذوى التمييز<sup>(١)</sup> ما نصه :

اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع سوى آية واحدة ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ فإنها نزلت يوم عرفة في الموقف ورسول الله ﷺ راكب على ناقته العضباء فسقطت الناقة على ركبتيها من ثقل الوحي وشرف الآية .

وعدد آياتها مائة وعشرون في عد الكوفي ، واثنان وعشرون في عد الحجاز والشام ، وثلاث وعشرون في عد البصرى .

وكلماتها ألفان وثمان مائة وأربع ، وحروفها أحد عشر ألفاً وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفاً . وسميت بسورة المائدة لا شتأها على قصة نزول المائدة من السماء .

## مقاصد السورة

الأمر بوفاء العهود وبيان ، ما أحله الله تعالى من البهائم ، وذكر تحريم المحرمات ، وبيات إكمال الدين ، وذكر الصيد ، والجوارح ، وحل طعام أهل الكتاب ، وجواز نكاح المحصنات منهن ، وتفصيل الغسل والطهارة والصلاة ، وحكم الشهادات والبيئات ، وخيانة أهل الكتاب القرآن ومن أنزل عليه ، وذكر المنكرات من مقالات النصارى ، وقصة بنى إسرائيل مع العمالقة ، وحبس الله تعالى إياهم في التيه ، وحديث قتل قابيل أخاه هايل ، وحكم قطاع الطريق ، وحكم السرقة وحد السرّاق ، وذم أهل الكتاب وبيان نفاقهم وتجنسهم ، وبيان الحكم بينهم ، وبيان القصاص في الجراحات وغيرها ، والنهي عن موالة اليهود والنصارى ، والرد على أهل الردة وفضل الجهاد ، وإثبات ولاية الله ورسوله للمؤمنين ، وذم اليهود في قبائح أقوالهم ، وذم النصارى بفاسد اعتقادهم ، وبيان كمال عداوة الطائفتين للمسلمين ، ومدح أهل الكتاب الذين قدموا من الحبشة ، وحكم اليمين وكفارتهما وتحريم الخمر ، وتحريم الصيد على المحرم ، والنهي عن السؤالات الفاسدة وحكم شهادات أهل الكتاب وفصل الخصومات ، ومجاورة الأمم رسلهم في القيامة ، وذكر معجزات عيسى ونزول المائدة ، وسؤال الحق تعالى إياه في القيامة تقريباً للنصارى وبيان نفع الصدق يوم القيامة للصادقين .

## فضل السورة :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ وهو على راحلته فلم تستطع أن تحمله حتى نزل عنها » ويروى بسند ضعيف : « من قرأ هذه السورة أعطى من الأجر بعدد كل يهودى ونصرانى في دار الدنيا عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات »

(١) هو كتاب بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمؤلفه مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ .

وفي رواية : « من قرأ هذه السورة أعطى بكل يهودى ونصرانى على وجه الأرض ذرات ، بكل ذرة منها حسنة ودرجات كل درجة منها أوسع من المشرق إلى المغرب سبعمائة ألف ألف ( ضعيف ) »

ويروى أنه قال : يا على من قرأ سورة المائدة شفّع له عيسى وله من الأجر مثل أجور حوارى عيسى ويكتب له بكل آية قرأها مثل ثواب عُمّار بيت المقدس .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدينة بناء على المشهور من أن المدنى مانزل بعد الهجرة ولو فى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : أن قوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الخ نزلت عشية يوم عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه التناسب بينها وبين سورة النساء يتبين فيما يلى :

١ - أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحاً وضمناً ، فالصريح : عقود الأنكحة والصدّاق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى : عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة

٢ - أن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشيء مما قبلها .

٣ - إن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى ، مع ذكر شيء عن المنافقين والمشرّكين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل فيه فى آخرها

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة : أن الأولى بدئت ببيأها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهذا بالتنزىل المكى ، والثانية ببيأها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزىل المدنى المتأخر عن الأول .

روى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يأيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها »

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعْتَهُمُ اللَّهُ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامَ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبَرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠﴾

**المفردات :** ﴿أوفوا﴾ : الوفاء الإتيان بالشيء وافيًا كاملاً لا نقص فيه ﴿بالعقود﴾ : بالعهود المؤكدة الموثقة ، وهى تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض فى البيع والشراء والمناكحة وغير ذلك ﴿بهيمة﴾ : وهى مالا عقل لها سميت بذلك لإبهام أمرها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تمييزها وعقلها ، وخصها العرف بذوات الأربع مع حيوان البر والبحر ﴿الأنعام﴾ : هى الإبل والبقر الشامل للدواب والجواميس والضأن الشامل للخراف والمعز ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش وحمرة ﴿شعائر﴾ : جمع شعيرة ، مأخوذ من الشعور والإعلام ، والمراد معالم دينه وخصت بمناسك الحج ﴿الهدى﴾ : ما يهذى إلى الحرم ويذبح فيه للفقراء ﴿القلائد﴾ : جمع قلادة وهو ما يعلق فى العنق ﴿آمين﴾ : قاصدين ﴿شأن﴾ : بغضهم بغضاً شديداً ﴿لا يجرمكم﴾ : لا يحملنكم ولا يكسبنكم ﴿البر﴾ : ما اطمأن إليه القلب ﴿الإثم﴾ : كل ذنب ومعصية وهو ماحاك فى الصدر وخفت أن يطلع عليه الغير .

### التفسير

هذا خطاب كريم من رب كريم جاء بعنوان الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ والله جلّت قدرته وعظمت حكمته ، يخاطب المؤمنين لأنهم أسرع الناس امتثالاً لتنفيذ أمره واجتتاب نهي

أتى رجل عبد الله بن مسعود فقال : اعهد لى ، فقال : « إذا سمعت الله يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرעה سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » وعن الزهرى قال : « إذا قال الله ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ افعلوا فالنبي ﷺ منهم »

ولصدر هذه السورة الكريمة من القيم والمعاني والتوجيهات والإرشادات الإلهية ، ماجعلنا نقف موقف المعبر ، عندما نعلم أن هذه الآيات كانت نص خطاب بعث به النبي ﷺ عمرو بن حزم إلى أهل اليمن ، قال ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن حزم عن أبيه قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذى كتبه لعمر وبن حزم ، حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر وبن حزم ، وقد أمره فيه بتقوى الله فى أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

المراد بالعقود : العهود ، فالوفاء بالعهد سمة بارزة من سمات الإسلام وقيمة راسخة من قيمه الأخلاقية ومثله العليا ، قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد

جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ ﴿٢﴾ ومن صفات المؤمن أنه إذا قال صدق ، وإذا عاهد أوفى ، وإذا وعد أنجز

ومن خصال المنافق أنه إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، ومن كانت فيه من هذه الخصال كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، ومن كانت فيه تلك الخصال كان منافقاً خالصاً ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون .

وقال الضحاك ( أوفوا بالعقود ) أى ما أحل الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب : أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال

وقال زيد بن أسلم ( أوفوا بالعقود ) قال : هى ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد بها إلى عباده : أى ما أحل وما حرم وما فرض وما حُدَّ فى القرآن كله ، لاغدر فيها ولا نكث .

وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب : عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بينه وبين غيره من البشر ، وكل واحد منها إما أن يوجبه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه بديهية العقل ، أو بأدنى نظر ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ ﴾ قالوا بلى ﴿٣﴾ وإما أن يوجبه الشرع ، وهو ما دلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل ، كما أمر الله ، ما لم يحزم حلالاً أو يحلل حراماً ، كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر ( القمار ) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها ، وبدأ بما يتعلق بضروريات معاشهم فقال : ( أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، والمراد بالأنعام : الضأن والمعز والإبل والبقر ، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً فى بطن أمه إذا ذبحت : عن أبى سعيد : قال « قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » قال الترمذى حديث حسن وقد ألحق بهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ، والإضافة فى قوله تعالى ﴿ بهيمة الأنعام ﴾ إضافة تفيد البيان أى بهيمة هى الأنعام ، كما فى قوله تعالى ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ ﴿٤﴾ أى آية هى الليل ، وآية هى النهار .

(٣) جزء من الآية رقم ١٧٣/ من سورة الأعراف

(٤) جزء من الآية رقم ١٢/ من سورة الاسراء

(١) جزء من الآية رقم ٩١/ من سورة النحل

(٢) جزء من الآية رقم ٣٤/ من سورة الاسراء

قوله تعالى : ﴿إِلا مَا يَبْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أى ما سياتى بيانه فى قوله جلّ ذكره : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى النَّصَبِ﴾ فهذه المذكورات من الأنعام ماعدا الخنزير وإنما حُرِّمَتْ لعارض طرأ عليها كالموت بدون تذكية .

قوله تعالى : « غير محلى الصيد وأنتم حرم » غير هنا منصوب على الحال : أى حالة كونكم غير محلى الصيد وأنتم حرم ، كالطباء وبقر الوحش وحمار الوحش ، وذلك كما فى قوله جلّ ذكره ﴿حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدِ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا﴾<sup>(١)</sup> فالله تعالى إذا كان قد أباح صيد الطباء وبقر الوحش وغيرهما من الحيوانات التى لا يمكن الوصول إليها إلا بالصيد ، فإنه تعالى حَرَّمَ على المحرمين أن يصطادوا مادامو حُرَمًا ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرَمٌ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿إِنِ اللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ المقصود بالحكم هنا القضاء ، فهو سبحانه الذى يقضى بحكمة هذا وحل ذاك كما يشاء سبحانه ، ومشيتته منزهة عن العيب ، لأنه الحكيم المريد العليم جلّت حكمته ووسعت رحمته وعظمت رأفته ، وليس لغيره أن يحكم على الأشياء بالحل والحرمه لهُوى فى نفسه ، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذُنُ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ : المقصود بشعائر الله هنا مناسك الحج والعمرة وقيل سائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم . ومعنى لا تحلوا : أى لا تغفلوا أحكام الله فيها ، والمقصود بالشهر الحرام : الأشهر الأربعة : وهى ثلاثة سرد<sup>(٥)</sup> وواحد فرد وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

وقد حَرَّمَ الله القتال فى هذه الأشهر إلا إذا اعتدى على المسلمين فيها : قال تعالى : ﴿يَسْتَلُونَكُمُ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾<sup>(٦)</sup> . وقال جلّ ذكره : ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامِ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ . فَمَنْ عَٰتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَٰتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال تبارك اسمه : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(٨)</sup> .

والمقصود بالهدى : ما يَهْدَى من الأنعام إلى البيت الحرام للتوسعة على أهل هذا المكان ، فلا تمنعوه

- |     |                                     |     |                                     |
|-----|-------------------------------------|-----|-------------------------------------|
| (١) | جزء من الآية رقم ٩٦ من سورة المائدة | (٥) | سرد أى متتالية                      |
| (٢) | جزء من الآية رقم ٩٥ من سورة المائدة | (٦) | جزء من الآية رقم ٢١٧ من سورة البقرة |
| (٣) | الآيتان رقم ٦٠، ٥٩ من سورة يونس     | (٧) | جزء من الآية رقم ١٩٤ من سورة البقرة |
| (٤) | الآيتان رقم ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل | (٨) | جزء من الآية رقم ٣١ من سورة التوبة  |



من بلوغه محله من بيت الله بأخذه غضبا وذبحه أو سرقة أو حبسه عند من أخذه ، والمقصود بالقلائد : معلق فيه قلادة تميزه عن غيره وتفيد أن هذا مُهدى إلى بيت الله الحرام ، فلا تمنعوا الهدى مقلداً أو غير مقلد .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَفَوْنُ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ نزل هذا النص في الحطيم بن هند البكرى<sup>(١)</sup> : كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا في طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴾ ، والمقصود بالآمين القاصدين البيت في الحج أو العمرة ، وقد يُراد بالفضل التجارة كما في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> والمقصود بالرضوان ما يرضون به الله تعالى بأداء الحج والعمرة والإهداء إلى الحرام .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ﴾ أى إذا فرغتم من الإحرام وتحللتم فقد أبيع لكم ما كان محرما من الصيد فاصطادوا إن شئتم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدَّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾ أى لا يحملنكم شدة بغضكم لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام - كما حدث يوم الحديبية - لا يحملنكم ذلك على الاعتداء عليهم ، فالإسلام دين العدل لا يتصيد الأخطاء ، ولا يظلم من أجل البغض والشنآن ، وليس للهوى في حكمة نصيب :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ البر جماع الخير وشعبه كثيرة متعددة ، جاء بيانها في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

وقد جاء في الحديث الشريف « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن .

(١) اسمه في الجامع لأحكام القرآن « شريح بن ضبيعة البكرى أو الكندى ، وفيه أن جند رسول الله ﷺ أخذوه عام غمرة القطيف وقد جاء مقتمرا ، وقد قتل الحطيم فرتدا في ردة البجامة ، وكان الهدى الذى ساقه للكعبة مما سبق أن سرقة من سرح المسلمين حول المدينة

(٢) جزء من الآية رقم ١٩٨ من سورة البقرة

(٣) هى الآية رقم ٩/ من سورة المائدة وسوف يأتي تفسيرها إن شاء الله

(٤) جزء من الآية رقم ١٧٧ من سورة البقرة

وروى أحمد والدارمي عن وابصة بن معبد الجهني أنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم . وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبي ﷺ بما في نفسه وأجابه فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومن باب التعاون على البر والتقوى قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يارسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره « انفراد به البخاري .

وقوله ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » رواه الترمذي وابن ماجه .

وقوله ﷺ « الدال على الخير كفاعله » رواه أحمد .

وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه البخاري - وقال أيضا ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام » . رواه الطبراني - قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ أى احذروا عقوبته وخافوه ، فالتقوى هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، وهو سبحانه شديد العقاب على من خالفه ، واسع الرحمة والمغفرة لمن أطاعه والتزم شرعه .

### أحكام تتعلق بالحرمان

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمِ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٦﴾

### التفسير

جاءت هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في قوله تعالى : ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ الذى جاء استثناء من قوله جل شأنه : ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ وقد بين الله تعالى في تلك الآية أحكام التحريم في

عشرة أشياء نبين معناها فيما يلي :

﴿ الميتة ﴾ : وهى ما ماتت وحدها بدون فعل فاعل ، وفى الشرع هى التى لم تُذَكَّ ذكاة شرعية ، وقد حرمت لما فيها من الضرر إذ الغالب أنها ماتت من مرض ، وبقي فيها ميكروبه وجراثيمه التى تعيش فى الدم بعد الوفاة ، أما إذا ذكيت فإن الدم الذى يحمل الجراثيم أو أغلبها ينزل منها ، على أنها<sup>(١)</sup> مما تعافها النفوس الطيبة وتأنف من أكلها الطباع السليمة .

﴿ الدم ﴾ : والمراد به الدم المسفوح - لا المتجمد كالكبِد والطحال - إذ هو مباءة للجراثيم الفتاكة ، على أنه مستقذر عند الطبع السليم ، ومما يعسر هضمه ، وهو من فضلات الجسم الضارة كالبراز ، فدل ذلك على أنه لا يحل أكله أبداً .

﴿ ولحم الخنزير ﴾ : وهو ثلاثة الأنثى ، والمراد لحمه وعظمه ودهنه ، إذ هو حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والمواد العفنة ، وقد أثبت الطب الحديث أن أكله يولد الدودة الشريطية والدودة الوحيدة والحلزونية ، على أنه عسير الهضم ، ضار بالمعدة ضرراً بالغاً ، ولولا ما يستعين به بعض الغربيين من الأدوية ما أكلوه ، على أن أكثر الدول حرمت ذبحه ، وهل تقبل النفوس الطيبة على أكل حيوان كهذا ؟

والإسلام حينما حرم الكلب والخنزير لم يكن متعدياً ولا متجنياً ، بل لما فيهما من الضرر والخطورة ، وإنما ينظر الشرع للجماهير والشعب ، لا لبعض أفراد يُعْتَوَّن بكلاهم مثلاً ، فلا يطعموهم الإشهى اللحم !!

﴿ ما أهل لغير الله به ﴾ : والإهلال رفع الصوت ، وقد كانوا يرفعون صوتهم عند الذبح فى الجاهلية بقولهم : باسم اللات والعزى الخ ، فمادبح وقد ذكر عليه اسم غير الله كان حراماً أكله ، إذ أكله مشاركة لأهله فى عبادة غير الله ، وهذا مما يجب إنكاره لا المشاركة فيه .

﴿ المنخنقة ﴾ : هى ما ماتت خنقاً بأى شكل كان ، وهى نوع من الميتة التى لم تذك ذكاة شرعية ، وإنما خصها القرآن بالذكر مع اندراجها فى الميتة لئلا يظن أنها ما ماتت حتف أنفها بل بفعل فاعل فتحل ، ولكن الشرع شرط الذكاة ليتأكد الإنسان مما يأكل ويثق من صحة ما يتغذى به .

﴿ الموقوذة ﴾ هى التى ماتت بعضاً أو بحجر بلا ذكاة شرعية ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية ، والوقد يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان شديد ، وليست معه ذكاة ومن هنا حرمت .

ويدخل فى الموقوذة مارمى بعضاً أو حجر ليس له حد ، وما رمى بالبندق ( وهو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد بيسها )<sup>(٢)</sup> وكذا الحصاة ، فإن هذا كله لا يفتقأ عينا ولا ينكى عدوا ولا يحرز صيدا وليس سبباً للقتل غالباً ، أما الرصاص المستعمل الآن فى سلاح الصيد فحائز شرعاً على الصحيح<sup>(٣)</sup> .

(١) أى الميتة

(٢) يرمى بهذه الكور أو الحصى الصلب بمقلاع أو نبل ، فإن أدرك الطير أو الحيوان وفيه رمق فذكى أى ذبح وهو على حياة حل أكله

(٣) وسبب الجواز أنه يسيل الدم فصار فى معنى الذكاة

﴿المرتدية﴾ : هى ماسقطت من مكان عال كجبل أو هوت فى بئر فماتت بسبب ذلك وهى كالميتة لا يخل أكلها بدون تذكية ، ويجوز عقرها فى أى مكان<sup>(١)</sup> للضرورة فتحل .

﴿النطيحة﴾ : وهى مانطحتها بهيمة أخرى فماتت وهى حرام كالميتة .

﴿ما أكل السبع﴾ : وهى ما قتلت بافتراس حيوان كالسبع والذئب والتمر مثلاً والمراد مابقى منها بعد السبع لا ما أكلت كلها ، وكانوا فى الجاهلية يأكلون مابقى من السباع والوحوش .

﴿إلا ما ذكيت﴾ : أى إلا ما أدر كتموه حياً مما سبق فذكيتموه : من المنخقة والموقوذة والمرتدية والنطيحة ، وما أكل السبع جزءاً منه ، وما أهل لغير الله به ، فإذا كانت فيه حياة ولو بسيطة بأن يطرف عيناً أو يضرب برجل أو يد ثم ذكيتموه ذكاة شرعية صار حلالاً ، وإلا فلا أما الميتة والدم ولحم الخنزير فلا تحل أصلاً ذكيت أم لا .

﴿ما ذبح على النصب﴾ : وهو آخر المحرمات العشر والنصب حجارة حول الكعبة قيل كان عددها ثلاثمائة وستين حجراً وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها تقرباً للأصنام ، وهو نوع مما ذكر عليه اسم غير الله تعالى فحرم أكله لهذا - وقد أضاف القرآن الكريم إلى محرمات الطعام التى كان الجاهليون يستحلونها خرافة أخرى كانوا يعملونها وهى :

﴿الاستقسام بالأزلام﴾ : أى معرفة ما قسم له بواسطة الأزلام ، وكانت ثلاثة أنواع فى الجاهلية :  
 ﴿نوع﴾ : كان مع الشخص وعدده ثلاثة مكتوب على واحد افعل والثانى لا تفعل والثالث غفل ..  
 ﴿النوع الثانى﴾ : سبعة قداح واحداً قدح وكانت عند هبل فى جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل .

﴿النوع الثالث﴾ : هو قداح الميسر وعددها عشرة : سبعة منها فيها حظوظ وثلاثة غفل<sup>(٢)</sup> .. إلى آخر ما هو معروف .

أى وحرم عليكم معرفة ما قسم لكم بالأزلام ، والحكمة فى هذا أنه من الخرافات والأوهام التى تعوق نشاط الفرد والأمة ، ومدعاة للكسل والسير على غير بصيرة وهدى ، على أنها تجعل الناس ألعوبة فى يد الكهان<sup>(٣)</sup> ، والإسلام برىء من هذا كله ..

وفى هذه الأيام شاعت معرفة الحظ والاستقسام بأوراق « الكوتشينة » و ( الودع ) و ( الفنجان ) وهذا كله منكر شرعاً لا يليق بعقل المسلم .

على أن معرفة الحظ والنصيب بواسطة المسبحة أو المصحف شئ لا يعرفه الشرع والقرآن

(١) وذلك إذا أدركت وفيها رمق من حياة

(٢) أى فارغة ليس فيها شئ

(٣) وهم الذين كانوا يوكل إليهم الاستقسام بالأزلام وكانت لهم حيل حتى يحصلوا على أعظم أجر

والاستخارة الواردة شرعا أن يصلي الإنسان ركعتين نفلا للاستخارة ، ثم يدعو الله بدعاء بشرح به صدره لما يريد إن كان خيرا له في دينه ودنياه ، وللنبي ﷺ دعاء في الاستخارة يقول فيه : « اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ( ويسمى حاجته ) خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم رضني به ، وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان » .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم فسق ﴾ أى أن المذكورات التي حرمها الله تعالى فسق وخروج عن طاعة الله ، لمن خالف أمر الله فيها .

وقد ذكر الله تعالى في ختام هذه الآية أربع بشرىات : أولاها : ﴿ اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ، وثانيها ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ وثالثها ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ ورابعها : ﴿ رضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ (١) قال ﷺ « إن الشيطان قد ينس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » وإذا كان الله تعالى قد أكمل دينه فليس دين الله في حاجة إلى زيادة أبداً ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لا تنقضي أبداً ، وإذا كان قد رضى لنا الإسلام ديناً فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً .

قوله تعالى : ﴿ فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ هذا استثناء مما سبق ذكره من المحرمات فللضرورة أحكامها ، إذ أن الضرورات تبيح المحظورات ، فمن أصابته مخمصة وجوع يكاد يعصف به ولم يكن مائلا إلى إثم أو معصية ، فقد أبيض له أن يأكل بقدر ما يرد جوعته ويروى غلته ولا إثم عليه لأنه اندرج تحت مظلة المغفرة الإلهية والرحمة الربانية ، فما أكرمك من إله وما أعظمك من رب رحيم أرأف بعباده من الأم بولدها .

قال ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفي لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة »

(١) روى الأئمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرأونها لو علينا انزلت معشر يهود لاتخذنا ذلك اليوم عيداً ، قال : وأى آية ؟ قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » فقال عمر : إني لأعلم اليوم الذي أنزل فيه ، والمكان الذي أنزل فيه ، أنزل على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم الجمعة - لفظ مسلم ، وعند النسائي ليلة الجمعة .

وروى أنها لما نزلت في يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله ﷺ : بكى عمر ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك » أبكاني أنا كنا في زيارة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نفصل ، فقال له النبي ﷺ : « صدقت » وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة والأول هو الأصح ، وقد نزل والنبي ﷺ واقف بعرفة بعد صلاة العصر على ناقه العضباء ، فكاد عضد الناقه ينقذ - ينكسر - من ثقل الوحي فبركت

## ماذا أحل لهم

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ يَعْلَمُونَ نَهْنٍ مِمَّا  
 عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ  
 الْحِسَابِ ﴿١٠٦﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ  
 وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْنَهُنَّ  
 الْأُجُورَ مِنْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ  
 فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٠٧﴾

**المفردات :** ﴿ الطيب ﴾ : ضد الخبيث . ﴿ والجوارح ﴾ : واحدها جارحة ، وهى  
 الصائدة من الكلاب والفهود والطيور ، من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى ﴿ ويعلم ما جرحتم  
 بالنهار ﴾ (١) أى ما كسبتم ، و﴿ مكليين ﴾ : من التكليل وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ، ثم  
 استعمل فى تعليم الجوارح مطلقا . ﴿ المحصنات ﴾ : هنا الحرائر وقيل العفيفات عن الزنا .  
 ﴿ والأجور ﴾ : المهور ، والمراد بالمحصنين الأعفاء عن الزنا . ﴿ مسافحين ﴾ : مجاهرين بالزنا .  
 ﴿ متخذى أخدان ﴾ : مُسرِّين به ، والخِذْن : الصديق يقع على الذكر والأنثى (٢) . ﴿ حبط عمله ﴾ :  
 بطل ثواب عمله .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه ابن أبى حاتم بإسناده إلى عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل  
 الطائين : أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت  
 ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ أى الذبائح الحلال الطيبة لهم .

وقال تعالى ﴿ مما علمتم من الجوارح مكليين ﴾ أى كما أحل الله تعالى الطيبات وهى كلمة جامعة  
 يندرج تحتها كل ما تستطيه النفوس النظيفة ، فإنه سبحانه أحل لنا ما تصطاده الجوارح من الكلاب  
 والفهود وغير ذلك مما نسلطه على الحيوان فيصطاده ، وللصيد فى الشريعة الغراء أحكام نجمها فيما يلى :

**تعريف الصيد :**

الصيد هو اقتناص الحيوان المتوحش بالطبع الذى لا يقدر عليه حكمه : وهو مباح أباحه الله  
 سبحانه بقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ (٣) والصيد مباح كله ماعدا صيد الحرم . وصيد البحر جائز فى

(٣) جزء من الآية رقم ٦٠/ من سورة الأنعام

(١) جزء من الآية رقم ٦٠/ من سورة الأنعام

(٢) أى يطلق على الذكر والأنثى

(٣) جزء من الآية الثالثة التى سبق شرحها من هذه السورة

كل حال ، وكذلك صيد البر إلا في حالة الإحرام يقول الله تعالى : ﴿ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَاةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ (١).

### الصيد الحرام :

والصيد المباح هو الصيد الذى يقصد به التذكية ، فإن لم يقصد به التذكية ، فإنه يكون حراماً لأنه من باب الإفساد وإتلاف الحيوان لغير منفعة .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيوان إلا المأكلة : روى النسائي وابن حبان أن النبى ﷺ قال : « لاتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً » (٢). ومر صلوات الله وسلامه عليه على طائر قد اتخذه بعض الناس هدفاً يصوبون إليه ضرباتهم فقال : « لعن الله من فعل هذا »

### شروط الصائد :

ويشترط فى الصائد الذى يحل أكل صيده ما يشترط فى الذابح بأن يكون مسلماً أو كتابياً فصيد اليهودى والنصرانى كذبيحته يؤكل .

### الصيد بالسلاح الجارح وبالحیوان :

والصيد قد يكون بالسلاح الجارح كالرماح والسيوف والسهام ونحوها ، وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ شَيْئاً مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ (٣) وقد يكون بواسطة الحيوان ، وفيه يقول الله سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيْبَاتِ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

وعن أنى ثعلبة الخشنى قال : قلت يارسول الله إنا بأرض صيد . أصيد بقوسى وبكلبى المعلم وبكلبى الذى ليس بمعلم فما يصلح لى ؟ فقال : « ما صدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل » ورواه البخارى ومسلم .

### شروط الصيد بالجوارح :

والصيد بالجوارح مثل الصقر والبازى والفهد والكلب وغيرها مما يقبل التعليم جائز بالشروط

الآتية :

١ - تعليم الحيوانات الصيد ، ويعرف ذلك بأن ياتمر إذا أمر ، وينزجر إذا زجر .

(١) جزء من الآية رقم ٩٦ من هذه السورة « المائدة »

(٢) أى هدفاً توجهون إليه وسائل الصيد دون طلب الاستفادة منه

(٣) هى صدر الآية رقم ٩٤ من هذه السورة -- المائدة .

٢ - أن يمسك على صاحبه بترك الأكل من الصيد ، فإن أكل فقد أمسك على نفسه فلا يحل صيده ، ففي حديث عدى بن حاتم قال الرسول ﷺ له : إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكر اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك ، وإن أكل الكلب فلا تأكل فإنني أخاف أن يكون مما أمسك على نفسه .

٣ - أن يرسله ويذكر اسم الله عليه : بالنسبة للتسمية قال مالك : كل ماذبح ولم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، سواء ترك ذلك الذكر عمداً أو نسياناً وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين ، وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم ، وإن ترك نسياناً حل .

وقال الشافعي : يحل متروك التسمية سواء كان عمداً أم خطأ إذا كان الذابح أهلاً للذبح : عن عائشة أن قوماً قالوا : يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه أنتم وكلوا ، قالت « وكانوا حديثي عهد بالكفر » أخرجه البخاري وغيره .

أما قصد إرسال الحيوان فإنه شرط من شروط لصيد فإذا انبعث الحيوان الجراح من تلقاء نفسه من غير إرسال ولا إغراء من الصائد فلا يجوز صيده ، ولا يحل أكله عند مالك والشافعي وأبي ثور وأصحاب الرأي ، لأنه صاد لنفسه من غير إرسال وأمسك عليها ، ولا صنع للصائد فيه ، فلا ينسب إليه ، لأنه لا يصدق عليه الحديث المتقدم : « إذا أرسلت كلابك المعلمة .. الخ » فمفهوم الشرط أن غير المرسل لا يكون كذلك وقال عطاء والأوزاعي يؤكل صيده إذا كان أخرج للصيد وكان معلما .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله سريع الحساب ﴾ أى أطيعوا أمره واجتنبوا نهيه فإنه تعالى محاسبكم على أفعالكم فى الدنيا والآخرة ، واعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ : أى على سبيل التفصيل . فقد كانت حلالا من قبل على سبيل الإجمال . ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح : فللمسلم أن يأكل من ذبيحة اليهودى أو النصرانى ، وكما أباح الله تعالى للمؤمن أن يتزوج بالحرائر من المؤمنات فقد أباح له أن يتزوج بالحرائر من أهل الكتاب ، وأن يؤتين مهورهن مبتغيا بذلك الإحصان والعفة ، دون سفاح أو مخادعة : قال تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ فمن جحد هذه الأحكام الإيمانية فقد حبط عمله وضاع تبعه وضل سعيه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون ، قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

## أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ حَذْرًا مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ



بِرءُ وِسْكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذِّى وَانْفَكُّم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٨﴾

**المفردات :** ﴿ وجوهكم ﴾ : جمع وجه وهو ما به تقع المواجهة وحده طولاً ما بين منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحين ، وعرضاً ما بين الأذنين . ﴿ المرافق ﴾ : جمع مرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد . ﴿ الكعبين ﴾ : العظمان الثنتان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين ﴿ جنباً ﴾ : أى أصابتكم جنابة بمجامعة النساء وإنزال المنى .

### التفسير

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى عهوده الخاصة بالحلال والحرام فى الطعام والنكاح أخذ بين ما يقتضيه هذا من الشكر لله والصلاة ، ومفتاحها الوضوء والغسل والتيمم ، وختم الآية ببيان الحكمة فى الطهارة وتذكيرنا بالعهود والمواثيق التى التزمناها

روى عن النبى ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور » .

### فرائض الوضوء :

إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، فالمرافق تغسل من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وامسحوا برءوسكم « امسحوا ولو شعرة واحدة عند الشافعى رضى الله عنه ، وربع الرأس عند الإمام الأعظم أى حنيفة النعمان ، وعلى كل الرأس عند مالك للاحتياط ، وقد فعل النبى ﷺ هذا كله ، والآية تحتل كل هذا إذا لهاء فى قوله تعالى قد تكون للإلصاق أو للتبويض أو زائدة صلة ، ولا تنس أن خلافهم رحمة . ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما داخلان كالمرفقين

ومن فرائض الوضوء النية عند الشافعى واستدل بقوله تعالى : ﴿ إذا قمتم ﴾ وبحديث « إنما الأعمال بالنيات » والترتيب كذلك لقوله ﷺ : « ابدءوا بما بدأ الله به » وتوسط مسح الرأس بين غسل اليدين والرجلين يدل على الترتيب ، وعلى ذلك فتكون فروض الوضوء : النية ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين ، ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين والترتيب ، وله سنن كثيرة نذكرها فيما يلى :

## سنن الوضوء

## ١ - التسمية في أوله :

ورد في التسمية للوضوء أحاديث ضعيفة ، لكن مجموعها يزيد قوة تدل على أن لها أصلاً ، وهي بعد ذلك أمر حسن في نفسه ، ومشروع في الجملة .

## ٢ - السواك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . رواه مالك والشافعي والبيهقي وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » رواه أحمد والشافعي والنسائي والترمذي ، ويسنُّ لمن لا أسنان له أن يستاك بإصبعه ، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله الرجل يذهب فوه أيستاك ؟ قال : نعم - قلت : كيف يصنع ؟ قال : « يدخل إصبعه في فيه » رواه الطبراني .

## ٣ - غسل الكفين ثلاثاً في أول الوضوء :

لحديث أوس ابن أوس الثقفي رضي الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ فاستوكف ثلاثاً ( أي غسل كفيه ) رواه أحمد والنسائي ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في إناء حتى يغسلها ثلاثاً ، فإنه لا يدرى أين باتت يده » رواه الجماعة .

## ٤ - المضمضة ثلاثاً :

لحديث لقيط بن صبره رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأت فمضمض » رواه داود البيهقي .

## ٥ - الاستنشاق والاستنثار ثلاثاً :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم ليستنثر » رواه الشيخان وأبو داود .

## ٦ - تخليل اللحية :

لحديث عثمان رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يخلل لحيته « رواه ابن ماجه والترمذي وصححه ، وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه فخلل به ، وقال : « هكذا أمرني ربي عز وجل » رواه أبو داود والبيهقي

## ٧ - تخليل الأصابع :

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إذا توضأت فخلل أصابع يديك

ورجليك» رواه أحمد والترمذى ، وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يخلل أصابع رجله بخنصره » رواه الخمسة إلا أحمد .

#### ٨ - تثليث الغسل :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

#### ٩ - والقيام :

أى البدء بغسل اليمين قبل غسل اليسار من اليدين والرجلين ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحب القيام فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله « متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدءوا بأيمانكم » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

#### ١٠ - الدلك :

وهو إمرار اليد على العضو مع الماء أو بعده ، عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه : أن النبى ﷺ أتى بثلاث مَدَّ<sup>(١)</sup> فتوضأ فجعل يدلك ذراعيه « رواه ابن خزيمة وعنه رضى الله عنه : أن النبى ﷺ توضأ فجعل يقول هكذا يدلك » رواه أبو داود .

#### ١١ - الموالاة :

أى تتابع غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بألا يقطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبى يعدُّ فى العرف انصرافاً عنه وعلى هذا مضت السنة .

#### ١٢ - مسح الأذنين :

عن المقدم بن معد يكرب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ مسح فى وضوئه رأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما وأدخل أصبعيه فى صماخى أذنيه « رواه أبو داود .

#### ١٣ - إطالة الغرة والتحجيل :

أما إطالة التحجيل فبأن يغسل ما فوق المرفقين والكعبين ، لحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . رواه أحمد الشيخان .

(١) المَدَّ مكبال كانوا يكبلون به كاللتر والصاع خمسة أمداد أى خمس لترات

## ١٤ - الاقتصاد في الماء وإن كان الاغتراف من البحر :

لحديث أنس رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ، ويتوضأ فقال : « ما هذا السرف يا سعد » ؟ فقال : وهل في الماء من سرف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار » رواه أحمد وابن ماجه .

## ١٥ - الدعاء أثناءه :

في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ ، فسمعتة يدعو يقول : « اللهم اغفر لي ذنبي ، ووسع لي في داري وبارك لي في رزقي » فقلت : يانبي الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شيء ؟ » رواه النسائي .

## ١٦ - الدعاء بعده :

لحديث عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » رواه مسلم .

## ١٧ - صلاة ركعتين بعده :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال : « يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام ، إني سمعت ذق نعليك بين يدي في الجنة ، قال : ما عملت عملا أرجى عندي من أني لم أتطهر طهورا في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي » متفق عليه .

## نواقض الوضوء :

ما خرج من السيلين ، النوم على غير هيئة المتمكن ، وتلاق بشرق ذكر وأنثى ، وعند الأحناف اللبس لا ينقض مطلقا ، وقيل بالشهوة ينقض فقط ، ومس فرج الآدمي بباطن الكف ، وخالف بعضهم في هذا ، وليست نواقض الوضوء في الآية . ولكن تعميها للفائدة ذكرت .

## الغسل :

هو تعميم البدن بالماء الطاهر وله أسباب منها الجنابة وتكون بإيلاج الحشفة أو قدرها من الذكر في فرج ، أو بنزول المنى ، وكذا الولادة وكذا الحيض والنفاس<sup>(١)</sup> ، فمن كان جنبا أو عنده سبب من أسباب الغسل المتقدمة وأراد الصلاة فعليه بالغسل مع النية « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

## التيمم :

هو ضربتان للوجه واليدين بنية من تراب طاهر له غبار وقيل لا يشترط وله أسباب منها تعذر

(١) ولا صلاة على الحائض والنفساء حتى يرتفع الدم وعندئذ تغتسل لاستباحة قريضة الصلاة

استعمال المال لمرض أو سفر أو أحدث الشخص حدثاً أصغر أو حدثاً أكبر ( كما تقدم في الغسل ) أو طلب الماء فلم يجده أو جاء أحد منكم من الغائط ﴿ أولاً مستم النساء ﴾ ( جامعتم ) فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً .

حكمة مشروعية الوضوء والغسل :

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

١ - إن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة ، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء ، بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التي تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .

إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقوع أو الإنزال حصل تهيج عصبى كبير ، يعقبه فتور - بحسب سنة رد الفعل - ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله .

٢ - إن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة للأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المعدية في المبالغة في النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصبح الناس أجساداً وأقلهم أمراضاً ، لأن دينهم مبني على المبالغة في نظافة الأبدان والثياب والأمكنة ، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التي تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

٣ - تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديراً بحضور كل مجتمع ، ولقاء أشرف الناس وفضلائهم ، ومن كان وسخاً قدراً فإنه يكون محتقراً عند كرام الناس ، ولا يعدونه أهلاً لأن يحضر مجالسهم ويشعر في نفسه بالضعف والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ، ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة ، لأنه يوم يجتمع فيه الناس في المساجد لعبادة الله تعالى : روى مالك والشافعي وأحمد والبخاري ومسلم من طرق عدة : أن النبي ﷺ قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الجرج الذي تم به الإنعام ذكرنا بنعمه التي أنعم بها علينا فقال :

﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ أى وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين ، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين ، وتذكروا العهد الذي عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره ،

والعسر واليسر ، حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتمنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك في معروف ، وكل ماجئتنا به فهو معروف ، وكل نبي بعث في قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة ، وقبول الدعوة والدخول في الدين ، يعد قبولاً لهذا العهد فعلياً أن نعد هذا التذكير خطايا لنا كما عده

السلف من الصحابة خطابا لهم .

﴿ واتقوا الله ﴾ فلا تنقضوا عهده وتخالقوا ما أمركم به وما نهاكم عنه ، سواء أكان في هذه الآيات أم في غيرها .

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق ، من نية الوفاء به أو عدم الوفاء وما تنطوي عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون بعباده رحيماً لا يكلفهم بهابنية عنتهم أو ما يشق عليهم ، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه تعالى لما بين وجوب الطهارتين ، وكان المسلم لابد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك في اليوم ، ولابد له من الغسل في كل أسبوع أو أكثر غالباً ، بين الرخصة في تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يُسر لا حرج فيه ولا عنت ، فقال : ﴿ وإن كنتم مرضى ﴾ أى وإن كنتم مرضى مرضاً جليداً كالجدري والجرب وغيرهما كالقروح والجروح ، أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر .

﴿ أو على سفر ﴾ طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ : الغائط المكان المنخفض من الأرض ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول وغائط ، أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها ، كالطواف ، ويسمى : الحدث الأصغر

﴿ أو لامستم النساء ﴾ المراد باللامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء والحدث الموجب للغسل يسمى : الحدث الأكبر .

﴿ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ﴾ أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث : المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين ، فاقصدوا تراباً أو مكاناً من وجه الأرض طاهراً لانجاسة فاضربوا بأيديكم عليه وأصقوها بوجوهكم وأيديكم إلى الرسغين ، بحيث يصيبها أثر منه .

﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم في هذه الآية ، وفي غيرها ، حرجاً ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة ، لأنه تعالى غنى عنكم رحيم بكم ، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم ﴿ ولكن يريد ليظهركم به ﴾ من الأقدار والردائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ، فتكونوا أنظف الناس أبداناً وأزكاهم نفوساً وأصحهم أجساداً وأرقاهم أرواحاً .

﴿ وليتم نعمته عليكم ﴾ فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان إنما هو روح وجسد ، والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتعود المصلى مراقبة ربه في السر والعلن وخشيته حين الإساءة ، والرجاء فيه لدى الإحسان والطهارة التي جعلها الله شرطاً

للدخول في الصلاة ومقدمة لها تطهيراً للبدن وتنشيطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل نعم الله على عبادة وما أجدر من هدى يهده بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله : ﴿لعلكم تشكرون﴾ (١) أى وليعدكم بذلك لدوام شكركم على تلك النعم الظاهرة والباطنة .

### العدالة في الإسلام والتذكير بنعم الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَا تَعْدِلُوا ۖ أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٠﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ءَانٍ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

**المفردات :** ﴿قوامين﴾ : جمع قَوَام ، وهو المبالغ في القيام بالشئ والإتيان به مقوماً تاماً كاملاً ﴿بالقسط﴾ : بالعدل . ﴿يجرمكم﴾ : يمحلكم ويكسبكم ﴿خبير﴾ : الخيرة العلم الدقيق الذى يؤيده الاختبار ﴿يسطوا إليكم أيديهم﴾ : يقال بسط إليه لسانه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به .

### التفسير

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم ، وتخريم ما يضرهم من الطعام إلا في حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم : ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواهم ، سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة ، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ، ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

(١) من الغوائد التى يحسن بكل مسلم أن يعلمها أن محراب المسجد الجامع في قرطبة الأندلس - الفردوس المفقود - أن منشىء المحراب الذى اقيم سنة ٣٥٤ هـ على عهد الحكم السنتصر الأموى وبأمره : كتبوا آية الوضوء في داخل تجويف المحراب ، وكتبوا في قمته قوله تعالى من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. الخ الآيات

وما تزال هذه الآيات باقية إلى اليوم في هذا المحراب الجليل رغم زوال حكم المسلمين منذ أكثر من خمسة قرون وسبحان من له الدوام وقد كان هذا المسجد يسع عشرين ألف مصل

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ : أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ماتعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ، بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

﴿شهداء بالقسط﴾ الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره بقوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه ، لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة .

فالعدل هو ميزان الحقوق : إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المقاصد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغايرها ولكن الناس لا يعتبرون .

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ : أى ولا تعملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بخقهم ، إذا كانوا أصحاب حق ، أو الحكم لهم بذلك ، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ، ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما

﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ هذه الجملة تؤكد للجملة السالفة للناية بأمر العدل ، وأنه فريضة لا هداوة فيها ، لأنه أقرب لتقوى الله ، والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاصد التى تقوض نظم المجتمعات ، وتقطع الروابط بين الأفراد ، وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم ، وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه : ما وعدهم به بعد ، أن ذكره أولا محملاً لتوجه النفس للسؤال عنه ، حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد ، فقال :

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة ، فيغلب عليها حب الحق والخير ، وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح ، فضلاً من الله ورحمة من لدنه



قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ﴿ الكفر ﴾ : هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق في ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض ، ﴿ وآيات الله قسمان ﴾ : آياته المنزلة على رسله ، وآياته التي أقامها في الأنفس والآفاق ، كالدلالة على وحدانيته وكمال قدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، ﴿ الجحيم ﴾ : النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ﴾ <sup>(١)</sup> .

أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب في نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته ، لأن نفوسهم قد فسدت وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم ، فأصبحوا حتما عميا لا يبصرون ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم ﴾ . روى من طرق عدة أن الآية نزلت في رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبي ﷺ : أرسله قومه لذلك ، وكان بيده سيف وليس مع النبي ﷺ سلاح ، وكان منفردا روى الحاكم من حديث جابر قال : « قال على رأس رسول الله ﷺ وقال : من يمنحك منى ؟ قال : « الله » فوقع السيف من يده ، فأخذه النبي ﷺ ، وقال : « من يمنحك » ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال جئتكم من عند خير الناس » وفي رواية أخرى : « إن السيف الذى كان بيد الأعرابي كان سيف النبي ﷺ علقه في شجرة نام تحتها وقت الراحة ، فأخذه الرجل ، وجعل يهزه ، ويهم بقتل النبي ﷺ ، ثم سقط من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال من يمنحك منى ؟ قال لا أحد ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم وأنى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد : تذكيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ﷺ فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التى تصيب المسلمين ، وقيل إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الاسلام ، وعظيمة شوكة المسلمين ، فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم ، بدل الله الحال غير الحال ، وأصبحوا أعز بعد الذلة ، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين ، فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الاعتداء كلها سواء في ذلك حادثة المحاربي وأمثالها ، لأن حفظه لأولئك السلف ، هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبي ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولاً وعملاً ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه في التأسي بالسلف في القيام بما جاء من الدين من الحق والعدل والبر ومعنى قوله : « إذ هم قوم أن يسطوا إليكم أيديهم » أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء ، من قتل ونهب ، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده ، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه ، بعد مراعاة سنته والسير عليها في اتقاء كل ما يخشى ضرره وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد

تنقطع بهم إلا سباب ويخيبون داعي اليأس إذ اشتد البأس ، والخلفاء قد يعذرون كما عذر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن يأس تذكر أن الله وليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شئ ، وهو الذى يجير ولا يجار عليه ، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه ، كما حدث لأولئك الكلمة المتوكلين مع سيد المرسلين ، أيام ضعفهم وقتلهم وفقرهم وتآلب الناس كلهم عليهم .

### الميثاق وكيف نقضوه

\* وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢٦﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٧﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٢٨﴾

﴿ نقيباً ﴾ : نقيب القوم كبيرهم الذى يعنى بهم وبمصلحتهم ويعرف دخائلهم وهو الضامن لهم . ﴿ عززتموهم ﴾ : نصرتموهم ومنعتوهم من الأعداء . ﴿ لعناهم ﴾ : طردناهم من رحمتنا . ﴿ قاسية ﴾ : شديدة مغلقة لا تقبل خيراً . ﴿ خائنة ﴾ : أى خيانة أو نفس خائنة . ﴿ فأغرينا ﴾ : الزمانهم وألصقنا بهم .

بعد أن أمرنا الله تعالى بالوفاء بالسهود ، وذكرنا بموجب هذا الوفاء من إحلال الحلال وتحريم الحرام ، وتبصيرنا بالاستعداد للصلاة ، ثم ذكرنا بنعمة والمواثيق التى أخذها علينا ، أخذ يعرض لنا حال أهل الكتاب وقد نقضوا الميثاق ، وكيف كان جزاؤهم فى الدنيا والآخرة ، لعل المسلمين يتعظون بمن سبقهم من الأمم .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل من فرعون وصحبه ، أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إني جعلتها لكم وطناً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإني ناصركم وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيباً ، يكون كفيلاً بتنفيذ ما أمروا به ، فاختر النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل له النقباء ، وسار بهم فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار ، فرأوا أجساماً قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا ، وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد

كان موسى أمرهم ألا يخبروا أحداً بما يرون فنقضوا العهد . إلا نقيبين منهم . وهما اللذان قال فيهم القرآن : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما أدخلوا عليهم الباب ﴾<sup>(١)</sup> ولقد أخذ الله العهد والمواثيق على بنى إسرائيل بواسطة نبيهم موسى عليه السلام ليعملن بالتوراة وليقبلنها بمجد ونشاط ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾<sup>(٢)</sup> ولازال هذا العهد موجوداً في التوراة وأمرناه أن يختار اثني عشر نقيباً منهم يتولون أمور الأسباط ويقومون على رعايتهم ، وبعثناهم يتجسسبون العدو ليقاتلوه ، وقال الله على لسان موسى : إني معكم وناصركم على عدوكم ، ومطلع عليكم ومجازيكم على أعمالكم ، ثم أعطاهم العهد الموثق : ﴿ لن أقم الصلاة وآتيم الزكاة ﴾ وأديتموها كاملة تامة الأركان مستوفية الشروط وأنفقتم بعض المال الذى به تزكو نفوسكم وتطهر ، ﴿ وأنتم برسلى ﴾ التى سترسل لكم بعد موسى عليه السلام ، كداود وسليمان ويحيى وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ونصرتهم ومنعتهم من الأعداء ، ووقفتم إلى جانبهم في السراء والضراء وأقرضتم الله قرضاً حسناً طيبة به نفوسكم ، مع أنكم تقرضون غنياً له خزائن السموات والأرض قادراً كريماً يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها بل إلى سبعمائة تالله إنكم إن فعلتم هذا :

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسول ونصرتهم والقرض الحسن ) لأكفرن عنكم سيئاتكم فإن الحسنات يذهبن السيئات وأنتم بذلك تستحقون الرضوان ودخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ومن يكفر بعد ذلك منكم وينقض الميثاق فقد ضل السبيل الواضح وأخطأ الطريق المستقيم الذى رسمه الله لعباده الأبرار .

وهؤلاء اليهود - كما وصفهم القرآن غير مرة - دأبهم العناد وديدهم الكفر والعصيان ، وجزاؤهم الطرد والحرمان فبنقضهم الميثاق ، وكفرهم بالله ورسله ، وعدم نصرتهم لهم وعدم تعظيمهم وتوقيرهم ، استحقوا المقت والغضب واللعن والطرد من رحمة الله ، وكان نقضهم الميثاق مفسداً لفطرتهم مدنساً لنفوسهم ، فإن الذنب الذى يرتكبه الإنسان يترك نكته سوداء في القلب ، فإذا كثرت المعاصي اسود القلب وأصبح في أكنة لا يصل إليه النور والهدى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكذلك رأيناهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويفترون على مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام الذى أرسل لهم ليهديهم سواء السبيل ، بل حاولوا قتله وافتخروا بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾<sup>(٣)</sup> فبسبب هذا بعدوا عن رحمة الله وطردها منها شر طردة ، وأصبحت قلوبهم قاسية كاللحجارة أو أشد قسوة ، وصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه فيقدمون ويؤخرون ويغفون منه ويغيرون معناه ويدلون ﴿ ليا بالسنتهم وطعنا في الدين ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد نسوا حظاً من التوراة كبيراً .

وذلك أن موسى عليه السلام توفى والتوراة التى كتبها وأمر بحفظها - وكانت نسخة واحدة - قد فقدت باتفاق المؤرخين من اليهود والنصارى عند سبى البابليين لهم ، وإغارتهم عليهم ولم يكن عندهم

(٤) جزء من الآية رقم ٧ من سورة البقرة .

(١) جزء من الآية ٢٣ من هذه السورة - المائدة .

(٥) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٢) جزء من الآيتين رقم ٦٣ ، ٩٣ من سورة البقرة .

(٣) في أكنة « محبوب عن مصادر الهداية » وذلك قد حكاه الله إذ قال : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » الآية رقم ٢٥ من

(٦) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة النساء .

سورة الأنعام ، ٤٦ من سورة الاسراء .

غيرها ، وما كانوا حفظوها<sup>(١)</sup> كلها ، نعم هناك أسفار خمسة تنسب إلى موسى عليه السلام ، فيها أخبار عن موته وحياته ، وأنه لم يقم أحد بعده مثله ، كتبت بعد موته بزمان طويل قيل كتبها عزرا الكاهن معتمداً على ما بقى عند شيوخهم الذين بقوا بعد الأسر والقتل .

أفلا تراهم نسوا حظاً منها كبيراً ، وكما يقول القرآن في موضع آخر ﴿أوتوا نصيباً من الكتاب﴾<sup>(٢)</sup> ومن العلماء من يرى أن معنى الآية أنهم تركوا أخطأماً كثيرة من التوراة والله أعلم بكتابه .

ألا ترى هذا من أعظم المعجزات على صدق الرسول محمد ﷺ : حيث أخبرهم بدخائل نفوسهم ، وأما أنت يا محمد فلا تأس عليهم ، ولا تعجب من عنادهم ، فهاهم قد فعلوا كل شيء ، ولا تزال تطلع فيهم على خيانة بعد خيانة تصدر منهم على سبيل المبالغة ، إلا قليلاً منهم ممن آمن وحسن إيمانه وإذا كان الأمر كذلك فاعف عنهم واصفح إذا تابوا أو بذلوا الجزية إن الله يحب المحسنين .

ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب من النصارى ، فنسوا حظاً عظيماً مما ذكروا به ، ولذلك كان جزاؤهم أن الله ألزمهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة لازمة لهم لاصقة بهم إلى يوم القيامة ، وسوف ينبههم الله بما كانوا يصنعونه ، والمنصف للتاريخ يعرف أن المسيح توفى ولم يكن هناك إنجيل مكتوب ، وقد اضطهد اليهود أتباعه وتلاميذه وشرذوهم حتى قتلوا أكثرهم ، فلما هدأت الأحوال ودخل قسطنطين الملك الديانة المسيحية أخذوا يكتبون الأنجيل ولذلك كانت كثيرة ومختلفة متباينة . وسوف ينبههم الله بما كانوا يصنعون في الدنيا ويجازيهم عليه حتماً .

### من قبائح اهل الكتاب

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يا أهل الكتاب قد جاءكم محمد ﷺ مؤيداً بمعجزة القرآن المعجزة الباقية الخالدة ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، هذا النبي قد بين لكم كثيراً من الأحكام والآيات التي كنتم تخفونها عن العوام ، فقد روى : أن هذه الآية نزلت حينما كنتمواحكم الزانى المحسن ، وأقسم النبي ﷺ على حبرهم<sup>(٣)</sup> ابن سوريا وناشده حتى اعترف به وقد أنكروا غير ذلك من بشارة التوراة والإنجيل بالنبي ﷺ ووصفه ، فبينه القرآن لهم ، ولقد كان بيان القرآن لما كنتموه سبباً في إسلام كثير من أبحارهم وعلمائهم . يبين الله بواسطة رسوله كثيراً مما تخفون ، ويعفو عن كثير مما لا تمس الحاجة إليه ، ولا تفيد الدعوة في شيء ، وهم يعلمون أنهم يخفون غير الذى أبداه الرسول .

(١) المراد حفظ آياتها عن ظهر قلب .

(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة آل عمران .

(٣) الحبر أحد علماء بنى اسرائيل .

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ هو النبي محمد ﷺ أو هو القرآن ، أو هو دينه ، وجاءكم كذلك كتاب مبين بين الحقيقة ، وأظهر المكنون ، يهدي به الله من اتبع رضوانه طرق الخير التي تنجيه من العذاب الأليم ، ويخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والخبث والخرافة والأوهام الباطلة ، إلى نور الإسلام وهدى القرآن الذي أنزله بعلمه ومشيئته وتوفيقه ، ويهدي من اتبعه صراطاً مستقيماً يوصل إلى خيري الدنيا والآخرة .

### كفر النصارى ومناقشتهم

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ . وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ يملك ﴾ : يدفع ويمنعه وأصله الضبط والحفظ التام . ﴿ يهلك ﴾ : يميت ويعدم . ﴿ فترة ﴾ : سكون وهدوء من الرسل والمراد انقطاع الوحي وعدم ظهور الرسل مدة من الزمن .

قال أهل الحق من علماء العقيدة والتفسير :

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة ، بين ما كفر به النصارى خاصة . قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ قال أهل الحق . المسيحيون في هذا فرق ثلاث : الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ( أى إصلاح النصرانية ) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون ، وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ، وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله ، واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهو لاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح - الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء - فلا يزالون يقولون بالتثليث ، ويعبدون الموحّد غير مسيحي ، كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو

الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة ، إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة ، والقول بها لا ينافي توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربا وغيرهم موحدون يعتقدون أن المسيح نبي ورسول وليس إلها .

قال الدكتور يوسف البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس : ﴿ طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر ، الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء وإلى الروح القدس التطهير ، غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء » والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى : « فى البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة فى إنجيل يوحنا : « والله هو المسيح بن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، ولاشك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنى الشرق والغرب ﴿ قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ﴾ . أى قل أيها النبى الكريم هؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم . وخلاصة هذا أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض ، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً لا يستطيع أحد أن يرد إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شيء ؟

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما ، أى وما بين العالمين العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تردد فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ أى أن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا حلول الإله الخالق فيها نسنة الله فى خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلهاً ورباً ، لأن هذه المزاي فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ، ولا يخرجها الخلق عن كونه مخلوقاً ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ وبقدرة الله تعالى يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له ، كما فى عيسى عليه السلام .

والخلاصة : إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبى يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى في الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ ابن أبى (١) وبحرى بن عمرو وشماس بن عدى من اليهود ، فكلّمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ إلى آخر الآية . وقد جاء إطلاق هذا اللفظ « أبناء الله » في الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين ، كما حكاه متى في وعظ المسيح على الجبل ، من قوله ﴿ طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون ﴾ وكقول بولس في رسالته إلى أهل رومية ﴿ لأن كل الذين يتقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ﴾ ومن هذا يعلم أن « ابن الله » يستعمل في كتبهم بمعنى حبيب الله ، الذى يعامله معاملة الآب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا في هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم في الدنيا كما ترون ؟ من تخريب الوثنيين (٢) لمسجدكم الأكبر وبلدكم المرة بعد المرة ، ومن إزالة ملككم من الأرض ، والآب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه ، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباؤه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يجأى أحداً ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم فتيلاً ولا قطميراً ، وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب : ﴿ والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق في كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لأبناء ولا بنات : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ (٣) وفي ختمها بقوله ﴿ وإليه المصير ﴾ إشارة إلى أنه سيعذبهم في الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد أبقون يجازون ، لا أبناء ولا أحباء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم أو إن كان أصح منهم إيماناً وأصح أعمالاً ، ولا ينبغى أن يتبعوا محمداً ﷺ ، لأنه عربى لا إسرائيلى ، الفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

(١) في ابن اسحق والقرطبي : نعمان بن أحنا وبحرى بن عمر وشماس بن عدى .

(٢) أى الغز والبابلي وهدم الهيكل . (٣) الآية رقم ٩٣ من سورة مريم .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً ، فهم مد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقي ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .  
وقد جاهد النبي ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً ، فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به ، من أن العمل مرضاة الله ، وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها ، كما جاهد صلف النصارى وكبرهم<sup>(١)</sup> وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدواناً ، بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم ليسوا في حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة - أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله في البشر وأن الجزاء إنما يكون على أعمال لا على الأسماء والألقاب ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ﴾ أى قد جاءكم رسولنا الذى بشرتم به فى كتبكم ، وأخبركم به أنبياءكم فقد جاء على لسان موسى : ﴿ أنه سيقم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم ﴾ وعلى لسان عيسى : « أنه سيجيء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شيء » وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا كهنة ولاويين « أحباراً » فسألوا يوحنا عليه السلام : أنت المسيح ؟ قال : لا ، أنت إيلياً ؟ قال : لا ، أنت النبی ؟ قال : لا . هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبي الأمي يبين لكم على فترة من الرسل ، أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحي - جميع ما أنتم في حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدت عليكم نزعات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم أفراطكم في الأمور المادية ، والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل في ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب ، لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاد به .

وقد أرسل صلوات الله عليه وسلامه وقد فشا التغيير والتجريف في الشرائع المتقدمة - لتقدم عهدها وطول زمانها - فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وصار ذلك عذراً ظاهراً في إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا : يا إلهنا عرفنا أنه لا يد من عبادتك ، ولكن كيف نعبدك ؟ فبعث الله محمداً ﷺ في ذلك الحين لإزالة هذا القدر الذى بينه سبحانه بقوله ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أى : إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين ، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين .

ثم بين أنه أزال هذا العذر فقال : ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها متوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحصى أحدا . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ وإعلاء كلمته في الدنيا ، وفي ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى



الأحلام ، إلى ما يكون له من المنزلة في الدار الآخرة روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ، قال : دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عباد وعقبة بن وهب : يا معشر يهود : اتقوا الله ، فوالله لتعلمن أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حر نخله ووهب بن يهودا : إنا ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل الله بشيراً ولا نذيراً « فأنزل الله الآية .

### بنو إسرائيل والأرض المقدسة

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومَ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَنْقُومَ آدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا آدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتْلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ ملوكا ﴾ : أحراراً عندكم ما يكفيكم . ﴿ المقدسة ﴾ : الطاهرة ومن الأوثان وعبادتها . ﴿ ولا تترددوا على أدباركم ﴾ : لا ترجعوا عما أمرتم به . ﴿ جبارين ﴾ : جمع جبار وهو الضويل القوى المتكبر العاني مأخوذ من قولهم غلة طويلة لا ينال ثمرها . ﴿ يتيهون ﴾ : التيه الحيرة ومنه صحراء تيهاء إذا تخير فيها سالكها لعدم الأعلام التي يهتدى بها .

وهذا حديث بين نبي الله موسى وبنى إسرائيل يذكرهم فيه بآلاء الله ونعمته التي أنعم بها عليهم ، فقد جعل فيهم أنبياء كثيرين وجعل فيهم ملوكاً أحراراً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالم زمانهم ، وبعد أن ذكرهم بهذه النعم العظمى والآلاء الكبرى ، أمرهم أن يستعدوا للجهاد ، ويفتحوا الأرض المقدسة ، والمقصود بها على الأرجح أرض فلسطين ، وقد أخبرهم بأن الله قد كتب لهم هذه الأرض إن هم دخلوها ، ونهاهم موسى عن الارتداد والنكوص ، حتى لا يقعوا في الخسران المبين ، ولكن حقيقة اليهود تختلف ولا تتغير فالجبن والخور والاستكانة ، والحرص على الحياة من أصول طبائعهم ، قالوا : ﴿ يا موسى إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ﴾ .

إذا فأى فضل لهم إذا دخلوها بغير جهاد . وهنا يعمل الإيمان عمله في رجلين منهم ، فيقولان بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ ولكن صوت الباطل يصرخ ويصيح في عرصات الدنيا ، وبكل وقاحة قالوا لموسى : ﴿ إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ فتأمل معى كيف جعلوا من الله رباً لموسى وحده ﴿ اذهب أنت وربك ﴾ أو ليس الله رب العالمين ، أو ليسوا من العالمين ؟ ثم انظر كيف وصل التبجح بهم حداً بعيد المدى فقالوا لنبي الله ﴿ إنا هاهنا قاعدون ﴾ .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ عندما قالوا له يوم بدر وكانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ في قوله : ﴿ اللهم فإنيهم جياع فأطعمهم ، اللهم فإنيهم حفاة فاحملهم ، اللهم فإنيهم عراة فاكسهم ﴾ .

هؤلاء الجياع العراة الحفاة وقفوا أمام قوم غلاظ الأكباد جفاة الطباع قساة القلوب ، فماذا قال هؤلاء الجياع العراة الحفاة ، لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، قالوا : ﴿ يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك ، وعلمنا أن ما جئت به هو الحق ، والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، فامض على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، وإنا لصدق في الوعد صبر عند اللقاء ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، يا رسول الله سالم من شئت وعاد من شئت ، وصل حبال من شئت ، وأقطع حبال من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، ودع لنا ما شئت ، والذي بعثك بالحق إن الذي تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تدعه لنا ﴾ (١) .

فتأمل معى منطق أصحاب رسول الله الذى باشرت بشاشة الإيمان شفاف قلوبهم فجعلت من المتسحيل ممكنا ، ثم تأمل موقف بنى إسرائيل الذين تربعت الدنيا على قلوبهم ، فجعلتها في غطاء عن ذكر الله ، فكانوا لا يستطيعون سماعاً ، وفي نهاية المطاف ، قال موسى : ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ فجاء الحكم جازماً من أسرع الحاسبين وأعدل العادلين ، قال : ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ ثم حكم عليهم بالتيه أربعين عاماً جزاء وفاقاً ، فقد حيروا الأنبياء وقتلوهم واعتدوا على حرمة الله ، وإن قبائحهم لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ المارقين المتعمردين جاء في كتاب الظلال (٢) في تفسير هذا المشهد ما نصه : ﴿ إنا لنلمح في كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب ، فلقد جربهم من قبل في مواطن كثيرة ، في خط سير الرحلة الطويلة ، جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ، وحررهم من الذل والهوان باسم الله وبسلطان الله الذى فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده فإذا هم يبرون على قوم يعكفون على أصنامهم لهم ، فيقولون : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وما يكاد يغيب

(١) راجع في هذا النص : ابن اسحاق ، وسيرة ابن هشام ، والطبقات الكبرى وتاريخ الطبرى ، وابن خلدون وابن الأثير وغيرها من

كتب السير والتاريخ والمغازى عند الحديث عن غزوة بدر .

(٢) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٢ ص ٦٩٤ إلى ٦٩٨ .

عنهم في ميقاته مع ربه ، حتى يتخذ السامري من الحلّي التي سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهباً له خوار ، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إله موسى الذي ذهب لميقاته ، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع في جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى<sup>(١)</sup> طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا عليه من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقثاءها وفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعام وحياة ، في سبيل العزة والخلاص والهدف الأسمى الذي يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ، وجربهم في قصة البقرة التي أمروا بذبحها فتلكأوا أو تسكعوا في الطاعة والتنفيد ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ ، وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده ، فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد من ربه ، بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ، ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوفاً فوق رؤوسهم « وظنوا أنه واقع بهم » لقد جربهم في مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل ، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة : أرض الميعاد التي من أجلها خرجوا ، الأرض التي وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا في رعاية الله وقيادته ، لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات وأكبر البشريات وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات .

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ نعمة الله ووعدته الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً وإيثائه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين ، حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التي هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله ، فهي إذن يقين ، وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده ، وهذا وعده الذي هم عليه قادمون ، والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل هي إسرائيل الجين والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق ﴿ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها مكشوفة بلا حجاب ، ولو رفيق من التجميل ، ذلك أنهم أمام الخطر ، فلا بقية اذن من تحمل ، ولا محاولة إذن للتشجيع ، ولا مجال كذلك للتجميل ، إن الخطر ماثل قريب ، ومن ثم لا يعصمهم فته حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وإن الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهر فيه ، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ . ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود وهي فارغة القلوب من الإيمان .

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف من الله فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ، ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر

(١) المن ندوة عليه كانوا يجدونها كل صباح على الصخور ، والسلوى طائر كطائر السماء يقع في أيديهم بلا جهد حتى يذبحوه ويأكلوه .

الموهوم ، وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس ، فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس ، والذي يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ، ولا يخاف شيئاً سواه ﴿ ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ قاعدة في علم القلوب وفي علم الحروب ، أقدموا واقتحموا فمتى دخلتم على القوم في عقر دارهم انكسرت قلوبهم ، بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة في أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه هي خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ، ولكن لم يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ! ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ هكذا في وقاحة العاجز الذي لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ﴿ فاذهب أنت وربك ﴾ فليس برهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال . ﴿ إنا ها هنا قاعدون ﴾ لا نريد ملكاً ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد ودونها لقاء الجبارين !

هذه هي نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهر الجهير والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والإنحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ، نعم ها هي ذى نهاية المطاف ، نكوصاً عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها ، ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فماذا يصنع وبمن يستجير ؟ ﴿ قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم .

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ، ولكن موسى في ضعف الإنسان المخدول ، وفي إيمان النبي الكريم ، وفي عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجهاً إلا الله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، فما يربطه بهم شيء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق ... ما يربطه بهم نسب ، وما يربطه بهم تاريخ ، وما يربطه بهم هذه الدعوة إلى الله وهذا الميثاق مع الله ، وقد فصلوه ، فأنبت ما بينه وبينهم إلى الأعماق .. وما عاد يربطه بهم رباط ، إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون ، إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ، هذا هو أدب النبي وهذه هي خطة المؤمن ، وهذه هي الآصرة التي يجتمع عليها أو يتفرق عليها المؤمنون ، لا جنس ... ولا نسب ... لا قوم ... لا لغة لا تاريخ ... لا وشيعة . كل وشائج الأرض ... إذا انقطعت وشيعة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ﴿ وقال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ .

وهكذا أسلمهم الله . وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه وحرم عليهم الأرض التي كتبها لهم ، والأرجح أنه حرّمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس وينشأ في خشونة الصحراء وحريتها ... صلب العود ، جيل غير هذا الجيل الذي أفسده الذل والاستعباد والطغيان في مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ، والذل والاستعباد والطغيان يفسد

فطرة الأفراد وكما يفسد فطرة الشعوب ، ويتركهم السياق هنا في التيه لا يزيد على ذلك ، وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية ... إلى الجمال الفني على طريقة القرآن في التعبير .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس مما قصه الله عليهم من القصص فحين واجهوا الشدة - وهم قلة - أمام نفير قريش في غزوة بدر ، قالوا للنبي ﷺ : إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل للنبي ﴿ فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآني في التربية بالقصص عامة ... وبعض جوانب حكمة الله في تفصيل قصة بنى إسرائيل .

### نبأ ابني آدم

\* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمُكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَعَتْ لَهْ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سُوءَ أَخِيهِ قَالَ يُؤْيِلُنِي أُعْجِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سُوءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ واتل ﴾ : التلاوة القراءة ﴿ نبأ ﴾ : هو الخبر المهم . ﴿ قربانا ﴾ : ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من الذبائح وغيرها ﴿ بسطت إلى يدك ﴾ مددتها لتعتدى على . ﴿ تبوء ﴾ : ترجع بعقاب يعادل الإثم ويساويه . ﴿ طوعت له نفسه ﴾ : شجعت وزينت . ﴿ سوءا ﴾ : السوءة العورة والمراد الجثة . ﴿ ياويلتي ﴾ : يافضيحتي احضري والويل حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية : أى وافضيحتاه . ﴿ والأجل ﴾ : فى الأصل الجناية ، يقال : وأجل عليهم شرا : أى جنى عليهم جناية ثم استعمل فى تعليل الجنايات ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل سبب . ﴿ والبينات ﴾ : الآيات الواضحة ، ﴿ والإسراف ﴾ : البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

هذه قصة تربوية ، تعبر عن مدرسة من مدارس القرآن ، تفيض عبرة وتتفجر حكمة ، لذا أمر الله

رسوله ومصطفاه ﷺ أن يتلوها على البشرية جمعاء .

وسماها القرآن نبأ لأن النبأ هو الخير العظيم ، وأضاف النبأ إلى ابني آدم لأن مكمن العبرة فيهما ، فعليهما تدور أحداث القصة : لقد خلق الله الأرض طاهرة التربة طيبة مباركة ، فملأها أهلها ذنوبا وانحرافات ومخالفات وجرائم وجنایات .

وكأنى بك يا ابن آدم وقد حملت على آله حذاء إلى مثواك الأخير ، ووضعت على شفير القبر ، وكأنى بالقبر يقول لك بلسان حاله : يا ابن آدم : أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ يا ابن آدم لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب ... خرجت من التراب بغير ذنب وعدت إلى التراب بكل ذنب ، اعلم يا ابن آدم أن لا بد لك من قرين يدفن معك وهو حي ، وتدفن معه وأنت ميت : إن كان كريما أكرمك ، وإن كان ليثا خذلك ، اجعله صالحا فإنه عملك .

أول جريمة وقعت على ظهر الأرض : الحسد عندما حسد إبليس آدم فخالف أمر الله في السجود له ، ووسوس له حتى أخرجه من الجنة ، ثم حسد قابيل هابيل ، وكانت الجريمة الثانية القتل ، والقرآن الكريم عندما ذكر هذه القصة نص على مكمن العبرة فيها ، فقال : ﴿ إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ﴾ وإن كان المفسرون قد ذكروا أسبابا لتقديم هذا القربان ، نذكر بعضها فنقول وبالله التوفيق :

عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها . وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميعة ، فقال أخوالد ميمة : أنكحني أختك وأنكحك أختي ، فقال : لا أنا أحق بأختي ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكيش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده ، عن محمد بن علي بن الحسين ، قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل : إن ربي عهد إلي أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان فقربا قربانا ، حتى تقر عيني إذا تقبل قربانكما ، فقربا وكان هابيل صاحب غنم ، فقرب أكلة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة<sup>(١)</sup> من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما ، ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان ، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل ، فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال : ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل : أحببته فضليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ، ورد على قرباني ، فقال قابيل لهابيل : لأقتلنك وأستريخ منك : دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك ، وكان يتوعده بالقتل ، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه ، فقال آدم : يا قابيل أين أخوك ؟ قال : وبعثني له

(١) المشاقة من الزرع أسوأ ما نتج من الأرض .

راعيًا لا أدري ؟ فقال آدم : ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك ، فقال قابيل في نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب<sup>(١)</sup> ، فقال : يا هابيل تقبل قربانك ورد على قرباني ، لأقتلك ، فقال هابيل : قربت أطيب مالى ، وقربت أنت أحيث مالك ، وإن الله لا يقبل إلا الطيب ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل : أين أنت من الله ؟ كيف يجزيك بعملك : فقتله فطرحه في حوبة من الأرض ، وحنًا عليه شيئًا من التراب .

روى العوفي عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينما ابنا آدم قاعدان إذ قالوا : لو قربنا قربانا ، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حرثا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشى في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على ، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير مني ، فقال ﴿ لأقتلك ﴾ فقال له أخوه ما ذنبى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

### قصة الآيات

لهذه الآيات قصة ، وقصص القرآن كلها عبرة وعظة لأولى الألباب ، وقد وضع المفسرون هذه القصة توضيحاً فيه العبرة والعظة ، قالوا : إن الله تعالى يسوق هذه القصة : لبيان طبائع النفوس الموروثة ، وما يفعله الحسد الكامن والداء الباطن ، الذى يقضى على أقوى سبب وأمتن رابطة ، وهى الأخوة ، وكيف كان السبب فى أول قتل فى الأرض ؟ فإذا لا تأس يا محمد ولا تعجب من فعل اليهود ﴿ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ فَكَفَّ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ ﴾ فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله ، على أن هذا طبع فى أبناء آدم وائل يا محمد على قومك وعلى كل من تبغى دعوتك ، اتل عليهم نبأ هاماً وخبراً متلبساً بالحق والصدق لا مبالغة فيه ولا كذب ، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل : خبر ابنى آدم لصلبه على الأصح ، قيل هما : قابيل ( القاتل ) وهابيل القتيل ، وكانت عادتهم أن يتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن الثانية وبالعكس ، فصادف أن قابيل معه توأم جميلة ، ومع هابيل توأم دميعة رغب عنها قابيل ، وطلب توأمه وحسد هابيل عليها ، فلما احتكما إلى أبيهما آدم قال : كل منكم يقرب قرباناً ، والذى يتقبله الله منه بالحريق يأخذ الجميلة ، فقدم قابيل - وكان زارعاً - قليلاً من سنبل القمح ، وقدم هابيل - وكان راعياً للغنم - كبشاً سمياً ، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فحنق عليه أكثر ، وقال : ﴿ لأقتلك ﴾ قال هابيل : ولم يا أخى وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك ؟ فأصلح نفسك ، وقدم مخلصاً لوجه الله ، فإنما ﴿ يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ يا أخى لئن مددت إلى يدك بالسوء تريد أن تقتلنى ظلماً وعدواناً ﴿ مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾ أبداً .

(١) أى عائد من المرعى .

(٢) ذكر هذه الروايات الامام السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٧٣ .

وذلك لأنى أخاف الله رب العالمين ، الذى تعهدنا بالعتاة والرعاة ، وخلقنا على أتم خلق وأكملة ، فمن يتعدى على هذا الخلق سوى فقد استحق العقاب الشديد !! يا أخى : أنى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً ، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى وإثمك الخاص بك ، الذى كان من شأنه عدم قبول قربانك ، فارجع عما أنت مقدم عليه !! وكيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه ؟ والجواب أنه أراد ذلك حينما بسط إليه يده بالقتل فعلاً ﴿ وجزاء سيئة مثلها ﴾<sup>(١)</sup> . إنك يا أخى إن فعلتى هذا الجرم فستكون من أصحاب النار الملازمين لهما ، ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾<sup>(٢)</sup> . ونرى أنه نفره من القتل بثلاث : الخوف من الله ، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه ، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين ..

والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل ، يرى فى الإقدام على هذا العمل جرماً وفظاعة فيتردد ولا ينزال كذلك حتى تشجعه الأمانة بالسوء ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ﴾ وهدم ما بناه . وأتقنه ، ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة ؟ رُبى أنه لما قتله ، لم يعرف كيف يوارى جثته ، ويتحير ذلك ﴿ فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ﴾ منقبا على غذائه<sup>(٣)</sup> ، فحفر حفرة ، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله ، ففعل لأخيه مثلها وواراه فيها ، وقال : ﴿ يا ويلتى ﴾ احضرى فقد حان وقتك ، ﴿ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب ﴾ ؟ والندم الذى حصل لم يكن على القتل بل على عجزه عن مواراة أخيه .

بسبب هذا الجرم الشنيع والفعله القبيحة ، التى فعلها ابن آدم ﴿ كتبنا على بنى إسرائيل ﴾ وإنما خصهم القرآن بالذكر ، وإن كان القتل محرماً قبلهم من الأمم السابقة ، لأن التوراة أول كتاب حرم فيه القتل كتابة بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء بسبب الحسد الكامن فى نفوسهم ... كتبنا على بنى إسرائيل ومن بعدهم : ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس ﴾ أى بدون قصاص ﴿ أو ﴾ بدون ﴿ فساد فى الأرض ﴾ يزلزل الأمن والطمأنينة ، ويهلك الحرث والنسل وذلك مثل قطع الطريق ، من يفعل شيئاً من ذلك ﴿ فكأنما قتل الناس جميعاً ﴾ واعتدى على المجتمع البشرى كله !! أفلا يكون هذا الجرم فظيلاً ؟ إنه لفظيح ، ولذلك كان من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾<sup>(٤)</sup> الآية من سورة النساء .

ومن هنا تعلم أن نفس القتل ليست ملكه ، بل هو ملك للمجتمع الذى يعيش فيه ، فمن اعتدى على نفس ولو كانت نفسه ( بالانتحار ) استحق عقاب الله الشديد يوم القيامة .. ومن أحيأ نفساً بأى سبب كان ، ﴿ فكأنما أحيأ الناس جميعاً ﴾ ، إذ كل نفس عضو فى المجتمع . ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ الواضحات كالشمس أو أشد ، ﴿ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ﴾ بعد هذا البيان الساطع .

وهذه الآية تقرر بوضوح مبدأ تكافل الأمة الواحدة وتضامنها كوحدة خاصة .

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٢) آية رقم ٩٣ من سورة النساء .

(٣) ذكر الله الوجه بعض المفسرين ، لكن الوجه الأشهر هو اقتال الغراب مع أخيه ثم حفره له فدق : براجع القراطى ج ٦ ص ١٤١ .

(٤)



## حد الحراية

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ يحاربون ﴾ : الحرب ضد السلم والأمن على النفس والمال . ﴿ فسادا ﴾ : الفساد ضد الصلاح ، وكل من أخرج شيئاً عن وضعه الصالح له يقال إنه أفسده . ﴿ ينفوا من الأرض ﴾ : ينقلوا من البلد أو القطر الذى أفسدوا فيه إلى غيره .

روى أحمد والبخارى ومسلم ، وأصحاب السنن ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ﴿ أن ناساً من عُكْلٍ وعرينة <sup>(١)</sup> قدموا على النبي ﷺ وتكلموا بالإسلام فاستوخموا المدينة ( وجدوها رديئة المناخ ) فأمر لهم النبي ﷺ بذور ( بضع من الإبل ) وراعى وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبواها وألبانها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة <sup>(٢)</sup> كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى النبي واستاقوا الذور ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم فسملوا أعينهم ( كحلوها بمسامير الحديد المحماة ) وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال « بلغنا أن النبي ﷺ عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة » .

إن هاتين الآيتين تضمنتا عقاب المحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالاً بخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام ، معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات ، بل حكمه حكم سائر المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جنائياتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

(٢) أرض خارج المدينة ذات حجارة سوداء .

(١) قبيلتان من قبائل العرب .

(٣) روى الحديث بالفاظ مختلفة دون اختلاف فى المعنى : القرطبي ج ٦ ص ١٤٨ .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزل الله على رسوله ، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق ، كما قال تعالى فى المصرين على أكل الربا : ﴿ فَأَذْنُوا بِنُجْرٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾<sup>(١)</sup> فمن لم يدعوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ، ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك ، كما فعل أبو بكر بما نعى الزكاة حتى يفيثوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف عنه ، وقوله : ﴿ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً ﴾ أى يسعون فيها سعى فساد ، أى مفسدين لما صلح من أمور الناس فى نظم الاجتماع وأسباب المعاش .

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت فى قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثه القرنين الذين خدعوا النبى ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام ، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبى ﷺ بمثل عقوبتهم ، عملاً بقوله تعالى ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾<sup>(٢)</sup> ويشترط فى المحاربين ثلاثة شروط .

١ - أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .  
٢ - أن يكون ذلك فى الصحراء فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثورى وإسحق .

٣ - أن يأتوا بمجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سارق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنتان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئاً لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق . والجزاء الذى يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل ، أو الصلب ، أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

والحكمة فى عدم التعيين والتفصيل : أن المفساد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ، ومنها إهلاك الحرث والنسل . أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب . أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفساد ، فالإمام أن يقتلهم إن قتلوا أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصر على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد يوجب القتل ، ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص ، فغلظ ذلك فى قاطع الطريق ، وصار القتل حتما لا هوادة فيه ، ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى فى غير قاطع الطريق ، فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع فى حقيقته بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوبين فى ممر الطرق يكون سبباً للاستمرار إبتاع هذه العتوبة فيصير ذلك زاجراً لغيرهم على الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصر على مجرد الإحافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفى من الأرض .

ثم بين آثار هذه العقوبة في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ أى ذلك الذى ذكر من عقابه ذل لهم وفضيحة في الدنيا ، ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم في تدنيس نفوسهم وتدنيسها ، وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

ثم استثنى ممن يستحقون العقوبة من تاب فقال : ﴿ إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعاثوا في الأرض فساداً ، إلا من تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن توبتهم حينئذ وهم في قوة ومنعة جدية بأن تكون قوية خالصة لله ، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله ، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب في الدنيا والعذاب في الآخرة ، بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال : ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب في الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص والدية والعفو فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب ، ولم يثبت أن أحداً تقاضى التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم وإذا فتوته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوقة إلى أربابها فإذا رأى ولي الأمر إسقاط حق مالى عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة ، وجب أن يضمنه من بيت المال .

### طريق الفلاح

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَاءً فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ  
 الْقِيَامَةِ مَا تُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ  
 مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الوسيلة ﴾ : ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهى القربة وتطلق على منزلة في الجنة . ﴿ والجهاد ﴾ : بذل الطاقة واستفراغ الوسع . ﴿ تفلحون ﴾ : أى تفوزون برضى الله في الدنيا والآخرة . ﴿ ليفتدوا به ﴾ : أى ليدفعوه فدية . ﴿ عذاب مقيم ﴾ : دائم وباق لا يرفع عنهم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ خطاب كريم من رب كريم إلى المؤمنين الكرماء ، وقد أمرهم سبحانه في هذه الآية بثلاثة أوامر ، كلها تشتمل على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم :

أمرهم بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد في سبيله ، ثم رتب سبحانه وتعالى على هذه الأمور الثلاثة أعظم العواقب وأشرف وأنبل الأهداف ، وهل هناك أسمى وأشرف من الفلاح ؟ إنه السعادة الأبدية ، والسعادة مملكة لا يهبها إلا مالك الملك وملك الملوك ، أما التقوى فهي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ، ومن أحبه الله كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها<sup>(١)</sup> ، ولسانه الذي يتكلم به ، وقلبه الذي يعي به ، ولكن سأل الله ليعطينه ، ولكن استعاذ به ليعيذه ، ولكن استنصره لينصره ، ويكون جار الله في الجنة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما ﴾<sup>(٢)</sup> . والتقوى هي السلاح الأقوى ، وهي سنام الأمر وعموده ، ومحلها الصدر ، كما أخبر بذلك الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه ، مشيراً إلى صدره قائلاً : « التقوى ها هنا » فهي عمل من أعمال القلوب لا يطلع عليه إلا الله .

والتقوى هي مدار تفريخ الكروب وستر العيوب وتكفير الذنوب وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾<sup>(٥)</sup> وهي الكلمة الجامعة التي وصي الله بها كل الأمم . قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾<sup>(٦)</sup> وهي حصن الأمان للذرية إذا مات عائلها . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله ﴾<sup>(٧)</sup> .

ولكن التقى هو السعيد	ولست أرى السعادة جمع مال
وعند الله للأتقى مزيد	وتقوى الله خير الزاد ذخراً
ولكن الذي يمضي بعيد	وإدراك الذي يأتي قريب

ويأتي الأمر الثاني بعد التقوى داعياً جماعة المؤمنين إلى ابتغاء الوسيلة ، والوسيلة هي : التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التي شرعها في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، ومنها ما ورد في الحديث القدسي

(١) وذلك لما جاء في الحديث القدسي الذي رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذه ، وما ترددت نفسي عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مسارته » .

- |   |                                       |
|---|---------------------------------------|
| (٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة النساء .      | (٥) جزء من الآية ٥ من سورة الطلاق .   |
| (٣) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق . | (٦) جزء من الآية ١٣١ من سورة النساء . |
| (٤) جزء من الآية ٤ من سورة الطلاق .       | (٧) جزء من الآية ٩ من سورة النساء .   |

الجليل عن الله عز وجل « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » . فكل عمل صالح تقرب به إلى الله فهو الوسيلة التى أمر الله عباده المؤمنين بابتغائها . قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ (١) .. ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أن سألوا غير الله كشف الضر أو جلب النفع ، وليس من معنى الوسيلة أن تسأل غير الله كشف ضر أو جلب نفع ، بل العقيدة الحقة أن تعلم علم اليقين بل حق اليقين وعين اليقين أن الله تعالى هو الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، المعطى المانع ، المحيى المميت ، الباعث الوارث ، الواجد الماجد ، القهار الجبار الغفار ، بيده الأمر كله ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾ ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿ (٢) . أخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت رديف النبي ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلى فقال : احفظ الله تحمده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

وقد تأتى الوسيلة ويراد بها أعلى منزلة فى الجنة ، وقد روى الإمام مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن سمع النبي ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه ﷺ صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا للعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » .

ثم يأتى بعد ذلك الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، وهو من أعظم الأمور فى الإسلام شأننا قال تعالى : ﴿ وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾ . والجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، ويشمل الجهاد بالنفس والمال والكلمة فى سبيل الدعوة إلى الله ، كما يشمل جهاد النفس وكبح جماحها بشتات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا تتردى فى القبائح : قال تبارك اسمه فى جهاد النفس والمال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٣) . وقال تعالى فى شأن الجهاد بأوسع معانيه : ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (٤) . فمن اتقى الله وابتغى إليه الوسيلة بالعمل الصالح وجاهد فى سبيله كان أهلا بتلك الغاية النبيلة والشرف

(٣) الآيات ١٠ ، ١١ من سورة الصف .

(٤) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٥٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

العظيم ، كان أهلا للفلاح والفوز والنجاح ، فاللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ هذا وعيد جاء بعد الوعد ، فقد وعد الله تعالى المؤمنين المتقين المتقربين إلى الله بالعمل الصالح ، المجاهدين في سبيله وعدهم بالفلاح والفوز المبين ، وهو يشمل سعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> يأتي الوعيد بعد ذلك بالنار للذين كفروا وحججوا ، سواء أكان كفرهم ناشئا عن شرك أم عناد أم إنكار أم نفاق ، فالكفر كله ملة واحدة . هؤلاء الذين قال الله تعالى فهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

هؤلاء لو يملكون ما في الأرض جميعا ومثله معه - كما قال تعالى - ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم : قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تَقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> فيوم القيامة هو يوم العدالة : قال تعالى : ﴿ يَوْمَ الْمَجْرَمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَيْنِي وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يَنْجِيهِ كَلَّا إِنَّهَا لَلظَى ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعِقَةُ يَوْمَ يَهْرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتُهُ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ <sup>(٥)</sup> . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ <sup>(٦)</sup> ويزيد القرآن الكريم هذا المقام توكيدا ، وهذا الوعيد تثبيتا فيقول : ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أى ثابت دائم . هم يريدون والله يريد غير ما يريدون ﴿ وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ لِقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ ، وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ لَلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ <sup>(٧)</sup> ويزيد الله تعالى هذا المعنى جلاء فيقول : ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابَا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا بِرَدًّا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا جَزَاءً وَفَاقًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَابًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ <sup>(٨)</sup> .

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِالرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيُقَالُ لَهُ : يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مُضْجِعَكَ ؟ » فيقول : شر مضجع فيقال : هل تفتدي بقراب الأرض ذهبا ؟ قال فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » . رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٣ من سورة النكبات .

(٣) الآية ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ١١ - ١٥ من سورة المعارج .

(٥) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

(٦) الآيات ٨٨ - ٨٩ من سورة الشعراء .

(٧) الآيات ٧٧ ، ٧٨ من سورة الزخرف .

(٨) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .

قال اتل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية ألا إنهم الذين كفروا (١).

### حد السرقة

وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾  
فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ  
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿السارق﴾ : من يأخذ المال خفية من حرز مثله . ﴿نكالا﴾ : مأخوذ من النكل وهو القيد ، ولاشك أن هذه عقوبة تمنع الناس من ارتكاب السرقة .

### أحكام تتعلق بالسرقة

إن الإسلام قد احترم المال ، من حيث إنه عصب الحياة ، واحترم ملكية الأفراد له ، وجعل حقهم فيها حقا مقدسا ، لا يحل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه ، ولهذا حرم الإسلام : السرقة ، والغصب ، والاختلاس ، والخيانة ، والغش ، والتلاعب بالكيل والوزن ، والرشوة واعتبر كل ما أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال بالباطل . وشدد في السرقة ، ففرض بقطع يد السارق التي من شأنها أن تبشر السرقة ، وفي ذلك حكمة بينة ، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم ، والتضحية ببعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول ، كما أن في قطع يد السارق عبرة لمن تمده نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجزئ أن يمد يده إليها ، وبهذا تحفظ الأموال وتصلح : يقول الله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا . نَكَالًا مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .  
حكمة التشديد في العقوبة :

والحكمة في تشديد العقوبة في السرقة دون غيرها من جرائم الاعتداء على الأموال ، هي ما جاء في شرح مسلم للنووي (٢) : قال القاضي عياض رضى الله عنه : « صان الله الأموال بإيجاب القطع على السارق ، ولم يجعل ذلك في غير السرقة ، كالاختلاس والانتهاك والغصب ، لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأنه يمكن استرجاع هذا النوع بالاستدعاء إلى ولاية الأمور ، وتسهيل إقامة البينة عليه بخلاف السرقة ، فإنها تندر إقامة البينة عليها فعظم أمرها ، واشتدت عقوبتها ، ليكون أبلغ في الزجر عنها » .

(١) رواه القرطبي عن يزيد الفقيه عن جابر بعبارة مختلفة والمعنى واحد ج ٦ ص ١٥٩ .

(٢) ص ١٨٠ من الجزء الحادى عشر : طبع محمود وتوفيق سنة ١٩٤٥ .

## أنواع السرقة :

## والسرقة أنواع :

- ١ - نوع منها يوجب التعزير . ٢ - ونوع منها يوجب الحد .

والسرقة التي توجب التعزير هي السرقة التي لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، وقد قضى الرسول ﷺ بمضاعفة الغرم على من سرق مالا قطع فيه : قضى بذلك في سارق الثار المعلقة ، وسارق الشاة من المرتع . ففي الصورة الأولى : أسقط عن سارق الثمر والكثير ( جمار النخل ) ، وحكم : أن من أصاب شيئا منه بفمه . وهو محتاج إليه . فلا شيء عليه ، ومن خرج منه بشيء فعليه غرامة مثليه والعقوبة ، ومن سرق منه شيئا في جريته « الجر » فعليه القطع إذا بلغت قيمة المسروق النصاب الذي يقطع فيه . وفي الصورة الثانية : قضى في الشاة التي تؤخذ من مرتعها بشئها مضاعفا ، وضرب نكال ( أى ضربا يكون فيه عبرة لغيره ) . وقضى فيما يؤخذ من عطنه بالقطع ، إذا بلغ النصاب الذي يقطع فيه سارقه . رواه أحمد والنسائي والحاكم وصححه .

## السرقة التي عقوبتها الحد نوعان :

الأول : سرقة صغرى : وهي التي يجب فيها قطع اليد .

الثاني : سرقة كبرى ، وهي أخذ المال على سبيل المغالبة ويسمى الحراة ، وتسمى أيضا قطع الطريق ، وهي خروج طائفة مسلحة في دار الإسلام لإحداث الفوضى وسفك الدماء ، وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل ، وعقوبتها : القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف أو النفي من الأرض<sup>(١)</sup> .

وكلا منا الآن منحصر في السرقة الصغرى .

## تعريف السرقة :

السرقة : هي أخذ الشيء في خفية ، يقال : استرق السمع : أى سمع مستخفيا ويقال : هو يسارق النظر إليه ، إذا اهتبل غفلته لينظر إليه . وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾<sup>(٢)</sup> فسمى الاستماع في خفاء استراقا . وفي القاموس : السرقة والاستراق : الحجب مستترا لأخذ مال الغير من حرز .. وقال ابن عرفة : « السارق عند العرب هو ما جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له » . ويفهم مما ذكره صاحب القاموس وابن عرفة أن السرقة تنتظم أمورا ثلاثة :

- ١ - أخذ مال الغير .

(١) سبق شرح ذلك عند تفسير قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ... الآيات رقم ٣٣ ، ٣٤ من هذه السورة .

(٢) آية ١٨ من سورة الحجر .



- ٢ - أن يكون هذا الأخذ على جهة الاختفاء والاستتار .  
 ٣ - أن يكون المال محرراً . أى موضوعاً في مكان خاص وليس في مكان عام مشاع فلو لم يكن المال مملوكاً للغير ، أو كان الأخذ مجاهرة ، أو كان المال غير محرر ، فإن السرقة الموجبة لحد القطع لا تتحقق .

### المختلس والمنتهب والخائن غير السارق :

ولهذا لا يعتبر الخائن ، والمنتهب ، ولا المختلس سارقاً ، ولا يجب على واحد منهم القطع وإن وجب التعزير : فعن جابر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس على خائن<sup>(١)</sup> ولا منتهب<sup>(٢)</sup> ولا مختلس<sup>(٣)</sup> قطع » . رواه أصحاب السنن والحاكم والبيهقي . وعن محمد بن شهاب الزهري قال : « إن مروان بن الحكم أتى بإنسان قد اختلس متاعاً فأراد قطع يده ، فأرسل إلى زيد بن ثابت يسأله عن ذلك ، فقال زيد : ليس في الخلسة قطع » . رواه مالك في الموطأ . قال ابن القيم : وأما قطع يد السارق في ثلاثة دراهم وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب فمن تمام حكمة الشارع أيضاً ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، فإنه ينقب الدور ، ويهتك الحرز ، ويكسر القفل ، ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك ، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضاً ، وعظم الضرر واشتدت المحنة بالسارق . بخلاف المنتهب والمختلس ، فإن المنتهب : هو الذي يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم ، أو يشهدوا له عند الحاكم . وأما المختلس : فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره ، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه ، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس فليس كالسارق ، بل هو بالخائن أشبه .

وأيضاً فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالباً ، فإنه الذي يغافل ويختلس متاعك في حال تخليك وغفلتك عن حفظه ، وهذا يمكن الاحتراز منه غالباً فهو كالمنتهب وأما الغاصب فالأمر منه ظاهر ، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب ، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال .

### الصفات التي يجب اعتبارها في السارق وتستوجب حد القطع :

- ١ - التكليف : بأن يكون السارق بالغاً عاقلاً ، فلا حد على مجنون ولا صغير إذا سرق لأنهما غير مكلفين ، ولكن يؤدب الصغير إذا سرق ، ولا يشترط فيه الإسلام ، فإذا سرق الذمى أو المرتد فإنه يقطع ، كما أن المسلم يقطع إذا سرق من الذمى .  
 ٢ - الاختيار : بأن يكون السارق مختاراً في سرقة ، فلو أكره على السرقة فلا يعد سارقاً ، لأن الإكراه يسلبه الاختيار ، وسلب الاختيار يسقط التكليف .

(١) الخائن هو من يأخذ المال ويظهر النصح للمالك . (٣) المختلس : هو من يخطف المال جهراً ويهرب .

(٢) المنتهب : هو الذي يأخذ المال غصباً مع المجاهرة والاعتداد على القوة .

٣ - ألا يكون للسارق في الشيء المسروق شبهة<sup>(١)</sup> ، فإن كانت له فيه شبهة فإنه لا يقطع ، ولهذا لا يقطع الأب ولا الأم بسرقة مال ابنهما ، لقول الرسول ﷺ « أنت ومالك لأبيك » وكذلك لا يقطع الابن بسرقة ماله أو مال أحدهما لأن الابن يتبسط في مال أبيه وأمه عادة ، ولا يقطع أحد من الأصول والفروع ، أى الآباء والأجداد والأبناء وأبناء الأبناء .

### الصفات التى يجب اعتبارها فى المال المسروق :

أولاً : أن يكون مما يتمول ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه ، فلا قطع على من سرق الخمر والخنزير ، حتى لو كان المالك لهما ذمياً لأن الله حرم ملكيتهما والانتفاع بهما بالنسبة للمسلم وللذمى على السواء ، وكذلك لا قطع على سارق أدوات اللهو مثل العود والكمنج والمزمار ، لأنها آلات لا يجوز استعمالها عند كثير من أهل العلم ، فهى ليست مما يتمول ويملك ويحل بيعه . وأما الذين يبيحون استعمالها فهم يتفقون مع من يحرمها فى عدم قطع يد سارقها لوجود شبهة ، والشبهات مسقطه للحدود .

ثانياً : أن يبلغ الشيء المسروق نصاباً ، فإن من العادة التسامح فى الشيء الحقير من الأموال . وذهب جمهور العلماء إلى أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، أو ما تساوى قيمته ذلك لما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن الرسول ﷺ « كان يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعداً » وفى رواية مرفوعاً « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعداً » .

### عقوبة السرقة :

إذا ثبتت جريمة السرقة وجب إقامة الحد على السارق فتقطع يده اليمنى من مفصل الكف وهو الكوع لقوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ ولا يجوز العفو عنها من أحد . لا من المجنى عليه ولا من الحاكم . طالما وصلت إلى الإمام ، قال ﷺ : « تجافوا العقوبة بينكم ، فإذا انتهى بها إلى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا » فإذا سرق ثانياً تقطع يده اليسرى ثم إذا عاد إلى السرقة تقطع رجله اليمنى ثم إذا سرق يعزر ويحبس كما قال الإمام الشافعى وغيره . وتحسم يد السارق بعد القطع فتكوى بالنار أو تتخذ أى طريقة من الطرق حتى ينقطع الدم فلا يتعرض المقطوع للتلف والهلاك ، ومن التنكيل بالسارق والزجر لغيره أمر الشارع بتعليق يد السارق المقطوعة فى عنقه .

هذا حكم من أحكام الله تعالى شرعه وفرضه ، وهو أعلم بما يصلح به عباده ، ومن أصدق من الله قبلاً ؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾<sup>(٢)</sup> ؟ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> إن من أعظم نعم الله تعالى على عباده نعمة الأمن بأوسغ معانيه : الأمن على النفس والمال والعقل والعرض ، ومن ثم فقد حد الحدود ، والله تعالى فرائض فلا تضيعوها ، وحرمات فلا تنتهكوها ،

(٣) آية ٢٣٢ من سورة البقرة ، ٦٦ من سورة آل عمران .

(١) أى وجه من وجوه الاستحقاق .

(٢) آية ١٤٠ من سورة البقرة .

وحدود فلا تعتدوها وقد سكت سبحانه وتعالى عن أشياء رحمة بنا - من غير نسيان - فلا تسألوا عنها .  
وليس هناك أى داع يدعو هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون إلى أن يشنوا هذه الحملة الشعواء على حدود الإسلام ، إنهم عندما يعارضون تطبيق الشريعة وينظرون إلى هذه الشريعة الغراء نظرة قاصرة ، إنهم بذلك يعضفون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، فأى شرع بلغ ما بلغ شريعة الله من العدل والحق ؟ إنها تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فالله جل جلاله جعل الحدود جواهر وزواجر ، وكفارات للذنوب وهى فى نفس الوقت فيها الدرس الواعى ، والنصح الرشيد لكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يعكر صفو المجتمع ، ويخل بأمنه ، فيعتدى على حقوق الآخرين ، إذ تنتهى حرية المرء عندما تبدأ حرية غيره ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ﴾ ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿ <sup>(١)</sup> ولقد كان لحد السرقة النصيب الأوفى من الافتراء الذى شنه هؤلاء الذين هاجت عقارب الحقد فى قلوبهم ، وتحركت ثعابين البغضاء فى صدورهم ، فباسم الرحمة الزائفة ، والشفقة الكاذبة اعترضوا ، وباسم الضلال المبين والمدنية المزورة ، قلبوا للإسلام ظهر المجن ، ولبسوا له ثوب الثمر ، ففسوا حظا مما ذكروا به ، نسوا أن الذى شرع هذه الحدود هو أرحم الراحمين ، الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ <sup>(٢)</sup> بل هو أرأف بنا من الأم بولدها .

روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال « إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى » ونسوا أن رسول الإسلام هو الذى قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .  
« ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقد بلغ من جرأتهم أنهم قالوا زورا وبهتانا وظلما وعدوانا قالوا : إن الفاروق رضى الله عنه عطل حد السرقة فى عام الرمادة .. سبحانه هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فما كان لفاروق هذه الأمة أن يعطل حداً من حدود الله ، وهو الذى كان يقول لبطنه الذى تأثر من كثرة ما أكل بالزيت فكان يحدث أصواتا ، كان يقول لبطنه : « قرقرأولا تقرر لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين » . إنه لم يعطل حدا ، ولكنه رأى بثاقب فكره وصائب رأيه ، وعميق فهمه ونفاذ بصيرته ، كما اقتضت العدالة ذلك - رأى أن إقامة حد السرقة لم تستوف الشروط ، وإذا لم يستوف الحد شروطه بسبب شبهة المجاعة ، فمن الظلم أن يقام ، فهل يرضون لعمر أن يكون ظلما ، والحد يدراً بالشبهة ، وعمر هو الذى قال عنه ابن عباس : أكثروا من ذكر عمر . فإنكم إذا ذكرتموه ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر الله تعالى يا أمير المؤمنين :

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيبها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحانه موليبها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها

يوم اشتبهت زوجه الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى فأشريها  
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى، فقومي لبيت المال رديها

إن إقامة الحدود جانب عظيم من جوانب الرحمة ، إذ كيف يعامل اللص ، وهو الذئب الذي يسطو  
على الأمنين ؟ كيف يعامل بالإحسان والعطف والرحمة بمفهومها الحقيقي ؟ إن الرحمة لا بد أن تصاحبها  
الحكمة ، لذا قد ختم الله تعالى بقوله تعالى « عزيز حكيم » والحكمة وضع الشيء في نصابه ، ومن  
الحكمة أن تقص أنياب الذئب ومخالبه :

ووضع الندى في موضع السيف بالفتى مضر كوضع السيف في موضع الندى

جاء لأمر المؤمنين عمر رضي الله عنه ذات يوم بسارق ، فلما هم بقطع يده ، قالت له أم  
السارق : اعف عنه يا أمير المؤمنين فهذه أول مرة ! قال لها العبقري الفذ : لو كانت أول مرة لستره الله ،  
ولعل أمير المؤمنين قد تذكر قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة  
ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ <sup>(١)</sup> وقد صدق عمر عندما قال قوله لأُم السارق فقد ظهر بعد ذلك  
واتضح أنه سرق ست عشرة مرة .

وبعد بيان الأحكام المتعلقة بحد السرقة بقي ها هنا كلمة عن ختام الآية بقوله تعالى : « والله عزيز  
حكيم » فقد سمعها أعرابي من قارئ وقد ختمها بقوله « والله غفور رحيم » فقال له : ما هكذا نزلت :  
قال له : أتخفظها أيها الأعرابي ؟ قال : لا . ولكنه تعالى عز فحكم فقطع ولو أنه غفر ، رحم ، فما قطع  
فلما رجع إليها قارئها وجدها كما قرأها الأعرابي « والله عزيز حكيم » وقد قال أحدهم :

يد بخمس مئين عسجد وُديت ما بالها قطعت في ربع دينار  
تناقض مالنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

فرد عليه أحد الحكماء بهذا البيت :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري  
فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة .

### توبة السارق

قال ﷺ : السارق إذا تاب سبقت يده إلى الجنة ، فإذا لم يتب سبقت له النار . وسنعرض من  
أحاديث الصادق المعصوم وسنته الحكيمة في تفسير قوله تعالى : ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن  
الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ أي من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه  
وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم . أو بدلها . عند الجمهور ، وقد روى الحافظ أبو الحسن

عن أنى هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم أتوني به » فقطع فأتى به فقال : « تبت إلى الله » فقال : تبت إلى الله ، فقال : « تاب الله عليك » .

وروى ابن ماجه بسنده : أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني سرقت جملا لبني فلان فطهرني ، فأرسل إليهم النبي ﷺ : فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا ، فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذي طهرني منك ، أردت أن تدخل جسدی النار .

وعن عبد الله بن عمر وقال : سرقت امرأة حليا ، فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل : ﴿ فمن تاب بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾ .

وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت ، وحديثها ثابت في الصحيحين من رواية الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله . فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع في حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة : استغفر لي يا رسول الله فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاخطب فأتى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها . قال عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وقد روى النسائي أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه « أى عندها » فقال رسول الله ﷺ لتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم ثم قال رسول الله ﷺ : « قم يا بلال فخذ يدها فاقطعها » .

فما أعظم رحمة الله وما أحلمه بعباده ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم ﴾ <sup>(١)</sup> فيا لهي إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغني فأنت القائل : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ <sup>(٢)</sup> وأنا شيء فلتسعن رحمتك . قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ : جاءت هذه الآية عقب آية التوبة ، ليعلم الله عباده أنه ما تاب عليهم وما قبل توبتهم لحاجته إليهم ، بل كان ذلك كذلك بمحض منه وفضله ، فإنه سبحانه مالك الأمر كله : فالقضاء حكمته والوجود ملكه ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، فهو المالك المتصرف يغفر لمن يشاء لحكمة يعلمها هو ، ويعذب من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه . فقد تنزه فعله عن العبث لأنه الحكيم وليست المشيئة مبنية على

هوى أو غرض حاش لله . بل إنها مبنية على العدل المطلق ، والحق المطلق والصدق المطلق : قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وقال جل شأنه في حق قوم موسى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولما ذكر سبحانه أن مالك السماوات والأرض المتصرف في شئون الكون ، ناسب ذلك أن يختم الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إذ يلزم أن يكون المتصرف قادراً فما بالك بالإله الأكبر الذي ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾<sup>(٤)</sup> فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقديست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً .

### من مساوىء اليهود

\* يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

**المفردات :** ﴿ الحزن ﴾ : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، و﴿ سارع إلى الشيء ﴾ : إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه ، و﴿ أسرع فيه ﴾ : إذا أسرع فيه وهو داخل فيه ، وهنا كان الكفار داخلين في ظرف الكفر ، محيطا بهم سرادقه ، و﴿ الفتنة ﴾ : الاختبار كما يفتن الذهب بالنار فيظهر

(١) آية ١٧ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٢) جزء من الآية ٥ من سورة الصف .

(٤) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

مقدار ما فيه من الغش والزغل ، و﴿ السحت ﴾ : ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبح الذكر ، كضمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة في الحكم . ﴿ والقسط ﴾ : العدل

خطاب من الله الكريم إلى نبيه الكريم بعنوان الرسالة ، والذي يقرأ خطاب الله لرسوله في القرآن يجد الإكرام والحفاوة ، فالله جلت قدرته وتعالى عظمته زاد محمداً ﷺ تكريماً وحباه فضلاً من لدنه عميماً : إذا نادى على نبي من أنبيائه ناداه باسمه فترى الخطاب الكريم إلى آدم : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾<sup>(١)</sup> كذلك إلى غيره من الأنبياء : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾<sup>(٢)</sup> و﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾<sup>(٣)</sup> يا موسى إني أنا ربك ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾<sup>(٤)</sup> يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾<sup>(٥)</sup> يا عيسى إني متوفيك ﴿<sup>(٦)</sup>

فإذا أراد سبحانه أن يخاطب حبيبه ومضطفاً ، خاطبه بعنوان الرسالة : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ أو بعنوان النبوة : ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ﴾<sup>(٧)</sup> حتى في مقام الملاحظة الربانية : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾<sup>(٨)</sup> . وفي مقام التشريع : ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾<sup>(٩)</sup> . وإذا نادى على نساءه أضافهن إليه بعنوان النبوة ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾<sup>(١٠)</sup> إنه التكريم ومن أحق بالتكريم منه ، نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك في حسن وفي شرف      والبحر دونك في خير وفي كرم  
أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له      وأنت أحييت أجيالاً من العدم

إنه خاتم النبيين ورسول الله رب العالمين ﷺ وفي هذا النص الكريم تسليية له ﷺ لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر لا يكن في صدرك أى ضيق من أفعال هؤلاء الذين يسارعون في الكفر ، ولقد بلغ من قبائحهم : أنهم أضافوا إلى المسارعة في الكفر رذيلة من أخص الرذائل وسجية من أخط السجايا ، أضافوا النفاق ﴿ يقولون آمنا بأفواههم ﴾ والله جلت قدرته يحكم على ما في قلوبهم فيقول ﴿ ولم تؤمن قلوبهم ﴾ لقد حسبوا أن لهم ما يشاءون من القول ، ونسوا أن هناك إلهاً يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾<sup>(١١)</sup>

- (٧) جزء من الآية ١٢ من سورة مريم .  
(٨) جزء من الآية ٣٥ من سورة البقرة ، ومن الآية ١٩ من سورة الاعراف .  
(٩) جزء من الآية ٤٨ من سورة هود .  
(١٠) جزء من الآية ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الصافات .  
(١١) جزء من الآية ١١ ، ١٢ من سورة طه .  
(١٢) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص .  
(١٣) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

إن النفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون هم الآكلون على كل الموائد ، إنهم عالة على المجتمع أوقات السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة حين الضراء ، والبأساء : قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران . أئى يغترون أم على يجترئون » فلا يحزنك ما يفعله هؤلاء المارقون ، واصبر واحتسب .

قوله تعالى : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ : هذا حديث عن اليهود بعد الحديث عن المنافقين . وهل اليهود والمنافقون إلا شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، لقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم إخوان اليهود : قال تعالى فى سورة الحشر : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لكن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً . وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ (١) .. والله سبحانه وتعالى يخبر هنا : أن من اليهود من يسمعون الكذب ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوك ، فينقلون عنهم الحديث وهم كاذبون . كذلك من صفاتهم المتأصلة فيهم : أنهم يحرفون الكلم ويغيرونه من بعد مواضعه ، ومن صور هذا التحريف قولهم : ﴿ إن أوتيت هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ ويعرفه سبب النزول يبدو المعنى جليا واضحا : أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال : « مر النبى ﷺ بيهودى محمدا مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، تجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شئ نقيم على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم واجندا مكان الرجم ، فقال النبى ﷺ : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذا أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله ﷻ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله إن أوتيت هذا فخذوه ﴾ (٢) .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتن إن فيها الرجم ﴾ فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرا حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقليل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح ( أى آية الرجم ) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ، ولكننا كنا نتكأتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فلقد يجأ عليها ( ينحنى ) يقبها الحجارة بنفسه . »

وهكذا وصف الله هؤلاء المارقين بأنهم سماعون للكذب ، وهو ما كانوا يرددونه من الأباطيل ،

(١) آية ١١ من سورة الحشر .

(٢) أفاض القرطبى فى ذكر روايات عدة فى ذلك الشأن ج ٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ وما بعدهما .



وإنكار ذكر النبوة المحمدية في التوراة ، كما أنهم سماعون لقوم آخرين ، وقد يكون المقصود بهؤلاء القوم الآخرين رؤساء اليهود ، وقد يكون المعنى أنهم يسمعون لهم ، أى يسمعون لما يقال في مجالس الرسول والمؤمنين ، لأجل أن يبلغوه إلى الذين لم يأتوا رسول الله .

ووصفهم الله تعالى أيضا بأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه أى يغيرون ما في التوراة من أحكام .

ثم جاءت جملة ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ جاءت مفسرة لقوله جل شأنه : ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ ذلك لأنهم تأمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يخفوا آية الرجم ، وقال بعضهم لبعض : إن أعطاكم محمد حكم الجلد فخذوه وإن لم يعطكم إياه فاحذروه أى احذروا أن تأخذوا الرجم ، وذلك كما تبين لنا في ذكر سبب النزول ، ثم عقب الله تعالى على مواقف هؤلاء بقوله ﴿ ومن يرد الله فتنه فلا تملك له من الله شيئا ﴾ فقد امتحن الله هؤلاء في دينهم ، فظهر كفرهم بخاتم الأنبياء ﷺ ، وتجلت الحقائق التي كانوا يشنون صدورهم عليها ، فهم سماعون للكذب ينقلون الأباطيل إلى رؤسائهم ، كما أن رؤسائهم يضلونهم عن سواء السبيل ، يحرفون كلام الله في التوراة يخفون أحكام الله التي جاء بها القرآن مؤيدا لما في التوراة ، فظهرت الفتنة ووضع الامتحان ، فسقطوا في الفتنة ، ومن كان شأنه كذلك فلا تملك له من الله شيئا ، ثم حكم عليهم مولانا بعد ذلك بقوله ﴿ أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ﴾ ذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ وأما من يخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (١) .

ما جزاء هؤلاء ؟ قال تعالى : ﴿ لهم في الدنيا خزي ﴾ وذلك بفضح تأمرهم وخداعهم قال تعالى : ﴿ وما يخذعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٢) . هذا في الدنيا ، أما في الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ . فالجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء لما عظمت جرائمهم ، عظم عذابهم واشتد .

ثم أضاف الله تعالى إلى الصفات السابقة ما يؤكد بعضها ويضيف جديدا إليها : قال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ فأكد سماعهم للكذب والإرجاف بالشائعات المفترضة ، والأباطيل المخفية للحق ، وتوكيد هذه الصفة دليل قاطع على تأصلها فيهم ، وفي التعبير بصيغة المبالغة ﴿ سماعون ﴾ ما يدل على مدى إسرافهم في تلك الرذيلة ، بحيث أصبحت من الفحش بمكان .. ثم يصفهم تعالى بأنهم ﴿ أكالون للسحت ﴾ وهكذا بصيغة المبالغة أيضا . والسحت ما تنهى في الحرمة فهم المتعاملون بالربا ، الآكلون للرشى ، المخافون للحق . قال تعالى : ﴿ فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾ (٣) . قوله تعالى : ﴿ فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ﴾ أى إن جاءوك متحاكمين

(١) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل .

(٢) من الآية ١٦٠ من سورة النساء .

(٣) من آية رقم ٩ من سورة البقرة .

إليك فأنت مخير بين الحكم بينهم ، والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواثيق وسائر العقود ، إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقررون عليه فيما بينهم دون المسلمين قوله تعالى ﴿ وَإِنْ تَعَرَّضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّوكَ شَيْئًا ﴾ أى عند إعراضك عنهم فلا تخش منهم أحداً ، ولا تخف منهم ضرراً ، فقد تعهد الله تعالى بحفظك في قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ (١) . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ هذا توجيه إلهي فيه البيان الشافي والجواب الوافي ، فالإسلام هو العدل والحق والقسط وحكم الله عادل مقسط ، مع الأحياء والأعداء ، فالعدل هو العدل لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ، شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يَحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا تعجب من الله تعالى لحال هؤلاء الذين أنزل الله عليهم كتاباً فيه هدى ونور هو التوراة ، وفيها حكم الله واضح جلي وهم يعلمون ذلك علم اليقين ، ومع ذلك يحكمونك وبعد تحكيمهم لك وعلمهم بأنك الحق وحكمك الحق ، وأنت مصباح الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات ، مع علمهم بهذا كله يتولون معرضين عن حكم الله ويحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

إن الله تعالى حكم عليهم بقوله : ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ إذ كيف يتأق الإيمان مع الإعراض والتولى عن حكم الله قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلَمُوا تَسْلِيماً ﴾ (٣) فهذا هو منطق الإيمان الصحيح : تحكيم يتبعه عدم الحرج أى حرج مما قضى الله ورسوله ، يصحبه تسليم مطلق وتفويض وإذعان ورضا ..

### الحاكمية لله وحده

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِكُمْ ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

(١) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة وسيأتي تفسيرها وذكر أسبابها ولها .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .

(٣) الآية ٦٥ من سورة النساء .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ  
وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ  
فَأُولَٰئِكَ هُم الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ  
التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ  
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُم  
الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾

المفردات : ﴿ التوراة ﴾ : الكتاب الذى أنزل على موسى . ﴿ والذين هادوا ﴾ : هم  
اليهود . ﴿ الربانيون ﴾ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، و﴿ الأحبار ﴾ :  
واحدهم حبر وهو العالم . ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ : أى بما طلب إليهم حفظه منه ،  
و﴿ شهداء ﴾ : أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به : ﴿ قفاه ﴾ : به تقفية : جعله يقفو أثره  
كما قال : ﴿ وقفنا من بعده بالرسل ﴾ (١) . و﴿ الفاسقون ﴾ : أى الخارجون من حظيرة الدين  
المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ : إخبار منه جل شأنه بأن التوراة كتاب  
سماوى أنزله العليم الحكيم على موسى الكليم ، فما حكم به بنى الله محمد ﷺ في تلك الحادثة التى وقعت  
بين اليهود ، جاء موافقا لما حكم الله به في التوراة ، فلا مجال لهؤلاء الذين حاولوا أن يقفوا موقف المساومة  
من شرع الله المنزل على نحاتم الأنبياء وعلى كليم الله موسى : يقولون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم  
تؤتوه فاحذروا ﴾ (٢) وقد حكم رسول الله ﷺ حكماً صادقا ، حكم به الله تعالى في كتاب التوراة . قوله  
تعالى : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ : في هذا النص إشارة صريحة بأن النبيين دينهم  
واحد هو الإسلام ، وليس هناك أى اختلاف بينهم في العقيدة . عملوا في معسكر واحد هو معسكر  
التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . فهؤلاء النبيون الذين كلفوا بأحكام التوراة من لدن  
موسى يحكمون بما فيها للذين هادوا ( أى اليهود ) ، كذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والمراد بالربانيين  
العلماء العباد ، وبالأحبار العلماء الذين استحفظهم الله كتابه واستودعهم إياه ، وطلب منهم حفظه ،  
وكانوا عليه شهداء شهادة صدق بأنه من قبل الله . قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ :  
بصداد ذلك قوله جل شأنه : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾ (٣) .  
وقوله جل شأنه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٤) .. فمن تصدى للحكم بما أنزل الله والدعوة إلى  
الله كان واجبا عليه أن يخشى الله وحده ، فمن أرضى الله بإسقاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن

(٣) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأحزاب .

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة .

(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .

أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ : المراد بالثمن القليل هو الدنيا والسلطان والجاه ، وقد كان اليهود ينكرون رسالة رسول الله ﷺ ويحسدون ما جاء بشأنه في التوراة حسداً منهم له ، وبغيا وظلماً وعدواناً ، يبتغون من وراء ذلك الرئاسة والزعامة وحب الدنيا ، والدنيا مهما أعطت وترينت فهي ثمن قليل تافه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ : هذا النص الكريم اقتضت الأمانة العلمية أن نوضح أقوال العلماء فيه : فماذا قالوا في الحكم بغير ما أنزل الله ؟

(١) قال عبد العزيز بن يحيى الكنانى : قوله ﴿ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ صيغة عموم ، فقوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ معناه : من أتى بضد حكم الله تعالى في كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، قال : وهذا حق ، لأن الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى في كل ما أنزل الله ، فالمراد ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ، قال : ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام ، أما الفاسق فإن لم يأت بضد حكم الله إلا في القليل وهو العمل ، أما في الاعتقاد والإقرار فهو موافق ، وقال أيضاً : ( ومن لم يحكم بما أنزل الله ) فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية . ومثل هذه ما قيل : إن المراد بعموم النفي بحمل ( ما ) على الجنس ، ولا شك أن من لم يحكم بشيء مما أنزل الله تعالى لا يكون مصدقاً ولا نزاعاً في كفره .

(٢) وقال ابن الأنبارى : يجوز أن يكون المعنى ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ فقد فعل فعلاً يضاهى أفعال الكفار<sup>(١)</sup> ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهو عدول عن الظاهر .

(٣) ومنهم من تأول الآية على الحكم بمخالفة النص تعمداً من غير جهل به ولا خطأ في التأويل ، حكاها البغوى عن العلماء عموماً .

(٤) ومنهم من تأول على أن ذلك يختلف باختلاف الحاكم ، فإن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر ، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة ، على أصل أهل السنة في الغفران للمذنبين .

(٥) قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم بما أنزل الله يتناول الكافرين الأكبر والأصغر بحسب حالة الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في الواقعة مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع يقينه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم . وروى عنه أيضاً : ليس بالكفر الذى يذهبون إليه : رواه الحاكم في مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ... يؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى في سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : في الكفر الواقع في أولى الثلاث : إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه ...

إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفرا دون كفر . وقال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

(٦) وقال عطاء : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق رواه ابن جرير . وعن علي بن الحسين قال : كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك .. فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين<sup>(١)</sup> ..

(٧) وقيل : فيه إضمار ، أى من لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قال ابن عباس ومجاهد : فالآية عامة على هذا : وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أى معتقداً ذلك مستحلالاً له ، فأما من يفعل ذلك وهو معتقد أنه يرتكب محرماً فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . وقال عكرمة : قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ، ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية . وقال ابن عباس : ومن جحد بما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق رواه ابن جرير ... وعلى هذا فالآية متروكة الظاهر ، فإن الحكم وإن كان شاملاً لفعل القلب والجوارح . لكنه المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله تعالى ، وهذا رأى وهو أن المراد بالآية من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب هو اختيار الإمامين الجليلين ابن جرير الطبرى وفخر الدين الرازى ، وإن لم يرتضه ابن القيم حيث جعله تأويلاً مرجوحاً .

(٨) إن هذه الآية ونظيرتها نزلت ثلاثها فى الكفار ممن بدل حكم الله كما جاء فى صحيح مسلم من حديث البراء ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطارى وعكرمة وعبيد الله والحسن البصرى وغيرهم ، نزلت فى أهل الكتاب ، وأخرج ابن جرير عن أنى صالح قال : الثلاث آيات التى فى المائدة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ الآية ، ليس فى أهل الإسلام منها شئ ، هى فى الكفار ، وأخرج ابن حاتم عن عكرمة ، وابن جرير عن الضحاك نحو ذلك .

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة : فلإنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاستقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم فى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر وتارة على أخرى تقتضى الظلم والفسق .

(٩) ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى اليهود خاصة فتكون مختصة بهم ، وبينه بعضهم بقوله :

(١) وهو كفر النعمة عند الاباضية : انظرها من ص ١٩٠ من تفسير القرطبي .

( ومن لم يحكم ) من هؤلاء الذين سبق ذكرهم ( بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ) . قال عبد الرزاق عن إبراهيم ولعله النخعي : نزلت الآيات في بني اسرائيل . رواه ابن جرير . وقال ابن عباس : في خصوص بن قريظة والنضير ... وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما أنزل الله : ( فأولئك هم الكافرون ) الظالمون الفاسقون ، في اليهود خاصة . وقال الشعبي : هي في اليهود خاصة ، واختاره النحاس<sup>(١)</sup> قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها : أن اليهود قد ذكروا قبل هذا في قوله ( للذين هادوا ) فعاد الضمير عليهم ، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك ... ألا ترى أن بعدها ( وكتبنا عليهم ) فهذا الضمير لليهود بالإجماع وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص . فإن قال قائل : ( مَنْ ) إذا كانت للمجازاة فهي عامة ، إلا أن يقع دليل على تخصيصها ، قيل له : ( مَنْ ) هنا بمعنى الذى ، مع ما ذكرناه من الأدلة ، والتقدير : واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... واختار هذا رأى القرطبي<sup>(٢)</sup> والطبرى . قال الطبرى : الأولى في كفار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم ، فكونها خبرا عنهم أولى .

( ١٠ ) وقال آخرون : بل نزلت هذه الآيات في أهل الكتاب والمراد بها جميع الناس ، مسلموهم وكفارهم ، ونسب هذا القول إلى عمر وعلى رضى الله عنهما ، وهو قول إبراهيم والحسن ومسروق . ( ١١ ) وقال بعضهم : عني بالكافرين أهل الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين النصارى ، وهو اختيار أبى بكر بن العرى قال : لأنه ظاهر الآيات .. وفي أحكام الجصاص ( ٤ - ٩٣ ) : الأولى بالمسلمين والثانية لليهود والثالثة للنصارى .

وعند الشعبي قال : نزلت ( الكافرون ) في المسلمين ، و ( الظالمون ) في اليهود ، و ( الفاسقون ) في النصارى وعنه قال : هذه الآيات التى في المائدة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ فينا أهل الإسلام .. ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ قال في اليهود .. ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال في النصارى ) .. قال الألوس بعد كلام الشعبي : ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى إلا أنه قيل : إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعته وتمرده فيه ، وكلام حذيفة يمكن أن يؤيد هذا رأى .

( ١٢ ) وقال الخوارج ( وهم يحتجون بهذه الآية ) : إنها تقضى في أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا كذلك احتج الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافوغير مؤمن ، ووجه الاستدلال بها أن كلمة ( مَنْ ) فيها عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، فيدخل الفاسق المصدق أيضا ، لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله .

(١) القرطبي : ج ٦ ص ١٩٠ .

(٢) جزء ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

- والحق الذى لا مرأى فيه فى هذه الآية : وهو الرأى المؤيد المنصور : أن الآية عامة فى أهل الكتاب وغيرهم شاملة لليهود والنصارى والمسلمين وأن الحاكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وأن الكفر فيها هو الكفر المخرج عن الملة والأدلة والآثار الآتية تثبت ذلك وتوضحه :
- أن هذه الآية وإن نزلت فى اليهود حين أنكر واحد الرجم إلا أن القاعدة تقول : العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
- قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم ﴾ كلام أدخل فيه لفظ ﴿ من ﴾ فى معرض الشرط فيكون للعموم ، فهو يفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل كل من ولى الحكم يشمل ذلك ..
- إذا حكم على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكموا بالتوراة والإنجيل فنحن المسلمين من باب أولى إذا لم نحكم بالقرآن ، على أن الصحيح أن الآيات تشمل أهل الكتاب وغيرهم .
- أخرج الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة أن الآيات الثلاث ذكرت عنده فقال رجل إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنى إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك<sup>(١)</sup> .
- ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات : أهى فى بنى إسرائيل ؟ قال : هى فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حذو النعل بالنعل<sup>(٢)</sup> .
- قال ابن جرير عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال : من السحت ، فقالا : وفى الحكم ؟ قال : ذلك الكفر ، ثم تلا ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ونقل مثل ذلك عن على بن أبى طالب كما أخرجه عن ابن جميلة .
- وقال السدى : يقول الله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ فتركه عمداً أوجارهم وهو يعلم فهو من الكافرين .
- قال القشيري : عزى إلى الحسن والسدى أن من ارتشى وحكم بغير حكم الله فهو كافر .
- وعن الحسن : نزلت فى أهل الكتاب ، وهى علينا واجبة .
- وعن عبد الرزاق : عن إبراهيم - ولعله النخعي - نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ، ورضى الله لهذه الأمة بها .
- قال الألويس : والوجه أن هذه كالخطاب عام لليهود وغيرهم وهو مخرج مخرج التغليظ ، واختلاف الأوصاف لاختلاف العبارات ، والمراد من الآخرين فيها الكفر أيضاً عند بعض المحققين وذلك بحملها على الفسق والظلم الكاملين .
- قال أبو السعود ( ومن لم يحكم بما أنزل الله ) كائناً من كان دون مخاطبين خاصة ، فإنهم مندرجون فيه اندراجاً أولياً ، إن لم يحكم بذلك مستهيناً به منكرأ له كما يقتضيه ما فعلوه عن تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ لأستهانتهم به .

(١) القرطبي ج ٦ ص ١٩٠ . (٢) الشراك هو سير النعل الذى يمسك بالقدم وقد فسرته الرواية التى بعدها .

والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير من الإضلال به أشد تحذير ... حيث علق الحكم فيه بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ، لاسيما مع مباشرة ما نُهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

- ويحاج على الرأى القائل : ليس مجرد عدم الحكم بما أنزل الله يكون كفرا ، فإن الكفر معناه الجحود والإنكار ، ويحاج عنه بأن الآية لم تقل « ومن لم يعتقد بما أنزل الله » . وقد رد هذا الرأى ابن القيم وأبطله إذ قال : فإن نفس جحوده كفر ، سواء أحكم أو لم يحكم .
- وحكى البغوى عن العلماء عموما أن الكفر عند الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل .

- ويمكن أن يحاج عن الرأى القائل : كفر دون كفر ، بما قاله الرازى : وهو ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر فى الدين بأنه خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ نَفْسُ الْفَسْ وَالْعَيْنُ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفُ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنُ بِالْأُذُنِ وَالسِّنُّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ : هذا منطق العدالة الإلهية والله هو الحكم العدل ، لافرق عنده بين غنى وفقير ولا رفيع ووضيع ، ولا صغير وكبير ، ولا أمير وخفير ، فالكل أمام حكمه سواء . ولما كان الظلم فاشيا فى بنى إسرائيل أوجب الله عليهم أن يقوموا الله بالقسط فى تنفيذ أحكامه ، كما شرع لهم المساواة فى أخذ الحقوق ، وألزمهم بهذه الأحكام إلزاما لا يقبل نقدا ولا تغييرا . فإذا كان الله قد خاطب الجماعة المؤمنة من أمة محمد ﷺ بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ ﴾ ... إلى قوله : ﴿ فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .. إذا كان الله قد خاطب الأمة بهذا الخطاب وعبر بالقصاص لأنه لفظ القصاص ينبى عن المساواة ، فإنه جلست قدرته كتب على بنى إسرائيل فى التوراة القصاص فى النفس وما دونها من الأعضاء والجروح ، وفى هذا تفصيل وفضل بيان لأمة محمد ﷺ إذ شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ ، وقد بدأت الآية بالقصاص فى النفس إذ بها الحياة وبفقدائها الموت ، وانتقل إلى العين إذ هى عضو الرؤية وبالرؤية تتجلى العظمة الإلهية فى الكون علوية وسفلية : قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طَبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> . وانتقل من العين إلى الأنف لأنه عضو الجمال فى الوجه ، لذا لما أراد الله تعالى فى سياق الذم أن يذكر ذلك الكافر العنيد قال : ﴿ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ <sup>(٣)</sup> فشبه أنفه بأنف الفيل .

(١) الايتان ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة . (٢) الايتان ٢ ، ٣ من سورة الملك . (٣) الايتان ١٥ ، ١٦ من سورة (ن) .



ثم انتقل بعد ذلك إلى الأذن وقد أودع الله فيها سر السمع ، والسمع نعمة عظيمة ومنفذ من منافذ المعرفة ، لذا في مجال المعرفة يقدم السمع على البصر : قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) ... ثم ينتقل النص الكريم إلى السن ، وللسن وظيفة صوتية وجمالية وهضمية .

وبعد ذلك تأتى الجروح وهى مختلفة باختلاف مواقعها ، لذا وجبت الدقة في تنفيذ الحكم بشأنها ، ومن ثم فقد جاءت مقترنة بلفظ القصاص حتى تكون المساواة فيها مرعية ومأخوذة في الاعتبار .

وبعد الحكم بالقصاص يفتح الله تعالى باب رحمة ، فيرغب ويدعو إلى العفو ، فهو الذى شرع القصاص ، وهو سبحانه الذى رغب في العفو ، وفي القرآن الكريم آيات تصف المؤمنين بالقصاص مرة والعفو أخرى . فنقرأ قوله تعالى في القصاص : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ (٢) ونقرأ في العفو : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ (٣) ونقرأ في القصاص : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (٤) ونقرأ في العفو : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ (٥) . ونقرأ في القصاص : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ (٦) . ونقرأ في العفو : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (٧) . ونقرأ في القصاص : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل ﴾ (٨) . ونقرأ في العفو : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾ (٩) ونقرأ في القصاص هنا : ﴿ وكنا على أنفسنا أن النفس بالنفس ﴾ . ونقرأ في العفو : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ أى فمن تصدق بالعفو وعفا عن الجاني ، فذلك العفو كفارة لذنوب من عفا وهو المحنى عليه .

وفي هذا النص الكريم أحكام إليك بيانها :

- استدل كثير من ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى موقراً ولم ينسخ كما هو المشهور عند الجمهور .

- احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد في الحديث الذى رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن حزم « أن الرجل يقتل بالمرأة » ، وفي الحديث الآخر « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .

- إذا ثبتت مشروعية القصاص بهذا النص فإن العفو وارد : عن أنس بن مالك أن الربيع عمة أنس كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا : فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة : قال فرضى القوم وعفوا وتركوا القصاص فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه في الصحيحين .

- |  |                                       |
|--|---------------------------------------|
| (١) الآية ٧٨ من سورة النمل .           | (٦) آية ٤١ من سورة الشورى .           |
| (٢) الآية ٣٨ من سورة الشورى .          | (٧) آية ٤٣ من سورة الشورى .           |
| (٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة الشورى .   | (٨) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة . |
| (٤) أجزاء من الآية ٤٠ من سورة الشورى . | (٩) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة . |

- قوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال تقتل النفس بالنفس ، وتفقد العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونسائهم ، إذا كان عمدا في النفس وما دون النفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونسائهم فيها بينهم ، إذا كان عمدا في النفس وما دون النفس ، ( رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ) .

- الجراح تكون تارة في مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحبه لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن .

- لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه ، فإن اقتص من قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شيء له ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد : أن رجلا طعن رجلا بقرن في ركبته فجاء إلى النبي ﷺ فقال : أقدنى . ( أى اقتص لى ) فقال : حتى تبرأ ، ثم جاء إليه فقال : أقدنى فأقاده ، فقال : يا رسول الله : عرجت فقال : « قد نهيتك فعصيتنى فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه .

- لو اقتص المجنى عليه من الجاني فمات من القصاص فلا شيء عليه عندما مالك والشافعي وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة تجب الدية في مال المقتص ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البستي يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقي في ماله .

- قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : من عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب . وقال الهيثم بن الغريان النخعي : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية فسألته عن قوله الله ( فمن تصدق فهو كفارة له ) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

أما تفسير النبي ﷺ لتلك الآية فهو القول الفصل حيث قال صلوات ربي وسلامه عليه عنها : « هو الذى تكسر سنه أو تقطع يده أو يقط الشئ منه أو يخرج فى بدنه فيعفو عن ذلك » . قال : فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه ، وإن كان الثلث فثلث خطاياه ، وإن كانت الدية حطت عند خطاياه كذلك » ... قال ابن جرير : دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصارى إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك ، قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشئ من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعته أذنأى ووعاه قلبى ، فخل سبيل القرشى . وقال عليه ﷺ « من تصدق بدم

فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت .

قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ : جاء ذلك النص الكريم ختاماً لتلك الآية لأن سياقها يدل على العدالة والمساواة ، والعدل وضع الشيء في موضعه ، فمن وضعه في غير موضعه فقد جافى العدالة ، فأصبح من الظالمين ، فمن لم يحكم بما أمر الله بالعدل فهو ظالم متجاوز لحدود الله ، والظلم مرتعه وخيم ، كما أنه ظلمات يوم القيامة ، والعدل أساس الملك . ودولة الباطل ساعة ، ودول الحق باقية حتى قيام الساعة : قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال ﷺ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى بإرسال عيسى عليه السلام وأن قد قفى به على آثار أنبياء بنى إسرائيل ، أى أتبع رسالته برسالتهم ، ثم أخبر سبحانه أن المسيح بعث مصدقا ومؤمنا بالتوراة التى سبقتة ، وأنه جل جلاله قد آتاه الإنجيل فيه هدى يهذى الخائرين إلى سبيل الرشاد ، ونور يخرج الضالين من الظلمات إلى طريق الله رب العالمين ..

وكما أن عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة عاملا بأحكامه ، فقد جاء الإنجيل مصدقا لأحكام التوراة مؤيدا لها ، كما جاء هدى وموعظة للمتقين ، وقد بعث الأنبياء في معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، جاء سابقهم ليبشر بلحقهم ، كما جاء اللاحق مكملا للسابق ، فهم دائما في حركة بناء لا هدم فيها ، فهم دائما يتابعون الترقى وليسوا في حاجة إلى أن يقاوموا التدى . قال سيدهم وخاتمهم ﷺ : « مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة في زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة ؟ فأنا تلکم اللبنة وأنا خاتم النبيين .

وإذا كانت التوراة قد اشتملت على الأحكام فإن الإنجيل قد اشتمل على الوصايا الروحية التى تخفف من غلواء اليهود وترقق من قسوة قلوبهم ، كما أحل الإنجيل بعض ما حرم الله على اليهود فى التوراة . وقد حكم الله تعالى للتوراة بالهدى والنور فقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾ فقد حكم تعالى أيضا للإنجيل بالهدى والنور فقال ﴿ وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ﴾ . وكما أوجب على أهل التوراة أن يحكموا بما فيها كذلك أوجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه قال سبحانه : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ﴾ فإن هم تجاوزوا ذلك فقد خرجوا على أحكام الله فجزاؤهم أن يحكم عليهم بالفسق قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

(١) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

## وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٨﴾ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَنَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

**المفردات :** ﴿مهيمنًا﴾ : رقيبًا وحافظًا لما تقدمه من الكتب وشاهدًا عليه .  
 ﴿شريعة﴾ : الشرعة في اللغة الطريق الذي يتوصل به إلى الماء ، والطريقة الظاهرة التي يتوصل بها إلى النجاة ، وفي لسان الشرع : ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه . ﴿ومنهاجًا﴾ : طريقًا مستمرًا واضحًا . ﴿فاستبقوا﴾ : تسابقوا وسارعوا إلى الطاعات . ﴿أن يفتنوك﴾ : أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

## المناسبة :

فيما مضى تكلم القرآن عن التوراة والإنجيل ، وما فيهما من نور وهدى وموعظة للمتقين أما القرآن الكريم والدستور المبين ، الذى نزل على الرسول الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين فها هو ذا .

قوله تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق﴾ : المقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بالكتاب لأنه أجلى من الشمس فى ضحاها ، وأعظم وضوحا من القمر إذا تلاها ، وأشد ظهورا من النهار إذا جلاها ، فمن أعرض عما فيه تحبط فى ظلمة الليل إذا بغشاها .

وفى أسلوب الخطاب ﴿إليك﴾ تشريف لصاحب الرسالة العصماء ، وقد وصف الله تعالى القرآن فى هذه الآية بثلاث صفات : ﴿بالحق﴾ ﴿مصدقا لما بين يديه﴾ ﴿ومهيمنًا عليه﴾ .

أما كونه بالحق : فإنه تنزيل من حكيم حميد ، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل﴾ <sup>(١)</sup> وأما كونه مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ، فذلك لأن التوراة

والإنجيل منزلان أيضا من قبل الله جلّت قدرته وعظمت حكمته : قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ وإذ صرنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيئوا داعي الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرم من عذاب أليم ﴾ (١) .

ثم وصف الله القرآن بكونه مهيمنا على الكتب السابقة ، أى شاملا وكافيا ورفيا : قال عمر ذات يوم : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أنكتب بعضها ؟ قال الصادق المعصوم : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ أى متحيرون لقد جتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي . قوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ : هذا تفرغ وترتيب على ما مضى ، لما ثبت أن الكتاب نزل بالحق ، ومصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيما عليه ، وجب الحكم بما فيه : قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وإنك لنتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٢) . فالقرآن روح يحيى الموات ، ونور يبدد غياهب الظلمات ، قال على : يا رسول الله ما المخرج من الفتن ؟ قال الصادق المعصوم : ﴿ عليكم بكتاب الله تبارك وتعالى ﴾ ، وقال ﷺ ﴿ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكلفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ : هذا تصريح فيه نهى عن اتباع الأهواء ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر : قال تعالى لنبيه داود : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٤) وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، لذلك قص علينا القرآن الكريم قصة بلعام بن باعورا أحد أحبار بنى إسرائيل فقال : ﴿ وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقضص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (٥) وكيف يتبع الهوى من جاءه الحق ؟ وهل الإيمان إلا اتباع الحق : قال ﷺ : ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ) . قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ : عقيدة الأنبياء كلهم واحدة قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٦) فكلهم دعا إلى وحدانية الألوهية والربوبية : قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى

(١) الآيات ٢٩ - ٣٠ من سورة الاحقاف .

(٢) الايمان الاخيرتان من سورة الشورى .

(٣) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٢٦ من سورة (ص) .

(٥) الايمان ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴿١﴾ . قال ﷺ : ( نحن معشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد ) .

أما الشرائع والشعائر فقد تختلف في الأوامر والنواهي حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية فيما يصلح أحوال العباد ، فلا تبايع موسى شرعة ومنهاج ، كذلك أتباع المسيح ، تنتهى هذه الشرائع ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فقد جاءت رسالته خاتمة لما سبقها مهيمنة على كل الرسالات عالمية : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (١) . وقال سبحانه : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (٢) . ففى القرآن نبأ من قبلنا ، وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا ، وهو بالفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى صراط مستقيم ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا يهدى إلى الرشـد فآمنا به ولن نـشرك بربنا أحداً ﴾ (٣) من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم . قوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لـجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ : فمشيئة الله سبحانه صالحة أن يجمعكم على كتاب واحد ونبي واحد ، ولكن اقتضت الحكمة العليا أن تتعدد الأنبياء والشرائع ، ليبلونا أيـنا أحسن عملاً ، وليبين الذين يطيعون والذين لا يمتثلون الأمر .

قوله جل شأنه : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ : هذا أمر من الله جلّت قدرته ، يزيد به سبحانه أن يوجه عبادة إلى ما يصلحهم دنيا وأخرى ، وذلك باستباقهم إلى الخيرات والمصارعة إليها والتنافس فيها ، وأول ما يجب الاستباق إليه الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء الذى أمرنا أن نؤمن بكل الأنبياء : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (٤) . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ وهناك سينبئكم الله بما كنتم فيه تختلفون ﴿ قل أنتم أعلم أم الله ﴾ (٥) والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ : هذا توكيد بوجوب الحكم بما أنزل الله ، والأمر يقتضى الوجوب ، إذ لم يصرفه عن الوجوب صارف ، فما بالك وقد جاء مقررأ ومؤكداً لما سبق قوله تعالى ﴿ واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ وذلك بتغيير أى حكم من الأحكام المنزلة عليك ، كتغيير الرجم بالجلد . إلى غير ذلك ، فما عليك إلا أن تبلغ أحكام الله

(١) الآية ٣٥ من سورة النحل .

(٢) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٣) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٤) من الآيتين ١ ، ٢ من سورة الجن .

(٥) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٦) جزء من الآية ١٤٠ من سورة البقرة .

(٧) جزء من الآيات ٢١٦ من سورة البقرة .

كما أنزلت ، فإن تولوا وانصرفوا ولجوا في طغيانهم يعمهون ﴿١﴾ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴿٢﴾ فما بالك لو أصابهم بذنوبهم كلها ، إذآ ما ترك عليها من دابة ﴿٣﴾ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴿٤﴾ أى من هؤلاء الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴿٥﴾ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴿٦﴾ وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿٧﴾ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴿٨﴾ ومن على شاكلتهم ومن لف لفهم وذهب مذهبهم ودار في فلکهم . قوله تعالى ﴿٩﴾ أفحكم الجاهلية يبغون ﴿١٠﴾ أى يعرضون عن حكم الله فيبغون حكم الجاهلية ، والجاهلية قد تكون في العقيدة ، كما في قوله تعالى ﴿١١﴾ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله ﴿١٢﴾ وقد تكون الجاهلية في الحكم ، كمن حكم بغير ما أنزل الله ، وقد تكون الجاهلية في الغريزة والشهوة ﴿١٣﴾ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿١٤﴾ وقد تكون الجاهلية حماقة كما في قوله تعالى ﴿١٥﴾ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴿١٦﴾ وفي جاهلية الحكم يلقي القرآن الكريم باللائمة على هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، فتركوا الحكم بما أنزل الله ، وابتغوا قوانين وأحكاماً من هنا وهناك ، لا تصون عرضاً ولا تحفظ مالاً ولا نفساً ولا عقلاً ولا ديناً ﴿١٧﴾ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿١٨﴾ لا أحد فالله هو الحكم العدل ﴿١٩﴾ لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴿٢٠﴾ وهو الواحد الأحد لا يشرك في حكمه أحداً سبحانه عز من قائل ﴿٢١﴾ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿٢٢﴾ .

### النهي عن موالاة الكافرين

\* يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿٥١﴾ مرض : شك ونفاق . ﴿٥٢﴾ دائرة : ما يدور به الزمان من المصائب والإجن التي تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها . ﴿٥٣﴾ حبطت : بطلت أعمالهم .

(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة الكهف .

(٧) من الآيات ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .

(١) جزء من الآية ٤١ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .

(٢) جزء من الآية ٤٢ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .

(٣) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

روى الرواة<sup>(١)</sup> : أنه جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثيراً عددهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إني رجل أخاف الدوائر لأبرأ من موالاة موالى ! فقال الرسول ﷺ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب : رأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : إذن أقبل ، فنزلت الآية يا من اتصفتم بهذا الوصف وهو الإيمان بالله ورسوله سواء كان هذا باللسان فقط ولا إخلاص معه ، أو كان إيماناً صادقاً ومعه الإخلاص ، لا يليق بكم أن تفعلوا ما نهاكم الله عنه ، من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بما أخفيتهم وما أعلنتهم ، وتتحابون إليهم وتصادقونهم ، إذ بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض ، والكل متفق على كلمة واحدة هي : بغضكم بغضاً شديداً ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، أى من جملتهم ، وحكمه حكمهم . وهذا تشديد على المنافقين الذين يتخذون صداقات ، ويرتبطون بصلات باليهود والنصارى وأعداء الدين ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أنفسهم بموالاة الكفار أيا كان السبب فترى يا محمد وكذا كل من تصح منه الرؤية ، ترى الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق كعبد الله بن أبى وأضرابه ، يسارعون فى موالاتهم ويرغبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان ، وانظر إلى تعبير القرآن ﴿ يسارعون فيهم ﴾ بدل يسارعون إلى موالاتهم ، للإشارة إلى أنهم منتقلون من بعض مراتبها إلى بعض ، فهم مستقرون فيها ، يقولون متعللين : ﴿ نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ تدور علينا من دوائر الدهر ودولة من دولة بأن ينقلب الأمر للكفار واليهود ، وتدول الدولة على المسلمين ، فنحتاج إليهم فلا يسعفوننا بالميرة والطعام ، رأيت كيف لا يثق المنافقون بوعد الله ! وأن حزب الله هم المفلحون . ﴿ عسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ وعسى فى القرآن وعد محتوم ، فإن الكريم متى أطمع أطمع ، وإذا وعد حقق ، فما ظنك بأكرم الأكرمين ؟ ﴿ وهو على كل شئ قدير ﴾<sup>(٢)</sup> والمراد بالفتح فتح مكة ، أو فتح من عنده شامل لتأسيس الدولة وانتظام شؤونها واستقرارها فى الوجود ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يفضح حال المنافقين ويهتك سترهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فيصبح أولئك المنافقون نادمين على ما أسروا وكنموا ، ويقول الذين آمنوا تعجبا وتعريضا وشماتة بهم ، مخاطبين اليهود ومشيرين إلى المنافقين الذى كانوا يوالونهم ، وقد بدت الأمور على غير ما كانوا يرجون ﴿ أهؤلاء ﴾ ﴿ المنافقون ﴾ الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ﴿ أيها اليهود ﴾ حبطت أعمالهم ﴿ التى كانوا ينافقون بها من صلاة وصوم ﴾ فأصبحوا خاسرين ﴿ دنيا وأخرى . وهذا مرض خطير ينتشر فى الأمم الضعيفة المستعبدة ، ترى الكثير من أبنائها الذين فى قلوبهم ضعف وفى نفوسهم مرض يلجئون إلى الأعداء من الأجانب ، يتخذون عندهم يداً ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالنصر ، وأن الدولة لهم ، يا قوم : أسمعوا وعوا واعتبروا ، فإنما يتذكر أولو الألباب .

(١) تفسير القرطبي ٦ ص ٢١٦ .

(٢) جزء من الآيات : ١٢٠ من سورة المائدة .



## المرتدون المحاربون لهم

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ أَغْلِبُونَ ﴿٥٦﴾

**المفردات :** ﴿ يرتد ﴾ : الارتداد الخروج من الإسلام والدخول في الكفر مطلقاً ، أو بسبب ترك ركن الزكاة أو غيره من أركان الإسلام جهاراً وعناداً . ﴿ يحبهم ﴾ : يجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء وأتمه ، ﴿ يحبونه ﴾ : يخلصون له في العمل ويطيعونه في كل أمر ونهى . ﴿ أدلة ﴾ : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم . ﴿ أعزة ﴾ : جمع عزيز ، بمعنى أنهم متغالون عليهم . ﴿ راكعون ﴾ : خاشعون وخاضعون . ﴿ حزب الله ﴾ : الحزب الجماعة المجتمعة التي حزبها أمر من الأمور وألم بها أمر في اتجاه خاص .

روى أنه قد ارتد عن الدين إحدى عشرة قبيلة : ثلاث أيام النبي ﷺ وسبع أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وجبله بن الأيهم أيام عمر رضى الله عنه .  
فالدين أرتدوا أيام النبي ﷺ .

١ - بنو مبرخ ورئيسهم الأسود العنسى تنبأ باليمن وكان كاهناً وأهلكه الله على يد فيروز الديلمي .  
٢ - بنو حنيقة قوم مسيلمة الكذاب ، تنبأ وأرسل كتاباً إلى النبي ﷺ وفيه أنه شريك ، وأن الأرض قسمان ، فكتب له النبي : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقتله أبو بكر رضى الله عنه والذي قتله وحشى قاتل حمزة .

٣ - بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، ارتد أيام النبي ﷺ وقتله أبو بكر في خلافته ، ففر إلى الشام ثم أسلم وأحسن إسلامه . المرتدون أيام أبى بكر :

- ١ - غطفان وزعيمهم قرة بن سلمة . ٢ - فزارة قوم عيينة بن حصن .
- ٣ - بنو سليم قوم الفجاءة عبد ياليل ٤ - بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .
- ٥ - بعض بنى تميم وزعيمهم سجاح بنت المنذر الكاهنة .
- ٦ - كندة قوم الأشعث بن قيس ٧ - بنو بكر بن وائل الحطيم بن زيد .

وقد ارتد أيام عمر جبله بن الأيهم من الغسانيين ، تنصر ولحق بالشام وله في ذلك شعر وحوادث ، وسبب ارتداده أنه كان بمكة فطاف فوطئ إزاره رجل من بنى فزارة ، فلطمه جبله فهشم

أنفه ، فاستعدى الفزاري عليه عمر رضى الله عنه ، فحكم إما بالعفو أو القصاص فقال جيلة : اتقنص منى وأنا ملك وهو سوقة .

الإسلام بجلاله وكأله وعقيدته وشريعته دين الفطرة ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

قيل لأعرابي لم آمنت بمحمد فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته لم يأمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى . وإذا سألت أى مسلم يملك عقلاً راجحاً وقلباً صادقاً ويقيناً راسخاً عن نهجه في الإسلام ، لقال لك بلسان الحال والمقال : المعرفة رأسمالى ، والعقل أصل ديني ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر رداً ، والرضا غنيمتى ، والفقر إلى الله فخري ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى والجهاد خلقى ، وقرة عينى في الصلاة . إن كل جملة من هذه الجمل درة تتألق في تاج العلا والمجد المائل ، إنها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتنهجون في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾<sup>(٢)</sup> إن بشاشة الإيمان إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيل ، ولا يغير هذه الفطرة إلا من كان في قلبه مرض ، بحيث يدخل الإسلام دخول غير متمكن ﴿ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾<sup>(٣)</sup> ومرضى القلوب في الدنيا كثر يظهرون الايمان باللسان فيقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض ﴾<sup>(٤)</sup> هؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، سمّاعون للكذب ، لا يتجاوز الإيمان حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ، إن هذا الخطاب العلوى يقول هؤلاء : يا معشر من آمن من يرتد منكم عن دينه فيغيره ويبدل نعمة الله كفراً ، فإن الله غنى عن العالمين فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يبدد هذا الكون ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾<sup>(٥)</sup> إنه من يرتد عن دين الله فسوف يأتى الله بقوم يعرفون الله حقه وللدين قدره ، إنهم حزب الله الذين وصفهم بتلك الصفات .

( يحبهم ويحبونه )

( يجاهدون في سبيل الله )

( ولا يخافون لومة لائم )

(٤) من الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

(٥) الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الايتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ١١ من سورة الحج .

( الذين يقيمون الصلاة )

( ويؤتون الزكاة ) ( وهم راكمون )

إن هذه المبادئ تؤدي إلى نتيجة حتمية الوقوع ، حكم بها العليم القدير العلي العظيم في قوله ﴿ فَإِنْ حَزَبَ اللَّهُ هُمْ الْغَالِبُونَ ﴾ كما حكم بها في قوله : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . إن هذا الحزب لا يغير مبدأ ولا ينحرف عن هدف ، لأن قائده صاحب الرسالة العصماء ﷺ الذي قالها في سمع الزمان عالية مدوية ﴿ وَاللَّهُ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرُ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ ﴾ فقال له عمه أبو طالب يا أبن أخي قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أيداً ، ثم أنشد .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا  
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

إن قائد هذا الحزب : هو الذي وقف في جموع المشركين يوم حنين يقول بقوة دونها قوة الجبال الرواسي : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب إن هذا الحزب في صراع دائم مستمر مع حزب الشيطان الذي قال فيه المولى تبارك اسمه ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنسَاهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿ (٢) فتأمل معي حزب الشيطان خاسراً أذل ، وحزب الرحمن هو حزب الله غالب مفلح ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (٣) إن حزب الله لا يوالى أعداء الله من اليهود والنصارى ، لأنه ملتزم بقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ ﴾ (٤) ملتزم بقوله جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدَّوَامًا عَنْكُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ (٥) إنه مستبصر بقول الله جل شأنه : ﴿ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٦) وحسبك أن تعلم أن الله يحب هؤلاء القوم الذين هم حزب الله ، فما بالك بحب الله : إنه الرضا كله والسعادة الكاملة في الدنيا والآخرة ، إن الله يحبهم كما أنهم يحبونه ، قيل لأبي بكر

(٤) من الآية ٥١ من سورة المائدة وقد سبق شرحها .

(٥) الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .

(٦) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

(١) الايتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الايتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .

(٣) من الآيتين : ٨١ ، ٨٢ من سورة الأنعام .

فليتك تحلو والحياة مريرة  
وليت الذى بينى وبينك عامر  
إذا صح منك الود فالكل حين  
وليتك ترضى والأنام غضاب  
وبينى وبين العالمين خراب  
وكل الذى فوق التراب تراب

فبادر يا أخا الإسلام بالانضمام إلى حزب الله ، وقف عند حدوده والزم مبادئه ، لتكون من الذين  
حكم الله لهم بأنهم : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار  
خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّوْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَن ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَ وَكُم قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ

(٣) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .

دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿١١﴾ وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبُّنِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ هزوا ﴾ : سخرية . ﴿ ولعبا ﴾ : اللعب واللعب ضد الجد . ﴿ ناديتهم إلى الصلاة ﴾ : دعوتهم لها بالأذان والإقامة . ﴿ تنقمون ﴾ : نقم ينقم أنكر وعاب عليه قولاً أو عملاً . ﴿ مثوبة ﴾ : جزاء وثوابا من ثاب إليه إذا رجع ولا شك أن الجزاء يرجع إلى صاحبه . ﴿ طاغوت ﴾ : كل ما عبد من دون الله وعبادته مجاز عن طاعته .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وكذا المشركين ، لا تتخذوهم أولياء أبداً ، فإنهم يودون عنتكم ومشقتكم ، وقد ﴿ بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾<sup>(١)</sup> بعضهم أولياء بعض ، مع أن موالاتهم تغضب الله ورسوله . وهم الذين اتخذوا دينكم ومشاعره هزوا وسخرية ، ومظهراً من مظاهر اللعب والضحك ، ولا شيء أشق على النفس من استهزاء المعاند له وسخريته به وبرأيه وشعاره ، ﴿ واتقوا الله ﴾ أيها الناس واحشوا عذابه ووعيده على الموالاته ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ . كرر الله نهي المؤمنين عن موالاته أعدائهم من الكفار ، تنفيرا لهم عنها وتسجيلا على الكفار فعلهم . وبعد أن أثبت الله استهزاءهم للدين على وجه العموم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾<sup>(٢)</sup> سجل عليهم استهزاءهم لنوع خاص هو عماد الدين وأساسه ، وهي الصلاة ، ﴿ وإذا ناديتهم إلى الصلاة ﴾ بالأذان والإقامة اتخذوا هذه المناداة والصلاة ﴿ هزوا ولعبا ﴾ وما ذلك المستهجن القبيح : إلا لأنهم قوم لا عقل لهم يرشدهم ، ولا رأى يهديهم بل هم في ضلالهم يعمهون ، إذ ما أروع هذا النداء الذي يهز القلوب ويجلها ، ويطهر النفوس ويزكيها ، يا سبحان الله أهذا النداء يضحك ؟ الله أكبر . الله أكبر ، نعم : الله أكبر من كل شيء في الوجود ، استفتاح ياله من استفتاح ، وانظر إلى إتباعه بالشهادتين لله ورسوله ، وهما ركنا الإيمان ودعامته ، وما أروع قول المؤذن حتى على الصلاة : أي أقبلوا عليها بجذ ونشاط ونفس راضية مطمئنة ، وحي على الفلاح ، وهل هناك فلاح أكثر من هذا وأعلى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٣)</sup> الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نفر من اليهود أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبي رافع في جماعة فسألوه عن من يؤمن به من الرسل فقال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾<sup>(٤)</sup> فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا تؤمن بمن آمن به وروى أنهم قالوا لا نعلم شراً من دينكم فنزلت الآيات<sup>(٥)</sup> .

(٤) من الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .

(٥) ورواه القرطبي ج ٦ ص ٢٣٣ .

(١) من الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ١٤ من سورة البقرة .

(٣) الأيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

قل يا أهل الكتاب ما تنقمون منا وما تعيينه علينا إلا إيماننا بالله ورسله إيماناً صادقاً خالصاً ، مع وصف الله سبحانه وتعالى بكل كمال وتنزيه عن كل نقص ، وكذا الرسل جميعاً عليهم السلام لا نفرق بين أحد منهم ، مع وصفهم بما يليق بهم شرعاً ، وكذا ما أنزل عليهم من الكتب ﴿ إن أكثركم لفاسقون ﴾ وخارجون عن حدود العقل والرأى والدين الصحيح ، يا عجباً كل العجب يجعل مناط المدح عنوان الذم ﴿ قل ﴾ يا محمد لهم : ﴿ هل أنبئكم ﴾ أيها المستهزئون بديننا القائلون ﴿ لا نعلم شراً من دينكم ﴾ بما هو ﴿ شر من ذلك ﴾ الدين الذي تنقمون به علينا دين ﴿ من لعنه الله وغيض عليه ﴾ بسبب سوء فعله وهذا تبكيته لهم شديد بذكر جرائم آبائهم وجزائهم عليها إذ اللعن والغيض نهاية العقاب والمواخذة من الله لهم . ودين من ﴿ جعل منهم القردة والخنازير ﴾ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ أولئك شر مكاناً وأضلّ عن سواء السبيل ﴾ وكان التعبير بشر مع أن هذا الدين خير محض مجازاة لهم في اعتقادهم ومشاكله للفظهم ، وهاك سيئة أخرى تقتضى وحدها عدم الموالة . ﴿ وإذا جاءوكم ﴾ وحضروا مجالسكم خصوصاً مجلس الرسول ﷺ ﴿ قالوا آمنا ﴾ باللسان فقط ، والحال أنهم دخلوا متلبسين بالكفر مؤزرين لا يفارقهم ﴿ وهم قد خرجوا به ﴾ والله أعلم بما يكتُمون حين الدخول من النفاق ، وعند الخروج من العزم على الكيد والمكر ، وما ملكت به قلوبهم من الحسد والبغضاء لكم ، فاحذروهم ولا تولوهم ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون ﴾ في ارتكاب ﴿ الإثم والعدوان ﴾ ويقبلون عليهما راغبين فيهما بجد ونشاط ، ويقبلون على ﴿ أكلهم السحت ﴾ والدينىء من المحرم تالله ﴿ لبئس ﴾ العمل عملهم وباضلال هؤلاء !! أما وجدوا من يرشدهم ؟ أما وجدوا من نيكر عليهم ﴿ لو لا ينههم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم ﴾ والكذب والبهتان في أمور الدين ﴿ وأكلهم السحت ﴾ تالله ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ هؤلاء الأحبار . ولعل سائلاً يقول لم يقال في جانب الشعب ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ وفي جانب الأحبار والعلماء ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ والجواب : أن الفعل ما يصدر من الإنسان مطلقاً ، فإن قصد كان عملاً وإن صاحبه دوام ومرونة وإتقان ، كان صنعة وكان صاحبه صانعاً . وفاعل المعصية من الناس تدفعه شهوته ونفسه إليها ، وأما الذى ينهيه من الأحبار والعلماء بالطبع ، لا شهوة معه تدفعه إلى العمل ، ولا إلى عدم الإنكار ، كان أشد إثمًا ، وأعظم جرماً من الفاعل نفسه روى ابن عباس ( ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية ) يريد أنها حجة على العلماء إذا هم قصرُوا فى الهداية والارشاد .

من سيئات اليهود التى تبعدهم من طريق السعادة فى الدارين

وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ

وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا  
لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلْنَاهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ  
وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ  
وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ اليد ﴾ : تطلق على الجارحة ، وتطلق مجازاً على النعمة وعلى العطاء <sup>(١)</sup> .  
﴿ مغلوله ﴾ : ممسكة عن الإنفاق . ﴿ غلت أيديهم ﴾ : أمسكت عن الإنفاق والخير .  
﴿ ميسوطتان ﴾ : المراد كثير العطاء . ﴿ أقاموا التوراة ﴾ : عملوا بما فيها على أتم وجه وأكملة وكذا  
الإنجيل . ﴿ مقتصدة ﴾ : معتدلة .

روى الطبراني عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود ، قيل هو النباش بن قيس ، وقيل هو  
فنحاص كبير <sup>(٢)</sup> بنى قينقاع ، قال للنبي ﷺ : إن ربك بخيل لا يتفق ! فأنزل الله هذه الآية . بعد أن  
عدد الله من سيئاتهم وسجل عليهم بعض أعمالهم الموروثة ختم بذكر سيئة من أفضع سيئاتهم : ألا وهي  
وصف الله سبحانه بما لا يتفق أبداً مع العقل ، ولا يقول به رجل من أهل الكتاب وقالت اليهود ، أى  
بعضهم : ﴿ يد الله مغلوله ﴾ : وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل وعدم الجود ، ألا ترى إلى قوله  
سبحانه ﴿ ولا تجعل يدك مغلوله إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ <sup>(٣)</sup> وقول النبي ﷺ ﴿ أطولكن  
يداً أسرعن لحوقاً في يوم القيامة ﴾ <sup>(٤)</sup> . والمراد بطول اليد الجود والكرم قال بعضهم هذا لما أصابتهم  
أزمة مالية ، ﴿ غلت أيديهم ﴾ وأمسكت عن الجود والخير ، فهم القوم البخلاء الأنانيون ، لعنهم الله بما  
قالوا ، فهو الكريم ويجب كل كريم ، ﴿ يده ميسوطتان ﴾ للعطاء ، ﴿ يتفق كيف يشاء ﴾ على وفق  
الحكمة الإلهية ، فهو يعطى ويمنع ويقبض ، ويبسط لحكمة هو أعلم بها ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء  
ويقدر ﴾ <sup>(٥)</sup> ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾ <sup>(٦)</sup> وتالله  
﴿ ليزيدن ﴾ الذى ينزل عليك من الآيات البينات التى تكشف تسترهم ، وتطلعك على أعمالهم  
ونواياهم ، ليزيدنهم ذلك ﴿ طغيانا ﴾ وجحوداً وبطراً يا سبحان الله ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن  
تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ما كان سبباً فى الخير يكون عندهم سبباً فى الشر .

- (١) والمقصود هنا أنهم يقصدون - خاسرين خاسرين فى قصدهم - أن نعم الله عليهم أقل مما يستحقون .
- (٢) روى القرطبي بسنده عن عكرمة : ... قال هذا فنحاص بن عازوراء ( لعنة الله ) وأصحابه ، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد  
ﷺ قل ما لهم ، فقالوا : إن الله بخيل ، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ١٠ . هـ ج ٦ ص ٢٣٨ .
- (٣) جزء من الآية : ٢٩ من سورة الاسراء .
- (٤) أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرعن لحاقاً فى أطولكن يداً »  
قالت : فكان يتناولن أيتهن طول يدا ، قالت : وكانت أطولنا يدا زينب ( بنت جحش ) لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ، وفى  
طريق آخر قالت : فكانا إذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ تمد أيدينا فى الجدار نتناول فلم نزل نفعل ذلك حتى  
توفيت زينب بنت جحش ... فعرنا حنظل أن النبي ﷺ انما أراد طول اليد بالصدقة ... الاصابة ( ٤ / ٣١٤ ) وحياة الصحابة  
( ٦ ) من الآية ٢٧ من سورة الشورى .
- (٥) من الآية ٢٦ من سورة الرعد .
- (٦) من الآية ٢٧ من سورة الشورى .

ولقد حكم عليهم بأن ألقى بينهم ﴿العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾<sup>(١)</sup> فلا يهمنك أمرهم ولا تغتر باتفاقهم في فلسطين المنكودة ، فهي سحابة صيف لهم ، وتنبه من الله لنا علنا ثوب إلى رشدنا ونرجع إلى ديننا . ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب﴾ في الخارج أو الداخل كثارة الفتن وتشتت الكلمة وتآلب العدو ، كلما فعلوا هذا أطفأ الله نارهم ، وأبطل عملهم ، وهم دائماً ﴿يسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين﴾ وسيجازيهم على ذلك بأقسى أنواع العقاب ثم بعد ذلك وسعت رحمته كل شيء ، وفتح باب كرمه للتائبين الذين يقبلون عليه ، ولو كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ بكتبهم وبالقرآن ولم يحرفوا ولم يركبوا رءوسهم ﴿واتقوا﴾ الله في كل أعمالهم ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم﴾ التي اقترفوها ومحونا عنهم أوزارها ﴿ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ المنزلة من عند الله بنور التوحيد والهداية ، ولم يسمعوا لأخبارهم ومفترياتهم ، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم لاسيما القرآن الكريم . وعملوا بما فيها على خير وجه وأتمه ، لبسط الله الرزق لهم وأنزل عليهم الخير والتوفيق ، وأكلوا من كل جانب وفي هذا إشارة إلى أن العمل الصالح مع الإيمان الكامل مدعاة لرضى الرب وسعة الرزق والسعادة في الدنيا والآخرة ، مع سلوك الطرق المعروفة والنظم المألوفة في عالم الاقتصاد ، ومن أهل الكتاب ، وكذا كل أمة في الوجود - جماعة قليلة معتدلة في الرأي ، والكثير الغالب منهم فاسقون وخارجون عن أصول الدين والعقل ( الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة ) .

### تبليغ الرسول للدين

\* يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٧﴾ قُلْ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٩﴾

**المفردات :** ﴿يعصمك﴾ : يحفظك مأخوذ من عصام القرية وهو ما يربط به فمها من خيط أو سير جلد . ﴿الصابئون﴾ : الخارجون عن الأديان كلها ، وقيل هم قوم عبدوا الملائكة ، وصلوا إلى غير القبلة .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس<sup>(٢)</sup> فنزل جبريل فقال ﴿يا أيها

(٢) أصنافهم وقبائلهم المختلفة ، والموسم هو موسم الحج .

(١) من الآية : ١٤ من سورة الحشر .



الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴿ فقلت : أيها الناس من ينصرني على أن أبلغ رسالات ربي ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجوا ولكم الجنة ، قال ﷺ فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون على بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صائى فجاء عمه العباس فأنقذه منهم وطردهم عنه .

نادى الله سبحانه وتعالى حبيبه بوصف الرسالة التى تقتضى التبليغ التام الكامل : ﴿ أيها الرسول بلغ ﴾ جميع ﴿ ما أنزل إليك من ربك ﴾ لا تخش أحداً ولا يهمنك شيء أبداً ، فإنك إن لم تبلغ الكل ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ فكان كتمان شيء من الرسالة ولو إلى أجل هو كتمان الكل ، تظليماً لجرم الكتمان ، وكيف يكتّم الرسل ﷺ شيئاً من الرسالة خوفاً أو خشية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أجمعين يعصمك من القتل والفناء ، أما العذاب والشدائد والآلام والحروب والإحن فهى الحوادث التى تصنع الرجال ، والبوتقة التى صهرت الناس ، فظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب وكيف يكون رسول الله والله لا يعصمه ؟ وهو المعصوم : انظر كيف يضل المسيحيون حين يعتقدون صلب المسيح وقتله ؟ ولعل الحكمة فى هذه الآية أن يعرف الجميع أن النبى ﷺ رسول رب العالمين بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه لم يكتّم شيئاً ولم يخص أحداً بشيء ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (١) إن ﴿ الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ الذى يؤذونك ويعاندونك ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ يا أهل الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ لستم على شيء ﴾ يعتقد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الانتساب إلى موسى وعيسى والنبين ﴿ حتى تقيموا التوراة والإنجيل ﴾ وإقامتها : العمل بكل ما فيها من التوحيد الخالص ، والبشارة بالنبى ﷺ وصفته ، وحتى تقيموا ﴿ ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ على لسان محمد ﷺ ، وهو القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب والمكمل للرسالات السابقة ، ونحن أيها المسلمون لسنا على شيء أبداً حتى تقيم القرآن ونعمل بأحكامه ونهتدى بهديه فى كل أمورنا وأقسم الله ﴿ ليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك ﴾ وهو القرآن ﴿ طغيانا ﴾ على طغيانهم ﴿ وكفراً ﴾ على كفرهم وذلك بسبب حسدهم الكامن ﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (٢) . أما القليل منهم الذين يؤمنون بالله وبكتبه ، فلا يزيدهم القرآن إلا هدى ورشاداً وخيراً وإسعاداً . وإذا كان هذا شأن القرآن ، فلا يهمنك أمرهم و﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ وهاك قانون عام وحكم شامل للجميع على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، ولا غرابة فهى الرسالة العامة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ (٣) ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ باللسان كالمناققين ﴿ والذين هادوا ﴾ من أتباع موسى عليه السلام والذين صلبوا وخرجوا عن حدود الأديان ﴿ والنصارى ﴾ من أتباع المسيح عليه السلام ﴿ من آمن ﴾ منهم ﴿ بالله ﴾ ورسله ﴿ واليوم الآخر ﴾ إيماناً صادقاً ﴿ وعمل ﴾ عملاً ﴿ صالحاً ﴾ فلا خوف عليهم ﴿ أبداً من عذاب يوم القيامة ﴾ ولا هم يحزنون ﴿ أبداً بل هم فى جنات النعيم على الأرائك ينظرون .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ .

(١) من الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

العذاب بما كنتم تكفرون ﴿١﴾ ، وكفى بالكفر داءً وكفى به جريمة وجناية ووباءً ، إن الله تعالى أطلق الكفر ولم يذكر متعلقه لأنهم كفروا بكل ما جاء به المرسلون ، كفروا بالوحدانية والأنبياء والبعث والحساب والجزاء ، إن مصيرهم خسران : ﴿٢﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله ﴿٣﴾ ومصيرهم ندم ، ونار الندم تتأجج في الأضلاع ، ﴿٤﴾ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴿٥﴾ أى يا ندامتنا أحضرى وتعالى على ما قصرنا في أمور الدار الآخرة ، يقولون هذا وهم يحملون أوزارهم وذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم . ﴿٦﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون \* وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿٧﴾ .

( ألا ساء ما يزرون ) وبئس ما يحملون .

تزود من حياتك للمعاد      وقسم لله واجمع خير زاد  
ولا تركزن إلى الدنيا كثيراً      فإن المال يجمع للنفساد  
أترضى أن تكون رفيق قوم      لهم زاد وأنت بغير زاد

كان حاتم الأصم رضى الله عنه إذا راودته نفسه لتميل به إلى الهوى ذهب إلى مقبرة مهجورة ونام فيها ثم ينادى قائلاً : ﴿٨﴾ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ﴿٩﴾ ثم ينهض قائماً ويقول : يا حاتم لقد رجعت فاعمل قبل أن تموت فيقال لك : ﴿١٠﴾ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿١١﴾ . صدقت يا سيدى يا رسول الله إذ قلت : ﴿١٢﴾ والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ﴿١٣﴾ .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته      يوماً على آلة حدياء منقول  
فإذا حملت إلى القبور جنازة      فاعلم بأنك بعدها محمول

قوله تعالى : ﴿١٤﴾ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴿١٥﴾ . هذا بيان لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، فالدنيا لعب في الصغر ولهو في الكبر ، أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء وميت الغد يشيع ميت اليوم .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها      فاموت لاشك يفنياً ويفنيا  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طيبتها      والزعفران حشيش نابت فيها

كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

﴿إن المتقين في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ . أجنتم فلا تعقلون !!

دياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المال  
فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشترى دنيا المنى والضلال

### تثبیت وتسلية

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾

**المفردات ﴿ليحزنك﴾** : الحزن ألم نفسي يكون عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه . **﴿يجحدون﴾** : الجحود إنكار ما ثبت ، في القلب أو إثبات ما نفى فيه . **﴿نبأ﴾** : هو الخبر ذو الشأن العظيم . **﴿كبر﴾** : يقال كبر على فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه . **﴿إعراضهم﴾** : الإعراض التولى والانصراف عن الشيء رغبة عنه ، أو احتقاراً له . **﴿أن تبغى﴾** : أن تطلب ما في طلبه كلفة ومشقة من البغى وهو تجاوز الحد ويكون في الخير والشر . **﴿نفقا﴾** : السرب في الأرض وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . **﴿سُلماً﴾** : المرقاة من السلامة لأنه هو الذى يسلمك إلى مصعدك .

هذا تثبیت لرسول الله ﷺ وتسلية له عندما يشتد عليه الأذى من كلامهم وقولهم إنه ساحر كذاب إلى غير ذلك ، وحاشا رسول الله أن يكون كذلك والله تعالى يقول له : ﴿إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك﴾ فأنت الصادق الأمين ، ولكن الحقيقة أنهم يجحدون بآياتى فلا يكن فى صدرك حرج مما يقولون ، فلست بدعا من الرسل فقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على الأذى حتى أتاهم نصر الله ولا تبديل لكلماته سبحانه وتعالى . ﴿ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾ ما ثبت الله به فؤادك ، إنك من المتوكلين على الله فسلم له الأمر فليس لك من الأمر شيء ، أنتستطيع إن كان كبر عليك إعراضهم أن تطلب نفقا فى باطن الأرض أو تصعد سلما إلى السماء وترقى فيها فتأتهم بآية ، ليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ وهذا تعريض بهم هم وتوبيخ لهم على جهلهم الذى تأصل فى نفوسهم ، أما أنت فقل لهم سبحانه ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ، أنت عبدى ورسولى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿١﴾ .

### حقائق قرآنية

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

تفسير المفردات : ﴿ يستجيب ﴾ استجاب الدعاء إذا لباه وقام بما دعاه إليه بالتدرج . ﴿ يسمعون ﴾ : أى سماع حق لا عناد فيه قال تعالى ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ (٢) . ﴿ آية ﴾ : خارق من خوارق العادات . ﴿ قادر ﴾ : لا يعجزه شئ فى السموات ولا فى الأرض .

الناس فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فريق تتلى عليه آيات الله فيسمعها سماع قبول ، وينظر إليها نظرة اعتبار وتذكر ، نظرة خالية من الهوى والعناد والاستكبار ، وهؤلاء يستجيبون لما دعاهم الله ، فهم كالتربة الصالحة للإنبات تقبل الماء وتنبت الكلاً وفريق تتلى عليه الآيات فيظل متكبراً سادراً فى غلوائه ، لا ينظر ولا يعتبر ولا يسمع سماع قبول ، وهم موقى القلوب أبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون ، هؤلاء يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، فيحاسبهم ويجازيهم ثم إليه يرجعون ، هو القادر على ذلك وحده فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب .

وقال المشركون المعاندون بعد نزول الآيات ترى التى لو لم يكن فيها إلا القرآن لكفى قالوا : هلا نزل عليه آية من ربه كما اقترحنا . وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٣) كيف تطلبون منى هذه الآيات وهل أنا إلا بشر ورسول وليس يقدر الرسول على إنزال آية من الآيات ، وإنما القادر هو الله فقط على إجابتكم لما تطلبون .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن إجابة المعاندين إلى ما طلبوا لم تكن سبباً لهدايتهم أبداً ، بل كانت سبباً فى عذابهم واستعصا لهم ، فإنزال آية مما اقترحوا لا يكون خيراً لهم ، بل هو شر ، ولكن أكثرهم

(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

(١) البقرة ١٢٠ - ١٢٢ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .

لا يعلمون ، وطلبهم تعجيز للنبي ﷺ لا للهداية ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾

### من دلائل قدرة الله وكمال علمه

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ دابة ﴾ : الديب . المشى الخفيف . والدابة كل ما يدب على الأرض من الحيوان . ﴿ والطائر ﴾ : كل ذى جناح يطير في الهواء . ﴿ أمم ﴾ : جمع أمة ، وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين أو لغة أو صفة أو عمل

الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، ينزل الآيات حسب الحكمة والمصلحة ، وها هى ذى مظاهر القدرة ، وشمول العلم ، وكمال التدبير ، لا يوجد نوع من أنواع الدواب يدب على الأرض ، ولا نوع من أنواع الطير الذى يطير فى الجو ، إلا وهو أمم مماثلة لكم أيها الناس ، لهم أرزاق وآجال ونظام محكم وطبائع تتلاءم مع خلقتهم وتكوينهم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها مرئية للكفار ، أما ملكوت الله فى السموات ففيه ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وهذه الآية توجه أنظارنا إلى البحث والدرس فى طبائع الحيوان ، والاستفادة من ذلك ، فقد خلق الله لنا جميع ما فى الأرض لننتفع منه ونسخره لمصلحتنا ، وما فرطنا فى الكتاب من شيء أبداً ، ولا قصرنا فى أى شيء أبداً .

وقال ابن عباس إن المراد بالكتاب هو أم الكتاب ( وهو خلق غيبى سجل فيه كل ما كان وما سيكون على حسب السنن الإلهية ) .

وقيل : الكتاب هنا هو علم الله المحيط بكل شيء ، شبه بالكتاب ثابتاً لا ينسى .

وقيل : هو القرآن ، ففى القرآن السياسة العامة الإسلامية من ناحية الاقتصاد والاجتماع والدين ، وفيه الأصول العامة الأخرى للدين كالسنة والقياس والإجماع والجزئيات ، ثم إلى ربهم يحشرون ، ويجازون على أعمالهم .

والذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على كمال القدرة ، وتعام العلم والحكمة ، صم لا يسمعون دعوة

الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون في الظلمات ظلمات الجهل والكفر والعادات القبيحة ، من يشأ الله يخذله ويضله ولا يلفظ به ، لأنه ليس من أهل اللطف ، حيث ثبت في علمه القديم أنه أهل لما هو فيه من شقاء وعذاب ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، لأنه أهل لذلك في علمه ، وهكذا كانت الحكمة فيما اختاره الله أزلا وفق علمه ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ، إنه خير بعباده ، بصير بخلقه . إلى الله وحده يلجأ العبد في الشدائد ، مع ضرب الأمثال بالأهم السابقة .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾  
 بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا  
 إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ  
 بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا  
 مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا  
 هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٥﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ : أسلوب عرني يفيد التعجب وأن ما بعده غريب عن الصواب والمراد  
 أخبروني . ﴿ فَيَكْشِفُ ﴾ : أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه . ﴿ بِالْبَأْسَاءِ ﴾ : الشدة والعذاب والقوة ،  
 وتطلق البأساء على الحرب والمشقة . ﴿ الضَّرَاءِ ﴾ : من الضر ضد النفع . ﴿ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ : التضرع  
 إظهار الضراعة والخضوع بتكلف . ﴿ مُبْلِسُونَ ﴾ : متحسرون يائسون من النجاة . ﴿ دَابِرُ الْقَوْمِ ﴾ :  
 آخرهم الذى يكون فى أدبارهم .

يا أيها الرسول قل لأولئك المشركين : أخبروني إن أتاكم عذاب الله الذى نزل بأمثالكم من الأمم  
 السابقة كالخسف والريح الصرصر والغرق ، أو أتتكم الساعة وهولها ، والقيامة وما فيها ، أخبروني إن  
 حصل هذا أغير الله تدعون ؟ لينجيكم من هذا العذاب وهوله . إن كنتم صادقين فى دعوى الألوهية  
 لهؤلاء ، والأصنام الذى زعمتم أنهم فيكم شركاء ولكم شفعاء ، والسؤال للتبكي والإلزام بل ( إضراب  
 لإبطال ما تقدم ) إياه وحده تدعون ، وله وحده تتجهون ، وبه وحده تستعينون ، حتى يكشف عنكم  
 ما ألّم بكم من ضر ، أو مسكم من شدة ، يكشف ما تدعون إليه إن شاء كشفه وكان فيه حكمة ،  
 وأنتم تنسون ما تشركون ، وتركون آلهتكم ، ولا تذكرون فى ذلك الوقت إلا الله : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴿١﴾ .

وذلك أن الإنسان أودع في فطرته توحيده عز اسمه ، وأما الشرك فشيء عارض للإنسان بالتقليد ، شاغل للذهن بالفساد وقت الرخاء ، حتى إذا جد الجدد دعوا الله مخلصين له الدين ، وضل عنهم ما كانوا يعبدون . ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم أخذ القرآن يضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين ولكن أُمَمَهُمْ عَصَوْا وَبَغَوْا ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسِ ﴾ والشدائد ﴿ والضراء ﴾ والمهلك التي تجعل المغرور يراجع نفسه ويفكر في أمره ولذا يقول الله ﴿ لعلمهم يتضرعون ﴾ ويلجئون ، ومع هذا فكثير من الناس لا تفهم هذه الزواجر ولا تروعهم هذه الشدائد .

فهلا تضرعوا حين جاءهم بأسنا وكانوا خاشعين تائبين ، ولكن أنى لهم هذا وقد قست قلوبهم فهي كاللحجارة أو أشد قسوة ، فلم تؤثر فيهم النذر ، ولم تنفعهم العبر ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . وبئس ما كانوا يصنعون

فلما نسوا ماذكروا به وأعرضوا عما أُنذروا به فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ناحية ، ومتعناهم بالحياة الدنيا ، استدراجاً وإملاء ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴿٣﴾

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بلا إنذار ولا استئذان ، أخذناهم بغتة فإذا هم متحدسون يائسون من رحمة الله ، فقطع دابر القوم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم أحد والحمد لله رب العالمين ، وفي هذا إشارة إلى أن إبادة القوم المفسدين نعمة من الله رب العالمين ، وأن في الضراء والسراء عبرة وعظة للناس ، وإنما يتذكر أولو الأبواب .

### من أدلة التوحيد

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٢﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤﴾

(٣) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

(١) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .

**المفردات :** ﴿نَصَرَفَ الآيَات﴾ : نقلها ونكرها على وجوه مختلفة . ﴿يَصْدِفُونَ﴾ : يعرضون عن ذلك ﴿يَمْسَهُمْ﴾ : المس اللمس باليد بما يسىء غالباً من ضرر أو شد .

قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبروني ماذا أنتم فاعلون إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، إذ هو الذى وهب لكم السمع والبصر والفؤاد ، وإذا سلها منكم عدم صماً وعمياً لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولا تعقلون نفعاً ولا ضرراً ، ولا حقاً ولا باطلاً ، ماذا تفعلون مع آلهتكم التى تدعونهم وترجون شفاعتهم ، ولو فعل الله بكم ذلك من إله غير الله يأتيكم بهذا ؟ لا إله إلا الله وحده هو الذى يقدر على ذلك ، ولو كان ما اتخذتموه آلهة تنفع أو تضر لردت عليكم هذا ، وإن كنتم تعلمون بلا شك أنها لا تقدر على شيء أصلاً ، بل إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فلماذا تدعونهم ؟ والدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده القهار ، واهب الوجود ، الحق المعبود سبحانه وتعالى ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف يصرف الله القول ويكره بألوان مختلفة ، وعلى أساليب متعددة فى غاية الوضوح والبيان ، ثم هم بعد ذلك يعرضون ويصدفون عن النظر إليها بعين بريئة ، خالية من حجب التقليد وغطاء العصبية وداء الحسد .

قل لهم : أخبروني إن أتاكم العذاب من الله كما أتى لمن قبلكم من المكذبين الضالين عذاب الخسف والاستئصال والهلاك ، وأتاكم هذا العذاب بغتة بلا مقدمات ، أو أتاكم العذاب جهرة وعياناً بمقدماته وأنتم تنظرونه .

أخبروني ماذا أنتم فاعلون ؟ هل يهلك بهذا إلا القوم الظالمون ، الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم طريق الشرك والباطل .

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين من آمن بالثواب ، ومنذرين من عصى بصارم العذاب ، ولا عليهم شيء بعد هذا أبداً ، سواء عليهم آمن الناس أم كفروا : ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾<sup>(١)</sup> أما الله سبحانه وتعالى فهو المجازى ، فمن آمن وأصلح نفسه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَاهُمْ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> وهم فى الدنيا متدعون بسلاح الإيمان والصبر ، ودرع التقوى والشكر ، إن مسهم خير شكروا ، أو ضرر صبروا ﴿لَكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾<sup>(٣)</sup>

ومن كذب وتولى ، وأعرض عن ربه وغوى ، فإنه يمسه العذاب ، ويصيبه فى الدنيا والآخرة جزاء كفره وفساده .

وإن أصابه خير فى الدنيا فمتاع قليل ، ثم يضطره الله إلى عذاب النار وبئس المصير .

(١) الآية ٤٨ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحديد .



### مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتبعات الرسالة

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٧﴾

**المفردات :** ﴿ خزائن ﴾ : جمع خزانة وهي ما يخزن فيه الشيء ويحفظ ، والمراد القسم بين الخلق وأرزاقهم . ﴿ الغيب ﴾ : ما غاب عن جميع الخلق واستأثر الله بعلمه ... ﴿ الأعمى والبصير ﴾ : المراد بهما الضال والمهتدى .. ﴿ الولي ﴾ : الناصر .. ﴿ ولا تطرد ﴾ : الطرد الإبعاد .. ﴿ بالغداة ﴾ : الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .. ﴿ العشى ﴾ : آخر النهار والمراد جميع الأوقات ﴿ فتنا ﴾ : ابتلينا واختبرنا .. ﴿ من الله عليهم ﴾ : أنعم الله عليهم .

وهكذا يبين الكتاب العزيز حقيقة النبوة : إنها البشرية في أسمى معانيها ، وأرق مبادئها . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ <sup>(١)</sup> . وجاء في سورة هود حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً . الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفي سورة الأنعام يخاطب الله تعالى نبيه الكريم فيقول : ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ﴾ أى لا أملك خزائن الأرزاق ، إنما الأمر كله لله اختص سبحانه وتعالى بملكية الأشياء كلها ، فهو العليم بشئون عباده القدير ، على تصرفها ، الحكيم فى تقسيمها ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

كما أنى لا أعلم الغيب الذى هو من خصائص الألوهية ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف . (٢) الآية ٣١ من سورة هود . (٣) الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴿١﴾ .

﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أياًن يُبعثون ﴾ ﴿٢﴾ إن هذا هو منطق الحق المبين وتلك هى العقيدة الصحيحة المستقيمة السليمة ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ ﴿٣﴾ .  
﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ وهذا تقرير وإخبار عن حقيقة الأنبياء ، إنهم بشر أوحى الله إليهم بالرسالة لأن طبيعة الملائكة لا تتكيف مع حياة البشر ، فالملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال اللطيفة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا . قال ﷺ :  
﴿ أطت السماء أطاً ، وحُق لها أن تنط ، مامن موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو رাকع أو ساجد لله ﴾ ﴿٤﴾ . وقد قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ ﴿٥﴾ . وقال عنهم ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ﴿٦﴾ .

وقد شاءت الحكمة الإلهية أن يكون الأنبياء بشراً ليقفوا على مشاكل البشر ، ويعيشوا معهم ليلهم ونهارهم ويأكلوا ويشربوا ويتزوجوا ويتناسلوا ، وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى افتراءات أهل الباطل الذين قالوا للأنبياء : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ ﴿٧﴾ . وقال على لسان رسوله ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما ألهمكم إله واحد ﴾ ﴿٨﴾ .

فليست البشرية طعنا فى الرسالة مادامت قد اتصفت بصفات الكمال البشرى . فالأنبياء قد اتصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ والفطنة ، وأحاطهم الله بالعصمة ، فحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأى أمر قد نهى الله عنه . وقد ردَّ الله تعالى على هؤلاء المنكرين فقال : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلى ﴾ : هذا التزام بمنهج السماء لا يحيد عنه الأنبياء جاء فى

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

(٢) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد (٩) . وابن ماجه فى الزهد (١٩) . والإمام أحمد فى ( ١٧٣ : ٥ ) .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٩) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

الحديث القدسي الجليل : { صدق عبدى فيما يبلغ عنى } .

والصدق فى الأنبياء صفة أصيلة وقاعدة قوية وجليلة . قال تعالى فى حق خاتم الأنبياء : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ : ليس العمى والبصر هنا بالمعنى الحسى إنما المقصود بهما الضلالة والهدى . قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ولما كُفَّ بصر عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال :

إن أذهب الله من عيني نورهما ففى فؤادى وعقلي منهما نور  
عقلي ذكى وقلبي ماحوى دخلا . وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وإنما يعبر عن الضلال بالعمى لما فيه من حيرة . وقد نعى الله تعالى على هؤلاء ما هم فيه من حيرة . قال تعالى : ﴿ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى اثنًا . قل إن الهدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ <sup>(٦)</sup> .

إن أمرهم لعجيب وأى عجب إذ كيف يحارون وقد أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأنزل لهم كتابا يهتدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وهبهم عقولا ليميزوا بها الظلمات من النور أفلا يتفكرون ؟ أفلا يتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يعقلون ؟ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ : المقصود بالإنذار الإخبار بما يبعث الخشية والخوف من عقاب الله ، فمن خاف سلم ومن ذاق حلاوة الإيمان عرف ، ومن حُرِمَ انحرَف . والإنذار بالقرآن خير إنذار ، ثم من هؤلاء الذين يُنذَرُونَ ؟ إنهم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ <sup>(٧)</sup> . وقال جل شأنه : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ <sup>(٨)</sup> .

- (١) الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة الحاقة . (٢) الآية ١٩ من سورة الرعد . (٣) الآيات ٤٥ من سورة النازعات .  
(٤) الآية ٧٢ من سورة الإسراء . (٥) الآية ١٨ من سورة الشورى .  
(٦) الآية ٧١ من سورة الأنعام . (٧) الآية ٤٦ من سورة الحج .

وحال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والوعد والوعيد ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (١).

إن هؤلاء الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم ولي ولا شفيع غير الله ، فهم إذا استعاذوا بالله وإذا سألوا سألوا الله ، وإذا استعانوا استعانوا بالله ، وإذا توكلوا توكلوا على الله . فليس لهم سوى الله لذلك يقولونها بصدق ووفاء ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢).

يارب حبك في دمي وكياني نور أغرّ يذوب في وجداني  
أنا لا أضام وفي رحابك عصمتي أنا لا أخاف وفي رضاك أمان

إنهم جددوا السفينة لأن البحر عميق ، وأكثروا الزاد لأن السفر طويل ، وأخلصوا العمل لأن الناقد بصير ، وخففوا الحمل لأن العقبة كثود ، وصاموا عن الدنيا وأفطروا على الموت ، وأعدوا الزاد لليلة صباحها يوم القيامة .  
أنذرهم بالقرآن لعلهم يتقون التقوى محلها الصدر وليس هناك سلاح أقوى من التقوى .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

قوله تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ (٣)

روى أحمد وابن جرير والطبراني في جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قریش على النبي ﷺ وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟ نحن نكون تبعاً لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن تنبعك . فأنزل الله فيهم ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾

عندما تقاس القيم بالماديات فقد اختلت معاييرها ، وعندما توزن المبادئ بالدرهم والدينار فقد اهتزت مقاييسها ، ومن ثم فإن الميزان الذي وزن به الإسلام القيم كان أدق من ميزان الذهب ، إنه ميزان التقوى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾

ليس الغنى مع سوء الخصال شرفاً ، وليس الفقر مع الأخلاق عيباً : ﴿ مر رجل غنى على رسول الله

(١) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة - المؤمنون ٤ .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ٤ من سورة الناقة .

ﷺ فقال الرسول لأصحابه : ماتقولون في هذا ؟ قالوا : يا رسول الله : هو حرئٌ إذا قال أن يستمع له ، وإذا خطب أن يُزوج وإذا شفع أن يُشفع ثم مرَّ رجل فقير فقال الرسول لأصحابه : وما تقولون في هذا ؟ قالوا : يا رسول الله هو حرئٌ إذا قال أن لا يُسمع له ، وإذا خطب ألا يُزوج ، وإذا شفع ألا يُشفع فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل هذا الغنى <sup>(١)</sup>.

لقد قالوا لرسول الله ﷺ : إن أردتنا أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من مجلسك ، فجاء الجواب من قبل الحق جلَّ جلاله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتَّبَعَ هواه وكان أمره فرطاً ﴾ <sup>(٢)</sup>. فما كان من رسول الله صلوات ربي وسلامه عليه إلا أن بسط لهم رداءه وأجلسهم عليه وقال لهم : مرحبا بمن أوصاني ربي بهم خيرا .

لقد كان بلال عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، وكان يسومه سوء العذاب فاشتراه أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأعتقه ، فكان عمر رضي الله عنه إذا لقي بلالاً قال : ﴿ بلال سيدنا وأعتقه سيدنا ﴾ <sup>(٣)</sup>.

فإذا ما اختلَّت موازين الناس واهتزت القيم في أنفسهم قاسوا الأمور بمقاييس المادة فصارت كل سيئة للغنى في نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير في نظر الناس سيئة . فالغنى إذا كان بخيلاً قالوا إنه متزن ، وإذا كان أبكم قالوا إنه عاقل ، وإذا كان جباناً قالوا إنه رزين .. والفقير إذا كان كريماً قالوا إنه متلاف وإذا كان فصيحاً قالوا إنه ثرثار ، وإذا كان شجاعاً قالوا إنه متهور ..

وهكذا الدنيا إذا أقبلت على إنسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه ، وإذا كانت الرياح مواتية باض الحمام على الوجد فإذا صارت عاصفة مدمرة بال الحمار على الأسد .  
يمشى الفقير وكل شيء ضده والناس تغلق دونها أبوابها  
وتراه ممقوتاً وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها  
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى احنت إليه وحركت أذناها  
وإذا رأت يوماً فقيراً ماشياً نبحت عليه وكشَّرت أنيابها

لقد جاء الإسلام لبنا خالصاً سائغاً للشاربين فسوى في الحقوق والواجبات بين السوق والملوك فالناس من جهة التصوير أكفاء ، لأفضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من ترابٍ .. قيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه : ابن من أنت يا سلمان ؟ فقال : ( أنا ابن الإسلام ) <sup>(٤)</sup> نعم يا سيدي :

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

(١) أخرجه البخاري في النكاح (١٥) وفي الرقاق (١٦) . وابن ماجه في الزهد (٥) . (٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٢٣) . (٤) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ١٢٨) .

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حُط بالشرك النسب أبو لهب  
 قيل لبلال بن رباح رضى الله عنه : يا بلال من أبوك ؟ فقال : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة ..  
 هذا هو الإسلام يحترم أهل التقوى ويجل أهل الصلاح . قال ﷺ : ( من أصبح وهمه الآخرة جمع  
 الله عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راعمة . ومن أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله  
 وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له <sup>(١)</sup> .

عش راضياً واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم  
 نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً واعتبرها عدم  
 إن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي أى أول النهار وآخره : والمراد فى كل وقت سواء أكان  
 المقصود بهذا الدعاء صلاة أو ذكراً أو مطلق العبادة فإنهم لا يبتغون من وراء ذلك ولا يريدون إلا وجه  
 الله ﷻ ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ﷻ كل نفس بما كسبت  
 رهينة ﷻ <sup>(٢)</sup> كل امرئ بما كسب رهين ﷻ <sup>(٣)</sup> .

لقد قالوا لنبى الله نوح عليه السلام : ﷻ ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا  
 بادى الرأى ﷻ <sup>(٤)</sup> . وقالوا له : ﷻ أنؤمن لك واتبعك الأراذلون ﷻ <sup>(٥)</sup> فما كان جوابه إلا أن قال لهم :  
 ﷻ وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا  
 نذير مبين ﷻ <sup>(٦)</sup> .

قال تعالى : ﷻ فتطردهم فتكون من الظالمين ﷻ : وهذا تعريض بأهل الجاهلية الذين احتقروا الضعفاء  
 وغمطوهم حقهم وقال قائلهم :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطنينا  
 وحاشا رسول الله أن يطرد الضعفاء فهو حبيهم الذى قال : ( طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة  
 وخالط أهل الذل والمسكنة ﷻ . هو الأُمى الذى علّم المتعلمين واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب  
 البائسين ، والفقر الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط إلى شاطئ النجاة ومرفأ المفلحين . جعل  
 من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، ومن عبّاد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء  
 للأمم .

إن الله تعالى جعل هذه الدنيا دار ابتلاء ليختبر الأقوياء بالضعفاء والأغنياء بالفقراء ولو شاء ربكم لجعل  
 الناس أمة واحدة . ولقد صدق الله تعالى وهو يقول : ﷻ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﷻ <sup>(٧)</sup> . وإذ يقول :

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . (٤) الآية ٢١ من سورة الطور . (٧) الآيات ١٢ - ١٥ من سورة الشعراء .  
 (٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام . (٥) الآية ٢٧ من سورة هود . (٨) الآية ٢ من سورة الملك .  
 (٣) الآية ٣٨ من سورة المائدة . (٦) الآية ١١١ من سورة الشعراء .

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ﴾<sup>(١)</sup> أى اخترنا بعضهم ببعض وامتحانهم . قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون . وكان ربك بصيراً ﴾<sup>(٢)</sup> . ثم يبين تعالى الحكمة البالغة في قوله : ﴿ أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ أى أفضّلهم علينا وهم فقراء ونحن أغنياء ؟ فيأتى الجواب الصحيح والرد الصريح : ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ . ثم يأتى البيان في آية أخرى ليكون نوراً على نور : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ؛ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ، وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾<sup>(٣)</sup>

### مرحباً بالمؤمنين

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا يَنْتَنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ آيَاتِنَا وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿ سلام عليكم ﴾ : السلام السلامة من العيوب والآفات ، وهو الأمان والتحية والقبول ، وهو من أسمائه سبحانه وتعالى . ﴿ كتب ﴾ : فرض وأوجب ، ﴿ بجهالة ﴾ : الجهالة السفه والخفة التى تقابل الحكمة والعقل ، ﴿ ولتستبين ﴾ : تتضح وتظهر .

وهذا مزيد تكريم من الله الكريم لأهل الإيمان والتقوى : ( وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ) والسلام تحية الإسلام وقد حيا الله تعالى نبيه بالسلام فقال : ( السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ) . فلم يكن رد النبى على ربه : السلام عليك يا الله لأن الله هو السلام إنما جاء الرد يفيض رحمة ووفاء ويشع نوراً وبهاء : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : إنه لم ينس إخوانه الأنبياء عندما قال : السلام علينا ، كما لم ينس أتباع الأنبياء من الصالحين ، ولا عجب فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . لما سمع أعرابيا يقول : ( اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم أحداً سوانا . قال له يا أعرابى لقد حُجِرْتَ واسعاً )<sup>(٤)</sup> .

إن السلام هو تحية الله للمؤمنين ﴿ تحيتهم يوم يلتقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾<sup>(٥)</sup> والجنة دار

(٤) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .

(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات ٣٢ - ٣٥ من سورة الزخرف .

السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ <sup>(١)</sup> . وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ <sup>(٢)</sup> . وليلة القدر سلام هي حتى مطلع الفجر . وقد أمر النبي ﷺ إذا جاءه هؤلاء المؤمنون أن يحييهم بالسلام .

قوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ هذا فضل من الله لا يدانيه فضل ، ونعمة لا يلحق بها ولا يُشَقُّ لها غبار . فشعاع من رحمة الله تطفئ غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست في نعيم الدنيا ، فيا إلهي إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغني ، فأنت القائل : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ وأنا شيء فلتسعني رحمتك .

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الآثم

قوله تعالى : ﴿ كتب ربكم على نفسه ﴾ أى أن ذلك بمحض فضله ، لم يلزمه به أحد . فهو الواحد القهار الفاعل المختار . فيا من كتبت على نفسك الرحمة :

أدعوك ربّ كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم  
مالى إليك وسيلة إلا الرضا وجميل عفوك ثم إلى مسلم

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي ) <sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتاباً من تحت العرش إن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقاً لم يعملوا خيراً مكتوب بين أعينهم عتقاء الله ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبي عثمان النهدي عن سلمان في قوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ قال إنا نجد في التوراة عطفيتين أن الله خلق السماوات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة قال فيها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتبذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تنج البقرة وبها تشغو الشاة وبها تتابع الحيتان في البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٣) .

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢ ، ٣) . وأبو داود في الجهاد (١٢٦) .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الرعد .



قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل ( أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ) ثم قال ﴿ أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم ﴾<sup>(١)</sup>. رواه الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ﴾ : قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . والجهالة هى السفه وخفة العقل . فالعاقل هو الذى يوظف عقله فيما خلقه الله له فيميز الخبيث من الطيب ، وعجبت لامرئ يقول فيه القائل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمري فى القياس بديع  
لو كان حبك صادقا لأطعته      إن المحب لمن يحب مطيع

وما أعظم رحمتك يا إلهي : لا تقنط أحدا من رحمتك فأهل ذكرك أهل عبادتك وأهل طاعتك أهل محبتك ، وأهل شكرك أهل زيادتك ، وأصحاب المعاصي لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنت طيبهم . أنت حبيبهم لأنك تحب التواين وتحب المتطهرين . وأنت طيبهم بتبليهم بالشدائد لتطهرهم من الذنوب والخطايا ، وأنت أرفأ بعبادك من الأم بولدها . إذا قال العبد : يارب قد أخطأت ، قلت له يا عبدى وأنا قد سترت فإذا قال يارب قد تبت ، قلت له : وأنا قد غفرت . بابك يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين . تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل .

أنت الذى تهب الكثير وتحبر القلب الكسير وتغفر الزلات  
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

التوبة عزم وإقلاع وندم وأداء للفرائض ، وتصميم على عدم العود ، والإصلاح بناء لكل قيمة كريمة وإيجابيات فى الخير . فمن كان شأنه كذلك من التوبة والإصلاح فقد استحق مغفرة الله ورحمته .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ مثل ذلك الذى سبق من الآيات البينات الواضحات تفصل وتوضح ليتبين الرشد من الغي ولتتضح سبيل المجرمين ، وينكشف خداعهم ، فالحق واضح ، والمنادى صائح والطريق لائح ، وقد بدا الصبح لذى عينين : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ ، ٤٩) . (٤) الآية ٢١ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٢٨ من سورة ص . (٣) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم . (٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

## الرد على المعاندين

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ ﴿٥٨﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾

**المفردات :** ﴿ نهيت ﴾ : صرفت وزجرت ﴿ بينة من ربي ﴾ : البينة كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية والآيات الحسية . ﴿ يقص ﴾ : يذكر ﴿ الفاضلين ﴾ : الفصل القضاء والحكم .  
يا أيها الرسول قل لهؤلاء المشركين . إنني نهيت وصرفت عن عبادة ما تدعونهم وتطلبون منهم الخير ودفع الضر من صنم أو وثن أو عبدتهما كان شأنه صرفت عن هذا كله بالآيات القرآنية والآيات الحسية . وما ركب الله في من عقل رشيد وروح طيبة طاهرة وفطرة سليمة بعيدة عن أسر التقليد وقيد الجهل وداء الحسد .

قل لهم لا أتبع أهواءكم فإن عبادتكم غير الله سندها وحجتها الهوى فقط ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ <sup>(١)</sup> أما عبادة الله فلها الحجة البالغة والبرهان الساطع .

وفي كل شيء له آية ————— تدل على أنه الواحد

وعبادة غير الله ضلال وشرك فإن اتبعتمكم فقد ضللت إذا وما أنا في عداد المهتدين وفي هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية في شيء وهم في ضلال مبين قل لهم إني فيما أحالفكم فيه من عبادة غير الله وفيما أدعوكم إليه من عبادة الله على بينة من ربي وحجة واضحة لا تقبل شكاً ولا جدلاً ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ <sup>(٢)</sup> فالقرآن هو الحجة البينة والمعجزة الخالدة والآية الباقية التي تقوم مقام قول الله :

صدق عبدى في كل ما يبلعه عنى وأما أنتم فقد كذبت بالقرآن واتبعتم الشيطان وكفرتكم بالرحمن ، ياللعجب تكذبون بالقرآن . وما دعا إليه وتدعون إلى اتباع الهوى والضلال والتقليد الأعمى فبئس ما تصنعون !

وكانوا يشتبهون في القرآن ورسالة النبي ﷺ لأن الله لم ينزل عليهم ما طلبوا فأزال القرآن هذا بقوله للنبي ﷺ .

قل لهم ما عندي ما تستعجلون به وتطلبونه على عجل من الله ولم أقل لكم إني أقدر على هذا ، وما الحكم في هذا إلا الله الواحد القهار ، وكل شيء عنده بمقدار ، والله يقص القصص الحق في وعده ووعيده ، وهو خير الحاكمين .

قل لهم لو أن عندي ما تستعجلون به ، ولو أن الله أمكنني من إيقاع العذاب بكم وجعله من قوتي الكسبية لأوقعته عليكم ، ولقضى الأمر بيني وبينكم ، والله قد وعدني النصر ووعدته الحق وقد تحقق ما وعد .

وهناك حديث عن أنى هريرة يفيد ان ملك الجبال ناداه وقال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك لك لتأمرني بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشيش فقال النبي ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله .

والمخلص في هذا : أن هذه الآية دلت على سؤا لهم العذاب وجوابه ﷺ والحديث ليس فيه سؤال بل عرض عليه ملك الجبال فلهذا استأني بهم وترفق عليهم والله أعلم بالظالمين . كيف يعاقبهم ؟ ومتى يعاقبهم وعلى أى صورة يكون جزاؤهم ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

### كآل علمه سبحانه وتعالى

\* وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَةٍ أَوْ لَاحِظٌ وَلَا رَيْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١٠٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يَنْفَخُ فِي نَفْسِكُمْ بِالْأَيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠١﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ مفاتيح ﴾ : جمع مفتاح وهو الخزن أو جمع مفتاح وهو المفتاح الذى تفتح به الأقفال . ﴿ يتوفاكم ﴾ : التوفى أخذ الشيء وإفيا كاملا ، والتوفية إعطاء الشيء تاماً وإفيا وهو يطلق على الموت والنوم . ﴿ جرحتم ﴾ : كسبتم بالجوارح ويستعمل اللفظ فى الشر والخير والاجترار فعل الشر خاصة . ﴿ يبعثكم ﴾ : يوقظكم من النوم . ﴿ حفظة ﴾ : هم الكرام الكتبة من الملائكة .

## المناسبة

طلبوا من النبي آيات خاصة ، كما تقدم ، واستعجلوا بها فرد القرآن عليهم بأن الكل في قبضته وهو القاهر فوق عباده ، ولا يملك الرسول شيئاً ثم بين هنا أن ما استعجلوه به ليس فيما يدخل في علم النبي حتى يخبرهم في أى وقت يقع ، وإنما هو مما استأثر الله بعلمه ، وهو العليم بكل شيء .

عنده وحده سبحانه ما يتوصل به إلى الغيب المحجوب عن الكل ، أى عنده علم الغيب ، إذ العلم صفة تنكشف بها لله سبحانه وتعالى معلومات الغيب والشهادة ، وإنما أطلق المفتاح وأراد العنم للإشارة إلى أن الغيب المستور في أماكن بعيدة لا يصل إليها أى مخلوق ، كالخزائن المغلقة بالأبواب والأغلاق ، ولها مفاتيح محكمة وقيل المعنى وعنده خزائن الغيب على أن المراد بالمفاتيح الخزائن .

لا يعلمها إلا هو وحده الذى يعلم السر وأخفى وهذه الجملة إذن تأكيد للجملة السابقة ، وهو يعلم كل ما في البر وكل ما في البحر ، فهو يعلم المشاهدات كما يعلم المغيبات ، والله يعلم ما تسقط من ورقة في أى زمان أو مكان ، فهو يعلم الأحوال المتعلقة بالذوات السابقة إذ سقوط الورق حال في الأحوال ، وذكره إشادة إلى جميع الأحوال . وليست هناك حبة في ظلمات الأرض السحيقة ، وأغوارها البعيدة ، ولا شيء رطب ، ولا شيء يابس ، أى ولا حى بالمعنى العام ولا يابس إلا في مكنون علمه الثابت الذى لا يمحي ، كما أن الشيء المسجل المكتوب كتابة لا يمحي ، وقيل المعنى كل ذلك في اللوح المحفوظ والله أعلم بكتابه . والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة ، والأحوال الظاهرة والباطنة ، والرطوبة واليابسة . أما أنتم أيها الناس .. فالله يتوفاكم بالليل أى ينيمكم فيه ، ويقبض أرواحكم إليه ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، ويعلم ما كسبتم في النهار علماً سابقاً على عملكم ، فهو يعلم أن منكم من يكفر ، ومنكم من يعصى ربه ، ثم يعد هذا الموت الأصغر الذى فيه يقبض أرواحكم إليه ويعلم أعمالكم بعد ما يبعثكم في الدنيا نهاراً ليعمل كل عمله ، وليقضى أجل مسمى عنده ، وعمر محدود لكل منكم ثم إليه مرجعكم بالموت الأكبر لا إله غيره ، ثم يبعثكم والمراد يجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهو القاهر فوق عباده المتسلط عليهم ، المتصرف فيهم ، يفعل بهم ما يشاء إيجاباً وإعداماً ، وإحياء وإماتة . وهو يرسل عليكم حفظة من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحسونها عليكم ﴿وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون﴾ سورة الانفطار . سبحانه الله .. ما أعجب شأننا .. علينا رقيب وعتيد .. يحصون علينا أعمالنا ويكتبون ولا يغفلون ، ومع هذا نعصى الله جهرة وسراً ؟ .. سبحانه أنت أرحم الراحمين ..

ولعل سائلاً يقول : ما الحكمة في الحفظة الكتبة والله أعلم بكل شيء والجواب أن المكلف إذا عرف هذا كان أزر له وأبعد عنه الفحشاء والمنكر ، وأقرب إلى عقل بعض الناس ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ (١) .

يرسل الحفظة الكرام البررة يحصون الأعمال مدة الحياة حتى إذا انتهى الأجل وتم القضاء ، وجاءت أسباب الموت ومقدماته ، توفته رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه ، والحال أنهم لا يفرطون ولا يقصرون بزيادة أو نقصان ، ثم ردوا بعد هذا جميعاً إلى الله وإلى حكمه ، وما الحكم الحق الذي يعطى بالعدل إلا له ، له الحكم وإليه الأمر ، لاراداً لقضائه ولا معقب لحكمه ، وهو أسرع الحاسنين يخاسب الكل في أقل وقت وأسرع لا يشغله شأن عن شأن وفي الحديث ( إن الله يخاسب الكل في مقدار حلب الشاة ) .

### من مظاهر القدرة والرحمة

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾

**المفردات :** ﴿ ظلمات البر والبحر ﴾ : ظلمات الليل والسحب والمطر ، وقيل المراد ظلمات معنوية . ﴿ تضرعاً ﴾ : التضرع المبالغة في الضراعة والتذلل والخضوع . ﴿ خفية ﴾ : بالضم والكسر الخفاء والاستتار . ﴿ الكرب ﴾ : الغم الشديد .

يسلك القرآن المسالك المتعددة لغرس شجرة التوحيد في قلوب العرب ببيان مظاهر القدرة والرحمة بالخلق ، فقال ما معناه : قل لهم : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ ومن ينقذكم من شدائد الأيام وهولها ؟ ومن ينير لكم السبيل إذا غم الطريق وأظلم ، ومن يسكن على كل شيء ، تدعونه متضرعين متذللين مع رفع الصوت والبكاء ، وقد يكون في السر والخفاء ، قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات لنكونن ممن يوحدك ويشركك ﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ﴾ <sup>(١)</sup> قل لهم : الله ينجيكم من هذه الأهوال ومن كل كرب وغم ، ثم أنتم بعد هذا تشركون بالله غيره ، ومن هذا نفهم أن الإنسان بطبيعته يلجأ إلى الله في الشدة والمكروه وفي النجاة ينسى نفسه ويعود إلى جهله .

### قدرة الله على إيقاع العذاب على العصاة

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ

قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

**المفردات :** ﴿يلبسكم﴾ : من اللبس والمراد يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف وأصل التركيب يلبس عليكم أمركم . ﴿شيعاً﴾ : جمع شيعة وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واتفقوا فيه . ﴿نصرف﴾ : نحوها من نوع إلى آخر من فنون الكلام . ﴿يفقهون﴾ : يفهمون بالدليل والحجة . ﴿مستقر﴾ : وقت استقرار وحصول .

قل لهؤلاء المشركين : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً لا يعرف كنهه ولا يقف على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى ، ينزل عليكم من فوقكم كالرجم بالحجارة والآفات أو يصعد إليكم من تحتكم كالزلازل والبراكين والخسف المعهود في الأمم السابقة أو يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف ، حتى تكونوا فرقاً وشيعاً وأحزاباً وجماعات ، كل فرقة لها اتجاه خاص ولون خاص ، تتقاتلون وتتحاربون ، ويذيق بعضهم بأس بعض وشدة . حتى يقتل بعضهم بعضاً . وعن ابن عباس المراد بمن فوقكم في الآية أمراؤكم ، ومن تحت أرجلكم أى عبيدكم وسفلةكم ، أنظروا من يتأق منه النظر كيف نصرف الآيات ، ونقلها على وجوهها المختلفة ، لعلمهم بهذا يفقهون الحق ، ويدركون السر ، ولا شك أن التنويع في الأداء وطرق الأبواب في الحجج ، سبيل إلى الفهم وإدراك الحقائق ، ولكن عند من ينظر النظر البريء الخالي من الحجب الكثيفة الموروثة كالتقليد .

وقد كذب بالقرآن قومك ، وهو الحق الذي لا شك فيه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . قل لهم لست عليكم بوكيل : ﴿نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾<sup>(١)</sup> لكل نبأ مستقر ، تظهر فيه حقيقته ، ولكل أمة أجل ، ولكل أجل كتاب تعلمون به صدق الوعد والوعيد ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾<sup>(٢)</sup> .

والعذاب في الآية ورد منكرأ فيشمل المجاعة والقحط ، والصيحة والرجفة والريح الصرصر والزلازل والحجارة من سجيل والبراكين ويشمل ما تلقية الطائرات وما تقذفه المدافع وما في السفن والعواصات من الطوربيد والألغام التي تنفجر فتبيد الناس ، وما القنابل الذرية عنكم ببعيد . روى عن ابن عباس من طريق أنى بكر بن مردويه عن النبي ﷺ قال : ( دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعاً فرفع عنهم اثنتين وأنى أن يرفع اثنتين دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعاً ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأنى أن يرفع الآخرين )<sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ٤٥ من سورة ق . (٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت . (٣) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ١٣٥ ، ٣٢٥) .

وقد تأكد كلام الرسول ﷺ فيها هي ذى الأمة المحمدية قد وقاها الله من الخسف والرجم ، وأكرمها لأجل نبينا فلم يعذبها بعذاب الاستئصال . وأما الخلافات الحزبية والفرق والشيعة ، وقتال بعضنا لبعض فظاهر للعيان ولا يزال الشر يأتينا من هذا الباب وأن بعضنا سبب الويل بنفاقه مع المستعمر واتحاده معه واستخدام الأجنبي له وما الحوادث التي تترى علينا ونشاهدها بعيدة . وفي حديث ثوبان ( وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً )

وما زال ملك للمسلمين إلا بسبب نزاعهم وخلافهم ، واتصال بعضهم بالأجنبي العدو اللدود .. تنبهوا يا قوم وارجعوا إلى دينكم وقرآنكم فالخير لا يمكن أن يكون إلا فيه وتذكروا . وإنما يتذكر أولو الألباب .

### المستهزئون بالقرآن وجزاؤهم

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَلْبَاباً وَمِثْلَ نَسَبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَّا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾

**المفردات :** ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ : أصل الخوض الدخول في الماء ثم استعمال في غمرات الأشياء أي مجالها تشبها لها بغمرات الماء ، والمراد الاندفاع في الحديث والاسترسال فيه والدخول في الباطل مع أهله . ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ : انصرف عنهم . ﴿ الذِّكْرَى ﴾ : التذكر . ﴿ وَلَكِنْ ذِكْرٌ ﴾ : المراد تذكيراً . ﴿ تبسل نفس ﴾ : البسل حبس الشيء ومنعه بالقوة ومنه أسد باسل ، وشجاع باسل أي يحمي نفسه ويمنعها ، المراد حبسهم في النار ومنعهم من الثواب . روى عن سعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت في المشركين المستهزئين بالقرآن والنبي ﷺ .

وإذا رأيت يا محمد وكذا كل مسلم . الذين يخوضون في آياتنا بالكذب والاستهزاء ، فأعرض عنهم ، ولا تجالسهم حتى يخوضوا في غير حديث الكفر والاستهزاء ، ومثلهم من يخوضون في القرآن بتأويله وتأويلا باطلا يوافق أهواءهم واتجاههم ، لاتجالسهم وابتعد عنهم ، وقد روى هذا الرأي عن ابن عباس

رضى الله عنه ، ولعل السر في ذلك أنك إذا أعرضت عنهم وقمت من مجلسهم كان أدل على عدم مشاركتهم فيما يقولون ، وعلى عدم الرضا عما يفعلون وهذه بلا شك أدعى للكف عن الخوض والاستنزاء غالباً ، وإذا خاضوا في غير ذلك الحديث فلا مانع من مجالستهم والتحدث إليهم . قال القرطبي : ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً ، وعرف أنه لا يقبل منه و عظماً ولا نصيحة فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه وإن أنساك الشيطان قبح مجالستهم والنهي عنها ، ثم تذكرتها فلا تقعد بعدها مع هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب والاستنزاء .

وهنا بحث بسيط :

هل يجوز على النبي ﷺ النسيان ؟ وإذا جاز فهل في كل شيء أم في شيء خاص ؟ والجواب عن الأول يجوز النسيان عليه بغير وسوسة من الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾<sup>(١)</sup> وقد ثبت وقوعه من آدم ﴿ ففسى ولم نجد له عزماً ﴾<sup>(٢)</sup> ومن موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾<sup>(٣)</sup> وثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ سها في الصلاة وقال ( إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكروني )<sup>(٤)</sup> .

إنساء الشيطان للإنسان بعض الشيء ليس من قبيل السلطان عليه والتصرف فيه ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٥)</sup> والجواب عن الثاني أن الصحيح أن النبي ﷺ لا ينسى فيما يبلغه عن ربه ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾<sup>(٦)</sup>

وقيل يجوز أن ينسى والله ينهيه حتماً . وما على الذين يتقون الله ويتركون غيرهم يخوضون في الباطل ويستنزئون بالقرآن من شيء أبداً ولكن إذا تركوهم بعد الموعظة وأعرضوا عنهم فهم يذكرا ومنهم بهذا لعلمهم يتقون الله فلا يخوضون في غمرات الشرك مرة ثانية حياء ممن يجالسهم أو كراهة إساءتهم .

وقيل المعنى ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى فلعلهم يتقون الله . يا أيها الرسول . دع الذين اتخذوا دينهم الذي كان يجب أن يتبعوا ويهتدوا به اتخذوه لعباً ولهوياً فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التي ختم الله بها على قلوبهم ودس بها نفوسهم ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون فقد أضاعوا عمرهم فيما لا يفيد وهذا هو اللعب وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد ، وهذا هو اللهو وغرتهم الدنيا وغرهم بالله الغرور ، أعرض عنهم ، ولا تبال بأمثال هؤلاء ، وذكر به من يخاف وعيد ، خوف أن تبسل كل نفس في الآخرة بما كسبت ، وترهن بما عملت ، وتحبس بما قدمت ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾<sup>(٧)</sup> ليس لكل نفس من دون الله ولي يلي أمرهم ويدفع عنها شرها وليس لها شفيع يشفع لها ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾<sup>(٨)</sup> وكيف يكون غير هذا وإن فقد النفس نفسها بكل فدية وعدل يتساوى مع الذنوب

(١) الآية ٢٤ من سورة الكهف . (٢) الآية ١١٥ من سورة طه . (٣) الآية ٧٣ من سورة النكيف .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٣١) . ومسلم في المساجد (٨٩) . وأبو داود في الصلاة (١٩٠) . والنسائي في السنن (٢٥) وابن

ماجه في الإقامة (١٣٣) . (٥) الآية ٦٩ من سورة النحل . (٦) الآية ١٦ من سورة القيامة .

(٧) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٨) الآية ١٨ من سورة غافر .



لا يقبل منها أصلاً ﴿١﴾ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴿٢﴾ أولئك الذين اتخذوا القرآن هزواً وسخرية واتخذوا دينهم لعباً ولهواً حرّموا الثواب وأسلموا أنفسهم للعذاب وحبسوا في نير العقاب ولهم شراب من حميم وغساق جزاء من ربك وفاقاً ولهم عذاب أليم .

### الإسلام والشرك

قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتُنَبِّئُكُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَّمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٨﴾

**المفردات :** ﴿أعقابنا﴾ : جمع عقب وهو مؤخر الرجل وتقول العرب فيمن أحجم بعد إقدام رجع على عقبه ، ونكص وارتد على عقبه ، ورجع القهقري . ثم صار يطلق على كل تحول مذموم . ﴿استهوته الشياطين﴾ : ذهبت بعقله وهواه . ﴿حيران﴾ : تائها ضالاً عن الجادة لا يدرى ما يصنع . ﴿الصور﴾ : القرن وهو كالقوق ينفخ فيه فيصعق من في السموات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

قال السدي : « قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ أي في الكفر ( بعد إذ هدانا الله ) فيكون مثلنا مثل الذي استهوته الشياطين في الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثّل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : اتنا فإننا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام » رواه ابن جرير .

ثم قرر سبحانه وتعالى أن هداه هو الهدى الحقيقي الذي لا يزيغ عنه إلا هالك . فمن سار على هذا الطريق لا تنزل قدمه ، ولا تتغير خطاه ، ومن حاد عنه فهو كالذي استهوته الشياطين بضلالها وعتوها وطغيانها وفجورها ، فصار في الأرض حيران ، وكفى بالحيرة ضلالاً وبهتاناً ، وهل من ابتلى بالحيرة يقر له قرار أو يطمئن له جنان .

وكيف يحار من علم أن القرآن : هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، الذى لا تضل به الأفئدة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء .

الله أكبر إن دين محمد      وكتابه أقوى وأقوم قيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده      طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

قل لهم يا محمد : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ونذعن لأوامره . ونتبع أحكامه ، ونسلك طريقه ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شئ ﴾<sup>(٣)</sup> .

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
يا من له عنت الوجوه بأسرها      رهباً وكل الكائنات توحده  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى      وإلى علاك عنا الجبين الساجد  
أنت الإله الواحد الحق الذى      كل القلوب له تقرر وتشهد

وكما أمرنا لنسلم لرب العالمين ، كذلك أمرنا بإقام الصلاة ، وتقوى الله ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ، وإقامة الصلاة أداؤها تامة مستقيمة مستوفية شروطها وأركانها ، وإذا كان الناس فى زماننا هذا يعرفون وجوب الصلاة من الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، ويعرفون شروط صحتها كستر العورة ، ودخول الوقت ، والطهارة ، واستقبال القبلة ، إن كان يعرفون ذلك فقد غفل كثير منهم عن معرفة شروط قبولها ، وهى مسألة من الأهمية بمكان ، إذ ما قيمة شئ يؤدى على غير وجه من القبول ، وقد اجتمع شروط قبولها فى حديث قدسى جامع مانع قال تعالى .

﴿ إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطع على خلقى ، ولم ييت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين ، وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ﴾ ثم يعقب الحديث بعد ذلك مبيناً ما لهؤلاء من الفضل فيقول تعالى ﴿ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلاه بعزق ، واستحفظه ملائكتى ، اجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حليماً ومثله فى خلقى كمثلى الفردوس فى الجنة ﴾ .

فيا ليت قومى يعلمون بما للمصلين من أجر وفضل عند ربهم ولما كان للصلاة تلك المكانة ، فقد بدأ الله بها مكارم الأخلاق ، وكريم السمائل ، وختمها بها ، ففى سورة المؤمنون يقول تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ،

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴿١﴾ ثم يَحْتَمِ الله تلك الصفات النبيلة في الصلاة فيقول ﴿٢﴾ والذين هم على صلواتهم يحافظون .

وفي سورة المعارج يذكر الله المصلين ثم يذكر الصفات التي يتحلى بها المؤمنون ثم يختتمها بذكر الصلاة أيضاً قال تعالى ﴿٣﴾ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين . الذين هم على صلواتهم دائمون ﴿٤﴾ وبعد ذكر صفات المؤمنين يقول تعالى ﴿٥﴾ والذين هم على صلواتهم يحافظون .

قوله تعالى ﴿٦﴾ وهو الذى إليه تحشرون ﴿٧﴾ أى هذا الذى هو جدير بأن تعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، هو الذى ستحشرون إليه وحده ، فلا ملجأ لكم ولا ملجأ من الله إلا إليه ﴿٨﴾ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴿٩﴾ فالإله المآب والرجعى ، فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

تالله لو عاش الفتى في دهره	ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة	متمتعاً فيها بنعم عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله في أن يفى	ببيت أول ليلة في قبره

إن هذا الإله القادر هو المعبود بحق ، ومن مظاهر عظمته وقدرته أنه خلق السموات والأرض بالحق قال سبحانه ﴿١٠﴾ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴿١١﴾ وقال جل شأنه ﴿١٢﴾ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴿١٣﴾ وقال سبحانه ﴿١٤﴾ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿١٥﴾ .

واذكر أيها المخاطب يوم يقول كن فيكون .

فسبحان من أمره بالكاف والنون وسبحان من يدبر الكون ويفصل الآيات ويخلق ما يشاء ويختار ومن صفات هذا الإله القادر أنه لا يقول إلا الحق ، قوله الحق وله الملك الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

واذكر أيها المخاطب يوم يتفخ في الصور ﴿١٦﴾ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴿١٧﴾ .

(١) الآيات ١ - ٨ من سورة المؤمنون . (٤) الآية ٨٥ من سورة الحجر . (٦) الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة الدخان .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة المعارج . (٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء . (٧) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحاقة .

ومن صفات هذا الإله القادر ﴿إِنَّهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾<sup>(١)</sup> ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ . يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾<sup>(٢)</sup> .

فيا دنيا أين بحارك ، وأين أنهارك ، وأين أشجارك ، وأين قصورك ، أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين عاشوا في خير الله وعبدوا غير الله ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

ولى في فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان في بحر الحقيقة راق  
شخصاً وأشكال تمر وتنقضى تغنى جميعاً والمهيمن باق

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَإِنَّا الْمَصِيرُ﴾<sup>(٥)</sup> . ومن صفات هذا الإله القادر أنه هو الحكيم الخبير . حكيم تنزه فعله عن العبث خبير أحاط بدقائق الأشياء علماً وأحاط بدقائقها وأحصاها عدداً .

### إبراهيم مع أبيه وقومه

\*وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْنَمَاءَ إِلَهَةٍ إِنِّي أَرَىكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَتَقَوَّمُ إِلَيَّ بِرِيٍّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

**المفردات :** ﴿إبراهيم﴾ : خليل الرحمن وأبو إسماعيل وجد العرب وأبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً ، آزر أبو إبراهيم أو عمه وقيل غير ذلك . ﴿ملكوت﴾ : ملك الله وسلطانه فيها . ﴿جن عليه الليل﴾ : ستره بظلمته . ﴿كوكبا﴾ : نجماً مضياً . ﴿أفل﴾ : الأفول : غيوبة الشيء بعد ظهوره . ﴿بازغاً﴾ : البروغ : ابتداء الطلوع . ﴿فطر السموات والأرض﴾ : أخرجها إلى الوجود لا على مثال سابق . ﴿حنيفاً﴾ : مائلاً عن الشرك والضلال .

(٤) الآية ٤٣ من سورة مريم .

(٥) الآية ٤٣ من سورة ق .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة غافر .

(٣) الآيتان ٢٣ من سورة الحجر .

وهذا مشهد مهيب من مشاهد التوحيد ، وقف فيه إبراهيم موقف العزة بمقام الوحدانية ، فكل الأنبياء عملوا بمعسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١) .

قال ﷺ ( أفضل ما قلته أنا والنبون من قبلي لا إله إلا الله ) (٢) وقال ﷺ ( جددوا إيمانكم قالوا : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله ) (٣) .

إنها كلمة التوحيد ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله .

ولقد جاهد إبراهيم أصدق الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، وضرب الشرك في جبهتين من أعنى الجبهات : جبهة الأصنام ، وجبهة الكواكب ، قال لأبيه : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ وسواء أكانت تلك الأصنام بشراً أو حجراً أو حديداً أو معدناً من المعادن فكلها معبودات باطلة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ (٤) .

ولقد أخذ إبراهيم يخاطب أباه بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة : ﴿ أتتخذ أصناما آلهة ﴾ هذا استفهام تسيل له الكبد مرارة ، والفؤاد لوعة ، فماذا كان رد أبيه عليه ، اقرأ معنى قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أرغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم . إن لم تنته لأرجنك واهجرني ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيواً . واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ (٥) ولما رأى إبراهيم من أبيه إصراراً على ما هو عليه تبرأ منه قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٦) .

وهكذا دار الصراع بين الحق والباطل ، وبين سماحة الحق وحماسة الباطل .

وقعت أحداث خطيرة ، فإن إبراهيم ظل صامداً في دعوته لا تؤثر فيه الأحداث الجسام ، لأن الله تعالى أيد بروح من عنده ، وثبت قلبه باليقين ، فقد أعمل بصره وبصيرته في علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين ، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملت عليه الكائنات من أدلة وبراهين تؤكد

(١) الآيات ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ( ١٨ ، ٣٣ ) . ومسلم في الإيمان ( ١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ( ٢ : ٣٥٩ ) .

(٤) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٤١ - ٤٩ من سورة مريم .

(٦) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

## من قبائح اليهود

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

لا يزال الكلام في أهل الكتاب ، وتعداد سوءاتهم وقبائحهم ، خصوصاً اليهود تالله ﴿﴾ لقد أخذنا ﴿﴾ العهد الموثق على ﴿﴾ بنى إسرائيل ﴿﴾ ليؤمنن بالله ورسله ولا يكتمنونه أبداً ، ﴿﴾ وأرسلنا إليهم رسلاً ﴿﴾ يؤكدون هذا العهد ويجددون هذا الميثاق حتى يكونوا على ذكر منه أبداً ، ولكنهم اليهود ﴿﴾ كلما جاءهم رسول ﴿﴾ من عند الله بما لا تهواه أنفسهم ، لأنهم لا يهون إلا الشر ، ناصبوه العدا ، وساموه سوء العذاب ، وكان سائلاً سأل وقال : ماذا كانوا يفعلون ؟ فأجيب ﴿﴾ فريقاً ﴿﴾ منهم ﴿﴾ كذبوا ﴿﴾ ولم يؤمنوا ﴿﴾ وفريقاً ﴿﴾ منهم كانوا ﴿﴾ يقتلون ﴿﴾ من غير ذنب ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا يقولون : ربنا الله لعنهم الله قد ظنوا ظناً يكاد يكون كاليقين : أنهم لا تكون لهم ﴿﴾ فتنة ﴿﴾ أبداً ولا يختبرون بالشدائد أصلاً ، وكيف يكون هذا وهم كما يعتقدون أبناء الله وأحباؤه ، وهم من نسل الرسل الكرام فلا يعذبون بذنوبهم أبداً . ﴿﴾ فعموا ﴿﴾ لهذا ﴿﴾ وصموا ﴿﴾ عن آيات الله التي أنزلها في كتبه وعموا عما يحصل لهم من الإنذارات والشدائد ، فلم يتعظوا بشيء أبداً ، وصموا عن سماع القوارع من الحجج والآيات البينات ثم تابوا بعد عبادتهم العجل ، وقبل الله توبتهم ﴿﴾ ثم عموا وصموا ﴿﴾ مرة ثانية حيث طلبوا رؤية الله وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى بن مريم وخالفوا أوامر الله ورسله . وقوله تعالى ﴿﴾ كثير منهم ﴿﴾ يفيد أن أكثرهم العصاة ، وأقلهم المؤمنون الصالحون ، وأما نحن أيها المسلمون حذار حذار من ادعائنا وغرورنا بدون العمل ، حذار حذار من ألا نلتفت إلى التنبيهات والقوارع التي تصيبنا ، حذار من أن ينطبق علينا هذا الكلام .

## الإله عند المسيحيين

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

وَأُمَّهُ صِدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴿٧٥﴾

تالله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ وكيف لا يكفرون وقد ضلوا ضلالاً بعيداً جداً عن العقل والدين ، إذ هم يقولون إن الله مركب في ثلاثة أقاليم أى « أصول » : الأب والابن والروح القدس . وقد حل الأب في الابن واتحد وكون روح القدس وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخر والثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ... ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ <sup>(١)</sup> على أن خلاصة أقوالهم : إن الله هو المسيح ، والمسيح هو الله ولقد رد القرآن عليهم : كيف تقولون هذا البهتان ، وقد قال المسيح بن مريم ﴿ يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعاهم إلى التوحيد الخالص من كل شرك ، وهذا هو عيسى يحذرهم عقوبة الشرك والوثنية : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين ﴾ أنفسهم باتخاذ الشركاء والآلهة من نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم وينقذهم ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ﴾ أى واحد من ثلاثة التى هى الأقاليم الثلاثة ﴿ وما من إله ﴾ فى الوجود يستحق العبادة ﴿ إلا إله واحد ﴾ أحد فرد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ <sup>(٣)</sup> سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أعموا ﴿ فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ﴾ ويرجعون إليه ﴿ والله ﴾ كتب على نفسه الرحمة وهو الغفور الرحيم : أما حقيقة المسيح عيسى بن مريم : فهو رسول كبقية الرسل أيد بالمعجزات الخوارق للعادة كالنبيين السابقين وكما أيد المصطفى ﷺ بالمعجزة الباقية الخالدة ( القرآن ) ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وزوج منه ﴾ <sup>(٤)</sup> وأما أمه فهى الصديقة الطاهرة المطهرة نفخ الله فيها من روحه ، وصدقت بكلمات ربها فكانت من القانتين ، وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فمساوية لسائر البشر بدليل أنهما ﴿ يأكلان الطعام ﴾ ليقبلا به أودهما ومرت بهما ظروف خاصة وعامة كغيرهما وهما يذهبان إلى الخلاء ليقضيا حاجتهما ! فهل يكون أمثال هذين آلهة تعبد ؟! ﴿ انظر ﴾ يا من يتأتى منك النظر ﴿ كيف نبين لهم الآيات ﴾ ثم بعد ذلك يغالون فى البعد عن المنطق السليم وكيف ﴿ يؤفكون ﴾ يصرفون عن استبانة الحق كأن عقولهم فقدت بسبب التقاليد وظيفتها .

(١) من الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) من آية الكرسي : ٢٥٥ سورة البقرة .

(٣) من سورة الأعراس .

(٤) من الآية : ١٧١ من سورة النساء وقد سبق تفسيرها .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ .

تفسير المفردات :

﴿ الغلو ﴾ : الإفراط وتجاوز الحد . ﴿ أهواء ﴾ : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحجة والبرهان . ﴿ لعن ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة . ﴿ يعتدون ﴾ : يتجاوزون حدود الله . ﴿ لا يتناهون ﴾ : لا ينهى بعضهم بعضاً . ﴿ يتولون الذين كفروا ﴾ : يتخذونهم أولياء وأنصاراً وأعواناً . ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ : أسلوب ذم . والمعنى : قبح فعلهم وساء .

### التفسير

لما بين الله تعالى حقيقة المسيح وأمه في كلمات موجزة وجيزة وقال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾ (١) لما بين الله ذلك جاء الخطاب موجهاً إلى الصادق المعصوم ولكل عاقل منصف ﴿ قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً . والله هو السميع العليم ﴾ وهذا أسلوب استفهام إنكارى فيه توبيخ وتقرير : أى ما كان ينبغي لكم أيها العقلاء أن توردوا أبواب المعرفة وتغلّقوا نوافذ العلم ، وتعطلوا وظائف الحواس . فتتجاوزوا الحدود وتعبدوا من دون الله ما لا يملك ضرراً ولا نفعاً لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً سواء أكان المعبود بشراً أم حجراً أم حديداً أم ملكاً كريماً .



فيا من عبدتم المسيح هل كان المسيح إلا كما قال الله تعالى فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ (١) هل كان إلا بشراً يأكل الطعام ؟ وفي التعبير يأكل الطعام ما يفيد أن الطعام يتحول بعد الهضم والامتصاص إلى خلايا تقوم ببناء الأنسجة ، وتقوم الأنسجة ببناء الأعضاء التي تقوم بتكوين الأجهزة .. إن من كان شأنه كذلك فلا بد أن يجرى عليه ما يجرى على بقية البشر من نوم ويقظة ومرض وصحة وإخراج للفضلات من بول وغائط وعرق ، ولا بد أن يموت ، فكيف يُتصور أن من كان شأنه كذلك يُعبد من دون الله ؟ ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

إن الضار النافع هو الله ، والفايض الباسط هو الله ، والمعطي المانع هو الله ، والخافض الرافع هو الله ، والمحى المميت هو الله ، والمعز المذل هو الله ، والسميع العليم هو الله .

قوله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ﴾ : الغلو مذموم لأنه تجاوز المعقول ولأنه إفراط والافراط رذيلة ، كما أن التفريط كذلك . والاعتدال فضيلة ، لذا جاء الإسلام وسطاً . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ (٣) أى عدولاً . وقال جل شأنه في مدح الوسطية : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (٤) . وقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ (٥) . وقال : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ (٦) . حتى لما قال بنو إسرائيل عن البقرة : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هي ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ (٧) . ولما كان الغلو ممقوتاً مذموماً وصف الله تعالى بأنه ﴿ غير الحق ﴾ . لذا كان السيد الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه يقول : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله » . ومن ثم فإن المسيح وهو في المهد قال : ﴿ إني عبد الله ﴾ (٨) .

وخاتم الأنبياء المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كان من أحب أسمائه إليه في القرآن « عبد الله » ، في قوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ (٩) . ومن عجب أنك تقرأ في القرآن الكريم وفي أرق المنازل وأرفعها تقرأ أخبار الله تعالى عن رسوله بعنوان العبودية . ففي مقام

(٦) من الآية ١١٠ سورة الإسراء .

(٧) من الآية ٦٨ سورة البقرة .

(٨) من الآية ٣٠ سورة مريم .

(٩) الآية ١٩ سورة الجن .

(١) الآية ٥٩ سورة الزخرف .

(٢) الآية ١٧ سورة المائدة .

(٣) من الآية ١٤٣ سورة البقرة .

(٤) الآية ٦٧ سورة الفرقان .

(٥) الآية ٢٩ سورة الإسراء .

الإسراء وهو مقام رفيع : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾ (١) وفى مقام المعراج وهو مقام تناهى فى العلو والسمو تقرأ : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ (٢) فالعبودية لله عز وربوبية الله للعبد فخر ، حتى كان بعضهم يناجى ربه فيقول : « كفانى عزا أن أكون لك عبداً . وكفانى فخرا أن تكون لى رباً » .  
لذا كان هناك فرق شاسع بين أن يكون العبد عبدا مملوكا لغيره من البشر وبين أن يكون عبدا لله خالصا ، فالعبد المملوك لغيره من البشر يعود خيره على سيده ، والعبد المملوك لله وحده يعود خيره سيده ( وهو الله ) عليه . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .

ومما زادنى شرفا وقـدرا وكدت بأخصى أطـأ الثريا  
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نيبا

ثم ينهى الله أهل الكتاب عن اتباع أهواء قوم عرفوا بالضلال والإضلال فقال : ﴿ ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ فالضلال الأول مقيد بالقلبية ، أى أنهم كانوا أسبق ضلالا ، والإضلال الثانى متعد إلى كثير ممن اتبعوهم ، والضلال الثالث مقيد بأنه عن سواء السبيل . والهوى نوازع النفس إلى مسالك الشر ، ويشمل كل رأى صادر عن شهوة أو غرض ، لذا كان نهى النفس عنه درجة من درجات القرب إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ : هذا عقاب منه جلّت قدرته لقوم كفروا من بنى إسرائيل ، فكان الكفر بمثابة الحيثية الأولى من هذا الحكم . نعم وهل يستحق اللعنة والطرده من رحمة الله إلا من توافرت فيه تلك الحيثيات . لقد لعن الله هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل على لسان السابقين من الأنبياء كداود وعيسى ابن مريم . قال العوفي عن ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان .. وقد بين الله تعالى من أسباب لعنهم ما فيه مزدجر لغيرهم . فقال : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ عصوا من ؟ عصوا المليك المقتدر ، جبار السماوات والأرض ، عصوا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، عصوا من يعلم السر وأخفى ، عصوا من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا عصوا السميع الذى يسمع ذئيب أرجل الثملة السمراء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، عصوا العليم الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

(١) من الآية ١ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٠ سورة النجم .

(٣) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات .

وكانوا يعتدون ، يتجاوزون حدود الله فقد فرض الله تعالى فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحرم خرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . ومن أسباب لعنة الله لهم — بل من أقوى الأسباب ، شيوع المنكر فيهم ، ومع ذلك لا يتناهون عنه ، فقد كانوا يفعلونه ويجهلون الله بالمعصية . وقد ذم الله تعالى فعلهم هذا ، فقال عز من قائل : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ . فتلك هي الأسباب كما بينها الله تعالى ، وهذا هو حكمه عليهم : لعنة وطرده من رحمة الله . وما جرى عليهم يجرى على غيرهم من الأمم إن هم فعلوا فعلهم . فقد أعد الله تعالى الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً . وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشياً . وقد حدثنا القرآن الكريم عن تدمير الله لقرى لوط فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود \* مسومة عند ربك ﴾ <sup>(١)</sup> . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ <sup>(٢)</sup> . وأشد ما تبتلى به الأمم وتصاب به المجتمعات شيوع المنكر بين أفرادها . قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض — ثم قال : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴾ إلى قوله ﴿ فاسقون ﴾ — ثم قال — كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » رواه الترمذى .

إن قاعدة إصلاح المجتمع تقوم على التناصح فالتناسخ بخير ماتناصحوا : قال ﷺ : الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » فالنصيحة هي ركن الدين الأعظم . لذا نهى الإسلام عن الغش والنفاق . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا » وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نذكر منها ما يوفى هذا المقام حقه :

قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسئء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كم لعنهم » . قال ﷺ : « والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . رواه الترمذى .

(٣) الآية ١٤٥ سورة النساء .

(١) الآية ٨٢ وجزء من الآية ٨٣ سورة هود .

(٢) جزء من الآية ٨٣ سورة هود .

قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

قال ﷺ : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونها فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » . رواه الإمام أحمد .

قال النبي ﷺ : « إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها ، كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » رواه أبو داود .

قال النبي ﷺ : « لن يهلك الناس حتى تعذروا أو يعذروا من أنفسهم » .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال : « ألا لا يمنعن رجلا هية الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال : قد والله رأينا أشياء فهينا .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه الترمذی .

قال رسول الله ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال « يرى أمر الله فيه فقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فايأى كنت أحق أن تخشى » .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لعنه الله عبدا حجة قال يارب رجوتك وفرقت الناس » .

قال ﷺ : « لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يعترض من البلاء لما لا يطيق » رواه الترمذی .

عن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم » قلنا يارسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ، قال . الملك في صغاركم والفاحشة في كباركم والعلم في رذالكم » . قال زيد تفسير معنى قول النبي ( ﷺ ) والعلم في رذالكم إذا كان العلم في الفساق » تفرد به ابن ماجه .

قوله تعالى ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ﴾ وهذه جريمة أخرى من جرائم اليهود الذين اتخذوا من كفار مكة وقبائل المشركين أعوانا وأنصارا وأولياء . فقد سأل الكفار حُيَّ بن أخطب : أئنا على حق ؟ أنحن أم محمد . فقال لهم : بل أنتم على حق ومحمد على ضلال . قالوا وهو يعلم علم اليقين أنه كاذب فقد قرأ صفة النبي ( ﷺ ) في التوراة ، وقد ذكر الله هذا الموقف الأليم في قوله :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾<sup>(١)</sup> . وقد ذم الله تعالى صنيعهم هذا فقال عز من قائل ﴿ لبس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ . في هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على كفر هؤلاء المارقين ، فإنهم لو كانوا يؤمنون بالله ربا ومحمد ﷺ نبيا والقرآن كتابا منزلا من عند الله ما اتخذوا الكافرين أولياء إذ أن اتخذهم أولياء دليل على جحودهم وتمردهم على المؤمنين . ثم بين الله تعالى العلة في اتخاذهم الكافرين أولياء فقال : ﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾ أى خارجون على حدود الله عاصون لأوامره مخالفون لآيات وحيه وتنزيله وهذا هو شأن اليهود فى كل زمان ومكان يضمرون الحقد والبغضاء للجماعة المؤمنة ويناصبونها أشد العداوة ويحقدون على رسول الله ﷺ حقدا أسود ويتآمرون عليه ويحاولون كثيرا القضاء عليه بالسم مرة والخديعة أخرى ، ولكن الله تعالى يعصمه ويرعاه وعين الله تلكؤه وتحميه . إنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء السابع

المكتبة المصرية الحديث

## بسم الرحمن الرحيم

حقائق يقررها القرآن الكريم

\* لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ قَسِيصٌ وَرَهْبَانُنَا وَهُمْ لَا يَتَسَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأُنْشِبُهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

**المفردات :** ﴿عداوة﴾ العداوة والمحبة صفتان من صفات النفس يظهر أثرهما في القول والعمل . ﴿قسيصين﴾ : واحد قس ، وقسيس ، وهو رئيس من رؤساء النصارى والأصل فيه أن يكون عالماً بدينهم وكتبهم . ﴿رهباننا﴾ : واحده راهب وهو العابد المنقطع للعبادة . ﴿تفيض من الدمع﴾ : تمتلئ دمعاً حتى يتدفق من جوانبها لكثرتة . ﴿فأنشبههم﴾ : جازاهم .

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثتهم النجاشي إلى النبي ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه .

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلثموا . واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

قوله تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ ، وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق ، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هوما بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسخروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما خلا يهودي بمسلم قط إلا هم بقتله ) .

وقوله تعالى : ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا قالوا إنا نصارى ﴾ أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة ، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾<sup>(١)</sup> وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ -- أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلمائهم ، واحدهم قسيس وقس أيضا وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهى الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قوله تعالى : ﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾ أى أن من صفاتهم التواضع ، والكبر والاستكبار هو بطر الحق وغمط الناس . قال تعالى : ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ : ( لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر )<sup>(٣)</sup> . لذلك وصفهم الله تعالى بعد ذلك بقوله : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﴾ أى من القرآن ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ حتى يتدفق من كل جانب فيضانا ناشئا مما عرفوا من الحق الذى أنزل على محمد ﷺ إذ هو مصدق لما معهم من الكتاب ومطابق لما وصف عندهم ، ولم يمنعهم عن ذلك عتو وعناد متأصل فيهم ، هذا حالهم ، أما مقامهم فيقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك ، خصوصا محمد ﷺ ، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون يوم القيامة للأنبياء والرسل وهم أمة محمد ﷺ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾<sup>(٤)</sup> أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ؟ ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان ذلك الرسول المبشر به فى كتابنا إذ هو روح الحق وإنا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت نفوسهم وطهرت أرواحهم بالعقائد الصحيحة والمثل العليا وهم أتباع هذا النبى الكريم .

والمعنى : لا مانع من الإيمان بعد أن ظهرت الحجة ووضح الطريق ، ونحن نطمع فى أن نكون فى عداد الأبرار والأخيار من أصحاب محمد ﷺ فأتأبهم الله وجازاهم بما قالوا عن عقيدة راسخة ونفس مطمئنة راضية وآتاهم جنات تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ، هؤلاء المسيحيون الأحرار الذين نظروا فى تعالم المسيح الحقيقية فوقفوا على سرها ، وتكشفت لهم جنباتها ، ورزقوا فكراً حراً ، وعقلاً رشيداً ، وروحاً طيبة ، بعيدة عن التعصب تدين بمبدأ

(١) الآية ٢٧ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٢٩ من سورة النحل .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) وأخرجه مسلم فى الإيمان

(١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) وأخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦)

والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) والدارمى فى المقدمة (٨) والإمام

أحمد فى (١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) وفى (٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥) وفى (٣ ، ١٢ ، ١٧) وفى

(٤ : ١٥١) وفى (٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩) .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .



« الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت »<sup>(١)</sup> .

أما السواد الأعظم من المسيحيين الذين غرقوا في بحار التعصب ولم ينظروا ولم يفكروا وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أو من عرفوا الحق ، وأعرضوا عنه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فهولاء وهولاء يقول الله فيهم ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ الدالة على صدق نبينا ، « أولئك هم أصحاب الجحيم » ، الملازمون لها .

### هلك المتطعون

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ  
﴿ ٨٧ ﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿ ٨٨ ﴾

**المفردات ﴿ طيبات ﴾** : ما تستلذه النفس ويميل إليه القلب . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : لا تتجاوزوا الحدود المرسومة لكم . ﴿ طيبا ﴾ : غير مستقذر حساً أو معنى . ﴿ اتقوا الله ﴾ : خافوه . ﴿ أنتم به مؤمنون ﴾ : أى مصدقون بواحيته .

جاء في الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم : لا أكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ( ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وأكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني )<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبي ﷺ : ( لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو مني ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني ) .

وعن ابن عباس أيضاً أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت على اللحم ، فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ .

(١) أخرجه الترمذى في العلم (١٩) ، وابن ماجه في الزهد (١٥) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح (١) . ومسلم في النكاح (٥) . والنسائى في النكاح (٤) . والدارمى في النكاح (٣) . والإمام أحمد في

(٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥) وفى (٥ : ٤٠٩) .

## أحكام فقهية

ذهب الشافعي وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضاً ولقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، ولأن الذي حرم اللحم على نفسه كما في الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم - الإمام أحمد بن حنبل - إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس وكما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحْرِمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، ثم قال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ (٢) ، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين في اقتضاء التكفير . والله أعلم .

## أقوال أخرى

قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبي حذيفة في أصحابه تبتلوا فجلسوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهما بالاختصاص ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاص ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : ( إن لأنفسكم حقاً وإن لأعينكم حقاً ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ، ولها شاهد من الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك والله الحمد والمنة . وقال أسباط عن السدي في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ كانوا عشرة منهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملاً فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فتحن نحرم ، فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون بمن حرم النساء ، فكان لا يذنو من أهله ، ولا يذنون منه فأتت امرأته عائشة رضي الله عنها ، وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجي وما رفع عني ثوباً منذ كذا وكذا ؟

قال : فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال : ( ما يضحكن ) قالت : يا رسول الله إن الجولاء سألنها عن أمرها فقالت ما رفع عني زوجي ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : ( مالك يا عثمان ) قال : إني تركته لله لكي أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله ﷺ : ( أقسمت عليك إلا رجعت فوافقت أهلك ) ، فقال يا رسول الله : إني صائم فقال : ( أفطر ) فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الجولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حواء فقالت : إنه أتاها أمس وقال رسول الله ﷺ : ( ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عني فليس مني ) ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ﴾ يقول لعثمان لا تجب نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعتدوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضيق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ فشرع الله عدل بين الغالي فيه والخاف عنه لا إفراط ولا تفريط ولهذا قال : ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ثم قال : ﴿ وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾ ، أى في حال كونه حلالاً طيباً ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى في جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانته ، ﴿ الذي أنتم به مؤمنون ﴾ .

وما أعظم قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ \* قل من جرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون \* قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٣) .

### أحكام تتعلق بالإيمان

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْآيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ  
إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة . (٢) الآية ٣١ من سورة الأعراف . (٣) الآيات ٣٢ ، ٣٣ من سورة الأعراف .

يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

**المفردات ﴿ اللغو في اليمين ﴾ :** ما يجري على اللسان بغير قصد . ﴿ كفارته ﴾ : أعمال تكفر بعض الذنوب أى تغطيها وتستترها . ﴿ من أوسط ﴾ : المراد الوسط في الطعام بلا مبالغة في التقدير أو الإسراف . ﴿ أو تحرير ﴾ : عتق رقبة .

ورددت في اليمين اللغو أقوال نبينها في ما يلي :

قال الشافعى : هو قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله بلى والله . وقيل هو في الهزل ، وقيل في المعصية ، وقيل على غلبة الظن ، وهو قول أبو حنيفة وأحمد ، وقيل في اليمين في الغضب ، وقيل في النسيان ، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس واستدلوا بقوله ﴿ لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ أى بما صمتم عليه منها وقصدتموها .

( فكفارته إطعام عشرة مساكين ) . يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ، وقوله ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة : أى من أعدل ما تطعمون أهليكم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ أى فى القلة والكثرة . والاعتدال فى كل شىء مطلوب شرعاً ، والأوسطية هى التى بين الإسراف والتقتير ، وقد ذكروا فى مقدار الطعام أن يغذيهم ويعيشهم غداء وعشاء مشبعين من أكل من أكل وسط ، أما الكسوة فخير ما قيل فيها هو ما رآه مالك وابن حنبل وهو أن يعطيهم من الثياب ما تصح به الصلاة ، أما تحرير الرقبة فهو عتقها سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة ، فهو خير بين هذه الأمور : الإطعام ، أو الكسوة ، أو التحرير ، فمن لم يجد ذلك ولم يستطع إطعاماً أو كسوة أو عتقاً فعليه صيام ثلاثة أيام متتابة على الصحيح ، وقد فسروا الاستطاعة بأن يكون عنده ما يزيد على إطعام أهله يوماً وليلة . فإن عجز عن ذلك كله استقر الحق فى ذمته حتى يستطيع ، ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلقتم حلفاً شرعياً وحشتم ، واحفظوا أيمانكم ، فلا تبدلوا لأنفه الأسباب ، ولا تجعلوها عرضة ، وإن حشتم فاحفظوها بالكفارة ، وإن حلقتم فلا تنسوا ما حلقتم عليه ، ولا تحثوا إلا لضرورة ، ويكون الحث فيها أفضل من السير مع اليمين ، مثل هذا البيان الشافى الواضح بين الله لكم آياته وأحكام دينه ليعدكم ويؤهلكم لشكره على نعمه جل شأنه .

أما اليمين الغموس ، وهى التى يقصد بها ضياع حق لمسلم ، أو يقصد بها غش أو خيانة ، فلا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لا بد من توبة ورجوع إلى الله ، مع أداء الحقوق لأربابها ، قال رسول الله ﷺ : ( من حلف على يمين صبر وهو فيها فاجر يقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو

عليه غضبان) <sup>(١)</sup> : رواه البخارى ومسلم . يقول الله : ( ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتنزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم \* ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ) <sup>(٢)</sup> . وقد ذم الله تعالى كل من يكثر الحلف فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ <sup>(٣)</sup> فعليك أيها المسلم أن تراعى في الأيمان هذه التوجيهات الشرعية :

١ - لا تحلف إلا لضرورة تدعوك لذلك .

٢ - إذا حلفت فلا تحلف إلا بالله وحده لا شريك له ، فمن حلف بغير الله فقد كفر وأشرك ، أما الذى يحلف بما شاء من المخلوقات فهو الله وحده لأنه خالق الكائنات ، وقد حلف سبحانه بأنواع من مخلوقاته كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، ونفس وما سواها ، كما حلف بالتين والزيتون ، وطور سين ، والبلد الأمين ، ولكنه لم يحلف بحياة أحد إلا بحياة النبي ﷺ فقال : ( لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ) <sup>(٤)</sup> .

والله ما خلق الإله وما يرى      بشرا يرى كمحمد بن الورى  
يا سيد العقلاء يا خير الورى      يا من أتيت إلى الحياة مبشرا  
وبعث بالقرآن فينا هاديا      وطلعت في الأكوان بدرا نيرا

٣ - وإذا حلفت فلا تحلف إلا صادقا ، لأن الحلف بالله كاذبا يعتبر من الكبائر ، وهى يمين الغموس التى قال عنها النبي ﷺ ( اليمين الغموس تذر الديار بلاقع ) أى خرابا يباباً ، واليمين الفاجرة منقفة للسلعة ، ممحقة للربح ، وإنما سميت غموساً لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم جزاء وفاقاً ، لأنه حلف بالله كاذبا متعمداً .

قوله تعالى : ﴿ كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ أى يفصل لكم أحكامه تفصيلاً بيناً واضحاً ، فليكن منكم الشكر له تعالى على ما أنعم به عليكم من البيان ، وتفصيل الأحكام ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليكم حكيم ﴾ <sup>(٥)</sup> .

### تحريم الخمر والميسر وغيرهما

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ

(١) أخرجه البخارى فى الأيمان ( ١١ ، ١٧ ) وفى التفسير ( سورة ٣ ) ( ٢ ) وفى الأحكام ( ٣٠ ) وأخرجه مسلم فى الأيمان ( ١٧٦ ) ،

( ٢٢٠ ) والترمذى فى تفسير سورة ٤ ( ٦ ) ، ( ٣ ، ٤٩٥ ) ( ٥ : ٢١١ ، ١١٢ ) .

(٤) الآية ٧٢ من سورة الحجر .

(٢) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة النحل .

(٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٠ من سورة القلم .

فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصَدِّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

**المفردات ﴿الخمير﴾** : كل شراب مسكر . ﴿الميسر﴾ : في أصل اللغة : القمار بالقداح في كل شيء ، ثم غلب في كل مقامرة . ﴿الأنصاب﴾ : حجارة كانت حول الكعبة يذبحون قربانهم عندها . ﴿الأزلام﴾ : قطع رقيقة من الخشب كالسهم كانوا يستقسمون بها . ﴿رجس﴾ : مستقذر حساً ومعنى . ﴿طعموا﴾ : طعم الشيء يطعمه ذاق طعمه عن طريق الأكل أو الشرب .

روى أن عمر كان يدعو الله تعالى قائلاً : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فلما نزلت آية البقرة ظل على دعائه ، ولما نزلت آية النساء ظل كذلك على دعائه ، فلما نزلت آية المائدة وسمع قوله تعالى : ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ، قال انتهينا .. انتهينا . وكانت هذه الآية هي الفاصلة القاضية .

روى أن عمر قال حين سمع ﴿إنما الخمر والميسر﴾ : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام : بعداً لك وسحقاً ، وتركها الناس وأراقوها في الطرقات . وروى عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا وثملوا واعتدى بعضهم على بعض ، فلما صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه ولحيته فيقول : صنع بي أخى فلان هذا ، لو كان رءوفاً بي ورحيماً ما صنع هذا . وقد وقعت بينهم ضغائن فأُنزل الله ﴿إنما الخمر والميسر﴾ فقال ناس : هي رجس ، وهي في بطن فلان مثلاً وقد قتل يوم أحد ، وفي بطن فلان وقد قتل يوم بدر ، فأُنزل الله : ﴿ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح﴾ الآية .

ولعلك تسأل : ما الحكمة في تحريم الخمر تدريجياً .

وما علمت أنها الحكمة العالية ، والدواء الناجع لهذا الداء المتأصل الذى أدمنت العرب على شربه ، فلو حرمت الخمر دفعة واحدة لكان ذلك أدعى لتغيير الناس من الدين كله .

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله ورسوله ، والذين خالط قلوبهم نور الإسلام وبرد اليقين : اعلموا أن هذا الوصف يوجب عليكم الامتثال لأمر الله والتزام حدود الشرع ، واعلموا أنما الخمر ، وهي ما خامر العقل أى ستره فأستره ، رجس من عمل الشيطان وصنعه وهو عدوكم اللدود ، الذى لا يعمل إلا للشر ، ولا يزين إلا للهلاك .

ولقد خطب عمر بن الخطاب يوماً على منبر الرسول ﷺ فقال : ( قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والخنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل )<sup>(١)</sup> : وهذا أبين بيان فى حقيقة الخمر ، يخطب عمر بالمدينة على مرأى ومسمع من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم أهل اللسان والبيان ، وأعلم الناس بلغة القرآن ، فلا ينكر أحد عليه ، ولا يستفسر أحد عن نوع دون نوع ، ولا ننسى قوله ﷺ : ( كل مسكر خمر وكل مسكر حرام )<sup>(٢)</sup> فإذا كل مادة مغيبة للعقل مهلكة للصحة فهى خمر وإن تعددت الأسماء ، وإذا ثبت هذا بطل رأى القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمرأ .

والنبذ قدما عبارة عن تمر أو زبيب ينقع فى ماء حتى يخلو الماء فيشرب ، وهذا حلال حيث لم يختمر ولم يسكر ، وأقرب الأشياء به ما يسمى بالخشاش فى مصر ، أما النبيذ المستعمل الآن فخمر وحرام ومسكر .

إنما ذلك رجس وقذارة ، وأى رجس أكبر من هذا ، فالخمر والميسر مستقذران حساً ومعنى من ناحية الشرع والعقل ، وهما من عمل الشيطان وصنعه ، فاجتنبوا هذا الرجس واتركوه ، واجعلوه فى جانب ، وأنتم فى جانب ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تركية أنفسكم وسلامة أبدانكم .

وبعد هذا يبين الله السر فى هذا الأمر ويبين خطرهما فى الدنيا والآخرة وضررهما اجتماعياً ودينياً .

أما الخطر الاجتماعى فالشيطان ، إنما يريد لكم بشرب الخمر ولعب الميسر أن تقع بينكم العداوة والبغضاء فيقضى على جماعتكم ، ويشتت شملكم ، ويهدم كيانكم ، والإسلام حريص جداً على أخوتكم واتحادكم وتضامنكم وإزالة أسباب الشقاق والنزاع فيما بينكم .

والشواهد على هذا كثيرة واضحة ، ولا غرابة فى هذا ، فالخمر تذهب العقل الواعى وتستره ، وهو الذى يدرك قواعد العرف والدين التى تمنعنا عن الشر والوقوع فيه ، فإذا ضاع واستتر ظهر الإنسان بشهواته وطبيعته الحيوانية ، يأتى الدنية ، ويقوم بأحط الأعمال وأقذرها . والميسر وما فيه من ربح وخسارة بلا عمل ولا تجارة مثار العداوة والبغضاء فى نفس الخاسر وحزبه .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٥ (١٠) وفى الأشربة (٢ ، ٥) وأخرجه مسلم فى تفسير ٣٢ (٣٣) . وأخرجه أبو داود فى الأشربة (١) . والنسائى فى الأشربة (٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الأشربة (٧٣ ، ٧٥ ، ٦٤ ، ٦٩) وأخرجه البخارى فى الأدب (٨٠) وفى الأحكام (٢٢) . وفى المغازى (٦٠) ، وأخرجه أبو داود فى الأشربة (٥ ، ٧) . والترمذى فى الأشربة (١ ، ٢) . والنسائى فى الأشربة (٨ ، ٤٠ ، ٤٩) . وابن ماجه فى الأشربة (٩ ، ١٣ ، ١٤) . والدارمى فى الأشربة (٨) . والإمام مالك فى الضحايا (٨) . والإمام أحمد فى (١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠) وفى (٢ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ١٨٥) وفى (٣ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ٢٣٧) وفى (٤ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤١٧) . وفى (٥ : ٣٥٦) وفى (٦ : ٣١٤ ، ٣٣٣) .

أما ضياع الشخصية وفناء الشباب وهلاك الصحة والانغماس في تيار الرذيلة فشيء لا ينكره عاقل ، ولا يحتاج إلى نص .

وأما الناحية المالية فحدث عنها ولا حرج ، فكم من البيوت خربت ، وكم من الأموال بددت على الموائد الخضراء والحمرء في الليل والنهار .

وأما الخطر الديني ، وما أدراك ما هو ، فهما يصدان عن ذكر الله الذي يجلي القلوب ويزكيها ، ويظهر النفوس ويهديها ، وهما يمنعان عن الصلاة التي هي عماد الدين ، إذ السكران لا عقل له ولا قلب ، فكيف يهتدى إلى الخير وإلى الصلاة ولاعب الميسر يجلس الساعة والساعات بل يواصل ليله بنهاره لا يدري ما حوله ، ولا يشعر بنفسه ، قد نسي بيته وأهله وولده ، وإنه ليقضي الوقت بين الأوراق والنار تشتعل في بيته فلا يغيث أهله مع الناس ، فكيف يفكر في الصلاة ؟ على أنه إذا صلى ، صلى بلا روح ، وبلا قلب ، فهل أنتم يا من اتصفتم بوصف الايمان وتحليتكم به منتهون ؟

بعد هذا البيان اللاذع والقول الفاضح ، وهذا أمر بالانتهاء جاء على أسلوب بليغ جداً ، يدركه من يقف على أسرار بلاغة القرآن . وكيف لا يكون هذا شأن الخمر والميسر وقد نقر الله منهما ، وأكد تحريمها بوجوه من التأكيد أهمها :

- سمهما رجسا من عمل الشيطان ، بل قصرهما على الرجس لا يتعديانه إلى غيره .
- وقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وأنت تعرف أنهما من أعمال الشرك وخرافات الوثنية . ( مدمن الخمر كعابد الوثن ) .
- وعلق الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة على اجتنابهما .
- وجعلهما مثار العداوة والبغضاء ومبعث الشقاق والشحناء .
- وهما يصدان عن ذكر الله والله يقول : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ <sup>(١)</sup> .

وكان ختام الآية بقوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ على ما فيه من البلاغة والبيان ، أتم صارف للمسلمين عنهما وصاد ؟

وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم ، واحذروا عاقبة المخالفة وما تجر من الخيبة والندامة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فإن توليتكم بعد هذا فلا تلومن إلا أنفسكم ، واعلموا أنما على رسولنا البلاغ فقط وعلينا الحساب والجزاء ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ومن مات قبل التخريم فلا شيء عليه ، إذ هناك قانون عام وهو : ليس على الذين آمنوا وعملوا

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد . (٢) الآية ٦٣ من سورة النور . (٣) الآية ١٩ من سورة الانفطار .



الصالحات كالذين ماتوا قبل تحريم الخمر وغيره ، ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا ما اتقوا الله وعملوا الصالحات الباقيات التي شرعت في حياتهم ، كالصلاة والصيام وغيرهما ثم اتقوا ما حرم عليهم وآمنوا بما نزل فيه وفي غيره ، ثم استمروا على التقوى والإحسان وعمل الصالحات ، والله يحب المحسنين المتقين أعمالهم المخلصين فيها .

التداوى بالخمير : قال النبي ﷺ : ( إنه ليس بدواء ولكنه داء ، وما جعل الله شفاء أمتي فيما حرم عليها ) (١) .

وقول النبي ﷺ إنه داء أكده رأى الطب ، إذ أن الخمير تولد أمراضا كثيرة يموت بها في كل عام عدد لا يحصى من الناس ، وفكرة التداوى بالخمير حيلة شيطانية حتى تتمكن من النفس وتصبح عادة يصعب انتزاعها .

وحكم شارب الخمير : أربعون جلدة ، وقيل ثمانون ، فقد روى أن النبي ﷺ جلد أربعين وفعل أبو بكر مثله ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر .  
ومثل الخمير كل مادة يحصل منها ضرر مالى أو جسمانى أو خطر اجتماعى أو خطر دينى كالخشيش والأفيون أو أى مادة أخرى فهي محرمة حرمة الخمير .

### الصيد فى الإحرام وجزاؤه

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ۚ مَنِ الْصَّيْدُ تَنَالَهُ وَأَيْدِيكُمْ ۖ وَرِمَاكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنِ يَخْفَاهُ ۚ بِالْغَيْبِ ۖ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ۚ عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعَالَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة (١٥) . والدارمى بمعناه فى الأشربة (٦) . ومسلم فى الأشربة (١٢) . وأبو داود فى الطب (١١) .  
والترمذى فى الطب (٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الحدود (٢ ، ٤ ، ٥) . ومسلم فى الحدود (٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨) . وأبو داود فى الحدود (٣٥ ، ٣٦) . وابن ماجه فى الحدود (١٦) . والدارمى فى الحدود (٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥) وفى (٣ : ٦٧ ، ١١٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٧) .

**المفردات ﴿ ليلونكم ﴲ** : ليعاملنكم معاملة من يختبركم . ﴿ تناله أيديكم ﴲ : يكون في تناول اليد . ﴿ حرم ﴲ : محرمون بحج أو عمرة أو في مكان الحرم . ﴿ عدل ﴲ : مساو له . وبال أمره : عاقبة أمره الثقيلة . ﴿ للسيارة ﴲ : جمع سيار وهو المسافر .

أحل الله لنا أكل الطيبات من الرزق واستثنى الخمر وما شاكلها ، وهنا أضاف لها الصيد في الإحرام وبين جزاءه .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴲ بالله وبرسوله ﴿ ليلونكم الله ﴲ ليعاملنكم معاملة من يختبركم ﴿ بشيء من الصيد ﴲ أى بعض منه وهو صيد البر لا صيد البحر ، اختبركم بإرساله بحيث يسهل تناول بعضه بالأيدى ، وبعضه بالرماح ، وكيف لا يكون هذا اختباراً وابتلاء والمصيد طعامه لذيد ، واصطياده حبيب إلى النفس ، خصوصاً في الأسفار ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرتة وعدم تأييه كان هذا اختباراً ، وأى اختبار ، يفعل الله هذا ليعلم علم ظهور وانكشاف من يخافه بالغيب ومن يخافه أمام الناس فقط ، كالمناققين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم والله عالم بكل شيء ، ولكن يريد ليظهركم وليتم نعمته عليكم بالامثال .

فمن اعتدى منكم بعد ذلك البيان البين فله عذاب شديد في الدنيا والآخرة مؤلم غاية الألم .

يا أيها الذين اتصفت بالإيمان ، وصدقتم بالرسول ، وآمنتم بالقرآن : لا تقتلوا صيد البر ، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور في الآية السابقة : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، أو في مكان الحرم ، وإن لم تحرموا ، وذلك إجلالا للحج وشعائره ، واحتراما للمكان وهيبته له ، وهو مباءة للناس والطير وأمن لهم ، وهذا في الحرم المكي ، أما الحرم المدني فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ، ولا قطع الشجر كحرم مكة ، فإن فعل هذا أحد أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعي ، ورد عن رسول الله في الصحيح : ( اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ، لا يحتل خلاها — الخلى النبات الرقيق مادام رطباً ويحتل يقطع ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها )<sup>(١)</sup>

ومن قتله منكم عامداً قاصداً له فعليه جزاء من الأنعام مماثل له في هيئته وصورته إن وجد المثل وإلا فقيمته ، وقيل يقوم من أول الأمر واعلم أن ما يجزى عن الصيد شيئان دواب وطير فيجزي ما كان من الدواب بنظرة في الخلقة والصورة ففي النعامة بدنة وحمار الوحش بقرة وفي الظبي شاة أثلج .

(١) أخرجه البخارى في الجهاد ( ٧١ ، ٧٤ ) وفي المدينة ( ١ ) وفي البيوع ( ٥٣ ) وفي الأنبياء ( ١٠ ) وفي المغازى ( ٢٧ ) وفي الأطعمة ( ٣٥ ) وفي الدعوات ( ٣٥ ) وفي الاعتصام ( ٦ ) . وأخرجه مسلم في الحج ( ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨ ) . وأخرجه أبو داود في المناسك ( ٦٦ ) والترمذى في المناقب ( ٦٧ ) والنسائى في الحج ( ١١٠ ) ، ( ١١١ ) ، وابن ماجه في المناسك ( ١٠٤ ) والإمام مالك في المدينة ( ١٠ ) . والإمام أحمد في ( ١ : ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥ ) وفي ( ٣ : ٢٣ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٣٣٦ ، ٣٩٣ ) وفي ( ٤ : ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ١٤١ ) .

وقد ورد عن جابر عن النبي ﷺ قال : « في الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفي الظبي شاة وفي الأرنب عناق »<sup>(١)</sup> والعناق الأنتى من المعز لم تبلغ سنة .

واعلم أن الآية الكريمة : أفادت أن القتل العمد فيه الجزاء والسنة النبوية أفادت أن الخطأ كذلك وعن سعيد بن جبير : لا أرى في الخطأ شيئاً أخذاً بظاهر الآية والله أعلم بكتابه .

والصيد الذى نهت عنه الآية كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا شئ في قتل الحمار الأهلى مثلاً ، ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات والفواسق كالحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وألحق مالك بالكلب الذئب والأسد والتمر . « ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » من أهل المعرفة والعدل من المؤمنين ، وإنما احتجنا للتحكيم لأن المماثلة بين النعم والصيد مما تخفى على كثير ، خصوصاً في هذه الأيام وقد توالدت أشكال وأصناف من الحيوان والطيور ، ومالا مثل له يحكم فيه بالقيمة . « يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » واصلاً إليها يذبح عندها ويفرق على مساكين الحرم .

نعم عليه جزاء مماثل لما قتل أو كفارة هي أن يقوم الصيد الذى أصابه فينظر كم ثمنه من الطعام ، فيطعم لكل مسكين مداً أو يصوم مكان كل مد يوماً وعند أى حنيفة يقوم الصيد أولاً . وجد له مثل أولاً ، والآية لا تمنع هذا روى ابن جرير عن ابن عباس قال : إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد فعليه من الجزاء فإن قتل ظيياً أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

أوجبنا هذا ليدوق عاقبة أمره ، وسوء فعله ، حيث هتك حرمة الإحرام ، عفا الله عما سلف قبل نزول الآية .

ومن عاد بعد هذا ، فينتقم الله منه ، أشد الانتقام في الآخرة ، والله عزيز الانتقام ، لا يغلبه عاص أو مذنب .

أيها المسلمون : أحل لكم صيد البحر سواء كان حياً أو ميتاً قذفه البحر أو طفا على وجهه أو انخسر عنه الماء فهو الحل ميتته الطهور ماؤه أحله الله متاعاً لكم وللسيارة المسافرين ، فمن كان مقيماً فليأكل من صيده الطاهر الطازج ، ومن كان مسافراً فعنده السمك المحفوظ ، وحرّم عليكم صيد البر من الوحش والطيور ما دتم حراماً ، أى فلا مانع من أكل ما صاده غيركم أو صدتموه في غير الإحرام عن النبي ﷺ قال : ( صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم واتقوا الله الذى إليه تحشرون ) .

(١) أخرجه الدارمى في المناسك (٩٠) . والإمام مالك في الحج (٢٣٠) . وابن ماجه في المناسك (٩٠) .

## البيت الحرام والشهر الحرام ومكانتهما

\* جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُو أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

**المفردات ﴿جعل﴾** : يصح أن تفسر بالجعل التكويني الخلقى ، أو التشريعي .  
**﴿الكعبة﴾** : البيت المربع . وقيل المرتفع ، وقد غلب اسمها على البيت المقدس الذى بناه إبراهيم وإسماعيل بمكة عليهما السلام . **﴿قياماً للناس﴾** : ما به يقوم أمرهم ، ويصلح شأنهم ، ( الشهر الحرام والهدى والقلائد ) تقدم تفسير ذلك أول السورة .

قال الرازى : الله تعالى حرم فى الآية المتقدمة الاصطياد على المحرمين ، فكان الطير والوحش آمناً على نفسه وولده ، وفى هذه الآية أفاد أن الحرم سبب لأمن الناس وهدايتهم وسبب لحصول الخيرات والسعادة فى الدنيا والآخرة .

جعل الله الكعبة البيت قياماً للناس الذين يسكنونها ، حيث يجلب إليهم الخيرات ورزقهم من الثمرات ، ويجعل قلوب الناس تهوى إليهم ، وتعطف عليهم ، وبذلك يكون أمرهم ويصلح شأنهم ، وهكذا من حج إليها واعتمر يجدون فيها الخير والسعادة والراحة والطمأنينة كل ذلك إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتى ﴿١﴾﴾ الآية . وجعلها الله قياماً للناس فى أمر دينهم ، المهذب لأخلاقهم ، المزكى لأنفسهم ، أليست مكان الحج ؟ الذى هو ركن من أركان الدين ، فيه يعقد المؤتمر العام للمسلمين الذى يهرعون إليه من كل فج عميق ، كبارهم وزعمائهم وأغنيائهم ، يتباحثون ويقفون على أمور دينهم ، وتنبعث القوة فى نفوسهم ، ويتجدد الإسلام فى أعماقهم ، وتتأكد الرابطة بينهم ﴿٢﴾ إنما المؤمنون إخوة ﴿٣﴾ . وجعل الله الشهر الحرام قياماً للناس لذلك ، فهو مثابة للناس وأمن فى الجاهالية والإسلام ، فيه يأمنون على أنفسهم وتجارتهم وأموالهم ، فيه يلقي السلاح ، وتهب النفوس ، وتسكن الفتن ، وتخمد نار الحرب المستعرة . أليست معنى فى أنه قيام للناس ﴿٤﴾ أو لم يروا أن جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴿٥﴾ .

وكان الهدى والقلائد قياماً للناس ، فمن بذلها قومت له دينه ، وكفرت عنه ذنبه ، وطهرت له نفسه ، وزكت ماله ، وجعلته آمناً على نفسه ، وهى عند من يأخذها قوام حياته .

كل ذلك لتعلموا أن هذه الأمور لحكم الله يعلمها ، ولا يمكن أن تصدر إلا من عالم بما فى السماوات والأرض ، وأنه بكل شىء عليم ، والناظر إلى الحج يجده دعامة من أقوى الدعائم للإسلام ،

(١) الآية ٢٧ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات . (٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .

يعرفه الغربيون ويعرفون أثره في نفوس المسلمين ، وما يحصل بسببه من تقوية أواصر الصلوات وإذكاء روح الدين بين المؤمنون .

### ترغيب وترهيب

أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات ﴿ الخبيث والطيب ﴾ : الحلال والحرام . ﴿ الألباب ﴾ : العقول .

الله سبحانه عليم بكل شيء ، وعليم بما في السموات وما في الأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحمن الرحيم ، ومقتضى هذا كله أنه لم يخلقنا عبثاً ، ولم يتركنا هملاً ، بل لا بد من جزاء العاصي ، وإثابة المطيع واعلموا أن الله شديد العقاب ، وسريع الحساب ، وقوى العذاب لمن عصى وطغى ، وتجبر وبغى ، وهو رءوف بالعباد غفور للسيئات رحيم بمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ، وأما من نشأ طائعاً ولم تدنس نفسه بسوء أبداً فهنيئاً له الرضوان ، ثم هنيئاً .

وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أنه ما على الرسول إلا البلاغ ، وعلى الله وحده الحساب ، وإليه المرجع والمآب ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذي يعلم السر وأخفى ، والغيب والشهادة ، فاتقوا الله واحذروا حسابه ، قل لهم يا أيها الرسول لا يستوى الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، وهل يستوى الجيد والردى ، وكيف يستويان : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (١) .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٢) .

قل لهم لا يستوى الخبيث والطيب أبداً ولو أعجبك كثرة الخبيث من العصاة والكفار ، وقلة الطيب من المسلمين والأبرار ، فاتقوا الله يا أولي الألباب ، وتذكروا فإنما يتذكر أولو العقول الصحيحة الذين يحكمون أحكاماً سليمة موفقة ، تفرق بين النافع حقيقة وإن يشابه تعب ومشقة وبين الضار المهلك وإن زينت له الدنيا وازخرفت .

### السؤال الضار

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدِّلَكُمْ تَسْأَلُونَ وَإِنْ نَسَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

الْقُرْءَانُ تُبَدِّلُكُمْ عَفَاَ اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾

روى مسلم عن أنس هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ قال : لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله هذه الآية ﴾ (١) :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ من أمور الدين ودقائقه التي تركت رحمة بكم وإشفاقاً عليكم . وقيل المعنى : لا تكثرُوا من السؤال عما لا يعينكم من أحوال الناس وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾ (٢) .

وليس المراد النهى عن السؤال مطلقاً في أمور الدين ، لابل قد أقر الشرع سؤالهم عن توضيح أحكام العدة والخمر وغيرهما ، فلا حرج في مثل هذا ، وإنما الحرج في التشدد في العمل وكثرة التكليف ، لأن هذا قد يؤدي للإهمال وقد يؤدي إلى الخروج من الدين كما حصل في الأمم السابقة .

وقد سأل سائل منهم النبي ﷺ عن أبيه من هو وهل الحج واجب في كل سنة أم لا وغير ذلك ، من الأسئلة المخرجة التي فيها العنت والمشقة على الناس ، والله أعلم بخلقه وقدرته . وإن يسألوا عن غير هذه المسائل الشائكة مما تمس الحاجة إليه من تحريم أو تحليل أو حكم جديد يجابوا إلى طلبهم فإنه خير ، وقد أباح الله هذا النوع من السؤال فالنهي إذن في شيء لم يكن لهم حاجة إلى السؤال فيه ، وكان الإجابة عنه مشقة وزيادة كلفة وقيل لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ﴿ إن تبدلكنم تسؤكن ﴾ وعلى هذا خرج حديث ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها ) .

قد سأل مثلهم قوم قبلكم فلما أجيبوا وفرضت عليهم كفروا بها وقالوا ليست من عند الله ، وما قوم صالح . وأصحاب المائدة منكم يبعيد .

فاعتبروا يا أولى الأبصار ولا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين فسددوا وقاربوا .

### نوع من ضلال الجاهلية

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَجِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في الأعتصام (٢) . ومسلم في الحج (٤١٢) . والنسائي في المناسك (١) وابن ماجه في المقدمة (١) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨) .

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

الْكَذِبَ وَأَكْثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

**المفردات ﴿بحيرة﴾** : هى الناقة يحرون أذنبا أى يشقونها شقاً واسعا إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى ، وكان يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد . ( السائبة ) . الناقة التى تسبب لآلهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ، ولا يأخذ لبنها إلا ضيف . ﴿ الوصيلة ﴾ : الشاة أو الناقة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآلهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبوا الذكر لآلهم ، وقيل فى تفسيرها غير ذلك . ﴿ الحام ﴾ : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

أيها المسلمون ما جعل الله فى الدين الإسلامى من بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً ، أى ما شرع ذلك ولا أمر به ، فما كان يفعله الجاهليون فهو رد عليهم غير مقبول منهم . ولكن الذين كفروا إذ يفعلون ما يفعلون إنما يفترون على الله الكذب حيث قالوا أمرنا الله بهذا : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمتنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .. إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ (١) .

وإذا قيل لهم تعالوا أيها الضالون إلى نور القرآن ، وإلى هدى الرسول ، وحكموا عقولكم ، وانزعوا عنها غطاء التعامى عن آيات الله ، قالوا غروراً وجهلاً وسفهاً وحمقاً : ﴿ حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ فآباؤنا مصدر التشريع الصحيح ، ايتبعونهم ويتركون الدين الصحيح والتشريع القويم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً أبداً ولا يهتدون إلى خير أصلاً ، ولا غرابة فهم الذين عاشوا فى العداوة والبغضاء والحروب والغارات وشرب الخمر ووأد البنات وعمل الفحش والمنكرات . وهل كانت هناك جاهلية جهلاء وضلالة عمياء أسوأ من هذا .

### فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بعد ما سبق من توجيهات تتعلق بالأحكام الشرعية وتنفى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك ، نعى القرآن الكريم عليهم ما كانوا عليه من تقليد الآباء ، وأن

ذلك كان معولا من معاول الهدم ، إذ أن المسؤولية في الإسلام فردية ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾<sup>(١)</sup> فما بالناس إذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ إن الخطب عندئذ فادح والهول جسيم .

بعد ذلك يأتي الخطاب من صاحب العظمة والكبرياء إلى الجماعة المؤمنة التي عرفت بإيمانها واستجابتها لأوامر الله ورسوله . جاء الخطاب مرشدا وموجها لأمر جد خطير تنبئ عليه قوة الأمة وتأثيرها في عالم البشر ، إنه الأمر بالتزام شئون أنفسها ، وذلك بالإعداد والتكوين والاتحاد والألفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فإذا ما استمسكت الجماعة المؤمنة بأحكام ربها ونفذت أوامره وطبقت شرائعها ، فإن أى قوة على وجه الأرض مهما كان ضلالها ، لا يمكن أن تضير هذه الجماعة التي أصبحت كالبنيان المرصوص والتي أصبحت سماتها كما صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرزون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومن الخطأ الشائع أن يقال إن الإنسان متى لزم شأن نفسه أصبح خاليا من مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فذلك فهم سقيم برئت منه ساحة الآية الكريمة . فخيرنى بربك كيف يكون للمجتمع كيان إذا لزم كل إنسان نفسه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر ، إنه مجتمع الرذائل والخور ، إنها السلبية القاتلة والآية تدعو إلى قوة المجتمع الإسلامى : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ هكذا بصيغة الجمع ولو كانت كما يدعون ويزعمون لجاء الخطاب بصيغة الأفراد : ﴿ يا أيها المؤمن عليك نفسك ﴾ ما من مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا كان العز رائده والنصر حليفه وألبسه الله لباس العز والشرف . وما من مجتمع لا يؤمر فيه بمعروف ، ولا ينهى فيه عن منكر إلا كان الذل رائده ، والفشل حليفه ، وأذاق الله أهله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون : الدين النصيحة ، والناس بخير ماتناصحوها ، وها نحن أولاء نسوق من الأحاديث ما يجعل المعنى جليا جللاء يزيل كل لبس وينفى كل غموض :

قال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية : يقول تعالى إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به .

قال الإمام أحمد : حدثنا قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابهم )<sup>(٣)</sup> .

وروى الإمام أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا أبو أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت :

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(١) الآية ٣٨ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه أبو داود في الملاحم (١٧) . والترمذى في الفتن (٨) وفي تفسير سورة ٥ (١٧) . وأخرجه ابن ماجه في الفتن (٢٠) . والإمام أحمد في (١ ، ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وفي (٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦) وفي (٦ : ٣٣٣) .



له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال آية آية قلت : قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً . سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : ( بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم ) قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ، قال : ( بل أجر خمسين منكم )<sup>(١)</sup> .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله : ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ولكن قد يوشك أن يأتي زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل ﴾ قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر : فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ الآية ، قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجيء تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزل ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ ييسر ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعاً ، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمرؤا وانها ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية . رواه ابن جرير .

وليعلم المسلمون أن الله تبارك وتعالى لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . فكأن يا أخى كما قال لقمان لابنه : ( يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور )<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ تنبيه للغافلين الذين شغلهم الدنيا عليهم أن يعلموا أنه لا بد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . فالיום عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول لعمر بن مهاجر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر فانك ستموت .

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٧) . والترمذى في تفسير سورة ٥ (١٨) وابن ماجه في الفتن (٢١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان .

نعم هذا نموذج رفيع من النماذج التي تخرجت في مدرسة الإسلام فمن خاف سلم ، ومن ذاق عرف ، ومن حُرِم انحرَف .

غدا توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

### أحكام تتعلق بالوصية عند الموت

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ إِخْرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَبْتَكُمْ مِصْبَةَ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيْمِينَ ﴿١٥٦﴾ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَاخْرَأْ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَٰئِينَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتْنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتِيهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ذَلِكَ أَذْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنٌ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٥٨﴾

**المفردات ﴿ شهادة ﴾ :** هي قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصير أو بصيرة . ﴿ ضربتم في الأرض ﴾ : سافرت ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه . ﴿ تحسبونهما ﴾ : تمسكونهما . ﴿ إن ارتبتم ﴾ شككتم في صدقهما فيما يقران به . ﴿ عثر ﴾ اطلع وأعثر عليه : أعلمه به . ﴿ الأوليان ﴾ : تشية أولى وهو الأحق بالشيء . ﴿ أدنى ﴾ : أقرب .

عندما نذكر سبب نزول هذه الآيات يتضح لنا معناها ، كما يتجلى لنا مدى حرص الإسلام على أداء الأمانات كاملة غير منقوصة ، ومدى حرصه على الصدق دونما نظر إلى العواقب ، فالصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك . وقد مدح الله تعالى الصادقين عندما خرطهم في سلك المسلمين والمؤمنين ، فقال : ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ <sup>(١)</sup> وحكم للمتصفين بتلك الفضائل بقوله : ( أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ) . وهل يستطيع إنسان أن يكتم الله شيئا .

الله يدرى كل ما تضمــــر  
يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع  
خداع من يطوى ومن ينشر

الله تعالى عليم بذات الصدور ، يعلم خائنة الأعين ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى .  
 جاء في سبب نزول هذه الآيات : كان تميم الداري ، وعدي بن بداء رجلين نصرانيين يتجران إلى مكة في الجاهلية ، ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حولتا متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام . حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصية بيده ثم دسها في متاعه ، وأوصى إليهما أن يوصلا متاعه إلى أهله . فلما مات فتحا متاعه ، فأخذوا منه شيئا ثم حجراه كما كان وقدا المدينة على أهله ، فدفعوا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا : هذا الذي قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : هذا الذي قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت هذه الآية ، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما في دبر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو . ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش موه بالذهب فقال أهله : هذا من متاعه ، قالا : نعم ولكننا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبي ﷺ فنزلت الآية ﴿ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ فأمر النبي ﷺ رجلين من أهل بيت الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه .. ثم إن تيمما أسلم وبايع النبي ﷺ وقال : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء مع صاحبي<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ ، هذا بيان حكم من أحكام الله تعالى يتعلق بالوصية عند الموت في السفر بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ ﴾ فالمقصود بالضرب في الأرض هو السفر للتجارة أو غيرها ، قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup> فإذا شعر المسافر بدنو أجله ، وأراد أن يكتب وصيته لأهله يخبرهم فيها بما يريد كإثبات ما معه من مال ومتاع ستركه بعد موته ، فعليه أن يشهد على تلك الوصية اثنين ذوي عدل . قوله تعالى ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أي من المسلمين إن وجدا ، ﴿ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي من غير المسلمين إن لم يوجد سوى ذلك . وهذه مسألة خاصة وحكم خاص بالسفر .

### كيف يشهدان

قال تعالى ﴿ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيَقْسَمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴾ . معنى تحسبونهما أي تمسكونهما ( من بعد الصلاة ) : أي صلاة العصر كما فعل رسول الله ﷺ أو أي صلاة أخرى ، فيحلفان بالله قائلين : ﴿ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ ﴾ بمعنى أننا لا نشترى باليمين أي متاع من متاع الدنيا ، ولا نخفي

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٣٥) . وأبو داود في الأقضية (١٩) . والترمذي في تفسير سورة هـ (٢٠) .

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

في الشهادة طمعا في عرض فان ولو كان الموصى من ذوى قربانا ، فإننا لا نطمع فيما ترك . وإنما تكون هذه الشهادة وذلك القسم عندما يقع الشك والريبة في قلوب الورثة ، وقد جاء ذلك صريحا في قوله جل شأنه ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ ﴾ أى شككتم ووقع في نفوسكم أن الشاهدين قد خانا وكنا شيئا من متاع الميت بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا ﴾ أى ظهر واتضح أن الشاهدين قد وقع منهما ما يدل على الخيانة في الأمانة فالحكم كما قال تعالى : ﴿ فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا ﴾ أى فشاهدان آخران يقومان مقام الشاهدين اللذين عثر على أنهما خانا ، وليكن هذان الشاهدان الآخران من الذين استحقا الأوليان عليه ، والمقصود بالأولين : الوارثان من أقارب الميت .

### كيف يشهد الأوليان

قال تعالى : ﴿ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدِينَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وبهذه الشهادة يرد إلى الورثة ما كتبه الشاهدان الأولان أو خاناه . وقول الأولين : ﴿ وَمَا اعْتَدِينَا ﴾ أى ما حدث منا تجاوز للحق عندما شهدنا بعد شهادتهما إننا إن فعلنا ذلك فإننا من الظالمين ، ولكننا شهدنا عندما عثر على أنهما استحقا إثما .

### أدنى السبل إلى إظهار الحق

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه أقرب السبل لإتيان الشهود بالشهادة على وجهها الصحيح إذ أنه يدعو إلى خوف الشهود أن ترد أيمان بعد أيمانهم فيكون ذلك من الفضائح ما فيه ومن الخزي والتشهير ما يندى له جبين الحياء خجلا .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا ﴾ : ما أعظم أن يأتي الأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام إذ التقوى هى صمام الأمن في تنفيذ أوامر الله ، أليست التقوى هى السلاح الأقوى ، بلى لأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، وما أجمل أن يأتي الأمر بالسمع بعد الأمر بالتقوى . قال تعالى في حق المؤمنين ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ الخارجين عن طاعته وقد يكون ذلك بمخالفة أمره والبعد عن طاعته . وخيانة الأمانة وكتمان الشهادة واستحقاق الإثم والكذب في أداء اليمين من هذا القبيل .

### من مشاهد القيامة

\*يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالَوْا لَعَلِمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ ﴿١٠٩﴾

اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة : فياله من يوم ما أطوله وياله من خطب ما أهوله ! وياله من جبار ما أعدله ! إنه يوم سيجمع الله فيه المرسلين فيسألهم : ﴿ مَاذَا أَجَبْتُمْ ﴾ قال

تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾<sup>(١)</sup>

وقد بين الله تعالى أنه سيسأل الذين أرسل إليهم فقال : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ فوريك لنسألهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾<sup>(٤)</sup> . وبين أنه سيسأل الرسل فيقول : ﴿ ماذا أجبتم ﴾ فيجيب الرسل قائلين : ﴿ لا علم لنا ﴾ ، والدافع لتلك الإجابة إما أن يكون لما أصابهم من ذهول من أهوال هذا اليوم العصيب . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾<sup>(٥)</sup> . وإما أن يكون المقصود بإجابتهم أن لا علم لنا بجانب علمك فأنت الذى أحطت بكل شيء علماً ، وأحصيت كل شيء عدداً ، وأنت علام الغيوب علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

وهكذا سأل الله الرسل ، وبهذا أجابوا : وهكذا سأل الذين أرسل إليهم وهكذا تبينت الحقائق : قال تعالى : ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

### حديث عن المسيح بن مريم

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنَّ آمَنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

**المفردات** ﴿ روح القدس ﴾ : جبريل عليه السلام الذى يؤيد به الله رسله بالتعليم والتثبيت .  
﴿ فى المهد وكهلاً ﴾ : فى حالتى الصغر والكبر . ﴿ الكتاب ﴾ : المراد كل ما يكتب .  
﴿ والحكمة ﴾ : العلم النافع . ﴿ الأكمه ﴾ : من ولد أعمى . ﴿ سحر ﴾ : السحر هو التمويه والتخيل

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٩٢ من سورة الحجر .

(٣) الآية ١ ، ٢ من سورة الحج .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٢٤ من سورة الصافات .

(٦) الآية ٧ - ٩ من سورة الأعراف .

بالباطل حتى يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته . ﴿الحواريون﴾ الأصحاب الخالص للمسيح .

واذكر يا محمد ﴿إذ قال الله عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك﴾ ، فقد أنعمت عليك بالنبوة ، وجعلتك آية للناس ورحمة منا ، وجعلت خلقك معجزة ، إذ خلقتك من غير أب ، وأنعمت على والدتك بالاصطفاء والطهر ، ﴿وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾<sup>(١)</sup> .. ومن نعمي عليك أنني أيدتك بالروح القدس أى الروح الطاهر وهو جبريل الأمين . وقد كنت من الذين تكلموا في المهد حيث قلت لأُمك : ﴿لا تخزى قد جعل ربك تحتك سرياً﴾<sup>(٢)</sup> وقلت لقومك : ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾<sup>(٣)</sup> فكان كلامك هذا بمثابة دعوة إلى الله وتبرئة لساحة أُمك البتول الطاهرة الناسكة . وكما دعوتهم في مهدك دعوتهم في كهولتك .. ومن نعمي عليك أنني علمتك الكتابة وأنعمت عليك بالحكمة . والحكمة علم غزير وعمل موفق وحكم صواب . قال تعالى : ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾<sup>(٤)</sup> . كذلك علمتك التوراة والإنجيل ، فعرفت ما في التوراة من أحكام ، وما في الإنجيل من وصايا . وأظهرت على يديك المعجزات وخوارق العادات فتأق من الطين كصورة الطير فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذى وتبرئ الأكمه الذى ولد أعمى فترد عليه بصره ، والأبرص المصاب بهذا الداء الجلدى الخطير فتشفيه من مرضه ، وكل ذلك بإذى ومن المعجزات التى أجريتها على يديك أنك تخرج الموتى من قبورهم بإذى . ومن نعمي عليك أنني كففت أذى بنى إسرائيل عنك ومنعتك منهم بعنايتى ورعايتى وحفظى لك وصيانتى ، إذ جئتهم بالبينات الواضحات ، وخوارق العادات ، فقال الكافرون منهم كما قالوا للأنبياء من قبلك : إن هذا إلا سحر مبين : ﴿ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك﴾<sup>(٥)</sup> . ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون﴾<sup>(٦)</sup> .

وهل هناك وجه شبه بين السحر والمعجزة : إن المعجزة حقيقة واقعة لامراء فيها ، أما السحر فإنه تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل لا يستند إلى أرض من الواقع ، فهل إبراء الأكمه وشفاء الأبرص تخيلات وأوهام ؟ وهل إخراج الموتى من القبور أحياء تخيلات وأوهام ، كلا . بل إنها معجزات وحقائق . وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ﴿ويل لكل أفَّاك أثيم﴾ . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشرة بعذاب أليم﴾<sup>(٧)</sup> .

ومن نعمي عليك أنني أوحيت إلى الحواريين وهم أصحابك الخالص وحي إلهام كالوحي إلى أم موسى ﴿أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون﴾ فى الآية دليل على أن دين الأنبياء

(١) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٤ من سورة مريم .

(٣) الآية ٣٠ من سورة مريم .

(٤) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٦) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الذاريات .

(٧) الآيات ٧ ، ٨ من سور الجاثية .

جميعا هو الإسلام : قال نوح ﴿ ( وأمرت أن أكون من المسلمين ) ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال إبراهيم ﴿ أسلمت لرّب العالمين ﴾<sup>(٢)</sup> وقال يوسف ﴿ توفنى مسلماً وألقننى بالصالحين ﴾<sup>(٣)</sup> وقال يعقوب ﴿ لىنى ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾<sup>(٤)</sup> وقال الله تعالى فى حق الأنبياء : ﴿ يحكم بها النبىون الذين أسلموا ﴾<sup>(٥)</sup> وقال فى حق خاتمهم : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾<sup>(٦)</sup> .

### قصة المائدة

إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾

**المفردات** ﴿ الخواريون ﴾ : الأصحاب الخالص للمسيح . ﴿ مائدة ﴾ : هى الخوان الذى عليه الطعام أو الطعام نفسه . ﴿ اللهم ﴾ : يا الله . ﴿ عيدا ﴾ : فرحا وسرورا أو يوما يجتمع الناس فيه للعبادة . كعيد الفطر مثلا يعود كل سنة .

وقصة المائدة عبرة وعظة لمن يطلب من الله آيات غير التى أنزلت ، وعاقبة ذلك ، وهى فى الجملة تسلية للنبي ﷺ وتبين له طبائع الناس وسيرتهم مع أنبيائهم .

هذه قصة المائدة التى سميت هذه السورة الكريمة باسمها ، وقد تسمى السورة فى القرآن الكريم بأعجب ما فيها ، كسورة البقرة إذ لها شأن عجيب ، وهذه السورة سميت بالمائدة أيضا لأن المائدة آية من آيات الله تعالى ، وقد يراد بالمائدة الخوان الذى عليه الطعام ، وقد تطلق أيضا على الطعام نفسه ، لكن الذى يجب الوقوف عنده كثيرا كيف يقول الخواريون وهم الأصحاب الخالص لنبىهم عيسى ﴿ هل يستطيع ربك ﴾ وهو سؤال خطير خاصة وأن الله قد أجرى على يذى المسيح من المعجزات ما يملأ النفس يقينا وصدقا وإيمانا وإذعاننا لقدرة الله تعالى وعظمته فإذا كان هذا قد صدر من الخواريين ، فما بالنا بغيرهم .

(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٤ ، من سورة المائدة .

(٦) الآية ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٩١ من سورة التمل .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

من هنا فقد أعمل العلماء عقولهم في تخريج هذه الآية مستظلين بظل الشرع واقفين عند حدود النص ، فقالوا في تفسير هذا المشهد ، قال العلماء : واذكر يا محمد وقت قول الحوارين لعيسى ابن مريم والمراد في مثل هذا التركيب ذكر ما حصل في الوقت لانفس الوقت . قال الحواريون وهم المؤمنون الخالص ردا على عيسى حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ ، ومع هذا قالوا : ﴿ هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ .

وهذا سؤال لا يليق بهم قطعاً ولذا خرجهم العلماء على وجوه احسنها أن يستطيع بمعنى يطيع كاستجاب بمعنى أجاب ، أو المعنى : هل تستطيع أمر ربك ، أى سؤاله ، وقيل إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية ، أى هل ينافي الحكمة إنزال المائدة أم لا ؟ فإن ما ينافي الحكمة لا يقع قطعاً وإن كان ممكناً .

ولذا قالوا معترضين عن إيراد السؤال بهذه الصورة نريد أن نأكل منها ، فنحن في حاجة إليها ، ونحن إذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ في أن الله تعالى أرسلك نبياً واختارنا أعوانا لك ، وقد رضى عنا بإجابته سؤالنا .

﴿ ونكون عليها من الشاهدين ﴾ لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة ، إذ هذه كالدليل على ذلك .

قال عيسى ابن مريم يا ربنا يا مالك أمرنا ومتولى شئوننا أنزل علينا مائدة من السماء يراها هؤلاء وتكون لنا معشر المؤمنين مصدر فرح وسرور ويوم نزولها نتخذها عيداً نجتمع فيه للعبادة والشكر ويعود علينا كل عام باليمن والإقبال لأولنا وجوداً وآخرنا كذلك وتكون آية منك ودلالة وحجة ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق رسالتى ، وارزقنا ما به نقيم أودنا ونغذى أجسامنا وعقولنا فأنت خير الرازقين ، ترزق من تشاء بغير حساب .

قال الله تعالى : ﴿ إني منزلها عليكم ﴾ وقد نزلت ، إذ وعده الحق وقوله الصدق ، فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة فإني أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب هذا العذاب لأحد من العالمين ، إذ اقترح آية بعد الآيات الكثيرة التى نزلت كهذه المائدة آية يشترك في إدراكها جميع الحواس ، ثم بعد هذا يكفر بها ويستهزئ ، فإنه يستحق من الله عذاباً دونه عذاب الكفار جميعاً .

وورد في قصة المائدة روايات كثيرة عن شكلها ولونها وطعامها ، والظاهر والله أعلم أنه كان لخيال الإسرائيليين فيها نصيب ، ونحن نلتزم حدود القرآن والسنة الصحيحة ، وفقنا الله إلى الصواب .

في ساحة العدل يوم القيامة

وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يُعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ



سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

**المفردات ﴿ ما في نفسي ﴾ :** المراد تعلم سرى ولا أعلم سرى . ﴿ شهيداً ﴾ : حفيظاً بما أمرتهم . ﴿ الرقيب ﴾ : من المراقبة وهي المراقبة والمراد الحافظ لهم والعالم بهم . ﴿ العزيز ﴾ : الذي لا يغلبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ : المنزه عن العيب، الذي يضع الأمور في نصابها . ﴿ صدقهم ﴾ : الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والكذب هو بخلاف ذلك .

هذا مشهد من مشاهد القيامة في ساحة هي ساحة العدل الإلهية الكبرى ، وفي يوم يجمع الله فيه الرسل ، وقد خص الله تعالى المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو يعلم أنه إمام من أمة التوحيد وأحد الأنبياء الذين عملوا وصبروا وجاهدوا وسماهم الله أولوا العزم من الرسل ، فهو أحد خمسة قال الله فيهم ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ <sup>(١)</sup> وذكرهم في قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ <sup>(٢)</sup> وذكرهم تعالى في قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية .

إنما خص الله تعالى المسيح بهذا السؤال : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ ليظهر براءته مما قاله النصراني فيه وفي أمه ، وليكون ذلك إعلاناً وبياناً لبطلان ما ادعاه هؤلاء النصراني من افتراء وكذب وبهتان على نبي الله وأمه ، وليكون في ذلك توبيخ وتقريع وتسفيه لما اعتقدوه ، لذا جاء الجواب من المسيح صريحاً ﴿ قال : سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ أي أن هذا دليل على أن ما قالوه في شأنه وشأن أمه لا يمت للحق بأدنى صلة ، بل هو يجافي الحق ويناقضه ، ثم يؤكد المسيح

هذا المعنى بما يفيد طهارة القلب ، وطهارة اللسان ، فيقول : ﴿ إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ أى أنك تعلم سرى الذى انطوت عليه نفسي ولا أعلم ما في ذاتك فأنت الذى أحطت بكل شيء علماً وأحصيت كل شيء عدداً علمت ما كان وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إنك أنت علام الغيوب ﴾ وكأن سؤالاً استشفه المسيح فأجاب عنه كأن سؤالاً قيل فيه فماذا قلت لهم إذاً فأجاب عنه ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴿ (١) ﴾ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ . أى شاهداً على أفعالهم وأقوالهم مدة وجودي فيهم : ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ المطلع على أفعالهم ، وما تخفى صدورهم وأنت الشهيد على كل شيء الحفيظ على كل فعل .

قوله تعالى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، هذا تفويض وتسليم لله تعالى بالأمر كله إن تعذبهم لما اقترفوه فإنهم عبادك وأنت السيد الأكبر والملك الأعظم الذى بيده ملكوت كل شيء وإن تغفر لهم فإنهم عبادك وأنت القائم على القائم بنفسك فالوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع وإرادتك إن تعذبهم فبعزتك التى لا تقهر وإن تغفر لهم فبحكمتك التى تترهب عن العتب فأنت الضار النافع الخافض الرافع العزيز الحكيم المحيى المميت المعز المذل القاهر القادر المقدم المؤخر الأول والآخِر الظاهر والباطن .

وهذه الآية تتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونباً عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يردددها .

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ آية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : ﴿ إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانها وهى نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً ﴾ (٢) .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فرفع يديه فقال : ( اللهم أمتي ) وبكى فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال

وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك<sup>(١)</sup> .

وعن حذيفة بن اليمان قال : « غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : ( إن ربي عز وجل استشارني في أمتي ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أي رب ، هم خلقتك وعبادك . فاستشارني الثانية فقلت له كذلك فقال لي : لا أخزيك في أمتك يا محمد وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً ، مع كل ألف سبعون ألفاً ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلى فقال : ادع تجب ، وسل تعط . فقلت لرسوله : أو معطى ربي سؤل ؟ فقال : ما أرسلني إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي حياً صحيحاً ، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة يسيل في حوض ، وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهراً ، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا في الدين من حرج ) »<sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عباس قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : ( يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ) ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ \* ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ، فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »<sup>(٣)</sup> رواه البخاري . قوله تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ الإشارة هنا إلى يوم القيامة والصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك . وأول درجات الصدق صدق اليقين مع الله ، حتى فسر بعضهم الصدق هنا بالتوحيد . وهذه الآية دليل على أن سؤال الله للمسيح سيكون يوم القيامة ولا يقال لما عبر بالماضي بقوله : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم ﴾ ، لأن الحكمة في هذا التعبير إفادة تحقق الوقوع كما في قوله جل شأنه إخباراً عن القيامة : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾<sup>(٤)</sup> وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٣) . والبخاري في التوحيد (٣٣) . والإمام أحمد في (٥ : ١٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء (٨ ، ٤٨) وفي تفسير سورة ٥ (١٤) وفي الرقاق (٤٥) وأخرجه مسلم في الجنة (٥٦ ، ٥٩) والترمذي في القيامة (٣) وفي تفسير سورة ٨ (٢) وأخرجه النسائي في الجنائز (١١٨ ، ١١٩) وابن ماجه في الزهد (٣٣) . والدارمي في الرقاق (٨٠ ، ٨٢) والإمام أحمد في (١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨) وفي (٦ : ٥٣ ، ٩٠) .

(٤) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا﴾ كقوله تعالى : ﴿خالدين فيها لا يغيون عنها جولا﴾<sup>(١)</sup> وكقوله جل شأنه : ﴿لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين﴾<sup>(٢)</sup> ﴿رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلوني سلوني أعطكم قال : فيسألونه الرضا فيقول رضى أحلكم دارى ، وأنا لكم كرامتى ، فسلوني أعطكم فيسألونه الرضا قال : فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى ) .

رضاك خير من الدنيا وما فيها      يا مالك النفس قاصيها ودانيها  
فليس للنفس آمال تحققها      سوى رضاك فذا أقصى أمانها  
فنظرة منك يا سنؤلى ويا أملى      خير إلى من الدنيا وما فيها

قوله تعالى : ﴿لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير﴾ ، هذه الآية فيها فصل القضاء بعد براءة المسيح عليه السلام مما قاله أهل الضلال ، أجابه الله تعالى بقوله ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ ، ثم جاءت هذه الآية تقضى بالحق ، فالذى يملك الكون كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه هو الله مالك الملك وملك الملوك لا شريك له فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فالمسيح عبد من عباده وكل الكائنات طوع وإرادته .

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى      وإلى علاك عنا الجبين الساجد

﴿وهو على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض ، علا فقهر وبطن فخير وملك فقدر .

يا من له عنت الوجوه بأسرها      رهباً وكل الكائنات توحيد  
أنت الإله الواحد الحق الذى      كل القلوب له تقر وتشهد

(١) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحجر .

## سورة الأنعام

هذه السورة مكية سوى ست آيات منها : ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ﴿ قل تعالوا أتْل ما حرم ربكم ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، هذه الآيات نزلت بالمدينة في مرتين وباقي السورة نزلت بمكة دفعة واحدة .

عدد آياتها : مائة وخمسون وستون آية عند الكوفيين ، وست عند البصريين والشاميين ، وسبع عند الحجازيين .

وعدد كلماتها : ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة ، وعدد حروفها اثنا عشر ألفاً ومائتان وأربعون .

ولهذه السورة اسمان : سورة الأنعام لما فيها من ذكر الأنعام مكرراً ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرت ﴾ ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً ﴾ ﴿ وأنعام لا يذكرُون اسم الله عليها ﴾ وسورة الحجة لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة وأيضاً تكررت فيه الحجة ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم ﴾ ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ .

## مقصود السورة على سبيل الإجمال

ما اشتمل على ذكره : من خلق السموات والأرض وتقدير النور والظلمة ، وقضاء آجال الخلق ، والرد على منكرى النبوة ، وذكر إنكار الكفار في القيامة ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وذكر تسلية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذبين ، وإلزام الحجة على الكفار ، والنهي عن إيذاء الفقراء ، واستعجال الكفار بالعذاب ، واختصاص الحق تعالى بالعلم المغيب ، وقهره وغلبته على المخلوقات ، والنهي عن مجالسة الناقضين ومؤانستهم ، وإثبات البعث والقيامة ، وولادة الخليل عليه السلام وعرض الملكوت عليه ، واستدلاله حال خروجه من الغار ، ووقوع نظره على الكواكب والشمس والقمر ، ومناظرة قومه ، وشكاية أهل الكتاب وذكرهم حالة النزاع ، وفي القيامة وإظهار برهان التوحيد ببيان البدائع والصنائع ، والأمر بالإعراض عن المشركين ، والنهي عن سب الأصنام وعبادتها ، ومبالغة الكفار في الطغيان ، والنهي عن أكل ذبائح الكفار ، ومناظرة الكفار ومحاولتهم في القيامة ، وبيان شرع عمر بن لحي في الأنعام بالحلال والحرام ، وتفصيل محرمات الشريعة الإسلامية ، ومحكمات آيات القرآن والأوامر والنواهي من قوله تعالى ﴿ قل تعالوا ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، وظهور أمارات القيامة وعلاماتها في الزمن الأخير ، وذكر جزاء الإحسان الواحد بعشرة ، وشكر الرسول على تربيته من الشرك والمشركين ورجوعه إلى الحق في محياه ومماته وذكر خلافة الخلائق وتفاوت درجاتهم وختم السورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحقها ورحمته ومغفرته لمستوجبها بقوله ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

## الآيات المتشابهات

في هذه السورة الكريمة آيات تشابهت مع آيات في سور أخرى ، وقد ذكرها صاحب البصائر

فقال :

قوله تعالى : ﴿ فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتهم أبناء ﴾ ، وفي الشعراء ﴿ فقد كذبوا فسيأتهم ﴾ لأن سورة الأنعام متقدمة فقيد التكذيب بقوله ﴿ بالحق لما جاءهم ﴾ ثم قال : ﴿ فسوف يأتهم ﴾ على التمام .

وذكر في الشعراء ﴿ فقد كذبوا ﴾ مطلقاً لأن تقييده في هذه السورة يدل عليه ثم اقتصر على السين هناك بدل ﴿ فسوف ﴾ ليتفق اللفظان فيه على الاختصار .

قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا ﴾ في بعض المواضع بغير واو كما في هذه السورة وفي بعضها بالواو وفي بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتي في القرآن على وجهين : أحدهما متصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ، فذكره بالهمز والواو ، ليدل الهمز على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها ، وكذا الفاء ، ولكنها أشد اتصالاً بما قبلها ، والثاني متصل بما الاعتبار فيها بالاستدلال ، فاقصر على الهمز دون الواو والفاء ليجرى مجرى الاستئناف ، ولا ينقض هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ في النحل ، لاتصالها بقوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ﴾ وسيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ .

قوله : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا ﴾ في هذه السورة فحسب وفي غيرها : ﴿ سيروا في الأرض فانظروا ﴾ لأن ثم للتراخي والفاء للتعقيب . وفي هذه السورة تقدم ذكر القرون في قوله : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ ثم قال : ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ . فأمرُوا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك ﴿ في ﴾ سير بعد سير وزمان بعد زمان فخصت بثم الدالة على التراخي بعد الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة ولم يتقدم في سائر السور مثلها فخصت بالفاء الدالة على التعقيب قوله : ﴿ الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ ليس بتكرار لأن الأول في حق الكفار ( والثاني ) في حق أهل الكتاب . قوله ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . وقال في يونس ﴿ فمن ﴾ بالفاء وختم الآية بقوله ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ لأن الآيات التي تقدمت في هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو .

وهو قوله : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. وإنني بريء ﴾ ثم قال : ﴿ ومن أظلم ﴾ وختم الآية بقوله : ﴿ الظالمون ﴾ ليكون آخر الآية موافقاً للأول . وأما في سورة يونس فالآيات التي تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء وهو قوله : ﴿ فقد لبث فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ ثم قال : ﴿ فمن أظلم ﴾ ( بالفاء ) وختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ أيضاً موافقة لما قبلها وهو قوله :

﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ فوصفهم بأنهم مجرمون : وقال بعده ﴿ ثم جعلناكم فئاتاً في الأرض من بعدهم ﴾ فختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ وفي يونس ﴿ يستمعون ﴾ لأن ما في هذه السورة نزل في أبي سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمّية وأبي بن خلف فلم يكثروا كثرة قوله ﴿ من ﴾ في يونس لأن المراد بهم جميع الكفار فجعل ههنا مرة على لفظ ﴿ من ﴾ فوُحِدَ لقلتهم ومرة على المعنى فجمع لأنهم وإن قلوا جماعة وجمع ما في يونس ليوافق اللفظ المعنى وأما قوله في يونس ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ فسياق في موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار ﴾ ، ثم أعاد فقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ﴾ لأنهم أنكروا النار في القيامة وأنكروا الجزاء والنكال فقال في الأولى : ﴿ إذ وقفوا على النار ﴾ ، وفي الثانية : ﴿ على ربهم ﴾ أي جزاء ربهم ونكاله في النار وختم بقوله : ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ليس غيره وفي غيرها بزيادة : ﴿ نموت ونحيا ﴾ لأن ما في هذه السورة عند كثير من المفسرين متصل بقوله : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ولم يقولوا ذلك بخلاف ما في سائر السور ، فإنهم قالوا ذلك فحكى الله تعالى عنهم قوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب وهو ﴾ قدم اللعب على اللهو في موضعين هنا وكذلك في القتال والحديد ، وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ . كلعب الصبيان ﴿ وهو ﴾ كلهو الشبان ﴿ وزينة ﴾ كزينة النسوان ﴿ وتفاهر ﴾ كتفاخر الإخوان ﴿ وتكاثر ﴾ كتكاثر السلطان . وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : ﴿ وما بينهما لابين ﴾ لو أردنا أن نتخذ هوأً لاتخذنا ، من لدنا ﴾ ، وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحاليتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ﴿ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴾ أي الحياة التي لا بداية لها ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه في زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا .

قوله تعالى : ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ في هذه السورة ، وفي الأعراف : ﴿ يضرعون ﴾ بالإدغام لأن ههنا وافق ما بعده وهو قوله : ﴿ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ ومستقبل تضرعوا يتضرعون لا غير . قوله تعالى : ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ مكرر لأن التقدير : انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون عنها فلا نعرض عنهم بل نكررها لعلهم يفقهون .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فكرر ﴿ لَكُمْ ﴾ وقال في هود : ﴿ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ فلم يكرر ﴿ لَكُمْ ﴾ لأن في هود تقدم ﴿ إِنِّي ﴾ لكم نذير ﴿ وعقبه ﴾ وما نرى لكم ﴿ وبعده ﴾ أن أنصح لكم ﴿ فلما تكرر ﴾ لكم ﴿ في القصة أربع مرات اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ في هذه السورة وفي سورة يوسف : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ منوناً لأن في هذه السورة تقدم ﴿ بعد الذكري ﴾ و ﴿ لكن ذكري ﴾ فكان ﴿ الذكري ﴾ أليق بها .

قوله تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ في هذه السورة ، وفي آل عمران : ﴿ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، وكذلك الروم ويونس : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ ، لأن ( ما ) في هذه السورة وقعت بين أسماء الفاعلين وهو فالح الحب فالح الإصباح وجاعل الليل سكناً واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتثوين والجر ( من وجه ) وغير ذلك ويشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى ( ولا ) يجمع إذا عمل وغير ذلك ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله تعالى : ﴿ إِن الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذِقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ ونحو قوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴾ فلما وقع بينهما ذكر ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ بلفظ الفعل و ﴿ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ بلفظ الاسم عملاً بالشبهين وآخر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف ما في آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال وكذلك في يونس والروم قبله وبعده أفعال : فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ وقال بعدهما : ﴿ إِن فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، لأن من أحاط علماً بما في الآية الأولى صار عالماً لأنه أشرف العلوم فختم بقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ ﴾ والآية الثانية مشتملة على ما يستدعى تأملاً وتدبراً ، والفقه علم يحصل بالتفكير والتدبر ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى ، فختم الآية بقوله تعالى : ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ ومن أقر بما في الآية الثالثة صار مؤمناً حقاً فختم الآية بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكُمُ الْآيَاتِ ﴾ في هذه السورة لظهور الجماعات وظهور الآيات ( عم جميع ) الخطاب وجمع الآيات قوله : ﴿ أَنْشَأَكُمْ ﴾ وفي غيرها : ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ لموافقة ما قبلها وهو ﴿ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ وما بعدها : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ ، قوله ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ لأن أكثر ما جاء في القرآن من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله : ﴿ وَأَنْتَ بِهِ مُتَشَابِهٌ ﴾ ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا ﴾ ، ﴿ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ﴿ وَأَخْرَجْنَا مُتَشَابِهَاتٍ ﴾ ، فجاء ، ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ في الآية الأولى و ﴿ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ في الآية



الأخرى على تلك القاعدة ثم كان لقوله ﴿تشابه﴾ معنيان : أحدهما التيس والثاني تساوى وما فى البقرة معناه : التيس فحسب فيبن بقوله ﴿مشتبهاً﴾ ومعناه : ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضاً لا من باب التساوى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء﴾ فى هذه السورة ، وفى المؤمن : ﴿خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات فدفع قول قائله بقوله : ﴿لا إله إلا هو﴾ ثم قال : ﴿خالق كل شيء﴾ وفى المؤمن قبله ذكر الخلق وهو : ﴿لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ لا على نفى الشريك فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ وقال فى الآية الأخرى من هذه السورة ﴿ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون﴾ لأن قوله تعالى : ﴿ولو شاء ربك﴾ وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات وهما : ﴿جاءكم بصائر من ربكم﴾ الآيات : فختمها بذكر الرب ليوافق (آخرها أولها) .

قوله تعالى ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ وقع بعد قوله : ﴿وجعلوا لله مما ذرأ﴾ فختم بما بدأ . قوله تعالى : ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ وقال فى النحل : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء﴾ فزاد ﴿من دونه﴾ مرتين وزاد ﴿نحن﴾ لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ودل على تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ ﴿من دونه﴾ بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة وإنما المستنكرة عبادة شيء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شيء مما دل عليه (أشرك) فلم يكن بد من تقييده بقوله تعالى ﴿من دونه﴾ ولما حذف ﴿من دونه﴾ من الآية مرتين حذف معه ﴿نحن﴾ لتطرد الآية فى حكم التخفيف .

قوله تعالى : ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ وفى سبحان : ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ على الضد لأن التقدير : من إملاق (بكم) نحن نرزقكم وإياهم وفى سبحان : ﴿خشية إملاق﴾ يقع بهم (نحن نرزقكم وإياكم) .

قوله تعالى : ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ وفى الثانية : ﴿لعلكم تذكرون﴾ وفى الثالثة : ﴿لعلكم تتقون﴾ لأن الآية الأولى مشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا ، فختم الآية بما فى الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، والآية الثانية مشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطيها وارتكابها ، وكانت الوصية بها تجرى مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله : ﴿تذكرون﴾ أى تتعظون بمواعظ الله ، والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب متافيه ، فختم الآية بالتقوى التى هى ملاك العمل وخير الزاد .

قوله تعالى : ﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ في هذه السورة ، وفي يونس والملائكة : ﴿ جعلكم خلائف في الأرض ﴾ لأن في هذه العشر الآيات تكرر ذكر المخاطبين مرات فعرفهم بالإضافة وقد جاء في السورتين على الأصل وهو ﴿ جاعل في الأرض خليفة ﴾ ﴿ وجعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ، وقال في الأعراف : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ لأن ما في هذه السورة وقع بعد قوله : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

وقوله : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ فقيد قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ باللام ترجيحاً للغفران على العقاب ووقع ما في الأعراف بعد قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فقيد العقاب باللام لما تقدم من الكلام وقيد المغفرة أيضاً بها رحمة منه للعباد لئلا يترجح جانب الخوف على الرجاء وقدم ﴿ سريع العقاب ﴾ في الآيتين مراعاة لفواصل الآيات .

### مناسبتها لسورة المائدة

في المائدة محاجة أهل الكتاب ، وفي هذه محاجة المشركين ، والمائدة ذكرت المحرمات بالتفصيل لأنها من آخر القرآن نزولاً ، والأنعام ذكرت ذلك جملة .

### من دلائل التوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

المفردات ﴿ الحمد ﴾ : هو الثناء الحسن والذكر الجميل . ﴿ خلق ﴾ الخلق في اللغة التقدير ، أى جعل الشيء ، بمقدار معين على حسب علمه ، وفي أبى السعود : الجعل الإنشاء والإبداع كالخلق ، غير أن الخلق مختص بالإنشاء التكويني ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، والجعل عام للإنشاء كما قال تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ ، وللتشريع والتقنين كما مر في قوله ﴿ جعل الله الكعبة البيت الحرام ﴾ (١) ويختص الجعل بأن فيه معنى التضمنين كالإنشاء منشأ من منشئ . ﴿ يعدلون ﴾ : يجعلون له عدلا مساوياً وشريكاً له منافساً . ﴿ أجلا ﴾ الأجل المدة المضروبة للشيء ، وقضى أجلاً بمعنى حكم به وضربه . ﴿ تموتون ﴾ : تشكون في دلائل البعث والتوحيد .

أثنى سبحانه وتعالى على نفسه ، بما علم به عباده الشاء عليه ، فالحمد لله ، وكل ثناء ثابت له ، إذ هو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وثابت له الخلق والإيجاد والإنشاء والإبداع ، وقد وصف سبحانه وتعالى هنا بصفيتين من موجبات الحمد والثناء ، وهما خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور .

أما خلق السماوات والأرض ، وما فيها من العوالم والنظام والتقدير والإحكام فشيء يعترف به المشركون والمؤمنون على السواء ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾<sup>(١)</sup> فهذه السماوات وما فيها من نجوم وأفلاك وشموس وكواكب ، كل له مدار وله شروق وأفول ، بعضها مضيء وبعضها له نور ، وهذا الهواء المحيط بالأرض ، وهذا الأثير الذى ينقل الصوت ، أليس هذا يدل على الوحدة والكمال ؟ .

﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات ﴾ وما فيها وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . أما الأرض ، وما أدراك ما هى ، كوكب سيار وفلك دوار ، كانتا رتقاً ففتقناهما ، وهى معلقة فى الفضاء ، وتدور حول الشمس وعليها الجبال الرواسى وفيها الأنهار والبحار وعليها نسير وفيها نعيش ، وهى كروية ولا يقع الماء من جوانبها ، ولا يتدفق عند قطبيها ، من الذى خلق هذا وقدره ؟ إنه هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد .

الحمد لله قد جعل الظلمات والنور ، وهل الظلمات والنور من المحسوسات أم هما من المعقولات أم اللفظ عام للجميع ؟

والقرآن الكريم جرى على جمع الظلمات وإفراد النور ، لأن ظلمات الشرك والكفر أسبابها وأشكالها وألوانها مختلفة وكثيرة ، أما نور الحق والهدى فطريقها واحد ، وللظلمات الحسية أسباب ، لأن الظلمة تحصل بحجب النور بالجسم والأجسام مختلفة وكثيرة ، وللنور مصدر واحد وإن اختلف قوة وضعفاً ، وشكلاً وصورة .

﴿ ثم الذين كفروا ﴾ بعد هذا كله ﴿ يعدلون ﴾ بالوحدانية الشرك ، ويجعلون لمن خلق وأوجد وأنشأ وأبدع ، شريكاً مساوياً له ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾<sup>(٢)</sup> ، أبعد هذا يكون شك فى وحدانية الله وكأله ؟

ثم استأنف القرآن كلاماً خاطب به المشركين والمعاذنين ، مذكراً لهم بما هو ألصق بهم ، وهو خلقهم من طين ، أو من ماء مهين ، فهذا أبونا آدم خلق من طين ، وهما نحن أولاء نتكون من منى وبويضة ، وهما من دم الذكر والأنثى ، والدم من الغذاء من الحيوان والنبات ، وهما يرجعان إلى الأرض ، وقيل المعنى خلق أبائكم آدم من طين .

ثم ضرب لنا أجلا نعيش به في الدنيا إلى وقت محدود ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾<sup>(١)</sup> وهناك أجل آخر مسمى عنده هو أجل الدنيا وانتهائها ، ومصيرها إلى الحياة الآخرة لا يعلم به إلا هو ، ولم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَاها قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم أنتم بعد هذا تمتنون وتشكون في خلقكم مرة ثانية ، أى في البعث ، فالذى خلق الجنين في بطن أمه من ماء مهين وجعله يتنفس ، ولو تنفس بالهواء العادى لمات ، وجعله يتغذى بدم الحيض ، وهو الدم القدر القاتل ، أليست هذه حياة عجيبة ؟

حقاً إنها لعجيبة ، والذي أحيانا على هذا الوضع قادر على إحياء الموتى يوم القيامة : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ نعم هو الله الموصوف بكل كمال ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، هذه حقائق معروفة ، وأمر شهد به الخلق جميعا ، وفي ابن كثير معنى هذه الآية المدعو الله في السماوات وفي الأرض أى يعبد ويوحده ويقر له بالآلوهية من في السماوات ومن في الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغبا ورهبا إلا من كفر ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾<sup>(٣)</sup> أى هو إله من في السماء وإله من في الأرض ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَجْهَرَهُمْ ﴾ خبر بعد خبر وصفة أخرى ، وقيل المعنى هو الله يعلم سرهم وجههم في السماوات والأرض ويعلم ما تكسبون فهو سبحانه العليم الخبير .

### سبب كفرهم وعاقبته

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣﴾

**المفردات** ﴿ معرضين ﴾ : الإعراض التولى عن الشيء .. ﴿ بالحق ﴾ : أى بالأمر الثابت المتحقق في نفسه والمراد به هنا الدين . ﴿ أنباء ﴾ جمع نبأ وهو الخبر المهم . ﴿ من قرن ﴾ القرن من الناس القوم المقترنون في زمن واحد ، ومدته من الزمن مائة سنة وقيل غير ذلك . ﴿ السماء ﴾ : المراد المطر . ﴿ مدرارا ﴾ مبالغا فيه في الكثرة والغزارة .

ما تقدم من الآيات كان في إثبات الوجدانية ، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى وإثبات البعث وأن

(١) الآية ٣٤ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

الله الذى يعترفون له بخلق السماوات والأرض هو الاله المعبود بحق ، المحيط علماً بكل شئ لا إله إلا هو ... ولكمهم أشركوا بالله وكذبوا رسله ولم يؤمنوا بهذه الآيات الكونية ولا الآيات القرآنية التى تنادىهم ليصدقوا بها ويصدقوا برسولها ﷺ وهذه الآيات تشير إلى سبب التكذيب والكفر .

وما تأتيتهم أى آية من آيات ربهم الذى رباهم ، وتعهدهم فى حالتى الضعف والقوة وكفل لهم الرزق ، وآتاهم من كل شئ ، وخلق لهم جميع ما فى الأرض ﴿ وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾ ﴿ وما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ من سورة الأنبياء .

فهم لم ينظروا نظرة اعتبار وتأمل ، ولم يجردوا أنفسهم من قيد التقليد وحى العصبية ، وحمالة الجاهلية ، فهم إذا أتتهم آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> .

فبسبب هذا قد كذبوا بالحق والدين الصدق ، الذى دعا إليه القرآن الكريم ، وجاء به النبى الأمين ، من الدعوة إلى العقائد الصحيحة ، والآداب الكريمة والمثل العليا ، ولكون الإعراض طبيعة فيهم وغريزة ، كذبوا بسرعة فائقة عقب الدعوة مباشرة وكان عاقبة أمرهم خسرانا ، وسوف يأتيتهم أخبار وأحوال الذى كذبوا به وهو القرآن ، سيأتيتهم نبأ هذا التكذيب وعاقبته ﴿ وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقد أتى حيث هزموا بغزوة بدر ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفوجا ، هذا فى الدنيا .

وقال الرازى فى تفسيره : كان حال هؤلاء فى كفرهم على ثلاث مراتب : إعراض عن التأمل ، ثم تكذيب ، وثالثة الأناني استهزاء بآيات الله وكلامه ، عجباً لهؤلاء . ألم يعلموا نبأ من كان قبلهم ، وخبرهم مع رسلهم وكيف كان مآلهم ؟ كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم ما لم نعط لكم ، ومكانهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وأعطيناهم من أسباب الاستقلال والملك والغنى ما لم نعط لكم ، أفكان هذا كله مانعا لنا من إنزال العقوبة الصارمة بهم لما أعرضوا وكذبوا واستهزؤا ؟ ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ <sup>(٣)</sup> لا هذا ولا ذاك .

نعم كان قوم عاد وثمود ، وقوم فرعون ، وإخوان لوط ، على جانب كبير من رغد العيش وسعة السلطان ، متعناهم ووسعنا لهم فى الرزق ، وأرسلنا عليهم المطر غزيراً ، وجعلنا الأنهار تجري من تحت بيوتهم ، ووسط مزارعهم ، فكما كفروا بأنعم الله أذقناهم العذاب الشديد ، وأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين ، وجيلاً آخر أدرك ما حل بغيره فسار على غير منواله ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ \* إنه هو يبدى ويعيد\* وهو الغفور الودود <sup>(٤)</sup> والمسلمون اليوم أخوف ما أخاف عليهم هذا

(١) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٣ من سورة القمر .

(٤) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة البروج .

الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها عملياً ، أخاف عليهم أن يحيق بهم عاقبة أمرهم ، فهي سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

شبهاتهم في الرسالة والرد عليها

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ لَمْ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

المفردات ﴿ كتابا ﴾ : صحيفة مكتوبة . ﴿ قرطاس ﴾ : الورق الذي يكتب فيه .  
﴿ وللبسنا ﴾ : اللبس الستر والتغطية ، والمراد جعلنا أمرهم يلتبس عليهم فلا يعرفونه .

كان النبي ﷺ يضيق ذرعاً بقومه من جراء تكذيبهم وعنادهم . ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك ﴾ (١) ، وكانوا يكثرون في طلب الآيات الخاصة ، فرد الله عليهم بما ألزمهم .

ولو نزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً من السماء في قرطاس حتى ولو كان هذا الكتاب معلقاً بين السماء والأرض وفيه دعوتهم إلى الدين بالحجة لما آمنوا به ، ولما صدقوك في ذلك بل ولقالوا : ما هذا إلا سحر وخيال ظاهر ليس فيه حقيقة ، وانظر إلى تعبير القرآن الكريم : نزلنا بالتشديد ، وقوله : ﴿ كتابا في قرطاس ﴾ ، والكتاب لا يكون إلا فيه ، ثم قوله ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ ، وقلوبوا فيه وبالغوا في ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يروونه ويكون معه نذيراً ومؤيداً له ونصيراً ، ذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ (٢) . ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾ (٣) الفرقان ، وقد حكى الله عنهم هذا كثيراً في سورة هود وإبراهيم وغيرهما ، وقد رد الله على اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل الله ملكاً كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون ، إذ جرت سنة الله في خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التي أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعذابه ويقضى عليهم . وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بغذاب الاستئصال تكريراً للنبي ﷺ وعسى أن يأتي من نسلهم من يعبد الله حقاً ، وقد كان هذا .

الاقتراح الثاني : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكاً لا بشراً ﴿ ما هذا إلا بشر

(١) الآية ١٢ من سورة هود . (٢) الآية ٢٣ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٧ من سورة الفرقان .

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴿١﴾ فأنْتَ ترى أن اقتراحهم الثاني مبنى على الغرور الكاذب والجهل الفاضح ، وأن هذا النبي الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة ، فإن كان ولابد من إرسال بشر فنحن أولى منه ﴿٢﴾ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴿٣﴾ ؟ .

فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه والأنس به ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عليهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم إني رسول الله كما يقول ﷺ ، أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

### تسليية النبي ﷺ

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

المفردات ﴿استهزئ﴾ : الاستهزاء السخرية والاحتقار ويتبع ذلك غالباً الضحك . ﴿فحاق﴾ : أحاط بهم فلم يكن لهم منه مخرج .

يخبر الله تعالى نبيه الكريم بصيغة القسم ، إن الكفار قد استهزأوا قديماً برسل كثير عددهم ، عظيم شأنهم رسل من قبلك ، فليس استهزاؤهم بك بدعاً بل أنت مسبوق في ذلك ، فلا تحزن عليهم ، ولا تلك في ضيق مما يعملون فهذا شأن الكفار قديماً وحديثاً . واعلم أنه قد أحاط بهم ، فلم يكن لهم منه مخرج ، وليس لهم مفر ، ولن يفلتوا من عاقبة فعلهم أبداً .

فآلية إرشاد للنبي ﷺ ببيان سنة الله في الخلق وأن العاقبة للمتقين ، وأن العذاب والحزى للكافرين والمستهزئين ﴿١٠﴾ إنا كفيناك المستهزئين ﴿١١﴾ .

وإن ارتبتم أيها المشركون في ذلك فقل لهم : سيروا في الأرض وتنقلوا فيها لتقفوا بأنفسكم على تاريخ من سبقكم من عاد وثمود ، وطسم وجديس وقوم فرعون وإخوان لوط ( فما رآه كمن سمعا ) سيروا في الأرض ثم انظروا واعتبروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟

### أسلوب آخر في إثبات الوحدةانية والبعث

قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُفُوكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ \* وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ

(١) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون . (٢) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف . (٣) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ  
 قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ  
 عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

المفردات ﴿ كتب ﴾ : فرض وأوجب على نفسه . ﴿ ليجمعنكم ﴾ : المراد ليحشرنكم .  
 ﴿ خسروا أنفسهم ﴾ : المراد بالخسارة هنا ترك ما يقتضيه العقل والعلم . ﴿ ما سكن ﴾ : من  
 السكون أو السكنى والمراد عدم الحركة . ﴿ فاطر السماوات والأرض ﴾ منشئهما ومبدعهما على غير  
 مثال سابق . ﴿ يصرف عنه يومئذ ﴾ : يبعد عنه . ﴿ رحمه ﴾ : أنجاه من الهول الأكبر .

ما هو هذا القرآن يعود إلى إثبات الوحدانية لله والكمال له ، وإثبات البعث والجزاء بأسلوب  
 آخر ، ونمط عال في الأداء ، وطرقا للسمع من جميع الأنحاء ، حتى لا يمل السامع مع زيادة التكرير  
 والتثبيت فهذا هو المقصود المهم والهدف المرجو للقرآن الكريم .

قل لهم يا محمد لمن ما في السماوات والأرض ؟ ولمن هذا الكون ما فيه وهذا الوجود وما يحويه ؟  
 لمن هذه السماوات وقد ازينت ؟ وهذه الكواكب وقد انثرت .  
 ولمن هذه الأرض وقد مدت ؟ وفيها الأنهار الجوارى والجلال الرواسى والعوالم التى لا يحيط بها إلا  
 خالقها . قل لهم : هذا كله لله واهب الوجود ، الكبير المعبود ، مالك الملكوت ذو الرحمة والجبروت ،  
 الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

وهذا سؤال وجوابه ، قد أمر بهما ﷺ في القرآن لأنه هو الجواب المتعين ، ولا يمكن لمنصف أن  
 ينكر هذا أبدا ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ فهم معترفون بهذا ولكن لسوء  
 تفكيرهم يقولون في الأصنام : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (١) فبئس ما يصنعون ، على أن في  
 السؤال وجوابه تبكيتهما وتوبيخا ، وقد بنى عليه شئ آخر من لوازمه ، قد يجهله المسئولون أو ينكرونه  
 لعنادهم وحماتهم .

فالله الذى برأ السماوات والأرض ، وله كل ما فيها مما لا نعلم عنه إلا قليلا ومما هو كالذرة  
 بالنسبة للجبل الأشم ، قد أوجب على نفسه ، وقوله على نفسه لتأكيد الوعد وتحقيقه أوجب الرحمة على  
 عباده إذ هو الرحمن الرحيم ، ليجمعنا ليوم القيامة ويحشرنا لنأخذ الجزاء على أعمالنا ﴿ فمن يعمل مثقال  
 ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٢) . ﴿ والله ما في السماوات وما في الأرض ليجزى الذين  
 أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٣) والثواب والعقاب على الأعمال من مظاهر الرحمة

(١) الآية ٣ من سورة الزمر . (٢) آيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٣) الآية ٣١ من سورة النجم .



بالخلق حتى يعرف الخلق ذلك ومتى علم هذا كف باغى الشر عن شره ، وأسرع باغى الخير فى عمله ، مع أنه ليس من العدل ولا الرحمة ألا يجازى المحسن على إحسانه وألا يعاقب المسيء على إساءته ، وكذلك من مظاهر الرحمة هدايتنا إلى معرفته ، ونصب الأدلة على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السماوات والأرض .

وقد سبقت رحمته غضبه وزادت عليه ، فهو يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، وقد تضاعف أضعافاً لمن يشاء ، والسيئة بمثلها فقط ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾<sup>(١)</sup> وأخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ممن يكذبون بيوم القيامة ، وهم من فسدت فطرتهم ، وساءت نفوسهم فلم يهتدوا بنور الدين ، وحرموا أنفسهم من النظر والتفكير فى هذا الكون وآياته ، بعين العقل والحكمة ، وإنما أعماهم التقليد وسوء الرأى وحمى العصبية وداء الحسد عن النظر الصحيح والفهم السليم ، ولم تكن لهم عزيمة صادقة وإرادة حازمة ، تجعلهم يتركون ما كان عليه الآباء إلى ما وافق العلم والعقل والرأى ، نعم هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون أبداً بالبعث والثواب والعقاب ، لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ولم يتحرك وله ما تحرك ولم يسكن ، فهو المتصرف تصرفاً كاملاً فى كل شئ خصوصاً ما سكن وخفى فى الليل ، ومن باب أولى ما تحرك وسكن فى النهار .

فأنت معى أن القرآن تعرض لجميع الأمكنة فى السماوات والأرض ولكل الأزمنة فى الليل والنهار ، وهذا إشارة إلى كمال إحاطته وتام تصرفه ، وهو السميع لكل قول ودعاء ، العليم بكل فعل ونية .

ومن نتائج ذلك عدم اتخاذ الأولياء من دون الله . قل لهم يا محمد أغير الله أأخذ ولياً ينصرنى ؟ أو يدفع ضرراً عني ، أو يجلب خيراً لى ؟ والاستفهام لإنكار اتخاذ غير الله ولياً من الأصنام والشفعاء ، أما اتخاذ الأصحاب والأصدقاء من المؤمنين فلا شئ فيه مادام فى حدود كسبه وتصرفه الذى منحه الله لبنى جنسه ، قال لهم : أغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ أغير الله فاطر السماوات والأرض ومبدعهما لأعلى مثال سابق ، أغير الله أأخذ ولياً يلى أمورى ؟ فإن من فطر السماء والأرض وأبدعهما من غير تأثير ولا شفيع يجب أن يخص بالعبادة وحده ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾<sup>(٢)</sup> .

والله سبحانه وتعالى يطعم ويرزق الناس وليس فى حاجة إلى أحد ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾<sup>(٣)</sup> ، وفى هذا تعريض بمن يتخذون من العباد آلهة وهم محتاجون إلى الطعام وما يتبعه من الحاجة إلى الخلاء ، أما من يعبد غير الإنسان فعبادته ضرب من الخيال والجنون . أما وقد ظهرت هذه الحقائق بادية للعيان ، فقل يا محمد إني أمرت أن أكون أول من أسلم وجهه لله وانقاد ، حيث ثبت أن له ما فى السماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً وحكماً ، وله ما سكن وما تحرك ، وهو السميع البصير ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الرزق والحياة ، غير محتاج لأحد ، ليس كمثله شئ ، لهذا

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة . (٣) الآية ٥٧ من سورة الذاريات .

أمرت أن أكون أول من أسلم ، ونهيت عن الشرك بالله وإني أخاف إن عصيت ربي عذاباً عظيماً يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .

وإذا كان هذا حال النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، المعصوم خاتم النبيين والمرسلين ، فما بالناس نحن ؟ وما بالك يا ابن آدم ؟ وإنك لمسكين مغرور حيث تتعلق بالأوهام والالتجاء لغير الله .. من يدفع عنه يومئذ ذلك العذاب فقد رحمه الله ونجاه ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ (١) وذلك هو الفوز الواضح العظيم .

### الأمر كله لله

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾  
وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ  
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَنتُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ  
إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

**المفردات ﴿الضر﴾** : وضده النفع هو ما يسوء الإنسان في نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله .  
**﴿بخير﴾** : هو ما يرغب فيه الكل وتطمح إليه النفس كالعقل والعلم والعدل وضده الشر .  
**﴿القاهر﴾** : القهر الغلبة والتذليل معا . **﴿شهادة﴾** : هي إخبار عن علم ومعرفة واعتقاد بنى على المشاهدة بالبصر أو البصيرة .

هذه الآيات تملأ قلوب المؤمنين ثقة بالله واعتمادا عليه وحده ، وعقيدة المسلم ( إن الأمر كله لله ) . الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخير ، فإذا مسك ضر أو أصابك ما تكرهه في نفسك أو مالك أو عرضك فاعلم بأنه لا يكشف هذا الضر إلا الله ، فكل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، إنه عز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . وكما أنه هو الذى يكشف الضر ، فهو الذى ينعم بالخير من عافية وراحة بال وهدوء حال ورزق ومال وولد . ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴿ (٢) . سبحانه لا خالق سواك ولا رازق غيرك ، جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة فاطر .

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

كان يقول : ﴿اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾ : هذا أسلوب حصر وقصر ، فلا قاهر غيره ولا غالب سواه ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، باق بلا أمد ، حكيم تنزه عن العبث ، خبير علم حقائق الأشياء ودقائقها ، تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفـارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسنَّ فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعنَّ فإن الصانع الله
إذا بُليت فتق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله فى كل لك الله

قوله تعالى : ﴿قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم﴾ : هذا خطاب كريم من رب كريم موجه إلى رسول كريم فيه يقين للقلوب المؤمنة منه وإفحام لقلوب المعاندين : ﴿أى شىء أكبر شهادة﴾ ؟ ويأتى الجواب فى وضوح وصراحة ﴿قل الله شهيد بينى وبينكم﴾ وحيث إنه لا شىء أكبر شهادة من الله فكفى بالله شهيداً وكفى به عليماً وكفى به خبيراً . من أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد أصدق من الله قيلاً ؟ لا أحد . أنتم أعلم أم الله ؟ الله يعلم وأنتم لا تعلمون . الله شهيد بينى وبينكم ؟ فهو الحق وقوله الحق ووعد الحق ولقاؤه حق ﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون﴾ : الوحى هنا خاص بالأنبياء ، وهو إعلام الله تعالى نبياً من أنبيائه بحكم من أحكامه بواسطة أو بغير واسطة ، أو هو عرفان يجده النبى فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، قال تعالى : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (١٥٥) وفى الاعتصام (٣) وفى القدر (١٢) وفى الدعوات (١٧) . وأخرجه مسلم فى الصلاة (١٩٤) ،

(٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) . وأخرجه أبو داود فى الصلاة (١٤٠) وفى الوتر (٢٥) وفى الأدب (٨٨) .

وأخرجه الترمذى فى الصلاة (١٠٨) . والنسائى فى التطبيق (٢٥) وفى السهو (٨٥ ، ٨٩) . وأخرجه الدارمى فى الصلاة (٧١) ،

(٨٨) . والإمام مالك فى القدر (٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٧) وفى (٤ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ،

(٢) الآية ٢٥ من سورة النور .

(٢٨٥ ، ٢٥٤) .

حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ؟ إنه على حكيم \* وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم \* صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١﴾ .

فتأمل معي كيف اختلفت وسائل الوحي وطرقه وكيف تعددت أشكاله : فقد يكون بالقذف في القلب كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » ﴿٢﴾ .

وقد يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى تكليما ، وقد يكون بواسطة الملك جبريل فيوحي الله ما يشاء بإذنه تعالى ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا \* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ ﴿٣﴾ .

فللوحى حرس ملائكي وحفظة كرام ، وجبريل هو كبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء الذى يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ ﴿٤﴾ .

فانظر كيف جعل الوحي روحا يحيى الموات ونورا يبدد غياهب الظلمات . ثم تأمل معي كيف كانت كلمة الوحي الناطقة بالصدق . صدق الوحداية وأساس الرسالات : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وصلوات ربى وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من أعلنتها فى سمع الزمان صريحة مدوية : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » فمن ادعى وحيا بعد رسول الله فإنه كذاب أشمر ، ومن ادعى رسالة وقال إن محمدا خاتم النبيين ولم يختم المرسلين قلنا : إن النبوة أعم من الرسالة ، فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص . لذا نقرر أن لا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ، وقد أخبرنا أصدق القائلين بأنه أكمل الدين وأتم النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً . فقد أنزل على الرسول فى حجة الوداع قوله الذى انتظم أربع بشرىات : ﴿ اليوم يمس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾ ﴿٥﴾ . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً . فمن ادعى رسالة بعد رسول الله كما يقول أصحاب الأديان الوضعية التى صنعتها الاستعمار على عينيه وأغدق عليها من ماله وأجلب عليها بخيله ورجله ، من ادعى منهم رسالة سألناه : ما طبيعة هذا الدين الذى جئت به إن قال إنه الإسلام قلنا له : لقد أكمل الله الدين ، فإذا كان قد أكمله فإن دين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً وإذا كان قد أتم النعمة فنعمة الله لا تنقص أبداً . وإذا كان قد رضى لنا الإسلام ديناً فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ..

(١) الآيات ٥١ - ٥٣ من سورة الشورى . (٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن . (٣) الآية ٢ من سورة النحل . (٤) الآية ٣ من سورة المائدة . (٥) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٢) .

فإذا قال إنه غير الإسلام . قلنا له : بيننا وبينك بعد المشرقين فبئس القرين : ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ لا نذكركم به ومن بلغ ﴾ أى لا نذكركم بالقرآن ، فأنا لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد ، كما أننى أنذر من بلغه هذا القرآن فى مشارق الأرض ومغاربها من إنس وجان . وهذا دليل على عموم رسالته ودوامها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . فدعوة الإسلام دعوة عالمية خاتمة دائمة فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ ومن بلغ ﴾ أى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ وكلمه . جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذى أنذر .

قوله تعالى : ﴿ أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون ﴾ هذا تقرير لقضية التوحيد التى قامت عليها السماوات والأرض . فبعدما أثبتت الآية فى صدرها أن الله أكبر شهادة وهو شهيد بينه وبينهم أكدت هذا المعنى بسؤال وجواب . جاء السؤال مصوراً بتلك العبارة الرصينة : ﴿ أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ﴾ ، وجاءت الإجابة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ قل لا أشهد ﴾ وجاء التوكيد فى صورة من روائع البيان وتصديق الجنان : ﴿ قل إنما هو إله واحد ﴾ إنه نداء الفطرة السليمة التى ولد كل مولود عليها ولكن كدّرت صفوها ظلمات القلوب الجائرة التى عبثت بها الأهواء الزائفة . قال ﷺ : ( كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه )<sup>(٣)</sup> . نعم إنه نداء الفطرة فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لأجيبك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فىهن ، وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثاز ماصنع الملليك  
عيمون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد شاهداث بأن الله ليس له شريك

وبعد إثبات الوحداية تأتى البراءة من كل ما يشركون ، وما أجل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم مع

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٠) . والترمذى فى العلم (١٣) . والدارمى فى المقدمة (٤٦) . والإمام أحمد فى (٢ ، ١٥٩) .  
(٣) (٢٠٢ ، ٢١٤) .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٧٩ ، ٩٢) وفى تفسير سورة ٣٠ (١) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٢٠ - ٢٥) .  
والترمذى فى القدر (٥) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٣) . (٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

قومه : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ \* الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقنى ، وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين \* والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴿ ١ ﴾ .

كان لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه صنم يعبدّه أيام الجاهلية ، فجاء ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة والولاء ، فوجد بللاً برأسه فنظر فى الأمر : من الذى أصابه بالبلل فوجد ثعلباً ، فعلم أنه بال على صنمه ، فنظر أبو ذر إلى معبوده وقال فى عبارة رصينة نسج خيوطها من ضياء التوحيد قال :

أربّ يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذلّ من بالث عليه الثعلاب  
فلو كان ربّاً كان يمنع نفسه فلا خير فى رب ناتته المطالب  
برئت من الأصنام فى الأرض كلها وآمنت بالله الذى هو غالب

حقاً إن الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة كفى به ولياً وكفى به نصيراً .

### افتراء على الله

الَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّا سَاجِدُونَ لِلَّذِينَ كُنْتُمْ تُزْعَمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات ﴿ آتيناهم الكتاب ﴾ : المراد بهم اليهود والنصارى . ﴿ يعرفونه ﴾ : أى النبى ﷺ . ﴿ كما يعرفون أبناءهم ﴾ : المراد بالتشبيه إثبات الحقيقة فى كل . ﴿ تزعمون ﴾ : أى تدعون كذباً لذا قالوا : زعموا مطية الكذب . ﴿ فتنتهم ﴾ : الفتنة الاختبار والمراد عاقبة الشرك . ﴿ كذبوا على أنفسهم ﴾ : خدعوها بالباطيل .

روى أن كفار قريش سألوا أهل الكتاب عن رأيهم فى النبى ﷺ وفى دينه فقالوا : ليس فى التوراة والإنجيل شيء يدل على نبوته ، وقد شهد له الله بالرسالة والصدق فبقى أن يثبت كذب أهل الكتاب فى شهادتهم ومن هنا كانت المناسبة .. وقد روى « أن عمر بن الخطاب لما قدم المدينة سأل عبد الله بن سلام عن هذه المعرفة فقال يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى . وأشهد أنه حق من عند الله » .

إن الذين أنكروا نبوة خاتم الأنبياء إنما أساءوا إلى أنفسهم فلن يضير الشمس أن ينكر ضوءها من بعينه رمد :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم  
ولن يضير البحر الطهور أن يلقي فيه غلام بحجر :  
ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر  
ولن يعيب الورود ألا يشم عطرها مزكوم :  
وما ضرَّ الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها  
وكما قال الحكيم المتنبى :

ومــن يك ذا فم مـر مريض يجد مـراً به الماء الــــــــــــــزلالا

إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ كالذى أراد أن يثير التراب على السماء فأثاره على نفسه وبقيت السماء هي السماء ضاحكة السن بسامة الحيا .. إن الدليل على صدق الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام أنه أمرنا أن نؤمن بجميع الأنبياء . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾<sup>(١)</sup> .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾<sup>(٢)</sup> وقد جمع الله له الأنبياء والمرسلين في ليلة الإسراء وقال له : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾<sup>(٣)</sup> فاستحى الرسول أن يسأل .

لقد قال القرآن كلمته الحاسمة التي جاءت فصل الخطاب في تلك القضية ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيمًا ﴾<sup>(٤)</sup> .. وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾<sup>(٥)</sup> وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾<sup>(٦)</sup> إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ قد خسروا أنفسهم . فالله تعالى

(٤) الآيات ١٥٠ - ١٥٢ من سورة النساء .

(٥) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

يقول في حديثه القدسي الجليل : ( وعزقي وجلالي لو سلكوا إلى كل طريق ، واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد ) .

الله أكبر إن دين محمد      وكتابه أقوى وأقوم قبلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده      طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

إن الذين أنكروا نبوة محمد وجحدوا رسالة الإسلام خسروا أعلى ما يملكون ، لم يخسروا مالا ولا ولدا ولا سلطانا خسروا النفوس ، فهم لا يؤمنون كما قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ (١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ \* تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ (٢) ... ثم ينتقل النظم الكريم إلى مشهد من مشاهد القيامة مع هؤلاء الكاذبين المفتريين فيقول جل شأنه : ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ (٣) .

هذا سؤال يوجهه علام الغيوب في ساحة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، يقول الله للمشركين : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم ينفعون ويضرون ويخلقون ويرزقون ؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت جاءت الإجابة عنه بالكذب والبهتان والحنث في يمين الله . قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقد فسرت الفتنة هنا بمعاني كثيرة : فسرت بالاختبار والابتلاء والحجة والمعدرة ، والمقصود بهذا نتيجة الابتلاء والاختبار . وقد أقسموا بالله كذباً وبهتاناً وقالوا في نص الحلف : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فاعجب لجرأتهم على الله أيقسمون بالله كذباً أمام من يعلم السر وأخفى ؟ أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟

عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فقال : إنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجدد ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتبون الله حديثاً ، فهل في قلبك الآن شيء ؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا ونزل فيه شيء ولكن لا تعلمون وجهه . لذلك كان التعقيب على قولهم ، يأخذ بالألباب ، فقد يستولى عليك العجب عندما تقرأ قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ إنهم لم يكذبوا على الله :

الله يدرى كل ما تضمـــــر      يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الكل لم تستطع      خداع من يطوى ومن ينشر

(١) الآية ٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .



إنهم كذبوا على أنفسهم ، وجاءت نتيجة الكذب أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ﴿ وضلّ عنهم ما كانوا يفترون ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ .

### من مواقف الكفار

وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً لَا يُؤْمِنُ بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يَسْأَلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

**المفردات** ﴿ الأكنة ﴾ : جمع كنان وهو الغطاء والستر . ﴿ وقرا ﴾ : صمما وثقلا في السمع . ﴿ آية ﴾ : علامة دالة على صدق الرسول . ﴿ أساطير ﴾ : جمع أسطورة وهي الخرافة . ﴿ وينأون ﴾ : يبعدون عنه ويعرضون .

هذه بعض مواقف أهل الكفر الذين جبلت قلوبهم على الإنكار والجحود فمن هؤلاء المعاندين من يأتي ليستمع إلى ما يقوله صاحب الرسالة العصماء وما يتلوه عليهم من الآيات لم يأت هو بقصد الهداية ، إنما جاءوا ليهزأوا مما يتلى عليهم ، وقد علم الله منهم ذلك فجعل على قلوبهم أكنة وأغطية وحجباً تمنع وصول الحق إليها ، هذه الأكنة مانعة من الفقه والفهم والمعرفة كما قال الله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ <sup>(١)</sup> . وكما قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون \* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ <sup>(٢)</sup> . وكما أن القلوب حجبت عن الفقه والمعرفة فإن الأذان قد صمت عن سماع ما يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ففى الآذان قر وصمم كما أن على القلوب أكنة ، كما أن النفوس قد أصرت على عدم الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ <sup>(٣)</sup> . ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يدها ، إننا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

فمن أين يأخذ الحق طريقة إلى هؤلاء وقد سدت منافذ المعرفة . وأحيطت مجالات الفهم بأسوار عالية تمنع من تسرب النور إلى القلوب ، ومن مواقف هؤلاء المعاندين أنهم إذا جاءوك ، يا مبعوث العناية الإلهية ويا شمس الهداية الربانية ، لا يأتون طالبين الحق إنما يأتون محاولين ليدحضوا الحق بالباطل . ماذا

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنفال . (٢) الآية ٢٥ من سورة الأنعام . (٣) الآية ١٧١ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٥٧ من سورة الكهف . (٥) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .

يقولون إذا جاءوك ؟ يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين . هكذا كانوا يصفون آيات القرآن : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ <sup>(١)</sup> ، ويقصدون بالأساطير الخرافات والخرعبلات . ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وهم يبهون عنه ويثنون عنه ﴾ : وهذا موقف آخر من مواقفهم السيئة القبيحة . جمعوا فى هذا الموقف بين سواتين : الأولى : أنهم يبهون الناس عن اتباع سيد الخلق صلوات ربه وسلامه عليه . والثانية : أنهم يناون ويتعدون عن اتباع الحق ، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعماهم ﴾ ، فالنهي صد عن سبيل الله ، والنأى كفر ، فاستحق هؤلاء أن يحكم عليهم مولانا جل شأنه بالهلاك والإهلاك قال تعالى : ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

### من مشاهد القيامة

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَّا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات ﴿ وقفوا على النار ﴾ : يقال وقف على الشيء عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على الشيء حبسها ، ومنه وقف العقار على الفقراء . ﴿ ياليتنا ﴾ : كلمة يراد بها التمنى وهو طلب الأمر المستحيل أو ما فيه عسر . ﴿ نرد ﴾ : نرجع إلى الدنيا . ﴿ بدا لهم ﴾ : ظهر ووضح

هذا مشهد رهيب من مشاهد القيامة . إنها سلسلة متصلة الحلقات من الأهوال الجسام ، تبدأ من سكرات الموت . قال تعالى : ﴿ إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطة أيديهم أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ <sup>(٤)</sup> ثم تدرج السلسلة فى حلقاتها : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ <sup>(٥)</sup> . ثم ماذا فى عالم البرزخ : ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ <sup>(٦)</sup> ثم ماذا : ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ <sup>(٧)</sup> ثم تتحرك الأهوال حتى يبعثوا من القبور : ﴿ فإذا هم بين الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا يا أولينا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ؟ فيقال لهم : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق

(٦) الآية ٤٦ من سورة غافر .

(٧) الآية ٢٥ من سورة نوح .

(٤) الآية ٩٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٦ من سورة الفرقان .

المرسلون ﴿١﴾ . ثم يأتي الحشر : فكيف حالهم في هذا اليوم العصيب ؟ قال تعالى : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ﴿٢﴾ ، ثم يأتي دور الصحف حيث يأخذون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم ، فيقول كل منهم : ﴿ ياليتني لم أوت كتابيه \* ولم أدر ما حساييه ، ياليتها كانت القاضية \* ما أغنى عني ماليه \* هلك عني سلطانيه ﴾ ﴿٣﴾ فيقال من قبل الحق جل جلاله : ﴿ خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه \* ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ ﴿٤﴾ .

ثم ماذا ؟ إلى المشهد المهيب . إنهم وقفوا على النار ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ ﴿٥﴾ فماذا يقولون وقد وقفوا على النار موقف التمتني والندم ؟ يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ﴿٦﴾ .

### ندم البغاة ولات ساعة مندم

وهل ينفع الندم ؟ ليت . وهل ينفع شيء ؟ ليت . ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً \* ياويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ ﴿٧﴾ وهل تنفع عودتهم إلى الدنيا ؟ قال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحة غير الذي كننا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير . فذقوا فمالظالمين من نصير \* إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ ﴿٨﴾ .

فماذا كان الجواب على تمنيتهم هذا ؟ وما نيل المطالب بالتمتني . قال تعالى : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ أى ظهر واتضح لهم ما كانوا يخفون من الكفر والتكذيب بالقيامة ومشاهدها . فمن كفر بشيء أخفاه ومن كذب بشيء طواه في نفسه . لقد كانوا يكذبون بالنار فرأوها رأى العين . ﴿ يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعا \* هذه النار التي كنتم بها تكذبون \* أفسحّر هذا أم أنتم لا تبصرون \* اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ . هذا إخبار ممن يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إخبار عن حال هؤلاء المارقين المراوغين إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والتكذيب والجحود ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قوله تعالى ﴿ بل ﴾ حرف إضراب إبطالي يفيد إبطال ما قالوه سابقاً .

- |     |                                  |
|-----|----------------------------------|
| (١) | الآيات ٥١ ، ٥٢ من سورة يس .      |
| (٢) | الآية ٩٧ من سورة الإسراء .       |
| (٣) | الآيات ٢٥ - ٢٩ من سورة الحاقة .  |
| (٤) | الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الحاقة .  |
| (٥) | الآية ٥٣ من سورة الكهف .         |
| (٦) | الآية ٢٧ من سورة الأنعام .       |
| (٧) | الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفرقان . |
| (٨) | الآيات ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر .    |
| (٩) | الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .   |

نعم . لعادوا لما نهوا عنه وقالوا : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ ، هكذا يخبر علام الغيوب عن حقائق هؤلاء إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ضلالهم وبعثانهم وقولهم : ﴿ إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ فهم في زعمهم سيموتون ولا شيء بعد الموت وما هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر كما قالوا . وجاء الرد عليهم من العلى الأعلى : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ .

### من مواقف الآخرة

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقُضُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا الْحَبَايَةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾

**المفردات ﴿ الساعة ﴾ :** هي الوقت المحدد المعروف وتطلق في لسان الشرع على الوقت الذى ينقضى به أجل الدنيا وتبدأ به الحياة الأخرى . ﴿ بغتة ﴾ : فجأة . ﴿ يا حسرتنا ﴾ : الحسرة : الندم على ما فات كأن المتحسر قد انحسر وأنكشف عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه . ﴿ ما فرطنا ﴾ : التفريط التقصير فى الشيء مع القدرة على فعله . ﴿ أوزارهم ﴾ : جمع وزر : وهو الحمل الثقيل ويطلق فى لسان الشرع على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذى يثقل ظهره . ﴿ لعب ﴾ : هو العمل الذى لا يقصد به نفع أو دفع ضرر . ﴿ هو ﴾ : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

مازال النظم الكريم يعرض لصور أهل الشرك والعناد والجحود فقد وقفوا على النار فى المشهد السالف ، وهم فى هذا المشهد وقفوا بين يدى الحق جل جلاله فيسألهم سبحانه وهو العليم الخبير يسألهم سؤال تبكيت وتقريع وتوبيخ : ﴿ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أليس هذا الذى ترونه من بعث وحشر ونشر وصحف وصراط وميزان وجنة ونار . فماذا يقولون ؟ هل ينكرون أو يجادلون أو يراوغون أو يمارون ؟ لقد انقطعت المعاذير وبرح الخفاء وانكشفت الأسرار .

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴿ (١) ﴾ .

﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ . هذه إجابة بلغت فى صراحتها ووضوحها مبلغ الشمس وهى تضرب وجه الأرض بسياتها الحامية ، فيصدر الله سبحانه حكمه العادل فيهم مدعماً بالحيثيات . قال : ﴿ فَذُوقُوا

عظمة الله ووحدانيتها ﴿١﴾ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴿٢﴾ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴿٣﴾ .

وكذلك ﴿٤﴾ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴿٥﴾ ليعلم علم اليقين ، وليكون من المؤمنين ، فماذا كان جواب قومه الذين حطم إبراهيم أصنامهم ، وغاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، لقد وقف منهم موقف المناظرة ، يرخى العنان للخصم ليلقمه بالحجارة في حلقه ويفحمه ، ويزهق باطله ، ويرسل قذائف الحق تدمر مواقع الباطل ﴿٦﴾ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴿٧﴾ .

لقد قال لقومه عندما جن غلبه الليل ، وأرخى سدوله ، رأى كوكبا فقال لقومه على سبيل الفرض الجدلى توصلاً إلى الحق : هذا ربي ، فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم : لا أحب الأفلين ، أى ما كان ينبغي إن كان هذا الكوكب معبوداً أن يأفل ويغيب ، فما الذى غيبه ؟ إن الذى غيبه هو خالقه الذى لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً .

ويتنقل إبراهيم عن الكوكب وأفوله إلى القمر وبزوغه وظهوره ، فيقول إبراهيم من باب إرخاء العنان للخصم ، والجدل الموصل إلى الحق : هذا ربي ، فلما أفل وغاب ، قال إبراهيم معرضاً بقومه : لأن لم يهدنى ربي لأكونن من القوم الضالين ، أى من هؤلاء الذين تنكبوا الجادة ، وحادوا عن الطريق المستقيم ، وفي التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفي الإشارة ما يغنى عن العبارة .

فلما انتقل إلى الشمس وقد أشرقت بنور ربها ، قال إبراهيم ، هذا ربي هذا أكبر ، أى أكبر من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس وغابت وطوتها ظلمة الليل ، أعلن إبراهيم النتيجة الصادقة التى لا يمارى فيها إلا كل أفك أثيم ، قال : يا قوم إني برىء مما تشركون .

ثم بين لهم طريق الهدى والرشاد ، والحق والسداد : إني وجهت وجهي للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، فهو خالقهما وما فيهما ، بل ﴿٨﴾ ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴿٩﴾ حنيفاً مائلاً عن الشرك ، وما أنا من المشركين .

فماذا كان جواب قومه بعدما حطم دولة الأصنام ، وسفه تلك الأحلام التى يشغشغ فيها الهواء ، قالوا ﴿١٠﴾ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴿١١﴾ حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ﴿١٢﴾ قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأَخْسَرِينَ ﴿١٣﴾ .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله الله يغفر بها ذنبى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربي ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، كيف يعبدون غير الله ، وغير الله باطل ، كيف

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ١٠١ من سورة يونس . (٤) الآية ٤٦ من سورة الأنبياء . (٦) الآية ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء .

يسجدون للكائنات وينسون خالق الكائنات ، ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذي	يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدره
انظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم	كالدُرر المنتثره
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدره
انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذي جهزه	بقوة مفتكره
انظر إلى الشمس التي	جذوتها مستعره
فيها ضياء وبها	حرارة منتشره
من ذا الذي أوجدها	في الجو مثل الشره

### المؤمنون أحق بالأمن

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا  
وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُ وَلَا أَخَافُونَ أَنْكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا  
لَمْ يَنْزِلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ  
يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ  
عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ وحاجه قومه ﴾ : الحاجة المجادلة والمغالبة . وتطلق على ما يدلى به الخصم في

إثبات الدعوى وعلى رد دعوى الخصم وهى بهذا إما حجة دامغة أو شبهة واهية . ﴿ بظلم ﴾ : المراد به الشرك لأنه الظلم الأكبر .

ها هو ذا إبراهيم قد جاء قومه بالحق ، وأورد لهم البينات من الحجج الدامغة والأدلة القاطعة ، حيث تمشى معهم ، ونزل إلى مستواهم ، وفى النهاية أثبت أن الله الذى فطر السموات والأرض هو المعبود بحق لا إله إلا هو . وحاجه قومه بأوهى الحجج ، وأتوا بشبهات هزيلة لا تنهض دليلاً إلا عند الذين ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ، فقد قالوا : إنا نتخذهم آلهة تقربنا إلى الله ، وتشفع عنده ، ونحن قد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، وإياك يا إبراهيم والآلهة واحذرهم فإننا نخاف عليك منهم قال إبراهيم : أحتاجونى فى الله ، إن هذا لشيء عجيب ، كيف ذلك ؟ والله خلق السموات والأرض وله ملكوت ، لا يحيط به إلا هو ، وهو القادر على كل شيء ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا ترى ، بل هى مخلوقة لكم ، ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (١) . أحتاجونى فى الله وقد هداني إلى سواء السبيل ، ولا أخاف هذه الأصنام أبداً ، فهى لا تنفع نفسها ولا غيرها ، ولا تضر ، وكيف أخاف ما تشركون به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا لا أخافهم فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله ربى وربكم لى شيئاً من الألم . أو الضر ، فينزل بى ما يشاء ، كأن يقع على صنم فيصينى ، أو ينزل شهاب من السماء فيحرقنى كل ذلك بمشيئة الله وحده ، أما أن لهذه الأصنام شيئاً فى أنفسها أو فى غيرها ، فهذا شيء لا يدور بخلد عاقل ولا ينطق به إنسان كامل . أعميت فلا تتذكرون شيئاً أصلاً ، حتى تسووا بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله واهب الوجود وبين الحجر أو الكواكب المخلوقة .

عجباً لكم كيف أخاف آلهتكم التى ينادى العقل الحر بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تخافون إشراككم بالله غيره ، وقد قامت الحجج العقلية والنقلية على أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد . وإذا كان هذا هو الواقع فأينما أهدى سبيلاً ، وأحسن رأياً ، وأقوم قيلاً ، وأحق بالأمن وعدم الخوف ، إن كنتم من أهل العلم والعقل والفكر الحر الذين آمنوا أحق الناس بالأمن والطمأنينة ، لأنهم آمنوا بالله ورسله ، وسلكوا طرق العقل والحكمة ، ولم يخلطوا بإيمانهم بظلم كالشرك ، أولئك هم الأمن الكامل التام فى الدنيا والآخرة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، روى البخارى ومسلم ( أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه فقال ﷺ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » (٢) وتلك حججتنا آتيانها إبراهيم حجة له على قومه ، ولا غرابة فى ذلك فالله يرفع من يشاء من عباده ، درجات بعضها فوق بعض ، فهذه درجة الإيمان ، وأخرى درجة العلم ، وثالثة درجة الحكمة والتوفيق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، إن ربك عليم بخلقه .

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء ( ١٨ ، ٤١ ) . ومسلم فى الإيمان ( ١٩٧ ) . والإمام أحمد فى ( ١ : ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤ ) .

## إبراهيم أبو الأنبياء ومكانته

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ  
 وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِيلَاسَ  
 كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ  
 آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ  
 يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ  
 اتَّخَذْتُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِأَنْفُسِهِمْ قَوْمًا لَیْسُوا بِهَا  
 بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَهُ قُلُوبُهُمْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا  
 ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

**المفردات :** ﴿اجتبيناهم﴾ : اخترناهم واصطفيناهم . ﴿لحبط﴾ : بطل عنهم عملهم .  
 ﴿الحكم﴾ : العلم النافع والفقه في الدين وقيل القضاء بين الناس .

كان إبراهيم عليه السلام أمة ، وكان من القانتين ، وهو من أولى العزم ، وهو أبو الأنبياء ، فما من  
 نبي بعده إلا وهو من سلالة ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ (١)  
 ووهبنا له على كبر منه وعقم من امرأته ويأس إسحاق ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق  
 يعقوب ﴾ (٢) جزاء إيمانه الكامل وإحسانه الشامل ونجاحه في ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل . فإبراهيم  
 من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فهو من سلالة نوح ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾ (٣) وهدينا  
 من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، فهي ذرية طيبة ﴿ ذرية بعضها من  
 بعض ﴾ (٤) وإبراهيم واسطة العقد ، جده نوح ، وأولاده الأنبياء ، وكذلك نجزي المحسنين وهدينا من ذريته  
 كذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين ، وهدينا من ذرية إسماعيل ابنه لصلبه ، وجد  
 المصطفى ﷺ ، إسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على عالمي زمانهم . وهدينا بعض آبائهم  
 وذرياتهم وإخوانهم ، إذ لم يكن الكل مهدياً إلى الخير ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما  
 النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ (٥)

(٥) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٨٤ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٣٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٧١ من سورة هود .



ولقد اجتبناهم واخترناهم، وخصصناهم بمزايا كثيرة ، وهديناهم صراطا مستقيما ﴿١﴾ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴿٢﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴿٣﴾ ولو أشركوا بالله شيئا لكان جزاؤهم أن تحبط أعمالهم ، إذ توحيد الله سبحانه وتعالى هو المزكى للنفوس ، المظهر للأرواح ، هو أساس الثواب ، ومناط الأجر ، فإذا انهار الأساس فلا يبقى معه ثواب للعمل أصلا ﴿٤﴾ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴿٥﴾

أولئك المذكورون جميعا ينهلون من معين واحد ولهم رسالة واحدة هي إرساء قواعد التوحيد في الدنيا لله سبحانه وتعالى ، وإن اختلفت في الشكل وطرق الأداء والمعجزات تبعاً لظروف كل زمن وأمة ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، وآتيناهم الحكم والعلم والفهم الصادق والنبوة ، ولاشك أن كل نبي كذلك ، إذ أساس النبوة العلم والفقه والفهم والفتانة .

فالنبوة قيادة وزعامة في الدين والدنيا ، وهل تتم بدون هذا ، أما الحكم بمعنى فصل القضاء والحكم بين الناس فلم يعط لكل نبي ، وهذه مراتب الفضل فيهم فكل من أوتي الكتاب أوتي الحكمة والنبوة ، وكل من أوتي النبوة أوتي الحكم ، وليس كل من أوتي النبوة أوتي الكتاب فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة التي أوتيت كلها لك يا محمد فإن يكفر بها كفار قریش فقد وكلنا بعنايتها ، ووقفنا للإيمان بها والعمل على خدمتها ، والدعوة إليها ، قوما كراماً ليسوا بكافرين بها ، والمراد بهؤلاء القوم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أولئك الذين هداهم الله ووقفهم ، فهم أئمة الدين وأعلام الهدى فبهذا هم هذا اقتد يا محمد ، وقد جمع جميع خصالهم في الخير فكان خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، قل لهم لا أسألكم على القرآن أجراً ولا منفعة خاصة ، وما هو إلا ذكرى للعالمين ، وهدى للمتقين .

### إثبات رسالة الرسل وأثرها

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعَلَّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٢﴾

**المفردات :** ﴿ وما قدرُوا الله ﴾ : يقال قدرت الشيء عرفت مقداره ، والمراد ما عرفوا الله حق المعرفة . ﴿ قراطيس ﴾ : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو غيره . ﴿ مبارك ﴾ : كثير البركة . ﴿ أم القرى ﴾ : المراد بها مكة المكرمة .

قوله تعالى ﴿ وما قدرُوا الله حق قدره ﴾ : أى ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما يليق بذاته ، فقد وجب له كل كمال ، واستحال عليه كل نقص . فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . ومن مظاهر عدم معرفتهم بقدرته أنهم أنكروا الرسلات السماوية المنزلة على أنبيائه وصفوة عباده : ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ فقد جعلوا من البشرية منطلقا لإنكار الرسلات ، كما قال سبحانه فى بيان ذلك ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد أنكر الله عليهم هذه المقولة ، قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾<sup>(٢)</sup> . قال الكافرون : ﴿ إن هذا الساحر مبین ﴾ . وجاء الرد من الله تعالى صريحا واضحا على ما قالوه من إنكار الرسلات وإنزال الكتب . فقال سبحانه : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾<sup>(٣)</sup> . إن الذى أنزله هو الذى أنزل القرآن على محمد .. وكما وصف الله تعالى التوراة بأنها هدى ونور ، فقد وصف القرآن بأنه روح ونور . قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾<sup>(٤)</sup> فالروح يحيى الموات والنور يبدد غياهب الظلمات .

أشرق النور فى العوالم لما	بشرتها بأحمد الأنبياء
جاء للناس والسرائر فوضى	لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع الله	والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياء	يهدى بها من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب	وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبيين والرسول	كما ينسخ الضياء الضياء

وقد نعى الله تعالى على القوم أنهم جعلوا من التوراة قراطيس ومفردها قرطاس ، وهو ما يكتب فيه . ونقلوا من الأصل إلى تلك القراطيس جملا ، أظهروا بعضها وأخفوا كثيرا منها . والويل كل الويل لهؤلاء . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) الآيات ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى . (٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة . (٥) الآية ٢ من سورة يونس .

لقد بشر الله تعالى في التوراة ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ووصفه في التوراة ببعض صفته في القرآن . قال له في التوراة ( يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمينين . أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، وليس بفظ ولا غليظ ، ولاصحّاب فى الأسواق . ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا « لا إله إلا الله » فيفتح أعينا عميا ، وآذانا صمّا وقلوبا غلفا ) ومع ذلك البيان الواضح الصريح ، فإن اليهود أخفوا صفته ﷺ فى التوراة وكتموها . قال تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقل لهم يا محمد : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ . ﴿ هو الذى بعث فى الأمين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .  
إنهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم . وتأقى الإجابة بعد ذلك فى قوة ووضوح ، فيخاطب الله رسوله قائلا : ﴿ قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ وهذه إجابة عن سؤال سبق : ﴿ من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ﴾ أى الله هو الذى أنزله . قل هذا ودعهم يلعبون فى خوضهم وعشهم ، كما يلعب الصبية ويخوضون .

قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ﴾ والمقصود به القرآن الكريم . فيه البركة والهدى والشفاء والرحمة والضياء . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ومن أوصاف هذا الكتاب الكريم أنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب لأنها تتبع من مشكاة واحدة . وأنزلناه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والمقصود بأم القرى مكة المكرمة ، فإن موقعها على وجه البسيطة يمثل مركز الدائرة ، ومن حولها . فالإنذار شامل والرسالة عامة للعالمين . فقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث رسول الله ﷺ لكل أحمر وأسود . ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾<sup>(٥)</sup> .  
﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ هذه شهادة حق من الملك الحق لقوم امتلأت قلوبهم بنور اليقين ورسخت العقيدة فى أفئدتهم بحيث تزول الجبال ولا تزول العقائد . وهكذا الإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا . فبينما يحدثنا الكتاب الكريم عن قوم لجوا فى طغيانهم يعمهون ، فهم فى ربهم يترددون . وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ وقالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ﴾ يجد هنا فريقا شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ،

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ١ من سورة الفرقان . (٣) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٢ من سورة الجمعة . (٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

آمنوا بالآخرة ، ومن آمن بالآخرة فقد آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . إذ أن العلم بالآخرة إنما جاء عن طريق الله ورسله وكتبه ومن هنا فإنهم يؤمنون بالكتاب ومن آمن بالكتاب أقام حدوده ، فأحل حلاله وحرم حرامه ، وامتنل أمره واجتنب نهيه ، ومن أول الأوامر بعد التوحيد المحافظة على أداء الصلوات ، إذ هي مفتاح الجنة ، من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن خلف .

### عاقبة الافتراء على الله

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْكِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ افترى ﴾ : اختلق الكذب . ﴿ غمرات الموت ﴾ : واحداها غمرة وهي الشدة . غمرات الموت سكراته . ﴿ باسطوا أيديهم ﴾ : مادوا أيديهم . ﴿ الهون ﴾ : والهوان : الذل الهون اللين والرفق . ﴿ خولناكم ﴾ : أعطيناكم ومنحناكم ، والخول الخدم والحشم ﴿ بينكم ﴾ : هو بمعنى الصلة أو هو ظرف والاتصال مفهوم من الكلام . ﴿ ضل ﴾ : أى غاب

قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ : الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفي أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله وقد خاب من افترى . فلا أحد أظلم ممن ادعى لله صاحبة وولداً ، أو أن له شريكاً في ملكه ، فإنه سبحانه قد تنزه عن الشريك ذاته ، وتقصدت عن مشابهة الأغيار صفاته . واحد في ذاته لا قسم له ، واحد في أفعاله لا شريك له ، واحد في صفاته لا شبيه له ، ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ، أليس في جهنم مثوى للكافرين .

كذلك لا أحد أظلم ممن قال أوحى إليّ ولم يوح إليه شيء ، وذلك كمسيلمة الكذاب ومن سار على دربه من دعاة الضلال ، الذين ادَّعوا الرسالة ، وقالوا إن محمداً ختم النبوة ، ولم يختم الرسالة ، وكذبوا ، إذ لا نبوة بلا وحي ولا رسالة بلا نبوة فالنبوة أعم من الرسالة . فإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد ختم النبوة

وهي الأعم فإنه يكون قد ختم الرسالة وهي الأخص .. وهؤلاء الكذّابون بأى شيء نزل الوحي عليهم ؟ إن قالوا بغير الإسلام قلنا لهم : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ <sup>(١)</sup>. وإن قالوا : إن الوحي نزل عليهم بشرع الإسلام قلنا لهم : لقد أكمل الله الدين وأتمّ النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً أقبالاً يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، كذلك لقد خاب وخسر هؤلاء الذين قالوا : سننزل مثل ما أنزل الله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ <sup>(٢)</sup>. إنه الخسران المبين والإفلاس الروحي الشنيع ماصير هؤلاء الكذّابين ؟ قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذا الظالمون في غمرات الموت ﴾ أى شدته وسكراته ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ أى العذاب .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحدى : ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ أى أخرجوها من العذاب وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك . إن العذاب يبدأ من الموت . قال تعالى ﴿ اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ والهون هو الهوان والذل ، ذلك بما كنتم تقولون على الله غير الحق فافترىم عليه الكذب ، وللكذب صور كثيرة لا تكاد تحصى ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض .

﴿ وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ والكبر غمط الناس وبطر الحق ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر وفى هذه الآية الكريمة من الأحوال وقت احتضار الظالمين ما تنخلع له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة ، والناس عند الاحتضار لهم مشاهد ومواقف تختلف باختلاف الإيمان والكفر . وفى هذا المقام وردت أحاديث كثيرة :

- عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، قلنا : يا رسول الله كلنا يكره الموت ؟ قال : ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه ما هو صائر إليه من الشر ، أو ما يلقي من الشر فكره لقاء الله لقاءه ﴾ . ( رواه الإمام أحمد )

- روى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عودينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال : ﴿ استعينوا بالله من عذاب القبر ﴾ مرتين أو ثلاثاً . ثم قال : ﴿ إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها وفي يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول : ربي الله فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال . فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي كنت يسرك . هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذي يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال : فتفرق في جسده فينتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة (١)

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٢٤) . والترمذى في التفسير (سورة ١١٣ ، ١١٤ : ١) . والإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ . هذا إخبار منه تعالى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وقالوا افتراء عليه إنه قد أوحى إلينا ، أو قالوا سننزل مثل ما أنزل الله ، وذاقوا عذاب الهون وهم في غمرات الموت ابتداء ، وسوف يخلدون في العذاب بما كانوا يقولون على الله غير الحق ، وكانوا عن آياته يستكبرون ، لقد خرجوا من الدنيا ولم يأخذوا منها شيئاً ، ومن الذى سيأخذ من الدنيا إلا عمله ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أى حفاة عراة غرلاً ﴿ وتركتكم ما حولناكم وراء ظهوركم ﴾ فلم تأتوا من الدنيا بشيء ، ولم تأخذوا منها شيئاً ولا نقيراً ولا تطميراً . يقول ابن آدم : مالى مالى يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفيت ، ولست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت ، وما عدا ذلك فذهب وتاركه لغيرك كائناً من كان .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة  
واذكر عظامك حين تسمى ناخره  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل  
يارب إن العيش عيش الآخرة  
أزف الرحيل إلى ديار الآخرة  
فاجعل إلهى خير عمرى آخره  
فلئن رحمت لأنت أكرم راحما  
وبحار جودك يا إلهى زاخره  
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى  
وارحم عظامى حين تسمى ناخره

قوله تعالى

﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ المراد بالشفعاء كل الذين عبدوه من دون الله ، وقالوا إنهم شفعاؤنا عند الله ، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء نصيباً فيهم من العبادة ، فأشركوهم مع الله هؤلاء ، وأولئك من الذين عبدوا والذين عبدوا ، سيتقطع الوصل بينهم يوم القيامة ، وتنفصل عرى المودة بينهم ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ وبرزت للجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ (٢) وفى موضع آخر يقول تعالى ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٣)

(٣) الآيات ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة البقرة .

(١) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ٩١ - ٩٣ من سورة الشعراء .

أبعد هذه القطيعة يقولون إنهم شفعائونا عند الله تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت في الحديث القدسي الجليل ( أنا أغنى الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ) (١) نعم لا إله إلا الله هو المعبود بحق ولا معبود سواه لقد غاب عنهم الشركاء وتبرأوا منهم فيا إلهى تولنا فيمن توليت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت

### صور من عظمة الخالق

\* إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٤٥﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكْ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قَنَوانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٩﴾

**المفردات :** ﴿ فالق ﴾ : الفلق والفتق الشق في الشيء . مع إبانته بعضه عن بعض  
﴿ الحب ﴾ : الثمر يكون في الأكمام والسنبل ﴿ النوى ﴾ : جمع نواة ما تكون في الثمر والزبيب وما شاكله . ﴿ تؤفكون ﴾ : تصرفون ﴿ سكنا ﴾ : ما يسكن فيه الإنسان مكانا كالبيت وزمانا كالليل وهو المراد . ﴿ حُسباناً ﴾ : بالحساب والعدد . ﴿ يفقهون ﴾ : الفقه الفهم مع العمق في التفكير . ﴿ متراكبا ﴾ : يتراكم بعضه فوق بعض ﴿ طلعتها ﴾ : الطلع أول ما يبدو ويظهر من الزهر قبل أن ينشق عنه الغلاف ﴿ قنوان ﴾ : هو العذق كالعنقود ﴿ ينعه ﴾ : نضجه واكتماله

إن الإله الذى يستحق العبادة والتقديس هو الذى يتصف بهذا ويعمل هذه الأعمال التى يعجز عن أقلها الأوثان والشركاء والأصنام بل والخلق مجتمعين متكئين سبحانه وتعالى جل جلاله .

إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الزرع كالنجم والشجر من الحب ، والنوى ، والحياة هنا بمعنى

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) . وابن ماجه في الزهد (١) . والإمام أحمد في (٣ : ٤٦٦) وفي (٤ : ٢١٥) .



النمو والتغذية ، ولا شك أن الحب والنوى ميت بهذا المعنى ، وبعضهم يتوسع في الحياة ، ويقول إن الحب والنوى فيها حياة بدليل لو عقمنا لما أنبتا ولكن اللغة لا تساعدهم ، وكانوا يمثلون قديماً بإخراج الحيوان من النطفة أو البيضة ، ولكن العلم الحديث أثبت أن في النطفة حياة ، وكذا في البيضة .

وقيل إن رأى الصحيح إن الحيوان يخرج بمعنى يتكون من الغذاء وهو ميت ، ويخرج من الحيوان لبنة وفضلاته وهى ميتة ، وكون خلايا الجسم الحى تتكون من غذاء كاللبن والنبات مع عدم الحياة في الغذاء ، دليل على كمال القدرة ، والله مخرج الميت من الحى فيخرج الحب والنوى من النبات الحى ، ويخرج اللبن والفضلات من الحيوان الحى ، سبحانه وتعالى من قادر حكيم عليم ، فكيف تؤفكون : تصرفون عن طريق الهدى والفلاح ، والله فائق الإصباح ، قد فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح عند طلوع الفجر ، وجعل الليل سكناً للحيوان الحى ، يستريح فيه من التعب ، ويسكن جسمه من الألم ، وأعصابه من التفكير والنصب ، والليل وقت سكون وراحة ، والنهار وقت عمل ونشاط ، وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وتقدير وترتيب ونظام محكم لا يختل أبداً لتعلموا بهما عدد السنين والحساب ،

فانظر وفقك الله للخير للآيات الكونية الثلاث : شق الإصباح ، وسكون الليل ، ونظام الشمس والقمر وحسابهما ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾<sup>(١)</sup>

وهو الذى جعل لكم النجوم : والمراد بها ماعدا الشمس والقمر مما لا يعلمه إلا هو ، جعلها علامات للسارى ، بها يهتدى للوقت من الليل ، أو من السنة ، ويعرف المسالك والطرق والجهات ، جعلها لتهتدوا بها في ظلمات الليل والماء ، أو المراد ظلمة الخطأ والضلال

ولما في عالم السماء من صنع وإحكام وتقدير ونظام ، قد فصل الله الآيات القرآنية ، والآيات الكونية ، وهما يدلان على حكم الله وتما علمه ولا يستخرج كل هذا ، ولا يهتدى به إلا أهل العلم والنظر ﴿فاعتبروا يا أولى الأبصار﴾<sup>(٢)</sup> ولذا اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾

هذه آيات الله الكونية في الأرض والسماء وهما ذى آياته في أنفسنا وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً قد خلقكم من ذكر وأنثى ، وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، وفي هذا إرشاد إلى التواد والمحبة والتعاطف بين الخلق جميعاً ، وإشارة إلى كمال القدرة ، وتما العلم والحكمة ، خلقكم من نفس واحدة ، ولكم مستقر في الأصلاب ومستودع في الأرحام ، والاستقرار مكث غير محدود بزمان ولا وقت ، وهو أقرب إلى الثبات ، والاستيداع مكث موقوف معرض للرد والرجوع ، ولهذا كان الاستقرار في الأصلاب ، والاستيداع في الأرحام ، وبعضهم عكس ، وبعضهم قال غير ذلك ، والله أعلم .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢ من سورة الحشر .

قد فصلنا الآيات ووضحناها لقوم يفقهون ، ويقفون على الأسرار الخفية بذكائهم ، وعمق تفكيرهم ، ولاشك أن النظر في الخلق والتكوين الإنساني يحتاج إلى دقة ونظر وفهم .

وهاهى ذى آياته التكوينية فى النبات .

وهو الذى أنزل من السحاب الذى فى السماء ماء ، فجعل منه كل شىء حى ، فأخرج به المولى جل شأنه نبات كل صنف من الأصناف ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ولكن الشكل والطعم مختلف ، سبحانك يارب ، أنت القوى القادر ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ﴾ (١) فى الشجرة الواحدة ، ثم حسن ، وآخر ردى .

ثمر ناضج ، وثمر نبيء ، ثمر طعمه جميل ، وآخر قبيح ، سبحان الله ، أليس هذا من دلائل الوجدانية والقدرة ، فأخرج الله من النبات شيئاً غصاً أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات ، وذلك كورق النجم وغصن الشجر ، ويخرج من هذا الأخضر حباً جافاً صلباً متراكباً بعضه فوق بعض فى السنبيل ، أما الشجر فهذا النخل عنوانه ، يخرج من طلعه قنوان دانية القطوف ، سهلة التناول ، ويخرج الله من النبات الأخضر جنات من أعناب وغيره من الفواكه والثمار كالزيتون والرمان مشتبها فى الشكل والورق والثمر ، وغير مشتبها فى لون الثمر ، وطعمه فمئها الحلو والحامض ، والمزبل منها ماهو كاليسفى والبرتقال أو كالنارنج ، انظر إلى ثمر ما ذكر نظرة اعتبار وفحص إذا أثر النبات ، وكيف يصير هذا الثمر من درجة إلى درجة حتى يصل إلى كمال نضجه ، وتام منفعتة ، وكيف يكون الثمر أجوف فارغاً ، ثم تمتلئ بالخير والبركة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون بالله ، أو فيهم الاستعداد لذلك .

### الرد على المفتريين

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠١﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٣﴾ لَا تَدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٤﴾

**المفردات :** ﴿ خرقوا ﴾ : خلق وخرق واخترق كلها بمعنى واحد ، قال الراغب : الخلق فعل

الشيء على تدبير ورفق ﴿ واحرق ﴾ : قطع الشيء على سبيل الفساد . ﴿ بديع ﴾ : مبدع على غير مثال سابق ومنه البدعة لأنه لا نظير لها ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ : الإدراك اللحاق والوصول إلى الشيء

أشرك الناس بالله شركاء من دونه وأقسم إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وقد

عبدوا الملائكة وقالوا : إنها بنات الله ، وأطاعوا الشياطين في أمور الشرك بالله ، وقال المجوس : إن للخير إلهاً وللشر إلهاً هو إبليس ، وذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنِّ ﴾ .

والله وحده خلقهم وما يعبدون ، فكيف سواه ، واختلق بعض الناس بجهلهم وحمقتهم بنين لله وبنات ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، فقد قالت اليهود : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وقال المشركون من العرب : الملائكة بنات الله .

كيف يكون ذلك ؟ والله مبدع السموات والأرض وما فيهن ، فهو الخالق البارئ المصور ، كيف يكون له ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ، والولد لا بد فيه من تزواج وتناكح ، وهل يعقل أن تكون له صاحبة تتجاسه وتشاكله ، وهو المنزه عن المثل والشريك : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ <sup>(١)</sup>

وكيف يكون له ولد ؟ وقد أقر الكل بأنه خلق السموات والأرض ، أفيكون في حاجة إلى ولد وله كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خلق كل شيء فاعبدوه وحده فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، الخالق البارئ ، فاطر السموات والأرض ومبدعهما ، وهو على كل شيء قدير ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، ولا تراه رؤية إحاطة وشمول حتى تعرف كنهه وتحيط به ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

والآية الكريمة لا تنفي الرؤية التي وردت بها الأحاديث الصحيحة والله يدرك الأبصار : يراها ويدرسها ويقف على حقيقتها وكنها ، وإلى هنا لم يعرف أحد حقيقة الضوء ، أو حقيقة البصر ، ولماذا لم تر الأذن ، ولم تسمع العين ؟ ولماذا كان عصب العين ينقل إشارة الرؤية ؟ وعصب السمع ينقل إشارة السمع ؟ ولكن الله وحده هو الذى يدرك الأبصار ويعلمها ، وهو اللطيف بذاته ، الخبير بدقائق خلقه وخفاياهم .

### الطريق واضح

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَافِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾  
وَكَذَلِكَ نُنْصِرُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَتَبِعَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ  
مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ  
عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ بصائر ﴾ : جمع بصيرة وتطلق على العقيدة القلبية وعلى المعرفة الثابتة ، والحجة البينة ، ويقابلها البصر الذى يدرك به الأشياء الحسية . ﴿ عمى ﴾ : المراد بالعمى هنا الضلال الدال على

الحيرة . ﴿ حفيظ ﴾ : رقيب . ﴿ درست ﴾ : أى قرأت وفى الحديث « كان يدارسه القرآن » ومنه الدرس والمدرسة وهى تشير إلى التذليل بكثرة القراءة .

بعدما بين الله سبحانه وتعالى من الآيات البينات التى نشرها فى الأفاق والأنفس ، وأدحض حجج الذين جعلوا له شركاء ، وأثبت أنه الواحد المتصرف المالك القادر الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار . بعد هذا البيان الشافى الكافى الوافى : قال تعالى ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ أى قد جاءكم من البراهين والآيات على تلك القضية نتائج لا تختلف ولا تتخلف ، فقال سبحانه ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ أى من اهتدى إلى النور وسار وراء موكب الهداية الربانية ، وانتفع بشمس العناية الإلهية ، فإنما ذلك كله لنفسه ، ومن عمى وضل عن السبيل ، وتنكب الجادة ، وحاد عن الصراط السوى ، فعلى نفسه ، إذ المسئولية هنا فردية ، كل امرئ بما كسب رهين ، وكل نفس بما كسبت رهينة . ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

يلقى الولد أباه يوم القيامة فيقول : يا أبت لقد كنت بك براً ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثدىي لك سقاء فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . اقرأوا إن شئتم ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ (١) .

فبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

غداً توفى النفوس ما كسبت      ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم      وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قل لهم ذلك يا محمد وأبلغهم إنك لست عليهم بحفيظ ولا بريقب ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم تحشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٢) .

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .

(٢) الآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سورة طه .

قوله تعالى ﴿كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون﴾ أى ومثل ذلك الذى سبق من البيان والتوضيح نصرف الآيات وننوعها ، من وعد ووعد ، وخوف ورجاء ، وقصة وعقيدة ، وأحكام وبيان ، لما بعد الموت لنقطع المعاذير ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين﴾<sup>(١)</sup> وليقولوا لقد قرأت علينا وبلغتنا إن لم يقولوها بلسان المقال ، فسيقرون بها بلسان الحال ﴿ولنبينه لقوم يعلمون﴾ والعلم نور ، فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾<sup>(٢)</sup> قوله جل شأنه ﴿اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين﴾ أى التزم بما أنزلناه عليك من الوحي ، واعلم بأن لا إله إلا الله ، وأعرض عن جهلهم وذلك كما قال تعالى : ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾<sup>(٣)</sup> .

لما نزل على النبي ﷺ قوله تعالى ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾<sup>(٤)</sup> سأل الصادق المعصوم عليه السلام جبريل عنها فقال جبريل يا رسول الله لا أدرى حتى أسأل رب العزة فلما سأل رب العزة قال له السلام يقرؤك السلام ويقول لك ﴿صل من قطعك وأعظم من حرمك واعف عمن ظلمك﴾ وهذا هو التفسير الرفيع للخلق العظيم الذى تحلى به سيد الأنبياء ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾<sup>(٥)</sup> .

يخاطبني السفيه بكل قبح      وآبى أن أكون له مجيياً  
يزيد سفاهة وأزيد حِلماً      كعود زاده الإحراق طيياً

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه ومصطفاه ﴿ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهم بوكيل﴾ هو كقوله جل شأنه «ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة»<sup>(٦)</sup> وقوله ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون<sup>(٧)</sup> . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فلست رقيباً عليهم ، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾<sup>(٨)</sup> فلا تبخع نفسك عليهم من الأسف ، فلست عليهم بوكيل ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر : ﴿كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين﴾<sup>(٩)</sup> .

(٦) الآية ١١٨ من سورة هود .  
(٧) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ من سورة يونس .  
(٨) الآية ٥٦ من سورة القصص .  
(٩) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .  
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر .  
(٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الأحزاب .  
(٤) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .  
(٥) الآية ٤٨ من سورة الأحزاب .

## سد الذرائع

وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ  
إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ  
جَاءَهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ  
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١٩﴾ وَنَقَلِبُ أَفْعَادَهُمْ أَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَعْمَهُونَ ﴿١٢٠﴾

جاء في سبب نزول هذه الآية ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ ما روى  
أن زعماء قريش ذهبوا إلى أنى طالب وقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آهتنا ،  
فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آهتنا ، ولدعوه وإلهه ، وقالوا للنبي ﷺ : لتكفن عن شتم آهتنا أو  
لنشتمنك ونشتم من يأمرك فنزلت الآية : حرص الإسلام أشد الحرص على سد أبواب الشر وضرب  
حولها أسواراً عالية وأقام حولها حصوناً مكيئة ومن أبواب الشر التي سد الإسلام الطريق أمامها سب آلهة  
المشركين فهي وإن كانت لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر كما قال تعالى ﴿إن تدعوهم لا يسمعون  
دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (١) وكما قال جل شأنه ﴿إن الذين  
تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فإدعاهم فليس تجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم  
أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها﴾ (٢) .

ومع كون معبوداتهم كذلك إلا أن الله تعالى نهى المؤمنين عن سب تلك الآلهة حتى يقطع الطريق  
على هؤلاء المشركين الذين إذا سمعوا ذلك سبوا الله جل جلاله ، متجاوزين حدود الأدب والأخلاق ،  
لأنهم جاهلون خفاف العقول سفهاء الأحلام ، وكذلك أى مثل ذلك الذى يفعله الجاهلون زينا لكل أمة  
عملهم ، وجاء التزيين أثراً وجزاء لما فعلوه من المخالفات لأوامر الله ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً  
فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ (٣) ثم إن المصير والمرجع إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون ثم  
تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه  
تقبلون . يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . قوله تعالى  
﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها﴾ ، ومن قبائح هؤلاء وما استقر في نفوسهم من  
الجحود والظلم ، أنهم أقسموا بأغلظ الأيمان وأشدّها ، والجهد والاجتهاد بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ،

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٢) الأيتان ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر .

أقسموا على ماذا أقسموا لكن جاءتهم آية من الآيات التي يقترحونها ليؤمنن بها ، وذلك كما قال تعالى ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾<sup>(١)</sup> فماذا كان الرد ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾ وماذا كان الرد : قل إنما الآيات عند الله القادر الحكيم ، مالك الملك ، وملك الملوك ، ثم لماذا يقترحون هذا ، أو لم يفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون .

ولماذا يقولون هذه الحجج الباطلة إنهم لا يقصدون من ورائها إلا اللجاج والعناد ، وهل إذا جاءت يؤمنون فعلا قال تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾<sup>(٢)</sup> لقد شق القمر بأمر الله فماذا قالوا قالوا إن محمداً سحر أعيننا قال تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال عز من قائل : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وهل يغيب عنا ما قاله الأقوام السابقون لأنبياهم ، أو ما قرأت قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾<sup>(٥)</sup> .

وحكاية عن المسيح مع قومه ﴿ إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾<sup>(٦)</sup> .

كذلك يخاطب الله الجماعة المؤمنة بقوله ﴿ وما يشعر كم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أى حتى لو جاءتهم الآيات التي اقترحوها فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا كبيراً ، لذلك كان جزاؤهم اللاتق بهم ، أن يقلب الله أفئدتهم وأبصارهم فلا تستقر قلوبهم على حال ، ولا تثبت أبصارهم على حقيقة ، لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة ، فالقلوب في أكنة تمنعها من رؤية الحق ، وعلى الأبصار غشاوة ، تحجب عنها ضياء المعرفة . ﴿ ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أى يتحiron ويتخبطون في ظلمهم وضلالهم جزاء وفاقا ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾<sup>(٧)</sup> .

نسأل الله تعالى علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء . (٤) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس . (٦) الآية ١١٠ من سورة المائدة .

(٢) الآيات ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآية ٤٩ من سورة الزخرف . (٧) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة النبأ .

(٣) الآيات ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

عبد الحميد كشك

في  
رَحَابِ التَّقْسِيرِ

الجزء الثامن

المكتبة المصرية الحديث



## الإصرار على العناد بالباطل

\* وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ وحشرنا ﴾ : جمعنا . ﴿ قبلا ﴾ : جمع قيل كـرغيف ورغف ، أى ضمنا وكفلاء ، وقبلا أى مواجهة ومقابلة ، ومنه قيل : قبل الرجل ودبره ، وقرى قبلا أى عياناً ومواجهة . ﴿ شياطين ﴾ : قال ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان ( يوحى ) الإيحاء الإعلام مع الخفاء والسرعة كالإيحاء والمراد ما يوسوس به الشياطين من الجن والإنس . ﴿ زخرف ﴾ : الزخرف الزينة ، ومنه سمي الذهب زخرفاً ، وجعل تمويههم زخرفاً لتزيينهم إياه . ﴿ غروراً ﴾ : خداعاً باطلاً . ﴿ ولتصغى ﴾ : صغى إليه مال وصغى فلان وصغوه معك ميله وهواه . ﴿ وليقترفوا ﴾ : اقتراف المال اكتسبه ، والذنب اجتزره .

روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم . أحق ما تقول أم باطل ؟ أو اثنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت الآية . وهذا تفصيل لما أجمل في قوله تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » مع تسلية النبي ﷺ بذكر طبائع الناس ، وما يلاقيه الأنبياء في دعوتهم .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة ، كما قالوا : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ (١) ولو كلمهم الموتى بأن نحبيهم لهم ، فيخبروهم بما رأوا من ثواب وعقاب كما قالوا : ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾ (٢) . ولو أننا حشرنا عليهم ، وجمعنا لهم من كل شيء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى معانية ومواجهة ليكون ذلك دليلاً على صدق دعواك ، أو جمعنا عليهم كل شيء ضمناً وكفلاء بصفة ما بشرنا به وأنذرنا ، لو حصل كل هذا ما كان من شأنهم الإيمان ، ولا كان استعدادهم يقتضى ذلك ، لأنهم ينظرون إلى الآيات نظرة تعنت وعداوة ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فلم ينظروا إلى الآيات نظرة جزئية للهداية ، والعبرة حتى يتعظوا ويؤمنوا ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن

يفقهوه وفي آذانهم وقراً ﴿١﴾ لكن لو شاء الله لآمنهم لآمنوا : ولكنه يتركهم وفطرتهم التي تتنافى مع سلوك طريق الخير والانتفاع بهدى القرآن ﴿٢﴾ لا إكراه في الدين ﴿٣﴾ مع تبصرتهم وهدايتهم إلى طريق الخير والشر ﴿٤﴾ وهديناه النجدين ﴿٥﴾ .

ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك فيقسمون بالله جهد أيمانهم : لكن جاءتهم آية مما اقترحوا يؤمنون بها ، وما يشعرون بقلوبهم وما انطوت عليه ، وبما ختم عليها حتى صارت كأنها من أكنة ، وقيل : ولكن أكثر المسلمين يجهلون نفوس الكفار وما هي فيه ، فيميلون إلى إنزال الآيات المقترحة عليهم يؤمنون . وهكذا سنة الله في الخلق . منهم مهتد وكثير منهم فاسقون ، لا يرجعون إلى صوابهم أبداً ، وهكذا سنته مع أنبيائه جعل لكم منهم أعداء من الجن والإنس خصوصاً أولى العزم منهم ليعطوا بدرجات الصبر والعمل ، فالنبي ﷺ يدعو إلى الخير جاهداً ، والمشركون يدعون إلى الخير كما يزعمون جهدهم ، فمن باب تنازع البقاء لا بد من حصول العداوة والبغضاء والعاقبة للمتقين ﴿٦﴾ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴿٧﴾ . كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبي جاء قبلك أعداءهم شياطين الإنس والجن ، روى أبو ذر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له عقب صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت يا رسول الله : وهل للإنس شياطين ؟ قال نعم : ﴿٨﴾ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴿٩﴾ الآية (٥) » وقال مجاهد وقتادة والحسن أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، أما مظهر عداوة هؤلاء للنبي والمسلمين فإنه يوحى بعض شياطين الجن إلى بعض شياطين الإنس وكذلك يوحى بعض الجن إلى بعض الإنس إلى بعض وعن مالك بن دينار أن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجن ، إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى ، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً .

يوحى بعضهم إلى بعض بالقول المزخرف المزين ، وبالوسوسة وبالإغراء بالمعاصي والتمويه والخداع بالباطل ، ولو شاء ربك ما فعلوه أبداً فذرهم وما يفترون ، يفعلون هذا ليغروهم بالفساد ولتصفى إليه قلوب الكفار والفُسَّاق . فإنها تميل إلى الشر وتجنح إلى الفساد ، لأنه الموافق لإهوائهم ، وليترتب على ذلك أن يرضوه ويطمئنوا إليه وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصي ما هم مكتسبون .

### الشهادة للنبي ﷺ بالصدق

أَفْغَبَرَ اللَّهُ أَتْبَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾

(٤) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٥) أخرجه الترمذى في المناقب (١٧) . والإمام

أحمد في ( ٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥ ) .

(١) الآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠ من سورة البلد .

**المفردات :** ﴿ حكما ﴾ : الحاكم من يتحاكم إليه الناس ، ويحكم بينهم بالحق أو بغيره ، والْحَكْمُ من يحكم بالحق فقط كما قال القرطبي . ﴿ مفصلاً ﴾ : مبيناً فيه الحق إلى حد لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه والمراد هنا أنه كلمة الله وافية في الإعجاز والدلالة على صدق الرسول . ﴿ لا مبدل ﴾ : لا مغير .

ما لكم تطلبون آيات الله حكماً بيننا ؟ وليس لي أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزَه إذ هو الحكم العدل ، وهو الذى أنزل إليكم القرآن كتاباً مفصلاً فيه كل شيء مبيناً لكل حكم ، جامعاً لكل خير ، فيه الهدى والنور ، والعلم والعرفان ، وهو المعجزة الباقية الدالة على صدق رسالتى لما فيه من الآيات ولما أعجز جهابذة البلاغة وأرباب البيان ، مع التحدى الصارخ لهم .. شهد لي بالصدق ، وعليكم بالكذب والبهتان ، والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى . يعلمون أنه الحق المنزل من عند الله مشتملاً على النور والهدى ، ومتلبساً بالحق والعلم إذ هو من جنس الوحي الذى نزل عليهم ، وقد جاءهم في كتبهم البشارة بالنبي ﷺ وصفته ، فهم أدرى الناس به ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾<sup>(١)</sup> وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرته منهم واهتدى .

والخلاصة أنكم تتحكمون في طلب المعجزات والآيات الدالة على صدق الرسول ، وقد حصل ذلك بوجهين :

- (١) القرآن وهو المعجزة الباقية القائمة مقام قوله تعالى : [ صدق عبدى في كل ما يبلغه عنى ] .
  - (ب) معرفة أهل الكتاب وشهادتهم للنبي محمد بالصدق .
- فإذا كان هذا حاصلًا فلا تكونن من الشاكين ، وهذا لون من ألوان التبييع والإلهاب كقوله «فلا تكونن من المشركين» .

وتمت كلمة ربك ، وقرئ كلمات ربك ، نعم تم كلام الله فلا يحتاج إلى شيء آخر وأصبح كافياً وافياً في الإعجاز ، والدلالة على الصدق ، وقيل تمت كلمة ربك فيما وعدك به من النصر على الأعداء ، وأوعد به المستهزئين والكافرين من الخذلان والهلاك ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ إنهم لهم المنصورون ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

نعم تمت كلمة ربك صدقاً فيما أخبر به ، وعدلاً فيما حكم به ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أعدل من الله حكماً ؟

ثم كان كل ما أخبر جل شأنه من أمر ونهى ، ووعد ووعد ، وقصص وخبر صادقاً عادلاً ، لا مبدل لكلماته ، ولا راد لقضائه فهو القادر على كل شيء ، الحكيم في كل صنع ، السميع لكل قول ، العليم بكل حال ووضع سبحانه وتعالى عما يشركون .

## إرشادات وأحكام

وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَالَكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا يَضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَذْكُرَ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُواكُمْ ۚ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

**المفردات :** ﴿يَخْرُصُونَ﴾ : يحدسون ويقدرُونَ والخرص الحدس والتخمين، والخراص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين معه . ﴿فَصَّلَ﴾ : بين وأزال عنكم اللبس في المحرمات . ﴿الْإِثْمَ﴾ : القبيح وفي لسان الشرع ما حرمه الله . ﴿لَفِسْقٌ﴾ : معصية وخروج عن دائرة الدين .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا لإخبار من العلم الخبير بواقع أهل الأرض فالأغلبية إن أطعتم أضلوك عن سبيل الله وهذا كقوله جل شأنه ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لَلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ <sup>(٥)</sup> ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ <sup>(٦)</sup> وكقوله تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ <sup>(٧)</sup> وكقوله جل شأنه ﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ <sup>(٨)</sup> .

قال أحد الحكماء :

تعزينا أنا قليل عديدنا      فقلت لها إن الكرام قليل  
وما ضرنا إن قليل وديننا      صحيح ودين الآخرين عليل

(٥) الآية ٧١ من سورة الصافات .

(٦) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

(٧) الآية ١٣ من سورة سبأ .

(٨) الآية ٢٤ من سورة ص .

(١) الآية ١٧ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٤٣ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

ثم يخبر جلت قدرته عن منشأ ضلال هؤلاء فيقول ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فاتِّباع الظن يفيد عدم استقرار اليقين في نفوسهم ، والخرص هو التخمين ، وكل من الظن والتخمين لا يفيد يقيناً ، إنما يفيد ظناً وتخميناً ، وإن الذي أخبر بهذا هو من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يقول سبحانه ﴿إِنْ رَبِّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فما دام ربك أعلم بحال هؤلاء فلا تتبع أهواءهم ، وتوكل على الله إنك على الحق المبين ، قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، فالعلم صفة انكشاف ، وهي صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، فبالعلم نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فقد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قوله تعالى ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية إخبار من الله تعالى بإباحة الأكل من الذبائح التي ذكر اسم الله عليها ، إن كنتم بآياته مؤمنين ، فكلوا منها دون ما خوف ولا حرج ، ولماذا لا تأكلون منها وأى شيء يمنعكم من ذلك وقد ذكر اسم الله عليها وقد شاءت حكمة الله تعالى وإرادته أن فصل لكم وبين ووضع ما حرمه عليكم ، جاء ذلك في قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَهْلُ الْغَيْبِ اللَّهُ بِهِ﴾ (١) وجاء في ذلك قوله تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ الْغَيْبِ اللَّهُ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فُسْقَ الْيَوْمِ يَثْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢) .

وفي الآية التي بين أيدينا وهي قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ في هذه الآية ما يفيد أن المضطر له أن يتناول من المحرم ما يبعد عنه الهلاك ، فإذا كانت الضرورات تبيح المحظورات فإن الضرورة تقدر بقدرها ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ أَوْ جُوعٍ وَمَسْغَبَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال جل شأنه ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿وَأَنْ كَثِيرًا لَيَضْلُوا بَأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أى المتجاوزين لحدود الله وهم الذين أحلوا وحرّموا حسب أهواءهم ﴿وَقَالُوا مَا فِي بَطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لَذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ (٤) .

(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .

وهم الذين سبوا السائبة وبحروا البحيرة فأضلوا الناس بغير علم ﴿١﴾ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴿٢﴾ قال تعالى ﴿٣﴾ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴿٤﴾ .

وقال جل شأنه ﴿٥﴾ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿٦﴾ قوله تعالى ﴿٧﴾ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴿٨﴾ قال قتادة : ﴿٩﴾ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴿١٠﴾ أى سره وعلايته قليله وكثيره . وهذا كقوله تعالى ﴿١١﴾ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشرکوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وإن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿١٢﴾ .

ولذلك حكم الله تعالى على من اقترف الإثم ظاهراً أو باطناً بقوله ﴿١٣﴾ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴿١٤﴾ عن النواس بن سميان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال ﴿١٥﴾ الإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه ﴿١٦﴾ .

قوله تعالى ﴿١٧﴾ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴿١٨﴾ وفي هذه الآية الكريمة أحكام شرعية نذكر تفصيلها عن العلامة ابن كثير ثم نذكرها ملخصة عن تفسير المراعى .

قال العلامة ابن كثير :

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه المسألة على ثلاثة أقوال فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمدًا أو سهواً ، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاة وعامر الشعبي ومحمد بن سيرين ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهري ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد ابن محمد بن على الطائى من متأخري الشافعية في كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية ويقولون في آية الصيد ﴿١٩﴾ فاكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴿٢٠﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿٢١﴾ وإنه لفسق ﴿٢٢﴾ والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله .

(١) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(٣) الآيات ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(٢) الآيات ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .

(٤) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٥) أخرجه مسلم في البر (١٤ ، ١٥) . والترمذى في الزهد (٥٢) . والدارمى في البيوع (٢) . والإمام أحمد في (٤ : ١٨٢ ، ٢٢٧ ،

(٢٢٨) وفي (٥ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦) .

(٦) الآية ٤ من سورة المائدة .

وبالأحاديث الواردة في الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثي عدى بن حاتم وأبي ثعلبة « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » <sup>(١)</sup> وهما في الصحيحين وحديث رافع بن خديج « ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه » وهو في الصحيحين أيضاً وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه » <sup>(٢)</sup> رواه مسلم وحديث جندب بن سفيان البجلي قال : قال رسول الله ﷺ « من ذبح قبل أن يصلي فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله » <sup>(٣)</sup> .

وعن عائشة رضي الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ! قال : « سموا عليه أنتم واكلوا » <sup>(٤)</sup> قالت وكانوا حديثي عهد بالكفر رواه البخاري .

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لا بد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحدائثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد . والله أعلم .

والمذهب الثاني في المسألة أنه لا يشترط التسمية بل هي مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكى عن ابن عباس وأبي هريرة وعطاء بن أبي رباح والله أعلم . وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى ﴿ أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال ابن جريج عن عطاء « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قریش للأوثان ، وينهى عن ذبائح الجحوس ، وهذا المسلك الذي طرقة الإمام الشافعي قوى ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو في قوله ﴿ وَإِنَّهُ لَفَسَقٌ ﴾ حالية أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه في حال كونه فسقاً ، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله .

ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة ، لأنه يلزم فيه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقص عليه بقوله ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التي ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فإن عطف

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٢، ٣، ٧-١٠) . ومسلم في الصيد (١-٣) . وأبو داود في الأضاحي (٢٢) . والترمذي في الصيد (١، ٦) . والنسائي في الصيد (١-٣، ٥، ٦، ٧، ٨، ١٨، ٢٠، ٢١) وابن ماجه في الصيد (٣)

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٥٠) . والترمذي في تفسير (سورة ٤٦ : ٣) . والإمام أحمد في (١ : ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأضاحي (١٢) وفي العيدين (٢٣) وفي الذبائح (١٢، ١٧) . وأخرجه مسلم في الأضاحي (١-٣) . والترمذي في الأضاحي (١٢) . والنسائي في الضحايا (٤، ١٧) . وابن ماجه في الأضاحي (١٢) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (١٣) وفي البيوع (٥) وفي الذبائح (٢١) . وأبو داود في الأضاحي (١٣، ١٩) . والنسائي في الضحايا (٢١، ٣٦، ٣٩) وابن ماجه في الذبائح (٤) . والإمام مالك في الذبائح (١) .

(٥) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

على الطلبية ، ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله . والله أعلم .  
وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ قال هي الميتة . ثم رواه عن أبي زرعة عن يحيى ابن أبي كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به .

وقد استدلل لهذا المذهب بما رواه أبو داود في المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسي مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان في كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطني عن ابن عباس أنه قال : « إذ ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقي أيضاً بحديث عائشة رضی الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً حديثي عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أتمم وكلوا » قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

والمذهب الثالث في المسألة أن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحق بن راهويه ، وهو محكى عن علي وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصري وأبي مالك وعبد الرحمن بن أبي ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبي عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغيناني في كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعي على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع وهذا الذي قاله غريب جداً وقد تقدم نقل الخلاف عن قبل الشافعي والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناس فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخير الثابت عن رسول الله ﷺ في ذلك يعني ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقي أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسي حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل ابن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « المسلم يكفيه اسمه إن نسي أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله »

وهذا الحديث رفعه خطأ . أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزري ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدي رواياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبي الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزادا في إسناده أبا الشعثاء ووثقاه ، وهذا أصح ، نص عليه البيهقي وغيره من الحفاظ ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبي ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسياناً والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيراً والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً فليعلم هذا والله الموفق . قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جبير بن يزيد قال سئل الحسن [ سأله رجل ] أتيت بطير كذا فعمته ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسي أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير فقال الحسن : كله كله ،



قال وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ . واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ « ان الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » (١) وفيه نظر والله أعلم . وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى من حديث مروان بن سالم القرقساني عن الأزاعي عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى فقال النبي ﷺ « اسم الله على كل مسلم » ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقساني أبا عبد الله الشامي ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم . وقد جاء في تفسير المراغي مانصه في قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ أى لا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ، ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم ، فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء في الآية الأخرى ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ ثم لخص الأحكام فقال : قال مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر عمداً أو سهواً .

وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم وإن ترك نسياناً حل .  
وقال الشافعي : متروك التسمية عمداً أو سهواً حلال إذا كان الذابح مسلماً .

قوله تعالى ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أى وأن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم في هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعبد لغير الله شرك ، كدعاء غير الله ، وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره ، وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ، ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية .

وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحداً من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ، ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التي لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركاً ، وكذلك من يأكل الميتة بل يكون عاصياً إن لم يكن مضطراً .

قال عكرمة : وأن الشياطين يعنى :ردة الجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ، ليصل إلى نبي الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه الجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة : إن محمداً وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم

يزعمون أن ما يذبحونه حلال ، وما يذبحه الله حرام ، فوقع في أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ ﴾ يعنى في استحلال الميتة ﴿ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك لأنه أثبت مشرعاً سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم وهذا هو الراجح الذى عليه المعول .

### أهل الحق وأهل الباطل

أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مَجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٧﴾

المفردات : ﴿ أَكْبَرُ ﴾ : أكبر القوم رؤسائهم . ﴿ مجرميها ﴾ : الإجرام ما فيه الفساد والضرر من الأعمال . والمجرمون الفاعلون لهذه الأعمال ﴿ قرية ﴾ : البلد الذى يجمع الناس كالعاصمة مثلاً . وقد تطلق على الشعب والأمة . ﴿ يَمْكُرُوا ﴾ : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة .

قوله تعالى ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ المراد بالميت ميت القلب ، وهذا حال الناس قبل الهداية ، فإذا ما اهتدوا زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم ، فأصبحوا أحياء عندما تسرى فيهم روح الهداية ، ويجعل الله لهم نوراً يمشون به في الناس ، وذلك كما قال جل شأنه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١) ففي هذه الآية العظيمة وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه روح ونور وهاد .

روح يحيى الله به الموات ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ ونور يبدد غياهب الظلمات ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ وهاد يهdy إلى سواء الصراط إنه حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والهادى إلى الصراط المستقيم فاعجب معى لأمة ربها نور ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ وقرآنها نور ، فأمنوا بالله ورسوله والنور الذى أرسلنا ونبيها نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢) كيف ترضى لنفسها أن تعيش في غياهب الظلمات .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد  
وقاضت من الدمع العيون مهابة  
وأشرق نور تحت كل ثنية  
فقل لرسول الله يا خير مرسل  
شعوبك في شرق البلاد وغربها  
بأيامهم نوران ذكر وسنة  
وأبصرت مشوى الأعظم العثرات  
لأحمد بين الستر والحجرات  
وضاع أريج تحت كل حصاة  
أبك ما تدرى من الحسرات  
كأصحاب كهف في عميق سبات  
فما بالهم في حالك الظلمات

قوله تعالى ﴿كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ليتين به الفرق الشاسع والبون البعيد بين أهل الحق وأهل الباطل ، والمثل حال عجيبة يتبين بها الفرق بين من جاء المثل في شأنه وبين غيره ، قال تعالى ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ ولا الظلمات ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور \* إن أنت إلا نذير ﴿<sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً افلا تذكرون﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تبارك اسمه : ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ <sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى ﴿كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون﴾ أى مثل هذا الذى سبق ومن مثله في الظلمات مثل ذلك التزيين الذى زين الشيطان به أعمال الكافرين فرأوا أعمالهم حسنة ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ <sup>(٤)</sup> وقال جل شأنه ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتمدون﴾ <sup>(٥)</sup> قوله تعالى ﴿وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرمين ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أى كما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين﴾ <sup>(٦)</sup> وقال تعالى ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ <sup>(٧)</sup> قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمراً قديراً كما قال ههنا ﴿يمكروا فيها﴾ وقوله تعالى : ﴿أكابر مجرمين ليمكروا فيها﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿أكابر مجرمين ليمكروا فيها﴾ قال سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وقال مجاهد وقتادة ﴿أكابر مجرمين﴾ عظماءها قلت وهكذا قوله تعالى ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿<sup>(٨)</sup> وقوله تعالى ﴿وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على

(٥) الآية ٢٤ من سورة النحل .

(٦) الآية ٣١ من سورة الفرقان .

(٧) الآية ١٦ من سورة الإسراء .

(٨) الآية ٣٤ ، ٣٥ من سورة سبأ .

(١) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٤ من سورة هود .

(٣) الآية ١٩ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

آثارهم مقتدون ﴿١﴾

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى ﴿وما يملكون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ أى وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ ﴿٤﴾ وقال ﴿ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون﴾ ﴿٥﴾

### صورة من عنادهم

وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

المفردات : ﴿صَغَارٌ﴾ : الصغار الذل والهوان ، والصغر القلة في المحسوسات .

﴿أَجْرَمُوا﴾ : ارتكبوا ما فيه جرم .

قوله تعالى ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ ﴿٦﴾

وقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ \* أنهم يقسمون رحمت ربك ﴿٧﴾ يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل في أعينهم ﴿من القريتين﴾ أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسداً وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبر عنه ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آهَاتِكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٨﴾

(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .

(٦) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٧) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف .

(٨) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٢٢ من سورة نوح .

(٣) الآيات ٣١ - ٣٣ من سورة سبأ .

(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴾<sup>(١)</sup>

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخَرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل [أَنْ يُوْحَىٰ إِلَيْهِ «الْأَمِين»] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم؟ قال هو فينا ذو نسب قل هل كنتم تتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال لا - الحديث بطوله الذي استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به. روى الإمام أحمد بإسناده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفاني من بنى هاشم»<sup>(٣)</sup> انفراد بإخراجه مسلم.

وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «بعثت من خير قرون بنى آدم قرناً فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه»<sup>(٤)</sup> وروى الإمام أحمد بإسناده عن المطلب ابن أبى وداعة قال: قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال «من أنا؟» قالوا أنت رسول الله فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقه وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»<sup>(٥)</sup>

وعن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجده رجلاً أفضل من محمد وقلب الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجده بنى أب أفضل من بنى هاشم» رواه الحاكم.

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: «إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسائلته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سيئ»<sup>(٦)</sup>

قوله تعالى ﴿ سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاعوا فإنه سيصيبه يوم القيامة بين

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٣).

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١).

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩).

(٧) والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧).

(٢) الآية ٤١ من سورة الفرقان.

(٣) الآية ١٠ من سورة الأنعام.

(٤) أخرجه مسلم فى الفضائل (١). والترمذى فى المناقب (١). والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧).

يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا. كقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> أى صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً وهو التلطف في التحيل والخديعة قبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء. وفاقاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾<sup>(٢)</sup> كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾<sup>(٣)</sup> أى تظهر المستندات والمكنونات والضمائر وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿يَنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لُؤَاءٌ عِنْدَ إِسْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ﴾<sup>(٤)</sup> والحكمة في هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علماً منشوراً على صاحبه بما فعل .

### أمانة الهداية وعلامة الضلال

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ \* لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُمْ وَلِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَنْمَعُشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَخَلِدُوا فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾

**المفردات :** ﴿يشرح صدره﴾ : يقال شرح الله صدره فأنشرح أى وسعه لقبول الإيمان والخير وقيل الشرح الفتح والبيان وقيل هو نور يقذفه الله تعالى في القلب ﴿ضييقاً﴾ : ضد الواسع ﴿حرجاً﴾ : هو أضيق الضيق ﴿الرجس﴾ : العذاب وقيل الشيطان ﴿دار السلام﴾ : دار السلامة وهى الجنة .

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ من سورة الطارق .

(٤) أخرجه البخارى في الجزية (٢٢) وفي الأدب (٩٩) وفي الحيل (٩) وفي الفتن (٢١) . وأخرجه مسلم في الجهاد (٨ ، ١٠ ، ١٧) .

وأبو داود في الجهاد (١٥٠) . والترمذى في السير (٢٨) وفي الفتن (٢٦) . وابن ماجه في الجهاد (٤٢) والدارمى في البيوع (١١) .

والإمام أحمد في (١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١) وفي (٢ : ١٦ ، ٢٩ ، ٤٨) وفي (٣ : ٧ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦١) .

قال تعالى ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ أى يسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون﴾<sup>(٢)</sup>. وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به

وعن أبى جعفر رضى الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ أى المؤمنين أكيس ؟ قال « أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً »<sup>(٣)</sup>.

قال وسئل النبى ﷺ عن هذه الآية ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ قالوا كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمانة يعرف بها ؟ قال « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »<sup>(٤)</sup>.

قوله تعالى ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء﴾

قال الشيخ المراقى : فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الاسلام الذى هو دين الفطرة والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك فى نفسه انشراحاً واتساعاً بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعاً من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالته فتوجه إليه إرادته ويدعن له قلبه بما يرى من ساطع النور الذى يستضيء به ليه وباهر البرهان الذى يملك نفسه .

وسئل رسول الله ﷺ عن كيف يشرح صدره يا رسول الله قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح قالوا : فهل لذلك من أمانة يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت ».

قوله تعالى ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء﴾ أى أن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد فى نفسه وصدره ضيقاً أيماً ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتماها ويكون مثله من صعد فى الطبقات العليا فى السماء إذ يشعر بضيق شديد فى التنفس وكلما صعد فى الجوا أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء سيلاً إلى البقاء فإن هو قد بقى منها مات اختناقاً .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) . والدارمى فى المقدمة (٥٦) .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

وخلاصة ذلك أن الله ضرب مثلاً لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه بضيق التنفس الذى يجده من صعد بظائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مر على نزولها نحو أربعة عشر قرناً وتقدم فن الطيران الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات السفلى وأنه كلما صعد الانسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جليلاً لأنهم لم يبتدوا لسرها وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبتته العلم ومن هذا صح قولهم الدين والعلم صنوان لا عدوان وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

أى مثل ذلك الضيق والحرج فى صدور أهل الضلال نجعل الرجس والعذاب على الذين لا يؤمنون بالله رباً ، ولا الإسلام ديناً ولا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وما ظلمناهم ولكنه كانوا هم الظالمين ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وقال جلت حكمته : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٢) وقال عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى \* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنِيَرِهِ لِلْإِسْرَى \* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى \* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى \* فَسَنِيَرِهِ لِلْعُسْرَى ﴾ (٣) .

هذه سنة الله التى لا تختلف ولا تتخلف على مر الأعصار . واختلاف الأمصار . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (٤) . وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴿ (٥) ﴾ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴿ (٦) ﴾ لا ترى فيه عوجاً ولا أمناً . ولا تعرجاً ولا التواء ، ولا شذوذاً ولا نشازاً ولا انحرافاً . إذ المستقيم أقرب صلة بين نقطتين . وهذا هو صراط الله .

ولقد علمنا الله كيف ندعوه فى سورة الفاتحة التى نقرأها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل فى صلواتنا ، فنقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٨) وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قَدْ

(١) الآية ٥ من سورة الصف .

(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(٧) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

(٢) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب .

(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٦) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .



فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴿١﴾ .

إن الذين اتبعوا هذا الصراط المستقيم قد اتبعوا هدى الله ، فوعدهم الله تعالى بوعدين : ألا يضلوا ولا يشقوا . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (١) .

وهؤلاء لهم دار السلام عند ربهم والسلام ، اسم جليل وجميل يملأ النفس طمأنينة وسكينة ، والكلمة رنين طالما اهتزت له أعواد المنابر ، ووصل إلى أعماق القلوب ، أليس السلام اسماً من أسماء الله عز وجل : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾ (٢) .

أليس اسماً من أسماء الجنة ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ (٣) ثم أليس السلام تحية الله إلى حبيبه ومصطفاه : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، أليس السلام تحية الإسلام : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أليس السلام تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿ (٤) ﴾ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴿ (٥) ﴾ .

والولاية هنا ولاية نصره ومحبة ، ومن كان الله وليه لا يخيب سعيه ، ولا يضل سؤله ، ولا تتعثر قدمه ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (٦) وما سمى الولي ولياً إلا لأن الله يتولاه بالحفظ والعناية :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فإخاف كلهن أمان

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون \* لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴿ (٧) ﴾ .

يا خادماً الجسم كم تشقى لخدمته      أتطلب الربح مما فيه خسران  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها      فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان  
وامدد يدك بحبل الله معتصماً      فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، يذكرنا الله تعالى به حتى نكون على حذر من أتباع الشياطين ، وكما علمنا أن القرآن قد أنزله الله مثاني ، فقد قرن الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، تكون حال المؤمن بين الرجاء والخوف .

(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(١) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .

فبعدما حدثنا القرآن الكريم عن أنعمه تعالى على عباده المؤمنين ، وما أعد لهم من دار السلام ، وما أحاطهم به من ولاية ورعاية بعد ذلك ، عرض علينا مشهداً من مشاهد أهل النار فقال ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعاً ﴾ أى اذكر أيها المخاطب هذه الصورة التى تمثلت أمامك ، إنها توحى إليك بجماعة كثيرة جمعت بين الإنس والجن ، وقد وجه الله تعالى إلى الجن هذا الخطاب : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ﴾ أى أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنَى آدَمَ ألاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وطرق الإغواء كثيرة متنوعة ، وشعب الضلال مختلفة ملتوية ، ومن ثم فقد جاءت الظلمات بصيغة الجمع لكثرتها ، وجاء النور بصيغة الأفراد لأنه الحق ، والحق لا يتعدد ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٣) وقال تبارك اسمه : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَلْتَ لَنَا ﴾ .

المراد بالاستمتاع هو انتفاع كل من الفريقين بعضهم ببعض ، فالجن استمتع بإغواء الإنس وإضلالهم ، والإنس استمتع بما أوقعه الجن فيه من الملذات ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وسييراً التابع والمتبوع كل من عمل الآخر . قال سبحانه : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلِيْلَنَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ (٥) .

إن استمتاع بعضهم ببعض يبدو جلياً فى أن الجن قد أمروا ، والإنس قد عملوا ، ويوم القيامة تتجلى هذه الصورة فى ساحة الحساب : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦) .

إن شيطان الإنس قد يكون شراً من شيطان الجن ، لذا جاء مقدماً فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُوراً ﴾ .

قال أحدهم :

(٤) الآية الأولى من سورة إبراهيم .

(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

(١) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .

(٢) الآية . أولى من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

و كنت امرأةً من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي وقد أصدر الله تعالى حكمه على الفريقين فقال : ﴿ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء ﴾ وهذا حكم صادق عادل ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظنمون ﴾ (١) ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ (٢) .

أما معنى الاستثناء في قوله تعالى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فأرجح الأقوال . أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعته الشافعين من الملائكة والنبیین والمؤمنين ، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يحمل خيراً قط ، وتأتي يوماً من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستقيمة عن رسول الله ﷺ ، وقال قتادة : الله أعلم بشناياه .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ شاءت حكمته أن يجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وأحاط علمه بكل شيء ، فقد علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

إن هؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض ، قضوا حياتهم في الإغواء والملاذات ، حتى بلغوا آخر الأجل الذي قضوه في الدنيا ، فظلوا غافلين حتى أتاهم اليقين ، وأدرجوا في أكفان القدر ، فكان مثوهم وحل إقامتهم النار كل بلاء دون النار عاقبة

وكل نعيم دون الجنة حقير  
تزود من التقوى فإنك لا تدري  
إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً  
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري  
وكم من عروس زينوها لزوجها  
وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر  
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم  
وقد أدخلت أجسادهم في ثرى القبر  
وكم من صحيح مات من غير علة  
وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

### من مشاهد القيامة

وَكَذَلِكَ نُؤَيِّلُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ الْمَ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَارَبُكَ بِغَفْلٍ شَامِعٌ ﴿١٣٢﴾

**المفردات :** ﴿تَوَلَّى﴾ : من الولاية والإمارة . أو جعل بعضهم أنصاراً وأولياء لبعض . ﴿يَقْصُونَ﴾ : يتلونها مع التوضيح والتبيين ، وفي المصباح : قصصت الخبر قصاً ، أى حدثته على وجهه . ﴿درجات﴾ : مراتب من أعمالهم وجزاؤها .  
قوله تعالى : ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ .

قال قتادة : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتقنى ولا بالتحلى . واختاره ابن جرير .  
وقال معمر : عن قتادة في تفسير الآية : يولى الله بعض الظالمين بعضاً في النار ، يتبع بعضهم بعضاً .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الزبور ( أنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين جميعاً ) وذلك في كتاب الله قوله تعالى ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله : ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ قال : ظالمى الجن ، وظالمى الإنس ، وقرأ : ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نفقيض له شيطاناً فهو له قرين﴾<sup>(١)</sup> قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .  
قال ﷺ : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه »<sup>(٢)</sup> .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعض ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيتهم .

قال تعالى : ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون﴾ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبي ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم<sup>(٣)</sup> .  
قوله تعالى ﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ .

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يوجه الله تعالى فيه السؤال إلى الجن والإنس ، ليقطع عليهم المأذير لئلا يكرروا للناس على الله حجة بعد الرسل : ﴿ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى﴾ أى يتلونها ويفصّلونها تفصيلاً ، وهذا هو منطق العدالة الإلهية . قال تعالى : ﴿وما كنا معذنين حتى نبعث رسولاً﴾ وقال عز شأنه ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ . إذا ألقوا فيها سمعوا لها

(٣) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة التوبة .

(١) الآية رقم ٣٦ من سورة الزخرف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام (٦) .

شهيقاً وهي تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴿١﴾

ولقد أرسل النبي ﷺ إلى الجن والإنس . وقد استمع الجن إلى القرآن من خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم ﴾ (٢) .

إذاً فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وبلغ الرسالات ، وزودنا بالعقول والأفهام ، فلا حجة لمتنج ، ولا عذر لمعتذر .

فكان جوابهم ﴿ بلى شهدنا على أنفسنا ﴾ وهذا في نفس الوقت إقرار وشهادة ، بالإقرار حجة قاصرة على المقر ، وهو في نفس الوقت يشهد على غيره ، كما أن غيره بإقراره شاهد عليه ، قال تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ (٣) إذاً فالنار مثواهم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين \* قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (٤) .

قوله تعالى ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ .

اقتضت عدالته جل جلاله أنه لن يهلك أهل الطغيان والبغي إلا بعد أن ينذرهم ، فيفيقوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من سباتهم ، ويتنبهوا من غفلتهم ، هذا منطق عدالته جل جلاله ، إنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٥) .

وهو القائل في الحديث القدسي الجليل : [ يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ] (٦) .

ولما أهلك الله الطغاة ، ودمر الجبابرة ، وحطم القياصرة ، وهدم الأكاسرة ، قال : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليهم حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٧) .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(١) الآيات ٦ - ٩ من سورة الملك .

(٦) أخرجه مسلم في البر (٥٥) . والإمام أحمد في (٥ : ١٦٠) .

(٢) الأيتان ٣٠ - ٣١ من سورة الأحقاف .

(٧) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام .

(٤) الأيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الزمر .

وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر \* كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾<sup>(١)</sup>. وهكذا اقتضت عدالة الله أن ينذر ويحذر ، فإذا كذب بها أهل البغى حق عليهم القول ، فدمرهم الله تدميراً ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر \* حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال سبحانه : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾<sup>(٣)</sup> .

والله جل في علاه قد استحال في حقه الظلم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾<sup>(٤)</sup> . وهذا منطق العدالة الإلهية : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾<sup>(٥)</sup> فلن يهلك الله القرى إلا إذا أتت من الجرائم والمخالفات والاستكبار عن طاعة الله ، وعصيان الرسل ، ما يستحق إيقاع الهلاك بهم ، ولن يهلكها الله بظلم ، فحاشاه أن يظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٦)</sup> . قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

وهذا تأكيد لمنطق العدل الإلهي ، فلكل من الفريقين الطائعين والعاصين منازل ينزلون بها ، فأهل الجنة في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأهل المعاصي في نار الجحيم .

وهذا المعنى قرره القرآن الكريم في كثير من مواضعه ، قال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾<sup>(٧)</sup> وقال سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا ننضيع أجر من أحسن عملاً \* أولئك هم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً ﴾<sup>(٨)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ .

وهذا إخبار منه جل في علاه بأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾<sup>(٩)</sup> وقال سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً \* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾<sup>(١٠)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾<sup>(١١)</sup> وقال جلّت حكمته : ﴿ يوم يعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾<sup>(١٢)</sup> . ألم تر أن الله يعلم

(١) الآيات ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر . (٥) الآية ١٣٤ من سورة طه . (٩) الآية ٤٩ من سورة الكهف .  
(٢) الآيات ٥٥ من سورة القمر . (٦) الآية ٤٤ من سورة يونس . (١٠) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .  
(٣) الآية ٢٣ من سورة القمر . (٧) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (١١) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .  
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء . (٨) الآيات ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .

ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

### وعيد وتهديد

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ ۚ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ ۖ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٧﴾ قُلْ يَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٨﴾

**المفردات :** **﴿ يذهبكم ﴾** : يهلككم . **﴿ من ذرية ﴾** : من نسل قوم آخرين . **﴿ مكانتكم ﴾** : حالكم التي أنتم عليها .

وربك الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، والكل فقير إلى رحمته وعفوه ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ (١) وهو ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، رحمته وسعت كل شيء ، إذ كل ما عاداه محتاج إليه في وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التي جعلها الله قوام وجوده وحياته .

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ وَيَأْتِ بَخَلْقٍ غَيْرِكُمْ أَفْضَلُ مِنْكُمْ وَأَطْوَعُ ، وَإِنْ يَشَأْ يُسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَقْوَامِ ، فَإِنَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْقَادِرُ عَلَىٰ إِهْلَاكِكُمْ وَإِنْشَاءِ قَوْمٍ آخَرِينَ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمْ ، أَوْ ذُرِّيَّةٍ غَيْرِكُمْ ، يَكُونُونَ أَسْمَىٰ مِنْكُمْ رُوحًا ، وَأَصْفَىٰ مِنْكُمْ نَفْسًا ، وَقَدْ صَدَّقَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، فَأَذْهَبَ الْمُسْتَكْبِرِينَ الْمَعَانِدِينَ الْجَاهِلِينَ مِنْ زَعَمَاءِ الشَّرْكِ ، وَاسْتَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ هُمُ الصَّحَابَةُ وَالسَّابِقُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ . وَبَعْدَ هَذَا الْإِنْذَارِ فِي الدُّنْيَا ، إِنْذَارٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ إِنَّمَا تَوْعَدُونَ مِنْ جَزَاءِ وَثُوبِ آتٍ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ اللَّهَ يَهْرَبُ وَلَا مَنَعَ .

### ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ .

قل لهم يا محمد : يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التي أنتم عليها ، إني عامل على طريقتي ومكانتي التي هداني إليها ربي ، ورباني عليها ، وسوف تعلمون من تكون له العاقبة الحسنى والنهائية العظمى . قال الرنخشرى في تفسيره ( الكشف ) : اعملوا على مكانتكم تحتمل وجهين ، اعملوا على تمكينكم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم أو اعملوا على جهتكم وحالكم التي أنتم عليها ، والمراد اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فإنى ثابت على الإسلام ، فسوف تعلمون الذى تكون له العقبى يوم القيامة ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ (٢) .

(٣) الآية ٢٤ من سورة سبأ .

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٥ من سورة فاطر .

وهذا إنذار لطيف المسلك . دقيق المأخذ ، مع التوجه إلى النظر والفكر وحسن الأدب وبيان السبب في الحكم للنبي ﷺ إذ لا يفلح الظالمون بالكفر .

### صورة من جاهلية العرب

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا أَزْوَاجَنَا وَإِن يَكُن مِّمَّنَّةٌ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ وَحْكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

**المفردات :** ﴿ ذُرَأٌ ﴾ : أى خلق وأبدع . ﴿ لِيَرُدُّوهُمْ ﴾ : ليهلكوهم بالإغواء . ﴿ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ﴾ : يخلطوا عليهم دينهم . ﴿ حِجْرٌ ﴾ : الحجر أصله المنع ومنه سمى العقل حجراً لمنعه صاحبه والمراد الحرام . ﴿ وَصَفُّهُمْ ﴾ : أى جزاء وصفهم .

أثر من آثار وسوسة الشيطان للإنسان ، وعمل من أعمال إبليس ، وصورة من صور الجاهلية الجاهلاء ، التى كانت عليها العرب قبل الإسلام .

وجعلوا لله مما خلق من الحرث والأنعام نصيباً مفروضاً ، وقدرأً محدوداً ، وجعلوا كذلك نصيباً لغيره أشركوهم مع الله من الأوثان والأصنام ، فقالوا هذا لله بزعمهم وتقوهم الذى لا بينة عليه ، ولا حجة فيه ، وهذا لشركائنا ومعبوداتنا نتقرب به إليها . والروى أنهم كانوا يجعلون فى ما لهم نصيباً لله ينفقونه لإطعام الفقراء والمساكين وإكرام الضيفان والصبيان ، ونصيباً للآلهة يعطى لسدنتهم وخدمتهم ، وما ينفق على معابدهم ، وما كان لشركائهم خاصة لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله ، بل يجعلونه للسدنة وخدمته الأصنام والأوثان ، وما كان لله فهو واصل إلى شركائهم ، ألا ساء الحكم حكمهم ، وبئس ما يصنعون ؟



إذ هم اعتدوا على الله بالتشريع الفاسد وأشركوا به غيره ، وفضلوه عليه . والحال أن الله هو الذى خلق كل شيء ، وما عملوه لاسند له من عقل أو شرع ، أليست هذه جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ؟ ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة زين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم ، وكان مظهر التزيين أنهم خوفوهم الفقر فى الحاضر والمستقبل . ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾<sup>(١)</sup> وخوفهم ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير الكفء .

وثالثة الأثافي أنهم كانوا يمينونهم بأن قتلهم أولادهم قرى إلى الآلهة ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد الله .

وقد سمى الله المتزيين لهم من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن سماهم الله شركاء ، لأنهم أطاعوهم طاعة فى التبجيل والاحترام ، كما فعل أهل الكتاب مع رجال الدين ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾<sup>(٢)</sup> زين لهؤلاء قتل الأولاد ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذى يدعونه ، وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم . والواقع أنه ليس فيه شيء من هذا ، ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبدا ، ولكن مشيئة الله للناس جميعا أن يكونوا واختيارهم ما جبلوا عليه من اختيار أى الطريقين بدون جبر ولا قهر .

أما أنت يا رسول الله ، فذرهم ولا يهمنك أمرهم ، ودعهم وما يفترون فى حقلك وحقنا ، فعلى الله حسابهم .

ثم ذكر صورة ثالثة من صور الجاهلية ، المشوهة .

أنهم قسموا أمواتهم وأقواتهم إلى ثلاثة أقسام :

- (أ) فتارة أنعام وأقوات تكون محبوسة على معبوداتهم وأوثانهم ويقولون هى محبوزة للآلهة ، لا يطعمها إلا من تشاء من رجال ونساء ، وقولهم هذا بزعمهم وإدعائهم الخالى من الحجة والبرهان .
- (ب) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهى البحيرة والسائبة والحامى .
- (ج) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، بل يهلون بآلهم وحدها عند الذبح .

وقد قسموا هذا التقسيم مفترين على الله ، كاذبين عليه ، والله من ذلك برىء ﴿ قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾<sup>(٣)</sup> والله سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه بما كانوا يفترون .

﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة للذكورنا ﴾ والمراد بها البحائر المشقوقة الآذان والسوائب ، خالص خلوصاً مبالغاً فيه لذكورنا فقط ، ومحرم على نساؤنا وكانت السوائب إذا ولدت

ذكرا ، جعلوها للذكور خاصة ، وإذا ولدت أنثى جعلت للتاج ، وإن كان في بطنها ميتا جعل شركة بين الذكر والأنثى ، سيجزيهم الله جزاء وصفهم إنه حكيم عليم .  
ولقد نعى الله سبحانه وتعالى على مشركى العرب أمرين عظيمين ، هما قتل الأولاد ، ووأد البنات ، وتحريم ما رزقهم الله من الطيبات ، وحكم عليهم بالخسران والسفه ، وعدم العلم والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، إذ كيف تقتل ابنك خشية الفقر أو العار وتحرم طيبات أحلت لك ؟  
فأما الخسران فالولد نعمة من الله وزينة في الدنيا ، فإذا سعى لإزالتها استحق الغضب من الله لاعتدائه ، وقال الناس : إنه قتل ابنه خوف أن يأكل طعامه ، وخسر عاطفة الأبوة التى هى مصدر الرحمة والحنان ، وجعلها مصدر الاعتداء والفناء ، وأما السفه فهل هناك سفه أكثر من قتله ابنه وفلذة كبده خوف الفقر أو خوف العار ؟ وربما كان الولد مصدر الخير لأهله ، وهل من يفعل هذا لا يعد في مصاف الجهلاء ؟ أعوذ بالله من عادات الجاهلية .

وأما الافتراء على الله والكذب عليه ، فقد جعلوه ديناً وهم كاذبون ، وأما ضلالهم فهم لم يرشدوا إلى خير أصلاً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولم يسيروا وراء عقل ولا شرع أخرج البخارى ( إذا شرك أن تعلم جهل العرب فافراً ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ) ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم ﴾ ... إلى قوله تعالى .. ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ .

من مظاهر قدرة الله ونعمه مع الرد على المشركين

\* وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُمُ الزَّيْتُونَ  
وَالرَّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزَانِ اثْنَيْنِ قُلْ  
الَّذِينَ كَرِهَ حَرَمٌ أَمْ لَا أَنْثَيْنِ أَمْ لَا أَنْثَيْنِ نَبِّعُوْنِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾  
وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَرِهَ حَرَمٌ أَمْ لَا أَنْثَيْنِ أَمْ لَا أَنْثَيْنِ أَمْ لَا أَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْتُكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ  
النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ أَنَّى لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ أنشأ ﴾ : خلق وأوجد بالتدرج . ﴿ جنات ﴾ : بساتين

الكروم والأشجار الملتفة الأغصان ؟ سميت كذلك لأنها تجن الأرض أى تسترها . ﴿ معروشات ﴾ : محمولات على العرائش والدعائم التى يوضع عليها كالسقف مثلاً . ﴿ حولة ﴾ : ما أطاق الحمل والعمل من الإبل والبقر وغيرها . ﴿ وفرشاً ﴾ : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل وغيرها ، أو ما يتخذ صوفه للفرش . ﴿ حصاده ﴾ : قطافه . ﴿ الضأن ﴾ : ذوات الصوف من الغنم . ﴿ المعز ﴾ وهى ذوات الأشعار والأذنان القصار من الغنم .

### المناسبة

لما افترى الكفار على الله الكذب ، وأحلوا وحرموا ، وأشركوا معه غيره ، دلهم على وحدانيته تعالى ، ومظاهر قدرته وأنه مصدر التشريع والتحريم لأنه تعالى هو الخالق وحده ، المبدع لهذه الكائنات وصاحب هذه النعم الجليلة .

وربكم القادر الرحيم بكم الرحمن ، هو الذى أنشأ تلك الجنات وأبدع هذه البساتين سواء منها المعروش القائم على العمد والسقف كبستان العنب ، وغير المعروش كبقية الفواكه والأشجار ، حتى العنب نفسه فيه المعروش وغير المعروش ، وأنشأ النخل ، وخص بالذكر لكثرتة عند العرب وشيوعه فى بلادهم ، وانتفاعهم بكل ما فيه حتى ضربوه مثلاً للمؤمن ينتفع بكل أجزائه ، وأنشأ الزرع الشامل لكل ما يزرع ويحترث مما هو أساس القوت وغيره ، كالقمح والشعير وغيرها ، وهذا النخل والزرع مع أنه يسقى بماء واحد ، وفى تربة واحدة ، ومتشابهة فى المنظر العام ، إلا أنه يختلف فى الأكل فهذا الجيد ، وذلك المتوسط أو الردىء وهذا الحلوة وذاك المر الخ ...

فسبحانك يارب أنت القادر الحكيم .

وأنشأ الزيتون والرمون متشابهاً فى المنظر العام ، وغير متشابهة فى الطعم والأكل يا سبحان الله هذه التغيرات خلقت بطبعها أم لأبد لها من غير ؟ وهل هو الله سبحانه أم غيره من الشركاء والأصنام ؟ أليس هو الله الرحمن الرحيم ؟ ولو شاء لخلقنا ولم ينعم علينا بغذاء جميل المنظر لذيد الطعم سبل تناول .

أليس هذا من مظاهر القدرة الكاملة ، والحكمة التامة ، والوحدانية الشاملة ، للذات والصفات ، فهذا الماء ذو الكثافة من رفعه فى العود الأخضر إلى أعلى ؟ حتى انتهى إلى ورق أخضر ، ولون أزهر ، وجنى جديد ، وطعم لذيد ، وشكل جميل ، وهذا غذاء النحل يصير عسلاً ، وغذاء الطي يصير مسكاً ، وغذاء الحيوان يصير روثاً !

أين من يقولون خلق الكون بأنضع ؟ أين من يكفرون بالرحمن ؟ أين من يعصون الله فى أرضه وتحت سمائه ؟

كلوا أيها الناس من ثمر هذا الزرع والجنات إذا أثمر ، واشكروا نعمه عليكم ، بأن تأتوا حقه الذى

فرض عليكم يوم حصاده وقطافه ، قبل أن تشح به نفوسكم ، ففيه حق معلوم للسائل والمحروم ، وهذه هى الزكاة المطلقة التى وجبت فى صدر الإسلام ، ثم كانت الزكاة المقيدة المحددة الواجبة فى الآيات المدنية .

ولا تسرفوا فالإسراف خطأ مطلقاً ولو فى الشئ الخلال ، ولا تسرفوا فى الأكل ، ولا تسرفوا فى التصرف ، وقد قيل : لا سرف فى الخير ، ولا خير فى السرف ، والرأى هو التوسط فى كل شئ . وأنشأ من الأنعام كباراً تصلح للحمل والعمل ، وصغاراً كالفصلان والغنم والمعز مثلاً ، تفرش على الأرض للذبح ، ويتخذ من شعرها ووبرها فرشاً ولباساً .

وكلوا مما رزقكم الله ، وانتفعوا بلحمها ولبنها ووبرها وشعرها ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فتحرموا ما أحل الله . أو تحلوا ما حرم الله ، فإن الشيطان عدوكم الظاهر : ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وهذه الأنعام ثمانية أزواج : فهى إبل وبقر وغنم ومعز ، وكل منها ذكر وأنثى ، وقد أنشأ الله من الضأن اثنين الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين التيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة .

قل لهم أيها الرسول تبكيئاً وتوبيخاً : أحرم الله الذكرين من الكبش والتيس؟ أم حرم الأنثيين من النعجة والعنزة نبئوني بعلم إن كنتم صادقين؟ أم حرم الذكرين من الجمل والثور أم حرم الأنثيين من الناقة والبقرة ؟ أم حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

وقد كان المشركون فى الجاهلية يحرمون بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، ما احتج الله سبحانه وتعالى عليهم بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقرة ذكر أو أنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراماً ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إنائها حراماً ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وجب تحريم الأولاد كلها .

والله تعالى ما حرم عليهم شيئاً من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون فى دعوى التحريم ، وقد فصل الله ذلك أتم تفصيل ، مبالغة فى الرد عليهم ثم زاد فى الإنكار فقال : بل أكنتم حضوراً أو قد وصاكم الله بهذا ؟ أى أعندكم علم يؤثر عن الإنكار من رسله ؟ أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ كلا ما حصل هذا ولا ذاك ، وإنما أنتم تفترون على الله الكذب ، وتقولون هذا حلال وهذا حرام وتقولون على الله ما لا تعلمون .

وبعد أن نفى طريقى العلم ، وهو التلقى من الرسل أو من الله . أثبت أنه لا أحد أظلم ممن ثبت أنه

افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ، أما جزاؤكم فإن الله لا يهدي القوم الظالمين ، ولا يوفقهم إلى الرشاد وإلى الهدى والخير أصلاً .

### المحرمات

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

**المفردات :** ﴿محرمًا﴾ : محظورا أو ممنوعا . ﴿طاعم يطعمه﴾ : آكل يأكله . ﴿مسفوحًا﴾ : مصبوبا سائلا يجري من المذبح . ﴿رجس﴾ : قدر قبيح . ﴿شحومها﴾ : المراد الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش . وكذا الشحم الذى يكون على الكلية . ﴿الحوايا﴾ : مجتمع الأمعاء فى البطن . ﴿بأسه﴾ : عذابه .

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحي من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفترياً على الله معتدياً على مقام الربوبية ، ومن أتبعه فى ذلك فقد اتخذ شريكاً لله تعالى ، وأبان من هذا الافتراء ما حرّمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحراث قفى على ذلك بذكر ما حرّمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله ، وألسنة بعض الرسل قبله . أخرج عبد بن حميد عن طاووس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت ﴿قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرمًا﴾ .

قوله تعالى : ﴿قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به﴾ .

أى قل أيها الرسول ، هؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس لا أجد فيما أوحاه إلى ربي طعاماً محرمًا على آكل يريد أن يأكله إلا أن يكون ميتة لم يذكَ ذكاة شرعية وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجري من المذبح فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبِد والطحال وفى الحديث

« أحلت لنا ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال »<sup>(١)</sup> أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك خبيث تعافه الطباع السليمة .

وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقاً لأهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبدًا وبذكر اسمه عليه عند ذبحه . ﴿ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مرید لذلك ولا قاصد له ولا متجاوز حد الضرورة فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره - غفور رحيم فلا يؤاخذ به بأكل ما يسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ أى ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط كما ورد ، وحرمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرها شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة وهى ما على الكرش والكلى أما الشحوم التى على الظهر وفى الذيل فحلال بدليل قوله ﴿ إِلَّا مَا جَاءَ مِنْ ظُهُورِهِمَا ﴾ وإلا ما حملته الأمعاء فتلخص أن المحرم عليهم من الشحوم هو شحم الكرش والكلى فقط .

وإنما حرم الله عليهم ذلك عقوبة لهم فى قتلهم الأنبياء بغير حق ، وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، واستحلالهم أموال الناس بالباطل ، وفى ذكر هذا تكذيب لليهود فى قولهم إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

ولما كان هذا إخباراً عن شيء جرى قديماً لم يكن للنبي ﷺ ولا لأحد من قومه علم به قال وإنما لصادقون ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فإن كذبوك بعد هذا وقالوا : إن الله رحيم واسع الرحمة كريم فكيف يحرم ما أحله ؟ قل لهم : لهم نعم ربكم ذو رحمة واسعة ، ولكن من عصى وبغى لا بد من عقابه فإنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فى حق أنفسهم ، وحق الله .

### حجة داحضة

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بِأَسْنَاءِ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

**المفردات :** ﴿تخرصون﴾ : الخرص الحذر والتخمين والمراد تكذبون .  
 ﴿الحجة﴾ : الدلالة المبينة للدين الحق . ﴿هلم﴾ : أى أحضروا . ﴿يعدلون﴾ : يتخذون له عدلاً مساوياً .

من حجج المشركين الباطلة قولهم ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ وقد رد عليهم مولانا تبارك وتعالى بقوله ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ لقد قطع الله المعاذير على العباد فقد أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، وقد أنزل الله كتباً تتلى فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، وقد زود الله عباده بالعقل والكسب والاختيار ، فرفع قلم التكليف عن المجانين ، وبين الهدى من الضلال ، وميز الحق من الباطل .

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾<sup>(١)</sup> .

أبعد قول الله تعالى ﴿قد تبين الرشد من الغي﴾ تكون هناك حجة لكل معتد أثيم ، إن الله تعالى بين وأنذر ، وقد أعذر من أنذر ، وعفا وتاب على من عاد بعد معصية ، وفتح باب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، وتغرب في مشرقها ، ورفع التكليف عن كل خطأ ونسيان واستكراه ، وعن المجنون حتى يفيق ، والتائب حتى يستيقظ ، والصبي حتى يحتلم ، ولم يكلفنا إلا بما نستطيع ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾<sup>(٣)</sup> ﴿فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم﴾<sup>(٤)</sup> .

أبعد هذا البيان يقولون على الله كذباً وبهتاناً ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ إنها حجة داحضة .

يقول الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أن الله تعالى أراد بنا وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا ، فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا ، كذلك فإن مثل علم الله فينا كما قال النبي ﷺ كمثل السماء التي أظلتكم والأرض التي أقلتكم ، فكما لا يستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا يستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾<sup>(٦)</sup> . وقال تبارك اسمه :

(٤) الآية ١٦ من سورة التغابن .

(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج .

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(١)</sup> وقال عظمت حكمته ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى ﴿<sup>(٢)</sup> .

وقال : ﴿ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿<sup>(٣)</sup> .

وقال جلت حكمته : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ ونفس وما سواها \* فآلهمها فجورها وتقواها ﴾<sup>(٦)</sup> .

فأى حجة محتج بعد هذا البيان ، وقد رد الله تعالى في موضع آخر جاء في سورة النحل . رد على هؤلاء المفتريين فقال ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾<sup>(٧)</sup> قال تعالى رداً عليهم : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطواغوت ﴾<sup>(٨)</sup> .

إن هذه الحجج التي تشدقوا بها وردت في مواضع عن الكتاب العزيز مثل ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم . ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾<sup>(٩)</sup> .

ثم بين الله تعالى أنهم مقلدون لآبائهم . جاحدون على كفرهم ، فقال : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾<sup>(١٠)</sup> . وفي موضع آخر يقول جلت قدرته ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾<sup>(١١)</sup> .

وقد دحض الله أقاويلهم تلك في قوله ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ \* قال أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون \* فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾<sup>(١٢)</sup> .

فإذا كان هؤلاء قد احتجوا بالمشيئة فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وحرموا من الحرث والأنعام ما لم يحرمه الله ، وأحلوا أشياء وحرموا أخرى تبعا لأهوائهم ، ثم احتجوا بمشيئة الله ، فإن الله

(١) الآية ٥ من سورة الصف . (٥) الآية ١٠ من سورة البلد . (٩) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل . (٦) الآيات ٧ ، ٨ من سورة الشمس . (١٠) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .

(٣) الآيات ٥٤ - ٥٩ من سورة الزمر . (٧) الآية ٣٥ من سورة النحل . (١١) الآية ٤٧ من سورة يس .

(٤) الآية ٣ من سورة الإنسان . (٨) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة النحل . (١٢) الآيات ٢٣ - ٢٥ من سورة الزخرف .



تعالى قد بين وأوضح ، لذلك جاء كلامه مبنيًا على التكذيب الذى كذبه آباؤهم ، والذين من قبلهم حتى ذاقوا بأس الله وعذابه ، جزاء وفاقا على عنادهم وافتراءهم .

﴿ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ﴾ وهل تستطيعون أن تقيموا الأدلة على صدق ما تقولون . وما ترعمون ، إن تتبعون إلا الظن والتخمين والكذب ، وإن أنتم إلا تخرصون ، أما الحجة البالغة فإنها لله وحده ، فإنه يقول الحق وهو يهدى السبيل . ﴿ فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تصرفون ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ أى لفطركم على الهداية كالملائكة المكرمين ، لكنه زودكم بالكسب والاختيار ، وسوف يجزيكم على حسن مباشرتكم للأسباب ، أو سوء مباشرتها ، لذا فعليكم أن تعملوا بما أمركم وتنتهوا عما نهاكم ، قال جل جلاله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٢) .

قوله تعالى ﴿ كل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ أى أحضروا ما عندكم من الشهود الذين يشهدون على تحريم ما حرمت من الحرث والأنعام ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم يا محمد ، لأنك لا تشهد إلا بالحق ، لأنك الرسول الحق ، الذى تتلقى عن الله الحق ، وهؤلاء قوم يتبعون الهوى ، وهوى النفس قد أعيا كل طيب ، وأعمى كل لبيب . ﴿ ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ﴾ ﴿ والذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ وكفى بذلك ضلالا بعيدا وطغيانا كبيرا وعتوا ونفورا . لأنهم مع تكذيبهم بآيات الله واتباعهم الهوى ، يعدلون بالله آلهة أخرى ، وكفى بذلك افتراء على الله ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾ (٣) ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ (٤) .

### أصول الإسلام والفضائل

\* قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْتُمْ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)

**المفردات :** ﴿ تعالوا ﴾ : أقبلوا والأصل أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم . ﴿ أتل ﴾ : أقرأ . ﴿ إملاق ﴾ : فقر . ﴿ الفواحش ﴾ : ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر أو الخطيئة التي بلغت الغاية في الفحش . ﴿ أشده ﴾ : كمال رجولته وتمام حنكته ومعرفته .

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً - إلى قوله تعالى : لعلكم تتقون ﴾ .

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآيات .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم يابغى على ثلاث » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات « فمن وفي فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئاً فادركه الله به في الدنيا كانت عقوبة ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه » (١) .

يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد هؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ أي أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا تخرساً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمرأ من عنده ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وكان في الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم ، وفي الصحيحين من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؟ وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر » (٢) .

وفي بعض الروايات إن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال

(١) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٣١٣ ، ٣٢٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٥) وفي الأحكام (٣٩) وفي الأحاد (١) وفي الشروط (٩) وفي الأيمان (٣) وفي الحدود (٣٠ ، ٣٤ ،

٣٨) وأخرجه مسلم في الحدود (٢٥) وفي القضاة (٢٢) . وأخرجه أبو داود في الحدود (٢٥) والترمذي في الحدود (٨) وابن ماجه

في الحدود (٧) والإمام مالك في الحدود (٦) والإمام أحمد في (٤ : ١١٥ ، ١١٦) .

في الثالثة « وإن رغم أنف أئى ذر » فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وإن رغم أنف أئى ذر » <sup>(١)</sup>.

وعن أئى ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى : [ يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيك بقراها مغفرة ما لم تشرك بى شيئا ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ] <sup>(٢)</sup>.

ولهذا شاهد في القرآن قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود : « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » <sup>(٤)</sup>.

وعن رسول الله ﷺ : « لا تشركوا بالله شيئا وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتهم » <sup>(٥)</sup>.

قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أى أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا <sup>(٦)</sup>.

والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قاله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون <sup>(٧)</sup>.

فأمر بالاحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما . وقال تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾ <sup>(٨)</sup>.

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله ﷺ : ( أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٤) . والبخارى في اللباس (٢٤) .

(٢) أخرجه الترمذى في الدعوات (٩٨) . والإمام أحمد في (١٧٢ : ٥) . (٣) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥٠ - ١٥٣) وفي الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . وأخرجه البخارى في العلم (٤٩) وفي الجنائز (١) وفي التوحيد (٣٣) وفي الرقاق (١٣ ، ١٤) وفي الاستقراض (٣) وفي بدء الخلق (٦) وفي الاستئذان (٣٠) . وأخرجه الترمذى في الإيمان (١٨) . والنسائى في الصلاة (١) وفي الجهاد (١٨) . وابن ماجه في الديات (١) وفي الأدب (٥٨) وفي الزهد (٣٧) . والإمام أحمد في (١ : ٣٧٤ ، ٤٢٥ ، ٤٤٢) وفي (٢ : ١٧٠) وفي (٣ : ٧٩) وفي (٤ : ١٤٨ ، ١٥٢) وفي (٥ : ١٤٥ ، ١٦٢) وفي (٦ : ٢٤ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠) .

(٥) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٢٣) . وللإمام أحمد (٤ : ١١) وفي (٥ : ٣٢٨) .

(٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٨) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان .

على وقتها « قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قال ابن مسعود حدثنى بن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزدانى <sup>(١)</sup> .

عن أبى الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله ﷺ « أطع والدك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾

لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يقدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الفقر ، ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ « أى الذنب أعظم » قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ « والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون » <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ من إملاق ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره : هو الفقر ، أى ولا تقتلوه من فقركم الحاصل :

وقال فى سورة الاسراء ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أى لا تقتلوه خوفا من الفقر فى الآجل ، ولهذا قال هناك ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ فبدأ يرزقهم للاهتمام بهم ، أى لاتخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال ﴿ نحن نرزقكم وإياهم ﴾ لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ <sup>(٤)</sup> كقوله تعالى : ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

وقال عبد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاة المغيرة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « اتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢) (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٠ ، ١٦٤ ، ٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٢ : ٣) (وسورة ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) وفى التوحيد (٤٠ ، ٤٦) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) . وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والترمذى فى التفسير (سورة

٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤٤) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤) .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

لأننا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ،<sup>(١)</sup>

قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ .

وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهي عنه تأكيداً ، وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء في الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه . قوله تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزل الله : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ قال : (فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم) رواه أبو داود .

وقوله تعالى ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ أى حتى يحتلم . قوله تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه في قوله تعالى :

﴿ ويل للمطففين \* الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون \* وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون \* ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون \* ليوم عظيم \* يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يخسئون المكيال والميزان ، قال تعالى : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين \* كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه البخارى في التفسير (سورة ٦ : ٧) و(سورة ٧ : ١) وفي النكاح (١٠٧) وفي التوحيد (١٥ ، ٢٠) . وأخرجه مسلم في اللعان (١٧) وفي التوبة (٣٢ - ٣٥) . والترمذى في الدعوات (٩٥) . والدارمى في النكاح (٣٧) والأمام أحمد في (١) .  
(٢) أخرجه البخارى في الديات (٦) . ومسلم في القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود في الحدود (١) . والترمذى في الحدود (١٥) . والنسائى في التحريم (٥ ، ١١ ، ١٤) . والدارمى في السير (١١) . والإمام أحمد في (١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفي (٦ : ١٨١ ، ٢١٤) .

(٤) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود .

(٣) الآيات ١ - ٦ من سورة المطففين .

وقال ﷺ :

« ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان » <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ لا تكلف نفسا إلا وسعها ﴾ أى من اجتهد فى أداء الحق ، وأخذه فإن أخطأ بعد است فراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ قال ابن جرير : يقول بوصية الله التى أوصاكم بها ، فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به ، وأكد عليكم فيه ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها .

قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ وفى قوله : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ <sup>(٣)</sup> ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات فى دين الله ، ونحو هذا قال مجاهد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :

« خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ : « ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ، ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحها فإنك إن فتحتة تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ،

(١) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤) . وابن ماجه فى الزهد (٢٧) .

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

والداعى من فوق الصراط وأعظ الله في قلب كل مسلم ، <sup>(١)</sup> رواه الترمذى والنسائى. قوله تعالى ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### حجة الله على عبادة

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ <sup>(١٥٦)</sup> وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ <sup>(١٥٧)</sup> أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ <sup>(١٥٨)</sup> أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْنَا لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ <sup>(١٥٩)</sup>

المفردات : ﴿ طائفتين من قبلنا ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ دراستهم ﴾ : قراءتهم وعلمهم . ﴿ بينة ﴾ : البينة والبيان ما به يظهر الحق . ﴿ وصدف عنها ﴾ : ومنع الناس عنها .

لقد ذكر القرآن الكريم الوصايا العشر بعد ما تكلم على أسس الدين وأصوله ، ثم قضى ذلك بالحديث على القرآن وأثره ، ورد بعض شبه المعاندين ، وافتتح ذلك بالكلام على التوراة ، فهي أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتغالها على الأحكام كثيراً ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ وهو كذا وكذا الخ الوصايا العشر السابقة ، ثم أخبركم بأننا آتيناه موسى الكتاب تماماً للنعمة والكرامة والخير والهداية على المؤمن المحسن .

نعم كان تماماً على من أحسن ، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ تماماً على الذين أحسنوا أى فى اتباعه ، والنظر فيه ، والاهتداء بهديه ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾ <sup>(٣)</sup> ( آتيناه موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء ) من أحكام الشريعة عبادتها ومعاملتها ، وهدى لمن اهتدى به ، ورحمة لمن تمسك به فينجيه من الضلالة والبهتان ، آتيناه موسى الكتاب بهذا الوصف ، وبهذه الحكمة ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله ، وموضع الفوز فى دار الكرامة ودار السلام .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٤ : ٨٢ ، ١٨٣ ) والترمذى فى الأدب ( ٧٦ ) .

(٢) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة .

وهذا القرآن الذى تليت عليكم آياته البينات بأسلوبه العرى المعجز ، هو الكتاب لا ريب فيه ، أنزلناه كثير البركات ، عظيم الشأن ، كثير الخير فى الدين والدنيا ، قد جاء بأكثر مما جاءت به التوراة فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، فهو حبل الله المتين ونوره اليقين ، جمع طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة ، فاعملوا به لتكون رحمة الله رحمة لكم فى حياتكم ومعادكم .

أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله والهادى إلى سبيله ، والموصل إلى تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والفسوق والعصيان ، لئلا تقولوا يوم الحساب إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم وقراءة كتبهم وتفهمها لغافلين ، لا ندرى ما هى ، لأنها بلسان غير عربى ، ولأننا مشغولون بغيرها ولم ندع إليها . ولئلا تقولوا كذلك لو أننا أنزل علينا الكتاب الهادى إلى سواء السبيل لكننا أهدى منهم ، وأحسن حالا لصفاء نفوسنا وقوة عزائمنا وذكاء عقولنا وإرهاف إحساسنا : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ (١) .

فرد الله عليهم بقوله تبكيتاً لهم وتأنيباً : إن صدقتم فيما تقولون فقد جاءكم كتاب بين الحق ، واضح الحجج ، سديد البرهان ، تام الأصول والفروع والأحكام ، فهو البينة الفاصلة ، والحجة الكاملة ، وهو هادى لمن تدبره واتعظ به ، ورحمة عامة للناس لما فيه من الدعوة إلى المثل العليا ، زيادة عن الدعوة إلى الدين الحق ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ممن كذب بآيات الله .

نعم لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله التى على هذا الوصف ، ومنع الناس عنها ، وعن النظر فيها ، والإيمان بها ﴿ وهم يهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ (٢) .

سنجزى الذى يمنعون الناس عن الإيمان بآياتنا العذاب السىء الشديد ، إذ هم يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، وبما كانوا يمنعون غيرهم من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، واتباع هدى القرآن ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (٣) .

### تهديد وإنذار

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ ينتظرون ﴾ : ينتظرون .



بعد ما وصف الله القرآن وأثره ، وأنذر من يكذبه بصارم العقاب ، أتبع هذا بحقيقة المشركين وما ينتظرون ، هل ينظر هؤلاء إلا أن تأتيهم الملائكة كما اقترحوا ، أو يأتي ربك كما طلبوا ، وقالوا ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾<sup>(١)</sup> ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾<sup>(٢)</sup> . أو تأتيهم بعض آيات ربك التي اقترحوها بكفرهم ، وقولهم ﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا﴾<sup>(٣)</sup> ونحو ذلك .

فهم في الحقيقة لا ينتظرون نجىء الملائكة ، أو مجىء ربك ، أو مجىء بعض آيات ربك ، فهم متبادون في التكذيب ولا أمل فيهم أبداً ، ولا خير فيهم أصلاً ، وقيل : هم لا ينتظرون إلا ملائكة الموت أو أمر الله أى وعده ووعيدة هل ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون<sup>(٤)</sup> .

﴿يوم يأتي بعض آيات ربك﴾ الآيات الدالة على قرب قيام الساعة ، أو بعض الآيات الموجبة للإيمان الاضطرارى ، لا ينفع هذا الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل ، فإن الإيمان تكليف وعمل واختبار ، وليس في هذا الوقت واحد منها ، ولا ينفع هذا الإيمان نفساً آمنت من قبل ولم تعمل عملاً صالحاً ، إذ ليس الإيمان وحده كافياً في سقوط العذاب عن الشخص ، بل لابد من إيمان وعمل ، ولذلك كان القرآن دائماً يقرن الإيمان بالعمل ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً﴾<sup>(٥)</sup> ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾<sup>(٦)</sup> .

وقد ورد في الحديث أن بعض الآيات هي طلوع الشمس من المغرب ، واضطراب هذا الكون . أخرج أحمد والترمذى عن أنى هريرة : «ثلاثة إذا خرجن نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض»<sup>(٧)</sup> .

قل لهم يا محمد انتظروا ، وما تتوقعون من إمامة الدعوة ، وقتل الرسول ، وهلاك الدين ، إنا منتظرون أمر ربنا ووعد الصديق لنا ، ووعيدته المتحقق لأعدائنا : ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إلى معكم من المنتظرين﴾<sup>(٨)</sup> .

﴿اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون﴾ وهذا تهديد ووعيد شديد إذ هم ينتظرون أمراً قد قضى الله فيه ، إذ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

(٤) الآية ٣٣ من سورة النحل .

(٥) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

(٦) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .

(٧) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٩) ، وأخرجه أحمد في (١ : ١٩٢) وفي (٢ : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ،

٣٩٥ ، ٤٩٥) وفي (٣ : ٩٨ ، ٣١) وفي (٤ : ٦ ، ٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) والترمذى في الفتن (٢١) وفي تفسير (سورة ٦ : ٨ ، ٩)

(٨) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

(و) (سورة ٣٦ ، ٢) .

## عاقبة الاختلاف وعدم الاتحاد

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

روى أبو داود والترمذى عن معاوية قال ما معناه : « قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون فرقة في النار ، وفرقة واحدة في الجنة ، وهى الجماعة » (١) .

وعلى هذا تكون الآية الكريمة شاملة لأهل الكتاب ولغيرهم من فرق المسلمين ، وهى مسوقة للتحذير من الاختلاف ، واتباع الآراء والبدع والمتشابهات ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على شرع أنبيائهم ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات ﴾ (٢) وقد ورد ﴿ اللهم إيماناً كإيمان العجائز ﴾ إيمان بعيد عن الشبه والخلافات الضارة .

إن الذين فرقوا دينهم ، واختلفوا فيه ، وأقروا ببعض ، وكفروا ببعض ، وأولوا نصوصه على حسب أهوائهم ونزعاتهم ، وكانوا شيعاً ، كل شيعه تدين برأى إمامهم ، وتتعصب له ، لست أنت يا رسول الله من قتالهم وسؤالهم وعقابهم فى شىء ، وإنما عليك تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة إليه ، أنت يا محمد برىء منهم ، وهم منك براء ، إنما أمرهم وحسابهم على الله وحده ، ثم ينبئهم فى الآخرة ويجازيهم أحسن الجزاء بما كانوا يفعلون .

## الجزاء على العمل

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مِثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه قال : « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له عند الله حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » (٣) .

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعله الطيبة جازاه الله عليها عشر حسنات ، والمضاعفة بعد ذلك إلى سبعمائة أو ما شاء بعد ذلك من زيادة الله أعلم بها ، تختلف على حسب مشيئته تعالى وعلمه

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١) ، والدارمى فى السير (٧٤) .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣١) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩) وأخرجه

الترمذى فى تفسير (سورة ٦ : ١٠) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٧ ، ٢٧٩) وفى (٣ : ١٤٩) .

بأحوال المحسنين » إذ من يبذل درهما ونفسه غير راضية لا يكون كمن ينفقه طيبة به نفسه مسرورة بعملها » (١) .

ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها فقط وهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من أعمالهم شيئاً ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين ﴾ (٢) .

### التوحيد والإخلاص في العقيدة والعمل والجزاء على ذلك

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٦﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٧﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١١٨﴾ نُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١١٩﴾

**المفردات :** ﴿ دينا قيما ﴾ : يقوم به أمر الناس ونظامهم في الدنيا والآخرة أو قائماً مستقيماً لا عوج فيه . ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة والمراد مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام . ﴿ نسكى ﴾ : عبادتي من حج وغيره . ﴿ محياي ومماتي ﴾ : المراد ما آتته في حياتي وموتي . ﴿ وازرة ﴾ : الوزر الحمل الثقيل ، والمراد النفس الآثمة المذنبة .

هذا ختام سورة جامعة لأصول التوحيد ، شارحة للعقيدة الإسلامية ، وبخاصة أحوال البعث والجزاء ، وإثبات الرسالة وما يتبع ذلك ولهذا كان اختتامها خلاصة ما تقدم .

قل يا محمد إننى هدانى الله ووفقنى إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ، هو الدين القيم الموصل إلى سعادة الدارين ، الذى يقوم به أمر الناس في معاشهم ومعادهم ، وبه يصلحون ، هذا الدين هو ملة أبيكم إبراهيم الخليل فالتزموه حال كونه حنيفاً مائلاً عن جميع وسائل الشرك والباطل إلى الدين الحق الذى من دعائه في كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ (٣) .

وما كان إبراهيم من المشركين أبداً ، فأما من يعتقد أن الملائكة بنات الله أو عزيز أو المسيح ابن الله فهؤلاء هم المشركون ، وليسوا على ملة إبراهيم ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (٤) هذا الدين هو دين الإخلاص ، والعمل لله هو

(١) أخرجه البخارى في الإجارة (١) . ومسلم في الزكاة (٧٩) . وأبو داود في الزكاة (٥ ، ٤٣) . والإمام مالك في البيوع (٩٢) .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء . (٤) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .

الذى ارتضاه لأنبيائه ، ورسله ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ <sup>(١)</sup> ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴿ <sup>(٢)</sup> . هذا هو التوحيد الخالص فى العقيدة .

قل لهم يا محمد إن صلاتى ودعائى ونسكى وعبادتى وما أتية فى حياتى كلها ، بل وحياتى ومماتى ، كل ذلك خالص لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال أمر الله .

والآية الشريفة جامعة لكل أعمال المسلم ، فيجب عليه أن يوطد العزم ويعقد النية على أن صلاته وعبادته وحياته وما يأتيه فيها وموته وما يلاقى فيه كل ذلك لله لا شئ آخر فإن عاش فلله وإن مات فلله له الحكم وله الأمر .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

فالمسلم لا يحرص على الحياة ، ولا يرهب الموت ، بل يكون الموت فى سبيل الله أسمى أمانيه لا يقعد عن الجهاد ، ولا يتوانى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهكذا جند الله الصحابة رضوان الله عليهم .

قل لهم يا محمد أغير الله أبغى ربا ، وأشركه فى العبادة وأتوجه إليه فى الدعاء ، والله سبحانه رب كل شئ وخالق كل شئ .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

أما الجزاء على هذا فهذا نظامه :

ولا تكسب كل نفس إنثماً أو ذنباً إلا كان عليها جزاؤه ووزره ، ولا تزر نفس وزر غيرها أبداً ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وكل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فهذا هو الدين ، دين العمل والجد ، لا دين الأمانى والغرور الكاذب .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح للمجتمع البشرى ، ومن أعلى مزايا الدين الإسلامى ، ومن أقوى معاول الهدم للوثنية .

ثم إلى ربكم مرجعكم لا إلى غيره ، ثم هو وحده ينبئكم ويجازيكم على أعمالكم التى كنتم فيها تختلفون .

### سنة الله فى الخلق

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

هذا هو الدواء لا غير ، وهذا هو العلاج فحسب ، به تهدأ النفوس وتطمئن القلوب .

فنحن خلائف من تقدمنا ، فليس لنا بقاء ، وكما وصلت إلينا ستخرج منا ، ونحن خلائف فلا ملك لنا ولا تصريف في الواقع ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾<sup>(١)</sup> .

إذا كان هذا فلم هذا التناحر والتهالك والتباغض والتكالب ، ولماذا تبخلون بما جعلكم مستخلفين فيه .

والله سبحانه رفع بعضكم فوق بعض درجات في العلم والعمل والغنى والفقر ، ليلوكم جميعا كل بما عنده ، فيختبر الغنى هل يؤدي زكاة ماله ، هل يتصدق بالفضل من ماله ، هل يعطف على الفقير والمحتاج والمساكين ، أم هو منهم جشع صلد صلب كالحجر ، نعم ويلو الفقير هل يصبر ويرضى ، أم يشكو ويكفر ؟

وإذا كان الله سبحانه قد رفع بعضنا فوق بعض فما علينا إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعلى الجملة فهذا علاج نفسى لعل السخائم والتحاسد والعلاج الاقتصادى معروف . تشير إليه الآية أيضا ، وهو الاشتراكية الإسلامية المثلة في الزكاة المطلقة والمقيدة ، والنظم المالية المعروفة في الفقه الإسلامى .

إن ربك سريع العقاب ، شديد العذاب لا يهمل ، وإن أمهل يُمكن للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يخلق في الضعيف المسكين قوة يحاد لها الملك الجبار ، فاعتبروا بما مر بنا من الآيات ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ﴾<sup>(٣)</sup> وإنه لغفور لكل تائب ، رحيم بكل محسن .

(١) الآية ٧ من سورة الحديد .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

## سورة الأعراف

هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً .

وعدد آياتها مائتان وست آيات ، في عدد قراء الكوفة والحجاز ، وخمس في عدد قراء الشام والبصرة .  
وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة ، وحروفها أربعة عشر ألفاً وثلاثمائة وعشرة أحرف .

قال صاحب البصائر رحمه الله تعالى ولهذه السورة ثلاثة أسماء : سورة الأعراف في ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾ <sup>(١)</sup> وهو سور بين الجنة والنار . والثاني : سورة الميثاق لاشتغالها على ذكر ميثاق موسى في قوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ <sup>(٢)</sup> . الثالث : سورة الميثاق لاشتغالها على حديث الميثاق في قوله : ﴿ أأست بربكم قالوا بلى ﴾ <sup>(٣)</sup> . وأشهرها سورة الأعراف .

## مقصود السورة

على سبيل الإجمال : تسليية النبي ﷺ في تكذيب الكفار إياه ، وذكر وزن الأعمال يوم القيامة ، وذكر خلق آدم ، وإبلاء إبليس من السجود لآدم ، وسوسته لهما للأكل من الشجرة ، وتحذير بني آدم من قبول وسوسته ، والأمر باتخاذ الزينة وستر العورة في وقت الصلاة ، والرد على المكذبين ، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً .

وبيان مذلة الكفار في النار ، ومناظرة بعضهم بعضاً ، ويأسهم من دخول الجنة ، وذكر المنادى بين الجنة والنار ، ونداء أصحاب الأعراف لكلا الفريقين ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وحجة التوحيد والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته ، وقصة نوح والطوفان ، وذكر هود وهلاك عاد ، وحديث صالح وقهر ثمود ، وخبر لوط وقومه ، وخبر شعيب وأهل مدين ، وتخويف الآمين من مكر الله ، وتفصيل أحوال موسى ( وفرعون والسحرة واستغاثة بني إسرائيل وذكر الآيات المفصلات وحديث خلافة هارون وميثاق موسى ) وقصة عجل السامري في غيبة موسى ، ورجوع موسى إلى قومه ومخاطبته لأخيه هارون .

وذكر النبي العربي ﷺ ، والإشارة إلى ذكر الأسباط ، وقصة أصحاب السبت ، وأهل أيلة ، وذم علماء أهل الكتاب .

وحديث الميثاق ، ومعاهدة الله تعالى الذرية ، وطرد بلعام بسبب ميله إلى الدنيا ، ونصيب جهنم من الجن والإنس ، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة ، وإخفاء علمه على العالمين ، وحديث صحبة آدم وحواء في أول الحال ، وذم الأصنام وعبادها ، وأمر الرسول بمكارم الأخلاق ، وأمر الخلائق بالإنصات والاستماع لقراءة القرآن .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

والإخبار عن خضوع الملائكة في الملكوت وانقيادهم بحضرة الجلال في قوله ﴿ يسبحونه وله يسجدون ﴾<sup>(١)</sup>.

### المتشابهات

قوله : ﴿ ما منعك ﴾ هنا وفي ( ص ) ﴿ يا إيليس ما منعك ﴾ وفي الحجر ﴿ قال يا إيليس مالك ﴾ بزيادة ﴿ يا إيليس ﴾ في السورتين لأن خطابه قرب من ذكره في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إلا إيليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ﴾ فحسن حذف النداء والمنادى ولم يقرب في ( ص ) قربه منه في هذه السورة ، لأن في ( ص ) ﴿ إلا إيليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ بزيادة ﴿ استكبر ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال : ﴿ يا إيليس ما منعك ﴾ وكذلك في الحجر فإن فيها ﴿ إلا إيليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾ بزيادة ﴿ أبى ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال ﴿ يا إيليس مالك ﴾ .

قوله : ﴿ ألا تسجد ﴾ وفي ( ص ) ﴿ أن تسجد ﴾ وفي الحجر ﴿ ألا تكون ﴾ فزاد في هذه السورة ﴿ لا ﴾ وللمفسرين في ﴿ لا ﴾ أقوال :  
قال بعضهم : ﴿ لا ﴾ صلة كما في قوله ﴿ لئلا يعلم ﴾ وقال بعضهم : الممنوع من الشيء مضطر إلى خلاف ما منع منه ، وقال بعضهم معناه من قال لك : لا تسجد ، وقد ذكر في مطولات مبسطة والذي يليق بهذا الموضع ذكر السبب الذي خص هذه السورة بزيادة ﴿ لا ﴾ دون السورتين .

قال تاج القراء : لما حذف فيها يا إيليس ، واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا ، زيادة في النفي ، وإعلاماً أن المخاطب به إيليس ، خلافاً للسورتين ، فإنه صرح فيهما باسمه .

وإن شئت قلت : جمع ما في هذه السورة وبين ما في ( ص ) والحجر فقال : ما منعك أن تسجد ، مالك ألا تسجد ، وحذف مالك لدلالة ( الحال ودلالة ) السورتين عليه ، فبقى ما منعك ألا تسجد ، وهذه لطيفه فاحفظها .

قوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ وفي ( ص ) مثله وقال في الحجر ﴿ لم أكن لأسجد لبشر ﴾ فجاء على لفظ آخر ، لأن السؤال في الأعراف و ( ص ) : ﴿ ما منعك ﴾ فلما اتفق السؤال اتفق الجواب ، وهو قوله ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ ولما زاد في الحجر لفظ ﴿ تكون ﴾ في السؤال وهو قوله ﴿ مالك ألا تكون مع الساجدين ﴾ زاد في الجواب أيضاً لفظ الكون فقال ﴿ لم أكن لأسجد لبشر ﴾ .

قوله ﴿ أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ وفي الحجر وفي ( ص ) ﴿ رب فأنظرني ﴾ لأنه سبحانه لما اقتصر في السؤال على الخطاب ، دون صريح الاسم في هذه السورة ، اقتصر في الجواب أيضاً على الخطاب دون ذكر المنادى . وأما زيادة الفاء في السورتين دون هذه السورة ، فلأن داعية إلغاء ما تضمنه

النداء من أدعو ، أو أنادى نحو قوله ﴿ ربنا فاغفر لنا ﴾ أى أدعوك ، وكذلك داعية الواو فى قوله ﴿ ربنا وآتنا ﴾ فحذف المنادى ، فلما حذفه حذفت الفاء .

قوله ﴿ إنك من المنظرين ﴾ هنا وفى السورتين ﴿ فإنك ﴾ لأن الجواب يبنى على السؤال . ولما خلا السؤال فى هذه السورة عن الفاء خلا الجواب عنه ، ولما ثبت الفاء فى السؤال فى السورتين ثبتت فى الجواب ، والجواب فى السور الثلاثة إجابة ، وليس باستجابة .

قوله ﴿ فما أغويتنى ﴾ فى هذه السورة وفى ( ص ) ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ وفى الحجر ﴿ رب بما أغويتنى ﴾ لأن ما فى هذه السورة موافق لما قبله فى الاختصار على الخطاب ، دون النداء ، وما فى الحجر موافق لما قبله من مطابقة النداء ، وزاد فى هذه السورة الفاء ( التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطاً بالأول ، ولم يدخل فى الحجر ، فاكتفى بمطابقة النداء ( لا متناع النداء ) منه ، لأنه ليس بالذى يستدعيه النداء ، فإن ذلك يقع مع السؤال والطلب ، وهذا قسم عند أكثرهم ، بدليل ما فى ( ص ) وخبر عند بعضهم والذى فى ( ص ) على قياس ما فى الأعراف دون الحجر ، لأن موافقتهما أكثر على ما سبق ، فقال ﴿ فبعزتك ﴾ والله أعلم .

وهذا الفصل فى هذه السورة برهان لامع ، وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل ، فأجاب عنها وقال ! إن امتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بعينها كان اتفاقها واختلافها سواءً ، إذا أدى المعنى المقصود ، وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة السهر إلى السحر .

قوله ﴿ قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ ليس فى القرآن غيره ، لأنه سبحانه لما بالغ فى الحكاية عنه بقوله ﴿ لأقعدن لهم ﴾ بالغ فى ذمه ، فقال : ﴿ اخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ والذام أشد الذم .

قوله ﴿ وهم بالآخرة كافرون ﴾ ما فى هذه السورة جاء على القياس وتقديره : وهم كافرون بالآخرة تقدم ﴿ بالآخرة ﴾ تصحيحاً لفواصل الآية ، وفى هود ، لما تقدم ﴿ هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ﴾ ثم قال ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ ولم يقل ﴿ عليهم ﴾ والقياس ذلك التيسر ، أنهم هم أم غيرهم ، فكرر وقال ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم ، وليس ( هم ) هنا للتأكيد كما زعم بعضهم ، لأن ذلك يزداد مع الألف واللام ملفوظاً أو مقدراً .

قوله ﴿ وهو الذى يرسل الرياح ﴾ هنا ، وفى الروم بلفظ المستقبل ، وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ وهما يكونان فى المستقبل لا غير ، فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله ، وفى الروم قبله . ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ﴾ فجاء بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله ، وأما فى الفرقان فإن قبله ﴿ كيف مد الظل ﴾ وهو الذى جعل لكم ( ومرج وخلق ) وكان الماضى أليق به ، وفى فاطر مبنى على أول السورة ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً ﴾



وهما بمعنى الماضى فبنى على ذلك ﴿ أرسل ﴾ بلفظ الماضى ليكون الكل على مقتضى اللفظ الذى خص به .  
 قوله : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ هنا بغير واو ، وفى هود والمؤمنين ﴿ ولقد ﴾ بالواو ، لأنه لم يتقدم  
 فى هذه السورة ذكر رسول ، فيكون هذا عطفاً عليه ، بل هو استئناف كلام ، وفى هود تقدم ذكر  
 الرسل مرات ، وفى المؤمنين تقدم ذكر نوح ضمناً ، لقوله ﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ لأنه أول من صنع  
 الفلك ، فعطف فى السورتين بالواو .

قوله ﴿ أبلغكم ﴾ فى قصة نوح وهود بلفظ المستقبل ، وفى قصة صالح وشعيب ﴿ أبلغتكم ﴾  
 بلفظ الماضى لأن ( ما ) فى قصة نوح وهود وقع فى ابتداء الرسالة و ( ما ) فى قصة صالح وشعيب وقع فى  
 آخر الرسالة ، ودنو العذاب .

قوله ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾ وفى يونس  
 ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ لأن أنجينا ونجينا للتعدى ، لكن التشديد يدل على الكثرة  
 والمبالغة ، وكان فى يونس ﴿ ومن معه ﴾ ولفظ ﴿ من ﴾ يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ الذين ﴾ لأن  
 ﴿ من ﴾ يصلح للواحد والاثنتين والجماعة والمذكر والمؤنث ، بخلاف الذين ، فإنه لجمع المذكر  
 فحسب ، وكان التشديد مع ( من ) أليق .

قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفى هود ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم  
 عذاب قريب ﴾ وفى الشعراء ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ لأن فى هذه السورة  
 بالغ فى الوعد فبالغ فى الوعيد ، فقال ﴿ عذاب أليم ﴾ وفى هود لما اتصل بقوله ﴿ تمتعوا فى دياركم ثلاثة  
 أيام ﴾ وصفه بالقرب فقال ﴿ عذاب قريب ﴾ وزاد فى الشعراء ذكر اليوم لأن قبله : ﴿ لها شرب  
 ولكم شرب يوم معلوم ﴾ والتقدير لها شرب يوم معلوم فختم الآية بذكر اليوم فقال عذاب يوم عظيم .  
 قوله ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم ﴾ على الوحدة .

وقال ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾ حيث ذكر الرجفة وهى  
 الزلزلة ، وخذ الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من  
 الزلزلة . فاتصل كل واحد بما هو لائق به .

قوله : ﴿ وتنحتون الجبال بيوتا ﴾ فى هذه السورة وفى غيرها ﴿ من الجبال ﴾ لأن ( ما ) فى  
 هذه السورة تقدمه ﴿ من سهولها قصوراً ﴾ فاكفى بذلك .

قوله ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وفى غيرها ﴿ فساء مطر  
 المندرين ﴾ لأن ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ قوله :  
 ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ﴾ بالاستفهام . وهو استفهام تقييد وتوبيخ وإنكار ، وقال  
 بعده ﴿ أنتم لتأتون ﴾ فزاد مع الاستفهام ( إن ) لأن التقييد والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر ، ومثله

في التمل ﴿ أَتَأْتُونَ ﴾ وبعده ﴿ أَنْتُمْ ﴾ وخالف في العنكبوت فقال ﴿ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ ﴾ فجمع بين أَتَى وَأَتَى وذلك لموافقة آخر القصة فإن في الآخر ﴿ إِنَّا مَنجُوكَ ﴾ وإنا منزّلون فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج .

قوله : ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ هنا بلفظ الاسم وفي التمل ﴿ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ بلفظ الفعل ، لأن كل إسراف جهل وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرعوس الآيات المتقدمة ، وكلها أسماء للعالمين ، الناصحين ، المرسلين ، جاثمين ، كافرين ، مؤمنون ، مفسدون ، وفي التمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : تبصرون يتقون يعلمون .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ بالواو في هذه السورة وفي سائر السور ( فما ) بالفاء لأن ما قبله اسم والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال . فقال في التمل ﴿ تَجْهَلُونَ فَمَا كَانَ ﴾ وكذلك في العنكبوت ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ ﴾ وفي هذه السورة ﴿ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ ﴾ وقال ﴿ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ﴾ في هذه السورة وفي التمل ﴿ أَخْرَجُوا آلَ لُوطٍ ﴾ ما في هذه السورة كناية فسرّها ما في السورة التي بعدها وهي التمل ويقال : نزلت التمل أولافصرح في الأولى وكُنِيَ في الثانية . قوله ﴿ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ ههنا وفي التمل ﴿ قَدَرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ ﴾ أى كانت في علم الله من الغابرين . قوله ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ وفي يونس ﴿ نَطْبَعُ ﴾ بالنون لأن هذه السورة قد تقدم ذكر الله سبحانه بالتصريح والكناية فجمع بينهما .

فقال : ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ بالنون . وختم الآية بالتصريح فقال ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ ﴾ وأما في يونس فمبنى على ما قبله من قوله ﴿ فَجَنَيْنَاهُ ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا ﴾ بلفظ الجمع فختم بمثله فقال ﴿ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

قوله ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ وفي الشعراء ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ ﴾ لأن التقدير في هذه الآية : قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعضهم لبعض . فحذف ﴿ فرعون ﴾ لاشتغال الملأ من قوم فرعون على اسمه كما قال ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى آل فرعون وفرعون فحذف ﴿ فرعون ﴾ لأن آل فرعون اشتمل على اسمه فالقائل هو فرعون نفسه ، بدليل الجواب وهو ﴿ أَرَجَهُ ﴾ بلفظ التوحيد والملأ هم المقول لهم إذ ليس في الآية مخاطبون بقوله : ﴿ يُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ غيرهم فتأمل فيه فإنه برهان للقرآن شاف .

قوله : ﴿ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ وفي الشعراء ﴿ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسَحْرِهِ ﴾ لأن الآية الأولى في هذه السورة بنيت على الاختصار ﴿ وَلَيْسَ ﴾ كذلك الآية الثانية ولأن لفظ الساحر يدل على السحر قوله ﴿ وَأَرْسَلْ ﴾ وفي الشعراء ﴿ وَابْعَثْ ﴾ لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعاً من العلو لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التيسر ليعلم أن المخاطب به فرعون

دون غيره .

قوله ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ وفي الشعراء بكل ﴿ سحار ﴾ لأنه راعى ما قبله في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ وراعى في الشعراء الإمام فإن فيه ﴿ بكل سحار ﴾ بالألف وقرئ في هذه السورة ﴿ بكل سحار ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة ، وموافقة لما في الشعراء .

قوله ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا ﴾ وفي الشعراء ﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ﴾ لأن القياس في هذه السورة وجاء السحرة فرعون وقالوا أو فقالوا لا بد من ذلك لكن أضمر فيه ﴿ فلما ﴾ فحسن حذف الواو .

وخص هذه السورة بإضمار ﴿ فلما ﴾ لأن ما في هذه السورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق ، وأما تقديم فرعون وتأخير في الشعراء ، لأن التقدير فيهما فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون ، فأظهر الأول في هذه السورة لأنها الأولى ، وأظهر الثاني في الشعراء لأنها الثانية .

قوله ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ وفي الشعراء ﴿ إذا لمن المقربين ﴾ ﴿ إذا ﴾ في هذه السورة مضمرة مقدرة لأن ﴿ إذا ﴾ جزء ، ومعناه إن غلبتم قربتكم ، ورفعت منزلتكم ، وخص هذه السورة بالإضمار اختصاراً . قوله : ﴿ إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ وفي طه : ﴿ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ راعى في السورتين أواخر الآي ومثله ﴿ فألقى السحرة ساجدين ﴾ في السورتين وفي طه ﴿ سجداً ﴾ وفي السورتين أيضاً ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ وفي طه ﴿ رب العالمين ﴾ وفي السورتين ﴿ رب موسى وهارون ﴾ وفي طه ﴿ رب هارون وموسى ﴾ وفي هذه السورة ﴿ فسوف تعلمون لأقطعن ﴾ وفي الشعراء ﴿ فسوف تعلمون لأقطعن ﴾ وفي طه ﴿ فلاقطعن ﴾ وفي السورتين ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ وفي طه ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ .

وهذا كله لمراعاة فواصل الآي ، لأنها فرعية يبنى عليها مسائل كثيرة .

قوله ﴿ آمنتم به ﴾ وفي السورتين : ﴿ آمنتم له ﴾ لأن هنا يعود إلى رب العالمين وهو المؤمن ﴿ به ﴾ سبحانه وفي السورتين يعود إلى موسى لقوله ﴿ إنه لكبيركم ﴾ وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد .

قوله ﴿ قال فرعون ﴾ وفي السورتين ﴿ قال آمنتم ﴾ لأن هذه السورة مقدمة على السورتين ، فصرح في الأولى وكنى ، في الآخرين ، وهو القياس وقال الإمام لأن ( ما ) هنا بعد عن ذكر فرعون فصرح وقرب في السورتين ذكره فكنى .

قوله ﴿ ثم لأصلبنكم ﴾ وفي السورتين ﴿ ولأصلبنكم ﴾ لأن ( ثم ) يدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع وإذا دل في الأولى علم في غيرها ولأن الواو يصلح لما يصلح له ( ثم ) قوله ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ وفي الشعراء ﴿ لاضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ بزيادة ﴿ لاضير ﴾ لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة وأشيعت في الشعراء ، وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ وختم بقوله ثم ﴿ أغرقنا الآخرين ﴾ فلهذا وقع زوائد لم تقع في الأعراف وطه

فتأمل تعرف إعجاز التنزيل .

قوله ﴿يسومونكم سوء العذاب يقتلون﴾ بغير واو على البذل .

قوله ﴿لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله﴾ هنا وفي يونس : ﴿قل لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله﴾ لأن أكثر ما جاء في القرآن من لفظ الضر والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضر ، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً يقويه قوله : ﴿يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ .

وحيث تقدم النفع تقدم لسابقه لفظ تضمن نفعا ، وذلك في ثمانية مواضع : ثلاثة منها بلفظ الاسم ، وهى ههنا ، والرعد ، وسبأ . وخمسة بلفظ الفعل وهى فى : الأنعام ﴿مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وفى آخر يونس ﴿مالا ينفعك ولا يضرك﴾ وفى الأنبياء ﴿مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم﴾ وفى الفرقان ﴿مالا ينفعهم ولا يضرهم﴾ وفى الشعراء ﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ أما فى هذه السورة فقد تقدمه ﴿من يهد الله فهو المهتدى ومن يضل﴾ فقدم الهداية على الضلالة .

وبعد ذلك ﴿لاستكثر من الخير وما مسنى السوء﴾ فقدم الخير على السوء ، فكذلك قدم النفع على الضر ، وفى الرعد ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فقدم الطوع وفى سبأ ﴿يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فقدم البسط ، وفى يونس قدم الضر على الأصل ، ولموافقة ما قبلها ﴿لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ وفيها ﴿وإذا مس الإنسان الضر﴾ متكرر فى الآية ثلاث مرات .

وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقه معنى يتضمن فعلاً ، أما سورة الأنعام ففيها ﴿ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ ثم وصلها بقوله ﴿قل أئندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا﴾ وفى يونس تقدمه قوله ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين﴾ ثم قال ﴿ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك﴾ وفى الأنبياء تقدمه قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال﴾ فأتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم وفى الفرقان تقدمه قوله ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل﴾ وعد نعماً جمّة فى الآيات ، ثم قال ﴿ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم﴾ تأمل فإنه برهان ساطع للقرآن .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصَّ ① كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ②  
أَتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③

المفردات : ﴿المص﴾ : هذه حروف تكتب كأنها كلمة ، وعند القراءة تقرأ هكذا : ألف لام ميم ، صاد وهى كغيرها مما افتتح به سورة البقرة وآل عمران .

ويراد بها الإشارة إلى أن هذا الكتاب الكريم معجز ، فقد نزل بهذه الحروف وما شابهها من حروف الهجاء ، وقد تحدى القرآن فصحاء العرب الذى يتكلمون بهذه الحروف ، تحداهم أن يأتوا بحديث مثله ففعلوا ، أو بعشر سور ففعلوا ، أو بسورة ففعلوا . قال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . ﴿ حرج ﴾ : ضيق وألم . ﴿ ذكرى ﴾ تذكر نافع وموعظة حسنة .

﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ هذا خبر فيه تشريف للكتاب ، إذ أن الذى أنزله هو رب الأرباب ، مالك الملك وملك الملوك ، كما أن فيه تشريفاً لمن أنزل الله عليه الكتاب ، وهو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، الرجل الذى علم المتعلمين ، وبعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى بر النجاة وشاطئ الأمان إلى طريق الله رب العالمين ، هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور التوحيد والهدى ، لترتفع بالبشرية من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء .

فلا يكن فى صدرك أى حرج من تبليغه . وهذا تثيت لفؤاد المصطفى ﷺ ، فإنه لاقى الكثير والكثير من الأذى ، وعناد المعاندين فى سبيل تبليغ الدعوة . قال تعالى ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال عز من قائل : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شئ وكيل ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تبارك وتعالى ﴿ ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون ﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿ واعبد ربك حتى يأتيتك اليقين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال عظمت حكمته ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

وقد أنزل الله هذا الكتاب على هذا النبى المصطفى مبيناً أنه للإنذار والذكرى قال ﴿ لتذر به وذكرى للمؤمنين ﴾<sup>(٦)</sup> وفى الإنذار تخويف وترهيب ، وللذكرى طمأنينة وترغيب ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾<sup>(٧)</sup> وبين الترهيب والترغيب تؤتى الموعظة ثمرتها والهدف المنشود منها .

(٥) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٥٥ من سورة الذاريات .

(٣) الآية ١٢ من سورة هود .

(٤) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الحجر .

ثم وجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى البشرية جمعاء فقال ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ .

قال عليه السلام « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم » <sup>(١)</sup> .

وقال « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ثم تلا قوله تعالى ﴿أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ <sup>(٢)</sup> .

روى الترمذى بسنده عن الحارث الأعور عن علي قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنه ستكون فتن قطع الليل المظلم قيل : فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملئه الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم » <sup>(٣)</sup> .

قال الله تعالى ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أى لا تتجاوزوا هذا الذى أنزل إليكم من ربكم ، ولا تفارقوه ، بل التزموه بالاتباع والتنفيذ ، ولا تأخذوا تشريعكم وأحكامكم من غيره ، مهما كانت ولايته ، سواء كان من طواغيت الجن والشیاطين ، أم من جبابرة البشر ، فلا حكم ولا تشريع إلا من الله ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل ، فالولاية الحق لله وحده ، والسلطان الحق لله وحده ، والتشريع الحق لله وحده .

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين \* لا شريك له﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام ديناً ، وقد ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً .

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أى قليلاً تذكركم ، وكثيراً ما تغفلون ، وقليلاً ما تشكرون ، وكثيراً ما تحجدون ، وقليلاً ما تؤمنون ، والله غالب على أمره قد جعل الله لكل شئ قدراً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة ( ٢٢ ، ٢٣ ) .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة ( ٤٢ ) .

(٣) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن ( ١ ) . والترمذى فى ثواب القرآن ( ١٤ ) .

(٤) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

## عاقبة الظالمين

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ  
بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾

**المفردات :** ﴿ كم ﴾ : كلمة وضعت للتكثير . ﴿ قرية ﴾ : هي مكان اجتماع الناس وقيل تطلق على الناس أنفسهم . ﴿ بيانا ﴾ : ليلا والمراد الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة . ﴿ بأسنا ﴾ : عذابنا وهلاكنا . ﴿ قائلون ﴾ : من القيلولة وهي استراحة وسط النهار والمراد نائمون في الظهيرة . ﴿ دعواهم ﴾ : دعاؤهم وقولهم .

يقول الله تعالى ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولا بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ولقد استهزئ بزسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله ﴿ فجاءها بأسنا بيانا ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بيانا أى ليلا ، أو هم قائلون من القيلولة وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ، وهو ، كما قال ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيانا وهم نائمون ﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلبعون <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين \* أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم <sup>(٥)</sup> .

وقوله ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ أى فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين : فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون \* لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾ . قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين \* فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين <sup>(٦)</sup> .

(٤) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الأعراف .

(٥) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة النحل .

(٦) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ١٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .

## عاقبة الكفر في الآخرة

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾  
وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ  
فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ﴾ كقوله: ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ (١) وقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ (٢).

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال على عن بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ قال عما بلغوا .

عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ﴾ (٣).

قوله تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾ .

قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (٤) .

قوله تعالى ﴿ والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

(١) الآية ٦٥ من سورة القصص .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى في الجمعة (١١) وفى الجنائز (٣٢) وفى الاستقراض (٢٠) وفى الوصايا (٩) وفى العتق (١٧ ، ١٩) وفى النكاح (٨١ ، ٩٠) وفى الأحكام (١) . وأخرجه مسلم فى الإمارة (٢٠) . وأبو داود فى الإمارة (١ ، ١٣) . والترمذى فى الجهاد (٢٧) .

والإمام أحمد فى (٢ : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١) .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .



يقول تعالى ﴿ والوزن ﴾ أى للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أى لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه \* فهو فى عيشة راضية \* وأما من خفت موازينه \* فأمه هاوية \* وما أدراك ما هيه \* نار حامية ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون \* فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾ (٤) .

قال العلماء : والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة وآل عمران يأتیان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف » (٥) .

ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : « من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظلمات نهارك » (٦) .

وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر : « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عمك الصالح » (٧) .

وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله « فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان » قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » (٨) رواه الترمذى .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضه » (٩) ثم قرأ : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ .

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء . (٢) الآيات ٦ - ١١ من سورة القارعة .

(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء . (٤) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين (٢٥٢ ، ٢٥٣) . والترمذى فى ثواب القرآن (٥) . والدارمى فى فضائل القرآن (١٥) . والإمام أحمد فى

(٤ : ١٧٣) وفى (٥ : ٢٤٩) وفى (٥ : ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦١) .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٥٢) .

(٧) أخرجه مسلم فى الألفاظ (٢٠) . وأبو داود فى الترجيل (٦) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٠) وفى (٤ : ٢٨٧) .

(٨) أخرجه الترمذى فى الإيمان (١٧) . وابن ماجه فى الزهد (٣٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢١٣) .

(٩) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١٨ : ٦) ومسلم فى المناقيق (١٨) .

وفي مناقب عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه والذي نفسى بيده لهما في الميزان أثقل من أحد » (١).

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

من نعم الله تعالى على عباده

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَا أَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

المفردات ﴿ مكناكم ﴾ : من التمكين أى التملك وقيل جعلنا لكم فيها أمانة تتبوأونها . وتمكنون من الإقامة بها .

﴿ معيش ﴾ : جمع معيشة وهى ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب . يقول تعالى ممتناً على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معيش ، أى مكاسب ، وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، كقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٢) .

آدم والملائكة وإبليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَبِينَ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ فاهبط ﴾ : الهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه وهو إما حسى أو معنوى . ﴿ أن تتكبر ﴾ : أن تجعل نفسك أكبر مما هى عليه . ﴿ الصاغرين ﴾ : الصغار الذلة

والهوان . ﴿ انظرنى ﴾ : أمهلنى . ﴿ فيما أغويتى ﴾ : فيما أوقعتنى فى الغواية وهى ضد الرشاد .  
﴿ مدءوماً ﴾ : معيياً من ذأَم الشيء عابه . ﴿ مدحوراً ﴾ : مطروداً مبعداً .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ أى أردنا خلقكم وقدرنا ذلك فى العلم الأزلى ، فخلقنا المادة التى أنشأكم الله فيها ، ثم صورناها ، وقد يكون المراد ولقد خلقنا أبائكم آدم من طين ، ثم صورناه بعد ذلك ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا ، وإنما خاطب الله الذرية بما أنعم به على أبيهم ، لأن تكريم الأب تكريم لهم كما قال تعالى لبنى إسرائيل المعاصرين لسيد المرسلين ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

ومعلوم أن هذه النعم قد أنعم الله بها على أجدادهم ، فذكر الله بها الأشياء ، لأن نعم الآباء والأجداد نعمة على الأبناء .

ولقد أمر الله تعالى الملائكة وكان إبليس بينهم ، ولم يكن منهم ، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ، ولم يكن سجود عباده ، لأنه لا معبود إلا الله ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال له مولانا تبارك وتعالى : ما منعك ألا تسجد أى ما حملك على عدم السجود وقد تكون ( لا ) فى قوله جل شأنه ما منعك ألا تسجد مزيدة للتوكيد ، أى ما منعك من السجود ، وهو المقصود هنا ، لقد أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

﴿ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ وزعم أن المخلوق بعنصره وجحد أن الفضل للأتنى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

فالمخلوق لا ترجع أفضليته إلى عنصره ، فالعناصر ليست الميزان فى التكريم ، فحق عليه غضب الله وسخطه ، قال ﴿ فاهبط منها ﴾ أى اخرج من زمرة الملائكة ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فإن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فاخرج إنك من الصاغرين الأذلاء ، ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يعثون ﴾ أى أخرى ، قال ﴿ إنك من المنظرين ﴾ أى من المؤخرين . ﴿ قال فيما أغويتى ﴾ أى بما أوقعتنى فى الغواية ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ وذلك للإغواء .

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أى من الأمام والوراء ، فمن ذهب منهم ليفعل الخير وقفت له فى طريقه بالمرصاد ، ومن ذهب ليقترف المعصية دفعته إليها دفعاً ﴿ وعن أيمنهم وعن شمائلهم ﴾ أسد باب الطاعة ، وأفتح باب الغواية ، لكنه لعنه الله لم يستطع أن يأتينا من فوقنا ، أو تحتنا ، ذلك لأن جهة الفوق تنزل منها الرحمات ، وجهة التحت مكان السجود ، فإذا سجد ابن آدم اعتزل

الشيطان يبكى يقول : ﴿ يا ويلي أمر ابن آدم بالسجود فسجد فدخل الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فدخلت النار . ﴾

لذا حذر الله بنى آدم من هذا العدو اللدود ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) .

وقال عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين \* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم \* ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٢) .

قوله تعالى ﴿ قال اخرج منها مذووماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ أى من الجن والإنس . ممن كفر وعصى ، ومذموماً بمعنى مغيياً ، ومدحوراً بمعنى مطروداً ، كما قال تعالى ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ (٣) وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٤) .

وقد شاءت حكمته أن رحمته وسعت كل شيء ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٥) .  
قال إبليس لرب العزة ، ﴿ لأغوينهم ﴾ ما دامت أرواحهم فى أبدانهم ، فقال له رب العزة وعزى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى .

سبحان من علم الغيوب ووصفه    ستر العيوب وكل ذاك سماح  
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى    كرماً فليس عليه ثم جناح  
منك التفضل والتكرم والرضا    أنت الإله المنعم الفتاح

أهل ذكرك، أهل عبادتك، أهل طاعتك، أهل محبتك، أهل شركك، أهل زيادتك ، أهل معصيتك لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، فإنك تحب التوابين وتحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنت طيبهم ، تبتليهم بالمصائب لتطهرهم من الذنوب والمعائب . الحسنة عندك بعشرة أمثالها ، وتزيد والسيئة بمثلها ، وتعفو ، وأنت أرفأ بعبادك من الأم بولدها .

### آدم فى الجنة

وَيَعَادِمُ آسَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٣ من سورة السجدة .

(٣) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٤) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .

(٥) الآية ٣٥ من سورة الحجر .

إِنِّي لَكُمْ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

**المفردات :** ﴿فوسوس﴾ : الوسوسة الصوت الخفى المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة ، والمراد هنا ما يجدونه من الخواطر التى تزين ما يضر . ﴿ماؤورى﴾ : ما ستر وغطى . ﴿من سوءاتهما﴾ : السوءة ما يسوء الإنسان ويؤلم ، فإذا قيل سوءة الإنسان كان المراد عورته لأنه يسوءه ظهورها . ﴿وقاسمها﴾ : أقسم لهما بجد ونشاط . ﴿فدلاهما﴾ : حطهما . عن منزلتهما من الجنة . ﴿ذاقا الشجرة﴾ : أكلا منها . ﴿وطفقا﴾ : أخذوا وشرعا . ﴿بغورور﴾ : الغرور الخداع بالباطل . ﴿يخصفان﴾ : يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة .

إذا كانت قصة آدم قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فليس ذلك تكراراً ، إنما قصص القرآن كثمار الجنة ، كلما رزق أهل الجنة منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، فإذا كانت ثمار الجنة قد تشابهت إلا أنها قد تنوعت فى طعومها وروائحها ، وإذا كانت القصة فى القرآن قد ذكرت فى مواضع شتى ، فليس ذلك من باب التكرار ، إنما كل قصة فى موضعها لها مغزاها ومبناها ومعناها ، ولها فائدها المستقلة ، ولها مكانتها من طبقات البلاغة الرفيعة العالية ..

ولما كان آدم نموذجاً للبشرية التى عمرت الأرض ، فإن الله تعالى قد أجرى على يديه شئونا كان لابد منها لتكون امتداداً منه لذريته ، فالله جلت قدرته أسجد له الملائكة تكريماً له وتفضيلاً .. قيل لبلال ابن رباح : « ابن من أنت يا بلال ؟ فقال : أن ابن الذى أسجد الله له الملائكة » .

وإذا كان إبليس قد أبى أن يسجد ، ففى ذلك درس لبنى آدم ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً﴾ إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴿١﴾ .

وبعد قصة السجود أدخله الله الجنة مع زوجه ليكون لبنى آدم فى ذلك عبرة ، يعلمون منها أن الزواج سنة المرسلين ، وأنه شركة مساهمة رأس مالها المودة والرحمة ، وأنه آية من آيات الله ، وإن تعجب فعجب أن تأتى آية الزواج بين الآيات الكونية ، كأى الزواج سنة من سنن الكون لا يستقيم بدونها ، ولا يقوم بعيداً عنها ..

فقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) : إذا تأملت موقع هذه الآية الكريمة لرأيت أنها سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (٢) فإذا ما تأملت لحاقها وجدته قول الله جل جلالته : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم \* إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (٣) .

فهذه آية الزواج وهذا سياقها ، وذاك لحاقها ، كأنها سنة مركززة في سنن الكون ، لذلك جاء التعبير القرآني صريحا واضحا : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ ولقد أسكن الله آدم الجنة لتشتاق نفسه إليها بعد أن يعيش فيها ، فيمتد هذا الشوق إلى قلوب أبنائه فيعملون أعمالا تقربهم إليها . ولقد نهاه الله عن قرب الشجرة ليمتد ذلك التكليف إلى أبنائه . ولقد نسي آدم فنسى أبنائه ، ولقد أكل من الشجرة فأذنب أبنائه ، ولقد تاب ليتوب أبنائه .

قال ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٤) .

ولقد وسوس الشيطان لآدم فوسوس لأبنائه ، ولقد تاب آدم فتاب الله عليه ، وهذه رحمة من الله تعالى بآدم وأبنائه إن هم تابوا وأنابوا : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا \* إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٥) ، ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما \* ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ سواء أكانت هذه الجنة دار الجزاء ، أم كانت جنة بريرة فوق الأرض ، فليست العبرة في حقيقة الجنة ، إنما العبرة كامنة فيما حدث في تلك الجنة ، نعم إنه لا طائل من الخلاف في حقيقة تلك الجنة التي أدخل الله فيها آدم : أهى الجنة التي أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ أم هي جنة خاصة بآدم ؟

ثم إنه لا طائل من البحث عن نوع تلك الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه أن يقرباها ، إذ لو كان في تعيينها خير لعينها الله ، كما عين الشجرة التي أمرت مريم أن تهزأ فقال : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾ (٧) . ولقد سبق في علم الله الأزلى أن آدم وأبنائه سيعمرون الأرض : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ (٨) . وفي سورة الأعراف ، وقبل أن يحدثنا القرآن عن قصة آدم نقرأ قوله

(١) الآية ٢١ من سورة الروم . (٢) الآية ٢٠ من سورة الروم . (٣) الآية ٢٢ من سورة الروم .

(٤) أخرجه الترمذی فی القيامة (٤٩) : وابن ماجه فی الزهد (٣٠) . والدارمی فی الرقاق (١٨) . والإمام أحمد فی (٣ : ١٩٨) .

(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٦) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الفرقان . (٧) الآية ٢٥ من سورة مريم .

(٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يمر آدم بتلك المواقع : يدخل الجنة ، ويوسوس له الشيطان ، ويأكل من الشجرة ، ويتوب الله عليه ، ويهبط إلى الأرض ، ويتناسل ، وتأتي كلمة الله الفاصلة ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال لهما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

إن الوسوس التي يلقيها الشيطان في نفس ابن آدم أشد من وقع السهام على الأكباد ، ولها ديب كديب الثعل ، ولا يشترط أن يكون إبليس قد دخل الجنة ليوسوس لآدم ، بل إنه يستطيع ذلك دون أن يدخلها ، بل يستطيع أن يكلمه عن بعد ، وأبناء آدم يجب أن يكونوا على حذر من هذا ، وخير لهم أن يعلموا قول رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »<sup>(٣)</sup> .

وإذا وسوس الشيطان فإنه يأتي الإنسان من مأمنه ، لذا فقد جاء لآدم من نفس المأمن ﴿ مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ أى مانها كما عن الأكل منها إلا لهذا الغرض ، فقد نهاكما حتى لا تكون لكما صفة الملائكة من شدة وقوة وطول الأجل ، وحتى لا تكونا خالدين كما قال سبحانه في سورة طه ﴿ فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾<sup>(٤)</sup> .

فالشيطان يعرف أن الإنسان يحب التملك والخلود ، فالله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، وجرت عادة الناس فيها أن من عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيدا لها ، فكل بنى آدم إلا ما رحم ربي يحبون الخلود في الدنيا ولو كان طعامها زقوما وهوأوها سموما ، وماؤها آسنا .

ثم أراد الشيطان أن يقنع آدم بما يقول فأقسم بالله إنه من الناصحين لهما . قال تعالى : ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ . ولم يكن آدم يعرف أن هناك من تبلغ به الجرأة فيقسم بالله كاذبا . وكان أحد الصالحين يقول : « من خدعنا بالله انخدعنا به » ( ورأى المسيح ابن مريم لصا يسرق فسأله : ما دعاك إلى هذا ، فقال اللص : والله ما سرت . فقال المسيح : صدقت وكذبت عيناى تعظيما ليعين الله ) .

قوله تعالى : ﴿ فدلأهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

(١) الآية ١٠ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٥ من سورة الأعراف .

(٣) أخرجه البخارى في الأحكام (٢١) وفي بدء الخلق (١١) وفي الاعتكاف (١١ ، ١٢) . وأخرجه أبو داود في الصوم (٧٨) وفي السنة (١٧) وفي الأدب (٨١) . وأخرجه ابن ماجه في الصيام (٦٥) . والدارمى في الرقاق (٦٦) . والإمام أحمد في (٣٣٦ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ،

(٤) الآية ١٢٠ من سورة طه .

(٣٠٩) ، وفي (٦ : ٣٣٧) .

ما كان آدم ليتصور أن أحدا من خلق الله يعرض يمين الله للكذب ، لذلك بذل إبليس أقصى جهده في سبيل أن يدفع آدم إلى الأكل من الشجرة ، فاستعمل سلاح القسم .

فدلاهما ( أى أهبطهما ) بغرور وخداع خبيث ، فأكلا من الشجرة . ولما ذاقاها بدا لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما . والسوءة كل ما يسوء الإنسان النظر إليه ويراد بها هنا ( العورة ) وهكذا من سار في طاعة الله ألبسه الله ثيابا تقيه من عوادي الشيطان ، ومن تاب إلى الله ستره الله .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى      تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وليس صحيحاً ما يقال إن المقصود بالشجرة التى أكل منها آدم شجرة الجنس ، فمن قال بذلك فقد قال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فألفاظ القرآن عربية تفسر بالقواعد العربية ، واللفظ إما حقيقة أو مجاز ، ولا يمكن أن يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، بشرط أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي . وبشرط أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز ، فإذا قلت : سمعت أسداً يخطب ، فإن الحقيقة هنا متعذرة إذ الخطابة مستحيلة في حق الأسد . إذن فالأسد هنا مجاز عن الخطيب الشجاع ، وبين الخطيب علاقة هي التشابه في الشجاعة ، هكذا تقرر قواعد اللغة التى نزل بها القرآن الكريم بلنسان عربى مبين .

فأين القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلي في قوله تعالى ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ . وفي قوله جل شأنه : ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ . وأين العلاقة التى بين الحقيقة والمجاز ؟ إن الشجرة هنا هي الشجرة بوضعها الحقيقى ، لاصلة له بما يقوله الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويحملون الألفاظ مالا تحتمل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، اللهم إنه لا علاقة ولا قرينة فلا مجاز ، إنما الشجرة لفظ استعمل فيما وضع له فهو على حقيقته .

إن آدم وحواء لما بدت لهما سوءاتهما طفقا وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة . أى يضعان ورقة فوق ورقة ، لأن ستر السوءات من نداء الفطرة السليمة .

وناداهما ربهما قائلا ومذكرا : ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ﴾ بقولى لكما : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ ألم ﴿ أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .

ولقد شعر آدم وحواء بنار الندم وبوخزها الأليم ، فأقرا واعترفا وتابا وأنابا وتضرعا إلى مالك الملك وملك الملوك ﴿ قالوا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .. وكانت هذه كلمات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

﴿ قال اهبطوا ﴾ : ( أى إلى الأرض التى كتب الله لكم أن تعمروها ) والمقصود بالخطاب هنا آدم وحواء وإبليس بعضكم لبعض عدو . وعداوة الشيطان لابن آدم في غنى عن البيان .



﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين \* إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . وغير بعيد عنا ما سبق ذكره في قوله تعالى : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تحيد أكثرهم شاكرين ﴾ (١) .

ولقد شاءت الحكمة الإلهية العليا أن يظل هذا الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الوقت المعلوم ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٢) .

وشاءت حكمة الله أن يكون لآدم وذريته مستقر في الأرض ومتاع إلى حين ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ كما قال جلّت حكمته : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٣) .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنيها ويفنيها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طيتها والزعران حشيش نابت فيها  
توجيه وتحذير

يٰٓبَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكْمُ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ  
آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يٰٓبَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ  
يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰ تَهُمَا ۚ إِنَّهُ يَبْرِيكُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرْوَاهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا  
الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الريش ﴾ : لباس الحاجة والزينة . ﴿ ولباس التقوى ﴾ : ما يلبس من الطاعة  
فيكون كالثياب التي تقى صاحبها من الوقوع في مخالفات وذنوب . ﴿ والفتنة ﴾ : الابتلاء والاختبار من  
قولهم فتن الصائع الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النضار . ﴿ والقبيل ﴾ :  
الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

جاءت هاتان الآيتان بعد ذكر قصة آدم فكانتا بمثابة الدرس والعبرة ، ولا بد لكل قصة من عبرة  
ودرس ، فقد امتن الله تعالى على البشرية بأنه أنزل عليها لباسا يورى السوء ويستر العورة ، وهذه نعمة  
لا نستطيع أن نوفى الله شكرها . لكن حسبنا أن نقول : اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم  
سلطانك ، نحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

(٣) الآية ٥٥ من سورة طه .

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

إذا كان إبليس بوساوسه قد دلى آدم وحواء بغرور منه فبدت لهما سواتهما . فإن الله جلت قدرته قد أنزل علينا من الثياب ما نوارى به سوءاتنا . والتعبير بـ ﴿ أنزلنا ﴾ يفيد أن مصدر الإنعام والإكرام وأن ولى النعم هو الله ، وأن الخير بين يديه والشر ليس إليه .

ومع اللباس الذى يستر الأجسام والعورات أنزل ريشا وهو ثياب الزينة التى فيها حسن وجمال ، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسافى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا » (١) .

وخير من لباس الزينة لباس التقوى : فالتقوى هى السلاح الأقوى ، فإذا كان اللباس يستر الأبدان ويقيها شر الحر والبرد ، فإن لباس التقوى هو ثياب القلوب يقيها وساوس الشيطان ونوازع النفس إلى مسالك الشر .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون ﴾ أى ذلك الذى تقدم ذكره من إنزال الثياب والرياش آية من آيات الله عليكم ونعمة من نعمه التى لا تحصى ، لعلهم يذكرون : فجعل جلال الله خيره إلى العباد نازل وشرهم إليه صاعد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٢) .

قال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » .

قوله تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسهما ليريهما سوءاتهما ﴾ .

بعد أن أرشد الله تعالى عباده إلى أن يتخذوا من اللباس ما يوارى سوءاتهم وكان ذلك الإرشاد امتنانا منه سبحانه وتعالى وتكرما ، حذر الله بعد ذلك بنى آدم من الوقوع فى شرك الشيطان ومصايده ومكايد وشباكه . فقال : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان ﴾ وللشيطان فتن يوقع ابن آدم فيها فيشغله بذلك عن ذكر الله ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ (٣) .

وللشيطان مداخل جاء النبی عنها فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ وبين عاقبة ذلك فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (٤) . ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من أهداف الشيطان أن ينزع عن ابن آدم نعمة اللباس ليريه سوءته وفى

(٣) الآية ٣٨ من سورة النساء .

(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٤) .

(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

ذلك دليل على أن الإنسان مفطور ومجبول على ستر سوءته فهذا أمر فطرى ، لكن البشرية لما انحرفت عن طريق ربها وسلكت النفوس إلى نوازع الشر بدلت نعمة الله كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . نزع لباسها الذى أنزل الله لها فتعرت من الفضائل ، وما أجمل تعبير القرآن الكريم ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ (١) .

ففى التعبير بالانسلاخ ما يفيد التشويه ، فقد كانت الآيات تزين صاحبها وتكسوه ثوب الجمال والجلال والكمال ، فلما تركها وانفصل عنها أصبح شائها قبيحا ، كذلك يفعل الشيطان مع ابن آدم عندما ينزع عنه لباسه فتبدو سوءته ، وقد كان ﷺ يدعو الله فيقول : اللهم استر عورتنا وآمن روعاتنا .

فانظر كيف قرن ستر العورة بالأمن من الروعات . بل قدم الستر على الأمن ، لتعلم البشرية جمعا أن الستر نعمة من أجل النعم ، ويوم تفقد البشرية هذه النعمة ، فقد انخرطت فى سلك العجماوات . بل إن هناك من الحيوانات أنواعا أثبت أن تواقع إنائها إلا بعيدا عن عيون الرقباء ، فما أحوج ابن آدم إلى أن يسلك طريق الله ، إن للشيطان مكاييد ، ولتلك المكاييد عواقب وبعد هذه العواقب تدمير وهلاك . فكم قوض من أعم عندما احترقت بنار الشهوات ..

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ والعدو الذى لا يرى أشد خطرا وأشد تنكيلا من العدو الذى يرى قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك السنصح فاتهم  
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

إن الشيطان بمكايده قد يصل بالإنسان إلى مرحلة هى غاية فى الذلة ، فيزين له القبيح فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتمدون ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ أقمّن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ (٣) ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٤) ذلك لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، وأن الطيور على أشكالها تقع . ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ (٥) . وقال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾ (٦) . وقال جل شأنه : ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا \* يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا \* أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ (٧) .

وهناك حزبان : حزب الرحمن وحزب الشيطان ولكل منهما أولياء وتابعون . قال الله تعالى مخبرا عن حزب الرحمن : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم

(١) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر . (٥) الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٢٤ من سورة النمل . (٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف . (٦) الآية ٢٦ من سورة النور .

(٧) الآية ١١٩ - ١٢١ من سورة النساء .

أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿١﴾ . وقال جل شأنه مخبراً عن حزب الشيطان : ﴿٢﴾ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون \* إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿٣﴾ (١) وقد يصل الشيطان بالإنسان إلى مرحلة يصبح الإنسان فيها أستاذاً في الغواية يقول أحدهم :

و كنت امرأ من جند إبليس فارتقى بي الحال حتى صار إبليس من جندي

وقد بين الله عز وجل حال ذلك الذي انسلخ من الآيات بأنه أصبح متبوعاً والشيطان تابعا فقال : ﴿٤﴾ فأتبعه الشيطان ﴿٥﴾ ولم يقل فتبع الشيطان فاللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال .

### افتراء على الله

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

**المفردات :** ﴿ الفاحشة ﴾ الفعل المتناهية في القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عراً كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون : لا نطوف بيت ربنا في ثياب عصيناه بها . ﴿ والقسط ﴾ : الاعتدال في جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط . ﴿ وإقامة الشيء ﴾ : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط . ﴿ والوجه ﴾ : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما في قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ (١) وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما في قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾ (٢) .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن هناك من اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فجعلهم الله تعالى أولياء للذين لا يؤمنون ، ذكر هنا صورة من صور أولياء الشيطان وما أكثرها فقال : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ﴾ لقد كان يطوفون بالبيت عراً رجالاً ونساء فإذا سئلوا عن ذلك قالوا : ما كان ينبغي لنا أن نطوف في ثياب عصينا الله فيها ، وهذا القول كما يقولون عذر أقبح من

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(١) الآيات ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .

الذنب . فإذا ما نصحهم الناصحون ، ووجههم أهل المعرفة ، قالوا : وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ثم يزيدون الأمر كذبا وبهتاناً فيقولون : والله أمرنا بها . فجاء الرد والجواب : ﴿ قُلْ إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وفى هذا الاستفهام توبيخ وتبكيت وتقريع ، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير علم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فمن أظلم من افترى على الله كذباً ، ومن أشد ضلالاً ممن قال على الله ما لم يقله ؟ ومن أعظم جرماً ممن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿ (١) ﴾ .

إن شر ما ابتليت به البشرية التقليد الأعمى : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون \* فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴿ (٢) ﴾ .

فكيف طوعت هؤلاء أنفسهم أن يستندوا فعل الفاحشة إلى أمر الله ؟ إن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء . ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْيَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) . ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٤) .

إن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، والفحشاء تنافي الفطرة وتحافها ، فإذا ما انحرفت الأهواء بالنفوس حادت عن طريق الجادة وتنكبت الصراط السوى ، لذلك قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليت ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليت ما نهى .

إن الإسلام جلال وكمال وجمال وهو المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ، دعا الناس إلى ما يسعدهم ونهاهم عما يضرهم ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْهُ هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى ﴾ . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿ (٥) ﴾ .

إن العمل الصالح من أخص خصائص الفطرة السوية ، وإنه ليكسب صاحبه الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٦) .

(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .

(٥) الآيات ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .

(٦) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .

(٢) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل .

إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴿١﴾ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴿٢﴾ . لقد ظللوا في جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجسام وفي طوافهم يصفرون ويصفقون ﴿٣﴾ وما كان صلاتهم عند البيت إلامكاء وتصدية ﴿٤﴾ (١) أى صغيراً وتصفيقاً ، ظلوا كذلك إلى أن نزل صدر سورة براءة وفيه يقول الله تعالى : ﴿٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا .

ولما حج أبو بكر رضى الله عنه بالمسلمين بالعام التاسع وكان هو الأمير على الحجيج ، ولحق به على ابن أبى طالب يحمل معه صدر سورة براءة أخذ على يبلغ المشركين في مكة وأعلن في صراحة وحزم أن لن يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة كافر ، وإعلان تلك المبادئ وانتهاء مدة الهدنة التى حددها الله تعالى بأربعة أشهر في قوله : ﴿٦﴾ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزي الله ﴿٧﴾ (٢) بعد هذا كله علموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فدخلوا الإسلام أفواجا ، فصنعهم الإسلام على عينيه وأحاطهم بالعناية والرعاية ثم أنشأهم خلقا آخر ، فجعل منهم قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم ، وصنع منهم زعماء للبشر بعد أن كانوا عبادا للحجر .

ولما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع لم يكن بينهم من يدعو غير الله ، بل كانوا جميعا يهتفون ﴿٨﴾ بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وارتفعت الخناجر تشق أجواز الفضاء : لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وتغيرت الحال غير الحال ، فطافوا بالبيت برداء وإزار ، وأقاموا وجوههم عند كل مسجد عابدين لله وحده حنفاء مخلصين له الدين ﴿٩﴾ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴿١٠﴾ (٣) . وهذا هو القسط والاعتدال وإخلاص العبودية لله .

يا خادماً الجسم كم تشقى لخدمته      أتطلب الربح مما فيه خسران  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها      فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان  
وامدد يديك بحبل الله معتصماً      فإنه الركن إن خانستك أركان

قوله تعالى : ﴿١١﴾ كما بدأكم تعودون ﴿١٢﴾ : أى كما خلقكم أول مرة تعودون يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿١٣﴾ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴿١٤﴾ (٤) . وكقوله جل شأنه : ﴿١٥﴾ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴿١٦﴾ (٥) .

والناس في العودة فريقان قال تعالى ﴿١٧﴾ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴿١٨﴾ . فمن اتبع هدى

(٤) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

(٣) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

الله وسار على صراطه المستقيم وأخلص له الدين يعود يوم القيامة في زمرة السعداء ، فلا يضل ولا يشقى ومن يعيش عن ذكر الرحمن ويعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ويعود في الآخرة كما قال الله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) ذلك لأنه حقت عليه الضلالة ، وما حقت عليهم الضلالة إلا أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .

والشياطين هنا تشمل شياطين الإنس والجن ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ (٢) . لقد اتخذوهم أولياء فأحلوا لهم وحرموا ، وزينوا لهم القبيح فرأوه حسناً ، فظلموا عباد الله وأضلواهم . ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً \* يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً \* لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً \* وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً \* وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ (٣) .

وقمة المأساة وذورة الضلال أن يسعى الإنسان ويحسب أنه على هدى قال تعالى : ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً \* الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا \* أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً \* ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴾ (٤) .

### بيان وإرشاد

يَنْبِئُ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾  
قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ  
الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

نداء من الله تبارك وتعالى إلى بني آدم الذين من الله عليهم بإنزال اللباس الذي يوارى السوءات واللباس الذي هو الزينة والجمال ، الذي سماه القرآن الكريم ريشاً ، نداء كريم من رب عظيم ، أمرهم فيه سبحانه أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد والمسجد هو كل مكان يسجد فيه لله رب العالمين ، كما تفيد اللغة . وسواء أكان الأمر بأخذ الزينة عند الصلاة أو عند قصد المسجد ، فإن ذلك أمر مرغوب فيه ، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال ، فما بالك إذا كان التجمل لله وفي أسنى المواطن ، وقد شرع الله الغسل ،

(٣) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة الفرقان .

(٤) الآيات ١٠٣ - ١٠٦ من سورة الكهف .

(١) الآية ١٢٤ من سورة طه .

(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .

وأمر بالتجمل والنظافة [ فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي ، وحق على المزور أن يكرم زائره ] <sup>(١)</sup> كما جاء في الحديث القدسي .

وإن من سمات الإسلام أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أهذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ الكبر غمط الناس وبطر الحق » <sup>(٢)</sup> .

وقد أرشد الرسول ﷺ أمته إلى أهمية النظافة فقال : « تنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يتنظفوا لنسائهم فزنت نساؤهم » .

ولما أمر الله عباده المؤمنين بأخذ الزينة عند كل مسجد أباح لهم الأكل والشرب في غير مخيلة أو سرف ، وفي هذه الآية الكريمة جمع الله الطب كله إذ يقول : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

قال أحد الزنادقة لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلا من الطب فقال له العالم المسلم إن الله تعالى جمع الطب كله في نصف آية فقال : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .

والناظر في كتاب الله جل وعلا يجد فيه الصحة الغذائية في مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله جل وعلا : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

كما يجد الصحة الوقائية في مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقوله جل جلاله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ <sup>(٧)</sup> .

كما يجد الطب الاجتماعي في قوله جل شأنه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(٨)</sup> .

كما يجد الطب النفساني في قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ <sup>(٩)</sup> .

فهل ترك القرآن شيئا فيه مصالح العباد إلا أمر به ، أو شيئا فيه مفسدة إلا نهى عنه ألا يعلم من

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٢) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٧) . والإمام أحمد في (٣ : ٣٩) وفي (٤ : ١٥٧) وفي (٥ : ١٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٢٦) . والترمذي في البر (٦٠) . والإمام أحمد في (١ : ٣٨٥ ، ٤٢٧) .

(٣) الآية ١٦٨ من سورة البقرة . (٧) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٢٣٣ من سورة البقرة . (٨) الآية ٢١ من سورة الروم .

(٥) الآية ١٤١ من سورة الأنعام . (٩) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٣ من سورة المائدة .



خلق وهو اللطيف الخبير . إن للإنسان دوافع فطرية لا يستغنى عنها بشر منها . اللباس والطعام والشراب . وقد جاءت هذه الثلاثة في تلك الآية الكريمة . وللنبي ﷺ في هذه الأمور الثلاثة أحاديث نذكرها فيما يلي :

- قال رسول الله ﷺ : « ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثم فإنه يجلو البصر وينبت الشعر » <sup>(١)</sup> .

- وقال رسول الله ﷺ : « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » <sup>(٢)</sup> .

- وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا وألبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده » <sup>(٣)</sup> .

- وقال رسول الله ﷺ : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه . حسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلك لطفاه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » <sup>(٤)</sup> .

- قال رسول الله ﷺ : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتيت » <sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾ <sup>(٦)</sup> .

والزينة ما دامت في غير سرف أو مخيلة فإنها من الأمور المباحات التي أنعم الله بها على عباده ، وكذلك الطيبات من الرزق . فإن الله تعالى بعث نبيه ﷺ بشرع هو للأُمم المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالأب الرحيم بعثه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث ، يوحد العقائد ولا يفرق القواعد وقد انساب أصحابه في أرجاء الدنيا ينشرون العدل والحق والحرية يعملون على البناء ويقضون على معاول الهدم ، أطبوا المريض بدوائهم وأمنوا الخائف في رحابهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم . صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم .

قوله تعالى : ﴿ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ . قال إبراهيم لربه : ﴿ رب اجعل هذا بلد آمناً ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ <sup>(٧)</sup> .

وأراد إبراهيم أن يكون الرزق مقصوراً على المؤمنين ، لكن الحليم الكريم سبحانه ، قال : ﴿ ومن كفر فأتبعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ . ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ <sup>(٨)</sup> . فإذا كان المؤمن وغير المؤمن يأكلون في

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٢) وفي اللباس (٥) . وأخرجه البخاري في اللباس (٢٤) . وأبو داود في الطب (١٤) وفي اللباس

(١٣) . وأخرجه الترمذي في الجنائز (١٨) . والنسائي في الجنائز (٣٨) . والإمام أحمد في (١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٣٢٨ ، ٣٥٥ ،

٣٦٣) وفي (٥ : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ - ٢٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في اللباس (٥) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (١) . والنسائي في الزكاة (٦٦) . وابن ماجه في اللباس (٢٣) . والإمام أحمد في (٢ : ١٨١ ، ١٨٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة (٥٠) . والترمذي في الزهد (٤٧) . (٧) الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه ابن ماجه في الأطعمة (٥١) . (٦) الآية ٨٧ من سورة المائدة . (٨) الآية ٦ من سورة هود .

الدنيا من رزق الله ، فإن الطيبات من الرزق خالصة للذين آمنوا في دار النعيم إذ أن غير المؤمنين قد حرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وما للظالمين من أنصار .

قوله جل شأنه : ﴿ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ أى مثل هذا التفصيل الذى سبق نبين الأحكام ونوضحها توضيحاً لقوم يعلمون ، فالعلم نور وضياء حبذا إذا كان علماً نافعاً مقترناً بالعمل الصالح ، اللهم إنا نسألك علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وشفاءً من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع .

### المحرمات

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ۖ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

**المفردات :** ﴿ الفواحش ﴾ : واحدها فاحشة ، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ، ويطلقونها أحياناً على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح . ﴿ والإثم ﴾ : لغة القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرهما كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة . ﴿ والبغى ﴾ : تجاوز الحد : وقد قالوا : بغى الجرح ، إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبيغون فى الأرض بغير الحق ﴾ (١) .

لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت غيرهم المشركون بذلك فقال الله : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحل الله من الطيبات والرزق واللباس ما حرم ربي هذا ، وإنما حرم الفواحش وما قبح جرمها كالزنا ما ظهر منه وما بطن ، وإذاعة السوء ، وخيانة الوطن ، والخروج على الجماعة ، وهكذا كل ذنب يكون خطره جسيماً ، وكذا حرم الإثم الذى يوجب الذنب ، وحرم البغى وتجاوز الحقوق وقيد البغى بغير الحق ، لأن التجاوز إذا كان للمصلحة ومع التراخي فلا شيء فيه . وحرم الإشراف بالله غيره من صنم أو وثن لم ينزل به سلطاناً وحجة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾ (٢) .

وحرم كذلك أن تقولوا على الله ما لا تعلمون أى بغير علم ولا حجة ، والقول على الله وعلى دينه يكون بتحليل حلال أو تحريم حرام بلا سند ولا حجة ، وهو القول بالرأى ، وهذا منشأ تحريم الأديان ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ﴾ (٣) بل علينا ألا نتخطى أصول الدين من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذه الأصول لم تترك شيئاً .

(٣) الآية ١١٦ من سورة النحل .

(١) الآية ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

## لكل أمة أجل

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿أجل﴾ : وقت مضروب الله أعلم به . ﴿ساعة﴾ : أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

لكل أمة أجل محدود ووقت مضروب يعلمه الله سبحانه ، وتنتهى عنده ، كما أن لكل شئ في الوجود أجلا كذلك ، فلكل أمة زمان معلوم ، نكون فيه سعيدة عزيزة أو شقية ذليلة .

فعزة الأمم وسعادتها تكون بامتثال الشرع وذيوع الفضيلة .

والتمسك بأهداب الدين والمثل العليا ولها في ذلك أجل محدود .

وشقاء الأمم وذلها يكون ببعدهم عن الفضيلة ، وذيوع الرذيلة وشيوع الغش والرشوة والفساد والإسراف والظلم والإثم والبغى ، ولها في ذلك أجل محدود .

أما فناء الأمم وهلاكها بالإبادة لمخالفتها الشرع فانتهى ببعثه الرسول ﷺ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿١﴾ .

وقد جرت سنته تعالى بذلك مع جميع الأمم فنرى في أمم الغرب أمة قوية عزيزة ، لأنها تتمسك بالفضيلة والاعتدال وعدم الإسراف ، ولها أجل محدود ما دامت متمسكة بالحق ، وبجانبا أمة ذليلة مهينة لأنها تتمسك بالرذيلة والإسراف ، والأمة الإسلامية أولى بالتمسك بالمثل العليا وعدم الإسراف ومجاوزة الحد في شئ ، وبخاصة وأن دينها يأمرها بهذا والله سبحانه وتعالى إذا قضى على أمة بالفناء في ساعة لا تتقدم ولا تتأخر أصلا فهذا تهديد ووعيد لمن يخالف الأمر ويسير على غير هدى .

## مهمة الرسول وعاقبة العمل

يَبْنِيءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يِقْضُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَتِي فَمَن تَتَّبِعْ وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

يا بنى آدم إن تأتاكم رسل منكم تعرفونهم ، ويمكنكم الحكم على أعمالهم ، يقصون عليكم آياتي

ويتابعونها آية بعد آية ، مبشرين ومنذرين ، داعين إلى الفضيلة ، ناهين عن الرذيلة ، وهذه هي مهمة الرسل قديماً وحديثاً ، فمن اتقى وأصلح نفسه بالعمل والنية الصادقة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا ورفضوها كبراً وعناداً واستكباراً عن الحق ، وعتوا كما فعل زعماء قريش أولئك هم أصحاب النار فيها خالدون ، وما كثون مكثاً الله أعلم به .

### عاقبة الكذب على الله مع

#### ذكر مشهد من مشاهد

#### يوم القيامة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمُ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولٰٓئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَكَاتِبَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلٰكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولٰٓئِهِمْ لِأُخْرَيْنَهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ اذاركوا ﴾ : تلاحقوا وادارك بعضهم بعضاً واجتمعوا . ﴿ ضعفاً ﴾ : هو المثل الزائد على مثله مرة أو مرات .

لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، واختلق زوراً وبهتاناً ، بأن حرم حلالاً ، أو حلل حراماً ، أو نسب إليه ولداً أو شريكاً ، أو كذب بآياته واستكبر عنها واستهزأ بها .

أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب المكتوب ، والقدر المقدور ، في الرزق والعمر والمتاع في الدنيا والخط ، حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت متوفين لهم قابضين لأرواحهم قالوا لهم : تأنيباً وتوبيخاً : أين ما كنتم تدعونهم من دون الله من الشركاء والشفعاء ، قالوا ضلوا عنا وغابوا ، لا ندرى مكانهم ، ولا نرى أثرهم ، فنحن لا نرجو منهم خيراً ولا نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم ، واعترفوا عليها بأنهم كانوا بعبادتهم ودعائهم لهم كافرين .

وهذا تحذير للكافرين الموجودين من عواقب الكفر والضلال يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك

الظالمين المكذبين بآيات الله وهم كفار العرب ادخلوا مع أمم قد سبقتمكم في الكفر ، وفي دخول النار وهم أولياؤكم من الجن والإنس .

﴿ كلما دخلت ﴾ جماعة ورأت ما حل بها من الخزي والتكال ﴿ لعنت أختها ﴾ في الدين والملة ، إذ هي قد ضلّت باتباعها ، والامتداد بكفرها حتى إذا تداركوا في النار جميعاً . واجتمعوا قالت أخرجهم في الدخول وهم الأتباع والسفلة لأولاهم أى في شأنهم وحقهم ، وهم السادة والرعماء قالوا مخاطبين الله ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ أى السادة ﴿ أضلونا ﴾ وأثروا علينا فآتهم ضعفاً من عذاب النار ، لإضلالهم لنا زيادة على عذاب ضلالهم في أنفسهم .

قال الله لهم : لكل منكم ضعف من العذاب بإضلاله فوق العذاب على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم .

وقالت أولاهم لأخرجهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا من أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا ، فيقول الله لهم ذوقوا جميعاً العذاب كاملاً ، بما كنتم تكسبون

### جزاء الكافرين

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿١﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ الجمل ﴾ : البعير الذى طلع نابه . ﴿ سم الخياط ﴾ : ثقب الإبرة . ﴿ المجرمين ﴾ : أجرم قطع الثمرة من الشجرة ثم استعمل في كل إفساد . ﴿ مهاد ﴾ : فراش . ﴿ غواش ﴾ : جمع غاشية وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه كاللحاف .

إن الذين كذبوا بآياتنا الدالة على الوحداية والبعث ، وعلى صدق الرسول ، مع بيانها للأحكام ولأصول الدين ، إن الذين كذبوا بها واستكبروا عنها لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ولا تصعد إليها أعمالهم ، فإنها هباء منثور لا خير فيه .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ (١) .

ولا يدخلون الجنة أبدا ، فهم مطرودون من رحمة الله ، ومثل ذلك الجزاء يجزى به كل من أجرم في حق الله ، وفي خلق نفسه ، وفي حق إخوانه من المسلمين .

لهؤلاء من نار جهنم فراش يفترشونه ، ولخاف يلتحفون به ، فهم والعياذ بالله بين طبقات جهنم ماكثون ، وهى محيطة بهم ، والله محيط بأعمالهم وبفس المصير مصيرهم ، ولا غرابة فى ذلك كذلك نجزي الظالمين .

### جزاء المؤمنين

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ وسعها ﴾ : طاقتها وما تقدم عليه حال السعة والسهولة . ﴿ نزعنا ﴾ : قلعنا . ﴿ غل ﴾ : حقد وحسد . ﴿ أورثتموها ﴾ : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى صاحبه .

هذا وعد ربك بالحق بعد ما أوعد الكافرين ، وهكذا نظام القرآن وعد ووعد ، ليميز الحق من الباطل ، والمؤمن من الكافر .

والذين آمنوا بالله وعملوا العمل الصالح الذى ارتضاه ربهم لهم ، أولئك الموصوفون بما ذكر من معاني الكمال والصدق ، المشار إليهم ، المتميزون لعلو درجاتهم ، هم أصحاب الجنة الملازمون لها ، وهم فيها خالدون وقد جاء قوله تعالى ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ بين العمل وجزاءه على سبيل الاعتراض ، للإشارة إلى أن هذا العمل الصالح الذى يستحق صاحبه دخول الجنة ، ليس شاقاً ولا فوق طاقة البشر ، بل هو عمل سهل فى متناول اليد ، متى حل فى قلب الإنسان نور الإيمان ، وهدى القرآن ، هم فى الجنة خالدون ، لا يجزئهم الفرع الأكبر ، ولا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم .

وليس بينهم شر ، لأن الله نزع ما فى صدورهم من حسد وعداوة وغل وحقد ، وهكذا نعيم الجنة : أكلها دائم ، وظلها كذلك ، وفيها الأنهار تجري من تحتهم ، فيرونها تفيض بالماء وهم فى غرفاتهم آمنون ، فيزدادون حبوراً وسروراً ، وقالوا شاكرين نعمه : الحمد لله الذى هدانا لهذا العمل حتى أخذنا ذلك الثواب ، وما كان من شأننا ولا من مقتضى تفكيرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله ، ووفقنا لاتباع الرسل .

وقالوا لما رأوا كل شيء يجري على حسب ما أخبر به الرسل ، لقد جاءت الرسل بالحق ، وصدقنا الله وعده في الدنيا ، وهذه الملائكة تناديهم ﴿ سلام عليكم طيبتم فادخلوها خالدين ﴾ (١) .

فهذه هي الجنة التي أورثتموها ، وصارت لكم كما يصير الميراث جزاء أعمالكم .

وفي الآية دليل على أن الإنسان يدخل الجنة بعمله ، وفي الحديث لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلته ورحمته .

والخروج من هذا أن عمل الإنسان مهما كان لا يستحق به ذلك النعيم الواسع العريض ، لولا رحمة الله وبفضله ، ومن ثم قيل في الحديث ﴿ فسددوا وقاربوا ﴾ أى لا تبالغوا . والله أعلم .

### حوار بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذْنُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَفِرُونَ ﴿١٢﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾

**المفردات :** ﴿ فَأَذْنٌ ﴾ : الأذان والتأذين رفع الصوت بالإعلام . ﴿ لَعْنَةُ اللَّهِ ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة مع الإهانة . ﴿ عِوَجًا ﴾ : ذات عوج أى غير مستقيمة ولا مستوية . ﴿ حِجَابٌ ﴾ : سور بين الجنة والنار . ﴿ الْأَعْرَافِ ﴾ : جمع عرف مأخوذ من عرف الديك والفرس ويطلق على أعلى الشيء وكل مرتفع . ﴿ بِسِيمَتِهِمْ ﴾ : السيماء والسيما العلامة . ﴿ صُرِفَتْ ﴾ : حولت .

هذا فريق في الجنة وهذا فريق في النار ، وقد حصل بينهما حوار حكاه القرآن إظهاراً للحق ، وإعلاناً عن خطر الكفر والإيمان ، وبياناً لعاقبة كل .

وما نراه الآن من مخترعات يغنيان عن الكلام في كيفية سماع الكلام ، ورؤية الأشخاص ، مع البعد في المكان فالله على كل شيء قدير .

نادى أصحاب الجنة قائلين يا أصحاب النار ، يا أهل الكفر والفسوق والعصيان والضلال

والبهتان : إن الحال والشأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ولقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وصدق الله وعده ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العذاب والألم ؟

هل وجدتموه حقا ؟ قالوا : نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر ، فهذه هي النار تتميز غيظاً ، وتقول هل من مزيد ؟

فأذن مؤذن بينهم بحيث سمع صوته أصحاب النار ، وأصحاب الجنة أذن قائلًا .

ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وهم الذين يصدون عن سبيل الله بغيا وعدوانا ، ويطلبونها معوجة غير مستقيمة حتى ينفر الناس منها ، ويتعدوا عنها ، وهم بالآخرة كافرون .

وبين أهل الجنة وأهل النار سور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلى أعالي ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلاً بعلامة ﴿ وجوه يومئذ مسفرة \* ضاحكة مستبشرة \* ووجوه يومئذ عليها غبرة \* ترهقها قفرة \* أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ (١) .

هؤلاء الذين على الأعراف رجال موحدون ، قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم طبت ، فنعم أجر العاملين ، وهم لم يدخلوا ، أى الجنة ، ولكنهم يطمعون فيها ، فهم بين الخوف والرجا .

وإذا صرفت أعين أصحاب الأعراف من النظر إلى أهل الجنة ، إلى النظر إلى أهل النار من غير قصد ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

### حوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار

وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رَجُلًا لَا يَعْرِفُونَهُمْ بِسْمِنَهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا حوار بين أصحاب الأعراف وبين أهل النار ، فأصحاب الأعراف ينادون رجلاً من أهل النار وقد عرفوهم بسيماهم قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ (٢) وقال جل شأنه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة \* ترهقها قفرة \* أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ (٣) .

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة عبس .

(٢) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٣) الآيات ٤٠ ، ٤٢ من سورة عبس .



وقال عز من قائل : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ (١).

إنهم سود الوجوه ، زرق العيون ، قال سبحانه : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً ﴾ (٢).

إن أصحاب الأعراف قد عرفوا هؤلاء الجبابرة الطغاة الظلمة بتلك العلامات ، فقالوا لهم موبّخين : ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ﴾ .

أى هل أغنى عنكم جمعكم شيئاً ، لقد تجمعت ضد الحق وتعصبت للباطل ، وحشدتم للإسلام ونبه وأتباعه كل ما تملكون من قوة ، فجيّشت الجيوش ، وجمعت الأموال ، فهل أغنى كل ذلك شيئاً : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾ (٣).

وهل أغنى عنكم استكباركم عن قبول الحق ، لقد أعماكم الكبر ، ووضع على أعينكم غشاوة حتى زين الشيطان لكم سوء أعمالكم ، فرأيتم القبيح حسناً ، والضلالة هدى ، فهل أغنى جمعكم وكبركم شيئاً كلا ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ فيقول يا ليتنى لم أوت كتابي \* ولم أدر ما حسايي \* يا ليتها كانت القاضية \* ما أغنى عنى ماله \* هلك عنى سلطانيه ﴾ (٤).

ثم نظر أهل الأعراف إلى الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب ، وقالوا لأهل النار : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمة ﴾ فقد كان المستكبرون يظنون أن من حرم المال في الدنيا والجاه والقوة فسيحرم يوم القيامة من دخول الجنة ، حتى قال أحدهم وقد دخل جنته في الدنيا ﴿ ما أظن أن تبعد هذه أبداً ﴾ وما أظن الساعة قائمة ولن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ (٥).

وكان هذا منهم جهلاً بحقائق الأمور ، لأن الله تعالى لا يعبأ بصورنا وأموالنا ، إنما بقلوبنا وأعمالنا ، قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٦).

فليس الغنى ميزاناً للعمل ، وليس الفقر ميزاناً للعمل ، إنما الميزان الصحيح هو تقوى الله ، قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ (٧).

(١) الآية ٦٠ من سورة الزمر . (٣) الآيات ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال . (٥) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة الكهف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه . (٤) الآيات ٢٥ - ٣٠ من سورة الحاقة . (٦) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٧) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

إن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً : ﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾ \* ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون \* وليبوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون \* وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين \* ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴿١﴾ .

وبعد أن ينتهى هذا الحديث الموجه من أصحاب الأعراف إلى أهل النار ، يقال لأهل الأعراف : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

قال حذيفة : ( إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم ، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن اتوا ابني إبراهيم . فيأتون إبراهيم عليه السلام فيسألونه أنه يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : هل تعلمون من أحد اتخذ الله خليلاً ؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن اتوا ابني موسى .

فيأتون موسى عليه السلام فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجياً غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن اتوا عيسى .

فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يرى الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسي ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن اتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتونى فأضرب يدي على صدرى : ثم أقول : أنا لها . ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش ، فأتى ربي عز وجل ، فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله . قط ، ثم أسجد . فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، ثم أثنى على ربي عز وجل ، ثم أخرج ساجداً ، فيقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى . فأقول : ربي أمتى . فيقول : هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، الا غبطنى بذلك المقام ، وهو المقام المحمود .

فأتى بهم الجنة ، فاستفتح فيفتح لى ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافته قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصياؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح أهل الجنة ، فيصرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال مساكين أهل الجنة (١).

### بين أصحاب النار وأصحاب الجنة

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

سأل ابن عباس أى الصدقة أفضل فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » (٢).

وقد أخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وما سيكونون عليه من سوء المآل ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٣).

أنهم سينادون على أهل الجنة يسألونهم الماء والطعام ، فيقول لهم أهل الجنة : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ لقد كانوا فى الدنيا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآيات الله كذاباً ، فكان جزاؤهم أن يقال لهم ﴿ فلقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ وأن يقال لهم : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾ (٤).

وأن يقال لهم : ﴿ إن شجرت الزقوم ۝ طعام الأثيم ۝ كالمهل يغلي فى البطون ۝ كغلي الحميم ۝ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ۝ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ۝ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ (٥).

وأن يقال لهم : ﴿ خذوه فغلوه ۝ ثم الجحيم صلوه ۝ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ۝ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ۝ ولا يحض على طعام المسكين ۝ فليس له اليوم ههنا حميم ۝ ولا طعام إلا من

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ١٧ : ١٩) وفى الجمعة (٦٣) وفى القيامة (١٠) . والبخارى فى التوحيد (١٩ ، ٢٤ ، ٣٦) وفى الرقاق (٥١) وفى الأنبياء (٣) وفى تفسير (سورة ١٧ : ٥) . ومسلم فى الإيمان (٣٢٢ ، ٣٢٧) . وأبو داود فى الجهاد (١١٤) . والنسائى فى السهو (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٧) . والدارمى فى السير (٢٨) . والامام أحمد فى (٢ : ١٧٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٢) وفى (١٥ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٣٩٣) .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٤١) .

(٥) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان .

(٣) الآية ٢٧ من سورة يونس .

غسلين \* لا يأكله إلا الخاطئون ﴿١﴾ ﴿٢﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ هذا نزلهم يوم الدين ﴿٥﴾  
﴿٦﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿٧﴾.

إن هؤلاء الذين حرموا نعيم الجنة ، اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فما أقاموا للدين وزناً ، ولا للشرع غبرة ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿٨﴾ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون \* قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين \* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون \* قال اخسئوا فيها ولا تكلمون \* إنه كان فريق من عبادي يقولون \* ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين \* فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكراً وكنتم منهم تضحكون ﴿٩﴾.

إن هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، جهلوا أن الدنيا مزرعة للآخرة . وما الإنسان فيها إلا وديعة ، ولا بد يوماً أن ترد الوديعة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فلا طمأنينة لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ﴿١٠﴾ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون \* أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١١﴾.

وقال عز وجل : ﴿١٢﴾ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون \* أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴿١٣﴾.

قوله تعالى : ﴿١٤﴾ فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .

أى يعاملهم معاملة من نسيم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿١٥﴾ في كتاب لا يضل رنى ولا ينسى ﴿١٦﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿١٧﴾ نسوا الله فنسيهم ﴿١٨﴾ وقوله : ﴿١٩﴾ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿٢٠﴾ وقال تعالى : ﴿٢١﴾ وقيل اليوم ننسأكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴿٢٢﴾.

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا .

وقال مجاهد : نتركهم في النار .

وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا .

وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : [ ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك

(١) الآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الحاقة . (٥) الآيات ١٠٥ - ١١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء . (٦) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود . (٩) الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الواقعة . (٧) الآيات ٧ ، ٨ من سورة يونس . (١٠) الآية ١٢٦ من سورة طه .

(٤) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران . (٨) الآية ٥٢ من سورة طه . (١١) الآية ٣٤ من سورة الجاثية .

الخيال والإبل وأدرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني [ (١) ] .

### قيام الأدلة عليهم

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ بكتاب ﴾ : المراد القرآن . ﴿ فصلناه ﴾ : بيناه أتم بيان . ﴿ تأويله ﴾ : ما يؤول إليه أمره أى عاقبته .

يقطع الله المعاذير على العباد ، فقد أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل إليهم كتباً ، وأمدهم بالعقل الذي يميزون به الخبيث من الطيب ، والهدى من الضلال ، فقد جاء الكتاب مفصلاً على علم لا جهل فيه ، وبيان لا خفاء فيه ، ووضوح لا لبس فيه ، جاء هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إذ هم الذين يستفيدون بما فيه ، فيترجمونه إلى عمل ، وهل الإيمان إلا ما وقر في القلب وصدقه العمل ؟ وإن قوماً غرثهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن هذا الكتاب المبين جاء هادياً ، مشتملاً على النذارة والبشارة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم نذير وبشير ﴿ (٢) ﴾ .

لقد اهتدى به أهل الإيمان فزادهم الله هدى ، أما الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرثهم الحياة الدنيا فلم ينتفعوا به ، وأعرضوا عن ذكر الله فصاروا لا ينتظرون إلا تأويل هذا الكتاب . أى ما تؤول إليه أحكامه ، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والمراد بتأويله عاقبة ما يصير إليه ، وإنما يكون ذلك يوم القيامة ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٣) .

وذلك عندما يأتهم اليقين ، وتصير الحقائق شاخصة أمامهم ، لا تحتل لبساً ولا غموضاً ، فذلك هي الجنة دار المتقين ، وهذه هي النار التى كانوا بها يكذبون .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١٦) .

(٢) الآيتان ٢٤١ من سورة هود .

فيقال لهم : ﴿ أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ <sup>(١)</sup> عندئذ يعضون على أيديهم ندماً ، ويقولون : ﴿ هل : لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين \* بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور \* وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وتأتي كلمة الفصل من الحكم العدل ﴿ قد خسروا أنفسهم ﴾ بدخولهم النار والخلود فيها ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم وبعد الذين زعموهم شركاء وشفعاء ، ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ <sup>(٤)</sup>.

### صور من عظمة الخالق

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ ربكم ﴾ : الرب السيد المالك والمرتبة . ﴿ الله ﴾ : علم الذات الأقدس والإله هو المعبود الذى منه النفع والضرر ويتقرب إليه بالعبادة والدعاء وليس للموحدين إله إلا الله . ﴿ أيام ﴾ : جمع يوم وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها . ﴿ استوى ﴾ : في اللغة بمعنى استقر ومنه استوى على الكرسي وعلى ظهر الدابة أى استقر . استوى بمعنى قصد واستوى بمعنى استولى وظهر والمراد يتصرف فيه بما يريد <sup>(٥)</sup> . ﴿ العرش ﴾ : قال الجوهري هو سرير الملك . ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ : والعرش سقف البيت وهودج المرأة وقيل العرش الملك والسلطان ومنه ثل عرشه إذا ذهب ملكه ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ : يجعل الليل كالغشاء أى يذهب نور النهار . ﴿ حثيثاً ﴾ : الحث والحض . بمعنى واحد وهو الإعجال والسرعة والمعنى يطلبه من غير فتور .

إن ربكم ومالك أمركم ومتولى شئونكم هو الله لا إله إلا هو ، فاعبدوه وحده ، واستعينوا به وحده ، فهو الذي خلق السموات وعوالمها ، وقدرها ، وأحكم نظامها ، وخلق الأرض ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر أقواتها ، وأحكم نظامها ، كل ذلك في ستة أيام الله أعلم بمقدارها

(٤) الآية من سورة الأنعام .

(٥) انظر مذهب السلف في معنى كلمة استوى وهو

المذهب الحق ولن يجوز العدول عنه انظر ص ١٨٨

(١) الآية ١٥ من سورة الطور .

(٢) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .

وحدودها ﴿ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا تَعُدُّونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

ولو أراد خلقها في لحظة لخلقها ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(٢)</sup> ولكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والثبوت في الأمور ، وأن خلق السموات والأرض ليس بالشئ الهين ﴿ لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وما ورد من أن الأيام الستة هي كأيام الدنيا ، وأنه بدئ الخلق يوم الأحد ، فروايات الله أعلم بها ، وأنها إسرائيليّات .

إن ربكم أيها الناس جميعاً الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ودبر أموراً وحده ، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، ثم إنه تعالى قد استوى على عرشه واستقام أمره ، واستقر على هيئة الله أعلم بها ، مع البعد عن مشابهة الحوادث في شئ .

ولقد سئل مالك رضى الله عنه في ذلك فقال : الاستواء معلوم ، أى في اللغة - والكيف - أى كيفية الاستواء - مجهول والسؤال عن هذا بدعة .

وهذا القدر كاف ، وهذا رأى الصحابة . رضى الله عنهم أجمعين ، ورأى السلف ، قبول ما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ، وترك معرفة حقيقتها إلى الله .

وأما الخلف فيؤولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه على معنى أنه يدير أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره وحكمته ﴿ إِنْ رَبُّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

والله سبحانه جعل الليل يغشى النهار بظلمته ويستتره بلباسه حتى يذهب نور النهار ، ليتم قوام الحياة ، فالليل للسكون ، والنهار للمعاش ، والليل يطلب النهار دائماً من غير فتور مع الإيجال والسرعة .

وخلق الشمس والقمر والنجوم التى لا يعلمها إلا الله حالة كونها مسخرات ومذلات بأمره ، كل يدور في فلكه إلى أجل مسمى عنده ، ألا له الخلق ، أى المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، فلا دخل لهذه الكواكب في شئ ، وله الأمر والنهى والتصريف والتدبير ، ليس لأحد دخل في شئ سبحانه وتعالى عما يصفون ، وتبارك الله رب العالمين .

### من آداب الدعاء

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٣ من سورة يونس .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الحج .

(٤) الآية ٨٢ من سورة يس .

وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

**المفردات :** ﴿تَضَرَّعًا﴾ : التضرع التذلل وإظهار الخضوع . ﴿خُفْيَةً﴾ : الخفية ضد العلانية . ﴿خَوْفًا﴾ : هو توقع الشر والمكروه . ﴿طَمَعًا﴾ : هو توقع الخير .

ادعوا ربكم الذى تعهدكم وأنعم عليكم نعمه التى لا تحصى ، وبخاصة ما مضى فى الآية السابقة . ادعوه متضرعين مبتهلين . مخلصين ، فالدعاء مخ العبادة ، ادعوه مخفين الدعاء مستترين ، فالإخفاء حسن مندوب إن لم يكن واجباً ، إذ هو أبعد عن الرياء والسمعة ، وأنت لم تدع غائباً أو ناسياً ، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو السميع البصير .

على أن الله مدح العبد الصالح زكريا فقال : ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾<sup>(١)</sup> .

وقد كان دعاء الصحابة وعملهم فى الخفاء ، إنه لا يحب المعتدين المتجاوزين الحدود المرسومة خصوصاً فى الدعاء ، فمن رفع صوته للرياء ، أو بالغ فى الصيغة ، أو طلب غير المشروع ، أو دعا غير الله مهما كان ، فالدعاء عبادة يجب أن يكون لله كل هذا عدم تجاوز فى حدود الدعاء .

ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، بما خلق فيها ، وما هداكم إلى الانتفاع بها وتسخيرها . والإفساد فى الأرض شامل لإفساد النفوس بالقتل . والاعتداء ، وإفساد المال بالسرقة والنصب ، وإفساد الدين بالكفر والمعاصي ، وإفساد العقل بالمسكرات .

ادعوه خائفين من عقابه ، متوقعين مكروهاً من عذابه ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون . وادعوه طامعين فى ثوابه ، مؤملين فى جزائه ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى﴾<sup>(٢)</sup>

### من أدلة البعث

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾  
وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ  
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) الآية ٣ من سورة مريم .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .



**المفردات :** ﴿الرياح﴾ : جمع ريح ولها أسماء عند العرب وإذا جمعت كانت في معنى الخير وإذا أفردت كانت في معنى الشر كما في قوله تعالى ﴿فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً﴾<sup>(١)</sup> ﴿بشراً﴾ : مبشرات ﴿أقلت﴾ : حملت ﴿البلد﴾ : الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء ﴿الثمرات﴾ : واحده ثمرة وهي الحمل الذي تخرجه الشجرة ﴿نكد﴾ : لا خير فيه ﴿نصرف﴾ : تغير وتبدل

هذا أثر من آثار رحمة الله بالخلق ، ودليل على قدرته على البعث ، إن ربكم هو الذي يرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته ، بقدوم المطر ، والمطر رحمة من الله بالخلق ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء ، سقناه إلى بلد ميت لا ماء فيه ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به أنواع الثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، مثل الإخراج وإيجاد أنواع النبات والثمار من الأرض بعد نزول المطر ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فالله قادر على كل شيء يخرج الحي من الميت ، والميت من الحي ، فانتبهوا رجاء أن تتذكروا ، وتتعضوا ، فتؤمنوا بالبعث والحياة الآخرة .  
مع هذا فهناك من ينكر البعث بعد ظهور أماراته ، لا غرابة في ذلك ، فالتناس في الفهم والإدراك كالأرض ، منها طيبة طاهرة المعدن تخرج نباتاً حسناً ، ومنها خبيثة التربة كالأرض السبخة ، أو الحجرية ، لا تخرج نباتاً حسناً ، بل نباتها لا خير فيه ، مثل ذلك التصريف البديع يصرف الله الآيات لقوم يشكرون النعم .

### قصة نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَرِّمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَرِّمُ لَيْسَ بِي ضَالُّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

**المفردات :** ﴿عذاب يوم﴾ : المراد به يوم القيامة ﴿الملأ﴾ : أشرف القوم ورؤساؤهم لأنهم يملأون العيون بهجة ورواء ﴿ضلال﴾ : الضلالة والضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ﴿وأنصح﴾ : أرشد إلى المصلحة مه حسن النية ﴿ذكر﴾ : أى وعظ من ربكم ﴿الفلك﴾ : السفينة ﴿عمين﴾ : واحده عم ، وهو ذو العمى ، قيل المراد عمى البصيرة ، وقيل هو عام .

أنهى الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة الكلام عن مظاهر القدرة والوحدانية ، ثم ختم الكلام بذكر البعث ، وأنه كالخلق الأول .

ثم قفى على ذلك بذكر قصص الأنبياء السابقين ، وكيف لاقوا من أمهم العنت والتكذيب ، وكيف آل أمر هذه الأمم ، وفي هذا عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ ، وتسكين للنبي الكريم ﷺ ، وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴿٢﴾ .

أقسم الله سبحانه وتعالى لأهل مكة بأنه أرسل نوحاً إلى قومه ، ونوح هو النبي الأول الذى أرسل إلى قومه ، كما ثبت في حديث الشفاعة ، فقال : يا قوم - ويا أهلى وعشيرتى : اعبدوا الله ربكم الذى خلقكم فسواكم وعدلكم على أتم صورة ، وأكمل نظام ، هو الذى خلق لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ، سبحانه وتعالى هو المعبود بحق ، لا إله إلا هو ، ما لكم من إله غيره تدعون وتتنزعون إليه ، أمركم بهذا لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقعه ، وشديد هوله .

قال الملائ من قومه ، وهكذا أشراف الأمم ورؤساؤهم دائماً ، أعداء للهداة والمرشدين ، قالوا : إنا لنراك فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا : ود - سواع - يغوث - يعوق - نسر إن هذا لضلال مبين ظاهر .

قال نوح مجيباً لهم : يا قوم ، ليس بى ضلالة ، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله وعبادته وحده دون الآلهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، أبلغكم رسالات ربي من التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبلغكم الأحكام العامة ، من عبادات ومعاملات .

وأنصح لكم ، وأحذركم عقاب الله ، وأذكركم به : [ الدين النصيحة ] قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ﴿٣﴾ .

وأعلم من الله ما لا تعلمون ، ووعظى لم يكن عن جهل ، وإنذاركم عاقبة الشرك ، كل ذلك عن علم . فنصحى لكم عن علم يقينى . لا تعلمونه ، أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر ووعظ من ربكم على لسان رجل منكم ؟!

وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ، ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وكيف

(٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (٤٢) . ومسلم فى الإيمان (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى

البيعة (٣١ ، ٤١) . والدارمى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

يكون الرسول بشراً ولو شاء ربك لأنزل ملائكة .

ومهمتي لكم أني أحذركم عامة الكفر ، وأنذركم بين يدي عذاب شديد ، لينذركم ، ولتتقوا عذاب يوم عظيم ، وتخشوا بسبب الإنذار هذا اليوم ، وليعذك بالتقوى لرحمته سبحانه وتعالى التي ترجى لكل من أجاب الدعوة .

أما هؤلاء الكفار ، فقد كذبوه وأصروا على تكذيبه ، وخالفوا أمر ربهم ، ولجوا في طغيانهم يعمهون ولم يؤمن معه إلا قليل ، وكان عاقبتهم أن نجى الله نوحاً والذين آمنوا معه برحمة منه ، فركبوا في السفينة ، ونجوا من الغرق .

وأغرق الذين كذبوا بآيات الله ، وكفروا بها ، ولا غرابة في ذلك فهم قوم عمون عن الهدى والرشاد ، قد طمس الله على قلوبهم ، وختم عليها وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يرون خيراً أبداً .  
فاياكم ياأمة الدعوة أن تكونوا مثلهم ، وحذار ثم حذار أن تسيروا على منوالهم « وفي سورة هود تفصيل أوسع لهذه القصة » .

#### قصة هود عليه السلام

\* وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يٰٓقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ  
الْمَلَآئِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَنظُرُكَ فِي سَفَاهَةٍ ۖ وَإِنَّا لَنَنظُنُّكَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ  
يٰٓقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَبَلَيْغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ  
نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَأَذْكُرُوا  
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ۖ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً ۖ فَأَذْكُرُوا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ  
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ۖ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَاتَّبِعْنَا بِمَا تَعِدُنَا  
إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ  
سَمِيَّتُمْوهَا ۖ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ سُلْطٰنٍ ۖ فَانْتَبِظُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾  
فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ أخاهم ﴾ : المراد واحد منهم كما قالوا ياأخا العرب ﴿ في سفاهة ﴾ : السفاهة

خفة حلم وسخافة عقل ﴿ خلفاء ﴾ : المراد خلفتهم في الأرض ﴿ آلاء ﴾ : واحدها ألى وهى النعمة ﴿ رجس ﴾ : عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ وقع عليكم ﴾ : حق عليكم ووجب ﴿ غضب ﴾ : انتقام ﴿ أتجادلوننى ﴾ : المجادلة المماراة والمخاصمة ﴿ دابر القوم ﴾ : آخرهم والمراد استئصالهم جميعاً

قال محمد ابن إسحق : هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح .

قال العلامة ابن كثير : هؤلاء هم عاد الأولى ، والذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمدة في البر . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها في البلاد <sup>(١)</sup> وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا ينجدون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

قال محمد بن إسحق : عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة : ( سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيراً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، والله إنك لتنتعته نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه ياأمير المؤمنين قال : فيه قبر هود عليه السلام ) . رواه ابن جرير .

ويروى أيضاً : أنهم كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا في الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً ، وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ، ولا يجعلوا معه الهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ واتبعه منهم ناس وهم يسير ، يكتمون إيمانهم .

فلما عنت عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا في الأرض الفساد . وتجبروا . وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون \* وإذا بطشتم بطشتم جبارين \* فاتقوا الله وأطيعون <sup>(٣)</sup> وقالوا يا هود ما جئتنا بينه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين \* إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء <sup>(٤)</sup> أى يجنون ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون \* من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ إني توكلت على الله ربي

(٣) الآيات ١٢٨-١٣١ من سورة الشعراء .

(٤) الآيات ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود .

(١) الآيات ٦-٨ من سورة الفجر .

(٢) الآية ١٥ من سورة فصلت .

وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿١﴾ قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر أ.هـ.

وقد بينت سورة الأحقاف ما حدث للقوم بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المطر ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، قال جل شأنه : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون ﴾ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿٢﴾ .

ولقد بين الله تعالى بعد هذه الآيات الدرس المستفاد مما حدث ، لتكون فيه العبرة لجبايرة الأرض ، فقال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٣﴾ .

إن قصة عاد مع نبي الله هود فيها من الدروس ما يدمر طغاة الأرض ، وحسبك أن تعلم أن عاداً غرثهم قوتهم ، وركبوا رؤوسهم ، وعشش الشيطان في تلك الرؤوس ، فباض فيها الإلحاد ، وأفرخ فيها الجبروت ، حتى قالوا : من أشد منا قوة ، وجاء الرد من رافع السماء بلا عمد ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ ﴿٤﴾ .

وجاء العقاب الأليم الشديد ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾ ﴿٥﴾ .

وجاء العقاب ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ فهل ترى لهم من باقية ﴿٦﴾ وجاء العقاب ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ﴾ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر ﴿٧﴾ .

قوله تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ أى كما أرسلنا نوحاً إلى قومه كذلك أرسلنا هوداً إلى عاد ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ .

وأى اعتراض على هذا الأمر ، أليست الكائنات كلها شاهدة بلسان الحال والمقال على وحدانية الخالق .

(١) الآيات من ٥٤-٥٦ من سورة هود . (٤) الآية ١٥ من سورة فصلت . (٦) الآيات ٦-٨ من سورة الحاقة .

(٢) الآيات ٢١-٢٥ من سورة الأحقاف . (٥) الآية ١٦ من سورة فصلت . (٧) الآيات ١٨-٢١ من سورة القمر .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الأحقاف .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السيك  
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

فماذا كان جوابهم ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ هذا هو منطق الباطل ، منطق الدجل والتهريج والحمق والنزق ، وهل يرتفع صوت الباطل إلا بالجدل العقيم من السفه في الفريقين ، هل يهتم الأمر بالتوحيد بالسفه والتوحيد منطق الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

هل السفه في أهل الإصلاح والحق ، إن خفة الأحلام وسخف العقول في أهل الشرك ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (١) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ثم هل جرموا عليه كذباً وقد عصم الله أنبياءه من الكذب من مهدهم إلى لحدهم ، قال تعالى في الحديث القدسي الجليل [ صدق عبدى فيما يبلغ عنى ] هل كذب الأنبياء على الخلق ، وأجرموا عليهم كذبا ، بل كان خاتمهم يلقب بالصادق الأمين ، حتى صار ذلك علما عليه ، ولكن الباطل هو الباطل ، يعربد في عرصات الأرض ، فاذا تصدى له الحق ركب رأسه فدمره الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴿ (٢) ﴾ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴿ (٣) ﴾ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴿ (٤) ﴾ .

فماذا قال هود عليه السلام ﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين \* أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ .

هذا هو منطق الحق ينساب انسياب الماء الطهور ، وينبلج انبلاج الضوء يبدد غياهب الظلمات في هدوء وطمأنينة ، ويمحو فلول الدجى في ثبات وشموخ ورسوخ وبزوخ ، ليس بى سفاهة وأى سفاهة في كلام هود ، وأنا لكم ناصح أمين أى سفه في النصيح .

إن أهل الباطل دائماً مصابون بالإفلاس الفكرى ، والجدل العقيم .

ثم يقول هود ﴿ أوعجبم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ أى عجب في هذا ، وأى غرابة في أن يكون الرسول بشرا ، إن بشريته هي المنطق السديد ، لأنه يدعو بشرا فلا بد أن يكون عارفاً بدوافع البشر ، خبيراً بحاجاتهم ، ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ (٥) وقال سبحانه :

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء . (٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء . (٣) الآية ١١ من سورة إبراهيم .  
(٤) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٤٩ من سورة سبأ .

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾<sup>(١)</sup>

ثم ذكرهم هود بنعمة الله عليهم ، فقال ﴿فاذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾ .

إن استخلافهم في الأرض بعد قوم نوح لعبرة ، كان عليهم أن يذكروها ، وإن في بسطة الله لهم في الخلق والقوة لنعمة يجب أن يشكروها ، وأن يذكروا تلك الآلاء ليفلحوا وينجحوا ، ولكن يأبى منطق الباطل إلا أن يلج في عتو ونفور ، فبدلاً من أن يقولوا اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، بدلوا نعمة الله كفراً ﴿قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ .

فكان مثلهم في ذلك كمثل القوم الذين قالوا ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾<sup>(٢)</sup> بدلاً من أن يقولوا : فاهدنا إليه ، فماذا كان رد هود قال ﴿قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إلى معكم من المنتظرين﴾ .

نعم إن هذا هو القول الفصل فقد حق عليهم الرجس والسخط ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴿(٣)﴾ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴿(٤)﴾ .

يأمرهم بتوحيد الخالق فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق في أسماء لا مسميات لها ، وما نزل الله بها من سلطان . ولا إذن ولا برهان ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾<sup>(٥)</sup> لقد بال الثعلب ذات يوم على صنم كان يعبد أحدكم قبل الإسلام فوقف يتأمل صنمه وأتشد :  
أربُّ يُول الثعلبان برأسه      لقد ذل من بالت عليه الثعالب  
فلو كان رباً كان يمنع نفسه      فلا خير في رب نأته المطالب  
برئت من الأصنام في الأرض كلها      وآمنت بالله الذي هو غالب

وكان لا بد من العقابة ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، قال تعالى ﴿فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ قال جل شأنه ﴿ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد \* وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴿(٦)﴾ .

(١) الآية ٩ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٦ من سورة غافر . (٣) الآية ٩٨ من سورة الشفاء .

(٤) الآية ٣٢ من سورة الأنفال . (٥) الآية ٣٣ من سورة يونس . (٦) الآيات ٥٨ - ٦٠ من سورة هود .

نعم إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . اقرعوا إن شئتم ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١)

وهكذا طويت عاد كما يطوى البرق معصرات الغمام ، وأدرجت في أكفان القدر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد \* إرم ذات العماد \* التي لم يخلق مثلها في البلاد \* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد \* وفرعون ذى الأوتاد \* الذين طغوا في البلاد \* فأكثروا فيها الفساد \* فصب عليهم ربك سوط عذاب \* إن ربك ليالمrصاد ﴾ (٢).

نبكى على الدنيا وما من معشر  
أين الأكاسرة الجابرة الألى  
من ذا الذى ضاق القضاء بحيشه  
حتى ثوى فحواه لحد ضيق  
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا  
أن الكلام لهم حلال مطلق

أين من بنى وشيد ، وعمر ومجد ، أين الفراعة الشداد ، أين ثمود وأين عاد تلك بيوتهم خاوية سكنتها الذئاب العاوية فهل يرى لهم من باقية ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار \* مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء \* وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال \* وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال \* وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال \* فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام \* يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار \* وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاة \* سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار \* ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب \* هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ (٣)

### قصة صالح مع قومه عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومَ عَبْدُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٦٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِنُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَ اللَّهِ وَلَا تَعْسُوا فِي الْأَرْضِ



مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ  
 اتَّعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحَ مُرْسَلٍ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ  
 اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا  
 يُصْلِحْ أَعْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ  
 جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ  
 لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾

**المفردات :** ﴿ثمود﴾ : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلى وادي  
 القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وأخوة صالح لهم : أخوة في  
 النسب كأخوة هود لقومه ﴿آية﴾ : هي البينة أى المعجزة الظاهرة الدلالة ، ﴿واذكروا﴾ : أى  
 تذكروا ﴿وبوآكم فى الأرض﴾ : أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ﴿والأرض﴾ : أرض الحجر بين  
 الحجاز والشام ﴿تنتحون﴾ : النحت النحر فى الشيء الصلب ﴿ولا تعثوا﴾ : العيث والعثى :  
 الفساد ﴿استكبروا﴾ : عتوا وتكبروا ﴿وعقروا الناقة﴾ : نحروها وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل  
 قطع قوائمها وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ﴿وعتوا﴾ : تمردوا  
 مستكبرين ، التمرد والامتناع إما عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا : إذا أسنَّ وكبر ، وإما عن قوة  
 كعتو الجبارين والمستكبرين . ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدتها إلا بمشقة  
 التسلق والصعود ﴿الرجفة﴾ : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا  
 اضطربت أمواجه . ورجفت الأرض : زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف  
 ﴿دارهم﴾ : دار الرجل ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا  
 لاحتراك بهم ، قال أبو عبيدة : الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

كانت قبيلة ثمود من قبائل العرب البائدة وقد كانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله ، فورثوا  
 أرضهم وديارهم . وآتاهم الله نعمًا كثيرة ، وأرسل إليهم صالحًا نبيًا فيهم يهديهم إلى الصراط السوى ،  
 ولكنهم عصوا وتكبروا وكفروا ، وطالبوا صالحًا بآية فبعث الله إليهم ناقة تصديقًا له ولكنهم عقروها وعتوا  
 عن أمر ربهم فقال لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، بعدها نزل عذاب الله ووعد ، ونجى الله صالحًا  
 والذين آمنوا معه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا أثرا بعد عين ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا  
 لثمود ، وتلك عقبى الظالمين ، ومآل الفاسقين .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل  
 بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا

لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجيين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « أئى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » (١) .

وروى أيضا الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون المسعودي عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأثماري عن أبيه قال : « لما كان في غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى في الناس [ الصلاة جامعة ] قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : وما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك » ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا أو سدّدوا ، فإن الله لا يعبا بعذابكم شيئا ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئا » .

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾

أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، كما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وهودا إلى قومه وجاء الأمر هنا بعبادة الله وحده وهو توحيد الألوهية كشأن كل نبي يبعث إلى قومه ، فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد ، وهو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول : لا إله إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣) وقال جل شأنه : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (٤) .

وقال صلوات ربي وسلامه عليه : أفضل ما قلته أنا والنيون قبلى « لا إله إلا الله » .

لقد سارت مواكب التوحيد يقودها الأنبياء ، وأتباعهم . الذين رفعوا راياتهم . خفاقة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس في الجلاء ، ومشى على وجه الزمان بنورها قوم أتقياء أقياء أعلنوها في قوة الإيمان . وقالوا : لا إله إلا الله ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفي سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف في رحابنا ، وستلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

(١) أخرجه البخارى في الصلاة (٥٣) وفي الأنبياء (١٧) وفي تفسير (سورة ١٥ : ٢) . وأخرجه مسلم في الزهد (٣٨ ، ٣٩) والإمام أحمد في (٢ : ١١٧، ١١٣، ٩٦، ٩١، ٧٤، ٧٢، ٦٦، ٩٠) .

(٢) أخرجه البخارى في الصلاة (٥٣) وفي الأنبياء (١٧) وفي تفسير (سورة ١٥ : ٢) . ومسلم في الزهد (٣٩، ٤٨) . الإمام أحمد في (٢ : ١٣٧، ١١٧، ١١٣، ٧٤، ٧٢، ٦٦، ٥٨، ٩٠) .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النمل .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ .

البينة الحجة القاطعة ، والبرهان الساطع على صدق رسالته ، وقد طلبوا منه آية تدل على صدقه ، فكانت الآية هي الناقة التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴿ (١) .

كانت هناك بئر في ثمود ، أمرهم نبي الله صالح أن يكون لهم شرب في يومهم ( أى نصيب من الماء ) وللناقة نصيبها من الماء ، وقد روى أن اليوم الذي كان مخصصا للناقة كانوا يشربون من ألبانها ، وكان الله تعالى يسوق لهم من الألبان ما يغنيهم عن شرب الماء ، فقطع المعاذير أمامهم ، وإنما أضيفت الناقة إلى لفظ الجلالة تشريفا لها ، حتى لا يمسوها بسوء من خشية الله وتوقيره ، وليذروها تأكل في أرض الله ، وترتع في خيراته ، ونهاهم أن يمسوها بسوء ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إن هم فعلوا ذلك . قال تعالى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفي آية أخرى : ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾ (٢) .

وذلك لأن العذاب قد وقع بعد عقرها بثلاثة أيام . وفي سورة الشعراء ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ (٣) لأنه كان يوما عصيبا يجعل الولدان شيبا .

ثم ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأن النعمة تقابل بالشكر لابلجود . قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد \* وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا \* فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ .

ولقد سجل لهم التاريخ حذقهم ومهارتهم في فن المعمار ، كما سجل لهم القرآن الكريم ذلك . جاء في سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين \* وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ (٤) .

كما سجل لهم القرآن الكريم ما كانوا فيه من النعيم والهناء ورغد العيش ، وأن النعيم الذي كانوا فيه كان يُلح عليهم أن يعرفوا الله فضله ويشكروا له آلاءه .

جاء في سورة الشعراء ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين \* أتركون فيما هاهنا آمنين \* في جنات وعيون \* وزروع ونخل طلعها هضيم \* وتنحتون من الجبال بيوتا فارحين \* فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين \* الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ (٥)

(١) الآيات ١٥٣-١٥٦ من سورة الشعراء . (٣) الآية ١٥٦ من سورة الشعراء . (٥) الآيات ١٤١-١٥٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٦٤ من سورة هود . (٤) الآيات ٨٠-٨٢ من سورة الحجر .

وقد اتخذ النجوم من سهول الأرض قصورا يقضون فيها الصيف ، واتخذوا من الجبال بيوتا يقضون فيها أيام الشتاء ، وقطعوا الصحور ونحتوا الجبال . قال تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ (١) .

كان عليهم أن يأخذوا العبرة من عاد ، وكيف سحب التاريخ عليهم أذيال الفناء ، فأصبحت بيوتهم خاوية تنعق فوقها البوم والغربان ، بعد أن كانت مشرقة الأعناق ، تصدح فوقها بلابل السعادة قال تعالى : ﴿ وئذ أهلك عاداً الأولى ﴾ (٢) فلما لم تأخذ ثمود العبرة من عاد أصابها مثل ما أصاب عاداً . قال تعالى : ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ (٣) .

نعم كان عليهم أن يذكروا آلاء الله ويلهجوا بالثناء عليه ، قال تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ قال موسى عليه السلام : ( يارب كيف أشكرك ؟ قال تذكرني ولا تنساني . إنك إن ذكرتني شكرتني وإن نسيتني كفرتني ) .

وهذا نبي الله سليمان بن داود ، لما وجد عرش بلقيس أمامه قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يستطع الغرور أن يتسور عليه حصون نفسه المنيعه ، فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ (٤) .

وها هو ذا خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه تُعرض عليه الجبال لتكون له ذهاباً وفضةً فيأني ، ويغيره مولاه بين أن يكون نبيا عبداً أو نبيا ملكاً فيقول يارب : ﴿ بل نبيا عبداً أجوع يوماً فأذكرك وأشبع يوماً فأشكرك ﴾ (٥) . يقول صاحب البردة :

ورأودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم  
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لاتعدو على العصم

وجلّ جلال الله إذ يقول في الحديث القدسي الجليل : [ ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع . إذا كنت معافى في بدنك آمناً في سربك ، عندك قوت يومك فقد حيزت لك الدنيا بخذافيرها ] (٦) .

فصلوات ربه وسلامه على نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، ورحمة عيسى ، وبساطة يحيى . ﷺ إذ يقول : ﴿ وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ﴾ .

فيا إلّهي :

رضاك خير من الدنيا وما فيها يامالك النفس قاصيها ودانيها

- |     |                          |     |   |
|-----|--------------------------|-----|---|
| (١) | الآية ٩ من سورة الفجر .  | (٤) | الآية ٤٠ من سورة النمل .  |
| (٢) | الآية ٥٠ من سورة النجم . | (٥) | أخرجه الترمذي في الزهد (٣٥) .   |
| (٣) | الآية ٥١ من سورة النجم . | (٦) | أخرجه البخاري في التوحيد (٣٨) والحريث (٢٠) ، والإمام أحمد في (٢٠: ٥١) . |

فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها  
فنظرة منك ياسؤلى وياأملئ خير إلئ من الدنيا وما فيها

لقد ذكرهم نبي الله صالح بنعم الله عليهم ، فقد استخلفهم من بعد عاد ، ومكّن لهم في الأرض ، وهياً لهم سبل العيش ، فجعلوا من سهول الأرض قصورا ، ونحتوا من جبالها بيوتا ، ثم أمرهم بذكر الله وآلائه عليهم ، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ، فلو كانوا ذوى ألباب راشدة ، وعقول مفكرة ، لاستجابوا لله ، وأناؤا إليه جلّ في علاه ، ولكن بادر الملأ الذين استكبروا من قومه ، بادروا المستضعفين الذين آمنوا بقولهم : ﴿أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه﴾ .

لم يكن استفهامهم على وجه الحقيقة ، أو لطلب الفهم ، إنما كان على وجه الاستهزاء والتوبيخ والتقريع ، فكان جواب المؤمنين المستضعفين : ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾

جاء الجواب مفحما وجازما ، فلم يقل المؤمنون في جوابهم : نعم تعلم أنه مرسل من ربه ، إنما كان الجواب أعم وأشمل : إنا بما أرسل به مؤمنون ، فزادوا في الجواب زيادة تدل على تصديقهم الجازم ، وإيمانهم المطلق بكل ما أرسل به نبي الله صالح . والمستضعفون هم أتباع الرسل الذين قامت على أكتافهم الدعوات ، والذين صمدوا أمام الأحداث وتمرسوا بالشدائد ورخصت أرواحهم في أسواق الموت ، وجادوا بالنفس إن ضنّ الجواد بهاء فماذا كان جواب المستكبرين ؟

قالوا : ﴿إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾ فتأمل معى البون الشاسع والفرق البعيد بين القولين . قال المستضعفون : ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ وقال المستكبرون : ﴿إنا بالذى آمنتم به كافرون﴾ . إنه الفرق بين الإيمان المطلق والكفر المطلق ، إنهما نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يلتقيان ﴿وما يستوى الأعمى والبصير \* ولا الظلمات ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوى الأحياء ولا الأموات \* إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور﴾<sup>(١)</sup> .

ثم تأمل مدى الاستكبار عن قبول الحق إذ كان القياس أن يقول المستكبرون : ﴿إنا بما أرسل به كافرون﴾ ليكون على غرار قول المستضعفين : ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ . لكنهم لم تطاوعهم أنفسهم الأمارة حتى يقولوا : ﴿إنا بما أرسل به﴾ فإنهم ينكرون الرسالة من أصل ولا يرضون أن يقرؤا بها .

ووقعت الواقعة ، ورجّت الأرض رجًا ، وتكهرب الجو ، ودخلت الشمس في منطقة الكسوف ، وخسف القمر ، فأصبحت أيامهم بلا شمس ، ولياليهم بلا قمر ، ففكروا وقدرؤا وعبسؤا وبسروا ثم أدبرؤا واستكبرؤا ، فتآمر تسعة منهم على قتل صالح وأهله ولكن يد الله كانت تعمل فى الخفاء ، فجعل تدبيرهم ، وكيدهم فى نحرهم .

استمع معى إلى ما جاء فى سورة النمل ، يعبر التعبير الصادق عن هذا المشهد . قال جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله . فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ . قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ قالوا اطيّرنا بك وبمن معك قالوا طائرکم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ ومكروا مكرّاً ومكرنا مكرّاً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ فتلک بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ (١).

فأهلك الله هؤلاء التسعة قبل قومهم ، أما القوم فقد تآمروا على عقر الناقة وعصيان أمر الله ، ولجّوا فى عتو ونفور ، فسلطوا أشقاهم واسمه « قدار بن سالف » فعقر الناقة ، وإنما أسند الله العقر إليهم لأنهم حرصوا على ذلك ورضوا عنه . قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ إذ نبعت أشقاهما فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ فكذبوه فعقروها ﴾ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ ولا يخاف عقباها ﴾ (٢).  
لقد عقروا الناقة بعد ما كفروا بالله وخالفوا أمره . قال تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ﴾ وبدلاً من أن يقولوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ﴾ قالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٣).

لقد قالوا : ﴿ يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

وتلك مواقف أهل الباطل ، عندما يركبون رعو سهم التى عشش الشيطان فيها فباض الإلحاد وأفرخ الكبر قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ﴾ (٤).

فكان لابد من الجزاء ، قال تعالى : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثين ﴾ . وقد جاء الإخبار عن عذابهم فى مواضع غير قليلة من القرآن ، وهذه الآية إحداها .. وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثين ﴾ كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ (٥). وفى سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (٦). وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ (٧).

ولا تعارض بين هذه الآيات فقد رجّت الأرض كإذارهم بنزول العذاب ، ثم جاءت الصيحة ، ثم أعقبتها الصاعقة ، فكانت أنواع العذاب كلها هى الطاغية التى عمتهم وشملتهم بعد صعق أرواحهم . قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾ فقالوا : أبشراً منا واحدا نتبعه إنا لئذ لفى ضلال وسعر ﴾ ألقى الذكر

(١) الآيات ٤٥-٥٢ من سورة النمل . (٤) الآية ٥٩ من سورة الإسراء . (٧) الآية ٥ من سورة الحاقة .

(٢) الآيات ١١-١٥ من سورة الشمس . (٥) الآيات ٦٧ ، ٦٨ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء . (٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

عليه من بيننا بل هو كذاب أشمر \* سيعلمون غدا من الكذاب الأشر \* إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر \* فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر \* فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿١﴾ .

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان الوارث الباعث ، الواحد الماجد الواحد الخبي المميت المعز المذل ، الباسط القابض ، الرافع الخافض سبحان من أفنى ثمود فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والملك اليوم لله الواحد القهار والأمر يومئذ لله :  
ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعا والمهيمن باق  
يا ابن آدم :

ديناك ساعات سراع الزوال وإنا العقبى خلود المال  
فهل تبع الخلد يا غافلا وتشتري دنيا المنى والضلال

وكانت النهاية ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

إنها قمة المأساة ، وذروة الملهة ، ألا يقبل الناس نصيح الناصحين الأمناء ، لقد قالها صالح بعدما حُمّ القضاء وحلّ البلاء ، ونزل القدر المحتوم ، كما قالها الصادق المعصوم لأهل بدر من طغاة المشركين بعدما وُضعت جثثهم فى القليب ، فجعل يقول : « يا أبا جهل بن هشام ، يا عتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » فقال له عمر يا رسول الله « ما تكلم من أقوام قد جيفوا » . فقال : « والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » ﴿٢﴾ .

وفى السيرة أنه عليه السلام قال لهم : « ببس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوابنى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، ببس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » .

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ﴾ أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ، ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

(١) الآيات ٢٣-٣١ من سورة القمر .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٦) وفى المغازى (٨) . ومسلم فى الجنة (٧٦، ٧٧) . والنسائى فى الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد فى (١٣١:٢) .

أَن تَأْتُوا التَّائُونَ

وَلَوْ أَنَّ قَالِ لَتَوَصَّيْتُمْ أَن تَأْتُوا التَّائُونَ أَن تَأْتُوا التَّائُونَ  
أَلَرِّجَالِ شَهْوَةٌ مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَسٌ يَتَّبِعُونَ أَفْعَالَهُمْ وَأَهْلُهُ إِلَّا أَمْرَاتُهُمْ كَانَتْ مِّنَ  
الْغَابِرِينَ ﴿١﴾ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَّسْرًا فَتَأْتُواكَ بِسَبْعَةِ مِائَاتٍ مِّنَ النَّسَاءِ كَذِبُكُمْ

المفردات : ﴿١﴾ لوط : هو لوط بن حاران ابن أخى إبراهيم عليه السلام ، ولد في (أور الكلدانيين) في الطرف الشرق من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا ، وهناك كانت مملكة آشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ، سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبثات ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتخديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك . ﴿٢﴾ لتأتون الرجال : مأخوذ من قولهم أتى المرأة إذا غشيها . ﴿٣﴾ من الغابرين : أى الباقين في عذاب الله ، يقال غبر الشيء إذا مضى ، وغبر إذا بقى .

يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل لوطا إلى قومه فقال لهم : ﴿٤﴾ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ثم بين جل ذكره نوع تلك الفاحشة فقال : ﴿٥﴾ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون .

وفي سورة التل يقول سبحانه : ﴿٦﴾ ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴿٧﴾ .

فوصفهم هنا بالجهل ، وهنا بالإسراف ، لأن الإسراف والجهل متلازمان ، فكل مسرف جاهل ، وكل جاهل مسرف .

وفي سورة العنكبوت يعدد جرائمهم المنكرة وفعالهم الشنيعة . قال تعالى : ﴿٨﴾ ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديبكم المنكر ﴿٩﴾ .

فهذه فعال وخصال بلغت من الفج مدى بعيدا ، فكيف أنتم يا بني آدم ؟



العالمين ، وهو قلب الفطرة السليمة عن وجهها الصحيح ، بتصريف الشهوة في غير ما وضعت له ، فقد خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى ، وشرع لهم ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم ، فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوى وغيّرت المنهج الربّاني ، كان ما كان من عقاب سماوى ، فقد سمعنا بمرض سباه البعض لعنة السماء ، وهو مرض خطير استشرى كالسّم في الأحشاء والنار في الحلقاء ، وانتشر في الأوساط الراقية التي عُرفت بالمدينة الحديثة . انتشر في أمريكا ودول أوربا ويسمى « الإيدز » .

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هذا المرض ، وقد جاء فيه من المعلومات عن هذا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل ما يتعلق به ، وكتبه مؤلفه د. رفعت كمال في صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقي الضوء على أهمية الموضوع وخطورته ولم استحق آل لوط العقاب على فعلتهم تلك :

اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز في عام ١٩٨١ ، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوالى ١٢ ألف مريض ، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف . ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أى أعراض ، وفي هذه الحالة يمكن أن تنتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل : الدماء ، السائل المنوى ، الدموع ، اللعاب . والتي يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسي ، أو نقل الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم ، أو استعمال محقن واحد في حقن شخصين ، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر .

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا التي تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها ، ويتم تدمير قدرة الجسم على مقاومة الأمراض .

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض : تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هذا التضخم لأكثر من شهر — ظهور أورام حمراء داكنة وتظهر في أى مكان بالجسم ، وهى تزيد في الحجم — حدوث نقص واضح في وزن الجسم ، ويكون ذلك خلال شهرين — فقدان الشهية — الإحساس بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود — ارتفاع في درجة الحرارة — الغرق بغزارة خصوصا أثناء الليل — سعال جاف مصحوب بارتفاع في درجة الحرارة — إحساس بالضيق عند التنفس — الإصابة بالإسهال — ضعف في العضلات — ظهور بعض البثرات — ظهور بقع بيضاء في الفم وهذه البقع تكون سمكية نوعا ما .. وتظهر على كل أجزاء الفم من الداخل .

إن العدوى في البيت الواحد تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسي ، ومن الأم الحامل إلى جنينها ، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى ..

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هى الفترة التى تبدأ من التعرض إلى العدوى ، وتنتهى مع ظهور أعراض المرض ، وهى تتراوح بين عامين وخمسة أعوام ، يكون فيها المريض قادرا على نقل العدوى للآخرين خلال هذه الفترة وقد اتضح أن ٩٠٪ من الحالات التى سجلت في هذا المرض تنقسم إلى مجموعتين :

- المجموعة الأولى : هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسي .

- المجموعة الثانية : هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن في الوريد حيث تستعمل مجموعة منهم حقنة واحدة في حقن المخدر ... وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم .

إن آثار هذا المرض لا تقتصر على التأثير الصحي الضار على جسم المريض ، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة : فالناس تهرب من وجه مريض الإيدز - والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف على علاجه - وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض - حتى العاملون في المستشفى ، إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفاً من انتقال العدوى .

فالرعب من عدوى هذا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسي ، ومن لا يزاوله ، حيث أكدت استطلاعات الرأي العام في أمريكا أن ٣٠٪ من الناس يؤكّدون أن هذا المرض سيصبح وباء عالمياً ، وأن الكل يبحث عن الإجراءات الوقائية التي يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة ، والخطر في هذا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملاً للعدوى .

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محددة هي الهجوم على الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم « تي ٤ » وهي نوع من الكرات البيضاء المتخصصة في مقاومة جراثيم الأمراض ، وكذلك بعض أنواع السرطان ، وعندما يهاجم الفيروس هذه الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوي المعروف باسم دي - ان - ايه (DNA) وهو الحامل للوراثة في نواة الخلية .

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعاً من البروتين له قدرة التغلب على الخلية « تي ٤ » بحيث تكون الحصيلة هي خروج كميات كبيرة من الفيروسات في فترة وجيزة جداً . وقد تأكد أن هذا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة ، مما ينهي حياتها في وقت مبكر .

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى « بالإيدز » يجد أنها في البلاد التي زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم ، ويباعدان بينها وبين منهج الله .

تقول الإحصائيات ، في فرنسا ٣٠٠ حالة - في ألمانيا الغربية ١٦٢ حالة - في بريطانيا ١٨٤ حالة أما في آسيا فإن الحالات أقل بكثير .. أما الرقم الهام الذي يكشف عن مدى انتشار الإيدز في الولايات المتحدة الأمريكية فهو ١٢ ألف مريض ، من هؤلاء مات ستة آلاف والباقي يعانون من المرض بلا شفاء .

ولكن .. لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسياً ؟

يقول الأطباء العاملون في هذا المجال : إن الخلية التي يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها .. وهي الخلية التي تتولى الدفاع عن الجسم .. تتراكم بكميات كبيرة بجانب المستقيم ، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذا ما هاجمه أى ميكروب يتسرب من المستقيم . ولذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب ، وخاصة هذا الشباب الذي يزاول الشذوذ الجنسي .

صدق يا سيدي يا رسول الله فقد كنت تنظر من وراء الحجب ، وتستشف الغيوب بما أوحى الله به إليك . فقد زكى الله عقلك فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾<sup>(١)</sup> وزكى لسانك فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾<sup>(٢)</sup> وزكى شرعك فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾<sup>(٣)</sup> . وزكى معلمك فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾<sup>(٤)</sup> وزكى قوادك فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾<sup>(٥)</sup> وزكى بصرك فقال : ﴿ مراع البصر وما طعى ﴾<sup>(٦)</sup> وزكى رسالتك فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾<sup>(٧)</sup> وركاك كنت فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾<sup>(٨)</sup> .

إذا كان هناك من سمى « الإندز » بلعنة السماء فقد سبقتهم يا سيدي يا رسول الله بأربعة عشر قرنا من الزمان عندما قررت تلك الحقيقة الناطقة بالحق فقلت : ﴿ لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعنوا بها إلا فشا فيها الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ﴾<sup>(٩)</sup> .

بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا  
ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من النحوس لهم حجابا  
وكان جنابهم فيها مهيبا ولأخلاق أجدر أن تهابا

### وللفقهاء فى اللواط كلمة

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم ، وهى من الفواحش المفسدة للخلق وللنفس والدين والدنيا ، بل وللحياة نفسها ، وقد عاقب الله عليها بأقصى عقوبة فحسف الأرض بقوم لوط ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة .

وقد أمر الرسول ﷺ بقتل فاعله ولعنه : روى أبو داود عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به »<sup>(١٠)</sup> .

وروى النسائي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط »<sup>(١١)</sup> .

قال الشوكاني :

« وما أحق مرتكبى هذه الجريمة ، ومقارفى هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة

- |   |                              |                                    |
|---|------------------------------|------------------------------------|
| (١) الآية ٢ من سورة النجم .   | (٤) الآية ٥ من سورة النجم .  | (٧) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .   |
| (٢) الآية ٣ من سورة النجم .   | (٥) الآية ١١ من سورة النجم . | (٨) الآية ٤ من سورة القلم .        |
| (٣) الآية ٤ من سورة النجم .   | (٦) الآية ١٧ من سورة النجم . | (٩) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) . |
| (١٠) أخرجه الترمذى فى الحدود (٢٤) . وابن ماجه فى الحدود (١٢) . وأبو داود فى الحدود (٢٨) . والإمام أحمد فى (٢٦٩:١) . |                              |                                    |
| (١١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣١٧، ٣٠٩:١) .  |                              |                                    |

للمعتبرين ، ويعذب تعذيباً يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، أن يصلي من العقوبة بما يكون في الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم .

وقد شدد الإسلام في عقوبة هذه الجريمة لآثارها السيئة وأضرارها في الفرد والجماعة .. ومع إجماع العلماء على حرمة هذه الجريمة ، وعلى وجوب أخذ مقتريها بالشدة إلا أنهم اختلفوا في تقدير العقوبة المقررة لها إلى مذاهب ثلاثة :

- ١ - مذهب القائلين بالقتل مطلقاً .
- ٢ - ومذهب القائلين بأن حده حد الزاني : فيجلد البكر ويرجم المحسن .
- ٣ - ومذهب القائلين بالتعزير .

### المذهب الأول :

يرى أصحاب الرسول ﷺ ، والناصر، والقاسم بن إبراهيم والشافعي في قول : أن حده القتل ولو كان بكراً سواء كان فاعلاً أو مفعولاً به . واستدلوا بما يأتي :

١ - عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

٢ - وعن علي ( أنه رجم من عمل هذا العمل ) . أخرجه البيهقي .

قال الشافعي : وبهذا نأخذ برجم من يعمل هذا العمل محصناً كان أو غير محسن .

٣ - وعن أبي بكر : أنه جمع الناس في حق رجل ينكح كما ينكح النساء . فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك فكان من أشدهم يومئذ قولاً علي بن أبي طالب عليه السلام حيث قال : « هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم ، إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار » .. أخرجه البيهقي .

### المذهب الثاني :

ذهب سعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبي رباح ، والحسن وقتادة والنخعي ، والثوري والأوزاعي ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعي في قول إلى أن حده حد الزاني ، فيجلد البكر ويُعْرَب ، ويرجم المحسن .

واستدلوا بما يأتي :

١ - أن هذا الفعل نوع من أنواع الزنا ، لأنه إيلاج فرج في فرج ، فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة في الزاني المحسن والبكر ، ويؤيد هذا حديث رسول الله ﷺ : « إذا أتى

الرجل الرجل فهما زانيان » .

٢ - أنه على فرض عدم شمول الأدلة الواردة في عقوبة الزنا لهما ، فهما لاحقان بالزاني بطريق القياس .

### المذهب الثالث :

ذهب أبو حنيفة ، والمؤيد بالله ، والمرضى والشافعي في قول إلى تعذير مرتكب هذه الفاحشة ، لأن الفعل ليس بزنا فلا يأخذ حكمه .. وقد رجح الشوكاني مذهب القائلين بالقتل ، وضعف المذهب الأخير لمخالفته للأدلة ، وناقش المذهب الثاني فقال : « إن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها لمرتكب جريمة قوم لوط ، ومبטلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول لأنه يصير فاسد الاعتبار ، كما تقرر في الأصول » .

### مبحث علمي في أضرار الشذوذ الجنسي :

نقل ذلك البحث ملخصا من كتاب ( القرآن والطب ) للدكتور محمد وصفي حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلي :

### الرغبة عن المرأة :

من شأن اللواط أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج ، وهي إيجاد النسل .. ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن ولا بالمودة ولا بالرحمة التي هي دستور الحياة الزوجية ، فتقضي حياتها معذبة معلقة ، لا هي متزوجة ولا مطلقة .

### التأثير في الأعصاب :

وإن هذه العادة تغزو النفس ، وتؤثر في الأعصاب تأثيرا خاصا : أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسي في خلق الفرد ، فيشعر في صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلا ، وينقلب الشعور إلى شذوذ ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسا غريبا فيشعر بميل إلى بنى جنسه ، وتتجه أفكاره الحبيثة إلى أعضائهم التناسلية .

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسي ، بل هناك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية في الشخص كذلك ، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة ، وعلل نفسية شائنة ، تفقده لذة الحياة ، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة ، فتحيى فيه لوثات وراثية خاصة ، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة ، وتدعو إلى تسلطها عليه . ومثل هذه الآفات العصبية النفسية ، الأمراض السادية ، والماسوشية ، والفيتشزم ، وغيرها .

## التأثير على المخ :

واللواط بجانب ذلك يسبب اختلالاً كبيراً في توازن عقل المرء ، وأرتباكاً عاماً في تفكيره ، وركوداً غريباً في تصوراتهِ ، وبلاهة واضحة في عقله ، وضعفاً شديداً في إرادته . وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التي تفرزها الغدة الدرقية ، والغدد فوق الكلى ، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثراً مباشراً ، فيضطرب عملها وتختل وظائفها . وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين ( النور ستايتا ) واللواط ، وأرتباطاً غريباً بينهما . فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياح العقل والرشاد .

**السويداء :**

واللواط إما أن يكون سبباً في ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملاً قوياً على إظهاره وبعنه . ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفي لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

**عدم كفاية اللواط :**

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبى ، شديدة الوطأة على الجهاز العضلى ، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التي تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ، ثم قارنا ذلك بما يحدث في اللواط وجدنا الفرق بعيداً والبون بين الحالتين شاسعاً ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للموضع الشاذ .

## ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه :

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سبباً في تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقين دائمي التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

## علاقة اللواط بالأخلاق :

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئ الخلق فاسدى الطباع ، لا يكادون . يميزون بين الفضائل والردائل . ضعيفى الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم ، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسى عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجروء على ارتكاب الجرائم التي نسمع عنها كثيراً ونطالع أخبارها في الجرائد السيارة وفي غيرها . ونجد تفاصيل حوادثها في المحاكم وفي كتب الطب .

اللوواط وعلاقته بالمصحة العامة :

واللوواط فوق ما ذكرت يصيب مقتفيه بضيق الصدر ، ويرزؤهم بخفقان القلب ، ويتركهم بحال من الضعف العام ، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب .

**التأثير على أعضاء التناسل :**

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم ، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه . ويؤثر على تركيب مواد المنى ثم ينتهي الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

**التيفود والدوسنطاريا :**

ونستطيع أن نقول : إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدوسنطاريا ، وغيرهما من الأمراض الخبيثة التي تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم ، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

**أمراض الزنا :**

ولا يخفى أن الأمراض التي تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريقة اللواط ، وتصيب أصحابه ، فتفتك بهم فتكا ذريعاً . فتبلى أجسامهم ، وتحصد أرواحهم .

مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامي في تحريم اللواط وتظهر دقة أحكامه في التنكيل بمقترفيه ، والأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

## بماذا أجاب القوم

لقد كان الجواب يدعو إلى الأسى ، وما كان ينبغي منهم أن يقابلوا النصيحة بالإعراض والدعوة إلى النجاة بالفظافة والغلظة .

إنه الباطل إذا أفلس يخلق ، ويدعى ، ويعريد ، ولا أساس له من الحق ، ولا نصيب له من الصدق ، قال تعالى :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

فأعجب معنى هل التطهر صار تهمة ؟ هل النقاء أضحي جريمة ؟ هل العفة أصبحت جنائية ؟ إنهم يختلفون ويهرعون بما لا يعرفون ، ومثلهم في ذلك كمثل القائل الذي يمدح قوماً ويصفهم بالشجاعة فيقول :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتائب

سبحانك ربى هل أصبح النقاء والسمو الخلقى والتحلى بالفضيلة تهماً يلام عليها صاحبها ، إذا لابد من

كلمة فصل تحكم هذا الصراع بين الحق والباطل ، بين السمو إلى علياء الطهر والارتكاس في حمأة الرذيلة ، وهل يملك كلمة الفصل إلا رافع السماء بلا عمد .

إن الباطل سيظل يعربد في عرصات الدنيا ، ولن يعربد إلا في غفلة أهل الحق ، وسيظل كذلك حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وجاءت كلمة الفصل قال تعالى ﴿ فَأَنجِيَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى من الباقين في العذاب فقد خانت الله ورسوله ، لذلك استحققت هذا الجزاء .

لقد رجحوا بالحجارة التي أشبهت المطر الغزير المדרار ، حتى جاء التعبير القرآني غاية في البلاغة عندما شبه الحجارة وكثرتها بالمطر الغزير ، قال تعالى ﴿ فَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

ولهؤلاء القوم قصة فصلها العلي الحكيم في سورة هود ، فبعد أن نزلت الملائكة بالبشرى على إبراهيم توجّهوا بعد ذلك إلى نبي الله لوط لينزلوا العذاب بالقوم ، فالملائكة رحمة بال صالحين ، كما أنهم ينزلون بالنقمة على أعداء الله الفاسقين ، ولنتنقل إلى سورة هود لنستمع إلى تفصيل هذا المشهد قال سبحانه :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعَ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ \* إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ \* يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ \* وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ \* وَجَاءَ قَوْمَهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتُ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزَوْا فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ \* قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ \* قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ \* قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ فَأَسْرَبْنَا هَكَذَا مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ \* فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ \* مَسْجُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَاهِي مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ ﴾<sup>(٢)</sup>

### شعيب عليه السلام وقومه

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْعِدُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُكُمْ



وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي  
أُرْسِلَتْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

**المفردات :** ﴿يقال بخسه حقه﴾ : أى نقصه . ﴿الإفساد﴾ : شامل لإفساد نظام  
الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل وإفساد الأخلاق والآداب بارتكاب الإثم والفواحش .  
وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ،  
والأعمال الصالحة المزكية للأتفس ، والأعمال المرقية للعمران ، المحسنة لأحوال المعيشة .  
﴿والصراط﴾ : الطريق . ﴿توعدون﴾ : تخوفون الناس . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون  
في الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعبياً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ﴿فكتركم﴾ : أى بما بارك في  
نسلكم .

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل مدين نبياً كريماً هو شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ،  
فإذا كان نبي الله لوط قد بعث إلى قوم انحرفوا بمجتمعهم إلى الخضيض ، والدرك الأسفل ، فافسدوا فطرة  
الله عندما أتوا الذكران من العالمين ، فإن نبي الله شعبياً عليه السلام قد بعث لقوم طغى عليهم المال ،  
فطففوا المكيال والميزان .

وإذا كان المال عصب الحياة ، فإن الأنبياء بعثوا ليعلموا الناس الحلال والحرام ، بعد أن يأمرهم  
بتوحيد الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالاً والحلال خير كله ، والحرام شر كله :  
﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الأبواب لعلمكم  
تفلحون﴾ <sup>(١)</sup>

والمال إذا كان من الحلال يصير نعمة ينعم الله بها على عباده ، نعم المال الصالح للعبد الصالح ، فإذا  
دخله الحرام صار نقمة على صاحبه ، فإنه لا تزول قدمك من بين يدي الله عز وجل حتى تسأل عن  
أربع : شبابك فيم أبليت ، وعمرك فيم أفنته ، ومالك من أين اكتسبته . وفيم أنفقته ، وعلمك ماذا  
صنعت فيه .

وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه هو من هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان الرسول يقول  
عنه : ( هذا خالى فليرنى امرؤ حاله ) قال سعد : يارسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة قال له :  
( ياسعد أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف باللقمة  
الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاء ، ولا يقبل منه عمل أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار  
أولى به ) <sup>(٢)</sup>

(١) الآية ١٠٠ من سورة المائدة . (٢) أخرجه البخارى فى الأذان (٩٥) . ومسلم فى المساقاة (١٣٨) . والدارمى فى الرقاق (٦٠) .

وقد كانت الزوجات الصالحات يقلن لأزواجهن كلمة ليت نساءنا يعرفنها ، كانت المرأة تقول لزوجها سعيًا وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا، ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع في الدنيا ، ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

يا خادِم الجسم كم تشقى لخدمته      أتطلب الريح مما فيه خسران  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها      فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان  
وامدد يديك بحبل الله معتصما      فإنه الركن إن خانتك أركان

ليست السعادة في الانتشاء بالكثوس المترعة ، أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، أو كثر المال ، إنما السعادة في غنى النفس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

سمع أحد الصالحين في مجلسه رجلا يقول : اللهم ارض عني . ف قيل له : لو رضيت عن الله لرضي عنك . قال : فيكيف أَرْضِي عن الله ؟ قال له : يوم ترضى بالنقمة رضاك بالنعمة ، فقد رضيت عن الله .

ولست أرى السعادة جمع مال      ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً      وعند الله للأتقى يد  
وإدراك الذي يأتي قريب      ولكن الذي يمضي بعيد

لقد عرض نبي الله شعيب على قومه المنهج الرباني العظيم ، قال يا قوم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره ومن مبدأ التوحيد والعقيدة يكون المنطلق إلى التشريع والتوجيه ، فمن عبد الله وحده فقد عرفه ، ومن عرف الله فقد اتقاه ، ومن اتقى الله فقد خاف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضى بالقليل ، وأعد الزاد ليوم الرحيل .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى  
تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
وخير لباس المرء طاعة ربه  
ولا حصر في من كان الله عاصيا

يقول شعيب بعد ذلك لقومه : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم ﴾ أى لقد قامت الحجج والبراهين على صدقي وعصمتي من الكذب ، فأوفوا الكيل والميزان ، فإن للمعاملة هي الركن العظيم في الدين ، لذا قال أحدهم : إذا أثنى على الرجل جيرانه في الحضر ، ومراقبوه في السفر ، ومعاملوه في الأسواق فلا تشكوا في دينه ، وفي الإيفاء وفاء ، والوفاء فضيلة .

ثم نهاهم عن البخس فقال ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى لا تنقصوهم حقهم ، فإن البخس

ضرب من ضروب الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، فالحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم وإذا دام دمر ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد ﴾ (١) ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلئى المصير ﴾ (٢) .  
ثم ينههم عن الإفساد فى الأرض ، فيقول ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾

وهذا محور الارتكاز لكل مجتمع فالإفساد له صور كثيرة ، فالظلم إفساد ، والرشوة إفساد ، والربا وسفك الدماء وهتك الأعراض والاعتداء على الناس إفساد .

ثم يقدم النصيح فى صورة كريمة فيقول ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾  
قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إنه نداء الفطرة ومنطق الحق المبين فإذا كان الإفساد شراً كله فإن الإصلاح خير كله ، وقد جاء ذلك مفصلاً فى سورة هود قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط \* ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين \* بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٣) .

وفى سورة الشعراء يقول تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين \* إذ قال لهم شعيب ألا تتقون \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين \* أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين \* وزنوا بالقسطاس المستقيم \* ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين \* واتقوا الذى خلقكم والجليلة الأولين ﴾ (٤)

وفى سورة الأعراف ينههم شعيب عن قطع الطريق على الناس ، فإن للطريق حقاً ، بينه السيد الجليل محمد ﷺ فى قوله : ﴿ فإن أيتم إلا الجلوس فى الطرقات فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق يا رسول الله ؟ قال كف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغض البصر ﴾ (٥)  
يقول لهم شعيب ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٣) الآيات ٨٤-٨٦ من سورة هود .

(٤) الآيات ١٧٦-١٨٤ من سورة الشعراء .

(٥) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٢) . ومسلم فى اللباس (١١٤) وفى السلام (٣٠٢) . وإمام أحمد فى (٤٧، ٣٦: ٣) .

أى تخوفون الناس وتهددونهم ، ﴿ تصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ﴾ أى تريدون الدعوة إلى الله معوجة بعد استقامتها ، بصد الناس عنها وتهديدهم وتخويفهم منها .

ثم يذكرهم بنعم الله عليهم فيقول ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾ والكثرة فيها قوة ، وهى نعمة ، ثم يحذرهم من عاقبة المفسدين من الأمم السابقة التى أهلكها الله فيقول ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

وفى سورة هود يقول : ﴿ ويا قوم لايجرمكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود ﴾ (١) وفى سورة الأعراف يقول لهم بعدما عانى من عنادهم وصبره على إيذائهم ﴿ وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾

حتى الأمر بالصبر لم يمتثلوا له ولم يرضوا به ، إن الرسل لما قالوا لهم ﴿ ولنصبرن على ما أذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٢) قال لهم أهل الضلال والبهتان والظلم والطغيان ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لنعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد \* واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾ (٣) .

انتهى الجزء الثامن ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء التاسع مبدوءا بقوله تعالى :

\* قَالَ أَلْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾

(١) الآيتان ٨٩، ٩٠ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢ من سورة إبراهيم .

(٣) الآيات ١٣-١٥ من سورة إبراهيم .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء التاسع

المكتبة المصرية الحديثة

ما زال الحديث عن قصة نبي الله شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . ونبدأ من الحديث ما كان قد انقطع بقوله تعالى :

\* قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كُنَّا لَكُمْ دِينَ ۖ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفَتُحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٨﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٨٩﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩١﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَلْقَوْمٍ لَقَدْ أَهْلَكْتُمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ فَخَسِرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَكِنَّهُمْ فِي شَأْنِهِ لَبِئْسَ الْفِتْنَى ۚ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاحْشَرُوا ﴿٩٢﴾ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

**المفردات :** ﴿الرجف﴾ : الحركة والاضطراب والمراد بها الزلزلة ومنه ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ <sup>(١)</sup> ﴿وغنى بالمكان يغنى﴾ : كرضى يرضى . إذا نزل به وأقام فيه ﴿والأسى﴾ : شدة الحزن . وكانت مدين تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا وفي رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات . ومدين تطلق على القبيلة كما تطلق على المدينة . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر . وكان يلقب بخطيب الأنبياء لفصاحته عبارته وجزالة موعظته .  
هل صبروا حتى يحكم الله ، لقد قالوا له متهمين سآخرين : ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ \* قال يا قوم رأيتم إن كنت على بينة من ربي وورزقني منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب <sup>(٢)</sup> . وقالوا له كما جاء في سورة الشعراء ﴿إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾ <sup>(٣)</sup> وفي سورة الأعراف ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ .

(٢) الآيات ٨٧-٨٨ من سورة هود .

(١) الآية ١٤ من سورة الزمل .

(٣) الآيات ١٨٥-١٨٧ من سورة الشعراء .

خبروه بين أمرين : الإخراج من القرية ، أو الدخول في ملة الكفر ﴿ قال أو لو كنا كارهين ﴾ أى أترغموننا على ذلك ولو كنا كارهين ، إن الدخول في الكفر أمر محال دونه ضرب الرقاب ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ﴾ .

أبعد النجاة وإنعام الله علينا بالتوحيد ، والتزام الصراط المستقيم ، والسير في طريق الهدى والنور ندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ هذا تفويض مطلق للمشئة العليا ، فالوجود ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته سبحانه ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، وباق بلا أمد ، علا فقهر ، وبطن فخير ، وملك فقدر . يقص الحق وهو خير الفاصلين ، أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً .

﴿ على الله توكلنا ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ أى احكم بيننا وبين هؤلاء فأنت أعدل العادلين ، وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ، لاراد لقضائك ، ولا معقب لحكمك . فهل أطاعوا وأذعنوا وانقادوا وسلموا لله الأمر ، إن ذلك كله كان صرخة في واد ، ونفخة في رماد . لقد أسمعتم لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى ونار لو نفخت بها أضاءت ولكن أنت تنفخ في رماد فأعجب معى لما قاله القوم بعد هذا النصح والترغيب والترهيب ، ونور الوعد ونيران الوعيد ، إن هؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ، اسمع ماذا كان ردهم : ﴿ وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعياً إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

ترصد وسبق لإصرار على الجناية ، وسفه وعناد وبطر للحق ، وتصميم على الباطل ، وتخريض على دعوة الله ، إذ ألقا بلع السيل الزبى ، ولم يبق في قوس الصبر منزع ، فلا بد من كلمة الفصل ، ولا يملك كلمة الفصل إلا الحكم العدل : ﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ رجعت الأرض رجاً ، لأنهم أرجفوا المؤمنين وهددوهم ، وأوعدوهم ، فلا بد أن يكون الجزاء من جنس العمل لقد أصبحوا في دارهم أجساداً هامدة ﴿ الذين كذبوا شعياً كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى كأنهم لم يكونوا مقيمين في تلك الديار ، ليس الذين اتبعوه من الخاسرين ، بل هم المفلحون الفائزون المؤمنون المتقون : ﴿ الذين كذبوا شعياً كانوا هم الخاسرين ﴾ .

وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه ، بعذاب في الدنيا والآخرة ، وكانت نهاية المأساة أن يقول شعيب وقد أصبحت ديارهم خاوية على عروشها ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

كلمة تسيل لها النفس مرارة ، وتفتت لها الكبد حسرة ولقد قالها الرسول ﷺ لصناديد قريش ،

وجبايرة المشركين بعد أن وضعت أجسادهم في القلب بعد بدر ، قال لهم : « لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ » بئس عشيرة النبي أنتم كنتم لبيكم » قالوا : يا رسول الله أتخاطب قوماً قد جيفوا . قال : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إنهم يسمعون ، ولكنهم لا يتكلمون » .

وفي سورة هود يقول تعالى في شأن أهل مدين : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ (١) .

كانت الرجفة من الأرض ، فأتبعها الصيحة من السماء .

وفي سورة الشعراء يقول الله في حق مدين ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب عظيم \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٢) .

وذلك لأنهم كذبوه ، وطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفاً من السماء ، فأرسل الله إليهم سحابة دكناء استظلوا بها من وهج الشمس ، وهي تضرب وجه الأرض بسياتها الحامية ، وقد سال فيها لعاب كاللؤلؤ يشوى الوجوه . فإذا السحابة لا ظل فيها ، لقد أمطرتهم ناراً ﴿ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ فأعجب معي لرجفة وصيحة وعذاب يوم عظيم . فاللهم اهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقفنا واصرف عنا شر ما قضيت ، إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك .

### دروس وعبر

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿١٩٩﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٠﴾

المفردات : ﴿ القرية ﴾ : المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها ( العاصمة ) ﴿ البأساء ﴾ : الشدة والمشقة كالحرب والجذب وشدة الفقر ﴿ الضراء ﴾ : ما يضر الإنسان في بدنه أو نفسه أو معيشته ﴿ والأخذ بها ﴾ : جعلها عقاباً لهم . ﴿ التضرع ﴾ : إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع ﴿ عَفَوْا ﴾ : كثروا ونموا . ﴿ من قولك ﴾ : عفا النبات والشجر إذا كثر . ﴿ بغتة ﴾ : فجأة .

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ، وبين ما في قصصهم من العظة والعبرة ، فقد كانت العاقبة في كل حال للمتقين ، والدائرة تدور على المبطلين .



أشار هنا إلى سنة الله في الأمم التي تكذب رسلها ، أن ينزل بها اكبؤس وشظف العيش وسوء الحال في دنياهم ، ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم ، والتوبة من تكذيب أنبيائهم ، وفي هذا من التحذير لقريش ، والتخويف لهم ، مالا يخفى ، ثم ذكر أنه بدل الرخاء بالبؤس ، ليعتبروا ويشكروا لكنهم لم يفعلوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ﴾

أى إن سئتنا قد جرت ولا مبدل لها ، أننا إذا أرسلنا نبيا في قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب ، لنعدهم ونؤهلهم للتضرع والإخلاص في دعائنا . بكشفها ، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربي الناس ، وتصلح فساد أحوالهم ، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدائها ، وتنبه الشدائد والأحوال إلى وجود الرب الخالق المدير لأموال الخلق ، وتذكره الأحوال بمصدر هذا النظام في الكون .

﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيه من البلاء والحنة ، الرخاء والسعة .

﴿ حتى عفوا ﴾ أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سببا في كثرة النسل ، وبه تتم النعمة في الدنيا على الموسرين ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التي بطروا بها ، وذكرهم هود بها في قوله ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾<sup>(١)</sup>.

وكذا ما قاله صالح لقومه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقالوا ﴿ قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى قالوا قولا يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا : قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم ، فيصينا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلب ، وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكتسب .

وخلاصة هذا - أنهم لم يفهموا السنن التي وضعها المولى سبحانه في أسباب السعادة والشقاء في البشر ، والتي أرشد إليها قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾<sup>(٣)</sup>.

ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا ونأوا ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التي وضعها في شئون الاجتماع ، فلا هم اهتموا إليها بعقولهم ، ولا هم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٧٤ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴿١٠﴾  
 فالكافرون إذا مسهم الشر يفسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا وبغوا في الأرض  
 وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصائب تربية لهم وتمحيصا .  
 ولما ترك المسلمون هدى القرآن في حكوماتهم ومصالحهم العامة ، في أعمال الأفراد ، سلبهم الله ما  
 أعطاهم من أنواع العلم والحكمة ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، فاتبعوا أهل  
 الكتاب في خرافاتهم وضلالهم وتقليد آبائهم وأجدادهم ، وطلب النفع والضر من دجالي الأحياء ، وقبور  
 الأموات ، فغشيهم الجهل ، والناطقة منهم قلدوا الإفرنج في الفسق والفجور ، وشرما وصلوا إليه في طور  
 فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لا يوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .  
 وهكذا ضلت الفتان عن هدى القرآن ، وأضاعتا ما بقى من ملك الإسلام .

### توجيه وتحذير

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ  
 نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ  
 فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن  
 لَّوْ شَاءَ أَصْبَحَتْهُم بُدُنُورِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

**المفردات :** ﴿بركات السماء﴾ : تشمل معارف الوحي العقلية ، ونفحات الإلهام الربانية ،  
 والمطر ونحوه ، مما يوجب الخصب والخير في الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ،  
 و﴿البأس﴾ : العذاب و﴿بياتا﴾ : أى وقت ييات وهو الليل ، و﴿الضحى﴾ : انبساط الشمس  
 وامتداد النهار ويسمى به الوقت و﴿يلعبون﴾ : أى يلهون من فرط غفلتهم ، ﴿المكر﴾ : التدبير  
 الخفى الذى يفضى بالمكوره إلى مالا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له: أى دل عليه وبينه له .  
 بعد أن بين عز اسمه أخذه أهل القرى الذين كذبوا رسلهم ، وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم  
 وظلموا الناس بما فتنوا فيه من أفانين الشرك والمعاصى ، كما حكى الله في محاورتهم لرسلهم وإجابة الرسل  
 لهم بما سلف ذكره .

ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم ، لو آمنوا بالرسول ،

واهتدوا بهديهم ، واعتبروا بسنة الله في الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى في الأمم واحدة ، لا تبدل فيها ولا تحويل .

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ .

أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى ، آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلم من عبادته تعالى وحده ، واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد في الأرض ، لم يعهدوها من قبل ، فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التى عهدوا فى صفاتها و نوائها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزل عليهم الأمطار النافعة التى تخصب الأرض ، وتكسب البلاد رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل .

والخلاصة - أنهم لو آمنوا لو سعنا عليهم الخير من كل جانب ، ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التى أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ، ودين الحق ، سبب فى سعادة الدنيا ، ويشارك المؤمنين فى المادى منها الكفار كما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختباراً لحالهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر ، بدلا من الشكر لمولى النعم ، فكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه ، والاعتباط بفضله ، واستعماله فى سبيل الخير دون الشر ، وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا ، وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى . وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصى بحسب السنن التى وضعها المولى فى الكون ويكون فيه العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبدل فيها ولا تغيير .

ثم عجب من حالهم وذكر من غفلتهم فقال : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون ﴾ أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة ، والذين ستبلغهم ، ما نزل بمن قبلهم ، وغرهم ما هم فيه من نعمة ، فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون ؟

﴿ أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهمكون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال ، لعدم الفائدة التى تترتب عليها .

والخلاصة - أنه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات ، إما حين النوم ، وإما وقت الضحى ، إذ يكثر فيهن تشاغل الناس باللذات .

﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾ (١) أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بيانا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم بيأسنا من حيث لا يحتسبون ولا يقدرُونَ ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهل يورث الخسران ، فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ وقد كان النبي ﷺ يكثر الدعاء بقوله : « اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » (٢) ، وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونهم فيقولون : ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ (٣) .

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فالأيس من رحمة الله كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد .

﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾ (٤) .

أى أكان ما ذكر من آياتنا مجهولا لأهل القرى ، وأنه هو سنة الله ، ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيقتنا . فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم ، كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فلا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (٥) إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلهم من ﴿ الأخسرين أعمالاً ﴾ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴿ (٦) .

وقد كان فى مثل هذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة ، فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ، ويبين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب الأفراد ، وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، فكان عليهم أن يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التى هلك بها من قبلهم ، وزالت بهم الدولة لأعدائهم ، ولكنهم قصروا فى وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها ، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبي ﷺ : « شيتنى هود وأخواتها » (٧) وقوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين \* أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ (٨) .

(١) أخرجه الترمذى فى القد (٧) وفى الدعوات (١٢٤، ٨٩) . وابن ماجه فى الدعاء (٢) . والإمام أحمد فى (٤١٨، ١٨٢؛ ٤) وفى

(٤) الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف . (٤١٨، ١٨٢؛ ٤) وفى

(٢) الآية ٨ من سورة آل عمران . (٥) أخرجه الترمذى فى ( تفسير سورة ٦٠: ٥٦ ) .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يونس . (٦) الآيات ٦٨ ، ٦٩ من سورة المؤمنون .

## عبرة وعظة

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا  
كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ  
وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

**المفردات :** ﴿العهد﴾ : الوصية والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها وأخرى يراد بها ما يوصى به ويقال عهدت إليه أى وصيته بفعله أو حفظه وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشيء أو تلزم بشيء: ﴿الميثاق﴾ : هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد . قال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وألفه رسله وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها أ. هـ ﴿والفسوق﴾ : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ووجدنا الأولى بمعنى : ألفينا والثانية بمعنى : علمنا .

هذا خطاب وجهه إلى النبى ﷺ تسلياً وتثبيتاً له على الصبر على دعوته ، بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم ، من وجوه العبر والمواعظ ، وبيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعاً بين الأمم ، بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم ، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم ، وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

﴿تلك القرى نقص عليك من أنبائها﴾ أى تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك حقيقتها ، نقص عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها ، وهى جميعاً طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل ، والمماراة فيما جاءوا به من النذر ، فحل بهم النكال بعذاب الاستئصال فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فصلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به ، وإنما كذب فرعون وملؤه فعدّوا .

﴿ولقد جاءهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾

أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التى اقترحوها

عليهم لإقامة حجتهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها ، حين بدء الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، بما شرعه ، وترك الشرك والمعاصي .

ذاك إذن شأن المكذبين عناداً أو تقليداً ، أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لا قيمة لها في نظرهم فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، وإما مقلدون يابون النظر والفهم .  
وفي معنى الآية قوله في سورة يونس ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ أى مثل ما ذكر عن عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال ، وعدم تأثير الدلائل والبيانات في عقولهم ، يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم ، وصار العناد ديدنهم ، سنة الله في أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله ، وتستحوذ أوهامه على عقولهم ، ويملاً حب الشهوات أفقدتهم ، فلا يقبلون بحثاً ، ولا فيما هم عليه نقداً ، فما مثلها إلا مثل السكة التي طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها . وإذابته ، ثم جمدت ، فلا تقبل بعد ذلك نقضا ، ولا شكلاً آخر .

وفي الآية تسليية للنبي ﷺ ، وإعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد وفساد الفطرة ، وإهمال النظر والعقل ، ولا تؤثر فيها البينات وإن وضحت ، ولا الآيات وإن اقترحت .  
وقد كانوا يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتبه الله ما اقترحوا منها ، حرصاً على إيمانهم ، حتى يبين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبلغ أمرهم في قبول دعوته ، وأنه لا أمل له فيهم بحال .

﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهداً ما يفون به ، سواء إن كان عهد الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبي ، فوق جميع القوى ، وعلى إثثار الحسن واجتناب غيره . وعلى حب الكمال وكراهة النقص . أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا معه غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم « يقول الله إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »<sup>(٢)</sup> وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »<sup>(٣)</sup>

(١) الآية ٧٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (١٦٢:٤) .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٠) . وتفسير (سورة ١٠:٣٠) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٤، ٢٣، ٢٢) . والإمام أحمد فى (٣٤٦، ٣١:٢) .

﴿ وَإِنْ جَدَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى ، وشرعى وعرفى .

فهم ناكثون غادرون للعهود مرتكبون أفانين للمعاصى وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحدا حق غيره .

### قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَظَلَمُوا بِهَا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٢٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٣٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٣١﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ ﴿١٣٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٣٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْكِينَ ﴿١٣٥﴾ قَالَ الْقَوَائِمُ فَلَمَّا الْقَوَائِمُ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٦﴾ \* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٣٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾ فَغَلَبُوا هَٰؤُلَاءِ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿١٤٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٤٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا الْمَكْرُ مَكْرُتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٤٣﴾ لَا قَطْعَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَا صَلْبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا نَبْقُمْ مِنْكُمْ إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٤٦﴾

**المفردات :** ﴿ موسى ﴾ : هو موسى بن عمران ( بكسر العين ) وأهل الكتاب يقولون : ( عَمْرَام ) بفتح أوله وإنما سمي موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر فالماء بالقبطية ( مو ) والشجر ( سى ) وذلك أن أمه وضعتَه بعد ولادته في تابوت . ( صندوق ) وأقفلته إقفالا محكما وألقته في ( نهر النيل ) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم . ﴿ وفرعون ﴾ : لقب للملوك مصر كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس . والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصري القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح وكان يلقب بسليل الإله ( رع ) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى يدار الآثار المصرية الآية الكريمة ﴿ فاليوم بسليل الإله ﴾

ننجيك بيدك لتكون لمن خلقت آية ﴿<sup>(١)</sup>﴾ و ﴿ الملائ ﴾ : أشراف القوم وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا و ﴿ حقيق ﴾ : أى جدير وخلق به . يقولون أنت حقيق بكذا كما يقول : أنت جدير به وخلق به ﴿ والنزع ﴾ : إخراج الشيء من مكانه وتأمرون : أى تشيرون فى أمره . يقولون : مرنى بكذا على معنى : أشر على وأدل برأيتك . ﴿ وأرجئ ﴾ : أى أرجئ أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى و ﴿ فى المدائن ﴾ : أى مدائن ملكك و ﴿ حاشرين ﴾ : أى جامعين سائقين السحرة منها ﴿ عليم ﴾ : أى بفنون السحر ماهو فيها . ﴿ لقف الشيء وتلقفه ﴾ : تناوله بحذق وسرعة ﴿ والمأفوك ﴾ : المصروف عن وجهه الذى يحق ان يكون عليه ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهايها مؤتفكة كما قال : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ وقال : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل . وعن الصدق فى المقال إلى الكذب وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون وانقلبوا عادوا . وصاغرين أى أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجداً لأن الحق يهرهم واضطرهم إلى السجود . ﴿ المكر ﴾ : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة . وهو نوعان محمود ويراد به الخير ومذموم يقصدون به الشر . وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس . والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع فى تعليق الشخص بنحو حبل فى عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم ونقمت الشيء : إذا انكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ و ﴿ أفرغ علينا ﴾ : أى أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب ..

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة ، وفيها من الإيضاح والتفصيل ما لم يذكر فى غيرها ، لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أفحش .

(٥) الآية ٨ من سورة البروج .

(٣) - الآية ٣٠ من سورة التوبة .

(١) الآية ٩٢ من سورة يونس .

(٤) الآية ٧٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٩ من سورة الحاقة .



وقد ذكرت قصته في عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ، وذكر اسمه في سور كثيرة زدات على مائة وثلاثين مرة ، وسر هذا أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبي ﷺ ، إذ أنه أوتي شريعة دينية ونبوية .

وكون الله تعالى به أمة عظيمة ، ذات ملك ومدنية .

وقصة موسى دار فيها الصراع العنيف بين الحق والباطل ، بين المعجزة والسحر ، بين الإيمان والكفر ، بين كبر فرعون وتواضع موسى ، بين ادعاء الألوهية وحقيقة النبوة ، بين ما كان عليه فرعون من الزيف والطيش والحماقة والسفاهة والنزق ، وبين ما كان عليه موسى من الخلق الرفيع والحلم الجميل والتمسك بكلمة الله ، والصفح والصبر وقوة العزيمة والإصرار على الواحدية ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مثيرا ﴾ (١) .

فانظر البؤس الشاسع ، والفرق البعيد المدى ، بين منطق الحق وتهريج الباطل ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج .

ثم تأمل معي هذا الحوار الذى دار بين عدو الله فرعون ، وكليم الله موسى ، عندما عرض موسى عليه الحق لما أمره الله تعالى بقوله ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون \* قال رب إني أخاف أن يكذبون \* ويضيق صدرى ولا ينطق لسانى فأرسل إلى هارون \* ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون \* فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين \* أن أرسل معنا بنى إسرائيل \* قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين \* وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين \* قال فعلتها إذا وأنا من الضالين \* ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى حكما وجعلنى من المرسلين \* وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل \* قال فرعون وما رب العالمين \* قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين \* قال لمن حوله ألا تستمعون \* قال ربكم ورب آبائكم الأولين \* قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون \* قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون \* قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين \* قال أو لو جئتكم بشئ مبين \* قال فأت به إن كنت من الصادقين \* فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين \* ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين \* قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ (٢) .

فهذه صورة واضحة المعالم ، بينة الحقائق ، جلية في معانيها ومبانيها ومراميتها ومغازيها ، تعطيك إلى أى حد كان صلف فرعون ، وهو يتمرغ في ظلمات كبره ، بينما موسى في ثباته كأنه الجبال الشم ، وفي هدوئه كأنه الرواس الشاخات ، إن الحق هو الحق ولو تغير له أهل الأرض جميعاً ، إن الشمس في عليائها ، فهل

يستطيع أحد أن ينفخ في الشمس فيطفئها ، إنه أطهر من السحابة في سمائها ، وأنصع من ماء الغمام ، إنه القمر في نوره الوضاء ، يبدد الغياهب ، ويمحو فلول الدجى ، إنه النهار إذا تجلى ، فهل يستطيع أحد أن ينكر ضوء النهار ، إلا أن يكون قد ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة .

فرعون يسأل وفي قرارة نفسه لا يريد الوصول إلى الحق ، إنما يريد الجدل العقيم ، والهروب من مجابهة النبوة ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ ﴿ وما رب العالمين ﴾ ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ ﴿ لن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

فيرد موسى بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ أو لو جئتكم بشيء مبين ﴾

إن الحق ليهرب من مجابهة الباطل ، لأن الحق ثابت الأركان ، وطيد البنيان ، لا يؤثر فيه كر الزمان ، مهما تباعدت أيامه ، واختلفت الناس فيه من حيث المشارب والنوازع والمذاهب والملل والنحل ، لأن جوهره أصفى من الصفاء . و قد قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة . والعلم بها متحقق . كما قالوا : حقيقة الشيء ما به الشيء هو هو ، فهل يستطيع أحد أن يسلب الشيء عن ذاته .

لقد طار صواب فرعون ، وهو يرى الحقائق دامغة والبراهين ساطعة ، والحجج قاطعة ، لقد قال لهامان ﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب \* أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾ (١) .

قال تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾

إن البعوضة التى قالت للنخلة وقد سقطت عليها أيتها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك ، قالت النخلة أيتها البعوضة : والله ما شعرت بك حين سقطت علىّ فكيف وأنت راحلة عنى ، إن قافلة الحق تسير والكلاب تعوى ، فهل يضر السحاب نبج الكلاب ، ولو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء . ضاحكة السن ، بسامة الحيا .

ويزداد فرعون صلفاً وتهاً فيعلن على قومه الذين استخفهم فأطاعوه ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ (٢) قال تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ (٣)

وكان لابد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا عالم الغيب والشهادة الذى خلق السموات والأرض بالحق قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون \* وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ (٤)

(١) الآية ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ٣٩ من سورة القصص .

(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .

(٤) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة القصص .

وفي سورة النازعات يحدثنا الكتاب الكريم عن كبرياء فرعون وصلفه وطيشه ونزقه : ﴿ هل أتاك حديث موسى \* إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى \* اذهب إلى فرعون إنه طغى \* فقل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدبر يسعى فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى \* فأخذ الله نكال الآخرة والأولى \* إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (١)

ومع هذا الإجماع البالغ المقيت ، والتعصب الأعمى للباطل والجبروت ، والقسوة من فرعون يقول الله لموسى وهارون : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى \* اذهبا إلى فرعون إنه طغى \* فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٢).

قال قتادة رضى الله عنه وهو يقرأ هذه الآيات : يارب ما أحلمك وما أكرمك ، وما أعظمك ، إذا كان هذا حكمك بفرعون الذى قال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ ، فكيف يكون حكمك بعدد قال : سبحان ربى الأعلى ، وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ فكيف يكون حلمك بعدد قال : لا إله إلا الله سبحانه أنت الحليم الكريم ، الرحيم الحليم لا ينقصك سائل . ولا يشغلك شاغل .

أنت الذى تهب الكثير . وتجبر الـ قلب الكسير وتغفر الزلات  
وتقول هيل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد أيد الله تعالى موسى بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وبالآيات البينات ، بل وأجراها على يديه قبل أن يذهب إلى الطاغية العنيد ، والجبار المستكبر ، اقرأ معى هذا المشهد من سورة طه : ﴿ وهل أتاك حديث موسى \* إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني اتست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى \* إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى \* وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى \* إئننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى \* إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى \* فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى \* وما تلك بيمينك يا موسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى \* قال ألقها يا موسى \* فألقاها فإذا هى حية تسعى \* قال . خذها . ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى \* لنريك من آياتنا الكبرى \* اذهب إلى فرعون إنه طغى \* قال رب اشرح لى صدرى \* ويسر لى أمرى \* واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى \* واجعل لى وزيرا من أهلى \* هارون أخى \* اشدد به أزرى \* وأشركه فى أمرى \* كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا \* إنك كنت بنا بصيرا \* قال قد أوتيت سؤلـك يا موسى ﴾ (٣).

بهذا اليقين ومنطق الحق المبين ، انطلق موسى إلى فرعون ، وبذلك الآيات البينات والمعجزات وخوارق العادات ذهب موسى إلى رجل غره جهله ، فظن أنه المعبود ، وأنه الإله ، وأنه الرب ، فعاث فى الأرض

(١) الآيات ١٥-٢٦ من سورة النازعات . (٢) الآيات ٤٢-٤٤ من سورة طه . (٣) الآيات ٩-٣٦ من سورة طه .

فسادا ، وملاً أرجاءها ظلماً وعنادا . وغرته كبرياؤه فنادى ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾ . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين \* فلولاً ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين \* فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين \* فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين \* فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

إلى هذا الطاغية توجه موسى على بركة الله ، قال تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ .

أى بعثنا موسى بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿ إلى فرعون وملأه ﴾ ، وذلك لأن استبداد فرعون ومعه أشراف قومه صيرّه ذلك الاستبداد إلى حاكم لا يعرف رأياً إلا رأيه ، ولا يُسمع إلا لقوله ، وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾<sup>(٢)</sup> .

وأقوى شئ يدمر المجتمع الاستبداد بالرأى ، قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ . واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

ومن ثم فقد جعل الله تعالى الشورى صفة من صفات المؤمنين ، قال تعالى ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وليست الشورى فى الإسلام ترفاً عقلياً ، أو ملهاة يتلهى بها الناس ، إنما الشورى ملزمة ، وقد أمر الله تعالى رسوله بها عقب انصرافه من غزوة أحد ، وفيها من الحن ما فيها قال تعالى : ﴿ فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾<sup>(٥)</sup> . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأصحابه ذات يوم وقد قال له أحدهم : اتق الله يا عمر . فغضب بعض الجالسين كيف يقول لعمر هذا . فقال لهم عمر : « لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها » ويرحم الله صاحب العمرية إذ يقول يارافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبها رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقىها والناس بخير ما تناصحوها ، قال الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه : « الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقد كان للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز مستشار خاص قال له عمر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى ، وقل لى اتق الله يا عمر . فإنك ستموت .

(٤) الآية ٣٨ من سورة الشورى .

(٥) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(١) الآيات ٥١-٥٦ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٣٩ من سورة غافر .

(٣) الآيات ٩٨، ٩٩ من سورة هود .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول رحم الله امرأً أهدى إلى عيوى .

إن فرعون لما طغى وبغى صير شعبه كأمهلاً ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، لقد أرسل الله إليه موسى بآيات بينات ، ومعجزات واضحات ، منها اليد والعصا .

قوله تعالى ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أى كانت عاقبة أمرهم عجيبة وغريبة ، وعلى رأس المفسدين فرعون ، فالقيادة قدوة ، والسمكة تفسد من رأسها ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿ (١) .

كيف يعلو الإنسان في الأرض وأوله نطفة قدرة وآخره جيفة قدرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل في جوفه العذرة ، تنته عرقه ، وتؤذيه بقعة ، وتقتله شرقة .

وتأمل معى كيف أن الله يهمل ولا يهمل ، وكيف صبر على فرعون فلم يرسل له نبياً عندما طغى في الأرض ، بل أوحى إلى أم نبي أن ترضع وليدها ، فإذا خافت عليه فلتلقه في اليم يأخذه عدو الله وعدو لهذا النبي .

إلهنا ما أحلمك ، ما أعظمك ، ما أكرمك ، ما أصبرك . إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة أن أخذه أليم شديد ﴾ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود \* وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴿ (٢) .

نعم لا أحد أصبر من الله . وسبحان الله إذ يقول : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين \* وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون \* وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين \* وقالت لأختها قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴿ (٣) .

إن يد الله تعمل في الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها ، أو يقترح عليها ، وسبحانك ربى إذ تقول ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقلت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه

(٢) الآيات ١٠٢-١٠٤ من سورة هود .

(١) الآيات ٤-٦ من سورة القصص .

(٣) الآيات ٧-١١ من سورة القصص .

لكم وهم له ناصحون \* فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون \* ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴿١﴾

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تبتس إلا خالي البال  
ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال  
وسبحان القائل في شأن موسى : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى \* إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى \* أن  
أقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني  
ولتصنع على عيني \* إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا  
تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وقتناك فتوتا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى .  
واصطبعتك لنفسى ﴾ (٢).

قوله تعالى ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين \* حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق  
قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾

هذا إقرار صادق من نبي صادق ، من إله صادق ، فرسالة موسى ، أمر ثابت معلوم من الدين  
بالضرورة ، وقوله : ﴿ من رب العالمين ﴾ إخبار عن أن الله جل جلاله هو رب الأكوان كلها ، لا رب  
سواه وما فرعون في ملك الله الإلهاءة في شعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة ، ويوم يغتر بنفسه فما  
هو إلا بعوضة وهنائه تحاول أن تحجبنا بجناحها ضوء الشمس ، أو نور القمر .  
يامدعى الكبر إعجاباً بصورته

انظر خلاك فإن التثنية تثريب

لو فكر الناس فيما في بطونهم

ما استشعر الكبر شبان ولا شب

يا ابن التراب ومأكل التراب غدا

أقصر فإنك مأكل ومشروب

إن موسى حقيق وجدير وأهل على ألا يقول على الله إلا الحق ، فالصدق من أخص خصائص الأنبياء ،  
والكذب عليهم محال ، فإنهم يبلغون عن الله ، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .

وقد أخبر الله تعالى عن خاتمهم ﷺ بقوله ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم  
لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (٣).

(١) الآيات ١٢-١٤ من سورة القصص .

(٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة طه .

(٣) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة .

إن الله تعالى أخبر موسى عندما أرسله بقوله : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ لذلك فإن موسى قرن دعوته بالبينه ، فقال : ﴿ قد جئكم بينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ <sup>(١)</sup> وأخذ فرعون يسأل وموسى يجيب قال :

﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ قال . فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾ كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ <sup>(٢)</sup>

ماذا قال فرعون لموسى قال ﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾ فانظر إلى مدى الغلظة والفظاظة موسى يقول له حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، وهو يقول له إن كنت من الصادقين ، إنه الكبر المدمر ، والزلال العاصف ، الذى يجعل صاحبه ينسى ربه ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ ظاهر للعيان واضح وضوح الشمس ، وهى تضرب وجه الأرض بسياتها الحامية ، ﴿ ونزع يده ﴾ أى من جيبه ﴿ فإذا هى بيضاء ﴾ اللون تتلأأ وتتألق كأنها درة فى تاج الوقار أمام الناظرين .

وكان على فرعون أن يقر ويدعن ، ويخضع لله ، ولكن أهل الباطل لا يمكن أن يسلموا إلا إذا رأوا العذاب الأليم ، فيضطرون للتسليم على رغم أنوفهم تسليماً ظاهرياً حتى تخين لهم الفرصة ، قال تعالى : ﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ \* الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك بيدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ <sup>(٣)</sup>

﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ أى قال الملأ من قوم فرعون لفرعون : إن هذا لساحر عليم فقال لهم فرعون مصداقاً على كلامهم : إن هذا لساحر عليم ، كما جاء فى سورة الشعراء ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون .

ولم يكن هذا سحرا ، فإن المعجزات لاتتفق مع السحر ، فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على أيدي الأنبياء تصديقا لهم فيما جاءوا به عند التحدى ، مع جميع الخلق على أن يأتوا بمثله ، وقد تكون

(١) الآيات ٤٧، ٤٨ من سورة طه .

(٢) الآيات ٤٩-٥٥ من سورة طه .

(٣) الآيات ٩٠-٩٢ من سورة يونس .

المعجزة تركته ، كترك إحراق النار لإبراهيم ، فإنها لم تمسه بسوء مع وجود المقتضى للإحراق ، وزوال المانع ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأَخْسَرِينَ ﴿ ١١ ﴾ .

فقد نزع الله منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق .

وقد تكون المعجزة فعلية كمعجزات موسى وعيسى ، وقد تكون قولية كالقرآن الكريم : ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) أما السحر فإنه أوهام في العقل ، وتخيلات في الحس ، قال تعالى ﴿ فإذا جابههم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ قال جل شأنه : ﴿ فلما ألْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسَحَرٍ عَظِيمٍ ﴾ .

يقول الشيخ المراغى في تفسيره

### أنواع السحر ثلاثة :

١ - ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه في جباهم وعصيم .

ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء في هذا العصر السحر في أواسط إفريقيا وغيرها من البلاد التى يروج فيها السحر لأروهم العجب العجائب ، من غرائب الكهرباء وغيرها ، حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلاً عن النبوة والولاية .

٢ - الشعوذة التى ملاك أمرها خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء ، وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف في هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدينة .

٣ - ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة ، القابلة للأوهام والانفعالات ، التى يسميها علماء النفس ( بالأنفس المستيرية ) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم من يكتب الأوفاق والطلسمات للحب والبغض ، إلى نحو ذلك . ومن ذلك ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص الكتاب الكريم ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء في هذا العصر . أهـ

وأعجب معى كيف قال فرعون لمن حوله : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ ومتى كان المستبدون بالرأى يطلبون الأمر والمشورة من غيرهم ، ألم يقل فرعون ﴿ ما أرى ﴾ فلماذا لجأ إليهم الآن يطلب منهم

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

(١) الآيتان ٧٠، ٦٩ من سورة الأنبياء .



المشورة ، ولكنها عادة المستكبرين عندما تحيط بهم الشدائد ، وتحكم الجبال على رقابهم ، ترى الأسد المحصور ينقلب نعامة . وترى النمر الجصور يصير فأراً .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين \* يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ .

أى آخر النظر في أمره حتى نبارزه بعلمائنا في السحر ، فأرسل فرعون رجال شرطته في مدائن مصر ، وجاءوا برجال السحر قال تعالى في سورة الشعراء ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم \* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون \* لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (١) .

فانظر إلى تحيز الناس إلى الباطل ، وكيف تحيزوا لسحرة فرعون ولم يقولوا من باب الإنصاف لعلنا نتبع الفريق الغالب ، حتى يكونوا في حكمهم عادلين ، ولكن الناس على دين ملوكهم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

لقد اجتمعوا بفرعون في جلسة خاصة . والباطل دائماً يسعى إلى الدنيا ولا يعرف الطريق إلى الحق ، لقد كان كل هدفهم عرض الدنيا فطمأنهم سيدهم على ذلك ، وزادهم أنهم إن كسبوا المباراة فسيقربهم إليه ، ويخلع عليهم الأوسمة والنياشين والمناصب .

واجتمع الناس لميقات يوم معلوم وجاء الموعد المضروب ، وليس هناك عبارة تشرح المقام ، أفضل مما ذكره الله تعالى في قوله الكريم وقرآنه العظيم ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى \* فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى \* قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى \* فتولى فرعون فجمع كيدهم ثم أتى \* قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى \* فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى \* قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتك المثلى \* فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفافاً وقد أفلح اليوم من استعلى \* قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى \* قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى \* فأوجس في نفسه خيفة موسى \* قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى \* وألقى ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى \* فالقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى \* قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا تقطعون أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقي \* قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا \* إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقي \* إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى \* ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات

فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تركى ﴿١﴾  
وفي سورة الأعراف ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين﴾ وهذا يدل على مدى  
ثقتهم فى باطلهم ، إنهم يخبرون موسى فى الإلقاء .

﴿قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم﴾ أى أوقعوا فيهم الرهبة والفرع  
﴿وجاءوا بسحر عظيم﴾ فى نظر العيون التى شغلتها التخييلات الباطلة ، ولكن الحق أقوى وأبقى ،  
والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون﴾  
فأعجب معى لعصاً تفتح فاهها بعدما تحولت ثعبانا مبيئاً ، فهى فى منظرها ثعبان ، وفى خفتها كالحية .  
وفى هولها كأنها جان ، ابتلعت كل ما يأفكون وما يأتون به من باطل السحر .  
﴿فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون﴾ وفى كلمة ﴿وقع﴾ ما يدل على أن الحق كأن جسم  
ثقيل له وزنه وأثره ، وليس بالسفساف التافه .

﴿فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين﴾ وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى  
وهارون ﴿﴾ .

وذلك لما استقر فى قلوبهم من الحق المبين ، ولما رسخ فى قلوبهم من أن عصا موسى ليست سحراً ، إنما  
هى حقيقة واقعة ، هنالك غضب فرعون وانتفخت أوداجه ، لقد كانوا فى الصباح يقسمون بعزته  
ويقولون ﴿بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ فأمسوا بعدما ظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ، أمسوا  
يقسمون بالحق القيوم . ويقولون ﴿والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض﴾ لقد كانوا فى الصباح سحرة  
كفرة ، فأمسوا عند الله شهداء بررة .

﴿وقال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لكم مكرمته فى المدينة لتخرجوا منها أهلها  
فسوف تعلمون﴾ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴿﴾

فماذا قالوا له ؟ قالوا بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ فإن النهاية أننا إلى الله  
صائرون وكل العباد غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون  
وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

﴿وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا﴾ أى هل تكره منا وتعييب علينا إلا إيماننا بآيات  
ربنا لما جاءتنا ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾ .

## الملا قالوا لفرعون بعد ظهور الحق

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

**المفردات :** ﴿ ويذكر ﴾ : يترك ﴿ يستحي ﴾ : يقيهم أحياء .

ولما كان أمر السحرة ومن تبعهم من الناس حينما انضموا إلى موسى وآمنوا به على مشهد من الجموع المحتشدة ، لما كان هذا يقض مضاجع فرعون وملائه ، قالوا لفرعون : أنذر موسى وقومه أحراراً في الأرض ، يدعون لدينهم ، ويكثر سوادهم ، ويتركك موسى مع آلهتك فلا يعبدونك . ولا يعبدونها وفي هذا فساد للأرض ، وذهاب للملك .

قال فرعون : سنقتل أبناءهم ، ونستحي نساءهم أحياء ، فلا يكثرون كما كنا نفعل قبل ولادة موسى ، ليعلموا أنا على هذا قادرون ، وأنا فوقهم قاهرون ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ (١).

ولما سمع بنو إسرائيل ذلك خافوا ، فطمأنهم موسى وقال : ﴿ استعينوا بالله ﴾ وحده فهو المعين على الشدائد ، الدائم الباقي ، القادر على كل شيء ، واصبروا فالصبر سلاح المؤمن ، واعلموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده واعلموا أن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين ، فليس كما يظن فرعون وقومه .

ولكن هذه الوصية لم تهدئ من روعهم ، فقالوا والأسى يجز في نفوسهم : ﴿ أوذينا ﴾ من قبل مجيئك ، ومن بعد إرسالك ، فقد كنا نسام الخسف ، ونذوق المر ، ونعذب في أبداننا وتقتل أولادنا ويسوموننا سوء العذاب ، وها أنت ذا ترى اليوم ما نحن فيه ! قال موسى لهم : رجائي من الله - والله محققه إذا شاء - أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء في الأرض وسادة بعد أن كنتم عبيداً ، وسينظر كيف تعملون ؟ وسيجازيكم على عملكم إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فشر .

## جزاء العصاة في الدنيا

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣١﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ  
 الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۚ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ  
 اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ  
 لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ  
 مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٤﴾

**المفردات :** ﴿ بالسنين ﴾ : جمع سنة وهي بمعنى الحول إلا أنه أكثر استعمالها في السنة المجدية كما هنا . ﴿ الحسنة ﴾ : المراد الخصب والثماء ﴿ سيئة ﴾ : المراد بها ما يسوءهم من جذب وقحط أو ما يصيبهم في البدن أو المال ﴿ يطثيرون ﴾ : يتطايرون ويتشاءموا ، ولعل السر في إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تعقد الأمل في الخير على الطائر إذا طار يمينا وتتوقع الشر إذا كان من جهة اليسار ﴿ طائرهم ﴾ : المراد ما قضى لهم وقدر ﴿ الطوفان ﴾ : ما يطوف بالإنسان ويغشاه وغلب من طوفان الماء ﴿ الجراد ﴾ : حيوان طائر يأكل النبات ﴿ والقمل ﴾ : هو السوس الذي يظهر في القمح وقيل هو الدود الذي يأكل الزرع .

أقسم الله سبحانه وتعالى إظهاراً لكمال العناية بمضمون القسم عليه ، لما له من الأثر في تربية النفوس ، أقسم أنه أخذ آل فرعون بالقحط والجذب والسنين العجاف ، وقد شاع استعمال القرآن كلمة أخذ في العذاب والشدة ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ﴾ (١) .

ولقد أخذناهم بهذا كله لعلهم يتذكرون ويتعظون ، وذلك أن من سنته تعالى أن يرسل الزواجر من المصائب والآفات والنقص في الثمرات تنبيها لعل أصحابها ترجع وتثوب ، فإن ثابت واهتدت كان الخير وإلا فاهلاك المحتوم ، والقضاء المعلوم ، وقد كان آل فرعون من النوع الأخير ، ومثلهم كل شخص أو أمة لم تنبّه للزواجر ، ولم تتعظ بالحوادث في كل زمان إلى يوم القيامة . فإذا جاءت أمة فرعون الحسنة من الخير والثماء ، والزيادة في الثمرات قالوا إنما أوتينا هذا على علم ومعرفة ، وهذا لنا نستحقه بعملنا ، وإن أصابتهم سيئة الجذب وقلة الثمرة وهلاك الزرع تشاءموا واطثيروا بموسى ومن معه .

يا سبحان الله ! أهكذا يكون ضيق العقل وفساد الرأي وعدم التوفيق ؟ فهم يقولون عند حلول المصائب بهم ما هذا إلا بشؤم موسى وقومه ، وغفلوا عن سيئات أعمالهم ، وشرور أنفسهم ﴿ إن تصيبهم ﴾

حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ﴿١٣٨﴾ .

ألا إن كل ما يصبهم من خير . وشر فهو بقضاء الله وقدره ، والله قد قضى أن يكون الخير ابتلاءً أيشكر صاحبه أم يكفر ؟ وقضى أن يكون الشر ابتلاءً كذلك هل يرجع صاحبه عن الغي والفساد أم يظل سادراً في الطغيان والضلال !!؟

والله قد قضى كذلك أن تكون أعمال العباد سبباً فيما ينزل بهم من خير وشر غالباً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة الإلهية في تصريح الكون ، ولا يعلمون كيف ربطت الأسباب بمسبباتها ، ولا أن كل شيء عنده بمقدار فليس هناك شيء بشؤم موسى أو غيره إلا إنما طائروهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ومع ذلك كله فقد قالوا مهما تأتينا به من آية تستدل بها على صدقك ، وأنت بحق في دعوتك ، وسموا ما يأتي به موسى آية ، كما يقول فقط لا عن اعتقاد : مهما تأتينا به من الآيات لتسحرنا بها وتصرفنا عما نحن فيه بلطف ورقة فما نحن لك بمصدقين أبداً ، ولا متبعين رسالتك هذا ما كان منهم أما جزاؤهم عليه .

فقد أرسل الله عليهم الطوفان والسيل فأغرقهم ، وأتلف زراعتهم كما ورد في التوراة وأرسل عليهم الجراد الذي يأكل ما اخضر من ثمارهم وزرعهم ، وأرسل عليهم القمل وهي صغار الذر ( كالدودة ) التي تأتى عندنا اليوم فتأكل البرسيم وباقي الزروع في لحظة ، وأرسل عليهم الضفادع وجعل ماءهم كالدم .

كل ذلك آيات مفصلات واضحات ، لا تخفى على عاقل أنها من عند الله وأنها عبرة ونقمة لهم ، وهذه آيات دالة على صدق موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل ، وهذا معنى آيات مفصلات .

أما هم فاستكبروا وعاندوا ولم يعتبروا بعد هذا كله ، وكانوا قوماً مجرمين .

وهذه الآيات تشير أولاً إلى ربط الأسباب بالمسببات على حسب مشيئته تعالى وثانياً إلى أن الآفات التي تصيب الزرع فتهلكه والثمر فتنتقصه هذا كله بسبب أعمال الناس فمن أعمالنا سلط علينا ، وما الآفات التي يرسلها الله كل عام علينا بعبادة وحذار أن تقولوا نحن لا نستحق هذا ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وفقنا الله للخير .

### عاقبة الكفر وخلف الوعد

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ

بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

**المفردات :** ﴿الرجز﴾ : العذاب الشديد الذى يضطرب له الناس ﴿ينكثون﴾ : ينقضون  
العهد والنكث فى الأصل نقض الغزل ثم استعمل نقض العهد ﴿اليَمِّ﴾ : البحر سمي بذلك لأنه مقصود  
والتيمة القصد .

ولما وقع عليهم ذلك العذاب الشديد الشامل لكل نقمة من النقم الخمس السابقة ، قالوا يا موسى :  
ادع لنا ربك بسبب ما عهده عندك من النبوة والرسالة ، والكرامة والمحبة ، ونحن نقسم لك لئن كشفت  
عنا ذلك الرجز لنؤمنن لك ، ولنصدقن بك وبرسالتك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد .  
فلما كشفنا عنهم العذاب ، وأزلنا عنهم هذا العقاب ، إلى أجل محدود هم بالغوه لاحالة ، فمعذبون  
فيه ، لا ينفعهم ما تقدم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلول ذلك اليوم ... إذ هم يمشون فى العذاب  
الواحد من الطوفان والجراد الخ أسبوعا ثم يسألون موسى الدعاء برفعه ، ويعدونه بالآيمان وإرسال بنى  
إسرائيل ثم ينكثون العهد وينقضونه .

ولما حان أجل المضروب انتقمنا منهم فأغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات كلها التى  
نزلت عليهم ، وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة .  
هذا لأكثرهم وبعضهم آمن وبعضهم كان يكتم إيمانه .

من نعم الله على بنى إسرائيل

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا  
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ  
وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

**المفردات :** ﴿مشارك الأرض ومغاربها﴾ : المراد جميع جهاتها ، والأرض هى أرض الشام  
ومصر . ﴿كلمة ربك﴾ : وعده لهم . ﴿دمرنا﴾ : الدمار الهلاك والخراب ﴿يعرشون﴾ :  
يينون .

وأورثنا القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا يستضعفون بقتل آبائهم ، واستحياء نسائهم ، وإسامتهم  
سوء العذاب أورث الله هؤلاء المستضعفين الأرض التى باركنا فيها بالخصيب والثماء ، وكثرة الخيرات  
والأمطار ، وأورثناهم مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر ، وتمت كلمة ربك  
الحسنى ، وتحقق وعده الأسمى . ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم

الوارثين \* وتمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿١﴾.

وتمت كلمة ربك الحسنی على بنی اسرائیل بما صبروا ، وهكذا نتيجة الصبر ، وحسن تلقى الأمر ، أما من يخلعه جزعه ويهلكه هلعه ، فتكون عاقبة أمره خسرا .

ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المباني والقصور والعمارات والدور ، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف في الجنات والبساتين ، وهكذا من يقوم وقلبه عامر بالإيمان ، وروحه مليئة باليقين والإسلام ، يقوم ضد عدو الله ولو كان فرعون مصر صاحب الحول والطول ، والجند والحشم والمال والخدم ، يقوم لله وإزالة الفساد والطغيان ، فالله معه وناصره ومؤيده

وقد كان موسى وهارون ومن معهما كذلك ﴿٢﴾ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴿٣﴾.

نعم الله على بنی اسرائیل وما قابلوها به

وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَبَطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذَا أَنْجَبْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

المفردات : ﴿ جاوزنا ﴾ : جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عداه وانتقل عنه ﴿ يعكفون ﴾ :

لكلف عكف على الشيء أقبل عليه ولازمه تعظيماً له ﴿ أصنام ﴾ : جمع صنم وهو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن أو عجوة رمزاً لشيء حقيقي أو خيالي ليعظم تعظيم العبادة والتثال لا بد أن يكون مثلاً لشيء حقيقي فإن عبد فهو صنم . ﴿ متبر ﴾ : التبار اهلاك . ﴿ باطل ﴾ : هالك وزائل لا بقاء له .

أنعم الله على بنی اسرائیل نعماً لا تحصى ، حيث نجاهم من فرعون وملئه ، وأهلك عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وجاوز بهم البحر آمين ، وأغرق فرعون وقومه ، ومع هذا لم يقابلوا النعم بما يجب من الشكر والطاعة ، بل قابلوها بالكفر والعصيان وهكذا كان اليهود قديماً وحديثاً ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ .

﴿ وجاوزنا بنی اسرائیل البحر ﴾ أى تجاوزه بعناية الله ورعايته ، حتى كان الله معهم بذاته ، فلما انتقلوا عنه ورأوا قوماً « قيل من العرب وقيل من غيرهم » عاكفين على أصنام لهم ومقبلين عليها ومعظمين لها

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ . وهذا الطلب منهم دليل على أن تقديس الأصنام وعبادة غير الله كانت متأصلة في نفوسهم ، وفيهم حنين لها ، وهذا شأن من دخل في دين الله حديثا فقد روى مثل هذا عن بعض الصحابة فرد عليهم النبي ﷺ أبلغ رد وأكدته ولقد رد موسى على من طلب منه هذا الطلب بقوله : إنكم قوم تجهلون ما يجب لله سبحانه من صفات التقديس والكمال ، وتجهلون حقيقة التوحيد الخالص له سبحانه ، وأنه ليس في حاجة إلى شفيع أو واسطة بل هو أقرب إلى عبده من جبل الوريد ، وتجهلون حقيقة الرسالة بدليل طلبكم مني هذا !! إن هؤلاء القوم العاكفين على أصنامهم مقضى على ما هم فيه بالهلاك والتبار إذ أنها لا تنفع أبداً ولا تنضر ، وباطل عملهم في الدنيا والآخرة ، وفي تعبير القرآن إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك ، وأن عملهم هذا إلى زوال وفي هذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض قل لهم يا موسى : أغير الله خالق السماوات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم إلها غيره ؟ إن هذا لشئ عجيب .

وكيف تطلبون هذا وهو فضلكم على عالمي زمانكم . واذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون ، وأنقذناكم من ذل العبودية ، ونار الاستعمار وأنهم كانوا يسومونكم العذاب السيئ : يقتلون أبناءكم الذكور ، ويتركون نساءكم أحياء ، وفي ذلك المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله ، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء واختبار من ربكم عظيم ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما حصل فيه حتى يشكروا الله سبحانه ويخصونه وحده بالعبادة والتقديس .

### نزول التوراة

\* وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِئْتٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي فَلَمَّا تَبَجَّي رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْآلِوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

المفردات : ﴿ مِيقَاتُ رَبِّهِ ﴾ : الوقت المحدد لعمل من الأعمال كمواقيت الصلاة والصوم



﴿ اخلفنى ﴾ : كن خليفتى فيهم ﴿ تجلى ربه ﴾ : انكشف وظهر نوره ﴿ دكا ﴾ : مذكوكا ﴿ صعقاً ﴾ : مصعوقاً مغشياً عليه ﴿ أفاق ﴾ : رجع كما كان ﴿ بقوة ﴾ : بعزيمة ونشاط .

من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل أنه أنزل عليهم التوراة فيها هدى ونور، وعند إنزال التوراة على نبي الله موسى واعد الله تعالى ثلاثين ليلة ، صامها موسى ثم شعر بخلوف فمه فكره أن يكلم الله برائحة فم الصائم ، فاستاك ليزيل تلك الرائحة ، فأمره الله أن يصوم عشرة عشر أخرى ، إذ إن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ﴾ وهذا ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ (١)

وقبل أن يذهب موسى إلى ميقات ربه ، أوصى أخاه هارون أن يخلفه في قومه بالخير ، وأن يكون مصلحاً بينهم ، ولا يتبع سبيل المفسدين ، وتلك وصية جاءت من باب التثبيت والتنبيه من باب ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٢) ذلك لأن هارون كان نبياً يدرك كل هذه المعاني ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ .

أى لما جاء موسى في الوقت الذى حدده الله له وكلمه الله من وراء حجاب، وسمع موسى كلام الله اشتاق لرؤيته الكريمة ، فسأل الله الرؤية فقال له الله تعالى : لن ترانى فليس هناك من يقوى على رؤيتي لعظم جلالى . روى الإمام مسلم عن النبي ﷺ « حجاب به النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

ثم أراد ربك أنه يخفف من وقع الأمر على نفس موسى ، فقال له ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ .

فقد اختار الله لموسى من مخلوقاته الشيء القوى الثابت الراسخ البادخ الشاخص ، اختار له الجبل ، أثبت الجبل عندما يتجلى الله عليه بنوره إن الجبل عندما تجلى له الله ساخ في الأرض من جلال الأنوار الإلهية ، ولما رأى موسى ذلك خر مغشياً عليه فلما أفاق قال لرب العزة : سبحانك تقدست وتنزهت ، إن أحداً من الكائنات لا يقوى على أن يصمد أمام نور جلالك وبهائك وسلطانك ، تبت إليك وأنا أول المؤمنين بذلك . وقد جاء في الحديث الصحيح ما يفيد أن موسى سيكون ممسكاً بجانب العرش يوم القيامة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ﴿ استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم : والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين . فغضب المسلم على اليهودى فلطمه ، فأتى اليهودى إلى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك فقال رسول الله ﷺ « لا تخبروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا

موسى ممسك بجانب العرش فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل» (١)

أخرجاه فى الصحيحين

### رؤية الله فى الآخرة

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، لحديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم : « ما نسا قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحب ؟ » قالوا لا . قال : « إنكم ترون ربكم كذلك » (٢) .

وفى الصحيحين عن جرير قال : ( نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا » (٣) .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » (٤) .

وفى أفراد مسلم عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة » ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ (٥) .

وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » رواه أحمد .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ إلى ربها ناظرة ﴿ (٦) وجل ثناؤه إذ يقول فى حق الكافرين ﴿ كلالهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (٧) .

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الأنبياء (٣١) وفى تفسير (سورة ٢: ٧) وفى الرقاق (٤٣) وفى التوحيد (٣١) وأخرجه مسلم فى الفضائل (١٦٠) . وأبو داود فى السنة (١٣) ، والإمام أحمد فى (٦٤: ٢) .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٨: ٤) فى الإيمان (٣٠٢) وفى الزهد (١٦) . وأبو داود فى السنة (١٩) والإمام أحمد فى (١٦: ٣) .

(٣) أخرجه البخارى فى المواقيت (٢٦، ١٦) وفى الأذان (١٢٩) وفى تفسير (سورة ٢: ٥٠) وفى الرقاق (٥٢) وفى التوحيد (٢٤) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (٣٠٢، ٣٠٠، ٢٩٩) . وأبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (٢٧، ٢٦، ١٧، ١٦: ٣) .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٤) وفى تفسير (سورة ١: ٥٥) . ومسلم فى الإيمان (٢٩٦) . والترمذى فى الجنة (٣) . وابن ماجه فى المقدمة (١٣) . والذامى فى الرقاق (١٠١) . والإمام أحمد فى (٤١٦، ٤١١: ٤) .

(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٧) . (٦) الآيتان ٢٣، ٢٢ من سورة القيامة . (٧) الآية ١٥ من سورة المطففين .

قوله تعالى ﴿ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ : هنا يخبر تعالى أنه قد اصطفى موسى واختاره للنبوّة والكلام والرسالة السماوية . لقد قال له : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال له : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال له ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال عنه : ﴿ فَرَأَاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴾ <sup>(٤)</sup> . وكلم الله موسى تكليماً <sup>(٥)</sup> ..

والمراد بالناس في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾ المراد بهم ناس زمانه إذ أن محمداً ﷺ هو المصطفى على الناس أجمعين . ولما كان موسى نبياً رسولاً وأنزل الله عليه كتاباً . فقد أمره الله أن يأخذ ما آتاه من الفضل والمنّة ويكون من الشاكرين لله على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وهذه نعمة من نعم الله تعالى على موسى وعلى بني إسرائيل فقد أنزل الله تعالى عليه الألواح وكتب فيها من المواعظ وتفصيل الأحكام ما يهدى ويرشد إلى صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وكان في ذلك تطيب لنفس موسى لما لم يُجِبْ إلى طلب الرؤيا لأنه لا طاقة له بها . ثم يأمره تعالى بعد ذلك أن يأخذ ما في الألواح بقوة وعزيمة فإن أوامر الله ونواهيه ومواعظه إنما شرعت لتُنفَّذ وتُطبق ويُعمل بها ولم تنزل ليضرب بها عرض الحائط وتوضع في المتاحف ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ <sup>(٦)</sup> . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ <sup>(٧)</sup> . ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ <sup>(٨)</sup> . وأن احكم بينهم بما أنزل الله <sup>(٩)</sup> . ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ <sup>(١٠)</sup> .

ثم أمره تعالى أن يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن ما في هذه الألواح من مواعظ وأحكام . وهذا أمر بالأخذ بالمثل العليا حتى يكون المكلف متابعاً للترقى لا مقاوماً للتدلى . ثم أخبر سبحانه بعد ذلك بأنه سيورثهم دار الفاسقين أى عاقبة الذين يُخالفون عن أمر الله والذين لا يتلقون أحكامه بالقبول والعمل ، فالخروج عن أحكام الله فسق ، وهذا إخبار فيه وعيد وتهديد وبيان لمن خالف وعصى وأتى واستكبر . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السَّوْءَى أَنْ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ . فإن لله تعالى سننا في كونه .

ومن هذه السنن ما ذكره تعالى في قوله ﴿ فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

(٩) الآية ٤٩ من سورة المائدة .

(١٠) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٥) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٦) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٧) الآية ٤٥ من سورة المائدة .

(٨) الآية ٤٧ من سورة المائدة .

(١) الآية ١٣ من سورة طه .

(٢) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٣) الآية ٤١ من سورة طه .

(٤) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب .

ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى\* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا\* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى\* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿١﴾.

ومن سننه تعالى في خلقه ما جاء في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٢﴾.

وفي قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣﴾. وفي قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ ﴿٤﴾.

### الجزاء العادل

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أُعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

**المفردات :** يتكبرون : الكبر غمط الحقوق وعدم الخضوع لها ، ويصحبه احتقار الناس غالبا . : الرشد : الرشد والرشاد الصلاح والاستقامة وضده الغي والفساد .

[ إن الله تعالى يحب ثلاثة وحبه ثلاثة أشد ، ويغض ثلاثة وبغضه ثلاثة أشد : يحب الطائعين وحبه للشباب الطائع أشد ، ويحب الكرماء وحبه للفقير الكريم أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغني المتواضع أشد . ويغض العصاة وبغضه للشيخ العاصي أشد ، ويغض البخلاء وبغضه للغني البخيل أشد ، ويغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد ] .

ولقد أوعد الإسلام المتكبرين بسوء المصير . قال تعالى : ﴿ فَبئس مثوى المتكبرين ﴾ ﴿٥﴾ وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : يا رسول الله ، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فهل هذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر غمط الناس وبطر الحق » ﴿٦﴾ .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته      انظر خلاك فإن التثني تثرير  
لو فكر الناس فيما في بطونهم      ما استشعر الكبر شبان ولا شب

(١) الآيات ١٣٣-١٣٧ من سورة طه . (٣) الآية ٩٦ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٧٢ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٨١ من سورة يونس . (٤) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٦) أخرجه أبو داود في اللباس (٢٦) . والترمذي في البر (٦٠) . والإمام أحمد في (١: ٢٣٧، ٣٨٥) .

يا ابن التراب ومأكل التراب غداً أقصر فإنك مأكل ومشروب

لقد حكم الله تعالى وحكمه العدل على المتكبرين بأنه سيصرفهم عن آياته جزاء وفاقاً ، فلا يفهمونها ولا يفقهون ما فيها ، لا يدركون الحجج القطعية ولا يفهمون البراهين الساطعة ، ولكن يُمنعون من الرؤية الصحيحة لأنهم زاغوا ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾<sup>(١)</sup>.

ومن أفعالهم أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها سواء أكانت آية في الآفاق ، أو في الأنفس ، أو متعلقة بالأحكام ، أو من دلائل التوحيد والعظمة الإلهية . قال تعالى : ﴿ إن الذين حَقَّتْ عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿<sup>(٢)</sup> . وقال جلَّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ﴾ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴿<sup>(٣)</sup> . وقال جلَّ شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾<sup>(٤)</sup>.

لقد أراهم الله آياته فصدفوا عنها وكذبوا بها ، فلما تنكبوا الجادة وحادوا عن طريق الله المستقيم صارت قلوبهم في أكنة ، وفي آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين الحق حجاب ، إن يروا سبيل الرشd لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً . لقد شاقوا الله ورسوله ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين فاستحقوا أن يُصرفوا عن آيات الله وفهمها وتدبرها ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ أم على قلوب أقفالها ﴿<sup>(٥)</sup>.

لقد استحقوا هذا الجزاء لأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، والتكذيب والغفلة معولان يدمران المجتمعات ، ويقوضان بنيان الأمم . وقد حكم الله تعالى على المكذبين بآياته ولقائه بأن أعمالهم قد حبطت فصارت هباءً منثوراً قال جلَّ شأنه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم ﴾ هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون ﴿<sup>(٦)</sup>.

إنه منطق العدالة الإلهية ، فالتكذيب بالآيات واليوم الآخر وبال وخسران مبين : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿<sup>(٧)</sup>.

إن الله تعالى كثيراً ما يذكر العباد بلقائه ، وأنه لا يد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ، وأنهم غداً بين يدي الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيُعرضون وسيُعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون ؟!

(١) الآية ٥ من سورة الصف . (٤) الآية ١٧ من سورة فصلت . (٦) الآية ١٤٧ من سورة الاعراف .

(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس . (٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة محمد . (٧) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الحج .

(٣) الآيات ٢-٥ من سورة القمر .

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ (١). ﴿ ونضع  
الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا  
حاسبين ﴾ (٢). ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ (٣)

### بنو إسرائيل والعجل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا  
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا  
قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

**المفردات :** ﴿ الحُلَى : ( بالضم والتشديد ) ﴿ واحدا حلَى ( بالفتح والتخفيف ) .  
والعجل : ولد البقرة ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشيء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف .  
﴿ والخوار : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل - وسقط في يده وأسقط في يده ( بضم أولهما على  
البناء للمفعول ) أى ندم ، وذكر اليد لأن الندم يحدث في القلب وأثره يظهر فيها بعضتها أو الضرب بها  
على أختها كما قال سبحانه في النادم ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ (٤) ولأن اليد هي الجارحة  
العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ (٥).

تأثر بنو إسرائيل بالوثنية التي كان عليها أهل مصر من عبادة عجل ( أيس ) ، لذلك لما جاوز الله بهم  
البحر ، ومروا بقوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة قال إنكم قوم  
تجهلون \* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال : ﴿ أغير الله أبغيكم إلهة وهو  
فضلكم على العالمين ﴾ .

إن بنى إسرائيل أخذهم الحنين إلى عبادة العجل وأقدامهم ما زالت مبتلة بماء البحر ، ونعمة الله عليهم  
بالنجاة ماثلة أمام أبصارهم ، إنهم عبدوا الذهب والفضة من دون الله ، وقبل رحيلهم من مصر ، قامت  
نساؤهم بجمع الحلى من نساء مصر ، فجمعوا كثيرا من الذهب والفضة على سبيل العارية ، والعارية  
مردودة ، لكنهن جمعنها والنية معقودة على أخذها وعدم ردها . وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر رجالا  
ونساء ، أخذوا حلى المصريين معهم .

(٤) الآية ٤٢ من سورة الكهف .

(٥) الآية ١٠ من سورة الحج .

(١) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .

ولما ذهب موسى لميقات ربه لينزل الله عليه التوراة ، وقال لأخيه هارون : ﴿ اخلفني في قومي وأصلح . ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾<sup>(١)</sup> اتخذ قوم موسى من بعده من حلهم عجلا جسدا له خوار ، والذي أضلهم صنع لهم هذا العجل من الخلي ، رجل منافق يسمى السامري قال تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾<sup>(٢)</sup> أى فَنَسِيَ موسى إلهه هنا فذهب يلتسمه هناك

قال تعالى : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرأ ولا نفعا ﴾<sup>(٣)</sup> ..

فماذا كانت صورة هذا العجل ؟

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في ذلك العجل : هل صار لحما ودمأ له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين والله أعلم اهـ .

ويرى الرأى الأول : قتادة والحسن البصرى في جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامري رأى جبريل حين جاوز بنى إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطئ بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها في جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة ، وصار يخور كما يخور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خواره كان بتأثير دخول الريح في جوفه وخروجها من فيه ، ذلك أنه صنع تمثال عجل مجوفا ووضع في جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح فمتى دخله الريح في جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون : بل كان ذلك الخوار تمويها وعملا منه يشبه عمل الحواة ذلك أنه جعل التمثال أجوف ، وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس . فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا في النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى في روع الناس أن هذا العجل إلههم وإله موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ﴿ ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرجعنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٨ من سورة طه .

(٤) الآيات ٩٠، ٩١ من سورة طه .

أى لما اشتد ندمهم بعد علمهم بضلالتهم لجأوا إلى الله متضرعين يسألونه الرحمة والمغفرة ، وقالوا : لعن  
لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين .

وهكذا تعددت جرائم بنى إسرائيل في جنب الله ، فبعد مجاوزتهم البحر قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها  
كما لهم آلهة ، ثم اتخذوا العجل من بعد ذلك ، إلى غير ذلك من الجرائم المشينة التى سبق ذكرها في سورة  
النساء .

### عودة موسى إلى بنى إسرائيل

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ غَضَبًا شَدِيدًا قَالَ بِسْمَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ  
رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي  
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ  
لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ  
غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا آلْسَيِّئَاتِ  
ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا بِرَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٤﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى  
الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٥﴾

**المفردات :** ﴿ أسفا ﴾ : الأسف الغضب الشديد أو الحزن ، والأسف الشديد الغضب .  
﴿ أعجلتم ﴾ : عجل عن الأمر تركه غير تام وأعجله عنه غيره حمله على تركه ناقصا . ﴿ الألواح ﴾ :  
مفردة لوح وهو ما كتب في التوراة . ﴿ غضب ﴾ : المراد ما أمروا به من قتل أنفسهم . ﴿ وذلة ﴾ :  
خروجهم من ديارهم وهوانهم على الناس . ﴿ نسختها ﴾ : ما نسخ وكتب منها . ﴿ يرهبون ﴾ : الرهبة  
الخوف الشديد .

وعاد موسى إلى قومه بعدما تلقى الألواح من ربه ، وفيها التوراة وفيها الهدى والنور ، والموعظة  
الحسنة ، وتفصيل كل شيء ، وكان الله تعالى قد أخبره بفتنة السامري لهم ، واتخاذهم العجل للعبادة ،  
فرجع إلى قومه غضبان أسفا ، شديد الغضب لله ، فما كان الأنبياء يغضبون لأنفسهم ، إنما يغضبون إذا  
انتهكت حرمة الله ، ويرحم الله صاحب الهمزية النبوية إذ يقول في حق خير البرية :

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى

وفعلت مالا تفعل الأنواء



وإذا خطبت فللمنابر هزة  
تعزو الندى وللقلوب بكاء  
وإذا رحمت فأنت أم أو أب  
هذان في الدنيا هما الرحماء  
وإذا أخذت العهد أو أعطيته  
فجميع عهدك ذمة ووفاء  
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا  
لا يستهين بعفوك الجهلاء  
وإذا غضبت فإنما هي غضبة  
للحق لا ضغن ولا شحناء

إن موسى عليه السلام لما غضب كانت غضبة لله وفي الله ، وهل الإيمان إلا الحب في الله والبغض في الله ، فمن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى الله ، فقد استكمل الإيمان .

وبين موسى سبب غضبه ، قال : ﴿ بئسما خلفتموني من بعدى ﴾ أى بئس الذى خلفتموني به بعد ما ذهبت لميقات ربي . ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ وتركتموه ناقصا غير تام ، أم استعجلتم ففعلتم ما فعلتم ﴿ أفتال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾ <sup>(١)</sup> واشتد الغضب بموسى ﴿ فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ كما جاء تفصيل ذلك في سورة طه .

﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا \* ألا تتبعن أفعصيت أمرى ﴾ قال يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولي <sup>(٢)</sup> .

وفي سورة الأعراف ﴿ قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بنى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

وإنما خاطبه باین أم ليشير في نفسه عوامل الرحمة ، وكوامن العاطفة ، ولقد كان هارون حليما رحيفا ، وكان شعب إسرائيل ملح الرقبة عنيدا ، وفي كلمات هارون عليه السلام ما يدعو إلى الشفقة عليه والرحمة به ، فقد قال : ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى فلا تشمت بنى الأعداء ﴾ وشماتة الأعداء داء عضال له تأثيره في نفوس الأحرار . ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ فإننى أبرأ إلى الله مما صنعوا ، عندئذ وعى موسى هذا الدرس من أخيه لما فيه من صدق وأمانة فتوجه إلى الله جل في علاه قائلا ﴿ رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وهذه مناجاة كريمة من نبي كريم لرب كريم ، فالمغفرة وطلب الرحمة من نعم الله تعالى على عبده ،

(١) الآية ٨٦ من سورة طه .

(٢) الآيات ٩٢-٩٤ من سورة طه .

فشعاع من رضى الله يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبه تزهق الروح ، ولو انغمست في نعيم الدنيا قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا :

بك أستجير ومن يجير سواك  
فأرحم ضعيفا يحتمى بحماك  
يارب قد أذنبت فاغفر زلتى  
أنت المجيب لكل من ناداك

قوله تعالى ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ .

أما الغضب فذلك لأن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم ليكون في ذلك القتل توبة لهم ، كما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (١) .

وأما الذلة فهوأنهم على الناس ، وهوانهم على الله بهذا العمل ، وكذلك نجزي المفترين المبتدعين في دين الله ، فشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار . قال تعالى : ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ (٢) وقال جل شأنه ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ سبحانه ما أكرمك ، ما أحلمك ، ما أحكمك ، ما أعدلك ، ما أعظمك ، ما أرحمك ، تبسط يدك بالليل ليتوب مسيء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسيء الليل ، وتنادى هل من تائب فأتوب عليه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له . أنت القائل في كتابك ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ (٤) وأنت القائل ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً . يريد الله أن يخفف عنكم . وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ (٥) وأنت القائل ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ (٦) .

وسبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٧) .

وأنت القائل : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً ﴾ (٨) .

وأنت القائل ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ (٩) .

- |                               |                                   |                                |
|-------------------------------|-----------------------------------|--------------------------------|
| (١) الآية ٥٤ من سورة البقرة . | (٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .     | (٧) الآية ٤٨ من سورة النساء .  |
| (٢) الآية ٦١ من سورة طه .     | (٥) الآيات ٢٦-٢٨ من سورة النساء . | (٨) الآية ١١٠ من سورة النساء . |
| (٣) الآية ٨١ من سورة طه .     | (٦) الآية ٣١ من سورة النساء .     | (٩) الآية ١٤٦ من سورة النساء . |

وأنت القائل ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾<sup>(١)</sup>

وأنت القائل : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾<sup>(٢)</sup>

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة  
إن كان لا يرجوك إلا محسن  
أدعوك رب كما أمرت تضرعا  
مالى إليك وسيلة إلا الرضا  
فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
فبمن يلوذ ويستجير الآثم  
فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم  
وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم  
يرهون ﴾ .

وسكوت الغضب سكونه ، وهدوء النفس ، أخذ موسى الألواح بعد أن سكن غضبه ، وفيها قد  
كتب من الأحكام والمواظم ما فيه هدى ورحمة ، هدى من الضلالة إلى طريق الله ، ورحمة بالعباد إن هم  
سلكوا طريق ربهم ، وعملوا بما أنزل عليهم ، وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا الذين يخافون الله ، ويخضعون  
له ﴿ والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٣)</sup>  
وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن  
القلوب ﴾<sup>(٤)</sup>

يارب حبك فى دمي وكيانى  
نور أغر يذوب فى وجدانى  
أنا لا أضام وفى رضائك عصمتى  
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قال قتادة : فى قوله تعالى ﴿ أخذ الألواح ﴾ قال : رب إنى أجد فى الألواح خير أمة أخرجت  
للناس ، يأمرهم بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى  
أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون - أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة - رب  
اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها  
وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من  
الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم . قال : رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد  
فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر . ويقااتلون فصول الضلالة حتى يقااتلوا الأعور

(٣) الآية ٢ من سورة الأنفال .

(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

(١) الآية ٤٩ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

الكذاب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها في بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم . قال : رب فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائه . رب اجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتي . قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى قال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

### موسى أثناء المناجاة وأحكام أخرى

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّيَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ \* وَاصْكُتْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ الرجفة ﴾ : الضاعقة التي تزلزل القلوب والأبدان . ﴿ حسنة ﴾ : المراد صحة وعافية وغنى عن الناس واستقلالاً في الدولة . ﴿ هُذْنَا ﴾ : رجعنا وتبنا . ﴿ الأمي ﴾ : الذي لا

يقرأ ولا يكتب ﴿إِصْرَهُمْ﴾ : الإِصر الثقل الذى يأُصر صاحبه أى يجبسه عن الحركة لثقله .  
﴿الأَغْلال﴾ : جمع غل وهو الحديد الذى يجمع بين يد الأسير وعنقه والمراد التكاليف الشاقة .

ذكر المفسرون أن الله قد أوحى إلى موسى أن يختار سبعين رجلاً من بنى إسرائيل ويصطفهم ، ويأتى بهم إليه ، وقد اختلفوا هل كان هذا عقب عبادتهم العجل ليتوبوا ؟ أو كان هذا عند طلب موسى للرؤية .  
فاختار موسى سبعين رجلاً لميقاتنا ، وأمرهم أن يصوموا ، وأن يتطهروا ثم خرج بهم إلى طور سيناء ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغطى الجبل كله ، وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا ساجدين ، وسمعوا المولى جل شأنه وهو يكلم موسى بأمره ونهيه . افعل ولا تفعل ثم انكشف الغمام :

فأقبلوا على موسى وطلبوا منه الرؤية ، قيل لم يصدقوا أن الذى أمرهم بقتل أنفسهم هو الله حتى يروه ، فوعظهم موسى وزجرهم فقالوا : يا موسى لن تؤمن حتى نرى الله جهرة . فقال ﴿رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى﴾ .

وبعض العلماء يقول : طلب موسى الرؤية مع علمه بعدم إمكانه ليسمعوا الرد عليه ، فيكون هذا أبلغ من الرد عليهم ، ولذا أجيب بلن ترانى .

ورجف بهم الجبل ، وصعقوا حينما ألحوا فى طلب الرؤية ، لما أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل﴾ هذا حينما عبدوا العجل ، وقيل حين طلب الرؤية ، وأهلكتنى معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت .

قال موسى : ﴿أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ حيث طلبوا الرؤية لك جهاراً قياساً . منهم على سماع كلامك ، وهو قياس فاسد ، وقيل ما فعله السفهاء هو عبادة العجل ﴿ما هى إلا فتنتك﴾ وابتلاؤك ، حين كلمتنى فسمعوا كلامك ، وطلبوا الرؤية ، تضل بالحنة الجاهلين غير الثابتين من معرفتك ، ولست ظالماً لهم أبداً ، بل هذا موافق لطبعهم ﴿وتهدى بها من تشاء﴾ من عبادك التائبين المؤمنين ، وهذا موافق لطبعهم ، والله أعلم بعباده ، فلو تركوا وشأنهم لاختار كل منهم ما هو فيه ، وما قدر له ﴿أنت ولينا﴾ يارب ﴿فاغفر لنا وارحمنا﴾ ، واستر عيوبنا برحمتك ، يا أرحم الراحمين .

﴿وأنت خير الغافرين﴾ تغفر الذنوب ، وتغفو عن السيئات ، بلا سبب ولا علة ، لأن رحمتك وسعت كل شيء .

﴿واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة﴾ هى نعمة الصحة والعافية والرزق الحسن والتوفيق فى العمل والاستقلال فى الدولة ، واكتب لنا فى الآخرة حسنة هى نعمة الثواب الجزيل ، والعطاء الكثير . إنا هدىنا إليك ، وتبنا ، ورجعنا إلى حظيرة الإيمان بالعمل لا بالقول فقط .

قال الله : إن رحمتى سبقت غضبى ، وإن عذابى أصيب به من أشاء من عبادى المسيئين لأنفسهم بالعمل الفاسد ، وفى قراءة : إن عذابى ﴿ أصيب به من أساء ﴾ .

وأما رحمتى ونعمتى وفضلى فقد وسعت كل شئ فى الكون ، وسعت الكافر والعاصى ، والمسلم واليهودى وعابد العجل إلخ ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ <sup>(١)</sup> فسمائى تظلمهم ، وأرضى تقلهم ، وبرزقى يعيشون ، وبخيرى يتمتعون ، وأنا أدعوهم دائماً إلى الصراط المستقيم ، ومع هذا كله فبعضهم خارجون عن دينى .

فإذا كان الأمر كذلك من إصابة عذابى من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شئ ﴿ فسأكتبها ﴾ كما دعوت يا موسى أى أثبتتها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ للذين يتقون ﴾ الله فى كل شئ ، ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ وخصت بالذكر لأنه يخاطب قوماً ماديدين نفعيين مانعين للزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين ﴿ هم بآياتنا ﴾ كلها ﴿ يؤمنون ﴾ .

سأكتب رحمتى الواسعة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين هم بآياتنا كلها يؤمنون ، وهم ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ وهذه الأوصاف تنطبق على محمد المفرد العلم ، فهو رسول ونبى أمى ، وقد كان أهل الكتاب يصفون العرب بأنهم أميون ﴿ ليس علينا فى الأميين ﴾ <sup>(٢)</sup> نبيل .

وقد وصفه القرآن الكريم ووصف رسالته بأوصاف :

١ - النبى الأمى ، وفى هذا الوصف إشادة إلى كمال صدقه ، حيث أتى بالقرآن المعجز فى أخباره وقصصه وحكمه وأصوله العامة فى السياسة والاجتماع والدين ، مع أن من نزل عليه أمى بين أميين . يا سبحان الله .

٢ - وهو محمد ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فبشارته وصفته وزمانه فى التوراة والإنجيل ، وقد عرفوا ذلك كله كما يعرفون أبناءهم أو أكثر ، وآمن به بعض علمائهم الأحرار من اليهود ، كعبد الله بن سلام ، ومن النصارى كتميم الدارى رضى الله عنهم جميعاً ، وفى كتاب ( إظهار الحق ) لعالم هندى تحقيق هذا الموضوع لمن أراد الزيادة .

٣ - ٤ - أنه يأمرهم بالمعروف شرعاً ، وهو ما تعرفه العقول الرشيدة ، ولا تنكره الطباع السليمة ، وهو ينهاهم عن المنكر شرعاً وهو ما تنكره النفوس الأبية الكاملة فى العقل والسمو الروحى ، ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

٥ - يحل لهم الطيبات التي تستطيعها الأذواق السليمة من الأطعمة الحلال ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾<sup>(١)</sup>.

٦ - ويحرم عليهم الخبائث ، مما تأباه النفوس السليمة كالميتة والدم المسفوح ، ويأباه العقل الراجح كالخنزير ، خصوصاً عندما عرفنا الطب أنه يولد الدودة الوحيدة في جسم من يأكله .

٧ - وقد وضع عنهم التكاليف الشاقة التي تأمرهم وتنقل عليهم ، والأغلال التي كانت في أعناقهم ، كقتل النفس عند التوبة ، وقطع مكان النجاسة ، إلخ . فدينه اليسر . وشريعته السمحة السهلة ، والخفيفة البيضاء .

فالذين آمنوا به وبرسالته ، وحموه ونصروه ، مع الإجلال والإكبار ، واتبعوا النور الذي أنزل معه فأولئك البعيدون في درجات الكمال ، المتميزون على غيرهم هم المفلحون حقاً ، ويدخل في ذلك دخولا أولاً قوم موسى عليه السلام ، الذين ينطبق عليهم الوصف العام .

قوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت﴾ .

وهذا النص الكريم يعطى الدلالة القاطعة على عموم رسالته ﷺ ودوامها ، وأنها لاصقة لما قبلها ولا ينسخها شيء ، قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : [ وعزتي وجلالي لو سلكتوا إلى كل طريق واستفتحوا علي كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد ] .

فالإيمان به ﷺ أمر معلوم من الدين بالضرورة . لا ينكره إلا جاحد ختم على قلبه . فكان من الذين قال الله فيهم ﴿إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً﴾ أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً<sup>(٢)</sup> .

وآيات القرآن خير شاهد على عموم رسالته ، قال تعالى : ﴿وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾<sup>(٥)</sup> . وقال : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾<sup>(٦)</sup>

وروى عنه ﷺ أنه قال « أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ولا أقوله فخراً : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً »<sup>(٧)</sup> رواه أحمد بإسناد جيد .

(١) الآية ٧٥ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٩ من سورة الأنعام . (٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٣٨ من سورة سبأ . (٥) الآية الأولى من سورة الفرقان . (٦) الآية ١٥٠، ١٥١ من سورة النساء .

(٧) أخرجه البخاري في التيمم (١) وفي الصلاة (٥٦) . ومسلم في المساجد (٣) . والنسائي في الغسل (٢٦) .

وروى الإمام مسلم بإسناده عن أنى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده لا يسمع لى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن إلا بى إلا دخل النار» (١)  
الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قىلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى ﴿فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبَى الْأُمَى الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾  
إن الأمة شرف ومعجزة لرسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لا رتاب المبطلون﴾ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴿٢﴾.

أشرق النور فى العوالم لما بشرتها بأحمد الأنبياء  
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء  
وحمى الله مستباح وشرع الله والحق والصواب وراء  
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياء يهدى به من يشاء  
نسخت سنة النبيين والرسول كما ينسخ الضياء الضياء

إن الذين آمنوا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، هم الفائزون .

قال تعالى ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ (٣) .

وقوله تعالى ﴿الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾ أى أنه قد جمع بين القول والعمل ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ (٤) .

ففى اتباعه الهدى والنور ، وفى الإيمان به الحياة الكريمة الطيبة ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ (٥) .

### حديث عن بنى إسرائيل

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعَتْهُمْ اثْنَتَا عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا  
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذَا اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ  
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُّ أُنَاسٍ

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٠) .  
(٢) الآية ١٥٢ من سورة النساء .  
(٣) الآية ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت .  
(٤) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .  
(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .



طَبَّيْتِ مَا رَزَقْتِكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

**المفردات :** ﴿ قَطَعْنَاهُمْ ﴾ : أى صيرناهم قطعاً وفرقا كل فرقة منها سبط . ﴿ والسَّبْط ﴾ : ولد الولد مطلقا وقد يخص بولد البنت وأسابط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ماعدا لاوى وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرام ومنسى إذ سلائل لاوى نيظت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا (والأمة)، الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد . ﴿ والاستسقاء ﴾ : طلب الماء للسقى . والانبجاس والانفجار واحد . يقال : بجسه فانبجس وبجسه فتبجس كما يقال فجره . أى شقه فانفجر وقال الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شئ ضيق والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شئ واسع والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق . و ﴿ المن ﴾ : مادة بيضاء تنزل من السماء كالطل حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفت كانت كالصمغ . ﴿ والسلوى ﴾ : طير يشبه السمانى ( السمان ) لكنه أكبر منه . القرية : قيل طبريه والعرب تسمى المدينة قرية . ﴿ حاضرة البحر ﴾ : أى قرية منه على شاطئه ﴿ يعدون فى السبت ﴾ : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه و ﴿ حيتانهم ﴾ : سمكهم . و ﴿ يوم سبتهم ﴾ : أى تعظيمهم لل السبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة و ﴿ شرعا ﴾ : أى ظاهرة على وجه الماء ﴿ نبلوهم ﴾ : نختبرهم .

قوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

إخبار من الله جل جلاله أن من قوم موسى جماعة اتبعوا طريق الهدى والحق ، وبهذا الحق يعدلون بين الناس .

وذلك كقوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ \* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين \* وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴿ ١ ﴾

ولقوله جل شأنه ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (١) وكقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الْكِتَابِ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴿ (٢)

وكقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ (٣) وكقوله تعالى ﴿ إِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلْأُذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ ويقولون سبحان ربنا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا ﴿ (٤)

### ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾

أى فرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون ، فجعلناهم اثنتي عشرة فرقة ، تسمى أسباطاً أى أمماً وجماعات ، يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشته وبعض شقونه .

﴿ وأوحينا إلى موسى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاها قومه فاستسقى ربه لهم ، أن اضرب بعصاك الحجر ، فضربه فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام .

﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفتح الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارتها ، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

### ﴿ وأنزلنا عليهم المن والسلوى ﴾

فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه ، وكان المن يقوم مقام الخبز عندهم ، ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السمانى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

### ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾

أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم .

(٣) الآية ١٢١ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١٠٧-١٠٩ من سورة الإسراء .

(١) الآية ١٩٩ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات ٥٣-٥٥ من سورة القصص .

## ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ، وقد كان ذلك من دأبهم وعاداتهم آنأ بعد آن ، وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا [ يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ]

ولاشك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها . إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وتكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع الظالمين والجرمين ، فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم ، جهلا منهم للعواقب ، وقلة تدبر ما ينبغى أن يُتفطن له .

قوله تعالى ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين ﴾ فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ .

تقدم مثل هاتين الآيتين فى سورة البقرة ، غير أن بين الموضعين فروقا ذكرها المفسرون فيما يلى :

١ - أنه قال هنا : ﴿ اسكنوا القرية ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ ادخلوا ﴾

والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

٢ - أنه قال هنا : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ . فجاء العطف هناك بالفاء ، لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول ، كأكل الثمرات والفواكه التى تكون فى كل ناحية من القرية ، أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل فى أثناءه لا عقبه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنىء ، لأن الأكل فى أول الدخول يكون أكثر ، وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك .

٣ - أنه قال هنا : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف فى التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك ، وبين عكسه ، إذ لا فارق بين أن يدعو بقولهم . ﴿ حطة ﴾ أى حط عنا أوزارنا وخطايانا ، الذى هو بمعنى قولنا : اللهم غفرأ .

فى حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرؤوس شكراً لله على نعمه عنه دخول القرية ، وبين أن يبدعوا بتنكيس الرؤوس والخضوع والتواضع ثم يدعون بقولهم ﴿ حطة ﴾ .

٤ - أنه قال هنا : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ بدون واو ، وهناك ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ بالعطف ، والمعنى واحد ، وترك الواو أول على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركته للمغفرة فيما جعل سبباً لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .

٥ - أنه قال هاهنا : ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم﴾ مزيد منهم على مثله فى سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولاً غير الذى قيل لهم : أنهم عصوا بالقول والفعل ، وخالفوا الأمر مخالفة تامة ، لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلاً ، فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى ، والمقصود منه حتى كأن المطلوب منه غير الذى قيل لهم .

٦ - أنه قال هنا : ﴿فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون﴾ وقال هناك ﴿وأنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ فالاختلاف بين الإنزال والإرسال ، وهو خلاف لفظي ، وبين عليهم وعلى الذين ظلموا ، وبين يظلمون ويفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذى هو نقص للحق ، أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ، والرجز العذاب ، الذى تضطرب له القلوب ، أو يضطرب له الناس فى شئونهم ومعاشهم . والعبرة فى هذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا ، قبل أن يعذبها فى الآخرة ، وأن نتبعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ، لكثرة الأنبياء منهم ، وتفضيلهم على العالمين .

قوله تعالى ﴿واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾ .

هذه الآية الكريمة تفصيل لما جاء فى قوله تعالى ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ .

وهذه القرية قيل إنها طبرية ، وقيل أيلة ، والمقصود ما حدث فيها من اليهود ، وهذا سؤال موجه إليهم ، والمقصود بهم المعاصرون لرسول الله ﷺ ، أى أسأل هذه الذرية عما فعل أجدادهم فى السبت ، فقد حرم الله تعالى عليهم الصيد فيه ابتلاءً واختباراً منه ، واصطادوا وجاوزوا الحدود بعدما نهاهم الله تعالى بقوله ﴿لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً﴾ وحذر ذريتهم من الكفر بك ، حتى لا ينالهم من العذاب ما نال أجدادهم المعتدين .

وقد كان من ابتلاء الله لهم أن حيتانهم ، أى السمك كانت تأتيم ظاهرة على وجه الماء يوم السبت ، وفى غير يوم السبت لا تأتيم ، وهذا ابتلاء منه تعالى واختبار لهم ، فاحتال القوم على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام .

قال الفقيه ابن بطة : حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا تتركبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأذى الحيل » وهذا إسناد جيد .

## الإعذار إلى الله وعاقبة المخالفين

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِزِّ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَلَمَّا عَتَرَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٢﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الْمُصَلِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٣﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمَّنْ قَدْ كُتِبَ لَهُمْ أَن يَكُونُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٥﴾ \* وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَّأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾

**المفردات :** ﴿ أمة منهم ﴾ : أى جماعة منهم . ﴿ المعذرة ﴾ : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى . ﴿ نسوا ما ذكروا به ﴾ : أى تركوه ترك الناس وأعرضوا عنه إعراضاً تاماً و ﴿ السوء ﴾ : العمل الذى تسوء عاقبته . ﴿ البئيس ﴾ : الشديد البأس وهو الشدة أو من البؤس وهو الردة أو الفقر و ﴿ والعنوا ﴾ : الإباء والعصيان و ﴿ خاسئين ﴾ : أى أذلاء صاغرين . قال سيوبه : أذن : أعلم . وأذن : نادى وصاح للإعلام ومنه ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ ومثله ﴿ تأذن ربك ليعثن ﴾ ! أى ليسلطن و ﴿ يسومهم ﴾ : يذيقهم ويوليهم . ﴿ وقطعناهم ﴾ : فرقناهم ﴿ أمما ﴾ : أى جماعات . دون ذلك : أى منحطون عنهم و ﴿ ببلوناهم ﴾ : امتحناهم والحسنات النعم والسيئات : النقم و ﴿ الخلف ﴾ : ( بسكون اللام ) يستعمل فى الأشرار ( وبالتحريك ) فى الأخيار و ﴿ الكتاب ﴾ : التوراة . ﴿ والعرض ﴾ : ( بالتحريك ) متاع الدنيا وحطامها . و ﴿ الأدنى ﴾ : أى الشئ الأدنى والمراد به الدنيا ودرسوا ما

فيه ﴿ : قرعوه فهم ذاكرون له . و ﴿ يمسكون ﴾ : أى يتمسكون به ويعملون . و ﴿ نتقنا الجبل ﴾ أى رفعناه كما روى عن ابن عباس أو زلزلناه وهو مرفوع يقال نتق السقاء : إذا هزه ونفضه ليخرج منه الزبد أو اقتطعناه كما هو رأى كثير من العلماء والظلة : كل ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، ولا تستقيم حياة المجتمعات بدونه ، فالتناس بخير ما تناصحوا . قال ﷺ : « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

وعلى الناصح الأمين أن يقصد بنصحه وجه الله تعالى ، وليس عليه إدراك المقاصد . قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ (٢) . وقال جل شأنه : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾ (٣) . وقال تبارك اسمه : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ (٤) .

إن بنى إسرائيل شعب صلب الرقبة عنيد . لقد كان من بينهم جماعة تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوعظ والإرشاد ، ترغيبا وترهيبا وعدا ووعيدا ، فقالت لهم جماعة أخرى على سبيل اللوم : ﴿ لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ﴾ فقد وصفوا هؤلاء القوم بأن الله تعالى سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا .

وفي هذا الوصف دليل قاطع ، وبرهان ساطع على سوء أعمالهم ، وكثرة مخالفتهم ، وازدياد سيئاتهم ، أى أن الوعظ أصبح لا يجدى مع هؤلاء ، فقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، ولجوا في طغيانهم يعمهون ، فهم في ربهم يترددون ، أصبح المعروف فيهم منكرا ، وصار المنكر فيهم معروفا ، وأضحى الذئب فيهم راعيا ، وبات الخصم العنيد قاضيا .

فبأى شيء أجاب الواعظون على سؤال اللائمين . إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال سيد الأنام محمد ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وإلا ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »

ومن ثم فقد أجاب الواعظون : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلمهم يتقون ﴾ أى أنهم قصدوا بالوعظ هدفين نبيلين : أنهم أعذروا إلى الله أولا حتى لا يتحملوا ذنب الساكت عن الحق ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأنهم قصدوا بوعظهم أن يؤدي ذلك إلى أن يبعث الله نور الهداية في قلوبهم ، وذلك على سبيل الرجاء .

(١) سبق تخريج الحديث أكثر من مرة .

(٢) الآية ٢١ من سورة الغاشية .

(٣) الآية ٩٩ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

إن خاتم الأنبياء ﷺ بين معالم المجتمع المستقيم فقال : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها »

كما بين معالم المجتمع المعوج فقال : « وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائككم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها » <sup>(١)</sup>.

وفي القرآن الكريم آيات بينات فيها البيان الشافي والدواء الناجع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لقد بين الله لنا معالم المجتمع السعيد في قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ <sup>(٢)</sup>.

كما بين معالم المجتمع الشقي في قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرزون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ <sup>(٣)</sup>.

— لقد قام دعاة الخير بالوعظ والإرشاد فبرئت ساحتهم ، أما القوم الذين مرنوا على المخالفات فلم يقبلوا لأهل الخير وعظا ، بل استغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، فكان لا بد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا الله وحده ، فكان الجزاء العادل والحكم الفاصل : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنجيناهم الذين يهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ .

— هذه كلمة الفصل والله جل جلاله إذا حكم فلا معقب لحكمة ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . إن الناس إذا نسوا ما ذكروا به فقد أتوا بهتانا وإثما مبينا ، وجاءوا إثما وزورا . لقد أنجى الله الذين ينهون عن السوء . قال تعالى : ﴿ ثم ننجي رُسُلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال عز من قائل : ﴿ إنا لننصر رُسُلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ <sup>(٥)</sup>.

ولا بد أن يلقي الظالمون مصيرهم فالظلم لا يدوم وإذا دام دمرا ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . وقد اقتضت سنة الله في خلقه أنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

قال تعالى ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾

— وهذا منطق العدالة الإلهية . وهل يدمر الأمم إلا الظلم . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقال جلَّت حكمته : ﴿ وتلك القرى أهلكناها لما ظلموا ﴾ <sup>(٧)</sup> . وقال عز من قائل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ <sup>(٨)</sup> . وقال تبارك في علاه : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ <sup>(٩)</sup> . وقال أصدق القائلين : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية ﴾

(١) أخرجه الترمذى في الفتن (٧٨) . (٤) الآية ١٠٣ من سورة يونس . (٧) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة . (٥) الآية ٥١ من سورة غافر . (٨) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة . (٦) الآية ١٣ من سورة يونس . (٩) الآية ٥٩ من سورة القصص .

على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴿١﴾.

إن الله تعالى لما أخذ الظالمين بعذاب شديد ذكر السبب في ذلك فقال : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ . والفسق خروج على أوامر الله وتمرد على أحكامه ، وتعطيل شرعه من أشد أنواع الفسوق ، وتكذيب آياته والاستهزاء بها من أشد المخالفات . وقد بين الله تعالى بعض صور هذا العذاب الشديد الذى أخذ به الظالمين في قوله : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ .

والعتو : تمرد وطغيان ونفور وشرود عن الحق . وللمفسرين رأيان في مسخ هؤلاء قردة :

يرى البعض أنهم مسخوا خلقا وجسما فكانوا قردة حقيقيين .

ويرى الآخرون أنهم مسخوا خلقا وقلبا فكانوا في أخلاقهم وقلوبهم يحاكون القردة في الخفة والتقليد .

ومهما يكن فإن الله تعالى جعلهم خاسئين أذلاء وسيظلون أذلاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن الله تعالى قد ضرب الذلة عليهم . أينما ثقفوا وقد باءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ولم يكن ذلك ظلما ولا عدوانا لهم ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة . لذلك فقد بين الله تعالى بعد ذلك أسباب حكمه عليهم فقال : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

أى واذكر يا محمد إذ أعلم ربك هؤلاء القوم الظالمين ، ليعثن عليهم من خلقه من يذيقهم العذاب الأليم ، جزاء بغيمهم وظلمهم ، فسلب عليهم الجوس ثم نصارى الروم ، ثم أقواما آخرين مثل : ألمانيا أيام الحرب العالمية . وهذه سنة الله في خلقه ﴿ والله مافى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٢).

وتاريخ اليهود ملئ بالجرائم والقبائح فقد ملأوا طباق الأرض فسادا ، بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، فقد سألوا موسى قائلين : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ (٣) بل قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ (٤) ، وقالوا له : ﴿ اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ (٥) ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءهم من البينات ، وصدوا عن سبيل الله ، وأخذوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، وكفروا وقالوا على مريم بهتاناً عظيماً ، وقالوا كذبا وبهتاناً : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ﴾ (٦) بل لقد أساءوا الأدب حتى مع

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج . (٣) الآية ١٥٣ من سورة النساء . (٥) الآية ١٣٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم . (٤) الآية ٥٥ من سورة البقرة . (٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء .



الله جلّ في علاه لقد قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾<sup>(١)</sup> وقالوا : ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾<sup>(٣)</sup> . وقالوا : ﴿ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ ﴾<sup>(٤)</sup> وقتلوا أنبياء الله .

ولما بعث نبي الله محمد ﷺ ناصبوه العداة الشديدة ، فأقى بنو قينقاع عملا لا يأتية إلا وغد نذل جبان لئيم ، عندما كشفوا ثوب امرأة مسلمة ، فبدت سوءتها فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة .

ثم تحالف بنو قريظة مع المشركين وأتوا الخيانة العظمى يوم غزوة الأحزاب ، فحق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾<sup>(٥)</sup>

أما بنو النضير فبئس ما صنعوا : فقد تأمروا على قتل رسول الله ﷺ بأسلوب فيه مكر الثعالب وسم العقارب وفحيح الأفاعى . فكان جزاؤهم كما قال جلّ شأنه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنْنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِ الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ . وَلَوْ لَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾<sup>(٦)</sup> .

وما يوم خير ببعيد ، عندما دسّت يهودية السّم لرسول الله ﷺ في ذراع شاة إلى غير ذلك من المؤامرات التى لا تكاد تُحصى .

إنهم دأبوا على سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، ﴿ كَلِمًا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾<sup>(٧)</sup> . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾<sup>(٨)</sup> .

ذلك حكم الله على هؤلاء المارقين من شذاذ الآفاق ، وبغاة البشر ، وأولاد الأفاعى ، الذين عكفوا على حرب الإسلام والطعن في نبيه الكريم ، والكيد للمسلمين . وما جمعية « عبد الله بن سبأ » اليهودى الذى تظاهر بالإسلام منّا ببعيد ، فقد كان على رأس جمعية سرية ارتكبت من الجرائم ما يستحى الشيطان من فعله ، ويتضاءل إبليس أمامه ، لقد قامت هذه الجمعية السرية بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو يصلى الفجر ، كما قام عبد الله بن سبأ بتأليب المسلمين على عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى انتهى الأمر بقتله ، وقامت بإشعال نار العداة بين صفوف المسلمين حتى كانت موقعة الجمل وموقعة صفين .

وقاموا على امتداد التاريخ بتأليب قوى الشر على المسلمين ، حتى قامت لهم دولة فى فلسطين ، ففى

(١) الآية ١٨١ من سورة آل عمران (٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة (٧) الآية ٧٠ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة (٥) الآيتان ٢٧، ٢٦ من سورة الأحزاب (٨) الآيتان ٢٢، ٢١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٣١ من سورة التوبة (٦) الآيات ٢-٤ من سورة الحشر .

اليوم الخامس عشر من شهر مايو ارتفع على ربوع فلسطين علم أبيض ذو نجمة زرقاء مسدسة الأضلاع ، ومن يومها صارت فلسطين وطننا بلا شعب لشعب بلا وطن ، ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١).

إن واقع المسلمين تسيل له الكبد مرارة ، وينخلع له الفؤاد أسى ، وقد أصبحوا كالغنم الشريدة في الليلة الشاتية . ويوم يعودون إلى الله سيمكنهم الله من أكتاف عدوهم ، وينصرهم عليهم ، ويشفى صدور قوم مؤمنين ، إن الله عزيز لا يقهر حكيم مُنزّه عن العبث ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ (٢).

إنه سبحانه بعث على اليهود من يسومونهم سوء العذاب بمحض عدله جزاءً وفاقاً ، إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وأعرض عن ذكره ، واتبع هوى النفس ، كما أنه غفور رحيم وسعت رحمته كل شيء . وعمت مغفرته كل من تاب وصدق النية مع الله . قال تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وولاني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ :

من عقاب الله تعالى لهؤلاء القوم أنه قطعهم في الأرض فرقا ، ومزقهم فئات تفرقوا في دول الأرض : في روسيا وأمريكا ودول أوروبا ، وعلى امتداد القارات وإذا كانوا قد قامت لهم دولة في فلسطين فلن تقوم الساعة حتى نقاتلهم فيختبئ اليهودى وراء الحجر فينادى الحجر قائلاً : ﴿ يا مسلم إن ورائى يهوديا تعال فاقتله ﴾ (٤).

وذلك يوم نعود إلى المنهج الرباني ، فيكون الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا . يومها ستردد الأمة الإسلامية نشيدها المقدس : سنطبّ المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف في رحابنا ، وستتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قِيلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

يومها سيتحقق وعد الله لعباده المؤمنين : ﴿ ولننصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٥).

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة . (٣) الآيتان ٨١، ٨٢ من سورة طه .

(٤) أخرجه البخارى في المناقب (٢٥) . والإمام أحمد في (٣٧٥:١) وفي (٣١٧، ١٦٧:٢) وفي (١٦:٥) . ومسلم في الفتن (٧٩-٨٢) .

والترمذى في الفتن (٥٦) . (٥) الآيتان ٤٠، ٤١ من سورة الحج .

إن الله تعالى قد أخبر بأن النصر لمن ينصره ، فقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١)

فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو أقمنا شرعه لرُفرت راية الحبيب محمد على كل بلد ، وقد صدق الفاروق عمر إذ يقول : « لقد كنا أذلاء فأعزنا الله بالإسلام ، فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله » .

فما للقلوب أصبحت لا تخشع ؟! وما للآذان أصبحت لا تسمع ؟! وما للأعين أصبحت لا تدمع ؟!  
وما للأجسام أصبحت لا تسجد ولا تركع .

يا أبا الإسلام قم مزق الضلوع كمدا على هذا الفساد الشائع ، وسلسل الدموع حزنا على هذا الخلق الضائع ، ويوم ينادى الحجر على المسلم ليقتل من اختبأ وراءه من اليهود ، إنما يناديه باسم الإسلام لا باسم القومية أو الحزبية أو الاشتراكية ، فتلك أوثان الجاهلية ، فالإسلام دين الله الذي ارتضاه لنا . ويوم يصير الإسلام المنهج الذي نلتزم به في حياتنا فلن نستطيع قوة على وجه الأرض أن تهزمننا ، لأن وعد الله صدق ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ويمكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢).

وقد أخبر الله تعالى عن بنى إسرائيل بأن منهم صالحين وهم الذين نهوا عن المنكر وآمنوا بموسى ، كما آمنوا بمحمد عندما أدرکوا زمانه وأن منهم غير الصالحين كالذين اعتدوا في السبت وأتوا من المخالفات ما أخبر الله عنهم في كتابه كما أخبر جل شأنه أنه ابتلاهم بالحسنات والنعم ليشكروا ، كما ابتلاهم بالسيئات ليزدجروا ويرجعوا عن غيهم وطغيانهم .. وتلك سنة الله في خلقه .. قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون \* فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون \* فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون \* فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾

أى جاء من ذرية هؤلاء القوم خلف كانت تلك صفاتهم : ورثوا التوراة وقرأوا أحكامها ، ولكنهم لم يعملوا بشيء منها . لقد فُتحت عليهم الدنيا فانساقوا وراءها انسياقا ، وراء عرضها الأدنى القريب ، فجمعوا المال ولم يُبالوا ولم يَرعَوْا الله عهدا ، جمعوا المال من السحت والحرام والرشا ، وغرّتهم الأماني . (١) الآية ٧ من سورة محمد . (٢) الآية ٥٥ من سورة النور . (٣) الآيات ٤٢-٤٥ من سورة الأنعام .

وقالوا سيُغفر لنا ، وبنوا تلك الأمانى على أنهم من سلالات الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحبائه ، ولم يكونوا صادقين لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ <sup>(١)</sup> وإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبدا حبشيا وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشيا . كان رسول الله ﷺ يقول لفاطمة : « يا فاطمة اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا »

قال تعالى : ﴿ فإذا نُفِخَ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون \* فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ <sup>(٢)</sup>.

إن الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن مما يدل على أن هؤلاء القوم لم يكونوا صادقين مع الله أنهم بعد أن قالوا سيُغفر لنا لم يصدق عملهم قولهم . قال تعالى : ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ فهم مع الدنيا يدورون حيث دارت ، وقد حذر الصادق المعصوم عليه السلام أمته من الارتواء في أخضار الدنيا فقال : « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٣)</sup>.

ولقد فتحت الدنيا على المسلمين فأنكر بعضهم بعضا فتفرق جمعهم وتمزقت كلمتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، وصاروا غثاء كغثاء السيل عندما ألقى الوهن في قلوبهم فأحبوا الدنيا وكرهوا الموت ، ونزع الرعب من قلوب أعدائهم فحاربوهم في شتى الميادين سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا ، فأصبحوا كالأيتام على موائد اللثام ، وصاروا في ذيل القافلة ليس لهم كلمة ولا يؤخذ لهم رأى وهم يملكون الموقع والأرصدة والطاقة والعقيدة والثروة البشرية .. كما يقول القائل :

ليس من العجائب أن مثلى يرى ما هان ممتعا عليه  
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء في يديه

وكما يقول آخر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يُستأذنون وهم شهود

لقد صاروا غرباء في أوطانهم وأضحوا كما قال القائل :

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولقد أخذ الله الميثاق والعهد المؤكد على هؤلاء القوم الذين ورثوا التوراة ألا يقولوا على الله إلا الحق ولكنهم غيروا وبدلوا وحرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه بعد ما درسوا في الكتاب وقرأوه ،

(٢) الآيات ١٠١-١٠٣ من سورة المؤمنون .

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٣) أخرجه البخارى في الجزية (١) وفي المغازى (١٢) وفي الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم في الزهد (٦) . والترمذى في القيامة (٢٨) .

وابن ماجه في الفتن (١٨) . والإمام أحمد في (٤: ١٣٧) .

ولكنهم بعد الدراسة والقراءة كانوا كمثّل الحمار يحمل أسفارا ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا . ولو أنصفوا وعقلوا ورشدوا لعلموا أن الدار الآخرة خير وأبقى وأنها الحيوان أى الحياة الكاملة التى لا نصب فيها ولا لغوب ، وأن الجنة هى دار القرار لا يشقى من دخلها ولا يبأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وله فيها أزواج مطهرة من الحور العين اللاتى يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، تحت المقيّمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبئد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها  
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ .

هذا وعد من أكرم الأكرمين وأعدل العادلين لكل من يستمسك بكتابه ويعمل بما فيه من أحكامه وعلى رأسها إقامة الصلاة . وعد بالألّا يضع الله أجره فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (١) . وقال جلّ شأنه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (٢) .

وقد أخبر الله عن العاملين بالكتاب المقيمين للصلاة بأنهم المصلحون ، ذلك لأن الإيمان بناء وشموخ ورسوخ وبزوخ وارتقاء . فالمؤمن لا يعرف السلبية لأنه كالغيث أينما وقع نفع ، لا يعرف الإضرار بالناس لأنه من البررة الكرام ، ينظر إلى خلق الله بعين ثاقبة وقلب سليم لا يعرف حقدا ولا حسدا ولا بغضاء ولا شحنا ، فهو سخي النفس ، سليم الصدر ، يعرف الإيثار ولا يطبق الأثرة يبني ولا يهدم ، يصون ولا يبدد ، ملتزم بأمر ربه ، يقول الحق وينطق الصدق ويحكم العدل .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خَذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

إخبار من الله تعالى عن آية من آياته مع بنى إسرائيل ، أنهم قوم ماديون حسيون ، بلغ من جرأتهم على الله أنهم قالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. إنهم عبدوا العجل الذى صنعوه من الخلى ، إنهم لا يعرفون الرحمة كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ (٣) .

لقد تلكأوا فى تنفيذ أحكام التوراة فأراهم الله آية شاهدهوها بأبصارهم ورأوها رأى العين . رفع الجبل العظيم فوق رؤوسهم حتى صار كأنه غمامة تظلمهم ورأوه هكذا وظنوا أنه واقع بهم أى سيغوص بهم فى

(١) الآية ١٢٣ من سورة طه . (٢) الآية ٣٠ من سورة الكهف . (٣) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

أعماق الأرض - روى أن بنى إسرائيل أبوا أن يقبلوا التوراة ، فرفع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم ، فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هي السجدة التى رُفِعَتْ عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به .

لقد أمرهم الله تعالى أن يأخذوا الكتاب بقوة وعزم لأن الالتواء مركوز في طباعهم وهم مجبولون على العناد كما أمرهم أن يذكروا ما في التوراة ليكون في ذلك السلوك تقوى الله والتقوى هي السلاح الأقوى : هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذحرا وعند الله للأتقى مزيد

ميثاق من الله على عباده

وإِذْ أَخَذَرَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

المفردات : ﴿أخذ﴾ : أخرج ، وإنما عبّر به لأنه يدل على الاصطفاء والتميز .  
﴿الظهور﴾ : واحداها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفقري هيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد .  
﴿والذرية﴾ : سلالة الإنسان من الذكور والإناث ، والشهادة تارة قولية كما قال : ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾<sup>(١)</sup> وتارة تكون حالية كما قال : ﴿ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾<sup>(٢)</sup> أى حالهم شاهدة عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك .

العلم بوحداية الله مركوز في فطر الخلائق وطباع الكائنات ، فمن شذ عن التوحيد فذلك شذوذ في الرأى ونشاز في التفكير ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد

كل الوجود على وجودك شاهد

يا حى يا قيوم أنت المرتجى

وإلى علاك علا الجبين الساجد

سبحانك ربي أنت الواحد في ذاتك لا قسم لك ، الواحد في صفاتك لا شبه لك ، الواحد في أفعالك لا شريك لك .

يا من له عنت الوجوه بأسرها  
رهبا وكل الكائنات توحــد  
أنت الإله الواحد الحق الذى  
كل القلوب له تقرر وتشهد

لذلك فإن فريقا من المفسرين يرى أن قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ .

يرى هذا الفريق أن الآية تخبر عن الإيمان الفطرى الذى ركزه الخالق العظيم فى خلقه ، ومن ثم فإن منطوق الآية يقول من بنى آدم ، ولم يقل من آدم ، ويقول من ظهورهم . ولم يقل من ظهره ، والمراد بالذرية ما يتوالد من البشر جيلا بعد جيل ، فإن الله جلت قدرته أقام فى الكون من الأدلة ما لا تحصره عد ، ولا يحيط به حد ، وكلها ناطقة على وحدانية الله ، وكفى بتلك الآيات حجة على العباد ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ \* ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط <sup>(١)</sup> .

وكما أن الشهادة تكون بلسان المقال ، فإنها يضاً تكون بلسان الحال ، وذلك كقوله تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ <sup>(٢)</sup>

هذا وقد ذكر العلامة ابن كثير من الأحاديث ما يؤيد الإيمان الفطرى فى هذه الآية ، كما ذكر رأى الآخر الذى يرى أن الله استخرج الذرية من ظهر آدم ، وأخذ عليهم الميثاق بوحدانيته، فشهدوا وأقروا . ونحن نسوق ما ذكره ابن كثير تنمة للفائدة .

قال رحمه الله تعالى فى هذه الآية :

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ، ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك ، وجلبهم عليه قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ <sup>(٣)</sup>

وفى الصحيحين عن أنى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون

(١) الآيات ٥٣ و ٥٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١٧ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

فيها من جدعاء <sup>(١)</sup> وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال ، قال رسول الله ﷺ « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » <sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني السري بن يحيى أن الحسن بن أبي الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال : « ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل : يا رسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسان فأبواها يهودانها وينصرانها » <sup>(٣)</sup>.

قال الحسن : والله لقد قال الله في كتابه ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن عليه عن يونس بن عبيد عن الحسن البصري به . وأخرجه النسائي ، في سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثني الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصري واستحضاره الآية عند ذلك .

ثم ساق رحمه الله تعالى الأحاديث التي تؤيد الرأي الآخر فقال : وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفي بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا ان تشرك بي » <sup>(٤)</sup> أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه قال عن النبي ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قَبَلًا » <sup>(٥)</sup> قال ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِلَى قَوْلِهِ - المَبْطُلُونَ ﴾ وقد روى هذا الحديث النسائي في كتاب التفسير من سننه .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (٩٢، ٧٩) وفي تفسير (سورة ١٠: ٣٠) وفي القدر (٦٦) . وأبو داود في السنة (١٧) والإمام مالك في

الجنائز (٥٣) . والإمام أحمد في (٣٩٣، ٢٧٥، ٣٣: ٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٦٣) . والإمام أحمد في (١٦٢: ٤) . (٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٢٨) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (١١) . ومسلم في الإيمان (٣٣٨، ٢٩٩، ٢٠٣) . وأبو داود في الأدب (٤٧) . والترمذي في الخلود

(١٢) وفي القيامة (١٣) . والنسائي في البيعة (٣٨، ١٨، ١٧، ٩) . وابن ماجه في الفتن (٢٣) . والدارمي في الوضوء (١) . والإمام

أحمد في (٣٠١، ٢٦٣، ٢٦٢، ٢٠٢، ٥٠: ١) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في (٢٠٨، ٤١: ٦) .



وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : « أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو في أذى من الماء » .

وعن جرير قال : « مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال : يا جابر إذا أنت وضعت ابني في الحدة فأبرز وجهه وحل عنه عقده ، فإن ابني مجلس ومستول . ففعلت به الذي أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عما يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ فإن يسأل عن الميثاق الذي أقر به في صلب آدم . قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذي أقر به في صلب آدم ؟ قال : حدثني ابن عباس قال إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم في صلبه ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة » .  
فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن مسلم بن يسار الجهني : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية . قال : خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يا رسول الله فقيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » <sup>(١)</sup> رواه أبو داود والنسائي .

قال الترمذي عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عيني كل إنسان منهم ويصا من نور . ثم عرضهم على آدم فقال : أي رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلاً منهم فأعجبه ويص ما بين عينيه قال : أي رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة قال : أي رب قد وهيت له من عمري أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أوم يبق من عمري أربعون سنة . قال : أو لم تعطها ابنك داود . قال : فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسي آدم فنسيت ذريته ، وخطيء آدم فخطئت ذريته » <sup>(٢)</sup> ثم قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود في السنة (١٦) . والترمذي في تفسير (سورة ٢:٧) والإمام مالك في القدر (٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير (سورة ٢:٧) . والإمام أحمد في (١: ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١) .

قال أبو جعفر الرازي : عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى ﴾ قال : فإني أشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلّموا أنه لا إله غيري ، ولا رب غيري ، ولا تشركوا بي شيئاً وإني سأرسل إليكم رسلاً لينذروكم عهدي وميثاق ، وأنزل عليكم كتبي . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقر ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك ؟ قال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج ، عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة ، والنبوة فهو الذي يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ (١) الآية . وهو الذي يقول ﴿ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فطرت الله ﴾ ومن ذلك قال ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ (٢) ومن ذلك قال : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾ (٣) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد .

وبعد أن ساق ابن كثير هذه الأحاديث الشريفة ، عقب عليها بقوله : ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . ولهذا قال ﴿ وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ولم يقل من آدم . ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أي جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن .

كقوله تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ (٤) وقال ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ (٥) وقال ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ (٦)

ثم قال ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ أي أوجدتهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ وتارة تكون حالا كقوله ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ (٧) أي حاكم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ (٨)

كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ (٩)

قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

- |                                 |                                 |                                |
|---------------------------------|---------------------------------|--------------------------------|
| (١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .   | (٤) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام . | (٧) الآية ١٧ من سورة التوبة .  |
| (٢) الآية ٥٦ من سورة النجم .    | (٥) الآية ٦٢ من سورة النمل .    | (٨) الآية ٧ من سورة العاديات . |
| (٣) الآية ١٠٢ من سورة الأعراف . | (٦) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام . | (٩) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم . |

فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف في وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿ أَنْ تَقُولُوا ﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا ﴾ أى التوحيد ﴿ غافلين أو تقولوا إنما أشرك آبائنا ﴾ الآية .

لقد قطع الله المعاذير وأبطل حجج المجادلين بالباطل قال تعالى : ﴿ أَمِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴾ إله مع الله بل هم قوم يعدلون \* أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون \* أمن يجب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون \* أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون \* أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين <sup>(١)</sup>

هذه الأدلة الناطقة بواحدانية الله عز وجل ، الشاهدة بكماله المطلق ، وعزته القائمة ، ومملكته الدائمة ، لا يجادل فيها إلا كل أفاك أثيم ، إنها قائمة مع كل زمان ومكان ، وفي كل عصر ومصر ، السماء وارتفاعها ، والكواكب ومدارها ، والشمس وشعاعها ، والأرض واتساعها ، والبحار وأمواجها ، والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بشكره ، ولا يغفل عن ذكره ، فكل أثر يدل على مؤثر . وتحت هذه القاعدة تتدرج أدلة العناية والإتقان والارتباط والكمال والواجب .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائك ————— الآيات والآثار  
من شك فيه فظنرة في خلقه ————— تمحو أثيم الشك والإنكار

إن أصحاب الفطر السليمة ، وأولى الأفئدة المستقيمة ، تقر لخالقها بالوحدانية ، وتصفه بصفات الكمال ، وتنزهه عن كل نقص ، إن الله أقام الأدلة لئلا يقول الناس يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آبائنا من قبل فأشركنا مثلهم تقليدا لهم ﴿ أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ وهذه حجة داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، فلا تقليد للمبطلين ، لأن الله تعالى زودنا بالعقل ، وأرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وقال ﴿ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ ﴾ أى نبينها ونوضحها ، و﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ . أى ليهتدوا ويرجعوا عن ما هم عليه من الضلال والبهتان ، ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) الآيات ٦٠-٦٤ من سورة النمل .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

## درس وعبرة

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾  
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ  
تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتَرَّكَهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ  
الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا  
يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا  
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ  
ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَأَلَا نَعْمَ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

**المفردات :** ﴿ التلاوة ﴾ : القراءة . ﴿ النبأ ﴾ : الخبر الذى له شأن . ﴿ وانسلاخه منها ﴾ : كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره ويقال لكل من فارق شيئاً بحيث لا تحدثه نفسه بالرجوع إليه انسلخ منه . و ﴿ أتبعه ﴾ : أدركه ولحقه . قال الجوهري : يقال أتبع القوم : إذا سبقوك فلحقهم . و ﴿ من الغاوين ﴾ : أى الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتدياً . ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾ : أى ركن إلى الدنيا ومال إليها . ﴿ واللّهث ﴾ : بالفتح واللهاء بالضم التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا و ﴿ تحمل عليه ﴾ : أى تشد عليه وتطرده . ﴿ وساء الشيء ﴾ : يسوء فهو سىء إذا قبح وساءه يسوءه مساءة والمثل : الصنعة . ﴿ الذرء ﴾ : لغة الخلق يقال ذرأ الله الخلق أوجد أشخاصهم . ﴿ والخلق ﴾ : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافاً . ﴿ والجن ﴾ : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس والقلب يطلق أحياناً على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان وأحياناً على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحياناً ( بالضمير ) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى ، لما يلائم أو يؤلم ، وهو كثير بهذا المعنى فى الكتاب الكريم ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وسر استعمال القلب فى هذا المعنى ما يراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والاشمئزاز ، أو حين السرور والابتهاج ﴿ والفقّه ﴾ : العلم بالشيء والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم

غائب ، وقد استعمله القرآن في مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق في العلم ، ليرتب عليه أثره وهو الانتفاع به ، ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنهه المراد مما نفى فقهه عنهم ففاتتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه في قوله تعالى ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾ قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوهم إلى الله ، فأقطه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام .

وقال سفيان بن عيينة : عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء . وهكذا انسلخ ذلك الخبر من آيات الله ، فأصبح عرضة للفتن ، كما يصبح اللحم عرضة بعد سلخه للعوامل المختلفة ، لقد كانت الآيات تزينه كما يزين الجلد اللحم ، فأصبح بعد الانسلاخ شائهاً قبيحاً ، وما كان يستطيع أن يعود إليها لأن الانسلاخ يقيد ذلك فهل من المستطاع أن يعود الجلد إلى اللحم بعد انسلاخه .

﴿فأتبعه الشيطان﴾ أى صار الشيطان تابعا له وهو المتبوع كما قال القائل :

و كنت امرءاً من جند إبليس فارتقى  
بى الحال حتى صار إبليس من جندى

﴿فكان من الغاوين﴾ أى صار راسخاً في الغواية والضلال ، ونعوذ بالله تعالى من الشقاء بعد السعادة ، ومن الضلالة بعد الهدى ، ومن الفقر بعد الغنى ، كما نعوذ به من شماتة الأعداء ، وعضال الداء .

عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك . قال : قلت : يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمى أو الرامى قال : بل الرامى ﴾ . هذا إسناد جيد .

قوله تعالى ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه﴾ هذا إخبار من الله جلّت قدرته عن أن مشيئته صالحة لهداية هذا الذى غوى ، لكنه أى وأصر واستكبر عن طاعة ربه ، وذلك عندما أخلد إلى الأرض ، ومال إليها مطمئناً بها قلبه ، واتبع هواه ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر .

وانظر إلى تعبير القرآن الكريم عن الدنيا بالأرض ، فكل من يهوى إليها ويرتبط بها ناسياً ربه وآخرته

فقد حق عليه قوله تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله جل شأنه ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ﴾ أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ <sup>(٢)</sup>.

أما هوى النفس فقد أعى الأطباء قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ <sup>(٣)</sup>.

ولقد بين الله تعالى حال هؤلاء المارقين الناكسين على أعقابهم الذين انقلبوا خاسرين وارتدوا على أدبارهم بين الله حالهم في قوله ﴿ فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ .

إنها صفات الذين تمرغوا في أحوال المادة ، تراهم دائماً في تعب إن أعطوا طمعوا في المزيد لأن قلوبهم لا تعرف الرضا وإن منعوا إذا هم يسخطون ، فهم بين الطمع والسخط في تعب ونصب لو كان لاحدهم واديان من مال لا يتغى ثالثاً ولا يملأ عينيه إلا التراب ، إنهم كالكلب إن حملت عليه وطرده وزجرته يلهث ويتنفس بصعوبة وتعب ، وإن أنت تركته فإنه يلهث ويتنفس بصعوبة فهو لاهث دائماً ، كذلك الأشقياء من أهل الدنيا .

ولما في هذه القصة من عبرة فإن الله جل وعلا أمر حبيبه أن يقصها على كل عاقل ، قال تعالى : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ بعدما بين له سبحانه أن هذا المثل مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فتلك صفتهم .

ثم قال سبحانه : ﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أى ساءت تلك الصفة وقبح شأن هؤلاء ، فإن الله تعالى بين لهم الهدى من الضلال ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، قال تعالى ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ إن المهتدى هو الذى يهديه الله ، فهذا هو السعيد الذى يعيش في كنف الله ورعايته ، يصون حدوده ، ويمتثل أمرة ، ويجتنب نهيه ، أما من ضل فقد غوى وخسر .

قال تعالى ﴿ من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ﴾ وما أكثرهم من الجن والإنس ، إنهم كثير إنهم عطلوا منافذ المعرفة ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، فقد ختم عليها ، ولهم أعين لا يبصرون بها إذ عليها غشاوة ، ولهم آذان لا يسمعون بها لأن فيها وقراً ، ومن بينهم وبين النور حجاب ، إنهم كالأنعام بل هم أضل .

قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ .

وقال جل شأنه ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمَّ الْبِكْمِ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ \* ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴿١﴾

وقال جل شأنه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ \* ولا تكونوا كالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢﴾ وقال جل شأنه ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣﴾

إنهم أضل من الدواب لأن الدابة لا تنكر جميل صاحبها ، فهي وفية له لا تجحد فضله عليها ، أما هؤلاء فقد جحدوا شكر المنعم ، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

### أَسْمَاءُ اللَّهِ الْحُسْنَى

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

المفردات : ﴿الحسنى﴾ : مؤنث الأحسن ﴿يلحدون﴾ : الإلحاد هو الميل عن الطريق الحق .

روى أن بعض المسلمين دعا الله في صلاته ودعا الرحمن فقال المشركون محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعوا اثنين ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ وقد روى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » (٤) .

والذى عليه أهل العلم أنها جمعت من القرآن والسنة ، فهي توقيفية ، ولكنها لا تنحصر في تسعة وتسعين ، بدليل حديث وابن مسعود عن رسول الله أنه قال : « ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاائك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً » (٥) .

وذروا الذين يكذبون في أسمائهم ، ويسمونهم بما لم يتسم به ، ولم ينطق به في كتاب الله ، ولا سنة رسوله ، هؤلاء سيجزون بما كانوا يعملون .

(١) الآيتان ٢٣، ٢٢ من سورة الأنفال . (٢) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٥ من سورة الأنفال .

(٤) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٩) . ومسلم في الذكر (٤٥٥) وابن ماجه في الدعاء (١٠) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في (١: ٣٩١، ٤٥٢) .

ومعنى أن أسمائه توقيفية أنه لا يسمى سخياً ، وإن سمي جواداً . ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً ، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلاً . وفي القرآن ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (١) أفسمى الله مخادعاً ؟ حاش لله افتحسبه مكاراً ؟ حاش لله بل يدعى بأسمائه ولا تلحد فيها أبداً .

### المهتدون والضالون

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

**المفردات :** ﴿يهتدون﴾ : يرشدون الناس إلى الحق والخير ﴿يعدلون﴾ : يجعلون الأمور متعادلة لا زيادة فيها ولا نقصان على ما ينبغي ﴿سنستدرجهم﴾ : الاستدراج من الدرجة وهي المراقبة بمعنى الصعود والنزول درجة بعد درجة ، والمراد سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً ﴿وأُمْلِي لهم﴾ : من الإملاء وهو الإسهال ﴿كيدى﴾ : الكيد والمكر هو التدبير الخفى الذى يقصد به غير ظاهره حتى ينخدع المكيد ، والمتين القوى من المتن وهو الظهر (يعمهون) يترددون فى حيرة وعمى . بعد أن ذكر الله أنه خلق لجهنم كثيراً من الخلق لا قلوب لهم ولا أعين ولا آذان يصلون بها إلى الخير . ثم ذكر بعد ذلك ما يجعل الإنسان قوى الإيمان . ذكر هنا أن فى أمة الدعوة المحمدية فريقين : مهتدين وضالين ، مع ذكر وجوب الفكر والنظر فى ملكوت السماء والأرض علنا نصل إلى الخير . وبعض من خلقنا ، وأرسلنا لهم الرسل خاصة أمة الدعوة المحمدية أمة يهدون بالخير ، ويرشدون إليه ، وبه يحكمون فيما يعرض لهم حتى تكون أمورهم متعادلة ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، ويكونوا أمة وسطاً عدولاً ، كما أخبر عنهم القرآن ، روى عن على بن أبى طالب قال : لتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة ، يقول الله ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ فهذه هى التى تنجو من هذه الأمة .

والذين كذبوا بآياتنا ندعهم فى الضلال تائهيين ، ونستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ونغلى لهم بإعطاء النعم استدراجاً حتى لا يرعوا عن غيهم ، مع أننا نغلهم فلا نرسل لهم المحذرات والمنبهات ، وما



علموا أن سنة الله في الخلق لا تتغير ، وأن الله يملئ لهم ويمدهم بالمال والنعم ، حتى يغفروا ولا يتنبهوا ، كيداً لهم ومكراً بهم ، لا حياً فيهم ﴿١﴾ أحسبون أنما نغدhem به من مال وبين \* نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴿٢﴾ نعم . ﴿٣﴾ إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

وهاهم أولاء المشركون ظلوا مغرورين بأن الحرب يومان يوم لنا ويوم علينا ، معترزين بقوتهم وكثرة عددهم ، وبقلة عدد المسلمين ، وما علموا أن هذا مكر بهم وكيد لهم ، ولقد كان فتح مكة آية على ذلك .. أكذبوا الرسول ولم يتفكروا في شأنه وشأن دعوته ؟ إنهم إن تفكروا في ذلك أو شكوا لابدأن يعرفوا الحق ، وأن صاحبهم ليس به جنة . ولقد حكى القرآن عنهم : ﴿٤﴾ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ولكن أكثرهم للحق كارهون ﴿٥﴾ . ﴿٦﴾ يأبىها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴿٧﴾ .

كذبوا وضلوا ، إن هو إلا نذير مبين بين يدي عذاب شديد ، وهو منذر ناصح ، ومبلغ أمين ، وكيف لا تعرفون هذا وهو صاحبكم وأنتم أدرى الناس به ؟ .

أكذبوا الرسول ولم ينظروا في هذه العوالم المحكمة الدقيقة ، المنظمة البديعة ، فإن هذا دليل على الوحداية الكاملة ، والعلم التام والقدرة .

ولو نظروا بعين البصيرة لاهتدوا إلى الخير ، أو لم ينظروا في كل ما خلقه الله ، وأن الحال والشأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، وحن وقت قدومهم على ربهم بالأعمال .

لو نظروا لاحتاطوا وعملوا لذلك اليوم ، حتى ينالوا الجزاء الأوفى . لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى التصديق والإيمان بالقرآن والنبى ﷺ قبل فوات الفرصة ، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق ؟ وبأى حديث بعده يؤمنون ؟ .

هؤلاء فقدوا الاستعداد للخير والهدى والإيمان بالنبى ، والعمل بالقرآن ، فكانوا هم الضالين ﴿٨﴾ ومن يضل الله فلا هادى له ويذرهم في طغيانهم ﴿٩﴾ يترددون ، وفي باطلهم ينغمسون ، ألا تعلم أن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد ، وأن العمل الفاسد يجعل على القلب حاجزاً سميكاً حتى لا يهتدى إلى الخير أبداً ﴿١٠﴾ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿١١﴾ .

### علم الساعة عند ربى

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

(٣) الآية ٦ من سورة الحجر .

(٤) الآية ١٤ من سورة المطففين .

(١) الآيات ٥٦، ٥٥ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ٧٠ من سورة المؤمنون .

**المفردات :** ﴿ الساعة ﴾ : هى فى اللغة جزء غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين جزء من أربع وعشرين من اليوم ، والمراد بها هنا الوقت الذى يموت فيه كل حى ويضطرب نظام العالم أى عند النفخة الأولى للصور ﴿ أيان مرساها ﴾ : متى إرساؤها واستقرارها ﴿ لا يجليها ﴾ : لا يظهرها ولا يكشفها ﴿ حفى ﴾ : مبالغ فى السؤال عنها . قد تكلم القرآن عن أجل الفرد فى قوله ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ فناسب بعده أن يتكلم عن الساعة العامة التى فيها نهاية الدنيا كلها . يسألونك يا محمد عن الساعة متى تكون ؟ ، ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ <sup>(١)</sup> وفى التعبير بالإرساء إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء هذه الحركة الدائبة فى السماوات والأرض .

قل لهم إنما علمها عند ربى وحده ، وإليه يرجع الأمر كله لا يجليها لوقتها ، ولا يظهر أمرها ، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ، فلا يطلع أحداً من خلقه على وقتها ، ولو كان ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلًا ، عظم أمرها عند الملائكة والثقلىن فى السماء والأرض لخفاء وقتها ، ولهول وصفها وشدة وقعها ، فهم مضطربون خائفون ، لا تأتیکم أيها الناس إلا بغتة وفجأة ، أى منهمكون فى الدنيا وتعميرها . عجا لهم يسألونك ملحين عنها كأنك حفى عنها ، ومبالغ فى السؤال عنها . قل لهم إنما علمها عند الله عالم الغيب والشهادة .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون السر فى إخفائها ، فلو علمت لاضطرب نظام الكون ، واختل العمران ، وهكذا يخفى الله ليلة القدر ، وساعة الإجابة ، لحكم هو يعلمها ، ولينشط الناس فى طلبها ، والعمل لها فى وقت أكثر ، وللساعة علامات وأشراط وردت فى الصحيح من السنة ، ويقال : لها علامات صغرى وكبرى .

### الرسول إنسان لا يملك شيئاً بل هو نذير وبشير

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

**المفردات :** ﴿ الغيب ﴾ : هو ما غاب عنا ، وهو حقيقى لا يعلمه أحد ، وإضافى يعلمه بعض الخلق كالأنبياء والرسل ﴿ الخير ﴾ : ما يرغب فيه سواء كان مادياً كالمال أو معنوياً كالعلم ﴿ والسوء ﴾ : ما يرغب عنه .

سألوا النبى وألحقوا فى السؤال تناسب أن يبين القرآن حقيقة الرسالة . هذا هو القول الفصل ، الذى ليس باهزل ، مفخرة من مفاخر الإسلام ، وأسس من أسسه السليمة ،

(١) الآية ١٨ من سورة الشورى .

حارب القرآن بهذه الآية وأمثالها أفكاراً جاهلية وعقائد وثنية ، وانظر إلى هنا ، وإلى ما يفهمه المسيحيون عن عيسى عليه السلام نعم ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (١).

قل يا محمد أنا بشر ، شرفت بالرسالة ، وحملت تلك الأمانة ، فلا أملك لنفسي أى نفع كان ، ولا أَدفع عن نفسي أى ضرر كان ، إلا ما شاء الله ، وأنا بشر لا أعلم الغيب ، وإنما الغيب عند الله وحده ، فكيف تسألوننى عن الساعة كأنى حفى بها ؟ أما لو كنت أعلم الغيب حقيقة لا ستكثر من الخير ، وما مسنى السوء أبداً ، والواقع غير هذا . إذ أنا بشر كبقية الناس ، شرفنى الله بالرسالة فقط ، وما أنا إلا نذير لكم . وبشير ﴿ لتبشّر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ (٢).

والخلاصة أن الرسل خلق من خلقه وعباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا سلطان لهم على علمه وتدبيره ، وشرفهم الله بالرسالة وهم القدوة الصالحة للعباد فى الدنيا ..

### حقيقة التوحيد

\* هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَاحِبًا صَلِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَاحِبًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

**المفردات :** ﴿ ليسكن إليها ﴾ : ليطمئن ويسكن من الاضطراب النفسى ﴿ تغشاهَا ﴾ : أتاها لقضاء ما تطلبه الغريزة الجنسية ﴿ حملت ﴾ : عقلت منه والحمل ما كان فى بطن أو على شجرة والحمل ما كان على ظهر ﴿ فمرت ﴾ : استمرت إلى وقت ميلاده من غير سقوط ﴿ فلما أثقلت ﴾ : حان وقت ثقلها وقرب وضعها ﴿ صالحا ﴾ : المراد نسلا صالحا فى الجسم والفقرة .

هذه سورة بدأت بالكلام على القرآن والتوحيد ثم تبع ذلك كلام على النشأة الأولى وما تبع ذلك ، ثم الكلام على قصص الأنبياء خصوصاً موسى ، وها هو ذا يختتمها بالكلام على التوحيد وعلى القرآن .

هو الذى خلقكم يابنى آدم من جنس واحد ، وطبيعة واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، ويطمئن بها ، فإن الجنس إلى جنسه ميال ، وجعل منها زوجها حتى إذا بلغا سن الحلم وهو السن التى معها تظهر الغريزة الجنسية فى الرجل والمرأة . وجدا أنفسهما - خاصة الرجل - مضطرباً ومحتاجاً إلى الزوجة لتهدأ نفسه وتسكن من اضطرابها ، وبهذا وحده يتحقق بقاء النوع الإنسانى .

فلما تغشاها واتصل بها الاتصال الجنسي المعروف حملت منه حملاً كان خفيفاً في أول الأمر لم تشعر به ، فلما أثقلت وصارت ذا ثقل بكبر الولد في بطنها ، وحان وقت الوضع ، دعوا الله ربهما مقسمين لئن آتيتنا ولداً صالحاً تام الخلقة قوى البنية سليم الفطرة لنكونن لك يارب من الشاكرين .

وقد آتاهما الله ذلك ، وكانت الفطرة لكل مخلوق الميل إلى الاسلام والتوحيد فلما آتاهما النسل الصالح جعلاً أى بعض بنى آدم من الذكور والاناث له شركاء فيما آتاهما ، واتجها إلى غير الله الذى أعطاهما ، تعالى الله عما يشركون .

وقد رأى بعض المفسرين في هذه الآية أن المراد خلقكم يابنى آدم من نفس واحدة هى آدم ، وجعل منها زوجها وهى حواء ، وأن الشرك كان من بعض أولادهما ككفار مكة واليهود والنصارى ، وقد نسب إليهما ، والمراد أولادهما بدليل ، ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ وفى الكشف أن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان .

ثم أخذ القرآن فى نقاش هؤلاء المشركين ، أيشركون بالله شيئاً لا يخلق أبداً أى شئ ؟ بل إنه لا يملك نفعا ولا ضرراً لنفسه ولا لغيره ، والحال أن ما يشركون به من صنم أو وثن هو مخلوق ضعيف إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستطيع إنقاذه منه ولا يستطيع هؤلاء المشركين نصراً فى أى ميدان ، وإن تدعوهم إلى هدايتكم لا يستجيبون لكم وكيف يستجيبون .

### وكيف يداوى القلب من لا قلب له

يستوى عندهم دعائكم وبقاؤكم صامتين ، والإله المعبود ، والرب الموجود لا يكون بهذا الوضع أبداً فهو السميع البصير ، العليم الخبير ، الناصر القادر سبحانه وتعالى .

### حقيقة الأصنام والأوثان

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٦﴾  
 اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ  
 يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٩٧﴾ إِنْ وَلِيَ اللَّهُ أَلَدَى نَزَلَ  
 الْكِتَابَ وَهُوَ يَنْتَوَى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٨﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَدْعَاكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ  
 يَنْصُرُونَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٠﴾

المفردات : ﴿ تدعونه ﴾ : الدعاء النداء وغالبا يكون لدفع ضرر أو جلب خير والمراد تعبدون  
 ﴿ يبطشون ﴾ : يصلون بها ﴿ فلا تُنْظَرُونَ ﴾ : أى تمهلون . هذا تمام للكلام السابق وهكذا شأن

القرآن في إثبات التوحيد ونفى الشرك .

هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هم مخلوقون مثلكم ، فلا يصح أن يكون المخلوق محل عبادة وتقديس من مخلوق مثله .

وإن تعجبوا فعجب حالكم ، تستكثرون الرسالة على بشر منكم خصه الله بالعلم والمعرفة ، وقوة اليقين ونور البصيرة ، ثم تعبدون من دون الله حجارة ، وإن كنتم صناديق فادعوهم ، وإن كانوا كذلك فليستجيبوا لكم .

ولكن كيف يكون ذلك ؟

وهم أخط درجة ممن يعبدونهم ، فليس لهم أرجل يمشون بها ، وليس لهم أيد يصولون بها ، وليس لهم أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، إذ هم حجارة صماء ، أو صنيع من طين وماء ، أو من عجوة ، أو حلاوة . كصنم بنى حنيفة .

### أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

على أن النبي ﷺ أمر بأن يتخذاهم ويدعوهم لأمر عمل فليل له : قل لهم يا محمد : ادعوا شركاءكم وآهنتكم من دون الله ، ثم تعاونوا معهم على أن تكيدوا لي وتوقعوا لي المكروه بأى شكل كان ولا تمهلون ، ومع هذا لم يعملوا شيئاً فيه . وهذا رد عليهم في قولهم إنا نخاف عليك من آهتنا . والرسول يعمل ذلك بقوله : إن متولى أمرى هو الله ولينا ، وهو ربنا الذى أنزل الكتاب الذى يدعو إلى التوحيد والبر والصدق ، وهو الذى يتولى الصالحين من عباده، أما أنتم أيها المشركون فوليكم الشيطان ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴿١﴾

والذين تدعونهم من دون الله ، وتخصونهم بالعبادة والتقديس لا يستطيعون لكم نصراً ، حتى ولا أنفسهم ينصرون ، بل وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل لا يسمعوها وتراهم ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرون شيئاً أفيلق بكم إن كنتم عقلاء أن تتخذوا هؤلاء آلهة ؟

### من خلق القرآن في معاملة الناس والشيطان

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنَّمَا يَتَزَعَّنُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٢﴾

**المفردات :** ﴿ العفو ﴾ : ما أتى عفواً وسهلاً من غير كلفة ولا مشقة ﴿ ينزغتك ﴾ : النزغ كالنخس والوكز هو إصابة الجسم بشيء محدد كالإبرة والمهماز والمراد وسوسة الشيطان ﴿ فاستعذ بالله ﴾ : المراد الجأ إليه وتذكره ﴿ طائف ﴾ : لمة منه وطاف : أى ألم ﴿ يمدونهم ﴾ : يكونون مدداً لهم .

هذه هى أسس المعاملة الحسنة ، ودعائم الخلق الكامل الذى به يرضى الناس عن الإنسان ، ورضا الناس من رضا الله ، فألسنة الخلق أقلام الحق ، وبهذه الأمور تجتمع القلوب النافرة ، والنفوس الهائمة : خذ ما أتى من الناس عفواً ، لاتكلفهم بما يشق عليهم ويستعصى من الأفعال بل كن سمحاً سهلاً « يسروا ولا تعسروا » <sup>(١)</sup> حديث شريف .

خذ العفو منى تستدبى مودتى  
ولا تنطقى فى سورتي حين أغضب

ولله در معاوية حيث يقول : لو كان بينى وبين الناس شجرة ما انقطعت ، إن شدوها أرختها ، وإن أرخوها شددتها .

وأمر بالمعروف الذى تعاون عليه المسلمون من كل ما أمر به الشرع ، فالمعروف اسم جامع لكل خير من طاعة وإحسان ، وأعرض عن الجاهلين ، نعم أعرض عن الجاهل الأحمق واجعل كأنك لم تسمع ولم يقل ، وعلى العموم لكل صنف من الناس معاملة ، ولا تنس قوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

هذه جوامع الكلم : خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين ، وجوامع الخلق ولقد صدقت السيدة عائشة حيث تقول : كان خلقه القرآن .

أما معاملة الشيطان العدو اللدود فإما ينزغتك منه نزغ ، أو يثر فيك داعية من دواعى الشر كالغضب والشهوة حتى يجعلك ثائراً متأثراً ، كتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز ( المنخاز ) .

فاعلم أن العلاج هو اللجوء إلى الله ، والتوجه إليه بالقلب ، والاستعاذة بالله من شر الشيطان وسوسته ، والانتقال من هذا الجو وتغييره بقدر الإستطاعة ، فالله سريع بكل دعاء ، عليم بكل قصد ونية .

واعلم أن الشيطان أقسم ليغوينهم جميعاً إلا العباد المخلصين فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . وقد روى عن النبي ﷺ ما معناه « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال وأنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم » <sup>(٣)</sup> !

إن الذين اتقوا الله وخافوا منه إذا مسهم طائف من الشيطان ، وأملت بهم لمة منه تذكروا الله وما اعده

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٦٠) وفى الأحكام (٢٢) . والدارمى فى المقدمة (٢٤) .

(٢) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه مسلم فى المنافقين (٦٩) . والدارمى فى الرقاق (٢٥) . والإمام أحمد فى (١: ٣٨٥، ٣٩٧، ٤٠١، ٤٦٠) .

للمتقين الأبرار ، وما أعد للعصاة الفجار ، فإذا هم مبصرون طريق الحق والخير ، فالؤمن الكامل قوى الإيمان كالجسم الصحيح ، لا تدخله جراثيم المرض ، وإن دخلت ماتت ، كذلك المؤمن لا تدخله الوسوس ، وإن دخلت تذكر وطردها، وكل إنسان يشعر بدوافع للخير ، ودوافع للشر فالأول لمة الملك ، والثانية لمة الشيطان .

قال النبي ﷺ « إن للشيطان لمة وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله على ذلك ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان » (١) ثم قرأ: ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ (٢) .

وإخوانهم وهم الجهلاء غير المتقين بالله-الشياطين يمدونهم وينصرونهم ويتعاونون معهم على الإثم والعدوان ثم هم لا يقصرون أبدا في ذلك .

### القرآن من عند الله

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَإِيرُ  
مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ لولا اجتبيتها ﴾ : هلا جمعتها من تلقاء نفسك واختلقتها ؟

كانوا طلبوا من النبي ﷺ آيات كونية خاصة ، فلما لم يجابوا إلى طلبهم قالوا تنبي سبيل التفتت هلا اختلقت آية وجمعتها من عندك ، يقصدون أن كل ما ينزل من القرآن إنما هو من عند محمد ، قل لهم يا محمد ﴿ إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي ﴾ فقط وليس لي أن أخترع ، أو آتى شيئا من عندي ، إنما أنا رسول ولست قادراً على إيجاد الآيات التي طلبتموها ، وما لكم تطلبون غير هذا القرآن وهو بصائر من ربكم ، وحجج وآيات واضحة دالة على صدقه ، وأنه من عند الله ، وهو كالبصائر للقلوب التي تنير طريق الفلاح ، وهو هدى ورحمة ولكن لقوم يؤمنون بالله وبالحياة الآخرة فمن آمن به وحافظ عليه وحكم به فأولئك هم المفلحون ذون سواهم .

### من آداب استماع القرآن والذكر

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ  
تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ  
عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٦﴾

**المفردات :** ﴿ فاستمعوا ﴾ : الاستماع يزيد عن السمع بالإنصات والقصد والنية ﴿ تضرعا ﴾ : من الضراعة والدلة والخضوع ﴿ وخيفة ﴾ : خائفين ﴿ بالغدو ﴾ : الغدو جمع غدوة وهى ما بين الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ والآصال ﴾ : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى الغروب .

إذا قرىء القرآن الكريم فاستمعوا له بإنصات وأدب ، وقصد مع السكون والخشوع رجاء أن ترحموا من الله فإنه لا يستمع لكلامه بأدب وحسن استماع إلا المخلصون الذين فى قلوبهم نور الإيمان ، وبرد اليقين ، أما من أهتمهم الدنيا وأقضت مضاجعهم حتى أصبحت قلوبهم خلوا من نور الإيمان ، تراهم عند سماع القرآن لا ينصتون أبدا ، بل ويتكلمون فى توافه الأمور . والآية عامة فى سماع القرآن فى الصلاة والخطبة وغيرها .

أليق بالمسلم أن يتكلم فلا يستمع ويتكلم جاره فيستمع ؟

واذكر ربك فى نفسك ، وذلك بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره ، والمهم التذكير بالقلب ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) .

اذكره ضارعا متذللا خاضعا خائفا راجيا ثوابه مع إتمام الاسم وعدم استعمال ما يخل به ، اذكره بلسانك وقبلك ذكرا دون الجهر وفوق السراء أى اذكره وسطا بين هذا وذاك ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ (٢)

وأنسب الأوقات للذكر وقت الصباح ، والمساء ، وبقيّة النهار للعمل ، وتحصيل الرزق .

وإياك أيها المسلم أن تكون من الغافلين عن ذكر الله بقلبك واعلم أن الذين عند ربك من الملائكة والمقرّبين لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه فى الليل والنهار وله وحده يسجدون فكيف بك ؟

**سجود التلاوة :** يكون عندما يسمع المسلم هذه الآية وأمثالها التى ستأتى وقد شرعه الله لنا إرغاماً لمن

أبى السجود من المشركين واقتداء بالملائكة المقرّبين ، وروى أن النبى كان يقول فى سجوده : « اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى اللهم ارزقنى علماً ينفعنى ، وعملاً يرفعنى » .

وروى أيضا : « إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول : يا ويله ، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار » (٣) .

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٣٣) . وابن ماجه فى الإقامة (٢٠١) . والإمام أحمد فى (٤٤٣:٢) .



## سورة الأنفال

قال صاحب البصائر : اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع ، وعدد آياتها خمس وسبعون ، وعدد كلماتها ألف ومائة وخمسة وتسعون كلمة . وحروفها خمسة آلاف ومائتان وثمانون .  
ولهذه السورة اسمان : سورة ( الأنفال ) ، لكونها مفتتحة بها ، ومكررة فيها ، وسورة ( بدر ) لأن معظمها في ذكر حرب بدر فأجرى بها .

## مقصود السورة

قطع الأطماع الفاسدة من الغنيمة التي هي حق لله ولرسوله ، ومدح الخائفين الخاشعين وقت سماع القرآن ، وبعث المؤمنين حقاً ، والإشارة إلى ابتداء حرب بدر ، وإمداد الله تعالى صحابة نبيه بالملائكة المقربين ، والنهي عن الفرار من صف الكفار ، وأمر المؤمنين بإجابة الله ورسوله ، والتحذير عن الفتنة ، والنهي عن خيانة الله ورسوله ، وذكر مكر كفار مكة في حق النبي ﷺ ، وتجاسر قوم منهم باستعمال العذاب ، وذكر إضاعة نفقاتهم في الضلال والباطل ، وبيان قسم الغنائم ، وتلاقى عساكر الإسلام ، وعساكر المشركين ، ووصية الله المؤمنين بالثبات في صف القتال ، وغرور إبليس طائفة من الكفار ، وذم المنافقين في خذلانهم لأهل الإيمان ، ونكال ناقضي العهد ليعتبر بهم آخرون ، وتهيئة غدر المقاتلة والمحاربة والميل إلى الصلح عند استدعائهم الصلح ، والمن على المؤمنين بتأليف قلوبهم ، وبيان عدد عسكر الإسلام ، وعسكر الشرك ، وحكم أسرى بدر ، ونصرة المعاهدين لأهل الإسلام ، وتخصيص الأقارب وذوى الأرحام بالميراث ، في قوله: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ ﴾ إلى آخر السورة .

## المتشابهات

قوله ﴿ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ ثم قال بعد آية : ﴿ كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أجاب عن هذا بعض أهل النظر وقال : ذكر في الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت ، كما فعله بآل فرعون ومن قبلهم من الكفار ، وذكر في الثانية ما يفعله بهم بعد موتهم .

قال الخطيب : الجواب عندى : أن الأول إخبار عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله ، وهو ضرب الملائكة وجوهمهم وأدبارهم عند نزع أرواحهم ، والثاني إخبار عن عذاب مكن الناس من فعل مثله ، وهو الإهلاك والإغراق .

قال تاج القراء : وله وجهان [ آخران ] محتملان أحدهما : كذاب آل فرعون فيما فعلوا ، والثاني : كذاب آل فرعون فيما فعل بهم فهم فاعلون في الأول ، مفعولون في الثاني .

والوجه الآخر : أن المراد بالأول كفرهم بالله ، وبالثاني تكذيبهم بالأنبياء ، لأن تقدير الآية : كذبوا الرسل بردهم آيات الله . وله وجه آخر وهو أن يجعل الضمير في ( كفروا ) لكفار قريش على تقدير :

كفروا بآيات ربهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، وكذلك الثانى كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون .

قوله ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ هنا بتقديم أموالهم وأنفسهم ، وفى براءة بتقديم ( فى سبيل الله ) لأن فى هذه السورة تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة فى قوله ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ و ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم ﴾ أى من الفداء .

﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ فقدم ذكر المال . وفى براءة تقدم ذكر الجهاد وهو قوله ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ﴾ وقوله : ﴿ كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ﴾ فقدم ذكر الجهاد . وذكر هذه الآى فى هذه السورة ثلاث مرات : فأورد فى الأولى ﴿ بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ وحذف من الثانية ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ اكتفاء بما فى الأولى وحذف من الثالثة ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ وزاد : ﴿ فى سبيل الله ﴾ اكتفاء بما فى الآيتين . مناسبتها لما قبلها : أنها فى بيان أحوال النبى ﷺ مع قومه ، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوالهم .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ الأنفال ﴾ : واحداها نفل ( بالتحريك ) من النفل بالسكون وهو الزيادة على الواجب ومنه صلاة النفل والمراد به هنا الغنيمة وقيل : الغنيمة كل ما حصل مستغنا بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة ﴿ والبين ﴾ : يطلق على الاتصال والافتراق ، وعلى كل ما بين طرفين كما قال : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ (١) وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ﴿ والوجل ﴾ : الفرع والخوف ﴿ والدرجات ﴾ : منازل الرفعة ومراق الكرامة .

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر ، إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة ، فقد روى

أبو داود والنسائي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « من قتل قتيلًا فله كذا وكذا ومن أسر أسيرًا فله كذا وكذا » فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم رداءً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبي ﷺ فنزلت : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾<sup>(١)</sup> .

وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن سعد بن أبي وقاص : أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه ، واستوهبه النبي ﷺ فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت في ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه ﷺ .

﴿ يسألونك عن الأنفال ﴾ أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هي ؟ أالشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هي أم للأنصار ؟ ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ أى قل لهم الأنفال لله ، يحكم منها بحكمه ، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى ، وقد قسمها ﷺ بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله ، ثم بين مصارفها ، وكيفية قسمتها في آية الخمس ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة ﴾ إلخ .

وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ، وقد روى عن سعد بن أبي وقاص أنه قال : « قتل أخي عُمَيْر يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبني فجئت به إلى النبي ﷺ ، فقلت : إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لي هذا السيف ، فقال لي عليه الصلاة والسلام : ليس هذا لي ولا لك اطرحة في القبض ، فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى ، وأخذ سلبى . فما جاوزت إلا قليلاً حتى نزلت سورة الأنفال فقال لي رسول الله ﷺ ! يا سعد سألتني السيف وليس لي ، وقد صار لي فخذ »<sup>(٢)</sup> .

﴿ واتقوا الله ﴾ أى فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله ، لما فيه من المضار ولاسيما في حال الحرب .

﴿ وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أى وأصلحوا ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفق ، وهذا الإصلاح واجب شرعاً ، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها ، وبه تحفظ وحدتها. روى عن عبادة بن الصامت قال : نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله لرسوله ، فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان في ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين .

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، ويقضى به ويحكم ، فالله تعالى مالك أمركم ، والرسول مبلغ عنه ، ومبين لوجيه بالقول والفعل والحكم .

وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة في الآخرة ، والفوز بثوابها ، والرسول ﷺ يطاع في اجتهاده أمر

الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ، ولا سيما في الشؤون الحربية ، لأنه القائد العام فمخالفته تخل بالنظام ، وتؤدي إلى الفوضى التي لا تقوم للأمة معها قائمة ، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة في تنفيذ الشرع وإدارة شؤون الأمة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم ، بشرط عدم معصية الله تعالى ، ومشاورة أولى الأمر .

﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أى إن كنتم كاملين الإيمان فامثلوا هذه الأوامر الثلاثة ، إذ كماله يقتضى ذلك ، لأن الله أوجبه ، فالمؤمن بالله حقاً يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتباع المعاصي ، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحياناً من ثورة شهوة ، أو سورة غضب ، ثم لا يلبث أن يفىء إلى أمر الله ، ويتوب إليه مما عرض له .

وقد وجه الله تعالى نداءات ربانية كريمة في هذه السورة ولو أخذت بها الأمة لكان النصر رائدها ، والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، ولو عملت بها ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية النبی محمد على كل بلد قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفوا زحفا فلا تولوهم الأدبار ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ وقال عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ وقال عظمت حكمته ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال جلّت قدرته ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ .

ولقد بين الله تعالى في صدر هذه السورة خصال المؤمنين الكاملين ، فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أى خوفاً من عذابه وعقابه ، وليس الذكر كلمات تلوّكها الألسنة ، وتحرك بها الشفاه ، إنما الذكر استحضار عظمة الله تعالى في القلب ، ونعته بنعوت الجلال والجمال والكمال . قال عز من قائل ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ (١) .

لذا فإن الذكر على سبعة أنحاء ، فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا . قال ﷺ « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم . وخير لكم من إنفاق الخير والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى . قال ذكر الله » (٢) .

فالمؤمنون إذا ذكر الله وجلت القلوب خوفاً من جلاله وعظمته ، فإذا ما ذكروا رحمته وعفوه ومغفرته

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٥٣) . والترمذى في الدعوات (٦) . والنسائي في الإيمان (١) .

اطمأنت القلوب : قال تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾<sup>(١)</sup> وهكذا حال المؤمن ، فهو بين الوعد والوعيد ، وبين الرجاء والخوف ، حتى يقوم الميزان بالقسط وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً .

وذلك لأنهم يستمعون إلى كلام الله بتدبر وتفكر ، فمن أراد أن يكلم الله فليدخل في الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

إنهم إذا قرأوه وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، نظر الله تعالى إليهم في جوف الليل واصلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شفق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وقد حذر الرسول ﷺ من أقوام يرجعون في القرآن ، ترجيع الغناء والنوح ، يقرأونه بلحون أهل الكتابيين ، ولحون أهل العشق ، لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم حالهم . فيأيتها المسلمون اقرءوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتابكوا ، إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يتسع لأهله ، ويكثر خيره ، وتسكنه الملائكة ، وتطرد منه الشياطين .

ومن استمع إلى آية من القرآن كتبت له حسنة مضاعفة ، فإذا تلاها كانت له نوراً يوم القيامة ، وفي فضل القرآن مراتب لا تحصى ومراقبه لا تستقصى ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ إنهم يأخذون في الأسباب ، والله عاقبة الأمور ، على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد ، قال تعالى ﴿ فإذا عزمتم فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾<sup>(٣)</sup> .

فعلى الفلاح أن يحث أرضه ، ويذر الحب ، ويتعهد النبات ، ويكل الزرع إلى الله ، قال تعالى ﴿ أفأرأيتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾<sup>(٤)</sup> .

إن المؤمنين لا يعتمدون إلا على الواحد الديان ، إنهم لا يتطايرون ، ولا يكتنون ، وعلى ربهم يتوكلون .

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ أى يؤدونها مستقيمة بشروطها وسننها وأركانها ، قال حاتم الأصم رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامي ، والموت ورأى . والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي . والصراط تحت قدمي . والله تعالى مطلع على من أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على .

قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾<sup>(٥)</sup> .

(٤) الآيتان ٦٣، ٦٤ من سورة الواقعة .

(٥) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٣) الآية ١٥ من سورة آل عمران .

قوله تعالى ﴿وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أى ينفقون بعضا مما رزقناهم ، وهذا البعض يسير ، قال تعالى ﴿وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم \* ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿١﴾.

ثم حكم الله تعالى لهم بعد ذلك بقوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أى فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم فى دار السلام . والله وليهم بما كانوا يعملون .

### حديث عن غزوة بدر

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿١﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٢﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٣﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿الشوكة﴾ : الحدة والقوة وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح .  
﴿الطائفتان﴾ : طائفة العير الآتية من الشام وطائفة النضير التى جاءت من مكة للنجدة . و﴿غير ذات الشوكة﴾ : هى العير . و﴿دابر القوم﴾ : آخرهم الذى يأتى فى دبرهم ويكون من ورائهم و﴿يحق الحق﴾ : أى يعز الإسلام لأنه الحق و﴿يبطل الباطل﴾ : أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التى كانت أول فوز للمؤمنين ، وخذلان للمشركين ، مع بيان أحكام الغنائم التى غنمها المسلمون منهم ، ثم ذكر هنا أول القصة ، وهو خروج النبى ﷺ من بيته ، وكرهه فريق من المؤمنين لذلك ، وقد كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكم أو يأمر به . ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾

أى أن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية . وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، ممن كانوا يرون أنهم أحق بها ، كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين ، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك ، لعدم استعدادهم للقتال ، ولنحو هذا من الأسباب التى تعلم مما يلى .

وبيان ذلك أن رسول الله لما سمع بأبى سفيان مقبلا بعيره ، من الشام ، ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه غير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله أن ينفلكموها . فخفف بعضهم . وثقل بعضهم ،

ظنا منهم أن رسول الله ﷺ لا يلقي حربا . وكان أبو سفيان قد استنفر عندما دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان ، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولغيرك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وخرج رسول الله ﷺ الناس بذلك ، واستشارهم .

فقام أبو بكر رضي الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ( مدينة باليمن ) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا لهم بالخير .

ثم قال رسول الله ﷺ « أشيروا علي أيها الناس . وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آبائنا ونساءنا . وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم »

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك . قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يا رسول الله قال : أجل . فقال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أمرك الله ، فوالذي بعثك بالحق لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ لقول سعد . ونشطه ذلك .

ثم قال « سيروا على بركة الله ، وأبشروا ، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين : العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتي من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل ، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم » . ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ أى يجادلوك المؤمنون في الحق وهى تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين ، وإنكار المسير إلى قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا - ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير - وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب ، وما كان هذا إلا لكراحتهم للقتال ، إذ أنهم كانوا في حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدهم أولا إحدى طائفتي قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام ، لأنها كسب عظيم لا مشقة في إحرازه لضعف الحامية .

فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجت ، إذ ذهبت من طريق سيف البحر ( طريق الشاطئ ) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل مالدى قريش من قوة ، وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى بالنصر عليها - صعب على بعضهم لقاءها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبي ﷺ بأنهم لم يخرجوا إلا للعر ، لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه ، فلا ينبغي أن يقال أن طائفة العير هى مراد الله لأنها نجت ، ولا بأن يقال إنها لم تعد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلا بد من الظفر بها لوعده الله به ، فإذا لا وجه للجدل إلا للجبن والخوف من القتال . ﴿ كَأَنَّمَا يَسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ أى كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لا هرب منه ، لوجود أماراته وأسبابه ، حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت فى القوة والعدد والخيال والزاد قاض بذلك ، ولكن الله تعالى وعد رسول الله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم ( ووعده لا يتخلف ) أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ما تتخلف ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله الذى بيده كل شئ وهو القادر على كل شئ . وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين ، وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم ، وكان هذا نصراً مؤزراً للمسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم . ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ ﴾ أى واذكروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أى وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : ( وهى العير ) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ، وغير عنها بذلك تعريضاً لكرهتهم للقتال وطمعهم فى المال ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم يريد أن يثبت الحق الذى أراده بكلماته أى بآياته المنزلة على رسوله فى محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر به الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى به من أسر المشركين وقتلهم ، وطرحهم فى قلب ( بئر ) بدر .

﴿ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴾ أى ويهلك المعاندين جملة ، ويستأصل شأفتهم ، ويمحق قوتهم ، وقد كان الظفر بيد فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة . قال صاحب الكشف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفاسف الأمور ، وألا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز فى الدارين ، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلبتكم وأعزكم وأذلهم . أ.هـ .

﴿ لِيَحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحقق الحق وهو الإسلام ويثبتته ، ويبطل الباطل وهو الشرك ويزيله ( ولو كره المجرمون ) أولاً الاعتداء والطغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير ، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من قلة ليستأصلوكم .



## غزوة بدر الكبرى المعركة الحاسمة الأولى للإسلام

ويحسن هنا أن نذكر ما جاء في كتاب (الرسول القائد) تأليف اللواء محمود شيت خطاب ، فقد أفاض في الحديث عن غزوة بدر من الناحية العسكرية حتى يكون المسلم على ذكر مما جاء منها ، فإن تلك الغزوة قد ثبتت دعائم المسلمين ، وأعلى الله بها كلمة الإسلام ، وسماها الله تعالى ﴿يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾ فنقول وبالله التوفيق :

قال المؤلف تحت عنوان الموقف العام :

### ١ - المسلمون :

ازداد عدد المسلمين في المدينة وازدادوا قوة وتماسكا ، ولكن حالتهم الاقتصادية كانت متردية ، لأن أكثر المهاجرين فروا بأنفسهم وعقيدتهم من قلة ، وتركوا أموالهم هناك ، ولأن الأنصار شاركوا المهاجرين في أرزاقهم القليلة ، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يفكرون جدياً في استخلاص أموالهم من قريش .

### ٢ - المشركون واليهود :

أصبح للمشركين ثأر عند المسلمين في قتل عمرو بن الحضرمي ، فلا بد من الأخذ بهذا الثأر حتى تعود لقريش وحلفائها كرامتهم وهيبتهم عند العرب ، كما أن الطريق التجارية الحيوية بين الشام ومكة أصبحت تحت رحمة المسلمين وحلفائهم ، كما أن انتشار نفوذ المسلمين وازدياد قوتهم يوماً بعد يوم لا يتفق مع احتكار قريش للسيادة على العرب . تلك هي العوامل المهمة التي جعلت قريشاً تفكر جدياً في انتهاز أول فرصة للقضاء على الدين الجديد ، وكان اليهود في المدينة يثيرون الحرب الباردة ضد المسلمين ، ويحاولون اختلاق المشاكل لهم ، ويقومون بواجب « الرتل الخامس »<sup>(١)</sup> لقريش .

## قوات الطرفين

### ١ - المسلمون :

بلغت قوة المسلمين (٣٠٥) رجال من المهاجرين والأنصار ، بقيادة الرسول ﷺ ، وكان معهم فرسان فقط وسبعون بعيراً يتعاقب الرجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد .

### ٢ - المشركون :

بلغت قوة المشركين (٩٥٠) رجلاً ، أكثرهم من قريش ، ومعهم مائتا فرس يقودونها ، وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم ، وكانت هذه القوة بقيادة عدد من رجالات قريش .

(١) يقصد به « الطابور الخامس » والمقصود به الجواسيس .

## أهداف الطرفين

### ١ - المسلمون :

- ( أ ) الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبي سفيان ، التي كان يحميها مابين ثلاثين وأربعين رجلا .  
( ب ) البقاء في « بدر » بعد إفلات القافلة حتى يتسامع المشركون بقوة المسلمين فيها بونهم ، ويتركون لهم حرية نشر الدعوة لدينهم .

### ٢ - المشركون :

- ( أ ) حماية القافلة التجارية القادمة من الشام .  
( ب ) عند إفلات القافلة تضاربت الآراء في القتال أو العودة ، فتغلب رأى القائلين بالقتال للأخذ بثأر عمر بن الحضرمي ، وللقضاء على قوات المسلمين ، ولتعرف العرب قوة قريش وسطوتها .

## قبل المعركة

### ١ - المسلمون :

- ( أ ) خرج أبو سفيان أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة في تجارة كبيرة إلى الشام ، وقد أراد المسلمون اعتراضها في غزوة « العشرة » عند ذهابها إلى الشام ، ولكنها تملصت منهم .  
وتحين المسلمون عودتها من الشام ، فبعث الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، ينتظرانها ، حتى إذا وصلا « الحوراء » على طريق الشام - مكة مكثا هناك ، فلما مرت القافلة بهم ، أسرعوا إلى المسلمين بخبران النبي ﷺ بأمرها .

ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج ، وقال لهم : « هذه غير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » وخف بعض الناس ، وثقل بعض ، لأنهم لم يظنوا أن الرسول سيخوض معركة حاسمة ضد المشركين بل ظنوا أن الغزوة ستكون عبارة عن مناوشات طفيفة ، كما حدث في السرايا والغزوات السابقة ، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا إلى المسلمين طمعاً في الغنيمة ، فأبى النبي ﷺ عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

- ( ب ) تحركت قوات المسلمين في المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بالترتيبات التالية :

- أولاً : دورية استطلاعية أمامية للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة التجارية ونوايا قريش .  
ثانياً : القسم الأكبر مؤلف من كتيبتين : كتيبة المهاجرين ورايتها مع علي بن أبي طالب وعمير بن هاشم : وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ ، وهاتان الرايتان سوداوان .

ثالثاً : مؤخرة بإمرة قيس بن ألى صعصعة .

رابعاً : راية المسلمين العامة بيضاء مع مصعب بن عمير بن هاشم .

(ج) سلكت قوات المسلمين العامة طريق القوافل بين المدينة وبدر البالغ طوله حوالى (١٦٠) كيلو متراً ، وقد قسم الرسول ﷺ الإبل المتيسرة وعددها سبعون بعيراً على أصحابه ، وكان من نصيبه مع على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى بعير واحد يتعاقبونه : تماماً كما يفعل أى فرد من قواته .

قال شريكاً الرسول فى البعير : « نحن نمشى عنك » . فقال : « ما أنتم بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » . وأراد بذلك المساواة مع أى فرد من قواته ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) .

(د) انطلق المسلمون مسرعين خوفاً من إفلات قافلة أبى سفيان منهم ، وبثوا عيونهم يتعرفون الأخبار ، فلما وصلوا قريباً من « الصفراء » بعث الرسول دورية استطلاعية قوتها رجالان إلى « بدر » للحصول على المعلومات عن قريش وقافلته ، فلما وصل المسلمون « وادى ذفران » جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلته .

(هـ) أخبر الرسول ﷺ أصحابه بما بلغه من أمر قريش طالباً مشورتهم فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فسكت الناس فقال الرسول : أشيروا على أبى الناس ، وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على صد اعتداء خارج مدينتهم ، فكان الرسول ﷺ يخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن يهاجمه فى المدينة فلما أحس الأنصار أن الرسول ﷺ يريد سماع رأيهم ، قام سعد بن معاذ وقال « لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ » فقال : « أجل » .

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً : إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وارتحلوا جميعاً حتى إذا كانوا على مقربة من « بدر » انطلق الرسول ﷺ أمام قواته وبصحبه أبو بكر ، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، قال الشيخ : « لا أخبر كما حتى تخبرانى » « ممن أنتما ؟ » .

قال النبي ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » .

علم الرسول ﷺ من شيخ العرب أن غير قريش قريبة منه ، فقال شيخ العزب « نحن من ماء » . ثم انصرف وصاحبه عنه والشيخ يقول : « مامن ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ » وهكذا لم يخبره الرسول عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين .

( و ) أرسل الرسول ﷺ دوريتي استطلاع غرضهما الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها .

الدورية الأولى مؤلفة من علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه ، استطاعت الوصول إلى ماء بدر ، وعادت ومعها غلامان لقريش ، فاستنطقهما الرسول ، وعلم منهما أن قريشاً وراء الكثيب « بالعدوة القصوى » ولما أجابا : « بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش » سألهما : « كم ينحرون يومياً ؟ » . فأجابا : « يوماً تسعاً ويوماً عشرة » .

فاستنبط الرسول ﷺ من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف وعرف من الغلامين كذلك أن أشرف قريش خرجوا المنعة .

والدورية الثانية مؤلفة من رجلين من المسلمين وصلا ماء بدر ، فسمعا جارية تطالب صاحبها بدين عليها والثانية تحيها : « إنما تأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك » فعاد الرجلان فأخيرا الرسول بما سمعا .

( ز ) تأهب المسلمون لخوض المعركة وعسكروا في أدنى ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول ، فقال : « أرأيت هذا المنزل ، أمنت لا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ » . قال : « بل هو الحرب والرأي والمكيدة » .

قال الحباب : « يارسول الله : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأق أدنى ماء من القوم ، فنعسكر فيه ، ثم نعود ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » .

أنفذ الرسول ﷺ هذا الرأي ، فما حل نصف الليل حتى تحول المسلمون إلى معسكرهم الجديد ، وامتلكوا مواقع الماء ، وأعلن الرسول لأصحابه : « أنه بشر مثلهم ، وأن الرأي شوري بينهم ، وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه في حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم » ...

وأنجزوا بناء الحوض وملأوه ماءً ، ثم غرّروا المياه الأخرى ، وتم كل ذلك ليلاً ، ثم أخذوا قسطهم من الراحة بقية الليل ، ليكونوا أقوياء في الصراع الوشيك .

## ٢ - المشركون :

علم أبو سفيان بخروج الرسول ﷺ لاعتراض قافلته حين رحلته إلى الشام فخاف أن يعترضه المسلمون حين عودته .

لقد كانت القافلة حوالى ألف بعير موقرة بالأموال ، إذ لم يبق أحد من قريش رجالاً ونساءً لم يساهم فيها بحظ حسب إمكانياته الاقتصادية حتى قوم ما تحمله القافلة بخمسين ألفاً من الدنانير .

ولما تأكد أبو سفيان من خروج الرسول ﷺ وأصحابه للتعرض لقافلته العزلاء إلا من ثلاثين أو أربعين رجلاً ، استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه مبرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه .

وصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذن بعيره ، وجدع أنفه وحول رحله ، ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قبل ومن دبر ، وجعل يصيح : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أى سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ... لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث ...

ولم تكن قريش في حاجة إلى من يستنفرها ، فقد كان لكل فرد منها في العير نصيب . ولما فرغت قريش من جهازها وأجمعت المسير ، ذكرت ماكان بينها وبين بنى « كنانة » من الحرب والحزازات ، فخشوا أن تضربهم « كنانة » من الخلف ، وكاد هذا المحذور يقعدهم عن الخروج لولا أن جاء مالك ابن جعشم المدلجى ، وكان من أشرف بنى كنانة ، فقال أنا جار لكم من أن تأتیکم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه ...

إذ ذاك قررت قريش الخروج خاضعة لرأى دعاة الحرب وعلى رأسهم أبو جهل ، أشد الناس عداوة للمسلمين ، وعامر بن الحضرمى أخو عمر بن الحضرمى الذى قتله المسلمون في « نخلة » والذى يحرض على الأخذ بثأره . ولم يتخلف من أشرف قريش غير أبى لهب الذى أرسل مكانه رجلاً آخر . كما حشد هؤلاء كافة القادرين على حمل السلاح من قريش وحلفائهم . وسبق أبو سفيان قافلته للحصول على المعلومات عن قوة المسلمين ومواضعهم فلما ورد ماء بدر وجد عليه مجدى بن عمر ، فسأله : « هل رأى أحداً من المسلمين ؟ فأجاب مجدى : « لم أر إلا راكبين أناخا إلى هذا التل » وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين .

فحص أبو سفيان مناخهما ، فوجد في روث بعيريهما نوى عرفه في علائف يثرث فأدرك أن الرجلين من اصحاب محمد ، وأن جيشه منه قريب ، فرجع إلى القافلة ليغير طريقها نحو الساحل ، تاركاً بذراً إلى يساره ، وأسرع في مسيره حتى بعدت المسافة بين القافلة وبين قوات المسلمين ، وأرسل أبو سفيان إلى قريش يطلب منهم أن يعودوا أدراجهم إلى مكة لنجاة قافلته من المسلمين .

وأرسلت قريش عمير بن وهب الجمحى ليستطلع لهم قوة المسلمين ، فرجع إليهم ليخبرهم أنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ولا كمين لهم ولا مدد ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلاً مثله ، تضاربت آراء قريش ، منهم من يريد الرجوع ومن هؤلاء بنو زهرة الذين رجعوا فعلاً ، ومنهم من يريد البقاء ، ومعنى ذلك الاصطدام بالمسلمين . قال أبو جهل زعيم الذين أرادوا البقاء لقتال المسلمين : « والله لا نرجع حتى نرد بذراً ، فنقيم عليه ثلاثة ننحر الجزور

ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعرف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابونا أبداً بعدها » .

وقصد حكيم بن حزام عتبة بن ربيعة فقال : « يا أبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها . هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ » .

قال عتبة : « وماذا يا حكيم ؟ »

قال حكيم : « ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمي » .

قال عتبة : « قد فعلت . أمن على بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله ؛ فأت ابن الحنظلية - يقصد أبا جهل - فإنى لا أخشى أن يشجر - أى يخالف بين الناس ويحملهم على عدم الوفاق - أمر الناس غيره » .

قال حكيم : « فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته مثل درعاً - أى أخرج درعه - من جرابها ، يهتها - أى يتفقدوها ويعدها للقتال - فقلت يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك يكذا وكذا » .  
قال أبو جهل : « انتفخ والله سحره - يقصد أن عتبة حين رأى محمداً وأصحابه - كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعته ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه تخوفكم عليه » .

وبعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي فقال : « هذا حليفك يريد أن يرجع الناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم وانشد خفرتك » . فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف ، ثم صرخ « واعمرأ .. واعمرأ » .

ولما علم عتبة بقول أبى جهل : « انتفخ والله سحره » قال : « سيعلم مصفرا سته - أى الجبان - من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ » .

ولم يبق مفر ولا مهرب من القتال .

### سير القتال

١ - أنجز المسلمون قبل بدء القتال مايلي :

( أ ) انتخب الرسول ﷺ موضعاً مشرفاً على منطقة القتال فى بدر وبنى فيه مقره - العريش - وأمن حراسة هذا المقر .

( ب ) جرى ترتيب المقاتلين فى صفوف وسأوى الرسول ﷺ بين الصفوف بعد أن شجع أصحابه وحرضهم على الصبر فى القتال . وأمر الرسول أصحابه أن يصدوا هجمات المشركين وهم مرابطون فى مواقعهم وقال لهم : « إذا اكتفكم القوم ؟ فانضحوهم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » ...

(ج) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم في القتال . أحد .. أحد<sup>(١)</sup>.

- ٢ - دخل المسلمون المعركة بالأسلوب الأنف الذكر : مقر قيادة كامل وسيطرة لقائد واحد وأسلوب جديد في القتال لم تعرفه العرب من قبل ، هو أسلوب الصف .
- ٣ - أما المشركون فقد مارسوا أسلوب قتال « الكر والفر » بدون قيادة منظمة ولا سيطرة ، بحيث جرى قتالهم كأفراد لا كمجموعة موحدة .

٤ - بدأ المشركون الهجوم أولاً ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذي بناه المسلمون قائلاً : « أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمته أو لأموتن دونه » فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض لاقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه .

٥ - برز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، فخرج إليهم فية من الأنصار ، ولكن الرسول أعادهم وطلب خروج عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب ، لأنهم من أهله فهو يؤثرهم بالخطر على غيرهم ، ولأن شجاعتهم وممارستهم للقتال معروفة ، لذلك فإن نجاحهم مضمون على رجالات قريش ، مما يرفع معنويات المسلمين ويضعف معنويات المشركين .

بارز عبيدة عتبة ، وبارز على الوليد ، وبارز حمزة شيبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة ان قتله وكذلك فعل على .

وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر ، فكرر على وحمزة بأسافهما على عتبة فأجهزا عليه واحتملا صاحبهما .

٦ - استشاط المشركون غضباً لهذه البداية السيئة ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم وهاجمتهم فرسانهم إلا أن صفوف المسلمين بقيت صامدة في مواضعها ، تصوب نبالها على المشركين متوخية إصابة ساداتهم بالدرجة الأولى ولم يفتن المشركون لأسلوب المسلمين الجديد في القتال ، مما جعل رجالات المشركين تنهوى بوابل نبال المسلمين المصوبة تصويهاً دقيقاً ، والمسيطر عليها .

٧ - ونزل الرسول ﷺ بنفسه يقود صفوف المسلمين ، وأخذت هذه الصفوف تقترب رويداً رويداً من فلول المشركين التي فقدت قادتها .. حتى تبعثرت قوات المشركين .

وحينذاك فقط أصدر الرسول ﷺ أمره لقواته : « شدوا » ومعنى ذلك القيام بالمطاردة .

وبدأت مطاردة المسلمين لفلول المشركين ، وأخذوا يجمعون الغنائم والأسرى .

٨ - ابتدأت معركة بدر صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وانتهت مساءه ، وبقي المسلمون ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة .

(١) وهي ما تعادل في الجيوش الحديثة كلمة السر .

## خسائر الطرفين

## ١ - المسلمون :

استشهد أربعة عشر مسلماً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

## ٢ - المشركون :

قتل سبعون رجلاً وأسروا سبعون أيضاً

## أسباب انتصار المسلمين

## ١ - قيادة موحدة :

كان الرسول هو القائد العام في معركة « بدر » وكان المسلمون يعملون يداً واحدة تحت قيادته : يوجههم في الوقت الحاسم للمحل الحاسم للقيام بعمل حاسم ، وهذا هو واجب القائد الكفء . وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثلاً رائعاً للضبط الحقيقي المتين ، وإذا كان الضبط أساس الجندية ، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلّى بضبط ممتاز ، إذا كان الأمر كذلك ، فقد كان جيش المسلمين جيشاً ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

إن معنى الضبط فيما أرى ، هو طاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وعن طيب خاطر .

وقد كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة نادرة ، وبشوق وطيب خاطر عظيمين ، ومن حقهم أن يفعلوا ذلك ، لأن قائدهم يتحلّى بصفات القائد المثالي .

صبر في الشدائد ، وشجاعة نادرة في المواقف الحرجة ، ومساواة لنفسه بأصحابه ، واستشارتهم في كل عمل حاسم ، وأخذه بالمشورة .

رأى الخطر محققاً بأصحابه قبل المعركة ، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عدداً وعدداً .. فقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله ، وشجع أصحابه على الصبر في القتال .

وعندما اشتدت المعركة نزل يخوضها بنفسه ، وحسبك شهادة على بن أبي طالب سيد الشجعان حيث يقول : « إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحلق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم « بدر » ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو »<sup>(١)</sup>.

ولم يؤثر نفسه بمال أو راحة على أصحابه ، وقد رأيت كيف ساوى نفسه مع أصحابه حتى في أعقاب الإبل والمشى على الأقدام .

وشاور أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش ، وسمع رأى المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين وقبل



مشورة أحد أصحابه في تبديل معسكره في بدر حين نزل بأدنى ماء منها ، فانتقل بالمسلمين إلى حيث أشار الحباب ، وغور القلب وبني حوضاً على القلب الذي أتاه .

واستشار المسلمين في أمر الأسرى بعد المعركة ، وعمل بالرأى الذي أبداه أبو بكر ومشايعوه .  
تلك مزايا القائد المثالي في كل زمان ومكان .

ولابد للقائد من مقر يسيطر منه على المعركة فبنى العريش فوق رابية مشرفة على ساحة المعركة وكان لمقره حرس بإمرة أمر مسئول .

كل ذلك جعل المسلمين يقاتلون كرجل واحد ، لغاية واحدة ، بقيادة قائد واحد ، هذا عامل مهم من عوامل النصر في كل حرب ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١) .

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام ، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ، ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر هما رجلا ن : عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل .

وقد رأيت كيف أنهما لم يكونا على رأى واحد ، ولم يكن لهما هدف واحد ، بل إنهما كانا أقرب إلى العداوة منهما إلى الإخاء .

لذلك ، فقد طغت الأنانية الفردية على المصلحة العامة أثناء القتال ، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلا لتحدث العرب عنه ، دون أن يكثرث بأثر ذلك على نتائج المعركة .

## ٢ - تعبئة جديدة :

طبق الرسول ﷺ في « مسير الاقتراب » من المدينة إلى بدر تشكيلا لا يختلف بناتا عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء ، كانت له مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، واستفاد من دوريات الاستطلاع في الحصول على معلومات وتلك هي الأساليب الصحيحة لتشكيلات سير الاقتراب في حرب الصحراء ، حتى في العصر الحاضر .

أما في المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف ، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر ، ولابد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين ، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمين ، القتال بأسلوب الكر والفر ، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو ، النشابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ، ويطعنون بالرماح ، مشاة وفرساناً ، فإن صمد لهم العدو أو أحسوا بالضعف نكصوا ، ثم أعادوا تنظيمهم ، وكروا ، وهكذا يكرون ويفرون ، حتى يكتب لهم النصر أو الفشل .

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر على حسب عددهم ، وتكون الصفوف الأمامية من المسلمين بالرماح ، لصدهجمات الفرسان ، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من

المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء ، وتبقى الصفوف في مواضعها بسيطرة قائدها إلى أن يُفقد زخم المهاجمين بالكر والفر شدته ، عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبة بالزحف على العدو .

يظهر من ذلك أن أسلوب الصفوف يمتاز على أسلوب الكر والفر بأنه يؤمن الترتيب بالعمق ، فتبقى دائما بيد القائد قوة احتياطية يعالج بها المواقف التي ليست بالحسبان ، كأن يصد هجوماً مقابلاً للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو أن يحمل أجنحته التي يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته ثم يستثمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة .

إن أسلوب الصفوف يؤمن السيطرة على القوة بكاملها ، ويؤمن احتياطاً للطوارئ ، ويصلح للدفاع والهجوم في وقت واحد .

أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ، ولا يؤمن له أى احتياط للطوارئ .

إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف في معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين .

والتاريخ العسكري يحدثنا بأن سر انتصار القادة العظام كالإسكندر ، وهانيبال قديماً ، ونابليون ، وملتكه ، وروميل ، وروتشيلد حديثاً ، هو أنهم طبقوا أسلوباً جديداً في القتال غير معروف ، أو قاتلوا بأسلحة جديدة غير معروفة .

استعرض الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال ، فعندما رأهم يتزاحمون ، ويدنو بعضهم من بعض ، جعلهم صفوفاً ، وأخذ يعدل صفوفه ، وبعد ذلك خطبهم حاثاً لهم على الجهاد ، وأمرهم أن يصدوا هجوم العدو وهم مرابطون في مواقعهم ، وذلك بتسديد النبال إلى صدور العدو ، كما أمرهم ألا يحملوا إلا بأمر منه ، فلما تهاوت رجال قريش ، وضعف زخم هجومهم ، أصدر إلى المسلمين أمره بالهجوم ، ثم بالمطاردة بعد انهزام المشركين .

لقد سيطر الرسول ﷺ على الصفوف في دفاعها وهجومها ومطاردتها ، حتى لم يتقدم أحد للمبارزة إلا بأمر منه ، ولم يقم المسلمون بأى عمل إلا بأمر منه ، وبذلك أمن السيطرة والاحتياط اللازم تماماً ، كما في الحرب الحديثة .

لقد طبق الرسول ﷺ أسلوباً جديداً في القتال ، فانتصر .

### ٣ - عقيدة راسخة :

رأيت كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول ﷺ حين استشارهم في قتال قريش .

لقد علم المسلمون بأن قريشاً تفوقهم في العدد والعُدَد ، وأن عدد قوات قريش ثلاثة أمثال عدد المسلمين ، ومع ذلك اعتزموا على الصمود إلى النهاية . كما علموا أن قافلة قريش فاتتهم ، فلم يبق هناك كسب مَادَى يرجونه ، ومع ذلك صمموا على القتال .

لقد كانت للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها ، هي أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم ، حتى تكون كلمة الله هي العليا .

فما هي أهداف قريش من حربها ، إلا أن تنحر الجزور ، وتطعم الطعام ، وتشرب الخمر ، وتعزف القيان ، فتسمع العرب بمسيرها ، فيهاونها أبداً بعدها ، كما قال أحد زعمائهم وهو أبو جهل .

وهل تستطيع تسمية ذلك أهدافاً أم ذلك طيش وغرور وعصية جاهلية ؟

في هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادئ ، ففصلت بينهم السيوف .

كان أبو بكر مع المسلمين . وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين . وكان عتبة بن ربيعة مع قريش ، وكان ولده أبو حذيفة مع المسلمين .

وعندما استشار الرسول ﷺ عمر بن الخطاب في مصير الأسرى ، قال عمر : « أرى أن تمكنني من فلان - قريب عمر - فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبي طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست في قلوبنا هودة للمشركين ، وهؤلاء ضناديدهم وأئمتهم وقادتهم » .

فما الذي يدفع لمثل هذا القول إلا عقيدة راسخة ، وإيمان عظيم ، وهل يستطيع الذين لا عقيدة لهم ، ولا تحمل صدورهم إلا أهواء الجاهلية ، وعصية الأنانية ، وحب الظهور أن يقاتلوا في بسالة وشجاعة كما يقاتل أمثال هؤلاء من أصحاب اليقين الثابت ، والعقيدة الراسخة .

#### ٤ - معنويات عالية :

شجع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه ، وقوى عزائمهم ومعنوياتهم ، حتى لا يكثرثوا بتفوق قريش عليهم بالعدد ، ولم تكن معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين هي العالية فحسب ، إنما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالاً ، عالية أيضاً .

قال عبد الرحمن بن عوف .

« إني لفي الصف يوم بدر إذا التفّت فإذا عن يميني وعن يساري فتیان حديثا السن فكأنني لم آمن بمكانتهما إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل . فقلت : يا ابن أخي ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه » .

« وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين : فضرباه حتى

قتلاه »

وقد استشهد هذان البطلان في بدر ، وهما ابنا عفراء : عوف بن الحارث الخزرجي الأنصاري ،

ومعوذ بن الحارث الخزرجي الأنصاري .

فإذا كانت معنويات الفتيان الأحداث بهذا المستوى الرفيع ، فكيف تكون معنويات الرجال ؟  
لقد أثبتت كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية ،  
لنيل النصر ، ما لم يتحل المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذلك .

لقد كان تنظيم وتسليح الإيطاليين في الحرب العالمية الثانية ممتازاً كما كان عددهم ضخماً ، فلم يغن  
عنهم كل ذلك لأن معنوياتهم كانت منهارة ، ولذلك كانوا عبئاً ثقيلاً على حلفائهم الألمان في كل معركة  
اشتركوا فيها معهم ، بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التي تشغلها القوات الإيطالية فراغاً عسكرياً لا  
يكثرث به .

إن المعنويات القتالية التي كان يتحلّى بها المسلمون في بدر من أهم أسباب نصرهم في تلك المعركة  
الحاسمة .

لقد كانت معركة بدر صراعاً حاسماً بين عقيدتين ، فانتصرت العقيدة التي تستحق البقاء على العقيدة  
التي لا تستحق البقاء .

### دروس من بدر

#### ١ - الاستطلاع :

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع في الحصول على المعلومات ، ليحولوا دون مباغتتهم ، وكان  
حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقعها عن الأرض جيداً مفيداً . وقد ظهرت لنا فائدة  
استنطاق الأسرى الذي أجراه الرسول ﷺ مع غلامى قريش قبل المعركة في معرفة عدد قوات قريش ،  
كما كان استنتاج أى سفیان من فحوصه روث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع بدر ، ومعرفته هويتهما  
رائعاً حقاً .

إن تشيبت الطرفين بالحصول على المعلومات حرم الطرفين من مبدأ المباغتة في الزمان والمكان ، فلم  
يستفد أحد الطرفين من هذا المبدأ الحيوى في هاتين الناحيتين أو في إحداهما على الأقل ، في هذه المعركة .

#### ٢ - القيادة :

برزت مزايا الرسول ﷺ في القيادة بمعركة بدر الشجاعة ، وضبط الأعصاب وعقد المؤتمرات الحربية  
قبل وأثناء وبعد المعركة ، ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شيء كما طبق الرسول القائد لأول مرة شروط  
انتخاب المقر الملائم للمعركة ، وأمن حراسته .

#### ٣ - الضبط والمعنويات والعقيدة :

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين ، والمعنويات العالية ، والعقيدة الراسخة ، في انتصار المسلمين على  
قريش ، وستبقى هذه المزايا حيوية لكل انتصار في كل حرب .

## ٤ - القضايا التعبوية :

(أ) في مسير الإقتراب : كانت ترتيبات المسلمين في مسير الإقتراب ملائمة جداً : مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، وراية لكل من المهاجرين والأنصار ، وراية عامة للقوات كلها ، كما كانت دوريات الاستطلاع أمام الرتل تحول دون مباغتته ، وهى تزوده بالمعلومات عن قريش .

إن ترتيبات المسلمين في مسير الإقتراب تشابه تماماً ترتيبات القوات النظامية الحديثة في مسير الإقتراب في حرب الصحراء .

(ب) في القتال : استخدم المسلمون لأول مرة « أسلوب الصف » في قتالهم ضد قريش ، بينما جمعت قريش على أسلوب الكر والفر ، وبذلك استطاع الرسول السيطرة على قواته ، والاحتفاظ باحتياط للطوارئ .

لقد باغت الرسول ﷺ قريشاً في قتاله بأسلوب « الصف » والمباغته بالأسلوب من مزايا القائد العبقري .

لقد كان أسلوب الصف في القتال أسلوباً جديداً بينما كان أسلوب الكر والفر أسلوباً بالياً .

(ج) كلمة التعارف : كانت كلمة التعارف في القتال بين المسلمين أحد .. أحد ، وبذلك استطاعوا أن يتعارفوا في المعركة وهذا الأسلوب متبع في المعارك الحديثة .

إن ظروف المعركة ليست ظروفًا اعتيادية ، ومن الضروري أن يكون هناك أسلوب واضح للتعارف بين المقاتلين ، خاصة وأن المسلمين والمشركين حينذاك كانوا يتشابهون في كل شيء : في الأشكال ، والقيافة ، وفي التسليح ، والتنظيم مما يزيد أهمية كلمة التعارف ، ويجعل لها قيمة أعظم مما لو كان الطرفان المتحاربان يختلفان في أشكالهم ، وقيافتهم ، وتسليحهم ، وتنظيمهم .

## ٥ - القضايا الإدارية :

(أ) الأرزاق : كان المشركون ينحرون بين تسعة من الإبل وعشرة يومياً لتأمين الطعام الحار للمقاتلين ، وكانت هذه الإبل تقدم من سراة قريش .

أما المسلمون فقد كانوا يكتفون غالباً بالتمر والسويق لأن حالتهم الاقتصادية كانت ضعيفة حينذاك .

(ب) الماء : بنى المسلمون حوضاً للماء في ( بدر ) وملأوه بالماء واستفادوا منه يوم القتال ، أما بقية مياه بدر فغفروها ، لئلا يستفيد منها المشركون ، أما المشركون فكانوا محرومين من الماء يوم القتال مما جعل شجعانهم يحاولون اقتحام حوض المسلمين . فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً .

لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثر كبير في اندحارهم .

(ج) الغنائم : جمع الرسول ﷺ غنائم المعركة وقسمها بالتساوى بين المسلمين من أهل بدر ، ومن

عاونهم على إحراز النصر : جعل للفارس سهمين يستعين بالسهم الرائد على إعاشة فرسه ، وإعدادها للحرب ، وجعل للراجل سهماً واحداً ، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر ، وجعل حصة لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد ( بدرأ ) لأنه كان قائماً بعمل المسلمين ، وبقي في المدينة ، بأمر الرسول ، ولن حرّضه حين الخروج إلى بدر وتخلف لعذر قبله الرسول .

إن النصر في الحرب لا يحزره المقاتلون فقط ، بل يتعاون على إحرازه المقاتلون في الخطوط الأمامية ، والعاملون في الخلف ، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين ، لذلك لم ينس الرسول ﷺ العاملين في الخلف حين قسم الغنائم بين الناس .

### ( ٥ ) الأسرى

أولاً : أمر الرسول ﷺ بقتل أسيرين لشدة عداوتهما للمسلمين حريصين على التنكيل بهم شديدين في إيذاء المستضعفين منهم وكانا من ألد خصوم الدعوة .  
ثانياً : أما الأسرى الباقون وعددهم ثمانية وستون فقد وزعهم الرسول ﷺ على صحابته قائلاً « استوصوا بالأسارى خيراً » .

ثم فادى الأغنياء الأسرى بالمال فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف ، أما فقراء الأسرى فأطلق سراح بعضهم دون مقابل ، كما كلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال .

### ( ٦ ) القتلى والجرحى :

حضر المسلمون قليلاً دفنوا فيه قتلى المشركين وهذا ما يطابق تعاليم الحرب الحديثة في وجوب دفن قتلى الأعداء .

كما اعتنى المسلمون بجرحى المشركين فضمّدوا جراحاتهم أسوة بجرحى المسلمين .

### ( ٧ ) التهذيب :

استفاد المسلمون من الأسرى المتعلمين تعليم أطفالهم ، فكان هؤلاء الأطفال النواة الأولى لكتاب الوحي ، ولحملة الثقافة الإسلامية فيما بعد .

### الاستغاثة بالله

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَتَى مُنْذُكُمْ بِالْفِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصَاثُ مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُفَّكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ

رَجَزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَأَةِ  
 أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ  
 وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
 فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

**المفردات :** ﴿تستغيثون ربكم﴾ : استغاث طلب الغوث والمعونة ليخلص من شدة .  
 ﴿ممدكم﴾ : ناصركم ومعينكم . ﴿مردفين﴾ : متبعين بعضهم بعضاً مأخوذ من أردفه إذا أركبه  
 ورائه . ﴿يغشاكم﴾ : المراد يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتاله عليكم . ﴿النعاس﴾ : فتور في  
 الأعصاب يعقبه النوم فهو مقدمة له . ﴿رجز الشيطان﴾ : الرجز والرأس الشيء المستقذر والمراد  
 وسوسة الشيطان . ﴿وليربط على قلوبهم﴾ : ليثبتها ويوطئها على الصبر . ﴿الرعب﴾ : الخوف  
 الكثير . ﴿فوق الأعناق﴾ : المراد الرؤوس ( بنان ) هو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والمراد  
 الأيدي والأرجل . ﴿شاقوا﴾ : خالفوا وعادوا إذ هم أصبحوا في شق وناحية والرسول في شق  
 وناحية .

### سبب النزول :

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة  
 وبضعة عشر رجلاً ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، ثم مديده  
 وجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » فما زال  
 يهتف بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم  
 التزمه من ورائه وقال : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله الآية .. وفى رواية  
 فخرج رسول الله وهو يقول ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾ (١) .

اذكروا يا أمة محمد وقت استغاثتكم ربكم قائلين أى ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين ،  
 أغثنا والمراد بالذكر تذكير لهم بالنعم ليشكروا ، وقد استغاث النبي ﷺ كذلك كما روى ، وبذلك أنهم  
 لما علموا أنه لا بد من القتال وملاقاة النفر من قريش أخذوا يدعون الله ويستغيثون .

واعلم أن النصر فى الحروب إنما يرجع إلى أسباب حسية ومعنوية إن تحققت جاء النصر من الله :  
 والله سبحانه هو الموفق لسلوك أسباب النصر أو أسباب الهزيمة والنبي ﷺ يعلم ذلك ، وأن الله سننا مع  
 خلقه لا تتخلف ، وأن عنده آيات يؤيد بها رسله ، ولكنه لما رأى ضعف المسلمين وقلة عددهم وتهيبهم

من القتال ، استغاث الله ليوفقه إلى سنن النصر ، ويؤيده فتقوى الروح المعنوية فيتحقق النصر ، وقد استغاث الصحابة كما استغاث ، ولقد استجاب الله الدعاء وأمدهم بألف من أعيان الملائكة يردف بعضهم بعضاً حتى يتحقق قوله في سورة آل عمران ﴿ بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾<sup>(١)</sup> : ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾<sup>(٢)</sup> وما جعل الله ذلك المدد الإلهي إلا بشرى بأن النصر لكم ، وأن الله معكم ، ولتسكن قلوبكم . ويهدأ روعكم فتلقون الأعداء ثابتين مطمئنين .

واعلموا أن النصر من عند الله لا من عند غيره أبداً ، وأن الله عزيز لا يغالب حكيم في كل صنع . وهل الملائكة قاتلت بالفعل كما ورد في بعض الروايات ؟ أو هي قوة معنوية وتكثير للسواد ولم يحاربوا ، بل ثبتت قلوب المسلمين ، وقويت روحهم المعنوية بهم ، الله أعلم على أن المتفق عليه أنهم لم يقاتلوا يوم أحد ، لأن الله علق النصر على الصبر والتقوى ولم يحصل .

واذكروا إذ ألقى الله عليكم النعاس حتى غشيكم كما روى البيهقي عن علي كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا إلا المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ يصلي تحت الشجرة حتى أصبح » .

ولاشك أن النعاس يزيل الخوف ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثوق بالنصر .

ولقد نزلوا في بدر منزلاً في كتيب ( تل ) أغفر تسوخ فيه الأقدام ، وليس فيه ماء ، وقد احتلم بعضهم ليلاً ، ولما أصبحوا ظمئوا وصلوا مجنين محدثين ، وكان المشركون على الماء فوسوس لهم إبليس وقال لو كنتم على حق وفيكم نبي لما صليتم بجنابة وبغير وضوء ، ولما كنتم عطاشى وهم على الماء . فأنزل الله مطراً كان على المشركين وابلاً شديداً ، وكان على المسلمين طلاً خفيفاً طهرهم من الرجز والدنس ، والجنابة والحدث وقضى على وسوسة الشيطان وأصبحوا يطئون الرمل بسهولة ، فثبتت أقدامهم ، وسكنت قلوبهم ، وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه ، وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه وبنى لرسول الله عريش على تل مشرف على المعركة .

واذكروا إذ يوحى ربك إلى الملائكة بالإلهام أنى معكم معية إعانة ونصر وتأيد . فثبتوا قلوب المؤمنين ، وقووا عزائمهم ، وذكروهم وعد الله ورسوله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

وقد روى أن الملائكة كانت تسير بين الصفوف وتبشرهم بالنصر إنا معكم ، سنلقى في قلوب الكافرين الرعب . فاضربوا رءوسهم التي فوق الأعناق واقطعوها ، واقطعوا أيديهم التي طالما عصت الله .

ذلك النصر المؤزر للنبي وصحبه ، وذلك الخذلان والهزيمة للمشركين بسبب أنهم عادوا الله

ورسوله ، وأصبحوا في شق والرسول في شق ، وهل تستوى الظلمات والنور ؟

(٢) الآية ١٢٥ من سورة آل عمران .

(١) الآية ١٢٤ من سورة آل عمران .



ومن يعاد الله ورسوله فإن له فوق الهزيمة والألم والخزى في الدنيا عذاباً شديداً ، فإن الله شديد عقابه سريع حسابه .

### توجيهات حرية للمؤمنين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدُّوكُمْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

**المفردات :** ﴿ زحفاً ﴾ : زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دب على مقعده كالصبي أو مشى بنقل في الحركة واتصال وتقارب خطو ، والعسكر المجتمع كأنه شخص واحد إذا تحرك يبدو أنه بطيء زاحف والواقع أنه سريع . ﴿ الأدبار ﴾ : جمع دبر وهو ما يقابل القبل ويطلق على الظهر والمراد الهزيمة . ﴿ متحرفاً ﴾ : تحرف وانحرف مال إلى حرف أى إلى جانب . ﴿ متحيزاً ﴾ : منحازاً إلى جماعة أخرى أى منضمماً إليها . ﴿ ليلى المؤمنين ﴾ : البلاء الاختبار بإعطاء النقم لاختبار الصبر ، والنعم لاختبار الشكر ، والمراد هنا الابتلاء بالنعم . ﴿ تستفتحوا ﴾ : أن تطلبوا الفتح والنصر في الحرب والفصل في الأمر .

يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا به وبرسوله ، يجب عليكم إذا لقيتم الذين كفروا في ميدان الحرب حالة كونهم كالزاحفين على أدبارهم في بطء السير ، إذ الجيش إذا كثر عدده يرى في سيره بطيئاً والواقع أنه سريع ، وقد زحف الكفار على المسلمين يوم أن انتقلوا من مكة إلى بدر ، فيجب عليكم والحالة هكذا ألا تولوهم الأدبار ، وألا تفروا منهم مهما كثر عددهم وأنتم قلة بل اثبتوا وقاتلوا فالله معكم عليهم ، وقد خص بعض العلماء هذا إذا كان الكفار لا يزيدون على الضعف ومن يولهم يومئذ دبره في القتال ، ومن يفر منهم ويحبن عن قتالهم فعليه غضب من الله ومأواه جهنم .

فالفرار من الزحف إذا التقى الجيشان كبيرة من الكبائر ، كما ورد في الحديث يستحق صاحبها الغضب الشديد والعذاب الأليم ، إلا رجلاً منحرفاً من مكان إلى مكان رآه أصلح في ضرب العدو ، أو أراد أن يوهم العدو أنه يفر حتى يستدرجه بعيداً عن صحبه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فذلك من خدع

الحرب المحبوبة ، أو رجلا منتقلا من جماعة إلى جماعة أخرى رأى أنها في حاجة إليه ، فيشد أزرهم ، ويقوى عزمهم .

يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم الكفار فلا تولوهم ظهوركم أبداً ، ولا تفروا منهم ، فأنتم أولى بالثبات والشجاعة ، فأنتم تطلبون إحدى الحسينين ، وقد وعدكم الله بالنصر .

انظروا إلى ما حصل في غزوة بدر ، قد نصركم الله بها وأنتم قلة في العدد ، وما كان ذلك إلا بتأييد الله ، وتثبيت قلوبكم ومدكم بالملائكة ، وبإلقاء الرعب في قلوب أعدائكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذي كسر شوكتهم في الواقع ، ولكن الله قتلهم بأيديكم ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ <sup>(١)</sup> .. الآية .

ولقد كان من المسلمين بعد أن رجعوا من غزوة بدر ، افتخار كثير ، فكان الواحد يقول : أنا قتلت ، أنا أسرت ، فعلمهم الله أن ذلك فخر كاذب لا يليق ، ووجههم توجيهاً حسناً حتى يلجئوا إليه ، ويعتمدوا عليه وحده فقال : ﴿ فلم تقتلوهم ﴾ بقوتكم ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ بتأييده ونصره وإنزال الملائكة وإلقاء الرعب وهو على كل شيء قدير .

روى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ : « هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إني أسألك ما وعدتني فأتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فرمى بها وقال : شأنت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه » .

وما رميت يا محمد حين رميت الحصى ، ولكن الله رمى ، وهذا ظاهره التناقض ، ولكن المعنى وما رميت يا محمد فإنه الأثر الذي حدث من قبضة التراب التي رميتها أثر كبير ، حيث وصل إلى عيون الجيش كله ، وهذا لا يمكن أن يكون من بشر وإن تكن أنت الذي رميت في الظاهر فصورة الرمي للرسول ﷺ وأثر الرمي وما حدث منه الله سبحانه وتعالى .

فعل الله ذلك كله لتقام حجته على الكفار بتأييد رسوله ونصره على عدوه ، وإن اختلفت الإمكانات الحربية ، وليعطى المؤمنين الذين فارقوا ديارهم وأموالهم عطاء حسناً بالغنيمة والنصر وحسن السمعة ورد الاعتبار ، إن الله سميع لكل قول والتجاء إليه ، عليم بكل نية وعمل ، ذلكم القتل والرمي والإعطاء حق من الله تعالى موهن كيد الكافرين ومكرهم بالنبي ﷺ وصحبه وأنهم يريدون القضاء على الدعوة قبل أن يشتد أمرها ، وذلك كله حق فقد رد كيدهم في نحورهم ، ورجعوا مهزومين مطرودين .

روى أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أقطع للرحم وآق بما لا يعرفون فأمته الغداة . فكان ذلك منه استفتاحاً .

وروى أنهم تعلقوا بأستار الكعبة قبل خروجهم وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فأجابهم الله بقوله استهزاء بهم وتوبيخاً لهم على عملهم وتعجباً من حالهم .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ أيها الكفار فقد ﴿ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ وهذا منتهى التهكم إذ جاءهم الهلاك والذلة ، ﴿ وَإِنْ تَنْتَهُوا ﴾ وتسلموا وتركوا عداوة النبي ﷺ ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وأجدى ، وإن تعودوا إلى محاربتة نعد نحن إلى نصره وهزيمتكم ، ولن تغنى جماعتكم وقوتها شيئاً ولو كثرت ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والتأييد والتوفيق إلى سلوك طريق النجاح والفلاح ، والعاقبة للمتقين .

### تحذير من مخالفة الدين

يٰۤأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ \* إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

**المفردات :** ﴿ الصم ﴾ : الصمم عدم السمع والأصم الأطرش . ﴿ البكم ﴾ : البكم عدم الكلام والأبكم الأخرس . ﴿ الدواب ﴾ : جمع دابة وهى ما تدب على الأرض والغالب استعمالها فى الحشرات والدواب التى تحمل على ظهرها وإذا أريد منها الإنسان كان المقصود الاحتقار .

يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فيما أمر أو نهى ، ولا تعرضوا عن الأمر بالجهاد وبذل المال وغيرهما ، والحال أنكم تسمعون المواعظ والزواجر فى القرآن والحديث .

وإياكم أن تكونوا كالذين قالوا سمعنا ، والحال أنهم لا يسمعون أبداً ، إن شر المخلوقات عند الله من لا يصغى بسمعه إلى الحق فيتبعه ، ويعتبر بالموعظة الحسنة فيعمل بها ، فإن من لا يستخدم جهاز السمع فيما خلق له كان كأنه فاقد له فهو أصم عن الحق والخير والهدى والفلاح والبكم الذين لا يقولون الحق . ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا حاسة الكلام ، والذين لا يعقلون الفرق بين النور والظلام ، والهدى والضلال ، والإسلام والكفر .

إذ لو استخدموا عقولهم ، وأبعدوا عنها ذل التقليد وحمى العصبية الجاهلية لعقلوا المنفعة ، وأدركوا الصالح المفيد ، ولكنهم كالبهائم لا يعقلون .

ولو علم الله فيهم الميل إلى الخير والسادد والاستعداد إلى الإيمان والهدى ، ولم تفسد فطرتهم بسوء القدوة وفساد التربية ، لأسمعهم بتوقيفه سماع تدبر ، ووقفهم لكلامه وكلام رسوله ، ولكنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، فهم لا خير فيهم أصلاً ، ومن يلقى إليه شئ لا يخلو من واحدة من أربع .

١ - معاند لا يسمع أبداً بل يجعل أصابعه فى أذنيه .

٢ - منافق يسمع أبداً ويتظاهر بالقبول ساعة الحضور ، ثم هو لا يتدبر ولا يفهم شيئاً .

٣ - يستمع ليتسقط العيوب ويتلمس السقطات .

٤ - يسمع فيبتدى بنور الحق وهم الفئة المؤمنة الموقفة المهدية إلى يوم القيامة .

فيها أيها المسلمون اسمعوا القرآن ، وتدبروا معناه ، واهتدوا بهديه ، ولا تسمعه تسلياً أو تعزية أو تبركاً فقط .

### الاستجابة لداعي القرآن

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَادْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ناداهم الله بوصف الإيمان الذى يوجب الامتثال والاستجابة ، ثم أمرهم بأن يستجيبوا لله ولرسوله ، وذلك بالطاعة والامتثال إذا دعاهم لما يحييهم ، وحثهم على الخير لهم ، وحرصهم على ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة .

وقد دعانا الرسول للإيمان والقرآن والهدى والجهاد ، ومن حرم من هذا فهو ميت لا حياة فيه . ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾ (١) فخذوا ما آتاكم الرسول بقوة وعزم ونشاط وجد فالخير فيه ، وسعادة الدارين معه .

واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ويفصل بينهما ، والمعنى أن المسلم يجب ألا يغتر بعمله وطاعته ، وألا يأمن مكر الله ولو كانت إحدى رجله فى الجنة ، فالقلوب بين أصابع الرحمن ، والله يحول بين المرء وقلبه ، فالواجب عليه دائماً أن يغذى قلبه بالعمل ، ويجلوه بالذكر ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (٢) .

والواجب على المسلم العاصى ألا يأس من روح الله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، وعلينا أن نسرع دائماً فى الخير ولانألوا جهداً فى تحصيله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، فيموت قبل قفل أبواب الخير أو التوبة الصادقة .

وعلينا أن نحذر خطرات القلوب وأمراضها فالله عليم بذات الصدور ، وهو يفصل بين المرء وقلبه ، ومن كان كذلك فهو أقرب إلى الله من جبل الوريد .

﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ فأسرعوا في العمل ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وأعدوا العدة ليوم الحشر .

واتقوا فتنة لا تصيبن الظالمين خاصة ، بل تعمهم وغيرهم ، كالفتن القوية التي تهز كيان الأمة وتزعزع أركانها ، كفتنة الملك والسيادة أو الخلافات السياسية وما يتبعها من أحزاب وانقسام . وكالأحزاب الدينية ، وكظهور البدع ، والكسل عن الجهاد ، أو ظهور المنكرات مع إقرارها ، والالتواء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهذه فتن لا تصيب أصحابها فقط ، بل تلتهم نيرانها الأمة جميعاً إذ هم بين رجلين ، رجل اشترك في الإثم ، ورجل سكت عنه ولم يمنعه ، فهو كالمشترك معه .

انظروا إلى الفتن التي لاحقت الإسلام في العصر الأول كفتنة عثمان ، وحادثة الجمل ، ومقتل الحسين ، وغيرها ، وكيف كان أثرها .

واعلموا أن الله شديد العقاب على من خالف أمره ، فهو معاقبه في الدنيا والآخرة ، واذكروا أيها المهاجرون ، وقيل الخطاب لجميع المؤمنين في عصر التنزيل ، واذكروا وقت أن كنتم قلة مستضعفين في مكة ، والمشركون معكم بحولهم وطولهم يذيقونكم سوء العذاب ، وأنتم تحافون أن يأخذوكم بسرعة قاطعة كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم﴾ .

﴿فأواكم﴾ أيها المهاجرون إلى الأنصار . ﴿وأيدكم بنصره﴾ وبما أرسل لكم من الملائكة ووفقكم لسبل النجاح ، وبما ألقى في قلوب أعدائكم من الرعب والخوف ، والله رزقكم من الطيبات رزقا حسنا ، رجاء أن تقوموا بالشكر .

وفي الآية عبرة وعظة لنا فالله يعامل أوليائه ، وأحبابه من المؤمنين إذا امتثلوا أمره بهذا ، أى يؤويهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم ، ويجعلهم أعزة وملوكاً ، ويرزقهم من طيبات الرزق ، كل ذلك رجاء قيامهم بالشكر ، فإن شكروا زادهم الله ، وإن لم يشكروا ولم يمتثلوا كما هو حال المسلمين اليوم أصبحوا أذلة في ديارهم ، مستعبدين في أوطانهم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

### الخيانة من صفات المنافقين

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا

أَنْمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

**المفردات :** ﴿لا تخونوا﴾ : الخيانة والخون يدلان على النقص واختلاف ما كان يرجى ومنه قيل خانته الحظ ، وخانته رجلاه ثم استعمل الخون والخيانة في ضد الامانة والوفاء . ﴿والأمانة﴾ : تدل على كل التمام وهى حق مادى أو معنوى يجب عليك أدائه . ﴿فتنة﴾ : هى الاختبار والابتلاء أو المراد بها الإثم والعذاب .

روى أنها نزلت في أنى لبابة ، وكان حليفاً لبنى قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبي ﷺ بعد إجلاء بنى النضير ، وحاصرهم حصاراً شديداً دام إحدى وعشرين ليلة ، وقد طلبوا من النبي ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن أمواله وعياله فيهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ؟ هل تنزل على حكم سعد بن معاذ كما طلب محمد ﷺ ؟ فأشار إلى حلقه أى أن حكم سعد الذبح .. قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، فنزلت الآية ؟ وقد شد نفسه على سارية المسجد ، وأنى الطعام والشراب حتى الموت ، أو يتوب الله عليه ، ومكث سبعة أيام وبعدها تاب الله عليه ، وفك النبي وثاقه .

يا من اتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن ، والاهتداء بالقرآن لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه ، أو تنقصوا شيئاً من أحكامه التى بينها لكم فى كتابه ، فإن ذلك خيانة تتنافى مع الإيمان ، ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، ولا تخونوه فترغبوا عن بيانه للقرآن فهو أدرى وأقرب فخيانة الله والنبي عبارة عن تعطيل فرائض الدين ، وعدم العمل بأحكامه والاستئناس بسنته ، فإن هذا كله نقص لا يليق بالمؤمن المؤمن على دينه ، على أن الخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين .

ولا تخونوا الأمانة التى فى أيديكم لغيركم ، سواء كانت معاملات مالية أو شئوناً أدبية أو سياسية ، أو سرّاً من الأسرار ، أو عهداً من العهود ، والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها دنيا وأخرى ، وأنتم تعلمون الأمانة ومكانتها ، وقيل المعنى وأنتم تعلمون أن هذا خيانة ، وذلك أمانة كما حصل لأنى لبابة .

واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة وابتلاء وأى فتنة وابتلاء ؟

إذ المال عند الإنسان شقيق الروح ، يركب الأخطار ، ويتحمل المشاق فى سبيل الحصول عليه فإذا هو أعطى المال ؟ فهل يشكر ويرضى ؟ أم يكفر ويعصى ؟ وإذا حرم منه يصبر ويرضى أم يغضب ويلعن ؟ أليس هو فتنة وابتلاء ؟ على أن المال وحبه الغريزى قد يدفع صاحبه إلى عمل يوقعه فى المهالك والمصائب .

وأما الولد فقطعة من أبويه وقلدة كبدهما ، وثمره فؤادهما ، وحبه فطرة وطبيعة عند والديه ، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل النفس والنفيس فى سبيل راحتة وسعادته وقد يؤدى ذلك إلى إقرار الذنوب والآثام ، وركوب الشطط فى سبيله ، أليست الأولاد فتنة بهذا المعنى وابتلاء ، وقد ورد ﴿ الولد ثمر الفؤاد وإنه مجبنة مبخلة محزنة ﴾<sup>(١)</sup> أى يدعو إلى ذلك كله .

والواجب على المؤمن أن يتقى الله فى المال فيكسبه من طريق الحلال وينفقه فى سبيل الله ، وعلى العموم يتبع أوامر الدين ، ويخالف نفسه وهواه فإن المال فتنة وابتلاء ، ويتقى الله فى الولد ، فلا يكون حبه داعية من دواعى ارتكابه الإثم والعدوان ويراقب الله فيه فينشئه تنشئة صالحة دينية ، ولا يدفعه حب الولد إلى أن يكون فى جمع المال له كحاطب الليل .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٧٢) وفى (٥ : ٢١١) .

واعلموا أن الله عنده أجر عظيم وخير كثير ، هو خير من الدنيا وما فيها ، فارعوا الأمانة ، ولا تخونوا الله ورسوله .

### تقوى الله وأثرها

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ  
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿ إن تتقوا الله ﴾ : التقوى من الوقاية وهى امتثال الأمر واجتناب النهى لأن هذا يكون وقاية للعبد من النار . ﴿ فرقاناً ﴾ : فارقاً بين الحق والباطل .. الخيانة سببها الإفراط فى حب المال والولد عالياً ، وعلاج هذا كله هو التقوى والاعتدال .

يا أيها المؤمنون إن تتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فرقاناً ، فيكون المسلم حيث أمره الله ولا يكون حيث نهاه الله ، هذه التقوى إن حصلت لعبد جعل الله له نوراً يمشى به بين الناس ، وحكمة يهتدى بها وعلماً نافعاً وعملاً صالحاً ، وهذا كله يجعله يفرق بين الحق والباطل والنافع والضار ، ويهتدى إلى الصراط المستقيم . كيف لا ؟ والمتقرب إلى الله بالنوافل يكون ربانياً ويكون المولى جل شأنه سمعه وبصره ويده ورجله ، أفتراه يضل بعد هذا ؟ أأست معى فى أن التقوى هى السبيل الأقوى ؟ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم السابقة ، ويسترها ويغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات النعيم ، والله سبحانه ذو الفضل العظيم .

### تأمرهم على رسول الله

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

**المفردات :** ﴿ ليثبتوك ﴾ : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس، حتى لا تقدر على الحركة . ﴿ والمكر ﴾ : هو التدبير الخفى لإيصال المكروه إلى المكور به من حيث لا يحتسب، والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل، وإذا نسب إلى الله كان من المشاكلة فى الكلام بتسميته خيبة المسعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه . ﴿ والأساطير ﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهى الأقاصيص التى سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولا تثبت من صحتها .

روى الإمام محمد بن إسحق بن يسار صاحب المغازي عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : وحدثني الكلبي عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس « أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس في صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيي ونصحي : قالوا : أجل ، ادخل فدخل معهم فقال : انظروا في شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم في أمركم بأمره . فقال قائل منهم : احبسوه في وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابعة إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، قالوا : صدق الشيخ ، فانظروا في غير هذا . قال قائل منهم : أخرجه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع ، وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره في غيركم . فقال الشيخ النجدي : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض من العرب ليجتمعن عليه ، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم . ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأياً غير هذا .

قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره ، قالوا وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهذاً ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدي : هذا والله الرأى . القول ما قال الفتى لا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له .

فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبيت رسول الله ﷺ تلك الليلة ، وأذن الله عند ذلك بالخروج .

وأنزله الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

وأُنزل في قولهم : تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ <sup>(١)</sup> فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ، للذى اجتمعوا عليه من الرأى .



وعن السدى نحو هذا السياق وأنزل الله في إرادتهم إخراجهم قوله تعالى ﴿ وَإِنْ كَادُوا لِيَسْتَفْزِنُواكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيَخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾ (١).

وكذا روى العوفي عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا . أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت في مكانه الذي كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه فخرج ومعه حفنة من تراب ، فجعل يذرهما على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ ﴿ يس ﴾ والقرآن الحكيم \* إنك لمن المرسلين \* على صراط مستقيم \* تنزيل العزيز الرحيم \* لتنذر قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون \* لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون \* إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون \* وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ (٢).

وقد روى ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبت ومالي لا أبكي وهؤلاء الملأ من قريش في الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال « يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، فطأطأوا رؤوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم ، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شأهت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا ، ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر أخبرني عثمان الجريري عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس في قوله ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ الآية . قال : « تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأتبوه بالوثاق يريدون النبي ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقصصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال » (٣).

(١) الآية ٧٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات ١ - ٩ من سورة يس .

(٣) أخرجه البخارى في اللباس (١٦) . والإمام أحمد في (٦ : ١٩٨) .

وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير في قوله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أى : فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم .

إن يد الله تعمل في الخفاء ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ إنه هو يبدى ويعيد \* وهو الغفور الودود \* ذو العرش المجيد \* فعال لما يريد ﴿١﴾ . ﴿وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لنزول منه الجبال﴾ ﴿٢﴾ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله \* إن الله عزيز ذو انتقام ﴿٣﴾ قوله تعالى : ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ .

هذا موقف من مواقفهم التى تدل دلالة قاطعة على أنهم مفلسون . وفي نفس الوقت معاندون ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ وما يمنعكم أن تقولوا وأنتم في مجال التحدى ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ ﴿٤﴾ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴿٥﴾ .

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴿٦﴾ .

﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴿٧﴾ . ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾ ﴿٨﴾ .

لقد عجزوا وهم أرباب البلاغة وأساطين الفصاحة . فماذا يفعلون ، أظهروا خبيثة أنفسهم التى هاجت فيها عقارب البغضاء وجرائم السوء ، وعقارب الحقد ، وعناكب الخراب ، فماذا يقولون عن القرآن بعد عجزهم قالوا : ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ وكذبوا ، فكلام الله حق منزّه عن الباطل ، بعيد عن الخرافات ﴿وبالحق أنزلنا وبحق نزل﴾ ﴿٩﴾ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه \* تنزيل من حكيم حميد ﴿١٠﴾ .

لقد كان القرآن ومازال وسيظل غصا ، نديا ، يتقاطر نورا ورحمة ، لا تستطيع القرون وإن تباعدت أن تصيب أسلوبه بشيء من الجفاف ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب

(٦) الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة يونس .

(٧) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة هود .

(٨) الآية ٣٤ من سورة الطور .

(٩) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(١٠) الآيات ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

(١) الآيات ١٢ - ١٦ من سورة البروج .

(٢) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .

(٣) الآية ٤٧ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٨٩ من سورة الإسراء .

معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشيع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب اقرعوه وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا .

الله أكبر إن دين محمد      وكتابه أقوى وأقوم قِيلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده      طلع الصباح فأطفئوا : القنديلا

### كبر وعناد

وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ ۖ أَوِ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۖ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً ۚ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ مكاء ﴾ : صغراً . ﴿ تصدية ﴾ : تصفيقاً .

واذكر إذ قالت قريش : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق من عندك لاشك فيه ولا مرية ، فعاقبنا على الكفر به ، بحجارة من سجيل كما عاقبت أصحاب الفيل ، ومرادهم إنكار كونه حقاً منزلاً من عند الله ، كأنهم قالوا إن كان الباطل حقاً فأتنا بعذاب أليم ، تراهم علقوا نزول العذاب على محال في ظنهم ، وفي تعبيرهم ﴿ هذا هو الحق ﴾ المفيد للتخصيص تهكم بمن يقول : القرآن حق . فهذا أسلوب بليغ في الجحود والإنكار .

إن كان هذا القرآن هو الحق دون غيره ، فأمطر علينا حجارة من السماء هي الحجارة المسومة للعذاب أو اثنتا بعذاب أليم آخر .

وهذا هو بيان لموجب التأخير في إجابة دعائهم .

وما كان من مقتضى سنة الله ورحمته وحكمته أن يعذبهم بعذاب الاستئصال وأنث فيهم ، قد بعثت رحمة للعالمين ، وما عذب الله أمة ونبيها معها .

وما كان الله ليعذبهم والحال أنهم يستغفرون ، أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر لما عذبهم الله أبداً ، ولكنهم قوم مردوا على الكفر والشرك فلن يتوقع منهم ذلك ، وقيل وما كان ينبغي تعذيبهم وفيهم من يستغفر الله من المؤمنين الذين بين ظهرانيهم .

وتقيد نفس العذاب بكون الرسول معهم دليل على أن العذاب يترصدهم ، وأنهم معذبون لا محالة بدليل قوله تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله ﴾ ؟ على معنى وأى شيء ثابت لهم حتى ينتفى عنهم العذاب ، فهم معذبون لا محالة .

وكيف لا يعذبون ؟ وهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله عنه عام الحديبية ، ألم يخرجوا النبي وصحبه من المسجد الحرام ؟ أفلا يكون هذا صدأً عنه ؟ وكانوا يقولون نحن أولياء البيت الحرام نصد من نشاء وندخل من نشاء ، فيرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه ، وكيف يكونون أولياء له مع شركهم وعداوتهم للنبي ﷺ ؟ وما أولياؤه وأحبابه إلا المتقون المؤمنون من المسلمين فقط ، وليس كل مسلم يوصف بأنه ولي الله .

ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك ، وقيل منهم من يعرف حقيقة نفسه .. وقد كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالاً ونساءً مع الصغير والتصفيق وقد سجل الله عليهم ذلك . وما كان صلاتهم عند البيت الكريم إلا صغيراً وتصفيقاً فكان طوافهم وصلاتهم من قبيل اللهو واللعب .

فذوقوا العذاب الأليم المعد لكم بسبب كفركم وشرككم .

### لا يصلح الله عمل المفسدين

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ حسرة ﴾ : ندامة وألماً . ﴿ فيركمه ﴾ : أى فيجمعه .

قال محمد بن إسحق : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحسين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بغيره ، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربيه ، لعلنا أن ندرك منه ثاراً بمن أصيب منا ، ففعلوا قال : ففهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل

﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ﴾ إلى قوله ﴿ هم الخاسرون ﴾ .

وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدى وابن أبزى أنها نزلت في  
أبي سفيان ونفقته الأموال في أحد لقتال رسول الله ﷺ .

وقال الضحاك : نزلت في أهل بدر .

وعلى كل تقدير فهي عامة وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم  
ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى ندامة حيث لم  
تجد شيئا ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره  
الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزى لهم في الدنيا ، ولهم في  
الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه ، وسمع بأذنه ، ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى  
الجزى الأبدى ، والعذاب السرمدي .

ولهذا قال ﴿ فسيفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ يميز الله الخبيث من الطيب ﴾ قال علي بن أبي طلحة : عن ابن عباس في قوله  
﴿ يميز الله الخبيث من الطيب ﴾ : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء .

وقال السدى : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز في الآخرة كقوله ﴿ ثم  
نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾ . وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ  
يتفرقون ﴾ وقال في الآية الأخرى ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ وقال تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها  
المجرمون ﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا التميز في الدنيا بما ظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل  
الله للكافرين من مال ينفقونه في الصد عن سبيل الله ﴿ يميز الله الخبيث من الطيب ﴾ أى من يطيعه  
بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن  
الله . وليعلم المؤمنون وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم  
قتالا لا تبعناكم ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله  
ليطلعكم على الغيب ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (٢)  
ونظيرتها في براءة أيضا .

فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك  
﴿ يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ أى يجمعه كله ، وهو

جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رِكَامًا﴾ أى متراكما متراكبا ﴿فِيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أى هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

### ترغيب وترهيب

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ آنتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ ﴿٣٠﴾

هذا خطاب من الله تعالى إلى الأمة الإسلامية في صورة رئيسها ورسولها محمد ﷺ ، أن يبلغ المشركين بهذا الخبر الإلهي ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ .

جاء في الصحيح من حديث أنس بن مالك عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » <sup>(١)</sup> .  
وفي الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها » <sup>(٢)</sup> .

وقوله ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ أى يستمروا على ما هم فيه ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى فقد مضت سنتنا في الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعالجهم بالعذاب والعقوبة .  
قال مجاهد في قوله : ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى في قريش يوم بدر وغيرها من الأمم .  
وقال السدى ومحمد بن إسحق : أى يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ .

قال البخارى حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن ابن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله في كتابه ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ <sup>(٣)</sup> فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى أعير بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله عز وجل ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ إلى آخر الآية قال : فإن الله تعالى يقول ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال ابن عمر قد

(١) أخرجه البخارى في المرتدين (١) . ومسلم في الإيمان (١٨٩ ، ١٩٠) . وأبو داود في الدييات (٢٥) . وابن ماجه في الزهد (٢٩) .

والدارمى في القدمة (١) وفي الدييات (٢٥) . والإمام أحمد في (١ : ٣٧٩ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٦٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (٤ : ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) . (٣) الآية ٩ من سورة الحجرات .

فعلنا على عهد رسول الله ﷺ ، إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يفتن في دينه ، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقهم فيما يريد قال : فما قولكم في علي وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في علي وعثمان : أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ، وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون <sup>(١)</sup> .

عن سعيد بن جبير قال : « خرج علينا - أو إلينا - ابن عمر رضي الله عنهما فقال : كيف ترى في قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدري ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس يقتالكم على الملك » <sup>(٢)</sup> .

هذا كله سياق البخاري رحمه الله .

وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر : [ أنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا . إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعني أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا : أو لم يقل الله ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ؟ قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ] <sup>(٣)</sup> .

كذا روى حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمي قال : ( كنت عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فأتاه رجل فقال : إن الله يقول ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ قال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله ) .

وكذا رواه حماد بن سلمة فقال ابن عمر : ( قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ، ولم تكن فتنة ، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله ) رواهما ابن مردويه .

وقال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : قال ذو البطين يعني أسامة بن زيد : ( لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال سعد بن مالك : وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال رجل : ألم يقل الله ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة . وكان الدين كله لله ) رواه ابن مردويه .

(١) أخرجه البخاري في تفسير ( سورة : ٢ ) حديث (٣٠) وتفسير ( سورة : ٥ ) حديث (٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ( ٢ : ٧٠ ) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن (١) .

وعن ابن عباس ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾ يعني لا يكون شرك .

وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن اسحق بلغنى عن الزهري عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا ( حتى لا تكون فتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه ) .

وقوله : ﴿ويكون الدين كله لله﴾ قال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية قال : يخلص التوحيد لله .

وقال الحسن وقتاده وابن جريج ﴿ويكون الدين كله لله﴾ أن يقال لا إله إلا الله .

وقال محمد بن إسحق : ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك . ويخلص ما دونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ويكون الدين كله لله﴾ : لا يكون مع دينكم كفر . ويشهد لهذا ما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل »<sup>(١)</sup> .

وفيها عن أبي موسى الأشعري قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاقل حمية ، ويقاقل رياء ، أى ذلك في سبيل الله عز وجل فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل »<sup>(٢)</sup> .

وقوله ﴿فإن انتهوا﴾ أى بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿فإن الله بما يعملون بصير﴾ كقوله : ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾<sup>(٣)</sup> وفي الآية الأخرى ﴿فإخوانكم في الدين﴾<sup>(٤)</sup> وقال ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين﴾<sup>(٥)</sup> .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إله إلا الله فضربه فقتله فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة « أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله . وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة » فقال يا رسول الله إنما قالها تعوداً قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول

(١) أخرجه البخارى في الإيمان (١٧) وفي الزكاة (١) وفي الصلاة (٢٨) . ومسلم في الإيمان (٣٢) . وأبو داود في الزكاة (١) وفي الجهاد (٩٥) . والترمذى في الإيمان (٢٠) . والنسائى في الزكاة (٣) .

(٢) أخرجه البخارى في العلم (٤٥) وفي التوحيد (٢٨) . ومسلم في الإمامة (١٥٠ ، ١٥١) . والترمذى في فضل الجهاد (٦) وابن ماجه في الجهاد (١٣) . والإمام أحمد في (٤ : ٣٩٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٥ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .



ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة » قال أسامة : حتى تمتيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ <sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ، فاعلموا أن الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير . وقال محمد بن جرير : حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبى حدثنا أبان العطار حدثنا هشام ابن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة : سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك كتبت إلى تسألنى عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة ، فنعم النبي ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيراً ، وعرفنا وجهه فى الجنة ، وأحياناً على ملته . وأماتنا ، وبعثنا عليها ، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدها منه أول ما دعاهم إليه ، وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطوائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس ، واشتدوا عليه وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانعطف عنة عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم . وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ثم ائتمرت رعوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يشنى عليه مع ذلك . وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها كثيراً من الرزق ، وأمناً ومتجراً حسناً . فأمرهم بها النبي ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهرها بمكة ، وخافوا عليهم الفتن .

ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هى التى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلازل ، فلما استرخى عنهم ودخل فى الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عنمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثررون .

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٨) . وأبو داود فى الجهاد (٩٥) . وابن ماجه فى الفتن (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٤٣٩) وفى (٥ :

وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير . وفشا الإسلام بالمدينة وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلما رأت قريش ذلك تآمروا على أن يفتنوهم ويشتدوا فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الآخرة ، فكانت فتنان : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبي ﷺ بها ، وأذن لهم في الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتهم من أهل المدينة .

ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً رعوس الذين أسلموا فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم وموائيقهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا فإننا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهي الفتنة الآخرة التي أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، وخرج هو ، وهي التي أنزل الله عز وجل فيها ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ ذكره ابن كثير .

عبد الحميد كشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء العاشر

المكتبة المصرية الحديثة

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقسيم الغنائم

\*وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ  
وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمْنُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ  
مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلَافَ لَكُمْ فِي الْمَبْعَدِ وَلَكِنْ لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ  
مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي  
مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشَلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ اتَّفَقْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي  
أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

**المفردات :** ﴿الغنم والمغنم والغنيمة﴾ : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادي وقولهم  
القرم بالغنم أى يقابل به . ﴿والفء﴾ : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع  
الحرب أوزارها وتصير الدار دار إسلام وهو لكافة المسلمين وليس فيه الخمس . ﴿والنفل﴾ : ما يحصل  
للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها .

لما أمر الله سبحانه بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون  
فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستبقا لأخذ الغنائم فيهم ، ناسب أن يذكر بعده ما  
يرضيه سبحانه في قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه ، والجمهور على أن هذه الآية نزلت في غزوة  
بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

﴿واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسها وللرسول ولذو القربى واليتامى والمساكين وابن  
السبيل﴾ .

أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنتموه من الكفار المحاربين فاجعلوا أولاً خمسة لله تعالى ، ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة ، كالدعوة للإسلام ، وإقامة شعائره ، وعمارة الكعبة وكسوتها . ثم أعطوا الرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته نسباً وولاء ، وقد خص الرسول ﷺ ذلك ببني هاشم وبني أخيه المطلب المسلمين ، دون بني عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من بنائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مطعم بن جبير ( من بني نوفل ) قال : ( مشيت أنا وعثمان بن عفان ( من بني عبد شمس ) إلى رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله : أعطيت بني المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شيء واحد » <sup>(١)</sup> .

وسر هذا أن قريشاً لما كتبت الصحيفة وأخرجت بني هاشم من مكة وحصرتهم في الشعب ، لحمايتهم له ﷺ ، دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل ، إلى ما كان من عداوة بني أمية بن عبد شمس لبني هاشم في الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبي ﷺ ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على عليّ وقاتله .

والحكمة في تقسيم الخمس على هذا النحو — أن الدولة التي تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين ، والدفاع عن الأمة ، وهو ما جعل الله في الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها وهوسهم الرسول فيها ، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم وأظهرهم تمثيلاً لشرفه وكرامته ، وهو سهم ذوى القربى ، ثم ما يكون للذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولاً به في كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل في موازين الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية ، ولاسيما الأمور الحربية ، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية ، منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدولة في هذا العصر حقاً في أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول تعطى أموالاً من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها ، وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها تخصص إعانات للعمال المتعطلين في وقت الحاجة .

وعن ابن عباس أنه قال : ﴿ فَإِنَّ لِلَّهِ خَمْسَةَ ﴾ مفتاح كلام أى أنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه لأنه هو الحاكم فيه ، فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن الله سهماً مفرداً ،

لأن ما في السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعي فقد قالوا : سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ .

أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شيء قل أو أكثر ، فإن الله خمسه لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر ، وهو يوم بدر الذى التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ .

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ : ومن قدرته أن نصركم على قتلكم وجوعكم وضعفكم وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم ، أو أكثر ، وأيد رسوله ، وأنجز وعده .

﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ﴾ : العدوة مثلثة العين . جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى ، وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى ، وهو الأبعد .

والمعنى - إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر لا فى غيره ، والأعداء فى الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

﴿ والركب أسفل منكم ﴾ أى والغير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم ، وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادماً بها من الشام .

﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ﴾ أى ولو تواعدتم أنتم وهم للقتال . وعلمتم ما لهم وما لكم لاختلفتم فى الميعاد كراهة الحرب لقتلكم ، وعدم إعداد العدة لها ، وانحصار همكم فى الغير وبأساً من الظفر بها ، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ الغير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ، ولا يأمنون نصر الله له ، لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكباراً أو عناداً لا اعتقاداً .

﴿ ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أى ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ، ليقضى الله أمراً كان فى علمه وحكمته أنه واقع لا محالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصركم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، وإظهار دينه على الدين كله . ولو كره المشركون .

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ البينة الحجة الظاهرة أى فعل ، ذلك ليرتب على قضاء هذا الأمر ، أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر على حقيقة الإسلام

بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين بحيث تنتفى الشبهة ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعائنها فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطاً في الأعمال .

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوال الكافرين والمؤمنين ولا من عقائدهم وأفعالهم فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة والأعذار التي يعتذر بها عن تقصيره في أعماله ويعلم ما يمكنه من ذلك ومن غيره ويجازى كلا بحسب ما يسمع ويعلم .

### والخلاصة :

إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم ، كما بشرهم النبي ﷺ ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم ، كما أُنذَرهم الرسول ﷺ ، ولا مجال في ذلك للمكابرة والتأويل .  
﴿ إذ يريكم الله في منامك قليلاً ﴾ أى أنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعددهم قليلاً في الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين وتطمئن قلوبهم وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجتريئون عليهم .

﴿ ولو أراكم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ﴾ أى ولو أراك ربك عدداً وعددهم كثيراً لفشل أصحابك ، وخافوا ، ولم يقدرُوا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء في أمر القتال إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة فيطيع الله ورسوله ويقاتل ومنهم الضعيف الذى يشط عن القتال بمثل الأعذار التي جادلوا بها الرسول ﷺ ، كما تقدم في قوله ﴿ يجادلونك في الحق بعد ما تبين ﴾ .  
﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ .

أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذى تضيق به ، فتحجم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث في النفس الطمأنينة والصبر ، فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التي تقضى إلى ما يريد منها .

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ﴾ .

الخطاب هنا للرسول ﷺ والمؤمنين أى وفي الوقت الذى يريكم الله الكافرين عند التلاق معهم عدداً قليلاً ، بما أودع في قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم ، وتشيتكم بملائكته ، والاستهانة بهم ، ويقللكم في أعينهم لقلبتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم ، حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور ( أى لقلبتهم يكفيهم جزور واحد في اليوم ) .

## والخلاصة

إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه ، مدل ببأسه ، وهذا متكمل على ربه ، واثق بوعده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أمراً كان في علمه مفعولاً ، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديراً .

## نصائح وتوجيهات

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

بعد أن ذكر سبحانه نعمة على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر قفى على ذلك بذكر أدين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

١ - الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التواني والتكاسل .  
٢ - ذكر الله كثيراً وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم ، تنبيهاً إلى أن الانسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره في أشد الأوقات حرجاً ، وقد طلب إلينا الثبات ، والطاعة لله ورسوله ، حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾ أى إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ، ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب في النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان ، فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعاً ، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلاح والفوز على خصمه ، وهكذا في الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس . بل الثبات نافع في كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة في الفوز والنجاح فيها .

﴿ واذكروا الله كثيراً ﴾ أى وأكثروا من ذكر الله في أثناء القتال في قلوبكم ، بذكر قدرته ، ووعدته بنصر رسوله والمؤمنين ، ونصر كل من يتبع سنتهم ، بنصر دينه وإقامة سنته ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتیه من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه وبالدهاء والتضرع إليه ، مع اليقين بأنه لا يعجزه شيء .

﴿ لعلكم تفلحون ﴾ : أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز . ويعدان للفلاح في القتال في الدنيا وفي نيل الثواب في الآخرة .

وفي ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر ما يكون همّاً ، وأشغل ما يكون قلباً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك ، وإن كانت متوزعة عن غيره .



﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم فى القتال ، فطاعته هى جماع النظام . والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم فى رأى والتدبير والاستشارة فى الأمور .

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أى ولا يكن منكم تنازع واختلاف فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة ، وذهاب القوة .، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ، ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد فى الأجسام ما هو أقوى منها ، فهى تهيج البحار ، وتقتلع الأشجار ، وتهدم الدور والقلاع ، ومن ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد كما يقال : ركبت رياحه إذا ضعف أمره ، وولت دولته .

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأيدته ومن كان الله معينا له فلا يغلبه غالب .

#### تحذير

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَكْذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

**المفردات :** ﴿الذين خرجوا﴾ : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة ، ويعرف ذلك في الحركات المتكلفة ، والكلام الشاذ .  
 ﴿والرثاء﴾ : أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليشنوا عليه ويعجبوا به . ﴿وتراءت الفتتان﴾ : قربت كل منهما من الأخرى وصارت بحيث تراها وتعرف حالها . ﴿ونكص﴾ : رجع القهقري وتولى إلى الوراء والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر والذين في قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات فتزلزل اعتقادهم حيناً وتسكن حيناً آخر . ﴿أدبارهم﴾ : أى ظهورهم وأقفيتهم . ﴿وعذاب الحريق﴾ عذاب النار بعد البعث . ﴿والدأب﴾ : العادة المستمرة .  
 بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو ، وذكر الله كثيراً ، وطاعة الله ورسوله ، نهاهم عن التنازع ، لأنه يؤدى إلى الفشل والضعف ، وأمرهم بالصبر ، فإن الصبر عاقبته نصر ، والله يحب الصابرين .

بعد ذلك نهاهم الله جلّت قدرته أن يكونوا مثل الكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً وكبراً وافتخاراً ، يراعون الناس ، ويصدون عن سبيل الله ، ما فعلوا ذلك إلا لأن قلوبهم قد أصبحت خراباً عشش فيها الشيطان ، وتراكت عليها الظلمات ، وذلك لأن الفرق شاسع بين الجماعة المؤمنة ، والجماعة الكافرة ، فالمؤمنون خرجوا من ديارهم لا يقصدون مغناً ولا عرضاً قريباً ، إنما تجردوا لله ، وأخلصوا دينهم لله ، كما علمهم سيد الإنسانية محمد صلوات ربي وسلامه عليه في قوله : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » لقد شموا ريح الجنة وهم في طريقهم إلى ساحات القتال حتى لقد كان الواحد منهم يقول لزوجه قبل خروجه مقاتلاً : لقاؤنا في الجنة إن شاء الله .

لقد جاء رجل إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح وهو يقود المعارك في بلاد الشام ، وسأله : ألك شيء تريد أن تبلغه إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال له أبو عبيدة : كيف وقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ؟ قال الرجل : لقد عزمت على خوض المعركة . وقد سألت ربي أن يرزقني الشهادة فقال له أبو عبيدة : أبلغ رسول الله منى السلام . ونزل الرجل المعركة ونال الشهادة ، لأنه صدق الله فصدقه الله وعده ، ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ \* أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير \* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز <sup>(١)</sup> .

إن هؤلاء الذين استحقوا نصر الله عقدوا معه معاهدة صلح ، بين الله تعالى نصوصها في قوله ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن الله تعالى منحهم النفس والمال ، فلما باعوا النفوس والمال لله تعالى قبل الله منهم هذا البيع ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم ، وكان الثمن في هذا العقد غالباً ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة .

لقد سجل الله هذا العقد في ثلاث كتب مقدسة قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

وقد ذكر الله تعالى لهذا العقد شروطاً لا بد من توافرها لصحة العقد ونفاذه ، قال تعالى في بيان تلك الشروط : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ (٢) .

تلك معالم الجهاد عند الجماعة المؤمنة .

أما جماعة الكفر فقوم غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، خرجوا بطراً أو أشراً وكبراً وصلفاً وحقاً وطيشاً ونزقاً وحمية الجاهلية ، قال تعالى لعبادة المؤمنين ﴿ ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط ﴾ محيط بعلمه وقدرته وإرادته وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليماً قديراً . لقد قال أبو جهل يوم بدر في صلف وتيه ، واللات والعزى لا نرجع حتى ننحر الجزور ونشرب الخمر ، وتغنى علينا القيان ، ونقتل محمداً وصحبه ، ويسمع بنا العرب . فكان المصير تشيب من هوله الولدان ، وتقشع منه الأبدان ، قتل أبو جهل ، وألقى في القليب مع سبعين من صناديد المشركين ، ونادى عليهم ناشر الهدى وواسع الندى صلوات ربي وسلامه عليه ، نادى عليهم : يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة : لقد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ قال جماعة من الصحابة : أتناديهم يا رسول الله وقد جيفوا ، قال الصادق المعصوم ، والله ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم إنهم لا يسمعون ولكنهم لا يتكلمون (٣) .

تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق «وقد خاب من افترى» وقلت وقولك الصدق ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ (٤) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله .

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة (٧٧) . والنسائي في الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد في (١ : ٧٢) وفي (٣ : ١٠٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٣) وفي (٦٠ : ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧) .

(٤) الآية ٨١ من سورة طه .

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(١)</sup> .

وشتان بين قوم وليهم الرحمن ، وآخرين وليهم الشيطان ، لقد خرج الشيطان يوم بدر وزير لهم أعمالهم ، ومناهم الأمانى الكاذبة وقال لهم : ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ وما بعدهم الشيطان إلا غروراً ، ولما نزلوا حومة الوعى ، وحى الوطيس ، واحمرت الحدق ، وصمت الألسنة ، ونطقت الألسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، ورخصت الأرواح فى أسواق الموت ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ، ودماءً أتهدر ، لما كان ذلك كذلك ، ونزلت الملائكة يقودهم جبريل ، ورآه إبليس ولى الأدبار هارباً لا يلوى على شيء ، ورجع القهقرى فلما سئل قال : ﴿ إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف أروع صورة بأبلغ بيان قال تعالى : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى مالا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

وهذه عادة الشيطان بعد أن يزين لابن آدم السوء فيراه حسناً ، يعلن براءته منه ، ويلبس ثياب الرهبان وقلبه قلب ذئب ضار غادر لئيم قال تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾<sup>(٢)</sup> وقال جل شأنه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

فما موقف المنافقين ومرضى القلوب من الجماعة المجاهدة فى سبيل الله ، إنهم المرجفون فى الأرض ، المثيرون للفتن ، المروجون للشائعات والأضاليل والأباطيل ، لقد رموا المؤمنين بالغرور لقلة عددهم وعددهم ، ونسوا أو تناسوا أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وجهلوا أنه من يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، عزيز لا يغلب ، حكيم تنزهه عن العبث ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم \* والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

(٣) الآية ١٦ من سورة الحشر .

(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة محمد .

من كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ .

والنفاق مرض اجتماعي خطير ، والمنافقون في كل زمان ومكان ، عالة على المجتمع في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة حالة الضراء ، يلقيك أحدهم عنقاً ، ويقسم بالله إنه لا يطيق لك فراقاً ، ملاك كريم ، في مظهره شيطان رجيح في مخبره ، يلقيك بوجهه أى ذر وقلب أى هب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد \* وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴿<sup>(٢)</sup> .

هؤلاء وأمثالهم لو تراهم في سكرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ وأنتم حيثئذ تنظرون \* ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون \* فلولا إن كنتم غير مدينين \* ترجعونها إن كنتم صادقين ﴿<sup>(٣)</sup> وما أجل قوله تعالى ﴿ كلا إذا بلغت التراقي ﴾ وقيل من راق \* وظن أنه الفراق \* والتفت الساق بالساق \* إلى ربك يومئذ المساق \* فلا صدق ولا صلى \* ولكن كذب وتولى \* ثم ذهب إلى أهله يتمطى \* أولى لك فأولى \* ثم أولى لك فأولى \* يحسب الإنسان أن يترك سدى ﴿<sup>(٤)</sup> .

إن الملائكة تخبرهم بمصيرهم وهم في غمرات الموت فيقولون لهم : اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق قال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾<sup>(٥)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾<sup>(٦)</sup> .

فاللهم ارزقنا قبل الموت توبة ، وعند الموت شهادة ، وبعد الموت جنة ونعيماً ، وملكا كبيرا ، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا حي يا قيوم ، يا ذا الجلال والإكرام .

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ جاءت هذه الآية الكريمة بمثابة العلة للمعلول ، فما فعل الله تعالى بهم ما فعل إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السوء والإثم والعدوان ، وكفى بالكفر إثماً مبيناً ، وبهتاناً عظيماً

والله تعالى منزّه عن الظلم ، ولا يحب الظالمين ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة :

(١) الآية ١١ من سورة محمد . (٢) الآيات ٨٣ - ٨٧ من سورة الواقعة . (٣) الآية ٢٧ من سورة محمد .

(٤) الآيات ٢٠٤ - ٢٠٦ من سورة البقرة . (٥) الآيات ٢٦ - ٣٦ من سورة القيامة . (٦) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

[ يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا ]<sup>(١)</sup> .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ فكلأ أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٢)</sup> وتبارك الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾<sup>(٣)</sup> وإذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عقابه إلى الندم  
تسام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب ﴾ .

يخبر تعالى عن الكافرين الذين أعد الله لهم عذاب الحريق بأن شأنهم وعادتهم كعادة آل فرعون الذين أرسل الله إليهم موسى وهارون بالمعجزات الخارقة ، والآيات الباهرة ، التى قال الله تعالى فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسنل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً ﴾<sup>(٥)</sup> .

قال جل شأنه ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر \* كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾<sup>(٦)</sup> .

فهؤلاء الكافرون من قومك يا محمد شأنهم كشأن الكافرين من آل فرعون . لقد أخذناهم بذنوبهم كما أخذنا آل فرعون بذنوبهم . ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزير ﴾<sup>(٧)</sup> .

وما أجل قوله تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾<sup>(٨)</sup> قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته أنعمها على قوم حتى يغيرها وما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ .

هذه سنة الله فى كونه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً . لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .

(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٤) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٥) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .

(٦) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر .

(٧) الآية ٤٣ من سورة القمر .

(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة الذاريات .

ويعفو عن كثير ﴿١﴾ .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴿٢﴾ ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ ﴿٣﴾ .

وفعل الله كله لحكمة بالغة فهو السميع لأقوال عباده العليم بذوات الصدور ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قوله تعالى ﴿ كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن آل فرعون أضافوا إلى الكفر التكذيب بآيات الله ومعجزاته ، فإنهم لما كفروا بالله ربا كذبوا بآياته التي أجراها على أيدي أنبيائه ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، وبين الله تعالى كيف أهلكهم ولماذا أهلكهم ، فقال ﴿ وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾ الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون \* وكنوز ومقام كريم ﴾ كذلك وأورثناها بني إسرائيل \* فأتبعوهم مشرقين \* فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون \* قال كلا إن معي ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ﴿٤﴾ .

### شر الدواب عند الله

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَتَفَقَّهُهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْيَدَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ۚ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٧ من سورة إبراهيم .

(٤) الآيات ٥٧ - ٦٨ من سورة الشعراء .

**المفردات :** ﴿ الدابة ﴾ : لفظ غلب استعماله في ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه الأرض وهو المراد هنا . ﴿ عند الله ﴾ : أى في حكمته وعلمه و ﴿ الذين عاهدت منهم ﴾ : هم طوائف من يهود المدينة . أو ﴿ ثَقَفَهُ ﴾ : أدركه وظفر به . ﴿ فشرد بهم ﴾ : أى نكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد . ﴿ من خلفهم ﴾ : هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، ﴿ والنبد ﴾ : الطرح . ﴿ على سواء ﴾ : أى على طريق واضح لا خداع فيه ولا خيانة ولا ظلم . ﴿ سبقوا ﴾ : أى أفلتوا من الظفر بهم . ﴿ لا يعجزون ﴾ : أى لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

بعد أن بين حال مشركى قريش في قتالهم له بيدز - قفى على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبى ﷺ ، وقاتلوهم وهم اليهود الذين كانوا في بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات في ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت :

وقال مجاهد : نزلت في يهود المدينة ، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل في مشركى مكة .

ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة ، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴿ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

١ - الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم ، أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ . معاندون له ، جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه وتعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ <sup>(١)</sup> وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون في الدلائل والآيات . وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله في ذوات الأربع ، وإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى في أمثالهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ .

٢ - **نقض العهد** ، وقد كان النبى ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهداً أقرهم فيه على دينهم ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة ، نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه بالسلاح في يوم

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، والآية ٢٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤٤ من سورة الفرقان .



بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدتهم الثانية فنقضوا العهد ، ومالوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق ، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبي ﷺ . وقوله ﴿ وهم لا يتقون ﴾ : أى لا يتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرروا منهم نقض العهد - أردف ذلك ذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال : ﴿ فإما تثقفنهم فى الحرب فشدد بهم من خلفهم ﴾ أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب - فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشروء من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة الندة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمتهم لهم ، وتجديده لعهدهم بعد نقضه ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة ترك إذا زال سببها ، كما قال تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ وهم قد أوهوه المرة أنهم يرغبون فى السلم ، واعتذروا عن نقضهم العهد . وكانوا فى ذلك مخادعين .

﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبي ﷺ خطب فى بعض أيامه التى لقي فيها العدو فقال ( أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال - اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم )<sup>(١)</sup> . وفى ذلك إيماء إلى شيئين :

١ - أن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾<sup>(٢)</sup> .

٢ - أن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم أمر لا بد منه للعظة والإعتبار ، حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم ، ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما فى الصدور من الأحقاد والتمتع بالمغانم من مال وعقار . وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجوه أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها ، بأن تنبذ

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٢٢ ، ١١٢ ، ١٥٦) . ومسلم فى الجهاد (٢٠) وفى الإمارة (١٤٦) . وأبو داود فى الجهاد (٨٩) . والترمذى فى فضائل الجهاد (٢٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤١١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة الرعد .

إليهم عهدهم ، وتنذرهم بأنك غير مقيد به ، ولا تهتم بأمرهم بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .  
والحكمة في هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا .

**وخلاصة ذلك :** لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذي بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم في العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ أى إن الخيانة مبنغوضة بجميع ضروبها ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة . روى البيهقي أن النبي ﷺ قال : ( ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء - من عاهدته فوف بعهدة مسلما كان أو كافراً ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنتك على أمانة فأداها إليه مسلماً كان أو كافراً ) .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا** ﴾ أى ولا يظنن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم ، بل هو سيجزيهم ، ويمكن منهم في الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم ، وإذاقتهم عاقبة كيدهم ، والآية بمعنى قوله تعالى ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين** ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وخلاصة ذلك قطع أطماعهم في الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .

وفي الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع الأعداء المخالفين في الدين ، وما حرمه من الخيانة فيها ، لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأيد إلهي ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام ( شبه جزيرة العرب ) .

### إعداد القوة

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ  
وَالْآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ  
وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿١١﴾ \* وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ  
الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِتَنْصَرِهِ وَيَا لَمُؤْمِنِينَ

(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

(١) الآية ٤ من سورة العنكبوت .

﴿٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

**المفردات :** ﴿الإعداد﴾ : تهيئة الشيء للمستقبل . ﴿والرباط والمربط﴾ : الحبل الذى تربط به الدابة ، ورباط الخيل حبسها واقتناؤها . ﴿والإرهاب والترهيب﴾ : الإيقاع فى الرهبة وهى الخوف المقترن بالاضطراب . ﴿وجنح للشيء وإليه﴾ : أى مال يقال جنحت الشمس للغروب أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه . ﴿والسلم﴾ : بفتح السين وكسرها والسلام : الصلح وضد الحرب والإسلام دين السلم والسلام كما قال ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة﴾<sup>(١)</sup> . ﴿وحسبك الله﴾ : أى كافيك وناصرك عليهم .

كأن سائلاً قال : ما جزاء هؤلاء الخائنين الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه وصارت الخيانة ديدنهم وعادتهم ؟ ﴿الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة﴾<sup>(٢)</sup> ما جزاء هؤلاء ؟ وماذا نصنع بهم ؟

فكان الجواب ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ .

روى مسلم عن عقبة بن عامر أن سمع النبي ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول : ( ألا إن القوة الرمي )<sup>(٣)</sup> قالها ثلاثاً .

وهذا الحديث الشريف يعتبر من دلائل النبوة ، فإن الحرب تختلف فى أدواتها من زمان إلى زمان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مصر إلى مصر ، فجاء حديثه ﷺ إشرافاً نبوية تدل على أن هذه القوة التى فسرناها بالرمى صالحة لكل زمان ، فقد يكون الرمي بالمدفعية باختلاف أنواعها ، كما يكون بقاذفات القنابل والدبابات مهما تطاول الزمان وانفسح المكان .

وفى قوله جل شأنه ﴿ما استطعتم﴾ دليل على أن الجماعة المؤمنة يجب أن تبذل أقصى جهدها ، وتستفرغ ما فى وسعها فى سبيل قوتها ومناعتها ، فليس السلام فى الإسلام سلاماً ذليلاً ، إنما هو سلام عزيز كريم ، تحميه القوة ، ولا يمكن أن يقوم الحق وحده بلا قوة .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا	بقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وفسفسطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به	ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

(٢) الآية ٥٦ من سورة الأنفال .

(١) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦٧) . وأبو داود فى الجهاد (١٤ ، ٢٣) . والترمذى فى تفسير (سورة ٨ : ٥) . وابن ماجه فى الجهاد

(١٩) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٥٧) .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾<sup>(١)</sup>.

فالعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة ، وإذا كانوا يقولون القتل أنفى للقتل ، فإننا نقول : الاستعداد للحرب أنفى للحرب .

وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف .

كذلك أمر الله تعالى أن نعد الرباط لحماية الثغور ، وصيانة الحدود ، والرباط في سبيل الله له أجر جزيل عند الله ، وما زال للخيال دور عظيم في ذلك الرباط ، كل هذا لإرهاب العدو وإيقاع الخوف في نفسه والاضطراب في فؤاده ، والرعب في قلبه .

أما حقيقة الأمر فبيد الله وحده قال تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميع عليم﴾ ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ . فإعداد القوة والرباط على الحدود فيه إرهاب وأخذ بالأسباب ، أما الفاعل الحقيقي فهو الله وحده ﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿فهزموهم باذن الله﴾<sup>(٥)</sup> . ذلك ولو يشاء الله لا تنصر منهم ولكن ليلبوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم \* سيديهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم الجنة عرفها لهم \* يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم \* والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم﴾<sup>(٦)</sup> .

إنكم بهذه القوة وهذا الرباط ترهبون عدو الله وعدوكم ، فتأمل معي هذا التعبير القرآني الرائع ، كيف جعل من العدو الواحد عدوين حتى لا يستهين المسلمون بأمره ، فهو عدو الله العلى القدير ، وعداوته بكم مستمدة من عداوته لله ، وهل الإيمان إلا الحب في الله ، والبغض في الله . كما قال تعالى في شأن فرعون ﴿يأخذه عدو لي وعدو له﴾<sup>(٧)</sup> .

كذلك ترهبون آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فسواء كان العدو من اليهود الخائنين ، أو من أهل الشرك الجاحدين ، أو من الوثنيين أو المثلثين أو غير ذلك من الملل والنحل ، فإن الكفر كله ملة واحدة ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير﴾<sup>(٨)</sup> .

(٥) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

(٦) الآيات ٤ - ٨ من سورة محمد .

(٧) الآية ٣٩ من سورة طه .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

(٢) الآية ١٧ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ١١ من سورة محمد .

(٤) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

ولما كان إعداد القوة يلزمه إنفاق المال لشراء السلاح وغير ذلك ، فقد قرن الله تعالى إنفاق المال بإعداد القوة والرباط ، فقال ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ . كما قال جل شأنه ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ (١) .

وكما قال سبحانه ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ (٢) .

وكما قال تبارك اسمه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ (٣) .

فيا جماعة المؤمنين اصطلحوا مع الله ، وأخلصوا دينكم لله واستيقظوا ، لأعداء الله ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ .

أى إذا مال العدو للسلم ، والمسلمون في موقع العزة وهم الغالبون ولم يفقدوا موضع قدم من أرض الإسلام ، إن كان ذلك كذلك فالسلام هنا عزيز وكريم ، وسياسة الإسلام الخارجية تقوم على السلام والحرب ، استثناء ودواء لداء استعصى علاجه ، ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول في أمير الأنبياء :

الحرب في حق لديك شريعة	ومن السموم الناقعات دواء
داويت متبداً وداوواطفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لامنة ممنونة وجبلاء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا	منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل	يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت مالا تفعل الأنواء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب	هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً	لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته	فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا غضبت فأئماً هي غضبة	للحق لا ضغن ولا شحناء

إن السلام في الإسلام مسلح وعزيز ، ويوم يجنح العدو للسلام وهو مغتصب لموضع قدم في أرض

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢٠ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٤) الآية ١٠ من سورة الصف .

الإسلام فإن الإسلام ينهى عن هذا السلام ، قال تعالى ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ (١) .

أما إذا استوفى السلام شروطه ، وكانت يد المسلمين هي العليا فاجتنب لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم .

﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، فمن توكل على السميع العليم لا يخيب سعيه ، ولا تزل قدمه ، ولا يضل سؤله ومن كان الله حسبه فلن يخدعه أحد ، لأنه لا يخدع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فمن وجد الله فماذا فقد ، ومن كان الله معه فمن عليه ، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض ، إنه كان عليهما قديراً . [ يا عبادى إنكم لن تملكوا ضرى فتضرونى ولن تملكوا نفعى فتنفعونى ] (٢) .

إن هذا الإله القادر هو الذى أيدك بنصره والمؤمنين ، وألف بين قلوبهم أى بالإيمان والصدق واليقين والصبر ، لا لمنفعة ولا مغنم ولا عرض ، وإنما بالحب الصادق والوفاء الكريم ، والمال لا يشتري الوفاء ، ولا يقوى على استغلاله ، قال ابن عباس : ( إن الرحم لتقطع وإن النعمة لتكفر وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يرحزحها شيء ثم قرأ ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ) .

لقد كانوا على قلب رجل واحد اعتصموا بحبل الله جميعاً فلم يتفرقوا ، وأنعم الله عليهم بنعمة الأخوة فأصبحوا إخواناً ، فأطبوا المريض بدوائهم ، وأمنوا الخائف فى رجائهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم ، صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم ، ما منهم من أحد فى ميادين القتال إلا ويتمنى أن يموت قبل صاحبه ، لقد اتخذوا الإيثار خلقاً ، ونبذوا الأثرة ، وتلك هى الأخوة فى الله .

إن أخاك الحق من كان معك      ومن يضر نفسه لينفـعك  
ومن إذا ريب الزمان صدعك      شئت فيك شمله ليجمعك

فاستحقوا بذلك هذا الوسام الرفيع فى قول الله تعالى ﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ . وهل يقوى على ذلك التأليف إلا العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم الذى تنزه عن العيب ، فيا من ألفت بين قلوبهم ألف بين قلوبنا ، ووجدنا صفاءً وهدفاً .

### التحريض على القتال

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا

أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ أَلَسَنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ  
 ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا  
 أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

**المفردات :** ﴿حسبك﴾ : أى كافيك ما يهيك . ﴿والتحريض﴾ : الحث على الشيء .  
 ﴿لا يفقهون﴾ : أى لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة .  
 ﴿والضعف﴾ : ( بالفتح والضم ) يشمل المادى والمعنوى وقيل هو بالضم ما يكون فى البدن وبالفتح  
 لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء ، وربما كان جنوحهم لها مظنه الخداع  
 والمكر ووعدته أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب ، وضروب الإيذاء والشر ، وامتن  
 عليه بتأييده له بنصره ، وبالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه ، قضى على ذلك بوعده بكفايته  
 له وهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم ، هذا مقدمة لأمره بتحريضهم على القتال  
 حين الحاجة إليه . كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

﴿يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾ أى أن الله تعالى كاف لك كل ما يهيك من  
 أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين ، ونحو الآية قوله ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد  
 جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾<sup>(١)</sup> وقوله ﴿قل حسبى الله عليه  
 يتوكل المتوكلون﴾<sup>(٢)</sup> .

وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجدر بأنبيائه أن يكونوا أكمل  
 توحيداً وتوكلاً عليه من غيرهم ، ولا سيما خاتم أنبيائهم . والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين  
 والأنصار ، ولا سيما من شهد منهم بدرًا .

﴿يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال﴾ أى حرض المؤمنين على القتال وورغهم فيه ، لدفع  
 عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلها على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما إذ ذاك من  
 ضرورات الاجتماع البشرى ، وسنة التنازع فى الحياة والسيادة .  
**والخلاصة :**

حثهم على ما يقيمهم أن يكون حرضاً أو يكونوا من الهالكين ، بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم  
 إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ .

أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وضيرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا عبرة منه تعالى وبشارة ، بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين ، بعون الله وتأييده .

### والخلاصة :

ليصيرن الواحد عشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم ، إذا بدأوهم بالقتال .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أى أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة، بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل في إقامة سنته العادلة ، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسنته بإعداد كل ما يستطيع من قوة ، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسينين النصر والغنيمة الدنيوية ، أو الشهادة والسعادة الآخروية .

وحالهم يخالف حالكم في كل ما تقدم ، ولاسيما منكروى البعث والجزاء منهم ، كمشركى العرب في ذلك العصر ، واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية ، وحب الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم . وفى الآية إشارة إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر ، وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون فى العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم ، وكانوا بها أرباب ملك واسع ، وعز وجاه ، ودانت لهم الشعوب الكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية زال مجدهم وسؤددهم ، وذهبت ريحهم ، ونزع منهم أكثر ذلك الملك ، وبعد أن بين الله تعالى المرتبة العليا التى ينبغى أن تكون للمؤمنين قفى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال : ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ .

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مَائَتِينَ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من العشرة فجاء التخفيف فقال ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين﴾ قال : فلما



خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم ﴿١﴾ .  
وبهذا الحديث استدلل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار ، وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف في الصف مع العسكر ، أو لم يكن هناك عسكر .

### والخلاصة :

إن أقل حال للمؤمنين مع الكفار في القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين ، والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات ، وهو وقت غزوة بدر ، حين كان المؤمنون لا يجيدون ما يكفيهم من القوات ، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملى الأهبة والعدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر ، ويتنصرون عليهم وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ في عهده ومن بعده القدوة في ذلك ، فقد كان الجيش الذي أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدي ثلاثة آلاف ، وكان الجيش الذي قاتلهم من الروم ومنتصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله : بإذن الله : أى بمعاونته وتوفيقه وبمعنى الآية قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ ﴿١﴾ .

وفى ذلك إيماء إلى أن من سنن الله في الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ، ومعرفة سنن الله في خلقه .

### توجيه ربانى

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(١) أخرجه البخارى في الجهاد (٥٩) وفي تفسير (سورة ٨ : ٧) وسورة (٢٢ : ١) . وأخرجه أبو داود وفي الجهاد (٩٦) . والترمذى في تفسير (سورة ٤ : ٢٤) وسورة (٦ : ٤) . والنسائى في الوصايا (١١) وفي الخيل (١٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٩ ، ٣٩١) وفى (٣ : ١٠٣) .

**المفردات :** ﴿الأسرى﴾ : واحدهم أسير ، وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القيد من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لثلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيد الحرب وإن لم يشد . ﴿والإثخان﴾ : فى كل شئ: قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أثخنه الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شئ غليظ فهو ثخين . ﴿والعرض﴾ : ما يعرض ولا يدوم سى به حطام الدنيا لأنه حديث قليل اللبث . ﴿ومسكم﴾ : أى أصابكم . ﴿وفيما أخذتم﴾ : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها ، قفى على ذلك بذكر أحكام الأسرى ، لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالباً كما وقع فى وقعة بدر كما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدر جىء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله قومك وأصلك ، استسبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فأضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحه رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمك ؟ فرحل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئاً ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال ﴿فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾<sup>(١)</sup> ، ومثلك يا عمر كمثلى موسى عليه السلام إذ قال ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾<sup>(٢)</sup> وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾<sup>(٣)</sup> أنتم عالة فلا يفلتن أحد إلا بفداء ، أو ضرب عنق - فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيته فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى ﴿ما كان لنبى أن يكون له أسرى . إلى آخر الآيتين﴾ . »

وروى عن أحمد من حديث ابن عباس قال : « لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٨٨ من سورة يونس .

(٣) الآية ٢٦ من سورة نوح .

(٤) الآية ١١٨ من سورة المائدة .

رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكثنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل ( أخيه ) فيضرب عنقه ، وتمكثنى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديده فهو رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبيكان قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شئ تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء أبكى ، وإن لم أجد بكاء تبكى لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة منه وأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ (١) .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه ﷺ اختيار الفداء كثيرون ، وإنما ذكر فى أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أشار بذلك ولأنه أكبرهم مقاماً . وروى ابن المنذر عن قتادة قال : أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر ففادوهم بأربعة آلاف ، أربعة آلاف .

﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ أى ما كان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء ، إلا بعد أن يثخن فى الأرض ، أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ، ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه ، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم  
إلا أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة ، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على مالا ينبغى ، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك : أن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر ، إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل - ففي المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين ، وفى الحالة العامة التى تعم كل معركة وكل قتال ، فإثخانهم فى الأرض بالقوة العامة والسلطان الذى يرهب الأعداء .

﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل ، وهو المال تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ، ما دتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنكار لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبى ﷺ إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبیین ، كما عاتب رسوله أيضاً .

﴿والله عزيز حكيم﴾ ومن ثم يجعل أوليائه يغلبون أعداءه ، ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزُوا ، ونحو الآية قوله : ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾<sup>(١)</sup> .

ولا تتم مهمة العزة إلا بتقديم الإثخان في الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية ، بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم في عنفوان قوتهم وكثرتهم .

وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية في العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التي تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتخرب البلاد ، وتقتل الأبرياء مع المشاغبيين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال نيران المدافع ، وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام - وهو دين الرحمة والعدل - لا يبيح شيئاً من ذلك .

﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ أى ولولا كتاب من الله سبق في علمه الأزلى ألا يعذبكم والرسول فيكم ، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم - لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس في أسارى بدر ، فاستشار النبي ﷺ أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر اقتلهم ، فقال قائل : أرادوا قتل الرسول ﷺ وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل : لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أقر بقتلهم . فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبي بكر ففاداهم فنزل ﴿لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ فقال رسول الله ﷺ « إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » .

وبعد أن عاتبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وَعَدَّهُ من جملة الغنائم التي أباحوها في أول السورة فقال : ﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾<sup>(٢)</sup> أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالاً بإحلاله لكم طيباً في نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .

﴿واتقوا الله﴾ في أن تعودوا إلى أكل شيء من أموال الناس كفاراً كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

﴿إن الله غفور رحيم﴾ أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أو لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم وأباح لكم الانتفاع به .

وخلاصة ما تقدم - إنه ليس من سنة الأنبياء ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم

أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مقادة أسرى بدر بالمال كان ذنباً سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عتابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته - لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم .

### رحمة الله الواسعة

يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٧﴾

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم ، فأنزل الله هذه الآية استمالة لهم وترغيباً فى الإسلام ، ببيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديداً وإنذاراً لهم ببقائهم على الكفر ، وخيانتهم ﷺ ، وبشارة للنبي ﷺ بحسن العاقبة والظفر له ، ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، وكان العباس أسيراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النبوة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلماً إلا أنهم أكرهوني ، فقال النبي ﷺ : إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب على فقال : أما شيء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحارث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشاً ، فقال رسول الله ﷺ : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى ؟ فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرنى رى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتاباً فى أمرك فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب . قال العباس : فأبدلنى الله خيراً من ذلك ، لى الآن عشرون عبداً ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفاً ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من رى .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ

مِنْكُمْ ﴾ .

أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيماناً أو سيظهر فى حينه - كما يدعى بعضكم - يعطكم إذ تسلمون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى الغنائم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها . روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبي ﷺ : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل ﴿ إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً ﴾ الآية .

﴿ ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين ، فيشملهم بعنايته وتوفيقه ، ويعدهم للسعادة فى الدنيا والآخرة . وفى ذلك من الحظ على الإسلام والدعوة إليه مالا يخفى .

﴿ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل ﴾ .

أى وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، فنقضوا الميثاق الذى أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

﴿ فأمكن منهم ﴾ يقال مكنته من الشيء وأمكنه منه : أى ممكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم بيدى ، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم ، وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ : فهو يعلم ما يتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم سيفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين .

وفى الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة فى كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ، ماداموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التى علمت مما تقدم . روى البخارى عن أنس « أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فى ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان فى أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : ائذن لنا فترك لابن أختنا العباس فداء ( كانت جدته أنصارية ) فقال ﷺ : والله لا تبذرون منه درهماً . . . »

وقد كان فداء الأسير أربعين أوقية ذهباً ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : ألقراية صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ الآية فقال العباس ( بعد إسلامه ) وددت لو

كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلام ، وما يجب أن يعمل مع الأسرى ، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك . وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث فقال :

### الإيمان والهجرة والجهاد

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَبَالٍ لِيَبْتَلِيَهُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها :

- (١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية .
- (٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبي ﷺ والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .
- (٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .
- (٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

١ — ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ .

أى هؤلاء الكلمة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين ، إرضاءً لربهم ، ونصراً لرسوله ﷺ ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله : أى بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق . أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

- (١) ما ينفق في التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه في أوطانهم عند خروجهم منها . وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(١) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عددهم وعددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

٢- ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَنَصَرُوا ﴾ أى والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه ونصروهم وأمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها في أموالم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ومن جراء هذا جعل الله حكمهم حكم المهاجرين في قوله :

﴿ أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أى يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر في القتال وما يتعلق به من الغنائم لأن حقوقهم ومرافقهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج وإغاثة المضطر منهم .

٣ - ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يهاجِرُوا مَالَكُم مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يهاجِرُوا ﴾ الولاية بفتح الواو وكسرهما ، وقيل هى بالفتح خاصة بالنصر والمعونة والنسب والدين ، وبالكسر فى الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحرف ، أى أن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم . أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

﴿ وَإِنْ اسْتَصْرَوْكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ ﴾ .

أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لا عهد بينكم وبينهم ، أما إن كانوا معاهدين فيجب النفاء بعهدهم ولا تباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهد والمواثيق ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتذكروا إطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؟ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سراً وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر . وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولا سيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعاً مع الأقوياء ،



وما أكثر قول الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلا قصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة في التنصل منها بالتأويل هم الإنكليز .

﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾ أى فى النصرة والتعاون على قتال المشركين ، فهم فى حملتهم فريق واحد تجاه المسلمين ، وإن كانوا شيعة يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن فى الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبى ﷺ والمؤمنين وناقضوا العهود التى كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خير . ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾ أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء — يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضغائنكم بمكة قبل الهجرة .

ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

أى لهم مغفرة تامة من ربهم تحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم فى دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم فى دار النعيم .

﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ .

أى والذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار ربما تقدم من الولاية والجزاء .

وفى جعلهم منهم دليل عن فضل السابقين على اللاحقين يرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ (١) وقوله تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ (٢) ولا يخفى ما فى الآية من ترغيب فى الإيمان والهجرة .

﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ .

أولوا الأرحام : هم أصحاب القربابات ، والأرحام واحدها رحم ( بزنة قُفْل وكتف ) وأصله رحم المرأة

وهو موضع تكوين الولد ، سمي به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، وبالتوارث فى دار الهجرة فى ذلك العهد وفى كل عهد ، وقوله فى كتاب الله ، أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

### والخلاصة :

أن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به ، كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها ، وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شئ فلاأهلك فإن فضل شئ عن أهلك فلذى قرابتك - فإن فضل عن ذى قرابتك شئ فهكذا وهكذا » أى فللمستحق من الأجانب .

﴿ إن الله بكل شئ عليم ﴾ أى فهو سبحانه وتعالى إنما شرع لكم هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسفن التشريع والأحكام - عن علم واسع محيط بكل شئ من مصالحكم الدينية والدنيوية ، ونحو الآية قوله « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » زادنا الله علماً بفقهِ كتابه ، ووفقنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعه أحسنه ، إنه هو السميع المجيب .

## سورة براءة

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مدنية بالاتفاق .

وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون عند الكوفيين ، وثلاثون عند الباقيين .

عدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة .

وحروفها عشرة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون حرفاً .

ولهذه السورة ثمانية أسماء : الأول براءة ؟ لا فتاحها بها ، الثاني سورة التوبة ، لكثرة ذكر التوبة فيها

( ثم تاب عليهم ليتوبوا ) ( لقد تاب الله على النبي ) الثالث الفاضحة ، لأن المنافقين افتضحوا عند نزولها .

الرابع . المبعثرة ، لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين ، وهذا الاسمان روي عن ابن عباس . الخامس المقشقة .

لأنها تبرئ المؤمن ، فتنتفقه من النفاق وهذا عن ابن عمر . السادس البحوث ، لأنها تبحث عن نفاق

المنافقين . وهذا عن أبي أيوب الأنصاري . السابع سورة العذاب لما فيها من انعقاد الكفار بالعذاب مرة بعد

أخرى ( سنعذبهم مرتين ) الثامن الحافرة ، لأنها تحفر قلوب أهل النفاق بمثل قوله : ﴿ إلا أن تقطع

قلوبهم ﴾ ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم ﴾ .

## مقصد السورة إجمالاً

وشتم قلوب الكفار بالبراءة ورد العهد عليهم ، وأمان مستمع القرآن وقهر أئمة الكفر وقتلهم ، ومنع

الأجانب من عمارة المسجد الحرام ، وتخصيصها بأهل الإسلام ، والنهي عن موالة الكفر ، والإشارة إلى وقعة

حرب حنين ومنع المشركين من دخول الكعبة ، والحرم ، وحضور الموسم والأمر بقتل كفر أهل الكتاب

وضرب الجزية عليهم .

وتقبيح قول اليهود والنصارى في حق عزيز وعيسى عليهما السلام ، وتأكيذ رسالة الرسول الصادق

الحق ، وعيب أحبار اليهود في أكلهم الأموال بالباطل ، وعذاب مانعي الزكاة ، وتخصيص الأشهر الحرم من

أشهر السنة ، وتقديم الكفار شهر الحرم ، وتأخيرهم إياه والأمر بغزوة تبوك ، وشكاية المتخلفين عن الغزو ،

وخروج النبي ﷺ مع الصديق رضي الله عنه من مكة إلى الغار بجبل ثور واحتراز المنافقين من غزوة تبوك ،

وترصدهم وانتظارهم نكبة المسلمين ورد نفقاتهم عليهم ، وقسم الصدقات على المستحقين ، واستهزاء المنافقين

بالنبي ﷺ ، وبالقرآن وموافقة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ونيلهم الرضوان الأكثر بسبب موافقتهم .

وتكذيب الحق للمنافقين في إيمانهم ونهى النبي عن الاستغفار لأحياءهم ، وعن الصلاة على أمواتهم ،

وعيب المقصرين على اعتذارهم بالأعداء الباطلة .

وذم الأعراب في صلابتهم ، وتمسكهم بالدين الباطل ، ومدح بعضهم بصلابتهم في دين الحق ، وذكر

السابقين من المهاجرين والأنصار ، وذكر المعترفين بتقصيرهم ، وقبول الصدقات من الفقراء ودعاءهم على ذلك ، وقبول توبة التائبين ، وذكر بناء مسجد ضرار للغرض الفاسد ، وبناء مسجد قباء على الطاعة والتقوى ، ومبايعة الحق تعالى عبيده باشتراء أنفسهم وأموالهم ومعاوضتهم عن ذلك بالجنة ، ونهى إبراهيم الخليل من استغفار المشركين ، وقبول توبة المتخلفين المخلص من غزوة تبوك ، وأمر ناس بطلب العلم والفقه في الدين ، وفضيحة المنافقين ، وفتنتهم في كل وقت ، ورأفة الرسول ﷺ ورحمته لأمتيه وأمر الله نبيه بالتوكل عليه في جميع أحواله بقوله ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ الآية .

### المشابهات

قوله : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ وبعده ﴿ وَاعْلَمُوا أَنْكُمْ غَيْرَ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول للمكان ، والثاني للزمان ، وتقدم ذكرهما في قوله ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ .  
قوله ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ وبعده ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴾ ليس بتكرار ؟ لأن الأول في المشركين ، والثاني في اليهود ، فيمن حمل قوله : ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ على التوراة . وقيل : هما في الكفار وجزاء الأول تخلية سبيلهم ، وجزاء الثاني إثبات الأخوة لهم ومعنى ( آيات الله ) القرآن .

قوله : ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ﴾ ثم ذكر بعده ( كيف ) واقتصر عليه ، فذهب بعضهم إلى أنه تكرار للتأكيد ، واكتفى بذكر ( كيف ) عن الجملة بعد ، لدلالة الأولى عليه . وقيل تقديره : كيف لا تقتلونهم ولا يكون من التكرار في شيء .

قوله : ﴿ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ ﴾ الأول للكفار والثاني لليهود . وقيل ذكر الأول . وجعله جزاء للشرط ، ثم أعاد ذلك ، تقييحاً ، فقال : ﴿ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةَ ﴾ . فلا يكون تكراراً محضاً .

قوله ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ إنما قدم ( في سبيل الله ) لموافقة قوله قبله ( وجاهدوا في سبيل الله ) وقد سبق ذكره في الأنفال . وقد جاء بعده في موضعين ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ليعلم أن الأصل ذلك ، وإنما قدم هنا لموافقة ما قبله فحسب .

قوله تعالى ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ﴾ بزيادة باء ، وبعده ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ و ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ بغير باء فيهما ، لأن الكلام في الآية الأولى إيجاب بعد نفي ، وهو الغاية في باب التأكيد ، وهو قوله ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ يَقْبَلُوا مِنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ فأكد المعطوف أيضاً بالباء ليكون الكل في التأكيد على منهاج واحد ، وليس كذلك الآيتان بعده ، فإنهما خلتا من التأكيد .

قوله : ﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ بالفاء ، وقال في الآية الأخرى . ﴿ وَلَا تَعْجَبْكَ ﴾ بالواو ، لأن الفاء يتضمن معنى الجزاء والفعل الذي قبله مستقبل ﴿ وَلَا يَنْفَقُونَ إِلَّا ﴾ أى : إن يكن منهم ما ذكر فجزاؤهم ، وكان الفاء ها هنا أحسن موقعاً من الواو التي بعدها قبلها ﴿ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا ﴾ بلفظ الماضي

وبمعناه والماضى لا يتضمن معنى الشرط - ولا يقع من الميت فعل وكان الواو أحسن .

قوله ﴿ ولا أولادهم ﴾ بزيادة ( لا ) وقال : فى الأخرى ﴿ وأولادهم ﴾ بغير ( لا ) لأنه لما أكد الكلام الأول بالإيجاب بعد النفى وهو الغاية ، وعلق الثانى بالأول تعليق الجزاء بالشرط ، اقتضى الكلام الثانى من التوكيد ما اقتضاه الأول فأكد معنى النهى بتكرار ( لا ) فى المعطوف .

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليُعَذِّبهم ﴾ ، وقال : فى الأخرى : ﴿ أن يعذبهم ﴾ لأن ( أن ) فى هذه الآية مقدرة ، وهى الناصبة للفعل ، وصار اللام ها هنا زيادة كزيادة الباء ، ( ولا ) فى الآية . وجواب آخر : وهو أن المفعول فى هذه الآية محذوف ، أى يريد الله أن يزيد فى نعمائهم بالأموال والأولاد ، ليُعَذِّبهم بها فى الحياة الدنيا . والآية الأخرى إخبار عن قوم ماتوا على الكفر فتعلق الإرادة بما هم فيه ، وهو العذاب .

قوله : ﴿ فى الحياة الدنيا ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿ فى الدنيا ﴾ لأن ( الدنيا ) صفة للحياة فى الآيتين فأثبت الصفة ، والصفة فى الأولى ، وحذف الموصوف فى الثانية اكتفاء بذكره فى الأولى ، وليست الآيتان مكبرتين ، لأن الأولى فى قوم ، والثانية فى آخرين ، وقيل : الأولى فى المنافقين والثانية فى اليهود .

قوله : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله ﴾ وفى الصف ﴿ ليطفئوا نور الله ﴾ هذه الآية تشبه قوله : ﴿ يريد الله أن يعذبهم ﴾ و ﴿ ليُعَذِّبهم ﴾ حذف اللام من الآية الأولى ، لأن مرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، وهو المفعول به ، والتقدير : ذلك قولهم بأفواههم ، ومرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، والمراد الذى هو المفعول به فى الصف مضمّر تقديره : ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب - يريدون ذلك - ليطفئوا نور الله فاللام لام العلة . وذهب بعض النحاة إلى أن الفعل محمول على المصدر ، أى إرادتهم لإطفاء نور الله .

قوله : ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ هذه الكلمات تقع على وجهين : أحدهما : ذلك الفوز بغير ( هو ) وهو فى القرآن فى ستة مواضع : فى براءة موضعان ، وفى النساء ، والمائدة والصف والتغابن ، وما فى النساء ( وذلك ) بزيادة واو . والثانى ذلك هو الفوز بزيادة ( هو ) وذلك فى القرآن فى ستة مواضع أيضاً : فى براءة موضعان وفى يونس والمؤمن والدخان والحديد وما فى براءة أحدهما بزيادة الواو وهو قوله ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ وكذلك ما فى المؤمن بزيادة واو . والجملة إذا جاءت بعد جملة من غير تراخ بنزول جاءت مربوطة بما قبلها إما بواو العطف . وإما بكناية تعود من الثانية إلى الأولى ، وإما بإشارة فيها إليها . وربما يجمع بين اثنين منها . والثلاثة ؟ للدلالة على مبالغة فيها . ففى السورة ﴿ خالداً فيها ذلك ﴾ و ﴿ خالدين فيها ذلك ﴾ ومنها أيضاً ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو ﴾ فجمع بين اثنين . وبعدهما ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو ﴾ فجمع بين الثلاثة ، تنبيهاً على أن الاستبشار من الله يتضمن رضوانه والرضوان يتضمن الخلود فى الجنان .

قال تاج القراء : ويحتمل أن ذلك لما تقدمه من قوله : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ فيكون كل واحد منهما في مقابلة واحد وكذلك في المؤمن تقدمه ﴿ فاغفر ، وقهم ، وأدخلهم ﴾ فوقعت في مقابلة الثلاثة .

قوله : ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ ثم قال بعد : ﴿ وطبع الله على قلوبهم ﴾ لأن قوله ( وطبع ) محمول على رأس الآية ، وهو قوله : ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ فبنى مجهول على مجهول ، والثاني محمول ، على ما تقدم من ذكر الله تعالى مرات وكان اللائق : وطبع الله ، ثم ختم كل آية بما يليق بها ، فقال في الأولى : لا يفقهون ، وفي الثانية : لا يعلمون ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول .

قوله : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون ﴾ ، وقال في الأخرى : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون ﴾ لأن الأولى في المنافقين ، ولا يطلع على ضمائرهم إلا الله تعالى ، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليها ، كقوله : ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ والثانية في المؤمنين وطاعات المؤمنين وعبادتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وختم آية المنافقين بقوله : ( ثم تردون ) فقطعه عن الأولى ، لأنه وعيد . وختم آية المؤمنين بقوله : ( وستردون ) لأنه وعد ، فبناه على قوله ( فسيرى الله ) .

قوله : ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ وفي الأخرى ﴿ إلا كتب لهم ليجزيهم الله ﴾ ( لأن الآية الأولى ) مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو قوله : ﴿ ولا يظنون موطناً يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ ، وعلى ما ليس من عملهم . وهو الظمأ والنصب والخمصة ، والله سبحانه بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب ، فقال : ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أى جزاء عمل صالح ، والثانية مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو إنفاق المال في طاعته ، وتحمل المشاق في قطع المسافات ، فكتب لهم بعينه ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ . لكون الكل من عملهم فوعدهم حسن الجزاء عليه وختم الآية بقوله : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم ، ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء .

### وجه المناسبة

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها - الأنفال - أنها كالمتمة لها في معظم ما في أصول الدين وفروعه ، وفي التشريع الذي جله في أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك وأحكام الولاية في الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار المذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدىء به في الأولى أتم في الثانية - وهاك أمثلة على ذلك :

(١) تفصيل الكلام في قتال المشركين وأهل الكتاب .

(٢) ذكر في الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء في الثانية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله ﴾ إلى آخر الآيات .

(٣) ذكرت العهود في سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها .

(٤) ذكر في سورة الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة .

(٥) جاء في الأولى ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وفصل في الثانية أتم تفصيل .

ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم بالبسملة في أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكوراً فيها اسم الله موصوناً بالرحمة يوجهه .

### النص الكريم

بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسْجُدُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ  
يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ الْهِمِّ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ  
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحْدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ  
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أُنْسِلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ  
وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ  
إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ  
مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

**المفردات :** ﴿ البراءة ﴾ : من برىء من الذين إذا أسقط عنه ، ومن الذنب ونحوه إذا تركه وتباعد عنه . ﴿ والمعاهدة ﴾ : عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها وكان كل فريق يضع يمينه في يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان ، ومن جراء ذلك سميت أيماً في قوله تعالى : ﴿ إنهم لا أيمان لهم ﴾ أى لا عهود لهم ، والسياحة في الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال . وقوله : ﴿ غير معجزى الله ﴾ ، أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن والخزى : الذل والفضيحة بما فيه عار . ﴿ والأذان ﴾ : الإغلام بما ينبغي أن يعلم .

﴿ ويوم الحج الأكبر ﴾ : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم . ﴿ ثم لم ينقصوكم شيئاً ﴾ : أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحد منكم ولم يضرؤكم . ﴿ ولم يظاهروا ﴾ : أى لم يعاونوا . ﴿ انسلاخ الأشهر ﴾ : انقضاءها والخروج منها يقال : سلخ فلان الشهر وانسلخ منه ومنه قوله تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ . ﴿ والحرم ﴾ : وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ بقوله : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴾ وقوله : ﴿ وخذوهم ﴾ : أى بالأسر . ﴿ والأخذ ﴾ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم . ﴿ والمرصد ﴾ : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى اقعدوا لهم على كل مرصد . ﴿ واستجاره ﴾ : طلب جواره أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى أنهم يسمون النصير ، جاراً . ﴿ وأجره ﴾ : أى ، أمنه ، ومأمنه أى مسكنه الذى يأمن فيه ، وهو دار قومه ، وقول لا يعلمون أى ما الإسلام وما حقيقته ، فلا بد من إعطاء الأمان حتى يفهموا بحق ولا يبقى لهم معذرة .

قال العلامة ابن كثير : هذه السورة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن ابن اسحاق قال : « سمعت البراء بن عازب يقول آخر آية ﴾ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلاله ﴾ وآخر سورة نزلت براءة » (١) .

وإنما لم ييسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا بالبسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمر المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال : « قلت ، لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثنى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتوها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشئ دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنتم بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول » (٢) وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرف آخر عن عوف الأعرابى به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٤ : ٢٧ - سورة ٩ : ١) . ومسلم فى الفرائض (١١ ، ١٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٩ : ١) . والإمام أحمد فى (١ : ٥٧ ، ٦٩) .



المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم في ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقم للناس مناسكهم ويُعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى في الناس ﴿براءة من الله ورسوله﴾ فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ . لكونه عصبه له .

• قوله تعالى ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ .

أى هذه براءة وتبرؤ من الله تعالى ورسوله ﷺ إلى الذين عاهدتم من المشركين .

قال بعض أهل العلم : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى ﴿فأتقوا إليهم عهدهم إلى مدتهم﴾ الآية . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهدته إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ﴿الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا ، وأجل أجل من ليس له عهد انسلخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ الحرم ، فذلك خمسون ليلة .

فأمر الله نبيه إذا انسلخ الحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا الإسلام .

وقال أبو معشر المدنى حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : « بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الموسم سنة تسع وبعث على بن أبى طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذى الحجة والحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى ﴿فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر﴾ أى سيروا مطمئنين فى الأرض لمدة أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، أى غير فارين أو فائتين من عقابه ، فالسموات السبع وما أظلت ، والأرضون وما أقلت فى قبضته جل جلاله ، وهى مطويات بيمينه ، واعلموا كذلك أن الله مخزى الكافرين فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبالقتل والهزيمة ، وأما فى الآخرة فبالعذاب الأليم .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة (١٠) وفى الحج (٦٧) وفى الجزية (١٦) وفى المغازى (٦٦) وفى التفسير (سورة ٩ : ٢ ، ٣ ، ٤) .

ومسلم فى الحج (٤٣٥) . وأبو داود المناسك (٦٦) . والنزهمذى فى تفسير (سورة ٩ : ٦) . والنسائى فى الحج (١٦١) .

والدارمى فى الصلاة (١٤٠) وفى السير (٦٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٣) وفى (٢ : ٢٩٩) .

قوله تعالى ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ .

المقصود بالأذان هنا الإعلام وهذا الإعلام صادر من الله على لسان رسوله ومصطفاه إلى الناس يوم الحج الأكبر ، المقصود به يوم النحر ، أن الله برىء من المشركين ورسوله ، وهذا تأكيد لما جاء في أول السورة .

ثم دعاهم سبحانه إلى التوبة فقال ﴿ فَإِنْ تَبِمَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ خير لكم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فإن الإسلام عزة وكرامة ورفعة وشموخ وعلو إلى عالم الطهر والنقاء والصفاء ، وأما في الآخرة فقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم .

ثم أعقب الوعد بالوعيد فقال سبحانه ﴿ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فاعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾ وكيف يعجزونه جل في علاه والوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه وتعالى ، تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، قوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ﴾ في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا ﴿ <sup>(١)</sup> ﴾ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرًا ﴿ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ أى جزاء ما قدموا ، وبما كسبت أيديهم وكان الأصل أن تكون البشارة بما يسر ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه لكانوا أهلاً لتلك البشارة ، لكنهم لما كفروا وعصوا الرسول استحقوا أن تكون البشارة إخباراً بعذاب أليم .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : « بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . قال حميد : « ثم أردف النبى ﷺ بعل بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . وروى الإمام أحمد بإسناده عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا

يطوف بالبيت عريان . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادى حتى صحل صوتى » .

وقال الشعبي حدثنى محرز عن أبى هريرة عن أبيه قال : « كنت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى فكان إذا صحل ناديت فقلت بأى شىء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهدته إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيفة عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على قال : « لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبابكر ليقم الحج الأكبر للناس ، فقبل يا رسول الله لو بعثت إلى أبى بكر فقال « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبابكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضى فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس : إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى » .

قوله تعالى ﴿إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين﴾ .

فى هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى بأن من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإنه يجب الوفاء به إلى مدته بشرط ألا ينقص المسلمين شيئا ، ولم يظاهر عليهم أحدا من الأعداء ، فإذا توافر للمعاهد ما ذكر وجب إتمام العهد إلى مدته ، فما أعظم الإسلام فى وفائه ، وما أجمله فى عدله وعهده ووعدده إنه الوفاء المشروط بعدم النقصان ومظاهرة الأعداء ليكون ذلك دليلا على حسن النيات .

قال جل شأنه : ﴿إن العهد كان مسئولا﴾ (١) .

فما أعظم قوله تعالى فى ختام تلك الآية : ﴿إن الله يحب المتقين﴾ . إن التقوى هى السياج المنيع الذى يقى أصحابه الوقوع فى الزلل والارتكاس فى حماة الرذيلة . إن التقوى هى الخوف من الجليل

والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ (١) وقال جل شأنه : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾ (٢) .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى      تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ .

هناك أقوال في الأشهر الحرم ما هي ؟ نختار منها ما ذهب إليه ابن عباس وجماعة ، من أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله تعالى ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمتنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم وخذوهم أسرى ، واحصروهم بالتضييق عليهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وسدوا عليهم المنافذ ، وأحكموا قبضتكم عليهم ، فهذه أوامر أربعة : القتل والأسر والحصار ، والقيود لهم فى كل مرصد .

ثم فتح الله تعالى لهم باب الرحمة والأمل والتوبة والمغفرة ، فقال ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ كما قال فى آية أخرى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾ (٣) . ومن هاتين الآيتين يستفاد تخلي السبيل والأخوة فى الدين .

وقد جعل الله تعالى من مظاهر التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهما من أعظم أركان الإسلام . ففى الصلاة إشارة إلى العبادة البدنية والروحية ، وفى الزكاة إشارة إلى العبادة المالية ، وكثيرا ما قرن القرآن الكريم بينهما فى صيغ متنوعة وصور مختلفة ، فقد يعبر عنهما بصيغة الماضى كما فى قوله جل شأنه ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾ (٤) .

وقد يعبر عنهما بصيغة المضارع كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ (٥) .

وقد يأتيان فى صورة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾ (٦) .

وقد يردان بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾ (٧) وقد

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمّل .

(٣) الآية ٥ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ١٦٢ من سورة النساء .

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ١٨ من سورة التوبة .

يأتیان بصيغة المصدر كما في قوله جل شأنه : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿<sup>(١)</sup> . وقد رويت عن رسول الله ﷺ أحاديث تفيد ما لمكانة هاتين العبادتين من عظمة في الإسلام نسوق منها قوله عليه ﷺ :

- جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) <sup>(٢)</sup> .

- وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماءهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم﴾ <sup>(٣)</sup> رواه البخاري في صحيحه .

- وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ( من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض ) <sup>(٤)</sup> وقال أنس : هو دين الله الذي جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك في كتاب الله في آخر ما أنزل . قال الله تعالى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال في آية أخرى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ .

- وقال أبو إسحق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يترك فلا صلاة له .

- وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أتى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه .

ولما ذكر تعالى التوبة ناسب ذلك أن يقرنها بالمغفرة والرحمة ، فسبحانه من رب غفور ، وسعت رحمته كل شيء ، يسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، لو يعلم المدبرون عنه كيف انتظاره لهم ، ورفقه بهم ، وشوقه لمغفرة ذنوبهم ، لماتوا شوقا إليه ، ولتقطعت أوصالهم من محبته . هذه الحال للمدبرين عنه فكيف بالمقبلين عليه ؟ !

يارب حبك في دمي وكياني      نور أغر يذوب في وجداني  
أنا لا أضام وفي رحابك عصمتي      أنا لا أخاف وفي رضاك أمانى

سبحانك من إله قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة النور .

(٢) سبق تفريغ هذا الحديث .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٢٨) . والترمذي في الإيمان (٢) . والنسائي في التحريم (١) وفي الإيمان (١٥) والإمام أحمد في (٣) :

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٩) .

الشمس والبدر من أنوار حكمته      والبر والبحر فيض من عطاياه  
الطير سبحه والوحش مجده      والموج كبره والحوث ناجاه  
والثمل تحت الصخور الصم قدسه      والنحل يهتف حمداً في خلاليه  
والناس يعصونه جهرا فيسترهم      والعباد ينسى ورنى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وهذا باب آخر من أبواب الرحمة الإسلامية والسماحة والمروءة والندى ، فقد فتح الإسلام باب ( الإجارة ) فقال الله لرسوله الكريم ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ وطلب جوارك وأمانك فأعطه هذا الأمان ، وأسمعه كلام الله الذى أنزله على صدرك غضاً ندياً ، يتقاطر نوراً ورحمة . أسمعه هذا الكلام الذى لو نزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وأعطه هذا الأمان حتى يبلغ مأمنه من وطن ودار ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، فلعلهم بعد سماع كلام الله يتقون أو يحدث لهم ذكرا .

إن الإسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، يقيم دعوته على البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة . قيل لأعرابي لم آمنت بمحمد ؟ فقال لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن أتباع هذا الدين هم الذين أعلنوها في سماع الزمان عالية مدوية : سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف في رحابنا ، وسنتلوا على الدنيا كتاب جهادنا صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

قال ابن نجيم عن مجاهد في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ قال : إنسان يأتيك ليسمع ما تقول ، وما أنزل عليك ، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو في رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحداً بعد واحد يترددون في القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم .

ولهذا أيضاً لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك » .

وقد قبض الله له ضرب العنق في إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه في زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست في

رسالة ، وأمر به فضربت عنقه لارحمه الله ولعنه .

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أماناً أعطى أماناً ، ما دام متردداً في دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه .

لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة في دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعي وغيره من العلماء رحمهم الله .

### المشركون والعهود

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَقْوَاهِمَ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

المفردات : ﴿ ظهر عليه ﴾ : غلبه وظفر به . و ﴿ ورقب الشيء ﴾ : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لا يرقب الله في أموره : أى لا ينظر إلى عقابه فيركب رأسه في المعصية . و ﴿ الإل ﴾ : القرابة قال ابن مقبل :

أفسد الناس خلفو خلفوا قطعوا الإل وأعزاق الرحم

و ﴿ الذمة والذمام ﴾ : العهد الذى يلزم من ضيعه الذم ، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار . ﴿ فاسقون ﴾ : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها . ﴿ نكثوا ﴾ : أصل النكث نقض الحبل ثم استعير لنقض العهد . ﴿ لا أيمان ﴾ : المراد لا عهود لهم .

قوله تعالى ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

هذا استفهام إنكارى يفيد النفي ، وهو أبلغ من التصريح بالنفى لما فيه من التبكيت والتوبيخ والتقرير ، أى لا عهد لهؤلاء المشركين الناكثين للعهود الناقضين للعهود ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم المعنيون فى قوله جل جلاله ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَوْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وهنا عبر عن هذه الشروط بقوله تعالى ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ فاشتراط للوفاء بالعهد استقامتهم على ما شرط وعدم النكث .

ثم أكد سبحانه ألا عهد للمشركين فقال ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أى كيف يكون لهم عهد وهم يتربصون بكم الدوائر ، وينتهزون الفرص ، فإنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراعون فيكم قرابة ، ولا عهداً ، فالخيانة فى دمائهم إنهم مخادعون مراوغون ، ومن مظاهر خداعهم أنهم يرضونكم بأفواههم وتأتى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

هؤلاء المراوغون ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأُنَامِلَ مِنَ الْغِظِ﴾<sup>(١)</sup> إن قلوبهم قد طويت على الخيال والخداع والدخل ، اتخذوا أيمانهم جنة ، ﴿اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فُصِدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

لقد اشتروا الدنيا وهى مهما بلغت قليلة ضئيلة اشتروها بأعلى الأشياء آيات الله فصدوا عن سبيله وقعدوا بكل صراط يعدون ، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويغونها عوجاً ، قبح فعلهم ، وساء صنيعهم ، وأصبح عملهم شنيعاً إذ لا شيء أشد سوءاً من أن يبيع الإنسان آخرته بدنياه ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما أعطت فهى مولى ومهما ضحكت فهى مكشرة .

حذارى حذارى من بطشى وفتكى	هى الدنيا تقول بلاء فيها
فقلولى مضحك والفعل مبكى	فلا يغركموا منى ابتسام
وإذا جلت أو جلت وإذا أينعت نعت	إذا حلت أو حلت ، وإذا كست أو كست
وكم من مريض عدنا وما عدنا	وكم من قصور تبنى وما تبنا
فلم ————— علامات	وكم من ملك رفعت له علامات

ثم أكد الله تعالى نقضهم للعهد فقال ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ أى لا يراعون قرابة ولا عهداً فى مؤمن ، لأن الاعتداء شيمة من شيمهم ، فهم طغاة متجبرون ، ومع كل تلك السخائم التى جبلوا عليها فإن الله تعالى فتح باب التوبة ، فقد وسعت رحمته كل شيء لمن تاب وآمن



وعمل صالحاً ثم اهتدى فقال ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفَصُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

إذ لو علموا ما نقضوا لله عهداً ، ولا خانوا لمؤمن ذمة ، ولما علم الله منهم تلك الطباع المتتوية عقب على هذه الآية بقوله ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا آيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ .

وذلك لأن ضرب الرؤوس منهم يخيف الأتباع . ويفزعهم ، وهؤلاء جناء رعايد وأنتم يا أتباع محمد الأبطال الصناديد ، والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة .

### تحريض على قتال المشركين

الْأَتَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا آيْمَانَهُمْ وَهُمْ يُبَاخِرُ الرُّسُولَ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْتَخَشُونَهُمْ قَالَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبَ غَيْظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم التي أقسموا بها عند المعاهدة ، ونقضوا عهدهم من بعد توكيده ، وهذا استفهام لإنكار عدم قتالهم ، وهو يفيد الحض على القتال والحث عليه ، ببيان شناعة جرمهم ، وعظيم فعلهم المقتضى للقتال ، ألا تراهم هموا بإخراج الرسول من مكة ، أو حبسه حتى لا يراه أحد ، أو قتله بأيدي عصابة مكونة من القبائل حتى يضيع دمه ﴿ وإذ يكر بك الذي كفروا ليشتك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ﴾ (١) .

وقد بدأوكم بالقتال أولاً وقد قيل : الشر بالشر والبادئ أظلم ، وقد كان منهم كل ذلك إذ نقضت قريش العهد ، وأعانت بنى بكر على خزاعة وقتلوا منهم كثيراً ، حتى استنجدوا برسول الله ، وقد أخرجوا النبي ﷺ من بلده مكة ، وأخرجوا غيره من المهاجرين ، وبدعوا بالقتال يوم بدر .

ثم قال بعد هذه الحجج : أنتخشونهم وتتركون قتالهم خشية وخوفاً ، إن كانت الخشية هي المانعة فالله أحق بها إن كنتم مؤمنين ، إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده ، وخشيته دون سواه وهذا الاستفهام يفيد الإنكار والتوبيخ ولكن للمنافقين ولمن كانوا يعظمون أمر القتال ، ويرون أنه لا يليق برحمة الإسلام ، وعطفه على الناس .

ثم بعد هذا البيان الكامل أمرهم بالقتال فقال : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ إذ هو الفاعل حقيقة وأنتم باشرتم العمل في الظاهر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ <sup>(١)</sup> إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم بالقتل والأسر والهزيمة ، وينصركم عليهم نصراً مؤزراً ، ما دمتم تنصرون الله بطاعته ، ويشف صدور قوم مؤمنين كانت قد ملكت غيظاً وألماً من أفعال المشركين بهم في مكة .

وقيل إن خزاعة شفى الله صدرها بحرب المسلمين لقريش وأحلافهم ، ويذهب غيظ قلوبهم بما كابدت قريش من المكارِه والمكايد .

وقد أنجز الله وعده وصدق عبده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وهذا تحريض للقتال بأسلوب بليغ مع تبليغ أن النصر للمسلمين .

ويتوب الله بعد ذلك على من يشاء من عباده حسب مشيئته المبنية على الحكمة البالغة ولا غرابة فالله عليم بخلقه لا تخفى عليه خافية حكيم لا يفعل إلا ما فيه الخير والحكمة لعباده .

### تمحيص المسلمين

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَةً ۖ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

والمراد بالوليجة : البطانة وصاحب سر مأخوذ من الولوج وهو الدخول وصاحبك يدخل في محيط أسرارك .

يقول تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمر يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا قال ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي بطانة ودخيلة ، بل هم في الظاهر والباطن على النصيح كله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر :

وما أدرى إذا يمت أرضاً أريد الخير أيهما يلينى

ولقد قال الله تعالى في الآية الأخرى ﴿ ألم ﴾ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون \* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴿ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية . وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾ <sup>(٤)</sup> الآية .

(١) الآية ١٧ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .

(٣) الآيات ١ - ٣ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران .

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

### المشركون لا يعمرون المساجد

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا لِلَّهِ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

**المفردات :** ﴿ أن يعمروا ﴾ : عمارة المسجد في اللغة تشمل لزومه والإقامة فيه وعبادة الله فيه وبنائه وترميمه وخدمته والإرعاء عليه والعناية به . ﴿ مساجد ﴾ : جمع مسجد وهو مكان السجود ثم استعمل في البيوت الخاصة بعبادة الله وحده والمراد المسجد الحرام . ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ : شاهدة حال لا مقال . ﴿ حبطت ﴾ : أى بطلت وضاعت فكانت هباء منثورا . ﴿ فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ : عسى في كلام الله تفيد تحقق الوقوع .

روى عن ابن عباس رضى الله عنه : « أنه لما أسر العباس يوم بدر غيره المسلمون بالكفر وقطيعه الرحم ، وأغلظ له على في القول فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوينا وتنسون محاسنا ؟ فقال على : ألكم محاسن ؟ فقال : نعم ، إنا نعلم المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحاج ، فأنزل الله عز وجل رداً على العباس هذه الآيات . »

والمراد أنها تتضمن الرد على العباس وأمثاله لأنها وقعت عقب قوله وهى مناسبة لنقض عهودهم ، وعدم حجهم البيت ، ومنعهم منه ، إذ أنها تفيد منع خدمتهم وعمارتهم للمسجد الحرام أيضاً .

يخبر سبحانه وتعالى بأن المشركين ما ينبغي لهم أن يعمروا مساجد الله حالة كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، فالمسجد مهابط الرحمة ، ومنازل السكينة ، ومنازل الهدى ، وبروج التوحيد . ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ (١) .

فكيف يتأتى للمشركين أن يعمروها وهى بيوت الله في الأرض ، وعمارها زوارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زار الله في بيته ، وحق على المزور أن يكرم زائره .

إن المشركين قد حبطت أعمالهم ، وخاب سعيهم ، وضل سؤلهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من عبد عملاً إلا إذا كان صواباً خالصاً ، والشرك يحبط الأعمال ويجعلها عارية من الصواب والإخلاص .

(١) الآية ١٨ من سورة الجن .

جاء في الحديث القدسي الجليل ﴿أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه﴾ (١) .

لذا حكم الله على أعمالهم بأنها محبطة ، وحكم عليهم بالخلود في النار ثم بين تعالى إن الذين يعمرّون مساجد الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ولا يخشون إلا الله ، فاستحقوا أن يكونوا أهلاً للهداية قال تعالى :

﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ وعسى في كلام الله حق ، وقد أخبر النبي ﷺ عن فضل المساجد وعمارها فقال ﴿ إنما عمار المساجد هم أهل الله ﴾ رواه البزار .

وقال ﷺ ﴿ إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فضرف عنهم ﴾ رواه الدارقطني .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً « يقول الله : [ وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين في وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم ] .. وروى الإمام أحمد بإسناده عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فيأكل والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعمامة والمسجد » (٢) .. وعن عمرو بن ميمون الأزدي قال : « أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون إن المساجد بيوت الله في الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها » .. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصل فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله » ..

وقال ﷺ : ( بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة ) (٣) .

اللهم اجعلنا من أوتاد المساجد ، الذين جلسائهم الملائكة ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا في شدة دعوا الله لهم .

### فضل الإيمان والجهاد

\* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٢﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢٣﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٤﴾

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) . وابن ماجه في الزهد (٢١) . (٢) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٣) .

(٣) أخرجه الترمذی في الصلاة (٥١) . وأبو داود في الصلاة (٤٩) . وابن ماجه في المساجد (١٤) .

المفردات : ﴿ السقاية ﴾ : الموضع يسقى فيه الماء في المواسم وغيرها . ﴿ وسقاية العباس ﴾ : موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهى حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم لا تزال مائلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحرفة كالحجابه وهى سدانة البيت ، والسقاية والحجابه أفضل مآثر قریش وقد أقرها الإسلام وفى الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى إلا سقاية الحاج وسدانة البيت »<sup>(١)</sup>.

وقد كانت قریش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين ، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ - وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ إلى قوله ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ﴾ .

الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تنازعوا - أى الأعمال أفضل - والمراد : إنه لا ينبغى أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لا يدانون أهل الايمان والجهاد فى علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا فى قوله : ﴿ لا يستوون عند الله ﴾ أى لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى ، لا فى صفته ولا فى عمله فى حكم الله ، ولا فى مثوبته وجزائه عليه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فضلا عن أن يفضلهم كما يزعم كبراء مشركى قریش الذين كانوا يتبعجون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها .

﴿ والله لا يهدى الظالمين ﴾ .

أى لا يهديهم إلى الحق فى أعمالهم ، ولا إلى الحكم العدل فى أعمال غيرهم ، إذ ليس فى سنته تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدى الظالم إلى شئ من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة

(١) أخرجه أبو داود فى الدييات (١٧ ، ٢٤) ، وابن ماجه فى الدييات (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفى (٣ : ٤١٠)

وفى (٥ : ٧٣ ، ٤١٢) .

البيت ، وحفظ مفتاحه ، وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذى يزعم النفس عن البغى والظلم ويحبب إليها الحق والعدل ، ويرغبها فى الخير وعمل البر ، ابتغاء مرضاه الله لا للفخر والرياء ، وعلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ﴾ .

أى هم أعظم درجة وأعلى مقاماً فى مراتب الفضل والكمال فى حكم الله ، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائناً من كان ، ويدخل فى ذلك أهل السقاية والعمارة .

﴿ وأولئك هم الفائزون ﴾ .

أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعاً لهذه الصفات الثلاث ، وإن سقى الحاج وعمر المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد ، ولا ثواب للكافر عليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية ، وإن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم بقوله :

﴿ ييشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً ﴾ .

أى ييشرهم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمتهم وكمالهم ، حال كونهم ، خالدين فيها أبداً .

﴿ إن الله عنده أجر عظيم ﴾ .

أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذى من أشقه الهجرة ، والجهاد عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده المكرمين ، ولا سيما على الإيمان الكامل الباعث على هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شئ إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شئ على الإنسان .

فما أجدرهم أن ييشرهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمى ، فالأول الرحمة

والرضوان ، والرضوان هو نهاية الإحسان ، وهو أعلى النعيم ، وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ۖ ﴾ (١) .

وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أنس بن مالك عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك . فيقولون : ربنا وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً ) (٢) .

والثانى هو النعيم المقيم فى جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً .

### الإيمان والحب فى الله والبغض فى الله

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ استحب ﴾ : كذا وأحبه ، بمعنى . ﴿ والظلم ﴾ : وضع الشيء فى غير موضعه . ﴿ والعشيرة ﴾ : ذو القرابة الأدنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر . ﴿ والاقتراف ﴾ : الاكتساب . ﴿ وكساد التجارة ﴾ : ضد رواجها . ﴿ والتربص ﴾ : الانتظار . ﴿ وأمره ﴾ : عقوبته إن عاجلاً أو آجلاً .

لما أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين ، وأذنهم بنبد العهد بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم ، عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الإيمان ، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبي ﷺ يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرة القرابة وعصية النسب ، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولوا قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ، ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة وبطانة منهم .

من أجل هذا بين الله فى هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ، ونيل ما بشر الله به أهله

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥١) وفى التوحيد (٣٨) . ومسلم فى الجنة (٩) . والترمذى فى الجنة (١٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٨ ،

من رحمته ورضوانه ودخول جناته ، لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين ، وإيثار حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ .

أى لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم في القتال ، وتظاهرون لأجلهم الكفار ، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين إن أصروا على الكفر ، وآثروه على الإيمان ، فإن في ذلك قوة المشركين على قتال المؤمنين وخضداً لشوكتهم .

وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام وإلى نزول هذه السورة ، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعة ، وهو من أهل بدر ، وقد استخفته نعة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبي ﷺ من قتالهم ، ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفي ذلك نزلت سورة الممتحنة للنبي عن موالة أعداء الله وأعدائهم .

﴿ ومن يتوهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

أى ومن يتوهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم ، بوضعهم الموالة في غير موضعها منهم ، قد وضعوا الولاية في موضع البراءة ، والمودة في محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نعة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله في سورة الممتحنة : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ إنما ينهاكم الله عند الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتوهم فأولئك هم الظالمون ﴿ ١ ﴾ .

وبعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان ، انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فtribصوا حتى يأتي الله بأمره ﴾ .

أى قل لهم : وإن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة ، على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله الذى وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية في الآخرة ، فانتظروا حتى يأتي أمر الله : أى عقوبته التى تحمل بكم عاجلاً أو آجلاً .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها في أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر الباقي بلفظ العشيرة .



(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

(٣) الرغبة في تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة .

(٤) الرغبة في الأوطان والدور التي بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك : إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ، ومن المجاهدة في سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتي الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما في ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهرياً .

وبتفصيل ما تقدم من الآية نجد أنها حوت أموراً ثمانية من أفضل ما يجب :

(أ) حب الأبناء للآباء : وهو غريزي في النفوس ، فالولد بضعة من أبيه ، يرث بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بأبائهم في أسواقهم ، وفي معاهد الحج ، كما قال تعالى حاثاً على ذكره : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ مَنَاسِكُكُمْ فَادْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ (١) .

(ب) حب الآباء للأبناء : وهو غريزي أيضاً ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه ، فهو يحرص على بقاءه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيراً من الطيبات ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٢) .

(ج) حب الإخوة : وهو يلي في المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون في الكفاح في الحياة ، والبيوت التي سلمت فطرة أهلها ، وكرمت أخلاقهم ، يحبون أخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ، ويكفلون من يتركه أبوه فيترى مع أولادهم كأحدهم .

(د) حب الزوجة : وبالزوجية يتحد بشران يتم وجود كل منهما وجود الآخر ، ويتجان بشراً مثلهما ، ومن ثم امتن الله علينا به فقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣) .

(هـ) حب العشيرة : وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر في مواطن القتال والنزال والدود عن الحمى والحريم ، وهو يكون على أشده في أهل البدواة ، ومن على مقربة منهم من أهل الحضر .

(و) حب الأموال المقتربة : أي المكتسبة وهو أقوى من حب الأموال الموروثة لأن عناء النفس في جمعها يجعل لها في قلبه منزلة لا تكون لما يجيء من المال عفواً .

(ز) حب التجارة التي يخشى كسادها في حال الحرب ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة

(١) الآية ٢٠٠ من سورة البقرة . (٢) الآية ٤٦ من سورة الكهف . (٣) الآية ٢١ من سورة الروم .

تجارة يخشون كسادها في ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب في موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) حب المساكن الطيبة المرضية ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة في مكة ، كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى ، لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبغوضا لدى النفوس ، فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾ (١) .

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنوع ، لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام ، وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان في آلاء الله في خلقه ، وإدراك ما فيها من الإبداع والإتيان : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (٢) .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه ﷺ كان المثل الأعلى في أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .

﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

أى الخارجين من حدود الدين والشرعية ، ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التى يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة ، كالمال والتجارة ، على حب الله ورسوله ، والجهاد في سبيله .

هذا ، وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعاً « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار » (٣) .

وعنه أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » (٤) .

وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلّى من كل شيء إلا نفسى التى بين جنبي ، فقال النبي ﷺ :

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ( ٦٦ ، ٦٧ ) . والبخارى في الإيمان ( ٩ ، ١٤ ) وفي الإكراه .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان ( ٦٩ ، ٧٠ ) . والبخارى في الإيمان ( ٨ ) .

لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبى ﷺ : الآن يا عمر .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق ، هو ذكر القلب مع حسن النية ، وصحة القصد ، وتأمل سنن الله وآياته فى الخلق ، وأن تذكر حين رؤية كل شئ من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله ، أنه يسبح بحمده ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر ، وترك معاصيه كما نهى ، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسي : [ وما تقرب إلى عبدى بشئ أحب إلي مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ] <sup>(١)</sup> رواه البخارى .

### يوم حنين

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

**المفردات :** ﴿المواطن﴾ : واحداها موطن وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن ، والمراد بالموطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها . ﴿وحنين﴾ : واد على ثلاثة أميال من الطائف ، وغزوته تسمى غزوة أوطاس ، وغزوة هوازن . ﴿والإغناء﴾ : إعطاء ما يدفع الحاجة . ﴿والرحب﴾ : السعة . ﴿ومدبرين﴾ : أى هاربين لا تلوون على شئ . ﴿والسكينة﴾ : الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس وأطمئنانها ، وهى ضد الانزعاج وقد تطلق على الرزانة والوقار .

فى هذه الآيات الكريمة يؤكد الله تعالى نصره للمؤمنين فى مواطن كثيرة ، كما يذكرهم سبحانه بما حدث لهم يوم حنين ، حيث كانوا كثرة كاسرة ، أدخلت علاج فى النفوس ، ولكنها كانت إعباءً ثقيلاً على الكواهل ، فالإسلام لا يعبأ بالكثرة ، لأنه يؤمن بالواحد ، ولما قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ، لم تغنى عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم تعد عليهم بفائدة ، بل ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وولوا مدبرين لا يلوون

على شيء ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ .

وما كان الله تعالى ليذرهم ، فهو وليهم وناصرهم ، والمدافع عنهم ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ لكن مقتضى الحال قد يكون من الخير أن يلقي الله عباده دروساً في التربية تعينهم على الصمود أمام الأحداث ، والتمرس بالشدائد ، فتداركهم الحق بلطف بره ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، فطمأن النفوس ، وجمع القلوب ، وألزمها الوقار ، وأنزل جنوداً لم تروها ، فكانت نتيجة المعركة نصراً للجماعة المؤمنة ، وتعذيباً للكافرين ، وذلك جزاؤهم ﴿وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ .

قال تعالى : ﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين﴾ .

وقد شاءت الحكمة الإلهية ، والرحمة الربانية ، أن يقرن الله الوعد بالوعيد ، فيفتح الله باب التوبة لأصحاب النيات الصادقة ، حيث يشملهم برعايته ومغفرته ورحمته ، وهو التواب الرحيم .

قال تعالى ﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم﴾ .

إلهي :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً      ويكون منك الصفح والغفران  
لم تنتقصني إن أسأت وزدتنى      حتى كأن إساءتي إحسان  
منك التفضل والتكرم والرضا      أنت الإله المتعسم المنان

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون ، قاتل بنفسه في ثمان : بدر ، وأحد ، والأحزاب ، والمصطلق ، وخيبر ، ومكة ، وحنين ، والطائف .

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون . واختار جمع من العلماء أن المغازي والسرايا كلها ثمانون ، ولم يقع في بعضها قتال .

ونصرهم في كل قتال إما نصراً كاملاً وهو الأكثر ، وإما نصراً مشوباً بشيء من التربية على ذنوب اقترفوها كما في أحد ، إذ نصرهم ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم في أهم أوامر الحرب ، وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما في حنين من الهزيمة في أثناء المعركة والنصر التام في آخرها .

### غزوة حنين

وهذه وقائع غزوة حنين كما تحدث عنها كتاب «الرسول القائد» .

## غزوة حنين وحصار الطائف الموقف العام

### ١ - المسلمون :

كان لفتح مكة أكبر الأثر في توحيد شبه الجزيرة العربية كلها تحت ظل الإسلام ، كما كان له أثر معنوى عميق على المسلمين والمشركين على حد سواء ، فأصبحت شبه الجزيرة العربية قوة ذات عقيدة واحدة ، وهدف واحد ، ولم يبق على الشرك إلا بعض القبائل كقبيلتي هوازن وثقيف ، ومن الواضح أن قضية إسلام هذه القبائل أصبحت قضية وقت ليس إلا ، لانهايار أكبر حصن للشرك : مكة ، ولانهيار أكبر عدو للإسلام : قريش .

### ٢ - المشركون :

سمعت هوازن وثقيف وبعض القبائل الأخرى بفتح مكة ، فقررت أن تقوم بغزو المسلمين قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم ، وأخذت تحتشد في منطقة الطائف .

ولكن انتشار الإسلام في تلك القبائل ، جعل الكثيرين من أفرادها وفخوذها يتخلفون عن هذا التحشد ، إذ تخلفت كعب وكراب أشجع ، كما تخلفت قبائل أخرى ، ورجال من ذوى العقول . كان التردد ظاهراً على القبائل المحتشدة ، وكان الاختلاف واضحاً بينها ، ولم تكن معنوياتها عالية :

## قوات الطرفين

### ١ - المسلمون :

اثنا عشر ألفاً ، بين راكب وراجل ، بقيادة الرسول ﷺ : ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من المسلمين الذين حضروا الفتح .

### ٢ - المشركون :

قبيلة هوازن « عدا عقيل بن كعب بن ربيعة ، وبشر بن كعب بن ربيعة وبنى كلاب بن ربيعة ، وسائر إخوانهم » ومعظم قبيلة ثقيف بقيادة مالك بن عوف النضرى ، من هوازن .

## أهداف الطرفين

### ١ - المسلمون :

ضرب القبائل المحتشدة قبل أن يستفحل أمرها ، وتهدد مكة نفسها ، ومن فيها من المسلمين .

### ٢ - المشركون :

القضاء على قوات المسلمين ، وأخذ المبادأة منهم .

## قبل المعركة

### ١ - المسلمون :

سمع الرسول ﷺ بأخبار تحشد هوازن وثقيف لمهاجرة المسلمين ، فأرسل عبد الله بن أبى حذرر الأسلمى ، وأمره أن يذهب إلى منطقة تحشد المشركين للتأكد من صحة تلك الأخبار .

وعاد عبد الله الأسلمى من واجبه ليخبر المسلمين بأن قبائل هوازن وثقيف قد أنجزت تحشدها فى منطقة وادى أوطاس ، وأنها تنوى مهاجمة المسلمين .

قرر الرسول ﷺ مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين ، وبدأ بإحجاز الإستعدادات الضرورية للحركة .

وبلغ الرسول ﷺ أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً ، فاستعارها من صفوان ليكمل بها تسليح قوته ، وكان عددها مائة درع مع أسلحتها .

ولما أنجز المسلمون استحضاراتهم ، تحركوا باتجاه حنين ، وكانت المقدمة مؤلفة من قسم بقيادة خالد بن الوليد ، وأمامها القطعات الراكبة من الفرسان ، وكان القسم الأكبر مؤلفاً من القبائل الأخرى ، وأمام كل قبيلة رايتها ، وكانت الكتيبة الخضراء المؤلفة من المهاجرين والأنصار فى مؤخرة القسم الأكبر ، ومعها الرسول ﷺ .

وصل جيش المسلمين فجراً إلى وادى حنين ، وذلك الجيش الذى قال المسلمون عنه : لن تغلب اليوم من قلة .

### ٢ - المشركون :

احتشدت هوازن وثقيف فى وادى حنين ( أوطاس ) ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم ، وقد أراد مالك بن عوف قائدهم أن تكون الذرارى والأموال مع المقاتلين ، حتى يشعر كل رجل منهم وهو يقاتل أن حرمة وثروته وراءه ، فلا يفر عنها .

وقد اعترض دريد بن الصمة وهو فارس مجرب قائلاً لمالك : « هل يرد المنهزم شئ ؟ إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برمح وسيفه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك » . فكان جواب مالك : « والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى » .

اضطرت هوازن إلى الأخذ برأى مالك ، وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، قوى الإرادة ، ماضى العزيمة ، شجاعاً ، ولكنه كان سقيم الرأى متهوراً ، سىء المشورة .

كانت خطة مالك تتلخص فى احتلال قمم وادى حنين ومضيق الوادى ، فإذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى ، باغتهم المشركون بالرمد عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم ، ثم القيام

بالحجوم لإجبارهم على الانسحاب ، وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى ومضايقه قبل دخول المسلمين إليه ، وكنوا في مواضعهم المستورة ، انتظاراً لجيش المسلمين .

## القتال

### ١ - هجوم المشركين :

دخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً ، وكان وادياً أجوف منحدرًا ، ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسبرون إلى هاوية ، فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى ، رماهم المشركون بوابل من سهامهم ، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائداً وقتذاك ، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماماً ، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى ، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة .

ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » .

وقال آخرون ممن أسلموا حديثاً مثل قوله ، بل إن شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد ، حاول اغتيال الرسول ﷺ فى هذا الموقف العصيب ، ليدرك ثأر أبيه من محمد ﷺ . وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف منحدرين ورائه يطعنون ، وانتشر الفزع بين المسلمين ، وأزدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل ببعضها ، وركبت الإبل بعضها بعضاً وهى مولى بأصحابها وتعقدت الأمور .

### ٢ - هجوم المسلمين المقابل :

ثبت الرسول ﷺ فى مكانه ، وثبت معه عشرة من أهل بيته ومن المهاجرين ، بينهم عمه العباس ، وأخذ الرسول ينادى الناس إذ يمرون به منهزمين « أين أيها الناس ؟ أين ؟ هلموا إلى أنا رسول الله أنا محمد ابن عبد الله » فلا يرد عليه أحد .

عند ذلك أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهوري الصوت أن ينادى : يا معشر الأنصار يا أصحاب البيعة يوم الحديبية :

وكرر العباس النداء حتى تجاوزت أصداؤه فى جنبات الوادى ، وسمع النداء المهاجرون والأنصار فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت ، فرمى أكثرهم درعه وترك بعيره ، واستصحب معه سيفه وترسه فقط ليبلغ مصدر الصوت بسرعة .

واجتمع حول الرسول ﷺ نحو مائة مسلم وهم يصيحون لييك فاستقبل الرسول ﷺ بهم المشركين ، وصمدوا فى مواضعهم ، حتى فتر هجوم المشركين ، وكان النهار قد طلع والمشركون قد تركوا مواضعهم ، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لإيقاع بعض الخسائر بالمشركين ، لكى تنزعز

معتوياتهم وينسحبوا من الميدان ، ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلهم المشركين لكانت خسائر المسلمين في تلك المعركة كبيرة جداً .

وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد ، وهناك بدأوا الهجوم المقابل على المشركين ، وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً ، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، ولم يكن للمشركين ساقية لحماية الانسحاب ، فانقلب انسحابهم إلى هزيمة .

### ٣ - المطاردة

انسحب أكثر ثقيف باتجاه الطائف ، وكان معهم مالك بن عوف ، وانسحبت هوازن والقبائل الأخرى باتجاه أوطاس ونخلة ، وقام المسلمون بالمطاردة ، وأعلن النبي ﷺ أن من قتل مشركاً فله سلبه ، ووصلت مطاردة المسلمين إلى أوطاس ، فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بالمنسحجين إلى هناك خسائر فادحة أيضاً ، كما استسلم كثير من المشركين أسرى ، ولما عاد حديثو العهد بالإسلام من هزيمتهم رأوا الكثيرين من المشركين أسرى مصفدين بالأغلال .

### حصار الطائف

وصل بعض المسلمين بمطاردتهم إلى الطائف التي التجأ المنهزمون من المشركين إليها ، وكانت مدينة محصنة ذات أسوار وحصون قوية ، ولها أبواب تغلق عليها .

وتجمعت أرتال المسلمين التي طاردت المنسحجين إلى أوطاس ونخلة بعد إنجاز واجباتها برتل المسلمين الذي طارد ثقيفا باتجاه الطائف ، لإجبار ثقيف على الاستسلام .

إلا أن ثقيفا سددت نبالها على المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر ، فقرر الرسول ﷺ الانسحاب بعيداً عن مرمى النبل ، واستقر المسلمون هناك .

وفكر المسلمون في وسيلة يستطيعون بها إجبار الطائف على الاستسلام ، فأشار سلمان الفارسي بقذف حصونها بالمنجنيف . وبمهاجمة تلك الحصون بالدبابات .

رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وتقرب بعضهم بحماية الدبابات إلى سور الطائف ليخرقوه ، ولكن أهل الطائف استطاعوا إحباط هذا الهجوم . إذا أحمو قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات الخشبية ، فحرقتها ، فانسحب المسلمون المحتمون بها من تحتها لئلا يحترقوا ، فرمى ثقيف بالنبل بعد انكشافهم من حماية الدبابات .

أعلن الرسول ﷺ أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف ، ففر إليه حوالي عشرين من عبيد أهلها ، فعرف منهم أن المواد الغذائية كثيرة جداً لدى ثقيف ، كذلك آثر أن يرفع الحصار بعد أن استمر حوالي



شهر واحد ، تاركاً أمر استسلام ثقيف إلى الزمن وخاصة أن الكثيرين من رجالها اعتنقوا الإسلام .

### خسائر الطرفين

- ١ - المسلمون : كانت خسائريهم كبيرة جداً في الأرواح .
- ٢ - المشركون : كانت خسائر المشركين في الأرواح كبيرة جداً ، أما خسائريهم في الأموال فكانت :  
أربعة وعشرين ألف بعير .  
أربعين ألف شاة .  
أربعة آلاف أوقية من الفضة .  
سنة آلاف نسمة من السبي .

### أسباب ترك محاصرة الطائف

يمكن إجمال أسباب ترك المسلمين محاصرة الطائف بما يلي :

- ١ - قوة حصون الطائف وشجاعة بني ثقيف ، وتكديس المواد الغذائية فيها ، كل ذلك جعل استسلامها للمسلمين صعباً يحتاج إلى مدة طويلة .
  - ٢ - أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة في رمضان حتى حصار الطائف والبقاء هناك حوالي شهر واحد أصبحت الفترة حوالي شهرين تقريباً ، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثاً ، مما جعل بعضهم يرغب في سرعة الرجوع ، كما أن الوقت ثمين بالنسبة للرسول ﷺ لتوطيد دعائم الإسلام .
  - ٣ - قرب حلول الشهر الحرام « ذى القعدة » .
  - ٤ - انتشار الإسلام في ثقيف مما جعل دخول ثقيف كلها في الإسلام أكيداً لا يحتاج إلا إلى الوقت .
- وقد نظمت مقاومة المسلمين ضد ثقيف بعد إسلام مالك بن عوف ، حيث استعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم الخناق ، فالتجأوا إلى الرسول ﷺ وأسلموا .

### الغنائم

#### ١ - التكديس :

بعد انتهاء معركة حنين كدس الرسول ﷺ كافة الغنائم في موضع « الجعرانة » حتى يتفرغ للمطاردة ، وحصار الطائف ، ثم يعود بعد ذلك إلى توزيعها .

#### ٢ - التوزيع :

بقيت الغنائم غير موزعة مدة طويلة لأن الرسول ﷺ كان ينتظر قدوم وفد من هوازن إليه تائبين ، ولكنه اضطر إلى تقسيم الغنائم بعد أن بلغ انتظاره لهوازن حوالي شهر واحد ، دون أن يحضر إليه أحد ،

وخاصة أن الأعراب وحديثي الإسلام أخذوا يلحون على الرسول ﷺ طالبين تقسيم الغنائم .

وشرع بتقسيم الغنائم ، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطاهم أوفى العطاء وأجزله .

أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة ، فقال : وابنى معاوية ؟ فمنح مثلها لمعاوية ، فقال : وابنى يزيد ، فمنح مثلها لابنه يزيد .

وأقبل رؤساء القبائل وأصحاب الطمع يتسابقون إلى ما يمكن أخذه ، وشاع أن محمداً ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد ﷺ هذه الأعطيات لمن يقدون عليه أن تنقص حصتهم من الغنائم ، فألحوا في أن يأخذ كل فيئه ، وأكب عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيتنا ، فقام الرسول ﷺ إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال : « يا أيها الناس مالى من فيئكم ولا هذه البرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم »<sup>(١)</sup> .

وقد كان نصيب المؤلفة قلوبهم من هذه الغنائم أو في نصيب ، أما المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار فقد كان نصيبهم لا يذكر .

### ٣ - إعادة السبي :

بعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وخبرهم رسول الله ﷺ بين أبناءهم ونساءهم وبين أمواهم ، فاخترأوا أبناءهم ونساءهم ، فقال رسول الله ﷺ « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيك عند ذلك وأسأل لكم » .

نفذت ذلك هوازن ، فأجابهم الرسول ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » قال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله ، وكذلك قال الأنصار .

ولكن الأقرع بن حابس عن تميم ، وعيينة بن حصن عن فزارة ، رفضا إعادة السبي كما رفض عباس بن مرداس ، هنالك قال النبي ﷺ ( أما من تمسك منكم بحقه من السبي فله بكل إنسان ستة فرائض من أول سبي أصيبه ) .

وهكذا رد المسلمون كافة السبايا إلى هوازن .

### المشركون نجس

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَتِلُوا الَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (١٢١، ١٤٩) . والنسائي في الفقه . والإمام مالك في الجهاد (٢٢) . والإمام أحمد في (٤ : ١٢٨) وفي (٥ : ٣١٦، ٣١٩، ٢٣٦) .

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ  
 مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٩٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ  
 عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِعُونَ قَوْلَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنِي يُؤْفَكُونَ ﴿١٠٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ  
 دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ  
 عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٠١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ  
 الْكَافِرُونَ ﴿١٠٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ  
 كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١٠٣﴾

**المفردات :** ﴿ النجس ﴾ : من نجس الشيء إذا كان قدراً غير نظيف ، والاسم النجاسة ،  
 وقال الراغب : النجاسة : القذارة ، وهى ضربان : ضرب يدرك بالخاصة ، وضرب يدرك بالبصيرة ،  
 وهذا ما وصف الله به المشركين فقال ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ ويقال نجسه ، إذا جعله نجسا ، ونجسه :  
 أزال نجسه ومنه تنجيس العرب ، وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبي ليدفعوا عنه نجاسة  
 الشيطان ، والناجس والنجيس ، داء خبيث لا دواء له اهـ . ﴿ والعيلة ﴾ : الفقر ، يقال عال الرجل  
 يعيل عيلا وعيلة إذا افتقر فهو عائل ، وأعال : كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يمونهم ويكفيهم  
 أمر معاشهم . ﴿ والفضل ﴾ : العطاء والفضل . ﴿ ولا يدينون دين الحق ﴾ : يقال : فلان يدين  
 بكذا إذا اتخذ ديناً وعقيدة . ﴿ ودين الحق ﴾ : هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه . ﴿ والجزية ﴾ :  
 ضرب من الخراج يضرب على الاشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى ( بالكسر ) . ﴿ واليد ﴾ :  
 السعة والقدرة . ﴿ والصغار والصغر ﴾ : ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هنا  
 الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة  
 الحكم . ﴿ عزير ﴾ : هو الذى يسميه أهل الكتاب عزرا ، ويتنبى نسبه إلى العازار بن هارون عليه  
 السلام . ﴿ ويضاهون ﴾ : أى يشابهون ويحاكون . ﴿ وقاتلهم الله ﴾ : جملة أصلها الدعاء ثم كثر  
 استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . ﴿ والإفك ﴾ : صرف  
 الشيء عن وجهه ، يقال أفك فلان أى صرف عقله عن إدراك الحقائق ، ورجل مأفوك العقل .  
 ﴿ والأخبار ﴾ : واحدهم خبر ( بالفتح والكسر ) وهو العالم من أهل الكتاب . ﴿ والرهبان ﴾ :  
 واحدهم راهب ، وهو لغة الخائف ، وعند النصارى هو المتبتل المنقطع للعبادة . ﴿ والإرادة ﴾ : القصد  
 إلى الشيء ، وقد تطلق على يفضى إليه وإن لم يرده فاعله فيقال فى الرجل المسرف المبذر : يريد أن يخرب  
 بيته أى أن تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده ، لأن فعله فعل من يقصد ذلك . ﴿ ونور الله ﴾ : هو

دين الإسلام . ﴿ وأظهره على الشيء ﴾ : جعله فوقه مستعلياً عليه .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين الصادقين ، الطاهرين قلوباً ، الصادقين عقيدة ، فيخبرهم بأن المشركين نجس في عقيدتهم وفي قلوبهم فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وقد كان هذا الحكم ضمن القرارات التي أعلنها الإسلام في العام التاسع من الهجرة ، عندما توجه أبو بكر الصديق على رأس البعثة الإسلامية إلى مكة لأداء الحج ، ولحق به علي بن أبي طالب ، فأعلنوا أنه لا يحج بعد العام مشرك ، ولن يدخل الجنة كافر ، ولن يطوف بالبيت عريان .

قال الإمام أبو عمرو بن الأوزاعي : كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع نهييه قول الله تعالى ﴿ إنما المشركون نجس ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح ( المؤمن لا ينجس )<sup>(١)</sup> .

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم .

وقال أشعث : عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . رواه بن جرير .

قوله تعالى ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ .

هذا النص الكريم بمنزلة الجواب عن سؤال قد تلوكه الألسنة ، كأن سائلاً قال : إننا بعد مقاطعة المشركين فستؤدى تلك المقاطعة إلى كساد التجارة والركود الإقتصادي ، فطمأن الله القلوب ، بأنه العليم بمصالح العباد ، الحكيم المنزه عن العيب ، أمره حكمة ، ونهيه مصلحة ، لا أراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فلا يمكن أن يأمر بأمر فيه ضرر بعباده .

فإن خفتم أيها المسلمون فقراً ، أو ضيقاً مالياً ، بعد مقاطعة المشركين ، فسوف يغنيكم الله من فضله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً \* ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد صدق الله وعده ، وأنجز عهده ، فأجرى في أرض المسلمين ذلك الذهب الأسود في عروق الأرض ، فالبترول هو عصب الحروب ، وغذاء الصناعات ، والورقة الراجعة على مائدة الدبلوماسية

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (٨) وفي الغسل (٢٣، ٢٤) . ومسلم في الحيض (١١٥) . والنسائي في الطهارة (١٧١) . وابن ماجه في الطهارة (٨٠) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٣٥ ، ٣٨٢) وفي (٥ : ٣٨٤) .

العالمية ، هذا بالإضافة إلى مختلف المعادن المدفونة في تلك الأرض المباركة . قال ﷺ : ( اتمسوا الرزق في خبايا الأرض ) .

فالأمة الاسلامية أغنى أمة على وجه البسيطة ، إنها صاحبة العقيدة الصحيحة ، تملك الثروة البشرية ، والموقع الجغرافي الممتاز ، والأرصدة والطاقة والمعادن ، فلا عرفت قدرها ، وشكرت أنعم الله عليها ، وجاهدت في سبيل إعلاء كلماته .

تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت .

قوله تعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب ، وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابي ومجوسى ووثنى وغير ذلك .

وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية على غير المسلمين فإنما فرضها على القادرين منهم ، أما غير القادرين فقد تجاوز الإسلام عنها بالنسبة لهم ، بل إن الجزية قد تختلف باختلاف المقدرة ، فقد تكون ثمانية وأربعين درهما في العام ، وقد تكون أربعة وعشرين ، وقد تكون اثني عشر .

وقد اقتضى منطق العدالة الاسلامية أن يفرض الزكاة على المسلمين ، والجزية على غيرهم ، وليس في هذا أى ظلم أو إجحاف ، فقد قرر الله تعالى أنه لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ، وإنما هذه الجزية بمنزلة ما يسمى في العصر الحديث بضريبة الدفاع ، فإن الجيش الإسلامى يقوم بالدفاع عن رعاياه ، فأى ظلم في هذا حتى ترتفع الأصوات بالباطل ، وتعلن الحرب الشعواء على الإسلام .

والله جلت قدرته أمر بقتال هؤلاء إن امتنعوا عن دفع الجزية ، لأنهم عصاة متمردون لا عذر لهم ، وكافرون برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لعلموا أن الله تعالى قد بشر ببعثة نبي الهدى محمد ﷺ .

قال تعالى ﴿ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿<sup>(١)</sup> .

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي نه ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ينتفون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٣)</sup> .

سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة : فقال : والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن . « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها عيوناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ﴾<sup>(٤)</sup> . قال تعالى لرسوله في حديثه القدسي : [ وعزى وجلالى : لو سلوكوا إلئى كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد ] .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قِيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالم عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

إن الذين كفروا بمحمد ﴿ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق ﴾ لأن الكفر بمحمد ﷺ كفر بالله ، وتكذيب بكلامه ، وكيف يدينون دين الحق ، وكيف لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، وكيف يدينون دين الحق ، وقد كفروا بالله الحق ، لقد قبل الإسلام منهم الجزية عن يد أى عن قدرة فلا يدفعها العاجز وهم صاغرون ، خاضعون لأحكام الله ، فالدينونة لله والدين كله لله لا رب سواه ، إن الحكم إلا لله ، وحده لا شريك له إذا حكم عدل ، وإذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا عاهد أنجز ، يقول صدقاً ، ويحكم عدلاً ﴿ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ إن الله هو السميع البصير ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ .

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٩ من سورة الفتح . (٣) الآيات ١٥٠ - ١٥٢ من سورة النساء .

(٤) أخرجه البخارى في تفسير ( سورة ٤٨ : ٣ ) وفي البيوع ( ٥٠ ) . والدرامى في المقدمة ( ٢ ) . والإمام أحمد في ( ١٧٤ : ٢ ) .

(٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا في العزير إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وذكر السدى وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالة لما غلبت على بنى إسرائيل ، فقتلوا علماءهم ، وسبوا كبارهم ، بقى العزير ييكنى على بنى إسرائيل وذهب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيهِ ، فبينما هو ذات يوم إذمر على جبانة ، وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت : الله . قال : فإن الله حى لا يموت قالت : يا عزيز فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بنى إسرائيل ؟ قال : الله ، قالت : فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به .

ثم قيل له : اذهب إلى نهو كذا فاغتسل منه ، وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً إن أطعمك فكله ، فاذهب ففعل ما أمر به ، فإذا الشيخ فقال له : افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهية الجمرة العظيمة ثلاث مرات ، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوراة . فقال يا بنى إسرائيل : قد جئتكم بالتوراة فقالوا : يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التوراة بأصبعه كلها ، فلما تراجع الناس من عدوهم ، ورجع العلماء أخبروا يشأن عزير ، فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال ، وقابلوها بها ، فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم : إنما صنع هذا لأنه ابن الله . فأى ظلم أعظم من هذا الجرم أن ينسبوا لله ولداً ، كما قالت النصارى عن المسيح ابن مريم ، فقد نسبوه لله تعالى وجل جلال الله ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ ذلكم الله ربكم لا آله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل \* لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير \* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴿ (١) .

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينز بأساً شديداً من لدنه ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ ما كتبت فيه أبداً \* وينذر الذى قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴿ (٢) .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً \* لقد جئتم شيئاً إداً \* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً \* أن دعوا للرحمن ولداً \* وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً \* إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (٣) .

لقد كذب الله تعالى هؤلاء الضالين المضلين ولعنهم فقال ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أى كلام يقال بالأسنة ولا حقيقة له ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن

(١) الآيات ١٠١ - ١٠٤ من سورة الأنعام . (٢) الآيات ١ - ٥ من سورة الكهف . (٣) الآيات ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .

عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون \* قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿١﴾ .

إنهم يضاهئون ويشابهون قول الذين كفروا من قبل من مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين .  
﴿ قاتلهم الله ﴾ وهذا دعاء عليهم باللعنة والطرده من رحمة الله .

﴿ أئى يؤفكون ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق . جل جلال الله فقد تقدس عن الشريك ذاته ، وتنزهت عن مشابهة الأغيار صفاته .

قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهما فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أضررك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك . أضررك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال ﴿ إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون ﴾ (١) .

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحو الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أى الذى إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ . ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

قوله تعالى ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (١ : ٢٧ ، ٥٣) .

(١) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة يونس .



هذا وعدٌ من الله للجماعة المؤمنة بحفظ الدين وصيانة الدعوة ، فمن جال بخاطره أن يطفئ نور الله بنفخة من فمه فليطفئ الشمس في علاها ، إن الناس جميعاً إذا تحولوا إلى كناسين ليشيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هي السماء ضاحكة السن ، بسامة الحيا . إن في قوله تعالى ﴿ يَأْتِي اللَّهَ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ ﴾ ما يدل على قوة الله وقدرته ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾<sup>(١)</sup> .

إن سنة الله اقتضت أن تسير القافلة والذئب تعوى ، وهل يضر السحاب نبج الكلاب ، نعم سيتم الله نوره ولو كره الكافرون ولو حقد الحاقدون ، فالحق أحق أن يتبع ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وكل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله جل شأنه ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

إنه النبي محمد الذي بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً ، إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج المنير ، الهادى إلى صراط الله رب العالمين ، أرسله بالهدى ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(٥)</sup> .

كتاب لا تزغ به الأهواء ، ولا تلتبس الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملأ الأتقياء ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ولقد أرسل الله رسوله بدين الحق وهو الإسلام وقد أظهره الله على الدين كله ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾<sup>(٦)</sup> .

والإسلام هو كلمة الله العليا فمن ابتغى الهدى في غيره ضل وهوى ، أظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾<sup>(٧)</sup> .

فكم زالت رياض من رباها      وكم بادت نخيل في البوادي  
ولكن نخلة الإسلام تنمو      على مر العواصف والعوادي  
ومجدك في حمى الإسلام باقٍ      بقاء الشمس والسبع الشداد

(٥) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٦) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٧) الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢ من سورة البقرة .

## الأخبار والرهبان وكثر المال

\* يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَخْبَارِ وَالرَّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

**المفردات :** ﴿ أكل الأموال ﴾ : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع .  
 ﴿ والصد ﴾ : المنع . ﴿ وسبيل الله ﴾ : هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة وأساس ذلك التوحيد والتنزيه . و ﴿ الكنز ﴾ هنا : خزن الدنانير والدرهم فى الصناديق ، أو دفنها فى التراب مع الإمتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير . و ﴿ يحمى عليها ﴾ : أى تضرم عليها النار الحامية حتى تصبح مثلها .

يخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن هناك من علماء اليهود ، وعباد النصارى من يأكلون أموال الناس بالباطل ، وأوجه الباطل كثيرة منها : الرشوة والربا والغصب والسرقة ، ويصدون عن سبيل الله وذلك ببيعهم الآخرة بالدنيا وتضليل العامة ، وعدم قول الحق . قال ابن المبارك :  
 وهل أفسد الدين إلا الملوك وأخبار سوء ورهبانها

وإذا كان القرآن الكريم يحدثنا عن علماء اليهود وعباد النصارى ففى حديثه عنهم تحذير لنا معشر المسلمين - قال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ (١) .

جاء فى الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفى رواية أخرى قالوا : فارس والروم ؟ قال : ( فمن الناس إلا هؤلاء ؟ ) (٢) .

والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأخبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تحيى إليهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلمهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباعوا بغضب من الله تعالى .

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

(٢) أخرجه الترمذى فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٢١٨ ، ٣٤٠) .

ولما كان الناس يتبعون علماء الدين والعباد وأصحاب الأموال ، فقد حذر الله تعالى الأغنياء من كثر المال قال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِشْرِهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن عمر : الكنز هو المال الذي لا تؤدى زكاته . وما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيما مال أدت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا في الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض .

وروى البخارى من حديث الزهري عن خالد بن أسلم قال : ( خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال ) .

ولما كان الإسلام دين الاعتدال ، فقد دعا النفوس إلى التزام الصراط المستقيم ، لا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير .

كما حذر من السقوط في بريق الذهب والفضة ، والارتقاء في أحضان المادة .

قال ﷺ : ( ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

وقال ﷺ : ( تبا للذهب ، وتبا للفضة ) . يقولها ثلاثا ، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ ؟ قال : ( لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه ) (٢) .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر وأتبعه ثوبان فأتى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض الموارث من أموال تبقى بعدكم » قال فكبر عمر ثم قال له النبي ﷺ : ( ألا أخبرك بخير ما يكتز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته ) (٣) .

وقال رسول الله ﷺ : ( إذا كثر الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إني

(١) أخرجه البخارى في المغازى (١٢ ، ١٧) وفى الجهاد (٣٨) وفى الجزية (١) وفى الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم فى الزكاة (١٢٦) وفى

الزهد (٦) . والترمذى فى القيامة (٢٨) . وابن ماجه فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٤٨ ، ٥١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٣٦٦) . (٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٣٢) . وابن ماجه فى النكاح (٥) .

أَسْأَلُكَ الثَّباتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيْمَةَ عَلَى الرَّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ حَسْنَ عِبَادَتِكَ وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيْمًا ، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ وَأَعُوْذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ .

قالوا : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما أحبوا المال وكنزوه وقدموه على طاعة الله ولم ينفقوه في سبيله ، كان وبالا عليهم في الآخرة . فعند ما يموت ابن آدم يصاب بمصيبتين : الأولى أنه يترك ماله كله . والثانية أنه يسأل عنه كله .

ولذلك لما حضرت محمد بن كعب القرظي الوفاة وكان غنيا ، قالوا له : كم تركت لأولادك من المال ، قال : « ادخرت مالى لنفسى عند ربي ، وادخرت ربي لأولادى » .  
يا ابن آدم :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها      فالموت لاشك يفنيها ويفنيها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن ناشيها  
قصورها ذهب والمسك طيبتها      والزعفران حشيش نابت فيها

هذه الأموال تُصهر في نار جهنم فتكوى بها الجباه المتجبرة ، والجنوب التي طالما تمرغت في الحرير ، والظهور التي طالما نامت على النعيم ، ونسيث البؤساء والمساكين ، ثم يقال لهم تبكيئا وتقريعا : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتُمُونَ ، كما في قوله تعالى : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (١) وكما في قوله جل شأنه ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ إذ البشارة عادة إخبار بما يسر ، لكنها جاءت هنا على طريقة التقريع والتوبيخ .

قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : « والذي لا آله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حذته » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : « بلغني أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك . لا يدرك منه شيئا إلا أخذه » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « من ترك بعده كنزا ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذي

(١) أخرجه النسائي في السهو (٦١) . والترمذي في الدعوات (٢٣) . والإمام أحمد في (٤ : ١٢٣ ، ١٢٥) .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » رواه ابن حبان في صحيحه .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجهه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ) (١) .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : ( ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرصده لدين ) (٢) .

وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألقى الله فقيراً ولا تلقه غنيا » قال : يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تحبأ » قال يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ : « هو ذاك وإلا فالنار » .

قال رسول الله ﷺ : « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون » .

### عدة الشهور والنسئ

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقِيَمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَلِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٧﴾

المفردات : ﴿ الشهور ﴾ : واحدها شهر وهو اسم للهلال سميت به الأيام .  
و ﴿ الكتاب ﴾ : هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى ﴿ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ .  
و ﴿ الحرم ﴾ : واحدها حرام من الحرمه بمعنى التعظيم . و ﴿ الدين ﴾ : الشرع والقيم أى الصحيح المستقيم الذى لا عوج فيه . و ﴿ كافة ﴾ : أى جميعا . و ﴿ النسئ ﴾ : من نسا الشيء ينسؤه نساء .  
و ﴿ منسأة ﴾ : إذا أخره أى الشهر الذى أنسىء تحريمه : أى أخر عن موضعه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٢ : ٢٦٢ ، ٢٧٦ ) .

(٢) أخرجه البخارى فى التمنى ( ٢ ) وفى الاستئذان ( ٣٠ ) وفى الرقاق ( ١٤ ) . وأخرجه مسلم فى الزكاة ( ٣١ ) وابن ماجه فى الزهد

( ٨ ) والأمام أحمد فى ( ٢ : ٢٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٩٩ ، ٤١٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٣٠ ) وفى ( ٥ : ١٤٩ ، ١٥٢ ) .

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام في أحوال المشركين وقد كان الكلام في قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما قبله ، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾ .

أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله ، وأثبتته من نظام سير القمر ، وتقديره منازل ، منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : ﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾ الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته في حملته ، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله ، وخلق كل منهما وما فيها .

وقوله : ﴿ في كتاب الله ﴾ أى في نظام الخلق والتقدير والسنن الإلهية فيه ، أو في حكمه التشريعى كحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهراً معلومات ، وكون ما يتعلق بالشهور من الفرائض والسنن كالحج والصيام ، وعدة المطلقات والرضاع فالمعتبر فيه الأشهر القمرية ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور في جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أدائهما ، ومنها ما يسهل فيه ذلك .

﴿ منها أربعة حرم ﴾ أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى ، وإن كانت قد أدخلت بذلك أحيانا اتباعاً لأهوائها وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم وواحد فرد ، وهو رجب .

روى أحمد عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب في حجة الوداع بمبنى في أوسط أيام التشريق قال ( ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان )

. ثم قال : ( ألا أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . ثم قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى . ثم قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى قال : فإن دماءكم وأموالكم ، وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، ففعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه <sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه البخارى في العلم (٣٠ ، ٣٧) وفي الزكاة (٣١) وفي الحج (١٣٢) . ومسلم في الإيمان (٣٧٨) . وأبو داود في الأمانة (١١) . وابن ماجه في المناسك (٧٦) . والإمام أحمد في (١ : ٢٣٠) وفي (٣ : ٨٠ ، ١٠٩ ، ٢٠٢) وفي (٧٦١٤ ، ١٦٨) .

﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها ، وعدد الحرم منها ، هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسيء .

وقد يكون المعنى — ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل فى الحج وغيره ، وما يتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثه منها ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء ، على شدتهم فى أخذ الثأر ، وضراوتهم بسفك الدماء .

﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أى فلا تظلموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك المحرمات فيها ، تنشيطاً للنفوس على زيادة العناية بما يزيكها ويظهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه .

ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة فى أدائها ، كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين ، وسماع خطبتين ، تذكيراً وموعظة حسنة ، تقوى فى المؤمن ، حب الخير والتعاون على البر والتقوى .  
وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة .

وخص أياماً معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً للسفر لأداء النسك .

وحرم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرّم رجب فى وسط السنة لتقليل شرو القتال وتخفيف أوزاره ، ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه . ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ .

أى قاتلوهم جميعاً وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم ، وكف أذاهم ، كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره ، لا للانتقام ولا للعصبة ، ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قويمهم لضعيفهم ، فأنت حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان ، وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فمن يتق الظلم والعدوان فى الأرض ، وأسباب الفشل والخذلان فى القتال ، من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله فى الاجتماع ، يكن الله معه ، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد ﴿ إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ .

المراد بالنسيء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا ان العرب ورثت في مكة من إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال في الأشهر الحرم ، لتأمين الحج وطرقة ، ولما طال عليهم الأمر غيروا وبدلوا في المناسك ، وفي تحريم الأشهر ، ولا سيما الحرم إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارة ثلاثة أشهر متواليات ، فأحلوا شهر الحرم وأنسأوا تحريمه إلى صفر ، لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت ، وفي ذلك مخالفة للنص والحكمة التحريم .

وقد كان من عادتهم في ذلك أن يقوم رجل من كنانة في أيام منى ، حيث يجتمع الحجاج فيقول : أنا الذي لا يرد لي قضاء . فيقولون : صدقت ، فأخر عنا حرمة الحرم واجعلها في صفر فيحل لهم الحرم ، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا ، ثم صاروا ينسئون غير الحرم ، ويسمون النسيء باسم الأصل ، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسيء تشريع ديني ملتزم ، غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل ، ومن ثم سماه الله زيادة في الكفر ، أى إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به ، إذ حق التشريع له وحده ، فمنازعته في ذلك شرك في ربوبيته ، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيها ، ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم ، إذا واطأوا عدة ما حرم الله من الشهور في ملته ، ولم يزيّدوا ولم ينقصوا وإن قدموا وأخروا مع أن المقصد في ذلك العدد ، والتخصيص لا مجرد العدد ، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

﴿ زين لهم سوء أعمالهم ﴾ أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، بهذه الشبهة الباطلة إذ اكتفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئا ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .

﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ إلى الحكمة في أحكام شرعه ، وجعلها مبنية على مصالح الناس في دينهم ودنياهم ، أفرادا وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين من آثار الإيمان ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ (١) .

وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم ، وما يوسوس لهم به الشيطان ، فيوقعهم في الشقاء والخسران .

### إيقاظ الهمم بالجهاد

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ



إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا  
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾

**المفردات :** ﴿النفر والنفور﴾ : الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط يقال نفرت الدابة والغزال نفوراً ونفر الحجيح من عرفات نفراً واستنفر الملك العسكر إلى القتال وأعلن النفير العام فنفروا خفياً وثقلاً . و ﴿التأفل﴾ : التباطؤ وهو من الثقل المقتضى للبطء . و ﴿المتاع﴾ : ما يتمتع به من لذات الدنيا . و ﴿الغار﴾ : النقب العظيم في الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور . و ﴿الصاحب﴾ : هو أبو بكر رضى الله عنه . و ﴿السكينة﴾ : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الإنزعاج والإضطراب . و ﴿كلمة الله﴾ : هى التوحيد . و ﴿كلمة الذين كفروا﴾ : هى الشرك والكفر .

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك ومالابساها من هتك ستر المنافقين ، وضعفاء الإيمان ، وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها ، وإلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرياً على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود ، وبين حقيقة أحواله من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتركيها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك ، والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن الأولى ستائة وعشرة كيلو مترات ، وعن الثانية ٦٩٢ كم .

وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، من أن الروم جمعت جموعاً معهم لحم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب ، حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء ، بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قباذ ، وعدد جنده أربعون ألفاً ، فندب النبى الناس بالخروج لقتالهم ، وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام للتجارة ، وقال : يا رسول الله هذا مائة بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائة أوقية من الفضة . فقال النبى ﷺ : ( ما يضر عثمان ما عمل بعدها )<sup>(١)</sup> .

ثم خرج لمقابلتهم ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئاً من بلاد الشام وكان ذلك فى رجب سنة

٩ هـ « تسعة » .

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٦٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ .

الخطاب للمؤمنين في جملتهم ، تربية لهم بما لعله وقع من منافقهم وضعفائهم ، أى يا أيها الذين آمنوا ما الذى عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من الثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، وإخلاقكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول : انفروا في سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ، والقضاء على دينكم الحق ، الذى هو سبيل سعادتكم ؟ فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال في سبيل الله كما قال ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١) وكان من أسباب ثاقلهم أمور :

ا - أن الزمن كان وقت حر شديد .

ب - أنهم كانوا قريبي عهد بالرجوع من غزوتي الطائف وحنين .

ج - أنهم كانوا في عسرة شديدة ، وجهد جهيد من قلة الطعام .

د - أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه وآن وقت تلتطف الحر . لأن رجبا وافق أكتوبر في تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين ، وبعد الطائف ، أمروا بالنفير في الصيف حين اخترقت النخل ( اجتنى ثمرها ) وطابت الثمار ، واشتهوا الظلال ، وشق عليهم المخرج فقالوا : منا الثقل وذو الحاجة والضيق والشغل والمنتشر به أمره في ذلك كله .

وكان من دأب النبي ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يورى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتان إلا في هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر :

وكانت حكمة الله في إخراجهم وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالا ، تمحيص المؤمنين وخزى المنافقين ، وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر ، وتربص الدوائر بالمؤمنين .

﴿ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ﴾ :

أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية ، بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

﴿ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

أى فما هذا الذى تتمتعون به في الدنيا مشوباً بالمنغصات والآلام إذا قيس بما في الآخرة من النعيم المقيم والبرضوان من المولى ، إلا شيء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المسور أن النبي ﷺ قال : ( والله ما في الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في أليم ثم يرفعها فلينظر بم يرجع ) (٢) .

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة (٥٥) . والترمذى في الزهد (١٥) وابن ماجه في الزهد (٣) .

أى أن نعيم الدنيا فى قتلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ﴾ .

أى إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول ﷺ للخروج إليه ، يعذبكم عذاباً أليماً فى الدنيا ، يهلككم به كفحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوماً غيركم يطيعونه ويطيعون رسله ، لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله . ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ وقد جرت سنته بأن الأمم التى لا تدافع عن نفسها ، ولا تحمى دمارها ، لا بقاء لها ، وتكون طعاماً للآكلين ، وغذاءً شهياً للمستعمرين .

﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ .

أى ولا تضروا الله شيئاً من الضرر فى ثاقلكم عن طاعته ، ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئاً من الاختيار ، ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

﴿ والله على كل شيء قدير ﴾

أى والله قادر على كل شيء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم ، إن أصرتم على عصيان رسوله ، وثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه . ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولا يخشون فى الحق لومة اللائمى ، كما قال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ (١) .

ثم رغبتهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره على أعداء دينه ، أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدو فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثلثين أثنيماً إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه

لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

أى إن لم تنصروه الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله ، وأعداء رسوله فسينصره الله بقدرته وتأيدته ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين ، وثانيهما أبو بكر فى غار جبل ثور ، حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمانة الحزن لا تحف ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأيدته ، فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : ( حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ) .

وخلاصة ذلك إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره في الوقت الذى اضطره المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثانی اثنين فى الغار ، وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ونحن لا نكلف أكثر مما فعلنا من الإستخفاء .

﴿فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها﴾ .

أى فأنزل الله طمأنينته التى يسكن عندها القلب على رسوله ، وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر . والأحزاب وأحد ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم فى حال الهجرة ، يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ، ويصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا﴾ .

أى وجعل كلمة الشرك والكفر هى السفلى ، وكلمة الله وهى دينه المبنى على أساس توحيده تعالى والمشمول على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالى من شوائب الشرك وخرافات الوثنية - هى العليا بظهور نور الاسلام وإزالة سيادة المشركين فى تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم : ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿والله عزيز حكيم﴾ : أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء فى موضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

### غزوة تبوك

### الموقف العام

#### ١ - المسلمون :

سيطر الإسلام بعد فتح مكة وإخضاع هوازن على شبه جزيرة العرب كلها حتى حدود الشام والعراق ، وأصبح المسلمون مسئولين عن إدارة هذه البلاد وتنظيم حياتها العسكرية والاجتماعية ، ولم يبق فى البلاد العربية كلها قوة تجرؤ على مناهضة المسلمين وإعلانهم بالعداء ، ولكن الإسلام دين العرب وحدهم ، بل هو للناس كافة ، فلا بد من تأمين حرية نشر تعاليمه بين العرب وغيرهم : ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان الإسلام قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية ، فقد آن الأوان لنشره خارجها ، بعد أن أصبح المسلمون بدرجة من القوة والتنظيم تساعد على حماية حرية انتشاره بين الناس كافة .

#### ٢ - المنافقون :

استمر المنافقون فى المدينة على الرغم من قتلهم وتظاهرهم بالإسلام على تثبيط الهمم ، ونشر الروح

(١) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

الإنهزامية ، وخلق الفتن والمشاكل للمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا بدرجة من الأهمية والقوة بحيث يحسب لهم المسلمون أى حساب . وقد أصبحوا على مر الزمن معروفين لأهل المدينة لا تخفى أعمالهم على أحد . وكان باستطاعة الرسول ﷺ تطهير المدينة منهم ، لولا رغبته في أن يثوبوا إلى رشدهم ، ولو بعد حين .

### ٣ - المشركون :

لم يبق للمشركين في شبه الجزيرة العربية أية قيمة عسكرية خاصة بعد إسلام قريش زعيمة القبائل العربية وعميدة المشركين ، فقد انتشر الإسلام في القبائل العربية انتشاراً ساحقاً ، وأصبح إسلام المتخلفين من المشركين أمراً لاشك فيه ، وفعلًا بدأت وفود المشركين تتسابق إلى المدينة لإعلان إسلامها ، وأخذ العرب يدخلون في دين الله أفواجاً ، لقد أصبح خطر المشركين لا قيمة له من الناحية العسكرية .

### ٤ - الرومان :

كانت أحوال الإمبراطورية الرومانية مضطربة خاصة في بلاد الشام فقد كثر تدمير الناس من ظلم حكام الرومان وإرهاقهم بالضرائب ، لذلك أقبل كثير من القبائل العربية الخاضعة لحكم الروم على اعتناق الإسلام .

أسلم فروة بن عمر الجذامي قائد إحدى الفرق الرومانية التي قاتلت المسلمين في غزوة مؤتة ، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية ، ولكن فروة أصر على إسلامه فقتل .

إن انتشار الإسلام بين نصارى العرب أقض مضاجع الرومان ، وجعلهم يفكرون في القضاء على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ، فقاموا بتحشيد قواتهم على حدود الشام الجنوبية استعداداً لمهاجمة المسلمين ، واستخدموا الأنباط الذين كانوا يتاجرون مع المدينة لنقل المعلومات إليهم عن المسلمين ، تلك المعلومات التي أكدت لهم تزايد قوة المسلمين مادياً ومعنوياً بحيث أصبحت تلك القوة خطراً داهماً يهدد الإمبراطورية الرومانية .

## أسباب غزوة تبوك

### ١ - أسباب مباشرة :

تحشدت قوات الروم لغزو حدود العرب الشمالية ، والقضاء على سلطة الإسلام هناك ، فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن القيصر هرقل قد رزق أصحابه لسانة وأجلبت معه لحم وجذام وعاملة وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى اللقاء .

## ٢ - أسباب غير مباشرة :

- ( أ ) حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، بعد انتشاره داخلها .  
 ( ب ) تقوية محتويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم - تلك القبائل التي أخذت تقبل على اعتناق الإسلام ، على الرغم من مكافحة الروم لهذا الاتجاه .  
 ( ج ) محو آثار انسحاب المسلمين من مؤتة من النفوس .

## أهداف الطرفين

## ١ - المسلمون :

حماية حرية نشر الإسلام في بلاد الشام ، إذ هي المنفذ المهم لنشره خارج شبه الجزيرة العربية ، كما أنها المنتفس الحيوى للتجارة العربية .

## ٢ - الروم :

القضاء على منافسة المسلمين للإمبراطورية الرومانية في السيطرة على العرب الخاضعين للروم ، وتحديد انتشار الدعوة الإسلامية في بلاد الشام .

## قوات الطرفين

## ١ - المسلمون :

ثلاثون ألفاً بقيادة الرسول ﷺ ، معهم عشرة آلاف فرس .

## ٢ - الروم :

قوات نظامية كبيرة من الروم يساندها العرب من لحم وجذام وعاملة وغسان .

## الاستعدادات

## ١ - المسلمون :

أمر الرسول ﷺ بإنجاز استعدادات الحركة لقتال الروم ، ولم يكتف نواياه في هذه الغزوة كما كان يفعل في الغزوات السابقة ، كى يباغت بهذا الكتان عدوه قبل أن يستطيع التهيؤ للقتال ، فقد كان رسول الله ﷺ قلماً يريد غزوة إلا ورى غيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغزو عدو كثير ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وأخبرهم بوجهه الذى يريده ليتهيئوا لذلك .

لم يكتف نواياه في غزوة تبوك ، لأن المسافة طويلة يجب قطعها صيفاً ، فلا بد من إكمال المؤونة والنقلية للمجاهدين قبل الحركة ، حتى لا يؤدى نقص القضايا الإدارية إلى فشل المسلمين في تحقيق هدفهم المنشود .

وليس من السهل تجهيز قوات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مئونة ونقلية وأسلحة ، ما لم يشارك أغنياء المسلمين في تجهيز هذا الجيش مشاركة فعالة ، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء ، وعن طيب خاطر ، كما أقبل المسلمون من كل فج تلبية لداعى الجهاد .

وانتهز المنافقون فرصة شدة الحر ، ونضوج الثمار ، وطول المسافة ، وقوة العدو ، فأخذوا يثبطون العزائم ، وينشرون الروح الانهزامية بين المسلمين ، ولكنهم فشلوا في محاولاتهم إذ لم يتخلف من المسلمين أحد غير ثلاثة رجال ، ولم يقبل الرسول ﷺ أن يستعين بالقوات التي جمعها عبد الله بن أبي ، لأنه لم يكن يثق بإخلاص تلك القوات ، فبقى ابن أبي وأصحابه من المنافقين في المدينة .

وبقى في المدينة بعض المسلمين الذى لم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . وأنجز جيش العسرة استعداداته ، وتحشد خارج المدينة ، وأصبح مستعداً للحركة من كافة الوجوه .

## ٢ - الروم :

وزع هرقل رواتب سنة كاملة على قواته النظامية ، كما وزع كثيراً من المال على القبائل العربية الخاضعة لسيطرته ، تشجيعاً لهم لمعاونة جيشه في الصراخ الوشيك .  
وبعد إنجاز استعدادات قواته ، أرسل طلائعها إلى ( البلقاء ) لستر التحشد الذى تم بعد ذلك في منطقة تبوك .

## الحركة

### ١ - المسلمون :

ترك جيش المسلمين المدينة في رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وأخذ يقطع الصحراء القاحلة في موسم الحر الشديد ، فلما وصل منازل ثمود في ( الحجر ) تلك المنطقة التي تهب فيها العواصف الرملية بين حين وآخر ، فتطمر قافلة بكاملها ، وأوصى الرسول ﷺ أصحابه ألا يخرج أحدهم إلا ومعه صاحبه ، وهناك عطش المسلمون عطشاً شديداً حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ، ويشربون ماءها ، ولولا سقوط المطر عليهم يومذاك ، لهلك كثير من المسلمين عطشاً .

واستمر الجيش على السير حتى وصل تبوك ، وكانت المراحل تقطع ليلاً للتخلص من الحر الشديد ، وعند تبوك ، لم يجدوا قوات الروم هناك ، فقرر الرسول ﷺ البقاء في تبوك بقواته الرئيسية ، بعد أن علم بانسحاب الروم إلى الشمال .

### ٢ - الروم :

ثم تحشدت قوات الروم المؤلفة من جنودها النظاميين ، ومن القبائل العربية الموالية لها في تبوك ،

قبل وصول المسلمين إليها ، ولكن المعلومات التي وصلتهم عن ضخامة جيش المسلمين ، وقوة معنوياتهم ، اضطرت الروم إلى الانسحاب من تبوك شمالاً .

### السيطرة على المنطقة

#### ١ - مصالحة صاحب أيلة :

وجه الرسول ﷺ إلى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة رسالة يطلب فيها منه أن يدعن للمسلمين أو يغزوه ، فأقبل يوحنا بنفسه إلى الرسول ﷺ ، وقدم له الهدايا والطاعة .

وكان نص وثيقة الصلح بين المسلمين ويوحنا ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

واتفق الطرفان على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار في كل عام .

#### ٢ - مصالحة أهل الجرباء وأذرح :

تم الصلح بين المسلمين وأهل الجرباء - وهي قرية في منطقة عمان بالبلقاء من أرض الشام ، وبين المسلمين وأهل أذرح ، هي بلدة قريبة من الجرباء - على الجزية أيضاً .

#### ٣ - مصالحة أهل دومة الجندل :

بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد في أربعمئة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، فباغت خالد الأكيدر الكندي ملكها ، وأخاه حسان وهما يطاردان بقر الوحش ، فقتل وأسر الأكيدر ، فهدده خالد بالقتل إن لم تفتح دومة الجندل أبوابها للمسلمين .

فتحت المدينة أبوابها فداءً لملكها ، فدخلها المسلمون وغنموا منها ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمئة وسق من بر وأربعائه درع ، وذهب بها خالد ومعه الأكيدر حتى لحق بالنبي ﷺ في المدينة فحقن الرسول ﷺ دم الأكيدر ، وصالحه على الجزية ، وتركه يعود إلى قومه في دومة الجندل .

### عودة المسلمين

أقام المسلمون حوالي عشرين يوماً في منطقة تبوك ، انتظاراً لعودة جيوش الروم ، وتأميناً للحدود الشمالية بعقد المعاهدات مع سكانها ، ودعماً لهيبة الإسلام في نفوس القبائل ، والعمل لحماية حرية نشر الدعوة في تلك الأرجاء ، فلما أنجزوا كل ذلك تحركوا عائدين إلى المدينة .

وصل المسلمون إلى المدينة ، فجاء المتخلفون عن الخروج يعتذرون ، وكان هؤلاء المتخلفون



قسمين : القسم الأول من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، وهؤلاء أعرض عنهم الرسول ﷺ تاركاً الله حسابهم ، والقسم الثاني من المسلمين الذين لا شائبة في إسلامهم ، وهم ثلاثة ، كعب بن مالك ، ومرارة ابن الربيع ، وهلال بن أمية وهؤلاء اعترفوا بذنوبهم ، فأمر الرسول ﷺ أن يعرضوا عنهم حتى يأتي أمر الله .

### النفي العام

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعْدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا خُرْجَنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولِيُونَكَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

**المفردات :** ﴿ العرض ﴾ : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لا ثبات له ولا بقاء وليس في الوصول إليه كبير عناء ويقال سير قاصد . ﴿ وسفر قاصد ﴾ : أى هين لا مشقة فيه من القصد وهو الاعتدال . و ﴿ الشقة ﴾ : الطريق لا تقطع إلا بعناء ومشقة . و ﴿ العفو ﴾ : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذه عليه .

قوله تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ .

أى فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، شيباً وشباناً .

وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزوني يا بنى فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير .. فدفنوه فيها .

قوله تعالى ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

هذا ترغيب منه سبحانه وتعالى فى الجهاد بالمال والنفس وذلك لأن المال به تقوى العزائم فى القتال ، وذلك بإعداد الجاهد وتسليحه إلى غير ذلك ، فالمال عصب الحياة ، وغذاء القتال ، وكذلك المجاهدة بالنفس والتضحية بكل غال وثمين .

قال ﷺ : ( تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يردّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة )<sup>(١)</sup> .

ولهذا قال تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ﷺ ، الذين اصطنعوا الأعذار ، واختلقوا الأسباب .

قال ابن عباس المراد بالعرض القريب : الغنيمة القريبة وسفراً قاصداً أى قريباً لاتبعوك أى لكانوا جاءوا معك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أى المسافة إلى الشام ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أى لكم إذا رجعت إليهم ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال تعالى ﴿ يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

وتلك أخلاق المنافقين في كل عصر ومصر ، إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا اتمنوا خانوا ، عالة على المجتمع في السراء ، وسوس ينخر في عظامه أيام الضراء .

والنفاق مرض اجتماعي خطير فتاك ، والمنافقون هم المعوقون للعزائم ، المشيطون للهمم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم ، وقبلتهم نساؤهم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لم أذن لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ .

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازي حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعابة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعابة فقال : « عفا الله عنك لم أذن لهم » . وقال قتادة : عتابه كما تسمعون .

ثم أنزل التي في سورة الثور فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ .

قال مجاهد نزلت هذه الآية في أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٢٨ ، ٣٠) وفي الجهاد (٢) وفي الخمس (٨) . ومسلم في الامارة (١٠٤) . والنسائي في الجهاد (١٤) .

وابن ماجه في الجهاد (١) . والإمام مالك في الجهاد (٢) .

(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ أى فى إبداء الأعدار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ .

يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو إن لم تأذن لهم فيه .

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال ﴿ لا يستأذنك ﴾ أى فى القعود عن الغزو . ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ بأنهم يرون الجهاد كربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامثلوا والله عليم بالمتقين .

قوله تعالى ﴿ إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾ أى لا يستأذنك فى الجهاد ، وإبداء الأعدار والقعود عنه إلا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وذلك لما فى قلوبهم من الريية والتردد وحب الدنيا وكرهية الموت . فإن القلوب المؤمنة تجد ربح الجنة فى الجهاد بل وتجد الجنة فى ظلال السيوف ، إنها قلوب رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

أما القلوب التى أصيبت بمرض النفاق فإنها مظلمة ، لا ترى نور الله . فهى ﴿ كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ (١) .

هذه الظلمات المتراكمة تجعل صاحبها يعيش فى قلق وريبة وتردد ﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ .

### مواقف المنافقين من الجهاد والمجاهدين

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ (٤٦) ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٤٧) ﴿ لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴾ (٤٨) ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَئِذْنَ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ (٤٩) ﴿ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٥٠) ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١) ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَتَحْنُ نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ

بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ  
 إِنَّا كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ  
 وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهِونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تَعْجَبْكَ  
 أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ  
 كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾  
 لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ  
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ  
 أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ  
 إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

**المفردات :** ﴿ الخبال ﴾ : الاضطراب في الرأي والفساد في العمل كضعف القتال والخلل في النظام . ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع . و ﴿ خلال ﴾ : الأشياء : ما يفصل بينها من فروج ونحوها . و ﴿ الفتنة ﴾ : التشكيك في الدين والتخويف من الأعداء . و ﴿ سماعون لهم ﴾ : أى ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم . و ﴿ تقليب الشيء ﴾ : تصريفه في كل وجه من وجوهه والنظر في كل ناحية من أحواله والمراد أنهم دبروا الحيل والمكايد ودوروا الآراء في كل وجه لإبطال دينك . ﴿ الفرق ﴾ : ( بالتحريك ) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه . و ﴿ الملجأ ﴾ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة في بحر أو قنة في جبل . و ﴿ المغارات ﴾ : واحدها مغارة وهى الكهف في الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر . و ﴿ المداخل ﴾ : ( بالتشديد ) السرب في الأرض يدخله الإنسان بمشقة . و ﴿ الجماح ﴾ : السرعة التى تتعذر مقاومتها . ﴿ اللمز ﴾ : العيب والطعن في الوجه . ﴿ والهمز ﴾ : الطعن في الغيبة ورغبة ورغب فيه : أحبه ، ورغب عنه : كرهه . ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه .

قوله تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ أى لو أراد هؤلاء المنافقون أن يخرجوا معك إلى الغزو والجهاد والقتال لأعدوا لذلك الخروج عدته ، وتهايأوا له . ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ وذلك لسابق علم الله فيهم ، فقد كره خروجهم معكم لما فيه من الفساد والإفساد فثبطهم وأخر خروجهم . فليس الخروج غاية لهم ، بل إن مكانهم في القعود مع القاعدين المتخلفين فهذا هو مقتضى الحكمة . أن توضع الأشياء في مكانها الصحيح .

ثم بين تعالى ما سوف يترتب على خروجهم من الفساد والإفساد وتمزيق الصف وتثبيط الهمم ،

فقال : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

جل جلال الله فهو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأشياء ، المحيط بحقائقها ، فقد بين سبحانه في هذه الآية خبيثة تلك النفوس المريضة وما يعتمل فيها من شر وسوء . فلو خرجوا في صفوف المجاهدين ما زادوهم عددا في الخير ، بل لكانت زيادتهم له خبالا ، أى اضطرابا في الرأى ، وفسادا في العمل ، لأسرعوا في صفوف المسلمين يقصدون الفتنة والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

وفى صفوف المسلمين سماعون هؤلاء المنافقين يستصحونهم الرأى ، لأنهم لا يعلمون حقيقتهم ، وخفايا نفوسهم ، ويحسنون النية لهم لجهلهم بأحوالهم ، ويجوز أن يكون المعنى أن فى صفوف المجاهدين قوم اندسوا بقصد أن ينقلوا أخبار الجماعة المسلمة إلى هؤلاء المنافقين ، وأنهم جواسيس لحساب هؤلاء المشيطين المفسدين .

وفى هذا تحذير للجماعة المسلمة من شرور هؤلاء ، وأخذ الحيلة من جهتهم فإنهم كالجراثيم التى تفتك بالاجتماع فنكا ذريعا فتذره أثرا بعد عين ، وتدعه حطاما لا يغنى شيئا ، والله عليم بالظالمين ، خير بمكنون صدورهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى عن حال هؤلاء الذين مرضت قلوبهم بالبغضاء والشحناء . لقد طلبوا الفتنة من قبل حين قدوم الرسول وأصحابه إلى المدينة ، فاتحدوا مع اليهود ، ووقفوا معهم فى خندق واحد ، وقفوا مع بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وقلبوا لك الأمور وفكروا ودبروا ، وتأمرؤا حتى جاء الحق ، فنصرك الله على هؤلاء البغاة الطغاة ، وظهر أمر الله جليا وهم كارهون لنصر الله لك ، يتظاهرون بالإسلام ، ويطربصون بكم الدوائر .

فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستجوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ إن النفوس الحاقدة لا تعرف معروفا ، ولا تنكر منكرا ، إلا ما أشربت من هواها فإن الحق يدعى ويصم . فالمنافقون كما وصفهم الله تعالى فى قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقوله تعالى ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ :

روى محمد بن إسحاق بسنده عن رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك يا جد العام فى جلاذ بنى الأصفر ؟ » فقال : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء

بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنت لك » . ففى الجذ بن قيس نزلت هذه ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتى ﴾ .

الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم .

وفى هذه الآية الكريمة يظهر الله تعالى ما فى نفوس هؤلاء الذين يستأذنون ليؤذن لهم بالعود ، ويبدون من الأعذار ما يدل على خبثهم وخداعهم ، إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، إنهم الخبثاء يلتمسون لأنفسهم الأعذار التى لا تثبت أمام الحق . إنهم يدعون الطهر والعفة ، ويخشون الافتتان بنساء الروم ، وهم قد سقطوا فى الفتنة من أخص أقدامهم إلى منابت شعورهم ، وتمرغوا فى أوحال الأرض ، وشربوا من كأس المعصية حتى سكروا بخمر الرذيلة ، وإن جهنم محيطه هؤلاء الكافرين ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ .

فى هذه الآية إظهار لما انطوت عليه نفوس هؤلاء من شناعة وعداء ، فهم بين أمرين : إن رأوا المسلمين فى خير امتلأت نفوسهم ضيقا وضجرا حسدا من عند أنفسهم ، وإن رأوهم فى شدة فإنهم فى شناعة بالغة يقولون : قد أخذنا حذرنا ، وأعدنا العدة من قبل . وهذا لأنهم لا يؤمنون بقضاء الله وقدره ، ثم يعرضون عن المؤمنين وقلوبهم مليئة بالفرح الشامت بما حل بالجماعة المؤمنة من شدائد .

لذلك لقن الله عباده المؤمنين الجواب الشافى فى الرد على هؤلاء المعاندين المكابرين فقال : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ .

هذا هو التسليم المطلق والتفويض الكامل لصاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته لا تطرف فى هذا الوجود طرفة عين ، ولا تهب نسمة هواء ، ولا يحدث فى هذا الكون حدث كبير وصغير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : [ عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد ] .

كن عن همومك معرضا	وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة	تسليك عما قد يمضى
فلربما اتسع المضيق	وربما ضاق الفضى
ولرب أمر مسخط	لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء	فلا تكن معترضا

إن عقيدة المسلم تجعله يوقن بأن كل شيء بقضاء ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له ، لأنه سيده ومولاه ، المالك المتصرف ، إنه يعلم علم اليقين أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، فقد جرى القلم بما هو كائن . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف ، إنهم على ربهم يتوكلون ، فهم مؤمنون معتمدون على خالقهم ، يأخذون في الأسباب ويفوضون عواقب الأمور لمن يقول وقوله الحق ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾ (١) .

ثم يزيد الله المؤمنين يقينا بحسن العاقبة ، وأنهم في خير سواء انتصروا أم قتلوا .  
أما حال الأعداء المارقين فشر إما تعذيب من الله ، أو قتل على أيدي المسلمين فيقول سبحانه :  
﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ :

أي قل لهؤلاء هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : وكلا الأمرين خير ، وقد كتب الله تعالى النصر لمن نصره فقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٢) .

ثم بين حال الذين ينصرون الله فقال : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

ولقد كرم الله الشهداء الذين نزلوا حومة القتال يجاهدون في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، قال سبحانه : ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضلل أعمالهم \* سيدهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ (٤) .

ومن هنا فإن أمر المؤمن كله خير إما النصر وإما الشهادة .

أما المنافقون ومرضى القلوب فنحن نتظر بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، كما حدث للأمم السابقة كعاد وثمود ، أو ينزل الله العذاب بهم بقتل المؤمنين لهم وأسروهم . ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ . قال تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٥) .

وبعد أن لقن الله تعالى عباده المؤمنين الإجابة الصحيحة ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ قال الله تعالى لعباده أن يجربوا هؤلاء المنافقين بأن الله تعالى لن يقبل منهم أى نفقة فقال سبحانه : ﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ﴾ :

(٤) الآيات ٤ - ٦ من سورة محمد .

(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٥) الآيات ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود .

(٢) الآية ٤٠ من سورة الحج .

إن الله تعالى لا يقبل العمل من العبد إلا بشرطين : أن يكون صواباً أى على الوجه الذى أمر الله به ، وأن يكون خالصاً لا رياءً فيه ولا سمعة .. وهؤلاء المنافقون خلت أعمالهم من الصواب والإخلاص ، سواء أدوا أعمالهم طائعين رياءً أمام المؤمنين ، أو مكرهين خوفاً من العقاب . فلن يتقبل الله منهم شيئاً ، لأنهم فاسقون خارجون على حدود الله ، فأعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

وقد بين الله تعالى العلة فى عدم قبول أعمالهم ولاسيما النفقة فقال : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون ﴾ .

وليس بعد الكفر ذنب فالكفر يحبط الأعمال . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكيف يقبل الله عملاً من كافر به وبرسوله ، وإن تظاهر بخلاف ذلك ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإنهم يأتون الصلاة كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ، وإذا أنفقوا أنفقوا كارهين خوفاً من العقوبة لا ابتغاء مرضاة الله . وقد أخبر الصادق المعصوم عليه السلام : ( أن الله لا يمل حتى يملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ) <sup>(٣)</sup> . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين .

وقد بين الله تعالى أن أموال هؤلاء وأولادهم إنما هى وبال عليهم فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزحق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين \* نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقوله ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ .

قال الحسن البصرى : بزكايتها والنفقة منها فى سبيل الله .

وقوله ﴿ وتزحق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم ، وأشد لعذابهم عياداً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الإستدراج لهم فيما هم فيه .

قوله تعالى ﴿ ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾ لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمعون ﴾ .

يخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن جزعهم وفرعهم وفرقهم وهلعهم ، أنهم ﴿ يخلفون بالله إنهم لمنكم ﴾

(١) الآية ١ من سورة محمد .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٦٥) . والترمذى فى تفسير (سورة ٢ : ٣٦) وفى الأدب (٤١) والدرامى فى الرقاق (٩) . والإمام أحمد فى

(٢ : ٢٣٨) .

(٥) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ١٣١ من سورة طه .



يمينا مؤكدة ، ﴿ وما هم منكم ﴾ أى فى نفس الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أى فهو الذى حملهم على الحلف .

﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أى حصناً يتحصنون به ، وجزراً يتحرزون به ﴿ أو مغارات ﴾ وهى التى فى الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق ، قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة .

﴿ لولوا إليه وهم يجمعون ﴾ أى يسرعون فى ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم ، لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمعون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ \* ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون .

يقول تعالى ﴿ ومنهم ﴾ أى ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أى يعيب عليك ﴿ فى ﴾ قسم ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ويتهكم فى ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ، ولهذا ﴿ إن أعطوا ﴾ من الزكاة رضوا ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أى يفضبون لأنفسهم .

قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال : «أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت . قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية » (١) .

وقال قتادة فى قوله ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ يقول : ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا ( أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت . فقال نبى الله ﷺ : ( ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ) ثم قال نبى الله ( احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرعون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ) (٢) .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : ( والذى نفسى بيده ما أعطيك شيئاً ولا أمنعكموه ، إنما أنا خازن ) (٣) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ ، ٢١٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٥) وفى التوحيد (٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧) . ومسلم فى المسافرين (٢٧٥) وفى الزكاة (١٤٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٨) . وأبو داود فى السنة (٢٨) . والترمذى فى الفتن (٢٤) والسائى فى الزكاة (٧٩) . وابن ماجه فى المقدمة (١٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٩٨) . والبخارى فى الخمس (٧) . وأبو داود فى الأمانة (١٣) . والأمام أحمد فى (٢ : ٣١٤) وفى (٣ : ٤٧٥) وفى (٤ : ٩٩) .

وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهرى عن أبى سلمه عن أبى سعيد فى قصة ذى الحويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ». ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً ( إنه يخرج من ضئضى هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء )<sup>(١)</sup>.

ثم قال تعالى منها لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾ .

فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيماً ، وسراً شريفاً ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامثال أوامره ، وترك زواجه ، وتصديق أخباره ، والإقتفاء بآثاره .

### مصارف الزكاة

\* إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩﴾

من طبيعة الإنسان حب المال ، وقد يكون الغنى أشد حباً والطمع فيه شديد ، وضعيف الإيمان دائماً لا يرضى بما يعطى ، وقد كان المنافقون وضعفاء الإيمان لا يرضون بقسمة الرسول ﷺ : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات ﴾ .

على أن للمال سطوة وشهوة ، قد تجمع ببعض الأغنياء وأولياء الأمور فيميلون عن طريق الحق فى صرف الزكاة ، لذلك بين القرآن مصرف الصدقة الواجبة . والآية مناسبة لما قبلها ، قاضية على أطماعهم ، مبينة حقيقة ماصنع الرسول معهم ، وأنهم مخطئون فى اعتراضهم .

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ولغيرهم من الأصناف الثمانية ، لا تتعداهم إلى غيرهم أبداً ، والمراد إنما هى لهم لا لغيرهم ، قد فرضها الله منه ، والله عليم بخلقه ، حكيم فى فعله .  
وهذه الأصناف هى :

١ — الفقير : المقابل للغنى ، والقرآن دائماً يذكرهما متقابلين ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾<sup>(٢)</sup> وهو المحتاج .

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٣) وفى المغازى (٦١) وفى الأنبياء (٦) وفى تفسير (سورة : ١٠) . ومسلم فى الزكاة (١٤٣) ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ . وأبو داود فى السنة (٢٨) . والنسائى فى الزكاة (٧٩) وفى التحريم (٢٦) ، والإمام أحمد فى (٣ : ٤) ،

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

- ٢ - المسكين : عديم الحركة من حاجته وضعفه ، بالفقر والمسكنة يلتقيان في الحاجة .
- ٣ - والعاملين عليها : كالكتبة والحراس والصيارفة والمشرفين على الجمع .
- ٤ - والمؤلفة قلوبهم : وهو صنف من الناس كان يعطيهم الرسول ، وأبو بكر ، من باب تأليف القلوب وجمعها على الإسلام ، لضعف في إيمانهم ، أو لحكمة في عطائهم ، وهذا حق للإمام بفعل ما فيه المصلحة .
- ٥ - وفي الرقاب : والمراد الصرف للإعانة في فك الرقاب وعتقها من ذل الرق ، وبؤس الأسر ، ويدخل في ذلك المال المدفوع لفك الأمة وعتقها من ذل الاستعمار ، وكيد الدخيل الأجنبي .
- ٦ - والغارمين : وهم من عليهم غرامة مالية أثقلت كواهلهم ، كديون عليهم استدانوها فأغرقت مالهم ، أو هم قوم عزموا في سبيل صلح بين الناس ، أو جمع شمل المسلمين .
- ٧ - وفي سبيل الله : والمراد به هنا مصالح المسلمين العامة التي بها قوام أمر دينهم ودولتهم ، من كل خير يعود على المجموع ، وهذا يشمل تسهيل العمل لكل عاطل ، وعلاج كل مريض ، وتعليم كل جاهل ، وبالأخص التعليم الديني .
- ٨ - وابن السبيل : وهو المنقطع عن بلده في سفر لم يتيسر له شيء من المال ، فيعطى حتى يصل إلى ماله .

والظاهر - والله أعلم - أن السر في التعبير باللام المفيدة للملك في أصناف خاصة ، هم الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ، وبقي في صنفين هما في الرقاب وفي سبيل الله : أن ( اللام ) أصحابها أشخاص يملكون و ( في ) أصحابها ليسوا أشخاصاً ، بل المراد أوصافاً ومصالح عامة للمسلمين ، والترتيب في الآية ملحوظ ومقصود .

أذى المنافقين للنبي ﷺ والرد عليهم

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

المفردات : ﴿ يؤذون ﴾ : الأذى ما يؤلم الإنسان في نفسه أو ماله أو بدنه قليلاً كان أو كثيراً . ﴿ أذن ﴾ : هذا من باب تسمية الإنسان باسم جزء منه للمبالغة في وصفه بوظيفته كما قالوا للجاسوس عين .

لون آخر من ألوان نفاقهم ، ذكر مناسباً لذكر لمزهم عليه ، ونقدهم له في تقسيم الغنائم والصدقات .

وبعض هؤلاء المنافقين الذين يؤذون النبي ، ويصفونه بصفات تتنافى مع نبوته ورسالته ، وشهادة الحق له بأنه على خلق عظيم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

وهكذا عمل المنافقين دائما خارج عن حدود العقل والواقع ، يقولون في شأن النبي ﷺ هو أذن يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، ويرمون إلى أنه لا يميز بين هذا وذاك ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾<sup>(٢)</sup> وإنما هو النبي الكريم ، صاحب الخلق الكامل ، والإحساس العالي ، لا يجابه أجدأ بما يؤلمه ، ولا ينقد أجدأ بما يؤذيه ، بل يقول دائما : ما بال قوم ؟ ما بال رجال ؟ .

وقد كان ﷺ يعامل المنافقين بظاهر حالهم ، ويجرى عليهم أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها التي يعامل بها الناس .

ولقد رد الله عليهم ولقنه الجواب : قل ﴿ هُوَ أَذُنٌ خَيْرٌ ﴾ لا أذن شر كما تعملون . فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الخير ، وما وافق الشرع ، ولا يسمع الباطل ولا الغيبة ولا التهمة ولا الجدل ولا المراء .

ثم فسر المراد بأذن خير : بأنه يؤمن بالله ، وما يوحى إليه من أخبار الغيب ، وأسرار السماء ، وبما يوحى إليه من أخباركم وأخبار غيركم ، ويؤمن للمؤمنين ، إيمان جنوح وميل واثمان للمهاجرين والأنصار ، وصادق الإيمان ، أما المنافقون فلا يميل لهم ، ولا يصدق خبرهم ، وفي هذا تهديد لهم بأن الله ينبتهم بأسرارهم وأخبارهم ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تَنْبِئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وهو رحمة للمؤمنين فقد هداهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وفي قوله ﴿ مِنْكُمْ ﴾ إشارة إلى أن منهم من يدعى الإيمان ، وهو كاذب فيه ، وإشارة إلى أنه عالم بأن منهم المنافقين ، ولكن لحسن خلقه يعاملهم بالحسنى حتى يؤذن بغيرها .

والذين يؤذون رسول الله في كل ما يتعلق بالرسالة كوصفه بالسحر والكذب وعدم الفطنة الخ ، لهم عذاب أليم ، إذ هم كفروا بهذا . أما الإيذاء الخفيف فيما يتعلق بشخصه فحرام فقط ، مع أنه لا يصدر من مؤمن أبداً ، وإيذاء أهل بيته حرام كذلك .

### من آثار النفاق

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾  
 أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَأَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ  
 الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوْا  
 إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ

(٣) الآية ٦٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

(١) الآية ٤ من سورة القلم .

وَأَيُّنِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾

**المفردات :** ﴿يحادد الله﴾ : المحادة كالمعاداة مأخوذة من الحد أى طرف الشيء وهكذا كل عدو يكون فى ناحية وشق بالنسبة لخصمه وعدوه . ﴿يحذر﴾ : الحذر الخوف فى المستقبل من شيء خاص . ﴿فخرج﴾ : الإخراج يشمل إظهار مكنون الصدور وإخراج الحب من الأرض والنفس من الوطن . ﴿نخوض﴾ : نحاض بالعمل الباطل لا الحق لأنه مأخوذ من الخوض فى البحر أو الوحل والمراد الإكثار من العمل الذى لا ينفع .

إن من عادة المنافقين والكاذبين ، ومن يرتكبون جرماً ، أن يشعروا بخروج موقفهم ، وكأن الناس جميعاً مطلعون عليهم عالمون بأحوالهم ، ولذلك تراهم يكثرون من الحلف حتى تبتعد عنهم الشبهة المحيطة

• ٣٣ •

وقد كان المنافقون كثيراً ما يحلفون ويعتذرون ، والله يعلم إنهم لكاذبون .  
يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم براء مما نسب إليهم قولاً وفعلاً ، ليرضوكم فتطمئنوا لهم ، وتثقوا فيهم ، وهم قد فهموا أنهم بهذا يضمنونكم لصفوفهم .

فيرد الله عليهم ويكشف سترهم حيث يقول : يخلفون لكم ليرضوكم ، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء ، من المؤمنين ، وإرضاء الله ورسوله بالإيمان الصادق والعمل الكامل ، والبعد عن النفاق ، وقد أفرد (الضمير) ( أن يرضوه ) ليعلموا أن رضاء الرسول رضاء الله .

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ هذا إن كانوا مؤمنين حقاً ، إذ علامة الإيمان ثقة بالله وحب له ولرسوله ، والعمل على رضاها بامثال الأمر ، واجتناب النهى ، « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »<sup>(١)</sup> .

﴿ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله﴾ حتى يكون فى جانب الله ورسوله فى جانب آخر ، فإن له نار جهنم يصلها وبئس القرار قراره ، له نار جهنم خالداً فيها ، وذلك هو الخزى العظيم ، والنكال والذل المهين .

المنافقون مذنبون بين الإيمان والكفر ، شاكون مرتابون فى الوحي ، وصدق الرسول ﷺ ، وهذا الشك والارتياب يدعوهم إلى الحذر والإشفاق ، بل هو لازم له ، إذ لو كانوا موقنين بكذب الرسول لما جاءهم الحذر ، ولو كانوا مؤمنين حقاً لما كان لهذا الخوف والحذر محل ، لهذا يصفهم القرآن بقوله : ﴿يحذر المنافقون أن تنزل﴾ على المؤمنين ﴿سورة﴾ كاشفة لهم ، فاضحة أستارهم ، مبينة

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٦ ، ٦٧) . والبخارى فى الإيمان (٩ ، ١٤) وفى الأكره (١) .

نفاقهم كهذه السورة ، ولذلك سميت الكاشفة والفاضحة .

يحدرون من سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، والمراد اللازم وهو فضيحتهم ، وكشف عورتهم ، وبيان شكهم وارتياهم ، وتربصهم الدوائر بالمسلمين ، وإنذارهم بما قد يترتب على ذلك من عقابهم ، وقد كان المنافقون دائمى الاستهزاء بالنبي والمؤمنين ، كما مر ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ .

ولذلك يأمر الله نبيه بأن يقول لهم ، قل استهزئوا كما تشاءون ، وهذا تهديد لهم شديد ، ووعيد عليه ﴿ إن الله مخرج ما تحدرون ﴾ إخراجهم من مخبات الضمير ، ومكنونات الصدور ، وقد حصل ذلك وظهر نفاقهم لكل الناس .

روى عن قتادة قال : « بينا رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ، هيات . فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : أحبوا على هؤلاء للركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وقلتم كذا . قالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم هذه الآية » على طريقة القسم للتأكيد ﴿ ولئن سألتهم ﴾ عن أقوالهم التى يقولونها نفاقاً من وراء الرسول ، ليقولوا إنما كنا غير جادين ومنكرين ، بل هازلين لاعبين ، وهذا كفر محض ، فإن من يهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر بها .

قل لهم ألم تجدوا ما تستهزئون به في خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله ، فقصرتم الهزؤ عليها ، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول ، فتكلمون به بلا حياء ولا خوف . ولكن المنافقين لا يفقهون ﴿ لا تعتذروا ﴾ أبداً بهذا أو بغيره ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ في الظاهر ، وظهر أمركم ، وبدأ الصبح لذى عينين .

والآية صريحة في أن الخوض في كتاب الله ورسوله وصفاته سبحانه وتعالى كفر حقيقى .

﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ ونقبل توبتها الخالصة ﴿ نعذب طائفة ﴾ أخرى لإصرارها على النفاق ، وارتكابها الآثام ، لأنهم كانوا مجرمين .

### المنافقون وصفاتهم وجزاؤهم

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأُولَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضِعْتُمُ كَالَّذِي

خَاضُوا أَوْلِيَّكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّكَ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾  
 أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ  
 وَالْمُؤْتَفَكِّاتِ أَنْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ  
 يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

**المفردات :** ﴿ بخلافهم ﴾ : الخلاق النصيب . ﴿ حبطت ﴾ : بطلت . ﴿ المؤتفكات ﴾ :

جمع مؤتفكة من الإنفak ، وهو الانقلاب والخسف ، والمراد أصحاب قرى قوم لوط . هذا بيان عام  
 لأصل النفاق مع ذكر جزائه في الدنيا والآخرة ، وضرب الأمثال بحالهم وحال من تقدمهم ، على أن  
 المنافقين في العصر الإسلامي الأول ضربوا الرقم القياسي في النفاق .

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم ﴾ يشبه بعضاً ، وذرية بعضها من بعض ، فهم متشابهون وصفاً  
 وعملاً ، ذكراً وأنثى ، وهذا دليل على تأصل الداء وتمكنه من نفوسهم ، حتى صار كالفرائز الموروثة .  
 ثم بين الله وجه الشبه فقال : هم يأمرؤن بكل منكر ، ويدعون إليه ، والمنكر ما أنكره بالطبع  
 السليم ، والعقل الراجح ، وما نهى عنه الشرع الشريف ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ شرعاً وعقلاً وطبعاً ،  
 ألا لعنة الله عليهم .

﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ عن الإنفاق ، ويخلون بحالهم عن الجهاد ، وهذا من أهم علامات النفاق ،  
 ولقد ورد في الحديث : ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن  
 خان )<sup>(١)</sup> وفي رواية « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وهكذا  
 النفاق أساس الشر ، وأصل البلاء ، ومجمع كل رذيلة في الوجود .

﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، نسوا التقرب إليه ، ونسوا جلاله وعظمته ،  
 وشرعه وآياته وحسابه وعقابه ، فنسيهم ، وجزأهم على عملهم فحرمهم من حبه وذكره ، والتمتع بدينه  
 وآياته ، والإنفاق في سبيله ، وحرمهم من الثواب والرضوان ، ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا  
 والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ .

إن المنافقين هم الفاسقون ، الخارجون عن حدود العقل والدين والمصلحة العامة والخاصة ، هم  
 الفاسقون لا غير .

أما ما أعد لهم من عقاب وجزاء فما هو ذا وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، وعدهم نار  
 جهنم خالدين فيها ، وفي ذكر الرجال فيهم والنساء دليل على عموم الوصف ، وتأصل الداء ، وتأخير

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٤) وفي الأدب (٦٩) . ومسلم في الإيمان (١٠٧ ، ١٠٩) . والترمذي في الإيمان (١٤) .

ذكر الكفار ، دليل على أن النفاق أخطر من الكفر الصريح .

ثم لم يكتف بهذا بل زاد في عقابهم ، والتنكيل بهم ، فقال : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ نعم وفي جهنم جزاء يكفيهم عقاباً لهم ، ولعنهم في الدنيا والآخرة ، وطردهم من رحمته وتوفيجه في الدنيا وفي الآخرة ، لهم العذاب الشديد ، ولهم عذاب مقيم ثابت لا يتحول ولا يزول ، ويظهر — والله أعلم — أن القرآن يريد أن يوفيه العذاب الحسى والمعنوى الذى يتكافأ مع نفاقهم وعملهم .

ثم خاطب الله سبحانه المنافقين المعاصرين للنبي ﷺ بعد ذلك بقوله : « أنتم أيها المنافقون الذين آذيت الله ورسوله والمؤمنين ، كأولئك المنافقين السابقين مع أنبيائهم » .

وهكذا لا يخلو عصر من النفاق ، إذ هو مرض يصيب بعض النفوس ، أنتم مثلهم مغرورون بما لكم ، مفتونون بأولادكم ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، ولم يكن لهم في دنياهم إلا مطلب واحد هو المتاع الفانى ، والعرض الزائل ، والتمتع بالمال والولد ، فكان نصيبهم نصيب الحيوان ، يتمتع ويأكل ويتناسل ، فاستمتع بنصيبكم من المال والولد والعرض الزائل ، كاستمتاعهم بنصيبهم ، لم تفضلوا عليهم بشئ من التمتع بكلام الله المحكم ، الذى نزل على خير الأنبياء ، وسيد المرسلين ﷺ فكنتم أجدر منهم باللائمة ، وأحق بالعذاب والنكال ، فأنتم فعلتم الخبائث كما فعلوا مع توافر دواعى الشر عندهم ، وتوافر دواعى الخير عندكم .

﴿ وَخَضِمْتُمْ ﴾ : فى حمأة الرذيلة والفسق كالخوض الذى خاضوه ، ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ فى الدنيا . وفستد ، لأنها أعمال للرياء والسمعة ، وقد ظهر نفاقهم فيها ، وفى الآخرة لهم العذاب الأليم ، لأن شرط الثواب عليها الإيمان ، وهم لم يؤمنوا حقيقة ، بل نافقوا .

﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وقد ضل سعيهم فى الدنيا والآخرة . ﴿ ألم يأتهم نبأ ﴾ السابقين من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط ؟ والاستفهام للتقرير والتوبيخ .

هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات ، فأعرضوا وكذبوا ، فجاءهم العذاب ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريخ التى أهلكت عاداً ، والصيحة التى أبادت ثمود ، والعذاب الذى هلك به غرود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط ، وهم فيها .

﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ حينما عذبهم ، وقد أنذرهم ، ومن أنذر فقد أعذر ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ والغرض من ضرب هذا المثل أن يفهم الكفار والمنافقون جيداً أن سنة الله مع الخلق لا تتغير ولا تتبدل ، وأن العذاب سينزل بهم حتماً ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ فاعتبروا يا أولى الأبصار .



## المؤمنون وصفاتهم وجزاؤهم

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

**المفردات :** ﴿ أولياء بعض ﴾ : المراد بالولاية هنا ما يعم النصرة في الشدائد ، والأخوة والمحبة والمودة . ﴿ جنات ﴾ : هي البساتين الكثيرة الأشجار ، المنتفة الأغصان ، التي تستر ما تحتها من الأرض ، ﴿ وجنات عدن ﴾ : عدن اسم لمكان خاص في الجنة كالفردوس . هكذا أسلوب القرآن ، يذكر الشيء ثم يردفه بمقابله ، ليتجلى الفرق ، ويظهر للبيان بأجلى معانيه ، وليعلم المنافقون أنهم ليسوا على شيء من الإيمان ، إذ صفته ما يذكر هنا من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف ، أما إيمانهم الظاهر فهو نفاق وخداع لا ينفع أبداً .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء ﴾ بعض بالنصرة والمعونة والمساعدة في السراء والضراء ، والوقوف بجانب بعض في الشدائد والمكروه ، بعضهم أولياء بعض ولاية أخوة ومودة ومحبة وصداقة ، فنبههم ﷺ يقول : ( مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى )<sup>(١)</sup> ويقول : ( المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً )<sup>(٢)</sup> . هذا هو أساس الإيمان وطبعه ، لا فرق بين ذكر وأنثى ، وقد كانت النساء في العصر الأول يقمن بالمعونة والنصرة في الحروب وغيرها ، على قدر طاقتهن ، مع التجميل بالأدب والحياء وليس لباس الدين والعفاف .

وانظر يا أخى في وصف المؤمنين ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ وفي وصف المنافقين ﴿ بعضهم من بعض ﴾ ترى أن المنافقين لا ولاية بينهم ولا أخوة ، تبلغ درجة الإيثار والنصرة في الحروب ، ولكنها أخوة كلام فقط ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتهم لننصرتكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴿<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه البخارى في الأدب (٢٧) . ومسلم في البر (٦٦) .

(٢) أخرجه البخارى في الصلاة (٨٨) وفي الأدب (٣٦) وفي المظالم (٥) . ومسلم في البر (٦٥) . والترمذى في البر (١٨) . والنسائى في

الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد في (٤ : ١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

فالمنافقون بعضهم يشبه بعضاً في الشك والنفاق والإرتياب ، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف ، إذ الولاية والصلة والأخوة هي من صفات المؤمنين ، أصحاب العقائد الراسخة ، ولذا يقول الله فيهم ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ ولاية النصرة في الدفاع عن الحق والعدل والكرامة ، والدعوة إلى الله ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

وبالعكس : المنافقون يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ولا غرابة ، فهاتان الصفتان من أبرز صفات المؤمنين ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (١) .

﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ وهاتان صفتان في مقابلة وصف المنافقين بأنهم نسوا الله ، وبأنهم يقبضون أيديهم ، وإقامة الصلاة إتيانها مقومة كاملة تامة الأركان والشروط ، فيها الخضوع الكامل والخشوع لله ، ومراقبته وذكره .

أما صلاة المنافقين فللرياء والنفاق ، إذا قاموا إليها قاموا كسالى ، وإتيان الزكاة دليل كمال الإيمان ، والخشية من الله ، والأمل في رضائه ورضوانه .

وخصّ هذان الركنان بالذكر ، لأنهما علاج الهلع والجزع والبخل والخور ، فهذه أمراض تدفع صاحبها إلى الإحجام عن الدفاع عن الحق ، وإعلاء كلمة الله ، وتدفعه إلى الشح الصاد عن الإنفاق ، في سبيل الله ، ولذا كان المنافقون أجبن الناس ، وأخلفهم انظر إلى قوله تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً \* إذا مسه الشر جزوعاً \* وإذا مسه الخير منوعاً \* إلا المصلين \* الذين هم على صلاتهم دائمون \* والذين في أموالهم حق معلوم \* للسائل والمحروم \* والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ (٢) .

وقد جعل الله هذه الأربع : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإتيان الزكاة . أساس النجاح في الدنيا ، ووسيلة العمران ، وإقامة الدولة المسلمة الصالحة ، للتمكين في الأرض ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٣) والمؤمنون والمؤمنات لهم صفات فوق ذلك ، إنهم يطيعون الله ورسوله بامتثال الأمر ، واجتناب النهي في كل أمورهم .

﴿ أولئك سيرهم الله ﴾ ويدخلهم في رحمته الواسعة التي كتبها لهم ، رحمة خالصة من شوائب الكدر والبشقاء ، إن الله عزيز لا يغلب ، حكيم في كل صنع ، وهذا تذييل مناسب لهذا العطاء الكبير للمؤمنين .

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات ﴾ جزاءاً لهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وعدهم الله جنات موصوفة بأنها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ فليس فيها تعب ولا مشقة ولا

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران . (٢) الآيات ١٩ - ٢٦ من سورة الماعز . (٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

عطش ، ولا ألم كما أن مياهها طاهرة نظيفة لا تتغير بالمكث ، ولا تفسد بالوقوف وهم خالدون فيها إلى ما شاء الله ، ومقيمون بها إقامة أبدية ، ووعدهم ﴿ مساكن طيبة ﴾ يتمتعون بها مشتملة على جميع المرافق من أثاث ورياش وزينة ورزق ومتاع ، هذه المساكن ﴿ في جنات عدن ﴾ ومكانها الطيب هذا هو المتاع الجسماني في الآخرة ، وأما متاع الروح فالرضا والرضوان ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ من ذلك كله إذ لا يقدر قدره ، وقيل إن الرضوان رؤية الله يوم القيامة ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ <sup>(١)</sup>.

هذا جزاء الإيمان في مقابلة جزاء النفاق السابق .

ألا بئس ما يصنعون ، ذلك الذى ذكر من الوعد للمؤمنين والمؤمنات بالنعيم الجسمانى والروحانى ، هو الفوز العظيم .

أما المتاع في الدنيا فعرض زائل ، مشوب بالألم والتعب والهم والنصب .  
أيها المؤمنون هذه هي الموازين الحقيقية للإيمان وجزائه ، فانظروا إلى أنفسكم في أى مكان هي ،  
وحاسبوها قبل ان تحاسبوا .

## معاملة النبي للكفار والمنافقين

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَا وَثَّاهُمْ جَهَنَّمُ وَنِيسَ الْمَصِيرُ  
 (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَابِعَا  
 لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ  
 وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ  
 وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)

المفردات : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ : الخشونة والشدة في المعاملة وهي ضد اللين . ﴿ الجهاد والمجاهدة ﴾ : استفراغ الجهد والوسع في مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، مجاهدة الشيطان ، مجاهدة النفس والهوى ، ويشير إلى هذه كلها قوله تعالى ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال ﷺ : ( جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ) . وقال : ( جاهدوا الكفار بأيديكم وألستكم ) والجهاد باللسان إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية . ﴿ ونقم منه الشيء ﴾ : أنكره وعابه عليه .

(٣) الآية ٤١ من سورة التوبة .

(١) الآية ٢٦ من سورة يونس .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب ، وأرفع الدرجات ، أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهدين بكفرهم ، إذا هم استرسلوا في إظهار ما ينافي الإسلام من الأموال والأفعال ، كالقول الذي قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم في إنكارهم ، وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلونه بالغلظة والتجهم ، لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك . ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

أى ابذل أيها النبي جهدك في مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانيك ، بمثل ما يبذلان من جهد في عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التي توافق سوء حالهما .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة ، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان الكفار اليهود يؤذون النبي ﷺ حتى بتحريف السلام عليه ، بقولهم : ( السام عليكم ) والسام الموت ، فيقول : ( وعليكم ) .

ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره .

وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام والظاهر ، فجرأهم هذا على أذاه بنحو قولهم : ( هو أذن ) فأمره الله في هذه الآية بالغلظة على الفريقين في جهاده التأديبي لهم ، لأن أمثالهم لا علاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمته ، ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته في قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل ، واجتناب الظلم ، وأثر عن عمر أنه قال « أذلوه ولا تظلموهم » .

وفي هذه الغلظة تربية للمنافقين ، وعقوبة لهم ، يرجى أن تكون سببا في هداية من لم يطبع الكفر على قلبه ، وتخط به خطايا نفاقه ، فتقطيب وجهه ﷺ في وجوههم تحقير لهم ، يتبعه فيه المؤمنون ، ومن ير أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضيق صدره ، ويحاسب نفسه ، ويتب إلى رشده ، ويتب إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين ، وإسلام ألاف الألوف من الكافرين .

﴿ وماؤاهم جهنم وبئس المصير ﴾ أى لا مأوى لهم يلجأون إليه ، إلا دار العذاب التي لا يموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، وبئس المصير هي ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

## والخلاصة :

أنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلبة . وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار وهى : أنهم أظهروا الكفر بالقول ، وهما بشر ما يغرى به من الفعل ، وهو الفتك برسول الله ﷺ .

وقد أظهره الله عليه وأنباه بأنهم سينكرونه إذا سأهم ، ويخلفون على إنكارهم ليصدقهم ، كدأهم من قبل ، فقد كانوا يخلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ <sup>(١)</sup> ويخوضون في آيات الله وفي رسوله . استهزاء خرجوا به من الايمان الذى يدعونه إلى الكفر الذى يكتُمونه فقال : ﴿ يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهما بما لم ينالوا ﴾ .

أى يخلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التى نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة ، لأنه لا ينبغى ذكرها ، ولئلا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً فى ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا أن طلع رجل ازرق . فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله : ﴿ يخلفون بالله ما قالوا ﴾ .

أما همهم بما لم ينالوا : فهو اغتيال رسول الله ﷺ فى العقبة منصرفه من تبوك ، ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلاً من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين ، فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيمهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم ، فقال : ( من شاء منكم أن يأخذ . ببطن الوادى فإنه أوسع لكم ) وأخذ رسول الله ﷺ العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ ، فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وقد هموا بأمر عظيم .

وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمار أن يأخذ زمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ، ومعه محجن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة ، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فلما أدركه قال « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمار وراءها » .

فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبي ﷺ لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً » قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله ﷺ « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا » قال : لا والله يا رسول الله قال « فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها » قالوا : أو لا تأمرهم يا رسول الله إذا فنضرب أعناقهم ؟ قال « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده في أصحابه » فساماهم لهما وقال : « أكتاهم » .

والصحيح في عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : ( في أمتي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها ، حتى يلج الجمل في سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة ( خراج ودمل كبير يظهر في الجوف يقتل صاحبه كثيرا ) سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم )<sup>(١)</sup>

أى كأنه سراج من النار . ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ أى وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام ، وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضى الكراهة والهم بالانتقام إلا إغناء الله تعالى ورسوله من فضله بالغنائم التى هى عندهم أحب الأشياء لديهم في هذه الحياة ، وكانوا كسائر الأنصار فقراء ، فأغناهم الله ببعثة الرسول ونصره ، وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال ﷺ للأنصار ﴿ وكنتم عالة فأغناكم الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ أى فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال والأفعال ، يكن ذلك المتاب خيراً لهم في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيما فيه من التوكل على الله ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والعمل لما فيه السعادة في الآخرة ، ومعاشرة الرسول ﷺ ، ومشاهدة فضائله ، وأخوة المؤمنين بعضهم لبعض وما فيها من الود والوفاء الكامل ، والإيثار على النفس ، إلى نحو ذلك .

وأما في الآخرة فيما علمت مما وعد الله به المؤمنين من الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة . ﴿ وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ أى وإن أعرضوا مما دعوا إليه من التوبة ، وأصروا على النفاق ، وما ينشأ منه من المساوئ الخلقية والنفسية - يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا بما يلزم قلوبهم من الخوف والهلع ، كما قال سبحانه ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمعون ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾<sup>(٤)</sup> فهم في جزع دائم ، وهم ملازم .

(٣) الآية ٥٧ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٤ من سورة المنافقون .

(١) أخرجه مسلم في المنافقين ( ٩ ، ١٠ ) .

(٢) أخرجه البخارى في المغازى ( ٥٦ ) . ومسلم في الزكاة ( ١٣٩ ) .

وأما في الآخرة فحسبك ما تقدم من وعيدهم بتلك النار التي تطلع على الافئدة .

﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ أى وما لهم في الأرض كلها من يتولى أمورهم ، ولا من ينصرهم ، ويدافع عنهم ، وإن من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجبره .

أما في الدنيا فقد أغلقت في وجوههم الأبواب ، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصرة بالمؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات ، وقد قضى الإسلام على جوار الجاهلية ، وعلى أحلافهم ، من أهل الكتاب في الحجاز بالقتل والجلاء .

وأما في الآخرة فقد تظاهرت النصوص على أنه لا ولي ولا ظهير للكفار والمنافقين .

### خيانة العهد

\* وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾  
فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ  
إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ  
يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين ، أغناهم الله بعد فقر وإملاق ، وقد كانوا يلجأون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم ، وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وهضموا حقوق الخلق - ومثل هؤلاء يوجدون في كل زمان ومكان .

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ .

أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به ، والإنفاق في سبيل الله : كأعداد العدة للجهاد ، وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها ، بما يرقى بها في مختلف شئونها .

﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ .

أى فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا - بخلوا بما آتاهم ، وأمسكوه ، فلم يتصدقوا منه بشيء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة ، وإصلاح حالهم وحال أمتهم ، كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة ، بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ، ومنعهم عن التصديق ، بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دُعوا لا يستجيبون .

﴿ فَأَعْقِبِهِمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ ﴾ .

قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلي :

أودى بنسى وأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تنقلع

أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأؤكد الأيمان نفاقاً في قلوبهم ، متمكناً منها وملازماً لها إلى يوم الحساب في الآخرة ، لأنه لا رجاء معه في التوبة .

ثم ذكر سبعين هما من أخص أوصاف المنافقين - إخلاف الوعد ، والكذب فقال : ﴿ بما أخلفوا الله ما وعده وبما كانوا يكذبون ﴾ أى أن سنة الله في البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق في القلب ويقويه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخاً في النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ في نفوسهم خلف الوعد ، واستمراء الكذب ، مكن ذلك النفاق في قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقى عن ابن عباس في قوله ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ الآية : أن رجلاً من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلساً فأشهدهم قال : لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله ، فاتاه الله من فضله ، فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما وعده ، فقص الله شأنه في القرآن . ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ .

أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولز الرسول - أن الله يعلم السر الكامن في أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به ممن هو مشارك لهم في النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها ، لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

### من أخلاق المنافقين

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٧﴾

المفردات : ﴿ لمزه ﴾ : عابه . ﴿ والمطوع ﴾ : أى المتطوع ، وهو من يؤدى ما يزيد على



الفريضة . ﴿ والصدقات ﴾ : واحدها صدقة . ﴿ والجهد ﴾ : ( بالضم والفتح ) . ﴿ الطاقة ﴾ : وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان . ﴿ وسخر منه ﴾ : استهزأ به احتقاراً .

بعد أن ذكر سبحانه بخل المنافقين وشحهم بأموالهم ، حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله - أردف ذلك بيان أنهم لم يقتصروا فى جرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لزم المؤمنين وذمهم فى صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعدلهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم ، لرسوخهم فى الكفر بالله ورسوله ، وعدم الرجاء فى إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل ( يحمل بعضنا لبعض بالأجر ) فجاء أبو عقيل ( اسمه الحباح ) بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياءً ، فنزلت ﴿ الذين يلمزون ﴾ (١)

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : ( حث رسول الله ﷺ على الصدقة فى غزوة تبوك ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال : يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتكم بنصفها وأمسكت نصفها فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بمائة وسق ثلاثمائة وعشرين رطلاً من تمر وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ) الحديث .

### ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ﴾ .

أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان ، ويدمونهم فى أكمل فضائلهم ، ويقولون ما فعلوها لوجه الله ، وإنما فعلوها رياء الناس . فلمزمهم هنا فى مقدارها وصفة أدائها لا فيها نفسها ، واللمز هناك فى قسمتها ، وقد جاء فى بعض الروايات ( أن النبى ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة وجاء عثمان بصدقة عظيمة ، وكثير من أصحابه بصدقات فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياءً ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه ) .

### ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ﴾ .

أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل ، هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقاراً لما جاءوا به وعداً له من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين فى المتطوعين ، لأن مجال لزمهم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء .

﴿ سخر الله منهم ﴾ أى فجازاهم الله بمثل ذنبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ، ببيان مخازيهم وعيوبهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .  
ثم بين سبحانه عقابهم وسواهم بالكافرين فقال :

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

أى إن تدع هؤلاء المنافقين ، وتسال الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها ، وترك فضيحتهم بها ، أولا تدع ، فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة . ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما أكثر من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول : ( اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون )<sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه . ﴿ وذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ .

أى من أجل جحودهم وحدانية الله ، وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسر والنجوى ، وسائر الغيوب ، وجحودهم وحيه لرسوله ﷺ ، وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعثه للموتى ، وجزائهم على أعمالهم - لم يعف عن ذنوبهم ولا عما دسوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى .  
﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على فسوقهم ، وتمردوا فى نفاقهم ، وأحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان ، فلا يهتدون إليهما سبيلا .

### المخلفون عن الجهاد

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ فرح ﴾ : الفرح شعور النفس بالارتياح والسرور . ﴿ المخلفون ﴾ : الذين تركهم رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك . ﴿ خلاف ﴾ : مصدر كالتخالفه وقد يراد به معنى ( بعد وخلف ) فيكون ظرفاً ويصح المعنيان هنا .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى المرتدين (٥) . ومسلم فى الجهاد (١٠٤) . وابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والإمام أحمد فى (١) : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

هذه الآيات في بيان حال المتخلفين عن القتال ، وما يجب من معاملتهم وقد نزلت في أثناء السفر ، ولازلنا في الكلام على المنافقين وصفاتهم وأعمالهم في غزوة تبوك .

فرح المتخلفون من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ عند خروجه إلى غزوة تبوك ، وقعدوا في بيوتهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ ، قعدوا لأنهم لا يؤمنون أن في الغزو خيراً ، وامتنالاً لأمر ربهم ورسوله ، وقالوا لإخوانهم ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ وتركوا مهام أعمالكم ومصالحكم .

قل لهم يا محمد : نار جهنم التي أعدت للمخالفين العصاة أشد حرّاً ، فهي تلفح الوجوه ، وتنضج الجلود وتنزعها ، ولو كانوا يفقهون ذلك ، ويعتبرون ، لما خالفوا وعصوا ، وآثروا راحة الجسم راحة قليلة على هذا العذاب الدائم ، والنار التي أعدت لهم ، وكان وقودها الناس والحجارة ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ، ليس هذا أمراً حقيقياً . بل يراد تهديدهم .

وبيان أن هذا هو الأجدر بهم على حسب حالهم ، وما تستوجبه أعمالهم ، إذ لو كانوا يفقهون خطر ما فاتهم من أجر ، وما سيلاقيهم من عذاب وخيم ، لضحكوا قليلاً وبكوا كثيراً ، وهذا جزاء لهم بما كانوا يعملون ، ويكسبون من الجرائم ، ويقترحون من الآراء .

### كيف عامل النبي ﷺ زعماء النفاق

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْ نُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ بِهَاتِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

**المفردات :** ﴿ الخالفين ﴾ : المراد المتخلفون من النساء والصبيان على أن الخالف قد يستعمل ويراد به من لا خير فيه ولا غناء معه .

هذه الآية الكريمة نزلت في سفره ﷺ وهو راجع من غزوة تبوك ، وهي من دقائق القرآن ، لأن أئمة الحديث ذكروا في الصحيحين أحاديث تتعارض معها ، مثل حديث صلاة النبي ﷺ على عبد الله ابن أبي زعيم المنافقين ، ولكن أليس من الخير أن نسير مع القرآن الكريم ؟ فإنه أضيظ متنا وسندا ، بل هو المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

وقد جمع بعض العلماء في الكتب المطولة بين الحديث والآية .

قد تخلف المتخلفون عن رسول الله ، وفرحوا بمقعدهم مخالفين لأمر الله ورسوله ، وكرهوا الجهاد ، بل وثبطوا عنه وخذلوا غيرهم ، بقولهم ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ فترتب على هذا كله ما هنا من المعاملة القاسية الشديدة .. ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ ﴾ وردك من سفرك ﴿ إِلَى طَائِفَةٍ ﴾ وجماعة خاصة من المتخلفين ، تلك الطائفة هم المنافقون الذين سبق ذكرهم ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أيًا كان نوعه فقل لهم ﴿ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾ على أى شكل كان ، وبأى وضع ( ولن تقاتلوا معى عدواً ) أبداً فى المستقبل بأى كيفية كانت !! وذلك لأنكم ﴿ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وتخلفتم بلا عذر ، وحنثتم فى أيمانكم الفاجرة وفرحتم بالقيود ، بل وتبطلتم عن الجهاد .. ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ المسيئين الذين لا خير فيهم أبداً ، ولن تنالوا شرف الصلبة والجهاد ، فهذا شرف رفيع ، ووسام عال ، لا يناله إلا المؤمنون المخلصون .

﴿ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ فى المستقبل ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ أبداً داعياً له ومستغفراً وقد سبق قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، وأن يدعو لهم كما كان يفعل إذا مات مؤمن بعد دفنه : ( استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل ) (١) . وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث ..

وهذا يعارض ما نعلمه من أن المنافقين كان النبى ﷺ يجرى عليهم أحكام الإسلام العامة ، والجواب كما ظهر لى - والله أعلم - أن هذه الآيات نزلت فى زعماء النفاق الذين علم الله أنهم لا خير فيهم أبداً ، وهم سيموتون على الشرك والنفاق ، وعدم التوبة ، وقد أعلم الله نبيه بهم كما فى الحديث ، وأما غيرهم فكان يدعو لهم رجاء التوبة والتوفيق ، وبعضهم آمن وتاب .

قال الواقدى : أنبأنا معمر عن الزهرى قال : قال حذيفة قال لى رسول الله ﷺ ( إلى مسر إليك سرّاً فلا تذكره لأحد : إلى نهي أن أصلى على فلان وفلان ) رهط ذوى عدد من المنافقين : قال : فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصل على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى مشى معه ، وإلا لم يصل عليه .

ولعل الحكمة فى خصوص هؤلاء أن الله علم أنهم ماتوا على الكفر ، أو سيموتون عليه ، فلا تنفعهم شفاعة ولا استغفار ولا صلاة أبداً ، ولذلك كان تعليل النهى لا تصل على أحد منهم مات لأنهم ﴿ كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وترهق أنفسهم وهم كافرون .

وقد تقدم مثل هذا مع فارق هو ذكر لا فى الآية السابقة ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ وهو يصدق بالنهى عن الإعجاب بكل منهما ، وفى الآية الكريمة هنا حذف لا ، فيفيد الكلام النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام يقتضيه الحال ، والله أعلم بكتابه .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٦٠) وفى مناقب الأنصار (٣٨) . ومسلم فى الجنائز (٦٤) . وأبو داود فى الجنائز (٦٩) . والنسائى فى الجنائز (٢٧ ، ١٠٣) . والامام أحمد فى (٢ : ٥٣٩) .

## موقف المنافقين من الجهاد

وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَقْدَنَكَ أَتُولُوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ  
وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ  
فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ  
لَهُمْ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

المفردات : ﴿ الطول ﴾ : الغنى والمقدرة والمراد أولوا المقدرة على الجهاد المفروض .  
﴿ ذرنا ﴾ : اتركنا . ﴿ القاعدین ﴾ : المراد مع المتخلفين .

هذه عادة المنافقين ومن في قلوبهم مرض الشك والتناق ، كلما أنزلت سورة تدعو الناس ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسول الله ﷺ استأذنتك أولوا المقدرة على الجهاد بالمال والنفوس ، استأذنتوك في التخلف ، منتحلين شتى الأعذار قائلين اتركنا مع القاعدين من النساء والصبيان والعجزة ، هؤلاء رضوا بأن يكونوا مع المتخلفين من النساء والصبيان والعجزة ، وطبع على قلوبهم فلم يعد يدخل إليها نور العلم والوعد ، والهداية والنور ، حتى كأنها قد ختمت عليها .

ولا غرابة في ذلك ، فهم قوم لا يفقهون الخير والرشد حتى يهتدوا إليه ، لكن الرسول والذين آمنوا معه بمقتضى إيمانهم الخالص الراسخ في قلوبهم جاهدوا في سبيل الله ، وبذلوا النفس والنفيس ، طيبة قلوبهم ، مستريحة ضمائرهم ، متهلة وجوههم بشراً وسروراً ، لأنهم وجدوا الفرصة سانحة لاقتناص ثواب الجهاد في سبيل الله .

وأولئك البعيدون في درجات الكمال والجلال ، لهم الخيرات التي لا يعلمها إلا الله في الدنيا ، كشرف النصر ، ومحو الكفر ، والتمتع بالغنيمة ، والسيادة في الأرض ، وأولئك هم المفلحون السعداء ﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ .

## المتخلفون من الأعراب

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

وجاء المعتذرون من الأعراب ليأذن لهم النبي ﷺ في التخلف عن النفير العام في غزوة تبوك ، وهم قوم عامر بن الطفيل ، جاءوا يقولون يا رسول الله إن نحن غزونا تغير علينا أعراب طيء فقال لهم

رسول الله : ( قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله عنكم ) .

وقال ابن عباس هم قوم تخلفوا ، فأذن لهم النبي ﷺ والظاهر أن عذرهم كان حقاً ، والآية تحتل هذا وذلك .

وقعد عن القتال وعن الحجى للاعتذار الذين كذبوا الله ورسوله من الأعراب ، وأظهروا الإيمان بهما كذباً وإهاماً ، وهؤلاء المنافقون حقيقة في العقيدة ، وقد قعدوا عن القتال بجرأة على الله وعلى رسوله ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم ﴾ أى ممن كذبوا الله ورسوله ، ومن المعتذرين بغير عذر شرعى ، سيصيب هؤلاء ﴿ عذاب أليم ﴾ غاية الألم .

### الضعفاء والمرضى

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

المفردات : ﴿ الضعفاء ﴾ : جمع ضعيف وهو ضد القوى والمراد من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد . ﴿ حرج ﴾ : المراد ليس عليهم ذنب ولا إثم . ﴿ نصحوا ﴾ : أخلصوا الله ورسوله في القول والعمل . ﴿ من سبيل ﴾ : من طريق يسلك لمؤاخذتهم .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يطلب منها ما هو فوق طاقتها ، وعلى ذلك فكل من عجز عن شيء سقط عنه ولا يكلف به ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض حرج ﴾ (١) .

وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتهم سيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قال : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة . قال : حبسهم العذر ) (٢) .

ألست معى في أن هذه الآية وأشباهاها من القرآن والحديث بينت أنه لا حرج على المعذورين عذراً شرعياً ، وهم قوم عرف عذرهم كالشيوخ والعجائز ، وأهل الزمانة والهرم ، والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ، فكل هؤلاء ليس عليهم ذنب ولا إثم ، إذا نصحوا الله ورسوله ، وأخلصوا لها النية ، وأحسنوا الطوية ، وعرفوا الحق سبحانه وتعالى وأحبوه ، وأحبوا أوليائه ، وبغضوا أعداءه .

(١) الآية ٦١ من سورة النور ، والآية ١٧ من سورة الفتح .

(٢) أخرجه البخارى في الجهاد (٣٥) وفي المغازى (٨١) . وأبو داود في الجهاد (١٩) . وابن ماجه في الجهاد (٦) . والإمام أحمد في (٣) :

(١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ ، ٣٤١) .

والنصيحة الخاصة لله ولرسوله ( في هذه الحال الحربية ) هي عمل كل ما فيه المصلحة العامة للأمة ، من كتمان السر ، والحث على البر ، وإلهاب الشعور ، وتوحيد الصفوف ، ومحاربة الخائنين ، والقضاء على الطابور الخامس .

روى عن تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : ( الدين النصيحة ثلاثاً قلنا : لمن يا رسول الله ﷺ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ) <sup>(١)</sup> .

قال العلماء النصيحة لله إخلاص الاعتقاد في الوجدانية ، ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص . وامتنال أمره واجتناب نهيه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسه والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصيحة لكتابه قراءته ، والتفقه فيه ومدارسته والتخلق به ، والدفاع عنه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، وحب من أحبه وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسه والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى الطريق الحق ، والإرعاء عليهم ، وحب الخير لهم ، والسهر على مصالحهم كل على قدر طاقته .

﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ على معنى ليس هناك سبيل يسلكها ناقد على من أحسن العمل ، وأخلص النية ، فكل عمل تعلمه وأنت ترضى ربك فأنت محسن ، والله يجازى المحسن بمضاعفة حسنته ، والمسيء بقدر إساءته ، فإذا كان هؤلاء المعذرون عذراً شرعياً قد نصحوا لله ورسوله ، وأخلصوا في أعمالهم ، فليس لأحد عليهم سبيل ، ما داموا محسنين أعمالهم ، والله غفور رحيم .

روى أن بنى مقرر كانوا سبعة أخوة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد هاجروا وأتوا رسول الله في غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض مع الدموع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون !! وهذه الآية هي التي نزلت في شأنهم ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ .

ولعل الحكمة في التعبير بالإتيان لأجل الحمل ، والاعتذار عنه بعدم وجدان ما يحمل عليه من دابة أو غيرها ، هي افادة العموم ، ليشمل الدابة والسيارة والطيارة وغيرها . والله أعلم .

(١) أخرجه البخارى في الإيمان (٤٣) . ومسلم في الإيمان (٩٥) . وأبو داود في الأدب (٥٩) . والترمذى في البر (١٧) . والنسائى في البيعة (٣١ ، ٤١) . والدرامى في الرقاق (٤١) . والإمام أحمد في (١ : ٣٥١) وفي (٢ : ٢٩٧) وفي (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّقْسِيرِ

الجزء الحادي عشر

المكتبة المصرية الحديث



﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جعلتها حاجة الناس إلى البيان ، فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع ، حتى لا يضل فيها اجتهدهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل ذلك لم يؤاخذ إبراهيم في استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم ، وأولى القرى منهم . قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قرى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم ، وعدم انتظار النصرة من أحد ، بين أن النصر لا يكون إلا من جهته تعالى فقال :  
﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أى أنه تعالى مالك كل موجود ، ومتولى أمره في السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ، ومقتضى سننه في التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله ، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ، ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القرى الذين هم أهل الولاية والنصرة ، من ذوى الأرحام ، ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيه .

### توبة الله تعالى

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَتَّيِّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿العسرة﴾ الشدة والضيقة . ، ﴿يزيغ﴾ زاغ مال ، ﴿الرحب﴾ السعة ، ﴿ملجأ﴾ لجأ إلى الحصن وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، ﴿رءوف﴾ الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ﴿رحيم﴾ الرحمة : السعى في إيصال المنفعة .

قال مجاهد : في قوله تعالى : ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾  
نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر ، في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء .

قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك في لحيان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم من غزوتهم .  
وقال ابن جرير حدثني يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن ألى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب : ( خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً ، فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ، وحتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا فقال : « تحب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ، ثم سكنت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر ) .

وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى ﷺ هنا بقوله في سياق هذه الغزوة ﴿ عفا الله عنك ﴾ لم أذنت لهم <sup>(١)</sup> أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه ، إذ غير كان خيراً منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار وهم خلص المؤمنين ، كانت من تناقلهم في الخروج ، حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التناقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمناققين فيما كانوا ييغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم .

﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة في الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفذت فيه مئونتهم من التمر ، وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ، ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمر الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة ( الشحم المذاب ) الزنخة المتغيرة الرائحة ، وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى في كرشه ويلبوا به ألسنتهم - وعسرة في الظهر ( في الإبل ) حتى كان العشرة يتعقبون بعيراً واحداً - وعسرة في الزمن إذ كان في حرارة القيظ ( شدة الحر ) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه في ساعة العسرة : عسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : ( خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع ) الحديث كما ذكرنا سابقاً .

﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ

بعضهم عن الإيمان ، وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهملهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلؤا في الله وأبلؤا مع رسول الله ، وصبروا في البأساء والضراء .  
قوله تعالى :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن على الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيهِ حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزاة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر .  
وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ فلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ -- يريد الديوان .

قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر فتجهز إليها رسول الله ﷺ فتجهز إليها الناس وأنا أقادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتأدى لى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتأدى لى حتى أسرعوا ، وتفرط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم - وباليات أنى فعلت - ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل .

ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يا رسول الله براده . والنظر في عطفيه . فقال معاذ بن

جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .  
قال كعب بن مالك فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بنى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أطل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت على صدقه ، فأصبح رسول الله ﷺ .

وكان إذا قدم من سفر بدأ المسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ، ألم تكن قد اشتريت ظهراً » ؟ فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر والله ، ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمتم وقام إلى رجال من بنى سلمة واتبعونى ، وقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى قال : ثم قلت لهم : هل لقي معى هذا أحد . قالوا : نعم ، لقيه معك رجلاً . قالوا مثل ما قلت ، وقيل لهما ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بداراً ، لى فيهما أسوة .

قال فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحبائى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبيكان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت : أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول فى نفسى : أحرك شفقتي برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى

أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء ، فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك في دار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك . قال فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيمنت به التنور فسجرت به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتيني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك . قال : فقلت لأمرائي الحق بأهلك فكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر ما يشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله أن هلال شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » . قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . قال : فقلت : والله لأستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدري ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضافت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يشيروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني ، نزع له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهتفون بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا برسول الله ﷺ جالس في المسجد ، والناس حوله . فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر

عليك منذ ولدتك أمك » ، قال : قلت يا رسول الله أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله : إن من توبتى أن أخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قال : فقلت : فإني أمسك سهمى الذى بخير . وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث . منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وأنى لأرجو الله أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

( قال ) وأنزل الله تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم \* وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق لرسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سيخلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون \* يخلفون لكم لتعرضوا عنهم فان تعرضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (١) .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه (٢) .

هذا حديث ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبها الصحيح : البخارى ومسلم ، من حديث الزهري بنحوه .

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها .

(١) الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير ( سورة ٩ : ١٨ ) وفى الإيمان ( ٢٤ ) . ومسلم فى التوبة ( ٥٤ ) . والنسائى فى المساجد ( ٣٨ ) . والإمام

أحمد فى ( ٢٥٦ : ١ ) وفى ( ٤٥٧ : ٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ) وفى ( ٢٢٥ : ٤ ) .

وكذا روى عن غير واحد من السلف في تفسيرها .

كما رواه الأعمش عن أبي سفيان عن جابر بن عبد الله في قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ قال هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار .

وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد ، وكلهم قال : مرارة بن ربيعة ، وكذا في مسلم بن ربيعة في بعض نسخه ، وفي بعضها مرارة بن الربيع ، وفي رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع ، كما وقع في الصحيحين وهو الصواب .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم ، نخواً من خمسين ليلة ، بأيامها وضاعت عليهم أنفسهم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، أى مع سعتها ، فسدت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم ، بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

أى أصدقوا ، وألزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً .

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» (١) . أخرجه في الصحيحين .

وقال شعبة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرءوا إن شئتم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ هكذا قرأها ، ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة .

وعن عبد الله بن عمرو في قوله : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه .

وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهما .

وقال الحسن البصرى : إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد في الدنيا ، والكف عن أهل الملة .

(١) أخرجه مسلم في البر (١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) . والبخارى في الأدب (٦٩) . وأبو داود في الأدب (٨٠) . والترمذى في البر (٤٦) . وابن ماجه في المقدمة (٧) وفي الدعاء (٥) . والدارمى في الرقاق (٧) . والإمام مالك في الكلام (١٦) . والإمام أحمد في (٤٣٢، ٤٠٥، ٣٨٤، ١١٩، ٩٨، ٧٠، ٥٠، ٣، ١) .

## توجيهات وترغيب فى الجهاد

مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾

**المفردات :** ﴿يرغبوا﴾ : رغب فى الشيء : أحبه وآثره ، ورغب عنه : كرهه ، وقد جمع بينهما فى الآية .  
 ﴿ظمأ﴾ : الظمأ : شدة العطش ، ﴿نصب﴾ : النصب : الإعياء والتعب ، ﴿مخمصة﴾ : المخمصة : الجوع الشديد ، ﴿يغيظ﴾ : الغيظ : الغضب ، ﴿نيلاً﴾ : أى أسرا وقتلاً وهزيمة ، ﴿واديًا﴾ : الوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل .  
 بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه ، لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .  
 ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ .

أى لا ينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ، ومقر الرسول ﷺ ، ولا من حولهم من الأعراب ، كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ، أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزو فى سبيل الله ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ، ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه ، فیرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبدلوا فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تنهات فيما تعرضت له ، ولا يكثر لها أصحابها ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .  
 والخلاصة : أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ ، التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وفى ذلك نهى شديد عن عملهم ، وتوبيخ لهم عليه وتهيج لمتابعته ﷺ بأنفة وحمة .



﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطناً يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ .

أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى ، وإن كان قليلاً ، كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر ، كوطء أرضه الذى بعده استهانة بقوته ، فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين ، أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بنجر أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، يجزى عليه بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد ، أو وطأة قدم ، أو عروض جوع أو عطش ، أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيراً كان سعيه فيه من قيام أو قعود ، أو مشى أو كلام أو نحو ذلك ، مشكوراً مثاباً عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة ، لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى ﷺ لابنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب .

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أى إن الله لا يدع محسناً أحسن فى عمله ، فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ، أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا ، فلم يضيع لهم أجراً على عمل عملوه .

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبير ، قل أو كثير ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو راجحين ، إلا كتب لهم أجرهم على ذلك ، جزاء لهم على عملهم ، ولا يترك شئ منه أو ينسى .

﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم ، كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها ، وهم يقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر ، جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع الميراث ، والمبشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

## توجيهات ربانية

\*وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

المفردات : ﴿ نفر ﴾ : خرج للقتال ولولا : كلمة تفيد الحض والحث على مايدخلها عليها إذا كان مستقبلاً واللوم على تركه إذا كان ماضياً فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ﴿ فرقة ﴾ الفرقة : الجماعة الكثيرة . ﴿ طائفة ﴾ الطائفة : الجماعة القليلة . ﴿ ليتفقها ﴾ التفقه : تكلف الفقاها والفهم وتحشيم مشاق تحصيلها ﴿ يحذرون ﴾ حذره : تحرز منه .

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والنفقة في الدين من قبل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان ، وهو الركن الركين في الدعوة إلى الإيمان ، وإقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجاً لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدي المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبي عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدد الله على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ففعلوا ذلك ، وبقي رسول الله ﷺ وحده ، فنزل ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ الآية ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أى وما كان شأن المؤمنين ، ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط عن الباقي ، لا فرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ .

أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم ، كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ، ليتسنى لهم ، أى للمؤمنين في جملتهم في الدين بأن يتكلف الباقيون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات ، وما يكون منه ﷺ من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به .

ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما عملوا ، رجاء أن يخافوا الله ، ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه ، وبيان أسرارها للناس ، لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية ، والترفع عن سواد الناس ، وكسب المال

والتشبه بالظلمة والجبارين في ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضا .

وفي الآية إشارة إلى وجوب التفقه في الدين ، والاستعداد لتعليمهم في مواطن الإقامة ، وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم ، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل في الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس في سبيل إعلاء كلمة الله ، والدود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم في غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

### حماية حدود الدولة الإسلامية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة ، أرشدهم في هذه الآية إلى طريق السداد في هذا الباب ، وهو أن يبدعوا بقتال من يليهم ، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبي ﷺ وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ، ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ، ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق .

وكذلك في أمر الدعوة فقد قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ثم أمر بالدعوة العامة ، وقاتل من يقف في طريقها من المشركين فقال ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾

أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين ، والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ لَتَنْذِرُ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة ، منها قلة النفقات ، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات ، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب ، والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع في الدعوة والنفقات والصدقات ، وما يدار في المجالس من شراب ونحوه ، فكان النبي ﷺ يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ، ثم

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٩٢ من سورة الأنعام ، الآية ٧ من سورة الشورى .

الذى يليه ، ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك »<sup>(١)</sup>.

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ : الغلظة - مثلثة - الشدة والخشونة ، أى وليجدوا فيكم جراً وصبراً وعنفاً فى القتل والأسر ونحو ذلك ، كما قال : ﴿ يأياها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾<sup>(٢)</sup> والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيه من شدة الزجر ، والمنع عن القبيح . وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حيناً إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة لا أن يقتصر على الغلظة فحسب ، فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم ، وإنما أمروا بذلك فى القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل ، والتؤدة فى المعاملة ، ومن ثم صار ذلك من أخصى صفات المسلمين .

﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ : أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه ، وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغلب ، من إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان التى عنها الله بقوله : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾<sup>(٣)</sup> ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله ، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

### من أحوال المنافقين

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوْ لَا يَرْوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه ضرباً من مخازى المنافقين ، كتخلفهم عن غزوة تبوك ، وتعلقهم لذلك بالآيمان الفاجرة ، ذكر هنا ضرباً أخرى من تلك المثالب ، كتمكهم بالقرآن ، وتسللهم لوأداً حين سماعه . وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٢) . ومسلم فى الأشربة (١٠٩، ١٠٨) . والترمذى فى الأطعمة (٤٧) . وابن ماجه فى الأطعمة

(٨) . والدارمى فى الأطعمة (١٥٤) . والإمام مالك فى صفة النبى (٣٢) .

(٢) الآية ٧٣ من سورة التوبة ، الآية ٩ من سورة التحريم . (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ ﴾ : أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ، ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككاً لهم ﴿ أَيْكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ﴾ السورة ﴿ إِيْمَانًا ﴾ أى يقينا بحقيقة القرآن والإسلام ، وصدق الرسول ﷺ ، أى أَيْكُمْ زَادَتْهُ تصديقاً جازماً مقترناً بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ، ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيباً عن هذا السؤال ، مبيناً حالهم وحال المؤمنين فقال :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين ، واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به ، والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها ، لما يرجون من خير الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ :

أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم النفاق بإسرار الكفر وإظهار الإسلام ، فزادتهم كفراً ونفاقاً مضموماً إلى كفرهم ، ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم ، واستحكم فيهم ، إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس ، وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ :

أى أو يجهلون هذا ، ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر ، والفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه ، وخذلان أعدائه ، ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم ، وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ : أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان . وانطفاء نور الفطرة ، والله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة في المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ ، بين حالهم وهم في مجلسه ﷺ حين نزولها ، واستماع تلاوته لها فقال :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ : أى وإذا أنزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر ، وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين ، وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا في الانسلاخ من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلا بعضهم لبعض : ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أى هل يراكم الرسول ﷺ أو المؤمنون إذ قمتم من المجلس .

﴿ ثم انصرفوا ﴾ : أى ثم انصرفوا جميعا من مجلس الوحي متسللين لواداً ، كراهة منهم لسماعه ، وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ : أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق ، والاسترشاد بآيات كتابه إلى مافى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته ، وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل في هذه واحد في كلامه تعالى .

﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ : أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل في معانيها ، مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل ، لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ؟ أخير هو أم شر ؟ وآتى لمثل هؤلاء - وتلك حالهم - أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟

### صاحب القلب الرحيم

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ من أنفسكم ﴾ : أى من جنسكم . ﴿ عزيز ﴾ : أى شاق . ﴿ عنتم ﴾ العنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد . ﴿ حريص ﴾ الحرص : شدة الرغبة في الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجوده . ﴿ رءوف ﴾ الرأفة : الشفقة . ﴿ رحيم ﴾ الرحمة : الإحسان .

لما أمر الله رسوله في هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة ، ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف ، فبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته في إيصال خيرى الدنيا

والآخرة إليهم ، فهو كالطبيب المشفق ، والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الحاذق ، ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتلالها .

كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

قال أبي بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر ما نزل من القرآن .

لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله ﴾ <sup>(١)</sup> وآخر سورة نزلت : « براءة » وعن ابن عباس : آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ <sup>(٢)</sup> وكان بين نزولها وموته ﷺ ثمانون يوما .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ :

أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ <sup>(٣)</sup>

ذاك أن منته على قومه أعظم ، وحجته بكتابته أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ، ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فأمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن العجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه له ﷺ بالتبليغ والعمل ، وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .

وقد امتن الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد ، فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ <sup>(٤)</sup> أى وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم ، ويدون لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أنفة واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم ، إلى أن فى اتباعه إقرارا بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

﴿ عزيز عليه ما عنكم ﴾ :

أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه ، لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة بغتتها أعداؤها بالسيطرة عليها ، والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

(١) الآية ١٧٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢ من سورة الجمعة .

(٤) الآية ١٤ من سورة الزخرف .

﴿ حريص عليكم ﴾ : أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ : أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق فيها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .  
وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ : إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضرىها وربيعىها ويمنىها ، يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب وبطونها .

﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله ﴾ : أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ، ويكفيك أمر توليهم ، وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت . ﴿ لا إله إلا هو ﴾ : أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

﴿ عليه توكلت ﴾ : أى عليه وحده توكلت ، فلا أكل أمرى فيما أعجز عنه إلى غيره .

﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ : العرش مركز تدبير أمور الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾<sup>(٢)</sup> ، وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمة العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإله الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله ، والمدير لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم من زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أنى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجداهما مع أحد غيره . ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ : إلى آخرها .

يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المکتوب فى الرقاع والأكتاف والعصب إلا عنده وقد كانتا محفوظتين معروفتين لكثير ، كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى .

فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : ( أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ : إلى قوله ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى ، والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما . فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ، ولو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فالحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة ) .



وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر فقال عمر : لا أسالك عليها بينة أبدا ، وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا في موضعهما ، ففي بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ ، وفي بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ ابن حجر في شرح البخارى : ( إن زيدا لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ، ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها ، فهو صريح في أن البحث عن كتبها فقط ) .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع في موضع كتابتهما ، حتى شهد من شهد أن النبي ﷺ هو الذى وضعهما في آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أبى بن كعب ، وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبي ﷺ ، وكذا زيد بن ثابت ، وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا ، فلما كتبتا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يروا أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

## سورة يونس

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

اعلم أن هذه السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها مائة وعشر آيات عند الشاميين ، وتسع عند الباقين ، وعدد كلماتها ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وخمس وستون . وسميت سورة يونس لما فى آخرها من ذكر كشف العذاب عن قوم يونس ببركة الإيمان عند اليأس ، فى قوله : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

## مقصود السورة

إثبات النبوة ، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حق النبى ﷺ والقرآن ، وذكر جزائهم على ذلك فى الدار الآخرة .

وتقدير منازل الشمس والقمر لمصالح الخلق ، وذم القانعين بالدنيا الفانية عن النعيم الباقى ، ومدح أهل الإيمان فى طلب الجنان ، واستعجال الكفار بالعذاب ، وامتحان الحق تعالى خلقه باستخلافهم فى الأرض .

وذكر ( عدم تعقل ) الكفار كلام الله ، ونسبته إلى الافتراء والاختلاق والإشارة إلى إبطال الأصنام وعبادتها ، وبيان المنة على العباد بالنجاة من الهلاك فى البر والبحر ، وتمثيل الدنيا بنزول المطر ، وظهور ألوان النبات والأزهار .

ودعوة الخلق إلى دار السلام ، وبيان ذل الكفار فى القيامة ، ومشاهدة الخلق فى العقبى ما قدموه من طاعة ومعصية ، وبيان أن الحق واحد وما سواه باطل ، وإثبات البعث والقيامة بالبرهان والحجة الواضحة .

وبيان فائدة نزول القرآن ، والأمر بإظهار السرور والفرح بالصلاة والقرآن ، وتمييز أهل الولاية من أهل الجناية .

وتسليّة النبى ﷺ بذكر شىء من قصة موسى ، وواقعة بنى إسرائيل مع قوم فرعون ، وذكر طمس أموال القبطيين ، ونجاة الإسرائيليين من البحر ، وهلاك أعدائهم من الفرعونيّين .

ونجاة قوم يونس بإخلاص الإيمان فى وقت اليأس ، وتأكيّد نبوة النبى ﷺ ، وأمره بالصبر على جفاء المشركين وأذاهم فو قوله : ﴿ حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ .

## المتشابهات

قوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ وفى هود ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ لأن ما فى هذه السورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعاً ، يدل عليه قوله ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا ﴾ الآية .

وكذلك ما في المائدة : ﴿ مرجعكم جميعاً ﴾ لأنه خطاب للمؤمنين والكافرين ، بدليل قوله ﴿ فيه يختلفون ﴾ وما في هود خطاب للكفار ، يدل عليه قوله ﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ .

قوله : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر ﴾ بالألف واللام لأنه إشارة إلى ما تقدم من الشر في قوله : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ فإن الضر والشر واحد ، وجاء الضر في هذه السورة بالألف واللام وبالإضافة .

قوله : ﴿ وما كانوا ليؤمنوا ﴾ بالواو لأنه معطوف على قوله : ﴿ ظلموا ﴾ من قوله : ﴿ لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ﴾ ، وفي غيرها بالفاء للتعقيب .

قوله : ﴿ فمن أظلم ﴾ بالفاء لموافقة ما قبلها ، وقد سبق في الأنعام قوله : ﴿ مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ وسبق في الأعراف .

قوله : ﴿ فيما فيه يختلفون ﴾ وفي غيرها ﴿ فيما هم فيه ﴾ بزيادة ( هم ) لأن هنا تقدم ﴿ فاختلفوا ﴾ فاكتمى به عن إعادة الضمير ، وفي الآية ﴿ بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ بزيادة ( لا ) وتكرار ( في ) لأن تكرار ( لا ) مع النفي كثير فلما كرر ( لا ) كرر ( في ) تحسينا للفظ ، ومثله في سبأ في موضعين ، والملائكة .

قوله : ﴿ فلما أنجاهم ﴾ بالألف لأنه وقع في مقابلة ﴿ أنجيناه ﴾ .

قوله : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾ وفي هود ﴿ بعشر سور مثله ﴾ لأن ما في هذه السورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس ، فالمضاف محذوف في السورتين ، وما في هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود ، وهو عشر سور .

قوله : ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ هنا ، وكذلك في هود ، وفي البقرة ﴿ شهداءكم ﴾ لأنه لما زاد في هود ﴿ وادعوا ﴾ زاد في المدعويين ، ولهذا قال في سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن ﴾ لأنه مقترن بقوله ﴿ بمثل هذا القرآن ﴾ والمراد به كله .

قوله : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ بلفظ الجمع وبعده : ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ بلفظ المفرد ، لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر وكان في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ، ووحد ﴿ ينظر ﴾ حملاً على اللفظ ، إذ لم يكن أكثر كثرتهم .

قوله : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا ﴾ في هذه الآية فحسب ، لأن قبله قوله ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ .

وقوله : ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾ يدلان على ذلك ، فاكفى به .

قوله : ﴿لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة﴾ فى هذه السورة فقط ، لأن التقدير فيها : لكل أمة أجل فلا يستأخرون إذا جاء أجلهم ، فكان هذا فيمن قتل بيدى ، والمعنى لم يستأخروا .

قوله : ﴿ألا إن الله ما فى السموات والأرض﴾ ذكر بلفظ ما ، لأن معنى ما ههنا المال فذكر بلفظ ( ما ) دون ( من ) ولم يكرر ( ما ) اكتفاء بقوله قبله ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض﴾ .

قوله : ﴿ألا إن الله ما فى السموات ومن فى الأرض﴾ ذكر بلفظ ( من ) وكرر لأن هذه الآية نزلت فى قوم آذوا رسول الله ﷺ ، فنزل فيهم ﴿ولا يحزنك قولهم﴾ فاقتضى لفظ ( من ) مكرر لأن المراد : من فى الأرض ههنا لكونهم فيها ، لكن قدم ذكر ﴿من فى السموات﴾ تعظيما ثم عطف ﴿من فى الأرض﴾ على ذلك .

قوله : ﴿ما فى السموات وما فى الأرض﴾ ذكر بلفظ ( ما ) فكرر لأن بعض الكفار قالوا : اتخذ الله ولداً ، فقال سبحانه : له ما فى السموات وله ما فى الأرض ، أى اتخذ الولد إنما يكون لدفع أذى أو جلب منفعة ، والله مالك ما فى السموات وما فى الأرض ( وكان ) الموضع ( موضع ) [ ما وموضع ] التكرار للتأكيد والتخصيص .

قوله : ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ ومثله فى التمل . وفى البقرة ، ويوسف ، والمؤمن : ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فوافق قوله ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ وكذلك فى التمل تقدم ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فوافقه . وفى غيرهما جاء بلفظ التصريح . وفيها أيضا قوله : ﴿فى الأرض ولا فى السماء﴾ فقدم الأرض لكون المخاطبين فيها ، ومثله فى آل عمران وإبراهيم وطه والعنكبوت ، وفيها ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ بناء على قوله ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ .

ومثله فى الروم : ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ فحسب .

قوله : ﴿قالوا : اتخذ الله ولدا﴾ بغير واو ، لأنه اكتفى بالعائد عن الواو والعاطف .

ومثله فى البقرة على قراءة ابن عامر ! ﴿قالوا اتخذ الله ولدا﴾ قوله : ﴿كذبوا﴾ سبق .

قوله : ﴿فتجنياه﴾ سبق . ومثله فى الأنبياء والشعراء . وقوله ﴿ونطبع على﴾ قد سبق .

قوله : ﴿من فرعون وملأهم﴾ هنا فحسب بالجمع . وفى غيرها ﴿وملأه﴾ لأن الضمير فى هذه السورة يعود إلى الذرية ، وقيل : يعود إلى القوم ، وفى غيرها يعود إلى فرعون .

قوله : ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ وفى التمل : ﴿من المسلمين﴾ لأن قبله فى هذه السورة ﴿ننج المؤمنين﴾ فوافقه ، وفى التمل أيضا وافق ما قبله ، وهو قوله : ﴿فهم مسلمون﴾ وقد تقدم فى يونس ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ .

## مناسبتها لما قبلها

وجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ ، واختتمت بها هذه ، وأن جل تلك في أحوال المنافقين ، وما كانوا يقولونه ، وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه في أحوال الكفار وما كانوا يقولونه في القرآن .

وليس التناسب بين السور سببا في هذا الترتيب الذى بينهما فكثيراً ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب في موضوع الآيات ، وقد فصل بينهما كما فصل بسورتي الهمة واللهب وموضوعهما واحد ، وقد يجمع بينهما تارة أخرى كما نصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وسورتي المرسلات والنبأ .

ومن الحكمة في الفصل بين القوية التناسب في المعانى ، أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن ، وأبعد به عن الملل ، وأدعى له إلى التدبر ، ولهذا الحكمة عينها تُفرق مقاصد القرآن في السورة الواحدة كالعقائد ، والاحكام العملية ، والحكم الأدبية ، والترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، والعمدة في كل ذلك التوقيف والسماع .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ الكتاب ﴾ : القرآن الكريم . ﴿ الحكيم ﴾ : ذو الحكمة ، لاشتمال الكتاب عليها ، ﴿ أوحينا ﴾ : الوحي : الإعلام الخفى لامرئ بما يخفى على غيره ، ﴿ أنذر ﴾ : الإنذار : الإخبار بما فيه تخويف . ﴿ بشر ﴾ : التبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء . ﴿ صدق ﴾ : الصدق : يكون في الأقوال ، ويستعمل في الأفعال ، فيقال صدق في القتال إذا وفاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء في التنزيل : ﴿ مقعد صدق ﴾ (١) ، ﴿ ومدخل صدق ﴾ (٢) ، ﴿ ومخرج صدق ﴾ ، ﴿ وقدم صدق ﴾ ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، ﴿ ساحر ﴾ : أى يؤثر في القلوب ويجذب النفوس فهو جاء مجرى السحر ، ﴿ مبين ﴾ : ظاهر . قوله تعالى ﴿ الر ﴾ هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة : ألف . لام ، را ، والأخير منها غير مهموز ، والحكمة في مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها ، لأجل العناية بفهمه حتى

لا يفوته شيء مما يسمع ، فهى من وادى حروف التنبيه نحو ( ألا ) و ( ها ) الداخلة على اسم الإشارة . وفى هذه الحروف إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الحكيم ، وفى ذلك من التحدى ما فيه ، ومن ثم فقد جاءت الإشارة بعدها بقوله تعالى ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أى التى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولما كان هذا الكتاب الكريم المعجزة الخالدة التى تثبت صدق نبوته ﷺ ، وقد جاءت الآية بعد ذلك تنكر على الذين عجبوا من الوحى إلى خاتم الانبياء لكونه رجلا منهم .

قال جل شأنه ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن هم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾

قال الضحاك : عن ابن عباس ( لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الآية ) .

وقد قالوا للأنبياء قبله مثل ما قالوه له قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (١) . فقد قالوا ﴿ أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾ (٢) .

وقال نوح وهود لقومهما ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ (٣) . وقال تعالى نخبرا عن كفار قريش ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾ (٤) .

وجاء فى سورة إبراهيم قوله تعالى ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون \* ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٥) .

وفى سورة الإسراء جاء قوله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴾ \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا \* وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا \* قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا \* قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ (٦) .

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٣) الآية ٦٣ ٦٩ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٥ من سورة ص .

(٥) الآيات ١٠-١٢ من سورة إبراهيم .

(٦) الآيات ٩٠-٩٦ من سورة الإسراء .

وقال جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فترى صوابه حتى حين ﴾ قال رب انصرني بما كذبون ﴿ (١) 》

قوله تعالى ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ إلى سابقة فضل عند الله ، والله خير من ينجز وعدا ، ويوفى بالعهد ، فهؤلاء المؤمنون المتقون لما قدموا الأعمال الصالحة سبقتهم إلى جنات النعيم ، وهم بذلك قد وقفوا على حقائق الأسرار ، وسلكوا مدارج الأنوار ، أليس هم الذين يدعون ربهم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً ﴾ (٢) لقد صدقوا مع الله فصدقهم الله ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم .  
فنالوا بصدقهم منازل الصالحين ، ومدارج السالكين ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ (٣) 》

فكانت أعمالهم لها حق السبق في جزائهم الأوفى ، أصبح لهم الفردوس نزلاً ، لا ييغون عن الجنات حولاً .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها      فالموت لاشك يفنيا ويفنيها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها      والدار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها      والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ هذا موقف أهل العناد في كل حين ، وهذا منطق الباطل كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ (٤) 》

إن الباطل معروف بالجدال والعناد ، جدل عقيم ، وعناد مستمر قال تعالى ﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ (٥) ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولسوف يظل الباطل يعربد في عرصات الدنيا حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل ، ولن يضيع حق وراءه مطالب ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ (٦)

لقد انشق القمر أمام أعينهم فماذا قالوا ، اسمع إلى ما قالوا ، وسلسل الدموع أسفا على هذا البهتان المبين ، والإنكار الفاجر ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ﴿ حكمة بالغة فما تغني

(٤) الآيات ٥٢-٥٥ من سورة الذاريات .

(٥) الآية ٢١ من سورة الملك .

(٦) الآية ١٧ من سورة الرعد .

(١) الآيات ٢٣ : ٢٦ من سورة المؤمنون

(٢) الآية ٨٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٥٤، ٥٥ من سورة القمر .

النذر ﴿١﴾

قال تعالى : ﴿ فويل سومئذ للمكذبين ﴾ الذين هم في خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا \* هذه النار التى كنتم بها تكذبون \* أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون \* اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿٢﴾ .

## من دلائل التوحيد

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأُمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ الخلق ﴾ : لغة التقدير . ﴿ أيام ﴾ : اليوم : لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ﴿ العرش ﴾ : مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولاصفته . ﴿ يدبر ﴾ : التدبير : النظر فى إدار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه الحمود ، وتدير الأمر ، أو القول : هو التفكير فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه .

﴿ القسط ﴾ : العدل : ﴿ حميم ﴾ : الحميم : الماء الشديد الحرارة . ﴿ ضياء .. نورا ﴾ : الضياء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبا من غيره ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ (١) والسراج : نوره من ذاته : والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوسى السحاب فهو سبق أضواء وقد كشف توفى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلون عصر التنزيل . والتقدير . جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ (٢)

(١) آيات ١-٥ من سورة القمر .

(٣) الآية ١٦ من سورة نوح .

(٤) الآية ٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآيات ١١-١٦ من سورة الطور .



وقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾<sup>(١)</sup> والمنازل واحدها منزل ، وهو مكان النزول وهى ثمانية وعشرون منزلاً معروفة لدى العرب بأسمائها .  
بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم ، يشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب ، قفى على ذلك بذكر أمرين :

- ١ - إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهى ، يفعل ما يشاء ، وهو العليم الخبير .
  - ٢ - إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .
- ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ .

أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها ، فى ستة أزمنة ، قد تمَّ فى كل زمن منها طور من أطوارها ، وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام ، واقتضته حكمته من الأحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمر عباده أن يفرض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كما لهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم ، وتطهر قلوبهم ، وتستتير أفئدتهم ، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتديره ، ولا يقدر عليه سواه .

### ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾

أى لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه . والآية بمعنى قوله سبحانه ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾<sup>(٢)</sup> وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة . كما قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ﴾<sup>(٣)</sup> ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله ، كما قال ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾<sup>(٤)</sup> .

وفى هذا إيماء لدحض العقيدة التى كان يعتقدونها مشركوا العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب ، من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقرين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ، ويجلب لهم النفع ، كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾<sup>(٥)</sup> .

(٣) الآية ١٠٩ من سورة طه .

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(١) الآية ٣٩ من سورة يس .

(٥) الآية ٣ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء .

وفى هذه العقيدة حجة عليهم ، إذ يقال لهم - إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن الله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى ، وهو قول عليه تعالى بغير علم ، فما بالكم تنكرون وتعجبون ان يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة ، والهادى إلى طريق الرشاد ؟!

### ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾

أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير ، والتصرف فى أمر الشفاعة ، يأذن بها لمن يشاء ، هو الله ربكم المتولى شؤونكم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولا تشركوا معه أحداً فى شفاعة ولا غيرها ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضرراً ، بل هو الذى يملك ذلك وحده ، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضرر المكتسبة بالعقول والمشاعر التى سخرها لكم ، وإلى أسباب النفع والضرر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضرراً إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه فادعوه فيه تعالى وحده ، يحصل لكم ما فيه ترغبون . أو يدفع عنكم ما تكرهون .

﴿ أفلا تذكرون ﴾ أى أتجهلون هذا الحق الواضح ، فلا تذكرون أن الذى خلق السموات والأرض وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ، ولا يعبد سواه ، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لا ينبغى أن توجه وجوها شطر قبور الأولياء والصالحين ، ونشد الرحال إلى من بعد منهم ، وتتقرب إليهم بالنذور ، ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين ، نطلب منهم ما عجزنا عنه بكسبنا من دفع ضرر أو جلب نفع ، وكيف نتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا غي العبادة وروحها ، وأجلى مظاهرها ، كما جاء فى الأثر : ﴿ الدعاء غي العبادة ﴾ (١).

ولكن بعض العلماء وبعض الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلاً واستشفاعاً ، والأسماء لا تغير من قيمة الحقائق شيئاً فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب . ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ .

﴿ إليه مرجعكم جميعاً ﴾ : أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعاتكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد .  
﴿ وعد الله حقاً ﴾ : أى وعد الله ذلك وعداً حقاً لا خلف فيه .

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ : أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشئه حين التكوين ، ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه ، وقد اتفق العلماء جميعاً ، ماديوهم وروحيوهم على أن الارض وجميع

الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لا يزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة ، والقوة المتصرفة في أصل مادتها .

وهم جميعاً متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها في هذا النظام الشمسى الجامع لها ، بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بساً ، فتكون هباء منبثاً ، وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل ، والإعادة أهون من البدء فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة ، كما قال في سورة الروم ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾<sup>(١)</sup> .

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجسام الحية في انحلال وتجدد دائمين ، فما ينحل منها ويبخر في الهواء ، أو يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه ، تحل محله مواد حية جديدة ، حتى يفنى جسد كل حيوان في سنين قليلة ، ويتجدد غيره .

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾

أى أنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله وهذا المعنى قد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾<sup>(٣)</sup> .

والعدل في الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾<sup>(٤)</sup> وقال ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾<sup>(٥)</sup> .

والجزاء بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئاً من فضله ، ويضاعف لهم ، كما وعد على ذلك في آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾<sup>(٧)</sup> .

﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ :

أى إن الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم ، وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت ، كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام ، وسائر المعاصى التى يزيناها لهم الشيطان ، ويصدهم بها عن الإيمان .

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين ، بيان منه بأنه المقصود بالذات ، إذ هو الذى يكون به منتهى كمال الارتقاء البشرى للذين زكوا أنفسهم ، وطهروا قلوبهم ، وأحبوا إلى ربهم ، فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادى ما هو خال من الشوائب التى تخالطه في نعيم الدنيا ، ومن النعيم

(٧) الآية ٢٦ من سورة يونس

(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٥) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٣٠ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٥٤ من سورة يونس .

الروحى وهو رضوان الله الأكبر مما لا يعلم كنهه فى هذه الحياة أحد ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾<sup>(١)</sup>.

وجاء فى الحديث القدسى . [ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ]<sup>(٢)</sup> رواه البخارى .

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ، فليس من المقاصد التى اقتضتها الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، ولكنها مقتضى العدل ، ومقتضى مشيئته تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات ، والعلل بالعلولات .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ .

وهذه بعض الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ، فهو الواحد فى ذاته لا قسم له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له .

الشمس والبدر من أنواع حكمته	والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سيحه والوحش مجده	والموج كبره والحوث ناجاه
والتل تحت الصخور الصم قدسه	والنحل يهتف حمداً فى خلياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم	والعبد ينسى ورى ليس ينساه

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة دلائل القدرة الباهرة ، والعناية الفائقة ، والإرادة الحكيمة ، والقصد المدبر .

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون ﴾<sup>(٣)</sup>.

وما أجمل هذا النظام البديع ، والاتقان الرائع ، فى الخلق الواحد القادر المريد : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾<sup>(٤)</sup>.

قف خاشعاً أمام هذا الجلال فى قوله جل شأنه ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ \* وما ذرأكم فى الأرض مختلفاً ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون \* وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٨) وفى تفسير سورة (١: ٣٢) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٣١٢) وفى الجنة (٥-٢) . والترمذى فى تفسير سورة (٢: ٣٢) و(١: ٥٦) وابن ماجه فى الزهد (٣٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٣٤) .

(٣) الآية ٢ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٤٠ من سورة يس .

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون \* وألقى في الأرض رواسي أن تُمِدَّ بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون \* وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴿١﴾ .

ثم قف ملياً أمام هذا الاستفهام الإنكارى في قوله جلت حكمته : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم قف شاكراً أمام هذا الفضل العظيم الذى تمثل في قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ ﴿٣﴾ .

ثم قف خاشعاً عند هذا الجلال ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ ﴿٤﴾ .

ثم قف مدعناً أمام تلك الحقيقة ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ﴾ \* أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ ﴿٥﴾ .

ثم املاً قلبك بنور التوحيد وضياء الهدى وجلال التصديق أمام تلك النتيجة بعد المقدمات : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ ﴿٦﴾ .

ما أعظمك من إله قادر ، قلت وقولك الحق ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ \* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ﴿٧﴾ .

ما أعظمك من إله خلقت كل شيء فقدرته تقديراً ، وقلت وقولك الحق : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ ﴿٨﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ﴾ أى إن ربكم الذى خلق السموات والأرض ، هو الذى جعل الشمس مضيئة نهاراً والقمر منيراً ليلاً ، ودبر أمور معاشكم هذا التدبير البديع ، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادكم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

﴿ وقدره منازل ﴾ أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ، ينزل كل ليلة فى واحد منها ، لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، وهى ثمانية وعشرون ، يرى القمر فيها بالأبصار ، وليلة أوليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام ، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية ، ولولا هذا النظام المشاهد

(١) الآيات ١٢-١٦ من سورة النحل . (٤) الآية ١٩ من سورة النحل . (٧) الآيات ٣٧-٤٠ من سورة يس .

(٢) الآية ١٧ من سورة النحل . (٥) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة النحل . (٨) الآية ١٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٨ من سورة النحل . (٦) الآية ٢٢ من سورة النحل .

لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر . إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمري ، الذى يعرفه كل أحد بالمشاهد ، ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع فصول السنة ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات ، من حارة وباردة ومعتدلة .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أى ما خلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها ، فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء ، وبها يبصر الناس جميع المبصرات ، ويقومون بأمر معاشهم وسائر شئونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم ، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور ، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ، ونظام معاشهم ، فلا عبث فيه ولا خلل .

فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان ، يعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ولا يعود ويبعث ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، فيجزى المتقون بصالح أعمالهم ، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم ، كما قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ما لكم كيف تحكمون<sup>(٣)</sup>

﴿ يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ أى يبين الدلائل من حكم الخلق على رسوله مفصلة متنوعة ، من كونية وعقلية ، لقوم يعلمون دلاله الأدلة ، ويميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق النيران على هذا النظام البديع لا يمكن أن يخلق الانسان سدى .

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار ﴾ : أى فى حدوثهما وتعاقبهما بمجىء كل منهما خلفه للآخر ، وفى طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، وما لهما من نظام دقيق بحسب حركة الشمس اليومية والسنوية ، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون ، وعمل دنوى ودينى .

﴿ وما خلق الله فى السموات والأرض ﴾ : من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار ، وأحوال البحار من مد وجزر ، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة ، إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم الموليد الثلاثة .

﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ : أى دلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان ، وفى تشريع العقائد والأحكام ، لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين ، وسننه فى التشريع ،

(١) الآية ٥ من سورة الرحمن . (٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء . (٣) الآيات ٣٥، ٣٦ من سورة القلم .

فلله سنن في حفظ الصحة ، من خالفها مرض ، وله سنن في تركية الأنفس من خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن جوزى في الآخرة أشد الجزاء .

### جزاء الغافلين عن آيات الله

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأْنَأُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ  
آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ إِلَّا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ يرجون ﴾ قال في المصباح رجوته : أمله أو أردته قال تعالى ﴿ لا يرجون نكاحا ﴾ (١) أى لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف ، لأن الراجى يخاف ألا يدرك ما يرجوه ، وقيل الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء . ﴿ لقاءنا ﴾ اللقاء : الاستقبال والمواجهة ﴿ اطمأنوا ﴾ : الأطمئنان : سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به .. ﴿ مأواهم ﴾ المأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج ، من مكان آمن ، أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة في ثلاث آيات ، وعلى النار في بضع عشرة آية .

وهكذا يبين الله حال المكذبين الغافلين عن آياته ، إنهم لا يريدون لقاء الله ولا يتوقعون ذلك ، بل إنهم يكرهون هذا اللقاء ولا يخافونه ، ﴿ فأما من طغى ﴾ وآثر الحياة الدنيا \* فإن الجحيم هي المأوى \* وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى \* فإن الجنة هي المأوى ﴿ (٢) .

لقد رضى هؤلاء الغافلون عن آيات الله بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وركنوا إليها ، فما جزاؤهم ؟ فقد غفلوا عن آيات الله الكونية والتذكية ، إن جزاءهم ومأواهم وملجأهم جهنم ، وليس هذا عبثا ، إنما هو الجزاء العادل ، بسبب ما كسبوا وما اقترفوا من الذنوب والآثام ، قال تعالى : ﴿ وائل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون \* ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴿ (٣) .

إن الإخلاد إلى الأرض هو الميل إليها باطمئنان ، وأن الذين أخلدوا إليها عاشوا في تعب ، وأقاموا في نصب ، فكان حالهم كحال الكلب تراه يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة سواء حملت عليه وزجرته أو تركته في راحة ودعة ، كذلك أهل الدنيا لو كان لأحدهم وادمن ذهب لابتغى واديين ، ولا يملأ عيونهم إلا التراب .

من أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له ، ومن أصبح وهمه الآخرة ، جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة .

(١) الآية ٦٠ من سورة النور . (٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة النازعات . (٣) الآيات ١٧٥-١٧٧ من سورة الأعراف .

دنياك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل  
 فهل تبيع الخلد يا غافلاً وتشتري دنيا المنى والضلال  
 \* \* \*  
 عش راضيا واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم  
 نهاية الدنيا فناء فعش فيها كريماً واعتبرها عدم  
 \* \* \*  
 ويا فؤادى تلك دنيا الخيال فلاتنؤ تحت الهموم الثقال  
 سلم له الأمر فمحو الذى خطت يد الأقدار أمر لحال

ما أعظم أن يلجأ العبد إلى خالقه ، معتقدا أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فكيف يركن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، جل الله جلاله إذ يقول : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾ أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴿١﴾.

وعظمت حكمته إذ يقول : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا \* كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً \* أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴿٢﴾.

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ ﴿٣﴾.

الدنيا دار مقر والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك إلى مفرك ، وكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد  
 ولا تركزن إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد  
 أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
 فكم من فنى أمسى وأصبح ضاحكا وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري  
 وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر \*

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر  
 وكم من صحيح مات من غير علة وكهم من سقيم عاش حيناً من الدهر

(١) الأيتان ١٦، ١٥ من سورة هود . (٢) الآيات ١٨-٢١ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .



ترود من الدنيا فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع  
فما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

### جزاء المؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ  
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١﴾ دَعَوْهُمْ ﴿٢﴾ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا  
أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾

**المفردات :** ﴿دعواهم﴾ الدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة  
الأسباب المسخرة لهم ، والله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه ، والضراعة له  
فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع . ﴿سبحانك﴾ : أى تنزيهاً لك وتقديساً .  
﴿تحتهم﴾ التحية : التكرمة بقولهم : حيّاك الله ، أى أطال عمرك . ﴿سلام﴾ السلام : السلامة من مكروه  
بعد أن ذكر الله تعالى وعيد أهل النار ، قضى بذكر نعيم أهل الجنة ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد  
تأتى الحكمة البالغة في الخوف والرجاء من شأن المؤمن ، قال تعالى : ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات  
ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾ (١).

وقال جل شأنه ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون \* والذين  
هم بربهم لا يشركون \* والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون \* أولئك يسارعون في  
الخيرات وهم لها سابقون﴾ (٢).

وقال جل شأنه ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين \* فمن الله  
علينا ووقانا عذاب السموم \* إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم﴾ (٣).

إن هؤلاء الأبرار الأنقياء ، الأطهار الأتقياء ، الأخيار الأصفياء قد قرنوا بالإيمان بالعمل الصالح ، إذ ليس  
الإيمان بالتقنى ولكن ما وفر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا  
حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .  
كان المسيح ابن مريم يقول : يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب  
الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألبنوا قلوبكم لخشية الله .

قال مجاهد في قوله تعالى ﴿يهدى ربهم بإيمانهم﴾ قال : يكون لهم نورا يمشون به .

(٣) الآيات ٢٥ - ٢٨ من سورة الطور .

(١) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة المؤمنون .

وقال ابن جريج : فى الآفة بمثل له عمله فى صورة حسنة ، وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويشهره بكل خير ، فىقول : من أنت ؟ فىقول : أنا عملك فىجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ والكافر بمثل له عمله فى صورة سيئة ، وريح منتنة ، فىلزم صاحبه ويلاده حتى يقذفه فى النار .

وقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ أى من تحت قصورهم وأشجارهم ، فهم فى ظلال الأشجار وعلى شواطئ الأنهار ، يتمنعون بدانى الثمار ، والاستمتاع بالخور الأبكار ، وأعظم من هذا كله رؤية الواحد الغفار ، إنهم الذين تكون لهم الخور العين ﴿ نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له ﴾ (١) . ﴿ إن من دخل الجنة ، لا يفنى شبابه ولا تبلى ثيابه ، وما دخلوها إلا بفضل الله ، وما فضل الله ببعيد عن أهل كرامته وطاعته ، إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، وأكثر ما يدخلهم النار البطن والفرج ﴾ (٢)

فاحرص على أربع خصال صدق حديث ، وحسن خليفة ، وحفظ أمانة ، وعفة طعمه .

ولقد دلنا الصادق المعصوم على الطريق إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ عليكم بالصدق فإن الصدق يهذى إلى البر ، وإن البر يهذى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ... ﴾ (٣) .

والصدق هنا بأوسع معانيه يشمل الصدق مع الله ورسوله ، والصدق فى المعاملة مع الناس ، والصدق مع النفس ، وعندئذ يكسون شجاعة أديبة ، وهل نجى هؤلاء النفى الذين تخلفوا إلا صدقهم مع الله ورسوله ، إننى ليملؤنى الفخار ، ويثلج صدرى أن أسوق هذا الحديث الذى يعتبر مدرسة من مدارس النبوة الطاهرة ، إنه حديث الثلاثة الذين صدقوا الله فصدقهم الله وعده ، إنه مدرسة تربوية اجتماعية ، ياليت قومى يقفون عندها ، ويعملون بدروسها ، لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً .

وها أنا ذا أسوق الحديث بطوله ثم أعقب عليه بما استنبطه العلماء منه ، من الأحكام النافعة الشافية الكافية الوافية عسى الله أن يجعلنا من الصادقين ، ويدخلنا الجنة بصدقهم ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ (٤) .

(١) أخرجه الترمذى فى الجنة (٢٤) . والإمام أحمد فى (١٥٦:١) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٢١) . والترمذى فى الجنة (٢) . والدارمى فى الرقاق (١٠٠،٩٨) . والإمام أحمد فى (٤٦٢،٤٤٥،٤١٦،٤٠٧،٣٧٠،٣١٩،٣٠٥:٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٦٩) . ومسلم فى البر (١٠٥،١٠٣) . وأبو داود فى الأدب (٨٠) . والترمذى فى البر (٤٦) . وابن ماجه فى المقدمة (٧) . والدارمى فى الرقاق (٧) . والإمام مالك فى الكلام (١٦) . والإمام أحمد فى (٤٣٢،٤٠٥،٣٨٤،٨:١) .

(٤) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى ، أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن عبيد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمى - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : ( لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غراها إلا فى غزاة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها وإنما خرج رسول الله ( ﷺ ) يريد غير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين توائمتنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفاز ، وعدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان .

قال كعب : ( فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتأدى لى حتى استمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتأدى لى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ، وليت أنى فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لى .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

( فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرنى بشى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظلم قادمًا زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه .

فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل

ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟ » فقلت : يا رسول الله إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولكن حدثتك بصدق تجد علىّ فيه إني لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدقتم حتى يقضى الله فيك » .

فقمتم وقام إلّى رجال من بنى سلمة واتبعوني ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فو الله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، قال : ثم قلت لهم : هل لقي معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلا نالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، لى فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى .

قال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أياها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا . حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحبائى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبيكان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى : أحرك شفّتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله مارد على السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عينائى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذ أنا ببنطى من أبناط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلّى حتى جاء ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضیعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت

حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء . قال فتيممت به التنور فسجرت به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتييني يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك : فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقر بها ، قال : وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك قال : فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أميه رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شيء وإنه والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه . قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت على نفسى وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزلت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنونى بتوبة الله يقول : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد ، والناس حوله ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله »

قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ، وإلى رسوله . قال :

« أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال : فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخير . وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلا فى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

قال : وأنزل الله تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم \* يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴿ إلى آخر الآيات قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبتة فأهلك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله تعالى ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴿

قال : ( وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه (١) . حديث متفق عليه .

### الأحكام المستنبطة من هذا الحديث

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث هذه الفوائد منها : إباحة الغنيمة لهذه الأمة ، وفضيلة أهل بدر والعقبة ، والمبايعة مع الإمام ، وجواز الحلف من غير استحلاف ، وتورية المقصد إذا دعت إليه ضرورة ، والتأسف على ما فات من الخير ، وتمنى التأسف عليه ، ورد الغيبة ، وهجران أهل البدعة .

وأن للإمام أن يؤدب بعض أصحابه بإمساك الكلام عنه ، وترك من تاب الزوجة ، واستحباب صلاة القادم ، ودخوله المسجد أولاً ، وتوجه الناس إليه عند قدومه ، والحكم بالظاهر وقبول المعاذير ، واستحباب البكاء على نفسه ، وأن مسارقة النظر فى الصلاة لا تبطلها ، وفضيلة الصدق .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١٨: ٩) وفى الإيمان (٢٤) . ومسلم فى التوبة (٥٣) . والنسائى فى المساجد (٣٨) . والإمام أحمد فى (٢٥٦: ١) وفى (٤٥٧: ٣ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩) وفى (٢٢٥: ٤) .

وأن السلام ورده كلام ، وجواز دخوله بستان صديقه بدون إذنه ، وأن الكناية لا يقع بها الطلاق مالم ينوه ، وإيثار طاعة الله ورسوله على مودة الغريب .

وخدمة المرأة والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع في منهي عنه ، إذ كعب لم يستأذن في خدمته امرأته لذلك ، وجواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى إذا كان لمصلحة .

واستحباب التبشير عند تجديد النعمة واندفاع الكربة ، واجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة ، وسروره بما يسر أصحابه ، والتصدق بشيء عند ارتفاع الحزن ، والنهي عن التصديق بكل المال عند خوف عدم الصبر ، وإجازة التبشير بخلعه الثوب ، وتخصيص اليمين بالنية ، وجواز العارية ، ومصافحة القادم ، والقيام له ، واستحباب سجدة الشكر : والتزام مداومة الخير الذي انتفع به .

قوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانهك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

قال ابن جريج : أخبر أن قوله ﴿ دعواهم فيها سبحانهك اللهم ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا : سبحانهك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ وتحيتهم فيها سلام ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وروى عن أنى بن كعب مرفوعاً إلى النبي ﷺ : ﴿ إن أهل الجنة إذا قالوا : سبحانهك اللهم ، أتاهم ما يشتهون ﴾ .

فالكلمة إذا علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره ، فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التنزيه والسلام والحمد : ففي لفظه ( سبحانهك اللهم ) تنزيه للحق جلّ جلاله عن كل نقص ، إذ هذا اللفظ لا يصح أن يُطلق على أحد إلا عليه سبحانه ، ومن ثمّ فلكل أعجوبة ( سبحان الله ) . ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقد جاء التسبيح في القرآن بصيغ كثيرة : جاء بصيغة الماضي كما في قوله تعالى : ﴿ سبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾<sup>(٤)</sup> وبصيغة المضارع ﴿ يسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾<sup>(٥)</sup> .

(٣) الآية ٤٢ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ١ من سورة الحشر الآية ١ من سورة الصف .

(١) الآية ١ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٧ من سورة الروم .

(٥) الآية ١ من سورة الجمعة .

وبصيغة الأمر ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾<sup>(١)</sup>. وبصيغة على المصدر ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾<sup>(٢)</sup>. وبصيغة الصفة ﴿ فلولاً أنه كان من المسبحين ﴾<sup>(٣)</sup>.

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار . وهو الواحد القهار .

أما السلام فتحية الله إلى نبيه : ( السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ) وتحية تعالى إلى المؤمنين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾<sup>(٤)</sup>. وتحية الملائكة لأهل الجنة ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقيب الدار ﴾<sup>(٥)</sup>.

والسلام اسم من أسمائه الحسنى ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾<sup>(٦)</sup>. والجنة دار السلام ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾<sup>(٧)</sup>.

وتحية الخزنة لأهل الجنة سلام : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾<sup>(٨)</sup>.

وتحية الإسلام سلام (( ألأئن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام ))<sup>(٩)</sup>.

وقد كان أول بيان ألقاه الرسول ﷺ عند قدومه المدينة : ( أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام ) .

أما الحمد فحقيقته الشاء على الله بما هو أهله . فهو الحقيق بذلك لما أسداه على عباده من نعم لا تحصى وخير لا يُستقصى . ولسان أهل الجنة يلهج بالحمد عند دخولها ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾<sup>(١٠)</sup>. وكذلك لسان الملائكة ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(١١)</sup>.

(١) الآية ١ من سورة الأعلى . (٤) الآيات ٤٣ ، ٤٤ من سورة الأحزاب . (٧) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١ من سورة الإسراء . (٥) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد . (٨) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات . (٦) الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٩) أخرجه مسلم فى الإيمان (٩٣) . والترمذى فى الأطعمة (٤٥) . وفى القيامة (٥٦ ، ٥٧) وفى الاستبذان (١) . وابن ماجه فى المقدمة

(٩) وفى الإقائمة (١٧٤) وفى الأدب (١١) . والدارمى فى الصلاة (١٥٦) وفى الاستبذان (٢٦) . والإمام أحمد فى ( ١٦٥ : ١ ، ١٦٧ )

وفى ( ٤٧٧ : ٢ ) وفى ( ٢٨٢ : ٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٣٠١ ) وفى ( ٤٥١ : ٥ ) .

(١٠) الآية ٧٤ من سورة الزمر . (١١) الآية ٧٥ من سورة الزمر .



وفي القرآن الكريم خمس سور افتتحتها القرآن الكريم بالحمد : سورة الفاتحة ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والأنعام ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ والكهف ( الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ) وسبأ ﴿ الحمد لله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ وفاطر ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

فاللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، أحمداً على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، يا من يوجب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه .

### حكمة بالغة

\* وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِاخْتِيارِ لِقَاضِي إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافِ طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ يعجل ﴾ تعجيل الشىء : تقديمه على أوانه المقدر له

أو الموعود به ، ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ : الاستعجال به : طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ (١) فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز أو للنجاة مما هو منه ، ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ قضاء الأجل : انتهاءه ، ﴿ فنذر ﴾ : نترك ، ﴿ طغيانهم ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان ، ﴿ يعمهون ﴾ العمه : التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر ، ومر : أى مضى فى طريقته التى كان عليها من الكفر بربه . ﴿ القرون ﴾ : الأمم واحداً قرن وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وجاء فى الحديث الشريف : ( خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ) (٢) ﴿ خلائف ﴾ الخلائف : واحداً خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، ﴿ ننظر ﴾ نشاهد ونرى .

(٢) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة (١) وفى الرقاق (٧) .

(١) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .

﴿وكان الإنسان عجولا﴾ اقتضت حكمة الله تعالى أن يعامل خلقه على أنهم يحبون تعجيل ما لهم فيه مصلحة ، فلو أنه عَجَّلَ لهم الشر عندما يستعجلونه كما يتعجلون الخير لقضى عليهم قضاء مبرما ، لقد سألوا الله تعالى فقالوا : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾<sup>(١)</sup> ولو أنصفوا لقالوا : فاهدنا إليه : وفى ذلك يقول تعالى : ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾<sup>(٢)</sup> ويقول : ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾<sup>(٣)</sup> . قال تعالى : ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾<sup>(٤)</sup> .

إن الإنسان عجول فى طلب ما يعود عليه بالنفع . فلو أن الله تعالى عَجَّلَ له الشر الذى سألَه كما يريد الإنسان تعجيل الخير لقضى الله لأجل المحتوم ، ولما ترك على ظهرها من دابة ، لكن حكمة الله اقتضت ألا يعجل كمعجلة أحدنا ، بل إنه صبور يمهّل ولا يهمل ، ويملى للظالم ، ويذر الذين لا يتوقعون لقاءه فى غيهم وطغيانهم يتحIRON ويترددون ، وفى خوضهم يلعبون .

ثم يبين لنا الله تعالى حال جماعة من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء فيقول سبحانه : ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما﴾ :

أى دعانا على كل حال من أحواله مضطجعا على جنبه أو قاعدا أو قائما يسألنا كشف الضر عنه ، فلما كشفنا عنه ما نزل به من ضرر سادرا فى غيه ، عاصيا لأمر ربه ، طاغيا باغيا لاهيا ساهيا ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون﴾<sup>(٥)</sup> .

﴿كذلك زُينَ للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ . كأن لم يكن بينه وبين الله من قبل ذلك دعاء وتضرع .

والناس فى هذا المجال كثير ﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾<sup>(٦)</sup> . ويقول تعالى : ﴿وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا﴾ ثم لا تجدوا

(٥) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .

(٦) الآيات ٢٢، ٢٣ من سورة يونس .

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١ من سورة المعارج .

(٣) الآية ٦ من سورة الرعد .

(٤) الآيات ٥٣-٥٥ من سورة العنكبوت .

لكم وكيلا . أم أمنتُم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴿١﴾ .

إنَّنا ما أحلمك ، ما أرحمك ، ما أكرمك . أنت القائل وقولك الحق : ﴿ ولقد كرَّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (٢) .

ولقد بيَّن الله تعالى بعد ذلك أن الظلم هو الذي دَمَّر أهل القرون السالفة قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ وذلك كقوله جلَّ شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٤) وقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ (٥) . وقوله : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ (٦) .

الظلم لا يدوم ، وإذا دام دَمَّر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعة وخيم .

جاء في الحديث القدسي الجليل : ( اشتد غضبي على من ظلم من لم يجد له ناصراً غيري . واشتد غضبي على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره ) .

وجاء في الحديث الشريف : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام »

قال تعالى في الحديث الجليل : [ يا عبادي لقد حُرِّمت الظلم على نفسي وجعلته محرِّماً بينكم فلا تظالموا ] .

ولقد أقام الله الحجة على هؤلاء المعاندين ، وقطع عليهم الأعذار بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، قال تعالى ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ﴾ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿ : نعم وما كانوا ليؤمنوا لأنهم ﴾ استحبوا العمى على الهدى ﴿ ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٧) ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٨) قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك لإفكهم وما كانوا يفترون ﴿ (٩) .

وليس هذا العقاب مقصورا على أمم سلفت بل إن البر لا يبلى والذنوب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تُدان .

قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ وقال في شأن قوم لوط : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا

(٨) الآية ٥ من سورة الصف .

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٩) الآية ٨٣ من سورة غافر .

(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(١٠) الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة الأحقاف .

(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(١) الآيات ٦٧-٦٩ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٥٩ من سورة القصص .

عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود \* مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴿١﴾  
 قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ وذلك كقوله تعالى :  
 ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .  
 قالوا أودينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض  
 فينظر كيف تعملون ﴾ (٢).

وهكذا ليظهر مدلول علم الله القديم فينظر كيف تعملون فأنتم من خلفتم من قبلكم ليكن لكم معتبر  
 فيما حدث لهم ، فأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وأما من طغى وأثر الحياة الدنيا وبغى  
 وطغى وتجبّر فإن الله لا يغفل ولا يهمل ، بل هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

### جزاء المفترين

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا  
 أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَآئِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي  
 أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ  
 بِهِ فَقَدْ لَسْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا  
 أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

بعد أن بدأ سبحانه السورة بذكر الكتاب الحكيم ، وإنكار المشركين الوحي على رجل منهم ، ثم أقام  
 الحجة على الوحي والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، أعاد  
 هنا الكلام فى شأن الكتاب نفسه ، وتقنيد ما اقترحه المشركون على الرسول ﷺ بشأنه ، وحجته البالغة  
 عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا آت بقراءن غير هذا أو  
 بدله ﴾ .

أى وإذا تلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب  
 من البيان ، دالات على الحق ، ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ :  
 ﴿ آت بقراءن غير هذا أو بدله ﴾ .

أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مالا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا ، والوعيد على عبادتها ، أو بدله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بمطالبتة بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سورة ، فى أسلوها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل ، لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم ، وتكفير آبائهم ، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أو حاه إليه ، دعوى لا يعول عليها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان ، خفيت عليهم أسباب معرفته ، ولم يكن يوحى من الله كما يزعمه .

﴿ قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ﴾ أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ، ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ومحض رأى ، وخالص اجتهدى .

ثم أكبر ما قبله فقال : ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلّى ﴾ أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى لى ، والاهتداء بهديه ، فإن بدل الله منه شيئاً بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما على إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله : ﴿ إنى أخاف إن عصيت رى عذاب يوم عظيم ﴾ أى إنى أخاف إن فعلت أى عصيان عذاب يوم عظيم الشأن ، ألا وهو يوم القيامة ، فكيف لى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعاً لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغيير لأهميته بقوله : ﴿ قل لو شاء الله ما تلونه عليكم ولا أدراكم به ﴾ يقال : دريته ودريت به أى علمته أى قل لهم لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلونه عليكم ، فإنما أتله بأمره وتنفيذ مشيئته ولو شاء الله ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسلنى ، ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم النافع لتتدوا به ، وتكونوا بهدائه خلائف فى الأرض ، وهذا لى يكون بكتاب آخر كما قال ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (١) فهو قد أنزله عالماً بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

﴿ فقد لبث فيكم عمراً من قبله ﴾ أى فقد مكث بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله ، وهو أربعون سنة ، لم أتل عليكم سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لا فى العلم والهداية ، ولا فى البيان والبراعة .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتاباً ، ولم يلقن من أحد علماً ، ولم يتقلد ديناً ، ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ونثر وخطابة وفخر وعلم وحكمة ، لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون على أن أتى بقرآن غيره ، وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شىء من العلم كما قال تعالى فى موسى ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢) وقال فى يحيى ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾

(١) الآية ٥٢ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤ من سورة القصص . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾ أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر  
شيئان :

١ - افتراء الكذب على الله ، وذلك بما اقترحتموه على الإتيان بقرآن غيره .

٢ - التكذيب بآيات الله بما اجترحتموه من السيئات .

وقد نعت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه ، وإن أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

﴿ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ أى إنه لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا ، إذا لقوا ربهم ولا ينالون  
الفلاح .

### عبادة باطلة

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ<sup>٤</sup>  
أَنْتَبِشُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

بعد أن بين فى الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ، لأن  
فيه نبذا لأهتهم وطعنا فيها ، وتسفيها لآرائهم فى عبادتها ، نعى عليهم هنا عبادة الأصنام ، وبين لهم حقارة  
شأنها ، إذ لا تستطيع نفعاً ولا ضراً ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة  
عنده ، وليس لديهم برهان على ما يدعون سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ : أى ويعبدون ما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً من  
الأصنام وغيرها ، حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه ويعبدون معه  
غيره كما قال تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

وفى الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها المقدرة على الضر والنفع ،  
فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده ، وضر من يشرك بعبادته غيره فى الدنيا  
والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر فى كل طور من أطواره على أن كل ما عبد الانسان من دون الله من صنم أو  
وثن ، فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة ، كعبادته  
للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب ، والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة

كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ، عظمت حتى عبدت أو الأشجار كالعزى معبودة قريش .

﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ : أى ويقولون فى سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى - وهؤلاء لا شفعاء عنده - ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ، ونطيبها بالعطر ، ونقدم لهم النذور ، ونهل لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم ، والاستغاثة بهم لأنهم يشفعون لنا عند الله ، ويقربونا إليه زلفى ، ويدفعون بجاههم عنا البلاء ، ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عكرمة أن نفر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى . فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لا بد أن يكون بواسطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله ، والخطوة عنده بأنفسهم ، لأنها مدنسة بالمعاصى .

أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده تائباً إليه ، طالباً مغفرته ورحمته .

### ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ﴾

أى قل لهم أيها الرسول مبيناً لهم كذبهم ، ومنكراً عليهم افتراءهم على ربهم : أتنبئون الله بشئ لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته ، وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، إذ لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء فإن هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وإنكم قد اتخذتم ذلك قياساً على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمرور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء ، وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية ، وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ، ولا ضر من شاء ، أو كشف ضر عنه كما يعتقد عباد الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ، ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له . وفى هذا حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء ، فهم يضررون وينفعون ، لا كالأصنام ، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً بعبادتهم له ، مع ما آتاه من المعجزات ، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى ، وسيدنا الحسين ، والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه ، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ (١) .

### ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ :

أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفاعة والوسطاء ، وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده ، وشفاعة لديه ، تقرب إليه زلفى ، ففى هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية ، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيماء إلى أن شئون الرب وسائر مافى عالم الغيب لا يعلم إلا بنجر الوحى .

### كلمة سبقت من ربك

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام ، وبين سبب هذه العبادة ، ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين ، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ أى إن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ، ثم اختلفوا فى الأديان ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام ﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ﴾ (١).

فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضاً بغياً بينهم ، واتباعاً لأهوائهم .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة ، لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين ، وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولا سيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

### موقف المعاندين

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغِيبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ، ورد عليهم مقاتلهم بالحجج التى

(١) أخرجه البخارى فى الجناز ( ٩٣، ٨٠ ) وفى تفسير ( سورة ١٠٣ : ٣ ) وفى القدر ( ٢٢ - ٢٥ ) وأبو داود فى

السنة ( ١٧ ) والترمذى فى القدر ( ٥ ) . والإمام مالك فى الجناز ( ٥٢ ) . والإمام أحمد فى

( ٢ : ٢٢٣ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣ ، ٤١٠ ، ٤٨١ ) وفى ( ٣ : ٤٣٥ ) وفى ( ٤ : ٢٤ ) .



ثبت بطلان شركهم ، وإنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله ، حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن ، مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ، ثم رد على ذلك .

﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون : هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونه كآيات الأنبياء ، الذين يحدثنا عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا ، وأجاب عنه جوابا مجملا ، لأن كلا منهما سبق مفصلا فى سور أخرى ، كقوله فى سورة الفرقان ﴿ وقالوا ما لِهَذَا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ (١) .

وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابته مطلبهم فقال : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى باله والملائكة قبلا \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾ (٢) .

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ (٣) .

أى وما صرفنا عن إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت كذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال ، كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمته العامة الشاملة ، وفيهم من يؤمن ، أو يولد له من يؤمن .

وقد أتى الله رسوله ﷺ آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ، ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها ، كاستجابة بعض أدعيته ﷺ كشفاء المرضى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل بيدر .

وعلى الجملة فحجة النبى ﷺ على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلومه روى الشيخان والترمذى عن أنى هريرة مرفوعا : ﴿ ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ﴾ (٤) .

﴿ قل إنما الغيب لله ﴾ : أى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من

(١) الإتيان ٨،٧ من سورة الفرقان . (٢) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان ( ٣٣١،٣٣١ ) . وابن ماجه فى الزهد ( ٣٦ ) . والإمام أحمد فى ( ٤٥١،٣٤١ : ٢ ) .

الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ولا علم لى به ، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى .

﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ : لما يفعله الله لى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات ، واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل لى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ (١) -

وقد جاء تفسير ما ينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ (٢) -

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ، ونصر الرسل عليهم فى الدنيا ، وماوراءها من عذاب الآخرة -

### نماذج من الناس

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَفْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَّتَعَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ أذقنا ﴾ أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ﴿ مكر ﴾ المكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى ما لا يتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سنته ، وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ﴿ رسلنا ﴾ الرسل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ﴿ يسيركم ﴾ التسير : جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة . ﴿ الفلك ﴾ : السفينة أو السفن واحد وجمع . ﴿ طيبة ﴾ الطيب : من كل شيء

ما يوافق الغرض والمنفعة يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة . ﴿عاصف﴾ العاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرهما يقال ريح عاصف وعاصفة وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسد عليه سبل النجاة ﴿يغون﴾ البغى : مازاد على القصد والاعتدال من بغى الجرح ، إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول ﷺ آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جواباً عن هذا بأنه مما لا يملك ذلك ، لأن هذا من الغيب الذى استأثر بعلمه ، قفى على ذلك بجواب آخر وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيراً ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمكرون فيها ، ولا تزيدهم إلا ضلالاً .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ﴾ :

أى وإذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ، ورخاء بعد شدة أصابهم ، بادروا إلى المكر ، وأسرعوا بالمفاجأة به فى مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطراً أحيا الأرض وأنبت الزرع ودربه اللين بعد جذب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، وإذا كان سببها دعاء نبي أنكروا إكرام الله له وتأيدته بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ ، ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام ، فمازادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

أن قريشاً لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴿<sup>(١)</sup>﴾ فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ، ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يظعنون فى آيات الله ، ويعادون رسوله ﷺ ويكذبونه <sup>(٢)</sup> .

﴿ قل الله أسرع مكرًا ﴾ : أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرًا ، فهو قد دبر عقابكم وهو موقعه لكم قبل أن تدبروا كيف تعملون فى إطفاء نور الإسلام ، وقد سبق فى تدبيره لأمر العالم ، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لا تخفى عليه خافية .

(١) الآيتان ١١، ١٠ من سورة الدخان .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير ( سورة ٢: ٤٤ ) . ومسلم فى المناقيق ( ٤٠ ) . والإمام أحمد فى ( ١ : ٤٣١ ، ٤٤١ ) .

﴿ إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ﴾ : أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها ، للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ما تمكرون به . وفى ذلك تنبيه إلى أن ما دبروا ليس بخاف عليه تعالى وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة ، وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيماً فى إحصاء أعمالنا ، لأجل أن نراقبه فيها ، فنلتزم الحق والعدل والخير ، ونجتنب أضرارها .

ثم ضرب مثلاً من أبلغ أمثال القرآن ليظهر لهم ويتضح بما هم عليه فقال ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ﴾ : أى أنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر ، والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجو .

﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريج عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ﴾ .

أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم ، وجرت بمن فيها بسبب ريج مواتيه لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بما هم فيه من راحة وتمتع بمنظره الجميل ، وهوائه العليل ، جاءت ريج شديدة قوية ، فاضطرب البحر وتموج سطحه كله ، فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر ، حتى كأنهم سقطوا فى هاوية ، إذا به يثب بهم إلى أعلى ، كأنهم فى قمة الجبل الشاهق .

فإذا ما نزلت بهم نُذِر العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، ودعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم ، ولا يتوجهون معه إلى ولّى ولا شفيع ، مما كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء ، وقد صمموا العزيمة على طاعته ، وقالوا : ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة ل نكونن من الشاكرين ، ولا نتوجه فى تفريج كربنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولّى ولا نبى .

وفى الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن بعض المسلمين فى هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجاً إلا الميتين ، ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلاً أو نحو ذلك .

قال السيد حسن الهندى فى تفسيره ( فتح الرحمن ) : ( فىا عجبنا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ، ولم يخلصوا الله كما فعله المشركون ، كما تواتر ذلك إلينا تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ، وأين وصل بها أهلها ، وإلى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلبت عليهم حتى

انقادوا له انقيادا ما كان يطمع في مثله ، ولا في بعضه من عبادة الأصنام ، ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾<sup>(١)</sup>

وقال الألوسي في تفسيره : ( وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم في بر أو بحر . دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى الفريقين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قيلا وإلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للمنجاة ذريعة وخرقت سفينة الشريعة ) . ا.هـ .

﴿فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ :

أى فلما أنجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس في الأرض التي يعيشون فيها بالبغى عليهم ، والظلم ، مع الإمعان في ذلك والإصرار عليه .

وفي قوله ﴿بغير الحق﴾ تأكيد للواقع ، وتذكير بقبحه ، وسوء حال أهله ، أو لبيان أنه بغير حق عندهم أيضاً ، بأن يكون ظلماً ظاهراً لا يخفى على أحد قبحه ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ويقتلون النبيين بغير الحق﴾<sup>(٢)</sup> وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة في أى مكان كانوا وفي أى زمان وجدوا منها واعظاً فقال :

﴿يأياها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ : أى : يأياها الغافلون عن أنفسكم : أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم في الحقيقة على أنفسكم ، لأن عاقبة وباله عائدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة ، وهى تنقضى سراعاً ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

﴿ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون﴾ : أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل ، فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم ، والتمتع بالباطل ، ونجازيكم به .

وفي الآية إيماء إلى أن البغى مجزى عليه في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلقوله ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ولما جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى ﴿ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغى وقطيعة الرحم﴾<sup>(٣)</sup> والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى ثم تلا : ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾<sup>(٤)</sup> ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله<sup>(٥)</sup> ] فمن نكث فإنما ينكث على نفسه<sup>(٥)</sup> .

(٢) الآية ٦١ من سورة البقرة

(١) الآية ١٥٦ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد (٢٣) . وأبو داود في الأدب (٤٣) . والترمذى في القيامة (٥٧) . والإمام أحمد في (٣٦:٥) .

(٥) الآية ١٠ من سورة الفتح .

(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .

**والخلاصة :** إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه لما يولد من العدواة والبغضاء بين الأفراد ولما يوقد من نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من ييغى على مثله تجده قد خلق له عدوا ، أو أعداء ، ممن ييغى عليهم ، ولاشك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة ، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرُونَ عليها ، وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع الحق والغضب مالا يخفى عليه ، فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة فى النفوس .

### مثل الحياة الدنيا

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ما أروع هذا التشبيه ، وما أعظم هذا البيان ، إن فيه عبرة لمن يخشى ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما تزينت فهى زائلة ، ودوام الحال من المحال ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

إن حالها كماء نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فصار زرعاً أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها بهذا النبات وازينت ، وأصبحت حدائق ذات بهجة ، وجنات ألفافا ، تشابكت أغصانها ، وتنوعت ألوانها وتعددت طعومها ، واختلفت روائحها الزاكية وظن أهلها أنهم قادرُونَ عليها ، ونسوا أن للكون إليها عليماً قديراً سمياً بصيراً ، وطفوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وتجيروا وتكبروا على خلق الله إذا كان ذلك كذلك فليرتقبوا الخسف والمسخ ، وليتربصوا حتى يأتى الله بأمره .

قال تعالى : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ : ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم غافلون ، قال جل شأنه : ﴿ أَفَأَمَّنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ \* أو أمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم يلبعون \* أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴿ ٢٤ ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ ﴿ ٢٥ ﴾

فإذا ما جاء بأس الله ، وحقت كلمة العذاب على الظالمين ، ونفذ القضاء كانت النهاية ، كما قال مولانا ﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ ﴾ أى كأن لم تكن قائمة في الوقت القريب ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، إذا قضى فلا رد لما قضى ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

فيا أيها العاقل لا تأمن للدهر ولو صفا ، ولا للمال ولو كثر ولا للسلطان ولو قرب منك :  
 هى الأيام لا تبقى عزيزا وساعات السرور بها قليله  
 إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق فارتقب يوما أفوله  
 ويا أيها العاقل لا تأمن لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها غناء ، وآخرها فناء . واعلم بأن ميت الغد يشيع  
 ميت اليوم .

فما من كاتب إلا ويفنى ويبقى الدهر ما كتبت يداه  
 فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه  
 قوله تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى مثل ذلك البيان ، والتوضيح بالأمثال ،  
 نفصل الآيات ونبينها لقوم زودهم الله بالعقل والنظر والفكر ، فإن التفكير في الإسلام فريضة ، والغفلة  
 عن آيات الله جريمة .

قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون  
 بها ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) .  
 وقال جل شأنه ﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن  
 يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ (٢) .

### دار السلام

وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ \* لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا  
 الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن  
 عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

**المفردات :** ﴿ دار السلام ﴾ : هى الجنة ، ﴿ السلام ﴾ : السلامة من جميع الشوائب والأكدار . ﴿ يرهق ﴾ رهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : ﴿ ولا ترهقنى من أمرى عسرا ﴾ (١) أى لا تكلفنى ما يشق علىّ ويعسر . ﴿ قتر ﴾ القتر : الدخان الساطع من الشواء والخطب . وكذا كل غبرة فيها سواد . ﴿ عاصم ﴾ العاصم : المانع

بعد ما بين سبحانه أن حال الدنيا وشأنها كما أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، وبين أن الأرض إذا أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كانت النهاية المحتومة وكان المصير الذى لا مفر منه ﴿ فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ .

بعد هذا البيان دعا الله تعالى عباده إلى الجنة دار السلام ، وتسمية الجنة بدار السلام توحى بسلامة هذه الدار من النصب والوصب والهم والحزن والغم والأذى . قال تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ﴾ ادخلوها بسلام آمنين \* ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين \* لا يسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ (٢) . وقال جل شأنه : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

ويكفى المؤمن تشريفا وتكريما أن يكون فى جوار الله ، قال تعالى فى حديثه القدسى : [ ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ] .

قوله تعالى ﴿ ويهذى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ : الهداية قد تكون بمعنى الهداية والإرشاد ، كما فى قوله جل شأنه لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٤) .

وقد تكون الهداية بخلق قدرة الطاعة فى العبد كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهذى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٥) .

ومشيئة الله تعالى مبنية على العلم والحكمة منزهة عن العبث . قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلّى ﴾ وما خلق الذكر والأنثى \* إن سعيكم لشتى \* فأما من أعطى واتقى \* وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ (٦) .

وقال جل شأنه : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ (٧) . وقال سبحانه : ﴿ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

(١) الآية ٧٣ من سورة الكهف . (٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى . (٧) الآية ٥ من سورة الصف .

(٢) الآية ٤٥-٤٨ من سورة الحجر . (٥) الآية ٥٦ من سورة القصص .

(٣) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام . (٦) الآيات ١٠ ١ من سورة الليل .



الساخرين ﴿١﴾ أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴿٢﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴿٣﴾ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٤﴾.

والمراد بالصراط المستقيم ما بينه الله تعالى في قوله ﴿٥﴾ صراط الله الذي له مافى السماوات ومافى الأرض ﴿٦﴾. وفي قوله ﴿٧﴾ صراط الذين أنعمت عليهم ﴿٨﴾.

وهل هناك أعظم استقامة من الإسلام . ﴿٩﴾ وإن الدين عند الله الإسلام ﴿١٠﴾ ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴿١١﴾.

ولست أدري سوى الإسلام لى وطننا

الشام فيه ووادى النيل سيان

وكلما ذكر اسم الله فى بلد عدت أرجاءه من لب أوطانى

قوله تعالى : ﴿١٢﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴿١٣﴾ هذا منطق العدل والفضل ، فالحسنى هى الجنة ، والزيادة رؤية الله تعالى : ﴿١٤﴾ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴿١٥﴾.

إن الذين أحسنوا أعمالهم لله وأخلصوا له الدين ضمن الله لهم السعادة فى الدارين .

قال تعالى : ﴿١٦﴾ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴿١٧﴾.

وقال جل شأنه : ﴿١٨﴾ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿١٩﴾.

وقال جل شأنه : ﴿٢٠﴾ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿٢١﴾.

وقال جلَّت حكمته : ﴿٢٢﴾ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴿٢٣﴾.

فما أعظم هذه الزيادة ! إن رؤية الله أسمى درجات السمو الروحى ، وأعظم مراتب الرقى فى نعيم الجنة قال ﷺ : [ إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ] ﴿٢٤﴾.

وقد حرم الله الكافرين من هذه النعمة العظمى ، قال سبحانه : ﴿٢٥﴾ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴿٢٦﴾.

- (١) الآيات ٥٤-٥٩ من سورة الزمر . (٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٧) الآية ٣٠ من سورة النحل .  
 (٢) الآية ٥٣ من سورة الشورى . (٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٨) الآية ٤١ من سورة النحل .  
 (٣) الآية ٧ من سورة الفاتحة . (٦) الآيتان ٢٣، ٢٢ من سورة القيامة . (٩) الآية ٩٧ من سورة النحل .  
 (١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل . (١٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .  
 (١١) أخرجه البخارى فى المواقيت ( ٢٦، ١٦ ) وفى الاذان ( ١٢٩ ) وفى تفسير ( سورة ٢٠ : ٥٠ ) وفى الرقاق ( ٥٢ ) وفى التوحيد ( ٢٤ ) .  
 وأبو داود فى السنة ( ١٩ ) . والترمذى فى الجنة ( ١٦ ) . والإمام أحمد فى ( ٢٧، ٢٦، ١٧، ١٦ : ٣ ) .

إن المؤمنين بيض الوجوه ، أعزاء كرماء ، لا تعلو وجوههم قتر ولا ذلة ﴿١﴾ كلا إن كتاب الأبرار لفى  
عليين \* وما أدراك ما عليون \* كتاب مرقوم \* يشهده المقربون \* إن الأبرار لفى نعيم \* على الأرائك  
ينظرون \* تعرف فى وجوههم نضرة النعيم \* يُسْقون من رحيق مختوم \* ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس  
المتنافسون \* ومزاجه من تسنيم \* عينا يشرب بها المقربون ﴿٢﴾

قال تعالى فى حق هذا الفريق السعيد : ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . وفى الخلود ما  
يوحى بالأمن والطمأنينة ويقين بالاستقرار .

يا أهل الجنة إن لكم أن تسعدوا فلا تشقوا أبدا ، ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، ولكم أن تشبوا  
فلا تهيموا أبدا ، ولكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدا ﴿٣﴾ وتلك الجنة التى أورشتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها  
فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴿٤﴾

يا ابن آدم : ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفئيت ، ولبست فألبيت ، وتصدقت فأبقيت ، وما سوى  
ذلك فذاهب وتاركة لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها      فالموت لاشك يفئينا ويفئها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن منشها  
قصورها ذهب والمسك طينتها      والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ﴾ .

هذا هو منطق العدالة ﴿٥﴾ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا  
عظيما ﴿٦﴾

قال جل شأنه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ ﴿٧﴾ . وقال عز من  
قائل : ﴿ والله مافى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا  
بالحسنى ﴾ ﴿٨﴾ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل  
أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴿٩﴾

إن أهل الشقاء سود الوجوه تعلو وجوههم غيرة سوداء ﴿١٠﴾ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين  
اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴿١١﴾

قال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ ﴿١٢﴾

(١) الآيات ١٨-٢٨ المطففين . (٤) الآية ٤٤ من سورة يونس . (٧) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران .  
(٢) الآيات ٧٢، ٧٣ من سورة الزخرف . (٥) الآية ٣١ من سورة النجم . (٨) الآيات ٢٤، ٢٥ من سورة القيامة .  
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء . (٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

وقال سبحانه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة \* ترهقها قتره \* أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أى ليس هناك مانع يمنع عذاب الله عنهم ، قال تعالى : ﴿ استجبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال جل شأنه : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾<sup>(٣)</sup>. وقال سبحانه : ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تבעوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال عز من قائل : ﴿ فكبكبا فيها هم والعاون \* وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون \* تالله إن كنا لفي ضلال مبين \* إذ تسويكم برب العالمين \* وما أضلنا إلا المجرمون \* فما لنا من شافعين \* ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾<sup>(٥)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ﴾ : هذه صورة تقشعر منها الأبدان ، وتشيب من هولها نواصي الولدان ، صورة لأهل الشقاء لما اكتنف وجوههم من الغبرة والذلة ، كأنها غطيت بقطع من الليل النهم المظلم ، فأصبحت كظلمات بعضها فوق بعض ، وتلك الصورة القاتمة المقبضة المحزنة المخزية المؤسفة الأليمة جاءت دلالة على ظلمة قلوبهم ، وسوء أعمالهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، يارب كاسية في الدنيا عازية يوم القيامة .

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعا ، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال . فشر غائب ينتظر أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر .  
 دنيك ساعات سراع الزوال وإنما العقبى خلود المآل  
 فهل تبيع الخلد يا غافلا وتشترى دنيا المني والضلال

وبعد أن جوزوا بالسيدة ، وعلت وجوههم قتره ، وخيم عليهم الذل والهوان ، وصاروا ما لهم من الله من عاصم ، وغطيت وجوههم بقطع من الليل من شدة ما اكتنفها من ظلمات ، يأتى الحكم عليهم بعد ذلك بالخلود في هذا العذاب .

وفي ذلك من الآلام النفسية ما فيه بعد الآلام الجسدية ﴿ ونادوا يا مالک ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴿<sup>(٦)</sup> .

(١) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة عبس .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الشورى .

(٣) الآية ١٨ من سورة غافر .

(٤) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة .

(٥) الآيات ٩٤-١٠٤ من سورة الشعراء .

(٦) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة الزخرف .

إن الحكم عليهم بالخلود يبعث فى النفوس أقصى أنواع الألم ، وأقصى ما يعتمل فى النفس من عذاب ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين \* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴿<sup>(١)</sup>

وقال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال جل شأنه : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا \* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾<sup>(٤)</sup>

فيا أيها العقلاء اعلموا أن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، والعاقل من أخذ من دار مفره إلى دار مقره ، وعلى كل عاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، ذاكرة الموت . فالיום عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٥)</sup>

فاعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

فالسعيد من مات ولا يشقى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴿<sup>(٦)</sup>

تزود من التقوى فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع  
فما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

#### من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ  
وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّاَنَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكُفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ  
عِبَادَتِكُمْ لَغْفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ  
وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ ﴿٣٠﴾

(١) الآيات ١٠٦-١٠٨ من سورة المؤمن . (٢) الآية ٢٠ من سورة السجدة . (٣) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٤) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٥) الآيات ١٦٨، ١٦٩ من سورة النساء . (٦) الآيات ١٢٤-١٢٦ من سورة طه .

**المفردات :** ﴿ نحشرهم ﴾ الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ، ﴿ مكانكم ﴾ : كلمة يراد بها التهديد والوعيد ، أ. الزموا مكانكم . ﴿ زيلنا ﴾ : فرقنا وميزنا . ﴿ تبلو ﴾ : تختبر ﴿ ما أسلفت ﴾ قدمت ﴿ وضل ﴾ : ضاع وذهب .

وهذا مشهد من مشاهد القيامة الصورة فيه صورة حشر وجمع ، التقى الجميع في صعيد القيامة من جن وإنس وغير ذلك من المخلوقات التي أحاط الله بها علماً ، وأحصاها عدداً قال تعالى ﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾<sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

في هذا المشهد يقول الله تبارك وتعالى للمشركين ومعبوداتهم ألزموا مكانكم ، وذلك من باب التبيك والتقريع لهم ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

قوله تعالى ﴿ فريلنا بينهم ﴾ أى فرقنا بين المؤمنين والمشركين ، كما في قوله جل شأنه : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾<sup>(٤)</sup> أى انفصلوا عن المؤمنين ، أو أن يكون المراد فرقنا بين المشركين ومعبوداتهم ، ليعلم المشترك أن المعبود من دون الله لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا شفاعاً ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ إلا أصحاب اليمين ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴿ يوم يتذكر الإنسان ماسعياً ﴾ وبرزت الجحيم لمن يرى ، فأما من طغى وأثر الحياة الدنيا ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ فإذا جاءت الصاخة ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ﴾ وأمه وأبيه ﴾ وصاحبه وبنيه ﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ قال تعالى : ﴿ ولا يسئل حميم حميماً ﴾ يصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه .

وصاحبه وأخيه ﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴾ ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه ﴾ كلا إنها لظى ﴿<sup>(٩)</sup>﴾ ، ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ إن الذين سبقتم لهم من الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴿<sup>(١٠)</sup>﴾ إن الأم تلقى ولدها يوم الحشر فتقول له . يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء ، فهل أجد معك من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول : يا أماه . ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . ويلقى الولد أباه فيقول : يا أبت ، لقد كنت بك برا ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد معك من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول : يا بنى ليتنى

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف . (٥) الآية ١٩ من سورة الانفطار . (٩) الآيات ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .

(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الكهف . (٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة المدثر (١٠) الآيات ٩٨ - ١٠١ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المرسلات . (٧) الآيات ٣٤ - ٤١ من سورة النازعات .

(٤) الآية ٥٩ من سورة يس . (٨) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرنى ﴾ (١) .

واقرأوا قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا \* اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون \* فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾

لقد تبرأ الشركاء من عبادتهم إياهم ، فقد كانت عبادتهم باطلة ، بنيت على زور وبهتان ، وإنما عبدوهم بهوى النفس والشيطان ، فالمعبود بحق هو الله ، والعبادة الحقة أفراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، لقد تبرأ المعبود من عابده ، إذ المعبود لا يملك شيئا ، ولا يغنى فتىلا ولا نقيرا أو قطميرا ، وسبحان من قال ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لإجل مسمى ذلکم الله ربکم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير \* إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (٣) .

﴿ فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ﴾ ولقد قال الله كلمة الفصل وجاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون \* لآكلون من شجر من زقوم \* فمائلون منها البطون \* فشاربون عليه من الحميم \* فشاربون شرب الهيم ﴾ (٤) .

ولقد قرر هؤلاء المعبودون أنهم كانوا فى غفلة عن عبادة هؤلاء الضالين ، لأن الكون كله يشهد بضلالهم وبهتانهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ، هنالك تختبر النفوس فى ما قدمت من أعمال إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، لقد ردوا إلى الله مولاهم الحق الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، وضل عن المشركين وغاب عنهم ما كانوا يفترونه من شركاء ، فلم يغفوا عنهم شيئا .

قال تعالى : ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وُردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾

وقال جل جلاله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ (٥) .

(٤) الآيات ٥١ - ٥٥ من سورة الواقعة .

(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .

(٣) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة فاطر .

## المالك المتصرف هو الله

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾  
 فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ  
 كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُو  
 الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ  
 شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ  
 لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ  
 لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بعد أن بين جنایات المشركين على أنفسهم ، وبين فساد معتقاداتهم ، وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا ، قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن .

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ : أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ومن الأرض بما ينبت من شتى النباتات ، من نجم وشجر ، تأكلون منه ، وتأكل أنعامكم .

﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ : أى وقل لهم : من يملك ما تتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأنتم بدونها لا تدرون شيئاً من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيراً منكم باستغنائها عنكم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية ، وكال الحياة الإنسانية ، إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

من خلق هذه الحواس ووهبها للناس ، وحفظها مما يعثرها من الآفات ؟

ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لاحاجة فيه إلى الفكر فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علماً وإعجاباً بإنعام الله بهما ، وإيماناً بأنه لا يقدر غيره على إيجادهما .

﴿ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة . فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من المخلوقات ، ومالا تعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميتة ، بعد إحيائه إياها بماء المطر النازل عليها من السماء ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ (١)

وعلاوة الحياة فى النبات النمو ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة . ولم يكونوا يصفون أصول الإحياء بالحياة كالحب والنوى ويبيض الحيوان ومنية ، ومن ثم مثلها إخراج الحى من الميت والميت من الحى ، بخروج النخلة من النواة ، والطائر من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتدييره ورحمته لدى المخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبدور والنوى والبيض والمنى حياة ، فهم يشتون أيضاً أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا : إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ، ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ، ثم تكون من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى .

وقالوا أيضاً إن الغذاء من الطعام الميت الذى يُحرق بالنار ، ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتعلان على مادة الحياة .

وقالوا أيضاً : إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما ، مما يفرزه البدن وتتجدد فيه مواد جديدة ، تحل محل ما خرج منها وفنى .

الخلاصة : إن علماء المواليد قالوا : الحى لا يخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته المحيى لغيره .

﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أى ومن يلى تدبير أمر الخلقه جميعاً بما أودعه فى كل منهما من السنن ، وقدره من النظام .

﴿ فيقولون الله ﴾ أى فسيجيئون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تلعم ولا تلكؤ . بأن فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه . إذ لا جواب غيره ، وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه .

﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أى فقل لهم أيها الرسول : أفلا تتقون سخطه وعقابه لكم ، بشرككم وعبادتك لغيره ممن لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً .



﴿ فذلکم الله ربکم الحق ﴾ أى فذلکم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المرئى لکم بنعمه ، والمدير لأموارکم ، وهو الحق الثابت بذاته ، الحى المحيى لغيره ، المستحق للعبادة دون سواه .

﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال ، أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى ، وماسواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرک مبطل ضال .

﴿ فأنتى تصرفون ﴾ أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمکم بما کان به الله هو الرب الحق ، فما بالکم تقرون بتوحيد الربوبية دونه توحيد الألوهية ، فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وجوه الربوبية والألوهية وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية ، وهداية الدين الحق .

﴿ أنهم لا يؤمنون ﴾ أى هى أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسنا من التوحيد والهدى ، ومهما تكن الآية بينة والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة ، واستغلال العقل ، فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال ، لرسوخهم فى الكفر واطمئنانهم به بالتقليد ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿ ١ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده . قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾ .

هذا ضرب آخر من الحجة ، أقامه سبحانه دليلاً على توحيده ، وبطلان الإشراك به ، جاء بطريق السؤال للتوبيخ ، وإلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستنباط وفوق الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله ، أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما ترغمون ، أو الكواكب السيارة ، أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ، من له هذا التصرف فى الكون يبدأ الخلق فى طور ، ثم إعادته فى طور آخر ؟

ولما كانوا لا يحسنون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم نعمة والمعاد ، لقن الله رسوله اجابات فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إذ القادر على بدء الخلق يكون قادراً على إعادته بالأولى ، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية ، دون الأحياء النباتية ، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات في الأرض حين ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء ، وموته بخفافها في فصل الصيف والخريف ، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى ، ويقولون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة ، لأنهم يشاهدون كلا منهما ، وهم لا يسلّمون إلا بما يرون بأعينهم . أو يسلّمونه بأيديهم .

وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم وينبهم للتفكير في أمرهم فقال ﴿ فَأَنى تَوْفَكُونَ ﴾ أى فكيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال البين وهو الإشراك وعبادة الأصنام ، وذلك من دواعى الفطرة ، وخاصة العقل حين تفكيره فى المصير .

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره ، إلزاماً لهم عقب الإلزام الأول ، فسألهم عن شأن من شعور الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية ، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية ، فقال :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل من أولئك الشركاء من يهذى إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها يتم حكمة الخلق ، كما يدل على ذلك قوله ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (١) .

والهداية أنواع : هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان ، وهداية الحواس من سمع وبصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين وهو للنوع البشرى فى جملة بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق ، وتسهيل سبله ، ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدّعوا أن أحداً من أولئك الشركاء يهذى إلى الحق ، لا من ناحية الخلق ، ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ أى قل هو الله سبحانه الذى يهذى إلى الحق دون غيره ، بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب ، وهدى إلى النظر والتدبر ، وأعطى من الحواس .

﴿ أَفَمَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِى إِلَّا أَنْ يَهْدَى ﴾

قرأ يعقوب وحفص ( يهذى ) بكسر الهاء وتشديد الدال ، وأصله يهتدى ، أى أفمن يهذى إلى الحق

ومن الله الحق ان ينجي من يشاء ، أم من لا يهدي غيره ولا يهدي نفسه إلا أن يهديه غيره . وهو الله تعالى ، ولا يهدي غيره .

ويدخل فيمن نقي عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء - المسيح عيسى بن مريم ، وعزير ، والملائكة . وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق هداية الله وروحه ، كما قال تعالى في سورة الأنبياء ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ .

﴿ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أى أى شيء أصابكم ، وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء ، وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواه ، كيف تحكمون بخوار عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه .

وفى هذا تعجيب من حالهم ، وسوء صنعهم ، وقبيح فعلهم .

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية ، بين حال المشركين الاعتقادية فقال :

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ أى أكثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم لغير الله ، وإنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام . إلا ضرباً من ضروب الظن ، قد يكون ضعيفاً ، كأن يقيسوا غائباً على شاهد ، ومجهولاً على معروف ، ويقلدوا الأبناء اعتقاداً منهم أنهم لا يكونون على باطل فى اعتقادهم ، ولا ضلال فى أعمالهم .

وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق . والهدى ، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضر ولا تنفع ، ولكنهم يحسدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله ﷺ عناداً واستكباراً وخوفاً على زعامتهم أن تضع سدى ، فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

ثم بين حكم الله فى الظن فقال : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾

الحق هو الثابت الذى لا ريب فيه فى ثبوته وتحقيقه ، أى أن الشك لا يقوم مقام اليقين فى شيء ، ولا يتنفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

إن الظن لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك ، كالعقائد الدينية ، ولهذا أرى أن إيمان المقلد غير صحيح<sup>(١)</sup> .

﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ أى أن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يخاسمهم ويخازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالتقليد باتباع الآباء والأجداد .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق ما كان قطعياً من كتاب أو سنة ، وهو الدين الذى لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال : اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الأمر فى القضاء ، مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

### القرآن لا ريب فيه من رب العالمين

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ  
الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ  
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ  
وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ كَذَّابٌ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَنَظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده ، وأن محمداً ﷺ عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالخجج على بطلان شركهم ، واتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه فى عقائدهم ، عاد إلى الكلام فى تفنيد رأيهم فى الطعن على القرآن بمقتضى هذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من الأقلين ، كالزعماء والمستكبرين .

قوله تعالى ﴿٢٧﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ أى لا يصح ولا يعقل أن يفتره أحد على الله من دونه ، وينسبه إليه ، إذ لا يقدر على ذلك غيره عز وجل ، فإن ما فيه من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وإنباء بالغيوب الماضية والمستقبلية ، ليس فى طوق البشر ، ولا هو داخل تحت قدرته ، وفى حيز مكنته ، ولكن سلم أن بشراً فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرقى الحكماء والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئاً .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبى ﷺ هو أبو جهل ، قال : إن محمداً لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب على الله ؟

﴿٢٨﴾ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحي لرسول الله تعالى بالإجمال ، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ، بدعوته إلى أصول الدين الحق : من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، بعد أن نسى بعض هذا بقية أتباعهم ، وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النسى الأمى يعلم شيئاً من ذلك لولا الوحي من ربه .

﴿وتفصيل الكتاب﴾ أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام ، والعبر والمواعظ ، وشئون الاجتماع .

﴿لاريب فيه﴾ أى لا ينبغي لعاقل أن يرتاب فيه ، لوضوح برهانه لأنه الحق والهدى .

﴿من رب العالمين﴾ أى من وحيه ، لا افتراء من عند غيره ، فلا اختلاف فيه كما قال تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾<sup>(١)</sup> .

وبعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا : إن محمداً ﷺ قد افتراه ، وفند مزاعمهم ، وتعجب من حالهم ، وشنيع مقالهم ، وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿

أى ما كان ينبغي أن تقولوا إن محمداً ﷺ افتراه من عند نفسه واختلقه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنه اختلقه وافتراه ، فأتوا بسورة مثله في نظمه وأسلوبه وعلمه ، وافتراقه في موضوعها ، لالتزمون أن تكون حقا في أخبارها ، فإن لسانه لسانكم ، وكلامه كلامكم ، وأنتم أشد مرانا وتمرساً للنثر والنظم منه ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله - ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئاً - فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾<sup>(٢)</sup> إن كنتم صادقين في زعمكم أنه مفترى .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمسككم ، ولم يوجد في كلام أولئك الذين نصبت لهم المناير في سوق عكاظ ، وبهم دارت رحى النظم والنثر ، وتقضت أعمارهم في الإنشاء والإنشاد مثله ، فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله - ﷺ - أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقناً أن الإنس والجن لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن في جملة ولا سورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن ما يمكنه من الأمر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة : أن محمداً ﷺ كان على يقين من عند ربه ، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه في القرآن بتحديه لهم ، إلى إظهار بطلان قولهم هذا ببيان أن

كلامهم ناشئ من عدم علمهم بحقيقة أمره ، واختبار حاله ، فقال :

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه﴾ أى بل هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه ، ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آنفاً ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله

﴿ولما يأتيهم تأويله﴾ أى ولم يأتيهم إلى الآن ما يقول إليه ويكون مصداقاً له بالفعل ، ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلية .

وخلاصة ذلك - أنهم على إعجاز القرآن من جهة النظم والمعنى والإخبار بالغيب - قد أسرعوا في تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به - وفي تكذيب الشيء قبل علمه المتوقع حصوله - شناعة وقصر نظر لا تحفى عن عاقل ، وفيه دليل على أنهم مستبدون .

﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم ، بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذى أوعدهم به .

﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم ، لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هى التى بينها الله فى قوله : ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ (١)

وقد أندر الله قوم محمد ﷺ بمثل ما نزل بالأمم قبلهم فى الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أندرهم عذاب الآخرة ، وكذبه المعاندون المقلدون فى كل ذلك ظناً منهم أنه لا يقع .

موقفه صلى الله عليه وسلم

من المكذبين

وَمِنْهُمْ مَّنْ يُّؤْمِنُ بِهِءَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُّؤْمِنُ بِهِءَ وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤١﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْعُونَ مِمَّا آَعَمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ

أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ نِكُلِّ أُمَّةً أَجَلًا فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَسْتَجِيرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُم عَذَابٌ مِّن بَيْنِ أَيْدِيكُمْ أَوْ مِن خَلْفِكُمْ أَوْ مَن مَّادَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ؕ آءَلَّخْنَا وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ ؕ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ \* وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّهُ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّمَا لَحِقْتُ بِمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ؕ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿٥٦﴾ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالفسدين ﴿٥٦﴾

هذا إخبار منه - جلَّ في علاه - بأن من الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ من يؤمن بهذا القرآن العظيم ، ويصدق بما فيه تصديقاً جازماً لالبس فيه ولا غموض ، كما أن منهم من لا يؤمن به ، ويدعى أنه مفترى من دون الله ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالفسدين المكذبين الذين عشن الشيطان في رعوهم فباض فيها الإلحاد وفرَّخ فيها الزندقة . والذين قال فيهم : ﴿٥٦﴾ إن الذين حُت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴿٥٦﴾

وقال فيهم ﴿٥٦﴾ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يهرجون \* لقدوا إنما سَكَّرت أبصارهم

نحن قوم مسحورين ﴿١﴾. وقال فيهم : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ (٢).

ولقد بين الله تعالى لرسوله الكريم كيف يقف من هؤلاء المكذبين فقال ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾

وهذا منطق الحق المبين بلسان اليقين ، إذ الحق أبلج ، والباطل لجلج ، ومهما عربد الباطل فى عرصات الأرض فلسوف يدفعه الحق فإذا هو زاهق ، ولن يضر السحاب نبج الكلاب . والبأس مجزون بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر ، فإن كذبك هؤلاء المعاندون فقل لهم ﴿ لى عملى ولكم عملكم ﴾ ولا تترز وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قرى ﴿ (٣) ﴾ . كل نفس بما كسبت رهينة ﴿ (٤) ﴾ . يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿ (٥) ﴾ .

﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ذلك كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون \* لا أعبد ما تعبدون \* ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ (٦) إلى آخرها . وكقول الخليل إبراهيم ومن معه لقومهم المشركين ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (٧).

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون \* ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون \* إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ :

فى هذه الآيات يبين جلّت حكمته أن من هؤلاء المكذبين من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم من آى الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، والأحاديث التى تبين الأحكام ، وتصحح المفاهيم لكنهم إذا استمعوا لا يستمعون بقصد الاستجابة والعمل ، إنما تسمع الآذان وبينها وبين القلوب حجاب ، قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ (٨).

ولقد أدب الله عباده المؤمنين بأدب الاستماع فقال : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم

- |     |                                |     |                                 |
|-----|--------------------------------|-----|---------------------------------|
| (١) | الآيات ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر . | (٥) | الآية ١١١ من سورة النحل .       |
| (٢) | الآيات ٢ ، ٣ من سورة القمر .   | (٦) | الآيات ١ - ٣ من سورة الكافرون . |
| (٣) | الآية ١٨ من سورة فاطر .        | (٧) | الآية ٤ من سورة الممتحنة .      |
| (٤) | الآية ٣٨ من سورة المدثر .      | (٨) | الآية ١٦ من سورة محمد .         |



ترحمون ﴿١﴾ . ونهاهم أن يتشبهوا بهؤلاء الذين إذا أسمعوا لا يستجيبون فقال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون \* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون﴾ (٢) . وقد بين الله حال هؤلاء المعرضين في قوله ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون \* ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (٣) .

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون﴾ (٤)

﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾

إذ كيف يتأتى لبشر أن يسمع الأصم وأن يهدى المجنون ﴿أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى﴾ (٥) ، إن عليك إلا البلاغ المبين .

ومنهم من ينظر إليك وإلى وجهك الوضأ ، وما أنت عليه من خلق عظيم ، وما أحباك الله به من منح ودرجات وحسن سمت واستقامة سلوك ، ومع ذلك لا يهتدى ولا يقتدى ، بل ينظر نظر سخرية واستهزاء . قال تعالى : ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ (٦) .

وفي آية أخرى ﴿وإذ رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ (٧) .

فلا يكتفي في صدرك حرج مما يقولون ﴿أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون﴾ ﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين \* وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ (٨)

لقد بلغت وأديت ونصحت . ﴿وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا﴾ (٩)

وقد بعثت بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولن يقبضك الله إليه حتى يقيم بك الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صمًا ، وقلوبا غلفا

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ إذ هو الحكم العدل ، حرّم الظلم على نفسه كما حرّمه على عباده ، جاء في الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل [ يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ] إلى أن قال في آخره « يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١٠) رواه مسلم

(١) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .

(٣) الآيات ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأنفال .

(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

(٥) الآية ٤٠ من سورة الزخرف .

(٦) الآية ٤١ من سورة الفرقان .

(٧) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

(٨) الآيات ٨٠ ، ٨١ من سورة النمل .

(٩) الآية ٧٩ من سورة النساء .

(١٠) أخرجه مسلم في البر (٥٥) .

نعم لا يلومن . إلا نفسه . قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ومعاذ الله أن يظلم مثقال ذرة ، وهو الذى سمى نفسه الحق ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم ينتقل بنا الحديث بعد ذلك إلى ساحة الحساب فيبين لنا حال هؤلاء الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا لما كذبوا بقاء الله ، قال تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَقَاءَ اللَّهِ وَمَا كَانُوا بِهَتْدَىينَ ﴾ .

هذا مشهد رهيب وموقف مهيب من مواقف الحشر وساحات الحساب ، إنهم عندما يُحشرون يستقصرون أعمارهم فى الدنيا ، كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال جلّ شأنه : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْمَئِذٍ لَّيَبْثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَّهَارٍ ﴾<sup>(٤)</sup> . وكقوله جلّ شأنه : ﴿ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا عِشْرًا . نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْنَا إِلَّا يَوْمًا ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال جلّ شأنه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾<sup>(٦)</sup> .

فالدنيا مهما طال عمرها فعمرها قصير وخطرها حقير . قال تعالى : ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٧)</sup> .

فالدنيا دار مفر والآخرة دار مقر والعاقل من يأخذ من مفره إلى مقره فلا أمان لدنيا أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء ، وليعلم كل عاقل أن ميت الغد يشيع ميت اليوم .

كل ابن أثنى وإن طالّت سلامته      يوماً على آله حذباء منقول  
فإذا حملت إلى القبور جنازة      فاعلم بأنك بعدها محمول

نعم كأن لم يلبثوا إلا عشيّة أوضحاها :

تالله لو عاش الفتى فى دهره      ألفاً من الأعوام مالك أمره  
متنعماً فيها بكل نفيسة      متلذذاً فيها ينعمى عصره  
لا يعتريه السقم فيها مرة      كلا ولا ترد الهموم بياله  
ما كان هذا كله فى أن يفنى      بميت أول ليلة فى قبره

فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، إنهم عندما يجتمعون فى ساحة الحشر يتعارفون بينهم فيعرف

(١) الآية ٢٥ من سورة النور . (٤) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف . (٦) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٥) الآيات ١٠٢ - ١٠٤ من سورة طه . (٧) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٥٥ من سورة الروم .

بعضهم بعضا لكن كل واحد مشغول بشأنه ﴿ ولا يسئل حميم حميما ﴾ يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التي تؤويه \* ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه كلا ﴿<sup>(١)</sup>﴾ فإذا جاءت الصاخة \* يوم يفر المرء من أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبه وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿<sup>(٢)</sup>﴾

قوله تعالى : ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين ﴾ :

وأى خسران أشد من هذا الخسران ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾<sup>(٣)</sup>.

وأى هوان أشد من هذا الهوان ، إنهم لما كذبوا بقاء الله شقوا ، وأى شقاء أشد من حاضهم الذى هم فيه . قال تعالى : ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ إذ لو اهتمدوا لزادهم الله هدى وما كذبوا بقاء الله وإنما كانت قلوبهم ستمتلى يقينا بأن لقاء الله حق فأحبوا لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله أحب لقاءه .

قوله تعالى : ﴿ وإما لثريتك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ .

يخبر الله تعالى رسوله ومصطفاه أنه سيرى هؤلاء المكذبين بعض الذى وعدهم من الانتقام والعذاب فى الدنيا حتى تقرعون المؤمنين بوعد الله ، وقد حدث ذلك عندما أخذهم الله بالسنين ، وأوقع بهم الهزائم ، فإن توفيناك يا محمد فإنهم لن يفلتوا منا يوم الحساب ، فإلينا مرجعهم والله تعالى خير شهيد على أفعالهم ﴿ إن الذين يعادون الله ورسوله كتبوا كما كتبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات ولل كافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد . ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شئ عليم ﴾<sup>(٤)</sup>.

فى هذا اليوم العظيم يكون لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى الله بينهم بالقسط ، قال تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾.

وقال جل شأنه : ﴿ فكيف إذا حنت من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾<sup>(٦)</sup> . وقال

(٤) الآيات ٥ - ٧ من سورة المجادلة .

(٥) الآيات ٦٨ ، ٦٩ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٤١ من سورة النساء .

(١) الآيات ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .

(٢) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

(٣) الآية ٣١ من سورة النازعات .

جل شأنه : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾<sup>(١)</sup>

وأول الأمم التى يقضى بينها يوم القيامة أمة نبينا محمد ﷺ إكراما لنبينا كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق )<sup>(٢)</sup> فأمتد إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾

هذا سؤال أرادوا به استعجال الساعة تهكما منهم بأمر الله تعالى ، قال جل شأنه : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾<sup>(٣)</sup> . وقد جاء الجواب على سؤالهم هذا متمثلا فى قوله جل شأنه : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾<sup>(٤)</sup> أى ﴿ ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقض الحق . وهو خير الفاصلين ﴾<sup>(٥)</sup> وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لاتأتىكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها . قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون \* قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير ونشير لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أى زمان مقدر ، وحين معلوم ، إذا حان هذا الأجل ، ونزل بهم القدر المحتوم والمصير المقدور فلا يستأخرون ساعة عن أجلهم ، ولا يستقدمون عنه ساعة ، لكل أجل كتاب .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ما ثم إذا ما وقع آمنتم به ءآلئن وقد كنتم به تستعجلون \* ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ﴾ وهذا خطاب موجه إلى الذين يستعجلون الساعة وهم مكذبون بها : ماذا أنتم فاعلون باستعجالكم إذا نزل العذاب بكم ليلا أو نهارا ، وما الذى يستعجل به المجرمون إذا نزل بهم العذاب ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ، قال تعالى :

(١) الآية ٧١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى الأيمان (١) وفى الرؤيا (٤٠) وفى التوحيد (٣٥) . ومسلم فى الجمعة (١٩ - ٣٣) .

والنسائى فى الجمعة (١) وابن ماجه فى الإقامة (٧٨) وفى الزهد (٣٤) . والدارمى فى المقدمة (٨) .

(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى . (٤) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .

(٦) الأيمان ١٨٧ ، ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَسَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١﴾

أثم إذا ما وقع بكم العذاب آمنت به . تن تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكُفِرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكْ يَنْفَعِهِمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سِنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) . وقال جلُّ شأنه في أمر فرعون ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ \* ءَأَلَّنُ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلَ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ \* فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقْنَا آيَةً وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ (٢) .

ثم يقال يوم القيامة للكافرين الجاحدين المعاندين : ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ وذلك مقتضى العدالة الإلهية ﴿ هَلْ تَحْزَنُونَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ ذلك بما قدّمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَى إِنَّهُ لِحَقٍّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ \* وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

لقد كانوا يطلبون الأخبار من رسول الله عن هذا السؤال المتعلق بالبعث بعد الموت : ﴿ أَحَقُّ هُوَ ﴾ أى ﴿ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (٣) ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدًا أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) ﴿ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ \* إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) .

ولقد أجاب الرسول ﷺ كما أمره الله في قوله : ﴿ قُلْ إِي وَرَى إِنَّهُ لِحَقٍّ ﴾ كما أجاب في قوله جلُّ شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ (٦) وفي قوله تبارك اسمه : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى وما بعثكم يوم الحشر والحساب بمعجز لنا . ﴿ أَوْ لَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ \* وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسَى خَلْقَهُ . قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٨) .

ويوم القيامة يود الظالمون لو أن لأحدهم ملء الأرض ذهباً لافتدى به من سوء العذاب ، لكنهم

(٧) الآية ٣ من سورة سبأ .

(٤) الآية ٤٩ من سورة الإسراء .

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الأنبياء .

(٨) الآية ٧ من سورة التغاين .

(٥) الآية ٣٨ من سورة النحل .

(٢) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .

(٣) الآيات ٩٠ - ٩٢ من سورة يونس . (٦) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النحل . (٩) الآيات ٧٧ - ٧٩ من سورة يس .

عندما يجدون حقائق القيامة ماثلة أمام العيون يُسرون الندامة . والله تعالى يقضى بينهم بنفسه . وهم لا يظلمون ، والله يقضى بالحق وهو يهذى السبيل .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَافِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ \* هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴿ ١٦٨٨ ﴾

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الذى يملك السماوات والأرض ، قادر على أن يعد لأحسب بعد فنائها : ﴿ أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم بما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ \* فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿ ١٦٨٩ ﴾

﴿ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ \* يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون \* أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴿ ١٦٩٠ ﴾

قوله تعالى ﴿ هو يحيى ويميت وإليه ترجعون ﴾ جاءت هذه الآية كالنتيجة بعد المقدمات ، فإن الذى يملك السماوات والأرض وما بينهما قادر على أن يحيى ويميت ، فهو المحيى المميت الرافع الخافض الباسط القابض الوارث الباعث المعز المذل الأول والآخر ، الظاهر والباطن الجبار ذو القوة المتين ، فالرجوع إليه وحده لا شريك له ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ \* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿ ١٦٩١ ﴾ .

### القرآن شفاء لما فى الصدور

يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٥٧ ﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿ ٥٨ ﴾

المفردات : ﴿ موعظة ﴾ العظة : الوصية بالحق والخير ، واجتناب الباطل والشر . ﴿ شفاء ﴾ الشفاء : الدواء ﴿ وهدى ﴾ الهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ﴿ ورحة ﴾ الرحمة : الإحسان ﴿ بفضل الله ﴾ فضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ﴿ برحمته ﴾ رحمته : هى الثمرة التى تنبت من ذلك وبها فضلوا جميع الناس .

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث ، قضى على ذلك بذكر التشريع العملى ، وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة :

يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴿ ١٦٩٢ ﴾

(١) الآيات ٨١ : ٨٣ من سورة يس . (٢) الآية ٦ - ٨ من سورة الروم . (٣) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .

من من لهم أحب الرسول : قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من الموعظة الحسنة ليس تصلح  
لحكمكم وتهدئكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والذاتية والراضية للضرائر المستعينة بآي توصل سعادة  
دينا والآخرة والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

و خلاصة إن الآية الكريمة تحولت لإصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر في أربعة أمور :

١ - الموعظة الحسنة : بالذنب والترهيب بذكر ما لا يقر به القلب ، فيبعثه على الفعل أو الترك ،  
وقد جاء في معنى الآية قوله : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم  
بها ﴾ وقوله ﴿ هذا بيد الناس وهدى وموعظة للستين ﴾ .

٢ - الشفاء لما في القلوب : من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التي يشعر من أجلها بضيق  
تصدر ، كالشك في الإيمان والبغي والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير .

٣ - الهدى إلى طريق الحق : والبقين والتباعد من الضلال في الاعتقاد والعمل .

٤ - الرحمة للمؤمنين : وهي ما تشر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها : البذل  
المعروف ، وإغاثة المنهوف ، وكف الظلم ، ومنع التعدي والبغي ، وإجمال ذلك : أن موعظة القرآن  
وشفائه لما في الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل ، وهداه إلى الحق والفضائل موجّهات إلى  
أمة الدعوة ، وهم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما تشره هذه الصفات الثلاث من الرحمة ،  
لأنهم هم الذين يتفجعون بها .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأن يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان ،  
وبالرحمة الخاصة بهم ، الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة ، فقال سبحانه ﴿ قل بفضل الله  
وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أي قل لهم : ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، أي إن كان شيء في الدنيا  
يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله »  
وعن الحسن والضحاك وقتاده ومجاهد « فضل الله الإيمان ورحمته القرآن » .

﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي إن الفرح بهما أفضل وانفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام  
والحرث والخيول المسومة ، وسائر خيرات الدنيا ، لأنه هو سبب السعادة في الدارين ، وتلك سبب  
السعادة في الدنيا الزائلة فحسب ، فقد نال المسلمون في العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير  
مع الصلاح والإصلاح ، مما لم يتسن لغيرهم من قبل ولا من بعد .

وبعد أن جعلوا ديدنهم جمع ومتاع الدنيا ، ووجهوا همتهم إليه ، وتركوا هداية القرآن في إتقانه  
والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم .

## إفحام المفتريين

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآلَهُ أَذِنَ لَكُمْ  
أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿١﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ءَإِنَّ اللَّهَ لَذُو  
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢﴾

مقتضى التوحيد الحق أن يعتقد المسلم أن الذى يملك التحليل والتحريم هو الله وحده ، ومن هنا فإن  
الله تعالى يأمر حبيبه ومصطفاه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين ﴿ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ ،  
فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا ﴾ أى أخبرونى لماذا حرمتم أشياء قد أحلها الله ، وأحللتهم أخرى قد حرمها الله ،  
لقد حرمتم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وشرعتم فى الأنعام والحرث تشريعاً ما أنزل الله به من  
سلطان .

والله تعالى يقول فى سورة المائدة : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ  
كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا  
حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴿١﴾ .

وكما جاء فى قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ  
بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ  
مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢)

وكما فى قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ  
ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ وقالوا ما فى بطون هذه  
الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم  
عليم ﴿٣﴾

إن هؤلاء الذين حرموا وأحلوا تبعاً لأهوائهم وأنفسهم المريضة ، يلقى الله تعالى عليهم باللائمة ،  
فيقول : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًُا وَاحِدًا  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٤) .

ويقول سبحانه ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (٥)

سلهم يا محمد وقل لهم ﴿ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ فإذا كان الله تعالى لم يأذن لهم بذلك

(٤) الآية ٣١ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٢١ من سورة الشورى .

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المائدة .

(٢) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

(٣) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأنعام .



لأنه تعالى لا يشرك في حكمه أحداً ، فبقى القسم الآخر وهو أفتراؤهم على الله ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً  
ثم يبين تعالى الوعيد للمفترين فيقول ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ \* متاع في الدنيا ثم  
إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يفترون ﴿<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾

إن عقابهم لشديد ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾ \* ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿<sup>(٢)</sup>  
قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن  
الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ \* متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴿<sup>(٣)</sup>.

قوله جل شأنه ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾

سبحانه عمت رحمته ، ووسعت آلاؤه عبادته ، فسخر لهم ما في السموات والأرض جميعاً منه ، وبني  
التحليل والتحريم على حكمة بالغة يعلمها هو ، ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد ، ومن أصدق من  
الله قبيلاً ؟ لا أحد ، قل أنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء  
وقال العقل ليته ما نهى

ومن هنا فإن شكر المنعم واجب ، وأفضل الشكر تسخير الجوارح لطاعة الله .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله  
لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون \* ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم  
ظالمون \* فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴿<sup>(٤)</sup>.

### الرقب الاعلى

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ  
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ  
وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

(٣) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .

(٤) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة النحل .

(١) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .

(٢) الآيات ٤ - ٦ من سورة المطففين .

**المفردات :** ﴿ شَأْن ﴾ الشأن : الأمر العظيم . تقول العرب . ما شأن فلان أى ما حاله .

﴿ تَفِيضُونَ ﴾ أفاض فى الشيء : أو من المكان . اندفع فيه بقوة أو بكثرة ﴿ يعزب ﴾ عزب : الرجل بإبله يعزب أى بعد وغاب فى طلب الكلاء ﴿ ذرة ﴾ الذرة : التملة الصغيرة وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخلى من الكوى إلى البيوت . ﴿ كتاب ﴾ الكتاب : هو اللوح المحفوظ .

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته ، وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون ، قفى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ، ما دق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض ، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكره وعبادته .

﴿ وما تكون فى شأن ﴾ أى وما تكون أياها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة ، مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذاراً لها وتبشيراً ، وتعليماً وعملاً .

﴿ وما تتلو منه من قرآن ﴾ أى وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبداً به ، أو تبليغاً له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره ﷺ كانت عظيمة ، حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه ﷺ كان فيها قدوة صالحة .

وبعد أن خاطب رسوله ﷺ انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها ، فقال :

﴿ ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾

أى ولا تعملون أى عمل خيراً كان أو شراً ، شكراً كان أو كفراً ، وإن كان المثلقال الذرة إلا كنا رقباء عليكم إذ تخوضون فيه ، فنحفظه عليكم ، ونجازيكم به .

﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ :

أى وما يبعد عن علمه ، ولا يخفى عليه أقل شئ يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتماً به مندفعاً فيه ، جدير بالأى يغفل عن مراقبة ربه فيه ، وإطلاعه عليه .

وكذلك فى التعبير بـ يعزب الدال على الخفاء والبعد ، دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق ، وبين إحاطة علمه بكل شيء ، فقال :

﴿ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

أى ولا شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفائيه ، ولا أكبر من ذلك وإن عظيم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده في كتاب عظيم الشأن ، وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها ، إكلاً للنظام ، وبيانا لضبط جميع الأعمال ، وفي معنى الآية قوله ﴿ فلا أقسم بما تبصرون • وما لاتبصرون ﴾<sup>(١)</sup>

وفي ذلك إشارة إلى أن في الوجود أشياء لاندركها ، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافا مضاعفة ، أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات ، كالجراثيم ، ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن ، فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

### أولياء الله

﴿ لَا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾<sup>(١٢)</sup> ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾<sup>(١٣)</sup>  
لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ  
الْعَظِيمُ<sup>(١٤)</sup>

**المفردات :** ﴿ أولياء ﴾ الأولياء : جمع ولي من الولي وهو القرب يقال تباعد بعد ولي : أى بعد قرب ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون . ﴿ البشرى ﴾ هى الخير السار الذى تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

كل من كان تقياً كان لله ولياً ، والإيمان والتقوى هما الركيزتان الأساسيتان فى الولاية ، فالولى كل عبد مؤمن تقى ، وإنما سمي ولياً لأن الله تعالى تولاه بالحرص ، وهو تولى حقوق الله بالرعاية ، وأولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، فإذا رأيت أحدهم ذكرك بالله .

روى ابن جرير بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عباداً يغطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يا رسول الله لعلنا نجهم ؟ قال : هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ ﴿ لَا إِنْ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتى من أفناء الناس

ونوازع القبائل قوم لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله ، وتصافوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(١)</sup> ))

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » <sup>(٢)</sup>  
أما بشره فى الآخرة فهى الجنة قال تعالى ﴿ يشهرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾ <sup>(٣)</sup>  
وروى مسلم بسنده عن أبى ذرأنه قال يارسول الله . الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويشنون عليه به فقال رسول الله ﷺ (( تلك عاجل بشرى المؤمن )) <sup>(٤)</sup>.

وقيل المراد بذلك : بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ، كقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ <sup>(٥)</sup>

وفى حديث البراء رضى الله عنه (( أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقال : أخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان . فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء )) .

وأما بشرهم فى الآخرة فكما قال تعالى ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ <sup>(٦)</sup>

وقال تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشرهم الجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ <sup>(٧)</sup>

﴿ لا تبدل لكلمات الله ﴾ أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ، ولا يغير ، بل هو تقرر ، وثبت كائن لا محالة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٣٤٣:٥ ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٣١٥:٢١٩:١ ) وفى ( ٢١٩:١٣٧:١٢٢:١١٩:٥:٣ ) وفى ( ٣٢١:٣١٥:٥٠:٤٤:٥ ) ، وفى ( ٤٥٢:٤٤٧:٤٤٥:٢٣٢:١٥٣:١٢٩:٦ ) .

(٣) الآية ٢١ من سورة التوبة .

(٤) أخرجه مسلم فى البر ( ١٦٦ ) . وابن ماجه فى الزهد ( ٢٥ ) . والإمام أحمد فى ( ١٦٨:١٥٧:١٥٦:٥ ) .

(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت . (٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء . (٧) الآية ١٢ من سورة الحديد .

## العزة لله

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسَمِعُونَ ﴿٦٧﴾

المفردات : ﴿ العزة ﴾ : الغلبة والقوة . ﴿ يخرصون ﴾ : الخرص : الحزر والتقدير للشئ الذى لا يجرى على قياس من وزنه أو كيل أو زرع كخرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ويستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ﴿ مبصرا ﴾ : المبصر : ذو الإبصار بقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

هذا تثبت من الله تعالى لحبيبه ومضطفاه ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ لا تبتس بما كانوا يعملون ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ (١) ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (٢) فقد قالوا عن الله إن له صاحبة وولدا ، وقالوا عن المرسلين إنهم سحرة مجانين ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ (٣) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون \* فتول عنهم فما أنت بملوم \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿ (٤) وسبحان من يقول لرسوله الكريم ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون \* ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا المرسلين ﴾ (٥)

لا تحزن ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، فمن كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد . ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ (٦) ﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ (٧) .

لا تخضعن لخلق على طمع	فإن ذلك نقص منك فى الدين
لئلا يقدر العبد أن يعطيك خردة	إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعزبه	وكن عفيفاً وعظماً حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه	فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما	استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

(١) الآية ١٢٧ من سورة النحل . (٤) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة الناريات . (٦) الآية ٣٦ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٨ من سورة فاطر . (٥) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام . (٧) الآية ٣٧ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

إن ذلك الإله القادر هو السميع للأقوال ، العليم بكل الأحوال ، هو المالك المتصرف ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته .

﴿ ألا إن الله من فى السموات ومن فى الأرض ﴾ فكل ما سواه فهو باطل ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ إنما هى أوهام لا حقيقة لها ، وخيال عابر لا صحة لوجوده ، وأسماء لا مسميات لها : ﴿ أفأرأيتم اللات والعزى • ومناة الثالثة الأخرى • ألكم الذكر وله الأنثى • تلك إذا قسمة ضيزى • إن هى إلا أسماء سميتوها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (١)

فهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله ما زعموهم شركاء لله ، ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ ويكذبون

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لقال لك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان ، إنه خالق الكونين المكانى والزمانى ، فالمكانى أرض وسماء ، والزمانى ليل ونهار .

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾

وجل جلال الحق إذ يقول ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون • قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون • ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٢)

وفى هذا القدر كفاية لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا	وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل البروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والندى	وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا	فمن غير رى يرجع الصبح ثانيا

فيا أيها العقلاء : انظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وتأملوا فى هذا النظام البديع ، والنسق الرتيب ، ورددوا معى قوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

(١) الآيات ١٩ - ٢٣ من سورة النجم .

(٢) الآيات ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

## تنزيه ما بعده تنزيه

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ  
مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ  
الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا  
كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

**المفردات :** ﴿ولدا﴾ الولد : يستعمل مفرداً وجمعاً وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة  
بالكسر فيهما ﴿سبحانه﴾ : كلمة تنزيه وتقديس وتستعمل للتعجب ﴿سلطان﴾ : الحجة  
والبرهان .

بعد أن حكي سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده ، قفى على  
ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى جده اتخذ ولداً ، وتلك مقالة اشترك فيها  
المشركون واليهود والنصارى على السواء .

﴿ قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزيز بن الله ،  
وقالت النصارى المسيح بن الله . ﴿ سبحانه ﴾ أى تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن  
يكون المعنى - عجيب أن تصدر منهم الكلمة الحمقاء .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : ﴿ هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ : أى أن الله غنى عن  
خلقه جميعاً ، فإن كل ما فى الوجود من العالم العلوى والسفلى ، ملك له ولا حاجة له إلى شيء منه ،  
وجميعه فى حاجة إليه ولا يجانس شيء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد ، إما للنصرة والمعونة ، وإما للإعزاز  
به لدى الأهل والعشيرة .

وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار  
رخده وبره حين عجزه أو فقره وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنى عن كل ذلك ولا حاجة له إلى شيء  
من هذه المنافع ، فهو مستغن أزلاً وأبداً .

﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ : أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول  
الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

ثم أكد ماسلف ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ : أى أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته ،  
وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه ، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية ، والوحى  
الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع ، وإن التقليد فيها غير سائغ .

﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾

أى قل لهم : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذهم ولدا لنفسه ، أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ، ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعاة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ، ولا ينجون من عذاب الآخرة .

﴿ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾

أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال ، أو عظم جاه ، فهو قليل بالنسبة إلى ما عند الله فى الآخرة للصادقين المتقين ، ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياته ، وبالاتراء عليه ، وتكذيب رسله ، بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما نظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

### نبأ نوح

\* وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِمَا يَنْتِ  
اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ  
أَقْضُوا إِلَىَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٦١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ  
وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٦٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ  
خَلْقًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ نبأ ﴾ النبأ : الخبر له خطر وشأن . ﴿ مقامى ﴾ المقام : الإقامة والمكث والإجماع العزيمة على الأمر عزمًا لا تردد فيه ، كما قال شاعرهم : ﴿ أجمعوا أمركم ﴾ أجمعوا أمرهم ؟ بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء ﴿ غمة ﴾ الغمة : الستر واللبس يقال إنه لقي غمة من أمره : إذا لم يهتد له ﴿ اقضوا إلى ﴾ قضاء الأمر : أدأؤه وتنفيذه قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ تنظرون ﴿ الإنظار : التأخير والإمهال ﴾ خلائف : أى يخلفون الذين هلكوا بالغرق ﴿ المنذرين ﴾ : المخوفون بالله وعذابه .



بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله ﷺ ، وتكذيبهم له ، بعد أن قامت البراهين على صدقه ، قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلياً له ﷺ ، وبياناً بأن قومه لم يكونوا بدعاً في عنادهم وتكذيبهم له ، بل سبقهم في مثل فعلهم كثير من بالغي الأمم ، وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم ، فينزعجوا بما فيه مزدجر لهم ، ويعترفوا بصدقه ﷺ ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة ، فيندمون ولات ساعة مندم .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله

توكلت ﴾

أى وأقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سنته في المكذبين لرسله من قبلك ، خبر نوح حين قال لقومه يا قوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم ، وتذكيرى بإيائكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته ، فإننى قد وكلت أمرى إلى الله الذى أرسلنى ، واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتى .  
﴿ فأجمعوا أمركم وشركائكم ﴾ : أى فأعدوا أمركم ، واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ، كما أدعوا ربي وأتوكل عليه .

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ : أى ثم لا يكن أمركم الذى تعزمونه خفياً عليكم ، فيه خيرة . ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه . ﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾ : أى ثم أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه ، وبعد استباته التى لا غمة فيها ، ولا التباس ، بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

الخلاصة : إن نوحاً طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدل ببأسه وقوته ، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شيء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾

أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إيائكم ، وتبليغ رسالة ربي إليكم ، فلن يضرنى ، فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجراً ، ولا جزاء ، وما جزاء عملى وثوائى إلا على ربي الذى أرسلنى إليكم ، فهو يوفينى إياه آمتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنقادين بالفعل لما أدعوكم إليه .

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ : أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله فى حقيقة دعوته فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

﴿ وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾

أى وجعلنا المنذرين نجينا مع نوح فى السفينة الخلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه ، بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم ، وحققت عليهم كلمة ربك .

فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم ، وقوع عذاب الله بهم ، وأصروا على تكذيبهم ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، أما عاقبة المؤمنين المتقين لك فافقراً : إن شئت قوله ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ (١) .

### الطبع على قلوب الكافرين

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَبَجَاءَ وَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

**المفردات :** ﴿ نطبع ﴾ : الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئاً غير ما رسيخ فيها واستحوذ عليها ﴿ المعتدين ﴾ : جمع مفردة المعتدى والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس وشهواتها . بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه ، وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل ، وسنة من سننه فيهم ، عسى أن يعتبر بها أهل مكة ، فيعلموا أن الله سننا لا تبدل فيها ولا تحويل ، فيتقوا مثل تلك العاقبة التي حلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤها في مكنتهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ، ويتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوه .

### ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ﴾

أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه في تكذيب رسلهم ، فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا في زمانه أمماً شعبيّاً ، فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة ، فقد كانوا متحدّين معهم لغة ووطناً ، فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه في رسالته بحسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أى فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ، ممن كان مثله في سبب كفره ، وهو استكبار الرؤساء ، وتقليد الدهماء .

﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ : أى مثل هذا الطبع ، وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم في كل قوم كقومك ، إذ كانوا مثلهم في اللجاج والعتوّ والاستكبار في الأرض . ﴿ ولن نجد لسنة الله تبديلاً ﴾ (٢) .

## طرف من قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا السِّحْرُ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرُ هَذَا أَوْ لَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَنْقُصَنَّكَ عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُوسَى الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا الْقُوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحَقِّقُ اللَّهُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِيهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتَنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَنْقُومُ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ \* وَجَوْرَنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَاَلَكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ

كثيراً من الناس عنّا ايتننا لغفلون ﴿٩٢﴾ ولقد بونا بنى إسرائيل مبواً صدق ورزقتهم  
من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيمة فيما  
كانوا فيه يختلفون ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ ملأه ﴾ الملاء : أشرف القوم الذين يجتمعون على رأى ﴿ لثقتنا ﴾ لفته : عن  
كذا : صرفه . ﴿ ذرية ﴾ الذرية : فى اللغة صغار الأولاد وتستعمل فى الصغار والكبار عرفاً .  
﴿ يفتنهم ﴾ الفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد  
والتعذيب . ﴿ لعال ﴾ العلو : القهر والاستبداد . ﴿ أن تبوء ﴾ تبوء الدار : اتخذها مباءة ومسكناً  
يبوء ويرجع إليها كلما فارقتها لحاجة ﴿ قبلة ﴾ القبلة : ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة  
الصلاة . ﴿ زينة ﴾ الزينة : الحلل والحلى والأثاث والرياش والماعون والأموال ما وراء ذلك من الذهب  
والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك . ﴿ اطمس ﴾ الطمس : الإزالة يقال طمس الأثر ومحته الريح :  
إذا زال . ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ الشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان يقال :  
جازر المكان وجاوزه ﴿ وجاوزنا ﴾ تجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ويقال تبعته حتى اتبعته إذا  
كان قد سبقك فلحقته . ﴿ ننجيك ﴾ : نجملك على نجوة من الأرض والنجوة : المكان المرتفع من الأرض  
والآية : العبرة والعظة . ﴿ مبواً صدق ﴾ : أى منزلاً صالحاً مرضياً : وأصل الصدق ضد الكذب  
ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق ، إذا كان كاملاً  
فى صفة ، صالحاً للغرض المقصود منه ، كأنهم أردادوا أن كل ما يظهر فقيه من الخير فهو صادق والعلم  
هنا علم الدين .

هذا جانب من قصة كليم الله موسى ، وتلك القصة قد ذكرها القرآن فى مواضع كثيرة ، وفى كل  
موضع من المعانى والمقاصد ما يملأ النفس روعة وجلالا ، وهنا يذكر سبحانه أنه بعث موسى وهارون بعد  
الرسل الذين تقدموهما ، بعثهما إلى فرعون وملأه .

ولقد جاءت بعثة هارون تلبية لدعوة موسى ، فإن الله تعالى لما قال له : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه  
طغى ﴾ قال رب اشرح لى صدرى . ويسرلى أمرى \* واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى \* واجعل لى  
وزيراً من أهلى \* هارون أخى \* اشدد به أزرى \* وأشركه فى أمرى \* كى نسبحك كثيراً \* ونذكرك  
كثيراً \* إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴿ ١ ﴾ .

وفى سورة القصص جاء قوله تعالى : ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ وأخى  
هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردأً يصدقنى إني أخاف أن يكذبون \* قال سنشد عضدك  
بأخيک ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴿ ٢ ﴾ .

فماذا كان موقف فرعون وملائه ؟ لقد استكبروا وكانوا قوما مجرمين ، والاستكبار عن الحق نذير شؤم ، إذ الهلاك يأتي بعد الاستكبار ، فما بالك وقد جمعوا مع الاستكبار السخرية من الحق . قال تعالى ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ \* وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلمهم يرجعون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وقال تعالى ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ . ولم تكن هذه اللهجة خاصة بفرعون وملائه ، إنما كانت لغة المكذبين في كل عصر ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ عند انشقاق القمر : إن محمدا سحر أعيننا .

وهكذا أطلقوا لفظ السحر على آيات الله المعجزة ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ \* وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ \* فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ . وقال سبحانه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾<sup>(٤)</sup>﴾ .

إن منطلق الباطل قائم على الزور والبهتان والجحود والتكذيب والإنكار والسخرية والفسفسطة إذ كيف توصف المعجزات بأنها سحر ، والمعجزة حقيقة واقعة ، فقلب العصا ثعبانا كان أمرا حقيقيا لامراء فيه ولا لبس ولا غموض ، وانشقاق القمر كان كذلك ، والمعجزة بأنواعها فعلية كانت أو قولية أو تركية ، حقائق ثابتة .

أما السحر فإنه أوهام في العقل ، وتخيلات في الحس ، قال تعالى : ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾<sup>(٥)</sup>﴾ وقال جل جلاله : ﴿ سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم ﴾<sup>(٦)</sup>﴾ .

فالبون شاسع والمدى بعيد . لذا قال لهم موسى : ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ﴾

فاعجب معي لكلمة الحق وكلمة السحر ، فأيات الله حق ، وما يأتي به السحرة باطل .

قال تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحرون ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾<sup>(٧)</sup>﴾

فماذا كان منطق الباطل بعد ذلك ؟

﴿ قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما

بمؤمنين ﴾ .

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الزخرف . (٤) الآية ٤٣ من سورة فصلت . (٦) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات ١ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآية ٦٦ من سورة طه . (٧) الآية ٦٩ من سورة طه .

(٣) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة الذاريات .

فانظر معى كيف صرفوا الحديث إلى أمر لاصلة له بسياق الحديث قبله ، وكأن القضية عندهم قضية كبرياء ووجهة فى الأرض ، وعظمة وملك ورياسة .

ثم انظر إلى تلك المأساة المحزنة والمخزية والمؤسفة :

﴿ أَجِئْنَا لَتُلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (١) إنه التقليد المذموم ، والإصرار على الباطل : ﴿ أو لو كان آبؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ (٢) . ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ (٣) . ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قال أو لو جئناكم بأهدى مما وجدتم عليه آبائكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون \* فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٤) .

وأى كبرياء تلك التى يحرصون عليها ؟ ويخشون أن تكون لموسى وهارون ؟!

إن أصحاب الرسالات لا يريدون فى الأرض علواً ولا فساداً ولا كبرياء ، إنما هم كما قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٥) . وكما قال جل ذكره : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٦) . وكما قال جل ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٧) . فأى كبرياء يسعى وراءها أصحاب الرسالات ؟!

ثم انظر إصرار المكذبين على باطلهم إذ يقولون : ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ (٨) .

فماذا كان رأى فرعون فى هذا الموقف المحتدم ؟ لقد كان رأيه عجيباً ، فقد أمر بجمع السحرة ليدخل فى معركة فاصلة بينه وبين موسى وهارون : ﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾ فاعجب لقوله ﴿ بكل ساحر عليم ﴾ إنه أراد بذلك أن يحشد أكبر قوة ضاربة فى مجال السحر ، ظناً منه أن المعارك يُحكم لها أو عليها بالكثرة العددية ، ونسى أو تناسى أن المعركة هنا بين الحق والباطل ولقد كان فرعون يعلم هذا ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسنل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً ﴾ (٩) .

لقد جمع فرعون السحرة كما قال تعالى : ﴿ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ﴾ (١٠) وكان الموعد يوم الزينة ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ (١١) .

(١) الآية ١٠٤ من سورة المائدة . (٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد . (٨) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢١ من سورة لقمان . (٦) الآية ٩٠ من سورة الأنعام . (٩) الآية ٥٣ من سورة الشعراء .

(٣) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف . (٧) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف . (١٠) الآية ٨٠ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

وهكذا أراد موسى أن يلقوا أولا حتى يأتي الحق فيدمغ الباطل ، قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾<sup>(١)</sup>

فماذا كان مصير المعركة ؟ قال تعالى : ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلّه إن الله لا يصلح عمل المفسدين \* ويحقّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

إن من أسماء الله تعالى الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

لقد جاء تفصيل هذا المشهد في الأعراف وطه والشعراء : قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون \* فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين \* قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون ﴾<sup>(٢)</sup>

نعم لا إله غيرك ، ولا رب سواك ، إن الله تعالى مع الحق ، وإذا كان للباطل صولة . وجولة فإن العاقبة للحق . ومهما عربد الباطل في عرصات الدنيا فلا بد أن يصرعه الحق .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث وهو ابن أبي سليم قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور الآية التي من سورة يونس ﴿ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلّه إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحقّ الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ .

والآية الأخرى ﴿ فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾<sup>(٣)</sup> إلى آخر أربع آيات ، وقوله : ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾<sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملثهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرّفين ﴾

إن هذه الآية الكريمة تصور هذا الجو الرهيب الكتيب المكفر ، تصوره بما فيه من وعيد وتهديد ، وزجر وإرهاب وتعذيب وقتل وتشريد ، إن الذين آمنوا وهم الشباب آمنوا على خوف من فرعون ، هذا الشيطان الأكبر الذى ملأ طباق الأرض جورا وظلما وفسادا . ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . إنه كان من المفسدين ﴾<sup>(٥)</sup>

وما أدق قوله تعالى : ﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرّفين ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٣) الآية ١١٨ من سورة الأعراف (٥) الآية ٤ من سورة القصص .

(٢) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف . (٤) الآية ٦٩ من سورة طه (٦) الآيات ٣٠ ، ٣١ من سورة الدخان .

فتأمل كيف جعل العذاب المهين هو فرعون ، لقد آمن من آمن على وجل من أن يفتنهم فرعون ومن معه ، فإنه شرير متكبر متجبر . وهل هناك تجبر بعد أن يدعى لنفسه الألوهية . ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهايمان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون \* وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة . ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿<sup>(١)</sup>

لقد هدد فرعون بكل ألوان العذاب حتى قال : ما حكاه القرآن الكريم ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾<sup>(٢)</sup> .

أما موسى فقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ إنى عدت برى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾<sup>(٣)</sup> .

لقد علا فرعون فى الأرض ﴿ فحشر فنادى ﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿<sup>(٤)</sup> . ولقد أراد موسى بعد أن فصل الله فى معركة الحق مع الباطل ، وآمن من آمن ، أراد موسى أن يثبت جذور العقيدة فى سويداء القلوب ، فقال لقومه : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾

إذ الإسلام إذعان وانقياد وتسليم وتفويض لله تعالى . وحقيقة الإسلام أن يسلم لله وجهك . ﴿ ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾<sup>(٥)</sup> .

ومن علامات الإيمان التوكل على الله والاعتماد عليه ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾<sup>(٦)</sup> .

فمن آمن بالله توكل عليه ومن توكل عليه فقد أسلم له وانقاد لأمره ورضى بقضائه . فاللهم ارضنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم : « مؤمنون أنتم ؟ قال عمر : نعم يا رسول الله . قال : « فما حقيقة إيمانكم ؟ » قالوا : نصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ونشكر فى الرخاء . قال « مؤمنون ورب الكعبة » .

وحسبك أيها المسلم أن تتدبر قول ربك : ﴿ والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٧)</sup> .

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص . (٤) الإيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .

(٢) الآية ٢٦ من سورة غافر . (٥) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

(٣) الآية ٢٧ من سورة غافر . (٦) الآية ٣ من سورة الطلاق . (٧) الآية ١٢٣ من سورة هود .



لقد أجاب قومه قائلين : ﴿ على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونحنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ .

وهذا دعاء جاء مطابقا لمقتضى الحال كأنهم يسألون الله تعالى ألا يبتليهم بما يُشمت بهم عدوهم فيقول العدو : لو كان هؤلاء المؤمنون على حق ما ابتلوا ، فإن الظالمين أهل شماتة ، فقلوبهم مظلمة تهيج فيها عقارب الحقد ، وثعابين البغضاء ، وطلب النجاة من الله أمر مرغوب فيه ، فالكافر لا يرقب في المؤمن إلا ولاذمة ، فاللهم تداركنا بلطف برك .

ولقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يتبوأ لقومهما بمصر بيوتا يعبدون الله تعالى فيها ، ويطيعون الصلاة ، وفي المحافظة على عبادة الله بشرى للمؤمنين بالسعادة والفلاح في العاجل والآجل .

قال جل شأنه : ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾

ورأى نبي الله موسى ما رأى من جبروت فرعون وظلمه وعسفه وحنقه وطيشه ، فدعا عليه ربه حتى يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ .

والمراد بالزينة : الحُلل والحُلَى والأثاث والرياش والماعون .

الأموال : ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك ، .

والطمس : الإزالة يقال : طمس الأثر وطمسته الريح : إذا زال .

والشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان .

وإنما قال تعالى : ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ بضمير التشية مع أن موسى هو الذى دعا ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء موسى ، فكأنه دعا معه . وأمره تعالى لهما بالاستقامة كأمره لرسوله محمد ﷺ في قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾ <sup>(١)</sup> والمراد بالاستقامة الثبات على الإيمان ، كما قال الصادق المعصوم لسفيان بن عبد الله : « قل آمنت بالله ثم استقم » <sup>(٢)</sup> .

وتأخذ الآيات البينات بعد ذلك في بيان المشهد الختامى لفرعون وقومه ، فيقول جل شأنه :

﴿ وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾

(١) الآية ١١٢ من سورة هود . (٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٦٢) . والإيمان (٤١٣:٣) وفي (٣٨٥:٤) .

إنه مشهد ينطق بالجلال والعظمة تقشعر لهوله الأبدان يقول الله تعالى فى وصفه : ﴿فأتبعوهم مشرقين﴾ \* فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون \* قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴿١﴾ .  
لقد ادلهمت الخطوب ، واحتدمت الحن ، فهؤلاء بنو إسرائيل وعلى رأسهم موسى وهارون يقفون موقفا صعبا ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم ، وأى عدو ! إنه الجبار العنيد صاحب الصولة والصولجان ، ورجل البغى والطغيان ، لقد أتبعهم بجنده وخيله وسلاحه وجبروته .

هنا بلغت القلوب الحناجر ، قال قوم موسى وقد ارتجفوا من هول ما رأوا : ﴿إنا لمدركون﴾ ﴿٢﴾ .  
قال موسى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ، من منطق الإيمان الذى إذ ابشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يحرك العوالم ويسير الجبال ويجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، قال ﴿كلا إن معى ربى سيهدين﴾ ﴿٣﴾ .

وهنا تأتى النجدة من رافع السماء بلا عمد . قال تعالى : ﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾ \* وأزلفنا ثم للآخرين \* وأنحينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين \* إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ ﴿٤﴾ .

لقد قطع الله تعالى البحر بينى إسرائيل وخلفه وراءهم بعدما جعله طرقا يابسة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ورأى موسى بعد عبور البحر أن يضربه بعصاه حتى يعيده كما كان ، فلا يتمكن فرعون من عبوره ، فقال له الله تعالى : ﴿واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون﴾ ﴿٥﴾ .

وظن فرعون أن البحر قد سُخر له كما سُخر لموسى وأن الأمور بيده وأنه الفعّال لما يريد ، ونسى أو تناس أن للكون لها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء . قال تعالى ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا﴾

لايعبر البحر فحسب إنما لينزل بهم العقاب والعداب ، فكان الجزاء من جنس العمل : هاج الموج فكان كالجبال ، كما قال تعالى فى سورة طه : ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر ييسرا لا تخاف دركا ولا تخشى﴾ \* فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ ﴿٦﴾ .

فالتعبير بالموصول هنا لإفادة التهويل والتفخيم ﴿ما غشيهم﴾ ، وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا﴾ .  
لقد أطبقت عليهم الأمواج ، فإذا فرعون ينادى عندما أدركه الغرق ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل﴾ .

وحملته نفسه. الأمانة وكبره المقيت على ألا ينطق بلفظ الجلالة ، فلم يقل أنه لا إله إلا الله ، وإنما قال

(٤) الآيات ٦٣ - ٦٨ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ٢٤ من سورة الدخان .

(٦) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة طه .

(١) الإيات ٦٠ - ٦٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٦٢ من سورة الشعراء .

﴿إلا الذي آمن به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ ولكن إيمانه مغشوش ، وإسلامه زائف ، لم يكن إيمانه تصديقا ، ولم يكن إسلامه إذعانا ، إنما لأنه أدركه الغرق .

لذا جاء الرد قاطعا ، والجواب حاسما وساطعا ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾  
أى أقول ذلك الآن لما أدركك الغرق ، ترجو النجاة ولم تتخذ لها الأسباب كيف يكون ذلك كذلك والسفينة لا ترسو على ييس . ليس الإيمان بالتنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرّتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

يقول الله تعالى في فرعون وأمثاله : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا لنكونن من خلفك وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ :

هذا الجانب من جوانب العبرة ، فقد شاءت إرادة الله واقتضت حكمته أن ينجو فرعون بجسده ، ولتلقه الرياح على شاطئ البحر جسداً جامداً لا حراك فيه ولا حياة ، ذلك الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى ، فيقول ما علمت لكم من إله غيرى ، فأى إله هذا الذى مات ، ومن الذى أماته ، فسبحانه صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾ \* تولى الليل في النهار وتولى النهار في الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب<sup>(٢)</sup>

وهكذا بعد ذكر الجبارة وطغاة البشر يأتى الله بجانب العبرة ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم لوط ﴿وإنكم لتمرن عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾<sup>(٣)</sup> وكما قال ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾<sup>(٤)</sup> وكما قال في سورة القمر ﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾ \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر<sup>(٥)</sup> وكما قال في شأن فرعون ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾<sup>(٦)</sup> وكما قال بعد ذكر الأنبياء في سورة هود ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم شديد﴾ \* إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود<sup>(٧)</sup>

وكما قال بعد ذكر الجبارة في سورة العنكبوت ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً

(١) الآيات ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر . (٤) الآية ٣٥ من سورة العنكبوت . (٦) الآية ٢٦ من سورة النازعات .

(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران . (٥) الآيات ٢١ ، ٢٢ من سورة القمر .

(٣) الآيات ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات . (٧) الآيات ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة هود .

ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون \* مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴿١﴾.

فهل من مدكر وهل من معتبر ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون .

قوله تعالى : ﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل ميوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده ، قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبنى محمد ﷺ ، والجاحدين من قومه المفتريين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم ، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عدداً ، وأشد قوة ، وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم ، وتدبروا مليا خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وما هو ذا أهلك أكثر زعمائهم ، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين ، وأعطاهم أعظم ملك فى العالمين .

﴿ ولقد بوأنا بنى إسرائيل ميوأ صدق ﴾ : أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم ، وهو بمعنى قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾ (٢).

﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا ، وفيها كثير من الغلات والثمار والأنعام ، وصيد البر والبحر .

﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة ، والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته والإقرار به ، وببعثه ، غير مختلفين فيه بالنعت الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض ، وآمن آخرون .

﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز المحقين من المبطلين ، ويدخل الأولين الجنة ، والآخريين النار وبئس القرار .

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

## تقرير صدق القرآن

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ  
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِبَايَاتِ اللَّهِ  
 فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ  
 كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ حقت عليهم كلمة ربك ﴾ : أى ثبت عليهم قضاؤه وحكمه .

إن الله عز وجل قد ذكر بنى إسرائيل ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ وهم حملة الكتاب  
 ( التوراة والإنجيل ) ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم إذ أمر رسول الله مكتوب عندهم ، وهم يعرفونه  
 كما يعرفون أبناءهم ، فأراد هنا جل شأنه أن يؤكد علمه بصحة القرآن ، وصدق نبوة محمد عليه الصلاة  
 والسلام ، على سبيل المبالغة ، فقال : فإن وقع منك شك فرضاً وتقديراً ( كما تقول لابنك . إن كنت  
 ابني حقاً فافعل كذا ) مما أنزلنا إليك من قصص نوح وموسى مثلاً فقل لعلماء أهل الكتاب الذين يقرءون  
 الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، والمراد أنهم على علم تام بصحة ما أنزل إليك ، وهم يصلحون  
 لمراجعة مثلك ومساءلتهم ، فضلاً عن غيرك .

فالغرض وصف الأخبار بالعلم لا وصف النبي ﷺ بالشك والريب ، وعن ابن عباس رضى الله عنه  
 « لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم » .

وقيل خطوب رسول الله ﴿ كنت في شك ﴾ والمراد أمته ، أو من يقع في شك ، فعليه بالرجوع إلى  
 مصادر العلم من الكتب الإلهية ، ومناقشه أهل العلم ورجاله ، تالله لقد جاءك الحق الثابت من ربك الذى  
 لا شك فيه أبداً . ولا ريب ، فلا تكونن من الممترين الشاكين ، والمراد دُم على ما أنت عليه ، ولا تكونن  
 من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا تعريض بالكفار المكذبين  
 الخاسرين الضالين .

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك ﴾ وثبت فيهم حكمه وقضاؤه ﴿ لا يؤمنون ﴾ أبداً ، وليس  
 المعنى أن الله يمنعهم من الإيمان ، بل هم الذين يختارونه ويكسبونه ، والمراد أن من علم الله فيهم شراً  
 لا بد من حصوله ، لأن علم الله لا يتخلف .

إن هؤلاء الذين علم الله أنهم لا يؤمنون ، هم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية كونية أو علمية أو  
 قرآنية لا يؤمنون ، حتى يروا العذاب الأليم ، وحينئذ لا ينفعهم إيمان ولا توبة .

## متى يكون الإيمان صحيحاً

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَاءَ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَمَتَّعْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : ﴿ الرجس ﴾ : القذارة .. وأقبح الخبث المعنوى

الإيمان الذى ينفع صاحبه هو الإيمان وقت التكليف ، أما إذا حصل فى وقت تسقط فيه التكليف ، وذلك عند حشجة الموت ، أو عند الغرق كما حصل لفرعون . أو عند نزول العذاب فلا ينفع نفساً ، والحالة هذه إيمانها ، فهلا كانت قرية من القرى التى أرسل فيها الأنبياء السابقون آمنتم فى وقت ينفعها الإيمان ، أى وقت العمل ، لا وقت نزول العذاب ، واستحالة العمل . والمعنى : ما كانت قرية آمنت إلا قوم يونس آمنوا لما ذهب مغاضياً ، وحذرهم العذاب الشديد ، ورأوا تباشيره .

فلما آمنوا كشفنا عنهم العذاب ، ومنعنا عنهم الخزي والهلاك فى الدنيا : ومتعناهم لما آمنوا إلى انقضاء آجالهم المقدره لهم .

﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ﴾ بأن يخلقهم وفيهم الاستعداد للإيمان فقط كالملائكة ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن شاءت مشيئته العالية لحكمة هو يعلمها ، أن يخلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر ، وللإيمان والكفر ، وتركه بلا إلهاء وقسر ، بل جعل له الحرية الكاملة لاختيار أحد الطريقتين ، بعد أن هداه النجدين ، وأبان له الأمرين .

﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ على الإيمان ؟ لا إكراه فى الدين لخلق أبداً ، وإنما الذى يقدر على الإكراه هو الله سبحانه القادر على كل شئ .

﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ﴾ وإرادته ﴿ ويجعل الرجس ﴾ والهلاك ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ ولا يختارون الخير ، ولا يسلكون سبل الرشاد والسداد ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، لعلمكم تذكرون .

## إنذار وبشارة وحث على العلم

قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾  
 فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ  
 الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿أيام الذين خلوا﴾ : المراد وقائع الذين مضوا ، وحوادثهم .

يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكير بعين البصيرة والاعتبار ﴿انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ من آيات الله البينات ، انظروا ما فيها ، من نظام رتيب ، وترتيب عجيب ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴿١﴾

انظر إليها بعين البصر والبصيرة ، تجد خالق هذا الكون على هذا النظام لا يمكن أن يتركه هملاً ، ولم يخلقه عبثاً ، وهذا يدعو إلى التصديق بالرسول ، والإيمان بالقرآن والوحي .

ولكن ﴿ما تغني الآيات﴾ القرآنية والآيات الكونية ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ بالله ورسله ، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله ، وليس المراد بقوله تعالى فيما مضى ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ ﴿٢﴾ المجانين بل الذين لم يستخدموا العقول فيما خلقت له من المعرفة الصادقة ، والإيمان الكامل ، فهل ينتظر الذين لم يؤمنوا ولم يستفيدوا من الآيات إلا وقائع وحوادث كالتى نزلت بمن مضى من الأقسام السابقين ، وقد مر عليك جزء منها ، في هذه السورة .

قل لهم إذا كان الأمر كذلك ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾

وفي النهاية قد حكم الله حكماً لا راد له ، إنه سينجي رسله والمؤمنين ، حكم بذلك وقدر وقال في كتابه ﴿كذلك حقاً علينا لنجي المؤمنين﴾ ومن أصدق من الله قتيلاً ؟ ومن أوفى بعهده من الله ، وفي هذه الآية وجوب النظر في الكون والبحث عما فيه للاعتبار ، وتربية الخشية من الله صاحبه ، والإيمان به ، وحث على العلم والبحث في الكون .

ولا غرابة ، فأنت إذا علمت أن أول ما نزل على نبيك محمد ﷺ قوله تعالى : ﴿اقرأ باسم ربك﴾ ﴿٣﴾ أدركت أن الإسلام دين علم وعمل ، وأن نبيك الأمي هو المعلم الأول .

(٣) الآية الأولى من سورة العلق .

(١) الآيات ٢٨ - ٤٠ من سورة يس .

(٢) الآية ١٠٠ من سورة يونس .

## المبادئ العامة للدعوة الإسلامية

قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ  
أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ  
حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ  
فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ  
وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ يتوفاكم ﴾ : يقبض أرواحكم . ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الشرك ما يتبعه  
﴿ بضر ﴾ : من مرض أو ألم .

قل يا محمد للناس جميعاً قولاً مجملاً مختصراً ، تبين فيه الخطوط الرئيسية لرسالتك العامة الشاملة ﴿ إن  
كنتم في شك ﴾ قليل ﴿ من ديني ﴾ ورسالتى فاعلموا أنى ﴿ لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ أبداً  
كالأحجار والأصنام والأوثان والبشر فهؤلاء جميعاً لا ينفعون ، ولا يضرّون أنفسهم ، فكيف يتصور منهم  
نفع أو ضرر لغيرهم ؟ ﴿ ولكن أعبد الله ﴾ وحده لا أشرك به شيئاً سبحانه وتعالى ﴿ الذى يتوفاكم ﴾  
إليه وإليه مرجعكم جزاؤكم ، وعنده حسابكم الدقيق الذى أحصى كل شئ عدداً ﴿ وأمرت أن أكون  
من المؤمنين ﴾ الناجين من عذاب يوم القيامة .

وهذا الوصف بالإيمان يجمع جميع شعبه ونواحيه وأمرت بأن ﴿ أقم وجهك ﴾ خالصاً لله ولدينه مائلاً  
عن الشرك بكل صورته . وأشكاله ، البسيطة والكبيرة ، ونهيت عن أن أكون من المشركين .

﴿ ولا تدع ﴾ يا محمد متجاوزاً الله سبحانه ﴿ ما لا ينفعك ولا يضرّك ﴾ فإن فعلت فإنك إذا من  
الظالمين ﴿ لنفسك ﴾ .

واعلم ان الله سبحانه وتعالى ﴿ إن يمسسك بضر ﴾ فى جسمك أو فى مالك بأى شكل كان ﴿ فلا  
كاشف ﴾ لهذا الألم والضرر ﴿ إلا هو ﴾ .

وإن يرد بك خيراً فى دينك أو دنياك فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لفضله ، سبحانه  
وتعالى عما يصفونه ، بل فضله يصيب به من يشاء من خلقه ، حسب حكمته وعلمه وهو الحكيم فى  
أمره ، العليم بخلقهم ، وهو الغفور الرحيم .



## خلاصة ما مضى

قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٩﴾

هذه خاتمة المطاف في تلك السورة العظيمة التي شرحت الأسس العامة للدين ، وبينت عقائد الإسلام التي ينكرها مشركو العرب من توحيد الله ، والوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وما ينكرونه من صفات الله سبحانه ، وتكلمت عن القرآن الكريم وهدايته ، وما فيه من خير للبشرية جميعاً ، وكيف كانت الأمم السابقة ما حصل لها نتيجة كفر من كفر ، وإيمان من آمن ، هذا النداء مأمور به الرسول الأعظم ، هو للناس جميعاً على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، من سمع منهم بالقرآن ومن سيسمع في المستقبل ، وهو إجمال عام لما في السورة .

﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ على لسان رجل منكم أوحى إليه هذا الحق الثابت ، الذي لا شك فيه ، كتاب أحكمت آياته ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (١) ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنا يضل ﴾ على نفسه ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ إن أنا إلا نذير بشير .

﴿ واتبع ﴾ يا محمد ﴿ ما يوحى إليك من ربك ﴾ في هذا القرآن علماً وعملاً وتعليماً وحكماً وهداية وإرشاداً ﴿ واصبر ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم حتى يحكم الله بينك وبينهم ، ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ .

يا أيها الناس : إن الله الذى وضع نظاماً دقيقاً محكماً لهذا الكون وما فيه ، لم يختل ولن يختل ، لا يعقل أن يترك الانسان المكرم عنده ، المشرف من خلقه بلا نظام ولا قانون يحكمه ويهديه ، والله قد أنزل القرآن ، وفيه حكم الله وآياته وقوانينه الصالحة النافعة ، قوانين إلهية ، ودساتير ربانية ، صنعها صانع السموات والأرض ، وأوجدها موجد هذا الكون .

أفبعد هذا تتركونها إلى غيرها ﴿ أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (٢)

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

## سورة هود

## مقدمة

عدد آياتها مائة وثلاث وعشرون ، وكلماتها ألف وتسعمائة وإحدى عشرة كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وستائة وخمسة .

قال صاحب البصائر :

وسميت سورة هود لاشتغالها على قصة هود .

المقصود الإجمالى من السورة : بيان حقيقة القرآن ، وإطلاع الحق سبحانه على سرائر الخلق وضمايرهم ، وضمانه تعالى لأرزاق الحيوانات ، والإشارة إلى تخليق العرش ، وابتداء حاله ، وتفاوت أحوال الكفار وأقوالهم ، وتحدى النبى ﷺ العرب بالإتيان بمثل القرآن ، وذم طلاب الدنيا المعرضين عن العقبى ، ولعن الظالمين وطردهم ، وقصة أهل الكفر والإيمان

وتفصيل قصة نوح ، وذكر الطوفان ، وحديث هود ، وإهلاك عاد ، وقصة صالح وثمود ، وبشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بإسحاق ، وحديث لوط وإهلاك قومه ، وذكر شعيب ومناظرة قومه إياه . والإشارة إلى قصة موسى وكون فرعون يكون مقدم قومه إلى جهنم .

وذكر جميع أحوال القيامة ، وتفصيل الفريقين والطريقين .

وأمر الرسول ﷺ بالاستقامة ، والتجنب من أهل الظلم والضلال ، والمحافظة على الصلوات الخمس والطهارة ، وذكر الرحمة فى اختلاف الأمة ، وبيان القصص وأنباء الرسل ، لتثبيت قلب النبى ﷺ ، والأمر بالتوكل على الله فى كل حال

المتشابهات :

قوله ﴿ فَإِمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا ﴾ بحذف النون والجمع ، وفى القصص ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ ﴾ عدت هذه الآية من المتشابهة فى فصلين : أحدهما حذف النون من ( فإلم ) فى هذه السورة ، وإثباتها فى غيرها ، وهذان فصل الخطاب ، وذكر فى موضعه . والثانى جمع الخطاب ههنا ، وتوحيده فى القصص ، لأن ما فى هذه السورة خطاب للكفار ، والفعل لمن استطعت ، وما فى القصص خطاب للنبى ﷺ ، والفعل للكفار .

قوله ﴿ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

قوله ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخِسُونَ ﴾ وفى النحل ﴿ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ لأن هؤلاء صدوا

عن سبيل الله ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا فهم الآخرون ، يضاعف لهم العذاب ، وفي النحل صدوا فهم الخاسرون

قال الإمام ( الإسكافي ) : لأن ما قبلها في هذه السورة ( يبصرون ، يفترون ) لا يعتمدان على ألف بينهما ، وفي النحل ( الكافرون والغافلون ) فللموافقة بين الفواصل ، جاء في هذه السورة : الأخسرون وفي النحل : الخاسرون .

قوله ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ﴾ بالفاء وبعده : ﴿ فقال الملاء ﴾ بالفاء وهو القياس .

قوله : ﴿ وأتاني رحمة من عنده ﴾ وبعده ﴿ وأتاني منه رحمة ﴾ وبعدهما ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ لأن عنده ، وإن كان ظرفاً فهو اسم فذكر في الأولى بالصرح والثانية والثالثة بالكتابة لتقدم ذكره ، فلما كنى عنه قدم لأن الكتابة يتقدم عليها الاسم الظاهر ، نحو : ضرب زيد عمراً فإن كنى عن عمرو قدمته نحو عمرو ضربه زيد ، وكذلك زيد أعطاني درهماً من ماله ، فإن كنى عن المال قلت : المال زيد أعطاني منه درهماً .

قال الإمام : لما وقع ﴿ آتاني رحمة ﴾ في جواب كلام فيه ثلاثة أفعال كلها متعد إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجار ومجرور ، وهو قوله : ﴿ مانراك إلا بشراً مثلاً ومانراك اتبعك ﴾ و ﴿ نظنكم كاذبين ﴾ أجرى الجواب مجراه ، فجمع بين المفعولين من غير حائل ، وأما الثاني فقد وقع في جواب كلام قد حيل بينهما بجار ومجرور ، وهو قوله ﴿ قد كنت فينا مرجوا ﴾ لأن خبر كان بمنزلة المفعول ، لذلك جعل في الجواب بين المفعولين بالجار والمجرور

قوله ﴿ أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ في قصة نوح وفي غيرها ﴿ أجزاً إن أجرى ﴾ لأن في قصة نوح وقع بعدها ﴿ خزائن ﴾ ولفظ المال للخزائن أليق .

قوله ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ وفي الأنعام ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ لأن ( ما ) في الأنعام آخر الكلام ( بدأ ) فيه بالخطاب ، وختم به وليس ( ما ) في هذه السورة آخر الكلام بل آخره ﴿ تزدري أعينكم ﴾ فبدأ بالخطاب ، وختم به في السورتين .

قوله ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً ﴾ في قصة هود وشعيب بالواو ، وفي قصة صالح ولوط : ﴿ فلما ﴾ بالفاء لأن العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد ، فإن في قصة هود ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ وفي قصة شعيب ﴿ سوف تعلمون ﴾ والتخويف قارنه التسويف ، فجاء بالواو والمهلة ، وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد ، فإن في قصة صالح ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ وفي قصة لوط : ﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب .

قوله ﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ وفي قصة موسى ﴿ في هذه لعنة ﴾ لأنه لما ذكر في الآية الأولى النصفة والموصوف اقتصر في الثانية على الموصوف للعلم به ، والاكتفاء بما فيه .

قوله ﴿إِنْ رَأَى قَرِيبٌ مَجِيبٌ﴾ وبعده ﴿إِنْ رَأَى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لموافقة الفواصل ، ومثله ﴿حَلِيمٌ﴾  
 أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ وفى التوبة ﴿لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ للروى فى السورتين .

قوله : ﴿وَإِنَّا لَفَى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ وفى إبراهيم ﴿إِنَّا لَفَى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾  
 لأن فى هذه السورة جاء على الأصل ( وتدعونا ) خطاب مفرد ، وفى إبراهيم لما وقع بعده ( تدعونا )  
 بنونين لأنه خطاب جمع حذف النون استثقلاً للجمع بين النونات ، ولأن فى سورة إبراهيم اقترن بضمير  
 قد غير ما قبله بحذف الحركة ، وهو الضمير المرفوع فى قوله ﴿كَفَرْنَا﴾ فغيرت قبله فى ﴿إِنَّا﴾ بحذف  
 النون وفى هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله ، وهو الضمير المنصوب ، والضمير المجرور ، فى قوله ﴿فِينَا﴾  
 مرجواً قبل هذا أثبتنا أن نعبد ما يعبد آبائنا ﴿فَصَحَّ﴾ كما صح قوله ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾  
 ثم قال ﴿وَأَخَذْتُ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ التذكير والتأنيث حسنان لكن التذكير أخف فى الأولى وفى  
 الأخرى وافق ما بعدها ، وهو ﴿كَأَمْ بَعْدَتْ ثُمُودٌ﴾ .

قال : الإمام : لما جاءت فى قصة شعيب مرة الرجفة ، ومرة الظلة ، ومرة الصيحة ، ازداد التأنيث  
 حسناً .

قوله : ﴿فِي دِيَارِهِمْ﴾ فى موضعين فى هذه السورة فحسب ، لأنه اتصل بالصيحة وكانت من  
 السماء فازدادت على الرجفة ، لأنها الزلزلة وهى تختص بجزء من الأرض فجمعت مع الصيحة ، وأفردت  
 مع الرجفة .

قوله : ﴿إِنْ ثُمُوداً﴾ بالتونين ذكر فى التشابه ، وثمرود من الثمد وهو الماء القليل ، جعل اسم فعله ،  
 فهو منصرف من وجه ، وممنوع من وجه ، فعرفوه فى حالة النصب لأنه أخف أحوال الاسم ، ومنعوه فى  
 حالة الرفع لأنه أثقل أحوال الاسم ، وجاء الوجهان فى الجر ، لأنه واسطة من الخفة والثقل .

قوله ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ وفى القصص ﴿مَهْلِكُ الْقُرَىٰ﴾ لأن الله سبحانه  
 وتعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل فى النفى ، لأن هذه اللام لام الجحود ولا يظهر بعدها أن  
 ولا يقع بعدها المصدر ، ويختص بكان ولم يكن ، ومعناه ما فعلت فيما مضى ولا أفعل فى الحال ، ولا أفعل  
 فى المستقبل ( وكان ) الغاية فى النفى وفى القصص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو  
 لأحد الأزمنة غير معينة ثم نفاه .

قوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾

استثنى فى هذه السورة من الأهل قوله ﴿إِلَّا امْرَأَتُكَ﴾ ولم يستثن فى الحجر اكتفاء بما قبله وهو  
 قوله ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مَّجْرَمِينَ إِلَّا آلَ لُوطَ إِنَّا مُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ فهذا الاستثناء الذى انفردت به  
 سورة الحجر ، قام مقام الاستثناء من قوله ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ . وزاد فى الحجر ( واتبع  
 أدبارهم ) لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ، ولا يخفى عليه حالهم .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ  
إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا  
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ  
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ  
لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الصُّدُورِ ﴿٥﴾

روى أبو يعلى بسنده عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شريك ؟ قال

« شيتنى هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » (١)

**المفردات :** ﴿ آلر ﴾ : حروف هجائية تنطق بأسمائها فيقال ( ألف — لام را ) وتشير إلى إعجاز القرآن العظيم ، وقد يكون المراد بها التنبيه . ﴿ أحكمت ﴾ : إحكام البناء : كالقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل . ﴿ فصلت ﴾ : تفصيل : العقد بالفرائد : جعل خرزاه أو مرجانه بلون بين كل خرزتين من لون آخر . ﴿ متاعا ﴾ : المتاع : كل ما ينتفع به في المعيشة وحاجة البيوت . ﴿ أجل مسمى ﴾ : الأجل المسمى : هو العمر المقدّر . ﴿ يثنون ﴾ : ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه وإثناء الثوب إطواؤه وثناه عنه : لواه وحوله وثناه عليه أطبقه وطواه ليخفيه فيه وثنى عنانه عنى : تحول وأعرض ﴿ ليستخفوا ﴾ : الاستخفاء : محاولة الخفاء واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ (٢) .

قوله تعالى ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴿ :

قال مجاهد وقتادة : أى هى محكمة فى لفظها ، مفصلة فى معناها .

وجاء فى تفسير المراعى : هذا كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظر والتأليف ، واضحة المعانى ، لا تقبل شكاً ولا تأويلاً ولا تبديلاً ، كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل ، وجعلت فصولاً متفرقة ، فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ ، وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد ، فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ، ويعطيهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذاك ومصادره وموارده . أهـ .

فقد جمع الله تعالى لهذا الكتاب العزيز الأحكام والتفصيل ، فهو لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، ويكفى هذا الكتاب شرفاً وقدرأ أن الله تعالى قد توكل بحفظه فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ .

وهذا هو الأصل فى رسالات السماء ، توحيد الله تعالى ربا والهاً وصفات وأسماء ، ولقد نص الكتاب العزيز على ذلك فقال سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِىْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾<sup>(٤)</sup> وقال ﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾<sup>(٥)</sup> وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره<sup>(٦)</sup> وقال سبحانه ﴿ يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ تُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾<sup>(٧)</sup>.

قوله جل شأنه : ﴿ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

نذير بالعذاب ، وبشير بالجنة .

جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصبحكم أستم مصدق ، فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد »<sup>(٨)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَتَّبِعْكُمْ مَتَاعاً حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .

وكما أمرتكم بتوحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة ذاتا وصفاتا وأفعالا ، فإننى أمركم بالاستغفار والتوبة ، والاستغفار طلب المغفرة ، والتوبة إقلاع عن الذنب ، وعزم على عدم العود ، وندم على ما فات ، وأداء الفرائض ، والوفاء بالحقوق .

قال تعالى فى شأن نبيه نوح ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا \* يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا \* وَبَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾<sup>(٩)</sup>.

(١) الآية ٩ من سورة الحجر . (٤) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة هود . (٦) الآية ٨٤ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٦١ من سورة هود . (٧) الآية ٢ من سورة النحل .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٨) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١: ١١١) و (سورة ٢: ٢٦) . ومسلم فى الإيمان (٣٥٥) .

(٩) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح .

وفي شأن هود ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يَرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>

وفي شأن صالح ﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾<sup>(٢)</sup>

وفي شأن شعيب ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾<sup>(٣)</sup>  
وها هو ذا خاتم الأنبياء والمرسلين يقول لهم ﴿وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ وكان يقول « يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُوا فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَاسْتَغْفِرُهُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ »<sup>(٤)</sup>

وليس الجزاء مقصوراً على الدنيا وحدها ، بل إن الله تعالى جمع بين السعادتين للمستغفرين التائبين ، فقال : ﴿يَتَعَمَّكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ أى فى الدنيا قال تعالى ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾<sup>(٥)</sup> وقال جل شأنه ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلِأَجْرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٧)</sup> وقال ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(٨)</sup>

وفى هذا الموضع يقول سبحانه : ﴿يَتَعَمَّكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا﴾ فيحييكم حياة طيبة آمنة مطمئنة ، يأتاكم فيها الرزق رغداً من كل مكان ، أما فى الآخرة فسيؤتى كل ذى فضل فضله ، حيث يعطى على الحسنة عشر أمثالها ويزيد ، ويجزى على السيئة مثلاً ويغفر .

وبعد ذلك يقرن الوعيد بالوعد حتى يقوم الميزان بالقسط بين الترهيب والترغيب فيقول ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ :

أى فإن أعرضتم وانصرفتم ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا \* السَّمَاءُ مِنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾<sup>(٩)</sup> ، ﴿إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾<sup>(١٠)</sup>

فيا له من يوم ما أطوله ، ومن خطب ما أهوله ، ومن جبار ما أعدله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ

(٧) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٨) الآية ١٢٢ من سورة النحل .

(٩) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة المزمل .

(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الدييات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٥٧) والإمام أحمد فى (٤ : ٢١١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤١٠) وفى (٥ : ٤١١) .

(١٠) الآية ٢٩ من سورة الإنسان .

(١) الآية ٥٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٦١ من سورة هود .

(٣) الآية ٩٠ من سورة هود .

(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .

(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .

زلزلة الساعة شىء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿١﴾ .  
إنه يوم كبير الخطر ، لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ثم يؤكد سبحانه أنه لا مفر من لقائه ، فيقول ﴿لميتون﴾ مرجعكم وهو على كل شىء قدير ﴿كان ذلك على ربك حتماً مقضياً﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون \* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿٢﴾ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿٣﴾ . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون \* وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون \* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴿٤﴾ .  
والله تعالى هو القدير على بعثكم وحشركم . ونشركم وحسابكم . وجزائكم ، لا يعجزه شىء فى السماوات ولا فى الأرض ، لا يشغله سائل ، ولا ينقصه ناثل .

قوله تعالى ﴿ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ .

أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يخنون ظهورهم ، وينكسون رءوسهم ، كأنهم يحاولون طي صدورهم على بطونهم ، حين سماع القرآن ليستخفوا منه ﷺ حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم .

روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبي ﷺ ثنى صدره كيلا يراه أحد .

﴿ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ :

أى إن ثنى صدورهم ، وتنكيس رءوسهم ، ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم ، لا يغنى عنهم شيئاً ، فإن ربهم يعلم ما يسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم ما يعلنون نهاراً .

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ : أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور ، وخواطر القلوب ، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شىء من توحيده ، أو أمره أو نبيه .  
قال زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتمن الله ما فى قلوبكم . ليخفى ومهما يكتم الله يعلم  
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر . ليوم حساب أو يعجل فينتقم

(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة الأنعام .

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

(٣) الآية ٨ من سورة الجمعة .



عبد الحميد كشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثاني عشر

المكتبة المصرية الحديث

## الرزق والخلق

\* وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِصُهُ الْأَيُّومُ يَا تَبِيعُهُمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾

**المفردات :** ﴿الدابة﴾ : اسم لكل نسمة حية تدب على الأرض زحفاً أو على قوائم ثنتين فأكثر وغلب عرفاً على ما يركب من الخيل والبغال والحمير . والدبُّ والديب : الانتقال الخفيف البطيء كديب الطفل والشيخ المسن والعقرب ﴿والمستقر﴾ : مكان الاستقرار من الأرض . ﴿والمستودع﴾ : حيث كان مودعاً قبل الاستقرار في صلب أو رحم أو بيضة ﴿والعرش﴾ : مركز نظام الملك ومصدر التدبير . ﴿والبلاء﴾ : الاختبار والامتحان . ﴿والأمة﴾ : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى ﴿واذكر بعد أمة﴾ <sup>(١)</sup> وأصلها الجماعة من نوع واحد ، أو دين واحد ، أو زمن واحد ﴿مصرفاً عنهم﴾ : أى مدفوعاً ومجبوراً . ﴿وحاق﴾ : نزل وأحاط .

لا تعجلان فليس الرزق بالعجل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فالو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل

اعلم يا أخا الإسلام علم اليقين ، بل عين اليقين ، بل حق اليقين أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ﴿وماتدرى نفس ماذا تكسب غداً و ماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾ <sup>(٢)</sup> وما قدر على ما ضغيك أب تمضغه فلا بد أن تمضغه فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فمه (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً) <sup>(٣)</sup>.

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : علمت أن رزقي لا يأخذه غيرى ، فاطمأن قلبي ، وعلمت أن

(٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(١) الآية ٤٥ من سورة يوسف .

(٣) أخرجه الترمذى في الزهد (٣٣) . وابن ماجه في الزهد (١٤) . والإمام أحمد في (١ : ٣٠ ، ٥٢) .

عملى لا يقوم به سوى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله .

اعلم يا ابن آدم أن الله قد ضمن الأرزاق لكل خلقه ، وليس الرزق مقصوراً على المأكّل والمشرب ، إنما هو أعم من ذلك وأرحب أفقاً ، فهدوء البال رزق ، والعافية رزق ، وحسن التدبير رزق ، والعلم رزق ، والذكاء رزق ، والصحة رزق .

وقد ضمن الله تعالى الأرزاق لكل خلقه ، فهو يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب ﴿١﴾ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴿٢﴾ . ﴿٣﴾ وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون \* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿٤﴾ .

﴿٥﴾ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿٦﴾ ﴿٧﴾ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون \* فذلکم الله ربکم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴿٨﴾ ﴿٩﴾ وفى الأرض آيات للموقنين \* وفى أنفسكم أفلا تبصرون \* وفى السماء رزقكم وما توعدون \* فوزب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿١٠﴾

وما من دابة فى الأرض إلا وقد ضمن الله رزقها وهداها إليه ، فالطير تغدو خماساً وتروح بطاناً : ﴿١١﴾ قال فمن ربكما يا موسى \* قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴿١٢﴾ .

والرزق قد جاء مقترنا بعلم الله المحيط ، فسبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى ﴿١٣﴾ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿١٤﴾ : يعلم مستقرها على تلك الأرض كما علم مستودعها من قبل فى عالم الأرحام ، كل فى كتاب مبين ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴿١٥﴾ قال فما بال القرون الأولى \* قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى \* الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى \* كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى \* منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴿١٦﴾ .

وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . وتقدير هذه الأيام فى علم الله تعالى ﴿١٧﴾ وكان عرشه على الماء ﴿١٨﴾ أى قبل خلق السموات والأرض ، والعرش غيب من الغيوب ، وهو خلق عظيم لا يعلمه إلا خالق القوى والقدر .

(١) الآية ١٢٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت . (٣) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة الذاريات .

(٤) الآيات ٥٥ - ٥٨ من سورة الذاريات (٥) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس (٦) الآيات ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .

(٧) الآيات ٥١ - ٥٥ من سورة طه .

وتفيد هذه الآية خلق الماء قبل خلق السموات والأرض ، قال تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد سخر الله لنا مافي السموات ومافي الأرض ليختبرنا بالعمل قال تعالى ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذي خلق سبع سموات طباقا ﴿<sup>(٣)</sup>.

وقال سبحانه ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وفعل الله تعالى مبنى على الحكمة منزله عن العبث ، لذا فقد جاء البعث بعد ذكر الخلق ، قال تعالى : ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

أى ما أردت يا محمد بذكر البعث إلا لكى تصرفنا عن هذه الدنيا واستمتاعنا بلذائذها ، هكذا قال الكافرون ، ولقد طلبوا تعجيل العذاب استهزاء ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾<sup>(٤)</sup> قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿<sup>(٥)</sup>.

قال تعالى : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾ أى أجلناه إلى أجل معلوم قدره الله فى علمه القديم ، ليقولن استهزاء بوعده الله ورسوله ﴿ ما يحبس ﴾ ما يمنعه فىأتى الرد القاطع والوعيد الحاسم ﴿ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ .

﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ للكافرين ليس له دافع ﴾ من الله ذى المعارج ﴾ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبرا جميلا ﴾ إنهم يرونه بعيدا ﴾ ونراه قريبا ﴿<sup>(٦)</sup> . إنه يوم ينزل بهم هذا العذاب لا يصرف عنهم ، ليس له دافع من الله ، وعندما يحيط بهم الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ﴿ يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(٧)</sup>.

### نماذج من البشر

وَلَيْنِ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ كَفُورٌ ﴿١﴾ وَلَيْنِ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مِّثَّةٍ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٣﴾

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء . (٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الملك . (٣) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٤٥ من سورة النور . (٥) الآية ١٦ من سورة ص . (٦) الآيات ١ - ٦ من سورة المعارج .

(٧) الآية ٢٥ من سورة النور .

**المفردات :** ﴿الإذاقة﴾ : هنا : الإعطاء القليل . ﴿النزع﴾ : السلب والحرمان . ﴿اليئوس﴾ : شديد اليأس من عود تلك النعمة . ﴿والكفور﴾ : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم . ﴿والنعماء والنعمة والتعمى﴾ : الخير والمنفعة ويقابلها الضراء والضر . ﴿وفرح﴾ : بطر مغتر بهذه النعمة . ﴿فخور﴾ : متعظم على الناس بما أوتي من النعم مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض ليلو الإنسان أيشكر أم يكفر ؟ قفى على ذلك طبيعة الإنسان فى ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزع منه فقط من روح الله وكفر بها ، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس وبطر وفخر - هكذا شأن الإنسان - إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .  
﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور﴾ :

أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم ، كرخاء عيش ، وبسطة رزق وضحة وأمن وولد بار ، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها ، فكان شديد الأغباط بها ، ثم سلينا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله فى الخليقة كالمريض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعا للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .  
**والخلاصة :** أنه يجمع بين اليأس بعودة ما نزع منه ، والكفر بما بقى له ، لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .

﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾

أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ، وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصائب والضراء ولن يعود ، وماهى إلا سحابة صيف قد تقشّعت ، وعلى أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه حينئذ لشديد الفرح بما يهبجه البطر بتلك النعمة ، وإنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس ، والاحتقار لمن دونه فيها .

**الخلاصة :** أنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء ، باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ، ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء ، وعمل الخير لبنى الإنسان ، كفاء ما هو متمتع به من تلك النعم .  
ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاله السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾

أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله ، واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها ، ويبدل النعماء بها ، ويشكره باستعمالها ، فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك

لهم مغفرة من ربهم تمحو ماعلق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير في الآخرة على ماوقفوا لعمله من بر وخير كثير .

**والخلاصة :** إن الإنسان وإن كان مؤمناً حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافي كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شيء من الزهو والتقصير في الشكر ، فيغفر له كل منهنا يصبره وشكره ، وإنابته إلى ربه .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى ﴿ والعصر ﴾ إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر <sup>(١)</sup> .

ووصف الأجر بالكبير - لما حواه من نعيم سرمدي ، وأمن من العذاب ، ورضا من الله عز وجل ، ونظر إلى وجهه الكريم ، ورضوان من الله أكبر .

### لا يضيق صدرك

فَلَعَلَّكَ تَارِكُ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

**المفردات :** ﴿ لعل ﴾ : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ﴿ وضيق الصدر ﴾ : يراد به الغم والحزن . ﴿ الكنز ﴾ : ما يدخر من المال فى الأرض . ﴿ والوكيل ﴾ : الرقيب الحفيظ للأموال الموكلة بحراستها . ﴿ والاستجابة للداعى ﴾ : إجابته . ﴿ والإسلام ﴾ : الإذعان والخضوع والإنقياد . اقترح المشركون على رسول الله ﷺ أموراً علقوا إيمانهم عليها ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فلفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً <sup>(٢)</sup> .

كما اقترحوا عليه أن ينزل عليه كنز أو يأتي معه ملك .. إلى غير ذلك من المقترحات التى بلغت حدّاً لا يُطاق ، ولا يقبله عقل . حتى لقد قالوا له : اتى بقرآن غير هذا أو بدله ، فنزل التثبيت والإرشاد والتوجيه من الله : لا تترك بعض ما أوحى إليك من الكتاب ، ولا يضيق صدرك بما يقولون من إنزال الكنز ، ومجىء الملك ، إن أنت إلا نذير ، والأمر كله لله ، فهو الوكيل الرقيب على عباده ﴿ وقل الحق

(٢) الآيات ٩٠ ، ٩٣ من سورة الإسراء .

(١) سورة العصر .

من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴿١﴾.

قال جل شأنه : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم : فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴿٢﴾.

ثم ينتقل الحديث إلى ضرب آخر من ضروب العناد المقيت والجدل العقيم إلى قولهم عن القرآن « إنه مفترى » كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴿٣﴾.

ولقد تحداهم الله تبارك وتعالى وهم الذين ملكوا أزمّة اللغة ، وعرفوا بأنهم أصحاب الفصاحة وأرباب البلاغة ، لقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ﴿٤﴾ فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بعشر سور كما فى قوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾ ﴿٥﴾ فعجزوا .. فتحداهم أن يأتوا بسورة كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿٦﴾.

فتأمل معى هذه الدرجة القصوى من التحدى والتى قال الله تعالى فيها : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال فيها : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ بل لقد بين لهم نتيجة هذا التحدى فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ﴿٧﴾.

لقد عجزوا وبلغ من عجزهم أن ﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ ﴿٨﴾ وإذ قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿٩﴾.

ولو كانوا يستطيعون أن يأتوا لآتوا فذلك أيسر سبيلا من خوضهم المعارك المسلحة التى خاضوها مع المسلمين ، لكنهم قوم آثروا اللجاج والعناد على قبول الحق كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾ ﴿١٠﴾.

قوله تعالى : ﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٢) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة يونس . (٣) الآيات ٤ - ٦ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٣٤ من سورة الطور . (٥) الآية ١٣ من سورة هود . (٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٨٨ من سورة الإسراء . (٨) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٩) الآية ٢٢ من سورة الأنفال .

(١٠) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

أى إن لم يستجب لكم هؤلاء الأعوان الذين قال الله فيهم : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وفى قوله : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ . فإن لم يستجيبوا لكم وعجزتم عن الإتيان بسورة أو بعشر ، فما لكم بعد ذلك من حجة ولا برهان ، فقد بدا الصبح لذى عينين وبرح الخفاء وظهر الحق .

فاعلموا أن هذا القرآن أنزل يعلم الله وحده ، وأن الذى أنزله واحد لا شريك له لا إله إلا هو ، وإذا كان ذلك كذلك . وهو كذلك . حقا . فأسلموا وانقادوا وأذعنوا واسمعوا وأطيعوا ، ولا تجادلوا فى الحق بعد ما تبين ، فإن الحق واضح ، والطريق لائح ، والمنادى صائح .

### الويل لهؤلاء

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخُسُونَ ﴿١٥﴾  
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ نوف إليهم ﴾ : أى نوصل إليهم ، ﴿ ولا يبخسون ﴾ : لا ينقصون ، ﴿ وحبط ﴾ : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية أن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون فقيرا ، يقول من عمل صالحا اتماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمل له إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمل له لاتماس الدنيا ، وهو فيلا الآخرة من الخاسرين .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال ﷺ : [ من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ] (١) .

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ \* ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا \* كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا \* انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴿ (٢) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾ (٣) .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الزكاة (٣٤) . والترمذى فى القيامة (٣٠) . والإمام أحمد فى (١٨٣:٥) .

(٢) الآيات ١٨ - ٢١ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .



## دلائل صدق النبوة

أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَتْهُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ مِنَ الْأَحْزَابِ ۖ قَالَ نَارُ مَوْعِدِهِ ۖ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِّن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

**المفردات :** ﴿ البينة ﴾ : ما يتبين به الحق كالبرهان في الأمور العقلية ، والنصوص في الأمور النقلية ، والتجارب في الأمور الحسية ، والشهادة في القضاء ﴿ ويتلوه ﴾ : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، ﴿ والموعود ﴾ : مكان الوعد وهي النار يرد بها كما قال : ﴿ ليس لهم في الآخرة إلا النار ﴾ .  
﴿ والمرية ﴾ : الشك .

وفي هذه الآية الكريمة يخبرنا الله جلَّت قدرته عن الذين هم على بينة من ربهم وحجة وبرهان ، والمراد بالبينة هنا الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الاعتراف بأنه هو الحق لا إله إلا هو ، كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ (١) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ] (٢) .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ قال : [ يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ] (٣) .

وفي المسند والسنن [ كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه ] فالمؤمن باق على هذه الفطرة .

أما الشاهد الذي يتلوه من ربه فقليل إنه جبريل ، وقيل محمد ﷺ ، والصحيح أنه القرآن الذي نزل به جبريل من لدن حكيم خبير ، على قلب البشير النذير ، صلوات ربي وسلامه عليه .

وقال في شأنه رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (٤)

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخاري في الجنايز ( ٩٢٧٩ ) وفي التفسير ( سورة ١٠ : ٣٠ ) وفي القدر ( ٣ ) . ومسلم في القدر ( ٢٤٠٢٢ ) . وأبو داود في السنة ( ١٧ ) . والإمام مالك في الجنايز ( ٥٣ ) . والإمام أحمد في ( ٢ : ٢٣٣ ، ٢٧٥ ، ٣١٥ ، ٣٤٧ ، ٣٩٣ ) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة ( ٦٣ ) . والإمام أحمد في ( ١٦٢ : ٤ ) . (٤) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

فالقُرآن شاهد صدق ، ودليل حق على نبوته ﷺ ، إذ هو الكتاب المعجز المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، المشتمل على قواعد العقائد وشعائر العبادات ومبادئ الأحكام ومناهج السلوك .

كذلك من دلائل صدق نبوته كتاب موسى الذى بشرَّ ببعثه خاتم المرسلين وقال الله له فيه : [ أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صماً وقلوبا غلفا ] (١).

قال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ أى أولئك الذين على بينة من ربهم ، وعلى فطرة الإيمان ونور الإسلام ، يؤمنون بهذا القرآن إيمانا جازما مبنيا على اليقين القطعى ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب ﴾ [ أى من طوائف البشر ] فالنار موعده ومثواه ومأواه .

جاء فى صحيح مسلم عن أنى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [ والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار ] (٢).

قوله تعالى : ﴿ فلاتك فى مرية منه ﴾ أى لا تكن أبها المخاطب فى شك من هذا الكتاب فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم . كما قال تعالى : ﴿ ألم ﴾ تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين \* أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٤) وقوله جل جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ (٥).

### لا أحد أظلم من هؤلاء

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلَا شَهِدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٨) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (١٩) أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٣: ٤٨) وفى البيوع (٥٠) . وأبو داود فى المقدمة (٢) وفى فضائل القرآن (١) .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٠) . (٣) الآيات ١ - ٣ من سورة السجدة .

(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف . (٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .

يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْآخَسَرُونَ ﴿٢٢﴾

**المفردات :** ﴿الأشهاد﴾ : واحدهم شاهد . ﴿واللعنة﴾ : الطرد من الرحمة . ﴿والصد﴾ : عن سبيل الله . ﴿الصرف عنه﴾ : والعوج . ﴿والالتواء﴾ : ومعجزين في الأرض . ﴿أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه﴾ : وضل . ﴿أى غاب﴾ : ولا جرم . ﴿أى حقا﴾ .  
يخبر سبحانه وتعالى أنه لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كذبا في أقوال أو أفعال أو تشريعات أو أحكام أو توحيد (ومن) هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفي .

فمن افترى على الله كذبا بأن قال على الله ما لم يقله ، وحكم بغير ما أنزل ، هؤلاء يُعرضون على النار في ساحة الحساب ، حيث يشهد عليهم الأشهاد ويقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، وكفاهم بهذا خزيا ، وحسبهم بتلك الشهادة فضيحة . ألا لعنة الله على الظالمين ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر . ﴿وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلّموا ربّنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبّع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال \* وسكنتم في مساكن الذين ظلّموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال﴾ (١) .

وفي حديث ابن عمر في الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [ إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال : فإني سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين ] (٢) .

هؤلاء الظالمون الذين استحقوا لعنة الله كانوا في الدنيا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ويصرفونهم عن اتباع سبيل الله ، ويبغون السبيل المستقيمة ، عوجاً ملتوية متعرجة . وقد أضافوا إلى تلك الجرائم كفرهم باليوم الآخر . إن أولئك الضالين المضلين لم يكونوا بقادرين على أن يهربوا من عقاب الله . وليس لهم أعوان ولا أنصار يمنعون العذاب عنهم . فلا أحد يستطيع أن يقف حائلا بين هؤلاء وبين أمر الله . ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾ (٣) .

هؤلاء يضاعف لهم العذاب جزاء ضلالهم وإضلالهم ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد

(١) الآيةان ٤٤ ، ٤٥ من سورة ابراهيم .

(٢) أخرجه البخارى في الأدب (٦٠) وفي المظالم (٢) وفي التفسير (سورة ٤: ١١) وفي التوحيد (٣٦) . ومسلم في التوبة (٥٢) . وابن

ماجه في المقدمة (١٣) . والإمام أحمد في (١٠٥٠٧٤: ٢) .

(٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

ضلوا ضلالا بعيدا \* إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا \* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴿١﴾ .

قال جل شأنه : ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾ .

قوله تعالى : ﴿ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ أى لشدة كفرهم وطغيانهم وعنادهم عطلوا حواسهم كما فى قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ ﴿٢﴾ . وكما فى قوله جل شأنه : ﴿وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾ ﴿٣﴾ .

﴿أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ وأى خسران بعد أن عطلوا حواسهم ، وأغلّقوا نوافذ المعرفة ، وبدلوا نعمة قومهم كفرا وأحلّوا قومهم دار البوار .

ومما يزيدهم حسرة على حسرتهم أن أصنامهم التى عبدوها قد ضلّت عنهم يوم القيامة وغابت ، لذلك تراهم فى النار يقولون : ﴿فما لنا من شافعين \* ولا صديق حميم﴾ ﴿٤﴾ . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . أى حقا أنهم هم الأخسرون أعمالا . ﴿الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴿٥﴾ .

### أصحاب الجنة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ \* مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿أخبتوا﴾ : أصل الإخبات قصد الخبت وهو المكان المطمئن المستوى والمراد خشعوا وأخلصوا لله .

أما من كان عكس هذا فالله يقول فيه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا له ، واطمأنّت نفوسهم بالإيمان ، ولانت قلوبهم ، ووجلت بالقرآن أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

مثل الكافر والمؤمن كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا ، أتجهلون هذا المثل الحسى والفارق الكبير فلا تذكرن ؟

(٤) الآيتان ١٠٠ - ١٠١ من سورة الشعراء .

(٥) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الكهف .

(١) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٥ من سورة فصلت .

## قصة نوح

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتَىٰ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبَاسِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرِيكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرِيكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا لَنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرِي لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَلِّدِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَآ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْتُحِقُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخِطِ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعِ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلْ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ

ءَامِنَ وَمَاءَ امْنٍ مَعَهُ ۚ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤١﴾ \* وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجَرُّنَهَا وَمُرسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَبْنِيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٤﴾ وَقِيلَ يَتَاَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَسْمَأُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٨﴾ قِيلَ يُنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٩﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٥٠﴾

### القصة في القرآن الكريم

إن من أغراض القرآن المهمة إثبات التوحيد وما يتبعه من إثبات النبوة والبعث ، والكلام في التشريع للفرد والجماعة والأمة ، والقصص الخاص بالأمم السابقة وهو غالبا يساق في السور المكية والمبدوءة بأحرف مقطعة كهذه السورة مثلا .

وهنا يظهر سؤال لماذا سيقّت القصة في القرآن ؟ وما السر في اختلاف الأسلوب للقصة الواحدة ؟ ولماذا كررت في عدة سور ؟

ولقد كان القصص في كل لغة لونا من ألوان الأدب الفني الرائع ، لما له من الأثر النفسي في قلوب سامعيه ، والقصص في القرآن ينبئنا عن أخبار الأنبياء والرسل ، وما حصل لهم ، وكيف قاموا بدعوتهم ، وكيف عاجلوا أزماتهم ، وما انتهى إليه أمرهم ، وعلى العموم فهو مدرسة إلهية معلّموها الأنبياء ، وتلاميذها الأمم .

ولقد سيقست للعبرة والعظة ، حيث يقف المسلمون والمشركون على أحوال من تقدمهم من الأمم ، فيعتبر ذوو الأبواب ويتعظون ، وفيها التسلية الكاملة للنبي ﷺ وصحبه ، من حيث يقفون على أخبار الرسل وأممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والدائرة على الكافرين المعاندين .

وفي هذا تثبيت لهم ، وشحذ لعزائمهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ <sup>(١)</sup> وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> والعبرة والعظة تظهر في قوله تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الأبواب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولقد سيقست القصة دليلا على صدق الرسول ، وأن خيره من السماء ، إذ هو يقص أخبارا ما كان يعلمها هو ولا أحد من قومه ، ولا يكون هذا إلا بوحي من السماء ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .  
﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ <sup>(٤)</sup>

وهي علاج للقلوب ، ودواء للنفوس ، لما فيها من أخبار الأمم وما حل بالعاصين من عاجل بأس الله ، فأهل اليقين وغيرهم إذا تلوها تراءى لهم من ملكه وسلطانه وعظمته وجبروته ، حيث يبطش بأعدائه ما تذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس « شيبتي سورة هود وأخواتها » صدق رسول الله .

والقصة مدرسة للمؤمنين المتفعين بهدى القرآن ﴿ هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الأبواب ﴾ . فيها أحسن الدروس ، وأقوى الأمثال التي تضرب لتحمل الدعاة والمرشدين ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ ﴿ يا قوم ليس بي سفاهة ولكن رسول من رب العالمين \* أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ إلى آخر ما في قصة نوح .

أما تكرارها في القرآن فلما في أغراضها ومقاصدها من معان جلييلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائما على ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب ، ولا غرابة فإننا نرى أصحاب الثورات والدعوات دائما في كل خطبة وفي كل موقف يرددون مبادئهم وأغراضهم وأعمالهم بأساليب مختلفة .

ولعل السر في اختلاف الأسلوب في القصة الواحدة تجديد النشاط وطرده السآمة والملل من نفس القارئ والسماع ولا تنس أن لكل سورة لونا خاصا وصفة خاصة وجرسا خاصا ، وفواصل خاصة وحالا للمخاطب خاصة تتناسب مع السياق وعلى العموم فلكل قصة سياق يتناسب مع ما سبقها وما أتى بعدها وهذا بحث يحتاج إلى كتاب يبحث فيه حال القصة الواحدة مع كل الملابس السابقة .

(٣) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود .

**المفردات :** ﴿ الملأ ﴾ : الأشراف والزعماء . ﴿ وأراذل ﴾ : واحد هم أراذل وهو الخسيس الدنيء . ﴿ وبادى رأى ﴾ : أى ظاهره قبل التأمل . ﴿ أرايتم ﴾ : أى أخبروني . ﴿ واليئة ﴾ : ما يتبين به الحق . ﴿ وعميت ﴾ : أخفيت . ﴿ وطرده ﴾ : أبعد . ﴿ وتجهلون ﴾ : أى تسفهون عليهم وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم . ﴿ وتذكرون ﴾ : أصله تتذكرون . ﴿ وزرى ﴾ : على فلان زراية : عليه واستهزأ به . ﴿ أصل الجدال ﴾ : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . ﴿ والنصح ﴾ : تحرى الخير والصالح للمنصوح له والإخلاص فيه قولاً وعملاً . ﴿ الإغواء ﴾ : الإيقاع فى الغي وهو الفساد الحسى والمعنوى ﴿ والإجرام ﴾ : الفعل القبيح الضار الذى يستحق فاعله العقاب . ﴿ ابتأس ﴾ : اشتد بؤسه وحزنه . ﴿ والفلك ﴾ : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ﴿ وسخر منه ﴾ : استهزأ به . ﴿ ويخزيه ﴾ : يذله ويفضحه . ﴿ ومقيم ﴾ : أى دائم . ﴿ الفور والفوران ﴾ : الارتفاع القوى . يقال فى الماء إذا نبع وجرى وإذا علا وارتفع والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم . ﴿ والتثور ﴾ : ما يخبز فيه الخبز - اتفقت فيه لغة العرب والعجم . ﴿ وأهل بيت الرجل ﴾ : نساؤه وأولاده وأزواجهم . ﴿ ومجرمها ومرساها ﴾ : أى إجراؤها وإرساؤها . ﴿ ومغزل ﴾ : أى مكان عزلة وانفراد . ﴿ وآوى ﴾ : أى ألجأ وعصمه : حفظه ﴿ والبلع ﴾ : ازدرداد الطعام والشراب بسرعة . ﴿ وغاض الماء ﴾ : غار فى الأرض ونضب . ﴿ والجودى ﴾ : جبل بالموصل .

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفى على ذلك بقتصص الأنبياء قبله ، ليبين لقومه أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلاً ، كما قال سبحانه ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً ﴾ (١).

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إلى لكم نذير مبين ﴾ .

أى ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم إني لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أى بالاعتبدوا إلا الله ، ولا تشركوا به شيئاً .



وكانوا أول من أشرك بالله ، واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ثم علل هذا بقوله :

﴿ إني أخاف عليكم ﴾ أى إن لم تخصوه بالعبادة ، وتفردوه بالتوحيد ، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان ، أخاف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه ، وعذابه لمن عذب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى في رد دعوته :

١ - ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ :

أى أن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلاً فى الجنس ، لا مزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

٢ - ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأى ﴾ :

أى وأنا لم نرمتبعك إلا الأخساء كالزراع والصناع ، ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادی الرأى قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

٣ - ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ :

أى وما نرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى ، يحملنا على اتباعكم ، ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

٤ - ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ :

أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام ، أشركوا فيها أتباعه ولم يجابوه بها وحده ، كما أنهم جعلوها ظناً ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ففُغِيت عليكم ﴾ :

أى قال يا قومى . أخبروني ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على خجة فيما جئتكم به من ربي ، يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ، ومن كسبى البشرى . الذى تشاركوننى فيه ، وآتاني رحمة من عنده ، وهى النبوة ، وتعاليم الوحي التى هى سبب رحمة خاصة لمن يهتدى بها ، فحججها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه ، فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .

قوله تعالى : ﴿ أَنزَلْنَاهُمْ عَلَيْهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا كَارَهُونَ ﴾ :

أى أنكرهمكم على قبولها وأنهم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما على إلا البلاغ .

وهذا أول نص فى دين الله على أنه لا ينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، ورد لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ، فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى أن الواحد منهم لىأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الأثوف من الناس فى أجيال كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ :

أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ، ودعوتكم إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ، ولا أريد بذلك مالا فأكون متهماً فيه عندكم لمكانة حب المال من أنفسكم واعتزازكم به على وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويشينى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده فجاءت على لسان هود ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكياً عنهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ :

أى ليس من شأنى ، ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى وأنجيه عنى ، احتقاراً له على أى حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن يُكْفَرُوا ﴾ وقد روى أنهم قالوا له : يا نوح إن أحببت أن تتبعك فاطرد هؤلاء ، فإنا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ ﴾ : أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم صائرون إلى ربهم ، وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

﴿ وَلَكِنى أَرَأَيْكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض ، من اتباع الحق والتحلل بالفضائل ، وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ قال وما علمى بما كانوا يعملون \* إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون \* وما أنا بطارد المؤمنين \* إن أنا إلا نذير

مبين ﴿ (١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾ :

أى ويا قوم لا أجد أحداً يمنع عني ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم ، واتباعهم إياي فيما بلغتهم ، فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب ، مهما تكن صفة من اجترحه ، كما قال في سورة الأنعام ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾<sup>(١)</sup>.

﴿أفلا تذكرون﴾ : أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لائحته فنتهوا عنه ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

قوله تعالى : ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ :

أى ولا أقول لكم بادعائي للنبوة والرسالة إن عندي خزائن رزق الله ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنتفخ على نفسي وعلى من تبعني بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيري في الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ، ولا من خصائص النبي ، ولو كان كذلك لا تبع الناس الرسل لأجلها ، بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته في دار كرامته ورضاه عنها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿ولا أعلم الغيب﴾ :

فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالا يصل إليه علمهم الكسبي من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم في معاشهم . وكسبهم ، فأخبر بها أتباعي ليفضلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ولا أقول إني ملك﴾ : من الملائكة أرسلت إليكم ، فأكون كاذباً فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرت بدعائكم . إلى الله ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم .

وفي هذا دحض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ، ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكاً يعلم مالا يعلمه البشر ، ويقدر على مالا يقدر عليه بشر .  
قوله تعالى : ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً﴾ :

أى ولا أقول للذين اتبعوني وآمنوا بالله وحده . وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار ، فتزدريهم أعينكم لفقرهم ووراثته حالهم : لن يؤتيهم الله خيراً ، وهو ما وعدوه على الإيمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

(٢) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ :

أى الله أعلم بما في صدورهم ، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بادى الرأى ، بلا بصيرة ولا علم .

﴿ إني إذا لمن الظالمين ﴾ :

أى إني إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما في نفوسهم ، أكون ظالماً لهم بهضم حقوقهم

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ :

أى قال قوم له : قد حاججتنا فأكثرت جدالنا ، واستقصيت فيه ، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ، ولم يبق لدينا شىء نقوله ، كما قال فى سورة نوح حكاية عنه ﴿ قال رب إني دعوت قومى ليلاً ونهاراً \* فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً ﴾ <sup>(١)</sup> أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدنيوى الذى تخافه علينا ، وهو الذى أراحه بقوله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا . قبل عقاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ :

أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : يا قوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه ، وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقت الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هرباً منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لا محالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

قوله تعالى : ﴿ ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ :

أى إن نصحى لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصة : أن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سنته منهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداءً ، من غير عمل منهم ، ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها ، والنتائج متوقعة على مقدماتها .

قوله تعالى : ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ :

أى هو مالك أموركم ومديرها بحسب سنته المطردة فى الدنيا ، ولكل شىء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر ، ولا تظلمون نقيراً .

(١) الانبان ٥ ، ٦ من سورة نوح .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾

أى بل أيقول مشركو مكة إن محمداً افترى خبر قوم نوح ، فأمره الله أن يحيبهم بقوله :

﴿ قل إن افتريته فعلى إجرامى ﴾ : أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه على ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على اقتراه .

﴿ وأنا برىء مما تجرمون ﴾ :

أى كما أرى برىء من آثامكم وذنوبكم فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتس بما كانوا يفعلون ﴾ :

أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته التى حكاها الله عنه ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ (١) .

أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ما تدعوه إليه ، إلا من قد آمن من قبل ، فيظل على إيمانه ، فلا يشتدن عليك البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ، ولمن آمن معك ، فأرح نفسك يعد الآن من جداهم ، ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وآن حين العذاب .

قوله تعالى : ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ :

أى واضع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه ، وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرض لك خطأ فى صنعته ، ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ (٢) وقوله لمحمد ﷺ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

أى ولا تراجعنى فى شئ من أمرهم من دفع العذاب عنهم ، وطلب الرحمة لهم ، فقد حققت عليهم كلمة العذاب ، وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصة : لا تأخذنك بهم رافة ، ولا شفقة .

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح . (٢) الآية ٣٩ من سورة طه . (٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ .

أى وشرع يصنع الفلك ، وكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ جماعة من كبراء قومه استهزؤا به ، وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ، ظننا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجاراً بعد أن كنت نبياً ، وليس ذلك بالغريب منهم ، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سَخِرُوا قَبْلَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُ النِّجَاحَ فِيهِ .

قوله تعالى ﴿إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ .

أى قال لهم نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ، إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا الْيَوْمَ وَتَجْهَلُونَا ، لرؤيتكم مالا تتصورون له فائدة ، فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ جزاء وفاقاً نَسْخَرُ مِنْكُمْ الْيَوْمَ لَجْهَلِكُمْ ، وغدا لما سيحل بكم .  
﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

أى إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ الْيَوْمَ فَائِدَةٌ مَا نَعْمَلُ ، وماله من عاقبة محمودة ، فسوف تعلمون بعد تمامه من يَأْتِيهِ عَذَابٌ يَفْضَحُهُ وَيَجْلِبُ لَهُ الْعَارُ وَالْخِزْيُ فِي الدُّنْيَا وَهُوَ عَذَابُ الْغَرَقِ ، ويحل عليه عذاب دائم في الآخرة بعد ذلك ، وكل ما في الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون في الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾

أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور ، وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

وقوله تعالى ﴿قَلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنين﴾ .

أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آتخذ : احمِلْ فِي السَّفِينَةِ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحَيَوَانِ زَوْجَيْنِ اثْنين ذَكَرًا وَأُنْثَى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ، ويبقى نوعها على الأرض .

قوله تعالى ﴿وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ :

أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا ، إلا من سبق القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم ، كما قال : ﴿وَلَا تَخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ واحمل من صدق واتبعت من قومك .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره في عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التي حملها ، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك في سفر التكوين .

وقوله تعالى ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها﴾ :

أى فحملهم نوح وقال : اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرسائها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى أن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله ، أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسبها لا بحولنا ولا بقوتنا .

﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ : أى إن ربي لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أمان لأمتي من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم ( باسم الله مجريها ) الآية ) .

﴿وقوله تعالى ﴿وهي تجرى بهم في موج كالجبال﴾﴾ : أى هى تجرى بهم في موج يشبه الجبال في علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث في البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهبجها الرياح الشديدة ، عرف أن المبالغة في هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط في غور عميق كواد سحق ، يرى البحر من جانبيه كتجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنية يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها في شاطئ جبل ، تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالجبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعتة الشفقة على ابنه فناداه ، كما أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ونادى نوح ابنه وكان في معزل . يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين﴾ :

أى وناداه حين الركوب في السفينة وقبل أن تجرى بهم ، وكان في معزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يا بني اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فرد ابنه عليه : ﴿قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أى قال : سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الغرق .

فأجابه نوح مبينا له خطأه : ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ :

أى وقال نوح لابنه لا شيء يعصم أحدا في هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يُتَّقَى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله ، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم في البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم في السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المغرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان في سورة القمر ، قال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر \* فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر \* ففتحن أبواب السماء بماء منهمر \* وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر \* وحملناه على ذات ألواح ودسر \* تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر \* ولقد تركناها آية فهل من مدكر \* فكيف كان عذابي ونذر ﴾<sup>(١)</sup> .

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا ، يصير بحراً متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ، وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء في بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال : ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي ﴾ وقيل بعدا للقوم الظالمين .

أى وجاء نداء من الملاء الأعلى ، خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعي ماءك الذى عليك ، والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امثالاً للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين ، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودي ، وقيل هلاكاً وسُحقاً للظالمين ، ويُعدا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

قوله تعالى ﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾ :

أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ، ودعا إليها فلم يستجب ، فقال : يارب إن ابني هذا من أهلى الذى وعدتني بنجاتهم ، إذ أمرتني بحملهم في السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لا تخلف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾<sup>(٢)</sup> فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة ، فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والخلاصة : أن نوحاً كان يريد أن ينجو ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ :

أى قال الله تعالى : يا نوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم في الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح ، أى فهو يتنكب الصلاح ، ويلتزم الفساد .

﴿ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴾ .

أى فلا تسألنى فى شئ ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالاً ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، وما رتبته عليه من طلب نجاة ولده .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(١) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .



وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله فى خلقه ، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ما هو محرم شرعاً ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب ، والتوفيق فيها ، والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

﴿ إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ :

أى إني أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم ، وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى الله عنه نبيا من أولى العزم من رسله ، أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم ما لم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال ، حاكيا عنه : ﴿ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ :

أى قال نوح : رب إني ألتجئ إليك وأحتجى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سولته الرحمة الأبوية ، وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شئ ، أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك ، وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن ما سأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهد بنية صالحة ، وعَدَّ هذا ذنباً لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يُعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله لإياهم حيناً بعد حين .

(٢) أنه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

إنه تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحاى أحدا منهم لأجل الآباء وإن كان من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سمتعهم ثم إيسهم منا

عذاب أليم ﴾ :

أى قال الذى بيده ملكوت كل شىء ، ومدبر أمر العالم كله لنوح ، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها ، وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يا نوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، تمتعا بسلام وتحية منا ، كما قال تعالى ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾<sup>(١)</sup> وبركات فى المعاش والأرزاق ، تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة ، وعلى ذريات يتناسلون منهم ، ويتفرقون فى الأرض ، فيكونون أمما مستقلا بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم ستمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسه العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون على السلام ، بل يبغي بعضهم على بعض ، لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبيه ﷺ أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل ، فقال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ :

أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب لم تشهدها حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرفها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحي الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ : أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

### قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُومَ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنُتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ  
 ﴿٥٦﴾ يَنْقُومَ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٧﴾  
 وَيَنْقُومَ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدَّكُمْ قُوَّةً  
 إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا  
 عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٩﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا أَعْرَابُكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي

(١) الآية ٧٩ من سورة الصافات .

أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُ وَأَتَى بَرِيٍّ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُ نِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ﴿٥٥﴾  
 إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ  
 مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ  
 وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِیْظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا  
 مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا  
 رُسُلَهُمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ  
 عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿ فطرنى ﴾ : خلقنى على الفطرة السليمة . ﴿ مدراراً ﴾ : كثيراً .  
 ﴿ اعتراك ﴾ : أصابك . ﴿ آخذ ناصيتها ﴾ : المراد مسخرها ومصرفها كيف شاء . ﴿ جبار ﴾ :  
 القاهر الذى يجبر غيره على اتباعه . ﴿ عنيد ﴾ : لا يذعن إلى الحق مهما كان .

قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ :

أى وأرسلنا هوداً إلى قبيلة عاد ، وهى عربية وكانت تسكن الأحقاف فى شمال حضرموت ،  
 وغربى عمان ، وكانت قبيلة ذات بطن ، وكانوا أصحاب زرع وضرع ، زادهم الله بسطة فى الجسم  
 والمال ، وهم خلفاء قوم نوح ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة  
 فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون \* وتتخذون مصانع لعلكم  
 تخلدون \* وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون \* واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون \* أمدكم بأنعام  
 وبنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

أرسل إليهم أخاهم هوداً ، من أوسطهم نسباً وأكرمهم بيتاً ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى اعبدوا  
 الله وحده ولا تشركوا به غيره ، مالكم من إله غيره ، خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بما تعلمون ومالا  
 تعلمون ، إن أنتم إلا مفترون على الله الكذب فى اتخاذكم الشركاء والأوثان .

وكان فى قبيلة عاد مترفون ألفوا التعالى على الغير ، واستمتعوا بالنعم حتى امتلأت قلوبهم كبراً  
 وبغياً وفساداً وضلالاً ، وهؤلاء هم أعداء الحق دائماً ، إذ يرون فى النبوة نوراً يعمى أبصارهم ، ويفتح  
 أذهان العامة فيأخذون حقهم ، فتكسر شوكتهم ، وتضيع دولتهم ، لذلك نرى مع كل نبي أن أول كافر  
 به هم أشرف قومه ، إذ كيف يخضعون لواحد منهم بشر مثلهم ؟ !!

قال هؤلاء : أجنثنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ إنا إذاً لفي ضلال مبين ، ما أنت إلا شخص لك غرض خاص في هذه الدعوة .

فيرد عليهم هود : يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ونبذ الشرك والشركاء ، لا أسألكم عليه أجرا حتى تتهمونى بطلب المنفعة ، وأن لى غرضا ، ما أجرى إلا على الذى خلقنى على الفطرة السليمة ، وهدانى إلى الحق الذى أدعو إليه ، أفلا تعقلون ما أدعوكم إليه ، وتميزون بين الحق والباطل .

ويا قوم استغفروا الله من ذنوبكم ثم توبوا إليه توبة نصوحا ، إنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيرا ، فأنتم فى حاجة إليه ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، وعزا زيادة على عزكم ، وإياكم والإعراض عن دعوتى فإن فيها الخير والفلاح .

قالوا : إنا لنراك فى سفاهة وضعف عقل ، وخروج عن جادة الصواب ، وإنا لنظنك من الكاذبين .

قال هود : ليس بى سفاهة ، وكيف أكون كذلك وأنا رسول رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي ، وأنا لكم ناصح أمين .

اشتد الأمر بعد ذلك ، وقالوا : يا هود ما جئتنا بحجة قوية تدل على أنك رسول من الله ، وما نحن بتاركى آلهتنا صادرين عن قولك من تلقاء نفسك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدقين برسالتك ، إن نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بسوء ، حين تعرضت لهم ، وإنك اليوم مصاب بخبل فى العقل ، وجنون فى الرأى .

قال هود : إني أشهد الله إني بلغت ما كلفت به ، وأشهدوا أنى برىء مما تشركون به ، وإذا كان الأمر كذلك وأن آلهتكم لها قدرة على عمل ، فأجمعوا أمركم ، واجمعوا شركاءكم ، ثم كيدونى جميعا ولا تمهلون ، إني توكلت على الله ربي وربكم ، ووكلت له أمر حفظى ، وهو على كل شىء قدير ما من دابة فى الأرض أو السماء إلا هو آخذ بناصيتها ، ومصرف أمرها ، ومسخرها إلى أجل مسمى ، إذ له ملك السماوات والأرض ، إن ربي على صراط مستقيم ، هو طريق الحق والعدل .

فإن تتولوا بعد هذا ، ولم تطيعوا أمرى ، فقد بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأبرأت ذمتى من الله ، وسيستخلف ربي قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شىء حفيظ ، وقائم ورقيب ... وهذه هى النهاية .

ولما جاء وقت أمرنا ونزول عذابنا ، نحينا هودا ومن معه من المؤمنين برحمة خاصة بهم ، لا تتعداهم إلى غيرهم ، ونحيناهم من عذاب غليظ فظيع ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ﴾ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ ١١ ﴾ .

﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ \* فهل ترى لهم من باقية ﴿ ١١ ﴾ .

وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله أى جنس الرسل وجنس الآيات الصادقة بآية ورسول ، وهم قد اتبعوا أمر كل جبار ، يجبر غيره على اتباع رأيه ، وهم الأشراف العنيدون الذين لا يخضعون للحق مهما كان ، واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ، وطردها من رحمة الله ، ولحقت بهم من كل من وقف على خبرهم بعد ذلك لعنة .

ألا إن عادا كفروا ببرهم ، وجحدوا بآياته ، وكذبوا رسله ، ألا بعدا وطردها من رحمة الله لعاد ، وهم قوم هود .

### قصة صالح عليه السلام

\* وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُومُ آعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴿١١﴾ قَالُوا يَصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٢﴾ قَالَ يَنْقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاْمَنَ مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَنْقُومُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿١٧﴾ كَانَتْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ استعمركم فيها ﴾ : جعلكم تعمرونها . ﴿ مرير ﴾ : الريب الظن والشك

يقال رابى من فلان أمر يربى ريبا ، إذا استيقنت منه الريبة ، فإذا أسأت به الظن ولم تستيقن منه الريبة قلت أرابنى منه فهو مرير . ﴿ فذروها ﴾ : اتركوها . ﴿ فعقروها ﴾ : قتلوها . ﴿ الصيحة ﴾ :

المرة الواحدة من الصوت الشديد المراد بها الصاعقة التي أحدثت رجفة في القلوب ، وصعق بها الكافرون . ﴿ جاثمين ﴾ : ساقطين على وجوههم مصعوقين ، والجثوم للطائر كالبروك للبعير . ﴿ يَغْنَوُا ﴾ : يقال غنى بالمكان أقام به .

قوله تعالى : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا ﴾ :

أى ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وثمرود هم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم أخاهم صالحا ، فأمرهم بعبادة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ :

والتوحيد هو أصل الرسالات السماوية . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، والتوحيد هو أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، وكل الرسالات التي بُعث بها الرسل كان هدفها توحيد العقائد ، لا تفريق القواعد .

وكل الأنبياء بُعثوا بالإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ولما أمرهم صالح بعبادة الله وحده ، أقام الدليل على وحدانيته جلّ شأنه فقال : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ أى ابتداء خلقكم منها . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج \* ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ <sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أى جعلكم تعمرونها ، وقد جاء ذلك المعنى مفصلا في قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين \* إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .

(٣) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٥) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين \* أتركون في ماها هنا آمين \* في جنات وعيون \* وزروع ونخل طلعها هضيم . وتحتون من الجبال بيوتا فارحين <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أى أسألوه المغفرة من ذنوب سلفت ، وتوبوا إليه فيما سيأتى ، إن ربي قريب مجيب ، قال رجل لرسول الله : أقرب ربنا فتناجيه أم بعيد فناديه . فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فأنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وإذا رميت من الزمان بشدة . وأصابك الأمر الأشق الأصب فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب قوله تعالى : ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ :

أى قد كنت فينا موضع رجاء ، نستشيزك فى عظام الأمور لما لك من عقل راجح ، ولب مستنير ، أما وقد أمرتنا بما أمرتنا من ترك ما كان يعبد آبائنا ، فقد أوقعتنا فى شك مفسد ، وظن مريب ، ينافى الطمأنينة ، ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى فى قصة هود : ﴿ قالوا أجتنا لعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آبائنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وهذه دعوى أهل الباطل فى كل زمان ومكان ، جدال وإنكار للحق ، وكبر وصلف ، وطيش وحق وسفه ، قال تعالى : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ .

لقد جاء صالح يفيض حلما ورشدا وحكمة وجلالا : يا قوم ، هكذا بلغة المشفق الناصح الأمين : أخبرونى إن كنت على بينة وبرهان قاطع ودليل ساطع فيما أدعوكم إليه من التوحيد ، وعقيدة الحق والدين الصحيح ، وآتاني الله منه رحمة فجعلنى نبيا ، فمن ذا الذى يمنع عنى عذاب الله إن عصيته وخالفت أمره ، وكتمت دعوتى ، فما تزيدوننى بأقوالكم هذه إلا خسرانا مبيتا ومعاذ الله أن أكون من الجاهلين الخاسرين .

قوله جل شأنه ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ :

(٣) الآية ٧٠ من سورة الأعراف .

(١) الآيات ١٤١ - ١٤٩ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ٥ من سورة غافر .

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

كانت الناقة معجزة وآية لصالح عندما طلبوا منه ذلك ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ . افعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ . فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ (١) .

وفي سورة هود أمهلهم صالح ثلاثة أيام بعد عقربها . قال تعالى : ﴿ فاعفروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ :

ذلك لأنه وعد من الله ، لقد خالفوا أمر الله فذبحوا الناقة ، قال تعالى في سورة القمر : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم لكل شرب محتضر ﴾ . فنادوا أصحابهم فتعاطى فعقر ﴾ . فكيف كان عذابي ونذر ﴾ . إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴿ (٢) .

وقال جل شأنه في سورة الشمس : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ﴾ . إذ انبعث أشقاها ﴾ . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ . ولا يخاف عقباها ﴿ (٣) .

وفي سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ (٤) .  
وهكذا كان العذاب : صيحة أعقبتها صاعقة ، فكان الهلاك .

قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾ ، كما في قوله جل شأنه : ﴿ ثم نجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ﴾ (٥) .

﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾ أى صيحة الصاعقة ﴿ فأصبحوا في ديارهم جائئين ﴾ على وجوههم كأن لم يكونوا مقيمين بها قبل ذلك ، ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ﴾ وجحدوه ﴿ ألا بعدا ﴾ وهلاكاً ولعناً ﴿ لثمود ﴾ .

أما صالح بعد هلاكهم فقد تولى عنهم ، وقال هذه العبارة التي تسيل لها الكبد مرارة والنفس لوعة وجوى ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

إنها قمة المأساة ، وإن شئت فقل إنها قمة الملهاة ، أن الناس لا يحبون الناصحين .

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى والنصح أغلى ما يُباع ويوهبُ

(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة فصلت .

(٥) الآية ١٠٣ من سورة يونس .

(١) الآيات ١٥٣ - ١٥٩ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات ٢٧ - ٣١ من سورة القمر .

(٣) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .



## إبراهيم والبشرى

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَأَمْرَاتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ نَهْيًا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَوَيْلَتَى إِلَهُ دَاوُدَ أَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنْ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَتْلُو بَرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

المفردات : ﴿فما لبث﴾ : أى ما أبطأ . ﴿وحنيد﴾ : أى مشوى بالرضف وهى الحجارة المحماة . ﴿ولا تصل إليه﴾ : أى لا تمتد للتناول . ﴿ونكره وأنكره﴾ : ضد عرفه ﴿وأوجس القلب فزعا﴾ : أحس به ﴿ولوط﴾ : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به . ﴿وياويلتا﴾ : أصلها يا ويلي : وهى كلمة تقال حين يفاجأ الإنسان أمر مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، ﴿والبعل﴾ : الزوج وجمعه بعولة ﴿وأمر الله﴾ : قدرته وحكمته ﴿وحميد﴾ : أى تحمد أفعاله . ﴿ومجيد﴾ : أى كثير الخير والإحسان . ﴿الروع﴾ : ( بالفتح ) الخوف والفزع ( وبالضم ) النفس . ﴿والحلیم﴾ : الذى لا يحب المعالجة بعقاب ، ﴿والأواه﴾ : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، ﴿والمنيب﴾ : الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ﴿وغير مردود﴾ : أى غير مدفوع ، لا يجادل ولا بشفاعة .

قوله تعالى : ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام﴾ :

وهؤلاء هم الضيف المكرمون ، الذين ورد ذكرهم فى سورة الذاريات فى قوله جل شأنه : ﴿هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون \* فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين \* فقر به إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم \*

فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم \* قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴿١﴾ .

وهؤلاء الرسل من الملائكة المكرمين ، جاءوا ليزفوا البشرى إلى إبراهيم بمولد غلام له هو إسحاق ، كما بشره بأن إسحاق سيعيش حتى يولد له يعقوب ، وقد جاءت هذه البشرى في حال عجيبة ، فقد كانت سارة غاقرا وكان إبراهيم شيخا كبيرا .

ولما جاءت الملائكة إبراهيم قالوا سلاما ، فرد عليهم التحية قائلا : سلام ، وكان رد التحية بأحسن منها ، ذلك لأنه رد بالرفع ﴿ سلام ﴾ أى تحيتى سلام ، وهى جملة إسمية تدل على الثبوت والاستقرار ، كما يقول علماء البيان ، وكان خليل الرحمن مضيافا كريما ، فما أبطأ فى تقديم القرى وإكرام الضيف ، لقد جاءهم بعجل سمين قد شواه حتى يكون أطيب لحما ، وأحب إلى النفس .

قال تعالى : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ لكنه فوجيء بهم لا يمدون أيديهم إليه : فأشكر حالهم . ولم يعرفهم ، وأحس منهم خيفة ، ولم يكن ذلك امتناعا منهم ، إنما تلك طبيعتهم التى جبلها الله عليهم فإن الملائكة المكرمين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، بل يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ، فالتسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون ﴿٢﴾ .

قال تعالى : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة . قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ \* قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿٣﴾ .

فماذا حدث بعد هذا ؟

قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت ﴾ عجبا لحال هؤلاء الذين يمتنعون عن تناول هذا اللحم الطيب .

وهنا جاءت البشرى من الملائكة ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ .

فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب .

(٣) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

(١) الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء .

فماذا قالت سارة ؟ قالت : ﴿ ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ .

وهذه الكلمة : ﴿ ياويلتا ﴾ تقال للتعجب من أمر مفاجئ ، فقد عجبت على أى حال ستلد وهى العجوز ، وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التى ييسر فيها العظام ، واشتعل الرأس شيبا ، وأكدت هذا القول بقولها : ﴿ إن هذا لشيء عجيب ﴾ .

لذا جاء الرد من الملائكة : ﴿ أتعجبين من أمر الله ﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة . ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (١) فزكريا عندما قال : ﴿ أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ (٢) .

جاء الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾ (٣) .  
ومريم عندما قالت : ﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ﴾ (٤) كان الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾ .  
ثم قالت الملائكة : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

ثم ماذا بعد البشرى ؟ لقد ذهب عن إبراهيم الروح والخوف الذى اعتراه ، فإذا هو يجادل فى قوم لوط ، وقد جاءت صورة تلك المجادلة فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ (٥) الآية .

وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم بقوله : ﴿ إن إبراهيم حلیم أواه منيب ﴾ والحلم صفة من أجل الصفات ، إذ هو الصبر عند الغضب ، وإن شدة الجهالة لا تزيد الحلم إلا حلماً . جاء فى الحديث الشريف ﴿ كاد الحلم أن يكون نبياً ﴾ كما وصفه تعالى بأنه ﴿ أواه ﴾ أى كثير التأوه والتوجع لما يثير ويؤلم ، فهو صاحب القلب السليم والوجدان اليقظ ، ذو قلب منيب ، يرجع دائماً إلى الله .

ثم يأتى القول الفصل فى شأن قوم لوط فيقول تعالى : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا ﴾ أى عن الجدل فى قوم لوط ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴾ أى هكذا قضى الله فى شأنهم ، ولا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، وهو سريع الحساب ، وإنهم آتاهم عذاب غير مردود أى لا مرد له من الله ، ما لهم من الله من عاصم ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (٦) .

فسبحان من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يحير ولا يُجار عليه ، علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، علم فحكم ، وحكم فعدل ، وأراد فنفذت إرادته ، وقال فصدق ، وأمر فأرشد ، ونهى فوجّه ، هو الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا

(٤) الآية ٢٠ من سورة مريم .

(٥) الآية ٣١ من سورة العنكبوت .

(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل .

(٢) الآية ٨ من سورة مريم .

(٣) الآية ٩ من سورة مريم .

شئ بعده ، الظاهر فلا شئ فوقه ، الباطن فلا شئ دونه ، وهو بكل شئ عليم ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴾ (١) .

### قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَتُّؤَلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَيَّ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِنَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

**المفردات :** ﴿ سئ بهم ﴾ : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم . ﴿ الذرع والذراع ﴾ : منتهى الطاقة يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة . ويقال : ضقت بالأمر ذرعاً إذا صعب عليك احتماله . ﴿ والعصيب ﴾ : الشديد الأذى ، ﴿ ويقال هُرْعَ وأهرع ﴾ : ( بالبناء للمجهول ) : إذا حُمِلَ على الإسراع . وقال الكسائي : لا يكون الإهرع إلا إسراعاً مع رعدة من برد أو غضب أو حمى أو شهوة . ﴿ ولا تخزون ﴾ : أى لا تخجلوني . ﴿ والضيف ﴾ : يطلق على الواحد والجمع . ﴿ والرشيد ﴾ : ذو الرشد والعقل . ﴿ لو أن لى بكم قوة ﴾ : أى على الدفع بنفسى . ﴿ أو آوى إلى ركن شديد ﴾ : من أرباب العصيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويحجرون المستجيرين . ﴿ السرى ﴾ : ( بالضم ) والإسراء فى الليل : كالسير بالنهار . ﴿ والقطع من الليل ﴾ : الطائفة منه . ﴿ والسجيل ﴾ : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ حجارة من طين ﴾ (٢) . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسى فعرب . ﴿ ومنضود ﴾ : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ﴿ ومسومة ﴾ : أى لها سومة ( بالضم ) أو علاقة خاصة فى علم ربك .

وعلى جناح السرعة انتقلت الملائكة الكرام من بيت إبراهيم الخليل إلى بيت ابن أخيه لوط وكان قد

(٢) الآية ٣٣ من سورة الذاريات .

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

ابثلى بقوم وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى نادىكم المنكر ﴾ <sup>(١)</sup> .

إن الملائكة لما نزلت على لوط سئء بهم ، أى استاء لمجيئهم ، فقد نزلوا بين قوم ضاعت بينهم القيم ، واهتزت المعايير ، واختلت موازين المثل ، فأصبح المعروف بينهم منكرا ، والمنكر معروفا ، كما صار الذئب عندهم راعيا ، وأضحى الخصم العنيد بينهم قاضيا .

من أجل هذا خشى لوط عليهم من هؤلاء القوم الغلاظ الأكباد ، الجفاة الطباع ، القساة القلوب ، وضاق بهم ذرعا وطاقة ، فإنهم ضيف وللضيف واجب عند الكرام ، فكيف يؤدى واجب الضيافة بين هؤلاء الأوغاد الأندال ، لقد وصف يوم مجيئهم لديه بأنه يوم عصيب وشديد .

وما أن استقر الضيف المكرمون عنده حتى جاءه قومه يسرعون يراودونه عن ضيفه ، ومن قبل مجيئهم كانوا يعملون السيئات ، ويأتون المنكرات ، وهنا بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، قال لوط : ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أظهر لكم ﴾ يقصد بنات قومه ، فكل نبى فى قومه كالوالد الرحيم ، فاتقوا الله واحذروا عقوبته ، ولا تحزون ولا تفضحون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، أى ذو رشد وعقل ينهاكم عما تفعلون .

وبكل صفاقة وخلاعة ، قالوا له : ﴿ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ﴾ أى أنهم لا يأتون النساء ، إنما يأتون الذكران من العالمين ، وإنك لتعلم ما نريد .

قال لهم نبى الله لوط ﴿ لو أن لى بكم قوة ﴾ أى ليتنى أملك من القوة ، ما أستطيع أن أدفعكم بها ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو قوم ذى عصبية ، أستطيع بهم أن أكف بأسكم وأدفع شركم .

وإذا بالملائكة الكرام تقول له : ﴿ يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾

وهذا كقوله جل شأنه : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سئء بهم وضاق بهم ذرعا قالوا لا تحف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين \* إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولقد نفذ لوط تعليمات ربه فأسرى بأهله ليلا . وما أن جاء الصبح حتى قامت الملائكة بشن الغارة التى دمرتهم ، وقال الله فيها : ﴿ والمؤتفة أهوى فغشاهما ما غشى ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال فيها : ﴿ وإن لوطا لمن

(٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .

المرسلين \* إذ نجيناه وأهلكه أجمعين \* إلا عجوزا في الغايزين \* ثم دمّرنا الآخرين \* وإنكم لتمرون عليهم مصبحين \* وبالليل أفلا تعقلون ﴿١﴾ .

وقال : ﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ ﴿٢﴾ .

وقال : ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال هنا في سورة هود : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴾ : ذلك لأنهم غيروا فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم .

﴿ وأمطرنا عليها ﴾ : أى على تلك القرى حجارة من سجيل منضود ، وهو الطين المتحجر الذى تتابع حتى قضى عليهم قضاء مبرما ، هذه الحجارة كانت مسومة عند ربك ( أى معلمة ) ، ما أخطأت واحدة منها صاحبها الذى سيموت بها ، وليس هذا الانتقام مقصورا على قوم لوط ، إنما هو ممتد حتى يصل إلى كل ظالم وطاغية .

قال تعالى : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرعوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ﴿٥﴾ .

وهكذا أرخى الستار على تلك المأساة البشرية ، التى انخرفت عن طريق الجادة ، فصاروا عن الصراط ناكبين . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ ﴿٦﴾ .

### قصة شعيب عليه السلام

\* وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَتَقَوْمِ أُفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي

(٤) الآيات ٣٧ - ٣٩ من سورة القمر .

(١) الآيات ١٣٣ - ١٣٨ من سورة الصافات .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٧٤ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .

الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ آيَةُ خَيْرٍ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾  
 قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا  
 مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقُومُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي  
 وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ  
 مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ  
 شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ  
 لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا  
 يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ  
 وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقُومُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ  
 ظَهْرِيَا إِنْ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ  
 تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا  
 جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ  
 فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ بخير ﴾ : بثروة واسعة في الرزق . ﴿ تبخسوا ﴾ : تنقصوا الأشياء أو تعيىوها . ﴿ تعثوا ﴾ : تفسدوا والمراد لا تفسدوا في الأرض قاصدين الفساد . ﴿ الحليم ﴾ : ذو الأناة والتروي الذي لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته . ﴿ والرشيد ﴾ : الذي لا يأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد . ﴿ والمخالفة ﴾ : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفني فلان إلى كذا إذا قصده وأنت موافقه ، وخالفني عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له . ﴿ وأناب إلى الله ﴾ : رجع إليه . ﴿ وجرم الذنب أو المال ﴾ : كسبه . ﴿ ورحيم ﴾ : عظيم الرحمة للمستغفرين . ﴿ ودود ﴾ : كثير اللطف والإحسان إليهم . ﴿ الفقه ﴾ : الفهم الدقيق المؤثر في النفس الباعث على العمل . ﴿ والرهط ﴾ : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة . ﴿ لرجمناك ﴾ : لقتلناك

بالرمي بالحجارة . ﴿ بعزیز ﴾ : أى ذى عزة ومنعة . ﴿ واتخذہ ظہریا ﴾ ( بالكسر والتشديد ) أى جعله نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود . ﴿ ومحیط ﴾ : أى محص ما تعملون . ﴿ وعلى مكانتکم ﴾ : على غاية تمکنکم من أمرکم وأقصى استطاعتکم وإمكانکم ، يقال مکن مکانه : إذا تمکن أبلغ تمکن . ﴿ وارقبوا ﴾ : أى وانتظروا . ﴿ والصيحة ﴾ : أى صيحة العذاب . ﴿ وجاثین ﴾ : أى بارکین على ركبہم مُکبّین على وجوہہم . ﴿ وغنی بالمكان ﴾ : أقام به . ﴿ وبعدا ﴾ : أى هلاکا لهم .

وأرسلنا إلى قبيلة مدين ، وكانت تسكن الحجاز مما يلي الشام ، وكانوا فى غنى وسعة ، إلا أنهم طففوا الكيل ونقصوا الوزن ، وعاثوا فى الأرض الفساد ، أرسلنا لهم شعبا من أوسطهم نسباً ، وأعلامهم خلقا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى ( وهذا مما يدعو إلى الإجابة والقبول ) اعبدوا الله وحده ، لا تشركوا به شيئاً ، مالکم إله غیره يتصف بما اتصف به الله جل شأنه حتى يعبد .

ألست معى فى أن الرسل جميعا متفقون فى طلب عبادة الله وحده ، أما الأمور العملية فكل يعالج ناحية الضعف فى أمته ، ولذا قال شعيب : يا قومى اعبدوا الله ولا تنقصوا الكيل والميزان فيما تبيعون ، وكانوا ﴿ إذا اکتالوا على الناس يستوفون ﴾ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴿ أى ينقصون ﴾ . أنهم مبعوثون ﴿ <sup>(١)</sup> ومحاسبون .

امثلوا الأمر ، واجتنبوا النهى ، لأنى أراکم بخیر وعافية ، وغنى وسعة ، وهذا يدعو إلى شكر الله وامتنال أمره ، ولأنى أخاف علیکم عذاب يوم محیط عذابه لکم ، إذا أنتم أصررتم على العصيان . ﴿ ويا قوم أوفوا المکیال والمیزان بالقسط ﴾ والعدل وهذا أمر بالواجب بعد النهى عن ضده لتأكيد ، وتبينها على أنه لا بد منهما قصدا .

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ فى كيل أو وزن ، أو عد فى حق حسى أو معنوى ، ولا تعیبوا شیئا لا يستحق العيب ولا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من الفساد حالة كونکم قاصدين له .

واعلموا أن ما يبقیه الله لکم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبتغونه لأنفسکم من تطفیف فى الكيل ، أو نقص فى الوزن ، وصدق الله ﴿ بقیته الله خیر لکم إن كنتم مؤمنین ﴾ .

﴿ وما أنا علیکم بحفیظ ﴾ ورقیب ، إن علیّ إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

﴿ قالوا یا شعيب أصلاتک ﴾ تقتضى بتأثيرها فیک أن تحملنا على ترك ما کان یعبد آباؤنا من أصنام ، نتخذهم قرینا إلى الله ، ولست أنت خیرا منهم حتى نتركهم ونتبعک . والاستفهام فى الآیة للإنکار والسخرية بشعيب ﴿ أصلاتک تأمرک أن نترك ﴾ ما نفعله فى أموالنا من تنمية واستغلال على حسب نشاطنا واجتهادنا ، ألیس هذا حجرا على حريتنا ، وحدا لنشاطنا ؟



إنك يا شعيب لأنت الحليم ، المتأنى في حكمه ، العاقل المتروى ، والرشيد الذى لا يأمر إلا بما استبان له فيه وجه الخير والرشاد ، وهذا التأكيد الكثير في كلامهم يفيد الاستهزاء والتعريض به .

انظروا إلى رد شعيب عليهم في هذه الاتهامات :

﴿ يا قوم ﴾ ويا أهلى أخبرونى ماذا أفعل معكم ومع نفسى ، إن كنت على يقين تام ، وحجة واضحة من رى ، تفيد أن ما أمركم به هو من عند الله لا من عند نفسى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد رزقنى من فضله وخيره رزقا حسنا كثيرا ، حصل لى من طريق الكسب الحلال ، فأنا رجل ملىء ، وخبير بما ينمى المال .

أخبرونى ماذا أفعل ؟ وماذا أقول لكم غير الذى قلت ؟

﴿ وما أريد أن أخالفكم ﴾ مائلا إلى ما نهيتكم عنه ، بل أنا متمسك به قبلكم ، لأنى أرى فيه الخير والرشاد في الدنيا والآخرة ، وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير العام لى ولكم ما استطعت ، إلى ذلك سبيلا ، ليس لى فيما أفعل غرض خاص .

ومن هنا نأخذ أن العاقل يجب أن يكون عمله مراعى فيه حق الله ورسوله ، وحق نفسه ، وحق الناس عليه .

﴿ وما توفيقى ﴾ وهدايتى إلى الخير إلا بالله وحده ، عليه توكلت وإليه أنيب ، إذ هو المرجع والمآب ، والنافع والضار ، لا أرجو منكم خيرا ، ولا أخاف ضرا .

ويا قوم لا يحملنكم شقاق وخلاف معكم في الرأى والعقيدة على العمل الضار ، الذى يترتب عليه أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح بالغرق ، أو قوم هود بالريح العاتية ، أو قوم صالح بالصيحة الطاغية ، وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد ، زمانا ولا مكانا ولا إجراما .

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ واعملوا صالحا من الأعمال ، إن رى وزبكم عظيم الرحمة ، كثير المودة ، فإنكم إن فعلتم ذلك يمتنعكم متاعا حسنا في الدنيا والآخرة .

قالوا يا شعيب : ما نفهم كثيرا مما تقول فهما عميقا ، ولا نفهم له معنى ولا حكمة ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، لا حول لك ولا قوة ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة في الدين والدنيا ، على أنا لو أردنا البطش بك لما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك فتكاً يتناسب مع عملك معنا ، ومن ذم آهتنا ، وطلبك الحجر علينا في تصرفنا ، أى نقتلك رميا بالحجارة ، ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ .

﴿ قال يا قومى أرهطى ﴾ وأسرقى أعز وأكرم عليكم من الله الذى أدعوكم إليه ، وأشرکتكم به ،

وجعلتم مراقبته والخوف منه وأمره ونهيه وراءكم ظهريا ، كالأمر الذى يهون على صاحبه فينساه ولا يحسب له حسابا ﴿١٦﴾ إن ربي بما تعملون محيط ﴿١٧﴾ علما فسيجازيكم على عملكم .

ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى إمكانكم فى قوتكم ، إني عامل على مكانتى وحالتى ، وغدا سوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب فى قوله ﴿١٨﴾ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴿١٩﴾ .

وانتظروا مراقبين من سيقع عليه العذاب ، إني معكم من المنتظرين ، وهذا الأمر ﴿٢٠﴾ اعملوا وارقبوا ﴿٢١﴾ للتهديد والوعيد من واثق بقوته وبربه .

﴿٢٢﴾ ولما جاء أمرنا ﴿٢٣﴾ وحانت ساعة التنفيذ ﴿٢٤﴾ نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة ﴿٢٥﴾ خاصة بهم وما ذلك على الله بعزيز ﴿٢٦﴾ وأخذت الذين ظلموا الصيحة ﴿٢٧﴾ التى أخذت ثمود فأصبحوا جاثمين ، وجوههم منكبة على الأرض كالطير الجاثمة ، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها ، كأنهم لم يقيموا فيها وقتنا من الأوقات ، ألا بعدا وهلاكا لمدين كما بعدت وهلكت ثمود .

### موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوهُ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۚ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٢﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٣﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٤﴾

**المفردات :** ﴿١﴾ سلطان مبين : المراد حجة قوية ظاهرة ، وقيل هى العصا . ﴿٢﴾ يقدم : أى يتقدم يقول قدمهم يقدمهم إذا تقدمهم . ﴿٣﴾ فأوردتهم النار : أدخلهم فيها . ﴿٤﴾ الرفد المرفود : المراد بئس العطاء المعطى لهم وقيل الرفد القدح والرفد مافى القدح من الشرب ، والمراد بئس ما يسقونه فى النار عندما يردونها .

﴿٥﴾ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴿٦﴾ التسع المفصلة فى غير هذه السورة ، وأرسلناه بحجة قوية كقوة السلطان ، ظاهرة لا غموض فيها ، وهى محاورته مع فرعون ، وقيل هى عصاه ، أرسلناه إلى فرعون وملئه وهم أشراف قومه ، وقادة شعبه ، ومستشاروه فى الرأى ، وأما بقية الشعب فتابع لهم ، وسائر وراءهم بدون تفكير ، فاتبع الأشراف أمر فرعون ، ونفذوه حرفيا فى الكفر بن موسى ، وإحضار السحرة ، وقتلهم لمن آمنوا ، وما أمر فرعون برشيد أبداً ، بل هو الغواية والضلال ، والشر والفساد .

وهذا فرعون كبير قومه وقائدهم إلى الشر في الدنيا ، يتقدمهم يوم القيامة إلى النار ، فيدخلون فيها جميعا ، وبئس الورد المورد الذى دخلوه وهو جهنم ، وذلك لأن وارد الماء يرده للتبريد ، ولذة الشرب ، ووارد النار يحترق بلهيبها ويتلظى بنارها .

﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ هم من المقبوحين ، ويوم القيامة يسقون ماء حميما يقطع الأمعاء ، مع اللعنة عليهم في الدنيا والآخرة ، وبئس هذا العطاء المعطى لهم ، جزاء ما قدموا من سوء الأعمال .

### العبرة والعظة من القصص بعذاب الدنيا

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٦﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٧﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ تتبيب ﴾ : مأخوذ من التباب أى الخسران والهلاك يقال تب فلان وتبت يده ، أى خسر وهلك .

ذلك الذى ذكرنا بعض أنباء القرى التى ظلمت نفسها ، وعصيت رسلها ، نقصه عليك للعبرة والعظة ، وللعان آخر ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه من القرى ماله بقايا آثار باقية ، كالزرع القائم ، ومنها ما عفى ودرس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود ، وما ظلمناهم فى شيء أبدا ، بل أرسلنا لهم الرسل لهدايتهم وتنوير بصائرهم ، ولكنهم ظلموا وبغوا وما ازدادوا إلا فجورا وضلالا ، أنذرتهم رسلهم بالعذاب فتماروا بالنذر ، واتكلوا على آلهتهم فى دفع العذاب عنهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم شيئا لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير هلاك وضلال ، فإنهم باتكاهم عليهم إزدادوا كفرا وإصرارا ، وظلما وضلالا .

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب والنكال أخذ ربك إذا أخذ القرى فى حال تلبسها بالظلم فى كل زمان ومكان ، إن أخذه أليم شديد موجه قاس ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، فهل من مذكر .

يا كفار قريش : لستم بأقوى منهم ، وأشد بأسا ، وليس رسولكم بأقل من إخوانه الرسل : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (١) .

### العبرة العامة في هذا القصص بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٢﴾ وَمَا نُوَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ ﴿١٠٧﴾

**المفردات :** ﴿ شقى ﴾ : الشقى من استحق النار لإساءته . ﴿ سعيد ﴾ : من استحق الجنة لعمله بعد فضل الله ورحمته . ﴿ الزفير ﴾ : إخراج النفس . ﴿ الشهيق ﴾ : رده مع السرعة والجهد . ﴿ مجذوذ ﴾ : مقطوع مأخوذ من جذه يجذّه إذا قطعه أو كسره .

قوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ :

يخبر تعالى بأن في إهلاكنا الكافرين ، وإنجائنا المؤمنين ، آية أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أى أولهم وآخرهم ، كقوله : ﴿ وحشرناهم فلم يغادر منهم أحدا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أى عظيم ، تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، إن تك حسنة نضاعفها .

وقوله ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله في وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٢) الآية ١٣ من سورة إبراهيم .

(١) الآية ٥١ من سورة غافر .

ولهذا قال ﴿ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ : أى لمدة مؤقتة لا يزداد عليها ولا ينتقص منها .  
 ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ : أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ،  
 كقوله : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿ وخشعت الأصوات  
 للرحمن ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : ( ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم  
 سلم سلم )<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ، ومنهم سعيد ، كما قال :  
 ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾<sup>(٤)</sup> .

عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ فمنهم شقى وسعيد ﴾ سألت النبى ﷺ فقلت  
 يارسول الله : علام نعمل ؟ على شئ قد فرغ منه أم على شئ لم يفرغ منه ؟ فقال : ( على شئ قد فرغ  
 منه ياعمر وجرت به الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له )<sup>(٥)</sup> .

ثم بين تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق \* خالدين فيها ما دامت السموات والأرض  
 إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر ،  
 أى تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذا بالله من ذلك .

﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾ : قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة  
 العرب ، إذا أرادت أن تصف الشئ بالدوام أبداً ، قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك  
 يقولون هو باق ، ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كله أبداً . فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم  
 فقال : ﴿ خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾ .

وعن ابن عباس قوله : ﴿ مادامت السموات والأرض ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : مادامت الأرض أرضاً ، والسماء سماء .

(١) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(٢) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان (١٢٩) وفى التوحيد (٢٤) . ومسلم فى الإيمان (٢٩٩) .

(٤) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٥) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة : ٩٢ : ٧) وفى القدر (٢) وفى التوحيد (٥٤) . ومسلم فى القدر (٧ ، ٩) . وأبو داود فى

السنة (١٦) . والترمذى فى القدر (٣) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) وفى التجارات (٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٦) وفى (٤ :

وقوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كقوله : ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنْ رَبُّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد اختلف المفسرون في المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، حكاهما الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه ( زاد المسير ) وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله في كتابه .

وعن ابن عباس والحسن أيضا : أن الاستثناء عائد على العضاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعاة الشافعين من الملائكة والنبين والمؤمنين ، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : ( لا إله إلا الله ) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، من حديث أنس وجابر وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا في تفسير هذه الآية الكريمة .

قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ :

يقول تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا﴾ وهم أتباع الرسل ﴿فَفِي الْجَنَّةِ﴾ أى فمأواهم الجنة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ما كثرين فيها أبدا ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ .

معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسييح والتحميد كما يلهمون النفس . وقال الضحاك والحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ، ثم أخرجوا منها ، وعقب ذلك بقوله ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾ أى غير مقطوع قاله مجاهد ، وابن عباس ، وغير واحد ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شيء ، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم .

ولهذا قال : ﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ كما قال ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهنا طيب القلوب . وثبت المقصود بقوله : ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٌ﴾

وقد جاز فى الصحيحين : [ يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت ]<sup>(٣)</sup> .

وفى الصحيح أيضا ﴿فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبهوا فلا

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥٠) وفى التفسير (سورة ١٩ : ١) . ومسلم فى الجنة (٤٠) . والترمذى فى الجنة (٢٠) . والدرامى فى

الرقاق (٩٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١٨) وفى (٣ : ٩ ، ٣٣٠) .

تَهِمُوا أَبَدًا ، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا ، وَإِنْ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا ﴿١٠٩﴾ .

### توجيهات وإرشادات

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوقِفُهُمْ  
نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ  
مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ ﴿١١١﴾ وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لِيُوقِنَهُمْ رَبُّكَ  
أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١٢﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ  
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنِمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ  
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلَّذِينَ كَرِهُوا ﴿١١٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾  
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا  
مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ  
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً  
وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٩﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٠﴾ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ  
مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ  
لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٣﴾  
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ  
بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٤﴾

(١) أخرجه مسلم في الجنة (٢٢) . والترمذی فی التفسیر (سورة ٣٩ : ١٠) والدرامی فی الرقاق (١٠٣) . والامام أحمد فی (٢ : ٣١٩) .  
وفی (٣ : ٣٨ ، ٩٥) .

**المفردات :** ﴿ طرف الشيء ﴾ : الطائفة منه والنهاية . ﴿ فطرنا النهار ﴾ : الغدو والعشى وروى عن الحسن وقتادة والضحاك : أنهما صلاة الصبح والعصر . ﴿ والزلف ﴾ : واحدا زلفة وهي الطائفة من أول الليل لقربها من النهار وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء . ﴿ وذكرى ﴾ : عبرة وعظة . ﴿ للذاكرين ﴾ : أى المعتبرين المتعظين . ﴿ لولا ﴾ : كلمة تفيد التخصيص والحث على الفعل . ﴿ القرون ﴾ : واحدهم قرن وهو الجيل من الناس قيل هو ثمانون سنة وقيل سبعون سنة وشاع تقديره بمائة سنة . ﴿ والبقية ﴾ : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أرداً ما عندهم ، ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة ، أى أبطرته وأفسدته . ﴿ وكلمة ربك ﴾ : أى قضاؤه وأمره . ﴿ القص ﴾ : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ والنبأ ﴾ : الخير الهام . ﴿ ونثبت ﴾ : أى نقوى ونجعل فؤادك راسخا كالجيل . ﴿ على مكانتكم ﴾ : أى على تمكنتكم واستطاعتكم .

قوله تعالى : ﴿ فلاتك فى مربة مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ :

أى فلاتك فى شك مما يعبد هؤلاء المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسببهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذاباً أليماً لا يعذبه أحداً ، وإن كان لهم حسنات فقد وقاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة .

قال سفيان الثورى : عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ وإننا لموفوهم نصيبهم غير منقوص ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ .

يذكر سبحانه وتعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيبنك تكذيبهم لك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾

قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى :



﴿ وما كنا معذنين حتى نبعث رسولا ﴾ <sup>(١)</sup> فإنه قد قال في الآية الأخرى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم و يجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

فقال : ﴿ وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ .

أى علم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها . وفي هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا المعنى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ :

يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغى ، فإنه مصرعه ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تداهنوا .

وقال العوفي عن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا . وهذا القول حسن ، أى لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيت بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أى ليس لكم من دون الله من ولى ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ \* واصر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴿

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب . ﴿ وزلفا من الليل ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسين وغيرهم : يعنى صلاة العشاء .

وقوله ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا فنفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد أستحلفته فإذا

(١) الآية ١٥ من سورة الأسراء . (٢) الآية ١٢٩ من سورة طه . (٣) الآية ٣٢ من سورة يس .

حلف لي صدقته ، وحدثني أبو بكر- وصدق أبو بكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ( ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له ) (١) .

وفي الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال : ( من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه ) (٢) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوماً وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء في إناء - أظنه سيكون فيه قدر فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال ( من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات ) (٣) .

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( أرأيتم لو أن بياض أحدكم نهرًا غمرًا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال ( كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا ) (٤) .

وقال مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ( الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ) (٥) .

وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري عن رسول الله ﷺ كان يقول : ( إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة ) .

وقال أبو جعفر بن جرير عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ( جعلت الصلوات كفارات لما بينهن ) فإن الله قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في الوتر (٢٦) . والترمذي في الصلاة (١٨١) وفي التفسير (سورة ٣ : ١٤) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٣) . والإمام أحمد في (١ : ٢ ، ٩ ، ١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤ ، ٢٨) وفي الصوم (٢٧) . ومسلم في الطهارة (٣ ، ٤) . وأبو داود في الطهارة (٥١) . والنسائي في الطهارة (٢٧ ، ٦٨ ، ٩٣) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ٤٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المواقيت (٦) . ومسلم في المساجد (٢٨٣ ، ٢٨٤) . والترمذي في الأدب (٨٠) . والنسائي في الصلاة (٧) . وابن ماجه في الإقامة (١٩٣) . والدرامي في الصلاة (١) . والإمام مالك في السفر (٩١) . والإمام أحمد في (١ : ٧٢ ، ١٧٧) وفي

(٢ : ٣٧٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤١) .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١٦) . والإمام أحمد في (٢ : ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤) .

وقال البخارى عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبله فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ألى هذا ؟ قال : ( لجميع أمتي كلهم ) هكذا رواه في كتاب الصلاة .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني وجدت امرأة في بستان ففعلت بها كل شيء غير أني لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك . فافعل بي ما شئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئاً فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال ( ردوه على ) فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ أقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فقال معاذ وفي رواية عمر يا رسول الله آله وحده أم للناس كافة ؟ فقال ( بل للناس كافة ) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ( إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قال : قلنا : وما بوائقه يأنى الله ؟ قال ( غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث ) (١) .

وقال ابن جرير : كان فلان بن معتب رجلاً من الأنصار فقال : يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أني لم أواقعها ، فلم يدر رسول الله ما يحببه ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ فدعا رسول الله فقرأها عليه .

وعن معاذ بن جبل أنه كان قاعداً عند النبي ﷺ فجاء رجل فقال : يا رسول الله ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبي ﷺ ( توضأ وضوءاً حسناً ثم قم فصل ) فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى قوله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ فقال معاذ : أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : ( بل للمسلمين عامة ) .

وقال ابن جرير عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول : إن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أقم في حد الله ( مرة أو اثنتين ) فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة ، فما فرغ النبي ﷺ من الصلاة قال : ( أين هذا الرجل القائل أقم في حد الله ) قال أنا ذاقاً لآتمت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم ، قال : ( فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد ) وأنزل الله على رسول الله ﷺ ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

(١) أخرجه الامام أحمد في ( : ٣٨٧ ) .

وقال الإمام أحمد بن علي بن زيد عن أبي عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسي تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابساً فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألني لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : ( إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحات خطاياه كما يتحات هذا الورق )<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ .

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال ( اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن )<sup>(٢)</sup> . وقال أحمد عن أبي ذر قال قلت يارسول الله أوصني ، قال ( إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها ) قال قلت يارسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هي أفضل الحسنات ) . وقال الحافظ الموصلي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ ( ما قال عبد لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات ) . قوله تعالى : ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

الصبر هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح ، كما أنه ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات ، لئلا يتردى في الرذائل ، وقد يكون الصبر نفسياً ومادياً ، وقد جعل الله ثواب الصابرين بغير حساب فقال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولما قال إخوة يوسف له : ﴿ أثنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾<sup>(٤)</sup> .

فبالتقوى والصبر انتقل يوسف من غيابة الجب إلى غاية الجب ، ومن النوم على الحصيرة إلى التربع على عرش مصر .

وبالتقوى والصبر قال له إخوته : ﴿ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾<sup>(٥)</sup> وبالتقوى والصبر قال لهم ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾<sup>(٦)</sup> وبالتقوى والصبر قال يوسف بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وأحقنى بالصالحين ﴾<sup>(٧)</sup> .

فاللهم إنا نسألك صبراً عند البلاء ، وشكراً عند الرخاء ، ورضاً بمر القضاء .

(١) أخرجه الامام أحمد في (٤ : ٧٠) وفي (٥ : ٤٣٧ ، ٤٣٩) . والدرامي في الوضوء (٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذى في البر (٥٥) . والدرامى في الرقاق (٤٧) . والامام أحمد في (٣ : ٥) وى (٥ : ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦) .

(٣) الآية ٩١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الزمر .

(٥) الآية ٩٢ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

(٧) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض ، وقوله : ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كما قال تعالى ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وفي الحديث : ( إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب ) <sup>(٢)</sup> .

ولهذا قال تعالى ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ

إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ : أى استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ .

يخبر الله تعالى بأنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، وهل يبید المجتمعات إلا الظلم ، قال تعالى ﴿ فَكَأَيْنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبُثْرٌ مَعْطِلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير <sup>(٦)</sup> ، ﴿ وَمَا كُنَّا مَهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ <sup>(٧)</sup> ، ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا <sup>(٨)</sup> ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ <sup>(٩)</sup> .

(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٨) الآية ١٣ من سورة يونس .

(٩) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٢) أخرجه الامام أحمد في (١ : ٥ ، ٧) .

(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .

(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة الذى يقول فى حديثه القدسى الجليل : ( يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا )<sup>(١)</sup> .

وسبحان القائل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يِضَاعُغَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup> . وجل جناب الحق إذ يقول ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ \* إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ \* إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ ﴾ :

أى ولا يزال الخُلف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

وقوله : ﴿ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ ﴾ : أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبى وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه وآزروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضاً : ( إن اليهود افرقت على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى افرقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين شعبة كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ( ما أنا عليه وأصحابى )<sup>(٦)</sup> . رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة .

وقال عطاء : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . ﴿ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ ﴾ يعنى الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وعن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثر ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما . فقال أحد الرجلين : لذلك خُلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مِنْ رَحْمِ رَبِّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . وكما قال

(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(١) الآية ١٠١ من سورة هود

(٦) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٤) أخرجه أبو داود فى السنة (١) . والدرامى فى السير (٧٤) .

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول ، إلى قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ .

يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقيلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

وفى الصحيحين عن أنى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( اختصمت الجنة والنار . فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشياء . وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشياء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فصل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك ) <sup>(٢)</sup>

قوله تعالى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أمهم ، وكيف جرى لهم من الحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، وكل هذا مما نثبت به فؤادك ، أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ وجاءك فى هذه الحق ﴾ : أى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبا صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون ﴾ :

يقول الله تعالى أمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعملوا

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات ..

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٥) . والأمام أحمد فى (٢ : ٥٠٧) .

على مكاتكم ﴿ أى على طريقتم ومنهجم ﴾ ، ﴿ إنا عاملون ﴾ أى على طريقتنا ومنهجمنا ﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ أى ﴿ فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (١) .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

قوله تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ :

ينبخر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه ، وقوله ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين ، سبحانه أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

فاللهم أنت رى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . اعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن رى على صراط مستقيم ، يا نعم المولى ويا نعم النصير ، سبحانه ربنا وإليك المصير ، وصلى الله على البشير النذير .



## سورة يوسف

## مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة ، وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون .

وسميت بسورة يوسف لاشتغالها على قصته .

**مقصود السورة إجمالاً :** عرض العجائب التي تتضمنها : من حديث يوسف ويعقوب ، والوقائع

التي في هذه القصة ، من تعبير الرؤيا ، وحسد الأخوة ، وحيلهم في التفريق بينه وبين أبيه ، وتفصيل الصبر الجميل من جهة يعقوب ، وبيع الأخوة أخاهم بثمان بنحس ، وعرضه على البيع والشراء ، بسوق مصر ، ورغبة زليخا وعزيز مصر في شرائه ، ونظر زليخا إلى يوسف ، واحتراز يوسف منها ، وحديث رؤية البرهان وشهادة الشاهد ، وتغيير النسوة زليخا ، وتحريرهن في حسن يوسف ، وجماله ، وحبسه في السجن ، ودخول الساق والطباخ إليه ، وسؤالهما إياه ودعوته إياه إلى التوحيد ونجاة الساق ، وهلاك الطباخ ، ووصية يوسف للساق بأن يذكره عند ربه ، وحديث رؤيا مالك بن الريان ، وعجز العابرين عن عبارته ، وتذكر الساق يوسف ، وتعبيره لرؤياه في السجن ، وطلب مالك يوسف ، وإخراجه من السجن ، وتسليم مقاليد الخزائن إليه .

ومقدم إخوته لطلب الميرة ، وعهد يعقوب مع أولاده ، ووصيتهم في كيفية الدخول إلى مصر ، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبنانيين ، وقضائه حاجة الإخوة وتغييره الصاع في أحماهم ، وتوقيف بنيامين بعلة السرقة ، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإخوة مكانه ، ورده الإخوة إلى أبيهم ، وشكوى يعقوب من جور الهجران ، وألم الفراق ، وإرسال يعقوب إياهم في طلب يوسف وأخيه ، وتضرع الإخوة بين يدي يوسف ، وإظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإساءة وعفوه عنهم ، وإرساله بقميصه صحبتهم إلى يعقوب ، وتوجه يعقوب من كنعان إلى مصر ، وحوالة يوسف ذنب إخوته على مكائد الشيطان ، وشكره لله تعالى على ما خوله من الملك ، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة ، وجميل العاقبة ، وطلب السعادة ، والشهادة ، وتغيير الكفار على الأعراض من الحجّة .

والإشارة إلى قصة يوسف عبرة للعالمين في قوله ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ إلى

آخر السورة .

## المتشابهات

قوله : ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ ليس في القرآن غيره . أى عليم : علّمك تأويل الأحاديث ،

حكيم : اجتباك للرسالة .

قوله : ﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل﴾ في موضعين ، وليس بتكرار : لأنه

ذكر الأول حين نُعي إليه يوسف ، والثاني حين رفع إليه ما جرى على بنيامين .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ ومنلها في القصص وزاد فيها ﴿ واستوى ﴾ ، لأن يوسف عليه السلام أوحى إليه وهو في البئر ، وموسى عليه السلام أوحى إليه بعد أربعين سنة ، وقوله ﴿ واستوى ﴾ إشارة إلى تلك الزيادة .

ومثله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ بعد قوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ معاذ الله ﴾ هنا في موضعين ، وليس بتكرار ، لأن الأول ذكره حين دعته إلى الواقعة ، والثاني حين دعى إلى تغيير حكم السرقة .

قوله : ﴿ قلن حاش لله ﴾ في موضعين : أحدهما في حضرة يوسف حين نفين عنه البشرية بزعمهن ، والثاني بظهر الغيب حين نفين عنه سوء .

قوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ في موضعين : ليس بتكرار ، لأن الأول من كلام صاحبي السجن ليوسف ، والثاني من كلام إخوته له .

قوله : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ في موضعين : الأول ذكره يوسف حين عدل عن جوابهما اللأ دعائهما إلى الإيمان ، والثاني حين عاد إلى تعبير رؤيائهما ، تنبيها على أن الكلام الأول قد تم .

قوله : ﴿ لعلی أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ كرر ( لعل ) مراعاة لفواصل الآي ، ولو جاء على مقتضى الكلام لقال لعلني أرجع إلى الناس فيعلموا ، بحذف النون على الجواب ، ومثله في هذه السورة سواء قوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ أى لعلهم يعرفونها فيرجعوا .

قوله : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ في موضعين : الأول حكاية عن تجهيزه إياهم أول ما دخلوا عليه ، والثاني حين أرادوا الانصراف من عنده في المرة الثانية ، وذكر الأول بالواو ، لأنه أول قصصهم معه ، والثاني بالفاء ، عطفا على ( ولما دخلوا ) وتعقبيا له .

قوله : ﴿ تالله ﴾ في ثلاثة مواضع : الأول يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عالمون ، والثاني يمين منهم أنك لو واطبت على هذا الحزن والجزع تصير حرضا ، أو تكون من الهالكين ، والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين .

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وفي الأنبياء ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ بغير ( من ) لأن ( قبل ) اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه ، و ( من ) يفيد استيعاب الطرفين ، وما في هذه السورة للاستيعاب . وقد يقع ( قبل ) على بعض ما تقدم كما في الأنبياء ، وهو قوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ <sup>(١)</sup> ثم وقع عقبه ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ <sup>(٢)</sup> فحذف ( من ) لأنه هو بعينه .

(١) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الأنبياء .

قوله ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بالفاء . وفي الروم ، والملائكة بالواو ، لأن الفاء يدل على الاتصال والعطف ، والواو يدل على العطف المجرد . وفي هذه السورة قد اتصلت بالأول كقوله تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا في الأرض فينظروا﴾<sup>(١)</sup> . حال من كذبهم ومانزل بهم ، وليس كذلك في الروم والملائكة .

قوله : ﴿ولدار الآخرة خير﴾ بالإضافة ، وفي الأعراف ﴿والدار الآخرة خير﴾<sup>(٢)</sup> على الصفة ، لأن هنا تقدم ذكر الساعة ، فصار التقدير : ودار الساعة الآخرة ، فحذف الموصوف ، وفي الأعراف تقدم قوله : ﴿عرض هذا الأدنى﴾<sup>(٣)</sup> أى المنزل الأدنى ، فجعله وصفا للمنزل ، والدار الدنيا والدار الآخرة بمعناه ، فأجرى مجراه .

قال الشيخ المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره لسورة يوسف : رأينا أن نقدم لك أيها القارئ صورة موجزة تبين لك حال هذا النبي الكريم والعبرة من ذكر قصته في القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئ والسامعين .

### يوسف الصديق : مثل كامل في عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى في صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته في شبابه وقوته في دينه ، وإيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا في العفة والصيانة التي لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ، ومراقبته له في السر والعلن .

وسورته منقبة عظمى له ، وآية بينة في إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملي يقتدى به النساء والرجال ، فبتلاوته يشعر القارئ بالشهوة الخسيسة على النفس من سلطان . ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة في المؤمن على كل رزيلة . بقوة الإرادة ، ونوازع الشرف والعصمة ، ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء .

فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهي سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تُذل نفسها له ، وتخون بعلمها فتراوده عن نفسه ( وقد جرت العادة حتى في الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لا طالبات ) فيسعها من حكمته ، ويربها من كماله وعفته ما هو أفضل درس في الإيمان بالله ، والاعتصام بحبله المتين ، وفي حفظه أمانة سيده الذي أحسن مثواه ، فيقول ﴿إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون﴾ فتشعر حينئذ بالذل والمهانة والتفريط في الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وخلمه ، وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه في غيابة الجب ، وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فُرَج به في السجن ، فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ

(١) الآية ١٠٩ من سورة يوسف . (٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

علم ما في الفاحشة من مفسد وما في العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فأثر الأعلى على الأدنى ،  
فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم .

وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامراته ، وأقرت المرأة ، والنسوة  
ببرائته ، ومكن له في الأرض وكانت عاقبته النصر ، والمملك والحكم ، والعاقبة للمتقين . قال سبحانه  
﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر  
المحسنين ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿ .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته ، فقد ظهرت جليا حين تولى الحكم في مصر أيام السبع سنين  
العجاف التي أكلت الحرث والنسل ، وكادت توقع البلاد في المجاعات ، ثم الهلاك المحقق ، لولا حكمته  
وعدله بين الناس ، والسير بينهم بالسوية . وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ، ولا ميل مع الهوى .

### ما في قصة يوسف من عبرة

إن في هذه القصة لعبرة أيما عبرة لعلية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجَانِهِم وأَعْفَائِهِم ، من  
نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غوية ، ولا كانت في سيرتها غير عادية ، لكنها ابتليت  
بحب هذا الشاب الفاتن الذي وضعه عزيز مصر في قصره ، وخلي بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ،  
بمرادته عن نفسه ، فاستعصم وأنى وآثر مرضاة ربه ، فشاع في مصر ، دورها وقصورها وذها له ، وإياؤه  
عليها ، كما قال سبحانه ﴿ وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ .

وقد ذكرنها بالوصف « امرأة العزيز » دون الاسم منها استعظاما لهذا الأمر منها ، ولا سيما وأن  
زوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها ، وفناها الذي هو في بيتها وتحت  
كنفها ، وذلك أقبح لوقوعها منها ، وهي السيدة ، وهو المملوك ، وهو التابع وهي المتبوعة ، وقد جرت  
العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ، ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التي تشعر بالمساواة لا  
بالسيادة ، وبالضعة لا بالعظمة ، والله في خلقه شئون .

وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد في حبها ، ولا في طلبها .

أما الأولى : فقولهن فيها ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ( الغشاء المحيط  
به ) وغاص في سويدائه ، كما قال شاعرهم :

يعلم الله أن حبك منى في سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانية فقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » .

فلما سمعت بهذا المكر القوي ، قابلتهن عليه بمكر فعلى ، فقد جمعتن وأخرجه عليهن ، فلم يشعرن  
إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفي أيديهن مدى يقطعن بها مما  
يأكلنه ، فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن ، مأخوذات بذلك الحسن . كما جاء في قوله سبحانه

﴿ فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها ، وكاشفت النسوة فى أمرها ، وتواطأن معها على كيدها ، أثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

وإنه ليستين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت ، وشاء لها الهوى ، إذا كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس ، عبيد الشهوات .

قال فى الكشف عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستئزال المرأة لزوجها . وقتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعه لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعده ، وذلك لما أيسر من طاعته ، وطمعت فى أن يذلل السجن ، ويسخر لها .

وإنا نستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

١ - إن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفراح .

٢ - إن الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ، ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الحوائج التى تكون مصدر النكبات والمصائب .

٣ - أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبر وتدبر ، ونظر بعين الناقد البصير .

٤ - إن أسسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة ، وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث ( ما أجمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما )<sup>(١)</sup> .

وإنا نرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوى ، والفساد الخلقي ، الذى وصل إلى الغاية ( وكلنا نلمس آثاره ونشاهد بلواه ) ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى والاشتراك معهم فى المفاصد والمعاصى ، كمعاقرة الخمور ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة .

(١) أخرجه الترمذى فى الرضاع (١٦) وفى الفتن (٧) . والإمام أحمد فى (١ : ١٨ ، ٢٦) وفى (٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦) .

وبعد : فهل لهذه البلوى من يفرج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج . ولهذا الطامة من يقوم بحمل عبثها عن الأمة ، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عالياً بالنزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع ، والحرص على آدابه إلى ما قرره الدين ، وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره ، وتزهو الفضيلة ، وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين في بلاد المسلمين ، والله الأمر من قبل ومن بعد .  
 هداانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾  
 نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾

روى البيهقي أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها لما عندهم ، وهو من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى ﴿الر﴾ هذه بعض حروف الهجاء ، ويراد بها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المبين الواضح الدلالة .

قال الله تعالى : ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ وكتاب الله تعالى هو المخرج من الفتن ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تملأ الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء .

قال الإمام الشاطبي رضي الله عنه :

وخير جليس لا يمل حديثه  
 وترداده تزداد فيه تجملاً  
 وحيث الفتى يرتاع في ظلماته  
 من القبر يلقاه سنئ متهللاً  
 هنالك يهنيه مقيلاً وروضة  
 ومن أجله في ذروة العز يجتلي  
 يناشد في إرضائه لحبيبه  
 وأجدر به سؤلاً إليه موصلاً

فيا أيها القارى به متمسكاً  
مجالاً له فى كل حال مبعجلاً  
هنيئاً مريئاً والذاك عليهما  
ملابس أنوار من التاج والحلى

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾

ذلك لأن لغة العرب أشرف اللغات ، وقد زادها الله شرفاً ورفعة بإنزال القرآن بها ، قال تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ :

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبي ﷺ القرآن ، قال فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ ما أنزل الله عز وجل ﴿ ألر تلك آيات الكتاب المبين ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية وذكر الحديث .

وبما يناسب ذكره عن هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : ( أمتهون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتمكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شيء ، فيخبرونكم بحق فتكذبونه ، أو يباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى) .

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا قال : فسرى عن النبي ﷺ وقال ( والذى نفسى بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين ) (٢) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالسا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم قال : وأنت النازل

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ( ٤ : ٢٦٦ ) وفى ( ٣ : ٤٧١ ) .

(١) الآيات ١ - ٤ من سورة الزخرف .

بالسوس ؟ قال : نعم فضربه بقناة معه قال : فقال الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . آلم تلك آيات الكتاب المبين إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ نحن نقص عليك أحسن القصص - إلى قوله - لمن الغافلين ﴿ فقرأها عليه ثلاثا ، وضربه ثلاثا ، فقال له الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرئى بأمرك أتبعه . قال : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرأه أحداً من الناس ، فكن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهنك عقوبة ، ثم قال : اجلس فجلس بين يديه فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله ﷺ ( ما هذا فى يدك يا عمر ؟ ) قال : قلت يا رسول الله كتاب نسخته لتزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال ( يا أيها الناس إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهكوا ولا يغرنكم المتهكون ) قال عمر : فقمتم فقلت : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله ﷺ ) وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

### رؤيا يوسف

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٢٦﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءُوسَكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٨﴾

**المفردات :** ﴿ لأبيه ﴾ : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم روى أحمد والبخارى أن النبى ﷺ قال ( الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ) ﴿ أحد عشر كوكبا ﴾ : هم إخوته ، وكانوا أحد عشر نفراً . ﴿ الشمس والقمر ﴾ : أبوه وأمه . ﴿ والسجود ﴾ : من سجد البعير إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس من تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرهما الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية ، للتقرب إلى من يعتقد أن له



عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة . ﴿ وقص الرؤيا ﴾ : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة . ﴿ وكاد له ﴾ : إذا دبر الكيد لأجله لمضرته أو لمنفعته كما قال ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ . ﴿ والاجتناء ﴾ : من جبيت الشيء ( إذا حصلته لنفسك والتأويل الإخبار بما يؤول إليه الشيء في الوجود وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها .

﴿ والآل ﴾ أصلها : أهل وهو خاص بمن لهم شرف وخطر في الناس كآل النبي ﷺ وآل الملك . يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال ( الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم )<sup>(١)</sup> رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم قال ( أكرمهم عند الله أتقاهم ) قالوا ليس عن هذا نسألك قال ( فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله ) قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : ( فعن معاوية العرب تسألونى ) قالوا : نعم . قال ( فخيركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا )<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وقد وقع تفسيرها حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وأخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها رى حقا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ :

ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكرهه فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحدا ، فإنها لن تضره )<sup>(٣)</sup> .

وقال رسول الله ﷺ ( الرؤيا على رجل طائر ما لم تعبر فاذا عبرت وقعت )<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٩) وفى المناقب (١٣) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . والترمذى فى التفسير (سورة ١٢ : ١) .  
(٢) فى (٢ : ٩٦ ، ٣٣٢ ، ٤١٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٨ ، ١٤ ، ١٩) وفى المناقب (١ ، ٢٥) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . ومسلم فى الفضائل (١٦٨) . والامام أحمد فى (٤ : ١٠١) .

(٤) أخرجه مسلم فى الرؤيا (٤) . والدرامى فى الرؤيا (٥) . والامام أحمد فى (٣ : ٨) وفى (٥ : ٣٠٣) .

(٤) أخرجه للامام أحمد فى (٤ : ١٠ ، ١١) . وابن ماجه فى الرؤيا (٦) . والدرامى فى الرؤيا (١١) .

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث ( استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذى نعمة محسود ) .

وما قال يعقوب لابنه يوسف : لا تقصص رؤياك على إخوتك إلا حرصا عليه منهم ، وذلك خشية الحسد فيكيدون له كيذا ، ويحتالون عليه احتيالا ، حتى يوقعوه في مالا تحمد عقباه ، وذلك بما يوحيه الشيطان إليهم ، وبما يوسوسه لهم ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين ، أعاذنا الله تعالى من شره .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أى يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، قال مجاهد : يعنى الرؤيا ، ويتم نعمته عليك أى بإرسالك والإيحاء إليك . ولهذا قال ﴿ كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال فى الآية الأخرى .

### التأمر على يوسف

\* لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّاعِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبِنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا

فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

**المفردات:** ﴿الناصح﴾: المشفق المحب للخير. ﴿الرتع﴾: الانساع في الملاذ والمراد باللعب لعب المسابقة والانتصال بالهام ونحوهما، مما يتدرب به لمقاومة الأعداء، وتعليم فنون الحرب. ﴿والحزن﴾: ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه. ﴿والخوف﴾: «والخوف» ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه. ﴿والعصبة﴾: الجماعة التي تعصب بها الأمور وتكفي بآرائها الخطوب. ﴿وخاسرون﴾: ضعفاء عاجزون أو هالكون لا غناء عندهم ولا نفع. ﴿أجمعوا﴾: أى عزموا عزمًا لا تردد فيه. ﴿وأوحينا إليه﴾: أى ألهمناه كما في قوله تعالى ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾<sup>(١)</sup>. ﴿والعشاء﴾: من الغروب إلى العتمة: أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار. ﴿والاستباق﴾: تكلف السبق في العدو أو في الرمي. ﴿والمناخ﴾: فضل الثياب وماعون الطعام والشراب. ﴿ومؤمن﴾: أى مصدق. ﴿وسولت﴾: زينت وسهلت. ﴿والصبر الجميل﴾: ما لا شكوى فيه إلى الخلق. ﴿على ما تصفون﴾: أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء. يقول العلامة ابن كثير في تفسير هذا المشهد:

يقول تعالى: لقد كان في قصة يوسف وخبره مع أخوته آيات، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك، المستخبرين عنه، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾ أى حلفوا فيما يظنون، والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أى جماعة فكيف، أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ يعنون في تقديمهما علينا، ومحبة إياهما أكثر منا.

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر هذا السياق يدل على خلاف ذلك، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل، ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾<sup>(٢)</sup>.

وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم، والله أعلم.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقولون هذا الذى يراحمكم فى محبة

أييكم لكم ، أعدموه من وجه أييكم ، ليخلوا لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأييكم ﴿ وتكونوا من بعده قوما صالحين ﴾ فأضربوا التوبة قبل الذنب .  
﴿ قال قائل منهم ﴾ قال قتادة ، ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روبييل . وقال السدي :  
الذي قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا .

﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أى لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كافيريد منه أمرا لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصر فهم الله عنه بمقالة روبييل فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الحب وهو أسفله .  
قال قتادة : وهى بئر بيت المقدس ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أى المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أى إن كنتم عازمين على ما تقولون .

قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحيبيه على كبر سنه ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما . رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴿ :

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبييل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام ، فقالوا : مابالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ أرسله معنا ﴾ أى ابعثه معنا ﴿ غدا نرتع ونلعب ﴾ وقرأ بعضهم بالياء ( يرتع ويلعب ) قال ابن عباس : يسعى وينشط ، وكذا قال قتادة ، والضحاك ، والسدي ، وغيرهم ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ يقولون ونحن نحفظه ، ونحوطه من أهلك .

﴿ قال إني ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه في جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى في الصحراء ﴿ إني ليحزننى أن تذهبوا به ﴾ أى يشق على مفارقتهم مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، والكمال في الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ : يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الجملة وجعلوها عذراً فيما فعلوه .

وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة : ﴿ لَنْ أَكُلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عَصَبَةٌ إِنْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ .  
يقولون لن نأكله الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذا هالكون عاجزون .

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ :

يقول تعالى : فلما ذهب به أخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له ، وبسطاً وشرحاً لصدرة ، وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له .

فذكر السدى وغيره : أنه لم يكن بين أكرامهم له ، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشمته ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون في وسطه يقال لها الراغوفة ، فقام فوقها .

وقوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنْبِئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ : يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر ، أنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطيباً لقلبه ، وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ قال مجاهد وقتادة : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ بإيماء الله إليه ، وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا في حقل ، وهم لا يعرفونك ، ولا يستشعرون بك .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين \* وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون :

يقول تعالى مخبراً عن الذى اعتمده إخوة يوسف ، بعد ما ألقوه في غيابة الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل ليكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتنغمون لأبيهم ، وقالوا معتردين عما وقع فيما زعموا ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ أى نترامى ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أى ثيابنا وأمتعتنا

﴿ فَأَكَلَهُ الذُّئْبُ ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه وحذر عليه .

وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ تلتطف عظيم فى تقدير ما يجادلونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت متهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا .

﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ : أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالقوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد ، فذبجوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من لبسهم عليه : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أى فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ . أى على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى : عن ابن عباس ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص ، وكذا قال الشعبى وقتادة ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذى لا جزع فيه .

وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى حيلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ فصبر جميل ﴾ فقال : ( صبر لا شكوى فيه ) .

وقال عبد الرزاق : قال الثورى عن بعض أصحابه : أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكى نفسك .

### يوسف مع السيارة

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسْرَوْهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ سياره ﴾ : هم الجمع المسافرون كالجواله والكشافه . ﴿ واردهم ﴾ : هو الرائد الذى يبحث عن الماء . ﴿ فادلى دلوه ﴾ : فأرسل دلوه - إناء يستقى به من البئر : ﴿ وأسروه ﴾ : أخفوه . ﴿ شروه ﴾ : باعوه بثمان قليل .

وجاءت هذا المكان جماعة مسافرون ، روى أنهم من العرب الإسماعيليين ، فأرسلوا رائداهم يبحث عن الماء ويأتئهم به فأرسل دلوه فى البئر فتعلق به يوسف حتى خرج ، وقال يا بشرى ، احضرى فهذا غلام

وسيم الطلعة ، صبح الوجه ، فاستبشروا به وسرّوا ، وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يعلم به أحد ، لأجل أن يكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر ، والله سبحانه لا يغيّب عنه شيء ، عليم بما يفعل هؤلاء وهؤلاء ، وباعه السيارة بثمن قليل دراهم معدودة لم تصل إلى حد الوزن ، وكانوا فيه من الزاهدين الراغبين عنه ، الذين يبتغون الخلاص منه .

### يوسف فى مصر

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا  
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ  
وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ؕ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ مشواه ﴾ : مقامه عندنا مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به . ﴿ أشده ﴾ :

رشده وكماله .

وقال الذى اشتراه من مصر ، لم يذكر القرآن اسمه ولا صنعتته ولا سكنه ، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص ، يعنى بهذه الأشياء ، بل قصصه لمعنى أعلى وأسمى ، ولا يهتم بمثل هذا ، وقد ذكرت روايات فى اسمه ووظيفته كثيرة ، والظاهر أنه كان رئيس شرطة ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز ﴾ .

قال : أكرمى مقام هذا الغلام . فلا يكن فى منزلة العبيد والأرقاء ، بل عامله كفرد منا ، فإى الملح منه النبيل والخلق ، وأرى أنه سيكون له شأن ، أكرميه رجاء أن ينفعنا فى أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقرّ به أعيننا ، وترثه ويرثنا .

يا سبحان الله !! أهكذا يكون يوسف الذى ألقى فى الحب !! وقد وقع فى قلب سيده هذا الموقع ، ولا غرابة فالله حارسه وهاديه ، وحافظه وراعيه ، ومثل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكانه فى أرض مصر ، وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير ، وإن اعترض ذلك ، مكانه فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤيا ، وهكذا إعداد الأنبياء .

﴿ والله غالب على أمره ﴾ ، ومنفذ ما أراد ، لا رادّ لقضائه . فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الحب ، ومن استرقاقه وبيعه ، وتوصية سيده لامرأته بخصوصه ، وتعليمه الرؤيا ، وغير ذلك ، خطوات لإعداد يوسف للمحل الذى ينتظره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

﴿ ولما بلغ أشده ﴾ ، وكمل رشده ، واستوى عقله وبدنه ﴿ آتيناه حكما ﴾ إلهاميا فيما يعرض له من المشاكل والنوازل ، وسن الرشده هل هى ثلاثون أو أربعون ؟ .

مثل ذلك نجزي المحسنين العاملين ، خصوصا الأنبياء والمرسلين ، وقائدهم وخاتمهم محمد ﷺ .

يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته ؟ ودفاعه

وحكم زوجها

وَرَأَوْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْأُفَّاكُ سَيِّدَاهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَأَوْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّارَةً قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿ راودته ﴾ : طلبت منه أن يواقعها طلبا بلين ورفق كالخداعة ، يقال : راود الرجل المرأة عن نفسها وراودته عن نفسه ، والمرادة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد وعليه قوله : ﴿ ستراد عنه أباه ﴾ أي نحتال عليه ، ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه معنوا ، والمراد في الآية تحايلت لمواقعة إياها ، ولم نجد منه قبولا . ﴿ غلقت ﴾ : أحكمت إغلاق الأبواب كلها . ﴿ هيت لك ﴾ : هلم أقبل وبادر لما أقوله لك . ﴿ برهان ﴾ المراد تذكرة الله سبحانه وتعالى ، وما بينه من تحريم الزنا والخيانة ومراقبة الله سبحانه في كل عمله ، وهي مرتبة الإحسان في العمل كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ﴿ المخلصين ﴾ الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب . ﴿ من قبل ﴾ من قدام . ﴿ من دبر ﴾ من خلف .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أي حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، ذلك أنها أحبته حبا شديدا لجمالته وحسنه



وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أى إن يملك ربي أحسن مثواي ، أى منزلى ، وأحسن إلى ، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم .

إن الله تعالى قبل أن يحدثنا عن مشهد المرادة ، قدم لذلك بقوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتياه حكما وعلمنا وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

وبهذا يكون يوسف قد أوقى الحكم والعلم ووصفه الله تعالى بالإحسان ، والإحسان كما قال النبى ﷺ : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )<sup>(١)</sup> .

فكيف بعد هذا كله يقول عاقل إن يوسف قد مال إليها ، كما مالت إليه ، إن الآية تقول ﴿ وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ فهذه ثلاثة مواقف من جهتها : المرادة ، وهى الطلب برفق ، وإغلاق الأبواب بإحكام ، وقولها له : هيت لك أى أقبل ، أو هيت لك أى تهبأت لك .

وقد قبلت هذه المواقف الثلاثة بثلاثة مواقف من يوسف الكريم ، أولها : ﴿ قال معاذ الله ﴾ أى ألجأ إلى الله فهو الحصن الحصين ، والركن الركين ، والجناب الأعلى .

وكما قال القائل :

ياربِّ حبك فى دمي وكيانى  
نور أغر يذوب فى وجدانى  
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى  
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

وكيف لا يكون ذلك كذلك والله تعالى يقول ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا \* ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكيف لا يكون يوسف من أهل التقوى وهو الذى قال لإخوته ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وكان الموقف الثانى : قوله : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أى كيف أخون سيدى وهو زوجك ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير ( سورة : ٣١ : ٢ ) وفى الايمان ( ٣٧ ) . ومسلم فى الايمان ( ٥٧ ) . وأبو داود فى السنة ( ١٦ ) . والترمذى فى الايمان ( ٤ ) . وابن ماجه فى المقدمة ( ٩ ) . والامام أحمد فى ( ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ) وفى ( ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ) وفى ( ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ ) .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة الطلاق .

وقد أكرمنى وأحسن مقامى ، وأوصاك بذلك ، وقال لك ﴿ أكرمى مثواه ﴾ ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، أآخونه فى أعلى شىء وهو العرض .

وكان الموقف الثالث : قوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ من باب إياك أعنى واسمعى يا جارة ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة ، فهذه ثلاثة بثلاثة وهذا منتهى الصراحة فى براءة يوسف الكريم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ :

وفى هذه الآية زلت أقدام ، وتعثرت أقلام ، وانفلت خيال بعض الكاتبين ، ناسين أو متناسين أنهم يكتبون عن نبي كريم ، منحه الله العصمة ، وأحاطه بالعناية العليا ، والرعاية العظمى ، والعصمة هى حفظ الله تعالى خواطر الرسل وبواطنهم عن التلبس بمنهى عنه ، ولقد أردنا أن نبسط القول فى هذا المقام ، فوفقنا الله تعالى إلى هذا الكلام الجيد الذى كتبه الأستاذ ( محمد مصطفى الشاطر ) فى كتابه ( القول السيد فى حكم ترجمة القرآن المجيد ) :

قال : قاتل الله اليهود ، لقد ملأوا الدنيا افتراءات على الأنبياء عليهم السلام ، ونسبوا إليهم ما لا يجوز ولا يعقل ، وأشبعوا الجوبه هذه المفتريات ، خصوصا بعد ظهور الإسلام كيدا منهم وحسداً ، وتمكنوا من إسناد بعض هذه المفتريات إلى كبار الصحابة ، مثل ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما ، افتراء عليهما ، وبهتاننا ، ليتقبلها العامة من المسلمين بالقبول التام . فلم يسلم الجو العلمى منها ولم تسلم كتب المفسرين منها ، إما لأنهم أخذوها عن بعض القصاص الذين يعتقدون فيها الصلاح ، وإما لأنهم وجدوها فى بعض الكتب ، فظنوها صحيحة فى تفاسيرهم بحسن نية ، وأخذوا يتمحلون الإجابة عن بعضها بما لا يطمئن إليه قلب المؤمن .

ومن ذلك قصص سيدنا سليمان ، وسيدنا داود ، وسيدنا يوسف عليه السلام ، ولكن الذى يخلى عقله ويظهره من تلك الخزعبلات ، ثم يتوجه به إلى القرآن الكريم يتلوه بتدبر ، وحسن يقين ، يتبين له إن شاء الله تعالى وجه الصواب ناصعا .

ثم قال بشأن يوسف عليه السلام : نسب بعضهم إلى سيدنا يوسف عليه السلام أنه لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، مال إلى طلبها ، وكاد يفعل ، أو أنه أراد مخالطتها ، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، إلا أنه انصرف عنها ، إما لأنه رأى معصما مكتوبا عليه النهى عن الزنا ، قد ظهر من بين الجدران منفردا عن الجسم ، أو لأنه رأى سقف البيت قد انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب ، عاصيا على إصبعه ، أو لأنه رأى صورته فى الجدار كذلك ، أو لأنه سمع نداء يناه عن الزنا ، فلم ينته فسمع نداء ثانيا فلم ينته ، فسمع نداء ثالثا كذلك إلى آخر تلك المفتريات التى شوهت بها محاسن التفاسير ، وليس لهذه الأقاويل - والحمد لله - فى كتب الأحاديث الصحيحة أصل ، ولا آية إشارة إليها .

ثم إن بعض المفسرين رأى أن هذه المفتريات غير معقولة ، ولا أصل لها ، فخفف منها ، واختار أن يكون لها معنى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أنه مال إليها ، إلا أنه امتنع حينئذ رأى برهان ربه ، وأخذ يبين هذا البرهان بما يقرب من الخيالات ، ولكن تفسيره الهم بالميل المجرد يأباه الذوق العربى ، لأن الكلام يكون هكذا « مال إليها ومالت إليه » فيكون مثلهما سواء ، ويكون الحكم عليها في هذا واحدا ، وذلك لا يجوز .

وفيه أيضا إسناد ميله إلى الزنا ، وهذا لا يجوز في حق الأنبياء عليهم السلام ، مهما أجابوا من أن الإنسان لا يؤخذ على الميل ، فإن ذلك ليس شأن الأنبياء الذين هم القدوة العليا في الأخلاق والأعمال والأقوال .

وأهل العلم يقولون في قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ (١) أن ذلك كان قمين مضى قبلنا ، وقد نسخ ذلك بالنسبة لنا فقط ، بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (٢) .

ثم إن تفسير ( هم ) بمعنى مال يضع الحكمة التى من أجلها اختيرت كلمة ( هم ) دون ما يرادفها من مال أو قصد أو عزم ، وستعرف إن شاء الله تلك الحكمة ، ومن أجل ذلك فإن النفس المؤمنة لا تطمئن إلى هذه الأقاويل ، وإنما تطمئن إن شاء الله تعالى إلى ما يتلى .

إذا قرأت سورة يوسف بامعان تبين لك أن الله سبحانه وتعالى وصفه أولا بالصفات الآتية :

(١) اجتباؤه واصطفاه .  
(٢) تعليمه تأويل الأحاديث ، وذلك بقوله تعالى ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

(٣) إيماءه إليه في الحب ، حينما رماه إخوته ، ولجأ إلى الله تعالى قائلا بلسان حاله أو مقاله ، كما روى عنه : ( يا شاهدأ غير غائب ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، اجعل لى من أمرى فرجا ) فأنسه الله بالوحي ، وأعلمه عاقبة أمره . قال تعالى ﴿ وأوحينا إليه لتبفهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

(٤) وإيتاؤه الحكم والعلم ، قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ والحكم هنا النبوة ، أو سيرة الأنبياء ، وتعظيم الأول إيماءه إليه في الحب .

وقوله تعالى في حق يحيى عليه السلام : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ (٣) قال المفسرون : الحكم هنا النبوة ، وإلى هذا أميل :

(٥) الإحسان : وهو أفضل درجات العبادة ، وفي الحديث الإحسان ( أن تعبد الله كأنك تراه ) .

(١) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

أتظن أيها القارئ أن شخصا يؤتيه الله هذه الصفات ، يهم أو يميل إلى مخالطة امرأة أجنبية عنه ، كلا وألف كلا ، فإن الزنا أو مقدماته محقة للإحسان ، مجلبة للطرد والحرمان .

إن تلك النفس الطاهرة لأبعد وأنزه مما رماها به المفترون ، أو الغافلون .

ثم بعد أن ذكر الله لنا هذه الصفات لتكون قرينة قاطعة لمن يتلمس الحقائق على نزاهته ، كما كان قد قميصه من خلفه قرينة قاطعة على براءته ، قص علينا مقدار حكمته ، ومبلغ عفافه وعصمته ، ومقدار ما تحمله نظير ذلك من الخروج من نعيم القصر إلى ضيق السجن .

فقال تعالى ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك ﴾ قبل التكلم في تفسيرها أقول : إن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال الغزالي وغيره أربع درجات مرتبة: الأولى- التعريف والتنبية ، والثانية- النصيح بالحسنى ، والثالثة- التخشين في القول ، والرابعة- المنع بالقوة والقهر .

ولقد سار يوسف عليه السلام في هذه الحادثة على تلك القاعدة تماما ، طلبت منه امرأة العزيز ما تطلبه المرأة من الرجل ، وغلقت الأبواب حتى يكونا بمأمن من اطلاع الغير ، ولتحمله على إجابتها ولو كرها ، والتعبير بالمرادة ، وغلقت الأبواب ، يشعران بتكرار الطلب وتكرار الامتناع ، وقالت هيت لك ، أى هلم إلى ما أريد ، وتبيأت لك ، وتزينت لأجلك ، فأجب طلبى . فقال : ﴿ معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لا يفلح الظالمون ﴾ .

تلك ثلاث جمل قد جمعت كل ما يستوجب الاعتصام ، والبعد عن هذا المنكر فعلا وإرادة وميلا ، بل كل واحدة منها كافية في العصمة فما بالك كلها . سيدة في بيتها وفي قومها ، غنية بثروتها ، بديعة في حسنها ، ذات قدرة وسلطان ، وأمر مطاع ، قد غلقت على شاب الأبواب ، وتبيأت له كما تبيأت المرأة لزوجها أو أكثر ، ثم دعت إلى نفسها ، وألحت ، وفي مخالفتها الانتقام والكيد العظيم ، وفي طاعتها وفرة المال ، والتمتع بلذات الحياة كما يشاء ، كل هذه المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذلك الطاهر النقي الذي اصطفاه الله لزلزلته ، ولكنها أحاطت بمن آتاه الله الحكم والعلم ، ومن ولد في بيت النبوة وترعرع فيه ، ومن بلغ درجة الإحسان ، فماذا قابلها ؟

قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة التي ينبغي أن تتخذ أصولا وقواعد يبنى عليها علماء الأديان والأخلاق فروعاً لا حصر لها . ألا وهي ﴿ معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أى ألتجئ إلى الله ، وأعتصم به ، من أن آتى هذا المنكر ، وأخون زوجك الذي رباني ، وأحسن إقامتي ، إنني إن فعلت ذلك أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة ، والتربية بالخيانة ، والنعمة بالكفران ، وهذا ظلم ، ووضع للشيء في غير موضعه ، وعاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح .

فالرب هنا - الذي رباه وهو سيد البيت كما فسره في الكشف ، والنيسابوري ، وغيرهما ، والضمير في ( إنه ) للشأن .

ثم إن لهذه الجمل القيمة دلالات تبعية ، لا يبعد أن تكون مرادة له في قوله ﴿ معاذ الله ﴾ تنبيها لها إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام على هذا المنكر ، لعلها تتذكر وتحشع ، فترجع عن غيها ، قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ (١) أى تذكر الله أكبر في النهى عنهما من الصلاة ، وهذه هي الدرجة الأولى من درجات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وأشار بقوله ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾ إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الذى رباهما بنعمه وخيراته وأحسن مقامها ، وغمرها بإحسانه ، وهذه هي الدرجة الثانية .

وأشار بقوله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ إلى أنها إن أقدمت على هذا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولبلعها ، وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح ، لعلها تتعظ خصوصا أن واعظها هو فتاها ذلك الشاب ، وهذه هي الدرجة الثالثة . بعد هذه النصائح الغالية والتوبيخ والتأنيب من طريق التعريض ، لم ترتدع عن اغيها بل أعمأها شيطان الحب ، وأصمها ، فهمت به ليأتيها رغما وكرها ، وهذا ما سنشرحه في الآية الثانية .

قال تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ :

أربع جمل ، والوقف تام عند قوله تعالى ﴿ وهم بها ﴾ وكذلك عند قوله ﴿ برهان ربه ﴾ وإنك لتشعر بجمال هذه الجمل ، إذا قرأتها كما بينت لك ، مع فهم المعنى الذى ستسمعه .  
الهم . هنا هو الشروع في تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر ، وما امتلأت به ، ولا بد أن يكون معه أمانة دالة على ذلك ، وسواء قلنا إن الهم هو العزم والقصد ، أو الشروع في التنفيذ ، فلا بد أن يكون معه أمانة دالة عليه ، وإذا تبعت تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هذا الشرط لازم ، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ وهما بإخراج الرسول ﴾ (٢) أى شرعوا في إخراجه ، وظهرت الأمانة الدالة على ذلك وهو التشاور ، والتكلم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم ﴾ (٣) أى شرعوا وظهرت الأمانة الدالة على ذلك ، وهو رفع السيف ( فعلا ) على رسول الله ﷺ على أحد الرايين .  
وقوله تعالى ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ (٤) أى شرعت مع ظهور الأمارات ، وهو تكلم بعضهم ، وترددهم في أول الأمر .

ويقال هم بالقيام إذا شرع فيه ، وبدرت فيه بواذر تدل عليه ، ويقال فلان مهموم إذا ملأه الحزن ، فظهرت على وجهه أماراته ، ومنه الهم مضمّن لأنه يؤثر على الجسم فيذبله ، ويقال أهمه الأمر إذا أقلقه ، أى ظهر عليه القلق والاضطراب ، واهتم فلان بالأمر إذا ظهرت منه أمارات تدل على اهتمامه .

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١١ من سورة المائدة .

(٣) الآية ١٣ من سورة التوبة .

(٤) الآية ١٢٢ من سورة آل عمران .

وحينئذ يكون معنى ( همت به وهم بها ) أى شرع كل منهما فى تنفيذ ما توطنت عليه نفسيهما ، أو ما عزم عليه ، مع ظهور أمارت من كل منهما تدل على ذلك ، ثم إن عزم النفس تابع لما تنفعل به من خير أو شر ، أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك ، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الذى يلائم هذا الانفعال ، فشرعت فى تنفيذه وإيجاده ، هذا أمر لا يحتاج إلى توضيح .

فلننظر إذاً فى نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها .

أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب الخالطة ، شغوفة به ، فهى منفعلة بذلك .

وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف ، والطهارة والنفرة من هذا الأمر ، فهى منفعلة بذلك ، فحملها انفعالها وهياجها على شروعها فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات دالة على ذلك ، وحمله انفعاله على شروعه فى منعها بالقوة ، بما ظهر منه من أمارات دالة على ذلك ، وهذه هى الدرجة الرابعة للنهى عن المنكر .

لقد أنجل الله تعالى لنا ما هم به كل منهما ، وتركه لفطنة القارئ ، إلا أنه أشار إليه فى نفس الآية بقوله ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ لثلاث تزل قدم مؤمن فى هذا المنزل الخطير ، أى أنه هم بإساءتها ، وهمت هى بحمله على الفحشاء بما ظهر من كل منهما من أمارات ، والدليل على ظهور أماراة منه قولها بعد ذلك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ فإن الإرادة أمر نفس لا تعلمه امرأة العزيز إلا إذا ظهر لها أماراة دالة على ذلك ، كرفع يده مثلاً ، أو تهديدها بالسوء .

وحينئذ يكون معنى قوله تعالى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أنها شرعت فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات ، وشرع هو فى تنفيذ منعها بما يسوءها بما بدرت منه من أمارات .

ولو كان همهم كما يقول المفسرون الميل إلى المخالطة لما كان هناك فائدة من ذكر كلمة السوء فى قوله ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولكن كافياً أن يقال لنصرف عنه الفحشاء ، فكلمة السوء تدل على همهم ، وكلمة الفحشاء تدل على همها .

ومما يؤيد ذلك أيضاً أنها قالت لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ولم تقل مخالطة ، والسوء فى لغة العرب والقرآن غير الفحشاء .

ومما يؤيد ذلك أيضاً شهادة امرأة العزيز حيث تقول : ﴿ لقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ فإنه ليس هناك كلمة أبلغ فى الدلالة على نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هذه الكلمة البالغة ، فدل كل ذلك على أن تفسير الهم بما يقولونه غير مقبول .

ثم قال تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ :

الرب هنا سيد البيت أى مريه ، وهو المشار إليه سابقا فى قوله: ﴿ إنه رى أحسن مثنوى ﴾ وقد استعمل الرب فى هذا المعنى كثيرا فى هذه السورة ، ومن ذلك قوله ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ﴾ الآية . والبرهان العلامة والبيان - أى لولا أن رأى علامة ربه ، أى علامة حضوره وبجيته ، وإنما قلنا علامة حضوره ، لأن الله أشار إلى ذلك بقوله ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فكان ذلك قرينة قاطعة على أن المراد العلامة الدالة على حضوره ، وأنا لا نعرف هذه العلامة على وجه التحقيق ، وإنما الذى نعرفه أن لقدم الأمراء إلى بيوتهم علامات تدل عليه ، وقد تكون تلك العلامة رفع راية مثلا ، أو وجود شخص يعدو أمامه كالسايس مثلا ، ويختلف ذلك باختلاف عادات الأمم ، واختلاف العصور ، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة على التحقيق .

وجواب ( لولا ) محذوف أى لولا أن رأى العلامة الدالة على حضور سيدها ، لنفذ ( فعلا ) ما أراده ، أى لساءها فعلا . ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أى الأمر كان كذلك ، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، فقدرنا حضور صاحب البيت فى هذا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أراده ( فعلا ) فإن إساءة المرأة خصوصا امرأة العزيز ليست بالأمر الهين ، بل تقوم لها الأمة وتقعد ، ويداق بسببها ألوان العذاب ، وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلا بنا ومنا .

﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أى فعلنا به هذا ، ونجيناه من السوء والفحشاء ، لأنه من عبادنا الذين أخلصناهم وأصطفيناهم من الخلق ، أو أخلصوا لنا فى عبادتنا وأحسنوا .

ثم قال تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ .

لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه عدل عن تنفيذ ما أراده من السوء ، وأسرع نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الدقيق ، والنزاع العنيد ، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها ، فأسرعت وراءه لتمنعه وجذبتة من قميصه ، ليعود إليها فقدته من خلفه ، وهنا ألفيا سيدها لدى الباب .

قد يقول قائل إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلم ترها امرأته ؟ قلنا : ليس بل لازم ، خصوصا أنها فى حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها ، فلم تلتفت إلا إليه .

### الشكوى والفصل فيها

ثم قال تعالى ﴿ قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

لما وجدت سيدها لدى الباب ، وكانت بحالة هياج وارتياح ، أرادت أن تؤثر عليه بما تفعل له نفسه ، فقالت ما جزاء ( إلى آخر الآية ) .

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولا ، وأملأ له أذنا وقلبا ، ولتصرف عن فكره الحالة

المرية التي رآها عليها ، ولتفعل نفسه بما تبديه من تأثير ، حتى لا يصدق ليوسف قولاً إذا قال ، فقالت ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾ .

وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن ، أو العذاب الأليم ، لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حصل منه من إرادة سوء ، حتى لا يرتاب في حالتها التي رآها عليها ( وهذا من ضمن الكيد ) .

فانظر إلى عبارتها هل تجد فيها ما يدل على إرادة الفحشاء ، أو الميل إليها ، أو المخالطة كما يقولون ، مع أنها لو قالت ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة لكان أشرف لها ، وأقرب لقبول قولها ، وأنفى للريبة في حالتها التي كانت عليها وقت مجيء سيدها .

وجد سيدنا يوسف عليه السلام نفسه أمام صاحب البيت مشكوا منه ، يراد به السجن أو العذاب الأليم . بدون ذنب جناه ، سوى العفة والأمانة ، فلم يجد مناصاً من الدفاع عن نفسه لثلاث سجن أو يعذب العذاب الأليم ، أو يرمى بالقسوة ولولا ذلك لستر أمرها ، كما قال بعض المفسرين .

وهو في دفاعه لم يتصل من إرادة سوء ، بل ذكر السبب الذي كان من أجله أراد بها سوء ﴿ فقال هي راودتني عن نفسي ﴾ وهذا إقرار ضمنى في عرف التقاضى والتخاطب ، بأنه أراد بها سوء ، كما يقول القاضى للمتهم : هل ضربته ؟ فيقول إنه شتمنى . ومعناه أنني ضربته لأنه شتمنى ، فكذا هذا - أى أنني أردت بها سوء لأنها راودتني عن نفسي ، وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوة ، فأردت إساءتها لأمنعها ، فلما رأيتك انصرفت عنها .

وأما هي فأنكرت المراودة ، بدليل قولها أخيراً ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ فإنه يدل على أنها أنكرتها أولاً ، وقع هذا القول في نفس العزيز موقعا قلل من تأثير زوجته عليه ، فأخذ يفكر ويبحث من الصادق منهما .

حادثة حصلت في بيته ، ولا شاهد فيها ، لأن الأبواب قد غلقت ، ولم يكن معهما أحد من الناس ، وهى تدعى أنه أراد بها سوءاً بدون سبب ، فأشكلت الحادثة عليه ، والتبست ، ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها ، قد جعل القرينة حكماً وشاهداً فقال : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

فإن قد القميص من الخلف يدل على انصرافه عنها ، وأنها تجره إليها لهذا الغرض ، فيكون صادقا ، ولو كان الذى وقع منه إرادة سوء فقط لما كان لجره إليها من خلفه بعد انصرافه عنها معنى ، بل هو خلاف المعروف عادة ، لأن الضعيف كالمرأة لا يجزى القوى الذى يريد إيذائه إليه بعد انصرافه عنه ، فقد



من الخلف يدل على أنها هي الطالبة له للمخالطة ، وقد القميص من الأمام يدل على أنه هو الذى أقبل عليها يريد بها سوءاً ، فأمسكت بتلابيه ( كما هي عادة المرأة أو الضعيف إذا هجم عليه من يريد إيذاءه ) فقدت قميصه من الأمام ، فتكون صادقة فى أنه أراد بها السوء بدون سبب .

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ تين له أنه صادق ، وأنها كاذبة . ولذلك وبخها بقوله ﴿ إنه من كيدكن ﴾ أى ما حصل منك من ادعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ وأضاف الكيد إلى جميع النساء ، لأنه من عاداتهن ، لأنهن يظهرن خلاف ما يضمنن ، ويخفين ما فى قلوبهن ليصلن إلى أغراضهن ، وربما كانت الإضافة إلى الجميع ليخفف من وقع التوبيخ عليها ، وهذا أظهر .

ثم قال ليوسف عليه السلام ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أى لا تذكره لأحد ، ولا تتأثر به ، ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها ، بقوله ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ . وإلى هنا انتهت تلك الحادثة التى خلط فيها الناس خلطاً ، وإنك إذا فهمتها على هذا النحو ، وقرأتها فى كتاب الله فإنك تشعر بجلال آيات الله وانسجامها ، وبديع نظامها ، وبعدها عن التأويل المؤدى للتنافر فى المعانى ، والاعتراض على الأنبياء عليهم السلام .

### [ بقية ]

قد يقول قائل : ما المراد بالسوء فى آيتي ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء ﴾ هل المراد به المارودة أو الميل إليها كما يقول بعض المفسرين ؟ والجواب أن المراد بالسوء هو ما تقدم ، دون المارودة والميل إليها .

وإلا كانت النسوة كاذبات حينما قلن : ما علمنا عليه من سوء ، فإنهن علمن أن امرأة العزيز راودته عن نفسه فاستعصم ، إلى آخر ما ذكر ، ولا يصح أن يكن كاذبات فى هذا الموضع الذى ظهرت فيه الحقائق ، ولو كن كذلك لما حكى الله قولهن بدون أن يرد عليهن ، فظهر أن السوء هو الإيذاء ونحوه لا المارودة ، ونحوها .

إن امرأة العزيز لما شاع أمرها تكلم فى شأنها النساء : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكاً وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ أى ليوسف ﴿ أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ﴾ من الدهشة والذهول بسبب جماله الفائق ﴿ وقلن حاشن الله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

وفى هذه الشهادة ما يشعر بالعفاف الملكى ، وكرم الأخلاق ، وأنه غض النظر عنهن .

﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين • فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن •

فلم يتهم بالسوء بعد هذه الحادثة الأخيرة ﴿ إنه هو السميع العليم • ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين •

لم يذكر الله لنا صراحة السبب الذى من أجله تمحلوه لإدخاله السجن ، ولكن الذى يؤخذ استنتاجا من القصة أن امرأة العزيز أخذت تكيد له لتنفيذ وعيدها بقولها ﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين •

فادعت أنه هو الذى أساء إلى هؤلاء النسوة ، فأدخلوه السجن من أجل ذلك ، رغم ظهور اختلاقتها عليه وكذبها فيما ادعته سابقا ، ومما يدل على أنه سجن من أجل ذلك أنه لما أرسل إليه الملك رسوله ليحضره من السجن أى أن يخرج منه حتى يتحقق للملك أنه حبس ظلما بدون ذنب جناه ، وأن ما ادعوه عليه بخصوص هؤلاء النسوة غير صحيح .

قال تعالى ﴿ فلما جاءه الرسول قال • أى يوسف • ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن رى بكيدهن عليم •

فأحضرهن الملك وسألهن • ما خطبك إذ راودتن يوسف عن نفسه • أى ما شأنكن وقت أن راودتن يوسف هل حصل منه إساءة لكن ؟ • فقلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء • أى لم يحصل لنا منه سوء ، بل لم نعلم عليه سوءا .

فدل ذلك دلالة استنباطية على أن الحبس كان بسبب الادعاء عليه بأنه أساءهن بتقطيع أيديهن ، ولذلك جاء فى تفسير النيسابورى عند قوله تعالى ﴿ وأن الله لا يهدى الكائنين ﴾ أنها تسببت فى إدخاله السجن ا.هـ .

ولما ظهر لامرأة العزيز أن كيدها قد انكشف ، وبان للملك ، اعترفت بالحق ، وهو ما أنكرته أولا ، فقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ﴾ أى هذا الاعتراف الذى أظهره أمامك • ليعلم • أى يوسف لأن الكلام مازال فى شأنه • أنى لم أخنه بالغييب • إذ أنى أظهر الآن صدقه وبراءته بعد أن خنته ، فادعيت عليه سوء ، وتسببت فى إدخاله السجن ، فأعترف الآن بذنبى ، وبحقيقة الأمر ، وحتى يصير الخفى علانية ، والخيانة غير خافية عليه .

والخيانة ضد الأمانة ، وفى الحديث ( إنما يجلس المتجالسان بالأمانة ) أى الصدق والإخلاص وعدم الغش .

ثم قالت : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ فقد أذنبت وأسأت ، ثم اعتذرت عما كان منها ، فقالت ﴿ إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ وقد أسأت بداعية منها ، ولكنى طامعة فى غفران الله ورحمته ، إذ نطقته بالحق ، واعترفت بالذنب ، والاعتراف يهدم الاقتراف ، ﴿ إن ربي غفور ﴾ لذنوب عباده ﴿ رحيم ﴾ ( بهم ) نسأله الرحمة والغفران .

ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام من إقرار النسوة ، واعتراف امرأة العزيز ، قال ﴿ الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ فذهبوا إليه يحملون هذه البشرى بالبراءة والاستخلاص للملك ، واعتراف امرأة العزيز ، وشهادة النسوة ، فخرج معهم كما أراد ظاهرة براءته وأمانته وعفته للملأ جميعاً . فلما وصل إلى الملك قال له ، ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وما جزاء الأمانة إلا الفلاح ، وحسن السمعة والعاقبة .

فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لبيان خطأ الأنبياء الذين يقول الله فيهم لنبينا ﷺ ﴿ فبهدهم اقتده ﴾ وإنما سقت لما فيها من حكم اجتماعية ، وقواعد عمرانية وأخلاقية لتكون نبراساً يستضيء به فى حياته .

وإني أذكر بعض ما استنتجته منها ، بقدوما وصل إليه فهمى الكليل ، فأقول :

أولاً : تنبيه الناس إلى العمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور .

ثانياً : مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم . ﴿ ولا يفلح الظالمون ﴾ .

ثالثاً : خيانة المزة لزوجها ظلم وكفر بالإحسان ، وعاقبته الخسران .

رابعاً : الأمين المخلص إذا اتقى الله نجاه ، وكافأه على أمانته وإخلاصه ، ولو أساء إليه من أخلص

له .

خامساً : يبلغ الإنسان بالعلم والإحسان مقاماً سامياً لدى الملوك والناس .

سادساً : اختيار السجن على فعل الكبيرة أو الخيانة ولو كان فيه التمتع بلذات الحياة كما يشاء ، من

مال وغيره ، من صفات الأبطال .

سابعاً : مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت ، والخلو بهن ، مدعاة للفساد

والفجور ، إلا من عصم الله ، وفى الأحاديث كثيرة فى النهى عن ذلك .

ثامناً : التوقى من كيد النساء ومكرهن أقرب إلى الحزم ، وأبعد عن الظلم ، وأحسن عاقبة وعلى

العاقل الثبوت فى تصديقهم عند غضبهم .

تاسعاً : من المقاصد الشريفة لدى العقلاء أن نفى التهمة الباطلة عن أنفسهم ، وإظهار

براءتهم ، خصوصاً إذا كان ممن يقتدى بهم ، ولنا فى شريعتنا على ذلك أمثلة كثيرة ، وفقنا الله تعالى إلى

اتباعها والعمل بها ، آمين .

## حديث النسوة

\* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٢١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَةٍ لِّيُسَجَّنَ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٢٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لِيُسَجَّنَهُ رَحَى حِينَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ فتاها ﴾ : عبدها ورقيقها . ﴿ والشغاف ﴾ : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه . كما يقال كبذته إذا أصبت كبذه . ﴿ والضلال ﴾ : الحيدة عن طريق الرشd وسنن العقل . ﴿ بمكرهن ﴾ : أى بقولهن . وسمى ذلك مكرًا لأنهن كن يردن إغضاها كى تعرض عليهن يوسف لئيدى عذرها فيفزن بمشاهدته . ﴿ وأعتدت ﴾ : أعدت وهيات . ﴿ والمتكأ ﴾ : ما يجلس عليه من كراسى وأرائك . ﴿ أكبرنه ﴾ : أعظمته ودهشن من جماله الرائع . ﴿ وقطعن أيديهن ﴾ : أى جرحنها . ﴿ حاش لله ﴾ : أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر . ﴿ استعصم ﴾ : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عن نساؤها عليها . ﴿ الصاغيرين ﴾ : أى الأذلة المقهورين . ﴿ أصب إليهن ﴾ : أمل إلى موافقتهن على أهوائهن . ﴿ الجاهلين ﴾ : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح . ﴿ فاستجاب له ﴾ : أى أجاب دعاءه . ﴿ وبدا ﴾ : ظهر . ﴿ والآيات ﴾ : هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام . ﴿ والحين ﴾ : وقت من الزمن غير محدود .

شاع الخبر بين نسوة فى المدينة ، فقلن بلسان الإنكار : إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، وما كان لها أن تفعل ذلك وهى السيدة التى تعيش فى بيت الحكم ، وهو الفتى المملوك لها .

وقوله تعالى ﴿ثَرَاودَ فَتَاهَا﴾ بصيغة المضارع أى أنها مازالت مستمرة فى المراودة ، وقوله ﴿قد شغفها حباً﴾ أى احترق حبه شغاف قلبها ، بحيث تمكن فيه كل تمكن ﴿إنا لنراها فى ضلال مبين﴾ .  
وقد يتسرب الخير عن طريق الخدم وغيرهم من الذين يعملون فى القصور ، بحيث يشيع وينتشر بين جماعة من أصحاب البيوتات .

فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن ، أى بقولهن الماكر ، فإنهن ما قلن هذا القول إلا لتدعوهن امرأة العزيز ، وتعرض عليهن يوسف ، فيملأن عيونهن بجماله .  
قال المفسرون : فمكرت بهن ، كما مكرن بها ، ودعتن إلى الطعام فى دارها ، وهيات لهن ما يتكئن عليه من كراسى وأرائك ، كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة .

﴿وقالت اخرج عليهن﴾ أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها ، محجوباً عنهن ، وقد تعمدت إتماماً للحيلة والمكر بهن أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعهن ويأكلنه ، علماً منها لما تكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ما أرادت كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن﴾ .

أى فخرج عليهن ، فلما رأيته أعظمه ، ودهشن لذلك الجمال البارع ، وذهلن ، فقطعن أيديهن بدلاً من تقطيع ما يأكلن ذهولاً عما يعملن ، أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهم ، وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألن لما ناهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم ، فيقولون : كنت أقطع اللحم فقطعت يدي ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدي ، حتى كدت أقطعها .

﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ :

أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى ، أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ، ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الأبواب ، وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أترجاً وعسلاً ، فكن يحزرن بالسكين ، ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له : اخرج عليهن ، خرج فلما رأيته أعظمه وتهيمن به ، حتى جعلن يحزرن أيديهن بالسكين وفيها الأترجة ، ولا يعقلن ، ولا يحسنن إلا أنهن يحزرن الأترج ، وقد ذهبت عقولهن مما رأين ، وقلن حاش لله ما هذا بشراً ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

﴿قالت فذلكن الذى لمتنى فيه﴾ أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتم بأعينكن ، وما

أكبرتن في أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قلتن بألسنتكن ، فذلك هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن في لومى وتعنيفى ، وقلتن في ما قلتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخدام الصعلوك ، الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلى في صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات في أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا إنسيا لا جنيا ، وجسدا لا ملكا روحانيا ، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلى ، ولا يظهر نحوى عطفيا ، ولا يرفع إلئى طرفا .

﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أرذته منه واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عمن نشأوا عليها ، ولا عجب فإن نظره إلى الله لم يدع في قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حبا .

﴿ ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

أى ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلا ، كما لم يفعله ماضيا ، ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ، وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه ، وجعله كولد .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أنذرتة بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وأطفها ، كحبس فى حجرة الدار ، أو لطمه على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أنذرتة بسجن مؤكد ، وذلل وصغار ، تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام ، فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقها بسلطانها على زوجها ، مع علمه بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ، ويثبت لديه عدم غيرته عليها ، كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن ، والمحرومين من نعمة الأولاد منهن .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غل وجوى ، بظهور كذبا وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولينصحنه فى موافقتها ، ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يا الله ، إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات ، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله ، فامرأة ماكرة ، هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطأن معها على الكيد له ، كما كادت له من قبل بمرادته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وأبعاد تلك اللأواء إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزعات الشيطان ، وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانة :

## ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾

أى قال ربي أنت العليم بالسر والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث فى بيعة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال ، أحب إلى نفسى مما يدعوا إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقرين عن قربك . وفى قوله ﴿ مما يدعونني إليه ﴾ إيماء إلى أنهم خوفه مخالفتها ، وزين له مطاوعتها ، فقلن له : أطلع مولاتك وأنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمين عقوبتها .

﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أى وإن لم تبعد عني شرك كيدهن ، وتبتنى على ما أنا عليه من العصمة أمل إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع فى شباك صيدهن ، وأرتع فى حماة غوايتهن .

وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله فى فزعهم إلى مولاهم ، لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، مبالغة فى استدعاء لطفه ، وعظيم كرمه ومنه .

﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ : أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات ، واجترأح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات ، لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب ، والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما صبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ما عوده من كشف سوء عنه ، فى قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ : أى فأجاب له ربه دعاءه ، الذى تضمنه قوله : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ الخ ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وعصمه من الجهل والسفه ، باتباع أهوائهن .

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ : أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنائه فى جميع أطواره وشئون ، ورباه أكمل تربية ، وما خلاه ونفسه فى أهون أموره . ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

أى ثم ظهر للعزيز وامرأته ، ومن يهمة أمرهما ، كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها من الرأى مالم يكن ظاهرا لهم من قبل ، بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم ، وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا فى أخلاقه وعفته ، واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور ، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه ، بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتتان سيدته في مراودته ، وجذبها خلجات نظره ، لم تؤثر في ميل قلبه إليها ، بل ظل معرضاً عنها ، متجاهلاً لها ، حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه ، وعيها بالخيانة لزوجها .  
 (٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به ، هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعه إلا ما رأى في دخيلة نفسه من برهان ربه الذي يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .  
 (٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة في اتهامها إياه ، وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها لإياه عن نفسه ، بدلالة القميص على ذلك .

كل هذا أثبت أن بقاءه في هذه الدار بين ربتها وصديقاتها ، مثار فتنة لا تدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه ، لإخفاء ذكره ، وكف ألسنة الناس عنها في أمره ، وأقسموا ليسجنه حتى حين ، دون تقيد بزمن معين ، ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن ، وحديث الناس عنه .  
 وفي تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها ، تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات ، وعمل برأيها في سجنه لإلحاق الهوان والصغار به ، حين أيست من طاعته ، وطمعت في أن يذلل السجن لأمرها ، ويقف به عند مشيئتها .

### شهود يوسف

شهد الله تعالى ببراءة يوسف وهو خير الشاهدين ، قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولم يقل كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء ، والفرق بين المعنيين بعيد ، إن قوله تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ يفيد أن يوسف كان ثابتاً على بساط العفة ، ثباتاً لا تزعزحه القواصف ، ولا تؤثر فيه العواصف ، فأبعدنا السوء والفحشاء عنه .

كذلك شهد ببراءته إبليس . فقد قال لرب العزة ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ إلا عبادك منهم المخلصين <sup>(١)</sup> والله تعالى قال عن يوسف ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . فهو من الذين استثناهم إبليس من الغواية .

كذلك شهد ببراءته شاهد من أهلها ، وهو الذي قال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته امرأة العزيز نفسها عندما قالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ . وقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن فقد قال لمن الملك ﴿ ما خطيبكن إذ راودتن



يوسف عن نفسه قلن حاشن لله ما علمنا عليه من سوء ﴿١٠﴾ . وكلمة سوء نكرة جاءت فى سياق النفى ، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى ما علمنا عليه أى سوء .

وكأنى بيوسف عليه السلام ، وقد غلقت عليه امرأة العزيز الأبواب ، وأخذت تراوده عن نفسه ، فتقول : ما أجمل شعرك . قال : أول ما يتساقط منى بعد الموت . قالت : ما أجمل عينيك . قال : أول ما يسيل منى بعد الموت . قالت : ما أجمل جسمك . قال : أول ما يأكله الدود بعد الموت . قالت : هيت لك . قال : معاذ الله .

كانت تحلق به فى عالم الإغراء والغواية ، وكان يشدها شدا إلى الموت الذى يهزم اللذات ، فى بيت الوحشة ، وبيت الوحدة ، وبيت التراب ، وبيت الدود ، كأنى به يخاطب رب العزة فيقول ما قاله أحد الصالحين :

لما علمت بأن قلبى فارغٌ ممن سواك ملأته بهواك  
وملأت كل منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك

لقد كان لها صنم تعبده ، فلما غلقت الأبواب قامت فألقت على الصنم غطاء ، قال لها يوسف : لم تغطين هذا الصنم ؟ قالت : أستحي أن يرانى وأنا أراودك عن نفسى . قال يوسف ، وقد أخذته الدهشة ، واستولى عليه العجب : تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا تستحين من الله السميع البصير .

أبعد هذه العفة والخوف من الله ، والاستعاذة بالله ، تزل أقدام ، وتتعثر أقلام ، وينفلت خيال بعض الكتابيين من الذين يعضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، ويجعلون من الحبة قبة ، ومن التلة فيلا ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء ، أو أن يمدوا إلى الشمس يداً شلاء .

## محنة السجن

وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ رَبَّابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرًا أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَصْحَحِي السِّجْنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

**المفردات:** ﴿عَصِرَ خَمْرًا﴾ المراد عبا يكون خمرًا. ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾: بتفسيره الذي يؤول إليه في الخارج. ﴿تَسْتَفْتِيَانِ﴾: الاستفتاء طلب الفتوى أى السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه وهذا اللفظ مأخوذ من الفتوى الدالة على القوة والثقة. ﴿بِضْعَ﴾: هى من ثلاث إلى تسع ويغلب أن يطلق على السبع.

قوله تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ قال أحدهما إلى أراى أعصر خمرًا وقال الآخر إلى أراى أحمل فوق رأسى خبزًا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴿﴾.

قال قتاده: كان أحدهما ساقى الملك، والآخر خبازه.

وقال السدى : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه في طعامه وشرابه .  
وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجلود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن  
السمت ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ،  
وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم .

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحياه حبا شديداً ، وقالوا له : والله لقد أحبينك حبا  
زائداً .

وقال الضحاك في قوله ﴿ إني أراي أعصر خمرا ﴾ يعني عنباً ، قال : وأهل عمان يسمون العنب  
خمراً ، وقال الآخر وهو الخباز ﴿ إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك  
من المحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي  
إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ واتبعت ملة آباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب  
ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

أخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله  
قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ .

قال مجاهد : يقول ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ في يومكما ﴿ إلا نبأتكما بتأويله قبل أن  
يأتيكما ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياي ، لأنني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا  
يرجون ثواباً ولا عقاباً في المعاد .

﴿ واتبعت ملة آباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴾ الآية .

يقول هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم  
أجمعين ، وهكذا حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن  
الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد .  
﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ هذا التوحيد وهو  
الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ وعلى  
الناس ﴾ إذ جعلنا دعاءهم إلى ذلك ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ : أى لا يعرفون نعمة الله  
عليهم ، بإرسال الرسل اليهم ، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ (١) .

(١) الآية ٢٨ من سورة إبراهيم .

وقوله تعالى ﴿يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع مادون سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما ، فقال ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ أى الذى ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

ثم بين أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أى حجة وبرهان .

ثم أخبرهما أن الحكم والتصرف والمشیئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه ثم قال تعالى ﴿ذلك الدين القيم﴾ أى الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقر الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أى فلهذا كان أكثرهم مشركين ، ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ .

يقول لهما ﴿يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرًا﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرًا ، ولكنه لم يعينه ، لئلا يحزنه ذاك ، ولهذا أبهمه فى قوله ﴿وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه﴾ وهو نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعير ، فإذا عيرت وقعت .

وقوله تعالى ﴿وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساق ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم - لئلا يشعره أنه المصلوب - قال له ﴿أذكرنى عند ربك﴾ يقول : اذكر قصتى عند ربك ، وهو الملك .

ففسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكاييد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائذ على الناجى ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع .  
وهكذا أراد الله تعالى أن يمتحن يوسف بالسجن ، بعدما نجاه من امرأة العزيز ، وأشد الناس بلاء  
الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويتلى المرء على قدر دينه .

ولا بد للمؤمن أن يكون صابرا عند البلاء ، راضيا بالقضاء ، شاكرا للنعماء ، فقد ورد في  
الحديث : ( من رضى بقضائي ، وقنع بعطائي ، وشكر نعمائي ، وصبر على بلائي كتبه صديقا ، وبعثته يوم  
القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائي ، ولم يقنع بعطائي ، ولم يشكر نعمائي ولم يصبر على بلائي ،  
فليخرج من تحت سمائي وليتخذ له ربا سواي ) .

فاللهم إنا نشهدك ، ونشهد ملائكتك ، وحمة عرشك ، وجميع خلقك ، إنا قد رضينا بك رباً ،  
وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

### رؤيا الملك

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعُ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ  
وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا أَلْمَلَاءُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُ لِلرُّءْيَا بَعِيرُونَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا أَضْغَثُ  
أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ  
أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٤﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ  
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخْرَى يَا إِسْحَاقُ ارْجِعْ إِلَى  
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ  
إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٦﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا  
قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِصُونَ ﴿٤٨﴾

المفردات : ﴿ السَّمَانُ ﴾ : واحدا سمين وسمينة ، ﴿ والعجاف ﴾ : واحدا عجفاء  
أى هزيلة ضعيفة ، ﴿ والسنابل ﴾ : واحدا سنبله وهى ما يكون فيها الحب ، ﴿ واليابس من  
السبل ﴾ : ما آن حصاده ، ﴿ وعبرت ﴾ الرؤيا وعبرتها ( بالتخفيف والتشديد ) فسرتها ببيان المعنى  
الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعبر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، ﴿ والأضغاث ﴾ :  
واحدا ضغث وهو الحزمة من النبات ، ﴿ والأحلام ﴾ : واحده حلم ( بضمين وبالتسكين

للتخفيف ) : ما يرى في النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التي تكون في اليقظة ، وقد يكون مهوشاً مضطرباً فهو يشبه بالتضايغ كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التي لا تناسب فيها ، ﴿ واذكر ﴾ : تذكر ( أصله اذتكر ) ، ﴿ والدأب ﴾ : استمرار الشيء على حال واحدة يقولون هو دأب بفعل كذا إذا استمر في فعله ، ﴿ فذروه ﴾ : أى اتركوه وادخروه ، ﴿ والشداد ﴾ : الصعاب التي تشتد على الناس ، ﴿ وتحصنون ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر ، ﴿ وأغاثه ﴾ : أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ﴿ ويعصرون ﴾ : أى مامن شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم والأشربة من القصب والنخيل .

ذكر المؤرخون أن ملك مصر في عهد يوسف كان من ملوك الغرب الذين يسمون بالرعاة ( الهكسوس ) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ، وقالوا : أضغاث أحلام . وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف في تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك ، وتعيينه وزيراً له .

﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع ﴾ بقرات ﴿ عجاف ﴾ هزيلات وأرى سبع سنبلات خضر ﴾ وأخرى سنبلات يابسة مهياة للقطوف ، ﴿ يا أيها الملأ ﴾ من قومي ﴿ أفترى في رؤياي ﴾ هذه ﴿ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ وتنقلون الخيال والرموز إلى الواقع والحقائق .

﴿ قالوا ﴾ هي أحلام مختلطة ، وخيالات غير منتظمة وهذه ﴿ أضغاث أحلام ﴾ لا تأويل لها وتفسير وإنما هي رموز مضطربة تنشأ من ارتباك في المعدة ، وكدره في النفس أحياناً ، ﴿ وما نحن بتأويل ﴾ أمثالها ﴿ بعالمين ﴾ .

وهكذا إعداد الله لبعض خلقه ، وترتيبه لهم ، جعل الكهنة وعلماء المصريين يعجزون عن تأويل الرؤيا ، فيبحثون عن من يؤول لهم ، فلا يجدون إلا يوسف .

وقال صاحبه القديم الذي كان في السجن معه واختبره عن كذب ، وأدرك ما عليه نفسه ، وما عنده من علوم ومعارف في تأويل الرؤيا ، وقد تذكره بعد طول الزمن : يا قوم لا تبحثوا ، فإني ﴿ أنبئكم ﴾ بتأويل هذا الحلم ﴿ فأرسلون ﴾ إلى السجن فإن فيه فتى قد خبرته ووقفت منه على أسرار ، فأرسلوه ليوسف فقابله وقال له : ﴿ يوسف أيها الصديق أفنتا في ﴾ رؤيا رآها الملك تلخص في ﴿ سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ﴾ أخبرني فإنك بتأويل الرؤيا من العالمين .

قال يوسف مؤولاً الرؤيا ، ومبيناً لهم ما يجب عمله لتلافي الخطر الذي تشير له الرؤية بالرمز ، مع اعترازه برأيه وأن له صفة الأمر الناصح :

﴿ تزرعون ﴾ على معنى ازرعوا ﴿ سبع سنين ﴾ قمحاً وشعيراً دائبين مجدين بلا انقطاع وإذا فعلتم ذلك ﴿ فما حصدم ﴾ فاتركوه في سنبله ليكون الحب لكم والتبن لدوابكم .

وهذه طريقة عملية دقيقة لحفظ المحصول .

اصنعوا هذا في المحصول كله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَأْكُلُونَ﴾ فهذا هو تأويل البقرات السبع ، والسنابل السبع .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ﴾ سنين في جديهن وانقطاع الخير فيهن ، يأكلن ما قدمت تلك السنوات الأولى من المحصول المدخر ، والمراد ما في تلك السنين تأكل الكل ﴿إِلَّا قَلِيلًا مَّا تَحْصِنُونَ﴾ وتدخرون للبذر ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ كله عام فيه يكون الرخاء على أتم ما يكون وأحبه ، ﴿عَامٌ فِيهِ يَافَاثُ النَّاسِ﴾ بكل أنواع الإغاثة من مطر وحسن محصول ، ومنع للآفات وفي هذا العام ﴿يَعْصِرُونَ﴾ عصير القصب والفاكهة ، وعصير العنب والسمسسم والزيتون ألخ .

وهذا الإخبار الأخير الخاص بهذا العام من قبيل الوحى والإلهام ، وليس جزءاً من تأويل الرؤيا . والله أعلم .

### الإفراج عن يوسف عليه السلام

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُنِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۖ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۗ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ النَّاسُ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿بَالَ النِّسْوَةِ﴾ : حالهن وأمرهن الذى يشغل البال ، ﴿خَطْبُكُنَّ﴾ : أمركن العظيم وخطبكُن الجسم ، ﴿حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ : ظهر الحق .  
﴿أَسْتَخْلَصَهُ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿مَكِينٌ﴾ : ذو مكانة .  
﴿يَتَبَوَّأُ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أرادته ، والمراد أنه صاحب الأمر .

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من يبلده من رعاياه . فقال : ﴿أَتُؤْنِسُنِي بِهِ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ﴾ بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز . وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظملاً وعدواناً .

فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية .

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك . والتنبية على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه .

فقد روى الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبث في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي )<sup>(١)</sup> .

وفي لفظ أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿ فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ ( لو كنت أنا لأسرع الإجابة وما ابتغيت العذر )<sup>(٢)</sup> .

وقال عبد الرزاق في الحديث المرسل عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر » .

قوله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة العزيز ، وزيره وهو العزيز قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن : ﴿ ما خطبكن ﴾ أى شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعنى يوم الضيافة .

﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى قالت النسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد نقول الآن تبين الحق ، وظهر وبرز .

﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أى في قوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب :

نقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع الحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين \*

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء (١) وفي التفسير (سورة ٢ : ٤٦) . ومسلم في الإيمان (٢٣٨) وفي الفضائل (١٥٢) . وابن ماجه في الفتن (٢٣) . والإمام أحمد في (٢ : ٣٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في (٢ : ٣٤٦ ، ٣٨٩) .



عبد الحميد كشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثالث عشر

المكتبة المصرية الحديث

\* وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٦﴾  
 وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ  
 أَمِينٌ ﴿٥٧﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ  
 فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ  
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿ استخلصه ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ مكين ﴾ : ذو مكانة ، ﴿ يتبوا ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أرادته ، والمراد أنه صاحب الأمر .  
 ﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته  
 لأن ﴿ النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾  
 قوله تعالى ﴿ وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾  
 قال اجعلنى على خزائن الأرض إلى حفيظ عليم :

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما نسب  
 إليه ، قال : ﴿ ائتوني به استخلصه لنفسى ﴾ أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿ فلما كلمه ﴾ أى  
 خاطبه الملك وعزفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خلق وخلق وكال قال له الملك ﴿ إنك  
 اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة .  
 فقال يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إلى حفيظ عليم ﴾ مدح نفسه ، ويجوز  
 للرجل ذلك إذا جهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ حفيظ ﴾ أى خازن أمين ، ﴿ عليم ﴾ ذو علم  
 وبصيرة بما يتولاه .

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه من المصالح للناس ، وإنما سأل أن يجعله على خزائن  
 الأرض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف هو  
 على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه ، وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى :  
 ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوا منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر  
 المحسنين ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

يقول تعالى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ﴾ أى أرض مصر ، ﴿ يتبوا منها حيث يشاء ﴾  
 قال السدى : يتصرف فيها كيف يشاء .

وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلاً حيث يشاء بعد الضيق والحس والإسار .

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشْءٍ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا ، كقوله في حق سليمان ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وإن له عندنا للزلفى وحسن مآب ﴿ ١ ﴾ .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولاءه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر ، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ قال الملك : قد فعلت ، فولاه فيما ذكروا عمل أظفير ، وعزل أظفير عما كان عليه .

يقول الله عز وجل ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مِنْ نَشْءٍ وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال : فذكر لى . والله أعلم . أن أظفير هلك في تلك الليالي وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة أظفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ .

قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق لا تلمنى ، فإني كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة في ملك ودنيا ، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنت كما جعلك الله في حسنك وهيتك على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف ، فقالت : الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والملوك عبيداً بمعصيته .

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ،

### مع يوسف وإخوته

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَنْجٍ لَكُمْ مِنْ أَيْيُكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾

فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرَّوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ آجِعُلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا بَنَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَأَلَّه خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزِدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَنَأْتِيَنَّي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءُ اتَّوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَحْكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

**المفردات :** ﴿ المعرفة والعرفان ﴾ : معرفة الشيء بتفكير في أثره وضده الإنكار . ﴿ وجهزهم ﴾ : أى أوفر ركايتهم بما جاءوا لأجله . ﴿ وجهاز السفر ﴾ : أهبطه وما يحتاج إليه في قطع المسافة ومثله جهاز الميت والعروس ( بالكسر والفتح وبهما قرئ ) . ﴿ أو فى الشيء ﴾ : جعله وافيًا تامًا . ﴿ المنزلين ﴾ : أى المضيفين للضيوف . ﴿ فراوده ﴾ : أى تخادع ونستميل برفق . ﴿ لفاعلون ﴾ : أى لقادرون على ذلك . ﴿ لفتيانه ﴾ : أى غلمانة الكياليين . ﴿ بضاعتهم ﴾ : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدمًا . ﴿ والبضاعة ﴾ : البال الذى يستعمل للتجارة . ﴿ والرحال ﴾ : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره . ﴿ وانقلبوا ﴾ : أى رجعوا . ﴿ والمتاع ﴾ : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام . ﴿ والبضاعة ﴾ : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام . ﴿ وغير أهلنا ﴾ : أى نجلب لهم الميرة ( بالكسر ) وهى الطعام يجلبه الإنسان

من بلد إلى بلد . ﴿ كيل بعير ﴾ : أى حمل حمل فكيل بمعنى مكيل . ﴿ ويسير ﴾ : أى قليل لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾ <sup>(١)</sup> أو سهل لا عسر فيه ، كما فى قوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> . ﴿ والمؤثق ﴾ : العهد المؤثق . ﴿ إلا أن يحاط بكم ﴾ : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا فإن من يحيط به العدو يهلك غالباً . ﴿ وكيل ﴾ : أى مطلع رقيب فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

كان يوسف على خزائن أرض مصر ، وهو الحفيظ للقوت ، العليم بأساليب الصرف والإكثار من الزرع ، وقد كان الزمن زمن جدد وقحط وعم مصر وما جاورها من البلاد ، كبلاد كنعان ( فلسطين ) لكن يوسف قد أرسل لمصر لإنقاذها من الجذب ، بل وفر من أقواتها ما كان يباع لجيرانها .

ولما علم يعقوب وبنوه بخيرات مصر ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام ، أرسل أبناءه العشرة ليتناعوا من عزيز مصر القوت ، ويعطوه الثمن بضاعة كانت معهم ، وكان يوسف لا يعطى الفرد إلا حمل بعير فقط ، توفيراً للمؤن .

وجاء أخوة يوسف العشرة فدخلوا عليه ، وهو فى أبهة السلطان ، فعرفهم لما وصل خبر مقدمهم إليه ورآهم بعينه ، أما هم فلم يعرفوه لتغير حاله ، واستبعاد أن يكون الطريد الشريد الملقى فى البئر عزيز مصر الذى يقوم بتوزيع الأقوات على الخلق .

ولما جهزهم بجهازهم ، أقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الطعام ، وأعطاهم ما يحتاج إليه المسافر فى سفره ، وكانوا عشرة ، وطلبوا أكثر من حقهم ، طلبوا لأبويهم ولأخيهما الحادى عشر ، فإنه بقى فى خدمة أبويه الكبيرين ، أعطاهم حمل بعيرين بشرط أن يحضروا له أخاهم لأبيهم ليراه ...

ثم أخذ يجبب إليهم الحىء ثانية مع أخيهام بقوله : ألا ترون أنى أتم لكم الكيل الذى تكتالون ، وأرىحكم فى سعره وصنفة ، وأنا خير المضيفين ، فقد أحسنت ضيافتكم وجهازتكم بزد يكفيكم فى سفركم زيادة على تجارتكم .

ومن هنا يعلم أن اتهامه لهم بالتجسس بعيد ، وأخذ رهينة منهم أبعد .

يا بنى يعقوب : إن لم تحضروا لى أخاكم كما اتفقنا ، وعدتم تمارون لأهلكم منعتمكم من الكيل فى بلادى ، فضلاً عن إيفائه وكأله ، ولا تقربوا بلادى ، فضلاً عن الإحسان فى المعاملة والضيافة .

قالوا : أيها العزيز ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ ونختال بكل حيلة ، ونخادعه بكل خدعة ، حتى يسلم لنا بنيامين الذى يعتز به أبوه ، فهو خلف لأخيه المفقود ، ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ذلك إن شاء الله .

وقال يوسف لفتيانه الذين يتولون الكيل للتجار ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ التى جاءوا بها ثمناً للطعام - روى أنها كانت جلوداً وأداما - اجعلوها ﴿ فى رحاهم ﴾ لكى ﴿ يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾

فيكون ذلك أدعى لرجوعهم ثانية ، حيث يقفون على مدى إكرام العزيز لهم ﴿لعلهم يرجعون﴾ حسبما أمرتهم بذلك ، طمعاً في برنا ، وحسن معاملتنا .

﴿فلما رجعوا إلى أبيهم﴾ بعد هذه الرحلة ﴿قالوا﴾ بمجرد وصولهم ﴿يا أبانا﴾ إن عزيز مصر قد ﴿منع منا الكيل﴾ بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين كما طلب ، فأرسله معنا ﴿نكتل﴾ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا : ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، وهو العزيز الذي أكرم وفادتنا ، وإنا يا أبانا لنحفظ أخانا في ذهابنا وإيابنا .

قال يعقوب الشيخ الحزين على يوسف ، الذي لا يزال يذكره حتى ابيضت عيناه من الحزن : هل آمنكم عليه إلا ائتماناً كائتماناً لكم على أخيه يوسف من قبل ؟

على معنى : كيف آمنكم على ولدى بنيامين ، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم ، وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه في يوسف ، وضمنتم لى حفظه ، وقلتم : ﴿إنا له لحافظون﴾ فلم يحصل الأمن والحفظ سابقاً ، فكيف يحصل الآن ؟

يا بنى: ما أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل !!

وظاهر الكلام يدل أنه أرسله معهم اعتماداً على حسن الظن بهم ، وأنه ما كان يرى علامات الحسد والحقد بينهم في هذه اللحظة ، وتلبية لدعوة الحاجة إلى الطعام .

﴿فالله خير حافظاً﴾ يحفظ لى ولدى ولا يجمع بين مصيبتين لى ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ . طلبوا من أبيهم هذا ساعة وصولهم ، وقبل فتح أمتعتهم .

﴿ولما فتحو متاعهم﴾ وخطوا رحالهم ﴿وجدوا بضاعتهم﴾ التى أخذوها ثمناً لطعامهم ووجدوها ﴿ردت إليهم﴾ ﴿قالوا﴾ تأييداً لطلبهم ﴿يا أبانا ما نبغى﴾ ؟

وماذا نطلب زيادة على ما وصفنا لك من إكرامه لوفادتنا ، وحرصه على راحتنا ؟

﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ من حيث لا نشعر ، أليس هذا دليلاً على منتهى الكرم ، وداعياً لأن نوفى له بما طلب ، ونحن إذا ذهبنا ثانية مع أخينا ﴿ونغير أهلنا﴾ ونحضر لهم الطعام بلا ثمن ﴿ونحفظ أخانا﴾ بنيامين بعنايتنا ورعايتنا فلا تخش عليه شيئاً ونزيد ﴿كيل بعير﴾ لأجله - إذ يوسف كان يعطى كل فرد حمل بعير فقط ، اقتصاداً وتوفيراً .

ونظهر أمامه بأننا صادقون فى دعوانا ، بأن لنا أحياناً مع أبويننا يخدمهما ، وربما كان ذلك له تأثير عند العزيز .

وذلك أى البعير الزائد ﴿أمر يسير﴾ على مثل هذا الرجل الكريم الذى لو كان من نسل يعقوب ، لما أكرمنا هذا الإكرام .

قال يعقوب وقد تذكر حوادث الماضي ، وتمثلت له صورة يوسف : لن أرسل بنيامين معكم حتى تعطوني عهداً مؤكداً بإشهاد الله وقسمه ﴿ لتأتني به ﴾ ولترجعني لي ، فهو قرّة عيني وسلوقي عن يوسف ، لتأتني به على أي حال كنتم إلا في حال يحيط بكم العدو ، أو الموت ، أو أي سبب يمنعكم عني .

فلما أعطوه الموائيق ، قال يعقوب : ﴿ الله على ما نقول ﴾ جميعاً ﴿ وكيل ﴾ وهو نعم الرقيب الحفيظ ، وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقال : يا أولادى ﴿ لا تدخلوا ﴾ مصر ﴿ من باب واحد ﴾ ولكن ﴿ وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ حتى لا يحسدكم حاسد ، أو يكيد لكم كائد ، فيحل بكم مكروه .

ورد عن النبي ﷺ : ( إن العين لتدخل القبر والجمل القدر ) ، ( وأعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة )<sup>(١)</sup> .

وقوله ﷺ ، وقد أخبر بوعكة لبغض أصحابه من أثر حسد ، فقال : ( علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، إن العين حق ، توضأ له )<sup>(٢)</sup> .

فتوضأ الحاسد ، ومعنى بركت قلت : تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه .

وهذا يفيد أن العين والحسد حق ، وأن علاجه الاستعاذة والرقى ، وعلى الحاسد أن يتوضأ ، وأن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين عندما يرى شيئاً ( ومن شر حاسد إذا حسد )<sup>(٣)</sup> .

يا بنى : اعملوا بنصيحتي ، واعلموا أني ﴿ وما أغني عنكم من الله شيئاً ﴾ ولا أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئاً ، إذ لا يغني حذر من قدر ، ولكن اسلكوا الأسباب العادية ، مع العلم أن قضاء الله نافذ لا محالة ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ وحده له الحكم والأمور ﴿ عليه ﴾ وحده ﴿ توكلت ﴾ ﴿ وعليه ﴾ وحده ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ لا على غيره .

﴿ ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان ﴾ دخولهم على هذا الشكل ﴿ يغني عنهم من ﴾ أمر ﴿ الله ﴾ شيئاً ولكن كانت هناك حاجة في نفس يعقوب ﴿ تدور بخلده أراد أن يظهرها لأبنائه ﴾ قضاها ﴿ وأظهرها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها .

﴿ إنه لذو علم ﴾ وبصر بالأمور لما علمه ربه بالوحى والإلهام ، وتأويل الرؤيا الصادقة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ذلك .

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء (١٠) . وأبو داود في السنة (٢٠) . وابن ماجه في الطب (٣٦) .

(٢) أخرجه الإمام مالك في العين (١) . والإمام أحمد في (٣ : ٤٤٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة الفلق .

## يوسف وبنيامين

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَذِّنٌ أَتِيهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جزَاؤُهُ؟ إِن كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جزَاؤُهُ مِن وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

**المفردات :** ﴿ آوى إليه ﴾ أى ضم إليه . ﴿ الابتئاس ﴾ : اجتلاب البؤس والشقاء . ﴿ والسقاية ﴾ : ( بالكسر ) وعاء يسقى به وبه ماء كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية ١ / ١٢ من الأردب المصرى وهو الذى عبر عنه بصواع الملك . ﴿ وأذن مؤذن ﴾ : أى نادى مناد من التآذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشئ الذى تركه الآذن . ﴿ والغير ﴾ : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها . ﴿ زعيم ﴾ : كفيل أجعله جزاء لمن يجيء به . ﴿ الكيد ﴾ : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يودى إلى باطنه المراد منه . و ﴿ دين الملك ﴾ شرعه الذى يدين الله تعالى به .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلععه على شأنه ، وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه وقال له ﴿ لا تبئس ﴾ أى لا تأسف على ما صنعوا لى وأمره بكتان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلععه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معزراً مكرماً معظماً .

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها الغير إنكم لسارقون ﴾ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون \* قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم \* . لما جهزهم ، وحمل لهم أبعرتهم طعاماً . أمر بعض فتيانَه أن يضع السقاية ، وهى إناء كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزة الطعام إذ ذاك ، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحدهم ، ثم نادى



مناد بينهم ﴿أيتها العير إنكم لسارقون﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا ﴿ماذا تفقدون﴾ قالوا نفقد صواع الملك ﴿أى صاعه الذى يكيل به﴾ ولن جاء به حمل بعير ﴿وهذا من باب الجعالة﴾ وأنا به زعيم ﴿وهذا من باب الضمان والكفالة﴾ .

قوله تعالى ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين﴾

أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا . وسيرتنا ، من حين مجئنا فى امتيازنا الأول ، وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس .

﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ أى قال فتیان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة ، وادعائكم البراءة والنزاهة .

﴿قالوا جزاؤه من وجد فى رحله﴾ أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله ، وظهر أنه هو السارق له ، وجعل عبداً لصاحبه .

وقوله ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم السابق ، وتأکید له بإعادته ، كما تقول : حق الضيف أن يكرم ، فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقاباً للسرقة وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم .

﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ : أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ، إبعاداً للشبهة وظن التهمة بطريقة الحيلة .

﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ : أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه ، فأخرج السقاية منه .

﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ : أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف ، وأهمناه إياه ، وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف ، وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم . يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ، ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين ، من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤله ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته .

وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة ، إذا لم يخالف شرعاً ثابتاً .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ : أى وما كان له ، ولا مما تبيحه أمانته لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به ، وهو لا يبيح استرقاق السارق ، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب ، التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكراً بحسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحي من الله ، بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيتته فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ أى أنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ : أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ، ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شيء ، وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات . ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ : أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه ، وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علماً ، وهو فوق كل ذى علم . وخلاصة ذلك : أن إخوة يوسف كانوا علماء ، إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

### ماذا قالوا

\* قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَهُ رَبٌّ أَبَاشِيخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَىكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتْلَعًا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّابَانَا إِنْ أَبْنَكْ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَتَّاسِبُ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ

كَبِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَنُوا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

**المفردات :** ﴿استياسوا﴾ : يتسوا يأساً كثيراً . ﴿خلصوا﴾ : انفردوا عن الناس وتخلصوا منهم . ﴿نجياً﴾ : متناجين متشاورين . ﴿فرطم﴾ : قصرتم . ﴿أبرح﴾ : أترك . ﴿سولت﴾ : زينت . ﴿يا أسفا﴾ : يا أسفى والأسف الحزن الشديد على ما فات . ﴿كظيم﴾ : مملوء غيظاً على أولاده ممسك له في قلبه . ﴿حرصاً﴾ : الحرص المرض المشرف على الهلاك . ﴿بشي﴾ : البث في الأصل إثارة الشيء وتفريعه ومنه بث الرمح والمراد هنا إظهار ما انطوت عليه نفسه من الحزن . ﴿تحسسوا﴾ : تعرفوا أحوال يوسف بحواسكم . ﴿رَوْحِ اللَّهِ﴾ : فرجه ورحمته .

قوله تعالى ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ : قالوا ذلك عندما رأوا صواع الملك يخرج من رحل بنيامين .  
وفي هذا المقام روايات للمفسرين .

قال ابن عباس : سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده — أى أمه — من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق ، فعيّره بذلك إخوته ، وقد رواه عنه ابن مردويه مرفوعاً .  
وقال محمد بن إسحق : عن عبد الله بن أبى بن يحيى عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى : أن عمته ابنة إسحق ، وكانت أكبر ولد إسحق ، وكانت عندها منطقة إسحق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها عن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحداً حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تافت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأثأها فقال : يا أختي سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة . قالت : فوالله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندى أياماً انظر إليه وأسكن عنه ، لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت .

فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتفتت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه لى سلم أصنع فيه ما شئت ، فأثأها يعقوب ، فأخبرته الخبر فقال : لها أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت .

قال : فهو الذى يقول لإخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ .

وهذا القول يدل على أن حسدهم ليوسف ما زال قائماً حتى هذه اللحظة التى قالوا فيها ما قالوا .

أما القول الذى أسره يوسف فى نفسه ، ولم يیده لهم ، فقوله : ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ إذ ما ورد عن سرقة لا يدل على أنه سارق ، بل إنه برىء الساحة نظيف اليدين .

ولقد لجأوا بعد ذلك إلى إثارة العاطفة فى نفس يوسف ليرد إليهم بنيامين ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ﴾ ذلك لأن أباه يحبه ، وقد فقد أخاه من قبل ، فذلك يشق على نفس أبيه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ العادلين الرحماء .

فقال يوسف بمنطق الحق المبين ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ولم يقل من سرق ، لأن بنيامين لم يسرق فى الحقيقة

﴿ إنا إذا لظالمون ﴾ أى إذا أخذنا البرىء وتركنا من وجدنا متاعنا عنده .

وعندئذ فقدوا كل أمل فى استرجاع بنيامين .

﴿ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ﴾ :

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيه بنيامين ، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه ، ولما عاهدوه على ذلك ، فلما امتنع عليهم ذلك ﴿ خلصوا ﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿ نجياً ﴾ يتناجون فيما بينهم .

﴿ قال كبيرهم ﴾ وهو روبيل ، وقيل يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ لتردونه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف منه .

﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ : أى لن أفارق هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لى أبى ﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى ، ﴿ أو يحكم الله لى ﴾ : قبل أن يمكنى من أخذ أخى ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ .

قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه سرق له شيئاً . إنما سألنا ما جزاء

السارق ؟

﴿ واسأل القرية التى كنا فيها ﴾ قيل المراد مصر . ﴿ والغير التى أقبلنا فيها ﴾ أى التى رافقناها

عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق ، وأخذوه بسرقة .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾

قال محمد بن اسحاق : لما جاءوا يعقوب أخبروه بما جرى ، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾ .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح له قوله ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبِرْ جَمِيلٌ ﴾ .

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وأخاه بنيامين ، وروبير ، الذي أقام بديار مصر ، ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع اليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ أى العليم بحالى ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره .

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يَوْسُفَ ﴾ أى أعرض عن بنيه وقال فتذكروا حزن يوسف القيم الأول : ﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يَوْسُفَ ﴾ جدد له حزن الابنين ، الحزن الدفين .

﴿ يَا أَسَفَا عَلَى يَوْسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ : أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قال قتادة وغيره ، وقال الضحاك : فهو كظيم كئيب حزين .

قال سعيد بن جبير : اختص الله تعالى هذه الأمة المحمدية بالاسترجاع عند المصيبة ، وهو يعنى بذلك قوله تعالى ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١) .

وعندما رأى أبناء يعقوب منازل بأيهم رقت له أفئدتهم ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْا تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ أى ما تزال تذكر يوسف وتحزن بفراقه حتى تشرف على الهلاك بسبب ما أنت فيه من الهم والغم والحزن والنصب والوصب ، أو تهلك فعلاً .

قال لهم يعقوب بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أشكو مأثناً فيه من الهم والحزن إلى الله وحده ، فهو الملجأ والمصير ، وهو قوة كل ضعيف ، وعز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وملجأ كل ملهوف ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ : ذلك لأنه كان يعلم أن رؤيا يوسف التى رأى فيها أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر فى حالة سجود له ، لا بد من تحقيقها .

وقد ذكرت الرؤيا في هذه السورة في أربعة مواضع : رؤيا يوسف ، ورؤيا ساقى الملك ، ورؤيا خبازيه ، ورؤيا الملك وقد تحققت . وبقيت رؤيا يوسف ، وسوف تتحقق كما سنرى .

لكن الأنبياء لا يفقدون الأمل ، ولا يأسون من رحمة الله مهما ادلهمت الخطوب ، واحتدمت الإلحاح ، فقد قال يعقوب لأبنائه ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

هو كقوله جل شأنه : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ <sup>(٢)</sup> .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر مسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فتق بالله وارض به	إن الذى يكشف البلى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحبسك الله فى كل لك الله

تعرف إخوة يوسف عليه واعترفاهم بالذنب وعفوه عنهم وما أمرهم به

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِضِئَّةٍ مُّرْجَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَأَنْتَ يَاسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصِيرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ المفردات ﴾ : ﴿ مسنا ﴾ : أصابنا . ﴿ الضر ﴾ : ألم الجوع . ﴿ مُرْجاة ﴾ : بضاعة ناقصة غير تامة لا تقبل إلا بدفع وعرض وعليه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزوجى سبحاناً ﴾ <sup>(٣)</sup> أى يسوق ويدفع . ﴿ الخاطئين ﴾ : الخاطئ من يتعمد الذنب والخطئ من يخطئ القصد أى لا يعرف الصواب ثم يصير إلى غيره . ﴿ لا تثريب ﴾ : لا لوم ولا توبيخ .

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض ، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا يئأسوا من روح الله .

ثم قال تعالى ﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ يعنون من الجذب والقحط وقلة الطعام .

﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ ومعنا ثمن الطعام الذي نختاره وهو قليل ، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء .

وقوله تعالى ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقال ابن جرير : وتصدق علينا برد أخينا إلينا .

وقال سعيد بن جبير والسدى : ﴿ وتصدق علينا ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجاوز فيها .

وسئل سفيان ابن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع قوله ﴿ فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين ﴾ .

عن عثمان بن الأسود : سمعت مجاهداً ، وسئل : هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق على ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يتغنى الثواب .

قوله تعالى ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ قالوا أنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين • قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴿

قال المفسرون : إن يوسف عليه السلام لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجذب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وأخوته ، وبدره البكاء ، فتعرف إليهم فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة .

وقال ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ : يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه . ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى أرتكبتموه ، كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ <sup>(١)</sup> .

والظاهر - والله أعلم - أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك . والله أعلم .  
ولكن لما ضاق الحال ، واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى ﴿فإن مع العسر يسراً﴾<sup>(١)</sup>

فعند ذلك قالوا ﴿أنتك لأنت يوسف﴾ : الاستفهام هنا يدل على الاستعظام ، أى أنهم تعجبوا من ذلك ، إنهم يترددون أكبر من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتفهم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿أنتك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى﴾ وقوله : ﴿قد من الله علينا﴾ أى يجمعه بيننا بعد الفرقه .

إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا :  
يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة والملك والتصرف ، والنبوة أيضاً ، على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساءوا وأخطأوا في حقه : ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ :

يقول أى لا تأنيب عليكم ، ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقى بعد اليوم ، ثم زادهم الله لهم الدعاء بالمغفرة فقال ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ .  
قال السدى : اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿لا تثريب عليكم اليوم﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم .  
وقال ابن إسحق والثورى : ﴿لا تثريب عليكم﴾ أى لا تأنيب عليكم عندى فيما صنعتكم .  
﴿يغفر الله لكم﴾ : أى يستر الله عليكم فيما فعلتم ، وهو أرحم الراحمين . ﴿أذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ :  
يقول : أذهبوا بهذا القميص ﴿فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء .

﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ : أى بجميع بنى يعقوب .

﴿يعقوب وقد جاءه البشير﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٥﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٦﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَبْنَآ بَنَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٨﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٩﴾



﴿ المفردات ﴾ ﴿ فصلت ﴾ : انفصلت عن البلد وجاوزت حدودها .

﴿ ريح ﴾ : رائحة يوسف أو قميصه . ﴿ تفندون ﴾ : تنسبونى إلى الفند وهو ضعف العقل وفساد رأى . ﴿ ضلالك ﴾ : خطئك .

قوله تعالى : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ أى خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ أى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تُفندون ﴾ تنسبونى إلى الفند والكبر . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبیر فى قوله ﴿ لولا أن تفندون ﴾ أى تسفهون .

قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم ﴾ أى فى خطئك القديم ، ويعنون به حبه ليوسف .

قال قتادة : أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه . قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبى الله ﷺ .

قوله تعالى : ﴿ فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ :

المقصود بالبشير هنا أحد أبنائه وقد ألقى القميص على وجه أبيه ، فرد الله بصره عليه ، وهذا هو قميص الشفاء ، وقد سبقه قبل ذلك قميص الجفاء الذى قال عنه الله : ﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾ وقميص الإبراء الذى قال عنه الله تعالى : ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أى ألم أقل لكم إن الله سيجمعنى به ، ويرده إالى ، وألم أقل لكم إني لأجد ريح يوسف ، قالوا له ﴿ ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين ﴾ . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴿

وتلك أخلاق الأنبياء ، فقد سبق أن قال لهم يوسف ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ وها هو ذا يعقوب يقول لهم ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

ولقد مدح الله رسوله محمداً ﷺ بما منحه ، فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ <sup>(١)</sup> وكان خلقه القرآن ، قالوا وقد تمثل ذلك فى قوله جل شأنه ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ <sup>(٢)</sup> قال الصادق المعصوم للأمين جبريل : أخبرنى عنها يا جبريل . قال : لا أدري ، حتى أسأل رب

(١) الآية ٤ من سورة القلم .

(٢) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

العزة . ثم هبط عليه فقال : ( أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك )<sup>(١)</sup> .

إنما قال يعقوب : سوف أستغفر لكم ربي ليرجئكم إلى وقت السحر ، حيث يقول تعالى ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾<sup>(٢)</sup>

كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي . قال فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيهِ إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ وقد ورد الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة .

كما قال ابن جرير أيضاً عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ يقول : ( حتى تأتي ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه ) .

### ﴿ تأويل رؤيا يوسف ﴾

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٧﴾ \* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾

المفردات : ﴿ العرش ﴾ : كرسى تدبير الملك . ﴿ خروا له سُجْدًا ﴾ : ساجدين سجود إجلال وتعظيم لا سجود عبادة . ﴿ نزغ ﴾ : نخس والمراد وسوس وأفسد ما بيني وبين إخوتي . ﴿ البدو ﴾ : البادية . ﴿ التأويل ﴾ : التعبير . ﴿ الأحاديث ﴾ : الرؤى . ﴿ فاطر ﴾ : خالق . ﴿ وليي ﴾ : أى تولى أمري . ﴿ توفنى مسلماً ﴾ : أى أمتنى على دين الإسلام .

قال العلامة ابن جرير : إن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ، ثم وصلوا باب البلد ، قال ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمين ﴾

قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال ابن عباس : يعنى السرير ، أى أجلسهما معه على سريره .

قال العلامة ابن كثير : فى قوله تعالى : ﴿ وخروا له سُجْدًا ﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ أى التى كان قصها على أبىه من قبل ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ الآية .

وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بمجناب الرب سبحانه وتعالى ، هذا مضمون قول قتادة وغيره .

وفى الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : ( ما هذا يا معاذ ؟ ) . فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله . فقال : ( لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها )<sup>(١)</sup> .

وفى حديث آخر : أن سلمان لقي النبي ﷺ : فى بعض طرق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ، فسجد للنبي ﷺ فقال : ( لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت ) . والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم ، ولهذا خروا له سجداً .

فعندها قال يوسف ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها رى حقاً ﴾ أى أن هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾<sup>(٢)</sup> أى أن يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر .

وقوله ﴿ قد جعلها رى حقاً ﴾ أى صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه .

﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أى البادية . قال ابن جريج وغيره . كانوا أهل بادية وماشية . ﴿ من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى إن رى لطيف لما يشاء ﴾

أى إذا أراد أمراً قيض له أسبابا . وقدره ويسره ﴿ إنه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

قوله تعالى ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولئى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وأحقنى بالصالحين ﴾ :

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما من الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها

عليه في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وأن يلحق بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الدعاء يَحْتَمِلُ أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول ( اللهم في الرفيق الأعلى )<sup>(١)</sup> ثلاثاً .

### ﴿ من دلائل النبوة ﴾

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

**المفردات :** ﴿ أجمعوا أمرهم ﴾ : اتفقوا على إلقائه في الحب وعزموا عليه . ﴿ وكأين ﴾ : المراد بها كثير من الآيات . ﴿ غاشية ﴾ : عقوبة تغشاهم وتحيط بهم . ﴿ بغتة ﴾ : فجأة ، ﴿ بصيرة ﴾ : حجة واضحة ومعرفة تامة .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين \* وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ﴿ يقول تعالى محمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار العهود السابقة ﴿ نوحيه إليك ﴾ ونعلمك يا محمد ، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك . ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا شاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أى على إلقائه في

(١) أخرجه البخارى فى المرقى (١٩) وفى الدعوات (٢٨) . ومسلم فى السلام (٤٦) . والترمذى فى الدعوات (٧٦) . وابن ماجه فى الجنائز (٦٤) . والإمام مالك فى الجنائز (٤٦ ، ٤٧) . والإمام أحمد فى (٦ : ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١٠٨) .

الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكننا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالاً عليك كقوله ، ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .

وقال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية

وقال : ﴿ تلك من أبناء الغيب نوحيا إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تنلو عليهم آياتنا ﴾ <sup>(٤)</sup> الآية .

وقال تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون \* إن يوحى إلّى إلا أنا نذير مبين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

يقول تعالى : إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء مما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم وديارهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

وقال ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ <sup>(٦)</sup> كقوله ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ <sup>(٧)</sup> إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أى ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أى من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحاً لخلقه .

﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى يتذكرون به ويهتدون ، وينجون به في الدنيا والآخرة

وقوله تعالى ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾

تأمل في نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع الملك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهذات	بأن الله ليس له شريك

إذا سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك ؟ لقال لك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد القهار .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً	وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الروض والندى	سل الليل والإصباح والطير شادياً
وسل هذه الأنسام والأرض والسما	وسل كل شئ تسمع الحمد سارياً

(١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران . (٤) الآية ٤٥ من سورة القصص . (٧) الآية ٨ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٤٤ من سورة القصص . (٥) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة ص .

(٣) الآية ٤٩ من سورة هود . (٦) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .

فلو جنّ هذا الليل وامتد سرمدًا      فمن غير رنى يرجع الصبح ثانياً  
ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم      سوى الله يجريه كما شاء ثانياً  
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت      أفى كونكم من يمسك الريح ناهياً

تباركت ربنا وتعاليت ، آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده في ملكك دليل على وجودك .

إن الله تعالى يخبر في قوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض ﴾ الخ الآية . عن غفلة أكثر الناس عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات وأمواج متلاطمت ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الله الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والعمدية للأسماء والصفات وغير ذلك .

وقوله تعالى ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون .

وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك .

وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : ( لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك )<sup>(١)</sup> .

وفي صحيح مسلم أنهم إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ ( قد قد ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا .

وقال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال ﴿ أن تجعل لله ندا وهو خلقك ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال الحسن البصرى في قوله ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك ، يعنى قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خبير ﴾

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه البخارى في تفسير ( سورة : ٢ : ٣ ) وفى ( سورة : ٢٥ : ٢ ) وفى الأدب ( ٢٠ ) وفى الدييات ( ١ ) وفى الحدود ( ١٩ ) .  
ومسلم فى الإيمان ( ١٤١ ، ١٤٢ ) . وأبو داود فى الطلاق ( ٥٠ ) . والتفسير ( سورة : ٢٥ : ١ ، ٢ ) . والنسائى فى التحريم ( ٤ ) .

خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً (١).

وتم شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النور عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه — أو نزع — ثم قال : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ .

وفي الحديث : ( ومن حلف بغير الله فقد أشرك ) (٢) رواه الترمذى وحسنة من رواية ابن عمر .

وفي الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( إن الرق والتائم والتولة شرك ) (٣) وفي لفظ لهما ( الطيرة شرك وما منا إلا متوكل ولكن الله يذهب بالتوكل ) (٤).

وروى أحمد عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : « كان عبد الله إذا جاء من حاجة فأنتهى إلى الباب تنحنح ويزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، فقلت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى فرأى في عنقى خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت خيط رُقَى لى فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إن الرق والتائم والتولة شرك ) قال : قلت له لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى ير فيها فكان إذا رقاها سكنت ؟ فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ ( أذهب البأس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً ) » (٥).

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن عيسى بن عبد الرحمن قال : « دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوذه فقيل له : لو تعلقت شيئاً ؟ فقال أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ ( من تعلق شيئاً وكل إليه ) » .

وفي المسند للإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ ( من علق تيممة فقد أشرك ) وفي رواية ( من تعلق تيممة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له ) (٦).

(١) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذى في النذور (٩) . والنسائى في الإيمان (٤) . وابن ماجه في الكفارات (٢) . والدارمى في النذور (٦) . والإمام أحمد في ( ١ : ٤٧ ) وفي ( ٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ) .

(٣) أخرجه أبو داود في الطب (٢٩) . وابن ماجه في الطب (٣٩) .

(٤) أخرجه أبو داود في الطب (٢٤) . والترمذى في السير (٤٦) . وابن ماجه في الطب (٤٣) . والإمام أحمد في ( ٣٨٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في ( ٤ : ٢٥٩ ) وفي ( ٦ : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٦١ ) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في ( ٤ : ١٥٤ ، ١٥٦ ) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه )<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك ) رواه الإمام أحمد .

وقال أحمد أيضاً عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال ( الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم أذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟ )<sup>(٢)</sup>

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ ( من ردت الطيرة عن حاجته فقد أشرك ) قالوا يا رسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال ( أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك )<sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام أحمد عن أبي علي — رجل من بني كاهل — قال خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب الثعلب . فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال ( يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من ديب الثعلب ) فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من ديب الثعلب يا رسول الله ؟ قال : ( قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه )<sup>(٤)</sup> وقد روى من وجه آخر وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن معقل بن يسار قال : شهدت النبي ﷺ أو قال حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( الشرك أخفى فيكم من ديب الثعلب ) فقال أبو بكر الصديق : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( الشرك أخفى من ديب الثعلب ) ثم قال : ( ألا أدلك على ما يذهب عنك صغيره ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم ) .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ ( الشرك أخفى في أمتي من ديب الثعلب على الصفا )

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن العاص سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يا رسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .

(٢) وأخرجه الإمام مالك في صفة النبي (٣٤) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٤٢٨ ، ٤٢٩) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في (٤ : ٤٠٣) .



وشركه (١) وزاد الإمام أحمد ( وأن أترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى سلم ) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمَّنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أو يأخذهم في قلبهم فما هم بمعجزين \* أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم (٢) .

وقوله : ﴿ أَفَأَمَّنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ أو أمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم يلبعون \* أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون (٣) .

أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون في عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم في نار جهنم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب كريم لنبي كريم ، قل يا محمد ، يا من أرسلت رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، قل لهم ﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾ وستى ، وهذا منهجى ﴿ أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ﴾ وحده لا شريك له ﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ وبرهان ساطع وحجة قاطعة كذلك ﴿ من اتبعنى ﴾ يدعو على هذا المنهج وأمرت أن أسبح الله وأنزه ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، وسبحانه يحى العظام وهى رميم ، ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾ (٤) .

سبحانك اللهم أنت الواحد . كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتضى . وإلى علاك عنا الجبين الساجد

سبحانه ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (٥) .

### من أغراض القصة

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ

(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات (٦٩) .

(٢) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة النحل .

(٣) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الأعراف .

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ<sup>٤</sup> وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا<sup>٥</sup> أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ<sup>٦</sup> وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ<sup>٧</sup> لِأُولِي الْأَلْبَابِ<sup>٨</sup> مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

**المفردات :** ﴿استيأس﴾ : يس ، ﴿بأسنا﴾ : عقابنا وعذابنا ، ﴿عبرة﴾ : العبرة والاعتبار نوع واحد وفيها معنى العبور من جهة إلى جهة .

أنبياء الله رجال أوحى الله إليهم بشرعه ، وكل عمل في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لا إله إلا الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾<sup>(١)</sup> .

والنبوة وحي ، والرسالة تبليغ هذا الوحي ، فلا نبوة بلا وحي ، ولا رسالة بلا نبوة ، لذا فإن النبي ﷺ ، لما ختم النبيين فقد ختم المرسلين ، لأن النبوة أعم من الرسالة ، وختم الأعم يقتضي ختم الأخص ، فمن ادعى نبوة بعد رسول الله فقد كفر كذلك من زعم أنه رسول بعد رسول الله .

قال المفسرون في هذه الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ الآية .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه السياق في هذه الكلمة الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحي تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم بنت عمران أم عيسى ، نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وبقوله ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه﴾<sup>(٢)</sup> الآية وبأن الملك جاء إلى مريم يبشرها بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين﴾<sup>(٣)</sup> .

وهذا القدر حاصل هن . ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهم هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا ؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن الأشعري عنهم أنه

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٧ من سورة القصص .

(٣) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

ليس في النساء نبية وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ (١) .  
فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام فهي صديقة بنص القرآن .

وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا ﴾ الآية : أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ (٢) الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ المراد بالقرى المدن ، لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعبود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً ، وأطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي ، ولهذا قال تعالى ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ (٥) .

قال قتادة : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل البوادي .

وقال الإمام أحمد عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش هو عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ( المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ) (٦) .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ يعنى هؤلاء المكذبين لك يا محمد في الأرض ﴿ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى من الأمم المكذبة للرسول كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

كقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ (٧) الآية

فإذا استمعوا ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته في خلقه .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَلِدَارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة وهى خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٨) .

(٤) الآية ٩ من سورة الأحقاف .

(٥) الآية ٩٧ من سورة التوبة .

(١) الآية ٧٥ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٨ من سورة الأنبياء .

(٦) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٢٣) . والإمام أحمد في (٢ : ٤٣) وفي (٥ : ٣٦٥) .

(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

الآية ٤٦ من سورة الحج .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا استتس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ حتى إذا استتس الرسل ﴾ الآية . ( هم أتباع الرسل الذين آمنوا ببرهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استتس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك )<sup>(١)</sup> .

وعن عائشة « أن النبي ﷺ قرأ ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ ( مخففة ) » أخرجه ابن مردويه عن طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يس الرسل أن يستجيروا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا .

﴿ فنجي من نشاء ﴾ أى فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال فى طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾ : أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجزموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ، ويقيّموا عليهم الحجة ، وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجي الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ، ويهلك المكذبين ، ولا يخفى ما فى الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ، ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبي ﷺ .

وهذه سنة الله تعالى فى الأمم إذا كذبت رسلها ، قال جل شأنه : ﴿ ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٧٦) ووفى التفسير (سورة ٣ : ٤) وفى (سورة ١٢ : ٦) وفى بدء الوحى (٦) وفى الأنبياء (١٩) .  
ومسلم فى الجهاد (٧٤) .

(٢) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٣) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

وهذا ختام يرتبط بالسورة ارتباطاً قوياً ، فإن قصة يوسف كما سماها الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾<sup>(١)</sup> .

وقصص القرآن لا يساق عبثاً ، إنما لأغراض سامية وأهداف عليا ، فمن أغراضه العبرة والاعتبار ، فليس حديثاً يفترى ، كذلك هو تصديق لما سبق من الكتب المنزلة على الأنبياء ، وفيها تفصيل لكل شيء ، وفيها الهدى والرحمة للمتوسمين المعتبرين ، المؤمنين .

فالقصة في القرآن مدرسة أساتذتها الأنبياء والمرسلون وهي منهج تربوي تربي على مائدته أهل التقى والفضل .

فطوبى للذين ينهلون من مناهل القرآن العذبة ، ويأخذون العبرة من قصته ومواعظه .

(١) الآية ٣ من سورة يوسف .

## ﴿سورة الرعد﴾

## مقدمة:

السورة مكية وعدد آياتها ، ثلاث وأربعون .

قال صاحب البصائر : وعدد كلماتها ثمان مائة وخمسة وستون ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف .

وتسمى سورة الرعد ، لقوله تعالى ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ .

**ومقصود السورة :** بيان حجة التوحيد في تخلق السموات والأرض ، واستخراج الأنهار والأشجار والثمار ، وتهديد الكفار ووعيدهم ، وذكر تخلق الأولاد في أرحام الأمهات ، على تباين الدرجات ، ومن النقصان والزيادات ، في الأيام والساعات ، وإطلاع الحق تعالى على بواطن الأسرار ، وضمائر الأخيار ، والأشرار .

وذكر السحاب ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والأمطار .

والرد على عبادة الأصنام .

وقصة نزول القرآن من السماء ، والوفاء بالعهد ، ونقض الميثاق ودخول الملائكة بالتسليم على أهل الجنان ، وأنس أهل الإيمان ، بذكر الرحمة ، وبيان تأثير القرآن ، في الآثار والأعيان ، وكون عاقبة أهل الإيمان إلى الجنان ، ومقر مرجع الكفار إلى النيران ، وتقرير نبوة المصطفى بنزول الكتاب وبيان القرآن في قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ﴾<sup>(١)</sup> إلى آخر السورة .

## المتشابهات

قوله تعالى ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ وفي لقمان ﴿ إلى أجل ﴾<sup>(٢)</sup> لا ثاني له ، لأنك تقول في الزمان : جرى ليوم كذا ، وإلى يوم كذا ، والأكثر اللام كما في هذه السورة ، وسورة الملائكة . وكذلك في يس ﴿ تجري لمستقر لها ﴾<sup>(٣)</sup> لأنه بمنزلة التاريخ ، تقول : كتبت لثلاث بقين من الشهر ، وآتيك لخمس تبقى من الشهر .

وأما في لقمان فوافق ما قبلها وهو قوله تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾<sup>(٤)</sup> والقياس : لله كما في قوله تعالى : أسلمت وجهي لله .

لكنه حمل على المعنى أى يقصد بطاعته إلى الله كذلك : يجري إلى أجل مسمى ، أى يجري إلى وقته المسمى له .

(٣) الآية ٣٨ من سورة يس .

(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

(١) الآية ٤٣ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٢٩ من سورة لقمان .

وقوله تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وبعبدها ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

لأن بالتفكر في الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلاً له ، فهو الأول المؤدى إلى الثانى .  
وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ . ههنا موضعان .

وزعموا أنه لا ثالث لهما ، ليس هذا بتكرار محض ، لأن المراد بالأول آية مما اقترحوا ، نحو ما في قوله تعالى : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ <sup>(١)</sup> والآيات ، وبالثانى آية ما ، لأنهم لم يهتدوا إلى أن القرآن آية فوق كل آية ، وأنكروا سائر آياته ، <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> .  
قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفى النحل ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفى الحج ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
لأن فى هذه السورة تقدم آية السجدة ذكر العلويات : من البرق والسحاب والصواعق ، ثم ذكر الملائكة وتسييحهم وذكر آخرة الأصنام والكفار ، فبدأ فى آية السجدة بذكر من فى السموات لذلك ، وذكر الأرض تبعاً ولم يذكر من فيها ، استخفافاً بالكفار والأصنام .  
وأما فى الحج فقد تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدم ذكر من فى السماوات تعظيماً لهم ولها وذكر من فى الأرض لأنهم هم الذين تقدم ذكرهم .

وأما فى النحل فقد تقدم ذكر ما خلق الله على العموم ، ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس تصريحاً ، فنصت الآية ما فى السموات وما فى الأرض فقال فى كل آية ما ناسبها .

قوله تعالى ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ﴾ ليس بتكرار لأن التقدير : كذلك يضرب الله للحق والباطل الأمثال ، فلما اعترض بينهما ( فأما ) و( وأما ) وطال الكلام أعاد فقال ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ .

قوله تعالى :

﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِثْلَ مَعِهِ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ : وفى المائدة ﴿لِيفْتَدُوا بِهِ﴾ <sup>(٤)</sup> لأن ( لو ) وجوابها يتصلان بالماضى ، فقال فى هذه السورة : ﴿لَافْتَدُوا بِهِ﴾ وجوابه فى المائدة ﴿مَا تَقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ وهو بلفظ الماضى وقوله : ﴿لِيفْتَدُوا بِهِ﴾ علة وليس بجواب .

قوله تعالى ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فى موضعين ، هذا ليس بتكرار ، لأن الأول متصل

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٤) الآية ٣٦ من سورة المائدة .

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٤٩ من سورة النحل .

بقوله ﴿يصلون﴾ ، وعطف عليه ﴿ويخشون﴾ ، والثاني متصل بقوله : ﴿يقطعون﴾ وعطف عليه ﴿يفسدون﴾ .

قوله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك﴾ ومثله في سورة المؤمن<sup>(١)</sup> ليس بتكرار .

قال ابن عباس : غيروا رسول الله ﷺ باشتغاله بالنكاح والتكثير منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية﴾ . فكان المراد منه : لست بيدع من الرسل ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ .

### مناسبتها لما قبلها

إن الله سبحانه وتعالى أجمل ما في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله : ﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها :

(١) أنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله تعالى ﴿أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾<sup>(٣)</sup> ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفها .

(٢) أنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم وأنهم لا قوا منهم ما لا قوا ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزي على الكافرين ، والنصر لرسله والمؤمنين ، وفي ذلك تسلية لرسوله ﷺ ، وتثبيت لقلبه .

(٣) جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾<sup>(٤)</sup> وفي أول هذه وهو قوله تعالى ﴿تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعَمْرُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ

(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(١) الآية ٧٨ من سورة المؤمن ، أو غافر .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة يوسف .



فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَبُورَاتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرَءٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

**المفردات :** ﴿ المر ﴾ : تقرأ هكذا ( ألف لام ميم را ) وفيها ما في أخواتها . ﴿ عمد ﴾ : جمع عماد أو عمود وقرئ عُمد بالضم . ﴿ مد الأرض ﴾ : بسطها . ﴿ رواسي ﴾ : جمع راسية والمراد الجبال لأن الأرض ترسو بها أى تثبت . ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ : التغطية الباس الشيء والغشاء الغطاء . ﴿ صنوان ﴾ : جمع صنو وهى النخلات أو النخلتان يجمعهن أصل واحد ، وتشعب منه رؤوس فتصير نخيلا ، وقيل الصنو المثل ، وعليه قوله ﷺ : ( عم الرجل صنو أبيه )<sup>(١)</sup> والمراد نخيل متاثلات وغير متاثلات .

المرا. اعلم أن كل صورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا ريب .

واعلم بأن هذه الحروف تشير إشارة قوية إلى إعجاز هذا الكتاب المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وقد تحدى الله تعالى فصحاء العرب وأساطين البلاغة ، وأرباب البيان ، أن يأتوا بمثل هذا الكتاب المنزل بتلك الحروف ، فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولما أصيبوا بالإفلاس الخزي قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٣)</sup>

ثم أخبرهم بعجزهم فقال ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وجاء قوله جل شأنه بعد تلك الحروف تقطع السنة المعاندين فيقول ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل من ربك الحق ﴾ .

والحق هو الأمر الثابت الذى لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (١١) . والترمذى فى المناقب (٢٨) . (٣) الآية ٢٣ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٤) الآية ٢٤ من سورة البقرة .

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴿١﴾ ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ : وهذا مما تسيل له النفس مرارة ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والطريق لائح ، لكن القلوب التي جبلت وتمرست بالباطل ، لو جاءتهم كل آية فإن دأبها العناد والجدال بالباطل ، قال تعالى : ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ ﴿٢﴾ وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ ﴿٣﴾ .

ومما يدعو إلى الأسى أن الأكثرية شكذا ، قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ﴿٤﴾ وقال ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾

إن الذي أنزل هذا الكتاب المعجز هو الله ، الذي رفع السموات بغير عمد ، فإعجازه في آياته المتلوة ، فإعجازه في آياته المشاهدة ، لا يقدر على ذلك غيره ، فالسموات أمامكم تشاهدونها ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور \* الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور \* ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ ﴿٦﴾ .

هل يقدر على ذلك غير الله ؟ إن الأثر يدل على المؤثر ، وإن النظام يدل على إله عليم مرید قدير ، منزّه عن العبث ، متصف بالحكمة والمشیئة ، ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ ﴿٧﴾ .  
من الذي خلق هذا ؟ الصدقة العمياء ؟ أم الطبيعة الصماء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ ﴿٨﴾ .

قوله تعالى ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ ، نوّمن بذلك إيماناً جازماً ، لا يحتمل شكاً ولا ريباً ، ونؤمن باستوائه تعالى على عرشه بلا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا كيف ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسي يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسي وعظمته ، الكل محمول بعظمة إرادته ، وقهر مشيئته .

- (١) الآية ٨٢ من سورة النساء . (٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف . (٧) الآية ١٠ من سورة لقمان .  
(٢) الآية ٥٧ من سورة الكهف . (٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام . (٨) الآية ١١ من سورة لقمان .  
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر . (٦) الآيات ١ - ٤ من سورة الملك .

قوله تعالى ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ :

فهما من خلق الله ، وكل منهما مسخر بعلمه وإرادته وقدرته ، لا يخرج عما أراده الله له ، قال تعالى ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ <sup>(١)</sup> . ولكي نعرف شيئاً من عظمة الخالق في هذا الكون الفسيح الأرجاء ، نذكر هنا ما سجلته الحقائق عن هذا الكون .

قال صاحب كتاب : ( العلم في خدمة الدين ) محمد عاطف البرقوقي . قال :

« ولكي نبين لحضراتكم اتساع الكون أقول : إن البعد بين الأرض والشمس يبلغ ( ٩٢,٨٧٠,٠٠٠ ) ميل وهي مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءاً صغيراً من أبعاد تفوقه كثيراً بين الأرض والنجوم البعيدة .

ولكي أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ، ألجأ إلى طريقة أخرى هي طريقة سرعة الضوء . كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً : إن المسافة بين القاهرة والاسكندرية تبلغ ثلاث ساعات ، بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلاً .

والسرعة التي سنتخذها في وحدة تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطائرة النفائثة والصواريخ ، بل هي سرعة الضوء ، وهي أكبر سرعة معروفة في العالم . وسرعة الضوء هي أيضاً سرعة اللاسلكي ، ولكي أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة ، أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع في الساعة ٦٠ ميلاً ، أي بسرعة ميل واحد في واحد في الدقيقة ، أو جزء من ستين جزءاً من الميل في الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كسراً من الميل في الثانية ، بل يقطع ١٨٦,٠٠٠ ميل في الثانية ، أي ما يعادل ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر في الثانية ، وهي سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة ، وهي أن المسافة بين الشمس والأرض وهي نحو ٩٢ مليون ميل كما ذكرنا ، وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة ، فتقطع المسافة بينها في ٨ دقائق و  $\frac{1}{10}$  ثانية .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفائثة سرعتها ٦٠٠ ميل في الساعة لاستغرق

قطعها : لا ٨ دقائق ولا ٨ ساعات ولا ٨ سنوات ، بل استغرق ذلك نحو ١٧ سنة و ٦ أشهر ، ذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه دون توقف ليل نهار ، وأين هي الطائرة التي تسير سنوات دون توقف ، حتى للتزود بالوقود .

فما أعظم سرعة الضوء ، وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية التي تدل على قدرة الله عز وجل .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس في نحو ٨ دقائق ، فقد أثبت العلم أن هناك نجوماً تبعد عنا بملايين السنين .

وقد اتخذ العلماء السنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية ، تلك المسافات الكبيرة بين النجوم ، ولتصوروا عظمة هذا الكون ، أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً ، ولكن اللاسلكي يقطعها في أقل من ٧/١ ثانية ، وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوءه في ٤ سنوات و ٤ أشهر ، وبعض النجوم البعيدة يصل إلينا ضوءها في ( ١٥,٠٠٠ ) سنة ، ويعتقد العلماء أن هناك نجوماً يصل إلينا ضوءها في ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما في الوجود يسبح في الفضاء كأسراب الحمام ، أو الطير التي تطير بسرعة في الهواء ، ولكن النجوم تطير في الفضاء بسرعة كونية هائلة وفيها ما يدور من أقمار حول الأرض ، ومن أقمار وكواكب حول الشمس ، وهناك ملايين من المجاميع أو المجرات ، وفيها ما فيها ، وكلها تسبح في الفضاء في نظام وتنسيق من صنع الله ، وإبداع الخالق العظيم ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (١) .

والمأمل في هذا الكون العظيم كتأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتبجيلاً وتقديراً لعظمته وجلاله ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٢) ﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾ (٣) .

### قوة جبارة

إذا نظرنا إلى انتصارات العلم الحديث ، فكيف نجده بالنسبة إلى عظمة الكون ؟ وكيف نجد قوة العلم التي ضاعفت قوى الإنسان ملايين المرات ؟ وكيف نجدها بالقياس إلى تلك القوة الجبارة التي صنعت هذا الكون العظيم ؟

في ناحية السرعة مثلاً : يستطيع الإنسان أن يسير بسرعة خمسة أميال في الساعة ، وبالعلوم والمخترعات ازدادت سرعته إلى مائة كيلو متر في الساعة بالسيارة ، وإلى ألف كيلو متر بالطائرة النفاثة ، ووصل إلى ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر في الساعة بالصواريخ التي تنطلق بالأقمار الصناعية ، فأين هذه السرعة التي وصل إليها الإنسان من سرعة الضوء ، أو السرعة الكونية التي تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر في الثانية لا

(١) الآية ٤٠ من سورة يس . (٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر . (٣) الآية ٨٥ من سورة الزخرف .

في الساعة ، أى ١٠.٨ ألف مليون كيلو متر في الساعة ؟ إن هذه السرعة تكاد تكون خيالية وفوق تصور البشر ، ولا يمكن للعلم مهما سما تطوره أن يصل إلى جزء ضئيل منها ، فأين ١٠٠٠ كيلو متر في الساعة من ١٠.٨ ألف مليون كيلو متر في الساعة ؟

وإلى أى مدى وصل العلم في درجات الحرارة ؟

وكلنا يعلم أن العلم الحديث يعمل على الوصول إلى درجات حرارة مرتفعة في الأغراض العلمية والصناعية ، وكان كشف الإنسان للنار ووسيلة إشعالها بداية عصر جديد ، ثم كان استخدامه للحطب ، ثم الفحم ، ثم البترول ، ثم الكهرباء ، ثم الذرة ، فألى أى درجة في الحرارة وصل ؟ وصل إلى ٥٦٠٠٠ مئوية قل عشرة آلاف من درجات الحرارة ، فأين هذه من درجة حرارة باطن الأرض التى تتحول المعادن من فعلها إلى غازات .

وأين هى من درجة حرارة الشمس التى تصل إلى آلاف الملايين من الدرجات ؟

وكذلك في الإضاءة ، لقد استخدم الإنسان زيت البترول والكهرباء والفلورسنت ، فألى أى قوة في الإضاءة وصل ؟ إن أقوى مصباح وصل إلى ٦٠٠٠ شمعة ، ويدعى الإنسان أن في استطاعته بإضاءاته أن يحول الليل إلى نهار في جزء من الأرض ، في بيته في قصره في ميدانه ، ولكن أى قوة جبارة أودعت الشمس إضاءتها التى تضيء العالم بأسره منذ ملايين السنوات ، وإلى ملايين من السنين مقبلة .

إن أقوى مصباح من صنع الإنسان يتضاءل أمام قوة إضاءة الشمس في النهار والشمس مع هذا بعيدة عنا ملايين الأميال حقاً ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾<sup>(١)</sup> .  
غير المنظور

إن موجات اللاسلكي لا نراها تنتشر في كل مكان ، ولكننا نستطيع إدراكها بأجهزة الراديو ، إن الأشعة السينية لا نراها ولكن نلمس آثارها بالتصوير وغير ذلك .

إن العلماء لم يروا الذرة إطلاقاً ، ولكنهم آمنوا بها واستخدموها في القنبلة الذرية في الاستفادة منها في ميادين الصناعة والسلام .

إن الأشعة الكونية تملأ أركان الكون ، ولا تستطيع رؤيتها أو سماعها أى أننا آمننا بهذه جميعاً دون رؤيتها أو سماعها ، فهلا آمننا بالله الذى نلمس قدرته الجبارة ، وآثاره الخارقة ، وإبداعه الفريد ، وكونه الفسيح ، فهو الذى يحيى ويميت ، وإذا مرضت فهو يشفين ، وهو الذى ينصر المؤمنين ، ويخذل الكافرين ، ويحق الحق ، ويخذل الباطل ، أليست هذه جميعاً مشاهدات واقعية نلمسها بحواسنا ، تثبت وجود الخالق الذى لا إله إلا هو الحى الدائم ( ا. هـ .

تبارك ربنا حيث يقول : ﴿ كل مجرى لأجل مسمى ﴾ فما من شيء في هذا الكون إلا وله أجله

الذى تنتهى إليه ، وسبحان من سخر كل شيء لحكمته وقدرته وإرادته ﴿ الرحمن ﴾ علم القرآن \* خلق الإنسان \* علمه البيان \* الشمس والقمر بحسبان \* والنجم والشجر يسجدان ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

سبحانه ، يدبر الأمر ، ويفعل ما يريد ، يدبر أحكامه ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

يفصل الآيات كما فى قوله جل شأنه ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾<sup>(٣)</sup> سواء كانت آياته متلوة ، أم فى الأنفس والآفاق ، فالكل ينطق بحمده ، ويقر بكماله ، ويعلن عن شكره ، ولا يغفل عن ذكره ، سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

كل هذا لتعلموا : أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ فالذى قدر على إبداع هذا الكون قادر بالأولى أن يعثبكم أحياء : ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾<sup>(٤)</sup> .

فاعلموا أنكم بين يدى الله غداً موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ :

مد الأرض : أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، ويتنفع الناس بخيراتها : زرعها وضرعها ، وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائل ، ويسيرونها فى أكنافها يتغنون من رزق ربهم فيها .

ولا شك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ، ولم يبق لديهم فيها ريب .

﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ : أى وأرساها بجبال راسيات شاخات ، لا تتنقل ولا تتحرك ، حتى لا تميد وتضطرب .

﴿ وأنهاراً ﴾ : أى وجعل فيها أنهاراً جارية لمنافع الإنسان .

والحيوان ، فيسقى الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ، ويجعلها لنفسه طعاماً

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الرحمن . (٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود . (٥) الآية ١٨ من سورة النبأ .

وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته في طعامه وشرابه وغذائه .

﴿ ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ﴾ : أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ، ذكراً وأنثى . حين تكونها ، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث في شجرة واحدة ، كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير في شجرة وعضو التأنيث في شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه في شجرة واحدة إما أن يكونا معاً في زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل منهما في زهرة كالقرع مثلاً .

﴿ يغشى الليل النهار ﴾ : أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلماً بعد أن كان مضيئاً ، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئاً ، وكل هذا لتمام المنافع للناس بالسكون والاستقرار ، أو بالبحث على المعاش والأرزاق ، كما قال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وانتفاؤكم من فضله ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التى تشاهد رأى العين في كل صباح ومساء ، وفي كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ، ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به ، وعقل يهتدى به إلى وجبة الصواب .

وينتقل من النظر في الأسباب إلى مسبباتها فقال ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ : أى أن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة ، لدلائل وحججاً لمن يتفكر فيها ويعتبر ، فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد ، وهو ذو الإرادة المطلقة ، والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلق ، ولا إعادة من فنى منهم ، ولا ابتداع ما شاع إبتداعه .

ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغي أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر ، أو ملك أو جن أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفيه ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾<sup>(٣)</sup> قوله تعالى ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

### تقول الحقائق العلمية

#### من آيات الله في عالم النبات :

النبات من آيات الله التى تسبح بحمده وقدرته ، وتشهد بأنه وسع كل شيء علماً .

(٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الروم .

(١) الآية ٨٦ من سورة النمل .

فإذا تأملنا هذا الكائن الحى الذى يبدو ساكناً قابلاً فى مكانه ، وتناولناه بالدراسة والبحث ، نجد أنه يقوم بكافة العمليات التى تتطلبها الحياة من تغذية وهضم وإفراز وإكتناز وتناسل ودفاع وتضحية ومكافحة لبقاء الأصلح .  
وسنقتصر فى هذا البحث على قليل من الظواهر العجيبة المعجزة ، التى أودعها الله فى عالم النبات ، وإشارات القرآن لها .

فالمعروف مثلاً عن النبات الراقى أن جذوره تمتص الماء المذاب فى المواد المعدنية الغذائية التى فى الأرض ، ثم تصعد محاليلها فى أوعية خاصة ، فيفيد منها النبات فى التغذية ، وبناء جسمه .

ويستفاد من البحوث العلمية أن النباتات وإن كانت متجاورة فى أرض واحدة ، وتسقى بماء واحد ، فإن بعضها يختلف فى الانتقال بهذه المحاليل الأرضية عن البعض الآخر ، ذلك بأن كل نوع من النبات يتحكم فى امتصاص أصناف خاصة يختارها من تلك المحاليل المفروضة أن تمتصها الجذور ، وبذلك يشذ عن القانون المعروف ( بقانون الانتشار العشوائى ) فهى إنما تسمح بامتصاص محاليل تحتوى على الأملاح المعينة الصالحة لعملية ( التحويل الغذائى ) ، وتمتصها بقدر معلوم ، وتمتنع عن امتصاص محاليل أخرى ، ولو أنها قابلة للانتشار ، لأنها لا يستفاد منها ، أو أنها تلحق بالنبات أذى .

فالمعروف أن الحاصلات الزراعية النجيلية ( كالقمح والشعير والذرة ) تمتص من محاليل الجير والبوتاس والأزوت أقل من نصف ما تمتصه الحاصلات الجذرية ( كالبطاطس واللفت والبنجر ) ولكنها تتفوق عليها فى امتصاص السليس .

ومن هنا نشأ نظام الدورة الزراعية ، وتعاقب الحاصلات الذى يتبعه المزارعون الآن ، فلا يزرع فى البقعة الواحدة من الأرض محصولان متعاقبان ، يحتاج كل منهما إلى نفس العناصر الغذائية المستمدة من الأرض .

فالمشاهد أن الذرة التى تعقب البرسيم تكون أوفر محصولاً من التى تعقب القمح ، ومن ثم عرفت أيضاً ضرورة التسميد ، فيضاف السماد الذى يحتوى عناصر معينة إلى الحاصلات المزروعة فى أرض فقيرة فى تلك العناصر ، أو استنفذها محصول سابق .

ويمكن مشاهدة قدرة الجذور على انتخاب المحاليل الغذائية الملائمة لها ، بأن تزرع بذرة من نبات الطماطم ، وأخرى بجوارها من نبات الداتورة ، وكلاهما ينتمى لعائلة واحدة ( هى الباذنجانية ) فتخرج الأولى ثمراً يؤكل مريثاً ، وتنتج الأخرى نباتاً يحتوى مادة سامة مخدرة .

كذلك الحال إذا زرعت بذرة البطيخ بجوار بذرة الحنظل ( وكلاهما من العائلة القرعية ) .

وتعزى قدرة الجذور على الانتخاب والتحكم فى امتصاص المحاليل الصالحة ، إلى قوة حيوية تتمتع بها خلايا خاصة من أنسجة الجذور ، ولا تخضع ( لقانون الانتشار العشوائى ) .



ولم يكتشف العلم للآن تفسيراً لهذه القوة الحيوية الإرادية المعروفة في عالم النبات باصطلاح ( الامتصاص الانتخاى في جذور النباتات ) مع وجودها في قطع متجاورة من الأرض ، وتسقى بماء واحد ، ومازالت هذه الخاصة سرّاً وآية من آيات الله التى أودعها في النبات ، عبرة وموعظة لقوم يعقلون ، كما أشار إليها القرآن في قوله ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

وحذا لو اتعظ الإنسان ، واقتدى بالنبات فأكل من الطعام ما يفيده ، وتجنب ما يضره ، كتعاطى المخدرات والخمر ، ولم يسرف في الأكل كلما رأى الطعام سائغاً وفيراً ، فيملاً منه بطنه ، وتصيبه التخمة ، وعسر الهضم ، وغير ذلك من الأمراض .

### الله قدر فهدى :

يتضح مما سبق من الكلام عن تحكم خلايا أنسجة خاصة في الجذور ، واختيار المحاليل الغذائية ، أن الخلية فيها حياة ، ولها إرادة .

والخلية هي الوحدة التى يبنى منها جسم النبات ، وكذا الحيوان مثلها ، كمثل اللبنة تشاد بها المباني الشاخنة .

وتتكون الخلية ( نباتية كانت أو حيوانية ) من بعض العناصر التى يتركب منها الطين متحدة بالماء ، الذى جعل الله منه كل شئ حى ، بنسب ومعايير قدرها الخلاق العظيم ، ثم أودع فيها الحياة كما ورد في الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين \* ثم جعلناه نطفة ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .

ومن المعجز في خلق هذه الخلية أن حجمها غاية في الصغر ، فلا تراها العين المجردة دون الاستعانة بالمجهر ( الميكروسكوب ) الذى يكبر صورتها مئات بل ألوف المرات ، فتظهر في شكل كتلة من مادة هلامية يحنوها في الغالب جدار رقيق ، ويستقر في هذه المادة الهلامية كتلة دقيقة داكنة تعرف ( بالنواة ) ويعزى إليها السيطرة والإشراف على أداء الوظائف الحيوية التى تقوم بها الخلية .

فالله تعالى خلق هذه الخلية وسواها ، وقدر تركيبها ، ثم بث فيها الروح وبعد ذلك هداها إلى القيام بأداء وظائفها حسبما تقتضيه ظروف معيشتها .

كما قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى \* الذى خلق فسوى \* والذى قدر فهدى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وحين سأل فرعون موسى وأخاه هارون عن ربهما قائلاً ﴿ من ربكما يا موسى ﴾ أنزل الله على موسى أن يجيب ﴿ ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ <sup>(٣)</sup> فكان جواباً سديداً أفحم الذى كفر ، وكان فيه هدى للناس وآيات لأولى الألباب .

(١) الآيات ١٢ ، ١٣ من سورة المؤمنون . (٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الأعلى . (٣) الآيات ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .

بل شاء الله أن يخلق بقدرته أنواعاً من الحيوان والنبات ، لا يتكون الواحد منها إلا من خلية واحدة وحسب ، ومع ذلك فهي تقوم بأعباء الحياة كافة ، بعد أن أعطاها خلقها ، ثم هداها لأداء عملها .  
ومن أمثلة الحيوانات وخيدة الخلية ، الحيوان المنوى الذى سبق ذكره فيما تقدم ، وفى عالم النبات كذلك طوائف من النباتات وحيدة الخلية كالليكروبات ، وبعض أنواع الفطر والطحالب .

وفى النبات غير ما ذكر كثير من المثل العليا جديرة بالتفكير والتقدير والموعظة ، كالأمانة فى العمل ، والنظام الاشتراكى السليم ، والعمل لصالح المجتمع فى غير ما تواكل ولا تنصل من المسئولية ، ولا أنانية ولا إقطاع ، وكالدفاع والتضحية بل والاستشهاد فى سبيل الواجب .

وحسبنا إظهار الطرف من هذه الحقائق القيمة والمثل العليا أن نتمتع فيما نقوم به آلاف الملايين من الخلايا التى يبنى بها جسم الفرد من النبات ، فنرى أن لكل وظيفة من وظائف أعضاء ذلك النبات نسيجاً خاصاً ، يتألف من طائفة من الخلايا ذات الشكل ، وخواص معينة ، تتلاءم وأداء تلك الوظيفة المنوطة بها ، ولا تتوقف أية خلية عن عملها مدة حياة النبات ، بل تظل دائبة على أدائه دون ملل أو إحالة عملها على جاريتها لتهرب من المسئولية ، أو ( ادعاء المرض طلباً للراحة وابتغاء الإجازة ) .

وهى تكرر حياتها لأداء الواجب فى سبيل الصالح العام للنبات ، حتى لا يتعرض للسقم أو الموت .

وللخلايا ظاهرة عجيبة فى التطوع للدفاع عن النبات الذى يحتويها ، فإذا أصيب الساق بجرح مثلاً تطوعت مجموعة من الخلايا الواقعة على حافة الجرح فتكاثرت بنشاط ، ثم ترسب مادة واقية على جدرانها ( كالفلين ) ، حتى تسد فجوة الجرح ( كما يفعل الطبيب الجراح عندما يحشو جوف الجرح بالضمادة ( الفتيل ) ، وبذا يسلم النبات المجروح من التلوث والأذى .

ولبعض النباتات وسائل مختلفة للوقاية ، والدفاع المستديم عن جسمها : كوجود الأشواك مثلاً التى تتكون أحياناً بتحول بعض الأوراق أو الفروع وغيرها ، وحيث يضحي النبات بالوظيفة الأصلية المخصصة لها هذه الأعضاء ، فتستحيل إلى أشواك فى سبيل السلامة والأمن العام .

ومن النباتات ما يفرز مواد لزجة على أوراقها ، أو أغصانها ، تعرقل سعى الحشرات التى تدب عليها ، ومنها ما يكون فى ثمارها أو عصارتها مواد سامة تصيب الحيوانات فترعوى ولا تعود إلى التطفل عليها .

كذلك ينبعث من الأوراق أو الأزهار فى بعض النباتات زيوت طيارة لها رائحة تنفر الحشرات ، أو تقتلها ، ومن أمثلة ذلك نبات ( البيرفودم ) الذى يدخل فى تحضير كثير من المبيدات الحشرية .

وتتجلى ظاهرة الاشتراكية والديمقراطية وإنكار الذات وعدم الإقطاع ، فى أن الخلية التى تبدأ فيها

عملية تحضير المواد الغذائية ، التى يكون فيها النبات ، لا تأخذ هذه الخلية من تلك المواد إلا ما هو مقرر لنصبيها ثم تسمح بمرور الباقي للخلية المجاورة فتحذو حذوها ، وما زاد من الغذاء بعد ذلك يرحل إلى مواضع الاكتناز ، فتخزنه الأنسجة المخصصة لذلك دون اختلاس أو اغتصاب ، حتى إذا جاء وقت الحاجة لهذا الغذاء قامت خلايا خاصة بإفراز مواد تحلله وتجعله سائغاً للمرور والتغذية ، فيوزع بمعدل يضمن التموين بالقسط لكافة أجزاء النبات .

أما التضحية في النبات فتتضح في ظاهرة تساقط أوراقه في الشتاء ، حيث يقل أو يتوقف صعود العصارة في الساق ، وكذا عند اشتداد حرارة الجو .

والمعروف في علم النبات أن الورقة مصدر إمداد النبات بالغذاء العضوى من الجو ، كما تقوم أيضاً بعمليات التنفس والنتح والحكمة في تساقط الأوراق تقليل النتح مراعاة للتكشف والاقتصاد في كمية العصارة المحدودة شتاءً ، وكذا عدم الإسراف في تبخير الماء عند إرتفاع درجة الحرارة .

ففى كلا الحالين يضحي النبات ببعض أو كل أوراقه ، رغم الحاجة الماسة إلى الوظائف التى تؤديها ، وذلك حفظاً للمحاليل المائية التى فى جسم النبات ، وإذا حان وقت تساقط الأوراق أخذت الخلايا التى تحيط بعنق الورقة عند اتصالها بالفرع فى تكوين نطاق من الفلين ، يعزلها ويحول دون وصول العصارة إليها فتختنق تدريجياً ثم تذبل ، وتنفصل عن النبات ، وتسقط مضحية بنفسها فى سبيل توفير العصارة للنبات الذى كان يحملها .

ولا تتوقف تضحية الورقة عند هذا الحد بل بعد أن تموت شهيدة الواجب يدركها التعفن والانحلال ، ويتخلف عن رفاتها مادة عضوية سماوية تختلط بالمحاليل الغذائية التى فى التربة ، وتسهم فى تغذية النبات الذى سقطت شهيدة تحته وهكذا أفاد النبات من تلك الورقة فى حياتها وبعد موتها ، وفى ذلك أسمى مثل للتعاون والتضحية .

وبعد : أفلا يجدر بالإنسان وقد ميزه الله بالعقل ، وفضله على سائر مخلوقاته ، أن يتدبر هذه الآيات البالغة التى يراها فى النبات ، فيتعظ بها ، ويتخذ من هذا الكائن قدوة حسنة ، فيتعاون مع بنى جنسه ومواطنيه ، ويقاسمهم عيشة راضية واشتراكية سليمة ، تقوم على العدل والقسط فلا يسرف فى الطعام ، ويتغالى فى البذخ متغاضياً عن المحرومين من إخوانه فى الوطن ، بل عليه أن يستعد لما تتطلبه ظروف الحياة من اقتصاد وتكشف وتضحية فى سبيل المجتمع ، وعليه كذلك أن يحتاط للدفاع عن أهله ومواطنيه الذين يحيا معهم ، فينشئ على حدود الوطن العزيز خطوط للدفاع ، تحول دون غزو أعدائه مضحياً بنفسه وبكل ما يتطلبه ذلك من نفقات واقتصاد ، أسوة بما اتخذه النبات من تحويل أعضائه الغالية الضرورية ، وما استشهد منها فى هذا السبيل ، وما أعده من أشواك وعراقل ، تمنع غزو الأعداء للوطن المقدس ، فما أجدر الناس بأن يتخذوا من هذه الآيات عبرة وموعظة ، ولا يمروا عليها وهم يفضون أبصارهم ، كقوله تعالى ﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يحزوا عليها صمًا وعمياناً﴾ (١) .

### من المعجزات الكامنة في البذور

إن من آيات الله البالغة في النبات ما أودع من أسرار في بذوره التي يناط بها أصلاً وظيفة انتشار النبات واتساع مملكته ، وعدم انقراضه ، فهي تنتشر بوسائل مختلفة ، وجسمها مكيف بحيث يتلاءم وتلك الوسائل التي تحقق مهمتها ، فبعض بذوره خفيفة الوزن تذروها الرياح ، وأخرى ذات أجنحة يحملها الهواء وينقلها إلى موطن آخر .

ومن البذور ما يطفو على سطح الماء لأنها أقل كثافة منه ، وقد تزود بجيوب هوائية لسهولة الطفو وبعضها يتكون من ثمار تغري الحيوان والطيور بأكلها ، فتحملها في بطونها وتنقل بها إلى جهات مائية عن مصدرها ، ثم تهضم الثمار دون أن تتلف بذورها ، لأن لها أغشية من أنسجة خاصة غير قابلة للهضم ، فتتمر في القناة الهضمية حية سالمة وتخرج من الجسم مع الفضلات لتنبث في أرض موطن جديد بعيد .

ومن الثمار ما يتفجر عند النضج فتقذف بالبذور فتتأثر بعيداً عن نبات الأم ، حتى لا تكتظ النباتات الجديدة وتتنازع الغذاء والبذور ، لا يزال يكتشفها سر لم يكتشفه العلم بوضوح للآن ، وهو قدرة احتفاظها بحيويتها .

فالمعروف في علم النبات أن للبذرة فترة من الزمن ( تعرف بفترة الراحة ) تقضيها سالمة حية ، حتى تتاح لها الظروف فتنبث وتخرج نباتاً ، كالذي نشأت فيه ، وتختلف مدى هذه الفترة باختلاف نوع النبات ، فهي قصيرة في بعضها ( كبذور المانجو ) وتطول في البعض الآخر ( كبذور نبات الهالوك ) التي تمكث في الأرض حية بضع سنين ، انتظاراً للنبات العائل الذي تتطفل عليه فيبدأ إنباتها .

وللبذور في فترة الراحة قدرة عظيمة على تحمل التغيرات الخارجية ، فقد ثبت من التجارب أن بعض البذور الجافة تظل حية إذا ارتفعت الحرارة إلى درجة غليان الماء ( ١٠٠ درجة مئوية ) في حين أن جنينها عندما تنبت يموت إذا تعرض لدرجة ٦٠ مئوية .

وقد اختبرت درجة مقاومة البذور بإحاطتها بضعة أيام بالهواء السائل ، بحيث انخفضت درجة الحرارة إلى ١٩٤ تحت الصفر ، فلم تتأثر بذلك ، ونجح إنباتها مع أن نشاط الجنين في الأحوال العادية يتوقف ويهلك إذا انخفضت درجة الحرارة حتى درجة الصفر المئوية .

ولا يمكن الاستدلال على حيوية البذور بمظهرها الخارجي ، بل ولا بالتشريح الداخلي ، فهي تبدو سالمة من العفن ، ونخر الحشرات ، وكل تلف معروف ، ومع ذلك تفشل عند الإنبات في حين أم مثيلاتها تماماً ينجح إنباتها .

وتعليل ذلك أن الأولى فقدت حيويتها ، وظلت الأخرى حية ، ولا يعرف للآن تفسير واضح لهذه الظاهرة ، فالحياة أو الروح ما زالت من أمر ربنا الذي خلق الموت والحياة .

وهكذا نرى أن البذور التي نزرعها لا تنبت إلا بإذن الله ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ أفأرأيتم ما

تحرثون \* أنتم تزرعون أم نحن الزارعون ﴿١﴾ .

فعسى الله أن يوفق عباده الصالحين ، ومن يحيطونه بشيء من علمه بقدر ما يشاء ، ليبتدوا حل هذا السر العظيم .

وكما أشار القرآن الكريم إلى التأمل في قدرة الله التي تجلت في حيوية البذور ، نبهنا كذلك إلى التدبر والبحث في المراحل التي تطرأ بعد أن أنزل الله من السماء ماء فنبتت به البذور بقدرته ، وأخرجت النبات الذي يحمل الأزهار ، فتنفق وتكون حباً وثماراً مختلفة ، بعضها متشابه والبعض غير متشابه ، وقد فكر العلماء ملياً ، واستلفت نظرهم هذا التشابه والاختلاف ، وانتهى بهم التفكير إلى دراسة فرع خاص من علم النبات ، وهو فرع ( تقسيم النبات ) أو ( النبات الترتيبي ) أو ( التكسونوميا ) .

فجعلوا مملكة النبات رتباً وفصائل وعائلات وأجناساً ، لسهولة التعرف على أفرادها ، ومعرفة درجة الصلة والقربة بينها ، وقد يسر ذلك دراسة علم الوراثة في النبات والتعمق في نظرياتها ، حتى أمكن الحصول على خلف طيب من أبوين متشابهين ، هو خير من كل منهما .

وكان من نتيجة هذا الكشف أن أفادت الزراعة فائدة عظيمة بإيجاد سلالات جديدة ، أو فر غلة ، وأعظم ربحاً .

فتأمل قوله تعالى ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٢) .

### النار من الشجر الأخضر

في عالم النبات معجزات كثيرة غير ما سبقت الإشارة إليه ، تحار العقول في إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لأننا في الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التي تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة .

فمن الظواهر التي استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب في جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التي هي مصدر لطاقة لا غنى لنا عنها في حياتنا اليومية .

وفي القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وقد تذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم ، لعلهم يبتدون كقوله تعالى : ﴿ أفأرأيتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ (٣) .

وعندما تتدبر معنى هذه الآية نجد أنها تشير إلى أصول البحث في علوم مختلفة ، مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

(١) الآيات ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة . (٢) الآية ٩٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيات ٧١ ، ٧٢ من سورة الواقعة .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة ودراسة العلوم ، لكي يتيسر لهم تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية ، وصلتها بحياة الإنسان ، وما خلق الله في السموات والأرض . وسنعالج فيما يلي تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، وتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة مع آيات القرآن الحكيم .

فإن الله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التي تنبني منها أنسجته وأعضاؤه ، وسواها وقدرها ، ثم هداها لبناء الخشب ( الذي توقد منه النار ) بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذي يكمن في هذه الظاهرة .

وفيما يلي شرح مختصر للخطوات التي سلكها النبات لتكوين الخشب :

دأب الإنسان من القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة ( الفحم النباتي ) منه وإدخاره ليوقد عند الحاجة .

وما الفحم الحجري الذي يستخرج الآن من المناجم الغائرة في بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت في الأرض ، وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن ، استغرقت آلاف آلاف السنين ، وطرأ عليها في غصونها تغيرات مختلفة ( فتكربنت ) أي ( تفحمت ) وأصبحت ذلك الفحم المعروف ، والفحم يكاد يتكون كله من الكربون وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل في تركيب كل مادة عضوية .

فالفحم أصله الخشب الذي كونه النبات ، وبناه في جسمه ، ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب وما نتج عنها من الفحم ، إنما بناها النبات من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي يوجد في الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا في نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي ( ويمثله ) في جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية ، في درجة الحرارة العادية دون عناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة ، في حين أن فصل الكربون عن ثاني أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائي درجة حرارة مرتفعة ، وأجهزة يستخدمها في المعمل لهذا الغرض والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التي يستعين بها على أداء عملية ( تمثيل الكربون ) وفصله عن غاز ثاني أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة ( بالخليص ) أو الكلوروفيل .

ولذا فإن الشجر الأخضر ( والأخضر دون سواه ) هو الذي يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذي توقد منه النار .

فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصية امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ( وهي الحمراء

والبرتقالية ) وبهذا الجهود الضوئي تستعين المادة الحية التي في خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثاني أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية ( تمثيل الكربون ) باتحاد الكربون مع عنصرى الماء ( وهما الأيدروجين والأكسجين ) ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر .

على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة في علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ينتقل من خلية لأخرى ، حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التي يتكون فيها الخشب ، فيخترن فيها ثم يتركز تدريجياً ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ( مثل اللجنين والسوبرين ) فتستقر في موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هي الخشب المعروف .

ومن العجب أن هذه الخلايا النباتية التي اشتركت في تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١/١٠٠٠ من المليمتر ( ككثير من الخلايا التي سبق ذكرها في مناسبات مختلفة ) ومع ذلك فقد أودع الله الحياة في تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات ، فقامت بعملها المعجز .

وبعد - فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثاني أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا ، لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التي أودعها الخالق سبحانه وتعالى في مادة الخلية ، وهذا لأداء هذه المهمة ، بعد أن خلقها وقدرها : فهو الذى قدر فهدى وهو الذى ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ (١) .

وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقاً محدوداً ، ولم يؤته من العلم إلا قليلاً ، فإذا طعن في السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله في الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ (٢) .

هذا الإنسان الذى يجار اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالا ودماراً يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثلاً فقال ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ (٣) فأنزل الله في القرآن على نبيه ﷺ .

﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٤) .

ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى ، وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلم ، ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد ، فقال

(٣) الآية ٧٨ من سورة يس .

(٤) الآية ٧٩ من سورة يس .

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

(٢) الآية ٥ من سورة الحج .

إن الذى أنشأ العظام أول مرة ثم يحييها هو ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾<sup>(١)</sup> .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص ، لاحتوائه على مادة ( الكلوروفيل ) كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات . وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً فى موضعه ، قد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت فى تكوين الخشب ، وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً .

كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾<sup>(٢)</sup> .

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضالة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة ، والذبابة الدنيئة إزاء خلق السموات والأرض ، وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ونبها إلى التمعن والتفكير فى كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع ، الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت \* وإلى السماء كيف رفعت \* وإلى الجبال كيف نصبت \* وإلى الأرض كيف سطحت ﴾<sup>(٤)</sup> .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة ، وهى تنبها على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا ( علم طبقات الأرض ) والجغرافيا .

ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآيات الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ، ثم يغضون أبصارهم ، ويكتفون بنحو قولهم ﴿ سبحان الخلاق العظيم ﴾ دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنبات والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

تباركت ربنا وتعاليت ، سبحانك خلقت ، وحكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وبطنت

(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .

(١) الآية ٨٠ من سورة يس .

(٤) الآيات ١٧ ، ٢٠ من سورة الفاشية .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .



فخبرت ، وملكتم فقدرت ، خلقت الأرض منها قطع متجاورات ومتباينات بعضها رخو وبعضها صلب ، قطعة تنبت وقطعة لا تنبت ، وفي الأرض قطع متجاورات ترابها واحد وماؤها واحد ، وفيها زرع واحد ، ثم تتفاوت الثمرة ، بعضها حلو وبعضها مر ، بعضها يثمر وبعضها لا يثمر .

وفي الأرض جنات وبساتين من زروع ونخيل وأعقاب وغيرها من الفواكه التي عرفت في غير جزيرة العرب .

ومن عجائب النخل أن فيه صنواناً وغير صنوان ، والمعنى أن أشجار النخيل قد تكون الواحدة لها رأسان وأصل واحد ، وقد تكون غير ذلك كبقية الشجر ، وقيل المعنى أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وغير متماثلة مع اتحاد التربة ، والزرع يسقى ذلك كله بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل .

أليس في هذا دليل على بديع صنعه وعظيم قدرته ، فإن القطع المتجاورة وفيها الجنات متلاصقة ، بل والأشجار المتشابكة المتداخلة ، تسقى بماء واحد وبنظام واحد ، وبذرهما واحد ، ثم نرى في بعضها نضجاً وكلاً وحلاوة ، وفي البعض جفافاً ونقصاً ، وصغراً وحموضة بل وطعماً متغيراً تمام التغير عن زميلتها .

أليس هذا دليلاً على وجود القادر المختار الواحد القهار ، وأن الدنيا لم تسر بطبعها من غير مدبر لها حكيم ، إن في ذلك لآيات وحججاً ، ولكن لقوم يعقلون ويتدبرون بفكر حر وعقل سليم .

### الحكم على منكرو البعث والنبوة

\* وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءَنْتَ لِنِي خَلْقٍ جَدِيدٌ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ ۚ فِيْ أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خَالِدُونَ ﴿٦﴾  
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ العجب ﴾ : تغير النفس حين رؤية ما يُستبعد في مجرى العادة . ﴿ الأغلال ﴾ : واحد غل وهو طوق من الحديد طرفاه . في اليدين ويحيط بالعنق . ﴿ المثالات ﴾ : ( بفتح فضم ) واحدها مثلة ( بفتح فضم ) وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثراً قبيحاً كصلم أذن أو جدع أنف أو سمل عين . ﴿ الغفر ﴾ : الستر بالامهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا

موسى حية وناقة صالح . ﴿الإنذار﴾ : التخويف . ﴿الهادى﴾ : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

ينخير الله تعالى عن حال المشركين المنكرين للبعث ، فيقول لرسوله ومصطفاه ، ولكل من يتأتى منه الخطاب ﴿وإن تعجب﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد ، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ، ودلائله فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد أترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به .

فالعجب من قولهم ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال سبحانه : ﴿أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير﴾<sup>(١)</sup> .

ثم نعت المكذبين بهذا ، فقال ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم﴾ أى يسحبون بها فى النار ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أى ما كثثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

قوله تعالى ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة﴾ أى يستعجلتك هؤلاء المكذبون بالعذاب والعقوبة ، كما جاء فى قوله تعالى عنهم : ﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين \* ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لحيطه بالكافرين \* يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿سأل سائل بعذاب واقع \* للكافرين ليس له دافع \* من الله ذى المعارج \* تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة \* فاصبر صبراً جميلاً \* إنهم يرونه بعيداً \* ونراه قريباً \* يوم تكون السماء كالمهل \* وتكون الجبال كالعهن \* ولا يسئل حميم حميماً \* يبصرونهم يود المحرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التى تؤويه \* ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه \* كلا إنها لظى \* نزاعة للشوى \* تدعوا من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها

(٣) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٣٣ من سورة الأحقاف :

(٤) ١ ١٨ من سورة المعارج .

(٢) الآيات ٦ - ٨ من سورة الحجر .

الحق ﴿١﴾ ، ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً﴾ (١) الآية أى عقابنا وحسابنا ، كما قال مخبراً عنهم : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ (٢) فكانوا من شدة كفرهم وتكذيبهم وعنادهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله .

وقوله تعالى ﴿وقد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أى قد أوقعنا نقمنا بالأثم الخالية ، وجعلناها عبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أى أنه تعالى ذو عفو وصفح ، وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف .

كما قال تعالى : ﴿فإن كذبوك قتل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ (٣) وقال : ﴿إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ (٤) . وقال : ﴿نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم \* وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾ (٥) . إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

وقال ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ الآية قال رسول الله ﷺ : ( لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد ) .

وقوله تعالى : ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن المشركين : أنهم يقولون كفراً وعناداً لولا يأتينا بآية من ربه ، كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح قمم الجبال ويجعل مكانا مروجاً وأنهاراً ، كما قال تعالى ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ (٦) .

وكما جاء فى قوله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾ (٧) .

- |                                 |                                      |
|---------------------------------|--------------------------------------|
| (١) الآية ١٨ من سورة الشورى .   | (٥) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .      |
| (٢) الآية ١٦ من سورة ص .        | (٦) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .  |
| (٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .  | (٧) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .       |
| (٤) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام . | (٨) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء . |

وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أى إنما عليك أن تبلغ الرسالة التى أمرك بها ، ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس : لكل قوم داع ، وقيل أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم ، وقيل ﴿لكل قوم هاد﴾ أى نبي وقيل قائد ، وقيل الهاد هو محمد ﷺ . وقال مالك ﴿ولكل قوم هاد﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل .

### علم الله محيط بكل شىء

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾  
عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ  
وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ  
يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ  
بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾

**المفردات :** ﴿الغيض﴾ : النقصان ، يقال غاض الماء وغيضته كما قال ﴿وغيض الماء﴾<sup>(٢)</sup> .  
﴿بمقدار﴾ : أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه . ﴿والغائب﴾ : ما غاب عن الحس .  
﴿والشاهد﴾ : الحاضر المشاهد . ﴿الكبير﴾ : العظيم الشأن . ﴿المتعال﴾ : المستعلى على كل شىء .  
﴿أسر الشىء﴾ : أخفاه فى نفسه . ﴿والمستخفى﴾ : المبالغ فى الاختفاء .  
﴿والسارب﴾ : الظاهر من قولهم سرب إذا ذهب فى سربه . ﴿معقبات﴾ : أى الملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحداها معقبة ، من عقبة : أى جاء عقبه . ﴿من بين يديه﴾ : أى قدامه ، ومن خلفه  
أى من ورائه . ﴿من أمر الله﴾ : أى بأمره وإعانتة . ﴿وال﴾ : أى ناصر .

اعلم بأن علم الله تعالى محيط بكل شىء ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين﴾<sup>(٣)</sup> . إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً

(١) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴿١﴾ . ﴿لم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم﴾ ﴿٢﴾ .

الله يدري كل ما تضمـــــر يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

سبحانه أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴿٣﴾ ، ﴿أسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ : هذا إخبار من الله تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى ﴿ويعلم ما فى الأرحام﴾ ﴿٥﴾ أى ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ ﴿٦﴾ الآية .

وقال تعالى ﴿يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث﴾ ﴿٧﴾ : أى خلقكم طوراً بعد طور .

كما قال تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿٨﴾ .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد ) وفى الحديث الآخر ( فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك ) ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ . قال البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى الغد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة طه .

(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

(٥) الآية ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .

(٦) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٦) وفى الأنبياء (١) وفى القدر (١) . ومسلم فى القدر (١) . وأبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى

فى القدر (٤) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) .

الله ، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله (١) .

وقال بعض المفسرين ﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾ أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد ، فقد يكون واحداً ، وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاماً ، وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريباً .

قوله تعالى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ أى ولكل شيء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصاً فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون (٢) .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٣) وفى الحديث : ( إن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه رسولا : أن ابناً لها فى الموت ؟ وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول : إن الله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب ) (٤) .

تذكر جميل مذ خلقتك نطفة      ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا  
وسلم إلى الأمر واعلم بأننى      أدبر أحكامى وأفعل ما أشأ

تباركت يا أحسن الخالقين ، أنت القائل وقولك الحق ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين \* فجعلناه فى قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* فقد رنا فنعم القادرون ﴾ (٥) وأنت القائل ﴿ وهو الذى انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ (٦) سبحانه .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تديرى      ولا الشؤون التى تجرى بتقديرى  
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى      أحاط بى علمه من قبل تصويرى

﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء \* هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٧) .

انظر إلى المرء وقل      من شق فيه بصره  
من ذا الذى جهزه      بقوة مفتكـره  
ذاك هو الله الذى      أنعمه منهمـرة

(١) أخرجه البخارى فى الاستسقاء (٢٩) وفى التفسير (سورة ١٣ : ١) وفى التوحيد (٤) . وإمام أحمد فى (٢ : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٨) .

(٢) الآية ٦١ من سورة النحل . (٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز (٣٢) وفى الأيمان (٩) وفى القدر (٤) وفى التوحيد (٢ ، ٢٥) . ومسلم فى الجنائز (١٣) . والنسائى فى

الجنائز (٢٢) . (٦) الآية ٩٨ من سورة الأنعام .

(٥) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات . (٧) الآية ٦ ، ٥ من سورة آل عمران .

ذو حكمة بالغة      وقدرة مقتدرة  
تباركت يا أحسن الخالقين

تلك الخليفة قف بنا ياسارى      حتى أريك بديع صنع البارى  
الأرض حولك والسماء اهتزتا      لروائع الآيات والآثار  
من شك فيه فنظرة فى خلقه      تمحو أثم الشك والإنكار

سبحانه آمين به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحد الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .  
﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقمة  
ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم  
لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض  
هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج \* ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى  
الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (١) .

#### قوله تعالى ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ : أى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، وما يغيب عنهم ولا يخفى عليه  
منه شيء ، ﴿ الكبير ﴾ الذى هو أكبر من كل شيء ، ﴿ المتعال ﴾ أى على كل شيء ﴿ قد أحاط بكل  
شيء علماً ﴾ (٢) ، وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

قوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب  
بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما  
بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما هم من دونه من وال ﴾ :

سبحانك ربي يامن يسمع ديب أرجل النملة السمراء ، فى الليلة الظلماء ، فوق الصخرة الصماء .  
يا من يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام الثحل  
ويرى ويسمع بل يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل  
﴿ سواء منكم ﴾ أيها المخلوقات ﴿ من أسر القول ومن جهر به ﴾ فإنه يسمعه لا يخفى عليه  
شيء ، كقوله تعالى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ (٣) وقال : ﴿ ويعلم ما تخفون وما  
تعلنون ﴾ (٤) .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « سبحان الذى وسع سمعه الأصوات والله لقد جاءت المجادلة

(٣) الآية ٧ من سورة طه .

(٤) الآية ٢٥ من سورة النمل .

(١) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله سبحانه ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

وقوله ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أى محتف في قعر بيته في ظلام الليل ( وسارب بالنيار ) أى ظاهر ماش في بياض النهار وضياءه ، فإن كليهما في علم الله على السواء كقوله تعالى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ ، ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾

أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس الليل وحرس النهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل ، ملائكة بالنهار ، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، وصاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، هم حافظان وكاتبان .

كما جاء في الصحيح : ( يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليهم الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون ) (٢) .

وفي الحديث الآخر : ( إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرمهم ) .

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .. أخبرني عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : ( ملك على يمينك على حسناتك ، وهو أمير على الذي على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين : أكتبها ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثاً قال : أكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته الله وأقل استحياءه منا يقول الله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ - الآية - وملك قابض على ناحيتك فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا

(١) الآية ٥ من سورة هود .

(٢) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٦) وفي المواقيت (١٦) وفي التوحيد (٢٣ ، ٣٣) . ومسلم في المساجد (٢١٠) . والنسائي في

الصلاة (٢١) . والإمام مالك في السفر (٨٢) . والإمام أحمد في (٢ : ٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٩٦ ، ٤٨٦) .



تجبرت على الله قصمك ، وملكك على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية في فيك وملكك على عينيك فهو لاء عشرة أملاك على كل آدمي ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهو لاء عشرون ملكاً على كل آدمي ، وإبليس بالنهار وولده بالليل . وقال الإمام أحمد عن سالم بن أبي الجعد عن أبيه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ( ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله ، قال ( وإياي ولكن الله أعانني عليه فأسلم ) .

قوله تعالى : ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى بأمر الله وقد جاء في الحديث أنهم قالوا يارسول الله : رأيت رقيماً نسترقى بها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال ﴿هى من قدر الله﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ﴾ روى ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ﴾ .

وقد ورد هذا في حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة في كتابه صفة العرش حدثنا الحسن بن على حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمي حدثنا أبو حنيفة اليماني الأنصاري عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال : « كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال : [ قال الرب وعزنى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتى ] .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ :

هو كقوله جل شأنه ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (١) .

فإن عدالة الله تعالى اقتضت أن يعاقب أهل الظلم والطغيان ، فإذا ما حقت كلمة العذاب عليهم فإنه لا مرد لما قضى الله . قال تعالى ﴿وَلَهُمْ فِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مُرْدُودٍ﴾ (٢) فإذا ما أراد الله بهم ذلك ، فلن يجدوا من دون الله من ولى ولا نصير .

### من الآيات الكونية

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَيَّكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

(١) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧٦ من سورة هود .

الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبْسِطُ  
 كَفْبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ  
 مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلُّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

**المفردات :** ﴿ البرق ﴾ : ما يرى من النور لامعاً خلال السحاب . ﴿ والرعد ﴾ : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببها على ما بين في العلوم الطبيعية - أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتي الكهربائية ، حتى يصير ميل أحدهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما فتتجهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى شديد فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق الهواء الذي تطرده كهربائية البرق أمامها ، ﴿ والصواعق ﴾ : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلئ بكهربائية ، والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتتزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، ﴿ والمجادلة ﴾ من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت قتله ، كأن المجادلين يقتل كل منهما الآخر عن رأيه . ﴿ والمحال ﴾ : الماحلة والمكيدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف في استعمال الحيلة ، في ضلال أى ضياع وخسار ، ﴿ والظلال ﴾ : واحدها ظل وهو الخيال الذي يظهر للجرم ، ﴿ والغدو ﴾ : واحدها غداة وهي أول النهار . ﴿ والآصال ﴾ : واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

بعد أن خوف الله سبحانه عباده ، بأنه إذا أراد السوء يقوم فلا يدفعه أحد أتبعه بذكر آيات ، تشبه النعم والإحسان حيناً ، وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما ذلك فقال له عامر ، لعنه الله : أما والله لأملأها عليك خيلاً جرماً ، ورجلاً مرداً ، فقال له رسول الله ﷺ : يأبى الله عليك ذلك وابتداء قيلة ( الأنصار من الأوس والخزرج ) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ ، فجعل أحدهما يخاطبه ، والآخر يستل سيفه ليقته من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة ، وانطلقا في أحياء العرب يجمعان لخربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقتة ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غدة كغدة البكر فأوى إلى بيت سلولية وجعل يقول : « غدة كغدة البكر وموت في بيت سلولية . حتى مات » .

وأُنزل الله في مثل ذلك : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله ﴾ ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ : أى أنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده ، كالمسافر ومن في جريته التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ،

وهكذا حال كل شيء في الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه في أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه .

﴿ وينشئ السحاب الثقال ﴾ : أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء ، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ : أى إن في صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه عن الشريك والعجز ، كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده ، لقدرة ذلك الحكيم الخبير .

ونحو الآية قوله سبحانه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (١) .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر : ( كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ) (٢) .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : « أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه ثم يقول للرعد : سبحان من سبحت له وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً ) .

﴿ والملائكة من خيفته ﴾ : أى ويسبح الملائكة الكرام من هيئته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ إصابته بها يهلكه . ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ : أى يجادلون في شأنه تعالى ، وفيما وصفه من الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية ، وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم ، يوم العرض والحساب .

وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسية ، كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية سلام بما ذكر ، كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة ، بل تخطوه إلى الألوهية ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد ، يجادلون في الله باتخاذ الشركاء ، وإثبات الأولاد له ومع إحاطة علمه ، وشمول قدرته ، ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه ، يُقدمون على المكايدة والعناد ، فهون عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ وهو شديد المحال ﴾ : أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ، يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون . وهو القادر على أن ينزل عليهم عذاباً من عنده ، لا يستطيعون حيلة لدفعه ، ولا قوة على رده لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقتضيه الحكمة كما صح في الحديث ( إن ربك لا يهمل ولكنه يمهل ) . .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه الترمذى في الدعوات (٤٩) .

ومثل الآية قوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد ﴾<sup>(١)</sup> وقوله :  
﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم  
أجمعين ﴿<sup>(٢)</sup> .

قال ابن جرير في تفسير ذلك : والله شديد في عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى في كفره .  
﴿ له دعوة الحق ﴾ : أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغي أن يكون والحجاب حين  
وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره ، وفي هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلته لرسول الله  
ﷺ بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم ، وقبل دعوة الحق كلمة  
التوحيد : أى الله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له وإنه شرعها وأمر بها . ﴿ والذين يدعون من دونه لا  
يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾

أى والاصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ، ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشيء مما  
يريدونه من نفع أو ضرر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه ، يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا  
شعور له ، ببسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تحير جواباً .

وخلاصة ذلك : إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم وهم لا يشعرون بشيء ، فضلاً عن أن  
يجيبوا أحداً بمراً من عطشان باسط كفيه إليه يناديه ، هلم أقبل إلى وهو لا يستطيع رداً ولا جواباً .  
﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ : أى في ضياع وخسار ، فإن دعوا الله لم يجبه وإن دعوا  
الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال : ﴿ والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ :  
أى وينقاد لعظمته كل شيء فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين ، طوعاً في الشدة والرخاء ،  
والكفار كرهاً في حال الشدة ، كما جاء في آيات كثيرة كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من  
تدعون إلا إياه ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم  
يشركون ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ﴾<sup>(٥)</sup> .

﴿ وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ : أى لا تسجد أيضاً ظلال من له ظل منهما بالغدوات والعشايا  
تبعاً لانقياد الأجسام التي تشرق عليها الشمس ، ثم يصرفه إليه تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين  
الوقتتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيراً في استعمالهم .

(١) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٢٢ من سورة يونس .

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .

(٣) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

## عقيدة الوجدانية

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ  
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ  
أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ  
الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ۝١٦﴾

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك أنت الواحد  
فى أفعالك ، لا شريك لك ، تنزهت عن الشريك ذاتك ، وتقديست عن مشابهة الأعيان صفاتك ، بالبر  
معروف ، وبالإحسان موصوف ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من  
علة ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متكيف ولا  
متلون ، ولا متناهى ، لا يستل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ولا بأين كان ، لأنه خالق المكان فسبحانه  
كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحد  
الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ،  
وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه  
الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار ، وهو الواحد القهار .

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ وهنا يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون  
بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومديرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء  
يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً ، أى لا تحصل لهم  
منفعة ، ولا تافع عنهم مضرة . فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك  
له فهو على نور من ربه .

ولهذا قال ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ  
شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ :

أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب ، وتماثله فى الخلق ، فخلقوا كخلقهم فتشابه الخلق  
عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أى ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ولا  
ندله ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة .

﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة ، هم معترفون ، أنها مخلوقة

له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم ، لييك لا شريك لك إلا شريكاً لك هو لك تملكه وما ملك وكما أخبر تعالى عنهم في قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (١) .

فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ (٢) . ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدهم عدداً • وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (٤) .

فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم ، فحققت عليهم كلمة العذاب لاحتمالهم ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٥) .

### مثل للحق والباطل

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْخَيْرُ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝١٨ \* أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤُلَاءِ اللَّبَبُ ۝١٩

**المفردات :** ﴿ الأودية ﴾ : واحدها وادٍ وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء والفرجة بين الجبلين وقد يراد به الماء الجارى فيه . ﴿ بقدرها ﴾ : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغراً وكبراً (واحتمل) أى حمل . ﴿ الزبد ﴾ : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالجبب وما يعلو القدر عند غليانها . ﴿ والرأى ﴾ : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه . ﴿ الجفاء ﴾ : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٢٣ من سورة سبأ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة النجم .

(٤) الآيات ٩٣ — ٩٥ من سورة مريم .

(٥) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾<sup>(١)</sup> .

قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي ، لأن الله تعالى يقول ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفناءه ، فقال تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أى مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أى أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير ، وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها ﴿ فاحتمل السيل زبداً رايماً ﴾ .

أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل وقوله ﴿ وما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ﴾ هذا هو المثل الثانى ، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أى يجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أى إذا اجتمعا لاثبات للباطل ، ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك فى النار ، بل يذهب ويضمحل . .

ولهذا قال ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أى لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ، ويلقى بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع فيه شيء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾ هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله ﴿ فأما الزبد ﴾ وهو الشك ﴿ فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ وهو اليقين ، وكما نجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ، ويترك خبثه فى النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ، ويترك الشك .

وقال العوفي عن ابن عباس :

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رايماً ﴾ .

يقول احتمل السيل ما فى الوادى : ﴿ وما يوقدون عليه فى النار ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأثبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح

يبقى لأهله ، والعمل السيء يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له ، وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض .

وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سبيكة ولا سيف ، حتى يدخل في النار ، فتأكل خبثه ، ويخرج جيده ، فينتفع به ، فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة ، وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك ويتنفع أهل الحق بالحق وهكذا .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين : نارياً ومائياً ، وهما قوله ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت أضاءت ماحوله ﴾ <sup>(١)</sup> ثم قال ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وهكذا ضرب للكافرين في سورة النور مثلين ( أحدهما ) قوله ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾ <sup>(٣)</sup> والسراب إنما يكون في شدة الحر .

ولهذا جاء في الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا يردون . فيردون النار فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً . ثم قال تعالى في المثل الآخر : ﴿ أو كظلمات في بحر لجى ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وفي الصحيحين عن أنى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ﴾ <sup>(٥)</sup> فهذا مثل مائى .

وقال في الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال ( مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبهن فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها ﴾ <sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .

(٥) أخرجه البخارى في الرقاق (٢٦) ووفى الاعتصام (٢) .

(٦) أخرجه البخارى في الرقاق (٢٦) .

(١) الآية ١٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٣٩ من سورة النور .



هذا إخبار من الله تعالى عن مآل السعداء والأشقياء ، فقال ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أى أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين انه قال ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أى لم يطيعوا الله .

وقوله ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أى لم يطيعوا الله . ﴿ لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ﴾ أى فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ، ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ أى فى الدار الآخرة ، أى يناقشون على التقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذِب .

ولهذا قال ﴿ وماوأهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

قوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك ﴾ هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لا يضاف شىء فيه شيئاً آخر .

فأخبره كلها حق ، وأوامره ونواهيها عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى ، لا يبتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ، ولا اتبعه كقوله تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ أى أفهذا كهذا ؟ لا استواء وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

(١) الآيات ٨٧ ، ٨٨ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الحشر .

(٢) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

## صفات أولى الألباب

الَّذِينَ يُوفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عِزِّي الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾

**المفردات :** ﴿يدرءون﴾ : أى يدفعون . ﴿والعدن﴾ : الأقامة يقال عدن بمكان كذا إذا استقر ومنه المعدن لمستقر الجواهر . ﴿والدار﴾ : هى دار الآخرة .

هذه الكوكبة الدرية من السمائل الرفيعة السنية التى وصف الله بها أولى الألباب ، وكأن هذا العقد الفريد من السجايا الحميدة جاءت جواباً على سؤال مقدر ، كأن سائلاً قال : من هم أولوا الألباب والعقول الراجحة والأفعدة المستنيرة والمستبصرة ؟ فجاءت تلك الصفات فى تلك السلسلة الربانية تجيب عن هذا السؤال إجابة شافية كافية وافية تتألق نوراً ، وتفيض رحمة وجمالاً ، وتشع جلالاً وبهاءً ، وكلاً .

فإذا أردت أن تعرف من هم أولوا الألباب ، فاعلم أنهم هم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ فهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا أوتى من خان .

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ : من صلة الأرحام فالرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ، فمن أراد أن ينسأ له فى أثره ، ويبارك له فى رزقه فليصل رحمه ، فإن الله تعالى لما خلق السموات والأرض قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك ، اقرءوا إن شئتم ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ <sup>(١)</sup> .

كذلك مما أمر الله بوصله الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف .

﴿ويخشون ربهم﴾ : أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله فى ذلك ، ويخافون سوء

الحساب في الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ : أى عن المحارم والمآثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ، ابتغاء مرضاته ، وجزيل ثوابه .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ : بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها ، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضي .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ : أى على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقربات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين .

﴿ سراً وعلانية ﴾ : أى في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل ، وأطراف النهار .

﴿ ويدفعون بالحسنة السيئة ﴾ : أى يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابله بالجميل صبراً واحتثالاً وصفحاً وعفواً ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم <sup>(١)</sup> .

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة ، بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ جنات عدن ﴾ : والعدن الإقامة ، أى جنات إقامة يخلدون فيها .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن في الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج ، فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وقال الضحاك في قوله ﴿ جنات عدن ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء ، وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها . رواه ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ : أى يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، امتناناً من الله ، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنيين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام :

(١) الآيات ٣٤ - ٣٥ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٢١ من سورة الطور .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها      فالموت ولا شك يفينا ويفنيها  
واعمل لدار غداً رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها      والزعفران حشيش نابت فيها

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ ) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : ( أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارة ، ويموت أحدهم وحاجة في صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : اتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم . فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكارة ، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتىهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب **﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾** <sup>(١)</sup> . الطبراني .

وعنه ﷺ أنه قال ( أول ثلاثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكارة ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى في صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب **﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾** <sup>(٢)</sup> .

وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد ، حدثنا أرطاة بن المنذر : سمعت رجلاً من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول : جلست إلى أبى أمانة فقال : « إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب محبوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول للذى يليه : ملك يستأذن . ويقول الذى يليه للذى يليه : ملك يستأذن . حتى يبلغ المؤمن فيقول : أئذنوا ، فيقول أقربهم للمؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له ، فيدخل فيسلم ثم ينصرف » رواه ابن جرير .

وجاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول ، فيقول لهم : **﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾** .

(١) أخرجه الأمام أحمد فى ( ٢ : ١٦٨ ) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ( ٢ : ١٧٧ ) .

## المفسدون في الأرض

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ ﴿٢٥﴾

وهذا الفريق من الأشقياء على نقيض الفريق الأول ، وهو فريق السعداء . فالأشقياء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، بينا السعداء يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق . والأشقياء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل . أن يوصل ، بينا السعداء يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

والأشقياء مفسدون في الأرض ، ووجوه الإفساد كثيرة ومتنوعة ، على رأسها الظلم ، والاعتداء على حرمة المسلمين ، وإيقاع الأذى بالعباد لذا جاء في الحديث (ولو كافرا فعليه كفره) .

بينما فريق السعداء يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

ومن ثم فقد جاء الحكم عادلاً من الحكم العدل فقد حكم للأشقياء بقوله ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ أي الطرد من رحمة الله ومغفرته ورضوانه ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ في الآخرة ، وهل هناك دار أسوأ من جهنم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ والعذاب بالمغفرة .

كما حكم سبحانه لفريق السعداء بهذا الحكم العادل ﴿ أولئك لهم عقبى الدار ﴾ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

دنياك ساعات سراع الزوال      وإنما العقبى خلود المال  
فهل تبيع الخلد يا غافلاً      وتشترى دنيا المنى والضلال

## حكمة الله في الرزق

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنْ اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا تَبِ ۖ ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿ يقدر ﴾ : يضيق كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾<sup>(١)</sup> أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته ، لا يفضل عنه شيء . ﴿ متاع ﴾ : أى متعة قليلة لادوام لها ولا بقاء . ﴿ أناب ﴾ : رجع عن العناد ، وأقبل على الحق ﴿ تطمئن ﴾ : أى تسكن وتخشع . ﴿ طوبى لهم ﴾ : أى هم العيش الطيب وقرة الحين والغبطة والسرور . ﴿ والمآب ﴾ : المرجع والمنقلب .

اعلم يا ابن آدم أنه لا يملك الرزق والروح إلا الله ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فم ابن آدم ، ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ وفى أنفسكم أفلا تبصرون \* وفى السماء رزقكم وما توعدون \* فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون<sup>(٢)</sup> .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، أى يرزقه الكفاف ، والله أعلم بحكمته : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(٣)</sup> .

ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد .

ومن أصدق من الله قيلاً ؟ لا أحد .

قل أنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

النفوس تجزع أن تكون فقيرة والفقير خير من غنى يطغىها  
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع من فى الأرض لا يكفيا

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب<sup>(٤)</sup> .

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾<sup>(٥)</sup> .

أما الكفار فقد فرحوا بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً ، كما قال : ﴿ يحسبون أنما ندهم به من مال وبنين ﴾ نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون<sup>(٦)</sup> .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة ، فقال ﴿ وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾ كما قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ والآخرة خير وأبقى<sup>(٨)</sup> .

- |     |                                   |     |                                   |
|-----|-----------------------------------|-----|-----------------------------------|
| (١) | الآية ٧ من سورة الطلاق .          | (٥) | الآية ٢٧ من سورة الشعورى .        |
| (٢) | الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة الذاريات . | (٦) | الآيات ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون . |
| (٣) | الآية ١٤ من سورة الملك .          | (٧) | الآية ٧٧ من سورة النساء .         |
| (٤) | الآيات ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران . | (٨) | الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى .   |

وروى الإمام أحمد بسنده عن المستورد أخى بنى فهر ، قال : قال رسول الله ﷺ : ( وما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع ؟ ) وأشار بالسبابة (١) رواه مسلم فى صحيحه .

وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدى أسك ميت . والأسك الصغير الأذن فقال ( والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب ﴾ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

يخبر الله تعالى عما قاله الكافرون الجاحدون للصادق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ . ( ولولا ) هنا حرف تخضيض هنا بمعنى ( هلا ) والتخضيض : هو القلب الذى فيه حث وإزعاج ، وقد أرادوا بالآية هنا الآية الحسية ، كما جاء بيان ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً ﴾ أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٣) .

وفى الحديث : ( إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وأن يزعج الجبال من حول مكة ، فيصير مكانها مروجاً وبساتين : إن شئت ما يحمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ﴾ (٤) .

ولهذا قال لرسوله : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب ﴾ أى هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسل بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجيبهم إلى سؤاهاهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه .

كما قال : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (٥) وقال : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٦) وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم

(١) أخرجه مسلم فى الجنة (٥٥) . والبخارى فى الرقاق (٢) . والترمذى فى الزهد (١٥) . وابن ماجه فى الزهد (٣) . والإمام أحمد فى ( ٢٢٩ ، ٢٣٠ ) .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الطهارة (٧٣) . والإمام أحمد فى ( ٣ : ٣٦٥ ) .

(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء . (٥) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ( ١ : ٢٤٢ ، ٣٤٥ ) . (٦) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴿١﴾ .

ولهذا قال : ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ : أى ويهدي إليه من أناب : إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ : أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

واعلم بأن الهداية والإضلال لحكمة إلهية عليا والله سبحانه وتعالى حكيم منزّه عن الغيب ، منزّه عن الظلم بهذا نطق القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

والله جل شأنه يقول فى أهل الهداية : ﴿ فأما من أعطى واتقى \* وصدق بالحسنى \* فسنيسره لليسرى ﴾ (٢) .

ويقول فى أهل الشقاق والضلال : ﴿ وأما من بخل وأستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى ﴾ (٣) .

ويقول سبحانه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين \* الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ (٥) . وقال ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ (٦) .

وجاء تقرير تلك الحقيقة فى قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٧) .

وهؤلاء هم الذين أنابوا إلى الله ورجعوا ، قال تعالى ﴿ ويهدي إليه من أناب ﴾ ووصف أهل الإنابة بأنهم الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله وليس الذكر كلمات تنسب بها الشفاه ، وتلوكها الألسنة ، إنما الذكر فى حقيقته إستحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ونعته بنعوت الجمال والجلال والكمال .

والذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ،

(١) الآية ١١١ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات ٥ - ٧ من سورة الليل .

(٣) الآيتان ٨ - ١٠ من سورة الليل .

(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٥ من سورة الصف .

(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٧) الآية ٥٦ من سورة القصص .



وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

ولا بد أن يقترن الذكر بالتفكر ، فالذكر بلا تفكر بعد عن المراد ، والتفكر بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكر ولاء ووفاء .

قال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فنعنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتنا وما للظالمين من أنصار . ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاعف لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار \* ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد \* فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض ﴾ (١) .

قال أحد الصالحين لمستمعيه : إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة . قال أحدهم : فما بالنا إذا ذكر الله ؟ فأتى الشيخ ملياً ثم قال : إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وهنا مقامان : مقام الوجل إذا ذكروا جلاله ، ومقام الطمأنينة إذا ذكروا رحمته الواسعة .

قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ (٢) . أى خوفاً ورهباً من عقابه .

قال جل شأنه : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ طمئناً في رحمته وإحسانه .

قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ .

ورد في تفسير ﴿ طوبى ﴾ أقوال نذكر منها : أنها فرح ، وقرة عين ، وأنها غبطة لهم ، وأنها خير لهم ، وأنها شجرة في الجنة .

قال الإمام أبو الهيثم عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ( طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ) .

وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال يا رسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : ( طوبى لمن رآني وآمن بي ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرى ) (٣) . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : ( شجرة في الجنة مسيرتها مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها ) (٤) . وروى في الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : ( إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ) .

(١) الآيات ١٩٠ - ١٩٥ من سورة آل عمران . (٢) أخرجه الإمام أحمد في ( ٥ : ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ( ٣ : ٧١ ) وفي ( ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ ) . (٤) الآية ٢ من سورة الأنفال .

وفي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى ﴿ وظل ممدود ﴾ <sup>(١)</sup> قال : ( في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، فاقروا إن شئتم ﴾ وظل ممدود .

وقال أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : ( إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين - أو مائة سنة - هي شجرة الخلد ) <sup>(٢)</sup> .

وعن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدره المنتهى فقال : ( يسير في ظل الغصن منها الراكب مائة سنة - أو قال - يستظل في الفن منها مائة راکب ، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال ) <sup>(٣)</sup> رواه الترمذى .

وعن أبى سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكامها فيأخذ من أى ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن ) .

وسما من يقول في حديثه القدسى الجليل : [ ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل في البحر ] <sup>(٤)</sup> الحديث .

فهل هناك مرجع ومآل أحسن من هذا المرجع ، إن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل التائه إلى أحضان أمه ﴿ يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ \* ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَُّرْضِيَةً ﴾ فادخل في عبادى وادخل جنتى ﴿ .

### خاتم الأنبياء ليس بدعا من الرسل

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سِيرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لَّيْلَهُ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة .

(٢) أخرجه البخارى في بدء الخلق (٨) وفي تفسير (سورة ٥٦ : ١) وفي الرقاق (٥١) . ومسلم في الجنة (٦ - ٨) . والترمذى في

الجنة (١) وفي تفسير (سورة : ٥٦ : ١ ، ٢) . وابن ماجة في الزهد (٣٩) . والدرامى في الرقاق (١١٤) . والإمام أحمد في

(٢ : ٢٥٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧) وفي (٣ : ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ،

(٢٠٧ ، ٢٣٤) .

(٤) أخرجه الترمذى في القيامة (٤٨) .

(٣) أخرجه الترمذى في الجنة في الجنة (٩) .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَوَيْشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ  
بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾  
وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ  
﴿٢٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ  
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظُهُمْ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ  
السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ  
الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ خلت ﴾ : مضت ، ﴿ مآب ﴾ : مرجعى . ﴿ قطعت ﴾ : شقت ،  
﴿ يئأس ﴾ : يعلم وهو لغة هوازن قارعة رزية تفرع القلوب . ﴿ أمليت ﴾ : أى أمهلت مدة طويلة في  
أمن ودعة ، ﴿ قائم ﴾ : رقيب ومتول للأمر ، ﴿ تنبئونه ﴾ : تخبرونه . ﴿ بظاهر من القول ﴾ :  
أى يبطل منه لا حقيقة له في الواقع . ﴿ والسبيل ﴾ : هو سبيل الحق وطريقه ، ﴿ والواق ﴾ :  
الحافظ .

قوله تعالى : ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك  
وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ :

هذه شهادة من الملك الحق ، بأن محمداً نبى حق ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها  
أُم ﴾ ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ <sup>(١)</sup> .  
وجاء في التوراة : ( أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صنماً ، فى  
الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولكن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ،  
بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ) <sup>(٢)</sup> .

وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿ لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك ﴾ أى تبلغهم رسالة الله  
إليهم ، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما  
أوقفنا بأسنا ونقمنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم اشد من تكذيب غيرك  
من المرسلين .

(١) الآيات ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير ( سورة ٤٨ : ٣ ) وفى البيوع ( ٥٠ ) . والدرامى فى المقدمة ( ٢ ) . والإمام أحمد فى ( ٢ : ١٧٤ ) .

قال الله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾<sup>(١)</sup> الآية ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾<sup>(٢)</sup> .

أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ وهم يكفرون بالرحمن ﴾ : أى هذه الأمة التى بعثناك فيها يكفرون بالرحمن ، لايقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أى يكتبوا باسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا : ماندرى ماالرحمن الرحيم ؟ .

قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى .

وقد قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾<sup>(٣)</sup> .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن )<sup>(٤)</sup> .

﴿ قل هو ربي لا إله إلا هو ﴾ : أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به . معترف مقر له بالربوبية والألوهية . هو ربي لا إله إلا هو ﴿ عليه توكلت ﴾ أى فى جميع أمورى ﴿ وإليه متاب ﴾ : أى إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ، ( وعزى وجلالى لو سلخوا كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك . يا محمد ) .

صَلَّتْ عَلَيْكَ ملائكة الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان  
لما طلعت على الوجود مزوداً بحمى الآله وزاية القرآن

قوله تعالى ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموق بل لله الأمر جميعاً أفلم يئأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيهم بما صنعوا قارعة أو تحل قرياً من دارهم حتى يأق وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ :

هذا إخبار عن عظمة القرآن وعلو منزلته : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٦)</sup> .

﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ أى ولو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن

(٥) الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٦) الآية ٨٨ من سورة الأسراء .

(١) الآية ٦٣ من سورة النحل .

(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه مسلم فى الأدب (٢) . والبخارى فى الأدب (١٠٥ ، ١٠٦) . وابن ماجه فى الأدب (٣٠) . والترمذى فى الأدب (٦٤) .

والدرامى فى الاستبذان (٢٠) .

أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كفرون به جاحدون له .

﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ : أى مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أى أفلم يعلموا ويتبينوا أنه لو يشاء الله هداية الناس جميعاً لهداهم ، ولكنه سبحانه وهب الناس عقلاً ، وأرسل إليهم رسلاً ، وأنزل عليهم كتباً ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى العقول والنفوس من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيت حاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( ما من نبي إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة ) <sup>(٣)</sup> .

ومعناه أن معجزة كل نبي انقضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

قال صلى الله عليه وسلم : ( كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ . <sup>(٤)</sup> ) .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية ، مارواه ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث أنبأنا بشر بن عماره حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له : ﴿ ولو أن قرآناً سیرت به الجبال ﴾ الآية قالوا الحمد ﷺ : لو سیرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريخ ، أو أحيت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قرياً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ :

(٤) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٥) أخرجه الدرামী فى المقدمة (٤٢) .

(٢) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن (١) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٩) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٤١ ، ٤٥١) .

أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعضوا ويعتبروا ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال قتادة عن الحسن ﴿ أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أى القارعة .

﴿ حتى يأتى وعد الله ﴾ أى ما وعد به المؤمنين من النصر المبين . قال تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ <sup>(٥)</sup> .  
﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً \* ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً \* وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ <sup>(٦)</sup> .

الله تعالى إذا وعد وفى ، إن الله لا يخلف الميعاد ، فاعتبروا بأولى الأبصار ، وأقيموا للقرآن مكانته اللائقة به ، فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو تمسكنا به لررفت راية الإسلام على كل بلد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسلكم فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ :

هذه عادة أهل الظلم والفسق مع المرسلين ، يقفون منهم موقف الاستهزاء والسخرية ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴿ <sup>(٧)</sup> .

قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ <sup>(٨)</sup> .

﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ : أى أمهلتهم ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .

وفى الصحيحين : ﴿ إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴾ <sup>(٩)</sup> ثم قرأ رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ <sup>(١٠)</sup> .

(١) الآية ٢٧ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٦ من سورة الروم .

(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج .

(٦) الآيات ١ - ٣ من سورة الفتح .

(٧) الآيات ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .

(٨) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٩) أخرجه البخارى فى تفسير ( سورة : ١١ : ٥ ) . وأخرجه مسلم فى البر ( ٦٢ ) . والترمذى فى التفسير ( سورة : ١١ : ٢ ) . وابن

ماجه فى الفتن ( ٢٢ ) .

(١٠) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ فكيف كان عقاب ﴾ : أى بلغ عقابى به مبلغاً تذهب النفس فيه كل مذهب ، إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ :

هذه الآية فيها إثبات العظمة الإلهية ، والله تعالى هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، هو الرقيب الأعلى ، والمهيمن الأعظم ، والقاهر فوق عباده ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ويقول تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار \* له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وقال ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ <sup>(٦)</sup> .

أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها !

وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ، ﴿ قل سموهم ﴾ : أى أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم . ولهذا قال : ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ : أى لا وجود له ، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ أم بظاهر من القول ﴾ : أى يبطل من القول ، أى إنما عبدتم هذه الأصنام بطلان منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آهة ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ <sup>(٧)</sup> .

(١) الآية ٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٤ من سورة الحديد .

(٣) الآية ٢٣ من سورة النجم .

(٤) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٥) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ٦ من سورة هود .

(٧) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الرعد .

قال مجاهد قولهم : أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ، كقوله تعالى ﴿ وقضنا لهم قرناً فزينا لهم ﴾ (١) الآية .

﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ كما قال : ﴿ ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ (٢) وقال : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ومالهم من ناصرين ﴾ (٣) .

هؤلاء وأشياعهم لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك آتتكم آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نحزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٤) .

﴿ وما لهم من الله من واق ﴾ : أى ليس لهم من دون الله من نصيبهم عذابه ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (٥) ، ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله . ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾ (٦) .

### حال الجنة وأحكام أخرى

\* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّبَعَتْهُمْ أَلِ الْكِتَابِ يَقْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنْ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابِدُ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ مثل الجنة ﴾ : صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غراتها . ﴿ الأحزاب ﴾ : جمع حزب ويطلق على الطائفة المتحيزة المجتمعمة لشأن من الشئون . ﴿ مأب ﴾ : مرجع . ﴿ واق ﴾ :

(١) الآية ٢٥ من سورة فصلت . (٢) الآية ٣٧ من سورة النحل . (٣) الآية ١١ من سورة الرعد . (٤) الآية ٤١ من سورة المائدة . (٥) الآية ١٢٤ - ١٢٧ من سورة طه . (٦) الآية ٤٧ من سورة الشورى .



حافظ . ﴿أجل﴾ : الأجل المدة والوقت . ﴿كتاب﴾ : قيل هو الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقضى الحكمة . ﴿أم الكتاب﴾ : علم الله .

هكذا ديدن القرآن إذا وصف النار وعذابها قضى على ذلك بذكر الجنة ونعيمها ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً \* وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً \* قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً <sup>(١)</sup> إلى آخر الآيات من سورة الفرقان .

يريد الله تبارك وتعالى أن يمثل الغائب بما هو مشاهد معروف عندنا تقريباً للأفهام ، وتوجيهاً للأذهان ، وإلا فالجنة على حقيقتها شيء لا يدرك كنهه إلا بعد دخولها والتمتع بها إن شاء الله ﴿وفيها ما تشبه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون﴾ <sup>(٢)</sup> فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، ويوجهونها حيث أرادوا : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿أكلها دائم وظلها﴾ : فيها الفواكه والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولا فناء ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾ <sup>(٤)</sup> ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً <sup>(٥)</sup> .

﴿تلك عقبى الذين اتقوا﴾ : وهذا جزاؤهم ﴿وعقبى الكافرين النار﴾ وجزاؤهم ونهايتهم النار التى وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، وهذا معنى من وصف الجنة والنار ، وغير ذلك مما نزل به القرآن ، الناس فيه على صنفين مصدق ومكذب .  
﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ، وهم قائلون بمقتضاه ، ومؤمنون حقاً بما فيه ﴿يفرحون بما أنزل إليك﴾ من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به .

﴿ومن الأحزاب من ينكر بعضه﴾ : نعم كان من أهل الكتاب عبد الله بن سلام ، وتميم الدارى من المؤمنين الكاملين ، وبعضهم كان يتحزب على النبى ويؤلب عليه ككعب بن الأشرف وغيره من زعمائهم ورؤسائهم ينكرون بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتبهم وشرائعهم المغيرة .

وكيف تختلفون بين مصدق ومكذب ؟ وهناك أساس واحد هو الذى يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادة ، وهو ما أمر الله به نبيه ، فقال ﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾ شيئاً ﴿إليه﴾ وحده ﴿أدعوا﴾ ، ﴿وإليه﴾ وحده ﴿مآب﴾ ومرجى .

(١) الآيات ١١-١٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٤) الآيات ٣٢ ، ٣٣ من سورة الواقعة .

(٥) الآية ١٤ من سورة الإنسان .

فهذا هو التوحيد الخالص الكامل ، وتلك الرسالة بإيجاز دعوة إلى الله فقط ، وطاعة وإخلاص وعبادة وأستعانة بالله وحده ، وأما المرجع والمآب والحساب والجزاء فإليه وحده أيضاً .

ومثل ذلك الإرسال للرسول قديماً أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك كتاباً هو القرآن ، وهو كتاب محكم الآيات ، فيه الحكم الحق ، والقول الفصل ، أنزلناه حكماً بلسان عربى مبين فكان مبيناً لمقاصده ، موضحاً لمراميهِ ﴿ لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ ولئن اتبعت ﴾ يا محمد ﴿ أهواءهم ﴾ وآراءهم ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ من الله سبحانه وتعالى فليس لك من دون الله ولى ولا ناصر وهذا وعيد وتهديد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من الوقوف على أسرار الشرع ، والالمام بالسنة النبوية والحجة المحمدية

روى أن اليهود عابت الرسول بكثرة النساء ، وقالوا : لو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .. وقد لحوا في طلب الآيات كما تقدم ، فرد الله عليهم ليس محمد بدعاً من الرسل ، ولقد أرسلنا قبله رسلاً ، وكانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويفعلون كل ما يفعله البشر ، ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾<sup>(٢)</sup> .

وصدق الله فهذا تسجيل في القرآن لا يقبل شكاً ولا جدلاً ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ .

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :  
( أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وأكل اللحم وأنزواج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني )<sup>(٣)</sup> .  
وأما الآيات المقترحة فتلك نعمة ردها القرآن ، ورد عليها كثيراً بما يفيد أن الرسول رسول فقط ، والآيات من عند الله ، وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله وأمره ، وقد جاءكم القرآن وكفى به معجزة خالدة باقية ثابتة على جهة التحدى والإفحام .

والآيات لاتأتى اعتباطاً ، ولكنها لحكمة ، وفي زمن الله يعلمه ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أى لكل مدة مضروبة ، ووقت معلوم ، كتاب مكتوب ، وكل شيء عنده بمقدار ، وقيل المعنى لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فليست هناك آية مقترحة بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب استعجلوه بنازل قبل أوانه ، فالآجال والأعمار والأرزاق والأحداث ، كل ذلك بقضاء الله وقدره ، له وقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٣) أخرجه البخارى في النكاح (١) . ومسلم في النكاح (٥) . والنسائى في النكاح (٤) . والدرامى في النكاح (٣) . والإمام أحمد في

(٢ : ١٥٨) وفى ( ٣ : ٢٤١ ) .

(٤) الآية ٤٩ من سورة يونس .

﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ من الأحداث الكونية والإنسانية ﴿ ويثبت ﴾ ما يشاء من هذا كله في الخارج ﴿ وعنده ﴾ سبحانه ﴿ أم الكتاب ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، أو علمه جل شأنه ثابت أزلا لا يتغير ولا يتبدل ، كل شيء على حسب علمه ووفق إرادته .

والمعنى يمحو ويثبت في الخارج ما يشاء . وعلمه لا يتغير ولا يتبدل وهو موافق لما في اللوح المحفوظ . ومظاهر الخو والإثبات نراها في كل لحظة من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونور وظلام ، وحياة وموت ، وقوة وضعف ، وزرع وحصاد إلى آخر ما في الأحداث الكونية ، هذا الخو والإثبات خاضع لعلمه القديم الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى هذا فالآية رد أيضاً على اقتراحهم الآيات حيث كان الخو والإثبات خاضعاً لمشئته الله ولقانونه الذى وضعه ، وهو لكل أجل محدود لا يتقدم ولا يتأخر .

### وعد من الله الواحد المتصرف

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤١﴾  
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ  
وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ  
كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٣﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا  
قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٤﴾

**المفردات :** ﴿ الأطراف ﴾ : الجوانب . ﴿ المعقب ﴾ : الذى يكر على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقب ، لأنه يقفو غريمه بالاقضاء والطلب ، ﴿ والمكر ﴾ : إرادة المكروه في خفية . ﴿ وعقبي الدار ﴾ : أى العاقبة الحميدة . ﴿ والأم ﴾ أصل الشيء وما يجرى مجراه ، كأم الرأس للدماغ . وأم القرى لمكة .

قوله تعالى : ﴿ وإما نرينك بعض الذى نعدهم أَوْ نتوفينك ﴾ هذا وعد من الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم ، ووعد الله واقع لا محالة ، فقد وعده أن يريه في هؤلاء المعاندين بعض ما يصيبهم من الانتقام والجزاء ، هذا في حياته ، فإن توفاه فإنهم لن يكونوا بمنأى من هذا العقاب ، فإن الوجود كله ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، والله تعالى إذا وعد أنجز ، فإنما عليك البلاغ ، وتلك رسالة الأنبياء : بلاغ وإرشاد وتوجيه وتقويم ، وعلينا الحساب ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ فذكر

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

إنما أنت مذكر \* لست عليهم بمسيطر \* إلا من تولى وكفر \* فيعذبه الله العذاب الأكبر \* إن إلينا إيابهم \* ثم إن علينا حسابهم ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ :

أولم ير هؤلاء المكذوبون وينظرون ويشاهدوا آيات الله الواضحات ، وسنته الراسخات فى هذا الكوكب الأرضى ، فإنه تعالى يأتى الأرض من جوانبها فينقصها بانتشار الاسلام وتدمير الكفر ، قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين • إنهم لهم المنصورون • وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ (١) .

وفى سورة الأنبياء يقول جل ذكره : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ (٢) ويقول : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ (٣) وقال تعالى فى سورة النور ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٤) .

وذلكم حكم الله ﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه ﴾ ولا راد لقضائه ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدأ ﴾ (٥) .

والدنيا سرعان ما تمضى كسراب خادع ، أو حلم لاح لعينى ساهر ، وغداً حساب ولا عمل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ :

هذا هو ديدن المكذبين الجاحدين : المكر والخداع . قال تعالى : ﴿ استكباراً فى الأرض ومكر السوء ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله ﴾ (٧) ، وقال جل شأنه : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ (٨) .

والمكر من العبد تدبير السوء فى خفاء ، وعاقبته عند الله تدمير وانتقام ، قال تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ (٩) .

(٦) الآية ٨٤ من سورة مريم .

(٧) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

(٨) الآية ٤٣ من سورة فاطر .

(٩) الآية ٢٦ من سورة النحل .

(١٠) الآية ٥٠ من سورة النمل .

(١) الآيات ٢١ - ٢٦ من سورة الغاشية .

(٢) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات .

(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية ٥٥ من سورة النور .

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾<sup>(١)</sup> .  
 وقال جل شأنه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾<sup>(٢)</sup> ذلك لأن أحكامه جل شأنه كلها عادلة ، لا يُظلم عنده أحد .  
 ولنا في تاريخ الأمم السابقة عبرة ﴿ وإنكم تسمعون عليهم مصبحين • وبالليل أفلا تعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> ،  
 وقال تعالى : ﴿ ألم يأتيهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٥)</sup> .

فلا يكن في صدرك حرج ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ﴾<sup>(٦)</sup> فله المكر جميعاً ،  
 إذ إليه يرجع الأمر كله ، لا يقع في ملكه مالا يريده ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، هو الذى يعلم ما تكسب كل نفس ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، المهيم على مافى الضمير ﴿ فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٧)</sup> .

الله يدرى كل ما تضمُرُ يعلم ما تخفى وما تظهرُ  
 وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشُرُ

وإن غداً لناظره قريب ، سيعلمون من الكذاب الأشر ﴿ فستبصر ويصرون • بأيكم المفتون ﴾<sup>(٨)</sup> .  
 وبعد أن يدخل أهل الحق الجنة ، ويدخل أهل الباطل النار ﴿ سيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾  
 وعندئذ يُنادى : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، يا أهل النار خلود بلا موت .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال له عليه السلام : ( هل تجدنى فى الإنجيل رسولا ؟ ) قال : لا . فأنزل الله تعالى : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ﴾ .

أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله ، أرسلك لتخرج

(١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٤) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القلم .

(١) الآية ٥١ من سورة النمل .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٣) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .

(٤) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

الناس من الظلمات إلى النور ، وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، وتصلح حال المجتمع البشرى ، وتمنع عنه الظلم والفساد .

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أى حسبى أن يكون الله شاهداً برسالتى وصدق فيما أقول ، فهو الذى قال لى : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾<sup>(١)</sup> فقد أنزل على الكتاب والحكمة ، وقال فى محكم كتابه ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكذلك فإن الصادقين من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام وأمثاله من الذين آتاهم الله الكتاب فعرفوا مافيه . فإنهم أيضاً يشهدون بأننى نبى الله حقاً وصدقاً بل إن عبد الله بن سلام كان يقسم ويقول : ( والله إني لأعرف أن محمداً رسول أكثر مما أعرف ابني لأن محمداً نزل برسالته الأمين من السماء من قبل الحق تبارك وتعالى ) .

فصلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله ، نشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، ومحوت الظلمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده ، حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله عنا خير ما جزى به نبياً عن أمته ، ورسولاً عن قومه .

## سورة إبراهيم

## مقدمة

وتسمى سورة ( إبراهيم ) لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بواد غير ذى ذرع ، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين : إسماعيل وإسحاق .

## مقصود السورة :

بيان حقيقة الإيمان ، وبرهان النبوة ، وأن الله تعالى أرسل كل رسول بلغة قومه ، وذكر الامتنان على بنى إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، وأن القيام بشكر النعم يوجب المزيد ، وكفرانها يوجب الزوال ، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأنبياء والرسل الغابرين ، وأمر الأنبياء بالتوكل على الله عند تهديد الكفار إياهم ، وبيان مذلة الكفار في العذاب والعقوبة ، وبطلان أعمالهم ، وكال إذلالهم في القيامة ، وبيان جزعهم من العقوبة ، وإلزام الحجة عليهم ، وإحلال إبليس اللائمة عليهم ، وبيان سلامة أهل الجنة وكرامتهم ، وتشبيه الإيمان ( والتوحيد بالشجرة الطيبة وهى النخلة ، وتمثيل الكفر بالشجرة الخبيثة وهى الخنطة ، وتثبيت أهل الإيمان ) على كلمة الصواب عند سؤال منكر ونكير ، والشكوى من الكفار بكفران النعمة ، وأمر المؤمنين بإقامة الصلوات والعبادات ، وذكر المنة على المؤمنين بالنعم السابغات ، ودعائه إبراهيم بتأمين الحرم المكى ، وتسليمه إسماعيل إلى كرم الحق تعالى ولطفه ، وشكره لله على إعطائه الولد .

هى مكية ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وإحدى وثلاثون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون .

والتهديد العظيم للظالمين بمذلتهم في القيامة ، وذكر أن الكفار قرناء الشياطين في العذاب :

والإشارة إلى أن القرآن أبلغ واعظ ، وذكرى للعقلاء في قوله تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إلى آخر السورة .

والسورة خالية عن المنسوخ في قول ، وعند بعضهم ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، ﴿ إن الله لغفور حلیم ﴾ .

## المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ وبعده : ﴿ فليتوكل المتوكلون ﴾ : لأن الإيمان سابق على التوكل .

قوله : ﴿ مما كسبوا على شيء ﴾ والقياس على شيء مما كسبوا كما في البقرة ، لأن على من صلة القدرة ، ولأن ﴿ مما كسبوا ﴾ صفة لشيء . وإنما قدم في هذه السورة ﴿ لأن ﴾ الكسب هو المقصود بالذكر ، وأن المثل ضرب للعمل ، يدل عليه قوله : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا

يقدرّون مما كسبوا على شيء ﴿١﴾ .

قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ . وفي التل ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ <sup>(٢)</sup> بزيادة ( لكم ) لأن ( لكم ) في هذه السورة مذكور في آخر الآية ، فاكتمى بذكره ، ولم يكن في التل في آخرها فذكر في أولها ، وليس في قوله : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ ﴾ يكفى من ذكره ، لأنه نفى لا يفيد معنى الأول .

قوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ : قدم الأرض لأنها خلقت قبل السماء ؛ ولأن هذا الداعي في الأرض .

وقدمت ( الأرض ) في خمسة مواضع :

هنا : وفي آل عمران ، ويونس ، وطه والعنكبوت .

قوله : ﴿ وَلِيَذْكُرَ الْأُولَاءِ الْأَلْبَابِ ﴾ : خص أولى الألباب ، لأن المراد في الآية التذكر ، والتدبر والتفكير في القرآن ، وإنما يتأتى ذلك منهم مثله في البقرة : ﴿ وَمَنْ يُّؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ <sup>(٣)</sup> يريد فهم معاني القرآن ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا الْأُولَاءِ الْأَلْبَابِ ﴾

ومثلها في آل عمران : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ ﴾ <sup>(٤)</sup> : وذكر فيه المحكمات والمتشابهات ، وختمها بقوله : ﴿ وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا الْأُولَاءِ الْأَلْبَابِ ﴾ . ولا رابع لها في القرآن .

ومناسبة هذه السورة بما قبلها من وجوه :

١ - ذكر سبحانه في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكماً عربياً ، ولم يصرح سبحانه بحكمة ذلك ، وصرح بها هنا .

٢ - أنه سبحانه ذكر في السورة السابقة قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

٣ - ذكر سبحانه وتعالى هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

وهنا ذكر سبحانه وتعالى أن الرسل قالوا : ﴿ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

٤ - اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضاً .

٥ - ذكر سبحانه وتعالى هناك رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

٦ - ذكر سبحانه هناك مكر الكفار ، وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك .

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٦٠ من سورة التل .

(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٨ من سورة الرعد .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أَنْزَلَ لَكَ الْفَلَاحَ إِلَى الْفُلْكِ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ  
مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا يَلْسَانُ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ  
لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

**المفردات :** ﴿الظلمات﴾ : الضلالت . ﴿والنور﴾ : الهدى . ﴿وإذن ربهم﴾ :  
تيسيره وتوفيقه . ﴿العزیز﴾ : الغالب . ﴿الحميد﴾ : الحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أولاً ،  
وبحمد عباده له أبداً . ﴿ويل﴾ : هلاك . ﴿يستحبون﴾ : يختارون . ﴿سبيل الله﴾ : هو دينه  
الذي ارتضاه . ﴿يَبْغُونَهَا﴾ : يطلبونها . ﴿عوجاً﴾ : زيفاً واعوجاجاً . ﴿واللسان﴾ : اللغة .  
افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة ببعض حروف الهجاء ، كما افتتح بعض السور . وهذه الحروف  
تشير إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد ، فهي حروف عربية ، نزل بها الكتاب العربي ، وعجز جميع الخلق  
عن الإتيان بمثله : ﴿قل لئن أجمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان  
بعضهم لبعض ظهيراً﴾<sup>(١)</sup> .

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك الهدف الأسمى والحكمة العظمى من إنزال هذا الكتاب على سيد ولد آدم  
صلوات ربي وسلامه عليه ، فقال : ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ :  
والظلمات هي طرق الضلال والزور والبهتان ، وما أكثرها ... أما النور فهو طريق الإيمان ،  
وبالإيمان يتحقق الخير كله ، لذا بُعث النبي (ﷺ) ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد ، وجاء بشرع هو  
للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم .

فاعجب معي لأمة يقول كتابها. ﴿الله نور السموات والأرض﴾<sup>(٢)</sup> ويقول عن نبيها : ﴿قد

جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴿١﴾ ويقول عن قرآنها : ﴿فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ ﴿٢﴾ .

فأمة ربها نور ، ونبيها نور ، وكتابها نور ؛ كيف ترضى لنفسها أن تعيش في غياهب الظلمات .  
لقد بعث النبي العظيم بهذا الكتاب الكريم ليخرج الناس من غياهب الظلمات وفلول الدجى ،  
وحضيض الغبراء ، إلى نور الهدى وباذخ الغلاء ، ويسمو بهم من كثافة المادة إلى لطافة الروح ، ويُخرج  
من شاء الله من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق  
الدنيا إلى سعد الدنيا والآخرة ، ومن مدارج التمال في مدابها إلى مسابح الأفلاك في أبراجها .

نعم ﴿٣﴾ قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا  
انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم  
الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٤﴾ .

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور هو الهداية ، والهداية نعمة لا تدينها نعمة ، والله صاحب  
الأنعام والكرم يسر طريق الهدى بإذنه وتوفيقه وعونه ، لذا قال جلَّ شأنه ﴿٥﴾ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ  
الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .

فالعزيز هو الغالب الذى لا يُقهر ، والحميد هو المستحق للحمد والثناء الجميل فلا يُذم أبداً إن الله  
الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الذى له ما فى السموات وما فى  
الأرض . وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين بين الله تعالى صفاتهم فى قوله : ﴿الَّذِينَ يَسْتَحْبُونَ  
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أى يؤثرونها ويفضلونها .

كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا  
غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

وكما قال جلَّ شأنه : ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نَوْفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا  
يُبْخَسُونَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧﴾ .  
وكما قال جلَّ شأنه : ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ  
يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾ ﴿٨﴾ .

ويل لهؤلاء الكافرين من عذاب شديد الألم ، يقول فيهم مولانا (إن الذين كفروا بآياتنا سوف

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة . (٣) الآيات ٢٥٦ ، ٢٥٧ من سورة البقرة . (٥) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود .  
(٢) الآية ٨ من سورة التغابن . (٤) الآيات ٧ ، ٨ من سورة يونس . (٦) الآية ١٨ من سورة الإسراء .

نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴿١﴾ .

فياله من خطب ما أهوله وياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كما أخبرنا عنهم خالق الأكوان : يصدون عن سبيل الله ، فأضافوا بذلك ضلالاً إلى ضلال ، وجرماً إلى جرم . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (٢) .

وماذا يريد هؤلاء بالصد عن سبيل الله ؟ إنهم يغفونها عوجاً وهى سبيل مستقيمة لا اعوجاج فيها ولا التواء ، قال فيها النبي ﷺ : ( لقد جئتكم بها بيضاء نقية ) .

نعم إنها المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، إنه صراط الله المستقيم : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ (٣) .

إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وأرادوها عوجاً ، حكم الله عليهم بقوله : ﴿ أولئك في ضلال بعيد ﴾ وأى ضلال أشد نكراً من هذا الضلال ؟ . ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴾ :

هذا تيسير من الله تعالى على عباده ولطف بهم ، ومن رحمته العظمى أن يرسل كل رسول بلغة قومه حتى يبين لهم ما أرسل به إليهم ، وقد كانت دعوات الأنبياء قبل رسول الله ﷺ خاصة بأقوامهم . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه ﴾ (٥) .

أما رسالة نبينا ﷺ فهي عامة دائمة إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٧) ، وقال جل شأنه : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (٨) ، وقال عز من قائل ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٩) .

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٤) الآيات ٨ ، ٩ من سورة آل عمران . (٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء . (٥) أخرجه الإمام أحمد في ( ٥ : ١٥٨ ) . (٨) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام . (٦) الآية ٢٨ من سورة سبأ . (٩) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

جاء في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ( أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ) (١) .

قوله تعالى : ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ :

هذا الحكمة بالغة فقد أرسل الله إلى عباده رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأنزل كتباً يبين فيها أحكامه ، ويفصل مناهجه ، ووهب العباد عقولاً يميزون بها بين الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، والهدى والضلال . ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾ (٢) ، قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (٣) .

ومع العزيز الذي لا يقهر ولا يغلب ، بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبز ، الحكيم المنزه عن العبث ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته .

### موسى عليه السلام وقومه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ آذْكُوا رِيعَ اللَّهِ إِنِّي عَلَىٰكُمْ بِئْسَ رَسُولٌ ۖ إِذْ أَنْجَحْتُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُدَّبُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٤﴾

**المفردات :** ﴿ الآيات ﴾ : هي الآيات التسع التي أجراها الله على يده عليه السلام .  
﴿ والظلمات ﴾ : الكفر والجهالات . ﴿ والنور ﴾ : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به .

(١) أخرجه البخاري في التيمم (١) وفي الصلاة (٥٦) وفي الجهاد (١٢٢) وفي التعبير (١١) وفي الاعتصام (١) . ومسلم في المساجد

(٣ ، ٥ - ٨) . والترمذي في السير (٥) . والنسائي في الغسل (٢٦) وفي الجهاد (١) . والدارمي في السير (٢٩) . والإمام أحمد

في (١ : ٣٠١٢٩٨) وفي (٢ : ٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣١٤ ، ٣٩٦ ، ٤١٢ ، ٤٥٥ ، ٥٠١) .

(٢) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل . (٣) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة البقرة .

﴿ وذكركم ﴾ : أى عظيمهم . ﴿ وأيام الله ﴾ : وقائعه فى الأمم السابقة ، ويقال فلان عليم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ، ويوم الفجار . ﴿ والصبار ﴾ : كثير الصبر . ﴿ والشكور ﴾ : كثير الشكر . ﴿ يسومونكم ﴾ : يكلفونكم (بلاء) أى ابتلاء واختبار . ﴿ وتأذن ﴾ : أى آذن وأعلم ، ﴿ وحيد ﴾ : مستوجب للحمد ذاته وإن لم يحمده أحد .

من حكمة الله تعالى أن أرسل إلى الأمم أنبياء ، يدعونهم إلى الله على بصيرة ، وكان ختامهم محمداً ﷺ ، الذى بعثه بقرآن كالشمس وضحاها ، وسنة كالقمر إذا تلاها ، فمن عمل بها عاش فى ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنها تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

ومن هؤلاء المرسلين الذين أرسلهم الله موسى كليم الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ إلى قومه أى بنى إسرائيل ، والمراد بالآيات المعجزات التى قال الله فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ (١) .

وقال الله له : ﴿ أخرج قومك من الظلمات إلى النور ﴾ .

أى من ظلمات الضلال والغواية إلى نور الحق والهداية .

﴿ وذكركم بأيام الله ﴾ إما أن يكون المراد بالأيام نعم الله عليهم ، فقد أنجاهم من آل فرعون ، كما جاوز بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وإما أن يكون المراد بأيام الله وقائعه فى الأمم السابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود . ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى كثير الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء . وهذه حال المؤمن .

قال قتادة : « نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر » .

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ :

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبجون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أى نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل وفيما كان يصنعه

(١) الآية ١٠١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٦٤) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣) وفى (٦ : ١٥) .

بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) أى اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا ، والله أعلم .

كقوله تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ وإذا تأذن ربكم ﴾ :

أى آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذا أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كقوله تعالى : ﴿ وإذا تأذن ربك ليعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ : أى لئن شكرتم نعمتى عليكم لأزيدنكم منها ﴿ ولئن كفرتم ﴾ : أى كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ إن عذابى لشديد ﴾ . وذلك يسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها .

وقد جاء فى الحديث : ﴿ إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ﴾ .

وفى المسند أن رسول الله ﷺ ( مر به سائل فأعطاه ثمرة فتسخطها ولم يقبلها ، ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها ، وقال : ثمرة من رسول الله ﷺ فأمر له أربعين درهماً ) .

أو كما قال الإمام أحمد عن أنس قال : ( أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بثمره فلم يأخذها . أو وحش بها . قال : وأتاه آخر فأمر له بثمره فقال : سبحان الله ثمرة من رسول الله ﷺ ، فقال للجارية : اذهبي إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التى عندها ) . تفرد به الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد ﴾ :

لا يضر الله تعالى كفر أهل الأرض جميعاً ، فإنه الغنى بذاته ، القوى العزيز الجبار ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحدته الجاحد . ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحى ويميت ومالك من دون الله من ولى ولا نصير ﴾<sup>(٣)</sup> . لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير<sup>(٤)</sup> .

فهو الغنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره ، كقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ﴾<sup>(٥)</sup> الآية ، وقوله ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾<sup>(٦)</sup> .

(٤) الآية ١٧ من سورة المائدة .

(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٦ من سورة التغابن .

(١) الآية ١٦٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٦٧ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١١٦ من سورة التوبة .

وفي صحيح مسلم عن أنى ذكر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال :  
( يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص الخيط إذا دخل البحر ) (١) .  
فسبحانه وتعالى ، الغنى الحميد .

### خذوا العبرة ممن كانوا قبلكم

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحِىَ وَعَادِ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهِمُ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ \* قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بُرْهَانًا مُبِينًا ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْنَا وَمَا أُنْزِلَتْ عَلَيْنَا مِنْ ثَمَرَةٍ مِنْهُ فَاصْبِرْ إِنَّ كِتَابَ الْفَاتِحَةِ لَفِي ذِكْرِكُمْ ﴿١٢﴾

المفردات : ﴿ الرية ﴾ : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر . ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ : أى موجدتها على نظام بدیع . ﴿ والسلطان ﴾ : الحجة والبرهان .  
الظاهر - والله أعلم - أن هذا كلام مستأنف ، وكثيراً ما يذكرنا الله تعالى بمثل هذه الأنباء عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .  
﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ : أى بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات .  
قوله تعالى : ﴿ فردوا أيديهم في أقواهم ﴾ : فيها أقوال للمفسرين :

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) والترمذى فى القيامة (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٠) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٤ ، ١٧٧) .

قيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم ، لما دعوهم إلى الله عز وجل .  
وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم . وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب  
الرسل .

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : معناه أنهم كذبوهم ، وردوا عليهم قولهم بأفواههم .

وعن عبد الله في قوله : ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قال : عضوا عليها غيظاً .

وقال العوفي عن ابن عباس لما سمعوا كلام الله عجبوا ، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، وقالوا  
﴿ إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴾ الآية . يقولون لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكاً قوياً .

قوله تعالى : ﴿ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من  
ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا  
فأتونا بسلطان مبين ﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده  
وما كان لنا أن تأتیکم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد  
هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

سبحانك ربى يا خالق الأكوان ، يا مبدع الإنسان ، يا من أنزل القرآن لينطق بالحكمة وفصل  
الخطاب .

قالت الرسل لقومهم ﴿ أفي الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ : سموات ذات أبراج ، وأرض  
ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكون قام على الإتيان والترابط ، والنظام والعناية ، والقصد  
والإرادة .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار  
من شك فيه فنظرة في خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

وهذا حوار بين الرسل وأقوامهم ، وذلك أن أمهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة  
الله وحده لا شريك له ، قالت الرسل : ﴿ أفي الله شك ﴾ :

وهذا يحتل شيئين أحدهما : أفي وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجولة على الإقرار  
به ، فإن الاعتراف به ضرورى في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار ، فتحتاج إلى  
النظر في الدليل الموصول إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه : ﴿ فاطر  
السموات والأرض ﴾ الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق  
والتسخير ظاهرة عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، وإلهه  
ومليكه .

والمعنى الثانى في قولهم : ﴿ أفي الله شك ﴾ : أى في إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك ، وهو



المخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بوجوده ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم ، أو تقرّبهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ : أى فى الدار الآخرة ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ (١) .

فقال لهم الأمم حاجين فى مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول ، وحاصل ماقلوه : ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ : أى كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أى خارق نقترحه عليكم .

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ :

أى صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿ ولكن الله يمين على من يشاء من عباده ﴾ أى بالرسالة والنبوة ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتهم ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أى بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا فى ذلك .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . أى فى جميع أمورهم .

ثم قالت الرسل : ﴿ وما لنا أن لا نتوكل إلا على الله ﴾ أى وما يمنعا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ : أى من الكلام السيئ ، والأفعال السخيفة ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

### وخاب كل جبار عبيد

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُدُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْخَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّنْ وَرَآئِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَنْجَرِعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧)

المفردات : ﴿ لتعودن ﴾ لتصيرن . ﴿ الملة ﴾ الدين والشرعة . ﴿ المقام ﴾ موقف الحساب . ﴿ استفتحوا ﴾ : أى طلبوا الفتح بالنصرة . على الأعداء . ﴿ خاب ﴾ : هلك . ﴿ الجبار ﴾ : العاقى التكبر على طاعة الله . ﴿ العنيد ﴾ : المعاند للحق المخالف له . ﴿ من ورائه ﴾ :

أى من بعد ذلك ينتظره . ﴿ والصديد ﴾ : ما يسيل من جلود أهل النار . ﴿ يسيغه ﴾ : أى يستطيعه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة . ﴿ يأتيه الموت ﴾ : أى تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة . ﴿ عذاب غليظ ﴾ : أى شديد غير منقطع .

وهكذا أنتقل الحوار بين الكافرين ورسلمهم إلى مجال الوعيد والتهديد ، وظنوا أنهم قادرون على تنفيذ ما يهددون به ، ونسوا أوتناسوا أن للكون إلهاً بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، والله ملك السموات والأرض ، وما بينهما يخلق ما يشاء ، سبحانه خشعت الأصوات لعظمته ، وعنت الوجوه لقدرته ، وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، وهو الذى يحيى العظام وهى رميم .

﴿ وقال الذين كفروا لرسلمهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .

هنا يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلمهم من الإخراج من أرضهم ، والنفى من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾<sup>(١)</sup> وكما قال قوم لوط : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتك ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وإذا يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً ، يقاتلون فى سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقه تعالى من شىء إلى شىء حتى فتح له مكة التى أخرجته ، ومكن له فيها ، وأرغم أنوف أعدائهم منهم من سائر أهل الأرض ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أيسر زمان .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم رهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ﴾ كما قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين \* إنهم لهم المنصورون \* وإن جندنا لهم الغالبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾<sup>(٦)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى

(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٥٦ من سورة التل .

(٣) الآية ٧٦ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٥) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات .

(٦) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

الزبور من بعد الذكر ﴿١﴾ ، قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴿٢﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ : أى وعيدى هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة ، وخشى من وعيدى ، وهو تخويفى وعذابى .

كما قال تعالى : ﴿ فأما من طفئ . وآثر الحياة الدنيا . فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾ (٤) ، وقال : ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ واستفتحوا ﴾ : أى استنصرت الرسل ربها على قومها ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٦) .

ويحتمل أن يكون هذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر وقال تعالى للمشركين : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ (٧) .

﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ : أى متجبر فى نفسه ، عنيد معاند للحق ، كقوله تعالى : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتدّ مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه فى العذاب الشديد ﴾ (٨) .

وفى الحديث ( أنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادى الخلائق فتقول : إني وكلت بكل جبار عنيد . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهاال إلى ربها العزيز المقتدر ﴾ (٩) .

وقوله : ﴿ من ورائه جهنم ﴾ : وراء هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ (١٠) وكان أمامهم ملك ، أى من وراء الجبار العنيد جهنم ، أى هى له بالمرصاد ، يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد .

- |                                       |   |
|---------------------------------------|---|
| (١) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .      | (٨) الآيات ٢٤ - ٢٦ من سورة ق .                              |
| (٢) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .       | (٩) أخرجه الترمذى فى جهنم (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٣٦) . |
| (٣) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .       | وفى (٣ : ٤٠) وفى (٦ : ١١٠) .                                |
| (٤) الآيات ٣٧ - ٤١ من سورة النازعات . | (١٠) الآية ٧٩ من سورة الكهف .                               |
| (٥) الآية ٤٦ من سورة الرحمن .         |   |
| (٦) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .        |   |
| (٧) الآية ١٩ من سورة الأنفال .        |   |

﴿ويسقى من ماء صديد﴾ : أى فى النار ليس له من شراب إلا من حميم وغساق فهذا حار فى غاية الحرارة ، وهذا بارد فى غاية البرد والتتن ، كما قال : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم . قال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده .

﴿ويسقى من ماء صديد يتجرعه﴾ : قال النبى ﷺ يقرب إليه فينكره فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره .

يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ : أى يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه .

وقال ابن جرير ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ : أى من أمامه وخلفه ، وفى رواية : وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ، ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده .

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ قال : أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم ، ليس فيها نوع إلا يأتيه الموت فيه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ، لأن الله تعالى قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾<sup>(٤)</sup> .

ومعنى كلام ابن عباس : أنه مامن نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه . لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ﴾ .

وقوله ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ : أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أى مؤلم صعب شديد ، أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمر ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ طلعتها كأنه رؤوس الشياطين \* فإنهم لا ياكلون منها فمالئون منها البطون \* ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم \* ثم إن مرجعهم إلى الجحيم ﴾<sup>(٥)</sup> .

فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم ، وتارة فى شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياداً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم . طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا

(٤) الآية ٣٦ من سورة فاطر .

(٥) الآيات ٦٤ - ٦٨ من سورة الصافات .

(٦) الآيات ٤٣ ، ٤٤ من سورة الرحمن .

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من ص .

(٢) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

ما كنتم به تمترون ﴿١﴾ .

وقال : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾ (٣) . ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (٤) .

### أعمال الكافرين

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلقيه الكافرون في هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التي سلف وصفها ، بين هنا أن ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح في يوم عاصف ، فذهبت به في كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق جديد ، وليس ذلك بعزير ، ولا بممتنع عليه .

﴿ مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ :

أى ما مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا ، ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء ، إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف ، فنسفته ولم تبق له أثرا ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة وصله الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفى فائدتها لهم إذ ذاك فقال : ﴿ لا يقدرُونَ مما كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ :

أى لا يقدرُونَ يوم القيامة على شيء من أعمالهم في الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب ، أو تخفيف عذاب ، كما لا تنتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح في يوم عاصف .

(١) الآيات ٥٥ - ٥٨ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

(١) الآيات ٤٣ - ٥٠ من سورة الدخان .

(٢) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة الواقعة .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ (١) ، وقال : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : ( يارسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعة ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ) .

﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ : أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة ، حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال : ﴿ ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ :

أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة ، وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقها على أتم نظام ، وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفتيكهم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ، ولا متعذر عليه .

تبرؤ إبليس من أتباعه

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصٍ ۚ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ

المفردات : ﴿ وبرزوا ﴾ أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم . ﴿ والضعفاء ﴾ : واحدهم ضعيف ويراد به ضعيف الرأى والفكر . ﴿ والذين

استكبروا ﴿ : هم رؤساءهم الذين استنفروهم . ﴾ والتبع ﴿ : واحدكم تابع لخدام وخدم .  
مغنون ﴿ : أى دافعون . ﴾ محيص ﴿ : أى منجى ومهرب . ﴾ السلطان ﴿ : التسلط .  
بمصرحكم ﴿ : أى بمغيثكم . يقال : استصرخنى فأصرخته أى استغاث فأغثته .

بعد أن ذكر سبحانه ما يلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحبطت فلم تغن عنهم شيئاً ، ذكر هنا محاورة بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين ، وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد ذلك ذكر أحوال الأشقياء وبالغ فى بيانها ، وتفصيلها ، شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ : أى برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار . أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شئ يستر أحداً .

﴿ فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ﴾ : أى فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم ، الذين استكبروا عن عبادة الله وحده ، وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين لكم ، تأمرونا فنأمر ، وتنهوننا فننتهى .

﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شئ ﴾ : أى فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .

وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم :

﴿ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾ : أى لو أرشدنا الله تعالى ، وأضاء لنا أنوار بصائرنا ، وأفاض علينا من توفيقه ومعونته ، لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبيل الهدى ، ووجهنا أنظاركم إلى طريق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضلنا السبيل ، فأضللناكم .  
ولما كان هذا القول منهم إمارة الجزع قالوا :

﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أى ليس لنا من مهرب ولا خلاص عما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .  
وخلاصة ذلك : سيات الجزع والصبر فلا نجاة لنا من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً

كبيراً ﴿ (٢) .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها المناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ﴾ :

أى وقال إبليس مخاطباً أتباعه من الأنس بعد أن حكم الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

﴿ إن الله وعدهم وعده الحق ﴾ : أى أن الله وعدهم على السنة رسله بالبعث ، وجزاء كل عامل على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ووعدده حق ، وخبره صدق .

﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ : أى ووعدتكم أن لاجنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب ، ولن كانا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتكم موعدى ، إذ لم أقل إلا بهرجاً من القول وباطلاً منه ، فاتبعتموني وتركتم وعد ربكم ، وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ <sup>(١)</sup> . ( وما كان لى عليكم من سلطان ) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ : أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى أسرعتم لى إجابتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وأطعتم الهوى ، وخضتم فى مسالك الردى .

﴿ فلا تلموني ولوموا أنفسكم ﴾ : لأنه ما كان منى إلا الدعاء ، وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذا استجبتم لى بأختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم ، بلا حق منى ولا برهان ، بل بتزيينى وتسويل ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبيانات .

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ : أى ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب فأزِيل صراخكم ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

﴿ إلى كفرت بما أشركتمونى من قبل ﴾ : أى أنى جحدت اليوم أن أكون شريكاً لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم ، أى فى الدنيا ، وهذا كقوله ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ : أى قال إبليس ذلك قطعاً لأطماع الكفار من الإغائة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه تنبيهاً للسامعين ، وحضاً لهم على النظر فى عاقبة أمرهم ،

(١) الآية ١٢٠ من سورة النساء . (٢) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٣) الآية ٤ من سورة الممتحنة .



والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهيبته .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾<sup>(١)</sup> .

وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة .

ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم ، فقال : ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ .

أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا بوحدانيته تعالى ، ورسالة رسله وعملوا بطاعته فأنتهوا إلى أمره ونهيه . بساتين ، تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ولا يزولون فيها .

﴿ بإذن ربهم ﴾ : أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم فى الدنيا تكسب الخيرات والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جثوا فى رضاه ، ونصبوا فى طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

﴿ تحييم فيها سلام ﴾ : أى تحييم الملائكة بالسلام بإذن ربهم ، تعظيماً لشأنهم ، وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى ، فى وصف دخولهم الجنة ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾<sup>(٣)</sup> . وقوله : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ كما يحييهم ربهم جلّت قدرته ، إظهاراً لرضاه عنهم ، وإجلالاً وإكباراً لهم ، كما قال : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

#### مثل الكلمة الطيبة والخبيثة

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِأَقْوَالِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

(٤) الآية ٥٨ من سورة يس .

(١) الآية ٢١ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

**المفردات :** ﴿ المثل ﴾ : قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأولى بالثانية ، ليم أنكشف حاله به . ﴿ ثابت ﴾ : أى ضارب بعروقه في الأرض . ﴿ في السماء ﴾ : أى جهة العلو . ﴿ تؤتى أكلها ﴾ : أى تعطى ثمرها . ﴿ بإذن ربها ﴾ : أى بإرادة خالقها . ﴿ اجشت ﴾ : أى استوصلت وأخذت جثتها . ﴿ والقرار ﴾ : الاستقرار . ﴿ القول الثابت ﴾ : أى الذى ثبت عندهم وتمكن في قلوبهم .

وينتقل بنا النظم الكريم بزحفه المقدس إلى ضرب الأمثال ، وقد قالوا « بالمثال يتضح المقال » .

فيضرب الله مثلاً لقول ( لا إله إلا الله ) وهى الكلمة الطيبة ، كما أنها الكلمة العليا في قوله تعالى ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾<sup>(١)</sup> كما أنها كلمة التقوى في قوله تعالى ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولقد ضرب الله تعالى مثلاً لكلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وقد دلت الآثار على أن تلك الشجرة هى النخلة .

قال البخارى بسنده عن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ( أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر : فوقع في نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم . فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : هى ( النخلة ) فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً . قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا »<sup>(٣)</sup> .

إن كلمة التوحيد ثابتة في قلب المؤمن كثبات تلك النخلة الضاربة بجذورها في أعماق الأرض ، وقد أخبر بعض خبراء الزراعة أن جذور النخلة في الأعماق يعدل طولها فوق الأرض ، وهذا يدل على مدى تمكنها في الأعماق ، إنها مع ثباتها تراها قد امتدت فروعها في جو السماء .

وبين النخلة والمسلم وجوه شبه كثيرة ، فالنخلة كلها خير : في ثمارها وما في الثمار من نوى وفي أوراقها وجريدها ولوفها وجذعها ، كذلك المسلم كله خير يفتح قلبه لعباد الله ويمشى في قضاء حوائجهم ، ويعفو عن مسيئهم ، ويصبر على ظلمهم ، ويحلم عند إساءتهم ، بل إن شدة الجهالة لا تزيده إلا حلماء ، فهو مع الناس كالشجر ، يرمونه بالحجر فيرميهم بأحلى الثمر .

(٢) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه البخارى في العلم ( ٤ ، ٥ ، ١٥ ، ٥٠ ) وفي البيوع ( ٩٤ ) وفي الأطعمة ( ٤٢ ) وفي الأدب ( ٨٩ ) . وأخرجه مسلم في المناققين ( ٦١ ، ٦٢ ) . والترمذى في الأدب ( ٨٩ ، ٧٩ ) وفي تفسير ( سورة ١٤ : ١ ) والإمام أحمد في ( ٢ : ١٢ ، ٣ ، ٦١ ، ١٢٣ ، ١٥٧ ) .

كذلك كلمة التوحيد كلها خير تفتح أبواب السماء ، فالله سبحانه وتعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن قتادة ؛ قال : إن رجلاً قال : ( يارسول الله : ذهب أهل الدثور بالأجور فقال : « أرايت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله في الأرض وفرعه في السماء » قال : ما هو يارسول الله ؟ قال : « تقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات في دبر كل صلاة فذاك أصله في الأرض وفرعه في السماء » ) قوله تعالى : ﴿ تَوَقَّى أَكْلَهَا كُل حِينَ يَأْذَنُ رَبُّهَا ﴾ أى تعطى ثمارها لينتفع بها الخلق ، فهي معطاة دائماً ، وهذا هو سر التعبير بـ ( تَوَقَّى ) ولم يقل « تثمر أكلها كل حين » كذلك المؤمن سخي جواد كريم ، له في كل وقت أعمال صالحة طيبة .

إن هذه الشجرة قد أحاطها الله تعالى بالرعاية والعناية والصيانة ، فهي تَوَقَّى أَكْلَهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وهذا مثل طيب من أمثلة القرآن التي جاءت في أعلى طبقات البلاغة ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

والذكرى تنفع المؤمنين ، وطوبى ثم طوبى للذين يتذكرون إذا ضربت الأمثال : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَمِثْلَ كَلِمَةِ خَيْثَةَ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةَ اجْتَنَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا هِيَ مِنْ قَرَارٍ ﴾ : هذا مثل ضربه الله تعالى لكلمة الكفر التي لا خير فيها ، كما لا خير في أهلها ، إنها خيثة مظلمة مرة المذاق كشجرة الحنظل ، كذلك أهل الكفر ، قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، إن تلك القلوب المظلمة ﴿ فِي بَحْرِ لَجَى يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظِلْمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا . وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (٣) .

إن هذه الشجرة الخبيثة لا قرار لها ولا استقرار . لقد استوصلت من فوق الأرض ولا جذور لها في الأعماق ، والكفر كذلك خواء وجُفاء ، إنه كالزبد الذي لا خير فيه ، وإنما كرهوس التماثيل يشخشخ فيها الهواء .

قوله تعالى : ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ :

دلت الآثار على أن هذه الآية عند سؤال القبر ، وكذلك الثواب والعقاب الذي يجرى على الناس ،

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر . (٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت . (٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

والذى يرتبط بالأعمال ، فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١) .

فالذين ماتوا على التوحيد وثبتوا على كلمته يثبتهم الله عند السؤال ، أما الظالمون فإنهم أهل ضلال وإفك وبهتان ، فيضلهم الله جزاء بما كانوا يعملون ، والله تعالى مشيئة وإرادة وعلم ، يفعل ما يشاء بحكمته ، ويحكم ما يريد بقدرته .

روى البخارى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : ( المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ) (٢) فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : ( خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فأتينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفي يده عود ينكت به في الأرض فرفع رأسه فقال ( استعينوا بالله من عذاب القبر ) مرتين أو ثلاثاً .

ثم قال : ( إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإن أخذها لم يدعوها في طرف يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله أكتبوا كتاب عبدى في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأفتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب

(٢) أخرجه البخارى في تفسير ( سورة ٤٤ : ١ ) .

(١) الآيات ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك . هذا يومك الذى كنت توعده فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجرى ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده فينتزع كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كائن ربح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يبرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذه ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ( لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ) فيقول الله أكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طراحاً . ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ <sup>(١)</sup> فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وأفتوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعده فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجرى بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة <sup>(٢)</sup> .

قال سفيان الثورى عن أبيه عن خيثمة عن البراء فى قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ قال : عذاب القبر .

وقال المسعودى عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : ( إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره فيقال له : ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربي الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ ) ، وقرأ عبد الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ .

روى الإمام مسلم بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدهانه فيقولان له ما

(١) الآية ٣١ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب (١٢٠) . وأبو داود فى الجنائز (١٧) . والترمذى فى الجنائز (٨١) . وابن ماجه فى الجنائز (١٧) ،

كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة <sup>(١)</sup> قال النبي ﷺ ( فيراهما جميعاً ) . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعاً ويملاً عليه خضراً إلى يوم القيامة .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتاني القبر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن هذه الأمة تبلى في قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهاز فيقول له : ما كنت تقول في هذا الرجل —؟ فأما المؤمن فيقول إنه رسول الله ﷺ وعنده فيقول له الملك : انظر إلى مقعدك الذي كان لك في النار قد أنجأك الله منه وأبدلك بمقعدك الذي ترى من الجنة فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن دعوني أبشر أهلي فيقول له اسكن ، وأما المنافق فيقعده إذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول لا أدري أقول كما يقول الناس فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذي كان لك في الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار ) قال جابر : فسمعت النبي ﷺ يقول : ( يبعث كل عبد في القبر على مامات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه ) <sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ( إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا أخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب أخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان . فيقولون مرحباً بالروح الطيبة كانت في الجسد ادخلي حميدة وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان — قال — فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي بها الله عز وجل ) .

( وإذا كان الرجل السوء قالوا أخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان ، فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح ) فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له في الحديث الأول .

وقال ابن حبان في صحيحه بسنده عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ( إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجي إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونهم حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التي جاءت من قبل <sup>(١)</sup> أخرجه البخاري في الجائز ( ٦٧ ، ٨٦ ) . ومسلم في فضائل الصحابة ( ٧٨ ) . والنسائي في الجائز ( ١٠٩ ، ١٠١ ) . والإمام

أحمد في ( ٣ : ٤ ، ٢٣٣ ) وفي ( ٤ : ٢٩٦ ) وفي ( ٢ : ١١٨ ) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة ( ٨٣ ) .

الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فإنه كان في غم فيقول قد مات أما أنا كم فيقولون ذهب به إلى أمة الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي إلى غضب الله فتخرج كأتين ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض <sup>(١)</sup> .

وقال ابن جرير بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ( والذي نفسى بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولوا عنه مدبرين فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصوم ما قبلى مدخل فيؤتى من عند رجله فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعنى حتى أصلى فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألونى ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أحمد ؟ فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه نجاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حيت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمة في النسم الطيب وهى طيب خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب ) وذلك قول الله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وروى البزار عن أنى هريرة قال : ( إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين فيود لو خرجت يعنى نفسه والله يحب لقاءه ، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض فإذا قال : تركت فلاناً في الأرض أعجبهم ذلك وإذا قال : إن فلاناً قد مات قالوا : ما جىء به إلينا ؟

إن المؤمن يجلس في قبره فيسأل من ربك فيقول : رضى الله ويسأل من نبيك فيقول : محمد نبيى فيقال : ما دينك ؟ قال دينى الإسلام فيفتح له باب قبره فيقول : - أو يقال - انظر إلى مجلسك ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعائين ما عاين فإنه لا يحب روحه أبداً والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس في قبره أو أجلس فيقال له : من ربك ؟ فيقول : لا أدري فيقال : لا دريت . فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال له نم كما ينم النهوش ) قلت لأبى هريرة : ما النهوش ؟ قال الذى تنهشه الدواب والحيات ( ثم يضيئ عليه قبره ) .

عن محمد بن المنكدر قال : ( كانت أسماء - يعنى بنت الصديق رضى الله عنها - تحدث عن النبي ﷺ قالت : قال : ( إذا دخل الإنسان قبره ، فإن كان مؤمناً حف به عمله الصلاة والصيام ، قال :

(١) أخرجه النسائي في الجنائز (٩) . والإمام أحمد في (٤ : ٢٨٨) .

فيناديه : اجلس فيجلس فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل يعنى النبي ﷺ ؟ قال : من ؟ قال : محمد . قال : أشهد أنه رسول الله . قال وما يدريك أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . قال : يقول على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث .

وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يردده فأجلسه فيقول له : ماذا تقول في هذا الرجل ؟ قال : أى رجل ؟ قال : محمد ؟ قال يقول والله ما أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك . على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث قال ويسلط عليه دابة في قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير تضربه ما شاء الله صماء لا تسمع صوته فترحمه ) .

وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما في هذه الآية قال : ( إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ، ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله . فيقال له : من رسولك ؟ فيقول : محمد ﷺ . فيقال له ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيوسع له في قبره مد بصره .

وأما الكافر فتنزّل عليه الملائكة فيسبطون أيديهم - والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (١) عند الموت فإذا أدخل قبره أقعد فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك وإذا قيل من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً ﴿ كذلك يضل الله الظالمين ﴾ :

وقال ابن أبي حاتم عن أبي قتادة الأنصاري في قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

قال : إن المؤمن إذا مات أجلس في قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له ذلك مرات ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال : انظر إلى منزلك من النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت .

وإذا مات الكافر أجلس في قبره فيقال له : من ربك ؟ من نبيك فيقول : لا أدري ، كنت أسمع الناس يقولون . فيقال له : لا دريت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى منزلك إذا ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك إذا زغت ( فذلك قوله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى في كتابه ( نواذر الأصول ) حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن نافع عن أبى فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال :



خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في مسجد المدينة ، فقال : ( رأيت البارحة عجباً ، رايت رجلا من أمتي جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك .

ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم .  
ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذه من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتي يلهث عطشاً كلما ورد كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه .  
ورأيت رجلا من أمتي والنبيون يعود حلقاً حلقاً كلما دنا لحلقه طردوه فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى .

ورأيت رجلا من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور .  
ورأيت رجلا من أمتي يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يامعشر المؤمنين : كلموه فكلموه .

ورأيت رجلاً من أمتي يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت له صدقته سترأ على وجهه وظلا على رأسه .

ورأيت رجلا من أمتي قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة .

ورأيت رجلا من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل .

ورأيت رجلا من أمتي قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها في يمينه .

ورأيت رجلا من أمتي قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه .

ورأيت رجلا من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى .

ورأيت رجلا من أمتي هوى في النار فجاءته دموعه التي بكى من خشية الله في الدنيا فاستخرجته من النار .

ورأيت رجلا من أمتي قائماً على الصراط المستقيم يرعد كما ترتعد السعفة فجاءه حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى .

ورأيت رجلا من أمتي على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً فجاءته صلاته على فأخذت بيده

فأقامته ومضى على الصراط .

ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

وقال القرطبي بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجي من أهوال خاصة ، أورده هكذا في كتابه ( التذكرة ) .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن تميم الداري عن النبي ﷺ قال : يقول الله عز وجل للملك الموت : انطلق إلى ولي فأنتني به فإني قد ضربته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب ، اثنتي به فلأريحنه . فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفي رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحف به الملائكة ، ويضع كل منهم يده على عضو من أعضائه ، ويسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة تارة بأزواجها ، وتارة بكسوتها ، ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبي أهله إذا بكى . قال : وإن أزواجه يبتهشن عند ذلك ابتهاشاً . قال وتبرز الروح .

قال البرساني : يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب .

قال : ويقول ملك الموت اخرجي يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . قال : وملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحبباً لديه ، رضاء للرب عنه ، فتسل روحه كما تسلك الشعرة من العجين ) .

قال : وقال الله عز وجل ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال : روح من جهة الموت ، وريحان يتلقى به ، وجنة نعيم تقابله .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد : جزاك الله غنى خيراً ، فقد كنت سريعاً بى إلى طاعة الله ، بطيئاً بى عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت . قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك .

قال : وتبكي عليه بقاع الأرض التي كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه . أربعين ليلة .

قال فإذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا يقبله بنو آدم

لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم ، وحنوط قبل حنوط بنى آدم ، ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده ، قال : ويقول لجنوده الويل لكم ، كيف خلص هذا العبد منكم ؟ فيقولون : إن هذا كان عبداً معصوماً .

قال : فإذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة كل يأتيه بشارة من ربه سوى بشارة صاحبه ، قال : فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش خر الروح ساجداً . قال : يقول الله عز وجل للملك الموت : انطلق بروح عبدى فضعه في سدر مخضود ، وطلع منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب .

قال فإذا وضع في قبره جاءت الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاءه الصيام فكان عن يساره ، وجاءه القرآن فكان عند رأسه ، وجاءه مشيه إلى الصلاة فكان عند رجله ، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر . قال : فيبعث الله عز وجل عتقا من العذاب . قالوا : فيأتيه عن يمينه قال : فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائباً عمره كله ، وإنما استراح الآن حين وضع في قبره . قال : فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رجله فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك ، فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مصاغاً إلا وجد ولى الله قد أخذ جنته . قال : فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج .

قال : ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم ، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخى عند الصراط والميزان .

قال ويبعث الله ملكين : أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنبياهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب ، يطآن في أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا ، وقد نزعتهما الرفأة والرحمة يقال لهما منكر ونكير ، وفى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يفلوها . قال : فيقولان له : اجلس . قال : فيجلس فيستوى جالساً . قال : وتقع أكفانه في حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ قال : قالوا يارسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك ، وأنت تصف من الملكين ما تصف ؟ .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة . ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

قال : فيقول : ربى الله وحده لا شريك له ، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ، ونبى محمد خاتم النبيين . قال : فيقولان له : صدقت . قال : فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً ، وعن يمينه أربعين ذراعاً ، وعن شماله أربعين ذراعاً ، ومن خلفه أربعين ذراعاً ، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً ، ومن عند رجله أربعين ذراعاً . قال : فيوسعان له مائتى ذراع .

قال البرسائي : فأحسبه وأربعين ذراعاً تحاط به .

قال : ثم يقولان له : أنظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلى الجنة قال : فيقولان له : ولي الله هذا منزلك إذا أطعت الله .

فقال رسول الله ﷺ ( والذي نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً ) .

ثم يقال له : أنظر تحتك . قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ، قال : فيقولان : ولي الله نجوت . آخر ما عليك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ( إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً ) .

قال : قالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة ، يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل ) .

وبالاسناد المتقدم إلى النبي ﷺ قال : ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوى فأتني به فإنني قد بسطت له رزقي ، ويسرت له نعمتي ، فأبى إلا معصيتي ، فأتنتي به لأنتقم منه . قال : فينطلق إليه ملك الموت في أكره صورة رآها أحد من الناس قط ، له أثنتا عشرة عيناً ، ومعه سفود من النار كثير الشوك ، ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم . ومعهم سياط من نار لينها لين السياط ، وهي نار تتأجج .

قال : فيضربه به ملك الموت بذلك السفود خربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود في أصل كل شعرة وعرق وظفر .

قال : ثم يلويه لياً شديداً . قال : فينزع روحه من أظفار قدميه . قال فيلقيا في عقبه قال : فيسكر عدو الله عن ذكر سكره ، فيرفه ملك الموت عنه . قال : وتضرب الملائكة وجهه وديره بتلك السياط . قال : فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقبه ، فيلقيا في ركبتيه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه وديره بتلك السياط . قال : ثم ينثره ملك الموت نثره فينزع روحه من ركبتيه فيلقيا في حقويه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه وديره بتلك السياط . قال : كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه .

قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ، قال : ويقول ملك الموت أخرجني أيها الروح اللعينة إلى سموم وحميم ، وظل من محموم ، لا بارد ولا كريم . قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عني شراً فقد كنت سريعاً بي إلى معصية الله ، بطيئاً بي عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلك . قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التي كان يغصى الله عليها .

وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار .

قال : فإذا وضع في قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى في اليسرى ، واليسرى في اليمنى . قال : ويبعث الله إليه أفاعى دهماً كأعناق الإبل ، يأخذن بأذنيه وإبهام قدميه ، فيقرضنه حتى يلتقين في وسطه . قال ويبعث إليه ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنياهما كالصياحى ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن في أشعارهما بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعتهما الرأفة والرحمة . يقال لهما منكز ونكير ، في يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم تغلوهما . قال : فيقولان له : إجلس . فيستوى جالساً . وتقع أكفانه في حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدري . فيقولان له : لادريت ولا تكتبت . فيضربانه ضربة يتطاير شررها في قبره ، ثم يعودان . قال : فيقولان : انظر فوقك فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة فيقولان : عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله . قال رسول الله ﷺ : ( والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً ) . قال : ويقولان له : انظر تحتك ، فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار فيقولان : عدو الله هذا منزلك إذ عصيت الله قال رسول الله ﷺ : ( والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا تترد أبداً ) .

وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار ، يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها .

### جزاء الكافرين

\* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٨﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٢٩﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣٠﴾

**المفردات :** ﴿ البوار ﴾ : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور كما قال تعالى ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ يصلونها ﴾ : يقاسون حرها . ﴿ والأنداد ﴾ : واحدهم ند ، وهو المثل والشبيه . ﴿ والمصير ﴾ : المرجع . ﴿ والبيع ﴾ : الفدية . ﴿ والخلال ﴾ : المخاللة والصدقة .

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بياناً لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهمه من التوفيق في الدارين للسعداء ، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كسبت أيديهم من تَدَسِّيَّتِهِمْ لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة محججاً رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد

تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه البطامة حقيقى بهم ، بل كانت فتنة لهم شعواء عمتهم جميعاً ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ (١) .

ذاك أنهم بدلوا نعمة الله كفراً ، والشكر جحداً وأنكاراً ، وليت البلية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلثوا بإضلال غيرهم ، فكانوا دعاة الكفر ، وأعوان الفتنة . ومن ثم كانت عاقبتهم التى لا مرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم .

وبعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعم الدنيا ، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها ، والجد فى مجاهدة النفس والهوى ، ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ، ويقربهم من ربهم ، وينيلهم الفوز فى يوم لا تنفع فيه ندية ولا صداقة ولا خلة : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٢) .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة .

وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على أنه قال فى هؤلاء المبذلين : « هم الأفجران من قريش : بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين » .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ :

ولقد عدد سبحانه الأسباب التى أوقعت هؤلاء الأشرقياء ومن شايعهم فى سوء المنقلب ، وحصرها فى ثلاثة :

(١) ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ﴾ : أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها وجحوداً لها ، كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شئ ، وجعلهم قوام بيته ، وشرفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم ، فكفروا بتلك النعمة فأصابهم الجذب والقحط سبع سنين دأباً ، وأسروا يوم بدر وصفدوا فى السلاسل والأغلال ، وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضمنون بهم ، ويحتفظون بمواضعهم « ليوم كرية وسداد ثغر » .

وقوله تعالى : ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ : أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لا هلاك بعده ، ثم بين هذه الدار فقال سبحانه :

﴿ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ : أى هذه الدار هى جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هى لمن أراد الله به النكال والوبال .

(٢) ﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ : أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثل شئ - أنداداً وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة ، كما قالوا فى الحجج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

(٣) ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ : أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوههم على ضلالهم البعد والإعراض عن سبيله القويم ، ودينه الحنيف ، والوقوع فى حماة الكفر والضلال .  
ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه ، فإنه لا فائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

﴿قل تمتعوا﴾ : أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام فى إضلال الناس والصد عن سبيل الله .  
ثم بين جزاءهم المحتوم فقال : ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ : أى إن مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾<sup>(١)</sup> وسمى الله تعالى ذلك تمتعاً ، لأنهم تلذذوا به ، وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتبهات من النعم .

وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيراً فترى الطبيب يأمر مريضة بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تمادياً فى الأعراض عن أوامره ، وأتباعاً لشهواته ، فيقول له : كل ما تزيد ، فإن مصيرك إلى الموت ، ومأمراة من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى من مخالفة السلطان : اصنع ما شئت ، فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه ﷺ أن يأمر شخص عباده بإقامة العبادات البدنية ، وأداء الفرائض المالية ، فقال سبحانه :  
﴿قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم﴾ :

أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها ، وأدوها كما طلب ربكم ، فهى عماد الدين ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن ، يستضيء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكراً على نعمه الجزيلة ، رافة بعباده الفقراء ، سداً لخلتهم ، وإيجاداً للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿سراً وعلانية﴾ : أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها ، وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

﴿من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾ .

أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ، ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ، ولا يصفح عن عقابه لمخالفته لصديقه ، بل هناك العدل والقسط كما قال : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ وقال : ﴿ أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ (١).

### الآيات الدالة على التوحيد

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)

**المفردات :** ﴿ السماء ﴾ : السحاب ، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء .  
﴿ والرزق ﴾ : كل ما ينتفع به ، ﴿ والتسخير ﴾ : التيسير والإعداد . ﴿ والفلك ﴾ : السفن ، ﴿ دائبين ﴾ : أى دائمين فى الحركة لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ (٣). ﴿ آتاكم ﴾ : أى أعطاكم . ﴿ لا تحصوها ﴾ : لا تطبقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالحصى ، وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع . ﴿ ظلوم ﴾ : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة . ﴿ كفار ﴾ : شديد الكفران والجحود لها .  
بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه ، حين بدلوا الشكر بالكفر ، واتخذوا لله أنداداً ، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة ، شكراً لربهم على ما أوتوا من النعم ، وحثاً لهم على الجهاد فى سبيل كمالهم ورفقهم . يبذل النفس والنفيس وهو المال ، لتكامل لهم السعادة فى الدارين ، شرع يذكر الأدلة المنصوبة فى الآفاق والأنفس التى توجب على عباده المثابرة على شكره ، ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التى يتقلبون فى أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون فى ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكير فى تلك النعم ، فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكفورها .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ﴾ :

أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض ، هما أكبر خلقاً منكم ، وفيهما من المنافع لكم



ما تعلمون وما لا تعلمون ، وتقدم تفصيل هذا في مواضع متعددة من كتابه الكريم . ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ :

أى وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه ، وتعيشون به ، والآية كقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ <sup>(١)</sup> أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ﴾ :

أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها ، وجعلها طافية على وجه الماء ، تجرى عليه بأمره تعالى ، وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم لجلب ما هناك إلى هنا ، ونقل ما هنا إلى هناك .

﴿ وسخر لكم الأنهار ﴾ :

تشق الأرض شقاً من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها ، حيث تشربون منها ، وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ :

أى دائمين فى الحركة ، لا يفران إلى إنقضاء عمر الدنيا ، كما قال : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ <sup>(٣)</sup>

﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ :

يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم ، وما تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه ، كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ <sup>(٤)</sup> ، فالشمس والقمر يتعاقبان الليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذاك فيطول ، ثم يأخذ من هذا فيقصر ، كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾ <sup>(٥)</sup>

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾

أى هياً لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم ، من كل الذى هو حقيق أن تسألوه ، سواء

(٤) الآية ٧٣ من سورة القصص .

(٥) الآية ٢٩ من سورة لقمان .

(١) الآية ٥٣ من سورة طه .

(٢) الآية ٤٠ من سورة يس .

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

أسألتوه أم لم تسألوه ، لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهي مُعدة لهم ، فلم يسأل الله أحد في الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاهما للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ :

أى لا تطيقوا عد أنواعها ، فضلا عن القيام بشكرها .

وفي صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول : ( اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا )<sup>(١)</sup> .

وأثر عن الشافعى أنه قال « الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمة إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها » .

وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لفة      تشنى عليك بما أوليت من نِعَم  
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به      إليك أبلغ فى الإحسان والكرم

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه ، ذاك أن الله هو الذى أنعم عليك بما أنعم ، واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره ، وجعل له أندادا ليضل عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمة التى أنعم بها عليه ، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه .

دعوات للخليل إبراهيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ رَبِّ  
إِنَّهُمْ أَضَلُّنَا كَثِيرًا ۖ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝  
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ  
فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝  
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٥٤) . وأبو داود فى الأطعمة (٥٢) . وابن ماجه فى الأطعمة (١٦) .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٩﴾  
 رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٣٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ  
 وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣١﴾

**المفردات :** ﴿ واجنبنى ﴾ : أى أبعدنى ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ، ثم استعمل فى البعد مطلقاً . ﴿ وتهوى إليهم ﴾ : أى تسرع شوقاً وحباً : ﴿ ويقوم الحساب ﴾ : أى يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أى وجدتاً .

فى هذا المشهد القرآنى الكريم ، يخبر تعالى عن أنى الأنبياء إبراهيم بأنه برىء من عبادة الأصنام ، فما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركاً ولكن كان حنيفاً مسلماً : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يكن من المشركين ﴾ شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم \* وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿ (١) .

وقال عز من قائل ﴿ قل إننى هدى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ (٢) .

وفى هذا المقام أيضاً احتجاج على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه أدلة تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ .

وقد استجاب الله لدعائه فقال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٣) .

وقال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٥) .

وقال فى هذه القصة ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ولهذا قال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

(٤) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٥٧ من سورة القصص .

(١) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل .

(٢) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .

ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضا ، فقال ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ واجتنبني وبنى أن نعبد الأصنام ﴾ .

ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلأثق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ <sup>(١)</sup> .

وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجوز وقوع ذلك .

وقال عبد الله بن وهب : عن عبد الله بن عمرو : إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رب إنهم أضللت كثيرا من الناس ﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : ( اللهم أمتي اللهم أمتي اللهم أمتي ) وبكى فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وريك أعلم ، وسله ما ييكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ فقال : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك .

قوله تعالى ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول ، الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدا ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ .

وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ :

قال ابن جرير : هو متعلق بقوله ﴿ المحرم ﴾ أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لأزرحم عليه فارس والروم واليهود والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ من الناس ﴾ فاختص به المسلمون .

وقوله ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ : أى ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُحجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٥٧ من سورة القصص .

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس في البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها ، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ﴾ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿ :

قال ابن جرير يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال ﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن ﴾ : أى أنت تعلم قصدى في دعائى ، وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك ، والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء .

ثم حمد ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ : أى إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد .

ثم قال ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ : أى محافظاً عليها مقيماً لحدودها .

﴿ ومن ذريتي ﴾ : أى واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أى فيما سألتك فيه كله .

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾ : وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه ، لما تبين له عداوته لله عز وجل .

﴿ وللمؤمنين ﴾ : أى كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أى يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

### وعيد الظالمين

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْعَدْتُهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ

مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ  
 اللَّهَ مُخْلِفًا وَعْدَهُ رَسُولُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ  
 وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي  
 الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ  
 مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا  
 أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

**المفردات :** ﴿ تشخص ﴾ : ترتفع . ﴿ مهطعين ﴾ : مسرعين إلى الداعي . ﴿ مقنعي ﴾ : رءوسهم . : أى رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء .  
 ﴿ لا يرتد ﴾ : لا يرجع ، ﴿ هواء ﴾ : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان  
 والأحمق قلبه هواء : أى لا قوة ولا رأى له كما قال حسان ابن ثابت يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نجب هواء

﴿ من زوال ﴾ : أى من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . ﴿ وضرينا لكم  
 الأمثال ﴾ : أى بينا لكم أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب . ﴿ عزيز ﴾ : أى غالب على أمره  
 ينتقم من أعدائه لأوليائه . ﴿ وبرزوا ﴾ : أى خرجوا من قبورهم . ﴿ مقرنين ﴾ : أى مشدودين .  
 ﴿ في الأصْفَادِ ﴾ : أى في القيود واحدا صفا . ﴿ سرايلهم ﴾ : واحدا سرايل : وهو القميص .  
 ﴿ قطران ﴾ : دهن يتحلب من شجر الابل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت .  
 ويقال له الحفناء ، وهو أسود اللون منتن الريح . ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ : أى تملأها وتحيط بها .  
 ﴿ بلاغ ﴾ : كناية في العظة والتذكير .

### المناسبة

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفرا ، وجعلوا له الأنثاد جهنم يصلونها وبئس  
 المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهول ، وإقامة فرائض الدين ذكر هنا تسليية لرسوله  
 وتهديدا للظالمين من أهل مكة ، أى تأخيرهم وتمتعهم بالخطوط الدنيوية ليس إهمالا للعقوبة ، ولا لغفلة  
 عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول ، له من الأوصاف ما يبين  
 بعد ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم في ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا

ليجيئوا دعوة الداعى ، وهيهات وهيهات .

صاح أرايت أو سمعت براع رد فى الضرع ما جرى فى الحلاب

وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها ، فإنها كانت لقوم أمثالكم ، كفروا بأنعم الله ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يخلف ، وهو ناصرهم ، وخاذل أعدائه ، كما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ونحاسهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وثرى حال المجرمين بجل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ وإنذار ، ليتذكر به ذو العقول الراجحة ، وليعلموا أن الله واحد لا شريك له .

قوله تعالى :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ :

هذا وعيد من الجبار جل جلاله لكل ظالم عنيد ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر وكم أهلك الظلم من أمم .

بهذا نطق الكتاب الكريم :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال جل شأنه :

﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقد يظن الظالمون أن إمهال الله لهم إهمال ، وغفلوا عن قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وأملى لهم إن كيدى متين <sup>(٦)</sup> .

كما تناسوا قوله ﷺ : ( إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم

(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .

(٥) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٦) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم .

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

يفلته ﴿١﴾ ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

فلا تحسبن الله تعالى غافلا عما يعمل هؤلاء الجبابرة الطغاة ، واسألوا التاريخ عن هؤلاء الذين قال الله في شأنهم . ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) .

ولابد للدنيا من انتهاء .

ولابد للآخرة من لقاء .

وإذا أمهل الله هؤلاء فإنما يؤخرهم ليوم ما أطوله ! إنه يوم يجعل الولدان شيبا فياله من خطب ما أهوله !

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٣) .

إن هذا اليوم تشخص فيه الأبصار ، أى ترى الأبصار مرفوعة ، وترى الظالمين مهطعين ، مقنعي رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفنتهم هواء : ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ (٤) - أى مسرعين - ﴿ خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ .

﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون \* خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ (٥) .

وترى الظالمين مقنعي رؤوسهم - أى رافعيها - لا يرتد إليهم طرفهم - من شدة الهول ، لا تطرف عيونهم من هول ما يرون ، أما قلوبهم فإنها هواء كرؤوس التماثيل ، تشخشخ فيها الرياح ، ليس في قلوبهم إيمان ولا تقوى .

فالظلم مرتعه وخيم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال \* وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال \* وقد مكروا مكروهم وعند الله

(٣) الآية ٢ من سورة الحج .

(٤) الآية ٨ من سورة القمر .

(٥) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الماعز .

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .



مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴿١﴾ .

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن قول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب : ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ كقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ (١) .

وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق واكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ (٢) .

وقال تعالى مخبرا عنهم في حال محشرهم : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٣) ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين \* بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (٥) .

قال تعالى رداً عليهم في قولهم هذا : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ : أى أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك .

قال مجاهد وغيره : ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أى ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

كقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ (٦) . ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ :

أى قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقفنا بهم لكم مزدجر : ﴿ حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ (٧) . ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ :

روى العوفي عن ابن عباس كان يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصرى ، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ماضى ذلك شيئا

(٥) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٦) الآية ٣٨ من سورة النحل .

(٧) الآية ٥ من سورة القمر .

(١) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة المؤمنون .

(٢) الآيات ٩ - ١١ من سورة المنافقون .

(٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .

(٤) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .

من الجبال ولا غيرها ، وإنما عاد وبال ذلك عليهم ، ويشبه هذا قول الله تعالى ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ :

يقول تعالى مقررًا لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ : أى من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة ، لا يتمتع عليه شيء أراده ، ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحدته ، فويل يومئذ للمكذبين .

ولهذا قال ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ : أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة .

كما جاء في الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ : ﴿ يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصية النقى ليس فيها معلم لأحد ﴾ (٢) .

وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبي عن مسروق عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط (٣) رواه مسلم منفرداً به دون البخارى والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه حدثنى الحسن بن على الحلوانى حدثنى ابو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعنى أخاه أنه سمع أباً سلام حدثنى أبو أسماء الرحبي أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : ( كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه خبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها .

فقال : لم تدفعنى ؟

فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله . فقال رسول الله ﷺ إن اسمى محمد الذى سماني به أهلى ) .

فقال اليهودى : جئت أسألك .

فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيئاً إن حدثتك ؟

قال : أسمع بأذنى . فنكت رسول الله ﷺ بعود كان معه فقال : « سل » .

(١) الآية ٣٧ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه مسلم في المناقب (٢٩) . والترمذى في تفسير (سورة ١٤ : ٦) . وابن ماجه في الزهد (٣٣) . والدارمى في الرقاق (٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم في المناقب (٢٩) . والترمذى في تفسير (سورة ١٤ : ٦) . وابن ماجه في الزهد (٣٣) . والدارمى في الرقاق (٨٨) . والإمام أحمد في (٦ : ٣٥ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ٢١٨) .

فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟

فقال رسول الله ﷺ : إذ هم في الظلمة دون الجسر ، قال : فمن أول الناس إجازة ؟

فقال : فقراء المجاهدين .

فقال : اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟

قال : زيادة كبد النون .

قال : فما غذاؤهم في أثرها ؟

قال : ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها .

قال : فما شرايبهم عليه ؟

قال : عين تسمى سلسيلا .

قال : صدقت قال وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي ، ورجل أو

رجلان قال : أينفعك إن حدثتك ؟ »

قال : أسمع بأذني .

قال : جئت أسألك عن الولد قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإن اجتمعا فعلا مني

الرجل مني المرأة أذكرا بإذن الله تعالى ، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آتانا بإذن الله .

قال اليهودى : لقد صدقت . وإنك لنبى . ثم انصرف فقال رسول الله ﷺ : (لقد سألتني هذا عن

الذى سألتني عنه ومالى علم بشيء منه ، حتى أتاني الله به )<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وبرزوا لله ﴾ : أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الواحد القهار ﴾ أى

الذى قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

قوله تعالى : ﴿ وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد . سرايلهم من قطران وتغشى

وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾ :

وفي هذا اليوم العصيب ترى المجرمين الذين أفسدوا في الأرض مقرنين ، أى جمع بعضهم إلى بعض

في القيود .

وقوله : ﴿ سرايلهم من قطران ﴾ أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران ، وهو الذى تطفى به

الإبل .

﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ أى تلفح وجوههم النار .

(١) أخرجه مسلم في الحيز (٣٤) .

قال رسول الله ﷺ : ( أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونها ، الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة في الميت والنائحة إن لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب )<sup>(١)</sup> .

وقوله ﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت ﴾ أى يوم القيامة ، ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ : أى إذا حاسب عبده فهو سريع الإنجاز ، لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

قوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ :

أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ، كما قال في أول السورة ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لنخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية .

﴿ ولينذروا به ﴾ أى ليتعظوا به .

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ :

أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو .

﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ : أى ذور العقول .

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٩) . والإمام أحمد في (٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .

عبد الحميد كشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الرابع عشر

المكتبة المصرية الحديث

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الحجر

### مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية إجماعاً . وعدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف . وكلماتها ستائة وأربع وخمسون . وحروفها ألفان وسبعمائة وستون . وتسمى سورة الحجر : لاشتغالها على قصتهم ، وقوله : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ .

مقصود السورة إجمالاً : بيان حقيقة القرآن ، وحفظ الحق وبرهان النبوة وحفظ الحق كتابه العزيز من التغير والتبديل . وتزيين السماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برجوم النجوم من استراق الشياطين السمع ، وتقديره تعالى الماء والسحاب من خزائن بره ولطفه ، وعلق تعالى بأحوال المتقدمين في الطاعة والمتأخرين عنها .

وبيان الحكمة في تخليق آدم ، وأمر الملائكة المقرين بسجوده وتعير إبليس وملامته على تأبيه واستكباره وجحوده ، واستحقاقه اللعنة من الله بعضيانه وطغيانه ، وجراءته بالمناظرة لخالقه ومعبوده . وبيان قسم الدركات ( على أهل اللذات والضلالات ) وذكر المستوجبى الجنة من المؤمنين ، وإخبار الله تعالى عباده بالرحمة والغفران ، وتهديدهم بالعذاب والعقاب .

والإشارة إلى ذكر أضياف الخليل عليه السلام ، والنهى عن القنوط من الرحمة ، وذكر آل لوط ، وسكرتهم في طريق العماية والضلالة ، وتسليية النبي ﷺ عن جفاء الكفار ، وبذىء أقوالهم .

والمن عليه ﷺ بنزول السبع المثاني والقرآن العظيم ، والشكوى عن الطاعنين في القرآن . وذكر القسم بوقوع السؤال في القيامة ؛ وأمر الرسول ﷺ بإظهار الدعوة ، والمن عليه بإهلاك أعداء دينه ، ووصيته بالعبادة إلى يوم الحق واليقين في قوله : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

### المتشابهات :

قوله : ﴿ لو ما تأتينا ﴾ وفي غيرها . ( لولا ) ، لأن ( لولا ) يأتي على وجهين : أحدهما امتناع الشيء لوجود غيره ، وهو الأكثر . والثاني بمعنى هلا وهو التخصيص . ويختص بالفعل . و ( لو ما ) بمعناه . وخصت هذه السورة بلوما ، موافقة لقوله : ( ربما ) فإنها أيضاً مما خصت به هذه السورة .

قوله : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً ﴾ ، وفي البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة

إلى جاعل ﴿١﴾ ولا ثالث لهما ، لأن ( جعل ) إذا كان بمعنى ( خلق ) يُستعمل في الشيء يتجدد ويتكرر ؛ كقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٢) ، لأنهما يتجددان زماناً بعد زمان . وكذلك الخليفة يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة . وتُخصت هذه السورة بقوله : ﴿ إلى خالق بشراً من صلصال ﴾ إذ ليس في لفظ البشر . ما يدل على التجدد والتكرار ، فجاء في كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الألفاظ .

قوله : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ في هذه السورة ، وفي ص ؛ لأنه لما بالغ في السورتين في الأمر بالسجود وهو قوله : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ في السورتين بالغ في الأمثال فيهما فقال : ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ﴾ ليقع الموافقة بين أولاهما وأخراها .

قوله هنا لإبليس : ﴿ اللعنة ﴾ وقال في ص ﴿ لعنتي ﴾ لأن الكلام في هذه السورة جرى على الجنس في أول القصة في قوله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ﴾ والجان خلقناه ﴿ فسجد الملائكة كلهم ﴾ لذلك قال : ( اللعنة ) ، وفي ص تقدم ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ فختم بقوله ﴿ لعنتي ﴾ .

قوله ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ وزاد في هذه السورة ﴿ إخواناً ﴾ لأنها نزلت في أصحاب رسول الله ﷺ ، وما سواها عام في المؤمنين .

قوله في قصة إبراهيم : ﴿ فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴾ لأن هذه السورة متأخرة ، فاكتفى بما في هود ؛ لأن التقدير : فقالوا : سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قال : إنا منكم وجلون . فحذف للدلالة عليه .

قوله : ﴿ وأمطرنا عليهم ﴾ وفي غيرها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ قال بعض المفسرين ( عليهم ) أى على أهلها ، وقال بعضهم : على من شذ من القرية منهم .

وقال تاج القراء : ليس في القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله : ( عليهم ) بل هو يعود إلى أول القصة . وهو ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ ثم قال : ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ قال : وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ بالجمع وبعدها ﴿ لآية للمؤمنين ﴾ على التوحيد . قال الإمام : الأولى إشارة إلى ما تقدم من قصة لوط ( وضيف إبراهيم ، وتعرض قوم لوط لهم ) طمعاً فيهم ، وقلب قرية على من فيها ، وإمطار الحجارة عليها ، وعلى من غاب منهم . فختم بقوله : ﴿ لآيات للمتوسمين ﴾ أى لمن يتدبر السمة ، وهى ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم .

قال : والثانية تعود إلى القرية : ﴿ وإنها لبسيل مقيم ﴾ وهى واحدة ، فوحد الآية .

وقيل : ما جاء في القرآن من الآيات ، فلجمع الدلائل . وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلمّا ذكر عقبة المؤمنين ، وهم مقرون بوحداية الله تعالى ، وحد الآية . وليس لها نظير إلا في العنكبوت . وهو قوله تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فوحد بعد ذكر الجمع لما ذكرت والله أعلم .

### المناسبة

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) لأنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .
- (٢) لأنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنّهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .
- (٣) إن في كل منهما وصف السموات والأرض .
- (٤) إن في كل منهما قصصاً مفصلاً عن إبراهيم عليه السلام .
- (٥) إن في كل منهما تسليّة لرسوله ﷺ بذكر ملاقاته الرسل السالفون من أمهم وكانت العاقبة للمتقين .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّتِّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝ (١) رَبَّمَا يَوْدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ  
ذَرَهُمْ يَٰ كُفُوًا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝ (٢) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا  
وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝ (٣) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ۝ (٤)

**المفردات :** ﴿ رَبَّمَا ﴾ : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول . فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل . ﴿ يُلْهِمُ ﴾ : أى يشغلهم من قولهم . لهيئت عن الشيء ألهى ألهى إذا أعرضت عنه ، ﴿ ما تسبق ﴾ : أى ما يتقدم زمان أجلها . قوله تعالى : ﴿ آلر ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد منها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتعبد بتلاوته المتحدّى بلفظه . وقد أشار الله تعالى إلى آيات هذا الكتاب ، والقرآن المبين إشارة تفيد تفخيمه وتعظيمه ، فهى آيات بينات ، وهو قرآن واضح بيّن ﴿ وإنه لقرآن كريم ﴾ فى كتاب مكنون \* لا يمسه إلا المطهرون \* تنزيل من رب العالمين ﴿ (١) وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو الكتاب الحكيم .



وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو تنزيل من الرحمن الرحيم ، وهو الكتاب المبين ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين .

**قوله تعالى : ﴿ رَجَعُوا إِلَىٰ أُولَئِكَ لِيُخَوِّلَهُمْ فِيهِ مَا يَشَاءُونَ خَالِفِينَ ﴾** ربما يؤيد الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ رَوَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَقْوَالٌ مَأْثُورَةٌ نَلَخْنَاهَا فِيمَا بَلَى :

نقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ (١) .

قال ابن جرير حدثني الثني حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبي فروة العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين في النار ، قال : فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون في الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم فذلك حين يقول : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ .

قال الطبرانی بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا في النار ؟ فيغضب الله لهم فيخزجهم فيلقيهم في نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين ) فقال رجل : ( يا أنس أنت سمعت رسول الله ﷺ ؟ ) فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ) (٢) نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا .

قال الطبرانی بسنده عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا اجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا في النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا — قال ثم قرأ رسول الله ﷺ — أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ لَنَا آيَاتٍ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مَبِينٍ ﴾ ربما يؤد الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴿ .

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم (٣٨) . ومسلم فى الإيمان (١١٢) . وأبو داود فى العلم (٤) . والترمذى فى العلم (٦ ، ٨ ، ١٣) . وابن ماجه فى المقدمة (٤ ، ٢٣) . والدارمى فى المقدمة (٢٥ ، ٤٦ ، ٥٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٢٣) .

وقال الطبراني أيضاً بسنده : عن صالح بن أبي شريف قال : سألت أبا سعيد الخدري فقلت له : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : في هذه الآية ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ؟ قال : نعم سمعته يقول : ( يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نقمته منهم ) وقال ( لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله في هذه الدنيا فما بالكم معنا في النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم ) قال فذلك قول الله ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم ، فيقولون : يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون في نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن علي عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : ( منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته . ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن في النار من أهل الأديان والأوثان لمن في النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فحن وأنتم اليوم في النار سواء ، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشيء فيما مضى فيخرجهم إلى عين في الجنة ) . وهو قوله : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ .

قوله تعالى : ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ : أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : ( صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل )<sup>(١)</sup> .

وروى عن الحسن أنه قال : « ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل » .

وروى عن علي أنه قال : « إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يَصُدُّ عن الحق » .

وفي الآية وعيد شديد للذين يتمرغون في نعم الله ويأكلون من خيريه ويعبدون غيره ، فذرهم ودعهم ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾<sup>(٢)</sup> ﴿وفي ربهم يترددون﴾<sup>(٣)</sup> ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾<sup>(٤)</sup> ﴿قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار﴾<sup>(٥)</sup> . لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد<sup>(٦)</sup> .

إن هؤلاء الذين يأكلون ويتمتعون قد أهتهم الآمال عن اقتراب الآجال ، فظنوا أنهم مخلدون ،

(٤) الآية ١٢ من سورة محمد .

(١) أخرجه الإمام أحمد في (٣ : ١٥ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٥) .

(٥) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة .

(٦) الأيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران

ونسوا أن الموت يأتيهم بغتة ، كما نسوا يوم الحساب ، فذرهم ولا تكثر عليهم التأسف ، فسوف يعلمون لمن عقبى الدار ، وغداً توفى النفوس ما كسبت ، فالتاس غداً بين يدي الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ﴾ :

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن القرى التى أهلكها بسبب ظلمها وعتوها ونفورها ﴿ وكما أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون <sup>(١)</sup> .

ما أهلك الله قرية إلا ولها أجل معلوم ، فى كتاب مبين ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ <sup>(٢)</sup> وكل شئ عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال <sup>(٣)</sup> .

وقد أكد الله تعالى معنى الآية فى قوله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ فلكل أجله الذى سبق فى علم الله وعلم الله قد أحاط بكل شئ ، وما سبق فى العلم لا يختلف ولا يتخلف زماناً ولا مكاناً ، فسبحان من أحاط بكل شئ علماً ، وأحصى كل شئ عدداً . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبى ، حقت كلمته أن يهلك من افترى وطفى وبغى ، وأصر وظلم واستكبر .

إذا ما الظلم حل بأرض قوم وعم الفسق وانتشر البلاء  
فويل ثم ويل ثم ويل لأهل الأرض من رب السماء

#### افتراءات باطلة

وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ <sup>(١)</sup> لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ <sup>(٢)</sup> مَا نُنَزِّلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ <sup>(٣)</sup> إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ <sup>(٤)</sup> وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ <sup>(٥)</sup> وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ <sup>(٦)</sup> كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ <sup>(٧)</sup> لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ <sup>(٨)</sup> وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ <sup>(٩)</sup> وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ <sup>(١٠)</sup> لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ <sup>(١١)</sup>

(١) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص . (٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

**المفردات :** ﴿الذكر﴾ : هو القرآن . ﴿لوماً﴾ : مثل ( هلا ) كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها . ﴿منظرين﴾ : أى مؤخرين . ﴿الشيع﴾ : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات أو فى المذاهب والآراء . ﴿نسلكه﴾ : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها . ﴿يعرجون﴾ : يصعدون . ﴿سكوت﴾ : سددت ومنعت من الإبصار .  
﴿مسحورون﴾ : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

**المناسبة :** بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ، شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد بلغا مدى تنكرهم معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسلياً له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً ، فهذا دأب كل مجنوح ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة ، من صناديد قريش .

قوله تعالى : ﴿وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ \* لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين \* ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين \* إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴿ :

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم ﴿يا أيها الذى نزل عليه الذكر﴾ :  
أى الذى تدعى ذلك . ﴿إنك لمجنون﴾ : أى فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

﴿لوما﴾ أى هلا ﴿تأتينا بالملائكة﴾ أى يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون : ﴿فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ \* يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً <sup>(٢)</sup> .

وكذا قال فى هذه الآية ﴿وما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا منظرين﴾ :

(١) الآية ٥٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الفرقان .

قال مجاهد في قوله ﴿ ما نزل الملائكة إلا بالحق ﴾ : أى بالرسالة والعذاب .

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ كقوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ (١) والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ :

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به .

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

قال أنس والحسن البصري : ﴿ كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ﴾ : يعنى الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ قد خلت سنة الأولين ﴾ أى قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ :

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم للحق ، أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ إنما سكرت أبصارنا ﴾ :

قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا .

وقال قتادة عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

وقال العوفي عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

وقال الكلبي : عميت أبصارنا .

وقال ابن زيد : سكرت أبصارنا : السكران الذى لا يعقل .

## من آيات الله الكونية

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَعْنَا تَبَعُهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقَبَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

**المفردات :** ﴿ البروج ﴾ : واحدها برج وهي النجوم العظام ومنها البروج الاثنا عشر المعروفة في علم الفلك . ﴿ للناظرين ﴾ : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها . ﴿ وحفظناها ﴾ : أى منعناها . ﴿ والرجيم ﴾ : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم . ﴿ واسترق ﴾ : من السرقة وهي أخذ الشيء خفية . شبه من خطفتهم اليسيرة من الملاء الأعلى . ﴿ والسمع ﴾ : المراد به ما تسمع . ﴿ والشهاب ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب في الجو وتبع القوم تبعاً وتباعة . ﴿ بالفتح ﴾ : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبع القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقهم . ﴿ مددناها ﴾ : أى بسطناها . ﴿ الرواسي ﴾ : واحدها راسية وهي الجبال الثابت . ﴿ موزون ﴾ : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

## المناسبة

بعد أن ذكر شديد جحودهم ، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً ، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات . أعقب هذا ببيان أنهم كانوا في غنى عن كل هذا ، فإن في السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادكر ، فهلا نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محددة ، وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين وبالتدبير فيه تقوى دعائم الدين ، ويشد أزر سيد المرسلين ، وهلا رأوا الأرض كيف مدت ، وثبتت جبالها . وأنبت نباتها بمقادير معلومة موزونة في عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معاش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين ﴾ :

أى وقد خلقنا في السماء نجوماً كباراً ثابت ، وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة ، التى يحار الفكر فى دقائق صنعها ، وقدره مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ :

أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ <sup>(٢)</sup> أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ : أى لكن من أراد اختطاف شيء مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ، تبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين ، فأحرقه ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله فى سورة الملك ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وبعد :

فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً مما لدى الملائكة الكرام فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته ، أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، فقال ﴿ والأرض مددناها ﴾ :

أى وقد بسطنا الأرض ، وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ليتمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل .

وهذا فيما يظهر على مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض . لأن الكرة العظيمة

(٥) الآية ٥ من سورة الملك .

(٣) الآية ٨ من سورة الصافات .

(١) الآية ٦ من سورة الصافات .

(٤) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الجن .

(٢) الآية ٧ من سورة الصافات .

ترى كالسطح المستوى . ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ : أى وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، خوف أن تضطرب بسكانها ، كما قال فى آية أخرى ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ :

أى أن كل نبات قد وُزنت عناصره وقدرت تقديرًا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بواسطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق . والأزهار ، والذى حدد هذا الاختلاف تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر ، وتطرد ما سواه ، لأنه لا يلائمها إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تراه يدخل فى حب الذرة الذى تأكله بمقدار ٣٢٪ ، وفى القصب ٣٤٣٪ ، وفى البرسيم بمقدار ٣٤٦٪ ، وفى البطاطس بمقدار ٦١٪ ، وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكرًا والبرسيم لأن يكون قوتًا للبهائم والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتًا للإنسان .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾

أى أن أنواع معاشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجو ربيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتهم .

﴿ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾ أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والممالك والخدم والدواب ، وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم ، لا أنهم يرزقونهم ، وفى ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا :

أنه سبحانه يسر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعاش ، وسخر لكم الدواب التى تركبونها ، والأنعام التى تأكلونها ، والعبيد التى تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .



## الحكمة الإلهية والقدرة الباهرة

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَنْحُنُّ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

**المفردات :** ﴿ الخزائن ﴾ : واحدها خزانة وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال .  
 ﴿ واللواقح ﴾ : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل . ﴿ وأسقيناكموه ﴾ : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا : سقيته . وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته . قالوا : أسقيته ، أو أسقيت أرضه أو ماشيته . ﴿ والمستقدمين ﴾ : من ماتوا .  
 ﴿ والمستأخرين ﴾ : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

## المناسبة

بَيَّن سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معاش في هذه الحياة ، وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له .  
 قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

هذا من دلائل عظمة الخالق جل جلاله ، له مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ، وما من شيء في هذا الوجود إلا وخزائنه مملوكة لله ، فالنبات والماء والحيوانات والمال وكل شيء نراه أو لانراه مملوك للواحد الديان ، وينزل على عباده بقدر معلوم ومقدار معين ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير <sup>(٢)</sup> قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير <sup>(٣)</sup> .

(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الشورى .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

قال الشيخ المراغي في تفسيرها :

أى أن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :  
 ١ - أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال ، فتعطيها حياة جديدة إذ تزدهر أزهارها وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة . لا حياة فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾ (١).

٢ - أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث ، لتخرج الثمر والفواكه للناس .  
 ٣ - أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها ، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع . كرياضة الحيوان .

﴿ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّحَابِ مَطَرًا فَأَسْقَيْنَاكُمْ ذَلِكَ الْمَطَرُ لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفي ذلك استقامة أمور معاشكم ، وتدير شئون حياتكم إلى حين ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا ﴾ (٢).

﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ : أى ولستم بخازني الماء الذي أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدي وهو خاضع لسلطاني إن شئت حفظته على سطح الأرض ، وإن شئت غار في باطنها وتخلل طبقاتها فلا أبقي منه شيئاً ينفع الناس والحيوان ، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم .

**والخلاصة :** نحن القادرون على إيجادهِ وخزنه في السحاب ، وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

**وللعلم كلمة :** جاء في كتاب القرآن والعلم للدكتور محمد جمال الدين الفندي ما نصه :  
 ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾  
**قال :**

إذ تذكر هذه الآية من إعجاز أحاذ حقيقتين علميتين . الأولى : أن الرياح إنما تلقح السحب لتجود بالمطر ، والثانية : أن هذا المطر لا سبيل إلى خزنه على الدوام في مكان معين من غير أن يتسرب إلى البحر ليتم العملية الطبيعية التي نعرفها اليوم باسم ( الدورة المائية ) أو ( دورة الجو المائية ) التي تتم بين الجو وماء الأرض .

الآية ٥٧ من سورة الأعراف .

الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

وأن الرياح التي اكتشف العلم أنها من أهم العوامل الأساسية في تلقيح كثير من النباتات ، نجدها تلقح السحاب ليجود بالمطر كذلك ، أن تلقيح الرياح عملية تتضمن إمداده بأكداس من جسيمات صغيرة مجهرية ( نوى - التكاثف ) ، هي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقط المطر النامية ، وأعجب العجب أن العلماء يحاولون في عصرنا هذا تلقيح السحب صناعياً بالطائرات ، أو بمولدات خاصة عن طريق مدها بنوى التكاثف هذه عندما يعجز الهواء ، أوتعجز الرياح عن أداء هذه المهمة طبيعياً . ومن البديهي أن قد نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون فيه انطلاق مياه البحر على هيئة أبخرة تحملها الرياح ، حتى إذا ما برد الهواء في مناطق تكون السحب تكاثفت أبخرة المياه التي يحملها وتحولت إلى نقط من الماء لا تلبث باستمرار عمليات التكاثف التي تسقط على هيئة مطر يتجمع ماؤه في المجاري والأنهار التي تصب بدورها في المحيطات والبحار لتعيد الكرة من جديد . ولقد كان الرأي السائد أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذي يجود بالمطر حتى أثبت علم الأرصاد الجوية أخيراً في عصر النهضة العلمية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان معين ، بل أن آخر تقسيم علمي أجري لأنواع السحب والأمطار عمل بحيث تطابق أوصافها طبيعية انسياب الرياح التي تثيرها . فهناك السحب الركامية التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية ، وهناك السحب الطباقية التي تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها في اتجاه صاعد . ومن الأولى تنزل الرخات ومن الثانية يهطل المطر .

والمحيطات هي الوسط الذي يستجيب إلى الرياح ودوراتها ، كما أنها تكون مصادر بخار الماء الرئيسية ، ولهذا نجد أن العلاقة بين الجو والتيارات المائية من أهم الدراسات ، فإن هذه العلاقة تحدد المواسم والبقاع التي تزداد فيها عمليات التبخير ، كما أن التبادل الحراري بين الجو والمحيطات وتياراتها المائية من أهم العوامل التي تؤثر على المناخ .

وبعد .. فإنه لا يسعنا إلا أن نلهج بالشناء لخالق القوى والقدر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، فانظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والأرض واتساعها والبحار وأمواجها والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويهتف بشكره ولا يغفل عن ذكره ، ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ :

الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية ، والروح والرزق لا يملكهما إلا الله ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (٢) ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾ (٣) ﴿ إن الله له ملك السموات

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٤٣ من سورة ق .

(٣) الآية ٤٠ من سورة مريم .

والأرض يحيى ويميت ومالك من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١﴾ ، ﴿سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير \* هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴿٢﴾ .

إن من أسمائه الحسنی الباعث الوارث ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان من ينادى بعد فناء خلقه : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب : الله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

نبيكي على الدنيا وما من معشر	جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجابرة الألى	جمعوا الكنوز فما بقينا ولا بقوا
من ذا الذي ضاق الفضاء بحيشه	حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كألم يعلموا	إن الكلام لهم حلال مطلق

قوله تعالى : ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ هذا إخبار منه جلّت قدرته لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ومما علمه تعالى الذين سبقونا إلى الدار الآخرة فهم مستقدمون ، والذين لم يموتوا بعد ، فعندما يأتي أجلهم يذهبون لا محالة .

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الأكبر والأصغر ، ولا يرجع الماضي إلّى ولا من الباقي غابر ، أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر .

قوله تعالى : ﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾ . لا مفر من لقاء الله ، فالعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ، ﴿فإذا برق البصر﴾ وخسف القمر \* وجمع الشمس والقمر \* يقول الإنسان يومئذ أين المفر \* كلا لا وزر \* إلى ربك يومئذ المستقر \* ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر \* بل الإنسان على نفسه بصيرة \* ولو ألقى معاذيره ﴿٣﴾ .

فكيف تطمئن يا ابن آدم إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء .

ولي في فناء الخلق أكبر عبرة	لمن كان في بحر الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضي	فتفنى جميعاً والمهيمن باقي

إن مردنا إلى الله ، والبعث حق ، والحشر حق ، والحساب حق ، والصراف حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبون حق ، ومحمد حق ، إن الذي سنحشر إليه حكيم منزّه عن العبث ، عليم لا يخفى

(٣) الآيات ٧ - ١٥ من سورة القيامة .

(١) الآية ١١٦ من سورة التوبة .

(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الحديد .

عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يقول وقوله الحق : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾ \* ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿ <sup>(١)</sup> ويقول : ﴿ إن إلينا إياهم ﴾ \* ثم إن علينا حسابهم ﴿ <sup>(٢)</sup> .

### قصة الإنسان والجن

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

**المفردات :** ﴿ صلصال ﴾ : أى طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، وهو غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار . ﴿ حمأ ﴾ : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له ، واحدته حمأة . ﴿ مسنون ﴾ : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب . ﴿ والجآن ﴾ : أى هذا الجنس ، كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجآن أبو الجن . و ﴿ نار السموم ﴾ : هي النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ في المسام . ﴿ بشرا ﴾ : أى إنساناً ، وسمي بذلك لظهور بشرته ، أي ظاهر جلده . ﴿ سويته ﴾ : أى أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه . ﴿ والنفخ ﴾ : إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها . ﴿ رجيم ﴾ : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة . ﴿ اللعنة ﴾ : الإبعاد على سبيل السخط . ﴿ يوم الدين ﴾ : أى يوم الجزاء . ﴿ فأنظرنى ﴾ : أى أمهلني وأخرني ولا تمتني . ﴿ يوم الوقت المعلوم ﴾ : هو وقت النفخة الأولى حين

تموت الخلائق ، كما روي عن ابن عباس . ﴿ الإغواء ﴾ : الإضلال . ﴿ هذا صراط علي ﴾ : أى هذا صراط حق لا بد أن أراعيه . ﴿ مستقيم ﴾ : أى لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره . ﴿ والسلطان ﴾ : التسلط والتصرف بالإغواء . ﴿ سبعة أبواب ﴾ : أى سبع طبقات . ﴿ جزء مقسوم ﴾ : أى فريق معين مفروز من غيره .

ورد في الصحيح : [ خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم وما وصف لكم ] <sup>(١)</sup> والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارته محتدة .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون \* فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين \* فسجد الملائكة كلهم أجمعون \* إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين \* قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين \* قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمإ مسنون ﴾ .

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكبار . وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمإ مسنون ﴾ كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قال فاخرج منها فإنك رجيم \* وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين \* قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون \* قال فإنك من المنظرين \* إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ .

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من الزلة التي كان فيها من الملائكة الأعلى ، وأنه رجيم أى مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لاتزال به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين \* إلا عبادك منهم المخلصين \* قال هذا صراط على مستقيم \* إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين \* وإن جهنم لموعدهم أجمعين \* لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب : ﴿ بما أغويتني ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه لسبب ما أغويتني وأضللتنني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أى لذرية آدم عليه السلام ﴿ في الأرض ﴾ أى أحب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وآزرهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً ،

(٢) الآية ١٢ من سورة الأعراف .

(١) رواه أبو داود بنحو هذا اللفظ في الأدب (٣) . والإمام أحمد في ٤ : ٢٢٦ .

﴿وَلَا تُؤْمِنُوا بِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَى كَمَا أَغْوَيْتَنِي وَقَدَّرْتَ عَلَيَّ ذَلِكَ ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَى لُثْنٍ أُخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ <sup>(١)</sup>.

قال الله تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ﴾ : أَى مَرْجِعُكُمْ كُلُّكُمْ إِلَيَّ ، فَأَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنْ رَبُّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾ <sup>(٢)</sup> وَقِيلَ طَرِيقَ الْحَقِّ مَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَيْهِ تَنْتَهِي .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ : أَى الَّذِينَ قَدَّرْتَ لَهُمُ الْهُدَايَةَ فَلَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهِمْ وَلَا وَصُولَ لَكَ إِلَيْهِمْ ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ إِلَّا هُنَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ . أَى وَلَكِنْ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ فَأَنْتَ وَشَأْنُكَ بِهِمْ فَقَدْ اسْتَحْبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ، وَاسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى <sup>(٣)</sup> ، ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ <sup>(٤)</sup> ، ﴿وَلَهُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ <sup>(٥)</sup>.

وَمَا أَجْمَلَ هَذَا النَّصِيحَ الْعَظِيمَ ﴿أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ \* هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ \* أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ <sup>(٦)</sup>.

وَمَا أَعْظَمَ هَذَا الْبَيَانَ الْإِلَهِيَّ الْكَرِيمَ : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ <sup>(٧)</sup>.

وَمَا أَكْرَمَ هَذَا التَّوْجِيهَ الرَّبَّانِيَّ الرَّائِعَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ <sup>(٨)</sup>.

إِنْ أَقْصَى دَرَجَاتُ الضَّلَالِ أَنْ يُزِينِ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ سُوءَ عَمَلِهِ فَيَرَاهُ حَسَنًا ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَزِينْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ <sup>(٩)</sup>.

وَمِنْ هُنَا يَقُولُ تَعَالَى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ <sup>(١٠)</sup> ، وَيَقُولُ : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ <sup>(١١)</sup>.

(١) الْآيَةُ ٦٢ مِنْ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ . (٥) الْآيَتَانِ ٣٧ ، ٣٨ مِنْ سُورَةِ الزَّخْرَفِ . (٩) الْآيَةُ ٢٤ كَمْ سُورَةِ النَّحْلِ .

(٢) الْآيَةُ ١٤ مِنْ سُورَةِ الْفَجْرِ . (٦) الْآيَاتُ ٦٠ - ٦٤ مِنْ سُورَةِ يَس . (١٠) الْآيَةُ ٢٧ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(٣) الْآيَاتُ ١٢٤ - ١٢٧ مِنْ سُورَةِ طه . (٧) الْآيَةُ ٦ مِنْ سُورَةِ فَاطِر . (١١) الْآيَةُ ١٢١ مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

(٤) الْآيَةُ ٣٦ مِنْ سُورَةِ الزَّخْرَفِ . (٨) الْآيَةُ ٢١ مِنْ سُورَةِ النُّورِ .

وإن الشيطان هو ذئب ابن آدم ، مثله في ذلك كذئب الغنم غادر ماكر ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (١).

وما أروع هذا التصوير التراقي : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ (٢).

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٣).

فاحذروا أيها العقلاء مكاييد الشيطان ومصايدِهِ وشباكه وشراكه ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (٤) . ولا تقنطوا من رحمة الله ولا تيأسوا من روح الله .

لقد قال إبليس لله جل جلاله وعزتك وجلالك لأغوينهم ، مادامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة : وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني .

سبحانك ربي

أنت الذي تهب الكثير وتجير القلب الكسير وتغفر الزلات  
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضي له الحاجات

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب فينظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم : هذا إخبار منه تعالى بمصير الغاوين ، وأن مصيرهم إلى جهنم ﴿ وللذين كفروا بربههم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير \* وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير \* فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٦).

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم . (٣) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة الحجر . (٥) الآيات ٦ - ١٢ من سورة الملك .  
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال . (٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف . (٦) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .



كما أخبر سبحانه إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن لكل باب من هذه الأبواب نصيباً معلوماً من الأشقياء ، وذلك لأن جهنم كانت مرصداً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿٤٦﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا بعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿٤٧﴾.

### إكرام المتقين

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٨﴾ آذْخُلُوهُمْ بِسَلَامٍ ؕ أَمِينٍ ﴿٤٩﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٠﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٥١﴾

**المفردات :** ﴿المتقون﴾ : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، ﴿جنات﴾ : أى بساتين ، ﴿وعيون﴾ : أى أنهار جارية ، ﴿بسلام﴾ : أى بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، و﴿الغل﴾ : الحقد الكامن في القلب ، و﴿السُرر﴾ : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيباً للسرور ، و﴿النصب﴾ : الإعياء والتعب .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية ، وبين أنهم في نار جهنم يخلدون فيها أبداً ، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض ، بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصي - أردفه ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووافق بعضهم مع بعض لا ضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبداً .

اعلم بأن التقوى هي السلاح الأقوى ، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن اتقى الله خافه ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أطاعه ومن أطاع الله ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله علماً ﴿٥٢﴾ .

قال تعالى : ﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾ ﴿٥٣﴾ وقال : ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ ﴿٥٤﴾ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى      تقلب عرياناً ولو كان كاسياً  
وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصياً

ولقد أعد الله لعباده المتقين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿١﴾ إن المتقين في ظلال وعيون \* وفواكه مما يشتهون \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* إنا كذلك نجزي المحسنين ﴿٢﴾ ، ﴿٣﴾ إن المتقين في جنات وعيون \* آخذين ما أتاهم ربهم لأنهم كانوا قبل ذلك محسنين \* كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون \* وبالأسحار هم يستغفرون \* وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿٤﴾ ، ﴿٥﴾ إن المتقين في جنات ونعيم \* فأكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴿٦﴾ ، ﴿٧﴾ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين \* والذين آمنوا واتبعتم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين \* وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون \* يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم \* ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون \* وأقبل بعضهم على بعض يتسألون \* قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين \* فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم \* إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴿٨﴾ .

﴿٩﴾ إن المتقين في مقام أمين \* في جنات وعيون \* يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين \* كذلك وزوجناهم بحور عين \* يدعون فيها بكل فاكهة آمنين \* لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم \* فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴿١٠﴾ ، ﴿١١﴾ إن المتقين في جنات ونهر \* في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿١٢﴾ ، ﴿١٣﴾ إن للمتقين مفازاً \* حدائق وأعناباً \* وكواعب أتراباً \* وكأساً دهاقاً \* لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً \* جزاء من ربك عطاء حساباً ﴿١٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ أى من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ﴿ بسلام ﴾ أى سالمين من الآفات ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾ (١٥) فهل بعد السلامة والأمن من شيء يقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (١٦) .

إن الله تعالى قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق الرغد قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾ (١٧) .

ما قيمة الحياة إذا خلت من الأمن إنها إذا كانت كذلك صارت فزعاً وقلقاً واضطراباً وجحيماً وغصة وعذاباً ولن يكون هناك أمن بلا إيمان .

- (١) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة المرسلات . (٥) الآيات ٥١ - ٥٦ من سورة الدخان . (٩) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .  
(٢) الآيات ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات . (٦) الآيات ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر . (١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل .  
(٣) الآيات ١٧ - ١٩ من سورة الطور . (٧) الآيات ٣١ - ٣٦ من سورة النبأ .  
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٨ من سورة الطور . (٨) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان  
ولا دنيا لمن لم يحى ديناً  
ومن رضى الحياة بغير دين  
فقد جعل الفناء لها قريناً

قوله تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ﴾  
روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحنا  
والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ ﴿ ونزعنا ما في  
صدورهم من غل ﴾ .

وعن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل  
السبع الضاري .

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم  
أن رسول الله ﷺ قال : ( يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتض لبعضهم  
من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة )<sup>(١)</sup> .  
﴿ إخواناً على سرر متقابلين ﴾ : أى ينظر بعضهم إلى بعض ليسوا متدابرين ، إنما إخوة في الله ،  
ومستقر في رحمة الله . ﴿ لا يمسه فيها نصب ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الصحيحين : ( إن  
الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب )<sup>(٢)</sup> . وقوله : ﴿ وما هم  
منها بمخرجين ﴾ كما جاء في الحديث : ( يقال يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمضوا أبداً ، وإن لكم  
أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً )<sup>(٣)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ خالدن فيها لا ييغون عنها حولا ﴾<sup>(٤)</sup> .

### وعد ووعد وقصص

\* نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٢٠﴾ وَنَبِيَّهُمْ  
عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾  
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشْرُتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمِ

(١) أخرجه البخارى في المظالم (١) ومسلم في الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح : ١٠٨ ، وفي العمرة : ١١ ، وفي مناقب الأنصار : ٢٠ ، وفي الأدب : ٢٣ ، وفي التوحيد :  
٣٢ ، ٣٥ . ومسلم في فضائل الصحابة : ٧١ - ٧٤ . وابن ماجه في النكاح : ٥٦ . والإمام أحمد في : ٢ : ٢٣١ . وفي ٦ :  
٥٨ ، ٢٠٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة : ٢٢ . والترمذي في التفسير ( سورة ٣٩ : ٩ ) . والدارمي في الرقاق : ١٠٣ . والإمام أحمد في : ٢ :  
٣١٩ ، وفي ٣ : ٣٨ ، ٩٥ .

(٤) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا لَهَا لَمَنِ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَنِيمِ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهًا وَامْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّا لَإِلْسِيلٌ مُقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

**المفردات :** ﴿ نبيء ﴾ : تقول أنبأت القوم إنباءً وثبأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، ﴿ والوجل ﴾ : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، ﴿ عليم ﴾ : أى ذي علم كثير ، ﴿ بالحق ﴾ : أى بالأمر المحقق الذي لا شك في وقوعه ، ﴿ وقنط من كذا ﴾ : أى يئس من حصوله ، ﴿ والضالون ﴾ : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، ﴿ وخطبكم ﴾ : أى أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم ، ﴿ قدرنا ﴾ : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه ، أى جعله على مقدار الكفاية في الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، ﴿ والغابرين ﴾ : أى الباقيين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن في الضرع ، ﴿ منكرون ﴾ : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم على ؟ ﴿ ويمترون ﴾ : أى يشكون ويكذبون به ، ﴿ فأسر ﴾

بأهلك ﴿ : أى اذهب بهم ليلاً ، ﴿ والقطع من الليل ﴾ : الطائفة منه ، ﴿ اتبع أديارهم ﴾ : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، ﴿ وقضينا ﴾ : أى أوحينا ، ﴿ ودابر ﴾ : آخر ، ﴿ ومقطوع ﴾ : أى مهلك مستأصل ، ﴿ مصبحين ﴾ : أى في وقت الصباح ، ﴿ والمدينة ﴾ : هي سدوم ( بالذال المعجمة ) مدينة قوم لوط ، ﴿ والاستبشار ﴾ : إظهار السرور ، ﴿ والفضيحة ﴾ : إظهار ما يوجب العار ، ﴿ والخزى ﴾ : الذل والهوان ، ﴿ والعقر والعمر ﴾ : ( بالفتح والضم ) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لا غير ، ﴿ سكرتهم ﴾ : غوايتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ : أى يتحiron ، ﴿ والصيحة ﴾ : الصاعقة ، وكل سقى وأهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ﴿ ومشرقين ﴾ : أى داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ، ﴿ والسجيل ﴾ : الطين المتحجر ، ﴿ للمتوسمين ﴾ : أى المتفرسين الذين ينثون في نظرهم ليعرفوا سمة الشيء وعلامته ، يقال توسمت في فلان خيراً : أى ظهرت منه علاماته ، ﴿ لبسيل مقيم ﴾ : أى لطريق واضح مُعلم ليس بخفي ولا زائل ، ﴿ أصحاب الأيكة ﴾ : قوم شعيب عليه السلام ، ﴿ والأيكة ﴾ : الغيضة ، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا في مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، ﴿ لبإمام ميين ﴾ : أى لطريق واضح وأصل الإمام مايؤتم به سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، ﴿ وأصحاب الحجر ﴾ : هم ثمود ، ﴿ والحجر ﴾ : واد بين المدينة والشام وكانوا يسكنون ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً ومنه حجر الكعبة ، ﴿ وآياتنا ﴾ : هي الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام مايؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تُسلك .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين بحسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التي لانصب بعدها ولا تعب ، وجلوس بعضهم مع بعض يتجاذبون أطراف الحديث وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين أردف ذلك بخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها .

ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بسلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجتروحوا من كبرى الموبقات ، وقطيع الجنائيات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أثراً بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال ، وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات

رهبم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم ما لهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره . \*

قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ :

ذكر في سبب نزولها مارواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مر رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : ( اذكروا الجنة واذكروا النار ) فنزلت الآية . ( رواه ابن أبى حاتم وهو مرسل ) .

وقال سعيد عن قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : ( لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه ) .

وهكذا حال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، حتى يقوم الوزن بالقسط ، وتقف النفس على حقيقة الاعتدال فالخوف دائماً يذكرها بما بعد الموت من حساب وأهوال . والرجاء يفتح لها أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء . وميزان الإسلام عادل مستقيم لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط .. لا غلو ولا انحلال ولا تنطع ولا تحلل . قال جل شأنه : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ :

هذا جانب الوعيد بعد الوعد وجانب الخوف بعد الرجاء حتى لا يغتر العبد بكرم ربه فيقال له : ﴿ يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وحتى لا يتمنى على الله الأماني فيقال له : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

قوله تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون \* قالوا لا تؤجل إنا نبشرك بغلام عليم \* قال أبشروني على أن منسنى الكبير فبم تبشرون \* قالوا بشرنأك بالحق فلا تكن من القانطين \* قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ .

في هذا المشهد القرآني الكريم يأمر الله الرسول ﷺ أن ينبئ أمته ويخبرهم عن ضيف إبراهيم عندما دخلوا عليه وألقوا السلام ، فردّ عليهم كما جاء ذلك في سورة هود .

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وهنا قال تعالى : ﴿ إنا منكم وجلون ﴾ أى خائفون . وقد جاء تفسير ذلك في سورة هود .

(٣) الآية ٦ من سورة الانفطار .

(٤) الآية ٦٩ من سورة هود .

(١) الآية ٦ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

قال جل شأنه : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وهنا يقول تعالى : ﴿ قَالُوا لَا تَتَّخِذْ لَنَا بُشْرًا يَكُونُ فَتْحًا لَنَا وَإِنْ كُنَّا لَنَكُونُ مِنْكُمْ ﴾ وقال ذلك الغلام إسحاق ، كما جاء بيان ذلك في سورة هود . قال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَبَشِّرْهُنَّ عَلَىٰ أَنْ مَسْنَىٰ الْكَبِيرِ فَبَشَّرْنَ ﴾ .  
أى . أيولد لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، فجاء الرد . قالوا : ﴿ بَشْرُنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ والمراد بالحق : الأمر الثابت المتحقق الوقوع الذي لا مرأى فيه ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أى اليائسين .

﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ وحاشا أن يقنط المؤمن من رحمة الله . وقد جاء في سورة هود ، قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ . قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت \* إنه حميد مجيد ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين \* إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين \* إلا امرأته قدَّرتنا إنها لمن الغابرين ﴿

لما سمع إبراهيم البشرى من ضيفه المكرمين وكانوا من ملائكة الرحمن وذهب عنه الروع ، سأهم : ما خطبكم ؟ وما شأنكم ؟ وهل كان مجيئكم خاصاً بتلك البشرى ؟ أخبروه بأنهم قد أرسلوا إلى قوم مجرمين ، وهم قوم لوط . وأن الله تعالى سيهلكهم وسينجي آل لوط إلا امرأته فإنها باقية في العذاب . قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ \* إِنْ أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ قال إنكم قوم منكرون \* قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون \* وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ﴿

وهكذا ينتقل الحديث بنا إلى لوط وقومه : لقد ذهبت الملائكة إلى لوط فأنكرهم إذ لم يسبق له بهم عهد ، ولم يرهم من قبل بهيئتهم تلك قال : إنكم قوم منكرون ، قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى يشكون ويترددون . وسواء أكان هذا الذي يمترون فيه هو الحق الذي بعثت به الرسل أم العذاب النازل بهم عما قليل .

﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ : والملائكة لا تنزل إلا بالحق . قال تعالى : ﴿ مَا نَنْزِلُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾<sup>(٥)</sup> . وقولهم ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فيما وعدناك به من نجاتك ونجاة أهلك .

(٣) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٨ من سورة الحجر .

(١) الآية ٥٣ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٧١ - ٧٢ من سورة هود .

قوله تعالى : ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴿ :

هذا أمر من الله تعالى لنبية لوط أن يسير بأهله بجزء من الليل ، وأن يسير وراءهم حتى يرعى شئونهم ، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في الغزو ، كما نهاهم عن أن يلتفت منهم أحد إذا سمعوا صيحة العذاب قد حلت بالقوم ، كما أمرهم أن يمضوا في سيرهم حيث يؤمرون ، وقضى إليه ذلك الأمر وأنها إلى علمه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وأن عذاب الاستئصال لن يبقى منهم ولن يذر كما قال تعالى : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود \* مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴿<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون \* واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم نهك عن العالمين \* قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين \* لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿ :

لما علم قوم لوط بأن عنده ضيفاً جاءوا يستبشرون فرحين ، فقد رأوا فيهم جمال الخلق ووضاعة الوجوه . وأراد لوط أن يحمي الضيف من عبث هؤلاء المجرمين فقال لهم : ﴿ إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴾ فإن إكرام الضيف واجب ، وليس من إكرامه أن يُساء إليه ، فالكرم من شيم الرجال ، والإساءة من خصال اللثام . قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾<sup>(٢)</sup>.

قال لهم لوط : ﴿ اتقوا الله ولا تخزون ﴾ أى ﴿ ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾<sup>(٣)</sup> وهنا يقول لهم : ﴿ اتقوا الله ﴾ ليشير في أنفسهم كوامن النخوة والمروءة وشهامة الرجال ، لكنهم كانوا لئاماً لا يرقبون إلا ولا ذمة ولا يُراعون ضيفاً ولا جاراً : ﴿ قالوا أولم نهك عن العالمين ﴾ ، ﴿ قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿ .

يخبر تعالى بأن قوم لوط أجابوه قائلين ﴿ أولم نهك عن العالمين ﴾ أى أوما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة ، وهذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصحبهم من العذاب المستقر ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشریف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض .

عن ابن عباس أنه قال : ( ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره ) .

قال تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ يقول : وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا ﴿ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ رواه ابن جرير .



وقال قتادة : ﴿ في سكرتهم ﴾ أى في ضلالتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ أى يلعبون وقيل يترددون .  
قوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ﴾ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من  
سجيل \* إن في ذلك لآيات للمتوسمين \* وإنها لبسبيل مقيم \* إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴿ :  
يقول تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ : وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس  
وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وإرسال حجارة  
السجيل عليهم وهو الطين المتحجر .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ : أى إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن  
تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله ﴿ للمتوسمين ﴾ قال المتفرسين . وعن ابن  
عباس والضحاك : للناظرين .

وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : ﴿ للمتوسمين ﴾ للمتأملين .  
عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : ( اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله )<sup>(١)</sup> ثم  
قرأ النبي ﷺ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ رواه الترمذي .

وعن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : ( إن الله عباداً يعرفون الناس بالتوسم ) .  
قوله تعالى : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أى وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري  
والمعنوي والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة متنتة خبيثة بطريق مهيع مسالكة مستمرة إلى اليوم  
كقوله : ﴿ وإنكم لترون عليهم مصبحين ﴾ وبالليل أفلا تعقلون \* وإن يونس لمن المرسلين ﴿<sup>(٢)</sup> .  
وقال مجاهد والضحاك : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ قال معلم . وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال  
قتادة أيضاً : بصقع من الأرض واحد . وقال السدي : بكتاب مبين معنى كقوله : ﴿ وكل شيء  
أحصيناه في إمام مبين ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ : أى إن ما وقع بقوم لوط من العذاب حيث جعلنا عاليها  
سافلها لآية بينة وعبرة واضحة لكل مؤمن مصدق بما أنزل الله على رسوله ، كما أن في إنجائنا لوطاً ومن  
آمن به آية بينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قوله تعالى : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ﴾ فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴿ : المقصود  
بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام . قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾ إذ قال  
لهم شعيب ألا تتقون \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى  
إلا على رب العالمين ﴿<sup>(٤)</sup> .

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة  
والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان .

(٣) الآية ١٢ من سورة يس .

(٤) الآيات ١٧٦ - ١٨٠ من سورة الشعراء .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٥ : ٦ .

(٢) الآيات ١٣٧ - ١٣٩ من سورة الصافات .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا لِبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ : أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره : طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ <sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ \* وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ \* وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا أَمْنِينَ \* فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ \* فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبياً عليهم عليه السلام من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، لأن الأنبياء جميعاً عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ <sup>(٢)</sup>.

ولذلك فقد أفرد الله تعالى الأنبياء في لفظ رسول في قوله جل شأنه : ﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ . فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴾ <sup>(٣)</sup> ومن كلامه ﷺ « أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » <sup>(٤)</sup>.

جاء في سورة الشعراء : ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ \* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ \* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا \* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(٥)</sup>. قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ : وهذه الآيات معجزات خارقة للعادة تدل على صدق من ظهرت على يديه من الأنبياء ، مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثلها ، وقد كانت معجزة صالح الناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ <sup>(٦)</sup>.

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ <sup>(٧)</sup>. وذكر تعالى أنهم : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا أَمْنِينَ ﴾ أى من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فنقع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : ( لا تدخلوا بيوت القوم المعذنين إلا أن تكونوا ياكين فإن لم تبكوا فبأكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم ) <sup>(٨)</sup>.

وقوله : ﴿ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ : أى وقت الصباح من اليوم الرابع . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ : أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في الحياة فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعمهم لما جاء أمر ربك .

(٥) الآيات ١٤١ - ١٤٥ من سورة الشعراء .

(٦) الآية ٦٥ من سورة هود .

(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٨) الحديث أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ . (أ) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٦ .

وفي الزهد : ١٩ .

(١) الآية ٨٩ من سورة هود .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحاقة .

## عقائد وتوجيهات

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تُمَدِّنْ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَآخُضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ بالحق ﴾ : بالحكمة والمصلحة . ﴿ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ : ترك التثريب واللوم . ﴿ المَثَانِي ﴾ : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة . ﴿ ومد عينيه إلى مال فلان ﴾ : اشتباه وتمناه . ﴿ الأزواج ﴾ : واحدها زوج وهو الصنف . ﴿ وخفض الجناح ﴾ : يراد به التواضع وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له والجناحان من الإنسان : جانباه . ﴿ والنذير ﴾ : الخوف بعقاب الله من لم يؤمن به . ﴿ وعضين ﴾ : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً . ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً يضيق صدرك : أى ينقبض من الحسرة والحزن . ﴿ والساجدين ﴾ : أى المصلين . ﴿ اليقين ﴾ : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لاشك فيه .

## المناسبة

بعد أن ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسُلها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصي التي تقوض دعائم الإخلاص لبارئ السم وتهد أركان نظم المجتمع ، بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطيف الكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الأدواق السليمة ، أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعة واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ : أى بالحكمة والعدل . ما خلقناهما عبثاً ولا ظلماً ولا باطلاً .

قال تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال جل شأنه : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين \* لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين \* بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال عظمت حكمته : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون \* فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ : الساعة من أسماء القيامة ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ <sup>(٦)</sup> وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها \* فيم أنت من ذكراها \* إلى ربك منتهاها \* إنما أنت منذر من يخشاها \* كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ <sup>(٧)</sup> .

ثم يأمر الله تعالى حبيبه ومصطفاه بالصفح الجميل الذي لا شكوى فيه ، كما أمره بالصبر الجميل في قوله جل شأنه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع \* للكافرين ليس له دافع \* من الله ذى المعارج \* تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً ﴾ <sup>(٨)</sup> كما أمره بالهجر الجميل في قوله : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ <sup>(٩)</sup> . وهكذا دعوة الإسلام صفح جميل وصبر جميل وهجر جميل ، وقد صدق الله إذ يقول لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ <sup>(١٠)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ : أى الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديراً فهو مبدع الكائنات وموجد الخلائق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابه بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . إن الذي خلق السموات والأرض بالحق قادر على إحياء الموتى عند قيام الساعة .

(٦) الآية الأولى من سورة الحج .

(٧) الآيات ٤٢ - ٤٦ من سورة النازعات .

(٨) الآيات ١ - ٤ من سورة المعارج .

(٩) الآية ١٠ من سورة المزمل .

(١٠) الآية ٤ من سورة القلم .

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .

(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .

(٣) الآيات ١٦ - ١٨ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .

(٥) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

قال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين \* وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم \* قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون \* أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ (١).

قال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم \* لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ :

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ، أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم وما أغدق عليه من الإحسان ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلة على احتمال الأذى فذكر أنه آتاه السبع المثاني ( الفاتحة ) والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له مظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها يتمنى ما فيها من متاع ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين وبإنداد قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه بالبيان الكافي والإعزاز الشافي وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين ( اليهود والنصارى ) الذين جعلوا القرآن آفاقاً فأمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك وبيّن لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم .

فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر فليسبح ربه وليحمده وليكثر له الطاعة .

فالعبد إذا حزنه أمر فزع إلى طاعة ربه ، وقد تكفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة ، وهي سبع آيات وروى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس . قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها وبه قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وقتادة ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهم فاتحة الكتاب ، وأنهم يثنون في كل ركعة مكتوبة أو تطوع .

روى البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المولى قال مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آتته حتى صليت فأتيته فقال : ( ما منعك أن تأتيني ) فقلت : كنت أصلي فقال : ( ألم يقل الله : ﴿ يا أيها الذين

(١) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٤ من سورة ق .

آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴿١﴾ : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ( .

فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته (١) .

وقد عطف القرآن العظيم على السبع المثاني من باب عطف العام على الخاص كما في قوله تعالى ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ : أى استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن هنا ذهب ابن عيينه إلى تفسير الحديث الصحيح ( ليس منا من لم يتغن بالقرآن ) (٢) إلى أنه يستغنى به عما عداه .

قال ابن عباس ﴿ لا تمدن عينيك ﴾ قال نهي الرجل أن يتمنى ما لصاحبه وقال مجاهد ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ﴾ هم الأغنياء .

وقوله ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : أى لا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنما عليك البلاغ إن أنت إلا نذير ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ : أى ألن جانبك لمن اتبعك من المؤمنين ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ (٣) .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (٤) .  
﴿ وقل إني أنا النذير المبين ﴾ : يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ :  
البيان النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم في تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسولها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : ﴿ كما أنزلنا على المقتسمين \* الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ .

أى ولقد آتيناك سبعاً من المثاني كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل وهم الذين اقتسموا القرآن وجزعوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ﷺ ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال :  
﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين \* عما كانوا يعملون ﴾ : أى فلنسألن الكفار جميعاً سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدي

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١ : ١ ، في تفسير سورة ١٥ : ٣ . وفي فضائل القرآن : ٩ . والترمذي في ثواب القرآن : ١ . والنسائي في الافتتاح : ٢٦ . والإمام مالك في النداء : ٣٧ . والإمام أحمد في ٤ : ٢١١ ، وفي ٥ : ١١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد : ٤٤ . وأبو داود في الوتر : ٢٠ . والدارمي في الصلاة : ١٧١ ، وفي فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران . (٤) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

والبراءة من الأنداد والأوثان روى أبو جعفر عن الربيع عن أنى العالية فى تفسير الآية يسأل الله العباد كلهم عن تخلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعماداً أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ ( يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك ) .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ : أى فاجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصراع شديداً عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكاله منهم فلا يخشى بأسهم فقال : ﴿ إنا كفيناك المستهزين ﴾ : أى إنا كفيناك شر المستهزين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه أو يمر بهم أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب . وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقاً فى عقبه فمات .

ومات العاص بشوكة فى إخمص قدمه وأصاب عدى بن قيس مرض فى أنفه فمات وأصيب الأسود ابن عبد يغوث بداء وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . وعمى الأسود بن عبد المطلب . وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزين بالشرك فقال : ﴿ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴾ : أى هم الذين اتخذوا إلهاً آخر مع الله يعبدونه وفى وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ وتهوين للخطب عليه إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة بل تعدوه إلى الإشراف بربهم المدبر لأموالهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ : عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم يوم تجزى كل نفس بما علمت يوم ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسليته أخرى له فقال : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ : من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان ما يؤلمه ويحزنه أن يرى فى نفسه انقباضاً وضيقاً فى الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين \* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ : أى إذا نزل بك الضيق ووجهت نفسك فافزع إلى ربك ونزهه عما يقولون ، حامداً له على توفيقك للحق وهدايتك إلى سبيل الرشاد وصل آناء الليل وأطراف النهار فإن في مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ويسمو بنفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد في الحديث : ( أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد )<sup>(١)</sup> .

ودم على ما أنت عليه طالباً المزيد من فضله حتى يأتيك الموت فهناك الجزاء بلا عمل وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك : أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده في نفسه من الغم بفعل الطاعات والاكتثار من العبادات وقد كان ﷺ إذا حزته أمر أو اشتد عليه خطب فزع إلى الصلاة .

روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال تعالى : ﴿ يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون ﴿ لم نك من المصلين \* ولم نك نطعم المسكين \* وكنا نخوض مع الخائضين \* وكنا نكذب بيوم الدين \* حتى أتانا اليقين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وفي هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : ( صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب )<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه مسلم في الصلاة : ٢١٥ . والنسائي في المواقيت : ٣٥ ، وفي التطبيق : ٧٨ . والترمذي في الدعوات : ١١٨ . والإمام أحمد في ٤٢١ : ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وفي ٦ : ٤٤٠ ، ٤٥١ .

(٣) الآيات ٤٣ - ٤٧ من سورة المدثر .

(٤) أخرجه البخاري في التقصير : ١٩ .



## سورة النحل

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية ، إلا قوله ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها مائة وثمانية وعشرون .

وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربعون .

وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف .

وسميت سورة النحل لما فيها من عجائب ذكر النحل .

معظم ما أشتملت عليه السورة :

تخويف العباد بمجىء القيامة ، وإقامة حجة الوجدانية ، وذكر ما في الأنعام من المنافع والنعم ، وما في المراكب من التجميل والزينة ، وذكر النبات والشجر وتسخير الشمس والقمر ، وتثبيت الأرض والجبال والحجر ، وهداية الكواكب في السفر والحضر ، والنعم الزائدة عن العد والإحصاء .

والإنكار على أهل الإنكار ، وجزاء مكر المكّار ، ولعنة الملائكة على الأشرار ، عند الاحتضار ، وسلامهم في ذلك الوقت على الأبرار والأخيار .

وبيان أحوال الأنبياء والمرسلين مع الأمم الماضية ، وذكر الهجرة والمهاجرين ، وذكر التوحيد ، وتعريف المنعم ، ونعمة السابغات ، ومذمة المشتركين بؤاد البنات ، وبيان الأسماء والصفات .

والمنة على الخلائق بإنزال الرحمات ، وعدّها من الإناعم في باب الأنعام والحيوانات ، وبيان فوائد النحل ، وذكر ما اشتمل عليه من عجيب الحالات ، وتفضيل الخلق في باب الأرزاق والأقوات ، وبيان حال المؤمن والكافر ، وتسخير الطيور في الجو صافات ، والمنّة بالمساكن والصحارى والبريات ، وشكاية المتكبرين .

وذكر ما أعِدّ لهم من العقوبات ، والأمر بالعدل والإحسان ، والنهي عن نقض العهد والخيانات ، وأن الحياة الطيبة في ضمن الطاعات ، وتعلم الاستعاذة بالله في حال تلاوة الآيات المحكمات ورد سلطان الشيطان عن المؤمنين والمؤمنات ، وتبديل الآيات بالآيات ، لمصالح المسلمين والمسلمات ، والرخصة بالتكلم بكلمة الكفر عند الإكراه والضرورات ، وبيان التحريم والتحليل في بعض الحالات .

وذكر إبراهيم الخليل وما منحه من الدرجات ، وذكر السبب والدعاء إلى سبيل الله بالحكمة والعظمت الحسنات ، والأمر بالتسوية في المكافآت بالعقوبات ، والأمر بالصبر على البليّات ، ووعد المتقين والمحسنين بأعظم الثوابات ، بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

## المتشابهات

فيها في موضعين ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ : بالجمع . وفي خمسة مواضع ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ : على الوحدة . أما الجمع فلموافقة قوله : ﴿ مستخرات ﴾ : في الآيتين لتقع المطابقة في اللفظ والمعنى . وأما التوحيد فلتوحيد المدلول عليه .

من الخمس قوله : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ : وليس له نظير . وخص بالذكر لاتصاله بقوله : ﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ : فإن اختلاف ألوان الشيء وتغير أحواله يدل على صانع حكيم لا يشبهها ولا تشبهه ، فمن تأمل فيها اذكر .

ومن الخمس : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : في موضعين ، وليس لهما نظير : ونخصنا بالفكر ، لأن الأولى متصلة بقوله : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ : وأكثرها للأكل ، وبه قوام البدن فيستدعى تفكيراً وتأملأ ، ليعرف به المنعم عليه فيشكره .

والثانية متصلة بذكر النحل ، وفيها أعجوبة : من انقيادها لأمرها ، واتخاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق منا ، ثم تتبّعها الزهر والطلّي من الأشجار ، ثم خروج ذلك من بطونها لعاباً ، فاقتضى ذلك فكراً بليغاً ، فختم في الآيتين بالتفكير .

قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ﴾ : وفي الملائكة ( فاطر ) ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا ﴾ <sup>(١)</sup> .

في هذه السورة جاء على القياس ، فإن ﴿ الفلك ﴾ المفعول الأول لترى ، و ﴿ مواخر ﴾ المفعول الثاني ، و ﴿ فيه ﴾ ظرف ، وحقه التأخر . والواو في ﴿ ولتبتغوا ﴾ للعطف على لام العلة في قوله : ﴿ لتأكلوا منه ﴾ .

وأما في الملائكة فقدّم ﴿ فيه ﴾ موافقة لما قبله ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا منه لحماً طرياً ﴾ فقدم الجار والمجرور ، على الفعل والفاعل ولم يزد الواو على ﴿ لتبتغوا ﴾ : لأن اللام في ( لتبتغوا ) هنا لام العلة ، وليس يعطف على شيء قبله .

ثم إن قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ و ﴿ وفيه مواخر ﴾ اعتراض في السورتين يجرى مجرى المثل ، ولهذا وُحِدَ الخطاب . وهو قوله : ﴿ وترى ﴾ وقبله وبعده جمع ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا ﴾ و ﴿ تستخرجوا ﴾ و ﴿ لتبتغوا ﴾ .

وفي الملائكة ﴿ تأكلون ﴾ و ﴿ تستخرجون ﴾ ﴿ لتبتغوا ﴾ ومثله في القرآن كثير ، منه ﴿ كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الحديد .

وكذلك ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش ﴾<sup>(٢)</sup> وأمثاله .  
 أى لو حضرت أيها المخاطب لرأيت في هذه الصفة ، كما تقول : أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل .  
 قوله : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ : وبعده : ﴿ وقيل للذين اتقوا  
 ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ : إنما رفع الأول ، لانهم أنكروا إنزال القرآن ، فعدلوا عن الجواب ،  
 فقالوا : أساطير الأولين . والثاني من كلام المتقين ، وهم مَقْرُون بالوحي والإنزال ، فقالوا : خيراً ، أى  
 أنزل خيراً ، فيكون الجواب مطابقاً ، و ﴿ خيراً ﴾ : نصب بأنزل . وإن شئت جعلت ﴿ خيراً ﴾ :  
 ففعل القول . أى : قالوا خيراً ولم يقولوا شراً كما قالت الكفار . وإن شئت جعلت ﴿ خيراً ﴾ : صفة  
 مصدر محذوف . أى قالوا قولاً خيراً .

قوله : ﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ : ليس في القرآن نظيره للعطف بالفاء على التعقيب في قوله :  
 ﴿ فادخلوا أبواب جهنم ﴾ : واللام للتأكيد تجرى مجرى القسم موافقة لقوله : ﴿ ولنعم دار  
 المتقين ﴾ : وليس له نظير ، وبينهما : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ .

قوله : ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ : هنا وفي الجاثية وفي غيرها ﴿ ما كسبوا ﴾ : لأن العمل  
 أعم من الكسب ، ولهذا قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾<sup>(٣)</sup> .  
 وتخصت هذه السورة ﴿ بالعمل ﴾ لموافقة ما قبله : ﴿ ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما  
 كنتم تعملون ﴾ : ولموافقة ما بعده وهو قوله : ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ : ومثله : ﴿ ووفيت  
 كل نفس ما عملت ﴾ في الزمر . وليس لها نظير .

قوله : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ : ومثله في الروم وفي العنكبوت :  
 ﴿ وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾<sup>(٤)</sup> باللام والياء . أما التاء في السورتين فبإضمار القول أى قل لهم :  
 تمتعوا ، كما في قوله : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾<sup>(٥)</sup> وكذلك : ﴿ قل تمتع بكفرك ﴾<sup>(٦)</sup> .

وخصصت هذه السورة بالخطاب لقوله : ﴿ إذا فریق منكم ﴾ : وألحق ما في الروم به . وأماً  
 ﴿ ما ﴾ : في العنكبوت فعلى القياس ، عطف على اللام قبله وهى للغائب .

قوله : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ﴾ : وفي الملائكة ( فاطر ) :  
 ﴿ بما كسبوا ماترك على ظهرها ﴾<sup>(٧)</sup> الهاء في هذه السورة كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها . والعرب  
 تجوز ذلك في كلمات منها الأرض ، تقول : فلان أفضل من عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أكرم  
 من تحتها ، ومنها الغداة ( تقول ) : إنها اليوم لباردة . ومنها الأصابع تقول : والذي شقهن خمساً من  
 واحدة ، يعنى الأصابع من اليد .

(٧) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٦٦ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٣٠ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

(٦) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

وإنما جَوَّزُوا ذلكَ لحصولها بين يَدَيِّ متكلم وسامع . ولما كان كناية عن غير مذكور لم يُزِدْ معه الظهر لئلا يلتبس بالدابة ، لأن الظهر أكثر ما يستعمل في الدابة ، قال ( ص ) : « إن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهراً أبقي » .

وأما في الملائكة فقد تقدّم ذكر الأرض في قوله : ﴿ أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ <sup>(١)</sup> وبعدها : ﴿ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لا يلتبس .

قال الخطيب : إنما قال في النحل : ﴿ بظلمهم ﴾ ولم يقل ﴿ على ظهرها ﴾ احترازاً عن الجمع بين الظاءين ، لأنها تثقل في الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب . قال : ولم يجيء في هذه السورة إلا في سبعة أحرف ، نحو الظلم والنظر والظل ، وظل وجهه والظفر والعظم والوعظ ، فلم يجمع بينهما في جملتين معقودتين عقْد كلام واحد ، وهو لو وجوابه .

قوله : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ : وفي العنكبوت : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ . وكذلك حذف ( من ) من قوله : ﴿ لَكِي لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ وفي الحج : ﴿ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ فحذف ( مِنْ ) في قوله : ﴿ بَعْدِ مَوْتِهَا ﴾ موافقة لقوله : ﴿ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ وحذف ( مِنْ ) في قوله : ﴿ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ لأنه أجمل الكلام في هذه السورة ، فقال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ وفصله في الحج فقال : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى ﴾ فاقضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات فجاء في كل سورة ما اقتضاه الحال . قوله : ﴿ نَسْفِيتُكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾ : وفي المؤمنين ﴿ فِي بُطُونِهَا ﴾ لأن في هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث لأن اللبن لا يكون للكل . فصار تقدير الآية : وإن لكم في بعض الأنعام ، بخلاف ما في المؤمنين ، فإنه لما عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض .

وهو قوله : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا ﴾ : لم يحتمل أن يكون المراد البعض ، فأنت حملاً على الأنعام وما قيل : إن ( الأنعام ) مهنا بمعنى النعم لأن الألف واللام يُلْحَقُ الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد حسنٌ ، إلا أن الكلام وقع في التخصيص .

قوله : ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ : وفي العنكبوت ﴿ يَكْفُرُونَ ﴾ بغير ﴿ هُمْ ﴾ لأن في هذه السورة أتصل ( الخطاب ) ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحِفْذٍ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ : ثم عاد إلى الغيبة فقال : ﴿ أَهْلُ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ : فلا بد من تقييده بهم لئلا يلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالياء . وما في العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى تقييده بالضمير .

قوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لغفور رحيم ﴿ : كرر إن ، وكذلك في الآية الأخرى ﴿ ثم إن ربك ﴾ لأن الكلام لما طال بصلته أعاد إن واسمها وثم ، وذكر الخير . ومثله ﴿ أيعدم أنكم إذا مئتم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾ <sup>(١)</sup> أعاد ( أن ) لما طال الكلام .

قوله : ﴿ ولاتك في ضيق مما ﴾ : وفي التمل : ﴿ ولا تكن ﴾ بإثبات النون . هذه الكلمة كثر دورها في الكلام فحذف النون فيها تخفيفا من غير قياس بل تشبهاً بحروف العلة .

ويأتي ذلك في القرآن في بضعة عشر موضعاً تسعة منها بالثاء ، وثمانية بالياء ، وموضعان بالنون ، وموضع بالهمزة .

وخصت هذه السورة بالحذف دون التمل موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ والثاني أن هذه الآية نزلت تسلياً للنبي ( ص ) حين قتل حمزة ومثّل به فقال عليه السلام : لأفعلن بهم ولأصنعن ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولئن صبرتم هو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾ : فبالغ في الحذف ليكون ذلك مبالغة في التسلي . وجاء في التمل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَاللَّعْنَةُ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفٌّ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِغِيهِ إِلَّا شِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المفردات : ﴿ أن أنذروا ﴾ : الإنذار التحذير مما يخاف منه ، ﴿ دفء ﴾ : الشيء الذي يدفئك ، ﴿ جمال ﴾ : المراد هنا جمال الصورة وتركيب الخلقة ، ﴿ تريحون ﴾ : الرواح رجوعها بالعشى من المرعى . ﴿ تسرحون ﴾ : السراح ذهابها بالغداة إلى المرعى ، ﴿ أثقالكم ﴾ : أحمالكم .

﴿ بشق الأنفس ﴾ : بمشقتها وغاية جهدها ، ﴿ جائر ﴾ : أى مائل إلى الحق وزائع . ﴿ الأنعام ﴾ : الإبل والبقر والغنم وهى الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام .

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوجدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه التيارات وعواصفها بكل بروقها ورعودها ورياحها ورمالها ، ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوّجه إلى القلوب أضواء الوجدانية ودلائل القدرة حتى يبنى النفوس بناء سليماً ويشيدها على تقوى من الله ورضوان ولسوف نعرض الآن لهذه المدارس فى سورة النحل لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة النحل نطقت الأدلة بوحداية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونية والآفاقية والأنفسية ، شواغح راسيات ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف ، اسمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله حق واقع ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ :

ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحي الذى تنزل به الملائكة ، وأنه كالروح يحىي الموت وينزل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله .

فيقول سبحانه : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ :

ولقد صدقت ياسيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » (١) .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوجدانية والقدرة .

فيقول سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ : ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشته ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لا هوا ، ولا باطلا ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السموات والأرض .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٢) .

وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون شريك يناقشه الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المزيّد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الانسان فيقول سبحانه : ﴿ خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ :

من نطفة فإذا هو خصيم مبين :

(١) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٣٢ . وفى الحج : ٢٤٦ .

(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون .

فالانسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الانسان .

دواؤك فىك وما تبصر دواؤك منك وما تشعر  
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضجر  
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر !

﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق ﴾ (٣) . فماذا كان من الانسان بعد ذلك ؟ .

قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : ﴿ فإذا هو خصيم مبين ﴾ : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الانسان عن واجبه نحو الله ! يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجئ بالخصومة الميينة .. والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه !

يامدعى الكبر إعجاباً بصورته انظر خلاك ، فإن النتن تشريب  
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شب  
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم ! يتكبر على الارض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم : لا تتكبر على ظهري لأننى غدا سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قدرة ، وهو ما بين ذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه وتنثه عرقه ، وتميته شرقه ؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أهلك ، وأخرى وأنت طفل من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا ، ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية .. ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقابر ..

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى المقابر ؟

فأشارت .. فإذا للودود عيب فى المحاجر

ثم قالت : أيها السائل .. إننى لست أدرى

انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان

والتقى العاشق والقالى .. فما يفترقان

أبهذا ينتهى الأمر .. ؟ فقالت : لست أدرى !

أيها القبر : تكلم ، وأخبريني يارمام  
هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام !  
من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟  
أتمنى أننى أدرى .. ولكن لست أدرى !

### عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه :  
﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون \* ولكم فيها جمال حين تريحون وحين  
تسرحون \* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم \* والخيول  
والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ :

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر في حياة الانسان ، حتى أن  
القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد - أشار إلى بعضها : ففيها دفاء في أصوافها وأوبارها وأشعارها ،  
وفيها اللحوم التي تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها وحمل الأثقال التي لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد  
المعنوية وهو ذلك الجمال في رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها ، واستمعت  
الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائد هذا لا تحصى ولا تستقصى ، فقد أجمالها القرآن في القرآن ﴿ منافع ﴾ : فلك بعد  
ذلك أن تقول في هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره سبحانه  
رني :

عجز اللسان عن الثناء فإنه  
تتصاغر الأفكار دون مداه  
من كان يعرف أنك الحق الذي بهر العقول ، فحسبه وكفاه

قوله تعالى : ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف  
رحيم ﴾ :

أي<sup>(١)</sup> وهي أيضاً تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة  
وجهد شديد ونحو الآية قوله : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة  
ومنها تأكلون \* وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾<sup>(٢)</sup> .



وقوله : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ \* ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴿<sup>(١)</sup> .

﴿ إن ربكم لرهوف رحيم ﴾ : ومن ثم أسبع عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون ﴾ \* وذلكلناها لهم فمنا ركبهم ومنها يأكلون ﴿<sup>(٢)</sup> .

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ : أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ : غير هذه الدواب مما يهذى إليه العلم وتستنبطه العقول كالأقمار البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى أخرى ومن قطر إلى قطر - والمطاول الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن فصل سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفى بيان الطريق السوى لمن أرادته فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ : أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصل من سلكه إلى الحق ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإيما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقوله : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ ومنها جائر ﴾ : أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة ، معوج زائغ عن الحق ، فالسبيل القاصد هو الإسلام ، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا : أن ثمة طرقاً تسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها ، وهى طريق الإسلام له والإخبارات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ \* منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين \* من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴿<sup>(٥)</sup> .

فما عداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ، ليبتدى إليه الناس ويبتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيته فقال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ : أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كائلاً والنمل فى حياتكم الاجتماعية ، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة

(١) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة غافر . (٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام . (٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الروم

(٢) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يس . (٤) الآية ٤١ من سورة الحجر .

وتقوى الله ، فلا تنجھ نفوسكم إلى المعصية ، ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوها ثم ترجحون منها ماتيل إليه نفوسكم ، وما ترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ <sup>(١)</sup> طريقى الخير والشر - إما شاكراً وإما كافوراً .

### عالم النبات

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : ﴿ لكم منه شراب ﴾ : أى جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شربه ولم يجعله ملحا أجاجا ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ : أى وأخرج لكم منه شجرا ترعون فيه أنعامكم .

وقوله : ﴿ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾ : أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا به مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

### عالم الفلك وغيره

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَا كُلُّوْا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسَخَّرُ جُؤَامُهُ حَلِيبَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٥﴾ وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَضَهَا وَسْبَلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ وَعَلَّمَتْ بِالْجَمِّ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٧﴾

**المفردات :** ﴿ ذراً ﴾ : خلق . ﴿ ألوانه ﴾ : أى أصنافه . ﴿ مواخر ﴾ : واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها . ﴿ والميد ﴾ : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ، ﴿ وعلامات ﴾ : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزّه عن الشريك والولد ، وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له — ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم — ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف في صرف المشرّكين عما هم عليه من الشرك .

وكلما بصرهم بطائفة مما يرون ويشاهدون نكتهم على ما يقولون ويفعلون وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ثم نثى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم رُبّع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم بذكر أحوال العناصر الأربعة .

وهكذا تنتقل بنا الأدلة إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر \* والنجوم مسخرات بأمره \* إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ :

وفى لفظ ﴿ التسخير ﴾ ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، ودون ما مغالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ : إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وإن مجيئها بهذه الصيغة للدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الفخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟

إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك وأكثر مما يتخيله العقل .

ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر — رأسمد حساسية وأبعد رسداً إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . ومازال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد ويحدثنا عن عدد النجوم حُجة الفلك العالمى السير ( جيمس جينز ) فى كتابه ( الكون الغامض ) فيقول : ( ربما كان

مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله .

ويقول كذلك فى كتابه ( النجوم ومسالكها ) : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عدد مساو تقريباً لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم فلا بد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة الف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لا ستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم - وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الانسان بأجهزته - فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة . وفى الدقيقة ٦٠ ثانية - لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل .

وقد وجد أن السُدْم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السُدْم : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ متى يقف ؟ وإلى متى ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوءه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات فى بداية الكون .. فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها وأمر هذا الوجود ليس عجيباً فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو

أمر لإشراق النجوم . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتي يرجع العلماء أنها تصل عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التي نعرفها ؟ ولكن كيف لا تتمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين - التي مرت منذ القدم - أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك .

فقل إن السبب هو وجود عناصر مشعة في النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الايدروجينى في تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها ، وما زال العلماء في أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو كيف لا تنفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة . سبحانك ربي ! يا من قلت : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

يا من يحار الفهم في قدرتك وتطلب النفس حى طاعتك

تخفى عن الناس سنا طلعتك وكل ما في الكون من صنعتك

يا مبدع الكائنات أيا من كل فعلك حكمة بالغة أيا من قلت ، وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار \* وكل في فلك يسبحون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويا من قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ :

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى ما احتوته الأرض من نبات ومعادن وكنوز لا يعلم كنهها إلا من يقول : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولقد جاء الأسلوب في هذه الآية الكريمة بلفظ ( ما ) الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما في الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل ، وكل هذا ملك لله تبارك وتعالى . سبحانك ربي :

يا من تفرد بالبهاء وبالسناء فى عزه ، وله البقاء السرمد

(٣) الآية ١٢ من سورة فصلت .

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٦ من سورة طه .

(٢) الآيات ٣٧ - ٤٠ من سورة يس .

يا من له وجب الكمال لذاته      فأنت ترفع من تشاء وتسعد  
ما فى الوجود سواك رب يعبد      كلا ، ولا مولى سواك فيقصد  
يا من له عنت الوجوه بأسرها      ذلا ، وكل الكائنات توحد  
أنت الإله الواحد الفرد الذى      كل القلوب له تقرر وتشهد

سبحانك يا من قلت ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

ويا من قلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ أنا صببنا الماء صباً ﴾ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ فأنبثنا فيها حبا ﴾ وعنباً وقضباً ﴾ وزيتوناً ونخلاً ﴾ وحدائق غلباً ﴾ وفاكهة وأباً ﴾ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .  
لقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحت البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق فقلت ( التمسوا الرزق فى خبايا الأرض ) .

ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن الكريم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فممنه يأكلون ﴾<sup>(٣)</sup> .  
فمصدر الإنتاج قوله جل شأنه ﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً ﴾ ، ومبدأ الاستهلاك تشير إليه الآية فى هذه العبارة ﴿ فممنه يأكلون ﴾ .

تأمل فى نبات الأرض وانظر      إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات      بأبصار هى الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد شاهدات      بأن الله ليس له شريك

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل « هو خلق عظيم ! الداخلى فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجينا من هذه لנקونن من الشاكرين ﴾<sup>(٤)</sup>  
هذا الخلق العظيم مسخر ومذل ومنقاد ومُدْعَن لخالقه الذى سخره — يقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . سبحانك ربى :

(١) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .

(٢) الآية ٣٣ من سورة يس .

(٣) الآية ٢٢ من سورة يونس .

(٤) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .

لما علمت بأن قلبى فارغ      ممن سواك ملاته بهواك  
وملأت كلى منك حتى لم أدع      منى مكانا خاليا لسواك

فتأمل معنى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإن المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عن التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى - كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدير أمورها وتيسير سبلها .

أليس فى ذلك الرد - أبلغ الرد - على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجبا : كيف يعصى الاله      بل كيف يجحده الجاحد ؟  
وفى كل شئ له آية      تدل على أنه الواحد

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآية الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبّر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ مع الله القائل ﴿ خلق كل شئ فقدره تقديراً ﴾<sup>(١)</sup> والقائل ﴿ وكل شئ عنده بمقداره عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾<sup>(٢)</sup> والقائل ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ﴾<sup>(٣)</sup> .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ ﴿ سبحانه هذا بهتان عظيم ﴾ يا من قلت وقولك الحق ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾<sup>(٤)</sup> .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٤) الآية ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ٢ من سورة القمر .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقرر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مريدا : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير \* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (١) .

وبعد أن أخبر القرآن الكريم عن عالم البحار ، انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما في الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء في متاهات الرحاب الواسعة ، قال جل شأنه ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون \* وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ : إنها عمارة الكون تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد .

سبحان من أحيا قلوب عباده      بلوائح من فيض نور هداه  
فالعارفون مشاهدون لفضله      مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للإرشاد في الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله جل في علاه فقد جعل منها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عوناً له ، وهدته إلى السبيل السوى في البر والبحر .

﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ : بالليل في البرارى أو في البحار وفي الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل في معرفة الأوقات والطرق والقبلة ويحسن أن نتعلم من علم الفلك ما يفيد تلك المعرفة .  
قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ، رجوماً للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف ما لا علم له به .

لا إله إلا الله

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرْمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ المراد بمن يخلق ﴾ : الله سبحانه وتعالى . ﴿ ومن لا يخلق ﴾ : الملائكة وعيسى والأصنام ، ﴿ وما يشعرون ﴾ : أى لا يعلمون ، ﴿ وأيان ﴾ : كمتى تدلان على الزمن ، ﴿ لاجرم ﴾ : أى حقاً .



### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام وكان في ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان . قفى على ذلك بتبكييت الكفار وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينهما ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده وأنهم مهما بالغوا في الشكر واجتهدوا في العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانهم ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهى علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شيء من ذلك فهى مخلوقة لا خالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر .

ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له . ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الاشرار وهى تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهى لا ترهب في الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان . لا جرم بقيت مصرة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

بعد سؤق الأدلة ووضوحها ونظمها في هذا المسلك الرائع والاتقان البديع يسوق القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاماً . فإن الاستفهام محال في حق الله إذ هو طلب الفهم وهو يفيد الجهل بالشيء المستفهم عنه وجل جناب الحق أن يغرب عنه شيء في الوجود كله . إنما المقصود بالاستفهام هنا في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ : هو الإنكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا مجرد التذكيرة وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجليلة كالشمس في ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيماً أنت الخالق المبدع المصور لا شريك لك في ملكك .  
يا حبيب القلوب هب لي رضاك وارحم اليوم مذنباً قد أتاك  
يا إلهى وخالقى ومرادى قد أبى القلب أن يحب سواك

أنهى القارىء الكريم :

هكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك في هذه الرياض الباسمة : رياض الكتاب العزيز . انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ثم إلى عالم النبات ثم إلى عالم الفلك ومنه إلى ما في الأرض من مكنون الخزائن ثم إلى عالم البحار ومنها إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد في المتاهات ..

## نعم الله على خلقه

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات قال القرآن الكريم بعد ذلك ﴿ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ الَّتِي تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ : إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى لابد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ ﴾ : ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض . من أراد أن يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سرّاً حتى لا يسمع إله محمد ما نقول فيخبره به فماذا كان الموقف .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴿ (١) .

الله يدرى كل ما تضرر ويعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر  
وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده العالم بكل شيء فإن غير الله لا يخلق لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ \* أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴿ :  
الكون وقدرة الله

الكون قسمان : كون زمانى وكون مكاني .

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكاني : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتي بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكاني أن يخلقوا ذباباً حيث يقول سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ (٢) .

## العلم الحديث ووحدانية الله تعالى :

يا من يرى مد البعوض جناحه      فى ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها فى نحرها      والمخ فى تلك العظام النحل  
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها      فى قاع بحر زاهر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الآيات للإمام الزمخشري وهو يناجى ربه فيقول : سبحانه الله ما هى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر وخ وعظام إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى يقوم به البروفيسر ( أردين ليا ) الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية . فاسمع إليه يقول الخير بالحرف الواحد .

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .

يقوم الدكتور (أروين ليا) من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على نغ البعوض تحت الميكروسكوب مستخدماً أدوات جراحية دقيقة مثل التي يستعملها صانعو المجوهرات وذلك لمساعدة العلماء في السيطرة على أخطاء هذه الحشرات ولا تستغرق الجراحة التي يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعيها بدراسة نظام الهرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذي ينتشر في المستنقعات وبمعرفة الطريقة التي تعمل بها الغدد الصماء في البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً في مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها وأثناء العملية .

يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التي تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من نغ البعوضة وكذلك بعض الغدد من الرقبة .

وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لا يمكنها بعد ذلك وضع البيضة فإذا كان هذا شأن البعوضة التي ضرب القرآن بها مثلاً فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾<sup>(١)</sup> . فما بالك بهذه الخلية وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها ( واجمة ) عبقریات العباقرة والمفكرين .

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى في تودة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسي الشاخات إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار ألا وهي قضية التوحيد فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ : فهذه القضية مركز الدائرة الذي تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة إنها قضية لا إله إلا الله . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدي لا إله إلا الله أنهى بها عمري لا إله إلا الله يغفر بها ذنبي لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله ألقى بها ربي :

وقد تفانوا في سر معناه  
بقولهم : لا إله إلا هو  
قولوا معي : لا إله إلا هو  
بفضله : لا إله إلا هو  
بذكره : لا إله إلا هو  
سبحان من لا إله إلا هو  
تسليمه : لا إله إلا هو  
تسبيحه : لا إله إلا هو

الكل في بحر حبه اشتاقوا  
وصححو العقد مخلصين له  
يا معشر الذاكرين كلكم  
وراقبوا من يعمكم كرمأ  
فالكون قد فاح بشره عبقا  
والعرش تسيحنه له أبدا  
وكل ما في السماء من فلك  
وكل ما في الجبال من عظم

وكل ما فى الرياض من شجر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى البحار من خلق	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الوجود من بشر	تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الزمان من عجب	أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شئ تراه من حسن	أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شئ يلوح من صور	فزينته لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا	بأنه لا إله إلا هو
وكل أهل العقول قد فهموا	بأنه لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا	بأنه لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ يسبحه	بقوله لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى	دليله لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم	شفاؤه لا إله إلا هو
ومن أتاه بالذل مفتقرا	غناؤه لا إله إلا هو
ومن أتى بئساً ومفكراً	فجيره لا إله إلا هو
يا غارقاً فى بحار غفلته	انهض وقل لا إله إلا هو
يا قوم لا تغفلوا عن ذكره	بلا إله إلا هو
كيف تنام العيون عن ملك	سبحانه لا إله إلا هو
هو الإله العظيم قدرته	سبحانه لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد	يشهد أن لا إله إلا هو
سبحانه ما أعم رحمته	بذنوب تاب من خطاياها

قوله تعالى : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ : ثم اقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون \* لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم تعجبهم من ذلك : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ <sup>(١)</sup> .

(١) الآية ٥ من سورة ص .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ : (١) .

وقوله : ﴿ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ : أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ : (٢) .

ولهذا قال هنا : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ : أى حقاً ﴿ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ ﴾ : أى وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ .

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لا غموض فيها جليلة لا غبار عليها وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم فقلوبهم منكورة جاحدة مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة      ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟  
وقد قيل :

وماضر الورد وما عليها      إذا المزكوم لم يطعم شذاها  
وقد قيل أيضاً :

مايضر البحر أسمى زائحراً      إن رمى فيه غلام بحجر  
فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة وبصرها بأمر دينها ودنياها .

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة أنها تتحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتتدبر قال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِبْكُمْ قَالُوا أَطَائِرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : بكل هذه السهولة وبمتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد      وينكر الفم طعم الماء من سقم  
ومن يك ذا فم مَرَّ مريض      يجد مرأً به الماء الزللاً

### من مواقف الكافرين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِبْكُمْ قَالُوا أَطَائِرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَنُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتْلَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى

الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا أَلْسَلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿الأساطير﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وهى الترهات والأباطيل ، ﴿والأوزار﴾ : الآثام واحدها وزر ، ﴿سء مايزرون﴾ : أى بشس شيئاً يعملونه ، ﴿المكر﴾ : صرف غيرك عما يريد به بحيلة ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، ﴿والقواعد﴾ : الدعائم والعمد واحدها قاعدة ، ﴿خر﴾ : سقط ، ﴿يجزيهم﴾ : يذلمهم ويهينهم ، ﴿وتشاقون﴾ : أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، ﴿والذين أوتوا العلم﴾ : هم الأنبياء ، ﴿والسلم﴾ : الاستسلام ، ﴿والخضوع﴾ : بلى بمعنى نعم ، ﴿والثوى﴾ : مكان الثواء والإقامة .

### المناسبة

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم فى الدنيا وسيجزىهم يوم القيامة بما فعلوا ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ما كنا نعمل من سوء ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ولا مثنوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثنوى هى .

**قوله تعالى :** ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين﴾ : أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين أى شئ أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله : حكاية عنهم ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾<sup>(١)</sup> .

وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالاً مختلفة فتارة يقولون إنه ساحر، وأخرى إنه شاعر أو كاهن وثالثة إنه مجنون . ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي كما حكى عنه الكتاب الكريم ﴿إنه فكر وقدره فقتل كيف قدره ثم قتل كيف قدره ثم نظر \* ثم عبس وبسر \* ثم أدبر واستكبر \* فقال إن هذا إلا سحر يؤثر﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٢) الآيات ١٨ - ٢٤ من سورة المدثر .

أى ينقل ويحكى فنفروا معتقدين صحة قوله وصدق رأيه قبهم الله وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سأهم وفود الحجيج ويقولون هذه المقالة . ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ : أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أى يصير عليهم خطؤ ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتنائهم بهم كما جاء فى الحديث ( من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً <sup>(١)</sup> ) . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون <sup>(٢)</sup> ﴾ .

والمراد من قوله ﴿ كاملة ﴾ : أنه لا ينقص فيها شئ ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ولا طاعة مقبولة تكفر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله ﴿ بغير علم ﴾ : بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضلّال وأنهم على الباطل وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وزيادة تعبير وذم لهم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لإضلالهم .

وقصارى القول أن هؤلاء قد نسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضاً والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء ثم هددهم وتوعدهم فقال : ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ : أى بشئ شيئاً يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذى أصابهم من العذاب مأصابهم بتكذيبهم لرسولهم فقال : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبال ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فضعضت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه - فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالأعلى عليهم ونحو الآية قولهم فى المثل : من خفر لأخيه خباً وقع فيه منكباً .

(١) أخرجه مسلم فى العلم : ١٦ ، وفى الذكر : ١ . وأبو داود فى السنة : ٦ . والترمذى فى العلم : ١٥ ، وفى نواب القرآن : ١٤ .

وابن ماجه فى المقدمة : ١٤ . والدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

## وختلاصة ذلك :

أن الله أحبب أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم وبعد أن بين سبحانه ما حل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك بين حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ : أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية . أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم ما يحل بكم من العذاب فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولونهم والولى ينصر وليه .

والمراد من المشاقة منهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقاً حين بينوا لهم ذلك والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم إذ كانوا يقولون : إن صح ماتدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا والخلاصة - أنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة : ﴿ قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ : أى قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ : أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرضوها للعذاب المخلد بكفرهم وأى ظلم للنفس أشد من الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال : ﴿ فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ﴾ : أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ما كنا نشرك بربنا أحداً وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ (١) .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال : ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ : أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين ما يترتب على قبيح أفعالهم فقال : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألواناً من العذاب بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجترأحكم عظيم الموبقات والمعاصى خالدين فيها أبداً وبئس المقيـل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبراً عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم وما أقطعها من دار وصفها ربنا بقوله ﴿ لا يقضى



عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿ : تلك عاقبة هؤلاء في الدنيا والآخرة .  
أما في الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الدين  
يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾ .

وأما عاقبتهم في الدنيا فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف قال سبحانه ﴿ قد مكر الذين  
من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث  
لا يشعرون ﴾ .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة والكفر والجحود ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها  
رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون \* ولقد  
جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون \* فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا  
نعمت الله إن كنتم تعبدون ﴾ (١) .

وموقف هؤلاء المنكرين في الآخرة أيضاً : محزى وتأنيب قال جل شأنه : ﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم  
ويقول أين شركائ الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ : عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيراً .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة : إنهم أهل العلم قال جل شأنه ﴿ قال الذين أوتوا العلم إن  
الحزى اليوم والسوء على الكافرين \* الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فآلقوا السلم ما كنا نعمل  
من سوء بل إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ .

وبعد كل هذا فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ! قال سبحانه : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم  
خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

### جزاء المتقين

\* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ  
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ  
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

### المناسبة

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق  
أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس ، وادعى أنها من رب الأرض والسموات وذكر ما سينالهم من  
(١) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة النحل .

النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي أردف ذلك وصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ، وذكر ماأعده لهم من الخير والسعادة في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة وبين أهل التقوى .. فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ﴾ .  
شتان ثم شتان ، وهيئات ثم هيئات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة ﴿ خيراً ﴾ كما أنه شتان بين العاقبتين .

فعاقة المتكبرين : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ : هذا في الآخرة ، وفي الدنيا : ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم \* وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

وأما عاقبة المتقين في الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين ﴾ .

ومن المواقف الطيبة التي يقف عندها العقل عاجبا في هذه السورة أن الله سبحانه شاء - بمنه وفضله - أن يعطى الجزء للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر ذلك في هذه السورة في أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها .

والموضع الثاني : قوله جل شأنه : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى في حق الخليل إبراهيم : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

سبحانك اللهم ! أنت وليّ المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز : فيقول في حق النكرين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم \* فآلقوا السلم ما كنا نعمل من سوء ﴾ .

ويقول في حق المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

روى ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده ردوه عنه ، فخرج ناس في كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر ما يقوله محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم : أنا فلان بن فلان فيعرفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ بِكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ : فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بعس الوافد لقومي ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل وانظر ما يقول ، وآتي قومي ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيراً . فهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى في شأنهم : ﴿ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ : قال الراغب : الطيب من الناس من تعزى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

وقوله تعالى ﴿ طَيِّبِينَ ﴾ : كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعاني ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به ، وإجتناهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذمير الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها .

ومن هذه حالة لا يألم بالموت كما قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ \* نَحْنُ أَوْلَايَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ \* نَزَلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١) .

أخرج ابن جرير والبيهقي عن محمد بن كعب القرظي قال : ( إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك يا ولي الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة ) .

### ماذا ينتظر المعاندون ؟

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

**المفردات :** ﴿ ينظرون ﴾ : ينتظرون : ﴿ وأمر ربك ﴾ : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، ﴿ وحق بهم ﴾ : أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

### المناسبة

بعد أن ذكر طعن المشركين في القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالثواب لمن صدق به - قفى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيتهم عذاب الاستئصال ، فلا يبقى منهم أحدا ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع في الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾<sup>(١)</sup> .

ماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المكابرون في الحق ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به الرسل ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾<sup>(٢)</sup> .

إنهم المجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ إن الذين حققت عليهم كلمته ربك لا يؤمنون ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾<sup>(٤)</sup> .

إنهم في غيهم سادرون وفي ريهم يترددون وفي خوضهم يلعبون إلى أن تأتيهم ملائكة الموت ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .  
وهل ينتظرون إلا أن يأتيتهم أمر ربك ( أى عذابه ) .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ : أى ليس هؤلاء بدعا ، بل لقد سبقتهم أمم طغت وبغت وكذبت ﴿ وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ١١ من سورة الرعد . (٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر . (٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقتزن الجزاء بالعمل فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾<sup>(١)</sup> .  
قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ : وهكذا يكون الجزاء مبنيا على العمل .  
قال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السَّوْءَى أَنْ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ .

وقال جلّ شأنه : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أُسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال جلّ شأنه : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ \* وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي عَلَىٰكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ \* وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَيْقِنِينَ \* وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ . وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ \* ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

لقد أحاط بهؤلاء العذاب جزاء ما استهزئوا بآيات الله ورسله ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرِسَلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

### حجة داحضة

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾  
وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٦﴾  
إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الطَّاغُوت ﴾ : كل معبود دون الله ، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغُوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .  
(٢) الآيات ٣٠ - ٣٥ من سورة الجاثية . (٥) الآية ٦٠ من سورة النساء .  
(٣) الآية ٢٦ من سورة النجم .  
(٤) الآية ٦٥ من سورة التوبة .

وعلى الجمع كقوله : ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾<sup>(١)</sup> .  
 ﴿حق﴾ : وجبت وثبتت بالقضاء السابق في الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد ، أو أتاهم عذاب الاستئصال ، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسول الله - قفى على ذلك ببيان أنهم طعنوا في إرسال الأنبياء جملة وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا ، فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرّمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله له الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذوبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته ، وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب لدعوته ، ومنهم من أضله الله على علم ، فحققت عليهم كلمة ربك ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب في الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعلك شيئاً ، فإن الله لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته .

قوله تعالى : ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ونحن ولا آبائنا ولا حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ .

هذا احتجاج باطل اسند فيه المعاندون كل ما فعلوه من شرك إلى المشيئة العليا كما أسندوا كل ما شرعوه لأنفسهم عندما أحلوا الحرام وحرّموا الحلال إلى المشيئة ، وكأنهم يقولون ما كان هناك داع إلى إرسال الرسل فلو شاء الله لنا ألا نعبد من دونه من شيء لما عبدنا ولا حرمانا من دونه من شيء أولاً يعلم هؤلاء أن مشيئة الله تعالى قد بنيت على علم وحكمة ، وأنه تعالى قد تنزه عن الجهل والعبث فهو العليم الحكيم المريد القدير ، اقتضت مشيئته أن يرسل رسلاً وينزل كتباً ويهب العباد عقلاً وهؤلاء الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين أولاً ليكون للناس حجة بعد الرسل قال تعالى ﴿من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾<sup>(٢)</sup> .

قال جل شأنه : ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

وقال سبحانه ﴿ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تبارك اسمه ﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم ويئس المصير \* إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾<sup>(٢)</sup>.

ليس لأحد حجة على الله بعد إرسال الرسل وليس لأحد حجة على الله تعالى بعد إنزال الكتب ، وليس لأحد على الله تعالى حجة . بعد أن وهبنا العقول ، وبعد أن رفع القلم عن ثلاثة : الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه ، وعن النائم حتى يستيقظ ، والصبي حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق ، وبعد أن فتح باب التوبة حتى يغفر العبد أو تطلع الشمس من مغربها ، عندئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ، لذا ترى آيات القرآن ناطقة بمنطق العدالة الإلهية قال تعالى ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾<sup>(٣)</sup> والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ .

﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى﴾<sup>(٤)</sup> ﴿فأما من أعطى واتقى \* وصدق بالحسنى \* فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى﴾<sup>(٥)</sup> . فالذين عبدوا من دون الله شيئاً والذين حرموا وأحلوا ما لم ينزل الله به سلطاناً قد استحبوا العمى على الهدى ، لذا كان الرد من العلى العظيم ، كذلك فعل الذين من قبلهم أى من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾<sup>(٦)</sup> .

فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾<sup>(٧)</sup> ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو عليم بالمهتدين﴾<sup>(٨)</sup> ﴿ألم نجعل له عينين \* ولساناً \* وشفتين \* وهديناه النجدين﴾<sup>(٩)</sup> ﴿ونفس وما سواها \* فألهمها فجورها وتقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها﴾<sup>(١٠)</sup> .

قوله تعالى ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ .

كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو : قول لا إله إلا الله ، قال تعالى ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾<sup>(١١)</sup> وقال جل شأنه ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾<sup>(١٢)</sup> .

(٩) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

(٥) الآية ٣٥ من سورة النحل .

(١) الآية ١٣٤ من سورة طه .

(١٠) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٣ من سورة الإنسان .

(٢) الآيات ٦ - ٩ من سورة الملك .

(٧) الآيات ٨ - ١٠ من سورة البلد .

(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٨) الآيات ٧ - ١٠ من سورة الشمس .

(٤) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

سبحانك اللهم أنت الواحد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى  
كل الوجود على وجودك شاهد  
والى علا الجبين الساجد

لقد أمرت الرسل أممها بتوحيد الله واجتناب كل طاغوت والطاغوت كل ما عبد من دون الله سواء كان جنيا أو شيطانا أو بشراً طغى وبغى وجاوز حدود العبودية قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) .

وقال عز من قائل ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ (٢) .

وقال جل جلاله ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾ (٣) .  
قال تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾ (٤) .

نعم إن الطريق واضح والحق لائح والمنادى صائح فمنهم من هدى الله فاتبع صراطه المستقيم ومنهم من زل وغوى واتبع ما أسخط الله فهوى فحقت عليه الضلالة قل لهؤلاء الضالين ﴿ سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

﴿ ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) .

إن هؤلاء الضالين الذين حقت عليهم كلمة الضلالة ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾ (٦) فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون .

﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٧) .

﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٨) .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ (٩) .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء .

(٤) الآية ١٧ من سورة الزمر .

(٥) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

(٦) الآية ٣٧ من سورة النحل .

(٧) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٨) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

(٩) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .



والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن اتبع الهوى فقد هوى .  
هؤلاء الضالون ما لهم من ناصرين ينصرونهم من دون الله ، ﴿ ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ (١) .

### إنكارهم البعث

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ رُكُنًا فَيَكُونُ ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿ الجهد ﴾ : بفتح الجيم ، ﴿ المشقة ﴾ : وبضمة الطاء ، ﴿ وجهد أيمانهم ﴾ : أى غاية اجتهدهم فيها ، ﴿ وبلى ﴾ : كلمة جواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفي فثبت ما بعده ، ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ : أى وعد ذلك وعداً عليه حقاً ، أى ثابتاً متحققاً لا شك فيه .

### المناسبة

بعد أن ذكر عز اسمه حججهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأننا مجبورون فيما نفعل ، وأنه لو شاء الله أن نهتدى لكان دون حاجة إلى ارسال الأنبياء ، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ، ولا يلزمون أحداً بإيمان ولا كفر ، أردف هذا بشبهة أخرى لهم إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة ذلك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزأؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب فرد الله عليهم ما قالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعداً حقاً وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصي من المطيع وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير عن إبي العالية قال : ( كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم ﴾ . وأخرج أيضاً عن إبي هريرة قال : ( قال الله : سبني ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبني ، وكذبني ولم يكن ينبغى له أن يكذبني ، فأما تكذبيه إياي فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من

يموت ﴿١﴾ . وقلت ﴿٢﴾ بلى وعدا عليه حقا ﴿٣﴾ وأما سبه إياي فقال ﴿٤﴾ إن الله ثالث ثلاثة ﴿٥﴾ وقلت ﴿٦﴾ هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد \* ولم يولد \* ولم يكن له كفوا أحد ﴿٧﴾ .

قوله تعالى ﴿٨﴾ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴿٩﴾ .

أى أنهم اجتهدوا فى الحلف ، وأغلظوا فى الإيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله من جراء أن الميت يفنى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم وكذبهم بقوله : ﴿١٠﴾ بلى وعدًا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١١﴾ .

أى بلى سيبعثه الله بعد مماته ، وقد وعد بذلك وعداً حقاً لا بد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدره وحكمته ونحوها لا يعلمون أن وعد الله لا بد من نفاذه ، وأنه باعثنهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرءوا على مخالفة الرسل ، ووقعوا فى الكفر والمعاصى .

ثم ذكر سبحانه وتعالى الحكمة فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿١٢﴾ ليبين لهم الذى يختلفون فيه ﴿١٣﴾ : أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أمهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ، والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك بما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿١٤﴾ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿١٥﴾ .

أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : ﴿١٦﴾ لا يبعث الله من يموت ﴿١٧﴾ وسيدعون إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية : ﴿١٨﴾ هذه النار التى كنتم بها تكذبون \* أفسحروا هذا أم أنتم لاتبصرون \* اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿١٩﴾ .

ثم اخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شئ فى الأرض ولا فى السماء فقال : ﴿٢٠﴾ إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿٢١﴾ : أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائه ولا بعثه لأننا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له كن فيكون لا معاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله ﴿٢٢﴾ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴿٢٣﴾ .

وقوله : ﴿٢٤﴾ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿٢٥﴾ .

وقوله : ﴿٢٦﴾ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴿٢٧﴾ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر .

وخلاصة هذا أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته ، وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الأمر وقوله ، دون هوادة ولا تراخ .

### فضل الهجرة في سبيل الله

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٢﴾

#### المناسبة

بعد أن حكى الله تعالى أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة ، وتمادوا في الغي والضلالة ، ( ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقوم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء ، حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان ) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ما هؤلاء المهاجرين من حسنات في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، من جراء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفي هذا ترغيب لغيرهم في الهجرة ، واحتمال كل أذى في سبيل الله احتساباً للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في هذه الآية قال : ( هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين ) .

قال هشيم عن العوام عن حدثه : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول نخذ بآرك الله لك فيه ، هذا ما وعدك الله في الدنيا ، وما ادخر لك في الآخرة أفضل . ثم قرأ هذه الآية ﴿ لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

### تهديد الكافرين

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُّوحِيْهِ إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثِقَلِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٧﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٨﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهِ رُءُوسَ الْعِثَمِينِ وَالشَّمَايِلِ سَجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥١﴾

**المفردات :** ﴿البنات﴾ : المعجزات الدالة على صدق الرسول ، ﴿الزبر﴾ : واحدها زبور وهي كتب الشرائع والتكاليف التي يبلغها الرسل إلى العباد ، ﴿الذكر﴾ : القرآن ، ﴿لتبين للناس﴾ : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، ﴿والمكر﴾ : السعى بالفساد خفيه ، ﴿والسيئات﴾ : أى الاعمال التي تسوءهم عاقبتها ، ﴿يخسف بهم الأرض﴾ : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، ﴿في ثقلهم﴾ : أى في أسفارهم وسيرهم في البلاد البعيدة للسعى في أرزاقهم كما قال ﴿لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد﴾ (١) .

﴿بمعجزين﴾ : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، ﴿التخوف﴾ : التنقص من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعاً ، ﴿ويتفياً﴾ : من الفىء يقال فاء الظل يفىء فئاً إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، ﴿والظلال﴾ : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس .  
قال رؤبة : « كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فئ وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل » .

﴿واليمين والشمال﴾ : جانباً الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

﴿داخرون﴾ : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى .  
﴿يخافون ربهم﴾ : أى يخافون عقابه .

﴿من فوقهم﴾ : أى بالقهر والغلبة كما قال : ﴿وإنا فوقهم قاهرون﴾ (٢) .

### المناسبة

بعد أن ذكر جلّت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها ، وهم لا يصدقون بها ، وليس من المعقول أن يكون أردف

(١) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف .

ذلك بشبهة أخرى لهم : إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشراً ، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكاً .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسوله من البشر ، وإن كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب الذين آمنوا عن ذلك .

ثم هدهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغته كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون في أسفارهم ومعاشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى . ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته في تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿ أَكُنْ لِلنَّاسِ عَجَباً أُنْذِرَ النَّاسَ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

يعنى أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرته ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (٢) .

ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وكذا يكون الغرض جاءت به هذه الآية الكريمة أن الذين أرسلوا قبل رسول الله ﷺ كانوا بشراً فما الذى يمنع أن يكون محمد بشراً رسولاً .

قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ (٣) .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ (٥)

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ (٦) .

وقال : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾ (٨) .

(٧) الآية ٩ من سورة الأحقاف .

(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٨ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة يوسف .

(٣) الآية ٩٣ من سورة الإسراء .

ثم أرشد الله تعالى من شك في كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا ، هل كان أنبياءهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بالبينات ﴾ : أى بالحجج والدلائل ﴿ والزبر ﴾ : وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبه .

وقال تعالى : ﴿ وكل شئ فعلوه في الزبر ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ : يعنى القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ : أى من ربهم لعلكم بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجل وتبين لهم ما أشكل ﴿ ولعلمهم يتفكرون ﴾ : أى ينظرون لأنفسهم فيبتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

وهكذا تقوم السنة المطهرة بتفصيل ما أجل فى الكتاب العزيز وتوضيح ما أبهم وتخصيص العام منه وتقييد المطلق وتوكيد بعض آياته ولا استغناء عن السنة إذ هى المذكرة التفسيرية للكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقال ﷺ : ( ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه ) : يقصد سنته الشريفة : فالوحي قسمان وحي متلو وهو القرآن ، ووحى غير متلو وهو السنة .

قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه \* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه ﴾ <sup>(٦)</sup> .

والبيان هنا السنة .

ففى الآية إشارة إلى أن الله تعالى قد حفظ السنة حفظها بالسند وقبض لها رجالاً أحاطوها بالبحث الدعوب وحرصوا على نقلها بصدق وأمانة ودونوها فى الكتب وعلى رأسها الصحيحان البخارى ومسلم فمن الذى علمنا أن الظهر أربع ركعات مثلاً . ومن الذى علمنا أن المرأة لا تنكح على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها ، ومن أين علمنا أن الشرع قد حرم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ؟

(١) الآية ٥٢ من سورة القمر .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٧ من سورة الحشر .

(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٦) الآيات ١٦ - ١٩ من سورة القيامة .

إن الذى جاء بهذا البيان إنما هو سنة رسول الله ﷺ

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ \* أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝

لا ينزل بلاء بغير ذنب ، ولا يرفع بغير توبة ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقرن الجزاء بالعمل .

فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ ١ ﴾ ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسَنْتُمْ وَأَنْتُمْ لَأَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا ﴾ ﴿ ٢ ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ ﴿ ٣ ﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ﴿ ٤ ﴾ .

وفى قوله جل شأنه ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ : إخبار منه جل شأنه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحلمهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيتهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أى من حيث لا يعلمون بجيئه إليهم قوله تعالى ﴿ أَأَمِنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ \* أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴿ ٥ ﴾ .

وقوله : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ ﴾ : أى فى أسفارهم واشتغالهم بمعاشهم .

وقال قتادة ﴿ فِي تَقْلِبِهِمْ ﴾ : فى الليل والنهار كقوله ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ \* أو أمن أهل القرى أن يأتيتهم بأسنا ضحى وهم يلعبون \* أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون \* أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴿ ٦ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ : أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ : أى يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعاً ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشية .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ : أى حيث لم يحاكمكم بالعقوبة كما ثبت فى

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) الآية ٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الملك .

(٦) الآيات ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيه »<sup>(١)</sup> .  
ومنها « إن الله ليلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »<sup>(٢)</sup> ثم قرأ رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾<sup>(٣)</sup> .  
قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شئ يتفياؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون \* والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون \* يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة تنزهه عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، يحى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، سجد له كل من فى السموات والأرض من دابة ، والملائكة وكل ما يتفياؤا ظلاله عن اليمين والشمائل بكرة وعشيا ، وهم داخرون خاضعون لعظمته ، مقهورون بإرادته ، فهو مالك كل شئ ومليكه ، بيده مقاليد السموات والأرض .

قال تعالى : ﴿ والله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله : ﴿ والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ : أى تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته . ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ : أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله .  
﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ : أى لا يعصون الله ما أمرهم كما قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخاري فى الأدب : ٧١ ، وفى التوحيد : ٣ . ومسلم فى المناقير : ٤٩ ، ٥٠ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٢) أخرجه البخاري فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٥ من سورة الرعد .

(٥) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٦) الآيتان ٢٩ - ٣١ من سورة الأنبياء .



## الرد على عقائد المشركين وأعمالهم

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلنَّهْيِ أَتْنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تُمْ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَلَيْهِ تَجْعَرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُوَاخِذُكُمُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ دَابَّةً وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السِّتْنُ لَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

**المفردات :** ﴿الدين﴾ : الطاعة والإخلاص ، ﴿واصباً﴾ : دائماً ، ﴿واجباً﴾ : خالصاً ، ﴿تجأرون﴾ : تصيحون بالدعاء يقال جأ جأراً جواراً والجوار مثل الخوار وهو صوت البقر ، ﴿مسوداً﴾ : المراد متغيراً والسواد كناية عن غمه بالبنت ، ﴿كظيم﴾ : ممتلئ غماً وحزناً أو هو المفهوم الذي يطبق فاه فلا يتكلم من شدة الألم مأخوذ من الكظامة وهو شد فم القربة ، ﴿يتواري﴾ : يختفي ويغيب ، ﴿هون﴾ : هوان وبلاء ، ﴿يدسه في التراب﴾ : يواريه في التراب ويرده إليه ، ﴿مثل السوء﴾ : المثل المراد به الصفة الغريبة غرابة المثل ، ﴿مفراطون﴾ : متروكون فيها أو مقدمون إليها .

## المناسبة

لما بين سبحانه في الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقاد له وخاضع لسلطانه اتبع ذلك بالنهي عن الشرك به وبين أن كل ما سواه فهو ملكه .

وأنه مصدر النعم كلها . وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار بعدئذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سوء أعمالهم وقبيح أفعالهم . وبعد أن بين سبحانه سُخف أقوال الشرك أُرْدِف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التي تمجها الأذواق السليمة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَايَايَ فَارْهَبُونَ ﴾ .

إخبار منه جل جلاله عن قوله لعباده لا تتخذوا إلهين اثنين وهذا نهى صريح عن الشرك قال ﷺ : ( اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات )<sup>(١)</sup> .

والشرك ذنب لا يغفره الله لمن مات عليه قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفي آية أخرى : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال في حديثه القدسي الجليل : [ أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه ]<sup>(٤)</sup> .

وقال سبحانه لحبيبه ومصطفاه ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾<sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهِينَ اثْنَيْنِ إِذْ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ .

إنما ذكر العدد مع أن ضيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أن المنهى عنه هي الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما وصف الإله بالوحدة في قوله ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ : للدلالة على أن المقصود إثبات الوجدانية وأنها من لوازم الألوهية .

أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها .

﴿ فَايَايَ فَارْهَبُونَ ﴾ : تقديم الضمير هنا يفيد التخصيص أى لا تخافوا سواي فأنا الرافع الخافض

المعز المذل المحيي المميت القابض الباسط الضار النافع وغيره لا يملك من الأمر شيئاً : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ

(١) أخرجه البخاري في الوصايا : ٢٣ . وفي الطب : ٤٨ . ومسلم في الإيمان : ١٤٤ . وأبو داود في الوصايا .

(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٣) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

السموات السبع ورب العرش العظيم \* سيقولون لله قل أفلا تتقون \* قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون \* سيقولون لله قل فأنى تسحرون <sup>(١)</sup> .

إن هذا الإله له ما فى السموات والأرض ﴿ وله الدين واصباً ﴾ : أى دائماً وخالصاً وواجباً .  
﴿ أفغفر الله تتقون ﴾ ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

( يا ابن آدم لا تخف ذا سلطان مادام سلطاني باقيا وسلطاني دائم لا يزول أبدا . يا ابن آدم كن واثقاً من رزق مضمون لك ما دامت خزائني مملوءة وخزائني مملوءة لا تنفذ أبداً يا ابن آدم لا ترى عيب غيرك مدام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً يا ابن آدم لا تدع محاربة الشيطان ما دامت روحك فى بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبداً . يا ابن آدم لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبداً . يا ابن آدم ما أحبنى من أحب المال وما أحبنى من أحب الدنيا فإنه لا يسع قلب واحد حبي وحبا أبداً . يا ابن آدم ما خافنى من خاف الخلق وما توكل على من خاف فوات الرزق وعزى وجلالى ما توكل على عبد إلا ادخلته الجنة واكفيته كل مهمة ومن اعتصم بغيرى اسخت الأرض من تحته وقطعت الأسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته ) .

قوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ : هذا لإقرار لا يقبل الجدل أو النقاش فنعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى ونحن نقر بذلك ونؤمن به فالله فما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال جل شأنه فى حق سليمان عليه السلام : ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وسورة النحل تسمى سورة النعم ، ففيها من ألوان النعم مراتب لا تحصى ، ومراق لا تستقصى ، فمن عاش فى أسرارها واستضاء بضياؤها سلك مدارج الأنوار ووقف على دقائق الأخبار لذا لما طال تعداد النعم قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ثم ذكر أنواعا من النعم ، ولما طال تعدادها قال تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(٤) الآية ١٩ من سورة النمل .

(٥) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

(٦) الآية ٨١ من سورة النحل .

(١) الآيات ٨٦ - ٨٩ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٣٣ من سورة هود .

(٣) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .

وهكذا فالشكر على العباد واجب ، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يحصى فضله .  
 إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
 وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم  
 قوله تعالى : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ : لأنكم تعلمون أنه لا يقدر على إزالته إلا هو  
 فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسالون وتلحون في الرغبة إليه مستغيثين به .  
 كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم  
 وكان الإنسان كفوراً ﴾ (١) .

وقال ههنا : ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ ليكفروا بما  
 آتيناهم ﴿ .  
 واللام هنا لام الصيرورة والعاقبة . كما في قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً  
 وحزناً ﴾ (٢) .

أى كان المصير والعاقبة العداوة والحزن وكان المصير هنا الكفر بما آتاهم الله .  
 قال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برىح طيبة  
 وفرحوا بها جاءتها رىح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له  
 الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ﴾ فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق يأبىها  
 الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتبعكم بما كنتم تعملون ﴾ (٣) .  
 وهذه حال فريق من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء ، قال الله فى حق هؤلاء :  
 ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ : وهذا تهديد ووعد إذ لا يحق المكر السىء إلا بأهله .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾ .  
 ويجعلون لله البنات سبحانه وهم ما يشتهون \* وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \*  
 يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون \* للذين  
 لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم ﴾ .

هذا إخبار عن بعض قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير  
 علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم  
 فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ (٤) .

أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألهم عن

(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨ من سورة القصص .

ذلك الذى افتروه واثفكوه وليعاقبنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾<sup>(١)</sup> .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطئوا خطأ كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ولا ولد له ، ثم أعطوه أحسن القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ تلك إذاً قسمة ضيزى<sup>(٢)</sup> .

وقوله ههنا ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ : أى عن قولهم وإفكهم ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ أصطفى البنات على البنين \* مالكم كيف تحكمون<sup>(٣)</sup> .

وقوله : ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ : أى يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

فإنه ﴿ إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ : أى كئيباً من الهم . ﴿ وهو كظيم ﴾ : ساكت من شدة ما هو منه من الحزن ﴿ يتوارى من القوم ﴾ : أى يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ﴾ : أى إن أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتن بها ويفضل أولاده الذكور عليه ﴿ أم يدسه فى التراب ﴾ : أى يدها ، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية .

أفمن يكرهونه هذه الكراهية ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله .

﴿ ألا سوء ما يحكمون ﴾ : أى يئس ما قالوا ويئس ما قسموا ويئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله هنا : ﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ : أى النقص إنما ينسب إليهم .

﴿ والله المثل الأعلى ﴾ : أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم مترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾<sup>(٥)</sup> .

أحمدك ربى على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، لو عاقبت الناس على ما هم عليه من الظلم ما تركت على وجه الأرض ما يدب ، إذاً لأهلكهم إهلاكاً ، ولكن اقتضت حكمتك أن

(٤) الآية ١٧ من سورة الزخرف .

(٥) الآية ٦١ من سورة النحل .

(١) الآية ٥٦ من سورة النحل .

(٢) الآيات ٢١ ، ٢٢ من سورة النجم .

(٣) الآيات ١٥١ - ١٥٣ من سورة الصافات .

تؤخرهم إلى أجل أجلته ، فكل شيء عندك بمقدار ، وأنت عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، فإذا جاء هذا الأجل فإنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فوعدك الحق ، وقولك الحق ، فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم .

أنت البصير بعبادك العليم بأسرارهم ، الخبير بأخبارهم . سبحانه من قائل ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ (١) .

فيا عباد الله : اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، فدولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وعلى الباغي تدور الدوائر: بانائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد تأتيه أسحارا

قوله تعالى : ﴿ ويجعلون لله مايكرهون وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون ﴾ : من قبائح هؤلاء واقتراءاتهم على الله أنهم جعلوا له ونسبوا إليه مايكرهون من الإناث ، وكذلك جعلوا له شركاء من عبيده وهم لا يرضون لأنفسهم أن تشاركهم عبيدهم فيما يملكون ، قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك فصل الآيات لقوم يعقلون \* بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾ (٢) .

وقع هذه الافتراءات وتلك الضلالات تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى أى لهم النجاه والفوز في الدنيا والآخرة .

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليكفور \* ولكن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ (٣) .

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾ (٤) .

قال تعالى : ﴿ لا جرم أن لهم النار ﴾ : أى حقاً أن جزاء هؤلاء النار وهذا حكم عدل ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ : أى مهملون فيها مضيعون .

فاللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الروم .

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة هود .

(٤) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

## نعم الله لا تحصى

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

**المفردات :** ﴿ الأنعام ﴾ : الإبل والبقر بنوعيه والضأن والمعز ، ﴿ لعبرة ﴾ : العبرة تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ، ﴿ فرث ﴾ : الفرث ما ينزل إلى كرش الحيوان فأما الخارج منه فلا يسمى فرثاً ، ﴿ رزقا حسنا ﴾ : جميع ما يأكلون من هاتين الشجرتين ، ﴿ وأوحى ﴾ : الوحي قد يستعمل بمعنى الإلهام وهو ما يخلق في القلب ابتداء من غير سبب كالغرائز والطباع في الحيوانات ، ﴿ مما يعرشون ﴾ : من الذي يعرشه ابن آدم ويعمله بيده كالحلايا من الطين والغاب والخلايا الحديثة من الخشب والزجاج .

## المناسبة

لما حكي سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم ، بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم مترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فظلمه ، وأما غيره فبشؤمه ، كما قال سبحانه ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ <sup>(١)</sup> .

لكنه سبحانه يحلم ويستر وينذر إلى أجل مسمى ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

عشيرته بأن قومه ليسوا يبدع في الأمم ، فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فللك بهم أسوة فلا يحزننك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسي وحسرة .

وبعد أن وعد المؤمنين بجنت تجري من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الاشرارك برهم ، ونسبة البنات ، إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا ، عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحي في الدين الإسلامي وكل دين سماوى وبليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثلث بإتخاذ الخمر والخل والدبس من الأعناب والنخيل ، ورثع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس .

وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

قوله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم وهم عذاب أليم ﴾ .

هذا قسم من الله تعالى والتاء هنا لا تدخل إلا على لفظ الجلالة ، والله تعالى هو المقسم بذاته ، والمقسم عليه ﴿ لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء ومن شاء من خلقه ، فهو خالق الإنسان ومبتدع الألوان ومنكور الليل على النهار والنهار على الليل ، يقسم أحيانا بالأجرام الفوقية كالشمس والقمر ، ويقسم بالنجم إذا هوى ، كما يقسم بالأرض والليل والتين والزيتون وطور سين ، أما غير الله من المكلفين فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله سبحانه ، وعليهم أن يكونوا صادقين في أيمانهم ، وألا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم فيقسمون إذا اضطروا .

وفي هذه الآية الكريمة ما يفيد تسلية الرسول عما وقع من قومه له : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال جل شأنه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ \* أتواصوا به بل هم قوم طاغون \* فتول عنهم فما أنت بملوم \* وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين<sup>(٢)</sup> .

يا محمد لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك أنبياء ومرسلين مبشرين ومنذرين ، وكذبوا وأوذوا فلا تبتس بما يفعل هؤلاء ﴿ ولا تحزن عليهم ولائك في ضيق مما يمكرون ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين \* وإن كان كبير عليك إعراضهم فإن

(٣) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة الثريات .



استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلباً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴿١﴾ .

واعلم أن هؤلاء الضالين المكذبين من الأمم قد زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿٢﴾ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴿٣﴾ هذه قمة الضلال أن يرى الانسان حسناً ما ليس بالحسن ، قال تعالى : ﴿٤﴾ وزين لهم الشيطان أعمالهم قصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴿٥﴾ .

فالشيطان وليهم اليوم وساء ولياً ﴿٦﴾ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴿٧﴾ ، ﴿٨﴾ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٩﴾ .

﴿١٠﴾ ولهم عذاب أليم ﴿١١﴾ : أى مؤلم ﴿١٢﴾ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴿١٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿١٤﴾ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴿١٥﴾ : لو أن هؤلاء الغافلين أزالوا الغشاوة عن عيونهم ، والأكنة عن قلوبهم ، والوقر من أذانهم ، لا انتفعوا بهذا الكتاب ، ولعلموا أنه الفصل ليس بالهزل ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، فيه تفصيل كل شيء ، فهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا تملأ الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ﴿١٦﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم \* صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١٧﴾ .

لقد كانت الجن أحسن حالا من كثير منا ، إنهم عندما سمعوا القرآن فقالوا ﴿١٨﴾ إنا سمعنا قرآنا عجبا \* يهدى إلى الرشd فآمنّا به ولن نشتك ربنا أحدا ﴿١٩﴾ ، ﴿٢٠﴾ فمالهم لا يؤمنون \* وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴿٢١﴾ .

والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿٢٢﴾ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون \* بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا علمون \* قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴿٢٣﴾ .

(١) الآيات ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام . (٥) الآية ٢٥ من سورة البقرة . (٩) الآيات ٢٠ ، ٢١ من سورة الانشقاق .

(٢) الآية ٨ من سورة فاطر . (٦) الآية ٥٦ من سورة النساء . (١٠) آيات ٣ - ٨ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٢٤ من سورة النمل . (٧) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٣٨ من سورة النساء . (٨) الآيات ١ ، ٢ من سورة الجن .

يا أمة القرآن : اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، إن من قرأ القرآن بلسانه ، وبين اللسان والقلب حجاب ، أو سمعه بأذنيه وبين السمع والفؤاد سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغه .

ورضى الله عن قوم نظر الله إليهم في جوف الليل وأصلاهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار زفر زفرة كأن جهنم بين أذنيه ، كانوا شبابا مكتهلين في شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم .

إن في القرآن بياناً لكل ما اختلف فيه ، وتفصيلاً لكل ما أجمل ، وتوضيحاً لكل ما أبهم ، فيه هدى للقلوب ورحمة للنفوس لقوم يؤمنون ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

إن القرآن نزل على القلوب فشفاهها من العلل والأمراض ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، وكما ينزل الغيث على الأرض الموات فيحولها إلى جنات باسمات فينبت فيها بإذن ربها من كل زوج بهيج : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد \* رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ : بعد ذكر الكتاب ففى القرآن إحياء للقلوب ، وفى الماء إحياء للأرض الموات .

﴿ لقوم يسمعون ﴾ : سماع استجابة ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ (١) .

وقال جل شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ (٢) .

فالقرآن فيه حياة والماء فيه حياة ولكن ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٣) . قال تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً ﴾ (٤) .

وبعد أن بين الكتاب العزيز المقارنة بين المنكرين والمتقين ، نواصل النظرات في « سورة النحل » لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم إلى مصانع الألبان الالهية قال تعالى : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ .

والمراد بالأنعام هنا ، الابل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : ﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾ : أى يتخلص اللبن : بياضه وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم في باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم

(٣) الآية ٣٧ من سورة ق .

(٤) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ١٠ من سورة الملوك .

يجرى في العروق ، ولبن يجرى في الضروع ، وبول في المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا في لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث وجعل لكل منها سلكاً خاصاً : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

كلا ! ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وقوله : ﴿ لَبْنَا خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ : أى لا يَغص به أحد ، مع اشتتاله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً فيقول : ( اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه )<sup>(٢)</sup> أما إذا شرب اللبن فكان يقول : ( اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا منه )<sup>(٣)</sup> .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن وبعد ما شرب قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسِناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وتلك نعمة أخرى من نعم الله على عباده أن سخر لهم ما فى الأرض جميعاً ، من هذه الخيرات ثمرات النخيل والأعناب حيث يتخذون منها المواد السكرية ، ويصنعون من تلك الثمرات أنواعاً من الحلوى فيها رزق حسن وشفاء ودواء وغذاء ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعقلون ويتدبرون ، من الذى أجرى هذا السكر السائل فى ثمرات تلك النخيل الباسقات وكروم الأعناب على مختلف أشكالها وألوانها ، الكائنات متعددة وخالفها واحد لأن ما بالطبيعة لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ ﴾ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

فاسألوا علماء النبات من خالق تلك الثمار ؟ الصدفة العمياء أم الطبيعة الصماء ! ! كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

وينتقل بنا النظم الكريم من مصانع الألبان والحلوى إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

(١) الآيتان ١٥٨ ، ١٥٩ من سورة يس .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٧٨ . والإمام مالك فى صفة النبى : ٣٤ . والإمام أحمد فى ١ : ١٥٣ ، ٤ : ٦٣ ، ٥ : ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأشربة ٢٠ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) الآية ٦٤ من سورة الواقعة .

(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

يعرشون \* ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١﴾ : وفى هاتين الآيتين الكريميتين مباحث

## المبحث الأول كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاماله وزنه وقيمتة العلمية ، قالوا : المراد بالوحى هنا : الالهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قديراً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذلة لها ، أى سهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بينها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكليها منها .

وقوله : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ : أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها . قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشئ يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : ( إن أخى استطلق بطنه ، فقال « اسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً ، قال : « اذهب فاسقه عسلاً » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلاً ! » فذهب فسقاه عسلاً ، فبرىء )<sup>(١)</sup> .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلاً - وهو حار - تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالاً ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه ، فكذلك . فلما اندفعت

(١) أخرجه البخارى فى الطب : ٢٤ . ومسلم فى السلام : ٩١ . والترمذى فى الطب : ٣١ . والامام أحمد فى ٣ : ١٩ .

الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : ( كان يعجبه الحلواء والعسل )<sup>(١)</sup> . وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الامام ابن ماجه فى سننه عن عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »<sup>(٢)</sup> .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾<sup>(٥)</sup> .

وروى ابن ماجه أيضاً أن النبى ﷺ قال : ( من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء )<sup>(٦)</sup> .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : أى أن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك فى هذه الشواهد من الجبال ، والباقيات من الاشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل - وهو من أطيب الاشياء - لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

## المبحث الثانى

### ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان ، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل - التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المباني وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قائل فى سورة النحل : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ﴾ : وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته من الجبال أولاً ، ثم فى الأشجار ثانياً ، ثم فى الأعراش والخلايا بعد ذلك .

(١) أخرجه البخارى فى الطلاق : ٨ ، وفى الأطعمة : ٣٢ ، وفى الاشربة : ١٠ ، ١٥ ، وفى الطب : ٤ ، وفى الحيل : ١٢ . وأخرجه مسلم فى الرضاع : ٨٨ ، وفى الطلاق : ٢٣ . والترمذى فى الاطعمة : ٢٩ . وابوداود فى الاشربة : ١١ . وابن ماجه فى الاطعمة : ٣٤ . والامام أحمد فى ٦ : ٥٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الطب : ٧ . (٥) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس . (٦) أخرجه ابن ماجه فى الطب : ٧ .

(٤) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

ويقول العالم ( موريس مترلنك ) في كتابه ( حياة النحلة ) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال في مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه - وهو متلاحق متماسك - ستاراً مثلثاً كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الأرض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .

وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة في البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية في مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلاً وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهي لا تنتج شمعاً فتأخذ في الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد في ذلك مواقع الغرف التي يقوم ببنائها العمال .

وينشئ النحل أربعة أنواع من الغرف : هي الغرفة الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التي هي مهد للعمال والمخازن العادية - وهي تشغل أربعة أخماس الخلية - وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية . ويقول الدكتور ( ريد ) إنه لا يوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكله ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لافائدة منها ، وهذه الأشكال هي : المثلث المتساوي الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو ما يعمل به النحل . وقد عين « ماك لورين » الزاوية التي تلتقي عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها هي نفس الزاوية التي يلتقي عندها فعلاً سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل ، على ذكر آية من آياتها هي الحجرة المسدسة ، التي تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقریات البشر مجتمعة آية تحسينات : ( ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ما أبدعه منطق الحياة لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع ) !!!

خبرني بربك في أي الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفي أي أقسام المعمار تخرج عبارة المهندسين في النحل ؟ وعلى أي الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذي ألهمهم الغزيرة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهي الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ والله ما هذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ﴾ : ويقولون :

أين الله ، أين عجائبه ؟      وذا الكون يسفر ناطق وهو كاتبه !  
 يشكون ، والايمان ملء قلوبهم      ويدون ما كل العقول تكذبه !  
 عجائب ربي في الأنام كثيرة      ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !  
 إن بيوت النحل إنما هي مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القدرة ، لتكون آية لقوم  
 يتفكرون .

### المبحث الثالث

#### ما يقرره الطب الحديث في الشفاء بعسل النحل

يقول عز من قائل : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ :  
 اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآني الذي نحن بصدده - من أول قوله تعالى : ﴿ وإن لكم  
 في الأنعام لعبرة ﴾ : إلى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ : وقد اشتمل على  
 ثلاثة أنواع من الأغذية :  
 أولها : غذاء حيواني ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتي ، وهو المتمثل في قوله تعالى : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه  
 سكرا ورزقا حسنا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .  
 وليس المراد « بالسُّكر » هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك ، لأن هناك فرقا بين السُّكر  
 ( بضم السين وسكون الكاف ) وبين « السُّكر » في الآية الكريمة ولكن النظرة الثابتة تفيد أنها آية  
 امتنان وتفضل من الله ، لادخل لها بالسُّكر الذي يذهب بالعقول ، وبديل أن الله جل شأنه عطف عليها  
 بقوله ﴿ ورزقا حسنا ﴾ : وبديل أن ختام الآية جاء ب : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ .  
 فكيف يكون في السُّكر آية للعقلاء ؟

وبديل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل  
 على نعمة مماثلة لهما في الغذاء الخلال : ماتوسطت هذا العقد الفريد .  
 وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسُّكر ، فلا داعي لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد  
 « بالسُّكر » هو « السُّكر » إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد بالسكر ( بفتح السين والكاف )  
 هو المادة السكرية العظيمة في ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية ، غذاء حشري ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب في هذا  
 الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .  
وفي قوله تعالى : ﴿مختلف ألوانه﴾ : فإن هناك عسلاً أصفر ، وآخر أحمر ، وثالثاً غامقاً ،  
كعسل مدغشقر .

ثم إن العسل يحتوى على :

- ١ - نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .
- ٢ - أصماغ طبيعية وأصماغ النشا .
- ٣ - فيتامينات أ ، ب والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .
- ٤ - بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ثم حامض النحل .
- ٥ - بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

### عسل النحل وفوائده

#### ١ - المواد السكرية :

العسل كغذاء : أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ،  
كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .  
والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان  
أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالقمح ، أو حقناً فى الوريد .. ففى الحميات - مثلاً -  
يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حُلّ شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز  
الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .  
وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر  
القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

#### العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملين ويدخل فى وصفات المليينات . كالسنا (سلمكه) ، فيمزج  
مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة تليينها ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على  
كوب ماء دافئ فيأتى يلين أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

#### العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات وسكر القصب ينتج من التخمر ثانى أكسيد الكربون - أى



غازات بدون رائحة - ويحدث انتفاخاً بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً في هذه الحالة من سكر القصب ، لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

## ٢ - الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم - ويسهلان خروجه ، فيفيدان في امراض الجهاز التنفسي العادية .

## ٣ - الفيتامين ج

موجود بكثرة في العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل في الحميات ، وهى : إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم وفيتامين « ج » لمقاومة المرضى أما الفيتامينات ( أ ) ( ب ) فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

## ٤ ، ٥ - المعادن ويض النحل

موجود بكمية صغيرة تزيد في التغذية ، كذا حامض النحل كمقوٍ للعضلات أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد في كل زمان :

- ١ - في تغذية الأطفال والمرضى .
- ٢ - في علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .
- ٣ - في تحليلية سوائل مرضى البول السكرى .
- ٤ - كملين للأطفال .
- ٥ - ومسهل بحقنة شرجية .
- ٦ - ثم مفيد في حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسي .

## حقائق علمية

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلاً يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ : ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ :

لم يعرف قدر هذه الآفة العلمية الطبية - التي تعتبر دليلاً ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمي - إلا في السنين الأخيرة من القرن الحالى فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ، ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ عن مواد خارجية ، مثل الزرنيخ ، والزرنيق ، والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشئ عن أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء وفى الحميات والحصبه ، والتهاب الرئوى ، والسحائى وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين - حتى فى حالة التسمم الناشئ من مرض البول السكرى - علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره صدفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد . وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرش » قد توصلت - بعد تجارب متعددة - إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة - دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية - يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الانسان .

هذا ، وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع - لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حاليا « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء والرمد الحبيبي . وما زال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن امرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم ، بقرص النحل ، وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً فى أوساط لندن ، لاسيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نورفولك » الإنجليزى : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشوهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكي » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم ، وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة . ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾<sup>(١)</sup> .

### إلهنا ما أعظمك

خبرني بربك يا أبا الإسلام في أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمداً منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ما أذهل العقول وحيّر الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾<sup>(٢)</sup> .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم - نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إنجاز المعجز ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾ : ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه : ( عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن )<sup>(٣)</sup> .

هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ، ولم يتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم \* الذى علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم ﴾<sup>(٥)</sup> .

### المبحث الرابع

#### الرد على أعداء الإسلام فى آية النحل

يحاول المستشرقين ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم فى الحقيقة أقزام يعضغون الهواء ويحاولون أن يقتلوا من الرمال حبلاً وأن يطاولوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

#### العقاد والرد على المبشرين :

فى كتاب ( ما يقال عن الإسلام ) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال فى هذا

(٤) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٥) الآيات ١ - ٥ من سورة العلق .

(١) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جلية .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشيء بالغباوة والقداسة لعل واحدة في وقت واحد فإن تقبل العقل ذلك فلا بد من سبب يوقعه في هذه الاضطراب بإختياره وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضاً من أمراض الجنون أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاختيال عليه .

ولسنا نخطئ القول في أن جماعات المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخطي في التفكير كما يتخطى المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ولا يعفيه أن يعرض بضاعة ويهيم لها أسباب النفاق في السوق وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة في العرض والترويج وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التى أثارها المبشر ( صمويل زويمر ) في كتابه ( بلاد العرب مهد الإسلام ) في فصل عن ( العلوم والفنون العربية ) .

قال ( صمويل زويمر ) في هذا الفصل إن الشهد لم يزل معدوداً كالترياق في بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب في وحي محمد ( ﷺ ) هذه الكلمة ( الغيبة ) التى يقول فيها عن النحل إنه ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله في كتابه .

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التى افترها ذلك المبشر فيقول : إن الرجل المعتمد ظاهر في قوله هذا العلامة ( الغيبة ) إن القرآن حصر الطب كله في دواء واحد هو ( الشهد ) فإن المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة .

إن الشهد ( شفاء ) ولم تقل إنه كل الشفاء ولا إنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف ( الشهد ) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية . كما يوصف أى عقار من العقاقير في الصيدليات ، ومثل هذا الادعاء ( التبشيري ) لا يعتسف اعتسافاً بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حجم العلاقة ( بالغباوة ) على وصف الشهد بالشفاء فليس له معنى غير الغباوة المطبقة في القائل إن كان مصداقاً لما قال .. لم لا يكون الشهد دواء من الأدوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار . إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً في كل أمة وهو قوام للعلاج إلى اليوم في أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء المصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء في بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن ( الفيتامينات ) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها فلماذا يمتنع عن العقل كل الامتناع أن يصف دواء ( الشهد ) بوصف غير الغبوة لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض .

إن ( الغبوة ) هي عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لقصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون ( الغبوة ) مفهومة إذا هي تشابهت في سوء الفهم ولم تخصص للشهد دون غيره ولكنها ( غبوة ) تنزل إلى مادون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض ( الشهد ) علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصفير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سروراً للإله .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً : بعد وفاة ( زويمر ) يبضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعي يقول مؤلفه عن ( الشهد ) ما كان ( زويمر ) يدعيه على القرآن الكريم .

ويعقد المؤلف لخصائص ( الشهد ) الطبية فصلاً مستقلاً يوشك أن يجعله ( صيدلية ) وافية تغني عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحداً من أولئك المتطبين الجهلاء بل هو الدكتور ( جارفيس ) الطبيب المتخرج في مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعمل فائدة ( الشهد ) في العلاج ( بالبركة ) ولا بالتأثير النفساني المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التي تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدها الأطباء والصيدليون في تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجرائم التي تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها ويقول في تمهيدات فصل مطول كتبه عن ( الشهد ) خاصة .

إنه لا يتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التي أثبتت أن ( البكتريا ) لا تعيش في ( الشهد ) لاحتوائه على مادة ( البوتاس ) وهي تحزم ( البكتريا ) تلك الرطوبة التي هي مادة

قال : إن الدكتور ( ساكيت ) أستاذ البكتريا بكلية الزراعة في ( فورت كولنز ) وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض في قوارير مملوءة بالعسل الصرف فماتت جراثيم ( التيفود ) بعد ثمان وأربعين ساعة ، وماتت جراثيم ( النزلات الصدرية ) في اليوم الرابع ، وماتت الجراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات ، وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفرة في ( الشهد ) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل في تركيبه .

ونقل تقرير الأستاذ ( شويت ) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف

باختلاف ألوان ( الشهد ) : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر في ( الشهد ) الضارب إلى السواد والحديد ضرورى لاتصاله بالمعادن الملونة للدم أو للهموجلوبين .

ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى ( الشهد ) فعدد منها :

- ١ - إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .
- ٢ - إنها سريعة التمثيل فى البيئة .
- ٣ - إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .
- ٤ - إنها مناسبة للمشغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .
- ٥ - إنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .
- ٦ - إنها مهدئة ملطفة .
- ٧ - إنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلاً عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب فى بيان خصائص ( الشهد ) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر فى سائر الفصول دواء ( طبياً ) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى فذكر كلمة ( زويمر ) عن الآية القرآنية ووجدتها مثلاً أصح من كل مثال لإبراز ( عقلية البشر ) بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والعمى فى كثير من الأحيان ولا ح لى أن نصيب ( زويمر ) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أو فى منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام ( انتهى كلامه ) .

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التى سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارئ قال جل شأنه ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ ثم كل من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .

## صدقت يا إله العالمين

لقد أفضنا في الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل أفك أئيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاماً أو تشيد كوناً متكاملأً منسقاً كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث . سبحانك ربى أنت خالق كل شيء وأنت على كل شيء قدير .

يا من لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

## من آيات الله البينات ونعمه

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكُوا يَمْنَهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِالنِّعْمَةِ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٣﴾

**المفردات :** ﴿أرزل العمر﴾ : أردته وأخسه ، ﴿والحفدة﴾ : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهري وواحدهم حافد ، ﴿ككتبة وكاتب﴾ : من الحفد وهو الحفة في الخدمة والعمل يقال منه حفد يحفد وحفودا وحفد إذا أسرع كما جاء في القنوت ( وإليك نسعى ونحفد )  
﴿والطيبات﴾ : اللذائذ والمراد بالباطل عبادة الأصنام .

## المناسبة

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمة للإنسان كالأنعام التي يأخذ من ضرعها اللبن والنحل التي يشتار منها العسل ، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس فذكر مراتب أعمارهم ، وأن منهم من يموت وهو صغير ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نساء لا يحفظ شيئاً ، وفي ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهي تفضيل بعضهم على بعض في الرزق .

فقد يُرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره في طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له  
بينما يرى أقل الناس علماً وفهماً تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب وذلك دليل على أن  
الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال: ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

وقال الشافعي :

ومن الدليل على القضاء كونه      بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلث بذكر نعمة ثلاثة عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين  
وحفدة ورزقهم الطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة أو من الحيوان على اختلاف  
أنواعها .

قوله تعالى : ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً  
إن الله عليم قدير﴾ :

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لا بد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين ،  
لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز في مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى .

اسمع هذا المشهد القرآني الذي يقول الله عز وجل فيه ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها \* رفع  
سمكها ففساها \* وأغطش ليلها وأخرج ضحاها \* والأرض بعد ذلك دحاها \* أخرج منها ماءها ومرعاها  
والجبال أرساها \* متاعاً لكم ولأنعامكم﴾<sup>(١)</sup> .

وبعد هذا نبه إلى المصير المحتوم الذي لا بد من أن تلاقيه جميعاً فقال عز شأنه : ﴿فإذا جاءت  
الطامة الكبرى \* يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم انتقل معي إلى مشهد قرآني آخر يزيد المعنى تأكيداً حيث يقول الله جل شأنه : ﴿فلينظر  
الإنسان إلى طعامه \* أنا صببنا الماء صباً \* ثم شققنا الأرض شقاً \* فأنبتنا فيها حباً \* وعنباً وقضباً \* وزيتوناً  
ونخلاً \* وحدائق غلباً \* وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعاً فيقول جل شأنه : ﴿فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من  
أخيه \* وأمّه وأبيه \* وصاحبه وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾<sup>(٤)</sup> .

وهذا أيها القارئ الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهي مولية وأن الحياة مهما طاللت  
فإنها منتهية فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر ﴿والله  
خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ .

فإنه تعالى يخبر في هذه الآية الكريمة عن تصرفه في عبادته ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم

(١) الآيات ٢٧ - ٣٣ من سورة النازعات .

(٢) الآيات ٣٤ ، ٣٥ من سورة النازعات .

(٣) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .

(٤) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .



بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف في الخلق ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه : إن أُرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم .

ولهذا قال : ﴿ لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ : أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدري شيئاً .  
روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأُرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة الحيا والممات »<sup>(٢)</sup> .

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ : لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم .

ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطاباً منطقياً سديداً يخاطب الذين زعموا أن الله شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبينهم الله يمجحدون ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ، وبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عيب له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكرأ عليهم أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة ( الرزق ) هنا كلمة شاملة عامة تشمل كل ما يوجد الله به على الانسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم .

كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لاليس فيه ولا غموض وهذه الآية فى سورة ( الروم ) حيث يقول جل شأنه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيماكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ - ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ . ومسلم فى الذكر : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٣ . وابو داود فى الوتر :

٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ ، ١٠٩ ، ١١٣ . والنسائى فى الاستعاذة : ٣ ، ٥ - ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٤٥ . والإمام أحمد فى

١ : ٢٢ ، ٥٤ ، فى ٣ : ١١٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٥ . وفى ٤ : ٣٧١ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الروم

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية ( الروم ) هذه جاءت عقب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوجدانية ، مثله في ذلك كمثل آية النحل التي نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية ( الروم ) السالفة الذكر قوله تعالى : ﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ \* ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون \* ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون \* ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين \* ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون \* ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون \* ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون \* وله من في السموات والأرض كل له قانتون \* وهو الذي يلدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿ ١ ﴾ .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيئة بنور الوجدانية ، تأتي الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك ، فتقول : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك في رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق الباري المصور ؟ وكيف تدعى زوراً وبهتاناً أن معه من عباده من يساويه في الألوهية والعظمة ؟

سبحانك ربي يا من تقول في الحديث الجليل : [ الكبرياء رداً والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى ] ﴿ ٢ ﴾ .

نعم يارب العزة ﴿ فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ﴾ يقول ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية الكريمة : لم يكونوا ليشركوا عبدهم في أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى في سلطانى ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ أفبئمة الله يجحدون ﴾ .

ويقول ابن عباس أيضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟ وقوله تعالى : ﴿ أفبئمة الله يجحدون ﴾ : أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتن الله بها على عباده ، فيقول جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين

(١) الآيات ١٩ - ٢٧ من سورة الروم .

(٢) أخرجه ابوداود فى اللباس : ٢٥ . ومسلم فى البر : ١٣٦ . وابن ماجه فى الزهد : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ،

٤٢٧ ، ٤٤٢ . وفى ٦ : ١٩ .

وحفدة ورزقكم من الطيبات أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴿٧٣﴾ :

أى منطق وأى عقل سليم يعين النظر فى هذه الآية ثم لا يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ، ويكفر بنعمة الله ؟

فإنه جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمة على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر جلّ جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين .

قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿٧٣﴾ وبنين وحفدة ﴿٧٤﴾ : وهم الولد وولد الولد .

وفى قوله تعالى ﴿٧٣﴾ ورزقكم من الطيبات ﴿٧٤﴾ : إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة ، فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الانسان وواجبه شكر المنعم عليها .

إذا كنت فى نعمة فارعها      فإن المعاصى تزيل النعم  
وحافظ عليها بشكر الإله      فإن الإله سريع النقم  
يا ابن آدم :

يامن بدنياه اشتغل      وغمه طول الأمل  
الموت يأتى بغتة      والقبر صندوق العمل

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى ﴿٧٥﴾ أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴿٧٦﴾ .

### من أدلة التوحيد

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾  
فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ \* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا  
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ  
يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ  
لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ  
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

**المفردات :** رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها .

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ : أى لا تجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وضرب المثل للشيء ﴾ : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ما عرض من الشك فى أمره .

﴿ والبكم ﴾ : الخرس وهو إما ناشئ من صمم خلقى وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع ولكن لسانه معتقل لا ينطق الكلام فكل من ولد غير سميع فهو أبكم لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له وليس كل أبكم يكون أصم صمماً طبيعياً فإن بعض البكم لا يكونون صمماً .

﴿ والكل ﴾ : الغليظ الثقيل من قوله كلت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع . وكل عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطيع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه .

﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى طريق عادل غير جائر .

### المناسبة

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف ، أردف ذلك الرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها :

أولهما : العبد المملوك الذى لا يقدر على شئ والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سراً وجهرأ . ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية . وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضر .

والثانى : مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لا يقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقیل على سيده وثنائهما حوّل قلب ناطق كامل القدرة أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟

وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبى العاص : كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة ، وكان المولى يتباهى بالصدقة والمعروف .

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون ﴾ :

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

وهذا منتهى السفه والطيش والحمق أن يعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً ، ويتركوا عبادة من بيده الملك وإليه يرجع الأمر كله ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير \* إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير \* يأياها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد \* إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد \* وما ذلك على الله بعزيز ﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ما سوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً بالخالق ؟ !  
والضلال كله أن يحب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون القصور وينسون القبور ، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكباً	والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا	فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ :

ولما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هي أعظمها جميعاً فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة وأراد أن يزيدها إيضاحاً وتقريباً فضرب مثلين ، إذ بالمثال يتضح المقال قال جل شأنه :  
﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهرأ هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ .

ومعنى المثل الأول : أنه تعالى ضرب مثلاً لكل ما يعبد من دون الله في أى زمان أو مكان ، والله تعالى هو الواحد الخالق البارئ ، فاطر السموات والأرض واهب الوجود ، والمنعم بكل شيء موجود : ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لملكه وهو لا يقدر على شيء أبداً فلا ينفع نفسه ولا غيره ، وحرأ رزقناه منا رزقاً حسناً وأعطيناه مالاً وفيراً فهو ينفق من المال سراً وجهرأ في جهات الخير والبر : هل يستوى هذا وذاك ؟ أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتباركت

أسماءه ، صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض ، يده مبسوطتان ينفق كيف يشاء .  
الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بجلال النعم والمتفضل بدقائقها  
لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو .  
﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ : أى لا يعلمون الحق فيتبعونه ويعرفون المنعم عليهم بالنعم الجليلة  
فيخصونه وحده بالتقديس والتنزيه .

**ومعنى المثل الثانى :** ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم  
الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لاتضر ولا تنفع فقال :

﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم ﴾ : أى عُمى مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على  
شئ أبداً ، لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، ﴿ كل على مولاه ﴾ : أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله  
لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شئ أبداً ، وهو كل على مولاه أينما يوجهه  
إلى أى جهة أخرى لا يأتى بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل  
ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكملة ، وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ،  
وسيرة صالحة ، لإفراط فيها ولا تفريط .

**والنتيجة :** نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن  
يتساوى مع الله ، فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال  
يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، وواجب له  
البقاء فاستحال عليه الفناء ، وواجب له القيام بالنفس فاستحال فى حقه الاحتياج إلى غيره ، ووجبت له  
المخالفة للحوادث فاستحال فى حقه المماثلة لغيره ، وواجب له الوحدانية فاستحال فى حقه الشرك  
والتعدد ، ووجبت له القدرة فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة فاستحال فى حقه القهر والجبر ،  
ووجب له العلم فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع  
والبصر فاستحال فى حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحال فى حقه البكم .  
وغاية الأمر أن كمالات الله لاتتناهى . لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ قل هو الله أحد \* الله  
الصمد \* لم يلد \* ولم يولد \* ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (١) .

## مع القدرة الباهرة والعلم المحيط

وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

**المفردات:** ﴿الساعة﴾ : الوقت الذى تقوم فيه القيامة . سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ﴿لمح البصر﴾ : رجع الطرف من أعلى الحدة إلى أسفلها ، ﴿والأفئدة﴾ : واحدها فؤاد : وهى القلوب التى هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ، ﴿والجو﴾ : الهواء بين الأرض والسماء .

## المناسبة

بعد أن بين الله من الأدلة القاطعة ما يدل دلالة جازمة على أنه الواحد ، أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له وما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده ، وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ثم الطير المسخر بين السماء والأرض وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من أدلة التوحيد إلى أدلة القدرة الباهرة والعلم المحيط ، فيقول جل شأنه : ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء ، فهو تعالى يعلم غيب السماوات والأرض ، وإنه مختص بعلم الغيب ، لا شريك له ، فلا إطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء .

قال جل شأنه : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً \* إلا من ارتضى من رسول﴾ <sup>(١)</sup> .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون﴾ <sup>(٢)</sup> ، ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ <sup>(٣)</sup> . أى فيكون ما يريده سبحانه كطرف العين .

(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

(١) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .

وهكذا قال هنا : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

وكما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التى يمر الانسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين \* ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين \* ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٢) .

فيم خلقتنا ؟

خلقتنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٣) .

فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات .

والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم قراراً مكيناً : حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين \* فجعلناه فى قرار مكين \* إلى قدر معلوم \* فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٤) .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ (٥) . فلينظر الإنسان مم خلق ؟

مم خلقتنا : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر ، وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الانسان .

**فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟**

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأكسجين اللازم ، وجعل درجة

(١) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

(٢) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ٦ من سورة آل عمران .

(٤) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .

(٥) الآية ٦ من سورة الزمر .



الحرارة في الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاءً ، وكان وزن الانسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو في الأرحام - خمسة أرتال وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرتال أو ثمانية ، فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تقلص عضلاته ، حيث أصبح الانسان ضعيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبّر الانسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق في آيات معجزة فيقول : ﴿ من أي شيء خلقه • من نطفة خلقه فقدره • ثم السبيل يسره ﴾ <sup>(١)</sup> .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ يقول عز وجل ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ :

وبنظرة فاحصة في قوله تعالى : ﴿ لاتعلمون شيئاً ﴾ : يفيد نفى العلم بالكلية . إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة في سياق النفي : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولتقابل هذا بالشكر ، والشكر لله : أن تسخر نعم الله في طاعته وأن لاتستعملها في معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : ( يارب : كيف أشكرك ! قال له يا موسى : تذكرني ولا تنساني : إنك إن ذكرتني : شكرتني وإن نسيتني كفرتني ) <sup>(٢)</sup> .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره ، وعجز في يديه ، وهو يردد بلسانه قائلاً ( الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه ) فقال له الرجل : فمن أي شيء عافاك قال له : ( وهب لي قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً ) .

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى إلى الإسلام والدين الحنيف  
فيذكره لسانى كل وقت ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ :

يقول المفسرون في هذه الآية الكريمة : ينيه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين في جو السماء ما يمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها

(٣) الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

(١) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة عبس .

(٢) أخرجه الترمذى في القيامة : ٢٣ .

قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى في سورة الملك ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾<sup>(١)</sup> .

واعلم يا أخى : أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير ، فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار ، كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته في هذه الدنيا التي يعيش فيها ويطير في أجوائها ؟

يقول علماء الكون : أن الجهاز الهضمي للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمي في الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذي يستخدم في التغذية ، بدلا من الفم والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يتلع الطير غذاءه بلا مضغ .

وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها ، فالطيور الجارحة - كالبيوم والحدأة ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء في الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض ، فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدي هذا الغرض .

بينما منقار البجعة - مثلاً - طويل طويلاً ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصيد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي .

ومنقار الهدد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتي غالباً ماتكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقي الجهاز الهضمي للطيور فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى : من الذى هيا لعالم الطير هذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين ﷺ : ( لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصاً وتروح بطاناً )<sup>(٢)</sup> .

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والإتقان الحكيم : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال

(١) الآية ١٩ من سورة الملك .

(٢) أخرجه الترمذى في الزهد : ٣٣ . وابن ماجه في الزهد : ١٤ . والامام أحمد في ١ : ٣٠ ، ٥٢ .

علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهدياً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى <sup>(١)</sup> .

### من النعم الإلهية .

وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارُهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنًا وَمَتْنًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسُرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْبَأْسَ كَذَٰلِكَ يُنِيزُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

**المفرادات :** ﴿سكناً﴾ : أى مسكناً ، ﴿والظعن﴾ : بالسكون والفتح السير فى البادية لنجعه أو طلب ماء أو مرتع . ﴿الأصواف﴾ : للضأن ، ﴿والأوبار﴾ : للابل ، ﴿والأشعار﴾ : للمعز ، ﴿والأثاث﴾ : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ولا واحد له من لفظه ، ﴿والمناع﴾ : ما يتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، ﴿إلى حين﴾ : أى إلى انقضاء آجالكم ، ﴿والظلال﴾ : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، ﴿والأكنان﴾ : واحدها كن وهو الغار ونحوه فى الجبل ، ﴿والسرايل﴾ : واحدها سريال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها وسرايل الحرب - الجواشن والدروع ، ﴿والبأس﴾ : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .

### المناسبة

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده ، قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكناً لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياماً فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعقل ، وجعل لهم الثياب التى تقىهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا أنه امتنَّ على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : ﴿وجعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ : ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : ﴿وجعل لكم من جلود

الأنعام بيوتاً ﴿١﴾ : ثم بمن لا قدرة لهم على ذلك ولا يأويهم إلا الظلال بقوله : ﴿٢﴾ جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴿٣﴾ : ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله : ﴿٤﴾ وجعل لكم سرايل ﴿٥﴾ : ثم بما لا غنى عنه في الحروب بقوله : ﴿٦﴾ وسرايل تقيكم بأسكم ﴿٧﴾ .

وتسير بنا الآيات في زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الألهى ، فيقول سبحانه : ﴿٨﴾ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم .. ﴿٩﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى في هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفونها حملها في أسفارهم ، ليضربوها لهم في إقامتهم ، في السفر والحضره ولهذا قال : ﴿١٠﴾ تستخفونها يوم ظعنكم ﴿١١﴾ : أى في أسفاركم ﴿١٢﴾ ويوم إقامتكم ﴿١٣﴾ :

﴿١٤﴾ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿١٥﴾ : ومن ﴿١٦﴾ أصوافها ﴿١٧﴾ : أى من الغنم ، ﴿١٨﴾ وأوبارها ﴿١٩﴾ : أى الابل ، ﴿٢٠﴾ وأشعارها ﴿٢١﴾ : أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام .

﴿٢٢﴾ أثاثاً ﴿٢٣﴾ : أى تتخذون منه أثاثاً ، بمعنى كل ما ينتفع به من أثاث البيت ، وهو أعم من المال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للريح في التجارة ، وتصنع منه البسط والسجاد .

وقوله تعالى : ﴿٢٤﴾ ومتاعاً إلى حين ﴿٢٥﴾ : أى إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : ﴿٢٦﴾ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴿٢٧﴾ : أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالاً ، تستظلون بها من وهج الشمس وزمهرير البرد .

﴿٢٨﴾ وجعل لكم من الجبال أكنانا ﴿٢٩﴾ : ومغارات تأوون إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو زحمة الناس ﴿٣٠﴾ وجعل لكم سرايل تقيكم الحر ﴿٣١﴾ : من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿٣٢﴾ وسرايل تقيكم بأسكم ﴿٣٣﴾ : كالدرع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل في الحرب .

وقوله تعالى : ﴿٣٤﴾ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴿٣٥﴾ : أى هكذا جعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم عوناً على طاعته وعبادته .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها - وهى سورة النحل - تسمى أيضاً سورة « النعم » وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة والنعم الكريمة .

قوله تعالى : ﴿٣٦﴾ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴿٣٧﴾ : هو كقوله جل شأنه ﴿٣٨﴾ ما على الرسول إلا البلاغ ﴿٣٩﴾ ، وقوله تعالى : ﴿٤٠﴾ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴿٤١﴾ ، ﴿٤٢﴾ لست عليهم بمسيطر ﴿٤٣﴾ ، ﴿٤٤﴾ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴿٤٥﴾ .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الفاشية .

(١) الآية ٩٩ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

(٢) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ : كقوله جل شأنه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (١) .

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك ، فإن شكرها واجب ، وتوفيقك لنا لشكر نعمتك نعمة ، يجب أن نشكرها .

### لحظة قرآنية

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارئ لكتاب الله العزيز بعين البصيرة .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى ، وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقت عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذي لا يقابل هذه النعم بما يليق من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء في سورة الرحمن ، عقت كل نعمة ب ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وفي سورة « النحل » جاء عقب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ :

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : ﴿ فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ﴾ ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ : إلى قوله ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم عن الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ؟ ﴾

ثم استعرضت السورة مشهداً ثالثاً من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴾ : إلى قوله : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر المنعم ، فقال سبحانه ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ :

وقد ذكروا أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴾ : فقال الأعرابي : نعم . قال : ﴿ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ : الآية ، قال الأعرابي : نعم . ثم قرأ عليه : وكل ذلك يقول الأعرابي : نعم . حتى بلغ : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾ : فأتى الأعرابي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾ :

## تلك ملاحظة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغي عليه أن يكون مُقِرّاً بالفضل، عارفاً بما يكافئ جزيل النعم .

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لبين عظيمين ، وقفنا موقف الشكر والصبر : نبى الله إبراهيم ، نبى الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن فى حق إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* شَاكِرًا لِأَنعَمَ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ \* وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) .

ويقول فى حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (٢) .

فما أجمع الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء .

وكما قال سيد المرسلين محمد ﷺ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله هو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ) (٣) .  
أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم - فى مواضع كثيرة - بعد ما يذكر نعم الله فى الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفتدتهم إلى ما بعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد .

فالله يقول - بعد ما ذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة - أخذ بأيدينا ليوقفنا فى عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ \* وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخَفُّ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ \* وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ، فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ \* وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ \* الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ .

(١) الآيات ١٢٠ - ١٢٢ من سورة النحل . (٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٣ . وفى ٦ : ١٥ .

## من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

**المفردات :** ﴿ الأمة ﴾ : الجيل من الناس ، ﴿ وشهد كل أمة ﴾ : نبيا ، ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ : أى إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعته وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال وسنكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبه وعتابا وأعتبه : سره بعد ماساءه ، ﴿ ينظرون ﴾ : أى يمهلون ويؤخرون ، ﴿ والشركاء ﴾ : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، ﴿ وندعو ﴾ : نعبد ، ﴿ والسلم ﴾ : الاستسلام والانقياد ، ﴿ وضل ﴾ : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، ﴿ وتبيننا ﴾ : أى بيانا لأمر الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

## المناسبة

وهكذا - وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله .. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارىء يستولى عليه العجب حيث يجد هذه الصورة الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب .

وكل نبي يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعذارهم ،

وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ \* ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ : أى لا يطلب منهم العتبي - أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا \* وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه في الدنيا ، وذهبت السكره ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الراجحون وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمنى ، فلا يقبل من أحدهم أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ \* يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ ، ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه ﴾ \* ولم أدر ما حساييه \* ياليتها كانت القاضية ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ ، ﴿ ياليتنى كنت ترابا ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ ، ﴿ ياليتنى قدمت لحياقي ﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ ، ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ .

عندئذ يقول لهم : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير . فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ .

فبادر يا أخى بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم .  
عجوز تمنى أن تكون صبية      وقد نحل الجنيان واحد ودب الظهر  
فسارت إلى العطار تبغى شبابها      وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟

قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ : يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى .

﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ : أى في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ \* ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ :

أنى لا يغتر عنهم ساعة ولا هم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ ﴿<sup>(٩)</sup>﴾ ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴿<sup>(١٠)</sup>﴾ .

(١) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .  
(٢) الآيات ٢٧ ، ٢٨ من سورة الفرقان .  
(٣) الآيات ٢٥ - ٢٧ من سورة الحاقة .  
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .  
(٥) الآية ٢٤ من سورة الفجر .  
(٦) الآية ٢٧ من سورة الانعام .  
(٧) الآية ٣٧ من سورة فاطر .  
(٨) الآيات ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .  
(٩) الآية ٥٣ من سورة الكهف .  
(١٠) الآية ٤٥ من سورة الشورى .



فاتق دعوة المظلوم ، ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة - ومن كفر فعليه كفره .

لا تظلمن إذا كنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقابه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعو عليك ، وعينُ الله لم تنم !

الحكمة الإلهية العليا :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرَكَاهُمْ قَالُوا رَبُّنَا هَؤُلَاءِ شَرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ ﴾ فآلقوا إليهم القول إنكم لكاذبون \* وألقوا إلى الله يومئذ السلم وصل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ :

هذه وقفة في محكمة الجنایات الإلهية العليا للحكم في أكبر جناية ترتكب ، ألا وهي : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ لَا تَغْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ ﴾ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء \* ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴿ (١) .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة في هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى :

قال المشركون : ربنا هؤلاء الذين كنا ندعو من دونك .

فرد الشركاء قائلين : إنكم لكاذبون !

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دَعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿ (٢) .  
ومصداق قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴿ (٣) .

وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَبِلَعْنٍ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ (٥) .

فماذا يقول المشركون بعد ما لزمتهم الحجة ، وحق عليهم القول إنهم كما قال الله : ﴿ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذِ السَّلَامَ ﴾ :

أى ذلّوا واستسلموا يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ، لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٦) أى ما أسمعهم وما أبصرهم !! وهو أسلوب من التعجب .

(٥) الآية ٦٤ من سورة القصص .

(٦) الآية ٣٨ من سورة مريم .

(٣) الآيات ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .  
(٢) الآيات ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .  
(٤) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

وكما قال تعالى : ﴿ وَعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ <sup>(١)</sup> أى خضعت ، وذلت واستكانت ، وأنابت ، واستسلمت : ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ : أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافاً ولا نقضاً ، فقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ <sup>(٢)</sup> أى عذاباً على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم يبهون عنه ويتأون عنه ﴾ <sup>(٣)</sup> أى يبهون الناس عن اتباعه ، ويتعدون هم عنه أيضاً ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون في درجاتهم - فإن الجنة درجات ، والنار درجات : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

اختتم الله تبارك وتعالى هذا المشهد المهيّب بتلك الآية الكريمة ، هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة « النساء » فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد \* وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ <sup>(٥)</sup> فقال له رسول الله ﷺ : ( حسبك \* فقال ابن مسعود : فالتفت إليه ، فإذا عيناه تذرفان الدمع ) <sup>(٦)</sup> .

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والخوض المورود .. إلى رسول الله ﷺ ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء ، والرسول ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتى هي أقوم \* ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ <sup>(٧)</sup> ، وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس \* ويكون الرسول عليكم شهيداً <sup>(٨)</sup> .

فكيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشف » رحمه الله فيقول :

(١) الآية ١١١ من سورة طه . (٣) الآية ٢٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٨٨ من سورة النحل . (٤) الآية ٣٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٦) أخرجه البخارى في فضائل الصحابة : ٢٥ ، وفي الجهاد : ٧ . وفي تفسير سورة ٤ : ٩ . والترمذى في الجناز : ١٤ .

(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء . (٨) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

فإن قلت : كيف كان القرآن تبياناً لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصاً على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله ﷺ وطاعته ، ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١) ، ﴿ وما ينطق عن الهوى \* إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٢) .

وحتا على الإجماع في قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين \* نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (٣) .

وقد رضى رسول الله ﷺ لأئمة اتباع صحابته واقتفاء آثارهم في قوله ﷺ : ( أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ) .

وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة ، والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم : كان القرآن تبياناً لكل شيء .

صدقت يا ذا الجلال والإكرام . يا من قلت : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٤) وقلت : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (٥) ، وقلت : ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « ولقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي » وإذ يقول : ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾ (٦) .

فما من نظام مستقيم وعادل في هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٧) ، ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ (٨) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٩) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَسَتْ تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

(٧) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٩) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(١٠) الآية ٧ من سورة الحشر .

(١١) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ١٢٩ ، ٤ : ١٣١ .

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء .

(٢) الأيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

(٣) الآية ١١٥ من سورة النساء .

**المفردات ﴿العدل﴾** : لغة : المساواة في كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه ، والمراد به هنا المكافأة في الخير والشر ، ﴿والإحسان﴾ : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، ﴿ والفحشاء ﴾ : ما قبُح من القول والفعل ، فدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، ﴿ والمنكر ﴾ : ما تنكره العقول من دواعي القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتناول على الناس ، ﴿ والبغى ﴾ : الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، ﴿ والوعظ ﴾ : التنبيه إلى الخير بالنصح والارشاد ، ﴿ والعهد ﴾ : كل ما يلتزمه الانسان بإختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ﴿ ونقض اليمين ﴾ : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، ﴿ وتوكيدها ﴾ : توثيقها والتشديد فيها ، ﴿ كفيلاً ﴾ : أى شاهداً ورقياً ، ﴿ والغزل ﴾ : ما غزل من صوف ونحوه ، ﴿ والقوة ﴾ : الأبرام والاحكام ، ﴿ والأنكاث ﴾ : واحداً نكث وهو ما نكث فتلته وينقض بعد غزله ، ﴿ والدخل ﴾ : المكر والخديعة وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ، ويراد به أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، ﴿ أرى ﴾ : أى أكثر وأوفر عدداً .

بعد ما بينت الآية السابقة شهادة الرسول ﷺ ، عقبته بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ليكون تبياناً وتوضيحاً وسراجاً منيراً ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هادياً ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التي لا تهتز ولا تحتل ما بقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ :

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية في القرآن في سورة « النحل » هي قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ : الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربي ﴿ أكرم بن صيفى ﴾ : أرسل وفداً من أتباعه إلى رسول الله ﷺ يسألونه ، فالتفوا به ، فقالوا : نحن رسل أكرم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبي ﷺ ( أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله ) ، قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ : الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول . فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكرم فقالوا : أى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكى النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهم أكرم قال : « إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملامتها ، فكونوا في هذا الأمر رؤوساً ، ولا تكونوا فيه أذناباً » .

## العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولاً ، والإحسان ثانياً ، ثم بإيتاء ذى القربى .  
والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشئ فى موضعه ، وإقامة الميزان بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .  
ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقومها : فإن الظلم يدمرها ويهلكها وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال سبحانه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبشر معطلة وقصر مشيد ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ وكأين من قرية أملت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ <sup>(٥)</sup> .  
وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

## الإحسان

أما الإحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً فى الإحسان تفضل وكرم ، ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾ <sup>(٦)</sup> .  
ويقول فى شأن الإحسان : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾ <sup>(٧)</sup> .  
ويقول فى شأن العدل : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ <sup>(٨)</sup> .  
وفى شأنه الإحسان : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ <sup>(٩)</sup> .  
ويقول فى شأن العدل : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ <sup>(١٠)</sup> .  
وفى شأن الإحسان : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ <sup>(١١)</sup> .  
وقد قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنان قوم على ألا تعدلوا \* عدلوا هو أقرب للتقوى \* واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ <sup>(١٢)</sup> .  
فبالعدل قامت السماوات والأرض وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة .. إذ هو ميزان الحياة

(٧) الآية ٣٧ من سورة الشورى .

(٨) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٩) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(١٠) الآية ٤١ من سورة الشورى .

(١١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .

(١٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

(١) الآية ١٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٦) الآية ٣٩ من سورة الشورى .

الصحيحة به تطمئن النفوس وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم والحكام على أنفسهم وأن أى مجتمع يزول من بين أفراد العدل وتقوض أركانه هو جدير بالمهانة وتحقيق بالزلة إذ يقول المعصوم عليه السلام فيما يرويه معاوية رضى الله عنه : ( لا تقدر أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى ) .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور وعدل مع ربه وخالفه ورازقه فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وراقبه في السر والعلن وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين فقال له على ابن إبي طالب كرم الله وجهه : ( عفت فعفوا ولو رتعت لرتعوا ) .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام في ظل شجرة وهو مستغرق في نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل فوقف الفارس يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ثم قال : « حكمت فعدلت فأمنت فمنت يا عمر »

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً	بين الرعية عطلا وهو راعيا
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا	ببردة كاد طول العهد يلبيا
رآه مستغرقا في نومه ، فرأى	فيه الجلالة في أسمى معانها
وحسبه بملوك الفرس أن لها	سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلاً	وأصبح الجيل بعد الجيل يرويا
أمنت لما أقمت العدل بينهمو	فمنت نوم قرير العين هانها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها	بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر » ؟ !

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة وحده يقام في الأرض بحقه : أزكى من مطر أربعين صباحاً )<sup>(١)</sup> .

وروى عنه عليه السلام أنه قال : ( أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلسا إمام جائر )<sup>(٢)</sup> .

إذا كانت هذه هي مكانة العدل : فإن الاحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم .

(١) أخرجه النسائي في السارق : ٧ . وابن ماجه في الحدود : ٣ . والامام أحمد في ٢ : ٣٦٢ ، ٤٠٢ .

(٢) أخرجه الترمذى في الأحكام : ٤ .

وقد يأتي الإحسان بمعنى آخر كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ﷺ في قوله : ( الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك )<sup>(١)</sup> .

فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات ، وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : ( أن تعبد الله كأنك تراه ) ودرجة المراقبة ( فإن لم تكن تراه : فإنه يراك ) .

وبهذا يعمل الضمير الحى عمله .. فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء فقال له : يا هذا : « ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء » ؟

نعم : إن الضمير هو السلطة التى ترفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها والاستشعار بهيمنة سلطانه . وهل ننسى موقف هذه الفتاة التى كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ولكنها عادت وغشت اللبن فقالت لها ابنتها : « يأماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت لها : وهل يرانا أمير المؤمنين ؟ قالت لها : إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله رب العالمين يرانا ! » وكان عمر فى هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية فرآها تغش اللبن فقال لها : « يا عجوز ألم أنهك عن غش اللبن ؟ » قالت : والله ما غششته يا أمير المؤمنين وإذا بصوت ( الضمير ) ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها يقول لها : « يأماه أنغشين المسلمين وتحشين فى اليمين وتكذبين على أمير المؤمنين ؟ » وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه ، ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفاً سليماً ؟ كلا ! لقد زوجها لابنه ( عاصم ) فأنجبت منه فتاة اسمها ( ليل ) ، هذه الفتاة تزوجت عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد . العادل . الرحيم ذلك يوم مات قال رعاة الغنم فى شواحق الجبال : « اليوم مات عمر » قيل وما أدراك بموته : قالوا : « لأن الذئب قد عدا على الغنم وما عهدناه كذلك فى حياة عمر » ولما تحقق الناس من الخبر وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز فى حياته عن هذه الظاهرة العجيبة وهى أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها فقال لهم : « أخلصت ما بينى وبين رعى فأخلص الله ما بين الذئب والغنم » . هكذا صارت بنت بائعة اللبن : فى بيت الإمارة ، وهكذا صارت جدة لأمر المؤمنين . وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : ( الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . ومسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

## صلة الرحم

قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ :

أيها القارئ الكريم بإقامة العدل تحيا النفوس ، وبالإحسان يرتفع شأنها ، وبإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم وأول الأرحام فى ( كشف ) الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب فالأقرب ، ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عَظِفَتْ على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١) .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله ﷺ فقال : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : ( الصلاة على وقتها ) قلت : ثم أى ؟ قال : ( بر الوالدين ) قلت : ثم أى ؟ قال : ( الجهاد فى سبيل الله ) (٢) .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مكانة الوالدين على أولادهما حيث يقول : « لا يجزى ولد والد إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » (٣) .

وهذه توجيهات نبوية ، وإرشادات إسلامية ، تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا . يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٤) .

تأمل معي أيها القارئ الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : ( إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال فذاك لك ) (٥) ثم قال ﷺ : اقرعوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ (٦) .

وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : ﴿ من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته ﴾ . فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها فإن الله تعالى جل جلاله يقول فى الحديث القدسى

(١) الآية الأولى من سورة النساء . (٢) أخرجه البخارى فى الادب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٢ .

(٣) أخرجه مسلم فى العتق : ٢٥ . وأبو داود فى الادب : ١٢٠ . والترمذى فى البرة : ٨ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٤٤٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الادب : ٣١ ، ٨٥ ، وفى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى اللقطة : ١٤ ، وفى الايمان : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ . وأبو داود فى الاطعمة : ٥ ، والترمذى فى البر : ٤٣ ، وفى القيامة : ٥٠ . وابن ماجة فى الادب : ٥ . والدرامى فى الأطعمة : ١١ . والامام مالك فى صفة النبى : ٢٢ . والامام أحمد فى ٢ : ١٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣ ، وفى ٣ : ٧٦ ، وفى ٤ : ٣١ ، وفى ٥ : ٤١٢ ، وفى ٦ : ٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الادب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، (٦) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد . ٤٥٥ ، ٤٠٦ ، ٣٨٣ .



( أنا الله وأنا الرحمن وقد اشتقت للرحم اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته )<sup>(١)</sup> .  
 وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذوى القربى وإيتائهم حقهم فلأنهم أولى الناس بالمعروف  
 قال عليه الصلاة والسلام : ( الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة )<sup>(٢)</sup> .  
 وليس معنى هذا أن ذوى القربى هم المخصصون بالصلة بل هم أولى الناس بالصلة لأن هناك رحماً  
 عامة : هم كل من يقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة كأن  
 يعودوه إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به ، وينصحه إذا استنصحه ، ويحييه إذا دعاه ،  
 ويفرح له إن كان في خير ، ويحزن من أجله إن كان في شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل  
 والإنصاف دون ظلم أو اعتداء : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن  
 تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾<sup>(٣)</sup> .

إن قوله تعالى ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر  
 والبغى ﴾ :

لقول يفيض جلالاً وكألاً ويشع ضياء وبهاء .

لقد اشتملت تلك الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهي :

العدل - والإحسان - وإيتاء ذى القربى .

وأما النواهي الثلاثة فهي :

الفحشاء - والمنكر - والبغى .

فالبغى والعدل تقيضان لا يجتمعان .

والإحسان والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

إيتاء ذى القربى والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء والمنكر والبغى : رذائل .

وفي لفظ ﴿ الفحشاء ﴾ : ما يشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث لا يكون كل لياقة ولذلك

نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ ﴿ الفحشاء ﴾ : فيقول في نكاح زوجة الأب : ﴿ ولا

(١) أخرجه الترمذى في البر : ١٦ . والامام أحمد في ٦ : ٦٢ .

(٢) أخرجه الترمذى في الزكاة : ٢٦ . والنسائى في الزكاة : ٢٢ ، ٨٢ . وابن ماجه في الزكاة : ٢٨ . والترمذى في الزكاة : ٣٨ . والامام

(٣) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

أحمد في ٤ : ١٧ ، ١٨ ، ٢١٤ .

تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿١﴾ .

ويقول في شأن الزنا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿٢﴾ .

ويقول في شأن الشذوذ الجنسي : ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٣﴾ .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها ، من أجل ذلك ورد النهي عنها في كل صورها قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ﴿٤﴾ وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ أَمَّا الْمُنْكَرُ ﴾ : فهو ما تنكره الأذواق السليمة ولا يقرّه العرف الصحيح .

ذلك لأن المنكر ضد المعروف وقد ورد في آيات كثيرة كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ﴿٦﴾ .

وفي وصية لقمان لابنه : ﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ ﴿٧﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ﴿٨﴾ .

وينظرة فاحصة في الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما : ف « المعروف » في ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

والمنكر في قبحه وسوء فعله ونفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الإنسان يده لم يكده يراها :

فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس التي حرم الله قتلها : منكر ، والتولي والفرار من الجهاد : منكر .

والغيبة والتميمة وقطع الطريق كل هذه منكرات ، نهى الله عنها وشدد الوعيد لمقترفها .

﴿ أَمَّا الْبَغْيُ ﴾ : فهو تجاوز الحد وترك العدل والإنصاف مما يترتب عليه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

وكلمة الظلم من أبشع الكلمات وأقساها وقعاً على النفس حتى كان اصطدام النفوس بها

(١) الآية ٢٢ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٤ من سورة النمل .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٦٧ من سورة التوبة .

(٧) الآية ١٧ من سورة لقمان .

(٨) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

كاصطدام مطارق الحديد بأواني الفخار .

ويكفى للدلالة على ذلك أن نقرأ قول الله تبارك وتعالى في حق الظالمين ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله جل شأنه : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾<sup>(٣)</sup> .

استمع معي إلى هذا الحديث القدسي الجامع الذي رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل جلاله إذ يقول : [ يا عبادي : إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا .

يا عبادي : كلكم ضال إلا من هدي فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم .

يا عبادي : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم .

يا عبادي : إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم : ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادي : إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ]<sup>(٤)</sup> .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثاً على ركبته . رواه مسلم .

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظام الأمور ويكفى أن تقف عند قوله جل

شأنه : [ حرمت الظلم على نفسي ] .

سيحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية .

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا

الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .

(٢) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٣) الآية ٣٨ من سورة مريم .

(٤) أخرجه مسلم في البر : ٥٥ . والامام أحمد في ٥ : ١٦٠ .

(٥) أخرجه مسلم في البر : ٥٦ . والامام أحمد في ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفي ٣ : ٣٢٣ .

تأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .  
جاء فى الحديث الشريف : ( لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء )<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ فى حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : ( إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد ( ثلاثاً ) ويلكم - أو ويحكم - انظروا : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض )<sup>(٢)</sup> .

ثم انظر - بعد ذلك - إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق فيغير حدود الأرض - مثلاً - ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟

يقول الحديث الشريف : ( من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين )<sup>(٣)</sup> .  
إذا غرتك قوتك يا ابن آدم فلم استحكمت فيك شهوتك ؟  
وإذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً !

وإياك والظلم . يا أخى المسلم . فإن رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته )<sup>(٤)</sup> ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وهذه وصية رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن قال : ( إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم ، اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب )<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٣ ، وفى الحج : ١٣٢ ، وفى المغازى : ٧٧ ، وفى الأدب : ٩٥ ، وفى الحدود : ٩ ، وفى الفتن : ٨ . ومسلم فى الايمان : ١١٨ - ١٢٠ . وابوداود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الفتن : ٢٧ . والنسائى فى التحريم : ٢٩ . وابن ماجه فى الفتن : ٥ . والدارمى فى المناسك : ٧٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٠ ، ٢٠٢ ، وفى ٢ : ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، وفى ٤ : ٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، وفى ٥ : ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ . ومسلم فى المساقاة : ١٤٢ . والدرامى فى البيوع : ٦٤ . والامام أحمد فى : ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٤ : ١٧٣ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ . وابوداود فى الزكاة : ٥ . والترمذى فى الزكاة : ٦ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ . والدارمى فى الزكاة : ١ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

## هذا بيان للناس

أخي القارئ الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة التي ورد الأمر فيها بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وجاء النهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : ﴿ يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه وحدود ومعالم لا يتعداها إلا من ظلم نفسه وسفه قدره ونسى ربه ولفظ ( لعل ) من الله تعالى لا يفيد الترجى إنما يفيد التعليل والغاية فهو بمعنى ( لتذكروا ) إذ أن الترجى هو توقع حصول الأمر المحبوب . وتوقع حصول الشيء يفيد الجهل به والجهل على الله محال : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ <sup>(١)</sup> .

الوفاء بالعهود في الإسلام  
والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أرى من أمة إنما يلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ :

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الاسلام ومبادئه ، وذلك دليل على مكانة العهود في الإسلام ، فقد أكد الله هذا الجانب بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وهنا يقول ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول : ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ .

فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فإنه لن يجترأ على نقض عهوده ولذلك جاء ختام الآية : ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ .

إذاً : فما دام الله هو الكفيل العالم بالفعل : سره وعلنه أوله وآخره صغيره وكبيره فكفى به كفيلاً وكفى به عليماً .

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بامرأة خرقاء ذات حماقة وسفاهة غزلت غزلاً محكماً متقناً ثم نقضته نقضاً فذهب غزلها أدراج الرياح وضاع جهدها هباء منثوراً .

كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ويؤدى بمكانة الفرد مهما كانت الدوافع إلى

(١) الآية ٢٩ من سورة الإنسان . (٢) الآية الأولى من سورة المائدة . (٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

النقض ولذلك سمي الله هذا الفعل خيانة ودخلاً وخديعة فقال : ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ .  
وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عدداً من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العدة ، إنما  
المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة .

قال سبحانه جل من قائل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تبارك  
اسمه : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفهية ، فإن السنة الشريفة أنزلت  
( الغادر ) يوم القيامة مكانة سحيقة من الذل الهوان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : ( إن الغادر ينصب  
له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر بعد الشرك بالله — أن يبايع رجل  
رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم في هذا  
الأمر فيكون فصل بيني وبينه ) <sup>(٣)</sup> .

وكفى بنقض العهد شاعة : أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق وكفى بالنفاق إثماً أنه داء عضال  
ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال ﷺ : ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف  
وإذا أؤتمن خان ) <sup>(٤)</sup> .

وقال أيضاً في رواية للإمام مسلم ( وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ) .

وفي حديث آخر ( أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه  
خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر ) <sup>(٥)</sup>  
متفق عليه .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد والتي تمثلت على يدى الصديق  
رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ .

فعن جابر رضى الله عنه قال : قال لى النبي ﷺ : ( لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا  
وهكذا وهكذا فلم يجيء مال البحرين حتى قبض النبي ﷺ فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله  
عنه عليه فنادى : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الأحزاب .

(٣) أخرجه البخارى في الجزية : ٢٢ . ومسلم في الجهاد : ٨ ، ١٠ ، ١٧ . وابوداود في الجهاد : ١٥٠ . والترمذى في السير : ٢٨ ، وفي  
الفتن : ٢٦ . وابن ماجه في الجهاد : ٤٢ . والدارمى في البيوع : ١١ . والامام أحمد في ١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١ ، وفي ٢ : ١٦ ،  
٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى في الايمان : ٢٤ ، وفي الشهادات : ٢٨ ، وفي الادب : ٦٩ . ومسلم في الايمان : ١٠٧ ، ١٠٩ ، والترمذى في  
الايمان : ١٤ . والنسائى في الايمان : ٢٠ .

(٥) أخرجه مسلم في الايمان : ١٠٦ . والبخارى في الايمان : ٢٤ ، وفي الجزية : ١٧ . وابوداود في السنة : ١٥ .

دين فليأتنا فأتيته وقلت له : إن النبي ﷺ قال لي كذا وكذا فحشى لي حثية فعددتها فإذا هي خمسمائة فقال لي : خذ مثلها (١) متفق عليه .

إن الله تعالى أمرنا في هذا المشهد القرآني الكريم بالوفاء بالعهد ونهانا عن نقض الإيمان بعد توكيدها والأوامر والنواهي ابتلاء واختبار ولذا ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلِيْبِن لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وتعقياً على الوفاء بالعهد والمحافظة على الإيمان نقول :

#### ١- النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : ( إن الله تعالى ينهاكم إن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً : فليحلف بالله أو ليصمت ) (٢) . وفي رواية في الصحيح ( فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت ) .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الانسان بالأمانة فقد روى أبو داود رضى الله عنه بإسناد صحيح أن النبي ﷺ قال : ( من حلف بالأمانة فليس منا ) (٣) .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال : ( من حلف فقال إني برىء من الاسلام : فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً ) (٤) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة . فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك ) (٥) رواه الترمذى .

#### ٢ - الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التى نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً فقد أخبر الصادق الأمين ﷺ فقال : ( اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع ) (٦) .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه

(١) أخرجه البخارى في الكفالة : ٣ ، وفي الخمس : ١٥ . وأحمد في ٣ : ٣١٠ .

(٢) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ٧ . والترمذى في النور : ٨ .

(٣) أخرجه ابوداود في الايمان : ٥ . والامام أحمد في ٥ : ٣٥٢ .

(٤) أخرجه النسائى في الايمان : ٨ . وابن ماجه في الكفارات : ٣ . والامام أحمد في ٥ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٥) أخرجه الترمذى في النور : ٩ . والنسائى في الايمان : ٤ . وابن ماجه في الكفارات : ٢ . والدرامى في النور : ٦ . والامام أحمد في

١ : ٤٧ ، وفي ٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ .

(٦) أخرجه الامام أحمد في ٥ : ٧٩ .

لقى الله وهو عليه غضبان ) قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشتركون به عهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ﴾ <sup>(١)</sup> . متفق عليه .

ثم تعال معي أخا الاسلام . لتعمن النظر في هذا الحديث النبوي الشريف الذي يبين فيه الرسول المصطفى ﷺ مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذبا في سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : ( من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يا رسول الله ؟ وإن كان قضيباً من أراك ) <sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وقد سمي الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها في النار ولذلك نظمها في سلك الكبائر من الذنوب ، قال صلوات الله وسلامه عليه ( الكبائر : الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس ) <sup>(٣)</sup> رواه البخاري .

وفي رواية للبخاري أيضاً : أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : ما الكبائر ؟ قال ( الإشراف بالله قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس قلت : وما اليمين الغموس . قال : الذي يقتطع مال امرئ مسلم ) .

يعنى يمين هو فيها كاذب .

### ٣ - رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله التي وسعت كل شيء أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً إلا تفعل كذا ثم ظهر أن الخير في فعله فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذي هو خير وكفر عن يمينك .

وكفارة اليمين : هي كما بينها الله تبارك وتعالى في قوله : ﴿ ولكن يؤخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد : فصيام ثلاثة

(١) أخرجه البخاري في الخصومات : ٤ ، وفي الشهادات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، وفي تفسير سورة ٣ : ٣ . وفي الايمان : ١١ ، ١٧ ، ومسلم في الايمان : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ . وابوداود في الايمان : ١ . والترمذي في البيوع : ٤٢ . وابن ماجه في الاحكام : ٨ . والامام أحمد في ١ : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، وفي ٢ : ١١٨ ، وفي ٤ : ١٩٢ ، ٣١٧ ، وفي ٥ : ٢٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد : ٢٤ . ومسلم في الايمان : ٢١٨ . والترمذي في تفسير سورة ٣ : ٢١ . والنسائي في القضاة : ٣٠ . والدارمي في البيوع : ٦٢ . والامام مالك في الاقضية : ١١ . والامام أحمد في ١ : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤١٦ . وفي ٥ : ٢٦٠ ، وفي ٦ : ٢١٢ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب : ٦ ، وفي الايمان : ١٦ ، وفي الديات : ٢ ، وفي الاستانة : ١ . والترمذي في تفسير سورة ٤ : ٤ ، ٦ . والنسائي في التحريم : ٣ . والدارمي في الديات : ٩ . والامام أحمد في ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفي ٣ : ٤٩٥ .



أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴿١﴾ .

وجاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال ( إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير وكفر عن يمينك ) ﴿٢﴾ . متفق عليه .

وقال أيضاً صلوات الله وسلامه عليه : ( من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير ) ﴿٣﴾ . رواه مسلم .

هذه أمور ثلاثة عقبت بها على آية ( الأيمان والعهود ) وذلك نظراً لعموم البلوى وإنتشار وقوعها .

وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله .

وكان ثانيها : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثها : التكفير عن اليمين إذا كان الخير في غيرها .

### مشيئة وحكمة وتوجيه

﴿ ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ :

اعلم يا أخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترى على المخالفة لأوامر الله أن يلقى باللائمة على مشيئة الله .

قال سبحانه فى حق الإنسان : ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً \* إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ ﴿٤﴾ ، وفسر السبيل بقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ﴿٥﴾ بعدها قال : ﴿ ألم نجعل له عينين \* ولساناً وشفتين ﴾ ﴿٦﴾ ، وفسر النجدين ﴿ بقوله : ﴿ ونفس وما سواها \* فاهمها فجورها وتقواها ﴾ ﴿٧﴾ .

وأرشد إلى الخير وحذر من الشر فقال : ﴿ قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ﴾ ﴿٨﴾ .

وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على

الهدى ﴾ ﴿٩﴾ .

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الايمان : ١ ، ٨٣ . ومسلم فى الايمان : ١٩ . وابوداود فى الايمان : ١٢ ، ١٤ . والترمذى فى النور : ٥ .

والنسائى فى الايمان : ١٥ ، ١٦ . وابن ماجه فى الكفارات : ٧ . والدارمى فى النور : ٩ . والامام أحمد فى : ١٣٧ ، وفى : ٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس .

(٨) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٩) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٤٢٨ .

(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الانسان .

(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة البلد .

ثم نادى بعد ذلك في عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾<sup>(١)</sup>.

ثم بين مدى رحمته بعباده فقال : ﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : ما بال الله يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال : ( الله أراد بنا وأراد منا فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا ) .

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها إلى ( المفلسين ) الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهرياً ، ويشربون ويلعبون وعلى الأعراض يعتدون ، في الحياة يعبثون ويعبثون ، ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب ، فإذا كلمت أحدهم في ذلك فلا تسمع منه إلا جدالاً في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة والاضلال والهداية ، إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه : ﴿فأما من أعطى واتقى \* وصدق بالحسنى \* فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى﴾<sup>(٣)</sup>.

ولذا يقال لهذا ( النادم ) يوم القيامة : ﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾<sup>(٤)</sup>.

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا قل له : أطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً .

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولاً يبين لك الحلال والحرام ؟

قل له : ألم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه تبيان لكل شيء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلاً تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له بعد ذلك ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ .

قل له : ألم يتجاوز ربك بفضله وكرمه عن الخطأ والنسيان وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ويسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار .

(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الزمر .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٧ من سورة الزمر .

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل وعزتك وجلالك ( لأغوينهم ) مادامت أرواحهم في أبدانهم . فقال رب العزة وعزتي وجلالي ، لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني ؟  
إذاً : فقلوه تعالى : ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ، لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال ، وذلك كما بينا في الآيات السابقة . إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف لا صفة إلزام وجبر .

إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها .

### ترغيب وترهيب

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمُ بَعْدِ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمَلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ زلة القدم بعد ثبوتها ﴾ : مثل يقال لمن وقع في محنة بعد نعمة وبلاء بعد عافية .

﴿ والحياة الطيبة ﴾ : هي القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما في ذلك من الكد والعناء .

وتعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، وتنبى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومراوغة ، إذ أنه سياتر على ذلك زلة الأقدام بعد ثبوتها هذا في الدنيا : أما في الآخرة فعذاب أليم وخزى عظيم .

ثم ينهى عن أن يشتري الانسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، فيخالف بذلك ربه ، لأن ما في هذه الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة إذا قيس بما عند الله ﴿ إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴿ .

ألا أن كل شيء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون على طاعته ، المقيمون لشعائر دينه ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجراً بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ :

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجمل قدرها ، وما أفضل الكرم الرباني ، وما أرفع شأنه :  
 يامن يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران  
 وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان  
 أصبحت ضيف الله في دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان  
 تعفوا الملوك عن النزول بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن  
 وأنا المسيء وقد دعوتك سيدي تعفو وتصفح للعبيد الجاني  
 يامن إذا وقف المسيء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان

وعدّ من الله ، والله لا يخلف وعده ، لمن عمل صالحاً لا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى .  
 والعمل الصالح : هو كل ما جاء موافقاً لأوامر الله ورسوله ، ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين :  
 أحدهما : في الدنيا ، والآخر : يوم القيامة .

أما في الدنيا : فحياة طيبة فيها سكنينة وقناعة ، ورضا من الله وعن الله رضى الله عنهم ورضوا

عنه .

وأما في الآخرة : فجزاء بأحسن ما كانوا يعملون .  
 والإيمان شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ما كان مبنياً على الإيمان ، قال سبحانه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ :

وتظهر ثمرة الإيمان في الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء ، ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله . وكان داود عليه السلام يقول : ( اللهم إني أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وبدناً على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على دينى ودنياى : وأعوذ بك من ولد يكون على سيءاً ومن مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ومن جار سوء إن رأى منى خيراً أنكره وإن رأى سوءاً نشره ومن زوجة تشيننى قبل المشيب ) .

فبادر يا أخى بالعمل الصالح لتنال الوعدين الكريمين في الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله ، وما أجمل الصلح مع الله ، ألا وإن الصلح مع الله طريق النجاة .

### إرشادات وبيان

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى  
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ  
إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ  
الْكَاذِبُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿سلطان﴾ : تسلط وقوة ، ﴿بدلنا آية﴾ : رفعنا آية وجعلنا موضعها  
غيرها ، ﴿روح القدس﴾ : أى جبريل ، ﴿يلحدون﴾ : يميلون إليه ويشيرون ، ﴿أعجمي﴾ :  
العجمة فى لسان العرب الإخفاء وضد البيان وزجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح .  
قوله تعالى : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ :

أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى  
الصلاة فاغسلوا وجوهكم﴾ الآية ، أى إذا أردتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، والأمر فى قوله تعالى  
﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ : للندب وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره  
من الأئمة .

والحكمة من الابتداء بالاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارئ قراءته ، ويخلط عليه ،  
ويمنعه من التدبر والتفكير .

قوله تعالى : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين  
يتولونه والذين هم به مشركون :

قال بعض المفسرين معناه لاحجة له عليهم .

وقال الثورى : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لا يتوبون منه . وقال آخرون : كقوله  
﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾<sup>(١)</sup> .

﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ :

قال مجاهد : يطيعونه .

وقال آخرون : اتخذوه وليا من دون الله .

﴿والذين هم به مشركون﴾ :

أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان

مشركين بالله تعالى .

وقال آخرون : معناه أنه شركهم في الأموال والأولاد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴿ : قال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .

وقال العلامة ابن كثير : في هذه الآية يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الايمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ( إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ) أى كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأجابهم الله تعالى : ﴿ قل نزله روح القدس ﴾ : أى جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ : أى بالصدق والعدل .

﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ : فيصدقون بما أنزل أولاً وثانياً ، وتثبت له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ : أى وجعله هادياً ، وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مِّبِينٌ ﴾ : ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين :

وهذا مما افتراه الكافرون على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، وما كان أكثر ما يفترون ، فقد كانوا يقولون إن الذى يتلوه علينا محمد من القرآن إنما كان يعلمه بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان يباعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذلك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد الجواب .

فلهذا قال تعالى رادا عليهم افتراءهم ذلك : ﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مِّبِينٌ ﴾ : أى القرآن ، أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

قال محمد بن اسحق بن يسار في السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة ، غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبعض بنى الحضرمي ، فأنزل الله : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مِّبِينٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : إِنَّمَا يُفْتَرَى الْكَذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿ :

هذا حكم عادل من الحكم العدل ، وجزاء حق على الذين لا يؤمنون بآيات الله ويكذبونها ويحذونها ، كيف يهديهم الله وقد كفروا بآياته .

وقال الله فيهم : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾ (١) .

إنهم أظلم الخلق الذين قال الله فيهم : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴾ \* ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾ (٢) .

انتم الذين أعرضوا عن ذكر الله ، فحق فيهم قوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ \* قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٣) .

إن الله تعالى لا يهدي هؤلاء في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجه يوم يقوم الناس لرب العالمين : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ \* السماء منفطر به كان وعده مفعولا \* إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ هذا دفاع من الله جل وعز عن الصادق الأمين محمد ، فما كذب على الله قط ، وما افترى عليه ما لم يقله .

لقد جاء في الحديث القدسي الجليل قوله تعالى : [ صدق عبدى فيما بلغ عنى ] . وكيف يكذب ورب العالمين يقول : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ \* ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون \* تنزيل من رب العالمين \* ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (٥) .

وكيف يكذب وقد زكى الله تعالى عقله : فاقسم : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ماضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٦) .

وزكى لسانه ، فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٧) .

وزكى شرعه ، فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٨) .

(١) الآية ٥٧ من سورة الكهف .

(٢) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الكهف .

(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٧ من سورة طه .

(٤) الآيات ١٧ - ١٩ من سورة المزمل .

(٥) الآيات ٤١ - ٤٧ من سورة الحاقة .

(٦) الآيات ١ - ٢ من سورة النجم .

(٧) الآية ٣ من سورة النجم .

(٨) الآية ٤ من سورة النجم .

وزكى جلسه فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾ <sup>(١)</sup> وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ <sup>(٢)</sup> .

وزكى بصره ، فقال : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ <sup>(٣)</sup> .

وزكى أمته ، فقال : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ <sup>(٤)</sup> .

وزكى أهل بيته ، فقال : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ <sup>(٥)</sup> .

وزكى رسالته ، فقال : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ <sup>(٦)</sup> .

وزكاه كله ، فقال تعالى : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ <sup>(٧)</sup> .

﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ <sup>(٨)</sup> .

فكيف يكذب محمد على الله وهو أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً ، وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سأها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله .

### إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ \* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(٧) الآية ٤ من سورة القلم .

(٨) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(٤) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ٥ من سورة النجم .

(٢) الآية ١١ من سورة النجم .

(٣) الآية ١٧ من سورة النجم .



**المفردات :** ﴿ شرح بالكفر صدرا ﴾ : فتحه ووسعه والمراد أطمأن صدره له ،  
 ﴿ غضب أشد من اللعن الذى هو الطرد من رحمة الله ﴾ ، ﴿ استحبوا ﴾ : اختاروا وأحبوا ،  
 ﴿ فتنوا ﴾ : اختبروا بالعذاب .

### سبب النزول

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله ﷺ ، وتقولوا عليه الأقاويل ، فوصفوه بأنه مفتر ، وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد ، قفى على ذلك بيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل ( أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له : ما وراءك ؟ قال : شر ما تركت ، نلت منك وذكرت آهتهم بخير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال ! مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعد فنزلت ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ : )

وروى ( أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ، ووجئت بحربة فى موضع عفتها ، وقالوا : إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها ، وقتلوا ياسراً ، وهما أول قتيلين فى الاسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل : يا رسول الله إن عماراً كفر ، فقال رسول الله ﷺ : كلا إن عماراً ملىء بإيمان من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عماراً رسول الله ﷺ وهو يكي فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت ) .

قوله تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ : هذا استثناء من قوله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ : لأن هذا الفريق من الناس كفر بلسانه ، والإيمان مطمئن فى قلبه ، حتى يوافق لسانه ما يقول به المشركون ، ولكن القلب عامر بالإيمان ، والتصديق لا يتغير ولا يتبدل الإيمان صانع العجائب والمعجزات ، إذا باشرت بشاشته شفاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، فلو أنه صعد إلى السماء لكان قمراً منيراً ، ولو امتزج بماء البحر لجعله عذبا فراتاً سلسبيلا ، ولو هبط إلى الأرض لكساها سندساً وحريراً .

أما الذين تمكن الكفر من قلوبهم وشرحوا به صدرأ فقد حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ .

ثم بين حيثيات هذا الحكم بقوله : ﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله

لا يهدى القوم الكافرين ﴿١﴾ ، ويقول : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾ :

لقد أغلقوا كل نافذة إلى المعرفة ، وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فحق فيهم قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون \* أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

وحق فيه قوله جل شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون \* أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾ (٣) .

نعم إن الله لا يهdy القوم الكافرين ، لأنه حكيم لا يعرف العبث فكيف تجتمع الهداية والكفر في قلب واحد ، إن هؤلاء القوم قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وعلى سمعهم فلا يسمعون بها ، وعلى أبصارهم فلا يبصرون بها ، ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٤) .

قال تعالى في حق هؤلاء : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ (٥) ، ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (٦) .

﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ :

وهل هناك أشد خسراناً ممن خسر نفسه ، حقاً ذلك هو الخسران المين ، قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون \* تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون \* ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم \* يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ :

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملء بالإيمان -

(١) الآيات ٧ ، ٨ من سورة يونس .

(٢) الآيات ١٥ ، ١٦ من سورة هود .

(٣) الآية ١٨ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٥) الآية ٤ من سورة فصلت .

(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٧) الآيات ١٠٣ - ١٠٥ من سورة المؤمنون .

أردف بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم ، فوافقوا المشركين على الفتنة في الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهلهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ، ودخولهم في زمرة الصالحين ، وتمتعهم بمجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه - وكان أخا أبي جهل من الرضاعة - وأبا جندل بن سهل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيه الآية : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

أى أن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام ، من بعد أن فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألستهم بالبراءة منهم وبما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم - إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألستهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾ :

أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتى كل نفس تخصم عن نفسها ، وتحتاج عنها ، وتسعى في خلاصها ، بما أسلفت في الدنيا من عمل ولا يهتم شأن غيرها من ولد ووالد وقريب . ﴿ وثوقى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ :

أى وتعطى كل نفس جزاء ما عملت في الدنيا من طاعة أو معصية فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسيء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء فكل إنسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ <sup>(١)</sup> .

وجاء في بعض الآثار : ( أن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك ) .

## جزاء كفر النعمة والأمر بشكرها

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾  
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا  
مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ ﴿١١٤﴾  
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ  
وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ  
وَهَذَا حَرَامٌ لَتَنفَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلَحُونَ ﴿١١٦﴾  
مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ  
وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا أَلْسُوءَ بِجَهَالَةٍ  
ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

**المفردات :** ﴿ فَأَذَاقَهَا ﴾ : شبه إدراكهم الضرر بتذوقهم طعم المر ، ﴿ يَقُولُونَ ﴾ : له وجه  
يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه  
منشأً للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكليهما ، يحيط بتحقيقتهما  
يصفهما الناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا  
تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ (١).

إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن  
ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هي حقيقته ومنبعه وعليه قول ابى العلاء المعرى :

سرى برق المقررة بعد وهن  
فبات برامة يصف الكلالا  
أى أن سرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .  
لتفتروا : أى لتكون العقوبة ذلك .  
والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر فى العواقب .

## المناسبة

بعد أن هدد سبحانه الكافرين بالعذاب الشديد في الآخرة - أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ \* وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ :

هنا مثل أريد به أهل مكة ( من القواعد المقررة في الأصل أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ) فإنها تشمل كل مجتمع ينتشر فيه الظلم والكفر والجحود ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَتَسَكَّنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ \* وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ \* وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ \* أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمِنْ مَتَاعِنَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (١) .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مَغِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

لقد كانت تلك القرية آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال : ﴿ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَى مَعَكَ نَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وهكذا قال هنا : ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا ﴾ : أى هنيئاً سهلاً ، ﴿ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمَ اللَّهُ ﴾ : أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ \* جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ (٤) .

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ : أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

(١) آيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .

(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص .

(٤) الآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة إبراهيم .

وذلك أنهم أستعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابته سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز - وهو وبر البعير - يخلط بدمه إذا نحره .  
وقوله : ﴿ والخوف ﴾ : وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم في قوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً \* رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ (٢) .  
وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمناً ، ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذي قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفي عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم \* ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الدين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأمرين في هذه الآية أن يأكلوا من رزقه الحلال الطيب ، وأن يشكروا نعمته .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (٣) .

ويرحم الله زماناً كانت المرأة المسلمة تقول لزوجها ناصحة له عندما يخرج من بيته سعيّاً وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا ، ولا تأكل حراماً ، فإننا نستطيع أن نصبر على الجوع في الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب الله يوم القيامة .

فإذا عاد إلى بيته سأله سؤالين :

كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الطلاق .

(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة .

نعم أن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وإن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ يَأْيُهَا النَّاسُ كُلُّوْا مِمَّا فِى الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ \* إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴿١﴾ .

فيا أيها المخاطبون بهذا الخطاب اتبعوا أوامر الله إن كنتم إياه تعبدون ، فلا معبود سواه ، ولا رب غيره ، فالمصير إليه ، والمآب إليه ، والمرجع إليه .

ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك أنواعا من المحرمات فيقول : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ :

الميتة : ما لم يذكّر زكاة شرعية والمراد بالدم المسفوح كما جاء بيان ذلك في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنَازِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ ﴿٢﴾ .

والمراد بما أهل لغير الله به أى ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن اضطر إليه ، أى احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ ﴾ \* إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴿٣﴾ :

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية في سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا . وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما في كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم .

ولله در القائل :

كهيمة عمياء قاد زمامها      أعمى على عوج الطريق الحائر

أخرج الطبراني عن ابن مسعود قال : ( عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت ) . وهذه الآية التى بين أيدينا كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ \* وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴿٤﴾ .

إن مدار الحل والحرم على ما شرعه الله تعالى وبلغه رسوله ، ومن ثم فقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على الذين حرموا وأحلوا من غير سلطان أتاهم فشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله فحرموا البحيرة

(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(١) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

والسائبة والوصيلة والحام : ﴿ وجعلوا لله بما ذرأ من الحرت والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون \* وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون \* وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن مية فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾<sup>(١)</sup> .

وقد أوعد الله تعالى الذين حرموا وأحلوا من غير إذن من الله وتشريع من لدنه بسوء العقاب فقال : ﴿ لتفتروا على الله الكذب ﴾ : فاللام هنا للعاقبة والضرورة :

﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ : مهما تزينت لهم الدنيا ، وضحت لهم الأيام ، فالمتاع فيها قليل .

قال جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً \* أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهنا يقول جل شأنه : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون \* متاع قليل ولهم عذاب اليم ﴾ :

أى مؤلم موجه ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ إن شجرت الزقوم \* طعام الأثيم \* كالمهل يغلى في البطون \* كغلى الحميم ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد حرص السلف الصالح كل الحرص على التحرى فى الفتوى ، وقد كانوا يعلمون أنهم يوقعون عن الله تعالى ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول لمن يستفتيه : ( لا تجعلوا ظهورنا جسوراً إلى جهنم ) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون \* ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ :

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما رخص فيه عند الضرورة — وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى — ذكر سبحانه وتعالى ما كان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والخرج ، فقال :

(١) الآيات ١٣٦ - ١٣٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .

(٤) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الدخان .



﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ : أى فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :  
﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما  
أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم بغيرهم وإنما لصادقون ﴾ (١) .

ولهذا قال ههنا ﴿ وما ظلمناهم ﴾ : أى فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ :  
أى فاستحقوا ذلك كقوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل  
الله كثيراً ﴾ (٢) .

ثم أخبر تعالى تكربا وإمتنانا فى حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال : ﴿ ثم  
إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ :

قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل .

﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ : أى أقبلوا عما كانوا فيه من المعاصي ، وأقبلوا على فعل  
الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ : أى تلك الفعل والزلّة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

### الخليل والحبيب

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ  
وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ لَمَنِ  
الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾  
إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنْ رَبُّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا  
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَالِيَ هِيَ أَحْسَنُ  
إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ  
مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ  
وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

**المفردات :** ﴿ الأمة ﴾ : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل  
والكمالات ما لو تفرق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً وليس على الله  
بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ، ﴿ والقانت ﴾ : المطيع لله القائم بأمره ، ﴿ والحنيف ﴾ : المائل عن

الدين الباطل إلى الدين الحق ، ﴿ واجتبه ﴾ : اختاره واصطفاه ، ﴿ والحسنة ﴾ : هى حبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه ( واجعل لى لسان صدق فى الآخرين )<sup>(١)</sup> ، ﴿ وجعل السبت لليهود ﴾ : فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد ، ﴿ والحكمة ﴾ : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، ﴿ والموعظة الحسنة ﴾ : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، ﴿ والجدل ﴾ : الحوار والمناظرة لاقتناع المعاند ، ﴿ والعقاب ﴾ : فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، ﴿ والضيق ﴾ : ( بفتح الضاد وكسرهما ) الغم وانقباض الصدر .

### المناسبة

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسول بنحو قوله : لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة ، وفى تحليلهم أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالع فى هذه المعتقدات ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك .

ثم يأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره باللين فى العقاب . إن أرادته ، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين ، ثم يأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه ، وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين \* شاكراً لأنعمه اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم \* وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ :

مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

١ - أنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ، ليطمئن قلبه بالاسلام .

٢ - إنه كان قانتا ، أى مطيعا لله قائماً بأمره .

٣ - إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل متبعاً للحق لا يفارقه ولا يجيد عنه .

٤ - إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى

قال للملك في عصره ﴿رَبِّىَ الَّذِى يَحْيِ وَيُمِيتُ﴾<sup>(١)</sup> وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب ، بقوله : ﴿لَا أَحَبُّ الْآفَلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار ، فكانت عليه برداً وسلاماً .

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد ، مستغرقاً فى حب الإله المعبود ، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ما هم عليه .

ونحو الآية قوله ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٣)</sup> .

٥ - إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال : ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى﴾<sup>(٤)</sup> أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق .

٦ - إنه اجتبه ربه واختاره للنبوّة ، كما قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رَشْدَهُ مِنْ قَبْلٍ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾<sup>(٥)</sup> .

٧ - إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

٨ - إن الله حبه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان مسلميه ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لا فخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله ﴿وَاجْعَلْ لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾<sup>(٦)</sup> .

٩ - إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين ، وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة ، إجابة لدعوته قال : ﴿رَبِّ هَبْ لِّى حُكْمًا وَالْحَقْنِىْ بِالصَّالِحِينَ﴾<sup>(٧)</sup> .

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علو المرتبة ، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ بإتياعه فقال : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ : أبى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد . التى يعبدها قومك ، كما تبرا إبراهيم من مثلها من قبل ، فأنت متبع له وسائر على طريقه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يخللون ويحرمون من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام : ﴿قُلْ إِنِّىْ هَدَانِى رَبِّىْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(٨)</sup> .

(٧) الآية ٨٣ من سورة الشعراء .

(٨) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٣٧ من سورة النجم .

(٥) الآية ٥١ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران .

**والخلاصة :** أنه عليه الصلاة والسلام يأمر بإتباع ملة إبراهيم ، ينفى الشرك وإثبات التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلي ليظهر الدليل النقلى الدليل العقلي .

وقوله : ﴿ وما كان من المشركين ﴾ : تكرير لزيادة التوكيد ، وتقرير لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال : ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ :

أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه ، كما أن وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لاحالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذار للمشركين ، وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف إلا أن فيه حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام ، وأمروا بها فى لاحقه .

ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ :

أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحي الله الذى يوحى إليك ، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله ، كالذى عدده فى هذه السورة .

وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، بأن تصفح عما نالوا من عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ (١) الآية .

وقال آمراً موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٢) .

ثم تواعد سبحانه ووعد فقال : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ :

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٤٤ من سورة طه .

أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين في السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق . وهو مجازيهم جميعاً حين ورودهم إليه بحسب ما يستحقون .

**وخلاصة ذلك - سلك في الدعوة والمناظرة الطريق المثل ، وهي الدعوة بالتي هي أحسن وليس عليك غيرها .**

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فالإله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يرعى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبه من الخير ، فما شرعه لك في الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف في هداية المهتدين ، وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر الله رسوله بالدعوة وبين طريقها ، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر سبحانه الحقين برعاية العدل والإنصاف في العقاب وترك الزيادة فيه فقال : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولكن صبرتم هو خير للصابرين ﴾ : أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم في العقاب إحدى طريقين :

١ - أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

٢ - أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب وتصفحوا عنه ، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

**والخلاصة :** أنكم إن رغبت في القصاص فاقنعوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه ، فإن الزيادة ظلم والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بنصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ :

أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى في الله ، ومن إغراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيبته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسليح للنبي ﷺ ، وتهوين لمشاق الصبر عليه ، وتشريف له بما لا مزيد عليه .

﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ : أى ولا تحزن على إغراض المشركين الذين يكذبونك ، وينكرون ما جنتهم به .

﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ : أى ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر إحتيالاً وخديعة ، لمن أراد الايمان بك وصداً عن سبيل الله .

وقصارى ذلك : أنه نهى نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقي من أذى المشركين على تبليغهم . وحى الله وتنزيله ، كما قال : ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فإن الله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك فإن الله يبعده عنك ويحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ : أى أن الله مع الذين اتقوا محارمه خوفاً من عقابه ، والذين يعسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفى ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهارون : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقول النبى ﷺ للصدىق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقصارى ذلك : أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه ، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه ، وأوامر حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكأله ، وقد فسر النبى ﷺ الانحسان فقال : ( أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) <sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . وأخرجه مسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ،

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الخامس عشر

المكتبة المصرية الحديث

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## سورة الإسراء

### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وآياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وستون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون .

### مقصود السورة

تنزيه الحق تعالى ، ومعراج النبي ﷺ ، والإسراء إلى المسجد الأقصى ، وشكر نوح عليه السلام ، وفساد حال بنى إسرائيل .

ومكافأة الإحسان والإساءة ، وتقويم القرآن الخلائق ، وتخليق الليل والنهار .

وبيان الحكمة في سير الشمس والقمر ودورهما ، وملازمة البخت المرء ، وقراءة الكتب في القيامة .

وبيان الحكمة في إرسال الرسل ، والشكوى من القرون الماضية .

وذكر طلب الدنيا والآخرة ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وجعل بر الوالدين والتوحيد في قرن واحد ، والإحسان إلى الأقارب .

والأمر بترك الإسراف ، ودم البخل ، والنهي عن قتل الأولاد ، وعن الزنا ، وقتل النفس ظلماً ، وأكل مال اليتيم ، وعن التكبر ، وكراهية جميع ذلك .

والسؤال عن المقول والمسموع ، والرد على المشركين ، وتسبيح الموجودات .

وتعيير الكفار بطعنهم في القرآن ، ودعوة الحق الخلق وإجابتهم له تعالى .

وتفضيل بعض الأنبياء عن بعض ، وتقرب المقربين إلى حضرة الجلال ، وإهلاك القرى قبيل القيامة ، وفتنة الناس برؤيا النبي ﷺ ، وإبلاء إبليس من السجدة لآدم ، وتسليط الله إياه على الخلق . وتعديد النعم على العباد ، وإكرام بنى آدم ، وبيان أن كل أحد يدعى في القيامة بكتابه ودينه وإمامه ، وقصد المشركين إلى ضلال الرسول ﷺ وإذلاله .

والأمر بإقامة الصلوات الخمس في أوقاتها . وأمر الرسول ﷺ بقيام الليل ، ووعد بالمقام المحمود ، وتخصيصه بمدخل صدق ونخرج صدق ، ونزول القرآن بالشفاء والرحمة .



والشكاية من إعراض العبيد ، وبيان أن كل أحد يصدر منه ما يليق به .  
والإشارة إلى جواب مسألة الروح ، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ، وإقتراحات المشركين  
على رسول الله ﷺ ، وتفصيل حالهم في عقوبات الآخرة .  
وبيان معجزات موسى ومناظرة فرعون إياه ، وبيان الحكمة في تفرقة القرآن ، وآداب نزوله ،  
وآداب الدعاء ، وقراءة القرآن .  
وتنزيه الحق تعالى عن الشريك والولد ، في ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ﴾ إلى قوله ﴿ وكبره  
تكبيرا ﴾ .

### المتشابهات :

قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .  
وخصت سورة الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ لأن الأجر في السورتين الجنة والكبير والحسن من  
أوصافها ، لكن خصت هذه السورة بالكبير بفواصل الآي قبلها وبعدها ، وهي : ﴿ حصيراً ﴾  
و ﴿ أيماً ﴾ و ﴿ عجولاً ﴾ ، وكلها وقع قبل آخرها مدة .  
وكذلك في سورة الكهف جاء على ما يقتضيه الآيات قبلها وبعدها ، وهي ﴿ عوجاً ﴾ وكذا  
﴿ أبداً ﴾ وكلها ما قبل آخرها متحرك .  
وأما رفع ﴿ يبشر ﴾ في سبحانه ، ونصبها في الكهف ، فليس من المتشابه .  
قوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى  
عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .  
وقوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ .  
فيها بعض التشابه ، ويشبه التكرار وليس بتكرار ، لأن الأولى في الدنيا ، والثالثة في العقبى ،  
والخطاب فيها للنبي ﷺ ، والمراد به غيره كما في قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الأكبر ﴾ .  
وقيل : القول مضمّر أى قل لكل واحد منهم : لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً في  
الدنيا ، وتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً في الأخرى .  
وأما الثانية فخطاب للنبي ﷺ وهو المراد به ، وذلك أن امرأة بعثت صبيّاً لها إليه مرة بعد  
أخرى ، سألته قميصاً ولم يكن عليه ولا له ﷺ قميص غيره ، فنزعه ودفعه إليه ، فدخل وقت الصلاة ،  
فلم يخرج حياء ، فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك ، فأنزل الله تعالى :  
﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلوّمك الناس ﴿ محسوراً ﴾ مكشوفاً ، هذا هو الأظهر من تفسيره والله أعلم .

قوله : ولقد صرفنا في هذا القرآن ﴿ ليذكروا ﴾ وفي آخر السورة : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ﴾ وقال في الكهف : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس ﴾ .

إنما لم يذكر في أول سبحان ﴿ للناس ﴾ لتقدم ذكرهم في السورة ، وذكرهم في ﴿ الكهف ﴾ إذ لم يجز ذكرهم ، وذكر الناس في آخر سبحان ، وإن جرى ذكرهم لأن ذكر الانس والجن جرى معاً فذكر ﴿ للناس ﴾ كراهة الالتباس وقدمه على [ في هذا القرآن ] كما قدمه في قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ثم قال : ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن ﴾ . وأما في الكهف فقدم ﴿ في هذا القرآن ﴾ لأن ذكره أجل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، فأوحى الله إليه في القرآن ، وكأن تقديمه في هذا الموضوع أجدر ، والعناية بذكره أخرى وأخلق .

قوله : ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

ثم أعادها في آخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان ، لأن هذا ليس بتكرار ، فإن الأول من كلامهم في الدنيا حين جادلوا الرسول وأنكروا البعث ، والثاني من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وقولهم ذلك وإنكارهم البعث ، فقال ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

قوله : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ﴾ .

وفي الكهف ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ .

اقتصر هنا على الإشارة لتقدم ذكر جهنم ، ولم يقتصر عليها ( في الكهف ) وإن تقدم ذكر جهنم ، بل جمع بين الإشارة والعبارة لما اقترن بقوله ﴿ جنات ﴾ فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس ﴾ ، ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين .

قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ وفي سبأ ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ لأنه يعود إلى الرب وقد تقدم ذكره في الآية الأولى وهو يقول ﴿ وربك أعلم ﴾ وفي سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إلى الله كما صرح فعاد إليه وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أربع عشرة آية فلما طال الفصل صرح بقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي ﴾ وفي غيرها ﴿ أرأيت ﴾ لأن ترادف الخطاب يدل على أن المخاطب به أمر عظيم ، وهكذا هو في السورة لأنه لعنه الله ضمن احتناك ذرية آدم عن آخرهم إلا قليلاً .

ومثل هذا ﴿ أرأيتكم ﴾ في الأنعام في موضعين .

وقوله ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ : وفي الكهف زيادة : ﴿ ويستغفروا ﴾ ربههم ﴿ لأن ما في السورة معناه : ﴿ ما منعهم ﴾ عن الإيمان بمحمد إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولاً ، هلا

بعث ملكاً ، وجعلوا أن التجانس يورث التوانس ، والتغاير يورث التنافر ، وما في الكهف معناه :  
ما منعهم عن الإيمان والاستغفار إلا اتباع سنة الأولين .

قال الزجاج : إلا طلب سنة الأولين وهو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ فزاد : ويستغفروا ربهم  
لاتصاله بقوله : ﴿سنة الأولين﴾ وهم قوم نوح وصالح وشعيب ، كلهم أمروا بالاستغفار فنوح بقوله :  
﴿استغفروا ربكم إنه كان غفراً﴾<sup>(١)</sup> .

وهود يقول : ﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾<sup>(٢)</sup> .

وصالح يقول : ﴿فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب﴾<sup>(٣)</sup> .

وشعيب يقول : ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾<sup>(٤)</sup> .

فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم .

قوله ﴿قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم﴾ وكذا جاء في الرعد ، وفي العنكبوت ﴿قل كفى بالله  
بينى وبينكم شهيداً﴾ كما في الفتح ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ ، ﴿وكفى بالله نصيراً﴾ ، ﴿وكفى بالله  
حسيباً﴾ .

فجاء في الرعد ، وفي سبحان على الأصل ، وفي العنكبوت آخر ﴿شهيداً﴾ لما وصفه بقوله تعالى  
﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ فطال .

قوله : ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر﴾ ، وفي الأحقاف ﴿بقادر﴾ وفي يس  
﴿بقادر﴾ لأن ما في هذه السورة خبر أن ، وما في يس خبر ليس ، فدخل الباء الخبر وكان القياس ألا  
يدخل في حم ، لكنه شابه ( ليس ) بترادف النفي وهو قوله ﴿أولم يروا﴾ ، [ ولم يعي ] .

وفي هذه السورة نفى واحد ، وأكثر أحكام التشابه ثبت من وجهين قياساً على باب مالا ينصرف

وغیره .

قوله ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ قابل موسى كل كلمة من فرعون بكلمة من نفسه فقال  
﴿وإني لأظنك يا فرعون مشهوراً﴾

(١) الآية ١٠ من سورة نوح

(٢) الآية ٥٢ من سورة هود

(٣) الآية ٦١ من سورة هود

(٤) الآية ٩٠ من سورة هود

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا  
حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾

أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة ( أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمزم )<sup>(١)</sup> .

وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال في هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء: ﴿هم من العتاق الأول وهم من تِلَادَى﴾<sup>(٢)</sup> .

### وجه مناسبتها لسورة النحل

١ - أنه سبحانه ذكر في سورة النحل اختلاف اليهود في السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التي شرعها لهم في التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : ( إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل ) .

٢ - أنه لما أمر نبيه ﷺ بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكربهم في السورة السالفة ، ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

٣ - أنه ذكر في السورة السالفة نعمًا كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضًا نعمًا خاصة وعامة .

٤ - ذكر هنا أن النحل ﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾ ، وهنا ذكر ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ .

٥ - أنه في تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

**المفردات :** ﴿سبحان الذى أسرى﴾ : أى تنزيها له من كل مالا يليق بجلاله وإكاله ،

﴿والإسراء كالسرى﴾ : السير بالليل خاصة ، ﴿والمسجد الحرام﴾ : مسجد مكة ، ﴿والمسجد

الأقصى﴾ : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

(١) أخرجه الترمذي في ثواب القرآن : ١ . والإمام أحمد في ٤ : ١٥٨ ، وفي ٥ : ١١٤ ، ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١٧ ، ١ ، وسورة ٢١ ، ١ . وفي فضائل القرآن : ٦ .

أكثر العلماء أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناً ، ولهم على ذلك أدلة :

- ١ - أن التسبيح والتعجب في قوله : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ : إنما يكون في الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظماً .
- ٢ - أنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ولما قالت أم هانئ : لا تحدث الناس فيكذبوك . ولما فضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء في الحديث عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ ( لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ) لم أعرفها حق المعرفة ( فكربت كرباً ما كربت مثله قط فرفعه الله لي انظر إليه فما سألوني عن شيء إلا أنبأتهم به ) الحديث .
- ٣ - إن قوله ﴿ بعبدِهِ ﴾ : يدل على مجموع الروح والجسد .
- ٤ - إن ابن عباس قال في قوله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا في المشاهدة الحسية . ألا ترى إلى قول الراعي يصف صائداً :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده وبشر قلباً كان جمّاً بلا به

- ٥ - إن الحركة بهذه السرعة ممكنة في نفسها ، فقد جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى في صفة سير سليمان عليه السلام ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾<sup>(١)</sup> وجاء فيه أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾<sup>(٢)</sup> وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

قال أبو جعفر الطبري : الصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبدِهِ محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن الله حمله على البراق حتى آتاه به ، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل ، فأراه ما أراه من الآيات . ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكراً عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بني آدم أن يرى الرأى منهم في المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل .

(١) الآية ١٢ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

وبعد فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزاً لاحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ، إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد هـ .

وكذلك كان المعراج إلى السموات العلى بجسده وروحه يقظة لامناً ، لدليلين :

١ - آية الاسراء ، إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبدته والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء خاصاً بهما .

٢ - الحديث المروى في الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الاقلام .

وفي الإسراء والمعراج موعظة وذكرى .

يقول الشيخ المراغى رحمه الله تعالى :

إننا لنقف قليلاً لدى هذين الحادثين الجليلين ، لنستخلص منهما أموراً هي الغاية في العظة والاعتبار :

١ - إن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية ( الإسراء ) والرحلة السماوية ( المعراج ) حدثتا في ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليحصى الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن في قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقاً بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة ، والانضواء تحت لوائه ، وجديراً بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تتبلغ المعمور في ذلك الحين شرقاً وغرباً .

٢ - إن الله أطلع رسوله على ما في هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درساً علمياً لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم . أو يسبح في أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء . فقد كفّل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى ، وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التي لا تصل أذهاننا إلى إدراك فهمها ، إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنّى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (١) .

٣ - إن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طي المسافات بوسائل الطائرات ، وقطع المحيطات في قليل الساعات من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء في وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التي ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

٤ - إن روحانية الأنبياء تغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملاء الأعلى لتخلخل الهواء ، وإستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة في عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاماً لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها ، وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ، ولا التعمق في استقصاء آثارها .

٥ - إن ما جاء في الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماماً بالأنبياء ، ليرشد إلى أن محمداً ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأتمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

٦ - إن في هذا مغزى جديداً بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا في وفاق ووثام في الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم ، أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم مسلماً لا حرباً ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو المتبع في القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يلغى جميع ما سبقه .

### شرح وتفصيل

لمعجزتى الإسراء والمعراج شرح وتفصيل في السنة المطهرة .

قال العلامة ابن كثير في قوله : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾ :

قال رحمه الله : يمجّد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ الذى أسرى بعبده ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ : أى في جنح الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ : وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصى ﴾ : وهو بيت المقدس الذى بإيلياء ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمّهم في محلّتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ الذى باركنا حوله ﴾ : أى في الزروع والثمار ﴿ لنريه ﴾ : أى محمداً ﴿ من آياتنا ﴾ : أى العظام ، كما قال تعالى : ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ <sup>(١)</sup> .

وسنذكر من ذلك ماوردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ .

وقوله تعالى ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ : أى السميع لأقوال عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم ، فيعطى كلا منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة .

## ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان هو ابن بلال عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة ( إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبتة حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أقى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه . ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناده أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل قال : ومن معك ؟ قال معى : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا : فمرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء ، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله به في الأرض ، حتى يعلمهم .

فوجد في السماء الدنيا آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم . فسلم عليه ، وردّ عليه آدم ، فقال : مرحباً وأهلاً بابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو في السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ثم مضى به في السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة في الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به وأهلاً ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك .

كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس في الثانية ، وهارون في الرابعة ، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم في السادسة ، وموسى في السابعة . بتفضيل كلام الله تعالى .



فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع عليّ أحداً .

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، حتى جاء سدره المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعندهم ، فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل كأنه يستشير في ذلك ، فأشار إليه جبريل : أن نعم إن شئت . فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو في مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتي لا تستطيع هذا . فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتسبه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبي ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل .

فرفعه عند الخامسة فقال : يارب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك تعالى : يا محمد . قال : لبيك وسعديك . قال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك في أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهي خمسون في أم الكتاب وهي خمس عليك . فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى : قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً . قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحيت من ربي عز وجل مما أختلف إليه . قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو في المسجد الحرام<sup>(١)</sup> .

وهكذا ساقه البخاري في كتاب التوحيد ورواه في صفة النبي ﷺ .

قالت عائشة وابن مسعود وأبو هريرة في حملهم قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى ﴾ فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى<sup>(٢)</sup> الخ الآيات حمل هذه الآيات على جبريل أصح . قال أبو ذر : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : ( نور أتى أراه ) وفي رواية : ( رأيت نوراً )<sup>(٣)</sup> أخرجه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( أتيت بالبراق وهو دابة

(١) أخرجه البخاري في الصلاة : ١ ، وفي الأنبياء : ٥ ، وفي التوحيد : ٣٧ . ومسلم في الإيمان : ٢٥٩ ، ٢٦٣ . وابن ماجة في الإقامة :

١٩٤ . والإمام أحمد في ٣ : ١٤٩ ، وفي ٥ : ١٤٤ .

(٢) الآيات ٨ - ١٠ من سورة النجم .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٢٩١ . والترمذي في تفسير سورة ٥٣ : ٧ . والإمام أحمد في ٥ : ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ .

أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بي حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين .

ثم خرجت فأتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بي إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بابن الخاله يحيى وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير ثم يقول الله تعالى ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾<sup>(١)</sup> .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ، قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال فأوحى الله إلي ما أوحى وقد فرض على في كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك . وإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عني خمسا فنزلت حتى انتهيت إلى

موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عني خمساً ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أراجع بين ربي وبين موسى ويحط عني خمساً خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشرأً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله ﷺ لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت .

قال البيهقي وفي هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذي قاله هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية .

### مشاهد ليلة الإسراء والمعراج

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ( لما عرج بي إلى ربي عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم )<sup>(١)</sup> .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ( مررت ليلة أسرى بي على موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره )<sup>(٢)</sup> .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ( لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل : مه يابراق ، فوالله ماركبك مثله . وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال : ( ماهذه يا جبريل ؟ ) قال : سر يا محمد قال : فسار ماشاء الله أن يسير ، فإذا شيء يدعو متنجحاً عن الطريق فقال : هلم يا محمد ، فقال له جبريل : سر يا محمد . فسار ماشاء الله أن يسير . قال : فلقية خلق من خلق الله فقالوا : السلام عليك يا أول السلام عليك يا آخر السلام عليك يا حاشر . فقال له جبريل : أردد السلام يا محمد . فرد السلام ، ثم لقية الثانية فقال له مثال مقالته الأولى ، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فعرض عليه الخمر والماء واللبن ، فتناول رسول الله ﷺ اللبن فقال له جبريل : أحببت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك ، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمرهم رسول الله ﷺ تلك الليلة . ثم قال له جبريل : أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز .

(١) أخرجه أبو داود في الأدب : ٣٥ . والإمام أحمد في ٣ : ٢٢٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١٢٠ .

وأما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس ، أراد أن تميل إليه .  
وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة .

وفى حديث لابن أبى حاتم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : يا جبريل ( مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلى غير رجل واحد فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بى ولم يضحك لى ) قال : يا محمد ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك لى أحد لضحك إليك .

قال : ثم ركب منصرفاً فبينما هو فى بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاماً منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت ، وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبابكر فقالوا : يا أبابكر هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدق فيما هو أبعد من هذا ، لنصدق على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ما علامة ما تقول ؟ قال : ( مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر ) فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ ، ومن ذلك سمي أبو بكر الصديق .

وسألوه وقالوا : هل كان فىمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال : ( نعم ) قالوا : فصفهم لنا . قال : ( نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزدعمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان )<sup>(١)</sup> .

وروى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث رسول الله ﷺ قال : ( خرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه فى صدرى ، ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فخرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى محمد ﷺ . فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال مرحباً : بالنبي الصالح والابن الصالح . قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنىه ، فأهل اليمن منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى )<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ . ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٢٦٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٤٣ .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه دلائل النبوة عن أبي سعيد الخدري . فقال : قال رسول الله ﷺ : فاستفتح جبريل باب السماء قيل : من هذا ، قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا بآدم كهيبته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .

فمضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ، ليس يقرها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأتن عندها أناس يأكلون منها . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام مشافهم كمشافر الإبل ، قال : فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ، ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضحجون إلى الله عز وجل فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً . قال : ثم مضيت هنيئة ، فإذا أنا بنساء تعلقن بشدين فسمعتن يضحجن إلى الله عز وجل . قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟ قال : هؤلاء الزناة من أمتك .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلنا نهض أحدهم خراً فيقول : اللهم لا تقم الساعة . قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجىء السابلة فتطوهم . قال : فسمعتهم يضحجون إلى الله . قال : قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

قال : ثم مضيت هنيئة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون . ومن المشاهد التي رواها الصادق المعصوم : ما جاء في قوله ﷺ :

( ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية ، فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت : لزيد بن خارثة ، وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من غسل مصفى ، وإذا رمانها كألدلاء عظما ، وإذا أنا بطيرها كأنها يختكم هذه . فقال عندها ﷺ : إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال : ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجرة ونقمة ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقت دوني<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق : ٨ ، وفي تفسير سورة ٣٢ : ١ ، وفي التوحيد : ٣٥ . ومسلم في الإيمان : ٣١٢ ، وفي الحجة : ٢ .  
والترمذي في تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، وسورة ٥٦ : ١ . وابن ماجة في الزهد : ٣٩ . والإمام أحمد في ٥ : ٣٣٤ .

ومن المشاهد التي رآها الصادق المعصوم ما جاء في رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال : ( ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع في جانبها وخشياً ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . فقال : النبي ﷺ حين جاء إلى الناس : ( قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا ) قال : فلقية موسى عليه السلام فرحب به ، وقال : مرحباً بالنبي الأُمى . قال : وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى .

قال : فمضى فلقية شيخ جليل متبهب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه . قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلاً أحمر أزرق جدا ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة<sup>(١)</sup> .

ومن المشاهد التي رآها رسول الله ﷺ ما رواه الإمام البيهقي عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ( لما أسرى بي مرت بي رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها . فقالت : باسم الله ، فقالت بنت فرعون : أئى ؟ قالت : ربي وربك ورب أبيك ، قالت : أولك رب غير أئى ؟ قالت : نعم : ربي ورب أبيك الله . قال : فدعاها فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت نعم ربي وربك الله عز وجل . قال : فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها . قالت : إن لي إليك حاجة . قال : ماهى ؟ قال : تجمع عظامي وعظام ولدى في موضع . قال : ذاك لك لما لك علينا من الحق . قال : فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم . فقال : يا أمة قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق . قال : وتكلم أربعة في المهد وهم صغار هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام .

قال الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : ( لقيت ليلة أسرى بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة قال : فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام . فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى موسى . فقال : لا علم لي بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتا فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربي أن الدجال خارج قال : ومعنى قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص . قال : فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج بأجوج وأجوج وهم من كل حذب ينسلون ، فيطئون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى نتن .

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء : ١٧ ، وفي تفسير سورة ٩١ : ١ . والإمام أحمد في ٤ : ١٧ ، ٢٦٣ .

قال فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر . ففيما عهد إلى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل الممت لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً<sup>(١)</sup> .

ومن المشاهد ما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبي هريرة في قول الله عز وجل ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً﴾ : الآية . قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبريل لميكائيل اثنى بطست من ماء زمزم كيما أظهر قلبه وأشرح له صدره ، قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملاءه علماً وحلماً وإيماناً و يقيناً وإسلاماً وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحملة عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره . قال : فسار وسار معه جبريل عليهما السلام .

قال : فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبي ﷺ : « يا جبريل ما هذا ؟ » قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنه بسبعمائه ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رعوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين تتناقل رعوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقباهم رقاع وعلى أديبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم . ويأكلون الضريع والرقوم ورضف جهنم وحجارتها قال : « فما هؤلاء يا جبريل » . قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئاً وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ولحم في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من اللحم النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حللاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح .

قال : ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقة قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها . ثم تلا ﴿ولا تقعدون بكل صراط توعدون وتصدون﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

قال : ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن : ٣٣ . والإمام أحمد في ١ : ٢٧٥ .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الأعراف .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك ، وسمع صوتا فقال : « يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت غرفى واستترقى وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهى وأكوابى وصحافى وأباريقى وأكوسى وعسلى ومائى ولبنى وخمى . فأتنى بما وعدتنى . فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألتنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ومن توكل على كفيته ، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين . قالت : قد رضيت .

قال : ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة فقال : « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ » فقال : هذا صوت جهنم تقول يارب : ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسل وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فأئتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت .

قال : ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : أوقد أرسل إليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء .

قال : ثم لقى أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها على بردا وسلاما .

ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكا عظيما وعلمنى الزبور والآن لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . وعلمنى منطق الطير ،



وآتاني من كل شيء فضلاً وسخر لي جنود الشياطين والإنس والطير وفضلني على كثير من عباده المؤمنين ، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدى وجعل ملكي ملكاً طيباً ليس فيه حساب .

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مثلي كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلني أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وجعلني أبرء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ورفعني وطهرني وأعاذني وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

قال : ثم إن محمداً ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال : ( كلكم أثنى على ربه وإني مثن على ربي فقال : الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل عليّ الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم الأولون وهم الآخرون وشرح لي صدري ووضع عني وزري ورفع لي ذكري وجعلني فاتحاً وخاتماً ، فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد ﷺ

قال أبو جعفر الرازي خاتم النبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ... الحديث .

وجاء في هذا الحديث أيضاً : ( ثم انتهى إلى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من غسل مصفى ، وهي شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها ، والورقة منها تغطي الأمة كلها ، قال : فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، من حب الرب تبارك وتعالى ، قالوا : فكلمه الله عند ذلك فقال له : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلاً ، وأعطيتك ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى تكليماً ، وأعطيت داود ملكاً عظيماً وألئت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكاً وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك وأعدته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل : وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب في التوراة حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفع لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم ، وجعلت أول البين خلقاً وآخرهم بعثاً ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم يعطها نبي قبلك ، وأعطيتك خواتم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن

المنكر ، وجعلتك فاتحاً خاتماً فقال النبي ﷺ : ( فضلني ربي بست : أعطاني فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ، وأرسلني إلى الناس كافة بشيراً . ونذيراً ، وقذف في قلوب أعدائي الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض كلها طهوراً ومسجداً )<sup>(١)</sup> .

وبعد : فقد ذكرنا شرحاً وتفصيلاً في معجزتي الإسراء والمعراج كما جاء في كتب التفسير والسنة ، وخلاصة القول أن الإسراء والمعراج معجزتان خارقتان للعادة ، أجراها الله على يدي حبيبه ومصطفاه ﷺ ، وهما في الحقيقة مدرسة نبوية انتظمت دروساً عديدة ومفيدة للحياة ، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وقال موسى بن عقبة عن الزهري : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة وقال السدي : بستة عشر شهراً .

والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصل في قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم في السادسة ، وإبراهيم الخليل في السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام - أى أقلام القدر ، بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته وله ستائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خفضها إلى خمس رحمة منه ولطفاً بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ولقد عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بغلس .

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه في بيت المقدس وجاء أنه في السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم والله أعلم .

**فائدة جلية حسنة :**

روى الحافظ إبراهيم الأصفهاني في كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدي حدثني مالك بن أنى الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظي .

قال : بعث رسول الله ﷺ رحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدمه إليه ، وفي السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار فجاء بأبى سفيان بن صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التي رواها البخاري ومسلم كما سيأتي بيانه ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده .

قال في هذا السياق عن أبى سفيان : والله ما منعني من أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أني أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقني في شيء ، قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال : فقلت أيها الملك ألا أخبرك خيراً تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ، قال : قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح . قال : وبطريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بطريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة . قال : فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إني كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالي ومن يحضرني كلهم معالجة ، فغلبننا فلم نستطيع أن نحركه كأنما نزاول به جبلاً ، فدعوت إليه النجاجة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فنظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربوط الدابة ، قال : فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبي . وقد صلى الليلة في مسجدنا وذكر تمام الحديث .

فائدة أخرى :

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن رحية في كتابه : ( التنوير في مولد السراج المنير ) وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال :

وقد تواترت الروايات في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلى وابن مسعود ، وأبى ذر ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبى بن كعب ، وعبد الرحمن ابن قرط ، وأبى حبة ، وأبى ليل ، الأنصارين وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبى أيوب ، وأبى أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبى الحراء ، وصهيب الرومي ، وأم هانئ ، وعائشة ، وأسماء بنتي أبى بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

فيهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون : ﴿ يريدون ليظفروا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ (١) ﴾ .

## موسى والتوراة وبنو إسرائيل

وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿١﴾  
ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٢﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ  
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا ﴿٣﴾ فَلَمَّا أَجَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ  
عِبَادًا أَنَا أُولَىٰ بِأُسْ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ  
الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٥﴾ إِنَّ أَحْسَنَ أَمْسِنُمْ  
لَأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْخَرُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا  
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٦﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتْنَا  
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٧﴾

**المفردات :** ﴿الكتاب﴾ : هو التوراة ، ﴿وكيلاً﴾ : أى كفيلاً تكونون إليه أموركم ،  
﴿شكورا﴾ : أى كثير الشكر ، ﴿وقضينا﴾ : أى أعلمنا بالوحي ، ﴿لتعلن﴾ : أى لتتكبرن عن  
طاعة الله ، ﴿والوعد﴾ : أى الموعود به وهو العقاب ، ﴿والبؤس والبأس والبأساء﴾ : الشدة  
والمكرهه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله في الفقر والحرب ، والبأس والبأساء في النكاية  
بالعدو ، ﴿جاسوا خلال الديار﴾ : توسطوها وترددوا بينها ، ﴿والكرّة﴾ : الدولة والغلبة ، وأصل  
الكر العطف والرجوع ، ﴿النفير﴾ : والنافر من ينفر الرجل من عشيرته وأهل بيته ،  
﴿والتبير﴾ : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى من سعيد بن جبير وكل شيء كسرتة وفتنته فقد تبرته ،  
﴿ما علوا﴾ : أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، ﴿والحصير﴾ : السجن كما قال ابن عباس .

## المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه في الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس ،  
أردف ذلك ذكر ما أكرم به موسى قبله من إعطائه التوراة ، وجعلها هدى لبني إسرائيل ، ليخرجهم من  
الظلمات إلى النور ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا في الأرض ، فسلط الله  
عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه الحنة ، وأعاد لهم الدولة ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عددا  
مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أزال دولتهم

مرة أخرى ، فأعمل فيهم السيف ، وسلب ونهب ، وجاس خلال ديارهم ، فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب في الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هي لمن عصى الله ، وخالف أوامر دينه .

قوله تعالى : ﴿ وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾ :

هذان نبيان من أولى العزم ، بعد أن ذكر الله تعالى إسرائ خاتمهم محمد ﷺ ، كثلثة من أولى العزم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ (١)

وفي قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ (٢) .

والكتاب المنزل على موسى هو التوراة التي ورد فيها ذكر محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى له : (د يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً \* وحرزاً للأمين \* انت عبدى ورسولى \* سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ \* ولا سخاب فى الأسواق \* ولا يدفع بالسيئة السيئة \* ولكن يعفو ويغفر \* ولن يقبضه الله إليه حتى يقيم به الملة العوجاء \* بأن يقولوا لا إله إلا الله \* فيفتح بها أعينا عمياً \* وآذانا صماً \* وقلوبا غلفاً ) (٣) .

وقد قال الله تعالى عن التوراة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ (٤) الآية .

ولقد جاء القرآن بعد ذلك مصدقاً لما تقدمه من الكتب السابقة ومهيئاً عليها ، وقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

صلت عليك ملائكت الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان  
لما طلعت على الوجود مزوداً بحمى الإله وراية القرآن  
إن الله تعالى جعل التوراة هدى ونورا لبنى إسرائيل ، ونهاهم عن اتخاذ أولياء من دونه ، وقال لهم :

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ٥٠ ، وفى تفسير سورة : ٤٨ : ٣ . والدارمى فى المقدمة : ٢ ، وفى فضائل القرآن : ١ . والإمام أحمد فى

١٧٤ : ١

(٤) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا مثل جدكم الأكبر ، فقد كان عبداً شكوراً ، ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعدكم وإياي فارهبون ﴾ وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴿<sup>(١)</sup> .

لكن بني إسرائيل قوم مرنوا على العناد ، فهم شعب صلب الرقبة ، فقد تركوا تعاليم الله فلم يمثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه ، وكان الكثير منهم هكذا قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ﴾ :

أى وأوحينا إلى بني إسرائيل فيما أنزلناه في التوراة على موسى ، فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة ، وقتل أشعيا عليه السلام ، وحبس إرميا حين أنذرهم سخط الله ، والثانية قتل زكريا ويحيى ، وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغين على الناس ، ولتظلمنهم ظلماً شديداً ، تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأساً شديداً فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾ :

أى فإذا جان حلول العقاب الموعود ، أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عباداً لنا أولى بطش شديداً في الحروب ، هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا في البلاد ، وترددوا بين الدور والمساكن ، للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم ، وأحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وسبوا منكم عدداً كثيراً ، وكان ذلك وعداً نافذاً لا مرد له .

﴿ ثم رددنا لكم الكثرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ﴾ :

أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، فغزوتهم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ، ورجع الملك إليكم ، وكثرت أموالكم بعد أن نهبت وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عدداً ، وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإحبات إليه ومن ثم قال :

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ :

أى وإن أحسنتم فأطعتم الله ولزمت أمره وتركتم نهيه أحسنتم لأنفسكم ، لأنكم تنفعونها بذلك في دنياها وآخرتها ، أما في الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ، ويرد كيده في نحره ، ويُمنى

لكم أموالكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما في الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم ، ورضوان من الله أكبر .

وإن عصيتكم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه ، فيسلط عليكم في الدنيا أعداءكم ، ويمكّن منكم من يبغي بكم سوء ، ويلحق بكم في الآخرة العذاب المهين .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما عملوا تبيرا ﴾ :

أى فإذا جاء وقت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرقى إفسادكم في الأرض ، بعثنا أعداءكم ، ليجعلوا آثار المساءة والبكابة بادية في وجوهكم ، فإن الأعراض النفسية تظهر في الوجوه ، فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغيرة والقترة ، إذ الوجه شرفة النفس ، وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلّين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما أذخروا وخزنتموه تبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيرودس أو فردوس .

والذى أثبتته اليهود في تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولاً وخرب بيت المقدس هو بُخْتَنْصَرَّ وكان ذلك في زمن إرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم مجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه في بئر وجرحوه ، وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسيانوس قيصر الروم ، وكان بين الإغارتين نحوًا من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ :

بعد البعث الثانى ، إن تبتم وازدجرتكم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثرت عددهم وأعزهم بعد الذلة ، وجعل منهم الملوك والأنبياء .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ :

أى وإن عدتم لمعصيتي وخلاف أمرى وقتل رسلى - عدنا عليكم بالقتل والنسب والإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذبوا النبى ﷺ وهموا بقتله ، فسلطه الله عليهم ، فقتل قريظة ، وأجل بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين ، منهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ :

قال الحسن : الحصير هو الذى ييسط ويفرش ، والعرب تسمى البساط الصغير حصيراً ، أى أنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطاً ومهاداً كما قال ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش﴾<sup>(١)</sup> وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجناً محيطاً بهم حابساً لهم ، لا رجاء لهم فى الخلاص منه .  
وخلاصة ذلك - إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطاً بهم من عذاب جهنم ، فلا يتخلصون منه أبداً .

### الطريق هاهنا

إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿١﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٣﴾

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمداً ﷺ بالإسراء ، وأكرم موسى بالتوراة ، وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحل بهم عذاب الدنيا والآخرة ، قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ، ويشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولاً ، قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك ، والدمار واللعنة ، كما يدعو لنفسه بالخير .

القرآن هو كتاب الله الكريم الذى ورد وصفه فى قوله جل شأنه ﴿وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾<sup>(٢)</sup> .

ويهدى هذا الكتاب للطريق المثلى ، فهو الذى لا تزيع به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملأ الأقبية ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

(١) الآية ٤١ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .



الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قىلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديل  
فيه الوعد والوعيد ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، ومكارم الأخلاق ومنهاج السلوك ،  
وأصول العقائد وشعائر العبادات وقواعد النظام ومبادئ الأحكام .

يشير المؤمنين بالأجر العظيم ، فهو روح يحيى الله به الموات ، ونور يبدد به غياهب الظلمات  
﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به  
من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا  
إلى الله تصير الأمور ﴿<sup>(١)</sup>

جمع بين نور الوعد ونيران الوعيد ، وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ،  
وأوعد الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن لهم عذاباً أليماً ، أى موجعا ومؤلماً ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب  
من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ كلما  
أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴿<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ :

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ، أى  
بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل  
الله للناس البشر استعجلهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية

وقد قال ﷺ : ( لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب

فيها )

وقد ذكر سلمان الفارسي وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن  
تصل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس ، فقال :  
الحمد لله . فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه  
وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهمم بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه ، فلم يستطع وقال : يارب  
عجل قبل الليل .

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة الحج .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

## من آيات الله الكونية

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

## المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم - قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يصل من يتتبعه .

ما أكثر الآيات الدالة على وحدانية الله ، وما أعظم البراهين الساطعة القاطعة التى تصيح بكل عاقل وتنطق بلسان الحال والمقال ، قائلة مصرحة بأجلى بيان : تأمل فى الوجود بعين فكر ، واعلم بأن العالم من ارضه إلى سماءه ، ومن عرشه إلى فرشه ، يناديك أنا مخلوق الواحد الديان ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ (١)

ومن الآيات التى نلمسها ونعايشها ونحيا فيها الليل والنهار ، فهما آيتان على قدرة الله وعظمته : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الذين يذكرون الله قياما وقيوداً وعلى جنوبهم ويفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار ﴿ (٢)

فالليل آية جعلها الله محووة الضوء ليسكن العباد ويستريحون ، والنهار آية جعلها الله مبصرة ليتقلب الناس فيها سعيا وراء الكسب : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ (٣)

ولا شك أن هذا كله من رحمة الله بعباده :

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا  
جل جلال الله إذ يقول : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿ (٤)

فتأمل كيف استعمل السمع فى آية الليل والبصر فى آية النهار ، لا يقوى على ذلك الا خالق القدرة

(٣) الآية ٦٧ من سورة يونس .

(٤) الآيات ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .

والقدر : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١)  
فالنهار وما فيه من حركة سعيًا وراء الأرزاق كل ذلك من فضله تعالى على عباده .  
ولقد اختلف الليل والنهار ظلمة وضياءً لمعرفة عدد السنين والحساب التي بها تتحقق الاسباب في كسب المعيشة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات ليعلمون ﴾ إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات ليعلموا ﴿ (٢) ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ :

أى من شئون الدنيا والآخرة والمعاش والمعاد ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء .

### من مشاهد القيامة ومواعظ القرآن

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٤﴾  
أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٥﴾ مَن آهَنْدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ  
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ  
رَسُولًا ﴿١٦﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ  
فدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ  
خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٨﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ  
جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٩﴾ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ  
فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿٢٠﴾ كَلَّا نُمَدِّدُهُمْ هُنَا وَهُنَا لَّآءٍ مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ  
عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢١﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ  
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ طائره ﴾ : أى عمله سمي به لأنه طار إليه من عرش الغيب وإما لأنه سبب

الخير والشر كما قالوا : طائر الله لا طائر لك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائر لك الذى  
تشاء به وتبين به إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونونه زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين

تيمنوا به وسموه سانحاً ، وإن مر من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحاً ، ﴿ كتاباً ﴾ : هو صحيفة عمله ، ﴿ منشوراً ﴾ : أى غير مطوى ، ﴿ حسبياً ﴾ : أى حاسباً أى عادداً له يعد عليه أعماله ، ﴿ والوزر ﴾ : الائتم والذنب يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، ﴿ والمترفون ﴾ : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، ﴿ أمرنا مترفيها ﴾ : أى أمرناهم بالطاعة ، ﴿ ففسقوا ﴾ : أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، ﴿ فحق عليها القول ﴾ : أى وجب لها العذاب ، ﴿ والتدمير ﴾ الإهلاك مع طمس الأثر ، ﴿ والقرن ﴾ : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثانين ، وبمائة ، ﴿ والعاجلة ﴾ : المراد الدنيا ، ﴿ يصلها ﴾ : أى يقاسى حرها ﴿ مدحوراً ﴾ : أى مطروقاً مبعداً من رحمة الله ، ﴿ محظوراً ﴾ : أى ممنوعاً عمن يريده .

### المناسبة

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه ، قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسناتها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه .

ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم ، رحمة بهم ورأفة ، واعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره ، وإن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال ، كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح : كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم ، وبما يستحقون .

ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وأولئك سعيهم مشكور ، مقبول عند ربهم ، ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطائهم بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾  
اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً :

هذا إخبار منه تعالى بأن كل إنسان سيلزم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال تعالى :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ :

وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ، ويلزم به ، ويجازى عليه ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾<sup>(٤)</sup>

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين \* كراماً كاتبين \* يعلمون ما تفعلون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾<sup>(٧)</sup> .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً ، صباحاً ومساءً .

قوله تعالى : ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ :

أى نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقيماً ، منشوراً مفتوحاً يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر ﴾ بل الإنسان على نفسه بصيرة \* ولو ألقى معاذيره<sup>(٨)</sup>

ولهذا قال تعالى : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ :

أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت . لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : ﴿ ألزمناه طائره فى عنقه ﴾ : إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشئ فيه فلا محيد له عنه .

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : ( لا عدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ) . رواه ابن جرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : ( ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب

(١) الآية ٢٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات ١٧ ، ١٨ من سورة ق .

(٣) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٤) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة الانفطار .

(٥) الآية ١٦ من سورة الطور .

(٦) الآية ١٣ - ١٥ من سورة القيامة .

(٧) الآية ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٨) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

جل جلاله : اختتموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت (١) إسناده جيد .

وقال معمر عن قتادة : ﴿ ألزمناه طائرته في عنقه ﴾ . قال : عمله ، ﴿ ونخرج له يوم القيامة ﴾ قال : نخرج ذلك العمل : ﴿ كتابا يلقاه منشورا ﴾

قال معمر : وتلا الحسن البصري : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ (٢) يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك و وكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك ، فقد عدل ، والله من جعلك حسيب نفسك .  
هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ :

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، ﴿ ومن ضل ﴾ : أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ : أى لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾ (٣)

ولا منافاة بين هذا وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ (٤) وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (٥) ، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم في أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيء ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ : إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ﴾ (٦)

وكذا قوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ (٧) .

(١) أخرجه ابن ماجة في الطب : ٥ . والإمام أحمد في ٤ : ١٤٦ ، وفي ٦ : ١٣٨ .  
(٢) الآية ١٧ من سورة ق .  
(٣) الآية ١٨ من سورة فاطر .  
(٤) الآية ١٣ من سورة النكبات .  
(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .  
(٦) الآية ٨ ، ٩ من سورة الملك .  
(٧) الآية ٧١ من سورة الزمر .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (١) .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه . ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثه الرسل فقال : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾ :

أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ، ودنست به أنفسها من الآثام لم نعالجها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة ، فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقاً ، لا جتراحهم السيئات ، وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميراً ، ولم نبق منها دياراً ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر ، لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاً لهم وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبيله .

وقد يكون المراد من الأمر أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطريهم ، وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد ( بأمرنا ) أكثرنا ، واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله ﷺ : ( خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة ) (٢) . أى مهرة كثر نسلها ، وطريق مصطفة من النخل مأبورة ( كثر فيها اللقاح ) لتثمر الثمر الجنى .

ثم ذكر أن كثيراً من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ :

أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله ، وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم ، وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله ﷺ من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله - ما لا يخفى .

﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خيراً بصيراً ﴾ :

أى وحسبك أيها الرسول بالله خيراً بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شئ من أفعال مشركى قومك ، ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٨ .

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى ، ولا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ، ثم يصله حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموماً على قلة شكره ، وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعداً من رحمته مطروداً من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(١) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ ثم جعلنا له جهنم يصلاها ﴾ : أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(٢) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ مذموماً ﴾ .

(٣) البعد والطرود من رحمة الله دائماً فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ مدحوراً ﴾ : وفى قوله : ﴿ لمن نريد ﴾ : إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريد ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يقعون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم أيضاً .

(٢) ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ :

أى من أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ، شكر الله له جزيل سعيه ، وآتاه حسن المثوبة كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أموراً ثلاثة :

(١) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾<sup>(١)</sup> وجاء فى الحديث : ( إنما الأعمال بالنيات )<sup>(٢)</sup> ، إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبه لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه ، والإخبات والخشوع له .

(٢) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لا من الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحي : ١ ، وفى العتق : ٦ ، وفى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى الطلاق : فى الترجمة ، وفى الإيمان : ٢٣ ، وفى

الإكراه : ( فى ترجمة الكتاب ) ، وفى الحيل : ١ . ومسلم فى الإمامة : ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والنسائى فى الطهارة :

٥٩ ، وفى الطلاق : ٢٤ ، وفى الإيمان : ١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٦ .



(٣) أن يكون ذلك وهو مؤمن فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال : ﴿ كلا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ :

أى إن كلا من الفريقين يريد العاجلة ويريد الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمهده ربه بعطاءه ، ويوسع عليه الرزق ، ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالمنوع من أحد من خلقه مؤمناً كان أو كافراً ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة ، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضع ما مر من الإمداد ، وعدم محظورية العطاء على أحد ، فقال : ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ :

أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن ، وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر . (١)

ولهذا حكم وأسباب بينها سبحانه بقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ﴾ (٢) وقوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ (٣) .

﴿ وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ :

أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة . وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدرجات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وجبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم .

ففى الصحيحين ( إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء ) (٤) .

وفيهما : ( إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ) (٥) .

(١) هذا الجزء من المعنى غير صحيح فأن الله تعالى لم يقبض رزقه ولم يمنعه عني أحد كافر أو مؤمناً قال تعالى : ( كلا عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ) كما سبق فى السورة الأولى أن يقال : ( فسقط رزق على بعضهم وقدرته على آخرين . قال تعالى : فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني ) سورة الفجر .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٦١ .

(٥) أخرجه الدرهمى فى الرفاق : ٩٨ ، ١٠٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو القرشي ( وكان أحد الأشراف في الجاهلية ) وأبو سفيان بن حرب ، ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بذر - وكان يحبهم - فقال أبو سفيان : ما رأيت كالיום قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا . فقال سهيل : وكان أعقلهم : ( أيها القوم إني والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم إنهم دُعُوا ودُعينا ( يعنى إلى الإسلام ) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت ، فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر ) .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟

### إرشادات وتوجيهات

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُومًا ﴿٢٢﴾ \* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٢٥﴾ وَلَا تَقَفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٢٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٩﴾

**المفردات :** ﴿فتقعد﴾ : أى فتصير ، ﴿مذموماً﴾ : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، ﴿مخدولاً﴾ : أى من الله لأنك أشركت معه مالا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ، ﴿وقضى﴾ : أى حكم وأمر ، ﴿وأف﴾ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا تقل لفلان أف أى لا تعرض له بنوع من الأذى والمكرهه ، ﴿والنهر﴾ : الزجر بغلظة ، ﴿كريمًا﴾ : أى جميلاً لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شئ يشرف في جنسه يقال إنه كريم ، ﴿واخفض لهما جناح﴾ : يراد به التواضع والتذلل ، ﴿من الرحمة﴾ : أى من فرط رحمتك عليهما ، ﴿والأواب﴾ : الذى دينه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، ﴿والتبذير﴾ : إنفاق المال فى غير موضعه ، ﴿وإخوان الشياطين﴾ : أى قرنائهم ، ﴿والابتغاء﴾ : الطلب . الرحمة . الرزق ، ﴿والميسور﴾ : السهل اللين ، ﴿والمغلولة﴾ : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، ﴿وتبسطها﴾ : أى تتوسع فى الإنفاق ، ﴿والمحسور﴾ : المنقطع عن السير إعياء وكلالاً ، ﴿ويقدر﴾ : أى يقتر ، ﴿والإملاق﴾ : الفقر ، ﴿والخطأ﴾ : كالإثم لفظاً ومعنى ، ﴿والفاحشة﴾ : الفعلية الظاهرة القبح ، ﴿والسلطان﴾ : التسلط والإستيلاء ، ﴿فلا يسرف﴾ : أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، ﴿التي هى أحسن﴾ : أى الطريق التى هى أحسن ، ﴿والعهد﴾ : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، ﴿والقسطاس﴾ : ( بكسر القاف وضمها ) الميزان ، ﴿والمستقيم﴾ : العدل ، ﴿والتأويل﴾ : ما يؤل إليه الشئ وهو عاقبته ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، ﴿والمرح﴾ : الفخر والكبر ، ﴿لن تخرق الأرض﴾ : أى لن تجعل فيها طرقاتاً بدوسك وشدة وطأتك ، ﴿والحكمة﴾ : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، ﴿والمدحور﴾ : المبعد من رحمة الله .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جلته قدرته أن الناس فريقان ، فريق يريد بعمله الدنيا فقط وعاقبتهم العذاب والوبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة ، وأن يكونوا مؤمنين لا جرم ، فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان ، والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعياً للآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم ، وحسن حظهم . ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ،

وبعدئذ اتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين لأنهما السبب الظاهر في وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن في إصلاحهما إصلاح المجتمع ، والمسلمون كلهم إخوة ، وهم يد على من سواهم .

ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما في القصد من إصلاح حال المرء ، وعدم ارتبائه في معيشته وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ، ففى صلاحهم صلاحها .

ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ، ويرشد إلى حسنه العقل .  
وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم ، فلا وجه للخوف من ذلك .

ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب ، وفقدان النسل أو قتله ، ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعاً عن العرض .

ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد ، وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثنيته ، ثم بإفاء الكيل والميزان لما في حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شئون الفرد والمجتمع .

ثم بالنهى عن تتبع ما لا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمل الآباء اقتداء بهم كعبادة الأصنام ، ولا تشهد على شيء لم تره ، ولا تكذب . فتقول فى شيء لم تسمعه إنك قد سمعته ولا فى شيء لم تره إنك قد رأيته .

ثم بالنهى عن مشية الخيلاء والمرح ، لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله . ولا الناس .  
ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهي هى من وحى الله وتبليغه ، لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين ، وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم ، على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب ، وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ :

هذا نهى صريح عن الشرك بالله تعالى ، وما أقبحه من ذنب جسيم ، قال جل شأنه : ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ <sup>(١)</sup> .  
وقال : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة النساء .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾<sup>(١)</sup>

إن من أشرك بالله صار مستحقاً للذم والخذلان ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجيبك بلسان الحال والمقال ، أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهياً وكل الكائنات توحده
ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلّ ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

فإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً<sup>(٢)</sup> .

روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : ( من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً وإما غنى عاجلاً )<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً<sup>(٤)</sup> :

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ وقضى ﴾ : يعنى وصى ، وكذا . قرأ أى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم ( ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ) . ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين ، فقال : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ : أى وأمر بالوالدين إحساناً ، كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله : ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ : أى لا تسمعهما قولاً سيئاً . حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ .

﴿ ولا تنهرهما ﴾ : أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ ولا تنهرهما ﴾ : أى لا تنفض يدك عليهما .

(٢) الآيات ٥٨ - ٥٩ من سورة الفرقان

(١) الآية ٣١ من سورة الحج .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى الزهد : ١٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٠٧ ، ٤٤٢ .

(٤) الآية ١٤ من سورة لقمان .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ : أى لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ : أى تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ : أى فى كبرهما ، وعند وفاتهما .

قال ابن عباس ، ثم أنزل الله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ <sup>(١)</sup> . الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة .

منها الحديث المروى من طرق عن أنس رضى الله عنه : أن النبي ﷺ صعد المنبر ثم قال : ( آمين . آمين . آمين ) قيل : يا رسول الله علام أمنت ؟ قال : ( أتاني جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلا الجنة ، قل : آمين . فقلت آمين ) <sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبي ﷺ يقول : ( من ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة ، ومن أعتق أمراً مسلماً كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه ) <sup>(٣)</sup> .

وعن رسول الله ﷺ : ( من أعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار ، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيماً من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وحببت له الجنة ) <sup>(٤)</sup> .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك القشيري قال : قال النبي ﷺ : ( من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه ) <sup>(٥)</sup> .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : ( رغم أنف . ثم رغم أنف ثم رغم أنف . رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة ) <sup>(٦)</sup> .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلك فلم يغفر له ، ورغم

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٩ ، ١٠ . والترمذى فى الدعوات : ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الأدب : ١٢٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى العتق : ١ ، وفى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : ٢٢ - ٢٥ . وأبو داود فى العتاق : ١٤ . والترمذى فى النذر : ١٤ ، ٢٠ . والنسائى فى الجهاد : ٢٦ . وابن ماجه فى العتق : ٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٦ .

أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبير فلم يدخله الجنة (١).  
وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أئى أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينا أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شئ بعد موتهما أيرهما به قال : ( نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لكم إلا من قبلهما فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما ) (٢).  
وعنه رضى الله عنه بإسناده عن معاوية بن جاهمة السلمى أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : ( فهل لك من أم ؟ ) قال : نعم . قال : ( فالزمها فإن الجنة عند رجلها ) (٣) ثم الثانية ثم الثالثة فى مقاعد شتى كمثلى هذا القول .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن المقدم بن معد يكرب عن النبى ﷺ قال : ( إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب ) (٤).

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بنى يربوع قال أتيت النبى ﷺ فسمعتة وهو يكلم الناس يقول ( يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك ) (٥).

روى الحافظ أبو بكر بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى ﷺ هل أدت حقها قال ( لا ولا بزفرة واحدة ) .

قوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ :  
إذ هو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو المطلع على خفايا نفوسكم ، وما فيها من خير وشر ، وبر وعقوق ، وصلة وقطيعة ، وهذا وعد لمن أضر البر بالوالدين وقال لهما قولا كريما ، وخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، كما أنه وعيد لمن أضر السوء لهما وعقهما ونهرهما وتكبر عليهما وعصى أوامرها .

قوله تعالى : ﴿ إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ :

للمفسرين أقوال فى الأوابين :

قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٠٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٩٨ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٦ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٩٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٢ . والنسائى فى الزكاة : ٥١ . وابن ماجه فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٦ ، وفى ٤ : ٦٥ ، وفى

وعن ابن عباس : المسبحين ، وفي رواية عنه : المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وعن سعيد بن المسيب قال : الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون .

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد فى ذلك .

وقال عبيد بن عمير : كنا نعد الأبواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقال ابن جرير : والأولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجاء من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه .

وهذا الذى قاله هو الصواب ، لأن الأبواب مشتق من الأبواب وهو الرجوع ، يقال آب فلان إذا رجع ، قال تعالى ﴿ إِن إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال : ﴿ آيُونَ تَائِبُونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً \* وإما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا :

بعد أن بين سبحانه وتعالى حقوق الوالدين ، أمر بصلة الرحم فقال : ﴿ وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ : وقد جاء ترتيبها فى الحديث : ( أملك وأباك ثم أدناك أدناك ) وفى رواية : ( ثم الأقرب فالأقرب ) . وفى الحديث : ( من أحب أن ييسر له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه )<sup>(٣)</sup> .

إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله

جاء فى الحديث الصحيح :

( إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذاك لك )<sup>(٤)</sup> . اقرعوا إن

(١) الآية ٢٥ من سورة الغاشية .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٢ ، وفى الدعوات : ٥٣ . ومسلم فى الحج : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ ، ٨٢ ، ١٥٨ . والترمذى فى الحج : ١٠٢ . والدرامى فى الاستئذان : ٥٠ . والإمام مالك فى الحج : ٢٤٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٦ . وفى ٢ : ٥٠ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٥٠ ، وفى ٣ : ١٨٧ ، ١٨٩ ، وفى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ١٣ ، وفى الأدب : ١٢ . ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . وأبو داود فى الزكاة : ٤٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٦٦ ، ٢٤٧ ، ١٥٦ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الأدب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .



شتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (١).

كذلك أمر الله تعالى بإيتاء المسكين حقه ، والمسكين هو الذي أسكنته الحاجة فأضحى لا يملك شيئاً ، فإذا كان من ذوى القرى كانت الصدقة عليه بأجرين .

قال ﷺ : ( الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة ) (٢).

فطوى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة . طوى لمن شغله عييه عن عيوب الناس . طوى لمن أمسك الفضل من قوله وأنفق الفضل من ماله . طوى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة . ورحم الله امرءاً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم .

ومن وصايا الرسول ﷺ لأبى ذر : « أحب المساكين وجالسهم »

وجلّ جلال الحق إذ يقول في وصف الأبرار : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ﴿ (٣).

كما أوصى تعالى بابن السبيل وهو الغريب الذى انقطعت به السبل حتى كأن السبيل أمه وأبوه ، فالإحسان إليه واجب .

ثم نهى سبحانه عن التبذير فقال : ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ :

قال ابن مسعود : التبذير الانفاق في غير حق ، وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً .

وقال قتادة : التبذير : النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد .

أى معنى الآية : لا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال في معصيته تفريقاً بإعطائه من لا يستحقه ، ونحو الآية قوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ (٤) .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف المسجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قُبَيْس ( جبل بمكة ) وقال لو أن رجلاً أنفق مثل هذا في طاعة الله لم يكن من الميسرين ، ولو أنفق درهماً واحداً في معصية الله كان من الميسرين .

وأنفق بعضهم نفقة في خير وأكثر فقليل له : لا خير في السرف ، فقال : لا سرف في الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ ، فقال : ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أو في الوضوء سرف ؟ ( قال : نعم وإن كنت على نهر جار ) (٥) .

(١) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة محمد .

(٢) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الإنسان .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٢٢١ . وابن ماجه في الطهارة : ٤٨ .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرني كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( تخرج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق البائل والجار والمسكين ) ... فقال : يا رسول الله أقلل لي ، قال ( فأت ذا القرى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا ) فقال : حسبي يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : ( نعم إذا أديتها إلى رسولك فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدّها )<sup>(١)</sup> .

وعن علي كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ :

تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرقين أموالهم في معاصي الله المنفقيها في غير طاعته . قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة كما قال : ﴿ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾<sup>(٣)</sup> أى قرناءهم من الشياطين .

﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ :

أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه جحوداً لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته ، وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه ، المبذرون أموالهم في معاصي الله ، لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران .

قال الكرخي : وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالا ، فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفوراً لنعمة الله ، لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل . ١ هـ .

وفي ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه في غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم . وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها في التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾ :

(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ ، ١٣٦ .

أى وإن أعرضت عن ذوى القرى والمساكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم ، انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولاً لينا جميلاً ، وعدّهم وعداً تطيب به قلوبهم .

قال الحسن : أمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شيء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وهم يردون ؟ قوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً . إن ربك يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ :

هذه هى الطريقة المثلى فى الإنفاق . فالإسلام دين الاعتدال فى كل شيء ، لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط ، لا شح ولا تبذير ، لا إسراف ولا تقتير ، لا بخل ولا ترف . ففى قوله جلّ شأنه ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ : كناية لطيفة عن البخل . وفى قوله : ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ : كناية عن الإسراف .

ثم رتّب على كل منهم ما يناسبه من عواقب : فرتّب على البخل فتقعد ملوما ، ورتّب على الإسراف محسوراً ، فالملوم هو الذى يستحق اللوم والذم . والمحسور هو العاجز الذى ضيّع ماله فنزل به الكلل والعى من باب قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾<sup>(١)</sup> .

والاعتدال فى قوله تعالى يصف عباد الرحمن : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾<sup>(٢)</sup> .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( مثل البخل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره . وأما البخل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع )<sup>(٣)</sup> .

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ : ( أنفقى هكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ، ولا توكى فيوكى الله عليك ) . وفى لفظ : ( ولا تحصى فيحصى الله عليك )<sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٨ ، وفى الجهاد : ٨٩ . ومسلم فى الزكاة : ٧٤ ، ٧٥ . والنسائى فى الزكاة : ٦١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ ، ٣٨٩ ، ٥٢٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٢ ، وفى الهبة : ١٥ . ومسلم فى الزكاة : ٨٨ ، ٨٩ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٣٩ ، ١٦٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( إن الله قال لى : أنفق أنفق عليك )<sup>(١)</sup> .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً )<sup>(٢)</sup> .

وروى مسلم بسنده عن أبي هريرة مرفوعاً : ( ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه الله )<sup>(٣)</sup> .

وفي حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعاً : ( إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة ففجروا )<sup>(٤)</sup> .

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطاناً ) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ( ما عال من اقتصد )<sup>(٥)</sup> .

وقوله : ﴿ إِنْ رَبِّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ : إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف فى خلقه بما يشاء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ : أى خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر .

كما جاء فى الحديث : ( إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ) .

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً والفقر عقوبة عياداً بالله من هذا وهذا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً كَبِيراً ﴾ :

أى ولا تعدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لأنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات ، لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ ، ٢ ، وفى النفقات : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الزكاة : ٣٦ ، ٣٧ . وابن ماجه فى الكفارات : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٤ ، ٣٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٧ . ومسلم فى الزكاة : ٥٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، وفى ٥ : ١٩٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ .

(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٤٧ .

عليه ، بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفّر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء ، وفي ذلك عار أيما عار عليهم .

**والخلاصة -** أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : ﴿ **إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا** ﴾ : أى أن قتلهم كان إثماً فظيعاً لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود .

وفي الصحيحين عن عبد الله بن سعود قال : « قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو الذى خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزاني بحليلة جارك »<sup>(١)</sup> .

**والخلاصة -** إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى في تخريب العالم ، والأول انتهاك حرمة الله ، والثاني ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما في قتل الأولاد حظ من البخل ، وفي الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه فقال سبحانه : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** ﴾ :

أى أنه كان فعلة ظاهره القبح مشتملة على مفسد كثيرة أهمها :

- (١) اختلاط الأنساب واشتباهاها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية منه هو أو من غيره ، لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .
- (٢) فتح باب الهرج والمرج والإضطراب بين الناس دفاعاً عن العرض ، فكلم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل ( فتش عن المرأة )
- (٣) إن المرأة إذا عرفت بالزنا واشتهرت به استقدرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾<sup>(٢)</sup> .
- (٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس وإجمال ذلك - أن الزنا فاحشة وأى فاحشة ، لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعاً

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وسورة ٢٥ : ٢ ، وفى الأدب : ٢٠ ، وفى الديات : ١ ، وفى الحدود : ٢٠ ، وفى التوحيد : ٤٠ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، وفى ٦ : ٨ .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

عن العرض ، وإنه سبيل سىء من قبل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان ، في عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى سبحانه عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقاً فقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ :

﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ : أى ولا تقتلوا النفس التي حرم الإسلام قتلها إلا قتلاً متلبساً بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمداً ، كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن ابن سعود : « لا يحل دم امرئ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والشيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »<sup>(١)</sup> .

والسبب في هذا التحريم وجوه :

- (١) إنه إفساد حرمة لقوله ﴿ ولا تفسدوا في الأرض ﴾ .
- (٢) إنه ضرر ، والأصل في المضاربة الحرمة لقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله ﷺ ( لا ضرر ولا ضرار )<sup>(٣)</sup> .
- (٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب في المجتمع ، فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل ﴾ :

أى ومن قتل مظلوماً بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطاً واستيلاء على القاتل ، بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص في القتل ﴾<sup>(٤)</sup> الآية .

ولقوله ﷺ يوم الفتح : ( من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية )<sup>(٥)</sup> .

﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ :

أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلاً بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون في الجاهلية إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلاً شريفاً وأحياناً لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله

(١) أخرجه البخارى في الديات : ٦ . ومسلم في القسامة : ٢٥ ، ٢٦ . وأبو داود في الحدود : ١ . والترمذى في الحدود : ١٥ . وابن ماجه في الحدود : ١ . والدرامى في الحدود : ٢ . والإمام أحمد في ١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥ .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٣١٣ .

(٥) أخرجه أبو داود في الديات : ٤ . والإمام أحمد في ٦ : ٣٨٥ .

رجلا شريفا ، وفي الآية إحياء إلى أن الأولى للنولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .  
﴿ إنه كان منصورا ﴾ :

أى أن الله نصر الولي بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يغنى ماوراءه ولا يطمع في الزيادة على ذلك . وقد يكون المعنى بتكفير خطاياهم ، وإيجاب النار لقاتله ، هذه الآية أول ما نزل من القرآن في شأن القتل ، لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى سبحانه عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ، ولذلك قال :

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ :

أى لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريق التي هي أحسن الطرق ، وهى طريق حفظه وتثمينه بما يزيد به ، حتى تستحكم قوة عقله وشبابه ، وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا لا يخالطون اليتامى في طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تخالطوهم فأخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ <sup>(١)</sup> . فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل واكل مال اليتيم ، أتبعها بثلاثة أوامر فقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ وأوفوا الكيل إذا كلمت وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا :

(١) ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ : أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التي تتعاملون بها في البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر به الله ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل في ذلك ما بين العبد وربيه وما بين العباد بعضهم وبعض .  
والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانونى المُرعى .

﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾ : أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكث عهدك ؟ وهلا وقيت به ، كما يقال لوائد الموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين ؟ ﴾ <sup>(٣)</sup> والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

(٢) ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ : أى وأتموا الكيل للناس ولا تخسروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قبلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تقوا بالكيل .

(٣) ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ : أى وزنوا بالميزان العدل دون شئ من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاولات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع في المنع من التطفيف والنقصان ، سعيًا في إبقاء الأموال لأربابها ثم بين عاقبة هذه الأمور وحسن مثالها فقال :

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ : أى إيفاءكم بالعهد ، وإيفاءكم من تكيلون له ، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم في الدنيا من نكتكم وبخسكم في الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس في معاملتكم ، وحب الثناء عليكم .

﴿ وَأَحْسِن تَأْوِيلًا ﴾ : أى وأجمل عاقبة ، لما يترتب على ذلك من الثواب في الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا ، وحصل لهم الثروة والغنى ، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال : ﴿ وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ . ولا تمس في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولًا ﴿ :

(١) ﴿ وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ : أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأيت عيناك ، وسمعت أذنك ووعاه قلبك . (ب) قال قتادة : لا تقل سمعت ولم تسمع ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم . (ج) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال سبحانه : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ <sup>(١)</sup>

وفي الحديث ( إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ) <sup>(٢)</sup> .

وفي سنن أبى داود ( يئس مطية الرجل زعموا ) .

إلا ما قام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة .

كما رخص النبي ﷺ في ذلك لمعاذ حين بعثه قاضيا في اليمن إذ قال له ( بم تقضى ؟ قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي ) <sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه البخارى في الوصايا : ٨ . ومسلم في البر : ٢٨ . والترمذى في البر : ٥٦ . والإمام مالك في حسن الخلق : ١٥ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٤٥ .

(٣) أخرجه أبو داود في الاقضية : ١١ . والترمذى في الأحكام : ٣ . والنسائى في القضاة : ١١ . وابن ماجه في المناسك : ٣٨ . والدارمى في المقدمة : ٣٠ . والإمام أحمد في ١ : ٣٧ ، وفي ٥ : ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .



(د) وقيل المراد نبي المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعاً للهوى كما قال : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم ذكر سبحانه : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ :

أى أن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال سبحانه : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾<sup>(٢)</sup>.

وفى الخبر عن شطل بن حميد قال : « أتيت النبي ﷺ فقلت يا نبي الله علمنى تعويذا أتعوذ به ، فأخذ بيدي ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى ، وشر بصرى ، وشر قلبى ، وشر منيى »<sup>(٣)</sup> ( يريد الزنا )

(٢) ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا ﴾ : أى ولا تمش متبخترا متمايلاً كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما والضعيف المحصور لا يلبق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا      فكم تحتها قوم هم منك أرفع  
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة      فكم مات من قوم هم منك أضع

وما أجمل ما قاله الحسن البصرى رضى الله عنه : عجب لك يا ابن آدم تتكبر على الله وأنت فى أولك نطفة مزرة وفى آخرك جيفة قدرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى بطنك العذرة ، تنتك عرقه ، وتؤذيك بقعة وتقتلك شرقة

تواضع تكن كالنجم لاج لناظر

على صفحات الماء وهو رفيع

ولاتك كالدخان يعلو بنفسه

إلى طبقات الجو وهو وضيع

كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين ، مرة من صلب أهلك ومرة من رحم أمك

انظر خلاك فإن التبن تتريب  
لم يدع الكبر شبان ولا شيب  
أقصر فإنك مأكول ومشروب

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته  
لو فكر الناس فيما مافى بطونهم  
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً

(٢) الآية ٢٤ من سورة النور .

(١) الآية ٢٣ من سورة النجم .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٧٤ . والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٢٩ .

وخلاصة ذلك - تواضع ولا تنكبر ، فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر .

ولا يخفى ما في الآية من التقرع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك ثم علل هذا النهي بقوله : ﴿ **إِنَّكَ لَن تَخِرْقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طَوْلًا** ﴾ : أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تنكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك . فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

﴿ **كُلْ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** ﴾ : أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهي وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئة وهو ما نهى عنه منه ، من الجعل مع الله إلهًا آخر وعبادة غيره ، والتأفف والتبذير ، وغل اليد ، وقتل الأولاد خشية الإملاق - مكروهه عند ربك أى مبغوض عنده وإن كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال ﷺ : ( ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن )<sup>(١)</sup> .

وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهية مع أن أكثرها من الكبائر - إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر ، وترك تلك النواهي فقال : ﴿ **ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ** ﴾<sup>(٢)</sup> أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسرارها ، ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا ﴿ **لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ** ﴾ : الآية .

﴿ **وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا** ﴾ :

كرر هذا مع ما سلف ، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة ، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولاً آثار الشرك فى الدنيا فقال : ﴿ **فَتَقْعَدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا** ﴾ :

ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : ﴿ **فَتَقْلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا** ﴾ : أى ملوماً من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعداً من رحمة الله تعالى .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ١٠١ .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الإسراء .

## التوحيد الخالص

أَفَأَصْفَكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ<sup>١</sup> وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا<sup>٢</sup> إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿١١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿١٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿١٣﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿الإصفاء بالشئ﴾ : جعله خالصا له ﴿وصرفنا﴾ : أى بينا ، ﴿ليذكروا﴾ : أى يتدبروا ويتعظوا ، ﴿والنفور﴾ : البعد من الشئ ، ﴿وابتغاء الشئ﴾ : طلبه ، ﴿والسبيل﴾ : الطريق ، ﴿والفقه﴾ : الفهم .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندا ونظيرا ، قفى على ذلك بالتنديد والتفريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قبحتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا الله البنات ، مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له .

ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه .

ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده ، بدلالة أحواله على توحيده ، وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

قوله تعالى : ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما﴾ :

من مساوىء أهل الجاهلية - وما أكثرها - أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، ومن مساوئهم أنهم عبدوهم من دون الله ، ومن مساوئهم أنهم جعلوهم بنات الله ، قال سبحانه مدحضا شباتهم : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال جل جلاله : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم يفند زعمهم هذ ويسفهه فيقول : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين \* أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين \* وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تقدست صفاته : ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون \* أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون \* ألا إنهم من إفكهم ليقولون \* ولد الله وإنهم لكاذبون \* أصطفى البنات على البنين \* ما لكم كيف تحكمون \* أفلا تذكرون \* أم لكم سلطان مبين \* فأتوا بكتابكم إن كنتم صدقين ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تنزهت عن الشريك ذاته : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين \* لو أردنا أن نتخذ لها ولداً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾<sup>(٨)</sup> .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون \* ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾<sup>(٩)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً \* لقد جئتم شيئاً إداً \* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً \* أن دعوا للرحمن ولداً \* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً \* إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾<sup>(١٠)</sup> .

وقال تبارك اسمه : ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ :

هل خصص الله تعالى البنين لكم واتخذ من الملائكة إناثاً ، وانتم لا تحبون الإناث ، فكيف ترضون

(١) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .

(٥) الآيات ١٤٩ - ١٥٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٥٧ من سورة النحل .

(٦) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الكهف . (٩) الآيات ٢٦ - ٢٩ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .

(٧) الآية ٤ من سورة الزمر . (١٠) الآيات ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .

(٤) الآيات ١٥ ، ١٨ من سورة الزخرف .

(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأنبياء .

لله ما تكرهونه لأنفسكم ؟ أهذا منطق العقل السديد والرأى الرشيد ، إنكم لتقولون قولاً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفورا ﴾ :

يقول تعالى : أى نوعنا فيه بين وعد ووعد وخوف ورجاء وعقيدة وشريعة وخلق ومثل ، ليعلموا ويعتبروا ، وما يزيد الظالمين إلا نفورا ، وما يزيد الكافرين إلا كفرا وخسارا .

﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سييلا \* سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴾ :

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فيقول هؤلاء المشركين : لو كان مع الله آلهة أخرى تُعبد كما تقولون وتدعون ، فإن هؤلاء الآلهة المزعومين سيطلبون التقرب إليه تعالى ليعبدوه ، فإذا ثبت ذلك فلماذا لا تعبدونه وحده ، ولماذا الشركاء والشفعاء .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون \* لا يسأل عما يفعل وهم يسألون \* أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال ﷺ ( أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله )<sup>(٥)</sup> .

وما أجل قوله جل شأنه : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون \* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾<sup>(٦)</sup> .

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدس عن مشابهة الأغيار صفاته بالبر معزوف وبالإحسان موصوف واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة . أول بلا بداية وآخر بلا نهاية سبحانه وتعالى عما يصفون .

﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ :

(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٥) أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ ، وفي الحج : ٢٤٦ .

(٦) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١١٣ من سورة طه .

(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الأنبياء .

قال أبو القاسم الطبراني عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : ( سمعت تسبيحاً في السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان الأعلى سبحانه وتعالى ) .

نعم لو سألت الكون عن عرشه إلى فرشه ومن سحابه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابه بلسان الحال والمقال أنى مخلوق للواحد القهار ، سبحة الطير في وكره ، ومجده الوحش في قفره ، ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ (١) .

انظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها والأرض واتساعها والجبال ورسوخها وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلم ذكره ولا يغفل عن شكره .

تأمل فى نبات الأرض وانظر	إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هى الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ : أى وما من شيء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله .

﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ : أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى الصحيح أخرجه البخارى عن ابن مسعود أنه قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل » (٢) .

وفى حديث أبى ذر ( أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيحا كطين النحل ) . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وقال الإمام أحمد عن ابن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم ( اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق قرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه ) (٣) .

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٥ . والبخارى فى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٦٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان : ٣٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وفى ٤ ، ١٨١ .

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقتها تسبيح »<sup>(١)</sup>.

وقال قتادة عن عبد الله بن أبي عن عبد الله بن عمرو أن كلمة الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهي كلمة الإخلاص التي لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها .

وإذا قال الحمد لله فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها .

وإذا قال الله أكبر فهي صلاة الخلائق التي لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح .

وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ ( إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنه فقال إني قاص عليكما الوصية آمرم باثنتين وأنها كما عن اثنتين ، أنها كما عن الشرك بالله والكبر ، وأمر كما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت في كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتها أو لفصمتها ، وأمرم بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء )<sup>(٢)</sup>.

﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ : أى أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذ عزيز مقتدر كما جاء في الصحيحين : ( إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته )<sup>(٣)</sup> ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة ﴾<sup>(٥)</sup> الآيتين .

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه تاب الله عليه كما قال سبحانه : ﴿ من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٦)</sup> وقال ههنا : ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ، كما قال في آخر فاطر ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٤٥٣ . وابن ماجه في الصيد : ١٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ١٧٠ ، ٢٢٥ .

(٣) أخرجه البخارى في تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم في البر : ٦٢ . والترمذى في التفسير سورة ١١ : ٢ .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٦) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

(٧) الآية ٤١ من سورة فاطر .

## حال المشركين عند سماع القرآن

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾  
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ  
 وَحْدَهُ، وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ  
 نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٤٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ  
 فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

**المفردات :** ﴿الحجاب والحجب﴾ : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحجاب ،  
 ﴿والمستور﴾ : أى الساتر كما جاء عكسه من قوله نحو : ﴿ماء دافق﴾ <sup>(١)</sup> أى مدفوق ، ﴿أن  
 يفقهون﴾ : أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، ﴿والأكنة﴾ : الأغشية واحدها كنان ، ﴿والوقر﴾ :  
 الصمم والثقل فى الأذان ، المنع من السماع ، ﴿والنفور﴾ : الانزعاج ، ﴿مسحورا﴾ : أى مخبول  
 العقل ، فهو كقولهم ( إن هو إلا رجل به جنة ) <sup>(٢)</sup> ، ﴿فضلوا﴾ : أى نجاروا عن قصد السبيل .

## المناسبة وإجمال المعنى

كان الكلام قبل هذا المقام - كمقام الألوهية - وجدالهم بالتي هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم ،  
 وإقامة الحجة عليهم ، وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم  
 للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبي ﷺ وقولهم فيها تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون  
 وحيناً إنه شاعر .

روى ابن عباس أن ابا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون النبي ﷺ  
 ويستمعون حديثه ، فقال النضر يوماً ما أدرى ما يقول محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشيء ، وقال  
 أبو سفيان : إني لأرى بعض ما يقول حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب هو كاهن ، وقال  
 و حويطب بنى عبد العزى : هو شاعر فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا \*  
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى  
 أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ :



المراد بالحجاب المستور هو الحجاب الساتر ، لأن هؤلاء الناس لما عطلوا قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن سماع الحق ، وأغلقوا كل منافذ المعرفة ، جازاهم الله بمثل أعمالهم قال سبحانه : ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وقال تعالى ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال عز من قائل : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى مسجلاً عليهم أقوالهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى نسمع سماع متدبر مستبصر ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾<sup>(٥)</sup> .

إن هؤلاء إذا سمعوا القرآن يقرؤه صاحب الرسالة العصماء كان بينهم وبينه حجاب حاجز . أما القلوب فعليها أكنة تمنع من الفقه والفهم ، أما الآذان ففيها وقر فإذا ما سمعوا توحيد الله ولوا على أدبارهم نفورا قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ .

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نَفُورًا ﴾ : أى انصرفوا ناكسين على أعقابهم ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ﴾ فرت من قسورة ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمْعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبْعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سيلا ﴿ :

إن علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور هو الذى يعلم ما يستمعون به القرآن ، ويعلم حالهم حين استماعهم له ، فهم إذ يستمعون يتناجون فيما بينهم ويسرون الحديث قائلين إن تبعون إلا رجلاً مسحوراً سحرته الجن ، والعجيب أن هذه التهمة الباطلة رُمى بها الأنبياء من أقوامهم ، قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴾ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿ فتول عنهم فما أنت بملوم ﴾ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ .

(٥) الآيات ١٠ ، ١١ من سورة الملك .

(٦) الآيات ٤٥ ، ٤٦ من سورة الزمر .

(٧) الآيات ٥٠ ، ٥١ من سورة المدثر .

(٨) الآيات ٥٢ - ٥٥ من سورة النازيات .

(١) الآيات ٤ ، ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٧ من سورة البقرة .

(٣) الآيات ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

فانظر كيف ضربوا الأمثال والأشباه لرسول الله بالسحر ، فضلوا عن سواء السبيل ، فلا يستطيعون أن يسلكوا طريق الحق ، وهم في قرارة أنفسهم يعلمون أنه ﷺ ما كان مسحوراً ، ولا ساحراً ، ولا مجنوناً ، ولا كاهناً ، ولا كذاباً ، ولا شاعراً ، لكنه الكبير وبطر الحق وغمط الناس .

قال محمد بن إسحق في السيرة حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث ( أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رأيكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته فقال أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراها بها قال الأخنس وأنا والذي حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطينا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه ) .

### الرد على منكرى البعث

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْتًا نَّالْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٩﴾ \* قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٢٠﴾  
أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ  
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ  
بِحَمْدِهِ وَتَنْظُنُونَ إِنَّ لَّيْنَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ الرفات ﴾ : ما تكسر ويلى من كل شيء يكبر في صدوركم : أي يستبعد قبوله للحياة فطركم : أي ذراكم وأوجدكم ، ﴿ فسينغضون إليك رءوسهم ﴾ : أي سيحركونها

استهزاء يقال نفخ رأسه ينفض نفضاً إذا تحرك وأنفخ رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ،  
﴿ فتستجيون ﴾ : أى تحييون الداعى .

### المناسبة وإجمال المعنى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه .

ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ويرد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وألزم نفسه تصديق ما يقال .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ :

أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاماً فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ورفاتاً متكسرة مدقوقة ، أننا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلىنا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا ، خلقاً جديداً كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يقولون أننا لمرودودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴿ (١) 》 .

وقوله : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿ (٢) 》 .

وقد أمر الله رسوله أن يحبيهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاءهم خلقاً جديداً على أى حال كانوا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدورهم فقال :

﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً \* أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾ :

أى قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يستبعد عنكم قبوله للحياة كالسماوات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياءكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية ، وقد كانت قبل حية ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ؟

(١) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة النازعات .

(٢) الآيات ٨٧ ، ٧٩ من سورة يس .

## والخلاصة :

إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء وهذا كما يقول القائل للرجل : اتطمع في وأبا فلان . فيقول : كن ابن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى إن في هذا مبالغة أيما مبالغة في قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميئك ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هذه الحال حجارة أو حديدًا من أى معيد كما حكى عنهم سبحانه بقوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾ :  
أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال :

الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم تراباً لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟

بلى إنه سبحانه على كل شئ قدير .

ثم بين جلت قدرته ، ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال : ﴿ فسيفضون إليك رءوسهم ﴾ :  
قال أبو الهيثم : يقال لمن أخير بشئ فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنفض أى إنك إذا قلت لهم ذلك يخركون رءوسهم استهزاء وتكديباً ثم يسألون :

﴿ ويقولون متى هو ﴾ : أى متى هذا البعث وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقاً جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ :

أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحداً من خلقه لا ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا ، يكون الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال الرسول : ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾<sup>(٣)</sup> وأشار بالسبابة والوسطى .

﴿ يوم يدعوكم فتستجيون بحمده ﴾ :

أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ، والله الحمد فى كل حال ،

(١) الآية ٤٨ من سورة يس .

(٢) الآية ١٨ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٧٩ : ١ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفتن : ١٣٢ - ١٣٥ . وابن ماجه فى

المقدمة : ٧ . والدارمى فى الرقاق : ٤٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠٩ ، وفى ٥ : ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله والله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعاً : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت أو في القبر ولا في الحشر وكأني بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن .

قال تعالى ﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ :

ونحو الآية قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالأخرة ولم تنزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنْ الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٤٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٤٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ ينزع ﴾ : يفسد ويهيج الشر ، ﴿ الوكيل ﴾ : هو المفوض إليه الأمر ، ﴿ الزبور ﴾ : اسم الكتاب الذي أنزل على داود عليه السلام .

### المناسبة

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ : أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفهم باللين ولا يغلظوا لهم في القول ولا يشتموهم ولا يسبوهم فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصيح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء في كل أمة .

(١) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الروم .

(٣) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ثم بين لرسوله أن لا يقصر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن في السموات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلاً لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء في مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

قوله تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ :

أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هى أحسن ﴾ <sup>(٢)</sup> .

روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ذلك أن رجلاً شتمه فسبه عمر وهم بقتله فكادت تنور فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ :

أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعل ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديده ، فإن الشيطان ينزغ فى يده فرمما أصابه بها .

روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار ) <sup>(٣)</sup> .

وروى أيضاً عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبی ﷺ وهو فى رفلة ( جماعة ) من الناس فسمعتة يقول ( والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ها هنا ووضع يده على صدره ) <sup>(٤)</sup> .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله : ﴿ إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً ﴾ :

أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان ( ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ) وقال : ( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ) <sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ،

٣٧٩ ، ٣٨١ . والبخارى فى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٣٢ . والترمذى فى البر : ١٨ .

ثم فسر سبحانه التي هي أحسن بما علمهم النصفة بقوله : ﴿ ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم ﴾ :

أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم إن يشأ يرحمكم بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم ، وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيروهم بذلك فإن العاقبة مجهولة ولا يعلم الغيب إلا الله إلى أن ذلك مما يجز إلى توليد الضغينة في النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال : ﴿ وما أرسلناك عليهم وكيلًا ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظاً ورقياً تقصر الناس على ما يرضى الله وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر في القلوب ويستهوئ الأفتدة .

ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال : ﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ : وبأحوالهم الظاهرة والباطنة فيختار منهم لنبوته والفق في دينه من يراه أهلاً لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته ، ونحو الآية قوله : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ <sup>(١)</sup> .

وفي هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبياً وأن يكون أولئك الجوعى العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفي ذكر من في السموات رد لمقاتلهم حين قالوا ﴿ لولا نزل علينا الملائكة ﴾ .

وفي ذكر من في الأرض رد لمقاتلهم حين قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ :

بما لهم من الفضائل النفسية والمزايا القدسية وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة وميزة فضلنا إبراهيم باتخاذه خليلًا ، وموسى بالكليم ، ومحمدًا بالقرآن الذى أعجز البشر ، والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

ولا خلاف في أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا في سورة الشورى في قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (١)

أفضل من بقيتهم ولا خلاف في أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .  
﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ :

أي إن تفضيل داود لم يكن بالملك بل كان بما آتاه الله من الكتاب وأفرده بالذكر لأنه كتب في الزبور إن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد ﷺ وأمته .

قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .  
إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْبَصِيرَةَ فظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

**المفردات :** ﴿ الزعم ﴾ : ( بثليث الزاى ) القول المشكوك في صدقه وقد يستعمل بمعنى الكذب . حتى قال ابن عباس : كل موضع في كتاب الله ورد فيه ( زعم ) فهو كذب ، ﴿ لا يملكون ﴾ : أى لا يستطيعون ، ﴿ كشف الضر ﴾ : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، ﴿ يدعون ﴾ : أى ينادون ، ﴿ الوسيلة ﴾ : القرب بالطاعة والعبادة ، ﴿ محذورا ﴾ : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، ﴿ في الكتاب ﴾ : أى في اللوح المحفوظ ، ﴿ الآيات ﴾ : ما اقترحته قریش من جعل الصفا ذهابا ، ﴿ ومبصرة ﴾ : أى ذات بصرية لمن يتأملها ويتفكر فيها ، ﴿ فظلموا بها ﴾ : أى فكفروا بها وجحدوا ، ﴿ أحاط بالناس ﴾ : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، ﴿ والرؤيا ﴾ : هى ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب ، ﴿ والشجرة ﴾ : هى شجرة الزقوم ، ﴿ والطغيان ﴾ : تجاوز الحد في الفجور والضلال .



## المناسبة

هذه الآيات عود على بدء في تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيراً ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يتتبعون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعوني وحدي ، لأنني أنا المالك لنفعمكم وضررهم دونهم .

ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالنسيب واغتنام الأموال ، وأخذ الجزية .  
ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التي طلب مثلها الأولون كقولهم : ( لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً )<sup>(١)</sup> .

إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال ، كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة .

ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده .  
ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسرائء كان فتنه للناس وامتحاناً لإيمانهم كما كان ذكر شجرة الزقوم في قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم تلا هذا بذكر تماديهم في العناد وأنه كلما خوفهم وأندرهم ، ازدادوا تمادياً وطغياناً ، فلو أنزل عليهم الآيات التي اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾ :

أى قل أيها الرسول لمشركي قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه ، حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوها ، وانظروا هل يقدرُونَ على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، إنهم لا يقدرُونَ على دفع شيء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ أنزل الله هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ :

أى هؤلاء الذين يدعوهـم المشركون أرباباً وينادونهم لكشف الضر عنهم ، يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة .

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسرائء .

(٢) الأيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

أخرج الترمذى عن أئى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( سلوا الله لى الوسيلة قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية )<sup>(١)</sup> .

﴿ أئهم أقرب ﴾ :

أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوهُ يئغى إليه الوسيلة والقرب منه .  
وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم فكيف تعبدهم ؟

﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ :

أى ويرجون بفعلهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .  
ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال : ﴿ إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ : أى إن عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهم .  
ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا ﴾ :

أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال : ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وكأئن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ :

أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .  
وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم إنه كان قبلك أنبياء منهم من سُحِّرت له الريح ، ومنهم من كان يحبى الموتى ، فإن سرك أن تؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ :

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٥ .

(٢) الآية ١١٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٤) الآية ٨ من سورة الطلاق .

أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال ، كما هو سنتنا في الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون ، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم فلم يجيبهم إلى ما طلبوا ، ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

### والخلاصة :

إنه ما منعنا من إرسال الآية التي سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها فإن أرسلنا الآيات وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله في عباده .

روى احمد عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبي ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهاباً وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقليل له إن شئت أن نستأني بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوها فإن كفروا هلكوا كما أهلكك من قبلهم من الأمم قال بل نستأني بهم »<sup>(١)</sup> وأنزل الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ :

وأخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال : « قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله ﷺ إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها » .

ثم بين أن الآيات التي التمسوها هي مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾<sup>(٢)</sup> .

أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناهما ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها فكفروا بها ومنعوها شر بها وقتلوها فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ :

أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيراجعوا .

ذكر المؤرخون ان الكوفة رُجفت ( زلزلت ) في عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعيبكم فأعتبوه .

وروى إن المدينة زلزلت في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٢٥٨ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

وفي الحديث الصحيح ( إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ) ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً<sup>(١)</sup> .

ثم قال سبحانه محرضاً رسوله على إبلاغ رسالته ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس .  
﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ :

أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده ، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبة ، فلا يقدرّون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك فلا يقدرّون على إيصال الأذى إليك كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾<sup>(٢)</sup> .

**والخلاصة :** إن الله ناصر ك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه .

قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ :

أى وما جعلنا الرؤيا التى أريتها ليلة الإسراء إلا امتحاناً واختباراً للناس ، فأنكرها قوم وكذبوا بها ، وكفر كثير ممن كان قد آمن به ، وازداد المخلصون إيماناً .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء .  
وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة والعرب تقول رأيت بعينى رؤية ورؤيا . ﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ :

أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : ﴿ إن شجرة الزقوم \* طعام الأثيم ﴾<sup>(٤)</sup> اختلفوا فقوم ازدادوا إيماناً ، وقوم ازدادوا كفراً كلّى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة ( يعنى النّبى ﷺ ) توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر . قال عبد الله بن الزبيرى : أن محمداً يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فترقموا منه وجعل يأكل من هذا بهذا .

(١) أخرجه البخارى فى اللباس : ٢ ، وفى الكسوف : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٦ - ٦ . ومسلم فى الكسوف : ١ - ٣ ، ٦ ، ١٠ . وأبو داود فى الاستقصاء : ٣ ، ٤ ، ١١ . والنسائى فى الكسوف : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . وابن ماجه فى المقدمة : ٢٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٨ . وفى ٢ : ١٠٩ ، ١١٨ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

وقد فات هؤلاء أن في الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نفاقة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ في الدول المتمدينة .

وكم في الأرض من عجائب ، وكم في العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا وما خلص من النار إلا قشرتها التي نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو <sup>٨</sup>/<sub>٩</sub> منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أيدروجين ، فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذي نسكنه تتخلله النار .

### والخلاصة :

إن هؤلاء المشركين فُتِنُوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة ، وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها للعن الكفار الذين يأكلونها توسعا في الاستعمال ، وهو كثير في كلام العرب .

﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ :

أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديا في الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التي اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا في الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطاقة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته ﷺ على ما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة ، لمخالفتها للحكمة من الحزن لظعن الكفار ، إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقاً لأتيت بمثل هذه المعجزات التي أتى بها من قبلك الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبٰلِيسَ قَالَ ؕ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طٰٓغِيًا ﴿١١﴾ قَالَ اَرَاۤءَ يٰٓاِبٰنَكَ هٰذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلٰٓى لٰٓيْنٍ اٰخَرٰتِنِ اِلٰى يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا حَنْكَنَ ذُرِّيَّتُهُۥ اِلَّا قَلِيْلًا ﴿١٢﴾ قَالَ اَذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَاِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاۤءً مَّوْفُوْرًا ﴿١٣﴾ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اَسْتَطَاعَتْ مِنْهُمْ بِصُوْرَتِكَ وَاَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِحَيٰلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارَكَهُمْ فِى الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ وَعَدَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطٰنُ اِلَّا غُرُوْرًا ﴿١٤﴾ اِنَّ عِبَادِىْ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ وَّكَفٰى بِرَبِّكَ وَكِیْلًا ﴿١٥﴾

المفردات : ﴿ أرايتك ﴾ : أى أخبرنى هذا الذى كرمت على : أى هذا الذى كرمته على . قاله احتقاراً واستغفاراً لشأنه ، ﴿ لأحتكن ﴾ : من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل في

حنكها الأسفل حبلاً يقودها به كأنه يملكها كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، ﴿ اذهب ﴾ : أى أمض  
لشأنك فقد خلّيتك وما سولت لك نفسك ، ﴿ موفوراً ﴾ : أى مكماً لا يدخر منه شيء من قولهم وفر  
لصاحبك غرضه فرة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ويقال أفره الخوف واستنزفه : أى ازعجه واستخفه ، ﴿ بصوتك ﴾ : أى بدعائك إلى معصية الله ،  
﴿ واجلب عليهم ﴾ : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ويقال أجلب على العدو إجلاباً إذا جمع  
عليه الخيول ( والخيول هنا الفرسان ) كما جاء فى قوله ﷺ فى بعض غزواته لأصحابه : ( يا خيل الله  
أركبى )<sup>(١)</sup> ، ﴿ والرجل ﴾ : واحده راجل كركب وراكب ، ﴿ والغرور ﴾ : تزوين الباطل بما يظن  
انه حق ، ﴿ والوكيل ﴾ : الحافظ والريب .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم  
بالإسراء وشجرة الزقوم ، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسداً على ما آتاه الله من النبوة ،  
وكبراً عن أن ينقادوا إلى الحق .

بين أن هذا ليس ببديع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل ما لاقيت ، الا  
ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج  
من الإيمان ، والدخول فى الكفر ، والحسد بلية قديمة ، ومحنة عظيمة للخلق .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لن خلقت  
طيناً ﴾

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف . طه .  
ص .

وفى هذا المقام يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ومصطفاه فيقول : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾  
أى اذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، فقد منعه الحسد والكبر أن  
يمثل أمر الله فتكبر على آدم .

قال تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾<sup>(٣)</sup> .

ماذا قال إبليس لربه : ﴿قَالَ أَأَسْجِدُ لِمَنْ خَلَقْتَنِي﴾ .

وكان في هذا الموقف يجعل من العناصر مقاييس يقيس بها القيم والمثل ، ونسى أن العناصر لا قيمة لها في هذا المقام . فالإنسان حيث ثبت لاحيث ينبت ، وحيث يوجد ، لا حيث يولد .  
الناس من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواء  
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يتفاخرون به فالطين والماء

إن الميزان العدل والقسطا المستقيم الذي وزن به الحكم العدل هو التقوى فلم يقل تعالى إن أكرمكم عند الله أقوام ولا أغناكم ، إنما قال : ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾<sup>(٤)</sup> فالتقوى هي السلاح الأقوى :

ثم قال إبليس بعد ذلك لرب العزة : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَنُخْرِتَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ :

كلمة قالها على سبيل التعجب : أى أخبرني أهذا الذى كرمته على وأنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، لن أنخرتنى إلى يوم القيامة لأحتوين ذريته بالضلال والإغواء ، و ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثم لاثنين من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين<sup>(٥)</sup> .

لكنه استثنى القليل من ذرية آدم . قال تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ، إلا عبادك منهم المخلصين<sup>(٦)</sup> . فماذا قال له مولانا ؟

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ :

وهذا كقوله تعالى : ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ \* لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين<sup>(٧)</sup> .

وهنا يقول له ربنا ﴿اذْهَبْ﴾ : أى امض لشأنك فالحق واضح ، والطريق لائح والمنادى صائح ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بمخالفة أمرى وسلك طريق الغواية فلاملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين .  
وهى جزاؤكم لإغوائك لهم ، واتباعهم لك جزاءاً موفوراً .

(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .

(٦) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .

(٧) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة ص .

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٣١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٥٠ من سورة الكهف .

(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

لقد حذر الله أبناء آدم من هذا الذئب فهو أشد علينا من ذئب الغنم ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ \* وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ \* وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إِنْ الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (٣) .

قال له رب العزة : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدِهِمْ وَمَائِعِهِمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ .

قال ابن عباس في قوله ﴿ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل .

وقال مجاهد : باللهو والغناء أى استخفهم بذلك .

وقال قتادة - اختاره ابن جرير - في قوله تعالى ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ : يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَأْنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُهُمْ أَزَا ﴾ (٤) أى تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا ، وتسوقهم إليها سوقا .

وقال ابن عباس ومجاهد في قوله : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ ﴾ قال : كل راكب وماش في معصية الله .

وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ :

قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من انفاق الأموال في معاصي الله تعالى .

وقال عطاء : هو الربا .

وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها في حرام .

(٣) الآية ٦٠ - من سورة فاطر

(٤) الآية ٨٣ - من سورة مريم

(١) الآيتان : ٦٠ ، ٦٣ من سورة يس

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة



وقال العوفي عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ماحرموه من أنعامهم  
يعنى من البحائر والسوائب ونحوها .

وقال ابن جرير : والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿ والأولاد ﴾ قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى أولاد الزنا .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم .

وقال قتادة عن الحسن البصرى : قد والله شاركهم في الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا  
وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزعوا من أموالهم جزءا للشيطان .

وقال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميته بما  
يكرهه الله ، أو بإدخاله في غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده ، أو غير ذلك  
من الأمور التى يعصى الله بفعله به . أو فيه ، فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ، ذلك الولد له أو  
منه ، لأن الله لم يخص بقتوله ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ فكل ماعصى الله فيه أو به أو أطيع  
الشيطان فيه أو به فهو مشاركة .

فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل :  
[إني خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم] (١) .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ،  
اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان  
أبدا » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وعدهم ﴾ من يستخفهم ويغريهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لاجنة  
ولانار ، أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله ﷺ :  
« يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا » (٣)

أو بالتسويق في التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك : إنه يغويهم بأن لا ضرر من فعل هذه المعاصي ، فإنه لاجنة ولانار ، ولا حياة بعد  
هذه الحياة ، وإنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها فتفويتها غبن وخسران ، وينفرهم من

(١) أخرجه مسلم في الجنة : ٦١٣ . والإمام أحمد في ٤ : ١٦٢ .

(٢) أخرجه البخارى في بدء الخلق : ١١ ، وفي الوضوء : ٨ وفي النكاح : ٦٦ ، وفي الدعوات : ٥٥ . ومسلم في الطلاق : ٦ . وأبو داود في النكاح : ٤٥ .

والترمذى في النكاح : ٦ . وابن ماجه في النكاح : ٢٧ . والفرامى في النكاح : ٢٩ . والإمام أحمد في ١ : ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ .

(٣) أخرجه البرامى في الرقاق : ٢٣ .

الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لارجعة بعد هذه الحياة ، فهي عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعة .

قوله تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ : لأنه لا يغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة يزيناها لهم ويلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ (١).

ثم نفى الله تعالى سلطان الشيطان عن عباده المخلصين فقال : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكىلا ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ (٢).

فسبحانك اللهم شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض وجودك تملأ الأرض رِيًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

يارب حبك فى دمي وكىانى      نور أغر يذوب فى وجدانى  
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى      أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قوله تعالى : ﴿ وكفى بربك وكىلا ﴾ :

فنعم المولى ونعم النصير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وكفى به شهيدا ، وحسبنا ، وكفىلا .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيه فى السفر » (٣) ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره .

(١) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(٢) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٨٠ .

## نداء الفطرة

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾  
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ  
الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا  
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ  
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ \* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ  
وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا  
تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

**المفردات :** ﴿ يزجي ﴾ : أى يسوق حيناً بعد حين ، والمراد أنه يجريه ﴿ وفصله ﴾ : هو  
رزقه . والمراد ﴿ بالضر ﴾ : خوف الفرق بتقاذف الأمواج ، ﴿ وضل ﴾ : غاب عن ذكركم ،  
﴿ والخسف ﴾ : والخسوف : دخول الشئ فى الشئ ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ،  
وعين من الماء خاسفة : أى غائرة الماء وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب  
﴿ والحاصب ﴾ : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ﴿ والقاصف ﴾ : الريح تقصف الشجر  
وتكسره . ﴿ والتبيع ﴾ : النصير والمعين . ﴿ وحملته على فرس ﴾ : أى أعطيته إياها ليركبها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف إبليس من آدم وكيف حسده وتكبر عليه وأبى السجود له ،  
وبيّن ما يكيد به للبشر بصوته وخيله ورجله ومشاركته إياهم فى الأموال والأولاد ، ووعدهم بالأمانى  
والخداع . بيّن سبحانه أن من رحمته التى وسعت كل شئ أنه نفى سلطانه عن عباده المؤمنين .

ويبين أن من صور رحمته بهم أيضاً ، أنه هو الذى يسوق لهم الفلك فى البحر ليتبتغوا من فضله ،  
فتفسير حياتهم برا وبحرا سيرا لهم فيه مايقوم بمعاشهم .

قال تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجي لكم الفلك فى البحر ليتبتغوا من فضله إنه كان بكم  
رحيماً ﴾ :

وهذا كما قال جلّ شأنه : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ليتبتغوا من فضله ولعكم تشكرون ﴾ <sup>(١)</sup> .

والبحر خلق عظيم الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، وقد بيّن  
الله تعالى حال قوم إذا مسهم الضر فى البحر نسوا كل معبود سوى الله ، فلما كشف الله عنهم الضر

أعرضوا عن الله وتولوا عن وحدانيته . قال عزّ من قائل : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْتُمْ دَعْوَانِ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ :

لما ذهب عكرمة بن أبي جهل فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربا فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفا رحيمًا ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ : أى نسيت ما عرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ أى سجيته هذا ينسى النعم ويحجدها إلا من عصم الله .

وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْ طَيْفَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغِيكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (١).

وكما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمْنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ :

بأ من أعرضتم عن توحيد الله وكفرت به بعد أن نجاكم إلى البر هل أمنت من في السماء أن يخسف بكم جانب البر ، أو أن يرسل عليكم حاصبا من حجارة ، ثم إنكم لن تجدوا وكيلا غيره تكلون إليه أمركم .

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٣).

ثم هل أمنت بعد نجاتكم من الغرق أن يعيدكم الله في البحر مرة أخرى ، ويرسل عليكم ريحا عاصفا فيغرقكم بما كفرت ، إنه إن فعل بكم ذلك لن تجدوا لكم ناصرا من دون الله ، ولن تجدوا لكم تبعا .

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

قال جل شأنه : ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ :

إن عليكم كما عرفتم الله في الشدة فدعوتوه وحده أن تعرفوه في الرخاء فتثبتوا على توحيده ، فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وهو الذى أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومن مظاهر نعمه سبحانه عليكم يا بنى آدم أنه كرمكم وحملكم في البر والبحر ورزقكم من الطيبات ، وفضلكم على كثير من خلقه ، فشكر المنعم واجب .

قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ :

ياخالق الكون في عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون  
يامن لطف بحالى قبل تكويني لاتجعل النار يوم الحشر تكويني

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن من مظاهر تكريم الله تعالى لابن آدم أنه خلقه على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فهو يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم فى البر أى على الدواب من الأنعام والخيول والبغال وفى البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يضعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ، أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : ( قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة . فقال الله تعالى : وعزى وجلالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان ) .

(٣) الآية ٤ من سورة التين .

(١) الآية ٣٤ من سورة ابراهيم .

(٢) الآية ١٩ من سورة النمل .

وقد روى ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : ( إن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقنا بنى آدم ، وجعلتهم يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ويلبسون الثياب ، ويتزوجون النساء ، ويركبون الدواب ، ينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئا ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله عز وجل : لا أجعل من خلقتهم بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان ) .

وقال الطبراني بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم ) قيل يا رسول الله ولا الملائكة . قال : ( ولا الملائكة . الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر ) .

### من مشاهد القيامة وتوجيهات إلهية

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوِي كِتَابُهُ بِيَمِينِنَا فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتُنْفِرَىٰ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَا أَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَبْرَةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكَ الشَّمْسِ إِلَىٰ عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنْ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿ إمامهم ﴾ : أى كتابهم فهو كقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام ﴾

مين ﴿١﴾. ﴿الفتيل﴾ : الخيط المستطيل في شق النواة وبه يضرب المثل في الشيء الحقير التافه ومثله النقيير والقطمير . ﴿أعمى﴾ : أى اعمى البصيرة عن حجة الله والركون إلى الشيء : الميل إلى ركن منه ﴿ضعف الحياة﴾ : أى عذابا مضاعفا في الحياة الدنيا . ﴿ضعف الممات﴾ : أى عذابا مضاعفا في الممات في القبر وبعد البعث . ﴿ونضيرا﴾ : أى معينا يدفع عنك العذاب . ﴿لا يلبثون﴾ : أى لا يقون ﴿خلافك﴾ : أى بعدك ﴿سنة من قد أرسلنا﴾ : أى سننا بك سنه الرسل قبلك ﴿تحويلا﴾ : أى تغييرا . ﴿دلوك الشمس﴾ : زوالها عن دائرة نصف النهار ﴿الغسق﴾ : شدة الظلمة . ﴿وقرآن الفجر﴾ : أى صلاة الصبح أو القرآن الذى يتلى فجراً . ﴿كان مشهودا﴾ : أى تشهد شواهد القدرة وروائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ؛ فمن ظلام حالك ازالة ضوء ساطع ونور باهر ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق .

سبحان الواحد الخلاق وهل هناك منظر أجمل في نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامى يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ويقظة النوام وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا في سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس . ﴿التهجد﴾ : الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿نافلة﴾ : أى صلاة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك . ﴿المقام المحمود﴾ : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ﷺ . ﴿السلطان﴾ : الحجة البينة . ﴿والنصير﴾ : الناصر والمعين . ﴿زهق﴾ : أى زال واضمحل . ﴿نأى بجانبه﴾ : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره . ﴿وشاكلته﴾ : أى مذهب وطريقه التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال . ﴿ويثوسا﴾ : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله . ﴿وأهدى سبيلا﴾ : أى أسد طريقا وأقوم منهاجا .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا ، فصل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه مايجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتليس ،

ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بان الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها ، لا بد أن يصيبها الوبال والنكال ،

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى كيد الكفار واستفزازهم لرسول الله ﷺ ، ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ولا يبالى بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود .

ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا . قوله تعالى :

﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون شيئا ﴾ ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴿ :

قال مجاهد وقتاده : أى بنبيهم

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾ (١).

وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ، لأن إمامهم النبي ﷺ .

وقال ابن زيد : بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير :

عن ابن عباس في قوله ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ :

أى بكتاب أعمالهم . وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ (٣)

ويحتمل إن المراد بإمامهم أى كل قوم بمن ياتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ (٤).

وفي الصحيحين ( لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من كان يعبد الطواغيت الطواغيت ) (٥) . الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٦).

وهذا لا ينافى أن نجاء بالنبي إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لا بد أن يكون شاهدا على أمته بأعمالها ، كقوله تعالى : ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ﴾ (٧).

(١) الآية ٤٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٤١ من سورة القصص .

(٥) الآية أخرجه البخارى في التوحيد : ٢٤ ، وفي الرقاق : ٥٢ . ومسلم في الإيمان : ٢٩٩ . والامام أحمد في ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤ .

(٦) الآية ٢٨ ، ٢٩ من سورة الجاثية .

(٧) الآية ٧٠ من سورة الزمر .



وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (١).

ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه يمينه فأولئك يقرءون كتابهم ﴾ .

أى من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته ، كقوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه ﴾ فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴿ إلى قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتىلا ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل فى شق النواة .

روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم ﴾ قال : ( يدعى أحدهم فيعطى كتابه يمينه ويمد له فى جسمه ويبض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلأأ ، فينطلق إلى أصحابه فيروونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسود وجهه ، ويمد له فى جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا ، اللهم لاتأتنا به . فيأتهم فيقولون : اللهم أخزه . فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا ) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وقتاده وابن زيد : ﴿ ومن كان فى هذه ﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أى عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فهو فى الآخرة أعمى ﴾ أى كذلك يكون .

﴿ وأضل سبيلا ﴾ : أى وأضل منه كما كان فى الدنيا عياداً بالله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا ﴾ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴿ إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيراً ﴾ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلاً ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده ، لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيتته وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفّره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها .

قوله تعالى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافاك إلا قليلاً سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسننتنا تحويلاً ﴾ :

(١) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٩ — ٢٥ من سورة الحاقة .

نزلت في كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصفا حتى جمعهم الله وإياه بيدٍ على غير ميعة ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ سنة من قد أرسلنا ﴾ .

أى وهكذا عادتنا في اللذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاؤهم من النقم في الدنيا مالا قبل لأحد به . ولهذا قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ ومن الليل فتعبد به نافلة لك عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً .

عن جابر بن عبد الله قال : ( دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس ) (٢) .

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس .

فمن قوله : ﴿ لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾ وهو ظلامه ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله : ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

﴿ إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ : قال الأعمش عن إبراهيم ، عن ابن مسعود وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهما : عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ قال : تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال ( فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ) (٣) .

يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية أخرجه الدرهمي في المقدمة : ٧ . وابن ماجه في الإقامة : ١٤٨ . والإمام أحمد في ٣ : ٣٩٨ ، وفي ٤ : ٣٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى في الأذان : ٣١ ، وفي الصلاة : ٨٧ ، وفي تفسير سورة ١٧ : ١٠ . والترمذى في الصلاة : ٤٧ . والدرهمي في الصلاة : ٥٦ . والإمام أحمد في ١ : ٣٧٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، وفي ٢ : ١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٥٠١ ، ٥٢٠ .

قال الإمام أحمد عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ قال : ( تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار )<sup>(١)</sup> رواه الترمذي وقال حسن صحيح .

وفي لفظ في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة الصبح وفي صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وقال عبد الله بن سعود يجتمع الحرسان في صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقم هؤلاء )<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ : هذا أمر بقيام الليل بعد أن أمره تعالى بأداء المكتوبة .

وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال ( صلاة الليل )<sup>(٣)</sup> ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ما كان بعد نوم .

وقوله تعالى : ﴿نافلة لك﴾ : قيل أنه مخصوص بوجوب - وحده ، فجعلوا قيام الليل واجبا في حقه دون الأمة ، رواه العوفي عن ابن عباس وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله . وقيل إنما جعل قيام الليل في حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التي عليه .

### قال الفقهاء في قيام الليل

#### ١ - فضله :

أمر الله به نبيه ﷺ ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ :  
١ - وهذا الأمر وإن كان خاصا برسول الله ﷺ إلا أنه عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاعتداء به ﷺ .

٢ - يبين أن المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيرته ورحمته ، فقال : ﴿إن المتقين في

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٧ : ٥٥ وابن ماجه في الصلاة : ٢ ، وفي الجنايز : ٦٥ ، والإمام أحمد في ٢ : ٤٧٤ .

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت : ١٦ ، وفي بدء الخلق : ٦ ، وفي التوحيد : ٢٣ ، ٢٣ ، ومسلم في المساجد : ٢١٠ ، والنسائي في الصلاة : ٢١ ، والإمام

مالك في السفر : ٨٢ ، والإمام أحمد في ٢٥٧ : ٣١٢ ، ٤٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام : ٢٠٣ ، والإمام أحمد في ٢ : ٣٠٣ ، ٣٢٩ .

جنات وعيون \* آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين \* كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴿١﴾ .

٣ — ومدحهم وأثنى عليهم ونظمهم في جملة عبادة الأبرار فقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما \* والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ (١) .

٤ — وشهد لهم بالإيمان بآياته فقال ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ولما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

٥ — ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ (٣) .

هذا بعض ماجاء في كتاب الله ، أما ماجاء في سنة رسول الله ﷺ فهناك بعضه :

١ — قال عبد الله بن سلام ! أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه استبته ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : ( يا أيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام ) (٤) . رواه الحاكم وأبو ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

٢ — وقال سلمان الفارسي ! قال رسول الله ﷺ ( عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ، ومنهارة عن الإثم ، ومطرودة للداء عن الجسد ) (٥) .

٣ — وقال سهل بن سعد ! جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال : ( يا محمد عش ماشئت فإنك ميت ، وأعمل ماشئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، وأعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس ) .

٤ — وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ( ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فأما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل

(١) الآيات ١٥-١٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ٦٣ ، ٦٤ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه الترمذي في الأطعمة : ٤٥ ، وفي القيامة : ٥٦ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ ، وفي الأدب : ١١ . والإمام أحمد في ١ :

١٦٥ ، ١٦٧ .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات : ١٠١ .

(٣) الآيات ١٥-١٧ من سورة السجدة .

(٤) الآية ٩ من سورة الزمر .

ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ، والذي له إمراة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد ، والذي إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا : فقام من السحر فى ضراء وسراء ) .

## ٢ - آدابه :

يسن لمن أراد قيام الليل ما يأتى :

١ - أن ينوى عند نومه قيام الليل . فعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : ( من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له مانوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه ) (١) . رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

٢ - أن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ، ويتسوك ، وينظر إلى السماء ، ثم يدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ فيقول : ( لا إله إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا . وإليه النشور ) (٢) . ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ (٣) إلى آخر السورة . ثم يقول : اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فىهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فىهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك جاکمت ، فأغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت (٤) .

٣ - ثم يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ثم يصلى بعدهما ماشاء فعن عائشة قالت : ( كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلى افتتاحه بركعتين خفيفتين ) (٥) .

(١) أخرجه أبو داود فى لطوع : ٢٠ . والنسائى فى الليل : ٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الدعوات : ٧ ، ١٥ . ومسلم فى الذكر : ٥٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٦ . والدارمى فى الاستئذان : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، وفى ٥ : ١٥٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ .

(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ . ومسلم فى المسافرين : ١٩٩ ، ٢٠١ . وأبو داود فى الصلاة : ١١٩ . والنسائى فى التطبيق : ١٣ ، ١٤ ، ٧-٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ ، ١٨٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٧ ، ٢٠٠ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٠ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين )<sup>(١)</sup> رواهما مسلم .

٤ - أن يوقظ أهله ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( رحم الله أمرا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها ، فإن أبى نضحت في وجهه الماء )<sup>(٢)</sup> .

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال ( إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب في الذاكرين والذاكرات )<sup>(٣)</sup> رواهما أبو دواد وغيره باسناد صحيح .

وعن أم سلمة أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال : ( سبحان الله ، ماذا أنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات ، يارب كاسية في الدنيا عارية يوم القيامة رواه البخارى . عن علي أن رسول الله ﷺ طرده وفاطمة فقال : ألا تصلبان ؟ قال : فقلت : يا رسول الله أنفсна بيد الله . فإن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو يضرب فخذه وهو يقول : ( وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً )<sup>(٤)</sup> . متفق عليه .

٥ - أن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم فعن عائشة أن النبي ﷺ قال : ( إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضجع )<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

وقال أنس : ( دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال : ماهذا ؟ قالوا : لزينب تصلى ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به ؟ فقال : حُلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد )<sup>(٦)</sup> متفق عليه .

٦ - أن لا يشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ماتتسع له طاقته ويواظب عليه ولا يتركه إلا لضرورة . فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : ( خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لا يمل الله حتى تملوا )<sup>(٧)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ١٩٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٩٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في التطوع : ١٨ ، وفي الوتر : ١٣ . والنسائي في قيام الليل : ٥ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٥٠ ، ٤٣٦ .

(٣) أخرجه البخارى في ليلة القدر : ٥ . ومسلم في الاعتكاف : ٧ . وأبو داود في التطوع : ١٨ ، وفي الوتر : ١٣ . والنسائي في قيام الليل : ٥ ، ١٧ . وابن ماجه في الإقامة : ١٧٥ . والإمام مالك في صلاة الليل : ٥ . والإمام أحمد في ١ : ١٣٢ ، وفي ٢ : ٢٥٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٦ : ٢٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٢٣ . وأبو داود في التطوع : ١٨ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٤ . والإمام أحمد في ٢ : ٣١٨ .

(٦) أخرجه البخارى في التهجد : ١٨ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٤ .

(٧) أخرجه البخارى في الرقاق : ١٨ . ومسلم في المسافرين : ٢١٥ ، ٢٢٠ . والترمذى في القبلة : ١٣ . وابن ماجه في زهد : ٢٨ .

والإمام أحمد في ٢ : ٢٣١ ، ٣٥٠ ، ٤٩٦ ، وفي ٦ : ٤٠ ، ٦١ ، ٨٤ .

وروي عنها أن رسول الله ﷺ : سئل أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : ( أدومه وإن قل )<sup>(١)</sup>.

وروى مسلم عنها قالت : ( كان عمل رسول الله ﷺ ديمة . وكان إذا عمل عملاً أثبتته )<sup>(٢)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل )<sup>(٣)</sup>. متفق عليه

وروي عن ابن مسعود قال : ( ذكر عند النبي ﷺ رجل نام حتى أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه - أو قال في أذنه )<sup>(٤)</sup>.

وروي عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبي ﷺ قال لأبيه : ( نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل . قال سالم ، فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً ) .

### ٣ - وقته :

صلاة الليل تجوز في أول الليل ووسطه وآخره مادامت الصلاة بعد صلاة العشاء . قال أنس رضي الله عنه في وصف صلاة رسول الله ﷺ : ( ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصلياً إلا رأيناه ، وما كنا نشاء أن نراه نائماً إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لا يفطر منه شيئاً ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئاً )<sup>(٥)</sup>. رواه أحمد والبخاري والنسائي .

قال الخافظ : لم يكن لتجده ﷺ وقت معين بل بحسب ما ييسر له القيام .

### ٤ - أفضل أوقاتها :

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير !

١ - فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان : ٣٢ ، وفي الصوم : ٥٢ . ومسلم في المسافرين : ١٣٩ ، ٢٢١ ، والنسائي في قيام الليل : ١٧ . والإمام أحمد في ٦ : ٥١ ، ٥٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم : ٦٤ ، وفي الرقاق : ١٨ . ومسلم في المسافرين : ٢١٧ . وأبو داود في التطوع : ٢٧ . والإمام أحمد في ٤ : ١٠٩ ، وفي ٦ : ٤٣ ، ٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٤ . والإمام أحمد في ٢ : ١٧٠ .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد : ١٣ . ومسلم في المسافرين : ٢٠٥ . والنسائي في قيام الليل : ٥ . وابن ماجه في الإقامة : ١٧٤ . والإمام أحمد في ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، وفي ٢ : ٢٦٠ ، ٤٢٧ .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد : ١١ .

حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له (١) زواه الجماعة .

٢ - وعن عمرو بن عبسة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ( أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن ) رواه الحاكم قال : على شرط مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

٣ - وقال أبو مسلم لأبي ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال : ( جوف الليل الغابر ، وقليل فاعله ) (٢) . رواه أحمد بإسناد جيد .

٤ - وعن عبد الله بن عمرو أن النبي ﷺ قال : ( أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ) (٣) رواه الجماعة إلا الترمذى .

#### ٥ - عدد ركعاته :

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، ولاحد معين ، فهي تتحقق ولو بركة الوتر بعد صلاة العشاء .

١ - فعن سُمرة بن جندب رضى الله عنه قال : ( أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ماقل أو كثر . ونجعل آخر ذلك وتراً ) . رواه الطبرانى والبخارى .

٢ - وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ قال : ( صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفي ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل ) . رواه أبو الشيخ وابن حبان في كتابه « الثواب » وسكت عنه الخنذرى في « الترغيب والترهيب » .

٣ - وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا بد من صلاة بليل ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل ) . رواه الطبرانى ورواته ثقات إلا محمد ابن اسحق .

(١) أخرجه البخارى في التهجد : ١٤ ، وفي الدعوات : ١٤ . ومسلم في المسافرين : ١٦٨ ، ١٦٩ . وأبو داود في التطوع : ٢١ . والترمذى في المواقيت : ٢١ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٢ . والإمام أحمد في : ٢ : ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٤١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى في الأيمان : ٨ ، وفي الدعوات : ٧٨ ، ١١٨ . والنسائى في المواقيت : ٣٥ ، ٤ . وابن ماجه في الإقامة : ١٤٨ ، ١٨٢ .

(٣) أخرجه البخارى في الصوم : ٥٦ ، وفي الأنبياء : ٣٧ . ومسلم في الصيام : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ . وأبو داود في الصوم : ٥٣ . والنسائى في الصيام : ٧٥ ، ٧٦ . وابن ماجه في الصيام : ٣١ . والإمام أحمد في : ٢ : ١٥٨ .



٤ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( ذكرت قيام الليل فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : ( نصفه ) ثلثه ، أربعة فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة ) .

٥ - وروى عنه أيضا قال : ( أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » . رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو خير بين أن يصلها وبين أن يقطعها .

قالت عائشة رضى الله عنها : ( ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يا رسول الله أأنام قبل أن توتر ؟ فقال : ( يا عائشة إن عيني تامان ولا ينام قلبي )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وروي أيضا عن القاسم بن محمد قال : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول كانت صلاة رسول الله ﷺ عشر ركعات ويوتر بسجدة )<sup>(٢)</sup> .

## ٦ - قضاء قيام الليل :

روى مسلم عن عائشة : ( أن النبى ﷺ كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة )<sup>(٣)</sup> .

وروى الجماعة إلا البخارى عن عمر أن النبى ﷺ قال : ( من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كأنما قرأه من الليل )<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ عسى أن يعثلك ربك مقاماً محموداً ﴾ : أى يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ للشفاعة يوم القيامة للشفاعة للناس ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

وعن حذيفة قال : يجمع الناس فى صعيد واحد يسمعون الداعى ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لا تكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يا محمد فيقول : ( ليك وسعديك ، والخير فى يديك ،

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٦ ، وفى المناقب : ٢٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٢٥ . وأبو داود فى الطهارة : ٧٩ ، وفى التطوع :

(٢) ٢٦ . والترمذى فى الفتن : ٦٣ . والنسائى فى الليل : ٣٦ . والإمام مالك فى الليل : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٢٧٨ ، وفى

(٣) ٢ : ٢٥١ ، ٤٣٨ ، وفى ٥ : ٤٠ ، ٥٠ ، وفى ٦ : ٣٦ ، ٧٣ ، ١٠٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٢٨ . وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٦٥ .

والشر ليس إليك والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت ) فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى .

قال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصرى .

وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله تعالى : ﴿ عسى أن يعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لا يساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكباً إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الخوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول ( أنا لها أنا لها ) ، كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم .

وفى حديث الصور : ( أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع فى رفع درجات أقوم لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لا تليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك .

قال البخارى حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن علي سمعت ابن عمر يقول : ( إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون : يا فلان اشفع يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً ) (١)

وعن عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : ( إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً ) (٢).

وقال البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : ( من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ١١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ٨٠ . والإمام فى ١ : ٣٩٨ ، وفى ٣ : ٤٥٦ .

وعدته . حلت به شفاعتي يوم القيامة (١) انفرد به دون مسلم .

وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال : ( إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر ) (٢) . قال الترمذى حسن صحيح .

وقال الامام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال : ( يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقتك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم : لست هناك . ويذكر ذنبه الذى أصاب ، فيستحي ربه عز وجل من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناك ، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ما ليس له به علم فيستحي ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناك ، ولكن ائتوا موسى ، عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة . فيأتون موسى فيقول لست : هناك ، ويذكر لهم النفس التي قتل بغير نفس فيستحي ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ، فيأتون عيسى فيقول : لست هناك ، ولكن ائتوا محمداً غفر الله له ماتقدم من ذنوبه وما تأخر . فيأتون - قال الحسن هذا الحرى - فأقوم فأمشي بين سباطين من المؤمنين - قال أنس حتى أستأذن على ربي فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي ، فيدعني ماشاء الله أن يدعني - قال - ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربي وقعت له - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربي وقعت - أو خررت - ساجداً لربي فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لي حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول يارب : ما بقى إلا من حبسه القرآن (٣) .

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : ( فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة ) (٤) .

(١) أخرجه البخارى في الأذان : ٨ ، وفي تفسير سورة ١٧ : ١١ . والترمذى في الصلاة : ٤٣ . والنسائى في الأذان : ٣٨ . وابن ماجه في الأذان : ٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد : ٣٧ . والترمذى في المناقب : ١ . والإمام أحمد في ٥ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى في تفسير سورة ٢ : ١ ، وفي التوحيد : ١٩ ، ٢٤ ، وفي الرقاق : ٥١ . ومسلم في الإيمان : ٣٢٢ . وابن ماجه في الزهد : ٣٧ .

(٤) أخرجه البخارى في الإيمان : ٣٣ ، وفي المناقب : ٢٨ ، وفي التوحيد : ١٩ . والترمذى في جهنم : ٩ ، ١٠ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ ، وفي الزهد : ٣٧ . والإمام أحمد في ١ : ٤١٦ ، ٤٥٨ ، وفي ٣ : ١١٦ ، ١٧٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٦ .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال حدثني نبي الله ﷺ قال : ( إني لقائم انتظر أمتي تعبر الصراط ، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يا محمد يسألون - أو قال يجتمعون إليك - ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله بغم ما هم فيه ، فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال : انتظر حتى أرجع إليك ، فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش ، فلقي مالم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أذهب إلى محمد وقل له : أرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً ، فمازلت أتردد إلى ربي عز وجل فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت ، حتى أعطاني الله عز وجل من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك )<sup>(١)</sup>.

وقال الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال ( يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ، ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فأقول ما شاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود )<sup>(٢)</sup>.

وقال أيضاً عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : ( أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك ) فقال رجل : يا رسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : قال : ( هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم )<sup>(٣)</sup>.

صلى الله عليك يا علم الهدى ماهبت النسائم وما ناحت على الأيك والحمام :

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا

فلا أحد في الرسل يشفع إلا هو

فسيجد تحت العرش لله سجدة

ويسأله فصل القضاء فيعطاه

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول في أمير الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه .

يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ماله شفعاء

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٧٣ ، ٥١٨ ، وفي ٣ : ١٧٨ ، وفي ٤ : ٤٤ ، وفي ٥ : ٢٣٦ . والترمذي في الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٠٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، وفي ٢ : ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٥٢٣ ، وفي ٣ : ٤٣١ ، وفي ٤ : ٢٠٧ ، وفي ٥ : ١٩٩ ، ٢٦٢ .

عرش القيامة أنت تحت لوائه      والحوض أنت حياله السقاء  
لى فى مديحك يا رسول عرائس      تُبِمن فيك وشاقهن جلاء  
هن الحسان فإن قبلت تكرما      فمهورهن شفاعا حسناء

( قوله تعالى : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ وقال الترمذى حسن صحيح .

( وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطرده أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله عز وجل : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾ الآية

وقال قتادة : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق ﴾ يعنى المدينة ﴿ وأخرجنى مخرج صدق ﴾ يعنى مكة .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ أدخلنى مدخل صدق ﴾ يعنى الموت ﴿ وأخرجنى مخرج صدق ﴾ يعنى الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ :

قال قتادة : إن نبى الله ﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولقراض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمه من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم .

وقال مجاهد : ﴿ سلطانا نصيرا ﴾ حجة بينة .

واختار ابن جرير قول قتادة وهو الأرجح ، لأنه لايد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول

تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه

بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (١) .

وفي الحديث : ( إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ) أى ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

قوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ :

هذا وعيد وتهديد لكفار قريش .

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال ( دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود من يده فيقول :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ (١) .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

( دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها ، وقال :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

إن من الحقائق الثابتة أن صوت الباطل لن يرتفع إلا إذا غفل أهل الحق ولن يستأسد الحمل إلا إذا اسنوق الجمل وسيظل الباطل يعربد في عرصات الأرض حتى يتصدى له الحق بقوته فيدمغه فإذا هو زاهق .

والباطل زهوق بطبعه ، لكن إذا غفل أهل الحق عن حقهم خلا الجو للباطل فباض وأفرخ باض الاتحاد وأفرخ الرندقة ، فكيف يسكت أهل الحق عن حقهم بينما أهل الباطل يستمسكون بباطلهم .

فما بال المعروف أصبح منكرا ، وكيف أضحى المنكر معروفا ، وكيف صار الذئب راعيا ، وكيف بات الخصم العنيد قاضيا .

اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

قوله تعالى :

﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ :

هو كقوله تعالى عن القرآن :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون

من مكان بعيد ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا \* فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيمَانًا وهم يستبشرون \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (١).  
 قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أى لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .  
 قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرْكَانَ يَتُوسَا \* قُلْ كُلْ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلْتَهُ فَرِيكُم أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ .

هذا اختيار منه تبارك اسمه عن فريق من الناس ، فهو سبحانه إذا أخبر فهو العليم بذات الصدور :  
 ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (٢).

هذا النوع من الناس إذا أنعم الله عليه بنعمة نسي شكر المنعم ، وأعرض عن ذكر ربه ، ونأى بجانبه بعيداً عن طاعة الله ، فإذا ما ابتلاه الله بنقمة يئس من رحمة الله ، وأعرض عن دعاء ربه ، فهذا الفريق والعياذ بالله في شر في كل أحواله ، فهو في السراء معرض ، وفي الضراء يتوس ، ولا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون .

فاللهم أغننا بالفقر إليك ، ولا تنفقرنا بالاستغناء عنك ، فشعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك ترهق الروح ، ولو انغمست في نعيم الدنيا ، وقطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياء ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر ولياً :

مامسنى قدر بكره أو رضا

إلا اهتديت به إليك طريقاً

أمضى القضاء على الرضا منى به

إني عرفتك في البلاء رفيقاً

قوله تعالى :

﴿ قُلْ كُلْ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلْتَهُ ﴾ :

قال ابن عباس : على ناحيته .

وقال مجاهد : على حدته وطبيعته .

وقال قتادة : على نيته .

وقال ابن زيد : دينه .

وهذه الآية تهديد للمشركين ووعد لهم كقوله تعالى : ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون﴾ وانتظروا إنا منتظرون \* والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴿١﴾.

ربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وسيجزي كلا بعمله ولا يظلم ربك أحدا .

### الروح والقرآن ومقترحات المعاندين

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانُ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَبُهِدَ لَهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَيَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَا أُوتِيتُمْ بِهِمْ كَلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمُ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِمَا يَتَنَبَّأُونَ وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفَتًا ءِذَا نَبْعُوثُ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ \* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ



أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَّوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾

المفردات : في المراد من الروح في هذه الآية ثلاثة آراء :

١ - ﴿القرآن﴾ : وهو المناسب لما تقدمه من قوله : ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة﴾ (١) ولما بعده من قوله : ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ (٢) ولأنه سمي به في مواضع متعددة من القرآن كقوله ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ (٣) وقوله ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ (٤) ولأن به تحصيل حياة الأرواح والعقول إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

٢ - ﴿جبريل عليه السلام﴾ : وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمي جبريل في مواضع عدة من القرآن كقوله : ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (٥) وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ (٦) ويؤيد هذا أنه قال في هذه الآية ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ وقال جبريل ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ (٧) فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل في نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحي .

٣ - الروح الذي يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضاً للدلالة على خسارة الظالمين وضلالتهم ، وأنهم مشغولون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعتن بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته .

ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ( مر رسول الله ﷺ بنصر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه يُسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ﴿ويسألونك عن الروح﴾ . الآية ( ذكره المراغى في تفسيره ) .

﴿وكيلاً﴾ : أى ملتزماً استرداده بعد الذهاب به كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه .  
﴿ظهيراً﴾ : أى معينا في تحقيق ما يتوكلونه من الإتيان بمثله . ﴿وصرفنا﴾ : كررنا ورددنا .  
﴿والكفور﴾ : الجحود . ﴿النبوع﴾ : العين التي لا ينضب ماؤها . ﴿جنة﴾ : أى بستان تستبرأ أشجاره ماتحتها من الأرض . ﴿كسفا﴾ : واحدا كسفة كقطع وقطعة لفظاً ومعنى . ﴿وقيلاً﴾ :

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨٦ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .

(٤) الآية ٢ من سورة النحل .

(٥) الآية ١٩٣ من سورة الشعراء .

(٦) الآية ١٧ من سورة مريم .

(٧) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

أى مقابلاً كالعشير بمعنى المعاصر والمراد رؤيتهم عياناً . ﴿ والزخرف ﴾ : هنا الذهب . وأصله الزينة وأجملها ما كان بالذهب . ﴿ ترقى ﴾ : أى تصعد . ﴿ مطمئنين ﴾ : أى ساكنين مقيمين فيها . ﴿ وخيت ﴾ : أى سكن لها . ﴿ والسعير ﴾ : اللهب . ﴿ وكفورا ﴾ : أى جحوداً للحق . ﴿ خشية الانفاق ﴾ : أى خوف الفقر . ﴿ والقنور ﴾ : الشديد البخل .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ( كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث في المدينة وهو متوكأ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح : وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فسألوه عن الروح فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكأ على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه . فقال ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه (١) .

قال العلامة ابن كثير :

وهذا السياق يقتضى بآدى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يحییهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية ﴿ ويسألونك عن الروح ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد . حدثنا قتيبة . حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : ( قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قالوا أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ : أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ : أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

(١) أخرجه البخارى في الاعتصام : ٨٢٣ ، وفى العلم : ٤٧ ، وفى التفسير سورة ١٧ : ١٣ . ومسلم فى المنافقين : ٣٢ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٤ .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

والمعنى أن علمك في علم الله قليل ، وهذا الذي تسألون عنه من أمر الروح مما أستاذت به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى .

جاء في قصة موسى والعبد الصالح : ( أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر في البحر نقرة ، أى شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر )<sup>(١)</sup> أو كما قال .

فسبحان من أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

فسبحان من خلق الكائنات وقدر أرزاقها وحدد آجالها .

﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً ﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴿ :

بعد أن أمتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبت عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضاً ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تغتيا عن شيء لم يأذن الله بالعلم به لعباده .

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء : ٢٧ ، وفي العلم : ٤٤ ، وفي تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٤ . ونسلم في الفضائل : ١٧٠ والترمذي في

تفسير سورة ١٨ : ١ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٤) الآية ٦ من سورة هود .

(٥) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنه الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنه فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه منه ، ولكن رحمة بالناس تركه في الصدور .

وفي هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنه ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الذين بمظاهرتهم للرؤساء والعامه ، وتركهم العمل به اتباعاً لأهوائهم ، واستبقاء لودهم وحفظاً لرعاتهم على الناس .

ثم ذكر أن القرآن وحى يوحى ، فلا يستطيع الجن والإنس ان يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض معينا ، وقد اشتمل على الحكم والأحكام والآداب التى محتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبراً .

قوله تعالى : ﴿ وَلئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ :

لما ذكر سبحانه أنه ماأتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال : ﴿ وَلئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾ :

أى والله لئن شئنا لتمحون القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثراً ، وتصيرون كما كنت لاتدرى ما الكتاب ولا الايمان .

﴿ ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ : أى ثم لاتجد ناصراً ينصرك فيحول بيننا وبين ما نريد بك ، ولا قيماً لك يمنعنا من فعل ذلك بك .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ : أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا إمتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى : إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . ثانيهما : إبقاء حفظه .

﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ :

إذ أرسلك للناس مبشراً ونذيراً ، وأنزل عليك الكتاب وأبقاه فى حفظك ، وتصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم وصبرك سيد ولد آدم ، وختم بك النبیین ، وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ :

أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على ان يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاماً ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ، ومنهم العرب الفصحاء ، وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لانظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ :

أى ولقد ردنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار ، ليدبروا آياته ويتعظوا بها .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفروا ﴾ :

أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة ، وقطعت ألسنتهم وأفحموا ، ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات ، وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

قوله تعالى :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً\* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً\* أو تسقط السماء كسفاً\* أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً\* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً\* وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً\* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً . قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً\* ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً\* ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً\* أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً\* قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ، وألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم ، أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ، ويتعثرون في أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس : ( أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وهم جلوس عند الكعبة ، فأتاهم فقالوا : يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسير جبالها لنتنع بأرضها ، وفجر لنا فيها نهراً وعيونا نزرع منها . فقال : لا أقدر عليه . فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجير . فقال : لا أقدر عليه . فقيل : أو يكون لك بيت من زخرف ( ذهب ) فيغنيك عنا . فقال : لا أقدر

عليه . فقيل له : أما تستطيع الخير ، فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب . فقال عبد الله بن أمية المخزومي ، وأمه عمة رسول الله ﷺ : لا والذي يحلف به لا أؤمن بك حتى تشد سلماً فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا .

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقترح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس . ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشراً رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقى من قومه ، بأن الهداية والإيمان بيد الله ، لا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضل الله فلا هادى له ، وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ، دنسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصي وإنكار البعث والحساب ، وهم يعلمون . أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى .

ثم بين أنه لو أجابهم إلى ما طلبوا من إجراء الأنهار والعيون ، وتكثير الأموال واتساع المعيشة ، لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد فالإنسان بطبعه شحيح كثر بخيل .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ :

أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان والنضر بن الحارث ، قول المهتوب المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عيناً من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله ، وأجابه إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لا يهتدون . كما قال : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١)

وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا ﴾ (٢).

٢ - ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ﴾ : أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيراً .

٣ - ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾ :

وخلاصة ذلك - أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعاً قطعاً ، ونحو الآية قوله : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾ (٣) .

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١١١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

وكذلك سأل قوم شعيب مثله فقالوا: ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ﴿أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً﴾ : أى أو تأتى بالله والملائكة ، تقابلهم معاينة ومواجهة .  
قاله مجاهد وعطاء ونحو الآية قولهم : ﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾<sup>(٢)</sup>.

٥ - ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ : أى أو يكون لك بيت من ذهب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

٦ - ﴿أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه﴾ : أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ، ونحن ننظر إليك ولن نصدقك من أجل رقيك وحده .

بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه ، بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا﴾ :

أى قل لهم متعجباً من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسول أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتكم ، وإن شاء لم يجيبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتكم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى : وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا﴾ :

أى وما منع مشركى قريش وهم من حكبت أباطيلهم من الإيمان بك حين مجئ الوحي المقرون بالمعجزات التى تستدعى الايمان بنبوتك ، وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولا ، إنكاراً منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقاداً منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة ، ونحو الآية قوله : ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الآية ١٨٧ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٢ من سورة يونس .

وقوله : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال فرعون وملؤه : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾<sup>(٣)</sup> .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرة وجه الحق ، منها إلى المصلحة ، بقوله : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ :

أى لو وجد في الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم ، لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد ، وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لا يصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد ما بين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وإجمال القول في ذلك أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال تعالى جده : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء في صورة دحية الكلبي مراراً عدة ، فقد صح أن أعرايا جاء وليس عليه وعشاء السفر ، فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقال عليه السلام : ( هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم )<sup>(٨)</sup> .

(٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٦) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٤٧ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ١٠ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٨) أخرجه البخارى في الإيمان : ٣٧ ، وفي تفسير سورة : ٣١ : ٢ . ومسلم في الإيمان : ١ ، ٥ . والترمذى في الإيمان : ٤ . وأبو داود في السنة : ١٦ . والنسائى في المواقيت : ٦ ، وفي الإيمان : ٥ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ . والإمام أحمد في ١ : ١٥ ،



ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

﴿ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ﴾ :

أى قل لهم : إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام ، كما قال سبحانه ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ (١).

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾

أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته ﷺ إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسليية له ﷺ على مايلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا معقب للحكمة ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شيء ، فقال : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ :

أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ما جئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشـد ، ومن يضللـه لسوء اختياره وقدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصاراً ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ، ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم ، ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصماً ﴾ :

أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور عمياً وبكماً وصماً ، كما كانوا فى الدنيا لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ومصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون ما تقر به أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد لسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، كما قال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ (٢).

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه انه قال : ( قيل : يا رسول الله كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم ) (٣).

= ٢٧ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، وفى ٢ : ٤٢٦ وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

(١) الآيات ٤٤-٤٦ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٤ : ١ . ومسلم فى المناققين : ٥٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى

وروى الترمذى : ( إن الناس يكونون ثلاثة أصناف في الحشر : مشاة وركبانا وعلى وجوههم )<sup>(١)</sup>

وإننا نرى في الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات ، وهو أم الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة في الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف ، بحيث يبقى الوجه في الأرض ، وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

**الخلاصة :** إنهم يبعثون في أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهائته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ ماواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ :

أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم كلما سكن لهيها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق ماتعلق به وتحرقه زدناها لها وتوقدا ، بأن نعيدهم إلى ماكانوا عليه فتستعر وتتوقد .  
أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما إنه قال : ( إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شيء صارت حجرا تتوهج ، فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عادوهم ) . اهـ .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكرارها مرة بعد أخرى ليروها عيانا ، حيث أنكروها برهاناً . ثم بين علة تعذيبهم لعله يرجع منهم من قضى بسعادته ، فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاقاً أننا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ :

أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم أبعد ماضرنا إلى ماضرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق في أرجاء الأرض نعاد مرة أخرى ، استنكاراً منهم وتعجباً من أنه يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ :

أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق ، وإقامهما

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٢ .

(٢) الآية ٤٨ من سورة القمر .

بقدرته ، قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لا يقدر على إعادتهم ، والاعادة أهون من الابتداء ؟ .

وبعد أن أثبت أن البعث أمر يمكن الوجود في نفسه أردف ذلك أن لحصوله وقتا معلوما عنده فقال :

﴿ وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ﴾ : أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلاً مضروباً ، ومدة مقدرة لا بد من انقضائها لا يعلمها إلا هو ، كما قال ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾

خلاصة ذلك :

إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلاً ، وهو يوم القيامة الذى لا شك فيه ، فلا وجه لانكاره .

﴿ فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾ :

أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تمادياً في ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة . ثم بين السبب في عدم إجابتهم إلى ما طلبوا من الجنات والعيون ، بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

﴿ قل لو أنكم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق ﴾ :

المراد من الإنفاق هنا الفقر ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة ، وإليه ذهب الراغب فقال : أنفق فلان إذا افتقر .

وقال أبو عبيده : أنفق وأملق وأعدم وأحرم ، بمعنى أى قل لهم أيها الرسول لو أنكم تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكنكم خشية الفقر ، أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً .

وقصارى ذلك - أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها ، لبقيتم على الشح والبخل ، وفي هذا إيماء إلى أن الله لا يبيحكم إلى ما طلبتم من نبيه ﷺ ، من بساتين وعيون تنبع لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ومن ثم لم ينزل على ما اقترحتموه .

﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ :

أى كان الإنسان بخيلاً منوعاً بطبعه ، كما قال : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ (١) .

أى لو أن لهم نصيباً من ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم : ( يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سماء ) ( أخذ ) الليل والنهار أرايتم ما أنفق من خلق السموات والأرض فانه لم يغض ما في يمينه ) .

وإجمال المعنى : إن الله لم يجب محمدا إلى ما طلبتم لا هوانا لنبيه ولا لأنه ليس بنبي ولا بخلا منه ( حاشاه ) بل لحكمة منه ، فربما كانت وفرة العطاء إذا نزلت على غير وجهها مصايب على الناس ، فأما أنتم فممنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وأورثتموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لا يسلمكم مفاتيح خزائنه ، لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولا تنفعوا خلقه .

### موسى وبنو اسرائيل وفرعون

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سَعَاءَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورٌ ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورٌ ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ آسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

**المفردات :** ﴿ مسحورا ﴾ : أى مخبول . ﴿ بصائر ﴾ : حججا وبيانات واحدها بصيرة . ﴿ أى مبصرة ﴾ : بينة . ﴿ مثبورا ﴾ : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد . قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى : ﴿ دَعُوا هَٰنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا ﴿ ١٠١ ﴾ . ﴿ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ ﴾ : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها . ﴿ واللفيف ﴾ : الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنى ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شيء خلطته بغيره فقد لفته .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا - ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتهم وأعظم منه ، ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، كفاكم الآيات العلمية التى أنزلها

على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفي ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن معجزات كليم الله موسى .

وقد ذكر سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

١ - أنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

٢ - انقلاب العصا حية .

٣ - تلقف الحية حياتهم وعصيمهم على كثرتها .

٤ - اليد البيضاء .

٥ - ٦ - ٧ - ٨ - ٩ - الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم .

١٠ - شق البحر .

١١ - انفلاق الحجر في قوله ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾ (١)

١٢ - إظلال الجبل في قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾ (٢)

١٣ - إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

١٤ - ١٥ - الجذب ونقص الثمرات في قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (٣)

١٦ - الطمس على أموالهم من الحنطة والذقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا في المراد من هذه التسع .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس : أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل : المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه ( أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى النبي فنسأله ، فأتياه ﷺ فنسأله عن قول الله تعالى :

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : لاتشركوا بالله شيئا ، ولا تنزلوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا الحق ، ولا تسرقوا ، ولا تسحرُوا ، ولا تأكلوا الربا ، ولا تمشوا بغيري إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تعدوا في السبت ، فقبلا يده ورجله وقالوا نشهد أنك نبي ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : أن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود (١).

﴿ فاسأل بني إسرائيل ﴾ ثم خاطب نبيه سبحانه وتعالى فقال : فاسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عصرك وآمنوا بك ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنيتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم في كتابهم .

﴿ إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا ﴾ : أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آبائهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إني لأظنك ياموسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل ، حضيف الرأي .

﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشورا ﴾ :

أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التي أريتكمها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهده لى على صدق وصحة قولى أنى رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات الأرض .

﴿ وإني لأظنك يافرعون مشورا ﴾ : أى وإني لأظنك يافرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

﴿ فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾ :

أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبني إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يبقى منهم أحداً ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه في البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفضع إخراج .

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ :

أى ونحينا موسى وبني إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ :

أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

### مع القرآن العظيم

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥٦﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٥٧﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٥٨﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٩﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٦٠﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِّ وَكَثِيرَةٌ تَكْثِيرًا ﴿١٦٢﴾

**المفردات :** ﴿ الحق ﴾ : هو الثابت الذى لايزال ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة . ﴿ وفرقناه ﴾ : أى أنزلناه مفرقاً منجماً . ﴿ والمكث ﴾ : ( بالضم والفتح ) : التؤدة والتأنى . ﴿ والخرور ﴾ : السقوط بسرعة . ﴿ والأذقان ﴾ : واحدهما ذقن : وهو مجتمع اللحيين . ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ : أى سموه بهذين الاسمين . ﴿ خفت ﴾ : الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت . ﴿ وتخافت القوم ﴾ : القوم تساروا فيما بينهم .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ :

حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز ، بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لا حاجة إلى شيء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدها بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد ﷺ بتلك المعجزات التي اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ، ولم يكن ذلك من الحكمة التي أرادها لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا .

عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدرة وبيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسرارهِ ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا ، فإن من قبلكم من أهل الكتاب إذا تلى عليهم خروا سجدا وبكيا ، ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتُم الله أو ناديتُم الرحمن فالأمران سواء ثم قفى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل وكبره تكبرا ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : ( قال صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فى دعائه : يا الله يا رحمن فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابى ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما ماتدعوا فله الاسماء الحسنى ﴾ .

وعن الفحال أنه قال : ( قال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت ) .

﴿ وبالحق أنزلناه ﴾ : أى أنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ، ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحانية وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

﴿ وبالحق نزل ﴾ : أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يثب بغيره . فلم يزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملاء الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾ : أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ :

أى وآتيناك قرآنا فرقناه ، أى نزلناه مفرقا منجما ، وقد بدىء بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع .



وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض ، أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك أعون على تفهم معناه .

أخرج البيهقي في الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : ( تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات . فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً ) .

وكذلك أخرج ابن عساكر عن أوى سعيد الخدرى .

والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ بعد قوله ﴿ فرقناه ﴾ بيان أن ذلك التنزيل لمقتضى ، وهو التنزيل بحسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه ﷺ بقوله : ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ :

أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ، ولو كان بعضهم ظهيراً ، أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم ، واحتقار شأنهم ، بقوله : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ﴾ ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ :

أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبياً - يخرون لله سجداً شكراً له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم ، تنزه ربنا عن خلف الوعد ، إنه كان وعده آتياً لا محالة .

والخلاصة - إنكم إن لم تؤمنوا به فقد أمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسول ﷺ ، وازدراء لشأنهم .

﴿ ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ :

أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم مافية من العبر والمواعظ خشوعاً وخضوعاً لأمر ، وطاعته . .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( عينان لآتمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى ) (١) .

وأخرج مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع . ولا يجتمع على عبد غبار في سبيل الله ودخان جهنم )<sup>(١)</sup>.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التميمي أنه قال : إن من أوتي من العلم ما لم يبيكه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال ﴿ ويخرون للأذقان يكون ﴾ .

### قال الفقهاء في سجود التلاوة

من قرأ آية سجدة ، أو سمعها ، يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع من السجود ، وهذا يسمى سجود التلاوة ، ولا تشهد فيه ولا تسليم .

فعن نافع عن ابن عمر قال : ( كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا )<sup>(٢)</sup> رواه أبو داود والبيهقي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وقال أبو داود : يعجبه لأنه كبر .

وقال عبد الله بن مسعود : ( إذا قرأت سجدة فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك فكبر ) .

#### ١ - فضله :

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار )<sup>(٣)</sup> رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

#### ٢ - حكمه :

ذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارئ والمستمع . لما رواه البخاري عن عمر أنه ( قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة التمل حتى جاء السجدة فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : يا أيها الناس إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه ) . وفي لفظ : ( إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء )<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد : ٨ ، وفي الزهد : ٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٥٠٥ .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة : ١٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان : ١٣٣ . وابن ماجه في الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٤٤٣ .

(٤) أخرجه البخاري في السجود : ١٠ .

وروى الجماعة إلا ابن ماجه عن زيد بن ثابت قال : ( قرأت على النبي ﷺ ) والنجم ﴿ فلم يسجد فيها ﴾<sup>(١)</sup> رواه الدارقطني وقال : ( فلم يسجد منا أحد ) .

ويرجح الحافظ في الفتح أن الترك كان لبيان الجواز ، وبه جزم الشافعي . ويؤيده ما رواه البزار والدارقطني عن أبي هريرة أنه قال : أن النبي ﷺ سجد في سورة ﴿ النجم ﴾ وسجدنا معه قال الحافظ في الفتح ورجاله ثقات .

وعن ابن مسعود ( أن النبي ﷺ قرأ ﴿ والنجم ﴾ فسجد فيها وسجد من كان معه ، غير أن شيخاً من قريش أخذ كفا من حصي أو تراب فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفيني هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً<sup>(٢)</sup> رواه البخاري ومسلم .

### ٣ - مواضع السجود :

مواضع السجود في القرآن خمسة عشر موضعاً ، فعن عمرو بن العاص ( أن رسول الله ﷺ أقرأه خمسة عشر سجدة في القرآن ، منها ثلاث في الفصل وفي الحج سجدتان )<sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارقطني وحسنه المنذرى والنووى ، وهى :

١ - ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ ( ٢٠٦ - الأعراف ) .

٢ - ﴿ والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ ( ١٥ - الرعد ) .

٣ - ﴿ والله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون ﴾ ( ٢٩ - النحل ) .

٤ - ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا تتلى عليهم يَخرون للأذقان سجداً ﴾ ( ١٧ - الاسراء ) .

٥ - ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ ( ٥٨ - مريم ) .

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٦ . ومسلم فى المساجد : ١٠٦ . والترمذى فى الجمعة : ٥٢ . والنسائى فى الافتتاح : ٥٠ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١ ، ٤ ، ٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى تفسير سورة ٥٣ : ٤ . والترمذى فى الجمعة : ٥١ . والنسائى فى الافتتاح : ٤٩ ، ٥١ . والإمام مالك فى القرآن : ١٥ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٣٧ ، وفى ٢ : ٤٠٣ ، ٤٤٣ ، وفى ٣ : ٤٢٠ ، وفى ٤ : ٢٠٥ ، ٢١٦ ، وفى ٥ : ٣٣٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ٧١ .

- ٦ - ﴿ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء﴾ (١٨ - الحج) .
- ٧ - ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ (٧٧ - الحج) .
- ٨ - ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ (٦٠ - الفرقان) .
- ٩ - ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ (٢٥ - النمل) .
- ١٠ - ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ (١٥ - السجدة) .
- ١١ - ﴿وظن داود أنما فتناه \* فاستغفر ربه وخرّ راکعاً وأتاب﴾ (٢٤ - ص) .
- ١٢ - ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ (٣٧ - فصلت) .
- ١٣ - ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ (٦٢ - النجم) .
- ١٤ - ﴿وإذا قرء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ (٢١ - الانشقاق) .
- ١٥ - ﴿واسجد واقرب﴾ (١٩ - العلق) .
- ٤ - ما يشترط له :

اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة ، من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

وقال الشوكاني ليس في أحاديث سجود التلاوة ما يدل على اعتبار أن يكون الساجد متوضئاً ، وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدا منهم بالوضوء ، ويبعد أن يكونوا جميعاً متوضئين ، وأيضاً قد كان يسجد معه المشركون ، وهم أنجاس لا يصح وضوؤهم وقد روى البخاري عن ابن عمر ( أنه كان يسجد على غير وضوء )<sup>(١)</sup> .

وكذلك روى عنه ابن أبي شيبة

(١) . أخرجه البخاري في السجود : ٥ .

وأما ما رواه البيهقي عنه بإسناد - قال في الفتح : إنه صحيح - أنه قال : ( لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر ) فيجمع بينهما بما قاله الحافظ من حمله على الطهارة الكبرى أو على الاختيار ، والأول على الضرورة .

وهكذا ليس في الأحاديث ما يدل على اعتبار طهارة الثياب والمكان ، وأما ستر العورة والاستقبال مع الامكان فقليل : إنه معتبر اتفاقا : قال في الفتح : لم يوافق ابن عمر أحد على جواز السجود بلا وضوء إلا الشعبي . أخرجه ابن أبي شيبة عنه بسند صحيح

وأخرج أيضا عن أبي عبد الرحمن السلمى ( أنه كان يقرأ السجدة ثم يسجد وهو على غير وضوء إلى غير القبلة وهو يمشی يومئذ إيماء ومن الموافقين ) لابن عمر من أهل البيت أبو طالب والمنصور بالله .

### ٥ - الدعاء فيه :

من سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، ولم يصح عن رسول الله ﷺ في ذلك إلا حديث عائشة قالت : ( كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن : سجد وجهي للذي خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين )<sup>(١)</sup> رواه الخمسة إلا ابن ماجه .

ورواه الحاكم وصححه الترمذى وابن السكن ، وقال في آخره ( ثلاثا ) على أنه ينبغي أن يقول في سجوده : سبحان ربي الأعلى ، إذا سجد سجود التلاوة في الصلاة .

### ٦ - السجود في الصلاة :

يجوز للإمام والمنفرد أن يقرأ أية السجدة في الصلاة الجهرية والسرية ويسجد متى قرأها .

روى البخارى ومسلم عن أبي رافع قال : ( صليت مع أبي هريرة صلاة العتمة - أو قال صلاة العشاء - فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت : يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال : سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه )<sup>(٢)</sup> .

وروى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عمر : ( أن النبي ﷺ سجد في الركعة الأولى من صلاة الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ ﴿ ألم تنزيل ﴾ السجدة .

قال النووي : لا يكره قراءة السجدة عندنا للإمام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

وقال مالك : يكره مطلقا .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٠١ . وأبو داود في السجود : ٧ . والترمذى في الجمعة : ٥٥ ، وفي الدعوات : ٣٢ ، ٣٣ .

والنسائي في التطبيق : ٧٠ ، ٦٧ ، ٦٩ . وابن ماجه في الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد في ١ : ٩٥ ، ١٠٣ ، وفي ٦ : ٣٠ ، ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخارى في السجود : ١٠ . ومسلم في المساجد : ١٠٣ ، ١١١ .

وقال أبو خنيفة : يكره في السرية دون الجهرية .

قال صاحب البحر : وعلى مذهبنا يستحب تأخير السجود حتى يسلم لئلا يهوش على المأمومين .

#### ٧ - تداخل السجادات :

تتداخل السجادات ويسجد سجدة واحدة إذا قرأ القارئ آية السجدة وكررها ، أو سمعها أكثر من مرة في المسجد الواحد ، بشرط أن يؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة ، فإن سجد عقب التلاوة الأولى فقليل : تكفيه ، وقليل : يسجد مرة أخرى لتجدد السبب .

#### ٨ - قضاؤه :

يرى الجمهور أنه يستحب السجود عقب قراءة آية السجدة أو سماعها ، فإن آخر السجود لم يسقط مالم يطل الفضل فإن طال فإنه يفوت ولا يقضى .

قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سمو الله أيها القوم ، أو سمو الرحمن ، فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض وهذان الاسمان منهما .

روى مكحول : ( أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ وهو يقول في سجوده : يا رحمن يا رحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية ) .

ثم أمر رسوله ﷺ بالتوسط في القراءة ، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به قال سبحانه : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ :

أى ولا تجهر بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقاً بين الجهر والخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال ( نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مُحْتَفٍ بِمَكَّةَ ( يصلى خفية ) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به )<sup>(١)</sup> .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت في قراءته ويقول : ( أناجى ربي وقد علم حاجتى ) وعمر كان يجهر بها ويقول : ( أطرط الشيطان ، وأوقظ الوسنان ) فلما نزلت الآية أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً ، وعمر أن يخفض قليلاً .

(١) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ١٧ : ١٦ ، ١٧ .

ولما أمر سبحانه رسوله ألا يناديه إلا باسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : ﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل﴾ :

أى وقل لله ذى الجلال والكمال لك الحمد والشكر على ما أنعمت على عبادك من واسع النعم .  
وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ - إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائته تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وهى هنا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

٢ - إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا إذا حاجة إلى معونة ، ولم يكن له ولى من الدل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بمولاته .

**والخلاصة :** إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتعترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لا يحاييك لأجل أهلك ولانسلك ولادينك ، ولو كنت ابن نبي من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

﴿وكبره تكبيرا﴾ :

أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

- ١ - بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .
- ٢ - بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزّه عن صفات النقص .
- ٣ - بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شيء فى ملكه إلا وفق حكمته وإراداته .
- ٤ - بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شيء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .
- ٥ - تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد في مسنده عن معاذ الجهني ( أن رسول الله ﷺ كان يقول : آية العز ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا ﴾ (١).

وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السراء والضراء ) (٢).

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبي أمية قال : ( كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح : ﴿ الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الدل وكبره تكبيرا ﴾ سبع مرات .

### مجمال ماحوته السورة من الأغراض

- ١ - الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
- ٢ - تاريخ بني اسرائيل في حالى الارتقاء والانحطاط .
- ٣ - حكم وعظائم للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دولها كما ذهبت دولة بني اسرائيل .
- ٤ - بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .
- ٥ - الكلام في البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
- ٦ - الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
- ٧ - الحكمة في عدم إنزال الآيات التي اقترحوها على محمد ﷺ
- ٨ - قصة سجود الملائكة لأدم وامتناع إبليس من ذلك .
- ٩ - تعداد بعض نعم الله على عباده .
- ١٠ - طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم في بعض معتقداتهم والحافهم في ذلك .
- ١١ - أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة بالتهجد في الليل .
- ١٢ - بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .
- ١٣ - قصة موسى مع فرعون .
- ١٤ - الحكمة في إنزال القرآن منجماً .
- ١٥ - تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة : ١٢ .



## سورة الكهف

### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وتسع وسبعون وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وست .  
وسميت سورة الكهف لاشتغالها على قصة أصحاب الكهف بتفصيلها .

### مقصود السورة مجملا

- ١ - بيان نزول القرآن على سنن السداد .
- ٢ - تسلية النبي ﷺ في تأخر الكفار عن الإيمان .
- ٣ - بيان عجائب حديث الكهف .
- ٤ - أمر النبي ﷺ بالصبر على الفقراء .
- ٥ - تهديد الكفار بالعذاب والبلاء ووعد المؤمنين بحسن الثواب .
- ٦ - تمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأخوين الاسرائيليين .
- ٧ - تمثيل الدنيا بماء السماء ونبات الأرض .
- ٨ - بيان أن الباقي من الدنيا ما فيه طاعة الله فقط .
- ٩ - ذكر أحوال القيامة وقراءة الكتب وعرض الخلق على الحق .
- ١٠ - إباء إبليس من السجود .
- ١١ - ذل الكافرين ساعة دخولهم النار .
- ١٢ - جدال أهل الباطل مع المحقين الأبرار .
- ١٣ - التخويف بإهلاك الأمم الماضية وإذلالهم .
- ١٤ - حديث موسى ويوشع وخضر وعجائب أحوالهم .
- ١٥ - قصة ذي القرنين وإتيانه إلى المشرقين والمغربين .

١٦- بنيانه لسد يأجوج ومأجوج وما يتفق لهم آخر الزمان من الخروج وذكر رحمة أهل القيامة .

١٧- ضياع عمل الكفر .

١٨- ثمرات مساعي المؤمنين الأبرار .

١٩- بيان أن كلمات القرآن بحور علم : لانهاية لها ولاغاية لأمدھا .

٢٠- الأمر بالاخلاص في العمل الصالح أبدا .

في قوله : ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾

### المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ﴾ بغير واو  
﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ بزيادة واو .

وفي هذه الواو أقوال :

أحدهما : أن الأول والثاني وصفان لما قبلهما ، أى هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وكذلك الثاني أى هم خمسة سادسهم كلبهم ، والثالث عطف على ما قبله ، أى هم سبعة ثم عطف عليهم ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾  
وقيل : كل واحد من الثلاثة جملة وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إليها .

فأنت في إلحاق واو العطف وحذفها بالخيار .

وليس في هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو .

وقال بعض النحويين : السبعة نهاية العدد ، ولهذا كثير ذكرها في القرآن والأخبار ، والثانية تجرى مجرى استئناف كلام ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾<sup>(١)</sup> .

وبقوله تعالى :

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبقوله تعالى :

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾<sup>(٣)</sup> .

إذ إن أبواب الجنة ثمانية .

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة . (٢) الآية ٥ من سورة التحريم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

وقيل : إن الله تعالى حكى القولين الأولين ولم يرتضهما ، وحكى القول الثالث فارتضاه . وهو قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ وَثَامَنَهُمْ كُلَّهُمْ ﴾

ولهذا قال عقيب الأول والثاني ﴿ رَجُماً بِالْغَيْبِ ﴾ ولم يقل في الثالث .

فإن قيل : وقد قال في الثالث ﴿ قُلْ رُبِّيْ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ فالجواب تقديره : قل ربِّي أعلم بعدتهم ، وقد أخبركم أنهم سبعة وثامنهم كلهم بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

ولهذا قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل فعد أسماءهم .

وقال بعضهم : الواو في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةً ﴾ يعود إلى الله تعالى ، فذكر بلفظ الجمع كقوله إنا وأمثاله ، هذا على سبيل الاختصار .

قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ رَدَدْتِ إِلَى رَبِّي ﴾ وفي حم : ﴿ وَلَنْ رَجَعْتَ إِلَى رَبِّي ﴾ <sup>(١)</sup> لأن الرد عن شيء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان مافى الكهف تقديره : ولن رددت عن جنتي التي أظن أنها لا تبديد أبدا إلى ربِّي ، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أولى ، وليس فى حم ما يدل على كراهة ، فذكر بلفظ الرجوع ليأتى لكل مكان ما يليق به .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وفى السجدة ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ <sup>(٢)</sup> :

لأن الفاء للتعقيب ، وثم للتراخى ، وما فى هذه السورة فى الاحياء من الكفار ، أى ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، ونسوا ذنوبهم ، و [ هم ] بعد متوقع منهم أن يؤمنوا . ومافى السجدة فى الأموات من الكفار بدليل قوله : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ <sup>(٣)</sup>

أى ذكروا مرة بعد أخرى ، وزمانا بعد زمان ، ﴿ بآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم .

قوله تعالى :

﴿ نَسِيا حَوْتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ : والآية الثالثة : ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ ﴾ لأن الفاء للتعقيب والعطف ، فكان اتخاذا الحوت السبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء [ و ] فى الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله : ﴿ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ زال معنى التعقيب وبقي العطف المجرد وحرفه الواو .

قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا ﴾ وبعد ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نَّكَرًا ﴾ لأن الأمر : العجب ، والعجب

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت . (٢) الآية ٢٢ من سورة السجدة . (٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .

يستعمل في الخير والشر بخلاف النكر ، لأن النكر ما ينكره العقل فهو شر ، وخرق السفينة لم يكن معه غرق ، فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه فصار لكل واحد معنى يخصه .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ ﴾ وبعده ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ ﴾ لأن الإنكار في الثانية أكثر وقيل : أكد التقرير الثاني بقوله ( لك ) كما يقول لمن توجه : لك أقول ، وإياك أعنى ، وقيل بين في الثاني المقول له ، لما لم يبين في الأول .

قوله تعالى في الأول ﴿ فَأَرَدْتُ ﴾ ، وفي الثاني ﴿ فَأَرَدْنَا ﴾ وفي الثالث ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ ﴾ . لأن الأول في الظاهر إفساد ، فأسنده إلى نفسه ، والثالث إنعام محض فأسنده إلى الله عز وجل ، وقيل : لأن القتل كان منه أما إرهاب الروح فكان من الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ ﴾ جاء في الأول على الأصل وفي الثاني : ﴿ تَسْتَطِعْ ﴾ على التخفيف ، لأنه الفرع .  
قوله تعالى :

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ :

اختار التخفيف في الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختر فيه الحذف ، والثاني مفعوله اسم واحد وهو قوله ( نقبا ) وقرأ حمزة بالتشديد وأدغم التاء في الطاء .

### فضل السورة

صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( من حفظ عشر آيات من أول الكهف عصم من الدجال )<sup>(١)</sup>.

### مناسبتها لما قبلها

١ - إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترتان في سائر الكلام في نحو « فسيح بحمد ربك » ونحو سبحان الله وبحمده .

٢ - تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإن كل منهما حمد .

٣ - إنه ذكر في السابقة قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبي إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهي تدل على كثرة معلومات الله التي لا تحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٥٧ . وأبو داود في الملاحم : ١٤ . والترمذي في ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد في ٥ : ١٣ ، ١٩٦ ، وفي ٦ : ٤٤٦ ، ٤٤٩ .

٤ - إنه جاء في السورة السابقة : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ ثم فصل ذلك هنا بقوله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ ربي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ ربي حَقًّا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ۝١ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ ۝٢ مَثْكُثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۖ ۝٣ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۖ ۝٤ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۖ ۝٥ فَلَعَلَّكَ بِخَعِّقٍ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۖ ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ ۝٧ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۖ ۝٨

**المفردات :** ﴿ العوج ﴾ : ( بالكسر والفتح ) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل في لفظه ولا في معناه . ﴿ قيما ﴾ : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تنريط فيه بإهمال ماتمس الحاجة إليه ﴿ والبأس ﴾ : العذاب الشديد في الآخرة . ﴿ من لدنه ﴾ : أى من عنده . ﴿ كبرت ﴾ : ( بضم الباء ) ﴿ كلمة ﴾ : أى ما أعظمها مقالة قلت ، وهذا أسلوب في الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل . ﴿ باخع ﴾ : أى قاتل ، قالها بن عباس . ﴿ على آثارهم ﴾ : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه . ﴿ والحديث ﴾ : هو القرآن . ﴿ والأسف ﴾ : المبالغة في الحزن والغضب . ﴿ وصعيدا ﴾ : أى ترابا . ﴿ وجرزا ﴾ : أى لانبات فيه .  
هذه صورة جليلة قدرها عظيم عند الله .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يقول : ( قرأ رجل الكهف وفي الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزل للقرآن )<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسيد بن الحضير .

(١) أخرجه البخارى في المناقب : ٢٥ ، وفي فضائل القرآن : ١١ . ومسلم في المسافرين : ٢٤٠ ، ٢٤١ . والترمذى في ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد في ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا ما بين السماء والأرض )<sup>(١)</sup>.

وروى الحافظ أبو بكر بسنده عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ( من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين ) .

وروى الإمام سعيد بن منصور بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : ( من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق ) .

وفي المختارة للحافظ الضياء المقدس بسنده عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي مرقوعا : ( من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه ) .

### سبب نزولها :

ذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال : حدثني شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : ( بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجنا حتى أتينا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله وقالوا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فترون فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يابعض قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتكم عنه » ولم يستثن

فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر مأسأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ قيماً :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحقيق بالحمد والثناء الجميل ، نحمدك على هذه النعمة الجليلة بإنزال الكتاب الكريم على نبيك الكريم ، وعبدك الصادق الأمين ، محمد ﷺ ، ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿<sup>(١)</sup>

لقد أنزلت عليه كتاباً يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقلت في شأن هذا الكتاب ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾<sup>(٢)</sup>

وقلت : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ﴾<sup>(٣)</sup>

وقلت : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup>

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾<sup>(٥)</sup>

وقلت : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾<sup>(٦)</sup>

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾<sup>(٧)</sup>

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس

لا يؤمنون ﴾<sup>(٨)</sup>

وقلت : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز

الحميد ﴾<sup>(٩)</sup>

(٦) الآية ١ من سورة هود .

(٧) الآية ١ من سورة يوسف .

(٨) الآية ١ من سورة الرعد .

(٩) الآية ١ من سورة إبراهيم .

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٣ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٢ من سورة الاعراف .

(٥) الآية ١ من سورة يونس .

- وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾ <sup>(١)</sup> .
- وقلت : ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين \* هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .
- وقلت : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ <sup>(٣)</sup> .
- وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ﴾ <sup>(٤)</sup> .
- وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ <sup>(٥)</sup> .
- وأقسمت به وقلت : ﴿ يس \* والقرآن الحكيم ﴾ <sup>(٦)</sup> .
- وقلت : ﴿ ص \* والقرآن ذى الذكر ﴾ <sup>(٧)</sup> .
- وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ <sup>(٨)</sup> .
- وقلت : ﴿ حم \* تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ <sup>(٩)</sup> .
- وقلت : ﴿ حم \* تنزيل الكتاب من الرحمن الرحيم \* كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون \* بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ <sup>(١٠)</sup> .
- وقلت : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ <sup>(١١)</sup> .
- وقلت : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم \* والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ <sup>(١٢)</sup> .
- وقلت : ﴿ الرحمن \* علّم القرآن • خلق الإنسان \* علمه البيان ﴾ <sup>(١٣)</sup> .
- وقلت : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون \* وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ <sup>(١٤)</sup> .
- وقلت : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾ <sup>(١٥)</sup> .
- وقلت : ﴿ وقولك الحق : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ <sup>(١٦)</sup> .
- وقلت لرسولك : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾ <sup>(١٧)</sup> .
- أنزلته كتاباً مستقيماً لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف ، انتظم أصول العقائد ، وشعائر العبادات ،

- |                                   |                                   |                                     |
|-----------------------------------|-----------------------------------|-------------------------------------|
| (١) الآية ١ من سورة الحجر .       | (٧) الآيتان ١ ، ٢ من سورة ص .     | (١٣) الآيات ١-٤ من سورة الرحمن .    |
| (٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة التمل . | (٨) الآية ١ من سورة الزمر .       | (١٤) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الزخرف . |
| (٣) الآية ١ من سورة الفرقان .     | (٩) الآيتان ١ ، ٢ من سورة غافر .  | (١٥) الآية ٣ من سورة الدخان .       |
| (٤) الآية ٢ ، ٣ من سورة لقمان .   | (١٠) الآيات ١-٤ من سورة فصلت .    | (١٦) الآية الأولى من سورة القدر .   |
| (٥) الآية ٢ من سورة السجدة .      | (١١) الآية ٣ من سورة الشورى .     | (١٧) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .      |
| (٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة يس .    | (١٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة محمد . |                                     |



وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، وقواعد النظام ، ومبادئ الأخلاق ، أنزلته قيما فأحييت به أجيالاً من العدم ، وفتحت به قلوباً غلفاً ، وأعيناً عمياً ، وآذاناً صماً .

الله أكبر ان دين محمد  
وكتابه أقوى وأقوم قبيلاً  
لاتذكروا الكتب السوالف عنده  
طلع الصباح فاطفئوا القنديلاً

قوله تعالى : ﴿ لينذر بأساً شديداً من لدنه ﴾ :

هذا وعيد وتهديد بالعذاب الشديد من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، لكل من أدبر واستكبر وتولى وأعرض .

قوله تعالى : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ ماكتين فيه

أبدأ :

هذا وعد من رب العزة للمؤمنين الصادقين الذين قدموا الأعمال الصالحة ، يبشرهم ربهم أن لهم أجراً حسناً ، وهذا الأجر هو الجنة ، ونعيمها ومساكنها الطيبة ، والتي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنهم ماكتون دائمون في هذا النعيم ، كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ﴾ ادخلوها بسلام آمين \* ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين \* لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ :

هؤلاء هم مشركو العرب ، فإنهم جعلوا الملائكة المكرمين بنات الله قال سبحانه :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إذاً ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ أن دعوا للرحمن ولداً \* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً \* إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (٢)

وقال سبحانه :

﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ ألا إنهم من إفكهم ليقولون \* ولد الله وإنهم لكاذبون \* أصطفى البنات على البنين \* مالكم كيف تحكمون \* أفلا تذكرون \* أم لكم سلطان مبين \* فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ (٣)

(١) الآيات ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٨٨-٩٥ من سورة مريم .

(٣) الآيات ١٤٩-١٥٧ من سورة الصافات .

إن هؤلاء الجاهلين ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، إنما قالوا ما قالوا تقليدا لأهل الضلال الذين سبقوهم ، فمن عرف الله علم إنه تعالى متصف بصفات الجلال والكمال والجمال ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (١).

﴿ قل هو الله أحد \* الله الصمد \* لم يلد \* ولم يولد \* ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٢).

قوله تعالى : ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾ :

أى ما أعظمها من حكمة ، وما أكبرها من جناية تناهت في القبح عندما يدعون أن الله ولدا وهذه الكلمة لا تتجاوز الأفواه ، إذ الحقائق تكذبها ، والحجج تدحضها ، والبراهين تمحوها ، فإنهم ما يقولون إلا كذبا لا أساس له من الصحة ، ولا نصيب له من الواقع .

قوله تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ :

هذا تبصير من الله تعالى لرسوله على أذى قومه ، فقد دفعه حرصه عليهم أن يحزن ، قال له مولانا : لا تهلك نفسك على هؤلاء بعدما كذبوا هذا القرآن ، ولا تحزن عليهم ، ولأنك في ضيق مما يكرهون ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا \* وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ :

قال قتادة عن أئى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فأنظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء ) (٤).

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى : ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ :

أى وإنى لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكا صعيدا جرزا ، لا ينبت ولا ينتفع به .

قال ابن عباس ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾ يقول : يهلك كل شيء عليها ويبعد .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى في الرقاق : ١٧ ، ١١ . والترمذى في الفتن : ٢٦ . وفي الزهد : ٤١ . والنسائى في البركة : ٥٠ ، ٨٠ وابن ماجه في الفتن : ١٩ . والدارمى في الرقاق : ٣٧ . والإمام أحمد في ٣ : ٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ . وفي ٦ : ٦٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ .

قال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات .

قال ابن زيد : الصعيد الأرض التي ليس فيها شيء ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أُنْزَالَ السَّمَاءِ كَمَا يُزِيلُ السَّحَابَ سَحَابًا مَّوْضِعًا فَجَاءَهُمْ مِنْهُ نَارٌ وَأَنْفُسُهُمْ أَفْلَأَبْصُورُونَ ﴾ (١) .

وقال محمد بن أسحق : ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرْزًا ﴾ يعني الأرض وإن ما عليها لفان وبائد ، وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ماتسمع وترى .

### أصحاب الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيَّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَالِثُوهُمْ أَمدًا ﴿١٢﴾ تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذْ أَشْطَطَّا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأْنَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾ \* وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرَعَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيِقًا ظَاوِهِمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَتْسَاءِ لُؤَا بَيْنِهِمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذِ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا آبْنَا عَلَيْهِمْ بَنِينَارَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرَّ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

**المفردات :** ﴿ أم ﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر . وهو بمعنى بل وهمة الاستفهام أى بل أحسبت والخطاب فى الظاهر للنبي عليه الصلاة والسلام . والمراد غيره .  
 ﴿ والكهف ﴾ : النقب المتسع فى الجبل فإن لم يكن متسعاً فهو غار . ﴿ والرقيم ﴾ : لوح حجرى رقت فيه أسماءهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء . ﴿ أوى إلى المكان ﴾ : اتخذ مأوى ومكاناً له . ﴿ والفتية ﴾ : واحد من الفتى وهو الشاب الحدث وقد كانوا من أبناء اشراف الروم وعظمائهم . ﴿ وهىء ﴾ : أى يسر . ﴿ والرشد ﴾ : ( بفتحين وضم فسكون ) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب . ﴿ فضرينا على آذانهم ﴾ : أى ضربنا عليها حجاً يمنع السماع كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها قبة والمراد أنماهم نومة لانتباههم الأصوات الموقظة . ﴿ عددا ﴾ : أى ذوات عدد والمراد الكثير لان القليل لا يحتاج إلى العد غالباً ﴿ بعثناهم ﴾ : أى ايقظناهم وأثرناهم من نومهم . ﴿ والحزبين ﴾ : هما الحزب القائل لبشاً يوماً أو بعض يوم والحزب القائل ربكم اعلم بما لبثتم . ﴿ وأحصى ﴾ : أى اضبط لأوقات لبثهم . ﴿ والأمد ﴾ : مدة لها حد وغاية . ﴿ النبأ ﴾ : الخير العظيم وبالحق : أى بالصدق ﴿ الربط ﴾ : الشد وربطت الدابة : شدتها بالرباط . ﴿ والمربط ﴾ : الحبل وربط الله على قلبه أى قوى عزيمته . ﴿ قاموا ﴾ : أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس . ﴿ إلهاً ﴾ : أى معبوداً آخر . ﴿ اتخذوا من دونه آلهة ﴾ : أى نحتوا أصناماً وعبدوها . ﴿ والسلطان ﴾ : الحجة . ﴿ واليّن ﴾ : الظاهر . ﴿ والاعتزال والتعزل ﴾ : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب . ﴿ فأووا إلى الكهف ﴾ : أى التجأوا إليه وينشر لكم : أى ييسط لكم . ﴿ المرفق ﴾ :

ما يرتفع وينتفع به . ﴿ وتزاور ﴾ : تتحى . ﴿ وذات اليمين ﴾ : أى جهة يمين الكهف .  
 ﴿ وتقرضهم ﴾ : أى تعدل عنهم قال الكسائى : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقر به .  
 ﴿ فجوة ﴾ : أى متسع . ﴿ والإيقاظ ﴾ : واحدهم يقظ ( بضم القاف وكسرها . ﴿ والرقود ﴾ :  
 واحدهم رقاد . أى نائم . ﴿ وباسط ذراعيه ﴾ : أى مادهما . ﴿ والصيد ﴾ : فناء الكهف .  
 ﴿ والرعب ﴾ : الخوف يملأ الصدر . ﴿ بعثاهم ﴾ : أى أيقظناهم . ﴿ لبثتم ﴾ : أى أقمت .  
 ﴿ والورق ﴾ : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة . ﴿ وأزكى ﴾ : أجود وأطيب .  
 ﴿ وليتلطف ﴾ : أى يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع خصومة تجر إلى معرفته . ﴿ ولا يشعرون ﴾ :  
 أى لا يفعلن : أى لا يفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم . ﴿ إن يظهروا عليكم ﴾ :  
 أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعتارا إذا سقط  
 لوجهه ويقال فى المثل ( من سلك الجدد أمن العثار ) . ثم أستعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له .  
 ﴿ والساعة ﴾ : يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعاً للحساب والجزاء . ﴿ والتنازع ﴾ :  
 التخاصم . ﴿ والذين غلبوا على أمرهم ﴾ : هم رؤساء البلد لأنهم هم الذين لهم رأى فى مثل هذا .  
 ﴿ المسجد ﴾ : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور . ﴿ والرجم ﴾ : القول بالظن  
 ويقال لكل ما يخفى : رجم فيه وحديث مرجوم ومرجم . ﴿ والغيب ﴾ : وأغاب عن الإنسان فالمراد  
 ان يرمى الانسان ماغاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير  
 تدبر . والمراد هنا القول بالظن والتخمين . ﴿ المراء ﴾ : الحاجة فيما فيه مرية وتردد . والمرء الظاهر :  
 مالا تعمق فيه بالا يكذبهم فى تعيين العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فيجب عدم الجزم به . ﴿ ولا  
 تستفت ﴾ : أى لاتطلب الفتيا منهم .

### قصة أهل الكهف

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، حتى عبدوا الأصنام ، وأكروهوا الناس  
 على عبادتها ، وأصدر ( الملك دقيانوس ) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية  
 من أشراف قومه عبادتها ، وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فترع ثيابهم وحلبهم ، ولكنه  
 رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على  
 عبادتها وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم ( أقسوس أو طرسوس ) فى جبل يدعى  
 ( نيخايوس ) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم ( قيانوس ) وهم يقتلهم هربوا وماتوا  
 طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما فروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلب فجلسوا هناك يعبدون  
 الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى ( تملیخا ) يتنازع لهم طعامهم وشرابهم ، ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى  
 لا يزال مجدداً فى طلبهم ، إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العباد والنساك ليزبجهم ،  
 أو يسجدوا للأصنام .

فسمع بذلك تلميخاً بينا كان يشتري لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم ، وقالوا انهم في الكهف فتوجه إليهم فهده عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان في حاشية الملك رجلان يكتبان إيمانها وهما بيدروس وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا في لوحين من حجر ، وجعلاهما في تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت في البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيحيى من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر وبعدئذ ملك البلاد صالح يسمى بيدروس ، دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم الناس في شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا وضرع إلى الله أن يرى الناس آية يرشد بهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى ( أولياس ) أن يهدم باب الكهف ، ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون .

ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم . وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحداكم بورقكم ( الورق الفضة ) هذه إلى المدينة فليُنظر أيها أذكى طعاما وليحضر لنا جانباً منه ، فذهب تلميخا كما اعتاد من قبل ليشترى لهم الطعام وهو متلطف في السؤال ، مخفف حذر من دقيانوس .

وبينا هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به في كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجباً لم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقي حائراً دهشاً وقال : ربما أكون في حلم ، ولعل هذه ليست مدينتنا فسأل رجلاً : ما اسم هذه المدينة قال ( أفسوس ) وفي آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورقا ليشترى به طعامه ، فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذي لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ، ويعطيه إلى جيزته وهم يعجبون منه ، ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراخم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة .

ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمي المدينة فظن في بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب ، وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذي وجدت يافتي ؟

وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس ، وأن حديثهما كان أمس ، وإن كان لديكما ريب من أمرى فهذا هو ذا الكهف ، فاذهبا معي لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف وتقدمهما تلميخا ، فأخبرهما بالحديث كله ، فدخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقفوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصاً على عقيدتهم ودينهم ، فسد عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجداً ، وأرسلوا بريدًا إلى ملكهم أن عجل واحضر لترى آية الله في أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلاثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته ، حتى أتوا مدينة أفسوس ، وكان يوماً مشهوداً ، وحين رأى الفتية خر ساجداً لله ، ثم أعنتقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم .

فأمر الملك أن يجعل كل منهم في تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم في منامه يقولون له : اتركنا كما كنا في الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك إن يوضعوا في تابوت من ساج ، وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيداً عظيماً .

ذلك هو القصص الذى جعله النصراني دليلاً على البعث .

أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فأياتى عليه لأتعد ولا تحصى ، فاقروا صحائف هذا الوجود ، ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم واجعلوا انظاركم تتجه إلى ماحواه الكون لا إلى ماكتب في القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

قوله تعالى : ﴿ أم حسب أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ :

أى لا تحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة في الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمداً طويلاً عجيبه بالاضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة ، فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ، بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، فإذا وقف علماء الأديان الأخرى لدى أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ماهو أعظم منها ، وهو النظر في الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله ، وانه يفعل ما يشاء ، لا معقب لحكمه .

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمع إليها الإنسان ، ويجعلها مثله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش في صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج :

أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ﴿ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾ :

أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يقتلهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة ، والأمن من الأعداء .

﴿ فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا ﴾ :

أى فضربنا على آذانهم حجاباً يمنعهم السماع ، وأمناهم نوماً لا ينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

﴿ ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا ﴾ :

أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك :

إننا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ، ويفوضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفاً لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم .

﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ :

أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقاً لا محل للريبة فيه ، وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن الصلت :

وليس بها إلا الرقيم نجاورا

وضيدهم والقوم فى الكهف هُجْدُ

ثم فصل ذلك بقوله :

﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ﴾ :

أى إنهم شباب آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، بالتشيت على الايمان ، والتوفيق للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله ، والزهد فى الدنيا .



وقد جرت السعادة أن الفتيان أقبل للحق وأهدى سبيلا من الشيوخ الذين قد انغمسوا في الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله ﷺ شبانا ، وبقي الشيوخ على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾<sup>(١)</sup>

أو قوله ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾<sup>(٢)</sup>

وقوله : ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾<sup>(٣)</sup>

### في أى زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجيء النصرانية لابعدها ، كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويعنون بها فقد روى عن ابن عباس : أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ .

فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفي هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب ، وأنه مقدم على النصرانية .  
قوله تعالى :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ :

أى وألهمناهم قوة العزيمة ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش ، والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدي الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام . ربنا رب السموات والأرض ، ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا : ﴿ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا ﴾ :

أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهاً لا على طريقة الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد الثانية .

(٣) الآية ٤ من سورة الفتح .

(١) الآية ١٧ من سورة محمد .

(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .

بدليل قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾<sup>(٢)</sup>

وكانوا يقولون في تلييتهم في الحج : لبيك لا شريك لك : إلا شريكاً هولك تملكه وماملك

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم : ﴿ لقد قلنا إذا شططا ﴾ :

أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفي هذا إيماء إلى أنهم دعوا لعباده الأصنام ولیموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال : ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه

آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ :

أى أن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سناً ، وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا

بحجة بينة على صدق مايقولون ، كما أتينا على صدق ما ندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا .

ومن ثم قال : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ :

أى لا أظلم ممن أفترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وإذا

اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً ﴾ :

أى وإذا فارقتموهم وخالفتموهم في عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم واجتئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة في مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى ييسر لكم الخير من رحمته في الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه في عبادتكم ما ترتفقون وتتفعلون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه ، لتوكلهم عليه وإكمال إيمانهم به .

أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب وقرأ : ﴿ قالوا سمعنا

فنى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وإذا قال موسى لفتهاه ﴾ ، ﴿ إنهم فتية ﴾ .

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال : ﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن

كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ﴾ :

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٣ من سورة الزمر .

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان .

أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعديل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم في وسطه ومتسعه فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

### وخلاصة ذلك :

إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس في طلوعها ولا في غروبها ، إذ كان باب الكهف في مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبداً ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف في ناحية الشرق لما دخل إليه شيء منها حين الغروب ، ولو كان باب الكهف في ناحية الجنوب لما دخل شيء حين الطلوع ولا الغروب ، وما تزاور الفئء لائميننا ولا شملا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولاتزال فيه إلى الغروب .

### مكان الكهف

وللمفسرين في تعيين مكان الكهف أقوال : ف قيل هو قريب من إيلياء « بيت المقدس » ببلاد الشام . وقال ابن اسحاق : عند « نينوى » ببلاد الموصل وقيل ببلاد الروم ولم يرق إلى الآن الدليل على شيء من ذلك ولو كان لنا في معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال ﷺ : ( ما تركت شيئا يقر بكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به ) .

### ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ :

أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم ، وعملهم مع حداثتهم وإيواءهم إلى كهف تلك صفته ، بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم كل ذلك من آيات الله الكثيرة في الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ :

أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر في الدارين .

وفي هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ، ووقفوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة

عليهم ، وتهيئة المرفق . ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾ : أى ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له ابداً خليلاً ولا حليفاً يرشده لإصابة سبل الهداية ، وتخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ويخذل من يشاء . وفى هذا تسليية لرسوله وإرشاد له إلى انه لا ينبغي له أن يحزن على إدبار قومه عنه ، وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

﴿ وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ﴾ :

أى ولو رأيتم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادية ذى بداء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولاسيما العينان والوجه .

﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ :

ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر مايلى الأرض منها بطول المكث .

﴿ وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ :

أى وكلهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف ، كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب .

﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ﴾ :

أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف لأدبرت عنهم هارباً فاراً منهم .

﴿ ولملكت منهم رعباً ﴾ :

أى وملكت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفاً وفزعاً ، لأن الله قد ألبسهم هيئة ووقارا ، كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد ان يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك بعثناهم ﴾ :

أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا بعثناهم من رقدتهم ، وأيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عظيم سلطانتنا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، ولizardادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ،

وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

﴿ ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ :

أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه : كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ :

أى فأجابه الآخرون ، فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ظنا منهم إن ذلك كذلك كان . وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك البث أيوم هو أو بعض يوم ؟ لأن لوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تبدل على ذلك المقدار الذى يظن انه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ :

أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ، أى أنتم لا تعلمون فترة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب ، وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ :

أى فابعثوا بدرهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس ، كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم ﴿ هذه ﴾ إشارة إلى أن القائل كان قد احضرها ليناولها بعض أصحابه .

وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لا ينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث : ﴿ اعقلها وتوكل ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ﴾ :

أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذ فليأتكم بمقدار منه . ﴿ وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا ﴾ :

أى وليتفرق فى دخول المدينة ، وفى شرائه ، وفى إيابه منها ، ولا يخبرن بمكانكم أحده من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يوجئوكم أو يعيدوكم فى

ملتهم ﴾ :

أى أن الكفار إن علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة .

وكان ذلك هو المتبع في الأزمنة الغابرة ، فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير في الأمور الدينية والسياسية التي لها شأن في الدولة .

وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التي هم مستمسكون بها .

﴿ ولن تفلحوا إذا أبدا ﴾ :

أى وإن دخلتم في ملتهم ولو بالاكراه والقسر ، لن تفوزوا بخير لافى دنياكم ولا فى آخرتكم ، إذ ربما استدرككم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمرؤا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لا خذلان بعده .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها ﴾ :

أى وكما بعثناهم بعد طول رقدهم كهيتهم حين رقدوا ليتساءلوا بينهم ، فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ، أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من إنشاء أجسام خلقة كهيتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويؤمنوا أن الساعة آتية لا ريب فيها ، إذ لاحجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ، ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ، ويردهم إلى رشدهم .

ذلك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحقبة الطويلة وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعُظلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حاتها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئاً عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شئونها ، وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم ، وحبست نفوسهم من واد واحد فى الغرابة ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند .

ووقوع الأول يزيل الارتباب فى إمكان وقوع الثانى ، ولا يبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ويجازيهم جزاء وفاقا ، بحسب أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ :

أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضاً فى أمر البعث ، فمن مقر به وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد ، ففرح الملك وفرحوا بآية «لله على البعث - وزال

ماينهم من الخلاف في أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يشتهها ، ويزيل كل ريب فيها .  
ثم حكى آراء القوم في شأنهم بعد اطلاعهم عليهم فقال :

﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ :

أى أنهم انقسموا في شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبني عليهم مسجداً يصل في فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول في الرأي .  
وقوله : ﴿ ربهم أعلم بهم ﴾ : جملة معترضة من كلامه تعالى ، رداً للخاصين في أمرهم ممن اعثروا عليهم ، أو ممن كان في عهده ﷺ من أهل الكتاب في بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهي عنه أشد النهي ، حتى ذكر ابن حجر في كتابه الزواجر أنه من الكبائر .

روى أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ( لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج )<sup>(١)</sup> وزاد مسلم ( ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإني أنهاكم عن ذلك )<sup>(٢)</sup> .

وعن رسول الله ﷺ قال : ( لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد )<sup>(٣)</sup> .

وعن رسول الله ﷺ قال : ( إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ .

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز : ٧٨ . والترمذي في الصلاة : ١٢١ . والنسائي في الجنائز : ١٠٤ . والإمام أحمد في ١ : ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة : ٢١٣ ، ١٢١ . وأبو داود في الوتر : ١ . والنسائي في الجنائز : ١٠٤ ، ١٠٦ . وابن ماجه في الإقامة : ١٨٦ . والدارمي في الصلاة : ١٢٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٦ ، ١٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز : ٦١ ، ٩٦ . ومسلم في المساجد : ١٩-٢٣ . والنسائي في المساجد : ١٣ . والإمام مالك في السفر : ٨٥ . والإمام أحمد في ٥ : ٢٠٤ .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة : ٤٨ ، وفي الجنائز : ٦١ ، ٩٦ .

أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله ﷺ في عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية ( أصحاب الملك ) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال في الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس .

﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ :

في هذا ارشاد لنا إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم الى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشيء .  
﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ :

أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد في الصحيح عن النبي ﷺ شيء في ذلك .

وفي هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعاً لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا في حياتنا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسول الله ﷺ عن شيئين : المراءى في أمرهم ، والاستفتاء في شأنهم فقال : ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ :

أى فلا تجادل في شأن الفتية إلا جدلاً سهلاً لنا ، وقص عليهم ما جاء في الكتاب الكريم دون تكذيب لهم في تعيين العدد ولا تجهيل لهم في الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة وهذا لا يتوقف على عدد معين ، إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لتمامها ، ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (١) .

﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ :

أى ولا تستفت النصارى في شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم ، رجماً بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفي الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .



قوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً \* إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ .

### المناسبة وإجمال المعنى

جاءت هاتان الآيتان إرشاداً وتأديباً من الله لرسوله ﷺ ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شيء سيفعله في مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما سيكون . وجاءتا معترضتين أثناء القصة لما تضمنته من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث في ملكه إلا ما يشاء .

روى « أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ، ولم يستثن ( لم يقل إن شاء الله ) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً ، فشق عليه وكذبت قريش .

﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ :

أى ولا تقولن أيها الرسول لشيء إني سأفعل ذلك غداً إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجيء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ونفر الناس منه .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾ :

أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتذكرك حين التذكر ، سواء أطلال الفصل أم قصر .

﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ :

أى وقل عسى أن يوفقنى ربي لشيء أقرب إرشاداً للناس ، وأظهر حجة من نأ أهل الكهف . وقد حقق الله له ذلك ، فاتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أمهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك . اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً ومنفعة في ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهي ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ما هو خير منفعة ، وأجدي فائدة للمسلمين في دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل في قوله : ﴿ فضرربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ﴾ ، فقال

سبحانه ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ :

أى ولَبِثُوا فِي الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلاث مائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعاً زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن في هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأُمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية . وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوماً على السنة القمرية .

ولا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهذاه لأقرب من هذا رشداً ، وهو الذى جعله يلفت الأنظار الى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ، فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى ، فما من حيوان ولا نبات إلا أسن حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمداً ﷺ ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشداً من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم في العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدي أنبيائكم وأوليائكم ، فإنى قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلقى من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلقى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ثم أكد أن المدة المضروب على آذانهم فيها هى هذه المدة فقال : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا بيان من الغيب الذى أخبر به الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ تذييلاً لسابقه ، ليكون محاكياً لقوله فى حكاية عددهم ﴿ قُلْ رُبِّيْ أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ ﴾ .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم ما لبثوا دون غيره فقال : ﴿ لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ :

أى والله ما غاب فيهما ، وما خفى من أحوال أهلها ، لا يعزب عنه شيء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية في الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ومن ثم يعجبون من أمر نبهم ، ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ :

هذا أسلوب في اللغة يدل على التعجب والمبالغة في الأمر الذى نتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وفد ورد مثل هذا في الحديث ( ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك ) .

﴿ ما لهم من دونه من ولى ﴾ :

أى ما خلقه دون ربهم الذى خلقهم - ولى يلى تدبير أمورهم وتصريفهم فيما هم فيه مصرفون .

﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ :

أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدس أسمائه سبحانه بيده الأمر كله وإليه ترجع الأمور ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأعطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ، فكيف يتصور عاقل أن له شريكاً فى ذاته ، أو شبيهاً فى صفاته ، أو قسيماً فى أفعاله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

## توجيهات إلهية

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحَدًا ۝٢٧ وَأَصْبِرْ  
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ  
تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ  
أَمْرُهُ فُرُطًا ۝٢٨ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا  
أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي  
الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ  
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَارٌ يَجْعَلُونَ فِيهَا  
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَعِنٍ فِيهَا عَلَى  
الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١

**المفردات :** ﴿ لا مبدل ﴾ : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ  
أحكام ما جاء فى كتابه . ﴿ ملتحدًا ﴾ : أى ملجأً تعدل إليه إذا أَلَمْتَ بك ملامة ﴿ واصبر نفسك ﴾ أى  
احبسها وثبتها . ﴿ بالغداة والعشي ﴾ : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ،  
وفيهما يشغل الناس بأمور دنياهم . ﴿ ولا تعد عيناك عنهم ﴾ : أى لا تصرف عينك النظر عنهم إلى  
أبناء الدنيا ؛ والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى غيرهم لثرائة منظرهم ، ﴿ تريد زينة الحياة  
الدنيا ﴾ : أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، ﴿ أغفلنا قلبه ﴾ : أى  
جعلناه غافلاً ، ﴿ فرطاً ﴾ : أى تفريطاً وتضييعاً لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين . ﴿ وأعدنا ﴾ :  
أى أعدنا وهياناً ، ﴿ والسرادق ﴾ : الفسطاط أى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر  
منها فى سائر الجهات ، ﴿ المهل ﴾ : دردىء الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصااص والنحاس ،  
﴿ يشوى الوجوه ﴾ : أى ينضجها إذا قدَّم ليشرب ، لشدة حره ، ﴿ ومرتفقاً ﴾ : أى متكأً ، يقال  
مات فلان مرتفقاً أى متكئاً على مرفق يده ، ﴿ وجنات عدن ﴾ : أى جنات إقامة واستقرار يقال عَدَنَ  
بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعدن لاستقرار الجواهر فيه ، ﴿ والأساور ﴾ : واحدها سوار ،  
﴿ والسندس ﴾ : رقيق الديباج واحده سندسه . ﴿ والإستبرق ﴾ : ما غلظ منه . ﴿ الأرائك ﴾ :  
واحدها أريكه سرير عليه حَجَله .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، ودل اشتغال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ، أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكثرث بقول القائلين له : أتت بقرآن غير هذا أو بدله ، ثم ذكر ما يلحق الكافرين من النكال والوبال يوم القيامة ، وما ينال المتقين من النعيم المقيم كفاء ما عملوا من صالح الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ :

قال مجاهد : أى ملجأ .

وقال ابن جرير : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يأأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (١) ، وقال : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ (٢) الآية ، أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

وفى الآية الكريمة : ﴿ واتل ما أوحى إليك ﴾ : أمرٌ بتلاوة الوحي المتلو وهو القرآن العظيم الذى لا تغيير لأحكامه ، فالله تعالى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب : ﴿ أغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ (٣) .

فمن اعتصم به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ومن استمسك به أدخله الله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الله الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ، ولا يبالي كيف أهلكه ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٤) .

فهو القوى المتين صاحب الركن الركين ، والجناب المتين ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير . فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همنا ، وذهاب حزننا .

قوله تعالى : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ :

قال مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبى ﷺ : اطردهؤلاء لا يجترئون علينا . قال : كنا أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال

(٣) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٨٥ من سورة القصص .

ورجلان نسيت أسميهما ، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (١) .

وفي فضل الغداة والعشي روى الإمام أبو داود الطيالسي بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ( لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلي من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً ) (٢) . فحسبنا دياتهم ونحن في مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفاً وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار عن الأغر أي مسلم وهو الكوفي « إن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبي ﷺ سكت فقال النبي ﷺ : هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم » (٣) .

قال الامام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات ) (٤) .

وقال الطبراني : عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : « نزلت على رسول الله ﷺ وهو في بعض أبياته ﴾ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ : الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوماً يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أصبر نفسي معهم ) .

هذا هو الإسلام وذاك نبيه الذي جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، إنه محرر العبيد الذي جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، أراد صناديد قريش أن يجعلوها عنصرية ، واستنكفوا أن يجالسوا فقراء المسلمين ، لكن الإسلام لا يزن الناس بمقيار الذهب والفضة فلا رنين ولا بريق ، إنما تقوى وعلم صالح ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٥) .

كان طاغية الفاشية موسوليني يقول : إيطاليا فوق الجميع ، وكان هتلر طاغية النازية يقول : ألمانيا فوق الجميع ، وفرحوا بما أوتوا من العلم ، ونادى تشرشل : إنجلترا فوق الجميع ، لكن الإسلام حطم

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم : ١٣ . والدرامي في الرقاق : ٦٤ . والإمام أحمد في ٣ : ٤٧٤ ، وفي ٥ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) أخرجه أبو داود في العلم : ١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١٤٢ .

(٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

تلك الأصنام ، وأزال تلك الأوثان ، وأخرج الناس من عبادة الانسان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الطواغيت إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

الناس من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواء  
فإن يكن لهم في أصلهم شرف يتفاخرون به فالطين والماء

إن المادية لما طغت على المعنويات أصبحت الموازين مختلة ، والقيم منكوسة ، والمثل منحوسة .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا أصبت وصدقوا ما قال  
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلال  
إن الدراهم في المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلال  
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتال

تباركت ربنا وتعاليت ، يا من أوصيت نبيك بهؤلاء الضعفاء :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ :

قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلم أصحاب الشرف والثروة ، هذا هو المعيار الحق والميزان العدل ، فالإنسان حيث يثبت لا حيث ينبت وحيث يوجد لا حيث يولد ، لقد ضلت الإنسانية ضلالاً بعيداً عندما غفلوا عن آيات الله وصاروا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

يمشى الفقير وكل شيء ضده والناس تغلق دونه أبوابها  
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها  
حتى الكلاب إذا رأت رجل الفتى حنت إليه وحركت أذناها  
وإذا رأت يوماً فقيراً ماشياً نبحت عليه وكشرت أنيابها

سبحانك ربى حكمت فعدلت ، وقلت وقولك الحق : ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ : أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياح ، ولا تكن مطيعاً له ، ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ <sup>(١)</sup> .

ليست السعادة فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما

السعادة في طاعة الله ورسوله ، وفي الرضا بما قضى ربك ، وارض بما قسمه الله لك تكن أغني الناس ، السعادة في تزكية النفس ، وإشراق العقل ، وصفاء الذهن عن كل مايشغله ويكدره بماديات الدنيا .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد  
وإدراك الذي يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

يقول ريتشارد نيكسون : إن الولايات المتحدة لاتعاني أزمة مادية ، إنما تعاني أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع لكننا فقراء في الروح ، نصل في قرب عظيم الى القمر ، ونسقط في خلاف حاد على الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنْ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سِرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِنَاءِ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ : هذا إخبار كريم من رب كريم إلى نبي كريم ، فما أعظم الخطاب إذا كان من الله ، وما أجله إذا كان موجهاً إلى رسول الله ﷺ ، أى قل يا محمد للناس هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولاشك .

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ﴾ : هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿ إِنْ أَعْتَدْنَا ﴾ : أى أرصدنا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ : وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سِرَادِقُهَا ﴾ : أى سورها ، فقد كفروا بالحق ، والله هو الحق ، قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ ﴾ (١) ، وله دعوة الحق والقرآن حق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾ (٢) ، ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ (٣) .

فاللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبون حق ، ومحمد حق .

اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت ، وإليك أنبت ، وعليك توكلت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وماأسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ \* يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴿ (٤) .

(١) الآية ٦ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور .



ولكل عاقل أن يقف كثيراً أمام قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(١)</sup>

فيا له من يوم ما أطوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، ويا له من خطب ما أهوله ، ﴿ يوم يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعاً ﴾ \* هذه النار التي كنتم بها تكذبون \* أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون \* اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ : ( لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة )<sup>(٣)</sup> . أخرجه الترمذى فى صفة النار .

وقال ابن عباس : ﴿ أحاط بهم سرادقها ﴾ : حائط من نار .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ : الآية :

قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ ، مثل ذردى الزيت .

وقال عكرمة هو الشيء الذى انتهى حره .

وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود .

﴿ يشوى الوجوه ﴾ : من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، ﴿ كلا إنها لظى ﴾ \* نزاعة للشوى \* تدعوا من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال عبد الله بن المبارك : عن أبي أمامة عن النبي ﷺ فى قوله ( ويسقى من ماء صديد يتجرعه )<sup>(٥)</sup> قال : ويقرب اليد فيتركه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب قطع أمعاءه ، ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها ، فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصيبهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿ بشس الشراب ﴾ : أى بشس هذا الشراب .

وقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾<sup>(٧)</sup> أى حارة ، كما قال تعالى : ﴿ وبين حميم آن ﴾<sup>(٨)</sup> : أى حار .

(٥) الآيات ١٦ ، ١٧ من سور إبراهيم .

(٦) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٧) الآية ٥ من سورة الغاشية .

(٨) الآية ٤٤ من سورة الرحمن .

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

(٣) أخرجه الترمذى فى ( جهنم ) : ٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩ .

(٤) الآيات ١٥ ، ١٨ من سورة المعارج .

﴿وساءت مرتفقاً﴾ : أى وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملاً . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ :

هذا هو نور الوعد بعد نيران الوعيد ، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، وعملوا ما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة .

﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ :

أى من تحت غرفهم ومنازلهم .

﴿يحلون﴾ :

أى من الحلية . ﴿فيها من أساور من ذهب﴾ :

وقال فى آية أخرى : ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ <sup>(٢)</sup> ، وفصله ههنا ، فقال : ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق﴾ :

فالسندس لباس رفاع رفاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله : ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ :

الالتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا . والأرائك جمع أريكة وهو السرير تحت الحجلة .

وقوله : ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ :

أى نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم وحسنت مرتفقاً ، أى حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً ، كما قال فى النار : ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ . وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ <sup>(٣)</sup> .

ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٣) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٤) الآتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحج .

سبحانك ربى ، شعاع من رضاك يطفى غضب سلوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك ترهق الروح ولو أنغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رياً ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر ولياً ، استحي أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف أسألك وأنت أنت ، ان كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

حاسبت نفسى لم أجدنى صالحاً	إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى على فئتن أجد	فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعلى كلها	وحى إذا من وقفة الديان
يأيتها الاخوان إني راحل	مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى	من للمسيء المذنب الحيران

### الغنى غنى النفس

\* وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْتُهُمَا بِتَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٧﴾ كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٨﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٩﴾ وَدَخَلَ جَنَّتُهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٤٠﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٤١﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٤٢﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٣﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٤٤﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٥﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ لَا تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤٦﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٨﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٩﴾

**المفردات :** ﴿ الجنة ﴾ البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر وكل مادة ( ح.ن.ن ) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى

نحو ذلك . ﴿ أعناب ﴾ : أى كروم متنوعة . ﴿ وحففناهما بنخل ﴾ : أى جعلنا النخل محيطاً بهما مطبقاً بحفافيهما أى جانبيهما ، يقال حَفَّه القوم : أى طافوا به ، ومنه قوله : ﴿ حافين من حول العرش ﴾ (١) . وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، ﴿ أكلها ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ ولم تظلم ﴾ : أى لم تنقص ، ﴿ والنهر ﴾ : لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ﴿ ثمر ﴾ : أى أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه قال الحارث بن كلدة :

ولقد رأيت معاشراً قد أثمروا مالا وولداً

﴿ والصاحب ﴾ : المصاحب لك . ﴿ مجاوره ﴾ : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان . ﴿ أن تبید ﴾ : أى تفتنى وتهلك ، ﴿ قائمة ﴾ : أى كائنة متحققة ، ﴿ ومنقلباً ﴾ : أى مرجعاً وعاقبة ، ﴿ سواك ﴾ : أى عدلك وكمالك إنساناً . ﴿ لكننا هو الله ﴾ : أصل التركيب فى الجملة لكن أنا : هو الله رنى ( دخله نقل وحذف ) ﴿ لولا ﴾ : حرف يفيد الحث على الشئ والتوبيخ على تركه ، ﴿ ماشاء ﴾ : أى ماشاء الله كائن ، ﴿ حسبانا من السماء ﴾ : أى مطراً عظيماً يقلع زرعها وأشجارها ، ﴿ الصعيد ﴾ : وجه الأرض .. ﴿ زلقا ﴾ : أى تعيد بحيث تزلق عليها الرجل والمراد أنها تصير تراباً أملس لا تثبت فيه قدم . ﴿ والغور ﴾ : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلباً : أى عملاً وحركة لرده ، ﴿ وأحيط بثمره ﴾ : أى أهلكت أمواله يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ﴿ يقلب كفيه ﴾ : هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفاً متلهفاً ، ﴿ خاوية ﴾ : أى ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، ﴿ والعروش ﴾ : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، ﴿ منتصراً ﴾ : أى ممتنعاً بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين ، الذين طلبوا منه ﷺ طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن يعين لهم مجلساً وللأسادة مجلساً آخر ، حتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم ، وخفض من عزتهم - قفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغي أن يكون موضع فخر ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيراً ما يصير الفقير غنياً ، والغنى فقيراً ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ﴾ :

أى واضرب أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، مثلاً هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا .

وخلاصة ذلك : إن أرضه جمعت القوت والفواكه وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر وزواء حسن ووضع أنيق ، يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين من قبل أن الكفار مع تقلبهم في النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً ﴾ :

أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً في سائر الأعوام ، على خلاف مايعهد في الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواماً ، وتقل أعواماً أخرى .

﴿ وفجرنا خلاهما نهراً ﴾ :

أى وشققنا وسط الجنتين نهراً كبيراً ، متفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما ، وتكثر غلتها .

﴿ وكان له ثمر ﴾ :

أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمرها بما أدره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتة وناطقها ثاغية وراغية ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شيء من مسرات الدنيا ومباهجها ولذاتها ونعيمها ، وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

﴿ فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً ﴾ :

أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجع الحديث ، مذكراً له بالآيمان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جنات وزروع مختلفة ، وأعز عشيرة ورهطاً تقوم بالذب عني ، ودفع خصومتها ، وتنفر معي عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخراً على صاحبه المسلم وأراه عياناً ما يتمتع به من المناظر البهيجة في تلك الجنان التى لا

تفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ﴾ :

أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه هاتين الجنتين ، وطاف به فيهما مفاخرأ ، وقال حين عاين مافيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً . ولا تحرب كما قال ﴿ وهو شاك في المعاد إلى الله والبعث والنشور ﴾ ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالماً لنفسه ، إذ وضع الشيء فى غير موضعه ، فقد كان أليق به من أن يكون شاكرأ لتلك النعم ، متواضعأ لربه ، لا أن يكون كافراً به ، منكرأ لما جاء به الوحي ، وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك : إنه لحقه الخسار من وجهين :

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ :

أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، والذى جرأه على هذا الطمع ، وعلى تلك اليقين الفاجرة ، اعتقاده أن الله إنما حياه بما حياه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للبحسن ﴾ <sup>(١)</sup>

وخلاصة ذلك : إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة . ما هو أفضل منها ، قال ذلك طبعأ ويُمهاً على الله ، وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ؟ ﴾ :

أى قال له صاحبه المؤمن واعظأ وزاجراً عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء ، وما يتحول بعضه الى نطفة يكون منها خلقك بشراً سوياً ، على أتم حال وأحكمه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

**والخلاصة :** كيف تجحدون ربكم ودلالة خلقكم على وجوده ظاهرة جليلة يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوماً ، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات ، لأنها مثله . وقد أشار إلى ذلك بقوله :

﴿ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ :

أى لكن أنا لا أقول بمقالتك بل أعترف بالوحدانية والربوبية ، وأقول هو الله ربى .

﴿ وَلَا أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ :

فهو المعبود وحده لا شريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساوياً لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبتت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم زاد فى عظمة صاحبه فقال له :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَاقُوهُ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ :

أى وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ، ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والكائن ما قدره الله ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوه إلا بالله إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدبير أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأيدته .

وبعد أن نصح الكافر بالإيمان وأبان له عظم قدرة الله وكبير سلطانه ، أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً فقال :

﴿ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حَسْبَانًا مِنْ السَّمَاءِ فَيَتَصَبَّحُ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يَصْبَحُ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلِبًا ﴾ :

أى إن ترى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ، ويجعل مالى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيماني جنة خيراً من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطراً من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

**وخلاصة ذلك :** إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية ، أو بآفة أرضية ، وهو غور مائها ، وكلتاها تلتف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

﴿ وَأَحِيطْ بِشْمَرِهِ فَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفْيِهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ :

أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : وما أظن أن تبيد هذه أبداً ، فأصبح يقلب كفيه ندماً وأسفاً على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً .

### والخلاصة :

أنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا ، وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معاً ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ﴿ لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ :  
﴿ ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ :

أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرّون على دفع الجوائح عنه ، أو رد المهلك له من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصراً بقوته عن انتقام الله منه باهلاك جنته .

وخلصته : إنه لا يقدر على نصره إلا الله ، ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله : ﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ : أى فى مثل هذه الشدائد والحن النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها غيره .

﴿ هو خير ثواباً وخير عقباً ﴾ :

أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوز أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم ، وكانت سبب شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ضرب مثلاً لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال سبحانه :

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الصفة . ﴿ وهشيماً ﴾ : أى يابساً متفتتاً . ﴿ تذروه ﴾ : أى تنثره وتفرقه . ﴿ مقتدراً ﴾ : أى كامل القدرة . ﴿ الباقيات الصالحات ﴾ : هى الأعمال الصالحة كلها . ﴿ ثواباً ﴾ : أى جزاء .



### المناسبة وإجمالى المعنى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : ( استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله ) .

وأخرج الطبرانى والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً : ( خذوا جنتكم . قيل : يا رسول الله من أى عدو قد حضر ؟ قال : بل جنتكم من النار ، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومحجبات وهن الباقيات الصالحات ) .

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾ :

فشبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات أخضر والتف وأزهر ، ثم صار هشيماً متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغتر أهلها بها ، ولا يفخر ذو الأموال الكثيرة بأمواله ، ولا يستكبر بها على غيره فإنما هى ظل زائل وفى الحديث : ( الدنيا كسوق قام ثم انفض ) . ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ :

أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادراً على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة . فهو يوحد الأشياء ثم ينمىها ثم يفنىها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال فهى تظهر أولاً ناضرة زاهرة ، ثم تتزايد قليلاً قليلاً ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغي للعاقل أن يتهيج بما يحوزه منها أو يفخر به ، أو يصعر خذه استكباراً .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مر من المثل فقال : ( المال والبنون زينة الحياة الدنيا ) :

أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليس من زاد الآخرة . وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء فلا ينبغي التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس ، من قبل أن الزينة به أتم ، ولأنه يعد الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد ، وبذا يبقى النوع الانسانى ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغي التفاخر به فقال :

﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ :

أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ، ومساعدة البائسين ، وذوى الحاجات ، خير عند ربك من المال والبنين جزاءً وخير أملاً ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۖ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۖ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۖ

**المفردات :** ﴿ بارزة ﴾ : أى ظاهرة إذ لم يبق على وجهها شئ من العماير ولا من الجبال والأشجار .  
﴿ وحشرناهم ﴾ : أى سقناهم الى الموقف من كل أوب . ﴿ فلم نغادر ﴾ : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر وهو ترك الوفاء . ﴿ وعرضوا ﴾ : أى أحضروا لفصل القضاء .  
﴿ صفًّا ﴾ : أى مصطفين . ﴿ موعداً ﴾ : أى وقتاً ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه .  
﴿ ووضع الكتاب ﴾ : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب ﴿ مشفقين ﴾ : أى خائفين .  
﴿ والويل ﴾ : الهلاك . ﴿ ويأويلتنا ﴾ : أى ياهلاك أقبل . فهذا أوانك . ﴿ أحصاها ﴾ : أى عدها .  
﴿ حاضراً ﴾ : أى مسطوراً فى كتاب كل منهم . ﴿ ولا يظلم ربك ﴾ : أى لا يتجاوز ما حده من الثواب والعقاب .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغي أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أردف ذلك ذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين ، وترك ما نهى عنه ، مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أموراً :

١ - ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم تطلع الجبال من أماكنها ، ونسيرها فى الجو كالسحاب ، ونجعلها هباء

منثوراً كما قال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً \* فيذرهما قاعاً صفصفاً \* لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ <sup>(١)</sup> .

أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿ وبست الجبال بساً \* فكانت هباء منبثاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

## ٢ - ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ :

أى وترى أيها الرأى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شئ من العمائر ، ولا شئ من الجبال ، ولا شئ من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

## ٣ - ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ :

أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين \* لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ <sup>(٥)</sup> .

## وقال : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ :

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهملهم ذلك ) <sup>(٦)</sup>

وكما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

## ٤ - ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ :

أى يعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً كما قال : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ <sup>(٧)</sup> :

ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لا شئ معكم من المال والولد .

(١) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٠٧ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم فى الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى

فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدرامى فى

الرقاق : ٨٠ ، ٨٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾<sup>(١)</sup> .

وفي هذا زجر لأؤلئك المشركين المنكرين للبعث ، الذين يفخرون في الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال : ( إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسنين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، ياملأئكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب ) .

وفي الحديث الصحيح : ( يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعى وينفذهم البصر .. )<sup>(٢)</sup> والحديث له بقية .

﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ :

أى ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن . وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

٥ - ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ :

. أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعاً نادمين على ما فيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم ، وظهور ذلك لأهل الموقف خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

﴿ ويقولون يا ويلتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ :

أى ويقولون حين وقوفهم على ما فى تضاعيفه : يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ما هذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها ، فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، ٩ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ٢٠ ، ٤٨ .  
والدرامى فى الرقاق : ٨٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٤ ، وفى ٢ : ٣٦٨ ، ٤٣٥ ، وفى ٣ : ١٦ ، وفى ٤ : ٤٠٧ .

ونحو الآية قوله : ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ \* كَرَامًا كَاتِبِينَ \* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

مثل النفس إلا مثل الزجاجة التي يضعها المصور في صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تهبطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ، ورأينا صورة كما هي من حسن وسيء وفضيلة ورذيلة ، فتقفل في عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل أمرىء يراها يقرؤها ، والناس فيها سواء .

ثم أكمل ما سلف بقوله : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ :

مثبتاً في كتابهم خيراً كان أو شراً ، كما قال : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ :

من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع ، وتعذيب العاصي بمقدار جرمه من غير زيادة ، وأنه قد يغفر له ماسوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحداً بما لم يعمله ، ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةٌ يَضَاعَفْهَا وَيُؤْتِ مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقوله : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ <sup>(٦)</sup> .

إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظه له ، فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلماً كما لا تعد التخمّة بعد الأكل الكثير ظلماً ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ  
أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ  
خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ

(٤) الآية ١٣ من سورة القيامة .

(١) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة الانفطار .

(٥) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾  
وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

**المفردات :** ﴿ فسق ﴾ : خرج يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره . ﴿ أفخذونه ﴾ :  
الهمزة في مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يضل مثل ذلك . ﴿ والذرية ﴾ : الأولاد وبذلك قال جمع  
من العلماء منهم الضحاك والأعمشى والشعبي ومثل المراد بهم الأتباع من الشياطين والعدو يطلق على  
الواحد والكثير كما قال : ﴿ فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ والعصء ﴾ : أصله ما بين المرفق إلى  
الكتف ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا . ﴿ فدعوهم ﴾ : أى فاستغاثوا بهم . ﴿ فلم  
يستجيبوا لهم ﴾ : أى لم يغيثوهم . ﴿ والموبق ﴾ : مكان الوبوق أى الهلاك وهو النار يقال وبوقاً  
كوثب وثوباً : إذا هلك ﴿ موافعوها ﴾ : أى داخلوها وواقعون فيها . ﴿ ومصرفاً ﴾ : أى مكاناً  
ينصرفون إليه .

### المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم  
وأعوانهم ، وقالوا : كيف نجلس مع هؤلاء ، ونحن من أنساب شريفة ، وهم من أنساب وضيعة ، ونحن  
أغنياء وهم فقراء .

قضى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه الى ذلك هو  
كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه ، إذ قال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
فأنا أشرف منه أصلاً نسباً فكيف أسجد له ؟ .

وقد تكرر ذكر هذه القصة في مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سبقت لفائدة غير  
ما جاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴾ :

واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام ، إعتراضاً  
بفضله ، واعتذاراً عما قالوه فى شأنه ، من نحو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
فسجدوا كلهم أجمعون امتثالاً إلا إبليس أبى وأستكبر ..

(١) الآية ٧٧ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٦ من سورة ص .

ثم بين السبب في عصيانه ومخالفته للأمر فقال : ﴿ كان من الجن ﴾ :  
 أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألف من الملائكة مغموراً بينهم ،  
 متصفاً بصفاتهم ، بدليل أنه قال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 ولأنه تعالى أثبت له في هذه الآية ذرية ونسلاً ، والملائكة لا ينسلون ، ولأن الملائكة لا  
 يستكبرون ، وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم  
 لا يعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك مامدحوا به لكن طاعتهم طبع  
 وعصيائهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت  
 وماروت ماذكر ، وهما ملكان على أنه لا دليل على أن هناك فروق جوهرية بين الملائكة والجن ، بها يمتاز  
 أحدهما عن الآخر ، بل هي فروق في الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقيقتهم ،  
 ولانضيف إليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾ :

أى فصار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو في عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق  
 إباء ، وفي الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة  
 مادتهم ، وخبائث ذاتهم .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان ، فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء  
 من دونى وهم لكم عدو ﴾ .

أى وبعد العلم بما صار منه من القبائح لا ينبغي لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من  
 دونى ، تطيعونهم بدل طاعتي ، وهم لكم أعداء .

﴿ بئس للظالمين بدلا ﴾ :

أى بئس البديل للكافرين بالله أتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أيهم آدم  
 من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لا يحصى من الفواضل ، ثم بين السبب في عدم إستحقاق إبليس وذريته هذه  
 الولاية في أنفسهم ، فقد فبعد بيان خبائث أفعالهم فقال :

﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ :

أى ما حضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فكيف  
 تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ :

أى وما كنت متخذاً من لا يهدون إلى الحق أعواناً وأنصاراً ، لأنهم يضلون فمتبعهم يحور عن قصد السبيل ، ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم .  
ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريراً لهم وتوبيخاً فقال :

﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى . لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ماعبد من دون الله فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم فلم يغيثوهم .

﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ :

أى وجعلنا بين المشركين وماكان يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا موضعاً للهلاك وهو النار ، حسماً لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوة للشفاعة .

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ :

أى وعان المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ، ولم يجدوا بداً من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزيلونها ، وقد أحاطت بهم من كل جانب .

### مواقف ودروس

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ أَلَّا وَلِيْنَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ذَا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ



الْغَفُورُ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

**المفردات :** ﴿ صرّفنا ﴾ : أى ردّدنا وكرّرنا ، ﴿ والمثل ﴾ : الصفة الغريبة ، ﴿ والجدل ﴾ : المنازعة بالقول ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، ﴿ وسنة الأولين ﴾ : الإهلاك بعذاب الاستئصال ، ﴿ والقبل ﴾ : (بضمّتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ﴿ ليدحضوا به الحق ﴾ : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحضت رجله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، ﴿ وما أنذروا ﴾ : أى ما خوفوه من أنواع العقاب ، ﴿ ونسى ماقدته يده ﴾ : أى لم يتدبر عواقبه ، ﴿ أكنة ﴾ : أى أغطية واحدها كنان ، ﴿ أن يفقهوه ﴾ : أى أن يفهموه . ﴿ وقرا ﴾ : أى ثقلوا في السمع . ﴿ الموعد ﴾ : يوم القيامة ، ﴿ موئلا ﴾ : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان الى كذا وألأوهولا : إذا لجأ إليه . ﴿ القرى ﴾ : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباهم .

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه تعالى بعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ، ورد عليه بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا تُرد . قفى على ذلك بيان أن في القرآن من الأمثال ما فيه مقنع لمن تذكر وتدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يبق منهم على ظهر الأرض أحداً ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل هلاكهم موعداً ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرعوون من غيهم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ﴾ :

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبي حاتم عن على كرم الله وجهه : « إن النبي ﷺ طرده وفاطمة ليلا فقال : ( ألا تصليان ؟ ) فقلت : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلّى شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : ( وكان الإنسان أكثر شيء جدلا ) » (١) .

وفي الآية إخبار عما في القرآن الكريم من الأمثلة التي وضّحها الله تعالى وبينها : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (٢) وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿ (٣) .

(١) أخرجه البخارى في التهجيد : ٥ ، وفي الاعتصام : ١٨ ، وفي التوحيد : ٣١ . ومسلم في المسافرين : ٢٠٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء \* تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون \* ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكان على الإنسان وهو الذي شرفه الله بالعقل أن يستعمل تلك الجوهرة الربانية في التدبر والتفكير والتذكر ، لكنه وظف العقل في غير سبيل الرشاد ، فكان أكثر المخلوقات جدلاً ، يجادل في الحق من بعد ما تبين ، كما يجادل في الأدلة الساطعة والحجج القاطعة . فتراه يقول : ﴿ أجعل الآلهة لها واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾<sup>(٤)</sup> .

وكما يجادل في الوحدانية تراه يمارى في النبوة : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾<sup>(٥)</sup> . ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون \* ولئن أطعتم بشراً مثلكم لئن كنتم إداً لخاسرون ﴾<sup>(٦)</sup> .

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾<sup>(٧)</sup> ..

إلى غير ذلك مما جادلوا فيه .

قوله تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ :

إن تعجب فاعجب معى لقوم جاءهم الهدى فلم يؤمنوا ولم يستغفروا ربهم فيغفر لهم .

قال نوح لربه : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدتهم دعائى إلا فراراً \* وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً \* ثم إني دعوتهم جهاراً \* ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً \* فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفراً \* يرسل السماء عليكم مدراراً \* ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾<sup>(٨)</sup> .

أندري ما منعهم عن اتباع الهدى والرشد ، إنك لتأخذنك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر .

(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٣) الآيات ٢٤ ، ٢٦ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٥ من سورة ص .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

(٦) الآيات ٣٣ ، ٣٤ من سورة المؤمنون .

(٧) الآية ٧ من سورة الفرقان .

(٨) الآيات ٥ - ١٢ من سورة نوح .

تقف على حقائق الأسباب ، لقد منعهم الكبر والعناد والجحود ، وكأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمة ، اسمع إلى ما طلبوه بعد بيان الحق والهدى : ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأُمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

لقد طلبوا عذاب الاستئصال الذي استعمله الله مع الأمم السابقة . كما طلبوا أن يأتيهم العذاب قبلاً كما جاء في قولهم : ﴿ ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولو كانوا عقلاء ، وأزالوا الغشاوة عن عيونهم ، لقالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولذا جاء قوله تعالى ردّاً عليهم : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَآئِدَهُمْ حِزْواً ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى رسالة الأنبياء إلى أقوامهم ، كما يبين موقف الكافرين منهم ، فالأنبياء بعثوا بالخير والسعادة وجنات النعيم لأهل الحق والتوحيد والطاعة والأعمال الصالحة . كما بعثوا منذرين بين يدي عذاب شديد لأهل الباطل والجحود والعناد والإنكار ... قال الله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال في حق خاتمهم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً \* وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً ﴾<sup>(٥)</sup> .

أما أهل الباطل فإنهم يجادلون في الحق وهو واضح . قال تعالى : ﴿ مَا يَجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾<sup>(٦)</sup> . وقال جلّ شأنه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾<sup>(٧)</sup> .

إنهم واهمون عندما يظنون أنهم بباطلهم يستطيعون أن يزيلوا الحق ويدحضوه ويمحوه . إن الشمس هي الشمس لا يستطيع أحد أن يطفى نورها بغمه . يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون \* هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون<sup>(٨)</sup> .

لقد جهل هؤلاء أو أغفلوا حقيقة الرسالات ، فأخذوا يقترحون على الأنبياء الآيات : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً \* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .

(٧) الآية ٣ من سورة الحج .

(٨) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٩) الآية ٨ ، ٩ من سورة الصف .

تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿١﴾ .  
ومع ذلك لقد اتخذوا آيات الله وحججه وبراهينه والدلائل القاطعة على وحدانيته ؛ اتخذوها هزواً ولعباً : ﴿٢﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿٣﴾ ، ﴿٤﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين \* وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴿٥﴾ . فليتهم قالوا : فاهدنا إليه .

قوله تعالى : ﴿٦﴾ ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ، ونسى ما قدمت يدها ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴿٧﴾ :

الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفي ، أى لا أحد أشد ظلماً من هذا الذى جاءته البينات والهدى وذكر بآيات ربه فلم يتذكر إنما أعرض عنها ونأى بجانبه واستكبر . ونسى ما قدمت يدها من الخطأ والكفر والجحود .

ثم بين الله العلة الكامنة فى حال هؤلاء فقال : ﴿٨﴾ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ﴿٩﴾ : أى أغطية وحجباً مانعة من الفقه والفهم ، كما جعلنا فى آذانهم وقراً وثقلاً . قال تعالى : ﴿١٠﴾ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون \* ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴿١١﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿١٢﴾ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لاجرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴿١٣﴾ .

وهذا هو الجزاء العادل ، قال تعالى : ﴿١٤﴾ جزاء وفاقاً \* إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴿١٥﴾ .

ولابد أن تكون نتيجة ذلك بعد أن سدت منافذ المعرفة لديهم .

﴿١٦﴾ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴿١٧﴾ :

قال تعالى : ﴿١٨﴾ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴿١٩﴾ ، وقال جل شأنه ﴿٢٠﴾ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٢١﴾ .

(٥) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .

(٦) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة النبأ .

(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٨) الآية ٥ من سورة الصف .

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة البقرة .

ومع هذه الجرائم التي ارتكبوها ، فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء فلو عاملهم بعدله ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قال تعالى : ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ :

أى وربك أيها المخاطب الغفار لذنوب عباده إذا هم تابوا وأنابوا . قال تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ <sup>(١)</sup> وهو ذو الرحمة الواسعة : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ومن مظاهر رحمته أنه يعاملهم بفضله فلو عاملهم بعدله لعجل لهم العذاب ، أى عذاب الاستئصال . قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً ﴾ :

أى ملجأ يلجأون إليه فراراً منه : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر \* كلا لاوزر \* إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ولقد أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على ماسبق فقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ :

المقصود بالقرى هنا القرى الظالمة ، كعاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط .

قال تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

فالظلم مرتعه وخيم وهو ظلمات يوم القيامة ، وهو لا يدوم وإذا دام دمّر . قال تعالى : ﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ <sup>(٧)</sup> .

(٥) الآيات من ١٠ - ١٢ من سورة القيامة .

(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .

(٢) الآية ٧ من سورة غافر .

(٣) الآية ٦١ من سورة النحل .

(٤) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

## قصة موسى والعبء الصالح

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَا أBRحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَاغِدَاآءَ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلِمتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَفَقْنَاهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَازِئَةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾ \* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَبَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَنِي وَبَيْنَكَ سَانِيَتُكَ بَنَؤِيلَ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرَ أَمْنَةٍ زَكَاةٍ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا

أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ، عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

**المفردات :** ﴿ لا أبرح ﴾ : أى لا أزال سائرا ، ﴿ والحقب ﴾ : ( بضمين وبضم فسكون ) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أى مكان اجتماعهما ﴿ سرباً ﴾ : أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، ﴿ والغداء ﴾ : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، ﴿ نصبا ﴾ : أى تعب وإعياء ، ﴿ أوينا ﴾ : أى التجأتا نبغى : نطلب ، ﴿ ارتدا ﴾ : رجع ، ﴿ على آثارهما ﴾ : أى على طريقهما الذى جاء منه . ﴿ قصصا ﴾ : أى أتباعاً من قولهم قص أثره إذا اتبعه ، ﴿ الرشد ﴾ : ( بضم فسكون وبفتحتين ) إصابة الخير ، ﴿ والإحاطة بالشئ ﴾ : معرفته تامة ، ﴿ والخير ﴾ : المعرفة ، ﴿ وذكرأ ﴾ : أى بيانا ﴿ إمرا ﴾ : أمراً عجيباً ، ﴿ ولا ترهقنى ﴾ : أى لا تحملنى ، ﴿ والعسر ﴾ : ضد اليسر وهو المشقة . ﴿ زكية ﴾ : طاهرة من الذنوب ، بغير نفس أى بغير حق قصاص لك عليها ، ﴿ والنكر ﴾ : النكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس . ﴿ فلا تصاحبني ﴾ : أى فلا تجعلنى صاحباً لك ﴿ بلغت من لدنى عذراً ﴾ : أى وجدت عذراً من قبل ، ﴿ استطعما أهلها ﴾ : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، ﴿ أن يضيفوهما ﴾ : أى ينزلوهما أضيفاً : يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيفه : أنزله لديه ضيفاً ، وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال . ﴿ جدارا ﴾ : أى حائطاً ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم . ﴿ أقامه ﴾ : أى مسح يده فقام كما روى عن ابن عباس ، ﴿ والتأويل ﴾ : من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه : فإذا قيل ماتأويله : أى ما مصيره . ﴿ المساكين ﴾ : واحدهم مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، ﴿ يعملون فى البحر ﴾ : أى يؤاجرون ويكتسبون ، ﴿ أعياها ﴾ : أن أجعلها ذات عيب بنزع مانزعتها منها ، ﴿ وراءهم ﴾ : أى أمامهم وهو لفظ يستعمل فى الشئ وضده . ﴿ خشينا ﴾ : أى خفنا ، ﴿ أن يرهقهما ﴾ : أى يحملهما ، ﴿ طغيانا ﴾ : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، ﴿ زكاة ﴾ : أى طهارة من الذنوب ، ﴿ رحما ﴾ : أى رحمة كالكثرة والكثرة ، ﴿ عن أمرى ﴾ : أى عن رأى وإجتهادى ، ﴿ مالم تسطع ﴾ : أى تستطع ماضيه اسطاع ، الذى أصله استطاع .

### مقدمة

#### ١ - من موسى ؟

موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران ، نبي بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة ، والدليل على ذلك :

أنه ماذكر الله موسى في كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فأطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ، ولو كان شخصاً آخر سمي بهذا الاسم لوجب تعريفه بما يوجب الامتياز ويزيل الشبهة .

## ٢ - من فتاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفرايم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، وفي الحديث الصحيح : ( ليقل أحدكم فتى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى )<sup>(١)</sup> ، وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

## ٣ - من الخضر ؟

( بفتح الخاء وكسرهما وكسر الضاد وسكونها ) لقب لصاحب موسى ، واسمه بلّيا ( بفتح الباء وسكون اللام ) ابن ملكان والأكثر على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة :

( أ ) قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ : والرحمة : النبوة بدليل قوله : ﴿ أَمَّهُمْ يَقْسُمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ ﴾<sup>(٢)</sup> :

( ب ) قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ : نرو هذا يقتضى انه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

( ج ) أنه قال له موسى : ﴿ هَلْ أَتَبَعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ ﴾ : والنبى لا يتعلم من غير النبى .

( د ) أنه قال : ﴿ وَمَا فَعَلْتَهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ : أى بل قد فعلته بوحي من الله وهذا دليل النبوة .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وأمتنعوا عن حضور مجلس النبي ﷺ ، لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك في مجلس واحد ، قضى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ، ليبين بها أن موسى مع كونه نبياً صادقاً ، أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيراً ونذيراً ، وهو كلم الله - أقر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه ما لم يعلمه ، وفي ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته : ( أن موسى عليه السلام قام في بنى إسرائيل خطيباً فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى ، فأوحى إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتاً في مكنل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمة ، ففعل ذلك ، وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط في البحر - فاتخذ سبيله في البحر

(١) أخرجه البخارى في العتق : ١٧ . ومسلم في الألفاظ : ١٣ ، ١٥ . وأبو داود في الآداب : ٧٥ . والإمام أحمد في ٢ : ٣١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ؟ ٤٩١ ، ٥٠٨ .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .



سرباً - وضار الماء كالطابق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسي صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليتهما . فلما كان الغد طلب موسى الغذاء ووجد النَّصَب ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال فتاه : إني نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار<sup>(١)</sup> .

وبعد أن ذكر الأمور الثلاثة التى رآها موسى حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من اعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبراً ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته - أردف ذلك بتفسير ما أشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبي ﷺ : (نحن نحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر)<sup>(٢)</sup> .

وأحكام هذا العالم مبنية على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وهذا ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

**وخلاصة المسائل الثلاث :** أنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعتها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم . ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه - إذ بالسقوط كان بضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر فى ذلك - إن الله أطلع الخضر على بواطن الأمور وحقائقها فى أنفسها ، وهذا لا يمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الحسية ومن ثم قال فى صفة علمه . ﴿وعلمناه من لدنا علماً﴾ .

وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ماهى عليها فى الواقع .

قوله تعالى : ﴿وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا \* فلما بلغا

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٤ ، وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٣ ، ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ . والامام أحمد فى ٥ : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى : ٧٩ . ومسلم فى التوبة : ٥٣ . والنسائى فى المساجد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٧ ، وفى ٦ :

مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً \* فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً \* قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً \* قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً \* فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴿

يذكر الله تعالى نبيه ومصطفاه بما حدث لموسى عليه السلام عندما قال لفتاه ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ : وسبب ذلك قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون أنه ذكر له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ لا أبرح ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أى مكان اجتماعهما .

﴿ أو أمضى حقباً ﴾ : أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان .

قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب ثمانون سنة كما روى عن عبد الله بن عمرو .

وقال مجاهد : سبعون خريفاً .

وعن ابن عباس قال : دهرأ .

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ : وذلك أنه قد أمر بحمل حوت وقيل له متى فقدت الحوت فإن العبد الصالح هناك فسارا حتى بلغا مجمع البحرين فناما هنالك ، وكان الحوت في مكمل مع يوشع عليه السلام وقفز الحوت من المكمل إلى البحر فاستيقظ يوشع بن نون وسقط الحوت في البحر وجعل يسير في الماء ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ : أى مثل السرب في الأرض .

﴿ فلما جاوزا ﴾ : أى المكان الذى نسيا الحوت فيه قال موسى ﴿ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : أى تعباً .

﴿ قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ : ولهذا قال : ﴿ واتخذ سبيله ﴾ أى طريقه ، ﴿ في البحر عجباً ﴾ قال ذلك ما كنا نبغ ﴿ أى هذا الذى نطلب .

﴿ فارتدا ﴾ : أى رجعا ، ﴿ على آثارهما ﴾ : أى طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ : أى يقصان آثار مشيهم ، ويقفوان أثرهما .

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ :

وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

قال البخاري حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرني سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : « إن نوحا البكائي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أنى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( إن موسى قام خطيباً في بنى إسرائيل فثقل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فانما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ آتانا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ رأيت إذ أويانا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ .

قال : فكان للحوت سرباً ولموسى وفناه عجباً ، فقال : ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً .

﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ : يا موسى إني على علم من علم الله علمتيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال موسى : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ قال له الخضر : ﴿ فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾

﴿ قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسراً ﴾ . قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً .

قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين ، فقال له الخضر ما علمى وعلمك في علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان فأخذ رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له

موسى : ﴿ أَقْلَتِ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكِرًا ﴾ \* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتِكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ \* فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ : أَيْ مَائِلًا ، فَقَالَ الْخَضِرُ بِيَدِهِ ﴿ فَأَقَامَهُ ﴾ فَقَالَ مُوسَى : قَوْمُ أَتَيْنَاهُمْ فَلَمْ يَطْعَمُوا وَلَمْ يُضَيِّفُونَا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ \* قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأْنَبُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ( وَدَدْنَا أَنْ مُوسَى كَانَ صَبِيرًا حَتَّى يَقُصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِهِمَا )<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عَلِمْتُ ﴾ \* قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ \* وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴾ \* قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ \* قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ .

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْعَبْدِ الصَّالِحِ الْخَضِرِ الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ بِعِلْمٍ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ مُوسَى ، كَمَا أَنَّهُ أَعْطَى مُوسَى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَعْطِهِ الْخَضِرُ :

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَبِعَكَ ﴾ : سَوَالٌ تَلَطَّفَ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِتِّزَامِ وَالْإِجْبَارِ ، وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ سَوَالُ الْمُتَعَلِّمِ مِنَ الْعَالِمِ .

وقوله ﴿ أَتَبِعَكَ ﴾ : أَيْ أَصْحَبِكَ وَأَرِاقُفَكَ : ﴿ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عَلِمْتُ ﴾ \* : أَيْ مَا عَلِمَكَ اللَّهُ شَيْئًا أَسْتَرْشِدُ بِهِ فِي أَمْرِي ، مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ وَعَمَلٍ صَالِحٍ ، فَعِنْدَمَا ﴿ قَالَ ﴾ : : الْخَضِرُ لِمُوسَى ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ : أَيْ إِنَّكَ لَا تَقْدِرُ عَلَى مُصَاحِبَتِي لَمَّا تَرَى مِنِّي مِنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ، لِأَنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلِمَكَ اللَّهُ وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ مَا عَلِمْنِيهِ اللَّهُ ، فَكُلُّ مَنَا مَكْلَفٍ بِأُمُورٍ مِنَ اللَّهِ دُونَ صَاحِبَةٍ ، وَأَنْتَ لَا تَقْدِرُ عَلَى صَحْبَتِي ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَبْرًا ﴾ \* فَأَنَا أَعْرِفُ أَنَّكَ سَتَنْكَرُ عَلَيَّ مَا أَنْتَ مُعَذَّورٌ فِيهِ ، وَلَكِنْ مَا اطَّلَعْتَ عَلَى حِكْمَتِهِ وَمُصْلَحَتِهِ الْبَاطِنَةِ الَّتِي اطَّلَعْتَ أَنَا عَلَيْهَا دُونَكَ .

﴿ قَالَ ﴾ : أَيْ مُوسَى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ \* . أَيْ عَلَى مَا أَرَى مِنْ أُمُورِكَ . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ : أَيْ وَلَا أَخَالِفُكَ فِي شَيْءٍ .

فَعِنْدَ ذَلِكَ شَارَطَهُ الْخَضِرُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ قَالَ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ ﴾ : أَيْ إِبْتِدَاءً ﴿ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ : أَيْ حَتَّى أَبْدَأُكَ أَنَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَأَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِهِ عِزٌّ وَجَلٌّ فَقَالَ : أَيْ رَبِّ أَيْ عِبَادُكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : ( الَّذِي يَذْكُرُنِي وَلَا يَنْسَانِي ) . قَالَ : فَأَيُّ عِبَادِكَ أَقْضَى ؟ قَالَ : ( الَّذِي يَقْضِي بِالْحَقِّ وَلَا يَتَّبِعُ الْهَوَى ) قَالَ : أَيْ رَبِّ فَأَيُّ عِبَادِكَ أَعْلَمُ ؟ قَالَ : ( الَّذِي يَتَّبِعُ عِلْمَ النَّاسِ إِلَى عِلْمِهِ عَسَى أَنْ يَصِيبَ كَلِمَةً تَهْدِيهِ بِهَا إِلَى هَدًى أَوْ تُرَدِّدُهُ عَنْ رَدًى ) . قَالَ : أَيْ رَبِّ هَلْ فِي أَرْضِكَ أَحَدٌ أَعْلَمُ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة : ١٨ ، ٤ ، ٢ . والترمذي في تفسير سورة : ١٨ ، ١ .

منى ؟ قال : ( نعم ) قال : فمن هو ؟ قال : ( الخضر ) قال : وأين أطلبه ؟ قال : ( على الساحل عند الصخرة التي ينفلت عندها الحوت ) قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ماذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له موسى : إني أحب أصحابك . قال : إنك لن تطيق صحبتي . قال : بلى قال : فإن صحبتني ﴿ فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾

قال فسار به في البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس في الأرض ما هو أكثر ماء منه ، قال : ويث الله الخطاف فجعل يستقي منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزاً من هذا المال ؟ قال : ما أقل مارزاً . قال : ياموسى فإن علمى وعلمك في علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا المال .

وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تدلّم به ، فمن ثم أمر أن يأقى الخضر ، وذكر تمام الحديث في خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

قوله تعالى :

﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ . قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴿ : هذا إخبار من الله تعالى عن انطلاقيهما أى موسى وصاحبه وهو الخضر ، وأنهما توافقا وأصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه .

فركبا في السفينة . وقد تقدم في الحديث كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمه للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولججت أى دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل . ﴿ لقد جئت شيئاً إمراً ﴾ قال قتادة : عجباً ، فعندهما قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يعنى بهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر على فيها ، لأنك لم تحط بها خيراً ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت .

﴿ قال ﴾ أى موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ : أى لا تضيق عليّ ولا تشدد عليّ ، ولهذا تقدم في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال ( كانت الأولى من موسى نسياناً ) .

قوله تعالى :

﴿ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقنلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ؟ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴿ :

روى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس عن أئى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : ( رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب<sup>(١)</sup> ) ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴾ .  
وهكذا قتل الخضر الغلام ، وقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكية بغير نفس ﴾ والمراد بكومها زكية أن صاحبها لم يبلغ الحلم ، ولم يجر عليه القلم ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ : ينكره ذوو الأبواب .  
فكان رد الخضر عليه هذه المرة مشتملاً على تأكيد أشد : ﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ .

وقد خلا الرد الأول بعد خرقه السفينة من قوله لك ، لأنها كانت المرة الأولى لذا قال له موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدنى عذراً ﴾ .  
وهكذا كان أدب التلميذ مع الأستاذ ، فلأستاذ حقه في أن يوجه التلميذ ، وعلى المتعلم أن يقيم للأستاذ وزنه ، جاء في الأثر : (( تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه ))<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ :

وأتيا أهل قرية لا يعني ما اسمها ، لأن القرآن كما علمنا يهتم بالجواهر والحقائق ، ويهدف إلى الحكمة البالغة ، والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، ولو كان في تعيينها خير لذكره الله ، ولكن أهل هذه القرية كانوا لغاماً فأبوا أن يضيفوا هذين النبیین الجليلين ، فاعجب معى لقرية أبت أن تحسن ضيافة اثنين ، إن البخل داء وبيل ومرض اجتماعى خطير ، لكن العبد الصالح نظر إلى جدار يريد أن ينقض على الأرض ، فأسرع إليه فأقامه وعدّله ، مما جعل كلم الله موسى يقول له ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ إذ مثل هؤلاء الناس الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله ، ليسوا أهلاً لمعروف يسدى إليهم ، لقد رفضوا الضيافة فلا أقل من أن نأخذ الأجر على العمل .

فقال الخضر لموسى ﴿ هذا فراق بينى وبينك ﴾ : وهذا وفاء بالشرط الذى اشترطه موسى عندما قال له ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ﴾ : ثم قال له الخضر ﴿ سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ :

(١) أخرجه مسلم فى الفضائل : ١٧٢ . وأبو داود فى الحروف : ١

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٤ .

ثم أخذ يفصل ما أجل . فقال : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ :

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على خكمة باطنه ، فقال : إن السفينة إنما خرقها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة أى جيدة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها ليعيبا فيتفجع بها أصحابها المساكين ، الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل إنهم أيتام .

قوله تعالى : ﴿ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ :

قال قتادة في شأن هذا الغلام : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . إن حال المؤمن دائماً خيراً لأنه ينظر دائماً بعين البصيرة نظرة ثاقبة صائبة ، فيرى أمامه ، قوله جل شأنه : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تبارك اسمه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> إن المؤمن تدور حاله بين الصبر والشكر ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن . قال جل شأنه ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ياإلهى ما مسنى قدر بكره أو رضا  
إلا اهتديت به إليك طريقاً  
أمضى القضاء على الرضا منى به  
إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً  
شعاع من رضاك يطفى غضبة ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج  
أبشّر بخير فإن الفارج الله

(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٩ من سورة النساء .

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٥١ من سورة التوبة .

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه  
 لا تيأسن فإن الكافي الله  
 إذا بليت فثقف بالله وأرض به  
 إن الذي يكشف البلى هو الله  
 الله يحدث بعبد العسر ميسرة  
 لا تجزعن فإن الصانع الله  
 والله مالك غير الله من أحد  
 فحسبك الله في كل لك الله  
 صح في الحديث : ( لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له )<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فَأرَدْنَا أَنْ يَبْدُلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاتٍ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴾ : قال ابن جريج ، وقال قتادة : أبر بوالديه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ :

ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة و قتادة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية .

عن أبي ذر رفته قال : « إن الكنز الذي ذكره الله في كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجب لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجب لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجب لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة ، وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافي قول عكرمة : إنه كان مالا ، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مال جليل أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ : دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم إلى أعلى درجة في الجنة ، لتقر عينه بهم . وعن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وقوله : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ :

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١١٧ ، ١٨٤ .



ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال في الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَ لَهُمَا رَهِيمًا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً ﴾ : وقال في السفينة ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ، فالله أعلم .  
وقوله تعالى : ﴿ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ :

أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، ووالدى الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمرى ، أى لكنى أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ :

ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : ( إنما سُمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هى تهتز من خضراء ) .

والمراد بالقروة ههنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات .

### فائدة

كما أنه فسر له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل ، قال : ﴿ تَسْطِعْ ﴾ : وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ : فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ : وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ : وهو أشق من ذلك ، فقابل كلاهما يناسبه لفظاً ومعنى ، والله أعلم .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّقْسِيرِ

الجزء السادس عشر

المكتبة المصرية الحديث

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### قصة ذى القرنين

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ  
وَاءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ  
فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ  
حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨٧﴾  
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾  
حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ  
وَقَدْ أَحْطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا  
قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَبْدَأُ الْقَرْنَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي  
الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ  
فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ  
الْصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَبْعُوا  
أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّنْ رَبِّي فَلِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ  
دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ \* وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ  
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ ذكراً ﴾ : أى نبأ مذكوراً وهو القرآن . ﴿ ومكنه ﴾ : ومكن له كنصحه .  
﴿ ونصح له ﴾ : أى مهد له الأسباب وجعله قادراً على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى .  
﴿ سبباً ﴾ : أى طريقاً يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة . ﴿ حمئة ﴾ : أى ذات حمأة وهى الطين  
الأسود . ﴿ حسناً ﴾ : أى أمراً ذا حسن . ﴿ نكراً ﴾ : أى منكراً فظيعاً . ﴿ الحسنى ﴾ : أى المثوبة

الحسنى . ﴿ يسراً ﴾ : أى سهلاً ميسراً غير شاق . ﴿ سترأ ﴾ : أى بناء وكانوا إذا طلعت الشمس تغوروا فى المياه وإذا غربت خرجوا ﴿ خبرأ ﴾ : أى علماً يتعلق بظواهره وخفائيه . ﴿ السدين ﴾ : أى الجبلين ، ﴿ يفقهون ﴾ : يفهمون . ﴿ خرجا ﴾ : أى جُعلا من أموالنا على سبيل التبرع والخراج : ما لزمك أدأؤه . ﴿ بقوة ﴾ : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس . ﴿ ردماً ﴾ : أى حاجزاً حصيناً . ﴿ والردم ﴾ : أكبر من السد وأوثق . يقال ثوب مردم : أى فيه رقاع فوق رقاع . ﴿ وزبر ﴾ : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة . ﴿ الصدفين ﴾ : واحدها صدف وهو جانب الجبل . ﴿ قطراً ﴾ : أى نحاساً مذاباً وقيل رصاصاً مذاباً . ﴿ أن يظهره ﴾ : أى أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته . ﴿ رحمة ﴾ : أى أثر رحمة . ﴿ دكاء ﴾ : أى مثل دكاء وهى الناقة لا سنام لها والمراد بها الأرض المستوية . ﴿ حقاً ﴾ : أى ثابتاً واقعاً لا محالة . ﴿ يموج ﴾ : أى يضطرب اضطراب البحر . ﴿ والصور ﴾ : قرن ينفخ فيه .

### المناسبة وإجمال المعنى

هذه القصة رابعة ثلاث من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ؟ وعن فتية لا يدري ما صنعوا ؟ وعن الروح ؟ فترلت سورة الكهف .

### ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى ، تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف المسمى بالمعلم الأول ، الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية ، وكان من أهل مقدونيا ، وحارب الفرس ، واستولى على ملك دارا ، وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند ، وحارب هناك ، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية .

ويرى أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » : أنه من حمير ، واسمه أبوبكر بن إفريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه . والدليل على أنه حميرى أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق.م إلى ٥٥٢ ب.م من الطبقة الثانية ، وملوكها يسمون التياغة ، واحدهم تبع (بضم التاء وتشديد الباء) .

### يأجوج ومأجوج

﴿ يأجوج ﴾ : هم التتر . ﴿ ومأجوج ﴾ : هم المغول . . . وأصلهما من أب واحد يسمى « ترك » وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض ، ودمروا كثيراً من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التي انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ، وذهبت إلى أوروبا في العهد القديم ، كأمة التحيث والسمريان والهن ، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التي كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزلوا في حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة « تموجين » الذي لقب نفسه « جنكيز خان - ملك العالم » بلغة المغول .

فخرج في أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة ، والجبال الشاهقة التي في آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولاً ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين ابن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خوارزم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يسمع بمثله في التاريخ .

ولما مات جنكيز خان قام مقامه ابنه « أقطاي » وأغار ابن أخيه « باتو » على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ، ودمر بولنيا وبلاد المجر ، وأحرق وخرب .

وبعد أن مات أقطاي قام مقامه « جالوك » فحارب الروم ، وألزم ملكها دفع الجزية . ثم مات « جالوك » فقام مقامه ابن أخيه « منجو » فكلف أخويه « كيلاي » و « هولوكو » أن يستمرا في طريق الفتح ، فأخضع كيلاي بلاد الصين ، وزحف هولوكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة في أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام ، سالت فيها الدماء أنهاراً ، وطرحوا كتب العلم في دجلة ، وجعلوها جسراً يمرّون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا وأوروبا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشأوا أربع ممالك ، فاخضعت أسرة كيلاي بالصين والمغول ، وملك جافاقاي أخو أقطاي تركستان ، وملك ذرية باطرخان البلاد التي على شواطئ نهر فلجا ، وصارت الروسية تدفع لها الجزية زمناً طويلاً ، وأخذ هولوكو بلاد الفرس وبغداد حتى بلاد الشام ، وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف ، وابن خلدون ، ورسائل إخوان الصفا .

### سد ذي القرنين

كانت البلاد التي شرقي البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة « السلاف » وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة « باب الأبواب » أو « دربت » بجبل قوقاف ، وقد كشفوه في القرن الحاضر ، وهو غير السد الشهير الذي بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون في عمالة « بلخ » واسمه « باب الحديد » بمقربة من مدينة « ترمذ » وقد اجتازه تيمور لنك بجيشه .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلاً ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقاً ، وهي إحدى المعجزات التي أيدها التاريخ ، وعلم تقويم البلدان .

وقد قال النبي ﷺ : ( ويل للعرب من شر قد اقترب )<sup>(١)</sup> .

وقد صدق رسول الله ، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب ، وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقي خليفة رسمي في مصر ، وزال ملكهم بتاتا في حدود الألف ، وتفرق ملك الاسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وقد كَوّن أولئك التتار أغلب المسلمين في الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾ : أى تسألك قریش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .  
﴿ قل سأتلوا عليكم منه ذكراً ﴾ : أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصاً وافياً جامعاً لما تريدون ، أعلمنيه ربي وأخبرني به .

ثم فصل ذلك فقال : ﴿ إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ :  
أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وآتيناه من كل شيء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقاً يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التي توصله إلى ذلك .

﴿ فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ :  
أى فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقاً يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة المحيط الأطلنطي « المحيط الأطلسي » وجد الشمس تغرب في عين حمئة ، وطين أسود .

وخلاصة ذلك :

أنه بلغ بلاداً لا بلاد بعدها . تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلا ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ، ووصل إلى البحر ، فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون ، كأنه طين وماء .

﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ : أى ووجد عند تلك العين قوماً كفاراً ، فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله :

﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً ﴾ :

أى قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم إن هم لم يقرؤا بوحدانيتي ، ويدعونا لك فيما تدعوهم

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء : ٧ ، وفي المناقب : ٢٥ ، وفي الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم في الفتن : ١ . وأبو داود في الفتن : ١ .  
والترمذي في الفتن : ٢٣ . وابن ماجه في الفتن : ٩ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٤١ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، وفي ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

إليه من طاعتي ، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد ، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

﴿ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ :

أى قال ذو القرنين لبعض خاصته ويطانته : أما من ظلم نفسه فأصر على الشرك بربه ، فسنعذبه بالقتل ، ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذاباً منكرًا فى نار جهنم .

﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسراً ﴾ :

أى وأما من صدق بالله ووحدانيته ، وعمل عملاً صالحاً فى الدارين ، فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقاً على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه ، وسنعلمه فى الدنيا ما ييسر لنا تعليمه مما يقربه إلى ربه ، ويلين له قلبه ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

﴿ ثم أتبع سبباً \* حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ :

أى ثم قفل راجعاً من مغرب الشمس ، وسلك طريقاً موصلًا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولاً من المعمور وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكتهم ، ولا أشجار تظلهم وتستترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لا تحمل بنايانا ، بل لهم سرور يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك :

إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ، ووجد قومًا لا لباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء ، أوفى سراديب فى الأرض .

﴿ كذلك ﴾ : أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن ، وبسطة الملك ، مما لم يتح لكثير غيره .

﴿ وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ : أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا شئ منها ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ، كما قال : ﴿ لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء ﴾ <sup>(١)</sup> .

وخلاصة ذلك : أنه كما وصف ، وفوق ما وصف ، بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

﴿ ثم أتبع سبياً ﴾ : أى ثم سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال .

﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ :

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون يفهمون كلام أتباعه ، ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وفحوى الحال .

﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ :

أى قال مترجموهم : إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب ، وأخذ الأقوات ، وسائر ضروب الإفساد .

﴿ فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ :

أى فهل تحب أن نجعل لك جعلاً من أموالنا ، فتجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا ؟

وخلاصة ذلك : أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً .

﴿ قال ما مكنى فيه ربى خير ﴾ : أى قال ذو القرنين : إن ما مكنى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ، خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمان عليه السلام : ﴿ أتمدنون بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ﴾ (١) .  
والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا ، ما دامت قادرة على إغايتها .

وخلاصة ذلك : ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

﴿ فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ :

أى ولكن ساعدونى بفعلة ، وصنّاع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً ، أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

﴿ آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً ﴾ :



أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ بينى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا جعل ما بين جانبى الجبلين من البنيان مساوياً لهما فى العلو ، قال للعملة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ، ففعلوا وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالاً وتوهجاً ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد ، وصار جبلاً صلباً .

﴿ فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ :

أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد ، لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخائنه .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ :

أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزاً بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، يمنعهم من أن يعيشوا فى الأرض فساداً .

﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ :

أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضاً مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

قوله تعالى : ﴿ وكان وعد ربى حقاً ﴾ :

أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقاً ثابتاً لا ريب فى تحقيقه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيز خان وسلائله ، فعاثوا فى الأرض فساداً من الشرق والغرب ، وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيز خان أن سلطان خوارزم السلجوقى قتل رسله . وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم ، وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ وكتب إلى السلطان كتاباً قال فيه : كيف تجرأت على أصحابى ورجالى وأخذت تجارتى ومالى ؟ . . أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم ( وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيكم وعن ظلم الضعيف غويكم أو مابلغكم مرشدوكم ) (اتركوا الترك ما تركوكم) (١) .

وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به إلا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياى إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم وينسلون عليكم يأجوج ومأجوج من كل حذب .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : ( لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا

وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها . قالتها زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون . فقال : نعم إذا كثرت الخبث (١) .

﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ﴾ .

أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ، ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فى سورة الأنبياء : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ (٢) أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيز خان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى .

﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ :

أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فى الصور ، وجمعنا الناس جمعا ، وأحضرناهم للحساب ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين \* لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ (٣) .

### مواقف ومشاهد

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٣﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٤﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا يَتَرَبَّاهُمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزْنًا ﴿٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿٧﴾

المفردات : ﴿ عرضنا ﴾ : أى أظهرنا وأبرزنا . ﴿ غطاء ﴾ : أى غشاوة محيطة بها . ﴿ عن ذكرى ﴾ : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدي وتمجيدى . ﴿ أولياء ﴾ : أى معبودات يقونهم بأسى . ﴿ أعتدنا ﴾ : هيأنا . ﴿ نزلا ﴾ : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم . ﴿ ولقائه ﴾ : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك . ﴿ الهزؤ ﴾ : السخرية والاحتقار .

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم فى الفتن : ١ ، ٢ . والترمذى فى الفتن : ٢١ ، ٢٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٩ . والامام مالك فى الكلام : ٢٢ . الامام أحمد فى ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٢) الآية ٩٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً ﴾ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴿ :

أى أظهرناها واضحة أمام المجرمين لا يستطيعون إنكارها ، قال تعالى : ﴿ يوم يُدْعون إلى نار جهنم دُعاً ﴾ هذه النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿ (١) .

وقال جلّ شأنه : ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿ (٢) .  
جاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ( يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك ) .

وجلّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ للطاغين مآباً ﴾ لا بشين فيها أحقاباً ﴾ لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً ﴾ إلا حميماً وغساقاً ﴾ جزاء وفاقا ﴾ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴿ (٣) .

إن هؤلاء الطاغين حجبت أعينهم عن رؤية الحق ، فكانت فى غطاء مانعا لهم من ذكر الله ومعرفته ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، ولا يعقلون عن أمر الله أمراً ولا نهياً ، كما قال جلّ شأنه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ (٤) .

كما قال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٥) .  
وكما قال جل شأنه : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (٦) .

وهذا جزاء عادل لكل من قال الله فيهم : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً ﴾ :

(٥) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٧) الآيات ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزخرف .

(١) الآيتان ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .

(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .

(٤) الآية ١٠ من سورة الملك .

أغفل هؤلاء فظنوا أن يتخذوا عبادى كالملائكة ، والمسيح ، وعزير ، أولياء ومعبودات لهم من دونى ليكونوا لهم أعوانا وأنصارا ، إنهم بذلك قد تنكبوا الطريق . وحادوا عن الصراط السوى .

لقد نسوا أو تناسوا أنا أعتدنا لهم جهنم ، مكاناً ينزلون به يأكلون ويتمتعون فى هذا النزول من جحيم وزقوم وغسلين وغساق وحميم وضريع ، قال تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ (١) فلو كانوا يعقلون عن الله أحكامه لآمنوا به وحده ، وما اتخذوهم أولياء .

قوله تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً \* أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً \* ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً .

أى قل هل نخبركم بالأخسرين أعمالاً ؟

ثم أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال إجابة شافية وافية كافية ، تشمل كل من عبد الله على غير الطريق التى جاء بها رسوله .

قال تعالى : ﴿ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ :

هؤلاء لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال جل شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (٢) :

إذ لكى يقبل الله العمل لابد أن يكون صواباً خالصاً ، فهؤلاء الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه لم يكونوا على صواب ، ولم يكونوا مخلصين ، فحق فيهم قوله جل شأنه : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ عاملة ناصبة \* تصلى ناراً حامية \* تسقى من عين آنية ﴾ (٣) .

إن هؤلاء الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، هم الذين حكم الله عليهم بقوله : ﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾ :

والآيات هنا هى الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته وكماله ، سواء أكانت كونية أو تنزيلية ، ولما كان أمرهم كذلك كان جزاؤهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ . إذ ليس لديهم من الأعمال ما يثقل موازينهم ، فهم الأخسرون أعمالاً الذين خفت موازينهم ، كما قال جل شأنه : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحنون ﴾ (٤) .

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( لىأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرءوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ ) (٥) .

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات ٢ - ٥ من سورة الغاشية .

(٤) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٨ : ٦ . ومسلم فى المنافقين : ١٨ .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : ( يؤتى بالرجل الأكل الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها ) :

قال : وقرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

روى البزار بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قریش يخطر في حلة له فلما قام على النبي ﷺ قال : ( يا بريدة هذا ممن لا يقيم له يوم القيامة وزنا ) . ثم بين الله تعالى جزاء هؤلاء فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ :

فقد بين سبحانه وجه العدالة في جزاء هؤلاء ، فقال ﴿ بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ فالكفر بالله يحبط الأعمال ، فما بالك إذا أضافوا إلى كفرهم الاستهزاء بآيات الله ورسله ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴿ (١) .

قال جل شأنه : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴿ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون ﴿ (٣) .

### جزاء المؤمنين

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي لَنفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ؕ أَحَدًا ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ الفردوس ﴾ : البستان . ﴿ حولا ﴾ : أى تحولا . ﴿ والمداد ﴾ : ما يمد به الشئ ، واختص بما تمد به الدواة من الحبر . ﴿ كلمات ربي ﴾ : معلوماته غير المتناهية . ﴿ والرجاء ﴾ : طمع حصول ما فيه من مسرة مستقبلة ﴿ ولقاء ربه ﴾ : هو البعث وما يتبعه .

(١) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة التوبة .

(٢) الآيات ١٠٥ - ١١٠ من سورة المؤمنون .

(٣) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة المطففون .

بعد أن بين الله تعالى جزاء الكافرين قفى بجزاء المؤمنين ، وهكذا يقرن الوعد بالوعيد ليطمئِنَّ التَّوَّابِينَ والترهيب والخوف والرجاء فى صورته الكاملة فإذا كان جزاء الكافرين جهنم ، فإن الذين آمنوا ، وضموا إلى الإيمان الأعمال الصالحة أعد الله لهم جنات الفردوس نزلاً وضيافة ، وما أدراك ما الفردوس ؟!

روى سعيد بن جبيرة عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ : ( الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها ) .

وجاء فى الصحيحين : ( إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة )<sup>(١)</sup> . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس . فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى )<sup>(٢)</sup> .

لا تتركفن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفئنا ويفئها فاعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشئها قصورها ذهب والمسك طبتها والزعفران حشيش نابت فيها قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا ييغون عنها حولا ﴾ :

وتلك نعمة أخرى يمن الله بها على عباده المؤمنين نعمة الخلود فى الجنة ، ففى الخلود استقرار وأمن وطمأنينة وسكينة وأمان ، قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون \* ادخلوها بسلام آمين \* ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين \* لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين \* فى جنات وعيون \* يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين \* كذلك وزوجناهم بحور عين \* يدعون فيها بكل فاكهة آمين \* لا يدوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم \* فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

فكيف ييغون تحولا عن هذا المقام الأمين ، وهم فيه آمنون ، لا صخب ولا نصب ولا غل ولا حسد ولا شحنا ولا بغضاء : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله \* لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٩ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، وفى ٥ : ٢٤١ ، ٣٢١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٢ . والترمذى فى الجنة : ٤ ، وفى تفسير سورة ٥٧ ، ٦٩ ، ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٧ ، وفى

١٩٧ : ٢ .

(٣) الآيات ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر . (٤) الآيات ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان . (٥) الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ :

لو تحولت أشجار الأرض إلى أقلام يُكتب بها ، وتحول البحر إلى مداد ، ويمده من بعد ذلك سبعة أبحر لنفد البحر والأبحر التى تمده ، وما نفدت كلمات الله التكوينية . ومعلوماته التى سبقت فى علمه الأزلى ، لأن تلك الأقلام والبحار متناهية ، وعلم الله لا يتناهى .

فما السموات والأرض بالنسبة للكرسى إلا حلقة فى فلاة . وما الكرسى بالنسبة للعرش إلا حلقة فى فلاة ، وما العرش بالنسبة لما فى علم الله إلا حلقة فى فلاة : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم \* ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير \* ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير \* ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ (١) .

وجلّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر \* وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٢) .

وإذ يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٣) .

ذكر الشيخ المراغى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ :

أثبت العلم الحديث ما يتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسمائية ما لا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتمت إليها العلماء فى العصر الحاضر : قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة « بنسلفانيا » بأمريكا فى ٧ من مارس ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

- ١ - إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .
- ٢ - إن الإنسان لم يعيش على الأرض منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .
- ٣ - إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريباً ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .
- ٤ - الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الانسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته وفق حال الكرة الأرضية إذذاك .

(١) الآيات ٢٧ - ٣٠ من سورة لقمان .

(٢) الآيتان ٤٩ - ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

- ٥ - مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل في علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجهاً إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفي مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض في الماضي .
- ٦ - الأجرام التي حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذي بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .
- ٧ - الأجرام العلوية التي نراها والتي لا نراها كروية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .
- ٨ - الإشارات اللاسلكية التي تنبعث من جهاز لاسلكي كبير تدور حول الكرة الأرضية في أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التي بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا .
- ٩ - إننا لو صنعنا منظراً قوياً ( تلسكوباً ) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التي كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .
- ١٠ - إن الإنسان اليوم طفل في العلوم ، وربما علم في المستقبل مالا يتخيله الآن .
- ١١ - إن سرعة النور في الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله في ذلك الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شيء واحد في جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروي مائة ألف مليون نسمة ، أي إن النور يدور في هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذي مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض في سبع ثانية فما أبعد النسبة بين سبع ثانية وبين مائة ألف مليون سنة . إلا أن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أي نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروي .
- ١٢ - الشمس أكبر من الأرض حجماً بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هي إلا حبة رمل على شاطئ هذا الفضاء الكروي ، وهي واحدة من أسرة من أسر الكائنات التي في الفضاء الكروي التي قدرها العلامة ( سيرز ) بثلاثين ألف مليون مجموعة وشمسنا وتوابعها حبة رمل في مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .
- ١٣ - إن هناك سُدمًا لولبية في خارج المجرة ، وهي مجموعة من النجوم التي تم نشوءها أولاً تزال في طور التكوين ، وفي بعضها من المادة ما يكفي لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .
- ١٤ - يقول ( هويل ) إن مِرْقَب ( تلسكوب ) مونت ويلسون بأمريكا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مِرْقَب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة ما يكفي لخلق ملايين الشمس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التي تسبح في الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفراً ، وهذا العدد يغطي الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمطار .
- ١٥ - أضعف النجوم المعروفة هي نجم ( وولف ) ونوره جزء من عشرين جزءاً من نور الشمس ،



ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس . وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض وأكبر النجوم الجوزاى ، وهى أكبر من الشمس خمسة وعشرين مليون مرة ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباب) .

١٦ - إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصاناً من كل بوصة مربعة ، وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشع نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

١٧ - إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، ففى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

١٨ - يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين ملايين السنين دون أن تنطفئ .

١٩ - عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف مليون سنة إلى عشرة آلاف مليون سنة .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شئ منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنّما إلهمك إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ :

روى الطبرانى بسنده عن عمرو بن قيس الكوفى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت فى سورة الكهف .

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه ( قل ) لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ( إنما أنا بشر مثلكم ) فمن زعم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتكم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الأمر لولا ما أطلعنى عليه وإنما أخبركم ﴿ أنّما إلهمك ﴾ الذى أدعوكم إلى عبادته ﴿ إله واحد ﴾ لا شريك له .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أى ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له .

وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

وقد روى ابن أبي حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزري عن طاوس قال : قال رجل « يا رسول الله إنني أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يري موطني فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت هذه الآية ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ » .

روى البخارى ومسلم أن النبي ﷺ قال : ( من سمع سمع الله به ، ومن يرائى يرائى الله به )<sup>(١)</sup> .  
أى من عمل عملاً مراعاة للناس ، وليشتهر به شهره الله به يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه »<sup>(٢)</sup> .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال : ( كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثرت المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : ( ما هذه النجوى ؟ ) قال : فقلنا : تبنا إلى الله أى نبي الله ، إنما كنا فى ذكر المسيح وفرقنا منه . فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندي ؟ قال : قلنا بلى . قال : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل ليصلى لمكان الرجل »<sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد يعنى ابن بهرام قال : قال شهر بن حوشب : قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة ابن الصامت فأخذ يمينى بشماله ، وشمال أبى الدرداء بيمينه ، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة ابن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين يعنى من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، ونزله عند منزله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت .

قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من الشهوة الخفية والشرك )<sup>(٤)</sup> فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ، ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يشن أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها ، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟ فقال شداد : رأيتم لورأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله ، إن من صلى أو صام أو تصدق له لقد أشرك . فقال شداد : فإننى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٦ ، وفى الأحكام : ٩ . ومسلم فى الزهد : ٤٧ ، ٤٨ . والترمذى فى النكاح : ١١ . وفى الزهد :

٤٨ . وابن ماجه فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٠ ، وفى ٥ : ٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ . والإمام فى الزهد : ٢١ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٦ .

صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك (١) . قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ، ويدع ما أشرك به ، فقال شداد عند ذلك : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى من أشرك بى شيئاً فإن عمله قليلة وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى ) (٢) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبادة بن نسي عن شداد بن أوس رضى الله عنه أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال شىء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكاني سمعت رسول الله ﷺ يقول ( أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية ) .

قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك قال : ( نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه ) (٣) .

ورواه ابن ماجة من حديث الحسن بن ذكران .

وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك من أشرك بى أحدا فهو له كله ) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال ( أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك ) (٤) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال ( إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ) قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : ( الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزی الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبي سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ، وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

( إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك ) أخرجه الترمذى وابن ماجة .  
وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بكره رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من سمع سمع الله به ومن رأى رأى الله به ) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : ( من يرائى يرائى الله به ومن يسمع يسمع الله به ) .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

(٣) أخرجه الأئمة أحمد فى : ١٢٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( تعرض أعمال بنى آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة فيقول الله : ألقوا هذا : واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرا . فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي ) .

وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل ) .  
وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ فى ليلة : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ الآية . كان له من النور ما بين عدن إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة ) .



## سورة مريم

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية إجماعياً ، وعدد آياتها تسع وتسعون ، وكلماتها ألف ومائة واثنان وتسعون ، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنان .

ولهذه السورة إسمان : سورة كهيعص لافتتاحها بها ، وسورة مريم لاشتغالها على قصتها مفصلة .

## مقصود السورة

معظم المراد منها على سبيل الإجمال ، وعد الله العباد بالكناية والهداية ، وإجابة دعاء زكريا والمنة عليه بولد : يحيى ، وإعطائه علم الكتاب ، وذكر عجائب ولادة عيسى وأمه ، والخبر عن أحوال القيامة .

ونصيحة إبراهيم لآزر ، ومناظرة آزر له .

والإشارة إلى قربة موسى ، وذكر صدق وعد إسماعيل ، وبيان رفعة درجة إدريس ، والشكوى من الولد الخلف ، وحكاية أهل الجنة ، وذل الكفار في القيامة ، ومرور الخلق على عقبة الصراط ، وابتلاء بعضهم بالعذاب .

والرد على الكفار في افتخارهم بالمال ، وذل الأصنام . وعبادها في القيامة .

وبيان حال أهل الجنة والنار وصعوبة قول الكفار في جرأتهم على إثبات الولد والشريك للواحد القهار ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه ، وتهديد الكفار بعقوبة القرون الماضية ، في قوله : ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ .

## المتشابهات

قوله تعالى :

﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ .

وبعده :

﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ .

لأن الأول في حق يحيى ، وجاء في الحديث : ( ما من أحد من بنى آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى بن زكريا ، عليهما السلام ) ، فنفي عنه العصيان .

والثاني في حق عيسى عليه السلام ، فنفى عنه الشقاوة ، وأثبت له السعادة ، والأنبياء معصومون من الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾ في قصة يحيى ﴿ والسلام على ﴾ في قصة عيسى ، فنكر في الأول ، وعرف في الثاني ، لأن الأول من الله تعالى والقليل منه كثير ، كقول القائل : قليل منك يكفيني ولكن قليلك لا يقال له قليل ولهذا قرأ الحسن ﴿ اهدنا صراطاً مستقيماً ﴾ أى نحن راضون منك بالقليل .

والثاني من عيسى ، والألف واللام لاستغراق الجنس ، وقيل إنما أدخل الألف واللام ، لأن النكرة إذا تكررت تعرفت .

وقيل : نكرة الجنس ومعرفته سواء ، تقول : لا أشرب ماء ، ولا أشرب الماء ، فهما سواء . قوله : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا ﴾ وفي حم ﴿ للذين ظلموا ﴾ لأن الكفر أبلغ من الظلم .

وقصة عيسى في هذه السورة مشروحة ، وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله تعالى حين قال : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ فذكر بلفظ الكفر ، وقصته في الزخرف مجملة ، فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم . قوله تعالى : ﴿ وعمل صالحاً ﴾ وفي الفرقان ﴿ وعمل عملاً صالحاً ﴾ ، لأن ما في هذه السورة أوجز في ذكر المعاصي ، فأوجز في التوبة ، وأطال ( هناك فأطال ) ، والله أعلم .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ١ ذَكَرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكِرِيَّا ٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدًا خَفِيًّا ٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٦ يَزَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ٩ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ لَيَالٍ سَوِيًّا ١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١ يَلْبِغِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ١٢ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ١٣ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ١٤ وَسَلَامٌ

عَلَيْهِ يَوْمٌ وَلِدَ وَيَوْمٌ يَمُوتُ وَيَوْمٌ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

### مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها لسورة الكهف أنها اشتملت على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص ، كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

المفردات : ﴿ زكريا ﴾ : ( يمد ويقصر ) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا .  
 ﴿ نادى ربه ﴾ : أى دعاه . ﴿ خفيا ﴾ : أى مستورا عن الناس لم يسمعه أحد منهم . ﴿ وهن العظم ﴾ : ضعف ورق من الكبر . إذ قد بلغ خمسا وسبعين سنة أو ثمانين . ﴿ واشتعل الرأس شيئا ﴾ : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه . ﴿ شقيا ﴾ : يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة .  
 ﴿ الموالى ﴾ : هم عصبة الرجل . ﴿ من ورائى ﴾ : أى من بعدى ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين . ﴿ وليا ﴾ : أى ولدا من صلبى . ﴿ ويعقوب ﴾ : هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم وكان زكريا متزوجا أخت مريم بنت عمران . ﴿ رضى ﴾ : أى مرضيا عندك قولاً وفعلًا . ﴿ سميا ﴾ : أى شريكا له فى الاسم فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله . ﴿ أنى ﴾ : أى كيف . ﴿ عتيا ﴾ : من عتا يعتو : أى يست مفاصله وعظامه . ﴿ شيئا ﴾ : أى موجودا . ﴿ آية ﴾ : علامة . ﴿ سويا ﴾ : أى سوى الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس . ﴿ المحراب ﴾ : المصلى . ﴿ أوحى ﴾ : أى أوما وأشار . ﴿ سبحوا ﴾ : أى صلوا . ﴿ بكرة وعشيا ﴾ : صلاة الفجر والعصر . ﴿ الكتاب ﴾ : هو التوراة . ﴿ والقوة ﴾ : الجد والاجتهاد . ﴿ والحكم والحكمة ﴾ : الفقه فى الدين . ﴿ وحنانا ﴾ : أى عطفًا على الناس . ﴿ وزكاة ﴾ : أى طهارة من الذنوب والآثام . ﴿ تقيا ﴾ : أى مطيعا لأمر ربه منتهيا عما نهى عنه . ﴿ وبراً بالديه ﴾ : أى كثير البر والإحسان إليهما . ﴿ جبارا ﴾ : أى متعاليا عن قبول الحق والإذعان له . ﴿ عصيا ﴾ : أى مخالفاً أمر مولاه . ﴿ سلام ﴾ : أى أمان من الله عليه .

روى محمد بن إسحق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة : أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

قوله تعالى : ﴿ كهيعص ﴾ : حروف هجائية تشير إلى إعجاز هذا القرآن العظيم الذى نزل بها : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ : أى مما نقصه عليك فى هذا الكتاب يا محمد ، ذكر رحمة ربك عبده ونبيه زكريا ، حين نادى ربه ودعاه نداء ودعاء خفياً . وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد ، وقت الكبر والشيخوخة ، فماذا قال زكريا فى دعائه ؟

﴿ قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً \* وإني خفتُ الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً \* يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ﴾ .

أى ضعفت وخارت القوى ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ أى اضطرم المشيب فى السواد ، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة .

﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ لأنك لم ترد دعوتى كما عهدتك سمياً قريباً تجيب المضطر إذا دعاك ، وتكشف سوء عمن ناداك .

قوله تعالى : ﴿ وإني خفتُ الموالى من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً ﴾ .

أى خشيت العصيات من بعدى أن يغيروا ويبدلوا فى ميراث النبوة ، فأسألك ولداً صالحاً يرثني ويرث من آل يعقوب ويقوم على ميراث النبوة قياماً صحيحاً مستقيماً ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك ، تقياً نقياً ، لا جباراً ولا عصياً ولا شقياً .

قوله تعالى : ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ .

أى فاستجاب الله له وأجاب دعاءه ، فبشرته الملائكة بغلام اسمه يحيى ، وذلك كقوله جل شأنه فى سورة آل عمران ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فناده الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً نبياً من الصالحين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ : أى لم نسّم أحداً قبله بهذا الاسم .

﴿ قال ربى أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ .

أى على أى وضع ، وعلى أية حال سيولد لى ، هل سأعود شاباً وتعود امرأتى كذلك ، أم ستهب لنا الغلام ونحن على ما نحن عليه من كون امرأتى عاقراً ، ومن كونى قد طعنت فى السن ، ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، إذا فلم يكن هذا الاستفهام استفهام استبعاد شىء عن قدرة الله ، بل كان استفهاماً عن الحال التى سيكون عليها عندما يرزق الغلام ، لذا جاء الرد ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ .

أى الشأن والأمر كما أراد الله فإن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإن الذى



أوجدك من العدم قادر أن يهبك الغلام ﴿ الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ \* أوزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴿ (١) وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليمًا قديرًا .

﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً ﴾ \* فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيًا ﴿ :

أى اجعل لى علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى ، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴿ (٢) :

﴿ قال آيتك ﴿ : أى علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً ﴿ أى أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليالٍ ، وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة .

قال بعض المفسرين : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . وقال زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة . كما قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ قال رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإبكار ﴿ (٣) .

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴿ : أى الذى جاءته البشرى فيه ، فأشار إلى قومه إشارة موحية بالأمر لهم أن يسبحوا بكرة وعشيًا ، طرفى النهار : أوله وآخره . وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام ، أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب ، فى مجرى العادة ، فسروا به .

قوله تعالى : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً ﴾ \* وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً \* وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ \* وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴿ : أى فلما ولد له هذا الغلام ، وبلغ مبلغ العقلاء ، قلنا له : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، أى التوراة بقوة وعزيمة وجد وحرص واجتهاد ، ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ : أى الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ أى رحمة من عندنا ، وزكاة أى طهراً ونقاء وكان تقياً يخاف ربه ويخشاه .

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٤١ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ : وهذا أثر من آثار رحمة الله به ، فقد كان براً وفيماً رحيماً مطيعاً لوالديه ، كما وهبه الله من الزكاة والطهر والصفاء والنقاء والتقوى ولم يكن جباراً ولا غليظاً ولا فظاً ، ولم يكن عصياً متمرداً على حدود الله ، وسلاماً عليه من الله يوم ولد ، وأمان وسكينة عليه يوم يموت ، ورحمة ونجاة له يوم يبعث حياً ، وكذلك تجزى المحسنين .

### قصة مريم

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِغَيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

المفردات : ﴿ اتَّخَذَتْ ﴾ : أى اعتزلت وتحت . ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ : أى شرقى بيت المقدس . ﴿ حجاباً ﴾ : أى ساتراً توارت به منهم . ﴿ روحنا ﴾ : هو جبريل عليه السلام . ﴿ سويّاً ﴾ : أى سوى الخلق كامل البنية . ﴿ أعوذ ﴾ : أى أعتصم وألتجىء . ﴿ تقياً ﴾ : أى مطيعاً . ﴿ لأهب لك ﴾ : أى لأكون سبباً فى هبته . ﴿ غلاماً ﴾ : أى ولداً ذكراً . ﴿ زكياً ﴾ : أى طاهراً من الأدناس والأرجاس . ﴿ أنى ﴾ : أى كيف يكون ذلك . ﴿ آية ﴾ : أى علامة على قدرة خالقكم . ﴿ مقضياً ﴾ : أى محتوماً قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

بعد أن ذكر زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولداً زكياً مباركاً ، أردف ذلك بذكر قصص مريم ، وأنه أنجب منها ولداً من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران ، وهنا ، وفى الأنبياء .

وبداً بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات ، من خلق الولد بلا أب ، ثم ثنى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم والتدرج بالانتقال من الأقرب منلاً إلى أصعب منه ، وهكذا صُعدا .

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ .

أي وائل أيها الرسول في كتاب الله الذي أنزله إليك بالحق ، قصص مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها ، وانفردت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إني لأعلم خلق الله لأى شيء اتخذ النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؟ .

﴿فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ :

أي فاتخذت من دون أهلها سترأ يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليكلّمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسىً وغماً ، وإنما مثل لها بهذا المثال ، لتأنس بكلامه ، وتلقى منه ما يلقي إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لفرت ، ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

﴿قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ :

أي فلما رأت أنه فزعته منه وقالت : إني أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حرّم الله عليك ، إن كنت ذا تقوى له . تتقى محارمه ، وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

إنه لما تبدى لها في صورة البشر وهى في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدّها على نفسها ، فقالت : إني أعوذ بالله منك إن كنت تخافه . وقد فعلت المشروع في الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك : أن الاستعاذة لا تؤثر إلا في التقى ، لأن الله تعالى يُخشى في حال دون حال ، فهو كقوله : ﴿وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين﴾<sup>(١)</sup> أي أن الإيمان يوجب ذلك . فلما علم جبريل خوفها :

﴿قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ : أي فقال الملك مجيئاً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها ، لست ممن تظنين ، لا يقع منى ما اتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاماً طاهراً مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ في جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

﴿قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً﴾ :

أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور منى الفجور ؟ ﴿ قال كذلك قال ربك هو على هين ﴾ : أى قال الملك مجيباً لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكونى ذات بعل ولا تقتربين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريد ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى المواد والآلات . ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) .

﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ : أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهاناً على قدرتنا ، فلقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولين أشاد القائل :

رُب مولود وليس له أب وذى ولد لم يلد له أبوان

﴿ ورحمة منا ﴾ : أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبذل : ﴿ ما يبذل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ (٢) .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ﴿ (٢٣) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿ (٢٤) وَهَزَى إِلَيْكِ جِذْعَ النَّخْلَةِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿ (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿ (٢٦)

المفردات : ﴿ فانتبذت ﴾ : أى فاعتزلت ، ﴿ قصياً ﴾ : أى بعيداً عن أهلها وراء الجبل ، ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ : أى فأجأها واضطرها ، ﴿ والمخاض ﴾ : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن . ﴿ والنسى ﴾ : ( بفتح النون وكسرهما ) الشئ الحقيق الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالولد والجبل . ﴿ والمنسى ﴾ : مالا يخطر بالبال لتفاهته ، ﴿ والسرى ﴾ : السيد الشريف ، ﴿ والهز ﴾ : تحريك الشئ بعنف أو بدونه . ﴿ تساقط ﴾ : أى تسقط . ﴿ رطباً ﴾ : أى بساً ناضجاً . ﴿ جنياً ﴾ : أى صالحاً للاجتماع . ﴿ فقولى ﴾ : أى أشيرى إليهم . ﴿ صوماً ﴾ : أى صمتاً .

(١) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٩ من سورة ق .

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ : أى فلما قال لها جبريل ما قال استسلمت لقضاء الله ، فنفخ جبريل فى درعها ، فدخلت النفخة فى جوفها فحملته ، قاله ابن عباس .  
وقال غيره : نفخ فى كمها والقرآن قد أثبت النفخ فقال : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾ (١) .  
ولم يعين موضع النفخ ، فلا نجزم بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع . وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام فكان قصياً عن الناس .  
والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل ، فنقول أنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنّها حينئذ إذ لا تتعلق به كبير فائدة .  
إنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها ، وهى من سلال بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالرية ، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها .

﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ :  
أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به ، لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت حياء من الناس ، وخوفاً من لائمهم ، أو كانت شيئاً لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

﴿ فناداهما من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ :

أى فناداهما عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى ، وسعيد بن جبیر .  
وقد أنطقه الله حين وضعته طبيباً لقلبها وإزالة للوحشة عنها ، حتى تشاهد بادئ ذى بدء علوشان ذلك المولود ، الذى بشرها به جبريل عليه السلام ، ألا تحزنى قد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاماً رفيع الشأن ، سامى القدر ، ذا سخاء فى مروءة .

﴿ وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ :

أى أملى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يسقط عليك رطباً جنياً تأكلين منه ما تشائين .  
وتلك آية أخرى لها ، إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر ، وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقاً فجعل للنخلة رأساً وخصاً ، وجعل لها ثمر رطباً ، وهذه رواية يعوزها الدليل .  
وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل .

﴿ فكلى واشربى وقرى عينا ﴾ :

أى فكلى من تلك الرطبة وأشربى من عصيرها ، وطيبى نفسا ، وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله

قدير أن ينزه ساحتك ، ويبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنين التي جعلها الله الطريق للولادة في البشر ، ويرشدكم إلى الوقوف على سريرة أمرك ، حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

﴿ فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾ :

أي فإن رأيت أحداً من بني آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيري إليهم إني أوجبت على نفسي لله صمتاً ألا أكلم اليوم أحداً ، فإن كلامي يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عني ذلك المولود الذي لا يقبل كلامه الدفع والرد ، وإني أنزه نفسي عن مجادلة السفهاء ، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجي الخالق .

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال : إن الإسلام قد هدم هذا ، فتكلمي .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال : إنه نذر صوماً لا يكلم اليوم إنسيا . فقال له ابن مسعود : بش ما قلت ، إنما كانت تلك المرأة ، قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زناً ، فتكلم وأمر بالمعروف ، وأنه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ  
أَبُوكَ أَمراً سَوْءً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ  
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ  
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْنِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾  
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ فريا ﴾ : أي عظيماً خارقاً للعادة وهي الولادة بلا أب . ﴿ وهارون ﴾ : هو أخو موسى عليه السلام وقيل هو رجل صالح من بني إسرائيل والأخت على هذا بمعنى المشابهة وشبهوها به تهكما أولما رأوا من قبل من صلاحها . ﴿ والمهد ﴾ : الموضع يهياً للصبى ويوطأ له والجمع مهود . ﴿ الكتاب ﴾ : الإنجيل . ﴿ مباركاً ﴾ : نافعاً للناس أو ثابِتاً في دين الله . ﴿ الجبار ﴾ : المتعظم الذي لا يرى لأحد عليه حقاً . ﴿ والشقى ﴾ : العاصي لربه .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴾ :

أي إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ، ولا تكلم أحداً من البشر ، وأنها ستكفي أمرها ، ويقام

بحجتها سلمت أمرها إلى الله ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فما رآوها كذلك أعظموا ما رآوا واستنكروا ، وقالوا : يا مريم لقد جئت أمراً عظيماً منكراً ، ثم زادوا تأكيداً فى توبيخها وتغييرها فقالوا : ﴿ يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوء وما كانت أمكِ بغياً ﴾ :  
 أى يا من أنت من نسل هارون أخى موسى ، كما يقال للتميمي يا أخا تميم ، وللمصرى يا أخا مصر ، أو يا من أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تقاسين به فى العبادة والزهد ، ما كان أبوكِ بالفاجر ، وما كانت أمكِ بالبغى ، فمن أين لك هذا الولد ؟

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : رأيت ما تقرأون ﴿ يا أخت هارون ﴾ : وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك . ﴿ فأشارت إليه ﴾ أى فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة . .

﴿ قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبياً ﴾ : أى قالوا لها متهمكين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ولم يعهد فى مثله وهو لم يدرج بعد من حجر أمه أن يكلم أحداً ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم ، وترك الرضاع ، وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

١ - ﴿ قال أنا عبد الله ﴾ : أى إنى عبد الله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان لا يتخذ إلها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

٢ - ﴿ آتانى الكتاب ﴾ : أى سينزل على الإنجيل .

٣ - ﴿ وجعلنى نبياً ﴾ : أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

٤ - ﴿ وجعلنى مباركاً أينما كنت ﴾ : أى سيجعلنى نفاعاً للناس هادياً لهم إلى سبيل الرشاد ، فى أى مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً ، وهى لم تحصل بعد من قبل أنها لما كانت واقعة حتى نزلت منزلة ما قد حصل .

٥ - ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ : أى وأمرنى بالصلاة إذ فى إقامتها وإدامتها على الوجه الذى سنه الدين تطهير للنفوس من الأرجاس ، ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للباثس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهر المال ما دمت حيا فى الدنيا .

٦ - ﴿ وَبِرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ : أى وجعلنى براً بوالدتى مطيعاً لها محسناً ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

٧ - ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ : أى ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته بعقوب والدتى وعدم البر بها .

٨ - ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ : أى والأمنة من الله على فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة ، التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواتراً ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله ، علمنا أنه لم يوجد .

وأيضاً فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تخيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شيء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتاً لذلك نص القرآن القاطع إلى أن العقل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ، ومن ثم لم يشتهر بينهم وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٦﴾ فَأَخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوَنُّنًا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٠﴾



المفردات : ﴿ قول الحق ﴾ : أى قول الصدق الذى لا شبهة فيه . ﴿ يمترون ﴾ : أى يشكون ويتنازعون . ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ : أى ما ينبغي ولا يصح أن يجعل له ولدا . ﴿ صراط مستقيم ﴾ : أى طريق لا يضل سالكه . ﴿ الأحزاب ﴾ : فرق النصارى الثلاث . ﴿ مشهد ﴾ : أى شهود وحضور . ﴿ يوم عظيم ﴾ : هو يوم القيامة . ﴿ اليوم ﴾ : أى فى الدنيا . ﴿ يوم الحسرة ﴾ : هو يوم القيامة حين يندم الناس على ما فرطوا فى جنب الله . ﴿ قضى الأمر ﴾ : أى فرغ من الحساب .

﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾ :

أى ذلك الذى فصلت نبوته ، وذكرت مناقبه وأوصافه ، هو عيسى ابن مريم تقول ذلك قول الصدق الذى لا ريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر ، وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء .

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا غيرها بقوله : ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد ﴾ :

أى لا يليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراد له لخلقه بقوله : ﴿ كُنْ ﴾ : فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظاً لأبيه يعوله وهو حى ، وذكرأ له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك .

والعالم كله خاضع له لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبداً .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ : أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال :

﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كُنْ فَيَكُونُ ﴾ :

أى إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

﴿ وإن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ : أى ومما أمر به عيسى وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

﴿ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ : أى هذا الذى أوصيتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به الأنبياء . من خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، اختلفوا فيه كما قال :

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ .  
أى اختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا :

فقالَت اليعقوبية : ( نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب ) هو الله هبط إلى الأرض ، ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية ( نسبة إلى عالم يسمى نسطور ) هو ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه ، وقالت المكانية ( نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالماً ) إنه عبد الله كسائر خلقه ، وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته ، ثم توعد من كذب على الله وافترى ، وزعم أن له ولدا فقال :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ : أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدي والأرجل والألسن تشهد على أصحابها وقد أجل الله عقابهم إلى هذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين : ( أن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته )<sup>(١)</sup> .

ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال :

( لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافهم )<sup>(٣)</sup> .

ثم عجب ربنا من قوة سمع الكفار ، وحدة أبصارهم يوم القيامة ، وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا . فقال :

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصُرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أندادا ، وزعموا أن له ولدا ، عمياً فى الدنيا عن إبطار

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ١١ : ٢ .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٧١ ، وفى التوحيد : ٣ ، ومسلم فى المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ ، والإمام أحمد فى : ٤ : ٣٩٥ .

الحق ، والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون . دالة على وحدانيته ، وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، صمّاً عن سماع أى كُتبه ، وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذٍ حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئاً ، ويعضون على أناملهم حسرة وأسفاً ، ويتمنون على الله الأمانى . فيودون الرجوع إلى الدنيا ، ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

ثم أمر سبحانه نبيه أن ينذر قومه والمشرّكين جميعاً ، فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

أى وأنذر الناس جميعاً يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا فى جنب الله ، حين فرغ من الحساب وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لا خروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم .

روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ( يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح ( يخالط بياضه سواد ) فينادى منادٍ يا أهل الجنة ، فيشرّثون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى منادٍ : يا أهل النار فيشرّثون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ إذ قضى الأمر ﴾ أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت .

وذبحه تصوير ، لأن كلاً من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لا موت بعد ذلك .

وقوله : ﴿ وهم فى غفلة ﴾ : أى عن ذلك اليوم وعن حسراته وأهواله .

وقوله : ﴿ وهم لا يؤمنون ﴾ : أى وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ، ومجازاة الله لهم على سوء أعمالهم ، بما أخبر أنه مجازيهم به ، ثم سلى رسوله وتوعد المشرّكين . فقال :

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ .

أى لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشرّكين لك فيما أتيتهم به من الحق . فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثوا الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ١ ، ومسلم فى الجنة : ٤ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، والدارمى فى الرقاق : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٧٧ ، ٤٢٣ ، ٥١٣ ، وفى ٣ : ٩ .

كل نفس بما عملت حينئذ ، فنجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

### قصة إبراهيم مع أبيه

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْ مَا لَا يَشْعُرُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَغْنَى عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَتَّبِعِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَتَّبِعْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

### المفردات

- ﴿ واذكر في الكتاب ﴾ : أى اتل فى هذه السورة .
- ﴿ صديقاً ﴾ : أى مبالغاً فى الصدق لم يكذب قط .
- ﴿ صراطاً سويّاً ﴾ : أى طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل السعادة .
- ﴿ ولياً ﴾ : أى قريناً تليه ويليكَ فى العذاب .
- ﴿ أراغب أنت عن آلهتى ﴾ : أى أكاره لها .
- ﴿ لأرجمنك ﴾ : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة .

﴿ مليا ﴾ : أى دهرًا طويلاً .  
 ﴿ حفيّا ﴾ : أى مبالغاً فى برى وإكرامى يقال : حفى به إذا اعتنى بإكرامه .  
 ﴿ شقيا ﴾ : أى خائب المسعى .  
 ﴿ لسان صدق ﴾ : أى ثناء حسناً .

قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ :

أى اذكر لهم يا محمد شأن إبراهيم ، وهو النبى الذى رزقه الله إسماعيل وإسحاق ، وهو الذى يدعى العرب أنه جدهم ، اذكر لهم أنه كان صديقاً عظيماً الصدق ، وكان نبياً أوحى الله إليه بشريعة التوحيد ، وعقيدة التنزيه والإخلاص ، فهل يليق بالأحفاد أن يخالفوا دين جدهم الأكبر . اذكر لهم شأن هذا النبى مع أبيه إذ قال لأبيه : ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾ :

وهذا شأن كل معبود من دون الله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنتظرون \* إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين \* والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ (٢) .

﴿ وأتل عليهم نبأ إبراهيم \* إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون \* قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين \* قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون \* قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون \* قال أفأرى أنتم ما كنتم تعبدون \* أنتم وآباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدو لى إلا رب العالمين \* الذى خلقنى فهو يهدين \* والذى هو يطعمنى ويسقئ \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذى يمتننى ثم يحيين \* والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين \* رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين \* واجعل لى لسان صدق فى الآخرين \* واجعلنى من ورثة جنة النعيم \* واغفر لأبى إنه كان من الضالين \* ولا تخزنى يوم يبعثون \* يوم لا ينفع مال ولا بنون \* إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٣) .

ثم تأمل معى هذا الأدب الرفيع ، وخلق النبوة فى مخاطبة إبراهيم لأبيه ، فلم يشأ أن يصفه بالجهل ، إنما خاطبه بعبارة أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم . فقال له :

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر .

(٢) الآيات ١٩٥ - ١٩٧ من سورة الأعراف .

(٣) الآيات ٦٩ - ٨٩ من سورة الشعراء .

﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ﴾ .

أى إن كنت أصغر منك سنًا ، فإن الله تعالى علمنى ما لم تعلمه أنت ، فلا يكن فى صدرك حرج من أتباعى ، فإن فى اتباعى هداية لك إلى الصراط السوى المستقيم ، الذى فى اتباعه خير الدنيا والآخرة ، وإن فى اتباع الهدى فلاح الدارين ، وسعادة الكونين ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ .

فهو مخالف لله عدو للمؤمنين : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن أعبدونى هذا صراط مستقيم \* ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (١) .

ثم تأمل حرص إبراهيم على سلامة أبيه وهو يخاطبه بلسان الرحمة والرأفة : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ :

إنه يخاف عليه من مس العذاب ، فما أبرك يا إبراهيم بأبيك ، وما أعظم قلبك الرحيم ، إنه إن مسك عذاب من الرحمن ، وأنت موال للشيطان ، فلن تجد من يدفع عنك العذاب فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

﴿ ولا يسأل حميم حميماً \* يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه \* وصاحبه وأخيه \* وفصيلته التى تؤويه \* ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه \* كلاً إنها لظى \* نزاعة للشوى \* تدعوا من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة \* يوم يفر المرء من أخيه \* وأمه وأبيه \* وصاحبه وبنيه \* لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (٣) .

فماذا كان جواب أبيه له :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم \* لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى ملياً ﴾ .

أى إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ قاله ابن عباس والسدى وابن جريج والضحاك وغيرهم .

وقوله : ﴿ واهجرنى ملياً ﴾ : قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير يعنى دها ، وقال الحسن البصرى : زمانا طويلا ، وقال السدى ﴿ واهجرنى ملياً ﴾ قال : أبداً .

(١) الآيات ٦٠-٦٢ من سورة يس .

(٢) الآيات ١٠-١٨ من سورة المعارج .

(٣) الآيات ٣٣-٣٧ من سورة عبس .

وقال على بن أبى طلحة والقوفى عن ابن عباس : ﴿ واهجرنى ملياً ﴾ قال : سوباً سالماً قبل أن تصيبك منى عقوبة .

وعندها قال إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام لا نبغى الجاهلين ﴾ (٢) .

ومعنى قول إبراهيم لأبيه : ﴿ سلام عليك ﴾ : يعنى أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى ، وذلك لحرمة الأبوة ﴿ سأستغفر لك ربى ﴾ ولكن سأسال الله لك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بى حفياً ﴾ قال ابن عباس وغيره : لطيفاً أى فى أن هدانى لعبادته ، والإخلاص له ، وقال قتادة ومجاهد وغيرهما : ﴿ إنه كان بى حفياً ﴾ قال : عوده الإجابة .

وقال السدى : الحفى الذى يهتم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٣) .

وقد استغفر المسلمون لقرباتهم وأهلهم من المشركين فى ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ﴾ (٤) :

يعنى إلا فى هذا القول فلا تتأسوا به .

ثم بين تعالى أن إبراهيم ألق عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ﴾ : أى اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله : ﴿ وأدعو ربى ﴾ أى وأعبد ربى وحده لا شريك له .

﴿ عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً ﴾ : وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

(٤) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

(٥) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٣) الآية ٤١ من سورة إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً \* ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ :

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب ، يعنى أنه وابن إسحاق كما قال في الآية الأخرى : ﴿ ويعقوب نافلة ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهونص القرآن في سورة البقرة : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب ، أى جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء ، أقر الله بهم عينه في حياته ، ولهذا قال : ﴿ وكلاً جعلنا نبياً ﴾ .

فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ، ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبى أيضاً ، كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس فقال : ( يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله ) <sup>(٤)</sup> .

وفى اللفظ الآخر : ( أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم ) <sup>(٥)</sup> .

وقوله : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الثناء الحسن ، وكذا قال السدى ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير : إنما قال ﴿ علياً ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

### ذكر موسى وهارون

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ  
الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

(١) الآية ٧٢ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٧١ من سورة هود .

(٣) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٨ ، والبخارى فى الأنبياء : ٩ ، ١٤ ، ١٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وأبو داود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى القيامة : ١٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، وفى ٥ : ٣٠٩ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١٩ ، وفى المناقب : ١٣ ، وفى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والإمام

أحمد فى ٢ : ٩٦ ، ٢٣٢ ، ٤١٦ .



## المفردات :

- ﴿ مخلصاً ﴾ : أى مختاراً مصطفى .  
 ﴿ وقربناه ﴾ : أى تقريب تشريف وتكريم .  
 ﴿ والطور ﴾ : هو الجبل الذى بين مصر ومدين .  
 ﴿ ونجياً ﴾ : أى مناجيا مكلما لله بلا واسطة .

﴿ واذكر فى الكتاب موسى ﴾ أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه وتلك هى :

١ - ﴿ إنه كان مخلصاً ﴾ : أى أن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ (١) .

٢ - ﴿ وكان رسولا نبياً ﴾ : أى أن الله أرسله إلى الخلق داعياً ومبشراً ونذيراً ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبي هو الذى ينبىء عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

٣ - ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ : أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجهاً إلى مصر ، وأنبأناه بأنه رسولنا ، ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ، ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم .

٤ - ﴿ وقربناه نجياً ﴾ : أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك .. إنه تجاوز العالم المادى ، وانغمس فى العالم الروحى ، ففقر من ربه وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناهى ، واستعدت للإطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

٥ - ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ : أى ووهبنا له من رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، وإجابة لدعوته عليه السلام بقوله : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى ﴾ \* هارون أخى ﴿ (٢) ﴾ وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبياً : ﴿ قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ (٣) .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً ، قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين .

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة طه .

(٣) الآية ٣٦ من سورة طه .

### قصص إسماعيل عليه السلام

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٤٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٤٥﴾

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل فى هذه الدنيا .

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾ :

أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل عليهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ماله من مناقب وفضائل منها :

١ - ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ : فما وعد عدة إلا وفى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق فى ذلك وفى بما قال ، وامثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال رسول الله ﷺ : ( آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ) .

وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

٢ - ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ :

أى وكان رسولاً إلى جرُّهم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلًا من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، منبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

٣ - ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ :

أى أنه بعد أن كمل نفسه اشتغل بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٢ من سورة الصف .

(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ١٣٢ من سورة طه .

(٤) الآية ٦ من سورة التحريم .

٤ - ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ : عمله ، محمودا فيما كلفه به ، غير مقصر في طاعته فاقتدأ بها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

### قصص إدريس عليه السلام

وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيْسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

﴿واذكر في الكتاب إدريس﴾ : بالثناء عليه ، والنسابون يقولون : إنه جد أبي نوح عليه السلام ، ويقولون : إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر في النجوم وتعلم الحساب . وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد ، وطول الزمن ، وعدم وجود السند الصحيح الذي يعول عليه في الرواية يجعلنا في شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفي بما جاء به الكتاب الكريم في شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

١ - ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ تقدم القول في هذا .

٢ - ﴿نَبِيًّا﴾ تقدم القول في هذا .

٣ - ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ : أى أعلى قدره ورفعنا ذكره في الملأ .

ونحو هذا قوله لنبى محمد ﷺ : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾<sup>(١)</sup> .

ويرى بعض الباحثين في الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزيريس - أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت في بطون تواريخهم ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إربا إربا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحفظتها . واتخذوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يعنون بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال في الخافقين .

وقد كان الملك والدين في عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزيريس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلوى وله عرش عظيم فى السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات . وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم إثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته يلحق بأوزيريس وهذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث ، وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبي بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان ، بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

المفردات :

- ﴿إسرائيل﴾ : يعقوب عليه السلام .
- ﴿اجتبه﴾ : اصطفاه واختاره .
- ﴿والسجد﴾ : واحدهم ساجد .
- ﴿البكى﴾ : واحدهم بكى ويقال بكى يبكى بكاء .
- ﴿وبكى﴾ : قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لا صوت معه .

يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم إسحق ويعقوب وإسماعيل ، والذى عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه جد نوح .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ \* ووهبنا له

إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين \* وذكرى ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين \* وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلاً فضلنا على العالمين \* ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴿١﴾ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ ﴿٢﴾ .  
وفى صحيح البخارى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفى ص سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا هذه الآية : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فنيكم ممن أمر أن يقتدى بهم قال وهو منهم ( يعنى داود ) ﴿٣﴾ .

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ إذا تلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ :  
أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكى جمع بك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لموالهم .

قال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكى يريد البكاء .

## موقف الخلف ومن تاب

قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً ۝٥٩﴾  
إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ۝٦٠﴾ جَنَّتِ  
عَدْنِ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا  
إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ۝٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ  
تَقِيًا ۝٦٣﴾

(١) الآيات ٨٣-٨٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٧٨ من سورة غافر .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٦ : ٥ ، وسورة ٣٨ : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٦٠ .

## المفردات :

﴿ الخَلْف ﴾ : ( بسكون اللام ) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلف ( بفتح اللام ) .

- ﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ : أى تركوها بتاتا .
- ﴿ اتبعوا الشهوات ﴾ : أى انهمكوا فى المعاصى واللذات .
- ﴿ غيًّا ﴾ : أى ضلالاً ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .
- ﴿ جنات عدن ﴾ : أى جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام .
- ﴿ بالغيب ﴾ : أى وهى غائبة عنهم .
- ﴿ وعده ﴾ : أى ما وعد به من الجنات .
- ﴿ مأتيا ﴾ : أى يأتيه من وعد به لا محالة .
- ﴿ لغفوا ﴾ : أى فضولا من الكلام لا طائل تحته .
- ﴿ سلاما ﴾ : أى سلاما من الله أو من الملائكة .

## المعنى الإجمالى والمناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ، ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره ، وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه - أردف هذا ذكر من خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله فى السماء .  
وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية قال : ( يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يحدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر )<sup>(١)</sup> .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : ( سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبى . قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا . قلت : وما أهل اللبى ؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات )<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ :  
لما ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن أتبعهم من القائمين بحدود الله

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة : ٢١٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٥٥ .

وأوامره المؤدين فرائض الله ، التاركين لزواجه ، ذكر أنه ﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أى قرون أخر .  
﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ : وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على الشهوات وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا ، أى خساراً يوم القيامة .

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قال محمد بن كعب القرظى ، والسدى ، واختاره ابن جرير ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : ( بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة )<sup>(١)</sup> ، والحديث الآخر ( العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر )<sup>(٢)</sup> .

وقال الأوزاعى فى قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ :

قال : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركا كان كفرا .

وقال ابن مسعود عندما قيل له إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾<sup>(٣)</sup> و ﴿ على صلاتهم دائمون ﴾<sup>(٤)</sup> و ﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾<sup>(٥)</sup> ، فقال ابن مسعود : على مواقيتها .

قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك . قال : ذلك الكفر .

قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهم عن وقتهن .

وقال الأوزاعى : إن عمر بن عبد العزيز قرأ ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ .

ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ، ولكن أضاعوا الوقت .

وقال كعب الأحبار : والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل شراً بين للقهوات ، ترآكين للصلوات ، لعابين بالكعبات ، رقادين عن العتبات ، مفرطين فى الغدوات ، ترآكين للجتماعات ، قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا ﴾ .

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ ، وأبو داود فى السنة : ١٥ ، والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجه فى الإقامة : ١٧ ، والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجه فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) الآية ٥ من سورة الماعون .

(٤) الآية ٢٣ من سورة المعارج .

(٥) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات .

وقال أبو الأشهب العطاردى : أوحى الله إلى دواد عليه السلام : ( يا دواد حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بالشهوات الدنيا ، عقولها عنى محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا أثر شهوة من شهواته ، أن أحرمه طاعتي ) .

وقوله تعالى : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ : عن ابن عباس خسراتا .

وقال قتادة : شرا .

وقال سفيان الثورى وشعبة ومحمد بن إسحق عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ فسوف يلقون غياً ﴾ قال : واد فى جهنم من قيح ودم .

وقال ابن جرير عن عجلان الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : ( لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من سفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفا ثم تنتهى إلى غى وآثام . قال : قلت : ما غى وآثام ؟ قال : بثران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه ﴿ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون ﴾ وقوله فى الفرقان : ﴿ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ : أى إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ .

وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها .

وفى الحديث الآخر : ( التائب من الذنب كمن لا ذنب له )<sup>(٢)</sup> .

ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً ، ولا قبولوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ، لأن ذلك ذهب هدرًا ، وترك نسيًا ، وذهب مجانًا من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ - إلى قوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ﴾ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا \* تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقياً ﴿ : يقول تعالى : الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى جنات عدن أى إقامة ، التى وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أى هى من الغيب الذين يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم .

(١) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الزهد : ٣٠ .

(٣) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الفرقان .



وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ﴾ : تأكيداً لحصول ذلك وثبوتة واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله ، كقوله ﴿ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴾<sup>(١)</sup> : أى كائناً لا محالة ، وقوله ههنا : ﴿ مَأْتِيًا ﴾ أى العباد صائرون إليه وسيأتونه .

ومنهم من قال : ﴿ مَأْتِيًا ﴾ بمعنى آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد أتيت .

وقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ : أى هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه ، لا معنى له كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله : ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ : استثناء منقطع كقوله : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ : أى فى مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً ، ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأضواء وأنوار ، كما قال الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجاهرهم الألوه ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً<sup>(٣)</sup> ) . أخرجه فى الصحيحين .

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً<sup>(٤)</sup> ) .

وعن ابن عباس : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا ﴾ ، قال : مقادير الليل والنهار .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًا ﴾ :

أى هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل فى السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الذين هم فى صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون<sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ١٨ من سورة المزمل .

(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٨ . ومسلم فى الجنة : ١٧ ، والترمذى فى الجنة : ٧ ، والإمام أحمد فى ٣١٦ : ٢ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٦٦ .

(٥) الآيات ١-١١ من سورة المؤمنون .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك مافيها  
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي قبل الموت يبنها  
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها  
لا تركزن إلى الدنيا ومافيها فالموت لاشك يفنيها ويفنيها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

### الأمر كله لله

وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ<sup>٤</sup> مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ<sup>٥</sup>  
نَسِيًّا ﴿١٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ<sup>٦</sup>  
سَمِيًّا ﴿١٥﴾

#### المفردات :

- ﴿التنزل﴾ : النزول وقتا غيب وقت .
- ﴿ما بين أيدينا﴾ : أى أمامنا من الزمان المستقبل .
- ﴿وما خلفنا﴾ : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك هو الزمان الحاضر .
- ﴿نسيا﴾ : أى تاركا لك .
- ﴿اصطبر عليها﴾ : أى أثبت لشدائد العبادة ومافيها من المشاق .
- ﴿سميا﴾ : مثلاً ونظيراً .

#### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتاً له ﷺ ، وأعقبه بذكر ما أحدثه الخلف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبي ﷺ ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .  
روى : ( أن جبريل عليه السلام احتبس عنه ﷺ أياماً حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب ؟ فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون : إن ربه ودّعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام : يا جبريل احتبست عنى حتى ساء

ظنى ، واشتقت إليك ، فقال : إني إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية (١) .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : ( ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ :

قال مجاهد : لبث جبرائيل عن محمد ﷺ إثنتى عشرة ليلة ، ويقولون أقل ، فلما جاءه قال : ( يا جبرائيل لقد رثت على حتى ظن المشركون كل ظن ) فنزلت : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ : قيل المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا ، وما خلفنا أمر الآخرة .

﴿ وما بين ذلك ﴾ : ما بين النفختين ، هذا قول أبى العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : ﴿ ما بين أيدينا ﴾ : ما يستقبل من أمر الآخرة .

﴿ وما خلفنا ﴾ : أى ماضى من الدنيا .

﴿ وما بين ذلك ﴾ : أى ما بين الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ : معناه ما نسيتك ربك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ والضحى \* والليل إذا سجدى \* ما ودّعك ربك وما قلى ﴾ (٣) .

وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى الدرداء يرفعه قال : ( ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا ) . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ :

أى خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه ، والمتصرف الذى لا معقب لحكمه .

﴿ فاعبدوه واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ .

عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً ، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم .

وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقديس اسمه .

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ٤ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٥٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، وفى التوحيد : ٢٨ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، والإمام

أحمد فى ١ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٥٧ .

(٣) الآيات ١-٣ من سورة الضحى .

## البعث حق

قال تعالى :

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ آتَاهُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَآتَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّ لَهُمْ عَذًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

## المفردات :

- ﴿ يذكر ﴾ : أى يتذكر ويتفكر .
- ﴿ لنحشرنهم ﴾ : أى لنجمعهم .
- ﴿ جثيا ﴾ : واحداهم جاثٍ وهو البارك على ركبتيه .
- ﴿ شيعة ﴾ : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه .
- ﴿ عتيا ﴾ : أى تكبرا ومجازاة للحد .
- ﴿ صليا ﴾ : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها .
- ﴿ واردها ﴾ : أى مار عليها .
- ﴿ حتما ﴾ : أى واجبا .
- ﴿ مقضيا ﴾ : أى قضى بوقوعه البتة .
- ﴿ بينات ﴾ : أى ظاهرات الإعجاز .
- ﴿ مقاما ﴾ : أى مكانا ومنزلا .
- ﴿ ندبياً ﴾ : أى مجلسا ومجتمعاً ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ، ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم .
- ﴿ والقرن ﴾ : أهل كل عصر .
- ﴿ والأثاث ﴾ : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له .
- ﴿ والرئى ﴾ : والمنظر والمراد به النضارة والحسن .
- ﴿ فليمدد ﴾ : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات .
- ﴿ جندا ﴾ : أى أنصارا .
- ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ : أى الطاعات التى تبقى آثارها .
- ﴿ مردأ ﴾ : أى مرجعا وعاقبة .
- ﴿ أطلع الغيب ﴾ : من قولهم أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب .
- ﴿ عهدا ﴾ : أى عملاً صالحاً .
- ﴿ كلا ﴾ : كلمة زجر وتنبية إلى الخطأ .
- ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ : أى سنظهر له إنا كتبنا .
- ﴿ ونمد له من العذاب ﴾ : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه .
- ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصدقه ، وهو ما أوتيته فى الدنيا من المال والولد .
- ﴿ فردا ﴾ : أى لا يصحبه مال ولا ولد .
- ﴿ العز ﴾ : المنعة والقوة .
- ﴿ سيكفرون ﴾ : أى سيجحدون .

﴿ضدًا﴾ : أى أعداء وأعوانا عليهم .  
 ﴿والأز﴾ : والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهيج لها بالتويلات ، وتحبيب الشهوات .  
 ﴿فلا تعجل عليهم﴾ : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم .  
 ﴿الوفد والوفود والأوفاد﴾ : واحدهم وفد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا إلى الرحمن ؛ أى إلى دار كرامته وهى الجنة .  
 ﴿وردا﴾ : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نعم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله إلا الله ، والتبرى من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على ما فيها من مشاق وشدائد ، أبان فائدة ذلك ، وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لا ريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقيه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أزدف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ، ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه ، وأخلص فى عمله .

روى الكلبي أنها نزلت فى أبي بن خلف أخذ عظمًا بالياً فجعل يفتنه بيده ويذريه فى الريح ، ويقول : زعم فلان أنا نبعت بعد أن نموت ونكون مثل هذا ؟ إن هذا لن يكون أبداً .  
 وبعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، والعودة إلى حياة أخرى . اتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قبل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة لكننا نجد الأمر العكس من هذا ، فإننا نحن الذين يمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أننا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقاتلهم بأن الكافرين قبلكم وكانوا أحسن منكم حالاً وأكثر مالاً ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه العبارة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش للمؤمنين من أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا فى خشونة من العيش ، وفى رثالة من الثياب ، وهم كانوا يرجلون شعورهم ، ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مثال الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين في الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الدلائل على صحة البعث ، ثم أورد شبه المنكرين له ، وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب ، قضى على ذلك بذكر مقالاتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان عن خباب بن الأرت قال : ( كنت رجلاً قيناً (حداداً) وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أفضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جتنى ولى ثم مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أفأريت ﴾ الآية (١) .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أنذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ أولاً يذكر الإنسان أننا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً \* فورك لنحشرنهم والشیاطین ثم لنحضرنهم حول جهنم حياً \* ثم لننزعن من كل شیعة أيهم أشد على الرحمن عتياً . ثم لنحن أعلم بالذین هم أولى بها صلیاً .  
هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الإنسان الذى عجب من إعادته بعد الموت ، فأنكر المعاد ، وقال ساخراً : ﴿ أنذا ما مت لسوف أخرج حياً ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٢) .

وذلك بعدما أقام الأدلة الناطقة بقدرته الشاهدة بإرادته ، الدالة على وحدانيته ، قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون ﴾ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون \* وفى الأرض قطع متجاورات وحنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

وبعد هذا كله يقف الإنسان الجحود الكنود موقف الإنكار كما ذكر سبحانه فى قوله : ﴿ أولم ير

(١) أخرجه البخارى فى البيوع : ٢٩ ، وفى الإجارة : ١٥ ، وفى الخصومات : ١٠ ، وفى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ومسلم فى

المنافقين : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٣) الآيات ٢-٤ من سورة الرعد .

الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين \* وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم \* قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون \* أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء . وإليه ترجعون ﴿١﴾ .

فهذه خمسة أدلة تثبت أن البعث حق كما فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ (١) .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج بينها العلى الحكيم فى قوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٢) . إن الذى بدأ الخلق قادر على إعادته ، قال تعالى : ﴿ ألا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ (٣) .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٤) .

وفى الصحيح : يقول الله تعالى : (كذبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وأذاني ابن آدم ولم يكن له أن يؤذيني ، أما تكذبيه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من آخره ، وأما أذاه إياي فقلوه : إن لى ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) (٥) .

قوله تعالى : ﴿ فوربك لنحضرنهم والشیاطین ﴾ : أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة ، أنه لا بد أن يحضرهم جميعاً وشیاطینهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : يعنى قعوداً كقوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ (٦) .

(١) الآيات ٧٧-٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٥ من سورة الحج .

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الحج .

(٤) الآية ٦٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٨ ، وفى تفسير سورة ١١٢ : ١ ، ٢ ، والنسائى فى الجنايز : ١١٧ ، والإمام أحمد فى

٢ : ٣١٧ ، ٣٥٠ .

(٧) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .



وقوله تعالى : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعنى من كل أمة ، ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

قال الثورى عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاها جميعا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرما ، وهو قوله : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .  
وقال قتادة : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقالت أولاهم لأوراهاهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴿ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال تعالى فى الآية المتقدمة : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ ثم ننحى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً : ﴿

قال الإمام أحمد عن أبى سمية قال : أختلفنا فى الورود . فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ، ثم ينحى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له إنا أختلفنا فى الورود . فقال : يردونها جميعاً ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها ، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال صُمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار حنجيجاً من بردهم ثم ينحى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً ) (٢) .

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينه قال : كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه فى حجر امرأته فبكى فبكت امرأته ، قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكى فبكيت . قال : إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا .

وقال ابن جرير عن أبى إسحق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أُمى لم تلدنى ، ثم يبكى فقل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها .  
وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصرى قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟

(١) الآيتان ٣٨ - ٣٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه الترمذى فى جهنم : ١٠ ، وابن ماجه فى الفتن : ٣٣ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٩ ، وفى ٤ : ٢٤ .

قال : نعم . قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا . قال : فقيم الضحك ؟ قال : فما رثي ضاحكا حتى لحق بالله .

وروى الترمذى عن ابن مسعود ( مرفوعا ) قال : ( يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مرأ رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمر فيتكفأ به الصراط دحض مذلة عليه حسك كحسك القتاد حافته ملائكة معهم كلاب من نار يختطفون بها الناس )<sup>(١)</sup> . الحديث . وفى رواية والملائكة تقول : ( اللهم سلم سلم ) .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون  
يا من لطف بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم النحر تكوينى  
فيا له من يوم ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله ، ومن خطب ما أهوله : ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾<sup>(٢)</sup> .

فيا ابن آدم : جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد ليلة صبحها يوم القيامة .

يا أيها العقلاء :

نموت	وأيامنا	تذهب	ونلعب	والموت	لا يلعب
عجبت	لذى	لعب	قد	لهى	عجبت
أيلهو	ويلعب	من	نفسه	تموت	ومنزله
أرى	الليل	يطلبنا	والنهار	ولم	أدر
أحاط	الجديدان	جمعنا	بنا	وليس	لنا
وكل	له	مدة	تنقض	وكل	له

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر عن أم بشر عن حفصة قالت قال رسول الله ﷺ : ( إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية )<sup>(٣)</sup> قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ قالت : فسمعتة يقول : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٠٢ ، ٣١٦ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ ،

وفى ٦ : ١١٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ .

(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٥ .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم )<sup>(١)</sup> .

فقال ابن جرير بسنده : عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال : ( إن الله تعالى يقول هي ناري أسلطها على عبدی المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة ) .

وعن مجاهد قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ . وقال الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرًا في الجنة ( فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : ( الله أكثر وأطيب )<sup>(٢)</sup> .

وقال رسول الله ﷺ : ( من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب الله يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا إن شاء الله ، ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينه إلا تحلة القسم ) قال الله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ وإن الذكر في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمئة ضعف )<sup>(٣)</sup> .

وروى أبو داود بسنده عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ : ( إن الصلاة على الصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعمئة ضعف )<sup>(٤)</sup> .

وقال النبي ﷺ : ( الزاؤون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسد يومئذ سمطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم )<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ .

قال ابن مسعود أي قسمًا واجبًا .

وقال مجاهد : حتما : أي قضاء .

قوله تعالى : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ :

أي إذا مر الخلاق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوو المعاصي .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز : ٢٦ ، وفي الإيمان : ٩ ، ومسلم في البر : ١٥ ، والترمذي في الجنائز : ٦٤ ، والنسائي في الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجه في الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك في الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد في ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٤٧٣ .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات : ١١٥ ، والإمام أحمد في ٣ : ١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز : ٦ ، وفي الإيمان : ٩ . ومسلم في البر : ١٥٠ ، والترمذي في الجنائز : ٦٤ ، والنسائي في الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجه في الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك في الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد في ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد : ١٣ ، والنسائي في الجهاد : ٤٥ ، والإمام أحمد في ٣ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد : ٢٤ ، وفي الرقاق : ٥٢ ، وفي الأذان : ١٢٩ ، ومسلم في الإيمان : ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٩ ، والترمذي في القيامة : ٩ ، وفي الجنة : ٢٠ ، والإمام أحمد في ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٦٩ ، ٥٣٤ ، وفي ٣ : ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، وفي ٦ : ١١٠ .

بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقا كثيرا ، قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهى مواضع السجود ، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولا من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، ولم يعمل خيرا قط ، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم نجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ \* وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورعيا ﴾ .  
هذا إخبار من الله تعالى عن بعض مواقف الكفار عندما تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ أى أحسن منازل ، وأرفع دورا ، وأحسن نديا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أى ناديتهم أعمر وأكثر واردا وطارقا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مخفون مستترون فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق .

كما قال تعالى مخبرا عنهم ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾ (١) ، وقال قوم نوح : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (٢) ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (٣) .

ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ : أى وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم : ﴿ هم أحسن أثاثا ورعيا ﴾ : أى كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

وعن ابن عباس : ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ قال : المقام المنزل ، والندى المجلس ، والأثاث المتاع ، والرئى المنظر والنعمة والبهجة التى كانوا فيها .

وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون \* وزروع ومقام كريم \* ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴿ (٤) .

فالمقام المسكن والنعيم ، والندى المجلس الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وتأتون فى ناديك المنكر ﴾ (٥) .

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١١١ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٤) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ  
إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على  
الباطل : ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى منا ومنكم ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فأمهله الرحمن  
فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ﴿ إِمَّا الْعَذَابَ ﴾ يصيبه ﴿ وَإِمَّا السَّاعَةَ ﴾ بغتة تأتيه  
﴿ فَسَيَعْلَمُونَ ﴾ حينئذ ﴿ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام  
وحسن الندى .

قال مجاهد : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ فليدعه الله فى طغيانه ، هكذا قرر ذلك أبو جعفر  
ابن جرير رحمه الله .

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود  
فى قوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادَوْا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِن كُنْتُمْ  
صَادِقِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

أى أدعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم  
الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

وكما ذكر سبحانه وتعالى المباهلة مع النصارى فى سورة آل عمران حين صمموا على الكفر  
واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم ، أن عيسى ولد الله ، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على  
عبودية عيسى ، وأنه مخلوق كآدم ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ  
فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى  
الْكَاذِبِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> فنكلوا أيضا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ  
مَرَدًا ﴾ :

هو كقوله جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
وكقوله جل شأنه : ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إِيْمَانًا وَهُمْ  
يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وكقوله تبارك اسمه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ  
زَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ٦ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٢ من سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا﴾ :

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان ؛ يقول : ( جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء في إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئي هذا ثم قال : ( من توضأ وضوئي هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات )<sup>(١)</sup> . قالوا : هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال : هي لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ) .

قوله تعالى : ﴿خير عند ربك ثوابا﴾ :

أى جزاء ، فنعم الثواب ثوابهم ، وحسنت مرتقا ﴿وخير مردا﴾ أى مرجعا ومنقلبا ﴿وأن مردنا إلى الله﴾<sup>(٢)</sup>

فيامن إليه المآب والرجعى ، اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ولا تجعل الدنيا كل همنا ولا مبلغ علمنا ، وبلغنا مما يرضيك آمالنا .

قوله تعالى : ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا \* أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا \* كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا \* ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ .

قال الامام أحمد بسنده عن خباب بن الارت قال : ( كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال لا والله لا أقاضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا ، والله ، لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جثتى ولى ثم مال وولد ، فأعطيك فأنزل الله ﴿أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا \* أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا \* كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا \* ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿أطلع الغيب﴾ : هذا استفهام إستنكارى على صاحب تلك المقولة ، أى أعلم ماله فى الآخرة حتى تأتى وحلف على ذلك .

﴿أم اتخذ عند الرحمن عهدا﴾ : أى أله عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ .

وقوله تعالى : ﴿كلا سنكتب ما يقول ..﴾ : كلا هنا حرف ردع وزجر لما قبلها ، وتأکید لما بعدها ، ﴿سنكتب ما يقول﴾ أى من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يمتناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ونمد له من العذاب مدا﴾ أى فى الدار الآخرة ، على قوله ذلك وكفره بالله فى الدنيا . ﴿ونرثه ما يقول﴾ : أى من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى فى الدار الآخرة مالا

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) الآية ٤٣ من سورة غافر .

وولدأ زيادة على الذى له فى الدنيا ، وفى الآخرة ينسلب من الذى كان له فى الدنيا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتينا فردا ﴾ أى من المال والولد .

﴿ ونرثه ما يقول ﴾ : أى نرثه . قاله ابن عباس .

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (١) .

وإذ يقول : ﴿ وإنا لنحن نحى ونميت ونحن الوارثون ﴾ (٢) .

وإذ يقول : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب \* يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج \* إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير \* يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ (٣) .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ (٤) .  
يا أخا الإسلام :

أتيت القبور فناديتها	فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه	وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فمما خبر	وماتوا جميعاً ومات الخبير
تروح وتغدو بنات الثرى	فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا	أمالك فيما مضى معتبر

فسبحان من وجب الوجود لذاته وكتب الفناء على غيره .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعا والمهيمن باق

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا \* كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا \* ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً \* فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ :

وهذا إخبار من البارى تبارك وتعالى عن هؤلاء الذين ضلوا السبيل ، فاتخذوا من دون الله آلهة زاعمين أنها ستكون لهم عزا ، ونسوا أو تناسوا أن العزة لله جميعا ، فمن استعز بغير الله ذل ، ومن اعتمد على الله لا صل ولا زل .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتزرت بمن يموت فإن عزك ميت

(١) الآية ٤٠ من سورة مريم .

(٢) الآية ٢٣ من سورة الحجر .

(٣) الآيات ٤١-٤٤ من سورة ق .

(٤) الآية ٨٨ من سورة القصص .

وسبحان القائل : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ \* وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿ (١) .  
ومن ثم جاء قوله تعالى ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ أى بخلاف ما رجوا منهم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ :  
أى تغويهم إغواء ، وتحرضهم على محمد وأصحابه تحريضا ، وتزعجهم إزعاجا إلى معاصي الله ، وتغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا .

وهو كقوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ \* وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ :  
وهذا تثبيت من الله تعالى لرسوله الكريم ، فإن الله تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ،  
﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٢) .

قال جل شأنه : ﴿ ولويؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولويؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ \* ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه ، والوفد القادمون ركبانا ، ومنه الوفد ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه .

أما المجرمون المكذبون للرسل ، المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عفا إلى النار ﴿ وردا ﴾ عطاشا ، وههنا يقال : ﴿ أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه بسنده ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان

(١) الآية ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٦١ من سورة النحل .



ابن سعيد ، قال : كنا جلوسا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ قال : ( لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ) .  
قوله تعالى : ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ :

أى ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : ﴿ فمالنا من شافعين \* ولا صديق حميم ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، أى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

### من قبائح الكافرين

قال تعالى :

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِيَّيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

المفردات :

﴿ جئتم ﴾ : أى فعلتم .

﴿ والإد ﴾ : ( بالكسر والفتح ) المنكر العظيم .

﴿ والتفطر ﴾ : التشقق .

﴿ وتخثر ﴾ : تسقط وتنهدم .

- ﴿دعوا﴾ : أى نسبوا .  
 ﴿عبدا﴾ : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد .  
 ﴿أحصاهم﴾ : عددهم وأحاط بهم .  
 ﴿وعدهم عدا﴾ : أى عد أشخاصهم .  
 ﴿فردا﴾ : أى منفردا لا شىء معه من الأنصار والأتباع .  
 ﴿الود﴾ : المودة والمحبة .  
 ﴿بلسانك﴾ : أى بلسانك .  
 ﴿واللذ﴾ : واحدهم ألد وهو الشديد الخصومة .  
 ﴿وركزاً﴾ : أى صوتا خفيا .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن رد على عبدة الأوثان ، وأثبت لهم بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالة يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ، أردف ذلك الرد على من نسب له الولد كاليهود الذين قالوا عزيز ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وبعد أن فصل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالحق فى الرد عليهم ، ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغفرس محبتهم فى قلوب عباده .

وبعد أن استقص فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر ، ورد فيها على فرق المبطلين ، بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه ﷺ ، ليبشر به المتقين ، وينذر به قوما لدا من المشركين ، ذوى الجدل والمماراة .

لما قرر سبحانه وتعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا .

﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولدا﴾ \* لقد جئتم شيئا إدا﴾ أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ﴿لقد جئتم شيئا إدا﴾ \* لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما ، يدل على الجرأة على الله ، وكمال القحة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ : أى أن السموات ، تكاد تتشقق منه لشدة هوله ، وعظم شأنه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

- ﴿وتنشق الأرض﴾ : أى تخسف بهم .  
 ﴿وتخر الجبال هدا﴾ : أى تسقط هدا ، فتطبق عليهم .

روى عن ابن عباس قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه ، لعظمة الله وكماله .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .  
ثم بين علة ذلك : ﴿ أن دعوا للرحمن ولدا ﴾ : أى من أجل أنهم نسبوا إلى الله اتخاذ الولد .  
ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله : ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ﴾ : أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما ، وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به ، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا ، فقال : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ :  
أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجئ إليه حين الحاجة ويخضع له خضوع العبد لسيده .

﴿ لقد أحصاهم ﴾ : أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت قهره وأمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها .

﴿ وعدهم عدا ﴾ : أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ : أى وكل امرئ منهم يأتية يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ :  
أى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاءهم به من عنده ، وعملوا به ، فأحلوا حلاله وحرّموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج مسلم والبخارى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إني قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى الأرض )<sup>(١)</sup> ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : ( قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا ) فأنزل الله سبحانه الآية .

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٦ ، وفى الأدب : ٤١ ، وفى التوحيد : ٣٣ ، ومسلم فى البر : ١٥٧ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٧ ، والإمام مالك فى الشعر : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، وفى ٥ : ٢٠٩ ، ٢٦٣ .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك - سيجعل الله للمؤمنين الذين يعلمون الصالحات مودة في القلوب ، يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التي يكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .

ثم ذكر الحكمة في إنزال القرآن بلغة العرب :

﴿ فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لَتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ :

أى فإنما سهلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس ، وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة .

﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴾ : أى وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ، ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك - بلغ هذا المنزّل وبشّر به ، وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تَحْسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ :

أى وقد أهلكنا الكثير من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاص ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه ، أو تسمع له صوتا ؟ لا ، إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرّت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، وإن قومك لصاثرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ، ووعد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك - إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ، ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

# سورة طه

## مقدمة

السورة مكية إجمالاً ، وعدد آياتها خمس وثلاثون بعد المائة ، وكلماتها ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون ، وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً .

## مقصود السورة

تيسير الأمر على الرسول ﷺ ، وذكر الاستواء ، وعلم الله تعالى بالقريب والبعيد ، وذكر حضور موسى عليه السلام بالوادي المقدس ، وإظهار عجائب عصاه واليد البيضاء ، وسؤال شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وإلقاء التابوت في البحر ، وإثبات محبة موسى في القلوب ، وإصطفاء الله تعالى موسى ، واختصاصه بالرسالة إلى فرعون ، وما جرى بينهما من المكالمة والموعود يوم الزينة ، وحيل سحرته بالجمال والعصى ( وإيمان السحرة ) وتعذيب فرعون بهم .

والمنة على بنى إسرائيل بنجاتهم من الغرق ، وتعجيل موسى ، والمجيء إلى الطور ، ومكر السامري في صنعة العجل ، وإضلال القوم ، وتغيير موسى على هارون بسبب ضلالتهم .  
وحديث القيامة ، وحال الكفار في عقوبتهم ، ونسف الجبال ، وإنقياد المتكبرين في ربة طاعة الله الحي القيوم .

وآداب قراءة القرآن ، وسؤال زيادة العلم والبيان .  
وتغيير آدم بسبب النسيان ، وتنبيهه على الوسوسة ومكر الشيطان .  
وبيان عقوبة نسيان القرآن .

ونهى النبي عن النظر إلى أحوال الكفار . وأهل الطغيان ، والالتفات إلى ما خولوا من الأموال والولدان وإلزام الحجة على المنكرين بإرسال الرسل بالبرهان ، وتنبيهه الكفار على انتظار أمر الله في قوله ﴿ قل كل متربص ﴾ إلى آخر السورة .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى \* إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ .

وفى النمل : ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ (١) .

وفى القصص : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (١) .

هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النار ، وأمره أهله بالمكث ، وإخباره إياهم أنه آنس نارا ، وإطماعهم أن يأتيهم بنار يصطلون بها ، أو خبر يهتدون به إلى الطريق التى ضلوا عنها ، لكنه نقص فى النمل ذكر رؤية النار وأمره بالمكث اكتفاء بما تقدم .

وزاد فى القصص قضاء موسى الأجل المضروب ، وسيره بأهله إلى مصر ، لأن الشئ قد يجمل ثم يفصل ، وقد يفصل ثم يجمل ، وفى طه فصل ، وأجمل فى النمل ، ثم فصل فى القصص وبالع فيه .

وقوله فى طه ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ : أى من يخبرنى بالطريق فيهدينى إليها ، وإنما آخر ذكر الخبر فيها ( وقدمه فيهما ) مراعاة لفواصل الآى فى السور جميعاً ، وكرر ( لعلى ) فى القصص لفظاً وفيهما معنى ، لأن ( أو ) فى قوله ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ نائب عن ( لعلى ) ، و ﴿ سآتيكم ﴾ يتضمن معنى ( لعلى ) .

وفى القصص ﴿ أو جذوة من النار ﴾ وفى النمل ﴿ بشهاب قبس ﴾ وفى طه ﴿ بقبس ﴾ ، لأن الجذوة من النار ( خشبة ) فى رأسها قبس له شهاب ، فهى فى السور الثلاث عبارة عن معنى واحد . قوله تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ هنا ، وفى النمل : ﴿ فلما جاءها ﴾ وفى القصص ﴿ أتاها ﴾ لأن أتى وجاء بمعنى واحد ، لكن لكثرة دور الإتيان هنا نحو ﴿ فأتياه ﴾ ﴿ فلنأتينك ﴾ ﴿ ثم أتى ﴾ ﴿ ثم اتوا ﴾ ، ﴿ حيث أتى ﴾ .

وجاء ﴿ أتاها ﴾ ولفظ ﴿ جاء ﴾ فى النمل أكثر ، نحو : ﴿ فلما جاءهم ﴾ ﴿ وجئتك من سبأ ﴾ ، ﴿ فلما جاء سليمان ﴾ ، وألحق القصص بظه لقرب ما بينهما .

قوله : ﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾ ، وفى القصص ﴿ فرددناه ﴾ ، لأن الرجوع إلى الشئ والرد إليه بمعنى ، والرد عن الشئ يقتضى كراهة المردود ، وكان لفظ الرجوع ألطف فخص طه به ، وخص القصص بقوله ﴿ فرددناه ﴾ تصديقا لقوله ﴿ إن أرادوه إليك ﴾ .

قوله : ﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ وفى الزخرف : ﴿ وجعل ﴾ لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالاً ، فخص به طه ، وخص الزخرف بجعل ، إزدواجاً للكلام ، وموافقة لما قبلها وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ إلى فرعون ﴾ ، وفى الشعراء ﴿ أن ات القوم الظالمين قوم فرعون ألا ﴾ ، وفى القصص ﴿ فذاتك برهانان من ربك إلى فرعون ﴾ ، لأن طه هى السابقة ، وفرعون هو الأصل والمبعوث إليه ، وقومه تبع له ، وهم كالمذكورين معه .

وفى الشعراء ﴿ قوم فرعون ﴾ : أى قوم فرعون وفرعون ، فاكتفى بذكره فى الإضافة عن ذكره مفرداً ، ومثله : ﴿ أغرقنا آل فرعون ﴾ أى آل فرعون وفرعون .

وفى القصص : ﴿ إلى فرعون وملأه ﴾ فجمع بين الاثنين ، فصار كذكر الجملة بعد التفصيل .  
 قوله : ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ : صرح بالعقدة هنا ، لأنها السابقة ، وفى الشعراء  
 ﴿ ولا ينطلق لساني ﴾ فكنى عن العقدة بما يقرب من الصريح ، وفى القصص ﴿ وأخى هارون  
 هو أفصح منى لساناً ﴾ فكنى عن العقدة كناية مبهمة ، لأن الأول يدل على ذلك .  
 قوله تعالى فى الشعراء ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ وليس له فى طه ذكر ، لأن قوله :  
 ﴿ ويسر لى أمرى ﴾ مشتمل على ذلك وغيره ، لأن الله عز وجل إذا يسر له أمره لم يخف القتل .  
 قوله تعالى : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى ﴾ هارون أخى ﴿ صرح بالوزير لأنه الأول فى الذكر ،  
 وكنى عنه فى الشعراء حيث قال : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ ، أى ليأتينى فيكون لى وزيراً ، وفى  
 القصص : ﴿ أرسله معى ردءاً ﴾ : أى أجعله لى وزيراً ، فكنى عنه بقوله : ﴿ ردءاً ﴾ لبيان الأول .  
 قوله تعالى : ﴿ فقولاً إنا رسولا ربك ﴾ وبعده ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ، لأن الرسول مصدر  
 مُسمًى به . فحيث وحده حمل على المصدر ، وحيث ثنى حمل على الاسم ، ويجوز أن يقال : حيث  
 وحّد حُمِل على الرسالة ، لأنهما أرسلتا لشيء واحد ، وحيث ثنى حمل على الشخصين .  
 قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ بالفاء من غير ( من ) وفى السجدة  
 بالواو وبعده ( من ) ، لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول ، فطال الكلام فحسن حذف ( من ) ، والواو  
 يدل على الاستئناف ، وإتيان ( من ) غير مستثقل .

### مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

١ - إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط  
 والإطناب ، كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز ، كقصص  
 إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل ، كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين  
 بالإجمال ، ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة  
 آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى سورة مريم إلا اسمه فحسب .

٢ - إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفها .

٣ - إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة . ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر  
 تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيراً للمتقين ، وإنذاراً للمعاندين ، وفى أوائل  
 هذه ما يؤكد هذا المعنى .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ  
الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي  
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ  
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾

### المفردات :

- ﴿ لتشقى ﴾ : أى لتتعب وتنصب .
- ﴿ تذكرة ﴾ : أى تذكيرا وعظة .
- ﴿ يخشى ﴾ : أى يخاف الله .
- ﴿ العلى ﴾ : وأحدها العليا مؤنثة الأعلى كالكبرى مؤنثة الأكبر .
- ﴿ والعرش ﴾ : فى اللغة سرير الملك ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم .
- ﴿ والثرى ﴾ : التراب الندى والمراد هنا مطلق التراب .
- ﴿ وأخفى ﴾ : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوه به بحال .
- ﴿ والأسماء ﴾ : أى الصفات ( صفات الله تعالى ) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء  
قل سموهم ﴾ (١) أى صفوهم .
- ﴿ والحسنى ﴾ : مؤنث الأحسن .

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ : قد يكون المقصود بـطه بعض حروف  
الهجاء التى تحدى الله بها العرب ، وجعلها إشارة إلى إعجاز هذا القرآن العظيم ﴿ وإنه لتنزيل رب  
العالمين ﴾ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربى مبين ﴿ (٢) .  
ويرى البعض أنها بمعنى يارجل .

﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ : بل إنه رحمة وهداية وسكينة وطمأنينة : ﴿ وننزل من القرآن  
ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٣) .

(١) الآية ٣٣ من سورة الرعد .

(٢) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .



﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ : أى تذكيراً للغافلين إذا ما غفلوا ، فهو تنبيه وإرشاد وتوجيه لمن يخشى الله ويرجو رحمته ويخاف عذابه ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . .  
قوله تعالى : ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ :

هذا القرآن معجزة الله فى كلماته ، كما أن الكون من سماوات وأراضين معجزات الله تعالى فى خلقه ، وقد تحدى الله جلّت قدرته أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم فعجزوا ، قال تعالى : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ \* فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

وتحدى العالم أن يخلقوا ذباباً فى هذا الكون : ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

فكما أن كلمات الله معجزة ، فكذلك آياته المنظورة فى الكون معجزة ، فالآيات متلوة كانت أو منظورة إنما هى ﴿نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ .

إن الذى أنزل عليك هذا الكتاب يا محمد هو الذى خلق السماوات والأرض . يعلم سركم ونجواكم ويعلم ما تكسبون .

﴿قل أنزل الذى يعلم السر فى السماوات والأرض﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ :

قال الإمام مالك رضى الله عنه : ( الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم تتغير عما كان ) .

وهذا هو قول السلف الصالح تفويض وتسليم بلا تعطيل ولا تأويل ، الله جل فى علاه ليس كمثله شئ وهو السميع البصير ، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿له ما فى السماوات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ :

فإنه جل جلاله هو مالك الكون كله ، والمتصرف فيه بحكمته وعلمه وإرادته وقدرته ، فالسماوات ملكه ، والأرض كذلك وما بينهما ، وله ما تحت الثرى مما اختلف ألوانه ، وتنوعت أشكاله ، له ملك

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٥) الآية ٦ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

السموات والأرض ، فالقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، ملك فقدر ، وبطن فخير ، وعلا فقهر ، واحد بلا عدد ، ودائم بلا أمد ، وقائم بلا عمد .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَى ﴾ :

هذا الإله القادر علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن علم الله الشامل يعلم ما هو أخفى من السر ، وهو الذى عبر عنه القرآن بذات الصدور ، ما يخطر ببال الإنسان دون أن يتحدث به ، هذا الإله الذى وجب له كل كمال يليق بذاته ، واحد لا شريك له ، ولا قسيم له ، ولا شبه له .

﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ :

وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾<sup>(٤)</sup> .

فهو صاحب الصفات الكاملة ، وهو المنزه عن أى نقص ، تقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

## حديث موسى

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُعَلَى النَّارِ هَدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾

## المفردات :

- ﴿ الحديث ﴾ : كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحي في يقظته أو في منامه .
- ﴿ والمكث ﴾ : الإقامة .
- ﴿ آنست ﴾ : أى أبصرت .
- ﴿ آتيكم ﴾ : أجيئكم .
- ﴿ بقبس ﴾ : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه .
- ﴿ هدى ﴾ : أى هاديا يدلنى على الطريق .
- ﴿ طوى ﴾ : ( بالضم ) : منونا : اسم لذلك الوادى .
- ﴿ اخترتك ﴾ : أى اصطفيتك .
- ﴿ لذكرى ﴾ : أى لتكون ذاكرة لى .
- ﴿ أكاد أخفيها ﴾ : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية .
- ﴿ هواه ﴾ : أى ما تهواه نفسه .
- ﴿ فتردى ﴾ : أى فتهلك .

بعد أن عظم سبحانه كتابه ، والرسول الذى أنزل عليه بما كلفه به من التبليغ بالإلذار والتبشير ، أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء ، وما فعلته أممهم معهم ، وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأس بهم ، فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت

والأذى ، من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (١) .

وبداً بقصص موسى لأن محنته كانت أشد ، فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لا يفتر ، وبقوة تفل الحديد .

﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً ﴾ أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحي إلى موسى ، وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر ، وتقرير الجواب فى نفس المخاطب ، أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ، ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعبياً فى الرجوع إلى والدته ، فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصداً مصر بعد أن طالت غيبته عنها ، فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه ، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال ، وجعل يقدح بزند كان معه ليورى ناراً ، فلم تود المقدحة شيئاً ، وبينما هوى زاول ذلك ويعالجه ، إذ رأى ناراً من بعد عن يسار الطريق .

﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ :

أى فقال لامراته وولدها وخادما مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إني أبصرت ناراً ، وسأذهب إليها لعلنى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هادياً يدلنى على الطريق ، وجاء فى سورة القصص : ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (٢) .

وقصارى ذلك - إنه قال لأهله أقيموا مكانكم ، وإني قد رأيت ناراً فيما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه ناراً تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلاً يرشدنى إلى الطريق المسلوك ، وكان قد ضل عنه .

﴿ فلما أتاه نودى يا موسى إني أنا ربك ﴾ :

أى فلما خرج موسى نحوها وجد ناراً بيضاء تتقد كأصو إما يكون فى شعرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ، وهناك نودى يا موسى قال : من المتكلم ؟ قال : إني أنا ربك ، ثم أمره أن يخلع نعليه احتراماً للبقعة المقدسة فقال :

﴿ فاخلع نعليك ﴾ : إذ أن الحفة أقرب إلى التواضع ، وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين .

ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

﴿ إنك بالواد المقدس طوى ﴾ : أى لأنك بالوادي المطهر المسمى بطوى ، فاخلعها ليحصل

للقدمين بركته .

﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى﴾ :

أى وأنا اصطفتك من قومك بالنبوة والرسالة ، فعليك أن تسمع لما أوحى إليك .  
ونحو الآية قوله : ﴿إني اصطفتك على الناس برسالاتى وبكلامى﴾<sup>(١)</sup> .

وقصارى ذلك - لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ، واجعل كل خاطرك مصروفاً إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء ، وغيض البصر ، والإصغاء بالسمع وحضور القلب ، والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم ما يوحى إليه بقوله :

﴿إني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ :

أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

﴿فاعبدنى﴾ : أى وإذ كنت أنا الإله حقاً ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾ :

أى وأد الصلاة على الوجه الذى أمرتك به ، مقومة الأركان ، مستوفاة الشرائط لتذكرنى فيها ، وتدعونى دعاء خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجيه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها المعبود وشغل القلب واللسان بذلك ، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال : ﴿أقم الصلاة لذكرى﴾ )<sup>(٢)</sup> .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

﴿إن الساعة آتية أكاد أخفيها﴾ :

أى إن الساعة آتية لا محالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق .

وقد جاء هذا على سنن العرب فى مخاطبتهم ، يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونون منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وإنقضاء أجله اشتغل

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٣٧ ، ومسلم فى المساجد : ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، وأبو داود فى الصلاة : ١١ ، والترمذى فى الصلاة : ١٦ ، ١٧ ، والنسائى فى المواقيت ٥٢-٥٤ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٠ ، والدرامى فى الصلاة : ٢٦ ، والإمام مالك فى الصلاة : ٢٥ ، وفى السفر : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٠٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، وفى ٥ : ٢٢ .

بالمعاصي إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ، ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصي ويتوب منها في كل حين ، خوف معالجة الموت .

قوله تعالى : ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ : أى إن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى كل عامل بعمله ، كما قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١) . وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ (٢) .

ثم خاطب سبحانه موسى محذراً له فقال :

﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ :

أى فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها ، ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، بل يركب رأسه ، ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم ( إياك أعنى واسمعى يا جارة ) ، فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين ، كما تقدم غير مرة .

« وخلاصة ذلك : لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه ، وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ (٣) .

### معجزات موسى عليه السلام

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَّى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَّى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا يَمْوَسَّى ﴿٢٠﴾ تَسْعَى ﴿٢١﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢٢﴾

المفردات :

- ﴿ أتوكأ عليها ﴾ : اعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع .
- ﴿ وأهش بها ﴾ : أى أخطب بها ورق الشجر .
- ﴿ مآرب ﴾ : أى منافع واحدها مأربة ( مثلثة الراء ) .
- ﴿ والحية ﴾ : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع .

(١) الأيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) الآية ١٦ من سورة الطور .

(٣) الآية ١١ من سورة الليل .

﴿ والثعبان ﴾ : العظيم من الحيات .

﴿ والجان ﴾ : الصغير منها .

﴿ سيرتها الأولى ﴾ : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا ، وإيحاءه إليه أن لا إله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسيء بما رَسَى به نفسه جزاء وفاقا ، قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على ثبوته ، وتصديقاً له على رسالته .

فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجماعاً لقلبه ، وتهذئة لروعته فى هذا المقام الرهيب ، وإعلاماً بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن ، وجيليل المنافع والمزايا ، التى لم تكن تدور بخلدته عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وما تلك يمينك يا موسى ﴾ :

سأله سبحانه عما فى يده - وهو العليم به - ليبين له أنه سيجعل لتلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ، ولا منفعة عظيمة ، جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال ، كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالعظمتى ، إذ أظهر لأحق الأشياء هذه المنافع العظيمة ، على سنن الناس فى تخاطبهم ، إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشيء الحقير شيئا شريفا أن يأخذه ، ويعرضه على النظارة ، ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون : هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا ، وجيليل المنافع ، التى لم تكن تدور بخلدتهم ، ولم تخطر ببالهم .

فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا بحسب ما وصلت إليه معرفة البشر :

﴿ قال هى عصاى ﴾ : وبهذا تم الجواب ، ولكن موسى ذكر ما لها من فوائد إذ أحب مكالمته ربه ، فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

١ - ﴿ أتوكأ عليها ﴾ : أى اعتمد عليها إذا مشيت ، أو تعبت ، أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

٢ - ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ : أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

٣ - ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ : أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك ، كحمل الزاد ، والسقى ، وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى فعلقت بها قوسى ، وكنائتى ، ومخلاتى ، وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره بإلقائها ، لتبين لها فوائد لم يعزفها من قبل .

﴿ قال ألقها يا موسى \* فآلقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ : أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فآلقاها فإذا هى ثعبان عظيم ، ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا ، وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ <sup>(١)</sup> لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها ، ثم أمره بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

﴿ قال خذها ولا تخف ﴾ : أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها ، وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ، ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

﴿ سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ : أى سترجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل ، وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش دون تردد ولا ذعر .

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا  
الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي  
أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾  
هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾  
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات :

﴿ الضم ﴾ : الجمع وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجيب هو المراد هنا .

﴿ والسوء ﴾ : القبح فى كل شىء ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه .

﴿ وآية أخرى ﴾ : أى معجزة ثانية غير العصا .

﴿ طغى ﴾ : أى تجاوز الحد فى عتوه وتجبره .

﴿ اشرح لى صدرى ﴾ : أى وسعه لتحمل أعباء الرسالة .



﴿ يسر لى أمرى ﴾ : أى سهّل لى ما أمرتنى من تبليغ الرسالة .  
 ﴿ وأحلل عقدة من لسانى ﴾ : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى  
 الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى .  
 ﴿ يفقهوا قولى ﴾ : أى يفهموه .  
 ﴿ وزيرا ﴾ : أى مُعينا .  
 ﴿ والأزر ﴾ : القوة . يقال آزره أى قوّاه وأعانه .  
 ﴿ وأشركه فى أمرى ﴾ : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة .  
 ﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عالما بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ :  
 أى من آيات الله المعجزة الخارقة للعادة والتى يعجز جميع الخلق على الإتيان بمثلها ، فبعد  
 معجزة العصا تأتى معجزة اليد ، كان موسى يدُخل يده فى جيبه كما جاء فى كثير من الآيات ، قال  
 تعالى : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ أسلك يدك فى  
 جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ <sup>(٢)</sup> ، أى بيضاء ليس بها داء البرص .

لنريك من آياتنا الكبرى ، وكل آيات الله كبرى ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل  
 الكائنات طوع إرادته ؛ إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، سبحانه يقول فى  
 حديثه القدسى الجليل : [ عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد  
 كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلمنى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد ] .  
 سبحانه ربى :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الشئون التى تجرى بتقديرى  
 لى خالق رازق ماشاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى  
 قوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ :

أى تجاوز حدود العبودية ، ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم طغى وتجبر وأدبر  
 واستكبر فقال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى  
 صرحا لعلنى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين \* واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق  
 وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

أذهب إلى هذا الطاغوت الذى خرجت فارا منه وهاربا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،

(٣) الآيات ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .

(٤) الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة القصص .

(١) الآية ١٢ من سورة النمل .

(٢) الآية ٣٢ من سورة القصص .

ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الرب الأعلى .

وقال وهب بن منبه : قال الله لموسى : ( انطلق برسالتى فإنك بسمعى وعينى ، وإن معك يدى وبصرى ، وإنى قد ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكبرى ، وغرته الدنيا عنى ، حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لا يعرفنى ، فإننى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبته ، وإن أمرت الأرض ابتلعته ، وإن أمرت الجبال دمرته ، وإن أمرت البحار أغرقته ، ولكن هان علىّ وسقط من عينى ، ووسع حلمى ، واستغثيت بما عندى وحقى ، إنى أنا الغنى لا غنى غيرى .

فبلغه رسالتى ، وإدعاه إلى عبادتى وتوحيدي وإخلاصى ، وذكره أيامى ، وحذره نقمى وبأسى ، وأخبره أنه لا يقوم شئ بغضبى ، يقل له فيما بين ذلك قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ، وأخبره أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، ولا يرد عنك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، وقل له : أجب ربك ، فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك أربعمئة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتمثل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يطر عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل ، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم ، وجاهده بنفسك وأخيك ، وأنتما تحتسبان بجهاده ، فإننى لو شئت أن آتية بجنود لا قبل له بها لفعلت .

ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه ، أن الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا تعجبنكما زينته ، ولا ما متع به ولا تمدا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزويه عنكما ، وكذلك أفعال بأوليائى .

وقديما ما جرت عادتى فى ذلك ، فإننى لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعى الشفيق أبله عن مبارك الغرة ، وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى ، سالما موفرا ، لم تكلمه الدنيا .

وأعلم أنه لا يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ فيما عندى من الزهد فى الدنيا ، فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل قلبك ولسانك .

وأعلم أنه من أهان لى ولما أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة ، وبأدأنى ، وعرض لى نفسه ودعائى إليها ، وأنا أسرع شئ إلى نصره أوليائى .

أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لى ، أم يظن الذي يعادينى أن يعجزنى ، أم يظن الذي يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ، وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة ، لا أكل نصرتهم إلى غيرى ) . رواه ابن أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ﴾ ويسر لى أمرى \* واحلل عقدة من لسانى \* يفقهوا قولى \* واجعل لى وزيراً من أهلى \* هارون أخى \* اشدد به أزرى \* وأشركه فى أمرى \* كى نسبحك كثيراً \* ونذكرك كثيراً \* إنك كنت بنا بصيراً ﴾ .

لما أمر الله تعالى نبيه موسى بالذهاب إلى فرعون ، وكما قال له فى سورة الشعراء : ﴿ أن اتت القوم الظالمين ﴾ قوم فرعون ألا يتقون ﴿ (١) .

سأل موسى ربه تلك الدعوات الطيبة ، فقد علم أنه ذاهب إلى جبار عنيد ، لا تليّن له قناة ، لأنه غليظ الكبد ، لو وزعت قسوة قلبه على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، فهو رجل حديد الفؤاد ، حديد اللسان .

سأل موسى ربه أن يفسح له فى صدره ، حتى يصبر على جهالة هذا الجهول : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ (٢) .

والحلم على مثل هذا أمر مرغوب فيه ، كما قال تعالى : ﴿ فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ فقل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ (٣) .

إن الخطب جسيم ، وإن الهول عظيم ، من أجل ذلك قال موسى لربه ﴿ ويسر لى أمرى ﴾ ، فلا سهل إلا ما جعله الله سهلاً ، وهو سبحانه الذى يجعل الصعب سهلاً .

كما سأل موسى ربه حل عقدة من لسانه ، وكان فى لسانه حُبسة تمنعه من كثير من الكلام . وفى آية أخرى ، قال : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءاً يصدقنى ﴾ (٤) وهنا يقول : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى \* هارون أخى ﴾ أى معينا .

ومن ثم قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ ونادياه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً \* ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴿ (٥) .

ومن ثم قال ﴿ اشدد به أزرى ﴾ : أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، حتى

(٤) الآية ٣٤ من سورة القصص .

(٥) الآيات ٥١-٥٣ من سورة مريم .

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٤ من سورة القصص .

(٣) الآيات ١٧-١٩ من سورة النازعات .

نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

﴿ كى نسبحك كثيرا \* ونذكرك كثيرا \* إنك كنت بنا بصيرا ﴾ :

أى لكى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفضال التى من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية ، وفثته الباغية من الألوهية له ، ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى القصد من الإنفراد ، فكل من النبیین يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حالة الإنفراد .

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عليما بأحوالنا وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هارون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين ، وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

### تذكير وتكليف

قال تعالى :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَائِيقَ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَكُنْتَ نَفْسًا فَفَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَى ﴿٤٠﴾ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِ ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبِأُ فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ

فَأَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ  
 الْهُدَى ٤٧ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٤٨ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا  
 يُمُوسَى ٤٩ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ  
 الْأُولَى ٥١ قَالَ عَلِمَهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٥٢ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ  
 مَهْدًا وَوَسَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى  
 ٥٣ كُلُّوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُم إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ٥٤ \*مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا  
 نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٥

المفردات :

- ﴿ السؤل ﴾ : بمعنى المسئول : أى المطلوب .
- ﴿ متنا ﴾ : أى أنعمنا مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت .
- ﴿ أوحينا ﴾ : أى ألهمنا كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ (١) وقوله : ﴿ وإذا أوحيت إلى الخواصين أن آمنوا بى وبرسولى ﴾ (٢) .
- ﴿ اقدفيه ﴾ : أى ألقيه واطرحه .
- ﴿ واليم ﴾ : البحر والمراد به هنا نهر النيل .
- ﴿ والساحل ﴾ : الشاطئ .
- ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ : أى ولترى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرمى الرجل الشيء بعينه ذلالة على عنايته به .
- ﴿ يكفله ﴾ : أى يضمه إلى نفسه .
- ﴿ تقرر عينها ﴾ : أى تسر .
- ﴿ والغم ﴾ : الكدر الناشئ من خوف شيء أو فوات مقصود .
- ﴿ والفتون ﴾ : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها .
- ﴿ لبثت ﴾ : أى أقمت .
- ﴿ مدين ﴾ : بلد الشام .

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة .

﴿ الآيات ﴾ : هي المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له :  
فانت بآية ، ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك .  
﴿ ولا تنيا ﴾ : أى لا تفترا ولا تقصرا .  
﴿ فى ذكرى ﴾ : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من  
أعظمها .

﴿ طفئى ﴾ : أى تجاوز الحد .  
﴿ قولنا لينا ﴾ : أى لا عنف فيه ولا غلظة .  
﴿ يتذكر ﴾ : أى يتأمل فيذعن للحق ويؤمن .  
﴿ يخشى ﴾ : أى يخاف من بطش الله وعذابه .  
﴿ يفرط ﴾ : أى يعجل بالعقوبة ، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل .  
﴿ يطفئ ﴾ : أى يزداد طغيانا .  
﴿ أسمع وأرى ﴾ : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل .  
﴿ فأتياه ﴾ : أى فقابلاه وجها لوجه .  
﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ : أى فأطلقهم من الأسر .  
﴿ ولا تعذبهم ﴾ : ولا تبقيهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير فى شاق الأعمال .  
﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله  
الهادية إلى الحق .

﴿ تولى ﴾ : أى أعرض .  
﴿ أعطى كل شئ خلقه ﴾ : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشاكل ما نيط به من  
الخواص والمنافع .

﴿ ثم هدى ﴾ : أى ثم عرفه كيف ينتفع بما أعطى له .  
﴿ البال ﴾ : الفكر .  
﴿ فى كتاب ﴾ : أى دفتّر مقيد فيه ، والمراد بذلك كمال علمه الذى لا يضيع منه شئ .  
﴿ ضل الشئ ﴾ : أخطأه ولم يهتد إليه .  
﴿ ونسيه ﴾ : ذهب عنه ولم يخطر بباله .  
﴿ والمهد ﴾ : ما يمهد للصبي ويفرش له أى جعل الأرض كالمهد .  
﴿ وسلك ﴾ : أى سهل .  
﴿ والسبل ﴾ : واحدها سبيل : أى طريق .  
﴿ أزواجا ﴾ : أى أصنافا .  
﴿ شتى ﴾ : واحدها شتيت كمرىض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل .  
﴿ آيات ﴾ : أى لدلالات .

﴿ والثى ﴾ : واحدها نهيه وهى العقل سمي بها لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .  
قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ :

بعد ما سأل موسى ربه أن يشرح صدره وييسر أمره ، ويفك حبسة لسانه ليفقهوا قوله ، وأن يجعل له وزيرا من أهله ، استجاب الله له وقال ﴿ قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ : أى أعطيت ما سألت :  
يا من يجيب دعى المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلى مع السقم  
استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية

ثم ذكر الله تعالى موسى بنعمه السالفة عليه ، فقال له : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى \* إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ .

ثم فسر هذا الوحي والإلهام بقوله : ﴿ أن اقدفيه فى التابوت فاقدفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني ﴾ .

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ (١) .

وفى قوله تعالى ﴿ فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ﴾ : ما يفيد مدى جبروت فرعون ، فقد جعل الله منه عدوين ، فانظر إلى هذا الجبار العنيد ، ثم تأمل عداوته لله وعداوته لموسى ، ثم أعجب معى كيف يرسل موسى إلى عدوه فى التابوت ، وكيف يرسل التابوت فى الساحل ، قال تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ (٢) .

ولكن ماذا تفعل الدنيا مجتمعة بجانب عناية الله وإرادته وعلمه وقدرته :  
وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان  
وماذا يصنع فرعون بجنوده وخيله ورجله وجواسيسه بجانب قدرة من لا يغفل ولا ينام ، تأمل معى  
قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عيني ﴾ :

أى تربي على عنايتى ورعايتى ، إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ،  
فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ، إنها عناية الله سبقت إلى قصر فرعون : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذة ولدا وهم لا يشعرون ﴾ (٣) .

(١) الآية ٧ من سورة القصص .

(٢) الآية ٨ من سورة القصص .

(٣) الآية ٩ من سورة القصص .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله  
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه لا تيأسن فإن الكافي الله  
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الصانع الله  
إذا بُليت فشق بالله وأرض به إن الذى يكشف البلوى هو الله  
والله مالك غير الله من أحد فحسبك الله فى كل لك الله

ثم يذكر الله موسى بما كان من أخته ، فيقول : ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴾ :

وذلك لما حرم الله عليه المراضع تحريم منع لا تحريم شرع ، فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وفى سورة القصص يقول جل شأنه : ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١) .

ثم يذكره بذلك الذى قتله موسى : ﴿ قال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ﴾ (٢) ، فيقول : ﴿ وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾ :

والغم هنا ما حدث له من الحزن والهم عندما أصر آل فرعون على قتله ، ففر منهم هارباً حتى ورد ماء مدين ، وقال له الرجل الصالح : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ : قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه قوله : ﴿ وفتناك فتونا ﴾ (حديث الفتون) :

فاخرج بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام ﴿ وفتناك فتونا ﴾ فسألته عن الفتون ما هو ؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثاً طويلاً ، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون ، فقال : ( تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك ، قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجلاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك .

فلما رأوا الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : ليوشكن أن تفنوا بنى إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى يكفونكم ، فاقتلوا عاماً كل مولود

(١) الآية ١٢ من سورة القصص

(٢) الآية ١٦ من سورة القصص .

(٣) الآية ٢٥ من سورة القصص .



ذكرأ ، واتركوا بناتهم ، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثرأ بمن يستحيون منهم ، فتخافوا مكائرتهم . وإياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع فى قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو فى بطن أمه مما يراذ به .

فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى : إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك .

فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها : ما فعلت بابنى ، لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إليّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ؟ فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جوارى امرأة فرعون ، فلما رأيته أخذته ، فأردن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن فى هذا مالا وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيشته لم يخرجن منه شيئا ، حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاما ، فألقى الله عليها منه محبة لم يلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شيء إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون ، فاستوبه منه فإن وهبه لى كنتم قد أحستتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألكم ، فأتى فرعون ، فقالت : قرّة عين لى ولك . فقال فرعون : يكون لك ، فأما لى فلا حاجة لى فيه ، فقال رسول الله ﷺ : ( والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرّة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمة ذلك ) .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظئراً ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل .

وأصبحت أم موسى والهأ فقالت لأختة : قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرأ ؟ أحمى ابنى أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شيء بعيد وهو إلى جنبه . وهو لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظّورات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فأخذوها ، فقالوا : ما يدريك ما نصّحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا فى ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت : نصّحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ، ورجاء منفعة الملك ، فتركوها فانطلقت ، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر . فجاءت أمه فلما وضعت فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا . وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا . فأرسلت إليها

فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بهاء قالت : امكثي ترضعي ابني هذا فإنني لم أحب شيئاً حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتي وولدي فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتي فيكون معي لا آله خيراً ، فإنني غير تاركة بيتي وولدي .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدّها فيه ، فتجاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده . فرجعت به إلى بيتها من يومها . وأنبتته الله نباتاً حسناً وحفظه لما قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم في ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيريني ابني ، فدعتها يوماً تزيروا إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظهورها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أمينا يحصى ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها بجلته وأكرمه ، وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه .

ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلته وليكرمه ، فلما دخلت به عليه جعله في حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون بأبن جبير بعد كل بلاء ابتلى به .

وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي ؟ فقال : ألا ترى أنه يزعم أنه يصرعني ويعلوني ؟ فقالت : اجعل بيني وبينك أمراً يعرف الحق به ، اثبت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، ففرد إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به ؛ وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده ، وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة . حتى امتنعوا كل الامتناع .

فبينما موسى عليه السلام يمشي في ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما فرعوني ، والآخر إسرائيلي ، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بني إسرائيل وحفظه لهم ، لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكل موسى الفرعوني فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلي ، فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، ثم قال : ﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (١) .

فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون . فخذ لنا بحقنا ، ولا ترخص لهم . فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبناً إذا بموسى من الغد ، قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني ، فصادف موسى فندم على ما كان منه ، وكره الذى رأى ، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني ، فقال للإسرائيلي لما فعل بالأمس واليوم : إنك لغوى مبين ، فنظر الإسرائيلي إلى موسى بعدما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعوني ، فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوى مبين أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده . إنما أراد الفرعوني ، فخاف الإسرائيلي وقال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا .

وانطلق الفرعوني فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلي من الخبر حين يقول : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاقتصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير . فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، ولم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل . ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ (١) يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقى من فضول صياخهم ، فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيراً حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما .

وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رب إنى لما أنزلت إىّ من خير فقير ﴾ (٢) .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلاً بطانا ، فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرناه بما صنع موسى ، فأمر إحدهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا فى مملكته .

فقالت إحدهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ (٣) فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له ،

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القصص .

(٢) الآية ٢٤ من سورة القصص .

(٣) الآية ٢٦ من سورة القصص .

فلما علم إنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لى : امشى خلفى ، وانعتى لى الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسرى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت .

فقال له هل لك : ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ (١) .

ففعل فكانت على نبي الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت ستان عدة منه ، ففضى الله عنه عدته فأتىها عشراً .

قال سعيد وهو ابن جبير : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبي الله واجبة ، لم يكن نبي الله لينقص منها شيئاً ، ويعلم أن الله قاضيا عن موسى عدته التى كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك ، فقال : الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص عليك فى القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون فى القتل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له رداءً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فاتاه الله سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوصى الله إلى هارون وأمره أن يلقيه فاندفع موسى بعصاه حتى لقي هارون عليه السلام .

فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فقالا : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذى قص الله عليك فى القرآن ، قال : فما تريدان ؟ وذكره القتل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن بالله ، وترسل معنا بنى إسرائيل ، فأبى عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقحم عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعنى من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول .

فاستشار الملاء حوله فيما رأى ، فقالوا له هذان لساحران ﴿ يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتك المثلئ ﴾ يعنى ملكهم الذى هم فيه ، والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب ، وقالوا له : أجمع لهما السحرة . فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن ، فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قال : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحيال

والعصى الذى نعمل ، فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شيء أحببتهم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس : أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء .

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (١) : يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ، ف ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿ (٢) .

فراى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه : أن ألق عصاك . فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها . فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصاً ولا حبللاً إلا ابتلعتها .

فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنّا بالله ، وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون : ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ (٣) .

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء آية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟

فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويوائقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك أخلف موعده ، ونكث عهده .

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه ، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر ، وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصياً لله .

(١) الآية ٤٠ من سورة الشعراء .

(٢) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة طه .

(٣) الآية ١١٩ من سورة الأعراف .

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدني ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجأوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرك البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى ، فلما أن جأوز موسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر ، فلما جأوز موسى البحر قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له بيدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم إلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ \* إن هؤلاء متبراً ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴿ (١) .  
قد رأيتم من العبر وسمعتهم ما يكفيكم ومضى .

فأنزلهم موسى منزلاً ، وقال : اطيعوا هارون فإنى قد استخلفته عليكم فإنى ذاهب إلى ربى ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم فطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان ، قال : يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح ، قال : أو علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى ، ففعل موسى عليه السلام ما أمر به .

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم ، وقال : أنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإنى أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية . ولستأ برأدين إليهم شيئاً من ذلك ولا ممسكية لأنفسنا ، فحفر حفيراً وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقتة ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر صيئران لبنى إسرائيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة ، فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك ؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جأوز بكم البحر ولا ألقيا شيئاً إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار .

قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل فى دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ، فقالت فرقة : يا سامرى ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ،

فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإننا نتبع قول موسى .  
وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا تؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة فى  
قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل ، وأعلنوا التكذيب به .  
فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم إنما فتتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ قالوا :  
فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ، هذه ثلاثون يوما قد مضت ، وقال بسفهاؤهم أخطأ ربه  
فهو يطلبه يتبعه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقي من بعده : ﴿ رجع موسى إلى قومه غضبان  
أسفا ﴾ (١) فقال لهم : ما سمعتم فى القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ،  
ثم إنه عذر أخاه بعذره ، واستغفر له .

وانصرف إلى السامرى فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟

قال : ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم : ﴿ فنبذتها وكذلك سولت  
لى نفسى قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى الإلهك  
الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقته ثم لتنسفنه فى اليم نسفا ﴾ .

ولو كان إلها لم يخلص إلى منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفننة ، واغبط الذين كان رأيهم فيه مثل  
رأى هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا عملنا ،  
فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يآلو الخير خيار بنى إسرائيل ، ومن لم يشرك فى العجل ،  
فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبي الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم  
ما فعل ، فقال : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ (٢) .

وفيه من كان الله أطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم  
الأرض . فقال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ فسأكبتها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا  
يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ (٣) .

فقال : يارب سألتك التوبة لقومى ، فقال : إن رحمتى كتبها لقوم غير قومى . هلا أخرتني فى  
أمة ذلك الرجل المرحومة ؟ فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله  
بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون ، وأطلع  
على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

(١) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكنت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل عليهم وأبوا أن يقرؤا بها ، ففتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم .

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ، فقالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ، قال : رجالان من الذين يخافون - قيل ليزيد هكذا قرأت قال نعم من الجبارين - آمنا بموسى وخرجنا إليه ، قالوا : نحن أعلم بقومنا ، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون .

ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ (١) .

فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام في التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعا .

وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، في كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التي يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذي كان فيه بالأمس (٢) رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبي ﷺ ، وصدق ذلك عندي ( أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرعوني الذي أفشى على موسى أمر القتل الذي قتل . فقال : كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلي الذي حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهري ، فقال له يا أبا اسحاق : هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذي قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلي الذي أفشى عليه أم الفرعوني ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعوني بما سمع من الإسرائيلي الذي شهد على ذلك وحضره ) . وهكذا رواه النسائي في السنن الكبرى .

قوله تعالى : ﴿ فلبث سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى \* واصطنعتك لنفسى ﴾ . هذا الخطاب من الله تعالى لكليمه موسى ، يذكره فيه بالسنين التي قضاه بين أهل مدين

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه النسائي في الجنائز : ٦٩ .



بعدما سقى الغنم لابنتى الشيخ الصالح ، وقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ (١) . فقال له أبوهما : ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على ﴾ والله على ما نقول وكيل ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ :

أى على موعد قدرته ووقت أفته ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ﴾ قال لأهله : امكثوا إني آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فلما أتاها نودى من شاطيء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ : أى اصطفيتك لرسالتي كما فى قوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ (٤) .  
قوله تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾ : أى لا تبطئا فى تبليغ ذكرى إلى فرعون .

والآيات هى المعجزات التى أجراها الله على يدي موسى .

﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى ﴾ : وتجاوز حدود العبودية فقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (٥) وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (٦) .

﴿ فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ : جاء فى تفسير القول اللين أنه فى هذه الآية عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يزيد الرقاش عند قوله : ﴿ فقولاً له قولاً لنا ﴾ :

يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه وينادييه ؟

وقال وهب بن منبه : ( قولاً له إني إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ) وعن عكرمة فى قوله ﴿ فقولاً له قولاً لنا ﴾ قال : ( لا إله إلا الله ) .

وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى : ﴿ فقولاً له قولاً لنا ﴾ : أعذرا إليه قولاً له : إن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة وناراً .

والحاصل من أقوالهم أن دعوتها له تكون بكلام رقيق لين سهل رقيق ، وليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ﴾ (٧) .

(١) الآية ٢٦ من سورة القصص .

(٤) الآية ١١٤ من سورة الأعراف .

(٧) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الأيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة القصص .

(٥) الآية ٢٤ من سورة النازعات .

(٣) الأيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة القصص .

(٦) الآية ٣٨ من سورة القصص .

وقوله تعالى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ : أى لعله يرجع عما هوفيه من الضلال والهلكة ،  
أو يخشى : أى يوجد طاعة من خشيته ربه كما قال تعالى ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾  
فالتذكير الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة .  
وقال الحسن البصرى : ﴿ لعله يتذكر أو يخشى ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون  
أهلكه قبل أن أعذر إليه .

وفى هذا المقام يقول زيد بن عمرو بن نفيل شعرا رواه ابن اسحاق عن أمية بن أبى الصلت :  
وأنت الذى من فضل ورحمة      بعثت إلى موسى رسولا مناديا  
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا      إلى الله فيرعون الذى كان باغيا  
فقلوا له هل أنت سويت هذه      بلا وتد حتى استقلت كما هيا  
وقولا له آنت رفعت هذه      بلا عمد ارفق إذن بك بانيا  
وقولا له آنت سويت وسطها      منيرا إذا ماجنه الليل هاديا  
وقولا له من يخرج الشمس بكرة      فيصبح مامست من الأرض ضاحيا  
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى      فيصبح منه البقل يتز رابيا  
ويخرج منه حبه فى رءوسه      ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

لما قرأ قتادة رضى الله عنه قوله تعالى : ﴿ فقلوا له قولنا \* لعله يتذكر أو يخشى ﴾ : قال :  
سبحانك ربى إذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : أنا ربكم الأعلى فكيف حلمك بعبد قال :  
سبحان ربى الأعلى . وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله  
غيرى ﴾ (١) فكيف حلمك بعبد قال : ( لا إله إلا الله ) .

قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ \* قال لا تخافا إننى معكما أسمع  
وأرى \* فأتياه فقولا إنا رسول ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام  
على من اتبع الهدى \* إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ :  
هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عما قاله موسى وهارون ، فقد أخبرا أنهما يخافان أن يفرط عليهما  
فرعون ، أى يعجل عليهما بالعقوبة ، ويبادرهما بالنكال قبل أن يبلغا رسالة ربهما ، أو أن يطغى فيتجاوز  
حدود العبودية ويسىء الأدب مع الذات الإلهية ، فكانت الإجابة ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع  
وأرى ﴾ :

أسمع ما يقال وأرى ما يحدث : فسبحان من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا :  
﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة  
إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله  
بكل شىء عليم ﴾ (٢) .

سبحانك ربى الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك . علوت فقهرت ، وبطنت فخبرت ، وملكك فقدرت ، لا يشغلك سائل ، ولا ينقصك نائل .

إن من كان الله معه لا يخيب سعيه ، ولا تزل قدميه ، ولا يضل سؤله . وماذا فقد من وجد الله ؟ وماذا وجد من تخلى عنه السلطان الأعلى ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم ﴾ : وذلك كما جاء فى قوله جلّ شأنه : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾\* ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ : هو كقوله جلّ شأنه : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾\* حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتك ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾\* قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾\* فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ : ذلك لأن السلام طمأنينة وأمان ، وأهل الهدى هم أهل الأمان والطمأنينة ، فإن اتبعت الهدى فأنت منهم تفوز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة . قال الزجاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب اهـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل ملك الروم قال : ( بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فاسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين )<sup>(٥)</sup> .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ : هذا مقتضى العدالة الإلهية ، وهذا هو القول السديد الذى يخاطب العقل الرشيد بالمنطق العادل : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا . ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

(٣) الآيات ٤-٦ من سورة القصص .

(٤) الآيات ١٠٤-١٠٨ من سورة الأعراف .

(١) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النور .

(٥) أخرجه البخارى فى بدء الوحي : ٦ وفى الجهاد : ١٠٢ ، وفى تفسير سورة ٣ : ٤ ومسلم فى الجهاد : ٧٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ١٠ والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٣ ، وفى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

(٦) الآية : ٤٤ من سورة يونس .

﴿ فأما من أعطى واتقى \* وضدق بالحسنى \* فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى \* وكذب بالحسنى \* فسنيسره للعسرى ﴾ (١).

قال جل شأنه : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ ولكن كذب وتولى \* ثم ذهب إلى أهله يتمطى \* أولى لك فأولى \* ثم أولى لك فأولى ﴾ (٢).

وأخذ فرعون يتساءل : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى ﴾ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى :

وإنما سأل فرعون هذا السؤال لأنه كان يقول : ما علمت لكم من إله غيرى ، وكان يقول : أنا ربكم الأعلى ، فسألهما هذا السؤال فأجابا : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ أى ربنا الذى أعطى كل شيء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم . ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه ويرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان وإما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا : ربنا الذى خلق كل شيء على الوجه الذى يليق بما قُدر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

وقال بعض المفسرين : أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، كقوله تعالى ﴿ الذى قدر فهدى ﴾ (٣) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أى كتب الأعمال والآجال ، والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد .

ثم سأل فرعون : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ :

أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟

فأجاب موسى : ﴿ قال علمها عند ربي فى كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ :

أى أن ذلك من علوم الغيب لا يعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته شيء ، لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئا ، وسيجزئهم بما علموا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك - إن علمه تعالى محيط بكل شيء ، وأنه لا ينسى شيئا ، تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتره النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها . وإنما سأل فرعون هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة ، فيستبين للناس

(١) الآيات ٣١-٣٥ من سورة القيامة . (٢) الآيات ٥-١٠ من سورة الليل . (٣) الآية ٣ من سورة الأعلى .

صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التي لا تعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز في رده ووكّل أمر ذلك إلى ربه وإجمال سؤاله - إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصل لنا حال الماضيين من سعادة وشقاء ، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تكميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوجدانية فقال : ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهذا ﴾ أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد ، تتمهّدونها وتستقرون عليها ، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ : أى وجعل لكم فيها طرقاً بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكون من قطر إلى قطر ، لتقضوا مآربكم ، وتتفجروا بمراقفها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ (١) .

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ : أى وأنزل من السماء مطراً فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة ؛ وهى أيضاً مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للإنسان ، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ : أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وادعوا أنعامكم فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم ، وشىء أعد لأنعامكم قوتاً لها أخضر ويابساً .

﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ : أى فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه - لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجعة والأفكار الثابتة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها ، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال سبحانه :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ :

أى من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ، وفيها نعيدكم أى وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾ (٢) وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ فيها تموتون فيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ (٣) .

أخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : ( لما وضعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله ) (٤) .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأعراف

(٤) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٧ ، ٤٠ ، وفى ٥ : ٢٥٤

(١) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء .

## يوم الزينة

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ صُحَى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلُكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِنَكُمْ يُعَذِّبُ وَقَدْ خَابَ مَنْ أَفْتَرَى ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى ﴿٦٣﴾ فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَتَقُولُ إِذَا جِئْتُمْ بِهِمْ وَعَصِيئُهُمْ يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةُ مُوسَى ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٨﴾ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ قَالُوا أَمَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٠﴾ قَالَ أَمْسِكُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا أَمَّا بِرَبِّنَا لِلْبَغْفِرِ لَنَا خَطْبَيْنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ

الَّذِ رَجَّتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّتْ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ  
تَزَكَّى ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ آوَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا  
لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ  
فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿٧٩﴾

## المفردات :

- ﴿ أبى ﴾ : امتنع .
- ﴿ موعدا ﴾ : أى ميعادا معينا .
- ﴿ سوي ﴾ : مستويا لاجبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة .
- ﴿ يوم الزينة ﴾ : يوم عيد كان لهم .
- ﴿ يحشر الناس ﴾ : أى يجمعون .
- ﴿ والضحى ﴾ : وقت ارتفاع النهار .
- ﴿ فتولى فرعون ﴾ : أى انصرف عن المجلس .
- ﴿ كيده ﴾ : أى ما يكيد به من السحرة وأدواتهم .
- ﴿ أقى ﴾ : أى أقى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة .
- ﴿ ويلكم ﴾ : أى هلاك لكم .
- ﴿ والإفراء ﴾ : الاختلاق والكذب .
- ﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد .
- ﴿ فتنازعوا ﴾ : أى فتفاوضوا وتشاوروا .
- ﴿ وأسرروا النجوى ﴾ : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم .
- ﴿ بطريقتكم المثلى ﴾ : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها .
- ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه .
- ﴿ صفا ﴾ : أى مصطفىين لأنه أهيب للمصدور .
- ﴿ أفلح ﴾ : أى فاز بالمطلوب .
- ﴿ استعلى ﴾ : أى غلب .
- ﴿ إيجاس الخوف ﴾ : الإحساس بشيء منه .
- ﴿ ما فى يمينك ﴾ : هى العصا وأهمها تفخيما لشأنها .
- ﴿ وتلقف ﴾ : تبتلع بقوة وسرعة .

- ﴿صنعوا﴾ : أى دَوَّرُوا وافتعلوا .
- ﴿كيد ساحر﴾ : أى كيد سحرى لا حقيقة له ولا ثبات .
- ﴿حيث أُنِى﴾ : أى أينما كان .
- ﴿كبيركم﴾ : أى زعيمكم ومعلمكم . قال الكسائى : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند مُعلمه قال جئت من عند كبيرى .
- ﴿من خلاف﴾ : أى من حال مختلفة ، فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى .
- ﴿أشدَّ عذاباً﴾ : أى أروم .
- ﴿نؤثرُك﴾ : أى نفضلك ونختارك .
- ﴿فطرنا﴾ : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم .
- ﴿فاقض﴾ : أى فأحكم .
- ﴿جنات عدن﴾ : أى جنات أعدت للإقامة .
- ﴿من تحتها﴾ : أى من تحت غرفها .
- ﴿تزكى﴾ : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .
- ﴿السرى والإسراء﴾ : السير ليلاً .
- ﴿اضرب لهم﴾ : أى أجعل لهم .
- ﴿يبسا﴾ : أى طريقاً يابساً لا ماء فيه .
- ﴿والدرك (بالفتح والسكون)﴾ : الإدراك واللمحوق .
- ﴿تخشى﴾ : أى تخاف غرقاً .
- ﴿واتبع وتبع﴾ : بمعنى .
- ﴿فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾ : أى فعمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله .
- ﴿وأضل فرعون قومه﴾ : أى سلك بهم مسلكاً أذاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم ، إذا غرقوا فأدخلوا ناراً .
- ﴿وما هدى﴾ : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى ، قفى على ذلك ببيان أنه بصَّره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله : ﴿ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ وقوله : ﴿الذى جعل لكم الأرض مهذا ولسلك لكم فيها سبلاً﴾ والدالة على نبوته كاللقاء العصا وصيرورتها ثعباناً ، ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هذا وكذب به كفراً وعناداً كما قال تعالى : ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾<sup>(١)</sup> .

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .



وبعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه ، وهو يوم الزينة يوم عيد لهم ، أردف ذلك ذكر ما دبره فرعون بعد إنصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك .

ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لا قبل لهم به ، إن أقدموا على ما هم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا في إخفاء ما يريدون ، وقالوا ما موسى وهارون إلا ساحران يريدان أن يغلباكم ويخرجاكم من دياركم ، ويرجوان أن تتركوا دينكم ، وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقا دينهما ، فحذار أن تفعلوا ذلك ، ولا يتخلفن منكم أحد ، واثبوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

وبعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا اثبوا صفا ، ذكر أنهم بعد أن أتوا خيروه أن يبدأ بإلقاء ما معه أو أن يبدأواهم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فآلقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه : ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ \* وألق ما في يمينك ﴿ . فسيكون لك الفوز والظفر عليهم .

وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسيصلبهم في جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالإزدراء والسخرية ، وقالوا : إنما أنت مسلط علينا في هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يُقدر قدره ، ففي جناته التي تجري من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبعد ذلك أردف سبحانه ذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق في البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، وطوى في البين ، ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غلبت السحرة ، من الآيات المفصلة التي حدثت على يد موسى في مدى عشرين سنة ، بحسب ما فصل في سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث في عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلاً من مصر .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ﴾ :

أى ولقد أطلعناه على الآيات فرآها رأى العين كما قال رب العالمين : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ <sup>(١)</sup> وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٠١ من سورة الاسراء .

فماذا كان موقفه ؟ كَذَّبَ بِالْآيَاتِ ، وَأَبَى الْإِذْعَانَ لِلْحَقِّ ، وهنا مَكْمَنُ الدَّاءِ وَعِلَّةُ الْعِلَلِ ، فَالتَّكْذِيبُ بِآيَاتِ اللَّهِ هُوَ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ، وَبَطَرُ الْحَقِّ هُوَ الْمَصِيبَةُ الْعَظْمَى ، وَهَلْ أَهْلَكَ اللَّهُ الْأَمَمَ إِلَّا بَعْدَ تَكْذِيبِهَا وَإِبَائِهَا قَبُولَ الْحَقِّ .

قال تعالى في حق ثمود : ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴾ إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا \* فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها \* فكذبوه فَعَقَرُوهَا \* فدمدم عليهم ربهم بذنبيهم فسواها \* ولا يخاف عقباها ﴿١﴾ .  
وسورة الشعراء حافلة بهذا المعنى اقرأ قوله تعالى : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٢﴾ واقرأ ﴿ كَذَبَتْ عادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣﴾ واقرأ ﴿ كَذَبَتْ ثُمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٤﴾ واقرأ ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٥﴾ واقرأ ﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .

لقد كان فرعون يعلم أن هذه الآيات ليست من صنع البشر إنما هي من صنع خالق القوى والقدر قال تعالى : ﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٧﴾ .  
لقد لج فرعون في عتوه ونفوره كما هي عادة أهل الباطل ودينهم قال : ﴿ أَجئنا لتخرجنا من أرضنا بسحرِكَ يا موسى ﴾ فسَمَّى المعجزات سَحَرًا ، مع أنها حقائق ، أما السحر فتخييلات وأوهام ؛ تخيلات في الحس وأوهام في العقل ، قال تعالى : ﴿ يَخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ .  
وما كان موسى يسعى أبداً إلى إخراج فرعون من أرضه ، إنما أراد أن يخرجَه من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد ، لقد قال له ذات يوم : يا فرعون آمِن بالله ولك ملك مصر في الدنيا ولك الجنة في الآخرة ، وأوشك فرعون أن يقتنع . لكنه أمهل موسى حتى يستشير هامان ، وبشس المستشار هو ، فقال له هامان : أضحك عليك موسى أبعد ما كنت إلها معبوداً تصير عبداً عابداً ﴿ فحشر فنادى ﴾ فقال أنا ربكم الأعلى ﴿٨﴾ .

وقال فرعون : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى وإنني لأظنه من الكاذبين ﴾ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿٩﴾ .

فماذا قال لموسى ؟ قال : ﴿ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سؤى ﴾ :

(٦) الآية ١٧٦ من سورة الشعراء .

(٧) الآية ١٤ من سورة النمل .

(٨) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .

(٩) الآيتان ٣٨ - ٤٠ من سورة القصص .

(١) الآية ١١ - ١٥ من سورة الشمس .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ١٢٣ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ١٤١ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ١٦٠ من سورة الشعراء .

اختار تحديد الزمان والمكان ، واشترط أن يكون المكان مستويا لا يحجبه بناء ولا جبل ، بل على أرض مبسوطة لا يمنع الرؤية فيها مانع ، حتى يرى الناس جميعا .

قال موسى : ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ : وهو يوم عيد لهم .

﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ : أى والشمس فى شباها بحيث يكثر اجتماع الناس ، حتى يكون هذا اليوم يوما مشهودا .

قوله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ﴾ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرؤا النجوى ﴾ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :

هذا إخبار من الله تعالى بأن فرعون لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معينين ، تولى : أى شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر فى ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيرا نافقا جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وقال فرعون اثنوني بكل ساحر عليم ﴾ (١) .

ثم أتى ، أى اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وجلس فرعون على سرير مملكته ، واصطف له أكابر دولته ، ووقفت الرعايا يمنا ويسرة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ، ومعه أخوه هارون . ووقفت السحرة بين يدي فرعون صفوفًا ، وهو يحرضهم ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ، يقولون : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ (٢) .

فقال لهم موسى محذرا ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذبا ﴾ : أى لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وإنها مخلوقة ، وليست مخلوقة ، فتكونون قد كذبتُم على الله .

﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ : أى يهلككم بعقوبة هلاكا لا بقية له .

﴿ وقد خاب من افترى ﴾ فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ .

قيل معناه : أنهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، إنما هذا كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر .

قوله تعالى : ﴿ وأسروا النجوى ﴾ أى بالغوا فى حديث يدور بينهم سرا .

فماذا قالوا ؟ ﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ : أى خبيران بضروب السحر ، ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ﴾ وذلك إذا انتصرا ، وكانت لهما الغلبة ، واتبعهما الناس فإنهما عندئذ سيذهبان بطريقتكم المثلى ، ومذهبكم الأفضل ، كما قال فرعون : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ (٣) بعد أن قال : ﴿ ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ .

(٣) الآية ٢٦ من سورة غافر .

(١) الآية ٧٩ من سورة يونس .

(٢) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة الأعراف .

﴿ فاجتمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :  
 أى اجتمعوا كلكم صفا واحدا ، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا  
 وأخاه .

﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :  
 أى منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا فرعون العطاء الجزيل ، وأما موسى فينال الرياسة العظيمة .  
 قوله تعالى :

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ \* قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم  
 يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ فأوجس فى نفسه خيفة موسى \* قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى \*  
 وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ فألقى السحرة  
 سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام ، أنهم قالوا لموسى :  
 ﴿ إما أن تلقى ﴾ أى أنت أولاً ﴾ وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ قال بل ألقوا ﴾ : أى أنتم أولاً ، لنرى  
 ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جليلة أمرهم .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ : وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا  
 ﴿ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ سحرُوا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا  
 بسحر عظيم ﴾ (٢) .

وقال ههنا : ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ :  
 وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها  
 تتحرك باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جما غفيرا ، وجمعا كثيرا ، فألقى كل منهم عصا وحبالا ،  
 حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضهم بعضا .  
 وقوله : ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾ : أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ، ويغفروا  
 بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه .

فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿ ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ يعنى عصاك ،  
 فإذا هى تلقف ما صنعوا ، وذلك أنها صارت ثعبانا عظيما هائلا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ،  
 فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعتها ، والسحرة والناس ينظرون  
 إلى ذلك عيانا جهرة نهارا ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق ، وبطل السحر .  
 ولهذا قال تعالى : ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

(١) الآية ٤٤ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

قال ﷺ : ( إذا أخذتم - يعنى الساحر - فاقتلوه - ثم قرأ ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ . قال : لا يؤمن حيث وجد ) (١) .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلّه إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ (٢) .

فماذا قال السحرة بعد ذلك ؟

إنهم لما عاينوا ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه ، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشئ كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجدا لله ، وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

وسبحان من قال ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ \* فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين \* وألقى السحرة ساجدين \* قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ (٣) .

وسبحان مقلب القلوب ، لقد أقسموا فى الصباح بعزة فرعون وقالوا : إنا لنحن الغالبون ، وفى المساء قالوا لفرعون : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ .

وأقسموا بالله قائلين : ﴿ والذى فطرنا ﴾ \* فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ .

كانوا وقت الضحى سحرة كفر ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء برة .

﴿ فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ .

فماذا قال فرعون ؟

لقد جُن جنونه ، وثارت ثورته ، واشتاط غضبا ، وقال : ﴿ آمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلا تظنن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ \* قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ \* إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ : لقد هدد وأوعد ، وأرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ثم أدبر واستكبر ﴾ (٤) .

لقد عبس وبسر . واستعمل كل آلات التنكيل ، منكراً عليهم إيمانهم بالله الواحد الحق : ﴿ آمتم له قبل أن أذن لكم ﴾ : كأن الإيمان حكرا عليه ، ومن لم يستأذنه فهو خارج عن حدود الطاعة ، فله الويل والشبور ، وعظائم الأمور ، ونسى أن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩٠ ، ١٩١ . وأبو داود فى الامارة : ٣١ .

(٢) الآيات ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس .

(٣) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .

(٤) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المدثر .

يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلاً .

لقد هددهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف ، فليفعل ما يشاء .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ .

ولن نختارك على ما ظهر أمامنا من آيات الحق ، وأقسموا بالله الذى فطرهم وخلقهم ، وقالوا له بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ .

وفى التعبير بالاسم الموصول ، أى فاقض بالذى أنت قاضيه ما يفيد العموم ، إن شئت فاقطع الأيدي والأرجل ، وإن شئت فاقطع الرقاب ، وإن شئت فافعل ما تشاء .  
﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ .

وفى التعبير باسم الإشارة ( هذه ) ما يفيد أن الدنيا عرض زائل ، فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ : فنحن براء من سحرك وباطلك وزيفك ، لقد قال لهم : ﴿ ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ فقالوا له : ﴿ والله خير وأبقى ﴾ .  
اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت .  
قوله تعالى :

﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ \* ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى \* جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى :  
هكذا مصير كل من انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، إن كان مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة طيبة : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ (١) ، ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ .

فالجنة درجات ، والنار دركات ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، والمؤمنون ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ \* والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ \* والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ \* والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ \* والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ \* أولئك هم الوارثون ﴾ \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (١) .

(٣) الآيات ٢ - ١١ من سورة المؤمنون .

(٢) الآية ٥٧ من سورة النساء .

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .

﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ : حيث لا موت ، فقد انتهت الدنيا ، وبدأت الآخرة فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ، نادى مناد بين الجنة والنار : يا أهل الجنة خلود بلاموت ، ويا أهل النار خلود بلاموت .

إن أهل الجنة استحقوا هذا النعيم ؛ لأنهم تطهروا من الرجس والدنس فخلصت نفوسهم بالأعمال الصالحة ، وزكت بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
 إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا  
 قوله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر ييساً  
 لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم \* وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿ :

يقول تعالى مخبراً أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل ، أن يسرى بهم فى الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة .

وذلك أن موسى لما خرج ببني إسرائيل ، أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب . فغضب فرعون غضباً شديداً ، وأرسل فى المدائن حاشرين أى من يجمعون له الجند من بلدانه ، يقول : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون ﴾ \* وإنهم لنا لغائظون ﴿ <sup>(١)</sup> .

ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه ، ساق فى طلبهم فأتبعوهم مشرقين ، أى عند طلوع الشمس .

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ : أى نظر كل من الفريقين إلى الآخر : ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ \* قال كلاً إن معى ربي سيهدين ﴿ <sup>(٢)</sup> .

ووقف موسى ببني إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم .

فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضرب لهم طريقاً ييساً ، ف ضرب البحر بعصاه ، وقال : انفلق علىّ بإذن الله ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم ، فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض .

فلهذا قال : ﴿ فاضرب لهم طريقاً فى البحر ييساً لا تخاف دركا ﴾ .

أى من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ أى لا تخشى من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى : ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ ، أى من البحر ما غشيهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ \* فغشاها ما غشى ﴿ <sup>(٣)</sup> . ففى التعبير بالاسم

(١) الآيات ٥٤ ، ٥٥ من سورة الشعراء . (٢) الآيات ٦١ ، ٦٢ من سورة الشعراء . (٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

الموصول في قوله تعالى ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ ما يفيد التضخيم والتهويل ، أى أن الذى غشيهم حدث عنه ولا حرج ، فقد كان الخطب جسيما والعذاب أليما ، جزاء ما قدمت أيديهم . وهذا حكم الله العادل أن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، فالديان لا يموت ، أعمل ما شئت كما تبدين تدان ، وهكذا حكم الله : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذته أليم شديد﴾ (١) ، ﴿ولا تجسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون﴾ (٢) .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع .

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأصلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، كذلك ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود﴾ وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرد المرفود﴾ (٣) .

وتلك عاقبة الظالمين ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون﴾ ويقولون أننا لطاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴿بل جاء بالحق وصدق المرسلين﴾ إنكم لذائقوا العذاب الأليم ﴿وما تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ إلا عباد الله المخلصين﴾ (٤) .

### حديث عن بنى إسرائيل

قال تعالى :

يَلْبِسَنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ \* وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُومُ آلَمَّ يَعِدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلَقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾

(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة هود .

(٤) الآيات ٣٥ - ٤٠ من سورة الصافات .

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .



فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ  
 إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ  
 يَتَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ  
 عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَلَهْرُونَ مِمَّا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾  
 إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ  
 فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا  
 لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ  
 فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ  
 الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي  
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

المفردات :

- ﴿ الأيمن ﴾ : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام .
- ﴿ المن ﴾ : نوع من الحلوى .
- ﴿ السلوى ﴾ : طائر شبيه بالسُّمانى .
- ﴿ ولا تطعوا فيه ﴾ : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه .
- ﴿ فيحل عليكم غضبى ﴾ : أى ينزل بكم .
- ﴿ هوى ﴾ : سقط وهلك .
- ﴿ غفار ﴾ : كثير المغفرة والستر للذنوب .
- ﴿ اهتدى ﴾ : أى لزم الهداية واستقام .
- ﴿ يقال جاء على أثره ﴾ (بفتحيتين وبكسر فسكون) : إذا جاء لاحقاً به بلا تأخير .
- ﴿ فتننا قومك ﴾ : أى اختبرناهم .
- ﴿ وأضلهم ﴾ : أى أوقعهم فى الضلال والخسران .

- ﴿ السامرى ﴾ : من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى .
- ﴿ والأسف ﴾ : الحزين .
- ﴿ والوعد الحسن ﴾ : إعطاء التوارة التى فيها هدى ونور .
- ﴿ والعهد ﴾ : زمان الإنجاز .
- ﴿ موعدى ﴾ : أى وعدكم إياي بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف .
- ﴿ بملكنا ﴾ : أى بقدرتنا واختيارنا .
- ﴿ والأوزار ﴾ : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط .
- ﴿ فقتلناها ﴾ : أى طرحناها فى النار .
- ﴿ جسدا ﴾ : أى جثة لا روح فيها .
- ﴿ والخوار ﴾ : صوت العجل .
- ﴿ فتنى ﴾ : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .
- ﴿ أن لا يرجع إليهم قولاً ﴾ : أى لا يردّ عليهم جواباً .
- ﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ : أى لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً .
- ﴿ فتنتم به ﴾ : أى وقعتم فى الفتنة والضلال .
- ﴿ فاتبعونى ﴾ : أى فى الثبات على الحق .
- ﴿ لن نبرح ﴾ : أى لا نزال .
- ﴿ عاكفين ﴾ : أى مقيمين .
- ﴿ بلحيتى ولا برأسى ﴾ : أى بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .
- ﴿ خشيت ﴾ : أى خفت .
- ﴿ ولم ترقب قولى ﴾ : أى ولم تراع .
- ﴿ فما خطبك ﴾ : أى ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى صدر منك .
- ﴿ بصّرت بما لم يبصّروا به ﴾ : أى علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر الشيء إذا علمه ، وأبصره : إذا نظر إليه .
- ﴿ الرسول ﴾ : موسى .
- ﴿ فنبذتها ﴾ : أى طرحتها .
- ﴿ سولت لى نفسى ﴾ : أى زينت وجنت .
- ﴿ لا مساس ﴾ : أى لا مخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحداً ، فعاش وحيداً طريداً .
- ﴿ لن تخلفه ﴾ : أى سيأتيك به الله حتماً .
- ﴿ ظلت ﴾ : ( أصله ظللت دخله حذف ) : أى أقمت .
- ﴿ لنحرقنه ﴾ : أى لنبردّه بالمبرد .
- ﴿ لننسفنه ﴾ : أى لنذرينه .
- ﴿ فى اليم ﴾ : أى فى البحر .

﴿وسع كل شيء علماً﴾ : (أى وسع علمه) كل شيء وأحاط به .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما ذكر سبحانه ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر ، حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهباً إلى الطور ، عدّد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان ينزل بهم ضروباً من الظلم : من قتل وإذلال ، وتعب فى الأعمال ، وأنه أنزل عليهم كتاباً فيه بيان دينهم ، وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

وأعقب هذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات ، بحسب المواعدة التى ذكرت آنفاً وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، ورجوع موسى إليهم غضبان أسفاً ، ثم معاقبته لهم على ما صنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلًا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً فى دينهم ولا دنياهم .

وبعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لا يستجيب لهم دعاء ، ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطأ ما فعلوا .

ثم حكى معاقبة موسى لهارون على سكوته على بنى إسرائيل ، وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ، ولكنه لم يقبل معذرتة ، ثم قص علينا ما قاله السامرى ، وما أنبه به موسى ، وما عاقبه الله به فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نفسه وإلقائه فى البحر .

ثم بين لهم أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لا ذاك الجماد الذى لا يضر ولا ينفع ، ولا يرد جواباً ، ولا يسمع خطاباً .

قوله تعالى :

﴿يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى \* كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطفوا فيه فيحلّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى \* وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال : ﴿وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون﴾ (١) .

﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ : فكلمنّاك تكلّما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل كل

شئ .

﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ : فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه ، مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم ما يكفيه .

﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ : أى وقلنا لكم ، كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ﴾ : أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره ، وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ، ومنع الحقوق الواجبة فيه فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ : أى ومن ينزل به غضبى فقد شقى وهلك .

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ : أى وإنى لذومغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقطع من ذنبه ، ويخلص لى فى العمل ، ويؤدى فرائضى ويجتنب المعاصى ، ويستقيم حتى الموت .

وقوله تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ : المراد بالقوم هنا النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أى شئ عجّل بك عن قومك ، وجعلك تتقدمهم ؟ .

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم ، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم ، مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها وأيضاً ، ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ : أى قال موسى مجيباً ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم بها بعض المرفقة على بعض .

﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ : أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا بالمسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرتة - إنى اجتهدت أن أتقدم قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لا ينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعود بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

﴿ قال فإننا قد فتنّا قومك من بعدك ﴾ : أى قال : إنّا قد اخترنا قومك الذين خلفتهم مع هارون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى : صيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقتك من

بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى بعشرين يوما .  
﴿ وأضلهم السامري ﴾ : أى دعاهم إلى الضلال بإتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر ، فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

﴿ فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾ : أى فانصرف إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين - مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله .  
روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال لل سبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة .

قال القرطبي : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ، ويكثر من ذكر الله وذكر رسوله ﷺ ، ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل . ويقوم بعضهم يرقص . ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟  
فأجاب : يرحمك الله ، فذهب الصوفية بطلاة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري . لما أتخذ لهم عجلا جسداً له خوار . فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعباد العجل ، وأما الطبل فأول من أتخذه الزنادقة . ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه ، كأنما على رؤسهم الطير من الوقار ، فينبغى للسلطان أن يمنعه من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم ، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين .

﴿ قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ﴾ : لا سبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة بقوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ (١) ، ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .  
﴿ أفتال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾ : أى أفتال عليكم الزمان ، فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل ما يكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك - أفتال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

﴿ قالوا ما أخلفنا موعداك بملكنا ﴾ : أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأننا لم نملك أمرنا ، فلو خُلينا وأنفسنا ولم يسؤل لنا السامري ما سؤلّه ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقرروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطبقوا حمل أنفسهم على الصواب ،

ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ما سول ، وغلب على عقولنا فخالقنا عهدك .

قوله تعالى : ﴿ ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها ﴾ : أى ولكن غلبنا موسى السامرى إذ حملنا أحمالا من حلى القبط التى استعرتها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعله أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها نارا وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما ، لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .  
﴿ فكذلك ألقى السامرى ﴾ : أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ : أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى قذفوها جسد عجل من ذهب لا روح فيه ، وله خوار كخواره إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيها أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾ : أى فقال السامرى ومن افتتن به أول ما رآه : هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .  
فرد عليهم سبحانه ، مقبلاً أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾ : أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم كلاماً ، ولا يرد عليهم جواباً ، وأنه لا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً ، ولا يجلب لهم نفعاً ؟ .

وقصارى ما يقول - إنه عاجز عن الخطاب ، وعن النفع والضرر ، فكيف تتخذونه إلهاً ؟  
﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به ﴾ : أى ولقد قال هارون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحاً لهم من قبل رجوع موسى إليهم : يا قوم إنما أختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ : أى وإن خالقكم وخالق كل شيء هو الذى عمت رحمته جميع المخلوقات ، فاتأمل ما فيه كمالهم الجسمى والروحى وما به سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .  
وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

﴿ فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ : أى فاتبعونى فيما أمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ، ولم يطيعوا أمره .

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ : أى قال عبدة العجل من قوم موسى لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول ، وماذا يرى فى ذلك ؟ وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويق وعدم إجابة طلب هارون .

ثم ذكر فقال موسى لهارون بعد أن فرغ من خطاب قومه وبيان خطأ فعلهم : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا \* ألا تتبعن ﴾ :

أى قال موسى لهارون : أى شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هارون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم بما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

﴿ أف عصيت أمرى ﴾ : فيما تقدمت إليك من قولى : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ <sup>(١)</sup> .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبة إلى عصيانه ومخالفته أمره ، فترفق هارون فى خطاب موسى استعطافاً له ، وترقيقاً لقلبه . إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

﴿ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ : أى فامتلاً موسى غضباً مما رأى وألقى ما فى يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا ابن أمى لا تأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .

وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيتيه بشماله ، وكان عليه السلام حديداً غضوباً لله تعالى ، وقد شاهد ما شاهد ، وغلب على ظنه تقصير هارون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشف : كان موسى عليه السلام رجلاً حديداً مجبولاً على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون العجل بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوراة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضباً لله واستنكافاً وحمية ، وعنف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه ( وكان أقرع ) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنى لست عاصياً أمرك ولا مقصراً فى المصلحة ، بل : ﴿ إني خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ : أى إني خشيت لو قاتلت

بعضهم ببعض لتفرقوا ، فترثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ، المتلافية برأيك ، وخشيت عتابك على إطراح ما وصيني به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجه . وخلاصة ذلك - إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأدار بهم على وجه لا يختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للملك حتى ترجع فتتدارك الأمر بحسب ما ترى ولا سيما أن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونى .  
وبعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه وإسنادهم الفساد إلى السامرى ، ومن سماع اعتذار هارون - وجه الكلام إلى السامرى :

﴿ قال فما خطبك يا سامرى ﴾ : أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليُظهر للناس بطلان كيده باعتزافه ، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ : أى قال السامرى : إنى عرفت ما لم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ : أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئا من سنتك ودينك فطرحت ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يتمثل رسمه ، ويتبع طريقته .

وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير ؟ قال أبو مسلم الأصفهاني ، وأيده الرازى وقال أنه أقرب إلى التحقيق .  
قال المراغى فى تفسيره وخلاصته ذلك : إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم - رد عليه بأنه كان استن بسته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شيء ، فطرحه وراء ظهره وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة « الرسول » على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ (١) .

وهم لا يؤمنون بالإتزال عليه .

﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ : أى كما زينت لى نفسى أولاً لإتباع سنتك وإقتفاء أثرك ، زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشيء آخر ، من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ما نصه : ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ : أى رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : أى من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم .



وقال مجاهد : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : قال : من تحت حافر فرس جبريل ، قال : والقبضة ملء الكف ، والقبضة بأطراف الأصابع ، وقال : نبذ السامري أى ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل فانسبك عجلأ جسداً له خوار . حفيف الريح فيه . فهو خواره . ولما سمع موسى من السامري ما سمع . بين له ما سينزل به من الجزاء فى الدنيا والآخرة وذكر له حال الحق ، أما عزأؤه هو فى الدنيا فما حكاه سبحانه عنه .

﴿ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ : أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحداً ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لا مساس : أى لا يماسنى أحد ، ولا أماس أحداً .

قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريداً فى البرارى .

وروى أنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، ولا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه . وقصارى ذلك : إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى الصحارى والقفار حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما جزأؤه فى الآخرة فقد ذكره بقوله تعالى : ﴿ وإن لك موعداً لن يخلفه ﴾ : أى وإن لك موعداً فى الآخرة لن يخلفه الله ، بل سينجزه لك البتة ، بعد أن يعاقبك فى الدنيا وهوأت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله تعالى :

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لئحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ : أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنه بالمبرد ثم لنندرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعد به كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ ولم يصرح بهذا تنبيهاً إلى وضوحه واستمالة الخلف فى وعيده المؤكد باليمين .

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامري ، وإظهار لعباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

وبعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً ﴾ :

يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلهكم ، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ، أى لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شىء فقير إليه ، عبده .

وقوله : ﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ : يقول لهم موسى عليه السلام : إن إلهكم هذا متصف بصفات الكمال ، منزّه عن صفات النقص ، فمن صفاته العلم المحيط بكل شيء ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهكذا بدأ الحديث مع موسى بكلمة التوحيد ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى \* إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى \* وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى \* إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾<sup>(٣)</sup> .

وأنهى الحديث فى هذه السورة عن موسى بكلمة التوحيد : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾ ، لأنه أرسل إلى جبار عنيد ﴿ حشر فنادى \* فقال أنا ربكم الأعلى ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾<sup>(٥)</sup> .

فأراد ربك أن يظهر الجلال والعظمة : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم \* هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون \* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٦)</sup> .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله )<sup>(٧)</sup> .

وهذه كلمة التوحيد : عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى لا إله إلا الله يغفر به ذنبى  
لا إله إلا الله ألقى بها ربى لا إله إلا الله أفنى بها عمري  
لا إله إلا الله أدخل بها قبرى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : ( لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أولَ منك لما رأيت من

(١) الآية ٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآيات ١١ - ١٤ من سورة طه .

(٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .

(٥) الآية ٣٨ من سورة القصص .

(٦) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الحشر .

(٧) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٤٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ .

حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أوفاه (١) . رواه البخارى .

أى نطق بالشهادتين معتقدا صحتهما ، متبعا لأوامر الله تعالى ، مجتنباً نواهيه ، عاملاً بشرعه مستقيماً .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل - زاد حُباذة - من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء ) (٢) . رواه البخارى واللفظ له ومسلم .

وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، حَرَّمَ الله عليه النار ) (٣) . ( أى أبعد عنه العقاب ) .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ ، ومعاذ رديفه على الرِّحْل قال : ( يا معاذ بن جبل ؟ قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً . قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حَرَّمه الله على النار . قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذا يتكلموا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً ) (٤) . رواه البخارى ومسلم .

« تأثماً : أى تخرجاً من الإثم ، وخوفاً منه أن يلحقه إن كتمه » .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة . قيل وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

« معنى تحجزه أى تمنعه وتبعده عن إرتكاب المعاصى وغشيان الفجور » .

وعن رفاعة الجهنى رضى الله عنه قال : ( أقبلنا مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كنا بالكديد ، أوبقديد نحمد الله ، وقال خيراً وقال أشهد عند الله لا يموت عبدٌ يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله صدقاً من قلبه ، ثم يُسَدَّدُ إلا سلك فى الجنة ) (٥) . رواه أحمد بإسناد لا بأس به ، وهو قطعة من حديث « والكديد : التراب الناعم ، ومعنى يسدد أى يتحرى السداد ، ويقصد العمل بالكتاب والسنة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما قال عبدٌ : لا إله إلا الله قط

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ ، وفى التوحيد : ٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وفى الأنبياء : ٤٧ ، ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، وفى المسافرين : ٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٤٧ ، والترمذى فى الإيمان : ١٧ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦ .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٥٣ ، والبخارى فى العلم : ٤٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٦ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٤ .

مخلصاً : إلا فتحت له أبوابُ السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : ( قال موسى ﷺ : يارب علمنى شيئاً أذكرك به وأدعوك به ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ؟ قال يا موسى : لو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله )<sup>(٢)</sup> . رواه النسائى والحاكم .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله )<sup>(٣)</sup> . رواه ابن ماجه وابن حبان والنسائى .

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعبادة بن الصامتُ حاضراً يُصدِّقُه قال : ( كنا عند النبى ﷺ فقال : هل فيكم غريب ، يعنى أهل الكتاب ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلاق الباب وقال : أرفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم قال : الحمد لله ، اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتني عليها الجنة ، وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم )<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( جَدِّدُوا إيمانكم . قيل يا رسول الله : وكيف نُجدِّدُ إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله )<sup>(٥)</sup> . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد حسن .

وعن عبد الله رضى الله عنه : من جاء بالحسنة ؟ قال : من جاء بلا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة ؟ قال : من جاء بالشرك . رواه الحاكم موقوفاً .

وعن عمرو رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إننى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقاً من قلبه فيموت على ذلك إلا حُرِّمَ على النار : لا إله إلا الله ) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : ( أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يُحال بينكم وبينها ) . رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله )<sup>(٦)</sup> . رواه أحمد والبخاري .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من عبد قال : لا إله إلا الله فى

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه النسائى فى السهو : ٥٨ ، وفى قيام الليل : ٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٤٠٢ ، ٤١١ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحيفة من السيئات ، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات ) رواه أبو يعلى . « ومعنى طمست : محت ، حتى تسكن : تدبج وتنقش الثواب بكثرة ذكر الله تعالى » .  
وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ، وكأننى انظر إلى أهل لا إله إلا الله ، وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ) . وفى رواية : ( ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا عند القبر ) . رواه الطبرانى والبيهقى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : ( ألا أخبركم بوصية نوح ابنه ؟ قالوا بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يا بُنى إني أوصيك بأثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ، ووضعت السموات والأرض فى كفة لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله ) فذكر الحديث . رواه البراز .

ورواه الحاكم عن عبد الله وقال صحيح الإسناد ولفظه قال : ( وأمركمُ بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض ، وما فيهما لو وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض ، وما فيهما كانت حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتها ، وأمركما بسبحان الله ويحمده ، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء ) .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ( التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه ) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ، ثم يقول : أتذكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها ، أشهد إن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء <sup>(١)</sup> . رواه الترمذى وابن حبان والحاكم .

## عظات بالغات

قال تعالى :

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ \* وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

المفردات :

﴿ ذِكْرًا ﴾ : أى قرآنًا .

﴿ والوزر ﴾ : الحمل الثقيل ، والمراد به العقوبة التى تثقل على حاملها .

﴿ والصور ﴾ : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر .

﴿ زُرْقًا ﴾ : أى زرق الأبدان سود الوجوه ، لما هم فيه من الشدائد والأهوال .

- ﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها ، لشدة ما يرون من الهول .
- ﴿ إلا عشراً ﴾ : أى عشرة أيام .
- ﴿ أمثلهم طريقة ﴾ : أى أعدلهم رأياً ، وأرجحهم عقلاً .
- ﴿ ينسفها ﴾ : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثوراً .
- ﴿ يذرها ﴾ : أى يتركها .
- ﴿ القاع ﴾ : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى .
- ﴿ والصفصف ﴾ : الأرض الملساء .
- ﴿ والعوج ﴾ : الانخفاض .
- ﴿ والأمت ﴾ : التواء اليسير ، يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى هو داعى الله إلى المحشر لا عوج له ، أى لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت ذلك .
- ﴿ والهمس ﴾ : الصوت الخفى .
- ﴿ وغنت ﴾ : خضعت وانقادت ومن ذلك العانى وهو الأسير .
- ﴿ والقيوم ﴾ : القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت .
- ﴿ خاب ﴾ : أى خسر ، والظلم الأول الشرك .
- ﴿ والظلم الثانى ﴾ : منع الثواب عن المستحق .
- ﴿ والهضم ﴾ : النقص .
- ﴿ صرفنا ﴾ : كررنا وفصلنا .
- ﴿ ذكرنا ﴾ : أى عظة وعبرة .
- ﴿ فتعالى الله ﴾ : أى تنزه وتقدس .
- ﴿ الحق ﴾ : أى الثابت فى ذاته وصفاته .
- ﴿ يقضى إليك وحيه ﴾ : أى يتم جبريل تبليغه لك .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ، ثم مع السامرى ثانياً ، على نمط بديع ، وأسلوب قوي ، بين لنبى ﷺ أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية ، والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلياً لقلبك ، وإذهاباً لحزنك ، إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد وأهوال ، وتذكيراً للمستبصرين فى دينهم ، وتأكيداً للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

ثم حكى سبحانه حال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم ، وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف .

قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر . عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأحواله ، فبين أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ، ولا يسمع لهم إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولاً .

ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر ، وهم لا يحيطون به علماً ، وفى ذلك اليوم تذلل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه ، فأشرك مع الله غيره ، وعبد معه سواه ، وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لا يظلمون ، فلا يزداد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من صفاتهم . أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ . الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له .

وبعد ذلك ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد ، المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأحوالها ، أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآناً عربياً ليفهمه العرب ، ويقفوا على ما فيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر .

ثم بين عز اسمه نفع هذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزّه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوجى .

روى أن النبى ﷺ كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام ، فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه ، مخافة النسيان ، فنهى عن ذلك وقيل له : لا تعجل به إلى أن يستتم وحيه ، فيكون أخبرك إياه عن تثبيت وسكون ، وادع ربك أن يزيذك فهما وعلماً .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ : أى كما قصصنا عليك من نبأ موسى وقومه ، وما كان من شأنه مع فرعون ، فإننا نقص عليك من أنباء السابقين ، وما كان قد حدث من الأمم مع المرسلين .

﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ : أى أنزلنا من عندنا ذكراً عليك ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ (١) .

فيا أيها النبى المصطفى ، والرسول المجتبى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴾ وانتظروا إنا منتظرون \* والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴿ (٢) .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٢) الآيات ١٢١-١٢٣ من سورة هود .



إن هذا-الذكر الذى أنزلناه عليك ما تمسكت به أمة إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ،  
وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما تركته أمة إلا كان الذل حليفها ، والخسران المبين رائدها ،  
وألبسها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

﴿ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا ﴾ : أى حملا ثقيلا من العذاب ﴿ خالدين فيه ﴾  
أى ماكثين فيه ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾ .  
وهى كلمة ذم ، أى بشس الحمل ما حملوه .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتنى  
أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى \* وكذلك نجزي من أسرف  
ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

قال ﷺ : ( كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم . إلى ما جاء به غيره إلى  
غيرهم )<sup>(١)</sup> . ثم تلا قوله تعالى :

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٢)</sup> .  
فكيف نعرض عنه ، والجن لما استمعوا إليه قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا \* يهدى إلى الرشـد  
فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقد صدق ربنا إذ يقول :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا  
كبيرا ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال سبحانه :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾<sup>(٥)</sup> .

فيا أمة القرآن : أقيموا دولة الإسلام فى بيوتكم بالقرآن ، تقم على أرضكم بالقرآن .  
قال ﷺ : ( خيركم من تعلم القرآن وعلمه )<sup>(٦)</sup> رواه البخارى ، ومسلم ، وأبوداود ، والترمذى ،  
والنسائى ، وابن ماجه ، وغيرهم .

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٤٢ .

(٢) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(٣) الأيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .

(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٢٩ من سورة ص .

(٦) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ ، وأبوداود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى

المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ آلم ﴾ حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف )<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى .

معناه أن الله تعالى يعطى ثواباً للقارئ بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن ، وكثرة حسناته ، وزيادة أجره .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

( ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده )<sup>(٢)</sup> . رواه ابن ماجه وأبو داود وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

( من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة )<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى :

( من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه )<sup>(٤)</sup> . رواه الترمذى .

قال الإمام البوصيرى رضى الله عنه :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت	ظهر نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم	وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تظاول آمال المديح إلى	ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة	قديمة صفة الموصوف بالقدم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة	من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما تبقيين من شبه	لدى شقاق وماتبغين من حكم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب	أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها	رد الغيور يد الجانى عن الحرم

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٤١ .

(٤) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

لها معان كموج البحر فى مدد      وفوق جوهره فى الحسن والقيم  
فماتعد ولا تحصى عجائبها      ولا تسام على الإكثار بالسأم  
قرت بها عين قاريها فقلت له      لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم  
كأنها الحوض تبيض الوجوه به      من العصاة وقد جاءوه كالحمم

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : ( مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح ، وطعمها مر )<sup>(١)</sup> .

وفى رواية : ( مثل الفاجر ) بدل المنافق . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .  
وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ ( الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ،  
والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران )<sup>(٢)</sup> .

رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ له ، وأبوداود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .  
وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصنى ؟ قال : ( عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله ) . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : ( عليك بتلاوة القرآن ، فإنه نور لك فى الأرض ،  
وذخر لك فى السماء ) . رواه ابن حبان فى صحيحه فى حديث طويل .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( القرآن شافع مشفع ، ومَاجِلٌ مُصَدِّقٌ ، من جعله  
إمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار ) . رواه ابن حبان فى صحيحه .  
ومعنى ( ماحل ) أى ساع ، وقيل : خصم مجادل .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( من قرأ القرآن وعمل به أُلِيسَ  
والداه تاجاً يوم القيامة ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل  
بهذا )<sup>(٣)</sup> . رواه أبوداود والحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ( يجيئُ صاحب القرآن يوم القيامة فيقول  
القرآن : يارب حلّه ، فيلبسُ تاج الكرامة ، ثم يقول : يارب زده . فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول :

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ١٧ ، ٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٥٧ ، ومسلم فى المسافرين : ٢٤٣ ،

وأبوداود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى الأدب : ٧٩ ، والنسائى فى الإيمان : ٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦٠ ، والدارمى

فى فضائل القرآن : ٨ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .

(٣) أخرجه أبوداود فى الوتر : ١٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٤٠ .

يارب ارض عنه ، فيرضى عنه . فيقال له : اقرأ وأرق ، ويزداد بكل آية حسنة (١) . رواه الترمذى وحسنه وابن خزيمة والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله هذا الكتاب فقام به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أعطاه الله مالا فتصدق به آناء الليل وآناء النهار ) (٢) رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كتيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم به راضون ، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله ، وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين مواله ) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : ( بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ، يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها . فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقروه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك ) (٣) . رواه الترمذى . ومعنى « أوكىء » أى عُقد وشد .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه ، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله ) رواه الحاكم . وقال : صحيح الإسناد . ومعنى « يجد » أى يغضب ويشتم ويذم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( الصيام والقرآن يشفعان للعبد ، يقول الصيام : رب إننى منعتك الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : رب منعتك النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان ) (٤) . رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إنكم لا ترجعون إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه - يعنى القرآن ) . رواه الحاكم ، وصححه .

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ١٥ ، وفى الزكاة : ٥ ، وفى الأحكام : ٣ ، وفى التمنى : ٥ ، وفى الاعتصام : ١٣ ، وفى التوحيد : ٤٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩ ، ٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ١٧٤ .

وعن عبد الله - يعنى ابن مسعود - رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعجب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول ( ألم ) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ) . رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن لله أهلين من الناس قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته )<sup>(١)</sup> رواه النسائي وابن ماجه والحاكم . وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة ، وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار )<sup>(٢)</sup> . رواه ابن ماجه والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين ) . رواه ابن خزيمة .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه رأى رؤيا أنه يكتب ( ص ) فلما بلغ إلى سجدها . قال : رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا . قال : فقصصتها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها )<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ( جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى رأيت فى هذه الليلة فيما يرى النائم : كأنى أصلى خلف شجرة ، فرأيت كأنى قرأت سجدة ، فرأيت الشجرة كأنها تسجد لسجودى ، فسمعتها وهى ساجدة ، وهى تقول : اللهم أكتب لى بها عندك أجرا ، وأجعلها لى عندك ذخرا ، وضع عني بها وزرا ، وأقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله ﷺ قرأ السجدة فسمعته وهو ساجد يقول : مثل ما قال الرجل عن كلام الشجرة )<sup>(٤)</sup> . رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : ( أن النبي ﷺ كتبت عنده سورة النجم فلما بلغ السجدة سجد وسجدنا معه ، وسجدت الدواة والقلم ) . رواه البزار بإسناد جيد .

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٣ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٧٨ ، ٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٥٥ ، وفى الدعوات : ٣٣ .

## التحذير من نسيان القرآن

احذر يا أخى أن تنسى القرآن بعد حفظه ، فقد قال ﷺ :

( عرضت على أجور أمتى حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها )<sup>(١)</sup> . رواه أبو داود ، والترمذى . وقال ﷺ : ( إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب )<sup>(٢)</sup> . رواه الترمذى والحاكم .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ( إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شيء من كتاب الله ) . رواه الحاكم .

## دعاء يُدعى به لحفظ القرآن

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ( بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : بأبى أنت تفلت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه . فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمنى . قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، فقد قال أخى يعقوب لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها ، فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى : بفاتحة الكتاب ، وسورة يس ، وفى الركعة الثانية : بفاتحة الكتاب وحم « الدخان » ، وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السجدة ، وفى الركعة الرابعة : بفاتحة الكتاب و « تبارك » المفصل ، فإذا فرغت من التشهد فأحمد الله . وأحسن الثناء على الله ، وصل على وأحسن وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ، ثم قل فى آخر ذلك :

اللهم أرحمنى بترك المعاصى أبداً ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ، ونور وجهك ، أن تلتزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه ، على النحو الذى يرضيك ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تتور بكتابك بصرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تستعمل به بدنى ، فإنه لا يعيننى على الحق

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١٦ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٣ .

غيرك ، ولا يؤتينيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . يا أبا الحسن : تفعل ثلاث جمع ، أو خمسا ، أو سبعا ، تجاب بإذن الله والذي بعثنى بالحق ما اخطأ مؤمنا قط ) .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما : ( فوالله ما لبث على إلا خمسا أو سبعا حتى جاء رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس ، فقال يا رسول الله : إني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهم على نفسى تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها فإذا قرأتهم على نفسى فكأنما كتاب الله بين عيني ، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أحرم منها حرفا . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن )<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى .

وقد رغب الرسول ﷺ فى تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ، فقال : ( إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت ) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها ) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( ما أذن الله لشىء كما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وعن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( زينوا القرآن بأصواتكم )<sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

وقال ﷺ : ( إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله )<sup>(٣)</sup> . رواه ابن ماجه .

## فقه الباب

أولا : الذى يداوم على قراءة القرآن يذل الله له لسانه ، ويسهل عليه قراءته ، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة ، وشقت عليه .

ثانيا : شبه ﷺ درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذى يخشى منه الشراد ، فما زال التعاهد موجودا فالحفظ موجود ، كما أن البعير ما دام مشدودا بالعقال فهو محفوظ ، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوانات الإنسى نفورا .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١١٤ .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٥٢ ، وأبو داود فى الوتر : ٢٠ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ ، وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ،

والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ .

ثالثا : الاجتهاد فى ترتيل القرآن ، وإتقان قراءته ، وإظهار حروفه .

رابعا : إغداق الله تعالى القارئ بحسناته ورضوانه .

خامسا : أن يخشى القارئ الله ، ويخاف عذابه ، ويعمل به ، ويتحلى بمكارم الأخلاق .  
قوله تعالى :

﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ \* يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا \* نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ :

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : ( قرن ينفخ فيه ) .  
وقد جاء فى حديث الصور من رواية أبى هريرة ( أنه قرن عظيم ، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض ، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام ) .

وجاء فى الحديث : ( كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له . فقالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا ) (١) .

وقوله : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ : قيل معناه : زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : قال ابن عباس : يتسارون بينهم ، أى يقول بعضهم لبعض ﴿ إن لبثتم إلا عشرا ﴾ أى فى الدار الدنيا ، لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام ، أونحوها .  
قال الله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ : أى فى حال تناجيهم بينهم .  
﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ : أى العاقل الكامل فيهم .

﴿ إن لبثتم إلا يوما ﴾ : أى لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقت لياليها وأيامها وساعاتها ، كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة .

وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ (٢) .  
وقال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ (٣) الآية .

وقال تعالى : ﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ﴾ \* قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ (٤) .

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٦ ، وفى ٧ : ٣ ، وفى ٤ : ٣٧٤ .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الروم . (٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر . (٤) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .



أى إنما كان لبثكم فيها قليلا ، لو كنتم تعلمون لأثرتم الباقي على الفانى ، ولكنكم تصرفتم فأسأتم التصرف ، قدمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقي .  
قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا \* فيذرها قاعا صفصفا \* لا ترى فيها عوجا ولا أمثا \* يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ :  
أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قریش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ، فنزلت الآية ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ ... الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له .. وهكذا جاء الجواب عن حال الجبال يوم القيامة إنها تدك دكا .

قال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ (١) .

وقال : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ (٤) .

فسبحان من يقول للشئ كن فيكون .

فإذا كان ما ذكره الله تعالى هو حال الجبال الشم ، والرواسى الشامخات ، فعلى كل من تسرب الغرور إلى نفسه من البشر فظلم العباد ، وقهر خلق الله ، عليه أن يعلم إذا غرته قوته ، أن ينظر إلى قوة العزيز الجبار من فوق .

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ (٥) .

ثم ما حال الجبال بعد أن تُنسف ؟ يتركها الله تعالى قاعا صفصفا ، أى أرضا مستوية جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء ، لا ترى فيه عوجا ولا أمثا ، أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هذا : لا ترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ، ولا مكانا مرتفعا ، ولا منخفضا .

ويوم تقع هذه الأهوال التى قال الله تعالى فيها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٦) .

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ١٤ من سورة المزمل .

(٣) الآية ٣ من سورة التكوير .

(٤) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٥) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

وقال فيها سبحانه : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ خافضة رافعة ﴾ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ وبست الجبال بساً ﴾ فكانت هباء منبثاً ﴾ (١) .

يوم يكون ذلك كذلك ﴾ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أى داعى الله إلى المحشر .  
قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ﴾ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ﴾ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ يوم يدعو الداع إلى شىء نكر ﴾ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ (٤) .

قال محمد ابن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ، ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أى يوم يرى الناس هذه الأحوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا إنحراف ، ولكنهم سراعاً إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا : لبئك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك ، كما قال : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ (٥) .

وقال قتادة ﴿ لا عوج له ﴾ لا يميلون عنه .

قوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ .

أى وعلمت الخلائق أن لا مالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لا يكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه ، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته ، ويختلط قوله ، ويطول غمه ، ( قاله أبو مسلم ) .

قال تعالى : ﴿ يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه . فمنهم شقى وسعيد ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ :

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الواقعة .

(٢) الآية ٣٨ من سورة مريم .

(٣) الآية ٤١ - ٤٤ من سورة ق .

(٤) الآيات ٦ - ٨ من سورة القمر .

(٥) الآية ٣٨ من سورة مريم .

(٦) الآية ١٠٥ من سورة هود .

أى يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضى له قولاً صدر منه .

ومعنى الآية قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : ( أتى تحت العرش وأخر الله ساجدا ويفتح على بمحمد لا أحصيها الآن فيدعنى ما شاء أن يدعنى ثم يقول : يا محمد أرفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود ) <sup>(٥)</sup> . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

وفى الحديث أيضا : ( يقول تعالى أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال حبة من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال من إيمان ) <sup>(٦)</sup> .

والخلاصة : إن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

١ - إذن الله للشافع بالشفاعة .

٢ - رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .

وقصارى ذلك : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يُرضى .

قوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾ : أى يعلم ما بين أيدي عباده من شئون الدنيا ، وما خلفهم من أمور الآخرة ، وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله . ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال سبحانه عز وجل :

﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾ : أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، وفى تفسير سورة ٢ : ١ ، وتفسير سورة ١٧ : ٥ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، والترمذى

فى الوتر : ١٩ ، والنسائى فى التطبيق : ١٥ ، ١٦ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥ .

(٦) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٩٨٥ ، ٣٠٢ ، والترمذى فى البر : ٦١ ،

والنسائى فى الإيمان : ١٨ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٦ ، ٤١٦ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٩٤ ، وفى ٥ : ٤٣ .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ : أى وقد حُرِمَ الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله ، كافر بأنبيائه ، أو تارك لأمره ، منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر سبحانه أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ : أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته ، وهو مؤمن بربه ورسله ، وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلماً بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ <sup>(١)</sup> .

وخلاصة ذلك - إنه لا يؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا تبطل له حسنة قد عملها .  
وقوله تعالى :

﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ \* فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدنى علماً .

﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ﴾ : أى وكما أنزلنا ما ذكر من الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامة وأهوالها ، أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليفهمه العرب الذين نزل عليهم ، ويتفقهوا بدراسته ، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

﴿ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾ : أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ، كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وبعد أن عظم الله سبحانه كتابه أردفه بتعظيم نفسه سبحانه فقال جل فى علاه :

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ : أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى ، الحقيق بأن يُرجى وعده ، ويُخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لا يزول ولا يتغير من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤدياً إلى الغاية التى أنزلها لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى ما فى هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية ، فيها صلاح الدارين ، لا يحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله ، لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن الحق من أقبل عليه بشرا شره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ : أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يُتِمَّ جبريل تبليغه لك ، وقد كان ﷺ إذا ألقى عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفاً أن يصدر عليه الصلاة والسلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك ، إذ ربما يشغله التللفظ بالكلمة عن سماع ما بعدها : وفى هذا أنزل قوله تعالى : ﴿ لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ \* إنا علينا جمعه وقرآنه \* فإذا قرأناه فاتبع قرآنه \* ثم إن علينا بيانه ﴿ (١) .

وخلاصة ذلك : أنصت حين نزول الوحي بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ : أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحي ، فإن ما أوحى إليك لا يبقى محالة .

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : ( اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علماً ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار ) (٢) .

وكان ابن سعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيماناً وفقهاً ، ويقيناً وعلماً .

### قصة آدم وتوجيهات ربانية

قال تعالى :

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَسْأَدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَسْأَدُمُ هَلْ أَتَاكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْنَبْهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا

(١) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة القيامة .

(٢) أخرجه أبوداود فى الأدب : ٩٩ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

يَا تَبَيَّنْكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۝ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ  
مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ۝ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا  
۝ (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ۝ (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ  
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِإِغَايَةِ رَبِّهِ ۝ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ۝ (١٢٧) أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ  
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ۝ (١٢٨)  
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ۝ (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ  
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ  
تَرْضَىٰ ۝ (١٣٠) وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ  
فِيهِ ۝ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ (١٣١) وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ  
نَرْزُقُكَ وَالْعَنَقَبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ۝ (١٣٢) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ۝ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ  
مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ (١٣٣) وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ  
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۝  
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ۝ (١٣٥)

## المفردات :

- ﴿ العهد ﴾ : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به .
- ﴿ من قبل ﴾ : أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين .
- ﴿ فَنسى ﴾ : أى فترك .
- ﴿ لم نجد له عزمًا ﴾ : العزم على الشيء تصميم الرأى والثبات عليه .
- ﴿ أبى ﴾ : امتنع .
- ﴿ فشقى ﴾ : أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى .

﴿ تظمأ ﴾ : تعطش .

﴿ لا تضحى ﴾ : أى لا تصيبك الشمس بحرهما اللافح .

﴿ شجرة الخلد ﴾ : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خَلَدَ ولم يمت .

﴿ لا يبلى ﴾ : أى لا يفنى .

﴿ طفقاً يخصفان ﴾ : أى شرعاً يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها .

﴿ غوى ﴾ : أى ضل عن الرشـد حيث اغترَّ بقول عدوه .

﴿ اجتباه ﴾ : اصطفاه وقربه إليه .

﴿ وهدى ﴾ : أى إلى الثبات على التوبة .

﴿ عن ذكرى ﴾ : أى عن الهداية بكتـبى السماوية ..

﴿ والضنك ﴾ : الضيق الشديد .

﴿ أعمى ﴾ : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية .

﴿ عن آياتنا ﴾ : أى عن أدلتنا .

﴿ فنسيتها ﴾ : أى فتركها .

﴿ وتنسى ﴾ : أى تترك .

﴿ أسرف ﴾ : أى انهماك فى الشهوات واسترسل فيها .

﴿ أفلم يهد لهم ﴾ : أى أفلم يبين لهم العبر .

﴿ لأولى النهى ﴾ : أى لذوى العقول الراجحة .

﴿ لزماً ﴾ : أى لازماً لهم لا يتأخر عنهم .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ : أى اشتغل بتتزيه الله وتعظيمه .

﴿ آناء الليل ﴾ : ساعاته واحداً إنى وإنو ( بكسر الهمزة وسكون النون ) .

﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ : أى لا تطيل النظر رغبة واستحساناً .

﴿ متعناً ﴾ : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظر الحسنة ويسمعون من الأصوات

المطربة ، ويشمُّون من الروائح الطيبة .

﴿ أزواجاً ﴾ : أى أشكلاً وأشباها .

﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ : أى زينتها وبهجتها .

﴿ لنفتنهم ﴾ : أى لنبتليهم ونختبرهم .

﴿ ورزق ربك ﴾ : أى ما أدخره لك .

﴿ واصطبر عليها ﴾ : أى دم عليها .

﴿ لولا ﴾ : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها .

﴿ آية ﴾ : أى معجزة تدل على صدقه .

﴿ البينة ﴾ : القرآن .

- ﴿والصحف الأولى﴾ : التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية .  
 ﴿نذل﴾ : أى نهان .  
 ﴿ونخزى﴾ : أى نفتضح .  
 ﴿متربص﴾ : أى منتظر .  
 ﴿الصراط﴾ : الطريق .  
 ﴿والسوى﴾ : أى المستقيم .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صدق الوعيد فى القرآن وكرره ، لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكر ، قضى على هذا بيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه ، كما لم يلتفت أبوهـم آدم إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة ، وعرقهم فيها راسخ .

ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم .

ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة ، إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هذا قد أطاع وسأوسه وقبل إرشاده ، فأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدو له ولذريته .

ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادىء البال ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هولشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثم يغلب عليه الشح والبخل ، ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ، ولا يبالي أمن الحلال كان أم من حرام ؟ ولذلك تراهم يقولون : « الغاية تبرر الوسيلة » .

أما المؤمن جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قل ماله أو كثر ، والكافر فى الآخرة أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم ، وسبب ذلك هو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقاً لما اجتروحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام .

كما قال سبحانه : ﴿لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق﴾ (١) .

ثم أتبع ذلك بما يكون عبرة للمشركين لوتفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسـل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خراباً بلقعا ليس فيها ديار ولا نافخ نار .



ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم .  
ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ، وإنه شاعر ، وإنه مجنون ،  
وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعليه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار . ولا يلتفت  
إلى شيء مما مُتَّع به الكفار من زهرة الدنيا التي أوتيت لهم لتكون ابتلاء واختباراً ، وما عند الله خير منها  
وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ، ويصطر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله  
يرزقه من واسع فضله ، وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : ﴿ فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع  
الناس فيمكث في الأرض ﴾ (١) .

وبعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التي أرادوا بها تكذيبه وكيد له وشديد أذاه ،  
حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها إدعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة  
محمد ﷺ ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكتناهم بعذاب من قبله لقالوا  
ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم ، كما حكى الله عنهم من  
قوله : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ (٢) .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد وكأنه قال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يثول إليه أمرنا  
وأمركم ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى  
الثاني من ضروب الخزي والإهانة ، ويظهر من منا سار على الطريق السوى ، ومن المهتدى ؟  
قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا  
لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾  
﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل  
أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من  
ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ .

أى اذكر يا محمد وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، ولقد أخذنا العهد  
على آدم فنسى .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنما سمي الإنسان لأنه عُهد إليه فنسى .  
وقال مجاهد والحسن : نسي أى ترك .

وقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم تشريفاً له وتنويها بشأنه ، فامتثلت الملائكة أمر الله  
تعالى ، لكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم في سورة البقرة ، وفي الأعراف ، وفي الحجر والإسراء والكهف .  
ولقد بينا عداوة إبليس لآدم وزوجه ، ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من  
الجنة فتشقى ﴾ .

وذلك لأنك إذا خرجت من الجنة أنت وزوجك فسوف تعاني وتتعب سعياً وراء لقمة العيش ، فأنت الرجل المسئول عن النفقة على أهلِكَ ، ولذلك جاء الخطاب بالثنية في قوله تعالى : ﴿ فلا يخرجنكما ﴾ وجاء بالإنفراد في قوله ﴿ فتشقى ﴾ .

ذلك لأن الرجل بحكم الفطرة التي جعل الله الناس عليها هو الذى يكد ويكدح ، ويلاقى من النصب والوصب ما يلاقى ، وأنت يا آدم فى تلك الجنة فى رغد وراحة .

﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ : ذلك لأن العرى يكسب الجسم برودة ، مما يدعو إلى شدة الجوع .

﴿ وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ : ذلك لأن حرارة الشمس تدعو إلى شدة الظمأ بإفراز ما فى الجسم من عرق . فناسب ذلك أن يجمع بين الجوع والعرى ، وبين الظمأ والحر .

﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ : وذلك لما يعلمه إبليس فى الإنسان من حب الخلود والملكية ، فكل إنسان يحب الحياة مهما كان هواؤها سموماً ، وطعامها ذقوماً ، وماؤها أسناً ، لكن الناس يختلفون فى ذلك الحب ، فأشد الناس حباً للحياة هم اليهود ، الذين تحداهم الله تعالى بقوله : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ \* ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴿ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ (٢) .

وما زال إبليس بهما حتى قاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، قال تعالى : ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ﴾ . فقد فطر الله الإنسان على ستر عورته . من أجل ذلك أخذ يضعان ورقة على ورقة من ورق الأشجار فى الجنة حياء من كشف العورة .

﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ : أى خالف ما عاهد الله به إليه بالألا يقرب تلك الشجرة . فوقع فى الغواية التى وسوس بها إليه عدو الله إبليس ، وإنما سميت معصية لأنها من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وما وقع آدم فيها إلا عندما نسى ، ومن ثم فقد قرن الله تعالى العهد بالتذكر فى قوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ (٣) .

ولقد تلقى آدم بعد ذلك كلمات من ربه فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ، والكلمات جاءت فى قوله تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٤) .

(١) الايتان ٦ ، ٧ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (حاج موسى آدم فقال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى) (١) .

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن يزيد بن هرمز قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ( احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك . قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيا ، فبكتم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى ؟ قال : نعم . قال : أقتلومنى على أن عملت عملا كتب الله علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ :

وهكذا يقبل الله التوبة عن عباده ، فإن رحمته سبقت غضبه : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ \* وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين \* ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين \* وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ (٣) .

إن آدم هو النموذج الكبير لأبنائه ؛ لم يكن دخوله الجنة عبثاً إنما ليعث الله فى نفسه الشوق إليها فيشتاق أبنائه إليها ، وما كان أكله من الشجرة عبثاً ، لأنه خالف وسوف يتوب ، فيتوب الله عليه ، وكذلك أبنائه سيخالفون فيتوبون فيتوب الله عليهم .

وهكذا اقتضت حكمة الله العليا ومشيتته العظمى أن يدخل آدم الجنة ويأكل من الشجرة ويتوب إلى الله فيتوب الله عليه : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ (٤) . ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ (٥) ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٠ : ٣ ، والترمذى فى القدر : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٧ ، ٣١٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣١ ، وفى التوحيد : ٣٧ ، ومسلم فى القدر : ١٣ ، ١٥ ، وأبوداود فى السنة : ١٦ ، ١٧ .

والترمذى فى القدر : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٩٨ .

(٣) الآيات ٥٣ - ٦١ من سورة الزمر . (٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر . (٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿١﴾ .  
 وقال عز من قائل : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا  
 كريماً ﴾ ﴿٢﴾ .  
 وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً  
 عظيماً ﴾ ﴿٣﴾ .  
 وقال عظمت حكمته : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله  
 فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ ﴿٤﴾ .  
 وقال تقدس اسمه : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول  
 لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ ﴿٥﴾ .  
 وقال وسعت رحمته : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً  
 رحيماً ﴾ ﴿٦﴾ .

يارب :

يامن يجب دعا المضطر في الظلم      ويكشف الضر والبلوى مع السقم  
 إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا      فمن يجود على العاصين بالكرم  
 يامن يجب المضطر إذا دعاه ،      ويكشف سوء عن ناداه . ارحمنا فإنك بنا راحم . ولا تعذبنا  
 فأنت علينا قادر ، وألطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شيء قدير .  
 أصبحت ضيف الله في دار الرضا      وعلى الكريم كرامة الضيفان  
 تعفو الملوك عن النزيل بساحهم      كيف النزول بساحة الرحمن  
 يامن إذا وقف المسىء ببيابه      ستر القبيح وجاد بالإحسان  
 وأنا المسىء وقد دعوتك سيدي      تعفو وتصفح للعبيد الجاني  
 حاسبت نفسي لم أجد لي صالحاً      إلا رجائي رحمة الرحمن  
 ووزنت أعمالي على فلم أجد      في الأمر إلا خفة الميزان  
 وظلمت نفسي في فعالي كلها      ويلي إذا من وقفة الديان  
 يا أيها الأخوان إنى زائل      مهما يطل من عمرى فلانى فان  
 يارب إن لم ترض إلا إذا تقى      من للمسىء المذنب الحيران  
 نوح الحمام على الغصون شجاني      ورأى العزول صبابتي فبكاني  
 إن الحمام ينوح من ألم النوى      وأنا أنوح مخافة الديان

(٤) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٥) الآية ٦٤ من سورة النساء .

(٦) الآية ١١٠ من سورة النساء .

(١) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٣١ من سورة النساء .

(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .

يا واحداً فى ملكه ماله ثانى      يا من إذا قلت يا مولاي لبانى  
أنسى فتذكرنى فى كل نائبة      فكيف أنساك يا من لست تنسانى  
أنا إن بكيت فلن ألام على البكى      فلطالما استغرقت فى العصيان  
يارب عبدك من عذابك مشفق      بك مستجير من لظى النيران  
فأرحم تضرعه إليك وضعفه      وإمنن عليه اليوم بالغفران

قوله تعالى : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فيما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هدى فلا يضل ولا يشقى ﴾ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

وهكذا أمر الله آدم وحواء أن يهبطا من الجنة إلى الأرض ، وبين الطريق القويم إلى الجنة ونعيمها . فحذر آدم وذريته من عداوة إبليس لهم ، قال : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ ، كما قال سبحانه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (١) ، وكما قال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليزيهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ (٣) .

نعم هذا صراط مستقيم ، فالطريق لائح ، والمنادى صائح ، والحق واضح . ﴿ فيما يأتينكم منى هدى ﴾ وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإرشاد العقل . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٤) .

﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئتهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٦) .

(٤) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .

(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة يس .

وقال عز من قائل : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وقال عز من قائل : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ (٢) .

فالله تعالى يعطى الجزاء فى الدنيا والآخرة : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى \* ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾ أى فى الدنيا فإذا أراد الله بقوم قحط نادى مناد من قبل الله : يا أمعاء اتسعى ، يا بركة ارتفعى ، يا عين لا تشبعى .

﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ : مع أهل الضلال ، كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ (٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ (٤) .

وقال عز من قائل : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ (٥) .

﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴾ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى : أى لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها ، وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك .

فهو وإن كان بصيراً فى الدنيا بعينه ، إلا أنه كان أعمى بقلبه ، قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (٦) .

﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾ (٧) . أى عمى القلب فى الدنيا ،

فبعث صاحبه أعمى يوم القيامة ، وذلك لأن ابن عباس رضى الله عنهما لما كف بصره قال :

إن أذهب الله من عيني نورهما ففى فؤادى وعقلي منهما نور عقلى ذكى وقلبنى ماحوى دخلا وفى فمى صارم كالسيف شهور ولذا قيل إن الله يعوض عن نور البصر ذكاء القلب :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يقال ضرير إذا أبصر المرء المروءة والوفى فإن عمى العينين ليس يضير رأيت العمى أجراً وزخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ :

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل . (٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة مريم . (٦) الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل . (٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء . (٧) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٩٧ من سورة الإسراء .

يقول تعالى : وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ (١) .

ولهذا قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ : أى أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : ( إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ) (٢) .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يهد ﴾ : لهؤلاء المكذبين بما جئتهم يا محمد ﴿ كم أهلكنا ﴾ من الأمم المكذبين بالرسول قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ، ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيما يمشون فيها . ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ : أى العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى سورة السجدة : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ (٤) .

ثم قال جل شأنه : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ : أى ولولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة .

ولهذا قال لنبيه مسلماً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أى من تكذيبهم لك ، ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعنى صلاة العصر .

كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : ( إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ) (٥) ، ثم قرأ هذه الآية .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عمارة بن رؤيبة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ) (٦) . رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به .

(١) الآية ٣٤ من سورة الزعد .

(٢) أخرجه مسلم فى اللعان : ٤ ، وأبو داود فى الطلاق : ٢٧ ، والترمذى فى تفسير سورة : ٢٤ : ٢ ، وفى الطلاق : ٢٢ ، والدارمى

فى النكاح : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣١ ، وفى ٢ : ١٩ .

(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٤) الآية ٢٦ من سورة السجدة .

(٥) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى المواقيت : ١٦ ، ٢٦ ، وفى تفسير سورة : ٥٠ : ٢ ، وأبو داود فى السنة : ١٩ ، والترمذى

فى الجنة : ١٦ ، ١٧ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ .

(٦) أخرجه مسلم فى الصلاة : ١٣ ، ٢١ ، وفى المساجد : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وأبو داود فى الصلاة : ٩ ، والإمام أحمد

فى ٤ : ١٣٦ ، ٢٦١ .

وفى المسند والسنن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه وإن أعلاه منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى فى اليوم مرتين )<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ ومن آناء الليل فصبح ﴾ أى من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء .

﴿ وأطراف النهار ﴾ : فى مقابلة آناء الليل ، ﴿ لعلك ترضى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفى الصحيح : ( يقول الله تعالى : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً )<sup>(٣)</sup> . وفى الحديث الآخر : ( يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا من النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهى الزيادة )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ :

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هوزهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : أزواجاً منهم - يعنى الأغنياء - فقد أذاك خيراً مما آتاهم .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم ﴾ لا تمدن عينيك<sup>(٥)</sup> الآية .

وكذلك ما أخره الله تعالى لرسوله ﷺ فى الآخرة أمر عظيم ، لا يحد ، ولا يوصف ، كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾<sup>(٦)</sup> .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٨٣ .

(٢) الآية ٥ من سورة الضحى .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٥١ ، وفى التوحيد : ٣٨ ، ومسلم فى الجنة : ٩ ، والترمذى فى الجنة : ١٨ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٣ .

(٥) الأيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الحجر .

(٦) الآية ٥ من سورة الضحى .



اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء . فقال له رسول الله ﷺ : ( ما يبكيك يا عمر ؟ ) فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه ؟ فقال : ( أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا )<sup>(١)</sup> .

فكان ﷺ أزهى الناس فى الدنيا مع القدرة عليها ، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله ، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد .

قال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس أخبرنى ابن وهب أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

( إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا ) . قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : ( بركات الأرض ) .

وقال قتادة والسدى : زهرة الحياة الدنيا : يعنى زينة الحياة الدنيا .

وقال قتادة : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ : لنتليهم .

وقوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ : أى استتقدهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلى فيها ، فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة كما كان يقوم ، وكان إذا استيقظ أقام ، يعنى أهله - وقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ .

وقوله : ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ : يعنى إذا أقممت الصلاة أذاك الرزق من حيث لا تحتسب .

كما قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا \* ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . إلى قوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ .

وقال الثورى : لا نسألك رزقا ، أى لا نكلفك الطلب .

(١) أخرجه البخارى فى المظالم : ٢٥ ، وفى الجنائز : ٢٥ ، ومسلم فى الرضاع : ١٠١ ، وفى الطلاق : ٣٦ ، والترمذى فى

سورة : ٦٦ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٢ : ٢٩٨ .

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .

(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن هشام ، عن أبيه ، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفاً رجع إلى أهله فدخل الدار فقراً : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ إلى قوله : ﴿ نحن نرزقك ﴾ .

ثم يقول : ( الصلاة ، الصلاة ، رحمكم الله ) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القطراني ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر عن ثابت ، قال : ( كان النبي ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : يا أهلاه ، صلوا ، صلوا ) .

قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة ، عن أبيه ، عن أبي خالد الوالى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك )<sup>(١)</sup> .

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك ، عن الأسود ، عن ابن مسعود : سمعت نبيكم ﷺ يقول : ( من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشبث به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديته هلك )<sup>(٢)</sup> .

وروى أيضاً من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد ابن ثابت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وآتته الدنيا وهى راعمة )<sup>(٣)</sup> .

وقوله : ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ : أى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة - وهى الجنة - لمن اتقى الله .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( رأيت الليلة كأننا فى دار عقبة بن رافع ، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب )<sup>(٤)</sup> . قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى \* ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا إليك رسولاً فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى \* قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ .

من أقاويلهم الباطلة ، وافتراءاتهم على الله ورسوله : أنهم قالوا : هلا يأتينا محمد بآية كآيات الأنبياء السابقين كناقاة صالح ، وعصا موسى ، حتى نصدقه فى دعواه .

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ ، وفى الزهد : ٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى الرؤيا : ١٨ ، وأبو داود فى الأدب : ٨٨ .

فجاء الرد الحاسم القاطع الجازم منه سبحانه وتعالى : ﴿ أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ وهو القرآن الكريم .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ \* أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ \* قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴿ (١) .

إن القرآن هو المعجزة الخالدة الدائمة الباقية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفيه البينة الواضحة ، والحجة الساطعة ، والبراهين القاطعة على صدق الرسالات السابقة ؟ فكيف تجحدون تلك البينة ، يا من تجادلون بالباطل لتدحضوا به الحق .

قوله تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ .

وخلاصة ما فى هذه الآية :

إنا لو أهلكتنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، ونزل عليهم الكتاب العظيم ، لقالوا : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا قبل أن يهلكنا ، حتى نؤمن به ونتبعه ، لكننا لم نهلكهم قبله ، فانقطعت معذرتهم .

قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٣) .

وقال عظمت حكمته : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ \* إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفرور ﴾ \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴿ (٤) .

(١) الآيات ٥٠-٥٢ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٤) الآيات ٦-١١ من سورة الملك .

والاعتراف كما يقولون سيد الأدلة ، والإقرار حجة مقصورة على المقر .  
قوله تعالى :

﴿ قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ :  
خطاب كريم من رب كريم لرسول كريم : قل لهؤلاء المعاندين الجاحدين ﴿ اعملوا على  
مكانتكم إنا عاملون ﴾ وانتظروا إنا منتظرون ﴿ (١) ﴾ . فستعلمون غدا من الكذاب الأشر ، وستعلمون من  
أصحاب الصراط المستقيم ومن اهتدى إلى طريق النجاة والفوز والسعادة والصلاح ﴿ والله غيب  
السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكلوا عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٢) .

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء السابع عشر

المكتبة المصرية الحديث

## سورة الأنبياء

قال صاحب البصائر :

الصورة مكية بالاتفاق .

وآياتها مائة واثنى عشرة .

وكلماتها ألف ومائة وثمانية وستون .

وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون .

وسميت سورة الأنبياء لاشتغالها على قصصهم ، على إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ولوط ،

ونوح ، وسليمان ، وداود ، وأيوب ، وإسماعيل ، وصالح ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

## مقصود السورة

ما اشتملت عليه مجملا من التنبيه على الحساب فى القيامة ، وقرب زمانها ، ووصف الكفار بالغفلة ، وإثبات النبوة ، واستيلاء أهل الحق على أهل الضلالة ، وحجة الوجدانية ، والإخبار عن الملائكة وطاعتهم ، وتخليق الله السموات والأرض بكمال قدرته ، وسير الكواكب ، ودور الفلك ، والإخبار عن موت الخلائق وفنائهم وكلاء الله تعالى وحفظه العبد من الآفات ، وذكر ميزان العدل فى القيامة .

وذكر إبراهيم بالرشد والهداية ، وإنكاره على الأصنام وعبادها ، وسلامة إبراهيم من نار نمرود وإيقادها .

ونجاة لوط من قومه أولى العدوان .

ونجاة نوح ومتابعته من الطوفان .

وحكم داود ، وفهم سليمان ، وذكر تسخير الشيطان .

وتضرع أيوب .

ودعاء يونس .

وسؤال زكريا .

وصلاح مريم .

وهلاك قرى أفرطوا فى الطغيان ، وفتح سد يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ، وذل الكفار والأوثان

فى دخول النيران ، وعز أهل الطاعة والإيمان من الأزل إلى الأبد فى جميع الأزمان على عللى

الجنان ، وطى السموات فى ساعة القيامة .

وذكر الأمم الماضية ، والمنزلة من الكتب في سالف الأزمان ، وإرسال المصطفى ﷺ بالرأفة والرحمة والإحسان ، وتبليغ الرسالة على حكم السوية من غير نقصان ورجحان ، وطلب حكم الله تعالى على وفق الحق والحكمة في قوله: ﴿ رب احكم بالحق وربنا الرحمن ﴾ .

### المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ وفي الشعراء ﴿ من ذكر من الرحمن محدث ﴾

خصت هذه السورة بقوله: ﴿ من ربهم ﴾ بالإضافة ، لأن ( الرحمن ) لم يأت مضافا ، ولموافقة ما بعده ، وهو قوله : ﴿ قل ربى يعلم ﴾ .

وخصت الشعراء بقوله: ﴿ من الرحمن ﴾ ليكون كل سورة مخصوصة بوصف من أوصافه . وليس في أوصاف الله تعالى اسم أشبه باسم الله من الرحمن ، لأنهما اسمان ممنوعان أن يسمى بهما غير الله - عز وجل - ولموافقة ما بعده ، وهو قوله: ﴿ العزيز الرحيم ﴾ ، لأن الرحمن والرحيم من مصدر واحد .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا ﴾ وبعده ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ : ﴿ قبلك ﴾ و ﴿ من قبلك ﴾ كلاهما لاستيعاب الزمن المتقدم ، إلا أن لفظ ( من ) إذا دخل دلَّ على الحصر بين الحذّين ، وضبطه بذكر الطرفين . ولم يأت ( وما أرسلنا قبلك ) إلا هذه . وخصّت بالحذف لأن قبلها ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ فبناه عليه لأنه هو ، وآخر في الفرقان ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ﴾ وزاد في الثاني ﴿ من قبلك من رسول ﴾ على الأصل للحصر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ، وفي العنكبوت : ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لأن ثم للتراخي ، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار ، وذلك في القيامة ، فخصت سورة العنكبوت به . وخصت هذه السورة بالواو ، لما حيل بين الكلامين بقوله: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ﴾ وإنما ذكرا لتقدم ذكرهما ، فقام مقام التراخي ، وناب الواو منابه ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ وفي الفرقان : ﴿ وإذا رآوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ لأنه ليس في الآية التي تقدمتها ذكر الكفار ، فصرح باسمهم ، وفي الفرقان قد سبق ذكر الكفار ، فخص الإظهار بهذه السورة ، والكناية بتلك .

قوله تعالى : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ قالوا وجدنا ﴿ وفي الشعراء ﴾ : ﴿ قالوا بل وجدنا ﴿ لأن قوله ﴾ : ﴿ وجدنا آباءنا ﴾ جواب لقوله ﴾ : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ وفي الشعراء أجابوا عن قوله ﴾ : ﴿ ما تعبدون ﴾ بقولهم ﴾ : ﴿ قالوا نعبد أصناما ﴾ .

ثم قال لهم ﴾ : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون ﴾ أو ينفعونكم أويضرون ﴾ فأتى بصورة الاستفهام ومعناه النفي ﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ أى : قالوا لا بل وجدنا عليه آباءنا ، لأن السؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أن ينفوا ما نفاه السائل فأضربوا عنه إضراب من ينفى الأول ، ويثبت الثانى ، فقالوا : ﴿ بل وجدنا ﴾ فخصت السورة به .

قوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفى الصفات ﴿ الأسفلين ﴾ لأن فى هذه السورة كادهم إبراهيم لقوله ﴾ : ﴿ لا كيدن أصنامكم ﴾ وهم كادوا إبراهيم لقوله ﴾ : ﴿ وأرادوا به كيدا ﴾ فجرت بينهم مكايده ، فغلبهم إبراهيم ، لأنه كسر أصنامهم ، ولم يغلبوه ، لأنهم لم يبلغوا من إحراق مرادهم ، فكانوا هم الأخسرين .

وفى الصفات ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ ، فأججوا نارا عظيمة ، وبنوا بنيانا عاليا ، ورفعوه إليه ، ورموه منه إلى أسفل ، فرفعه الله ، وجعلهم فى الدنيا سافلين ، وردهم فى العقبى أسفل سافلين . فخُصَّت والصفات بالأسفلين .

قوله تعالى : ﴿ فنجيناه ﴾ بالفاء سبق فى يونس . ومثله فى الشعراء ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ﴾ إلا عجوزا فى الغابرين ﴿ (١) .

قوله ﴾ : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه ﴾ ختم القصة بقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ . وقال فى ص ﴾ رحمة منا ﴾ لأنه بالغ فى التضرع بقوله ﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ . فبالغ سبحانه فى الإجابة ، وقال ﴿ رحمة من عندنا ﴾ لأن ﴿ عند ﴾ حيث جاء دل على أن الله - سبحانه تولى ذلك من غير واسطة ، وفى ص لمبدأ القصة بقوله ﴿ واذكر عبدنا ﴾ ختم بقوله ﴿ منا ﴾ ليكون آخر الآية ملتئما بالأول .

قوله تعالى : ﴿ فاعبدون وتقطعوا ﴾ وفى المؤمنين ﴿ فاتقون فتقطعوا ﴾ لأن الخطاب فى هذه السورة للكفار ، فأمرهم بالعبادة التى هى التوحيد ، ثم قال : ﴿ وتقطعوا ﴾ بالواو ، لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جعله خطابا للمؤمنين ، فمعناه : دُوموا على الطاعة . وفى المؤمنين الخطاب للنبي ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله قبله ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى . ثم قال : ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ أى : ظهر منهم التقطع بعد هذا القول والمراد أمتهم .

قوله تعالى : ﴿ والى أحصنت فرجها فنفخنا فيها ﴾ وفى التحريم ﴿ فيه ﴾ لأن المقصود هنا ذكرها وما آل إليه أمرها ، حتى ظهر فيها ابنها ، وصارت هى وابنها آية . وذلك لا يكون إلا بالنفخ فى جملتها ، وبحملها ، والاستمرار على ذلك إلى يوم ولادتها ، فلهذا خُصَّت بالتأنيث ، وما فى التحريم مقصور على ذكر إحصانها ، وتصديقها بكلمات ربها ، وكان النفخ أصاب فرجها ، وهو مذكّر ، والمراد به فرج الحب أو غيره ، فخُصَّت بالتذكير .



وقد ورد في فضل هذه السورة ما رواه البخاري عن عبد الله قال : ( بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادي ) .

وعن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مشواه وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت رسول الله وأديا ما في ديار العرب واد أفضل وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا يريد هذه السورة .

### مناسبتها لما قبلها

إن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التي جعلها الله لهم فتنه ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين ، وبدأت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون وقلوبهم لاهية عنه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ  
مُحَدَّثٍ إِلَّا أَاسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا  
هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ  
فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

### المفردات

- ﴿ اقرب ﴾ : وقرب بمعنى والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجيء الساعة .
- ﴿ والناس ﴾ : هم المكلفون .
- ﴿ معرضون ﴾ : أي : عن التأهب لهذا اليوم .
- ﴿ من ذكر ﴾ : أي : قرآن .
- ﴿ محدث ﴾ : أي : جديد إنزاله .

﴿ يلعبون ﴾ : أى : يسخرون ويستهزئون .

﴿ لاهية قلوبهم ﴾ : أى : غافلة قلوبهم عن ذكر الله .

﴿ النجوى ﴾ : التناجى والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم .

﴿ أضغاث أحلام ﴾ : أى : تخاليل أحلام رآها فى النوم .

﴿ افتراه ﴾ : اختلقه من تلقاء نفسه .

﴿ بل ﴾ : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه ، كما قال ابن مالك : وسبقه إليه صاحب الوسيط ، ووافقه ابن الحاجب ، وهو الحق .

قوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله جل شأنه : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وما من شك فى أن كل آت قريب كما قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيداً \* ونراه قريباً ﴾ <sup>(٣)</sup> وكما قال جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى : ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ :

قال النسائى بسنده عن أبى سعيد عن النبى ﷺ ( فى غفلة معرضون ) قال : ( فى الدنيا ) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نواس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

فقل له من أين أخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ .

ويرحم الله من قال :

نموت وأبامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب

عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لا أعجب

أيلهو ويلعب من نفسه يموت ومنزله يخرب

أرى الليل يطلبنا والنهار وما أدرى أيهما أطلب

أحاط الجديدان جمعاً بنا وليس لنا منهما مهرب

وكل له مدة تنقضى وكل له أثر يكتب

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة المعارج .

(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .

(١) الآية الأولى من سورة النحل .

(٢) الآية الأولى من سورة القمر .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ .  
وهذه صورة من صور إعراضهم وغفلتهم عن ذكر الله : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جديد  
إنزاله إلا استمعوه في لهو وفي لعب ، فذرهم في خوضهم يلعبون ، وفي طغيانهم يعمهون ، وفي ربهم  
يترددون .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا  
غَافِلُونَ ﴾ \* أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴿ ١ ﴾ : وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ .

قال ابن عباس : ما لكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا  
منه ، وكتابتكم أحدث الكتب بالله ، تقرأونه محصناً لم يُشب .

قوله تعالى : ﴿ لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أى : غافلة عن ذكر الله - تعالى - وتدبير آياته ، قال جل شأنه :  
﴿ حَسْمٌ \* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ \* كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون \* بشيراً ونذيراً  
فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك  
حجاب فاعمل إننا عاملون ﴿ ٣ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : قائلين فيما بينهم خفية : ﴿ هَلْ هَذَا  
إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون كونه نبياً ، لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحى  
دونهم ، ولهذا قال : ﴿ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرِ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴾ أى : أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر  
وهو يعلم أنه سحر .

قال تعالى مجيباً لهم عما افتروه ، واختلقوه من الكذب : ﴿ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ  
وَالْأَرْضِ ﴾ أى : الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار  
الأولين والآخرين ، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفى هذا تهديد  
لهم ووعد .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴾ :  
وهذه صورة من صور افتراءاتهم على الكتاب العزيز ، قالوا إنه أضغاث أحلام ، أى : أخلط من  
الأحلام التى يراها فى المنام لا حقيقة لها ، وقالوا : بل إن هذا القرآن مفترى ومختلق ، كما جاء فى  
قوله جل شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً  
وَزوراً ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً \* قل أنزله الذى يعلم السر فى  
السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴿ ٤ ﴾ .

(٣) الآيات ١-٥ من سورة فصلت .

(٤) الآيات ٤-٦ من سورة الفرقان .

(١) الأيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

وكما قال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾ (١) وقال جل شأنه : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إني أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ \* قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ \* فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾ (٢) .

وقالوا عن رسول الله ﷺ إنه شاعر ، فرد عليهم الله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون \* وما لا تبصرون ﴾ \* إنه لقول رسول كريم \* وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ \* ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ \* تنزيل من رب العالمين ﴾ \* ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ﴾ \* لأخذنا منه باليمين ﴾ \* ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ \* فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ \* وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ \* وأنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ \* وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ \* وإنه لحق اليقين ﴾ \* فسبح باسم ربك العظيم ﴾ (٣) .

وإزدادوا طغياناً على طغيانهم فقالوا : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ \* أى : كنانة صالح ، وعصا موسى .

فرد الله عليهم مولانا تبارك اسمه بقوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ﴾ \* أى : أن القرى التى أهلكناها لما عتت عن أمر ربها ورسله ، قد جاءتهم أنبيأؤهم بالآيات والمعجزات . فكذبوا واستكبروا .

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون ﴾ \* ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ﴾ \* لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٦) . أفهم يؤمنون .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ \* حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ (٧) .

لقد رأوا القمر وقد انشق ، فماذا قالوا ؟ يقول جل شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ \* وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ (٨) .

إنهم وقفوا موقف العناد ، شأنهم كشأن الأمم السابقة .

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ \* أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر

(٥) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

(٦) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

(٧) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة القمر .

(٨) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

(١) الآية ٨ من سورة الأحقاف .

(٢) الآيات ١٥ - ١٧ من سورة يونس .

(٣) الآيات ٣٨ - ٥٢ من سورة الحاقة .

(٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

الأنهار خلالها تفجيراً \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴿١﴾ .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً \* قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً \* قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً \* ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مشبوراً ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن علي بن رباح اللخمي قال : حدثني من شهد عبادة بن الصامت يقول : ( كنا في المسجد ومعنا أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- يقرأ بعض القرآن ، فجاء عبد الله بن أبي ابن سلول ومعه نمرقه وزبية ، فوضع واتكأ ، وكان صبيحاً فصيحاً جَدلاً ، فقال : يا أبا بكر قل لمحمد : يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح ، وجاء داود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل والمائدة . فبكى أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- .

فخرج رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق . فقال رسول الله ﷺ : ( إنه لا يقام لى إنما يقام لله عز وجل- ) . فقلنا : يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق . فقال : ( إن جبريل قال لى اخرج فأخبر بنعم الله التي أنعم بها عليك ، وفضيلته التي فضلت بها ، فبشرني أنى بعثت إلى الأحمر والأسود ، وأمرنى أن أنذر الجن ، وآتاني كتابه ، وأنا أُمى ، وغفر ذنبي ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمى في الأذان ، وأمدنى بالملائكة ، وآتاني النصر ، وجعل الرعب أمامي ، وآتاني الكوثر ، وجعل حوضي من أعظم الحياض يوم القيامة ، ووعدني المقام المحمود ، والناس مهطعون مقنعون رءوسهم ، وجعلني في أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل في شفاعتي سبعين ألفاً من أمتي بغير حساب ، وآتاني السلطان والملك ، وجعلني في أعلى غرفة في الجنة في جنات النعيم ، فليس فوقى إلا الملائكة الذين يحملون العرش ، وأحل لى ولأمتي الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا ) .

(١) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات ٩٤-٩٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .

## الرسل والأمم

قال تعالى :

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾  
وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ  
فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ  
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾  
فَلَمَّا أَحَسُوا بِآسِنَا إِذَاهُمْ مِنْهَا يَرُكْضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ  
لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ  
حَصِيدًا خَالِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ  
نَتَّخِذَ لَهُمْ آيَةً أَتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا مُعْلِمِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا  
هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ  
عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ  
الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لُفْسَدَتَا فُسْبَحْنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا  
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ  
هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا  
مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ  
وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ  
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾  
\* وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ  
شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا  
سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾  
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرٍّ  
مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٢٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَاقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ  
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٢٥﴾ وَإِذَارَأَ الْكَافِرُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا  
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهِنَاكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ  
مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ  
﴿٢٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ  
يُنصَرُونَ ﴿٢٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ  
أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَن  
يَكْلُوكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ لَهُمْ  
إِلَٰهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٣٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا  
هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا  
﴿٣٤﴾ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٣٦﴾  
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلِنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ  
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا  
وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٣٨﴾

## تفسير المفردات

- أهل الذكر : هم أهل الكتاب الذين آمنوا .  
 الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان .  
 خالدين : أى : باقين .  
 الوعد : هونصرهم وإهلاك أعدائهم .  
 المسرفين : أى : الكافرين .  
 ذكركم : أى : عظتكم .  
 تعقلون : أى : تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .  
 كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها .  
 القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب الثامها .  
 والإحساس : الإدراك بالحساسة . أى : أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد .  
 والبأس : الشدة .  
 والركض : الفرار والهرب ، يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كده بساقيه ثم كثر حتى قيل  
 ركض الفرس إذا عدا ، ومنه ﴿ اركض برجلك ﴾ (١) .  
 والإتراف : إبطار النعمة يقال أترف فلان أى : وسع عليه فى معاشه وقلّ فيه همه .  
 يا ويلنا : أى : يا هلاكنا .  
 دعواهم : أى : دعوتهم التى يرددونها .  
 حصيدا : أى : كالزروع المحصود بالمناجل .  
 خامدين : أى : كالنار التى خمدت وانطفأت .  
 اللعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح .  
 واللهو : الفعل يعمل ترويحاً عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة والولد لهواً يُستروحُ بكل منهما  
 ويقال لامرأة الرجل وولده ريحانته .  
 من لدنا : أى : من عندنا .  
 القذف : الرمى البعيد .  
 وأصل الدمغ : كسر الشيء الرّخو ، ويراد به هنا القهر والإهلاك .  
 زاهق : أى : زائل ذاهب .  
 الويل : الهلاك .  
 من عنده : هم الملائكة .  
 لا يستكبرون : أى : لا يتعظمون .  
 يستحسرون : أى : يكيلون ويتعبون يقال خسر البعير إذا أعيا وكل ، ومثل استحسر وتحسر .



لا يفترون : أى: لا يضعفون ولا يترآخون .  
 ينشرون : من أنشروه . أى: أحياءه .  
 لفسدنا : أى: لخرجنا عن نظامهما وخربتنا .  
 فسبحان الله : أى: تنزيها له عما وصفوه به .  
 هذا ذكر من معى : أى: هذا الوحي المتضمن للتوحيد عظة أمتى .  
 وذكر من قبلى : أى: موعظتهم وإرشادهم .  
 لا يسبقونه بالقول : أى: لا يتكلمون حتى يأمرهم .  
 مكرمون : أى: مقربون من عنده .  
 من خشيته : أى: بسبب خوف عذابه .  
 مشفقون : أى: حذرون .  
 الرقيق : الضم والالتحام خلقه كان أو صنعه .  
 والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين .  
 الرواسى : الثابت واحدها راسية .  
 وتميد : تتحرك وتضطرب .  
 والفجاج : واحدها فج ، وهوشقة يكتنفها جيلان .  
 والسبل : واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع .  
 والفلك : كل شىء دائر ، وجمعه أفلاك .  
 الخلد : الخلود والبقاء .  
 الذوق : هنا الإدراك ، والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمدرک لذلك هى النفس المفارقة التى تدرك مفارقتها للبدن .  
 ونبلوكم : أى: نختبركم والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم .  
 بالخير والشر : أى: المحبوب والمكروه .  
 فتنة : أى: ابتلاء .  
 إن يتخذونك إلا هزوا : أى: ما يتخذونك إلا مهزوا به مسخورا منه .  
 العجلة والعجلة : طلب الشىء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان : هذا النوع وقد جُعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكى هونار تشتعل ، ويقال لمن يكتر منه الكرم : فلان خلق من الكرم .  
 قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾<sup>(١)</sup> أى: خلقكم ضعفاء .  
 والآيات : هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها .  
 وإراءتهم إياها : أصابتهم بها . والمراد بالوعد قيام الساعة .

لا يكفون : أى: لا يمتنعون .

بغته : أى: فجأة .

تبهتهم : أى: تدهشهم ، وتحيرهم .

ينظرون : أى: يمهلون ويؤخرون .

حاق : حل ونزل .

يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس .

من الرحمن : أى: من بأسه وعقابه الذى تستحقونه .

من دوننا : أى: من غيرنا .

يصحبون : أى: يجارون من عذابنا ؛ تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى: ومجير منه

واختاره الطبرى .

نفحة : أى: قسط ونصيب ضئيل .

حبة الخردل : مثل فى الصغر .

حاسيين : أى: عادّين مُحصّين .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فيما سلف من إنكار الكافرين لأن يكون الرسول بشرا بقولهم: ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد ﷺ ، فهو ليس ببدع بينهم ، وإن كنتم فى ريب من ذلك ، فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم .

ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية ، يأكلون الطعام ، ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجيهم ومن آمن بهم ، ويهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لو كانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ، ووعد ووعيد .

وبعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله ، بين هنا طريق إهلاكهم ، وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بين أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسوا بأس الله فروا هاربين ، فقليل لهم على ضرب من التهكم والسخرية: فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم ، وإلى تلك المساكن المشيدة ، والفرش المنجدة ، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم ، ونزل بأموالكم ومنازلكم ، فتجيئوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا : هلاكنا لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها ، حتى صاروا كالنبات المحصود ، والنار الخامدة .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد ﷺ بتلك المقالات التى سلف ذكرها ، قفى على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن ، وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من

باب العبث واللعب ، تنزه ربنا عن ذلك ، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ، ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقيم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا إلا بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل-صلوات الله عليهم - فمكرر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهما ولعبا ، تعالى خالقهما علواً كبيراً .

وبعد أن أبان سبحانه في سابق الآيات أن كثيراً من الأمم المكذبة لرسالتها قد أبيت ، وأنشئ بعدها أقوام آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارععوا وندموا حيث لا ينفع الندم ، ثم أردف ذلك بذكر أن من في السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لا يتكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها ، ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده ، فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف .

ثم أقام البرهان على وحدانيته ، وأنه لو كان في السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لا دليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولداً فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق الله ، مطيعون لربهم ، لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم وهي جزاء كل ظالم .

وبعد أن حكى سبحانه مقالات أولئك المشركين ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولداً من الملائكة ، وطالبهم بالدليل على صدق ما يدعون ، وبين لهم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك لا من طريق العقل كما هو واضح ، ولا من طريق النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أس دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون ، قفى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة في الكون الدالة على التوحيد ، ولفت أنظارهم إلى أنه لا ينبغي عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات لا يعبد سواه من حجر أو شجر لا يضر ولا ينفع .

وبعد أن بين سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من الآيات الكونية ، أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ، ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان ولتكون وسيلة إلى الآخرة التي هي دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد ﷺ فما هذا سبيله وحده ، بل هذا سنة الله في الخلق أجمعين .

ثم ذكر سبحانه أنهم نعوذ على نبيه ﷺ ذكر آلهتهم التي لا تضر ولا تنفع بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده ، الخالق لهم ، المحيى المميت ، ولا شيء أقبح من هذا وأخلق بالذم منه .

أخرج ابن أبي حاتم عن السدي : ( أنه ﷺ مرَّ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبوجهل ضحك وقال : هذا نبي بني عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أنتكر أن يكون لعبد مناف نبي ؟ فسمعهما النبي ﷺ فرجع إلى أبي جهل فوقع به وخوفه ، وقال : ما أراك متتهيا حتى

يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حمية ، فنزلت الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (١) .

وبعد أن بين جلّت قدرته أنه كلما أتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالعذاب كذبوا به ، وقالوا تهكمأ وإنكاراً : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قفى على ذلك بنهيهم عن العجلة ، وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جُبِلَ عليها ، ثم ذكّرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلداهم ذلك المطلب . وفى هذا تسليّة لرسوله ﷺ ، كما سلاه بأن الاستهزاء به وبما أتى به ليس بدعاً من المشركين ، فكثير من الرسل قبله أودوا واستهزئ بهم ، وكان النصر آخر الأمر حليفهم وحق الهلاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوماً يحل بهم فيه مثل ما حلّ بمن قبلهم ، وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون . روى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو القائل ﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

وبعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لا يستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأهوال ما لم يكن يخطر لهم ببال ، أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا ، وحرسهم إلى حين ، لما بقوا سالمين ، وأنه مع إنعامه عليهم ليلاً ونهاراً بالحفظ والحراسة - هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لا حافظ لهم سواه ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى شىء من ذلك ، فهى لا تستطيع أن تحفظ أنفسهم من الآفات ، فضلاً عن منع بأس الله إن حل بهم .

ثم أردف ذلك ببيان أن الذى حملهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد ، حتى نسوا العهد ، وجهلوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم فى نقص الأرض من أطرافها ، وفتح المسلمين لها عبرة أئماً عبرة ، فهاهم يرون محمداً ﷺ وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ، ويدخلونها تحت راية الإسلام ، ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا فى هذا ملياً ، ويرعوا عن غيهم ، ويعلموا آثار قدرتنا . وأن جندنا هم الغالبون .

ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هى الإنذار والتبليغ ، وليس عليهم الإلزام والقبول ، فإذا كانت القلوب متحجرة ، والآذان صماء ، فماذا تجدى العظمة ، وماذا ينفع النصيح . ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين .

ثم قفى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ، ويجازى كل امرئ بما قدم من خير أو شر ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٣) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٤) .

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ \* وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين \* ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين .

هو كقوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ . وفيه رد على الذين استنكروا أن يكون الرسول من البشر : ﴿ وقالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ (١) ، وقالوا : ﴿ أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾ (٢) .

قال تبارك وتعالى : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بى ولا بكم ﴾ (٣) . فالرسول إنسان من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بشرع وأمره بتبليغه ، وقد كمل الله-تعالى- الرسل بصفات الكمال البشرية ، فهم أهل الصدق والأمانة والتبليغ والفطنة ، وقد حفظ الله-تعالى- ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه ، وتلك هى العصمة ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ (٤) .

فهم صفوة خلق الله من عباده : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أى: أهل المعرفة والحق من الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فإنهم عندئذ سيخبرونكم بأن الله قد أرسل إلى أقوامهم رسلاً من البشر ، لا من الملائكة ، وذلك من تمام النعمة على الخلق ، إذ بعث الله فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم : ﴿ لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ :

هو كقوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾ (٧) .

وهذا رد على الذين قالوا: ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾ (٨) إنهم يأكلون الطعام كبقية البشر ، ويتزوجون ويتناسلون ، ويمشون بين الناس ، ويبيعون ويشترى ، وينامون ويستيقظون ، حتى تكون أحوالهم ملازمة لأحوال البشر ، وعلى ذكر من طباعهم .

أما الملائكة فإنهم بخلاف ذلك ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾ (٩) .

(٦) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٧) من الآية ٢٠ من سورة الفرقان .

(٨) من الآية ٧ من سورة الفرقان .

(٩) من الآية ٣٨ من سورة الرعد .

(١) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٣) الآية ٩ من سورة الأحقاف .

(٤) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

ولما كانوا جسداً يأكلون ويشربون ، وينامون ، فإنهم غير خالدين فى هذه الدنيا ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ \* كل نفس ذائقة الموت ﴿ .

قوله تعالى : ﴿ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ :  
هو كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ \* ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴿ (١) .

وكقوله تعالى : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ (٢) .  
وقوله جل شأنه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٣) .  
وقوله تبارك اسمه : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ (٤) .  
وقوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ أهلكنا المسرفين ﴾ أى : المكذبين بوعدنا ووعيدنا ومعادنا ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خذى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ \* وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين \* كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴿ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ \* وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومأ آخرين \* فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون \* لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتهم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون \* قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين \* فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴿ .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ :  
هذا قسم منه سبحانه وتعالى على إنزال هذا الكتاب العزيز ، الذى فيه ذكرهم ، والمقصود به هاهنا شرفهم ، كما قال ابن عباس قال : شرفكم .  
وقال مجاهد : حديثكم .

وقال الحسن : دينكم .

فمن رغب عن هذا الكتاب فقد سفه نفسه ، وأضاع كرامته وعزته ، فوالله الذى لا إله غيره لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية الإسلام على كل بلد .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً  
لا تنكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديل

(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة إبراهيم .

(٥) الآية ٥٨ من سورة هود .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة يونس .

(٦) الآيات ٦٦ - ٦٨ من سورة هود .

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ : الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجننتكم فلا تعقلون . وتلك حال كل من رأى النور فانكره ، ورأى الظلمات فسار فيها : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ (١) .

إن القرآن يلقي باللائمة على هؤلاء الذين رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، عما جاء به غيره إلى غيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ (٢) . لا شرف لنا إلا بالقرآن ، ولا عزة لنا إلا فى التمسك به ، ولا كرامة لنا إلا بالعمل بما فيه ، وهل صارت الأمة غشاء كغشاء السيل ، وتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها إلا لما طرحت كتاب ربها ظهرياً ، وجاءت بقوانين من الشرق والغرب ، وطرحت ثياب الإسلام ، وجاءت بثوب ضم سبعين رقعة ، مشكلة الألوان مختلفات .

يا أمة الإسلام :

ألم يبعث لأمّتكم نبى  
يوحّدكم على نهج الوثام  
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً  
منار للمحبة والسلام  
وفوق الكل رحمن رحيم  
إله واحد رب الأنام

عودوا إلى كتاب ربكم .

١ - فقد روى عثمان بن عفان -رضى الله عنه- عن النبي ﷺ قال : ( خيركم من تعلم القرآن وعلمه ) (٣) ، رواه البخارى .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظه ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

٢ - وعن عبد الله بن مسعود -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ( آلم ) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ) (٤) . رواه الترمذى .

ومعناه أن الله -تعالى- يعطى ثواباً للقارئ بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

٣ - وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : ( ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ) (٥) . رواه مسلم .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ . وأبو داود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى

المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

(٤) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٥) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، والترمذى فى القرآن : ١٠ ، وابن ماجه فى المدينة : ١٧ ، والإمام أحمد فى

٢ : ٢٥٢ ، ٤٠٧ ، ٤٤٧ ، وفى ٣ : ٣٣ ، ٢٩ ، ٩٢ ، ٩٤ .

فقد أثنى عليهم سبحانه في الملاء الأعلى تنويها بعلو درجاتهم ، وزيادة ثوابهم وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا ، وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

٤ - وعن أبي هريرة-رضي الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : ( من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد عن عبادة بن ميسرة .

٥ - وعن عائشة-رضي الله عنها-قالت : قال رسول الله ﷺ : ( الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهو عليه شاق له أجران )<sup>(٢)</sup> .

قال النووي : السفارة جمع سافر . والسافر : الرسول ، والسفيرة : الرسل ، لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله ، وقيل : السفارة : الكتبة البررة المطيعون من البر وهو الطاعة .

والماهر : الحاذق الكامل الحفظ الذي لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه .

قال القاضي : يحتمل أن يكون معنى كونه من الملائكة أن له في الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفارة لاتصافه بصفته من حمل كتاب الله تعالى .

قال : ويحتمل أنه يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم ، وأما الذي يتتعتع فيه فهو الذي يتردد في تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر بالقراءة ، وأجر بتتعتعه في تلاوته ومشقته .

قوله تعالى : ﴿ وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ :

كم هنا تفيد التكرير فهي كم الخبرية ، وقصصنا تفيد الاستئصال بشدة ، والأخذ الذي لا يبقى ولا يذر ، والمقصود بالقرية المجتمع . قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ \* وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴿<sup>(٣)</sup> .

فالظلم لايدوم ، وإن دام دمر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ومرتعته وخيم . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها ويثر معطلة وقصر مشيد ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ وكأين من قرية أهلكنا وهي ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وهل يهلك الأمم إلا الذنوب التي حظر الإسلام من إتيانها .

عن أبي هريرة-رضي الله عنه-عن النبي ﷺ قال : ( اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٤١ .

(٢) أخرجه مسلم في المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه في الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد في ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .

(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .

(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٦) الآية ١١٧ من سورة هود .



وما هُنَّ ؟ قال : الشرك بالله، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴿١﴾ . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

والسبع الموبقات : أى : المهلكات التي تهلك أصحابها .

والشرك : هو أن تجعل لله مثيلاً وتأثيراً فى شفائك ، أو فى إعطاء رزقك ، أو قضاء حاجتك وهكذا ، بل الأفعال كلها لله ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾ (٢) .

والسحر : صرف الشيء عن وجهه ، واستعمال طلاسم ، وتسخير الشياطين لأعمال دنيئة ، قال تعالى : ﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ (٣) .

والتولى يوم الزحف : أى : الهجوم على أعداء الدين .

وقذف المحصنات : أى : سب العفيفات الطاهرات الملازمة خدرهن الصالحات .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : ( أربع : حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ، ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه ) (٤) . رواه الحاكم .

وعقوق الوالدين : أى : عصيانهما ومخالفة أوامرهما وعدم برهما ، وترك الإحسان إليهما ، لأنه خالف أمر الله تعالى الذى أمر : ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ (٥) .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : ( بين يدى الساعة يظهر الربا ، والزنا ، والخمر ) . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح .

وروى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( والذى نفسى بيده ليبتن أناس من أمتى على أشرب ويطر ولعب ولهو ، فيصبحوا قردة وخنازير : باستحلالهم المحارم واتخاذهم القينات وشربهم الخمر ، وبأكلهم الربا ، ولبسهم الحرير ) . رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائده .

إن رسول الله ﷺ شبه أولئك بالقردة والخنازير ، وصاروا مجردين عن كل عقل يمنعهم عن الفاحشة ، ويبعدهم عن المعصية ، ويرشدهم إلى الآداب السامية آداب الدين الإسلامى .

يا عجباً يسترسلون فى الشهوات ، ويرخون العنان لملذاتهم ، فييحون ما حرم الله تبجحاً وقلة أدب وسفاهة رأى ، ودناءة وحقارة ، والنتيجة تكون عاقبتهم وخيمة : يتحرون ، ويفتقرون ويجنون ،

(١) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

(٢) الآية ٣٠ من سورة الإنسان .

(٣) الآية ٤ من سورة الفلق .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .

(٥) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

ويطردون من أعمالهم ، ويفصلون من وظائفهم لماذا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم وضلوا عن سواء السبيل ، ولم يعملوا بكتاب الله وسنة نبيه .

فحذار أيها الآباء ؛ وعلموا أبناءكم تعاليم الإسلام ، واجعلوا نصب أعينكم مصائب الخروج عن الدين ، واجتنبوا محارم الله ، وغذوا أبناءكم ببيان القرآن والسنة ، واهجروا المتبرجات العاصيات المائلات الميلات ، واتركوا الخمر والربا .

ومن علامة غضب الله أن يلبس الرجل الحرير ، قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ (١) .

فأنت ترى حلم الله - جل وعلا - على أمة محمد ﷺ ، مهما أسرفوا في المعاصي ، يسامحهم في الدنيا ، ويؤجل عقابهم للآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ .

وقوله ﷺ : ( فيصبحوا قردة وخنازير ) : أى : أن أعمالهم المنكرة تستوجب مسخ صورهم ، ولكن سبق وعد الله بالتأجيل فلا يؤخذهم بذنوبهم في حياتهم ، كما أخذ الأمم السابقة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوتوا الكتاب آمناً بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أولنعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً \* إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ (٢) .

ومعنى نطمس : أى : نمحو تخطيط صورها ، ونجعلها على هيئة أدبارها يعنى الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها في الدنيا أو في الآخرة ، وقيل : من قبل أن نغير وجوها فنسلب وجاهتها وإقبالها ، ونكسوها الصغار والإدبار . قاله البيضاوى .

وهذا هو الشاهد في معنى ( فيصبحوا قردة وخنازير ) أى أن العصاة المجرمين المرتكبي الآثام يصبحون في ذل وصغار ، وحقارة ، ودناءة ، تعلوهم المسكنة ، ويسلب الله منهم كل عز ورفعة وجاه .

وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : ( يبيت قوم من هذه الأمة على طعم ، وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، وليُصيينهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيتولون خسف الليلة بنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان ، وترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها . وعلى دور ، وترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً على قبائل فيها . وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات وأكلهم الربا ، وقطيعة الرحم .. ) (٣) . الحديث رواه أحمد مختصراً واللفظ له .

والله إن ذنوبهم كثرت ، وزادت فسوقها ، فاستحقوا إرسال الريح المهلكة الشديدة التى تضر زرعهم ، وتهلك ماشيتهم ، وتهدم دورهم ، كما قال تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم \* ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ (٤) أى : كالرماد . وهو البلى والتفتت .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .

(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة الذاريات .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر

(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة النساء .

﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون \*  
فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين \* وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿<sup>(١)</sup> .  
لقد استحق المسلمون عقاب الله بهذا العذاب . بسبب شرب الخمر ، وتمتعهم بالرفاهية  
والترف ، والإسراف بلبس الحرير ، واستحلال صحبة المغنيات الفاجرات بلا نكاح شرعى ، فيحصل  
اختلاط مزر مشين قبيح ، وفعل الربا ، وترك مودة الأقارب وهجرهم ، وعدم الإحسان إليهم .  
فاتقوا الله عباد الله ، واعملوا صالحا ، واهجروا المعاصى ، وأكثرُوا من تشييد الصالحات ،  
واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، فإن الله - تعالى - أرسل محمداً ﷺ بالتعاليم الصحيحة الجالبة كل  
سعادة ، والممانعة من كل عذاب ، ولكن هذه المعاصى تسبب انتقام الله - جل وعلا - عاجلاً ، كما قال  
عز وجل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً  
ويذيق بعضهم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾<sup>(٢)</sup> .

انظر إلى حال المسلمين الآن : ملأوا أصقاع المعمورة ، وكثر عددهم ، ولكن تفرقت قلوبهم ،  
لماذا ؟ لأن العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قليل ، والمعاصى فاشية ، والمنكرات قائمة ،  
والبدع منتشرة ، والفواحش مرتكبة ، والله تعالى يقول : ﴿ قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم  
وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون ﴾ قل أرايتم  
إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون \* وما نرسل المرسلين إلا مبشرين  
ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون \* والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب  
بما كانوا يفسقون ﴿<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ : أى : بعد إهلاك أهلها كما فى قوله - جل شأنه - :  
﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي  
القوم المجرمين ﴾ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿<sup>(٤)</sup> .

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴾ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم  
لعلكم تسئلون ﴿ : أى : تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، كما وعدهم نبيهم .  
﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ : أى : يفرون هاربين .

﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ : هذا تهكم بهم نزرأ ، أى : قيل لهم نزرأ  
لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن  
الطيبة .

قال قتادة : استهزاء بهم .

﴿ لعلكم تسئلون ﴾ : أى : عما كنتم فيه من أداء شكر النعم .

(٣) الآيات ٤٦ - ٤٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .

(١) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعمهم ذلك .  
 ﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ : أى : ما زالت تلك المقالة ، وهى الاعتراف بالظلم هجيراً حتى حصدها لهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .  
 إن الله - تعالى - حرم الظلم على عباده ، كما أنه وهو الحكم العدل المقسط حرمه على نفسه .  
 عن أبى ذر - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ : فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : ( يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهديكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ) (١) .  
 رواه مسلم .

إنه لا حجة لمحتج عند الله ، فقد قطعت المعاذير ، وبرح الخفاء ، فالطريق لائح ، والحق واضح ، والمناد صائح .

قال ﷺ فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم عن أبى عبد الله النعمان بن بشير رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى إلا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب ) (٢) .

فاحذر الظلم يا أخى ، فإن الله - تعالى - قد أقام للعباد حقوقاً ، من تجاوزها فقد ظلم نفسه .  
 فعن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم ) (٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٩ ، وفى البيوع : ٢ ، ومسلم فى المساقاة : ١٠٧ ، وأبو داود فى البيوع : ٣ ، والترمذى فى البيوع : ١ ، والنسائى فى البيوع : ٢ ، وفى الأشربة : ٥٠ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٤ ، والدارمى فى البيوع : ١ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمى فى السير : ٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

**والظلم :** الجور ووضع الشيء في غير موضعه الشرعى ، وهو مستحيل في حق الله-تعالى-، وكيف يجاوز سبحانه حداً وليس فوقه من يطيعه أو يرسم له عملاً ، إن تجاوز ظلم ، وكيف يتصرف في غير ملك ، والعالم كله ملكه وسلطانه . قاله النووى :

**فلا تظالموا : أى : لا يظلم بعضكم بعضاً .**

ومعنى اجتنبوا الظلم : قال ابن الجوزى : الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها ، لأنه لا يقع غالباً إلا بالضعيف الذى لا يقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لا يغنى عن ظلمه شيئاً .

وعن ابن عمر-رضى الله عنهما-قال : قال رسول الله ﷺ : ( الظلم ظلمات يوم القيامة ) . رواه البخارى ومسلم .

وروى عن الهرماس بن زياد-رضى الله عنه-قال : رأيت رسول الله ﷺ يخطب على ناقته ، فقال : ( إياكم والخيانة فإنها بثت البطانة ، وإياكم والظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة . وإياكم والشح ، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم ، وقطعوا أرحامهم ) . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

واعلم بأن الظلم يمنع الخير على الظالمين . فقد روى عن ابن مسعود-رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ( لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تُسقوا ، وتستنصروا فلا تُنصروا ) . رواه الطبرانى .

كذلك يمنع الظلم الشفاعة يوم القيامة ، فروى عن أبى أمامة-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : ( صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلم غشوم ، وكل غالٍ مارق ) . رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات .

وتأمل معنى سمات المسلم ، وموجبات الأخوة ، فروى عن ابن عمر-رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ويقول : والذى نفسى بيده ما تواذ اثنان فيُفَرَّقُ بينهما إلا بذنب يُحدّثه أحدهما )<sup>(١)</sup> رواه أحمد بإسناد حسن .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

فعن أبى موسى-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله يُملى للظالم فإذا أخذه لم يفله )<sup>(٣)</sup> ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم شديد ﴾<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(٢) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٩٥ : ٣ ، وابن ماجه فى الإقامة : ٦١ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٣ ، ومسلم فى البر : ٥ ، والترمذى فى تفسير سورة ١١ : ٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

ومن أخطار الظلم أنه يضيع الحسنات يوم القيامة ، فروى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام في أرض العرب ، لكنه سيرضى معكم بدون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقول يارب ظلمني عبدك مظلمة فيقول : امحوا من حسناته ، وما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ففترق القوم ليحطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا ، فأعظموا النار ، وطبخوا ما أرادوا وكذلك الذنوب )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن .

فبادر يا أخى برد المظالم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه )<sup>(٤)</sup> رواه البخارى .

وعن أبي هريرة أيضاً رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( أتدرون ما المفلس ؟ ) قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : ( إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار )<sup>(٥)</sup> . رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن عثمان عن سلمان الفارسي ، وسعد بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن مسعود حتى عد ستة أو سبعة من أصحاب النبي ﷺ قالوا : ( إن الرجل لترفع له يوم القيامة صحيفته حتى يرى أنه ناج ، فما تزال مظالم بنى آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة ويحمل عليه من سيئاتهم ) . رواه البيهقي بإسناد جيد .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن . فقال : ( اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب )<sup>(٦)</sup> رواه البخارى ومسلم .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣٦٨ : ٢ ، وفى ١٢٦ : ٤ ، والترمذى فى الفتن : ٢ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٦ .

(٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١١١ من سورة النحل .

(٤) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الهبة : ٢١ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٥٠٦ : ٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٣٠٣ : ٢ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .

(٦) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٠ ، وفى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ، وأبو داود فى الزكاة : ٥ ،

والترمذى فى الزكاة : ٦ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى

دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ٢٣٣ : ١ ، وفى ١٥٣ : ٣ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ( السحاب ) ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والترمذى وحسنه .

وروى عن علي رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله : ( اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري ) . رواه الطبراني في الصغير والأوسط .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : ( كانت أمثلاً كلها ، أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور إن لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض . ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ، فإني لا أردّها ، وإن كانت من كافر ) الحديث رواه الحاكم مطولاً .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ) فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : ( تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى .

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( من حمى مؤمناً من منافق - أراه قال - بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم )<sup>(٣)</sup> الحديث . رواه أبو داود .

### الأدلة من كتاب الله على تحريم الظلم

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار \* مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾<sup>(٤)</sup> .

أي : أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى .

( مهطعين ) مسرعين إلى الداعي ، رافعي رءوسهم لا يطفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك الأجفان .

( هواء ) غلاء وهو الذي لم تشغله الأجرام أي : لا قوة في قلوبهم ولا جراءة .

وعن ابن جريج هواء : أي : صفر من الخير خالية عنه .

وقال مجاهد : مهطعين : أي : مديمي النظر ، ويقال مسرعين لا يرتد إليهم طرفهم .

وأفئدتهم هواء : يعني جوفاً لا عقول لهم ، جوفاً جمع أجوف . وقيل : نزع أفئدتهم من أجوافهم .

وقال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب

(١) أخرجه الترمذى في الجنة : ٢ ، وفي الدعوات : ١٢٨ . وابن ماجه في الصيام : ٤٨ . والإمام أحمد في ٤ : ١٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى في المظالم : ٤ ، وفي الإكراه : ٧ . ومسلم في البر : ٦٢ . والترمذى في الفتن : ٦٨ . والدارمى في الرقاق : ٤٠ . والإمام أحمد في ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٤٤١ . وأبو داود في الأدب : ٣٦ .

(٤) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة إبراهيم .

نحب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال \* وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال \* وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال \* فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴿١﴾ .

قال العيني : الخطاب لرسول الله ﷺ أمره بإنذار الناس وتخويفهم .  
(أجل قريب) أى ردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك ، واتباع رسلك .

وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) .  
(الأشهاد) : الرسل أو الملائكة أو أمة محمد ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً ﴾ إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴿٣﴾ .  
أى لا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم والتظلم منه .

روى أن رجلاً أضاف قوماً فلم يطعموه ، فاشتكاهم فعوتب عليه ، فنزلت .  
(سميعاً) : لكلام المظلوم ، (عليماً) بالظالم ، (خيراً) طاعة وبراً .  
سبحانه يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك .  
هو حث للمظلوم على العفو بعد ما رخص له في الانتصار ، حملاً على مكارم الأخلاق ، قاله البيضاوى .

وقال العيني قال عبد الكريم بن مالك الجزرى في هذه الآية : هو الرجل يشتكم فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ (٤) .  
روى أبو داود من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( المستبان ما قالا فعلى البادىء منها ما لم يقدر المظلوم ) (٥) . أورده البخارى .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ (٦) .  
قال العيني : البغي : الظلم : أى الذين إذا أصابهم بغي المشركين في الدين انتصر عليهم بالسيف أو إذا بغي عليهم باغ كرهوا أن يستذلوا لئلا يجترأ عليهم الفساق فإذا قدروا عفووا .

(٣) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء .

(٤) الآية ٤١ من سورة الشورى .

(١) الآيات من ٤٤ - ٤٧ من سورة إبراهيم .

(٢) الآية ١٨ من سورة هود .

(٥) أخرجه مسلم في البر : ٩ أبو داود في الأدب : ٣٩ . والترمذى في البر : ٥١ والإمام أحمد في ٢ : ٢٣ ، ٤٨٨ ، ٥١٧ . وفى ٤ : ٢٦٦ ، ١٦٢ .

(٦) الآية ٩ من سورة الشورى .



وقال تعالى : ﴿ وجزاؤ سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ \* ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل \* إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ \* ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴿ (١)

وقال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ \* وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ \* وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ \* استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴿ (٢).

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ \* لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ \* بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ \* وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ \* يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ : أى : وما خلقنا هذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة ، للهو واللعب ، بل خلقناها لفوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها ، ووسيلة للعظة والاعتبار إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك أن إيجاد العالم كله ، ولا سيما النوع الإنساني ، واستخلافه في الأرض ، مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جلييلة لا تخفى على ذوى الألباب ، وقد علم بعضها من أمعنوا النظر في الكون وعجائبه ، وأوتوا حظاً من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسرارها ، وانتفعوا ببعض ما أودع في باطن الأرض ، وما على ظاهر سطحها ، مما كان سبباً في رقى الإنسان .

ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيباً ، ويظهر لنا من كنوزها غريباً ، قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٣).

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ (٤).

ثم أكد نفى اللعب بقوله : ﴿ لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ . أى : لو أردنا أن نتخذ لها كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا ، من العوالم المجردة من المادة . كالملائكة ، لكننا لا ننزل للملابسة ما هو من شأنكم المادى كالزوج والولد ، إذ لا يجمل بنا لأنه خارج عن سنن حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لا نلهو بالصور الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٤) الآية ٢٧ من سورة ص .

(١) الآيات من ٤٠-٤٢ من سورة الشورى .

(٢) الآيات من ٤٤-٤٧ من سورة الشورى .

وخلاصة هذا إنا خلقناكم لحكمة وصورناكم لغاية ، وجعلنا لكم السمع والإبصار لمنافع قدرناها لكم ، لاللهونا ولعبنا ، ومن ثم لا نترككم سدى ، بل نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجِدِ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ : .

أى إن من شأننا أن نرمى الحق الذى من جلته الجد ، على الباطل الذى منه اللعب ، فيكسر دماغه ، بحيث يشقق غشاؤه ، فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه فيهلك ، وقد شبه الباطل بإنسان كُسر دماغه فهلك ، وإذا كان هذا شأننا فكيف نترككم بلا إنظار ، كأنا خلقناكم لنلهو بكم .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ : أى ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولداً وزوجة ، وافترائكم ذلكم عليه .

ولما حكى كلام الطاعين فى النبوات ، وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد ، بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال سبحانه : ﴿ وله من فى السموات والأرض ﴾ :

أى وله تعالى جميع المخلوقات خلقاً وملكا وتديراً وتصريفاً وإحياء وإماتة وتعذيباً وإثابة ، دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان ، لا استقلالاً ولا استتباعاً .

قوله تعالى : ﴿ ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ :

أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ، ولا يكلون ولا يتعبون ، وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة فى قوله سبحانه : ﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ (٢) .

ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم ، فقال سبحانه : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ : فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٣) .

وخلاصة ذلك المبالغة فى تنزيه الله وتسيحه ، وهذا لا يمنع من تحلل فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : خلاف لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك .

قوله تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يشركون ﴾ : أى أن فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسيحان

(١) الآية ٤ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٤ من سورة القدر .

(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .

الله رب العرش عما يصفون \* لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون \* أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون \* وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ : ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة ، فقال ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ أي : أهم يحيون الموت وينشرونهم من الأرض ، أي : لا يقدر على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً ، ووصف الآلهة بكونها من الأرض . للإشارة إلى أنها من الأصنام التي تعبد فيها ، وللإيحاء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام الدليل الفعلي على التوحيد ، ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال سبحانه : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ :

أي : لو كان في السموات والأرض إله غير الله لخربتا ، وهلك من فيهما ، ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا في التصرف في الكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثاني لا يريده ، فيثبت الوجود والعدم لشيء مختلفا فيه ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثاني ، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا ، والإله لا يكون كذلك ، والثاني باطل أيضاً ، لأنها إذا أوجداه معاً وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد .

ولما أثبت سبحانه بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحداً ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال جل في علاه : ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ .

أي : فتتزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ، ومركز تدبير العالم ، عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولداً أو شريكاً .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : ﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾ :

أي : هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد ، لعظمته وجلاله وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه عما يعملون ، كما قال ﴿ فوريك لنسألهم أجمعين ﴾ عما كانوا يعملون <sup>(١)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعاً لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم فقال سبحانه : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾ :

أي : أبعد هذه الأدلة التي ظهرت تقولون إن لله شركاء ؟

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدعون فقال سبحانه : ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ :

أي : بعد أن ثبت أنه لا إله غيره ، فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلي ، لأنه مر بطلانه ، ولا بالدليل النقل ، لأن الكتب السماوية جميعاً متفقة على هذا .

(١) الآيات ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة المؤمنون .

ولمّا ذكر من معى وذكر من قبل ﴿ : هذا ذلك أشار بقوله :

أى: هذا هو الكتاب المنزل على من معى، وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالنبيّة والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراف ؟

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبا أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبل إلا توحيد الله ؟

ولمّا كانوا لا يجدون لهم شبهة فضلا عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق ، فقال سبحانه : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون الحق ﴾ أى: لا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تؤثر منهم الحجة والبرهان ، ولا يقتنعون به .

ثم ذكر أن هذا كان سبباً فى إعراضهم وتجاهلهم عن سماع الحق ، فقال : ﴿ فهم معرضون ﴾ : أى: منهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون برهاناً ، ولا يتفكرون فى دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ :

أى: وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أن لا معبود فى السموات والأرض بحق إلا أنا ، فأخلصوا لى العبادة ، وأفردوا لى الألوهية .

وخلاصة ذلك : إن الرسل جميعاً أرسلوا بالإخلاص والتوحيد ، لا يقبل منهم سواه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ (١) . وقوله تعالى :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون \* لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون \* ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ :

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزّه عن الشريك والند ، أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد ، ويقول ذلك راداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ :

أى: وقال فريق من هؤلاء المشركين ، وهم بطون من خزاعة وجُهيّة وبنى سلمة : الملائكة بنات الله ، فرد عليهم بقوله : ﴿ سبحانه ﴾ أى: تنزيهاً له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان له ولد لا شبهة ولا مجانسة بين النعمة والمنعم ، والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ أى: ليس الملائكة كما قالوا بل هم عباد

مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية .  
ثم بين سبحانه كمال طاعتهم ، وانقيادهم لأمره ، وتأديبهم معه تعالى ، فقال : ﴿ لا يسبقونه  
بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ :

أى : لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .  
ثم علل هذه الطاعة ، بعلمهم بأن ربهم محيط بهم ، لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فقال :  
﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ :

أى : يعلم ما عملوا ، وما هم عاملون ، لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونه  
في جميع شئونهم .

﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ : أى : وهم لا يشفعون إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا في  
شفاعتهم لكم بغير رضا تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت في الصحيح أن الملائكة يشفعون في  
الدار الآخرة .

قال قتادة أى لأهل التوحيد .

﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ : أى وهم من خوف الله ، والإشفاق من عقابه ، حذرون أن  
يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه .

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ﴾ :

أى : ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ، ولا يغنى عنه  
ما سبق من أوصافه ومرضى أفعاله .

﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ : أى : وهكذا نجزي كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ذلك : أنه سبحانه وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنافي الولادة :

١ - المبالغة في الطاعة ، فإنهم لا يقولون قولاً ، ولا يفعلون فعلاً ، إلا بإذنه .

٢ - أنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لا يعلمون أسرارهم ، فهو المستحق للعبادة لا هم كما قال عيسى  
عليه السلام ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ﴾ (١) .

٣ - إنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلهاً أو ولداً للإله لا يكون كذلك .

٤ - إنهم في نهاية الإشفاق والوجل من الله .

٥ - إن حالهم كحال سائر المكلفين في الوعد والوعيد فكيف يكونون آلهة .

قوله تعالى :

﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي

أفلا يؤمنون \* وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون \* وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون \* وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴿١﴾ .

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لو تدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون ، لم يجدوا مجالا للإنكار ، ولا سبيلا إلى الجحد .

١ - ﴿١﴾ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴿١﴾ : أى: ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين : أى ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا ، إذ يشبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفى أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : ان النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتلة منفصلة ، وبقيت هذه الكتلة التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانطفأ نورها لأن كتلتها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفقتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ، ومنها الأرض لا نراها بضوء يشع منها ، بل بضوء الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوها بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .  
والكواكب السيارة تسعة ، وهى بترتيب قربها من الشمس : عطارد ، والزهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زحل ، أورانوس ، نبتون ، بلوتو .

ويدخل ضمن هذه الأسرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة ، تقع بين مدارى المريخ والمشتري ، وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنبات أيضاً ، والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم ، والنجوم شمس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمستا ، فسبحان الخلاق العظيم اهـ .

وبعد أزمنة طويلة لا يعلم مداها ، بردت القشرة الأرضية ، وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ، ثم لسكنى الإنسان .

ولاشك أن هذه النظرية لم يكن يعرفها العرب ، ولا الأمم المعاصرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ، ومُحصت بعض التمهيع فى عصرنا الحاضر ، تدل أكبر دلالة على صدق النبى

محمد ﷺ ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك : أن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس ، على سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة ، فندها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، ولم يكن قومه ، ولا الأمم المعاصرون لهم يفكرون فيه ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير .

وقد كان هذا وحده كافياً في الإسراع إلى تصديقه ، والإيمان برسالته ، لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾<sup>(١)</sup> .

٢ - ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ : أى: وخلقنا من الماء كل حيوان ، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾<sup>(٢)</sup> وكذا يحيى به كل نبات وينمو .

وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء فيدخل الحيوان والنبات .

﴿ أفلا يؤمنون ﴾ بأن يتدبروا هذه الأدلة ، فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك .

٣ - ﴿ وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بهم ﴾ : أى: وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، لئلا تميد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثاً أن الأرض كانت ناراً ملتهبة ، ثم بردت قشرتها ، وصارت صوانية صلبة ، وقدروا زمن ذلك بنحو ثلثمائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ما نراه من حُمم النيران التى تخرجها البراكين فى جهات كثيرة من الأرض ، كما حدث سنة ١٩٠٩ لبركان فيزوف بإيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسنيا ، وابتلعها فى باطنه ، ولم يبق منها شيئاً .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض ، لتخرج من باطنها نيراناً ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أنها كلها فى أحقاب طويلة كانت كذلك . ولولا هذه القشرة الصلبة لتفجرت ينباع النيران من سائر الجهات .

وهذه القشرة الصوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وهى التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وقد جعلت لحفظ الأرض من أن تميد ، وما هى إلا كأسنان لها ، طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلوزالت هذه الجبال لبقى ما تحتها مفتوحاً ، وإذ ذاك ربما ثور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطراباً شديداً وتزلزل زلزلاً كثيراً .

وهذه هى المعجزة الثالثة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئاً من هذه الآيات الكونية ، التى أيد صحتها تقدم العلوم ، ففهم ظاهر الأرض

(٢) الآية ٤٥ من سورة النور .

(١) الآية من ٤٦ من سورة الحج .

وباطنها ، وفي هذا مصداق لما أثر عن على رضى الله عنه : ( القرآن جديد لا تبلى جدته ) .

٤ - ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ أى وجعلنا فى الأرض طرقاً بين جبالها ، يسلكها الناس من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى آخر ، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهام أمورهم المعيشية .

٥ - ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ : أى : أنه تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشمس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ، ولا يختلط بعضها فى بعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية ، فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها وإلا اختل نظام هذا العالم ، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جرى الأرض حول الشمس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ (١) .

﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أى : والمشركون معرضون عن التفكير فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا ، وعظيم قدرتنا ، وإحاطة علمنا .

٦ - ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ :

أى : والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معاشكم ، وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء .

وهذا هو رأى الحديث ، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأثير المالىء لهذا الفضاء ، فالشمس تجرى ، والأرض تجرى ، والقمر يجرى ، وبينها هذه المخلوقات الحية ، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة ، والمخلوقات كلماتها وسطورها ، أو كدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها ، فسبحان الله الواحد الأحد ، صاحب العز والملكوت .

قوله تعالى :

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ \* كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون \* وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ : أى : وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها ، بل قدّر لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك .

﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ : أى : أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك ؟ لا ، ما ذلك كذلك ، بل هم ميتون - عشت أومت .

ثم أكد ما سلف ، وبين أن أحداً لا يبقى فى هذه الدنيا ، فقال سبحانه : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ .



أى: كل نفس منقوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ، ومتجرعة كأسه ، وشدة مفارقة الروح للبدن ، وقد جاء فى الحديث : « إن للموت لسكرات »<sup>(١)</sup> .

فلا يفرح أحد لموت أحد ، ولا يُظهرن التشفى منه ، كما لا ينبغي أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد .

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ : أى: ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، وبنعيم الدنيا من الصحة واللذة والسرور ، والتمكين من حصول ما تريدون ، لنرى أتصبرون فى المحن ، وتشكرون فى المنح ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ، ومن ثم قال عمر رضى الله عنه : ( بُلينا بالضراء فصبرنا ، وبُلينا بالسراء فلم نصبر ) ، وقال على كرم الله وجهه : ( من وسَّع عليه ديناه فلم يعلم أنه قد مُكَّرَ به فهو مخدوع عن عقله ) .

﴿ وإلينا ترجعون ﴾ : فنجازيكم وفق ما يظهر من أعمالكم .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والوعيد بالثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ :

أى: وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا مليا فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحي الذى فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير ، وطباعهم ترقى ، وقلوبهم ترعوى عن غيها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ : أى: ويقولون استنكاراً وتعجباً : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، ويبيده نفعمهم وضرهم وإليه مرجعهم ؟

قال الزجاج : فلان يذكر الناس أى: يغتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله أى: يصفه بالتعظيم ويشئى عليه .

وخلاصة ذلك : كيف يعجبون من نبذ آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، وإليه مرجعهم ، فيحاسبهم على النقيير والقطمير .  
قوله تعالى :

﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين \* لويلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤ . والترمذى فى الجنائز : ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١ .

(٢) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

ينصرون ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾ ولقد استهزئ برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ :

قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ : أى : إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ، ونزول نقمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبثوا قليلاً ، فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم ، ويحل بهم من العذاب ما لا قبل لهم بدفعه .

وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ : أى : إن نلقى ستصيبكم لا محالة ، فلا تتعجلوا عذابى ، واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد . وقد نهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركبت فى طبيعته ، من قبل أنه أوتى المقدرة التى يستطيع بها تركها ، وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم ما يستعجلون فقال سبحانه : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ : أى : ويقولون للنبي ﷺ ولمن معه من المؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة ، ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى هذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟ وهذا منهم استبطاء للموعود به ، يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون ، وعظيم حماقتهم لهذا الطلب ، فقال : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ﴾ :

أى : لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعد لهم ربهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحن ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه ، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم ، وينقذهم من ذلك العذاب ، لما أقاموا على كفرهم بربهم ، ولسارعوا إلى التوبة منه ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والويل .

ولما خص الوجوه والظهور ، لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب فى ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوماً لهم فقال : ﴿ بل تأتيهم بغتة فتبتهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾ :

أى : بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لا يستطيعون حيلة فى ردها ، ولا منصرفاً عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهلون لتوبة ، ولا لتقديم معذرة ، فقد فات ما فات ، وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون .

ولما لم يعلم الله عباده وقتها ، لما فى ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذراً ، وأقرب إلى التلافى وانتهاز الفرصة .

ثم سلى رسوله على استهزائهم به فقال :

﴿ ولقد استهزى برسلك من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ :

أى: ولقد استهزى برسلك من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، فنزل بالذين استهزؤا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله ، ولن يعدوا أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلكها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم ، مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية : ﴿ ولقد كُذِّبَ رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ (١) .

قوله تعالى :

﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾ قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ : أى: سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن ينزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة : من يحفظكم بالليل إذا نمت ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أمور معاشكم ، من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟

وفى ذكر ﴿ الرحمن ﴾ إيماء وتنبية إلى أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غلبت رحمته قسوته ، جزاء وفاقا بما دسوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالىء الحافظ فقال : ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ :

أى: أن هؤلاء القوم قد ألهمتهم النعم عن المنعم ، فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه ، أو يعدوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة ، كلاءة وحفظا لهم حتى يسألوا عن الكالىء الحافظ .

وخلاصة ذلك : أنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالىء الحافظ ، معرضون عنها لا يتأملون فيها .

وفى ذكر ( الرب ) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتديره ، وجميل رعايته

وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال ، وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تضر ولا تنفع فقال سبحانه : ﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ :

أى: بل هؤلاء المستعجلى عذابنا آلهة تمنعهم منا إن نحن أنزلناه بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ فإن آلهتهم لا تمنعهم بأس الله إذا أراد .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال سبحانه : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾ :

أى: وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يصحبون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم ؟

ومجمل القول : إنهم فى غاية العجز فكيف يتوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال ، فقال : ﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾ :

أى: أن الذى غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال ، أنهم مُتَعُوا فى الحياة الدنيا ، ونعموا بها ، وطال عليهم العمر ، حتى اعتقدوا أنهم على شىء ، فهم طالت أعمارهم وهم فى الغفلة فنسوا عهدنا ، وجعلوا مواقع نعمتنا ، فاغتروا بذلك ولم يعرفوا مواضع الشكر .

ثم بين لهم سبحانه سوء مغبتهم فقال جل فى علاه : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ :

أى: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، ففتحناها للمؤمنين ، وزدناها فى ملكهم ، واقتطعناها من أيدي المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حول مكة ، وقتل رؤسائها ، وإزالة دولة الشرك وأهله منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر ، لو كانوا يعقلون ؟ ثم وبخهم وأنبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه .

فقال : ﴿ أفهم الغالبون ﴾ : أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم ؟

وبعد أن بين هول ما يستعجلون ، وحالهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل ، وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحي الصادق .

فقال تعالى : ﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ : أى: إني إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها ، بالوحي الصادق الناطق بحصوله ، وفضاعة أهواله ، وقد أمرنى ربى بذلك ، وهأنذا قد

قمت بما أمرنى به ، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال ، لا على .  
ثم أردف هذا أن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدى فتيلًا ، فما حالهم إلا حال الصم الذين لا يسمعون دعوة الداعى ، فقال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ :

أى: فما مثلهم إذا لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرتهم وتتابعه إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئًا ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب ، بل العمل بما يُسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ، ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شيء من هذا فلا جدوى فى السمع ، وكأن لم يكن .

ثم بين سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه ، إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجيء خبره ، فقال تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ :

أى: ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، ليقولن إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد ، وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

ثم بين سبحانه وتعالى الأحداث التى ستقع حين يأتى ما أنذروا به ، فقال جل فى علاه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ :

أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، وهو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه ، أى ذهب حسناته بسيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه ، أى ذهب سيئاته بحسناته .

﴿ فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ : أى: فلا تظلم أى نفس شيئاً من الظلم ، فلا يُنقص ثوابها الذى تستحقه ، ولا يزداد عذابها الذى كان لها على قدر ما دسّت به نفسها من سىء الأعمال .

﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ : أى وإن كان العمل الذى فعلته النفس صغيراً مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاءً وفاقاً ، سيئا كان أو حسناً .

﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ : أى: وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم ، محصين لها ، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سىء منا .

ولا يخفى ما فى الآية من التحذير ، وشديد الوعيد للكافرين ، على ما فرطوا فى جنب الله ، فإن المحاسب إذا كان عليماً بكل شيء ، ولا يعجز عن شيء ، كان جديراً بالعقل أن يكون فى حذر وخوف منه .

## قصص الأنبياء

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ  
 بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾  
 \* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَلِيمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ  
 التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا نَالَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ  
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ  
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ  
 أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ  
 يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى  
 يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَاتَّبِعُوهُ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يُشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا  
 ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسَعَوْهُمْ إِنْ  
 كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ  
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ  
 شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا  
 حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ  
 ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا  
 فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾  
 وَجَعَلْنَاهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ

الزَّكُورَةَ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي  
كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٧﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنْ  
الصَّالِحِينَ ﴿٧٨﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾  
وَنَصْرَنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ وَدَاوُدَ  
وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمُّ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٨١﴾  
فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ  
وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٨٢﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٣﴾  
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨٤﴾  
وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٥﴾ \* وَأَيُّوبَ  
إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الصُّرُوءَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَّشْنَا مَا بِهِ مِنْ  
ضُرِّهِ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ ﴿٨٧﴾ وَإِسْمَاعِيلَ  
وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٨﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٩﴾  
وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ  
إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٠﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ  
نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَذَكَرَ يَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٩٢﴾  
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ  
وَيَدْعُونَ نَارَ غَيَا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٣﴾ وَالَّتِي أَحْصَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا  
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٥﴾

**المفردات :** ﴿الفرقان﴾ : هي التوراة وهي الضياء والموعظة ، وكانت فرقانا لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة .

﴿ يخشون ربهم ﴾ : أى : يخشون عذابه .

﴿ مشفقون ﴾ : أى : خائفون .

﴿ مبارك ﴾ : أى : كثير الخير ، غزير النفع .

﴿ الرشد ﴾ : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية .

﴿ التماثيل ﴾ : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير أو شجر

أو إنسان ، والمراد بها هنا الأصنام ، سماها بذلك تحقيراً لشأنها .

﴿ والمكوف على الشيء ﴾ : ملازمته والإقبال عليه .

﴿ بالحق ﴾ : أى : بالشيء الثابت فى الواقع .

﴿ اللاعبين ﴾ : أى : الهازلين .

﴿ فطرهن ﴾ : أى : أنشأهن .

﴿ من الشاهدين ﴾ : أى : المتحققين صحته المثبتة بالبرهان .

﴿ والكيد ﴾ : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها .

﴿ جذاذاً ﴾ : أى : قطعاً من الخبز وهو القطع .

﴿ يذكرهم ﴾ : أى : يعيهم ويسبهم .

﴿ على أعين الناس ﴾ : أى : على رؤوس الأشهاد فى الملأ .

﴿ يشهدون ﴾ : أى : يفعلوه أو قوله .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ : أى : ففكروا وتدبروا .

﴿ الظالمون ﴾ : أى : الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم ، وعدم حفظكم إياها .

ويقال نكسته : أى : قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من

تلك الحال إلى المكابرة والجدل بالباطل .

﴿ أف ﴾ : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر .

﴿ والكيد ﴾ : المكر والخديعة .

﴿ لوط ﴾ : هو ابن أخى إبراهيم ، قاله ابن عباس .

﴿ والأرض ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ نافلة ﴾ : أى : عطية ومنحة .

﴿ حكماً ﴾ : أى : نبوة .

﴿ القرية ﴾ : هى سدوم التى بعث إليها لوطا .

﴿ الخبائث ﴾ : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .



﴿ الكرب ﴾ : الغم الشديد والمراد به هنا العذاب النازل بقومه ، وهو الغرق بعد أن لقي منهم الأذى .

﴿ قوم سوء ﴾ : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

﴿ الحرث ﴾ : هنا الزرع .

﴿ والنفس ﴾ : رعى الماشية فى الليل بلا راع .

﴿ وشاهدين ﴾ : أى حاضرين .

﴿ والبأس ﴾ : الدروع .

﴿ والبأس ﴾ : الحرب .

﴿ والريح العاصف ﴾ : الشديدة الهبوب .

﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ الفوص ﴾ : النزول إلى قاع البحار لإخراج شئ منها

﴿ ودون ذلك ﴾ : أى غير ذلك كبناء المدن والقصور ، واختراع الصناعات الغريبة .

﴿ أيوب ﴾ : هو أيوب بن أموص ، اصطفاه الله ، ويسط له الدنيا ، وكثر أهله وماله ، ثم ابتلاه

بموت أولاده بسقوط البيت ، وبذهاب أمواله ، وبالمرض فى بدنه ثمانى عشرة ، وسنه إذ ذاك سبعون

سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان ، وأزال عنه ما به من مرض .

﴿ والضُرر ﴾ : شائع فى كل ضرر والضُر ( بالضم ) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال

ونحوهما .

﴿ والذكرى ﴾ : التذكرة .

﴿ النون ﴾ : الحوت وجمعه نينان .

﴿ وذا النون ﴾ : أى صاحب الحوت ، وهو يونس بن متى .

﴿ مغاضباً ﴾ : أى غضبان من قومه لتماديهم فى العناد والطغيان .

﴿ نقدر عليه ﴾ : أى نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه .

﴿ والظلمات ﴾ : هى ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

﴿ الإحصان ﴾ : المنع مطلقاً .

﴿ والفرج ﴾ : فى الأصل : الشق بين الشيتين كالفرجة : ثم أطلق على السوء وكثر ، حتى

صار كالصريح فى ذلك .

﴿ والروح ﴾ : هو المعنى المعروف .

﴿ ونفخ الروح ﴾ : هو الإحياء .

﴿ آية ﴾ : أى برهاناً ودليلاً على قدرة الله .

﴿ الأمة ﴾ : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحي ، أردفه ببيان أن هذه سنة الله في أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحي ، وبلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر ، وسعادة لهم في دنياهم وآخرتهم .

ثم قص الله تعالى بعد ذلك ما كان من الناس مع أنبيائهم ، فذكر طرفاً من شأن موسى وهارون ، ثم أردف ذلك بقصة الخليل إبراهيم مع قومه ، وكيف دبروا وتآمروا ، وأرادوا أن يحرقوه ، فنجاه الله ، وقال : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم .

كما ذكر شأن قوم لوط مع نبيهم ، وكيف أن الله تعالى قد نجاه منهم .  
كما ذكر طرفاً من قصة نوح ، وموقفاً من داود وسليمان في إحدى القضايا ، وكيف أنعم عليهما بالحكم والعلم ، وكيف سخر الريح لسليمان تجري بأمره إلى الأرض المباركة .

ثم ذكر بعد ذلك طرفاً من قصة أيوب ، وكيف استجاب الله له فكشف ما به من ضرر .  
ثم أثنى على إسماعيل وإدريس وذا الكفل ، ثم ذكر طرفاً من قصة يونس وزكريا ومريم .  
ثم ختم هذا المشهد بتلك النتيجة الحاسمة التي لا خلاف فيها ، وهي أن دين الأنبياء واحد ، فكلهم موحدون بالله ، عملوا في معسكر التوحيد ، وتحت راية لا إله إلا الله ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربيكم فاعبدون .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ :  
كثيراً ما يترن القرآن الكريم بين النبيين الكريمين : محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وكتابهما : القرآن والتوراة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ .

قال المفسرون في معنى الفرقان : الكتاب ، وهذا رأى مجاهد .

وقال أبو صالح : والتوراة .

وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله به بين الحق والباطل .

وقال ابن زيد : يعنى النصر ، وذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ (١) .

والمقصود به يوم بدر .

(١) الآية ٤١ من سورة الأنفال .

قال العلامة ابن كثير : ( وجامع القول في ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وما يحصل نوراً في القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية ) .

ولهذا قال : ( الفرقان ) ، ( وضياء ) ، ( وذكرنا للمتقين ) أى تذكيراً لهم وعظة .

ثم وصفهم ، فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ ، كقوله جل شأنه : ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ (٣) ، وإنما هم مشفقون منها لما لها من أهوال عظام ، وأخطار جسام : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٤) .

فاعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ؟ ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ؟ ولمن يؤمن بالحساب غدا ، ثم هو لا يعمل ؟ ولمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب ؟ ولمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف اطمأن قلبه إليها ؟ .

واعجب معى لغافل ، وليس بمغفول عنه ، ولضاحك ملء فيه لا يدري آله راض عنه أم ساخط عليه ؟ وللوقوف بين يدي الله لا يدري أينطلق بصاحبه إلى الجنة أم إلى النار ؟ ول مؤمل فى الدنيا والموت يطلبه .

واحزن معى لفراق الأحبة ، محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها  
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ :

إشارة تعظيم إلى الكتاب العزيز .

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ (٦) .

إنه الشرف والعز والقوة والأمن والأمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٧) .

(٥) الآية ٩ من سورة الحج .

(٦) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء .

(١) الآية ٣٣ من سورة ق .

(٢) الآية ١٢ من سورة الملك .

(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى .

(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (١) .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذي له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٢) .

إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .  
﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ (٣) .

ما كان يليق بالعقلاء أن ينكروا ما جاء به خاتم الأنبياء ، ما كان لهم لو كانوا يملكون مسكة من عقل أن يقولوا : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ قد أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين ﴾ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ قالوا أجبتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ :

وتمضى بنا الآيات البينات فى زحفها المقدس ، فبعد أن أضاءت لنا الطريق لذكر موسى وهارون ، قفت بالحديث عن إبراهيم الخليل ، الذى مدحه الله تعالى بما منحه ، فأعطاه الرشد ، وألهمه الحكمة منذ الصغر ، والحق جل جلاله يؤتى الحكمة من يشاء ، ويمنحها أهلها ، لأنه حكيم ، منزّه عن العبث ، لذا قال سبحانه : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ .

وعلم الله مقترن بالحكمة : ﴿ وما خلقتنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ (٥) .

ثم يذكر الله تعالى صورة من صور الرشد الذى آتاه إبراهيم ، فيقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾ .

إنه بذلك ينكر على قومه عبادتهم للأصنام ، فالاستفهام هنا استفهام توبيخ وتقريع وإنكار ، واسم الإشارة هنا دال على التحقير : ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٦) .

قال جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴾ قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين ﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴾ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ قالوا بل وجدنا آبائنا

(٤) الآيات ٤ - ٦ من سورة الفرقان .

(٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيات ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٢١ من سورة الحشر .

كذلك يفعلون \* قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون \* أنتم وآباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدو لى إلا رب العالمين \* الذى خلقنى فهو يهدين \* والذى هو يطمعنى ويسقين \* وإذا مرضت فهو يشفين \* والذى يميتنى ثم يحيين \* والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴿١﴾ .

ويأتى رد هؤلاء المقلدين فى الضلال : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ .

كان الله لم يخلق لهم عقولا ، ولم يرسل إليهم رسولا ، ولم يبين لهم طريق الرشد من الغى .

إنهم قالوا : ﴿ وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مهتدون ﴾ ﴿٢﴾ .

وقالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون ﴾ قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴿٣﴾ .

فأعجب معى كيف أغلقوا كل طريق إلى المعرفة ، وسدوا كل نافذة إلى النور .

إنهم كما قال سبحانه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ ﴿٤﴾ .

لقد جاء رد إبراهيم حاسما ، وحكمه عليهم قاطعا : ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ .

وأى ضلال هذا ؟ وأى غواية تلك يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئا ؟ .

﴿ قالوا أجبتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ :

وهكذا يرمى أهل الضلال أصحاب الهدى باللعب والاستهزاء واللهو ، وإذا بالحق يسطع ، والهدى يصيح ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والحق أبلج ، والباطل لجلج .

﴿ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ :

نعم ، إن لهذا الكون خالقا قادرا ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأرض واتساعها ، والشمس وشعاعها ، والنجوم ومسارها ، والرياح وسريانها ، والجبال ورسوخها ، والبحار وأمواجها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ،

(١) الآيات ٦٩ - ٨٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .

(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الزخرف .

(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره .  
 سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا  
 سل الروض مزدانا سل الزهر والندى وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا  
 فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا  
 سبحانه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره . ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض  
 بأمره ﴾ (١) .

وينتقل الموقف من إقامة البراهين إلى العمل والتنفيذ .

قوله تعالى : ﴿ وتالله لأكيذن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم  
 لعلمهم إليه يرجعون ﴾ قالوا من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين ﴾ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له  
 إبراهيم ﴾ قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون ﴾ قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم ﴾  
 قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ :

ثم أقسم الخليل قسماً أسمع به بعض قومه ليكيذن أصنامهم ، أى ليحرض على أذاهم  
 وتكسيرهم ، بعد أن يولوا مدبرين ، أى إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه .

قال السدى : لما اقترب وقت ذلك العيد ، قال أبوه : يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك  
 ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض ، وقال : ﴿ إني سقيم ﴾ فجعلوا  
 يمرون عليه وهو صريع ، فيقولون : مه . فيقول : إني سقيم ، فلما جاز عامتهم ، وبقي ضعفاؤهم ،  
 قال : ﴿ تالله لأكيذن أصنامكم ﴾ فسمعه أولئك .

وقال ابن إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : ( لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، مروا  
 عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إني سقيم ، وقد كان بالأمس قال : ﴿ تالله لأكيذن  
 أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ فسمعه ناس منهم .

وقوله : ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ : أى عظاما ، كسرهما كلها إلا كبيراً لهم ، يعنى إلا الصنم الكبير  
 عندهم ، كما قال : ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ لعلمهم إليه يرجعون ﴾ :

ذكروا أنه وضع القدم فى يد كبيرهم ، لعلمهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه ، وأنف أن تعبد  
 معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

﴿ قالوا من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين ﴾ :

أى حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها ،  
 وعلى سخافة عقول عابديها : ﴿ قالوا من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين ﴾ .  
 أى فى صنيعه هذا .

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٢) الآية ٩٣ من سورة الصافات .

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ : أى قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم : سمعنا فتى ، أى : شاباً يذكرهم ، يقال له إبراهيم .  
وقوله : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ : أى على رؤوس الأشهاد ، على الملأ الأكبر ، بحضرة الناس كلهم .

وكان هذا الذى أرادوه هو المقصود الأعلى لخليل الرحمن ، حتى يشهد الناس ضلالهم وبهتانهم ، ويعلموا أن الحق هو ما دعا إليه الخليل ، كما قال موسى لفرعون : ﴿ موعدهم يوم الزينة وأن يخشع الناس لحي ﴾ (١) .

ذلك ليكون للحق موقفه المشهود ، على مرأى ومسمع .

وبدأت المحاكمة : ﴿ قالوا أنت فعلت هذا بالهتتا يا إبراهيم ﴾ \* قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

وقد أراد إبراهيم بهذه الإجابة أن يبادرهم بالعلم ، بأن هؤلاء لا ينطقون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا ينفعون ولا يضررون .

﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ :

جاء فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : اثنتين فى ذات الله ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله : ﴿ إني سقيم ﴾ - قال : وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل ، فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختى . قال : فاذهب فأرسل بها إلى ، فانطلق إلى سارة . فقال : إن هذا الجبار قد سألنى عنك ، فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبنى عنده ، فإنك أختى فى كتاب الله ، وأنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلى ، فلما أن دخلت عليه فرأها أهوى إليها ، فتناولها ، فأخذ أخذاً شديداً . فقال : إدعى الله لى ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين . فقال : إدعى الله فلا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابيه فقال : إنك لم تأتنى بإنسان ، ولكنك أتيتنى بشيطان ، أخرجها ، وأعطها هاجر ، فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم . قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخذمنى هاجر (٢) .

قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بنى ماء السماء .

قوله تعالى : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ \* ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ \* قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ \* أف لكم

(١) الآية ٥٩ من سورة طه . (٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٠٤ .

ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴿١﴾ .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ : أى: فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، إذ علموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضرر بمن ألحق به الأذى ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أو جلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبوداً ؟

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله : ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ : أى: فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لا ينطق ، وما هذا منكم إلا غرورا وجهل بما ينبغي أن تكون عليه حال المعبود .

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ، ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم ، إلى فكرة خاطئة ، وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعتراضهم ، بأن حالهم دون حال الحيوان ، فلا ينبغي لعاقل أن يعبدها .

فقال : ﴿ ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

أى: لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة ، مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ، وإنما قال ( ينطقون ) ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب ، وأن عدم نطقهم أبلغ فى تبكيثهم .

﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ :

أى: قال إبراهيم مبكثا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لا تنفعكم شيئا ، فتعلقوا رجاءكم بها ، ولا تضركم شيئا فتخافوها .

﴿ أف لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ : أى: يتبأ لكم وقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون

الله .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ : أى: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل

فاجر ، وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره ، وحنكتهم تجارب الأيام ، فمن حَقَّكم أن تعاودوا الرأى ، وتقلبوه ظهرا لبطن ، لعلكم ترشدون بعد الضلال ، وتهتدون بعد الغى ، والعمى .

قوله تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ \* قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على

إبراهيم \* وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴿ :

أصدرت محكمة الأرض حكمها على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها

لإبراهيم بالإفراج فوراً .

وهكذا قال الله للنار ﴿ كوني برداً وسلاماً ﴾ فلو قال لها : كوني برداً على إبراهيم ، لتجمد من

شدة البرودة ، ولو قال : كوني سلاماً على إبراهيم ، لتأذى من شدة حرارتها ولكنه تعالى جعلها برداً

وسلاماً ، ليجمع له بين البرودة والسلامة من كل أذى ، فتتزع منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على



الإضاءة والإشراق ، فمن الذى بيده الأمر كله إلا الله .

تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وكن شديد الثقة فيمن بيده ملكوت السموات والأرض .

قال العلامة ابن كثير : لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً .

قال السدى : حتى إن كانت المرأة تمرض فتتذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه فى جوبة من الأرض ، وأضرموها ناراً ، فكان لها شرر عظيم ، ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها .

وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد . قال شعيب الجبائى : اسمه هيزن ، فحسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . فلما ألقوه قال : ( حسبي الله ونعم الوكيل ) كما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال : ( حسبي الله ونعم الوكيل ) قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وروى الحافظ أبو يعلى ، حدثنا أبو هشام ، حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى جعفر ، عن عاصم ، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك ) .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : ( لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ) .

وقال شعيب الجبائى : كان عمره إذ ذاك ست عشرة ، فالله أعلم .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

وقال سعيد بن جبير : ويروى عن ابن عباس أيضاً قال : لما ألقى إبراهيم فى النار جعل خازن المطر يقول : متى أؤمر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله : ﴿ يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال : لم يبق نار فى الأرض إلا طفت .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه .

وقال على بن أبى حاتم بسنده عن المنهال بن عمر ، قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ،

قال : فكان فيها إما خمسين ، وإما أربعين . قال : ما كنت أياماً وليالى فقط أطيب عيشاً إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

وقوله : ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ : أى: المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنى الله كيدا ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك .

وقال عطية العوفى : لما ألقى إبراهيم فى النار جاء ملكهم لينظر إليه ، فطار شراة فوقعت على إبهامه فأحرقتة ، مثل الصوفة .

قوله تعالى : ﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين \* وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين \* ولوطا آتينا حكماً وعلماً ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين \* وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ .

﴿ ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ :  
قال قتادة : كان بأرض فى العراق ، فأنجاه الله إلى الشام .

وقوله : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾ :  
قال عطاء ومجاهد : عطية .

وقال ابن عباس : النافلة ولد الولد ، يعنى أن يعقوب ولد إسحاق كما قال سبحانه : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : سأل واحدا فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فأعطاه الله إسحاق ، وزاده يعقوب نافلة .

﴿ وكلاً جعلنا صالحين ﴾ : أى الجميع أهل خير وصلاح .  
﴿ وجعلناهم أئمة ﴾ : أى: يقتدى بهم .

﴿ يهدون بأمرنا ﴾ : أى: يدعون إلى الله يأذنه ، ولهذا قال : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ من باب عطف الخاص على العام .

﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ : أى: فاعلين لما يأمرهم الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ، وهو لوط ابن هارون بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه ، وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ .

فآناه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبيا ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها ، فخالقوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط \* إن إبراهيم لحليم أواه منيب \* يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ ولما جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب \* وجاءه قومه يهرعون

(١) الآية ٧١ من سورة هود .

إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هُنَّ أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد \* قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد \* قال لو أن لى بكم قوة أو أوى إلى ركن شديد \* قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب \* فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود \* مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴿١﴾ .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم \* ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين \* ولوطا إذا قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين \* أننكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديك المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين \* قال رب انصرنى على القوم المفسدين \* ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين \* قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين \* ولما أن جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين \* إنا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون \* ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم \* ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ :

هو كقوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر \* فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر \* ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر \* وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدير \* وحملناه على ذات ألواح ودُسُر \* تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر \* ولقد تركناها آية فهل من مدكر \* فكيف كان عذابى ونذر ﴾ ﴿٣﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين \* إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون \* إنى لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون \* قال وما علمى بما كانوا يعملون \* إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون \* وما أنا بطارد المؤمنين \* إن أنا إلا نذير مبين \* قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين \* قال رب إن قومى كذبون \* فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين \* فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون \* ثم أغرقنا بعد الباقين \* إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ﴿٤﴾ .

(١) الآيات ٧٤ - ٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .

(٣) الآيات ٢٦ - ٣٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآيات ١٠٥ - ١٢٢ من سورة الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ ففهمناها سليمان وكلّا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ وعلماؤه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ وسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين ﴾ ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴿ :

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ :

النفث : هو الرعى ليلاً ، أما الهمل فهو الرعى بالنهار .

والقضية ، قال ابن مسعود في قوله : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم ﴾ :

قال : كرم قد أثبت عنايقده فأفسدته ، قال : ففضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبي الله . قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقوله : ﴿ ففهمناها سليمان وكلّا آتينا حكما وعلما ﴾ :

قال ابن أبي حاتم بسنده : أن إياس بن معاوية لما استقصى ، أتاها الحسن ، فبكى ، فقال : مايكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ، بلغني أن القضية رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار ، ورجل مال به الهوى فهو في النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو في الجنة . فقال الحسن البصري : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفثت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ فأثنى الله علي سليمان ولم يذم داود ، ثم قال - يعني الحسن - : إن الله اتخذ على الأحكام ثلاثاً : لا يشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ (١) ، وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ (٣) .

قال ابن كثير : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم فقد ثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر ) (٤) .

(١) الآية ٢٦ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الاحكام : ٣ . والبخاري في الاعتصام : ٣ . والنسائي في القضاء : ٣ . والإمام أحمد في ٢ : ١٨٧ ، وفي

وفى السنن : ( القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار )<sup>(١)</sup> .

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكما إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه ؛ فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى )<sup>(٢)</sup> .

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ :

وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا ، ولهذا لما مر النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال : ( لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود ) . قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ : أى: وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك بيدع منا ، وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ : يعنى صنعة الدروع .

قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقا ، كما قال تعالى : ﴿ وألنا له الحديد ﴾ أن اعمل سابغات وقدر فى السرد<sup>(٥)</sup> أى: لا توسع الحلقة فتفلق المسمارة ، ولا تغلظ المسمار فتقذ الحلقة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعنى فى القتال .

﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ : أى: أنعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم .

(١) أخرجه أبو داود فى الأفضية : ٢ . وابن ماجه فى الأحكام : ٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٠ . ومسلم فى الأفضية : ٢٠ . والنسائى فى القضاة : ١٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٣١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٣٥ ، ٢٣٦ . والترمذى فى المناقب : ٥٥ . والنسائى فى

الافتتاح : ٨٣ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ . والدارمى فى الصلاة : ١٧١ ، وفى فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٩ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ١٠ ، ١١ من سورة سبأ .

وقوله : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ : أى: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ، ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ يعنى أرض الشام .

﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ : ذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيول والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، كما قال سبحانه : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ (٢) .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : ( كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلمهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ ، كل هذا وهو مطأطأء رأسه ، ما يلتفت يمينا ولا شمالا ، تعظيماً لله عز وجل وشكراً ، لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله عز وجل ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه ) .  
﴿ ومن الشياطين من يفوضون له ﴾ : أى: فى الماء يستخرجون الآلآء والجواهر ، وغير ذلك .  
﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ : أى: غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ : أى: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده ، فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، وقد قال ﷺ : ( أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ) (٤) .

وفى الحديث الآخر : ( يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ) (٥) .

(١) الآية ٣٦ من سورة ص .

(٢) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة ص .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . والبخارى فى المرضى : ٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق : ٦٧ . والإمام

أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٩٨٥ ، وفى ٦ : ٣٦٩ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق : ٦٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ،

وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك .

وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شيء له أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذي أحسنت إليّ ، أعطيتني المال والولد ، فلم يبق من قلبي شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله مني ، وفرغت قلبي ، فليس يحول بيني وبينك شيء ، لو يعلم عدوى إبليس بالذي صنعت حسدني . قال : فلقى إبليس من ذلك منكرا .

قال : وقال أيوب عليه السلام : يارب إنك أعطيتني المال والولد فلم يبق علي بابي أحد يشكوني لظلم ظلمته ، وأنت تعلم ذلك وإنه كان يوطأ لي الفراش فأتركها ، وأقول لنفسى : يا نفس إنك لم تخلقي لوطء الفراش ، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك .

وقد روى أنه مكث في البلاء مدة طويلة .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن الزهري ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ، ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب عليه السلام : ما أدرى ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي ، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق .

قال : وكان يخرج في حاجته ، فإذا قضأها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ (١) . وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( لما عافى الله أيوب أمطر عليه جرأداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله في ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشيع ؟ قال : يارب ومن يشيع من رحمتك ) .

وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ :

قال ابن عباس : ردوا عليه بأعيانهم .

وقال بعض المفسرين : أى وأعطيناه في الدنيا مثل أهله عدداً ، مع زيادة مثل آخر ، فولد له من الأولاد ضعف ما كان .

قوله : ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

أى : فعلنا به ذلك رحمة من الله به ، وذكرى للعابدين ، أى : وجعلناه في ذلك قدوة ، لئلا يظن أهل البلاد إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

(١) الآية ٤٢ من سورة ص .

قوله تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ﴾ \* وأدخلناهم في رحمتنا إناهم من الصالحين ﴿ :

فانظر إلى هذا الفضل العميم الذي أسبغه الله على هذه الكوكبة النورانية من الأنبياء ، وكيف أثنى عليهم بأنهم من الصابرين .

ثم جاء الفضل متمثلاً في الصلاح والتقوى ، حيث يقول تعالى : ﴿ إناهم من الصالحين ﴾ . فما أجمل الصبر ، وما أعظم الصلاح ، وما أحل الجزاء إذا كان إدخالاً في رحمة الله . كان أحد الصالحين يقول : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعاً : عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقد قال الله جل شأنه : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴿<sup>(١)</sup> .

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ منى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى منى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ .

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وإذا التوت إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿ .

وعجبت لمن ابتلى بالمكر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقد قال تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾<sup>(٣)</sup> . وبشر الصابرين .

ما أعظم جزاء الصابرين ، وما أجل قدره ، إناهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقال فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴿<sup>(٥)</sup> .

وعن أبي مالك الحارث بن عاصم الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماوات

(١) الآيات ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٤٤ من سورة غافر .

(٣) الآية ٤٥ من سورة غافر .

(٤) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٥) الآيات ١٥٣ - ١٥٧ من سورة البقرة .



والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها (١) . رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه : أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفذ ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده : ( ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر ) (٢) . متفق عليه .

وعن أبي يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ) (٣) . رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : ( لما نُقِلَ النبي ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : واكرب أبتاه . فقال : ( ليس على أبيك كرب بعد اليوم ) . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دفن قالت فاطمة رضى الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب ) (٤) . رواه البخارى .

وعن أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وجبه ، وابن حبه ، رضى الله عنهما ، قال : أرسلت بنت النبي ﷺ إن ابني قد احتضر فاشهدنا ، فأرسل يقرئ السلام ويقول : ( إن الله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب ) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتيها ، فقام ومعه سعد بن عباد ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال ، رضى الله عنهم ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي فأقعدته في حجرة ، ونفسه تققع ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : ( هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده ) وفي رواية : ( في قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء ) (٥) . متفق عليه .

وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( كان ملك فيمن قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه ، وكان في طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر من بالراهب وقعد إليه ،

(١) أخرجه مسلم في الطهارة : ١ . والترمذى في الدعوات : ٨٦ . والدارمى في الوضوء : ٢ . والإمام أحمد في ٤ : ٢٦٠ ، وفي ٥ :

٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى في الرقاق : ٢٠ ، وفي الزكاة : ١٨ ، ٥٠ ، ومسلم في الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود في الزكاة : ٢٨ . والترمذى في

البر : ٧٦ . والنسائى في الزكاة : ٨٥ ، ٨٩ . والدارمى في الزكاة : ١٨ . والإمام مالك في الصدقة : ٧ . والإمام أحمد في ٣ : ٩ ، ١٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ، وفي ٤ : ١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد في ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفي ٦ : ١٥ .

(٤) أخرجه البخارى في المغازى : ٨٣ . وابن ماجه في الجنائز : ٦٥ . والإمام أحمد في ٣ : ١٤١ .

(٥) أخرجه البخارى في الجنائز : ٣٢ ، وفي الإيمان : ٩ ، وفي المرضى : ٩ ، وفي التوحيد : ٢٥ . ومسلم في الجنائز : ٩ ، ١١ .

وأبو داود في الجنائز : ٢٤ ، وفي الأدب : ٥٨ ، والنسائى في الجنائز : ٢٢ . وابن ماجه في الجنائز : ٥٣ . والإمام أحمد في ٥ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بُنى أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء .

فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فاتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله تعالى ، فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربي . قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام . فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحداً إنما يشفى الله تعالى ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شِقَّاه .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به ، حتى وقع شِقَّاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل بأصحابك فقال : كفانيهم الله تعالى .

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به ، فاحملوه فى قُرُور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل بأصحابك ؟ فقال كفانيهم الله تعالى .

فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتي ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى .

فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صُدْغِهِ ، فوضع يده فى

صدغه فمات . فقال الناس : آما برب الغلام ، فأتى الملك ، ف قيل له : رأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرک ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك ، فخذت وأضرم فيها النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .

(خروء الجبل) : أعلاه ، و (القرقور) بضم القافين : نوع من السفن ، والصعيد هنا : الأرض البازرة ، (الأخدود) : الشقوق فى الأرض ، (أضرم) : أوقد ، (انكفأت) : انقلبت ، (تقاعست) : توقفت وجبت .

وعن أنس رضى الله عنه قال : مر النبي ﷺ بامرأة تبكى عند قبر ، فقال : « اتقى الله واصبرى » . فقالت : إليك عنى ، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى ! ولم تعرفه ، ف قيل لها : إنه النبي ﷺ فأتت النبي ﷺ فلم تجذْ عنده بوابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : « إنما الصبرُ عند المصيبة الأولى »<sup>(٢)</sup> . متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : [ ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة ]<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه « كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع فى الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً ، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد »<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة )<sup>(٥)</sup> . يريد عينيه . رواه البخارى .

وعن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس رضى الله عنهما : ( ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت : إني أصرع ، وإني أتكشّف فادع الله تعالى لى . قال : ( إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يُعافيك ) فقالت : أصبر ، فقالت : إني أتكشّف ، فادع الله أن لا أتكشّف فدعا لها )<sup>(٦)</sup> . متفق عليه .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال كانى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى أن نبيا من

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٧٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٢ ، ٤٣ ، وفى الأحكام : ١١ . ومسلم فى الجنائز : ١٤ ، ١٥ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٣ .

والترمذى فى الجنائز : ١٣ . والنسائى فى الجنائز : ٢٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٣٠ ، ١٤٣ ، ٢١٧ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٣ . والبخارى فى الرقاق : ٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الطب : ٣١ . والإمام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٢ .

(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى المرضى : ٦ . ومسلم فى البر : ٥٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٤٧ .

الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون<sup>(١)</sup> . متفق عليه .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها »<sup>(٢)</sup> متفق عليه . ( والوصب : المرض ) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً قال : « أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » . قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : « أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته ، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها »<sup>(٣)</sup> . متفق عليه . و « الوعك » مغث الحمى وقيل الحمى . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يُصب منه »<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لا بد فاعلاً فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى »<sup>(٥)</sup> . متفق عليه .

وعن خباب بن الأرت رضي الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »<sup>(٦)</sup> . رواه البخارى .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : ( لما كان يوم حنين أثر رسول الله ﷺ ناساً فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينة بن حصص مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة . فقال رجل : والله إن هذه قسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء ٥٤ ، وفى المرتدين ٥ . ومسلم فى الجهاد : ١٠٤ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ ، والدارى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ١٤١ ، ٤٥٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٦ . والدارى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى المرضى : ١ . والإمام مالك فى العين : ٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ١٩ ، وفى الدعوات : ٢٩ . ومسلم فى الذكر : ١٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٩ . والترمذى فى الجنائز : ٣ ، وفى الزهد : ٣١ ، ٣٧ . والنسائى فى السهو : ٦٢ ، وفى الجنائز : ١ . وابن ماجه فى الزهد : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٢٨١ ، وفى ٤ : ٢٦٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، وفى ٦ : ٣٩٥ .

الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته ، فأخبرته بما قال : فتغير وجهه حتى كان كالصُرف . ثم قال : ( فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ) ثم قال : ( يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر ) فقلت : ( لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً )<sup>(١)</sup> متفق عليه . و « الصُرف » : صبغ أحمر . وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة »<sup>(٢)</sup> .

وقال النبي ﷺ : « إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سخط فله السخط »<sup>(٣)</sup> . رواه الترمذی .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « كان ابنُ لأبي طلحة رضي الله عنه يشتكي ، فخرج أبو طلحة ، فقبض الصبي ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابني ؟ قالت أم سليم وهي أم الصبي : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه العشاء فتعشى ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبي ، فلما أصبح أبو طلحة ، أتى رسول الله ﷺ فقال : « أعُرستم الليلة ؟ » قال : نعم ، قال : « اللهم بارك لهما » . فولدت غلاماً ، فقال لأبي طلحة : اجمله حتى تأتى به النبي ﷺ وبعث معه بتمرات ، فقال : « أمعه شيء ؟ » قال : نعم ، تمرات ، فأخذها النبي ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه فجعلها في في الصبي ، ثم حكه وسماه عبد الله<sup>(٤)</sup> . متفق عليه .

وفي رواية للبخاري : قال ابن عيينة : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعنى من أولاد عبد الله المولود .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »<sup>(٥)</sup> . متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله ، حتى يلقي الله تعالى وما عليه خطيئة »<sup>(٦)</sup> . رواه الترمذی وقال حديث حسن صحيح .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : « إنها ستكون بعدى أثره وأمور تنكرونها !

قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذي عليكم ، وتسألون الله الذي لكم »<sup>(٧)</sup> متفق عليه . و « الأثرة » : الانفراد بالشئ عمن له فيه حق .

(١) أخرجه البخاري في الخمس : ٨٩ وفي الأنبياء : ٢٧ ، وفي المغازي : ٥٦ ، وفي الأدب : ٥٣ ، ٧١ ، وفي الاستئذان : ٤٧ .

ومسلم في الزكاة : ١٤٠ ، ١٤١ . والترمذی في المناقب : ٦٣ . والإمام أحمد في ١ : ٣٨٠ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذی في الزهد : ٥٧ .

(٣) أخرجه الترمذی في الزهد : ٥٧ . وابن ماجه في الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد في ٥ : ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفي العقيقة : ١ ، وفي الأدب : ١٠٩ . ومسلم في الأدب : ٢٣ - ٢٨ . والترمذی في

المناقب : ٤٤ . والإمام أحمد في ٤ : ٣٩٩ ، وفي ٦ : ٩٣ ، ٣٤٧ .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب : ١٠٢ . ومسلم في البر : ١٠٦ - ١٠٨ . والإمام مالك في حسن الخلق : ١٢ . والإمام أحمد في ١ :

٣٨٢ ، وفي ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

(٦) أخرجه مسلم في المناقبين : ٥٨ . والترمذی في الزهد : ٥٧ ، وفي الأدب : ٧٩ . وابن ماجه في الفتن : ٣٢ . والإمام أحمد في

٣ : ٢٣٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٤٥٠ ، ٥٢٣ .

(٧) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار : ٨ . ومسلم في الإمارة : ٤٥ ، ٤٨ .

وعن أسيد بن الحضير رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ألا تستعملنى كما استعملت فلاناً . فقال : « إنكم ستلقون بعدى أثره ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض »<sup>(١)</sup> . متفق عليه .

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال النبى ﷺ : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »<sup>(٢)</sup> . متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فاستجبت له ونجيتاه من الغم وكذلك تنجى المؤمنين ﴿ قال العلامة ابن كثير : هذه القصة مذكورة ههنا ، وفى سورة الصافات ، وفى سورة ن .

وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهى قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مفاجئاً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبى لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾<sup>(٣)</sup>

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> أى وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقي نفسه فى البحر ، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتاً يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقي نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطئك تكون له سجنأ .

وقوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ : يعنى الحوت ، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة .

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ١ ، ٢ ، وفى الجنائز : ٧٢ ، وفى الخمس : ١٩ ، وفى المناقب : ٢٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٨ ، وفى المغازى : ٥٦ ، وفى الرقاق : ٧٠ ، ٥٣ ، وفى التعبير : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٢٤ . ومسلم فى الزكاة : ١٣٢ ، وفى الإمامة : ٤٥ ، وفى الفضائل : ٢٧ ، ٢٨ . والترمذى فى القيامة : ٩ ، وفى الفتن : ٢٥ ، والنسائى فى القضاة : ٤ . والدارمى فى المقدمة : ١٤ . وللإمام أحمد فى ٣ : ٥٧ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٣٤٥ ، وفى ٤ : ٤٢ ، ٢٩٢ ، وفى ٥ : ١٨٢ ، ١٩٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١١٢ ، ١٥٦ . ومسلم فى الجهاد : ٢٠ ، وأبو داود فى الجهاد : ٨٩ . والإمام فى ٤ : ٣٥٤ .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٤١ من سورة الصافات .

وقوله : ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ : قال الضحاك : لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ : أى : تضيق عليه فى بطن الحوت .

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ .

قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

قال محمد بن إسحق بسنده : عن أم سلمة أنها سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : ﴿ لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساً ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ . فأوحى الله إليه وهى فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : وسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتاً ضعيفاً بأرض غريبة . قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح . قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل ، كما قال تعالى : ﴿ فنبذناه بالمرء وهو سقيم ﴾ <sup>(١)</sup> رواه ابن جرير ، ورواه البزار فى سنده عن طريق محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع عن أبى هريرة .

وروى ابن أبى حاتم بسنده أن يزيد الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك - ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ - « أن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت ، قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة . قالوا : يارب أولاً ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء . قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه فى العراء . »

وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ : أى : أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات .

﴿ وكذلك نتجى المؤمنين ﴾ أى : إذا كانوا فى الشدائد ، ودعونا منييين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء . فقد جاء الترغيب فى الدعاء به عن سيد المرسلين ﷺ .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : ( مررت بعثمان بن عفان رضى الله عنه فسلمت عليه ، فملاً عينيه منى ثم لم يرد على السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب . فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شئ مرتين . قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفاً فى المسجد ، فسلمت عليه فملاً عينيه منى ، ثم لم يرد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال

(١) الآية ١٤٥ من سورة الصافات .

سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر ، فقال : بلى وأستغفر الله ، وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا ، وأنا أحدث نفسى بكلمة . سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرت قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد : فأنا أنبتك بها ، أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ، أبو إسحاق ؟ » قال : قلت : نعم يا رسول الله . قال : ( فمه ) قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : ( نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شيء قط إلا استجاب له )<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى والنسائى .

وأخرج ابن جرير بسنده عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » قال : قلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : ( هى ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المسلمين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به » .

قوله تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ﴾ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ :

قال العلامة ابن كثير :

يخبر تعالى عن عبده زكريا ، حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا ، وقد تقدمت القصة مبسطة فى أول سورة مريم ، وفى سورة آل عمران أيضاً ، وههنا أخصر منها .  
﴿ إذ نادى ربه ﴾ : أى خفية عن قومه ، ﴿ رب لا تذرني فرداً ﴾ أى لا ولد لى ، ولا وارث يقوم بعدى فى الناس ، ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ : دعاء وثناء مناسب للمسألة .

قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ :

أى امرأته ، قال ابن عباس : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ :

أى كانوا يسارعون فى عمل القربات ، وفعل الطاعات .

﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ : قال الثورى : رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا .

﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ : قال ابن عباس : مصدقين بما أنزل الله .

وقال مجاهد : مؤمنين حقاً .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٠ .



وقال أبو العالية : خائفين .

وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف الملازم للقلب لا يفارقه أبداً .

وقال الحسن وقتادة : خاشعين ، أى متذللين لله عز وجل وكل هذه الأقوال متقاربة .

وأخرج ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الله القرشي عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : ( أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وتشتوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسئلة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذى أحصنت فرجها فنفسنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ :

هكذا يذكر تعالى قصة مريم ، وابنها عيسى عليهما السلام ، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير ، قد طعن فى السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع فى سورة آل عمران ، وسورة مريم ، وههنا ذكر قصة زكريا . ثم أتبعها بقصة مريم بقوله :

﴿ والذى أحصنت فرجها ﴾ : يعنى مريم عليها السلام ، كما قال تعالى فى سورة التحريم :

﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفسنا فيه من روحنا ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ : أى دلالة على أن الله على كل شىء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : أى : إن الدين عند الله هو الانقياد له وحده ، لا يقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : يقول دينكم دين واحد .

وقال الحسن البصرى : فى هذه الآية بين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : أى : ستتكم سنة واحدة ، فقوله : إن هذه ، إن واسمها ، وأمتكم خبر إن ، أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم .

﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون (٣)

وقال رسول الله ﷺ : ( نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد ) (٤) .

(١) الآية ١٢ من سورة التحريم .

(٢) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٨ . ومسلم فى الفضائل : ١٤٣ ، ١٤٤ . وأبو داود فى السنة : ١٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٨ . ومسلم فى الفضائل : ١٤٣ ، ١٤٤ . وأبو داود فى السنة : ١٣ .

يعنى أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ (١).

### الجزء العادل

قال تعالى :

وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهٍ بِأَجْعُونِ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَّمٌ عَلَى قَرِيَّةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُؤْيَلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَتْؤَلَاءَ إِلَهًا مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قُلْ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

## المفردات

﴿ تقطعوا أمرهم بينهم ﴾ : أى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً .

﴿ حرام ﴾ : أى: ممتنع .

﴿ وقرية ﴾ : أى: أهلها .

﴿ أهلكناها ﴾ : أى: قدرنا هلاكها .

﴿ يأجوج ومأجوج ﴾ : تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلها .

﴿ وحذب ﴾ : أى: مرتفع من الأرض .

﴿ ينسلون ﴾ : أى: يسرعون .

﴿ واقترب ﴾ : أى: قرب .

﴿ الوعد الحق ﴾ : هو يوم القيامة .

﴿ شاخصة ﴾ : أى: مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول .

﴿ الويل ﴾ : الهلاك .

﴿ الحصب ﴾ : ما يُرمى به فى النار لاشتعالها .

والزفير : صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف .

والحسنى : أى: الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم .

والحسيس : الصوت الذى يحس من حركتها .

والسجل : هو الصحيفة .

الزبور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء .

والذكر : اللوح المحفوظ .

البلاغ : الكفاية .

والعابد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

مسلمون : أى: منقادون خاضعون .

تولوا : أى: أعرضوا .

أذنتكم : أى: أعلمتكم وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : ﴿ فاذنوا بحرب من الله

ورسوله ﴾ (١) .

ما توعدون : من غلبة المسلمين عليكم .

فتنة : أى: اختبار .

واحكم : أى: اقض .

وبالحق : أى: العدل ، والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم .

ما تصفون : أى: ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم : ﴿ بل افتراء بل هو شاعر ﴾ (٢) ،

وقولكم : إن للرحمن ولداً ، سبحانه الله عما يصفون .

(١) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥ من سورة الأنبياء .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص جمع من الأنبياء : كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى ، وبين مما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال ، وأن الدين عند الله واحد ، فعليكم أيها المسلمون أن تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عظيم ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تتركوا إلى خوارق العادات كما رأيتم في قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر في جميع الأعمال كما رأيتم في قصص أيوب ومن بعده .

وبعد أن ذكر ذلك سبحانه ، نعى على المسلمين ما سيحدث منهم في مستأنف الزمان حين يتفرون شيعا ، يذيقون بعضهم بأس بعض ، ويجعلون الدين قطعاً فيما بينهم ، كما تتوزع الجماعة الشيء يقتسمونه ، فيصير لهذا نصيب ، ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل في هذه الأمة الإسلامية ، وقد حدث فعلا وافترت الأمة سياسياً واجتماعياً بواسطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه .

ثم بين سبحانه أنه يثيب عباده على صالح الأعمال إذا كانت القلوب عامرة بالإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن كل عمل جلّ أو قلّ فهو مكتوب محفوظ لديه ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق إليه راجعون ، فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقترب ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إزاء ذلك على أنفسهم بالويل والثبور ، ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا في جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم إزاء ذلك .

ثم بين سبحانه ما يثول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير ، حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض ، لفضاعة ما هم فيه من العذاب .

أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار ، فأولئك يكونون مبعدين عنها ، لا يسمعون صوت لهيها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون في نعيم دائم ، وتستقبلهم الملائكة مهئين لهم قائلين : هذا يومكم الذي كنتم توعدون في الدنيا .

ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حيثئذ ، وأنها تطوى طيا ، وكأنها لم تكن ، كما يطوى الكاتب الطومار الذي يكتب فيه ، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر ، فيخلق الله أرضا جديدة ، وكواكب جديدة ، ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده في حالة أخرى كما قال : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه أن الدنيا ليست كالأخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها ، والانتفاع بخيراتها ، والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصف رأيا ، وأحكم فكرا ملكها وتسلب عليها ، وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جد الكفاية لمن يعتبر بسنن الله في الكون ، فيستفيد منها ما ينفعه في دينه ودنياه . وبين سبحانه أن الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد ، ومن نأى عنه ضل وسار في طريق الغواية والعناد . لما ذكر سبحانه وتعالى أن عقيدة الأنبياء واحدة ، وأن ملتهم لا تختلف فكلهم عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، أخبر سبحانه بعد ذلك أن الأمم قد اختلفت على أنبيائها ، وتفرقوا شيعاً ، فمن مصدق بالرسالات إلى مكذب وجاحد عنيد .

قال سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ : كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ فتقطعوا أمرهم بينهم زبوا كل حزب بما لديهم فرحون ﴿ (١) . وهنا يقول سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾ : فالكل إلى الله مرجعهم كما قال سبحانه : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينتهم بما كانوا يفعلون ﴾ (٢) .

ثم بين الجزاء العادل الذي لا يختلف ولا يتخلف ، فقال سبحانه : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ (٣) .

وهنا يقول سبحانه في بيان هذا الجزاء الأوفى : ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ﴾ .

فالله جلت قدرته لا يضيع عمل عامل ، ولا يظلم أحداً : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ (٤) .

غدا توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ :

قال ابن عباس : وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وفي رواية عنه أيضاً : أنهم لا يرجعون ، أى : لا يثوبون .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ :

يستمر هذا الحكم الذي حكم الله به على تلك القرى الظالمة إلى أن يفتح السد ، أى حتى يقترب الحساب والبعث بفتح سد يأجوج ومأجوج ، الذي قال الله فيه : ﴿ فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً ﴾ (٥) .

(١) الأيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة المؤمنون

(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٩٨ من سورة الكهف .

وإذا الناس يسرعون من كل مكان تلبية لأمر الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴾ (١).

وهنا يقول سبحانه : ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

إن الوعد الحق والبعث والجزاء ، وإنه حق ثابت . كما سمي الله هذا اليوم : بالواقعة ، والحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والقارعة ، وكان وعد ربي حقاً ، فكل كلام الله صدق : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (٢) وسماء الله باليقين : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ (٣) .

فما حال الظالمين ، وما موقف الكافرين ، إن أبصارهم من هذا اليوم شاخصة أجفانها مرتفعة ، لا تكاد تطرف من هول الساعة ، فياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، وياله من خطب ما أهوله .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم \* يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٤).

إنهم يقولون بلسان الندم والحسرة عندما يرون الحقائق شاخصة أمامهم : ﴿ ياويلنا قد كنا في غفلة من هذا ﴾ :

أي: يا هلاكنا أحضر فهذا أوان مجيئك ، لقد كنا في غفلة من أمر ربنا ووعدنا ، وذلك لما أنكروه وجحدوه من وعد الله ووعيده ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴿ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ (٥)

ثم أقروا على أنفسهم بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ﴾ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴿ (٦)

قوله تعالى : ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴿ لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

(٥) الآيات ٢٧ ، ٣١ من سورة الأنعام .

(٦) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية الأولى من سورة النحل .

(٣) الآية ٩٩ من سورة الحجر .

أولئك عنها مبعدون \* لا يسمعون حسيها وهم فى ما اشتت أنفسم خالدون \* لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴿١﴾ .

أخرج أبوبكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس ، قال : جاء عبد الله بن الزبير إلى النبي ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ فقال ابن الزبير : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا ؟ فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربه لك إلا جديلاً بل هم قوم خصمون ﴿٢﴾ (١) ، ثم نزلت : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون \* لا يسمعون حسيها وهم فى ما اشتت أنفسم خالدون ﴾ .

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أن هؤلاء الكافرين ومعبوداتهم فى النار ، ليكون لهم فى ذلك عبرة وتصديق ، لما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ (٣) .

إنهم وما يعبدون من دون الله وقود لجهنم وحطب لها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٣) .

فكل هؤلاء واردون لها هم وآلهتهم ، ولو كان هؤلاء المبعدون آلهة ما دخلوها ، ولدفعوا العذاب عنهم ، لكن هؤلاء وآلهتهم ليس لهم من الأمر شيء ، ومن ثم ﴿ فكل فيها خالدون ﴾ .

﴿ لهم فيها زفير ﴾ أى قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير إخراج النفس ، والشهيق إدخاله ، فهم يتنفسون فى النار ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ : أى وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض ، لعظم الهول وفضاعة العذاب .

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء الذين عبدوهم ، استثنى الصالحين كالملائكة وعيسى وعزير ومريم ، فقال سبحانه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أى سبقت لهم رحمتنا ووعدنا بالجنة ، أولئك عن النار مبعدون ، لا يسمعون صوت العذاب ، فهم ﴿ فى جنة عالية ﴾ لا تسمع فيها لاغية \* فيها عين جارية \* فيها سرر مرفوعة \* وأكواب موضوعة \* ونمارق مصفوفة \* وزرابى مبثوثة ﴿ (٤) ﴾ وهم فى ما اشتت أنفسم خالدون ﴿ .

وقوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ أى نفخة البعث ، كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (٥) ، وكما قال تبارك اسمه : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾ (٦) .

(٤) الآيات ١٠ - ١٦ من سورة الغاشية .

(٥) الآية ٨٩ من سورة النمل .

(٦) الآية ٨٧ من سورة النمل .

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .

قوله تعالى : ﴿ وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ :

كما قال جل شأنه : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .  
فما أعظم تلك البشرى ، وما أجل وقعها على ذوى النفوس المطمئنة : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ نزلا من غفور رحيم ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ يوم نظوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ .

إن هؤلاء لا يلحقهم الفزع حين تطوى السماء وتزال ، وتأتى سماء أخرى جديدة ، وكواكب أخرى .

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (٣) ، وقوله جل شأنه : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ (٤) .

﴿ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ : أى : هذا وعد على ذاته أخذه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد ، ووعد الله لا يختلف ولا يتخلف ، لأنه القادر ، لذا قال سبحانه : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ . فسبحان من لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً .

تزود من حياتك للمعاد . وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركنن إلى الدنيا كثيراً . فإن المال يجمع للنفاد  
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ : قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ . فقال : الزبور : التوراة ، والإنجيل ، والقرآن .

وقال مجاهد : الزبور الكتب .

وقال سعيد بن جبير : الذكر الذى فى السماء .

وقال مجاهد : الذكر أم الكتاب عند الله .

والخلاصة أن الله تعالى كتب فى أم الكتاب كما كتب فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض ميراث للصالحين من عباده ، فهم المستخلفون فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ إن الأرض

(٣) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

(١) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(٢) الآيات ٣٠ - ٤٢ من سورة فصلت .



الله يورثها من يشاء من عباده. والعاقبة للمتقين ﴿١﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ (٢).

﴿ ولينصرون الله من ينصروه إن الله لقوى عزيز ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴿ (٣) ﴾ قوله تعالى : ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ : إن في هذا الذي جاء في هذه السورة الكريمة من الأحكام والوعد والوعيد والقصص ، لبلاغاً لقوم عابدين ، يستطيعون به أن يعرفوا طريق الوصول إلى الله ، وأن يعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فهي دار سفر والآخر دار مقر ، فليأخذوا من سفرهم إلى مقرهم .

ثم يذكر مولانا بعد ذلك حقيقة الرسالة المحمدية ، فيقول سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ : فهو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، رحم الله به العالمين ، حيث أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وفي هذه الآية دليل على عموم رسالته ﷺ ، فالعالم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٤) ، ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ (٥).

قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ :

الاستفهام في قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ : يفيد الأمر ، أى : فاسلموا لهذا الإله الواحد ، كما في قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم متتهون ﴾ (٦) ، أى : انتهبوا .

﴿ فإن تولوا ﴾ عما جشتم به من الدين الخالص ، والعقيدة الصافية : ﴿ فقل أذنتكم على سواء ﴾ : أى : أعلمتكم أنى حرب لكم ، كما أنكم حرب لى ، برىء منكم كما أنتم براء منى ، كقوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾ (٨) ، أى : ليكن علكم بنيد العهود على سواء ، وهكذا هنا . ﴿ فإن تولوا فقل أذنتكم على سواء ﴾ :

(١) الآية ١٧٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية الأولى من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة النور . (٦) الآية ٩١ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج . (٧) الآية ٤١ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف . (٨) الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

والمراد بآذنتكم أى: أعلمتكم : ﴿ وإن أدرى أقرب أم بعيد ما توعدون ﴾ : إذ علم ذلك عند

ربى .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلى قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (١) .

إن الذى يعلم ذلك هو الذى يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون .

﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ : أى: وما أدرى سبب تأخير جزائكم ، ولعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ، لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين ، كي تتمتعوا بلذات الدنيا مع إعراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم ، لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذر ، يكون عقابه أشد .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ : أى: قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومى ، وكفر بك ، وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ، ونقمته بك به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به وتشديده عليه .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (٢) ، فأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ : أى: والله المستعان على ما تصفون ، من الشرك والكفر ، والكذب والأباطيل ، كقولكم إن الله اتخذ ولدأ ، وقولكم فى رسول الله ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾ (٣) .

وقد كثر استعمال الوصف فى الكتاب الكريم بمعنى الكذب ، كقوله: ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾ (٥) .

(١) الآية ٥٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٨٩ من سورة الاعراف .

(٣) الآية ٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

## سورة الحج

### مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، سوى ست آيات منها ، فهي مدنية : ﴿ هذان خصمان ﴾ إلى قوله : ﴿ صراط الحميد ﴾ .  
 وعدد آياتها : ثمان وسبعون في عد الكوفيين ، وسبع للمدنيين ، وخمس للبصريين ، وأربع للشاميين .  
 وكلماتها : ألفان ومائتان وإحدى وتسعون كلمة .  
 وحروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون .  
 وسميت سورة الحج ، لاشتمالها على مناسك الحج ، وتعظيم الشعائر ، وتأذین إبراهيم للناس بالحج .

### مقصود السورة إجمالاً

الوصية بالتقوى ، والطاعة ، وبيان هول الساعة ، وزلزلة القيامة ، والحجة على إتيان الحشر والنشر ، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق ، والشكاية من أهل النفاق بعد الثبات ، وعيب الأوثان وعبادتها ، وذكر نصرة الرسول ﷺ وإقامة البرهان والحجة ، وخصومة المؤمن والكافر في دين التوحيد .  
 وتأذین إبراهيم على الناس بالحج ، وتعظيم الحرمات والشعائر ، وتفضيل القربان في الموسم ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وحديث البشر المعطلة ، وأنواع الحجة على إثبات القيامة ، وعجز الأصنام وعبادها ، واختيار الرسل من الملائكة والإنس ، وأمر المؤمنين بأنواع العبادة والإحسان ، والمنة عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحياته ، في قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

### المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ وبعده : ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : محمول على : أيها المخاطب كما في قوله : ﴿ وترى الفلك ﴾ (١) .  
 قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ ، كما في سورة لقمان ، لأن هنا ما في هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهي : نذير ، القبور ، وكذلك في لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهي الحيد والسعير والأمور .  
 قوله : ﴿ من بعد علم ﴾ بزيادة ( من ) لقوله : ﴿ من تراب ثم من نقطة ﴾ ، وقد جاءت آية

(١) الآية ١٤ من سورة النحل .

النحل يغير من في قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ (١) لخلوها مما جاء في هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ وفي آل عمران وغيرها ﴿ أيديكم ﴾ لأن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث ، وقيل في أبي جهل ، وحده ، وفي غيرها نزلت في الجماعة الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى ﴾ قدم الصابئين لتقدم زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ وفي السجدة : ﴿ منها أعيدوا فيها ﴾ لأن المراد بالغم الكرب ، والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفساً ، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك ، وقوله ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ إلى قوله : ﴿ من حديد ﴾ .

فمن كان في ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حره أحشاء بطنه ، حتى يذوب ظاهر جلده ، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سرورا ومتنفسا من تلك الكرب التي عليه ، وليس في السجدة من هذا ذكر ، وإنما قبلها : ﴿ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وذوقوا ﴾ وفي السجدة ﴿ وقيل لهم ذوقوا ﴾ القول هاهنا مضمر ، وخص بالإضمار لطول الكلام بوصف العذاب ، وخصت سورة السجدة بالإظهار ، موافقة للقول قبله في مواضع منها ﴿ أم يقولون افتراء ﴾ ﴿ وقالوا أئذا ضللنا ﴾ ، و ﴿ حق القول ﴾ وليس في الحج من شيء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ مكررة الآية ٢٣ وموجب التكرار قوله : ﴿ هذان خصمان ﴾ . لأنه لما ذكر أحد الخصمين وهو ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر ، فقال سبحانه : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا جنات تجرى من تحتها الأنهار ... ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتي للطائفين والقائمين ﴾ وفي سورة البقرة : ﴿ والعاكفين ﴾ لأن ذكر العاكف ههنا سبق في قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

ومعنى : ﴿ والقائمين والركع السجود ﴾ المصلون . وقيل : ﴿ القائمين ﴾ بمعنى المقيمين ، وهم العاكفون ، لكن لما تقدم ذكرهم عبر عنهم بعبارة أخرى .

قوله تعالى ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ كرر ؛ لأن الأول متصل بكلام إبراهيم وهو اعتراض ، ثم أعاده مع قوله ﴿ والبدن جعلناها لكم ﴾ .

(١) الآية ٧٠ من سورة النحل .

(٢) الآية ٢٠ من سورة السجدة .

قوله تعالى : ﴿ فكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ ويَعْنِي : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتَ لَهَا ﴾ خَصَّ الْأَوَّلَ بِذِكْرِ الْإِهْلَاكِ ؛ لِاتِّصَالِهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَأَمْلَيْتَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ ﴾ أَيْ : أَهْلَكْتَهُمْ ، وَالثَّانِي بِالْإِمْلَاءِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ﴾ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِمْ فِي الْوَقْتِ ، فَحَسَنَ ذِكْرَ الْإِمْلَاءِ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ هُنَا ، وَفِي لَقْمَانِ ﴿ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ لِأَنَّ هُنَا وَقَعَ عَشْرُ آيَاتٍ كُلُّ آيَةٍ مُؤَكَّدَةٌ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، وَلِهَذَا أَيْضًا زِيدَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ اللَّهُ لَهُو الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ وَفِي لَقْمَانِ : ﴿ إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ سُورَةُ لَقْمَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ .

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : لَمَّا تَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ذِكْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَذِكْرُ الشَّيْطَانِ ، أَكْثَرُهُمَا ؛ لِإِنِّهِ خَبَرٌ وَقَعَ بَيْنَ خَبَرَيْنِ ، وَلَمْ يَتَقَدَّمَ فِي لَقْمَانَ ذِكْرُ الشَّيْطَانِ ، فَأكَّدَ ذِكْرَ اللَّهِ ، وَأَهْمَلَ ذِكْرَ الشَّيْطَانِ ، وَهَذِهِ دَقِيقَةٌ .

### مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

١ - إِنْ آخِرُ السُّورَةِ قَبْلَهَا كَانَ فِي أَمْرِ الْقِيَامَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقِّ ﴾ ، وَأَوَّلُ هَذِهِ السُّورَةِ الْاسْتِدْلَالُ عَلَى الْبَعْثِ بِالْبِرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ .

٢ - إِنَّهُ قَدْ أُقِيمَتْ فِي السُّورَةِ السَّالِفَةِ الْحُجُجُ الطَّبِيعِيَّةُ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ ، وَفِي هَذِهِ جَعَلَ الْعِلْمَ الطَّبِيعِيَّ مِنْ بَرَاهِينِ الْبَعْثِ .

٣ - فِي السُّورَةِ السَّالِفَةِ وَمَا قَبْلَهَا قَصَصَ الْأَنْبِيَاءَ وَبَرَاهِينَهُمْ لِقَوْمِهِمْ ، وَفِي هَذِهِ السُّورَةِ خُطِّبَ مِنَ اللَّهِ لِلْأُمَّمِ الْحَاضِرَةِ ، وَهُوَ خُطَابٌ يَسْتَرْعَى السَّمْعَ وَيُوجِبُ عَلَيْنَا وَلَوْ أَجْمَالًا أَنْ نَعْرِفَ صَنْعَ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ ، وَتَدْبِيرَهُ خَلْقَ الْأَجْنَةِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَيَوَانَ .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورَ بَكُمُ إِنْ زَلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَهُمُ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

## المفردات

التقوى : التبعاد عن كل ما يكتسب الإثم من فعل أو ترك .  
والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها .  
والدهول : الدهش الناشئ عن الهم والغم الكثير .  
والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ، ولو لم ترضع حال وصفها .

به .

بدأ الله تعالى السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن الكريم وهي سورة النساء بقوله :  
﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١) .  
وفي هذا إشارة إلى المبدأ ، كما بدأ السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن الكريم بقوله :  
﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ .

وفي هذا إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتي الخطاب إلى الناس جميعاً ، إذ جميعهم يشتركون في المبدأ والمعاد ( كلكم لآدم وآدم من تراب ) (٢) ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ (٣) ، كما أن الجميع سيعثون ﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾ (٤) ، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ (٥) .

وإذا كان ذلك كذلك فكلهم مأمورون بتقوى الله ، وهل التقوى إلا الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وفي هذه السورة ، إنذار شديد بزلزلة الساعة ، وقد اختلف المفسرون في زلزلة الساعة ، هل هي بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة قبل قيام الناس من أجدانهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها \* وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ (٦) ، وقال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة \* فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ (٧) ، وقال تعالى : ﴿ إذا رجفت الأرض رجاً \* وبست الجبال بساً ﴾ (٨) .

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة في آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة .

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ٤٩ : ٥ ، وفي المناقب : ٧٣ . وأبو داود في الأدب : ١١١ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الآية ٩٥ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزلزلة .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحاقة .

(٨) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الواقعة .

وقال ابن جرير عن علقمة في قوله: ﴿إِنْ زَلْزَلَتِ السَّاعَةُ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قال: قبل الساعة .  
وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك في حديث الصور عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنْ أَلَلَّ اللَّهُ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصُّورِ فَأَعْطَاهُ إِسْرَافِيلُ فَهُوَ وَاضِعُهُ عَلَى فِيهِ شَاخِصٌ يَبْصُرُهُ إِلَى الْعَرْشِ يَنْتَظِرُ مَتَى يَأْمُرُ) قال أبو هريرة: يا رسول الله وما الصور؟ قال: (قرن) قال: فكيف هو؟ قال: (قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرائيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهي التي يقول الله تعالى ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوْاقٍ﴾<sup>(١)</sup> فتسير الجبال فتكون تراباً وترج الأرض بأهلها رجاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجَفُ الرَّاجِفَةُ﴾ تتبعها الرادفة \* قلوب يومئذ واجفة<sup>(٢)</sup> فتكون الأرض كالسفينة الموبقة في البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح، فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل، ويشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتي الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع، ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً، وهي التي يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد<sup>(٣)</sup> .

فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، ورأوا أمراً عظيماً، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به . ثم نظروا إلى السماء فإذا هي كالمهل، ثم خسف شمسها وقمرها وانتشرت نجومها، ثم كسفت عنهم . قال رسول الله ﷺ: (وَالْأَمْوَاتُ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ) قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزَعَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾<sup>(٤)</sup> قال: (أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، ووقاهم الله شر ذلك اليوم، وآمنهم، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه، وهو الذي يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) .

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال ولبال كائن يوم القيامة في العرصات بعد القيام من القبور، واختار ذلك ابن جرير، واحتجوا بأحاديث:

روى الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو في بعض أسفاره، وقد تقارب من أصحاب السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس

(١) الدارمي في الرقاق: ٧٩ . والترمذي في تفسير سورة ٣٩: ٨، ٦٨، وفي القيامة: ٨ . والإمام أحمد في ٢: ١٢٦، ١٩٢ .

(٢) الآيات ٦ - ٨ من سورة النازعات .

(٣) الآيتان ٣٢، ٣٣ من سورة غافر .

(٤) الآية ٨٧ من سورة النمل .

سكاري وما هم بسكاري ولكن عذاب الله شديد ﴿١﴾ . فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله فلما دنوا حوله قال ﷺ : ( أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار . فيقول : يارب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار ، وواحد فى الجنة ) . قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : ( أبشروا واعملوا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتا : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس ) قال : فسرى عنهم ثم قال : ( اعملوا وابشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو الرقمة فى ذراع الدابة ) (١) .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ : ( يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف - أراه قال - تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد ﴿٢﴾ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿٣﴾ فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال : قال النبى ﷺ : ( من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، وأنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة . فكبرنا ) (٢) .

وقال الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : ( إنكم تحشرون ، إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً ) . قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : ( يا عائشة . إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك ) (٣) .

وقال الإمام أحمد عن السيدة عائشة أيضاً قالت : قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : ( يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيط عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلهاً آخر ، وكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، وكلت بكل جبار عنيد - قال : فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر ، وأحد من السيف ، عليه كلاليب وحسك

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٤ : ٤٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٧ ، وفى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ٤٦ ، وفى التوحيد : ٣٢ . ومسلم فى الإيمان

٣٧٩ ، وفى الفتن : ١١٦ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٣٢ ، ٣٣ ، وفى ٤ : ٤٣٢ ، ٤٣٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى فى

القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدارمى فى الرقاق : ٨٠ ،

٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .



يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم . فتاج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور فى النار على وجهه (١) .

ومهما يكن من أمر فإن الزلزلة واقعة لا محالة ، هذا وعد الله ، وكان وعد الله مفعولا . ﴿ يوم ترونها ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ : أى فتشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتى هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع .

وقال : ﴿ عما أرضعت ﴾ : أى عن رضيعها فطامه .

وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ : أى قبل تمامه لشدة الهول .

﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : أى من شدة الأمر الذى قد صاروا فيه ، قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ، ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

### فريق من الناس

قال تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٢﴾ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ أَلْسَعِيرٍ ﴿٣﴾

### المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن أبى حاتم : أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان جدلاً يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار تراباً .

بعد أن أخبر سبحانه فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله ، وبين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيراً من الناس ينكرون هذا البعث ، ويجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

هذا فريق ضال من الناس يجادل فى ذات الله بأحكامه ، فمن قائل اتخذ الرحمن ولداً ، ومن قائل إن الملائكة بنات الله ، ومن منكر للبعث ، إلى غير ذلك من المذاهب الضالة والمشارب الآسنة ، وأصحاب العقول الطائشة المستهترة ، إنهم يجادلون بغير سلطان أتاها ، لا علم ، ولا هدى ،

إنما جهل وحيرة وضلال ، فحبذا لو كان الجدل بالتى هى أحسن ، ولا حبذا إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد قدر على هذا المجال الذى سلك طريق الشيطان أن يضله بالوسواس ، ويكون

المصير مشتوماً ، حيث يهديه إلى عذاب السعير ، فالشيطان مرید غات لا يرحم . ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٢) .

(٢) الآية ٦ من سورة فاطر .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١١٠ .

## البعث حق

قال تعالى :

يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ  
ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ  
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرْدُّ إِلَىٰ أَرْضِ الْأَعْمُرِ  
لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ  
وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٦٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ  
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٧﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٦٨﴾

## المفردات

الريب : الشك .

وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل .

والعلقة : القطعة الجامدة من الدم .

والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمتنع .

والأجل المسمى : هو حين الوضع .

والطفل : يكون للواحد والجمع .

والأشد : القوة .

وأرذل العمر : أدنؤه وأردؤه .

هامة : أى : ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يست ودرست ، وهمد الثوب : بلى .

واهتزت : أى : اهتز نباتها وتحرك .

وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات .

زوج : أى : حنيف .

بهيج : أى : حسن سار للناظرين .

والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر ، وذمهم على ذلك ، قضى على هذا بإثباته عن وجهين :

- ١ - الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾ <sup>(٢)</sup> .
- ٢ - الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .. الآية .

هذه آية أنتجت خمس نتائج :

- الأولى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ .
- والثانية : ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ .
- والثالثة : ﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾ .
- والرابعة : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ .
- والخامسة : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

وفيه رد قوى ، وبرهان قاطع ، وحجة ساطعة ، على الذين ينكرون المعاد ، وفيهم يقول تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ \* وضرب لنا مثلاً ونستى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم \* قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم توقدون \* أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم \* إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون \* فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ففى هذا المشهد من سورة يس خمسة أدلة على أن البعث حق :

أولها : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ : أى: أن الذى قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإعادة .

وثانيها : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ : أى: أن الذى قدر على جمع الأضداد فجعل من الشجر الأخضر ناراً ، قادر على أن يجمع بين برودة الموت وحرارة الحياة .

ثالثها : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ : أى: أن الذى قدر على خلق الكون الأكبر قادر على خلق الأدنى ، ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ \* وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا

(١) الآية ٧٩ من سورة يس .

(٢) الآية ٥١ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون \* إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴿١﴾ .

رابع الأدلة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ أى: أن الذى سيعيدنا بعد الموت لا يعجزه شيء ، فأمره بالكاف والنون ، ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (٢) ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٣) ، ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ (٤) ، ﴿ فلأنما هي زجرة واحدة \* فإذا هم بالساهرة ﴾ (٥) .

خامس الأدلة : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ . فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته ، هو الغنى الذى لا يفتقد إلى أحد ، القوى الذى لا يحتاج إلى معين ، على فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ﴾ :  
أى: إن وقع الشك فى نفوسكم من البعث ، فإننا خلقنا أباكم آدم من تراب ، كما خلقناكم أنتم من عناصر هذا التراب ، مثل الكربون ، والدهن ، والمغنسيوم والفسفور والحديد والجير والكبريت والماء ، ثم تحول هذا التراب كما قال تعالى ﴿ ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين \* ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ (٦) .

وإنما بدأ الخلق هنا بالتراب ، لأننا سنصير تراباً فى القبور ، فالذى قدر على أن يخلق من التراب إنساناً قادر بالأولى أن يعيد هذا الإنسان من التراب ، ﴿ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٧) .

﴿ ثم من نقطة ﴾ : وهو ما يصب فى الأرحام من ماء الرجال .

﴿ ثم من علقه ﴾ : وهى تلك القطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم من مضغة ﴾ : وهو مقدار ما يمتزج من اللحم ، وهو قطعة اللحم .

﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ :

وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان ، تمت فيها أحوال الخلق ورسومه ، وقد تكون غير مخلقة أى غير مستوية ، فيها نقص ، ولم يتم فيها رسوم الخلق ، فسبحان من يصور خلقه .

﴿ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ :

وقال مجاهد : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقى أو سعيد .

(١) الآيات ٥٧ - ٥٩ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .

(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

(٤) الآية ٧٧ من سورة النحل .

(٥) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .

(٦) الآيات ٨ ، ٩ من سورة السجدة .

(٧) الآية ٢٧ من سورة الروم .

كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق // « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » (١) .

وروى ابن أبي حاتم وابن جرير بسندهما عن عبد الله قال : ( النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه ، فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دماً ، وإن قيل: مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة .

قال : فتخلق فتعيش من أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك ) .

ثم تلا عامر الشعبي : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .  
فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع ، فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ : أى: ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ : أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب ، وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ : أى: في حال شبابه وقواه .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ : وهو الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شيء .  
وقال السدى : ميتة .

(١) أخرجه البخارى في الأنبياء : ١ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، وفى القدر : ١ ، وفى التوحيد : ٢٨ . ومسلم فى القدر : ١ . وأبو داود فى

السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ٤ . وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٢) الآية ٥٤ من سورة الروم .

﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ : أى: فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات ، فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ ﴾ : أى: حسن المنظر طيب الريح . وقوله: ﴿ ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ ﴾ : أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء ، ﴿ وَأَنَّهُ يَحْصِي الْمَوْتِ ﴾ : أى كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع .

﴿ إِنْ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمَحْصِى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ : أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية .

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ : أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم ربما ، ويوجدتهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِى الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ \* قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم \* الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال الإمام أحمد بسنده عن لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله : « أليس كلكم ينظر إلى القمر غليا به » ؟ . قلنا : بلى ، قال : « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : ( أما مررت بوادى أهلكت عمولا ؟ ) قال : بلى . قال : « ثم مررت به يهتز خضرا » ؟ قال : بلى . قال : « وكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه »<sup>(٣)</sup> .

### فريق آخر من أهل الضلال

قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨٠﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٨٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .

(٢) الآيات ٧٨ - ٨٠ من سورة يس .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١١ ، ١٢ .

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَمَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْتِ الْمَوْلَى وَلِبَيْتِ الْعَشِيرِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ الهدى ﴾ : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل للمعرفة .

﴿ الكتاب المنير ﴾ : الوحي المظهر للحق .

﴿ ثانى عطفه ﴾ : أى : لاويا جانبه متكبرا مختالا .

﴿ الخزى ﴾ : الهوان والذل .

﴿ عذاب الحريق ﴾ : أى : عذاب النار التى تحرق داخلها .

﴿ على حرف ﴾ : أى : على طرف .

﴿ خير ﴾ : أى : سعة فى المال وكثرة فى الولد .

﴿ فتنة ﴾ : أى : بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله .

﴿ على وجهه ﴾ : أى : على جبهته ويراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر .

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ : أى : ضيعهما ، إذ فاته فيهما ما يسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ويدعو

الثانية يراد بها يقول .

﴿ والمولى ﴾ : الناصر .

﴿ والعشير ﴾ : الصاحب والمعاشر .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلال المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى ، أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والمبتدعين .

ثم أعقب ذلك بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبحيين فى دينهم ، لا ثبات لهم فى عقيدتهم ، ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيراً فرحوا به وركنوا إليه ، وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفاراً ، فلحققتهم الخسارة والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لا خسران بعده ، وهم فى ذلك الحين يعبدون الأصنام والأوثان ، لتكشف عنهم ضرهم ، وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء ، وقد ضلوا فى ذلك ضلالاً بعيداً ، وأنهم يوم القيامة ليجارون ويصرخون ويقولون :

﴿ لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبى ﷺ مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا صح جسمه ، ونتجت فرسه مهراً حسناً ، أو ولدت امرأته غلاماً ، أو كثر ماله وماشيته ، رضى به ، واطمأن إليه ، وإن أصابه وجع ، أو ولدت امرأته جارية ، أو أجهضت رماكه .

(خيله) أو ذهب ماله ، أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان ، وقال له : ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين ، فينقلب عنه .

ويعود بنا النظم الكريم إلى الفريق المجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فيقول سبحانه : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ .

فماذا قد فقد العلم في الجدل ، فإنه يجادل بجهل ، وقد أدب الله تعالى عباده المؤمنين عندما يجادلهم الجاهلون ، فقال سبحانه : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (١) .

وهذا الفريق يجادل بغير هدى ، إذاً فهو على ضلال ، قال تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا ﴾ (٢) .

وهذا الفريق يجادل بغير كتاب منير ، إذاً فهو يسبح في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور .

إذاً فهذا الفريق على جهل وضلال وظلمة ، ﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٣) .

ثم يضيف القرآن الكريم إلى صفات هذا الفريق صفة أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿ ثانی عِظْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : أى لاوى جنبه كبراً وعناداً واستكباراً في الأرض ، ومكر السيئ ، والكبر يعتمد على ركنين : بطل الحق ، وغمط الناس .

وهذا الفريق قد استوفى هذه المواصفات ، إنه يجادل بجهل وضلال ، وفي ظلمة ، ويتكبر على الحق فلا يغفله ، ويحتقر الناس فيزدريهم .

ثم يبين لنا الكتاب الكريم ، هدف هذا الفريق وغايته فيقول : ﴿ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ذلك لأنهم قصدا بالمجادلة عدم الوصول إلى الحق، إنما قصدا بها الإضلال ، فهو ضال مضل ، ثم يأتي الجزء العادل ، فيقول سبحانه : ﴿ له في الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

ثم يأتي تعليل هذا الجزاء في قوله سبحانه : ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ .

نعم إن الخزى لا يقتصر على دار الدنيا ، أو على دار الآخرة ، بل إنه كما قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً \* قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (٤)

إن الله تعالى هو الحكم العدل المقسط ، لا يظلم أحداً ، لذا فإنه حرم الظلم على نفسه ، وحرمه على عباده ، ونهاهم عنه .

(٣) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الرعد .

(٤) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه .

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الكهف .



ومعنى : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ :

أى: ليس بذى ظلم ، فاللفظ وإن جاء بصيغة المبالغة إلا أنه يقصد به نفى نسبة الظلم إلى الله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ <sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ :

هذه حال فريق من الناس لم يعرفوا الله معرفة المتمكن الوائق ، ولم يعبدوه عبادة المؤمن الصادق ، إنما عبدوه على جانب يسير حسب التجربة ، فإن أصابهم خير من صحة ورزق وولد استمروا في تلك العبادة الهامشية ، فإذا ابتلاهم الله بشدة من ضياع مال وفقد ولد انقلبوا على وجوههم ، وارتدوا على أعقابهم خائبيين خاسرين ، وليس بعد هذا الخسران من خسران ، إنه الخسران المبين ، وليست هذه الصفات من الإسلام في شيء ، ومن ثم فإن الناس من حيث صلتهم بالله أربعة أقسام : هذا قسم منهم : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ : هؤلاء عبدوا الله في الرخاء ، ونسوه في الشدة .

والقسم الثاني : نسوا الله في الرخاء والشدة ، فهم في الرخاء معرضون ، وفي الشدة يائسون ، قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

والقسم الثالث : قسم عرفوا الله في الرخاء والشدة قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ \* الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

والقسم الرابع : قوم اتجهوا إلى الله في الشدة ، فلما كشف عنهم ما نزل بهم نسوا الله وأعرضوا عنه ، قال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

إن الذين عبدوا الله على حرف يقول الله فيهم : ﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴾ \* يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

إن الذين يدعون من دون الله ويعبدونهم لا يملكون ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن دعا أو عبد غير الله فقد وقع في ضلال بعيد ، لأنه يدعو الذي ضره أقرب من نفعه ، لأن عبادته له ضرر كبير ، يودى به إلى الخلود في النار .

(٤) الآية ٨٣ من سورة الإسراء .

(٥) الآيتان ١٣٣ ، ١٣٤ من سورة آل عمران .

(٦) الآية ١٢ من سورة يونس .

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .

(٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

﴿ لبس المولى ﴾ : أسلوب ذم لمن اعتقدوه ناصراً له . ﴿ ولبس العشير ﴾ : أى صاحب الملازم لعبادة هؤلاء .

إن الله تعالى يقول فى حديثه الجليل : [ أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ] (١) .

إن المؤمنين الصادقين عرفوا الله فى كل أحوالهم ، إنهم فى الرخاء شاكرون ، وفى البلاء صابرون .  
عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ - أو تملأ - ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها » (٢) . رواه مسلم .

### معنى الحديث

الطهور : بالضم على الأفصح والمراد به الفعل والتطهير والنظافة والنقاء من الأوساخ والأقذار ، والبراءة من العيوب الباطنة . .  
الميزان : يملأ ثوابها .

سبحان الله : بغرض الجسمية لو مثل ثواب قائل الحمد لله وشاكر ربه لرجحت كفة ميزانه وزاد وزنها ، ففيه الترغيب بكثرة الثناء على الله ، والإقبال عليه بأداء أوامره وشكره ، رجاء ثقل الميزان بكسب الحسنات .

تملاً : يملأ ثواب كل منهما لو حسم لقدّر حجمه كما بين . السماء والأرض .

قال المناوى : وسبب عظم فضلها ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى ، بقوله : سبحان الله ، والتفويض والافتقار بقوله : الحمد لله .

فعليك يا أخى بكثرة تسبيح الله وتحميده وتمجيده . وذكره ، رجاء نيل أجر الله .

الصلاة نور : قال العلقمى : لأنها تمنع عن المعاصى ، وتنبه عن الفحشاء والمنكر ، وتهدى إلى الصواب ، كما أن النور يستضاء به . وقيل : يكون أجر الصلاة نوراً لصاحبها يوم القيامة ، وقيل : لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف ، وانسراح القلب ، ومكاشفات الحقائق ، لفراغ القلب فيها ، وإقباله على الله ، وقيل : يكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة : وفى الدنيا أيضاً : على وجهه بالبهاء ، بخلاف ما لم يصل .

الصدقة برهان : قال العلقمى : أى حجة على إيمان فاعلها ، فإن المناق يمتنع منها لكونه

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ - ٣٤٤ . والنسائى فى الزكاة : ١ . مسلم فى الطهارة : ١ . والترمذى

فى الجمعة : ٨٠ ، وفى الدعوات : ٨٥ . وابن ماجه فى الطهارة : ٥ .

لا يعتقدها . زاد النووي قال صاحب التحرير : معناه يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين ، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين في جواب هذا السؤال ، فيقول : تصدقت به . وقال : ويجوز أن يوسم المتصدق بسيمة يعرف بها ، فتكون برهاناً له على حاله ، ولا يسأل عن مصرف ماله .

الصبر ضياء : قال العلقمي : قال النووي : معناه الصبر المحبوب في الشرع وهو الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر أيضاً على النائبات ، وأنواع المكار في الدنيا ، والمراد أن الصبر المحبوب لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب .

فمعتقها : فمبعدها من النار .

موبقها : أى مهلكها .

قال العلقمي : معناه أن كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها : أى يهلكها ، كأنه قيل : ما حال الناس بعد ذلك ؟ فأجيب كل الناس . .

بين النبي ﷺ في هذا الحديث فوائد سبعة ، هن عماد الحياة ، ومنبع السعادة ، ومعين الخير ، وبحار المكارم ، وجالبة كل المحامد :

( أ ) النظافة والطهارة .

( ب ) الثناء على الله تعالى وشكره على جميع ما أنعم وتفضل .

( ج ) تسبيحه وعبادته وذكره ، حتى لا يغفل القلب عن ربه .

( د ) إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة على أحسن وجه . وأكملة ، فمن صلى تلاًلاً وجهه نوراً ، وأشرق قلبه

سروراً ، وامتلاً إيماناً وجوراً ، والتصدق بطاقة الإجازة من العذاب ، والإنفاق لله شهادة صدق

لصالح الأعمال ، والزكاة عنوان استقامة وطهارة ، وسبيل الهداية في الحياة الدنيا ، وبرهان ناطق

لسلوك فاعلها مناهج الأبرار الأخيار .

( هـ ) حبس النفس على المكروه اتقاء السخط ، والباعث على ذلك التجميل والتكامل المنبعث من أشعة

الإيمان الساطعة في القلب ، كما قال الحفني : الصبر على المصائب مع عدم الضجر ، أو الصبر على

الأوامر والمنهيات سبب في حصول الضياء في القلب ، أى النور الشديد الكامل .

( و ) وجود القرآن بين أظهرنا ، نسمع آياته ليل نهار ، شاهد عدل علينا ، ويكون شافعاً لمن عمل به ،

وتمسك بحبله ، واهتدى بقبسه ، وانتفع بآياته ، واسترشد بأحكامه ، ويكون خصماً ألد للفاسقين

والعاصين والطغاة الفاجرين . يقرأ القارئ فيتحدثون في مجالسه ، ويتكلمون ويشربون التبغ ،

وتشتت أفكارهم ، وشابهوا الكفار في قول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن

وَالْعَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿١﴾ ، ﴿ فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ ﴿٣﴾ ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ وَالْعَوَا فِيهِ ﴾ : وعارضوه بالخرافات ، أوارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القارىء .  
﴿ دَارُ الْخُلْدِ ﴾ : دار إقامتهم .

﴿ يَجْحَدُونَ ﴾ ينكرون الحق أو يلقون .

﴿ أَضَلَّانَا ﴾ : هما إبليس وقابيل ، فإنهما سنا الكفر والقتل .

﴿ نَجْعَلُهُمَا ﴾ : قدمتهما انتقاماً منها ، أونجعلهما في الدرك الأسفل مكاناً أودلاً أ ، هـ .

ثم بين ﷺ أننا في الدنيا صنفان :

١ - صنف تقى نقى صالح طاهر ، عامل بالكتاب والنسنة ، وهذا هو الفائز الناجح السعيد ، الذى ضرب بسهم صائب ، وبرز في ميدان الفلاح بالسبق إلى رضوان الله ونعيمه ، فخلص نفسه من ريقعة العذاب ، وأسر الشهوات ، فنجاه .

٢ - صنف خائب خاسر ، يسعى لحتفه بظلفه ، ويسترسل في الدنيا والمعاصي ، فيقع في الهاوية ، وينحط إلى الجحيم ، ويسود وجهه ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ ﴿٥﴾ .

لماذا ؟ لأن القرآن والسنة أشرقتا بالأنوار ، فلم يهتد بهديهما ، ولم يعمل صالحاً في حياته ، وغمس في الترف والرفاهية ، وخلت صحيفته من كل مكرمة أو محمودة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

﴿ وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر » ﴾ ﴿٦﴾ رواه البخارى ومسلم .

رواه الحاكم من حديث أبي هريرة مختصراً : « ما رزق الله عبداً خيراً له ولا أوسع من الصبر » . وقال : صحيح على شرطها .

﴿ وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أربع لا يصبنى إلا بعجب : الصبر ، وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشرع » . رواه الطبرانى والحاكم كلاهما من رواية العوام ابن جويرية ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد ، وتقدم في الصمت .

(٣) الآية ٢٨ من سورة فصلت .

(٤) الآية ٢٩ من سورة فصلت .

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٢٧ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٦ من سورة المجادلة .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٠ ، وفى الزكاة : ٥٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر :

٧٧ . والنسائى فى الزكاة : ٨٥ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والإمام مالك فى الصدقة : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٤٧ ، ٩٣ .

## المعنى

أربعة أشياء تصادف المؤمن : حقبة يندھش لها الإنسان لعروضها على حالة شاقة .  
وفى الغريب : العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء ، ولهذا قال بعض الحكماء : العجب مالا يعرف الإنسان سببه ، ولهذا قيل : لا يصح على الله التعجب ، إذ هو علام الغيوب ، لا تخفى عليه خافية ، يقال : عجبت عجباً ، ويقال للشيء الذى يتعجب منه عجب ، ولما لم يعمد مثله عجيب قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا ﴾ <sup>(١)</sup> تبينها أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله : وما هى الأربعة :

( أ ) تحمل الآلام .

( ب ) اللين وكرم الأخلاق .

( ج ) تسبيح الله وطاعته .

( د ) القناعة والرضا بالقليل .

\* عن علقمة قال : قال عبد الله : ( الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله ) ، رواه الطبرانى فى الكبير ورواته رواة الصحيح ، وهو موقوف ، وقد رفعه بعضهم .

واليقين : من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، يقال علم اليقين ، ولا يقال معرفة اليقين ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ، قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ <sup>(٢)</sup> . فالإيمان نهاية الثقة بالله تعالى .

\* وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » <sup>(٣)</sup> ، رواه مسلم .

## المعنى

عجباً : أعجب عجباً .

سراء : أشياء مفرحة .

ضراء : أشياء مؤلمة كارهة .

النبي ﷺ يبشر المؤمن بما يصيبه ، ويخبره أن كل شيء أحاطه كسب منه ثواباً : فإن أمدده الله

(١) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الذاريات .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

- بنعم فحمدته نال أجراً ، وإن أصابته سيئة فصبر نال ثوابها فهو فى الحاليتين مكرم مثاب ومؤجر .
- وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم عليه السلام يقول : « إن الله عز وجل قال : يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم ، فقال : يا رب كيف يكون هذا : قال : أعطيتهم من حلمى وعلمى » . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .
- وروى عن شجيرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » . رواه الطبرانى .

## المعاني

احتسبوا : سلموها لله تعالى طلباً لوجه الله تعالى وثوابه فالاكتساب من الحسب كالاكتداد من العد .

صبروا : تحملوا الآلام .

لا حلم ولا علم : ليس عندهم خلقاً الحلم والعلم .

أعطيتهم من حلمى وعلمى : أهب لهم خلق الحلم بطول البال والأناة فلا يستفزهم غضب ، وأرزقهم الثبت فى الأمور والترتيب .

يشرح النبى ﷺ على لسان سيدنا عيسى عليه السلام بإكرام أمته ، وتفضله عليهم بالسداد فى الأمر والصواب فى العمل ، والحكمة والتوفيق .

• وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهى على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وظهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل أو يدعو غير الله فى كشفه » .

رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات

## المعاني

كفارة : ماحياً لذنوبه .

البلاء بغير الله عز وجل : مدة عدم إسناد هذا لغير الله وحده بمعنى أنه يثاب ، ما دام يعتقد أن هذا المرض ، أو المحن من الله تعالى ، وهو الذى يكشف الكروب وحده ، فإذا حاد وضجر ويش وأسند ما أصابه إلى غير الله ، وشكا لغير الله ، فلا ثواب له البتة ، نسأل الله السلامة .

أو يدعو غير الله في كشفه : يعتقد أن الطبيب يشفيه أو غيره يزيل همومه ، والنبي ﷺ يقول :  
« إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » (١) .

يعلمك رسول الله ﷺ أن تصبر إذا أصابك مكروه ، رجاء ثواب الله سبحانه ، وأن تتحمل الآلام  
في سبيل رضا سبحانه ، والرضا بقضائه ، وألا تلجأ إلى مخلوق في كشف هذا الضر ، فالله وحده  
مفرج الكرب ، مزيل الهموم ، كما قال محمد بن بشير :

كم من فتى قصرت في الرزق خطوته	ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها	فالعبد يفتق منها كل ما تنجا
لا تياسن وإن طالت مطالبه	إذا استعنت بعبد أن ثرى يلجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته	ومدنى القرع للأبواب أن يلجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها	فمن علا زلقاً عن غرة زلجا
ولا يغرنك صفو أنت شاربه	فربما كان بالتكدير متزجا

### وعدّ ووعيد

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ  
مَا يُرِيدُ ۝ (١٤) مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ  
ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ۝ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ  
يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ۝ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ  
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنْ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ (١٧) أَلَمْ  
تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ  
وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ  
مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ (١٨) \* هَذَا خُصْمَانِ تَخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا  
قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۝ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ

وَالْجُلُودُ ۝٢٠ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ۝٢١ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٢٢ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ۝٢٤

**المفردات :** ﴿ بسبب ﴾ : أى بحبل .

﴿ ليقطع ﴾ : أى: ليختنق .

﴿ فليُنظر ﴾ : أى: فليقدر فى نفسه النظر .

﴿ كيده ﴾ : أى: فعله .

﴿ ما يغيظ ﴾ : أى: يغيظه .

﴿ الذين هادوا ﴾ : هم اليهود .

﴿ والصابئين ﴾ : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور .

وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابلهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم وثوابتها وسياراتها ، والمجوس ( على ما قاله قتادة ) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران .

﴿ والذين أشركوا ﴾ : هم عباد الأوثان .

فالملل ستة : خمسة للشيطان ، وواحدة للرحمن .

﴿ يفصل ﴾ : أى: يقضى بإظهار المحق من المبطل .

﴿ شهيد ﴾ : أى: عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

﴿ ألم تر ﴾ : أى: ألم تعلم .

﴿ والسجود ﴾ : لغة التظامن والتذلل ثم أطلق على التذلل لله وعبادته : وهو حزبان : سجود بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان ، وبه يستحق الثواب ، وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه ، وهو دال على الذلة ، والافتقار إلى عظمته ، جلّت قدرته .

﴿ من فى السموات ﴾ : هم الملائكة .

﴿ ومن فى الأرض ﴾ : هم الإنس والجن .

﴿ وحق ﴾ : أى: ثبت وتقرر .



﴿ خصمان ﴾ : وأحدهما خصم وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما وكل منهما يحتاج صاحبه فيه .

﴿ قطعت لهم ﴾ : أى: قدرت .

﴿ والحميم ﴾ : الماء الذى بلغت حرارته أقصى الغاية .

﴿ يصهر به ﴾ : أى: يذاب .

﴿ ومقامع ﴾ : واحدها مقمعة وهى السوط .

﴿ والغم ﴾ : الحزن الشديد .

﴿ والطيب من القول ﴾ : ما يقع فى محاوراة أهل الجنة بعضهم بعضاً .

﴿ وصراط الحميد ﴾ : أى: الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾ :

هذا مقتضى منطق العدالة الإلهية ، فالذين آمنوا هم الذين صدقوا بقلوبهم ، وعملوا بكل ما جاء به نبيهم ، وأعلنوا كلمة التوحيد بالاستتعم ، بفضل الله وعدله وإحسانه وميزانه وتكرمه وسعة رحمته ، اقتضى كل هذا أن يجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، فيدخلهم دار كرامته وجناته بفضلته ، وسلامة صدورهم ، وسخاوة نفوسهم ، إنها الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، أى من تحت قصورها وأشجارها ، وتغريد أطيارها ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ﴾ \* وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا \* متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴿ (١) .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ : لا يغلبه أحد ، ولا يقهره سلطان ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، يثيب المحسنين ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا :

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون - ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فليظن هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى بنصرة نبيه ودينه ، مهما تكالبت عليه الأعداء ، فإن قافلة الإسلام ستسير مهما كانت الدثاب تعوى ، ولن يضر السحاب نبج الكلاب .

ما يضر البحر أمسى ذاخراً إن رمى فيه غلام بحجر

﴿ يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ \* هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ (٢) .

(٢) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الصف .

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الإنسان .

إن الإسلام للعالم كالضياء والماء والهواء ، لا تستقيم الحياة بدونها ، إنما تصير رفات سحيقة ، وصعيدا جرزاً ، وصحراء جرداء أو قاحلة ، ذاك منطق الأشياء .

ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قريناً فمن كان يظن أن الله تعالى لن ينصر محمداً ، فليأت بحبل ، وليمدد به إلى جهة السماء ، ثم يعلق نفسه به ، ثم ليقطع هذا الحبل ، إنه سيهوى إلى الأرض مهما اتخذ من الحبل ، ودبر من الكيد ، وذلك بمنطق قانون الجاذبية ، فهل استطاع كيده ، وهل تمكنت حيله ، من ذهاب الغيظ الذى ملأ قلبه على محمد ودينه ؟

إنه كناطح صخرة ليوهنها ، فلم يستطع أن يفعل شيئاً ، إنما عاد بتحطيم رأسه .  
فقل لأعداء الإسلام : على رسلكم ، إن الإسلام شامخ ، أشد من شموخ الجبال الراسيات ، بازغ كالشمس فى ضحاها ، راسخ كالأعلام ، فوفروا على أنفسكم حربته ، فإنه لن يزول ، وما كان الله ليضيع دينه ، ولا أمانته ، ولا ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم .

فكم زالت رياض من رياها وكم بادت نخيل فى البوادي  
ولكن نخلة الإسلام تنمو على مر العواصف والعوادي  
ومجدك فى حمى الإسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد  
قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد ﴾ .

وكم سبق تفصيل الأدلة ، وقيام البراهين على البعث ، وما تبعه من أحكام ، أنزلت القرآن آيات بينات ، ودلائل باهرات ، ومن أراد الله له الهداية فهو السعيد المهتدى ﴿ ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ (١) .

﴿ إن الذين آمنوا والذى هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾ :

الكفر كله ملة واحدة ، مهما تعددت أشكاله ، واختلفت مشاريعه ، وتنوعت مذاهبه ، فقد يبدو فى صورة عبادة الملائكة ، أو فى اعتناق اليهودية ، أو عبادة المسيح ، أو عزير ، أو عبادة النار ، أو الأصنام .

طريق الإيمان واحد ، وطرق الكفر متعددة ، وقد يكون الكفر كفر نفاق ، أو جحود ، ككفر الشيوعية ، أو كبر ككفر فرعون ، إلى غير ذلك من طرق الضلال ، لذلك فإن الله أفرد النور ، وجمع الظلمات ، فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ (٢) .

الحق واحد لا يتعدد والباطل مذاهب شتى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله

فقل أفلا تتقون \* فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴿١﴾ .  
 إن الذى يفصل بين أهل الحق والباطل يوم القيامة هو الله ، ﴿ وما من غائبة فى السموات والأرض  
 إلا فى كتاب مبين ﴾ \* إن هذا القرآن يقضى على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون \* وإنه لهدى  
 ورحمة للمؤمنين \* إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم \* فتوكل على الله إنك على الحق  
 المبين ﴿٢﴾ .

إن الله تعالى علم من العباد ما كان وما يكون وما سيكون وما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون ،  
 هو الحكم العدل المقسط ، يفصل فى الأمور بحكمه ، ويقضى بين العباد بعلمه ، إن الله على كل  
 شىء شهيد ، حاضر لا يغيب .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر  
 والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ :

السجود خضوع وإذعان وانقياد للمخالق ، وقد يكون طوعاً واختياراً ، سجود الإنس والجن  
 والملائكة ، وقد يكون خضوعاً : تسخيراً كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر ، فانظر إلى  
 السماء وارتفاعها ، وإلى الأفلاك ومدارها ، وإلى الجبال ورسوخها ، وإلى البحار وأمواجها ، وإلى  
 الأرض واتساعها ، وإلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن  
 بذكره ، ولا يغفل عن شكره .

ولما كانت هذه المخلوقات ساجدة سجدوا وانقياداً وتسخيراً ، لم يتخلف منها شىء عن السجود لله ،  
 أما الإنسان فقد سجد كثير من نوعه ، ولم يسجد كله لذا قال تعالى : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه  
 العذاب ﴾ \* إن من سجد لغير الله فقد ذل ، ومن سجد لله ما ذل ولا مل ولا اختل ولا ضل .  
 قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ : ذلك لأن العزة كلها فى طاعة الله .  
 ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (٣) .

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ : فهو المريد ، ذو الحكمة البالغة ، والعلم المحيط بالأشياء .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ :

هذا تفصيل للجزاء الذى سيناله كل فريق ، إن بين الحق والباطل خصومة وصراعاً ، فأهل  
 الإيمان فى جانب ، وبقية هذه الفرق فى جانب : اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا  
 وغير ذلك من ملل الضلال فى جانب ، وخصومة كلا الفريقين فى الله ، فالمؤمنون عبدوه وحده ،  
 ووحدوه فى الألوهية والربوبية ، وغير المؤمنين انحرفوا عن الطريق السوى ، والصراط المستقيم ،  
 ولكل جزاؤه .

(٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

(١) الآيات ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس .

(٢) الآيات ٧٦ - ٧٩ من سورة النمل .

وقد بين الله تعالى جزاء أهل الضلال فى قوله : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ : هذا هو النوع الأول من العذاب الحسى ، فتصور كيف يصنع من النار ما يستر أجسامهم من الثياب ، أى عذاب هذا ، بل وأى إهانة تلك ، لقد كانوا فى الدنيا يستمتعون بالحرير والذهب ، فصاروا فى العذاب يلبسون ثيابا من نار ، سرايلهم من قطران .

ثم يأتى النوع الثانى من العذاب الحسى : ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ : الماء الذى بلغ درجة من الغليان لا تسامى .

ثم يأتى النوع الثالث : ﴿ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴾ : إن هذا الماء يذيب أمعاءهم وجلودهم : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ (١) .

أخرج عبد بن حميد ، والترمذى فى جماعة ، عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحميم ينصب على رؤوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو القهر ، ثم يعاد كما كان » (٢) .

ثم يأتى النوع الرابع من العذاب الحسى ، فيقول تعالى : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ . يضربون بها ، وما من شك فى أن تلك المقامع فيها الإهانة كلها . والإيلام الذى بلغ مداه ، فما أبعد هذا الشقاء وما أشده :

﴿ ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، فاللهم قنا عذابك ، يوم يبعث عبادك .

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ كالمهل ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه منه » (٣) رواه أحمد .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ :

قال : ( يقرب إلى فيه فيكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ (٤) ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ﴾ (٥) (٦) رواه أحمد والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لو أن دلوأ من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا » (٧) . رواه الترمذى .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٤) الآية ١٥ من سورة محمد . (٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٤ . (٦) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة : ٧٠ ، وفى جهنم : ٤ .

(٧) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٨ ، ٨٣ .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن النبی ﷺ قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر . ومن مات مدمن الخمر سقاء الله جل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم » (١) . رواه أحمد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبی ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٢) فقال رسول الله ﷺ : ( لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ ) (٣) رواه الترمذى .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يلقي على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلايب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : ﴿ أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاؤهم الكافرين إلا فى ضلال ﴾ (٤) قال : فيقولون : ادعوا مالكا ، فيقولون : ﴿ يا مالك ليقتض علينا ربك ﴾ (٥) قال : فيجيبهم : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال : فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ (٦) قال : فيجيبهم : ﴿ اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٧) قال : فعند ذلك يشتموا منه كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل (٨) . رواه الترمذى والبيهقى .

ثم يأتى العذاب النفسى بعد العذاب الحسى ، وكلاهما مر ، قال سبحانه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ :

لذا قيل إن أشد آية على أهل النار قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ (٩) . إن الغم هو الحزن الشديد الذى يمزق نياط القلوب ، تنخلع له الأفئدة ، وتنفطر من هوله الأكباد .

﴿ ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ (١٠) قالوا : إنه لا يرد عليهم إلا بعد ألف سنة ، فيقول لهم : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٩ .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٠١ ، ٣٣٨ .

(٤) الآية ٥٠ من سورة غافر .

(٥) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .

(٨) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٥ .

(٩) الآية ٣٠ من سورة النبأ .

(٦) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة المؤمنون .

(١٠) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .

(٧) الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون .

ثم يعقب هذا العذاب النفسى نوعاً آخر من العذاب الحسى قال تعالى : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ : وأشد عذاب للأجسام هو الحريق .

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾ (١) .

وبعد نار الوعيد يشرق نور الوعد ، فيقول سبحانه : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ .

أى: إن الله يدخل من آمن به وبرسله وعمل صالح الأعمال التى تزكى نفوسهم ، وتقربهم إلى ربهم ، جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الوارقة الظلال : الأنهار الواسعة ، يتمتعون بها كما شاءوا .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ : أى: يلبسون فى أيديهم حلية من ذهب ، وفى رؤوسهم تيجاناً من لؤلؤ .

﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ :

أى: ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه فى الدنيا ، وكان فيها عنوان العزة والكرامة ، فأوتوه فى الآخرة ، إجلالا وتعظيماً لهم .

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ :

أى: وأرشدوا إلى القول الطيب ، وهو قولهم حين دخول الجنة : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء ﴾ (٢) .

﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ :

وأى: وأرشدوا إلى الطريق الحميد ، الذى يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم ، محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم ، لما فيها مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ربح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم » . رواه الطبرانى .

وعن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : عن هذه الآية: ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (٣) إلى آخرها قال : قلت: يا رسول الله ما الوفد إلا ركب ؟ قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض ، لها أجنحة ، عليها رجال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، ويتنهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٧٤ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة مريم .

على صفائح الذهب ، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من أحدهما جرت في وجوههم بنضرة النعيم ، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً ، فيضربون الحلقة بالصفيحة ، فلو سمعت طنين الحلقة بأعلى فيبلغ كل حوراء ، أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها ، فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء ، فيقول : أنا قيمك الذي وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفوا أثره ، فيأتى زوجته فتستخفها العجلة ، فتخرج من الخيمة فتعانقه ، وتقول : أنت حبي وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبداً ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً . فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر ، وطرائق خضر ، وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبها .

فيأتي الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن في مقدار ليلة ، تجري من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من غسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها ، من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية إذا اشتهوها انبعث الغص إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائما ، وإن شاء متكئا : وذلك قوله : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾<sup>(١)</sup> (وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ) . رواه ابن أبي الدنيا .

وعن خالد بن عمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ( أما بعد : فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلا صُبابة كصُبابة الإناء ، يتصاهاها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما يحضرنكم ، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام )<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، وهجر ومكة »<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى .

(١) الآية ٥٤ من سورة الرحمن .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ١٤ . والإمام أحمد فى ١٧٤ : ٤ ، وفى ٥ : ٦١ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ ، وفى الزهد : ١٤ . والترمذى فى القيامة : ١٠ . والإمام

أحمد فى ٢ : ٤٣٦ ، وفى ٣ : ٢٩ ، وفى ٤ : ١٧٤ ، وفى ٥ : ٣ .

## المسجد الحرام والحج

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً  
 الْعَكَفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِمِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ  
 مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾  
 وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾  
 لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ  
 آلَا نَعْمٍ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ  
 وَلِيَبْطَرُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَعِنْدَ رَبِّهِ  
 وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يَتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾  
 حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ  
 تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعِيرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾  
 لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا  
 لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ آلَا نَعْمٍ فَلِلَّهِكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ  
 الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي  
 الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ  
 فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ  
 كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ  
 يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾



المفردات : ﴿ المراد بالمسجد الحرام ﴾ : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم فيها .

﴿ العاكف ﴾ : المقيم .

﴿ والباه ﴾ : الطارىء القادم عليها .

﴿ والإلحاد ﴾ : العدول عن الاستقامة .

﴿ بظلم ﴾ : أى: بغير حق .

﴿ يقال بواه منزلاً ﴾ : أى أنزله فيه وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة .

وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة .

﴿ وأذن ﴾ : أى: نادى بالحج : أى بالدعوة إليه .

﴿ رجالاً ﴾ : أى: مشاة .

﴿ الضامر ﴾ : البعير الهزيل الذى أتعبه كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى .

﴿ الفج ﴾ : الطريق .

﴿ والعميق ﴾ : البعيد .

﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ : أى: يحمده ويذكروه .

﴿ والأيام المعلومات ﴾ : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام .

يوم العيد ، ويومان بعده .

﴿ بهيمة الأنعام ﴾ : المراد بها الإبل والبقر والضأن .

﴿ والبائس ﴾ : الذى أصابه البؤس والشدة .

﴿ وليقضوا ﴾ : أى: ليزيلوا .

والتفت : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظافر .

تذورهم : ما ينذر من أعمال البر فى الحج .

﴿ العتيق ﴾ : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذلك ﴾ : أى: الأمر هكذا ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله : ﴿ هذا

وإن للطاغين لشر مآب ﴾ <sup>(١)</sup> .

حرمات : التكاليف الدينية ، من مناسك الحج وغيرها .

وتعظيمها : العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك .

والزور : الكذب .

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق .  
خر : سقط .

تخطفه : الخطف : الاختلاس بسرعة .  
تهوى : أى : تسقط .

سحيق : أى : بعيد .

والشعائر : واحدها شعيرة : وهى العلامة ، والمراد بها البدن الهدايا .  
وتعظيمها : أن تختار حسنا سمانا ، غالية الأثمان .

والأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح .  
ومحلها : مكان نحرها .

والمراد بالبيت العتيق : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم .

المنسك : ( بكسر السين وفتحها ) والنسك فى الأصل : العبادة مطلقا وشاع استعماله فى أعمال الحج .

والمراد به هنا الذبح ، وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .  
أسلموا : أى : انقادوا له .

المختبتين : أى المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل إذا سار فى الخبت ، وهو المطمئن من الأرض .

وجلت : أى خافت .

البدن : واحدها بدنة وهى الناقة ، أو البقرة التى تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى .  
وشعائر الله : أعلام دينه التى شرعها لعباده .

صواف : أى قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن ، واحدها صافة .

وجبت جنوبها : أى سقطت جنوبها على الأرض ، ويراد بذلك زهقت أرواحها ، وفقدت الحركة .

القانع : أى الراضى بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

والمعتر : أى المتعرض للسؤال .

المحسنين : أى المخلصين فى كل ما يأتون وما يذرون فى أمور دينهم .

المعنى

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ .

عن ابن عباس فى قوله: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ :

قال : ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام .

وقال مجاهد : ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل .

يخبر سبحانه وتعالى فى هذه الآية عن الذين كفروا وجحدوا وحدانية الله ، وأضافوا إلى هذا الكفر صد الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام ، الذى جعله الله تعالى سواء العاكف فيه والباد ، أى: النائى ، فكلاهما سواء فى هذا المسجد الآمن .

﴿إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

وقال تعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ <sup>(٢)</sup> .

فأين خبر إن ؟ إنه متصيد من الكلام تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، لهم عذاب أليم .

﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً﴾ \* إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ .

ثم تأمل معنى فى قوله تعالى : ﴿كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام﴾ . كيف عبر عن الكفر بصيغة الماضى ، وعن الصد بصيغة المضارع ، تجد فى ذلك دلالة عميقة عن ثبات الكفر ، واستمرار الصد ، وهم يدعون أنهم أهل البيت وأوليأؤه .

قال تعالى : ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ \* وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون \* إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

إن الله تعالى قد حفظ هذا البيت ، وأحاطه بالرعاية والعناية .

﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم﴾ : أى: ومن تمل نفسه إلى إحداث ظلم فيه ، فذقه من عذاب أليم .

وما حادثة أصحاب الفيل عنك ببعيد ، عندما تحركت جيوش أبرهه ، وظنوا أن الطريق إلى البيت الحرام ممهد ، ونسوا أن للكون إلهاً ، وأن هذا البيت قد أضيف إليه إضافة تشريف وتكريم ومهابة

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة النساء .

(٣) الآيات ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنفال .

(٤) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٦٧ من سورة النساء .

وتعظيم ، وعندما سولت لهم أنفسهم أن يهدموه صدرت الأوامر من القيادة العليا إلى سرب من سلاح الطيران الإلهي يحمل بين أصابعه القنابل الجارفة الحارقة ، وتحرك السرب من قاعدة ما ، وخف يحمل القنابل إلى مكان المعركة ، بعدما حبس الله الفيل عن دخول مكة .

فكان نتيجة المعارك كما جاء في ذلك البيان الحربى القرآنى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل \* ألم يجعل كيدهم في تضليل \* وأرسل عليهم طيراً أبابيل \* ترميهم بحجارة من سجيل \* فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

فيأمة الإسلام ، ويا أتباع محمد خير الأنام : حافظوا على دعائم الإسلام : المصحف ، والمسجد الحرام ، وصلاة الجمع ، وعرفات ، وزمضان .

قوله تعالى :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود \* وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن أبى ذر قال قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : ( المسجد الحرام ) . قلت : ثم أى ؟ قال : ( بيت المقدس ) . قلت : كم بينهما ؟ قال : ( أربعون سنة )<sup>(١)</sup> . وقد قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً . والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبوأننا لإبراهيم أى هيئنا له هذا المكان وأرشدناه إليه .

ومعنى : ﴿ لا تشرك بي شيئاً ﴾ أى ابن هذا البيت لرفع راية التوحيد ، والتوحيد أفراد المعبود بالعبودية مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالاً .

﴿ وطهر بيتى للطائفين ﴾ : قال قتادة : أى من الشرك .

﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ : أى اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها .

﴿ والقائمين ﴾ : أى فى الصلاة ولهذا قال : ﴿ والركع السجود ﴾ ، فقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشران إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه فى غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفى الحرب ، والنافلة فى السفر .

فاللهم زد هذا البيت تشريقاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه أو اعتمره تشريقاً وتعظيماً وتكريماً وفضلاً .

(١) أخرجه مسلم فى المساجد ، والنسائى فى القسامة : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣ .

(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

إن الله تعالى ينزل على حجاج بيته كل يوم عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

قوله تعالى ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ : أى نادى فى الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل على الحجر . وقيل على الصفا ، وقيل : على أبى قبيس ، وقال : يا أيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ :

﴿ يأتوك رجالاً ﴾ : أى مشاة . ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ : أى راكبين .

وقد حج رسول الله ﷺ راكباً مع قدرته على المشى ، مما يدل على أن الركوب أفضل ، فالله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ <sup>(١)</sup> قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يأتين من كل فج عميق ﴾ :

هذه الآية استجابة لدعوة إبراهيم حين دعا : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو ﴾ <sup>(٣)</sup> .

والفج والفجاج : هى الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

والفج العميق هو البعيد .

فتأمل معنى حين قال الله لإبراهيم أذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوتى يا رب العزة . قال له : يا إبراهيم : عليك الأذان وعلينا الإبلاغ ، فصعد إبراهيم جبل أبى قبيس ، ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه ، فلبت الأرواح : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

(٣) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

(١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

فما هو الحج ؟

قال الفقهاء :

قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدياً للعالمين ﴾ \* فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴿ (١) .  
تعريفه :

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر مناسك الحج ، استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التي علمت من الدين بالضرورة .  
فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه ، كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمره لله ﴾ (٢) .  
وهذا مبني على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض .  
ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي ( وأقيموا ) رواه الطبراني بسند صحيح .  
ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .  
فضله :

رغب الشارع في أداء فريضة الحج ، وإليك بعض ما ورد في ذلك :  
\* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : ( إيمان بالله ورسوله ) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( الجهاد في سبيل الله ) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : ( حج مبرور ) (٣) رواه البخاري ومسلم .  
رواه ابن حبان في صحيحه ولفظه : قال : رسول الله ﷺ : ( أفضل الأعمال عند الله تعالى : إيمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه ، وحج مبرور ) .  
قال أبو هريرة : حجة مبرورة تكفر خطايا سنة .

( المبرور ) : قيل : هو الذي لا يقع فيه معصية ، وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً :

( إن بر الحج : إطعام الطعام وطيب الكلام وعند بعضهم : إطعام الطعام وإفشاء السلام ) (٤) .

(٢) الآية ١٩٦ من سورة البقرة .

(١) الآيات ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان : ١٨ ، وفي الحج : ٤ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، وفي الجهاد : ١ ، وفي التوحيد : ٤٧ ، ومسلم في الإيمان : ١٣٥ ، وفي الحج : ٢٠٤ ، ٤٣٧ ، والترمذي في فضائل الجهاد : ٢٢ ، وفي الحج : ٨٨ ، والنسائي في الحج : ٤ ، ٥ ، ٦ ، وفي الجهاد : ١٧ ، وابن ماجه في المناسك : ٣ ، والإمام مالك في الحج : ٦٥ ، والدارمي في الجهاد : ٤ . والإمام أحمد في : ١ : ٢٤١ ، ٤٢٧ ، وفي ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، وفي ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ ، وفي ٤ : ٢٠٤ ، وفي ٥ : ٤٥١ ، وفي ٦ : ٣٧٢ .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان : ٦ ، والترمذي في تفسير سورة ٣٨ : ٢ ، ٤ ، والدارمي في الأطعمة : ٣٩ ، والإمام أحمد في

٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، وفي ٤ : ٦٦ ، ٣٨٥ ، وفي ٥ : ٢٤٣ ، ٣٧٨ .

\* وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى إلا أنه قال : ( غفر له ما تقدم من ذنبه ) .

(الرفث) : بفتح الراء والفاء جميعاً : روى عن ابن عباس أنه قال :  
الرفث : ما روجع به النساء .

وقال الأزهرى : الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة .

قال الحافظ : الرفث : يطلق ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلق بالجماع ، وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء . والله تعالى أعلم .

\* وعنه رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة )<sup>(٢)</sup> . رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والأصبهاني وزاد : ( وما سبح الحاج من تسبيحه ولا هلل من تهليله ولا كبر من تكبيرة إلا بشر بها تبشيرة ) .

\* وعن ابن شماسه رضى الله عنه قال : ( حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلاً . وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : أبسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده ، فقبضت يدى . فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشتط ماذا ؟ قال : أن يغفر لى . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله )<sup>(٣)</sup> .

رواه ابن خزيمة فى صحيحه هكذا مختصراً ، ورواه مسلم وغيره أطول منه .

\* وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : ( جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إني جبان ، وإني ضعيف . فقال : هلم إلى جهاد لا شوكه فيه : الحج ) .

رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات وأخرجه عبد الرزاق أيضاً .

\* وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ( قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور )<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى .

(١) أخرجه البخارى فى الحج : ٢٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٨ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، والنسائى فى

الحج : ٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٤١٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٧ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، ٨٨ ، والنسائى فى الحج : ٣ ، ٦٠ ، ٥ ،

وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام مالك فى الحج : ٦٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٢ : ٢٤٦ ،

٤٦١ ، ٤٦٢ ، وفى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٩٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى الحج : ٤ ، وفى الصيد : ٢٦ ، وفى الجهاد : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧١ ، ٧٩ .

وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه قالت : ( قلت : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة ) .

\* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة )<sup>(١)</sup> . رواه النسائى بإسناد حسن .

\* وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى سؤال جبرائيل عليه السلام إياه عن الإسلام ؟ فقال : ( الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج وتعمتر ، وتغتسل من الجنابة ، وأن تتم الوضوء ، وتصوم رمضان . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم . قال : صدقت )<sup>(٢)</sup> رواه ابن خزيمة فى صحيحه وهو فى الصحيحين وغيرهما بغير هذا السياق .

\* وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( كنت جالسا مع النبى ﷺ فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف فسلما ، ثم قالا : يا رسول الله جئنا نسألك . فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألاننى عنه فعلت ، وإن شئتما أن أسسك وتسألاننى فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يا رسول الله فقال : الثقى للأنصارى : سل . فقال : أخبرنى يا رسول الله فقال : جئت تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، ومالك فيه ، وعن ركعتك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفات ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه من الإفاضة . فقال : والذى بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك . قال : فإنك خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام ، لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفات فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا ، فيباهى بكم الملائكة . يقول : عبادى جاءونى شعثاً من كل فج عميق ، يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ، ولمن شفعت له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبير من الموبقات ، وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى ) . رواه الطبرانى فى الكبير ، والبزار واللفظ له .

\* وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( الحج جهاد كل ضعيف )<sup>(٣)</sup> . رواه ابن ماجه عن أبى جعفر .

(١) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .  
(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٤ ، ٣٧ ، وفى الشهادات : ٢٦ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، ومسلم فى الإيمان : ٥ ، ٧ ، ٨ ، وأبو داود فى السنة : ١٦ ، والترمذى فى الإيمان : ٤ ، والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥٢ ، ١٦٢ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ ، ٣٨٥ ، ٤٤٦ ، وفى ٥ : ٣ .  
(٣) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .



\* وعن عمرو بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : ( أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك ) . قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : ( الإيمان ) . قال : وما الإيمان ؟ قال : ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ) . قال : فأى الإيمان أفضل ؟ قال : ( الهجرة ) . قال : وما الهجرة ؟ قال : ( أن تهجر السوء ) . قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : ( الجهاد ) . قال : وما الجهاد ؟ قال : ( أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم ) . قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : ( من عقر جواده وأهريق دمه ) . قال رسول الله ﷺ : ( ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما : حجة مبرورة ، أو عمرة مبرورة )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد بإسناد صحيح ورواته محتج بهم فى الصحيح والطبرانى وغيره ورواه البيهقى عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه .

\* وعن ماعز رضى الله عنه عن النبى ﷺ : أنه سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : ( إيمان بالله وحده ، ثم الجهاد ، ثم حجة برة ، تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والطبرانى ورواه أحمد إلى ماعز روة الصحيح .

### ( قال الفقهاء )

الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر ، وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة ، إلا أن ينذره ، فيجب الوفاء بالنذر ، وما زاد فهو تطوع .

\* فمن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : ( يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ) فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ﷺ : ( لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم ) ثم قال : ( ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه )<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

\* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يا أيها الناس كتب عليكم الحج ) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : ( لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع )<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٣ : ١١٤ ، ٤١٢ ، وفى ٤ : ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الحج : ٤١١ ، وفى الفضائل : ١٣١ ، والترمذى فى العلم : ١٧ ، والنسائى فى

الحج : ١ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١ .

(٤) أخرجه أبو داود فى المناسك : ١ ، والدارمى فى المناسك : ٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٢٩١ ، ٣٥٢ ، ٣٧١ .

## وجوبه على الفور أو التراخي

ذهب الشافعي والثوري والأوزاعي ومحمد بن الحسن : إلى أن الحج واجب على التراخي ، فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأنم من وجب عليه بتأخيرته متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه ، وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ، فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ .

قال الشافعي : فاستدللنا على أن الحج فرضه مرة فى العمر ، أوله البلوغ ، وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعي وأبو يوسف إلى أن الحج واجب على الفور لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : ( من أراد الحج فليعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة )<sup>(١)</sup> .

رواه أحمد والبيهقي والطحاوى وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : ( تعجلوا الحج - يعنى الفريضة - فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له )<sup>(٢)</sup> رواه أحمد والبيهقي وقال : ( ما يعرض له من مرض أو حاجة ) .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به ، متى استطاع المكلف أدائه .

## شروط وجوب الحج

اتفق الفقهاء : على أنه يشترط لوجوب الحج ، الشروط الآتية :

١ - الإسلام .

٢ - البلوغ .

٣ - العقل .

٤ - الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج ، وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل شرط التكليف فى أية عبادة من العبادات .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال : ( رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل )<sup>(٣)</sup> .

وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٥٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحدود : ٢٢ ، وفى الطلاق : ١١ ، وأبو داود فى الحدود : ١٧ ، والترمذى فى الحدود : ١ ، وابن ماجه فى

الطلاق : ١٥ ، والدارمى فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

(٤) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

### بم تتحقق الاستطاعة

تتحقق الاستطاعة التي هي شرط من شروط الوجوب بما يأتي :

- ١ - أن يكون المكلف صحيح البدن ، فإن عجز عن الحج لشيخوخة أو زمانة أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال .
- ٢ - أن يكون مالكا للزاد والراحلة .

والمعتبر في الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ، ويكفي من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملابس ومسكن ومركب وآلة حرفة ، حتى يؤدي الفريضة ويعود . والمعتبر في الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب ، سواء أكان ذلك عن طريق البر أو البحر أو الجو ، وهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشي لبُعدة عن مكة .

فأما القريب الذي يمكنه المشي فلا يعتبر وجود الراحلة في حقه ، لأنها مسافة قريبة يمكنه المشي إليها .

وقد جاء في بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .  
\* فعن أنس رضي الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : ( الزاد والراحلة ) . رواه الدارقطني وصححه .

قال المحافظ : والراجح إرساله ؛ وأخرجه الترمذي من حديث ابن عمر أيضا .  
\* وعن علي رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( من ملك زاداً أو راحلة ، تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً )<sup>(١)</sup> . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾<sup>(٢)</sup> رواه الترمذي .  
والأحاديث وإن كانت بها ضعف إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج : الزاد والراحلة لمن نأت داره ، فمن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث - مستندة من طرق حسان ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة ، مع علم النبي ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشي .  
وأيضاً فإن الله قال في الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعتبرة في جميع العبادات ، وهو مطلق المكنة - أوقيداً زائداً على ذلك فإن كان المعتبر الأول لم يحتج إلى التقييد ، كما لم يحتج إليه في آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعتبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .  
وفي المذهب : وإن وجد ما يشتري به الزاد والراحلة وهو محتاج إليه لدين عليه لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً .

(١) أخرجه الترمذي في الحج : ٣ .

(٢) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

لأن الدين الحال على الفور ، والحج على التراخي ، فقدم عليه والمؤجل يحل عليه ، فإذا صرف مامعه في الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لا بد من مثله ، أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح - وهو يخاف العنت - قدم النكاح ، لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه في بضاعة يتجر فيها ليحصل منها ما يحتاج إليه للنفقة ، فقد قال أبو العباس ابن سريج : لا يلزمه الحج لأنه محتاج إليه ، فهو كالمسكن والخادم .

وفى المغنى : إن كان دين على ملىء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر ، وإن كان على معسر أو تعذر استيفاؤه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض لم يلزمه قبولها ، لأن عليه في قبول ذلك منه ، وفي تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه ، لأنه أمكنه الحج من غير منة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لا يلزمه الحج بذل غيره ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء كان الباذل قريباً أو أجنبياً .

وسواء بذل له الركوب والزاد ، أو بذل له مالا .

### حج الصبي والعبد

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام . قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبي ﷺ : ( أيما صبي حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج مرة أخرى ، أيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى ) . رواه الطبراني بسند صحيح . وقال السائب بن يزيد : ( حج أبى مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين )<sup>(١)</sup> رواه أحمد والبخارى والترمذى .

وقال : قد أجمع أهل العلم : على أن الصبي إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك ، وكذلك المملوك إذا حج في رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلاً .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت ألهذا حج ؟ قال : ( نعم ولك أجر ) .

\* وعن جابر رضى الله عنه قال : ( حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان وزمينا عنهم )<sup>(٢)</sup> رواه أحمد وابن ماجه .

ثم إن كان الصبي مميزاً أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج ، وإلا أحرم عنه وليه . ولبي عنه وطاف

(١) أخرجه البخارى في الصيد : ٢٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك : ٦٨ .

به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولوبلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام كذلك العبد إذا أعتق .

وقال مالك ، وابن المنذر : لا يجزئهما ، لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

### حج المرأة

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل سواء بسواء إذا استوفت شرائط الوجوب التي تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم ) فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن امرأتى خرجت حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : ( انطلق فحج مع امرأتك )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى : إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها : إنك ممن لم يجعل الله له سبيلاً . وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من حملة الاستطاعة ، ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول - نقله الكراييسى وصححه فى المذهب - تسافر وحدها إذا كان الطريق آمناً .

وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : وقال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم .

وقد استدلل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمناً ، بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم قال : ( بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قال : قلت لم أرهما وقد أنبثت عنهما . قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ( أى اليهودج فيه امرأة أم لا ) ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله )<sup>(٢)</sup> .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبي ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف .

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٢٤ ، والبخارى فى النكاح : ١١١ ، ١١٢ ، والترمذى فى الرضاع : ١٦ ، وفى الفتن : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٢ ، وفى ٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

وكان عثمان ينادى : ألا لا يدنو أحد منهم ولا ينظر إليهن وهن فى الهودج على الإبل .  
 إذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم صح حجها .  
 وفى سبل السلام : ( قال ابن تيمية : إنه يصح الحج من المرأة بغير محرم ومن غير المستطيع ) .  
 وحاصله : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة مثل المريض والفقير والمعضوب والمرأة بغير محرم وغير ذلك ، إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج .  
 ثم منهم من هو محسن فى ذلك ، كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسيء فى ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة ، والمعصية إن وقعت فى الطريق لا فى نفس المقصود .  
 وفى المغنى : لو تجشم غير المستطيع مشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج ، كان حجه صحيحاً مجزئاً .

### استئذان المرأة زوجها

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها فى الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرئ ذمتها كما لها أن تصلى أول الوقت ، وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور ، لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .  
 وأما حجة التطوع فله منعها منه .

لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ - فى امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها فى الحج - قال - : ( ليس لها أن تتطلق إلا بإذن زوجها ) .

### من مات وعليه حج

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ، وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : ( نعم ، حجى عنها ، أريت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أولم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر .

وإلى هذا ذهب ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، والشافعى ، ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٤٢ ، وفى الزكاة : ١٨ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٥ ، ١٥٥ .

وظاهر أنه يقدم على دين الآدمي ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله ﷺ : ( فإله أحق بالوفاء )<sup>(١)</sup> .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى .

أما إذا لم يوص فلا يحج عنه لأن الحج عبادة غلب فيه جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

### الحج عن الغير

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه بمرض أو شيخوخة لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أسير من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالمت فينبوب عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً ، لا يستطيع أن يثبت على الرحلة أفأحج عنه ؟ قال ( نعم ) وذلك في حجة الوداع : رواه الجماعة وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال الترمذي أيضاً : وقد صح عن النبي ﷺ في هذا الباب غير حديث ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم ، يرون أن يحج عن الميت .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحي إذا كان كبيراً وبحال لا يقدر أن يحج ، وهو قول ابن المبارك والشافعي .

وفي الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة ، والرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

### إذا عوفى المعسوب

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه ، فإنه يسقط الفرض عنه ولا يلزمه الإعادة ، لثلاث تفضي إلى إيجاب حجتين ، وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ، لأنه تبين أنه لم يكن ميثوساً منه وأن العبرة بالانتهاء .

ورجح ابن حزم الرأي الأول ، فقال : إذا أمر النبي ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخبر أن دين الله يقضى عنه فقد تأدى الدين بلا شك ، وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك ، إلا بنص ولا يعني ههنا أصلاً بعودته .

ولو كان ذلك عائداً بين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطبق الركوب .

(١) أخرجه البخاري في الصيد : ٢٢ ، وفي الإيمان : ٣٠ ، وفي الاعتصام : ١٢ .

فلإذا لم يخبر النبي ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته .

### شرط الحج عن الغير

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه .

لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة ، فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال ( فحجَّ عن نفسك ثم حج عن شبرمة ) .  
رواه أبو داود وابن ماجه .

وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً ، مستطيعاً كان أو لا .

لأن ترك الاستفصال والتفريق فى حكاية الأموال دالٌّ على العموم .

### من حج لنذر وعليه حجة الإسلام

أفتى ابن عباس وعكرمة : بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أنه يجزىء عنهما .

وأفتى ابن عمر وعطاء : بأنه يبدأ بفريضة الحج ، ثم يفى بنذره .

قوله تعالى : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

الحج مؤتمر إسلامى كبير له من الأهداف ما لا يحصى ، ومن الغايات ما لا يستقصى ، وقد كان عمر رضى الله عنه يجعل من الحج موسماً يناقش فيه عمال الأقاليم ويحاسبهم ، أيام كانت الخلافة الراشدة تجمع شتات الأمة وتوحيدها صفاً وهدفاً .

وقد جاءت كلمة المنافع فى قوله تعالى : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ جاءت بصيغة التذكير الذى يفيد التكثير والتعظيم وتلك المنافع تشتمل منافع الآخرة والدنيا .

قال ابن عباس : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فريضات الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، ومن منافع الدنيا ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (١) . فلا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : ( إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون : بـ (منى) ، و (عرفة) وسوق (ذى المجاز) ومواسم الحج ، فخافوا البيع وهم حرم فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ (فى موسم الحج) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

(١) الآية ١٩٨ من سورة البقرة .



وعن ابن عباس أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ قال : كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمرُوا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات » <sup>(١)</sup> . رواه أبو داود :

وعن أبى أمامة الغنيمى : أنه قال لابن عمر : إني رجل أكرى فى هذا الوجه ، وإن أناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج . فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن لك حجاً ، جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : لك حج <sup>(٢)</sup> . رواه أبو داود ، وسعيد بن منصور .

وقال الحافظ المنذرى : أبو أمامة لا يعرف اسمه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أوّجّر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك ألى أجر ؟ قال ابن عباس : ( نعم أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ) . رواه البيهقى والدارقطنى .

قوله تعالى : ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . قال شعبة عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر .

وقال البخارى عن محمد بن عرعة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : ( ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه ) قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ( ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج بخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشئ ) <sup>(٣)</sup> . رواه الإمام أحمد .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد ) <sup>(٤)</sup> .

وقال البخارى : ( وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما ) .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعاً أن ( هذا هو العشر الذى أقسم الله به ) <sup>(٥)</sup> فى قوله : ﴿ والفجر \* وليال عشر ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وقال بعض السلف إنه المراد بقوله : ﴿ وأتمناها بعشر ﴾ .

وفى سنن أبى داود : ( أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ) .

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة . الذى ثبت فيه صحيح مسلم عن أبى قتادة قال سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال : ( احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية ، ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر ) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٢٤ ، ٣٣٨ ، وفى ٢ : ٧٥ ، ١٣٢ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٧ .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفجر .

(١) أخرجه أبو داود فى المناسك ٦ .

(٢) أخرجه أبو داود فى المناسك ٦٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى العيدين ١١ .

وعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( أفضل أيام الدنيا العشر ) : يعنى عشر ذى الحجة . قيل : ولا مثلهن فى سبيل الله ؟ قال : ( ولا مثلهن فى سبيل الله إلا رجل عَفَّرَ وجهه بالتراب ) رواه البزار بإسناد حسن .

وأبو يعلى بإسناد صحيح ولفظه قال : ( ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذى الحجة ) قال فقال رجل : يا رسول الله ! هن أفضل أم عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : ( هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله إلا عفير يعفر وجهه فى التراب ) . الحديث ورواه ابن حبان فى صحيحه .  
وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذى الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر )<sup>(١)</sup> رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى .

وعن سعيد بن جبیر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام أفضل عند الله ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام يعنى من العشر فأكثرها فيهن من التهليل والتكبير وذكر الله وإن صيام يوم منها يُعَدُّ بصيام سنة والعمل فيهن يضاعف بسبعمئة ضعف ) .  
وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان يقال فى أيام العشر بكل يوم ألف يوم ، ويوم عرفة عشرة آلاف يوم . قال يعنى : فى الفضل . رواه البيهقى والأصبهاني .

وعن الأوزاعى رضى الله عنه قال : بلغنى أن العمل فى اليوم من أيام العشر كقدر غزوة فى سبيل الله يصام نهارها ، ويحرس ليلها ، إلا أن يختص امرؤ بشهادة . قال الأوزاعى :  
( قول ثان ) : فى الأيام المعلومات :

قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر ، كان يقول : الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام ، فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وهذا إسناد صحيح إليه .  
وقاله السدى : وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعنى به ذكر الله عند ذبحها .

( قول رابع ) إنها يوم عرفة ويوم النحر . ويوم آخر بعده ، وهو مذهب أبى حنيفة .  
وقال ابن وهب عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصيام : ٣٩ .

(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 والمقصود بقوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ :  
 الأكثرون على أن الأمر هنا للاستحباب لا على الوجوب ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر  
 هدية أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .  
 قال عبد الله بن وهب قال: لى مالك أحب أن يأكل من أضحيته ، لأن الله يقول ﴿ فكلوا  
 منها ﴾ .

وقال سفيان الثوري عن منصور عن إبراهيم ﴿ فكلوا منها ﴾ قال : كان المشركون لا يأكلون من  
 ذبائحهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل .  
 والمقصود بالبائس الفقير كما قال عكرمة : هو المضطر الذي يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير  
 المتعفف .

وقال مجاهد : هو الذى لا ييسط يده .

وقال قتادة : هو الزمن .

وقال مقاتل بن حيان : هو الغرير .

### قال الفقهاء فى الهدى

#### \* الهدى :

هو ما يهدى من النعم إلى الحرم تقرباً إلى الله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم  
 من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع  
 والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون \* لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى  
 منكم ﴾ .

وقال رضى الله عنه : اهدوا ، فإن الله يحب الهدى . وأهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان  
 هديه تطوعاً .

#### \* الأفضل فيه :

أجمع العلماء : على أن الهدى لا يكون إلا من النعم ، واتفقوا : على أن الأفضل الإبل ، ثم  
 البقر ، ثم الغنم ، على هذا الترتيب .

لأن الإبل أنفع للفقراء لعظمها ، والبقر أنفع من الشاة كذلك .

واختلفوا فى الأفضل للشخص الواحد :

هل يهدى سبع بدنة ، أو سبع بقرة ، أو يهدى شاة ؟

والظاهر أن الاعتبار بما هو أنفع للفقراء .

\* أقل ما يجزىء فى الهدى :

للمرء أن يهدى للحرم ما يشاء من النعم .

وقد أهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان هديه هدى تطوع .

وأقل ما يجزىء عن الواحدة شاة أو سبع بدنة أو سبع بقرة ، فإن البقرة أو البدنة تجزىء عن سبعة .

قال جابر رضى الله عنه : ( حججنا مع رسول الله ﷺ فنحرن البعير عن سبعة ، والبقرة عن سبعة )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد ومسلم .

ولا يشترط فى الشركاء أن يكونوا جميعاً ممن يريدون القرية إلى الله تعالى .  
بل لو أراد بعضهم التقرب ، وأراد البعض اللحم جاز ، خلافاً للأحناف الذين يشترطون التقرب إلى الله من جميع الشركاء .

\* متى تجب البدنة ؟

ولا تجب البدنة إلا إذا طاف للزيارة جنباً أو حائضاً أو نفساء ، أو جامع بعد الوقوف بعرفة وقبل الحلق ، أو نذر بدنة أو جزوراً . ومن لم يجد بدنة فعليه أن يشتري سبع شياه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : ( أن النبى ﷺ أتاه رجل فقال : إن على بدنة وأنا موسر بها ولا أجدها فأشترىها . فأمره ﷺ أن يتاع سبع شياه فيذبحهن )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح .

\* أقسامه :

ينقسم الهدى إلى مستحب ، وواجب .

فالهدى المستحب : للحاج المفرد والمعتمر المفرد ، والهدى الواجب : أقسامه كالآتى :

- ١ ، ٢ - واجب على القارن ، والمتمتع .
- ٣ - واجب على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار والإحرام من الميقات ، والجمع بين الليل والنهار فى الوقوف بعرفة ، والمبيت بالمزدلفة أو منى ، أو ترك طواف الوداع .
- ٤ - واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام غير الوطء كالتطيب والحلق .
- ٥ - واجب بالجناية على الحرم كالتعرض لصيده أو قطع شجرة ، وكل ذلك مبين فى موضعه كما تقدم .

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، والترمذى فى الأضاحى : ٨ ، ٩ ، والنسائى فى الضحايا : ١٦ ، والدارمى فى الأضاحى : ٥ ، والإمام مالك فى الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .  
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١١ ، ٣١٢ .

## شروط الهدى

يشترط فى الهدى الشروط الآتية :

- ١ - أن يكون ثنياً إذا كان من غير الضأن .  
أما الضأن فإنه يجرىء منه الجذع فما فوقه ، وهو ماله ستة أشهر ، وكان سمينا . والثنى من الإبل : ماله خمس سنين ، ومن البقر : ماله ستان ، ومن المعز ماله سنة تامة . فهذه يجرىء منها الثنى فما فوقه .
- ٢ - أن يكون سليماً : فلا تجزىء فيه العوراء ولا العرجاء ولا الجرباء ولا العجفاء .  
وعن الحسن : أنهم قالوا : إذا اشترى الرجل البدنة أو الأضحية وهى وافية فأصابها عور أو عرج أو عجب قبل يوم النحر فليذبحها وقد أجزأتها . رواه سعيد بن منصور .

## استحباب اختيار الهدى

روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه : يا بني لا يهد أحدكم لله تعالى من البدن شيئاً يستحى أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختيار له .  
وروى سعيد بن منصور : أن ابن عمر رضى الله عنهما سار فيما بين مكة على ناقة بختية فقال : بخ بخ ، فأعجبه فترل عنها فأشعرها وأهداها .

## إشعار الهدى وتقليده

الإشعار : هو أن يشق أحد جنبى سنام البدنة أو البقرة إن كان لها سنام ، حتى يسيل دمها ، ويجعل ذلك علامة لكونها هدياً فلا يتعرض لها .  
والتقليد : هو أن يجعل فى عنق الهدى قطعة جلد ونحوها ، ليعرف بها أنه هدى .  
وقد أهدى رسول الله ﷺ مرة غنماً وقلدها ، وقد بعث بها مع أبى بكر رضى الله عنه عندما حج سنة تسع وثبت عنه : أنه ﷺ قلد الهدى وأشهره وأحرم بالعمرة وقت الحديبية .  
وقد استحباب الإشعار عامة العلماء ما عدا أبا حنيفة .

## الحكمة فى الإشعار والتقليد

والحكمة فيهما تعظيم شعائر الله وإظهارها وإعلام الناس بأنها قرابين تساق إلى بيته ، تذبح له ، ويتقرب بها إليه .

## وقت الذبح

اختلف العلماء فى وقت ذبح الهدى .

فعند الشافعى : أن وقت ذبحه يوم النحر وأيام التشريق لقوله ﷺ : ( وكل أيام التشريق ذبح )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد .

فإن فات وقته ذبح الهدى الواجب قضاء .

وعند مالك وأحمد وقت ذبح الهدى - سواء أكان واجباً ، أم تطوعاً - أيام النحر . وهذا رأى الأحناف بالنسبة لهدى التمتع والقرآن ، وأما دم النذر والكفارات والتطوع فيذبح فى أى وقت ، وحكى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن والنخعى وقتها من يوم النحر إلى آخر ذى الحجة .

### مكان الذبح

الهدى سواء أكان واجباً أم تطوعاً - لا يذبح إلا فى الحرم ، وللمهدى أن يذبح فى أى موضع منه .

فعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( كل منى منحر ، وكل المزدلفة موقف ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر )<sup>(٢)</sup> . رواه أبوداود وابن ماجه .

والأولى بالنسبة للحاج أن يذبح بمنى ، وبالنسبة للمعتمر أن يذبح عند المروة ، لأنها موضع تحلل كل منهما .

فعن مالك أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ قال - بمنى - : هذا المنحر وكل منى منحر وفى العمرة : هذا المنحر - يعنى المروة - وكل فجاج مكة وطرقها منحر .

• استحباب نحر الإبل وذبح غيرها :

يستحب أن تنحر الإبل وهى قائمة معقولة اليد اليسرى ، وذلك للأحاديث الآتية :

● لما رواه مسلم عن زياد بن جبير : أن ابن عمر رضى الله عنهما أتى على رجل وهو ينحر بدنته باركة فقال : ( ابعثها قياماً مقيدة سنة نبيكم ﷺ )<sup>(٣)</sup> .

● وعن جابر رضى الله عنه : ( أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقى منها )<sup>(٤)</sup> . رواه أبوداود .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ أى : قياماً على ثلاث . رواه الحاكم . أما البقر والغنم فيستحب ذبحها مضطجعة .

فإن ذبح ما ينحر ونحر ما يذبح ، قيل : يكره . وقيل : لا يكره .

ويستحب أن يذبحها بنفسه إن كان يحسن الذبح وإلا فينذب له أن يشهده .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٨٢ .

(٢) أخرجه أبوداود فى الصوم : ٥ ، وفى المناسك : ٢٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٣ ، والدارمى فى المناسك : ٥٠ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٨ ، وأبوداود فى المناسك : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣ .

(٤) أخرجه أبوداود فى المناسك : ٢٠ .

### \* ألا يعطى الجزار الأجرة من الهدى :

لا يجوز أن يعطى الجزار الأجرة من الهدى ، ولا بأس بالتصدق عليه منه لقول على رضى الله عنه : ( أمرنى رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنة وأقسم جلودها وجلادها وأمرنى ألا أعطى الجزار منها شيئاً وقال : نحن نعطيه من عندنا )<sup>(١)</sup> . رواه الجماعة .

وفى الحديث ما يدل على أنه يجوز أن ينب عنه من يقوم بذبح هديه ، وتقسيم لحمه وجلده وجلاله .

وأنه لا يجوز أن يعطى الجزار منه شيئاً على معنى الأجرة ، ولكن يعطى أجرة عمله بدليل قوله : ( نعطيه من عندنا ) .

وروى عن الحسن أنه قال : لا بأس أن يعطى الجزار الجلد .

### \* الأكل من لحوم الهدى :

أمر الله بالأكل من لحوم الهدى ، فقال : ﴿ فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ﴾ .

وهذا الأمر يتناول - بظاهره - هدى الواجب - وهدى التطوع .

وقد اختلف فقهاء الأمصار فى ذلك .

فذهب أبو حنيفة وأحمد : إلى جواز الأكل من هدى المتعة وهدى القرآن وهدى المتطوع ،

ولا يأكل مما سواها .

وقال مالك : يأكل من الهدى الذى ساقه لفساد حجه ، ولفوات الحج ، ومن هدى المستمتع ومن

الهدى كله إلا فدية الأذى وجزاء الصيد وما نذره للمساكين ، وهدى التطوع إذا عطب قبل محله .

وعند الشافعى : لا يجوز الأكل من الهدى الواجب مثل الدم الواجب فى جزاء الصيد وإفساد

الحج ، وهدى التمتع والقرآن ، وكذلك ما كان نذراً أوجبه على نفسه .

أما ما كان تطوعاً فله أن يأكل منه ويهدى ويتصدق .

### \* مقدار ما يأكله من الهدى :

للمهدى أن يأكل من هديه الذى يباح له الأكل منه أى مقدار يشاء أن يأكله بلا تحديد .

وله كذلك أن يهدى أو يتصدق بما يراه .

وقيل : يأكل النصف ويتصدق بالنصف .

وقيل : يقسمه ثلاثاً فيأكل الثلث ويهدى الثلث ويتصدق الثلث .

قوله تعالى : ﴿ ثم ليقتضوا تفثهم ﴾ : أى ليزيلوا ما علق بهم من العرق والتراب وغير ذلك .

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٤٨ ، وأبو داود فى اللقطة ، والدارمى فى المناسك : ٨٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٠ .

وعن ابن عباس المقصود به وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ، ونحو ذلك .

قوله تعالى : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ وفيها أقوال لأئمة التفسير :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعنى نحر ما نذر من أمر البدن .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ نذر الحج والهدى ، وما نذر الإنسان من شيء يكون فى الحج .

وقال إبراهيم بن مسرة عن مجاهد : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : الذبائح .

وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ كل نذر إلى أجل .

وقال عكرمة : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال : حجهم .

وكذا روى الإمام أحمد عن بن أبي يعمر : حدثنا سفيان فى قوله : ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ . قال :

نذور الحج فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به .

قوله تعالى : ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .

المراد به القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

والمراد بالطواف هنا الطواف الواجب يوم النحر فبعد رمى الجمار وذبح الهدى والحلق يطوف

بالبيت سبع مرات ، وهو المسمى طواف الزيارة ، أو الإفاضة ، أو الركن .

وقال ابن أبي حاتم عن أبي حمزة قال : قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج ؟ يقول الله تعالى :

﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق : قلت : وهكذا صنع رسول

الله ﷺ ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات ، ثم نحر هديه ، وحلق رأسه ، ثم أفاض بالبيت .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى

عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور \* حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله

فكانما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ :

قال ابن جريج : قال مجاهد فى قوله : ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال : الحرمه مكة والحج

والعمرة ، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها .

والمقصود باسم الإشارة فى قوله تعالى ( ذلك ) أى : ذلك الذى أمرتكم به من مناسك الحج ،

وأنهيكم عليه ، وأعطيكم الأجر الجزيل ، ومن هذه الأشياء التى يثيب الله عليها تعظيم حرماته .

وقد تكرم الله تعالى على عباده فأحل لنا الأنعام ، لتكون طعاماً طيباً ﴿ فكلوا مما رزقكم الله

حلالاً طيباً ﴾ : فإن الله تعالى ما جعل من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام .



وقوله تعالى: ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ إلا ما بين الله حرمة في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾ (١).

فيا معشر المسلمين: التزموا أحكام الله فإنه تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم حرماً فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها: ﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ (٢).

فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع. ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ (٣).

يا معشر المسلمين: هذا هو شرعكم الحنيف، وإسلامكم العظيم، وقرآنكم المجيد، ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر، وما نهى عن شيء وقال العقل ليته ما نهى، هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم، إنه الدين الذي يأمر بالحلال الطيب: ﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم﴾ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾ (٤).

قوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾.

﴿من الأوثان﴾: بيان للرجس، أي: الذي هو الأوثان، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله: ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ (٥).

ومنه شهادة الزور، وهي من أكبر الكبائر، ذلك لأنها تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، وبسببها تضيع الحقوق..

صح في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) قلنا: بلى يا رسول الله

(١) الآية ٣ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان ١٦٨، ١٦٩ من سورة البقرة.

(٣) الآيتان ١٧٢، ١٧٣ من سورة البقرة.

(٤) الآيات ١١٤-١١٧ من سورة النحل.

الآية ٣٣ من سورة الأعراف..

قال : ( الإشراف بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور ) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت <sup>(١)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أيمن بن خريم قال : ( قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال : (يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشرافاً بالله ) <sup>(٢)</sup> . ثلاثاً . ثم قرأ ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ .

قوله تعالى ﴿ حنفاء لله ﴾ : أى مائلين عن الشرك ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ثم أكد هذا المعنى لأنه أساس الإسلام فقال : ﴿ غير مشركين به ﴾ . ثم ضرب للمشرك مثلاً غاية فى الإيضاح ، فقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ .

فتصور معى إنساناً سقط من أعلى ، وبحكم الجاذبية أخذ يهوى ثم يهوى بعد ما خطفته الطير ، وأخذت تقطعه ، ثم تهوى به الريح والعواصف فى مكان بعيد ، وهوة سحيقة ، إنه الضياع كله ، والتمزق بأدق معانيه : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شئ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقد ضرب الله تعالى للمشركين مثلاً آخر فى سورة الأنعام ، وهو قوله : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوت الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى اثننا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ <sup>(٤)</sup> . قوله تعالى :

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ \* لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق .

ذلك أى الذى سبقت الإشارة إليه من الأمر باجتنب الرجس من الأوثان ، وقول الزور ، والتزام التوحيد حق لا مرأى فيه .

﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ .

والمراد بالشعائر البدن والهدايا ، وتعظيمها بمعنى تسميتها وتحسينها .

عن ابن عباس : تعظيمها واستحسانها .

(١) أخرجه أبوداود فى الأقضية : ١٥ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد : ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، وفى ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .

(٢) أخرجه أبوداود فى الأقضية : ١٥ ، والترمذى فى الشهادات : ٣ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وقال أبو أمامة عن سهل : ( كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد .

وقالوا : العفراء : هى البيضاء بياضاً ليس بناضع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزىء أيضاً .

ثبت فى صحيح البخارى عن أنس ( أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين )<sup>(٣)</sup> . وعن أبى سعيد ( أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل فى سواد ، وينظر فى سواد ، ويمشى فى سواد )<sup>(٤)</sup> رواه أهل السنن والترمذى - أى : فيه نكتة سوداء فى هذه الأماكن .

ومن تعظيم الشعائر ألا تكون بها عيوب ، فإنها هدية يقصد بها التقرب إلى الله تعالى . فعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : ( أربع لا يجوز فى الأضاحى : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التى لا تنقى )<sup>(٥)</sup> . رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : البدن من شعائر الله . وقال محمد بن أبى موسى : الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والحلق والبدن من شعائر الله . وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت . فمن عظم تلك الشعائر ، وعرف لها قدرها ، كان ذلك التعظيم دليلاً على تقوى القلوب ، وسلامة المقصد ، واتباع سبيل المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : المراد بالمنافع هنا الأصواف والأوبار والأشعار والألبان واللحوم . قوله : ﴿ ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ : أى : نهايتها إلى الكعبة ، شرفها الله تعالى . قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا وَبَشَرِ الْخَبِيثِينَ \* الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجَلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى الأضاحى : ٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٧ ، ١١٩ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٩ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٣ ، والترمذى فى الأضاحى : ٤ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧٨ .

(٥) أخرجه النسائى فى الضحايا : ٥-٧ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ٨ ، والدارمى فى الأضاحى : ٣ ، والإمام مالك فى

الضحايا : ١ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

المنسك (بكسر السين وفتحها) . والنسك في الأصل : العبادة وشاع استعماله في أعمال الحج ، والمراد به هنا الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

قوله تعالى : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ :

كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : ( أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما )<sup>(١)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن أرقم قلت : أوقالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال : ( سنة أبيكم إبراهيم ) . قالوا : مالنا منها ؟ قال ( بكل شعرة حسنة ) قال : فالصوف ؟ قال ( بكل شعرة من الصوف حسنة )<sup>(٢)</sup> . وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد .

قوله تعالى : ﴿ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلَمُوا ﴾ :

أي : إن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضاً . فإن عقيدة الأنبياء واحدة : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾<sup>(٥)</sup> ، ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾<sup>(٦)</sup> .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله ، قال صلوات الله وسلامه عليه : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله )<sup>(٧)</sup> .

يا من عنت له الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحيد  
أنت الإله الواحد الحق الذي كل القلوب تقر له وتشهد

﴿ فَلَهُ أَسْلَمُوا ﴾ :

الإسلام هو الانقياد والإذعان لله تعالى ، فله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، سبحانه علا فقهر ، ويطن فخير ، وملك فقدر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي : ١٧ ، ١٨ ، والبخاري في الأضاحي : ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، والترمذي في الأضاحي : ٢ ، والنسائي في الأضاحي : ١٤ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، وابن ماجه في الأضاحي : ١ ، ١٣ ، والدارمي في الأضاحي : ١ ، والإمام أحمد في ٣ : ١١٥ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٥٠ ، ٢٦٥ . (٤) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٥٢ من سورة المؤمنون . (٦) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان : ١٨ ، ٣٣ ، ومسلم في الإيمان : ١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وأبو داود في الصلاة : ٣٥ ، ١٧٨ ، والترمذي في الصلاة : ١٨٥ ، والنسائي في الأذان : ٣ ، ٥ ، وابن ماجه في المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والدارمي في المقدمة : ٢ ، والإمام مالك في السفر : ٨٤ ، والإمام أحمد في ١ : ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩١ ، ٩٢ .

(٨) الآية ٨٣ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبشر المحبتين ﴾ أى الخاشعين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم خوفاً ورهباً .  
والذكر على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الشاء ، وذكر  
اليدنين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .  
﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ : فالصبر دليل الرضا بما قضى الله .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال :  
( الأنبياء ) ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان فى  
دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة (١) .  
رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك ، عليه قطيفة ، فوضع يده  
فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله ؟ قال : ( إنا كذلك يشدد علينا البلاء ، ويضاعف لنا  
الأجر ) ثم قال : يا رسول الله من أشد الناس بلاء ؟ قال : ( الأنبياء ) . قال : ثم من ؟ قال :  
( العلماء ) قال : ثم من ؟ قال : ( الصالحون ، كان أحدهم يبتلى بالعمل حتى يقتله ، ويبتلى أحدهم  
بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحاً بالبلاء من أحدهم بالعطاء ) (٢) رواه  
ابن ماجه وابن أبى الدنيا .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل  
البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض ) (٣) . رواه الترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ( يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف  
للمحاسب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاد فلا ينصب ميزان ولا ينصب  
لهم ديوان ، فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنون فى الموقف أن أجسادهم قرضت  
بالمقاريض من حسن ثواب الله ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يضافيه  
صب عليه البلاء صباً ، وثجّه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه ، قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى  
شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك ) . رواه ابن أبى الدنيا .  
يا أبا الإسلام :

تصبر ففى اللاواء قد يحمد الصبر	ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر
وإن الذى أبلى هو العون فانتدب	جميل الرضا يبقى لك الذكر والأجر
وثق بالذى أعطى ولاتك جازعاً	فليس بحزم منك أن يردعك الضر
فلا نعم تبقى ولا نقم . . ولا	يدوم كلا الحالين عسر ولا يسر
تقلب هذا الأمر ليس بدائم	لديه من الأيام حلو ولا مر

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ ، والدارمى فى الرقاق : ٦٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٩ .

إنى رأيت الصبر خير معول      فى النائبات لمن أراد معولا  
ورأيت أسباب القناعة أكدت      بعزى الفتى فجعلتها لى معقلا  
فلإذا بنى لى منزل جاوزته      وجعلت منه غيره لى منزلا  
وإذا تلا شىء على تركته      فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

\* \* \*

بنى الله للأخيار بيتا سماؤه      هموم وأحزان وحيطانه الضر  
وأدخلهم فيه وأغلق بابه      وقال لهم مفتاح بابكم الصبر  
ومما وصف الله به المختبين : إقامة الصلاة : فقال : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ ثم قرن إقامة الصلاة  
بالإنفاق فقال : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

وقد اقترنت الصلاة بالزكاة فى صور عديدة فى القرآن الكريم : جاء الاقتران فى صيغة الماضى ،  
كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى  
الزكاة ﴾ (١) .

وجاءت بصورة المضارع ، كما فى قوله جل جلاله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء  
بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ (٢) .  
وجاءت فى صيغة الأمر كما فى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً  
حسناً ﴾ (٣) .

وجاء الإقتران بصيغة المصدر ، كما قال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله  
 وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾ (٤) .  
كما جاء بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون  
بالله واليوم الآخر ﴾ (٥) .

وإقامتها أداؤها كاملة مستوفاة للأركان والشروط والسنن ، وليست الإقامة مجرد الأداء ، لأن إقامة  
الشىء معناه أداؤه على وجه خاص باعتدال واستقامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فوجدنا فيها جداراً يريد  
أن ينقض فاقامه ﴾ (٦) .

فالصلاة لولم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان ، وطهارة أردان ،  
وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل ، يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون  
والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح الرزق ، وخير ما يعالج به العبد  
مناداة الرازق ، وأفضل ما يلوز به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع ، وتأمل آثارها فى

(٤) الآية ٣٧ من سورة النور .

(٥) الآية ١٦٢ من سورة النساء .

(٦) الآية ٧٧ من سورة الكهف .

(١) الآية ١٨ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

المجتمع ، وكيف ساوت الصلوة بالسمع ، مست الأرض الجباه ، فالتناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء فى عتبة الله .

لوعلمت الأمة ما للصلوة من غايات وأهداف ما أهملت فى أدائها ، ولحافظت عليها ، قال نبي الله ﷺ : ( صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجها إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى صلاة : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة ) وفى رواية : ( اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه )<sup>(١)</sup> .

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ( إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة ، كتب كاتبه - أو كاتبه - بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات ، والقاعد يرعى الصلاة كالفانت ، ويكتب من المصلين . حتى من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة ، وخطوة تكتب له حسنة ذاهباً وراجعاً )<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد بإسناد حسن .  
وعن النبي ﷺ قال : ( بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت )<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يقتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شيء قال : كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا )<sup>(٥)</sup> . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .  
( الدرن ) بفتح الدال المهملة والراء جميعاً : هو الوسخ .

### المعنى

نهراً : مجرى الماء الفائض .

من درنه : منه قوله ﷺ : ( الصلوات الخمس تذهب الخطايا كما يذهب الماء الدرن )<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٨٧ ، وفى البيوع : ٤٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٩ ، وفى ٤ : ١٥٧ ، وفى ٥ : ١٧٧ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨٢ ، ٤١٥ ، وفى ٢ : ٩٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، وفى ٣ : ٤٠٢ ، ٤٣٤ ، وفى

٤ : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٢ : ٣٠ ، ومسلم فى الإيمان : ١٩ - ٢٢ ، والترمذى فى الإيمان : ٣ ،

والنسائى فى الإيمان : ١٣ .

(٥) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٦ ، والترمذى فى الأدب : ٩٠ ، والنسائى فى الصلاة : ٧ ، والإمام مالك فى السفر : ٩١ .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩٣ .

يمحو : يزيل : فأنت ترى المحافظة على أداء الصلوات تكفر الذنوب الصغيرة ، وتحتم على اجتناب الكبيرة ومتى حافظ العبد على الصلوات تاب الله عليه وسامحه وعفاه عنه .

أيها المسلمون : إن نبيكم خير الخلق ﷺ ضرب مثلاً أعلى في التربية ، ويعطى درساً شيقاً بوسائل محسوسة ، ليبين فائدة الصلاة ، وقد سبق علماء التربية الألمان والانجليز في إعطاء الدرس الحسن الشيق الجذاب ، بالغ النهاية في السمو والإيضاح ، موضوعه : ( بجوار منزلكم نهر حافظتم على الاستحمام فيه خمس مرات ، هل توجد وسخة على أجسامكم ؟ ) فهموا السؤال وأحسنوا الإجابة ( قالوا : لا ) هكذا أداء الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ينقى صحائفكم ، ويظهر أعمالكم ، ويرضى عنكم ربكم .

كما جعل تعالى ( النهر ) مثلاً لما يدر من فيضه وفضله في الجنة على الناس ، قال عز شأنه: ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿<sup>(١)</sup> من سورة القمر .

وقال تعالى : ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾<sup>(٣)</sup> .

وأرى النبي ﷺ يحث على النظافة ، ويدعو إلى الاستحمام والطهارة ، ويذكر المسلمين أن المحافظة على الصلاة في الدنيا توصل إلى نعيم الجنة وأنهارها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( الصلوات الخمس والجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر )<sup>(٤)</sup> . رواه مسلم والترمذى .

### المعنى

كفارة : مزيلة الصغائر التي ترتكب من وقت الصبح مثلاً إلى الظهر وهكذا أو من يوم الجمعة إلى يوم الجمعة الآخر .

تغش : تفعل : من غشى الشيء : لابس .

الكبائر : كالإشراك ، وقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، والربا ، والباطل ، وضياع الحق ، وأخذ أموال الناس ظلماً .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( الصلوات الخمس : كفارة لما بينها : ثم قال رسول الله ﷺ : أرأيت لو أن رجلاً كان يعمل وكان بين منزله وبين معتمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معتمله عمل فيه ما شاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مر بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه ، فكَذلك الصلاة كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر غفر له ما كان قبلها ) . رواه البزار والطبراني في الأوسط والكبير .

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .

(٢) الآية ١٧ من سورة نوح .

(٣) الآية ٢٥ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة : ٤٩ ، والترمذى في المواقيت : ٤٦ ، وابن ماجه في الإقامة : ٧٩ ، والإمام أحمد في ٢ : ٤٨٤ .



## المعنى

يعتمل : يلى عملا ، أو يعمل .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا ) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله ملكاً ينادى عند كل صلاة : يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها ) . رواه الطبرانى فى الأوسط .  
وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( يبعث منادٍ عند حضرة كل صلاة فيقول يا بنى آدم : قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم فيقومون فيتطهرون ويصلون الظهر فيغفر لهم ما بينهما فإذا حضرت العصر فمثل ذلك فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك فينامون فمدلج فى خير ومدلج فى شر ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

## المعنى

يتطهرون : يتوضأون .

العتمة : المراد العشاء والفجر .

أدلج : سار من أول الليل والمعنى بعد صلاة العشاء ينام الإنسان أو يسير فى طريق الخير ، ويسهر فى السمر البرىء ، والأنس الذى يرضى الله جل وعلا ، أو يقضى باقى ليله فى طاعة وعبادة .  
والصنف الثانى : يتم ليله فى لهو ومحرمات وسهر ، يغضب الله جل وعلا ، وينسى واجب زوجه ، ويعريد ويسكر ، ويذهب إلى الملاهى والمواخير ومحال الفجور ، والدعارة ، أو يقطع الطريق ، ويسلب أموال الناس أو يسرق ، وهكذا من أفعال الشر ، ويريد النبى ﷺ أن يرشد المسلمين إلى أن الصلوات الخمس أزال ما اقترفوه ، ويوصيهم أن ينتهى ليلهم كما يحب الله ورسوله ، ولا يتخلل زمنه ما يكثر من السيئات ويحبط الحسنات .

﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة النساء .

﴿ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين﴾<sup>(١)</sup> .  
 ما أسعد من ينتهي ليله فى طاعة ، ينام ليستريح ، أو يؤنس أهله ويسرى عنهم متاعب الحياة ،  
 ويمتعمهم برؤيته وحديثه العذب ، ويكرم ضيوفه . ويؤدى واجب زوجه حتى لا تنظر إلى غيره . ويتفقد  
 مصالحه ، ويرعى طعام ماشيته ، هل أدى الخدم ما يلزم لها من سقى أو علف أو نظافة ؟  
 ويقتدى برسول الله ﷺ بما رواه البخارى أنه عليه الصلاة والسلام ( كان يكره النوم قبل العشاء  
 والحديث بعدها )<sup>(٢)</sup> . وأعنى بالحديث الذى يجلب غضب الرب ويذهب فى لهو ولغو أو مجالس  
 الفسوق .

وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان الفارسى رضى الله عنه لينظر ما اجتهداه قال : ( فقام  
 يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له فقال سلمان : حافظوا على هذه  
 الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ) . رواه الطبرانى فى الكبير  
 موقوفاً .

ومما وصف الله به المخبتين قوله تعالى : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ :

أى: ينفقون بعض ما رزقناهم ، وهذا فضل وعدل ، فلو أن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا كل  
 ما رزقهم ما فعلوا ، قال تعالى : ﴿ولا يسألكم أموالكم \* إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج  
 أضغانكم﴾<sup>(٣)</sup> أى: كلها .

لذلك شئت حكمته ألا يكلف الناس ما لا يطيقون : فقال : ﴿ومما رزقناهم﴾ فمن هنا تفيد  
 التبعض ، أى: ينفقون بعض ما رزقناهم : كربع العشر فى زكاة النقدين وعروض التجارة ، والخمس فى  
 زكاة الركا، والعشر أو نصفه فى زكاة الزرع والثمار ، ومع ذلك فإن هناك من الناس من يملكون  
 ويملكون ثم ينجلون ويبخلون ، إذا دعاهم داعى الله أمسكوا ، فإذا ما دعاهم داعى الشيطان أسرفوا  
 وندروا وأنفقوا ببذخ وبغير حساب : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن  
 يبخل وإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا  
 أمثالكم﴾<sup>(٤)</sup> .

ألا فليعلم العقلاء أن الرزق ليس مقصوراً على المال ، إنما هو أوسع أفقاً ، وأرحب مجالاً ،  
 فالصحة رزق وزكاتها أن تغيث الملهوف ، وتعين الضعيف ، والعلم رزق وزكاته ألا تبخل به على  
 أحد ، فهو كالشمس والماء والهواء ، والذكاء رزق وزكاته أن تسخره فيما ينفع بعيداً عن الشر ، ووقت  
 الفراغ رزق وزكاته ألا تضيعه فى لهو ولعب .

(١) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت ١٣ ، ٢٣ ، ٣٩ ، وفى الأذان : ١٠٤ ، ومسلم فى المساجد : ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، والترمذى فى  
 الصلاة : ١١ ، والنسائى فى المواقيت : ٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ .

(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ٣٨ من سورة محمد .

قال ﷺ : ( نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ )<sup>(١)</sup> .

إن الله تعالى لما أمر بالإففاق ، كان ذلك لحكمة سبقت وعلم كشف كل الكائنات ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، والقادر عندما ينفق لا يمين لأنه يؤدي حق الفقير إليه .

قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولو علم البخلاء ماذا ينتظرهم من عذاب ما بخلوا : قال جل شأنه : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾<sup>(٣)</sup> .

فانظر كيف يعذبون بأموالهم التى كنزوها ، فتكوى بها الجباه التى أعرضت عن الفقراء كبرا ، كما تكوى بها الجنوب التى تمرغت فى الحرير ويلهنية العيش ، وتكوى بها الظهور التى طالما نامت . وأعرضت عن ذكر الله ، لذلك فإن الصالحين أدركوا هذه المعانى ، فكان السخاء والكرم والعطاء والبذل من أهم صفاتهم .

ها هو ذا محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه ، كان يملك من المال الكثير والكثير ، ولما نام على فراش الموت سأل بعض عواده : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين : إدخرت مالى لنفسى عند ربى ، وإدخرت ربى لأولادى .  
نعم : ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾<sup>(٤)</sup> .

إن ابن آدم عندما يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بمثلهما قبل الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عنه كله : ( لا تزول قدما عبد من بين يدى الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيما أبليت ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته وعلمك ماذا صنعت فيه )<sup>(٥)</sup> .

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( والذى نفسى بيده ثلاث مرات ، ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكى ، لا يدرى على ماذا حلف ؟ ثم رفع رأسه وفى وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم ، قال : ما من عبد يصلى الصلوات الخمس

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١ ، والترمذى فى الزهد : ١ ، وابن ماجه فى الزهد : ١٥ ، والدارمى فى الرقاق : ٢ ، والإمام أحمد

فى ١ : ٢٥٨ ، ٢٤٤ .

(٢) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٦٤ من سورة يوسف .

(٥) أخرجه الترمذى فى القيامة : ١ .

ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة . وقيل له : ادخل بسلام<sup>(١)</sup> . رواه النسائي .

### المعنى

أكب : استمر، من أكب على عمله : أى، لزمه .  
حمر النعم : بيضاء النعم ويراد المال الوفير والإبل الكثير والمسرات والترف .  
الكبائر السبع :

فسرها ﷺ فى حديث البخارى ( اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات )<sup>(٢)</sup> . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .  
فالسعادة ونيل النعيم وكسب الخير فى أربعة : فى صلاة وزكاة وصوم واستقامة ، والأجرة تبشرك ملائكة الرحمة بالأمان من عذاب الله . والتنعم بفضل الله ، وجنى ثمار جنة الله .

قيل له ادخل بسلام : تأمره ملائكة الرحمة لا تخف عقابا . وادخل آمنا سالماً من كل الأهوال ، لماذا ؟ لأن صحائفه نقية من المعاصى وأدران الذنوب ، ونهته صلاته عن كل فاحشة ، وأثمرت زكاته بطهارة نفسه من البخل ، فتحلى بالسخاء ، وللإمام الشافعى رضى الله عنه :  
يغضى بالرحمة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاء

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ( أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إني ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل )<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد .

ذو مال : صاحب ثروة .

حاضرة : مورد خير ينزل عليه الناس ليستقوا أو ليستفيدوا ، وفى النهاية فى حديث عمر بن سلمة الجرمى ( كنا بحاضر يمر بنا الناس )<sup>(٤)</sup> .

الحاضر : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه ويقال للمناهل : المحاضر للاجتماع والحضور عليها .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( خمس من جاء بهن مع إيمان دخل

(١) أخرجه النسائي فى الزكاة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١٣٣ .

الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقبتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه ) . رواه الطبراني في الكبير .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : ( كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار ؟ قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( الزكاة قنطرة الإسلام ) .  
المعنى : أن المسلم يمر يوم القيامة على جسر ممدود على متن جهنم ، والمزكى يعبرها ، وغير المزكى حينما يصل إليها لا يمكنه العبور ، فيسقط فى نار جهنم .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتولى الله عبداً فى الدنيا فيؤليه غيره يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد .

### المعنى

يقسم النبى ﷺ مؤكداً ليشير المسلمين : أن المصلى والمزكى والصائم له ثواب وأجر ، وسهم فى الإسلام : أى ينصيب من فضل الله ونعيمه ، ويكون الله تعالى ناصره وتحت رعاية مولاه فى الدنيا ، وكذلك سبحانه يرعاه بالرحمة فى الآخرة .

ويتولى : أى يكفل وفى أسماء الله تعالى الولى : أى الناصر ، وقيل : المتولى لأمر العالم القائم بها . ومن أسمائه عز وجل الوالى : أى مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها ، وفيه الحث على هذه الفرائض تؤدى كاملة ليحوز صاحبها رضا الله فى حياته وبعد موته .  
فيؤليه : فتكون عليه سلطة تامة لغيره يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : لمن حوله من أمته : ( أكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، قلت : ما هى يا رسول الله ؟ قال : الصلاة ، والزكاة ، والأمانة ، والفرج ، والبطن ، واللسان ) . رواه الطبراني فى الأوسط .

وأكفلوا : أى اضمنوا ومنه ( أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة )<sup>(٣)</sup> .  
والكفيل : الضمين .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤٧٣ : ٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١٦٠ ، ١٤٥ : ٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الطلاق : ٢٥ ، وفى الأدب : ٢٤ ، ومسلم فى الزهد : ٤٢ ، وأبو داود فى الأدب : ١٢٣ ، والترمذى فى البر : ١٤ ، والإمام مالك فى الشعر : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣٧٥ : ٢ ، وفى ٣٣٣ .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهي عن المنكر سهم ، والجهد في سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له ) . رواه البزار مرفوعاً .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله : أرايت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره ) . رواه الطبراني في الأوسط .

### المعنى

فقد ذهب عنه شره : أى: حفظ من السرقة في الدنيا وبورك فيه ، واستعمل في الخير ، وأنفق في الطاعة ، ولم يعذب صاحبه به في قبره فلا يمثل له بشجاع أقرع يلدغه ويعذبه ، كما قال ﷺ لغير المزكى ( مثل له يوم القيامة بشجاع أقرع له زبيتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزميته ) يعنى شديقه - ثم يقول : ( أنا مالك . أنا كنتك )<sup>(١)</sup> ثم تلا ﷺ : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ﴾<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى .

وعنه عليه الصلاة والسلام : ( ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً في عنقه يوم القيامة )<sup>(٣)</sup> . ﴿ والله ميراث السموات والأرض ﴾<sup>(٤)</sup> .

وله فيهما ما يتوارث ، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ، ولا ينفقون في سبيله ، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه في سبيله بهلاكهم ، وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( حصّنا أموالكم بالزكاة ، ودأوا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع ) . رواه أبو داود في المراسيل .

وروى عن علقمة رضى الله عنه أنهم أتوا رسول الله ﷺ قال : فقال لنا النبي ﷺ : ( إن تمام إسلامكم أن تؤدوا زكاة أموالكم ) . رواه البزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( كل مال وإن كان تحت سبع أرضين تؤدى زكاته فليس بكنز وكل مال لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز ) . رواه الطبراني في الأوسط .

### المعنى

كل ذى مال : أى: الغنى الذى أعطاه الله ثروة طائلة ، ومالا وفيراً ، فزكى وعمل بالشرع ، واستعمل ماله في حقوق الله . وما يرضيه ، فيخزن كما يشاء ، وفي أسفل الأرض ، وقد أحل الله له ذلك ، وأما إذا بخل ولم يخرج زكاته ووضعه في المصارف أو في الخزانة الحديدية ، الظاهرة لنا ، فهو مقصر في إخراج حقوق الله ، ويطلق على ماله كنز لم تؤد زكاته ، وإذا مات عذبه الله به ، وسلط

(١) أخرجه البخارى في الزكاة : ٣ ، وفي تفسير سورة ٣ : ١٤ ، وفي الحيل : ٣ ، والنسائي في الزكاة : ٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه في الزكاة : ٢ ، والإمام مالك في الزكاة : ٢٢ ، والإمام أحمد في ١ : ٣٧٧ ، وفي ٢ : ٩٨ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٥٥ ، ٤٨٩ .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٣ : ٢١ ، والنسائي في الزكاة : ٢ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

عليه أفعى تنهشه بصورة ماله المكنوز ، وعد من ناقصى الإسلام ، وصدق عليه قوله تعالى : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب الأليم ﴾ يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كترتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴿ (١) .

### أيها المسلمون :

أنعم الله علينا بالمال لنتنفع به وننفق منه فى سبيل الخير والمال وديعة فى يد الأغنياء ، لينظر الله إليهم أيعسنون ؟ أيتصدقون على الفقراء والمساكين ؟ أيزيلون ألم جوعهم ، وضر أمراضهم ، وظلمة جهالتهم فيرجون ثوابه سبحانه ، وينشئون المستشفيات والملاجىء ومعاهد العلم ، لتعليم أبناء الأمة الفقراء ، وإيواء العجزة الضعفاء ومعالجة المرضى ، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى السرقة أو المؤامرة على قتل الأغنياء ، أو الإقدام على ارتكاب الجرائم لدفع غيلة الفقر المدقع ، وأن الله تعالى أوعد البخلاء بالعذاب الأليم ، وأعلن كرمهم فيكرهمهم الله والناس ، ويبغضهم ربه ، ويأمر سبحانه بإيقاد النار على أموالهم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، جزاء بخلهم ، ومنعهم الإحسان والمعروف .

ومن يك ذا فضل فيخل بفضله على قومه يستغنى عنه ويذمم وعن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا أو اعتمروا ، واستقيموا يستقم بكم ) . رواه الطبرانى فى الثلاثة .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وحج البيت ، وصام رمضان ، وقرى الضيف ، دخل الجنة ) . رواه الطبرانى فى الكبير .  
وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من كان يؤمن بالله ورسوله فليؤد زكاة ماله ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليقل حقاً أو ليسكت ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

### المعنى

يقول حقاً : أى : ينطق بالصواب ويرشد إلى الحق ويقول قولاً يوافق آداب الشرع .  
ليصمت : أى : ليحذر أن ينطق فيما يغضب ربه فباللسان يدخل الجنة أو النار ويمدح أو يذم ويكرم أو يهان :

الصمت زين والسكوت سلامة فإذا نطقت فلا تكن مكثراً  
ما إن ندمت على سكوته مرة ولقد ندمت على الكلام مبراراً

\*\*\*

وانطق بحيث العى مستقبح واصمت بحيث الخير فى سكتك

وعن أبي أيوب رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ( أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ؟ قال :  
تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم .  
وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا  
عملته دخلت الجنة ؟ قال : ( تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتى الزكاة  
المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : والذي نفسى بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه : فلما ولى قال  
النبي ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم .  
وعن عمرو بن مرة الجهنى رضى الله عنه قال : جاء رجل من قضاة إلى رسول الله ﷺ فقال :  
إنى شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنتك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وصمت رمضان وقمته ،  
وأتيت الزكاة . فقال رسول الله ﷺ : ( من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء ) . رواه البزار  
بإسناد حسن .

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاث من فعلهن  
فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أن لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ،  
رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللثيمة ، ولكن من وسط  
أموالكم . فإن الله لم يستلكم خيره ولم يأمركم بشره )<sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود .

### المعنى

قوله رافدة عليه : من الرشد وهو الإعانة ، ومعناه أن يعطى الزكاة ونفسه تعينه على أدائها بطيبها ،  
وعدم حديثها له بالمنع .  
والشرط : بفتح الشين المعجمة والراء هى الرذيلة من المال كالحسنة والعجفاء ونحوهما .  
والدرنة : هى الجرباء .

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : ( بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء  
الزكاة ، والنصح لكل مسلم )<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ومن  
جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصراره عليه ) . رواه ابن خزيمة .  
وعن زر بن حبیش : ( أن ابن مسعود رضى الله عنه كان عنده غلام يقرأ فى المصحف وعنده

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الأدب : ١٠ ، ومسلم فى الإيمان :  
٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، والنسائى فى الإيمان : ٦ ، وفى الصلاة : ١٠ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٠٧ ، ٣٤٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ١٥ ، وفى فضائل الصحابة : ١٥٠ ، وابن ماجه فى الرؤيا : ١٠ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ ، وفى مواقيت الصلاة : ٣ ، وفى الزكاة : ٢ ، وفى الشروط : ١ ، ومسلم فى

الإيمان : ٩٧ ، ٩٨ ، والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ ، والدارمى فى البيوع : ٩ .



أصحابه ، فجاء رجل يقال له حضرمة فقال : يا أبا عبد الرحمن : أى درجات الإسلام أفضل ؟ قال : الصلاة . قال : ثم أى ؟ قال : الزكاة . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن عبيد بن عمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : ( إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلاة الخمس التى كتبهن الله عليه ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، ويؤتى الزكاة . محتسباً بها طيبة نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن : الإشراف بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، إلا رافق محمداً ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

### أدلة الإنفاق من القرآن الكريم

هذه أقوال الفقهاء تنير لك سبيل إخراج الزكاة ، وتضىء لك كيفية الإنفاق الشرعى ، لتعلم أن الله تعالى يحب من عبده أن يوجد بماله فى طرق الخير ، ويقيم مشروعات البر ، وصروح الإحسان ، وإقراء القرآن ، يا أخى تجد الأمر بالصلاة ، فإذا أعزت هذه الطاعة لله أنتجت الزكاة ، وحب الإنفاق فى طاعة الله ، قال تعالى : يبشر المنفق بالخير المضاعف ، والفلات المباركة ، والزيادة المرجوة :

١ - ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ ١١ ﴾ .

مثل نفقة المحسنين كمثل باذر حبة يخرج منها ساق ، يتشعب لكل منه سبع شعب ، لكل منها سنبل ، فيها مائة حبة ، وتلك المضاعفة بفضل الله على حسب حال المنفق فى إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تتفاوت الأعمال فى مقادير الثواب .

﴿ والله واسع ﴾ : لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ فيه المنفق وقدر إنفاقه . ثم أنزل الله تعالى الآية الثانية تطميناً لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن اقتدى به فقد جهز جيش العسرة بألف بعير بأقنابها وأحلامها ، ( وسيدنا عبد الرحمن بن عوف ) فإنه أتى النبى ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة .

والمن : أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، والأذى أن يتناول عليه بسبب ما أنعم عليه .  
بخ بخ أيها المسلم : اتق الله وأكثر من الإنفاق تريح .

٢ - ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾<sup>(١)</sup>.

فالله تعالى ينادى المؤمنين ويأمرهم بالإففاق فيما وجب علينا إنفاقه من مال وزروع وثمار وماشية ، من قبل أن يأتي يوم لا يقدر الإنسان فيه على تدارك ما فاتته ، وما فرط في أدائه ، ولا خلاص من عذابه إذ لا بيع فيه ، فتحصلون أيها المؤمنون ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ، ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم ، أو يسامحونكم به ، ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً ، حتى تتكلوا على شفاعة تنفع وتشفع لكم .

﴿والكافرون هم الظالمون﴾ : قال البيضاوي : يريد التاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم ، أو وضعوا المال في غير موضعه ، وصرفوه على غير وجهه ، فوضع الكافرون موضحة تغليظاً لهم ، وتهديداً ، كقوله: ﴿ومن كفر﴾ مكان ومن لم يحج ، وإيداناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار ، لقوله تعالى : ﴿وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة﴾<sup>(٢)</sup>.

وإن الله جل جلاله أخبر عن المتقين الذين عملوا في الحياة فأفلحوا وفازوا بالسعادة ، وجعل من خلالهم إخراج زكاة أموالهم ، قال تعالى : ﴿قد أفلح المؤمنون \* الذين هم في صلاتهم خاشعون \* والذين هم عن اللغو معرضون \* والذين هم للزكاة فاعلون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين هم على صلواتهم يحافظون \* أولئك هم الوارثون \* الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾<sup>(٣)</sup>.

أى: فاز أولئك الذين اتصفوا بهذه الخلال الحميدة :

أولاً : الخائفون من الله سبحانه وتعالى ، المتذللون له ، الملزمون أبصارهم مساجدهم ، روى أنه ﷺ : كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت روى يبصره نحو مسجده ، وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال : ( لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه )<sup>(٤)</sup>.

ثانياً : المعرضون عما لا يعينهم من قول أو فعل ، لما بهم من الجد ما شغلهم عنه .

ثالثاً : البالغون الغاية في القيام على الطاعات البدنية والمالية ، والتجنب على المحرمات ، وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ، والزكاة تقع على المعنى ، وعلى العين .

رابعاً : عدم بذل الفرج إلا على الأزواج والسريرات .

والجامعون لهذه الصفات أحقاء بالفردوس ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، نعيمها دائم .

(١) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤٥ .

قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .  
البدن : واحدها بدنة ، قال البعض : إنها تطلق على الإبل ذكوراً وإناثاً ، وقال آخرون : إنها تشمل الإبل والبقر .

وقد صح في الحديث عن جابر بن عبد الله قال : ( أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الأخصاص : البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة )<sup>(١)</sup> .

وقد جعلها الله من الشعائر ، أى : من علامات تعظيم الله تعالى ، لما فيها من إطعام الطعام . قوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ :

أى : ثواب عظيم ، لما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً )<sup>(٢)</sup> . رواه ابن ماجه والترمذى .  
وقال سفيان الثوري : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن ، فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إني سمعت الله يقول : ﴿ لكم فيها خير ﴾ .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما أنفقت الورق في شيء أفضل من غيره في يوم عيد ) . رواه الدارقطني في سننه .

وقد يكون المقصود بالخير أيضاً الأجر والمنافع ، لما يستفاد من ظهورها بالركوب ، ومن ضلوعها باللبن ، ومن جلودها وأوبارها وأشعارها .

قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ :  
صواف : أى : قائمات ، قد صف أيديهن وأرجلهن واحدها صافة .  
ويذكر اسم الله عند ذبحها أو نحرها امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾<sup>(٣)</sup> .

عن جابر بن عبد الله قال : ( صلينا مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى . فلما انصرف أتى بكبش فذبحه ، فقال : باسم الله والله أكبر اللهم هذا عنى وعن لم يضح من أمتى )<sup>(٤)</sup> رواه أحمد .

وقال محمد بن إسحق : عن ابن عباس عن جابر قال : ( ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد . فقال حين وجههما : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾

(١) أخرجه مسلم في الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، وأبو داود في الأضاحى : ٦ ، والترمذى في الحج : ٦٦ ، وفي الأضاحى : ٣ ، ٥ ، والإمام مالك في الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد في ١ : ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ٢٧٥ ، وفي ٤ : ٤٠٩ ، وفي ٥ : ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذى في الأضاحى : ١ ، وابن ماجه في الأضاحى : ٣ .

(٣) الآية ١١٨ من سورة الانعام .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، وأبو داود في الأضاحى : ٨ ، والترمذى في الأضاحى : ١٠ ، ٢٠ .

﴿ إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين \* لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ اللهم منك ولك عن محمد وأمه . ثم سمي الله وكبر وذبح <sup>(١)</sup> .

وعن علي بن الحسين عن أبي رافع أن رسول الله ﷺ : ( كان إذا ضحى اشترى كبشين سميين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة ، ثم يقول : اللهم هذا عن أمتي جميعها ، من شهد لك بالتوحيد ، وشهد لي بالبلاغ . ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ، ثم يقول : هذا عن محمد وآل محمد . فيطعمهما جميعاً للمساكين ، ويأكل هو وأهله منهما <sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وابن ماجه .

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ : قال : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك <sup>(٣)</sup> .

وقد نحر رسول الله ﷺ في حجة الوداع ثلاثاً وستين بدنة ، وأعطى بقية المائة علياً ، فنحرها . قوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ : أي سقطت على الأرض بعد نحرها وموتها ، فقد ورد في الحديث : ( لا تعجلوا النفوس حتى تزهق ) .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحداكم شفرته ، وليرح ذبيحته ) <sup>(٤)</sup> . ولا يجوز شرعاً قطع شيء من البهيمة قبل ذبحها أو نحرها ، فإن حدث ذلك فالجزء الذي قطع منها ميتة لا تؤكل .

قال رسول الله ﷺ : ( ما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة ) <sup>(٥)</sup> . رواه أحمد .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ :

الأمر هنا للاستحباب ، كما قال مالك ، أما بعض الشافعية فقالوا بالوجوب .

المراد بالقانع : الراضى بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي : ١٧ ، ١٨ ، والبخاري في التوحيد : ١٣ ، وفي الأضاحي : ٩ ، ١٤ ، وأبوداود في الأضاحي : ٣ ، والترمذي في الأضاحي : ٢ ، والنسائي في الضحايا : ١٤ ، ٢٨ - ٣١ . وابن ماجه في الأضاحي : ١ ، والدارمي في الأضاحي : ١ ، والإمام أحمد في ٣ : ٩٩ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي : ١ ، والإمام أحمد في ٣ : ٣٢ ، وفي ٦ : ٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٣٩١ .

(٣) أخرجه أبوداود في المناسك : ٢٠ .

(٤) أخرجه مسلم في الصيد : ٥٧ ، وأبوداود في الأضاحي : ١١ ، والترمذي في الديات : ١٤ ، والنسائي في الضحايا : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وابن ماجه في الذبائح : ٣ ، والدارمي في الأضاحي : ١٠ ، والإمام أحمد في ٤ : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) أخرجه أبوداود في الأضاحي : ٢٣ ، وابن ماجه في الصيد : ٨ ، والدارمي في الصيد : ٩ ، والإمام أحمد في ٥ : ٢١٨ .

قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع  
والمراد بالمعتر : أى : المتعرض للسؤال .

والخلاصة : أنه إذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة ، فكلوا منها وأطعموا القانع  
والمستغنى بما يعطونه وهو فى بيته بلا مسألة ، والمعتر الذى يتعرض لكم ويأتى إليكم لتطعموه من  
لحمها ، فكلوا وأطعموا .

وقوله : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ :

أى : ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم ، خاضعة إن شئتم ركبتكم ، وإن شئتم حليتم ، وإن شئتم  
ذبحتم ، كما قال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون \* وذللناها  
لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون \* ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ (١) .

وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم  
لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ .

أى : لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ، ولا الدماء المهراقة بالنحر ، ولكن ترفع إليه الأعمال  
الصالحة ، والإخلاص فيها ، بإرادة وجهه تعالى فحسب .

والخلاصة : لن يرضى المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية ، وأخلصوا له فى أعمالهم ، فإذا لم  
يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب بها شيئاً ، وإن كثر ذلك فقد جاء فى الصحيح :  
( إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ) (٢) .

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها ، لافتاً أنظارهم إلى ما أوجب عليهم ، بقوله :  
﴿ كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ : أى : هكذا سخرها لكم لتشكروه على  
هدايته إياكم لمعالم دينه ، ومناسك حجه . فتقولوا : الله أكبر على ما هدانا ، والله الحمد على  
ما أولانا .

ثم وعد من امثل بقوله :

﴿ وبشر المحسنين ﴾ : أى : وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى  
الدنيا ، بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

### ثلاث مسائل

لما كانت السورة التى بين أيدينا هى سورة الحج ، ولما كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن

(١) الآيات ٧١-٧٣ من سورة يس .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٣٣ ، وابن ماجه فى الزهد : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

البيت الحرام والحج ومناسكه ، ولما كان ذلك كذلك رأينا من باب تمام الفائدة أن نتحدث أولاً : عما جاء فى السنة عن فضل المناسك ، وثانياً : حجة الوداع ، وثالثاً : كيف تؤدى الحج ؟ .

### \* المسألة الأولى : فضل المناسك :

#### الوقوف بعرفة والمزدلفة وفضل يوم عرفة

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة ) . قال : فقال رجل : يا رسول الله : هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : ( هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادى جاءونى شعناً غبراً ضاحين ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتى ، ولم يروا عذابى ، فلم ير يوم أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة ) . رواه أبو ليلى والبخاري وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

والبيهقى ولفظه : قال رسول الله ﷺ : ( إذا كان يوم عرفة فإن الله تبارك وتعالى يباهى بهم الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى أتوني شعناً غبراً ضاحين من كل فج عميق ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم . فتقول الملائكة : إن فيهم فلاناً مرهقاً وفلاناً . قال : يقول الله عز وجل : قد غفرت لهم . قال رسول الله ﷺ : ما من يوم أكثر عتقاً من النار من يوم عرفة ) .

ولفظ بن خزيمة نحوه ، لم يختلفا إلا فى حرف أو حرفين .

المرهق : هو الذى يغشى المنحارم ويرتكب المفساد .

قوله ضاحين : هو بالضاد المعجمة والحاء المهملة ، أى : بارزين للشمس غير مستترين منها . يقال : لكل من برز للشمس من غير شىء يظله ويكنه : إنه لضاح .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( ما روى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدر ولا أحقر ولا أغبط منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر . فإنه رأى جبرائيل عليه السلام يزعم الملائكة )<sup>(١)</sup> . رواه مالك والبيهقى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم عرفة : ( أيها الناس إن الله عز وجل تطول عليكم فى هذا اليوم فغفر لكم إلا التبعات ، فيما بينكم ، ووهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى لمحسنكم ما سأل ، فادفعوا باسم الله ، فلما كان يجمع قال : إن الله عز وجل : قد غفر لصالحكم وشفع صالحكم فى طالحيكم تنزل الرحمة فتعمهم ، ثم تفرق المغفرة فى الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده ، وإبليس وجنوده على جبال عرفت ينظرون ما يصنع الله بهم ، فإذا نزلت الرحمة دعا إبليس وجنوده بالويل والثبور ) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن ابن عباس بن مرداس رضى الله عنه : ( أن رسول الله ﷺ دعا لأمته عشية عرفة فأجيب أنى قد غفرت لهم ما خلا المظالم فإنى آخذ للمظلوم منه .

قال : أى رب إن شئت أعطيت المظلوم الجنة ، وغفرت للظالم ، فلم يجب عشية عرفة . فلما أصبح بالمزدلفة أعاد فأجيب إلى ما سأل . قال : فضحك رسول الله ﷺ - أو قال تبسم - فقال له أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : بأبى أنت وأمى إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها فما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك . قال : إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائى وغفر لأمتى أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور ( أى النار والهلاك ) فأضحكنى ما رأيت من جزئه (١) . رواه ابن ماجه .

وروى ابن المبارك عن سفيان الثورى عن الزبير بن عدى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ( وقف النبى ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب فقال : يا بلال أنصت لى الناس . فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله ﷺ فأنصت الناس فقال : معشر الناس أتانى جبرائيل عليه السلام أنفا فأقرأنى من ربه السلام ، وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المعشر ، وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله : هذا لنا خاصة ؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كثر خير الله وطاب (٢) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله يباهى بأهل علاقات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادى جاءونى شعناً غبراً (٣) ) رواه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : ( إن الله عز وجل يباهى ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة فيقول : انظروا إلى عبادى شعناً غبراً ) . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والصغير .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو يتجلى . ثم يباهى بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟ ) (٤) . رواه مسلم والنسائى .

وعن عبد العزيز بن قيس اليمدى قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : كان فلان ردف رسول الله ﷺ يوم عرفة ، فجعل الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن ، فقال له رسول الله ﷺ : ( ابن أخى إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له ) . رواه أحمد .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لويعلم أهل الجمع بمن حلوا لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة ) . رواه الطبرانى .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٢١١ ، وفى ٤ : ١٥ . (٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٦١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٤ ، ٣٠٥ .

(٤) أخرجه النسائى فى آداب القضاء : ٣٧ ، وفى الحج : ١٩٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٦ ، وابن ماجه فى المساجد : ١٩ ، وفى

المناسك : ٥٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٣٠٥ ، وفى ٤ : ٩٢ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله . كلمات أسأل عنهن . فقال ﷺ : اجلس . وجاء رجل من ثقيف فقال : يا رسول الله كلمات أسأل عنهن . فقال ﷺ : سبقك الأنصارى . فقال الأنصارى : إنه رجل غريب وإن للغريب حقاً ، فابدأ به ، فأقبل على الثقفى فقال : إن شئت أنبأتك عما كنت تسألني عنه ، وإن شئت تسألني وأخبرك . فقال : يا رسول الله : بل أجبنى عما كنت أسألك ؟ قال : جئت تسألني الركوع والسجود والصلاة والصوم . فقال : والذي بعثك بالحق ما أخطأت مما كان في نفسى شيئاً قال : فإذا ركعت فضع راحتك على ركبتيك ، ثم فرج أصابعك ، ثم اسكن حتى يأخذ كل عضو مأخذه ، وإذا سجدت فمكن جبهتك ولا تنقر نقراً ، وصل أول النهار وآخره . فقال : يا نبي الله : فإن أنا صليت بينهما ؟ قال : فأنت إذا مصل ، وصم من كل شهر ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة ، فقام الثقفى ، ثم أقبل على الأنصارى فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسألني ، وإن شئت تسألني وأخبرك فقال : لا يا نبي الله أخبرني بما جئت أسألك قال : جئت تسألني عن الحاج ماله حين يخرج من بيته ، وماله حين يقوم بعرفات ، وماله حين يرمى الجمار ، وماله حين يحلق رأسه ، وماله حين يقضى آخر طواف بالبيت . فقال : يا نبي الله والذي بعثك بالحق ما أخطأت مما كان في نفسى شيئاً قال : فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، أو حط عنه بها خطيئة ، فإذا وقف بعرفات فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمى عالج ، وإذا رمى الجمار لا يدرى أحد ماله حتى يتوفاه الله يوم القيامة ، وإذا قضى آخر طواف بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ) . رواه البزار والطبرانى .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من مسلم يقف عشية عرفة بالموقف فيستقبل القبلة بوجهه ثم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير مائة مرة ثم يقرأ : قل هو الله أحد مائة مرة ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد وعلينا معهم مائة مرة إلا قال الله تعالى : يا ملائكتى : ما جزاء عبدى هذا سبحانه وهللنى وكبرنى وعظمنى وعرفنى وأثنى على وصلى على نبيّ أشهدوا ملائكتى أنى قد غفرت له وشفعته فى نفسه ولو سألتنى عبدى هذا لشفعته فى أهل الموقف ) . رواه البيهقى .

وعن أبى سليمان الدارانى قال : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الوقوف بالجبل ولم يكن فى الحرم قال : لأن الكعبة بيت الله ، والحرم باب الله ، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون ، قيل : يا أمير المؤمنين فالوقوف بالمشعر الحرام ؟ قال : لأنه لما أذن لهم بالدخول إليه وقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، فلما أن طال تضرعوا أذن لهم بتقريب قربانهم بمنى ، فلما أن قضوا نفثهم وقربوا قربانهم فطهروا بها من الذنوب التى كانت عليهم أذن لهم بالزيارة إليه على الطهارة . قيل : يا أمير المؤمنين : فمن أين حرم الصيام أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوار الله وهم فى ضيافته ولا يجوز للضيف أن يصوم دون إذن من أضافه ، قيل : يا أمير المؤمنين فتعلق الرجل بأستار



الكعبة ، لأى معنى هو؟ قال : هو مثل الرجل بينه وبين صاحبه جناية فيتعلق بشو به ويتنصل إليه وينخدع له ليهب له جنايته ) . رواه البيهقى .

### فضل رمى الجمار

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن رمى الجمار مالنا فيه ؟ فسمعتة يقول : ( تجد ذلك عند ربك أحوج ما تكون إليه ) . رواه الطبرانى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه إلى النبى ﷺ قال : ( لما أتى إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه وسلامه المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون ) . رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا رميت الجمار كان لك نوراً يوم القيامة ) . رواه البزار .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذه الجمار التى ترمى كل سنة ، فنحسب أنها تنقص ؟ قال : ( ما تقبل منها رفع ولولا ذلك رأيتموها مثل الجبال ) . رواه الطبرانى . فانظر حكمة الله تعالى : فى مناسك الحج ، وكل فعله جل شأنه لحكمة ، ففى الحج حجر يرمى ، وآخر يُقبل ، حجر يرجم ، وآخر يلثم ، الحجر الذى يرجم فيه رمز وإشارة إلى أن هذا الدين يطارد الشر فى كل مكان ، فقد عرض الشيطان لإبراهيم فى هذا المكان فلا بد من تذكرة للعباد ، ويذكرون بها أن الشر لا بد أن يرجم ، أما الحجر الذى يُقبل فهو الحجر الأسود ، الذى نقبله كما قبله رسول الله ﷺ .

وفيه إشارة إلى أنك قد دخلت بيت ملك الملوك . فلا بد أن تقيّد اسمك فى سجل التشرىفات الإلهية ، فتضع شفتيك على هذا الحجر دون إحداث صوت ، فأت فى بيت أكرم الأكرمين ، تريد أن تشهده حتى تسجل لك تلك الشهادة فى الديوان الإلهى ، وعلى من وسوس له الشيطان أن يذكر ما قاله له الفاروق عمر عندما أراد أن يقبل هذا الحجر قال : ( إنى أعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ) (١) .

ولقد قبله رسول الله صلوات ربه وسلامه عليه وبكى ، فقال له الفاروق ما يبكيك يا رسول الله . فقال له الحبيب : ( هنا تسكب العبرات يا عمر ) (٢) .

(١) أخرجه البخارى فى الحج : ٥٠ ، ومسلم فى الحج : ٢٤٨ ، ٢٥١ ، والنسائى فى المناسك : ١٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٢٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٢٧ .

وما ذلك إلا لأن الصادق المعصوم رجعت به الذكريات عبر القرون الخاليات . فتذكر إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، فليس الحج كما يزعم مرضى القلوب ، أحجار يطاف بها أو ترجم أو تلثم ، إنما الحج دروس فى العقيدة ، قضية أصول التوحيد ، ألسنا نكبر ونهمل ، ألسنا ندعو إذا طفنا وإذا سعينا ، وإذا وقفنا إذا رمينا .

إن رجلا - أى ابن عباس يذكر الله قائلا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . فقال له : يا ابن عباس أتذكر ولا تدعو ؟ وهذا اليوم يوم عرفة . قال له ابن عباس :

أوما سمعت قول الله فى الحديث : ( من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين )<sup>(١)</sup> .

يا هؤلاء : ليس فى الحج شىء من الوثنية ، لأن الإسلام هو الذى حطم الوثنية فى جميع الجبهات ، إنما فى الحج : ( لييك اللهم لييك ، لييك لا شريك لك لييك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، إنما الحج لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ) .

إنما الحج : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، والله الحمد . كلمات جرت على لسان جبريل ، والخليل ، والذبيح إسماعيل ، فأى شىء من الوثنية فى تلك المناسك كما يدعى الماديون الملحدون .

الحج : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

### فضل الحلق

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( اللهم اغفر للمحلقين ) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : ( وللمقصرين )<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم الحصين رضى الله عنها ( أنها سمعت النبى ﷺ فى حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة )<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٨٧ ، والترمذى فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ ، والإمام مالك فى الحج : ١٨٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢١٦ ، ٣٥٣ ، وفى ٢ : ١٦ ، ٣٤ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، وفى ٣ : ٢٠ ، ٨٩ ، وفى ٤ : ٧٠ ، ١٦٥ .

(٥) أخرجه مسلم فى الحج : ٣١٦ - ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ .

وعن مالك بن ربيعة رضى الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول : ( اللهم اغفر للمحلقين ، اللهم اغفر للمحلقين . قال : يقول رجل من القوم : وللمقصيرين ؟ فقال رسول الله ﷺ : فى الثالثة أو الرابعة وللمقصيرين ) ثم قال : ( وأنا يومئذ محلق الرأس فما يسرنى بحلق رأسى جمر النعم )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والطبرانى .

### أيهما أفضل

دعاؤه ﷺ للمحلقين ثلاث مرات ، وللمقصيرين مرة واحدة ، تصريح بتفضيل الحلق . وقد أجمع العلماء على أن الحلق أفضل من التقصير ، وعلى أن التقصير يجزى . قال النووى : ووجه فضيلة الحلق على التقصير أنه أبلغ فى العبادة ، وأدل على صدق النية فى التذلل لله تعالى ، ولأن المقصر مبق على نفسه الشعر الذى هو زينة ، والحاج مأمور بترك الزينة ، بل هو أشعث أغبر ، والله أعلم .

واتفق العلماء على أن الأفضل فى الحلق والتقصير أن يكون بعد رمى جمرة العقبة ، وبعد ذبح الهدى إن كان معه ، وأقل ما يجزى من الحلق والتقصير عند الشافعى ثلاث شعرات .

وعند أبى حنيفة ربع الرأس ، وعند أبى يوسف نصف الرأس .

وعند مالك وأحمد : أكثر الرأس ، وعند مالك رواية : كل الرأس .

وأجمعوا أن الأفضل حلق جميعه أو تقصير جميعه ، ويستحب أن لا ينقص فى التقصير عن قدر الأنملة من أطراف الشعر ، فإن قصر دونها جاز لحصول اسم التقصير ، والمشروع فى حق النساء التقصير ، ويكره لهن الحلق فلو حلقن حصل النسك ، ويقوم مقام الحلق والتقصير التفت والإحراق والقص ، وغير ذلك من أنواع إزالة الشعر .

### قال الفقهاء

ثبت الحلق والتقصير بالكتاب ، والسنة ، والإجماع .

قال الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : ( رحم الله المحلقين قالوا : والمقصيرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصيرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصيرين )<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨ ، ٥٤ ، ٣٦٣ ، وفى ٢ : ٢١٦ ، وفى ٤ : ١٧٧ ، وفى ٥ : ٦٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٣٣٣ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الفتح .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ - ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٧٨ ، والترمذى

فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ .

وروي عنه : أن النبي ﷺ حلق ، وحلق طائفة من أصحابه ، وقصر بعضهم .  
والمقصود بالحلق إزالة شعر الرأس بالموسى ونحوه ، أو بالتف .  
ولو اقتصر على ثلاث شعرات جاز .

والمراد بالتقصير أن يأخذ من شعر الرأس قدر الأنملة ، وقد اختلف جمهور الفقهاء فى حكمه .  
فذهب أكثرهم : إلى أنه واجب ، يجبر تركه بدم .  
وذهب الشافعية : إلى أنه ركن من أركان الحج .

وقته :

وقته للحاج بعد رمى جمره العقبة يوم النحر ، فإذا كان معه هدى حلق بعد الذبح .  
ففى حديث معمر بن عبد الله : ( إن رسول الله ﷺ لما نحر هديه بمنى قال : أمرنى أن  
أحلقه )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد .

ووقته فى العمرة بعد أن يفرغ من السعى بين الصفا والمروة ، ولمن معه هدى بعد ذبحه .  
ويجب أن يكون فى الحرم ، وفى أيام النحر ، عند أبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد .  
وعند الشافعى ومحمد بن الحسن والمشهور من مذهب أحمد : يجب أن يكون الحلق أو التقصير  
بالحرم دون أيام النحر ، فإن أحر الحلق عن أيام النحر جاز ، ولا شىء عليه .  
ما يستحب فيه :

يستحب فى الحلق أن يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر ، ويستقبل القبلة ويكبر ويصلى بعد الفراغ  
منه .

قال وكيع : قال لى أبو حنيفة : أخطأت فى خمسة أبواب ، من المناسك فعلمنيها حجام .  
وذلك أنى حين أردت أن أحلق رأسى وقفت على حجام ، فقلت له : بكم تحلق رأسى ؟ فقال :  
أعراقى أنت ؟ قلت : نعم . قال : النسك لا يشارط عليه . اجلس ، فجلست منحرفا عن القبلة فقال  
لى : حرّك وجهك إلى القبلة ، وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر فقال : أدر الشق الأيمن من  
رأسك ، فأدرته وجعل يحلق وأنا ساكت ، فقال لى : كبير فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب . فقال  
لى أين تريد ؟ فقلت رحلى . قال : صل ركعتين ثم امض ، فقلت : ما ينبغى أن يكون ما رأيت من  
عقل هذا الحجام . فقلت له : من أين لك ما أمرتنى به قال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا .  
ذكره المحب الطبرى .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٧٦ ، ١٥٧ ، وفى ٤ : ٣٢٧ .

## المسألة الثانية :

## حجة رسول الله ﷺ

وتسمى حجة الوداع وحجة البلاغ وحجة الإسلام .

روى مسلم قال : حدثنا أبو بكر بن شيبة وإسحق بن إبراهيم جميعاً وعن حاتم قال أبو بكر : حدثنا حاتم بن إسماعيل المدنى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال :  
( دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه فسأل عن القوم حتى انتهى إلى ؟ فقلت : أنا محمد ابن علي بن حسين ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فتزعزعى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديي ، وأنا يومئذ غلام شاب . فقال : مرحباً بك يا ابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجه ملحقة بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاًها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب ( الشماعة ) .

( فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ فقال : بيده : فعقد تسعاً ، فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة : أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتى برسول الله ﷺ ، ويعمل مثل عمله .  
فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستشفرى بثوب وأحرمى .

فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ، ثم ركب ( القصواء ) حتى إذا استوت به ناقته على البداء ، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به ، فأهل بالتوحيد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك والملك لا شريك لك » .  
وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً . ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ <sup>(١)</sup> .

فجعل المقام بينه وبين البيت .

وكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ <sup>(٢)</sup> أبداً بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا

فرق عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل فوحده الله وكبره ، وقال : لا إله إلا الله لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

( ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى إذا كان آخر طوافه على المروة كما فعل على الصفا .

( حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : ( لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فقام سراقه بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعاننا هذا أم الأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : ( دخلت العمرة فى الحج مرتين . لا بل لأبد أبد ) .

وقدم على من اليمن بيدن النبي ﷺ فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبى أمرنى بهذا .

( قال : فكان على يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها فقال : صدقت صدقت .

( ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

( قال : قلت : ( اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك ) .

( قال : فإن معى الهدى فلا تحل .

( قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به على من اليمن والذى أتى به النبي ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلى بهم الظهر .

والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له

بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع

فى الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت

الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

( إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل

شئ من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم

ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع

ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم

فروجهن بكلمة ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير

مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب

الله وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال :

بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء يئكتها إلى الناس اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاث مرات .  
ثم أذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب  
رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه  
واستقبل القبلة .

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .  
ورفع رسول الله ﷺ وقد شق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده  
اليمنى : أيها الناس ، السكينة السكينة كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى  
المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .  
ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهله ووحده فلم يزل واقفاً  
حتى أسفر جداً .

فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً فلما  
دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجري فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه  
الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه  
الفضل . يصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محشر .

فحرك قليلاً « ثم سلك الطريق الوسطى » التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة عند  
الشجرة فرماها بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غير وأشركه في هديه ثم أمر  
من كل بدنة بيضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .  
ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولاً أن يغلبكم  
الناس على سقايتكم لتزعت معكم . فناولوه دلواً فشرب منه <sup>(١)</sup> .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات  
القواعد .

قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر  
جزءاً كبيراً ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً ، قال : ولو نقص لزيد على هذا العدد قريب  
منه قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استنثار  
الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع  
المحرك صوته بالتلبية ، ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك  
ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك .

وأنه ينبغي للسحاج القدوم أولاً إلى مكة ليطوف طواف القدوم وأن يستلم - الحجر الأسود - قبل طوافه ، ويرمل في الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل إسراع المشى مع تقارب الخطأ وهو الخبب ، وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته وأنه يأتي بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (١) . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت الأصلي ويصلي ركعتين .

ويقرأ فيهما في الأولى - بعد الفاتحة - سورة ﴿ الكافرون ﴾ ، وفي الثانية بعد الفاتحة - سورة ﴿ الإخلاص ﴾ ودل الحديث أنه يشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن السعى سنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويرمل في بطن الوادي ، وهو الذي يقال له « بين الميئين » وهو - أي الرمل - مشروع في كل مرة من سبعة الأشواط لا في الثلاثة الأول ، كما في طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضاً على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو . ويتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالاً ، وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة .

وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم في يوم الترويه - وهو الثامن من ذي الحجة - يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ، ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى ، والسنة أن يصلي بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة - وهي ليلة التاسع من ذي الحجة .

ومن السنة كذلك أن لا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ ( عرفات ) فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات .

ولم يدخل - ﷺ - الموقف - إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة أن لا يصلي بينهما شيئاً وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة وهذه إحدى الخطب المسنونة في الحج .

والثانية - أي : من الخطب المسنونة - يوم السابع من ذي الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة - أي : من الخطب المسنونة - يوم النحر .

والرابعة - يوم النفر الأول .

وفي الحديث سنن وآداب منها :

أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين .

وأن يقف - في عرفات - ركباً أفضل .



وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبي ﷺ أو قريباً منه . وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى في الموقف حتى تغرب الشمس .  
ويكون في وقوفه داعياً الله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .  
فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات : وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا في سببه .  
ف قيل : إنه نسك وقيل : لأنهم مسافرون - أى : السفر هو العلة لمشروعية الجمع .  
ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا في كونه - أى المبيت - واجباً أو سنة .  
ومن السنة أن يصلى الصبح في المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتي المشعر الحرام فيقف به ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك .

ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً : فيأتي بطن محسر فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله على أصحاب الفيل فلا ينبغي الأناة فيه ولا البقاء .

فإذا أتى الجمرة - وهي جمرة العقبة - نزل ببطن الوادي ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء - أى الفول - يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى النحر فينحر - إن كان عنده هدى - ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة - وهو الذي يقال له طواف الزيارة .

ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام حتى وطئ النساء .

وأما إذا رمى جمرة العقبة ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شيء ما عدا النساء .

هذا هو هدى رسول الله ﷺ في حجته والآتي به مقتد به - ﷺ - وممثل لقوله : ( خذوا عني

مناسككم ) (١) . وحجه صحيح .

### المسألة الثالثة :

#### كيفية أداء الحج

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شربه ، ويقص شعره وأظافره ، ويغتسل ، أو يتوضأ ، ويتطيب ، ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم - أى : نوى الحج ، إن كان مفرداً أو العمرة إن كان متمتعاً أوهما معاً إن كان قارناً .

(١) أخرجه النسائي في المناسك : ٢٢٠ . والإمام أحمد في ٣ : ٣١٨ ، ٣٦٦ .

وهذا الإحرام ركن ، لا يصح النسك بدونه .  
أما تعيين نوع النسك من أفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً  
صح إحرامه .

وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفاً أو هبط وادياً أولقى ركبا ،  
أو أحداً ، وفي الأسحار ، وفي كل دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم والجدل فيما لا فائدة فيه وأن  
لا يتزوج ولا يزوج غيره ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذي يستر ما فوق الكعبين  
ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً .

ولا يقص ظفراً ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ولا لشجر الحرم وحشيشه فإذا دخل مكة المكرمة  
استحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذي طوى بالزاهر إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها ( من باب السلام ) ذاكراً أدعية دخول المسجد وواعياً آداب الدخول  
وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية . فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله من فضله وذكر  
الدعاء المستحب في ذلك .

ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها .

فإن لم يستطع ذلك أشار له .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ثم يشرع في الطواف .

ويستحب له أن يضطبع ويرمل في الأشواط الثلاثة الأول ويمشى على هيبته في الأشواط الأربعة  
الباقية .

ويسن له استلام الركن اليماني وتقبيل الحجر الأسود في كل شوط . فإذا فرغ من طوافه توجه إلى  
مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ ويصلي ركعتين يقرأ في الأولى :  
﴿ قل هو أحد ﴾ وفي الثانية : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم يخرج إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن  
الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ (١) . الآية .

ويصعد عليه ، ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى في السعى ذاكراً  
داعياً بما شاء .

فإذا بلغ ( ما بين الميئين ) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه  
إلى الكعبة داعياً ، ذاكراً وهذا هو الشوط الأول .

وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

(١) الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

وهذا السعى واجب على الأرجح وعلى تاركه - كله أو بعضه - دم فإذا كان المحرم متمتعاً خلق رأسه أو قصر .

وبهذا تتم عمرته ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء .  
أما القارن والمفرد فيقيان على إحرامهما .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المستمتع من منزله ويخرج - هو وغيره ممن بقى على إحرامه - إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد ( نمرة ) واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام يقصر فيهما الصلاة .

هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً ، حسب استطاعته .

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها .

فإن هذا موضع وقوف النبي ﷺ ، والوقوف بـ ( عرفة ) هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ، ولا ينبغي صعود جبل الرحمة .

ويستقبل القبلة ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل أفاض إلى ( المزدلفة ) فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير . ويبت بها .

فإذا طلع القمر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيراً حتى يسفر الصبح فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى ( منى ) .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ثم يذبح هديه - إن أمكنه - ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة ، فيطوف بها طواف الإفاضة - وهو طواف الركن - فيطوف - كما طاف - طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضاً طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارناً ، وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شيء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها .

والمبيت بها واجب ، يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة التى تلى ( منى ) ثم يرمى الجمرة الوسطى ، ويقف بعد الرمى داعياً ذاكراً ، ثم يرمى جمرة العقبة

ولا يقف عندها ، وينبغي أن يرمى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ، ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك .

ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر ، وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .  
ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع وهذا الطواف واجب .  
وعلى تاركة أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات ولا ذبح شاة .

ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار وطواف الإفاضة والمبيت ( بمنى ) والذبح والحلق والتقصير .

ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو :  
( اللهم إني عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك حملتني على ما سخرت لى من خلقك وسيرتني فى بلادك حتى بلغتني - بنعمتك - إلى بيتك وأعنتني على أداء نسكى فإن كنت رضية عنى فازدد عنى رضا وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى ، فهذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم فأصحبني العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير ) .

قال الشافعى : أحب : إذا ودع البيت - أن يقف فى الملتزم ، وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :  
( السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته ( الشهوة ) فليعجل إلى أهله )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا قضى أحدكم حجه فليتعجل إلى أهله فإنه أعظم لأجره ) . رواه الدارقطنى .

وروى مسلم عن العلاء بن الحضرمى : أن رسول الله ﷺ قال : ( يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثاً )<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٩ ، وفى الجهاد : ١٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، ومسلم فى الإمارة : ١٧٩ ، والدارمى فى الاستئذان : ٤٠ ، والإمام مالك فى الاستئذان : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٩٦ .  
(٢) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٤٣ .

## أحكام الله عادلة

\* إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٢٨﴾ أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ  
 بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا  
 أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدِمَتْ صُومُاعٌ وَبِيعٌ  
 وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ  
 ﴿٣٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا  
 عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ  
 وَثَمُودٌ ﴿٣٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٣٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ  
 لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ  
 فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مَعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ ﴿٣٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ  
 قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ  
 الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٣٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ  
 كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٣٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىٰ  
 الْمَصِيرِ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٣٩﴾ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
 الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ  
 أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٤١﴾

المفردات : أذن : أى رخص .  
 الصوامع : واحدها صومعة وهى معبد الرهبان فى الصحراء - الدير .  
 والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصرى .  
 والصلوات : واحدها صلاة مغرب صلوتا بالعبرية معبد اليهود .  
 ومساجد : واحدها مسجد وهو معبد المسلمين .  
 أمليت : أى : أمهلت .  
 أخذتهم : أى : أهلكتهم .  
 فكيف : استفهام يراد به التعجب .  
 والتكبر والإنكار على الشيء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على ما فعل .  
 خاوية : ساقطة .  
 عروشها : أى : سقوفها .  
 معطلة : أى : عطلت من منافعها .  
 مشيد : أى : مبنى بالشيد وهو الجص ( الجير ) .  
 الإنذار : التخويف .

وأصل السعى : الإسراع فى المشى ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد ، يقال سعى فى أمر فلان : إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه معاجزين : أى : مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .  
 قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ :  
 هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين بالدفاع عنهم ، ومنع الأشرار والظالمين عن أذاهم ، ووعد الله حق ، وصدق ، لا يختلف ولا يتخلف ، قال سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادْنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادْنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٢) .  
 ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ (٣) ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنْ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٤) .  
 ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنْ اللَّهُ بِالْغَيْبِ عَلِيمٌ ﴾ (٥) .

إن الذين عرفوا ربهم فأمنوا به ، وصدقوا رسله ، يعلمون علم اليقين أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فإذا كان وعدهم بالدفاع عنهم فذلك حق ثابت ، فما بالك إذا أكد هذا الوعد بأداة التوكيد « إن » .

(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(٥) الآيات ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزمر .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .

ثم يقتضى وعده أن يكون الدفاع عنهم عاقبته النصر ، ذلك أنه لا يحب كل خوان كفور ، أى شديد الخيانة والكفر لا عهد له ولا وعد ولا ميثاق ولا وفاء عنده فهو فى خيائته جاحد كل نعمة ، وكل الكائنات تؤكد أن شكر النعم واجب ، ولكنها النفوس إذا عشت فيها الشيطان فباض فيها الزندقة ، وأفرخ فيها الإلحاد .

قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿ .

عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبينهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ . قال أبو بكر رضى الله عنه : فعرفت أنه سيكون قتال .

وهذه أول آية فى الجهاد ، فإن رسول الله ﷺ دعا إلى الله بالحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، وأنزل الله تعالى عليه ﴿ يأيتها المدثر ﴾ قم فأنذر ﴿ وربك فكبر ﴾ وثيابك فطهر ﴿ والرجز فاهجر ﴾ ولا تمنن تستكثر ﴿ (١) .

وأنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (٢) .

وأنزل عليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (٣) .

وأنزل عليه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٤) .

فقبل بالأذى من أهل مكة ، وذهب إلى الطائف لعله يجد بينهم من يستجيب لدعوته ، ولكنه رمى بالحجارة من سفهائهم وصبيانهم ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وأرسل إلى ربه برقية عاطرة يقول فيها :

(اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ) .

وعلى جناح السرعة كان جبريل يجوب الآفاق ، ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، يستأذن رسول الله أن يطبق عليهم الأخشبين ، فماذا كان رده ﷺ ؟

إنه رد جعل سفير الأنبياء ، وكبير أمناء وحى السماء يعجب العجب كله ، إن الخطر محتوم ، والخطوات مدلهمة ، وقد بلغ السيل الذبى وجاوز الحزام الطبيعى ، حتى يظن من رأى هذا

(٣) الآية ٩٤ من سورة الحجر .

(٤) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(١) الآيات ١-٦ من سورة المدثر .

(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .

الموقف أنه لم يبق في قوس الصبر منزع ، وإذا بالرد الكريم من النبي الكريم ينزل على النفوس كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، ينزل برداً وسلاماً ، لقد قال الصادق المعصوم : ( يا جبريل إني لأرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يقول لا إله إلا الله . اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون ) . فلم يسع الأمين جبريل إلا أن يقول له : ( صدق من سماك الرؤوف الرحيم ) . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

نور أضواء فبدد الظلماء والكون أصبح باسماء وأضواء  
يا نور أحمد فى صلاتك روعة الله شرف نوره وأضواء  
سعدت لطلعتك السموات العلى والأرض صارت جنة خضراء  
أنت الذى قاد الجيوش مح طمأ عهد الضلال وأدب السفهاء  
وسموك بالبشر الذى تعد لموا ستنى الشريعة فارتقوا سعداء  
واشتد الأذى على رسول الله بعد عودته من الطائف ، واستقر رأيهم فى دار الندوة على قتله ، وأذن الله له بالهجرة إلى المدينة : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (١) .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾ (٢) .

﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم ﴾ (٣) .  
وخرج الرسول من مكة والحنين يملأ قلبه إليها ، وقال يخاطب مكة : ( والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجنى منك ما خرجت ) فأنزل الله عليه :  
﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾ (٤) .

وهاجر الرسول إلى المدينة واستقر بها ، فماذا حدث ؟ ومتى شرع القتال ؟  
وقبل أن يجيب على هذا السؤال اللواء محمود شيت خطاب ، يبين معنى القتال فيقول : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة ، وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى القتال .

### فمتى شرع القتال فى الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة ، رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضر ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويثبتوا عقيدة ، ويقولوا فى حرارة وصدق ربنا الله . فلما اشتد عدااء قريش ، وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة .

(٣) الآية ١٣ من سورة محمد .

(٤) الآية ٨٥ من سورة القصص .

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .



فهل وقف البغى ، وخفت حدة العدوان ؟ كلا ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين فى القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿ . لقد خرج الرسول ﷺ غازيا فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال ( فعلا ) فى الإسلام .

### أهداف القتال فى الإسلام

#### \* حماية نشر الدعوة :

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام ( نشر ) الدعوة بل ( حماية حرية ) نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ (١) . ولو كان الفضل فى انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته ، حين ضعف أهله ، وغلبوا على أمرهم .

ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين . ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) .

إن الحرب فى الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح وشرف ، لا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو اجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد ، والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى ، والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين والنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين .

#### \* توطيد أركان السلام :

تكون الأمة بغير جيش عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ، ولا يهابون قوتها ، فإذا كان لها جيش قوى احترمت العدو وإرادتها ، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذاك السلام : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ \* وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم \* وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وبالمؤمنين \* وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم \* يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ (٢) .

إن الإسلام كما نزل عليه تسميته دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، لا يجيز الحرب إلا فى حالات محددة ، بحيث تعتبر فيما عداها جريمة .

## أنواع القتال فى الإسلام

### \* قتال المسلمين للمسلمين :

هذا النوع من القتال هو شأن من الشئون الداخلية للمسلمين ، فقد فرض القرآن حالة بغى وخروج على النظام العام ، تقع بين طوائف المسلمين بعضها مع بعض ، أو بين الرعية وراعيها ، فوضع لها تشريعا من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها ، وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها ، ويقضى المجموع شر البغى والتعداى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءت فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿٣﴾ .

هذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ، ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية ، فتلجأ كل منهما إلى القوة ، فتوجب هذه الآية على الأمة ممثلة فى حكوماتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق ، وتحاول الإصلاح بينهما ، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات ، وأخذ كل ذى حق حقه ، ورد البغى ، واستقر الأمن ، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال .

وإن بغت إحداهما على الأخرى ، واستمرت على العدوان ، وأبت أن تخضع للحق ، وتنزل على حكم المؤمنين ، كانت بذلك باغية خارجة على سلطان القانون ، متمردة على التشريع الإلهى والنظام ، فيجب على جماعة المسلمين قتالها ، حتى تخضع وترجع إلى الحق .

إن القصد من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة ، وعدم إفساح المجال لتفريقها ، لذلك فهذه الحرب طريق ( للسلم ) وقضاء على البغى والعدوان .

### \* قتال المسلمين لغير المسلمين :

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان ، وحماية الدعوة ، وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستثثار ، وإذلال الضعفاء ، وتوخي به أن يكون طريقا إلى السلام والاطمئنان ، وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

(١) الآيات ٦٠ - ٦٤ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحجرات .

وليست الجزية عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هي لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء .. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية في العقائد والأموال ، وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف : ( إني عاهدتكم على الجزية والمنعة .. فإن منعناكم فلنا جزية وإلا فلا نمنعكم ) .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية القواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية ، حين اضطروا المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قال القواد المسلمون لأهل تلك المدن : ( إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم فهذه هي أموالكم نردها إليكم ) .

لقد كان فرض الجزية في الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع في أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : أعلاها : وهو ( ٤٨ ) درهماً في السنة على الأغنياء ( حوالى دينارين ونصف دينار عراقي أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً ) .

وأوسطها : وهو ( ٢٤ ) درهماً في السنة على المتوسطين من تجار وزراع . وأدناها : وهو ( ١٢ ) درهماً في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف في المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبي والمرأة والراهب ، والمنقطع للعبادة ، والأعمى والمقعّد ، وذوى العاهات ، أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة في تصحيلها ، وقد جاء في عهد خالد لصاحب مقل الناطف : ( إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله ) .

ليس ذلك فحسب بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش ، والذي يقبل التطوع من الجيش الإسلامى عند الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدى للخدمة العسكرية في عصرنا الحاضر .

كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : ( وأيما شخص ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله ) .

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال .

ومعنى (صاغرون) فى آية الجزية: ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾<sup>(١)</sup> هو الخضوع، إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع، ومنه أطلق (الصغير) على الطفل، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه، والمراد بالخضوع حيثئذ الخضوع لسلطان الدولة، بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم، واحترام عقائدهم، ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه.

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾<sup>(٢)</sup>.

واقراً الآية الكريمة وهى من أواخر القرآن نزولاً فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾<sup>(٣)</sup>.

من ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى: بر وقسط وتعاون ومصاهرة.

### \* تنظيم القتال فى الإسلام:

تقوية المعنويات: يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين، وثواب المجاهدين، لأنهم يقاتلون فى سبيل إنقاذ الضعفاء، والبر بالإنسان، ومقاومة الجبروت والطغيان، ولدحض عوامل الشر والإفساد.

﴿فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً﴾ وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾<sup>(٤)</sup>.

بمثل هذا الأسلوب القوى حارب الإسلام عوامل الضعف، ونزعات الخوف، وغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية، والاستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرتة: ﴿إنما المؤمنون

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة.

(٢) الآيتان ٨، ٩ من سورة الممتحنة.

(٣) الآية ٥ من سورة المائدة.

(٤) الآيات ٧٤-٧٦ من سورة النساء.

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴿١﴾.

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية وقد كانت المعنويات العالية ولا تزال من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

إعداد القوة المادية : حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتناول العدد والعدة وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال ، وإعداد آلات الحرب ، ووسائل القتال ، ومواد التموين ، وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحقيق الحدود والثغور ، والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة فيها لحمايتها ، يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحي الضعف والتخاذل ﴿ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾ (٢) .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بالحديد بصورة خاصة للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٣) .

إن الجهاد فى الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافعة عن الحق وحمانيته .

### \* التنظيم العملى للقتال :

الإعفاء من الجندية : أسباب الإعفاء من الجندية فى الإسلام محصورة فى الضعيف ، ويشمل الضعيف الممرض ، والعجز ، والشيخوخة ، وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ (٤) .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ، ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل التقدي ، ولا البنوة لحاكم كبير ، مما عهدناه فى عصور الانحلال ، بل كان العمل فى عصر النبى ﷺ ، والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير فى جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجراتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم .

\* إعلان الحرب : حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدرأ :

﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (٥) .

(٤) الآية ٩١ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة النساء .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان في القتال .

\* الدعوة إلى الجهاد : حذر الإسلام من التباطؤ في تلبية داعي الجهاد ، والشاغل عنه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ \* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴿<sup>(١)</sup>

\* عقاب المتخلفين : عاقب الإسلام المتخلفين عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا . ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى . إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط . ولا يشمل أهله وعشيرته ، ولا سكان قريته .

\* تطهير الجيش : يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ومن الذين يختلفون عن أفرادها بالعقيدة . حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة . يعمل لتحقيقها . ويبدل كل ما يملكه في سبيلها .

\* أساليب القتال : ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ويوزع وحداته على تلك المواضع : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوء المؤمنون مقاعد للقتال ﴾<sup>(٣)</sup> .

ويبتكر القتال بأسلوب الصف الذي لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾<sup>(٤)</sup>

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال في العصر الحاضر ، فهو يؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التي ليست في الحسبان .

\* الضبط : يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة والثبات في المواقف وتجنب أسباب الفشل والاعتصام بالله وباليقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ \* وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴿<sup>(٥)</sup>

\* الكتمان : حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ،

(١) الآيات ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١١٨ من سورة التوبة .

(٣) الآية ١٢١ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٣ من سورة الصف .

(٥) الآيات ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأنفال .

وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ (١).

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولوردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ (٢).

\* الهدنة والصلح : أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ، ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء ، وظهرت منهم علامات الصديق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ (٣).

\* الأسرى : خير الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (٤).

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ولو لخوف فهو كالمسلم الأصلي يحرم دمه أيضاً .

\* المحافظة على العهود : حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود . وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إخلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق والوقية بالضعفاء ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ (٥).

قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ :

أى: هو القدير على أن ينصرهم بدون قتال ، أو كفاح مسلح ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ سيهديهم ويصلح بالهم \* ويدخلهم الجنة عرفها لهم \* يأبى الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٦).

وهكذا فالقتال جهاد وإبلاء: ﴿ ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ (٧).

وكما قال جل شأنه : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾ (٨).

(٥) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .

(٦) الآيات ٤ - ٧ من سورة محمد .

(٧) الآية ١٤١ من سورة آل عمران .

(٨) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٦٠ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٨٣ من سورة النساء .

(٣) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .

(٤) الآية ٤ من سورة محمد .

وما أدراك ما الشهادة ؟ ثم ما أدراك ما الشهداء ؟ حسبك أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴿ (١) .

قوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

والمراد بهم رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقد أخرجوا من ديارهم بمكة مهاجرين إلى المدينة ، بغير حق ، لأن الذين أخرجوهم لا يعرفون للحق ديوانا ، ولا ينصبون له ميزانا ، لأنهم مردوا على الباطل ، ومروا على الكفر ، وما كان لسيدنا محمد وأصحابه من ذنب اقترفوه ، إنما كل ذنبهم في نظر هؤلاء الجاحدين المبطلين أنهم أعلنوها في سمع الزمان مدوية : ﴿ ربنا الله ﴾ .

وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ (٢) : أى ما أخرجوكم إلا لإيمانكم بالله ربكم .

وكما في قوله جل شأنه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴿ (٣) .

فهل نالوا من قلوبهم فغيروا ما بها من عقائد ، لا والله ، لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

إن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شفاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، ومن ثم لما كان المسلمون يرتجزون في بناء الخندق ويقولون :

( اللهم لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينتنا علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الألى بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا ) (٤) .

إن الإحن لا تزيد المؤمنين إلا ثباتا ورسوخا وبزوغا وشموخا .  
إنهم كلما اشتدت بهم الشدائد صهرتهم في بوتقة الصمود ، وتذكروا قول الله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴿ (٥) .

(١) الآيات ١٦٩-١٧٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١ من سورة الممتحنة .

(٣) الآيات ٨ ، ٩ من سورة البروج .

(٤) أخرجه البخارى في الجهاد : ٣٤ ، وفى القدر : ١٦ ، وفى التمنى : ٧ ، وفى الأدب : ٩٠ ، وفى المغازى : ٢٩ ، ٣٨ ، ومسلم

فى الجهاد : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، والدارمى فى السير : ١٨ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣١ ، وفى ٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ .

(٥) الآيات ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأحزاب .



إن الجماعة المسلمة ترسل هذه الصيحة كأنها البركان في سمع الزمان ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائب في رحابنا ، وستلوا على الدنيا كتاب جهادنا ، صُمّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا :

يا خيل الله اركبي ، هبى ريح الجنة هبى .  
ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى  
قوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ :

اقتضت سنة الله فى كونه أن يظل الحق فى صراع مع الباطل ، من يوم هبط آدم إلى الأرض ، كما اقتضت سنته العادلة أنه جلت قدرته يدفع بعض الناس ببعض ، فليعلم أهل الحق أنهم مطالبون بدفع الباطل ، وتدمير قوى الشر ، لولا ذلك لفست الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ، ولولا أن أتباع كل نبي قاوموا أهل الباطل والشرك لهدمت بيوت العبادة فى كل زمان ، صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيراً .

ويجب علينا أن نعلم أن دين الله واحد وهو الإسلام ، أما تلك التسمية من رهبان ونصارى ويهود ، فإنها ديانات من وضع البشر .

أما الإسلام فهو دين كل نبي ، وأتباعه الذين عزروه ونصروه ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ \* فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴿ (١) .

أما من اتبع ديناً ، وابتغى ملة غير الإسلام ، فهو كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ (٢) .

وكما قال جل شأنه : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا من ذلك سبيلاً ﴾ أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴿ (٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ (٤) .  
وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ (٥) .

(١) الآية ١٩ ، ٢٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٦ من سورة البقرة .

(٤) الآية ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء .

ألا فلتعلم الأمة المسلمة : أن قوى الشر قد تكالبت وتشبثت بباطلها ، وعربدت فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا أغفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل . فعلى أهل الحق أن يدفعوا أهل الباطل ، فلولا ذلك لفسدت الأرض ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

يقول الكاتب الإسلامى الكبير فتحى يكن :

إن الإسلام يخوض اليوم معركة مصير ، ومن حقه على أبنائه والسائرين فى دربه أن يدودوا عنه ، وينافحوا دونه بكل ما يملكون من إمكانيات فكرية ومادية ومعنوية ، ومعركة المصير هذه ينبغي أن تستنفر أهل الإيمان فى كل مكان ، لسد الثغرات ، وحماية الجبهات التى يمكن أن يتسلل منها إلى الإسلام خصومه وأعداؤه .

ومسؤولية العاملين فى الحقل الإسلامى فى هذه الفترة مسؤولية ضخمة ودقيقة ، ويقدر البذل يكون الجزاء ، وعلى قدر الجهد يأتى العطاء .

### الإسلام بين المبدأ والتطبيق

ليس من قبيل المبالغة القول بأن التحديات ( الفكرية والسياسية والغوغائية ) التى يتعرض لها الإسلام فى العصر الحديث ، تفوق ضخامة وشراسة كل التحديات التى واجهتها الحركات الأخرى مجتمعة ، ولوتعرض لمثل ما تعرض له الإسلام نظام آخر من الأنظمة الوضعية ، لعفى أثره وانطوى ذكره ، ولم يعد له فى واقع الحياة أدنى وجود .

ولكنه الإسلام المنهج الإلهى الخالد الذى كان يستعصى بخصائص البقاء على معاول الهدم ، ويخرج من كل صراع قويا منتصراً مؤكداً على الزمن أبديته ، التى جعلها الله إحدى صفاته المميزة حين قرر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

أثم الإسلام بالرجعية ، واعتبر متهموه الدعوة إليه عوداً بالبشرية إلى الوراء ، وتخلفاً عن ركب الحضارة والمدنية آلاف السنين .

جاء فى الموسوعة السوفياتية الكبيرة ، وفى الصفحة ( ٦١٥ - ٦١٩ ) من الجزء الثانى عشر : ( إن الإسلام لعب على الدوام كغيره من الأديان الأخرى دوراً رجعياً ، وكان دائماً أداة فى أيدي الطبقات الرجعية المستغلة لإرهاق الطبقات العاملة ، وأداة للاستعمار الأجنبى الرامى إلى استعباد شعوب الشرق ، إن السنة والقرآن كليهما يبرران النظام الطبقي والاستغلال ... الخ ) .

ثم جاء من يعتبر الإسلام تجربة من التجارب التى مرت بالحياة العربية ليس إلا ، وأنه قد استنفذ أغراضه ، وليس لديه مقومات البقاء والنماء والعطاء .

فقد جاء فى الصفحة (٥١) من كتاب ( فى سبيل البعث ) لميشيل عفلق ، قوله : ( فهذه الأمة التى أفصححت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحا متعددًا متنوعًا فى تشريع حمورابى ، وشعر الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة المأمون ، فيها شعور واحد ... الخ ) .  
واتهم الإسلام بأنه نظرية ( تجريدية ) وفلسفة ( مثالية ) غير قابلة للتطبيق .  
وهكذا ذهب أعداء الإسلام فى اتهاماتهم مذاهب شتى : ﴿ يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (١)

عوامل نشوء هذه الشبهات :  
لقد تسبب وساعد على نشوء مثل هذه الشبهات ، وقيام أمثال هذه الحملات المسعورة من التضليل والتشكيك فى وجه الإسلام عوامل كثيرة منها :

- ١ - غيبة الوجود ( الحركى ) للإسلام عن قيادة الأمة فترة طويلة من الزمن ، مما أدى إلى تطاول خصومه فى نجوة من وجود حكومة إسلامية تدافع عنه ، وترد عنه شائعات الحاقدين .
  - ٢ - إصابة الأمة ( فكريا ونفسيا ) ببلوثات مادية جانحة من تأثير الحضارة الغربية الغازية .
  - ٣ - تسلل الفكر اليسارى ( الماركسى ) إلى المجتمع الإسلامى ، يسوق أمامه فيضا من التصورات والآراء والطعون ، بكل فكرة ( دينية ) على الإطلاق نتيجة لردة الفعل التى أحدثتها انحرافات الكنيسة الأوربية عن إطار المسيحية الروحية .
  - ٤ - جهل المسلمين بحقيقة دينهم ، وخصائص إسلامهم ، وآفاق شريعتهم ، مما جعلهم لقمة سائغة للاتجاهات والمذاهب المادية التى غزت العالم الإسلامى فى مطلع القرن العشرين .
- هذه الأسباب وغيرها عملت ( على الزمن ) على عزل الإسلام عن الصراع الحياتى الذى تخوضه الأمة ، وألبسته ثوبا كهنتيا ليس منه ، وبالتالي أدت إلى نشوء أجيال من المسلمين لم تطلع على الإسلام إلا من زوايا مظلمة ، زادت منها نفرة وانفلاتا ، حتى أصبح الإسلام بأفكاره وأخلاقه ومبادئه فى واد ، وأصبح المسلمون ( المنتسبون إليه ) فى واد آخر ، لا يمت إليه بصلة من الصلات على الإطلاق .

ولو أدرك المسلمون أن الإسلام :

صيحة الحرية فى وجه العبودية .

وصيحة المساواة فى وجه الطبقة .

وصيحة العدالة الاجتماعية فى وجه الإقطاع والرأسمالية .

لو أدرك المسلمون أن دينهم هذه خصائصه ومبادئه لما وجدت الاتجاهات الاشتراكية والشعبوية منفذا إلى بلاد الإسلام ، ولما أصبحت المجتمعات الإسلامية سوقا ( عامة ) لعرض المبادئ المستوردة ، والشعارات الكاذبة المزيفة .

وليسمع شباب الإسلام والمثقفون منهم بوجه أخص ما يقوله (اللورد استانلى) ، وكان نصرانيا فأسلم ، وكان يتحدث عن الأسباب والعوامل التى حدثت به إلى اعتناق الإسلام .

قال استانلى : ( أو أغنط الفضل وأهله ، أو أجدد الله وعلمه ، أنا مسلم رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأننى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأننى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلاً . أنا مسلم أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصيحيتها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه ) .

خصائص المنهج الإسلامى :

إن الإسلام يمتاز بخصائص ذاتية هى فواصل جذرية ، وفوارق أصيلة بينه وبين الاتجاهات والمذاهب الحديثة .

### الحاكمية لله

فالحاكمية فى المنهج الإسلامى لله ، لا لفرد ، ولا لحزب ، ولا لشعب .  
فلا ديكتاتورية لفرد ، ولا تسلط لحزب ، ولا حاكمية لشعب فى تشريع الإسلام .  
والحقيقة أن معظم المظالم الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر الاستبداد السياسى منشؤها خضوع الحاكمية لتشريع زمنى وضعى ، ولسلطة بشرية .

فالنظام الديمقراطى يجعل الحاكمية للشعب ، ويجعله مصدر السلطات ، منه وإليه يعود كل أمر ، وبذلك يكرس التميع ( الفردى ) والانتفاخ ( الشخصى ) مما لا يتحقق معه هبة فى الحكم ، أو أمن وسلام فى المجتمع .

إن شعور الفرد فى ظل النظام الديمقراطى بأنه مصدر القوانين والتشريعات ، ينمى فيه بواعث الاستهتار بالقوانين والتشريعات ، ويعطيه من أسباب السطوة ما يجعله قادراً بنفوذه الشخصى والمادى ، على تسخير السلطة لمصالحه ورغباته .

وبالتالى يمنحه حق التلاعب بالقوانين ، ووضعها بما يتلاءم مع أهوائه وأغراضه .

يقول (مارتن دوج) فى كتابه : (اعرف مذهبك) صفحة (١٨) فى معرض حديثه عن الديمقراطية : ( وفكرة الديمقراطية تتلخص فى أن يحكم الناس أنفسهم ، دون أن يكونوا رعايا ، ذلك أن الناس لهم المقام الأول والصدارة ، ثم تليهم فى المرتبة الثانية السلطة الحاكمة ، وفى ظل النظام الديمقراطى يحكم المجتمع نفسه من أجل نفسه ) .

أما النظام الشيوعى فإنه يكرس حاكمية (الحزب الواحد) للأمة بأسرها ، وبذلك يعطى الحزب نفسه حق سن القوانين ، واستصدار التشريعات ، بما يكفل له البقاء والسيطرة فى الحكم ، وهو بذلك نظام سياسى يقبض بمقتضاه (الحزب) على زمام السلطة فى بلد يخضع أفراداه عموماً لما يفرض عليهم ، وعلى شؤون حياتهم من إجراءات .

فالحزب الشيوعي في (روسيا) مثلاً هو الحزب السياسى الوحيد والحاكم ، ومع ذلك فإنه لا يمثل الشعب الروسى أصدق تمثيل ، إذ يبلغ عدد أعضائه ( ستة ) ملايين فقط من أصل (١٨٠) مليوناً وهى كما نرى نسبة ضئيلة جداً .

وبهذا لا يمكن أن تكون حاكمية ( الحزب الواحد ) فى أى نظام من أنظمة الحكم مصدر استقرار وعدالة ومساواة ، طالما أن الذين فى أيديهم السلطة يخضعون كل شىء لمصالحهم الشخصية والحزبية .

وبين هذين الاتجاهين المتطرفين يقوم ( المنهج الإسلامى ) فوق قواعد تشريعية ، يخضع لها الحاكم والمحكوم على حد سواء ، وينصاع لها الكبير والصغير دونما تمايز أو تخصيص .  
فالحاكمية فى النظام الإسلامى ليست لشعب ، كما هو الشأن فى النظام ( الديمقراطى ) ، كما أنها ليست الحزب كما هو الحال فى النظام ( الشيوعى ) وسائر الأنظمة ( الاشتراكية ) .  
وهى كذلك ليست لفرد ، كما هو الأمر فى النظم ( الديكتاتورية ) .

وإنما هى ( الله ) خالق الكون ومالكة ، وهذا ما يقرره الدستور الإسلامى فى كثير من آياته : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ (١) .

﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ﴾ (٢) .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ (٣) .

والإسلام يحقق هذه الحاكمية الربانية عن طريق ( قانون إلهى ) يتضمن الأحكام التى جاء بها القرآن الكريم ، وفسرتها وفصلتها سنة رسول الله ﷺ .

فالإسلام منهج متفرد فى خصائصه ، لم تضع أحكامه ونظمه وتشريعاته أهواء حاكم ، أو مصلحة حزب ، وإنما وضعتها عدالة سماء ، فلا تمييز ولا محاباة ولا أنانية ، ولا تحكم ولا حزبية ولا سطوة ، وإنما الجميع أمام شرع الله سواء عدالة ، لا تعرف ظلماً ولا عتياً ولا تفاضلاً .

ومساواة تطبق على الجميع من غير محسوبيات أو استثناءات .

وهاكم بعض الشواهد من دستور الله الخالد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٤) .

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (٥) .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ (٦) .

(٤) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٥) الآية ٤٩ من سورة المائدة .

(٦) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٠ من سورة الشورى .

(٣) الآية ١٠٥ من سورة النساء .

وروى أن امرأة من بنى مخزوم سرت ، فقالت قریش : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ أى ليضع عنها الحد ، فلم يجدوا إلا (أسامة بن زيد) حب رسول الله ﷺ ، يقوى على ذلك ، فلما كلم أسامة رسول الله بذلك . قال رسول الله غاضباً : ( أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟ ) ثم قام وخطب الناس قائلاً : ( أيها الناس : إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرت لقطع محمد يدها )<sup>(١)</sup> ومن وصايا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد بن أبى وقاص : ( إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم وضيعهم فى ذات الله سواء )<sup>(٢)</sup> .  
وفى وصية للخليفة من بعده يقول : ( اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحابة فيما ولاك الله ) .

### الشمول لا الجزئية

من خصائص المنهج الإسلامى شموله وكليته ، فالإسلام ليس تصوريا (عقيديا) فحسب ، ولا دينا (عباديا روحيا) وكفى ، ولا نظاما اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مجردا . ولكنه منهج حياة ، يجمع إلى رقة (التوجيه) دقة (التشريع) ، وإلى جلال (العقيدة) جمال (العبادة) وإلى إمامة (المحراب) ، قيادة (الحرب) .  
إن المنهج الإسلامى لم يكن ردة فعل لسوء أوضاع اقتصادية ، ليكون نظاما اقتصاديا ، شأن الماركسية وسائر المذاهب الاشتراكية ، كما أنه ليس مدرسة روحانية شأن المسيحية .  
إن الإسلام منهج متكامل الجوانب ، شامل النظرة ، فيه تنظيم علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقة مجتمعه به ، وفيه بيان للأصول والقواعد التى تقوم عليها النظم والقوانين التى تحكم سير المجتمع والناس ، وفق نظرة الإسلام للكون ، والإنسان ، والحياة .  
يقول (جيون) : ( القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ) ليس لأصول العقيدة فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى ، وترتيب شؤونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية ) .

### الفطرية لا التطرف أو المثالية

ومن خصائص المنهج الإسلامى : أنه دين الفطرة ، اعترف للإنسان بحاجاته الروحية

(١) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الحدود : ١٢ ، ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ ، وأبو داود فى الحدود : ٤ ، والترمذى فى الحدود : ٦ ، والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى الحدود : ٦ ، والدارمى فى الحدود : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ١٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .  
(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٦ .

والعضوية ، وقيمه تقييما إنسانيا مراعيًا في ذلك. نوازعه الفطرية كلها ، محققا التناسق والتوافق بينها جميعا .

فالإسلام لم ينظر إلى الإنسان نظرة ( مادية مجردة ) لا تتعدى هيكله الجسدى ، ومتطلباته الغريزية ، شأن الشيوعية وسائر المذاهب المادية ، فى الوقت الذى لم يحرمه حقوقه البدنية ، وحاجاته البشرية .

فلم يكن الإسلام ( أبيتوريا ) فى إطلاقه للغرائز والشهوات من غير تنظيم ولا تكييف ، كما لم يكن ( رواقيا ) فى فرض المثالية الخيالية ، وإعدام المتطلبات الغريزية فى الإنسان ، وفطرية الإسلام جسدت فى مبادئه ( النظرة الواقعية ) .

وأفرده بخصائص التوفيق والتنسيق بين المادة والروح ، وهذا ما ينطق به مدلول الآية الكريمة ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ (١) .

ويقول الشهيد ( سيد قطب ) فى تفسير هذه الآية : إنها العقيدة التى تعترف بالإنسان إنسانا لا حيوانا ولا ملكا ولا شيطانا ، تعترف به كما هو بكل ما فيه من ضعف ، وكل ما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق ، وتفرض عليه من التكليف ما يطبق ، وتراعى فى التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات .

### الاطمئنان العقيدى لا القلق الوجودى

ومن خصائص المنهج الإسلامى أنه عرّف الإنسان على نفسه ، وسر خلقه ، ومسبب وجوده ، فحل بذلك عقدة من أخطر العقد فى الحياة البشرية .

لم يترك الإسلام الإنسان فى الكون وحيدا بلا عماد ، حائرا من غير هدى ، يجابه مصيره بمفرده ، ويحدد طريقه وحده ، ويحكم نفسه بنفسه .

لقد أجاب الإسلام على كل الأسئلة التى طرحها ( الوجوديون ) قديما وحديثا ، والتى أرادوا من ورائها التفلت من كل القيود والحدود ، ليعيشوا أحرارا كما يزعمون ، وهم فى الحقيقة ( معيبد ) ، وأكثر من عبيد .

فالإسلام لم يعتبر ( الوجود ) بلا غاية ، كما يزعم ( سارتر ) ولم يعتبره وجودا ( سخيفا ) فى عالم لامعقول ، ولم يعتبر أن الإنسان موجود فيه لا أكثر ولا أقل ، لا يعرف من أين أتى ؟ ولا إلى أين هو ذاهب ؟ .

كذلك لم يعتبر الإنسان مسيرا بدون إرادة ، تسوقه الطبيعة كالحيوان .

بل إن الإسلام جعل للإنسان عقلا يفكر به ويستفتيه ، وإرادة يتحرك بها كيفما شاء ، وأنى شاء . وجعل لخلق سببا ، ولوجوده هدفا ، والحياة الإنسانية غاية ، خلق الإنسان ليلوه فيما آتاه ،

ويختبره فيما أعطاه ، أيكفر أم يشكر : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ ﴿١﴾ .

وطالبه بتسخير نفسه وأعضائه ، ودفع غرائزه وميوله في طريق الخير ، ضمانا لعمارة الأرض ، وتحقيقاً لرسالة الاستخلاف : ﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ ﴿٢﴾ قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿٣﴾ . وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿٤﴾ .

فالإنسان في الإسلام صاحب رسالة ، يعمل على أدائها ، وله غاية يسعى للوصول إليها ، إنه يدرك أن حياته رحلة ينبغي أن يقطعها وفق الخط الإلهي الذي يضمن له السعادة في الدنيا ، والنعيم الأبدى في الآخرة .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ : هذا وعد أكيد لا يختلف ولا يتخلف ، بل إنك لتعجب وأنت تسمع أن الله يقسم ويؤكد الفعل ( ينصرون ) .

يقول النحاة والصرفيون : إن الفعل في مثل هذه المواقع واجب التوكيد ، وذلك لاستيفائه الشروط ، فقد وقع جواباً للقسم متصلاً مستقبلاً موجبا غير منفي ، ونصر الله لعباده المؤمنين يشمل الدنيا والآخرة : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ﴿٦﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ ﴿٧﴾ .

فالمؤمنون هم أهل النصر ، لأنهم هم الذين ينصرون الله بجهادهم في سبيل إعلاء كلمته ، إنهم رفعوا راية الجهاد في جميع الميادين ، جهاد الكلمة بالدعوة إلى الله : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ ﴿٨﴾ .

وجهاد القدوة فإنهم ملتزمون لأمر الله ، مجتنبون نواهيه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ ﴿٩﴾ .

إنهم العاملون المكافحون الثابتون ، إنهم المجاهدون لأنفسهم : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ ﴿١٠﴾ .

(١) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الإنسان .

(٢) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الملك .

(٣) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٥) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٦) الآية ٤٧ من سورة الروم .

(٧) الآية ٣٣ من سورة فصلت .

(٨) الآية ٨٨ من سورة هود .

(٩) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .



إنهم المجاهدون بالسيف للقضاء على السيف ، إنهم المجاهدون بسيف التوحيد والعدل لتحطيم سيف الشرك والظلم :

قالوا غزوت ورسل الله مابعثوا بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم  
جهل وتضليل أحلام وسفسطة غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم  
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم  
فالخير إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

صدقت ربنا وتباركت وتعاليت ، أنت القائل : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) .

من هؤلاء المستحقون لنصر الله :

إنهم الذين قال الله فيهم :

﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ .

هذا هو عقد الصلح مع الله شروطه : إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، أمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، والتصديق عليه : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ .

إن الله تبارك وتعالى ختم الآية السابقة بقوله : ﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾ .

فهو القوى الذي لا يغلب ، والعزيز الذي لا يقهر ولا يذل ، فمن غيره ينصرنا ، إن نصره لا خذلان فيه ، وإن خذلانه لا نصر بعده .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) .

وآية التمكين ختمت بقوله تعالى : ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ .

فخبرني بربك إلى من تصير الأمور ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٣) .

فإذا كانت القوة لله ، والعزة لله ، وصيرورة الأمور إلى الله ، وعاقبتها إلى الله إذا كان ذلك كذلك وهو كذلك ، فلماذا الخوف والحرص على الدنيا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ \* إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴾ \* إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٣) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود \* وقوم إبراهيم وقوم لوط \* وأصحاب مدین وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ ﴿٢﴾ .

هؤلاء أقوام سبعة من الأنبياء : قوم نوح وقد أخذهم الله بالطوفان ، وقوم هود وهم عاد وقد أهلكهم الله عندما قالوا له ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ \* إن هذا إلا خلق الأولين \* وما نحن بمعذبين \* فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٣﴾ وكذلك ثمود قوم صالح ، عندما قالوا له : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ \* ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين \* قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم \* ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم \* فعقروها فأصبحوا نادمين \* فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٤﴾ .

كذلك قوم إبراهيم عندما قالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ ﴿٥﴾ .

لقد حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فوراً : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم \* وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴿٦﴾ .

وفي سورة الصافات : ﴿ فأردوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ ﴿٧﴾ .

كذلك قوم لوط عندما أتوا الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾ \* ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴿٨﴾ .

وقد بين الله نوع هذا العذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴿٩﴾ .

كذلك أصحاب مدین الذين كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فلم يمثلوا أمر الله ، ولم يجتنبوا نهيه ، فأهلكهم الله بعد ما قالوا لنبي الله شعيب ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ \* وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين \* فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين \* قال ربي أعلم بما تعملون \* فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١٠﴾ .

كذلك كذب موسى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان

(١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) الآيات ٤٢ - ٤٤ من سورة الحج .

(٣) الآيات ١٣٦ - ١٤٠ من سورة الشعراء .

(٤) الآيات ١٥٣ - ١٥٩ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ٩٨ من سورة الصافات .

(٨) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر .

(٩) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .

(١٠) الآيات ١٨٥ - ١٩١ من سورة الشعراء .

على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين \* واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون \* وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ﴾ :

الإملاء هو الإمهال ، والأخذ هو الإهلاك ، إن الله لا يعجل كمجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ ﴿٢﴾ .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ﴿٣﴾ .

ما أهون هؤلاء على الله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ \* إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ :

الفاء تفرعية على ما سبق ، وكيف اسم استفهام يراد به التعجب ، وهو خير كان ، ونكير اسمها مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة ، والتقدير كان نكيرى عليهم ، وإنكارى لما أتوه ، كان عجيبا وشديدا ، وفى هذه الآيات التى قصت علينا تكذيب الأمم للأنبياء تصبير وتثبيت للصادق المعصوم ﷺ : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ \* وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴿٥﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ \* وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون \* وانتظروا إنا منتظرون \* والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٦﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ ﴿٧﴾ .

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص . (٤) الآيتان ٤٦ ، ٤٧ من سورة العنكبوت . (٧) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود . (٥) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت . (٦) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة هود .

قوله تعالى : ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِثْرٍ مَعْظِلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن قرى كثيرة أهلكها لظلم أهلها ، فقد عبدوا غير الله وأشركوا به ، ولم يفردوه بالعبادة ، فجاءهم بأس الله فصارت تلك القرى خاوية على عروشها ، أى: سقطت حيطانها على سقفوها ، فكمن من بثر عطلت بعد هلاك وإرديها وصادريها ، وكم قصر كان مشيداً بالصخر وطيد البنيان خرَّ على أهله : ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين﴾ \* وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون \* وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون \* أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ .

أقعد هؤلاء الجاحدون الظالمون فلم يسيروا فى الأرض ، ألم يمشوا فى منابها ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، فلم ينظروا إلى من كان قبلهم من الأمم الظالمة كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كانت عاقبة المكذبين﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

وقوله جل شأنه : ﴿أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وكما فى قوله تبارك وتعالى : ﴿وانكم لثمرون عليهم مصبحين﴾ \* وبالليل أفلا تعقلون ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ .

ألم يعقل هؤلاء ما حدث لمن كان قبلهم ؟ ألم يسمع هؤلاء بأذانهم ما جرى للطغاة والجبابرة الظالمين ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين﴾ \* ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .  
﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ .

ألم يعقل هؤلاء ؟ ألم يسمعوا ألم يبصروا ؟ إن لهم عيوناً وحدقات ولكنها عميت عن رؤية الحق ، فجحدته وأنكرت ضوء الشمس وهى ساطعة ، تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، لكن العمى عمى القلوب ، لذا قال سبحانه : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ .

وغير خاف أن القلوب فى الصدور لكن ربك جلت حكمته لما نفى عنهم عمى الأبصار التى من

(٤) الآيات ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .

(٥) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .

(٦) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

(١) الآيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص .

(٢) الآية ١١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٦ من سورة السجدة .

شأنها أن تبصر ، أثبت أن العمى عمى القلوب ، وأكد ذلك بأنها فى الصدور كما فى قوله جل شأنه ﴿ يقولون بأفواههم ﴾ (١) وقوله : ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾ (٢) .

نعم ليس العمى عمى الأبصار ، إنما العمى عمى القلب ، قال ابن عباس رضى الله عنه لما كف بصره :

إن أذهب الله من عيني نورهما ففى فؤادى وعقلي منهما نور  
عقلي ذكى وقلبي ما حوى دخلاً وفى فمى صارم كالسيف مشهور  
وقال آخر :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يقال ضرير  
إذا أبصر المرء المروءة والوفا فإن عمى العينين ليس يضرير  
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

إن هؤلاء الظالمين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٣) .

فهؤلاء قد عطلت مداركهم وحواسهم ، فالقلوب لا تفقه لما بها من عمى ، والعيون لا تبصر بصر إدراك وتدبر ، والآذان لا تسمع سماع تعقل وتفكر : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وشس المصير ﴾ إذا لقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير \* وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير \* فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كالف سنة مما تعدون ﴾ :

إنهم يطلبون تعجيل العذاب طلب استهزاء بوعد الله ، لذلك أكد الله وعده ، فقال : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ .

ومن هذا الاستهزاء قوله : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ (٥) قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين \* يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ (٦) .

(٤) الآيات ٦-١١ من سورة الملك .

(٥) الآية ٢٥ من سورة الملك .

(٦) الآية ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

(١) الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٧ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

لقد بلغ من جرأتهم وتكذيبهم أنهم قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (١) .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (٢) وقال : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع \* للكافرين ليس له دافع \* من الله ذى المعارج \* تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة \* فاصبر صبراً جميلاً \* إنهم يرونه بعيداً \* ونراه قريباً \* يوم تكون السماء كالمهل \* وتكون الجبال كالعهن \* ولا يسأل حميم حميماً \* يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه \* وصاحبته وأخيه \* وفصيلته التى تؤويه \* ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه \* كلا إنها لظى \* نزاعة للشوى \* تدعو من أدبر وتولى \* وجمع فأوعى ﴾ (٣) .

لقد اقتضت سنة الله تعالى أن يحدد للعذاب يوماً معلوماً ، وأجلاً محدوداً .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ (٤) .

فلا تستعجلوا أيها المكذبون : إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ، وإنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، وليس سنن الله على حسب ما تريدون ، فإن يوماً عنده كآلف سنة مما تعدون ، إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وخلق الإنسان عجولاً .

كما قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾ (٦) .

وسبحان القائل : ﴿ خلق الإنسان من عجل سآوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾ (٧) .

إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد \* إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود \* وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ (٨) .

ثم أكد الله لهم صدق وعده ، وأن العذاب واقع لا محالة بالمكذبين ، فقال : ﴿ وكأين من قرية أهلكنا وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾ :

أى كم من قرية أمهلتها ثم أهلكتها وهى ظالمة والمصير إلى ، والمرجع إلى : ﴿ إن إلينا إيابهم \* ثم إن علينا حسابهم ﴾ (٩) .

فأعجب معى كيف كان الظلم مدمراً للأمم : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (١٠) .

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنفال .

(٣) الآيات ١-١٨ من سورة المعارج .

(٤) الآية ١٢٩ من سورة طه .

(٥) الآية ١١ من سورة الإسراء .

(٦) الآية ١١ من سورة يونس .

(٧) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .

(٨) الآيات ١٠٢ - ١٠٤ من سورة هود .

(٩) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الفاشية .

(١٠) الآية ١١٧ من سورة هود .

قال تعالى : ﴿ فكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والظلم عاقبته وخيمة ، فقد يكون ظلماً في العقيدة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) .

يحدثنا الإمام أبو العباس أحمد بن علي بن حجر المكي الهيثمي : يحدثنا في كتابه الزواجر عن الشرك فيقول :

وقدمت الكلام عن تلك الكبيرة ، لأنها ومرتكبها أذل العصاة وأحق .

قال بعض الأئمة : كبائر القلوب أعظم من كبائر الجوارح ، لأنها كلها توجب الفسق والظلم ، وتزيد كبائر القلوب ، بأنها تأكل الحسنات ، وتوالى شذائد العقوبات .

ثم يسوق نصوصاً يتحدث عن الشرك الأكبر فيقول : قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (٤) .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت ) (٥) .

وفي الحديث الصحيح : ( اجتنبوا السبع الموبقات ) (٦) .

وذكر منها الإشراف بالله ، وروى أحمد والبخاري والترمذي والنسائي : ( الكبائر الإشراف بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس ) الحديث . وأحمد والشيخان والترمذي والنسائي : ( الكبائر الإشراف بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور ) .  
وكونه أكبرهن إنما هو فيما لم يرد فيه ما يدل على أنه أكبر منها كالشرك ، والقتل ، والزنا .

وأبو داود والنسائي : ( الكبائر تسع وأعظمهن إشراف بالله ) الحديث . والطبراني : ( اجتنبوا الكبائر السبع : الشرك بالله ) (٧) الحديث .

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .

(٤) الآية ٧٢ من سورة المائدة .

(٥) أخرجه البخاري في الشهادات : ١٠ ، وفي الأدب : ٦ ، وفي الاستئذان : ٣٥ . ومسلم في الإيمان : ١٤٣ ، ١٤٤ ، والترمذي في الشهادات : ٣ ، وفي البر : ٤ ، وفي تفسير سورة ٤ : ٥ ، والإمام أحمد في ٣ : ١٣١ ، وفي ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .

(٦) أخرجه البخاري في الوصايا : ٢٣ ، وفي الحدود ، وفي الطب : ٤٨ ، ومسلم في الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود في الوصايا .

(٧) أخرجه النسائي في الزكاة : ١ ، وفي التحريم : ٣ ، والإمام أحمد في ٥ : ٤١٣ .

وأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم : ( إن من أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس ، ما حلف حالف بالله يمين حبر فأدخل فيها جناح بعوضة إلا جعلت نكته في قلبه إلى يوم القيامة )<sup>(١)</sup> .

والطبرانى والحاكم والبيهقى : ( ألا إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التي كتبهن الله على عباده ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، يرى أنه عليه حق ، ويؤتي زكاة ماله طيبة بها لنفسه أحتسبها ، ويجتنب الكبائر التي نهى الله عنها ؟ قيل : يا رسول الله كم الكبائر ؟ قال : هي تسع أعظمهن الإشراك بالله وقتل المؤمن بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام قبلكم أحياء وأمواتاً ولا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة إلا رافق محمد ﷺ في بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب ) .

وقال ﷺ : ( اذهب يا ابن الخطاب ) وفي رواية ( قم يا عمر فناد في الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

وقال ﷺ : ( يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا للمؤمن ) . وقال ﷺ : ( يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن .. )<sup>(٣)</sup> رواه البخارى .

وقال ﷺ : ( لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة )<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد ومسلم .

وأبوداود وابن ماجه : ( إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة .. )<sup>(٥)</sup> رواه أحمد والشيخان .

( من بدل دينه فاقتلوه )<sup>(٦)</sup> رواه أحمد والبخارى . والأربعة ( من ارتد عن دينه فاقتلوه )<sup>(٧)</sup> .

والطبرانى ( أسلم وإن كنت كارهاً ) . والبخارى وأبو يعلى والضياء : ( أمركم بثلاث ، وأنهاكم

(١) أخرجه البخارى فى الأدب : ٦ ، وفى الإيمان : ١٦ ، وفى الديات : ٢ ، وفى الاستنباط : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ٤ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى التحريم : ٣ ، وفى القسامة : ٤٨ ، والدارمى فى الديات : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفى ٣ : ٤٩٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٨٢ ، والدارمى فى السير : ٤٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، ٤٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى القدر : ٥ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٣ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى الإيمان : ٧ ، والدارمى فى الصوم : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٩٩ ، وفى ٣ : ٣٤٩ ، ٤١٥ ، وفى ٤ : ٣٣٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٢ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ومسلم فى الإيمان : ١٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، والترمذى فى الجنة : ٣ ، وابن ماجه فى الصيام : ٣٥ ، وفى الزهد : ٣٤ ، والدارمى فى السير : ٦٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، وفى ٣ : ٤١٥ ، وفى ٥ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٤٩ ، وفى الاعتصام : ٢٨ ، وفى الاستنباط : ٢ ، وأبوداود فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الحدود : ٢٥ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، وابن ماجه فى الحدود : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢ ، ٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الفتن : ١ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ .

(٧) أخرجه الترمذى فى الفتن : ١ ، وابن ماجه فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ .



عن ثلاث : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتطيعوا لمن ولاة الله أمركم . وأنهاكم عن ثلاث : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال <sup>(١)</sup> .

ورواه أبو نعيم : ( أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه إليه ، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن تابت فاقبل منها وأن أبت فأصبتها ) . رواه الطبراني .

وظاهره أن المرأة المرتدة لا تقتل ، والأصح عندنا خلافه ، لعموم الخبر الصحيح ( من بدل دينه فاقتلوه ) .

وروى البيهقي : ( من بدل دينه أوجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا عباد الله بعذاب الله ) يعنى النار .

والطبراني : ( من بدل دينه فاقتلوه ولا يقبل الله توبة عبد كفر بعد إسلامه ) ، أى ما دام مصراً على كفره .

وابن حبان : ( من رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا بعذاب الله أحداً ) ، يعنى النار . والشافعى والبيهقى : ( من غير دينه فاضربوا عنقه ) .

والطبراني : ( من خالف دينه دين المسلمين فاضربوا عنقه ، وإذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلا سبيل إليه إلا أن يأتى شيئاً فيقام عليه حده ) .

ومن الظلم الذى جاء بمعنى الشرك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فقد فسر الظلم هنا بالشرك الذى جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

### الظلم الاجتماعى

ومن الظلم الذى يهلك الله به الأمم : الظلم الاجتماعى ، كظلم الراعى للرعية ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، والأغنياء للفقراء .

جاء فى جور الإمام أو الأمير أو القاضى وغشه لرعيته واحتجابه عن قضاء حوائجهم المهمة المضطرين إليها بنفسه أو نائبه :

روى البزار بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبي ، وإمام ضلالة ) .

وفى رواية للطبراني : ( وإمام جائر ) .

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٣ ، ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ ، والإمام أحمد فى

٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٠ .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .

وروى النسائي وابن حبان في صحيحه : ( أربعة ييغضهم الله : البياح الحلاف ، والفقيم المختال ، والشيوخ الزانى ، والإمام الجائر )<sup>(١)</sup> .

وروى مسلم بنحوه إلا أنه قال : ( وملك كذاب ، وعائل مستكبر )<sup>(٢)</sup> .

وروى الطبرانى فى الأوسط : ( ثلاثة لا يقبل الله منهم شهادة أن لا إله إلا الله - فذكر منهم الإمام الجائر ) .

وروى ابن ماجه والبخارى واللفظ له : ( السلطان ظل الله تعالى فى الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم عباده ، فإن عدل كان له الأجر ، وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أو حاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر ، وإذا جارت الولاة قحطت السماء ، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشى ، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا أخضرت الذمة أديل الكفار - أو كلمة نحوها )<sup>(٣)</sup> .

وروى البيهقى واللفظ له والحاكم بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ( كنا عند رسول الله ﷺ فقال : كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم ، أو تدركوهم ؟ ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله ﷻ إلا جعل الله بأسهم بينهم ) .

وروى أحمد بإسناد جيد واللفظ له ، وأبو يعلى ، والطبرانى عن بكير بن وهب ، قال : ( قال لى أنس : أحدثك حديثاً ما أحدثه كل أحد : إن رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه ، فقال : الأئمة من قريش ، إن لى عليكم حقاً وإن لهم عليكم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا أوفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين )<sup>(٤)</sup> .

وروى الطبرانى عن معاوية رضى الله عنه وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يقدر الله أمة لا يقضى فيها بالحق ويأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع ) .

وروى الأصبهاني : ( يا أبا هريرة عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها . ويا أبا هريرة : جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عز وجل من معاصى ستين سنة ) . وفى رواية للطبرانى بإسناد حسن بلفظ : ( يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحاً ) .

وفى رواية : ( أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر ) .

(١) أخرجه النسائي فى الزكاة : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٧٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٢٩ ، ١٨٣ ، وفى ٤ : ٤٢١ .

وروى الطبراني : ( أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة : إمام عادل رفيق ، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق ) .

وروى الترمذى : ( إن الله مع القاضى ما لم يجز فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان )<sup>(١)</sup> .  
وفى رواية الحاكم : ( فإذا جار تبرأ الله منه ) .

وروى ابن ماجه واللفظ له : ( يؤتى بالقاضى يوم القيامة فيوقف للحساب على شفيع جهنم ، فإن أمر به دفع فهو فى فيها سبعين خريفاً )<sup>(٢)</sup> .

وروى ابن أبى الدنيا وغيره عن أبى هريرة : أن بشر بن عاصم حدث عمر رضى الله عنهم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( لا يلى أحد من أمر الناس شيئاً إلا وقفه الله تعالى على جسر جهنم ، فيزلزل به الجسر زلزلة ، فجاج أو غير ناج ، فلا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه ، فإن هولم ينج ذهب به فى جب مظلم كالقبر فى جهنم يبلغ قعره سبعين خريفاً ، وإن عمر سأل سلمان وأبا ذر : هل سمعتما ذلك من رسول الله ﷺ ؟ قالا : نعم ) .

وروى الطبراني : ( من ولى أمة من أمتى قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله تعالى على وجهه فى النار ) .

وروى الطبراني بسند حسن وأبو يعلى والحاكم وصححه : ( إن فى جهنم وادياً ، وفى الوادى بئر يقال له ههب ، حقاً على الله أن يسكنه كل جبار عنيد ) .

وروى أحمد بسند جيد وزجاله رجال الصحيح : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل )<sup>(٣)</sup> .

وفى رواية صحيحة له أيضاً : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل ) .

وفى رواية أخرى صحيحة : ( ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوثقه الجور )<sup>(٤)</sup> .

وفى رواية للطبراني : ( وإن كان مسيئاً زيد غلا إلى غله ) .

وروى الطبراني بسند صحيح : ( ما من رجل ولى عشرة إلا أتى به يوم القيامة مغلولاً يداه إلى عنقه ، حتى يقضى بينه وبينهم ) .

وروى ابن حبان : ( ما من والى ثلاثة إلا لقي الله مغلولاً يمينه ، فكه عدله ، أو غله جوره ) .

وروى عن ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما : ( عرض على أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فيه ، وفقير فخور ) .

(١) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٤ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٣٠ ، وفى ٢ : ١٩٧ ، والترمذى فى الزهد : ٤٦ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١٢ : ٤٣١ ، وفى ٥ : ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤٣١ ، وفى ٥ : ٢٨٥ ، ٣٢٨ .

وروى البزار والطبراني بسند رواه ثقات إلا واحداً اختلف في توثيقه ، واحتج به الترمذی ، وأخرج له ابن خزيمة في صحيحه : ( إني أخاف على أمتي من أعمال ثلاث ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : زلة عالم ، وحكم جائر ، وهوى متبع ) .

وروى مسلم : ( اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فرفق به )<sup>(١)</sup> .

وروى أبو عوانة في صحيحه وقال فيه : ( ومن ولي منهم شيئاً فشق عليهم فعليه سهلة الله ، قالوا : يا رسول الله وما سهلة الله ؟ قال : لعنة الله ) .

وروى الطبراني : ( وما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئاً لم يحفظهم لما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة ) .

وروى الشيخان : ( ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٍ رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة ) وفي رواية لهما : ( فلم يحطها بنصحها لم يرح رائحة الجنة )<sup>(٢)</sup> .

وروى مسلم : ( ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة )<sup>(٣)</sup> .

ورواه الطبراني وزاد : ( كنصحه وجهده لنفسه ) .

وروى الطبراني بسند رواه ثقات إلا واحداً اختلف فيه :

( من ولي من أمر المسلمين شيئاً فغشهم فهو في النار ) .

وروى الطبراني بإسناد حسن : ( ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة ) .

وفي رواية له : ( ما من إمام يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة وعرفها يوجد يوم القيامة من مسيرة سبعين عاماً ) .

وروى الطبراني بسند رجاله رجال الصحيح إلا واحداً اختلف فيه : ( من ولي شيئاً من أمر المسلمين لم ينظر الله في حاجته حتى ينظر في حوائجهم ) .

وروى أبو داود عن عمرو بن مرة الجهني أنه قال لمعاوية رضي الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من ولاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين )<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٦ : ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الجزية : ٥ ، وفي الديات : ٣٠ ، وفي الأحكام : ٨ ، وأبو داود في الترجل : ٢٠ ، والترمذی في

الطلاق : ١١ ، وفي الديات : ١١ ، والنسائي في الزينة : ١٥ ، وابن ماجه في الصدور : ٣٦ ، والإمام أحمد في ١ : ٢٧٣ ، وفي

٢ : ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة : ٢٢ .

(٤) أخرجه أبو داود في الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد في ٥ : ٢٣٩ .

وروى الحاكم بنحو ذلك وصححه ، والترمذى بلفظ : ( ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلّة والمسكنة إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون خلّته وحاجته ومسكنته )<sup>(١)</sup> .

وروى أحمد بسند جيد : ( من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> .

وروى عن أبى الشماخ الأزدي عن ابن عم له من أصحاب النبى ﷺ أنه أتى معاوية فدخل عليه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من ولى من أمر الناس شيئاً ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذى الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون لها ) .

وروى الطبرانى بسند رواه ثقات إلا شيخه خيرون قال الحافظ المنذرى : لم أقف فيه على جرح ولا تعديل ، عن أبى جحيفة : أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ضرب على الناس بعثاً فخرجوا فرجع أبو الدحداح فقال له معاوية : ألم تكن خرجت ؟ قال بلى ، ولكن سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحببت أن أضعه عندك مخافة أن لا تلقانى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يأبى الناس من ولى عليكم عملاً فحجب بابه عن ذى حاجة أو قال دون حاجة لمسلمين حجبهم الله أن يلج باب الجنة ومن كانت همته الدنيا حرم الله عليه جوارى فأبى بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتهما ) .

#### \* ومن أنواع الظلم :

وجاء فى ظلم السلاطين والأمراء والقضاة وغيرهم مسلماً أو ذمياً بنحو أكل مال ، أو ضرب ، أو شتم ، أو غير ذلك ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته ، والدخول على الظلمة مع الرضا بظلمتهم ، وإعانتهم على الظلم ، والسعاية إليهم بباطل :

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾<sup>(٥)</sup> .

والركون إلى الشئ السكون والميل إليه بالمحبة ، ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : ( لا تميلوا إليهم كل الميل فى المحبة ولين الكلام والمودة ) .

وقال السدى وابن زيد : لا تدهنهم .

وقال عكرمة : لا تطيعوهم وتودوهم .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

(١) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٣١ .

(٢) أخرجه أبوداود فى الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣٩ .

(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ١١٣ من سورة هود .

والظاهر أن ذلك كله مراد من الآية .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾<sup>(١)</sup> ، أى : أشباههم وأتباعهم .

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( الظلم ظلمات يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> .

وروى مسلم وغيره : ( اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم )<sup>(٣)</sup> .

وروى مسلم وغيره عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : ( يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا )<sup>(٤)</sup> . الحديث .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم : ( إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفاحش المتفحش وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ) .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط وله شواهد كثيرة : ( إياكم والخيانة فإنها بثت البطانة وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم ) .

وروى الطبرانى : ( لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستقوا فلا تسقوا ، وتستنصروا فلا تنصروا ) .

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات : (صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غالّ مارق) .

وروى أحمد بسند حسن أنه ﷺ كان يقول : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ويقول : والذي نفسى بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما )<sup>(٥)</sup> .

وروى الشيخان وغيرهما : ( إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته )<sup>(٦)</sup> ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٧)</sup> .

وروى أبو يعلى واللفظ له بسند فيه مختلف فى توثيقه ، وقد أخرج له ابنا خزيمة وحبان فى صحيحهما أحاديث عامتها مستقيمة ، وأحمد والطبرانى بسند حسن نحوه باختصار : ( الشيطان قد يشس

(١) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمى فى السير : ٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ،

١٥٩ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ .

(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٦٠ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ،

٣٨١ ، ٣٧٩ .

(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٧) الآية ١٠٢ من سورة هود .

أن تعبد الأصنام في أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات : وهي الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجيء يوم القيامة بالحسنات يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقوم يقول : يارب ظلمني عبدك مظلمة ، فيقول : امحوا من حسناته ، فما يزال كذلك حتى ما يبقى به حسنة من الذنوب - أى من أجلها - وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم ليحطبوا ، فلم يلبثوا أن احتطبوا ، فأعظموا النار وطبخوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب ) .

وروى البخارى : ( من كانت له عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شىء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ) (١) .

وروى مسلم وغيره : ( أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار ) (٢) .

وروى الشيخان وغيرهما أنه ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : ( اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب ) (٣) .

وروى أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وأبنا خزيمة وحبان فى صحيحهما : ( ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين ) (٤) .

وروى البزار : ( ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع ) .

وروى الترمذى وحسنه : ( ثلاث دعوات لا شك فى إجابتهم : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على الولد ) (٥) .

وروى الحاكم وقال : رواه متفق على الاحتجاج بهم إلا عاصم بن كليب ، فاحتج به مسلم وحده : ( اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة ) .

وروى الطبرانى بسند صحيح : ( ثلاث تستجاب دعوتهم : الوالد ، والمسافر ، والمظلوم ) .

(١) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٣٥ ، ٥٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنة : ٢ ، وابن ماجه فى الصيام : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٥ ، ٤٤٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى الجهاد : ١٨ ، وفى المظالم : ٩ ، وفى المغازى : ٦٠ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ،

وأبوداود فى الزكاة : ٥ ، والترمذى فى الزكاة : ٦ ، وفى البر : ٦٨ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى

الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر : ٧ ، وفى الدعوات : ٤٧ ، وأبوداود فى الوتر : ٢٩ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١١ ، والإمام أحمد فى

٢ : ٢٥٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٤ ، ٤٨٧ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ .

وروى أحمد بسند حسن : ( دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجراً ففجوره على نفسه )<sup>(١)</sup> .  
وروى الطبراني بسند له شواهد كثيرة : ( دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : دعوة المظلوم ،  
ودعوة المرء لأخيه بظهر الغيب ) .

وروى الطبراني بسند لا بأس به في المتابعات ( اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ،  
يقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين ) .

وروى أحمد بسند رجاله محتج بهم إلا واحداً ، قال المنذرى : لم أقف فيه على جرح  
ولا تعديل : ( دعوة المظلوم ولو كان كافراً ليس دونها حجاب )<sup>(٢)</sup> .

وروى الطبراني في الصغير والأوسط : ( يقول الله : اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له  
ناصرًا غيري ) .

وروى مسلم : ( المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ،  
ههنا ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم  
على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله )<sup>(٣)</sup> .

وروى ابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه ، عن أبي ذر رضى الله عنه قال : ( قلت :  
يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط  
المبتلى المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكني بعثتك لترد عني دعوة المظلوم ،  
فإنى لا أردّها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات :  
ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها  
لخاصته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون طاعياً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمّة  
لمعاش ، أولذة في غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً  
للسان ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف  
موسى عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف هو ، أو ثم يفرح ،  
وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن يرى  
الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثم لا يعمل . قلت : يا رسول  
الله أوصني . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله أوصني . قال :  
أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدني : قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر  
الله تعالى ، فإنه نور لك في الأرض ، وذكر لك في السماء . قلت : يا رسول الله زدني . قال : إياك

(١) أخرجه البخارى في الجهاد : ١٨٠ ، وابن ماجه في الدعاء : ١١ ، والإمام مالك في دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد في  
٣٦٧ ، ٢٥٨ : ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٨٢ : ٥ ، ٨٣ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفي ٣ : ٤٩١ ، وفي ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفي ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ،  
٣٨١ ، ٣٧٩ .



وكثرة الضحك ، فإنه يميم القلب ، ويذهب بنور الوجه . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى قلت : يا رسول الله زدنى . قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدري نعمة الله عليك . قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مرأ . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : ليردك عن الناس ما تعلمته عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى ، ثم ضرب بيده على صدره وقال : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير ، ولا ورع كالكف ، ولا حب كحسن الخلق ) .

وروى أبو داود : ( ما من مسلم يخذل أمراً مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمة ، ويتنقص فيه عرضه ، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ مسلم ينصر أمراً مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمة ، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته ) (١) .

وروى أبو الشيخ وابن حبان : ( أمر بعبد من عباد الله تعالى يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلاً قبره عليه ناراً ، فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره ) .

وروى أبو الشيخ أيضاً ، قال الله عز وجل : [ وعزتى وجلالى لأنتقم من الظالم فى عاجله وآجله ولأنتقم من رأى مظلوماً فقدر أن ينصره ولم يفعل ] .

وروى البخارى : ( أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره ) (٢) .

وروى مسلم : ( ولينصرون الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينه فإنه له نصره ، فإن كان مظلوماً فلينصره ) (٣) .

وروى أبو داود : ( من حمى مؤمناً من منافق ، أراه قال : بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ) (٤) .

وروى أحمد بإسنادين أحدهما صحيح : ( من بدا جفا ، ومن تبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً ) (٥) .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ .

(٣) أخرجه مسلم فى اللباس : ٢ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٤١ ، وأبو داود فى الأدب : ٣٦ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧١ ، ٤٤٠ ، وفى ٤ : ٢٩٧ .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى : ( من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن )<sup>(١)</sup> .

وروى أحمد واللفظ له ، والبزار ، ورواهما محتج بهما فى الصحيح ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة : ( أعاذك الله من إمارة السفهاء . وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهديى ، ولا يستنون بستي ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ، ولست منهم ، ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم يكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصيام جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصدقة قربان - أو قال برهان - يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، أو بائع نفسه فموبقها )<sup>(٢)</sup> .

وروى ابن حبان فى صحيحه : ( ستكون أمراء ، من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فليس منى ولست منه ، ولن يرد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعينهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض ) .

وروى الترمذى ، والنسائى من حديث كعب بن عجرة : ( أعيذك يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدى ، فمن غشى أبوابهم فمصدقهم فى كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، ولا يرد على الحوض ، ومن غشى أبوابهم أولم يغش فلم يصدقهم فى كذبهم ، ولم يعينهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض )<sup>(٣)</sup> .

وفى رواية له أيضاً عن كعب بن عجرة قال : ( خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة خمسة وأربعة . أحد العودية من العرب ، والآخر من العجم . فقال : اسمعوا . هل سمعتم أنه سيكون بعدى أمراء ؟ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض ) .

وروى النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : ( خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ، ثم خفض حتى ظننا أنه حدث فى السماء أمر ، فقال : ألا إنه ستكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم ، ومالاهم على ظلمهم ، فليس منى ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه )<sup>(٤)</sup> .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه - واللفظ له - عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه

(١) أخرجه والترمذى فى الفتن : ٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١ ، والترمذى فى الدعوات : ٨٥ ، وابن ماجه فى الطهارة : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢١ ، ٣٩٩ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٤٩ ، والنسائى فى البيعة : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى ٥ : ٣٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٧٩ ، وفى الفتن : ٧٧ ، والنسائى فى البيعة : ٣٥ ، ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى

قال : ( كنا قعوداً على باب النبي ﷺ ، خرج علينا ، فقال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : إنه سيكون بعدى أمراء فلا تصدقوهم بكذبهم ، ولا تعينوهم على ظلمهم ، فإنه من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم لم يرد على الحوض ) .

وروى أحمد : ( يكون أمراء تغشاهم غواش - أو حواش - من الناس ، يكذبون ويظلمون . فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولست منه ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ) .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه : ( فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فانا منه برىء ، وهو منى برىء ) .

وروى ابن ماجه بسند رواه ثقات : ( إن ناساً من أمتى سيتفقهون فى الدين ، يقرءون القرآن ، يقولون : نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعذلهم بدیننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك ، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا )<sup>(١)</sup> . قال ابن الصباح : كأنه يعنى الخطايا .

روى الطبرانى بسند رواه ثقات ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ : ( أن رسول الله ﷺ دعا لأهله ، فذكر علياً وفاطمة وغيرهما ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال : نعم ، ما لم تقم على باب سدة - أى سلطان أو نحوه - أو تأتى أميراً تسأله ) .

وروى ابن ماجه فى صحيحهما : ( أن علقمة بن وقاص مرّ برجل له شرف من أهل المدينة ، فقال له : إن لك حرمة حقاً ، وإنى رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء فتكلم عندهم ، وإنى سمعت بلال ابن الحارث صاحب رسول الله ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة ، انظر ويحك ماذا تقول وما تكلم به ؟ فرب كلام قد معنيه ما سمعت من بلال بن الحارث )<sup>(٢)</sup> .

وروى الترمذى والحاكم المرفوع منه وصححه ، ورواه الأصبهاني إلا أنه قال : عن بلال ابن الحارث أنه قال لبيه : ( إذا حضرتم عند ذى سلطان فأحسنوا المحضر ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : فذكره ) .

وابن الأثير فى نهايته : الساعى مثلث : أى مهلك بسعايته نفسه ، والمسعى به وإليه .

### أنواع أخرى من الظلم

وهناك أحاديث وآثار أخرى فيها الوعيد الشديد للظالمين ، كحديث : ( إن رجالاً يتخوضون فى

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ ، والترمذى فى الزهد : ١٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام مالك فى الكلام : ٥ ، والإمام

أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة (١) . وحديث : ( من ظلم شبراً من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة ) (٢) .

وفى بعض الكتب يقول الله تعالى : ( اشتد غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري ) (٣) .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرأ فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عيناك والمظلوم متبه يدعو عليك وعين الله لم تنم  
وقول آخر :

إذا ما المظلوم استوطأ الأرض مركباً ولج غلوا في قبح اكتسابه  
فكله إلى حذف الزمان فإنه سيبدى له مالم يكن في حسابه  
وقال بعض السلف : لا تظلمن الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء .

وقال أبوهريرة رضى الله عنه إن الجبارى لتموت هولاً فى وكرها من ظلم الظالم .  
وقيل مكتوب فى التوراة : ( ينادى مناد من وراء الجسر - يعنى الصراط - يا معشر الجبابرة  
الطغاة ، ويا معشر المترفين الأشقياء : إن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم ) .

وروى عن جابر رضى الله عنه قال : ( لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال :  
( ألا تجدونى بأعجب ما رأيتم فى أرض الحبشة ؟ فقال قتيبة ، وكان منهم : بلى يا رسول الله ، بينما  
نحن يوماً جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم  
فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت المرأة على ركبتيها ، وانكسرت القلة ، فلما قامت التفتت  
إليه ثم قالت : سوف تعلم يا غدار إذا وضع الله الكرسي ، فجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدي  
والأرجل بما كانوا يكسبون ، سوف تعلم ما أمرى وأمرك عنده غدا ، قال : فقال : رسول الله ﷺ :  
أكيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم ؟ ) .

(١) أخرجه البخارى فى الخمس : ٧ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٤١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ ، ومسلم فى المساقاة : ١٣٩ ، ١٤٢ ، والترمذى فى الدييات : ٢١٠ ،  
والإمام أحمد فى ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٢ : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٢ ، وفى ٤ : ١٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، وفى ٥ : ٣٤١ ،  
٣٤٤ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٢٤ ، ومسلم فى الجهاد : ١٠٦ ، والإمام مالك فى السفر : ٨٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٨٨ ،  
وفى ٢ : ٣١٧ ، ٤٩٢ .

### عود على بدء

قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

هذا خطاب من خالق الخلق إلى حبيبه ومصطفاه الذي أرسله للناس بشيراً ونذيراً ، ففي البشارة وعد ، وفي النذارة وعيد : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (١) .

وكما قال ﷺ : ( مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال لهم : لقد رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فادلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم ) (٢) .

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ :

أى فالذين آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ، لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ما قدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة ، يفوق وصف الواصفين ، ومقال المادحين ، كما قال تعالى : ﴿ فيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين ﴾ (٣) . وفى الحديث : ( فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ) (٤) .

﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ :

أى: والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها ، وثبطوا الناس عن متابعة النبى ﷺ ، ظناً منهم أنهم يعجزوننا ، وأنهم لا يبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار ، المصاحبون لها ، لا يخرجون منها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (٥) .

(١) الآية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٦ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الفضائل : ١٦ .

(٣) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٣٥ ، وفى بدء الخلق : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ٣١٢ ، وفى

الجنة : ٢ - ٥ ، والترمذى فى الجنة : ١٥ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق : ٩٨ ،

١٠٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، وفى ٥ : ٣٣٤ .

(٥) الآية ٨٨ من سورة النحل .

## قلوب وقلوب

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ؕ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ ؕ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٩﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي حَتَّى النَّعِيمِ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قَتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٦٢﴾ لِيَدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ \* ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٤﴾

## المفردات

- الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبي يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق ، كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .  
 فينسخ : أى : يزيل ويبطل .  
 يحكم : أى : يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .  
 فتنة : أى : ابتلاء واختباراً .  
 مرض : أى : شك ونفاق .  
 القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر .  
 شقاق بعيد : أى : عداوة شديدة .  
 فتخبت : أى : تذل وتخضع .  
 مرية : أى : شك .

بغته : أى : فجأة .

الساعة : الموت .

يوم عقيم : أى : منفرد عن سائر الأيام لا مثيل له فى شدته ، والمراد به الحرب الضروس .

الملك : أى : التصرف والسلطان .

يحكم بينهم : أى يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين .

مهين : أى : مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

### المناسبة

بعد ما ذكر الله تعالى فى آياته السابقة أحوال الأمم التى كذبت الأنبياء ، وأسباب هلاكها ، أراد جلّت قدرته أن يسلى حبيبه ومصطفاه ، ويزيد فؤاده تثبيتاً ، فقال له :

لست بدعا من الأنبياء ، فلا تذهب نفسك على المعاندين حشرات ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، ثم فصل الله تعالى أحوال قلوب العباد فى الآيات التى ستأتى بعد .

يخاطب الله تعالى حبيبه ومصطفاه فيقول :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ :

وفى هذه الآية الكريمة إخبار من الله جل شأنه عن الأنبياء والرسل السابقين .

وقبل أن نوضح معناها نقعّد تلك القواعد الأساسية بما تيسر من التقدير ، وتقدر من التيسير فنقول : إن الله تعالى حفظ القرآن ، وتعهّد بذلك الحفظ ، قال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ <sup>(١)</sup> .

كما أنه من المعتقد أن الأنبياء معصومون ، لا يستطيع أن يتسرب الشيطان إلى نفوسهم ، أو أن يلج عليهم قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل \* لأخذنا منه باليمين \* ثم لقطعنا منه الوتين \* فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

كما يجب الاعتقاد بأن الوحي معصوم وبعيد كل البعد عن أفعال الشياطين ، قال تعالى : ﴿ وما تنزل به الشياطين \* وما ينبغي لهم وما يستطيعون \* إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين \* نزل به الروح الأمين \* على قلبك لتكون من المنذرين \* بلسان عربى مبين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٣) الآيات ٢١٠ - ٢١٢ من سورة الشعراء .

(٤) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٤٤ - ٤٧ من سورة الحاقة .

وقال تبارك اسمه : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا﴾ \* إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا \* ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا﴾ (١).

قال القاضي عياض ، فى كتاب الشفاء : ( لقد أجمعت الأمة على أن النبى ﷺ فيما يبلغه عن ربه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ، ولا عمدا ، ولا سهوا ، ولا غلطا ) . ومن ثم ، فالنبى معصوم ، والوحى معصوم ، والقرآن معصوم ، وهذه الآية : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى . . . ﴾ تقص علينا حال الأنبياء السابقين ، فأى داع يدعو إلى أن نحمل الآية أكثر مما أخبرت عنه ، ومهما يكن من أمر ، فسواء فسرنا التمنى بمعنى القراءة ، أو فسرناه بالمعنى الحقيقى له ، وهو من الأمانة ، فإن الشياطين لا تستطيع أن تقتحم حصون الوحى ، فإنها منيعة ومشيدة لا يستطيع أحد من شياطين الإنس أو الجن أن يدخل منها شيئا ، إنما الشياطين تلقى الوسوس والأوهام فى محل أمانة الأنبياء .

وهذا المحل هو قلوب أقوامهم وأتباعهم وأمهم ، فلا دخل للشيطان مع الوحى البتة ، سواء قرأ النبى ما أنزل إليه من ربه ، أو تمنى إيمان قومه ، فلا مجال للشيطان فى القراءة ، أو ما يتمناه النبى ، إنما الشيطان يلقى وسوسه فى قلوب العباد ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، أى يزيل من قلوب المؤمنين الوسوس والأوهام ، ويبقيها على الإضاءة والإشراق بآياته البينات ، فلا داعى أبداً أن تزل أقدام فى تفسير هذه الآية ، أو تتعثر أفلام ، أو ينفلت فيها خيال الكاتبين .

إن الوحى محاط بالعناية الإلهية ، والرعاية الربانية ، وما ذكره بعضهم عن الغرائق أى الأصنام فهو محض كذب واختلاق ، وإنها لفرية ، ما فيها مرية .

إن الله تعالى يقول عن الشيطان : ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾ (٢).

ويقول : ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ \* إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (٣).

فإذا كان الشيطان لا سلطان له على المؤمنين ، فكيف بزبك يكون له سلطان على وحى رب العالمين ، فيدخل فيه ما ليس منه .

وكيف يكون له سلطان على الأنبياء وهم الصفوة المختارة من عباد الله .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، نبرىء منه الأنبياء ، والوحى المعصوم الكريم .

ثم بين الله تعالى الحكمة من إلقاء الشيطان الوسوس فى قلوب العباد ، فقال :

﴿ليجعل ما يلقى الشيطان فتنه للذين فى قلوبهم مرض﴾ .

أى : من شبهة أو نفاق كذلك ، والقاسية قلوبهم التى لا تعرف الرحمة إليها سبيلا .

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٣) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .



قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (١).

سبحانك ربى ..

يا عليما بخفايا النفوس ، يا خبيراً بذات الصدور :

الله يدري كل ما تضرر يعلم وما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

فهذه قلوب فيها مرض ، وتلك قلوب فيها قسوة .

وسبحان من يعلم السرائر : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ :

أى : وإن هذين الصنفين من الضلال لفي عداوة لأمر الله ، وبعد عن الرشاد والسداد ، بما لا مطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا الله . والظلم مرتعه وخيم وعاقبته شر وبيل .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( خمسة غضب الله عليهم ، إن شاء أمضى غضبه عليهم فى الدنيا ، ولا ثوى بهم فى الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ، ولا ينصفهم من نفسه ، ولا يدفع الظلم عنهم ، وزعيم قوم يطيعونه ، ولا يسوى بين القوى والضعيف ، ويتكلم بالهوى ، ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله ، ولا يعلمهم أمر دينهم ، ورجل استأجر أجيراً فاستعمله ولم يوفه أجره ، ورجل ظلم امرأة فى صداقها ) .

سبحانك من قاتل عليم حكيم : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين  
ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ (٢) .

عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : ( إن الله تعالى لما خلق الخلق ، واستووا على أقدامهم ، رفعوا رءوسهم إلى الله ، وقالوا : يارب مع من أنت ؟  
قال : مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه ) .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه : ( بنى جبار من الجبابرة قصراً وشيده ، فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه شيئاً تأوى إليه ، فركب الجبار يوماً ، وطاف حول القصر ، فرأى بناءها ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لامرأة فقيرة تأوى إليه ، فأمر بهدمه . فهدم ، فجاءت العجوز فرأته مهدوماً ، فقالت : من هدمه ؟ فقيل لها : الملك رآه فهدمه . فرفعت العجوز رأسها إلى السماء ، وقالت : يارب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت ؟ قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه فقلبه ) .

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٨ من سورة غافر .

وقيل : لما حبس بعض البرامكة ولده قال : ( يا أبت بعد العز صرنا فى القيد والحبس . فقال : يا بنى دعوة المظلوم سرت بلبيل غفلنا عنها ، ولم يغفل الله عز وجل عنها ) .  
وكان يزيد بن حكيم يقول : ( ما هبت أحدا قط هيبتى رجلاً ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله ، يقول لى : حسبى الله ، الله بينى وبينك ) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : ( يجرىء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم فلقى المظلوم ، وعرف ما ظلمه فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات ، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا ، حتى يردوا الدرك الأسفل من النار ) .

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما . فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك الديان ، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ قلنا : يا رسول الله كيف وإنما نأتى حفاة عراة غرلاً بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات جزاء وفاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (١) .

وعنه ﷺ أنه قال : ( من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة ) .

ومما ذكر ( أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه ، فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب ، استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده ، فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتنى فى يوم كذا ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب ؟ فقال له المعلم : أعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب ، علمت أنك تنال الملك بعد أهلك ، فأردت أن أذيقك طعم الضرب وألم الظلم ، حتى لا تظلم أحداً بعد . فقال له : جزاك الله خيراً ثم أمر له بجائزة وصرفه ) .

فاتق الظلم يا أخى ، وأعلم أن البر لا يبلى ، والذنوب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

جاء : ( إن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه : يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج الشفيق ، واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد ) .

أى : كما تفعل يفعل معك ، إذ لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم ، وامرأة أرملة .

قوله تعالى : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

هذا عطف على قوله تعالى : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ﴾ .

أى: ولكي يعلم الذين أوتوا العلم وهم أهل العلم بالله تعالى الذين شهدوا الله بالوحدانية : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (٢) .

ليعلم هؤلاء أن الله تعالى أنزل إليك الحق ، وأن نسخ وساوس الشيطان وإحكام الآيات فى قلوب المؤمنين حق ثابت لا مرأى فيه ، إنهم وهم يعلمون ذلك يصدقون به تصديقاً جازماً لا مرية فيه . ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أى: تخشع وتذل لعظمة الله وكبريائه .

ثم بين سبحانه مصير هؤلاء ومآلهم فقال : ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ لقد آمنوا وأصبحوا من أهل الهداية إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيتهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ .

أما حال الكافرين فإنهم لا يزالون فى شك مما أنزل إليك من ربك ، فإن قلوبهم مليئة بالريب والشك والظن السئ ، وسيظلون على هذا حتى يفاجئهم الموت وهو القيامة الصغرى ، فإن من مات فقد قامت قيامته ، والموت يأتى بغتة ، ويأتيهم على حين غفلة ، أو يأتيهم الله بعذاب يوم عقيم ، مثل يوم بدر الذى استأصل الله فيه شأقتهم ، وقتل صناديدهم ، وكانوا إذا قاتلوا فقتلوا يسمون يوم هزيمتهم يوماً عظيماً ، أى انفرد بعذابه وشدته ، أوسمى عقيماً لأنه لا خير فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ (٤) أى: التى لا تحمل خيراً من مطر .

ولقد هزموا يوم بدر هزيمة منكراً: ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر \* بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

(١) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .

(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ٤١ من سورة الذاريات .

(٥) الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة القمر .

إن هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم غياً وشكاً ، إن لم يأتيهم عذاب الله في الدنيا فسوف يأتيهم في يوم الملك فيه الله يحكم بينهم ﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ﴾ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون \* رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق \* يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب \* وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع \* يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور \* والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿<sup>(١)</sup>

الملك والتدبير والتصرف للملك الحكم العدل المقسط ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ، حيث الرضوان الأكبر ، والنعيم المقيم ، لقد أعد الله لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ :  
جزاء كفرهم وتكذيبهم ، ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ ويقولون أننا لطاركونا آلهتنا لشاعر مجنون \* بل جاء بالحق وصدق المرسلين \* إنكم لذائقوا العذاب الأليم \* وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿<sup>(٢)</sup>

وسبحان الحكم العدل الذي يقول وقوله الحق: ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً \* للطاغين مآباً \* لا بين فيها أحقاباً \* لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً \* إلا حميماً وغساقاً \* جزاء وفاقاً \* إنهم كانوا لا يرجون حساباً \* وكذبوا بآياتنا كذاباً \* وكل شيء أحصيناه كتاباً \* فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حلیم .  
هذا وعد من الله لعباده المهاجرين الصادقين: ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى في حقهم : ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبئتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿<sup>(٥)</sup>

(٤) الآية ٨ من سورة الحشر .

(٥) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .

(١) الآيات ١٣ - ٢٠ من سورة غافر .

(٢) الآيات ٣٥ - ٣٩ من سورة الصافات .

(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبا .

هؤلاء الصابرون الصادقون الذين هاجروا في الله من بعد ما فتنوا ، من قتل منهم أومات ، فإن الله وعدهم بالرزق الحسن ، وهل هناك من رزق حسن أفضل من الجنة ونعيمها ، وإن الله لهو خير الرازقين .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب  
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خراب  
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب  
﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ : نعم وهل هناك من مدخل يرضونه أعظم مما قال الله فيه: ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ﴾ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ (١) .

وسبحان العليم الحليم الذى أحاط علمه بكل شىء ، وعم حلمه كل شىء ﴿ إن المتقين فى مقام أمين ﴾ فى جنات وعيون ﴿ يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ﴾ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٢) .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يمالك النفس قاصيها ودانيها  
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانها  
فنظرة منك يأسؤلى وبأسمى خير إلى من الدنيا وما فيها  
قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾ .

أى: ذلك الرزق الحسن ، والمدخل الكريم ، لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضاً النصر فى الدنيا على أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ﴾ :

أى: وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلماً من المشركين فقاتلهم كما قاتلوه ، ثم بغى عليه إلى الهجرة ، ومفارقة الوطن ، لينصرنه الله الذى لا يغالب ، ولينتقم له من أعدائه ، ولينكلن بهم ، ويمكثنه منهم ، ويجعل كلمته العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

والخلاصة : إنه تعالى كما يدخلهم مدخلاً كريماً ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم ويغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ :

أى: وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء يعفو عن المؤمنين ، فيغفر لهم ما أمتعوا فيه من الانتقام ، وما أعرضوا عنه مما ندبه من العفو ، بمثل قوله: ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .

(٢) الآيات ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان .



لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ  
 الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٦﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ  
 الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى  
 اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا  
 الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ  
 عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا  
 لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا  
 الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

## المفردات :

- يولج الليل فى النهار : يدخل الليل فى النهار بزيادة وقته على حساب النهار .  
 مخضرة : ذات خضرة .  
 سخر لكم ما فى الأرض : ذلل لكم ما فى الأرض تنتفعون به وتذلّلونه .  
 المنسك : الشريعة والمنهاج .  
 ناسكوه : أى : عاملون به والهدى : الطريق الموصل إلى الحق .  
 مستقيم : أى : سوى لا عوج فيه .  
 سلطاناً : أى : حجة وبرهاناً .  
 نصير : أى : ناصر ومعين .  
 يسطون : أى : يبطشون بهم من فرط الغيظ .  
 ضرب : أى : جعل .  
 والمثل والمثل : الشبه .  
 لا يستنقذوه : أى : لا يقدروا على استنقاذه .  
 ماقدروا الله : أى : ما عظموه .  
 عزيز : أى : غالب على جميع الأشياء .  
 يصطفى : أى : يختار .

فى الله : أى: فى سبيله والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو وهو ثلاثة أضرب :

( أ ) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

( ب ) مجاهدة الشيطان .

( جـ ) مجاهدة النفس والهوى . وهذه أعظمها .

فقد أخرج البيهقى وغيره عن جابر قال : ( قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال : قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه ) .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : ( إن الرجل ليجاهد فى الله تعالى وما ضرب بسيف ) .

اجتباكم : أى: اختاركم .

خرج : أى: ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم .

واعتصموا بالله : أى: استعينوا به وتوكلوا عليه .

مولاكم : أى: ناصركم .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أن الملك له وحده يتصرف فيه بمشيئته وحكمته وعدله وعلمه وقدرته وإرادته ، وأنه سبحانه سيجزىء المسيء بإساءته ، ويجزىء الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سينصر من بغى عليه من المعتدين الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ﴾ .

أقام الأدلة بعد ذلك على كمال قدرته ووحدانيته: ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار وفى الليل ﴾ أى: ذلك المذكور حق لأمريه فيه ، بسبب أن الله بيده مقاليد السموات والأرض ، والآيات كلها شاهدة بذلك .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

لقد تحدى الله الجبابرة المعاندين المكابرين الجاحدين بآيتين من آياته : وهما الليل والنهار . ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴿ (١) .

هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يأتى بنهار أوليل ؟

كما تحداهم بالموت: ﴿ قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ (٢) هل يستطيع

( ١ ) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .

( ٢ ) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران .



الجبابرة المفترون والظلمة الجاحدون أن يدفعوا الموت عن أنفسهم إذا حل بساحتهم .

سبحانك ربى ، الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك ، عزت حكمتك ، وجلت قدرتك ، ووسعت رحمتك ، يا من علمت وقدرت وعفوت وحلمت ، أحمذك على حكمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (١) .

أنت الذى يقرع الليل فى النهار ، أى: تدخل جزءاً منه فى النهار ، كما تدخل جزءاً من النهار فى الليل ، لا يستطيع ذلك غيرك ، فيطول كل منهما أو يقصر ، كما نرى ذلك فى اختلاف الفصول من صيف وشتاء .

أنت القادر الذى لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، كل الكائنات تسير وفق إرادتك وعلمك وقدرتك: ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ \* وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون \* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ (٢) .

سبحانك يا من تقول للشىء كن فيكون ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقديست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، سميع بأقوال عباده ليلاً ونهاراً ، بصيرٌ بأحوالهم: ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٣) . أنعمت على عبادك لأنك رب العالمين ، ولأنك الرحمن الرحيم .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً	وهذه الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى	سل الليل والأصباح والطيور شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما	وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا	فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاص هذا الماء فى القاع هل لكم	سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت	أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ .

ذلك المذكور من آيات الوحدانية والقدرة ، حق لا مرأى فيه ، بسبب أن الخالق هو الله الحق المرید العليم الحكيم القادر ، وأن ما سواه باطل وزائل لا قرار له ، وأن هذا الإله هو العلى على كل شىء ، رفيع الدرجات ذو العرش الكبير ، أى: العظيم الذى تنزه عن الشريك والولد والزوجة ، كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص .

(٢) الآيات ٣٦ - ٤٠ من سورة يس .

(٣) الآية ١٩ من سورة غافر .

والشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطايه  
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوث . . . ناجاه  
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً في خلاياه  
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ :

وتلك آية أخرى بعد آية ولوج الليل في النهار وولوج النهار في الليل ، إن تلك الآية هي إنزال  
الماء من السماء ، وإنبت النبات في الأرض ، فتصبح مخضرة يكسوها بساط سندس رائع الجمال  
﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً  
ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره  
إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

ألم تبصر أيها الإنسان هذه الآية التي لا يقوى عليها إلا الله وحده : ﴿ أفرأيت ما تحرثون \* أنتم  
تزرعون أم نحن الزارعون ﴾ (٢) .

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك  
﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ :

أى عليم بدقائق الأشياء وحقائقها: ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض  
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (٣) ، ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في  
صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ (٤) ، ﴿ وعنده مفاتيح الغيب  
لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض  
ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ (٥) .

إن الذي أنبت النبات ، وأنزل الماء من السماء بقدر معلوم ، فأثبت به حقائق ذات بهجة ما كان  
لكم أن تنبتوا شجرها ، إن هذا الإله القدير له ما في السموات وما في الأرض ملكاً ومُلكاً فهو الملك  
المالك ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾ (٦) .

غنى عن سواه ، مفتقر إليه جميع من عاداه .

(٤) الآية ١٦ من سورة لقمان .

(٥) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ٦٤ من سورة الحج .

(١) الآية ٩٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة .

(٣) الآية ٣ من سورة سبأ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ \* إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

إنه المحمود لذاته ، المستحق الثناء والمجد ، لأنه أهل لكل ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ :

وهكذا تتوالى نعم الله على عباده ، حتى يعلموا أن غير الله لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ألم تر أن الله سخر لكم كل ما في الأرض من يابس وماء وهواء ، وضياء ونبات وحيوان وجماد ، قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ \* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (٢)

وما من يوم ينشق فجره إلا ويرشد الله العلماء إلى اكتشاف الآيات الكونية من كهرباء وجاذبية ومغناطيسية ، وما يسمى بالتكنولوجيا ، إلى غير ذلك مما قال الله فيه : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ (٣) .

هذا ونرى الآيات الكونية تصافح الآيات التنزيلية وتعاين كل منهما الأخرى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٤) .  
إن نور الآيات الكونية ، ونور الآيات التنزيلية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، وما بكم من نعمة فمن الله .

ومن نعمه تعالى على عباده أنه سخر لهم الفلك تجرى في البحر بأمره ، وسبحان القائل: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتُسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حُلِيّاً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاقِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ \* وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ \* وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ \* أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذْكُرُونَ \* وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ \* وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَسْرُونَ وَمَا تَعْلَنُونَ \* وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ \* أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ \* إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ

(١) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٢٠ من سورة لقمان .

(٣) الآية ١٨ من سورة النحل .

(٤) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون \* لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴿١﴾ .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعالم السماء بما فيه من كواكب ونجوم وغير ذلك من المذنبات والنيازك ، الله تعالى يمسكه بقدرته ، ويصرف هذا العالم بحكمته ، حتى لا يصطدم نجم بنجم فيدمر هذا الكوكب الأرضي ، وقد أحاط الله بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وسيظل هذا العالم متماسكاً يجرى بنظام ودقة إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة ، وعندئذ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، قال تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت \* وإذا الكواكب انثرت \* وإذا البحار فجرت \* وإذا القبور بعثرت \* علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة \* وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة \* فيومئذ وقعت الواقعة \* وانشقت السماء فهي يومئذ واهية \* والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية \* يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٣) .

إن ما في السماء من نجوم وكواكب ، لم يصل العلم بكل أجهزته الحديثة إلى اكتشاف جزء كبير منه ، بل كل ما كشفه جزء قليل ، قدره العلماء بمائة ألف مليون مجموعة شمسية ، تشتمل كل مجموعة على مائة ألف مليون شمس ، أقلها شمسنا هذه التي تضيء لنا ، سبحانك ربى .

يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحد أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب تقرر له وتشهد ﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ :

فقد سخر لهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأجرى لهم الفلك فى البحر بأمره ، وأمسك السماء حتى لا تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعل كل هذا برأفته ورحمته بعباده ، دون ما احتياج إليهم : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون \* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون \* إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم إن الإنسان لَكفور ﴾ : ومن نعمه تعالى على عباده نعمة الإحياء ، وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ (٥) .

وكقوله جل شأنه : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميّتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٦) .

(٤) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

(٥) الآية ٢٨ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٦ من سورة الجاثية .

(١) الآيات ١٤ - ٢٣ من سورة النحل .

(٢) الآيات ١ - ٥ من سورة الانفطار .

(٣) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .

وسبحان القائل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ﴾ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(١)</sup>.

إن نعمة الإحياء من أجل النعم ، إن الله تعالى أحياناً فأثبت لنا أنه على كل شيء قدير ، ويميتنا ويثبت لنا أنه الجبار ذو القوة المتين ، ثم يحيينا للحساب فيثبت لنا أنه أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين .

﴿ إن الإنسان لكفور ﴾ :

كثير الجحود : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ فى أى صورة ما شاء ربك ﴾ كلابل تكذبون بالدين ﴾ وإن عليكم لحافظين ﴾ كراماً كاتبين ﴾ يعلمون ما تفعلون ﴾ <sup>(٢)</sup>.

فواعجباً كيف تعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ :

أى : إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية ، شريعة خاصة يعملون بها ، يسرون على نهجها ، لا يتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها ما فى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ منسكها ما فى الإنجيل ، وأمة محمد ﷺ وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم ما فى القرآن ، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة .

﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ :

أى : فلا ينبغي لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك ، وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة ، زعماً منهم أن شريعتهم هى ما عين لآبائهم من التوراة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن .

والخلاصة : أثبت أيها الرسول على ذينك ثباتاً لا يطمعون أن يخرجوك منه ليزيلوك عنه ، والمراد

(١) الآيات ١٧ - ٢١ من سورة الروم .

(٢) الآيات ٦ - ١٢ من سورة الإنطار .

بذلك تهيج حميته عليه السلام ، وإلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له : تأس بالأنبياء قبلك فى مباركة القوم الظالمين ، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ :

أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهذى إلى الحق ، وشرعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ﴾ (١) .

﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ :

أى وإن جادلوك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما تعمل ، ومجاز كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم ﴾ (٣) .

وبعد أن أمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، وكان ذلك شديد الوقع على النفس ، سلاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون ، فقال :

﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ :

أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيبين المحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ (٤) الآية .

وقصارى ما سلف - ادع إلى شريعتك ولا تخص بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة ، تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعبادات ، وبما وجدوا عليه الآباء والأجداد ، فدعهم فى غيهم يعمهون فقد أُنذرت وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهدياً منذراً : الله يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة ، ويتبين المحق منا من المبطل ، ويجازى كلا بما يستحق .

قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾ :

(١) الآية ٨٧ من سورة القصص .

(٢) الآية ٤١ من سورة يونس .

(٣) الآية ٨ من سورة الأحقاف .

(٤) الآية ١٥ من سورة الشورى .

أى: قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما فى السموات وما فى الأرض ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه فى الدنيا ، فمجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

ثم أكد علمه بقوله :

﴿ إن ذلك فى كتاب ﴾ :

أى: إن علمه بذلك فى اللوح المحفوظ ، الذى كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ويرى أبو مسلم الأصفهاني أن المراد بالكتاب فى مثل هذا الحفظ والضبط الشديد ، بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة .

ثم زاده تأكيداً بقوله :

﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ :

أى: إن علمه تعالى بما فى السماء والأرض وكتبه فى اللوح المحفوظ ، والفصل بين عباده يوم القيامة ، يسير عليه إذ لا يخفى عليه شيء ، ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

﴿ ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير ﴾ :

فاعجب معى لقوم عطلوا عقولهم ، وسدوا منافذ المعرفة ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾ (١) .

لقد عبدوا من دون الله ما لم ينزل الله به برهاناً ولا حجة ، تجيز لهم تلك العبادة ، وليس لهم شيء من العلم ، يبيح لهم عبادة غير الله ، فلا دليل يبيح لهم ذلك لا من العقل ولا من النقل ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴿ (٢) .

إنه التقليد الأعمى إنه سفه العقول ، إنها الحماقة التى أعيت من يداويها ، عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً وليس لهم بذلك برهان من وحى أو عقل .

﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ (٣) .

﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ (٤) .

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ٢٢ - ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيتان ٧٤ و ٧٥ من سورة القصص .

أبعد ظهور الأدلة ووضوح البراهين فى الآيات الكونية والآفاقية والأنفسية ، يعبدون غير الله ﴿ ذلك أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ﴾ (١) .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ \* ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير \* له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد \* ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ .

أولم يكفهم كل هذه البراهين الساطعة والحجج القاطعة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون .

• وقوله تعالى : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ :

أى : لا معين يدفع عنهم العذاب ، فالعذاب ليس له دافع من الله : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ (٢) ، ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً \* يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً \* لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (٣) .

واسمع إلى قوله تعالى :

﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ \* وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ (٤) .  
فاحذر الظلم فإنه ندم يوم القيامة ، وعاقبته وخيمة ، وهو ظلمات فى ساحة العرض على الله تعالى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ( يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينادى به على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه قال : فتفرح المرأة أن يكون لها حق على ابنها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ : ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال فيغفر الله من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً فينصب العبد للناس ثم يقول الله عز وجل لأصحاب الحقوق : اثنا إلى حقوقكم ؟ قال : فيقول العبد يارب فئت الدنيا فمن أين أوتيتهم حقوقهم ؟ فيقول الله لملائكته : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر طلبته فإن كان عبداً ولياً لله وفضل له مثقال ذرة ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها وإن كان عبداً شقياً ولم يفضل له شيء فتقول الملائكة ربنا فئت حسناته وبقي طالبون فيقول الله عز وجل : خذوا من سيئاتهم فأضيفوا إلى سيئاته ثم صكوا به صكاً إلى النار ) .

( ١ ) الآية ٦١ من سورة الحج .

( ٢ ) آية ٩٧ من سورة الإسراء .

( ٣ ) الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفرقان .

( ٤ ) الآيتان ٤٤٥ - ٤٦ من سورة الشورى .



وجاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . قيل : يا رسول الله وإن كان يسيراً ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك )<sup>(١)</sup> .

وروى ( إنه لا أكره إلى العبد يوم القيامة من أن يرى من يعرفه خشية أن يطالبه بمظلمة ظلمه بها في الدنيا ) .

كما قال ﷺ : ( لتؤذن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء )<sup>(٢)</sup> .

وجاء أنه ﷺ قال : ( من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح في النار ) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يستطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ . من قبائح هؤلاء المشركين الذين جاءوا ظلماً وزوراً ، وافتروا بهتاناً وإثماً مبيناً من قبائحهم وسوء أخلاقهم ، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله وفيها الدلائل والبيّنات والحجج القاطعات الباهرات ، على وحدانيته وإفراده بالعبودية ، واعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالاً ، إذا سمعوا تلك الآيات تعرف المنكر في وجوههم ، فإن علامات المنكر والإنكار الشديد تبدو انفعالاتها واضحة على وجوههم ، إذ الوجه شرفة النفس .

قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾<sup>(٤)</sup> .

ثم يزدادون سوءاً ، فيخرج الإنكار إلى حيز الاعتداء على الذين يتلون عليهم آيات الله ، إنهم يكادون أن يبطشوا بهم ، ويفتكوا بهم ، لما في قلوبهم من غيظ وحقد وحقن على الإسلام ، ونبي الإسلام ، وكتاب الإسلام ، قال لهم مولانا جل شأنه : قل أيها التالى لكتاب الله قل لهؤلاء : أفأنبئكم بشر مما أنتم فيه من إنكار ، وتخويف للمؤمنين في زعمكم ، والاعتداء عليهم : إن النار شر من ذلك الوعيد والتهديد الذى توعدون به عباد الله المؤمنين ، لقد وعدها الله إياكم ، ووعد الله حق ، فإذا دخلتموها فبئس المصير مصيركم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٢١٨ ، والنسائى فى القضاة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٨ ، والدارمى فى البيوع : ٦٢ ، والإمام مالك فى الأقضية : ١١ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٦١ ، والترمذى فى القيامة : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٣) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٤) الآية ١٩ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ٥٦ من سورة النساء .

﴿وبئس المصير﴾ جهنم كما قال تعالى : ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ :

هذا بيان قرآنى حاسم وجازم خاطب الله فيه العباد بلفظ ﴿يأيها الناس﴾ والنداء من الله له ما له من شأن خطير ، وهل هناك أخطر من التوحيد ، ثم هل هناك أعجب من الشرك ، لقد جعلوا لله مثلاً من شركائهم وآلهتهم ، والله سبحانه يقول : ﴿فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾<sup>(٢)</sup> .

وكما تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، تحدى آلهتهم كذلك أياً كان نوعها أو شكلها بشراً كانوا أم حديداً ، أم حجارة ، تحدى كل هؤلاء أن يخلقوا حشرة واهية ، وهانة ضعيفة ، وهى الذبابة ، بل لو اجتمعوا على أن يخلقوا تلك الحشرة ما استطاعوا ، بل إن هناك ما هو أشد من ذلك تحدياً ، لو أن الذباب سلبت تلك المعبودات شيئاً مما تضعونه عليها مثل الطيب أو المادة السكرية أو غير ذلك فإن آلهتكم لا تستطيع أن تستنقذ من الذباب تلك المادة ، أبعد هذا الضعف ضعف يذكر للآلهة الزائفة .

لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وعجزت أن تستنقذ من الذباب ما سلبه منها .

﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ : المقصود بالطالب الآلهة ، وبالمطلوب الذباب ، والمطلوب أقوى من الطالب ، فصارت الآلهة أضعف من الذباب .

كان لأبى ذر الغفارى أيام الجاهلية صنم يعبد ، فجاءه ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة فوجد برأسه بللاً ، ووجد ثعلباً قريباً منه فعلم أن الثعلب قد بال على الصنم ، فقال أبوذر متعجباً :

رب يبول الثعلبان برأسه      لقد ذل من بال عليه الثعلاب  
فلو كان رباً كان ينفع نفسه      فلاخير فى رب نأته المطالب  
برئت من الأصنام فى الأرض كلها      وآمنت بالله الذى هوغالب

سبحانك ربى :

ياخالق الكون فى عز وتمكين      وكل أمر جرى بالكاف والنون  
يامن لطف بحالى قبل تكوينى      لاتجعل النار يوم الحشر تكوينى

إن هؤلاء الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى ماقدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، أى ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوا له ما يجب فى حقه من كمال وعظمة وجلال .

﴿إن الله لقوى عزيز﴾ : قوى لا يغلب عزيز لا يقهر ، فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٧٤ من سورة النحل .

الدائمة: ﴿إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ \* لقد أحصاهم وعدهم عدا \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾ \* يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور﴾ .

أى: الله يختار من الملائكة رسلاً يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي ، ويصطفى من الناس رسلاً يدعون عباده إلى ما يرضيه ، ويبلغونهم ما نزل عليهم من وحيه إرشاداً لهم ، وتشريعاً للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

﴿إن الله سميع بصير﴾ : أى: إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

قوله : ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ : أى: يعلم ما كان بيد أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم .  
وخلاصة ذلك - يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ : أى: وإليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل ، إن خيراً ، وإن شراً .

قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ \* وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبىكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير﴾ .

خطاب من رب العزة إلى الذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وهم أسرع الناس استجابة لخطاب الله ، يأمرهم فيه سبحانه بالمحافظة على الركوع ، ففيه الخضوع للواحد القهار ، كما يأمرهم فيه بالسجود وفيه الإقرار لله بالعظمة ، فلا خضوع إلا له ، ولا خشوع إلا له ، لذا نقول فى الركوع ( سبحان ربى العظيم ) امثالاً لقوله تعالى : ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ ﴿٢﴾ ونقول فى السجود: ( سبحان ربى الأعلى ) ، امثالاً لقوله تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ ﴿٣﴾ . نعم هو العظيم فلا عظيم غيره ، وهو الأعلى فلا أعلى سواه .

لا تخضعن لمخلوق على طمع      فإن ذلك نقص منك فى الدين  
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة      إلا بإذن الذى سواك من طين  
فلا تصاحب غنياً تستعز به      وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين

(١) الآيات ٩٣ - ٩٥ من سورة مريم .

(٢) الآية ٩٦ من سورة الواقعة .

(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى .

واسترزق الله بما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون  
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين  
قوله تعالى : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ : عبادة من يعتقد أن الله هو المعبود وحده لا شريك له ، ومن  
يعتقد أن لقاء الله حق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على  
الخاشعين ﴾ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴿ <sup>(١)</sup> .  
كان عمر رضى الله عنه يقول : لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحداً لخشيت  
أن أكون أنا ذلك الواحد .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت  
فلإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت  
﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ .

وما أكثر أبواب الخير من محافظة على العقيدة والعبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وصلة وبر  
وسماحة وكرم وإيثار وحلم وعلم ينتفع به ، وكلمة طيبة : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً  
سديداً ﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴿ <sup>(٢)</sup> .  
فهذا هو الخطاب الكريم أوله إيمان ، وختمه فلاح وسعادة ونجاح .  
ثم يأمرهم تعالى بعد ذلك بالجهاد فيقول : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ مخلصين له الدين  
ولو كره الكافرون .

والجهاد هنا بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ، سواء أكان جهاداً بالكلمة ، أم كان جهاداً بالسيف  
فى سبيل الله ، لقتال أعدائه المشركين الجاحدين الصادين عن سبيل الله ، أم كان جهاداً للشيطان لسد  
منافذ شره ، أم كان جهاداً للنفس بتربيتها على الصبر والطاعة ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن  
الله لمع المحسنين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فالله هو الذى اجتباكم واختاركم يا أمة محمد ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس تأمرون  
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وفضل نبيكم على جميع الخلق .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً  
ومن فضل الله عليكم يا أمة محمد أنه ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، وقد استجاب لكم  
عندما سمعتم وأطعتم .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من

(٣) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الأحزاب .

رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير \* لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿١﴾ .

لقد استجاب الله لكم ، فوضع عنكم الأغلال والإصر الذي كان على الأمم من قبلكم ، ورفع عنكم الضيق والحرج ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ (٢) .  
فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ (٣) .

وجعل الصلاة اثنين اثنين في السفر ، وأباح الفطر للمريض والحامل والمرضع في رمضان ، ومن كان على سفر ، ومن لم يملك نصاب الزكاة فلا زكاة عليه ، ومن ملك النصاب فالمقدار الذي يخرج من المال يسير ، ربع العشر في النقدين ، والعشر أو نصفه في الزروع والثمار ، والخمس في الركاز ، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً ، كما رفع عنكم الخطأ والنسيان وما استكرهتم عليه ، ورفع القلم عن ثلاث : الصبي حتى يحتلم ، والنائم حتى يستيقظ ، والمجنون حتى يفيق .

ففتح باب التوبة أمام المذنبين ، وخير الخطائين التوابون ، فألزموا ملة أبيكم إبراهيم ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين \* شاكراً لأنعمه اجتباة وهداه إلى صراط مستقيم \* وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين \* ﴾ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴿ (٤) وملة إبراهيم توحيد خالص ، فقد قال لقومه . ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ (٥) .

ومن تشريف الله لكم يا أمة محمد هذه النعمة الجليلة ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي هذا فضل عظيم .

﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ يوم القيامة لأن الأنبياء قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ ويكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ (٦) .

قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (٧) .  
وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ (٨) .

(٥) الآية ٧٩ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٨) الآية ٨٩ من سورة النحل .

(١) الآيتان ٢٨٥ ، ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل .

فأقيموا الصلاة أيتها الأمة بأركانها وشروطها وسننها ، وآتوا الزكاة خالصة بها نفوسكم لا رياء فيها ولا سمعة ، واستمسكوا بحبل الله المتين ، واعتصموا بالله هو مولاكم وناصركم .

﴿ فنعم المولى ﴾ ونعم النصير المولى هو الله ، الذى يتولى شئوننا ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

﴿ ونعم النصير ﴾ لأن النصر منه سبحانه هو الذى يلى أمرنا وينعم علينا بنصره ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

عبد الحميد رشك

في  
رَحَابِ التَّفْسِيرِ

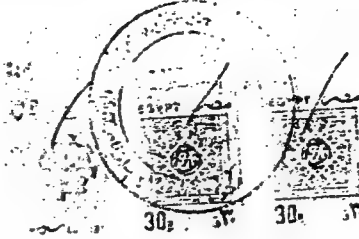
الجزء الثامن عشر  
(سورة المؤمنون)

المكتبة المصرية الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR  
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY  
GENERAL DEPARTMENT  
For Research, Writing & Translation



الأزهر  
مجمع البحوث الإسلامية  
الإدارة العامة  
للبحوث والتأليف والترجمة

السيد / الأستاذ / مدير المكتبة المصرية الحديثة (أحمد محمد)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد :

المجلد الثاني من تأليف : الشيخ / محمد الحبيب /  
مفتي مصر

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع  
من طباعته على نفقتكم الخاصة .

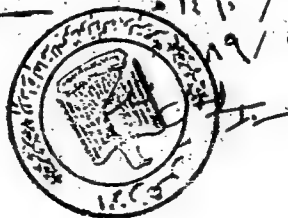
مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث  
النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام  
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

فهمي



تحريراً في ١٤١٠ / ٢ / ٢٥  
الموافق ١٩ / ١٠ / ٢٥



## « سورة المؤمنون »

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، وعدد آياتها مائة وثمانى عشرة عند الكوفيين ، وتسع عشرة عند الباقيين ، وكلماتها ألف ومائتان وأربعون ، وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وواحد .

## مقصود السورة

ومعظم ما اشتملت عليه : الفتوى بفلاح المؤمنين ، والدلالة على أخلاق أهل الإسلام ، وذكر العجائب فى تخليق الأولاد فى الأرحام ، والإشارة إلى الموت والبعث ، ومنة الحق على الخلق بإنبات الأشجار ، وإظهار الأنهار ، وذكر المراكب ، والإشارة إلى هلاك قوم نوح ، ومذمة الكفار وأهل الإنكار ، وذكر عيسى ومريم وإيوانهما إلى ربوة ذات قرار ، وإمهال الكفار فى المعاصى والمخالفات ، وبيان حال المؤمنين فى العبادات والطاعات ، وبيان حجة التوحيد ، وبرهان النبوات ، وذلل الكفار بعد الممات ، وعجزهم فى جهنم حال العقوبات ، ومكافأتهم فى العقبى ، على حسب المعاملات فى الدنيا فى جميع الحالات ، وتهديد أهل اللهو واللغو والغفلات ، وأمر الرسول بدعاء الأمة وسؤال المغفرة لهم ، والرحمات فى قوله : ﴿ رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

## المتشابهات

وقوله : ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ﴿ ومنها ﴾ بالواو ، وفى الزخرف ﴿ فاكهة ﴾ على التوحيد ، ﴿ منها تأكلون ﴾ بغير واو ، راعى فى السورتين لفظ الجنة ، وكانت فى هذه ﴿ جنات ﴾ بالجمع ، فقال : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ، وفى الزخرف : ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد ، وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ ، فقال : ﴿ فيها فاكهة ﴾ وقال فى هذه السورة : ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بزيادة الواو ، لأن تقدير الآية : منها تدخرون ، ومنها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة ، فإنها للأكل فقط ، فلذلك قال : ﴿ منها تأكلون ﴾ .  
ووافق هذه السورة ما بعدها أيضا ، وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾ فهذا للقرآن معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ وبعده ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا ﴾ فقدم ﴿ من قومه ﴾ فى الآية الأخرى ، وأخر فى الأولى لأن صلة ﴿ الذين ﴾ فى الأولى اقتضت على الفعل وضمير الفاعل ، ثم ذكر بعده الجار والمجرور ، ثم ذكر المفعول وهو المقول ، وليس كذلك فى الأخرى ، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى ، فقدم الجار والمجرور ، لأن تأخيرها يلتبس وتوسطه ركيك ، فخص بالتقدم .

قوله : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وفى حتم فصلت : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الله ، وليس فيه ذكر الرب ، وفى السجدة تقدم ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ سابقا على ذكر لفظ الله ، فصرح فى هذه السورة بذكر الله ، وهناك بذكر الرب ، لإضافته إلى العالمين ، وهم من جملتهم ، فقالوا إما اعتقادا ، وإما استهزاء : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فأضافوا الرب إليهم .

قوله : ﴿ واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم ﴾ وفي سبأ : ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ كلاهما من وصف الله سبحانه ، وخص كل سورة بما وافق فواصل الآي .

قوله : ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ بالآلف واللام ، وبعده : ﴿ لقوم لا يؤمنون ﴾ لأن الأول لقوم صالح ، نعرفهم بدليل قوله : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ والثاني نكرة وقبلة : ﴿ قرونا آخرين ﴾ وكانوا منكرين ، ولم يكن معهم قرينة عرفوا بها ، فخصوا بالنكرة .

قوله : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ وفي النمل : ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ لأن ما في ( هذه ) السورة على القياس ، فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالضمير المنفصل ، فأكد ﴿ وعدنا نحن ﴾ ثم عطف عليه ﴿ آباؤنا ﴾ ثم ذكر المفعول وهو ﴿ هذا ﴾ وقدم في النمل المفعول موافقة لقوله : ﴿ ترابا ﴾ لأن القياس فيه أيضا : كنا نحن وآباؤنا ترابا فقدم ﴿ ترابا ﴾ ليسد مسد نحن ، وكنا متوافقين .

قوله : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ الأول جواب ، لقوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ جواب مطابق لفظا ومعنى ، لأنه قال في السؤال : ﴿ قل لمن ﴾ فقال في الجواب : ﴿ لله ﴾ وأما الثاني والثالث فالمطابق فيهما في المعنى ، لأن القائل إذا قال لك : من مالك هذا الغلام ؟ فلك أن تقول : زيد ، فيكون مطابقا لفظا ومعنى ، ولك أن تقول لزيد فيكون مطابقا للمعنى ، ولهذا قرأ أبو عمر : والثاني والثالث : ﴿ الله ﴾ ﴿ الله ﴾ مراعاة للمطابقة .

قوله : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم ﴾ وقبلة ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول في الدنيا عند نزول العذاب وهو الجذب عند بعضهم ، ويوم بدر عند البعض ، والثاني في القيامة وهم في الجحيم ، بدليل قوله : ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ .

وقد جاء في فضلها ما روى عن عائشة رضي الله عنها - أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ <sup>(١)</sup> ثم قرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى انتهت إلى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

### مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

- (١) أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل الخيرات لعلهم يفلحون ، وحقق فلاحهم في بدء هذه السورة .
- (٢) أنه تكلم في كل من السورتين في النشأة الأولى ، وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .
- (٣) وأن في كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم ، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين .
- (٤) أنه نصب في كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

(١) أخرجه مسلم في المسافرين : ١٣٩ - وأبو داود في التطوع : ٢٦ . والترمذي في البر : ٦٩ . والنسائي في قيام الليل : ٢ . وابن ماجه في الأحكام : ١٤ . والدارمي في الصلاة : ١٦٥ . والإمام أحمد في ٦ : ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾  
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا  
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾  
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ  
هُمُ الْبَارِئُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

### تفسير المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد .

وأفْلَحَ : دخل في الفلاح . كَأَبْشَرَ : دخل في البشارة .

والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء .

والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح .

واللغو : هجر القول وقبيحه .

والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .

والفرج : سوءة الرجل والمرأة .

وحفظه : التعفف عن الحرام .

وابتغى : طلب .

وراء ذلك : أى غير ذلك .

والعادون : أى المتناهون في العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية .

والأمانات : واحداها أمانة، وهى ما ائتمن المرء عليه من قبل الله كالتكاليف الشرعية، أو من قبل الناس

كالأموال المودعة لديه، والنذور والعقود ونحوها .

والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه وما أمر به الله كما قال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

عَهْدَ إِلَيْنَا ﴾ (١)

والرعى : الحفظ .

والراعى : القائم على الشيء لحفظه وإصلاحه .  
يحافظون : أى يواظبون عليها .  
الفردوس : أعلى الجنة .

### التفسير

روى الإمام أحمد-رضى الله عنه- بسنده عن عبد الرحمن بن عبد القارى قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال : ( اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا )<sup>(١)</sup> . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ) ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر .

وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبي العالية وغيرهم : ( لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها ، وقال لها : تكلمى . فقالت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها ، وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك في كتابه ) .

وقال البزار : (حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك فقال لها ، تكلمى ، فقالت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك ) .

وعن أنس-رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : ( خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . قالت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقال الله : وعزق وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾<sup>(٢)</sup> . بدأ الله هذه السورة الكريمة بحرف يفيد التحقيق وهو ( قد ) وذلك من باب التوكيد لوعده الله لهؤلاء بالفلاح .

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ :

هذا حكم الله للمؤمنين بالفلاح ، والله إذا حكم صدق ولا معقب لحكمه ، وهذا قضاء الله للمؤمنين بالسعادة والفوز ، والله إذا قضى فلا راد لقضائه ، يقول الحق ولا يقول غير الحق لأنه الحق ، وفي هذه الآية الكريمة التى تفيض نورا ورحمة ما يدل على ثبوت الفلاح للمؤمنين ثبوتا قطعيا مؤكدا ، بحرف ( قد ) .

فمن هؤلاء الذين استحقوا هذا الشرف ، ونالوا تلك الرتبة ، وفازوا بهذه الدرجة العظمى ، وتمتعوا بحكم الله الصادق ؟

إنهم المؤمنون ، أى: المتصفون بالإيمان ، والإيمان كلمة مدلوها الصدق اليقيني ، ومحله القلب ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٣ : ١ .

(٢) الآية ٩ من سورة الحشر .

(٣) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

وقال تعالى : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم﴾ (٢) .

فما مدلول هذه الكلمة ؟ وما مدلول صفات أصحابها ؟ بين الرسول ﷺ مدلول الإيمان في حديث شريف قال فيه : ( أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره ) (٣) .

فإذا ما نحن قرأنا كتاب الله وجدناه قد حدد للمؤمنين صفات ، وبين لهم مبادئ التزاموها ، وساروا على نهجها ، فاستحقوا هذه الصفة صفة المؤمنين ، فمن هذه المبادئ موقفهم من ضرب الأمثال في القرآن ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ (٤) .

وعلى الطرف الآخر موقف الكافرين .

قال تعالى : ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ (٥) .

موقف المؤمنين الثبات على مبدأ الحق ، وهو موقف تزول الجبال ولا يزول ، الحق من الله ، لأن الله لا يقول إلا الحق .

ويقول الله في شأنهم أيضاً :

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ (٦) . وهذا ما أكدته حديث رسول الله الذي سبق ذكره .

وهذا أيضاً تأكيد لما سبق في أول سورة البقرة ، في قوله تعالى : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ (٧) . والمؤمنون لا يعرفون الوهن ولا الحزن ، إنهم فوق الأحداث ، لا تلين قناتهم ، إذا عربد الباطل في عرضات الدنيا .

لقد قال الله في شأنهم : ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ (٨) .

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان : ١ ، ٧ . وأبو داود في السنة : ١٦ . والترمذي في القدر : ١٠ ، وفي الإيمان : ٤ . والنسائي في الإيمان : ٥ ، ٦ . وابن ماجه في المقدمة : ٩ ، ١٠ . والإمام أحمد في ١ : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ٣١٩ ، وفي ٢ : ١٠٧ ، ١٨١ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٧) الآيات ٣ - ٥ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ١٣٩ - ١٤١ من سورة آل عمران .

والمؤمنون إذا نزلوا ميدان القتال قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، قال جل شأنه : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ﴾ (١) .

ثم بين على الطرف الآخر الفريق المضاد فقال : ﴿ والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ .

والمؤمنون - كما وصفهم الله - أوفياء بالعقود . والعهود ، لا يعرفون نقضها أو مخالفتها .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ (٢) .

ولا يعرفون ولاية إلا الله ورسوله والمؤمنين .

قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم

راكون ﴾ (٣) .

والمؤمنون كما وصفهم الله في قوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت

عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم يتفقون . أولئك

هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (٤) .

والمؤمنون ثابتون عند التقاء الصفوف ، ذاكرون الله ، قال الله تعالى يخاطبهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا

إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ (٥) .

وهم الذين تواصلوا فيما بينهم على المحبة والنصرة ، قال الله في شأنهم : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله

ورسوله أولئك سيرهم الله ﴾ (٦) .

وهم الذين عقد الله معهم ذلك العقد الخالد فقد اشترى الأنفس والأموال وأعطاهم الجنة ،

ووصفهم بصفات الحسن والكمال والفضيلة ، والتزّه عن الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله

فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا

ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون

الساجدون الأمور بالمعروف والنهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ (٧) .

وهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٨) .

وقال في شأنهم : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم

وأ أنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ (٩) .

وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله

ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم

(٦) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٧) الأيتان ١١١ ، ١١٢ من سورة التوبة .

(٨) الآية ١٠ من سورة الحجرات .

(٩) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(١) الآية ٧٦ من سورة النساء .

(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .

(٣) الآية ٥٥ من سورة المائدة .

(٤) الآيات ٢ - ٤ من سورة الأنفال .

(٥) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .

بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿١﴾ .

والمؤمنون هم الذين وقفوا موقف الالتزام عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

ووقفوا موقف الالتزام عند قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ (٣) . وعند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ (٤) .

وعند قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٥) .

والمؤمنون هم الذين اتبعوا الإرشاد في قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٦) .

وهم الذين استثناهم الله في قوله : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٧) .

إن هؤلاء المؤمنين عرفوا الحق حقا فاتبعوه ، ورأوا الباطل باطلا فاجتنبوه ، التزموا الأوامر ، واجتنبوا النواهي ، وقفوا عند حدود الله موقف السمع والطاعة ، كانوا كما قال الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾ (٨) . وكانوا كما قال الله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ (٩) .

هذه صورة قرآنية صادقة للمؤمنين الذين استحقوا أن يحكم الله لهم بالفلاح ، في قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فلاح في الدنيا والآخرة ، كما وعد الله تعالى في قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ (١٠) .

استحقوا أن يقول الله في شأنهم : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

(٦) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .

(٧) سورة العصر .

(٨) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة النساء .

(٩) الآية ٥١ من سورة النور .

(١٠) الآية ٥٥ من سورة النور .

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر .

(٣) الآية ١ من سورة الممتحنة .

(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .

(٥) الآية ٩ من سورة المنافقون .

وكانوا أهلاً لرحمة الله عندما قال في حقهم : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .  
وكانوا أهلاً لنصر الله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم  
الأشهاد ﴾ (٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٣) .  
وكانوا جديرين بالحياة الطيبة : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة  
ولنجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٤) .  
وكانوا أهلاً لطمأنينة القلب : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن  
القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ (٥) .  
وكانوا أهلاً لأن يشكر الله سعيهم : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان  
سعيهم مشكوراً ﴾ (٦) .

وكانوا أهلاً لهذا الجزاء الرباني : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار  
خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧) .  
ونالوا نعمة السكينة في القلوب : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع  
إيمانهم ﴾ (٨) .

وفازوا بهذا الفضل العظيم الذي بينه الله في قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند  
ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (٩) .  
واستحقوا أن يكونوا أصحاب الميمنة كما قال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر  
وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة ﴾ (١٠) .  
وتشرفوا بأن يكونوا حزب الله كما قال جل شأنه : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم  
المفلحون ﴾ (١١) .

واستثناهم الله من الذين انحدروا في الأحوال حيث قال جل شأنه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في  
أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير  
ممنون ﴾ (١٢) .

فهنيئاً لكم ما أصبحتم فيه ، يامن طهرت قلوبكم من الحقد ، وألستكم من الزلل ، وأيديكم  
من الخطيئة ، وأعينكم من الرذيلة ، وسمعكم من النقائص .

هنيئاً لكم يامن حكم الله لكم بالفلاح ، وإنها لدرجة لا يستحقها إلا أنتم يا أصحاب القلوب  
الطيبة ، يامن قال الله في شأنكم : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في

(٧) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٨) الآية ٤ من سورة الفتح .

(٩) الآية ٤ من سورة الأنفال .

(١٠) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة البلد .

(١١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

(١٢) الآيات ٤ - ٦ من سورة الزيتون .

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٣) الآية ٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .

(٥) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الرعد .

(٦) الآية ١٩ من سورة الإسراء .



هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ .

الخشوع في الصلاة: حضور القلب وسكون الجوارح ، قيل لحاتم الأصم رضى الله عنه : ( كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال : إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامي ، والموت ورائي ، والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، والصراط تحت قدمي ، معتقدا أن الله مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدري أقبلها الله أم ردها عليّ ) .

حسبك أن تعلم أن الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت على النبي وأمته في السماء وهذا ما يدل على أنها صلة واتصال وثيق بين العبد وربّه، وعلى علو مكانتها ورفعة درجتها، وها نحن أولاً نلقى بعض الأضواء على تلك الفريضة حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكامها: والله ولى التوفيق .

تعريفها :

الصلاة عبادة تتضمن أقوالاً وأفعالاً مخصوصة ، مفتتحة بتكبير الله تعالى ، مختتمة بالتسليم .

منزلتها في الإسلام :

وللصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى ، فهي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به ، قال رسول الله ﷺ : ( رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ) (٢) .

وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، تولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة .

قال أنس : ( فرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة أسرى به خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمسا ثم نودى يا محمد : إنه لا يبدل القول لدى وإن لك بهذه الخمس خمسين ) (٣) . رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه .

وهي أول ما يحاسب عليه العبد . نقل عبد الله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : ( أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله ) . رواه الطبراني .

وهي آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا جعل يقول - وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة - : ( الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم ) .

وهي آخر ما يفقده من الدين فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : ( لتنقض عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن

(١) الآية ٣٠ من سورة النحل .

(٢) أخرجه ابن ماجة في الفتن : ١٢ . والإمام أحمد في ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة : ١ . والترمذي في الصلاة : ٤٥ . والنسائي في الصلاة : ١ .

(الصلاة) . رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .  
 والمتتبع لآيات القرآن يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ إن الصلاة تنهى  
 عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ <sup>(١)</sup> . ( قد أفلح من تركى . وذكر اسم ربه فصلى ) <sup>(٢)</sup> .  
 ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ <sup>(٤)</sup> . ومرة بالصبر : ﴿ واستعينوا  
 بالصبر والصلاة ﴾ <sup>(٥)</sup> . وطورا بالنسك : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ <sup>(٦)</sup> . ﴿ قل إن صلاتى ونسكى  
 ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ <sup>(٧)</sup> .  
 وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ، ويختتمها بها كما فى سورة : سأل « المعارج » وفى أول سورة  
 المؤمنون : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ . إلى قوله : ﴿ والذين هم على  
 صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ .  
 وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف  
 فقال تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتهم فرجالا أو ركبانا  
 فإذا أنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ <sup>(٨)</sup> .

وقال مبينا كيفيتها فى السفر والحرب والأمن : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن  
 تقصروا من الصلاة إن خفتهم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت  
 فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم  
 ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون  
 عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو  
 كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم  
 الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على  
 المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ <sup>(٩)</sup> .

وقد شدد النكير على من يفرط فيها ، وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ فخلف من  
 بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ <sup>(١٠)</sup> .  
 وقال : ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ <sup>(١١)</sup> .

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة ، سأل إبراهيم عليه السلام ربه أن  
 يجعله هو وذريته مقبلا لها فقال : ﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ﴾ <sup>(١٢)</sup> .  
 حكم ترك الصلاة :

ترك الصلاة جحودا بها وإنكارا لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين ، أما من تركها

(٧) الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٨) الآيات ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة .

(٩) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة النساء .

(١٠) الآية ٥٩ من سورة مريم .

(١١) الآيات ٤ ، ٥ من سورة الماعون .

(١٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم .

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .

(٣) الآية ١٤ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٤٥ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢ من سورة الكوثر .

مع إيمانه بها واعتقاده فرضيتها ولكن تركها تكاسلا أو تشاغلا عنها بما لا يعد في الشرع عذرا ، فقد صرحت الأحاديث بكفره ، ووجوب قتله .

أما الأحاديث المصرحة بكفره فهي :

١ - عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ( بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة ) (١) . رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه .

٢ - وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : ( العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر ) (٢) . رواه أحمد وأصحاب السنن .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : ( من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف ) (٣) . رواه أحمد والطبراني .

وكون تارك المحافظة على الصلاة مع أئمة الكفر في الآخرة . يقتضى كفره ، قال ابن القيم : تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته ، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف .

وعن عبد الله بن شقيق العقيلي قال : ( كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة ) . رواه الترمذي .

وقال محمد بن نصر المحروزي : سمعت إسحاق يقول : ( صح عن النبي ﷺ : أن تارك الصلاة كافر ) وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن محمد ﷺ أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر .

وقال ابن حزم : وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة : أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد ، ولا نعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا . ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب .

ثم قال : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة . متعمدا تركها حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وجابر بن عبد الله ، وأبو الدرداء رضي الله عنهم ، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل ، وإسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك ، والنخعي ، والحكم بن عتيبة ، وأبو أيوب السخيتاني ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو بكر بن أبي شيبة ، وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان : ١٣٤ . وأبو داود في السنة : ١٥ . والترمذي في الإيمان : ٩ . وابن ماجه في الإقامة : ١٧ . والدارمي في الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة : ٨ . والترمذي في الإيمان : ٩ . وابن ماجه في الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفي الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد في ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) أخرجه الدارمي في الرقاق : ١٣ . والإمام أحمد في ٢ : ١٢٩ .

والأحاديث المصرحة بوجوب قتله فهي :

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : ( عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان ) . رواه أبو يعلى بإسناد حسن . وفي رواية أخرى : ( من ترك منهن واحدة بالله كافر ولا يقبل

منه صرف ولا عدل - أى : لا يقبل منه فرض ولا نفل - وقد حل دمه وماله ) ..  
وعن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ( أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل ) (١) . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قال : ( إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع . قالوا يا رسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا ) (٢) . رواه مسلم .

جعل المانع من مقاتلة أمراء الجور الصلاة .

وعن أبي سعيد قال : بعث على - وهو اليمنى - إلى النبي ﷺ بذهبية قسمها بين أربعة، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله . فقال : ( ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟ ) ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال : لا لعله أن يكون يصلى فقال خالد : وكم من رجل يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال النبي ﷺ : ( إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس . ولا أشق بطونهم ) (٣) . مختصر من حديث للبخارى ومسلم وفي هذا الحديث أيضا جعل الصلاة هى المانعة من القتل، ومفهوم هذا أن عدم الصلاة يوجب القتل .

فعليك أيها الأخ المسلم أن تحافظ على الصلاة فى أوقاتها ، فإن أول ما تحاسب عليه يوم القيامة الصلاة ، وعليك أن تستحضر عظمة الله فى قلبك ، وأن تصلى صلاة مودع ، فالصلاة عماد الدين ، وأساس الإسلام ، وقد مدح الله تعالى من أداها بشروطها وأركانها وسننها فقال : ﴿ قد أفلح من تركزى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى الصلاة : ٢٨ ، وفى الاستئابة : ٣ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ٢٨ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢ . وأبو داود فى الزكاة : ١ ، وفى الجهاد : ٩٥ . والترمذى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٨ . والنسائى فى الزكاة : ٣ ، وفى الإيمان : ١٥ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التحريم : ١ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإمامة : ٦٢ - ٦٤ . وأبو داود فى السنة : ٢٧ . والترمذى فى الفتن : ٧٨ . والنسائى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢١ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٦١ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد فسر اللغو بتفسيرات منها : أنه الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصي ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ <sup>(١)</sup> . في صفة عباد الرحمن ، كما قال جل شأنه : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ <sup>(٣)</sup> . قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك .

بمكارم الأخلاق كن متحلياً	واصدق وجد نافس الأبطالا
والله فاعبد واستقم وتصدقن	وادع الشكور فلا يرد سؤالا
قل ماتشاء ففضل ربى واسع	والله وهاب قضى وأنسالا
قد نلت ثانية بفضل حديثه	أعطيت ما أهوى وأصلح بالاً

فقد أدبنا الإسلام بأدب الصمت حتى لا يقع اللسان في اللغو ، فهاك ما جاء على لسان نبي البر وإمام الهدى ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ وما ذكره العلماء في التأدب بالصمت والبعد عن اللغو :

● عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي المسلمين أفضل ؟ قال : ( من سلم المسلمون من لسانه ويده ) <sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم والنسائى .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه ) <sup>(٥)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

● وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله : أي الأعمال أفضل ؟ قال : ( الصلاة على ميقاتها ) قلت : ثم ماذا يا رسول الله ؟ قال : ( أن يسلم الناس من لسانك ) . رواه الطبرانى بإسناد صحيح وصدره في الصحيحين .

● وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ؟ فقال : ( إن كنت أقصرت الخطبة لقد أجزفت المسألة : أعتق النسيمة ، وفك الرقبة ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا عن خير ) <sup>(٦)</sup> . مختصر رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقى .

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى في الإيمان : ٤ ، ٥ . ومسلم في الإيمان : ٦٤ ، ٦٥ . وأبو داود في الجهاد : ٢ . والترمذى في القيامة : ٥٢ . والنسائى في الإيمان : ٨ ، ٩ ، ١١ . والدارمى في الرقاق : ٤ ، ٨ . والإمام أحمد في ٢ : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٣٧٩ ، وفى ٣ : ١٥٤ .

(٥) أخرجه البخارى في الإيمان : ٤ ، وفى الرقاق : ٢٦ . وأبو داود في الوتر : ٢ ، ١٢ . والنسائى في الإيمان : ٩ . وابن ماجه في الفتن : ٢ . والإمام أحمد في ٢ : ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ .

(٦) أخرجه الامام أحمد في ٤ : ٢٩٩ .

المعنى :

قصرت الخطبة : أى إن كنت أفصحت عن غرضك باختصار وبلاغة تعبير وحسن بيان .

أعرضت المسألة : لقد أجدت فى إظهار طلبك وأحسنتم بيانا .

أعتق النسمة : النسمة : الروح ؛ أى أعتق ذا روح وكل دابة فيها روح فهى نسمة .

وإنما يريد الناس : ومنه حديث على (والذى فلق الحبة وبرأ النسمة) أى : خلق ذات الروح .

فك الرقبة : أطلقها من الأسر وأزال أغلال حبسها ومدّها بالحرية ونعمة الحياة الرغدة ، قال تعالى :

﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيمًا ذا مقربة .

أو مسكينًا ذا متربة ﴾ .

أى : فلم يعمل فى حياته ما يساعده على اجتياز منطقة الأهوال بإزالة أسر النفس الذليلة ، وقد قال

عمر : ( متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ) .

وأمر بالمعروف : انصح وأرشد إلى سبل الخير ، وامنع الناس عن ارتكاب المعاصي ، ما استطعت إلى

ذلك سيلا .

إلا عن خير : احذر النطق إلا فى البر وفعل الخير والثناء والشكر .

● وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما النجاة ؟ قال : ( أمسك عليك

لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك ) (١) . رواه أبو داود والترمذى وابن أبى الدنيا فى

العزلة .

● وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( طوبى لمن ملك لسانه ، ووسع بهيته ،

وبكى على خطيئته ) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

● وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر

ويشهد أنى رسول الله : فليسعه بيته ، وليبك على خطيئته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل

خيلا ليغتم ، وليسكت عن شر فيسلم ) رواه الطبرانى .

● وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من يضمن لى ما بين لحييه وما

بين رجله أضمن له الجنة ) (٢) . رواه البخارى والترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من وقاه الله شر ما

بين لحييه وشر ما بين رجله دخل الجنة ) (٣) . رواه الترمذى .

● وعن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أى الأعمال أحب إلى الله عز

وجل ؟ قال : فسكتوا فلم يجبه أحد ، قال : هو حفظ اللسان ) . رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقى .

● وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه

ومن حفظ لسانه ستر الله عورته ) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو ليلى ولفظه قال : ( من خزن لسانه ستر

الله عورته ، ومن كف غضبه كفى الله عنه عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره ) . ورواه البيهقى

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، وفى ٥ : ٢٥٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام مالك فى الكلام : ١١ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٢ .

مرفوعا وموقوفا على أنس، ولعله الصواب .

• وروى الطبراني في الصغير والأوسط عنه أيضا عن النبي ﷺ قال : ( لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه ) .

• وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ( والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أجوج إلى طول سجن من لسان ) . رواه الطبراني موقوفا بإسناد صحيح .

• وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : ( من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة ، فقال رجل : يارسول الله ألا تخبرنا ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأعاد رسول الله ﷺ مقبالتة ، فقال الرجل : ألا تخبرنا يارسول الله ؟ ثم قال رسول الله ﷺ مثل ذلك أيضا ، ثم ذهب الرجل يقول مثل مقالته ، فأسكته رجل إلى جنبه ، قال رسول الله ﷺ : من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة : ما بين لحييه وما بين رجليه ) (١) . رواه مالك مرسلا . ولج : أى دخل الجنة .

• وعن أبى موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله : ( من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة ) (٢) . رواه أحمد والطبراني وأبو يعلى واللفظ له ورواته ثقات .

• وفى رواية للطبراني : قال لى رسول الله ﷺ : ( ألا أحدثك بشئتين من فعلهما دخل الجنة ؟ قلنا : بلى يارسول الله . قال : يحفظ الرجل ما بين فقميه وما بين رجليه ) والمراد بما بين فقميه : هو اللسان وبما بين رجليه : هو الفرج .

• وعن أبى رافع رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( من حفظ ما بين فقميه وفخذه دخل الجنة ) . رواه الطبراني .

• وعن ركب المصرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ) . رواه الطبراني .

• وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال : قلت : يارسول الله حدثني بأمر أعصم به ؟ قال : ( قل ربى الله ثم استقم ) (٣) قال : قلت : يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ ( فأخذ بلسان نفسه ثم قال : هذا ) . رواه الترمذى .

• وعنه رضي الله عنه قال : ( قلت : يارسول الله أى شيء أتقى ؟ فأشار بيده إلى لسانه ) . رواه أبو الشيخ بن حبان .

• وعن الحارث بن هشام رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أخبرني بأمر أعصم به ؟ فقال رسول الله ﷺ : أملك هذا وأشار إلى لسانه ) . رواه الطبراني .

• وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه ) (٤) . رواه أحمد وابن أبى الدنيا .

(١) أخرجه الإمام مالك في الكلام : ١١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٤ : ٣٩٨ .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان : ٦٢ . والإمام أحمد في ٣ : ٤١٣ ، وفي ٤ : ٣٨٥ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ١٩٨ .

● وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : ( كنت مع النبي ﷺ في سفرة ، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ <sup>(١)</sup> حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : رأس الأمر : الإسلام وعموده : الصلاة ، وذروة سنامه : الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يا رسول الله قال : كف عليك هذا وأشار إلى لسانه . قلت : يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم <sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه .

### ﴿ المعنى ﴾

ليسير : أى : لسهل .

من يسره الله عليه : وفقه وأهله الصواب والحكمة .

الصوم جنة : وقاية يتحصن بها من المعاصي ويتذرع بها من ارتكاب الذنوب .

تطفىء الخطيئة : تزيل شعلتها وتخفف حدتها .

تجافى : ترك .

رأس الأمر : أوله .

وعموده : قوامه ، وعماده ودعمته .

ذروة سنامه : أعلاه وأرقى جزء فيه .

ثكلتك أمك : فقدتك وصارت ثكلى إذ فقدت وحيدها .

يكب الناس : يقلب ويرمى .

حصائد ألسنتهم : أى : ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه : مفردا حصيدة : تشبيها بما يحصد من

الزرع ، وتشبيها للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به . يريد ﷺ :

أ - توحيد الله جل وعلا في العبادة والطاعة .

ب - أداء الصلوات في أوقاتها .

ج - الإنفاق في الخير وأداء الحقوق المالية والجسمية ( صدقة تطهرهم ) .

د - صيام رمضان .

هـ - تلك أركان الإسلام الخمسة المشهورة ثم بين ﷺ فائدة الصوم : الهداية إلى الصراط المستقيم

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى في الإيمان : ١٩ . ومسلم في الإيمان : ٢٣٧ . وأبو داود في السنة : والترمذي في الديات : ٨ . والنسائي في

الإيمان : ٧ . وابن ماجه في الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمي في السير : ٧٧ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .



والتباعد عن العصيان والتحصن من الذنوب، كما أن الصدقة تمحو أدران الخطايا وتنظف الصحائف وتجعلها نقية طاهرة بيضاء ناصعة، ومن أسلم فاز وأفلح وأدرك الخير كله ودعامة البر الصلاة، وأشرف الأعمال الصالحة الدفاع عن دين الله ونصره والذب عنه، وثمرة ما تقدم طيب القول وحلو الحديث.

● روى الطبراني مختصرا قال : قلت : ( يارسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم ، إنك لن تزال سالما ماسكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك ) .

● وروى أحمد وغيره عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أن معاذاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ( يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة بعد الصلاة المفروضة ؟ قال لا : ونعما هي . قال : الصوم بعد صيام رمضان ؟ قال : لا ونعما هو قال : فالصدقة بعد الصدقة المفروضة قال : لا ونعما هي . قال : يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ، ثم وضع إصبعه عليه ، فاسترجع معاذ فقال : يارسول الله أنؤاخذ بما نقول كله ويكتب علينا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺ منكب معاذ مرارا فقال له : ثكلتك أمك يا معاذ بن جبل وهل يكب الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم ) (١) .

● وعن أسود بن أحدم رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أوصنى قال : ( تملك يدك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك يدي ؟ قال : تملك لسانك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك لسانى ؟ قال : لا تبسط يدك إلا إلى خير ، ولا تقل بلسانك إلا معروفا ) رواه ابن أبي الدنيا .

● وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : ( قلت يارسول الله أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها زين لأمرك كله . قلت : يارسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإنه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض . قلت : يارسول الله زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك . قلت : زدنى . قال : وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . قلت : زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مرا . قلت : زدنى ، قال : لا تخف في الله لومة لائم . قلت : زدنى ، قال : ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك ) . رواه أحمد والطبراني .

● وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، فضلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . الحديث .

### ﴿ المعنى ﴾

الصمت : السكوت والرزازة والتؤدة في النطق .

(١) أخرجه البخارى في الإيمان : ٧ . وابن ماجه في الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمي في السير : ٧٧ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٦ ،

يميت القلب : يبعده عن الاعتاظ فلا يتأثر ويجعله جامدا قاسيا لا يعمل صالحا ، ولا يرتدع عن منكر ولا ينزجر عن قبيح .  
 قل الحق : الموافق للصواب والعدل .  
 لومة لائم : عتب عاتب أو عقاب جبار خاسر .  
 ليحجزك عن الناس : ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذي تعلمه من تقصيرك وعدم تكميلك وأنت في حاجة إلى تكميل وطاعة وصحة . يشير ﷺ إلى :  
 أ - خشية الله في جميع الأعمال .  
 ب - قراءة القرآن وذكر الله عز وجل .  
 ج - اعتقال اللسان وحبسه إلا في القول الحميد .  
 د - تجنب الهزل والسخرية والازدراء .  
 هـ - قول الحق ووجه ونصره .  
 و - العمل لوجه الله وحده وعدم الخوف إلا منه جل وعلا .  
 ز - الإقبال على تجميل النفس بالاستزادة في الطاعات وعدم العيب والتحلل بمكارم الأخلاق ، وترك الغيبة والنميمة ، وفي النهاية : احتجز الرجل بالإزار : إذا شده على وسطه ، فاستعاره للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشئ والتعلق به ، ومنه حديث ( والنبي أخذ بحجزة الله ) أى : بسبب منه .

زيادة القول تحكى النقص في العمل ومنطق المرء قد يهديه للزلل  
 إن اللسان صغير جرمه له جرم عظيم كما قيل في المثل

● وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : ( يا رسول الله أوصنى . قال : عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد في سبيل الله فإنها رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه فإنه نور لك في الأرض وذكر لك في السماء ، واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان ) . رواه الطبراني في الصغير .

### ﴿ المعنى ﴾

تقوى الله : في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روى : ( الحلال بين والحرام بين ومن رتق حول الحمى فحقق أن يقع فيه ) (١) قال الله تعالى : ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢) ، ﴿ إن الله مع الذين اتقوا

(١) أخرجه البخارى في الإيمان : ٣٩ . ومسلم في المساقاة : ١٠٧ ، ١٠٨ . وأبو داود في البيوع : ٣ . والترمذى في البيوع :

١ . والنسائى في البيوع : ٢ . وابن ماجه في الفتن : ١٤ . والدارمى في البيوع : ١ . والإمام أحمد في ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ .  
 ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأعراف .

والذين هم محسنون ﴿١﴾ ، ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا﴾ ﴿٢﴾ ، ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ ﴿٣﴾ .

يقال : اتقى فلان بكذا : إذا جعله وقاية لنفسه .

رهبانية المسلمين : غلو في تحمل العبد من فرط الرهبة، والرهب : مخافة مع تحفظ، والمعنى الدفاع عن دين الله ونصره وجهاد الأعداء زيادة قربان من الله تعالى للمسلمين ويدل على شدة خوفهم منه جل وعلا .

● وعن أنس رضي الله عنه قال : لقي رسول الله ﷺ أبا ذر فقال : ( يا أبا ذر : ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل في الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يا رسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلها ) . رواه ابن أبي الدنيا . قال النبي ﷺ : ( يا أبا الدرداء : ألا أنبئك بأمرين خفيف مؤنتهما عظيم أجرهما ، لم تلق الله عز وجل بمثلها ؟ طول الصمت . وحسن الخلق ) رواه ابن أبي الدنيا . قال رسول الله ﷺ : ( ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ؟ الصمت وحسن الخلق ) .

### ﴿ المعنى ﴾

خفيفتان : العمل بهما خفيف ولكن يجلبان حسنات جمة هما :  
( أ ) التحلى بالمكارم .

( ب ) التمسك بالسكوت :

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف  
أما رياح اللؤم وهي عواصف ومعنى العلا يؤدى ورسم الندى يعفو

كالبدر من حيث التفت رأيته يهذى إلى عينيك نورا ثاقبا  
كالبحر يقذف للقريب جواهرها جوادا ويبيع للعبيد سحائبها  
كالشمس في كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

الأديب المهذب الأصيل العذي الزاكي الجعد السرى الهمام  
حسبك الله ما تفضل عن الحق ولا تهتدى إليك أشام

● وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه رفعه قال : ( إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا (١) ،  
رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما .

● وعن أبى وائل عن عبد الله رضى الله عنها أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال : يا لسان قل خيرا  
تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أكثر  
خطأ ابن آدم فى لسانه ) . رواه الطبرانى .

● وعن أسلم : ( أن عمر دخل يوما على أبى بكر الصديق رضى الله عنها وهو يجنب لسانه ، فقال  
عمر : مه غفر الله لك ، فقال له أبو بكر : إن هذا أوردنى شر الموارد ) (٢) . رواه مالك وابن أبى  
الدنيا .

● وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( أربع لا يصبن إلا بعجب : الصمت وهو  
أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله عز وجل ، وقلة الشيء ) . رواه الحاكم .  
بعجب ، أى : لا توجد وتجتمع فى إنسان إلا على وجه عجيب ، أى : قل أن تجتمع فيه .  
الصمت : السكوت عما لا يغنى ، أى : مالا ثواب فيه إلا بقدر الحاجة .  
أول العبادة : أساسها ومبناها .

التواضع : لين الجانب لخلق الله لا لأمر دنيوى .

ذكر الله : لزوم الدوام عليه .

قلة الشيء : الذى ينفق منه على نفسه فإنه لا يجمع السكوت والتواضع ولزوم الذكر بل الغالب على  
المثل الشكوى وإظهار الضجر وشغل الفكرة الصارف عن الفكر .

وقال الحنفى : أى من عجب ووجه العجب أن قلة الشيء الآتى يقتضى كثرة اللجاج فكيف يجمع  
الصمت . . يرشدك ﷺ إلى صفات أربع عنوان الأدب ، ومعين المكارم ، ومجلب المحامد والمحاسن :

أ - إطالة السكوت والرزانة والأناة والحلم والتؤدة والإتقان وعدم كثرة الكلام .

ب - لين الجانب وخفض الجناح والبشاشة وطلاقة الوجه ونزع رداء الكبر والعجب .

ج - طاعة الله وعبادته وتمجيده وتسبيحه وتكبيره .

د - الرضا والقناعة : ( ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ) (٣) .

● وروى أيضا عن وهيب قال : قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه : ( وأربع لا يجتمعن فى أحد من  
الناس إلا بعجب ) . الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وأبو الشيخ وغيرهما .

● وروى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنها قال : ( سمعته يقول : خمس لمن أحسن من  
الدهم الموقفة : لا تكلم فيما لا يعينك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما لا يعينك حتى  
تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فعيب ، ولا تمار حليما ولا  
سفيها ، فإن الحليم يغلبك ، وإن السفیه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به  
وأعفه مما تحب أن يعفبك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام ) .  
رواه ابن أبى الدنيا .

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٦ . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٠ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١٢ .

## ﴿ المعنى ﴾

الدهم : العدد الكثير من النوق الواقعة بذخا وترفا ونعيا .  
لا يعنك : لا يهكم أمره فإنه زيادة ولغو وفصول وتطفل .  
فيما يعنك : ولا تكلم فيما يعنك كذا ، والمعنى إذا تحدثت في مهام أمورك فأصب المرمى وابحث عن الإجادة واختر الموقع الذى ينجحك .  
ولا تمار : ولا تجادل ولا تخاصم . يقال : ماريتك . جادلته .

ولا تمار سفيها في محاورة ولا حليما لكى تنجو من الزلل  
ولا يغرنك من تبدو بشاشته إليك مكرا فإن السم فى العسل

ويشير- صلى الله عليه وسلم- إلى نصائح خمس أجدى من النعم والجياد المرسله والعز المقيم :  
- الاجتهاد فى الكلام فيما فيه فائدة خشية ضياع الوقت واكتساب الذنوب .  
- انتهاز فرصة النجاح للكلام .  
- ترك محاربة العاقل اللبيب الفطن الأريب ، والأحمق المغفل القبيح .  
- ذكر الصديق الغائب بكل ثناء طيب .

- الجرى فى مضمار المحسنين المجيدين المتقين الذين يخشون الله تبارك وتعالى .  
● وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( من صمت نجا ) <sup>(١)</sup> . رواه الترمذى .  
● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : ( إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ) <sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم .  
● وروى عن النبى ﷺ قال : ( إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات فى الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالا يهوى بها فى جهنم ) <sup>(٣)</sup> . رواه مالك والبخارى واللفظ له .

والنسائي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولفظه :  
( إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفا فى النار ) <sup>(٤)</sup> .  
ورواه البيهقى . ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : ( إن العبد ليقول الكلمة لا يقوها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض ، وإن الرجل ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه ) .  
● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الرجل ليتحدث بالحديث ما يريد به سوءا إلا ليضحك به القوم يهوى به أبعد من السماء ) . رواه أبو الشيخ .

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٠ . والدارمى فى الرقاق : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٩ ، ١٧٧ .  
(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٩ .  
(٣) البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والترمذى فى الزهد : ١٢ . وابن ماجه فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .  
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى الزهد : ٥٠ . والترمذى فى الزهد : ١٠ . وابن ماجه فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٤٠٢ ، ٥٣٣ .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم فيسقط بها أبعد من السوء، ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه فيسخط الله بها عليه لا يرضى عنه حتى يدخله النار ) . رواه أبو الشيخ .

● وعن بلال بن الحارث المزني رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه ) <sup>(١)</sup> . رواه مالك والترمذى .

● وعن أمة بنت الحكم الغفارية رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الرجل ليدنو من الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قيد رمح فيتكلم بالكلمة فيتباعد منها أبعد من صنعاء ) . رواه ابن أبي الدنيا .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى ) <sup>(٢)</sup> . رواه الترمذى والبيهقى .

● وعن مالك رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم-عليه السلام-كان يقول : ( لا تكثرُوا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية ) <sup>(٣)</sup> . ذكره في الموطأ .

● وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ : ( كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله ) . رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبي الدنيا .

● وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال ) <sup>(٤)</sup> . رواه البخارى واللفظ له، ومسلم وأبو داود .

● وزوى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أكثر الناس ذنوبا أكثرهم كلاما فيما لا يعنيه ) . رواه أبو الشيخ في الثواب .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ) <sup>(٥)</sup> . رواه الترمذى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : توفي رجل ، فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع : ( أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ : ) (أولا تدري ، فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه ) <sup>(٦)</sup> . رواه

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن : ١٦ . والإمام مالك في الكلام : ٥ . والإمام أحمد في ٣ : ٤٦٩ .

(٢) أخرجه الترمذى في الزهد : ٦٢ .

(٣) أخرجه الامام مالك في الكلام : ٨ .

(٤) أخرجه البخارى في الرقاق : ٢٢ . ومسلم في الأقضية : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ . والدارمى في الرقاق : ٣٨ . والإمام مالك في الكلام : ٢٠ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، وفي ٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(٥) أخرجه الترمذى في الزهد : ١١ وابن ماجه في الفتن : ١٢ والإمام مالك في حسي الخلق : ٣ والإمام أحمد في ١ : ٢٠١ .

(٦) أخرجه الترمذى في الزهد : ١١ .

الترمذى .

● وروى ابن أبي الدنيا وأبو يعلى عن أنس أيضا رضى الله عنه قال : ( استشهد رجل منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئا لك يا بنى الجنة . فقال النبي ﷺ : ما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره ) .  
● وروى أبو يعلى أيضا والبيهقى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ( قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، شهيدا فبكت عليه باكية فقالت : وا شهيداه قال : فقال النبي ﷺ : ما يدريك أنه شهيد ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو ييخل بما لا ينقصه ) .

● وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن امرأة كانت عند عائشة ومعها نسوة فقالت امرأة منهن : ( والله لأدخلن الجنة ، فقد أسلمت وما سرقت وما زنيت ، فأتيت فى المنام ف قيل لها : أنت المتألمة لتدخلن الجنة ؟ كيف وأنت تبخلين بما لا يغنيك ؟ وتتكلمين فيما لا يعينك ؟ فلما أصبحت المرأة دخلت على عائشة فأخبرتها بما رأت . وقالت : اجمعى النسوة اللاتي كن عندك حين قلت ما قلت ، فأرسلت إليهن عائشة رضى الله عنها فجنن . فحدثتهن المرأة بما رأت فى المنام ) . رواه البيهقى .

### ﴿ فضائل الصمت كما بينها ﷺ فى أحاديثه ﴾

- أولا : يعد الصامت من أفاضل المسلمين .
- ثانيا : يدخل الجنة من لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل .
- ثالثا : يكسب محبة الله ويدفع غضبه ويسبب الستر ويبعد الفضيحة .
- رابعا : يوصل إلى حقيقة الإيمان .
- خامسا : يعد الصامت من أصحاب العزيمة القوية والإرادة الصارمة والهمة السامية .
- سادسا : الصامت فى ظل الله وينضر وجهه وتشرق طلوعته، والثرائر يكب على وجهه فى النار .
- سابعا : الصامت العامل بسنة خير الخلق ﷺ . بعيد منه الشيطان قريب من رضا الرحمن .
- ثامنا : يسلم الساكت من الأخطاء ويفر من الذنوب بصمته ولا يرد مواطن السوء بكلامه .
- تاسعا : يكسو الصامت المهابة والرزانة والوقار ( يصبى بعجب ) .
- عاشرًا : ينجو الساكت من كل معصية ولا يهوى من سقطاته .
- الحادى عشر : يبعد الساكت من اللغو والرفث والفسوق ( أكثر الناس ذنوبا ) .
- الثانى عشر : يضيع الكلام الكثير الحسنات ودرجة الجهاد تمحوها لفظة من سخط الله تعالى « الشهداء » قال ابن المقرئ :

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه للزلل  
فكم ندمت على ما كنت فहत به وما ندمت على ما لم تكن تقل  
وأضيق الأمر أمر لم تجد معه فتى يعينك أو يهديق للسبل  
عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة كعفة الخود لا تغنى عن الرجل

إن المشاور إما صائب غرضا أو مخطيء غير منسوب إلى الخطل  
لا تحتقر الرأى يأتيك الحقير به فالنحل وهو ذباب طيب العسل

### ﴿ بيان آفات اللسان كما في إحياء علوم الدين ﴾

أولا : الكلام فيما لا يعينك .

ثانيا : فضول الكلام ، أى : الزيادة على قدر الحاجة قال تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ (١) .

ثالثا : الخوض في الباطل ، أى : الكلام في المعاصى كحكاية أحوال النساء . ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبى الملوك ومراسمهم المكروهة وأحوالهم المذمومة .  
قال ﷺ : ( إن الرجل ليتكلم بالكلمة ..... ) .

رابعا : المراء والجدل . قال مالك بن أنس رحمه الله : المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن ، والمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار فرية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

خامسا : الخصومة : أى : لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء أو اعتراضا ، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

سادسا : التقعر في الكلام بالتشديق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاسحين المدعين للخطابة « الثرثارون المتفيهقون » .  
سابعا : الفحش والسب وبذاءة اللسان ومصدره الخبث واللؤم .

ثامنا : اللعن إما لحيوان أو لإنسان أو جماد .

تاسعا : الغناء والشعر ، أى : الاستهانة والتحقير والتنبية على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك في الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والإيماء .  
الثاني عشر : إفشاء السر .

الثالث عشر : الوعد الكاذب بمغان اللسان سباق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ (٢) .  
الرابع عشر : الكذب في القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب .  
ولأبى العتاهية :

اسلك بنى مناهج السادات وتخلقن بأشرف العادات  
لا تلهينك عن معارك الذة تفنى وتورث دائم الحسرات  
إن السعيد غدا زهيد قانع عبد الإله بأخلص النيات

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء .

(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .



أقم الصلاة لوقتها بشروطها      فمن الضلال تفاوت الميقات  
 وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن      منه الأجل لأوجه الصدقات  
 في الأقربين وفي الأبعاد تارة      إن الزكاة قرينة الصلوات  
 وارع الجوار لأهله متورعا      بقضاء ما طلبوا من الحاجات  
 واخفض جناحك إن منحت إمارة      وارغب بنفسك عن الردى للذات

وللعميد الطغرائي :

أصالة الرأي صانتني عن الخطل      وحلية الفضل زانتني لدى العطل  
 حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت      بشدة اليأس من رقة الغزل  
 حلو الكلام كأن رجع حديثه      در يساقطه إليك لسانه

وقال ابن السكيت :

يصاب الفتى من عشرة بلسانه      وليس يصاب المرء من عشرة الرجل  
 فعشرة القول تذهب رأسه      وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولزهير بن أبي سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب      زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده      ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

لا ترائ راتعا في مجلس لحوم الناس      كالسبع الضرم  
 ولبعض الصفح والإعراض عن      ذى الجنا أبقى وإن كان ظلم

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة      وليس وراء الله للمرء مذهب  
 لئن كنت قد بلغت عنى رسالة      فمبلغك الواشى أغش وأكذب  
 ولست بمستبق أخا لا تلمه      على شعث أى الرجال المهذب

﴿ الآيات الدالة على فضائل الصمت الناهية عن اللغو ﴾

● قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (١) .

واللغو: كل ما لا فائدة فيه لا للجسم ولا للنفس ولا للروح ولا للعقل ، فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيد في حياته العاجلة ، أو حياته القابلة .

- وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (١) .
- وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

فلا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت بحفظه من جميع الآفات ، ألا ترى المؤمن قاتلاً وقته بالجلوس على المقاهي يلعب النرد والشطرنج ، أو يخوض في أعراض الناس ، أو يتحدث في شئونهم بما لا يجدى نفعاً ، أو يتدخل فيما لا يعنيه من شئون السياسة ، وليس من أربابها ولا من المنوط بهم درسها ، والدفاع عنها ، بل تراه هادئاً ثابتاً صامتاً ساكناً لا يتكلم إلا في مفيد ، ولا يتحرك إلا في نافع ، ولا يفكر إلا في منتج . يجد في تحصيل رزقه وأهله وولده ليكف يده عن المسألة ، ويصون وجهه عن بذل مائه ، ويجلب العزة والكرامة والنبالة .

قال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وفي الغريب : اللغو من الكلام : ما لا يعتد به ، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجزي مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور . قال أبو عبيدة : لغو ولغا نحو عيب وعاب وأنشدهم عن اللغا ورفث التكلم يقال : لغيت تلغى نحو لقيت تلقى وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ﴾ (٣) ، ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴾ (٤) .

- قال تعالى : ﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مِنْ ظُلْمٍ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا . إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾ (٥) .
- قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٦) .
- قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سُرُكُمُ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ (٧) .

● قال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ (٨) .

وقد قال الله تعالى لحبيه ﷺ : ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٩) أي : اترك أولئك الكفرة الذين ينكرون ﴿ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ؟ ﴾ (١٠) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغْيٍ عَلِيمٍ كَذَلِكَ زِينَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١) .

(٧) الآية ٣ من سورة الأنعام .

(٨) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .

(٩) الآية ٩١ من سورة الأنعام .

(١٠) الآية ٩١ من سورة الأنعام .

(١١) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٣) الآية ٣٥ من سورة النبا .

(٤) الآية ٢٥ من سورة الواقعة .

(٥) الأيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء .

(٦) الآية ١٠٨ من سورة المائدة .

ينهى الله تعالى عن سب الآلهة التي يعبدونها الكفار خشية أن يتطاولوا على عظمة الله وجلاله .  
قال البيضاوى : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها، وكذلك  
العاقل يصمت أو يهجر الكلام القبيح فلا يجلس في مجالس العصاة الفساق .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين  
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن  
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل يا عين للناس أعين  
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ . هذه تزكية لأموالهم بعد تطهير قلوبهم بالإيمان ،  
وتزكية أرواحهم بالصلاة ، وتطهير ألسنتهم عن اللغو ، أثبت لهم القرآن الكريم هنا تزكية أموالهم  
بإخراج حق السائل والمحروم .

قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم  
والله سميع عليم ﴾ (١) .

ولابد لنا أن نسلط بعض الأضواء الكاشفة على تلك الفريضة المحكمة حتى نقطع المعاذير عن  
الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله ، ونسوا أنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث  
السموات والأرض والله بما تعملون خبير ، ونبدأ بتعريفها :

فما هى الزكاة ؟ :

تعريفها : الزكاة اسم لما يخرج من الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وسميت زكاة لما يكون فيها من  
رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ، فإنها مأخوذة من الزكاة وهى النماء والطهارة والبركة ،  
قال الله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ .

وهى أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية ، وقد فرضها الله تعالى  
بكتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته .

● روى الجماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه  
إلى اليمن قال : ( إنك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن  
هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم  
أطاعوا لذلك فعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى  
فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله  
حجاب ) (٢) .

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ . ومسلم فى الإيمان ٢٩ . وأبو داود فى الزكاة : ٥ . والنسائى فى الزكاة :  
٤٦ ، ١ . والترمذى فى البر : ٦٨ . وابن ماجه فى الزكاة : ١ . والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والإمام أحمد فى ١ :  
٣٢٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

● ورى الطبراني في الأوسط والصغير عن علي كرم الله وجهه أن النبي ﷺ قال : ( إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنيائهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما ) .  
قال الطبراني : تفرد به ثابت بن محمد الزاهد .  
قال الحافظ : وثابت : ثقة صدوق روى عنه البخاري وغيره وبقيته رواه لا بأس بهم .  
وكانت فريضة الزكاة بمكة في أول الإسلام مطلقة لم يحدد فيها المال الذي تجب فيه ولا مقدار ما ينفق منه ، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم .  
وفي السنة الثانية من الهجرة - على المشهور - فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال ، وبينت بيانا مفصلا .

### الترغيب في أدائها :

● قال الله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ أي: خذ - أيها الرسول - من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع ﴿ تطهرهم وتزكيهم ﴾ أي: تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين ، وما يتصل بذلك من الرذائل ، وتزكي أنفسهم بها أي: تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعلمية ، وحتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية .

● وقال الله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ (١) .

جعل الله أخص صفات الأبرار الإحسان ، وأن مظهر إحسانهم يتجلى في القيام من الليل ، والاستغفار في السحر ، تعبدا لله ، وتقربا إليه كما يتجلى في إعطاء الفقير حقه برحمة به وحنوا عليه .

● وقال الله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ﴾ (٢) .

أي: إن الجماعة التي يباركها الله ويشملها برحمته هي الجماعة التي تؤمن بالله ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بإيتاء الزكاة .

● وقال الله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

جعل الله إيتاء الزكاة غاية من غايات التمكين في الأرض :

(١) الآيات ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات .

(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

● روى الترمذى عن أبى كيشة الأنغارى : أن النبى ﷺ قال : ( ثلاثة أقسم عليهم وأحدثكم حديثا فاحفظوه : « ما نقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر (١) .

● وروى أحمد والترمذى وصححه عن أبى هريرة :

أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره أو فلوله أو فصيله ، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد ) (٢) . قال وكيع : وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ (٣) . ، ﴿ يمحى الله الربا ويربى الصدقات ﴾ (٤) .

وروى أحمد - بسند صحيح - عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إني ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرني كيف أصنع وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقباءك ، وتعرف حق المسكين . والجار والسائل ) (٥) .

وروى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : ( ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيؤليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت ألا آثم : لا يستر الله عبدا فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة ) (٦) .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره ) .

وروى البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : ( بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم ) (٧) .

الترهيب من منعها :

قال الله تعالى : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ .

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٩٣ ، وفى ٢ : ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٨ . ومسلم فى الزكاة : ٦٣ ، ٦٤ . والترمذى فى الزكاة : ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٤٨ . وابن ماجه فى الزكاة : ٢٨ . والدارمى فى الزكاة : ٣٤ . والإمام مالك فى الصدقة : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٣١ ، ٣٨٢ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٢٥١ .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٢٧٦ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٧١ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .

(٧) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ . ومسلم فى الإيمان : ٩٧ ، ٩٨ . والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ . والدارمى فى البيوع

قال تعالى : ﴿ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ (١).

وروى أحمد والشيخان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( مامن صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا أحمى عليه في نار جهنم ، فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجهته ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومامن صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت ، تستن عليه وكلما مضى عليه أخرها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومامن صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ليس فيها عقضاء ولا جلحاء ، كلما مضى عليه أخرها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قالوا : فالخيل يارسول الله ؟ قال : الخيل في نواصيها- أو قال : الخيل معقود في نواصيها- الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هي لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التي هي له أجر فالرجل سيتخذها في سبيل الله ويعدها له فلا تغيب شيئا في بطونها إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر في أبوالها وأروائها ، ولو استنت شرفا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر ، وأما التي هي له ستر : فالرجل يتخذها تكrema وتجملا ، ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها ، وأما التي هي عليه وزر فالذي يتخذها أشرا وبطرا وبذخا ورياء الناس ، فذلك الذي عليه الوزر. قالوا : فالحمر يارسول الله ؟ قال : ما أنزل الله على فيها شيئا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة :

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٢) (٣).

• وروى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيتان ، يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني شذقيه - ثم يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله﴾ (٤) (٥).

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقي- واللفظ له - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

قال :

( يا معشر المهاجرين ، خصال خمس - إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن- : لم

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ . وأبو داود في الزكاة : ٣٢ . والنسائي في الزكاة : ٢ ، ٩ . والدارمي في الزكاة : ٣ . والإمام أحمد في ٢ : ٢٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٩٠ ، وفي ٣ : ٣٢١ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة : ٣ . ومسلم في الزكاة : ٢٧ ، ٢٨ . والنسائي في الزكاة : ٢ ، ٦ ، ٢٠ . وابن ماجه في الزكاة : ٢ . والإمام مالك في الزكاة : ٢٢ . والدارمي في الزكاة : ٣ . والإمام أحمد في ٢ : ٩٨ ، ٢٧٩ ، ٣١٦ ، وفي ٣ : ٣٢١ .

تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة . وجور السلطان ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقصوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلب عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم <sup>(١)</sup> .

وروى الشيخان عن الأحنف بن قيس قال : ( جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نخض كتفه، ويوضع على نخض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيترززل ) <sup>(٢)</sup> .

ثم ولى فجلس إلى سارية ، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو . فقلت : ( لا أرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئا : قال لى خليلي . قلت : من خليلك ؟ قال : النبي ﷺ أتبصر أحدا ؟ قال : فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلنى في حاجة له ، قلت : نعم . قال : ما أحب أن لى مثل أحد ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنائير وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا . لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل ) <sup>(٣)</sup> .

### ﴿ المعاني ﴾

- بطح : أى بسط ومد  
الفرقر : المستوى الواسع من الأرض .  
كأوفر : أى كأعظم ما كانت .  
تستن : أى تجرى .  
مضى : أى مر .  
الظلف للغنم : كالحافر للفرس .  
عقصاء : أى ملتوية القرنين .  
جلحاء : أى التي لا قرن لها .  
المرج : أى المرعى .  
الشرف : أى العالى من الأرض .  
الأشر : أى البطر .

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن : ٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى في الزكاة : ٤ . ومسلم في الزكاة : ٣٤ .

البطر : شدة المرح .  
 وبذخا : تكبرا .  
 الجامعة : أى المتناولة لكل خير وبر .  
 الفاذة : أى القليلة النظير .  
 مثل : صور .  
 الشجاع : الذكر من الحيات .  
 الأقرع : الذى ذهب شعره من كثرة السم .  
 زبيبتان : أى نكتتان سوداوان فوق عينيه .  
 الفاحشة : أى الزنا .  
 الأوجاع : أى الأمراض .  
 السنين : أى الفقر .  
 القطر : أى المطر .  
 بأسهم : أى حربهم .  
 رجل خشن الشعر : هو أبو ذر رضى الله عنه .  
 الرضف : أى الحجارة المحماة .  
 نخض : أى أعلى الكتف .

### \* حكم مانعها :

الزكاة من الفرائض التى أجمعت عليها الأمة ، واشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين ، بحيث لو أنكر وجوبها أحد خرج عن الإسلام ، وقتل كفرا إلا إذا كان حديث عهد بالإسلام ، فإنه يعذر لجهله بأحكامه .

أما من امتنع عن أدائها - مع اعتقاده وجوبها - فإنه يأثم بامتناعه دون أن يخرج ذلك عن الإسلام ، وعلى الحاكم أن يأخذها منه قهرا أو يعزره ، ولا يأخذ من ماله أزيد منها إلا عند أحمد والشافعى فى القديم فإنه يأخذها منه ونصف ماله ، عقوبة له لما رواه أحمد والنسائى وأبو داود والحاكم والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( فى كل إبل سائمة . فى كل أربعين ابنة لبون لا يفرق إبل عن حسابها من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإننا أخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا تبارك وتعالى ، لا يحل لآل محمد منها شيء ) (١) .  
 وسئل أحمد عن إسناده فقال : صالح الإسناد . وقال الحاكم فى بهز : حديثه صحيح .  
 ولو امتنع قوم عن أدائها مع اعتقادهم وجوبها وكانت لهم قوة ومنعة ، فإنهم يقاتلون عليها حتى يعطوها ، لما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : ( أمرت أن أقاتل

(١) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ١ . والبخارى فى الاعتصام : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢ .  
 والترمذى فى الإيمان : ١ . والنسائى فى الزكاة : ٢ . والإمام مالك فى الزكاة : ٣٠ .



الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ) .  
ولما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : ( لما توفي رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : 'أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . فقال عمر : فوالله ما هو إلا أن قد شرع الله صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق ) (١) .  
ولفظ مسلم وأبي داود والترمذى : ( لو منعوني عقالا ) بدل ( عناقا ) .

### المعاني

عقوبة له : ويلحق به من أخفى ماله ومنع الزكاة ثم انكشف أمره للحاكم .  
مؤتجرا : أى طالبا الأجر .  
عزمة : أى حقا من الحقوق الواجبة .  
روى البيهقي أن الشافعى قال : هذا الحديث لا يشبهه أهل العلم بالحديث ولو ثبت قلنا به .  
نقاتل الناس : المراد بهم بنو يربوع وكانوا جمعوا الزكاة وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبي بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم فهؤلاء الذين عرض الخلاف في أمرهم ووقعت الشبهة لعمر في شأنهم مما اقتضى مناظرته لأبي بكر واحتجاجه على قتالهم بالحديث وكان قتاله لهم في أول خلافته سنة إحدى عشرة من الهجرة .  
عناقا : أى أنثى المعز التى لم تبلغ سنة .

\* على من تجب :

تجب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب من أى نوع من أنواع المال الذى تجب فيه الزكاة .  
ويشترط فى النصاب :

١ - أن يكون فاضلا عن الحاجات الضرورية التى لا غنى للمرء عنها : كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ - وأن يحول عليه الحول الهجرى ويعتبر ابتداءه من يوم ملك النصاب ولا بد من كماله فى الحول كله .  
فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله .

قال النووى : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور : أنه يشترط فى المال الذى تجب الزكاة فى عينه ويعتبر فيه الحول كالذهب والفضة والماشية : وجود النصاب فى جميع الحول فإن نقص النصاب فى

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وفى ٢٥ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، وفى ٦ : ٨ .

لحظة من الحول انقطع الحول . فإن كمل بعد ذلك استؤنف الحول منه حين يكمل النصاب .  
وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب في أول الحول وآخره ، ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو  
كان معه مائتا درهم فتلفت كلها في أثناء الحول إلا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت في أثناء الحول إلا شاة  
ثم ملك في آخر الحول تمام المائتين أو تمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .  
وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار فإنها تجب يوم الحصاد . قال الله تعالى : ﴿ وآتوا  
حقه يوم حصاده ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال العبدري : ( أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو غناء في نفسه كالحبوب والثمار ، فهذا تجب  
الزكاة فيه لوجوده ، والثاني ما يرصد للنساء كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والمأشبة ، فهذا يعتبر فيه  
الحول ولا زكاة في نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم  
غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

بعدما زكى الله تعالى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألستهم عن اللغو ، وأمواهم بإخراج  
الزكاة ، زكى أعراضهم بالحفاظ عليها إلا في حدود ما أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم  
غير ملومين ﴾ .

أى والذين يحفظون فروجهم في كافة الأحوال إلا في حال تزوجهم أو تسريحهم ( قربان الأمة  
بالمالك ) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة ، والإعراض عن  
الشهوات .

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

أى : فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون في العدوان ،  
والمعتدون لحدود الله .

نعم إن المؤمنين هم الذين حفظوا فروجهم من الحرام فلم يقعوا فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط  
واستمناء باليد لا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السرارى التى  
أخذت في الحروب ، لا التى شاعت في القرون السابقة ، وكانت تباع في الأسواق ، فالشرع لم يحل  
الرق إلا في صورة واحدة هى في حروب الإسلام مع الكفار ، فتقسم النساء على المحاريين إكراما لهم ،  
مع أن الدين حض في كل مناسبة على تحرير الرقاب ، ولم يكن الرق واجبا حتميا بل جعله في يد الإمام  
يفعله متى شاء ، وعلى ذلك فلنا أن نحرمه الآن لما يترتب عليه .

ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ أى : غير الأزواج  
والإماء ، فأولئك هم المعتدون المتجاوزون ، وعلى ذلك حرم نكاح المتعة ، والاستمناء باليد .

والإجماع من كل العلماء ماعدا أحمد بن حنبل على تحريمه لظاهر الآية ، ولحديث أنس بن مالك :  
( سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكهم . ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار في أول  
الداخلين : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ،

والمؤذى جيرانه حتى يلغئوه ، والناكح حليته جاره )

### \* الرق .. وملك اليمين \*

اعلم أن الإسلام محرر العبيد ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ <sup>(١)</sup> . الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه ! والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير !

والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء : لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة ( الرق ) ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام ، والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن ، أو طعنة لغامز ، لو تدبر هؤلاء مسألة ( الرق ) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام : يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه : ( ما يقال عن الإسلام ) :

مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شيء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، أولاها : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون : فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياسا على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية ، فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ، ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفىل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشاركون معهم فى الوطن ، ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الاسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة ( النخاسة ) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا ( النخاسة ) قديما وحديثا ، وهم - أى :دعاة المادة والتبشير - أول من يعلم من تاريخ ( النخاسة ) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها





للإسلام ، وليست بالدعاية التي يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

هكذا ينتهى هذا البحث التحليلي للدعاية المغرضة التي يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هي في الحقيقة مفخرة عظيمة للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق في هذه الدنيا كأنه بحر لجى ، يغطاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبدها بحكمة معروفة فيه ، كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادى الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه ( فى الدين والأخلاق والقومية ) ما نصه :

محمد محرر البشرية :

عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربة العبودية ؟ وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟

وإن تعجب لشيء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم ، بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الإختلاس والاعتصاب ، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب : فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القتال أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصح رقيقا لرب المال ، ومصدقه فى قصة يوسف - عليه السلام - ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ (١) .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيع له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وقادة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والردائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام ﷺ لانقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتأكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى في الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها . وسأفسر لك ذلك :

ويمضي الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا في ظلال الإسلام فيقول : فأما النطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذي أوقف من سير الداء ، حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين ، ذلك هو القانون الذي منع استرقاق الأحرار ، وأمنهم منه بعد أن كانوا مهتدين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف والسلب ولا البيع والشراء ولا التغلب في المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل . . لم يعد شيء من ذلك كله - منذ ظهر الإسلام - يصلح مبررا لاستعباد الإنسان . ولم يكتف الإسلام بتحسين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بين الأحرار والاماء إلا في حالة الاضطراب وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام - قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل - أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول في الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهي أن الإسلام - وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها ، والتي كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد - قد ترك - إلى جانب هذه الأبواب - منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهي التي يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام . أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين - في هذه الحال - أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى

خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟ والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية .

فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ، ولا استرقاقه ، وإنما

نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببذل أو بغير بذل : ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ (١) .  
كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا في حالة شاذة نادرة ، كان  
الأسير فيها معروفا بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على  
الشاذين الخطيرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم : عقوبة ( مجرمي الحرب ) .  
بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظراته إلى  
القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟  
إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجا له في زمرة الأحياء ،  
بعد أن كان محسوبا في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه ما يشجع المسلمين على  
استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام  
يوما إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون منه نزولا على حكم الضرورة اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة  
قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي وإنما يتخذه إجراء مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح  
الذي يرضاه ويلج في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .  
وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ،  
وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحتها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .  
ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق  
الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة .  
فك رقبة ﴾ (٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام :

( من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار ) (٣) .  
ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهما مكررا في كل عام لافتداء الأسرى  
وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح ( قانون الكفارات ) وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة  
لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث في اليمين والفظر في رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .  
ومن أهم هذه الأنواع ( كفارة الإساءة ) التي تقع من السيد في حق العبد نفسه : وفي ذلك يقول  
رسول الله ﷺ : ( من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه ) (٤) .  
هذا جزاء الضربة أو اللطمة . أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه - عند أكثر الأئمة - أن

(١) الآية ٤ من سورة محمد  
(٢) أخرجه البخاري في الكفارات : ٦ . ومسلم في العتق : وأبو داود في العتاق : ١٣ . والترمذي في النذور ١٤٠ . والإمام  
أحمد في ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ وفي ٣ : ٤٩١ ، وفي ٤ : ١١٣ ، ٣٢١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٤ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٤٥ . ومسلم في الإيمان : ٢٩ ، ٣٠ .



يصير العبد حرا بمجرد إصابته فينزح من ملك السيد قهرا عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم ، لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين : ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك - ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق : فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة في فترة الانتظار؟

نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية فأعد لهم فيها وسائل للترفيه ، تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات . . ذلك أنه أوجب على المخدمين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخدمتهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم . . هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : ( إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم : فأعينوهم ) (١) .

صدقت يا نبي الرحمة - صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ - منع لإنشائه وابتدائه .

٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ - عطف سابغ عليه في أثناء محتته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معي :

أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات ، وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو في كل شئونه :

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متثدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة . يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء؟

إن الإسلام يعد الناس جميعا متساوين في الإنسانية لأنهم جميعا صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . . ( إن أباكم واحد وإن ربكم واحد ) .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٢) .

(١) أخرجه البخارى في الإيمان : ٢٢ ، وفي العتق : ١٥ . ومسلم في الإيمان : ٤٠ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وهذه المساواة العامة للإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتميز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق - فى قليل أو كثير - من طبيعة الخلق والولادة والمآكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

### المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟ التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية ، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبدا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه . والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانا ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق تبارك وتعالى أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة ؟ والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راقى

شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعا والمهيمن باقى

الاسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم-صلوات الله وسلامه عليه- يعلن فى خطبته الجامعة : ( أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم ) (١) .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

أخا الاسلام :

لا تركزن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تسمى ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة

\* \*

إن المساواة تدعو إليها الفطرة العامة ويقضى بها المصير المشترك ويتطلبها عدل السلوك سلام الإنسانية . . . قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعا إلى عبادة الرب الواحد ، رب

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤١١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

العالمين ، وهذه المساواة في الإنسانية : تستلزم المساواة في الحقوق .. فالناس جميعا أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع ..  
فالحق أساس هذا الدين والعدل سياجه والناس - مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم - أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك في الدين  
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذي سواك من طين  
فلا تصاحب غنيا تستعز به وكن عفيفا وعظم حرمة الدين  
واسترزق الله مما في خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون  
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة يامن قلت : ﴿ ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (١) .

### العدالة في الاسلام

والعدل في الإسلام عدل مطلق يستوى فيه الأصدقاء ، والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ (٢) .  
وأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. انها غضبة مضرية ..  
وإذا غضبت فإنما هي غضبة ، للحق لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى ( أسامة بن زيد ) الحب ابن الحب يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل - كانت قد سرقت - ويقول له غاضبا معنفا : ( أتشفع في حد من حدود الله ؟ ) ثم يخاطب في الناس قائلا : ( إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ) (٣) .  
وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن في سمع الزمن هذا المبدأ الخالد بعدما تولى خلافة المسلمين بعد أبي بكر الصديق رضى الله عنه فيقول :  
( أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى أخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى أخذ الحق منه ) .

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى في فضائل أصحاب النبي : ١٨ ، وفي الحدود : ١٢ . ومسلم في الحدود : ٨ ، ٩ . وأبو داود في الحدود :

٤ . والترمذى في الحدود : ٦ . والنسائى في السارق : ٥ ، ٦ . وابن ماجه في الحدود : ٦ . والدارمى في الحدود : ٥ .

والامام أحمد في ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفي ٥ : ٤٠٩ ، وفي ٦ : ٣٢٩ .

ويقول في رسالة له لأبي موسى الأشعري رضى الله عنه في أمر القضاء : ( آس بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا يئأس ضعيف من عدلك ) .  
وها هو ذا ( ضرار الصدائى ) يصف أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية فيقول : ( كان فينا كأحدنا ، يجيئنا إذا سألناه وينبئنا إذا استبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيئته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يعظم أهل الدين ويحب المساكين . . لا يطمع القوى في باطله ولا يئأس الضعيف من عدله . . . كان - والله - غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه ) .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية وقد قال له كلمته الخالدة : يا عمرو : ( متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ ) .

أبعد هذا التكريم للبشرية يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول : إن الرق في الإسلام يعتبر تهمة توجه ضده وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئا بل إنه يهرف بما لا يعرف .  
وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ (١) .  
هذا الإسلام هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال في معاملة البشر مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر في هذا المجال ما جرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم الأول أمام عمر وكان الخصم يهوديا وكان عمر - كعادته - ينادى عليه قائلا : يا أبا الحسن فلما ناداه في هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ظهر الغضب على وجهه على فظن عمر أن عليا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة وعلى هو من تعلم : حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا . . قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ؟ فقال على رضى الله عنه : إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكينى !!

أرأيت أن المساواة في الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف في ساحة القضاء مع خصم يهودى يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له فيغضب ، وبعد هذا تمييزا في موطن القضاء . . وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده ولكن لم يستطبه منه في هذا الموطن : ( موطن القضاء ورد الحقوق ) !!!

\*\*\*

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته وبين ما يدور في العالم من شرور التفرقة العنصرية في أعظم الأمم حضارة في عصرنا هذا ؟ !  
إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمانة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

شتان ثم شتان بين عدل الخالق جل شأنه وبين ظلم المخلوق !!  
وحسبك يا أخى أن تعلم أن الاسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ (١).

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفريق بين الأسود والأبيض وتجعل للبيض حقوقا لا يناها مواطنوهم السود . وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب أفريقيا وغيرها من دول العالم بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان !!

\* \*

### محمد : الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ﴾ (٢).

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الإسلام وجماله .. فأولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم ان يقولوا: إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين موجهين وقادة . لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد فقد كانت أول رضعة وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه أبى لهب ، تسمى ( ثوية ) وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد ﷺ : فرح بهذا الخبر فرحا عظيما ، وكانت مكافأته لها : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى إنها السيدة الجليلة ( بركة الحبشية ) المكناة بـ ( أم أيمن ) .

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله ﷺ وقال لها سيدنا محمد ﷺ بعد موت أمه : ( أنت أُمى بعد أُمى ) وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة - رضى الله عنها - فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبي ﷺ من النساء ، وأقامت ( أم أيمن ) بمكة تحتل أذى المشركين إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه . ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع . حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ، ثم تطوف فى الشمس كي تعطش فلا يصيبها عطش .

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨ من سورة الجاثية .

أما جهادها في الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى في القتال .  
ومما حضرته من الغزوات غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبي ﷺ .  
هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر النساء المهاجرات حفا في الشهداء من رجالهن .. فقد  
تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن الذي مات شهيدا ( يوم خيبر ) وبعد موت ( عبيد ) :  
تزوجت بزيد بن حارثة ، وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقد مات « زيد » شهيدا في ( مؤتة ) فصبرت  
على فقد زوجها ( زيد ) وابنها ( أيمن ) وكان ( أسامة ) غلاما فعكفت على رعايته والعناية به حتى  
جعلت منه رجلا يقود جيشا : فيه من الأبطال مثل أبي بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبي ﷺ ولم  
يكن ( أسامة ) قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبي ﷺ كانت ( أم أيمن ) تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكائها عليه ، وقد قال أبو  
بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما دخلا عليها بكت فقالا لها :  
ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع ، فهيجتهما على البكاء ،  
فجعلت تبكي ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التي تبكى انقطاع الوحي ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ،  
فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التي تصل بيننا وبين الملائكة الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو  
بهم إلى مواطنها .  
وقد ماتت ( أم أيمن ) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه ، سنة ٦٤٣ م .

★★

أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة في هذه السيدة التي كانت مملوكة للرسول ﷺ ، فامتدت  
يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التي تكلم الخليفة أبا بكر ووزير عدله عمر  
كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ !  
إن دل هذا على شيء فإنما يدل على أن محمدا ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن  
المستضعفين أساتذة وقادة .

### زيد بن حارثة

حُب رسول الله ﷺ الذى قال في شأنه : ( أنت مولاي ومنى وأحب القوم إلى ) (١) .  
نشأته وشأنه ومكانته في الإسلام : -  
خرجت أمه ( سعدى بنت ثعلبة ) معه تزور قومها ( بنى معن ) فأغار خيل لبنى القيس بن  
جسر ، فمروا على أبيات ( بنى معن ) فاحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف أبوه بعد  
شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل فحج قوم من ( كلب ) وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكي  
( حارثة بن شرحبيل ) ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا ( زيدا ) فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم  
وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به ( سوق عكاظ ) فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن

(١) أخرجه البخارى في الصلح : ٦ ، وفي فضائل أصحاب النبي : ١٧ والإمام أحمد في ١ : ١٠٨ ، ١١٥ ، وفي ٥ : ٢٠٤ .

خويلد ، لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش : محمد ﷺ وهبته له ، وانطلق « الكلبون » وأعلموا أباه .

فخرج ( حارثة ) وأخوه ( كعب ) بفدائه ، وقدموا مكة فسألا عن النبي ﷺ فدخلوا عليه وقالوا : يا بن عبد الله ! يا بن عبد المطلب ! يا بن هاشم ! يا بن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العاني ، وتطعمون الأسير ، جئنا في ابنتنا فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء .

فقال لهم الرسول ﷺ : ( ادعوه فخيروه فإن أختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من اختارني ) .

فدعاه النبي ﷺ وقال له : ( هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمي . فقال رسول الله ﷺ : فأنما من علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما ) . فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم . فقالا : ويحك يا زيد ! أنتختار العبودية على الحرية ، وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك ؟ قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذي أختار عليه أحدا أبدا . فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر وقال : ( يا من حضر : اشهدوا أن زيدا ابنى ، أرثه ويرثنى ) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا .

ونزلت الرسالة على محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء ، ولم يفارق النبي - صلوات الله وسلامه عليه - لحظة فأحبه النبي حبا شديدا وأذن النبي ﷺ في الهجرة لأصحابه ، هاجر زيد ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى ( يثرب ) وأخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين في الله ، ثم أخى النبي الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ٢ واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى ( المريسيع ) وشهد ( الخندق ) و ( الحديبية ) و ( خيبر ) .

وخرج ( زيد ) أميرا في سبع سرايا أولها ( القردة ) فاعترض لعير قريش فأصابها . وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر ( زيد ) ( فرات بن حيان العجلي ) وقدم بالعير على النبي ﷺ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : ( ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلف ) .

وأراد رسول الله ﷺ أن يغزو الروم فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : ( عليكم زيد بن حارثة ) فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة ) .

وتحرك الجيش الإسلامي بقيادة لواء الإسلام ( زيد بن حارثة ) .

أليس في هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟  
 هذا ( زيد ) يقود جيشا فيه ( جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ﷺ الشريف الكريم ، وفيه ( خالد بن الوليد ) وخالد هو سيف الله المسلول .  
 ومن بعد زيد : قاد ابنه ( أسامة ) الحملة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق ، وعمر الخليفة ، فاروق هذه الأمة .  
 أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية وزكى النفوس وطهر القلوب !!  
 سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء  
 والمسلمون جميعهم جسد إذا عضو شكا سهرت له الأعضاء  
 سار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى ( مؤتة ) وهناك علموا بتجمع جيوش الروم في أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .  
 ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدونها ؟ !  
 وتناولته السيوف بالطنعن وهو يقاتل دون راية رسول الله ﷺ . . . وأخيرا . . . استشهد الأمير .  
 أيتها النفس الكبيرة !

لقد عرف النبي الأعظم حقيقتك فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، حيث قال : ( زيد ابني ) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .  
 وفي المدينة وقف النبي ﷺ يقول : ( استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى ) .  
 ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبي ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فقال له الرسول ﷺ : ( يأسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ) .

\*\*\*

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ! يامن أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم عليك الله بالإسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة فلقيته شهيدا ، وعشت في دار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر !

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١)

بلال بن رباح

مؤذن رسول الله ( وكفى بالأذان شرفا )

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الأذان ، ويملاؤها بالقلوب عزة



وكرامة ؟

كان ( بلال ) عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى في سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف ، كان كلما اشتد عليه الأذى ، وتضاعفت أمامه الكروب . . ازداد إيمانا على إيمانه . بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة ، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . ولا عجب فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان ، حديد الوجه ، حديد القلب . . لو وزعت قسوة قلبه على الناس ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم . كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : ( أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد ) .

أجل يا بلال ! إن الله واحد في ذاته لا شريك له، واحد في صفاته لا نظير له . . إنه رب السماء والضعفاء والجبال والشجر . . إنه رب عزيز قادر له الجبين قد سجد ! ويردد ( بلال ) هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ويشطاط. عدو الله غضبا فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله . عذب ما شئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحي فلن تنال منها شيئا ؟ !

لله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى في الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشترك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله ﷺ .

عرفت بالصوت الندى في الأذان ، حتى قال عنك رسول الله ﷺ : ( إنك أندى صوتا ) . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق البيت الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا المؤذن ؟ فرد عليهم القرآن الكريم في صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ (١) . سرعة بديهته رضى الله عنه :

لا تنسى ذكائك وسرعة بديهتك وحضور حجتك ، عندما سألك سائل فقال لك يا بلال : ابن من أنت ؟ فقلت له على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة ! صدقت يا بلال فرسول الله ﷺ يؤيدك كل التأييد إذ يقول : ( كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ) (٢) .

ولا ينكر أحد مكانتك في قلب المصطفى ، لقد غضب من أب ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك في لحظة غضب : يا بن السوداء، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك : امتلأ غضبا وقال

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه الترمذى في تفسير سورة ٤٩ : ٥٠ ، وفي المناقب : ٧٣ . وأبو داود في الأدب : ١١١ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٦١ ،

في حدة وشدة : ( ياأباذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية )<sup>(١)</sup> .  
وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتارة ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يابلال : طأ على خدى بقدميك ) .  
إنه الأدب والخلق الذى تربي عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ..  
إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان ، فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم !  
دعابة لطيفة : -

لقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء النفر الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والعق : ييش لهم ويتسم .  
سأل رسول الله ﷺ بلالا ذات يوم - وكان يوم الأضحى - بم ضحيت يابلال ؟ فقال : يا رسول الله : لم أجد إلا ( ديكا ) فضحيت به فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة : ( مؤذن ضحى بمؤذن ) .  
وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا .  
فرحمك الله يابلال ، يامن رفعت إلى مكانة فى الإسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلا عظيما ، وأجرا كريما .

### سلمان الفارسي

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .  
نشأ بين قوم فى بلاد الفرس يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائما على شأن النار يغذيها بالوقود ، إذا ما أوشكت أن تضعف ... !  
ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات .. هل يليق بالإله أن يكون محتاجا إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفئ هذه النار ..  
وأخيرا ... ولى هاربنا وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة ... ونزل على أحد الرهبان فدلّه الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء ، وولى ( سلمان ) وجهه شطر المدينة فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين ببثرب ادعى أنه قد اشتراه فصار ( سلمان ) عبدا مملوكا لذلك اليهودى ، يقوم على خدمته ورعاية شئونه .  
ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر منه الصفات التى أرشده إليها الراهب الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى ﷺ لا يقبل الصدقة . ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله ﷺ أمام سلمان فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقه ، فصار حرا ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه فقال الرسول ﷺ لهم : ( سلمان منا آل البيت ) .

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى الأدب : ٤٤ . ومسلم فى الإيمان : ٣٨ ، وأبو داود فى الأدب : ١٢٤ .  
والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ٠١ الإمام أحمد فى ٥ : ١٦١ .

وكان ( لسلمان ) موقفه التاريخي المجيد يوم ( الخندق ) .. عندما ادلهمت الخطوب واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة استشار الرسول أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأي قبولاً مطلقاً في نفوس المسلمين ، فحفر الخندق وكان في حفره خير ويمن .  
إننا لا ننسى ( لسلمان ) هذا الموقف الإسلامي الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه ، وعمق تغلغله في مفاهيم الإسلام .. قال له سائل : يا سلمان : من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ( أنا ابن الإسلام ) ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين ( عمر ) بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الإسلام .

أجل يا سلمان !

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى إتكالاً على النسب  
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسب أبا لهب  
كان ( سلمان ) رجلاً مجداً في حياته لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتي بـ ( خوص ) النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الريح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه في التجارة !

وقد صدق فيه قول رسول الله ﷺ : ( إن الله يرضى لرضا سلمان ، ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها ) .  
رحمك الله يا سلمان ، وجزاك عن الإسلام خيراً ، يامن قال عنك الرسول ﷺ : ( سلمان منا آل البيت ) :

هنيئاً لك ، ثم هنيئاً لك بهذا الشرف الذي رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه ..

وخلاصة القول : -

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة  
لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ﷺ عن هؤلاء المستضعفين ، وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد إنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد إن عليها صداً الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الإسلام على افتراءهم ؟

لقد مروا برسول الله ﷺ ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (١) .

وقال أيضا : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ (١) .  
بل لقد كرمهم القرآن تكريما دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ (٢) .  
وكان السيد الجليل رسول الله ﷺ إذا لقيهم يقول : ( مرحبا بمن أوصاني ربى بهم خيرا ) .

### ذلكم هو الإسلام العظيم

إن الإسلام هو الحق الذي لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ولا أرباعها ، ويأبى الترقيع ، ولقد صدع الإسلام في عهد النبوة كل محاولة لمساومة أصحابه واستدراجهم لقبول بعض الحلول ، أو التنازل عن بعض الحق .

فهذه قریش تقترح على محمد أن يعبد آلهتها شهرا لتعبد إلهه شهرا آخر ، فينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم من أمثال هذه المساومات ، فيقول : ﴿ قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين ﴾ (٣) .

وجاء عتبة بن ربيعة يوما إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه العروض السخية ، يعرض عليه المال والملك والسلطان ، على أن يترك الأمر الذي جاء به ، ويتخلى عن الإسلام ، لكن محمدا ﷺ التفت إليه مستعليا بإيمانه ، معترزا بإسلامه ، قائلا : ( ما جئكم بما جئكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ) .

وقد يكون من نافلة الكلام أن نقول إن البشرية لم تعرف في مدار التاريخ منهجا ( واقعي ) الخصائص كالاسلام ، فهو المنهج ( الوحيد ) الذي غير مجرى الحياة الإنسانية ، وأحدث في المجتمع البشري انقلابا جذريا شاملا ، قوض كل الأفكار ، وكل الأخلاق ، وكل المعتقدات الجاهلية . فالمنهج الإسلامي تجاوز نطاق النظريات ( التجريدية ) وتجسدت مبادئه واقعا حيا عاشه الناس ، وحفظه التاريخ ، ونطقت به الشواهد والأحداث .

وكان مبدأ ( لا إله إلا الله ) دفعة العقيدة في قلوب الناس ، ومحرك الثورة الأصيل في نفوسهم ورمز انخلاعهم من ضلالات الجاهلية وأوضارها وانصهارهم في بوتقة الدين الجديد ، وكان الجذوة المتقدة التي حررت الإنسان من عبودية الأصنام ، وكرمته من اتخاذ الناس أربابا من دون الله ، وألزمته إفراده سبحانه بالربوبية والألوهية ، والخضوع والحاكمية ، فلم تكن ( لا إله إلا الله ) شعارا تتحرك به الألسن من غير وعى ، أو تردده الشفاه بدون إدراك .

وإنما كان هتافا زبانيا عميقا يحدو القلوب إلى السماء ويشدها نحو العلاء ، فتمتلىء بقوة الله قوة ، وتحس في وصاله طمأنينة ، وتغدو بجواره عزيزة كريمة .

بهذا الامتلاء العقيدى والعبق الإيماني ، كان العربى بعد الإسلام يقف أمام طواغيت فارس والروم ، يدعوهم إلى الإسلام بأعزاز ، ويبين تعاليمه بجرأة ، ثم يحذرهم عاقبة جحودهم وكفرانهم ، ويخيرهم بين الجزية والحرب ، ذكرت كتب التاريخ أنه قبيل معركة ( القادسية ) طلب رستم قائد الفرس من المسلمين أن يرسلوا إليه وفودا ورسلا منهم ليباحثهم ويباحثوه ، ويفاوضهم ويفاوضوه .

فندب المسلمون فيمن ندبوا ( المغيرة بن شعبه ) ليكون سفيرهم إلى رستم ، فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطنتهم ( أدنى ) من مجلس رستم جاء وجلس معه على سريرة ، فغضب وأمر بإزاله عن السرير ، فالتفت المغيرة إليهم قائلا : ( إننى لم أر أسفه منكم ، إنما معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننتكم كذلك ، وكان أحسن بكم ان تخبروني أن بعضكم أرباب بعض ، مع أنى لم آتكم وإنما دعوتوني ، فقد علمت أنكم مغلوبون ، ولن يقوم لكم ملك على هذه السيرة ، وتكلم رستم فعظم من شأن فارس ، ثم قال : ( كانت عيشتكم سيئة ، وكتمت تقصودونا في الجذب ، فنردكم بشيء من التمر والشعير ، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من جهد ، فنحن نعطي لأمركم كسوة وبغلا وألف درهم ، وكل رجل منكم حمل ثمر ، وتنصرفون ، فليست أشتهى قتلكم ) .

فلم يكن من المغيرة إلا أن التفت إليه قائلا : ( أما الذى وصفنا به من سوء الحال والضيق ، فنعرفه ولا ننكره ، والدنيا دول ، والشدة بعدها رخاء ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلا على ما أوتيتم ، وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال ، وإن الله بعث فينا رسولا يدعونا إلى كذا ، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك فهو الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ) .

والعبادات في الإسلام ليست طقوسا جامدة ، أو مراسيم ميتة ، لا هدف لها ولا غاية ، بل إن الإسلام أرادها ( مدرسة ) للتربية ( ومصنعا ) للأخلاق والمثل ، أرادها معراجا تسمو به النفوس وتحلق ، ومصفاة تصفو بها الأرواح وتزكو ، فالإسلام يحرص من عباداته على نتائجها وآثارها ، ويحاسب على مدى التفاعل بها فضلا عن فرضية أدائها .

فالمداولة التطبيقية ، والهدف العملى لمبدأ ( الصلاة ) أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وأنه لا قيمة للصلاة عند الله ما لم تؤد هذا الغرض ، فقال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ (١) .

وقال الرسول ﷺ : ( من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا ) ،

وقال : ( كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب ) .

وقال : ( ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ) .

والمداولة التطبيقية والهدف العملى لمبدأ ( الصوم ) ترويض النفس وسائر الأعضاء على الطاعة ،

وأنه لا ثواب لمن صام بطنه وأفطر فرجه ، أو صامت معدته عن الطعام وأفطرت جوارحه على البغى والفحش والفجور ، وهذا ما يؤكده الإسلام في أحاديث كثيرة للرسول ﷺ ، يقول فيها : ( إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم ، إنى صائم )<sup>(١)</sup> .

ويقول : ( كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش ) .  
ويقول : ( من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ) . وجاء في الخبر : ( إن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادت أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذنان في الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : قل لهما قيثا فيه ما أكلتما ، فقأت إحدهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقأت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك فقال الرسول ﷺ : هاتان صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما ، قعدت إحدهما إلى الأخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا مما أكلتا من لحومهم )<sup>(٢)</sup> .  
وهكذا تستهدف فلسفة العبادة في الإسلام تحقيق الأثر الفعلي ، وحصول التحول الكيفي في حياة الناس .

كذلك القول في القواعد الأساسية التي يقوم عليها التشريع الإسلامي ، فإنها تمتاز بقابليتها الأصلية ، واستعدادها الفطري للتطبيق .

فالتشريع الإسلامي ليس كسائر التشريعات المسطرة في بطون الكتب البعيدة عن صميم حياة الناس ، بل إن نزعه التطبيقية وخصائصه التنفيذية تجعله منهجا ثوريا وحركيا وانقلابيا ، فيه كل امكانات الثورة ، وكل متطلبات الحركة ، وكل حاجات الانقلاب .

فمن الشواهد التطبيقية لمبدأ ( المساواة ) في الإسلام أن رسول الله ﷺ قلد أسامة بن زيد إمرة الجيش الإسلامي ، وهو ابن عبد رقيق ، وفي الجيش كبار الصحابة ، وأن بلالا الحبشي بلغ في الاسلام مقاما عظيما وشأوا كبيرا ، جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا ذكره يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

وإنه لما خرج المسلمون لفتح مصر رغب المقوقس في المفاوضة فأرسل إليهم وفدا ليعلم ما يريدون ثم طلب منه أن يبعثوا إليه وفدا منهم ، فشكل عمرو بن العاص ( قائد الجيش آنذاك ) وفدا قوامه عشرة من المسلمين ، برئاسة ( عبادة بن الصامت ) وكان شديد السواد طويلا .

ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة ، فأبى أن يكلمه رجل أسود ، وقال لمن معه : نحوا عني هذا الأسود ، وقد مواعيره يكلمني : فقال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه ، وقد امره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

( ١ ) أخرجه البخاري في الصوم : ٥٢ ومسلم في الصيام : ١٦١ ، ١٦٢ . وأبو داود في الصوم : ٢٥ . والترمذي في الصوم : ٥٤ . والنسائي في الصيام : ٤٢ ، ٤٣ . وابن ماجه في الصيام : ١ . والدارمي في الصوم : ٢٧ ، ٥٥٠ والإمام أحمد في ١ : ١٩٥ ، وفي ٢ : ٢٧٣ .

( ٢ ) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٤٣١ .

فقال لهم المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغي أن يكون دونكم ؟

قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً ، وأفضلنا سابقة ، وعقلاً ورأياً ، وليس ينكر السواد فينا .

ومن الشواهد التطبيقية لمبدأ ( العدالة ) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب ، ولكن على منازلنا في كتاب الله تعالى ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الزاعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى غنمه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أعلن مبدأ العدالة في كلام جامع قال فيه : ( لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى ) (١) .

فقد أصبح القول عملاً ، والمبدأ واقعا في حياة المسلمين ، وعلائقهم ومعاشهم ، وتحقق فيهم قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ (٢) .

بهذه النماذج التطبيقية كانت تتجسد مبادئ الإسلام التشريعية في حياة المسلمين ، لم تكن شعارات للاستهلاك والمتاجرة ، كما أنها لم تكن نظريات ومثاليات مجردة عاجزة عن التطبيق ، عارية عن التصديق .

كذلك فإن قيام المجتمع الاسلامى في عهد النبوة ، واستمراره زمنا ليس بالقصير ، دليل حاسم على قابلية الاسلام للتطبيق .

يقول ( توماس كارليل ) : ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فإنه حطب جاف أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب ، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة . منذ بدء العالم فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعفة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل في الهند ، ورجل في الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبيل والمروءة واليأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

ولو تخطينا الإسلام إلى سواه من الاتجاهات والمبادئ الفكرية والسياسية ( الوضعية ) لرأينا أنها لا

(١) أخرجه ابن ماجه في الصدقات : ١٧ ، وفي الفتن : ٢٠ .

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

تزال تخبط في مجالات التطبيق خبط عشواء ، فلا تكاد تستوى حتى تتعثر ، ولا توشك أن تتقدم حتى تتقهقر ، ويكفى أنها لم تقدم حتى الآن بين يدي الواقع ما يؤكد قابليتها التطبيقية ، بل إن الفشل عنوان تجاربها ، ومحاولاتها الكثيرة المستمرة .

ويلاحظ المتتبع للتطورات الفكرية والسياسية في العالم آثار التخبط التي يعانيها الاتجاه الماركسي في مجالات التطبيق .. وبخاصة في أرض التجربة الأولى في (روسيا) .

ففي أيلول عام ١٩٦١ نشرت جريدة (البرافدا) الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي ، مشروع برنامج جديد للحزب يؤكد للمرة الثالثة خروج الحزب عن مبادئه الأساسية ..

فقد تضمن المشروع فكرة إلغاء النهج الثوري الذي تعتمد الشيوعية في هدم الكيان الرأسمالي ، والذي نصت عليه الفقرة الواردة في الصفحة ٢٥ من كتاب (المادية الديالكتيكية) بما يلي : (وبالتالي فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرير الطبقة العاملة من النير الرأسمالي يمكن تحقيقها لا بتغييرات بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل بتغيير كفي للنظام الرأسمالي أي بالثورة) . وهذا ما جعل بكين وموسكو- في السنوات الأخيرة- مسرحا لانشقاق كبير ، وخطير على مستقبل الاتجاه الماركسي نفسه !!

وفضلا عن جنوح المنهج الجديد الذي- نشرته الجريدة المذكورة- عن فلك النظام الأساسي للحزب الشيوعي .

فقد أكد المنهج من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعي خلال العشرين سنة المقبلة ، فشل النظام الشيوعي خلال الأربعين سنة الماضية في خلق الأساس الأيدلوجي والمادي للمجتمع الشيوعي ، وهذا يعني بدون شك أن الشيوعية كفكرة فقدت القدرة على ما (تسميه بالخطمية التاريخية في الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية) .

ويعود منشأ هذا العجز إلى أن النظرية الشيوعية لا تركز على أصول وقواعد عامة شاملة مرنة ، مما عرضها إلى كثير من التعديل والتبديل في نظرياتها المنهجية والفكرية . فمبدأ محو الملكية الفردية عدل عنه إلى حل وسط .. وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة ، والتجارة الخارجية ، والمصارف ، والمشاريع العامة ، كذلك عدل عن مبدأ توزيع السلع الاستهلاكية ، فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوفياتي المعدل عام ١٩٣٦ (من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل . ومن لا عمل له ليس له الحق في أن يأكل)

ثم جاء المشروع الجديد الصادر عام ١٩٦١ يشير إلى أن الاتحاد السوفياتي سيطبق خلال العشر السنوات الواقعة ما بين (١٩٧١ - ١٩٨٠) مبدأ التوزيع حسب الحاجة ... وبذلك يتراجع الشيوعيون مرة أخرى عن تعديل عام ١٩٣٦ م .

ومن شواهد الفشل التطبيقي لمبدأ المساواة في المجتمع الشيوعي .. يقول (كرين برنتون) في كتابه (الثورة الشيوعية عناصرها - تحليلها - نتائجها صفحة ٣٣٥) : يعيش الروس الآن - كما يعرف



حتى المناصرون للشيوعية في مجتمع يتفاوت فيه توزيع السلع الاستهلاكية ودخل الفرد تفاوتاً كبيراً ، فالسياسي الروسي ذو المكانة ، أو مدير المصنع أو الكاتب أو راقصة الباليه يتمتع هؤلاء بثروة مادية تجعل من المجتمع الروسي مجتمعاً يفتقر في أساسه إلى المساواة الاقتصادية ، بقدر ما يفتقر إليها أى مجتمع رأسمالى ..

وثمة شواهد كثيرة على إخفاق ( الشيوعية ) في مجالات التطبيق يضيق المجال لتعدادها .. وقد خدع كثير من شبابنا بمظاهر المدنية الغربية .. وظنوا أن نظافة القوم في مظاهرهم دليل على نظافة أرواحهم وضمائرهم ، وأن سبقهم في ميادين الكشف والاختراع يكفى لجعلهم مثلاً علياً في كل شيء . ولكن ما كانت المبادئ لتوزن في ميزان الحق بوفرة إنتاجها الآلى ، بل لما حققت في المجتمع من قيم أخلاقية وإنسانية .

والحضارة الغربية بهذا المقياس مفلسة غاية الإفلاس .. وإننا لا نجد من معاني الشعارات التي ينادى بها الغربيون إلا مظاهر التضليل والخداع . يقول الأستاذ ( جودا ) أستاذ الفلسفة الانجليزية في كتابه ( سخافات المدنية الحديثة ) : إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق .

فالأخلاق متأخرة جداً عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء والأخلاق في انحطاط حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للنظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هو يمتاز في أخلاقه .. في شرهه وطمعه .. في طيشه ونزقه ، وفي قسوته وظلمه عن غيره .. وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة .. ( إلى أن يقول ) : إذ هو لا يدري كيف يعيش !!

وفي نطاق المساواة فشل الغرب فشلاً ذريعاً في تطبيق مبدأ المساواة العنصرية والتطبيقية بين الناس ، فالتمييز العنصري لا يزال مشكلة المشاكل في أميركا . واحتقار البيض للملونين في البلد الذي يدعى الحرية ، كرسته القوانين الرسمية نفسها ، فالرجل الأسود محروم من التعليم في مدارس البيض ، وهو محروم من تأدية العبادة في معابد البيض .. بل هو ممنوع في بعض الولايات من السير في شوارع البيض ؟ وما روته الصحافة الغربية عن قصص التمييز العنصري مؤخراً القصة التالية ( لقد أفرج عن القس الزنجي الأميركي ( وليمس كنج ) من العاشرة صباح الأحد حتى التاسعة من صباح الاثنين ، لحضور الصلاة العامة ثم أعيد بعدها إلى السجن ليقضى مدة العقوبة المحكوم بها ، لأنه أكل في مطاعم البيض ؟ )

وفي اتحاد جنوب أفريقيا أجرت ( بريطانيا ) استفتاء مزيفاً لتقرير بقاء الاتحاد عضواً في الكومنولث البريطاني ، أو إعلان الجمهورية فيه ، وقد أعطى هذا الحق لجميع الأوروبيين المقيمين في الاتحاد وعددهم مليون ونصف مليون شخص ، بينما حرم منه سكان البلاد الوطنيون الأصليون وعددهم تسعة ملايين ونصف مليون ؟

وأجدني في غنى عن تقديم شواهد على فشل الغرب وكذبه في دعوى السلام والحرية .. فالعالم العربي والإسلامي عانى وما يزال يعاني الكثير من ويلات الاستعمار وخداعه ووحشيته .

**وهامى ذى** أميركا اليوم ترتكب باسم الحرية والسلام فى فيتنام وغيرها أبشع المجازر .. لتقدم بين يدى العالم من جديد دليلا على إفلاسها الإنسانى والأخلاقى والعقائدى .  
كذلك القول فيما قامت به بريطانيا من تقتيل وتدمير فى جنوب الجزيرة العربية باسم الحرية والسلام ..

ويعلق الأستاذ (جودا) على ذلك فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) فيقول : ( انظر إلى الطيارة التى تخلق فى السماء .. يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر .. ولكن انظر إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطيارة وغيرها من المخترعات .. إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء بالغازات السامة ، وإحراق الأجساد .. وهذا من مقاصد الحمق أو مقاصد الشياطين ) .  
**الإسلام ضرورة**

إذا كانت هذه أبسط مظاهر الفشل التى تواجهها الاتجاهات الفكرية والمعسكرات السياسية فى العالم أجمع .

وإذا كان المنهج الإسلامى - التجربة الوحيدة - فى حياة الإنسانية التى برهنت عن أصالتها وعمقها .. والتى حققت النجاح وبلغت الكمال ، فقد بات على الأمة أن تلتمس بواعث نهضتها ، وعوامل قوتها ، وطريق وحدتها وحريتها تحت راية الإسلام المجيدة ، وفى ظل قيادته الكريمة الرشيدة .  
قوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾

من صفات المؤمنين الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الفردوس ، الحفاظ على الأمانات والعهود ، ومن الأمانات الحفاظ على سلامة العقيدة ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾<sup>(١)</sup>

كذلك من الأمانات الحفاظ على النفس ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك الحفاظ على العقل ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٣)</sup> .

كذلك الحفاظ على العرض ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾<sup>(٤)</sup> كذلك الحفاظ على المال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾<sup>(٥)</sup>

والأمانات هنا بمعناها الواسع تفيد معنى الرعاية لحقوق الله تعالى ، قال تعالى ﴿ فإن أمن بعضهم

بعضا فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ﴾<sup>(٦)</sup>

وقال سبحانه ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل

إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾<sup>(٧)</sup>

وقال جل شأنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران

(٢) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٤) الآية ٣٢ من سورة الاسراء .

(٥) الآية ٢٩ من سورة النساء .

(٦) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٥٨ من سورة النساء .

(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

وهنا يقول تعالى : ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾<sup>(١)</sup>  
وذلك بعد أن زكى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألستهم عن اللغو ، وأموالهم  
بالزكاة . وأعراضهم بالعفة ، بعد ذلك زكى معاملاتهم برعاية الأمانة والعهد .  
وفي سورة الأحزاب يقول عز من قائل : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين  
أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾<sup>(٢)</sup>

وكما حافظوا على الأمانات حافظوا على العهود والعقود والميثاق ، كل هذه مسئوليات يسأل  
الإنسان عن الوفاء بها ، قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾<sup>(٣)</sup> وقال عز من قائل : ﴿وكيف  
تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا﴾<sup>(٤)</sup>  
وقال تبارك اسمه : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله  
عليكم كفيلًا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غرضها من بعد قوة أنكاثا تتخذون  
أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة﴾<sup>(٥)</sup>

ومن الرعاية للأمانات والعهد أداء الدين ، وهذا أمر قد خانه كثير من الناس ، فأصبح الغالب  
على أحوالهم المماطلة في أداء الديون ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والادلاء بها إلى الحكام ، ولو علم  
هؤلاء ما جاء على لسان الصادق المعصوم - صلوات ربي وسلامه عليه - في هذا الشأن لو علموا ذلك لأدوا  
الأمانات إلى أهلها ، ولو قفوا عند المحافظة على حسن المعاملات .

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أعوذ بالله من الكفر  
والدين . فقال رجل : يا رسول الله ، أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم )<sup>(٦)</sup> رواه النسائي والحاكم .  
وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( الدين راية الله في الأرض ، فإذا أراد الله أن  
يذل عبدا وضعه في عنقه ) . رواه الحاكم .

وعن عتبة بن عامر رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول : ( لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها .  
قالوا : وماذا يا رسول الله ؟ قال : الدين )<sup>(٧)</sup> . رواه أحمد

وعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من فارق روحه جسده ، وهو برىء من  
ثلاث دخل الجنة : الغلول والدين والكبر )<sup>(٨)</sup> .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعا : ( من تداين بدين وفي نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه  
وأرضى غريمه بما شاء ومن تداين وليس في نفسه وفاؤه ثم مات اقتضى الله عز وجل لغريمه يوم  
القيامة ) . رواه الحاكم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أخذ أموال الناس يريد أداءها  
أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله )<sup>(٩)</sup> . رواه البخاري .

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .  
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .  
(٣) الآية ٢١ من سورة النساء .  
(٤) أخرجه الترمذي في السير : ٢١ . وابن ماجه في الصدقات : ١٢ . والدارمي في البيوع : ٥٢ . والإمام أحمد في ٥ :  
٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .  
(٥) أخرجه البخاري في الزكاة : ١٨ ، وفي الاستقراض : ٢ . وابن ماجه في الصدقات : ١١ ، والإمام أحمد في ٢ : ٣٦١ ،  
(٦) (٤) الأيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .  
(٧) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٣٨ .  
(٨) أخرجه الإمام أحمد في ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .  
(٩) أخرجه البخاري في الزكاة : ١٨ ، وفي الاستقراض : ٢ . وابن ماجه في الصدقات : ١١ ، والإمام أحمد في ٢ : ٣٦١ ،

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( من حمل من أمتي ديناً ثم جهد في قضاؤه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه )<sup>(١)</sup> رواه أحمد .  
وعنها رضي الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها : مالك وللدين ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من عبد كانت له نية في أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا ألتمس ذلك العون )<sup>(٢)</sup> .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : كانت ميمونة تدان فتكثر فقال لها أهلها في ذلك ولاموها ووجدوا عليها ، فقالت : لا أترك الدين ، وقد سمعت خليلي وصفيي ﷺ يقول : ( ما من أحد يدان ديناً يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أداه الله عنه في الدنيا )<sup>(٣)</sup> . رواه النسائي .  
وعن صهيب الخير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أيما رجل يدين ديناً وهو مجمع ألا يوفيه إياه لقي الله سارقاً )<sup>(٤)</sup> رواه ابن ماجه

• ورواه الطبراني في الكبير ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئاً مات يوم يموت وهو زان وأيما رجل اشترى من رجل بيعاً ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئاً مات يوم يموت وهو خائن/والخائن في النار) .

وعن القاسم مولى معاوية رضي الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : ( من تدين بدين وهو يريد أن يقضيه حريص على أن يؤديه فمات ولم يقض دينه ، فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد ألا يقضيه فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أنا لن نوفي فلاناً حقه منك؟ فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة في حسنات رب الدين ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت في سيئات المطلوب ) . رواه البيهقي .  
وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ، ليس ثم دينار ولا درهم )<sup>(٥)</sup> .

رواه ابن ماجه :  
ولفظه : قال رسول الله ﷺ : ( الدين دينان فمن مات وهو ينوى قضاءه فأنا وليه ومن مات وهو لا ينوى قضاءه فذاك الذي يؤخذ من حسناته ، ليس يومئذ دينار ولا درهم ) .

### المعنى

رب الدين : صاحب الأمانة المودعة .  
قضى من حسناته : أى أخذ من ثوابه المدخر له سداده لدينه الذى كان عليه في حياته .  
ليس ثم دينار : أى ليس يوم القيامة مال يدفع وإنما هناك أخذ الأجر تنفيذاً وقضاء قال تعالى : ﴿ وأما من

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٦ : ٧٤ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الصدقات : ١١ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الصدقات : ١١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه في الصدقات : ١٢ .

آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسرا ﴿١﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ﴿٢﴾ .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : ( سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد ) . قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : ( فى الدين والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه ) ﴿٣﴾ . رواه النسائى .

### المعنى

الغد : اليوم الثانى

يقضى دينه : يؤدى . والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين وأن عقابه صارم ويدخل النار ولو كان المدين صالحا مجاهدا .  
وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ( ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : اتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدا : قال ، فأتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلة ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر ففضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلة ، فقلت : كفى بالله كفيلة فرضى بك ، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدا فى مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هلا كنت بعثت إلى بشىء . قال أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا ) ﴿٤﴾ . رواه البخارى .

### المعنى

يسلفه : يقرضه .

كفى بالله شهيدا : الله مطلع علينا ورقيب وتكفى شهادته وحده سبحانه وتعالى .

(١) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٥٧ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٣٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى الشروط : ١٦ ، وفى الزكاة : ٦٥ ، وفى الاستقراض : ١٧ ، وفى الكفالة : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٨ .

فأنتنى بالكفيل : الضامن

صدقت : وفي رواية أبي سلمة فقال: سبحان الله نعم .

مسمى : موعد محدد

زجاج . أى: سوى موضع النقر وأصلحه وهو من تزجيج الحواجب : وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذاً من الزج وهو النصل كأن يكون النقر في طرق الخشبة فشد عليه زجا ليمسكه ويحفظ ما فيه وقال: عياض : معناه سمرها بمسامير كالزج أو حشا شقوق لصاقها بشيء ورقعه بالزج وقيل : معناه أصلح موضع النقر .

جهدت : اجتهدت

ولجت فيه : دخلت فيه .

رجل اقترض مبلغاً من آخر إلى زمن معلوم ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركباً ، فأتى بخشبة وضع المبلغ فيها ورمها في البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة فأخذها للدفء فوجد في وسطها الأمانة والرسالة . هذه حادثة يرونها لنا سيدنا رسول الله ﷺ عن صالحين برين مؤمنين معتمدين على الله جل وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى في قلوبها ، وسطعت تعاليم نبيها في ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان ، وحب الخير والتوكل على الله ، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ، والوفاء والصدق ورد الودائع ، وقد قال الله تعالى فينا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١)

اكتسبت الأمة الشرف العظيم والتفوق الباهر والخيرية من رسولها الصادق الأمين محمد ﷺ الذي حكى لنا فعل رجلين من بني إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلها ، ونتقى الله ونثق به وندعوه رغبا ورهبا ونخشاه .

قال تعالى: ﴿ إِنْ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمْثَالَ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ (٢)

وفي البخارى في باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث . وفي الفتح عن عبد الله بن عمرو بن العاص يرفعه : ( أن رجلاً ذهب إلى النجاشي فقال له أسلفني ألف دينار إلى أجل ، فقال : من الحميل بك ، قال : الله ، فأعطاه الألف فضرب بها الرجل ، أى: سافر بها في تجارة فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسته الريح فعمل تابوتا (٣) فذكر الحديث . فالذى أقرض هو النجاشي فيجوز أن تكون نسبته إلى بنى إسرائيل بطريق الاتباع لهم ، نشرها : قطعها بالمنشار فانتشرت الدنانير منها والصحيفة فقرئت وعرف ما فيها . وفي الفتح: في الحديث جواز الأجل في القرض . ووجوب الوفاء به ، وقيل: لا يجب بل هو من باب المعروف . وفيه التحدث عما كان في بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب للاعتاظ والانتساء، وفيه جواز التجارة في البحر وجواز ركوبه، وفيه بداءة الكاتب بنفسه، وفيه طلب الشهود في الدين وطلب الكفيل .

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٥٨ من سورة النساء .

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع : ٥٢ وابن ماجه في الصدقات : ٩ .

وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن من صح توكله تكفل الله بنصره وعونه .  
وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من تزوج امرأة على صداق وهو  
ينوى ألا يؤديه إليها فهو زان ومن اداها ديناً وهو ينوى ألا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال : فهو  
سارق ) . رواه البزار .

وعن ميمون الكروى عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( أبيا رجل  
تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس في نفسه أن يؤدي إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها  
لقى الله يوم القيامة وهو زان مؤبياً رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدي إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ  
ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقي الله وهو سارق ) . رواه الطبراني في الصغير والأوسط .

### المعنى

صداق : مهر .

زان : مرتكب الفاحشة .

سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

خدعها : خاناها وغشها .

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( يدعو الله بصاحب الدين  
يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ، فيقال : يا ابن آدم ، فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق  
الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتى على إما  
حرق وإما سرق وإما مضية ، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك فيدعو الله بشيء فيضعه  
في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته <sup>(١)</sup> ) . رواه أحمد .  
بفضل رحمته : لأنه أخذ الدين لحاجة وفي نيته الأداء إذا استطاع .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الدين يقتضى من  
صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين في ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته في سبيل الله فيستدين  
يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل  
خاف على نفسه الغربة فينكح خشية على دينه فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة <sup>(٢)</sup> ) . رواه ابن ماجه  
هكذا والبزار .

ولفظه : ( ثلاث من تدين فيهن ثم مات ولم يقض فإن الله يقضى عنه : رجل يكون في سبيل الله  
فيخلق ثوبه فيخاف أن تبدو عورته - أو كلمة نحوها - فيموت ولم يقض دينه ، ورجل مات عنده رجل  
مسلم فلم يجد ما يكفنه به ولا ما يواريه فمات ولم يقض دينه ، ورجل خاف على نفسه العنت فتعفف  
بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضى عنه يوم القيامة ) .

### المعنى

المعنى : ثلاثة يرد الله عنهم غائلة الدين ، ويبعد عنهم عقاب المماطلة :

(١) أخرجه الإمام أحمد في ١٠ : ١٩٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الصدقات : ٢١ .

أ - المستدين للجهاد في سبيل نصر دين الله ، وتكبت أعداء الإسلام ، والذب عن حياض آدابه .  
ب - المدين لتكفين الفقير ودفنه .

ج - الأعزب الذى يستدين ليتزوج .

يخلق ثوبه : يبل

تبدو عورته : تظهر سوءته فاستدان ليتجمل وليخفى ما يجب ستره والعورة للرجل من السرة إلى الركبة والمرأة جميع جسمها، فإن الله يرضى الدائن ويغدى عليه بنعيمه فيرضى عن مدينه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ما لم يكن فيما يكرهه الله . قال : وكان عبد الله بن جعفر يقول لحازنه : اذهب فخذلى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى بعد أن سمعته من رسول الله ﷺ ) (١) . رواه ابن ماجه .  
المعنى :

إن الله مع الدائن : الذى يعطى المحتاج ويفرج كربة المتضايق المهموم المحزون مدة إعطائه فى حلال يرضى الله جل وعلا، يقال دنت الرجل : أخذت منه ديناً وادنته جعلته دائناً وذلك بأن تعطيه ديناً . قال أبو عبيدة : دنته أقرضته، ورجل مدين ومديون، ودنته : استقرضت منه . قال الشاعر :

ندين ويقضى الله عنا وقد نرى مصارع قوم لا يدينون صنيعا .

قال تعالى ﴿ إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ (٢) و ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ (٣) .  
فخذلى بدين : صحابى جليل يريد أن يكون له فضل على الناس بالقرض رجاء أن الله يشملهم برحمته ورضوانه ورعايته قال تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴾ (٤)

وقال أيضاً : ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٥) .  
وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : ( من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى يتزع، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمرحى مما قال ) . رواه الحاكم وصححه .

المعنى :-

حالت شفاعته : منعت عقاباً فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله .  
فقد ضاد الله . أى : كان لله عدواً وضداً وأعلن الحرب على الله تعالى لأنه ساعد المجرمين وضيع حقوق

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٠ . والدارمى فى البيوع : ٥٥

(٤) الآية ١٧ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٩ من سورة الحديد .

(٣) الآية ١١ من سورة النساء .



الله في وساطته، قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (١).

أى: الذين يحادون الله هم : العصاة والفساق ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار لذهاب معالم الحق ، وتفشى الباطل وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة في البر والخير ، فجدد الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه، أى: من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والمراد أنه لا ينبغي أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في الزجر عن موالات أعداء الله والاحتراز والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم ..

وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾ (٢).

فليس ثم : يوم القيامة ﴿ يوم يؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾  
خاصم : جادل وفجر وشق عصا الطاعة .  
سخط الله : غضبه

يتزع : يرجع. والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

ردغة : جاء تفسيرها أنها عصارة أهل النار، والردغة : طين ووحل كثير .

المخرج : يصدق ويبعد عن الذم ويجتنب الغيبة والنميمة ويهجر الزور ويترك الباطل .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقال أنا يا رسول الله ، فقال : من منعك أن تحببني في المرتين الأوليين . قال : إني لم أنه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشيء ) (٣) . رواه أبو داود .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة ) . رواه الطبراني في الأوسط .

وعن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها : أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء ) (٤) . رواه أبو داود .

(١) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع : ٩ . والنسائي في البيوع : ٩٨ . والإمام أحمد في ٥ : ٢٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في البيوع : ٩ .

وعن شفي بن ماتع الأصبحي رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والحميم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ورجل يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحا ودما ورجل يأكل لحمه فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد مات وفي عنقه أموال الناس لا يجد لها قضاء أو وفاء ) . الحديث رواه ابن أبي الدنيا .

### المعنى

مأسور : في سجن من جهنم وفي يديه سلاسل النار وأغلالها فيشعر بالذلة والعقاب .  
الوحدة : العزلة والعذاب والحرمان من نعيم الجنة وفيه الترهيب من الدين وعدم الوفاء بالسداد وعدم حسن الأداء .

لا يدع له قضاء : لا يترك شيئا يقوم بأدائه والمعنى يبعثر جميع أمواله ويوزعها فرارا من أداء دينه .  
يؤذون : يقدمون لهم الآلام زيادة على الذى لحقهم .

الحميم : الماء الشديد الحرارة قال تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميا ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

الحميم : النار : أى : يمشون بين عذابين . ماء مغلى ونار الله الموقدة .

والثبور : العذاب والهلاك .

ما بال : ما حال أو شأن .

تابوت : صندوق من نار .

يجر أمعاءه : تخرج معدته .

يسيل فوه : يخرج فمه مادة قذرة .

أموال الناس : المذموم البعيد من رحمة الله من تداين ديناً لم يترك له سدادا .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه ) <sup>(٣)</sup> . رواه أحمد والترمذى .

وعن جابر رضى الله عنه قال : ( توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف فتحملها أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران على فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم وبرىء منها الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت إنما مات أمس . قال : فعاد إليه من الغد ؟ فقال : قد قضيتها ، فقال رسول الله ﷺ : الآن بردت جلدته ) <sup>(٤)</sup> . رواه أحمد بإسناد حسن .

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .

(٢) الآية ١٩ من سورة الحج .

(٣) أخرجه الترمذى في الجناز : ٧٦ . وابن ماجه في الصدقات : ١٢ ، والإمام أحمد في ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥ .

(٤) أخرجه الامام أحمد في ٣ : ٣٣٠ .

وروى عن علي رضي الله عنه قال : ( كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنائز لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنائز فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران . فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم . فقال علي رضي الله عنه : هما على يا رسول الله برىء منها فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلي بن أبي طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك؛ إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتين بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . فقال بعضهم : هذا لعلي خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة . ) .  
رواه الدارقطني ورواه أيضا عن طريق عبيد الله الوصافي عن عطية عن أبي سعيد .

### المعنى :

معلقة : مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يؤدي ما عليها  
بردت جلده . أى : بعد دفع الدينارين لصاحبها زال عنه العذاب وتنعم .

كف : امتنع

فعدل عنه : بعد الصلاة

هما على : أنا أدفعهما وفاء لدينه .

برىء منها : خلصت ذمته منها وطهرت .

فك رهانك : أطلقت من أسر العذاب .

مرتين : محبوس في النار

للمسلمين عامة : الثواب يشمل كل من فك عسر مسلم وأزال عنه حقوق دينه وأتمه ووفاه قال تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وستقول له من أمرنا يسرا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

أى : فعلة الحسنى ﴿ من أمرنا ﴾ مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ سهلا ميسرا غير شاق .

وروى عن أنس رضي الله عنه ( أن النبي ﷺ أتى بجنائز ليصلى عليها قال : هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبي ﷺ : إن جبريل نهاني أن أصلى على من عليه دين ، فقال : إن صاحب الدين مرتين في قبره حتى يقضى عنه دينه ) . رواه أبو يعلى والطبراني .  
ولفظه قال :

كنا عند النبي ﷺ : فأتى رجل يصلى عليه ، فقال : هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : نعم . قال : فما ينفعكم أن أصلى على رجل روحه مرتين في قبره لا تصعد روحه إلى السماء؟ فلو ضمن رجل دينه فصليت عليه فإن صلاتي تنفعه ) .

قال الحافظ : قد صلى النبي ﷺ ، إنه كان لا يصلى على المدين ثم نسخ ذلك .

فروى مسلم وغيره من حديث أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه

( ١ ) الآية ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .

( ٢ ) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

الدين فيسأل هل ترك لدينه قضاء فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : ( صلوا على صاحبكم ) فلما فتح الله عليه الفتوح قال : ( أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلى قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته )<sup>(١)</sup> .

### المعنى

جبريل نهائى : فى أول الرسالة امتنع ﷺ من الصلاة ترهيبا للذى يأخذ ولا يفى ، وستجد بعد ذلك أن هذا النهى زال .

مرتهن : محبوس لا يذهب إلى نعيم الجنة حتى يؤدي عنه دينه .  
لاتصعد روحه : لاتسمو إلى أعلى فتشعر بنعيمها ومرافقة الأبرار الصالحين .  
ضمن : تعهد بالوفاء عنه، ترغيب منه ﷺ فى زيادة أجر المحسنين الذين يؤدون حقوق الله عن أصحابهم .

### فقه الأحاديث

وقد استعاذ ﷺ من الدين لتبعد أمته عنه لأضراره :  
أولا : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة وغلبة الدائن وسلطته على المدين . ( أتعدل الكفر بالدين ) .

ثانيا : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين لضعته .  
ثالثا : عدم الدين يجلب السعادة وتنسم الحرية والشعور بالكرامة والمروءة ( أقلل من الدين ) .  
رابعا : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامسا : ترك الدين فى الرخاء أحسن خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدي به وبذا يدخل جهنم بسبب دينه وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضا انتقاما منه وترضية لصاحب الدين .  
سادسا : كثرة الاستدانة تجلب الفقر وتنزع البركة من المال وتنذر بالخراب والخسران ( أتلغه الله ) .  
سابعا : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط على شريطة نية الوفاء وحسن الأداء ( التمس ذلك العون ) .  
ثامنا : قضاء حاجات الناس وفك كربهم محمدا ومجلبة للخير ورضوان الله ( كانت ميمونة تدان فتكثر ) .

تاسعا : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء كالغصب والنهب ( لقي الله سارقا ) ( وهو خائن ) .  
عاشرا : الزوج إذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم وعيشتة معها محرمة وهو عاص ربه ( زان ) .  
الحادى عشر : لومات المجاهد الذى أبلى بلاء حسنا فى نصر دين الله ( وعليه دين ما دخل الجنة ) .  
الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء سعادة ومحبة من الله وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله ( كفى بالله وكيفا ) .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدي الله عنه دينه ويكرمه ( صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك ) .

(١) أخرجه مسلم فى الفرائض : ١٤ ، وأبو داود فى الوصايا : ١٧ ، والنسائى فى الجنائز . وابن ماجه فى الصدقات : ١٣ .

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس مشمول بعز الله ورحمته ( الله مع الدائن ) فأحذر يا أخى من الدين ما استطعت واقتصد فى إنفاقك وتوسط ولا تسرف .

### تحذير

وقد حذر رسول الله ﷺ من مطل الغنى كما رغب فى إرضاء صاحب الدين ..  
عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( مطل الغنى ظلم وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتب ) (١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . [ أتبع ، أى : أحيل ] .  
وعن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( لى الواجد يحل عرضه وماله ) رواه ابن حبان فى صحيحه .

( لى الواجد ) بفتح اللام وتشديد الياء : أى مطل الواجد الذى هو قادر على وفاء دينه يحل عرضه ، أى : يبيع أن يذكر بسوء المعاملة وعقوبته حسبه .  
وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال . وفى رواية : إن الله يبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال ) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط من رواية الحارث الأعور عن على والحارث وثق ولا بأس به فى المتابعات .

### المعنى

مطل : تأخير الحق وتسويق دفعه للدائن .  
الغنى : أى القادر على وفاء الدين لربه بعد استحقاقه .  
ظلم : محرم عليه ، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى : ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلماً . حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى غريمه من إضافة المصدر للفاعل . وقيل من إضافته للمفعول والمعنى أنه يجب وفاء الدين وإن كان مستحقه غنياً ولا يكون غناه سبباً لتأخيره عنه وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

فليتب : فليحتل ندباً لا وجوباً خلافاً للحنابلة . أى : إذا أحيل بالدين الذى له على موسر فليرض ، وقوله : ظلم يشعر بكونه كبيرة والجمهور على أن فاعله يفسق لكن هل يثبت فسقه بمرة واحدة أم لا ؟ قال النووى : مقتضى مذهبنا التكرار . والراجح عند المتأخرين من الشافعية الأول فلا يكون كبيرة إلا بالتكرار ثلاث مرات فأكثر ويدخل فى المماطل كل من لزمه حق كالزوج لزوجته والحاكم لرعيته .

(١) أخرجه البخارى فى الحوالات : ١ ، ٢ ، وفى الاستقراض : ١٢ . ومسلم فى المساقاة : ٣٣ . وأبو داود فى البيوع : ١٠ . والترمذى فى البيوع : ٦٨ . والنسائى فى البيوع : ١٠٥ ، ١٠١ . وابن ماجه فى الصدقات : ٨ . والإمام مالك فى البيوع : ٨٤ . والداريمى فى البيوع : ٤٨ . والإمام احمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣ . ٤٦٥ .

الغنى : صاحب الخيرات الجمة الذى يأكل حقوق الناس، وكبير السن الفاسق الذى يرتكب المعاصي .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ( ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله ) فذكر الحديث إلى أن قال : ( والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقر المختال والغنى الظلوم ) (١) رواه أبو داود .

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قوبها غير متعنت ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ونون الماء، ومن انصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم ليلة وجمعة وشهر ظلم ) رواه الطبرانى فى الكبير .

### المعنى

المختال : الذى يعجب بنفسه .

العائل : الفقير المتصف بالغطرسة .

الشيخ الزانى : الذى يفعل الفاحشة مع أن قوة الشباب زالت منه ويلزمه الوقار والأدب .  
ما قدس : ما رضى عنها وما طهرها، والمعنى أن الله تعالى يذل ويهين كل طائفة لا تساعد الفقير على أخذ الحق من الجبار المستكبر، وفيه الحث على نصر الحق وإغاثة الضعيف رجاء دوام عز الله ونصره لمحبي الحق والعدل .

متعنت : غير ناقص متعب .

غريمه : دائئه .

صلت : دعت له بالاستغفار وزيادة النعم .

نون الماء : حوت البحر .

ساخط : غضبان .

كتب : تقيد فى صفحاته سيئات تتكرر مدى الأيام حتى يؤدى ما عليه لأنه ظلمه بتسويفه ونقصه .

وعنها رضى الله عنها قالت : ( كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بنى ساعدة فأتاه يقتضيه فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمرا دون تمره ، فأبى أن يقبله فقال : أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ؟ فاكتملت عينا رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال : صدق ومن أحق بالعدل منى ، لا قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولا يتعنته ، ثم قال : يا خولة عديده واقضيه فإنه ما من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٥٧ .

عليه دواب الأرض ونون البحار وليس من عبد يلوى غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه في كل يوم وليلة (إنما) رواه الطبراني في الأوسط .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا قدست أمة لا يعطى الضعيف فيها حقه غير متمتع ) . رواه أبو يعلى ، ورواه رواية الصحيح .

ورواه ابن ماجه بقصته ولفظه قال : ( جاء أعرابي إلى النبي ﷺ يتقاضاه ديناً كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك في إلا قضيتني ، فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : إني أطلب حقي ، فقال النبي ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم ، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس ، فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك ؟ فقالت : نعم يابى أنت وأمي يارسول الله فأقرضته فقضى الأعرابي وأطعمه ، فقال : أوفيت أوفى الله لك ، فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متمتع ) (١) . رواه البزار من حديث عائشة مختصراً . والطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد جيد .

### المعنى

ويحك : كلمة رحمة واستعطاف

تدرى : أتعلم من تحدث .

هلا : هلا للتحريض : أى ، أود أن تكونوا مع صاحب الحق تساعدونه .

فأقرضينا : أعطينا شيئاً سلفاً : والقرض : تمليك شيء على أن يرد مثله .

فقضى : أدى ما عليه ﷺ للأعرابي وأكرمه وقدم له الغداء وأحسن ضيافته .

أوفيت : أتممت الأداء وزدت زادك الله كمالات ورقياً ثم مدح ﷺ المحسنين .

ماذا يريد رسول الله ﷺ

أولاً : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادراً على الدفع .

ثانياً : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه ( فليتبع ) .

ثالثاً : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب ، عرضه وشتمه وغيبته ( لى الواجد ) .

رابعاً : كل من قدر على أداء ما اقترض ولم يف حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين

المسيئين وحل عليه غضب الله وكرهته ( الغنى الظلوم ) .

خامساً : المدين المماطل يجلب لأتمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها في الذنوب المهلكة

وبيعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها ( ما قدس الله أمة ) أى : طهرها من الخطايا .

سادساً : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع

( صلت عليه دواب الأرض ) أى : كل ما دب وفيه الحياة .

سابعاً : المقصر في الأداء الذى هجر دأته وأغضبه وسجلت عليه الآثام بمرور الأزمان ( يلوى

غريمه ) ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه . ( ياخولة غديه واقضيه ) ثم وسع خلقه

ذلك الأعرابي الجاف الفظ الغليظ الذى اشتد عليه حتى قال : ( أخرج عليك إلا قضيتني ) أى : أعلن

عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى . مسكين أيها الأعرابي !!  
 شيء قليل اقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت وليس عنده شيء مطلقا ، لكن أبى كرمه  
 ﷺ إلا أن يكرم وفادته ، ويغدق عليه بإحسانه ، ويرد ما أخذه مضاعفا ، ثم دعا له ﷺ الأعرابي :  
 ( أوفيت أوفى الله لك ) هكذا تكون مكارم الأخلاق : حسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود .  
 وهنا درس مفيد ، وعظة بالغة ، لعلنا نعمل بها ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ،  
 يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابي ويفهموه درجة السيد الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ  
 على نصر الضعيف ، ومجارة الحق ، والأخذ بيد الضعيف ( هلا مع صاحب الحق كتم ) .  
 رأيتم أبداع من هذا ؟

يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا في صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته ،  
 وعز سلطانه ، والأبداع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا ، مستغرق في طاعة الله ،  
 فقرض من الأعرابي ، ثم قرض من خولة ما يؤدي به حق الأعرابي ، حتى أفرحه وأكسبه رضله ، ولم  
 يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء ، وطيب  
 القضاء ، ثم قال ﷺ : ( أولئك خيار الناس ) أى الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب  
 الحق ، ويساعدون على تنفيذه ، وكذا دفع الحق بسهولة . من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل  
 الخلق وأطاييهم وأحسنهم .

فعلبك - أبخى - بحسن المعاملة ، ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق  
 نبيك ورسولك ، فتفى بوعدك ، وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتحشاه ، وتحسن كما أحسن الله  
 إليك ، قال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها  
 وماله في الآخرة من نصيب ﴾ (١)

### الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤمنين

#### الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه

قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله  
 عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (٢) .  
 يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ، ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره ، واجتناب  
 مناهيه ومنه رد الأمانة .

﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ كفيلا ﴾ أى : شهيدا شاهدا بتلك البيعة ، فإن  
 الكفيل مراعى لحال المكفول به رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ،  
 ورأيت حفظ الله لماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٩١ من سورة النحل .



وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١) .  
 وقال تعالى ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .  
 قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (٣) .  
 قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يلبس المجرمون ﴾ (٤) .  
 قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .  
 ﴿ زكاها ﴾ : أنماها بالعلم والعمل ﴿ دساها ﴾ : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق والخيانة .  
 وقال تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .  
 وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (٧) .  
 من سورة الأنفال :

أى : بمبدلا إياها بالنقمة لخيانتهم ومعاصيهم يزيل الخير ويحفهم بالضرر سبحانه .  
 وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ (٨) .  
 وقال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (٩) .  
 خاتمة الصفات

قوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ :  
 كما افتتح الله تعالى صفات المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ اختتمها بالمحافظة على تلك الصلوات فهم فيها خاشعون ، وعليها محافظون .  
 خاشعون فى أدائها ، لا تنصرف قلوبهم إلى شواغل الدنيا ، محافظون على أوقاتها وأركانها وشروطها وسننها .

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ :  
 أى : أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات ، كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا . لا يخرجون منها ولا يموتون .  
 وقصارى ما سلف - أن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر ، فى حياته الروحية وكمالاته النفسية .

(٦) الآيات ١٣١ - ١٣٣ من سورة الأنعام  
 (٧) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .  
 (٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .  
 (٩) الآية ٣٨ من سورة الحج .

(١) الآية ٩٢ من سورة النحل .  
 (٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .  
 (٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .  
 (٤) الآية ١٢ من سورة الروم .  
 (٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ) (١) . ثم قرأ : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر .

### المبدأ والمعاد

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

### تفسير المفردات

السلالة : ماسل من الشيء واستخرج منه، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكناسة البيت .  
 قرار : أى مستقر .  
 مكين : أى متمكن .  
 العلقه : الدم الجامد .  
 المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .  
 تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

### التفسير

عن أنس رضي الله عنه : ( قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت : يا رسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ (٢) وقلت : يا رسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله ﴿ وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ (٣) . وقلت لأزواج النبی ﷺ : لتنتهن أو لبيدلهن الله أزواجا خيرا منكن فنزلت ﴿ عسى ربه إن طلقكن ﴾ (٤) . الآية . ونزلت ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ إلى قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾ . فقلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت يا عمر ) أخرجه الطيالسى .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٤ : ٢٦٨ ، ٢٧١ . والدارمى فى المقدمة : ٢ .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٥ من سورة التحريم .

أيها الإنسان: أصلك نقطة مذرة ، وأحرك جيفة قدرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل في جوفك العذرة ، تتنك عرقه ، وتؤذي بك بقه ، وتقتلك شرقة ، فكيف تتكبر على الله وأنت الذي نزلت من مجرى البول مرتين .

سبحانك ربى يا من قلت: ﴿كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ <sup>(١)</sup> ويا من قلت : ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَى صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ <sup>(٣)</sup> .

دواؤك فيك وما تبصر ودأؤك منك وما تشعر  
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمـر .  
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ :  
أى بولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفرادهِ وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .  
ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية ، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلق إلى أن صارت نطفاً .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ .  
ولابد من تسليط الأضواء العلمية الكاشفة على هذا القرار المكين الذى سماه خالقه قراراً أى : مستقراً . ووصفه بأنه مكين ، ذلك لأن عادة الجسم قد جرت على أمر معهود وهو طرد الأجسام الغريبة ، فلماذا لم يطرد الرحم النطفة التى حبت فيه من ماء الرجال ، وهى غريبة ، ذلك لأن الله هيا المكان ليكون قراراً ، وليكون مكيناً .

فماذا يقول العلم ؟ وماذا يقول العلماء المتخصصون فى الأجنة ؟  
إن العلم له حديث شجون فى هذا المجال الذى إن دل على شئ فإنما يدل على الوحدانية الخالصة ، والعلم المحيط ، والإرادة النافذة ، والقدرة الفائقة ، لمن يقول للشئ كن فيكون ، ولمن يقول : ﴿هُوَ الَّذِي يَصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ <sup>(٤)</sup> .

القرار المكين :

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ . فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ .

(٣) الآيات ٦ - ٨ من سورة الانفطار .

(٤) الآية ٦ من سورة آل عمران .

(١) الآية ٣٩ من سورة المعارج .

(٢) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ﴾ :  
لقد سمي الله تعالى الرحم القرار المكين .. الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، حتى تصير جنينا ،  
ثم حميلا ، ثم تخرج طفلا كاملا الحلقة سوى التكوين .  
ولذا فلا بد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين ، كما أنه الفراش الوثير لتلك  
النطفة فالعلقة ..

وأول شيء نلاحظه هو أن الرحم موضوع في الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم  
من كل عدوان خارجى ، ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم ، ومع ذلك تسمح  
له بالحركة والنمو ، حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة في نهاية الحمل .. إذ أن حجم  
رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من . مليلتر ونصف ، بينما يتسع حجم الرحم ذاته في نهاية الحمل  
لسبعة آلاف مليلتر .. ومع ذلك يبقى الرحم في مكانه والأربطة ممسكة به .. كما نلاحظ عضلات  
الحوض .. والعجان ( يعرف الأطباء العجان باسمه اللاتينى الاغريقى PERINEUH ) وهى تحفظ  
الرحم في مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة في الحوض ، كالمثانة والمستقيم والقناة  
الشرجية ، ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة  
والقناة الشرجية ، ولبرزت إلى الخارج ، وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزق عضلات العجان في حالات  
الولادة المتعسرة ، أو في الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدي إلى سقوط هذه الأعضاء .  
وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم ، وبالجزء العلوى من المهبل ،  
ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام ، وبالمستقيم من الخلف ، يساند مساندة فعالة في جعل الرحم قرارا  
مكينا لنمو النطفة الإنسانية في أوارها المختلفة ، كما أننا نلاحظ توازنا عجيبا بين الضغط الموجود في  
تجويف البطن وتجويف الحوض ، بحيث يمسك بالأعضاء في أماكنها .  
وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضا .. واتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل مما  
يساعد مساعدة فعالة في ثبات الرحم في مكانه .. ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات .  
خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات ولهذه العضلات  
اهمية خاصة في منع النزيف من الرحم ، وخاصة بعد الولادة إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية  
المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم ، ولكن الله هيا هذه العضلات العاصرة لتقل هذه  
الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة إفراز هرمون الحمل البروجسترون .. إذ أن هذا الهرمون  
يجعل انقباضات الرحم بطيئة وممتدة عكس هرمون الأنوثة الأوستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم  
نزقة هاشة باشة للمنى .. كما وصفها الفخر الرازى بقوله : ( إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث  
قريبا وكان خاليا من الفضول المانعة له عن فعله اشتد شوقه إلى المنى حتى أن الإنسان يحس في وقت  
الجماع وكأن الرحم يجذب إحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم ) .  
ولا يمكن أن يحصل ذلك أثناء الحمل مثلا .. لأن هرمون البروجسترون ( هرمون الحمل )

يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقفها إلى الخارج .

بعد أن أجملنا العوامل التي تحفظ الرحم في مكانه ، وتجعله القرار المكين سنبداً بشيء من التفصيل ودون أن ندخل في تفاصيل علم التشريح فذلك متروك لطلبة الطب والأطباء .  
١ - الحوض : ( BONY PELVIS ) :

يتكون الحوض من مجموعة من العظام متصلة ببعضها البعض اتصالاً دقيقاً محكما فتكون مثل الصندوق الخشبي ولكن له فتحتان رئيسيتان : من أعلى حيث يتصل بتجويف البطن ومن أسفل حيث يغطي بعضلات العجان وبه نهاية القناة الهضمية ونهاية الجهاز البولي والتناسلي . . وتسمى عظمتا الحوض على جانبيه بالخرقفة والورك والعظم الخلفي يدعى العجز والعصعص . . أما العظم الأمامي فيسمى العانة .

ويتصل الحوض بالعمود الفقري حيث يتصل عظم العجز بالفقرات القطنية كما تتصل الخرقة من كلا الجانبين بعظمي الفخذ ويحفظ الحوض في الأنثى أجهزتها التناسلية الهامة : الرحم والمبيض وقناتي الرحم والمهبل . . كما يحفظ لكلا الرجل والمرأة المثانة ومتعلقاتها والمستقيم ومتعلقاته والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب .

ولا شك أن وظيفة حوض المرأة تختلف إلى حد ما عن وظيفة حوض الرجل فبالإضافة إلى حفظ الأعضاء التي ذكرناها فإن على حوض المرأة أن يكون مستعداً لنمو الرحم نمواً هائلاً .  
كما أن عليه أن يتقبل إخراج الجنين ومتعلقاته مثل المشيمة والأغشية إلى العالم الخارجي أثناء الولادة .

ولذا لا بد أن يختلف حوض المرأة في تركيبه عن حوض الرجل .  
ويقول علماء الأجنة : ( يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بغض الضروريات اللازمة التي لا يحتاج إليها حوض الرجل . . فنمو الجنين في الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض . . ومن مخرجه وقت الولادة بالنسبة للأم وللطفل . . وتنحصر كل هذه التغيرات في أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر . . وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريس ) .

( وإن تكن رقة العظام ونعومتها وبساطة تضاريسها وصغر شوكتها وقلة غور حفرها ظاهرة جلية في أكثر عظام الهيكل في السيدة غير أنها تتجلى بأوضح شكل في عظام الحوض للأنثى التي بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر من صفاتها المميزة للأنوثة زيادة على تكيفها النوعي الخاص بما يناسب ما يتطلب منها من القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل ) .  
وهكذا يحفظ الحوض العظمي الرحم بداخله بحيث لا يصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة . . بل لو أصيبت المرأة في حادث أو سقطت من شاهق وكسرت عظامها فإننا نجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسه سوء ، بل لو أن شخصاً اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم إلا إذا كانت المرأة حاملاً في الشهر الرابع فما بعده . . وأما

قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأي أذى .  
والحوض على متانته له مفاصل اربعة ، يمكن من خلالها أن يتحرك قليلا حتى يزداد اتساعه  
وخاصة عند الحمل والولادة ، بينما حوض الرجل لا يكاد يتزحزح وكل مفصل من هذه المفاصل محروس  
بمجموعة من الأربطة والصفاقات المتينة المحكمة .  
وقد احتار القدماء من الأطباء حيرة شديدة في كيفية خروج الطفل من هذا المكان الضيق فظن  
بعضهم أن العظام لابد أن تنفلق ولو للحظات حتى يمر الجنين .  
وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير  
حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ، ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ، ويقول لها أرخي من  
قبضتيك قليلا ، فتسمع له ، وتطيع وترخي من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا ، حتى يتسنى  
للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات . فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة  
النخامية يسمى هرمون الارتخاء ( RELAXIN ) فيقول للحوض : اتسع ، فيتسع وعند ذاك يمر الطفل  
في ذلك الطريق الضيق الذي احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر دون أن ينحشر انحشارا مميتا .  
فانظر إلى رحمة الله وهي ترعاك في كل طور من أطوار حياتك ، منذ كنت نطفة مغلقة ، فعظاما  
فلحما يكسو العظام لحما ، فخلق من بعد خلق .  
والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء وتدفع عنك الأذى ، فإن حان موعد خروجك إلى الدنيا هيأ لك  
الأسباب وأرخي لك العظام وجعلها طيعة لينة .  
وأمر الرحم بالانقباض فانقبض انقباضات متتالية ومقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدي إلى  
الضغط عليك ضغطا يؤدي إلى وفاتك ، وهيأ الطريق لخروجك في ذلك الحيز الضيق الذي لا يمكن أن  
نخرج منه لولا رحمته ، ثم تخرج لتجد غذاءك جاهزا في ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات  
تسقيك إياه من ثديها ، مع ذلك اللبن الذي يخرج من بين فرث ودم .  
ثم يرعاك طفلا ويافعا . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى  
نكران تلك النعم التي تهطل عليك في كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .  
فما أحراك بالسجود شكرا لله على عظيم منته وآلائه ، وأحراك أن تطيع فلا تعصى أبدا ، ولكنها  
النفس الأمارة بالسوء ، ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس في آناء الليل وأطراف النهار . . ولا بد من  
أوبة . . ولا بد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يفتح ذراعيه بالليل ليتوب مسيء النهار ويفتح  
ذراعيه بالنهار ليتوب مسيء الليل .

ولنعد إلى القرار المكين حيث رأينا العظام وهي تحرس الرحم حراسة ما بعدها حراسة . .  
وسنرى الآن كيف تساهم عضلات الحوض والعجان بالمحافظة على الرحم وجعله قرارا مكينا .

## ٢ - عضلات الحوض والعجان : ( PELVIC AND PERINEAL MUSCLES )

تساهم عضلات الحوض والعجان مساهمة فعالة في حفظ أعضاء الحوض وأهمها الرحم ومتعلقاتها  
والمثانة ومتعلقاتها ونهاية القناة الهضمية والأوعية الدموية والأعصاب وهناك كثرة من العضلات المتصلة  
بالحوض . . إلا أن أهم العضلات المسؤولة عن حفظ الرحم الشرج والمثانة هي :

LEVATOR ANI **MUSCLE**

## COCCYGIUS MUSCLE

١ - العضلة الرافعة للشرح

٢ - العضلة العصعصية

وهما يكونان الحجاب الحاجز للحوض بمساعدة الصفاقات .. وهما تحفظان أعضاء الحوض في أماكنها المحدودة والمرسومة ضد العوامل المختلفة الطارئة والدائبة .

والعضلة الرافعة للشرح هي أهم العضلتين ، وتلتف أليافها الأمامية حول المهبل في المرأة ، وحول البروستاتا في الرجل .. وتحفظهما في مكانهما المقرر لهما .

أما أليافها الوسطى والخلفية فتلتف حول القناة الشرجية ونهاية المستقيم وتحفظ بذلك المستقيم والشرح .

ونتيجة لتوترها الدائم تمنع المستقيم والمهبل والرحم والمثانة من أن تسقط كما يقع في بعض الحالات المرضية .. مثل تمزق العضلة الرافعة للشرح أثناء الولادة المتعسرة ، أو نتيجة لإصابة أعصاب تلك العضلة بأحد الأمراض التي تصيب الأعصاب والعضلات ، فتؤدي إلى ارتخائها مما يسبب سقوط المهبل أو سقوط الشرج إلى خارج الجسم .

وللعضلة الرافعة للشرح دور هام في الولادة .. إذ أن أليافها الخلفية تساهم في إطالة الدور الأول للولادة حتى يتسنى لعنق الرحم أن يتمدد .. أما في المرحلة الثانية وهي إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج فتساهم كل من العضلات الرافعة للشرح والعضلات العصعصية في زيادة الضغط في تجويف الحوض والرحم بانقباضها المتتالي مما يساعد مساعدة فعالة في إخراج الجنين وقذفه للخارج . كما أن هذه العضلات تساهم أيضا في الدور الأخير من الولادة وهو إخراج المشيمة وطردها من الرحم بعد إخراج الوليد .

## ٤ - صفات الحوض :

يشتمل الحوض على نسيج ليفي غشائي يحيط بأعضاء الحوض وعضلاته وأوعيته وترتبط هذه الصفاقات أعضاء الحوض بعضها ببعض وتعرف بالأربطة الحقيقية ويتخللها نسيج عضلي غير إرادي وتعرف الصفاقات التي تغطي الرحم والمثانة والمستقيم والقناة الشرجية بالصفاقات الحشوية لأنها تغطي الأحشاء ، أما تلك التي تغطي العضلات فتعرف بالصفاقات الجدارية لأنها تغطي جدران الحوض .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد

يا حي يا قيوم أنت المرتجي وإلى علاك الجنين الساجد

سبحانك يا من قلت وقولك الحق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴿١﴾ .

قوله تعالى : **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظًا**

**فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** (١٤)

كل هذه الأطوار تحدث في عالم الأرحام ، ولا بد من معرفة علمية كاملة بهذا القرار الذى نشأنا فيه ، ولا بد لنا أن نتحدث عن أربطة الرحم ، حتى نقف مسبحين بحمد ربنا ، مقرين له بالجلال والكمال ، والعظمة المطلقة .

#### ٤ - أربطة الرحم :-

إن وضع الرحم في وسط الحوض الحقيقى بحيث لا تتعدى قمة الرحم الحرف العلوى لعظم العانة ، ولا يتعدى أسفل الرحم ( عنق الرحم ) الشوكتين الوركيتين في أسفل الحوض . .  
إن وضع الرحم هكذا يجعله محروسا تماما بعظام الحوض من كل جهة ، ويمسكه في مكانه كما تقدم ذكره من صفاقات وعضلات بالإضافة إلى أربطة الرحم . .

وللرحم جملة أربطة يتعاون بعضها مع بعض في جهاتها المختلفة ، لحفظ الرحم في موضعه الطبيعى ، ولكنها في نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية ، كما تسمح له بالنمو الهائل في فترة الحمل ، بحيث يتضاعف حجم الرحم آلاف المرات في نهاية الحمل عما كان عليه قبيل الحمل ، وبحيث يملأ الرحم تجويف البطن حتى يصل إلى عظمة القفص حتى يجعل التنفس عسيرا على الأم ، وخاصة عند الاستلقاء على ظهرها .

ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة . . بل إنه أعظم من ذلك بكثير . . إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه .  
وتقسم أربطة الرحم الكثيرة إلى مجموعتين :-

#### المجموعة الأولى :-

- وتدعى بالأربطة الرحمية الكاذبة : وتسمى كاذبة لأنها مكونة من انعطاف البريتون ، وليست بها صفاقات ولا عضلات تميزها لها عن الأربطة الحقيقية المكونة من الصفاقات والعضلات ، ولكن تسميتها كاذبة لا ينفي عنها أنها تقوم بمهمة عظيمة في حفظ الرحم في مكانه ، وأهم هذه الأربطة هى :
- أ - الرباط الرحمى العريق : ويغضى معظم الرحم من الأمام والجنيين ، وجزءا كبيرا من السطح الخلفى للرحم ، ويحتوى على أوعية الرحم الدموية والمبيض وأعصابه وأوعيته الدموية كما يمر به :
  - ب : الرباط المبيضى الرحمى : الذى يربط بين المبيض والرحم ويثبت كلا منهما إلى الآخر .
  - ج : الرباط الرحمى الثانى : ويثبت الرحم من أمام إلى المثانة .
  - د - الرباط الرحمى المستقيمى : ويثبت الرحم من خلف إلى المستقيم .
- المجموعة الثانية :

أما الأربطة الحقيقية التى بها الصفاقات وشيء من العضلات ، فتمسك بالرحم من كل جهة ، وتثبت



في مكانه وتجعله القرار المكين .

وأهم هذه الأربطة هي : -

أ - الرباط الرحمي المبروم : ويتصل بقرن الرحم من كل جانب ثم يتجه مبتعدا عن الرحم ، حتى يتصل بجبل الزهرة الذي يقع على عظم العانة ، ويثبت الرحم من الجهة الأمامية .  
ب - الرباط الرحمي العجزي : ويربط ما بين الرحم وعظم العجز وبذلك يثبت الرحم من الجهة الخلفية .

ج - الرباط الحامل للمبيض والرباط المبيضى : وهذه الأربطة تثبت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

كما أن هناك مجموعة من هذه الأربطة تساهم في تثبيت الرحم مثل الرباط العائى الرحمي الثانى الذى يربط ما بين الرحم وما بين المثانة وعظم العانة من الأمام ، ... ويساهم مساهمة فعالة في تثبيت الرحم من الجهة الأمامية . . كما يساهم الرباط الوحشى لعنق الرحم في تثبيت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .  
٥ - مساندة الأعضاء الأخرى في تجويف الحوض : -

إن امتلاء الحوض بالأعضاء مثل المثانة ومتعلقاتها ، ونهاية القناة الهضمية ( المستقيم والقناة الشرجية ) والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب ، كلها تساهم في حفظ الرحم في مكانه .  
٦ - توازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض : -

يتولد ضغط في تجويف البطن نتيجة تقلصات عضلات الحجاب الحاجز ، وعضلات جدار البطن . . ويدفع ذلك أعضاء الحوض ومنها الرحم إلى أسفل . . ويقابل ذلك الضغط من أعلى ضغط من أسفل نتيجة تقلص عضلات العجان مثل العضلات الرافعة للشرح ، فتدفع بالرحم إلى أعلى ، ونتيجة لتوازن هذا الضغط يبقى الرحم في مكانه .  
٧ - عنق المهبل :

يتصل الرحم بواسطة عنق المهبل ونتيجة لهذا الاتصال يبقى الرحم في مكانه .

٨ - هرمون الحمل : البروجسترون :

يؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم ، فيجعلها مثتدة وقوية بدلا من تلك الحركات التزقة التى يسببها هرمون الأنوثة الأوستروجين ، ... ولا شك أن هرمون الحمل البروجسترون تأثيرا هاما في استقرار الرحم في فترة الحمل ، حتى لا يقذف الرحم بالجنين ، وخاصة في أشهر الحمل الأولى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الهرمون يستعمل في كثير من حالات الإجهاض المنذر ، أو حالات الإجهاض المتكرر للوقاية من حصول الإجهاض .

وهكذا تتضافر هذه العوامل العديدة في جعل الرحم القرار المكين وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

أهمية الرحم :

إن الرحم هو القرار المكين الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، وتعلق فيه حتى تصير علقة فمضغة فعظاما .. فلحما يكسو العظام .. ثم ينشئه الله خلقا آخر حتى يخرج به الله طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

وللرحم أهمية لاتدانيها أهمية أخرى غير المخ حيث ينتهى إليه الفكر والروية والقلب حيث تنبعث منه الدورة الدموية .

ومما يدل على تلك الأهمية فى الإسلام أنه قد ورد ذكر الرحم فى مواقع متعددة : والآيات الكريمة تتحدث عن الرحم بمعنيين :

المعنى الأول :

العضو التناسلى للمرأة وهو المهد والفراش والمحضن للنطفة الإنسانية يحوطها ويغذيها ويرعاها حتى تبلغ أوج نموها وكماله ، فيخرجها الله بشرا سويا . وبهذا المعنى نزلت الآيات الكريمة التالية : -

- ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ (١)
- ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار ﴾ (٢)
- ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ (٣)
- ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ (٤)
- ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾ (٥)

المعنى الثانى :

هو صلة القربى الناتجة عن الرحم وما يحمله ، وهو الوشائج والصلوات الناتجة عن الزواج ، فالآباء والأبناء والأخوال والأعمام ومجموعة الأقارب التى تتصل بهم - وإن بعدوا - يطلق عليهم لفظ الرحم .

وقد ورد ذكره بهذا المعنى فى قوله تعالى :

- ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ (٦)
- ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ (٧)
- ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ (٨)
- ﴿ فأردنا أن يبدلها ربها خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾ (٩)

(١) الآية ٦ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٨ من سورة الرعد .

(٣) الآية ٥ من سورة الحج .

(٤) الآية ٣٤ من سورة لقمان .

(٥) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(٦) الآية الأولى من سورة النساء .

(٧) الآية ٧٥ من سورة الأنفال .

(٨) الآية ٢٢ من سورة محمد .

(٩) الآية ٨١ من سورة الكهف .

ومن الأحاديث النبوية التي تحدثت عن الرحم بمعنى الصلة :

● عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ( الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله : ومن قطعني قطعه الله ) (١) أخرجه مسلم

● عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : ( أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتقت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته ) (٢) . ( أي : قطعته وأهلكته ) . البخاري في الأدب المفرد .

● عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ( الرحم شجنة من الله . من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله ) (٣) . البخاري في صحيحه ، والشجنة : عروق الشجر المتشابكة . . والمعنى أن الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها والقاطع لها مقطوع من رحمته تعالى .

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ من القطيعة قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ؟ قال : فذاك لك . ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (٤) . أخرجه البخاري ومسلم .

● عن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ قال : ( لا يدخل الجنة قاطع رحم ) (٥) . أخرجه البخاري ومسلم .

● ( من سره أن ييسر له في رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه ) (٦) أي : يكثر رزقه ويطول عمره من وصل رحمه . أخرجه البخاري ومسلم .

● ( إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم ) (٧) . الأدب المفرد للبخاري .  
● ( ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي ) (٨) . البخاري في الأدب المفرد .

● ( ليس الواصل بال مكافئ ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها ) (٩) . صحيح البخاري

(١) أخرجه مسلم في البر : ١٧ . والإمام أحمد في ٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ١٩١ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب : ١٣ . والترمذي في البر : ١٦ . والإمام أحمد في ١ : ١٩ ، ٣٢١ ، وفي ٢ : ٢٩٥ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٩٨ .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير سورة : ٤٧ في الترجمة ، وفي التوحيد : ٣٥ . مسلم في البر : ١٦ . والإمام أحمد في ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه مسلم في البر : ١٨ ، ١٩ ، والإمام أحمد في ٢ : ٤٨٤ ، وفي ٣ : ١٤ ، ٨٣ ، وفي ٤ : ٣٩٩ .

(٦) أخرجه البخاري في الأدب : ١٢ ، وفي البيوع : ١٣ . ومسلم في البر : ٢٠ ، ٢١ . والإمام أحمد في ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، وفي ٥ : ٢٧٩ .

(٧) أخرجه البخاري في الأدب المفرد . ؟

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد . ؟

(٩) أخرجه البخاري في الأدب : ١٥ . والترمذي في البر : ١٠ .

● مما سبق يتبين أهمية الرحم القصوى في الإسلام ، وكيف اشتق المولى-تبارك وتعالى-اسمها من اسمه ، وكيف جعلها معلقة بعرش الرحمن ، وكيف وصلها-سبحانه وتعالى-بنفسه ، ووصل من وصلها ، وقطع من قطعها .

لا شك أنه تشریف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان .. ( على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد ) وذلك راجع إلى أن الرحم منبت للبذرة الإنسانية .. فيها تنمو وترعرع .. يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجها إلى الدنيا انقبض الرحم انقباضات متتالية حتى يخرجها إلى الدنيا سليمة معافاة . دون أن يمسه بأذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تودى بحياة الجنين ، ولكن الله يجعل له سبيلا ليخرج ، ويجعل تلك الانقباضات منقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلا من الضغط المباشر على الجنين .

والرحم موضوع في وسط حوض المرأة يكون محميا ومصونا من كل أذى .. ولا يقابله في الرجل سوى أثر مندثر في شكوة البروستاتا .

والرحم عضو عضلي أجوف وجدار ثمين ومتين وهو كمثرى الشكل ، ويبلغ طوله ٣ بوصات ، وعرضه بوصتان ، وسمكه بوصة واحدة في الأنثى البالغة .

فإذا حملت المرأة فإن الرحم ينمو ويكبر حتى يملأ البطن من القفص إلى العانة ، أما حجم تجويف الرحم في الأنثى البالغة فلا يزيد على مئيليتين أما في نهاية الحمل فإن حجم الرحم يتسع لسبعة آلاف مليلتر ، أى أن حجمه يتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة ..

ووزن الرحم في غير أوقات الحمل لا يزيد على خمسين جراما ، فإذا كان في نهاية الحمل فإن وزن الرحم ذاته يبلغ ألف جرام أو تزيد ، أما محتوياته فتزن خمسة آلاف جرام ... أى بأن وزنه بمحتوياته يزيد أكثر من مائة مرة .

والرحم هو العضو الوحيد في جسم الإنسان الذى له هذه القابلية للتغير السريع من حال إلى حال ، وهو بذلك أسرع نمو يعرفه جسم الإنسان حتى أخطر السرطانات لا تنمو بمثل سرعة نمو الرحم ، وما يحمله في طياته ومع ذلك فشتان ما بين النمو السرطاني الخبيث ، ونمو الرحم الحميد العاقبة ، المأمون الغائلة .. فذاك يؤدي إلى الموت والهلاك ، وهذا يؤدي إلى النماء والبقاء ...

مم يتركب الرحم ؟

يتكون الرحم من جسم وعنق وكلاهما مكون من طبقات ثلاث :

\* أولها من الخارج : طبقة البريتون التى تغطى جسم الرحم وشيئا من عنقه من الخلف .

\* وثانيها الطبقة العضلية : وهى عضلات سميكة غير ارادية وتشمل في ذاتها ثلاث طبقات من الألياف وهى :

أ - الطبقة السطحية : وأكثر أليافها طولية .

ب - الطبقة المتوسطة : وأليافها مختلفة الاتجاهات وبعضها على شكل 8 (ثمانية بالانجليزى) .

ج - الطبقة الداخلية : ومعظم أليافها دائرية وتتركز حول عنق الرحم لتكون عاصرة للعنق .

وللعضلات وظائف عديدة أهمها حماية غشاء الرحم الذي تنغرز فيه البويضة الملقحة لتصبح جنينا كما أن وظيفة العضلات قفل الأوعية الدموية العديدة عند الطمث وعقب الولادة .. ولولا ذلك لتزفت الوالدة حتى تموت .

\* وثالث طبقات الرحم : هى الطبقة المخاطية .. وهى الغشاء المبطن للرحم .. وغشاء الرحم هو الفراش الوثير للنطفة الأمشاج التى تعلق به .. وعن طريقه تتغذى وتنمو .. وهذا الغشاء مكون من طبقات تتخللها الأوعية الدموية الكثيرة .. والغدد الرحمية العديدة .. وتقع هذه الطبقة بالذات تحت تأثير الهرمونات ولها دورة شهرية كاملة تبدأ من سن البلوغ وتنتهى فى سن اليأس .

قناة الرحم :

وتوجد للرحم قناتان على كل جانب واحدة ... وتنتهى القناة بانتفاخ يعرف باسم البوق الذى يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب ... فإذا أفرز المبيض البويضة تلقفتها أهداب البوق وحملتها حملا رقيقا ، ودفعتها مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنة لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير فيه .. وهناك تبقى البويضة حتى تأتيتها الحيوانات المنوية فى رحلتها الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، فإذا ما نجح حيوان منوى فى تلقيح البويضة ...

وأصبحت البويضة ملقحة « النطفة الأمشاج » أى بالمختلطة من ماء الرجل وماء المرأة .. عندئذ تبدأ هذه البويضة المخصبة فى الانقسام حتى تصبح مثل الكرة .. وتسير فى قناة الرحم تدفعها شعيرات دقيقة فى غشاء قناة الرحم حتى تصل إلى الرحم فى ستة أيام فإذا ما وصلت إلى الرحم فقد أدت قناة الرحم واجبها وأسلمت أمانتها إلى الرحم .. وهناك يستقبل الرحم البويضة الملقحة بعد أن مهد لها الفرش والبطائن وتنغرز فيه وتعلق بجداره وتحاط بالدم الغليظ من كل جهة ، وبما أن العلقه لا تكاد تبين .. ولا يظهر منها إلا هذا الدم الغليظ فقد أجمع المفسرون القدامى على أن العلقه هى دم غليظ وأصابوا من جهة وأخطأوا من أخرى .. فهى محاطة بالدم الغليظ ولكنها ليست هى ذاتها الدم الغليظ . وتدعى قناة الرحم أيضا القناة المبيضية ، كما تدعى قناة فالوب ، نسبة إلى الطبيب الذى وصفها أول مرة .

\* المهبل :-

هو شق ضيق يصل ما بين فتحة الفرج من أسفل وعنق الرحم من أعلى ، وجداره الأمامى أقصر من جداره الخلفى ، إذ طول الجدار الأمامى سبعة سنتيمترات ، بينما طول الجدار الخلفى تسعة سنتيمترات .

وبما أن جدار المهبل مكون من عضلات انتصابية ، فإن الجدارين يكونان ملتصقين إلا عند الجماع أو الولادة .. ويظل عنق الرحم فى أعلى المهبل ويحاذى المهبل من أمام قناة مجرى البول وأسفل المثانة .. أما من خلف فيوجد المستقيم والقناة الشرجية ومن الملاحظ أن قناة مجرى البول فى الأنثى مستقلة عن الجهاز التناسلى ، فهى منفصلة عنه ولها فتحة ( صماخ ) فى أعلى الفرج من أمام لا تكاد تبين ، لفرط صغرها ، أما فى الذكر فإن قناة مجرى البول تمر فى الإحليل ( القضيب ) حتى تنتهى إلى الفتحة ( الصماخ ) على حشفة القضيب .

## \* المبيضان :-

ويوجد مبيض على كل جانب في الحوض الحقيقي للمرأة . وهما يقابلان الخصيتين ( الأنثيين ) عند الرجل .

هناك مبيضان على كل جانب واحد ويقع في الحفرة المبيضية من الحوض ، وهو مصنع البويضات أو النطف المؤنثة . وهو يقابل الخصية لدى الرجل ، وشكله مثل اللوزة ، وطوله نحو ثلاثة سنتيمترات ، وعرضه نصف طوله ، وسمكه نصف عرضه . .

ويمسك بالمبيض في مكانه مجموعة من الأربطة مثل الرباط المبيض الرحى الذى يربط ما بين المبيض وزاوية الرحم العليا ، ومنها الرباط الحامل للمبيض وهو متصل بالرباط العريض للرحم ومنها مساريقا المبيض ( المساريقا هى ما يدعى بالانجليزية MESNTRY وهى عبارة عن طبقتين من البريتون تغطيان سطح المبيض إلا من جانب واحد فقط ، حيث تدخل منه الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب ، وللأمعاء كذلك مساريقا خاصة بها ) .

وبواسطته تدخل الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب من وإلى المبيض .

ويغذى كل مبيض شريان من الأورطى البطنى ، ومخرجه أسفل الشريان الكلوى مباشرة في أعلى المنطقة القطنية ، أى من بين الصلب والترائب ، كما أن الأوردة الخارجة من المبيض تذهب إلى نفس المنطقة ، الوريد الأيمن إلى الوريد الأجوف السفلى ، أما الوريد الأيسر فيصب في الوريد الكلوى الأيسر ، وأعصاب المبيض كذلك تأتى من الضفيرة الكلوية والصفيرة التى حول الأورطى البطنى ، كما أن المبيض يبعث بإشارات وأخباره إلى الجهاز العصبى عبر العصب الظهرى العاشر .

من كل هذا يتضح بكل جلاء أن منشأ المبيض وتغذيته وترويته إنما تأتى من بين الصلب والترائب . ، تماما كما هو الحال بالنسبة للخصية . . . وسنشرح ذلك عند تعرضنا لتفسير قوله تعالى ﴿ فليَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ (١) .

ويتكون المبيض من محفظة متينة تحيط به من كل جانب ، ما عدا فرجته التى تدخل وتخرج منها الأعصاب والأوعية الدموية واللمفاوية المغذية للمبيض ، ويدخل هذه المحفظة نسيج ليفى غنى بأوعيته الدموية يعرف بسداة المبيض . . أما لحمته فمكونة من أجسام كروية مختلفة الأحجام ، متفاوتة في درجة ثوبها . . وتعرف هذه الأجسام الكروية الشكل بالحوصلات المبيضية . . أو حوصلات ( جراف ) نسبة إلى الطبيب الذى اكتشفها . .

وتحتوى كل حويصلة على بويضة واحدة . . ويبلغ تعدادها في الجنين أربعمائة ألف أو تزيد ، ولكن الآلاف منها تضم وتتموت في فترة النمو ، حتى إذا بلغت المرأة المحيض لم يبق منها إلا بضعة آلاف فقط . . ينمو منها حويصلة واحدة كل شهر طوال حياة المرأة التناسلية فتخرج بويضة مرة في الشهر . . فلا تزيد مجموع البويضات التى يفرزها المبيض في حياة المرأة على أربعمائة بويضة . . وقد تقل عن ذلك . . !

أعلمت أين خلقنا ؟ ثم مم خلقنا ؟ ثم كيف تحولت سلالة الطين أو الماء المهيئ إلى نقطة في قرار مكين ، وكيف تطورت النقطة إلى علقه ، والعلقه إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام ؟ وكيف لم يكن بين مرحلة العظام واللحم إلا مسافة قريبة من الزمان ؟

لذا جاء العطف بالفاء في قوله تعالى ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾

وكيف بعد ذلك تحولنا إلى خلق آخر ، لقد قامت الخلايا بتكوين الأنسجة ، وقامت الأنسجة بعد ذلك بتكوين الأعضاء ، وقامت الأعضاء بتكوين الأجهزة . أليس هذا خلقا آخر نفخ الله فيه الروح ؟ ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١) .

أما آن لك أن تهتف معي قائلا : ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ عظمت بركته وجلت قدرته ، أما آن لك أن تهتف بلسان الحال والمقال قائلا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ والخلق هنا بمعنى التقدير والتسوية ﴿ سيح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى ﴾ (٢)

قوله -تعالى- ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ : هذا هو المصير المحتوم الذي لا مفر منه ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (٣) . إن الإنسان لا شك خالع ثوب الحياة الدنيا إلى حياة باقية خالدة ..

فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء !

وما الجيل في زمان إلا لبنة في بناء !

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !

فسبحان من أوجب الوجود لذاته وكتب الفناء على جميع خلقه !

تالله لو عاش الفقى في دهره ألفا من الأعوام مالك أمره متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمة عصره لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله ما كان هذا كله في أن يفى بمبيت أول ليلة في قبره

\*\*\*

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، فكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ (٤) .. ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (٥) .

تأمل هذه الآيات وأعمل فيها الفكر . تجدها كلها قضايا كلية موجبة صدرت بكلمة ( كل ) فلا استثناء لأحد . . . ولم تسبقها أداة نفى ، لتعلم أن هذه الدنيا لها أجل معلوم وموعد لا يتخلف .

(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .

(٥) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الأعلى .

(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .

وسبحان من يقول : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ؟ الله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ (١) .

### الإنسان آية من آيات الله تعالى

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (٢)  
قال أحد العارفين بالله وهو يناجي ربه : ( سبحانك ربى ! آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك ) .  
قيل للإمام على رضى الله عنه : ( متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ قيل له : فما الدليل على وجوده ؟ فقال : ومتى غاب ؟ سبحانه ! هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه ... سبحانه ! علا : فقهر ، وبطن : فخبى وملك : فقهر ! ) .  
حقيقة الانسان

فى إحدى أمسيات شهر شعبان من عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كنت أطلع كتابا تحت عنوان .. ( الطاقة الإنسانية ) للأستاذ أحمد حسين ، فراعنى هذا الفصل الذى تحدث فيه عن نشأة الإنسان ، وعن الأسرار الإلهية البالغة التى احتوى عليها خلقه ، فأردت أن تشاركنى - أخى القارئ - فى هذا الجلال الذى يأخذ بذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة إلى محراب الخشوع للخالق العظيم جل جلاله ..

فمن نحن :

إليك ما قاله العلم الحديث فى الإجابة عن هذا السؤال :

نشأة الإنسان :-

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانا كائى حيوان آخر : من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى ( ٣٠٠,٠٠٠ ) بويضة ، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية !!  
أما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على ( ٨٥٠٠/١ ) من البويضة ، وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى ( وهو هـ . مولر ) نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى :-

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها ( وقت كتابة العالم لكتابه ) بليوناً ومائتى ألف بويضة ، لما شغلت أكثر من ( ٨/٥ ) من الجالون .  
أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين ! !  
والمعروف أن البليون : ألف مليون .

( ١ ) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة غافر .

( ٢ ) الآية ٤ من سورة التين .



## التلقيح :-

ويمضى العلم فى كشف هذه الأسرار فيقول :-  
وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر لإخصابها فى وقت الحيض ،  
حيث انفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فى غشاء بوق فالوب ، فتنتقلها الأهداب  
المتحركة للغشاء ( السيليا ) إلى داخل الرحم .

فى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام . . اذ تكون قد قذفت بنصف مادتها ،  
او بعبارة أخرى كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى ( الذى يكون بدوره قد فقد نصف  
كروموزوماته ) اسطح البويضة ، ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات ،  
مكونين بذلك مخلوقا جديدا مؤلفا من خلية واحدة ، طفحت فوق غطاء المهبل ، وليست هذه الخلية  
الجديدة سوى نقطة من الهلام ، كأي خلية أخرى ومع ذلك : فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبيوها .  
إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما ،  
ومع ذلك فهي شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين .

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى : هى الإنسان الخلية . . إنها كتاب الكون بكل ما خط فى هذا  
الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف .  
وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرا سويا ، ليتحقق لنا مصداق ذلك .  
إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان .

## رحلة الإنسان فى الخلايا :

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما إلى أربع ،  
فثمان ، فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين . .

وعند هذا القدر من الانقسام ، ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين ، الذى يؤلف من نفسه فى  
هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ، ومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة  
النقطة العائمة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورا بعد طور ، ومرحلة إثر أخرى ، فإذا الجنين تارة وقد  
أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبيها بالدودة ( العلقه ) وتارة أقرب منها إلى السمكة .  
والذى يهمنا أن نشير إليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من  
المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة ، وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح  
أقرب ما يكون فى التكوين الى الضفدعة .

وفى الشهر الثالث : وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من  
أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء  
التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت .

## وفى الشهر الرابع :

وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتراد بعد ذلك فى اطراد .

وفي الشهر السادس حتى الخروج :

فإذا كان الشهر السادس : فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ، ووزنه ثلثي كيلو جرام ، وبعد ( ٢٥٢ ) يوما ، أى فى أواخر التاسع : يكمل نمو الجنين ، ويصبح مهيا للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وأن ، بدون جهد أو آلام .. ويقذفه الرحم خارج الجسم !!  
إنه لم يعد بعد الآن جنينا .. إنه طفل الانسان .

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، يتغير المحيط من حوله ، وينصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رثته ، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .  
مولد الجنين : وعندما يولد الجنين : فإن وزنه فى العادة  $\frac{3}{4}$  أو ٢ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا .

وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم : قد بدأ من هذه البويضة التى كانت ( ١ / ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ) من الأوقية .. أى أنها تضاعفت ألف الملايين من المرات ، ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول :  
لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى : لأنتج حجما أضخم من المجموعة الشمسية ، أى: جسما قطره ملايين الأميال ، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكون الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه التوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .  
أشكال الخلايا المختلفة :

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون ( ٢٦ ) مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتشكل تبعا لذلك شكلا خاصا يمكنها من أداء دورها الخاص .  
كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى ، أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة ، أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العصى أو العناكب ، أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة .

فكيف تفرز هذه الخلايا اسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاما ، أو تمنع فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع أحمر وآخر أسود ، خلايا تفص بالتفاعلات الكيميائية النائرة ، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة ، كما لو كانت ميتة .. خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنية ، البعض يصبح نظاما لاعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد ، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة

المقررة في العضو الذي لن يستعمل إلا بعد فترة معينة ، وفي ظروف معينة :  
إنها تعمل في الظلام لإنتاج الإبصار الذي يعمل في النور .  
إنها تعمل - في صمت - جهاز السمع الذي يتأثر بالأمواج الصوتية .  
إنها خلايا عمياء لا تعرف فوق ولا تحتا .

ومع ذلك : فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس في نهاية الأصبع لتتصل بها !!  
إن كل شيء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوي على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول ( شرنجتون ) .

بقاء الجسم عند ( كاريل ) :

أما ( كاريل ) فيقرب لنا صورة ما يحدث في بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل ( طوبة ) واحدة تسرع في بناء منزل بمفردها ، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالآلوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعماري ، أو مجيء البنائين والفعلة ، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط ، ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ ، والواح للسقف ، وفحم للتدفئة ، وبناء المطبخ والحمام .

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك ، إنه يوجد بواسطة خلايا عالة سلفا بالبناء الذي يجب أن تنسقه في المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة في بلازما الدم : مواد البناء ، بل وتصنع العمال انفسهم .  
واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين ، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذي يبصر به الإنسان الكائنات المرئية ؟ !

اسمع - يا أخى - إلى هذا العجب العجيب ، واسجد لله في محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء ... هو الذي احسن كل شيء خلقه .. إنه صنع الله وإتقانه :  
تكوين العين :

يقول العلماء الكونيون : من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذي يتكون منه الجزء الأكبر من العين ، ومن الجلد الذي يغطي هذا البرعم ، ينشأ القسم الثاني ... هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة !

وكرة العين ليست في طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة ( إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه ) ، وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها في أى عضو آخر .

إن العين تكون في الظلام ، ومع ذلك فكل شيء فيها معد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك في المكان الذي يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب ، وهو الإبصار ، فهي ( أى العدسة ) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء في البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين في المؤخرة .

## تدرج عدسة العين :

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحولت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها . . هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر !

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط ( القرchie ) كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكروسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لاتمام عملية الإبصار ، فحيث يقل الضوء : يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض . ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ؟ أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشيء المراد رؤيته . ولأمر ما : شاء الله أن يجعل هذه القرchie الغينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق . . فالعسل ، تبعا للون قرchie الأبوين ، وكلاهما ملئ بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه . وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف ، لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية ، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة .

ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيميائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها . وإذا كان من خصائص جلد الانسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة ، ( من حرارة ، وبرودة ، وضغط ، وألم ) ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس . . . ذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم ، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الاحوال .

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأي جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائما أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

## صنع الله الذى أتقن كل شيء :

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ونعنى به شبكية العين ، هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء . بل بدون تغيير على الإطلاق ، فقد يبدأ الطفل عملية البصر ، إلى أن يكون شيخا هرما قادرا على الإبصار .

ومع ذلك : فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهارا بغير انقطاع ، فتلقى مختلف

الصور من كل لون وطراز ، وتبرق بها إلى المخ ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعاً للصورة التي يهيمها التقاطها ، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف - حسب الحاجة - فضلاً عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية في اتجاه المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائماً على أحسن نقطة للرؤية في الشبكية .

سبحان المبدع :

وأخيراً فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدماً على حفظ ذاتها ... فلو هدهدا أي خطر ، ففي أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها ، لتحمي نافذة العين الشفافة !! وفي نفس الوقت الذي تكون فيه كرة العين آخذة في التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذي ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذي تكونت منه لتستقر في كأسها البصري الجديد .

وفي غضون بضعة أسابيع ينشأ في قاع هذا الكأس البصري : حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التي تربط بين المخ والخلايا العصبية في العين .

وينتشر على شبكية العين ( ٣٧ ) مليون عنصر مستقل ، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التي تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب في هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهي هذه المخططات التي توصل كل منها إلى محطة أبعد منها .

والمخ في حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة في محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك ؟ !

وليست العين في نهاية الأمر - سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية بتأليف باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هي التي تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعية ، حتى إذا تم تكوين العين : فإن هذه الخلايا التي ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص : تقف فجأة عند حد ما أنجزته ، فلا تزيد عليه ، وتقع في سبات نسبي ، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .

وقد يتصور القارئ ذلك الذي وصفناه ضرباً من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذي قلناه هو حق لا مرية فيه .. إنه الواقع العجيب الذي يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة ...

فسبحان رب العظيم !!

القلب ووظيفته

يحدثنا القرآن الكريم ، عن القلب على أنه مركز الوعي والإدراك والفهم العميق ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ <sup>(١)</sup> وهناك حديث مادي للعلم يشرح لنا فيه ( القلب ) على أنه مضخة ماصة كاسبة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يملكنا العجب مما يملكنا ، لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف ... إجلالا وإكبارا وتعظيما لله ، الذي أحسن كل شيء خلقه ، إنه صنع الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا .

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذي يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك ..

إن القلب يمثل الحركة الدائمة ، ما بقى الإنسان حيا .. فهو الذي يدق ، يدق في النوم مثل ما في اليقظة ، وفي المرض مثل ما في الصحة وهذه ( الدقة ) تعنى أن القلب - ذلك الجهاز العجيب - يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم في الشرايين ويستجلبه من الأوردة . فلو عاش الإنسان ستين عاما أو تسعين - أو أكثر من ذلك أو أقل - فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان .. ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ في المتوسط سبعين ضخة ، ( أو دقة ) في الدقيقة فإن ما يضخه ( أو يدقه ) في العام ( ٣٧ ) مليون ردة فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره ، فإن ذلك يعنى أن قلبه قد دق - أو بالأحرى قد ضخ الدم ( ٢٥٩٠ ) مليون مرة في اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل !

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر - ولا بد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان !! والقلب يضخ في الضخة الواحدة ستين ستيتمترا مكعبا من الدم ، أى يملأ فنجان شاي في كل دقيقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ ( ٣٠٠ لتر من الدم في الساعة ، أى نحو ( ٨ ) آلاف لتر في اليوم ، وهو ما يساوى ( ٨ ) أمتار مكعبة ( أو ما يساوى ١٥ طنا من الدم في اليوم الواحد ) لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئا يسيرا جدا .. ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل في المتوسط ولا يزيد عرضه على ( ٣ ) بوصة وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف !

فأى سر إلهي عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التي تقوم بهذه الأعمال الحادة ، والتي تعجز آلات في حجم الجبال أن تقوم بها ؟ !!

إنه صنع الله الذي اتقن كل شيء !!

### الجهاز العصبى

ويتنقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبى .. ذلك الذى تحار فيه عقول المفكرين ، وتقف واجهة حياله عبقریات البارعين .. فسبحانك اللهم !

وتطلب النفس حى طاعتك  
يا من يحار الفهم فى قدرتك  
وتخفى عن الناس سنا صنعتك  
وكل ما فى الكون من صنعتك !

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز ؟  
يقول العلم : -

إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية عن دورة الدورة الدموية ..

فإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ونحوه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه .

والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر :

أحدهما : واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية ، وأهم أجزائه المخ .

الثانى : لا شعورى آلى ذاتى الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم . وهو ما يسمى

« الجهاز السمبتاوى » !!

الجهاز المركزى

يتكون الجهاز الرئيسى - أو المركزى - من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم : الدماغ الذى يحتل الجمجمة ، ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

### المخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة .. وينقسم المخ إلى قسمين : أيمن وأيسر ، بكل منهما أربع قطع ، أو فصوص ، واحد مقدمى ، وآخر جانبي من الخارج ، وثالث : جانبي من الداخل ورابع مؤخرى .

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ - إحداها : عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات ، وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ - الطبقة الثانية : داخلية بيضاء ، وتكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء ببعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية - على ما يقال - على أكثر من ( ١٢,٠٠٠ ) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع .

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف .

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة ، تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، ورغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الارادية ... فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس .

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، والمخ هو الذى يرسل الاشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس الى المخ : أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة . أما الألياف التى تنقل الرسائل منه الى

العضلات ، فتسمى ، أعصاب الحركة ، او الأعصاب المرجعة ، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى ( الروابط ) .  
وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ وإليه - عن طريق الأعصاب - بنحو ثلاثين مترا فى الثانية الواحدة .  
وإذا قورن المخ البشرى بالمخ الالكترونى ، فإنه يوازى مخا يحتوى على الأقل ١٥,٠٠٠ مليون أنبوبة الكترونية .

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور ( جوهانس شالريه ) عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى ، الذى يؤكد ان المخ البشرى يحتوى على ١٥,٠٠٠ ألف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من ( الوات ) وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين ، وواحد على ( ٢٠٠ ) ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين ( ٨ ) إلى ( ١٤ ) سيكل فى الثانية !!

### مراكز الإحساس والحركة بالمخ

واللحاء ، أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الاعمال الفكرية ، كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الادراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم .

أقسام مراكز المخ : وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

- ١ - حسية
- ٢ - حركية
- ٣ - مشتركة

فأما الحسية : فتشمل مراكز السمع ، والبصر ، والذوق والشم والחס .

وأما الحركية : فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء : كاليد والرجل ، والوجه ، والعنق ، واللسان .

ويدخل فى هذه : مراكز للشعور بحركة الجسم .

وأما المراكز المشتركة : فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل

والتذكر

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل . وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق

الأذن تقريبا .

وبين مركزى البصر والسمع : مركز الكلمات المرئية ، والكلمات المسموعة : كل بجانب المركز

الذى يلائمه .

ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام ويقع خلفه مركز الكتابة ، فمركز الكلام .

وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه : تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور

بحركات الجسم ، على هذا الترتيب : من الأمام إلى الخلف .

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام . وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه : على الترتيب

من أعلى إلى أسفل .



وتحت مركزى حركات الرأس والوجه : يقع مركز حركات اللسان والشفيتين .  
وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ .  
ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .  
وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل  
لأحد هذه المراكز : يستتبعه - على الفور - حدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز  
الكلام مثلاً ، تسبب تعقداً دموياً قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد .  
ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد ، إذا لم تكن  
مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

### المخيخ

يقع المخيخ : تحت المخ . وفوق النخاع المستطيل وخلفه . وفى أسفل مؤخرة الجمجمة ،  
ويتكون - مثل المخ - من طبقتين .  
طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف .  
وطبقة داخلية بيضاء اللون ، وتكثر بها الألياف العصبية .  
وينقسم ( المخيخ ) إلى ثلاثة فصوص . واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من  
الأولين ويسمى بالدودة .  
ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ : بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكى تحفظ توازن  
الجسم . فإذا حصل خلل فى المخيخ : اضطربت حركات الشخص وسكناته ، وراح يتميل تمايل  
الثلث ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة . . ولا يتدخل المخ فى شئونه إلا عند الحركات الإرادية  
الشعورية : كتعلم المشى للطفل .

### النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى بحيث يمكن اعتباره جزءاً  
منه .  
ويملاً الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ .  
ويتكون - على عكس المخ والمخيخ - من مادة بيضاء اللون بداخله . . أما الألياف : فتكثر فى  
طبقة الخارجة .  
ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ،  
والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل : ( العصب السمبىاوى ) فى القيام بوظيفته .  
النخاع الشوكى

يملاً القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى ( النخاع الشوكى ) ومن  
الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر .

ويتكون - مثل النخاع المستطيل - من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية في الداخل وأليافه في الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم في الثلث الأسفل .

وتخرج من كل من جانبي النخاع الشوكي : أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكي : هي القيام بالأعمال المنعكسة ، مما ستحدث عنه في الفصل التالي إن شاء الله .

### الأعصاب

وتكون الأعصاب : الجهاز الدائري للجسم ، والعصب : مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة .

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام ، وهي :

١ - أعصاب حس : أو أعصاب مرسلة : وهي التي تحمل الآثار من الحواس وبقاى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ - أعصاب الحركة : أو أعصاب مرجعة : وهي تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ - أعصاب مشتركة : أو وصلية : وهي التي توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، وقد تكون الرسالة التي عملها : رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى الدماغ والنخاع الشوكي . ولذلك : فهي تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى ، أما الأعصاب الدماغية : فيخرج بعضها من المخ ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكي خلال ثقب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات : ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

### الجهاز العصبى ، الآلى أو السمبىاوى

وإلى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى ، يقوم الجهاز العصبى الآلى ، وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبي العمود الفقرى ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبي العمود الفقرى ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ، ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة ، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكي بقليل ، وترسل هذه

العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية : كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .  
ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض : اسم ( باراسمبتاوية ) .  
أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى ( السمبتاوية )  
ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب في وقت واحد .

( فالباراسمبتاوية ) تبطئ القلب ، في حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين ، بينما تسبب الأخيرة تقلصها، وهكذا : وتبعاً لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة .

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء .  
فالأعصاب ( السمبتاوية ) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة .

### سيطرة الجهاز العصبي على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين : ( المركزي ، والسمبتاوي ) تتحقق للإنسان - بإذن الله تعالى وإرادته - سيطرته الكاملة على جسده .

### تبارك الله أحسن الخالقين

هذا هو الإنسان ، الذي إن دل خلقه على شيء ، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته !

تباركت ربنا وتعاليت !!

يا من قلت وقولك الحق :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾  
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا  
الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾

ثم ماذا ... ؟

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾

وماذا بعد الموت ، برزخ وبعث ﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

ومن هنا : فسوف يدور حديثنا حول مرحلة الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة .. من عالم

الفناء إلى دار البقاء ..

ونعني بمرحلة الانتقال : مرحلة ما بعد الوفاة إلى أن تقوم الساعة ، وهو ما يسميه علماء العقيدة : بعالم ( البرزخ ) الذى صرحت به الآية الكريمة : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾<sup>(١)</sup> .  
وتبدأ الكلام بما يسن فعله للمحتضر ، وهو الذى أوْشك أن يسلم الروح إلى خالقها ، ليضع قدمه على عتبة الآخرة .

فما هى هذه السنن ؟

ها نحن أولاء نبينها على الوجه التالى : -

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

أولها : تلقين المحتضر : لا إله إلا الله . لما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى : رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( لقنوا موتاكم لا إله إلا الله )<sup>(٢)</sup> .

والمقصود ( بموتاكم ) هنا : المحتضرون ، الذين هم فى سياق الموت من المسلمين .

وروى أبو داود وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من

كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة )<sup>(٣)</sup> .

والتلقين : إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها ، فلا معنى

لتلقينه ، والتلقين : إنما يكون لحاضر العقل القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ،

والعاجز عن الكلام يردد الشهادة فى نفسه .

قال العلماء : وينبغى ألا يلح عليه فى ذلك .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾<sup>(٤)</sup> واجعلنا من

الذين تقول فيهم : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون .

لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(٥)</sup> .

ولو علم المسلمون ما لكلمة التوحيد من مثوبة عند الله ما غفلوا عنها ولأضاءوا قلوبهم بنورها

واستناروا بضوئها .

وحسبنا أن نقول : إنها الكلمة الطيبة التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا

كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾<sup>(٦)</sup> .

إنها كلمة الله التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾<sup>(٧)</sup> .

إنها كلمة التقوى ، التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين

( ١ ) الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون .

( ٢ ) أخرجه مسلم فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦ . والترمذى فى الجنائز : ٧ . والنسائى فى الجنائز : ٤ . وابن ماجه فى

الجنائز : ٣ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣ .

( ٣ ) أخرجه البخارى فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٧ .

( ٤ ) الآية ٨ من سورة آل عمران .

( ٥ ) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

( ٦ ) الأيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة إبراهيم .

( ٧ ) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴿١﴾ .

إنها اللواء الذى عمل الأنبياء جميعا لرفعه . . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٢) .

إنها الراية التى عاش فى ظلها الأنبياء والمرسلون : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (٣) .

إنها الكلمة التى أضاعت سيناء وما حولها : ﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى . إني أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادي المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكري ﴾ (٤) .

وقد ورد فضل لا إله إلا الله : فى كلام النبى ﷺ فعن أبى هريرة-رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله ( من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : لقد ظننت ياأبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه ) (٥) . رواه البخارى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ) زاد عبادة : ( من أبواب الجنة الثمانية شاء ) (٦) رواه البخارى .

وفى رواية لمسلم عنه أيضا : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : حرم الله عليه النار ) (٧) .

وعن أنس-رضى الله عنه-أن النبى صلى الله عليه وسلم ومعاذ ردفه على الرجل ، قال : ( يامعاذ ابن جبل . قال : لبيك يارسول الله وسعديك ) (ثلاثا) قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار .

قال يارسول الله أفلا أخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلموا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما ) (٨) . رواه البخارى ومسلم ومعنى ( تأثما ) أى : تحرجا من الإثم وخوفا منه أن يلحقه إن كتمه .

(١) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢ من سورة النحل .

(٤) الآيات ٩ - ١٥ من سورة طه .

(٥) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ١٠ . والدارمى فى المقدمة : ٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٣ ، ٤٦١ ، وفى ٥ : ٢٩٢ ، ٣١٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦ ، وفى الاستتابة : ٩ . ومسلم فى الإيمان : ٤٧ . والترمذى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦ .

(٨) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٩ ، وفى الجمعة : ١٨ . ومسلم فى الإيمان : ٥٣ . والترمذى فى الصلاة : ٢٠٠ . وابن ماجه فى الزهد : ١٩ . والدارمى فى الجهاد : ٨ .

وروى عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قال : لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله ) . رواه الطبراني وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر )<sup>(١)</sup> . رواه الترمذي . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ( قال موسى ﷺ : يا رب علمني شيئا أذكرك به وأدعوك به . قال : قل لا إله إلا الله قال : يا رب كل عبادك يقول هذا قال : قل لا إله إلا الله قال : إنما أريد شيئا تخصني به . قال : يا موسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهم لا إله إلا الله )<sup>(٢)</sup> . رواه النسائي وابن حبان في صحيحه . وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله )<sup>(٣)</sup> . رواه ابن ماجه والنسائي .

وعن يعلى بن شداد قال : حدثني أبي شداد بن أوس رضي الله عنه وعبد بن الصامت حاضر يصدقه قال : ( كنا عند النبي ﷺ فقال له هل فيكم غريب ؟ ( يعني أهل الكتاب ) قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بعلق الباب وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله : فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال : الحمد لله اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم )<sup>(٤)</sup> رواه أحمد

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( جددوا إيمانكم : قيل : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله )<sup>(٥)</sup> . رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد ، حسن .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها ) رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله )<sup>(٦)</sup> رواه أحمد والبخاري .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا منشهم : وكأنني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن )

وفي رواية : ( ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر ) . رواه الطبراني . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : ( ألا أخبركم بوصية نوح

لابنه ؟

قالوا : بلى . قال : أوصي نوح ابنه فقال لابنه : يا بني إني أوصيك بأثنتين وأنهاك عن اثنتين :

(٤) أخرجه الإمام أحمد في ٤ : ١٢٤ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٥٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٤٢ .

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات : ١٢٥ .

(٢) أخرجه النسائي في الصلاة : ٥١ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب : ٥٥ .

أوصيك بقول لا إله إلا الله فإنها لو وضعت في كفة ووضعت السماوات والأرض في كفة : لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقسمتهن حتى تخلص إلى الله ) رواه البزار .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( التسييح نصف الميزان والحمد لله تملأه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه )<sup>(١)</sup> .

وعن أبي أيوب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه عن رجلين من أصحاب النبي ﷺ أنهما سمعا النبي ﷺ يقول : ( ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصا بها روحه مصدقا بها قلبه ناطقا بها لسانه إلا فتق الله عز وجل له السماء فتقا حتى ينظر إلى قائلها من الأرض ، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله ) رواه النسائى .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( خير الدعاء : دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير )<sup>(٣)</sup> . رواه الترمذى

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا يريد بها إلا وجه الله أدخله الله بها جنات النعيم ) . رواه الطبرانى

**لا إله إلا الله**

كلمة التوحيد ، لها أثر كريم في تفريج الكرب :  
فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قال لا إله إلا الله قبل كل شيء ، ولا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى كل شيء : عوفى من الهم والحزن ) . رواه الطبرانى .  
هذا الحشد المقدس من الأحاديث النبوية الشريفة : يتألق ضياؤه ، مستمدا من كلمة التوحيد ، ويضئ سناه مشرقا من كلمة لا إله إلا الله .

نسأل الله تعالى أن يذكرنا بها عندما يحين الأجل ويجعلها آخر كلمة نختم بها صحيفة الدنيا .

الخطوة الثانية التى يستحب فعلها عند الاحتضار :-

**توجيهه إلى القبلة**

يستحب توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن :

(١) أخرجه الترمذى في الدعوات : ٨٦ . والإمام أحمد في ٥ : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى في الدعوات : ٦٥ . ومسلم في الذكر : ٢٩ . وابن ماجه في الأدب : ٥٤ ، وفى الرهون : ١٦ . والإمام أحمد في ٤ : ١٣ ، ٢٣٦ ، ٣٨٧ ، وفى ٥ : ٤٢٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب : ٥٥ ، وفى الدعاء : ٥ . والترمذى في الدعوات : ١٨٤ ، ١١٢ . والإمام مالك في القرآن : ٢٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ ، والإمام أحمد في ٢ : ١٢٧ ، ٥١٥ .

لما رواه البيهقي والحاكم وصححه ، عن أبي قتادة : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور ، فقالوا : توفي وأوصى بثلاث ماله لك .  
وأن يوجه للقبلة إذا ما احتضر فقال النبي ﷺ : أصحاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ما له على ولده ، ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم أغفر له وأرحمه وأدخله جنتك وقد فعلت ( قال الحاكم : ولا أعلم في توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد : ( أن فاطمة بنت النبي ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها ) .  
وهذه الصفة : التي أمر الرسول ﷺ النائم أن ينام عليها والتي يكون عليها الميت في قبره .  
وفي رواية عن الشافعي : ( أن المحتضر يستلقي على قفاه ، وقدماه إلى القبلة وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه إليها ) . والأول الذي ذهب إليه الجمهور : أولى .

### الثالثة : قراءة سورة يس

يستحب قراءة سورة يس عند المحتضر : -  
وذلك لما رواه أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وابن حبان وصححه عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : ( يس قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة ألا غفر له ، وأقرأوها على موتاكم )<sup>(١)</sup> .

قال ابن حبان : ( أراد به من حضرته المنية لا أنها تقرأ على الميت ) .  
ويؤيد هذا المعنى : ما رواه أحمد في مسنده عن صفوان قال : ( كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يس عند الموت خفف عنه بها ) قال أبو الدرداء . وأبو ذر : قال رسول الله ﷺ : ( ما من ميت يموت فتقرأ عنده يس إلا هون الله عليه ) .

### الرابعة : تغميض عينيه

يستحب تغميض عيني المحتضر : -  
لما رواه مسلم أن النبي ﷺ دخل على أبي مسلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : ( إن الروح إذا قبض : تبعه البصر )<sup>(٢)</sup> .

### الخامسة : تغطيته

يستحب تغطية الميت :  
صيانة له عن الانكشاف وسترا لصورته المتغيرة عن الأعين ، فعن عائشة رضي الله عنها : ( أن النبي ﷺ حين توفي : سجي ببرد جده )<sup>(٣)</sup> . رواه البخاري ومسلم .  
ثم : يجوز تقبيل الميت إجماعا ، فقد قبل رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت ، وأكب أبو بكر على رسول الله ﷺ بعد موته فقبله بين عينيه وقال : يا نبياه ، يا صفياء !

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز : ٧ . وابن ماجه في الجنائز : ٦ .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس : ١٨ ، وفي الجنائز : ٣ . وأبو داود في الجنائز : ٣ . والنسائي في الجنائز : ٢ ، ٣٩ .



## المبادرة بتجهيزه متى تحقق موته

من حق الميت على الأحياء : أن يسرعوا بتجهيزه :  
وذلك لما رواه أبو داود أن طلحة بن البراء في مرضه أتاها النبي ﷺ يعودوه فقال : ( إني لا أرى طلحة إلا وقد حدث فيه الموت فأذنوني به وعجلوا ، فإنه لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهري أهله ) (١) .

ولا ينتظر به قدوم أحد . . خوف تغيره ، فقد قال الرسول ﷺ : ( ياعلى : ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنائز إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفوا ) (٢) .  
تجهيز الميت : -

والآن : -  
نبين الأحكام الشرعية التي تتعلق بتجهيز الميت : وتجهيزه عبارة عن غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . وهذه الأمور الأربعة : واجبة على الحي نحو الميت .  
وسوف نتناول الحديث عنها تفصيلا .  
غسل الميت : -

يرى جمهور الفقهاء أن غسل الميت فرض كفاية أى : إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، لأن رسول الله ﷺ أمر به وحافظ على ذلك المسلمون .  
وهذا بالنسبة لموتى المسلمين فقط .  
الشهداء : -

وهو الذى قتل بأيدي الكفار ، وهو يجاهد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله ، وهذا الشهيد : لا يغسل ، ويكفن في ثيابه الصالحة لتكفينه ويدفن في دماثة ، ولا يغسل منها شيء .  
روى أحمد أن رسول الله ﷺ أمر بدفن شهداء أحد في دماثهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم .  
قال الشافعى - رضى الله عنه : لعل ترك الغسل والصلاة : لأن يلقوا الله بكلومهم ( أى بجراحهم ) .

وذلك لما جاء أن ريح دمهم : كريح المسك ، واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون فيمن قاتل من جراحات وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمهم بأهلهم وهم أهلهم بهم .  
وقيل : إن الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة إنما تكون على الميت أما الشهيد : فهو

حي .  
ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (٣) .

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز : ٣٤ .

(٢) أخرجه الترمذى في الصلاة : ١٣ ، وفي الجنائز : ٧٣ . وابن ماجه في الجنائز : ١٧ ، ١٨ . والامام أحمد في ١ : ١٠٥ .

(٣) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

وقيل : إن الصلاة على الميت شفاعة له، والشهداء قد نالوا هذه الكرامة باستشهادهم لأنهم يشفعون لغيرهم .

شهداء يغسلون ويصلى عليهم :

هناك أنواع من الشهداء يغسلون ويصلى عليهم . وقد بينهم لنا الحديث الشريف . . فقد روى جابر بن عتيك أن النبي ﷺ قال : ( الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المطعون : شهيد والغريق : شهيد ، وصاحب ذات الجنب : شهيد ، والمبطون : شهيد ، وصاحب الحرق : شهيد ، والذي يموت تحت الهدم : شهيد ، والمرأة تموت بجمع : شهيدة ) (١) .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا يارسول الله : من قتل في سبيل الله فهو الشهيد قال . إن شهداء أمتي إذن لقليل : قالوا . فمن هم يارسول الله ؟ قال : من قتل في سبيل الله : فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون : هو شهيد ، ومن مات في البطن : فهو شهيد ، والغريق : شهيد ) (٢) .

وهذا نموذج آخر من الشهداء الذين يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم : عن سعيد بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه : فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه : فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله : فهو شهيد ) (٣) . رواه أحمد والترمذي وصححه .

\*\*\*

أما وقد علمنا : من الذين يغسلون والذين لا يغسلون . . فما هي صفة الغسل ؟

### صفة الغسل

الواجب في غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ولو كان جنباً أو حائضاً . والمستحب في ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته ما لم يكن صبياً . ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره .

أما غاسل الميت فينبغي أن يكون ثقة ، أميناً ، صالحاً ، لينشر ما يراه من الخير ويستر ما يراه من

الشر .

فقد قال رسول الله ﷺ : ( ليغسل موتاكم المأمونون ) (٤) رواه ابن ماجه .

### كيفية الغسل

يبدأ الغاسل أولاً بعصر بطن الميت عصراً خفيفاً ، لإخراج ما عسى أن يكون بها من الفضلات ، ويزيل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته ( فإن لمس العورة حرام ، للحى والميت ، على حد سواء ) . ثم يوضئه وضوء الصلاة بعد ذلك ، لقول رسول الله ﷺ : ( إبدأ

(١) أخرجه البخارى في الجهاد : ٣٠ ، وأبو داود في الجنائز : ١١ . والنسائي في الجنائز : ١٤ . والإمام أحمد في ٥ : ٤٤٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الإمامة : ١٦٥ . وأبو داود في الجنائز : ١١ . والنسائي في الجنائز : ١٤ . وابن ماجه في الجهاد : ١٧ .

والإمام أحمد في ٢ : ٣٢٥ ، ٤٤١ ، وفي ٥ : ٤٤٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في الديات : ٢١ . وأبو داود في السنة : ٢٩ .

(٤) أخرجه ابن ماجه في الجنائز : ٥٨ .

بيامنها<sup>(١)</sup> ومواضع الوضوء منها ، ثم يغسله بعد ذلك ثلاثا بالماء والصابون أو الماء الخالص ، مبتدئا باليمين فإن رأى الزيادة على الثلاث - بعدم حصول الإنقاء بها أو لشيء آخر - غسله خمسا أو سبعا ففى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( اغسلها وترا : ثلاثا أو خمسا أو سبعا أو أكثر من ذلك إن رأين<sup>(٢)</sup> .

فإذا كان الميت ، أنثى : ندب نقض شعرها وغسله وأعيد تضييره وأرسل خلفها .  
ففى حديث أم عطية : ( أنهن جعلن رأس ابنة النبي ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نفضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم )<sup>(٣)</sup> .

فإذا فرغ من غسل الميت : جفف بدنه بثوب نظيف ، لثلا تبتل اكفانه ووضع عليه الطيب ..  
قال رسول الله ﷺ : ( إذا أجمرت الميت فأوتروا ) . رواه البيهقى والحاكم وابن حبان وصحاحه .  
وقال أبو وائل : كان عند على رضى الله عنه مسك فأوصى أن يحنط به وقال : هو فضل حنوط رسول الله ﷺ .

ويكره تقليص أظفار الميت ، أو أخذ شيء من شعر شاربه أو إبطه . أو عاتته ، وإذا خرج من بطنه شيء من النجاسات ، وجب تطهيره من هذه النجاسات .  
وحكمة وضع الكافور والروائح الطيبة عند الغسل : لأنه وقت تحضر فيه الملائكة .  
والغسل للميت : إذا كان الماء موجودا فإذا عدم الماء : فإنه ييمم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا ﴾ ولقول رسول الله ﷺ : ( جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا )<sup>(٤)</sup> . وكذلك ييمم الميت : إذا كان الجسم ، بحيث لو غسل : لتهرى .  
الكفن -

بعد ما فرغنا من الكلام عن غسل الميت فإن تكفينه بما يستره - ولو كان ثوبا واحدا - فرض كفاية .

ويستحب فى الكفن أن يكون حسنا ، نظيفا ، ساترا للبدن ..  
لما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى قتادة أن النبي ﷺ قال : ( إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه )<sup>(٥)</sup> .

وأن يكون الكفن أبيض ، لما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبي

(١) أخرجه البخارى فى الوضوء : ٣١ . ومسلم فى الجنائز : ٤٢ ، ٤٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز : ١٥ .

والنسائى فى الجنائز : ٣١ . وابن ماجه فى الجنائز : ٨ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ . ومسلم فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ . وأبو داود فى

الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز : ١٥ . والنسائى فى الجنائز : ٢٨ ، ٣٢ - ٣٥ ، ٣٦ . وابن ماجه فى الجنائز : ٨ .

والامام مالك فى الجنائز : ٢ . والامام أحمد فى ٥ : ٨٤ ، ٨٥ ، وفى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ . ومسلم فى الجنائز : ٣٨ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز :

١٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٠ ، ٣٥ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٢٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤٩ . والترمذى فى الجنائز : ١٩ . والنسائى فى الجنائز : ٣٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٢ . وأبو

داود فى الجنائز : ٣٠ . والامام أحمد فى ٣ : ٢٩٥ ، ٣٢٩ ، ٣٧٢ .

- صلى الله عليه وسلم قال : ( البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم )<sup>(١)</sup> .

وأن يجمر ويبخر ويطيب .. لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر : أن النبي ﷺ قال : ( إذا أجزتم الميت فأجروه ثلاثا )<sup>(٢)</sup> .

وأوصى أبو سعيد وابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهم - أن تجمر أكفانهم بالعود . وأن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل وخمس لفائف للمرأة . ! لما رواه الجماعة عن عائشة رضي الله عنها قالت : ( كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض سحولية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة )<sup>(٣)</sup> . وقال الترمذي : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم : وقال سفيان الثوري : يكفن الرجل في ثلاثة أثواب : إن شئت في قميص ولفافتين وإن شئت في ثلاث لفائف . ويجزىء ثوب واحد إن لم يوجد ثوبان .

والثوبان يجزئان ، والثلاثة - لمن وجد - أحب إليهم ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق ، وقالوا : تكفين المرأة في خمسة أثواب .

وعن أم عطية : ( أن النبي ﷺ ناولها إزارا ودرعا وخمارا وثوبين )<sup>(٤)</sup> . وقال ابن المنذر : أكثر من نحفظ عنه من أهل العلم : يرى أن تكفن المرأة في خمسة أثواب .

تكفين المحرم :-

إذا مات المحرم : غسل كما يغسل غيره ممن ليس محرمًا وكفن في ثياب إحرامه ولا تغطي رأسه ولا يطيب لبقاء حكم الاحرام ..

لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : ( بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة اذ وقع عن راحلته فمقصته فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : ( اغسلوه بماء وسدر وكفنوه في ثوبيه ، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبيا )<sup>(٥)</sup> .

المغلاة في الكفن :-

تكره المغلاة في الكفن لقول رسول الله ﷺ ( لا تغالوا في الكفن ، فإنه يسلب سلبا سريعا )<sup>(٦)</sup> .

رواه أبو داود وفي إسناده أبو مالك .

وعن حذيفة قال : لا تغالوا في الكفن . اشتروا لي ثوبين نقيين ، وقال أبو بكر - رضي الله عنه -

اغسلوا ثوبي هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنتوني فيها .

(١) أخرجه أبو داود في الطب : وفي اللباس : ١٣ . والترمذي في الجنائز : ٨ ، وفي الأدب : ٤٦ . والنسائي في الجنائز : ٣٨ ،

وفي الزينة : ٩٧ . وابن ماجه في الجنائز : ١٢ . والامام أحمد في ١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، وفي ٥ : ١٠ ، ١٢ ، ٢١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد في ٣ : ٣٣١ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز : ١٩ ، ٢٥ ، ٩٤ . ومسلم في الجنائز : ٤٥ . والنسائي في الجنائز : ٣٩ . وابن ماجه في الجنائز : ١١ . والامام مالك في الجنائز : ٥ ، ٦ ، ٧ . والامام أحمد في ٦ : ٤٠ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٣١ .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب : ٢٥ . ومسلم في الاشربة : ٧٤٢ .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز : ١٩ - ٢١ . ومسلم في الحج : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ . وأبو داود في الجنائز : ٨٠ .

والترمذي في الحج : ١٠٣ . والنسائي في الحج : ٤٧ ، ٩٧ - ٩٩ ، ١٠١ . وابن ماجه في المناسك : ٨٩ . والدارمي في

المناسك : ٣٥ . والامام أحمد في ١ : ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ .

(٦) أخرجه أبو داود في الجنائز : ٣١ .

قالت عائشة رضي الله عنها: إن هذا خلق ، قال : إن الحي أولى بالجديد من الميت إنما هو للمهلة .

ويحرم على الرجال أن يكفنوا في الحرير . ويكره للنساء ذلك قال أحمد : لا يعجبني أن تكفن المرأة في شيء من الحرير .

وكره ذلك : الحسن وابن المبارك وإسحاق .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ من غيرهم خلافه .

### صلاة الجنازة

الواجب الثالث بعد الغسل والتكفين : هو الصلاة على الميت .  
وقد اتفق أئمة الفقه على أن الصلاة على الميت فرض كفاية ، لأمر رسول الله ﷺ بها ولحافضة المسلمين عليها .

فضلها : -

روى الجماعة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد ) (١) .

وروى مسلم عن خباب رضي الله عنه قال : يا عبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم رجع : كان له مثل أحد ) (٢) .

فأرسل ابن عمر رضي الله عنهما خبابا إلى عائشة يسألها عن قول أبي هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت ، فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة . فقال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد فرطنا في قراريط كثيرة .

شروطها : -

يشترط فيها الشروط التي تفرض في سائر الصلوات المكتوبة : من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر ، والأصغر ، واستقبال القبلة وستر العورة .

وروى مالك عن نافع أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة في أنه لا يشترط فيها الوقت بل تؤدي في جميع الأوقات متى حضرت ولو في أوقات النهي عند الأحناف والشافعية .

وكره أحمد وابن المبارك وإسحاق : الصلاة على الجنازة في وقت الطلوع والاستواء والغروب إلا إن خيف عليها التغيير .

أركانها : -

ولصلاة الجنازة أركان لا بد منها .. إذا فقد منها ركن وقعت غير صحيحة وهي كما يلي :  
الثبة :

(١) أخرجه البخاري في الجنازات : ٥٧ . ومسلم في الجنازات : ٥٥ . والنسائي في الجنازات : ٥٤ . والامام أحمد في ٥ : ٢٧٦ ، ٢٨٣ .

(٢) أخرجه النسائي في الجنازات : ٧٩ . والبخاري في الايمان : ٣٥ .

يقول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾<sup>(١)</sup> .  
وقول رسول الله ﷺ ( إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى )<sup>(٢)</sup> .

### القيام :

للقادر عليه وهو ركن عند جمهور العلماء .. فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكباً أو قاعداً من غير عذر .

قال في المغنى : ولا يجوز ان يصلى على الجنازة وهو راكب ، لانه يفوت القيام الواجب .. وهذا قول أبى حنيفة والشافعى وأبى ثور ولا أعلم فيه خلافاً .

ويستحب ان يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام كما يفعل فى الصلاة وقيل : لا . والأول أولى .

### التكبيرات الأربع :

لما رواه البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ ( صلى على النجاشى فكبر أربعاً )<sup>(٣)</sup> قال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات وهو قول سفيان ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحق .

### أما رفع اليدين عند التكبير :

فالسنة عدم رفعهما فى صلاة الجنازة ، إلا فى أول تكبيرة فقط : لأنه لم يأت عن النبى ﷺ أنه رفع فى شيء من تكبيرة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

قال الشوكانى : والحاصل انه لم يثبت فى غير التكبيرة الأولى شيء يصلح للاحتجاج به عن النبى ﷺ وأفعال الصحابة وأقوالهم : لا حجة فيها ، فينبغى أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الاحرام ، لانه لم

يشرع فى غيرها إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن كما فى سائر الصلوات ولا انتقال فى صلاة الجنازة .

### قراءة الفاتحة سرا : -

بعد تكبيرة الاحرام ، الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد التكبيرة الثانية .

لما رواه الشافعى فى مسنده عن أبى امامة بن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : ( أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الامام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنازة فى التكبيرات ولا يقرأ فى شيء منهن ، ثم يسلم سرا فى نفسه ) .

قال فى الفتح : وإسناده صحيح : وروى البخارى عن طلحة بن عبد الله قال : صليت مع ابن عباس على جنازة ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، فقال : إنها من السنة ورواه الترمذى وقال : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من الصحابة وغيرهم يختارون ان يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق .

(١) الآية ٥ من سورة البينة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحي : ١ ، وفى النكاح : ٥ . ومسلم فى الايمان : ٢٣ . ومسلم فى الامارة : ١٥٥ . وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والترمذى فى فضائل الجهاد : ١٦ . والنسائى فى الطهارة : ٥٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٦ . والامام احمد فى

١ : ٢٥ ، ٤٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠ .

وقال بعضهم : لا يقرأ في الصلاة على الجنائز إنما هو الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ والدعاء للميت ، وهو قول الثوري وغيره من أهل الكوفة .  
ومن حجج القائلين بفرضية القراءة : أن الرسول ﷺ سماها صلاة .. بقوله ( صلوا على صاحبكم )<sup>(١)</sup> وقال : ( لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن )<sup>(٢)</sup> .  
وتؤدى الصلاة والسلام على رسول الله بأية صيغة ، ولو قال : اللهم صلى على محمد لكفى .  
واتباع المأثور : أفضل ، مثل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية كما هو الظاهر وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .  
الدعاء - بعد التكبيرة الثالثة :-

وهو ركن ، باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : ( إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء )<sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود والبيهقي وابن حبان وصححه . وهو يتحقق بأى دعاء مهما قل .  
والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات الماثورة الآتية :  
قال أبو هريرة : دعا رسول الله ﷺ في الصلاة على الجنائز فقال : ( اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت رزقتها وأنت هديتها للإسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلايتها جئنا شفعاء له فاغفر له ذنبه )<sup>(٤)</sup> .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا النبي ﷺ على رجل من المسلمين فسمعت يقول : ( اللهم إن فلان ابن فلان في ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق . اللهم فاغفر له وارحمه فإنك أنت الغفور الرحيم )<sup>(٥)</sup> . رواها أحمد وأبو داود .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ وقد صلى على جنازة - يقول : ( اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه وعافه وأكرم منزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجته وقه فتنة القبر وعذاب النار )<sup>(٦)</sup> .

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : ( اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا وشاهدنا وغائبنا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفلنا بعده )<sup>(٧)</sup> . رواه أحمد وأصحاب السنن .

(١) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ٢٩٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤٥٣ ، وفي ٣ : ٢٩٦ .

(٢) أخرجه الترمذى في المواقيت : ١١٥ . والامام أحمد في ٥ : ٣١٦ ، ٣٢٢ .

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز : ٥٦ .

(٤) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ٢٥٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٥٩ .

(٥) أخرجه ابن ماجه في الجنائز : ٢٣ . وأبو داود في الجنائز : ٥٦ . والامام أحمد في ٣ : ٤٩١ .

(٦) أخرجه مسلم في الجنائز : ٨٥ ، ٨٦ . والنسائي في الجنائز : ٧٧ . وابن ماجه في الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد في ٦ : ٢٣ ، ٢٨ .

(٧) أخرجه ابو داود في الجنائز : ٥٦ . والترمذى في الجنائز : ٣٨ . وابن ماجه في الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد في ٢ : ٣٦٨ ، وفي ٤ : ١٧٠ ، وفي ٥ : ٢٩٩ ، ٣٠٨ .

فإذا كان المصلي عليه طفلا : استحَب أن يقول المصلي : ( اللهم اجعله لنا سلفا وفرطا وذخرا )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى والبيهقى من كلام الحسن .

قال النووى : وإن كان صبيا أو صبىة : اقتصر على ما فى حديثه : ( اللهم اغفر لحينا وميتنا ... الخ ) وضم إليه : اللهم اجعله فرطا لأبويه وسلفا وذخرا وعظة واعتبارا وشفيعا وثقل به موازينها وأفرغ الصبر على قلوبها ولا تفتنهما بعده ولا تحرمهما أجره )

واستحب العلماء : الدعاء ايضا بعد التكبيرة الرابعة : لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى أنه ماتت له ابنة فكبر عليها أربعاً ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم نال : كان رسول الله ﷺ يصنع فى الجنائز هكذا .

وقال الشافعى : يقول بعدها : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتننا بعده .  
وقال ابن هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ) .

السلام : -

والسلام : ركن من أركان صلاة الجنائز وذلك لأن تحليل الصلاة : التسليم وصلاة الجنائز ضمن الصلوات . وقال ابن مسعود : التسليم على الجنائز : مثل التسليم فى الصلاة ..  
وأقله السلام عليكم أو سلام عليكم .

كيف نصلى على الجنائز

وعلى الجملة فهذا بيان بترتيب الخطوات التى تؤدى بمقتضاها صلاة الجنائز :  
بعد استيفاء شروط صحة الصلاة من طهارة وستر للعودة واستقبال للقبلة : يقف المصلى ناويا الصلاة على من حضر من الموق رافعا يديه مع تكبيرة الاحرام ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ويشرع فى قراءة الفاتحة ثم يكبر ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يكبر ثم يدعو للميت ثم يكبر ثم يدعو ، ثم يسلم .  
موقف الامام : -

من السنة أن يقف الامام عند رأس الرجل ويقف عند وسط المرأة لحديث أنس : ( أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه فلما رفعت أتى بجنازة امرأة فصلى عليها فقام وسطها فسئل عن ذلك ، وقيل له أهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ومن المرأة حيث قمت ؟ قال : نعم )<sup>(٢)</sup>  
رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه : قال الطحاوى : وهذا أحب إلينا فقد قوته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ .

\*\*\*

ثم إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكورا أو إناثا : صفوا واحدا بعد واحد بين الامام والقبلة ليكونوا جميعا بين يدى الامام ووضع الأفضل مما يلي الامام وصلى عليهم جميعا صلاة واحدة .  
وإن كانوا رجالا ونساء : جاز أن يصلى على الرجال وحدهم والنساء وحدهم وجاز أن يصلى عليهم جميعا وصفت الرجال أمام الامام وجعلت النساء مما يلي القبلة .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦٦ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٣ .



وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما - أنه صلى على تسع جناز (رجال ونساء) فجعل الرجال مما يلي الإمام وجعل النساء مما يلي القبلة ، وصفهم صفا واحدا ( ووضعت جنازة أم كلثوم بنت علي ( امرأة عمر ) وابن لها يقال له زيد والإمام يومئذ سعيد بن العاص وفي الناس يومئذ ابن عباس وأبو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة فوضع الغلام مما يلي الإمام فقال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد وأبي قتادة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هي السنة (١) . رواه النسائي والبيهقي . قال الحافظ : وإسناده صحيح .

وفي الحديث أن الصبي إذا صلى عليه مع امرأة كان الصبي مما يلي الإمام والمرأة مما يلي القبلة . وإن كان فيه رجال ونساء وصبيان : كان الصبيان مما يلي الرجال .

### صفوف الصلاة على الجنازة

يستحب أن يصف المصلون على الجنازة ثلاثة صفوف وأن تكون مستوية لما رواه مالك بن هبيرة : قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من مؤمن يموت فيصل على أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له ) (٢) .

فكان مالك بن هبيرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة أن يجعلهم ثلاثة صفوف رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه والحاكم وصححه . وقال أحمد : أحب إذا كان فيهم قلة : أن يجعلهم ثلاثة صفوف قالوا : فإن كان وراء أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين في كل صف رجلين وكره أن يكونوا ثلاثة ، فيكون في صف : رجل واحد .

### فضل صلاة الجمع الكثير

يستحب صلاة الجمع الكثير على الجنازة كلما أمكن ذلك ، ففي صلاتهم على الميت : شفاعة له ... بهذا صرح الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( ما من ميت يصل على أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له : إلا شفّعوا فيه ) رواه مسلم والنسائي والترمذي ، وعنده : ( مائة فما فوقها ) (٣) . وعن كريب : أن ابن عباس رضي الله عنهما مات له ابن بقديد ( أو بفان ) فقال : ياكريب : انظر ما اجتمع له من الناس ؟ قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : قلت : نعم . قال : أخرجه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفّعهم الله فيه ) (٤) . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

(١) أخرجه النسائي في الجناز : ٧٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٤ : ٧٩ .

(٣) أخرجه مسلم في الجناز : ٦١ . والترمذي في الجناز : ٤٠٠ . والنسائي في الجناز : ٧٨ . والإمام أحمد في ٤ : ٧٩ ، وفي ٦ : ٣٢ ، ٤٠ .

(٤) أخرجه أبو داود في الجناز : ٤١ .

وعن ابن عمر-رضي الله عنهما-عن النبي ﷺ قال : ( ما من رجل يصلي عليه مائة إلا غفر الله له ) . رواه الطبراني في الكبير .

وعن الحكم بن فروخ قال : ( صلى بنا ابو المليح على جنازة فظننا أنه قد كبر فأقبل علينا بوجهه ، فقال : أقيموا صفوفكم ولتحسن شفاعتكم ) .

قال ابو المليح : حدثني عبد الله عن إحدى أمهات المؤمنين - وهي ميمونة زوج النبي ﷺ - قالت : أخبرني النبي ﷺ ، قال : ( ما من ميت يصلي عليه أمة من الناس إلا شفّعوا فيه ، فسألت أبا المليح عن الأمة ؟ قال : أربعون )<sup>(١)</sup> رواه النسائي .

وعن مالك بن هبيرة-رضي الله عنه-قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من مسلم يموت فيصلي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب )<sup>(٢)</sup>

وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة : جزأهم ثلاثة صفوف ... لهذا الحديث .. رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه ، والترمذي وقال : حديث حسن .

\*\*\*

لا قضاء على من فاته بعض التكبير مع الامام في صلاة الجنازة وهذا هو الرأي المعتمد : روى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله إني أصلي على الجنازة ، ويخفى على بعض التكبيرة . قال : ( ما سمعت : فكبرى : فكبرى . وما فاتك : فلا قضاء عليك )<sup>(٣)</sup> .

وقال ابن عمر والحسن : لا يقضى ما فات من تكبيرة الجنازة ويسلم مع الامام . وقال أحمد : إذا لم يقض : لم يبال .

واتفقت كلمة العلماء على أن المسلم : يصلي عليه : ذكرا كان أو أنثى صغيرا كان أو كبيرا .

### الصلاة على السقط

إذا ولد مولود ولم يمض على حمله أربعة أشهر فإنه لا يغسل ولا يصلي عليه ويلف في خرقة ويدفن من غير خلاف بين جمهور الفقهاء ، فإذا ولد لأربعة أشهر فصاعدا فإنه يغسل ويصلي عليه لقوله ﷺ : ( والسقط يصلي عليه )<sup>(٤)</sup> . وذلك لأنه إذا بلغ أربعة أشهر في الرحم : يصير نسمة نفخ فيها الروح فيصلي عليه .

### ولا يصلي على كافر

لا تجوز الصلاة على الكافر وذلك لما صرحت به آيات الكتاب الكريم قال تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ﴾ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون<sup>(٥)</sup> ولقوله جل شأنه : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى من بعد ما تبين لهم ﴾

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنازات : ١٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في الجنازات : ٤٠ . والامام أحمد في ٤ : ٧٩ .

(٣) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ١٧٧ .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنازات : ٤٥ . والامام أحمد في ٤ : ٢٤٩ .

(٥) الآية ٨٤ من سورة التوبة .

أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه (١) .

الصلاة على الميت بعد دفنه : -

تجوز الصلاة على الميت بعد الدفن . في أى وقت ، ولو كان قد صلى عليه قبل دفنه ! لما رواه يزيد ابن ثابت قال : خرجنا مع النبي ﷺ ، فلما وردنا « البقيع » : إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل : فلانة ، فعرفها فقال : ألا آذنتموني بها ؟ قالوا : يارسول الله كنت قائلاً صائها فكرهنا أن نؤذيك ، فقال : ( لا تفعلوا .. لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتموني به فإن صلاتي عليه رحمة ثم أتى القبر فصفا خلفه ، وكبر عليه أربعاً ) (٢) . رواه أحمد والنسائي والبيهقي والحاكم وابن حبان وصححه .

قال الترمذي : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحق رضي الله عنهم .  
وفي الحديث : أن الرسول ﷺ صلى على صاحبة القبر بعد ما صلى عليها أصحابه قبل الدفن ، لأنهم ما كانوا ليدفنها قبل الصلاة عليها .  
قال الفقهاء : -

وفي صلاة أصحاب الرسول ﷺ معه على القبر : ما يدل على أن ذلك ليس خاصاً به صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن القيم : ردت هذه السنن المحكمة : بالمتشابهة ، من قوله : ( لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها ) وهذا حديث صحيح .  
والذي قاله : هو الذي صلى على القبر فهذا قوله ، وهذا فعله .

ولا يناقض أحدهما الآخر ... فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر غير الصلاة التي على القبر ... فهذه صلاة الجنائز على الميت ، التي لا تختص بمكان ... بل إن فعلها في غير المسجد أفضل من فعلها فيه فالصلاة عليه على قبره : من جنس الصلاة عليه على ( نعشه ) فإنه المقصود بالصلاة في الموضعين ولا فرق بين كونه على ( النعش ) وعلى الأرض وبين كونه في بطنها ... بخلاف سائر الصلوات ، فإنها لم تشرع في القبور ولا إليها لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد .  
الصلاة على الغائب : -

تجوز الصلاة على من غاب من أموات المسلمين كما هي جائزة على من حضر من أمواتهم .  
وكيفيتها : أن يستقبل المصلى القبلة ، وينوي الصلاة عليه ، ويكبر ، ويفعل مثل ما يفعل في صلاة الجنائز .

(١) الآيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة : ٧٢ ، وفي الجنائز : ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ . ومسلم في الجنائز : ٧١ . وأبو داود في الجنائز : ٣٤ ، ٥٧ . والنسائي في الجنائز : ٤٣ ، ٧٦ . وابن ماجه في الجنائز : ٣١ ، ٣٢ . والامام مالك في الجنائز : ١٥ . والامام أحمد في ٢ : ٣٥٣ ، ٣٨٨ ، وفي ٣ : ٤٤٤ ، وفي ٤ : ٣٨٨ ، وفي ٥ : ٤٠٦ .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ( أن النبي ﷺ نعى الناس « النجاشي » في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصل فصف أصحابه وكبر أربع تكبيرات )  
قال ابن حزم : ويصلى على الميت الغائب بإمام وجماعة .

### صلاة النساء على الجنازة

يجوز للمرأة أن تصلى على الجنازة ، مثل الرجل : سواء صلت منفردة ، أو صلت مع الجماعة .  
فقد انتظر عمر أم عبد الله حتى صلت على ( عتبة ) وأمرت عائشة رضي الله عنها أن يؤق بسعد بن أبي وقاص لتصلى عليه .  
السير بالجنازة

هناك أمور يحسن بيانها تتعلق بحمل الجنازة والسير بها . نشبتها فيما يلي ؛ -  
وصى الشارع الحكيم بتشيع الجنازة وحملها ، ومن السنة أن يحملها من جميع جوانبها ، حتى ينال ثواب جهاتها المختلفة :-  
روى ابن ماجه والبيهقي وأبو داود والطيالسي عن ابن مسعود قال : ( من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها ، فإنه من السنة . ثم إن شاء فليطوع وإن شاء فليدع )<sup>(١)</sup> .  
والمراد بسرير الميت : نعشه .

وقد رغب النبي ﷺ في إتيان هذا البر العظيم حيث قال : ( عودوا المريض وامشوا مع الجنازة : تذكركم الآخرة )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد ، ورجاله ثقات .

ويستحب الإسراع بها .. وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :  
قال رسول الله ﷺ : ( أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة : فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك : فشر تضعونه عن رقابكم )<sup>(٣)</sup> .

وروى البخاري في التاريخ ( أن النبي ﷺ أسرع حتى تقطعت نعالنا يوم مات سعد بن معاذ ) .  
والمقصود بالإسراع بها : عدم البطء الذي قد يدعو إلى التبخر .  
وبناء عليه : فينبغي أن يعرف ألا يؤدي الإسراع إلى فسادها أو المشقة على مشيعيها .

### المشي مع الجنازة :

اختار جمهور العلماء : المشي أمامها ، وقالوا : إنه الأفضل .. لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر : كانوا يمشون أمامها ، رواه أحمد وأصحاب السنن .  
ويرى بعض الفقهاء أن المشي خلفها أفضل .. لأن ذلك هو المفهوم من أمر رسول الله ﷺ باتباع الجنازة والمتبع : هو الذي يمشي خلفه .

(١) أخرجه ابن ماجه في الجنايز : ١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد : ١٧١ ، وفي الأطعمة : ١ ، وفي النكاح : ٧١ ، وفي المرضى : ٤ . والامام أحمد في ٣ : ٢٣ ، ٤٨ ، ٣١ .

(٣) أخرجه البخاري في الجنايز : ٥١ . ومسلم في الجنايز : ٥٠ ، ٥١ . وأبو داود في الجنايز : ٤٦ . والنسائي في الجنايز : ٤٤ . وابن ماجه في الجنايز : ١٥ . والامام مالك في الجنايز : ٥٨ . والامام أحمد في ٢ : ٢٤٠ ، ٢٨٠ ، ٤٨٨ .

والظاهر - والله أعلم - أن الكل جائز ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات﴾ (١).

أشياء تكره عند الجنائزة :

هناك أشياء تكره رأينا أن ننبه إليها ، لكراهة فعلها عند الجنائزة ولخفائها على كثير من الناس ولا تشار فعلها .

رفع الصوت : سواء كان ذلك بذكر أو قراءة أو كان بغيرهما . وذلك لما رواه ابن المنذر عن قيس ابن عباد أنه قال : ( كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر وعند القتال ) .

ومن البدع : أن يقول قائل خلف الجنائزة : استغفروا للميت . بهذا قال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير والحسن والنخعي ، وأحمد وإسحق والأوزاعي .

يقول الامام النووي -رضي الله عنه- : واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنائزة فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما لأنه أسكن لخطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنائزة .. وهو المطلوب في هذا الحال . فهذا هو الحق ولا تغتر بكثرة من يخالفه .

\*\*\*

كما سبق يتبين أن رفع الصوت عند الجنائزة أمر كرهه الشارع وعلينا أن نلتزم بما أتناه به الشرع ، ومن أراد أن يذكر الله : فليذكره تعالى في نفسه ، تضرعا وخيفة ، وحتى لا يفوته الهدى النبوى الشريف .

كذلك من الأشياء المكروهة عند الجنائزة ونهى الشرع عنها ، تلك العادة الجاهلية .. فقد كانوا يتبعون الجنائزة بالنار أى يحملون مشاعل النار معها .

قال الامام البيهقي -رضي الله عنه- : جاء في وصية عائشة وعبادة بن الصامت وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري ، وأسما بنت أبي بكر -رضي الله عنهم- ( أن لا تتبعوني بنار ) .

وروى ابن ماجه أن أبا موسى الأشعري حين حضره الموت قال ( لا تتبعوني بمحجر ) (٢) وهو ما يوضع فيه المحجر [ قالوا : يا أبا موسى ، أوسمعت فيه شيئا ؟ قال نعم ... من رسول الله ﷺ أما إذا كان دفن الميت ليلا : فلا بأس باصطحاب ما يضيء الطريق إلى المقبرة .

ولقد ورد هذا عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه الامام الترمذى عن ابن عباس ( أن النبى ﷺ دخل قبرا ليلا فأسرج له سراج ) (٣) .

كذلك يكره لمن اتبع الجنائزة أن يقعد قبل أن توضع الجنائزة على الارض فإن فعل : أمر بالقيام حتى توضع الجنائزة .

وكذلك يكره اتباع النساء للجنائزة وهذا عمل قد عمت به البلوى في البلاد : قرى كانت أو مدنا .. والشرع يكرهه والناس في غفلة .

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الجنائز : ١٨ .

(٣) أخرجه الترمذى في الجنائز : ٦٢ .

قالت الصحابية الجليلة أم-عطية رضى الله عنها: نبينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا أى: لم يوجب علينا .

### دفن الميت

بعد الفراغ من الحديث عن تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وتشيعه : نبين هنا حكم دفن الميت وما يتعلق بذلك :

أجمعت كلمة الفقهاء على أن دفن الميت ومواراة جسده إلى التراب : فرض كفاية ... إذا قام به البعض : سقط عن الباقيين .

وذلك لما صرحت به آيات القرآن .. قال تعالى : ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ (١) .  
وقال جل شأنه : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا \* أحياء وأمواتا ﴾ (٢) أى جامعة للأموات والأحياء ؟  
فالأموات فى بطنها والأحياء على ظهرها .

وما قصة ابنى آدم عن يالنا ببعيدة .. قال تعالى : ﴿ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ فأصبح من النادمين ﴾ (٣) .

### توضيح

يظن الكثير من الناس أن دفن الميت ليلا قد يؤذيه ، فيظل طول حياته خائفا !  
وهذا افتراء على شرع الله ولا يقول بهذه المسألة إلا كل من غفل عن قوله جل شأنه ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ (٤) .

ولو علم هؤلاء أن الميت قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وعالم البرزخ ، وأن هذا العالم لا يخضع لقوانين هذه الدنيا .. لو علموا هذا :

ما اجترأوا على أن يشرعوا فى دين الله ما ليس منه .  
ويرى جمهور علماء المسلمين أن الدفن بالليل . كالدفن بالنهار سواء بسواء فقد دفن رسول الله ﷺ الرجل الذى كان يرفع صوته بالذكر : ليلا .  
ودفن على فاطمة رضى الله عنها : ليلا .

وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود . رضى الله عنهم أجمعين .

الحكمة من الدفن :-

والحكمة من دفن الميت : أن يوارى الميت فى حفرة تحجب رائحته ، وتمنع السباع والطيور عنه .

ومن هنا : ينبغى تعميق القبر . والدفن فيه : إكرام لابن آدم الذى أوصى الله تعالى به إذ

يقول : ﴿ ولقد كرمتنا بنى آدم ﴾ (٥) .

(٤) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

(٥) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .

(١) الآية ٢١ من سورة عبس .

(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة المرسلات .

(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .

ما يستحب للميت :-

يستحب توجيه الميت في قبره إلى القبلة والدعاء له وحل أربطة الكفن .  
والسنة التي جرى عليها العلم : ان يجعل الميت في قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة .  
ويقول واضعه : ( بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ ) ثم يحل أربطة الكفن .  
كذلك يستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، لأنه يسأل في هذه الحالة :

فمن عثمان رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت : وقف عليه وقال :  
( استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل )<sup>(١)</sup> . رواه ابو داود .  
ما نهى عنه الشرع

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر لما في ذلك من المباهاة والرياء والفخر :  
فقد روى ابو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا عقر في الاسلام )<sup>(٢)</sup> .  
قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .  
قال الخطابي : كان أهل الجاهلية يعقرون الابل على قبر الرجل الكريم ويقولون : نجازيه على فعله لانه كان يعقرها في حياته فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطيور ، فيكون مطعما بعد مماته ، كما كان مطعما في حياته .  
كذلك نهى الشارع عن الجلوس على القبر ، والاستناد إليه ، والمشي عليه وذلك لما رواه عمرو بن حزم قال : رأى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : ( لا تؤذ صاحب هذا القبر ) . رواه احمد .  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من ان يجلس على قبر )<sup>(٣)</sup> . رواه احمد ومسلم .

### دفن أكثر من واحد في قبر

إذا تعذر إفراد كل ميت بقبر لكثرة الموق وقلة الدافنين او ضعفهم ، فإنه في هذه الحالة يجوز دفن أكثر من واحد في قبر واحد : لما رواه أحمد والترمذي وصححه : أن الانصار جاءوا إلى النبي ﷺ يوم أحد . فقالوا : يا رسول الله : أصابنا جرح وجهه فكيف تأمرنا ؟ فقال : ( احفروا ؟ واوسعوا ؟ واعمقوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر قالوا : فأيهم نقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنا )<sup>(٤)</sup> .

### التأدب مع أموات المسلمين

لا يجوز سب أموات المسلمين ، أو ذكر مساوئهم ، وذلك لأنهم في دار من الأليق والأفضل أن يذكر فيها بالرحمة .

(١) أخرجه ابو داود في الجنائز : ٦٩ .

(٢) أخرجه ابو داود في الجنائز : ٧٠ والامام أحمد في ٣ : ١٩٧ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز : ٩٦ . وأبو داود في الجنائز : ٧٣ . والنسائي في الجنائز : ٩٧ ، وابن ماجه في الجنائز : ٤٥ .

(٤) أخرجه الترمذي في الجهاد : ٣٤ . والنسائي في الجنائز : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١ . وابن ماجه في الجنائز : ٤١ . والامام أحمد في ٤ : ١٩ ، ٢٠ ، وفي ٢ : ٣٢٤ ، ٤٧٢ ، ٥٣٢ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : ( لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا <sup>(١)</sup> ) .  
 أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة أو عمل فاسد ، فإنه يباح ذكر مساوئهم . إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه ، كالتحذير من حالهم والتنفير من قولهم ، وترك الاقتداء بهم .  
 أما إذا لم يكن فيه مصلحة : فلا يجوز .  
 وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : مروا بجنازة فأنثوا عليها خيرا فقال النبى ﷺ : « وجبت » ثم مروا بأخرى فأنثوا عليها شرا فقال : « وجبت » فقال عمر رضى الله عنه ما وجبت ؟ قال : ( هذا اثنتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا اثنتم عليه شرا فوجبت له ، أنتم شهداء الله فى الأرض ) <sup>(٢)</sup> .

### نقل الميت

يحرم عند الشافعية : نقل الميت من بلد إلى بلد إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة . أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى إحدى هذه البلاد ، لشرفها وفضلها .  
 ولو أوصى بنقله إلى غير هذه الأماكن الفاضلة : لا تنفذ وصيته ، لما فى ذلك من تأخير دفنه ، وتعرضه للتغير .  
 ويحرم كذلك نقله من القبر إلا لغرض صحيح : كأن دفن من غير غسل أو إلى غير القبلة ، أو لحق القبر سيل أو نداوة .  
 قال فى المنهاج : ونبشه بعد دفنه للنقل وغيره : حرام إلا لضرورة كأن دفن بلا غسل أو فى أرض أو ثوب مغصوبين أو مع مال أو دفن لغير القبلة .  
 وعند المالكية : يجوز نقله من مكان إلى مكان آخر قبل الدفن وبعده لمصلحة : كأن يخاف عليه أن يغرقه البحر ، أو يأكله السبع ، أو لزيارة أهله له ، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول إليه . ونحو ذلك .  
 فالنقل حينئذ جائز ما لم تنتهك حرمة الميت بانفجاره أو تغييره أو كسر عظمه .  
 ويستحب دفن الشهيد حيث قتل .  
 وذلك لما روى عن النبى ﷺ قال : ( ادفنوا القتلى فى مصارعهم ) <sup>(٣)</sup> .  
 وروى ابن ماجه ( ان رسول الله ﷺ أمر بقتلى أحد ان يردوا إلى مصارعهم ) <sup>(٤)</sup> .

( ١ ) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٩٧ . ومسلم فى فضائل الصحابة : ٢٢١ . وأبو داود فى السنة : ١٠ . والترمذى فى البر : ٥١ . والنسائى فى الجنائز : ٥٢ . وابن ماجه فى المقدمة : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٣٠٠ ، وفى ٣ : ١١ ، ٥٤ ، وفى ٥ : ٢٥ .  
 ( ٢ ) أخرجه البخارى فى الشهادات : ٦ ، وفى الجنائز : ٥٨ . وأبو داود فى الجنائز : ٧٢ . والترمذى فى الجنائز : ٦٣ والنسائى فى الجنائز : ٥٠ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٦١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٢٥٨ ، وفى ٣ : ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ .  
 ( ٣ ) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ .  
 ( ٤ ) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ٢٨ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٠٨ ، ٣٩٨ .



## قضاء الدين

الاسلام : دين الوفاء والحياء ، وإن لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام : الحياء .  
ومن القضايا الخطيرة في الاسلام : قضية المال ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

ومن ثم جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ في باب الدين تحت حثا أكيدا على أدائه ، وعدم المماطلة في ذلك الأداء

بل إن رسول الله ﷺ كان يستعيز بالله من الدين ويقول : ( اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال ) (١) .

بل تزيد دقة الاسلام في التحذير من المماطلة في الديون إلى درجة أن الرسول ﷺ كان يستعيز بالله من الكفر والدين :

روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه كان يقول ( أعوذ بالله من الكفر والدين فقال رجل : يا رسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم ) (٢) . رواه النسائي .  
الدين : مذلة : -

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( الدين راية الله في الأرض فإذا أراد الله ان يذل عبدا أوضعه في عنقه ) . رواه الحاكم .

وقد وصى رسول الله ﷺ أحد أصحابه هذه الوصية فقال له : ( أقل من الذنوب . يهن عليك الموت ، وأقل من الدين : تعش حرا ) . رواه البيهقي .  
وصية حكيم لابنه ؛

وقال أحد الحكماء لابنه وهو يعظه : يا بني لقد ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب من العافية ، وتجرعت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة إلى الناس ، وحملت الصخر والحديد فلم أجد أثقل من الدين .

وقد عد رسول الله ﷺ الدين نوعا من أنواع الخوف بعد الأمن .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : ( لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها قالوا وما ذاك يا رسول الله قال : الدين ) (٣) . رواه أحمد .  
البراءة من ثلاثة : -

عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من فارق روحه جسده وهو يرى من ثلاثة

(١) أخرجه البخارى في الدعوات : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ . ومسلم في الذكر : ٤٩ - ٥١ ، ٧٣ . وابن ماجه في الدعاء : ٣٢ . وابوداود في الوتر : ٣٢ . والترمذى في الدعوات : ١١٣ . والنسائي في الاستعاذة : ٤ ، ٥ - ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٨ - ٤٠ . والامام أحمد في ١ : ٢٢ ، ١٨٦ ، وفي ٣ : ١١٣ ، ١٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، وفي ٦ : ٣٧١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد في ٣ : ٣٨ .

(٣) أخرجه الامام احمد في ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .

دخل الجنة : الغلول والدين والكبر<sup>(١)</sup> .

الغلول : أى السرقة من الغنم - والكبر : احتقار الناس ورفض الحق

الدين والنية :

لنية الأداء عند الله : إذن بتيسير ولنية الاتلاف : إذن بتعسير .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من أخذ أموال الناس يريد اداها : أدى

الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها : أتلفه الله )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها مالك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة ؟ قالت :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا التمس

ذلك العون )<sup>(٣)</sup> .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أيما رجل تدين ديناً وهو يجمع الا

يوفيه اياه : لقي الله سارقاً )<sup>(٤)</sup> . رواه ابن ماجه والبيهقى .

خطورة الدين :

عن محمد بن عبدالله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعداً حيث توضع

الجناز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته فقال : ( سبحان الله سبحان الله ما

أنزل من التشديد قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى

نزل ؟ قال : فى الدين ، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل

وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه )<sup>(٥)</sup> . رواه النسائى .

### الصدق والأمانة : فى الوفاء

هذا حديث نسوقه بطوله لما فيه من عظات بالغات ، وعبر طيبات ، أخرى بكل عاقل ان يتصف

بها ؛

عن أبي هريرة رضى الله عنه ( أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى اسرائيل سأل بعض بنى

اسرائيل ان يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم . فقال : كفى بالله شهيداً قال : فائتنى

بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلاً . قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر

فقاضى حاجته ثم التمس مركباً يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة

فنقرها فأدخل فيها الف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ، فقال :

(١) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ،

٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ،

٤١٧ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أخرجه النسائى فى البيوع : ٩٨ .

اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى استودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .

### سمو الإسلام

نظرة الاسلام دائما رفيعة وعالية ، فهو فى باب الدين لا يجد غضاضة من أن يستدين المسلم فى هذه الأمور الثلاثة : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من بدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجه .

### دين الميت

لعلك أيها القارئ الكريم قد أدركت بما لا يدع مجالا للشك ما يترتب على الدين من مسئولية ومواخذه وإليك الآن ما يتعلق بدين الميت ، فاستمع إلى صوت النبوة فى سكينته ووقار ، تعلم الخبر اليقين ، واسأل الله النجاة من خزي الدنيا ، وعذاب الآخرة .  
عن أبي هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال : ( نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه )<sup>(٣)</sup> أى ان امرها موقوف لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك أو محبوسة عن الجنة . وهذا فيمن مات وترك مالا يقضى منه دينه .

أما من مات ولا مال له عازما على القضاء فقد ثبت ان الله تعالى يقضى عنه ، ومثله من مات وله مال وكان محبا للقضاء ولم يقض من ماله ورثته :

فعند البخارى من حديث أبى هريرة : ان النبى ﷺ قال : ( فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله )<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٤٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦ . وابن ماجه فى الصدقات : ٩٢ . والامام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض من : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

وروى أحمد وأبو نعيم والبخاري عن النبي ﷺ قال : ( يدعى بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يدي الله عز وجل فيقول : يا ابن آدم : فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أني أخذته فلم أكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن اتى على إما حرق وإما سرق وإما ضيعة فيقول الله : صدق عبدى وأنا احق من قضى عنك فيدعو الله بشيء فيضعه في كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته<sup>(١)</sup> )

وقد كان النبي ﷺ يمتنع عن الصلاة على المديون فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال ( صلى على من مات مديونا وقضى عنه )

وقال في حديث البخارى : ( أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته<sup>(٢)</sup> ) .

وفى هذا ما يدل على ان من مات مديونا : استحق أن يقضى عنه من بيت مال المسلمين ويؤخذ من سهم الغارمين أحد مصارف الزكاة ، وأن حقه لا يسقط بالموت .

بل كان رسول الله ﷺ عندما تأتية الجنائز يسأل ويقول ( أعلى صاحبكم دين ) ؟

عن جابر رضى الله عنه قال : ( توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه ، فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف ، فتحملها أبو قتادة فأتيناه فقال أبو قتادة : الديناران على . فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرىء منها الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد فقال : قد قضيتها فقال رسول الله ﷺ الآن بردت جلدته<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد

وروى عن على رضى الله عنه قال : ( كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنائز لم يسأل عن شيء من عمل الرجل ويسأل عن دينه : فإن قيل عليه دين : كف عن الصلاة عليه وإن قيل ليس عليه دين : صلى عليه ، فأتى بجنائز فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ : ( هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم فقال على رضى الله عنه : هما على يا رسول الله برىء منها ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن ابى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتين بدينه ومن فك رهان ميت : فك الله رهانه يوم القيامة فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة ) رواه الدارقطني .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبي ﷺ أتى بجنائز ليصلى عليها قال : ( هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبي ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين فقال : إن صاحب الدين مرتين فى قبره حتى يقضى عنه دينه ) . رواه ابو يعلى والطبرانى .

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١٥ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفرائض : ١٥ ، ١٦ . وأبو داود فى الامارة : ١٥ . والترمذى فى الجنائز : ٦٩ . والنسائى فى الجنائز : ٦٧ . وابن ماجه فى المقدمة : ٧ . والدارمى فى البيوع : ٥٤ . والامام أحمد فى ٣ : ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، وفى ٤ : ١٣٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

## الرسول يسأل :

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقال : أنا يا رسول الله . فقال : من منعك أن تجيبني في المرتين الأوليين ؟ قال : إني لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه ، فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشيء )<sup>(١)</sup> رواه ابو داود

بعض ما ورد عن الدين :

وقد وردت أحاديث أخرى في دين الميت نورد بعضها فيما يلي :  
عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره ، ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم في باطل وهو يعلم : لم يزل في سخط الله حتى يتزع ، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه : حبس في رديغة الخبال حتى يأق بالمخرج مما قال ) . رواه الحاكم .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : انه قال : ( صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة ) . رواه الطبراني في الاوسط .

وعن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التي نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء )<sup>(٢)</sup> رواه ابو داود والبيهقي .

التحذير من مطل الغنى :

رأينا - من باب تنمة الفائدة - أن نبين ما يتعلق بالماطلة في دفع الدين ، خصوصا إذا كان المدين غنيا .

فعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( مطل الغنى ظلم )<sup>(٣)</sup> .  
ويبين الرسول ﷺ أن مطل الغنى ( أى مماطلته في أداء الديون ) ظلم وأن الله تعالى لا يحب ثلاثة .

فعن على رضى الله عنه قال : ( سمعت رسول الله ﷺ يقول :  
« لا يحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال »  
بل وإن الرسول ﷺ يشدد النكير في مماطلة الدفع فيقول : ( ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قوئها غير متع ) ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض .

(١) أخرجه ابو داود في البيوع : ٩ . والنسائي في البيوع : ٩٨ . وابن ماجه في الصدقات : ٢٠ . والامام أحمد في ٤ : ١٣٦ ، وفي ٥ : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٠ .

(٢) أخرجه أبو داود في الوصايا : ١٧ .

(٣) أخرجه البخارى في الاستقراض : ١٢ . ومسلم في المساقاة : ٣٤ . وأبو داود في البيوع : ١٠ . والترمذى في البيوع : ١٠ . وابن ماجه في الصدقات : ٨ . والدارمي في البيوع : ٤٨ . والامام أحمد في ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٣٧٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

و «نون» الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط : كتب عليه في كل يوم وليلة جمعة وشهر : ظلم ) .  
رواه الطبراني في الكبير .  
فائدة :-

كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور : ما من أحد في هذه الدنيا إلا وتعتريه الهموم  
وتتناوشه الكروب فتلك طبيعة الأيام !  
جبلت على كدر ، وأنت تريدها صفوا من الأحزان والأكدار  
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار !!  
إذا كان ذلك كذلك ، فما هو الملجأ ؟

الملجأ أن نردد هذه الأذكار التي جاءتنا من الصادق المعصوم ، فإن في ترديدها عبادة ، وفي ذكرها  
التجاء إلى الله يقول في محكم كتابه : ﴿ أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (١) .  
جاء عبد مكاتب إلى الامام على رضى الله عنه ، فلما جاء ذلك العبد إلى الامام على قال له : إني  
عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل  
جبير ديناً . أداه الله عنك ؟ قل « اللهم اكفني بحلالك من حرامك ، وأغنني بفضلك عمن  
سواك » (٢) . رواه الترمذى .

الرسول ﷺ وأبو أمانة :-

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو  
برجل من الأنصار ، يقال له : ( أبو أمانة ) جالسا فيه ، فقال : يا أبا أمانة : ( ما لي أراك جالسا في  
المسجد في غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال : ( أفلا أعلمك كلاما إذا  
قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : قل إذا أصبحت  
وإذا أمسيت : اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من  
البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى  
وقضى عني ديني ) (٣) . رواه أبو داود .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : ( ألا أعلمك دعاء تدعوه لو  
كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك ؟ قل يا معاذ : اللهم مالك الملك : تؤق الملك من تشاء  
وتنزعه الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، رحمان  
الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء : ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة  
سواك ) . رواه الطبراني في الصغير بإسناد جيد .

ما يستفاد من أحاديث الدّين :-

نبين هنا ما يريده رسول الله ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

(١) الآية ٩٢ من سورة النمل .

(٢) أخرجه الترمذى في الدعاء : ١١٠ .

(٣) أخرجه البخارى في الدعوات : ٣٥ ، ٤٠ . وأبو داود في الوتر : ٣٢ . والترمذى في الدعوات : ٧٠ . والنسائى في

الاستعاذة : ٧ ، ٨ . والامام أحمد في ٣ : ١٢٢ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ .

أولاً : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادراً على الدفع .  
 ثانياً : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأداء دينه .  
 ثالثاً : حسن معاملة الدائن بتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .  
 رابعاً : كل من قدر على أداء ما افترض ولم يف : حشر مع الظالمين ، وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين . وحل عليه غضب الله وكرهته .  
 خامساً : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها في الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها .  
 سادساً : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .  
 سابعاً : المقصر في الأداء الذي هجر دأبه وأغضبه : سجلت عليه الآثام بمرور الأزمان .  
 دعاء مبارك :-

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك . أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي - إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحاً ، قالوا : يا رسول الله : ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات : قال : أجل ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والبخاري وأبو يعلى في صحيحه .

وعن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلفني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله ) رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه وزاد في آخره : ( لا إله إلا أنت ) .

\*\*\*

#### الاستغفار :-

من الأذكار التي تفرج الكرب وتزيل الهم والغم، الاستغفار : أي قولك : أستغفر الله .  
 فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجاً . ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب )<sup>(٢)</sup> . رواه أبو داود واللفظ به النسائي وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقي .  
 لا حول ولا قوة إلا بالله : من الأذكار التي يفرج الله بها الهم والكرب والغم : قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ( من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله :

(١) أخرجه الامام أحمد في ١ : ٣٩١ ، ٤٥٢ .

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر : ٢٦ . والامام أحمد في ١ : ٢٤٨ .

كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها : (هم) . رواه الطبراني في الأوسط ، والحاكم ، وكلاهما من رواية بشر بن رافع . أبي الأسباط ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد . وصيته ﷺ لأسماء بنت عميس : -

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : ( ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب - أو فى الكرب - : الله ، الله ربي لا أشرك به شيئاً )<sup>(١)</sup> . رواه ابو داود والنسائي وابن ماجه . وكان دعاؤه ﷺ عند الكرب : ( لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم )<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى . ومسلم والترمذى .

#### فضل دعوة « ذى النون »

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له )<sup>(٣)</sup> . رواه الترمذى واللفظ له ، والنسائي والحاكم وقال صحيح الاسناد . وزاد الحاكم فى رواية له : فقال رجل يارسول الله : ( هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ وننجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup> .

#### دعاء موسى الكليم : -

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حتى جاوز البحر بينى اسرائيل ؟ قلنا : بلى يارسول الله قال قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ) قال عبدالله فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ . رواه الطبراني فى الصغير

#### فتح أبواب السماء لقبول الدعاء : -

عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : ( إذا نادى المنادى فتحت له أبواب السماء واستجيب الدعاء . فمن نزل به كرب أو شدة فليستحى المنادى ، فإذا كبراً كبيراً وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حى على الصلاة قال : حى على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة التقوى أحيها وأمتنا عليها وابعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته ) . رواه الحاكم من رواية عفير بن معدان .

(١) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ .  
(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٢٧ . ومسلم فى الدعوات : ٨٣ . والترمذى فى الدعاء : ٣٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٧ .  
والامام أحمد فى ١ : ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ .  
(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٨ .  
(٤) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .



فائدة نبوية كريمة :-

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما كربنى أمر إلا تمثل جبريل فقال : يا محمد ، قل : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ) . رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد . دعاء الأسير :-

وروى الأصبهاني عن إبراهيم يعنى ابن الأشعث - قال : سمعت الفضيل يقول : إن رجلا على عهد رسول الله ﷺ أسره العدو فأراد أبوه ان يفديه ، فأبوا عليه إلا بشيء كثير لم يطقه ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال : اكتب إليه فليكثر من قول : ( توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ) . قال : فكتب بها الرجل إلى ابنه ، فجعل يقولها ، فغفل العدو عنه ، فاستاق أربعين بعيرا فقدم بها إلى أبيه ) .

\*\*\*

فضل رعاية حقوق العباد :-

بعد هذا الطواف المبارك حول أقوال الرسول ﷺ التى دلت على الوفاء وأداء الدين . . فسوف نسوق هذه الآيات الكريمة ، من كتاب الله تعالى . . والتى تجربنا عن حب الله للمتقين وإحسانه إلى المؤمنين الذين لا تضع بينهم الحقوق .

قال الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما ييلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة النحل أيضا ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الاسراء ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ ويوم تقوم الساعة ييلس المجرمون ﴾ (٤) .

وقال تعالى فى سورة الشمس : ﴿ قد أفلح من زكاها . . وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .

وقال تعالى فى سورة الانعام : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون .

ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .

وقال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما

(١) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .

(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الاسراء .

(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .

(٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٦) الآيات ١٣١ - ١٣٣ من سورة الأنعام .

بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم<sup>(١)</sup> .  
وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال سبحانه وتعالى في سورة الحج : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾<sup>(٣)</sup> .

عود إلى بدء

استحباب الدعاء والاسترجاع عند الموت :-

بعد الفراغ من الكلام عن أحكام الديون عامة ، وعن ديون الميت خاصة ، نواصل مسيرتنا عما يتعلق بما بعد الموت ، وما يستحب أن يقوله المصاب بعد وقوع الموت .

يروى أحمد ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبي وأخلف لي خيرا منها ، إلا أجره الله تعالى في مصيبته وأخلف له خيرا منها )<sup>(٤)</sup> قالت : ( فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لي خيرا منه رسول الله ﷺ ) .

وفي الترمذى عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : قبضتم ولد عبدي فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدي؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد )<sup>(٥)</sup> .

● وفي البخارى عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ( يقول الله تعالى : ما لعبدي المؤمن عندي جزاء - إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة )<sup>(٦)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، في قول الله تعالى : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾<sup>(٧)</sup> . قال : أخبر الله عز وجل : ( أن المؤمن إذا سلم الأمر لله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله والرحمة وتحقيق سبيل الهدى ) .

استحباب الإعلام بموته :-

استحب الفقهاء اعلام أهل البيت وقرباته واصدقائه وأهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة

في تجهيزه .

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٣ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٨ من سورة الحج .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز : ٤ . وابن ماجه في الجنائز : ٥٥ . والامام أحمد في ٦ : ٣٠٩ ، ٣٢١ .

(٥) أخرجه الترمذى في الجنائز : ٣٦ . والامام أحمد في ٤ : ٤١٥ .

(٦) أخرجه البخارى في الرقاق : ٦ . والامام مالك في الجنائز : ٣٩ . والامام أحمد في ٢ : ٤١٧ ، وفي ٣ : ٤٤٣ ، وفي ٤ :

٢٣٧ ، وفي ٥ : ٢٥٣ .

(٧) الأيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضى الله عنه ان النبي ﷺ ( نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصصف أصحابه وكبر عليه أربعاً )<sup>(١)</sup>.

● وروى احمد والبخارى عن أنس رضى الله عنه : ( أن النبي ﷺ نعى زيدا وجعفرأ وابن راحة قبل أن يأتيه خبرهم )<sup>(٢)</sup>.

وقال البيهقي : وبلغني عن مالك بن أنس أنه قال : لا أحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته لم يكن به بأس .  
تحريم النياحة على الميت :-

النياحة على الميت : هي رفع الصوت بالبكاء عليه .. فقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مصرحة بتحريمها :

● عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( النائحة إذا لم تتب قبل موتها : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب )<sup>(٣)</sup>.

وعن ام عطية قالت : ( أخذ علينا رسول الله ﷺ الا ننوح )<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .  
● وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : ( أنا برئء ممن منعه رسول الله ﷺ .. ان رسول الله ﷺ برئء من الصالقة والحالقة والشاقة )<sup>(٥)</sup>.

[ الصالقة : هي التي ترفع صوتها بالنذب والنياحة ، والحالقة ، هي التي تحلق رأسها عند المصيبة ، والشاقة هي التي تشق ثوبها ]

● وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : ( أغمى على عبدالله بن راحة فجعلت أخته تبكى : واجبله واكذا ، واكذا ) ( تعدد عليه ) فقال حين أفاق : ما قلت شيئاً إلا قيل لى : أنت كذلك ؟ )<sup>(٦)</sup> . رواه البخارى وزاد في رواية . ( فلما مات : لم تبك عليه ) .

ومن هنا كان واجبا على المسلم قبل موته أن يوصي ويبرأ من كل ما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة المسؤولية . فإن كان يرضيه النياحة ولا ينهى من ينوح قبل موته راضيا بذلك : وقع في المسؤولية بعد الموت .

عن أبي موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الميت ليعذب ببكاء الحى : إذا قلت : واعضده ، وا تعساه ، واناصره ، واكاسياه . جند الميت فليل له : أناصرها أنت ؟ أكاسيها أنت ؟ ) . رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

( ١ ) أخرجه النسائي في الجنائز : ٢٧ ، ٧٢ . والبخارى في الجنائز : ٤ ، ٥ . ومسلم في الجنائز : ٦٣ . وأبو داود في الجنائز : ٥٨ .

( ٢ ) أخرجه البخارى في المناقب : ٢٥ ، وفي فضائل أصحاب النبي : ٢٥ ، وفي المغازى : ٤٤ .

( ٣ ) أخرجه مسلم في الجنائز : ٢٩ . وابن ماجه في الجنائز : ٥١ . والامام احمد في ٥ : ٣٤٢ - ٣٤٤ .

( ٤ ) أخرجه البخارى في الجنائز : ٤٦ . ومسلم في الجنائز : ٣١ . والنسائي في الجنائز : ١٥ . والامام أحمد في ٣ : ١٩٧ ، وفي ٥ : ٨٤ ، ٨٥ .

( ٥ ) أخرجه البخارى في الجنائز : ٣٨ . ومسلم في الايمان : ١٦٨ .

( ٦ ) أخرجه البخارى في المغازى : ٤٤ .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( اثنان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت )<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة من الكفر بالله : شق الجيب ، والنياحة ، والطعن في النسب ) . رواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا تصلى الملائكة على نائحة ولا حرنة )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وإسناده حسن .
- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن هذه النوائح يجمعن يوم القيامة صفين في جهنم : صف عن يمينهم وصف عن يسارهم فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب ) . رواه الطبراني في الأوسط .
- وروى عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : ( لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة )<sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود وليس في اسناده من ترك .
- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : ( لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفي أرض غربة لأبكيه بكاء يتحدث عنه . . فكننت وقد تهيأت للبكاء عليه ، إذ أقبلت امرأة تريد أن تساعدني فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال : أتريدين أن تدخلن الشيطان بيتا أخرجه الله منه ؟ فكففت عن البكاء ، فلم أبك )<sup>(٤)</sup> . رواه مسلم .
- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية )<sup>(٥)</sup> . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .
- وعن أسيد بن أبي أسيد التابعي عن امرأة من المبايعات قالت : ( كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ في المعروف الذي أخذ علينا : ألا نخمش وجهها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننشد شعرا )<sup>(٦)</sup> . رواه أبو داود .
- وعن أبي امامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : ( لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور )<sup>(٧)</sup> . رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه .
- الإحداد على الميت**

وهذا الإحداد متعلق بالنساء . . ومعناه : ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل والحريز والطيب والخضاب .

- (١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار : ٢٧ . ومسلم في الإيمان : ١٢١ ، وفي الجنايز : ٢٩ . والترمذي في الجنايز : ٢٣ . والامام أحمد في ٢ : ٢٩١ ، ٣٣٧ ، ٥٣١ ، وفي ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
- (٢) أخرجه الامام أحمد في ٢ : ٣٦٢ .
- (٣) أخرجه أبو داود في الجنايز : ٢٥ . والامام أحمد في ٣ : ٦٥ .
- (٤) أخرجه مسلم في الجنايز : ١٠ .
- (٥) أخرجه البخاري في الجنايز : ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ . ومسلم في الإيمان : ١٦٥ . والترمذي في الجنايز : ٢٣ ، ٢٥ . والنسائي في الجنايز : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ . وابن ماجه في الجنايز : ٥٢ . والامام أحمد في ٣ : ٣٨٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٥ .
- (٦) أخرجه أبو داود في الجنايز : ٢٥ .
- (٧) أخرجه ابن ماجه في الجنايز : ٥٢ ، وفي المناسك : ٥٦ ، والامام أحمد في ٤ : ١٥ .

وأقصى مدة للاحداد على غير الزوج : ثلاثة أيام ، بشرط أن يأذن لها زوجها بذلك فإن لم يأذن لها : كان ذلك غير جائز .

● روى الجماعة ( إلا الترمذى ) عن أم عطية أن النبی ﷺ قال : « لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج : فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا ، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب ( بروديمانية ) . ولا تكتحل ولا تمس طيبا ولا تحتضب ولا تمتشط إلا إذا ظهرت تمس نيزقا من قسط أو ظفار<sup>(١)</sup> (نوعان من العود الذى يتطيب به ) . والنبرق : القطعة .

أى أنه يجوز وضع الطيب عند الغسل من الحيض . وهكذا يتبين أن مدة الاحداد على وفاة الزوج أربعة أشهر وعشرة أيام أى مدة عدة الوفاة ، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للزوج فقط عرفانا له ومراعاة لحقه . صنع الطعام لأهل الميت :-

استحب الشارع : صنع الطعام لأهل الميت لأنه من باب البر والتقرب إلى الأهل والجيران . لما مات جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : ( اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم )<sup>(٢)</sup> رواه ابو داود وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح . قال الشافعى : واجب لقراءة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم فإنه سنة وفعل أهل الخير .

واستحب العلماء الاحاح عليهم ليأكلوا ، لئلا يضعفوا بتركه : استحياء أو لفرط جزع . واتفق الأئمة على كراهة صنع اهل الميت طعاما للناس يجتمعون عليه لما فى ذلك من زيادة المصيبة عليهم وشغلا لهم لشغلهم وتشبها بصنيع أهل الجاهلية : لحديث جرير ، قال : ( كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعة الطعام بعد دفنه : من النياحة )<sup>(٣)</sup> . وذهب بعض العلماء إلى التحريم . قال ابن قدامة .. فإن دعت الحاجة إلى ذلك : جاز ، فإنه ربما جاءهم من يحضر بيتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم ، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه . سكرة الموت :-

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾<sup>(٤)</sup> .

قال رسول الله ﷺ وهو يعالج سكرات الموت :

( سبحان الله ! إن للموت لسكرات )<sup>(٥)</sup> .

هذه كلمة نسوقها لترقيق القلوب إذا قست ، وتذكرة للعيون إذا جمدت .. ( فإن الذكرى تنفع

المؤمنين ) .

(١) أخرجه النسائى فى الطلاق : ٦٤ ، ٦٥ . وابو داود فى الطلاق : ٤٦ . والامام احمد فى ٦ : ٣٠٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٢١ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٩ .

(٣) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٠٤ .

(٤) الآية ١٩ من سورة ق .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤ . والترمذى فى الجنائز : ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١ .

● وروى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : ( خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتبهينا إلى القبر ، ولم يلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، ويده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه ) مرتين أو ثلاثاً ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول : أيتها النفس المطمئنة الزاكية أخرجى إلى مغفرة الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الشفاة فيأخذونها ولا يدعونها في يده طرفة عين فيجعلونها في ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان ( بأحسن أسمائه ) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها ، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه في يميني وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى . فتعاد روحه في جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك فيقول : دينى الاسلام فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ فيقولان له : وما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . . قال فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له فى قبره مد البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له : أبشر ، للذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعده ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب اقم الساعة - شوقا إلى ما يرى من النعيم <sup>(١)</sup> .

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

نحن فى عيشة الوصال الهنية نختل الراح فى الكئوس الهنية  
قد هجرنا دار الفناء وسرنا لدار . . . حياتها أبدية  
أنستنا هياكل النور لما فارقنا الهياكل البشرية  
وسمئنا الخطاب : طيبوا فلا حزن عليكم ولا تخافوا منية  
قد حظيتم برؤيتى وخطابى وسكنتم دار الجنان العلية

بقية الحديث :

قال : ( وأما العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : أخرجى إلى سخط الله وغضبه فتتفرق الأعضاء كلها فينزعها كما تنزع الفساد من الصوف المبلول : فتقطع الأعضاء كلها فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ويخرج منها رائحة متنتة كائن رائحة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما

(١) أخرجه ابو داود فى السنة : ٢٤ . والترمذى فى الدعوات : ١٣٢ . والامام احمد فى ٤ : ٢٨٧ ، وفى ٦ : ٨١ ، ٣٦٢ .

هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان ابن فلان ( بأقبح اسمائه ) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون ، فلا يفتح له .. ثم قرأ رسول الله ﷺ : « لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » ويقول الله تعالى : ( اكتبوا كتابه في سجين ثم تطرح روحه طرحا .. ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق » .

فتعاد روحه في جسده ثم يأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان له من ربك فيقول : هاه ! هاه ! لا أدري : فيقولان له : ما دينك : فيقول هاه ! هاه ! لا أدري فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ، فيقول هاه ! هاه ! لا أدري فينادى مناد من السماء : كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحو له بابا إلى النار ... فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول له : أبشر بالذي يسوؤك ، هذا يومك الذي كنت توعده .. فيقول : من أنت . فيقول : أنا عمالك الخبيث السيء في دار الدنيا . فيقول : رب لا تقم الساعة ) .

### مناجاة

أيا من كلما نودى أجابا ومن بجلاله ينشئ السحابا  
وكلم في الدجى موسى بلطف كلاما ثم ألهمه الخطابا  
ويامن رد يوسف بعد بُعد وكان أبوه ينتحب انتحابا  
ويامن خص أحمد واصطفاه وأعطاه الرسالة والكتابا  
وقربه وسماه حبيبا وأعتق من شفاعته الرقابا  
لك الفضل المبين على عطاء مننت به وضاعفت الثوابا  
روضة روحانية

كثيرا ما تنغمس النفس في ماديّات الحياة فتشعر بظلمة قائمة دكنا وتحتاج عندئذ إلى ما يبدد عنها غياهب ظلماتها .. وليس هناك ما يبدد غياهب هذه الظلمات إلا ذكر الله .. قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (١) .  
قال أحد الحكماء في مناجاة الندم والتوبة : -

واحسرق : واشقوق من يوم نشر كتابيه !  
واطول حزني : إن أكن أوتيته بشماليه !  
وإذا سئلت عن الخطايا ماذا يكون جوابيه !

واحرّ قلبى : أن يكون مع القلوب القاسيه !  
 كلا . ولأقدمت لى عملا ليوم حسابه !  
 بل إننى : لشقاوق وقساوق وعذابه !  
 بارزت بالزلات فى أيام دهر خاليه !  
 من ليس يخفى عنه من قبح المعاصى خافيه !  
 أستغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه !  
 فعسى الاله يجود لى بالعفو ثم العافيه .

عظة وعبرة :- .

فعليك ياأخى بالاخلاص لله وإياك والرياء فإنه يضع الثواب ويحبط العمل :  
 روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال : ( يؤق يوم القيامة بناس إلى الجنة ،  
 حتى إذا دنوا منها ، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها : نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب  
 لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا  
 ما أرينا : كان أهون علينا .

قال : ذلك أردت بكم .. كتتم إذا خلوتكم بارزتمون بالمعاصى ، وإذا لقيتم الناس : لقيتموهم  
 مغبتين ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطون من قلوبكم .. هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم  
 تجلوني ... فاللهم أذيقكم أليم عذاب مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة ) .

فاللهم ارزقنا الاخلاص فى القول والعمل وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين وقنا خزي الدنيا  
 وعذاب الآخرة .

رباه !!

أيامن جل عن كيف ، وأين وعن ند وعن ولد ووالد  
 ملكت الكائنات بحسن صنع ولانت من مخافتك الجلامد  
 أذنت لها تكون فاستكانت وأنت على جميع الخلق شاهد  
 وكنت بحيث لاكون وعون وحاشا أن تحيط بك المعاهد  
 وأنت بحيث أنت وليس أين ولا كيف تمثله الشواهد  
 أحطت بجملة الأشياء علما وأنت لكل ما فيها مراصد  
 ويامن ماله فى الملك ثان ولا مثل وليس له معاضد  
 فقد عودتنا الاحسان لطفًا وصعب عندنا قطع العوايد  
 اعلم - ياأخا الاسلام - أن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

فياأخى :

( جدد السفينة : فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد : فإن السفر طويل ، وأخلص العمل : فإن

الناقد بصير وخفف الحمل : فإن العقبة كثود )



### إن النفس لأماراة بالسوء

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم  
ولا تطع منها خصما ولا حكما فانت تعرف كيد الخصم والحكم  
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه : ينظم  
فراعها وهى فى الأعمال سائمة فإن هى استحلّت المرعى فلا تهم  
كم حسنت لذة للمرء قاتلة

من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

يرحم الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد طلب معاوية بن أبى سفيان من  
ضرار الصدائى أن يصفه له ، فقال : يا ضرار صف لى عليا ، قال : أعفى يا أمير المؤمنين ، قال  
معاوية : لتصفته . قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله : بعيد المدى ، شديد القوى ...  
يقول فصلا ، ويحكم عدلا .. يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من نواحيه .. يستوحش من  
الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته .. كان - والله - غزير العبرة طويل الفكرة .. يقلب كفه ،  
ويخاطب نفسه .. يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن .. كان فينا : كأحدنا .. يجيئنا  
إذا سألناه ، وينبئنا إذا استبأناه ونحن - مع تقربته إيانا وقربه منا - لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه :  
لعظمته ... يعظم اهل الدين ، ويحب المساكين .. لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف  
من عدله .. وأشهد : لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه متمثلا فى  
عجابه قابضا على لحيته يتململ تملل السليم ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يا دنيا : غرى غرى .. أبى  
تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! لقد بايتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك  
حقير ... آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن : لقد كان ذلك .. فكيف حزنك عليه  
يا ضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ؟ !  
يارب ! :-

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحا إلا رجائى رحمة الرحمن  
ووزنت أعمالى على فلم أجد فى الأمر إلا خفة الميزان  
وظلمت نفسى فى فعال كلها ويحى - إذن - من وقفة الديان  
ياأيها الاخوان ! إنى راحل مهما يطل عمرى فإنى فان  
يارب : إن لم ترض إلا ذا تقى من للمسيء المذنب الحيران ؟؟

أخا الاسلام :

الدنيا إلى شتات وكل حى إلى ممات !

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا .. والجبال جبال

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

وقال الجنيد - رحمه الله - دخلت على السرى السقطى عند الموت ، وكان أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجددك ؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ؟ والذي أصابني من طبيبي ؟ . فأخذت المروح لأروح عليه « فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد قائلا :  
القلب محترق ، والدمع مستبق والقلب مجتمع والعبد مفترق  
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى و الشوق والقلق !

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذى كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غداً : ان تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يومئذ تعرضون ، لا تحفى منكم خافية ﴾ (١) .

### خطرات

قال منصور بن عمار رحمه الله : خرجت ذات ليلة مظلمة ، فسمعت من يناجى الله تعالى ويقول :

إلهى ! وعزتك وجلالك : ما أردت بمعصيتي مخالفتك ! ولقد عصيتك - إذ عصيتك - وما أنا بمكانك جاهل ، ولكن خطيئتي عرضت على ، وسولت لى نفسى أعاننى عليها شقائى ، فغرنى سترك المرخى على ، فعصيتك بجهلى وخالفتك لشقوى ، فمن يستنقذنى من عذابك وبجبل من اعتصم ، إن قطع حبلك عنى ؟

وأحسرتاه ! إذا قيل للمخفين : جوزوا وللمثقلين : خطوا .. أتران : مع المخفين أجوز ؟ ام مع المثقلين أخط ؟ ولى ! كلما كبر سنى : كثرت ذنوبى .. ولى : كم أتوب ؟ وكم أدعو ؟ أما آن لى أن أستحى من علام الغيوب ؟ ! ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت ؟

ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت حين تبدى صحائفى ما أتيت  
ما اعتذارى إذا وقفت ذليلاً قد نهانى وما أراى انتهيت  
ياغنيا عن العباد جميعاً وعليما بكل ما قد سعت  
ليس لى حجة ولا لى عذر فاعف عن زلتى وما قد جنيت

ثم قال :

يارب أنت أمرتني ونهيتني وأريتني طرق الضلالة والهدى  
وعلمت انى لا أفر من الذى قدرت لى .. إن كان خيراً أوردى  
وسلكت بى ما شئت للشيء الذى فى الخلق ما أخفيتهم عنهم سدى  
فاقبل بفضلك توبتى لك مخلصاً وارحم فإنى قد بسطت لك اليدا  
واصفح عن العبد الذى يأسى قد جاء معترفاً وعاش موحداً

إذا علمت هذا يا أخى : فصم عن الدنيا وافطر على الموت واعد الزاد لليلة صباحها يوم القيامة ؟ حقيقة لا مفر منها . وهكذا يتطرق بنا الحديث هل يجوز اعداد الكفن والقبر قبل الموت . والجواب على ذلك : نعم

فقد جاء فى الحديث ( أن امرأة أهدت برودة إلى النبى ﷺ وطلبها أحد أصحابه فأعطاه إياها فقال له الصحابة : ما أحسنت . . لقد لبسها النبى ﷺ . . وهو فى حاجة إليها فقال الصحابي والله ما سألتها لألبسها إنما سألته لتكون كفى قال سهل رضى الله عنه - : فكانت كفته ) . ويستفاد من هذا الحديث : جواز تحصيل ما لا بد منه للميت - من كفن ونحوه - وفى حال حياته ويلتحق به : حفر القبر .

وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت . قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لا بأس أن يشتري الرجل موضع قبره ويوصى أن يدفن فيه .

وروى عن عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أنهم فعلوا ذلك .

### فائدة

يستحب للمؤمن أن يسأل الله أن يقبض روحه فى أحد الحرمين الشريفين : لما رواه البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه قال : ( اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موقى بلد رسولك .

فقلت : أئى هذا ؟ فقال : يأتينى به الله إن شاء الله )<sup>(١)</sup> . وروى الطبرانى عن جابر أن النبى ﷺ قال : ( من مات فى أحد الحرمين : بعث آمنا يوم القيامة ) .

### أجر من مات له ولد

اعلم أن الصبر على فقد الأولاد - ذكورا كانوا أم إناثا - له عند الله من الأجر ما يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>(٢)</sup> ،

روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : ( ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة ، بفضل رحمته إياهم )<sup>(٣)</sup> .

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا يوما . فوعظهن . وقال : ( أيا امرأة مات لها ثلاثة من الولد : كانوا لها حجابا من النار ، قالت

(١) أخرجه الامام مالك فى الجهاد : ٣٤ .

(٢) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الجنائز : ٦ ، ٩١ . ومسلم فى البر : ١٥٣ . والترمذى فى الجنائز : ٦٤ . وابن ماجه

فى الجنائز : ٥٧ . والنسائى فى الجنائز : ٢٥ . والامام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، وفى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ ، وفى ٥ :

١٥١ ، ١٥٣ .

امرأة : واثنان ؟ قال : واثنان ؟ (١).

أعمارنا قصيرة :-

يامن بدنياه اشتغل وغره طول الأمل  
الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

ما أقصر الأعمار !

كما أخبر بذلك الصادق المعصوم عليه السلام : فقد روى الترمذى عن أبي هريرة أن النبى ﷺ قال :  
(أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم : من يجوز ذلك) (٢).  
فيأخى : اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك  
وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك .

### الدنيا سجن المؤمن

ما أجل لقاء الله على الإيمان والتقوى ! ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .  
الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو  
الفوز العظيم ﴾ (٣) . ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون  
حسيسها وهم فيها اشتتت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا  
يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ (٤) .

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا  
بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم  
ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾ (٥) .

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنابة ، قال :  
(مستريح أو مستراح منه ! فقالوا : يارسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن  
يستريح من نصب الدنيا والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب) (٦) .

### خاتمة

من المناسب أن نختم بحثنا هذا بأحاديث عن رسول الله ﷺ تملأ النفس طمأنينة وسكينة ومعرفة  
بالله عندما يحل القضاء ، وينزل البلاء بالعبد :

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الاعتصام : ٩ . ومسلم فى البر : ١٥٢ . والترمذى فى البر : ١٣ . والامام أحمد فى ٣ : ٧٢ ، ٣٤ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١ . وابن ماجه فى الزهد : ٢٧ .

(٣) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(٤) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٤٢ . ومسلم فى الجنائز : ٦١ . والنسائى فى الجنائز : ٤٨ ، ٤٩ . والامام مالك فى الجنائز :

٥٥ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٩٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٤ .

عن أبي مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( الظهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملأ - ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك .. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها ) (١) . رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد خيراً وأوسع من الصبر ) (٢) . رواه البخارى ومسلم فى حديث تقدم .

● وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشيء ) . رواه الطبرانى والحاكم .

وعن علقمة قال : قال عبدالله : ( الصبر : نصف الايمان ، واليقين : الايمان كله ) رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجا لأمر المؤمن : إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن .. إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ) (٣) . رواه مسلم .

● وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : ( إن الله عز وجل قال يا عيسى : إني باع من بعدك أمة : إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيتهم من حلمى وعلمى ) . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

وروى عن سخبرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت ، فقالوا يا رسول الله : ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ) . رواه الطبرانى .

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يا رسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين !

وهكذا عشنا فى رحاب قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

### من دلائل القدرة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ

(١) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ ، والامام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ - ٣٤٤ . ومسلم فى الطهارة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٠ ، وفى الرقاق : ٢٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٧ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والامام مالك فى الصلوة : ٧ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٩٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

جَنَّتْ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوَكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ  
 مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٌ لِلْأَكْلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً  
 نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى  
 الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

### تفسير المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة أى: مطروق بعضها فوق بعض ، من قولهم: طارق بين  
 ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع  
 سموات طباقا ﴾ (١) وقوله : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما  
 لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ (٢) .

الخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين ﴿ يعلم مايلج فى  
 الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون  
 بصير ﴾ .

### السماء : هنا السحاب

يقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض أى: جعلناه ثابتا قارا فيها .  
 الذهاب : الإزالة إما بإخراجه من المائتة أو بتغويره فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه .  
 والشجرة : هى الزيتون وطور سيناء : هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور  
 سينين أيضا .

والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتمام قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ  
 حسن ، وصباغ حسن ، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل  
 والزيت .

### التفسير

بعد ذكر الله تعالى مبدأ الانسان ومعاده فى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من

(١) الآية ١٥ من سورة نوح .

(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

طين . إلى قوله . . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿ أقام الأدلة الباهرة والحجج القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته التي ظهرت أثارها ظهور الشمس في ضحاها فمن تلك الأدلة قوله جل جلاله ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ والمراد بها السموات العلاء وسميت طرائق لأنها متطابقة أى متطابقة يطابق بعضها بعضا أو سميت كذلك لأنها طرق الملائكة تغدو فيها وتروح قال تعالى عن تلك السموات :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ (٢)

وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (٣)

وقال سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ (٥) .

إن الذى خلق السموات العلاء وهذه حقيقة لا مرء فيها قادر بالأولى أن يعيد الأجسام بعد الموت ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾ (٦) .  
وقوله تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أى ما كنا مهملين شأننا من شئون المخلوقات فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٧) .

سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾ (٨) .

إن العناية الإلهية قد احاطت بدقائق الأشياء وحقائقها . ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ (٩) .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطايه

(٦) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

(٧) الآية ٥٩ من سورة الانعام .

(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة سبأ .

(٩) الآية ٦ من سورة هود .

(١) الآيات ١ - ٥ من سورة الملك .

(٢) الآية ٤٧ من سورة الذاريات

(٣) الآية ٣٨ من سورة ق . .

(٤) الآية ٥٧ من سورة غافر .

(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة نوح .

الطير سبحانه والوحش مجده والموج كبره والحوث ناجاه  
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنخل يهتف حمدا في خلياه  
والناس يعصوته جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

ثم يسوق القرآن الكريم دليلا آخر على القدرة الفائقة والعظمة المطلقة وذلك في إنزال الماء من  
السماء ، أى السحاب وإسكانه الأرض فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي  
الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾

فالماء نعمة كبرى من نعم الله تعالى ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم  
نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ (١)

ثم هل تأملت معنى قوله تعالى ﴿ بقدر ﴾ إنها كلمة تعطيك معنى النظام الدقيق الذى قام عليه  
الكون كما تعطيك معنى العناية والصيانة وحسن التدبير واتقان الصنع قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا  
عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ (٢)

فهذا الماء الذى ينزل من السماء قد أعد بعناية فائقة فلا هو بالقليل المخل والذى لا يفى بالغرض  
ولا هو بالكثير المتلف والطوفان المغرق فسبحان من قال وخلق كل شيء فقدره تقديرا وجل شأنه إذ يقول  
﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٣)

ثم تتجلى نعمة الله على عباده فى قوله ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾ فالله تعالى لا يقهره أحد  
على فعل شيء ولولا رحمته بنا وتجاوزه عن سيئاتنا لذهب بهذا الماء الذى أسكنه جوف الأرض وذلك  
بإمساك السماء عن المطر أو بذهابه غائرا فى الأرض فلا تجد له أثرا فى بشر أو عين ﴿ قل أرأيتم إن أصبح  
ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ (٤)

فلو أن هذى الريح ثارت وأعصرت أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا  
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجزيه كما شاء راويا

يقول العلم فى حقائقه الثابتة عن الظواهر الجوية :-

إن الظواهر الجوية لقيت تنوعها كثيرا فى القرآن الكريم ولم يكن بد من أن يكون ما ورد فيها من  
الآيات مجملا ، إذ التفصيل غير ممكن ولو أمكن لما فقه العقل حين نزل القرآن منه شيئا بل لقام حائلا  
دون قبول العقل إذ ذاك رسالة القرآن . والعقل لا يزال فى حيرة من حقيقة كثير من تلك الظواهر ، فقد  
وجد الانسان أن الجو من أعوص المشاكل وإن دراسته من أصعب الأمور وصعوبتها ليست راجعة فقط  
إلى تعقد مسائله ولكن إلى ضرورة توحيد جهود الأمم فى القيام بتلك الدراسة لأنها تتعلق بظواهر عامة  
تشمل الأرض بأسرها لا إقليما خاصا منها كالرياح ونشوئها وتصريفها والسحاب ونشوئه وتسخيرها .

(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٤) الآية ٣٠ من سورة الملك .

(١) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الواقعة .

(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .



فإن الرياح التي تهب على بلد أو السحب التي تصب ماءها فيه ليست مناشئها في ذلك البلد ولكن في خارجه من الأقطار القريبة أو البعيدة وإذا كان الانسان قد عرف بصورة عامة العوامل التي تتسبب عنها الرياح فإن تحليل أى ريع معينة إلى عواملها الخاصة من الناحية الكيفية بل من الناحية الكمية ، من أصعب الأمور ، وهذا التحليل حين يمكن لا يتحقق إلا بواسطة معلومات شتى يحصل عليها الانسان بأرصاد شتى في أقطار شتى والأرصاد الجوية إذا أمكنت بانتظام قريبا من سطح الأرض فالقيام بها بانتظام بعيدا عن سطح الأرض في المناطق العليا من الجو لا يصبح في مقدور الانسان وإن كان الانسان الآن في طريقه إلى التمكن منها .

والتفسير الذى وصل إليه الانسان ليس تفسيرا مفصلا للآيات الكونية الواردة في الرياح والسحاب وغيرهما فهو تفسير مجمل تفسير يحوى إشارات إلى أمهات الحقائق الجوية التي كشف عنها العلم الحديث .

ولنمهد لذلك بشرح مختصر لكيفية تكون السحاب والمطر والبرد والرعد والصواعق :

### السحاب

هو بخار ماء تكاثف في طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب القريب من الأرض ولا بد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرها في الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشيع بالبخار ، والثاني أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكلما كانت الرطوبة في الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى في تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه . فتبريد الهواء في المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجوى في تلك المناطق وثانيا قلة الضغط في المناطق الجوية العليا فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدرج كلما زاد الارتفاع ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد في تبريد الهواء الصاعد لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو في المناطق التي يصير إليها فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بهواء العلوى البارد ومرة بتمدده في المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع وحدودها الأخرى كالقباب المتلاصقة المتدرجة في العلو وهى الحدود التي وصلت إليها تلك الكتل في تمددها ، هذا هو السحاب الركام ويكثر في العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الاولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار في الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين ان تحملها في درجة الحرارة الناتجة أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريع واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التي تصطدم بأعاليها ، لأن أعالي الجبال الشاخنة شديدة البرودة فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق والطريق الثانى طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا معترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ويتكاثف سحابها مطرا على أعالي تلك الجبال .

### المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الامكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا . وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا غمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية فهي تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية وإن كان العلم لم يحيط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

سبحانك اللهم أنت الواحد خلقت فقدرت وقسمت الأرزاق بين العباد فعدلت وأقسمت وقولك الحق فقلت: ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (١) .

وقلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صبينا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا وعنبا . وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) .

وقلت : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسا كثيرا ﴾ (٣) . فتبارك الله أحسن الخالقين .

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .

(٣) الآية ٤٨ ، ٤٩ من سورة الفرقان .

قوله تعالى ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون﴾ وهكذا تتجلى قدرة الخالق العظيم في عالم النبات فمن الماء وغيره من العناصر أنشأ الله تعالى لنا ﴿جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ (١). سبحانه من خالق عظيم قلت وقولك الحق ﴿وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ (٢).

وسبحانك من خالق عظيم واحد في ذاتك لا قسيم لك واحد في صفاتك لا شبيه لك واحد في أفعالك لا شريك لك كل الوجود على الوجود شاهد . . قلت وقولك الحق ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (٣).

أنزلت من السماء ماء بقدر فأنشأت لنا به ﴿جنات ألفافا﴾ وحدائق غلبا وفاكهة وأبا وزينت الأرض بالنخيل والأعناب لتأكل منها وتتخذ منها رزقا حسنا وتبادل المنافع في بيعها وشرائها لتسير مواكب الحياة والكل يعيش في رزقك ، وينعم بخيرك ، فأنت صاحب الانعام كله ، يا مبدع الكائنات ، ورافع السموات ، ومدبر الشأن وخالق الانسان ومعلمه البيان ، سبحانه أنت الواحد الديان .

استمع معي أيها العاقل الى كلمة العلم في عالم النبات .

تقول الحقائق العلمية : إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يأخذ الأكسجين وثنائي أكسيد الكربون ، وأحيانا الأزوت ، ومن الأرض يأخذ الماء وبعض الأملاح خصوصا الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعاً في كل هذا ، لكن محور هذا التغذى وهو تمثيل ثنائي أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا في الأجزاء الخضراء من النبات سواء كانت الخضرة في الساق أو الفروع أو الأوراق . لكن ما يحدث في غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث في الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال إن حياة النبات وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثنائي أكسيد الكربون في الأوراق الخضراء .

إن النبات يبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة توضع في الأرض ، وتسقى بالماء فتنبت ، أي تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملا ورقتين صغيرتين خضراوين . هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الانبات . لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٣) سورة النمل الآية ٦٠

والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . . وعلى الجذير والوريقتين تغذى النبات بعد ذلك ، فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ - تمتص الأكسجين من الهواء لاحتراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقا بطيئا وتطرد أكثر فضلات التغذية من ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء . هذه العملية عملية تنفسية ، وتجرى ليلا ونهارا وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ - تمتص ثاني أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيرا كيمياويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثيلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان فى ثاني أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم إن النبات فى التمثيل الخضرى يحلل ثاني أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأكسجين ، والواقع أنه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيبا تنتج عنه مواد عضوية وأكسجين بقدر ما كان فى ثاني أكسيد الكربون . وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الانبات إنما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير فالجذير يمتص الماء والأملاح . والوريقات تمتص الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى تحوله إلى مواد معقدة نسبيا إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر والسويق إلى ساق والوريقات إلى أوراق كثيرة ثم إذا جاء دور الاثمار إلى أزهار وحب وثمار .

ولكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لا بد لاتمامه من طاقة فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ولكن الله سبحانه وتعالى يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثاني أكسيد الكربون والماء .

أى أنها تحول ما تمتصه إلى طاقة كيمياوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى الا نهارا فى حين أن التنفس يجرى نهارا وليلا ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيرا فى الشمس منه فى الظل ، لأنه متوقف أيضا على مقدار ثاني أكسيد الكربون فى الهواء وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية وثاني أكسيد الكربون والماء من ناحية أخرى . أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل ، أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر .

وأما ثاني أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريبا من وجه الأرض مثلا تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ : ١٣ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧

إلى ٢,٩ ، وفي الشتاء من ٣ الى ٣,٦ في كل ١٠,٠٠٠ وتزداد النسبة طبعاً حيث يكثر الاحتراق أو التعفن أو التخمر ، لكن الرياح وانتشار الغازات كفيلاً بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء هي بالحجم نحو من ٣,٣ إلى ٣,٥ في كل ١٠,٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة لكنها تقابل في مجموع الهواء الجوي مقداراً هائلاً من ثاني أكسيد الكربون قدره بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز في الهواء . على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاماً . إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعاً باختلاف النباتات واختلاف الظروف . لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر في الظروف المعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة في الساعة . فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر في أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها في فصول نشاطها في العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التي يخلفها بالتمثيل الخضرى في درجة الحرارة العادية كل عام .

صحيح أن هذه المواد تدخل في عناصرها الأكسجين والهيدروجين وما إليها بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدره بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ : ٨٠ بليون كيلو جرام من ثاني أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثاني أكسيد الكربون في الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات في نحو ثلث قرن ووقفت بوقوفها كل حياة . فانظر إلى عجب صنع الله كيف جعل الموت ضرورياً للحياة . وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت .

إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار في الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها في جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلاً بعد جيل في النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التي يخلق الله منها الجيل الذي بعده . فالأكسجين يستمدّه الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثاني أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى والكربون يستمدّه النبات من ثاني أكسيده من الجو . ويتغذى الحيوان بالنبات ثم يموت النبات فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثاني أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثاني أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويصعد ثاني أكسيد الكربون في الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض وأحياناً من أزوت الجو فيحوّله إلى جزء منه ويتغذى الحيوان بالنبات وتحلل فضلاتها وأجسامها في الأرض بعد الموت وتحول إلى رمد أو تراب أو أزوت يصعد في الجو ، وفي الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى وهكذا دواليك . طبعاً هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بتطور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفذ معه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء في حلقة أخرى . وقد وازن الله سبحانه بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى يبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار وهذا هو سر

خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الانسان فلم يتبته إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوق حظاً من العلم في هذا العصر الحديث .

أما بعد : فاسألوا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقولوا له من خليك؟ إنه سيحييكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا	الذي يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

قوله تعالى ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾  
أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التي تنبت في هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التي يدهن بها وتتخذ إداما للأكلين .

قوله تعالى ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة ﴾ أى إن في خلق الأنعام لعبرة فضلاً عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول في الغدد التي في الضرع إلى شراب طيب لذيد الطعام صالح للتغذية وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها .  
ثم فصل منافعها وذكر منها أربعاً فقال :

● ﴿ نسقيكم مما في بطونها ﴾ فتتفعون بألبانها على ضروب شتى فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .

● ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ﴾ فتأخذون أصوافها وأشعارها ولؤبارها وتتخذونها ملابس وفرشاً للدفع وبيوتا في الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .

● ﴿ ومنها تأكلون ﴾ أى وتأكلون منها بعد ذبحها فكما انتفعتم بها وهى حية تتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال في آية أخرى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾<sup>(١)</sup> وقال ( أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون - وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون )<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة النحل الآية (٧)

(٢) سورة يس الآيات (٧١ - ٧٢ - ٧٣)

## الأنبياء والأمم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾  
فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فُتِرَبْصُوا  
بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا  
وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ  
عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أُنْتَ  
وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ  
أَنْزِلْنِي مُنزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾  
ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبْدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ  
مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ  
وَاتَّرفَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا  
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ  
تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ \* هَيَّاهُ هَيَّاهُ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا  
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ  
﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَدَمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ  
الصَّبْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا  
آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ  
رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۖ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِعُضَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَ الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَاسْتَكْبَرُوا  
وَكَانُوا قَوْمًا عَلِيلِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٧﴾  
فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾  
وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ۖ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَتَّبِعُهَا  
الرُّسُلُ كُلُّهَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ  
أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

## معاني المفردات

الملا : أشرف القوم ، يتفضل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون

فتربصوا : أى انتظروا

بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا

وفار : نبع

التنور : وجه الأرض

استويت : أى علوت

لآيات : أى عبر

لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعاملتهم معاملة من يختبر .

القرن : الأمة ، المراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ <sup>(١)</sup> أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى

ترف ونعيم .

لخاسرون : أى لمغبونون فى أرائكم ، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم .

هيهات : أى بعد

ما توعدون : هو البعث والحساب .

بمؤمنين : أى بمصدقين .

عما قليل : أى بعد زمان قليل

ليصبحن : أى ليصيرن

الصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والغناء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لا ينتفع بها

بعدا : هلاكا .



تترى : من المواثرة : هى التابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى . أحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما تتحدث به تعجبا منه وتلهيا به وقد جمعت العرب الفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع وقال الزمخشري : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول ﷺ ولكن الجمهور على انه جمع .  
الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف .

السلطان : الحجة

عالين : أى متكبرين

عابدون : أى خدام منقادون قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : التوراة : الآية الحجة والبرهان .  
وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما .

الربوة : وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل .

ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار

معين : أى ماء جار

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المأكول والفواكه .

أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم .

### المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن عدد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به وفى خلق الحيوان كذلك - ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا فكفروا بهذه النعم ، وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم بعذاب من عنده ، فأصبحوا كأمس الدابر والمثل السائر وفى هذا تخويف لقريش ، وإنذار لهم على ما يفعلون ، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم .

وبعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين - عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ويعملوا صالح الأعمال كفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ثم حذرهم واندبرهم بأنه عليهم بكل أعمالهم ، ظاهرها وباطنها لا تخفى عليه من أمورهم خافية ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه ولكن الأمم قد فرقت دينها شيعا وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حظوة من ربهم - كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون ●

التفسير

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ،

فقال لهم متعطفًا عليهم مستميلاً لهم لقبول الحق : يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه رباً سواه فإنه لا رب لكم غيره ، ولا معبود سواه .

﴿ أفلا تتقون ؟ ﴾ أى أفلا تحشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ،

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ أى فقال أشراف قومه ورؤسائهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع . . ما نوح إلا رجل منكم ليس له ميزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلاً للنبوة وتلقى الوحي من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون له الصولة والسلطان عليكم وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شيء .

وبعد أن بينوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أموراً ثلاثة :

١ - ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

٢ - ﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا رب غيره ولا معبود سواه .

وفى هذا إنباء إلى أنهم قوم لا رأى لهم وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئاً مثل هذا أنكروا نبوته وفيه إشارة أيضاً إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

٣ - ﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أى وما نوح إلا رجل به خبل فى عقله ، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجل لا يزن قوله ، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة ، فلا يلتفت إذن إلى ما يدعى ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ودحض مزاعمه من صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا : ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أى فتلبثوا وانتظروا ، لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم اذ هم يعلمون انه أرجح الناس عقلاً ، واوزنهم قولاً . ولم يرد سبحانه على هذه الشبهة لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكاً أم بشراً .

وارادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له لا ضير فى ذلك بل هو واجب وإن أرادوا أنه يبغي التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم :

﴿ ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار ، وقولهم :

﴿ به جنة ﴾ كذب صراح لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته وما أوتي من أصالة الرأى وثاقب الفكر .

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم ويأسه من إيمانهم ﴿ وأوحى إلى نوح أنه

لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أى قال انصرني بإنجاز ما أوعدتهم به من عذاب لقولي: ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

ونحو الآية قوله ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

﴿ فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ أى فقلنا حين استنصرنا على كفره قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك ، من التعدى عليك ، ، وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

﴿ فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ .

أى فإذا جاء قضاؤنا من قومك بعذابهم وهلاكهم ، ونبع الماء من وجه الأرض فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كنافقة وجمل وحصان ورمكة وأدخل ولبدك ، ونساءهم إلا من سبق عليه القول منا بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أى ولا تسألني أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتي قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ﴾ أى فإذا اطمانت في السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة .

وفى هذا إيحاء إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تظهير الأرض من دنس شركه واضلاله .

قال ابن عباس : كان في السفينة ثمانون إنسانا نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث ، وثلاث نسوة لهم واثان وسبعون إنسانا وكل الخلائق من نسل من كان في السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

﴿ وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾ أى وقل إذا سلمت وخرجت

من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة ﴿ باسم الله مجريها ومرساها ﴾ وحين ركوب الدابة : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ <sup>(٤)</sup>

(١) سورة القمر الآية (١٠)

(٢) سورة نوح الآية (٢٦)

(٣) قال الحافظ ابن كثير : عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار ، كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنما كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يافث ، وقيل : بل امرأة نوح كانت معهم في السفينة ، وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت ، لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها . والله أعلم وأحكم (تفسير ابن كثير ٤ / ٢٥٥ ط الشعب)

والكنائن : جمع كنة - بفتح الكاف وتشديد النون - وهى امرأة الابن أو الأخ .

(٤) الزخرف : ١٣

وحين النزول ﴿وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين﴾  
 ﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين﴾ أى: إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا  
 وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام- لعبدا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم  
 يستدلون بها على سنتنا فى أمثالهم فينزعرون عن كفرهم .

ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب وقد كنا مختبريهم  
 بالتذكير بهذه الآيات لتنظر ماذا يفعلون قبل أن ننزل بهم عقوبتنا .  
 ونحو الآية قوله ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾<sup>(١)</sup> .

### عبرة وعظة

إن قصة نوح عليه السلام فيها من العبر ما لا يحصى ومن العظات ما لا يستقصى فهو الصبور  
 الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وقال لربه : ﴿إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزداهم  
 دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا  
 واستكبروا استكبارا﴾<sup>(٢)</sup>

وهو الذى ما ترك سبيلا إلى الدعوة إلا سلكها اقرأ معنى قوله تعالى ﴿ثم إني دعوتهم جهارا، ثم  
 إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا﴾<sup>(٣)</sup> لقد سلك بهم طريق الترغيب فقال ﴿فقلت استغفروا  
 ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل  
 لكم أنهارا﴾<sup>(٤)</sup> كما سلك بهم طريق التهيب فقال : ﴿مالكم لا ترجون الله وقارا . وقد خلقكم  
 أطوارا﴾<sup>(٥)</sup> ثم سلك بهم طريق الاقتناع والحجة ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل  
 القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم  
 إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبيلا فجاجا﴾<sup>(٦)</sup> كل هذا بذله نوح ولما لم  
 يجد فيهم أرضا تنبت التوحيد قال نوح ﴿رب إنهم عصون واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ،  
 ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد  
 أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا﴾<sup>(٧)</sup> فانظر إلى هؤلاء الذين أنكروا البراهين الساطعة وجحدوا  
 الحجج القاطعة وعبدوا من دون الله أصناما لا يخلقون وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا  
 نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

فماذا تتوقع بعد هذا الجهاد المتصل والكفاح المستمر إلا أن يدعو نوح بعد هذا الصبر على هؤلاء  
 المعاندين المكابرين ويعلل دعوته بعلّة مقبولة ﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا .  
 إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا﴾<sup>(٨)</sup> .

(٥) سورة نوح الايتان : ١٣ ، ١٤

(١) سورة القمر الآية (١٥)

(٦) سورة نوح الايات : ١٥ - ٢٠

(٢) سورة نوح الايات (٥ ، ٦ ، ٧)

(٧) سورة نوح الايات : ٢١ - ٢٤

(٣) سورة نوح الآية (٩)

(٨) سورة نوح الآية (٢٧)

(٤) سورة نوح الايات (١٠ ، ١١ ، ١٢)

لقد كان نوح من الأنبياء الذين لقبوا بأولى العزم وهم خمسة :  
 نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد عليهم جميعا صلوات الله وتسليماته .  
 ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ (١) .  
 وهذا هو الدرس المشترك في قصص الأنبياء الصبر مع الله ، والصبر بالله ، والصبر في الله والصبر  
 لله ، ولن يكون هناك صبر عن الله لأن الصبر عن الله جفاء .  
 قال الإمام الغزالي في فضيلة الصبر كما جاء في كتابه  
 ( إحياء علوم الدين ) :

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر  
 الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما  
 صبروا ﴾ وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ (٢) وقال - تعالى -  
 ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم  
 مرتين بما صبروا ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٥)  
 - فما من قرينة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال  
 الله - تعالى - : في الحديث القدسي « الصوم لى وأنا أجزي به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه  
 معهم فقال تعالى : ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ (٦) وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى -  
 ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (٧)  
 وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة  
 وأولئك هم المهتدون ﴾ (٨) فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في  
 مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ ( الصبر نصف الإيمان ) (٩) .

وقال ﷺ ( من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى خطه منها لم يبال بما فاتته من قيام الليل

(١) سورة الاحقاف الآية (٣٥)

(٢) سورة السجدة الآية (٢٤)

(٣) سورة الاعراف الآية (١٣٧)

(٤) سورة النحل الآية (٩٦)

(٥) سورة القصص الآية (٥٤)

(٦) سورة الزمر الآية (١٠)

(٧) سورة الانفال الآية (٤٦)

(٨) سورة آل عمران الآية (١٢٥)

(٩) سورة البقرة الآية (١٥٧)

(١٠) الحديث في شعب الإيمان للبيهقي الحديث رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان والخطيب عن ابن مسعود  
 رضى الله عنه بلفظ : الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله .

- وقال البيهقي : تفرد به يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد المخزومي ، والمحموظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع اه قال  
 المناوى : ويعقوب ، قال الذهبي : ضعفه أبو حاتم وغير واحد اه قلت : الحديث رواه أبو نعيم من طريق آخر عن النبي ﷺ  
 وقال : تفرد به المخزومي عن سفيان بهذا الاسناد ، ورواه الثوري عن أبي اسحاق عن جرير النهدي عن رجل من بنى سليم عن  
 النبي ﷺ مثله اه

( راجع حليه الاولياء ٥ / ٣٤ ، فيض القرير ٤ / ٢٣٣ رقم ٥١٣٠ ، الاحياء بتخريج العراقي ٤ / ٦٠ )

وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكنال ثوابه <sup>(١)</sup> .

ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ما عندكم ينقد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

• وروى جابر أنه سئل عليه السلام عن الايمان فقال ( الصبر والسماحة ) <sup>(٣)</sup> .  
وقال أيضا ( الصبر كنز من كنوز الجنة ) <sup>(٤)</sup> وسئل مرة ( ما الايمان فقال الصبر ) <sup>(٥)</sup> وهذا يشبه

قوله عليه السلام ( الحج عرفة ) <sup>(٦)</sup> معناه معظم الحج عرفة  
وقال أيضا عليه السلام ( أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ) <sup>(٧)</sup> وقيل مما أوحى الله تعالى إلى داود

عليه السلام ( تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور ) وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الانصار فقال :

( أمؤمنون أنتم ، فسكنوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب الكعبة ) <sup>(٨)</sup> .

• وقال صلى الله عليه وسلم ( فى الصبر على ما تكره خير كثير ) <sup>(٩)</sup> .

• وقال المسيح عليه السلام : ( إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون )

• وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين ) <sup>(١٠)</sup> ، والأخبار فى هذا لا تحصى .

وأمل الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الاحياء ٦٠ / ٤ : لم أجده هكذا مطولا ، وقال فى ٧٢ / ١ الاحياء ( كتاب العلم ) : وروى ابن عبد البر من حديث معاذ : ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحكم .  
(٢) : سورة النحل الآية ( ٩٦ ) .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ، قاله العراقى ( الاحياء بتخريج العراقى ٦٠ / ٤ )

(٤) الحديث قال عنه العراقى فى تخريج الاحياء : غريب لم أجده ا هـ ونقله عنه العجلونى فى كشف الخفاء ( الاحياء بتخريج العراقى ٦٠ / ٤ ، كشف الخفاء ٢ / ٢٧ رقم ١٥٨٩ )

(٥) قال الحافظ العراقى : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس مرفوعا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد - ويزيد ضعيف الاحياء بتخريج العراقى ٦٠ / ٤

(٦) الحديث رواه الترمذى فى تفسير سورة البقرة ، وأبو داود فى المناسك / ٦٨ ، وابن ماجه فى المناسك ٥٧ ، والدارمى فى المناسك / ٥٤ .

(٧) قال الحافظ العراقى : هذا الحديث لا أصل له مرفوعا ، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس ( الاحياء بتخريج العراقى ٦١ / ٤ )

(٨) قال العراقى : الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء ( الاحياء بتخريج العراقى ٦١ / ٤ )

(٩) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٣٠٧ - ٣٠٨ فى حديث طويل عن ابن عباس رضى الله عنها : واعلم ان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ..

(١٠) الحديث رواه الطبرانى فى حديث عائشة ، وفيه صحيح بن دينار وضعفه العقيل

بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر .

الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .

وأعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله

وجهه : ( بنى الايمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهد والعدل ) .

وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر

له . وكان عمر رضى الله عنه يقول : ( نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين ) يعنى بالعدلين الصلاة

والرحمة ، وبالعلاوة الهدى وما يحمل فوق العدلين على البعيد وأشار به إلى قوله تعالى : ﴿ أولئك

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ <sup>(١)</sup> - وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه

الآية ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ <sup>(٢)</sup> بكى وقال : وأعجابه أعطى وأثنى أى هو المعطى

للصبر وهو المثنى .

● وقال أبو الدرداء : ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل

وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة

معرفة صفة فلا تحصيل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

### بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما

تنظم من ثلاثة أمور :

معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف : هى الأصول وهى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر

الأعمال ، فالمعارف : كالأشجار ، والأحوال : كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد فى جميع منازل

السالكين إلى الله تعالى ، واسم الايمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه فى

اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة

قائمة ، فالصبر على التحقيق عبارة عنها ، والعمل كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية

الترتيب ، بين الملائكة والانس والبهائم ، فإن الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك فى البهائم

والملائكة ، أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها ، وبيانه : أن البهائم سلطت عليها

الشهوات ، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم

الشهوة ، وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما

الملائكة عليهم السلام : فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم

تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يعرفها عن حضرة الجلال بجند آخر

يغلب الصوارف .

وأما الانسان : فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلف فيه إلا شهوة الغذاء

الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب ، وليس له قوة

(١) سورة البقرة رقم (١٥٧)

(٢) سورة ص رقم (٤٤)

الصبر البتة ، اذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتها ومطالبها ، وليس في الصبا الاجند الهوى كما في البهائم ، ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده اكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين : احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف . أما البهيمة فلا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط

فلذلك لا تطلب الا اللذيق

وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية ، يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة في العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجند لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى ذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الانسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى ، وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من ملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تحاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق باتباع الشياطين ، فإذا : ترك الافعال المشتهة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو في مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات في الدنيا والآخرة ، فإذا قوى يقينه اعنى المعرفة التى تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين ، وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى ، وتسخيرهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الادميين ، وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له ، فهو إذن صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال ، وللعبد طوران في الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة ، فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب اعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية ، فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة ، وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مئسئ إليه ، فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فثبت له به حسنة ، وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتها ، فلذلك سميا كراما كاتبين ،



أما الكرام : فلانتفاع العبد بكرمهما ، ولأن الملائكة كلهم كرام برة ، وأما الكاتبون فلا ثباتهم الحسنة والسيئات ، وانما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم ، فإنها وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب ، والمملوكوت ، لا من عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم المملوكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين ، مرة في القيامة الصغرى ، ومرة في القيامة الكبرى ، واعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال ﷺ : ( من مات فقد قامت قيامته ) وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾<sup>(١)</sup> وفيها يقال ﴿ كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾<sup>(٢)</sup> أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة زمرا ، والمجرمون إلى النار زمرا ، لا أحادا ، والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تنزل في الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تنزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحسته من الزلزلة قد توافرت من غير نقصان .

واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التي أنت جالس عليها بالإضافة إلى بدنك ظرف ومكان ، وإنما تخاف من تزلزله ان يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا : فالهواء أبدا متزلزل ، وأنت لا تحشاها إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهي أرضك وترباك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا ، فإذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدت النجوم انكدارا ، فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلًا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ، ولكن أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتشرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها ، فالانجلاء بعد ذلك حصه غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت

(١) سورة الانعام الآية (٩٤)

(٢) سورة الاسراء الآية (١٤)

سماؤه إذا السماء عبارة عما يلي جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ، فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، ونمت الأهوال ، واعلم ان هذه الصغرى وإن حاولنا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أوصافها ، وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فإن للانسان ولادتين : إحداها الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم . وله في سلوكه إلى الكمال منازل واطوار ، من نظفة وعلقة ومضغة وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم ، فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل وأوسع ، وأعظم ، ففي الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل إعداده النشآت ليست محصورة في اثنتين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿ ونشئكم فيها لا تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، ومؤمن بالملك والمملوك ، والمر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وذلك هو الجهل والضلال ، والافتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ، أو ما سمعت قول سيد الأنبياء ( وكفى بالموت واعظا )

أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ ( اللهم هون على محمد سكرات الموت ) أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾<sup>(٢)</sup> ويأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾<sup>(٣)</sup> فيظنون أنهم في الدنيا خالدون ﴿ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾<sup>(٤)</sup> أم يحسبون ان الموق سافروا من عندهم فهم معدومون ، كلا ﴿ إن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾<sup>(٥)</sup> ولكن ﴿ ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ﴾<sup>(٦)</sup> وذلك لقوله ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾<sup>(٧)</sup>

ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم المعاملة ، فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الأدميين ، لما وكل بهم من الكرام الكاتيين ، ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة في الاقبال على الاستفادة منها ، والسيئة في الاعراض عنها ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى

(٥) سورة يس الآية (٣٢)

(٦) سورة الانعام الآية (٤)

(٧) سورة يس الأيتان : ٩ ، ١٠

(١) سورة الواقعة الآية (٦١)

(٢) سورة يس الآية (٥٠)

(٣) سورة يس الآية (٣٠)

(٤) سورة يس الآية (٣١)

الاستفادة ، فلا يتصور منها إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والاعراض . ولعمري : انه قد تظهر مبادئ اشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ، ولا يعاقب على تركها في الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولى البر الشفيق ان كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتين البررة الأخيار ، ان يكتب على الصبى سيئته وحسنه على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولى هذا سمتة في حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها في حق الصبى فينال بها درجة القرب من رب العالمين ، كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرين والصدقيين ، وإليه الإشارة بقوله ﷺ : ( أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة )<sup>(١)</sup> وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ .

### بيان كون الصبر نصف الايمان

اعلم أن الايمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين ، وعلى مقتضى اطلاقين : أحدهما ان يطلق على التصديقات والأعمال

جميعا فيكون للايمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى ، والكسل . فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال : ( من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ) الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني : أن يطلق على الأحوال المشتملة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة ، أو يضره فيها ، وله بالاضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر ، فيكون الشكر أحد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول .

(١) الحديث في مسند الامام أحمد والبخارى وأبى داود والترمذى

الحديث رواه البخارى عن سهل بن سعد بلفظ : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه : السبابة والوسطى . فتح البارى ٤٣ / ١٣

ورواه أبو داود عنه بلفظ : كهاتين في الجنة وقرن بين اصبعيه (أصابعه) الوسطى ، والتي تلى الإبهام . (عون المعبود ١٤ / ٦٠)

ورواه الترمذى عنه بلفظ : وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . (تحفة الأحوذى ٤٦ / ٤٥ / ٦)

(راجع فتح البارى ٤٣ / ١٣ ، عون المعبود ١٤ / ٦٠ ، تحفة الأحوذى ٤٥ / ٦ - ٤٦)

ورواه الطبرانى عن أم سعيد بنت عمرو بن مرة الجمحية بلفظ : من كفل يتيما له أو لغيره من الناس كنت أنا وهو في الجنة كهاتين - قال الهيثمى : رجاله ثقات - (مجمع الزوائد ١٦٣ / ٨)

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه (الايمن نصفان نصف صبر ونصف شكر) <sup>(١)</sup> وقد يرفع أيضا إلى رسول الله ﷺ ، ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، و باعث من جهة الغضب ، فالشهوة تطلب اللذيق والغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال ﷺ بهذا الاعتبار (الصوم نصف الصبر) <sup>(٢)</sup> لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان ، فهكذا ينبغي ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسقتها إلى الايمان ، والاصل فيه ان تعرف كثرة أبواب الايمان ، فإن اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

### بيان الاسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة إلى ما عنه الصبر :

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو : إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك : قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرجسمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلقت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر ، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلوع ، وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان فى احتمال الغنىسمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان فى حرب ومقاتلةسمى شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ والغضبسمى حلما ، ويضاده التذمر ، وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرةسمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان فى إخفاء كلامسمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما ، وإن كان عن فضول العيشسمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظسمى قناعة ، ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال ( هو الصبر ) لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال ( الحج عرفة ) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى : ﴿ والصابرين فى البأساء ﴾ <sup>(٣)</sup> أى المصيبة ﴿ والضراء ﴾ أى الفقر

( ١ ) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان ، والديلمى فى مسند الفردس عن أنس مرفوعا بلفظ : الايمان نصف فى الصبر ونصف فى الشكر .

( جمع الجوامع ١ / ٣٩٧ )

( ٢ ) الحديث رواه ابن ماجة فى أبواب الصيام رقم ٤٤ عن أبى هريرة بلفظ : الصيام نصف الصبر قال المنادى : رمز السيوطى لحسنه وكأنه لم ير قول ابن العربى فى السراج : حديث ضعيف جدا ١ هـ ورواه البيهقى فى شعب الايمان عنه بزيادة : وعلى كل شىء زكاة ، وزكاة الجسد الصيام - قال المناوى : وفيه محمد بن يعقوب ، قال الذهبى فى الضعفاء : له مناكير ، وموسى بن عبيد ضعفوه ، وقال أحمد : لا تحل الرواية عنه )

( فيض القدير ٤ / ٢٥١ رقم ٥٢٠٠ ، ٥٢٠١ )

( ٣ ) سورة البقرة الآية ( ١٧٧ )

﴿وحين البأس﴾ أى المحاربة - ﴿أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ (١) فإذا هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث أن الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع ، لا بد وأن يزل ، وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى ﴿أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم﴾ (٢) فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

### عاد قوم هود

قوله تعالى ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟﴾

يخبر سبحانه وتعالى أنه أوجد من بعد مهلك قوم نوح أهل قرن آخرين أى أمة: أخرى ، والقرن : هو المدة من الزمان التى قد تصل إلى مائة عام ويراد بها هنا أهله الذين وجدوا فيه ، والمقصود بذلك الأمة ، والمراد هنا بأهل القرن الآخرين هم عاد قوم هود عليه السلام والذين كانوا يسكنون الأحقاف بين عمان وحضر موت ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف فى شأنهم ﴿قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين﴾ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجيتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجبثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين﴾ (٣)

وقال تعالى فى سورة هود : ﴿وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون﴾ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى أهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض أهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود﴾ (٤)

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آتِيَةٍ تَعْثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . ﴾ (١)

وقال تعالى في سورة فصلت :

﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنَذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (٢)

وقال تعالى في سورة الأحقاف :-

﴿ وَادْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آهَتِنَا فَأَتَيْنَا بِمَا تَعَدَّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ . فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مِمَّنْ مَطَرْنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ . وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيهَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٣)

لقد أرسل الله إلى هؤلاء الجبابرة رسولا منهم : هو نبي الله هود فقال لهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أى : أطعتم فلا تتقون ولا تحافون ﴿ اتقوا الله الذى خلقكم والجليلة الأولين ﴾ فماذا كان رد الملأ وهم أشرافهم وكبرائهم اسمع معى إلى قوله جل شأنه :-

﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ -

هذا منطق أهل الباطل فى كل زمان ومكان يريدون دائما أن يحقروا أهل الحق ويستهزئوا بهم فأى مطعن لغامز وأى مغمز لطاعن ، فى أن يكون النبى بشرا !! لقد قالوا لنوح من قبل ﴿ ما هذا إلا بشر

(١) سورة الشعراء الآيات (١٢٣ إلى ١٤٠)

(٢) سورة فصلت الآيات (١٥ ، ١٦)

(٣) سورة الأحقاف الآيات (٢١ إلى ٢٦)

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴿ وهنا يقولون عن هود :  
﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾

وقالوا عن رسول الله ﷺ : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ (١) وما أرادوا بذلك إلا أسطوب التحقير والتوبيخ ولقد قالوا للأنبياء مثل ذلك اقرأ معي ما قاله القرآن الكريم عن فرعون : ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين فلو لا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ (٢) .

واقرا معي ما جاء في سورة إبراهيم :  
﴿ قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٣)

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يبعث الأنبياء من البشر حتى يكون بينهم وبين طباع البشر ملاءمة ومواءمة وبذلك يستطيعون أن يعيشوا مشاكلهم وقضاياهم ولو كانوا ملائكة لاختلفت الطباع كل الاختلاف إذ الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٤)

التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، فكيف يتكيفون مع البشر وكيف يعيشون مشاكلهم .

أما الأنبياء فقد أكلوا وشربوا وناموا وتزوجوا ، وكان لهم ذرية قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ (٥)

إن الملأ المستكبرين الذين كفروا بالله ربا ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث بعد ما أترفوا ، وتمتعوا بلذائذ الحياة ، طعنوا في الأنبياء بأنهم بشر يأكلون ويشربون ، ثم بنوا على هذه المقدمة الباطلة نتيجة باطلة بنيت على الزور والبهتان فقالوا : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

(٤) سورة الأنبياء (٢٠)

(٥) سورة الرعد الآية (٣٨)

(١) سورة الفرقان الآيتان (٧ ، ٨)

(٢) سورة الزخرف الآيات (٥١ إلى ٥٣)

(٣) سورة إبراهيم الآيات (١٠ ، ١٢)

المقدمة باطلة : فما بنى عليها باطل ، إذ كون النبی بشرا ، لا يعد طعنا في رسالته ، ولو سمعت معي ما جاء في سورة الاسراء بهذا الصدد ، وما تحدوا به إمام الأنبياء والمرسلين لأخذتكم الدهشة واستولى عليكم العجب قال تعالى في سورة الاسراء :-

﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي !! هل كنت

إلا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴿ (١) .

إن الملائكة من قوم هود أرادوا أن يؤكدوا تكذيبهم بقاء الآخرة فقالوا ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون )

والاستفهام هنا للتوبيخ والتفريع ، وكأنهم قالوا إن وعد الأنبياء بالبعث بعد الموت وتحلل الأجسام وتحويلها إلى تراب وعد كاذب .  
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ثم أكدوا هذا التكذيب بقولهم ( هيهات .. هيهات لما توعدون )  
هيهات : أسم فعل ماض بمعنى بعد ، ولقد أكدوه توكيدا لفظيا بتكراره حتى يزدادوا إنكارا وجحودا بالبعث ، أي بعد هذا الوعد وأصبح في مجال المستحيل ولقد قال أهل مكة ومن لف لفهم هذا الكلام .

قال تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢) .  
وقال عز من قائل :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٣)  
وقال تبارك اسمه ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من

(٣) سورة يس الايات ( من ٧٧ إلى ٧٩ )

(١) سورة الاسراء الايات ( من ٨٨ إلى ٩٦ )

(٢) سورة النحل الآية ( ٣٨ )



قبل ولم يك شيئا<sup>(١)</sup> وقال عظمت قدرته : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير<sup>(٢)</sup> ﴾

لقد أكد الملائ لأقوامهم مرة بعد مرة إنكار البعث فماذا قالوا : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

أى ما حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .  
والخلاصة - أنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم . وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهدوا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :  
﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين ﴾

أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله فتارة يقول : ما لكم من إله غير الله خالق السموات والأرض وأخرى يقول :- إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .  
ولما يشس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة ( وما نحن له بمؤمنين )  
فرع إلى ربه .

﴿ قال رب انصرني بما كذبون ﴾

أى قال بعد أن يشس من إيمانهم وقد سلك في دعوتهم كل مسلك متضرعا إلى ربه : رب انصرني عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .  
فأجابه ربه إلى ما سأل .

﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرن مكذوبك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . ثم أخبر أنه أنجز وعيده منهم فقال :

﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قبل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله فجعلناهم كغثاء السيل ، لا غناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربه وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

ولقد قال الله فى شأن قوم نوح ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ وقال فى قوم هود : ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ وهنا يقول تعالى : ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ :

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعا والمهيمن باق

فاسألوا التاريخ عن الجبابرة والأكاسرة والقيصرة والأباطرة ، اسألوا التاريخ عن عمر ومجد وبني  
وشيد ؟! تلك بيوتهم خاوية ، سكنتها الذئاب العاوية .

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا  
أين الجبابرة الأكاسرة الألى جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا  
من ذا الذى ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق  
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

يأيتها الناس إذا حكمتهم فاحكموا بالعدل ، وإذا غرتك قوتك أيها الجبار فانظر إلى قوة العزيز  
الجبار من فوقك واحذروا الظلم فإنه لا يدوم وإذا دام دمر .  
● جاء فى الحديث :

● ( من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شئ فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا  
درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه  
فحمل عليه ثم طرح فى النار )<sup>(١)</sup> .

● وروى عبد الله بن أبى الدنيا بسنده إلى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :  
( أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها  
بما كانت تعنت لزوجها فى الدنيا ، ويشهد على الرجل يداها ورجلاه بما كان يولى زوجته من خير أو شر ،  
ثم يدعى بالرجل وخدمه مثل ذلك فما يؤخذ منهم دوائق ولا قراريط ولكن حسنات الظالم ترفع إلى

( ١ ) الحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن مردويه  
ورواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه لكنه بلفظ : من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه  
ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرح عليه ( فتح  
البارى ١٨٧/١٤ كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة )

ورواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : رحم الله عبدا كانت لأخيه مظلمة فى عرض أو مال ، فجاءه فاستحله قبل  
أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وإن لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم وقال  
الترمذى حسن صحيح ( تحفة الأحوذى ١٠٣/٧ ) أبواب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص )  
ورواه الامام أحمد عن أبى هريرة أيضا بلفظ : من كانت عنده مظلمة من أخيه من عرضه أو ماله فليحلله اليوم قبل أن يؤخذ  
حين لا يكون دينار ولا درهم ، وإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له أخذ من سيئات صاحبه فجعلت  
عليه ( المسند ٥٠٦/٢ ) .

من هنا تعلم أن الرواية المذكورة فى التفسير مخالفة للروايات الواردة فى ذلك فالواجب استبداها برواية البخارى المذكورة عليه ،  
أو ذكر الروايات الثلاث .

المظلوم ، وسيئات المظلوم تحمل على الظالم ، ثم يؤق بالجبارين بمقامع من حديد فيقال سوقوهم إلى النار ﴿١﴾ .

● وكان شريح القاضي يقول : سيعلم الظالمون حق من انتقصوا ، إن الظالم لينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر والثواب .

● وروى إذا أراد الله بعبد خيراً سلط عليه من ظلمه ،

دخل طاووس اليماني على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق يوم الأذان ، قال هشام : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿ فَأَذْنِ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ فصعق هشام : فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف المعايمة ؟

● وقال سعيد بن المسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة .

● وقال مكحول الدمشقي : ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلماً فما فوق ذلك إلا حضر معهم فيجمعون في تالوب من نار فيلقون في جهنم . وجاء خياط إلى سفيان الثوري رحمه الله تعالى فقال : إني أخيط ثياب السلطان أقراني من أعوان الظلمة ؟ فقال له سفيان : بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الابرة والخيط .

● وروى عن النبي ﷺ أنه قال : ( أول من يدخل النار يوم القيامة السواطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدي الظلمة )

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : الجلاودة ، أي أعوان الظلمة ، والشرط أي بضم المعجمة وفتح الراء : ولاية الشرطة وهم أعوان الولاة والظلمة الواحد منهم شرطي : بضم ففتح - كلاب النار يوم القيامة .

● وروى : إن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام : ﴿ أَنْ مَرَّ ظَلَمَةٌ بَنَى إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْلُوا مِنْ ذِكْرِي فَإِنِ أَذْكَرَ مِنْ ذِكْرِي وَإِنْ ذَكَرِي إِيَّاهُمْ أَنْ أَلْعَنَهُمْ ﴾ (٢) .

وفي رواية : ( فَإِنِ أَذْكَرَ مِنْ ذِكْرِي مِنْهُمْ بِاللَّعْنَةِ )

( ١ ) الحديث أورده الحافظ المنأوى في الجامع الأزهر ١/ ١٨ عن أبي أيوب بلفظ : أول من تختصم يوم القيامة الرجل وامرأته ، والله مايتكلم لسانها ، ولكن يداها ورجلاها فيشهد أن عليها بما كانت تعيب لزوجها ويشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى الرجل وخدمه بمثل ذلك ، ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم لا دوانيق ولا قراريط ، ولكن حسنات هذا تدفع (١) إلى هذا الذي ظلم وسيئات هذا ظلمه تدفع عليه ثم يؤق بالجبارين في مقامع من حديد فيقال : ما وردهم إلى النار فوالله ما أدرى يدخلونها أو كما قال الله وإن منكم إلا واردها الآية .

- وقال : رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثي ضعيف وثق وسعيد بن منصور ، وكان مالك يرضاه وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ وقال السيوطي في الجامع الكبير ١/ ٣٤٠ : رواه الطبراني في الكبير وابن مرويه إلا أنه قال : فيقال اوردهم إلى النار

( ٢ ) الحديث أورده الحافظ المنأوى في ( الاتحافات السنية ص ٣١٩ رقم ٢٣٠ ) بلفظ : أوحى الله إلى داود أن قل للظلمة لا يذكرون ، فإن أذكر من يذكرون ، وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم .

وقال : رواه الحاكم في تاريخه والديلمي وابن عساکر عن ابن عباس رضي الله عنهما . اهـ

وجاء عن النبي ﷺ أنه قال : ( لا يقضى أحدكم في موقف يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه )<sup>(١)</sup> .

وجاء عن النبي ﷺ قال : ( أمر بعبد من عباد الله يضرب في قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلاً قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتموني ؟ قيل : إنك صليت بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره فهذا حال من لم ينصر المظلوم مع قدرته على نصره فكيف حال الظالم ؟ ) .

قال بعضهم : رأيت في المنام رجلاً ممن كان يخدم الظلمة والمكاسين بعد موته ، وهو في حالة قبيحة ، فقلت له : ما حالك ؟ فقال شر حال ، فقلت له : إلى أين صرت ؟ فقال إلى عذاب الله ، قلت : فما الظلمة عن ربهم ؟ قال شر حال أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال بعضهم :

رأيت رجلاً مقطوع اليد من الكتف ، وهو ينادي من رآني فلا يظلمن أحداً ، فتقدمت إليه وقلت له : يا أخى ما قصتك ؟ فقال يا أخى قصتي عجيبة ، وذلك أني كنت من أعوان الظلمة ، فرأيت يوماً صنياداً قد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبني ، فجئت إليه فقلت : أعطني هذه السمكة ، فقال لا أعطيكمها ، أنا آخذ ثمنها قوتاً لعيالي ، فضربته وأخذتها منه قهراً ، ومضيت بها قال فبينما أنا ماش بها حاملها ، إذ عضت على إبهامي عضّة قوية ، فلما جئت بها إلى بيتي وألقيتها من يدي ، ضربت على إبهامي وألمني ألماً شديداً حتى لم أنم من شدة الوجع وورمت يدي ، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم ، فقال : هذه بدو أكلة ، اقطعها وإلا تلفت يدك كلها ، ففقطعت إبهامي ، ثم ضربت يدي فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم ، ففيل لي اقطع كفك فقطعتها ، وانتشر الألم إلى الساعد وألمني شديداً ، ولم أطق النوم ولا القرار ، وجعلت استغيث من شدة الألم .

ففيل لي : اقطعها من المرفق فقطعتها ، فانتشر الألم إلى العضد وضربت على عضدي أشد من الألم ففيل لي اقطع يدك من كتفك ، وإلا سرى إلى جسدك كله فقطعتها ، فقال لي بعض الناس : ما سبب ألمك فذكرت له قصة السمكة ، فقال لي : كنت رجعت من أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة ، فاستحللت منه واسترضيته ولا قطعت يدك ، فاذهب الآن إليه واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك ، قال : فلم أزل أطلبه في البلد حتى وجدته ، فوقع على رجله أقبليهما وأبكي وقلت : يا سيدي سألتك بالله إلا ما عفوت عني ، فقال لي : ومن أنت ؟ فقلت أنا الذي أخذت منك السمكة غصباً ، وذكرت له ما جرى وأريته يدي فبكي حين رآها ثم قال : يا أخى قد حاللتك منها لما قد رأيت بك من هذا البلاء ، فقلت له : بالله يا سيدي هل كنت دعوت على لما أخذتها منك ؟ قال نعم . قلت :

(١) الحديث أورده المنذرى في الترغيب والترهيب ٣/ ٣٠٤ عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : لا يقفن أحدكم موقفاً يقتل فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه .

وقال : رواه الطبراني والبيهقي بإسناد حسن ١ هـ

(٢) سورة الشعراء (٢٢٧)

اللهم هذا تقوى على بقوته على ضعفى وأخذ منى ما رزقتنى ظلما فأرني فيه قدرتك ، فقلت له : يا سيدى قد أراك الله قدرته فى وأنا نائب إلى الله عز وجل عما كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب ولا أكون من أعوانهم ما دمت حيا إن شاء الله تعالى .

### قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ . وفى هذه الآيات الكريمة يخبر تعالى عن سنته الكونية فى الأمم ، فيقول ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ﴾ . أى من بعد عاد قوم هود . أنشأنا وأوجدنا أهل قرون آخرين كثيرين ، فلما كذبوا أهلكتناهم ، وتلك عاقبة الظالمين ، وإذا جاء أجلهم وحان عقابهم لا يسبقون هذا الأجل الذى حدده الله لهم ولا يستأخرون عنه ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ (١) .

قال تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ وقال سبحانه ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال (٢) ثم أخبر تبارك اسمه انه أرسل رسله تترى أى متتابعين فبلغت الرسل رسالات ربها وصدقت بكلماته وكتبه ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٣) .

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، فكذبوا وأوذوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فكان الجزاء العادل ، فأتبعنا بعضهم بعضا أى أخذناهم بالعذاب أمة بعد الأخرى ، وجعلناهم أحاديث للناس وأعاجيب يتحدثون بها ويتلهون من شأنها ﴿ فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ وهلاكهم وعلى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المجيد أن تأخذ من أحداث التاريخ عبرة فإن القصص فى القرآن مدرسة عظمية لم ينزله الله لتسلى به أو نتغنى بقراءته إنما أنزله ليكون لنا تذكركه ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (٤) .

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ (٥) . فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب ﴾

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ (٦) .

(٤) يوسف (١١١)

(٥) الأعراف (١٠١ / ١٠٢)

(٦) سورة هود (١٠٠ - ١٠٤)

(١) سورة نوح (٤)

(٢) سورة الرعد (٩٠٨)

(٣) سورة النحل (٣٦)

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾<sup>(١)</sup>.

### قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون ﴾

قوله تعالى ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ﴾ . أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل - موسى وأخاه هارون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه ، من الايمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتحشى ﴾<sup>(٢)</sup> وقد كان من دأبهم العتو والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض . ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ ﴾ أى فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمننا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا ؟

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والخط من قدرهما . وبيان أن مثلها غير جدير بمنصب الرسالة وقد قاسوا الشرف الدينى والامامة فى تبليغ الوحي عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقد فاتهم أن مدار النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم ، يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة . فيتلقون الوحي من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شيء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر ﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ . ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القلزم ( البحر الأحمر ) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسولهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلمهم يهتدون ﴾ أى ولقد أنزلنا على موسى التوراة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهي بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

(١) سورة الأعراف (٩٦)

(٢) سورة النازعات (١٧ ، ١٨ ، ١٩)

## المسيح وأمه

﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾

ابن مريم هو المسيح ، وإنما كان آية ، لأنه خلق بلا أب ، وإنما كانت أمه آية لأنها حملت به دون أن يمسهما بشر ، وإنما عبر عنهما بأيهما آية ، ولم يقل وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين لاشتراكهما في تلك الآية فكلاهما آية واحدة دالة على قدرة الله تعالى وعظمته ، كما جاء في قوله جل شأنه : ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾<sup>(١)</sup> ولقد أجرى الله على يدي عيسى من المعجزات الكثير والكثير قال جل شأنه :-

﴿ وإذ تخلق من الطين كهية الطير بإذن فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذن وتبرئ الأكمه والأبرص بإذن وإذ تخرج الموتى بإذن ﴾<sup>(٢)</sup> إلى غير ذلك من الخوارق .  
قوله تعالى ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ .

أى وجعلناها ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .  
قال قتادة : الربوة : بيت المقدس وقال مقاتل والضحاك : هى غوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

● قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾

قال الحسن البصرى فى قوله ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه .  
وقال سعيد بن جبير والضحاك : كلوا من الطيبات : يعنى الحلال وقال عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه

وفى الصحيح (وما من نبي إلا رعى الغنم) قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال ( نعم وأنا كنت أرعها على قراريط لأهل مكة )<sup>(٣)</sup> .

وفى الصحيح ( إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده )<sup>(٤)</sup> .

وفى الصحيحين ( إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى )<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الأنبياء (٩١)

(٢) سورة المائدة (١١١)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاجارة رقم/٢ ، وفى كتاب الأطعمة رقم/٥ ، وفى كتاب الأنبياء رقم/٢٩ ، ومسلم فى كتاب الايمان رقم ٣٠٢ ، وفى كتاب الأشربة رقم ١٦٥ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الاستئذان رقم /١٨ ، وأحمد فى مسنده ٣٢٦/٣

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب البيوع رقم ١٥٠

(٥) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ٣١٤/٢ ، ١٦٠ ، ٦٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، البخارى فى كتاب التهجير رقم ٧ ، وفى كتاب الأنبياء رقم ٣٧ ، ٣٨ ، ومسلم فى كتاب الصيام ١٨٩ ، ١٩٠ ، وأبو داود فى كتاب الصوم رقم ٦٦ والنسائى فى كتاب الصيام رقم ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، وابن ماجه فى ابواب الصوم رقم ٣١ ، والدارمى فى سننه فى كتاب الصوم رقم ٤٢

وعن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قالت بعثت إلى النبي ﷺ بقدر لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك في أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالى فشرب منه ، فلما كان الغد أتته أم عبد الله بنت شداد بن أوس ، فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبنى مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه فقال لها « بذلك أمرت الرسل الا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا »<sup>(١)</sup>

وجاء في صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسنند الأمام أحمد عن عدى بن ثابت عن أبي حازم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ .

وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك ﴾<sup>(٢)</sup> .

فهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين كريمين أولهما كلوا من الطيبات وثانيهما واعملوا صالحا ويرحم الله زمانا كانت الزوجة تقول لزوجها صباحا حين يخرج مستقبلا يومه يا فلان اتق الله فينا ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع في الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة . إن الحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد وإدراك الذى يأتى قريب كما أن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ الأمة هنا بمعنى الملة فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد . وتحت لواء واحد هو قول ( لا إله إلا الله ) قال تعالى : يخاطب حبيبه ومصطفاه :- ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال صلوات ربى وسلامه عليه ﴿ أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الحديث أخرجه أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .

(الدر المنثور ١٠ / ٥ تفسير ابن كثير ٥ / ٤٧١ ط : الشعب)

الحديث رواه الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک

(٢) الحديث رواه مسلم في الزكاة رقم / ٦٥ ، والترمذى في تفسير سورة البقرة ، والدارمى في كتاب الرقاق رقم ٩ ، واحمد في مسنده ٣٢٨ / ٢

(٣) سورة الانبياء ( ٢٥ )

(٤) الحديث رواه مالك في كتاب القرآن رقم ٣٢ وفي كتاب الحج رقم ٢٤٦ ، والترمذى في الدعوات رقم ١٢٢ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن طلحة بن عبيد الله بن كريم ، باب في دعاء يوم عرفه بلفظ : خير الدعاء دعاء يوم عرفه وخير ما قلت انا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - وقال حسن غريب ( تحفه الاحوذى

١ / ٤٥ رقم ٣٦٥٥ )



اللهم لك الحمد ان جعلتنا مسلمين وكلمة التوحيد عليها نحيا وعليها نموت وفي سبيلها نجاهد  
وعليها نلقى الله .

## وعيد وتهديد

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾  
أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

## تفسير المفردات

فقطعوا : أى قطعوا ومزقوا

أمرهم : أى أمر دينهم

زبرا : أى قطعاً واحداً زبور .

فذرهم : أى فدعهم واتركهم فى غمرتهم أصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها

الجهالة حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب

نمدهم : نعطيهم مدداً لهم .

## التفسير

يحدثنا المولى الكريم فى هذه الآيات عن الأمم التى تمزقت وتفرقت بعد انبيائها وهم يعلمون أن دين الله واحد هو الاسلام ﴿٥٣﴾ ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴿٥٤﴾ إن هؤلاء الذين تقطعوا وتمزقوا تفرقوا أحزاباً وكلها تقوم على الضلال وتشرذموا وكل فريق بما لديهم فرحون . بجهالتهم وضلالهم ، كل هؤلاء ﴿٥٥﴾ لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴿٥٦﴾ الله تعالى يهدد هؤلاء ويوعدهم فيقول لرسوله ﴿٥٧﴾ فذرهم فى غمرتهم حتى حين ﴿٥٨﴾ أى دعهم فى ضلالتهم وجهلهم وغيهم فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يلعبون ، وفى ريبهم يترددون ، حتى حين أى إلى أن يأتى الله بأمره ﴿٥٩﴾ حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً ﴿٦٠﴾ . أى حسب هؤلاء أنما نمدهم به من المال والبنين أنما فعلنا ذلك إكراماً لهم لا ، انهم مغرورون ﴿٦١﴾ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ﴿٦٢﴾ . فليست كثرة المال والولد دليلاً على الأكرام ، وليس الابتلاء بضيق الرزق دليلاً على الإهانة .

بل إن المقياس العادل هو تقوى الله .

﴿٦٣﴾ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير ﴿٦٤﴾ .

ثم اقرأ معى قوله جل شأنه ﴿٦٥﴾ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمنى . وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه فيقول ربى أهاننى كلا ﴿٦٦﴾ .

ثم اقرأ معي قوله جل شأنه: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيَلْهَمُ الْأَمْلَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿أَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾  
 قال تعالى ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا غُلِيَ لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا غُلِيَ لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾<sup>(٢)</sup>  
 وقال عز من قائل: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>

### المسارعون في الخيرات

إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾

### تفسير المفردات

الخشية : الخوف من العقاب والاشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .  
 والآيات : هي الآيات الكونية في الأنفس والأفاق والآيات المنزل .  
 وجلة : أى خائفة .  
 سابقون : أى ظافرون بنيلها .  
 التفسير

قال الحسن البصري : وإن المؤمن جمع احسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمناء .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الريح مما فيه خسران  
 أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان  
 وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾<sup>(٤)</sup> أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيرا فهو حق كما قال الله ﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له ولا كفاء له .  
 ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون﴾

(٣) سورة التوبة (٥٥)  
 (٤) سورة التحريم (١٢)

(١) سورة الحجر (٣)  
 (٢) سورة آل عمران (١٧٨)

أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون الا يتقبل منهم لحوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط .

● كما قال الامام احمد عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال ( لا ) يابنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل (١) .

وقال الامام أحمد عن أبى خلف مولى بنى جحج أنه دخل مع عبيد بن عمر على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحبا بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أوتلم بنا ، فقال أخشى أن أملل فقالت : ما كنت لتفعل ، قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت آية آية ؟ قال ﴿ الذين يؤتون ما أتوا ﴾ ﴿ والذين يؤتون ما أتوا ﴾

فقالت أيها أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعا أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ، فقلت ﴿ الذين يأتون ما أتوا ﴾ فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف (٢) . والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لانه قال ﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾

فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك الا يكون من السابقين بل من المقتصرين أو المقصرين .

### قطع المعاذير

وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ  
فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ  
بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ  
عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَبِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ  
يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ  
مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوهُمُ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٠﴾  
وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ  
فَهُمْ عَنِ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ١٥٩ ، ٢٠٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم / ٢٠

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٦ / ٩٥

﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَكِبُونَ ﴿٧٤﴾ \* وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤَ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا نَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَا بَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿٨٣﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذْ أَذْهَبَ كُلَّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

## تفسير المفردات

الوسع : ما يتسع على الانسان فعله ولا يضيق عليه

الكتاب : هو صحائف الأعمال

بالحق : أى بالصدق

الغمرة : الغفلة والجهالة

من دون ذلك : أى غير ذلك

المترف : المتوسع فى النعمة

جار الرجل : صاح ورفع صوته

لا تنصرون : أى لا يجيركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون : أى: تعرضون عن سماعها وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب (العقب مؤخر الرجل)  
ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه .  
سامرا : أى: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه والهجر (بالضم) الهذيان .  
الجنة : الجنون .  
الذكر : القرآن الذى هو فخرهم .  
عن ذكرهم : عن فخرهم .  
خرجا : أى جعللا وأجرا .  
صراط مستقيم : أى طريق لا عوج فيه  
لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .  
لج فى الأمر : تمادى فيه .  
يعمّهون : أى يتحiron ويترددون فى الضلال .  
استكانوا : خضعوا وذلوا .  
ما يتضرعون : أى يجدون التضرع والخضوع ، مبلسون : أى: متحiron آيسون من كل خير .  
ذراكم فى الأرض : أى خلقكم . وبثكم فيها  
اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أى: يتردد عليه بالمجيء  
والذهاب .  
الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدثة وأعجوبة .  
تتقون : أى تحذرون عقابه .  
الملكوت : الملك والتدبير .  
يجير : أى: يغيث ، من قولهم: أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ولا يجار عليه : أى: لا يعين أحد منه  
أحدا .  
تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشـد .  
التفسير

قوله تعالى ﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم  
فى غمرة من هذا وهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم  
يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم  
تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾

هذا منطق العدالة الالهية المقرون بالحكم والرحمة ﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ لقد اقتضت  
عدالة الله وهو الحكم العدل ألا يكلف عباده إلا بما يطيقون ويستطيعون ، ثم اقتضت تلك العدالة أن  
يسجل الأعمال فى صحائفها حتى يرى العبد ما قدمت يداه فى يوم ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت  
وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١) فياله

من يوم ما أطوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ (١).

وأقرأ قوله جل شأنه: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون. هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ (٢). تباركت ربنا وتعاليت ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وملكك فقدرت ، وبطنت فخبرت وجل جلالك إذ تقول ﴿ ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ﴾ سبحانه أنت القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٣) وأنت القائل: ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٤). لقد حرمت الظلم على نفسك ، وحرمته على خلقك ونهيتهم عنه وأوعدت الظالمين في قولك ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ (٥).

أما هؤلاء الذين صمت آذانهم عن سماع الحق ، وعميت بصائرهم عن إدراكه فالله يقول فيهم ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ أى فى جهالة وضلالة عن منطق الحق المبين ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ أى أعمال سيئة غير ما تقدم وهؤلاء فاعلون لتلك الأعمال السيئة وسوف يحاسبهم الله على سوء اختيارهم ويقال لهم ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٦).

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ﴿ وذرى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً إن لدينا أنكالاً وجحياً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴾ (٧).

وقال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ (٨) وقوله ﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتكم أو سكتكم لا محيد ولا مناص ولا وزر لزم الأمر ووجب العذاب .

فالله إذا حكم لا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه وهو سريع الحساب ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾ (٩) فجددوا السفينة فإن البحر عميق ، وأكثروا من الزاد فإن السفر طويل ، وأخلصوا العمل فإن الناقد بصير وخففوا الحمل فإن العقبة كثود ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالكَ أمره

(١) سورة آل عمران (٣٠)

(٢) سورة الجاثية (٢٧ / ٢٩)

(٣) سورة النساء (٤٠)

(٤) سورة يونس (٤٤)

(٥) سورة إبراهيم (٤٢)

(٦) سورة آل عمران (١٨٢)

(٧) سورة المزمل (١١ / ١٣)

(٨) سورة ص (٣)

(٩) سورة الشورى (٤٧)

متنعما فيها بكل نفيسة متلذذا فيها بأنعم عصره  
لا يعتريه الهم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله  
ما كان هذا كله في أن يفى بمبيت أول ليلة في قبره

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي: إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير﴾ (١)

﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ (٢).

وقال سبحانه وتعالى :

﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا﴾ (٣).

إن النكوص على الأعقاب بعد ما تبين الهدى ردة عن الحق وانتكاسة عن سبيل الرشاد .  
﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم. ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم﴾ .  
﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾

وقوله ﴿مستكبرين به سامرا تهجرون﴾ في تفسيره قولان

أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير في ( به ) فيه ثلاثة أقوال

أحدها :- أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام

الثاني :- أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، كانوا يذكرونه في سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة ، من أنه شاعر أو كاهن أو ساحر أو كذاب أو مجنون ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء .

وقيل : المراد بقوله ﴿مستكبرين به﴾ أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائي في تفسير من سننه أخبرنا أحمد عن عبد الأعلى : أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿مستكبرين به سامرا تهجرون﴾ فقال مستكبرين بالبيت يقولون عن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه .

(١) سورة غافر (١٢)

(٢) سورة الزمر (٤٥)

(٣) سورة الاسراء (٤٦)

قوله تعالى :

﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ .

### التفسير

قال قتادة في قوله تعالى: ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ ( إذن والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلکوا عند ذلك ، لو أنهم تدبروا القرآن وحركوا به القلوب ووقفوا عند عجائبه لحلت الهداية قلوبهم ﴾ إن هذا القرآن يهدى للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾ (١) وقال سبحانه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . ﴾ (٢)

لقد بلغ من تدبر الصالحين للقرآن أنهم كانوا إذا قرأوا قوله تعالى: ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٣) . عندما يقرأون هذه الآية كانوا يظنون الليل سيكون يقول أحدهم لست أدري من أى الفريقين أنا ؟ لذا : سميت تلك الآية « بكاءة المؤمنين » . لقد كان الطعام يؤق به لرسول الله فيأمرهم برفعه لمدة ثلاثة أيام وذلك بعد ما نزل عليه قوله تعالى في حق أهل النار ﴿ إن لدينا أنكالا وجحima . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ (٤) كلما تذكر طعامهم عذفت نفسه عن الطعام إن هذا الكتاب من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ﴾ وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٥) .

قوله تعالى ﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ أى أم اعتقدوا أن مجيء الرسل أمر لم تسبق به السنن فاستبعدوا وقوعه لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه .

قوله تعالى ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أى بل أكان محمد دخيلا عليهم وغريبا عنهم ألم يعرفوه ويعاشروه لقد عرفوه بالصادق الأمين وكان ذلك لقبه بينهم فكيف ينكرونه بعد أن دعاهم إلى توحيد الله ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون

(١) سورة الاسراء (٩)

(٢) سورة محمد (٢٤)

(٣) سورة الجاثية (٢١)

(٤) سورة المزمل (١٢ ، ١٣)

(٥) سورة فصلت (٤١ ، ٤٢)



فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴿١﴾  
 إن الله تعالى قال عن رسوله ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ ﴿٢﴾ فذكره هنا بوصف الصاحب لهم  
 لأنه عاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاماً فكيف لا يعرفونه وهو صاحبهم إن هذا هو الضلال المبين  
 والبهتان العظيم والاثم الجسيم .

قال جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا  
 نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبه لثائب كسرى حين بارزهم .  
 وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأل وأصحابه عن صفات النبي  
 ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .  
 قوله تعالى ﴿ أم يقولون به جنة ﴾ أى بل يقولون به جنون وهم يعلمون أنه أعقل العقلاء  
 وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ ﴿٣﴾ وكيف يكون به  
 جنة وهو أذكى الأذكى ، أليس هو الذى فض النزاع يوم اختلفت القبائل على وضع الحجر الاسود .  
 ولولا أنهم حكموه لخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب . أيكون  
 مثل هذا به جنة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ ﴿٤﴾  
 ﴿ ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی  
 خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ ﴿٥﴾  
 سيدى أبا القاسم يارسول الله :

يا سيد العقلاء يا خير الورى يامن أتيت إلى الحياة مبشراً  
 ويعثت بالقرآن نورا هاديا وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا  
 والله ما خلق الاله ولا برى بشرا يرى كمحمد بين الورى .

قوله ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ فالتوحيد حق والأنبياء حق ، والبعث حق  
 والملائكة حق ، والكتب حق ، وكل ما جاء به محمد ﷺ هو الحق المبين .  
 ولكنهم يكرهون ذلك الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الغفلة ودياجير الباطل وغياهب  
 الانكار .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقي رجلاً فقال له ( أسلم ) فقال الرجل إنك لتدعونى إلى أمر  
 أنا له كاره . فقال نبى الله ﷺ ( وإن كنت كارهاً ) ﴿٦﴾ وذكر لنا أنه لقي رجلاً فقال له ( أسلم ) فتصعده  
 ذلك وكبر عليه . فقال له نبى الله ﷺ ( رأيت لو كنت فى طريق وعر وعت فلقيت رجلاً تعرف وجهه

(١) سورة يونس (١٦ ، ١٧)

(٢) سورة النجم : ٢

(٣) سورة الطور (٢٩)

(٤) سورة الكهف (٥)

(٥) سورة القلم (من الآية ١ إلى الآية ٦)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١٠٩/٣ ، ١٠١ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : أسلم ، قال : أجدنى كارهاً ، قال  
 أسلم وإن كنت كارهاً .

وتعرف نسبة فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟ ) قال نعم قال ( فوالذى نفس محمد بيده إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه )<sup>(١)</sup> .

وذكر لنا أن نبي الله ﷺ لقي رجلا فقال له ( أسلم ) فتصعده ذلك فقال له نبي الله ﷺ ( أرايت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، إذا ائتمنته أدى إليك ، أهو أحب اليك ، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ؟ ) قال بل فتأى الذى إذا حدثنى صدقنى وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبي الله ﷺ ( كذاكم أنتم عند ربكم )<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ قال مجاهد وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ، ومن فيهن أى لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم فى قولهم ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾<sup>(٣)</sup> ثم قال ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لمسكنم خشية الإنفاق ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ﴾<sup>(٦)</sup> . ففى هذا كله يتبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ بل أتيناهم بذكرهم ﴾ أى القرآن ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ وقوله ﴿ أم تسألهم خرجا ﴾ قال الحسن أجرا وقال قتادة جعلا ﴿ فخراج ربك ﴾ أى أنت لا تسألهم أجره ولا جعللا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

كما قال ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله ﴾<sup>(٧)</sup> وقال ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾<sup>(٨)</sup> وقال ﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى ﴾<sup>(٩)</sup> وقال ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا ﴾<sup>(١٠)</sup> . قوله تعالى : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ .

(١) الحديث رواه أحمد والضياء المقدسى

(٢) الحديث أورده السيوطى فى جامعه الكبير ٩٧ / ١ : بلفظ أرايت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك ، والآخر يصدقك ولا يخونك أيها أحب إليك فكذا كم أنتم عند ربكم - وعزاه لأحمد والحكيم الترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان عن والد أبى الأحوص .

والحديث عن أحمد فى المسند ٤ / ١٣٧ فى حديث طويل .. أرايت لو كان عبدان أحدهما يطيعك ولا يخونك والآخر يخونك ويكذبك ، قال قلت : ( بل الذى لا يخوننى ولا يكذبنى ويصدقنى الحديث أحب إلى ، قال كذا كم أنتم عند ربكم عز وجل .

(٣) الزخرف (٣١)

(٤) الزخرف (٣٢)

(٥) الاسراء (١٠٠)

(٦) النساء (٥٣)

(٧) سورة سبأ (٤٧)

(٨) سورة ص (٨٦)

(٩) سورة الشورى (٣٣)

(١٠) سورة يس (٢٠ ، ٢١)

قال الامام أحمد : عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجله والآخر عند رأسه فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة ، فقال : رأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة ، وحياضاً رواء أتبعوني ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم فأوردهم رياضاً معشبة وحياضاً رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلت لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعوني ؟ فقالوا بلى ، قال فإن بين أيديكم رياضاً أعشب من هذه وحياضاً هي أروى من هذه فاتبعوني قال : فقالت طائفة صدق والله لتتبعه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه . (١)

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( إنني ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار ، وتغلبوني تتقاجون فيها تقاجم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرسل حجزكم ، وأنا فرطكم على الخوض فتزدون على معا واشتاتاً أعرف بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الأبل في إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم رب العالمين أي رب قومي أي رب أمتي ، فيقال يا محمد إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقري على أعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك من الله شيئاً قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل بعيراً له رغاء ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل فرساً لها حمحمة فينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت ولأعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل سقاء من آدم ينادي يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئاً قد بلغت )

قوله تعالى ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾

يقال نكب عن الطريق إذا زاغ عنها وذلك لأنهم لما عدلوا عن اتباع الحق زاغوا ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

قال جل شأنه ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (٣) .

وقال جل شأنه ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ (٤) وقال سبحانه ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ (٥) وقال عز وجل ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾ (٦) .

(٤) سورة البقرة (١٦)

(٥) سورة البقرة (١٧٥)

(٦) سورة البقرة (٨٦)

(١) الحديث رواه أحمد في مسنده ٦٦٧ / ١

(٢) سورة الصف (٥)

(٣) سورة فصلت (١٧)

لقد أنكروا البعث وما بعده ( وقالوا إن هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ) هؤلاء وأمثالهم من أصحاب المذاهب المادية يقول الله فيهم ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ (١)

قوله تعالى ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون ﴾ ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ (٢)

وقوله جل جلاله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدلهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (٣)

لقد علم الله فيهم هذا فإنه سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٤) وقال سبحانه ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٥) هؤلاء وضرباؤهم لو أن الله تعالى رحمهم وكشف عنهم ما نزل بهم من ضر من فقر وقحط وبلاء ومرض لتمادوا في طغيانهم وعتوهم يعمهون ويتحIRON فذرهم في غمرتهم حتى حين وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . ومن هنا نعلم أن الله تعالى لا يعجل كمعجلة أحدنا بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ (٦) قال سبحانه ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (٧) ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾ (٨) ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٩) . قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

### التفسير

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلhez - يعنى الوبر والدم - فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ .

(٦) سورة إبراهيم (٤٧)

(٧) سورة هود (١٠٢)

(٨) سورة المائدة (١٠٠)

(٩) سورة البقرة (٢٨١)

(١) سورة الكهف (١٠٠ ، ١٠١)

(٢) سورة الانفال (٢٢ ، ٢٣)

(٣) سورة الانعام (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)

(٤) سورة يونس (٩٦ ، ٩٧)

(٥) سورة الحجر (١٤ ، ١٥)

● وكذا رواه النسائي عن محمد بن عقيل وأصله في الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال ( اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف ) .  
ومعنى ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ أى ما صغوا ، ومعنى وما يتضرعون : أى وما يدعون الله قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (١)

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصب  
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

وقال ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين عن عمر بن كيسان حدثني وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أتشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ، فقال وهب نحن في طرف من عذاب الله والله يقول ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقبل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثت زيادة عبادة .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى إن هؤلاء القوم والذين غرتهم الحياة الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها لو أن الله تعالى أخذهم بغتة وفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد . فإنهم حينئذ سيبلسون وييشون حيث لا مفر ولا مرد ، إذ العذاب إذا جاء لا يؤخر ﴿ ويوم تقوم الساعة يلبس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ (٢) فيا أمة الاسلام بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر . أو الساعة والساعة أدهى وأمر .  
قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . هل ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (٣) وقال عز من قائل ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾ (٤) .

ثم عدد الله تعالى عليهم نعمه فقال ﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٥) .

فهذه نعم لا تحصى وتلك آيات وآلاء لا تستقصى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٦) .

(١) سورة الأنعام : (٤٢/٤٣/٤٤/٤٥)

(٢) سورة الروم (١٢/١٣)

(٣) سورة الزخرف (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧)

(٤) سورة الروم (٥٥)

(٥) سورة المؤمنون (٧٨)

(٦) سورة النحل (٧٨)

﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾<sup>(١)</sup> .  
 وكان الواجب أن تشكروا صاحب النعم فشكر المنعم واجب ولكن قليلا ما تشكرون ثم بين الله  
 تعالى قدرته على خلقهم وتكثيرهم ونشرهم في قارات الأرض فقال ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه  
 تحشرون ﴾ والليل معها طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر معها طال فلا بد من دخول القبر ﴿ إن إلينا  
 إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾<sup>(٢)</sup>

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد  
 ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد  
 أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ .  
 هذا إنكار صريح منهم لبعث الأجسام بعد الموت ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى  
 وما نحن بمنشرين فاتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٣)</sup>  
 قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناها إلا بالحق  
 ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم  
 ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى  
 البطون . كفى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم .  
 ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به  
 تمترون . إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك  
 وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى  
 ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم . فإنما يسرناه بلسانك لعلمهم  
 يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾  
 أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدي قوم  
 زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الانكار فقالوا :  
 ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب قد تلقفناها  
 منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .  
 ونحو الآية قوله جل شأنه ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر الانسان أنا  
 خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾<sup>(٥)</sup>

وقوله ﴿ أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه

(٣) سورة الدخان (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦)

(٤) سورة الدخان (٣٨ إلى ٥٩) .

(٥) سورة مريم (٦٦ / ٦٧)

(١) سورة الروم (٤٠)

(٢) سورة الغاشية (٢٥ / ٢٦)

قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿١﴾  
 وقوله ﴿قلوب يومئذ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمرءودون فى الحافرة . أئذا كنا عظاما  
 نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة﴾ ﴿٢﴾ .  
 ثم يقيم المولى الكريم الأدلة والبراهين على وحدانيته وقدرته . وعلمه وإرادته فيتوجه إليهم بهذه  
 الأسئلة فيقول لحبيبه ومصطفاه : .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات  
 السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير  
 ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناكم بالحق وإنهم  
 لكاذبون ﴾ .

### التفسير

فى هذه الآيات الكريمة الناطقة بالحق المبين الدالة على صدق اليقين يقرر سبحانه وحدانيته  
 واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده ،  
 لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ ، أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية  
 وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه فى الالهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين  
 عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ، ولا يستبدون بشئ بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى  
 ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ﴿٣﴾ فقال ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ أى من مالكتها الذى  
 خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات . ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾  
 ﴿ سيقولون لله ﴾

أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له . فإذا كان ذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ؟ ﴾ أنه لا  
 تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من  
 الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم  
 يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ انه قال :  
 « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة وفى الحديث الآخر « ما  
 السموات السبع والأرضون السبع وما بينهما وما فيهن فى الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن  
 الكرسي بما فيه بالنسبة إلى العرش كذلك الحلقة فى تلك الفلاة » ﴿٤﴾ .

ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين

(١) سورة يس (٧٧ / ٧٨ / ٧٩)

(٢) سورة النازعات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)

(٣) سورة الزمر (٣)

(٤) الحديث زواه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة رقم ١٨

ألف سنة . وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة .  
وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمي عرشا لارتفاعه ، وقال الأعمش عن كعب الأحبار :  
إن السموات والأرض في العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات  
والأرض في العرش إلا كحلقة في أرض فلاة ، وقال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : العرش  
لا يقدر قدره أحد : وفي رواية إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا  
قال هنا . ﴿ ورب العرش العظيم ﴾ أى الكبير وقال في آخر السورة ﴿ رب العرش الكريم ﴾ أى  
الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة في الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه ياقوتة  
حمراء .

- وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش نور وجهه وقوله ﴿ سيقولون لله قل  
أفلا تتقون ﴾ أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تحافون عقابه وتحذرون  
عذابه ، في عبادتكم معه غيره واشراككم به قال أبو بكر عبد الله محمد بن أبي الدنيا القرشي في كتاب  
التفكير والاعتبار : حدثنا اسحق بسنده عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يحدثنا عن  
امرأة كانت في الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها يا أمه من خلقتك ؟ قالت  
الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقتى ؟ قالت الله قال فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال  
فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت الله قال فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله  
قال فاني اسمع الله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أى بيده الملك . ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أى متصرف  
فيها وكان رسول الله ﷺ يقول ﴿ لا والذي نفسى بيده ﴾ وكان إذا اجتهد في اليمين قال : « لا ومقلب  
القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف .  
﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ .

كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر في جواره ، وليس لمن ذونه أن يجير  
عليه . ولهذا قال الله ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾ . أى هو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له  
الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن :  
وقال الله ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ أى لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره  
وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم كما قال تعالى ﴿ فوريك لنسألهم أجمعين عما  
كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وقوله ﴿ سيقولون لله ﴾ أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى  
وحده لا شريك له ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أى فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع  
اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الاعلام بأنه - لا إله إلا الله وأقمنا  
الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك .

﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أى في عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال في آخر السورة ﴿ ومن



يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴿١﴾ فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الافك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لأبائهم واسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (٢)

قوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾

### التفسير

سبحانك رب أنت الواحد في ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد في صفاتك لا شريك لك الواحد في خصالك لا شريك لك ، تنزه عن الشريك ذاتك ، وتفردت عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة .

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٣) . تنزهت عن الولد والوالد . ﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾

وتنزهت عن الشريك والصاحبة ﴿ وما كان معه من إله ﴾ إذ لو تعددت الآلهة لفسدت السموات والأرض .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (٤) .

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (٥) . لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ولنازل بعضهم بعضا ، ليعلو بعضهم على بعض ويغلبه ، أما وقد قام الكون على نسق رتيب ونظام بديع فدل ذلك على أن له إلها واحدا . ﴿ بديع السموات والأرض أن يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾ (٦) إنه الواحد عالم الغيب والشهادة أحاط علمه بما حضر وما غاب وهو يعلم الظاهر والباطن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فتعالى وتنزه عما يشركون من ولد وصاحبة وشريك .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٧) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد .

يا حى قىوم أنت المرتضى وإلى علاك عنى الجنين الساجد .

(١) سورة المؤمنون (١١٧)

(٢) سورة الزخرف (٢٢)

(٣) سورة الاخلاص (١/٢/٣/٤)

(٤) سورة الانبياء (٢٢)

(٥) سورة الاسراء (٤٢/٤٣/٤٤)

(٦) سورة الانعام (١٠١/١٠٢/١٠٣/١٠٤)

(٧) سورة الحشر (٢٢/٢٣/٢٤)

## توجيه وإرشاد

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِينِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُوا ﴿٩٨﴾

## التفسير

هذا إرشاد من الله تعالى وتوجيه لنبيه ومصطفاه يأمره فيه أن يدعو الله تعالى ، أن أراه عذاب هؤلاء ، يدعو الله قائلا ﴿ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴾  
فما أجمل هذه الدعوة حين نزول العذاب على كل جبار عنيد جاء في الحديث الذي رواه الامام أحمد والترمذي وصححه « واذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون »  
قوله تعالى ﴿ وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ﴾ .

هذا إخبار مؤكد عن قوله الحق وله الملك ، يقول فيه للمصدق المصدق إنا لقادرون على أن نريك ما نعدهم من العذاب ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليهما قديرا ﴾  
سبحانه كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفرج كل ملهوف من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فاليه منقلبه .

ثم قال تعالى مرشدا له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الاحسان إلى من يسئ إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾

وهذا هو الدواء الناجح والجواب النافع لشياطين الانس ان تقابل سيئتهم بالحسنة .  
أما شياطين الجن فقد بين الله الدواء والعلاج والشفاء من وساوسهم فقال ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين . وأعوذ بك رب أن يحضروا ﴾ .

وقد جاء هذا الدواء في سورة الأعراف مرة بشأن شياطين الانس في قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالمعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ (١) هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ ، سأل الأمين جبريل عنها قال جبريل لا ادرى حتى اسأل رب العزة ثم قال لاستاذ الانسانية الأكبر يا رسول الله ربك يقول لك معناها ان تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك اما شياطين الجن فإن الله وصف علاجهم في هذه السورة في قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (٢)

(١) سورة الأعراف (١٩٩)

(٢) سورة الأعراف (٢٠٠ - ٢٠١)

كما جاء ذلك الدواء في سورة فصلت ففي شياطين الانس يقول تعالى مبينا العلاج ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أي في الدنيا ﴿ وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ أي في الآخرة .

يخاطبني السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا  
يزيد سفاهة وازيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

ثم يبين الله تعالى لنا علاج شياطين الجن فيقول :  
﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾  
وهنا في سورة المؤمنون يقول ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (١) -  
والهمزات : الوسوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به  
﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .  
ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم اني أعوذ بك من الهرم واعوذ بك من الهدم ومن الغرق واعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت » (٢) .  
قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفرع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها في عنقه (٣) .

### حالم عند الموت وبعض مشاهد القيامة

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٢٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، ١٢٠ ، والترمذي في أبواب الاقامة رقم ٦٥ ، وابن ماجه في أبواب الاقامة رقم ٢ ، وفي أبواب الصلاة رقم ٣٣ ، وأحمد في مسنده ٤٠٣/١ ، ٤٠٤ ، ٨٠/٣ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٦ / ١٥٦  
(٢) الحديث رواه أبو داود في سننه في كتاب الوتر رقم ٣٢ ، والنسائي في سننه في كتاب الاستعاذه رقم ٦١ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٣٥٦ ، ٤١٧ / ٣ .  
(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي وقال حسن غريب ( المسند ١٨١ / ٢ ، عون المعبود ١ / ٣٨٦ ، رقم ٣٨٧٥ - كتاب الطب ، باب كيف الرقى ، تحفة الأحوذى ٩ / ٥٠٧ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٠ )

بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ١٠١ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ١٠٤ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ تَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٠٥ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ١٠٦ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ١٠٧ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ١٠٨ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ١٠٩ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ١١٠ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَآيِزُونَ ١١١ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِ الْعَادِينَ ١١٣ قُلْ إِنْ لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجِعُونَ ١١٥ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ١١٦ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ١١٧ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ١١٨

## معاني المفردات

- برزخ : أى حاجز بينهم وبين الرجعة .  
 ولا يتساءلون : أى لا يسأل بعضهم بعضا .  
 موازينه : إما المراد بها الموزون من الأعمال وإما المراد الميزان .  
 المفلحون : أى الفائزون .  
 خسروا أنفسهم : أى غبنوها .  
 تلفح : أى تحرق .  
 كالحون : أى عابسون متقلصو الشفاه .  
 الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة وهى ضد السعادة .  
 اخسروا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان .

سخرىا : أى هزوا .  
 ذكرى : أى خوف عقابى .  
 اللبث : الاقامة .  
 العادين : الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم  
 والعبث : ما خلا من الفائدة  
 الحق : أى الثابت الذى لا يبيد ولا يزول ملكه  
 والعرش : هو مركز تدبير العالم ووصفه بالكريم لشرفه وكل ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى  
 قوله : ﴿ وزرع ومقام كريم ﴾ وقوله : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾  
 يدعو : يعبد  
 حسابه : أى جزاؤه

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعل أعمل صالحا فيما تركت ﴾ .  
 هذه حال الكافرين والمفرطين فى جنب الله عند الاحتضار يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هيهات هيهات  
 لا وسيلة ولا حيلة قال الله تبارك وتعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب  
 لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خير بما  
 تعملون ﴾ (١)

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد  
 جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا  
 أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (٢)  
 ونحوه قوله تعالى ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين  
 أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين  
 بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ (٣)  
 ونحوه قوله تعالى :

﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا  
 موقنون ﴾ (٤)

وقوله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا  
 لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنية  
 وما نحن بمبعوثين ﴾ (٥)  
 يا ابن آدم :

(٣) سورة الزمر (٥٦ / ٥٧ / ٥٨ / ٥٩)

(٤) سورة السجدة (١٢)

(٥) سورة الانعام (٢٧ / ٢٨ / ٢٩)

(١) سورة المنافقون ١٠ - ١١

(٢) سورة الاعراف (٥٣)

تزود من التقوى فانك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر  
فكم من فتى أضحى ضاحكا وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري  
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر  
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت ارواحهم ليلة القدر  
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

فاعجب معي لغافل وليس بمغفول عنه ، واعجب معي لمؤمل في الدنيا والموت يطلبه ، واعجب  
معي لضاحك ملء فيه لا يدري الله راض عنه أم ساخط عليه .  
وأعجب معي لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، ولن يؤمن بالنار كيف يضحك ، ولن يؤمن  
بالحساب كيف يغفل ، ولن يؤمن بالرزق كيف ينصب ، ولن رأى الدنيا وتقلبها باهله ثم اطمأن قلبه  
إليها .

واحزن معي لفراق الاحبة محمد وصحبه ، وهول المطلع عند سكرات الموت ، وللقوف بين  
يدى الله لا يدري الواقف اينطلق به إلى الجنة أم إلى النار  
فاحذر التسويف فإن الموت يأتي بغتة واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل واعلموا  
انكم غدا بين يدي الله موقوفون عن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ وسيعلم الذين  
ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (١) .

ان الذين يتمنون الرجعة إلى الدنيا عند مجيء الموت يقول الله لهم ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾  
وكلا هنا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه .  
وقوله تعالى ﴿ إنها كلمة هو قائلها ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : أى لا بد أن يقولها لا  
محالة كل محتضر ظالم ويحتمل ان يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤاله الرجوع ليعمل  
صالحا هو كلام منه وقوله لا عمل معه ولورد لما عمل صالحا وكان يكذب في مقالته هذه كما قال تعالى  
﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (٢)

قال قتادة : والله ما تمنى ان يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بان تجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن  
تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيها يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى  
النار .

وقال محمد بن كعب القرظي ( حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا  
فيما تركت ) قال فيقول الجبار ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾  
وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : اذا قال الكافر ﴿ رب أرجعون . لعلى أعمل صالحا ﴾ يقول الله  
تعالى : كلا . كذبت .

وقال قتادة في قوله تعالى ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت ﴾ قال كان العلاء بن زياد يقول :

( ١ ) سورة الشعراء ( ٢٢٧ )

( ٢ ) سورة الانعام ( ٢٨ )

( لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى ) وقال قتادة : والله ما تمى إلا ان يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا امنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله . وعن أبي هريرة قال : إذا وضع ( يعنى الكافر ) في قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون اتوب وأعمل صالحا قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمتهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصي من أهل القبور تدخل عليهم في قبورهم حيات سود أودهم حية عند رأسه وحية عند رجله يقرضانه حتى يلتقيا في وسطه فذلك العذاب في البرزخ الذى قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

وقال أبو صالح وغيره في قوله تعالى ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعنى أمامهم وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾

وقوله تعالى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث . قوله تعالى ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون : ﴾

يخبر تعالى انه إذا نفخ في الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه قال تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد اثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه في الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه ﴾ (١)

وقال ابن مسعود : اذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : الا من كان له مظلمة فليجيء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو وزوجته وان كان صغيرا ومصدق ذلك في كتاب الله قال الله تعالى ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال : ( فاطمة بضعة منى يغظني ما يغظيها وينشطني ما ينشطها وان الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبي وسبى وصهرى ) (٢) . وهذا الحديث له أصل في الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال ( فاطمة بضعة منى يربني ما يربها ويؤذي ما آذاها ) (٣) .

(١) سورة عبس (٣٤ / ٣٥ / ٣٦)

(٢) راجع المسند للامام أحمد ٤ / ٣٢٣ ، ٣٣٢

(٣) الحديث رواه البخارى في كتاب النكاح رقم ١٠٩ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود في سننه في كتاب النكاح رقم ١٢ ، والترمذى في أبواب المناقب رقم ٦ ، وابن ماجه في سننه في أبواب النكاح رقم ٥٦ ، وأحمد في مسنده ٤ / ٣٢٨

وقال الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر ( ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلى والله إن رحمى موصولة في الدنيا والآخرة وإن أيها الناس فرط لكم إذا جئتم . قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتدتم القهقري )<sup>(١)</sup> .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبي القاسم البغوي عن محمد بن عياد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ ( كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري )

وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا ( سألت ربي عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتي ولا يتزوج إلى أحد منهم إلا كان معي في الجنة فأعطاني ذلك )

قوله تعالى ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾  
أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة .  
وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أى ثقلت سيئاته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة .

روى البزار بسنده عن انس بن مالك قال : ان الله ملكا موكلا بالميزان فيؤق بابن آدم فيوقف بين كفتي الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا<sup>(٢)</sup> .  
ولهذا قال تعالى ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون .  
قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال تعالى ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾<sup>(٤)</sup> .  
- عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ( إن جهنم لما سيق لها أهلها يلقيهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب )<sup>(٥)</sup>

- وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فى قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم<sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ وهم فيها كالخون ﴾ عن ابن عباس يعنى عابسون وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وهم فيها كالخون ﴾ قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد عن أبي

(١) راجع المسند للامام أحمد ٣ / ١٨ ، ٣٩  
(٢) قال الحافظ ابن كثير ٥ / ٤٩٠ : ط الشعب رواه البزار ، واسناده ضعيف ، فإن داود بن المحبر متروك .

(٣) سورة إبراهيم ( ٥٠ )

(٤) سورة الانبياء ( ٣٩ )

(٥) الحديث رواه ابن أبي حاتم « تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٠ ط الشعب

(٦) رواه ابن مردويه « تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٠



سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا تضرب حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرتة (١)  
قوله تعالى ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

هذا تقرير من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك ، فقال تعالى: ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أى قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب وأزلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ (٢) وقال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ إلى قوله ﴿ فسحقا لأصحاب السعير ﴾ (٤)  
ولهذا قالوا ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا اشقى من ان نقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾

أى ارددنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ إلى قوله ﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾ (٥)  
أى لا سبيل إلى الخروج لانكم كنتم تشركون بالله اذا وحده المؤمنون قال تعالى ﴿ قال اخسثوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتهم سخرى حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ﴿ اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم معه :

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : ( إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ما كنتم قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ اخسثوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال فوالله ما نبس لقوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم قال تشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق . (٦)

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود ( إذا أراد الله تعالى الا يخرج منهم أحدا يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يارب فيقول الله من عرف أحدا

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٨٨/٣ ، والترمذى فى أبواب جهنم رقم ٥ ، وفى أبواب التفسير تفسير سورة المؤمنون ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب

(٢) سورة النساء (١٦٥)

(٣) سورة الاسراء (١٥)

(٤) سورة الملك ، الآيات : ٨ - ١١

(٥) سورة غافر (١١ ، ١٢)

(٦) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٢ ط الشعب





نعم يارب العزة ﴿ قالوا إن لبثتم إلا قليلا ﴾ أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ (١)  
لو كانوا يعلمون ان الدنيا ستطوى كما يطوى البرق ومعصرات الغمام لجعلوها مزرعة للأخرة كما فعل أولياء الله وأحباؤه

إن لله عبادا فطنا      طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا  
نظروا فيها فلما علموا      أنها ليست لحي سكننا  
جعلوها لجة واتخذوا      صالح الأعمال فيها سفنا

فاغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك  
﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٢)

قوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ أى أغرتكم الدنيا فظننتم أنما خلقناكم للهو واللعب بلا هدف ولا غاية ولا حكمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٣)  
﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (٤)

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لالعيبين. لو أردنا أن نتخذ لها من اتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ (٥)  
أيحسب الانسان أن يترك سدى هملا لا . لا بد من الرجوع إلى الله فتعالى الله وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فهو الملك المتصرف فى ملكه بمشيئته وحكمته لا يظلم أحدا لأنه الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾  
فيا أيها الغافلون عن ذكر الله اعلموا ان الدنيا إذا حلت أو حلت وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أو جلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تبني وما تبني ، وكم من مريض عدنا وما عدنا وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات  
قوله تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا يبرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾

(١) سورة التازعات (٤٦)

(٢) سورة الزمل (٢٠)

(٣) سورة الذاريات (٥٦/ ٥٧/ ٥٨)

(٤) سورة الحجر (٨٥ / ٨٦)

(٥) سورة الأنبياء (١٦ / ١٧ / ١٨)

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ، ونخبرا أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط في قوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أى لديه يوم القيامة لا فلاح لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل « ماتعبد ؟ » قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله ﷺ ( فأبهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك ) قال : الله عز وجل . قال « فأبهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟ » قال الله عز وجل قال : « فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ « تعلمون ولا يعلمون » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمنى .

وقوله تعالى ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه في الأقوال والأفعال .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### سورة النور

#### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . عدد آياتها أربع وستون في العراقى والشامى واثنان في الحجازى . كلماتها ألف وثلاثمائة وست عشرة . وحروفها خمسة آلاف وستمائة وثمانون . وسميت سورة النور ، لكثرة ذكر النور فيها ﴿ الله نور .. مثل نوره .. نور على نور يهدى الله لنوره .. ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ .

مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه

- ١ - بيان فرائض مختلفة .
- ٢ - آداب حد الزانى والزانية
- ٣ - النهى عن قذف المحصنات .
- ٤ - حكم القذف
- ٥ - اللعان .
- ٦ - قصة إفك الصديقة .
- ٧ - شكايه المنافقين .
- ٨ - خوضهم فيه .
- ٩ - حكاية حال المخلصين في حفظ اللسان .
- ١٠ - بيان عظمة عقوبة البهتان .
- ١١ - ذم إشاعة الفاحشة .
- ١٢ - النهى عن متابعة الشيطان .
- ١٣ - المنه بتزكية الأحوال على أهل الايمان .
- ١٤ - الشفاعة لمسطح إلى الصديق .

- ١٥ - في ابتداء الفضل والاحسان .
- ١٦ - مدح عائشة بأنها حصان رزان .
- ١٧ - بيان أن الطيبات للطيبين .
- ١٨ - لعن الخائضين في حديث الافك .
- ١٩ - النهى عن دخول البيوت بغير إذن وإيدان .
- ٢٠ - الأمر بحفظ الفروج .
- ٢١ - غض الأبصار .
- ٢٢ - الأمر بالتوبة لجميع أهل الإيمان .
- ٢٣ - بيان النكاح وشرائطه .
- ٢٤ - كراهة الاكراه على الزنا .
- ٢٥ - تشبيه المعرفة بالسراج والقنديل .
- ٢٦ - شجرة الزيتون .
- ٢٧ - تمثيل أعمال الكفار وأحوالهم .
- ٢٨ - ذكر الطيور وتسميتهم وأورادهم .
- ٢٩ - إظهار عجائب صنع الله في إرسال المطر .
- ٣٠ - تفصيل أصناف الحيوان .
- ٣١ - الانقياد لأمر الله تعالى بالتواضع والاذعان .
- ٣٢ - خلافة الصديق وصلاته الاخوان .
- ٣٣ - بيان استئذان الصبيان والعبدان ورفع الحرج عن العميان والزمنى والعرجان .
- ٣٤ - الأمر بحرمة سيد الانس والجان وتهديد المنافقين وتحذيرهم من العصيان .
- ٣٥ - ختم السورة بأن الله الملك والملكوت بقوله ﴿ألا إن الله ما فى السموات والأرض﴾ إلى قوله : عليه .

### المتشابهات

قوله تعالى ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم﴾  
محدوف الجواب ، تقديره : لفضحكم . وهو متصل ببيان حكم الزانين وحكم القاذف وحكم  
اللعان - وجواب لولا محذوفا أحسن منه ملفوظا به . وهو المكان الذى يكون الانسان فيه أفصح ما يكون  
(إذا سكت) .

وقوله بعده : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾  
 فحذف الجواب أيضا . وتقديره : لعجل لكم العذاب . وهو متصل بقصتها رضي الله عنها ،  
 وعن أبيها . وقيل دل عليه قوله ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم  
 فيه عذاب عظيم ﴾ .

وقيل دل عليه قوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾ .  
 وفي خلال هذه الآيات ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ﴾ ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾  
 ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ﴾ وليس هو الدال على امتناع شيء لوجود غيره ، بل هو للتحضيض ، قال  
 الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بنى حنطرى لولا الكمى المقنعا

قوله : ( ولقد أنزلنا إليكم آيات ) ، وبعبده ﴿ لقد أنزلنا آيات ﴾ . لأن الاتصال الأول بما قبله أشد :  
 فإن قوله ﴿ موعظة ﴾ محمول ومعروف إلى قوله : ﴿ وليستعفف ﴾ وإلى قوله . ﴿ فكاتبوهم ﴾ ، ( ولا  
 تكرهوا ﴾ فاقضى الواو ، ليعلم أنه عطف على الأول ، واقتضى بيانه بقوله : ﴿ إليكم ﴾ ليعلم أن  
 المخاطبين بالآيات الثانية هم المخاطبون بالآية الأولى . وأما الثانية فاستئناف كلام ، فخص بالحذف .  
 قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ إنما زاد ﴿ منكم ﴾ لأنهم المهاجرون وقيل : عام ، و ( من )  
 للبين .

قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال ﴾ ختم الآية بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾  
 وقبلها وبعدها ﴿ لكم الآيات ﴾ لأن الذى قبلها والذى بعدها يشتمل على علامات يمكن  
 الوقوف عليها . وهى فى الأولى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة  
 ومن بعد صلاة العشاء ، وفى الأخرى ﴿ من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ الآية فعد  
 فيها آيات كلها معلومة ، فختم الآيتين بقوله ﴿ لكم الآيات ﴾ . ومثله ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله  
 أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات ﴾ .

يعنى حد الزانين وحد القاذفين ، فختم بالآيات . وأما بلوغ الأطفال فلم يذكر له علامات  
 يمكن الوقوف عليها بل تفرد سبحانه بعلم ذلك ، فخصها بالاضافة إلى نفسه ، وختم كل آية بما  
 اقتضاه أولها .

مناسبتها لما قبلها

إنه قال فى السورة السالفة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ وذكر هنا أحكام من لم يحفظ  
 فرجه من الزانية والزانى وما يتصل بذلك من شأن القذف وقصة الافك والأمر بغض البصر الذى هو  
 داعية الزنا ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، والنهى عن اكراه الفتيات على الزنا .  
 إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثا بل للامر والنهى ذكر هنا جملة من الأوامر  
 والنواهى .



روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور ﴾ <sup>(١)</sup> وعن حارث بن مضرب رضى الله عنه قال : ( كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور ) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

### تفسير المفردات

أنزلناها : أى اعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى .  
 الفرض : التقدير كما قال : ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ <sup>(٣)</sup> والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه .  
 بينات : أى واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام ولعل هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، وتذكرون : تتذكرون .  
 الزانى والزانية إما أن يكونا محصنين أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .  
 قوله تعالى ﴿ سورة أنزلناها ﴾ فى ذلك النص تنبيه بشأن هذه السورة وما اشتملت عليه من الحدود والأحكام والنظم الاجتماعية فى الاسلام .  
 قوله تعالى ﴿ وفرضناها ﴾  
 قال مجاهد وقتادة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم .  
 ﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أى مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .  
 قوله تعالى ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ .

هذه الآية الكريمة فيها حكم الله في حد من حدوده وهو الجلد مائة جلدة للزانية والزاني . ولا بد قبل الحديث عن تفصيل هذا الحد من كلمة نسلط فيها الأضواء الكاشفة على الحدود في الاسلام حتى يكون القارىء على بينة من حجة الله البالغة وحكمته السامية من تشريع الحدود .

### تعريف الحدود

قال الفقهاء :

تعريفها : الحدود جمع حد والحد في الأصل : الشيء الحاجز بين الشيئين .  
ويقال : ما ميز الشيء عن غيره .  
ومنه : حدود الدار وحدود الأرض .

وهو في اللغة بمعنى المنع . وسميت عقوبات المعاصي حدودا ، لأنها في الغالب تمنع العاصي من العود إلى تلك المعصية التي حد لأجلها . ويطلق الحد على نفس المعصية . ومنه : ﴿ وتلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ .

والحد في الشرع عقوبة مقررة لأجل حق الله فيخرج التعزير لعدم تقديره إذ أن تقديره مفوض لرأى الحاكم ويخرج القصاص لأنه حق الأدمى .

جرائم الحدود :- وقد قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى جرائم الحدود . وهذه الجرائم هي :

( الزنا ، والقذف ، والسرقه ، والسكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى ) .

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا ، الجلد للبكر ، والرجم للثيب .

يقول الله سبحانه :

﴿ واللاقي يأتين الفاحشة من نسائك فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ <sup>(١)</sup>

والرسول ﷺ يقول :-

( خذوا عني .. خذوا عني .. قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم )

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة . يقول الله سبحانه :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ وعقوبة جريمة السرقه ، قطع اليد . يقول الله تعالى :

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾<sup>(١)</sup> .  
وعقوبة جريمة الفساد في الأرض : القتل أو الصلب أو النفي أو تقطيع الأيدي والأرجل من  
خلاف ، يقول سبحانه :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع  
أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب  
عظيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعقوبة جريمة السكر ثمانون جلدة أو أربعون .  
وعقوبة الردة القتل لقول رسول الله ﷺ ( من بدل دينه فاقتلوه )

وعقوبة جريمة البغي : القتل . لقول الله سبحانه :  
﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي  
حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾<sup>(٣)</sup> .  
ويقول الرسول - ﷺ - : ( إنه ستكون بعدى هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين -  
وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان )<sup>(٤)</sup> .

عدالة هذه العقوبات :  
وهذه العقوبات - بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافضة للأمن العام - فهي عقوبات عادلة  
غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها وعدوان على الخلق والشرف والكرامة . ومقوض  
لنظام الأسر والبيوت . ومروج للكثير من الشرور والمفاسد التي تقضي على مقومات الأفراد والجماعات  
وتذهب بكيان الأمة ومع ذلك فقد احتاط الاسلام في إثبات هذه الجريمة ، فاشتراط شروطا يكاد يكون  
من المستحيل توافرها .

فعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والارهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل ، وقذف  
المحصنين والمحصنات من الجرائم التي تحمل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه وتهدم أركان  
البيت . والبيت هو الخلية الأولى في بنية المجتمع ، فبصلاحها يصلح ويفسدها يفسد .

بتقرير جلد مقترف هذه الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه من الاتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما

(٣) سورة الحجرات (٩)  
(٤) الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي

(١) سورة المائدة (٢٨)

(٢) سورة المائدة (٢٣)

يقذف به ، غاية في الحكمة وفي رعاية المصلحة . كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح في سمعته .

والسرقة ما هي إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها . والأموال أحب الأشياء إلى النفوس . فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف ويكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة فيأمن كل فرد على ماله . ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه مما يعد من مفاخر هذه الشريعة . وقد ظهر أثر الأخذ بهذا التشريع في البلاد التي تطبقه واضحا في استتباب الأمن وحماية الأموال وصيانتها من أيدي العابثين والخارجين على الشريعة والقانون .

وقد أضطر الاتحاد السوفيتي أخيرا إلى تشديد عقوبة السرقة بعد أن تبين له أن عقوبة السجن لم تخفف من كثرة ارتكاب هذه الجريمة ، فقرّر اعدام السارق رميا بالرصاص وهي أقصى عقوبة ممكنة .

والمحاربون الساعون في الأرض بالفساد المضمون لنيران الفتن المزعجون للأمن المثيرون للاضطرابات ، العاملون على قلب النظم القائمة ، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تفقد الشارب عقله ورشده وإذا فقد الإنسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش فإذا جلد كان جلده مانعا له من المعاودة من جانب ورادعا لغيره من اقتراف مثل جريرته من جانب آخر .

#### وجوب إقامة الحدود :

إقامة الحدود فيها دفع للناس ، لأنها تمنع الجرائم ، وتردع العصاة ، وتكف من تحدّثه نفسه بانتهاك الحرمات وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه وعرضه وماله ، وسمعته ، وحرّيته وكرامته وقد روى النسائي وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال :

( حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا )<sup>(١)</sup> وكل عمل من شأنه أن يعطل إقامة الحدود فهو تعطيل لأحكام الله ومحاربة له لأن ذلك من شأنه إقرار المنكر وإشاعة الشر .

وروى أحمد وأبو داود والحاكم وصححه : أن النبي ﷺ قال : ( من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو مضاد الله في أمره )<sup>(٢)</sup> وقد يحدث أن يغفل المرء عن الجناية التي يرتكبها الجاني وينظر إلى

( ١ ) الحديث رواه أحمد في مسنده ٣٦٢ / ٢ ، ٤٠٢ ، والنسائي في سننه في كتاب السارق رقم ٧ ، وابن ماجه في سننه في كتاب الحدود رقم ٣

( ٢ ) الحديث رواه أحمد في مسنده ٧٠ / ٢ ، ٨٢ ، وأبو داود في كتاب الأقضية رقم ١٤ .

العقوبة الواقعة عليه فيرق قلبه له ويعطف عليه ، فيقرر القرآن أن ذلك مما يتنافى مع الإيمان لأن الإيمان يقتضى الطهر والتزهر عن الجرائم والسمو بالفرد والجماعة إلى الأدب العالى والخلق المتين . يقول الله سبحانه : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾  
 إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد .  
 فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

\* الشفاعة في الحدود :-

يحرم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يعطل حدا من حدود الله ، لأن في ذلك تفويتا لمصلحة محقة ، وإغراء بارتكاب الجنايات ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .  
 وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم ؛ لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى ، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم فلا بأس من التستر على الجاني والشفاعة عنده .  
 أخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب »<sup>(١)</sup> .  
 وأخرج أحمد وأهل السنن وصححه الحاكم من حديث صفوان بن أمية أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له لما أراد أن يقطع الذى سرق رداءه فشفع فيه .  
 « هلا كان قبل أن تأتينى به ؟ ! »<sup>(٢)</sup> .

وعن عائشة قالت :

كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجهده ، فأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بقطع يدها ، فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه ، فكلم النبى - صلى الله عليه وسلم - فيها ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - :

« يا أسامة لا أراك تشفع في حد من حدود الله عز وجل »

ثم قام النبى - صلى الله عليه وسلم - خطيبا . فقال :

« إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . .  
 والذى نفسى بيده ؛ لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها . »<sup>(٣)</sup>

فقطع يد المخزومية

(١) انظر سنن أبى داود تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، طبع دار إحياء التراث العربى ، فى ( كتاب الحدود ) باب : العفو عن الحدود مالم تبلغ السلطان ج ٢ ص ١٣٣ رقم ٤٣٧٦ ، وسنن النسائى ( كتاب القسامة ) باب : قطع السارق ج ٢ ص ٦٣ ، والحاكم فى المستدرک ( كتاب الحدود ) ج ٤ ص ٣٨٣ .  
 (٢) مسند الامام أحمد بن حنبل ( مسند صفوان بن أمية العجمى ) ج ٣ ص ٤٠١ ، وسنن النسائى ج ٨ ص ٦٨ .  
 (٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الحدود ) باب : قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود ج ١١ ص ١٨٦ ، وسنن النسائى ( كتاب قطع السارق ) باب : ما يكون حرزا وما لا يكون ج ٨ ص ٧١ ، وسنن ابن ماجه ( كتاب الحدود ) باب : الشفاعة فى الحدود ج ٢ ص ٨٥١ رقم ٢٥٤٧

رواه أحمد ومسلم والنسائي .

سقوط الحدود بالشبهات :

الحد : عقوبة من العقوبات التي توقع ضررا في جسد الجاني وسمعته ، ولا يحل استباحة حرمة أحد ، أو إيلاؤه إلا بالحق ، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذي لا يتطرق إليه الشك ، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعا من اليقين الذي تنبئ عليه الأحكام .

ومن أجل هذا كانت التهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها ؛ لأنها مظنة الخطأ .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا »<sup>(١)</sup> .

رواه ابن ماجه .

وعن عائشة قالت :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم ؛ فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ؛ فإن الإمام لأن يخطيء في العفو خير له من أن يخطيء في العقوبة »<sup>(٢)</sup>

رواه الترمذی ، وذكر أنه قد روى موقوفا وأن الوقف أصح ، قال : وقد روى عن غير واحد من الصحابة - رضي الله عنهم - أنهم قالوا مثل ذلك .

الشبهات وأقسامها :

تحدث الأحناف والشافعية عن الشبهات ولكل منها رأى نجمله فيما يأتي :

رأى الشافعية :

يرى الشافعية أن الشبهة تنقسم أقساما ثلاثة .

١ - شبهة في المحل

أي : محل الفعل ، مثل : وطء الزوج الزوجة الحائض أو الصائمة ، أو إتيان الزوجة في دبرها فالشبهة هنا قائمة في محل الفعل المحرم .

إذ أن المحل مملوك للزوج ، ومن حقه أن يباشر الزوجة - وإذا لم يكن له أن يباشرها وهي حائض أو صائمة أو أن يأتيها في الدبر - إلا أن ملك الزوج للمحل وحقه عليه يورث شبهة . . . وقيام هذه الشبهة يقتضي درء الحد ، سواء اعتقد الفاعل بحل الفعل أو بحرمة ؛ لأن أساس الشبهة ليس الاعتقاد والظن ؛ وإنما أساسها محل الفعل وتسلط الفاعل شرعا عليه .

٢ - شبهة في الفاعل

كمن يطأ امرأة زفت إليه على أنها زوجته ثم يتبين له أنها ليست زوجته ، وأساس الشبهة ظن الفاعل واعتقاده ، بحيث يأتي الفعل وهو يعتقد أنه لا يأتي محرما ، فقيام هذا الظن عند الفاعل يورث

(١) الحديث أورده ابن ماجه في سننه في (كتاب الحدود) باب : الشد على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٥ إلا أنه قال : « ما وجدتم له » بدل : « ما وجدتم لها » . في الزوائد : في إسناد إبراهيم بن الفضل المخزومي ؛ ضعفه أحمد وابن معين والبخارى ، وغيرهم .

(٢) ذكر الترمذی هذا الحديث في (كتاب الحدود) باب : ما جاء في درء الحدود رقم ١٤٢٤ ج ٤ ص ٣٣

شبهة يترتب عليها درء الحد .  
أما إذا أتى الفاعل الفعل وهو عالم بأنه محرم فلا شبهة .

### ٣ - شبهة في الجهة :

ويقصد من هذا الاشتباه في حل الفعل وحرمة ، وأساس هذه الشبهة الاختلاف بين الفقهاء على الفعل ، فكل ما اختلفوا على حله أو جوازه كان الاختلاف فيه شبهة يدرأ بها الحد ، فمثلا يجيز أبو حنيفة الزواج بلا ولى ، ويجيزه مالك بلا شهود ، ولا يجيز جمهور الفقهاء هذا الزواج ، ونتيجة هذا الزواج أنه لا حد على الوطء في هذا الزواج المختلف في صحته ؛ لأن الخلاف يقوم شبهة تدرأ الحد ، ولو كان الفاعل يعتقد بحرمة الفعل لأن هذا الاعتقاد في ذاته ليس له أثر مادام الفقهاء مختلفين على الحل والحرمة .

### رأى الأحناف :

أما الأحناف فإنهم يرون أن الشبهة تنقسم قسمين :

#### ١ - شبهة في الفعل .

وهي شبهة في حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه ، وثبتت هذه الشبهة في حق من اشتبه عليه الحل والحرمة - ولم يكن ثمة دليل سمعى يفيد الحل ؛ بل ظن غير الدليل دليلا ، كمن يطأ زوجته المطلقة ثلاثا أو بائنا على مال في عدتها ، وتعليل ذلك أن النكاح إذا كان قد زال في حق الحل أصلا لوجود المعطل لحل المحلية وهو الطلاق فإن النكاح قد بقى في حق الفراش ، والحرمة على الأزواج فقط ، ومثل هذا الوطء حرام ، فهو زنا يوجب الحد ، إلا إذا ادعى الواطئ الاشتباه وظن الحل ؛ لأنه بنى ظنه على نوع دليل ، وهو بقاء النكاح في حق الفراش وحرمة الأزواج ؛ أنه بقى في حق الحل أيضا ، وهذا وإن لم يصلح دليلا على الحقيقة لكنه لما ظنه دليلا اعتبر في حقه درعا لما يندرى بالشبهات ، ويشترط - لقيام الشبهة في الفعل - ألا يكون هناك دليل على التحريم أصلا ، وأن يعتقد الجاني الحل ، فإذا كان هناك دليل على التحريم أو لم يكن الاعتقاد بالحل ثابتا ، فلا شبهة أصلا ، وإذا ثبت أن الجاني كان يعلم بحرمة الفعل وجب عليه الحد .

#### ٢ - الشبهة في المحل :-

ويسمونها الشبهة الحكمية أو شبهة الملك : وتقوم هذه الشبهة على الاشتباه في حكم الشرع بحل المحل ، فيشترط في هذه الشبهة أن تكون ناشئة عن حكم من أحكام الشريعة - وهي تتحقق بقيام دليل شرعى ينفى الحرمة ، ولا عبرة لظن الفاعل ، فيستوى أن يعتقد الفاعل الحل ، أو يعلم الحرمة ؛ لأن الشبهة ثابتة بقيام الدليل الشرعى لا بالعلم وعدمه .

#### من يقيم الحدود ؟ :-

اتفق الفقهاء على أن الحاكم أو من ينوب عنه هو الذى يقيم الحدود ، وأنه ليس للأفراد أن يتولوا هذا العمل من تلقاء أنفسهم .

روى الطحاوى عن مسلم بن يسار أنه كان رجل من الصحابة يقول :

« الزكاة ، والحدود ، والفقء ، والجمعة إلى السلطان » .

قال الطماوى : لانعلم له مخالفا من الصحابة

وروى البيهقى عن خارجة بن زيد ، عن أبيه ، وأخرجه أيضا عن أبي الزناد عن أبيه عن الفقهاء الذين ينتهى إلى أقوالهم من أهل المدينة أنهم كانوا يقولون : -

« لا ينبغي لأحد يقيم شيئا من الحدود دون السلطان »

الا أن للرجل أن يقيم حد الزنا على عبده أو أمته .

وذهب جماعة من السلف منهم الشافعى إلى أن السيد يقيم الحد على مملوكه ، واستدلوا بما روى

عن أمير المؤمنين على - رضى الله عنه - أن خادمة ثلثنى ﷺ . أحدثت فأمرنى النبى ﷺ أن أقيم عليها الحد ، فأتيتها فوجدتها لم تحف من دمها فاتيته فأخبرته ، فقال :

( إذا جفت من دمها فأقم عليها الحد ، أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم )<sup>(١)</sup>

رواه أحمد وأبو داود ومسلم ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال أبو حنيفة :

يرفعه المولى للسلطان . . ولا يقيمه هو بنفسه .

مشروعية التستر فى الحدود : -

قد يكون ستر العصاة علاجا ناجحا للذين تورطوا فى الجرائم واقترفوا المآثم ، وقد ينهضون بعد ارتكابها فيتوبون توبة نصوحا ، ويستأنفون حياة نظيفة .

لهذا شرع الاسلام التستر على المتورطين فى الآثام ، وعدم التعجيل بكشف أمرهم .

عن سعيد بن المسيب قال : « بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له : هزال ،

وقد جاء يشكو رجلا بالزنا وذلك قبل أن ينزل قوله - تعالى - :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾<sup>(٢)</sup> :

( يا هزال لو سترته بردائك كان خيرا لك )

قال يحيى بن سعيد : فحدثت بهذا الحديث فى مجلس فيه يزيد بن نعيم بن هزال الأسلمى ،

فقال يزيد : -

( هزال جدى . . هذا الحديث حق )

وروى ابن ماجه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال :

( من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى

( ١ ) هذا الحديث أورده أبو داود فى سننه فى ( كتاب الحدود ) باب : فى إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ١٦١ رقم ٤٤٧٣ ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الحدود ) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٤

( ٢ ) من الآية رقم ٤ من سورة النور ، والحديث رواه أبو داود فى سننه فى ( كتاب الحدود ) باب : الستر على أهل الحدود ج ٤ ص ١٣٤ رقم ٤٣٧٧ إلا أنه قال : « ثبوتك » مكان « بردائك » وللحديث رواية أخرى عند ابن سعد بلفظ : « يا هزال بش ما صنعت بيتيمك !! لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك » وانظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك ( كتاب الحدود ) ج ٣ ص ٣٩



يفضحه في بيته (١)

وإذا كان الستر مندوبا ، ينبغي أن تكون الشهادة به خلاف الأولى التي مرجعها إلى كراهة التنزيه ؛ لأنها في رتبة النذب في جانب الفعل ، وكراهة التنزيه في جانب الترك وهذا يجب أن يكون بالنسبة إلى من لم يعتد الزنا ولم يتهتك به .

أما إذا وصل الحال إلى إشاعته والتهتك به ؛ فيجب كون الشهادة به أولى من تركها لأن المطلوب الشارع إخلاء الأرض من المعاصي والفواحش ، وذلك يتحقق بالتوبة من الفاعلين وبالزجر لهم ، فإذا ظهر حال الشره في الزنا وعدم المبالاة به وإشاعته ، فإخلاء الأرض المطلوب حينئذ التوبة ، احتمال يقابله ظهور عدمها ، فمن اتصف بذلك فيجب تحقيق السبب الآخر للإخلاء . وهو الحدود ، بخلاف من زنى مرة أو مرارا ، مستترا متخوفا متندما عليه ، فإنه محل استحباب ستر الشاهد .

\* ستر المسلم نفسه :-

بل على المسلم أن يستر نفسه ولا يفضحها بالحديث عما يصدر عنه من إثم أو إقرار أمام الحاكم لينفذ فيه العقوبة .

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أن رسول الله - ﷺ - قال :  
(يا أيها الناس : قد آن لكم أن **اتتهوا** عن حدود الله . . من أصاب شيئا من هذه القاذورة فليستتر بستر الله ؛ فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله) (٢)  
الحدود كفارة للآثام :

يرى أكثر العلماء أن الحدود إذا أقيمت كانت مكفرة لما اقترف من آثام ، وأنه لا يعذب في الآخرة ؛ لما رواه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - في مجلس فقال :

(تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه) (٣) .  
وإقامة الحد وإن كانت مكفرة للآثام فإنها مع ذلك زاجرة عن اقترافها ، فهي جوابر وزواجر

معاً .  
حد الزنا :

وبعدما تقدم من الحديث عن الحدود وما يتعلق بها من أحكام نتحدث الآن عن حد الزنا وذلك في رحاب تفسيرنا لقوله - تعالى - :  
**الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بها رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون**

(١) الحديث رواه ابن ماجه في سننه في (كتاب الحدود) باب : الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٦ وقال في الزوائد : في إسناده محمد بن عثمان بن صفوان الجمحي ، قال فيه أبو حاتم : منكر الحديث ، ضعيف الحديث . وقال الدارقطني : ليس بقوى . وذكره ابن حبان في الثقات . وباقى رجال الإسناد ثقات .

(٢) انظر تنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك (كتاب الحدود) باب : ماجاء في من اعترف علي نفسه بالزنا ج ٣ ص ٤٣

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقي (كتاب الحدود) باب : الحدود كفارات لأهلها ج ٢

بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴿١﴾ .

جاء الاسلام العظيم بشريعة هي للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وقد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم حرمان فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها ، وقد سئل أعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان الفطرة : ومنطق الصدق المبين :

( لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته مأمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل ليته مانهى ) نعم إن الاسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .

( والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا (١) .

لما حرم الله - تعالى - الخبائث أحل الطيبات ، ولما حرم الربا أباح البيع وأحله ، كما أحل الشركة والمرا بحة والقرض والمضاربة ، ولما حرم الزنا فإنه رغب في الزواج ودعا إليه ، فلم يبق عذر لمعتذر فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح

﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (٢)

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾ (٣)

﴿ يا أيها الناس إنما بغيتكم على أنفسكم ﴾ (٤) ﴿ ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ﴾ (٥)

﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٦) ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (٧)

\* طريق الله المستقيم \*

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٨)

● عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

( يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ) (٩) رواه البخارى ومسلم .

( المعنى )

باطائفة الشبان أصحاب القوة والفتوة ، وأصل الحركة والنشاط ، قال النووى : والشاب عند

(١) الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء

(٢) من الآية ١٦٥ من سورة النساء

(٣) من الآية ١٠ من سورة الفتح

(٤) من الآية ٢٣ من سورة يونس

(٥) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

(٦) الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٧) من الآية ٤٦ من سورة فصلت

(٨) الآية ٢١ من سورة الروم

(٩) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقي ج ١ ص ٣٢٥ ( كتاب النكاح ) حديث رقم ٨٨٤

أصحبنا هو من بلغ ولم يجاوز ثلاثين سنة. اهـ  
 وإنما خص الشباب لأن الغالب وجود قوة الداعى فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ .  
 الباعة : الجماع واستعمل لعقد النكاح ، قال الجوهري : الباعة مثل الباعة ، ومنه سمي النكاح  
 باعة . ويلاحظ الرجل لأن الرجل يتبأ من أهله ، أى يستمكن منها كما يتبأ من داره .  
 أغض للبصر : أحفظ للنظر أن يرى محارم .  
 أحصن للفرج : أمنع من الزنا .

فإنه له وجاء : قاطع للشهوة ، وأصله : رض الخصيتين . قال النووي : معناه من استطاع  
 منكم الجماع لقدرته على مؤونته . وهى مؤن النكاح . فليتزوج ، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنته  
 فعليه بالصوم ليقطع شهوته ويقطع شر منه كما يقطع الجاء ، وعلى هذا القول وقع الخطاب مع  
 الشباب ، سميت باسم ما يلازمها ، وتقديره : من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج ، ومن لم يستطع  
 فعليه بالصوم . قالوا : والعاجز عن الجماع لا يحتاج إلى الصوم . لدفع الشهوة فوجب .  
 • وروى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :  
 (من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر) <sup>(١)</sup> . رواه ابن ماجه .

عن أبي أيوب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :  
 (أربع من سنن المرسلين : الحناء والتعطر والسواك والنكاح) <sup>(٢)</sup>  
 • وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ - قال :  
 (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) رواه مسلم . <sup>(٣)</sup>  
 • وعنه - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :  
 (الدنيا متاع ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة : مسكين مسكين رجل لا امرأة له ،  
 مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها) رواه رزين  
 • وعن أبي أسامة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ - أنه كان يقول :  
 (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرتة  
 وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحتة في نفسها وماله) رواه ابن ماجه . <sup>(٤)</sup>  
 • وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي ﷺ قال :  
 (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا على البلاء صابرا

(١) الحديث أورده ابن ماجه في سننه في (كتاب النكاح) باب : تزويج الحرائر والولود ج ١ ص ٥٩٨ رقم ١٨٦٢ قال في  
 الزوائد : إسناده ضعيف لضعف كثير بن سليم و (سلام) هو ابن سليمان بن سوار . قال ابن عدى : عنده مناكير . وقال  
 العقيلي : في حديثه مناكير .

(٢) الحديث في سنن الترمذى في (كتاب النكاح) باب : ما جاء في فضل التزويج والحث عليه ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ١٠٨٠ وقال :  
 وفي الباب عن عثمان وثوبان وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وأبي نجيح وجابر وعكاف .

قال أبو عيسى : حديث أبي أيوب حديث حسن غريب .  
 (٣) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي في (كتاب الرضاع) باب : استحباب نكاح البكر ج ١٠ ص ٥٦

(٤) الحديث أورده ابن ماجه في سننه في (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٧

وزوجة لا تبغيه حوبا في نفسها وماله) رواه الطبراني .

● وعن ثوبان - رضي الله عنه - قال : لما نزلت :

﴿والذين يكتزون الذهب والفضة﴾

قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - في بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه :

أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذها ، فقال : ( أفضله لسان ذاكر وقلب

شاكراً ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه ) رواه ابن ماجه (١)

● وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده - رضي الله عنهما - قال :

قال رسول الله ﷺ :

( من سعادة ابن آدم ثلاثة . ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن

الصالح ، والمركب الصالح . ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب

السوء ) (٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبراني والبخاري والحاكم وصححه إلا أنه قال : والمسكن

الضيق . وابن حبان في صحيحه إلا إنه قال :

أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنيء .

وأربع من الشقاء : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق .

● وعن محمد بن سعد - يعنى ابن أبي وقاص - عن أبيه أيضا - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ

قال : ( ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة

تكون وطيفة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق . وثلاث من الشقاء : المرأة تراها

فتسوءك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا ، فإن

ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق ) رواه الحاكم (٣)

المعنى

تعجبك : تفرح بها

نفسها : تحفظ عرضها ومال زوجها .

وطيفة : ذلول سريعة السير

(١) ورد هذا الحديث في سنن ابن ماجه في (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٦ ولكن لفظه :

« فقال : ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة »

قال في الزوائد : عبد الله بن عمرو بن مرة ضعفه النسائي ، وثقه الحاكم وابن حبان .

وقال ابن معين : لا بأس به ، فقال : روى الترمذي في التفسير المرفوع منه دون قول عمرو وقال : حسن

(٢) ورد الحديث في مسند الإمام أحمد (مسند سعد بن أبي وقاص) ج ١ ص ١٦٨ . وانظر كشف الأستار عن زوائد البخاري

(كتاب النكاح) باب : في المرأة الصالحة ج ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤١٢ .

وأورده الحاكم في المستدرک (كتاب قسم الفء) ج ٢ ص ١٤٤ من رواية سعد بن مالك .

وقد ورد في الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان في (كتاب النكاح) باب : ذكر الأخبار التي هي من سعادة المرأة في الدنيا ج ٦

ص ١٣٥ رقم ٤٠٢١ من رواية سعد بن أبي وقاص ، بلفظ : « أربع من السعادة .. الخ »

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک في (كتاب النكاح) باب : ثلاث من السعادة إلى آخره ج ٢ ص ١٦٢ وقال الحاكم : هذا حديث

صحيح الإسناد من خالد بن عبد الله الواسطي إلى رسول الله ﷺ وآله وسلم ، تفرد به محمد بن بكير عن خالد ، إن كان

حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين . وقال الذهبي : قلت : محمد ، قال أبو حاتم . صدوق يغلط . وقال يعقوب بن

شيبه : ثقة .

● وعن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله في الشطر الباقي ) رواه الطبراني في الأوسط ، والحاكم<sup>(١)</sup>

وفي رواية البيهقي قال رسول الله ﷺ : ( إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين ، فليتق الله في النصف الباقي )<sup>(٢)</sup>

● وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف ) رواه الترمذي<sup>(٣)</sup>

● وعن أبي نجیح - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس مني ) رواه الطبراني<sup>(٤)</sup>

● وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ ؟

قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر ، أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدا ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم : فقال : ( أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي ، فليس مني ) رواه البخاري<sup>(٥)</sup> المعنى :

الرهط : من ثلاثة إلى عشرة ، ومن رواية عبد الرزاق أن الثلاثة هم علي بن أبي طالب وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعثمان بن عفان .

تقالوها : عدوها قليلة .

أصلي إليل : أتهدد

أصوم الدهر : أي بالنهار سوى أيام العيد وأيام التشريق ، ظن أولئك - رضي الله عنهم - أن

(١) ورد في مجمع الزوائد عن أنس هذا الحديث بلفظ : أن النبي ﷺ قال : ( من تزوج فقد استكمل نصف الإيمان فليتق الله في النصف الباقي ) قال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين ، وفيها يزيد الرقاشي وجابر الجعفي ، وكلاهما ضعيف .  
ورواه الحاكم في المستدرک في ( كتاب النکاح ) ج ٢ ص ١٦١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص .

(٢) ورد في شعب الإيمان للبيهقي في ( الترغيب في النکاح ) ص ٢٣١ مخطوطة بمكتبة الأزهر واللفظ : « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه »

(٣) الحديث في الجامع الصحيح للترمذي في ( كتاب الجهاد ) باب : ماجاء في المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله لهم ج ٤ ص ١٨٤ رقم ١٦٥٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

ورواه البيهقي في السنن الكبرى في ( كتاب النکاح ) ج ٧ ص ٧٨  
(٤) انظر في مجمع الزوائد في ( كتاب النکاح ) باب الحث على النکاح ج ٤ ص ٢٥١ ، وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، وإسناده مرسل حسن - كما قال ابن معين - وانظر سنن البيهقي ج ٧ ص ٧٨ .

(٥) هذا الحديث رواه الشيخان ، وقد ورد في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في ( كتاب النکاح ) باب : الترغيب في النکاح ج ٢ ص ٣٢٥ رقم ٨٨٥  
وقال محمد فؤاد عبد الباقي : أخرجه البخاري في كتاب النکاح ، باب الترغيب في النکاح .

العبادة اجتهاد وتфан وكثرة عمل مع مشقة ، فأفهمهم الحكيم الربى ، والقائد الماهر أن العبادة إخلاص لله وحده مع أخذ راحة الجسم وملذته في الحلال والتمتع بالطيبات في حدود الشرع .  
وأنتقامك له : يعنى أكثر خشية وأشد تقوى ، وفى العيى : وفيه رد لما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد من العبادة ، بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه - مع كونه لا يشدد في العبادة غاية الشدة - أخشى لله وأتقى من الذين يشددون .

● وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :  
( تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها وماها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك ) رواه أحمد (١) .  
المعنى : -

فليس منى : أى ليس متصلا بى قريبا منى . وفيه أن النكاح من سنن النبى ﷺ .. وزعم المهلب أنه من الاسلام وأنه لأرهبانية فيه وأنه من تركه راغبا عن سنة النبى ﷺ .. فهو مذموم مبتدع ، ومن تركه من أجل أنه أرفق له ، وأعون على العبادة فلا ملامة عليه ، وعند أكثر العلماء أنه مندوب .  
وقال الشافعى : النكاح معاملة فلا فضل لها على العبادة .  
وقال أبو حنيفة : يجوز النكاح مع الإعسار ، ولا ينتظر به حالة الثروة .  
قال الله - تعالى - :

﴿ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِمَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢)

وفى العيى : النكاح لم يفضل على التخل للعبادة بصورته ، وإنما تميز عنه بمعناه فى تحصين النفس وبقاء الولد الصالح ، وتحقيق المنة فى النسب والصهر ، فقضاء الشهوة فى النكاح ليس مقصودا لذاته ، وإنما أكد النكاح بالأمر قولا وأكد به خلق الشهوة خلقه حتى يكون ذلك أدعى للوفاء بمصالحه والتيسير بمقاصده .

وقال ابن حجر فى الفتح والمراد من ترك طريقتى وأخذ بطريقة غيرى فليس منى ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله - تعالى - وقد عابهم بأنهم ماوفوه بما التزموه ، وطريقة النبى ﷺ .. الحنيفية السمحة فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة فيه . فمعنى ليس منى : أى على طريقتى ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة ، وإن كان إعراضا وتنطعا يفضى إلى اعتقاد أرجحية عمله فمعنى ليس منى : ليس على ملتى ؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر ، وفى الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه ، وفيه تتبع أحوال الأكابر للتأسى بأفعالهم ؛ وأنه إذا تعذرت معرفته من الرجال جاز استكشافه من النساء ، وأن من عزم على عمل بر واحتياج إلى إظهاره حيث يأمن الرياء لم يكن ذلك ممنوعا ، وفيه تقديم الحمد والثناء على الله عند إلقاء

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ ص ٨٠ ولكن لفظه :

(تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاثة : تنكح المرأة على مالها ، وتنكح المرأة على جمالها ، وتنكح المرأة على دينها ، فخذ ذات الدين والخلق تربت يمينك)

(٢) من الآية ٣٢ من سورة النور

مسائل العلم وبيان الأحكام للمكلفين وإزالة الشبهة عن المجتهدين ، وأن المباحات قد تنقلب بالقصد إلى الكراهة والاستحباب ، وقال الطبري : فيه الرد على من منع استعمالها الحلال من الأطعمة والملابس ، وأثر غليظ الثياب وخشن المأكّل .

قال - تعالى - :

﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (١)

والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر ولا يأمن من الوقوع في الشبهات ، كما أن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلاً ، وترك التنفل يفضي إلى إثارة البطالة وعدم النشاط إلى العبادة ، وخير الأمور الوسط (إني لأخشاكم لله) إشارة إلى أن العلم بالله ومعرفة ما يجب من حقه أعظم قدراً من مجرد العبادة البدنية .

● وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

(تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه (٢)

(تربت يداك) : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هي هنا دعاء عليه بالفقر . وقيل : بكثرة المال ، واللفظ مشترك بينهما قابل لكل منهما ، والآخر هنا أظهر ، ومعناه : اظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك ، وروى الأول عن الزهري ، وأن النبي ﷺ إنما قال له ذلك لأنه رأى الفقر خيراً له من الغنى ، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ .

المعنى : - لأربع : لأربع خصال

لمالها : لوجود مال عندها فيستفيد الزوج منه .

قال في العيني : لأنها إذا كانت صاحبة مال لا يلتزم زوجها بما لا يطيق ولا تكلفه في الإنفاق وغيره . وقال المهلب : هذا دال على أن للزوج الاستمتاع بما لها فإنه يقصد لذلك ، فإن طابت به نفسا فهو له حلال وإن منعه فإنما له من ذلك بقدر ما بذل من الصداق .

لحسبها : هو إخبار عن عادة الناس في ذلك ، والحسب : ما يعده الناس من مفاخر الآباء ، ويقال : الحسب في الأصل : الشرف بالآباء وبالأقارب ، ويقال : الفعال الحسنة .

جمالها : لأن الجمال مطلوب في كل شيء ولا سيما في المرأة التي تكون قرينته وضجيعته .

لدينها : لاستقامتها وتعلقها بعمل الشرع ، ولأن بالدين يحصل خير الدنيا والآخرة ، واللائق بأرباب الديانات وذوى المروءات أن يكون الدين مطمح نظرهم في كل شيء ولا سيما فيما يدوم أمره ولذلك اختاره الرسول ﷺ . يؤكد وجهه وأبلغه فأمره بالظفر الذي هو غاية البغية .

وقال الكرماني : فاظفر : جزاء شرط محذوف ، أى : إذا تحققت تفضيلها فاظفر أيها المسترشد

بها .

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأعراف

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الرضاع) باب استحباب نكاح ذات الدين ص ٣٤٣ رقم ٩٢٨ ، وفي سنن أبي داود في (كتاب النكاح) باب : التحريض على النكاح ج ٢ ص ٢١٩ رقم ٢٠٤٧ إلا أنه قال : (تنكح النساء) ورواه النسائي في سننه في (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج الزناة ج ٦ ص ٦٨ . والحديث في سنن ابن ماجه في (كتاب النكاح) باب : تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٨ .

وقال القرطبي : هذه الخصال ترغب في النكاح ، وظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أولى ، ولا يظن أن هذه الأربع تؤخذ منها الكفاءة .

وقال المهلب : الأكفاء في الدين هم المتشاكلون ، وإن كان في النسب تفاضل بين الناس ، وقد نسخ الله ما كانت تحكم به العرب في الجاهلية من شرف الأنساب بشرف الصلاح في الدين . فقال - تعالى - : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

وقال مالك : الأكفاء في الدين دون غيره ، والمسلمون أكفاء بعضهم لبعض ، فيجوز أن يتزوج العربي والمولى القرشية ، وعزم عمر - رضي الله عنه - أن يزوج ابنته من سلمان الفارسي - رضي الله عنه - قال ﷺ :

( يا بني بياضة : أنكحوا أبا هند ) فقالوا : يا رسول الله أنزوج بناتنا من موالينا ؟ فنزلت : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى - الآية ﴾  
رواه أبو داود<sup>(١)</sup>

وقال أبو حنيفة : قريش كلهم أكفاء بعضهم لبعض ، ولا يكون أحد من العرب كفؤا لقرشي ولا أحد من الموالى كفؤا للعرب ، ولا يكون كفؤا من لا يجد المهر والنفقة ، وفي التلويح احتج له بما رواه نافع عن مولاه مرفوعا : ( قريش بعضها لبعض أكفاء إلا حائك أو حجام )  
وعن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ له ( يا علي ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنائز إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤا )<sup>(٢)</sup> رواه العسكري في الأمثال ، والحاكم ، والبيهقي والترمذي .

● وروى عن أنس - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : ( من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلا ومن تزوجها لما لها لم يزد الله إلا فقرا ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يفض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه ) رواه الطبراني في الأوسط<sup>(٣)</sup> .

المعنى : - يبين ﷺ للمسلمين أن يتحروا الزوجة التقية النقية الطاهرة ذات الدين ، فطالب الزوجة لعزها أذله الله وأحوجها إليها ، وكذا طالب المال افتقر لما لها واحتاج إليه ، وذهب بهاؤه وقلت هيئته ، وكذا طالب الحسب أهين وضعف واحتقر ، إنما الأفضل لطالب العيش الرغد والحياة الزوجية السعيدة أن يطلب زوجة تزيده حصانة وورعا ، وتبعده عن المحارم والميل إلى الدنيا والتبرج ، وتعينه على بر أقاربه وصلة أهله ومودة رحمه ليضع الله البركة ويزيد في النعم ويكثر نسلها ويمد بإحسانه وإنعامه .

(١) انظر سنن أبي داود (كتاب النكاح) باب : في الأكفاء ج ٢ ص ٢٣٣ رقم ٢١٠٢

(٢) انظر المستدرک للحاكم (كتاب النكاح) باب : تزوجوا الولود الودود ج ٢ ص ١٦٢ وقال : هذا حديث غريب صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص .

والترمذي في ( أبواب الصلاة ) باب : ما جاء في الوقت الأول من الفضل ج ١ ص ٣٢٠ رقم ١٧١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حسن . وقال الشيخ شاکر في تعليقه على الحديث : وهذا حديث صحيح ورواته ثقات .

(٣) الحديث في مجمع الزوائد في (كتاب النكاح) باب : نية الزواج ج ٤ ص ٢٥٤ وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط ، وفيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب ، وهو ضعيف .



● وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنها - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لا تزوجوا النساء لحسنهن فحسبى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فحسبى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل ) رواه ابن ماجه<sup>(١)</sup> المعنى : يرديهن : يوقعهن موقع الهلكة .

تطغيهن : تزيدهن تجبرا وتكبيرا وطغيانا وفسوقا .

خرماء : مقتطعة الأطراف ، من حرمت الشيء خرما : ثقبته ، وخرمته : قطعته فانخرم ، وفي النهاية : رأيت رسول الله - ﷺ - يخطب الناس على ناقه خرماء ، أصل الحرم : الثقب والشق ، والأخرم : المثقوب الأذن ، والذي قطعت وترة أنفه أو طرفه شيئا لا يبلغ الجذع ، وقد انخرم ثقبه : أى انشق ، فإذا لم ينشق ، فهو آخرم والأنثى خرماء .

● وعن معقل بن يسار - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله : إني أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لاتلد أفأتزوجها؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة - فقال له : ( تزوجوا الودود الولود فإني مكاثركم بالأمم ) رواه أبو داود والنسائي<sup>(٢)</sup> .

### \* الآيات القرآنية في الترغيب في النكاح \*

قال الله - تعالى - :

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال - تعالى - :

﴿ فَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾<sup>(٤)</sup> وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .

- وقال - تعالى - في وصف الرسل ومدحهم :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾<sup>(٥)</sup> فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل .

وقال - تعالى - :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾<sup>(٦)</sup> . سبحانه مدح أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء ، ويقال : إن الله - تعالى - لم يذكر في كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا : إن يحيى ﷺ قد تزوج ولم يجامع ، قيل : إنما فعل ذلك لينال الفضل ، وإقامة السنة ،

(١) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب النكاح ) باب تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٩ قال في الزوائد : في إسناده الإفريقي ، وهو عبد الله بن زياد بن أنعم : ضعيف ، والحديث رواه ابن حبان في صحيحه بإسناد آخر .

(٢) انظر سنن أبي داود ( كتاب النكاح ) باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء ج ٢ ص ٢٢٠ رقم ٢٠٥٠ ، ورواه النسائي في سننه في ( كتاب النكاح ) باب : كراهية تزويج العقيم ج ٦ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) من الآية ٣٣ من سورة النور

(٤) من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الرعد

(٦) الآية ٧٤ من سورة الفرقان

وقيل : لغضب البصر ، وأما عيسى - عليه السلام - فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .  
\* فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب \*

أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقي الله عزبا ، وفى تلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالي :  
أ - موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .  
ب - محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .  
ج - طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .  
د - طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .  
ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج .  
ثالثا : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة لإراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور .  
قال - تعالى - :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١)  
رابعا : تفرغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني ، وتهيئة أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .  
وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا .  
وقال محمد بن كعب القرظي : فى معنى قوله - تعالى - :  
﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ﴾ (٢)  
قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية لأولاده . قال - عليه الصلاة والسلام - ( يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة ) رواه الطبراني والبيهقي (٣) .  
قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره .  
وقال ﷺ ( ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته ) .

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

(٢) من الآية ٢٠١ من سورة البقرة

(٣) الحديث أورده الطبراني فى المعجم الكبير ج ١١ ص ٣٣٧ رقم ١١٩٣٢ ولفظه : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحده يقام فى الأرض بحقه أذى فيها من مطر أربعين عاما »  
وقال محققه : ورواه فى الأوسط ٢١٧ مجمع البحرين ، قال فى المجمع ج ٥ ص ١٩٧ وفيه ( أى إسناده الكبير أسعد أبو غيلان الشيباني ) ولم أعرفه ، وبقيّة رجاله ثقات .

**\* احذروا أيها الأزواج \***

١ - العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ويبيع آخرته بدنيته .

٢ - القصور عن القيام بحقوقهم والصبر على أخلاقهم واحتمال الأذى منهم ، وفي هذا خطر لأنه راع ومشتول عن رعيته ، قال ﷺ :

( كفى المرء إثماً أن يضيع من يعول ) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والطبراني والحاكم والبيهقي<sup>(١)</sup>

وقال تعالى - : ﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾<sup>(٢)</sup> أمرنا أن نقيهم كما نقي أنفسنا

٣ - أن يكون الأهل والولد شاغلًا له عن الله - تعالى - وجاذبًا إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما شغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغول على صاحبه ، فينقل من التمتع المباح إلى الإغراق في ملاعبة النساء وموانستهن والإمعان في التمتع بهن .

قال إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - : ( من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء )  
وكان رسول الله ﷺ لعلو درجته لا يمنعه هذا العالم عن حضور القلب مع الله - تعالى - فكان ينزل عليه الوحي وهو في فراش امرأته .  
من حديث أنس : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة .

**\* النهي عن قرب الزنا \***

١ - نهى القرآن الكريم عن قرب الزنا فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنِ ﴾<sup>(٣)</sup> ولما نهى عن قربه يكون قد نهى عنه من باب أولى ، وفي تحريم القرب تحذير من دواعي الزنا .

وكما وضع الطريقة المثلى لتصرف الغريزة منع من أي تصرف في غير الطريق المشروع ، وحظر إثارة الغريزة بأية وسيلة من الوسائل حتى لا تنحرف عن المنهج المرسوم .

فنهى عن الاختلاط والرقص والصورة المثيرة والغناء الفاحش والنظر المريب ، وكل ما من شأنه أن يشير الغريزة أو يدعو إلى الفحش حتى لا تتسرب عوامل الضعف في البيت والانحلال في الأسرة .

٢ - واعتبر الزنا جريمة قانونية تستحق أقصى العقوبة لأنه وخيم العقابة ومفض إلى الكثير من الشرور والجرائم ، فالعلاقات الخلية والاتصال الجنسي غير المشروع مما يهدد المجتمع بالفناء والانقراض ، فضلاً عن كونه من الرذائل المحقرة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْنِ إِنْه كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه في ( كتاب الزكاة ) باب : في صلة الرحم ج ٢ ص ١٣٢ رقم ١٦٩٢ عن ابن عمرو . وفي صحيح مسلم في ( كتاب الزكاة ) باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم ج ٢ ص ٦٩٢ بلفظ : ( كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته ) وانظر مسند الإمام أحمد ( مسند ابن عمرو ) ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب الزكاة ) ج ١ ص ٤١٥ وأورده البيهقي في ( كتاب النفقات ) من السنن الكبرى : باب فضل النفقة على الزوجة ج ٧ ص ٤٦٧ .

(٢) من الآية ٦ من سورة التحريم

(٣) من الآية ٣٢ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الإسراء

- ٣ - لأنه سبب مباشر في انتشار الأمراض الخطيرة التي تفتك بالأبدان ، وتنقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء ، وأبناء الأبناء ، كالزهري والسيلان ، والقرحة .
- ٤ - وهو أحد أسباب جريمة القتل ؛ إذ أن الغيرة الطبيعية في الإنسان ، وقلما يرضى الرجل الكريم أو المرأة العفيفة بالانحراف الجنسي ، بل إن الرجل لا يجد وسيلة يغسل بها العار الذي يلحقه ويلحق أهله إلا الدم .
- ٥ - والزنا يفسد نظام البيت ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه : التشرد والانحراف والجريمة .
- ٦ - وفي الزنا ضياع النسب وتقليك الأموال لغير أربابها عند التوارث .
- ٧ - وفيه تغرير بالزوج ؛ إذ أن الزنا قد ينتج عنه الحمل فيقوم الرجل بتربية غير ابنه .
- ٨ - إن الزنا علاقة مؤقتة لاتبعة وراءها ، فهو عملية حيوانية بحثة ينأى عنها الإنسان الشريف .
- وجملة القول أنه قد ثبت علميا ثبوتنا لاجمال للشك فيه عظم ضرر الزنا ، وأنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد وانحطاط الآداب ومورث لأقتل الأدواء ، ومروج للعزوبة واتخاذ الخليلات ، ومن ثم كان أكبر باعث على الترف والسرف والعهر والفجور .
- لهذا كله وغيره جعل الاسلام عقوبة الزنا أقسى عقوبة .
- وإذا كانت هذه العقوبة تبدو قاسية فإن آثار الجريمة المترتبة عليها أشد ضررا على المجتمع . والإسلام يوازن بين الضرر الواقع على المذنب والضرر الواقع على المجتمع ، ويقضى بارتكاب أخف الضررين ، وهذه هي العدالة .
- ولاشك أن ضرر عقوبة الزاني لاتوزن بالضرر الواقع على المجتمع من إفشاء الزنا ورواج المنكر وإشاعة الفحش والفجور .
- إن عقوبة الزنا إذا كان يضاربها المجرم نفسه فإن في تنفيذها حفظ النفوس ، وصيانة الأعراض ، وحماية الأسر . التي هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع ، وبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد .
- إن الأمم بأخلاقها الفاضلة وبآدابها العالية ونظافتها من الرجس والتلوث وطهارتها من التدنن والتسفل .
- على أن الإسلام - من جانب آخر - كما أباح الزواج أباح التعدد حتى يكون في الحلال مندوحة عن الحرام ولكن لايبقى عذر لمقترف هذه الجريمة .
- وقد احتاط في تنفيذ هذه العقوبة بقدر ما أخاف الزناة وأرهبهم : -
- ١ - فمن الاحتياط أنه درأ الحدود بالشبهات ، فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة .
- ٢ - وأنه لا بد في إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عدول من الرجال فلا تقبل فيها شهادة النساء ولا شهادة الفسقة .
- ٣ - وأن يكون الشهود جميعا رأوا عملية الزنا نفسها كالليل في المكحلة والرشاء في البثرو هذا مما يصعب ثبوته .
- ٤ - ولو فرض أن ثلاثة منهم شهدوا بهذه الشهادة وشهد الرابع بخلاف شهادتهم أو رجع أحدهم عن شهادته أقيم عليهم حد القذف .

فهذا الاحتياط الذى وضعه الإسلام فى إثبات هذه الجريمة . مما يدفع ثبوتها قطعاً .  
فهذه العقوبة هى إلى الإرهاب والتخويف أقرب منها إلى التحقيق والتنفيذ ، وقد يقول القائل :  
إذا كان الحد مما يندر إقامته لتعذر ثبوت الأدلة . فلماذا إذن شرعه الإسلام ؟ !!  
الجواب كما قلنا :

أن الإسلام إذا لاحظ قسوة الجريمة وضراوتها فإنه يعمل لها ألف حساب وحساب قبل أن  
تقترب .

فهذا نوع من الزجر بالنسبة لهذه الجريمة التى تجرد من الحوافز والبواعث ما يدفع إليها ولا سيما وأن  
الغريزة الجنسية من أعنف الغرائز إن لم تكن أعنفها على الإطلاق ، ومن المناسب أن يواجه عنف الغريزة  
عنفاً العقوبة فإن ذلك من عوامل الحد من ثورتها .  
من أجل ما تقدم فقد أقام الإسلام أسواراً منيعة حول هذه المنطقة المحرمة لا يستطيع أن يتسلقها  
إلا شيطان مارد من ذئاب البشر .  
ومن هنا فقد نهى عن مقدمات الزنا ودواعيه :

عفوا تعف تساؤكم فى المحرم وتجنبوا . مالا يليق بمسلم  
من يزن فى بيت بألفى درهم فى بيته يزن بغير الدرهم  
من يزن يزن به ولو بجداره إن كنت ياهذا ليلىا فافهم  
إن الزنا دين فإن أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم  
ياها تكَاسِر الرجال وقاطعا سبل المودة عشت غير مكرم  
لو كنت حرا من سلاله طاهر ما كنت هتاكاً لحزمة مسلم

البرلابى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

\* التحذير من النظرة وأحواتها \*

● عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ . يعنى عن ربه عز وجل :  
( النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى أبدلته إيماناً يجد حلاوته فى قلبه ) رواه  
الطبرانى<sup>(١)</sup>

● وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم  
يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه ) رواه أحمد والطبرانى<sup>(٢)</sup> إلا أنه قال : ( ينظر  
إلى امرأة أول رمقة ) والبيهقى قال : ( إنما أراد إن صلح ) - والله أعلم - أن يقع بصره عليها من غير

(١) هذا الحديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد فى ( كتاب الأدب ) باب : غرض البصر ج ٨ ص ٦٣  
قال الهيثمى : رواه الطبرانى ، وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطى : وهو ضعيف .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد فى ( كتاب الأدب ) باب : غرض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى إلا أنه  
قال : ( ينظر إلى امرأة أول رمقة ) وفيه على بن يزيد الألهان ، وهو متروك .

وانظر مسند الإمام أحمد ( مسند أبى أمامة ) ج ٥ ص ٢٦٤

قصد فيصرف بضره عنها تورعا .

● وروى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت في سبيل الله ، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله ) رواه الأصبهاني (١) .

● وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( ثلاثة لا ترى أعينهم النار : عين حرست في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله ) رواه الطبراني (٢) .  
● وعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : ( اضمنوا لى ستا من أنفسكم اضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا الأمانة إذا ائتمتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ) رواه أحمد (٣) .

المعنى

اصدقوا : قولوا الصدق وتحروا الحق الموافق للواقع والخبر الصحيح .

أوفوا : أتموا الميعاد وحافظوا عليه .

أدوا الأمانة : راعوا الودائع .

احفظوا فروجكم : لاتفعلوا الفاحشة

غضوا : لاتنظروا إلى الأجنيات .

كفوا : امنعوا أيديكم من الأذى والسرقة والتعدى .

● وعن على بن أب طالب - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال له :

( يا على إن لك كثرًا في الجنة ، وإنك ذو قرنيها ، فلا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة ) (٤) رواه ابن أبي شيبة وأحمد والحكيم الترمذى والحاكم وأبو نعيم في المعرفة عن على - رضى الله عنه .

المعنى : - الآخرة : إرسال النظرة الثانية واستمرار العين تتطلع .

قوله ﷺ لعل : وإنك ذو قرنيها : أى ذو قرنى هذه الأمة وذلك لأنه كان له شجتان في قرنى

رأسه إحداهما من ابن ملجم - لعنه الله - والأخرى من عمرو بن ود ، وقيل معناه : إنك ذو قرنى الجنة ؛ أى : ذو طرفيها ومليكيها الممكن فيها الذى يسلك جميع نواحيها .

(١) ذكره الأصبهاني في الحلية في ترجمة ( صفوان بن سليم ) ج ٣ ص ١٦٣ ثم قال :

غريب من حديث صفوان ، وأبو سلمة تفرد به عمر بن صهبان .

(٢) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ( مرويات يبرز عن حكيم عن أبيه عن جده ) ج ١٩ ص ٤١٦ رقم ١٠٠٣ إلا أنه قال : ( غضت عن محارم الله ) بدل ( كفت عن محارم الله )

(٣) وقال محققه : قال في المجمع ٢٨٨/٥ وفيه أبو حبيب العنقزى ويقال : القنوى ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

أخرجه الإمام أحمد في مسنده ( مسند عبادة بن الصامت ) ج ٥ ص ٣٢٣

(٤) انظر نوادر الأصول للحكيم الترمذى ( الأصل الحادى والأربعين والمائتين في فضيلة غرض البصر ) ص ٣٠٧ . وانظر مجمع

الزوائد ( كتاب الأدب ) باب : غرض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى :

رواه أحمد ، وفيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات .

وأخرجه الحاكم في المستدرک في ( كتاب معرفة الصحابة ) ج ٣ ص ١٢٣ ثم قال :

هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

● وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :  
 (العينان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج يزني) رواه أحمد<sup>(١)</sup>  
 ● وعن جرير - رضي الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فقال : ( اصرف بصرك ) رواه مسلم ،<sup>(٢)</sup> والطيالسي وأحمد وأبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح ، والنسائي .  
 ● وعن عبد الله - يعني ابن مسعود رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( الاثم حواز القلوب ، ومامن نظرة إلا وشيطان فيها مطمع ) رواه البيهقي .<sup>(٣)</sup>  
 حواز القلوب - بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو - : وهو ما يحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب مالا يحسن .

وقيل : بتخفيف الواو وتشديد الزاي : جمع حازة ، وهي الأمور التي تحز في القلوب وتحك وتؤثر ، وتتخالج في القلوب ، أن تكون معاصي ، وهذا أشهر .  
 ● وروى عن أبي أمامة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :  
 ( لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكفن الله وجوهكم ) رواه الطبراني<sup>(٤)</sup>  
 المعنى : لتمنعن عيونكم أن تنظر إلى عرم ولتبتعدن عن الفاحشة وإلا يغير الله معالمكم ويطمس على قلوبكم ويمسحكم - أيها الفسقة ، العصاة الفجرة - قال تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدن زينتهن إلا مظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو أخواتهن أو بني إخوانهن أو بني إخوانهن أو نساوتهن أو ماملكت أيماهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٥)</sup>

يغضوا : يمنعوا ما يكون نحو محرم ( إن الله خبير ) لا يخفى عليه إجماله أبصارهم ، واستعمال سائر حواسهم ، وتحريك جوارحهم ، وما يقصدون بها ، فليكونوا على حذر منه في كل حركة وسكون .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند عبد الله بن مسعود رضي الله عنه) ج ١ ص ٤١٢  
 (٢) روى الإمام مسلم في صحيحه في (كتاب الآداب) باب نظر الفجاءة ج ٣ ص ١٦٩٩ رقم ٢١٥٩/٤٥ حديث جرير ولكن بلفظ : قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري . وانظر مسند أحمد (ومن حديث جرير بن عبد الله البجلي) ج ٤ ص ٣٦١ وانظر مسند أبي داود الطيالسي (أحاديث جرير بن عبد الله البجلي) ج ٣ ص ٩٣ رقم ٦٧٢ ولفظ حديثه هنا : (عن جرير بن عبد الله البجلي قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظرة الفجاءة ، فقال : « غص بصرك » وأورده أبو داود في سننه في (كتاب النكاح) باب : ما يؤمر به من غص البصر ج ٢ ص ٢٤٦ رقم ٢١٤٨ ولفظه : « اصرف بصرك » . وأخرجه الترمذي في جامعه الصحيح في (كتاب الأدب) باب : ما جاء في نظرة المفجأة ج ٥ ص ١٠١ رقم ٢٧٧٦ من رواية جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظرة الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري . وانظر سنن البيهقي ج ٧ ص ٩٠ (كتاب النكاح) - باب ما جاء في نظر الفجاءة .  
 (٣) الحديث في الترغيب والترهيب في (كتاب النكاح) باب : غص البصر ج ٣ ص ٦٢ وقال المنذرى : رواه البيهقي وغيره ، ورواه لأعلم فيهم مجروحا ، لكن قيل : صوابه الوقوف .  
 (٤) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ٨ ص ٢٤٦ رقم ٧٨٤٠ إلا أنه قال : (أو لتكفن وجوهكم)  
 قال المحقق : قال في المجمع ٦٣/٨ : وفيه على بن يزيد الألهاني ، وهو متروك : قلت : وعبيد الله بن زحر مثله .  
 (٥) الأيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة النور .

(يغضضن) فلا ينظرون إلى ما لا يحل لمن النظر إليه من الرجال . (ويحفظن فروجهن) بالتستر أو التحفظ عن الزنا ، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا .

(ولا يبدن زينتهن) كالحلى والثياب والأصباغ فضلاً عن مواضعها لمن لا يحل أن تبدى له (إلا ما ظهر منها) عند مزاوله الأشياء كالثياب والخاتم فإن في سترها حجراً ، وقيل : المراد بالزينة : مواضعها ، على حذف المواضع أو ما يعين المحاسن الخلقية والتزينة ، والمستثنى هو الوجه والكفان ؛ لأنها ليست بعورة ، والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة . (وليضربن بخمرهن) ستراً لأعناقهن (إلا لبعولتهن) فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكره . ١ هـ : البيضاوى .

- وعن أبي سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :  
(ممن صباح إلا وملكان يتاديان : ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال) رواه ابن ماجه<sup>(١)</sup> .

● وروى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل في زينة لها في المسجد فقال النبي : (يا أيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبخر في المسجد ، فإن بنى إسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا في المساجد) رواه ابن ماجه<sup>(٢)</sup> .

والتبخر : المشى خيلاء

● وعن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :  
(إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمى؟ قال : الحمى الموت) رواه البخارى ومسلم والترمذى<sup>(٣)</sup> .

المعنى : قد يكون الهلاك مع أقارب الزوجة لتيسر وجودهم مع المرأة ، والقربة تدعو إلى الاختلاط مع الطمأنينة ، ويؤق الحذر من مكمنه : والحمى : أقارب زوج المرأة كآبيه وعمه وأخيه وابن أخيه وابن عمه ونحوهم .

(١) الحديث في سنن ابن ماجه في (كتاب الفتن) باب : فتنه النساء ج ٢ ص ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٩

قال في الزوائد : في إسناده خارجه بن مصعب ، وهو ضعيف .

(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه في سننه في (كتاب الفتن) باب فتنه النساء ج ٢ ص ١٣٢٦ رقم ٤٠٠١

قال في الزوائد : في إسناده داود بن مدرك ، قال فيه الذهبي في كتاب الطبقات : نكرة لا يعرف . وموسى بن عبيدة ، ضعيف .

(٣) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في (كتاب السلام) باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ص ٥٦٢ رقم ١٤٠٣

وفي الترمذى في (كتاب الأدب) باب ما جاء في النهي عن الدخول على النساء إلا بإذن الأزواج ج ٥ ص ١٥٢ ورد حديث مولى لعمر بن العاص في الاستئذان من على - رضى الله عنه - في الدخول على أساء بنت عميس ، وقال عمرو بن العاص : إن رسول الله ﷺ نهانا أن ندخل على النساء بغير إذن أزواجهن .

قال الترمذى : وفي الباب عن عقبة بن عامر ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر .

وانظر سنن البيهقى (كتاب النكاح) باب : لا يخلو رجل بامرأة أجنبية ج ٧ ص ٩٠



ومعنى : ( الحمو الموت ) : أى : الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وقد يكون المراد أيضا بالحمو : أقارب الزوج ( غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها ) مثل الأخ وابن الأخ والعم وأبنائه ونحوهم .

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال :

( لا يخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم ) رواه البخارى ومسلم . (١)

ذو محرم : من لا يحل له نكاحها من الأقارب كالأب والابن والأخ والعم ومن يجزى مجراهم .

● وعن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : ( لأن يطعن فى رأس أحدكم

بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له ) رواه الطبرانى (٢)

( والله لأن يطعن رأس أحدكم بسلاح حاد أهون عقابا وأيسر عذابا من لمس امرأة أجنبية )

المخيط - بكسر الميم وفتح الياء - هو ما يخط به كالإبرة والمسلة ونحوهما

- وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :

( إياك والخلوة بالنساء والذى نفسى بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ، ولأن يزحم رجل

خنزيرا متلطخا بطين أو حماة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له ) رواه الطبرانى (٣)

المعنى : منكب الشخص : مجتمع رأس العضد والكتف ، لأنه يعتمد عليه ، من نكب عن الطريق :

عدل ومال ، ونكب على القوم نكابة - بالكسر - فهو منكب مثل مجلس وهو عون العريف .

يطلب النبى - ﷺ - من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات خشية إفساد الشيطان وإضلاله ،

ورجاء العصمة والابتعاد عن الغواية والوقوع فى المكروه ، ثم يقسم - ﷺ - بالقاهر القادر الذى بيده

تصاريف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة تجعل للشيطان ميدانا واسعا يمرح فيه بالتحدث بالوقوع فى

المعاصى ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة والاحتكاك بها ، لقد صدق رسول الله -

ﷺ - فإن الحوادث الآن تنبئ بالقتل والانتحار من جراء مزاحمة الأجنبية والاختلاط بهن بلا نكاح

شرعى ، نسأل الله السلامة ، قال - تعالى - : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم

الفائزون ﴾ (٤)

وقال - تعالى - : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه

مستولا ﴾ (٥)

( ولا تقف ) : ولا تتبع مالم يتعلق به علمك تقليدا أو رجما بالغيب ، قال البيضاوى : أى كل هذه

( ١ ) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الحج ) باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره ص ٣١٠ رقم ٨٥٠ ولفظه : ( لا يخلو رجل بامرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم ) فقام رجل فقال : يا رسول الله : اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، وخرجت امرأتى حاجة ، قال : ( اذهب فحج مع امرأتك )

( ٢ ) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٢٦ فى ( كتاب النكاح ) باب النهى عن الخلوة بغير محرم وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

( ٣ ) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ( كتاب النكاح ) باب النهى عن الخلوة بغير محرم ج ٤ ص ٣٢٦ ثم قال : رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهان ، وهو ضعيف جدا وفيه توثيق .

( ٤ ) الآية ٥٢ من سورة النور

( ٥ ) الآية ٣٦ من سورة الإسراء

الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها ، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية . أ هـ .

وقال - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ <sup>(١)</sup> ( نختم ) : منعها عن الكلام ( يكسبون ) بظهور آثار المعاصي عليها ودلالاتها على أفعالها وإنطاق الله إياها .

والآن نتقل إلى الحديث عن جريمة الزنا كما جاء في أقوال الفقهاء :

### الزنا الموجب للحد

إن كل اتصال جنسى قائم على أساس غير شرعى يعتبر زنا تترتب عليه العقوبة المقررة من حيث إنه جريمة من الجرائم التى حددت عقوباتها .

ويتحقق الزنا الموجب للحد بتغيب الحشفة - أو قدرها من مقطوعها - فى فرج محرم مشتهى بالمطبع من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال .  
فإذا كان الاستمتاع بالمرأة الأجنبية فيما دون الفرج فإن ذلك لا يوجب الحد المقرر لعقوبة الزنا وإن اقتضى التعزير .

فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال :  
إني عاجلت امرأة من أقصى المدينة فأصبت منها ، دون أن أمسها ، فأنما هذا ، فأقم على ما شئت .  
فقال عمر :

سترك الله لو سترت على نفسك . فلم يرد عليه النبى ﷺ شيئا ، فانطلق الرجل ، فأتبعه النبى ﷺ - رجلا فدعاه فتلا عليه :

( وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين )  
فقال له رجل من القوم : يا رسول الله أله خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : ( للناس عامة ) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . <sup>(٢)</sup>  
أقسام الزناة :

الزانى إما أن يكون بكرا أو محصنا ، ولكل منهما حكم يخصه .

حد البكر :

اتفق الفقهاء على أن البكر الحر إذا زنى فإنه يجلد مائة جلدة سواء فى ذلك الرجال والنساء ،

( ١ ) الآية ٦٥ من سورة يس

( ٢ ) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب التوبة ) باب : إن الحسنات يذهبن السيئات ج ٤ ص ٢١١٦ رقم ٢٧٦٣/٤٢

والآية هى رقم ١١٤ من سورة هود

وأنظر سنن أبى داود ( كتاب الحدود ) باب فى الرجل يصيب من المرأة دون الجماع فيتوب قبل أن يأخذه الإمام ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٤٤٦٨

وفى جامع الترمذى فى ( أبواب تفسير القرآن ) باب : ومن سورة هود ج ٤ ص ٣٥٢ رقم ٥١١٣

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

لقول الله - سبحانه - في سورة النور : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بها رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾<sup>(١)</sup> الجمع بين الجلد والتغريب :

والفقهاء وإن اتفقوا على وجوب الجلد فإنهم قد اختلفوا في إضافة التغريب إليه :

( ١ ) قال الشافعي وأحمد : يجمع إلى الجلد التغريب مدة عام لما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة وزيد بن خالد أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت لي بكتاب الله ، وقال الخصم الآخر - وهو أقره منه - : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي ، فقال رسول الله - ﷺ - : ( قل ) قال : إن ابني كان عسيفا ( أجيرا ) على هذا فزني بأمرأته وإني أخبرت أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ؛ فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - ﷺ - : ( والذي نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام )

واغد يا أنيس ( رجل من أسلم ) إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها .

قال : فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله - ﷺ - فرجمت .<sup>(٢)</sup>

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وإقامة الحد عليه .<sup>(٣)</sup>

وأخرج مسلم عن عبادة بن الصامت أن الرسول - ﷺ - قال :

( خذوا عني خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم )<sup>(٤)</sup> .

واختلف العلماء في تنزيل هذا الكلام ووجه ترتيبه على الآية ، وهل هو ناسخ للآية أو مبين لها ؟ فذهب بعضهم إلى النسخ ، وهذا قول من يرى نسخ الكتاب بالسنة وقال آخرون : بل هو مبين للحكم الموعود بيانه في الآية ، فكانه قال : عقوبتهن الحبس إلى أن يجعل الله لهن سبيلا فوقع الأمر بحبسهن إلى غاية .

فلما انتهت مدة الحبس وحان وقت مجيء السبيل قال رسول الله - ﷺ - : ( خذوا عني خذوا عني )

إلى آخره . . تفسيراً للسبيل وبيانه .

ولم يكن ذلك ابتداء حكم منه ، وإنما هو بيان أمر كان ذكر السبيل منظوياً عليه فأبان المبهم منه

( ١ ) الآية ٢ من سورة النور

( ٢ ) الحديث في صحيح البخاري طبع الشعب في ( كتاب الشهادات ) باب ماجاء في الإصلاح بين الناس ج ٣ ص ٢٤١ : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود .

وانظر صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ( كتاب الحدود ) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ج ٣ ص ١٣٢٥ رقم ١٦٩٧ / ٢٥ - ١٦٩٨ .

( ٣ ) أنظر صحيح البخاري طبع الشعب ( كتاب الشهادات ) باب : شهادة القاذف والسارق والزاني . . الخ ج ٣ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

( ٤ ) الحديث في صحيح مسلم في ( كتاب الحدود ) باب حد الزنا ج ٣ ص ١٣١٦ رقم ١٦٩٠ / ١٢ .

وفصل المجمل من لفظه ، فكان نسخ الكتاب بالكتاب لا بالسنة وهذا أصوب القولين - والله أعلم .  
وقد أخذ بالتغريب الخلفاء الراشدون ولم ينكره أحد ، فالصديق - رضى الله عنه - غرب إلى  
فدك ، والفاروق عمر - رضى الله عنه - إلى الشام ، وعثمان - رضى الله عنه - إلى مصر ، وعلى - رضى  
الله عنه - إلى البصرة .

والشافعية يرون أنه لا ترتيب بين الجلد والتغريب فيقدم ماشاء منها ، واشترط في التغريب أن  
يكون إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ؛ لأن المقصود به الإيحاش عن أهله ووطنه ، وما دون مسافة القصر  
في حكم الحضر ، فإن رأى الحاكم تغريبه إلى أكثر من ذلك فعل .  
وإذا غربت المرأة فإنها لا تغرب إلا بمحرم أو زوج ، فلو لم يخرج إلا بأجرة لزمّت وتكون من  
مالها .

( ٢ ) وقال مالك والأوزاعي : يجب تغريب البكر الحر الزاني دون المرأة البكر الحرة الزانية فإنها  
لا تغرب ؛ لأن المرأة عورة

( ٣ ) وقال أبو حنيفة : لا يضمن إلى الجلد التغريب إلا أن يرى الحاكم ذلك مصلحة فيغريبها على قدر  
ما يرى .  
حد المحصن :

وأما المحصن الثيب فقد اتفق الفقهاء على وجوب رجمه إذا زنى حتى يموت - رجلا كان أو امرأة -  
واستدلوا بما يأتي :

( ١ ) عن أبي هريرة قال : أتى رجل لرسول الله - ﷺ - وهو في المسجد ، فناده فقال : يا رسول الله :  
إني زنيت ، فأعرض عنه ، ردد عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبي - ﷺ -  
فقال : ( أبك جنون ؟ ) قال : لا ، قال : ( فهل أحصنت ؟ ) قال : نعم ، فقال النبي -  
ﷺ - : ( اذهبوا به فارجموه )

قال ابن شهاب : فأخبرني من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصل ،  
فلما أؤلفته الحجارة هرب فأدركناه بالخرة فرجمناه . متفق عليه (١) .

وهو دليل على أن الإحصان يثبت بالإقرار مرة ، وأن الجواب بنعم إقرار

( ٢ ) وعن ابن عباس قال : خطب عمر فقال :

( إن الله - تعالى - بعث محمدا - ﷺ - بالحق .

وأُنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناه ، ورجم رسول الله -

ﷺ - ورجمنا ، وإني خشيت إن طال زمان أن يقول قائل : مانجد الرجم في كتاب الله - تعالى - فيضلون  
بترك فريضة أنزلها الله - تعالى - فالرجم حق على من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا قامت  
البينة أو كان حمل أو اعتراف .

( ١ ) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في ( كتاب الحدود ) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ص ٤٢٢ ، ٤٢٣  
رقم ١١٠٢

وايم الله لولا أن يقول الناس : ( زاد عمر في كتاب الله - تعالى - لكتبها )  
رواه الشيخان وأبو داود والنسائي<sup>(١)</sup> .

وفي نيل الأوطار :

أما الرجم فهو مجمع عليه ، وحكى في البحر عن الخوارج أنه غير واجب ، وكذلك حكاه عنهم  
أيضا ابن العربي . وحكاه أيضا عن بعض المعتزلة كالنظام وأصحابه ولا مستند لهم ، إلا أنه لم يذكر في  
القرآن ، وهذا باطل .

● إنه قد ثبت بالسنة المتواترة المجمع عليها وهو أيضا ثابت بنص القرآن لحديث عمر عند الجماعة أنه  
قال :

كان مما أنزل على رسول الله - ﷺ - آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله - ﷺ -  
ورجمنا بعده .

ونسخ التلاوة لا يستلزم نسخ الحكم كما أخرج أبو داود من حديث ابن عباس .  
وقد أخرج أحمد والطبراني في الكبير من حديث أبي أمامة بن سهل عن خالته العجاء  
أن فيها أنزل الله من القرآن :

( الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة )<sup>(٢)</sup>  
وأخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي بن كعب بلفظ :  
( كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة وكان فيها آية ( الشيخ والشيخة ) الخ الحديث )<sup>(٣)</sup> .  
شروط الإحصان :

يشترط في المحصن الشروط الآتية :

- ( ١ ) التكليف : أى أن يكون الواطىء عاقلا بالغا ، فلو كان مجنونا أو صغيرا فإنه لا يحد ولكن يعزر .
- ( ٢ ) الحرية : فلو كان عبدا أو أمة فلا رجم عليهما لقول الله سبحانه - في حد الإماء :
- ﴿ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ﴾<sup>(٤)</sup> ، والرجم لا يتجزأ .
- ( ٣ ) الوطء في نكاح صحيح : أى أن يكون الواطىء قد سبق له أن تزوج زوجا صحيحا ووطىء فيه  
ولو لم ينزل ، ولو كان في حيض أو إحرام يكفى ، فإن كان الوطء في نكاح فاسد فإنه لا يحصل به  
الإحصان ، ولا يلزم بقاء الزواج لبقاء صيغة الإحصان ، فلو تزوج مرة زوجا صحيحا ودخل بزوجه  
ثم انتهت العلاقة الزوجية ثم زنى وهو غير متزوج فإنه يرجم ، وكذلك المرأة إذا تزوجت ثم طلقت

( ١ ) ورد هذا الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في ( كتاب الحدود ) باب : رجم الثيب في الزنا ص ٤٢٢ رقم  
١١٠١

وانظر سنن أبي داود ( كتاب الحدود ) باب : في الرجم ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٥ رقم ٤٤١٨  
وأخرجه الترمذى في جامعه الصحيح في ( كتاب الحدود ) باب : ما جاء في تحقيق الرجم ج ٤ ص ٣٨ ، ٣٩ رقم ١٤٣٢  
وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وروى من غير وجه عن عمر - رضى الله عنه .  
( ٢ ) الحديث في مجمع الزوائد في ( كتاب الحدود ) باب : نزول الحدود وما كان قبل ذلك ج ٦ ص ٢٦٥ وقال الهيثمى : رواه  
الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

( ٣ ) أخرجه ابن حبان في صحيحه ( الإحصان بترتيب صحيح ابن حبان ) ترتيب ابن بليان الفارسي في ( كتاب الحدود ) باب ذكر  
الأمر بالرجم للمحصنين إذا زنيا .. الخ ج ٦ ص ٣٠٢ حديث رقم ٤٤١٢

( ٤ ) من الآية ٢٥ من سورة النساء

فزنت بعد طلاقها فإنها تعتبر محصنة فترجم .  
المسلم والكافر سواء :

وكما يجب الحد على المسلم إذا ثبت منه الزنا فإنه يجب على الذمي المرتد ،  
لأن الذمي قد ألزم الأحكام التي تجرى على المسلمين ، وقد ثبت أن النبي - ﷺ - رجم يهوديين  
زنيا وكانا محصنين .

وأما المرتد فإن جريان أحكام الإسلام تشمله ، ولا يخرج به الارتداد عن تنفيذها عليه .  
عن ابن عمر : ( أن اليهود أتوا النبي - ﷺ - برجل وامرأة منهم قد زنيا .  
فقال : ماتجدون في كتابكم .

فقالوا : تسخم وجوههما ويخزيان .

قال : كذبتن إن فيها الرجم ( فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين )

وجاءوا بقاريء لهم فقروا حتى إذا أنتهى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقليل له :  
ارفع يدك ، فرفع يده فإذا هي تلوح . فقال - أوقالوا - : يا محمد ، ( إن فيها الرجم ، ولكننا كنا  
نتكاثمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرجما . قال : فلقد رأيته يجنأ عليها يقيها الحجارة بنفسه ) (١)  
رواه البخاري ومسلم ، وفي رواية أحمد : ( بقار لهم أعور يقال له ابن صوريا )  
وعن جابر بن عبد الله قال : رجم النبي - ﷺ - رجلا من أسلم ورجلا من اليهود : رواه أحمد  
ومسلم (٢)

● وعن البراء بن عازب قال :

( مر على النبي - ﷺ - يهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال :

أهكذا تجدون حد الزنا في كتابكم ؟ .. قالوا : نعم .. فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك  
بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى في كتابكم ؟

قال : لا .. ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك بحد الرجم ، ولكن كثر فى أشرافنا ، وكنا إذا أخذنا  
الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد ، مكان  
الرجم ..

فقال النبي ﷺ :

( اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه ) فأمر به فرجم ، فأنزل الله - عز وجل - :  
( يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ) إلى  
قوله .

( إن أوتيتم هذا فخذوه ) (٣)

( ١ ) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( كتاب الحيدود ) باب : رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ص ٤٢٤ رقم ١١٠٤  
( ٢ ) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في ( كتاب الحيدود ) باب : رجم اليهود أهل الذمة في الزنا ج ٣ ص ١٣٢٨ رقم  
١٧٠١/م ٢٨ ( رجم النبي - ﷺ - رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود وامرأته ) وفي رواية : ( وامرأة )  
( ٣ ) من الآية ٤١ من سورة المائدة .

يقولون : ( اثبتوا محمدا ؛ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا )

فأنزل الله - تبارك وتعالى - :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾

قال : هي في الكفارة كلها

رواه أحمد ومسلم وأبو داود<sup>(١)</sup> .

رأى الفقهاء : حكى صاحب البحر الإجماع على أنه يجلد الخربي

وأما الرجم فذهب الشافعي وأبو يوسف والقاسمية إلى أنه يرجم المحصن من الكفار إذا كان

بالغا ، عاقلا ، حرا ، وكان أصاب نكاحا في اعتقاده .

وذهب أبو حنيفة ومحمد وزيد بن علي والناصر والإمام يحيى : إلى أنه يجلد ولا يرجم ؛ لأن

الإسلام شرط في الإحصان عندهم . ورجم رسول الله - ﷺ - لليهوديين إنما كان بحكم التوراة التي

يدين بها اليهود .

وقال الإمام يحيى : والذمي كالخربي في الخلاف .

وقال مالك : لأحد عليه .

وأما الخربي المستأمن فذهبت العترة والشافعي وأبو يوسف إلى أنه يحد ، وذهب مالك وأبو حنيفة

ومحمد : إلى أنه لا يحد .

وقد بالغ ابن عبد البر فنقل الاتفاق على أن شرط الإحصان الموجب للرجم هو الإسلام .

وتعقب بأن الشافعي وأحمد لا يشترطان ذلك .

ومن جملة من قال بأن الإسلام شرط : ربيعة - شيخ مالك - وبعض الشافعية .

الجمع بين الجلد والرجم :-

ذهب ابن حزم وإسحق بن راهويه ومن التابعين الحسن البصري :

إلى أن المحصن يجلد مائة جلدة ، ثم يرجم حتى يموت فيجمع له بين الجلد والرجم . واستدلوا

بما رواه عبادة بن الصامت أن رسول الله - ﷺ - قال : ( خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن

سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم ) رواه مسلم وأبو داود ،

والترمذي<sup>(٢)</sup>

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٠

والحديث أخرجه أبو داود في سنته في (كتاب الحدود) باب : في رجم اليهوديين ج ٤ ص ١٥٤ رقم ٤٤٤٨

وانظر مسند الإمام أحمد (مسند البراء بن عازب) ج ٤ ص ٢٨٦

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ١٨٨ ، ١٩٠ وأخرجه أبو داود في سنته في

(كتاب الحدود) باب : في الرجم ج ٤ ص ١٤٤ رقم ٤٤١٥

والحديث في الجامع الصحيح للترمذي في (كتاب الحدود) باب : ماجاء في الرجم على الثيب ج ٤ ص ٤١ رقم ١٤٣٤

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن علي - كرم الله وجهه - أنه جلد شراحة يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة .  
فقال : أجلدها بكتاب الله ، وأرجمها بقول رسول الله - ﷺ .  
وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : لا يجتمع الجلد والرجم عليهما ، وإنما الواجب الرجم خاصة .

وعن أحمد . روايتان .

إحداهما : يجمع بينهما . وهى أظهر الروايتين واختارها الحزقي :  
والأخرى : لا يجمع بينهما ؛ للذهاب الجمهور - واختارها ابن حامد .  
واستدلوا بأن النبي - ﷺ - رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلد واحدا منها .  
وقال لأنيس الأسلمي : ( فإن اعترفت فارجمها ) ولم يأمر بالجلد وهذا آخر الأمرين .  
لأن أبا هريرة قد رواه - وهو متأخر في الإسلام - فيكون ناسخا لما سبق من الحدين - الجلد والرجم - ثم رجم الشيخان أبو بكر وعمر في خلافتها ولم يجمع بينهما بين الجلد والرجم .  
ويرى الشيخ الدهلوي عدم التعارض ، وأنه لanasخ ولا منسوخ وإنما الأمر يفوض إلى الحاكم قال :

الظاهر عندي أنه يجوز للإمام ( الحاكم ) أن يجمع بين الجلد والرجم ، ويستحب له أن يقتصر على الرجم لاقتصار النبي - ﷺ - عليه .  
والحكمة في ذلك أن الرجم عقوبة تأتى على النفس ، فأصل الزجر المطلوب حاصل به ، والجلد زيادة عقوبة مرخص في تركها فهذا هو وجه الاقتصار على الرجم عندي .  
شروط الحد :- يشترط في إقامة حد الزنا مايلي :

١ - العقل

٢ - البلوغ

٣ - الاختيار

٤ - العلم بالتحريم

فلا حد على صغير ولا على مجنون ولا مكره : لما روته عائشة - رضی الله عنها - أن النبي - ﷺ -

قال : ( رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل )<sup>(١)</sup>

( ١ ) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب الطلاق ) باب : طلاق المعتوه والصغير والنائم ج ١ ص ٦٥٨ رقم ٢٠٤١ وزاد : قال أبو بكر في حديثه : « وعن المبلى حتى يبرأ »

وانظر سنن أبي داود ( كتاب الحدود ) باب : في المجنون يسرق أو يصيب حدا ج ٤ ص ٥٥٨ رقم ٤٣٩٨ وفي الباب عن ابن عباس ، وعلي بن أبي طالب - رضی الله عنهما -

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ( مسند عائشة رضی الله عنها ) ج ٦ ص ١٠٠ بلفظه ، وقال : وقد قال حماد : ( وعن المعتوه حتى يعقل )

وأورد الترمذي حديث علي ج ٢ ص ٤٣٨ رقم ١٤٤٦ في ( أبواب الحدود ) باب ماجاء فيمن لا يجب عليه الحد ، ثم قال :

وفي الباب عن عائشة  
وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب البيوع ) ج ٢ ص ٥٩ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص .



رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين وحسنه الترمذی ، وأما العلم بالتحريم فلأن الحد يتبع اقرار الحرام وهو غير مقترف له ، وراجع النبی - ﷺ - ماعزا ، فقال له : هل تدري ما الزنا ؟ وروى أن جارية سوداء رفعت إلى عمر - رضي الله عنه - وقيل : إنها زنت ، فخففها بالدرة خفقات وقال :

( أى : لكاع .. زنت ؟ ... فقالت : من غوش بدرهمين

فقال عمر : ماترون ؟ .. وعنده على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف .

فقال على - رضي الله عنه - : أرى أن ترجمها .

وقال عبد الرحمن : أرى مثل مارأى أخوك ..

فقال عثمان : أراها تستسهل بالذى صنعت ، لا ترى به بأسا ، وإنما حد الله على من علم أمر

الله - عز وجل - فقال : صدقت .

بم يثبت الحد :

يثبت الحد بأحد أمرين .

الإقرار ، أو الشهود .

ثبوته بالإقرار :-

أما الإقرار فهو كما يقولون « سيد الأدلة » وقد أخذ الرسول - ﷺ - باقرار ماعز والغامدية ولم

يختلف في ذلك أحد من الأئمة ، وإن كانوا قد اختلفوا في عدد مرات الإقرار الذى يلزم به الحد .

فقال مالك والشافعى ، وداود ، والطبرى ، وأبو ثور : يكفى في لزوم الحد اعترافه به مرة

واحدة ، لما رواه أبو هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله - ﷺ - قال :

( اغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها )

فاعترفت ، فرجمها ، ولم يذكر عددا .

وعند الأحناف : أنه لا بد من أقارير أربعة مرة بعد مرة في مجالس متفرقة .

ومذهب أحمد وإسحاق مثل الأحناف ، إلا أنهم لا يشترطون المجالس المتفرقة ، والمذهب الأول

هو الأرجح .

الرجوع عن الإقرار يسقط الحد :-

ذهبت الشافعية ، والحنفية ، وأحمد إلى أن الرجوع عن الإقرار يسقط الحد لما رواه أبو هريرة عند

أحمد والترمذی .

( أن ماعزا لما وجد مس الحجارة يشتد فرحتى مر برجل معه لحي جمل ( عظم الخنك ) فضربه به وضربه

الناس حتى مات . فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : ( هلا تركتموه !! )<sup>(١)</sup>

قال الترمذی : إنه حديث حسن .

وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة .. انتهى

( ١ ) انظر سنن الترمذی ( كتاب الحدود ) باب ما جاء في دمه الحد عن المعترف إذا رجع ج ٢ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ رقم ١٤٥٣ وقال

الترمذی : هذا حديث حسن

وأخرج أبو داود والنسائي من حديث جابر نحوه ، وزاد : ( إنه لما وجد مس الحجارة صرخ : يا قوم ردوني إلى رسول الله - ﷺ - فإن قومي قتلوني وغروني من نفسي وأخبروني أن رسول الله غير قاتل .

فلم تنزع عنه حتى قتلناه ، فلما رجعنا إلى رسول الله - ﷺ - وأخبرناه قال : ( فهلا تركتموه وحيتموني به !! ؟ ) (١) .

من أقر بزنا امرأة فجحدت : -

إذا أقر الرجل بزنا امرأة معينة فجحدت فإنه يقام عليه الحد وحده ، ولا تحد هي لما رواه أحمد وأبو داود عن سهل بن سعد : أن رجلا جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : إنه قد زنى بامرأة سماها ، فأرسل النبي - ﷺ - إلى المرأة فدعاها فساها فأنكرت ، فحدته وتركها (٢) .

وهذا الحد هو حد الزنا الذي أقربه ، لاحد قذف المرأة كما ذهب إليه مالك والشافعي . وقال الأوزاعي وأبو حنيفة : يحد للقذف فقط لأن إنكارها شبهة واعترض على هذا الرأي بأن إنكارها لا يبطل إقراره .

وذهبت الهادوية ومحمد ويروى عن الشافعي أنه يحد للزنا والقذف ؛ لما رواه أبو داود والنسائي عن ابن عباس :

أن رجلا من بكر بن ليث أتى النبي - ﷺ - فأقر أنه زنى بامرأة أربع مرات ، فجلده مائة - وكان بكرا - ثم سأله البينة على المرأة فقالت : كذب يا رسول الله ؛ فجلده حد الفرية ثمانين (٣) ثبوته بالشهود : - الاتهام بالزنا سبب الأثر في سقوط الرجل والمرأة ، وضياح كرامتهما وإلحاق العار بهما وبأسرتهما وذريتهما ، ولهذا شدد الإسلام في إثبات هذه الجريمة حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء - جزافا أو لأدنى حزازة - بعار الدهر وفضيحة الأبد ، فاشتراط في الشهادة على الزنا الشروط الآتية :

أولا : - أن يكون الشهود أربعة - بخلاف الشهادة على سائر الحقوق - قال الله تعالى : - ﴿ واللذان يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ ولقوله : -

﴿ والذين يرمون المحصنات ؛ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾ فإن كانوا أقل من أربعة لم تقبل .

وهل يحدون إذا شهدوا : -

(١) وقد أورد أبو داود حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - في (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٧٦ رقم ٤٤٢٠ ثم قال جابر لسائله : ليستثبت رسول الله - ﷺ - منه ، فأما لتزك حد فلا . قال السائل : فعرفت وجه الحديث .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد (حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه) ج ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ والحديث أخرجه أبو داود في سننه في (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٨٦ رقم ٤٤٣٧

(٣) أنظر سنن أبي داود (كتاب الحدود) باب : إذا أقر الرجل بالزنا ولم تقرر المرأة ج ٤ ص ٦١١ رقم ٤٤٦٧ قال المحقق : ونسبه المنذرى للنسائي ، وقال - أي : النسائي - : هذا حديث منكر

قال الأحناف ، ومالك ، والراجح من مذهب الشافعي وأحمد : نعم . . لأن عمر حد الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة . وهم : أبو بكر ونافع وشبل بن معبد .  
وقيل : لا يحدون حد القذف ؛ لأن قصدهم أداء الشهادة لا قذف المشهود عليه . وهو المرجوح عند الشافعية والحنفية ومذهب الظاهرية .  
باللفظ الصريح لا يكتفى . قال : نعم . . قال : كما يغيب المروء في المكحلة والرشا في البثر ؟ .

قال : نعم . . .

ولما أبيح النظر في هذه الحالة للحاجة إلى الشهادة ، كما أبيح للطبيب والقابلة ونحوهما .  
ثانيا : التصريح : وأن يكون التصريح بالإيلاج لا بالكناية  
ثالثا : اتحاد المجلس : ويرى جمهور الفقهاء أن من شرط هذه الشهادة اتحاد المجلس ألا يختلف في الزمان ولا في المكان ، فإن جاءوا متفرقين لا تقبل شهادتهم .  
ويرى الشافعية والظاهرية ، والزيدية عدم اشتراط هذا الشرط ، فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين في مجلس واحد أو في مجالس متفرقة ؛ فإن شهادتهم تقبل ؛ لأن الله - تعالى - ذكر الشهود ولم يذكر المجلس ، ولأن كل شهادة مقبولة تقبل إن انفقت ، ولو تفرقت في مجالس ، كسائر الشهادات .  
رابعا : الذكورة : ويشترط في شهود الزنى أن يكونوا جميعا من الرجال ، ولا تقبل شهادة النساء في هذا الباب .

ويرى ابن حزم أنه يجوز أن يقبل في الزنا شهادة امرأتين مسلمتين عدلين مكان كل رجل .  
فيكون الشهود ثلاثة رجال وامرأتين - أو رجلين وأربع نسوة - أو رجلا واحدا وست نسوة - أو ثمان نسوة لأرجال معهن .

: - عدم التقادم : لقول عمر - رضي الله عنه - : أيما قوم شهدوا على حد لم يشهدوا عند حضوره فإنما شهدوا عن ضعف ولا شهادة لهم .

فإذا شهد الشهود على حادث الزنا بعد أن تقادم فإن شهادتهم لا تقبل عند الأحناف ، ويحتجون لهذا بأن الشاهد إذا شهد الحادث فخير بين أداء الشهادة حسبة ، وبين التستر على الجاني ، فإذا سكت عن الحادث حتى قدم عليه العهد دل ذلك على اختيار جهة الستر ، فإذا شهد بعد ذلك فهو دليل على أن الضغينة هي التي حملته على الشهادة . ومثل هذا لا تقبل شهادته للتهمة والضغينة ، كما قال عمر ، ولم ينقل أن أحدا أنكر عليه هذا القول ، فيكون إجماعا .

وهذا مالم يكن هناك عذر يمنع الشاهد من تأخير الشهادة ، فإن كان هناك عذر ظاهر في تأخير الشهادة كبعد المسافة عن محل التقاضي ، وكمرض الشاهد ونحو ذلك من الموانع فإن الشهادة تقبل حينئذ ولا تبطل بالتقادم .

والأحناف الذين قالوا بهذا الشرط لم يقدروا له أمدا ؛ بل فوضوا الأمر للقاضي يقدره تبعا لظروف كل حالة لتعذر التوقيت ، نظرا لاختلاف الأعذار .

وبعض الأحناف قدر التقادم بشهر ، وبعضهم قدره بستة أشهر .

أما جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والظاهرية . . والشيعية والزيدية . فإن التقادم عندهم

لا يمنع من قبول الشهادة مهما كانت متأخرة .  
 وللحنابلة رأيان : رأى مثل أبي حنيفة ، ورأى مثل الجمهور .  
 هل يثبت الحد بالحبل ؛  
 ذهب الجمهور إلى أن مجرد الحبل لا يثبت به الحد ، بل لابد من الاعتراف أو البينة . واستدلوا  
 على هذا بالأحاديث الواردة في درء الحدود بالشبهات .  
 وعن علي أنه قال لامرأة حبلى :  
 ( أستكرهت؟؟؟ قالت : لا .. قال : فلعل رجلا أتاك في نومك .. )  
 قالوا : وروى الأئبات عن عمر أنه قبل قول امرأة ادعت أنها ثقيلة النوم وأن رجلا طرقتها ولم تدر  
 من هو بعد .

وأما مالك وأصحابه فقالوا :  
 إذا حملت المرأة ولم يعلم لها زوج ولم يعلم أنها أكرهت فإنها تحمد ،  
 قالوا : فإن ادعت الإكراه فلا بد من الإتيان بأمانة تدل على استكراهها مثل أن تكون بكرا فتأتى  
 وهى تدمى ، أو تفضح نفسها بأثر الاستكراه .  
 وكذلك إذا ادعت الزوجية فإن دعواها لا تقبل إلا أن تقيم على ذلك البينة .  
 واستدلوا لمذهبهم بقول عمر : -  
 الرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا كانت بينة أو الحمل أو  
 الاعتراف .

وقال علي : ( يأياها الناس إن الزنا زنيان : زنا سر وزنا علانية ، فزنا السر أن يشهد الشهود .  
 فيكون الشهود أول من يرى .

وزنا العلانية أن يظهر الحبل ، والاعتراف ) .  
 قالوا : هذا قول الصحابة ولم يظهر لهم مخالف في عصرهم فيكون إجماعا .  
 سقوط الحد بظهور ما يقطع بالبراءة : -  
 إذا ظهر بالمرأة أو بالرجل ما يقطع بأنه لم يقع من أحد منها زنا ؛ كأن تكون المرأة عذراء لم تفض  
 بكارتها ، أو ارتقاء مسدودة الفرج . أو يكون الرجل مجبوبا أو عينا سقط الحد .

وقد بعث رسول الله - ﷺ - عليا لقتل رجل كان يدخل على إحدى النساء ، فذهب فوجده  
 يغتسل في ماء فأخذ بيده فأخرجه من الماء ليقبله فرآه مجبوبا فتركة ورجع إلى النبي - ﷺ - وأخبره  
 بذلك .

الولد يأتى لسته أشهر : -

إذا تزوجت المرأة وجاءت بولد لسته أشهر منذ تزوجت فلا حد عليها .  
 قال مالك : بلغني أن عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت في ستة أشهر فأمر بها أن ترجم ، فقال  
 له علي بن أبي طالب : ليس ذلك عليها ، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه :  
 ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾

وقال :

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾  
فالحمل يكون ستة أشهر ، فلا رجم عليها ، فبعث عثمان في أثرها فوجدها قد رجعت .

### وقت إقامة الحد :

قال في بداية المجتهد :-

وأما الوقت فإن الجمهور على أنه لا يقام في الحر الشديد ولا في البرد ، ولا يقام على المريض .  
وقال قوم : يقام - وبه قال أحمد وإسحق - واحتجا بحديثي عمر أنه أقام الحد على قدامة وهو مريض . قال : وسبب الخلاف معارضة الظواهر للمفهوم من الحد ، وهو أنه حيث لا يغلب على ظن المقيم له فوات نفس المحدود .

فمن نظر إلى الأمر بإقامة الحدود مطلقاً من غير استثناء قال : يحد المريض ، ومن نظر إلى المفهوم من

الحد قال : لا يحد للمريض حتى يبرأ ، وكذلك الأمر في شدة الحر والبرد .

وقال الشوكاني : وقد حكى في البحر الإجماع على أنه يمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، والمرض المرجو برؤه ، فإن كان ميثوسا ؟ فقال الهادي وأصحاب الشافعي :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله .

وقال الناصر والمؤيد بالله : لا يحد في مرضه وإن كان ميثوسا ، والظاهر الأول ، لحديث أبي أمامة ابن سهل بن حنيف الآتي .

وأما المرجو إذا كان مريضاً أو نحوه فذهبت العترة . والشافعية والحنفية ومالك إلى أنه لا يمهل لمرض ولا لغيره ؛ إذ القصد إتلافه .

### وقال المروزي :

يؤخر لشدة الحر أو البرد أو المرض ؛ سواء ثبت بإقراره أو بالبينة .

وقال الإسفراييني : يؤخر للمرض فقط ، وفي الحر والبرد أوجه : يرجم في الحال أو حيث يثبت بالبينة لا الإقرار، أو العكس .

والحبل لا ترجم حتى تضع وترضع ولدها إن لم يوجد من يرضعه .

وعن علي قال : ( إن أمة لرسول الله - ﷺ - زنت ، فأمرني أن أجعلها فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت أن أجعلها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبي - ﷺ - فقال : أحسنت . . أتركها حتى تماثل ) .

رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وصححه<sup>(١)</sup>

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه) ج ١ ص ١٥٦ فقد أورده ضمن خطبة لعلي - كرم الله وجهه .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه في (كتاب الحدود) باب : تأخير الحد عن النفساء ج ٣ ص ١٣٣٠ رقم ١٧٠٥/٣٤ وأورده أبو داود في (كتاب الحدود) باب : إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٧ رقم ٤٤٧٣ مع اختلاف في اللفظ . ورواه الترمذي عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي في (أبواب الحدود) باب : ما جاء في إقامة الحد على الإمام ج ٢ ص

الحفر للمرجوم : - اختلفت الأحاديث الواردة في الحفر للمرجوم فبعضها مصرح فيه بالحفر له ، وبعضها لم يصرح به .

قال الإمام أحمد : أكثر الأحاديث على أنه لا حفر ، ولا اختلاف ماورد من أحاديث ، اختلف الفقهاء .

فقال مالك وأبو حنيفة : لا يحفر للمرجوم .

وقال أبو ثور : يحفر له .

وروى عن علي أنه حين أمر برجم شراحة الهمدانية أخرجها فحفر لها حفرة فأدخلت فيها وأحرق الناس بها يرمونها .

وأما الشافعي فخير في ذلك ، وروى عنه أنه يحفر للمرأة خاصة .

وذهبت العترة إلى أنه يستحب الحفر إلى سرة الرجل وئدى المرأة ويستحب جمع ثيابها عليها وشدها بحيث لا تنكشف عورتها في قلبها . وتكرار اضطرابها إذا لم يحفر لها .

واتفق العلماء على أنه لا ترجم إلا قاعدة ، وأما الرجل فجمهورهم على أنه يرجم قائما .

وقال مالك : قاعدة ، وقال غيره : يخير الإمام بينهما .

حضور الإمام والشهود الرجم :

قال في نيل الأوطار :

حكى صاحب البحر عن العترة والشافعي أنه لا يلزم الإمام حضور الرجم وهو الحق ، لعدم دليل يدل على الوجوب ، ولما تقدم من حديث ماعز أنه - ﷺ - أمر برجم ماعز ولم يخرج معهم ، والزنى منه ثبت بإقراره وكذلك لم يحضر في رجم الغامدية كما زعم البعض .

قال في التلخيص : لم يقع في طرق الحديثين أنه حضر بل في بعض الطرق ما يدل على أنه لم يحضر ، وقد جزم بذلك الشافعي فقال :

«وأما الغامدية ففي سنن أبي داود وغيره ، ما يدل على ذلك ، وإذا تقرر هذا تبين عدم الوجوب على الشهود ولا على الإمام ، وأما الاستحباب فقد حكى ابن دقيق العيد أن الفقهاء استحبابوا أن يبدأ الإمام بالرجم إذا ثبت الزنى بالإقرار وتبدأ الشهود به إذا ثبت بالبينة .»  
شهود طائفة من المؤمنين الحد : -

قال الله - تعالى - : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ (١) .

استدل العلماء بهذه الآية على أنه يستحب أن يشهد إقامة الحد طائفة من المؤمنين واختلفوا في عدد هذه الطائفة ، فقيل : أربعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : اثنان . وقيل : سبعة فأكثر .

الضرب في حد الجلد : -

ذهب أبو حنيفة والشافعي إلى أنه يضرب سائر الأعضاء ماعدا الفرج والوجه وماعدا الرأس

كذلك عند أبي حنيفة . وقال مالك : يجرد الرجل في ضرب الحدود كلها، وكذلك عند الشافعي ، وأبي حنيفة ماعدا القذف .

ويضرب قاعدا لا قائما .

قال النووي : قال أصحابنا : وإذا ضربه بالسوط يكون سوطا معتدلا في الحجم ، بين القضيب والعصا . فإن ضربه بجريدة فلتكن خفيفة بين اليابسة والرطوبة ، ويضربه ضربا بين ضربه ، فلا يرفع يده فوق رأسه ، ولا يكتفى بالوضع ، بل يرفع ذراعه رفعا معتدلا . إمهال البكر : - تمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، وكذلك المرجو الشفاء . فإن كان ميثوسا من شفائه فقال أصحاب الشافعي :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله (العذق من أعذاق النخل)

روى أبو داود وغيره عن رجل من الأنصار : أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى ( شدة الإجهاد من المرض ) فعاد جلده على عظم .

فدخلت عليه جارية لبعضهم ؟ فهش لها فوق وقع عليها ، فلما حمل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك ، وقال : استفتوا لي رسول الله ﷺ فإن قد وقعت على جارية دخلت على ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا : مارأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذي هو به ، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ماهو إلا الجلد على عظم .

فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمرخ فيضربوه به ضربة واحدة . (١) .

هل للمجلود دية إذا مات ؟ : -

إذا مات المجلود فلا دية له .

قال النووي في شرح مسلم :

( أجمع العلماء على أن من وجب عليه الحد فجلده الإمام أو جلاده الحد الشرعي فمات فلا دية فيه ولا كفارة ، لا على الإمام « الحاكم » ولا على جلاده ، ولا في بيت المال ) .

قوله تعالى

الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾

ثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية :

فإن الزواج هو نواة المجتمع وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعي الذي يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التي تجعل للحياة قيمة وتقديرا وأنه هو الحنان الحقيقي والحب الصحيح ، وهو التعاون في الحياة والاشتراك في بناء الأسرة وعمار العالم .

( ١ ) انظر سنن أبي داود ( كتاب الحدود ) باب : إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٥ ، ٦١٦ ،

غاية الإسلام من تحريم نكاح الزنى :-

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقي بين أنياب الزانية ولا للمسلمة أن تقع في يد الزانى ، وتحت تأثير روجه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشقى الجراثيم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض .

والإسلام - في كل أحكامه وأوامره وفي كل محرماته ونواهيه - لا يريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .  
الزناة ينبوع لأخطر الأمراض :-

وكيف يسعد الزناة في دنياهم وهم ينبوع لأخطر الأمراض وأشدها فتكا بهم وأكثرها تغلغلا في جميع أعضائهم ؟ !!

ولعل الزهري والسيلان من الأمراض التناسلية التى تجعل - وحدها - الزناة شرا مستطيرا يجب اقتلاعه من العالم وخلعه من الأرض .

وكيف تسعد إنسانية فيها مثل هؤلاء الزناة . ينقلون أمراضهم النفسية إلى نسلهم ، وينقلون مع هذه الأمراض النفسية أمراض الزهري الوراثي ؟

بل كيف تسعد عائلة تلد أطفالا مشوهي الخلق والخلق بسبب الالتهابات التى تصيب الأعضاء التناسلية أو العلل التى تطرأ عليها .  
وجه الشبه بين الزناة والمشركين :-

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المستمع لسنة أفضل الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعيش مع زانية لا تفكر تفكيره ولا يستطيع أن يعاشر امرأة لا تحيا حياته المستقيمة ، ولا يستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لا تشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله - تعالى - قال عن الزواج :

﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١)

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟ .. وأين نفس الزانية من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وإن المسلم الذى لا يستطيع نكاح الزانية - كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها - لا يمكن كذلك أن يعيش مع مشركة لا تعتقد اعتقاده ولا تؤمن إيمانه ، ولا تبرى في الحياة ما يراه .  
لا تحرم ما يحرمه عليه دينه من الفسق والفجور .

ولا تعترف بالمبادئ الإنسانية السامية التى ينص عليها الإسلام .

لها عقيدتها الضالة واعتقاداتها الباطلة .

لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لا يمت إلى عقله بصلة ، ولذلك قال الله تعالى :-

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين



حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴿١﴾  
التوبة تجب ما قبلها

فإن تاب كل من الزاني والزانية توبة نصوحا بالاستغفار والتدم والإقلاع عن الذنب واستأنف كل منها حياة نظيفة مبرأة من الإثم ومطهرة من الدنس فإن الله يقبل توبتهما ويدخلهما برحمته في عباده الصالحين .

﴿٢﴾ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴿٣﴾

سأل رجل ابن عباس فقال : إني كنت ألم بامرأة ؛ أتى منها ما حرم الله على ، فرزق الله - عز وجل - من ذلك توبة فأردت أن أتزوجها .  
فقال أناس :

إن الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة

فقال ابن عباس :

ليس هذا في هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلى .

رواه ابن أبي حاتم .

وسئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة .. أيتزوجها ؟

قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلا من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمرت الشفيرة على أوداجها ، فأدركت ، فداووها حتى برأت .

ثم إن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة فقرأت القرآن ونسكت حتى كانت من أنسك نسائهم . فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدلّسها ويكره أن يغش على ابنة أخيه .

فأتى عمر فذكر ذلك له . فقال عمر :

لو أنشبت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فتزوجها إياه .

وفي رواية أن عمر قال : أنخبّر بشأنها ؟ .. تعمد إلى ماستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها

أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت ألا أدع أحدا أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة .

فقال له أبي بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها ، فإن أجابت ، فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

(١) الآية ٢٢١ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٦٨ - ٧٠ من سورة الفرقان .

وقد تابع في ذلك ماروى عن ابن عمر .  
ولكن أصحابه قالوا :

لا ينبغي لمسلم أن يدعو امرأة إلى الزنى ويطلبه منها ؛ لأن طلبه ذلك منها إنما يكون في خلوة ، ولا تحل الخلوة بأجنبية ولو كان في تعليمها القرآن ، فكيف يحل في مراودتها على الزنى ؟  
ثم لا يأمن إن أجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية فلا يحل التعرض لمثل هذا ؛ لأن التوبة من سائر الذنوب وفي حق سائر الناس وبالنسبة إلى سائر الحكام على غير هذا الوجه ؛ فكذلك يكون هذا .  
وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ، ورجحه ابن تيمية وابن القيم إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطا آخر ، وهو انقضاء العدة فمتى تزوجها قبل التوبة أو انقضاء عدتها ، كان الزواج فاسدا ويفرق بينهما .

وهل عدتها ثلاث حيض أو حيضة ؟ .. روايتان عنه .  
ومذهب الحنفية والشافعية والمالكية ؛ أنه يجوز للزاني أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزاني .  
فالزنى لا يمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : ( وسبب اختلافهم في مفهوم قوله - تعالى - :  
﴿ والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾  
هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟  
وهل الإشارة في قوله - تعالى - :

﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ إلى الزنى أو النكاح ؟  
وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم لما جاء في الحديث : أن رجلا قال للنبي ﷺ : في زوجته :

إنها لا ترد لأمس

فقال له النبي - ﷺ - :

( طلقها ) فقال له : إني أحبها : فقال له : ( أمسكها )<sup>(١)</sup>

قال أحمد :

هذا الحديث منكر ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وأورد أبو عبيد على هذا الحديث أنه خلاف الكتاب والسنة المشهورة ؛ لأن الله إنما أذن في نكاح المحصنات خاصة ، ثم أنزل في المقدوفات آية اللعان ، وسن رسول الله التفريق بينهما فلا يجتمعان أبدا .  
فكيف يأمر بالإقامة على عاهر لا تمتنع ممن أرادها ؟ ! والحديث مرسل ، وقال ابن القيم :  
عورض بهذا الحديث لتشابه الأحاديث المحكمة الصريحة في المنع من تزويج البغايا .

(١) الحديث في الموضوعات لابن الجوزي في « كتاب النكاح » باب ثبوت الرجل مع المرأة الفاجرة - الجزء الثاني ص ٢٧٢ . قال :  
وقد رواه عبيد بن عمير وحسان ابن عطية كلاهما عن رسول الله ﷺ مرسل ، وقد حمله أبو بكر الخلال على الفجور ، ولا يجوز هذا ، وإنما يحمل على تفريطها في المال لوصح الحديث ،  
قال أحمد بن حنبل : هذا الحديث لا يثبت عن رسول الله ﷺ . ليس له أصل

ثم إن المجوزين اختلفوا في زواجها في عدتها :  
فمنعه « مالك » احتراماً لماء الزوج وصيانة لاختلاط النسب الصريح لولد الزنى ، وذهب أبو حنيفة والشافعي إلى أنه يجوز العقد عليها من غير انقضاء عدة ، ثم إن الشافعي يجوز العقد وإن كانت حاملاً لأنه لأحرمة لهذا الحمل .

وقال أبو يوسف ورواية عن أبي حنيفة :  
لا يجوز العقد عليها حتى تضع الحمل لثلا يكون الزوج قد سقى ماءه زرع غيره ،  
ونهى رسول الله ﷺ ( أن توطأ المسبية الحامل حتى تضع )

مع أن حملها مملوك له .  
فالْحَامِلُ مِنَ الزَّانِي أَوْلَى الْأَتُوطَأِ حَتَّى تَضَعَ ؛ لِأَنَّ مَاءَ الزَّانِي وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَرَمَةٌ ؛ فَهَاءُ الزَّوْجِ مُحَرَّمٌ ، فَكَيْفَ يَسُوغُ لَهُ أَنْ يَخْلُطَهُ بِمَاءِ الْفَجُورِ ؟  
ولأن النبي ﷺ هم بلعن الذي يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره وكانت مسبية مع انقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوكاً له .  
وقال أبو حنيفة في الرواية الأخرى : يصح العقد عليها ولكن لا توطأ حتى تضع .

### أضرار الزنى

قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه ما أمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى ، ومن ثم فإن الإسلام لما نهى عن هذا المرض الخطير وهو الزنى عقب على ذلك بقوله - تعالى - :  
﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ومن هذا المنطلق فإننا قد رأينا تنمة للفائدة أن نسجل هذا البحث القيم الذي جاء في كتاب ( القرآن والطب ) للدكتور : محمد وصفي . طبعة ١٩٦٠  
بدأ المؤلف بحثه بقوله - جل شأنه - : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِي إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ <sup>(١)</sup> .  
وستتكمّل عن أضرار الزنى من الناحية الطبية لترى ما تجرّه هذه الفاحشة على مرتكبيها من المصائب التي لا يزال العالم يزرع تحت عبثها والتي تنخر عظام الإنسانية كما ينخر السوس في مادة الخشب .

### الزهرى

ومن هذه المصائب الزهرى ، وحين أتكلّم عن الزهرى إنّما أتكلّم عن ثالث مرض في العالم منوط به إزهاق النفوس وتضييع الأرواح ، وأول مرض لا يريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتت الأكباد ، ويذيب الأفئدة ، ممثلاً به شر تمثيل .  
هذا الداء ينتشر في العالم انتشار فاحشة الزنى ، وتجد الإصابة به في لندن وحدها حوالي ١٠ ٪ .  
أى : أن عدد المصابين يبلغ الستمائة ألف شخص ، وفي برلين ١٢ ٪ . وفي عاصمة فرنسا ١٥ ٪ . ولقد وجد أنه في جوتنبرج التي يبلغ عدد سكانها ١٣٨١٣٠ نفساً يبلغ عدد المصابين ٤٧٠٠٠ شخص ، وقال العلامة بنكش : إنه في ألمانيا بأجمعها تجد في كل خمسة رجال رجلين مصابين بهذا الداء ، وفي الولايات

المتحدة الأمريكية ٣٠٠٠ شخص يقضى عليهم هذا الداء سنويا .

أما في مصر فلقد وجد أنه في سنة ١٩١٣ تردد على الأربع عشرة عيادة سرية ٢٥٠ ألف زان مريض بالزهرى ، والمعروف أن عدد المصابين في القطر المصرى لا يقل عددهم عن المليونين ، ولا يغيب عن البال أن المصابين الذين لا تبلغ إصابتهم إلى الجهات المختصة لا يعلم عددهم غير الله تعالى . هذا المرض يعدى بمجرد التمس عن طريق الزنى ، أو بمجرد تقبيل المصاب لغيره أو ملامسته ، وتسببه جرثومة خاصة تسمى ( الإسبيروشيف باليدا ) وتستطيع أن تلمس حقيقة هذا المرض إذا علمت أنه لا يترك جزءا من أجزاء الجسم حتى يترك فيه آثاره ، ولا يدع فيه جهازا حتى يعطل عمله ويفسد وظيفته ، وسوف ترى حين نتكلم عن الزهرى الوراثى أن الإصابة تنتقل إلى نسل المصابين . وستعلم كيف يحمل الزناة إلى ذريتهم إنبث الهدايا وأشنع الأمراض .

إن ظهور القرحة التآكلية أو التقرحية في موضع الإصابة ماهو إلا الإنذار الخطير بغزو الجراثيم لجميع أجزاء الجسم عن طريق الأوعية الدموية والليمفاوية جميعا ، ومن ثم يحمر الجلد ويأخذ الاحمرار شكل دوائر وردية لا تلبث أن تأخذ شكلا خاصا يتحول إلى ما يسمى بالزهرات الحبيبية بجميع أشكالها وأنواعها ، أو تتحول إلى حويصلات زهرية ، فزهرات مللية ، والزهرات الحبيبية لا تلبث أن تتقيح سريعا حتى تكون الربيا الزهرية .

ويظهر كل ذلك مع تضخم لا يلبث أن يعم غدد الجسم الليمفاوية التى تتقيح سريعا إذا ماوصلتها الجراثيم العنقودية والسبحية .

وتصيب جلود المرضى بالزهرى مظاهر مشوهة لهذا الداء العضال تعم جميع سطح الجسم : كالطفح الزهرى الحبيبي والثعباني والنكسي والعقدى وكالصلع والبهق الزهرين ، وذلك بجانب إصابة الأظافر وجعلها مشوهة هشة سهلة الكسر مثقوبة القاعدة ، وكذلك الأنسجة المحيطة بها لا تنجو من الالتهاب الدامى الزهرى ، بل هنالك القروح العميقة ، والأورام الصمغية التى تتغلغل في الجلد حتى تكشف عن العظام وأربطة العضلات ، وتنتشر في السطح الوحشى للساقين وخلف الفخذين والليتين وخلف الساعدين والمرفقين والسطح الوحشى للركبتين والسطح الخارجى للكتف وخلف اليدين وفى السطح الأعلى للقدمين وفى فروة الرأس ، فتتلف العضلات وتفتت العظام وتساقط شظاياها وتتآكل أجزاؤها ويصاب سمحاقها ونسيجها الداخلى ، وتغزو الجراثيم مفاصلها فتصيبها بالورم والاستسقاء ويلتهب غشاؤها الزلالي .

والعين يصيبها الزهرى ويهلكها بجراثيمه ، ولقد وجد في لندن عاصمة بلاد الإنجليز أن نسبة العمى الزهرى تبلغ ٣,٥ ٪ من مجموع الإصابات بهذا الداء ، وأما عن الإصابة في الأذن فيكفى أن تعرف أن ٢٥ ٪ من المصابين تفقد آذانهم وظائفها ويصابون بالصمم .

والزهرى يصيب أجزاء الفم إصابات بالغة ، فترى اللسان وقد ظهرت فيه القروح الزهرية واللطف المخاطية حتى ينتهى الأمر بتضخمه وانكماشه وضمور نسيجه وتشققه وانتشار القروح الزهرية والأورام الصمغية فيه .

ولوزة الحلق تتعرض للورم الصمغى ، وكذلك البلعوم تظهر فيها التقرحات الزهرية التى قد

تعوق التنفس والبلع على وجه خاص لالتحام البلعوم بالحنك الرخو ويلتهب سمحاق الأخير ، ويصاب بالقروح الزهرية وينتهى الأمر بحدوث فجوة متسعة في حنك المريض .  
وتمتد الإصابة من الفم إلى المريء فيتعرض للإصابة بالقروح والانسداد والشلل ، ومنه إلى المعدة فتتقرح وتنتشر فيها الصموخ الزهرية ، وتعرض للنزف الدموي والانسداد في إحدى فتحتها وتصل الإصابة من المعدة إلى جميع أجزاء الأمعاء الدقيقة والغليظة والمستقيم وفتحة الشرج ، مما يعرض المريض لأشد الأخطار وأسوأ النتائج .

والجهازان البولي والتناسلي يتعرضان للتلف والدمار فيعطل عمل الكليتين بإصابتهما بالقروح والأورام الصمغية ، وكذلك المثانة وجميع أجزاء الخصيتين والمبيضين وسائر أجزاء الجهازين .  
ويغزو الزهري الجهاز التنفسي كذلك ، فتهصاب الشعب الهوائية بالقرحات المزمنة والأورام الصمغية ، التي تمتد إلى الرئتين فتعطل عملهما ؛ ويتسبب عن ذلك الموت ، وتصيب جراثيم الزهري الدورة الليمفاوية وتعطل عملها بما ينجم من التهاب قنواتها وانتفاخها وتضخم الغدد التي قد تتقيح عند وصول الجراثيم إليها ، بل إن إصابة الجهاز الدوري لما يورد الزناة شر موارد الهلاك والدمار ؛ إذ تلتهب أهم شرايين الجسم وأوردته ، ويتصلب نسيجها ، وتليف أجزاؤها التي قد تصاب كذلك بالأورام الصمغية ، وإنك لتجد معظم ذوى الأمراض القلبية المزمنة ، وموق الفجاء ضحية هذا الداء العضال .

وتصيب الجراثيم كذلك الغدد اللاقنوية بتلك الأورام الصمغية ، وهذه الغدد كالبروستاتا والمبايض والغدة النخامية والغدد التي فوق الكليتين ، والغدة الدرقية وغيرها . ويطول بنا شرح الضرر الناجم عن إصابة هذه الغدد لما لها من بعيد الأثر في جسم الإنسان وكبير سيطرتها عليه وخطورة شأنها في تقويم وظائفه وحفظ كيانه .

أما مايفعله الزهري في الجهاز العصبي ويحدثه في سائر أجزائه ويسببه في جميع خلاياه من تعطيل وظائفها بضمور نسيجها أو تلفه وتحلله ؛ كما يحصل في مرض الشلل العام للمجانين فهو مما لا يستطيع القيام بمثله داء كهذا في شدة بطشه بضحاياه ، وبعيد تغلغله في أدق زوايا وجودهم ، وعظيم أثره في القضاء عليهم .

وحسبك أن تعلم أن الزهري يفتك بمخ الزاني فتكا ذريعا ، فتلتهب سحايه خاصة ( الأم الحنون ) وتصاب كذلك أوعيته الدموية التي تضيق حتى ينتهى الأمر بإفسادها ، ومنع الغذاء عن الأجزاء التي تغذيها بالدماء ، وحينئذ تحدث الأعراض التي ستأتى الإشارة إليها ، بل هنالك الأنزفة المخية الناشئة عن انفجار الأوعية الدموية .

والأورام الصمغية . لاتترك المخ حتى تبليه وتعطل عمله ، وهو أهم مركز في جميع أجزاء البدن على الإطلاق ، وإصابة المخ في أبسط أشكالها تحدث الصداع الدائم ، والقيء والنوبات العصبية التي قد تتكرر مرات في اليوم الواحد ، وشلل العضلات المحركة للعين ، والتهاب عصب الإبصار ، ويصاب الجسم بفضه أو كله كذلك بالشلل الذي يوصل الزاني إلى القبر بعد أن يذيقه أشد الآلام .  
وقد تحدث الإصابة في لسان المصاب ويصاب بالبكم ، بل هناك بجانب ما تقدم أعراض أخرى

تعتبر أبسطها جميعا رغم عظم خطرها ، كالذهول والهذيان ، وفقد الذاكرة التي تنتهى بالجنون .  
وتختلف أعراض زهرى المخ باختلاف مواضع امتداد الإصابة ، فإذا أصيب عصب الشم مثلا فقدت هذه الحاسة ، وإذا أصيب عصب البصر كان فقده وذهابه وهكذا .

ويفاجئ الشلل النصفى الزهرى المصابين به على حين غرة منهم ، وهذا الشلل النصفى قد يحدث مثله في النصف الآخر فيعم الجسم ويحل الموت .

وتلتهب سحايا النخاع فيتصلب العمود الفقرى ، وتصحب ذلك تغيرات خاصة في وظائف أعصاب الحركة والتغذية والإحساس ، بجانب مايتعرض له المريض من الشلل العام .

وأما إذا التهب النخاع الشوكى ، فتشل الأطراف السفلى ، وتفقد إحساسها ويحدث الموت حينئذ لأسباب شتى كخراجات الظهر والتهابات الكليتين وغيرها .

وهنا لك مرض غاية في الخطورة لأملك إلا أن أشير إليه ويسببه الزهرى ( وهو الشلل العام للمجانين ) وأهم أعراضه : بلاهة المصابين به ، وتظهر متجسمة في أعمالهم ، وتفكيرهم وتكون مصحوبة عادة بهذيان العظمة ، أو الهذيان الاضطهادى ، ويصاب المريض كذلك بالرعشة في يديه وفي لسانه ، وتزداد حساسية انعكاس الركبتين وتختلف فتحنا حدقتى العين ويضطرب انتظامهما .

والزهرى يسبب مرضا آخر يسمى ( الخراج ) ويحدث آلاما روماتزمية حادة وأعراضا أخرى تشبه المغص الكلوى والآلام العصبية بين الأضلاع . والتهاب العصب الوركى .  
ويحدث المرض أزمات شديدة أهمها : الأزمة المعدية التي تمثل أعراض التهاب الزائدة الدودية ، وتقرح المعدة وانسداد الأمعاء .

ويصاب المريض بالأزمة الحنجرية التي تعوق التنفس وقد تشل بعض عضلات الحنجرة فيتعذر التنفس الذى قد يسبب الموت .

ويفقد المصاب بهذا الداء الحساسية التي تصل من عضلات الجسم فأربطته ومفاصله إلى المخ فتختلج حركة المريض ، ويفقد شيئا كبيرا من توازنه .

ومن أعراض هذا المرض زوال إحساس المريض من بقع جلدية خاصة في الجسم كزوال الإحساس في الجزء الجلدى المحيط بالضلع الثانى ، وكذلك زوال إحساس الأنف والجبهة . الخ وهكذا ترى الزهرى لا يترك موصعا في الجسم إلا ويغزوه ويعطل عمله ، لذلك اعتبر ممثلا خطرا لمعظم أمراض العالم ، وإن الأعراض التي تحدثها جراثيمه مشابهة إلى حد بعيد أمراض الجسم جميعا ، فهناك إحداثه لما يشبه خراجات الكبد لإصابته بأورامه الصمغية وتقيحها وتعرض نسيجها للتشمع والكباد الزهرى بالبريتون والطحال وسائر محتويات الجسم وبقية أعضائه ، مما لا نستطيع في هذه المعالجة حصره وإتمام بيانه ، وذلك بجانب شتى الحميات التي يبل بها مرضاه حتى يتركهم غير قادرين على الحركة ، فيعانون منها ما يشبه إلى حد بعيد أعراض حمى الملاريا والحمى التيفودية ، وكأنى بالزاق المريض بهذا المرض الذى بينا بعض أعراضه وأشرنا إلى مقدار تغلغله في جسمه من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه

عذاب غليظ (١)

## \* الزهري الوراثي \*

ولعل أقبح الهدايا التي يقدمها الزاق إلى ذريته التسعة ويبلّهم بها هي الزهري الوراثي ، وإن خطره على النسل ليهدد العالم بشر مما تهدده به الحروب الذرية ، وينذر به أشد مما تنذر به البراكين الملتهبة ، والزلازل المهلكة ، والنكبات العظمى التي لا تبقى ولا تذر ، وإنك لتجد ٤٠ ٪ من وفيات الأطفال في السنة الأولى من سنى حياتهم راجعة إلى الزهري الوراثي . وتجد ٦٠ ٪ من حالات الإجهاض المتكرر في العائلات المصابة بهذا الداء راجعة إليه .

وتجد في كل مائة طفل مولود بهزى وراثي تسعين يموتون ، وتجد ٢٠ ٪ من الحوامل على وجه العموم مصابات به ، وتجد ثلاثة عشر لقيطا مصابين بالزهري الوراثي في كل مائة لقيط ، بل نستطيع أن نقول إن ٩٩ ٪ من أولاد المصابين تموت - إما أجنة أو بعد الولادة - وذلك مما يبين لنا إلى أى مدى بلغ هدم الزنى للأسر ، وفتكه بالذرية والنسل .

والزهري : إما أن يلحق الجنين قبل تمام نموه فيلقظه الرحم في أى طور من أطوار نموه فيه ، وتشاهد حينئذ في المشيمة تغير حالها وكبر حجمها وسماك أغشيتها وصلابتها ، وترى التهاب الحبل السرى واحمراره وضخامته ، وتجد اختناق الكبد أو استئالتها والتصاقها بالبريتون ، وترى تضاعف حجم الطحال بنسبة كبيرة ، بجانب تقرح المعدة والأمعاء وسائر أجزاء الجسم الأخرى . هذا إذا لم يلفظ الجنين في الأسبوع الأول أو في العشرة الأيام الأولى مشوها ممسوخا ممزقا شرمزق ، بصورة بشعة ومنظر قبيح .

أما إذا ولد الجنين فإنه لا يرى بالحالة العادية التي يكون عليها الأصحاء ، بل تراه صغير الجسم مشوه الخلق فقير الدم ، ذاهب اللون ، هزيل الجسم مجعد الجلد ، معرضا للموت السريع بعد العذاب الأليم .

ولو خرج الطفل وعليه أمارات الصحة ، فليس معنى ذلك سلامته من العلة الفتاكة ، بل لا تمر به أسابيع قليلة حتى يلحقه الضعف والهزال ، ويتعطل نموه ويصبح معرضا لشتى الإصابات ، كارتباكات الجهاز الهضمي والتنفسى ، وتشقق الجلد وجدع الأنف ، ثم يستمر في النحافة والذبول شيئا فشيئا . وتتضخم كبده ويكبر طحاله ويتغير خلقه تغيرا واضحا ، وتلتهب غده الليمفاوية وتصاب عظام جمجمته وأصابه وذراعيه وساقيه وتلتهب مفاصله وتلين عظامه ، وتستسقى رأسه ويضيق تنفسه ، ويصاب جهازه العصبى ويتعرض للتشنجات العصبية ، والصرع ، والشلل النخاعى ، والشلل النصفى وإصابة الحواس والضمور العضلى وانعدام الفعل المنعكس والالتهاب السحاقى ، وإصابة أجزاء العينين وأعضائها والشلل العام للمجانين ، ويظهر التشوه في الأسنان ، وتلتهب الأذن الوسطى وتنقيح ، وتصاب أجزاء الدورة الدموية وذلك بجانب الإصابات الجلدية التي تشبه ما يحدث في الزهري

المكتسب ويتلف البنكرياس ، وتظهر الأورام الصمغية في الغدد الصماء ، إلى غير ذلك مما يضيق عن ذكره المقام .

وتلحق عوارض الزهري الوراثي الذرية في أى سن من أسنانها ، وكثيرا ماكان هذا الداء سببا في إصابة النسل بالبله والعتة والعبط والجنون ، وهو مايعد أبسط المسائل في إصابة النسل ، ويعتبر أكثرها حدوثا .

### السيلان

والسيلان من الأمراض الفتاكة التي تسببها كذلك هذه الفاحشة ، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى بالجنونوككس ، ولكي تعرف مقدار انتشار هذا المرض في الهيئة الاجتماعية ومبلغ تغلغله في أفرادها يكفيك أن أذكر مثلا من ذلك من إحصائيات لندن أن ٦٠ ٪ من عدد أفرادها البالغين مصابون بهذا الداء ويتراوح عدد المصابين في باريس من ٧٥ ٪ إلى ٩٠ ٪ وفي برلين من ٦٠ ٪ إلى ٧٠ ٪ وفي نيويورك تجد في كل مائة شخص ثمانين مصابين بالسيلان ، هذا في أرقى البلاد حضارة وأرسخها قدما في علم الطب ، وأكبرها ادعاء للمدنية والرقى .

وليس مرض السيلان بالعلة الهيئة السهلة ، التي لا تسترعى الانتباه بل هو من أكبر العضلات الاجتماعية الخطيرة ، التي حار في علاجها الأطباء والساسة المشرعون ، فهو مرض فتاك ، ويترك المصاب به في حالة من الألم والمرض مما يعطل حركته ويشل تفكيره ويجعله في المجتمع عضوا أشل لا فائدة فيه ولا نفع منه ، وذلك فوق ما تبلى به النساء فيجعلهن مستودعا خطرا للعدوى وأداة لتشويه النسل ، والقضاء على الذرية .

### إصابة المرأة

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تصاب هي الأخرى لاستعدادها لقبول العدوى ، ولقابلية جهازها التناسلي لاستقبال جراثيمه المرضية ، فتفتك به وتعطل وظيفته ، إذا لم تفقدها تماما .

ويصاب مجرى بول المرأة بهذه الجراثيم فيلتهب ويحمر وتتضخم حافته ، ويظهر القيح السيلاني الكريه الرائحة من فتحة وكثيرا مايزمن المرض في هذا المكان حين تختفى جراثيمه في بقع استمالة نسيجية في غشائه ويحدث تليف في غدد ( ليتر ) فتضيق فتحة مجرى البول

وقد يمتد التليف إلى المجرى نفسه كذلك ، وتصيب جراثيم المرض قناتي ( سكين ) اللتين تظهر فتحتاهما على جانبي مجرى البول وكثيرا ماتكون إصابة هذه القناة سببا في انتكاس المرض وإزمائه .

والعدوى تمتد من قناة المجرى البولي إلى المثانة فتتعطل وظيفة الجهاز البولي وتشعر المريضة بألم كبير فوق عانتها ويميل إلى التبول الكثير مع الألم في كل مرة ونزول نقط دموية إثر تلك الإصابات .

ويعدى السيلان غدد ( بارثولين ) وتقع كل غدة خلف النصف الخلفي للشفر الأعظم ولها قناة طويلة ملتوية على نفسها تفتح على السطح الداخلي للشفر الأصغر فتلتهب وتتضخم وتتقيح ، وقد تسد قناتها ويتكون خراج لا يلبث أن يكون ناسورا ، ويزمن المرض وتصيح الغدة سببا لمضاعفات سيلانية



أخرى كالتهاب المهبل السيلاني مثلا ، وعندما يلتهب المهبل يظهر القيح فيزيل الطبقة العليا لغشائه ويترك تقرحات مغطاة الإفرازات الالتهابية أو يصاب بالالتهاب الحبيبي أو الالتهاب الغشائي .  
والرحم وهو موطن الجنين وقراره المكين يصاب كذلك بالسيلان ويلتهب عنقه إذ يتسرب الجنونوكوك إلى غشائه الداخلي ، ويخترقه ويختبئ في الغدد والقنوات التي توجد في الطبقة تحت الغشائية والعضلية فيه ، حيث يزمن المرض وتكثر الإفرازات الالتهابية ، وتشتد الآلام في الظهر وفي العمود الفقري وترتبك دورة الحيض مع الألم المبرح أثناءه ، وترى العنق الرحمي وقد تضخم واشتد التهابه ، واحتقنت أنسجته ، وسالت إفرازاته ، وتسليخت خلاياه ، وانسدت غدد بابوثيان فيه .  
ويلتهب الغشاء المتبطن بجسم الرحم تبعا لذلك أو بعد وصول الجراثيم إلى البوقين والمبيضين ، فتزداد الآلام في أعلى العانة ، وفي الظهر ، ويظهر الصديد الدموي وتتضاعف الآلام المبرحة إثر نزول الطمث ، ويسيل النزيف الدموي بشكل سيء الإنذار ، وتلتهب عضلات الرحم ، وفي الحامل تصاب عينا الطفل عند الولادة بالسيلان الصديدي ، فيذهب بصره وتلف عيناه .

وعند إصابة الرحم تختل حركة أعصابه الموضعية ، فتقلص عضلاته تقلصا عكسيا ، بسبب نقل جراثيم المرض إلى فوهة البوق الرحمية التي قد تصاب كذلك بانتقال الجنونوكوك مباشرة بواسطة الدورة الليمفاوية في الجسم فتشعر المريضة بالقشعريرة وترتفع درجة حرارتها وتشتد بها الحمى وتظهر الآلام في أسفل البطن حول الجزء المصاب ، حيث تظهر الأورام عند البوقين اللذين كثيرا ماتسد فتحتاهما البطنيتان ، فتلتصقان ببعضهما وبالأنسجة المجاورة ، ويكثر الرشح والتجمع الخلوي ، ويتضخم البوق وينسد مجراه وقد يترك في مكان الانسداد أكياسا دموية أو مائية أو قيحية .  
والمبيضان يصابان إثر إصابة البوقين وينتهي بهما الحال إلى فقد وظيفتهما وتلفهما ، وعند ذلك يحصل العقم .

وقلما يحصل الحمل عندما يكون المرض حادا ، وذلك لإهلاك الإفرازات الصديدية . وإعاقتها للحيوانات المنوية ، ويتعين عدم حصوله مطلقا عند إصابة المبيضين أو عنق الرحم إصابة لا تمكن الحيوانات المنوية من الدخول في الرحم ، ولو حصل الحمل في المرة الأولى عند اتصال الرجل المصاب بالمرأة وظهرت الأمراض الحادة بعد الإخصاب ، فلا تصل الجراثيم إلى الجزء الأعلى من الجهاز التناسلي ، ولكنه عند النفاس يجد الجنونوكوك مرتعا خصبا فينمو ويتكاثر تكاثرا غريبا ويأخذ في غزو جميع الجهاز التناسلي حتى يقضى عليه ، وعندئذ لايتأق للمرأة الحمل البتة ، ولاتنال في حياتها غير ذلك المولود الذي نالته في ذلك اليوم المشئوم وهذه الحالة يسميها بعضهم ( عقم الطفل الواحد ) لعدم تمكن المرأة من الحصول على غيره بسبب الإصابة بهذا الداء العضال .

وبجانب ذلك فقد وجد أن أكثر من ٧٠ ٪ من هذه الحالات تصاب فيها عينا الطفل عند الولادة بمروره على العنق المصاب أو الأكياس المهبيلة الموبوءة ، فتصاب القرنية ويذهب غشاؤها ويكثر رشحها وترنى خراجات كثيرة على شكل نقط كثيفة في سطحها ، وكثيرا ما يظهر فيها رشح ينتهي بقرحة تودي بها ، إلى آخر ماتصاب به سائر أجزاء العينين .

ولا تقتصر إصابة المرأة على الجهاز التناسلي فحسب ، بل كثيرا ماتغزو الجراثيم الجزء الحوضي من

الغشاء البريتوني وتنتشر الإصابة فيه ، بل قد يلتهب الغشاء البريتوني جميعه ، وإنه يكاد يكون من العضلات علاج المرأة المصابة بالسيلان ، أو الجزم بخلاصها من هذا المرض الذى يتغلغل هذا التغلغل الغريب فى جميع جهازها التناسلى ويكمن فى تعاريجه ، ويختفى بين طيات أجزائه وخذ مثلا من ذلك انفجار الأكياس الصديدية المبعثرة على المبيض أو فى الأجزاء المجاورة له .

ويجب ألا يغيب عن البال أن المصابة بالسيلان كثيرا ما يظن أنها تخلصت من وبائه وهى فى الحقيقة حاملة لجراثيمه ، تصيب من يتصل بها ، ولو تزوجت تعدى زوجها وذلك لظهور المرض عليها ثانيا ، وبرجوع النشاط إلى الجراثيم الكامنة التى قد كان يعوق ظهورها أى سبب من الأسباب كاختبائها فى إحدى الغدد كما قدمنا ، وتسترها تحت غشاء استمالة نسيجية . . إلخ

وإنى أستطيع أن أقول : إن إصابة المرأة بالسيلان وبأل عليها وعلى أولادها وعلى زوجها وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها ، والمصيبة العظمى أنه ليس من المستطاع أن يحكم أحد فينا على مصابة السيلان أنها شفيت منه ، وحسبك كذلك أن تعلم أن الطب لم يتوصل إلى الآن إلى العثور على علاج نوعى لهذا المرض .

### \* إصابة الرجل \*

ويصيب السيلان الرجل إصابات بالغة ؛ إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشد احمرارها ،

وتصاب حوافها بالورم ، فتقلب على نفسها وقد تتاكل أطرافها ، ثم يمتد الورم فى عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه ، وتفتك الجراثيم بالغشاء الداخلى للمجرى البولى ويشد تكاثر الصديد ، ثم ينتهى الأمر بضيق المجرى وتعذر البول أو امتناعه مطلقا ، وذلك لتكون ألياف خاصة نتيجة الالتهابات فى الطبقة تحت الغشائية للمجرى .

وكثيرا ماتصحب الدماء السيلان المدمى ، وتنسد القنوات المحاذية للمجرى البولى ، ويشعر المصاب بألم شديد ككى النار عند خروج البول وقد يمتد الألم إلى الشرج والعجان والفخذين . والالتهاب الناشئ عن هذا المرض يسبب انتصابا مؤلما يتكرر كثيرا وقد يؤدي هذا إلى انفجار الأوعية الدموية المحتقنة فى العضو المذكور .

وتسبب جراثيم السيلان التهاب غدد ( لير ) وهى التى توجد على جانبي المجرى على سطحه الأعلى ، وتفرز إفرازا خاصا عند الانتصاب ، والجونوكوك حين يصل إلى هذه الغدد يستولى عليها استيلاء كلياً حتى يصعب التغلب عليه بطرق العلاج العادية . وكذلك الحال عند عدوى جيوب رجانى بهذه الجراثيم ، وهذه الجيوب توجد على جوانب المجرى وفى سطحه الأعلى وحين إصابتها تنسد فتحاتها ويتكون فيها كيس يضم هذه الجراثيم ويحميها من تأثير العقاقير التى تستعمل للعلاج .

وتلتهب كذلك قنوات كوبر التى تظهر فتحاتها على السطح السفلى للمجرى فى الجزء الأسفل من البصيلة فيشعر المريض بثقل فى العجان تصحبه آلام لاتطاق ، وذلك بجانب تعرض هذه القنوات للانسداد وتلف باقى أجزائها .

وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها وتتكون الإفرازات الالتهابية فى جيوبها فتتسد وتكون خراجا لاسبيل إلى التخلص منه إلا بعملية جراحية ، ويكفيك أن

تعلم أنه في حالة إزمان المرض لا يرجى الشفاء ، وكثيرا ما يستمر علاج هذه الحالة سنوات عديدة قبل الحصول على نتيجة طفيفة وذلك إذا لم تحصل المضاعفات السيلائية الأخرى .  
وإصابة البروستاتا خطر كبير على الزانى عامة وعلى جهازه التناسلى خاصة ؛ إذ تفقد البروستاتا وظائفها التى لا يستطيع الجهاز القيام بعمله دونها ، وذلك أنها تساعد الخصية على إخراج إفرازاتها الداخلية وأن عصيرها ذاته له شأن كبير في تغذية الجسم وهى تفرز بجانب ذلك سائلا خاصا يدخل في تركيب السائل المنوى ، وفي الوقت عينه يبطن هذا السائل الغشاء المخاطى لمجرى البول بمادة لزجة تسهل خروج المنى منه . . إلخ .

وكثيرا ما يصاب السيلان ( البريخ ) حتى يتلفه ويحدث قيلة مائية حادة ، ويتشرب فيه الورم فيمتد الألم في الجهاز التناسلى وتتضاعف الآلام ويصاب الزانى بعد ذلك بالعقم ، وذلك بجانب انتقال العدوى إلى الزوجة والبغايا والأقرباء والمصاحبين بطريقة الملامسة واللمس وغيره من عوامل الانتقال .  
ولعل إصابة الحويصلات المنوية من أشد الإصابات خطرا ، وتحديد عدوى المومسات إذ تختبئ فيهن الجراثيم وتبقى بعد ذلك مستعلة لعدوى الزوج ، وكثيرا ما تنقيح الحويصلة المنوية حتى لا يرجى لها علاج ويلزم الحال شق القناة الناقلة للمنى أو شق الحويصلة عينها أو استئصالها والتخلص منها ، برغم ما يترتب على ذلك من شتى الأخطار .

وكثيرا ما يسبب السيلان التهاب القلفة فتضيق فتحتها حتى لا يتيسر شدها إلى أعلى الحشفة لزيادة ورمها ولا يخفى ما يعانیه الزانى في هذه الحالة من عسر التبول وما يشعر به من الألم الشديد ، وتختنق القلفة كذلك فتطبق على الحشفة من أعلى حتى يتعذر إرجاعها إلى موضعها الطبيعى .  
وليست الإصابة بالسيلان مقصورة على الجهاز التناسلى فحسب ، بل إن الإصابة تمتد إلى المثانة من الذكر والأنثى على السواء وخاصة عند العنق فيشعر المريض بثقل شديد عند التبول مع قلة ما ينزل من البول مع كثرة الميل إليه ، حتى أن المريض لا يتبول إلا نقطا قليلة يشعر أثناءها بالألم شديدة في المجرى وفوق المثانة وفي العجان وحول الصفن .

وكثيرا ما تنصل الجراثيم السيلائية إلى الدورة الدموية أو الدورة الليمفاوية فتصيب حوض الكلية أو حوض الكليتين جميعا مع أغشيتها المحاطة بالحوض بل قد تصاب كذلك الكليتان بالالتهابات السيلائية فترتفع درجة حرارة الزانى وتعتربه القشعريرة ، ويعانى الآلام الظهرية الشديدة ، وكثيرا ما تمتد الإصابة إلى الحوض والكليتين فتصيبهما جميعا ، وحسبك انسداد الحالبين واحتباس البول والتسمم اليوريمى والموت بعد الألم المبرح .

والطامة الكبرى هى عند وصول الجراثيم إلى مفاصل الجسم فتعطل حركتها ويصعب تحريك أجزائها ويمتد فيها الورم ويتشرب الالتهاب حتى تصاب بالتصلب والتشوه الذى يبقى فيها مدى الحياة ، وناهيك بالآلام المبرحة التى تفوق الآلام الروماتيزمية شدة وفظاعة ، والروماتزم السيلاى يصيب المفاصل جميعا وخاصة مفاصل القدم والركبة والرسغ وأصابع اليدين والقدمين حيث تتكون السوائل الالتهابية ، بل قد تصاب المفاصل بهذا المرض دون حدوث أى أثر ظاهر في الأجزاء المصابة مع وجود الجراثيم وتغلغلها في جميع نواحيها .

ويسبب السيلان طفحا جلديا خاصا بالمريض يشبه إلى حد بعيد الأثر الذي تحدثه الحمى القرمزية ، بل قد تتعرض الأعصاب كذلك لجراثيم هذا الداء فيختل نظامها ، وتصيب المجموعة العصبية أعراض الالتهابات السحائية وغيرها .

ولعل من مصائب السيلان العديدة إصابته للغشاء المبطن للقلب أو إتلافه للتامور ، بل كثيرا ما يصاب عضل القلب نفسه بالسيلان وكذلك صماماته خاصة اليسرى منها ، بل قد تمتد الإصابة إلى الأورطة أو غيرها مما يؤدي إلى تعرض الزاني للموت .

كل ما قدمت ماهو إلا صورة مصغرة لما يحدثه السيلان في أجسام الزناة ويعمله من العبث بأرواحهم الدنيئة التي تنزلت إلى الوقوع في هذه البؤرة الخبيثة وتلوثت بأحوال الفسق والفساد .

### القرحة الرخوية

والزنى فوق ما يسبب من الزهري والزهري الوراثي والسيلان يعرض الأشرار كذلك للإصابة بالقرحة الرخوة التي تسببها جراثيم خاصة تسمى ( باسلات ذكرى ) ويكثر ظهورها في جسم القضيب أو في الصفن أو العانة أو عند فتحة القلفة أو عند تلاقى الحشفة بجسم القضيب أو في الثنية تحت الحشفة .

وفي الإناث يكثر وجودها في الشفرين والشوكة والبطين والفخذين وقرب فتحة الشرج . والقرحة سريعة العدوى ، ويوجد منها نوعان : هما القرحة الرخوة المرتفعة ، والقرحة الرخوة الثعبانية ، وتختلف هذه القرحة عن قرحة الزهري بكونها قابلة للتعدد في نفس المريض بمجرد العدوى الذاتية أو الامتداد ، وحسبك أنها كثيرا ما تسبب الاختناق أو الانكماش كما يحصل في السيلان . وهذا بجانب تعرض المصاب للغنغرينا والخراجات والأنزفة الدموية وتقيح الغدد الليمفاوية وقنواتها وإتلافها التام للعضو المصاب بها إلى غير ذلك من مختلف الإصابات .

### القرحة الأكلية

والقرحة الأكلية من الأمراض الخطرة التي يحدثها الزنى كذلك ، وتمتاز هذه القرحة كما يدل اسمها بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التي حولها مع عدم خضوعها للعلاج ، وحسبك عملها على تاكل أعضاء التناسل وإحداثها للأنزفة الدموية والغنغرينا وتسمم الدم ، وتهتك الأنسجة المختلفة كالعضل والعظم إلى غير ذلك من سائر الأجزاء .

### أمراض أخرى

وهناك أمراض أخرى لا يستهان بها يصاب بها الزناة ولا نرى بأسا من الإشارة إليها هنا : كجرب التناسل مثلا ، وكسنت التناسل الذي يكثر في فتحة مجرى البول وفي فتحة القلفة وأسفل القضيب وحول فتحة المهبل وفي فتحة مجرى البول عند الأثني .

وكهربس التناسل الذى يحدث حكة شديدة والتهابا مؤلما ، قد يؤدي إلى التقيح والتقرح فى الأعضاء التناسلية ، وكالورم الجلدى الرخو المعدى الذى يصيب جلد الخصية والقضيب والشفرين ، والذى قد يمتد فيأخذ مكانا كبيرا ، وترى الحبيبات المتقرحة مستعدة للإصابات الثانوية الأخرى ، وإن قمل العانة من الأمراض المنتشرة كذلك بين الزناة انتشارا كبيرا وقد يمتد هذا القمل من العانة إلى الإبطين وشعر الصدر ، والزنى هو العامل الأساسى فى نقل هذا المرض القذر بين الزناة الملوئين .  
ولعل فيما قدمت مثلا لبعض ماعناه - تعالى - فى قوله عن الزنى :

﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ .

### حد القذف

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤٢﴾

### \* تفسير المفردات \*

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات :

### التفسير

قال الفقهاء فى حد القذف :-

تعريفه :-

أصل القذف : الرمى بالحجارة وغيرها . ومنه قول الله - تعالى - لأم موسى - عليه السلام - :  
﴿ أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ (١)

والقذف بالزنى مأخوذ من هذا المعنى ، والمقصود به هنا المعنى الشرعى وهو الرمى بالزنى .

حرمته :-

يستهدف الإسلام حماية أعراض الناس والمحافظة على سمعتهم وصيانة كرامتهم وهو لهذا يقطع السنة السوء ويسد الباب على الذين يلتمسون للبراء العيب ؛ فيمنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس ويلغوا فى أعراضهم ، ويحظر أشد الحظر إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا حتى تتطهر الحياة من سريان هذا الشر فيها .

فهو يحرم القذف تحريما قاطعا ويجعله كبيرة من كبائر الإثم والفواحش ، ويوجب على القاذف ثمانين جلدة - رجلا كان أو امرأة - ويمنع من قبول شهادته ويحكم عليه بالفسق واللعن والطرده من

رحمة الله ، واستحقاق العذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، اللهم إلا إذا أثبت صحة قوله بالأدلة التي لا يتطرق إليها الشك ، وهي شهادة أربعة شهداء بأن المقتوف تورط في الفاحشة ، يقول الله - سبحانه - :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ويقول : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(١)</sup> ويقول :

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ﴾<sup>(٢)</sup> وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : ( اجتنبوا السبع الموبقات .. قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات )<sup>(٣)</sup> وكان هذا التحريم الذي نزلت به الآيات بسبب حادث الإفك الذي وقع لأُم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - قالت :

( لما نزل عذرى قال النبى ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل عن المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا جدهم .. وهم : حسان ومسطح وحمنة . رواه أبو داود<sup>(٤)</sup> ) .

\* ما يشترط في القذف :-

للقذف شروط لا بد من توافرها حتى يصبح جريمة تستحق عقوبة الجلد ، وهذه الشروط منها ما يجب توافره في القاذف ، ومنها ما يجب توافره في المقتوف ، ومنها ما يجب توافره في الشيء المقتوف به .

شروط القاذف :-

الشروط التي يجب توافرها في القاذف هي :

- ١ - العقل
- ٢ - البلوغ
- ٣ - الاختيار

(١) - الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور

(٢) - من الآية رقم ١٩ من سورة النور

(٣) - الحديث رواه البخارى في « كتاب الوصايا » باب قول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما .. الخ » ج ٤ ص ١٢

وأخرجه مسلم في « كتاب الإيمان » باب بيان الكبائر وأكبرها ج ١ ص ٩٢ رقم ١٤٥ - ٨٩ (٤) - الحديث رواه أبو داود في « كتاب الحدود » باب في حد القذف ج ٤ ص ٦١٨ رقم ٤٤٧٤ وانظر الترمذى في تفسير سورة النور رقم ٣١٨٠ وقال الترمذى ( هذا حديث حسن غريب ) وانظر ابن ماجه في الحدود حديث ٢٥٦٧ باب حد القذف

لأن ذلك أصل التكليف ولا تكليف بدون هذه الأشياء ، فإذا قذف المجنون أو الصبي أو المكره فلا حد على واحد منهم ؛ لقول رسول الله ﷺ :  
(رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق)<sup>(١)</sup>

ويقول :

(رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)<sup>(٢)</sup>  
فإذا كان الصبي مراهقا بحيث يؤدي قذفه فإنه يعزر تعزيرا مناسبا .  
\* شروط المذدوف :-

وشروط المذدوف هي :

١ - العقل :-

لأن الحد إنما شرع للزجر عن الأذية بالضرر الواقع على المذدوف ولا مضرة على من فقد العقل فلا يحد قاذفه .

٢ - البلوغ :

وكذلك يشترط في المذدوف البلوغ فلا يحد قاذف الصغير والصغيرة ، فإذا رمى حبيسة يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى ؛ فقد قال جمهور العلماء : إن هذا ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنى ، إذ لا حد عليها . ويعزر القاذف .

وقال مالك : إن ذلك قذف يحد فاعله .

وقال ابن العربي :

(والمسألة محتملة مشككة ، لكن مالكا غلب عرض المذدوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المذدوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزم الحد)

وقال ابن المنذر :

وقال أحمد في الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبي إذا بلغ ضرب قاذفه

وقال إسحق :

إذا قذف غلام يطا مثله فعليه الحد ، والجارية إذا جاوزت تسعة مثل ذلك .

وقال ابن المنذر :

لا يحد من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب . ويعزر على الأذى .

٣ - الإسلام :

والإسلام شرط في المذدوف ، فلو كان المذدوف من غير المسلمين لم يقيم الحد على قاذفه عند جمهور

(١) سبق تخريج هذا الحديث ص ٣٢

(٢) الحديث أورده صاحب كشف الخفاء ج ١ ص ٥٢٢ رقم ١٣٩٣ . قال في اللآلئ لا يوجد بهذا اللفظ ، وأقرب ما وجد ما رواه ابن عدى في الكامل عن أبي بكره بلفظ رفع الله عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ ، والنسيان ، والأمر يكرهون عليه ، وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس يرفعه قال إن الله وضع عن أمتي الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه . وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

العلماء ، وإذا كان العكس فقاذف النصراني أو اليهودى المسلم الحر فعليه ماعلى المسلم : ثمانون جلدة .

٤ - الحرية : -

فلا يحد الحر بقذفه العبد ؛ سواء أكان العبد ملكا للقاذف أم لغيره ؛ لأن مرتبته تختلف عن مرتبة الحر ، وإن كان قذف الحر للعبد محرما لما رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : (من قذف مملوكا بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال) (١) قال العلماء :

ولما كان ذلك فى الآخرة لارتفاع الملك ، واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافأ الناس فى الحدود والحرمة واقتصر من كل واحد لصاحبه ، إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم .

ولما لم يتكافأوا فى الدنيا لثلاث تدخل الداخلة على المالكين فى مكافأتهم لهم فلا تصبح لهم حرمة ولا فضل فى منزلة ، وتبطل فائدة التسخير .

ومن قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحد ، وهو اختيار ابن المنذر ، وقال الحسن البصرى : لا حد عليه .

وأما ابن حزم فإنه رأى غير ما رآه جمهور الفقهاء ، فرأى أن قاذف العبد يقام عليه الحد ، وأنه لا فرق بين الحر والعبد فى هذه الناحية . قال :

(وأما قولهم : لا حرمة للعبد ولا للأمة فكلام سخيف ، والمؤمن له حرمة عظيمة) .

ورب عبد جلف خير من خليفة قرشى عند الله - تعالى - ورأى ابن حزم هذا رأى وجيه وحق ، لو لم يصطدم بالنص المتقدم .

٥ - العفة : وهى العفة عن الفاحشة التى رمى بها ، سواء أكان عفيفا عن غيرها أم لا ، حتى أن من زنى فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف ؛ فإنه لا حد عليه . وإن كان هذا القذف يستوجب التعزير لأنه أشاع ما يجب ستره وإخفاؤه .

\* ما يجب توافره فى المَقْدُوف به : -

أما ما يجب توافره فى المَقْدُوف به فهو التصريح بالزنى أو التعريض الظاهر ، ويستوى فى ذلك القول والكتابة .

ومثال التصريح أن يقول موجه الخطاب إلى غيره : (يا زانى)

أو يقول عبارة تجرى مجرى هذا التصريح ، كنفى نسبه عنه ، ومثال التعريض كأن يقول فى مقام

التنازع : (لست بزان ولا أُمى بزانية)

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : قذف العبد ج ٨ ص ٢١٨ وأخرجه مسلم فى كتاب الايمان باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنى ج ٣ ص ١٢٨٢ رقم ١٦٦٠ / ٣٧ .



وقد اختلف العلماء في التعريض ، فقال مالك :  
إن التعريض الظاهر ملحق بالتصريح ؛ لأن الكناية قد تقوم - بعرف العادة والاستعمال - مقام  
النص الصريح وإن كان اللفظ فيها مستعملا في غير موضعه ، وقد أخذ عمر - رضى الله عنه - بهذا  
الرأى .

روى مالك عن عمرة بنت عبد الرحمن :  
( أن رجلين استبا في زمان عمر بن الخطاب ، فقال أحدهما للآخر :  
( والله ما أبى بزان ولا أُمى بزانية )  
فاستشار عمر في ذلك .

فقال قائل : مدح أباه وأمه  
وقال آخرون : قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا .  
نرى أن تجلده الحد ، فجلده عمر الحد ثمانين .  
وذهب ابن مسعود وأبو حنيفة والشافعى والثورى ، وابن أبى ليلى وابن حزم والشيعة ورواية عن  
أحمد : إلى أنه لا حد في التعريض ، لأن التعريض يتضمن الاختمال والاحتمال شبهة . والحدود تدرا  
بالشبهات .

إلا أن أبا حنيفة والشافعى يريان تعزيز من يفعل ذلك .  
قال صاحب الروضة الندية كاشفا وجه الصواب في هذا :

التحقيق أن المراد من رمى المحصنات المذكور في كتاب الله - عز وجل - هو أن يأق القاذف بلفظ يدل -  
لغة أو شرعا أو عرفا - على الرمى بالزنى ويظهر من قرائن الأحوال أن المتكلم لم يرد إلا ذلك ، ولم يأت  
بتأويل مقبول يصح حمل الكلام عليه ، فهذا يوجب حد القذف بلا شك ولا شبهة .  
وكذلك لو جاء بلفظ لا يحتمل الزنى أو يحتمله احتمالا مرجوحا ، وأقر أنه أراد الرمى بالزنى فإنه  
يجب عليه الحد .

وأما إذا عرض بلفظ محتمل ولم تدل قرينة حال ولا مقال على أنه قصد الرمى بالزنى فلا شيء عليه  
لأنه لا يسوغ إيلامه بمجرد الاحتمال .

\* بم يثبت حد القذف ؟ :-

الحد يثبت بأحد أمرين :-

١ - إقرار القاذف نفسه .

٢ - أو بشهادة رجلين عدلين .

\* عقوبة القاذف الدنيوية :-

يجب على القاذف - إذا لم يقم البينة على صحة ما قال - عقوبة مادية ، وهى ثمانون جلدة ،  
وعقوبة أدبية ، وهى رد شهادته وعدم قبولها أبدا ، والحكم بنفسه لأنه يصبح غير عدل عند الله وعند  
الناس .

وهاتان العقوبتان هما المقرتان في قول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم ﴾  
وهذا متفق عليه بين العلماء إذا لم يتب القاذف .  
بقي هنا مسألتان اختلف فيهما العلماء :

\* المسألة الأولى : -

هل عقوبة العبد مثل عقوبة الحر؟ أو لا؟

\* المسألة الثانية : - إذا تاب القاذف ؛ هل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أو لا ؟

### أما المسألة الأولى

فهى أنه إذا قذف العبد الحر المحصن وجب عليه الحد ، ولكن هل حده مثل حد الحر أو على النصف منه ؟ !

لم يثبت حكم ذلك فى السنة ، ولهذا اختلفت أنظار الفقهاء فذهب أكثر أهل العلم إلى أن العبد إذا ثبتت عليه جريمة القذف فعقوبته أربعون جلدة ؛ لأنه حد ينصف بالرق مثل حد الزنى ، يقول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾<sup>(١)</sup>

قال مالك : ( قال أبو الزناد : سألت عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ذلك . فقال : أدركت عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان والخلفاء وهلم جرا ، فما رأيت أحدا جلد عبدا فى فرية أكثر من أربعين )

وروى عن ابن مسعود والزهرى وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب والأوزاعى وابن حزم ، أنه يجلد ثمانين جلدة ؛ لأنه حد وجب حقا للآدميين ، إذ أن الجنائية وقعت على عرض المقدوف ، والجنائية لا تختلف بالرق والحرية .

قال ابن المنذر : (والذى عليه الأمصار القول الأول ، وبه أقول)

وقال فى المثوى : (وعليه أهل العلم) .

وقد ناقش صاحب الروضة الندية الرأى الأول ، وقال مرجحا الرأى الثانى : الآية الكريمة عامة يدخل تحتها الحر والعبد ، والغضاضة بقذف العبد للحر أشد منها بقذف الحر للحر ، وليس فى حد القذف ما يدل على تنصيفه للعبد لا من الكتاب ولا من السنة .  
ومعظم ما وقع التعويل عليه هو قوله - تعالى - فى حد الزنى .

﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾

ولا يخفى أن ذلك فى حد آخر غير حد القذف . فإلحاق أحد الحدين بالآخر فيه إشكال ، لاسيما مع اختلاف العلة وكون أحدهما حقا لله محضا والآخر مشوبا بحق آدمى .

## \* أما المسألة الثانية :

فقد اتفق الفقهاء على أن القاذف لا تقبل شهادته مادام لم يتب ؛ لأنه ارتكب ما يستوجب الفسق ، والفسق يذهب بالعدالة ، والعدالة شرط في قبول الشهادة ، وأنه لم يتب من فسقه هذا ، والجلد وإن كان مكفراً للإثم الذي ارتكبه ومخلصاً له من عذاب الآخرة ، إلا أنه لا يزيل عنه وصف الفسق الموجب لرد الشهادة .

ولكن إذا تاب وحسنت توبته فهل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أم لا ؟  
اختلف الفقهاء في ذلك إلى رأيين :

## الرأى الأول :

يرى قبول شهادة المحدود في قذف إذا تاب توبة نصوحاً ، وهذا هو رأى مالك والشافعى وأحمد والليث وعطاء وسفيان بن عيينة والشعبي والقاسم وسالم والزهرى ، وقال عمر لبعض من حدهم في قذف :

إن تبنت قبلت شهادتك !

## أما الرأى الثانى :

فإنه يرى عدم قبولها ، ومن ذهب إلى هذا : الأحناف والأوزاعى والثورى والحسن وسعيد بن المسيب وشريح وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير .  
وأصل هذا الخلاف هو الاختلاف في تفسير قول الله - تعالى - :

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

فهل الاستثناء في الآية راجع إلى الأمرين معا - أى : عدم قبول الشهادة والحكم بالفسق - أو راجع إلى الأمر الأخير وهو الحكم بالفسق ؟  
فمن قال إن الاستثناء راجع إلى الأمرين معا قال بجواز قبول الشهادة بعد التوبة .  
ومن قال إنه راجع إلى الحكم بالفسق ، قال بعدم قبولها مهما كانت توبته .  
\* كيفية التوبة :-

قال عمر - رضى الله عنه - :

( توبة القاذف لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذى لا جد فيه )

وقال للذين شهدوا على المغيرة :-

من أكذب نفسه أجزت شهادته فيما يستقبل ومن لم يفعل لم أجز شهادته . فأكذب الشبل بن معبد ، ونافع بن الحارث بن كلدة أنفسهما وتابا . وأبى أبو بكر أن يفعل ، فكان لا تقبل شهادته .  
وهذا مذهب الشعبي ، وعصى عن أهل المدينة ، وقالت طائفة من العلماء :  
توبته أن يصلح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك العود إليه ، وهذا مذهب مالك وابن جرير .

هل يحد بقذف فرعه ؟

قال أبو ثور وابن المنذر :

( إذا قذف القاذف ابنه فإنه يحد لظاهر القرآن الكريم ؛ فإنه لم يفرق بين قاذف وقاذف )  
وقالت الحنفية والشافعية : لا يحد ؛ لأنه يشترط في القاذف ألا يكون أصلا كالأب والأم ؛ لأنه  
إذا لم يقتل الأصل به فعدم حده بقذفه أولى ، وإن قالوا بتعزيره ؛ لأن القذف أذى .  
تكرار القذف لشخص واحد :

إذا قذف القاذف شخصا واحدا أكثر من مرة ؛ فعليه حد واحد إذا لم يكن قد حد لواحد منها ؛  
فإن كان قد حد لواحد منها ثم عاد إلى القذف حد مرة ثانية ، فإن عاد حد مرة ثالثة ، وهكذا يحد لكل  
قذف .

\* قذف الجماعة \* :-

إذا قذف القاذف جماعة ورماهم بالزنى ، فقد اختلفت أنظار الفقهاء في حكمه إلى ثلاثة  
مذاهب :-

١ - المذهب الأول : مذهب القائلين بأنه يحد حدا واحدا . وهم أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد ،  
والثوري .

٢ - والمذهب الثاني : مذهب القائلين بأن عليه لكل واحد حدا ، وهم الشافعي والليث .

٣ - والمذهب الثالث : مذهب الذين فرقوا بين أن يجمعهم في كلمة واحدة . مثل أن يقول لهم :  
يا زنا ، أو يقول لكل واحد : يا زاني ؛ ففي الصورة الأولى يحد حدا واحدا ، وفي الثانية عليه حد لكل  
واحد منهم .

قال ابن رشد :-

فعمدة من لم يوجب على قاذف الجماعة إلا حدا واحدا حديث أنس وغيره :  
أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحاء ؛ فرفع ذلك إلى النبي ﷺ فلاعن بينهما ولم  
يحد شريكا وذلك لإجماع من أهل العلم فيمن قذف زوجته برجل .  
وعمدة من رأى أن الحد لكل واحد منهم أنه حق للأدمين ، وأنه لو عفا بعضهم ولم يعف الكل  
لم يسقط الحد .

وأما من فرق بين من قذفهم في كلمة واحدة أو كلمات ، أو في مجلس واحد أو في مجالس فلأنه  
رأى أنه واجب أن يتعدد الحد بتعدد القذف ؛ لأنه إذا اجتمع تعدد المقذوف وتعدد القذف ، كان  
أوجب أن يتعدد الحد .

هل الحد حق من حقوق الله أو من حقوق الأدمين ؟

ذهب أبو حنيفة إلى أن الحد حق من حقوق الله ، ويترتب على كونه حقا من حقوق الله ، أنه إذا  
بلغ الحاكم وجب عليه إقامته ، وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ولا يسقط بعفو ، ونفعت القاذف التوبة  
فيما بينه وبين الله - تعالى - ويتنصف فيه الحد بالرق مثل الزنى .

وذهب الشافعي إلى أنه حق من حقوق الأدمين ، ويترتب عليه أن الإمام لا يقيمه إلا بمطالبة  
المقذوف ويسقط بعفو ، ويورث عنه ويسقط بعفو وارثه ، ولا تنفع القاذف التوبة حتى يحلله

المقذوف .

سقوط الحد : -

ويسقط حد القذف بمجرد القاذف بأربعة شهداء ؛ لأن الشهاداء يتفون عنه صفة القذف الموجبة للحد ، ويثبتون صدور الزنى بشهادتهم .  
فيقام حد الزنى على المقذوف ؛ لأنه زان . وكذلك إذا أقر المقذوف بالزنى واعترف بما رماه به القاذف .

وإذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد ؛ إذا توافرت شروطه بخلاف ما إذا قذفها هو ولم يقم عليها البينة ؛ فإنه لا يقام عليه الحد ، وإنما يتلاعنان .  
\* اللعان \*

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدُوا أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

\* تفسير المفردات \*

يرمون أزواجهم : أى يقذفونهن بالزينة و تهمة الزنى  
ولعنة الله : الطرد من رحمته  
ويدراً : أى يدفع . والعذاب : الحد ، وغضب الله : سخطه والبعد عن فضله وإحسانه :  
\* المناسبة وإجمالى المعنى \*

بعد أن بين - سبحانه - حكم قاذف الأجنبية بالزنى وذكر أنه لا يعفى القاذف من العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء ، ذكر هنا ما هو فى حكم الاستثناء من ذلك وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة فى الآية ، لأن فى تكليف الزوج إحضار الشهود إعتنا له وإحراجا ، ولما يلحقه من الغيرة على أهله ، ثم كظم الغيظ إذ لا يجد مخلصا من ضيقه .  
روى عن ابن عباس أنه قال : لما نزل قوله - تعالى - : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمَحْصَنَاتِ ﴾ . قال عاصم بن عدى الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال : وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكنت سكنت على غيظ ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر ، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصم فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله - ﷺ فقال : يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي ! فقال رسول الله ﷺ : وما ذاك ؟ قال : أخبرني عويمر ابن عمي أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم ، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعا ، وقال : يا عويمر اتق الله في زوجتك وابن عمك ولا تقذفها فقال : يا رسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها ، وإنى ما قربتها منذ أربعة أشهر ، وإنها حبلى من غيري ، فقال لها النبي ﷺ : اتقى الله ولا تجزى إلا بما صنعت ، فقالت : يا رسول الله : إن عويمرا رجل غيور ، وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلى ويتحدث فحملته الغيرة على ما قال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله - ﷺ - فنودى ( الصلاة جامعة ) فصلى العصر ثم قال : عويمر قم وقل : أشهد بالله إن خولة لزانية وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله إنها حبلى من غيري وإنى من الصادقين ، ثم قال :

قال : قل : أشهد بالله إنها زانية وإنى ما قربتها منذ أربعة شهور وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : لعنة الله على عويمر ( يعنى نفسه ) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : أقعد . وقال لخولة : قومي فقامت وقالت : أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا زوجي لمن الكاذبين ، وقالت في الثانية : أشهد بالله ما رأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين . وقالت في الثالثة : إنى حبلى منه ، وقالت في الرابعة : أشهد بالله إنه ما رأى على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت في الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين في قوله . ففرق رسول الله ﷺ بينها .

وفي رواية عن ابن عباس : ( أنها حين كانت تؤدي الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التي توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لا أفصح قومي ، فشهدت في الخامسة كما تقدم . ففضى رسول الله ﷺ بالتفريق بينها وألا يدعى ولدها لأب وأن لا مسكن لها عليه ولا مؤنة من أجل أنها يفترقان من غير طلاق ولا وفاة ، فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما ( اللعان والملاعنة )

وفي رواية : ( أن رسول الله ﷺ قال : أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحره ( سحلية ) فلا أراه إلا كاذبا ، فجاءت به على النعت المكروه )<sup>(١)</sup>

### \* قال الفقهاء عن اللعان \*

\* تعريفه :-

اللعان : مأخوذ من اللعن ؛ لأن الملاعن يقول في الخامسة :

( أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين )

( ١ ) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه في « كتاب الشهادات » باب : إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة .. الخ ج ٣ ص ٢٣٣

وقيل : هو الإبعاد

وسمى المتلاعنان بذلك ، لما يعقب اللعان من الإثم والإبعاد ، ولأن أحدهما كاذب ، فيكون ملعونا . وقيل : لأن كل واحد منها يبعد عن صاحبه بتأييد التحريم .  
وحقيقته : أن يحلف الرجل - إذا رمى امرأته بالزنى أربع مرات إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وأن تحلف المرأة عند تكذيبه أربع مرات ، إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن عليها غضب الله إن كان من الصادقين .  
مشروعيته : -

إذا رمى الرجل امرأته بالزنى ولم تقر هي بذلك ولم يرجع عن رميه فقد شرع الله لهما اللعان .  
روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - :  
( أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحاء . فقال النبى ﷺ :  
( البينة أو حد فى ظهرك ) فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟  
فجعل رسول الله ﷺ يقول :  
( البينة وإلا حد فى ظهرك )<sup>(١)</sup> )

فقال : والذى بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله مايرىء ظهري من الحد فنزل جبريل -  
عليه السلام - وأنزل عليه قوله - تعالى - :  
﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن  
الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدراً عنها العذاب أن تشهد أربع  
شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ .  
فانصرف النبى ﷺ إليها ، فجاء هلال فشهد والنبى - ﷺ - يقول :  
( إن الله يعلم أن أحدهما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ )

فشهدت . فلما كانت عند الخامسة وقفوها ، وقالوا : إنها الموجبة . قال ابن عباس - رضى الله  
عنها - : فتلكأت ونكبت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت : لا أفضح قومي سائر اليوم ، فمضت . فقال  
النبى ﷺ : -

( أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدج الساقين ، فهو لشريك بن سحاء )  
فجاءت به كذلك . فقال النبى ﷺ :  
( لولا ماضى من كتاب الله كان لى ولها شأن )

قال صاحب بداية المجتهد :

وأما من طريق المعنى : فلما كان الفراش موجبا لحقوق النسب ، كان للناس ضرورة إلى طريق  
ينفون به إذا تحققوا فساده . وتلك الطريق هى اللعان . فاللعان حكم ثابت بالكتاب والسنة والقياس  
والإجماع .  
إذ لاخلاف فى ذلك عامة .

( ١ ) وحديث قصة الملائنة أوردته أصحاب السنن بألفاظ مختلفة ، ورواية قصة عويمر مروية عن سهل بن سعد - رضى الله عنه -

متى يكون اللعان ... ؟

ويكون اللعان في صورتين :

الصورة الأولى : أن يرمى الرجل امرأته بالزنى ولم يكن له أربعة شهود يشهدون عليها بما رماها به .  
الصورة الثانية : أن ينفي حملها منه .

ولما يجوز في الصورة الأولى إذا تحقق من زناها كأن رآها تزني أو أقرت هي ، ووقع في نفسه صدقها .

والأولى في هذه الحال أن يطلقها ولا يلاعنها .

فإذا لم يتحقق من زناها ؛ فإنه لايجوز له أن يرميها به .

ويكون نفى الحمل في حالة ما إذا ادعى أنه لم يطأها أصلا من حين العقد عليها ، أو ادعى أنها أتت به لأقل من ستة أشهر بعد الوطء أو لأكثر من سنة من وقت الوطء .  
\* الحاكم هو الذي يقضى باللعان :-

ولابد من حضور الحاكم عند اللعان وينبغي له أن يذكر المرأة ويعظها ، بمثل ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم :  
( أيا امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيا رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه وفضحه على رموس الأولين والآخرين )<sup>(١)</sup>  
اشتراط العقل والبلوغ :-

وكما يشترط في اللعان الحاكم ، يشترط العقل والبلوغ في كل من المتلاعنين وهذا أمر مجمع عليه .

اللعان بعد إقامة الشهود :-

وإذا أقام الزوج الشهود على الزنى فهل له أن يلاعن ؟

قال أبو حنيفة وداود : لا يلاعن ؛ لأن اللعان إنما جعل عوضا عن الشهود لقوله - تعالى - :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم ﴾

وقال مالك والشافعي : له أن يلاعن ؛ لأن الشهود لا تأثير لهم في دفع الفرائش .

هل اللعان يمين أم شهادة ؟ :

يرى الإمام مالك والشافعي وجهور العلماء أن اللعان يمين وإن كان يسمى شهادة ؛ فإن أحدا

لا يشهد لنفسه ، لقول رسول الله ﷺ في بعض روايات حديث ابن عباس :

( ١ ) الحديث أخرجه أبو داود في سننه في « كتاب الطلاق » باب : التغليظ في الانتفاء ج ٢ ص ٦٩٥ عن أبي هريرة حديث رقم ٢٢٦٣

وانظر سنن النسائي « كتاب الطلاق » باب : التغليظ في الانتفاء من الولد ج ٦ ص ١٧٩

وأخرجه ابن ماجه في « كتاب الفرائض » باب : من أنكر ولده ج ٢ ص ٩١٦ رقم ٢٧٤٣

قال : في الزوائد : هذا إسناد ضعيف فيه يحيى بن حرب ، وهو مجهول : قاله الذهبي في الكاشف .

وأخرجه ابن حبان في صحيحه « الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان » في باب « ذكر نفى دخول الجنة عن المرأة الداخلة على قوم بولد ليس منهم » ج ٦ ص ١٦٣ رقم ٤٠٩٦

وأخرجه الحاكم في « كتاب الطلاق » باب : مسألة اللعان وحكاية هلال بن أمية ج ٢ ص ٢٠٣

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي في التلخيص .



(لولا الأيمان لكان لي ولها شأن) .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه شهادة واستدلوا بقول الله - تعالى - :

﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ﴾ ويحدث ابن عباس المتقدم وفيه : ( فجاء هلال فشهد ، ثم قامت فشهدت )

والذين رأوا أنه يمين ، قالوا : إنه يصح اللعان بين كل زوجين حرين كانا أو عبيدين أو أحدهما ، أو عدلين أو فاسقين أو أحدهما .

والذين ذهبوا إلى أنه شهادة قالوا : لا يصح إلا بين زوجين يكونان من أهل الشهادة وذلك بأن يكونا حرين مسلمين .

وأما العبدان أو المحدثان في القذف ، فلا يجوز لعانها ، وكذلك إن كان أحدهما من أهل الشهادة والآخر ليس من أهلها .

قال ابن القيم :

والصحيح أن لعانهم يجمع الوصفين : اليمين والشهادة ، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار ، ويمين مغلفة بلفظ الشهادة والتكرار لاقتضاء الحال تأكيد الأمر ، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع .

أحدها : ذكر لفظ الشهادة .

الثاني : ذكر القسم بأحد أسماء الرب - سبحانه - وأجمعها لمعان أسمائه الحسنى وهو اسم الله جل ذكره .

الثالث : تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه من ( أن واللام ) وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب ، دون الفعل الذي هو صدق وكذب .

الرابع : تكرار ذلك أربع مرات .

الخامس : دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين

السادس : إخباره عند الخامسة أنها الموجبة لعذاب الله وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

السابع : جعل لعانه مقتضيا لحصول العذاب عليها ، وهو إما الحد أو الحبس ، وجعل لعانها دارثا للعذاب عنها .

الثامن : أن هذا اللعان يوجب العذاب على أحدهما إما في الدنيا وإما في الآخرة .

التاسع : التفريق بين المتلاعنين وخراب بيتها وكسرهما بالفراق .

العاشر : تأييد تلك الفرقة ودوام التحريم بينها . فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن جعل يميننا مقرونا بالشهادة وشهادة مقرونة باليمين ، وجعل الملتعن - لقبول قوله - كالشاهد ، فإن نكلت المرأة مضت شهادته وحدت وأفادت شهادته ويمينه شيئين : سقوط الحد عنه وجوبه عليها ، وإن التعتت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها ، أفاد لعانه بسقوط الحد عنه دون وجوبه عليها فكان شهادة ويمينا بالنسبة إليه دونها .

لأنه إن كان يميننا محضة فهي لا تحدد بمجرد حلفه ، وإن كان شهادة فلا تحدد بمجرد شهادته عليها

وحده ، فإذا انضم إلى ذلك نكولها قوى جانب الشهادة واليمين في حقه بتأكده ونكولها ، فكان دليلاً ظاهراً على صدقه فأسقط الحد عنه وأوجب عليه ، وهذا أحسن ما يكون من الحكم .

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ (١)

وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة ، وشهادة فيها معنى اليمين .  
لعان الأعمى والأخرس :-

لم يختلف أحد في جواز لعان الأعمى ، واختلفوا في الأخرس ، فقال مالك والشافعي : يلاعن الأخرس إذا فهم عنه .

وقال أبو حنيفة - رضى الله عنه - : لا يلاعن ، لأنه ليس من أهل الشهادة .  
من يبدأ بالملاعة :-

اتفق العلماء على أن السنة في اللعان تقديم الرجل فيشهد قبل المرأة .  
واختلفوا في وجوب هذا التقديم .

فقال الشافعي وغيره : هو واجب ، فإذا لاعنت المرأة قبله فإن لعانها لا يعتد به .

وحجتهم أن اللعان يشرع لدفع الحد عن الرجل ، فلو بدىء بالمرأة لكان دفعا لأمر لم يثبت .  
وذهب أبو حنيفة ومالك : إلى أنه لو وقع الابتداء بالمرأة صح واعتد به .

وحجتهم أن الله - سبحانه - عطف في القرآن بالواو ، والواو لا تقتضى الترتيب بل هى لمطلق الجمع .

### النكول عن اللعان

النكول : الامتناع :-

والنكول عن اللعان إما أن يكون من الزوج أو من الزوجة ، فإن نكل الزوج فعليه حد القذف ، لقول الله - تعالى - :

﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين﴾

فإذا لم يشهد فهو مثل الأجنى في القذف ، ولما تقدم من قول الرسول ﷺ : ( البينة أو حد في ظهرك )

وهذا مذهب الأئمة الثلاثة .

وقال أبو حنيفة : لا حد عليه ويحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه ، فإن كذب نفسه وجب عليه حد القذف .

فإذا نكلت الزوجة أقيم عليها حد الزنى عند مالك والشافعي .

وقال أبو حنيفة : لا تحد وحبست حتى تلاعن أو تقر بالزنى ، وإن صدقته أقيم عليها الحد .

وأستدل أبو حنيفة - رضى الله عنه - بقول الرسول ﷺ : ( لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى

ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس<sup>(١)</sup> ولأن سفك الدماء بالتكول حكّم ترده الأصول ، فإنه إذا كان كثير من الفقهاء لا يوجبون غرم المال بالتكول فكان بالأحرى ألا يجب بذلك سفك الدماء .  
قال ابن رشد : ( وبالجمل : فقاعدة الدماء مبناه في الشرع على أنها لا تراق إلا بالبينة العادلة أو بالاعتراف ، ومن الواجب ألا تخصص هذه القاعدة بالاسم المشترك ) .  
فأبو حنيفة في هذه المسألة أدلى بالصواب - إن شاء الله - وقد اعترف أبو المعالي في كتابه ( البرهان ) بقوة أبي حنيفة في هذه المسألة وهو شافعي .  
\* التفريق بين المتلاعنين :-

إذا تلاعن الزوجان وقعت الفرقة بينهما على سبيل التأيد ولا يرتفع التحريم بينهما بحال :  
فعن ابن عباس أن النبي ﷺ قال :  
( المتلاعنان إذا تفرقا لا يجتمعان أبدا )

وعن علي وابن مسعود قالا : ( مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان )<sup>(٢)</sup>  
رواه الدارقطني .

ولأنه قد وقع بينهما من التباغض والتقاطع ما ألوجب القطيعة بينهما بصفة دائمة ، لأن أساس الحياة الزوجية : السكنية ، والمودة ، والرحمة ، وهؤلاء قد نقضوا هذا الأساس ، فكانت عقوبتهما الفرقة المؤبدة .

وآختلف الفقهاء فيما إذا كذب الرجل نفسه ، فقال الجمهور : إنها لا يجتمعان أبدا ، وقال أبو حنيفة : إذا كذب نفسه جلد الحد ، وجاز له أن يعقد عليها من جديد ، واستدل أبو حنيفة بأنه إذا كذب نفسه فقد بطل حكم اللعان ، فكما يلحق به الولد ، كذلك ترد الزوجة عليه ، وذلك أن السبب الموجب للتحريم إنما هو الجهل بتعيين صدق أحدهما . مع القطع بأن أحدهما كاذب ، وإذا انكشف ارتفع التحريم .

مقى تقع الفرقة ؟

تقع الفرقة إذا فرغ المتلاعنان من اللعان ، وهذا عند مالك ، وقال الشافعي : تقع بعد أن يكمل الزوج لعانه ، وقال أبو حنيفة وأحمد والثوري : لا تقع إلا بحكم الحاكم .  
هل الفرقة طلاق أو فسخ ؟ :-

( ١ ) ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وعائشة أنظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٠٢ باب :

ما يباح به دم المسلم ، من كتاب القسامة برقم ١٦٧٦

وانظر مجمع الزوائد ( كتاب الحدود ) باب : لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث ج ٦ ص ٢٥٣

وفي سنن ابن ماجه في ( كتاب الحدود ) باب : لا يحل دم امرئ مسلم إلا في ثلاث ج ٢ ص ٨٤٧ رقم ٢٥٣٣ ، ٢٥٣٤

وأخرجه أبو داود - واللفظ له - في ( كتاب الديات ) باب : الإمام يأمر بالعمق في الدم ج ٤ ص ١٧٠ رقم ٤٥٠٢ من

رواية أبي أمامة بن سهل

وانظر نفس المصدر ( كتاب الحدود ) باب : الحكم فيمن ارتد ج ٤ ص ١٢٧ رقم ٤٣٥٢ ، ٤٣٥٣

وانظر صحيح البخاري ( كتاب الديات ) ج ٩ ص ٦ باب : قول الله تعالى : « أن النفس بالنفس » .

( ٢ ) روى الهيثمي في مجمع الزوائد في ( كتاب الطلاق ) باب اللعان ج ٥ ص ١٣ قال : وعن ابن مسعود قال لا يجتمع المتلاعنان

أبدا - قال الهيثمي : رواه الطبراني وإسناده منقطع ورجاله رجال الصحيح .

يرى جمهور العلماء أن الفرقة الحاصلة باللعان فسخ . ويرى أبو حنيفة أنها طلاق بائن ، لأن سببها من جانب الرجل ، ولا يتصور أن تكون من جانب المرأة ؛ وكل فرقة كانت كذلك تكون طلاقاً لا فسخاً ، فالفرقة هنا مثل فرقة العتین إذا كانت بحكم الحاكم .

وأما الذين ذهبوا إلى الرأي الأول فدليلهم تأييد التحريم فأشبهه ذات المحرم ، وهؤلاء يرون أن الفسخ باللعان يمنع المرأة من استحقاقها النفقة في مدة العدة وكذلك السكنى ؛ لأن النفقة والسكنى إنما يستحقان في عدة الطلاق لا في عدة الفسخ ، ويؤيد هذا ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - في قصة الملاعة ( أن النبي ﷺ قضى ألا قوت لها ولا سكنى من أجل أنها يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها ) رواه أحمد وأبو داود (١) .

\* إلحاق الولد بأمه :-

إذا نفى الرجل ابنه وتم اللعان بنفيه له انتفى نسبه من أبيه ، وسقطت نفقته عنه ، وانتفى التوارث بينهما ، ولحق بأمه ، فهي ترثه وهو يرثها ؛ لما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : ( قضى رسول الله ﷺ في ولد المتلاعنين أنه يرث أمه وترثه أمه ، ومن رماها به جلد ثمانين ) (٢) أخرجه أحمد ويؤيد هذا الحديث الأدلة الدالة على أن الولد للفراش ، ولا فراش هنا ؛ لنفى الزوج إياه . وأما من رماها به اعتبر قاذفاً ، وجلد ثمانين جلدة ؛ لأن الملاعة داخلية في المحصنات ولم يثبت عليها ما يخالف ذلك ، فيجب على من رماها بابنها حد القذف ، ومن قذف ولدها يجب حده كمن قذف أمه سواء بسواء . وهذا بالنسبة للأحكام التي تلزمه .

أما بالنسبة للأحكام التي شرعها الله للكافة فإنه يعامل كأنه ابنه من باب الاحتياط فلا يعطيه زكاة ماله ، ولو قتله لا قصاص عليه ، وتثبت الحرمة بينه وبين أولاده ، ولا تجوز شهادة كل منها للآخر ، ولا يعد مجهول النسب ، فلا يصح أن يدعيه غيره ، وإذا كذب نفسه ثبت نسب الولد منه ، ويزول كل أثر للعان بالنسبة للولد .

### « حديث الإفك »

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِإِفْكِ عُصْبَةِ مَنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ

(١) انظر قصة المتلاعنين في كتب السنة

(٢) أورد المهيمن في مجمع الزوائد في « كتاب الفرائض » باب ميراث ابن الملاعة قال : عن ابن مسعود قال ميراث ابن الملاعة كله لأمه . رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة لم يدرك ابن مسعود . وعن علي وابن مسعود قالوا عصبة ابن الملاعة عصبة أمه . رواه الطبراني وفيه من لم يسم ج ٤ ص ٢٣٠ .

الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ  
 شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ  
 وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوهُ  
 بِالسِّنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾  
 وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾  
 يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
 حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا  
 وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ  
 رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ \* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ  
 فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ  
 أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ  
 أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا  
 يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ  
 الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ السِّنُّوهُمُ  
 وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ  
 اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْحَبِيبَتُ لِلْحَبِيبِينَ وَالْحَبِيبُونَ لِلْحَبِيبَتِ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ  
 وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

## تفسير المفردات

- الإفك : أبلغ الكذب والافتراء .  
العصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبي بن سلول وقد تولى كبره وحننة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب - رضى الله عنها - وزوج طلحة بن عبيد الله ، ومسطح بن أثاثه ، وجسان بن ثابت .  
كبره ( بكسر الكاف وضمها وسكون الباء ) أى : معظمه ؛ فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .  
لولا : كلمة بمعنى ( هلا ) تفيد الحث على فعل ما بعدها .  
مبين : أى ظاهر مكشوف .  
أفضتم : أى خضتم فى حديث الإفك .  
تلقونه : أى تتلقونه ويأخذهم بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه ، ومنه ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾ (١)  
سبحانك : تعجب ممن تفوه به .  
بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته .  
يعظكم : أى ينصحكم .  
تشيع : أى تنتشر  
الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنى .  
خطوات : واحداها خطوة ( بالضم ) مابين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه .  
المنكر : ماتنكره النفوس فتتفر منه .  
زكا : أى طهر من دنس الذنوب .  
ولا يأتل : أى لا يحلف  
الفضل : الزيادة فى الدين .  
السعة : الغنى  
المحصنات : العفيفات  
الغافلات : أى من الفواحش وهن النقيات القلوب اللاتي لا يفكرن فى فعلها  
لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا فى الدنيا بالحد .  
دينهم : أى جزاءهم ومنه « كما تدين تدان »  
الحق : أى الثابت الذى يحق لهم لاعمالة  
أن الله : أى وعده ووعيده  
الحق : أى العدل الذى لا جور فيه .

## « المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبية ، وحكم من قذف الزوجات ، ذكر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله ﷺ ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى ( نصيبى ) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ، ثم نودى بالرحيل فقمتم ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لحفى فلم يستكروا خفة الهودج ، وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد أن استمر الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيمنت منزلى وظننت أنهم سيفقدونى ، ويعودون فى طلبى فبينما أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فتمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى ، فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمتم إليها فركبتها ، وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نجر الظهيرة وافتقدنى الناس حين نزلوا ، وماج القوم فى ذكرى فبينما الناس كذلك إذ هجمت عليهم فحاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى فقدما المدينة فاشتكت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت مع أم مسطح قبل ( المناصع ) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن نتخذ الكنف قريبا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هتاه أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى منزلى ودخل على رسول الله ﷺ ثم قال كيف تيكم ؟ قلت أتأذن لى أن أتى أبوى ؟ قال : نعم ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلها ، فجئت أبوى فقلت لأمى : أى أماء ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيفة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت : قلت سبحانه الله أو قد تحدث الناس بهذا ويلغ رسول الله ﷺ قالت : نعم ، قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ! ثم أصبحت فدخل على أبوبكر وأنا أبكى فقال لأمى : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها فأكب يبكى فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يا بنية . فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليل المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ،

وأسماء بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله قالت : فأما أسماء فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي في نفسه من الود فقال : يا رسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما علي فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية ( يعني بريرة ) تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكبر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأني الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي فقال وهو على المنبر يا معشر المسلمين ، من يعذرن من رجل قد بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلي إلا معي ، فقام سعد بن معاذ الأنصاري - رضي الله عنه فقال : أنا أعذك يا رسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال أي : سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتشاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ثم أتاني رسول الله ﷺ وأنا في بيت أبوي فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي قالت : فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس عندي ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه في شأن بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمه حتى ما أحس منه دمعة قلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال ، قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمي : أجيبني رسول الله ﷺ فقالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إني والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر في أنفسكم ، حتى كنتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني ، وإني والله لا أجد لي ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ( فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ) ثم توليت فاضطجعت على فراشي وأنا والله أعلم أني بريئة وأن الله سيبرئني ببراءتي ، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل في شأن وحي يتلى ، ولشأن كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في المنام رؤيا يبرئني الله بها ، قالت : والله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاق من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة ، إن الله قد برأك ، فقالت لي أُمي : قومي إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله هو الذي أنزل براءتي ،



فأنزل الله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا في براءق قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة فأنزل الله : ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ - إِلَى قَوْلِهِ - غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ سورة النور الآية (٢٢) .

فقال أبو بكر : إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت فقالت : يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا ، قالت عائشة وهى التى كانت تسامنى فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك (١) .  
وكان مسروق إذا حدث عن عائشة يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المرأة من النساء .

وبعد ان ذكر قصص أم المؤمنين عائشة ، وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد عذابه يوم القيامة ، وأسهب في هذا أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو : أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة ، بالخنا والفجور فهو مطرود من رحمة الله ، بعيد عن دار نعمه ، معذب في جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا ..

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ أى : الكذب والبهت والافتراء (عصبة) أى : جماعة منكم (لا تحسبوه شرا لكم) أى : يا آل أبى بكر (بل هو خير لكم) أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ، ورفعنا منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله - تعالى - لعائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس - رضى الله عنه - عنها - وهى فى سياق الموت قال لها : أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزلت براءتك من السماء .  
وقال ابن جرير فى تفسيره : تفاخرت عائشة وزينب - رضى الله عنها - فقالت زينب : أنا التى أنزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن المعطل على المرحلة ، فقالت لها زينب : يا عائشة ، ما قلت حين ركبتهما؟ قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت : قلت كلمة المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ﴾  
أى : نصيب من العذاب والخزى العظيم فى الدنيا والآخرة .

(١) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب « تعديل النساء بعضهم بعضا » : ٢٢٧/٣ - ٢٣١ وتفسير سورة يوسف ، ٩٥/٦ - ٩٦ ، وتفسير سورة النور : ١٢٧/٦ - ١٣٢ وكتاب الايمان ، باب « اليمين فيما لا يملك وفى المعصية وفى الغضب » : ١٧٢/٨ وكتاب التوحيد : ١٧٦/٩ ، ١٧٧ ، ومسلم كتاب التوبة ، باب « فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف » : ١١٢/٨ - ١١٨ ( انظر ابن كثير المجلد السادس ط/ الشعب ) ..

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم \* يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون \* يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

ياأيها العاقل :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين  
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فلك عورات وللناس السن  
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل ياعين للناس أعين  
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي أحسن

ما أجل قول الله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإما ينزغنك من  
الشیطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم ﴿ سورة الأعراف الآيتان : ١٩٩ - ٢٠٠  
وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك  
وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴿ سورة فصلت  
الآيتان : ٣٤ / ٣٥

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . سورة فصلت الآية ٣٦  
قال الحكيم :

يخاطبني السفيه بكل قبح وأبى أن أكون له مجيبا  
يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الاحراق طيبا

وقال آخر :

وإذا أتتك مسبق من ناقص فهي الشهادة لي بأنى كامل

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الانسان لا يلدغنك إنه ثعبان

فاللهم أدبنا بأدب القرآن الذى قلت فيه :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ سورة

الفرقان آية : ٦٣

وقلت فيه :

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ سورة الفرقان آية : ٧٢ .

وقلت فيه :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي

الجاهلين ﴿ سورة القصص آية : ٥٥ .

وقوله تعالى : ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ المقصود بالذى تولى كبره أى : الذى ابتدأ الكلام فيه ، وعمل على أن يشيع ويتشع ، وهو عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين . ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين \* لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ . ماذا يجب على المؤمن من أدب يلتزم به عندما يسمع هذه الأكاذيب وتلك الأباطيل وهاتيك الترهات ؟ فى هذا المقام يعلمنا القرآن الأدب الرفيع فيقول : ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أى هلا إذ سمعتم هذا الكلام ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . كان عمر - رضى الله عنه - صلبا فى الحق لما سأله النبى ﷺ عن عائشة قال الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل : يارسول الله ، من الذى زوجكها ، قال رسول الله ﷺ : الله ياعمى ، قال عمر بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أترى أن الله - تعالى - دلس عليك فى زواجها (١) .

هذا موقف المؤمن الحازم الحاسم الجازم .

إن الإفك الذى يتردد على مرضى القلوب إنما هو رجس من عمل الشيطان ، وإفراز سىء لقلوب أهل الفسق والنفاق هلا جاءوا على ما قالوا بأربعة شهداء لا والله . ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ .

وما قالوه إنما هو محض افتراء ، وقد شهد الله - تعالى - عليهم بالكذب وعائشة - رضى الله عنها - بريئة من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب . إنها الصديقة بنت الصديق أظهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام :

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

ان الناس جميعا لو تحولوا الى كناسين ليثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة الحيا .

قال البخارى : وقال أبو أسامة ، عن هشام بن عروة قال : أخبرنى أبى ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : لما ذكر من شأنى الذى ذكر ، وما علمت به ، قام رسول الله ﷺ فى خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أشيروا على فى اناس أبنوا أهلى وإيم الله ما علمت على أهلى إلا خيرا وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يارسول الله أئذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال : كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت ان تضرب أعناقهم حتى كاد أن يكون بين

الأوس والخزرج شرفي المسجد وما علمت ، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعى أم مسطح فعرثت فقالت : تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث ، فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، والله فرجعت الى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفلى وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أم رومان : ماجاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى ، فقالت : يابنية خفى عليك الشأن ، فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ﷺ قالت : نعم ورسول الله ﷺ فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فترى فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه - رضى الله عنه - فقال : أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول الله ﷺ ببنى فسأل عنى خادمتى ، فقالت : يارسول الله ، لا والله ما علمت عليها عيبا إلا كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينةا وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر وبلغ الأمر ذلك الرجل الذى قيل له ، فقال : سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة - رضى الله عنها : فقتل شهيدا فى سبيل الله ، قالت : وأصبح أبواى عندى فلم يزاالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبى الى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار فهى جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئا فوعظ رسول الله ﷺ فالتفت إلى أبى فقلت له : أجب رسول الله ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمى فقلت أجبى رسول الله ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إنى لم أفعل والله - عز وجل - يشهد انى لصداقة ماذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إنى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا - والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه - إلا أبا يوسف حين قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » سورة يوسف من الآية : ١٨ وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته فسكتنا فرقع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشرى يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضبا : فقال لى أبواى : قومى إليه فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمله ولا أحمدا ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدنيها فلم تقل إلا خيرا وأما أختها حمزة بنت جحش فهلكت فيمن هلك » الحديث (١) .

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ . إذ تلقونه بالستكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

ولولا فضل الله عليكم أيها الخائفون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الإفك . ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن

عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح ، وحسان وحمئة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقا مشروطا بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بالستكم ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبيرة أي يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان ، وقال فلان : كذا وذكر بعضهم كذا ، ولذا أدب الله - تعالى - الجماعة المسلمة عندما تثار الشائعات وتكثر الأقاويل أدهم بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ سورة الحجرات آية : ٦ . قوله تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ .

أي تهرفون بما لا تعرفون وتلك ألسنتكم هذا الكلام وتنسب شفاهكم به وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

وسبحان الله إذ يقول : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

فمن الخطأ أن يقول الإنسان مالا يعلم ، وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم وإذا أثم لا يندم .

إن الرجل يتكلم الكلمة من غضب الله لا يلقي لها بالا يهوى بها في النار سبعين خريفا . وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما . ﴿ سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ - ٧١ .

إن الكلمة مسئولية وأمانة فرحم الله امرأ قال خيرا فغنى أو سكت فسلم . وجدت سكوت متجرا فلزمته إذا لم يفد ربحا فليست بخاسر

قال حكيم :

إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب .

ما إن ندمت على سكوت مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

فلا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتفسد قلوبكم ، وإن القلب القاسى بعيد عن الله - عز وجل -

ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عباد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

قوله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم \* يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين \* ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ . قال ﷺ : ( ان الله - تعالى - تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها مالم تفل أو تعمل ) أخرجاه في الصحيحين (١) .

وهذا أدب آخر بعد الأدب الأول الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

وفي هذا الأدب الثاني يقول تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أى : هلا وهى حرف تخصيص يفيد الحث والازعاج ، أى : هلا قلتم وقت سماعكم هذا الكلام البذيء هلا قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، وهلا نزهتم أنفسكم وأفواهكم من هذا الدنس وقلتم : سبحانه هذا بهتان عظيم . عندما ترمى أم المؤمنين بهذا الخبث ولكنه درس من دروس الحياة حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والحسن من السيئ ، والدنيء من الرفيع .

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون \* ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ سورة النور الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون \* ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون \* إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون \* ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون \* يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون \* واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ سورة الأنفال الآيات : ٢٠ - ٢٥ . وسبحانك ربى من قائل :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ سورة الانفال

الآية : ٢٧

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا \* والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ سورة الأحزاب الآيتان : ٥٧ - ٥٨ .

وسبحانك من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ سورة الأحزاب الآية : ٦٩ . . . وجل جلال الله إذ يقول مرشدا ومعلما : ﴿ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ سورة النور الآية : ١٨

(١) البخارى : كتاب الايمان ، باب « إذا جئت ناسيا » : ١٦٨/٨ ، ومسلم ، كتاب الايمان باب « تجاوز الله عن حديث النفس والمخاطر » : ٨١/١ .

ان في حادثة الافك دروسا لا تحصى وعبرا لا تستقصى .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقي

وقال حكيم :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك  
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

فسبحانك من عليم علمت ماكان ، وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا  
يكون لو كان كيف كان يكون .

وسبحانك من حكيم تنزهت عن العبث فقولك الحق ، وحكمك العدل ، ولا راد لقضائك ،  
ولا معقب لحكمك وأنت سريع الحساب .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا  
والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قال الامام أحمد بسنده ، عن محمد بن عباد المخزومي ، عن ثوبان ، عن النبي ﷺ قال : « لا  
تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإن من طلب غورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى  
يفضحه في بيته » (١) .

إن في هذه الآية الكريمة وعيدا شديدا وتهديدا مريعا لكل من يحب أن تنتشر الفاحشة وقالة  
السوء في المجتمع الإسلامي وعيد بالعذاب الأليم في الدنيا وذلك بإقامة الحد وما يتبع ذلك من خزي  
عظيم ، ووعيد بالعذاب الأليم في الآخرة وما أدراك ما عذاب الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .  
يوم يقال فيه للمظلوم تقدم ويقال فيه للظالم لا تتكلم هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .  
وأعجب معى كيف كان هذا الوعيد لمن يحب أن يشيع الفاحشة فما بالك بالذى يشيعها ويعمل  
على نشرها ، أو الذى يتولى كبرها ويزرع بذور التشكيك والظن السئ في الجماعة المسلمة .  
إن الاسلام أدبنا بأن نرد هذه الشائعات على أعقابها . ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون  
والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا  
سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

هذا هو مجتمع النظافة في أرحب مبانيها وأوسع معانيها وأسمى مراميها ، فاحذر أيها المسلم  
العاقل أن يكبك لسانك على وجهك في النار ، « واتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة ، تَمْحُهَا  
ونخالق الناس بخلق حسن » .

● عن أبي بكر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع : « إن دماءكم

وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت .  
رواه البخارى ومسلم . (١)

المعنى : حجة الوداع : آخر حجة حجها ﷺ .  
بلغت : اللهم قد أديت الرسالة وحفظت الأمانة وقلت ما أحبيت .

\*\*\*

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » رواه مسلم والترمذى . (٢)

المعنى : دمه : إهراق دمه وإراقته والتعرض لأذاه .  
عرضه : إباحة عرضه وتعرضه لأى إهانة أو قبيحة أو ارتكاب فاحشة .  
ماله : غصب ما يملك أو نهبه أو سرقة أو تعرضه للتلف .

● وعن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه » رواه الطبرانى فى الأوسط . (٣)

المعنى : أدناها : أقلها جرما عقاب ناكح أمه ووقوع الزنا بها .  
أربى الربا : أكثر الذنوب انتقاما وعذابا : التحدث بما يكره الانسان وغيبته وتعداد عيوبه .

\*\*\*

● وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فذكر أمر الربا وأعظم شأنه ، وقال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الغيبة . (٤)

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « إن الربا نيف وسبعون بابا أهونهن بابا من الربا مثل من أتى أمه فى الاسلام ، ودرهم من الربا أشد من خمس وثلاثين زنية . وأشد الربا وأربى الربا وأخبت الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمة » . رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى . (٥)

المعنى : نيف : من واحد إلى ثلاث ، والبضع من أربع إلى تسع ، ولا يقال نيف إلا بعد عقد نحو عشرة ونيف ، ومائة ونيف ، وألف ونيف .

(١) صحيح مسلم : كتاب الحج « باب حجة النبى ﷺ » ج ٢ ص ٨٨٩ ط / الشعب .

(٢) صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب تحريم ظلم المسلم « إلخ ج ١ ص ١٩٨٦ رقم ٣٢ .

سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ج ٢ ص ٢١٨ رقم ١٩٩٢ .  
وانظر الترغيب والترهيب باب الترهيب من الغيبة ج ٣ ص ٧٢٨ ط / الشعب .

(٣) مجمع الزوائد ج ٤ ص ١١٧ باب ما جاء فى الربا .

وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٢ عن البراء بن عازب ط / الشعب .

(٤) انظر الترغيب والترهيب باب الترهيب من الربا ج ٣ ص ١١ رقم ١٥ عن أنس بن مالك ط / الشعب .

(٥) انظر الترغيب والترهيب .. باب الترهيب من الغيبة ج ٣ ص ٧٥٩ ط / الشعب .



أهونهن : أيسرهن في العذاب .

عرض المسلم : التحدث في موضع ذمه والاستطالة بالسوء والقذح ، وفي النهاية وفي حديث ابن عباس « إن قوما قتلوا فأكثروا وزنوا وانتهكوا » .  
أى بالغوا في خرق محارم الشرع وإتيانها ، وفي حديث أبي هريرة « تنتهك ذمة الله وذمة رسوله » يريد نقض العهد والغدر بالمعاهد .

انتهاك حرمة : أى انتهاك ما حفظ الله من رعاية جانبه واحترامه ، وفي النهاية كل مسلم عن مسلم محرم ، ويقال مسلم محرم وهو الذى لم يحل من نفسه شيئا يوقع به يريد أن المسلم معتصم بالإسلام ممتنع بحرمة ممن أراده أو أراد ماله ، ففيه الترغيب في حفظ سيرة المسلم وعدم ذكره بسوء .

\*\*\*

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه » . رواه البزار بإسنادين . (١) .

● وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ثم قرأ رسول الله ﷺ ( والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ) . رواه أبو يعلى (٢) »

● وعن سعيد بن زيد - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق » . رواه أبو داود (٣) .  
المعنى :

بغير حق : أما ذكره لولى أمره ليردعه من معصية يريد أن يفعلها أو يخبر الحاكم عن عقد العزيمة على مؤامرة أو سرقة أو ارتكاب عمل فيخبر من يمنع هذا أو يصدده أو يهديه أو يرشده فكأنه ذكر هذا للنصيحة وللحذر . قال تعالى : ﴿ خذوا حذرکم ﴾ سورة النساء من الآية : ٧١ .

وقال ﷺ : : « الدين النصيحة » فلا مانع أن يعلم الإنسان شيئا خفيا فيذهب لمن يتدارك هذا قبل وقوعه ويخبره على سبيل النجدة والغوث والجزر والهداية ، لا على سبيل التشهير والذم .

\*\*\*

● وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت للنبي ﷺ « حسبك من صفية كذا وكذا ، قال بعض الرواة : تعنى قصيرة فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته قالت : وحكيت له إنسانا فقال : ما أحب أن حكيت لى إنسانا . وإن لى كذا وكذا . » رواه أبو داود والترمذى والبيهقى (٤) »

( ١ ) انظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ١١٧ باب ما جاء في الربا ، وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٢ عن البراء بن عازب . وانظر الترغيب والترهيب أبواب الترهيب من الغيبة ج ٣ ص ٧٦٠ ط / الشعب .

( ٢ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٠ ط / الشعب .

( ٣ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦١ ط / الشعب .

( ٤ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦١ ط / الشعب .

المعنى :

حسبك : كافيك منها كذا .

لمزجته : أى خلطته وكدرته ، لأنها على سبيل الذم فارتكبت بذكرها ذنبا والله تعالى حرم الغيبة .  
وكذا : وإن لى كذا وكذا .

\* \* \*

● وعن عائشة - أيضا رضى الله عنها - أنه اعتل بعير لصفية بنت حبي وعند زينب فضل ظهر ، فقال النبى ﷺ لزينب : « أعطيتها بعيرا ، فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ، فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة ، والمحرم وبعض صفر » رواه أبو داود . (١) .  
المعنى :

اعتل : مرض وسقم .

فهجرها : تركها ﷺ أكثر من شهرين على هذه اللفظة ؛ تأديبا لها وزجرا وردعا ، وتعليلًا لأمته أن تتجنب ألفاظ السب وتترك الهجاء وتحذر الذم .

\* \* \*

● وروى عنها - رضى الله عنها - قالت : قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى ﷺ : إن هذه لطويلة الذيل فقال : « الفظى ، فلفظت بضعة من لحم » . رواه ابن أبى الدنيا . (٢) .

\* \* \*

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كنا عند النبى ﷺ فقام رجل فقالوا : يا رسول الله ، ما أعجز فلانا ! أو قالوا : ما أضعف فلانا ، فقال النبى ﷺ « اغتبتم صاحبكم وأكلتم لحمه » . (٣) .  
رواه أبو يعلى والطبرانى .  
المعنى :

ما أضعف : أى عجزه أو ضعفه ما أكثره ، فأخبرهم ﷺ أنهم اغتابوه وذكروا ما يكره فكانهم طعموا قطعة من لحمه .

\* \* \*

● وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلا فقالوا : لا يأكل حتى يطعم ، ولا يرحل حتى يرحل له ، فقال النبى ﷺ : اغتبتموه ، فقالوا : يا رسول الله ! إنما حدثنا بما فيه . قال : « حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه » .. رواه الأصبهاني (٤) . بإسناد حسن .  
المعنى :

يطعم : معناه أنه ضعيف إلى درجة احتياجه إلى مساعد يطعمه وخدام يوكله وساق يسقيه ولا يسافر إلا إذا حمله آخر أو ركب على دابة .

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦١ ط / الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٢ ط / الشعب .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٢ ط / الشعب .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٢ - ٧٦٣ ط / الشعب .

حسبك : كافيك بتعداد أوصاف ثابتة فيه : ولكن يكره ذكرها ويجب سترها ففيه الترهيب عن ذكر أخيك بما يكره مطلقا .

\*\*\*

● وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : كنا عند النبي ﷺ فقام رجل فوق فيه رجل من بعده ، فقال النبي ﷺ تحلل ، فقال : ومم أتحمّل ؟ ما أكلت لحما ، قال : إنك أكلت لحم أخيك<sup>(١)</sup> .

المعنى :

وقع فيه : ذكر عيوبه .  
تحلل : أى افعل الحلال واطلب التوبة من هذه الغيبة .  
ومم أتحمّل : ومن أى شيء أطلب الحل وأترك الحرام .

\*\*\*

● وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : أمر النبي ﷺ الناس بصوم يوم ، وقال : لا يفطرن أحد منكم حتى أذن له ، فصام الناس حتى إذا أمسوا ، فجعل الرجل يحجى ، فيقول : يا رسول الله ، إني ظلمت صائما فائذن لي فأفطر فيأذن له ، الرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يا رسول الله فتأتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك فأذن لهما فليفطرا فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، فذهب فمرهما إن كانتا صائمتين فليستقيتا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقأت كل واحدة علقه من دم ، فرجع الى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار .<sup>(٢)</sup> . رواه أبو داود الطيالسي .

المعنى :

فأعرض عنه : تركه ولم يجبه .  
عاوده : طلب مرة ثانية .  
لم يصوما : لم يقبل الله صومهما لأنها اغتابتا بذكر ما يكره .  
فليستقيتا : فليخرجا ما في معدتهما ، ينهى ﷺ عن الغيبة خشية استحلال أكل لحم المغتاب فيجر الى عذاب النار . ويشس القرار .

\*\*\*

● وعن شفي بن مانع الأصبحي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون ما بين الحميم والحميم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : مابال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل مغلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحا ودما ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت : مابال الأبعد قد

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٣ ط / الشعب .  
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٤ - ٧٦٥ ط / الشعب .

آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد قد مات وفي عنقه أموال الناس ، ثم يقال للذي يجبر أمعاءه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان لا يبالي أين أصاب البول منه ثم يقال للذي يسيل فوه قيحا ودما : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كلمة فيستلذها كما يستلذ الرفث ، ثم يقال للذي يأكل لحمه : ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة . رواه ابن أبي الدنيا (١)

المعنى :

الجحيم : النار .

الويل : الهلاك والدمار .

جر : مغلق عليه تابوت من جر .

يجر أمعاءه : حوايا معدته .

التابوت : الصندوق .

أصاب البول منه : معناه لا يتحرز من النجاسة ولا يحفظ ثيابه عن التبول ولا يتطهر ولا ينظف جسمه منها .

الرفث : الفحش وقبح القول والجماع والحنا والسوء . يخبرنا ﷺ عن أربعة يعذبون بأنواع العذاب وينادون بالدمار والهلاك لشدة آلامهم :

أ - في صندوق متقدة ناره يصل نارا حامية ذات هب ، لأنه ضيع حقوق الناس في حياته ، وأكل أموالهم ظلما وعدوانا .

ب - تخرج أحشاؤه فضيحة وقذارة ويمر على الناس يستقذرون منه في الآخرة ، لأنه كان لا يحترز من بوله في دنياه .

ج - يخرج من فيه السوائل القذرة من صديد وقبح ودم ، لأن كلامه رديء وخشن بطل قبيح .

د - يأكل لحم جسمه على مرأى من الناس لأنه اغتاب الناس في دنياه ونهش أعراضهم وذمهم بما يكرهون .

\*\*\*

● وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ ( من أكل لحم أخيه في الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ويكلح ويضج ) . رواه أبو يعلى (٢) .  
وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه مر على بغل ميت فقال لبعض أصحابه لأن يأكل الرجل من هذا حتى يملأ بطنه خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم . رواه أبو الشيخ (٣) .

● وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء الأسلمي إلى رسول الله ﷺ فشهد على نفسه بالزنى أربع

( ١ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب التهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٥ - ٧٦٦ ط / الشعب .

( ٢ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب التهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٦ - ٧٦٧ ط / الشعب .

( ٣ ) انظر الترغيب والترهيب « أبواب التهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٧ ط / الشعب .

شهادات يقول : أتيت امرأة حراما وفي كل ذلك يعرض عنه رسول الله ﷺ فذكر الحديث الى أن قال : فما تريد بهذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرني ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم ، فرجم ، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه : أنظر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رجم الكلب قال : فسكت رسول الله ﷺ ، ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار شائل برجله ، فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالوا : نحن ذا يا رسول الله ، فقال لهما كلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا يا رسول الله : غفر الله لك ، من يأكل من هذا ؟ فقال رسول الله ما نلتما من عرض هذا الرجل أنفا أشد من أكل هذه الجيفة ، فوالذي نفسي بيده إنه الآن في أنهار الجنة ينغمس فيها <sup>(١)</sup> . رواه ابن حبان في صحيحه .

المعنى :

تطهرني : تنقذني من الذنب بالحد وإقامة العقاب في الدنيا لأسلم من عذاب الله في الآخرة .  
لم يدع نفسه : لم يترك نفسه حتى أقيم عليه الحد .  
برجله : شائل برجله .

فلان وفلان : في أى مكان اللذان اغتابا ذلك الرجل النقي الطاهر ؟  
أنفا : سابقا .

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ليلة أسرى بنى الله ﷺ ونظر في النار ، فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جدا ، فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ، رواه أحمد <sup>(٢)</sup> .  
المعنى :

الجيفة : جثة الميت إذا أتنن ، يقال جافت الميتة وجيفت واجتافت .  
لحوم الناس : تغتابون .

أزرق جدا : أزرق جلدا : أى لونه شديد الزرقة .  
عاقر : ناحرها وذابحها ، يشير ﷺ الى عذاب من نحر ناقة سيدنا صالح - عليه السلام - الذى طلب من قبيلة ثمود بالشام عبادة الله وحده واستغفاره والتوبة إليه ، قال تعالى : ﴿ ويأقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائعين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ . سورة هود الآيات : ٦٤ - ٦٨ .

● وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم <sup>(٣)</sup> ، رواه أبو داود .

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٨ ط / الشعب .  
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٨ - ٧٦٩ ط / الشعب .  
(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج ٣ ص ٧٦٩ ط / الشعب .

المعنى :

يخمشون : يخذشون ويقطعون .

لحوم الناس : كانوا يغتابون الناس فجعل الله - تعالى - عقابهم من جنس عملهم بالتسلط على نهش أجسامهم وتقطع أطرافها كما كانوا ينهشون أعراض الناس ويذمون البراء .

\* \* \*

● وعن راشد بن سعد المقراني قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مزلت برجال تقرض جلودهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : الذين يتزينون للزينة . قال : ثم مررت بجب متن الريح فسمعت فيه أصواتا شديدة ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : نساء كن يتزين للزينة ويفعلن مالا يحل لهن ، ثم مررت على نساء ورجال معلقين بثديهن ، فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : هؤلاء اللمازون والهمazon ، وذلك قول الله عز وجل ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ (١) . سورة الهمزة آية : ١

المعنى :

تقرض : تقطع .

للزينة : كجلسة بكسر الجيم : الذين يقيمون الشرك للوقوع فى الفاحشة القبيحة ويمثلون فعلتها .

بجب : بثر ووعاء قذر كربه الرائحة شديدها .

يتزين للزينة : اللاتي يظهرن التبرج ويتعطرن ويتحلين لصيد الرجال فى شرك الغواية بتبيين هيئة القدوم على الرذيلة .

\* \* \*

● وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - : كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح منتنة ، فقال رسول الله ﷺ أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين (٢) . رواه أحمد وابن ابى الدنيا .

المعنى : منتنة : رائحة قذرة .

أتدرون : أتعلمون .

يغتابون المؤمنين : يذكروهم بسوء .

● وعن جابر بن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما - قالوا قال رسول الله ﷺ : الغيبة أشد من الزنا . قيل : وكيف ؟ قال : الرجل يزنى ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه . (٣) . رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى :

لا يغفر له : لا تمحى سيئاته .

حتى يغفر له صاحبه : حتى يعفو له .

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٦٩ - ٧٧٠ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٠ ط/ الشعب .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٠ ط/ الشعب .

● وعن أبي بكر - رضي الله عنه - قال : بينا أنا أمشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي ورجل على يساره فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول الله ﷺ : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير وبلى فأيكما يأتي بجريدة فاستبقنا فسبقته فأتيته بجريدة فكسرها نصفين ، فألقى على ذا القبر قطعة وعلى ذا القبر قطعة ، قال : إنه يهون عليهما ما كانتا رطبتين ، وما يعذبان إلا في الغيبة والبول . (١) . رواه أحمد .  
المعنى :

كبير : نقل الأبى عن المازري : أى شاق تركه ، لأن المنهى عنه منه : ما يشق تركه كالمستلذات ومنه ما ينفر الطبع كالمسمومات ومنه مالا يشق تركه كهذا . قال عياض : وقيل المعنى في كبير عندكم ، وهو عند الله كبير أى أن هذا العمل كان يعدانه صغيرا لا يأبهان به في حياتهما معتقدين أن الله يسمح ويصفح ويعفو ولكن الله - تعالى - جعل من شروط صحة الصلاة الطهارة والنقاء من النجاسة .

بلى : أى نعم إنه كبير يعاقب الله عليه وقد عاقبهما سبحانه في القبر بعد موتها .  
رطبتين : لما لم تيسر : أى مدة وجود خضرتيها ، قال الأبى . وأخذت منه تلاوة القرآن على القبر لأنه إذا رجلي التخفيف لتسييح الشجر فالقرآن أولى ، وأوصى بريدة السلمى أن يجعل على قبره جريدتان فلعله أوصى تيمنا بهذا الحديث وفعله ﷺ ولتسمية الله تعالى لها شجرة طيبة وتشبيهاها بال مؤمن . قال والأظهر أنه من سر الغيب الذى أطلعه الله عليه . ( شنقيطى فى زاد المسلم ) .  
وهذا الحديث يشدد النكر ويعلن الحرب على كل من يتساهل فى تمام الاستبراء ووجه كونه كبيرة تساهله فى النقاء والتطهير ، قال تعالى ﴿ وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾ سورة المدثر الآيات : ٤ - ٧ .

أى : تباعد من النجاسات ما أمكن الاحتراز منه ، فإن التطهر واجب فى الصلوات محبوب فى غيرها ، والرجز القبائح والمعاصى والشرك بالله ، ولا تعط مستكثرا واصبر على مشاق التكليف .

● وعن يعلى بن سيابة - رضي الله عنه - أنه عهد النبى ﷺ وأتى على قبر يعذب صاحبه ، فقال : إن هذا كان يأكل لحوم الناس ثم دعا بجريدة رطبة ، فوضعها على قبره ، وقال : لعله أن يخفف عنه مادامت هذه رطبة . رواه أحمد والطبرانى (٢)

● وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : أتى رسول الله ﷺ بقيع الغرقد فوقف على قبرين ثريين فقال : أدفتتم فلانا وفلانة ، أو قال : فلانا وفلانا ؟

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٠ - ٧٧١ ط الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧١ ط الشعب .

قالوا : نعم يارسول الله قال : قد أقعد فلان الآن ، فضرب ، ثم قال : والذي نفسى بيده لقد ضرب ضربة ما بقى منه عضو إلا انقطع ، ولقد تطاير قبره نارا ، ولقد صرخ صرخة سمعها الخلائق إلا الثقلين : الانس والجن ، ولولا تمريج قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع ، ثم قالوا : يارسول الله وما ذنبهما ؟ قال : أما فلان ، فإنه كان لا يستبرئ من البول وأما فلان أو فلانة فإنه كان يأكل لحوم الناس (١) . رواه ابن جرير الطبرى .  
المعنى :

ثريين : غنيين يقال ثرى القوم يثرون وأثروا : إذا أكثروا وكثرت أموالهم .

فضرب : المعنى يرمى بمطربة من نار .

تطاير : تنافر منه شرر ولهب .

صرخ : ارتفع صوته .

تمريج قلوبكم : أى فساد وخلط وفيه كيف أنتم إذا مرج الدين : أى فسد وقلقت أسبابه ،

ومرجت عهودهم ؛ أى اختلطت .

ما أسمع : لقد أعطى الله تعالى للنبي ﷺ قوة السمع خاصة به ليدرك ما لم يدركه الانس والجن

فسمع صوت عذابها ونوعه .

لا يستبرئ : لا يتطهر وفي المصباح استبرا من البول ، الأصل استبرا ذكره من بقية بوله بالنثر

والتحريك حتى يعلم أنه لم يبق فيه شيء ، واستبرأت من البول : تنزهت عنه .

لحوم الناس : قد جعل الله من يتعاطى الغيبة ويذكر إنسانا بما يكره ولو كان فيه سواء أكان في

بدنه كالقصر والحول والسواد أم في نسبه كابن حجام وابن مزين وابن كذا مثلا ، أم في خلقه كالشره

والطمع أم في دينه كالتهاون بالصلاة أو يشير بالرأس استهزاء أو بأى عضو تحقيرا كمن يأكل لحم أخيه

الميت ولا شك أن أكل لحم الانسان أمر تعافه النفوس السليمة وتأباه الطباع الكريمة فضلا عن كونه ميتا

وكونه لحم أخ ولذا قال تعالى ﴿ فكرهتموه ﴾ من سورة الحجرات : أى فكرهتم أكل لحم الأخ الميت ،

وإذا كان ذلك كذلك فوجب عليكم أن تكرهوا الغيبة المشابهة له .

\*\*\*

● وعن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغيبة والنميمة

يحثان الايمان كما يعضد الراعى الشجرة » (٢) . رواه الأصبهاني .

المعنى :

يحثان : أى ذكر الإنسان بما يكره والسعى بالفساد يزيلان الإيمان فيتساقط أوراق شجره

المورقة ، يقال حث الرجل الورق وغيره .

حنا : أزاله من باب قتل .

يعضد : يقطع البستانى ، يقال عضد الشجرة أعضد عضدا من باب ضرب .

\*\*\*

(١) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٢ - ٧٧٣ ط/ الشعب .

(٢) أنظر المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٣ ط/ الشعب .



● وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار . (١) . رواه مسلم والترمذى وغيرهما .  
المعنى :

لا درهم : لا نقود .

ولا متاع : لا ضيعة ولا أثاث .

المفلس : الفقير المجرد من ملك شيء الذى يكثر العبادة في حياته ولكن أرخى العنان للسانه فارغى وأزبد وكال التهم وردح وذم واغتاب وشم فأحصى الله سيئاته حتى جاء يوم الحساب فاقتص منه وأخذت حسناته كلها جزاء سبه ، قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ \* إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد \* . سورة ق الآيات : ١٦ - ١٨ .  
فنيت حسناته : انتهت .

قبل أن يقضى : قبل أن يؤدي ما عليه من عقاب السب والغيبة فيتحمل أوزار من اغتابهم ويرمى في النار من جراء لسانه .

وامش الهوينى مظهرا عفة وابغ رضا الأعين عن هيتك  
وانطق بحيث العى مستقبح واصمت بحيث الخير فى سكتك  
ولج على رزقك من بابه واقصد له ما عشت فى بكرتك  
ووف كلا حقه ولتكن تكسر عند الفخر من حدثك  
ولتجعل العقل محكما وخذ كلا بما يظهر فى نقدتك  
ولا تضيع زمنا ممكنا تذكاره يذكى لظى حسرتك  
والشر مهما استطعت لا تأته فإنه جور على مهجتك

● وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرجل ليؤتى كتابه منشورا فيقول : يارب فآين حسنات كذا وكذا عملتها ليست فى صحيفتى ؟ فيقول : محيت باغتيابك الناس . (٢) . رواه الأصبهاني .  
المعنى :

منشورا : ظاهرة صفحاته متقدمة أمامه يراها .

حسنات : غير مقيدة .

باغتيابك الناس : زالت بكثرة ذكرك الناس بسوء .

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٣ ط / الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٤ ط / الشعب .

● وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أ رأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته <sup>(١)</sup> ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .  
المعنى : بهته : ادعيت عليه ظلماً ، وفي المصباح قذفه بالباطل وافتريت عليه بالكذب ، والاثم والبهتان ، ومن الغريب ﴿ ولا يأتين بيهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن ﴾ سورة الممتحنة من الآية : ١٢

قيل بل ذلك لكل فعل شنيع يتعاطينه باليد والرجل من تناول ما يجوز والمشى إلى ما يقبح ( فبهت الذى كفر ) أى دهش وتحير ، وقد بهته ، قال عز وجل : ﴿ هذا بهتان عظيم ﴾ : أى كذب بهت سامعه لفظاعته .

\* \* \*

● وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : من ذكر امرأ بشيء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله في نار جهنم حتى يأتى بنفاد ما قال فيه . <sup>(٢)</sup> . رواه الطبرانى بإسناد جيد .  
المعنى :

ليعيبه : لينقصه .

بنفاد ما قال فيه : يستمر عذابه حتى يحقق قوله الذى صدر منه كذباً وزوراً .

\* \* \*

● وفي رواية له : أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها برىء يشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يذيه يوم القيامة في النار حتى يأتى بنفاد ما قال .  
المعنى :

أشاع : أظهر وأباح القول .

برىء : بعيد عن وصفها .

يشينه بها : يذمه ويعيبه وينقصه .

يلذيه : يصهره حتى يتحقق قوله ، ولن يحصل ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ سورة النور الآيات : ١٩ - ٢١ .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال : حتى يخرج مما قال <sup>(٣)</sup> . رواه أبو داود والطبرانى .

(١) . انظر المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٤ ط / الشعب .

(٢) . انظر المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٤ ط / الشعب .

(٣) . انظر المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٥ ط / الشعب .

المعنى :

ردغة الخبال : عقاب الذى يتكلم فى أعراض الناس أن يسقى عصارة النار الآتية من انصهار أجسام الفجار ، وفى النهاية والخبال فى الأصل الفساد ، ويكون من الأفعال والابدان والعقول ، وبين يدي الساعة الخبل : أى الفتن المفسدة .

\* \* \*

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير الحق ، وبهت المؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق . (١) . رواه أحمد .

المعنى :

كفارة : أى لا يمكن للإنسان أن يخفف عقابها بدفع شيء من ماله أو تحليلها أو فرار من عقابها الأليم .

الشرك بالله : أن يجعل الإنسان لله تعالى الواحد القهار شريكا فى أفعاله أو صفاته أو فى ذاته .  
بغير حق : إزهاق نفس بريئة لم تفعل جناية تستحق الإعدام .  
بهت مؤمن : تكذيب الموحد بالله - تعالى - والمصدق بوجوده المتحلل بالحلل الايمان والمقيم دعائم الاسلام والافتراء عليه بالأقوال المملقة المطلية بطلاء الهزء والسخرية والنفاق والازدراء .  
الفرار من الزحف : الهروب من صفوف المجاهدين فى سبيل الله - تعالى - والجبن عند ملاقة الأعداء والتنصل من الدفاع والالتجاء الى الاختفاء وقت الهجوم والكفاح .  
ويمين صابرة : القسم بالله تعالى أو بصفاته باطلا لضياح حق وفى النهاية « من حلف على يمين صبر » : أى لزم بها وحبس عليها ، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم وقيل لها مصبورة وإن كان صاحبها فى الحقيقة هو المصبور لأنه إنما صبر من أجلها : أى حبس فوصفت بالصبر وأضيفت إليه مجازا . قال تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ . سورة البقرة الآية : ٢٢٤ .

● وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار . (٢) . رواه أحمد .

المعنى :

ذب : دفع كلام السوء عن أخيه المسلم أبعد الله من جهنم ، ففيه الحث على عدم سماع الغيبة والدفاع عن الغائب بالكلام الحسن الطيب ليكافئه الله بنعيم الجنة فى الآخرة ويقيه عذاب النار ، قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ سورة الحج من الآية : ٤٠ .  
● وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة (٣) . رواه الترمذى .

(١) انظر المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٥ - ٧٧٦ ط / الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٦ ط / الشعب .

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٧٧ - ٧٧٧ ط / الشعب .

المعنى :

رد : نهر القائل وردعه وزجره وأسكته عن باطله .

عن وجهه : صد ومنع ووقاه عذاب جهنم جزاء دفاعه عن أخيه ابتغاء وجه الله الكريم .

● وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : من حمى مؤمنا من منافق أراه قال : بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلما يريد به شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .. (١) . رواه أبو داود وابن أبي الدنيا .

المعنى :

حمى : حفظه وسلم سيرته من لسان البذيء .

بعث الله : أرسل .

شينه : عيبه ونقصه وفضيحته .

\* \* \*

● وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من حمى عرض أخيه في الدنيا بعث الله - عز وجل - ملكا يوم القيامة يحميه من النار . (٢) . رواه ابن أبي الدنيا .

● وعنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من اغتیب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه إثمه في الدنيا والآخرة ، (٣) . رواه أبو الشيخ .

المعنى :

أدركه إثمه : أصابته ذنوب الغيبة ، وحوسب على سماعه وعدم إزالة هذا الباطل .

نصره : الدفاع عنه ما استطاع أو عدم المكث في مجلس الغيبة ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا رأيت

الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك

الشیطان فلا تقعد بعد الذکرى مع القوم الظالمین \* وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ولكن ذکرى لعلهم يتقون \* وذر الذين اتخذوا دینهم لعبا ولهوا وغرتهم الحیاة الدنیا وذكر به أن تبسل نفس بما کسبت لیس لها من دون الله ولی ولا شفیع وإن تعدل کل عدل لا یؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما کسبوا لهم شراب من حمیم وعذاب أليم بما كانوا یکفرون ﴾ سورة الأنعام الآيات : ٦٨ - ٧٠

٧٠

أمر سبحانه وتعالى ألا نجالس الذين يطعنون في القرآن بالتكذيب والاستهزاء وكذا مجالس الغيبة تترك كي لا يلزم المتقين قبائح أعمال الفساق المغتابين . ﴿ ولكن ذکرى ﴾ أى یذكروهم بالمنع عن الخوض رجاء اجتناب ذلك خیاء أو کراهة .

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٧ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٧ ط/ الشعب .

(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٨ ط/ الشعب .

قال تعالى : ﴿ أَسْلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائفة ، وقد أخبر ﷺ أن يشرب المغتاب ردغة الخبال وعبر عنها الله جل جلاله بقوله : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ .

● وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : من نصر أخاه المسلم بالغيب نصره الله فى الدنيا والآخرة . (١) رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن جابر بن أبى طلحة الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( مامن امرئ مسلم يخذل امرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمة ويتنقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته وما من امرئ مسلم ينصر مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ويتهك فيه من حرمة إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته ) (٢) .. رواه أبو داود .

نتائج ما تجره الغيبة على صاحبها

كما قال صلى الله عليه وسلم

أولاً : يرتكب حراماً .

ثانياً : فعل أكثر عقاباً من الربا .

ثالثاً : استطعم لحم أخيه وأسأغه .

رابعاً : لم ينفع صومه .

خامساً : كأنه أكل ما هو أنتن من الجيفة .

سادساً : يعذب فى النار بأكل التينة القذر : ذى الرائحة الكريهة .

سابعاً : لا يغفر الله له حتى يعفو عنه المغتاب .

ثامناً : ينال عقاب الله فى قبره .

تاسعاً : تذهب أنوار إيمانه ويذهب إسلامه .

عاشراً : يقابل الله بلا حسنة ومحمل بالخطايا ( المفلس ) .

الحادى عشر : يستمر عذابه فى النار حتى يغير .

الثانى عشر : يذوب جسمه حتى يحقق غييته .

الثالث عشر : يشرب شراب عرق أهل جهنم .

الرابع عشر : لا يجد لفعله فدية : أى كفارة .

الخامس عشر : حبس على قنطرة جهنم مدة طويلة .

السادس عشر : لا ينصره الله ولا يساعده دنيا وأخرى .

وفى الغريب : الغيبة أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير احتياج إلى ذكره ، قال تعالى :

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٨ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ٧٧٨ ط/ الشعب .

﴿ ولا يغتب بعضهم بعضا ﴾ سورة الحجرات من الآية : ١٢  
وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة وثلث من النسيئة وثلث من البول .

وقال مالك بن دينار : مر عيسى - عليه السلام - ومعه الخواريون بجيفة كلب ، فقال الخواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال - عليه الصلاة والسلام - ما أشد بياض أسنانه كأنه ڤيهم نيههم عن غيبة الكلب ونيههم على مدحه . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس ، فإنه داء ، نسأل الله حسن التوفيق والطاعة .  
معنى الغيبة وحدودها عند الامام الغزالي

رحمه الله

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه سواء ذكرته بنقص في بدنه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو دينه أو في دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته . أما البدن فكذلك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب فبأن تقول : أبوه نبطى أو هندی أو فاسق أو خسيس أو إسكافى أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان .

وأما الخلق فبأن تقول : هو سيء الخلق بخيل متكبر مرء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه .

وأما في أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس باراً بالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس .

وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقاً أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نؤوم ينام في غير وقت النوم ويجلس في غير موضعه . وأما في ثوبه فكقولك : إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة في الدين ، لأنه ذم مآذمه الله - تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : هي في النار : رواه ابن حبان .

ذكر الغير ثلاثة : الغيبة والبهتان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل - فالغيبة : أن تقول ما فيه .

والبهتان : أن تقول ما ليس فيه .

والإفك : أن تقول ما بلغك . وقال في بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان فالتعريض به كالصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والاياء والغمز واللمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام .

وفي بيان الأسباب الباعثة على الغيبة :

- ١ - أن يشفى الغيظ .
- ٢ - موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام .
- ٣ - أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أو يقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة .
- ٤ - أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله .
- ٥ - إرادة التصنع والمباهاة .
- ٦ - الحسد فيريد زوال نعمة من هو أحسن منه .
- ٧ - اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .
- ٨ - السخرية والاستهزاء استحقاقا له .

### \* الأعدار المرخصة في الغيبة \*

أولا : التظلم للمظلوم أن يتظلم الى السلطان وينسب القاضي الى الظلم إذا تغدى في حكمه وجانب الصواب .

ثانيا : الاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصي الى منهج الصلاح .

ثالثا : الاستفتاء كما يقول للمفتي : ظلمني فلان وقد روى عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح فقال ﷺ : خذني ما يكفيك .

رابعا : تحذير المسلم من الشر كالنصح إلى من يذهب إلى مبتدع أو فاسق .

خامسا : أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول .

سادسا : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس بحيث لا يستتف أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به وذكر الغزالي في بيان كفارة الغيبة : اعلم أن

الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه وتعالى - ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلّمته .

\*\*\*

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴿ .

هذا من فضل الله - تعالى - على عباده أن اقتضى فضله ورافته ورحمته أن يتوب على من تاب وأن يقيم الحد على من وقع في هذا الإثم ولولا ذلك لكان هناك أمر آخر ولكنه - سبحانه - قد عاملنا بفضله

وفضله واسع كما عاملنا برحمته ورحمته وسعت كل شيء .

فسبحانه قطرة من فيض جوده تملأ الأرض ريا .

ونظرة بعين رضاه تجعل الكافر وليا .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات .

وسبحانك ربى أنت القائل : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ﴾ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ . سورة النساء الآيات : ٢٦ - ٢٨ . ثم خاطبهم المولى الكريم ناهيا إياهم عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ، محذرا من الوقوع فى شباكه وشراكه ، ومبيناً أن عاقبة ذلك وبال وخسران مبين .

قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : خطوات الشيطان : عمله وقال عكرمة : نزغاته . وقال قتادة : كل معصية فهمى من خطوات الشيطان .

وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إني حرمت أن أكل طعاما وسماء فقال : هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل .

وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشا . ثم بين الله تعالى مصير اتباع تلك الخطوات فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ .

وهل بعد الفحشاء والمنكر من ذنب جسيم ، وخطر يؤدى بصاحبه إلى سوء العاقبة ، سبحانك من قائل : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ . وجل جلاله إذ يقول : ﴿ يابنى آدم لا يفتننك الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون ﴾ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وسبحانك من قائل :

﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

وسبحانك من قائل : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

ومن ثم فإن من يتبع خطوات الشيطان فإنه أى الشيطان يأمر أتباعه بالفحشاء والمنكر كما أن أتباعه يأمرهم بالفحشاء والمنكر ، ثم يبين الله - تعالى - لنا عظيم فضله علينا وجليل رحمته بنا فيقول : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ . والتزكية تطهير للنفس ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أى بالتوبة والطاعة ، ومن فضله تعالى انه يزكى



النفوس الطيبة ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ . فهو الذى يزكى من يشاء بمقتضى علمه تعالى وحكمته ﴿ والله سميع عليم ﴾ . سميع بالأقوال يسمع ديبب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . ﴿ عليم ﴾ أحاط علمه بكل ما كان ، وما يكون ، وما لا يكون .

يامن يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل  
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل

فسبحانك ربى من قائل : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ <sup>(١)</sup>  
ويرحم الله صاحب البردة إذ يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم  
ولا تطع منها خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم  
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينظم

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

يانفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم  
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم  
والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم

ويرحم الله الحسن البصرى فقد روى ابن ابى الدنيا أنه - رضى الله عنه - كتب إلى عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه : فقال :

« أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ، إنما أنزل إليها آدم - عليه السلام - عقوبة فاحذر يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها وتفقر من جمعها ، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فكن فيها كالمدادى جراحه ، يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الخيالة التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها وختلت بآمالها ، وتشوقت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه ، فعظمت عليها ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت ، وأله ، وحسرات الفوت . وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغصته ، وذهب بكمدته ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فكن اسر ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها

بالبلاء ، وجعل البقاء فيها الى فناء ، سرورها مشوب بالحزن ، أمانها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر ؟ فمالها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله - عز وجل - برسوله حين شد الحجر على بطنه .

وقال الحسن أيضا : « إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فاهنا ما تكون إذا أهتموها » .

قال العلامة ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان : « وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم في طلبها ، ولما كانت هي أكبرهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده في طلبها ، وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها ، فتأمل حال عاشق فان في حب معشوقه ، وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفى له ، ويهجره ويصل عدوه ، فهو مع معشوقه في أنكد عيش ، يختار الموت دونه ، فمعشوقه قليل الوفاء ، كثير الخفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة ، كثير التلون ، لا يأمن عاشقه ليس معه على نفسه ولا على ماله ، مع أنه لا صبر له عنه ، ولا يجد عنه سبيلا الى سلوة تريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن بهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفر به ، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها ، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به التي شغلته عن سعيه في طلب زاده ومصالح معاده ؟

أنت القاتل بكل من أحبيته . . فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى فإذا كان يوم المعاد ، ولي الحكم العدل - سبحانه - كل محب ما كان ينخبه في الدنيا فكان معه : إما منعما وإما معذبا ولهذا « يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه ( يعنى شذقيه ) يقول : ( أنا مالك أنا كترك ) ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره ) رواه البخارى .

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله - تعالى - جمع الله بينهما في النار وعذب كل منهما بصاحبه .

قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وأخبر سبحانه أن الذين توادوا في الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا وماواهم النار وما لهم من ناصرين .

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق : « أليس عدلا منى أن اولى كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا » وقال ﷺ : « البرء مع من أحب » رواه احمد والبخارى ومسلم وقال الله تعالى : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا \*

ياويلتى ليتنى لم ألتخذ فلانا خليلا \* لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جئنى وكان الشيطان للإنسان خذولا \* .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم \* وقفوهم إنهم مسئولون \* مالكم لا تنصرون \* 》 .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم .  
وقال تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت \* فقرن كل شكل إلى شكله وجعل معه قرينا وزوجا : البر مع البر والفاجر مع الفاجر .

والمقصود : أن من أحب شيئا سوى الله - عز وجل - فالضرر حاصل له بمحبوبه ، ان وجد : وان فقد فإنه ان فقد عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به ، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله ، ومن النكد في حال حصوله ، ومن الحسرة عليه بعد فوته : أضعاف أضعاف ما في حصوله له من اللذة .

فما في الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلوا المذاق  
تراه باكيا في كل حال مخافة فرقة أو لاشتياق  
فيكى إن نأوا شوقا اليهم ويكى ان دنوا حذر الفراق  
فتسخن عينه عند التلاقى وتسخن عينه عند الفراق

ولهذا قال النبى ﷺ - في الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه فذكره : جميع أنواع طاعته فكل من كان فى طاعته فهو ذاكرا له وإن لم يتحرك لسانه بالذكر ، وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وهى نائلة كل ما عداه .  
قوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله . وليعفووا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم \* 》 .

هذه الآية نزلت فى الصديق - رضى الله عنه - حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثه بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال كما تقدم فى الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه - شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه - فإنه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر - رضى الله عنه - وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلفة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق - رضى الله عنه - معروفا - بالمعروف له الفضل والأيدى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم \* 》 . الآية . فإن الجزء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا ياربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبدا فى مقابلة ما . كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدا . فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن نبيه .

ومعنى ( ولا يأتل ) أى ولا يحلف وهكذا من حلف يميناً ورأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه

وليتبع التي هي خير .

﴿ أولوا الفضل والسعة ﴾ أى أهل الطول والصدقة والاحسان والحدة .

إذا كان يوم القيامة قال الله أين أهل الفضل فيقومون وهم قليل فيقال لهم : ادخلوا الجنة بغير حساب ، فيقول لهم أهل الموقف : « ماذا كنتم تعملون في الدنيا » فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسىء إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله - من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا وأصلح اقرأوا إن شئتم : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة وهم عذاب عظيم ﴾ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون \* يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

روى ابن جرير ، عن أحمد بن عبدة الضبي ، عن أبي عوانة ، عن عمر بن أبي سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فينا رسول الله - ﷺ جالس عندى إذ أوحى إليه قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال « يا عائشة أبشري » قالت فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقراً : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ حتى بلغ ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ . (١)

وإذا كان هذا الحديث يفيد أن عائشة - رضى الله عنها - هى سبب النزول لهذه الآية إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم في هذه الآية عام في كل محصنة فمن رمى المحصنات العفيفات الغافلات المؤمنات فإن الحكم يشملها فهو ملعون في الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم . إذ إن قذف المحصنات الغافلات المؤمنات من السبع الموبقات : الإشراف بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده عن حذيفة عن النبي ﷺ - قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٢)

قوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ . هذا حديث عن أهوال الساعة وما يجرى على بعض العباد من شهادة أعضائهم قال تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ حتى إذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم

(١) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٣٢ ط / الشعب .

(٢) انظر ابن كثير ج ٦ ص ٣٣ ط / الشعب .

وجلودهم بما كانوا يعملون \* وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون \* وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون \* وذلكم ظنكم الذى ظننتم ببربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين \* .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنهم يعنى المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتُمون الله حديثا .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن أبى سعيد عن النبى - ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أنس بن مالك قال كنا عند النبى - ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال : « من مجادلة العبد ربه يقول : يارب ، ألم تجزى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز على شاهدا إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنتطق بعمله ثم يخل بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فغنكن كنت أناضل » .

قال قتادة : ابن آدم : والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله فى شرك وعلايتك فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ . قال ابن عباس المقصود يوفيهم حسابهم ، قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

وقال جل شأنه :

﴿ وأنذرهم يوم الأزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور \* والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير \* .

وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر ( يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ) وجل جلاله إذ يقول : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم

الله الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ﴿١﴾  
وما أعظم قوله - جل شأنه :

﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب ﴾ \* هذا بلاغ للناس ولينذروا به  
وليعلّموا أنّما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴿٢﴾ .

إلهى استحي أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لأسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية  
فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يامن له علم الغيوب ووصفه ستر العيوب  
وكل ذاك سماح أخفيت ذنب العبد عن كل الورى  
كرما فليس عليه ثم جناح منك التفضل والتكرم والرضا  
أنت الإله المنعم الفتح

قوله : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

أى : هو المنزه عن كل باطل المتصف بصفات الكمال والجلال والجمال ﴿ إن الله لا يظلم الناس  
شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت  
من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات  
أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

في هذه الآية الكريمة أقوال للمفسرين نذكر أشهرها فيما يلى :

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من  
القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول - قال -  
ونزلت في عائشة وأهل الافك .

وهكذا روى عن مجاهد بسنده عن الضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى  
بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبته أهل النفاق الى عائشة من  
كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والتزاهة منهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ <sup>(١)</sup>

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من  
الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات  
من النساء ، وهذا أيضا يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله  
ﷺ إلا وهى طيبة لأنه أطيّب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ . أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان .  
﴿ لهم مغفرة ﴾ أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ أى عند الله فى جنات النعيم ،  
وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

قال ابن أبى حاتم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسيد بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد  
سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبنى فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة  
الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يقلها فيضمها إليه ، وإن الرجل  
الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده  
يقلها فيضمها إليها ثم قرأ عبد الله ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين  
والطيبون للطيبات ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الامام أحمد فى المسند مرفوعا : « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث  
إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزرى شاة فقال : اذهب فخذ بأذن أيها  
شئت فذهب فآخذ بأذن كلب الغنم » (١) . وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها  
أخذها » (٢)

### آداب الاستئذان

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ  
خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ  
قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هَٰؤُلَاءِ هِيَ كُنُوسُكُمْ وَأَلَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ  
تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ وَأَلَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْذُرُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

### تفسير المفردات

حتى تستأذنوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه  
يستوحشون ويشق عليهم الدخول .  
تذكرون : أى تتعظون .  
أزكى : أى أظهر .

(١) مسند الامام احمد عن أبى هريرة : ٣٥٣/٢ ، ٤٠٥ ، ٥٠٨ .

سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب « الحكمة » ج ٢ / ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ رقم ٥١٧٢

(٢) تحفة الاحوذى أبواب العلم باب « فى فضل الفقه على العبادة » ج ٧ / ٤٥٨ ، ٤٥٩ الحديث رقم ٢٨٢٧ . وقال الترمذى :

« هذا حديث غريب » .

وانظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد ، باب « الحكمة » ج ٢ / ١٣٩٥ الحديث رقم ٤١٦٩ .

جناح : أى حرج .

متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوانيت التجارة والفنادق ونحوها .

### المناسبة وإجمال المعنى

جاء فى سبب نزول هذه الآيات . ما رواه عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار : « أن امرأة قالت : يا رسول الله ، إني أكون فى بيتي على الحال التى لا أحب أن يراى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتيني آت فيدخل على فكيف أصنع ؟ فنزلت الآيات .

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبية وحكم قذف الزوجات ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط . وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره وبين أنه لا يدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة إلا أن الانسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لا يؤذ أن يراه غيره عليها .

### \* التفسير \*

هذا أدب إسلامى رفيع بين الله فيه للمؤمنين ألا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا وبعد الإذن تسليم على أهل هذا البيت وينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات فإن أذن له وإلا انصرف .

كما ثبت فى الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لى ، وإني سمعت النبى - ﷺ - يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليَنصرف » فقال عمر لتأتنى على هذا بيئته وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملاء من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق<sup>(١)</sup> .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس وغيره : أن النبى - ﷺ - استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى - ﷺ - حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى - ﷺ - فأتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذى ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب إليه زيبيا فأكل نبى الله فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون »<sup>(٢)</sup> .

(١) صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب « التسليم والاستئذان ثلاثا » ج٦ ص ٦٨ وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « الاستئذان » ج٦ ص ١٧٧ - ١٨٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج٣ ص ١٣٨ ط دار الفكر العربى .



وقد روى أبو داود بسنده عن سعد بن عبادَةَ قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا قال : قيس ، فقلت : ألا تأذن لرسول الله - ﷺ : فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله ﷺ واتبعه سعد فقال : يا رسول الله ، إني كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام ، قال فانصرف معه رسول الله - ﷺ - وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خبيصة مصبوعة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله - ﷺ - يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادَةَ » قال ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارا قد وطئ عليه بقطيفة فركب رسول الله - ﷺ - فقال سعد : يا قيس ، اصحب رسول الله ﷺ قال قيس : فقال رسول الله - ﷺ - « أركب » فأبيت فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف » قال : فانصرفت (١) . وقد روى هذا من وجوه آخر فهو حديث جيد قوى .

ثم ليعلم أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود :

حدثنا مؤمل بن الفضل الحراي في آخرين قالوا : حدثنا بقية ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » (٢) .

وروى أبو داود أيضا ، عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبي ﷺ . يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبي ﷺ « هكذا عنك - أو هكذا - فلما الاستئذان من النظر » (٣) .

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقات عينه ما كان عليك من جناح » (٤) .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال أتيت النبي - ﷺ - في دين كان على أبي فدقت الباب فقال « من ذا ؟ » فقلت أنا قال : « أنا أنا » كأنه كرهه (٥) . وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأننا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به .

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب « كم مرة يسلم الرجل في الاستئذان » الحديث رقم ٥١٨٥ ج ٤ ص ٣٤٧ .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ / ٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٦ .

(٣) المرجع السابق كتاب الأدب باب في الاستئذان ج ٤ ص ٣٤٤ الحديث رقم ٥١٧٤ .

(٤) صحيح البخاري كتاب الديات باب من اطلع في بيت قوم ففقاوا عينه فلا دية ج ٩ / ١٣ .

وصحيح مسلم كتاب الآداب « باب تحريم النظر في بيت غيره » ج ٦ ص ١٨١ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الاستئذان باب « إذا قال : من ذا ؟ قال : أنا : ج ٦ / ٦٨ .

وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « كراهة قول المستأذن « أنا » إذا قيل من هذا ج ٦ / ١٨٠ ، وسنن أبي داود كتاب الأدب

باب الرجل يستأذن بالدق » ج ٤ / ٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٧ .

ومستند الامام احمد : ج ٣ / ٣٦٢ .

وروى أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربيع قال : أتى رجل من بنى عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو في بيته فقال أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه لا أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقال له : قل السلام عليكم أدخل ؟ فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أدخل فأذن له النبي ﷺ فدخل (١) .

وقال الترمذی : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عتبة بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ : « السلام قبل الكلام » (٢) .

وقال هيثم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرضاء فأتى فسطاط امرأة من قریش فقال : السلام عليكم أدخل ؟ قالت : ادخل بسلام ، فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال : قولي ادخل ، قالت : ادخل فدخل (٣) .

ولابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثني خالد بن إلياس ، حدثني جدي أم إلياس قالت : كنت في أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن ، فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا ثم قالت : (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (٤) .

وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار : عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم .

وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبي رباح يخبر عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال : ثلاث آيات جحدن الناس . قال الله تعالى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٥) قال ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا قال : والأدب كله قد جحدته الناس قال : قلت أستاذن على أخوات أيتام في حجرى معى في بيت واحد ؟ قال : نعم فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا ، قال : فاستأذن قال : فراجعت - أيضا - فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت نعم قال : فاستأذن .

وقال ابن جريج : أخبرني ابن طاوس ، عن أبيه قال : مامن امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات عرم قال : وكان يشدد في ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهري : سمعت هذيل بن شرحبيل الأودي الأعمى انه سمع ابن مسعود يقول : عليكم بالإذن على أمهاتكم .  
وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أستاذن الرجل على امرأته ، قال : لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال ان تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

(١) سنن أبي داود كتاب الأدب باب « كيفية الاستئذان : ج ٤ / ٣٤٥ / الحديث رقم ٥١٧٧

(٢) تحفة الأحوذى أبواب الاستئذان باب « السلام قبل الكلام » ج ٧ / ٤٧٨ / ٤٧٩ الحديث رقم ٢٨٤٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ج ١٨ ص ٨٧

(٤) تفسير الطبرى : ج ١٨ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٥) سورة الحجرات من الآية : ١٣

وقال أبو جعفر بن جرير ، عن عمرو بن مرة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب - امرأة عبد الله بن مسعود - عن زينب - رضى الله عنها - قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة انتهى إلى الباب تنخج ويزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه .  
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن ثمر ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي هبيرة قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته .

وجاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا - وفي رواية - ليلا يتخونهم . (١)

وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء - يعنى آخر النهار - حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .  
وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو بكر بن شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثني أبو ثورة ابن أخى أبي أيوب ، عن أبي أيوب قال : قلت يارسول الله ، هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنخج فيؤذن أهل البيت » . (٢)

وقال قتادة في قوله : ( حتى تستأنسوا ) هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحى ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فإن للناس حاجات ولهم أشغال والله أولى بالعدر .  
وقال مقاتل بن حيان في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ كان الرجل في الجاهلية إذا لقي صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حيث صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله في ستر وعفة وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ . (٣)

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ يعنى الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ .  
أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الاذن ، بأن كان فيها عبد أو صبي فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

(١) صحيح البخارى أبواب العمرة باب « لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة » ج ٢ ص ٩  
وصحيح مسلم كتاب الامارة باب « كراهة الطروق - وهو الدخول ليلا - لمن ورد من سفر » ج ٦ ص ٥٥ .  
وتحفة الأحوذى أبواب الاستئذان باب « فى كراهية طروق الرجل أهله ليلا » ج ٧ / ٤٩٣  
الحديث رقم ٣٨٥٥ وقال الترمذى « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الطبرانى : ج ٥ ص ٣٨

(٣) الدر المنثور عن أبي حاتم : ج ٤ / ٤٠

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فوراً لإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أطهر لكم فى دينكم ودنياكم

لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ولما فى ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس وربما ظن بأهل البيت سوءاً من وقوف الأجانب على أبوابهم .  
﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ . أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ .

أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدة لسكنى قوم معينين بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائناً من كان كالفنادق والحوانيت ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الإطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال : « يارسول الله ، إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإننا لنختلف فى تجارتنا فننزل هذه الحانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن فتزلت الآية » .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الإطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

### أحكام تتعلق بالنظر وإبداء الزينة

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٢٤﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بَارِجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ۖ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ  
تَفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

### تفسير المفردات

غض بصره : خفض منه .  
الخمير : واحدتها خمار ، وهو ما تغطي به المرأة رأسها .  
الجيوب : واحدتها جيب وهو فتحة أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد .  
البعولة : الأزواج واحدتهم بعل .  
الإربة : الحاجة إلى النساء .  
الطفل : يطلق على الواحد والجمع .  
لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعاً للقليل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم - أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاصد وانتهاك الحرمات التي نهى عنها الدين .

### « مبحث قيم »

وقبل ان نشرع في تفسير هاتين الآيتين الكريمتين نذكر في هذا المقام هذا المبحث القيم للعلامة ابن القيم لما فيه من الفوائد العظيمة والإصلاح الاجتماعي الكبير قال رحمه الله - تعالى :  
ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاصد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفي ذلك خراب العالم كانت تلى مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سنته .

وقال الامام احمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنى وقد أكد سبحانه حرمة بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجوب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح .

وقد قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ . فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات .

كما ذكر البخارى فى صحيحه : عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنى بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجوهما حتى ماتا ، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سيلا فإنه سبيل هلكة وبوار واحتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الآخرة ، وخزى ونكال .  
ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال : ( إنه كان فاحشة ومقتا وساء سيلا ) .

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴿ إلى قوله : ﴾ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملوذين ، ومن العادين ففاته الفلاح ، واستحق منهم العدوان ، ووقع فى اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ولنظير هذا أنه ذم الإنسان وأنه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴿ . وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليهم . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من النظر ، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشر ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات فينبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلتزم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ، ويتبر ماعلوا تنبيها ثم يقول العلامة ابن القيم : وأكثر ما تدخل المعاصي على العبد من هذه الأبواب الأربعة فذكر فى كل واحد منها فصلا يليق به .

فاما اللحظات فهى رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك .

وقد قال النبى ﷺ : يا على لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية . وفى المسند عنه ﷺ - النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غص بصره عن محاسن امرأة أو أمرد لله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة هذا معنى الحديث .

وقال : غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم .

وقال : إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله مجالسنا مالنا بد منها .

قال : فإن كنتم لابد فاعلين فأعطوا الطريق حقه .

قالوا : وما حقه ؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام . والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان فإن النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة فيقع الفعل ولا بد مالم يمنع منه مانع .  
وفي هذا قيل . الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده .  
ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر  
كم نظرة بلغت في قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر  
والعبد مادام ذا طرف يقلبه في أعين العين موقوف على الخطر  
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرجحاً بسرور عاد بالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفريات والحرقات فيرى العبد مالم يس قادرًا عليه ولا صابراً عنه ، وهذا من أعظم العذاب أن ترى مالا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه .  
ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكاناً من قلب الناظر .  
يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا انت القاتل بما ترمى فلا تصب  
باعت الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك ان النظرة تجرح القلب فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من تكرارها .

مازلت تتبع نظرة في نظرة في اثر كل مليحة ومليح  
وتظن ذاك دواء جرحك وهو في التحقيق تجريح على تجريح  
فدبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فالقلب منك ذبيح أى ذبيح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .  
وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والههم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب ، ومن استهان بالخطرات قاده قهرا الى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة كسراب ببيعة يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأخس الناس همة وأوضعهم نفساً من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ومتاجر الباطلين ، وهى قوة النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر :

أمانى من سعد رواء على الظلما سقتنا بها سعدى على ظلماً بردا  
منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وهي أضر شيء على الإنسان وتتولد من العجز والكسل وتتولد التفریط والإضاعة والحسرة والندامة والتمنى لما فاتته مباشرة الحقيقة يحسبه تحت صورتها في قلبه وعانقها وضمها إليه ففتح بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئاً ، وإنما مثله مثل الجائع والظمان يصور في وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها ، وإنما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا ترضى أن يخطر بها بباله ، ويأنف لنفسه منها ، ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته ، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهوميه في هذه الأقسام الأربعة فإذا انحصرت له فيها ما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره وإذا تراجعت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذي يخشى فوته وآخر الذي ليس بأهم ولا يخاف فوته ، بقى قسمان آخران : أحدهما مهم لا يفوت ، والثاني غير مهم ولكنه يفوت ، ففى كل منهما يدعو إلى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فإن قدم الأهم خشي فوات ما دونه ، وإن قدم ما دونه فإنه الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل أحدهما إلا بتفويت الآخر ، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن هنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذي لا يفوت على المهم الذي يفوت ولا تجد أحداً يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم في هذا الباب للقاعدة الكبرى التي يكون عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها يرجع الخلق والأمر وهي إثارة أكبر المصلحتين وأعلاهما . وإن فاتت المصلحة التي هي دونها ، والدخول في أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها فتفوت مصلحة لتحصيل ما هو أكبر منها ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها ، فخطرات العاقل وفكره لا تتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع :

( الأول ) الفكرة في آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملاً .  
( الثاني ) الفكرة في آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده .

وقد حث الله - سبحانه - عباده على التفكير في آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .  
( الثالث ) الفكرة في آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة في ذلك مع الذكر يصيب القلب في المعرفة والمحبة صبغة تامة .

( الرابع ) الفكرة في عيوب النفس وآفاتنا وفي عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع . وهذا باب لكل خير . وتأثيرها في كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت



وصار الحكم لها ضحى القلب ودارت كلمته في مملكته وبث أمراءه وجنوده في مصالحة .  
 (الخامس) الفكرة في واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحة كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدا .  
 قال الشافعي - رضي الله عنه - صحبت الصوفية : فلم أستند منهم سوى حرفين أحدهما قولهم : الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك . وذكر الكلمة الأخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا اشغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك في العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبا من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم ، فاذا قطع وقته في الغفلة والشهوة والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته وإذا كان العبد وهو في الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل فيها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله .  
 وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فيما وسوس شيطانية ، وإما أمانى باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين في عقولهم من السكرارى والمحبوسين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق .

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي  
 أمنية ظفرت نفسي بها زمنا واليوم أحسبها أضغاث أحلامى

واعلم ان ورود الخاطر لا يضر وإنما يضر استدعاؤه ومحدثه فالخاطر كالمار على الطريق فإن لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك وإن استدعيته تحرك بحديثه وخدعه وغروره وهو أخف شيء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شيء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة ، وقد ركب الله - سبحانه - في الإنسان نفسين : نفسا أمارة ونفسا مطمئنة ، وهما متعاديتان فكل ما خف على هذه ثقل على هذه وكل ما التذت به هذه تأملت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها . وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعى الهوى وليس عليها شيء أضر منه ، والملك مع هذه عن يمين القلب ، والشيطان مع تلك عن يسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا ان تستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان . والأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر وربط واتقى الله فله العافية في الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكما لا يبدل أبدا أن العاقبة للتقوى ، والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور ، وخدع وأمانى باطلة ، وسراب لا حقيقة له ، فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ، وإذا أراد ان ينقش ذلك في لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع في محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة . فلنأخذها لا تستقر إلا في محل فارغ كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر والا يمكنوا خاطرا يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أدخلوا القلوب من أن يطرقتها خاطر فبقيت فارغة لا شيء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل في قوالب وهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها .

وعرضهم بها عن الخواطر التي هي مادة العلم والهدى ، وإذا خلا القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التي لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هي المستولية على قلبه وهي إرادة مراد الله الديني الأمرى الذي يحبه ويرضاه. وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه في الخلق والتطرق إلى ذلك والتوصل اليه بالدخول في الخلق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد في خواطر الدنيا وأسبابها وأوهمهم أن كما لهم في ذلك التجريد والفراغ وهيئات هيئات إنما الكمال في إجلاء القلب والسر من الخواطر والآراء والفكر في تحصيل مراد الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر في طرق ذلك التوصل إليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لذلك كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كانت تتزاحم عليه الخواطر في مرضاة الرب تعالى فرمما استعملها في صلاته فكان يجهز جيشه وهو في صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات في العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لا يدخل منه إلا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالى الأهمية بحيث يدخل في عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأما اللفظات فحفظها بالآي يخرج لفظة ضائعة بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الريح والزيادة في دينه فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ريح أو فائدة أم لا ، فإن لم يكن فيها ريح أمسك عنها ، وإن كان فيها ريح نظر هل تفوته بها كلمة هي أريح منها فلا يضعها بهذه .

وإذا أردت أن تستدل على ما في القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فإنه يطلعك على ما في القلب شاء صاحبه أم أبى قال يحيى بن معاذ : القلب كالقدور تغلى بما فيها وألستها مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك به مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أى كما تطعم بلسانك طعم ما في القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما في قلب الرجل من لسانه فتذوق ما في قلبه من لسانه كما تذوق ما في القدر بلسانك وفي حديث أنس المرفوع : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وسئل النبي ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الفم والفرج (١) .

وقد سأل معاذ النبي ﷺ عن العمل الذي يدخله الجنة ويباعد من النار فأخبره - ﷺ - برأسه وعموده وفروة سنامه ثم قال : « ألا أخبرك بملك ذلك كله قال : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : كف عليك هذا فقال وأنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١)

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقه وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يرى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرى في أعراض الأحياء والأموات ولا يبالي ما يقول ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ : قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان فقال الله - عز وجل - من ذا الذي يتألى على إني لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحببت عملك فهذا العابد الذي قد عبد الله ما شاء أن يعبد أجبت هذه الكلمة الواحدة عمله كله « وفي حديث أبي هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت ديناه وآخرته .

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي - ﷺ : « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوى بها في نار جهنم » (٢) . وعند مسلم إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق ، والمغرب » (٣) .

وعند الترمذى عن النبي - ﷺ - من حديث بلال بن الحارث المزني « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث (٤) .

وفي جامع الترمذى . . أيضا - من حديث أنس قال : « توفي رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله - ﷺ : أو لا تدري لعله تكلم فيها لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه » (٥) .

(١) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب في الصمت باب « وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ج ٢ ص ٧٨٦ - ٧٨٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب « ما جاء في الرقاق » الخ ج ٣ ص ١٢٥ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوى بها في النار ج ٤ ص ٢٢٩٠ حديث رقم ٥٠ .

(٤) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب في الصمت إلا عن خير باب « أن الرجل ليتكلم بالكلمة يهوى بها سبعين خريفاً ج ٣ ص ٧٩٧ حديث رقم ٤٥ .

وسنن الترمذى ابواب الزهد باب ما جاء في قلة الكلام ج ٣ ص ٣٨٣ رقم ٢٤٢١ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب ٨ ج ٣ ص ٣٨٢ الحديث رقم ٢٤١٨ .

وفي لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت : هنيئا لك يا بني الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضر »

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » وفي لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت » (١).

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » (٢) وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله ، قل لى فى الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت : يا رسول الله ، ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا « حديث صحيح (٣) .

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكر الله - عز وجل » (٤) .

وعن النبى ﷺ : « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فإنما نحن بك فإذا استقمتم استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » (٥) .

وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد ، ولقد رثى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها قلت : ما أحوج الناس إلى غيث فليل وما يدريك أنا أعلم بمصلحة عبادى .

وقال بعض الصحابة لخادمه يوما : هات لى السفرة فعبث بها ثم قال استغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح - تركه اللسان وهى أضرها على العبد واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط على قولين أظهرهما الأول ، وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والا .

وكان الصديق - رضى الله عنه - يمسك بلسانه ويقول هذا أوردنى الموارد ، والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أسيره ، والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وفى اللسان آفتان عظيمنتان ان خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى : آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى فى وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله وراء مدهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف فى

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان باب « الحث على اكرام الجار والضيف ولزوم الصمت » ج ١ ص ٦٨ الحديث رقم ٧٤ .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب « ما جاء من تكلم بالكلمة .. الخ » ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ٢٤١٩ قال الترمذى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ .. إلا من هذا الوجه .

(٣) انظر صحيح مسلم بتحقيق عبد الباقي كتاب الايمان باب جامع أوصاف الاسلام ج ١ ص ٦٥ حديث رقم ٣٨/٦٢ إلا أنه قال : آمنت بالله فاستقم .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت باب « كثرة الكلام .. الخ » ج ٣ ص ٧٩٨ ، ٧٩٩ حديث رقم ٤٩ .

(٥) سنن الترمذى أبواب الزهد باب ما جاء فى حفظ اللسان ج ٤ ص ٣١ الحديث رقم ٢٥١٨ .

كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين ، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة ، فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره في آخرته ، وإن العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله - عز وجل - وما اتصل به .

وأما الخطوات فحفظها بالا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو اليه قربة يتقرب بها وينوبها لله فيقع خطاه قربة وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العشرة عشرين : عشرة الرجل ، وعشرة اللسان ، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ <sup>(١)</sup> فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفي الصحيحين عن النبي - ﷺ : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » <sup>(٣)</sup> .

وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ونظير حديث ابن مسعود : بدأ رسول الله - ﷺ - بالأكثر وقوعا ، ثم بالذى يليه ، فالزنى أكثر وقوعا من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها ، وأيضا فإنه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رءوسهم بين الناس ، وإن حملت من الزنى فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهلها جنينا ليس منهم فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم ، وانتسب إليهم وليس منهم إلى غير ذلك من مفاصد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضا وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ، ففى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين . وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة فكم في الزنى من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ، ومن خاصيته - أيضا - أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمة قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٣ .

(٢) سورة غافر الآية : ١٩ .

(٣) صحيح مسلم كتاب القسامة باب « ما يباح به دم المسلم ج ٣ ص ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ . الحديث رقم ١٦٧٦ .

وسنن أبي داود كتاب الحدود باب الحكم فيمن ارتد ج ٤ ص ٥٢٢ رقم الحديث ٤٣٥٢ .

وقال سعيد بن عباد - رضي الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربتة بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه ، والله أغير مني ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن « متفق عليه .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ : « إن الله يغار وإن المؤمن يغار ، وغيره الله أن يأتي العبد ما حرم عليه » (١) .

وفي الصحيحين عنه ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك أثني على نفسه » (٢) .

وفي الصحيحين في خطبته ﷺ في صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد ، والله انه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ثم رفع يديه فقال : اللهم هل بلغت » (٣) .

وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنى من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال : « لأحدثكم حديثا لا يحدثكموه أحد بعدى سمعته من النبي ﷺ - يقول : من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله - سبحانه - في خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله - سبحانه وتعالى - ويشتد غضبه فلا بد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة قال عبد الله بن مسعود : ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها .

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنا له يغامر امرأة فقال : مهلا يا بني فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له هكذا غضبك لي لا يكون في جنسك خير أبدا . . . وخص سبحانه جد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص : أحدها القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة الثاني : انه نهى عباده أن تأخذهم بالزنا رافة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم فإنه سبحانه من رافته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرافة من إقامة أمره وهذا وإن كان عامًا في سائر الحدود ولكن ذكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله - تعالى - وتحريم الفواحش » ج ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله - تعالى - وتحريم الفواحش » ج ٤ ص ٢١١٤ . حديث رقم ٣٤ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف ج ٢ ص ٦١٨ حديث رقم ٩٠١ .

أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله - عز وجل - وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفي النفوس أقوى الدواعي إليه والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يغد مساعدته طاعة وقربة وإن كانت الصوزة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضا فإن هذا ذنب غالبا ما يقع مع التراضي من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاعتصاب ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبية له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقا لربه سبحانه في أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون في خلوة حيث لا يراها أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله - تعالى - لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش ، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره فإن في اللواط من المفساد ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فإنه يفسد فسادا لا يرجى له بعده صلاح أبدا ، ويذهب خيره كله وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه ، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن ، وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين ، سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يحكيهما ، والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور : منها أن النبي - ﷺ - قال : لا يدخل الجنة ولد زنى ، فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له في ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير ألا يجيء منه خير أبدا لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذي تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ، قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى ، وأخبث ، وأوسخ ، وهو جدير ألا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيرا قبض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك في صغره إلا وهو في كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعمل صالح ، ولا لعلم نافع ، ولا توبة نصوح ، والتحقيق في هذه المسألة أن يقال : إن تاب المبتلى بهذا البلاء وأتاب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحا وكان في كبره خيرا منه في صغره ، وبذل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره ، وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله في معاملته فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة فإن الله يغفر الذنوب جميعا ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائيه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلا وفضلا إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقد ضمن الله سبحانه - لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبذل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى :

﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا في حق التائبين خاصة ، وأما مفعول به كان في كبره شرا مما كان في صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا بعمل صالح ولا استدرك ما فات ولا أحيا ما مات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات الخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى ، فتضاعف الحسنات ، وإذا نظرت إلى حال كثير من المحترضين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على أعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي - رحمه الله :

واعلم أن لسوء الخاتمة - أعادنا الله منها - أسبابا ، ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها ، والإعراض عن الأخرى والإقدام والجراة على معاصي الله - عز وجل - وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجراة والإقدام ، فملك قلبه وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين له المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعي وأعاد ما قال . ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل : لا إله إلا الله ، فقال الناصر : مولاي ، فأعاد عليه القول فقال : مثل ذلك ، ثم أصابته غشية فلما أفاق قال : الناصر مولاي ، وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا آله إلا الله قال الناصر مولاي ، ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك .

قال عبد الحق - رحمه الله : وقيل لآخر من أعرفه قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول الدار الفلانية - أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلاني افعلوا فيه كذا ، قال : وفيما أذن لي أبو طاهر السلمي أن أحدث به عنه : أن رجلا نزل به الموت فقليل له : قل لا آله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية [ ده يازنه ] تفسيره : عشرة باحدى عشر ، وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول أين الطريق إلى حمام منجاب قال : وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفا بإزاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ، فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها في داره ، وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه ، وقالت خدعة منها له ، وتحिला لتخلص مما أوقعها فيه ، وخوفا من فعل الفاحشة ، يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا ، وتقربه عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدن وتشتهين ، وخرج وتركها في الدار ولم يغلقها فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تحنه في شيء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشي في الطرق والأزقة ويقول :

يارب قاتلة يوما وقد تعبت أين الطريق الى حمام منجاب

فبينما يقول ذلك وإذا بجارية أجابته من طاق قرنان

- هل لا جعلت سريعا إذ ظفرت بها حرزا على الدار أو قفلا على الباب .



فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .  
قال : ويروى أن رجلا عشق شخصا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نقاره عنه فلم تزل الوسائط يمشون بينها حتى وعده ان يعود فآخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلي غمه وجعل ينتظر للميعاد الذي ضربه له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما فقال : انه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع فرغبت إليه وكلمته فقال : إنه ذكرنى وبرح بى ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسى لمواقع التهم فعاودته فأبى وانصرف . فلما سمع البائس ذلك أسقط فى يده وعاد إلى أشد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول فى تلك الحال .

اسلم ياراحة الغليل يا شفاء المدنف النخيل  
رضاك أشهى الى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يا فلان ، اتق الله .

قال : قد كان ، فقمتم عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت فعياذاً بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح فلما أصبح قيل له : أكل ذلك خوفا من الذنوب ؟ فأخذ تبته من الأرض وقال : الذنوب أهون من هذه وإنما أبكى خوفا من الخاتمة ، وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى .  
وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابا بينهم وبين الخاتمة الحسنى قال :

واعلم أن سوء الخاتمة - أعاذنا الله تعالى منها - لا تكون لمن استقام ظاهره وصلاح باطنه ، ما سمع بهذا ، ولا علم به ، والله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد فى العقيدة أو إصرار على الكبيرة وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه ، حتى نزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه ، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة ، فرقى يوما المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصرانى فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد ؟ قال : أريدك ؟ قالت : لماذا ؟

قال : قد سلبت لى وأخذت بمجامع قلبى

قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبدا .

قال : أتزوجك .

قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك .

قال : أنت نصر .

قالت : ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها . وأقام معهم في الدار فلما كان أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه .

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ، وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنا أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ، على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وخالد بن زيد ، وعبد الله بن معمر ، والزهرى ، وربيع بن أبى عبد الرحمن ، ومالك ، واسحق بن راهويه ، والامام أحمد ، في أصح الروايتين عنه ، والشافعى في أحد قوليه ، إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال محصنا كان أو غير محصن . وذهب عطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، وإبراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى في ظاهر مذهبه ، والإمام أحمد في الرواية الثانية عنه ، وأبو يوسف ، وعمر إلى أن عقوبته وعقوبة الزانى سواء .

وذهب الحاكم ، والإمام أبو حنيفة ، إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير ، وقالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسوله - ﷺ - فيه حدا مقدرا فكان فيه التعزير كأكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا : ولأنه وطء في محل لا تشتهي الطبائع بل ركبها الله - تعالى - على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره ، قالوا : ولأنه لا يسمى زانيا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، فلا يدخل في النصوص من الدلالة على حد الزانيين ، قالوا : ولأننا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبيعيا اكتفى بذلك الوازع عن الحد ، وإذا كان في الطبائع تقاضيه جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد في الزنى ، والسرقه ، وشرب المسكر ، دون أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا وطرد هذا أنه لا حد في وطء البهيمة ولا الميتة وقد جبل .. الله - تعالى - الطبائع على النفرة من وطء الرجل الرجل أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى فإن الداعى فيه من الجانبين قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحت المراتان واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابه ليس في المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهى تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه - إن شاء الله تعالى .

قالوا ولم يتل الله - تعالى - بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم ، وجعل عذابهم مستمرا ، فنكل نكالا لم ينكله بأمة

سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها اذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعرج الأرض إلى ربها - تبارك وتعالى - وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فإنه إذا وطأه الرجل قتله قتلا لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به في آخرته .

قالوا : والدليل على هذا ان الله - سبحانه وتعالى - جعل حد القاتل الى خيرة الولي إن شاء قتل وإن شاء عفا وحتم قتل اللوطي حدا كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ . ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين - رضي الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فاستشار أبو بكر الصحابة - رضي الله عنهم - فكان على بن أبي طالب أشدهم قولاً فيه فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار .

فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه .

وقال عبد الله بن العباس : أن ينظر أعلى ما في القرية فيرمى اللوطي منها منكسا ، ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد عقوبة الله للوطية قوم لوط .

وابن عباس هو الذي روى عن النبي ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره .

واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث وإسناده على شرط البخاري قالوا : وثبت عنه - ﷺ - أنه قال :

« لعن الله من عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل قوم لوط » ولم تحيء عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكباثر فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فأكد ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله : فظن بعض الناس ان ذلك اختلاف منهم في قتله . فبحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهي بينهم مسألة نزاع قالوا : ومن تأمل قول - سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومساء سيلا ﴾ .

وقوله في اللواط :

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . تبين له تفاوت ما بينها فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنا أى : هو فاحشة من الفواحش وعرفها في اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ونعم الرجل زيد .

أى : تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد فهي لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها .

بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها .

وهذا نظير قول فرعون لموسى :

﴿ وفعلت فعلتك التي فعلت ﴾ أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل واحد .

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم .

فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشتمر منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه أشد النفور وهو إتيان الرجل رجلاً مثله بنكجه كما ينكح الأنثى .

فقال : ﴿ أنتم لتأتون الرجال ﴾ ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر وخصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب وقيام الرجال على النساء وحصول المودة والرحمة وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وخروج أحب الخلق إلى الله من جماع النساء ، كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة النبی - ﷺ - الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح .

والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله إلا الله - عز وجل - ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبو الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبو الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله - سبحانه - عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا فى العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريباً منه فى الزنا وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ وسماهم مفسدين فى قول نبيهم : ﴿ قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ . وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام . ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه اللعنات .

ولما جادل فيهم خليفه إبراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم فقبل له : ﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطاً لما سمعوا بأنه قد طرده ضيوفهم من أحسن البشر صوراً فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رأهم قال لهم ﴿ يا قوم هؤلاء بناتى هن أظهر لكم ﴾ يزوجهن بهن خوفاً على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال يا قوم هؤلاء بناتى هن أظهر لكم ﴿ فاتقوا الله ولا تحزنون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ﴾ .

فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد :

﴿ لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .

فنفث نبي الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب .

فقال : ﴿ .. لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .

فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسبيهم فلا

تحف منهم ولا تعباً بهم وهون عليك فقالوا : ﴿ .. يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما

جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب .  
فقالوا : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا أمرتكم إنه مصيبها ما أصابهم  
إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

فوالله ما كان بين أهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر .  
وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونقيق  
الحمير فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم  
كما أخبر به في محكم التنزيل فقال عز من قائل :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ فجعلهم آية  
للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق  
السالكين ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وإنا لبسبيل مقيم ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .  
أخذهم على غرة وهم نائمون وهم في سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .  
ذهبت اللذات وأعقبت الحسرات وانقضت الشهوات واورثت الشقوات

تمتعوا قليلا وعذبوا طويلا  
رتعوا مرتعا وخيبا فأعقبتهم عذابا أليما

أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها إلا في ديار المعذبين وأرقدتهم تلك الغفلة فما  
استيقظوا منها إلا وهم في منازل الهالكين . فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم ويكوا على ما  
أسلفوه بدل الدموع بالدم .

فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين  
أطباق الجحيم . وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ويقال لهم وهم على وجوههم يسبحون  
ذوقوا ما كنتم تكسبون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تحزبون ما كنتم تعملون .  
ولقد قرب الله سبحانه وتعالى مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين اخوانهم في العمل .

فقال غوفا لهم بأعظم الوعيد وماهى من الظالمين ببيعد .  
وفي الأجوبة عما احتج به من جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا أما قولهم : إنها معصية  
لم يجعل الله فيها حدا فعنينا فجوابه من وجوه :

أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتما وما شرعه رسوله ﷺ فلانما شرعه عن  
الله فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم  
من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

الثاني : أن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة ، فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ  
لفظه وبقي حكمه قلنا : فينتقض عليكم بحد شارب الخمر .

الثالث : أن نفى دليل معين لا يلزم نفى مطلق الدليل ولا نفى المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذي نفيتموه غير مشتق وأما قولكم إنه وطء لا تشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله - ﷺ - وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .  
الثاني : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذي تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو يسبى ذلك عقل عاشق أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس في القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت فإن النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود في أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو قول إسحاق ابن راهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى أبو داود من حديث البراء بن عازب قال : « لقيت عمى ومعه الراية فقلت له : إلى أين تريد ؟ قال : بعثني رسول الله - ﷺ - إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وأخذ ماله » (١) . قال الترمذي : هذا حديث حسن قال الجوز جاني : عم البراء اسمه الحارث بن عمرو في سنن أبي داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه » (٢) ورفع إلى الحجاج رجلا اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله - ﷺ - فسألوا عبد الله بن مطرق فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من تخطف حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل في المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال حد واطئه القتل دليله من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال في وطء ذوات المحارم من وطء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطي والتحقيق أن يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد اتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وإنما اختلفوا في صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزنى على قولين فذهب الشافعي ومالك وأحمد في إحدى روايته إلى أن حده حد الزانى وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث إلى أن حده القتل بكل حال وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالما بالتحريم أنه يحده إلا أبا حنيفة وحده فانه رأى ذلك شبهة مسقطه للحد والمنازعون يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظا وشدة فإنه ارتكب محظورين عظيمين محظور العقد ومحظور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محظور العقد إلى محظور الزنا وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما في مذهب أحمد وغيره أحدهما انه يجب به الحد وهو قول الأوزاعي فإن فعله أعظم جرما وأكثر ذنبا لأنه انضم إلى هتك فاحشة حرمة الميتة .

(١) سنن أبي داود كتاب الحدود باب في «الرجل يزني بحرمة» ج ٤ ص ٦٠٢ - ٦٠٤ حديث رقم ٤٤٥٧ وأخرجه الترمذي في كتاب الاحكام باب فيمن تزوج امرأة أبيه ج ٢ ص ٤٠٧ - ٤٠٨ رقم ١٣٧٣ وقال الترمذي حديث البراء حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه في (كتاب الحدود) ج ٢ ص ٨٥٦ رقم ٢٥٦٤ .

## أقوال الفقهاء في وطء البهيمة

للفقهاء في هذا الفعل ثلاثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولا حد عليه وهذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي في أحد قوليه وهو قول إسحق والقول الثاني أن حكمه حكم الزاني يجلد إن كان بكرا ويرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطى نص عليه أحمد ويخرج على الروايتين في حده هل هو القتل حتما أو هو كالزاني والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبي - ﷺ - من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوه معها قالوا ولأنه وطء لا يباح بحال فكان فيه القتل حدا للوطء ومن لم يروا عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسماعيل بن سعيد الشالبي : سألت أحمد عن الذى يأتى البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبي عمرو في ذلك ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط وليس الأمران في طباع الناس سواء فلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس .

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المراتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء بعض الأحاديث المرفوعة ( إذا أتت المرأة المرأة فيها زانيتان )<sup>(١)</sup> ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الإيلاج وإن أطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والقم وإذا ثبت هذا فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾<sup>(٢)</sup> وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل وضرب عنقه وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره في الإثم والحكم .

\* \* \*

## فوائد غص البصر

فإن قيل : مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما الاحتياال لدفع هذا الخبال وهل من طريق قاصد إلى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة في برئه من سويداه فإن لامة لائم اتقد تعلقه لذكره لمحجوبه وإن عذله عاذل أغراه عذله وساربه في طريق مطلوبة ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس بي متأخر عنه ولا متقدم  
وأهنتى فأهنت نفسى جاهدا مامن يهون عليك ممن يكرم  
أشبهت أعدائى فعدت أحبهم إذ كان حظى منك حظى منهم  
أجد الملامة فى هواك لذيدة جبا لذكرك فليلمنى اللوم

(١) أبو داود ج ٤ ص ٦٠٩ رقم ٤٤٦٤  
البيهقى فى السنن الكبرى - كتاب الحدود - باب حد اللوطى ٢٣٣/٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٦

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء والداء الذى طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام فى دواء هذا الداء من طريقين :

أحدهما حسم مادته قبل حصولها والثانى قلعهما بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فإن أزمة الأمور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران : أحدهما غض البصر كما تقدم فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفى غض البصر عدة منافع .

أحدها : أنه امثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امثال أوامر ربه - تبارك وتعالى - وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامثال أوامره وما شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانى : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى لعل فيه هلاكه الى قلبه .  
الثالث : أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعه على الله فإن اطلاق البصر يفرق القلب ويشتهه ويبعده من الله وليس على العبد شئ أضر من إطلاق البصر فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .  
الرابع : أنه يقوى القلب ويفرحه كما أن اطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس : أنه يكسب القلب نورا كما أن اطلاقه يكسبه ظلمة - ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر فقال : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ <sup>(١)</sup> ثم قال إثر ذلك ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ <sup>(٢)</sup> أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امثال أوامره واجتنب نواهيه وإذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب فإذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين الحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه ابن شجاع الكرمانى يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاعا هذا لا تخطى له فراسة والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره الله ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى إنما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ <sup>(٣)</sup> فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل والعمه الذى هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل :

(١) سورة النور آية ٣٠

(٢) سورة النور آية ٣٥

(٣) سورة الحجر آية ٧٢



سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من به سكران

وقال الآخر :

قالوا جنت بمن هوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون في الحين

السابع : انه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة كما في الأثر الذي يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا تجده في المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين فإن المعصية لا تفارق رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> والايامن قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾ <sup>(٣)</sup> أى من كان يريد العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفى دعاء القنوت إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى في المكان الخالى فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقى عليه حطب المعاصي التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيصير القلب في اللهب فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يهجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحركات فإن القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو في وسطها كالشاة في وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم في البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه ﷺ في المنام في الحديث المتفق على صحته .

التاسع : أنه يفرغ القلب للفكرة في مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشته عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتتفرط عليه أموره ويقع في اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ <sup>(٤)</sup> . وإطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذا أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وإن يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك في جانب الصلاح فإذا ضربت العين وفسدت ضرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبه والإناية إليه والأنس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه أضداد ذلك فهذه إشارة إلى بعض فوائد غرض البصر تطلعك على ماوراءها .

(٣) سورة فاطر آية ١٠

(٤) سورة الكهف آية ٢٨

(١) سورة المنافقون آية ٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩

والثاني : اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج فمضى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بدا من عشق الصور، وشرح هذا أن النفس لا تترك محبوسا إلا لمحبوب أغلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه إلى أمرين إن فقد أحدهما لم ينتفع بنفسه . أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناها ويحتمل أدنى المكروهين ليتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثاني قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير ما يعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأق له ضعف نفسه وهمة وعزمته على إثارة الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين إلا من أهل الصبر واليقين فقال تعالى ويقول يهتدى المهتدون ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (١) وهذا هو الذي ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره من الناس من ينتفع بعلمه في نفسه ولا ينتفع به غيره فالأول يمشى في نوره ويمشى الناس في نوره والثاني قد طفى نوره فهو يمشى في الظلمات ومن تبعه والثالث يمشى في نوره وحده .

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن أن يجتمع في القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لا يجتمعان بل لا بد أن يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذي محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه وإن أحبه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة له إلى محبته أو قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضي توحيد المحبوب وإن لا يشرك بينه وبين غيره في محبته وإذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار إن يشرك في محبته غيره ويعتقه لذلك ويبعده ولا يحفظه بقربه وبعده كاذبا في دعوى محبته مع أنه ليس أهلا لصرف قوة المحبة إليه فكيف بالحبيب الأعلى الذي لا تنبغى المحبة إلا له وحده وكل محبة لغيره فهي عذاب على صاحبها ووبال ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به في هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبته الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فإنها لا يجتمعان في القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاء بمحبة غيره فيعذب بها في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة إما يعذبه بمحبة الصليب أو لمحبة النيران أو لمحبة المردان أو لمحبة النسوان أو لمحبة الأئمان أو بمحبة العشراء والخلان أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو في غاية الحقارة والهوان فالإنسان عبد محبوه كائنا ما كان كما قيل :

أنت القليل بكل من أحبيته      فاختر لنفسك في الهوى من تصطفى  
فمن لم يكن إلهه مالكة ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى :

﴿ أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (١) .  
 وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبيب فمن أحب شيئا وخضع له فقد تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضا فإن أول مراتبه العلاقة .  
 وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبيب قال الشاعر :

وعلقت ليلي وهى ذات تماثم ولم يبد للأتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعدما أنفان رأسك كالبغام الأبيض

ثم بعدها الصبابة وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبيب قال الشاعر :

يشكو المحبون الصبابة ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى  
 فكانت لقلبي لذة الحب كلها فلم يلحقها قبل حب ولا بعدى

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه ومنه سمي الغريم غريبا لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾ (٢) وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ في الحب وقل أن تجده في أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق في حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبيب أحث السفر وقد جاء إطلاقها في حق الرب تعالى كما في مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر إنه صلى صلاة فأوجز فيها فقل له في ذلك فقال أما إني دعوت فيها بدعوات كان النبي ﷺ يدعو بهن اللهم إني أسألك لعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق في الرضاء والغضب وأسألك القصد في الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العين بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسألك الشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفي أثر آخر : طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقا وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله : ﴿ من أحب لقاء الله أحب لقاءه ﴾ وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾ (٣) لما علم الله سبحانه شدة

(٣) سورة العنكبوت آية ٥

(١) سورة الجاثية آية ٢٣

(٢) سورة الفرقان آية ٦٥

شوق أوليائه الى لقائه وأن قلوبهم لا تهدي دون لقائه ضرب لهم أجلا موعدا للقاءه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين بحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أنها منها فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة﴾ (١) وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكول والمشرب والملبس والمنكح بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده وأى حياة طيبة من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هي واحدة في مرضاة الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الأعلى وجهه والشوق الى لقائه والأنس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فيه يسمع وإن أبصر فيه يبصر وبه يبطش وبه يمشى وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث كما في صحيح البخارى عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شيء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » (٢) فتضمن هذا الحديث الشريف الالهى الذى حرم على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته فى أمرين أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداء الفرائض أحب ماتقرب، إليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا من الله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وجهه مثله الأعلى مالكا لزمان قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبة الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه وإن أبصر أبصر به وإن بطش بطش به وإن مشى مشى به فهو فى قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه فالباء هنا باء المصاحبة وهى مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألة خيالية لا علمية محضة وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين .

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ومشواك فى قلبى فأين تغيب

وقال آخر :

وتطلبهم عيني وهم فى سوادها      ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعي  
ومن عجب أنى أحسن اليهم      فاسأل عنهم من لقيت وهم معى

وهذا ألطف من قول الآخر :

ان قلت غبت فقلبي لا يصدقني      إذ أنت فيه مكان السر لم تغب  
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب      فقد يحدث بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير في المحبة أدنى إليه من نفسه بحيث ينسى نفسه ولا ينساه كما قيل :

أريد لأنسى ذكره فكأنما      تمثل لي ليلي بكل سبيل

وقال الآخر :

يراد من القلب نسيانكم      وتأي الطباع على الناقل

وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الإدراك وآلات العقل والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهية ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل فإذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظا في آلات إدراكه فكان محفوظا في حبه وبغضه محفوظا في بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه إذا كان إدراك السمع الذي يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة وكذلك حركة اليد والرجل التي لا بد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التي لا تقع إلا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها وأيضا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فإنه ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذي يبصر به وبطشه ومشيه بقوله ( كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ) تحقيقا لكونه مع عبده وكون عبده في إدراكاته بسمعه وبصره وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بي يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولم يقل فل يسمع ولى يبصر ولى يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هي أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور الله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هي بمعونة الله لهم وإن الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشي وأنا صاحبه ومعه كقوله في الحديث الآخر ( أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه )<sup>(١)</sup> وهذه المعية الخاصة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إن الله معنا ﴾ وقول النبي - ﷺ - ( ما ظنك باثنين الله ثالثهما )<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى ﴿ وإن الله مع المحسنين ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله ﴿ إن الله

(١) ابن ماجة - كتاب الادب - باب فضل الذكر ١٢٤٦/٢ رقم ٣٧٩٢

(٢) البخارى ٤/٥ ومسلم - كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤/٤ رقم ٢٣٨١ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩

مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿١﴾ وقوله ﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ ﴿٢﴾ وقوله ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾ ﴿٣﴾ وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿إننى معكما أسمع وأرى﴾ ﴿٤﴾ فهذه الباء مفيدة معنى هذه المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعية فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف فى حقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حيثئذ كالحوت إذا فارق الماء يشب وينقلب حتى يعود اليه ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابة حصلت موافقة - الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال ولئن سألتى لأعطينيه ولئن استعاذتى لأعيذنه أى كما وافقتى فى مرادى بامثال أوامرى والتقرب الى جنبى فانا أوافقك فى رغبته ورهبتى فيما يسألتى أن أفعل به ويستعيننى أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكره عبده ويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى أنه لا يميتة ولكن مصلحته فى إماتته فإنه ما أماته إلا ليحييه وما أمرضه إلا ليصحه وما أفقره إلا ليغنيه وما منعه إلا ليعطيه ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن الأحوال ولم يقل لأبيه أخرج منها إلا ليعيده إليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه بل لو كان فى كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحبيب الأول  
كم منزل فى الأرض يألوه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل  
التيمم

ثم التيمم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبيته يقال تيمم الحب إذا عبده ومنه تيمم الله أى عبد الله وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحجوب ومنه قولهم طريق معبد أى مذل قد ذلته الأقدام فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحجوبه ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته فى العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته وهى مقام الدعوة اليه ومقام التحدى بالنبوة ومقام الأسرى فقال سبحانه ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ ﴿٥﴾ وقال ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ ﴿٦﴾ وقال ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ ﴿٧﴾ وفى حديث الشفاعة إذ هبوا الى محمد ﷺ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذا هو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه .. الآية﴾ ﴿٨﴾ ولهذا كان

(١) سورة النحل آية ١٢٨

(٢) سورة الانفال آية ٤٦

(٣) سورة الشعراء آية ٦٢

(٤) سورة طه آية ٤٦

(٥) سورة الجن آية ١٩

(٦) سورة البقرة الآية ٢٣

(٧) سورة الاسراء آية ١

(٨) سورة البقرة آية ١٣٠

أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وأصل الشرك بالله الإشراف مع الله في المحبة كما قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (١) وأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه يحبهم كحب الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأناداهم وقيل بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد الله فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أناداهم في المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو في هذه المحبة ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليا أو شفيعا غاية الإنكار وجمع ذلك تارة وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالإنكار فقال تعالى ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ (٣) وقال تعالى ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ (٤) وقال في الأفراد ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾ (٦) فاذا وإلى العبد ربه وحده وأقام له وليا من شفعاء وعقد الموالاتة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه في الله بخلاف من اتخذ مخلوقا أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التي اغما تنال بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراف بالله في المحبة بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها فإن محبة الرسول - ﷺ - بل تقديمه في الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء لا يتم الإيمان إلا بها إذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب في الله والله كما في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : ( ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وفي لفظ في الصحيح لا يجد عبد طعم الإيمان إلا من كان في قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار وفي الحديث الذي في السنن ( من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان ) (٧) وفي حديث آخر ( ما تحاب رجلان في الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه ) فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

(٤) سورة الانعام آية ٥١

(٥) سورة الزمر آية ٤٣، ٤٤

(٦) سورة الجاثية آية ١٠

(١) سورة البقرة آية ١٦٥

(٢) سورة يونس آية ٣

(٣) سورة السجدة آية ٤

(٧) البخاري كتاب الإيمان ج ١ ص ١٣ ومسلم - كتاب الإيمان ٦٦/١ رقم ٤٣

سنن أبي داود - كتاب السنة ج ٥ ص ٦٠ رقم ٤٦٨١

ابن حبان - كتاب البر والاحسان - باب البيان بان من كان احب لآخيه المسلم كان افضل ٣٨٨/١ رقم ٥٦٧

والحاكم - كتاب البر والصلة ١٧١/٤ وقال صحيح الاستناد ..

وهنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها وإنما ضل من ضل بغدم التمييز بينها : أحدها محبة الله ولا تكفى وحدها في النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله : الثاني محبة ما يحب الله وهذه هي التي تدخله في الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها : الثالث الحب لله وفيه وهي من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله : الرابع المحبة مع الله وهي المحبة الشريكية وكل من أحب شيئاً مع الله لا الله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذ نداً من دون الله وهذه محبة المشركين : وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهي المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم إلا ان ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته . كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَكُمُ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (٢) .

ثم الخلطة وهي تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى في القلب لمحبة سعة لغير محبوه وهي منصب لا يقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليين صلوات الله وسلامه عليهما ابراهيم ومحمد كما قال ﷺ : ( إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً ) (٣) .

وفي الصحيح عنه ﷺ ( لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أباً بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله ) (٤) وفي حديث آخر فاني أبرأ الى كل خليل من خلته ولما سأل ابراهيم - عليه السلام - الولد فأعطيه فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره فأمر بذبحه وكان الأمر في المنام ليكون تنفيذ المأمورية اعظم ابتلاء وامتحاناً ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل - عليه الصلاة والسلام - الى الامثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فإن الرب تعالى ما أمر بشيء ثم أبطله رأساً بل لا بد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقي شريعة الفداء وكما أبقي استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقي الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال لا يبدل القول لدى خمس في الفعل وخمسون في الأجر ..

وأما ما يظنه بعض الظانين أن المحبة أكمل من الخلطة وأن ابراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله فإن المحبة عامة والخلطة خاصة الخلطة نهاية المحبة وقد أخبر النبي ﷺ أن الله اتخذ ابراهيم خليلاً ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضاً فإن الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلته خاصة بالخليين عليهما الصلاة والسلام - والشاب التائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفها محبة لأقواها محبة

(١) سورة المنافقون آية ٩

(٢) سورة النور آية ٣٧

(٣) ابن ماجه ج' ص ٥٠ رقم ١٤١

(٤) مسلم - كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٥/٤ رقم ٢٣٨٣



كما أنه يفعل ما يكره لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله وتقدم أن خاصية العقل إثارة على المحبوبين على أدناها وأيسر المكروهين على أقواها وتقدم أن هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بأمرين قوة الإدراك وشجاعة القلب فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما بضعف الإدراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف في النفس وعجز في القلب لا يطاوعه الإيثار إلا صلح له مع علمه بأنه الأصلح فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إثارة المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وافق لأسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله وتسميه الأطباء عديم المروءة فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه وهاتان القوتان في القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود العقل الاختياري لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الأمر والنهي وهو يسمى الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه في مسألة الترك هل هو أمر وجودي أو عدمي والتحقيق أنه قسمان فالترك المضاف إلى عدم السبب المقتضى عدمي والمضاف إلى السبب المانع من الفعل وجودي .

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فإنما يؤثر الحى لما فيه من الحصول والمنفعة التي يلتذ بحصولها أو زوال الألم الذي يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال :

هى الشفاء لداء لو ظفرت بها . . وليس منها شفاء الداء مبدول .

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتى الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه أكثر الناس غلطا قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظري في العواقب فأعقل الناس من أثر لذة نفسه وراحته في الأجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفة الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التي لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت في سعى العقلاء فرأيت سعيهم كلهم في مطلوب واحد وإن اختلفت طرقهم في تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون في دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا في الأكل والشرب وهذا في التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة إليه بل لعل أكثرها إنما يوصل إلى ضده ولم أر في جميع هذه الطرق طريقا موصلا إليه بل لعل أكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإثارة مرضاته على كل شيء فإن سلك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه وإن حصل للعبد حصل

له كل شيء وان فاته فاته كل شيء وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أنها الوجوه فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعاده ..

والمحجوب قسمان محجوب لنفسه ومحجوب لغيره ولا بد أن ينتهي إلى المحجوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال وكل ما سوى المحجوب الحق فهو محجوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبة سبحانه وهي من لوازم محبته فإن محبة المحجوب توجب محبة ما يحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتي لا تنفع بل قد تضر واعلم انه لا يحبه لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافسة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابة كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشيء أحب الى الرب كان أحب اليه وأثر عنده وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه علمنا أن فيه من موالاته الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك في نفسك وفي غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحجوب لغيره قسمان أيضا أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثاني ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه الى المحجوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ (١).

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع انه خير لهم لإفضائه إلى أعظم محبوبات وأنفعه والنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شر لها لإفضائه الى فوات هذا المحبوب فالعقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فإن ذلك قد يكون شرا له بل قد يجلب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وان كانت منقطعة فالأمور أربعة مكروه يوصل إلى مكروه ومكروه يوصل الى محجوب ومحجوب يوصل الى محجوب والمحجوب يوصل الى مكروه فالحجوب الموصل الى المحجوب قد اجتمع فيه داعي الفعل من وجهين والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعي الترك من وجهين بقى القسمان الأخيران تتجاوز بهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جوارا منها وهو العاجل والعقل والايمان يؤثران أنفعهما وأبقاهما والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعى العقل والايمان ينادى كل وقت حتى على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السرى وفي الممات يحمد العبد التقى فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول :

يانفس اصبرى فما هي إلا ساعة ثم تنقضى ويذهب هذا كله ويزول

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فاصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة وشبهه

منع كمال التصديق في معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له فإن قويت حتى عارضت أصلى الحب والتصديق كانت كفرا أو شركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت في كماله وأثرت فيه ضعفا وفثورا في العزيمة والطلب وهي تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكى الراغب فلا تصلح الموالاة الا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الخنفاء المجيبين أنه قال لقومه ﴿أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين﴾ (١).

فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخللة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

قال تعالى : ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿واذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون﴾ (٣) . أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمته باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الخنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهي المنشور الذي لا تدخل الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه وهي كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس إلى شقى وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهي العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها أفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرغبة فلا يحب سواه بل كل ما كان يحب غيره فإنما هو تبعاً لمحبهته وكونه وسيلة الى زيادة محبهته ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا اليه ولا يطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان في الشدائد إلا به ولا يلتجى إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه يجتمع ذلك في حرف واحد وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة ان لا إله إلا الله ولهذا حرم الله على النار من شهد ان لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق تحقيقة هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى :

﴿والذين هم بشهاداتهم قائمون﴾ (٤).

فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره وفي قلبه وقاله فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٧٧ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة المعارج آية ٣٣

تكون نائمة اذا نبهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون إلى القيام أقرب وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن فروح ميتة وروح مريضة إلى الموت أقرب وروح إلى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ : ( إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحاً فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة ينقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تنقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ (٢) فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا عنه وبه مأوى روحه في هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرماناً والأبرار في نعيم وإن اشتد بهم العيش وضائق بهم الدنيا والفجار في جحيم وإن اتسعت عليهم الدنيا .

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ (٣) وطيب الحياة جنة الدنيا .

قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ﴾ (٤) وأى نعيم أطيب من شرح الصدر وأى عذاب أضيق من ضيق الصدر .

وقال تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٥) فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشاً وأنعمهم بالاً وأشرحهم صدراً وأسرهم قلباً وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبي ﷺ ( إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر ) (٦) ومن هذا قوله ﷺ ( ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ) (٧) ومن هذا قوله وقد سألوه عن وصاله في الصوم فقال : ( إني لست كهيتكم إني أظل عند ربى يطعمنى ويسقيني ) (٨) فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى وإن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل :

لها احاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد  
لها بوجهك نور يستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادى  
إذا اشتكت من كلال السير أوعداها روح اللقاء فتحيا عند ميعادى

وكلما كان وجود الشيء أنفع للعبد وهو إليه أحوج كان تأله بفقدته أشد وكلما كان عدمه أنفع كان تأله بوجوده أشد ولا شيء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لمرضاته بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه ألم شيء له وأشد عذاباً عليه

(١) ابن ماجة - كتاب الأدب - باب فضل لا إله إلا الله ١٢٤٧/٢ رقم ٣٧٩٥ مسند أحمد ٢٨/١ .

(٢) سورة النازعات الآيات : ٤٠ ، ٤١

(٥) سورة يونس الآيات : ٦٢ - ٦٤

(٦) البخارى ٢٨/٣ ومسلم - كتاب الحج ١٠١٠/٢ رقم ١٣٩٠

(٣) سورة النحل آية ٩٧

(٧) البخارى باب حرم المدينة ٣٢٣/١ ط/ دار إحياء الكتب العربية

(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥

(٨) البخارى ، باب الوصال في الصوم ٤٨/٣

ولمّا تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها في ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هي فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق في سكره الذي احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه في السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرتة حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وأنتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك فإن المصاب في الدنيا يرجو جبر مصيبتة في الدنيا بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له فكيف بمن مصيبتة بمالا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرا به وإن الموت لا يعود اكبر امنيته واكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الاليمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسي فاعرض على نفسك الان أعظم محبوب لك في الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت إليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفي الأثر الإلهي ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب اليك من كل شيء . ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح إلا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده وكذا الانابة وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى :

﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾<sup>(٢)</sup> وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التي سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبة الله الذي اتخذه من دون الله وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشركية هي أصل الشقاوة ورأسها التي لا يبقى في العذاب إلا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم احد مدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها .

والنهي عن المحبة الاخرى ولوازمها وضرب الامثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص ولوازمها للنوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منها واخباره عن فعل النوعين وعن حال النوعين في الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقرآن باقى شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم انما هو عبادة الله وحده لا شريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) البقرة ١٦٥ .

والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت في الصحيحين من حديث انس عن النبي ﷺ انه قال : ( والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين ) وفي صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله : ( والله لأنت أحب الى من كل شيء إلا من نفسى فقال لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال والذى بعثك بالحق لأنت أحب الى من نفسى فقال الآن ياعمر<sup>(١)</sup> ) فإذا كان هذا شأن محبة النفس ووالده وولده والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه .  
ومحبة الرب تعالى تخصص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التى بين جنبيه فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله والشئ قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شئ يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الألوهية إلا له ولو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع .

وكل حركة في العالم العلوي والسفلى فأصلها المحبة فهى علتها الفاعلة والغائبة وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع حركة اختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى فهو يتحرك للعود إليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تتحرك بتحرك محركه وقاسره وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود إلى مركزه وكلتا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الاختيارية الإرادية هى أصل الحركتين الأخريين وهى تابعة للإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة والدليل على انحصار الحركات فى هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الإرادية وإن لم يكن له شعور بها فيما أن يكون على وفق طبيعته الأولى فالأولى هى الطبيعية والثانية هى القسرية إذا فهت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمرا والمقسمات أمرا كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة فى غير موضع والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وشماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسألته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه الى المحشر اذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه الى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلتها وفرشها وثيابها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر فليس لهم من الأمر شئ بل الأمر كله لله وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بإذن الله وأمره . قال

(١) البخارى (كتاب الإيمان) ج ١ ص ١٠ ومسلم ج ١ ص ٩٧ رقم ٤٤ والنسائى ١١٤/٨ وابن ماجه ٢٦/١ رقم ٦٧ وأحمد ١٧٧/٣

(٢) البخارى (كتاب الايمان والنور) ١٦١/٨ .

تعالى اخبارا عنهم : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ (١)

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٢) وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره في الخليفة كما قال تعالى ﴿ والصفات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ﴾ (٣) وقال : ﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ﴾ (٥)

فجميع تلك المحبات والحركات والارادات والافعال هي عباداتهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها فلولها الحب مادارات الأفلاك ولا تحركت الكواكب النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة في بطون الأمهات ولا انصدع عن الحب انواع النبات ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الأرض والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (٦) .

إذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة ولاصلاح للموجودات إلا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها إلا بأبداعه وحده ولهذا قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (٧) . ولم يقل سبحانه لما وجدنا ولكائنا معدومتين ولا قال لعدمنا - إذ هو سبحانه قادر على ان يقيقهما على وجه الفساد لكن لا يمكن ان تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتهما وسكن فيهما فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الآخر والعلو عليه وتفرد دونه بالالهية إذ الشرك نقص في كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه ان يكون إلهنا ناقصا فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهور ليس باله وان لم يقهر أحدهما الآخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب ان يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر .

وفي ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكاثران وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول اذا كان فيه فحلان وأصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع اعداء الاسلام فيهم في زمن من الأزمنة إلا في زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض فصلا

(٤) سورة المرسلات الايات : ١ - ٦ .

(٥) سورة النازعات الايات : ١ - ٥ .

(٦) سورة الاسراء آية ٤٤

(٧) سورة الانبياء آية ٢٢

(١) سورة مريم آية ٦٤

(٢) سورة النجم آية ٢٦

(٣) سورة الصفات الايات : ١ - ٣ .

السموات والأرض واستقامتهما وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير وإن كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾ (١).

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ (٣) قيل المعنى لا بتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله في الآية الأخرى : ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾ (٤) المعنى لا بتغوا اليه سبيلاً بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيداً له قال ويدل على ذلك وجوه منها قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ (٥) أى هؤلاء الذين يعبدونهم من دوني هم عبادي كما انتم عبادي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تعبدونهم من دوني الثاني انه سبحانه لم يقل لا بتغوا عليه سبيلاً قال لا بتغوا اليه سبيلاً وهذا اللفظ انما يستعمل في القرب كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ (٦) وأما في المغالبة فإنه يستعمل بعل كقوله : ﴿ فإن أظعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ (٧) الثالث انهم لم يقولوا ان آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾ (٨) وهم انما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغي التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه .

قال تعالى : لو كان الأمر كما يقولون لكانت تلك الآلهة عبيداً له فلماذا تعبدون عبيده من دونه . والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجد والذوق والخلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من احكامها ولوازمها والمحبة المحمودة هي المحبة النافعة التي تجلب لصاحبها ما ينفعه في دنياه وآخرته وهذه المحبة هي عنوان السعادة وضدها هي التي تجلب لصاحبها ما يضره في دنياه وآخرته وهي عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه وانما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الإنسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما في محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما في محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تتركب محبتها من أمرين من اعتقاد فاسد وهوى مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الانفس

(١) سورة المؤمنون الآيةان : ٩١ ، ٩٢

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٢١ - ٢٣ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٤٢

(٤) سورة المؤمنون آية ٩١

(٥) سورة الاسراء آية ٥٧

(٦) سورة المائدة آية ٣٥

(٧) سورة النساء آية ٣٤

(٨) سورة الاسراء آية ٤٢



فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضه فتتفق شبهة يشته بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لا قواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من انواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحموده التي هي عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فإن بكى نفعه وان حزن نفعه وان فرح نفعه وان انبسط نفعه وان انقبض نفعه فهو يتقلب في منازل المحبة وأحكامها في مزيد وريح وقوة والمحبة المضرة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعده له من ربه كيفما تقلب في آثارها ونزل في منازلها فهو في خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظنون موطنًا يغيط الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١).

أخبر سبحانه في الآية الاولى ان المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح واخبر في الثانية ان أعمالهم الصالحة التي باسروها تكتب لهم أنفسهم والفرق بينهما ان الأول ليس من فعلهم وانما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثاني نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حاصلًا

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل فهي أصل كل دين سواء كان حقاً أم باطلاً فإن الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التي صارت خلقاً وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين في قوله تعالى : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ (٢).

قال الامام احمد عن ابن عيينة قال ابن عباس لعلی دين عظيم وسئلت عائشة عن خلق النبي ﷺ فقالت كان خلقه القرآن (٣) والدين فيه معنى الإذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الأعلى الى الأسفل كما يقال دنته فدان أى قهرته فذل .

ويكون من الأدنى الى الأعلى كما يقال : دنت الله ودنت لله وفلان لا يدين الله ديناً ولا يدين الله بدين فدان الله أى أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أى خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لا بد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذلك في الظاهر وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذي يدين الناس فيه بأعمالهم ان خيراً

(١) سورة التوبة الآيتان ١٢٠، ١٢١

(٢) تفسير ابن كثير سورة ن آية ٤

مسند احمد ٢١٦/٦

فخير وان شرا فشر وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى : ﴿ فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها ان كنتم صادقين ﴾ (١) أى هلا تردون الروح الى مكانها ان كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سقت للاحتجاج عليهم في انكارهم البعث والحساب ولا بد ان يكون الدليل مستلزما لدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليلا على لازمه ولا يجب العكس ووجه الاستدلال انهم اذا انكروا البعث والجزاء فقد كفروا ربهم وانكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما ان يقرؤا بان لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم يميئتهم اذا شاء ويحييهم اذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم واما ان يقرؤا برب هذا شأنه فإن أقرؤا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامرى والجزائى وان انكروا كفروا به فقد زعموا انهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرؤن على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها اذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته أى فهلا يردون الروح الى مكانها ان كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضى عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم اذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه في عبادته ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعى أمرى ودين حسابى جزائى وكلاهما لله وحده فالدين كله أمرا أو جزاء والمجبة أصل كل واحد من الدينين فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه ودين العبد لله به انما يقبل إذا كان محبة ورضا كما قال النبى ﷺ :

( ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبلاسلام دينا وبمحمد رسولا ) (٢) .

وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجلها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بأساءته وكل من الأمرين محبوب للرب فانها عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراط المستقيم الذى هو عليه فهو سبحانه على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخبارا عن نبيه هود عليه السلام انه قال لقومه انى أشهد الله ﷻ واشهدوا انى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون انى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿ (٣) ولما علم نبى الله ان ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل ووضع الثواب فى مواضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقة به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان اذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﷻ انى أشهد الله واشهدوا انى

(١) سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧ .

مسلم - كتاب الايمان ٦٢/١ رقم ٣٤

(٣) سورة هود الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

بريء مما تشركون من دونه ﴿١﴾ . الآية .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شيء لعظمته فقال : مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو في قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الأمر الا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم في كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه فلا أخاف مادونه فإن ناصيته بيده ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض في عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لا يخرج في تصرفه في عبادته عن العدل والفضل إن أعطى واکرم وهدى ووفق بفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعده وبحكمته وهو على صراط مستقيم في هذا وهذا وفي الحديث الصحيح ( ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وحزني وذهاب همي وغمي إلا اذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه )<sup>(٢)</sup> وكهذا يتناول حكم الرب الكوني والأمرى والقضاء الذي يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض في عبده وكلا القضاءين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما اقرب نسب .

ونختم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاصد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر فإنه يفسد القلب بالذات وإذا فسد فسدت الارادات والأقوال والأعمال وفسد ثغر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضا إن شاء الله تعالى والله - سبحانه وتعالى - إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع ان الذي ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع وكان الداعي ها هنا في غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام حتى أن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد كما في كتاب الزهد للإمام احمد من حديث يوسف بن عطية الصنفار عن ثابت البناني عن أنس عن النبي ﷺ ( حُبب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن )<sup>(٣)</sup> الثاني : ان يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : انه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة ، الرابع : انه كان في بلاد غربة يتأق للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يأتي لغيره في وطنه وأهله ومعارفه الخامس : ان المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث ان كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس : انها غير أبية ولا ممتنعة فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته في المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد في نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الالباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر :

(١) سورة هود آية ٥٤

(٢) مسند احمد تحقيق الشيخ شاكر ٢٦٦/٥ رقم ٣٧١٢ وقال : اسناده صحيح ورواه الحاكم ٥٠٩/١ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم

(٣) سنن النسائي ٦١/٧ ومسند احمد ٢٨٥/٣

وزادنى كلفا فى الحب ان منعت أحب شىء الى الانسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إباطها وإمتناعها وأخبرنى بعض الناس ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سرية وإباطها بحيث لا يعاودها .

ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل ما منع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره واللذة بادراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها ، السابع : انها طليت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذلل الرغبة إليها بل كانت هى الرغبة الدليلة وهو العزيز المرغوب إليه ، الثامن : انه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى ان لم يطاوعها من اذاها له فاجتمع داعى الرغبة والرغبة . التاسع : انه لا يخشى ان تنمى عليه هى ولا أحد من جهتها فانها هى الطالبة والرغبة وقد غلقت الأبواب وغيت الرقباء ، العاشر : أنه كان مملوكا لها فى الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقا على الطلب وهو من أقوى الدواعى كما قيل لامرأة شريفة من أشرف العرب ما حملك على الزنا قالت قرب الوساد وملول السواد تعنى قرب وساد الرجل من وسادى وطول السواد بيننا .

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ (١) :

الثانى عشر : أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار ان الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبها به أن قال ليوسف اعرض عن هذا وللمرأة استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه وحمله حبه لله على ان اختار السجن على الزنا فقال ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ (٢) . وعلم انه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى ان لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الف فائدة .

والطائفة الثانية : الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تحزون قالوا أولم نهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين لعمرى إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ (٣) فهذا عشق حكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يبال بما فى عشقه من الضرر وهذا داء أعياء الأطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القاتل الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى

(١) سورة يوسف آية ٣٣

(٢) سورة يوسف آية ٣٣

(٣) سورة الحجر الآيات : ٦٧ - ٧٢ .

إستنقاذه من إساره ولا اشتعلت نار في أهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفرا لمن إتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله في قلبه فهذا عشق لا يغفر لصاحبه فإنه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلامة هذا العشق الشركى الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه إذا تعارض عنده حق معشوقه وحقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وأثر رضاءه على رضاءه وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه إذا بذل أردى ما عنده واستفرغ وسعه في مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه وجعل لربه إن اطاعه الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم في كفة وتوحيدهم في كفة وإيمانهم في كفة ثم زن وزنا يرضى الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بأن وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث :

يترشفن من فمى رشفات هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بأن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه فعياذاً بك اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر :

وصلك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يفرج بأنه لم يبق في قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبداً مخلصاً من كل وجه لمعشوقه فقد رضى هذا من عبودية الخالق - جل جلاله - بعبودية المخلوق مثله فإن العبودية أى كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذلك لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبنتى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن أبنتى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله .

ودواء هذا الداء القتال أن يعرف أن ما أبنتى به من الداء المضاد للتوحيد أولاً ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجوء والتضرع إلى الله سبحانه في صرف ذلك عنه وأن يرجع قلبه إليه وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله وهو الدواء الذى ذكره الله في كتابه حيث قال : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ (١) فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه فإن القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما تمكن من قلب فارغ كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفايد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمي وأمر عملي فالعلمي طلب معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له ومن المعلوم أنه ليس في عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع في القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما ويكون السلطان والغلبة له ، الثاني : عذاب قلبه بمعشوقه فإن من أحب شيئاً غير الله عذب به ولا بد كما قيل :

فما في الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى حلو المذاق  
تراه باكياً في كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق  
فيبكي إن نأوا شوقاً اليهم ويبكي إن دنوا خوف الفراق  
فتسخن عينه عند الفراق وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وإن استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب ، الثالث : إن العاشق قلبه أسير في قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن العاشق لا يشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة في كف الطفل يسومه حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق ويعيش الخلى عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل :

طليق برأى العين هو أسير عليل على قطب الهلاك يدور  
وميت يرى في صورة الحى غاديا وليس له حتى النشور نشور  
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور أما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب وإقباله على الله . وعاشق الصور أعظم شيئاً تشعيثاً وتشتيتاً له وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه مصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار في يابس الخطب وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور وإذا بعد القلب عن الله طرقت الآفات من كل ناحية فإن الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عيبه وفساده وبعده من وليه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ، السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أقسد ذهنه وأحدث الوسواس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا يتفكرون بها وأخبار العشاق في ذلك موجودة في مواضعها بل بعضها يشاهد

بالعيان وأشرف ما في الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فإذا عدم عقله التحق بالبهائم بل وربما كان حال الحيوان أصلح من حاله وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل :

قالوا جنتت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين  
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يضرع المجنون بالحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو نقصها إما فسادا معنويا أو صوريا أما الفساد المعنوي فهو تابع لفساد القلب فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان فيرى القبيح حسنا منه ومن معشوقه كما في المسند مرفوعا حبك الشيء يعمى ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه فلا تسمع الأذن ذلك والرغبات تستر العيوب فإن الراغب في شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل :

هويتك إذ عني عليها غشاوة فلما انجلت نفسي رجعت ألومها

والداخل في الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذي لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبها إلا من دخل فيه ثم خرج منه ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا في الإسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا في الإسلام قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إنما ينتقص عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد في الإسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساده للحواس ظاهرا فإنه يمرض البدن وينهكه وربما أدى إلى تلفه كما هو المعروف في أخبار من قتله العشق وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدا على عظم فكان ما شأنه كما تقدم هو الإفراط في المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوى فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يضر دواؤه ويتعذر فتغير أفعاله ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل :

الحب أول ما يكون حاجة يأق بها وتسوقه الأقدار  
حتى إذا خاض الفتى ليج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مبادئه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل إن لم تتداركه عناية من الله كما قيل :

وعش خاليا فالحب أوله عنا وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق  
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق

والذنب له فهو الجاني على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أو كيا وفوك نفخ .

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء : فأما مقام ابتدائه فالواجب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصول إلى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاه فعليه كتمان ذلك والا يفشيه إلى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فإن الظلم في هذا الباب من أعظم أنواع الظلم وربما اعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه في ماله فإنه يعرض المعشوق بهتكه في عشقه الى وقوع الناس فيه وإنقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق في هذا الباب بأدنى شبهة وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائة وتسعة وتسعون وخبر العاشق للهتك عن المتهتك عند الناس في هذا الباب يفيد القطع اليقين بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزما لا يحتمل النقيض بل لو جمعها مكان واحد اتفاقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم في هذا الباب على الظنون والتخيل والشبهة والأوهام والأخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل الإفك في الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله - ﷺ - المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرا آخر ، والمقصود : أن في اظهار المبلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه وإذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فإن استعان عليه بمن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الوساطة بين الراشئ والمرتشئ وصار ذلك الوساطة ظلما وإذا كان النبي - ﷺ - قد لعن الرائش وهو الوساطة ديوثا ظلما بين الراشئ أو المرتشئ لإيصال الرشوة فما الظن بالديوث الوساطة بين العاشق والمعشوق في الوصلة المحرمة فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه في نفس ومال أو عرض فإن كثيرا ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه وكم قتيل أريق دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبيت امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما وقد لعن رسول الله - ﷺ - من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر الكبائر وإذا كان النبي - ﷺ - قد نهى أن يخاطب الرجل على خطبة أخيه وأن يستام على سومه فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمهته حتى يتصل بها وعشاق الصور ومساعدوهم من الديته لا يرون ذلك ذنبا فان في طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ففى ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يرب عليها ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة فإن من ظلم الوالد بإفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه وظلم الزوج بإفساد



حبيته والجنانية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه بأخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه فياله من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة فإن كان ذلك حقا لغازى في سبيل الله وقف له الجاني الفاعل يوم القيامة وقيل له خذ من حسناته ما شئت كما أخبر بذلك النبي - ﷺ ثم قال ﷺ فما ظنكم أى فما تظنون تبقى له من حسناته فان انضاف الى ذلك ان يكون المظلوم جارا أو ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم وأذى الجار ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن اما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضى به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود ان التعاون فى هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان وأما ما يقترب بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فامره لا يخفى فإنه إذا حصل له مقصوده بين المعشوق وللمعشوق أمور آخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيدته وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التي يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما في القبيح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغى حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله فى تحصيل مال من غير حله وفى استطالته على غيره فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظلما كان أو مظلوما هذا إلى ما ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانه أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك وربما أدى ذلك الى قتل النفس التي حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ عن عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد تنصر جماعة ممن نشأ فى الاسلام بسبب العشق كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فترل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هى نصرانية فإن دخلت فى ديني تزوجت بك ففعل فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له وإذا أراد النصرارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها حتى اذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها فهناك ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١). وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير وأعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه بأن يطمعه فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفقه ولا يمكنه من نفسه لثلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ولا سيما اذا جاد بالوصال لغيره وكم للعشق من قتيل من الجانبين وكم

قد زال من نعمة وافقر من غنى رأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهل للرجل وولد فإن المرأة إذا رأت بعلمها عاشقا لغيرها اتخذت هي معشوقا لنفسها فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤدي به ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفاسد واكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرر بها فإذا هلكت فهو الذى أهلكها فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطعمه في وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فإن لم يقارنه طمع في الوصال وقارنه الاياس من ذلك كم يحدث له العشق فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فان اطاع مع ذلك الفكر في محاسن المعشوق وقارنه خوف ما هو اكبر عنده من لذة وصاله اما خوف ديني كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الأوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فإن فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوى كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق اندفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك انجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل فإن قيل : قد ذكرت آفات العشق ومضاره ومفاسده فهلا ذكرت منافعه وفوائده التى من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : ان ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذى صيره الى الطبع الأدمى .

وقال بعضهم العشق حنان الجبان ويصفى الذهن الغبى ويسخى كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الأخلاق وهو أنيس من لا أنيس له وجليس من لا جليس له .

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ويهذب الأخلاق إظهاره طبعى وإضمماره تكلفى .

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال مر أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تمائى متمايلا مثل القضيبي الناعم

فسألها أحره أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فقال : تهوين فتلكأت فأقسم عليها فقالت .

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمد بن القاسم

فاشترها من مولاه وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب فقال هؤلاء والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم ، وجاءت جارية عثمان بن عفان - رضى الله عنه - تستدعى على رجل من الأنصار قال لها عثمان : ما قصتك ؟ قالت : كلفت يأمرير المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان اما ان تهبها الى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى فقال أشهدك

يأمر المؤمنين أنها له ونحن لا ننكر فساد العشق الذي يتعلق به فعل الفاحشة بالمعشوق والكلام في العشق العفيف من الرجل الطريف الذي يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام .

فهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمراته مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من امرأته ويحرص على أن تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية في نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلاً في حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت معجبا بجاريتي فلانة فسألتنيها أن أهبها لك فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسي لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح في وجهه وقال عجلي بها على فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجباً وقال لها القى ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك اخبريني لمن كنت ومن اين صرت لفاطمة فقالت أغرم الحجاج عاملاً له بالكوفة مالا وكنت في رقيق ذلك قالت فأخذني وبعث بي الى عبد الملك فوهبني لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك رلدا قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدى عليك ثيابك واذهبي الى مكانك ثم كتب الى عامله على العراق ان ابعث الى فلان ابن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفعها اليه ثم قال له اياك فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هي لك يا أمير المؤمنين قال لا حاجة لي بها قال فابتعها مني قال لست إذن ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك بي يا أمير المؤمنين ؟ قال على حاله ولقد زادني ولم تزل الجارية في نفس عمر حتى مات - رحمه الله .

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يا أمير المؤمنين رأيت امرأة فعمشقتها فقال ذلك مالا يملك فالجواب وبالله التوفيق ان الكلام في هذا الباب لا بد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم ان انفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته وفطرت الخليفة على تأله وبها قامت الأرض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهي سر شهادة ان لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لا تصح إلا له وحده والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك في هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعا لمحبهه وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله - صلى الله عليهم وسلم أجمعين - وفطرته التى فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فإن القلوب مفضولة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ (١) .

وما تعرف به الى عبادته من أسمائه الحسنى وصفاته العليا وما دلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيان الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والاجمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواء قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ (٢) .

والولاية أصلها الحب فلا موالاة إلا بحب كما أن العداوة أصلها البغض والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يوالِيهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد انكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر عن سوى بينه وبين الأنداد فى المحبة أنهم يقولون فى النار لمعبودِيهم ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ﴾ (٣) .

وهذا التوحيد فى المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله - صلى الله عليهم وسلم - عليهم الصلاة والسلام - من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار فيجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبي - ﷺ - انه ( لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من والده وولده والناس اجمعين ) (٤) . فكيف بمحبة الرب جل جلاله .

وقال لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه : لا . . حتى أكون أحب اليك من نفسك أى لا يؤمن حتى تصل محبتك لى إلى هذه الغاية

فإذا كان النبي - ﷺ - أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولو ازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسمائه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل ما منه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة ما يحب لعبد ويكره فعطاؤه ومنعه ومغافاته، وابتلاؤه وقبضه ويسطه وعدله وفضله وإماتته واحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب الى تأله ومحبة بل تمكينه عبده من معصيته وإعانتة عليها وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له وهو يقضى وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعى الى محبته فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته فخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يتحجب اليه بنعمه وهو غنى عنه والعبد يتبغض اليه بالمعاصي وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يبعده عن معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع احسان ربه عنه فالأم اللوم تخلف القلوب عن محبة من

(١) سورة آل عمران آية ٣١

(٢) سورة المائدة آية ٥٤

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨

(٤) البخارى ١٢/١ ومسلم - كتاب الايمان ٦٧/١ رقم ٤٤

هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب - سبحانه وتعالى - يريدك لك كما في الأثر الإلهي عبدى كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لا يستحي العبد ان يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ما سواه وأيضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يربح عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه اعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة امثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهى أسرع شئ محو وأيضا فهو سبحانه خلقتك لنفسه وكل شئ خلق لك فى الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته وأيضا فمطلبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين ويعطى عبده قبل ان يسأله فوق ما يؤمله يشكر على القليل من العمل وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ (١). لا يشغله سمع عن سمع ولا يغلظه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين بل يحب الملحين فى الدعاء ويحب ان يسأل ويغضب اذا لم يسأل فيستحي من عباده حيث لا يستحي العبد منه ويستتره حيث لا يستر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ورعاه بنعمته واحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله - صلى الله عليهم وسلم - فى طلبه وبعث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له أدعوك للوصل فتأبى أبعث رسلى فى الطلب أنزل اليك بنفسى ألقاك فى النوم وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالחסنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو ولا يجيب الدعوات ويقبل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد وأنصر من ابتغى وأراف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطى وأرحم من استرحم وأكرم من قصد وأعز من التجىء اليه واكفى من توكل عليه أرحم بعيده من الوالدة بولدها وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يش من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ند له كل شئ هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ولن يعصى إلا بعلمه يطاع فيشكر ويتوفيقه ونعمته أطيع ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفى بالعهد وأعدل قائم بالقسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصي وكتب الآثار ونسخ الأجال فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية والعلانية والعيوب لديه مكشوفة وكل أحد اليه ملهوف وعنت الوجوه لنور وجهه وعجزت القلوب عن ادراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على امتناع مثله وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسموات وصلحت عليه جميع المخلوقات لا ينام ولا ينبغي له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود بأسره  
وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو ان كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب

وابتهاج الروح تابع لامرئين أحدهما كمال المحبوب في نفسه وجماله وانه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه والأمر الثاني كمال محبته واستفراغ الوسع في حبه وإيثار قربه والوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم ان اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكلما كانت المحبة اقوى كانت لذة المحبة اكمل فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فإذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب في نفسه بل هو مقصود كل حى وعاقل وإذا كانت اللذة مطلوبة في نفسها فهي تدم اذا أعقبت الما أعظم منها أو منعت لذة خيرا منها وأجل فكيف اذا أعقبت أعظم الحسرات وفوت أعظم اللذات والمسرات وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى :

﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ (١) قال السحرة لفرعون لما آمنوا ﴿ اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ (٢) الآية .

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليلتليهم من أطاعه فله هذه اللذة الدائمة في دار الخلد وأما الدنيا فمقطعة لذاتها لا تصفو أبدا ولا تدوم بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين مع الخلود أبدا فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعنى الذى قصده الناصح لقومه بقوله ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ (٣) فأخبرهم ان الدنيا متاع ليستمتع بها إلى غيرها وان الآخرة هى المستقر واذا عرفت ان لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يدم تناولها بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة اذا عرف فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية ( فوالله ما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر إليه ) (٤)

وفى حديث آخر ( أنه اذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم ) .

وفى النسائى ومسنند الامام احمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى دعائه ( وأسألك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقاءك ) وفى كتاب السنة لعبد الله بن الامام احمد مرفوعا ( كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك ) فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهى لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالى ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة فى بحر فإن الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فأطيب ما فى الدنيا معرفته سبحانه ومحبته

(١) سورة الاعلى الايتان ١٦: ١٧،

(٢) سورة طه آية ٧٢

(٣) سورة غافر الايتان : ٣٨ ، ٣٩

(٤) مسلم - كتاب الايمان ١٦٣/١ رقم ٢٩٧ والترمذى - كتاب صفة الجنة - باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى ٦٨٧/٤ رقم

والذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته بمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها أما اللذة القاطعة عن ذلك فتقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الا بالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول ان كان اهل الجنة فى نعيم مثل هذا انهم لفى عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف واذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب يقول فى حاله :

وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول آخر :

أف للدنيا متى مالم يكن صاحب الدنيا محبا أو حبيبا

ويقول آخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها وأنت وحيد مفرد غير عاشق

ويقول آخر :

أسكن الى سكن تلذ بحبه وتهب الزمان وانت منفرد

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها وإذا افتقدها القلب كان الله اعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والأنف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب اذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإله الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى منه الروح وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة وما لجرح بميت إيلام والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هى السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فأعظمها وأكملها ما أوصل الى لذة الآخرة ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم الثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدو الله وعدوه فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه إلى لقائه وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم ، النوع الثانى :

لذة تمتنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم فى الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون فى الآخرة اذا لقوا ربهم ﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ﴾ (١) الآية .

إلى قوله ﴿ يكسبون ﴾ .

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى في الأرض والعلو بغير الحق وهذه اللذات في الحقيقة إنما هي استدراج من الله لهم ليزيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيقا مسموما يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى :

﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئ لهم إن كيدى متين ﴾ (١) قال بعض السلف في تفسيرها كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ، ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (٢) الآية .

وقال تعالى لأصحاب هذه اللذة ﴿ أيعسبون أنما نغدبهم به من مال وبينن نساوع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (٣) وقال في حقهم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ (٤) الآية .

وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل :

يارب كائنة في الحياة لأهلها عذبا فصارت في المعاد عذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة في دار القرار ولا آلا يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كما لها وهذه اللذة المباحة التي لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولا بد أن يشتغل عما هو خير وانفع منها وهذا القسم هو الذي عناه النبي - ﷺ - بقوله : ( كل هو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق ) (٥) فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق وما لم يعن عليها فهو باطل .

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله ﷺ وإنما نعني ما بالمحبة الخاصة وهي التي تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبيه والا فكل مسلم في قلبه محبة الله ورسوله - ﷺ - ولا يدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون في درجات هذه المحبة تفاوتوا لا يحصيه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما فهذه المحبة هي التي تلتطف وتحفف أثقال التكالييف وتسخر البخل وتشجع الجبان وتصفى الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة الصور المحرمة وإذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم في مضمرة القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٢) سورة الانعام آية ٤٤

(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

(٤) سورة التوبة آية ٥٥

(٥) قال الزين العراقي في تخريج احاديث الإحياء ٢/٢٨٥ أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .



وهذه المحبة هي التي تنور الرجة وتشرح الصدر وتحيي القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله وإذا أردت ان تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ اصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم .  
فإنه من المعلوم ان من أحب حبيباً كان كلامه وحديثه أحب شيء اليه كما قيل :

ان كنت تزعم حبي فلم تهجرت كتابي أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابي

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوب وقال النبي ﷺ يوماً لعبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إقرأ على فقال أقرأ عليك وعليك انزل فقال إني أحب ان أسمع من غيري فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى اذا بلغ قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ (١) . قال حسبك الآن فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذر فان من البكاء وكان الصحابة اذا اجتمعوا ومنهم ابو موسى يقولون يا أبا موسى إقرأ علينا فيقرأ وهم يستمعون فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني فإذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجدته وطربه وشوقه سماعه الآيات دون سماع الآيات . . في سماع الإلحان دون سماع القرآن وهو كما قيل :

نقرأ عليك الختمة وانت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد أنه على شيء ففى محبة الله وكلامه ورسوله - ﷺ - أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسق، المحب إليه .

وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب منها بل هي من كماله وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (٢) الآية . فجعل المرأة سكناً للرجل يسكن إليها قلبه وجعل بينها خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن .

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ الى قوله

(١) سورة النساء آية ٤١

(٢) سورة الروم آية ٢١

﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾<sup>(١)</sup>

وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن ابيه كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفي الصحيح من حديث جابر عن النبي ﷺ ( انه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان فاذا رأى احدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد ما في نفسه)<sup>(٢)</sup> ففى هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلى عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحايين الى النكاح .

كما فى سنن ابن ماجة مرفوعا لم ير للمتحيين مثل النكاح ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله داءه شرعا وقدره وبه تداوى نبي الله داود ﷺ ولم يرتكب نبي الله محرمات وانما تزوج المرأة وضمها الى نسائه لمحبتة لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله ﷺ فى فراقها وهو يأمره بامساكها فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولا بد ، فأخفى فى نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس أن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبني زيدا قبل النبوة والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت فى صدره كما ذكر رسول الله ﷺ فتأداها من وراء الباب يازينب إن رسول الله ﷺ يخطبك فقالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامرى وقامت الى محرابها فصلت فتولى الله - عز وجل - نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحي بذلك ( فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ) فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبي ﷺ بذلك وتقول : أنتن زوجكن أهليكن وزوجنى الله عز وجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب ولا ريب ان النبي ﷺ حبيب اليه النساء كما فى الصحيح من حديث انس ورواه النسائي فى سننه عن النبي ﷺ قال : ( حبيب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني فى الصلاة )<sup>(٣)</sup> هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم حبيب الى من دنياكم ثلاث زاد الامام احمد فى كتاب الزهد فى هذا الحديث ( أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن ) .

وقد حسده اعداء الله - اليهود على ذلك وقالوا ما هم إلا النكاح فرد الله سبحانه عن رسول الله ﷺ - ونافح عنه فقال ﴿ آم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾<sup>(٤)</sup> الآية .

وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها ، وهذا داود - عليه السلام - كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه - عليه السلام - كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة وقد سئل رسول الله ﷺ - عن

(١) سورة النساء آية ٢٨

(٢) مسلم - كتاب النكاح - باب من رأى امرأة فوقع فى نفسه ١٠٢١/٢ رقم ١٤٠٣

وابو داود - كتاب النكاح - باب ما يؤمر به من غض البصر ١٦١١/٢ رقم ٢١٥١

والترمذى - كتاب النكاح - باب الرجل يرى المرأة تعجبه ٣١٣/٢ رقم ١١٦٨

ابن ماجة - كتاب النكاح - باب فضل النكاح ٥٩٣/١ رقم ١٨٤٧ .

(٤) سورة النساء آية ٥٤

(٣) مسند النسائي ٦١/٧ ومسند أحمد ٢٨٥/٣

أحب الناس اليه فقال عائشة - رضى الله عنها - وقال عن خديجة إني رزقت حبها فمحببة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس خير هذه الأمة أكثرهم النساء وقد ذكر الإمام أحمد أن عبد الله بن عمر وقع في سهمه يوم حلولاً جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها أن قبلتها والناس ينظرون الى وبهذا احتج الإمام أحمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الأمة المشتركة والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك في المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعاً بأمة غيره وقد شفع النبي - ﷺ - لعاشق أن يواصله معشوقه بأن يتزوج - فأبت وذلك في قصة مغيث وبربرة فإنه رآه يمشي خلفها بعد فراقها ودموعه تجري على خديه فقال لها رسول الله - ﷺ - لو راجعتيه فقالت أتأمرني قال لا إنما أشفع فقالت لا حاجة لي به فقال لعنه يا عباس ألا تعجب من حب مغيث وبربرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وإن كانت قد بانت منه فإن هذا مالا يملكه .

وكان النبي - ﷺ - يساوى بين نسائه بالقسم ويقول : ( اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك ) <sup>(١)</sup> يعني في الحب وقد قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

يعنى في الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدون الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الجائز وصلهن .

قال جامع بن مرجية سألت سعيد بن المسيب مفتي المدينة هل على من حب درهما من وزر فقال سعيد إنما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ما سألتى أحد عن هذا ولو سألتى ما كنت أجيب إلا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قرينة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته وهذا العشق نافع فإنه أدعى إلى المقاصد التي شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير اهله ولهذا يحمده هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشق هو مقت عند الله ويعد من رحمته وهو أضر شيء على العبد في دينه ودنياه وهو عشق المردان فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرد عن بابيه وأبعد قلبه عنه وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف اذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المرد ان وهذه المحبة هي التي جلبت على قوم لوط فأجلبت وما أوتوا من هذا العشق .

قال تعالى ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ودواء هذا الداء الردى الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجوء اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالأم الذي يعقبه هذا العشق واللذة التي تفوته به فيترتب عليه فوات أعظم محبوب فليكبر على نفسه تكبير الجنائز وليعلم ان البلاء قد أحاط به ، والقسم الثالث من العشق : العشق المباح الذي لا يملك كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد وأورثته ذلك عشقاً لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه والأنفع له مدافعتة والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا ان يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيشبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعة هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده .

وأما حديث من عشق وعف فهذا ممن يرويه سويد بن سعيد وقد انكره حفاظ الاسلام عليه قال ابن

(١) ابن ماجه ٦٣٤/١ رقم ١٩٧١ والنسائي ٦٤/٧

(٢) سورة النساء آية ١٢٩

(٣) سورة الحجر آية ٧٢

عدى في كامله هذا الحديث أحد ما انكر على سويد وكذلك ذكره البيهقي وابن طاهر في الزخيرة والتذكرة وابو الفرج بن الجوزي وعده من الموضوعات .

وانكره ابو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب في الحديث أنه من كلام ابن عباس - رضى الله عنهما - موقوفا عليه فغلط سويد في رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الأزرق عن سويد فعاتبته على ذلك فأسقط ذكر النبي - ﷺ - وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن الزهرى حدثنا المعافى عن سويد عن هشام ابن عروة عن ابيه عن عائشة مرفوعا فمن أين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن ابيه عن عائشة مثل هذا عنه من شمس ادنى رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله ان عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله - ﷺ - قط واما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن ابى حازم عن ابن ابى نجيع عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على ابن الماجشون فإنه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين وياسبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقيح الله الواضعين وقد ذكره ابو الفرج بن الجوزي من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن مجاهد مرفوعا وهذا غلط قبيح فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطى ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة فمحال ان يدرك شيخه يعقوب بن ابى نجيع لاسيما وقد رواه في كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن ابى نجيع والخرائطى هذا مشهور بالضعف ذكره ابو الفرج في كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الاسلام في انكار هذا الحديث هو الميزان واليهام يرجع في هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول في علم الحديث عليه ويرجع في الصحيح اليه ولا من عادته التسامح والتساهل فإنه لم يصف نفسه له ويكفى ان ابن طاهر الذى يتساهل في احاديث النصوص ويروى منها الغث والثلث والمنخقة والموقودة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر ابو محمد بن حزم عنه انه سئل عن الميت عشقا فقال قتيل الهوى لا عقل له ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ما شأنه فقال العشق فجعل عامة يومه يستعيز من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكنتم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك ان النبي - ﷺ - عد الشهداء في الصحيح فذكر المقتول في الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتيل العشق ان يصبح له هذا الأثر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - على انه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكنم لله وهذا لا يكون إلا مع قدرته على معشوقه وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ (١).

وتحت قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (٢) .

(١) سورة النازعات الايتان : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) سورة الرحمن آية ٤٦

فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم ان يجعلنا ممن آثر وابتغى حبه ورضاه على هواه بذلك قرب به وحبته ورضاه آمين .

أما بعد .

فها نحن هؤلاء نسير الهوينا لنعيش في رحاب التفسير في قوله تبارك اسمه ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون ﴾ (١) .

هذا أدب قرآني رفيع أدب الله به الجماعة المؤمنة ، فأمر نبيه - ﷺ - أن يقول لهم غضوا من أبصاركم أى عما حرم الله تعالى فإذا وقعت النظرة على سبيل الفجأة فليصرف المؤمن نظره .

روى الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه قال : ( سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن أصرف بصرى ) (٢) وفي رواية لبعضهم فقال ( أطرق بصرى ) يعنى انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم .

وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلى ( يا على لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة ) (٣) .

وفي الصحيح عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ( إياكم والجلوس على الطرقات ) قالوا يارسول الله لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ ( إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه ) قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال ( غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ) (٤) .

وقال أبو القاسم البغوي بسنده حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( اكفلوا لى بشت أكفل لكم بالجنة ، اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا أؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم ) (٥) .

وفي صحيح البخارى ( من يكفل لى ما بين لحيه وما بين رجليه أكفل له الجنة ) (٦) .

ولما كان النظر سهما مسموما مصوبا إلى القلب ، فقد أمر الله بالغض منه وقرن ذلك بالمحافظة على الفروج إذ هو مدعاة إلى الوقوع فى ذلك المستنقع اللعين ، فقال سبحانه : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾ أى ذلك الغض من الأبصار وحفظ الفروج وكلاهما ينطوى تحت الأمر ( قل ) فذلك الامتثال للأمر أهدي سبيلا وأقوم قيلا ، وأهدأ بالا واحسن منالا ، ان الذى أمر بذلك الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ( ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ) (٧)

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق

(٧). سورة الملك آية ١٤

(١) سورة النور آية ٣٠

(٢) مسلم - كتاب الآداب باب نظر الفجأة ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥

(٣) مسند أبي داود كتاب النكاح - باب ما يؤمر به من غض البصر ٦١٠/٢ رقم ٢١٤٩

(٤) البخارى كتاب المظالم - باب اقنية الدور والجلوس فيها ١٦٤/٣ طبعة صحيح

مسلم - كتاب اللباس والزينة باب النهي عن الجلوس فى الطرقات ١٦٧٥/٣ رقم ٢١٢١

(٥) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٣١٤/٨ رقم ٨٠١٨

(٦) البخارى - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ١٢٥/٨ ولفظ البخارى ( من يضمن لى )

الانسان ضعيفا ﴿١﴾ .

وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ (٢) .  
الآية ، وتارة يكون بحفظه من النظر اليه كما جاء في الحديث في مسند الامام أحمد والسنن ( احفظ  
عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك ) (٣) ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أى أظهر لقلوبهم وأتقى لدينهم كما  
قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته ، ونورا فى قلبه .  
وروى الامام احمد بسنده عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال ( مامن مسلم ينظر إلى  
محاسن امرأة ثم يفيض ببصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها ) (٤)  
وفى الطبرانى بسنده عن أبى أمامة مرفوعا ( لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم  
أو لتكسفن وجوهكم ) (٥)

وعنده أيضا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( إن النظر سهم من  
سهام إبليس مسموم من تركه غافى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه ) (٦)  
وقوله تعالى ﴿ إن الله خير بما يصنعون ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى  
الصدور ﴾ (٧) . فقد علم سبحانه أن النظرة سهم يفسد القلوب فنهى عن ذلك حتى يحفظ للأعين  
مهابتها وللقلوب طهارتها فالله - جل شأنه - جعل القلوب بين أصبعين من أصابعه كقلب واحد يصرفها  
كيف يشاء فالعاقل من عمل لما بعد الموت .

وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة  
الصوفية فى ذلك وحرمة طائفة من العلماء لما فيه من الافتتان وشدد اخرون فى ذلك كثيرا جدا .  
وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( كل عين  
باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس  
الذباب من خشية الله ) (٨) عز جل . وليعلم المغرض أنه مأمور بحفظ أعضائه ولن يكون الأمر مقصورا  
على غض البصر وحفظ الفرج بل كل عضو يؤدى إلى ما يؤديه البصر والفرج أنت مأمور بحفظه قال  
رسول الله - ﷺ - : ( كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان  
النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تمنى وتشتهى والفرج  
يصدق ذلك أو يكذبه ) (٩) رواه البخارى .

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ٥

(٣) مسند احمد ٣/٥ وسنن أبى داود - كتاب الحمام - باب ما جاء فى التعرى الحديث ٤٠١٧ وتحفة الأحوذى - أبواب الاستئذان - باب ما  
جاء فى حفظ العورة ٧٧/٨ رقم ٢٩٤٦

وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وسنن أبى ماجه - كتاب النكاح - باب التستر عند الجماع ٦٧٨/١ رقم ١٩٢٠ .

(٤) مسند احمد ٢٦٤/٥ .

(٥) الطبرانى فى الكبير ٢٤٦/٨ رقم ٧٨٤٠ .

(٦) الطبرانى فى الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢

(٧) آية ١٩ من سورة غافر .

(٨) الاثر فى الدر المنثور عن ابن أبى الدنيا والديلمى ٤١/٥ .

(٩) مسلم (كتاب القدر) ٢٠٤٧/٤ رقم ٢٦٥٧ .

ولما كان النظر مفسدة من الطرفين فقد أمر الله المؤمنات بما أمر به المؤمنين فقال جل شأنه .  
﴿ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ جاء في سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا - والله أعلم - أن جابر بن عبد الله الأنصاري حدث أن أسماء بنت مرثد كانت في محل لها في بنى سحارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزترات فيبدو ما في أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى ﴿ وقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية .

ولما كانت النظرة المريضة بريدا إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى من الفواحش فقد رأينا أن نذكر تفصيل ما قاله الفقهاء بهذا الشأن حتى تصير الأمور واضحة الدلالة ، جليلة لا ريب فيها ولا لبس ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شيء عليم .

### آداب النظر

ومن القضايا الهامة التي يجب أن يركز المربي عليها ، ويهتم لها أن يعود الولد في سن تمييزه آداب النظر حتى يعلم الولد ما يحل من النظر إليه وما يحرم . . وفي ذلك صلاح أمره ، واستقامة أخلاقه إذا شارف على البلوغ ، وبلغ سن التكليف . .

وهذه الآداب من النظر التي يجب أن يلتفتها ويعود عليها مرتبة كما يلي :

#### ١ - أدب النظر إلى المحارم :

كل امرأة تحرم على الرجل حرمة مؤبدة فهي من ذوات محارمه .  
وكل رجل حرم على المرأة الزواج منه حرمة مؤبدة فهو من ذوى محارمها وعلى هذا يدخل في المحارم .  
المحرمات بسبب النسب : وهن سبع نسوة ذكرهن الله تعالى بقوله :  
﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ ( النساء : ٢٣ )

والمحرمات بسبب المصاهرة : وهن أربع من النسوة :

- ١ - زوجة الأب لقوله تعالى ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبؤكم من النساء ﴾ ( النساء : ٢٢ ) .
  - ٢ - زوجة الابن الذي من صلبه ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ( النساء : ٢٣ ) .
  - ٣ - أم الزوجة لقوله تعالى : ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ( النساء : ٢٣ )
  - ٤ - بنت الزوجة لقوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ ( النساء : ٢٣ ) .
- والمحرمات بسبب الرضاع لقوله تعالى : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ ( النساء : ٢٣ ) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : فيما رواه مسلم وأصحاب السنن ( يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب )<sup>(١)</sup>

فما حرم عن طريق النسب من أم وبنت وأخت وعمة وخالة وبنت الأخ وبنت الأخت حرم نظيره عن

(١) مسلم حديث رقم ١٤٤٤ ، أبوداود (٢/٥٤٥) رقم ٢٠٥٥ ، والترمذي (٣/٤٤٣) رقم ١١٤٦ ، والنسائي (٦/٩٩) ، وابن ماجه رقم ١٩٣٧ .

طريق الرضاع كالأم من الرضاع والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع .. وهلم جرا .  
فالمحرم الذكر يحل له أن يرى من محارمه النساء الصدر وما فوق ، وما تحت الركبتين الى أسفل إن  
أمن شهوته وشهوتهما .. وإن لم يأمن الشهوة فلا يحل له النظر سدا للذرائع .

وبناء على هذا يباح للذكر المحرم النظر من ذوات محارمه إلى مواضع زيتتها الظاهرة والباطنة وهي :  
الرأس ، والشعر ، والعنق ، والصدر دون الجيب ، والأذن ، والعضد ، والساعد ، والكف ،  
والساق الذي تحت الركبة إلى القدم ، والوجه . أما ماعدا ذلك من البطن والظهر والفخذ .. فلا يحل  
له النظر اليه أبدا .

والأصل في ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن  
أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن ﴾

فيحرم على المحرم الذكر ولا سيما إذا بلغ سن المراهقة أن يرى أحد محارمه من النساء وقد ارتدت  
التياب القصيرة التي ارتفعت إلى ما فوق الركبتين ، وكشفت عن الفخذين .. أو ارتدت ثوبا يصف أو  
يشف ما تحته وبدت العورة التي يحرم النظر إليها . كما يحرم على البنت أو المرأة أن ترى ذلك - ما بين  
السرة والركبة - من أحد محارمها ولو كان ابنها ، أو أخاها ، أو أباه .. وإن أمنت الفتنة ولم تخف  
الشهوة ولو من أجل التغسيل والتدليك في الحمام .. ( تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله  
فأولئك هم الظالمون ) .

#### (ب) أدب النظر إلى المخطوبة :

الشرعة الإسلامية أجازت للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته . كما أجازت للمخطوبة أن تنظر إلى  
خاطبها ليكون كل من الاثنين على بينة من الأمر في اختيار شريك الحياة . والأصل في ذلك قول النبي -  
ﷺ- فيما رواه الترمذى والنسائى .. للمغيرة بن شعبه : ( انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما )<sup>(١)</sup> أى :  
هذا النظر أَدعى لدوام المحبة والألفة .

وروى مسلم والنسائى أن رجلا جاء إلى النبي - ﷺ - فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، فقال  
رسول الله - ﷺ - : نظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : ( انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئا )<sup>(٢)</sup> . ( يعنى  
الصغر ) ولكن لهذا النظر آداب فعلى الخاطب أن يراعيها .

- ١ - لا يجوز أن ينظر الخاطب إلا إلى الوجه والكفين بعد أن يعزم على الزواج منها .
- ٢ - يجوز تكرار النظر إذا دعت الحاجة حتى تنطبع الصورة الحسية في الذهن .
- ٣ - يجوز أن تحدثه ، ويجوز أن يحدثها في جلسة الخطوبة والنظر .
- ٤ - لا يجوز مصافحة المخطوبة بحال لكونها أجنبية قبل إجراء العقد ، والأجنبية يحرم مصافحتها لما  
روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - ما مست يد رسول الله - ﷺ - يد امرأة في المباينة قط ، وإنما  
مبايعتها كانت كلاما .<sup>(٣)</sup>

(١) الترمذى (كتاب النكاح) . باب النظر إلى المخطوبة ٣٨٨/٣ رقم ١٠٨٧ . نسائى ٧٠/٦ .

(٢) مسلم ١٠٤٠/٢ رقم ١٤٢٤ . نسائى ٧٧/٦ .

(٣) البخارى - أحكام - ٩٩/٩ - مسلم ١٤٨٩/٣ رقم ٨٨ .



٥ - لا يجوز أن يجتمعا إلا بوجود أحد محارم المخطوبة لأن الاسلام يحرم الخلوة بالأجنبية ، لما روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام - ( لا يخلو رجل بامرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم ) . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن ما انتشر في بعض الأوساط المتحللة من أن الخاطب يختلط بخطيبته بلا حدود ولا قيود بدعوى التعرف على أخلاقه وأخلاقها .. ان هذه الدعوى يرفضها الإسلام ، بل يحاربها .. لكونها تتنافى مع أبسط مبادئ الفضيلة والأخلاق .. لأن هذه الخلطة تسيء إلى سمعة المخطوبة أكثر من أن تسيء إلى سمعة الخاطب . فقد لا يتم الزواج فتصبح الفتاة عرضة للتهمة ، ومثارا للشبهة .. مما يجعل الكثير من الناس في إعراض تام عن الزواج منها .. ومعنى هذا أنها أصبحت عانسا في سوق الكساد ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الخلطة الآثمة لن تحقق أهدافها للتكلف الظاهر الذى يبيده كل واحد منها إلى الآخر ، وكما سمعنا عن رجال ونساء بقوا في المخطوبة سنين ، فلم تمض فترة زمنية على الزواج من بعضهم بعضا ، وإذ تحدث الفرقة ، ويقع الطلاق !! فأين التعرف على الأخلاق بخلطة المخطوبة ؟ ألا فليتذكر أولو الألباب ..

#### (ج) أدب النظر إلى الزوجة :

فيجوز للزوج أن يرى من زوجته كل شيء بشهوة أو بغير شهوة .. لأنه لما جاز المس والجماع فلأن يجوز ما دونها وهو النظر إلى جميع بدنها من باب أولى ، وإن كان الأفضل ألا ينظر أحدهما إلى عورة صاحبه لحديث عائشة رضى الله عنها ( قبض رسول الله - ﷺ - ولم يرمي ولم أر منه ) والأصل في جواز الرؤية لكل شيء ما رواه أبو داود والترمذى عن معاوية بن حيدة قال : قلت يا رسول الله : عوراتنا ما نأتى بها وما نذر ؟ قال ( احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك )<sup>(١)</sup> . قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين ﴾<sup>(٢)</sup> .

#### (د) أدب النظر إلى المرأة الأجنبية :

لا يجوز للرجل البالغ أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت غير مشتهة ولكن ما هى المرأة الأجنبية وما هو الرجل الأجنبى ؟  
- الرجل الأجنبى : هو من يحل للمرأة الزواج منه كابن عمها - وابن عمتها ، وابن خالها ، وابن خالتها ، وزوج أختها ، وزوج خالتها .  
- والمرأة الأجنبية : هى من يحل للرجل الزواج منها كابنة عمه ، وابنة عمته ، وابنة خاله ، وابنة خالته ، وزوجة أخيه ، وزوجة عمه ، وزوجة خاله ، وأخت زوجته ، وعمتها وخالتها .  
ويليق بالرجل الصبى ان كان مراهقا أو مميزا يفرق بين الشوهاء والحسنة ، فلا يجوز لأحدهما النظر إلى المرأة الأجنبية ..

(١) البخارى - جهاد - ٧٢/٤ ط الشعب ، مسلم ج ٢ - ٩٧/٢ رقم ١٣٤١ .

(٢) سنن أبى داود ٣٠٤/٤ رقم ٤٠٩٧ . الترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ . ابن ماجه ٦١٨/١ رقم ١٩٢٠ . أحمد ٣/٥ .

(٣) الأيتان : ٥ ، ٦ من سورة المؤمنون .

أما الأحاديث :

فقد روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود والحاكم ، وقال الحاكم صحيح الإسناد عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل ( النظرة سهم من سهام إبليس ، من تركها مخافة أبدلته إيماناً يجد حلاوته في قلبه )<sup>(١)</sup>

وروى أحمد الطبراني عن أبي أمامة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ( ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه )<sup>(٢)</sup>  
وروى أحمد وابن حبان في صحيحه والحاكم عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ

قال : ( اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة . اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمتم ، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم )<sup>(٣)</sup>

وروى الشيخان - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ( كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذانان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه )<sup>(٤)</sup>

وروى مسلم والترمذى .. عن جرير - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فقال : ( اصرف بصرك )<sup>(٥)</sup>

وروى أبو داود والترمذى عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : كنت عند رسول الله - ﷺ - وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب . فقال النبي ﷺ ( احتجبا منه ) فقلنا : يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال النبي ﷺ ( أفعمياوان أنتما ألستما تبصران )<sup>(٦)</sup>

فهذه النصوص تؤكد تأكيداً تاماً بما لا يقبل الجدل أن نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية حرام ، وأن نظر المرأة إلى الرجل الأجنبي حرام أيضاً إذا كانا في مجلس واحد وترتب من النظر فتنه .

ولا شك أن الغاية التي يهدف إليها الاسلام من غض البصر - كما يقول صاحب الظلال - هو إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، ولا تستثار فيه الغرائز في كل حين . فعمليات الاستشارة المستمرة تنتهى بالإنسان إلى سعار شهوانى لا ينطفيء ولا يرتوى ، والنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة ، والجسم العارى .. كلها لا تصنع شيئاً إلا أن تهيج ذلك السعار الشهوانى المجنون واحدى وسائل الاسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستشارة وإبقاء

(١) الطبراني الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢ . حاكم ٣١٤/٤ .

(٢) أحمد ٢٦٤/٥ . طبراني الكبير ٢٤٧/٨ رقم ٧٨٤٢ .

(٣) أحمد ٣٢٣/٥ ، ابن حبان ٢٤٥/١ ، الحاكم ٣٥٩/٤ .

(٤) البخارى - استئذان - ٦٧/٨ ، قدر - ١٥٦/٨ ، مسلم - قدر - ٢٠٤٦/٤ رقم ٢٦٥٧ .

(٥) مسلم - آداب - ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥٩ - ترمذى ١٠١/٥ رقم ٢٧٧٦ .

(٦) سنن أبي داود - لباس - ٣٦١/٤ رقم ٤١١٢ ، ترمذى - استئذان - ١٠٢/٥ رقم ٢٧٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

الدافع الفطري العميق بين الجنسين سلبيا ويقوة الطبيعة دون استشارة مصطنعة .  
لقد شاع في وقت من الأوقات أن النظرة البريئة ، والحديث الطلق ، والاختلاط الميسور . والدعابة  
المرحة بين الجنسين ، والإطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة .. شاع ان هذا تنفيس وترويح وإطلاق  
للرغبات الحبيسة .

ووقاية من الكبت ومن العقد النفسية . وتخفيف من حدة الضغط الجنسي وما وراءه من اندفاع غير  
مأمون .. ولكن نسي هؤلاء الذين يتمسكون بمثل هذه النظريات والأفكار أن الميل الفطري بين الرجل  
والمرأة ميل عميق في التكوين الحيوي ، لأن الله - سبحانه - قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ،  
وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها ، فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود ، وإثارته في كل حين تزيد من  
عرامته ، وتدفع إلى الافضاء المادى للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة  
وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة .

فالنظرة تثير ، والحركة تثير ، والضحكة تثير ، والدعابة تثير ، والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير ..  
( والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل في حدوده الطبيعية ثم يلبي تلبية طبيعية  
عن طريق الزواج المشروع ، وهذا هو المنهاج الذي اختاره الإسلام وارتضاه للجنس البشرى ليتم له  
هدوؤه النفسى . واستقراره الفكرى . وراحته العصبية ، ورباطه السليم الذى يربط بين سائر أبناء  
الانسان .. )

وما أحسن ما قال بعضهم في استشارة النظر :

كل الحوادث مبدؤها من النظر	ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت في قلب صاحبها	فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء مادام ذا عين يقلبها	في أعين الغيد موقوف على خطر
يسر مقلته ما ضر مهجته	لا مرجحاً بسرور عاد بالضرر

وصدق رسول الله - ﷺ - القائل : فيما رواه الطبراني ( ثلاثة لا ترى أعينهم النار . عين حرس في  
سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله )<sup>(١)</sup>

(هـ) أدب نظر الرجل الى الرجل :

لا يجوز ان ينظر الرجل إلى الرجل فيما بين سرته إلى ركبته سواء أكان الرجل المنظور إليه قريبا أم  
بعيدا . وسواء أكان مسلما أو كافرا .. ؟

أما ماعدا ذلك كالبطن والظهر والصدر .. فإنه يجوز إذا أمن الناظر الشهوة ..  
والأصل في حرمة هذا ما رواه مسلم عن النبي ﷺ أنه قال : ( لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ،  
ولا المرأة إلى عورة المرأة )<sup>(٢)</sup>

(١) المعجم الكبير للطبراني ٤١٦/١٩ رقم ١٠٠٣ .

(٢) مسلم - ج ١ - ٢٦٦/١ رقم ٣٣٨ .

وما رواه أحمد وأصحاب السنن .. ( احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك )<sup>(١)</sup> .  
وأخرج الحاكم عنه - عليه الصلاة والسلام - ( ما بين السرة والركبة عورة )<sup>(٢)</sup> .  
وروى الحاكم ان النبي - ﷺ - رأى رجلا مكشوف الفخذ ، فقال له موجهها ومرشدا ( غط فخذك  
فإن الفخذ عورة ) وفي رواية الترمذى ( الفخذ عورة )<sup>(٣)</sup> .  
فمن هذه النصوص يتبين :

أنه لا يجوز للرجل أن يكشف جزءا من سرته إلى ركبته لا في رياضة ، ولا في سباحة ، ولا في  
تدريب ، ولا في حمام .. وإن أمن الشهوة - وإذا أمره أحد في كشف جزء من عورته فعليه ألا يطيعه  
للحديث : ( لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ) ..

أما ما نسب إلى المالكية بأن العورة هي السوأتان فقط ، وماعدا السوأتان يجوز كشفه .. فهذا  
الادعاء غير صحيح بل هو من الجهل والتضليل .  
ان العورة عند المالكية تقسم إلى قسمين :

١ - عورة بالنسبة للصلاة .

٢ - وعورة بالنسبة للنظر .

أما العورة بالنسبة للصلاة فتقسم إلى قسمين :

عورة مغلظة : وهي السوأتان ( القبل والدبر )

عورة مخففة : وهي ما بين السرة الى الركبة .

فالعورة المغلظة إذا كشفت في الصلاة تعاد مطلقا سواء أخرج وقتها أم لم يخرج .. ؟  
والعورة المخففة إذا كشفت في الصلاة تعاد في الوقت فقط ، أما إذا خرج وقتها فلا تعاد .  
أما العورة بالنسبة للنظر : فيحرم كشفها سواء أكانت مغلظة أم كانت مخففة .

فعورة الرجل مع رجل آخر ما بين سرته الى ركبته .

وعورة المرأة مع المرأة إذا كانتا مسلمتين ما بين السرة والركبة .

وعورة المرأة المسلمة مع المرأة الكافرة ، كلها عورة ماعدا الوجه والكفين في قول ، وجميع بدنهما في  
قول آخر .

وعورة المرأة مع محارمها هي غير الوجه وغير اليدين وغير الرأس وغير العنق وغير ظهر القدمين ..

أما ماعدا ذلك فهو عورة لا تحل النظر إليه .

فيتبين من هذا النص الفقهي المالكي ان الأئمة - الأربعة - رضی الله عنهم - متفقون على أن عورة  
الرجل مع الرجل هي ما بين السرة والركبة ، وبناء على هذا يحرم النظر فيما بينهما ، ويحل النظر فيما  
عدا ذلك .

(١) أحمد ٣/٥ - ترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ .

(٢) الحاكم ٥٦٨/٣ .

(٣) الحاكم - معرفة الصحابة ٦٣٧/٣ ، ترمذى ١١١/٥ رقم ٢٧٩٧ .

## (و) أدب نظر المرأة إلى المرأة :

لا يجوز أن تنظر المرأة من المرأة إلى ما بين سرتها إلى ركبته سواء أكانت المرأة المنظور إليها قريبة أم بعيدة ، وسواء أكانت مسلمة أم كافرة .

والأصل في ذلك الحديث الذي سبق ذكره : ( لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة ) والحديث الذي رواه الحاكم ( ما بين السرة والركبة عورة ) وحديث ( الفخذ عورة ) فمن هذه النصوص تبين :

يحرم على المرأة أن تنظر إلى فخذ ابنتها أو أختها أو أمها أو جارتها أو صديقتها . . لا في حمام ولا في غيره . .

والحكمة في هذا التحريم لتكون المرأة مصونة من هياج الغريزة وتوقدها حين ترى منظرا مثيرا . أو مشهدا فيه فتنة . . وقد تؤدي هذه الاستثارة الجنسية بالمرأة إلى ( السحاق ) الذي هو اتصال المرأة بالمرأة اطفاء لثورة الغريزة فيها . واخمادا لعرامتها . .

ومن علامات الساعة . . كما صح في الأحاديث . . ( اكتفاء الرجال بالرجال ( أى اللواط ) ، واكتفاء النساء بالنساء ( أى السحاق ) فعلى المسلمات الغيورات أن يتجنبن النظر إلى عورات نساء مثلهن سواء أكان بذلك أثناء خلع الثياب للاستحمام ، أو التذليك في الحمام ، أو في حفلات الأعراس حيث العرى السافل والتكشف الممقوت الذى يندى له جبين الحياء !!

وعلى الرجال الغيورين الا يأذنوا لزوجاتهم ولا لبناتهم في دخول الحمامات العامة لاشتغالها على الكشف والعرى والمفاسد كما هو شائع في أوساطنا الاجتماعية اليوم .

والرسول - عليه الصلاة والسلام - نهى عن ذلك :

روى النسائي والترمذى وحسنه والحاكم عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل خليلته ، ( زوجته ) الحمام ) .

وروى الترمذى وأبو داود وابن ماجه ان نساء حمص أو الشام دخلن على عائشة - رضى الله عنها - فقالت : انتن اللاتي تدخلن نساءكن الحمامات ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول ( مامن امرأة تضع ثيابها في غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربه ) .

وروى ابن ماجه وأبو داود عن رسول الله - ﷺ - انه قال : ( ستفتح عليكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وأمنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء ) .

## (ز) أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة :

يحرم على المرأة المسلمة أن تكشف شيئا من مفاتها أمام امرأة كافرة إلا ما يبدو عند المهنة - أى الخدمة - كاليدنين والوجه والرجلين لعموم قوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن . . أو

نسائهن ﴿ فمن قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يفهم أن المرأة المسلمة لا يجوز أن تبدى زينتها إلا إذا كان بحضرتها نساء مسلمات صالحات أما إذا كان في المجلس نساء غير مسلمات أو نساء مسلمات فاجرات فلا يجوز لها إبداء الزينة .

والحكمة في هذا التحريم هو ما جاء في حاشية الدسوقي : ( فعورة الحرة المسلمة مع الحرة الكافرة ما عدا الوجه واليدين على المعتمد ، ( والحكمة ) : لئلا تصفها لزوجها الكافر ، فالتحريم كعارض لا لكونها عورة ) .

ويحرم كذلك على المرأة المسلمة ان تكشف شيئا من مفاتن جسمها أمام امرأة مسلمة فاجرة أيضا حتى لا تصف محاسنها عند الرجال . . جاء في الهدية العلائية ما يلي : ( ولا ينبغي للمرأة الصالحة أن تنظر إليها الفاجرة لأنها تصفها عند الرجال فلا تضع ( أى المرأة الصالحة ) جلبابها ولا خمارها . . وللشيخ الوقور العلامة ابى الأعلى المودودى فهم خاص في قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ نذكره كما ورد في كتابه ( تفسير سورة النور ) .

إن المراد بقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة الأجنيبات اللاتي لا يعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن ، أو تكون أحوالهن مشتبهة لا يوثق بها .

فليست العبرة في هذا الشأن بالاختلاف الديني بل هي بالاختلاف الخلقي . فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تخرج للنساء الكريمات المنتميات الى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات .

وأما الفاسقات اللاتي لا حياء عندهن ولا يعتمد على أخلاقهن وآدابهن فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة مؤمنة صالحة ولو كن مسلمات لان صحبتتهن لا تقل عن صحبة الرجال حذرا على اخلاقها ) . . . ولكن أين هؤلاء النساء الكريمات غير المسلمات ذوات الأخلاق والفضل في هذا العصر ؟ في تقديري أن هذا لا يوجد إلا في بيئات محدودة فعلى المرأة المسلمة أن تحتاط لدينها وسمعتها مخافة التأثير بأخلاق غير دينها . أو بأخلاق مسلمات مستهترات لا يرعين شرفا ولا حرمة !! . .

(ح) أدب النظر إلى الأمرد :

الأمرد هو الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد ، وهو الذى يتراوح عمره ما بين ( ١٠ - ١٥ سنة ) . والنظر الى الأمرد جائز إذا كان لضرورة كالبيع والشراء والأخذ والعطاء والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة .

أما إذا كان النظر من أجل الالتذاذ بالجمال فهو حرام لكونه يجر إلى الشهوة ويؤدى إلى الفتنة . ودليل الحرمة قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ .

ولقد بالغ السلف الصالح في الأعراض عن المرد الحسان والنظر إليهم ومجالستهم : قال الحسن بن ذكوان : ( لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورا كصور العذارى هم أشد فتنة من النساء ) .

ودخل سفيان الثوري الحمام فدخل عليه صبي حسن الوجه فقال : ( أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا ، ومع كل أمرد سبعة عشر شيطانا ) .

وجاء رجل إلى الامام أحمد ومعه صبي حسن الوجه فقال له :

من هذا منك ؟

قال : ابن أختي .

قال : ( لا تحيء به إلينا مرة أخرى ، ولا تمش معه بطريق لثلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه سوءا ) .

وقال سعيد بن المسيب : ( إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه ) .  
والحكمة في تحريم النظر إلى الأمرد من غير ما ضرورة هي مخافة الوقوع في الفاحشة سدا للذرائع وحسما للفساد .

والمسلم التقى الورع هو الذى يحتاط دائما لدينه وخلقه وسمعته ويتقى بحذر مواطن التهم .  
( ط ) أدب نظر المرأة إلى الأجنبي :

يجوز للمرأة المسلمة أن تنظر إلى الرجال وهم يمشون في الطرقات أو هم يلعبون ألعابا غير محرمة ، أو هم يتعاطون البيع والشراء أو غير ذلك . والدليل على هذا ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون في حراهم في المسجد يوم العيد وعائشة - رضى الله عنها - تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت وذلك سنة سبع هجرية .

وأما حديث ( احتجبا منه ) . . ( أفعميا وإن أنتما ألسما تبصرانه ؟ فمحمول على اجتماع أم سلمة وميمونة مع ابن أم مكتوم في مجلس واحد وتحديق بصرهن إليه مقابلة ومواجهة !!

يقول العلامة أبو الأعلى المودودي في كتابه ( الحجاب ) : ( إن هناك فرقا دقيقا بين نظرة المرأة إلى الرجال ) ونظر الرجال إلى النساء من حيث الخصائص النفسية للصنفين ، وذلك أن في طبيعة الرجل الإقدام فهو إذا أحب شيئا يسعى في إحرازه والوصول إليه ولكن في طبيعة المرأة التمتع والفرار ؛ لحيايتها ) وهى مادامت على فطرتها ولم تنسلخ منها ، لا يمكن أن يكون فيها من الجرأة والوقاحة

والإقدام ما تتقدم به بنفسها الى شيء تحبه وتعجب به ، وقد راعى الشارع عليه الصلاة والسلام هذا الفرق بين طبعى الصنفين فلم يشدد في النهى عن نظر المرأة إلى الأجنبي تشديده في النهى عن نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية وقد اشتهر حديث عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ أراها لعب الحبشة بحراهم في المسجد مما يفيد أنه ليس في نظر النساء إلى الرجال بمحذور على الإطلاق وإنما المكروه اجتماع النساء والرجال في مجلس واحد وتحديق بعضهم الى بعض كأمر أم سلمة وميمونة أن يحتجبا من ابن أم مكتوم - وأيضا لا يجوز من النظر ما يخاف منه الفتنة ) .

ويقول العلامة ابن حجر في شرح البخارى : ( واستدل بهذا الحديث - أى حديث نظر عائشة إلى الحبشة - على جواز رؤية المرأة الأجنبية للرجل الأجنبي دون العكس ، ويدل له استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منقبات لثلا يراهن الرجال ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لثلا يراهم النساء ، فدل على اختلاف الحكم بين الفريقين .

وبهذا احتج الامام الغزالي للجواز فقال : لسنا نقول إن وجه الرجل في حق المرأة عورة كوجه المرأة في حق الرجل ، فيحرم نظر المرأة الى الرجل عند خوف الفتنة وإن لم تكن فتنة فلا ، إذ لم تزل الرجال على

مر الزمان مكشوفى الوجوه ، والنساء يخرجن متنقيات . . فلو استووا لأمر الرجال بالتنقب أو منعوا من الخروج .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم أن نظر المرأة إلى الأجنبية جائز بشرطين :  
الأول : الا يترتب على النظر ما يخشى منه الفتنة .

الثانى : الا يكون التحديق فى مجلس واحد مواجهة ومقابلة .

(ى) حالات ضرورية يباح فيها النظر :

سبق أن ذكرنا أنه لا للرجل أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت دميمة غير مشتهة . . سواء أكان النظر بشهوة أو بغير شهوة ؟

لعموم قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ ولشمول قوله - عليه الصلاة والسلام - : ( اصرف بصرك )<sup>(١)</sup> .

ولكن يستثنى من هذا النظر حالات ضرورية وأمور طارئة . . نذكرها على الترتيب التالى :

١ - النظر بقصد الخطبة : سبق الكلام عليه بشكل مفصل فى بحث ( أدب النظر إلى المخطوبة ) .

٢ - النظر بقصد التعليم : يجوز النظر إلى وجه المرأة الأجنبية من غير زينة بقصد التعليم بشرط :  
- أن يكون العلم الذى تتعلمه معتبرا شرعا فيه صلاح الدين أو الدنيا .

- أن يكون فى حدود اختصاصها كتعليمها أصول التمريض وفن الولادة .

- والا يخشى من النظر إلى وجهها فتنة .

- والا يترتب على التعليم خلوة .

- والا يوجد نساء يقمن بالتعليم مقام الرجال .

ولاشك أن الاسلام حين وضع هذه القيود . . أراد تكوين مجتمع نظيف طاهر . . لا تحوم حوله الشبه ، ولا توجه إليه التهم . . حتى تبقى الفتاة حصينة طاهرة ، لا تمتد إليها يد باثم ، ولا تنظر إليها عين بخيانة .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾<sup>(٢)</sup> .

٣ - النظر بقصد المداواة : يجوز أن ينظر الطبيب من الأجنبية إلى المواضع التى يقوم على علاجها ، لما روى مسلم عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الحجامه فأمر النبی ﷺ - أبا طيبة أن يحجمها<sup>(٣)</sup>

ومعالجة الطبيب للمرأة الأجنبية لا تجوز إلا بشروط :

١ - أن يكون الطبيب تقيا أمينا عدلا ذا اختصاص وعلم .

٢ - الا يكشف من أعضاء المرأة إلا قدر الحاجة إذا تعين النظر .

٣ - الا تكون هناك امرأة مختصة تقوم مقام الطبيب فى علمه واختصاصه .

٤ - أن تكون المعالجة بوجود محرم ، أو زوج أو امرأة ثقة كامها أو أختها أو جارتها .

(١) مسلم الاستئذان حديث رقم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذى ٢٧٧٧ وأحمد ٣٥٨/٤ ، ٣٦١ .

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٩

(٣) مسلم - كتاب السلام ١٧٣٠/٤ رقم ٢٢٠٦



٥ - الا يكون الطيب كافرا مع وجود مسلم .

فإذا توافرت هذه الشروط فيجوز للطيب أن ينظر أو يلمس موضع العورة بالنسبة للمرأة لأن الاسلام دين يدفع عن الناس الجرح . ويجلب لهم المصلحة والتيسير .. فمبدؤه في ذلك .. ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ <sup>(١)</sup> .  
﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ <sup>(٢)</sup> .

٤ - النظر بقصد المحاكمة والشهادة : يجوز للقاضي والشاهد أن ينظر من المرأة إلى الوجه والكفين وإن خافا الفتنة .. لما يترتب على النظر من إحقاق حق ودفع ظلم .. وإنما جاز النظر لكون المتنفة غير معروفة لدى القاضي ولدى الشاهد .. فتكشف عن وجهها في هذه اللحظات لتعرف أنها هي المعنية حتى لا تلتبس الأمور وتضيع في المجتمع الحقوق .

وما ذاك إلا أن الإسلام دين الواقع والحياة ، يحقي للناس مصالحهم ويحفظ لهم حقوقهم ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
وفي هذا المقام أسوق هذه القصة التاريخية الخالدة ليعرف أهل الحمية والغيرة من الرجال والنساء كيف كان السلف الصالح يتخرجون في أن تكشف المرأة وجهها أمام الرجال ولو كان الكشف جائزا شرعا ؟

جلس موسى بن إسحق قاضي الري والأهواز في القرن الثالث الهجري ينظر في قضايا الناس وكان بين المتقاضين امرأة ادعت على زوجها أن عليه خمسمائة دينار مهرا لها ، فأنكر الزوج أن لها في ذمته شيئا .

فقال له القاضي : هات شهودك .

فقال : قد أحضرتهم .

فاستدعى القاضي أحدهم وقال له : أنظر إلى زوجته لتشير إليها في شهادتك فقام الشاهد وقال للزوجة : قومي .

فقال الزوج : ماذا تريدون منها ؟

فقيل له : لا بد أن ينظر الشاهد إلى امرأتك وهي مسفرة لتصح عنده معرفته بها .

فكره الرجل أن تضطر زوجته إلى الكشف عن وجهها للشهود أمام الناس .

فصاح : إني أشهد القاضي على أن لزوجتي في ذمتي هذا المهر الذي تدعيه ولا تسفر عن وجهها .. فلما سمعت الزوجة ذلك أكبرت في رجلها أنه يضمن بوجهها على رؤية الشهود ، وأنه يصونها من أعين الناس !!

فصاحت تقول للقاضي : إني أشهدك على أني قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه في الدنيا والآخرة .

فقال القاضي لمن حوله : ( اكتبوا هذا في مكارم الأخلاق ) .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بأداب الاسلام في النظر سواء ما يتعلق بأدب النظر الى المحارم أو في

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥

(٣) سورة المائدة آية ٥٠

أدب النظر إلى المخطوبة أو في أدب نظر الزوج إلى زوجته أو في أدب نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية أو في أدب نظر الرجل إلى الرجل أو في أدب نظر المرأة إلى المرأة وفي أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة أو في أدب نظر الرجل إلى الأمرد أو في نظر المرأة إلى الأجنبية أو في أدب النظر بقصد التعليم أو في أدب النظر بقصد المداواة . أو في أدب النظر بقصد المحاكمة أو الشهادة أو في أدب النظر إلى عورة الصغير .  
(ك) أدب النظر إلى عورة الصغير :

قال الفقهاء : الصغير سواء أكان ذكرا أو أنثى لا عورة له إذا كان ابن أربع سنين فما دونها ، ثم زاد على الأربع فعورته قبل والدبر وما حولهما . . حتى إذا بلغ حد الشهوة صارت عورته كعورة البالغ على التفصيل الذي سبق ذكره وكلما عودناه الستر وهو صغير كان أفضل .

كل هذه الآداب من النظر يجب على الآباء والأمهات والمربين جميعا أن يعطوا لأبنائهم القدوة العملية فيها ثم يلقنوها أبناءهم تلقينا وتوعية . . إن أرادوا لهم الخلق الفاضل ، والشخصية الإسلامية المتميزة والسلوك الاجتماعي الخير ، والتربية الإسلامية السامية . . والله سبحانه لن يترهم أعمالهم ولن ينقصهم أجورهم وثوابهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون !!

( من كتاب تربية الأولاد في الاسلام - الجزء الثاني - للاستاذ عبد الله ناصح علوان ) .  
قوله تعالى : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو أبناءهن أو أخواتهن أو بنى إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نساتهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ .  
والمراد بغض البصر هاهنا أى عما حرم الله كما سبق في أمر المؤمنين بذلك والمراد بحفظ الفروج أى عن كل ما حرم الله تعالى حتى تكون العفة هى الخلق الذى يتحل به المؤمنون والمؤمنات والاسلام هو دين النظافة فى كل شىء نظافة العقيدة ونظافة النفس والعقل والمال والعرض والسلوك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والنظافة فيه تسرى سريان الماء فى العود الأخضر .

الله أكبر ان دين محمد . . وكتابه أقوى وأقوم قيلا  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

أى لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه : قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعنى على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التى تحلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن إخفاؤه وقال بقول ابن مسعود ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ قال وجهها وكفاها والخاتم .

وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعى

وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل أن يكون تفسيراً للزينة التي نهين عن ابدائها كما قال أبو إسحق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله ﴿ولا يبدن زينتهن﴾ الزينة القرط والدملج والخلخال والقلادة .

وفي رواية عنه بهذا الاسناد قال : الزينة زيتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب وقال الزهري لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهري ﴿إلا ما ظهر منها﴾ الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكي ومؤمل بن الفضل الحراقي قالوا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة - رضي الله عنها - أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : ( يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ) وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل

قوله تعالى : ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ يعني المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتواري ما تحتها من صدرها وتراثبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة ممنهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن في هيئتهن وأحوالهن كما قال تعالى : ﴿يا أيها النبي قل

لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ . وقال في هذه الآية الكريمة ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أي يغطي به الرأس وهي التي تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير ﴿وليضربن﴾ وليشدن ﴿ببخمرهن على جيوبهن﴾ يعني على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وقال البخاري حدثنا أحمد بن شبيب بسنده عن عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل

الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها . وقال أيضا عن صفية بنت شيبة أن عائشة - رضي الله عنها - كانت تقول : لما نزلت هذه الآية ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أخذن أزهرن قشققنها من قبل الحواشي فاختمرن بها ، وقال ابن أبي حاتم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت : ذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة - رضي الله عنها -

إن لنساء قريش فضلا وإني والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذي قرابته فما ممنهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ .

معجزات كأن على رموسهن الغربان . وقال ابن جرير حدثنا يونس عن عروة عن عائشة قالت يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شقن أكتف مروطن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب .

قوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زيتهن إلا لبعولتهن ﴾<sup>(١)</sup> أى أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو آبائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن ﴾ أى أزواجهن كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزيتنها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر ، حدثنا موسى يعنى : ابن هارون ، حدثنا أبو بكر يعنى : ابن أبي شيبه حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود عن الشعبي وعكرمة في هذه الآية : ﴿ ولا يبدن زيتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الخال ، لأنها ينقيان لأبائهما ، ولانضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . وقوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعنى : تظهر بزيتنها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ، لثلاث تصفهن لرجالهن ، وذلك - وإن كان مخدورا في جميع النساء - إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد ، فإنهن لا يمتنعن من ذلك مانع ، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ :

( لا تبأشر المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها ) أخرجه في الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن ابن مسعود . وروى سعيد بن منصور عن أبيه ، عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة : أما

بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد في قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : نسائهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدي مشركة ، وروى عبد الله في تفسيره عن الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : هن المسلمات ، لا تبديه لليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، وما لا يحل أن يراه إلا محرم .

وروى سعيد : عن ليث عن مجاهد قال : لا تضع المسلمة خمارها عند مشركة ، لأن الله تعالى : يقول ﴿ أو نسائهن ﴾ فليست من نسائهن . وعن مكحول وعبادة بن نسي : أنها كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن ضمرة قال : قال ابن عطاء : عن أبيه ، قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات - فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولا بد ، والله أعلم .

(١) الآية : ٣١ من سورة النور .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه : في ( كتاب النكاح ) باب : لا تبأشر المرأة المرأة ج ٧ ص ٤٩ وأخرجه أبو داود في سننه : في ( كتاب النكاح ) باب : ماتؤمر به من غض البصر ج ٢ ص ٦١٠ رقم ٢١٥٠ . وأخرجه الترمذى : في ( كتاب الأدب ) باب : كراهية مباشرة الرجال الرجال والمرأة ج ٥ ص ١٠٩ رقم ٢٧٩٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الإمام أحمد ص ٣٦٠٩

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَآ مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ <sup>(١)</sup> قال ابن جريج : يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زيتها لها ، وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رفيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود : حدثنا محمد بن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجلها ، وإذا غطت به رجلها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ما تلقى قال : ( إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك و غلامك ) <sup>(٢)</sup> وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة خديج الحمصى - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة وأنه ، قد كان النبى ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على على بن أبى طالب - رضى الله عنه .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا كان لإحدكن مكاتب ، وكان له مايؤدى ، فلتحتجب منه ) <sup>(٣)</sup> ورواه أبو داود عن مسدد عن سفیان به .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وله وخوت ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهوهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذى لاشهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله . وقال عكرمة : هو المخنث الذى لا يقوم ذكره . وكذلك قال : غير واحد من السلف . وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى ﷺ وهو ينعت امرأة ، يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان : فقال رسول الله ﷺ ( ألا أرى هذا يعلم ما ههنا لا يدخلن عليكن ) فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم <sup>(٤)</sup> .

وروى الإمام أحمد بسنده : عن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبى أمية يعنى : أخاها والمخنث يقول : يا عبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : ( لا يدخلن هذا عليك ) أخرجه فى الصحيحين <sup>(٥)</sup> .

(١) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه فى ( كتاب اللباس ) باب : العبد ينظر الى شعر مولاته ج ٤ ص ٣٥٩ رقم ٤١٠٦

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده من حديث أم سلمة ج ٦ ص ٢٨٩ وأخرجه أبو داود فى سننه فى ( كتاب العتق ) باب : فى المكاتب يؤدى بعض كتابته فيعجز أو يموت ج ٤ ص ٢٤٤ رقم ٣٩٢٨ .

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى ( كتاب اللباس ) باب : فى قوله : ( غير أولى الإربة ) ج ٦ / ٦٣ رقم ٤١٠٩ .

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٢٩٠ / ٦

(٥) أخرجه البخارى فى ( كتاب اللباس ) باب : إخراج التشبهين بالنساء من البيوت ، ٢٠٥ / ٧ . وأخرجه الإمام مسلم فى

( كتاب السلام ) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ، ج ٧ / ١٠ ، ١١ .

قال الامام احمد بسنده : عن عروة بن الزبير ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث ، وكانوا يعدونه من غير أولى الاربعة ، فدخل النبي ﷺ وهو عند بعض نسائه ، وهوينعت امرأة ، فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، فقال النبي - ﷺ - : ( ألا أرى هذا يعلم ما همنا لا يدخلن عليكم هذا ، فحجبوه )<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾<sup>(٢)</sup> يعنى : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما أن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاة والحسنة ، فلا يمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إياكم والدخول على النساء ) قال : يا رسول الله ، أفرأيت الحمى ؟ قال : ( الحمى الموت )<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضرين بأرجلهن ﴾<sup>(٤)</sup> الآية : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشى في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فهي الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا ، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفى ، دخل في هذا النهى لقوله تعالى : ﴿ ولا يضرين بأرجلهن ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن

التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن أبي موسى - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : ( كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهي كذا وكذا ) - يعنى زانية .. وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حسن صحيح<sup>(٥)</sup> وقال أبو داود بسنده : عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال يأمة الجبار ، جئت من المسجد ؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت ؟ قالت : نعم . قال : إني سمعت حبي أبا القاسم ﷺ يقول : ( لا يقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة )<sup>(٦)</sup> .

ورواه ابن ماجه ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن سفيان بن عيينة . به .  
وروى الترمذى أيضا من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد أن

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ١٥٢/٦ ، ومسلم في ( كتاب السلام ) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب : ١١/٨ ، وسنن أبي داود في ( كتاب اللباس ) باب : في قوله : ( غير أولى الإربعة : ٦٣/٤ رقم ٤١٠٨

(٢) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٣) أخرجه البخارى في : ( كتاب النكاح : باب : لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، والدخول على المغيبة ، : ٤٨/٧ . ومسلم ، في ( كتاب السلام ) باب : تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها : ٧/٧

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٥) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، أبواب الاستئذان ، باب : ماجاء في كراهية خروج المرأة متعطرة ، ٧٠/٨ - ٧١ رقم ٢٩٣٧ .

(٦) سنن أبي داود ( كتاب الترجل ) باب : ماجاء في المرأة تطيب للخروج حديث رقم ٤١٧٤ ج ٤ ص ٧٩ . وفي سنن ابن ماجه في ( كتاب الفتن ) باب : فتنة النساء حديث رقم ٤٠٠٢ ج ٢ ص ١٣٢٦ .

رسول الله ﷺ قال : ( الرافلة في الزينة في غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لانور لها ) (١) .

ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من القدح .  
قال أبو داود حدثنا القعنبي ، حدثنا عبد العزيز ، يعني : ابن محمد عن أبي اليمان ، عن شداد بن أبي عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبي أسيد الأنصاري ، عن أبيه ، أنه سمع النبي ﷺ وهو خارج المسجد .

وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق ، فقال رسول الله ﷺ للنساء ( استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق ، عليكن بحافات الطريق ) (٢) . فكانت المرأة تلتصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به ، وقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (٣) أي : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نها عنه ، والله تعالى هو المستعان !

### ( مبحث فقهي في رحاب الآية )

رأينا من باب تنمة الفائدة في رحاب تفسيرنا للآيتين الكريمتين السابقتين أن نذكر هذا المبحث الفقهي الذي جاء في كتاب  
( الأعلام بنقد كتاب الحلال والحرام ) لمؤلفه :  
صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .  
فقد كتب تحت عنوان : -

### \* حكم كشف المرأة لوجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب \*

قال مانصه :

في صفحة ( ١١٢ ) قال المؤلف : ( وعورة المرأة بالنسبة للرجل الأجنبي عنها جميع بدنها ماعدا وجهها وكفيها ) - وفي الصفحة ( ١١٣ ) لما ذكر نظر المرأة إلى الرجل ، قال : ( ومثل هذا نظر الرجل إلى ما ليس بعورة من المرأة - أي إلى وجهها وكفيها فهو مباح ، ما لم تصحبه شهوة أو تحف منه فتنة ) وفي صفحة ( ١١٥ ) بعد أن ذكر قوله تعالى : ﴿ ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ (٤) قال : وهذا التوجيه يتضمن نهى النساء المؤمنات عن كشف الزينة الخفية ، كزينة الأذن ، والشعر ، والعنق ،

(١) الحديث في تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذی : ( أبواب الرضاع ) باب : ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة رقم ١١٧٧ ج ٧ ص ٣٢٩

وقال الترمذی : هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف في الحديث من قبل حفظه ، وهو صدوق .

(٢) الحديث في سنن أبي داود ( في كتاب الأدب ) باب : في مشي النساء مع الرجال في الطريق رقم ٥٢٧٢ ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور

والصدر ، والساق ، أمام الرجال الأجانب الذين رخص لها أمامهم في إبداء الوجه ، والكفين ، (ماظهر منها) .

وفي صفحة ( ١١٣ ) استدل المؤلف : على جواز نظر الرجل الأجنبي إلى وجه المرأة ، وكفيها ، بحديث عائشة : أن أختها أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ في لباس رقيق يشف عن جسمها ، فأعرض النبي ﷺ . عنها وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه (٣) . قال : وفي الحديث ضعف ، ولكن تقويه أحاديث صحاح في إباحة رؤية الوجه والكفين وكشفهما .

ثم قال : وقد روى أن النبي ﷺ حين وجد الفضل ابن عمه العباس ، ينظر إلى امرأة أجنبية حسناء ، ويطيل الالتفات إليها ، وكان رديف النبي ﷺ فجعل ﷺ يصرف وجهه إلى الشق الآخر ، وقال :

( رأيت شابا وشابة ، فلم آمن عليهما الفتنة ) (٢) أ هـ حاصل كلامه . وأقول : ان ماذكره المؤلف في هذا المبحث يشتمل على أخطاء كثيرة هي :

أولا : تجويزه للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب ، وتجويزه للرجل الأجنبي أن ينظر إليهما باعتبارهما غير عورة ، وهذا قول باطل وخطأ واضح ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على أن وجه المرأة وكفيها وجميع بدنها عورة يجب سترها عن الرجال الأجانب ، وإليك ذكر بعض هذه الأدلة :

قال الله تعالى : ﴿ ولا يبدن زيتتهن إلا ماظهر منها وليضررن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدن زيتتهن إلا لبعولتهن ) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ﴾ . قال شيخ الاسلام ابن تيمية : - رحمه الله - في الكلام على الايتين مانصه :

( والسلف قد تنازعوا في الزينة الظاهرة على قولين : فقال ابن مسعود ومن وافقه : هي الثياب ، وقال ابن عباس ومن وافقه هي مافي الوجه واليدين مثل الكحل والخاتم - إلى أن قال جامعا بين القولين : وحقيقة الأمر ، أن الله جعل الزينة زيتين - زينة ظاهرة وزينة غير ظاهرة ، وجوز لها ابداء زيتها الظاهرة لغير الزوج ، وذوى المحارم ، وأما الباطنة فلا تبديها إلا للزوج وذوى المحارم ، وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب يرى الرجل وجهها ويديها ، وكان آنذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين ، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره ثم لما أنزل الله - عز وجل - آية الحجاب بقوله : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ﴾ (٥) .

(١) الحديث في سنن أبي داود في (كتاب اللباس) باب : فيها تبدي المرأة من زيتها ، رقم ٤١٠٤ ج ٤ ص ٦٢ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند على بن أبي طالب ج ١ ص ٧٦ بلفظ : « رأيت شابا وشابة ، فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور

(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب

(٥) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب



حجب النساء عن الرجال ، وكان ذلك لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش فأرخى النبي ﷺ الست ومنع النساء أن ينظرن ، ولما اصطفى صفية بنت حيى بعد ذلك ، عام خير قالوا : إن حجبتها فهي من أمهات المؤمنين ، وإلا فهي مما ملكت يمينه فحجبها ، فلما أمر الله ألا يسألن إلا من وراء حجاب ، وأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدين عليهن من جلابيهن .

والجلباب هو الملاءة ، وهو الذى يسميه ابن مسعود وغيره الرداء وتسميه العامة الإزار وهو الإزار الكبير الذى يغطى رأسها وسائر بدنها ، وقد حكى عبيدة وغيره أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينا ، ومن جنسه النقاب ، فكان النساء ينتقبن ، وفى الصحيح ( إن المحرمة لا تنتقب ، ولا تلبس القفازين )<sup>(١)</sup> ، فإذا كن مأمورات بالجلباب لثلا يعرفن وهو ستر الوجه أو ستر اليدين بالنقاب ، وكان الوجه واليدان من الزينة التى أمرت ألا تظهرها للأجانب ، فما بقى يحل للأجانب النظر إلا إلى الثياب الظاهرة ، فابن مسعود ، ذكر آخر الأمرين وابن عباس ذكر أول الأمرين انتهى .

وقال ابن كثير - رحمه الله - :

يقول تعالى : أما رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات خاصة ، وأزواجه وبناته لشرفهن بأن يدين عليهن من جلابيهن ؛ ليميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الاماء .

والجلباب هو الرداء فوق الخمار قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهري : الجلباب الملقبة . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين :

سألت عبيدة السلمانى عن قول الله - عز وجل - : ﴿ يدين عليهن من جلابيهن ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى : فى أضواء البيان ( ٦ - ١٩٧ - ٢٠٠ ) لما ذكر النقول عن السلف فى تفسير الزينة بقسميها مانصه :

( وقد رأيت فى هذه النقول عن السلف : أقوال أهل العلم فى الزينة الظاهرة ، والزينة الباطنة ، وأن جميع ذلك راجع فى الجملة إلى ثلاثة أقوال :

الأول : أن المراد بالزينة ماتنزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها ، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شئ من بدنها كقول ابن مسعود ومن وافقه : أنها ظاهر الثياب لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهى ظاهرة بحكم الاضطرار ، كما ترى - وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها ، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة .

القول الثانى : أن المراد بالزينة ماتنزين به ، وليس من أصل خلقتها أيضا ؛ لكن النظر إلى تلك الزينة

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : فى ( كتاب الحج ) باب : ما ينهى من الطيب للمحرم والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء حديث : أوله لا تلبسوا القميص إلى ولا تنتقب المرأة المحرمة ، ولا تلبس القفازين .

يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة ، وذلك كالحضاب والكحل ونحو ذلك ، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع اللابس من البدن ، كما لا يخفى .  
القول الثالث :

أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذى هو من أصل خلقتها ، لقول من قال : إن المراد بما ظهر منها : الوجه والكفان . وماتقدم ذكره عن بعض أهل العلم .  
وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول .  
وقدمنا أيضا فى ترجمته : أن أنواع البيان التى تضمنها أن يكون الغالب فى القرآن إرادة معنى معين فى اللفظ مع تكرار ذلك اللفظ فى القرآن ، فكون ذلك المعنى : هو المراد من اللفظ فى الغالب . يدل على أنه هو المراد فى محل النزاع لدلالة عليه إرادته فى القرآن بذلك اللفظ وذكرنا بعض الأمثلة فى الترجمة .  
وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان اللذين ذكرناهما فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود فى هذه الآية التى نحن بصددتها .  
أما الأول منهما : فبيانه أن قول من قال فى معنى :

﴿ ولا يبدن زينتهن إلا ماظهر منها ﴾

أن المراد بالزينة الوجه والكفان مثلا . توجد فى الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول ، وهى أن الزينة فى لغة العرب هى ما تزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها ، كالحلى والحلل ، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر ، ولا يجوز الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه وبه تعلم أن قول من قال :

الزينة الظاهرة الوجه والكفان ، خلاف ظاهر معنى لفظ الآية ، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول ، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه ، وأما نوع البيان الثانى المذكور ، فإيضاحه أن لفظ الزينة يكثر تكرره فى القرآن العظيم مرادا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها ، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين به كقوله تعالى :

﴿ يا بنى آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ﴾<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ﴾<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى :

﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾<sup>(٤)</sup>

( ١ ) من الآية : ٣١ من سورة الأعراف .

( ٢ ) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف .

( ٣ ) من الآية : ٧ من سورة الكهف .

( ٤ ) من الآية : ٦٠ من سورة القصص .

وقوله تعالى :

﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى :

﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة﴾<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى :

﴿فخرج على قومه في زينته﴾<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى :

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾<sup>(٤)</sup>

وقوله تعالى :

﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾<sup>(٥)</sup>

وقوله تعالى :

﴿قال موعدكم يوم الزينة﴾<sup>(٦)</sup>

وقوله تعالى : عن قوم موسى

﴿ولكننا حملنا أوزارا من زينة القوم﴾<sup>(٧)</sup>

وقوله تعالى :

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾<sup>(٨)</sup>

فلفظ الزينة في هذه الآيات كلها يراد به مايزين به الشيء ، وهو ليس من أصل خلقته كما ترى .  
وكون هذا المعنى : هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن ، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به  
هذا المعنى الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم ، وهو المعروف في كلام العرب كقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ماترى وإذا عططن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية : بالوجه والكفين فيه نظر .

وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن : مايتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة ، وأن من فسروها  
من العلماء بهذا : اختلفوا على قولين :

فقال بعضهم : هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة ، كظاهر الثياب . وقال  
بعضهم :

هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة ، كالكحل والخضاب ، ونحو ذلك .

قال مقيد : عفا الله عنه ، وغفر له .

أظهر القولين . المذكورين عندي ، قول ابن مسعود : - رضى الله عنه - أن الزينة الظاهرة ، هي

(١) الآية : ٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية : ٨ من سورة النحل

(٣) من الآية : ٧٩ من سورة القصص .

(٤) من الآية : ٤٦ من سورة الكهف .

(٥) من الآية : ٢٠ من سورة الحديد .

(٦) من الآية : ٥٩ من سورة طه .

(٧) من الآية : ٨٧ من سورة طه

(٨) من الآية : ٣١ من سورة النور .

مايستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية ، وإنما قلنا : أن هذا القول هو الأظهر لأنه هو أحوط الأقوال ، وأبعدها ، عن أسباب الفتنة وأطهرها لقلوب الرجال والنساء ، ولا يخفى أن وجه المرأة ، هو أصل جمالها ، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها ، كما هو معلوم .  
والجاري على قواعد الشرع الكريم : هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي .  
وقال أيضا : في صفحة ( ٥٨٤ - ٥٨٦ ) من الكتاب المذكور على قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾<sup>(١)</sup>

وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولا ، وتكون في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول .

وذكرنا أمثلة في الترجمة ، ومن أمثلته التي ذكرنا في الترجمة : . هذه الآية الكريمة ، فقد قلنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومن أمثلته قول كثير من الناس : أن آية الحجاب أعني . قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾<sup>(٢)</sup>

خاصة بأزواج النبي ﷺ فإن تعليقه تعالى : لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أظهر لقلوب الرجال والنساء من الرية ، في قوله تعالى :

﴿ ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ قرينة واضحة على ارادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين أن غير أزواج النبي ﷺ . لاحاجة إلى أظهيره قلوبهن وقلوب الرجال من الرية ، فهن وقد تقرر في الأصول أن العلة قد تعمم معلولها ، وإليه أشار في مراقى السعود بقوله :

وقد تخصص وقد تعمم . لأصلها لكنها لا تحرم .

انتهى محل الغرض من كلامنا في الترجمة ، وبما ذكرنا تعلم أن في هذه الآية الكريمة ، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام في جميع النساء ، لا خاص بأزواجه ، ﷺ وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن لأن عموم علته : دليل على عموم الحكم فيه ، - إلى أن قال :

ومن الأدلة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها ؛ جميع بدنها ، حتى وجهها قوله تعالى :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ﴾<sup>(٣)</sup>

فقد قال غير واحد من أهل العلم : إن معنى :

﴿ يدنين عليهن من جلابيهن ﴾

أنهن يسترن بها جميع وجوههن ، ولا يظهر منهن شيء ، إلا عين واحدة تبصر بها ، ومن قال به ابن مسعود ، وابن عباس ، وعبيدة السلماني وغيرهم : ، ا هـ .

وقال في صفحة ( ٥٩٢ ) أيضا مانصه :

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام ، وأن ما ذكرنا معها من الآيات فيه : الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب علمت أن القرآن دل على الحجاب .

ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ فلاشك أنهم خير أسوة لنساء المسلمين في الآداب الكريمة المتضمنة للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الرية .

(١) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب .

فمن يحاول منع نساء المسلمين - كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم - من الاقتداء بهن في هذا الأدب السماوى الكريم ، المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الرية غاش لأمة محمد - ﷺ أنهى المقصود منه .

وقال الشيخ أبو الأعلى المودودى : في كتاب الحجاب له بعد أن ذكر جملة من أقوال المفسرين على آية الأحزاب : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتُكُمْ ﴾ الآية مانصه : ( ويتضح من هذه الأقوال جميعها أنه من لدن عصر الصحابة الميمون إلى القرن الثامن للهجرة حمل جميع أهل العلم هذه الآية على مفهوم واحد ، هو الذى قد فهمناه من كلماتها .

وإذا راجعنا بعد ذلك الأحاديث النبوية والآثار علمنا منها أيضا أن النساء قد شرعن يلبسن النقاب على العموم بعد نزول هذه الآية على العهد النبوى ، وكن لا يخرجن سافرات ، فقط جاء فى سنن أبى داود والترمذى والموطأ للإمام مالك وغيره من كتب الأحاديث أن النبى ﷺ قد أمر المحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين ونهى النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب وهذا صريح الدلالة على أن النساء فى عهد النبوة قد تعودن النقاب ولبس القفازين عامة ، فهين عنه فى الإحرام ولم يكن المقصود بهذا الحكم أن تعرض الوجوه فى موسم الحج عرضا ، بل كان المقصود فى الحقيقة ألا يكون القناع جزءا من هيئة الاحرام المتواضعة ، كما يكون جزءا من لباسهن عادة . فقد ورد فى الأحاديث الأخرى تصريح بأن أزواج النبى ﷺ وعامة المسلمات كن يخفين وجوههن عن الأجانب فى حالة إحرامهن أيضا ، ففى سنن أبى داود عن عائشة قالت :

( كان الركبان يملكون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزنا كشفناه )<sup>(١)</sup> إلى أن قال : وكل من تأمل كلمات الآية ، ومافسرهما به أهل التفسير فى جميع الأزمان بالاتفاق ، وماتعامل عليه الناس على عهد النبى ﷺ ولم ير فى الأمر مجالا للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامى بستر وجهها عن الأجانب ، ومازال العمل جاريا عليه منذ عهد النبى ﷺ إلى هذا اليوم .

وقال الشيخ محمد على الصابونى فى روائع البيان : ( ٢ - ٣٨٤ ) ومن حياة السلف الصالح ، وماكان عليه النساء الفضليات - نساء الصحابة والتابعين - ، وماكان عليه المجتمع الإسلامى فى عصره الذهبى من التستر والتحفظ والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون أن الوجه لايجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة لأجل أن يتخلصوا من الاثم - بزعمهم - فى كتم العلم ، ومادروا أنها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التبرج بالمرأة المسلمة إلى التخلص من الحجاب الشرعى الذى عمل له الأعداء زمتا طويلا . وإنا لله وإنا إليه راجعون اهـ .

ومما تقدم تعلم أنه لا مستمسك للمؤلف بقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ وأن الآية حجة لنا لا له .

( ١ ) الحديث أخرجه أبو داود فى سنته : فى ( كتاب المناسك والحج ) فى باب : المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ وأخرجه ابن ماجه فى ( كتاب الحج ) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ أخرجه البخارى فى صحيحه فى : ( كتاب الحج ) باب : ماينهى من الطيب للمحرمة والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء من حديث طويل . أوله : لا تلبسوا القميص إلى ولا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين .

وأما أدلة السنة على وجوب الحجاب : فهناك أحاديث كثيرة تدل على وجوب الحجاب منها : حديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : ( أن النبي ﷺ قال : لا تنتقب المرأة المحرمة ولا تلبس القفازين )<sup>(١)</sup> رواه الامام أحمد والبخارى وأهل السنن إلا ابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال شيخ الاسلام ابن تيميه : - رحمه الله - وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين في النساء اللاتي لم يحرمن ، وذلك يقتضى ستر وجوههن وأيديهن ، - وقال : ووجه المرأة في الاحرام فيه قولان :

في مذهب الإمام أحمد وغيره - قيل : إنه كراش الرجل فلا يغطى وقيل كبذنه ، فلا يغطى بالنقاب والبرقع ، ونحو ذلك مما صنع على قدره ، وهذا هو الصحيح ، فإن النبي ﷺ لم ينه إلا عن القفازين والنقاب ، وكان النساء يدين على وجوههن مايسترها من الرجال من غير مايجافها عن الوجه ، فعلم أن وجهها كبذنه الرجل ، وذلك أن المرأة كلها عورة كما تقدم ، فلها أن تغطى وجهها ؛ لكن بغير اللباس المصنوع بقدر العضو أ هـ .

ومنها حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذونا ، أسدلت إحداها جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه<sup>(٢)</sup> . رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه - قال الشوكاني : في نيل الأوطار واستدل بهذا الحديث على أنه يجوز للمرأة إذا احتاجت إلى ستر وجهها ( يريد حال الإحرام ) لمرور الرجال قريبا منها فإنها تسدل الثوب من فوق رأسها على وجهها ، لأن المرأة تحتاج إلى ستر وجهها فلم يحرم عليها ستره مطلقا ، كالعورة أ هـ .

ومعناه أنه لا يحرم عليها ستر وجهها حالة إحرامها بحضرة أجنب أو غيرهم ، وهذا صريح من الإمام الشوكاني أنه يرى وجوب ستر المرأة لوجهها إذ أن الوجه هو موضع الزينة ، ومحل الافتتان بها ، ونساء الصحابة يكشفن وجوههن حالة الإحرام ، فإذا مر بهن الرجال الأجانب سترن وجوههن عنهن . مما يدل على أن المعتاد عندهم هو ستر الوجه .

هذه بعض أدلة الكتاب والسنة على وجوب ستر الوجه واليدين من المرأة عن الرجال الأجانب ، وطرف من كلام أهل العلم عليها ، ولو تتبعنا كل ماورد وكل ما قيل في هذا الموضوع لاحتجنا إلى مجلدات ، لكن نكتفى من ذلك بما تحصل به الإشارة .

(١) وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ( مسند عبد الله بن عمر ) وهو جزء من الحديث ج ٢ ص ١١٩ وأخرجه الترمذى في ( أبواب الحج ) باب : ما جاء في ما لا يجوز للمحرم لبسه ج ٢ ص ١٦٤ رقم ٨٣٤ وهو جزء من حديث طويل وأخرجه أبو داود في سننه في ( كتاب الحج ) باب : ما يلبس المحرم ج ٢ ص ٤١١ رقم ١٨٢٥ وفي ص ٤١٢ وقال الخطابي : أخرجه البخارى في ( كتاب الحج ) والترمذى والنسائى .

أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها - ج ٦ ص ٣٠  
(٢) وأخرجه أبو داود في سننه ( في كتاب المناسك والحج ) باب : في المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ رقم ١٨٣٣ وأخرجه ابن ماجه في ( كتاب الحج ) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ . قال المنذرى : وقد أخرج البخارى ومسلم في صحيحهما من حديث مجاهد عن عائشة .  
والحديث في سنن أبي داود ( كتاب المناسك ) باب : في المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ١٦٧ لأقم ١٨٣٣

## الجواب عما استدل به المؤلف

١ - أما استدلال المؤلف على جواز كشف الوجه واليدين من المرأة بحضرة الرجال بحديث عائشة : في قصة دخول أساء على النبي ﷺ وقوله لها : ( إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه )<sup>(١)</sup> . فمن العجيب استدلاله بهذا الحديث مع اعترافه هو بضعفه ، فكيف يعارض به الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على تحريم نظر الرجل إلى وجه المرأة الأجنبية ، ووجوب ستره - وأما قوله : ( لكن تقويه أحاديث صحاح كما نطالبه أيضا ببيان الحد الذي تؤمن عنده الفتنة ، حين النظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، وهل هناك أحد يأمن على نفسه الفتنة في هذا النظر ؟ أليس النظر وسيلة إلى الافتتان ؟ .

والمؤلف نفسه في أول كتابه قد قرر هذه القاعدة فقال : ( مآدى إلى الحرام فهو حرام ) فلماذا يتناسى ذلك هنا ؟ . وقد قال أيضا في كتابه : في صفحة ( ١١٠ ) والنظر رسول الفتنة وبريد الزنا وقديا قال الشاعر :

ومعظم النار من مستصغر الشرر .

كل الحوادث مبداها من النظر

وحديثا قال آخر :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء .

فما باله الآن يتساهل في النظر ؟ !

قال الشيخ الصابوني : في هذا الموضوع في كتابه روائع البيان ( ٢ - ١٧٣ ) والاسلام قد حرم على المرأة أن تكشف شيئا من عورتها أمام الأجانب خشية الفتنة ، فهل يعقل أن يأمرها الإسلام أن تستر شعرها وقدميها ، وأن يسمح لها أن تكشف وجهها ويديها ، وأيهما تكون الفتنة أكبر - الوجه أم القدم - ياهؤلاء كونوا عقلاء ، ولا تلبسوا على الناس أمر الدين ، فإذا كان الإسلام لا يبيح للمرأة أن تدق برجلها الأرض ؛ لئلا يسمع صوت الخلخال وتتحرك قلوب الرجال ، أو يبدو شيء من زيتها ، فهل يسمح لها أن تكشف عن الوجه الذي هو أصل الجمال ، ومنع الفتنة ، ومكمن الخطر - أ هـ . وقال العلامة الشنقيطي في أضواء البيان ( ٦ - ٦٠٢ ) مانصه : ( وبالجملية فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء في الكشف عن الوجه أمام الأجانب مع أن الوجه هو أصل الجمال ، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية ، وداع إلى الفتنة ، والوقوع فيها لا ينبغي ألم تسمع بعضهم يقول :

ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم

قلت اسمحوا لي أن أفوز بنظرة

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك ولقد صدق من قال :

ولكن تأنيث الرجال عجيب

وما عجب أن النساء ترجلت

انتهى . وإضافة إلى ذلك نقول إن الفتنة متوقعة من كل رجل ينظر إلى وجه امرأة أجنبية ، ولا سيما

الشابة الجميلة ، فإن الفتنة بالنظر إليها أعظم . فيتعين الحجاب منعاً لهذه الفتنة على جميع النساء .

(١) الحديث في سنن أبي داود (كتاب اللباس) باب فيما تبدى المرأة من زيتها الحديث رقم ٤١٠٤ ج ٤ ص ٦٢ .

ونعود إلى بيان درجة الحديث الذي استدل به المؤلف وبيان ما قاله العلماء فيه ، قال ابن كثير : قال أبو داود وأبو حاتم الرازي هو مرسل = خالد بن دريك لم يدرك عائشة - رضى الله عنها - وقال المنذرى في مختصر سنن أبي داود : قال أبو داود هذا مرسل - خالد بن دريك لم يدرك عائشة - رضى الله عنها - . وفي إسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصرى نزيل دمشق مولى بنى نصر وقد تكلم فيه غير واحد . وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجاني هذا الحديث وقال : لأعلم من رواه غير سعيد بن بشير . وقال مرة : فيه عن خالد بن دريك عن أم سلمة بدل عائشة - أ هـ . وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ - ٥٩٧) : وهذا الحديث يجاب عنه بأنه ضعيف من جهتين :

الأولى : كونه مرسلًا لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة ، كما قال أبو داود وأبو حاتم الرازي : كما قدمناه فى سورة النور .

الجهة الثانية : أن فى إسناده سعيد بن بشير الأزدي مولا هم قال فيه فى التقريب : ضعيف - مع أنه مردود بما ذكرنا من الأدلة على عموم الحجاب . ومع أنه لو قدر ثبوته قد يحمل على أنه كان قبل الأمر بالحجاب - أ هـ . قلت : وحديث هذه درجته لا يصلح الاستدلال به ، لاسيما فى هذه المسألة الخطيرة . ٢ - وأما استدلال المؤلف على جواز نظر الرجل الأجنبية إلى وجه المرأة بحديث الفضل بن العباس ، ونظره إلى الخثعمية ، وصرف النبى - ﷺ - وجه الفضل عنها - فهذا من غرائب الاستدلال لأن الحديث يدل على خلاف ما يقول : وذلك لأن الرسول - ﷺ - لم يقر الفضل على ذلك ، بل صرف وجهه وكيف يمنعه من شيء مباح - قال النووى : - رحمه الله - عند ذكره لفوائد هذا الحديث : ومنها تحريم النظر إلى الأجنبية .

ومنها إزالة المنكر باليد لمن أمكنه . وقال العلامة ابن القيم فى روضة المحبين صفحة (١٠٢) : وهذا منع وإنكار بالفعل فلو كان النظر جائزا لأقره عليه أ هـ . وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ - ٦٠٠ - ٦٠١) مجيبا عن هذا الاستدلال مانصه : (وأجيب عن ذلك أيضا من وجهين :

الأول : الجواب بأنه ليس فى شيء من روايات الحديث التصريح بأنها كانت كاشفة عن وجهها ، وأن النبى - ﷺ - رآها كاشفة عنه ، وأقرها على ذلك ، بل غاية ما فى الحديث أنها كانت وضية ، وفى بعض أوامير الحديث أنها حسناء ، ومعروفة كونها وضية أو حسناء لا يستلزم أنها كاشفة عن وجهها ، وأنه - ﷺ - أقرها على ذلك ، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد فيراها بعض الرجال من غير قصد كشفها عن وجهها ، كما أوضحناه فى رؤية جابر سقاء الخدين .

ويحتمل أن يكون يعرف حسننها . قبل ذلك الوقت ، لجواز أن يكون قد رآها قبل ذلك وعرفها . ومما يوضح هذا أن عبد الله ابن عباس - رضى الله عنهما - الذى روى عنه هذا الحديث ، لم يكن حاضرا وقت نظر أخيه إلى المرأة ونظرها إليه لما قدمنا من أن النبى - ﷺ - قدمه بالليل من مزدلفة إلى منى فى ضعة أهله ، ومعلوم أنه إنما روى الحديث المذكور من طريق أخيه الفضل وهو لم يقل إنها كانت كاشفة عن وجهها ، وإطلاع الفضل على أنها وضية حسناء ، لا يستلزم السفور قصدا ، لاحتمال أن يكون رأى وجهها ، وعرف حسننها من أجل انكشاف خمارها من غير قصد منها ، واحتمال أنه رآها قبل ذلك



وعرف حسننها . إلى أن قال : ومع أن جمال المرأة قد يعرف وينظر إليها لجمالها وهي محتشمة ، وذلك لحسن قدها وقوامها ، وقد تعرف وضاعتها وحسنها من رؤية بناتها فقط كما هو معلوم ، ولذلك فسر ابن مسعود ﴿ ولا يبدن زيتهن إلا ما ظهر منها ﴾ بالملاءة فوق الثياب كما تقدم . وبما يوضح أن الحسن يعرف من تحت الثياب .

قول الشاعر :

طافت أمامه بالركبان آونة باحسنها من قوام ما ومتقبا

فقد بالغ في حسن قوامها مع أن العادة كونه مستورا بالثياب لا منكشفاً .  
الوجه الثاني : أن المرأة محرمة ، وإحرام المرأة في وجهها وكفيها فعليها كشف وجهها إن لم يكن هناك رجال أجنب ينظرون إليها ، وعليها ستره من الرجال في الإحرام كما هو معروف من أزواج النبي - ﷺ - وغيرهن . ولم يقل أحد أن هذه المرأة الخثعمية نظر إليها أحد غير الفضل بن عباس - رضي الله عنهما - والفضل منعه النبي - ﷺ - من النظر إليها ، وبذلك يعلم أنها محرمة لم ينظر إليها أحد ، فكشفها عن وجهها إذن لإحرامها لا الجواز السفور - إلى أن قال :

وفهم من صرف النبي - ﷺ - بصر الفضل عنها أنه لا سبيل إلى ترك الأجنب ينظرون إلى الشابة كما ترى ، وقد دلت الأدلة المتقدمة على أنها يلزمها حجب جميع بدننها أنتهى .

## الزواج والعفة

قال تعالى :

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعُ عِلْمِهِ ﴿٣٢﴾ وَلَيْسَتَعَفِيفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَن يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

## تفسير المفردات

الأيامى : واحدها أيم وهو كما قال النضر بن شميل : كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لا ذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال : آمت المرأة ، وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله في الرجل إذا ماتت امرأته ، وفي المرأة إذا مات زوجها .

والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة . واسع : أى غنى . وليستعفف : أى وليجتهد فى العفة ، لا يجدون : أى لا يتمكنون من وسائله وهى المال والكتاب والمكاتبه يراد بها شرعا : إعتاق المملوك بعد أداء شيء من المال منجما أى : فى موعدين أو أكثر فيقول له : كاتبتك على كذا درهما ، ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة : العبد والأمة ، والبغاء : الزنا والتحصىن : العفة ، لتبتغوا : أى لتطلبوا ، عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبيئات : أى مفصلات ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب . مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

## المناسبة وإجمال المعنى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ونحوها ، مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بالنكاح الأيامى ؛ لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع ، وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد ، وحسن تربيتهم ، ودوام الألفة بينهم ، ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبه الأرقاء ، ليصبروا أحرارا فى أنفسهم ، وفى أموالهم يتزوجون كما يشاءون وبعدئذ أردف ذلك النهى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا . ثم ختم هذا ببيان أنه أنزل عليكم فى هذه السورة ، وفى غيرها آيات مبيئات لكل ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من أحكام ، وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة ، وقصص عجيبة عن الماضين ، وأمثال مضروبة ، لتكون عبرة وذكرى لكم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> هذا أمر بتزويج هؤلاء استدل منه بعض العلماء على الوجوب حيث لم يصرف الأمر صارف إلى غيره ، وليست هناك قرينة مانعة من إرادة ذلك ، وما يرجح ذلك ما جاء فى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ ( يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء ) أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود . <sup>(٢)</sup>

(١) من الآية : ٣٢ من سورة النور .

(٢) البخارى ( كتاب الصوم ) باب : الصوم لمن خاف على نفسه الغزوة ج ٣ ص ٣٤ ومسلم أول ( كتاب النكاح ) ج ٤ / ١٢٨ .

وقد جاء في السنن من غير وجه : أن رسول الله ﷺ قال : ( تزوجوا الولود تناسلوا ، فإن مباء بكم الأمم يوم القيامة )<sup>(١)</sup> والأيامى : جمع أيم . ويقال : ذلك للمرأة التى لازوج لها ، وللرجل الذى لازوجة له ، وسواء كان قد تزوج ، ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهري من أهل اللغة ، يقال : رجل أيم ، وامرأة أيم .

قوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ هذا وعد منه سبحانه - وتعالى - ووعد الله لا يتخلف إن الله لا يخلف الميعاد .

فلكل شيء مفتاح ، ومفتاح الرزق النكاح ، إن الزواج عبادة قال ﷺ ( وفي بضع أحدكم صدقة ) وجزاء هذه العبادة سعة في الرزق ، وسكنى بدنية ونفسية ومودة ورحمة . قال ابن عباس : رغبتهم الله في التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى . فقال سبحانه : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾<sup>(٢)</sup>

ولكن التقى هو السعيد	ولست أرى السعادة جمع مال
وعند الله للأتقى مزيد	وتقوى الله خير الزاد زخرا
ولكن الذى يمضى بعيد	وإدراك الذى يأتى قريب

وعن ابن مسعود قال : ( التمسوا الغنى في النكاح ) يقول الله تعالى :

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . رواه ابن جرير .<sup>(٣)</sup>

وعن الليث عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ : ( ثلاثة حق على الله عونهم : النكاح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى في سبيل الله )<sup>(٤)</sup> . رواه الإمام أحمد وقد زوج النبى ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها مامعه من القرآن .

قوله تعالى : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أى واسع الغنى والرحمة والمغفرة قال تعالى : ﴿ ورحمى وسعت كل شيء ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾<sup>(٦)</sup> عليم بأحوالكم ، لطيف بكم ، هو القائل ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . ﴾<sup>(٧)</sup>

(١) سنن أبي داود (كتاب النكاح) باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء الحديث رقم ٢٠٠٥ : ٢ / ٢٢٠ ، والنسائي

(كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج العقيم ٦٥ / ٦

(٢) أنظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ج ٦ ص ٥٤

(٣) تفسير الطبرى ٩٨ / ١٨

(٤) أحمد / ٢ / ٢٥١ ، ٤٣٧ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : ( أبواب فضائل الجهاد ) باب : ماجاء فى المجاهد

والمكاتب والنكاح وعون الله إياهم حديث رقم ١٧٠٦ ج ٥ ص ٢٩٦ قال الترمذى : هذا حديث حسن وأخرجه النسائى فى

(كتاب النكاح) باب : النكاح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٦١ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب العتق) باب : المكاتب

حديث ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .

(٥) من الآية : ١٥٦ من سورة الأعراف

(٦) من الآية : ٧ من سورة غافر .

(٧) الآيات : ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

لم يكن الغنى هو الذى يفضل بعض الناس على بعض ، إنما ميزان الناس فى التقدير الإسلامى هو التقوى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾<sup>(١)</sup> لم يقل أغناكم ولا أقواكم ولا أحسبكم ولا أنسبكم ولكن لما انتكست تلك الموازين ، وأهتزت هاتيك القيم .

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا	إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالٌ
وَمَنْ لَاعِنْدَهُ مَالٌ	فَعِنْدَهُ النَّاسُ قَدْ مَالُوا
رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا	إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبٌ
وَمَنْ لَاعِنْدَهُ ذَهَبٌ	فَعِنْدَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا
رَأَيْتُ النَّاسَ مَنْفُضَةً	إِلَى مَنْ عِنْدَهُ فَضَةٌ
وَمَنْ لَاعِنْدَهُ فَضَةٌ	فَعِنْدَهُ النَّاسُ مَنْفُضَةٌ

قوله تعالى ﴿ وَلِیَسْتَعْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾<sup>(٢)</sup> جاء فى الحديث الشريف ( يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء )<sup>(٣)</sup> فليجتهد فى العفة وضون النفس من لا يتمكن من المال الذى به يتم النكاح وليتظر أن يغنيه الله من فضله ، حتى يصل إلى بغيته من النكاح .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾<sup>(٤)</sup> أى والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين بنحو ما ، ليصيروا بعد أدائها أحرارا ويكونون قادرين على الكسب ، وأداء ما كاتبو عليه من الأمانة والصدق ، فكاتبوهم بعد انتهاء الأجل ، وأداء ما أوجبوه على أنفسهم أحرارا فى رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال : ﴿ وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِى آتَاكُمْ ﴾<sup>(٥)</sup> أى وآتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم ، وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموالكم ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التى جعلها الله لهم فى بيت المال فى مصارف الزكاة بقوله ﴿ وَفِى الرِّقَابِ ﴾<sup>(٦)</sup> أى وفى تحرير الأرقاء .

وفى هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : ( ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله )<sup>(٧)</sup> .

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) من الآية : ٣٢ من سورة النور .

(٣) البخارى ( كتاب الصوم ) باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة : ٣٤/٣ وسلم أول كتاب النكاح ٤/١٢٨ .

(٤) من الآية : ٣٣ من سورة النور .

(٥) من الآية : ٣٣ من سورة النور .

(٦) من الآية : ٦٠ من سورة التوبة .

(٧) رواه أحمد فى مسند - مسنده أبى هريرة - ج ٢ ص ٢٥١ ، ٤٣٧ بتقديم وتأخير فى الفاظه .

وأخرجه ابن ماجه ( فى كتاب العتق ) باب : المكاتب رقم ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ مع تقديم وتأخير فى الفاظه أيضا .

وفى الترمذى ( فى أبواب الجهاد ) باب : ماجاه فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ج ٣ ص ١٠٣ رقم ١٧٠٦

أيضا بتقديم وتأخير فى الفاظه وقال : وهو حديث حسن .

وأخرجه الإمام النسائى بنصه : ( فى كتاب النكاح ) باب : معونة الله الناكح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٥٠ ط الحلبي .

فالحمد لله الذى حرر العبيد بفضل ما بعث به نبيه ومصطفاه لقد كانت أول رشفة لبن نزلت في جوفه الشريف من أمة هى ثوبية جارية عمه أبى لهب ولما بشرته بمولد ابن أخيه قال لها : إذهى فأنت حرة فكان مولده الشريف إيدانا بتحرير العبيد ، وصارت الحرية حقاً لمن يعيش على وجه البسيطة ، صارت كالماء والهواء والضياء ، لقد جعل الاسلام من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

لو أن انسانا تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا	هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء
البر عندك ذمة وفريضة	لا منة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى سخا الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء

- ومن أراد المزيد عن تحرير العبيد فليرجع إلى رحاب تفسيرنا لقوله تعالى :

﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم ﴾<sup>(١)</sup> في صدر سورة المؤمنون

ثم نهى المؤمنين عن السعى في جمع المال بسبل الحرام فقال سبحانه :

﴿ ولا تكثرها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصن لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾<sup>(٢)</sup> أى لا تكثرها إماءكم

على الزنا إن كن يردن التعفف والتحصن التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفى قوله : ﴿ إن أردن تحصن ﴾ زيادة فى تقبيح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لا يرضى

بفجور من يحويه بيته من إماءه فضلا عن أمرهن بذلك وإكراههن عليه ، ولا سيما عند إرادة التعفف

وتوافر الرغبة فيه .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر - رضى الله عنه - أن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها :

( مسيكة ) وأخرى يقال لها : ( أميمة ) كان يكرهها على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت

الآية<sup>(٣)</sup> .

ثم أبان أنهن إن أكرهن فالوزر على من أكرهن لاعليهن فقال :

﴿ ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾<sup>(٤)</sup> أى : ومن يكرهن على البغاء فإن الله

غفور رحيم لمن بعد إكراههن والذنب على المكروه لمن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لمن والله

لمن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبينها امتن على عباده بذلك فقال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات

مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾<sup>(٥)</sup>

( ١ ) من الآية : ٦ من سورة المؤمنون .

( ٢ ) من الآية : ٣٣ من سورة النور

( ٣ ) الحديث أورده القرطبي ( فى تفسير سورة النور ) ج ١٢ ص ٢٥٤ فى صحيح مسلم عن جابر

( ٤ ) من الآية : ٣٣ من سورة النور

( ٥ ) الآية : ٣٤ من سورة النور .

وفي هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى : أنه أنزل إلينا في كتابه آيات مبيّنات للأحكام ، كما أنزل مثلاً من الأمم السابقة ، فإذا كان أهل الإفك قد رموا أم المؤمنين عائشة بما هي منه بريئة . فإن اليهود قد رموا مريم قال تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ﴾ (٢) وقد برأ الله مريم كما برأ عائشة .  
﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (٣)

وهذا القرآن فيه موعظة للمتقين ، فاقراؤه وابكوا ، فإن لم تبكوا فتيابكوا ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن أبغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم وهو الهادي إلى الصراط المستقيم .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيل  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

فو الله لو أكرمنا كتاب الله ما هاننا أحد ، ولو طبقنا حدوده لررفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، فيا أخا الاسلام قم سلسل الدموع حزنا على هذا الفساد الشائع ، ومزق الضلوع كمدا على هذا الضمير الضائع ، بين قسوة العاطفة ، وغفوة الضمير ، نامت النفوس على هذه الشهوات ، وضعف وازع الدين في النفوس ، وكما قال المصلح الإسلامي جمال الدين الأفغاني :  
(إن المسلمين ماتت عزائمهم ومات فيهم كل شيء إلا شهواتهم)  
أيها المصلحون :

ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القيما

عزت السلعة الذليلة حتى بات	مسح الخذاء خطبا جساما
وغدا القوت في يد الناس كال	ياقوت حتى نوى الفقير الصياما
أصلحوا نفسا أضر بها الفقر	وأحيا بموتها الأثاما
وأغيشوا من الغلاء نفوسا	قد ثمنت مع الغلاء الحماما
وتخال الرغيف في البعد بدرا	وتظن اللحوم صيدا حراما

النور

قال تعالى :

\* اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ  
الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

زَيْنُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ  
الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ  
يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ  
الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ  
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
أَعْمَلُهُمْ كَسْرَابٍ يَفْبِقُهَا يَحْسِبُهَا الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ  
عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ كَظُلُمْتُمْ فِي بُحْرِ لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ  
مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمْتُمْ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِنُهَا وَمَنْ لَّمْ  
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبِغُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ  
صَبَّغَتْ كُلُّ قَدَعٍ لِّمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٣٢﴾

## تفسير المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هاد أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله والمشكاة : لفظ حبشي  
معرب يراد به الكوة غير النافذة ، الزجاج : القنديل من الزجاج ، والدرى : المضيء المتلألئ منسوب  
إلى الدر ، لشرقية ولا غربية ، أى : صاحبة للشمس لا يظلمها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شيء  
من الشروق إلى الغروب . يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .  
المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر ، أن ترفع : أى : أن تعظم وتطهر عن الأنجاس ، وعن  
اللغو من الأقوال ، يسبح : أى : يتزه ويقدس الغدو والغداة : أول النهار ، والأصال : واحدا أصيل  
وهو العشى : أى : آخر النهار ، تلهيهم : أى : تشغلهم وتصرفهم ، وتجارة أى : نوع من هذه  
الصناعة ، ولابيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر ؛ لأنه أدخل في الإلهاء ، وإقامة  
الصلاة : أى إقامتها لمواقبتها ، وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين ، واليوم :  
يوم القيامة ، وتتقلب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفرع . السراب : ما يرى

في الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء والقيعة والقاع : المنبسط من الأرض ، والظمان : شديد العطش لجى : أى ذى لجج واللج بالضم معظم الماء ، والمراد بحر عميق الماء كثيره ، يغشاه : أى يغطيه ، لم يكدرها : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .. يسبح : أى ينزه ويقدس صفات : أى باسطات أجنحتها في الهواء .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل في هذه السورة آيات مبينات لكل ما يحتاج إليه الناس في صلاح أحوالهم في معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق ، بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيها من الآيات الكونية والآيات التي أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته ، وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ، ثم بين حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور ، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية ثم أردف ذلك ببيان حال أجدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون في الآخرة في أشد الخسران والبوار ، وفي الدنيا في ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلنا الحالتين مثلا يوضحهما أتم الإيضاح والبيان . ثم أعقب ذلك بذكر الأدلة التي تثبت في جلاء ووضوح أنه الواحد الخالق البارئ المصور وأن تلك الكائنات طوع وإرادته ، كل قد علم صلاته وتسبيحه وأن المصير إليه لا إلى غيره ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ (١) فهو المالك الملك المتصرف في ملكه المدبر لشئون مملكته لا ينقصه ناثل ، ولا يشغله سائل ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة سبحانه الطير في وكره ومجده الوحش في قفره . ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ (٢)

### التفسير

قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة الزجاج كإنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس . والله بكل شيء عليم ﴾ (٣) قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

قال أبو بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه الله في قلب عبده من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس . وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم يصره من هو من جنسهم ، وإن كان سائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيامهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا .

(١) الأيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الفاتحة .

(٢) من الآية : ٢٥ من سورة الروم .

(٣) الآية : ٣٥ من سورة النور .



منهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفىء مرة أخرى ، إذ كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمناقق نور ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله - عز وجل - لهذا النور وعمله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة ، وهي الكوة في الحائط فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدرى في بياضه . وصفاته وهي القلب . وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن ، وهي الصفاء والركة والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفاته وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة بركته ، ويجاهد أعداء الله - تعالى - ويغلب عليهم ويشد في الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها بل تساعد وتعاوضها ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ <sup>(٣)</sup>

وفي أثر القلوب آية الله - تعالى - في أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها . وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان على طرفي تقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس ، لارحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل جبار جاهل ، لا علم له بالحق ولا رحمة فيه للخلق .

وبإزائه قلب ضعيف مائى لا قوة فيه ولا استمسك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره . . وكل ماخالطه أثر فيه من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث وفي الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى في الفتيلة ، وهي حاملته ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت . وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفاته يضيء بلا نار فهذه مادة نور المصباح ، وكذلك مادة نور المصباح في قلب المؤمن هي من شجرة الوحي التي هي أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأفضلها لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء .

فهذه مادة مصباح الإيمان في قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه . حتى كاد أن يضيء بنفسه ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار فيه كان ذلك نورا على نور وهكذا المؤمن . قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لامادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحي على نوره الذى فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة . نور على نور . فيكاد ينطق بالحق ، وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح

(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٧٣ سورة التوبة

به فطرته ، فيكون نورا على نور .

فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي وعن شهادة الفطرة - فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة فقد ذكر سبحانه وتعالى : نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلب عباده المؤمنين : النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استتارت به لقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يهف فيه آدمى ولا غيره ؛ لأن الحيوان إنما يكون حيث يكون النور ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ولا يكون البتة .

فكذلك أمة فقد فيها نور الوحي والإيمان مية ولا بد قلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد لاحياة له البتة كما لاحياة للحيوان في مكان لانور فيه .

قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (١) وقد فسر قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ بكونه منور السموات والأرض وهادى أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض ، وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى . والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين : إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول كقوله - عز وجل - ﴿ وأشرق الأرض بنور ربها ﴾ (٢) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور ( أعوذ بنور وجهك الكريم : أن تضلني ، لا إله إلا أنت ) وفي الأثر الآخر ( أعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذي أشرقته له الظلمات ) (٣) . فآخبر ﷺ أن الظلمات أشرقته لنور وجه الله كما أخبر تعالى : أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره وفي معجم الطبراني والسنة له وكتاب عثمان بن سعيد الدارمي وغيرها : عن ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - قال : ( ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه ) وهذا الذي قاله ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرهما بأنه هادى أهل السموات والأرض .

وأما من فسرهما : بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود . والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبار كلها .

(١) الآية : ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .

(٣) الحديث رواه محمد بن إسحاق في السيرة : عن رسول الله ﷺ . أنه قاله : في دعائه يوم آذاه أهل الطائف . هكذا أورده

الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم - في تفسير (سورة النور) ج ٦ ص ٦١

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال : ( قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : ( إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه )<sup>(١)</sup> .

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : ( سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : ( نور أنى أراه ؟ )<sup>(٢)</sup> سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول : معناه : كان ثم نور ، أو حال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه : أن في بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك ؟ فقال : ( رأيت نورا ) .

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صححه بعضهم فقال : ( نوراني أراه ) على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة وهذا خطأ لفظاً ومعنى .  
ولما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ : أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه وكان قوله ( أنى أراه ) كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث ورده بعضهم بإضطراب لفظه .  
وكل هذا عدول عن موجب الدليل .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك :

وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف في الحقيقة قال ابن عباس : لم يقل رآه بعيني رأسه ، وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رأى ربه - عز وجل - ولم يقل بعيني رأسه .  
ولفظ أحمد لفظ ابن عباس - رضي الله عنه - .

ويدل على صحته : ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر - رضي الله عنه - قوله ﷺ في الحديث الآخر ( حجاب النور ) فهذا النور هو - والله أعلم - النور المذكور في حديث أبي ذر - رضي الله عنه - ( رأيت نورا )

قوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾<sup>(٣)</sup> هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن كما قال أبو ابن كعب وغيره .

وقد اختلف في مفسر الضمير في ( نوره ) فقيل : هو النبي ﷺ أى : مثل نور محمد ﷺ وقيل : مفسره المؤمن أى : مثل نور المؤمن .

والصحيح : أنه يعود على الله - سبحانه وتعالى - والمعنى : مثل نور الله - سبحانه وتعالى - في قلب عبده وأعظم عباده نصيباً من هذا النور : رسوله ﷺ فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور ، وهو وجه الكلام يتضمن التقارير الثلاثة ، وهو آتم لفظاً ومعنى .

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : في ( كتاب الإيمان ) باب : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام الخ ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ١٧٩ .

(٢) الحديث في صحيح مسلم : في ( كتاب الإيمان ) باب : في قوله ( عليه السلام ) نور أنى أراه ، وفي قوله : رأيت نورا ، ج ١ ص ١٦١ رقم ١٧٨ .

(٣) من الآية : ٣٥ من سورة النور .

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد إذا هو محله وقابله فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة . وقد تضمنت الآية : ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل فالفاعل : هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادى لنوره من يشاء .

والقابل : العبد المؤمن .

والمحل : قلبه والحامل : همته وعزيمته وإرادته .

والمادة : قوله وعمله .

وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعانى ، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره . ماتقر به عيون أهله وتبهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان :

إحدهما : طريقة التشبيه المركب وهى أقرب مأخذا وأسلم من التكلف ، وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به ، وعلى هذا عامة أمثال القرآن .

فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها ، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودا من زيت شجرة فى وسط القراح لاشرقية ولا غربية بحيث تصيها الشمس فى أحد طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح محمية بأطرافه تصيها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها ، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضىء من غير أن تمسه نار بهذا المجموع المركب ، هو مثل نور الله - تعالى - الذى وصفه فى قلب عبده المؤمن وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل فقول : المشكاة صدر المؤمن .

والزجاجة : قلبه شبه قلبه بالزجاجة لرققتها وصفائها وصلابتها ، وكذلك قلب المؤمن ، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه ، تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هى عليه ، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد فى أمر الله ويتصلب فى ذات الله - تعالى - ويغلظ على أعداء الله - تعالى - ويقوم بالحق لله - تعالى - .

وقد جعل الله - تعالى - القلوب كالآنية كما قال بعض السلف :

( القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفها ) والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه ، والشجرة المباركة : هى شجرة الوحي المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهى مادة المصباح التى يتقد منها ، والنور على النور ، نور الفطرة الصحيحة . والإدراك الصحيح ونور الوحي والكتاب ، فيضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورا على نور ، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع فى قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي ، فيبريه عقله وفطرته وذوقه الذى جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق لا يتعارض عنده العقل والنقل بل يتصادقان ويتوافقان ، فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت فى قلبه أمواج الشبه الباطلة ،

والخيلات الفاسدة ، من الظنون والجهليات التي يسميها أهلها القواطع العقلية ، فهي في صدره كما قال الله ﴿ أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (١) .

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق انتظمت طوائف بنى آدم أتم انتظام ، وأشتملت عليها أكمل اشتمال ، فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول - ﷺ عن الله سبحانه ، وأن كل معارضه فسيهات يشبه أمرها على من قل نصيبه من العقل والسمع ، فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به وهي :

﴿ كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (٢) .

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، وأصحاب العلم النافع والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول - ﷺ في أخباره ، ولم يعارضوه بالشبهات . وأطاعوه في أوامره ، ولم يضيعوها بالشهوات . فلا هم في عملهم من أهل الخوض الخراصين ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ (٣) ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلافهم الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون .

أضواء لهم نور الوحي المبين ، فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون وفي ضلالتهم يتهوكون ، وفي ريبهم يترددون مغترين بظاهر السراب منحلين مجديين مما بعث الله به رسوله - ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب ، إن عندهم إلا نحاته الأفكار وزبالة الأذهان التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها وقدموها على السنة والقرآن ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ (٤) أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان .

القسم الثاني : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به رسول الله - ﷺ والظلم لأنفسهم باتباع أهوائهم الذين قال الله - تعالى - فيهم ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ (٥) .

وهؤلاء قسمان :

أحدهما : الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال .

فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله ، ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ (٦) .

فهم لا اعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه ، بمنزلة رائى السراب الذى يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذى يخون صاحبه أحوج ما هو إليه ، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء بل أنضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى - فحسب له ما عنده من العلم

(٤) سورة غافر : من الآية : ٥٦

(٥) الآية : ٢٣ من سورة النجم .

(٦) سورة المجادلة : آية ١٨

(١) الآية : ٤٠ من سورة النور

(٢) الايتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور

(٣) سورة الذاريات : الآية : ١١١

والعمل ، فوفاه إياه عثاقيل الذر ، وقدم إلى ماعمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورا .  
 إذ لم يكن خالصا لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها  
 علوما نافعة كذلك هباء منثورا ، فصارت أعماله وعلومه حشرات عليه و ( السراب ) ما يرى في القلاة  
 المنبسطة ، من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري .  
 و ( القيعه ) والقاع : هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا واد .  
 فشبّه علوم من لم يأخذ علومه من الوحي وأعماله : بسراب يراه المسافر في شدة الحر فيؤمّه فيخيب  
 ظنه ويجده نارا تتلظى .

فهذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه  
 ماء ، وإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فنقلوهم إلى نار الجحيم . ﴿ فسقوا ماء  
 حميا فقطع أمعاءهم ﴾ (١)

وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع ؛ والأعمال التي كانت لغير الله - تعالى - صيرها  
 الله تعالى حميا وسقامهم إياه ، كما أن طعامهم ﴿ من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ (٢) .  
 وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التي كانت في الدنيا ، كذلك لا تسمن ولا تغني من جوع .  
 وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم في  
 الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (٣) .

وهم الذين عني الله بقوله : ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾  
 وهم الذين عني بقوله تعالى ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من  
 النار ﴾ .

القسم الثاني من هذا الصنف : أصحاب الظلمات .

وهم المنغمسون في الجهل بحيث قد أحاطت بهم جاهليتهم من كل وجه ، وهم لذلك بمنزلة الأنعام  
 بل هم أضل سبيلا فهؤلاء أعمالهم التي يعملونها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من  
 غير نور الله تعالى .

( فظلمات ) جمع ظلمة : وهي ظلمة الجهل ، وظلمة الكفر ، وظلمة ظلم النفس بالتقليد واتباع  
 الهوى ، وظلمة الشك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق ، الذي بعث الله - تعالى - به رسله -  
 صلوات الله وسلامه عليهم - والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور .  
 فالمعرض عما بعث الله به عبده ورسوله محمدا ﷺ من الهدى ودين الحق . يتقلب في خمس  
 ظلمات : قوله ظلمة . وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى ظلمة ، وقلبه  
 مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم وإذا قابلت بصيرته الخفاشية مابعث الله به  
 محمدا ﷺ من النور جد في الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي

(١) سورة محمد جزء الآية : ١٥

(٢) الآية : ٧ من سورة الغاشية .

(٣) الأيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

به أنسب كما قيل :-

خفافيش أغشاها النهار بضوئه ووافقتها قطع من الليل مظلم .

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونحاتة الأذهان جال وصال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع فإذا طلع نور  
الوحي وشمس الرسالة انجحر في جحرة الحشرات .

قوله ( في بحر لجى ) ( اللجى ) العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه .

قوله تعالى : ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ﴾<sup>(١)</sup>

تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه .

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق

بعض .

والضمير الأول في قوله : ﴿ يغشاه ﴾ راجع إلى البحر والضمير الثانى في قوله : ﴿ من فوقه ﴾ عائد

إلى الموج .

ثم إن تلك الأمواج مغطاة بسحاب .

فهناك ظلمات : ظلمة البحر اللجى ، وظلمة الموج الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك  
كله إذا أخرج من في هذا البحر يده لم يكدرها .

واختلف في معنى ذلك .

فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها وهو أبلغ من نفيه الرؤية ، وأنه قد ينفى وقوع الشيء

ولا ينفى مقاربته .

فكانه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه

قال هؤلاء : ( كاد ) من أفعال المقاربة لها حكم سائر الأفعال فى النفى والإثبات ، فإذا قيل : كاد

يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل ، فإذا قيل : لم يكدر يفعل فهو نفى لمقاربة الفعل .

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد ، وفى ذلك إثبات رؤيتها بعد

أن عظم العسر لأجل تلك الظلمات .

قالوا : لأن ( كاد ) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال فإنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا

قلت :

ماكدت أصل إليك فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت :

كاد زيد يقوم فهي نفى لقيامه . كما قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه

لبدا ﴾<sup>(٢)</sup> ومنه قوله تعالى :

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾<sup>(٣)</sup> .

وأشدد بعضهم فى ذلك لغزا

جرت فى لسان جرهم وثمود

أنحوى هذا العصر : ماهى لفظة

فإن أثبتت قامت مقام جحود ؟

وإذا استعملت فى صورة النفى أثبتت

(٣) من الآية : ٥١ من سورة القلم .

(١) من الآية : ٤٠ من سورة النور .

(٢) الآية : ١٩ من سورة الجن .

وقالت فرقة ثالثة منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره :

إن استعمالها مثبتة ، يقتضى نفى خبرها كقولك :

كاد زيد يقوم ، واستعمالها منفية ، يقتضى نفيه بطريق الأولى ، فهي عنده تنفى الخبر سواء كانت منفية أو مثبتة فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده فى النفى من لم يقوم ، واحتج بأنها إذا نفيت وهى من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل وهو أبلغ من نفيه وإذا استعملت مثبتة فهي تقتضى مقاربة اسمها لخبرها ، وذلك يدل على عدم وقوعه واعتذر عن مثل قوله تعالى : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ (١) وعن مثل قوله : وصلت إليك وماكدت أصل ، وسلمت وماكدت أسلم : بأن هذا وارد على كلامين متباينين أى : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقاربا له .

فالأول يقتضى وجود الفعل ، والثانى يقتضى أنه لم يكن مقاربا له ، بل كان آيسا منه ، فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة : إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها فإذا كانت فى الإثبات فهي لمقارنة الفعل سواء كانت بصفة الماضى أو المستقبل ، وإن كانت فى طرف النفى فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفى الفعل ، ومقاربتة نحو قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ وإن كانت بصيغة الماضى :

فهي تقتضى الإثبات نحو قوله : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ فهذه أربعة طرق للنحاة فى هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضى المقاربة ، ولها حكم سائر الأفعال ونفى الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه ، وإنما أستفيد من لوازم معناها فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعا فيكون منفيا باللزم .

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت فى كلام واحد فهي لنفى المقاربة .

كما إذا قلت : لا يكاد البطال يفلح ، ولا يكاد البخيل يسود ، ولا يكاد الجبان يفرح ، ونحو ذلك . وإن كانت فى كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد إن لم يكن مقاربا كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق فى أمرها .

والمقصود أن قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر ، فإذا كان لا يقارب رؤيتها فكيف يراها ؟ قال ذو الرمة :

إذ غر النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب فيه يبرح

أى : لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول ؟

فشبه سبحانه أعمالهم أولا : فى فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيهم من بعيد ، فإذا جاءه وجد غيره عكس مآمله ورجاه .

وشبهها ثانيا : فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة فى لجج البحر المتلاطم الأمواج الذى قد غشيه السحاب من فوقه .



فإنه تشبيها ما أبدعه وأشد مطابقتها لحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سبحانه - وتعالى - على خلاف ما بعث به رسوله ﷺ وترك به كتابه وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولقلوبهم وعقائدهم الفاسدة بالزوم وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم ، فهي سراب لا حاصل لها ، وظلمات لا نور فيها . وهذا عكس مثل أعمال المؤمنين وعلومه ، التي تلقاها من مشكاة الكوة فإنها مثل الغيث الذي به حياة البلاد والعباد .

ومثل النور الذي به انتفاع أهل الدنيا والآخرة . ولهذا يذكر سبحانه هذين المثليين في القرآن في غير موضع لأوليائه وأعدائه . ذكر سبحانه للكافرين مثلين : مثلاً بالسراب ، ومثلاً بالظلمات المتراكمة ، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان :

أحدهما : من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل ، وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين أنهم لم يكونوا على شيء ، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب بقية يرى في عين الناظر ماء ولا حقيقة له ، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له ، وليست كذلك وهذه الأعمال التي قال - عز وجل - فيها : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ (١) . وتأمل جعل الله - سبحانه - السراب بالقيعة وهي الأرض القفراء الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم ، فجعل السراب أرض قفر لا شيء بها ، والسراب لاحقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ماتحت قوله : ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ والظمآن : الذي قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ما كان إليه ، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ﷺ ولغير الله جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظماً ماكانوا ، وأحوج ماكانوا إليها فلم يجدوا شيئا ، ووجدوا الله سبحانه ، فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم . وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة ( ثم يؤق بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزيز ابن الله ، فيقال كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا ، فيتساقطون في جهنم . ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا فيتساقطون ) وذكر الحديث (٢) .

وهذه حال كل صاحب باطل ، فإنه يخونه باطله أحوج ماكان إليه فإن الباطل لاحقيقة له ، وهو كاسمه باطل .

(١) الآية : ٢٣ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم : في ( كتاب الإيمان ) باب : معرفة طريق الرؤيا وأخرجه البخاري : في ( كتاب التوحيد ) باب : في قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولاحق ، كان متعلقه باطلا ، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله . أو على أمره بطل العمل ببطان غايته ، وتضرر عامله من بطلانه ، وبحصول ضد ما كان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لاله ، ولا عليه ، بل صار معذبا بفوات نفعه ، وبحصول ضد النفع فلماذا قال تعالى :

﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١)

فلماذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى .

النوع الثاني :

أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي والهوى ، فحالمهم كحال من كان في بحر لجى لا ساحل له ، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحب مظلم ، فهو في ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجها الله منها إلى نور الايمان . وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء ، والظلمات المضادة للنور . نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين ، وهما المثل المائى ، والمثل النارى ، وجعل حظ المؤمنين منها : الحياة والإشراق ، وحظ المنافقين منها : الظلمة المضادة للنور ، والموت المضاد للحياة .

فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذى يغر الناظر ولا حقيقة له ، وحظهم الظلمات المتراكمة ، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار ، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي ، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد ، ويجوز أن يكون المراد به تنوع أحوال الكفار ، وأن أصحاب المثل الأول : هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة ، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف ، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأصحاب المثل الثاني : هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى ، وآثروا الباطل على الحق ، وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه ، بعد أن عرفوه ، فهذا حال المغضوب عليهم ، والأول حال الضالين ، وحال الطائفتين : مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح - إلى قوله : - ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل النور ، والضالين وهم أصحاب السراب ، والمغضوب عليهم ، وهم أهل الظلمات المتراكمة : والله أعلم .

والمثل الثاني لأصحاب العلم الذى لا ينفع ، والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ، ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات ، والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وإنما أمواج متراكمة من فوقها سحب مظلم ، وهكذا أمواج الشكوك والشبهات في قلوبهم المظلمة التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوى ، والباطل .

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين ، وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك : أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم على الظلمة التي خلقوا فيها ، فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال : ( إن الله خلق خلقه في ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله )<sup>(١)</sup>

فإن الله سبحانه خلق الخلق في ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا ينحى به قلبه وروحه كما يحى بدنه بالروح التي ينفخها فيه .

فهما حياتان : حياة البدن بالروح ، وحياة الروح والقلب بالنور ، ولهذا سمي سبحانه الوحي روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، كما قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾<sup>(٤)</sup> .

فجعل وحيه روحا ونورا ، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ، ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ، وماله من نور .

جزى الله العلامة ابن القيم عن الاسلام خيرا ، وعن القرآن خيرا ، وعن المسلمين خيرا ، والآن إلى قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ، والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾<sup>(٥)</sup> .

### تفسير المفردات

يسبح : أى ينزه ويقدس . صافات : أى باسطات أجنحتها في الهواء . المصير : المرجع .

### التفسير

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات ﴾<sup>(٦)</sup> أى : ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه أنا ، فأنا ، في ذاته وصفاته وأفعاله جميع ما في السموات والأرض من العقلاء وغيرهم تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ، إذ كل المخلوقات في وجودها وبقائها دالة

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند عبد الله بن عمرو ج ٢ ص ١٧٦

(٢) من الآية : ٢ من سورة النحل

(٣) سورة غافر : آية ١٥

(٤) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

(٥) الأيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة النور .

(٦) من الآية : ٤١ من سورة النور

على وجود خالق لها ، متصف بصفات الكمال . منزّه عن صفات النقص .  
 وخص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيها على اتصافه بجميع أوصاف الكمال من جراء أن سياق الكلام  
 لتقبيح شأن الكفار الذين أدخلوا بالتنزيه ، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه .  
 ونسبوا له إتخاذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوا كبيرا .  
 كما ذكر الطير مع دخولها في جملة ما في الأرض من قبل أنها غير مستقرة فيها ، ولاستقلالها ببديع  
 الصنع وإنائها عن كمال قدرة خالقها ، ولطف تدبير مبدعها ، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل  
 التي تتمكن بها من الوقوف في الجو وتحرك كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض  
 والبسط ، والتحرك يمينا وشمالا ، حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وحكمة  
 المبدى المعيد

﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون ﴾ (١) .  
 أى : كل مصل منهم ومسيح قد علم الله صلاته وتسبيحه لا يخفى عليه شيء من أفعالهم طاعتها  
 ومعصيتها ، وعلمه محيط بها ومجازيهم عليها .  
 وقد يكون المعنى :

إن كل مصل ومسيح ، يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما ، وليس بالبعيد أن  
 يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها .  
 أنظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها السداسية الأشكال التي لا يتمكن من بنائها فطاحل المهندسين ، إلا  
 بدقيق الآلات ، وإلى العنكبوت كيف تفعل الجبل اللطيف لاصطياد الذباب ، وإلى الدب يستلقى في  
 عمر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبت ذراعيه بقرنيه ، ولا يزال ينهش ما بين ذراعيه حتى  
 يشخه ، ثم يفتريسه .

﴿ والله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾ (٢) أى أن الله تعالى : ملك السموات والأرض وهو  
 الحاكم المتصرف فيها إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، وإليه وحده مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور  
 أعمالكم التي عملتموها في الدنيا ، فأحسنوا عبادته واجتهدوا في طاعته ، وقدموا لأنفسكم صالح  
 الأعمال .

### من آيات الله في الكون

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ  
 خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ  
 مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ

(١) من الآية : ٤١ من سورة النور

(٢) الآية : ٤٢ من سورة النور

لَعِبْرَةٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۚ  
وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

### تفسير المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة

يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه .

ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض .

الودق : المطر

من خلاله : أى من فتوقه التى حدثت بالتراكم واحدا خلل كجبال وجبل من جبال : أى من قطع  
عظام تشبه الجبال .

السنا : الضوء

يذهب بالأبصار : أى يخطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة : ﴿ يكاد البرق  
يخطف أبصارهم ﴾ <sup>(١)</sup> .

يقلب الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر ذاك ، حتى يعتدلا ويغير  
أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار .  
أى لأهل العقول والبصائر .

### \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من  
خلاله ﴾

للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نذكر منها ما ذكره الشيخ المراحى فى تفسيره حيث قال : أنظر  
أيها الرسول الكريم إلى السحاب يسوقه الله بقدرته أول ما ينشئه ، ثم يجمع بين ما تفرق من أجزائه ،  
ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينما ينزل منه قطع كبيرة من البرد كأنها  
الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فينال الخير والنفع العميم ، أو الضرر الشديد إذا  
كان فوق الحاجة ، ويصرفه عن يشاء أن يصرفه ، وإلى ما فى السحاب من برق يضئ بشدة وسرعة  
حتى ليكاد يخطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة إذ فيه توليد الضد من الضد فيه  
توليد النار من الماء .

## « كلمة العلم »

جاء في كتاب « الاسلام في عصر العلم » لمؤلفه الأستاذ/ محمد أحمد الغمراوي مانصه :  
 « من أعجب الآيات الكونية في القرآن آية في سورة النور جاء فيها لفظ الجبال ، لا على التعريف ، كما  
 فيما عداها من الآيات التي ذكرت فيها الجبال بلفظها ، ولكن على التنكير تعجيبا منها وتنبيها إلى دلالتها  
 تلك هي قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج  
 من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد  
 سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ (١) .

وأكثر المفسرين - فيما ذكر أبو حيان في « البحر » - قد فهموا من قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من  
 جبال فيها من برد ﴾ أى في السماء جبال من برد ، كما في الأرض جبال من حجر ، وإلى هذا ذهب أبو  
 حيان أيضا كما يدل عليه قوله : عند تفسير الآية والظاهر أن في السماء جبالا من برد وأن المراد بالسماء  
 الجسم الأزرق المخصوص ، وهو المتبادر للذهن .

حتى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ أجاز هذا التفسير إذ يقول : في تفسيره الكبير (روح المعاني)  
 (وعن مجاهد والكلبي وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة ، وبالجبال حقيقتها - قالوا : إن الله  
 تعالى : خلق في السماء جبالا من برد كما خلق في الأرض جبالا من حجر . . وليس في العقل ما ينفيه من  
 قاطع .

فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل : مع أنه رحمه الله كان قبل ذلك قد قال في تفسيره ( من  
 جبال ) : أى من قطع عظام تشبه الجبال في العظم على التشبيه البليغ ، وفسر السماء بالسحاب ، وجاء  
 بنكتة في هذه التسمية إذ عللها بالإيحاء إلى « أن للسمو والارتفاع - مدخلا » فيما ينزل أى : في تكوين  
 البرد وتنزيله ، وهو تعليل صحيح وتفسير أقرب كثيرا إلى الصحة من ذلك التفسير الذي نقله هو وأبو  
 حيان عن مجاهد ، وأكثر المفسرين ، والذي يحول دون صحته ما ثبت في العلم الحديث من أن السماء  
 الزرقاء شيء ، وسماء الكواكب شيء آخر .

فالسما الزرقاء معنا في نجو أرضنا إذ لولا غلاف الأرض الهوائى لبدت السماء سوداء ، كما بدت  
 بالفعل لرجال الفضاء حين علت بهم سفنهم فوق الغلاف بغباره ، وبخار مائه ، ودخلت بهم الطبقة  
 الشديدة التخلخل من هوائه ، وهم لم يبلغوا في أقصى ارتفاع لهم في جو الأرض ، إلا بضع مئات من  
 الكيلومترات ، في حين أن متوسط ارتفاع القمر - وهو أقرب كوكب سماوى إلى الأرض - أكبر من ذلك  
 نحو ألف مرة ، ومتوسط ارتفاع أقرب سيارة إلى الأرض وهو الزهرة أكبر من ارتفاع القمر أكثر من مائة  
 مرة

أما إرتفاع أقرب نجم ، المسمى بالأقرب القنطورى ، فهو أكبر من أن يقاس بملايين الكيلومترات  
 ولذا قاسوه بسرعة الضوء البالغة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية ، فوجدوه على بعد يقطعه الضوء في  
 نحو أربع سنين .

فشتان ثم شتان بين السماء الزرقاء والسماء ذات الكواكب والنجوم ، وشتان أيضا بين أقصى

ارتفاع يبلغه سحب وأقصى ارتفاع لطبقات الهواء ، فهذا قدر ذاك على الأقل عشر مرات . أما وقد تبين في ضوء حقائق العلم الحديث أن السماء المعروفة ، سواء أكانت الزرقاء أم ذات الكواكب ، لا يمكن أن تكون من معاني السماء في قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (١) . فلنحاول أن نتبين المعاني التي يمكن أن تتحملها الآية الكريمة في حدود ماعليه اللغة من ناحية وماتمليه حقائق العلم من ناحية أخرى .

إن السماء في اللغة من معانيها : السحاب والمطر أو المطرة الجيدة ، كما ذكر ( القاموس ) ، والحرف ( من ) يكون لابتداء الغاية ، أو للتبويض ، أو للبيان . والجبال من أظهر صفاتها العظم والرسوخ ، لكن السحاب مهما تراكم ليس شيء منه براسخ ولا باق ، والبرد مهما تجمع قبل نزوله أقل بقاء من السحاب وإذن فلفظ ( جبال ) في الآية لا يحتمل إلا معنى العظم على وجه التشبيه البليغ للسحاب الركام ، أو البرد المستجمع في السحاب قبل النزول ، أو كليهما فإذا كانت السماء في الآية الكريمة معناها : المطر أو المطرة الجيدة وكلاهما صالح واقع حسب الظروف ، كانت ( من ) الأولى للتبويض و ( من ) الثانية لابتداء الغاية . . ويكون معنى ( من جبال ) من سحاب كالجبال في العظم ويكون ( فيها من برد ) وصفا للسحاب . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أنه سبحانه ينزل نوعا أو أنواعا من المطر من سحاب فيه السحابة كالجبال في العظم ، فيها نوع أو أنواع من البرد . والتنوع دل عليه التنكير .

هذا الوجه من تفسير الآية الكريمة لم يتناوله أحد من المفسرين ظنا منهم فيما يبدو أن المطر قد سبق ذكره في قوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ لكن هناك فرق بين المطرين فالودق من خلال السحاب الركام : ماء لا برد معه ، يكون في ظروف لا تسمح بتكوين البرد ، فهي من حيث درجة البرودة أخف ومن حيث عظم السحاب الركام أقل من أن يشبه سحابها بالجبال ذلك التشبيه البليغ الذي شبه به سحاب المطر الذي يكون معه البرد إلى فروق أخرى لا بد منها حتى يكون البرد في ذلك السحاب والبرد الذي يكون مع المطر يعرف في علم الأرصاد الجوية بالبرد المبتل ، أى بالبرد بله ماء المطر تميزا له من البرد الجاف الذي ينزل لامطر معه في الأقطار الباردة على الأخص .

هذا البرد الجاف هو الذي تدل عليه الآية إذا كانت ( السماء ) فيها بمعنى السحاب المرتفع كما نبه الألوسي وإذن تكون ( من ) الأولى لابتداء الغاية و ( من ) الثانية للبيان بيان عظم السحاب - على البديل والتشبيه البليغ ويكون ( فيها من برد ) وصفا لجبال ويكون مفعول ( وينزل ) محذوفا ، دل عليه ( من برد ) ليذهب الفكر في تصويره كل مذهب فيكون في الآية على هذا إيجاز بالحذف ويكون معناها أن الله سبحانه ينزل من السحاب البالغ العظم حتى كأنه جبال ، والذي فيه من البرد أنواع ، بردا متنوعا في الشكل والوزن والتركيب .

لكن إذا أخذت ( من ) في قوله تعالى : ﴿ من جبال ﴾ على التبويض كان الضمير في ( فيها ) راجعا إلى السماء بمعنى السحاب المرتفع وكانت ( من ) في ( من برد ) للبيان وكان مفعول ( وينزل ) هو ( من جبال ) أى : وينزل بعض جبال من برد ، فالشبه بالجبال في العظم هو مجموع البرد وما يتخلله في

السحاب قبل نزوله وكون النازل من البرد إلى الأرض بعض ذلك المجموع المشبه بالجبال يدل من ناحية على عظم مقدار البرد النازل ، ومن ناحية أخرى على عظم مقدار مايتبقى منه في السحاب لأن حياته لم تبلغ إحداها في النمو الحد الذي تكون معه أثقل من أن تحمله التيارات الهوائية أو القوى الكهربائية ، أو كلتاها في السحاب ، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (١) أنه سبحانه ينزل من السحاب مقادير عظيمة من برد متنوع في شكله وثقله وتركيبه - ينزلها من مقادير أعظم منها تبلغ جملتها في العظم مبلغ الجبال فكيف بالسحاب التي يحتويها ؟

هذه كلها معان كل منها آية من آيات القدرة الإلهية وظاهرة من ظواهر الفطرة المتعلقة بالبرد في السحاب ، جمعها الله لعباده في ثمانى كلمات من آية واحدة من كتابه العزيز إذا تأملها المتأمل بقدر من الدقة ، في حدود معانى كلمتين منها في اللغة هما ( السماء ) و ( من ) ودلالة التذكير في كلمتين أخريين هما ( جبال ) و ( برد ) وماأظننا استفدنا كل مايمكن أن يستنبط من الكلمات الثمانى من حقائق كشف عنها العلم الحديث ، والكلمات الثمانى تقع قريباً في وسط الآية ٤٣ من سورة النور .

وفى طرفى الآية الكريمة تنبيه إلى مزيد من عجيب الحقائق التى كشف عنها العلم فى العصر الحديث ، لكننا قبل أن ننتقل إلى الطرفين نتأملهما نرى توكيداً للمعانى السابقة أن نورد بعض أمثلة توضيحها . ولن يتسع المجال إلا لأقلها .

إن البرد آية فى تركيبه وتنوع حياته وطريقة تكوينه فجثته طبقات تتكون حول نواة جمدية أو ثلجية . ( الجمد هو الماء المتجمد كتلا المسمى عند الناس ثلجاً ، والثلج بخار متجمد متجمع والجليد الماء الرقيق المتجمد على سطح الأرض ) .

والطبقات تتوالى بين جليدية وثلجية وتختلف فى سمكها حسب الظروف حين تتقاذفها التيارات الهوائية والقوى الكهربائية والجاذبية الأرضية من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، ومن جنب إلى جنب ، حتى إذا نمت وكبرت إلى الثقل الكافى لتغليب قوى الجاذبية الأرضية تساقط الحب برداً ، يكون فى الغالب نقمة ، تختلف فى المقدار والمدى باختلاف حب البرد فى الحجم والوزن واتساع منطقة السقوط .

وقد أورد العالم الروسى ( ن . كوليوف ) فى فصل البرد من كتابه الممتع ( محيطنا الجوى ) ثلاث عشرة صورة لمقاطع ثلاث عشرة حبة بردية كلها مختلفة فى الشكل والسعة والتركيب الطبقي ، وقد ذكر أن الحبة فى العاصفة البردية فى الأيام الحارة من العام قد تبلغ حجم بيضة الحمامة أو بيضة الدجاجة ، أو قبضة اليد ، بل كان من بين برد عاصف أصابت الهند فى مايو سنة ١٩٢٩ حبات وزن الواحدة كيلو جرام ، وقطرها ثلاثة عشر سنتيمتراً ، وهى أكبر ماعرف فى علم الإحصاء الجوية . وذكر أن سرعة التيار الهوائى العمودى يجب أن تكون عشرة أمتار فى الثانية - أى ٣٦ كيلو متراً فى الساعة - كى يحمل التيار البرد الذى ثخائنه سنتيمتر ، وثلاثة أمثال هذه السرعة كى يحمل ما ثخائنه عشرة سنتيمترات وأن التيار لايبث طبعاً على سرعة واحدة بل تتعاور سرعته الزيادة والنقصان فإذا زادت صعد التيار بالبرد ، وإذا نقصت نزل الثقل بالبرد فإذا زادت صعد وهكذا دواليك وفى كل مرة يتكاثف على البرد ما يتكاثف حتى



يبلغ من الحجم والثقل ما يبلغ .

وذكر أيضا أن سحب البرد دائما ثقال جدا ، وأن الرصد قد سجل حتى في المناطق المعتدلة سحابة برد بلغ سمكها عشرة كيلو مترات ، وأن منطقة البرد في سحابته محدودة فإذا حملت الريح السحابة ونزل البرد فإن منطقة نزوله قل أن تزيد سعتها عن خمسة عشر كيلو مترا ، وإن عرف منها ما بلغ في الطول ٤٠٠ كيلو متر أو يزيد .

وقد ذكر أيضا أن تاريخ الأرصاد قد سجل عاصفة بردية أصابت فرنسا في ١٨ يوليو سنة ١٧٨٨ مرت عليها بسرعة ٧٠ كيلو مترا في الساعة وكان عمرها منقسما إلى ثلاث مناطق متوازية ، الوسطى منها لم يصبها البرد ولكن أصابها مطر شديد وكان عرضها نحو عشرين كيلو مترا . أما الآخرين اللتان مطرتا بردا فأولاهما كان طولها ٧٣٠ كيلو مترا ومتوسط عرضها خمسة عشر كيلو مترا ، وأخراهما كان طولها ٨٤٠ كيلو مترا وعرضها نحو ثمانية كيلو مترات .

وقد قدر البرد الذي نزل تقديرا تقريبا بما يشغل أربعة ملايين مترا مكعبا . وقدرت الخسائر الناجمة عنه بعشرات الملايين من الفرنكات . وهذا الوصف يوضح قوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ كما يوضح أيضا ذلك القدر الهائل للبرد الذي نزل ، وحجم تلك السحابة البردية التي سجلها الرصد قبل - وكان ارتفاعها عشرة كيلو مترات - يوضح هذان معنى الجبلية في قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ . ويزيد المعنى توضيحا وعلى الأخص مغزى الجمع في قوله تعالى : ﴿ من جبال ﴾ قول العالم الروسي في وصف السحابة البردية « إنها تتميز بلون قاعدتها الرمادي وانقسامها إلى رقاع ، وأن قممها تبدو كجبل له نتوءات كالتلال صفراء ، غير منتظمة - وجبال السحابة - تعد كلمة ( جبال ) هنا ترجمة حرفية - هذه الجبال تبدو إذا أشرف عليها من أعلى كأنها مغطاة بملاءات من سحب متشعبة ككتل الصوف »

أما بعد فعلى كل عاقل أن يسأل نفسه من الذي أبدع تلك الكائنات ، ومن الذي دبر أمر هذا الملك . الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم . ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتت فيها من كل زوج كريم ﴾ \* هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴿ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ ﴿ (٢) وتلك آية أخرى ناطقة بلسان الحال والمقال تصيح أن للكون إلهها . ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ \* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ (٣) .

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

(٢) الآية : ٤٤ من سورة النور .

(٣) الآيات : من ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا  
يامن يحار الفهم في قدرتك  
تخفى عن الناس سنا طلعتك  
فمن غير رب يرجع الصبح ثانيا  
وتطلب النفس حتى طاعتك  
وكل مافي الكون من صنعتك

أنظر أخى بعين عقلك إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبها بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ؛ إن في هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لا يشبهه شيء .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ يؤذنى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار ﴾ أخرجه البخارى ومسلم .<sup>(١)</sup>

### \* القرآن والعلم والكون \*

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابه أنا مخلوق للواحد الديان .

والبرد والبحر فيض من عطايه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبره والحوث ناجاه	والوحش مجده والطير سبحة
والنحل يهتف حمدا في خلاياه	والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى وربى ليس ينساه	والناس يعصونه جهرا فيسترهم

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾<sup>(٢)</sup> وجل جلاله الله إذ يقول :

﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ \* والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾<sup>(٣)</sup> .

انظر إلى الشمس التى	جذوتها	مستعرة
فيها ضياء وبها	حرارة	منتشرة
من ذا الذى أوجدها	في الجو مثل الشررة	

(١) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه : في كتاب التفسير (سورة الجاثية) ج ٦ ص ١٦٦ وأخرجه مسلم في صحيحه (في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها) باب : النهى عن سب الدهرج ٤ ص ١٧٨٢ مع نقص بعض ألفاظه (وهى بيدي الأمر)  
(٢) الآية : ٢٧ من سورة فصلت .  
(٣) الآيات : ٣٧ - ٤٠ من سورة يس .

ذاك	هو	الله	الذى	أنعمه	منهمرة
ذو	حكمة	بالغة	وقدرة	مقتدرة	
انظر	إلى	الليل	فمن	أوجد	فيه قمره
وزانه		بأنجم	كالدرر	المنتشرة	
ذاك	هو	الذى	أنعمه	منهمرة	
ذو	حكمة	بالغة	وقدرة	مقتدرة	

قال صاحب كتاب (الاسلام في عصر العلم) :-

لننظر في الآية ٣٨ من سورة يس ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾ فالفعل (تجري) ينطبق في أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب . وهو في حرفيته يعبر عن حركة حقيقية أثبتتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثني عشر ميلا في الثانية في اتجاه مخصوص في فضاء الله هو الجهة التي فيها النجم المسمى (فيجا) في الأفرنجية و (النسر الواقع) في العربية . والفعل يدل ، ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ، ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة إذ الجرى طبعاً أدل على السرعة من المشي أو السير . ولو كانت الشمس غير ذات حركة في الواقع وكان الفعل (تجري) معبراً فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لانفتح للمحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول إن جملة (والشمس تجري) هي من عند إنسان يصف ما يرى ، أما وقد ثبت للشمس جرى حقيقى في الفضاء متعين المقدار والاتجاه بعد نحو اثني عشر قرناً من عصر القرآن ، فالجملة القرآنية هي من عند خالق الشمس آية للناس على أن القرآن من عند الله .

أما الشطر الثانى من الآية الكريمة وهو (لمستقر لها) فمن الواضح أن هذا المستقر الذى ينتهى إليه جرى الشمس أمر من أمور الغيب التى لا يعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ينتهى إلى غايته في الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيها يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة ، إن لم يكن هو وقت قيامها .

وتنكير المستقر في قوله ﴿لمستقر لها﴾ يشير إلى عظم شأنه وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير في قوله تعالى : ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ في قصص قوم لوط . والقرينة على هذه الدلالة في إحدى الآيتين تختلف عنها في الأخرى لاختلاف المقام في كل ، كما يدل عليه السياق . فالمقام في آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل فكانت القرينة قوله تعالى : ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ وقوله : ﴿وأمطرنا عليهم مطراً فساء مظر المنذرين﴾<sup>(١)</sup> .

أما المقام في آية (يس) فهو مقام تحذير إجمالى من تكذيب الرسل وتنبية تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته ، وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة اللغوية قوله تعالى : ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ والاشارة في (ذلك) هي طبعاً لكون

الشمس تجرى لمستقر ، أى للجري و غايته معا ، لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن ( الفخر الرازى ) شمول التقدير للأمريين جميعا إذ جعل اسم الاشارة راجعا إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال كما تراه فى موضعه من تفسيره .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيقى فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى مايتفق وجرى الشمس الظاهرى ، وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وتردها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لاتتعداهما بحال . فكل موقع من هذين الأقصىين هو لها مستقر ، فى الشتاء مرة وفى الصيف مرة أخرى ، هذا هو خير ماقاله الأكثرون ؛ ولولا تنكير ( مستقر ) مااستقام لهم هذا ، لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين ، تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر . وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال : إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجرى يوم القيامة ، فتبطل حركتها وتستقر .

وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس والراجع اختلاف المشارق والمغرب فيها إلى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ودورانها حول الشمس مرة فى العام ، فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة التى أثبتتها العلم للشمس وأنبا بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا أن القرآن من عند الله حقا وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولا تكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة بالصورة التى رثيت هنا ، قد بينت صنوفا من الإعجاز فى آية سورة ( يس ) لا يكاد الإنسان يقضى حقها عجباً : آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين ( والشمس تجرى ) معجزة كبرى علمية وتحوى فى كلمتين أخريين ( لمستقر لها ) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ، ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس ؛ حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف - من عرف هذا السر أهتدى به ، وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف أهتدى بموافقة الآية للحركة التى ترى . .

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس ، ماموقف القرآن منها ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟ . . إن هذا التساؤل ليس فيه افتئات كما قد يظن بعض من يخشى أن تحمل أى القرآن ما لا تحتتمل ، بل هو تساؤل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبا بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن آية أخرى للناس تهدى إلى الله وتشهد للقرآن مرة أخرى ، أنه حقا من عند الله . فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم

قرونا بعد نزول القرآن وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لا حراك بها إذ ليس للأرض حركة محسوسة في الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب التي فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذي خطاه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفي الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فعلا في القرآن ، ففيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيتها جاءت عن طريق الإشارة لا صريح العبارة ، مراعاة لمقتضى الحال في خفائها ، وعدم إحساس الناس بها .

فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ، ومن الإعجاز البلاغى في الأسلوب أن ينبه الناس في كتاب الله إلى آيته سبحانه في حركة الأرض حول محورها ، وفي حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين منا عليهم بها ، وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس عن آياته فيها ، لما تعودوا وألفوا منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ، ومواطن الحكمة ، ومواضع العبرة ، فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله في كتابه العزيز بالليل وبالصبح والضحى وبالنهار أفلا يكون في هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ، ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة الأرض في كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون في ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة : على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذي أودع في المقسم به . فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما في قوله : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ (١) لأن الفعل معناه أقبل ظلامه أو أدبر ووصفه بالسرى في سورة الفجر ﴿ والليل إذا يسر ﴾ (٢) وكلها أوصاف تقتضى الحركة وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لاتفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل في جو الأرض في النصف غير المقابل ( أى المدابر ) للشمس وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة في اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان في الأرض على جانبى خط الاستواء القريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح والليل والنهار في القرآن أنها لم يوصفا بإقبال ولا إدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد . إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنها وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشئ عن سلوك الضوء ضوء الشمس في الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار في طبقات الهواء العليا الأخف ، إلى طبقات الهواء السفلى الأثقل من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص ، وبالانكسار أيضا حتى يعم النهار .

ولولا الغلاف الهوائى ماكان هناك فجر ولا صبح ، ولا إسفار في أول النهار قبل طلوع الشمس ،

( ١ ) الآية : ١٧ من سورة التكوين

( ٢ ) الآية : ٤ من سورة الفجر .

ولاشفق في آخر النهار بعد غروبها ، فليس شيء من ذلك بكائن على القمر مثلاً بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشئ عن صغر كتلته مع سرعة حركة الجزئيات في أى غاز . من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر في سورة المدثر . بعد القسم ﴿ بالليل إذ أدبر ﴾ وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس في ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ (١) وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة في نهاره الطويل طول نصف شهر عندنا كما هو الحال في نهارنا أيضاً إذا علونا بالغلاف الجوى ، بهوائه وسحبه ، كما استنتجه العلماء من أن الضوء لا يرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء حين دارت بهم القميرات الصناعية حول الأرض أعلى من غلافها الجوى .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وتجاوزنا غلافها الهوائى هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل ، قد دل عليها القرآن المجيد صراحة في كلمتين هما : ( وأغطش ليلها ) في قوله تعالى : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ رفع سمكها فسواها \* وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ (٢) .

فالضمير في ( ليلها ) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لا ليل الأرض . ومع ذلك فقد فات المفسرين دلالة هذه الإضافة وهم معذرون إذ صرفوها إلى ما يعرفون من هذا الليل وجعلوها من المجاز ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ، ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدا عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لا يدري معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا تجاوزنا القسم وإشارته واستزدنا من الدلالة على الحركة اليومية في القرآن وجدناها في قوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ (٣) .

فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار ؛ لأن التعبير يحتملها كما يقول الزمخشري : وإذن فهو يشملها إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى الخالق لا الآخر لجاء التعبير القرآنى نصاً في ذلك لا يحتمل غيره لأنه كلام الخالق سبحانه الذى لا يجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصد ، وإذن فكل من الليل والنهار : يطلب الآخر طلباً حثيثاً بإذن الله كى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر ، كما تفيد صيغة المضارعة في الفعلين مع الحالية في الفعل الثانى .

فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالاً محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالاً محله من الطرف الآخر في كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها ، أو حول محورها أمام الشمس ، نتيجة لذلك الدوران الذى يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير في قوله تعالى : ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ فإنه راجع إلى لفظ الجلالة في أول الآية الكريمة في سورة الأعراف . ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصاً صريحاً في قوله : ﴿ يكور الليل على

(١) الآية : ٣ من سورة الشمس .

(٢) الآيات : من ٢٧ - ٢٩ من سورة النازعات .

(٣) من الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .

النهار ويكور النهار على الليل ﴿١﴾ (والتكوير) اللف واللى ، يقال كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشري في تفسيره : إلا أنه جعل يلتبس لذلك معنى مجازيا . . لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين لقرون بعيدة ، من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محوري حقيقي للأرض ، التي هي محل الليل . ويلف النهار على الليل بلى حقيقي بأشعة ضوء الشمس في غلاف الأرض الهوائي الذي تملؤه الظلمة وهي تدور .

وفي الفعل ( تكور ) المكرر مرتين في الآية : معجزة علمية أخرى إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذي يشغله ، ويتعاوره الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض . وفي هذا غناء عن الاستشهاد على كروية الأرض بكلمة ( دحاها ) في ( والأرض بعد ذلك دحاها - النازعات ٣٠ )

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة في القرآن على الحركة اليومية للأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله في قوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون ﴾ - يس - ٤٠ - ومعنى الكلمات الأربع الأولى : ظاهر فيها تقدم فلا محل للاشكال الذي ذكره ( الفخر الرازي ) أما الشاهد فهو في الكلمات الأربع الأخرى ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ وقد جاءت في إثر الأربع الأولى كما ترى ، فهل تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين في مفتتح الآية الكريمة ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ - يس - ٤٠ - فالليل والنهار يسبحان في فلك ، لكل فلك يدور فيه ، ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذي يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففي القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل ، إحداها عن طريق الإشارة إلى أثرها في الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما في الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة ، وذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ - فاطر ١٣ - وقوله : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ - لقمان ٢٩ - وقوله : ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ - الحج ٦١ - وتكرار المعنى هكذا في آيات متعددة تؤكد له من ناحية ، وتنبئ من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التي يحسونها من ناحية أخرى ، والسرها في تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين ( كيبلر ) لدوران السيارات حول الشمس ، ولقانون الجاذبية العامة التي كشفها وكشف قانونها ( نيوتن ) .

أما الدلالة الثانية فهي أهم ، لأنها إشارة تكاد تكون في صراحة ، عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية ، وتلك هي دلالة قوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء ﴾ - النمل ٨٨ .

والسحاب كما هو معروف لا يتحرك بذاته ولكن يتنقل محمولا على الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائي فيظنها جامدة في مكانها وهي تمر بسرعة محمولة أيضا ، وليس لها حامل إلا الأرض ، فالأرض

إذن هي السرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين من صنع الله الذى أتقن كل شيء . فلاستتاج فى الواقع قريب غير بعيد . ييسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل ، أو ينبغى أن يدل ، الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة للجبال من آيات الله ومن المنافع لعباده ما يشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ما أثبت العلم للأرض من حركة حول الشمس ، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما ، لا يومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة وما يستلزمه قوله تعالى : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾ - النمل ٨٨ - من أن الظاهرة التى لفت الله إليها الإنسان فى قوله : ﴿ وترى الجبال .. ﴾ هي ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه ، وما ينافى ماسماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة ، أو بين يدي يوم القيامة ، من نصف الجبال نسفا ، إلى آخر ما نطقت به الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها .

و ( الزمخشري ) وحده هو الذى أدرك بذوقه البيانى عدم التلازم بين قوله تعالى : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾ وبين ماسيحل بالجبال بين يدي الساعة ، فقد رد محذوفا يلىق فى رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال : « والمعنى يوم ينفخ فى الصور ، وكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين » ثم قال : « ( صنع الله ) يريد به الإثابة والمعاقبة » وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، إلى آخر ما قال مما رفضه غيره مثل أبى حيان فى تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشري فى الاعتزال .

ولو عرف الزمخشري وأبو حيان مانعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، وما يحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة وما يترتب عليها من المنافع للناس ، إذن لكبروا الله وتسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ، ومن تشبيهها التمثيل ، ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، ولفهموا الخطاب فى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرمر السحاب ﴾ - النمل ٨٨ - على أنه خطاب للإنسان ، الآن وفى كل عصر آت ، يدل على آية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله ، كما دله فى الآية التى قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدى إلى الله ، أو من شأنها أن تهدى إليه سبحانه ، وهي قوله : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(١)</sup> والسياق ودلالته ينبغى على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالاتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية :

﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين ﴾ <sup>(٢)</sup> فى موضعها بين الآيتين تشهد لمن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

(١) الآية : ٨٦ من سورة النمل .

(٢) الآية : ٨٧ من سورة النمل .



وبعد فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبْصُرًا ﴾ إلى ظاهرة تنشأ من إحدى حركتي الأرض وأن تشير آية : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ إلى الحركة الأخرى ، تلك الإشارة الواضحة العجيبة . ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث ، لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذى لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله فى حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التى أقسم الله بها تنبيهها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِالْخَنَسِ الْجَوَارِ الْكُنَسِ ﴾ - التكويد - ١٥ ، ١٦ وللقرآن الكريم فى كل من ميدانية الخاص والعام أسلوبه الحكيم للدلالة على ما يريد أن يدل عليه من أسرار الفطنة ليكون كل سر فيها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزلة القرآن .

ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل لا يصدم البديهي المسلم به عند الناس فيكذبه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذا يسر الله سبيل الكشف لأولى العلم فى مستقبل العصور . وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لاتنفى . ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما ، أو يدل عليها أولى العلم ، ثم لا يصدم الناس فيها يعتقدون ولو كان مايعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة - هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية أو فى دلالة أولى العلم عليها ، أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس . ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ - يس ٣٨ - وهى مسبوقة بقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ الْمَظْلُومُونَ ﴾ فكلمة ( الشمس ) فى الآية إما أن تكون معطوفة على ( الليل ) فى الآية قبلها ويكون المعنى ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ، وتكون جملة ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ﴾ كجملة ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ الْمَظْلُومُونَ ﴾ فى الآية قبلها تبينا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس . وإما أن تكون كلمة الشمس مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره ﴿ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآ ﴾ .

وفى هذه الحالة يكون كونها آية الله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ، ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ، وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية فيها : هى أن الشمس تجرى . وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها . وقد سبقت القضيتان ليكون فى كل منهما ، أو فى مجموعهما ، هاد إلى الله ، ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لاتجب العبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه ..

فأنظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى ، كيف إنطبقت على البديهي المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الشمالى ، وفى نصفها الجنوبى ، من قطب إلى قطب ، لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر ، وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم ، بما فسرت أو فسر ، مما خطاه علم الفلك الحديث ، إذ أثبت أن حركة

الشمس في الظاهر حول الأرض - كما هو معروف - هي حركة نسبية راجعة في الحقيقة إلى حركة الأرض حول محور لها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة في اليوم . ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبتت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من دلالتها بهذا الذي أثبتته العلم ؟ إن الذي جد بما أثبتته العلم هو إنتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار ، واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة في حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر كونية متكررة في اليوم وفي العام ، تنطق بذاتها ويعظمها وينتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة ، يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، فلا بد لها من موجد قدير حكيم قدر ، ودبر ، ولا يزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الإله الحق سبحانه ، ولا ينتقص من هذه الدلالة شيئا أن يصبح الجرم العظيم الذي له تلك الحركة العجيبة هو الأرض في حكم العلم الحديث . بعد أن كان هو الشمس في رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم الحديث .

لكن هناك سؤالا آخر لا يقل أهمية عن السؤال السابق ، لأنه يتعلق بالصدق كما يتعلق بذلك بالدلالة ، فهل فقدت الآية شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذي أثبتته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول في كتابه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ - فصلت ٤١ ، ٤٢ - فمستحيل أن يكون في القرآن شيء من الباطل قط ، لا في تكويناته ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو إشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة ، والمؤمن بها ، الذي يحاذر أن يقفو ما ليس له به علم ، ليس له في الإجابة عن السؤال إلا الجزم بأن آية سورة ( يس ) لا يمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم . .

وليس لها في تفهمها إلا طريقتان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لا بد له في الكلام من قرينة تبرره ، وتدل على أن المعنى المجازي هو المراد ، وليس في الآية الكريمة ولا فيما قبلها أو بعدها في موضعها من سورة ( يس ) ما يدل على أن كلمة ( تجرى ) في قوله : ﴿ والشمس تجري ﴾ مستعملة في غير ما وضعت له . أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة للشمس من باب إطلاق المسبب على السبب ، فلم يبق إلا أن تكون كلمة ( تجرى ) في الآية على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لا مجازا .

وهنا نتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمي في القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب ، فقد أثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها ، أى من حيث المقدار والاتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا في الثانية تقريبا ، وأما الاتجاه فهو نحو النجم المسمى ( فيجا ) في الإنجليزية والنسر الواقع في العربية ، أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى في الفضاء بسرعة اثني عشر ميلا في الثانية في اتجاه النسر الواقع .

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١) فأنت ترى الآن في قوله سبحانه

﴿والشمس تجري﴾ معجزة علمية عظيمة لم تكن تخاطر لأحد على بال ، حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، لم يكشف عنها إلا في القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد وأدوات التحليل الضوئي ومن المقدرة على تفسير النتائج التي توصل إليها عن طريقها ، ما أدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم ، كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجري في ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعي في دورته حول الأرض !!

لقد فتن الناس أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية ، التي ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا في ذلك ما وهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل . إذ هي إنما تدور طوعا لسنن الله في الحركة من ناحية ، وفي الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون في هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى في الصناعة والعلم ، ولا يكون في الشمس وجريها في الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم ، سبحانه الذي خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها في الفضاء ؟ ثم كيف لا يكون في إخبار القرآن بجري الشمس هذا ، قبل أن يؤق الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه له ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها في غفلة عن جريها وجهل به ؟ كيف لا يكون في هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذي فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ .

فأنظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ما ينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى : ﴿والشمس تجري﴾ إذا انبعثت الدقة من تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بألا يعدل في تفهم الآيات القرآنية الكونية عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية في نفس الكلام . صحيح أن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا .

لكن هذا لا ينقص شيئا من العبرة التي ينبغي استخلاصها ، ألا وهي وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة في تفهم أي الذكر الحكيم في ضوء المعروف من الحق ، والمعروف من الحق في هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعة في حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق .

ثم تأمل بالغ حكمة الله في أن جعل جرى الشمس حقيقة في الفضاء يتفق خبره إذا ذكر في القرآن مع ما علم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجري الظاهري فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التي علم الله سبحانه - أن سوف تمر قبل أن يستطيع أو لو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيقي ، حتى إذا كشفوه وحققوا صدق الخبر الكوني القرآني حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى في القرآن تقنع كل ذي عقل لم يغلبه الهوى والعناد ، أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة في قوله تعالى : ﴿والشمس تجري﴾ ينطوي تحتها في الواقع معجزة أخرى . إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال في تفسير الشروق والغروب إن الشمس معلقة أو مركوزة في فلك مادي كرى هو الذي يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية ،

والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ، فإن الجرى لا يمكن إلا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر ، وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافتروضوها أى السيارات . مركوزة فى أفلاك كرية شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنة لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف مالميس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية الكواكب أو السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري ﴾ وقوله : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ إذ لا قرينة فى رأى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز .

### ذلك من آيات الله

قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) . هذا هو رابع الأدلة على التوحيد فقد استدلل بأحوال السماء والأرض ، وبالأثار العلوية ، وهنا استدلل بأحوال الحيوان فقال :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته . ونخص الماء بالذكر من بين ما يتركب منه من المواد ، لظهور إحتياج الحيوان إليه ، ولا سيما بعد كمال تركيبه ، ولا متزاج الأجزاء الترابية . به .

ثم فصل أجزاء الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ كالحيات والسمك وغيرها من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ كالإنسان والطيور .

﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه ما يمشى على أكثر من ذلك كالعنكب وغيرها من الحشرات ، لدخوله فى قوله : ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ مما ذكر وما لم يذكر ، مع الاختلاف فى الصور والأعضاء ، والحركات والطباع ، والقوى والأفاعيل .

﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أى : أن الله على أحداث ذلك وخلق وخلق ما يشاء من الأشياء - لذو قدرة فلا يتعذر عليه شيء أرادته .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمال والأخلاق - لا بد أن يكون بتدبير مدبر حكيم ، مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا

في السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .  
 قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .  
 هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أنه هو المنزل للآيات المبينات والأدلة الواضحات الناطقة بنعوت  
 الجلال والجمال والكمال ، فهو صاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، وقد جاءت هذه  
 الآية : بعد بيان الآيات الكونية المبثوثة في الأنفس والأفاق ، ومن قبل ذلك أخبر سبحانه أنه منزل  
 الآيات التنزيلية .

وهكذا تعاقب الآيات الكونية الآيات التنزيلية ، فالكل من عنده جل جلاله وكل من الآيات : نور  
 على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . . صراط الله الذي له مافى  
 السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى      حتى أريك بديع صنع البارى  
 الأرض حولك والسماء اهتزنا      لروائع الآيات والأثار  
 من شك فيه فنظرة فى خلقه      تمحو أثيم الشك والانكار

### من قبائح القوم

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ  
 بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾  
 وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ آرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ  
 أَنْ يَحْجِفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَوْ لَوَّلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا  
 إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ  
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ \* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ  
 أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾  
 قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ  
 تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

## \* تفسير المفردات \*

يتولى : أى يعرض .

مذعنين : أى منقادين .

مرض : أى فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال .

أرتابوا : أى شكوا فى نبوتك .

يخيف : أى يجور .

الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم .

يخشى الله : أى فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى .

يتقه : أى فيما بقى من عمره .

جهد أيماهم : أى أقصى غايتها من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها .

تولوا : أى تتولوا ( بحذف إحدى التاءين )

## \* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتم بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، فيقولون :

أما بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد ما يقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يخيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا مدعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ، ثم بين بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها ، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الإيمان أنهم مطيعون للرسول فى كل ما يأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعا ، ثم أمر الرسول بنبيهم عن الحلف والإيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لاحتجاج إلى يمينه وبأن يقوله لهم : أطيعوا الله حقا لارياء ، فإن أبيتم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتموني اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ما كلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق دعاه يهودى فى خصومة بينها إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله ﷺ فحكم لليهودى فلم يرض المنافق لقضائه - عليه السلام - فقال نتحاكم إلى عمر - رضى الله عنه - ، فلما ذهب إليه قال له اليهودى : قضى لى النبى ﷺ فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل - رضى الله عنه - بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ .

## \* التفسير \*

النفاق مرض اجتماعى خطير والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على الأمة فى السراء ، وسوس ينخر عظامها فى الضراء إنهم الأكلون على كل الموائد .

قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) وكم من شخص يلقاك عناقا ويقسم إنه لا يطيق لك فراقا ، ملاك في مظهره ، شيطان رجيم في مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى لب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ (٢) .

فدع الكذب فلا يكن لك صاحبا إن الكذب يشين حرا يصحب  
يلقاك يقسم إنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يعطيك من طرف اللسان حلوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

كان المسيح - عليه السلام - يقول : ( يابنى إسرائيل لاتأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ؛ ولكن البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بخشية الله ) .  
وقد جاء في الحديث القدسي الجليل : ( لقد خلقت خلقا ألتستهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنه تدع الحليم منهم حيران فبى يغترون ؟ أم على يجترون ) (٣) .  
قوله تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴿ (٤) .  
هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن حال المنافقين الذين يقولون بألتستهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ؛ ولكنهم في الحقيقة كاذبون يقولون بألتستهم مالميس في قلوبهم قال تعالى : ﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ والمنافقون لا تفرز قلوبهم إلا الكذب والخداع كما تفرز الكبد الصفراء ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى

(١) سورة المنافقون . الآيات : ١ - ٦

(٢) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦

(٣) الحديث في الأحاديث القدسية في (مجاة في الإخلاص في العمل وذم الرياء ، وترك النهى عن المنكر) ج ٢ ص ٢٩٣ برقم

٢٩٣ ط بيروت

(٤) سورة النور الآيات : ٤٧ - ٥٢

الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا • أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا (١)

ثم قال سبحانه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾

أى إن كان الحكم لهم وفى جانبهم جاءوا مذعنين طائعين لماذا يفعلون هذا فى قلوبهم مرض وشبهة ، أم إرتابوا فى رسالتك وعدالتك أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، تنزه الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وتنزه رسوله عن الحيف والظلم والجور ، بل أولئك هم الظالمون روى أبى حاتم بسنده عن الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبى ﷺ وهو حق أذعن - وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان : فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبى ﷺ ( من كان بينه وبين أخيه شئ فدعى إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لآحق له ) (٣) .

ثم أخبر تعالى : عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لا ييغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى سمعنا وطاعة .

ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقيبا بدويا أحد نقيب الأنصار : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبتك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، ولا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمرك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شئ يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

قال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولا خير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يقول : عروة الإسلام شهادة ألا لاله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاء الله أمر المسلمين .

(١) سورة النساء آيات : ٦٠ - ٦٣

(٢) سورة النساء آية : ٦٥

(٣) هذا الحديث ورد فى تفسير ابن كثير تفسير سورة النور آية : ٥٠ ص ٨١ طبعة الشعب . وقال : هذا حديث غريب وهو



وقوله : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه ، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل . وقوله ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير وآمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون ﴾ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ماحل وعليكم ماحلتهم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴿ (١) .

يخبر سبحانه وتعالى : عن بعض صفاتهم التى عرفوا بها ، فقد بلغت بهم الجراءة أنهم يحلفون ويكذبون ، كما قال سبحانه : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ (٢) وكما قال : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (٣) .

إن كذب هؤلاء سيمتد بهم حتى بعد البعث (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون لهم كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الكاذبون إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . لقد أقسموا بأغلظ الأيمان ، وحلفوا جهد طاقتهم ؛ لئن أمرتهم بإمحمد بالخروج جهادا فى سبيل الله ليخرجن ، والله يعلم إنه لكاذبون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) . قل لهم يا محمد لا تقسموا فطاعتكم معروفة لدى الجميع لأنها طاعة مكذوبة مراوغة مخادعة ، ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴿ لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (٤) .

وجاء فى قوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ مامعناه أى إن طاعة المؤمنين معروفة بعدم الحلف فلا داعى للحلف والقسم ، لأن الله مطلع على مافى القلوب عليم بذات الصدور وخبير بما تعملون لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

الله يدري كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لن تستطيع خداع من يطوى ومن ينشر

قل لهم يا محمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن استجابوا لطاعة الله ورسوله فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وإن تلوا وتعرضوا فإنما عليه ماحل أى : إبلاغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، ﴿ وعليكم ما حلتكم ﴾ أى : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾

(٤) سورة الحشر الآية ١١ ، ١٢

(٥) سورة الشورى ، آية : ٥٣ .

(١) سورة النور الآية ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) سورة المنافقون . آية : ٢

(٣) سورة التوبة ، آية : ٩٦ .

كقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ فَذَكَرَ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ۖ لست عليهم بمسيطر ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل - يقال له : شعيباء - : أن قم في بني إسرائيل فلأن ساطلق لسانك بوحى ، فقام فقال : ياسماء اسمعى ، وبأرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأننا ويدبر أمرا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والأجام في الغيطان ، والأنهار في الصحارى ، والنعمة في الفقراء ، والمملك في الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على العقب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيرا ونذيرا ، لا يقول الخنا ، أفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأسده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدي به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به نثاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدن مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به الرسل <sup>(٣)</sup> . رواه ابن أبي حاتم .

### الوعد الحق

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا أَوْثَنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

(١) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .

(٢) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

\* الخنا : الفحش في القول .

(٣) أخرجه القاضي عياض في الشفاء : عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ١٥/١ . وأورده ابن كثير في تفسير سورة النور ط

الشعب ج ٦ ص ٨٣ .

## \* المناسبة واجمال المعنى \*

بعد أن بين أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم ، أردف ذلك وعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء في الأرض ، ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو آمناً فيعبدون الله وحده ، وهم آمنون ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك ، فقد عصى ربه وكفر أنعمه ، ويعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم في الأرض ، ويجعل لهم من بعد الخوف آمناً - أردف ذلك أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، شكره له على ما أنعم به عليهم ، وإحساناً إلى عباد البائسين الفقراء ، كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة ، وضعفهم قوة ، ثم أعقبه برفع أستبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد عدوهم وعددهم ، ويعدن ذكر أن ما لهم إلى النار وبئس القرار .

## \* التفسير \*

حقائق التاريخ تثبت ، ووقائع الأيام تؤكد ، وأحداث الليالي تشهد بأن الله جلت قدرته ، قد صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وفي تلك الآية الكريمة وعد صادق لرسول الله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلهم من بعد خوفهم من الناس آمناً ، وحكماً فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى : ذلك وله الحمد والمنة .

فلأنه - ﷺ - لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكما لها ، وأخذ الجزيرة من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والأسكندرية - وهو المقوقس - وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصبحمة - رحمه الله وأكرمه - ثم لما مات الرسول - ﷺ - واختار الله له ماعنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلم شعث ما وهى بعد موته - ﷺ - ووطأ جزيرة العرب ومهداها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد - رضى الله عنه - ففتحوا طرفاً منها ، وقتلوا خلقاً من أهلها . وجيشاً آخر صحبة أبى عبيدة - رضى الله عنه - ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبة عمرو بن العاص - رضى الله عنه - إلى أرض مصر ، ففتح الله للجيش الشامى في أيامه بصرى ودمشق ومخاليقها من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله - عز وجل - واختار له ماعنده من الكرامة ، ومن على أهل الاسلام بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله ، في قوة سيرته وكمال عدله ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكما لها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان ، وتقهر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالها في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله - عليه من ربه أتم سلام ، وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما إلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق ،

وخراسان ، والاهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمى مازوى لى منها )<sup>(١)</sup> فيها نحن أولاء نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا ؟ قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : عن ابن أبى عمر ، بسنده عن جابر بن سمرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يزال أمر الناس ما ضيا ما ليلهم اثنا عشر رجلا ) ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : ( كلهم من قريش ) . ورواه البخارى .

وفى رواية لمسلم : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر<sup>(٢)</sup> . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثنى عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر ، فان كثيرا من أولئك لم يكن من الأمر شيء . فاما هؤلاء فإمهم يكونون من قريش ، يولون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعاً ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على - رضى الله عنهم - ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم ماشاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدي الذى اسمه يطابق إسم رسول الله ﷺ . وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما ، وقد روى الإمام أحمد عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : ( الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضا )<sup>(٣)</sup>

وقال الربيع بن أنس : عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض - كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾<sup>(٤)</sup> قال : كان النبى - ﷺ - وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لا شريك له سرا وهم خائفون ، لا يؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال ، فكانوا بها خائفين يمسون فى السلام ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ماشاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يا رسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ . أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محببا ليست فيه حديدة ) . وأنزل الله

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الفتن ) باب : هلاك هذه الأمة بعضهم لبعض : ج ٨ ص ١٧١

(٢) رواه مسلم فى : ( كتاب الإمارة ) باب : الناس تبع لقريش ج ٦ ص ٣ .

ورواه البخارى فى : ( كتاب الأحكام ) باب : الاستخلاف : ج ٩ ص ١٠١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٢٢٠/٥ - ٢٢١ وفى سنن أبى داود فى ( كتاب السنة ) باب : فى الخلفاء ج ٤/٢١١ وفى تحفة الأحوذى أبواب الفتن ، باب : مجاء فى الخلافة ، رقم ٢٣٢٦ : ج ٦ ص ٤٧٦ ص ٤٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه غير واحد عن سعيد بن جهان .

(٤) من الآية : ٥٥ من سورة النور .

هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فأمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله تعالى قبض نبيه - ﷺ فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيها وقعوا فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا ، فغير بهم<sup>(١)</sup> . وقال بعض السلف خلافة أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - حق في كتاب الله - ثم تلا هذه الآية . وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن في خوف شديد . وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض - إلى قوله - لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ كما قال تعالى : عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ كما قال رسول الله - ﷺ - لعدي بن حاتم ، حين وفد عليه : ( أتعرف الحيرة ؟ ) قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : ( فوالذي نفسي بيده ، ليطمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز ) قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليذلن المال حتى لا يقبله أحد ) . قال عدي بن حاتم . فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جواز أحد ، ولقد كنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها<sup>(٥)</sup> . وقال الامام أحمد بسنده عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ ( بشر هذه الأمة بالسنا والرقعة ، والدين والنصر ، والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب )<sup>(٦)</sup> . قوله تعالى : ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ . قال الامام احمد بسنده عن أنس : أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبي ﷺ على حمار ليس بيني وبينه إلا آخرة الرحل ، قال : ( يامعاذ ) . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ثم قال : ( يامعاذ بن جبل ) قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : ( يامعاذ بن جبل ) قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك ، قال : ( هل تدري ما حق الله على العباد ؟ ) قلت : الله ورسوله أعلم . قال : ( حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ) قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : ( يا معاذ بن جبل ) قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : ( فهل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ) قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : ( فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم ) أخرجه في الصحيحين من حديث قتادة<sup>(٧)</sup> .

(١) الدر المنثور، عن عبد بن حميد وابن أبي حاتم : ج ٥ ص ٥٥ .

(٢) سورة الأنفال : آية : ٢٦

(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .

(٤) سورة القصص ، آية : ٥ .

(٥) أخرجه البخاري ، ( كتاب المناقب ) باب : علامات النبوة في الإسلام : ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، وتحفة الأحوفى ، تفسير سورة الفاتحة . الحديث ٤٠٢٩ : ٢٨٦ / ٨ - ٢٨٩ . ومسنند الإمام أحمد : ٢٥٧ / ٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٣٤ / ٥ .

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : ٢٤٢ / ٥

وأخرجه البخاري في ( كتاب اللباس ) باب : إرداف الرجل خلف الرجل : ٢١٨ / ٧ . ومسلم ، في ( كتاب الإيمان )

باب : من لقي الله بالإيمان الخ : ٤٣ / ١ .

قوله تعالى : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنباً عظيماً فالصحابه رضوا الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب وأيدهم تأييداً عظيماً وحكموا في سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة - وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك - وفي رواية - حتى تقاتلوا الدجال - وفي رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون ) وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ .

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين وراءه فيما به أمرهم وترك ما عنه زجرهم لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ( لا تحسبن ) أى لا تظن يا محمد ان ( الذين كفروا أى خالفوك وكذبوك ) معجزين في الأرض ) أى لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ ومأواهم ﴾ أى في الدار الآخرة ( النار ولبئس المصير ) أى لبئس المال مال الكافرين وبئس القرار وبئس المهاد .

### الاستئذان وأحكام أخرى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّ نَكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُّوا كَمَا اسْتَعِذَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ ءَايَتُهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُنَّ مَفَاحِهِمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٠١﴾

### معاني المفردات

ما ملكت أيما نكم : يشمل العبيد والاماء أى الذكران والاناث . الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ ، إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم ( بفتح اللام ) . تضعون : أى تخلعون . الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار والعورات : أى الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية - القواعد : واحدها قاعد وهى العجوز - لا يرجون نكاحا أى لا يطمعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها . الحرج لغة : الضيق ، ويراد به فى الدين الإثم . ما ملكتم مفاتحه : أى ما كان تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على الواحد والجمع كالخليط والعدو . جميعا : أى مجتمعين - أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

### التفسير

كان الاستئذان فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ كان هذا استئذان الأجانب على غيرهم . أما الاستئذان هنا فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ﴾ فإن المراد به استئذان الأقارب من خدام وملك يمين وأطفال لم يبلغوا الحلم . فإن الآية الكريمة حددت لهم ثلاثة أوقات يستأذنون فيها : أول هذه الأوقات : من قبل صلاة الفجر . وثانيها : حين تضعون ثيابكم من الظهيرة . وثالثها : من بعد صلاة العشاء . وسماها القرآن : ( ثلاث عورات ) لأن الناس فيها قد يتخففون من ثيابهم طلباً للنوم والراحة . فعلى ملك اليمين والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أن يستأذنوا في الدخول على المالك والقريب ماداموا في هذه الأوقات .

١ - روى أن سبب نزول الآية ( أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاماً من الأنصار يقال له مُدْلَج ، وكان عمر نائماً ، فدق عليه الباب ودخل ، فاستيقظ وجلس ، فانكشف منه شيء ، فقال : لوددت أن الله تعالى نهى أبناءنا وآباءنا وخدمنا عن الدخول علينا في هذه الساعة إلا بإذن . فانطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد نزلت فخر ساجداً ) . وهذا أحد موافقات رؤية الصائب رضى الله عنه للوحي .

٢ - وقيل إن السبب ما روى من أن أسماء بنت أبي مُرشد دخل عليها غلام كبير لها في وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغللمانا يدخلون علينا في حال نكرها فنزلت الآية .

روى سعيد بن جبيرة عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ الآية . وقوله في النساء . ﴿ وَإِذَا حضر القسمة أولو القربى ﴾ (١) الآية . وقوله في الحجرات : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَامَكُمْ ﴾ (٢) .

٣ - وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان في العورات الثلاث التي أمر الله بها في القرآن فقال : إن الله ستر يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال في بيوتهم ، فرمى فجأ الرجل خادمه أو ولده أو يتيمة في حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا في تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الجبال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من

١ - هذا الحديث أورده القرطبي في تفسيره ١٢ / ٤ - ٣ بهذا اللفظ .

ومراجعة كتب الحديث لم أجده إلا في أسباب النزول للواحدي بلفظ : قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاماً من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال يارسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

راجع أسباب النزول للواحدي / ٢٤٨ تصوير ط : عالم الكتب بيروت على طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ

٢ - وقال قائل : نزلت في أسماء بنت مرشد كان لها غلام كبير فدخل عليها في وقت كرهته ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغللمانا يدخلون علينا في حال نكرها فأنزل الله هذه الآية ( أسباب النزول للواحدي / ٢٤٨ ) .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن جابر بن عبد الله حدث عن أسماء بنت مرشد كانت في مخدعها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأذرات فيبدو ما في أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء : ما أقبح هذا ؟ فأنزل الله في ذلك ( وقل للمؤمنات .. ) الآية ( أسباب النزول للسيوطي / ١٢٧ )

هذا الحديث : رواه أبو داود وابن المنذر وابن أبي حاتم واللفظ له وابن مردويه والبيهقي في السنن عن ابن عباس رضى الله عنها وراجع الدر المنثور ٥ / ٥٦ ، قال ابن كثير بعد عزوه لابن أبي حاتم وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس تفسير ابن كثير ٦ / ٩٠ ط الشعب .

والحديث رواه أبو داود عن ابن عباس ( راجع عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٤ / ٨٦ - ٩٧ كتاب الأدب ، باب في الاستئذان في العورات الثلاث - الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ )



الاستئذان الذى أمروا به . وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ . الجناح هو الاثم . والمعنى ليس عليكم إثم إذا مكثتموهن من الدخول عليكم فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، وليس عليهم إثم كذلك إذا دخلوا بدون استئذان فى غير هذه العورات ، فإنهم طوافون عليكم أى يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم فلا غنى لهم من الدخول عليكم ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم . ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى ﷺ قال فى المرة : ( إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم أو الطوافات ) .

وكما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم . فأنتم كذلك تطوفون عليهم لطلب الخدمة منهم ، ولقضاء حوائجكم . ومثل ذلك البيان الذى سبق ، يبين لكم الله الآيات والأحكام هنا ، فإنه تعالى العليم بأحوالكم ، الحكيم المنزه عن العبث ، الذى يضع الأمور فى نصابها ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم ) ، فى هذه الآية يبين الله تعالى حكم الأطفال إذا بلغوا الحلم . ولذلك علامات بدنية معروفة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول فى كل الأوقات سواء فى الأوقات الثلاثة أو فى غيرها ، كما استأذن الذين من قبلهم ( أى الكبار من الأقارب ) وذلك بخلاف ملك اليمين من العبيد والاماء ، فإن حكمهم ثابت لا يتغير فى الاستئذان فى أوقات العورة . ومثل ما بين الله تعالى من الأحكام يبين هنا ، فهو العليم الحكيم ، الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . حكيم منزّه عن اللغو والعبث .

قوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ . المراد ( بالقواعد من النساء ) هن العجائز اللاتى قعدن عن الولد ويشن من المحيض ، ولا يطمعن فى الزواج . رفع الله تعالى عنهن الحرج إذا تخففن من بعض الثياب كالجلباب الذى يلبس فوق الملابس ، بحيث لا يظهرن الزينة الداخلية ، وبشرط أن تظل محتفظة بخمارها الصفيق . قال تعالى : ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ ثم رغبهن الله جلّت حكمته - فى الاحتفاظ بالعفة ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، إذ قد لا تؤمن الفتنة ، وكما قال أحدهم :

لكل ساقطة فى الحى لاقطة وكل كاسدة يوما لها سوق  
والله سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم ، فاحذروا عقوبته ، واجتنبوا مخالفته فالسعيد هو التقى :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان الله عاصيا  
قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ :  
للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نبينها فيما يلي :

● قال عطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال إنها نزلت في الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى في سورة الفتح ، وتلك في الجهاد لا محالة ، أى أنهم لا إثم عليهم في ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى في سورة براءة : ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه - إلى قوله - أن لا يجدوا ما ينفقون ) (١) .

● وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتخرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جلسه ، والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره فكهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم .

١ - وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية . قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته ، أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتخرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم . (٢) .

٢ - قال مقاتل : نزلت في الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله ﷺ غازيا وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تخرجت أن أكل من طعامك بغير إذنك (٣) .

٣ - وعن ابن عباس رضى الله عنه أن المراد من الحرج المنفى في الآية الحرج في الأكل : ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ (٤) تخرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام . فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس في مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

(١) سورة التوبة (الآيتان ٩١ ، ٩٢)

(٢) هذا الحديث أخرجه ابن جرير الطبرى في تفسيره ١٨ / ١٢٩ / عن مجاهد بلفظ : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض والأعرج إلى بيت أبيه أو إلى بيت أخيه أو عمه أو خاله أو خالته فكان الزمنى يتخرجون من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .

وأخرجه أيضا عبد الرزاق وابن أبى شيبة وإبراهيم وعبد الله حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عنه أيضا (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٨) والواحدى في أسباب النزول ص ٢٤٩ .

(٣) هذا الحديث رواه الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج الحارث غازيا مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن زيد ، فخرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٨) .

(٤) سورة البقرة آية ١٨٨

(٥) هذا الحديث رواه الواحدى في أسباب النزول ٢٤٨ - ٢٤٩ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله تبارك وتعالى ( لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ) تخرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والمريض لا يستوفى الطعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وكما رفع الله تعالى الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، رفع الحرج كذلك عن عباده أن يأكلوا في بيوتهم . وإنما نص عليه مع أنه معلوم أنه لا حرج على الإنسان أن يأكل من بيت نفسه ، نص على ذلك ليعطف عليه غيره ويدخل في بيت الإنسان بيت ابنه . لقوله ﷺ : ( أنت ومالك لأبيك ) وقوله ( إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه ) (١)

كذلك لا حرج على العباد أن يأكلوا في تلك البيوت : بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، ومن ملك المفاتيح والأصدقاء والمراد بقوله تعالى ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ هو وكيل الرجل وقيمته في ضيعته وما يشبه فلا حرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شيء منها . وقال سعيد بن جبير والسدي : هو خادم الرجل ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

٤ - وقال الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون في النفي مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمانهم ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل . إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم . وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتيحه ﴾ (٢)

وقوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ أى بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقال ابن زيد : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان في أوله ولم يكن لهم ستور أبواب ، أو كانت الستور مرخاة ، فرمى دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، وربما وجد الطعام وهو جائع . فسوّغ له أن يأكل منه ، ثم قال : ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء ، وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

( ١ ) حديث : أنت ومالك لأبيك رواه - والذي بعده رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله أن رجلا قال يا رسول الله : إن لي مالا وولدا ، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي فقال : أنت ومالك لأبيك - قال السدي : وفي الزوائد استاده صحيح ورجاله ثقات على شروط البخاري - سنن ابن ماجه ٤٤ / ٢ أبواب التجارة ، باب ما للرجل من مال ولده - الطبعة الأولى ) ورواه أحمد في مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ( المسند ٤ / ٢ - ٢ ) وفي رواية لأحمد عنه : أنت ومالك لوالدك ، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا ( المسند ١٧٩ / ٢ ) .

وفي رواية عنه : إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم ( المسند ٢ / ٢١٤ ) ورواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : أن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم ( سنن ابن ماجه ٤٣ / ٢ - ٤٤ ) ( ٢ ) عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان المسلمون يرغبون في النفي مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمانهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما أحببتم ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا ، إنهم أذنوا عن غير طيب نفس ، فأنزل الله عز وجل ( ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج . . إلى قوله أو ما ملكتم مفاتيحه . ( رواه البزار وقال : لا نعلم رواه عن الزهري إلا صالح أ هـ ) ( راجع كشف الاستار ٣ / ٦١ / ٦٢ رقم ٢٢٤١ قال السيوطي في أسباب النزول ص ١٢٩ أخرجه البزار بسند صحيح ) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ : قيل في سبب نزولها ما روى عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : لما أنزل الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الأعمى حرج - إلى قوله - أو صدقكم ﴾ وكانوا أيضا يأنفون ويخرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون به غيره ، فرخص الله لهم في ذلك فقال ( ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ) : أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين<sup>(١)</sup> .

٤ - روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت في بني ليث ابن عمرو بن كنانة تخرجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين . . وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفا يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الأبل الحقل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحدا أكل<sup>(٢)</sup> ، وفي مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمس له أكىلا فإنى لست آكله وحدى

وفي الحديث : ( شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رفقده ) وإنما ذم هذا لأنه بخل بالقرى .

١ - روى الامام أحمد بسنده عن وحش بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : ( لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه )<sup>(٣)</sup> .

٢ - وروى ابن ماجه أيضا بسنده عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( كلوا جميعا ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

٣ - قال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس قال : أوصانى النبي ﷺ بخمس خصال قال ( يا أنس أسبغ الوضوء يزد في عمرك ، وسلم على من لقيت من أمتي تكثر حسناتك ، وإذا دخلت - يعنى بيتك - فسلم على أهلِكَ يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك يا أنس أرحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقاء يوم القيامة )<sup>(٥)</sup> .

(١) تقدم تخريجه في الصفحة قبل السابقة برقم ٣

(٢) «روح المعاني» للالوسى ١٨ / ٢٢١ ،

(٣) (رواه احمد وابوداود وابن ماجه) المسند ١ / ٣ - ٥ وعون المعبود - ١ / ٢٣٨ كتاب الأطعمة باب في الاجتماع على الطعام ، سنن ابن ماجه الطبعة الاولى ٢ / ٣٠٧ - ٣٠٨ كتاب الأطعمة ، باب الاجتماع على الطعام )

(٤) سنن ابن ماجه ٢ / ٣٠٨ كتاب الأطعمة باب الاجتماع على الطعام .

(٥) (تفسير ابن كثير ٦ / ٩٥ ط الشعب) وأخرجه ايضا : ابن عدى والبيهقى في شعب الايمان عن أنس ايضا - (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٩ - ٦٠)

ولما كان المسلمون في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، صاروا كأن كل واحد منهم نفس الآخر ، لذا جاء التعبير القرآني ( فسلموا على أنفسكم ) لأن غيرك نفسك إذ وشيجة الاسلام وأصرته أقوى من وشيجة الدم والعرق .

٤ - قال ابن جريج : أخبرني أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، قال ما رأيته إلا يوجهه <sup>(١)</sup> .

٥ - وقال مجاهد ( إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ) <sup>(٢)</sup> .

٦ - وروى الثوري عن عبد الكريم الجزري عن مجاهد : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . . وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك وحدثنا أن الملائكة ترد عليه <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾ أي حيوا تحية ثابتة من عند الله فيها البركة لأهل البيت ، كما أنها تطيب نفوسهم . ومثل ذلك التفصيل والبيان يوضح الله لكم الأحكام لتعقلوا وتفهموا . ﴿ كذلك بين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ليتدبر الآيات وتكون له زادا ونورا في حياته .

### المؤمنون والرسول

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا

(١) رواه ابن جرير في تفسيره ١٨ / ١٣٢ .

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره ٦٨ / ١٣٢ عن الأعمش عن إبراهيم في قوله ( إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ) قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت بيتك فقل السلام عليكم .

(٣) ( تفسير ابن كثير ٦ / ٩٤ - ٩٥ ط الشعب ) .

عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤﴾

### معاني المفردات

أمر جامع : أى خطب جَلَل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور في حادث قد عرض . والتسلل : الخروج من البيت تدريجا وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر ، يقال لاذ فلان بكذا ، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وامتحان في الدنيا . عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجع في الآخرة .

### المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان عند الدخول ، بين هنا أن من كمال إيمانهم أن يستأذنوا عند الخروج إذا كانوا على أمر جامع ، أى خطب جسيم ، كإعلان الحرب والقتال ، كما أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم ويستغفر الله لهم . كما أدبهم في نداء رسول الله ، ألا ينادوه باسمه إنما ينادونه بـ « يا أيها النبي » و « يا أيها الرسول » وحذرهم من سوء العاقبة إذا خالفوا أمره . وختم سبحانه السورة بإثبات ملكيته للسموات والأرض وإحاطة علمه بكل شيء .

### التفسير

بين الله حقيقة المؤمنين الكاملين بأنهم الذين آمنوا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . ومن كمال إيمانهم أنهم إذا كانوا مع قائد المسلمين الأعظم على أمر جامع وشأن خطير ، لم يذهبوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

ثم أرشد رسوله ومصطفاه فقال : ( فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ) وهذه إشارة كريمة فيها التنويه بمكانة رسول الله عند ربه فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله لما سيوف يفوتهم من الخير عندما يفارقونك ، فإن في استغفارك لهم رحمة بهم ، إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم . قوله تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ : أى لا تسموه إذا دعوتهم يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبي الله يا رسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم في قوله : ( لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ) قال أمرهم أن يشرفوه هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا ﴾<sup>(١)</sup> إلى آخر الآية وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله - إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون أولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم<sup>(٢)</sup> . فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة

١ - سورة البقرة الآية رقم ١٠٤

٢ - سورة الحجرات الآيات ٢ - ٥

النبي ﷺ والكلام معه وعنده كما امروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .  
والقول الثاني في ذلك ان المعنى في ( لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ) أى لا تعتقدوا ان دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا ان يدعوا عليكم فتهلكوا حكاية ابن ابي حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله اعلم .  
وقد نادى الله تعالى في القرآن الانبياء بأسمائهم قال : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾<sup>(١)</sup>  
﴿ يَانُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾<sup>(٢)</sup> ( يَابْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقْتَ الرَّؤْيَا ﴾<sup>(٣)</sup> ( يَامُوسَى إِنَّا أَنَا رَبُّكَ ﴾<sup>(٤)</sup> ( يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾<sup>(٥)</sup> ( يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾<sup>(٦)</sup> ( يَا عِيسَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾<sup>(٧)</sup> ( يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾<sup>(٨)</sup>

فإذا أراد أن ينادى رسوله ومصطفاه ، قال له : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ﴾<sup>(٩)</sup> ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾<sup>(١٠)</sup> .  
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد العقلاء ياخير الورى يامن اتيت إلى الحياة مبشرا  
وبعث بالقرآن فينا هاديا وطلعت في الاكوان بدرا نيرا  
والله ما خلق الإله وما برا بشرا يرى كمحمد بين الورى  
قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في هذا النص أقوال لأئمة التفسير بيانها كالتالى : - قال مقاتل بن حيان هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ، ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل ان يخرج من المسجد ، إلا بإذن من النبي ﷺ في يوم الجمعة بعد ما يأخذ في الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبي ﷺ فيأذن له من غير ان يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبي ﷺ يخطب ، بطلت جمعته . وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم .  
وقال قتادة في قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ يعنى : لوإذا عن نبي الله وعن كتابه .

وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال من الصف .

وقال مجاهد في الآية : ﴿ لِوَاذًا ﴾ خلافا .

وقوله : ﴿ فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان ، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(٦) سورة مريم الآية رقم ٧

(٧) سورة مريم الآية رقم ١٢

(٨) سورة آل عمران الآية رقم ٥٥

(٩) سورة الاحزاب الآية رقم ٤٥

(١٠) سورة المائدة الآية رقم ٦٧

(١) سورة الاعراف الآية رقم ١٩

(٢) سورة هود الآية رقم ٤٨

(٣) سورة الصافات الآية رقم ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية رقم ١١ ، ١٢

(٥) سورة ص الآية رقم ٢٦

١ - ( من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ) أى فليحذر وليخف من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا ( أن تصيبهم فتنة ) أى فى قلوبهم من كفر ، أو نفاق ، أو بدعة . ( أو يصيبهم عذاب اليم ) أى فى الدنيا بقتل ، أو حبس ، أو نحو ذلك ،

٢ - ( كما روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ - أنه قال : ( مثلى ومثلكم كمثلى ومثلكم كمثلى رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللاتى يقعن فى النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمين فيها - قال - فذلك مثلى ومثلكم أنا أخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبون وتقتحمون فيها ) أخرجاه من حديث عبد الرزاق (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ( إن الله ما فى السموات والأرض ) فهو المالك لها المدبر لشتونها ( الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ) (٣) .  
وهكذا يقترن الملك بالعلم إذ يلزم أن يكون المالك عالماً بشئون ما يملك فما بالك إذا كان المالك .

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .  
( هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ) (٤) .

قوله تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴾  
قد هنا للتحقيق إذ العلم الألهى أمر ثابت وحقيقى كما فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ ﴾ (٥) وقال تعالى : ( قد سمع الله قول الذى تمجادلك ) (٦)

وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (٧)

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ رواه البخارى معلقاً فى كتاب الاعتصام/ ث ( فتح البارى ١٧/ ٨٢ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فانحطاً ... ) ، وفى كتاب البيوع / ٦٠ ( فتح البارى ٥ / ٢٥٩ باب النجش ) ورواه مسلم موصولاً عن عائشة رضى الله عنها ( صحيح مسلم ١٢ / ١٦ كتاب الأقضية ، نقض الأحكام الباطلة ورد عذبات الأمور ) ورواه أحمد فى مسنده عنها رضى الله عنها ( المسند ٦ / ١٤٦ )

(٢) البخارى فتح البارى ١٤ / ٩٩ - ١٠١ كتاب الرقاق مسلم ١٥ / ٤٩ كتاب الفضائل أحمد ٢ / ٢٤٤ / ٣٣١٢ / ٣٦١ ، ٣٩٢

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٥

(٤) سورة الحشر الأيتان رقم ٢٢ - ٢٤

(٥) سورة الاحزاب الآية رقم ١٨

(٦) سورة المجادلة الآية رقم ١

(٧) سورة الانعام الآية رقم ٣٣



وقال : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾<sup>(١)</sup> .  
فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقدر كقول المؤذن تحقيقا وثبوتا : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أى هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم . إلى قوله : - إنه هو السميع العليم ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾<sup>(٤)</sup> . أى هو شهيد على عباده ، بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾<sup>(٦)</sup> :

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾<sup>(٧)</sup> وقال : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾<sup>(٨)</sup> وقوله : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أى . يوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ ينبئهم بما عملوا ﴾ أى يخبرهم بما فعلوا في الدنيا ، من جليل وحقيق ، وصغير وكبير .

كما قال تعالى : ﴿ ينبا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾<sup>(٩)</sup> . وقال : ( ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا )<sup>(١٠)</sup> . ولهذا قال هنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ .

### سورة الفرقان

#### مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق وعدد آياتها سبع وسبعون وكلماتها ثمانمائة واثنان وسبعون وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وثلاثون مقصود السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة :

( ١ ) المنة بإنزال القرآن ومنشور رسالة سيد ولد عدنان

( ٦ ) سورة الرعد الآية رقم ١٠

( ٧ ) سورة هود الآية رقم ٦ .

( ٨ ) سورة الانعام الآية رقم ٥٩

( ٩ ) سورة القيامة الآية رقم ١٣

( ١٠ ) سورة الكهف الآية رقم ٤٩

( ١ ) سورة البقرة الآية رقم ١٤٤ .

( ٢ ) سورة الشعراء الآيات ٢١٧ - ٢٢٠

( ٣ ) سورة يونس الآية رقم ٦١ .

( ٤ ) سورة الرعد الآية رقم ٣٣ .

( ٥ ) سورة هود الآية رقم ٥

- (٢) تنزيه الحق تعالى من الولد والشريك وذم الأوثان  
 (٣) الشكاية من المشركين بطعنهم في المرسلين بأكل الطعام بأخص مكان  
 (٤) استدعائهم محالات المعجزات من الانبياء كل أوان .  
 (٥) ذل المشركين في العذاب والهوان .  
 (٦) عز المؤمنين في ثوابهم بفراديس الجنان .  
 (٧) خطاب الحق مع الملائكة في القيامة تهديدا لأهل الكفر والطغيان .  
 (٨) بشارة الملائكة للمجرمين بالعقوبة في النيران ويطلان أعمال الكفار يوم الميزان .  
 (٩) الاخبار بمقر المؤمنين في درجات الجنان .  
 (١٠) انشقاق السموات بحكم الهول وسياسة العبدان  
 (١١) الاخبار عن ندامة الظالمين يوم الهيبة ونطق الأركان  
 (١٢) ذكر الترتيب والترتيل في نزول القرآن  
 (١٣) حكاية حال القرون الماضية  
 (١٤) تمثيل الكفار بالأنعام أخص الحيوان .  
 (١٥) تفضيل الأنعام عليهم في كل شان .  
 (١٦) عجائب صنع الله في ضمن الظل والشمس وتخليق الليل والنهار والآفات والأزمان .  
 (١٧) المنة بانزال الأمطار وإنبات الأشجار في كل مكان .  
 (١٨) ذكر الحجة في المياه المختلفة في البحار وذكر النسب والصهر في نوع الانسان وعجائب الكواكب  
 والبروج ودور الفلك وسير الشمس والقمر وتفصيل صفات العباد وخواصهم بالتواضع .  
 (١٩) حكم قيام الليل والاستعاذة من النيران .  
 (٢٠) ذكر الاقتار والاقتصاد في النفقة .  
 (٢١) الاحتراز من الشرك والزنى وقتل النفس بالظلم والعدوان  
 (٢٢) الاقبال على التوبة والاعراض عن اللغو والزور .  
 (٢٣) الوعد بالغرف للصابرين على عبادة الرحمن .  
 (٢٤) بيان ان الحكمة في تخليق الخلق التضرع والدعاء والابتهاال إلى الله الكريم المنان بقوله : ( ما يعيؤكم ربى لولا دعاؤكم ) الآية .

### المتشابهات

قوله : ﴿ تبارك ﴾ هذه لفظة لا تستعمل الا الله تعالى ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي وجاء في هذه  
 السورة . في ثلاثة مواضع ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾  
 ﴿ تبارك الذى إن شاء جعل لك ﴾  
 ﴿ تبارك الذى جعل في السماء بروجاً ﴾  
 وخصت هذه المواضع بالذكر ، لأن ما بعدها عظام :

الأول ذكر الفرقان ، وهو القرآن المشتمل على معاني جميع الكتب المنزلة من عند الله .  
والثاني : ذكر النبي ﷺ -  
والثالث ذكر البروج والسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، ولولاها ما وجد في الأرض حيوان ولا نبات .  
ومثلها ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾ (١) ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٢) ﴿ تبارك الذي بيده الملك ﴾ (٣) .

قوله ﴿ من دونه ﴾ هنا وفي مريم ويس ﴿ من دون الله ﴾ لأن في هذه السورة وافق ما قبله ، وفي السورتين لو جاء ﴿ من دونه ﴾ لخالف ما قبله ، لأن ما قبله في السورتين بلفظ الجمع تعظيماً فصريح .  
قوله : ﴿ ضرا ولا نفعا ﴾ قدم الضر موافقة لما قبله ، وما بعده ، فما قبله نفى وإثبات ، وما بعده موت وحياة قوله : ﴿ مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ قدم النفع ، موافقة لقوله تعالى : ﴿ هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ﴾  
قوله : ﴿ الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن ﴾ ومثله في السجدة يجوز أن يكون ﴿ الذي ﴾ في السورتين مبتدأ ﴿ الرحمن ﴾ خبره في الفرقان .  
﴿ وما لكم من دونه ﴾ خبره في السورة وجاز غير ذلك .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرُهُ تَقْدِيرًا ۝ (٢) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُورًا ۝ (٣) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ (٤) وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِبَ عَلَيْهَا فَهْيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بَكْرَةٌ وَأَصِيلًا ۝ (٥) قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ فِى السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ (٦)

(١) سورة غافر الآية رقم : ٦٤

(٢) سورة المؤمنون الآية رقم : ١٤

(٣) سورة الملك الآية رقم (١)

وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ  
مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ  
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا  
﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ  
قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ  
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أَلْقَاوْا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مَقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا  
﴿١٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ  
الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ  
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ  
أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا  
أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ  
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا اسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ  
يَظْلِمِ مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ  
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ  
بَصِيرًا ﴿٢١﴾

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة ، بكونه مالكا لما في السموات والأرض ، مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع ، والوضع الانيق . وانه سيحاسب عباده يوم القيامة ، على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا .

وافتح هذه بما يدل على تعاليه في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وعلى حبه لخير عباده ، بإنزال القرآن لهم ، هاديا وسراجا منيرا .

( ٢ ) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك ، وتحذيرهم من مخالفة أمره ، خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه ، لارشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذم الجاحدين لنبوته بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ، ويمشي في الأسواق ، إلى آخر ما قالوا ..

( ٣ ) في كل من السورتين وصف السحاب ، وإنزال الأمطار ، وإحياء الأرض الجرز ، فقال في السالفة

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ﴾ (١) وقال في هذه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا ﴾ (٢)

( ٤ ) ذكر في كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم قليلا ولا قطميرا ، فقال في

الأول : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعة ﴾ (٣) وقال في هذه : ﴿ وَقَدَمْنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ

فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثْثُورًا ﴾ (٤)

( ٥ ) وصف النشأة الأولى للإنسان في أثنائها فقال في الأولى ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ (٥) وفي

الثانية ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ﴾ (٦)

### معاني المفردات

تبارك : من البركة ، وهي كثرة الخير لعباده بانعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، كما قال : ﴿ وَإِنْ

تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ (٧)

والفرقان : هو القرآن ، سمي بذلك ، لأنه فرق في الانزال ، كما قال : ﴿ وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى

النَّاسِ عَلَى مَكْثٍ ﴾ (٨) على عبده : أى على رسول الله ﷺ ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه في

أقصى مراتب العبودية ، وتنبئها إلى ان الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ، وفيه رد على النصارى ،

الذين يدعون ألوهية عيسى عليه السلام .

للعالمين : أى الثقلين من الانس والجن .

فقدروه : أى هبأه لما أعده له من الخصائص والأفعال .

الافتراء : الاختلاق والكذب

من قولهم : افتريت الأديم - الجلد - إذا قطعته للافساد

جاءوا أى أتوا .

والظلم : وضع الشيء في غير موضعه إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرا منه .

والزور : الكذب .

الاساطير : واحدها اسطار أو اسطورة كأحدوثه وهو ما سطره المتقدمون .

( ١ ) سورة النور آية رقم ٤٣

( ٢ ) سورة الفرقان آية رقم ٤٨

( ٣ ) سورة النور آية رقم ٣٩

( ٤ ) سورة الفرقان آية رقم ٢٣

( ٥ ) سورة النور آية رقم ٤٥

( ٦ ) سورة الفرقان آية رقم ٥٤

( ٧ ) سورة إبراهيم آية رقم ٣٤ ، سورة النحل آية رقم ١٨

( ٨ ) سورة الاسراء آية رقم ١٠٦

اكتبها : أى أمر بكتابتها .

تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتبها ليحفظها

بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء والمراد دائما .

مسحورا : أى سحر فاختل عقله .

الأمثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال

فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم .

اعتدنا : أى هيأنا .

والسعير : النار الشديدة والاشتعال .

رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد من قولهم : دور تتراءى أى تتناظر ومنه قوله ﷺ

( ان المؤمن والكافر لا تتراءى نارهما ) أى ( تتقاربان ) بحيث تكون إحداهما بمرأى من

الأخرى ، إذ يجب على المؤمن بجانب الكافر والمشرک فى أمور الدين ،

والغيط : إظهار الغيط والمراد صوت التغيط

والزفير : اخراج النفس بعد مده .

مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل

والثبور : الهلاك .

جنة الخلد : هى التى لا ينقطع نعيمها .

مستولا : أى جديرا ان يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .

ضل السبيل : فقداه وخرج عنه .

والذكر : ما ذكر به الناس على السنة أنبيائهم .

بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع

صرفا : أى دفعا للعذاب .

يظلم : أى يكفر .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ لفظ تبارك من البركة

العظيمة ، التى لا يدرك كنهها ، فقد عظمت بركة الله حتى شملت الكون كله ، وقد اثنى الله تعالى على

ذاته ، لأن المقام مقام نعمة ، لا تسامى ولا يلحق بها ، ولا يشق لها غبار ، إنه مقام تنزيل الفرقان على

عبده ومضطفاه ، كما اثنى تبارك اسمه على ذاته بالحمد فى أول سورة الكهف ، حيث قال : ﴿ الحمد لله

الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قويا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين

يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا (١)

قوله ﴿ على عبده ﴾ المقصود به خاتم الأنبياء ، والتعبير بالعبودية هنا ، فيه تشريف وتكريم معبودية

الانسان لربه اسمى ما يناله العبد ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾ (٢) .

قال القائل :

ومما زادني شرفا وقدرًا وكدت بأخصى أطأ الشربا  
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا  
لذا جاء لفظ العبد ، معبرا عن رسول الله في أشرف المقامات ، وأسمى الغايات ، فهو في سورة  
الاسراء ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا﴾<sup>(١)</sup> .

وفي سورة النجم ، المشتملة على المعراج ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾<sup>(٢)</sup>  
وفي موقف الدعاء : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾<sup>(٣)</sup>  
قوله : ﴿ليكون للعالمين نذيرا﴾ في الآية دليل على عموم رسالته ﷺ . فالعالمون جمع عالم ، والعالم  
كل ما سوى الله تعالى ، فقد كانت بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - عامة للجن والانس ، صح في  
الحديث عنه أنه قال : ﴿كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعث إلى كل أمة وأسود﴾  
وقال له ربه : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا﴾<sup>(٤)</sup> وقال عن رسالته : ﴿وما  
أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال في شأن إرساله إلى الجن : ﴿وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه  
قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى  
مصدقا لما بين يديه ، يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم  
من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال عز من قائل : ﴿قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا .  
يهدي إلى الرشd فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا﴾<sup>(٧)</sup> .  
﴿والفرقان﴾ المنزل على خاتم الأنبياء ، هو القرآن العظيم الذي يفرق الله به بين الحق والباطل ،  
والنور والظلمات ، أنه الروح الذي يحيى الله به الموات ، والنور الذي يبدي الله به غياهب الظلمات  
﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به  
من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في  
الأرض ألا إلى الله تصير الأمور﴾<sup>(٨)</sup> .

قوله تعالى : ﴿الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك  
وخلق كل شيء فقدره تقديرا﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن نفسه ، بأنه له ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك الملك أحد ،  
فهو المالك المدبر المتصرف ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون  
قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله . قل أفلا تتقون . قل من بيده

٥ - الانبياء آية رقم ١٠٧

٦ - سورة الأحقاف الآيات - ٢٩ - ٣١

٧ - سورة الجن الآيات ١ - ٣

٨ - سورة الشورى الآيتان ٥٢ - ٥٣

١ - سورة الاسراء آية رقم (١)

٢ - سورة النجم آية رقم (١١)

٣ - سورة الجن آية رقم ١٩

٤ - سورة الاعراف آية رقم ١٥٨

ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون .<sup>(١)</sup>  
 سبحانه لم يتخذ ولدا ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ ﴿ بديع السموات والأرض أن يكون له ولد  
 ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق كل  
 شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف  
 الخبير ﴾<sup>(٢)</sup> لقد قال المفترون : ان الملائكة بنات الله ، فقال لهم مولانا جل ذكره ﴿ أم خلقنا الملائكة  
 إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ،  
 مالکم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون أم لکم سلطان مبين فأتوا بکتابکم إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٣)</sup>  
 كما ألقى بالملائكة على هؤلاء الذين نسبوا لله الولد ، فقال : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد  
 جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الأرض فخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ،  
 وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد  
 أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾<sup>(٤)</sup>

وقال سبحانه : ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، هو الغنى له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم  
 من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في  
 الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾<sup>(٥)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ وقل  
 الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾<sup>(٦)</sup>  
 فانه جل شأنه نفى الولدية والشريك ، بعد ما أثبت أن له ملك السموات والأرض ، وأثبت أنه  
 خلق كل شيء ، على نظام بديع ، ونسق رتيب ، فقدره تقديرا ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا  
 واحدة كلمح بالبصر ﴾<sup>(٧)</sup>

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا  
 ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾

وبعد بيان الأدلة ، وقيام الحجة على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له ملك  
 السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، بعد  
 ذلك كله ، اتخذوا من دونه آلهة ، لا نصيب لها من الحقيقة ﴿ أفأرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة  
 الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتوهما أنتم  
 وآبائكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم  
 الهدى ﴾<sup>(٨)</sup> عبدوا من دونه ما لا يخلق شيئا وهو يخلق ، وتركوا عبادة من يخلق ﴿ قل أغير الله اتخذ وليا  
 فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن  
 من المشركين ﴾<sup>(٩)</sup>

(١) سورة المؤمنون الآيات ٨٨ - ٨٩

(٢) سورة الانعام الآيات ١٠١ - ١٠٣

(٣) سورة الصافات الآيات ١٥٠ - ١٥٧

(٤) سورة مزيم الآيات ٨٨ - ٩٥

(٥) سورة يونس الآيات ٦٨ - ٧٠

(٦) سورة الاسراء الآية رقم ١١١

(٧) سورة القمر الآيتان : ٤٩ - ٥٠

(٨) سورة النجم الآيات ١٩ - ٢٣

(٩) سورة الانعام الآية رقم ١٤



ولقد وجه القرآن الكريم هذا السؤال إليهم ، بعد ما عدد البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة في سورة النحل ، من خلق السموات والأرض ، والإنسان والأنعام ، وإنزال الماء ، وإنبات النبات ، وتسخير الفلك والبحر وألقاء الرواسي ، قال لهم سبحانه : ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾ (١) إن هذه المعبودات مع كونها مخلوقة ، فإنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، قال تعالى : ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ (٢) كما أن هذه المعبودات ، لا تملك الموت ولا الحياة ، ولا البعث بعد الموت قال تعالى : ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ، إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم أذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوكم وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ (٣)

وقوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيمًا﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿إن هذا إلا إفك﴾ أى كذب ﴿افتراه﴾ يعنون النبى - ﷺ - ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أى واستعان على جمعه بقوم آخرين ، فقال الله تعالى : ﴿فقد جاءوا ظلما وزورا﴾ أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه .

﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ يعنون كتبها الأوائل ، أى استنسخها ﴿فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾ أى تقرأ عليه أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم ، كل أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة ، أن محمدا رسول الله ﷺ لم يكن يعرف شيئا من الكتابة ، لا في أول عمره ولا في آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعث الله نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ونزاهته ، وبره وأمانته ، وبعده عن الكذب والفجور ، وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيها يقذفونه ، فتارة من افكهم يقولون ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون مجنون ، وتارة يقولون كذاب ، قال الله تعالى : ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا﴾ وقال تعالى في جواب ما عاندوا ههنا وافتروا : ﴿قل أنزله الذى يعلم السر في السموات والأرض﴾ الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين ، والآخرين ، أخبارا حقا صدقا

(١) سورة النحل الآية رقم ١٧

(٢) سورة فاطر الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف الآيات ١٩٤ - ١٩٨

مطابقا للواقع في الخارج ، ماضيا ومستقبلا ﴿ الذي يعلم السر ﴾ أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان غفورا رحيم ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والانابة ، وإخبارهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم ، وفجورهم وبتانهم ، وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الاسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ (٢) قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أوليائه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة . قوله تعالى :

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا - تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأيتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا ، قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا . لهم فيها ما يشاءون كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى ، مخبرا عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشى في الأسواق ﴾ أى يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ يقولون هلا أنزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدقه ، وهذا الكلام قاله فرعون من قبل لموسى . ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ (٣) وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ، ولهذا قالوا ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أى كنز ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أى تسير معه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ قوله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾

أى جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم ساحر مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ، ولهذا قال ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق ، وطريق الهدى ، فانه ضال

(١) سورة المائدة الآيةان : ٧٣ - ٧٤

(٢) سورة البروج الآية رقم : ١٠

(٣) سورة الزخرف الآية رقم : ٥٣

حيثما توجه ، لأن الحق واحد ومنهجه متحد ، يصدق بعضه بعضا ، ثم قال تعالى . تخبرا نبيه : أنه إن شاء لاتاه خيرا مما يقولون في الدنيا ، وأفضل وأحسن فقال : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ الآية ، قال مجاهد : يعنى في الدنيا ، قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة ، قصرا كبيرا كان أو صغيرا ، قال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن خيثمة قيل للنبي - ﷺ - : ( إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : ) اجمعوها لي في الآخرة فأنزل الله عز وجل في ذلك ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أى إنما يقول هؤلاء هكذا تكذبا وعنادا ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة ، يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿ وأعتدنا ﴾ أى أرسدنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ أى عذابا أليما حارا لا يطاق في نار جهنم . قال سعيد بن جبير : ﴿ السعير ﴾ واد من قيح جهنم ، وقوله : ﴿ إذا رأتهم ﴾ أى جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعنى من مقام الحشر . قال السدى من مسيرة مائة عام ( سمعوا لها تغيظا وزفيرا ) أى حنقا عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ ﴾ (١) أى يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وروى ابن أبي حاتم بسنده عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبي ﷺ . قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من يقل على ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتهى إلى غير مواليه ، فليتبوأ مقعده من النار - وفى رواية - فليتبوأ بين عيني جهنم مقعدا ) قيل يا رسول الله : وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ الآية

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : ( إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن مالك ؟ فتقول انه ليستجير منى فيقول أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يارب ما كان هذا الظن بك ، فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول ان تسعنى رحمتك قال فيقول أرسلوا عبدى وإن الرجل ليجر إلى النار فتشوق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . ( قال ابن كثير وهذا اسناد صحيح ) (٢)

وعن مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله : ﴿ سمعوا لها تغيظا وزفيرا ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبي مرسل إلا خر لوجهه ، ترتعد فرائضه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجتو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسى (٣) وقوله : ﴿ وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ﴾ قال قتادة عن أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل

(١) سورة الملك آية رقم ٧ ، ٨

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره وابن ماجة وابن أبى حاتم

(جامع البيان ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٤ ط الشعب)

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن أبى حاتم ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٥ ط الشعب

وهذا الحديث رواه ابن جرير فى تفسيره ١٨ / ١٤٠ عن عبيد بن عمير ولفظه : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خر ترتعد فرائضه ، حتى إن إبراهيم ليجتو على ركبتيه فيقول يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى .

الزج في الرمح أى من ضيقه . وقوله : ﴿ مقرنين ﴾ قال أبو صالح يعنى مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ أى بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعو اليوم ثبورا واحدا ﴾ . . . الآية . . أى لا تدعوا اليوم ويلا واحدا ودعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور : الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون ﴿ وإن لأظنك يا فرعون مشبورا ﴾ أى هالكا .  
قوله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا - لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيق مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فككا كما هم فيه ، اهذا خير أم جنة الخلد التى وعدنا الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه ، ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا ينفون عنها حولا ، وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : ﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية ان معنى قوله : ﴿ وعدا مسئولا ﴾ أى وعدا واجبا . وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله : ( كان على ربك وعدا مسئولا ) يقول ان الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ﴾ (١) . وهذا المقام فى هذه السورة ، من ذكر النار ، ثم التنبيه على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والجور ، ثم قال بعد ذلك ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنه للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كانه رءوس الشياطين . فإنهم لا ياكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لىلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾ (٢)  
فيا أخى المسلم صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود .

### ويحذركم الله نفسه

- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ( يؤقى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ) (٣) رواه مسلم ( الزمام ما يجعل فى أنف البعير ) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنها قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا

(١) سورة غافر الآية رقم ٨

(٢) سورة الصافات الآيات : ٦٢ ، ٧٠

(٣) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعادنا الله منها ( صحيح مسلم ١٧ / ١٧٩ بشرح النووى ) ورواه الترمذى فى أبواب جهنم ١ / ( تحفة الأحوذى ٧ / ٢٩٤ ) باب ، ما جاء فى صفة النار

ولأنه لأهونهم عذابا) متفق عليه . (١)  
وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : ( منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ،  
ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته ) رواه مسلم  
(الحجزة) معقد الأزار تحت السرة و (الترقوة) بفتح التاء وضم القاف : هي العظم الذي عند ثغرة  
النحر ، وللإنسان ترقوتان في جانبي النحر .  
وعن أنس رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال ( لو  
تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ) فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم  
خنين<sup>(٢)</sup> . متفق عليه .

وفي رواية : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال ( عرضت على الجنة والنار فلم  
أر كالיום في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فما أتى على أصحاب  
رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رؤوسهم ولهم خنين<sup>(٣)</sup> ) (الخنين) بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنة  
وانتشاق الصوت من الأنف .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ( يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب  
أحدهم في رشحه إلى انصاف أذنيه ) متفق عليه (والرشح) العرق .  
وعن المقداد - رضي الله عنه - قال : ( سمعت رسول الله ﷺ يقول : تدنى الشمس يوم القيامة  
من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ) قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد فوالله ما أدري ما يعنى  
بالميل ، أمسافة الأرض أم الميل الذي يكحل به العين ؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم  
من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه  
العرق إلجاما ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه ، رواه مسلم . (٥)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة ، حتى يذهب

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الرقاق / ٥١ فتح الباري ١٤ / ٢٢٣ باب صفة الجنة والنار وفي كتاب العيدين / ٩ ، مسلم في  
كتاب الايمان ( صحيح مسلم ٣ / ٨٥ - ٨٦ باب التخفيف عن أبي طالب ... ) ، أبو عوانه الاسفراييني في مستخرجه الصحيح  
على مسلم ( مسند أبي عوانه ١ / ٩٨ - ٩٩ ) والترمذي في جهنم / ١٢ ، والنسائي في الاستفادة / ٦٢ وأحمد ٤ / ٢٧١ ، ٢٧٤ ،  
(٢) الحديث : رواه البخاري في الكسوف / ٢ ، وفي التفسير ٥ / ١٢ ، وفي النكاح ١٠٧ ، وفي الرقاق / ٢٧ ، وفي الايمان ٣ ،  
مسلم في الصلاة / ١١٢ ، وفي الكسوف / ١ ، وفي الفضائل / ١٣٤ ، والنسائي في السهو / ١٠٢ ، وفي الكسوف / ١١ ،  
٢٣ ، والترمذي في الزهد / ٩ ، وابن ماجه في الزهد ١٩ ، والدارمي في الرقاق / ٢٦ ومالك في الموطأ في الكسوف / ١ ، وأحمد  
٢ / ٢٥٧ ، ٣١٣ ... الخ

(٣) الحديث رواه البخاري في الواقيت / ٣١١ ، وفي الفتن / ١٥ ، وفي الاعتصام / ٣  
(٤) الحديث رواه البخاري في الرقاق / ٤٧ ، وفي الزكاة / ٥٢ ، وفي التفسير ( سورة ٨٣ ) ومسلم في الجنة ٦٠ ، ٦١ ، والترمذي في  
القيامة / ٢ ، وفي تفسير سورة ٨٣ ، وابن ماجه في الزهد ٣٣ ، أحمد ٢ / ١٣ ، ١٩ ، ٣١ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ،  
١٢٥ ، ١٢٦

(٥) راجع صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦ بشرح النووي  
ورواه أيضا : أحمد والطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح واقره الذهبي عن عتبة بن عامر الجهني رضي الله  
عنه - بالفاظ متقاربة )  
المسند ٥ / ٢٥٤ ، المستدرک ٤ / ٥٧١ موارد الظمان ٦٤٠ ، الترغيب والترهيب ٤ / ٣٨٩

عرقهم في الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم<sup>(١)</sup> متفق عليه . ومعنى يذهب في الأرض ينزل ويغوص .

وعنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال : هل تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجبتها<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وعن عدى بن حاتم - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ) متفق عليه . وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إني أرى ما لا ترون أطت السماء وحق لها أن تنط ، ما فيها موضع أربع أصابع ، إلا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى<sup>(٣)</sup> ) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وأطت ( بفتح الهمزة وتشديد الطاء ) بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة . والأطيط صوت الرجل والقتب وشبههما ومعناه ان كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أنقلها حتى أطت ( والصعدات ) بضم الصاد والعين : الطرقات : ومعنى تجأرون ، تستغيثون . وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : ( كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ . فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل<sup>(٤)</sup> ) رواه الترمذى وقال حديث حسن و( القرن ) هو الصور الذى قال الله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور<sup>(٥)</sup> ﴾ كذا فسر رسول الله ﷺ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة<sup>(٦)</sup> ) رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

و( أدلج ) باسكان الدال ومعناه سار من أول الليل . والمراد التشمير في الطاعة والله أعلم . وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ : يقول ( يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا ) قلت يا رسول الله الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ( يا عائشة الأمر

(١) هذا الحديث رواه البخارى واللفظ له ومسلم ولفظه : ان العرو يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم ( يشك ثور أبيها قال ) قال الحافظ : وفي رواية الاسماعيلى عن سليمان بن بلال ( سبعين عاما ) : ( فتح البارى ١٤ / ١٨٥ . صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦ )

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة / ٣١ .

(٣) الحديث رواه البخارى في المناقب / ٢٥ ، وفي الزكاة / ٩ ، وفي الرقاق / ٤٩ ، وفي التوحيد / ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم في الزكاة / ٦٧ ، والترمذى في القيامة / ١ ، وابن ماجه في مقدمة / ١٣ ، وفي الزكاة / ٢٨ ، وأحمد في المسند ٤ / ٢٥٦ ، ٣٧٧

(٤) الحديث رواه الترمذى في الزهد / ٩ ، ابن ماجه في الزهد / ١٩ ، وأحمد في المسند ٥ / ١٧٣ .

(٥) الحديث رواه الترمذى في القيامة / ٨ وفي تفسير سورة ٣٩ / ٧ ، وأحمد في المسند ١ / ٣٢٦ ، ٣ / ٧ ، ٤ ، ٣٧٤

(٦) سورة الزمر آية رقم : ٦٨

(٧) الحديث رواه الترمذى في القيامة / ١٨

أشد من أن يهتمهم ذلك) . وفي رواية ( الأمر أهم من أن ينظر بعضهم إلى بعض )<sup>(١)</sup> متفق عليه (غريلا) بضم الغين المعجمة : أى غير محتونين .

اعمل لدار غدا

لا تركزن إلى الدنيا وصافها فالموت لاشك يفينا ويفينا  
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها  
قصورها ذهب والمسك طيبتها والزعفران حشيش نابت فيها  
وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( يأكل أهل الجنة فيها ، ويشربون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاء ، ورشح ، كرشح المسك . يلهمون التسييح والتكبير ، كما يلهمون النفس )<sup>(٢)</sup> رواه مسلم

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء اضاءة . لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون . امشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الالوة - عود الطيب - أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء )<sup>(٣)</sup> متفق عليه .  
وفي رواية للبخارى ومسلم : آتيتهم فيها الذهب ، ورشحهم فيها المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى من ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة واصيلا )<sup>(٤)</sup>

قوله ﴿ على خلق رجل ﴾ رواه بعضهم بفتح الخاء واسكان اللام وبعضهم بضمهما وكلاهما صحيح .

وعن المغيرة بن شعبه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : قال سأل موسى ﷺ : ربه ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة فيقول : لاى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : اترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله . فيقول فى الخامسة . رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال . رب فاعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت : غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن . ولم يخطر على قلب بشر ، رواه مسلم .  
وعن أبى موسى - رضى الله عنه ان النبى - ﷺ قال : ( إن للمؤمن فى الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة

(١) الحديث رواه البخارى فى الانبياء / ٨ ، وفى تفسير ١٤ / ١٥ ، ٢١ ، وفى الرقاق / ٤٥ ومسلم فى الجنة / ٥٨ ، الترمذى فى القيامة / ٣ ، وفى تفسير سورة ٢١ / ٤ والنسائى فى الجنائز ١١٩ ، أحمد فى المسند ٣ / ٥

(٢) الحديث رواه مسلم فى الجنة ١٨ ، ١٩ ، وأحمد فى المسند ٣ / ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤

(٣) الحديث : رواه البخارى فى بدء الخلق / ٨ ، وفى الانبياء / ١ ، ومسلم فى الجنة ١٤ ، ١٦ ، والنسائى فى القيامة / ٦٠ ، وفى الجنة ٥ ، ٧ ، وابن ماجه فى الزهد / ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق / ١٠٢ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٣٠ ، ٢٣٢ . الخ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق / ٨ ، ومسلم فى الجنة / ١٧ ، والترمذى فى الجنة / ٧ ، وأحمد فى المسند ١ / ٦ ، ٢ / ٢

مجوفة طولها في السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا<sup>(١)</sup> متفق عليه (الميل) ستة آلاف ذراع

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها ) متفق عليه ورواه في الصحيحين أيضا من رواية أبي هريرة رضي الله عنه قال : يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها ( الجواد بفتح الجيم وتخفيف الواو الفرس )<sup>(٢)</sup>

وعن النبي ﷺ قال : ( إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ) قال ( يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين )<sup>(٣)</sup> متفق عليه . الكوكب الدري الغابر : الكوكب المعنى الذاهب في الأفق

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب<sup>(٤)</sup> ) متفق عليه ( لقاب قوس بالقاف والباء ) أى قدر ما بين القبض والسية من القوس . وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن في الجنة سوقا يأتونها كل جمعة . فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم حسنا وجمالا ، فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

٥ - وعن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : ( إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد ! إن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا )<sup>(٦)</sup> رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى بإربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول : ( ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : أى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا ) متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى في التفسير سورة ١ / ٥٥ ، ومسلم في الجنة / ٢٣

(٢) الحديث رواه البخارى في بدء الخلق / ٨ ، وفي تفسير سورة ١ / ٥٦ ، وفي الرقاق / ٥١ ، ومسلم في الجنة ٦ ، ٨ ، والترمذى في الجنة ١ ، وفي تفسير سورة ١ / ٢ ، ٥٦ ، وابن ماجه في الزهد ٣٩ ، والدارمى في الرقاق ١١٤ ، وأحمد في المسند ٢ / ٢٥٧ ، ٢٥٤ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧ ، ٣ / ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ .

(٣) الحديث رواه البخارى في بدء الخلق / ٨ ، وفي الرقاق / ٥١ ، ومسلم في الجنة / ١١ ، وأحمد في المسند ٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٩

(٤) الحديث رواه البخارى في الجهاد / ٥ ، وفي بدء الخلق / ٨ ، ومسلم في الإمامة / ١١٥ ، والنسائى في الجهاد / ١٢ ، وأحمد في المسند ٢ / ٤٨٢ ، ٥ / ٤٢٢

(٥) الحديث رواه مسلم في الجنة / ١٣

(٦) الحديث رواه مسلم في الجنة / ٢٢ ، والترمذى في تفسير سورة ١٠ / ٣٩ ، أحمد في مسنده ٢ / ٣١٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٩٥



وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : ( انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ) <sup>(١)</sup> متفق عليه .  
١ - ( عيانا بكسر العين وتخفيف الياء : أى معاينة ، لا تضامون في رؤيته : بضم التاء وتخفيف الميم : أى لا يصيبكم ضيم : أى ضرر من زحام ونحوه حال رؤيته .

وعن صهيب - رضى الله عنه - ان رسول الله ﷺ قال : ( اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا ازيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم ) <sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا )

هذا مشهد من مشاهد الحشر ، يجمع الله فيه أهل الضلال ليواجههم بالذين عبدوهم من دون الله أمثال المسيح وعزيز والملائكة فيسأل الله هؤلاء المعبودين أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . وذلك ليقطع المعاذير عليهم ، كما في قوله جل شأنه : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ <sup>(٣)</sup> وكما جاء في هذا المشهد الذى سيلقى الله فيه هذا السؤال على المسيح ابن مريم ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ﴾ فقد قال عز وجل في آخر سورة المائدة ﴿ واذا قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسك ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ان تعذبهم فأنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٤)</sup>

(١) الحديث رواه البخارى في المواقيت / ١٦ ، وفي تفسير سورة ٢ / ٥ ، وفي التوحيد / ٤ ، وأبو داود في السنة / ١٩ ، والترمذى في الجنة / ١٩ ، وابن ماجه في المقدمة / ١٣ ، وأحمد في المسند ٤ / ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الايمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى ( صحيح مسلم ٣ / ١٦ -

١٧ ) بشرح النوى

(٣) سورة سبا الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

(٤) سورة المائدة الآيات : ١١٦ - ١٢٠

فماذا كان جواب المعبودين ، بعد أن قال الله لهم ﴿ أَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ كان جوابهم تنزيها لله وتعظيما له ، وتوقيرا وإجلالا وتقديسا وتوكلا عليه ، وتفويضا للأمر إليه .

﴿ قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾ أنت الواحد الذى تقدس عن الشريك ذاتك ، وتزهت عن مماثلة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، ما كان لنا أن نشرك بك شيئا ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وشغلتهم الدنيا كما شغلتهم كثرة الأموال والأولاد ، فحجبت قلوبهم عن رؤية الحق ، ففى الأذان وقر ، والقلوب فى اكنة ، ومن بينهم وبين نور التوحيد حجاب ، ﴿ وكانوا قوما بورا ﴾ نفوسهم خربة ، كالأرض البور التى لا تنبت كلاً ولا تمسك ماء ، هنا وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وقال الله بعد ذلك وقوله الحق : ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾

أى بما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ﴾ أى لا يقدرّون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أى يشرك بالله ﴿ نذقه عذابا كبيرا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ ليس أكل الطعام عيبا وليس المشى فى الأسواق عارا ، وليس محمد ﷺ بدعا من الرسل ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ (٢) ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (٣)

إذا كان محمد - ﷺ - يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فمنطق الفطرة البشرية يقتضى ذلك ، وهل يطعن ذلك فى صدقه وأمانته وفطانته وعصمته وتبليغه .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ أى ابتلاء واختبارا ، فالأنبياء مع الأمم كل منها فى حال اختبار ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ (٤) فاصبروا أيها الرسل على اذى الأقوام ، وفوضوا الأمر للخير العلام قال محمد بن اسحق فى قوله : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون ﴾ قال ؟ يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم ، وابتليكم بهم ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ : ﴿ يقول الله تعالى ابنى مبتليك ومبتلى بك ﴾ وفى المسند عن

(٣) سورة يوسف الآية رقم : ١٠٩

(٤) سورة الاسراء الآية رقم : ١٥

(١) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦

(٢) سورة الأنبياء الآيتان رقم : ٧ ، ٨

رسول الله ﷺ ( لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة ) وفى الصحيح انه عليه الصلاة والسلام ( خير بين ان يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختر أن يكون عبدا رسولا ) .  
ويرحم الله صاحب البردة اذ يقول .

ورأوته الجبال الشم من ذهب عن نفسها فأراها أيما شمم  
وأكدت زهده فيها ضرورته ان الضرورة لا تعدو عن العصم

قوله تعالى :

﴿وكان رينك بصيرا﴾ أى مطلع على قلوب العباد  
وأحوالهم ، يعلم الصابر من الجزع والطائع من العاصي

لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فعلى كل عاقل أن يعلم ان الدنيا دار فناء  
وابتلاء ، وان الآخرة دار قرار وبقاء ، فليأخذ من العاجلة إلى الباقية ومن دار المفر إلى دار المقر ، لمثل  
هذا فليعمل العاملون .

## مواقف مع أهل العناد

\* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا  
 فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ  
 جَهَنَّمَ جُحُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ  
 خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالسَّعْيِ وَالْغَمِّ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾  
 الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَاقِ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى  
 يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيِّنَنِي أَنْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَوَيْلَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾  
 لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ  
 إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى  
 بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ  
 بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾  
 الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ أَتَيْنَا  
 مُوسَى الْكَتَبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ  
 كَذَبُوا بِعَايِنِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ  
 لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْنَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا  
 بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَاهُ الْأَمْثَلُ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ  
 الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوَاءً أَلَمَ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ الْإِهْنَانِ لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرُونَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لا يرجون أى : لا يخافون  
ولقاءنا أى : لقاء جزائنا  
واللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ،  
واستكبروا فى أنفسهم أى : أوقعوا . الاستكبار فى شأن أنفسهم  
بعدها كبيرة الشأن

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحي ، ولم يكتروا بالمعجزات التى أنامهم بها ، وحجروا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلم بدارهم أى : نسأل الله أن يمنع ذلك منا ويحجره حجرا ، وقدمنا أى : عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دفاق التراب وما انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر ، المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمي بذلك ، لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا . ( تشقق ) تتفتح السماء عن الغمام ، الحق : الثابت الذى لا يزول ، عسيرا : شديدا ، بعض الظالم على يديه : كناية عن الندم ، خليلا : صاحبا وصديقا ، الذكر : القرآن ، خذولا : الخذل الترك من الإعانة ، جملة واحدة أى : دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك ، ورتلناه أى : أتينا ببعضه اثر بعض على تودة ومهل من قولهم نغر مرتل أى : متفلج الأسنان ، بمثل أى : بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقة وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه : تفسيراً أى : ايضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم أى : يسحبون على وجوههم ويجرون إليها . الوزير : قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا: هيأنا وأعدنا ، الرس : البشر غير المبنية ، والجمع رساس . قال ابو عبيدة . والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها: الرس والقليج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتبشير : التفتيت والتكسير ، والقرية : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط . لا يرجون أى : لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حكى سبحانه أياطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد ﷺ - بقولهم ﴿ لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴿ أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم في هذا الصدد ، فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه أو نرى ربنا فيثبتنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول ، يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح في الدنيا ، صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيّل ، في ظل ظليل ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ (١) ولعل في ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمين الرأي ، ليرشدوا إلى طريق السداد ، ويقلموا عما هم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع .

وبعد أن بين سبحانه في سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة - أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعرض الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوه السبيل ، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب وبعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعتتهم الظالم في الرسول من نحو قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق ﴾ وقولهم في القرآن : ﴿ إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقولهم فيه : ﴿ إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ - أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه ، بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم في دينهم ودنياهم ، ثم سلاه سبحانه على ذلك ، بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقصد بأولئك الأنبياء ، ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

وبعد أن ذكر مطاعنهم في الكتاب الكريم ، كقولهم : إن هو إلا إفك مبين وقولهم : هو أساطير الأولين - قضى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم ، وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى ، والزبور على داود فرد الله عليهم مقالاتهم ، وبين لهم فوائد إنزاله منجما ، فذكر منها تثبيت فؤاده ﷺ وتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعدئذ ذكر حال المشركين ، وأنهم حين يحشرون يكونون في غاية الذل والهوان ، ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال . . .

وبعد أن تكلم في دلائل وحدانيته ، ونفى الأنداد ، وفي النبوة ، وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفي أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى يلقاها الكافرون وفي النعيم الذى يتفضل به على عباده

المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم ، الذين كذبوهم ، فحل بهم النكال والوبال ، ليكون في ذلك عبرة لقومه المشركين ، الذين كذبوا رسوله ، حتى لا يحل بهم من العذاب مثلها حل بمن قبلهم ، إذ هم تمادوا في تكذيبهم ، وأصروا على بغيتهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه .. وقصة نوح وقومه ، وقصة هود مع قومه عاد ، وقصة صالح مع قومه ثمود ، وقصة أصحاب الرس .

وبعد أن ذكر مطاعن المشركين في النبي ﷺ وأورد شبهاتهم في ذلك - أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والخط من قدره ، حتى لقد قال بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولا ؟ ﴾ لقد غالوا في ذلك فسموا دعوته إضللا ، فرد الله عليهم مقامهم ، وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء ، يبعد أن يزدجروا عما هم فيه من الغي بنصحك وإرشادك ، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى ان الآية الأولى نزلت في أبي جهل ومن معه ، فإنه كان إذا مر رسول الله ﷺ - مع صحبه قال مستهزئا ( أهذا الذي بعث الله رسولا )

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

هذا بعض ما اقترحوه ولولا هنا بمعنى هلا ، والمعنى أنزلت علينا الملائكة بالوحي . وذلك يفسره قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ (١) .

ويحتمل أن يكون المعنى : هلا أنزلت علينا الملائكة فنراها رأى العين ، وذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله الملائكة قبيلا ﴾ (٢) .

فجاء الرد القاطع من الله ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ (٣) . وفي هذا المقام يقول عنهم : ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والكبر غمط الناس ويطر الحق ، والعتو والتمرد عن قبول الحق ، كما قال نوح عن قومه : ﴿ إن دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزددهم دعائى إلا فرارا وإن كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ أى هم

(٣) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٣

(٤) سورة نوح الآية رقم : ٥ - ٧

(١) سورة الانعام الآية رقم : ١٢٤

(٢) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٠ - ٩٢

لا يرون الملائكة في يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج وتنفرد في البدن ، فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطة أيديهم - أي بالضرب - أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (٢) ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين ، حال احتضارهم ، فانهم يبشرون بالخيرات . وحصول المسرات .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ (٣) .

وفي الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : « أن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيتها النفس الطيبة في الجسد الطيب إن كنت تغمرينه ، أخرجى إلى روح وريحان ورب غير غضبان » (٤) . وقد تقدم الحديث في سورة إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ (٥) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعني يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة في هذين اليومين ، يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، تبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتحذر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين . ( ويقولون حجرا محجورا ) أى : وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان ، إذا منعه التصرف ، إما لفلس أو سفه أو صغر ، أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ، أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل حجر ، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق ، والغرض أن الضمير في قوله ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراساني وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير .

٢ - وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدري في الآية : ﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾ قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون (٦) .

٣ - وقد حكى ابن جرير عن ابن جريح ، أنه قال ذلك من كلام المشركين ( يوم يرون الملائكة ﴾ أى

(١) سورة الانفال الآية رقم : ٥٠ (٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٣

(٣) سورة فصلت الآية رقم : ٣٠ - ٣٢ (٤) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٧

(٥) الحديث رواه ابن ماجه في الزهد / ٣١ ، وأحمد في مسنده - ٣٦٤ / ٢ ، ٢٨٧ / ٤ ، ١٤٠ / ٦ .

(٦) راجع تفسير ابن كثير ١١١ / ٦ ط : الشعب .



يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزلت بأحدهم نازلة أو شدة يقول ( حجرا محجورا )<sup>(١)</sup> وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، أنه قال في قوله : ﴿ حجرا محجورا ﴾ أى عودا معاذ ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريج ، ولكن في رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : ( حجرا محجورا ) عودا معاذ الملائكة تقول ذلك فالله أعلم .  
قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال مجاهد ( قدمنا ) أى عمدنا .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال : سفيان الثوري بسنده عن علي بن رضى الله عنه في قوله : ( هباء منثورا ) قال : شعاع الشمس إذا دخل الكوة وقال قتادة في قوله : ﴿ هباء منثورا ﴾ قال أما رأيت ييس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الريح .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عاصم بن حكيم ، عن أبي سريع الطائي ، عن عبيد بن يعلى قال : إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شيء فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذ أنها لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما يتفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى يثق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾<sup>(٥)</sup> .

إن الله تعالى لا يقبل العمل ، إلا إذا توافر فيه شرطان ، أن يكون خالصا لله ، وأن يكون صوابا موافقا لشعره جل في علاه قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾<sup>(٦)</sup>

(٤) سورة البقرة الآية رقم : ٢٦٤

(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٩ - ٤٠

(٦) سورة الكهف الآية رقم : ١١٠

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦ / ١١١ ط : الشعب .

(٢) سورة ابراهيم الآية رقم : ١٨

(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ١١٦ - ١١٧

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾ (٣) .

وعن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) متفق على صحته (٤) .

وعن أم المؤمنين أم عبد الله عائشة رضى الله عنها- قالت : قال رسول الله ﷺ : ( يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض نخسف بأولهم وآخرهم . قالت قلت : يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم ) متفق عليه . هذا لفظ البخارى (٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا) متفق عليه (٦) ومعناه : لا هجرة من مكة ؛ لأنها صارت دار إسلام .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنها- قال : ( كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : ( إن بالمدينة لرجالا ما سرتهم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض ) وفى رواية ( إلا شركوكم فى الأجر ) رواه مسلم (٧)

وروى البخارى عن أنس رضى الله عنه- قال : ( رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : ( إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ؟ حبسهم العذر ) (٨) .

(١) سورة البينة الآية رقم : ٥

(٢) سورة الحج الآية رقم : ٣٧

(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ٢٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الايمان ( فتح البارى ١ / ١٠ - ١٩ ط الحلبى ) ، وفى العتق / ٦ ، وفى مناقب الأنصار ٤٠ ، وفى النكاح ٥ ، وفى الايمان / ٢٣ وفى الخيل / ١ - ورواه مسلم فى الامارة / ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق / ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد / ١٦ ، والنسائى فى أربعة مواضع من سنته ( الايمان والطهارة / ٥٩ والعتاق والطلاق / ٢٤ ، وابن ماجه فى الزهد من سنته / ٢٦ وأحمد فى مسنده ١ / ٢٥ ، ٤٣ .

(٥) الحديث رواه البخارى فى الحج / ٤٩ ، وفى البيوع / ٤٩ ، ومسلم فى الفتن / ٤ ، ٦ - ٨ ، وأبو داود فى المهدى / ١ ، والترمذى فى الفتن / ١٠ ، ٢١ ، وفى الحج / ١١٢ ، وابن ماجه فى الفتن / ٣٠ ، وأحمد فى المسند ٦ / ١٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ وفى المغازى / ٥٣

(٦) الحديث رواه البخارى فى الصبر / ١٠ ، وفى الجهاد ١ ، ٢٧ ، ١٩٤ / وفى الجزية / ٢٢ ومسلم فى الحج ٤٤٥ ، وفى الامارة ٨٥ ، ٨٦ ، وأبو داود فى الجهاد ، والترمذى فى السير ٣٢ ، ٣٣ والنسائى فى البيعة ١٥ ، وابن ماجه فى الجهاد ٩ ، كفارات / ١٢ والدارمى فى السير / ٦٩ ، وأحمد فى المسند ١ / ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ / ٣ ، ٤٠١ / ٦ ، ٤٦٦ .

(٧) الحديث رواه مسلم فى الامارة / ١٥٩ ، وأبو داود فى الجهاد / ١٩ ، وابن ماجه فى الجهاد / ٦ .

(٨) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٣٥ .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضى الله عنه - وهو وأبوه وجده صحابيون ، قال : كان أبو يزيد أخرج دنائير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيتها بها . فقال : ( والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال : (لك ما نويت يا يزيد ولك ما أخذ يامعن ) رواه البخارى<sup>(١)</sup> )

وعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى الزهرى رضى الله عنه - أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضى الله عنهم قال : ( جاءنى رسول الله ﷺ يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى ، فقلت : يا رسول الله ، إنى قد بلغ بى من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثنى إلا ابنة لى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر يا رسول الله ؟ فقال : لا ، قلت فالثلث يا رسول الله ، قال : الثلث والثلث كثير - إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله ، إلا أجزت عليها حتى ما تجعل فى فى امرأتك ، قال : فقلت : يا رسول الله أخلف بعد أصحابى ؟ قال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغى به وجه الله ، إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم أمض لأصحابى هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة ) يرثى له رسول الله ﷺ أن مات بمكة متفق عليه<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر- رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ) رواه مسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعرى رضى الله عنه- قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاقل حمية ويقاقل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو سبيل الله ) متفق عليه<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي بكرة نفع بن الحارث الثقفى رضى الله عنه- أن النبى ﷺ قال : ( إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قلت : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه ) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى سوقة وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى

(١) الحديث رواه البخارى فى الزكاة / ١٥ ، والدارمى فى الزكاة / ١٤ ، وأحمد فى المسند ٣ / ٤٧٠

(٢) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٣٦ ، وفى الوصايا ٢ ، وفى مناقب الانصار / ٤٩ ، وفى المغازى ٦٤ ، وفى النفقات ١ وفى المرضى ١٦ ، وفى الدعوات ٤٣ ، وفى الفرائض ١٦ ، ورواه مسلم فى الوصية ٥ ، ٨ ، وأبو داود فى الوصايا / ٢ ، والترمذى فى الوصايا / ١ ، والنسائى فى الوصايا / ٣ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى البر / ٣٢ وابن ماجه فى الزهد / ٩ . وأحمد فى المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى التوحيد / ٢٨ ، ومسلم فى الامارة / ١٥ ، والترمذى فى فضائل الجهاد ١٦ وابن ماجه فى الجهاد ١٣ وأحمد فى المسند ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

المسجد لا يريد إلا الصلاة . لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ؟ اللهم اغفر له ! اللهم بئث عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه ) متفق عليه (١) .

وهذا لفظ مسلم وقوله ﷺ : ( ينهزه ) هو بفتح الياء والهاء وبالزاي : أى يخرج به وينهضه .  
٢ - وعن أبي العباس عبد الله بن عباس بن عبد-المطلب رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : ( إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة ) متفق عليه (٢) .

٣ - وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : ( سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وإن أغبق قبلهما أهلا أو مالا ؟ فلبثت - والقدر على يدي - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي - فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى ( وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية : ( فلما قعدت بين رجلين قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرف عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجرا وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : يا عبد الله أد إلى أجرى . فقلت كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والريق فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بى فقلت : لا أستهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون (٣) متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى في الصلاة / ٨٧ ، وفى الأذان / ٣٠ ، وفى البيوع / ٤٩ ، وأبو داود فى الصلاة / ٤٨ ، وابن ماجه فى المساجد / ١٦ ، وأحمد فى المستدرك / ٢ / ٢٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٣١ ، ومسلم فى الايمان / ٢٠٧ ، الحديث رواه البخارى فى الاجارة / ١٢ .

المعنى : لا أغبق : « بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وضم الباء الموحدة وكسرها » أى : لا أقدم فى الشرب قبلها أهلا ولا مالا من رقيق وخادم ( والغبوق ) شرب العشى .  
 أرح : « بضم الهمزة وكسر الراء » أى أرجع  
 يتضاغون : بالضاد والغين المعجمتين يصيحون من الجوع .  
 والآن نسأل ما هو الإخلاص . الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله عز وجل عن جميع الشوائب وقيل : هو أفراد الله عز وجل . بالقصد فى الطاعات .  
 وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .  
 والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله عز وجل به فقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .  
 وعن أبي امامة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ لا شيء له ثم قال : ( ان الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه ) رواه ابو داود والنسائي<sup>(١)</sup> .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال فى حجة الوداع : ( نضر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغفل عن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم يغفل : بكسر الغين وتشديد اللام وضم الياء من أغل اذا خان ويفتح الياء من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .  
 والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .  
 الدغل : بالتحريك : الفساد . ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾<sup>(٢)</sup> وروى أن أحد الصالحين كان يقول لنفسه : ( يانفس أخلصى تتخلصى ) .

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل اليه القلب قل أو كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب ، فالإخلاص : تنقية القلب من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم

(١) الحديث رواه أبو داود فى الجهاد / ٢٤ ، ٣٥ ، والنسائي فى الجهاد / ٣٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٩٠ ، ٣٦٦

(٢) سورة الحجر آية رقم : ٤٠ ، سورة ص آية رقم ٨٣

يبقى لحب الدنيا في قلبه قرار ، فمثل هذا لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه إلا على التدور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجمله غير الله اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإن ذاك يتيسر به الإخلاص ، وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ، لأنه لم يوجه الآفة كما حكى عن بعضهم : انه كان يصلى دائما في الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة ، فصلى في الصف الثانى فاعترفته خجلة من الناس حيث رأوه في الصف الثانى ، فعلم ان مسرته وراحة قلبه من الصلاة في الصف الأول ، كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض ، قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ (١) وبقوله عز وجل : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ (٢) .

### بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : ( المخلص من يكتسب حسناته كما يكتسب سيئاته )  
 قال السوسى : ( الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ) .  
 وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .  
 قال أيوب : ( تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال ) .  
 وقال بعضهم : ( إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز ) .  
 وقيل لسهيل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : ( الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب )  
 وقال الفضيل : ( ترك العمل من أجل الناس رياء ، العمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منها )

### حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه ( نويت ) بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ،

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٧ - ٤٨

(٢) سورة الكهف آية رقم : ١٠٣

فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين ، تيسر عليه في أكثر الاحوال أحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى اصل الخير ، فينبعث إلى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له في الفرائض إلا بجهد جهيد ، وعن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال : ( إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) رواه البخاري ومسلم .

روى عن الشافعي انه قال : ( هذا الحديث ثلث العلم ) . قوله : ( إنما الأعمال بالنيات ) يعنى أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله -ﷺ : ( إنما الأعمال بالخواتيم ) . وقوله ﷺ : ( وإنما لكل امرئ ما نوى ) يعنى ثواب العامل على عمله بحسب النيات الصالحة التي يجمعها في العمل الواحد وقوله : ( فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ) وبعد إرساء القاعدة الأولى ، ذكر مثالا للأعمال التي صورتها واحدة ، وتختلف في صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصي عن موضعها ، فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : ( إنما الأعمال بالنيات ) فيظن ان المعصية تصير طاعة بالنية ، فإن قوله ﷺ : ( إنما الأعمال بالنيات ) يخص من اقسام العمل الثلاثة : الطاعات والمباحات دون المعاصي ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد ، اما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ودخول النية في المعصية ، إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ووبالها !

والطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو ان ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شيء منها إلا ويحتمل نية أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات .

### فضل النية

عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- انه قال : ( أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى )

وقال بعض السلف : ( رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية ) وعن يحيى بن ابى كثير : ( تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل ) وصح عن ابن عمر انه سمع رجلا عند احرامه يقول : اللهم إني أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس أو ليس الله يعلم ما في نفسك ، وذلك لأن النية هي : قصد القلب ولا يجب التلفظ بها في شيء من العبادات . قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ .

وهكذا يقترن الوعد بالوعيد ، فبعد ان حكم الله تعالى على المعاندين بضيايع أعمالهم ، وأنها

ستصير هباء منثورا كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (١) .  
وكما قال جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴾ (٢) .

بين بعد ذلك جزاء الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ، وسماهم أصحاب الجنة ، وهى تسمية فيها تشريف وتكريم ، فالجنة هو خالقها ومالكها ، ومع ذلك سماهم أصحابها كما قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ (٣)

قال الحسن رضى الله عنه لما قرأ هذه الآية سبحانك ربى .. الأنفس أنت خالقها ، والمال أنت مالكة ، ومع ذلك تشتري ما تملك وتهب الجنة ، إن هذا هو الفوز المبين .

وهكذا يقف الإنسان وقفة العجب ، بين أهل الجنة ، وأهل النار ، فى كل خطوة على صعيد القيامة ، فأهل النار عندما يبعثون من القبور يقولون : ( يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ) . فيقول لهم أهل الجنة : ( هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ) (٤) أهل الجنة يحشرون بيض الوجوه وفدا كراما ، وأهل النار يحشرون زرقا عطاشا .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدَا وَنَسُوقُ الْمَجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثَتَهُ ﴾ (٥) . أهل النار يقال لهم ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَسْوَدَةٌ أَلْيَسُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾  
وأهل الجنة يقال لهم : ﴿ وَيُنْجَى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٦)

أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ هَآؤُمْ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ﴾ (٧) .  
وأهل النار يقول كل منهم : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ ﴾ (٨) .  
أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ ﴾ (٩) .  
وأهل النار يقول كل منهم : ﴿ وَلَمْ أُدْرَ مَا حِسَابِيهِ ﴾ (١٠) .  
أهل الجنة يقال لهم ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (١١) .  
وأهل النار يقال لكل منهم ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (١٢) .

(١) سورة محمد الآية رقم : ١

(٢) سورة محمد الآية رقم : ٨

(٣) سورة التوبة الآية رقم : ١١١

(٤) سورة يس الآية رقم : ٥٢

(٥) سورة مريم آية رقم ٨٥ - ٨٦

(٦) سورة الزمر الآية رقم ٦٠ - ٦١

(٧) سورة الحاقة الآية رقم ١٩

(٨) سورة الحاقة الآية رقم ٢٥

(٩) سورة الحاقة الآية رقم ٢٠

(١٠) سورة الحاقة الآية رقم ٢٦

(١١) سورة الحاقة الآية رقم ٢٤

(١٢) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ - ٣٤



ولقد وعى المسلمون الأوائل ما فى هذه الآية من أسرار فكان أبو الدرداء رضى الله عنه يقول لزوجته ( أكثرى من المرق وأطعمى المسكين ، فقد كسرنا نصف السلسلة لما آمنا بالله ، ونريد أن نكسر نصفها الآخر بإطعام المساكين ) .

وإنما قال تعالى : ﴿ خير مستقرا ﴾ لما توحى تلك العبارة من الاستقرار المستلزم للأمن كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ (١) وكما قال جل شأنه : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (٢) .

وكما قال تبارك اسمه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ (٣) .

فأنت ترى أن الأمن نعمة عظمى ينعم الله بها على عباده ، ومن ثم فقد قدم الأمن على العيش والرزق ، فقال : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾ (٤) .

ويوم يفقد الإنسان الأمن ، فقد فقد أعظم نعمة بعد الايمان بالله ، فيا بن آدم : إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها .

عش راضيا واترك دواعى الألم	واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش	فيها كريما واعتبرها عدم
ويا فؤادى تلك دنيا الخيال	فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى	خطت يد الأقدار أمر محال
دنياك ساعات سراع الزوال	وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد بأعاقلا	وتشتري دنيا المني والضلال
أسمع الطير أطلال الصباح	وقد بدأ فى الأفق نور الصباح
ما صاح إلا باكيا ليلة	ولت من العمر السريع الرواح

اعلم بأن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك لمقرك ، وكيف تطمئن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد يشيع فيها ميت اليوم .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تسمى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب ان العيش عيش الآخرة

وقوله تعالى : ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ والمقييل يطلق على وقت القيلولة ، ويراد به الراحة فى هذا الوقت ، ويطلق على الاستقرار التام والراحة الكاملة ، فهم فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند

(١) سورة الحجر الآية رقم ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٨٢

(٣) سورة الدخان الآية رقم ٥١ - ٥٥

(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢

رهم ويكفيهم رضوان الله قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء ، وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ (٢) .

عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما- يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة في صعيد واحد ، الجن والإنس ، والبهائم والسباع ، والطير وجميع الخلق ، فتشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم تشق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والإنس ، وجميع الخلق ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ، ثم تشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر من نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم ، وينزل ربنا- عز وجل- في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع من الجن والإنس وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله - عز وجل - رواه ابن أبي حاتم بهذا السياق . قال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ (٣) .

قال شهر بن حوشب حلة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : ( سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك ) رواه ابن جرير .

(١) سورة التوبة الآية رقم ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية رقم ٢١٠

(٣) سورة الحاقة الآيات ١٣ - ١٨

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ (١) .

وجاء في الصحيح ( إن الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرض بيده الأخرى ، ثم يقول ، أنا الملك .. أنا الديان .. أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ) (٢)

قوله تعالى : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ أى شديدا صعبا ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ (٣) .

فهذه حال الكافرين في هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ (٤) .

وكما قال تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ (٥) .

روى الامام أحمد بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله : ( يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ) .

ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلها في الدنيا ) .

### مجلس في ذكر القيامة وأهوالها

قال الله عز وجل : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله تبارك وتعالى بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة ، ليتتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمثلوا ما أمرهم به من الطاعة والايمان ، وخوفهم الله تبارك وتعالى من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

قال الله سبحانه وبحمده : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول إذا تحركت الأرض بأهلها ، فزلزلت من نواحيها ، وارتجت من مشرقها ومغربها ، فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل في بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل عليه السلام

(١) سورة غافر الآيات رقم من ١٥ - ٢٠

(٢) الحديث رواه مسلم في المناقير ٢٤/ وأبو داود في السنة ١٩/ وابن ماجه في الزهد ٣٣ وأحمد في مسنده ٧٢/٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات رقم من ٨ - ١٠

(٤) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٣

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٠٧

وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها ، وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد وظهر الفساد وفشا الربا ، وكثر اللواط والزنا ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمر ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ، ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكروهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرئ القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصي والذنوب ، فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار - جل جلاله - عليهم وعند ذلك يقول الله : يا إسرافيل انفخ نفخة الصعق ، فينفخ اسرافيل عند ذلك كما امره الجبار جل جلاله ، فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

### صفة اسرافيل

واسرافيل عليه السلام ، ملك عظيم جناح له بالشرق وجناح له بالمغرب ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسماية عام والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وآخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور ؟ والصور قرن من نور .

قال النبي ﷺ : ( الصور قرن من نور ، والذي نفسى بيده إن أعظم ثارة فيه كما بين السماء والأرض )<sup>(١)</sup> .

وروى عنه ﷺ أنه قال : ( كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر ان ينفخ في الصور فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد ، فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله تبارك وتعالى ، لما عبد فيها ووحد وقرئ كلامه فيها<sup>(٢)</sup> ) وذلك قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾<sup>(٣)</sup> جاء في التفسير ان الأشياء

(١) لم أقف على هذا اللفظ في كتب الحديث التي عندي والذي وقفت عليه في وصف الصور ما رواه احمد في مسنده / ١٦٢ ، ١٩٢ ، والترمذي في القيامة / ٨ ، وفي تفسير سورة ٣٩ ، والدائري في الرقاق / ٧٩ وابن جرير الطبري في تفسيره ١٥٧ / ٧ بلفظ : ( الصور قرن ، ينفخ فيه ) .

(٢) لم أجد هذه الرواية المطولة في مراجع الحديث التي عندي والذي وجدته في هذا ما رواه احمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر ( المسند ٣ / ٧٣ ) والله أعلم .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٨٨

كلها تهلك ، إلا عملا يراد به وجه الله تعالى ، والمساجد لا تهلك ؛ لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى

### خشية النبي من هبوب الريح

روى عن النبي ﷺ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يخرج ويدخل مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .

فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف كل هذا الخوف ، وهو أكرم الخلق على الله ؟ فكيف بمن أفنى عمره في السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والمبطلات ، وضع أوقاته في العصيان حتى مات ؟ ؟ وأنشدوا :

نهارك يامغرور سهو وغفلة	وليك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين برهم	وعمر لك في النقصان بل أنت ظالم
فلا أنت في الأيقاط يقظان حازم	ولا أنت في النوم ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى	كما سر باللذات في النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها	ولا تكثر العصيان إنك ظالم

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : ( انتهيت ليلة أسرى بي إلى السماء السابعة فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته ، وقدم رجلا وآخر أخرى والعرش على منكبه ، والصور في فيه بين شذقيه ، وقد تهباً للنفخ في الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغني النفخة كما رأيت من تهيته للنفخ ) .

سئل رسول الله ﷺ عن إسرافيل فقال : ( له جناح بالشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله وإنه ليفكر في كل يوم ثلاث ساعات في عظمة الله تعالى فيبكي من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض ، وإنه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع ، والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير ) .

فإن الله يامعشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعدوا لقيام الساعة وزلزالها قال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر وتهدم المباني فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونبتها شيء إلا دخل في جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

### متى ينفخ في الصور

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبني ، فكان النبي ﷺ يقول : ( في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . فإذا غضب الله تعالى على أهل

الأرض أمر الله تعالى إسرائفيل أن ينفخ نفخة الصعق فينفخ على غفلة من الناس فمن الناس من هوى وطنه ومنهم من هوى سوقه ومنهم من هوى حرثه ، ومنهم من هوى سفره ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فمه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم ) .

وإسرافيل لا يقطع الصعقة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه في بعض في بطن الأرض والناس خود صرعى ، فمنهم من هو صريع على وجهه ، ومنهم من هو صريع على ظهره وعلى جنبه وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة في فيه فيموت ، وما أدرك أن يتلعها ، وتنقطع السلاسل التي فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة وتموت ملائكة السبع السماوات ، والحجب والسرادات ، والصادقون والمسيحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادات المجد والكروبيون ، ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

### كيف يموت جبريل

فيقول الجبار جل جلاله ياملك الموت من بقى ؟ - وهو أعلم - فيقول ملك الموت : سيدى ومولاي أنت أعلم . بقى إسرائفيل وبقى جبريل وبقى ميكائيل ، وبقى عبدك الضعيف ملك الموت خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال . فيقول له الجبار تبارك وتعالى : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى جبريل عليه السلام فيجده ساجدا وراكعا فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يامسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير ، والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرسى والسرادات وسكان سدرة المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل عليه السلام ، ويقول متضرعا إلى الله تعالى : يا الله هون على سكرات الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر جبريل منها صريعا ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول : مولاي وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

### كيف يموت ميكائيل

فيقول الجبار جل جلاله انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله تعالى ، فيجده ينتظر الماء ليكيه على السحاب ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل الأرض وأهل الحجب والسرادات وحملة العرش والكرسى وسرادات المجد والكروبيون والصادقون والمسيحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت ، فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر صريعا ميتا لا روح

فيه ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ؟ - وهو أعلم - ياملك الموت ؟ فيقول مولاي وسيدى أنت أعلم ، بقى إسرائيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

### كيف يموت إسرائيل

فيقول الجبار تبارك وتعالى انطلق إلى إسرائيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرائيل ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاي أن أقبض روحك ، فيقول إسرائيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاي هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر ميتا صريعا ، فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

### كيف يموت ملك الموت

فيقول الجبار تبارك وتعالى من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول مولاي وسيدى أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الجبار تعالى : وعزق وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى انطلق بين الجنة والنار ومب ، ينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله تبارك وتعالى أمات الخلائق لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجننها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار الذى خلق الليل والنهار فلا ترى أنيسا ولا تحس حسيسا ، قد سكنت الحركات ، وخذت الأصوات ، وخذت من سكانها الأرضون والسموات .

### لمن الملك اليوم

ثم يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : يادنيا أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ، وأين سكانك ، وأين عمارك ، أين الملوك وأبناء الملوك ، وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول تعالى الملك : لله الواحد القهار ، فينظر الجبار جل جلاله إلى عباده موق من بين صريع على خده ومن بين بال فى قبره ثم يقول يادنيا أين أنهارك وأين أشجارك وأين سكانك وأين عمارك وأين الملوك وأين الجبابرة لمن الملك اليوم ؟ لا يجيبه أحد ، فيقول تعالى : لله الواحد القهار فتبقى الأرضون والسموات ليس فيهن من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل تبقى أربعين يوما وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك يُنزل الله تبارك وتعالى من السماء السابعة من بحر يقال له بحر الحيوان ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاما فيشق ذلك الماء الأرض شقا فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

### كيفية بعث الموتى

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ . قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه ( بستان الواعظين ورياض السامعين ) .

كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار ، فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار جل جلاله ، وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار جل جلاله : ليعثن إسرافيل فيقوم إسرافيل عليه السلام حيا بقدرة الله تعالى فيقول له الجبار يا إسرافيل التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحى الله تبارك وتعالى إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

### حقيقة الصور

والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

### أين يقف إسرافيل

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقوم على صخرة بيت المقدس ، وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمه والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية واللحوم المتقطعة والأشعار المتبددة والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ، ليجازيكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل عليه السلام فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور ، فتنتشر بين السماء والأرض ، كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكافرين تخرج مظلمة كظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى المسوع ( وهو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه ) فيتمشى فى الجسم على مهل إن لم يتدارك بربط العضو المسوع ، ويجب بعد ربطه ربطا محكما أن يشرط بموس ليتزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون ) .



حتى ترجع إلى أجسادها ، كما كانت في دار الدنيا ثم تنشق الأرض من قبل رؤوسهم ، فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، وإسرافيل عليه السلام ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدا ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

### ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم ، خرج مع كل إنسان عمله الذي عمله في الدنيا ؛ لأن عمل كل إنسان يصحبه في قبره ، فإن كان العبد مطيعا لربه وعمل عملا صالحا كان أنيسه في الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره يؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبيها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : يا حبيبي ما عليك من هذا شيء ، ليس يراد به من أطاع الله ، وإنما يراد به من عصى الله تعالى مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبدا مطيعا لمولائك متبعا لنبيك تاركا لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

### العمل السوء وهياته

وإذا كان العبد خاطئا وعاصيا لذى الجلال ، ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذي عمل في دار الدنيا ، وكان قد صحبه في قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعا فلا يمر على هول ولا نار ولا شيء من هموم القيامة ، إلا قال له عمله : ياعدو الله هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور	يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن	لمطيع ومن عصى في سعي
خاب من قد عصى وفاز مطيع	راقب الله في جميع الأمور
قام في الليل للاله ذليلا	ليس يخلو من خوفه للتقدير
خاف من عظم يوم هول شديد	شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

### إخراج الأرض وما فيها

قال الله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى ما فيها من الموق والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبآت أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله تعالى أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عملا صالحا وجده نورا يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ، ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى

أرض القيامة ، وإن كان عملا سيئا وجده ظلمة سوداء ، تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله في النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية ، أربعون سنة فهو قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فمثل لنفسك يا مغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب وأظهرت لك القبائح والعيوب وأثقلت ظهورك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهي المعاصي	وأثقلت ظهري الذنوب
أورثنى ذكرها سقاما	فليس لي في الوري طيب
ياشؤم نفسي غداة حشري	إذا أحاطت بي الكروب
وصوت داع دعا باسمي	أين مفري وما أجيب؟
هذا كتاب الذنوب فاقرا	ف عندها تظهر العيوب

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم في أيامه ، قال له الملك يا عدو الله خذ عملك ، فاحمله على ظهورك كما كنت تلتذ به في الدنيا ولم تراقب مولاك ؟ وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة ، فيجرها على ظهره أثقل من جبال الدنيا والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقا حثيثا بالعنف والانتهاز والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله تعالى فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالي إذا جاء الحساب غدا	وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة	من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا	يوم المعاد ويوم الذل والعسار
يفوز كل مطيع للعزیز غدا	بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له	يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى في قرار النار مسكنه	لا يستريح من التعذيب فى النارى
فابكوا كثيرا فقد حق البكاء لكم	خوف العذاب بدمع وأكف جارى

فالله الله يا أولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

### مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل عليه السلام لا يقطع النداء فى الصور ، حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموق وما أودعها الله تعالى من شئ ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ووحوشها

ودوابها وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرائيل النداء بأمر الله تعالى وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسماوات ففى تبديلها قولان :

### هياة الأرض

أحدهما أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء لا جبل فيها ولا بناء ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ولا عصى الله تعالى عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كوني فتكون وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل إن تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها وتسجير بحارها ، وتسجير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها وتشققتها . فهذه تبديل الأرض والسماوات والله أعلم بحقيقة ذلك :

### كيف يقف الناس فى المحشر

فإذا قطع إسرائيل عليه السلام النداء ، وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ولا الوالد بولده ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما قد جاء به من العصيان وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

### مقدار زمن المحشر

ويقال والله أعلم : إن الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا ، لا خبر ينزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استدلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ	من بالبعث سرور
إنما يفرح بالدني	أ جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع	كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم	السهل فيه تمور

### بكاء النبى من أهوال القيامة

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( خوفنى جبريل عليه السلام من أهوال يوم القيامة حتى أبكاني فقلت له : حبيى جبريل أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ فقال : « يا محمد

١ - هذا الحديث نقله المصنف مع الكلام السابق واللاحق من ( بستان الواعظين لابن الجوزى ) ولكن لم أعثر على مخرج لهذا الحديث فيما بين يدى من مراجع وكتب ابن الجوزى بها كثير من مثل هذا

لتشاهدون من الأهوال يوم القيامة ما ينسبك المغفرة « فبكى رسول الله ﷺ حتى بليت دموعه لحيته ) .  
فهذا كان رسول الله ﷺ يبكى من هول يوم الحساب ، وقد آمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعدته  
بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟  
وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره في  
معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل في قوله تعالى : ( كلا إذا دكت الأرض دكا دكا )<sup>(١)</sup> هو تحريكها ،  
وقيل : دكا دكا : إذهابا .

### معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكا دكا وصفا صفا ؟ فقال : تدكدك  
الأرض دكا بعد دك ، أى تحرك مرة بعد أخرى ، حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر ،  
وقوله صفا صفا تأتى الملائكة .  
صفا بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظيم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال  
الأرض ( فحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض  
وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر شديد من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما  
أهوله ، ومن بلاء ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله . قد أفنى العباد بالحمام ، فلا يرى أحد من الأنعام ،  
فإذا استوى الأولون والآخرين في أرض القيامة ، أمر الله تبارك وتعالى السموات أن تنشق ، فتتشق كل  
سما ، وتنقطع مثل قطع السحاب ، وقيل كما ينطير القطن بين يدي القطانين إذا ندفوه فمثل لنفسك  
صوت انشقاقها في سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم في أيام حياتك  
ما يقيك تلك الأهوال ؛ لأن الخلق في أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم في الدنيا من خير وشر ، فمن  
عمل صالحا وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، آمنه مولاه من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم  
يقدم في دنياه عملا صالحا لأخراه ، لقيته صعاب الخطوب وترادفت عليه الموم والكروب ، فيندم حين  
لا تنفعه الندامة إذا حل في أهوال القيامة .

### الأمن والخوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إذا خافنى عبدى فى الدنيا  
أمتته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ﴾<sup>(٢)</sup> .  
فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل في

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٢١

(٢) الحديث أورده العلامة المناوى في ( الانحافات السنية بالأحاديث القدسية ) ص ٢١١ - ٢١٢ بلفظ : لا أجمع على عبدى خوفين  
ولا أجمع له أمنين ، إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمتته يوم القيامة - وقال : رواه ابن المبارك عن

الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب وندم العبد على ما فرط في الدنيا وضيع من الثواب والרגائب .

فإذا انشقت السماوات ، عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات وظهر العذاب ، وحلت العقوبات ، وأظهر الله مخبات السريرات وندم العبد المغرور على ما أذنب في الأيام والأوقات وما جنى في الشهور والساعات . فإذا انشقت السماوات ، كثرت الأحزان وبرزت النيران ، وأزلفت الجنان ، وندم العاصي على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن . فانتبهوا لهذه الأقوال ، يامعشر الاخوان يا أهل الاسلام والايمان فإن الهول - والله - عظيم والخطب كبير جسيم .

### ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السماوات ، وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا ، فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا لا تجزعوا منا فإننا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها وانعامها وطيرها ووحشها وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفا ، فيبقى العباد يमوج بعضهم فى بعض .

### ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية ، وهم أكثر عددا وأعظم خلقا ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفا ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم لا تجزعوا نحن مشغولون بأنفسنا ونخاف مما تخافون منه ، فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفا . وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا :<sup>(١)</sup>

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم	وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غدا	لا ينطقون بلبكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم	والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم	وعد الاله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة	لا ينطقون بلا روح من الزحم

### الجبايرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبايرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الناس خلقه ، لتجبرهم على العباد

(١) الحسن مرسلا ، ورواه ابو نعيم عن شداد بن اوس موصولا بلفظ : إن هو آمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمته يوم أجمع عبادى أ - هـ .

في الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة كل جبار عنيد وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطل ، فحينئذ لا حيلة لمحتال « في يوم لا بيع فيه ولا خال » : -

مقام المذنبين غدا عسير      إذا ما النار قربها القدير  
وقد نصب الصراط لكي تجوزوا      فلا ينجو الكبير ولا الصغير  
وقد نسفت جبال الأرض نسفاً      ويست البحور فلا بحور  
وبرزت الجحيم لكل عبد      على أهل المعاد لها زفير  
عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكو وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل والهول الكبير والخطب الجليل والعذاب الشديد الطويل .

### حديث في أهوال يوم القيامة

ذكر في بعض الأخبار عن النبي ﷺ وعلى آله الأخيار دوام اختلاف الليل والنهار ، أنه قال : ( ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة ، فاندم يامسكين على ما صنعت وفات وأصلح بالتوبة النصوح ما هوأت من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

### شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات وأهل الحجب والسرادات وحمة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض في عرصة القيامة وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام وشخصت الأحداق وتطاوت الأعناق وانشئت من شدة العطش . واجتمع زحام الخلائق وانفاسهم وشدة حر الشمس وضيق اليأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض ، حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم ، التي أنزلتهم عليها أعمالهم التي عملوها في دار الدنيا ، وقد زيد في حر الشمس ما يتضاعف قيل حر عشر سنين - ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

### مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله تبارك وتعالى يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده ، وترمي جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم من مستريح ببرد ماء الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره في الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

### ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت

السموات وتطارت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول في أليم العذاب ، وقد صارت العزة لدى البطش الشديد . ولزمت الذلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كاللؤلؤ - وهو دردى الزيت الذى يجلس في قعر الاناء ، قيل ترجع السماء كالدهن الرقيق وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف وتصير الخلائق كالفراس وهو البعوض ، وقيل كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة .

كذلك الخلق يموج بعضهم في بعض لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على الأمم بأعمالها . وشاب الوليد وحضر الوعد وحق الوعيد وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيها تسمعون يامعشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجامعة الاخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب . وأنشدوا :-

مثل لقلبك أيها المغرور	يوم القيامة والسياء تمور
قد كورت شمس النهار وأضعفت	حرا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها	فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها	خلت الديار فبا بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت	وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا	وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق	خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله	كيف المقيم على الذنوب دهور؟

### جهنم في المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار جل جلاله أن يؤق بجهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ، فيؤق بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانياتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، وتنن غسليتها وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلاء ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

### وصف جهنم

قال الله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ <sup>(١)</sup> فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وكغضب الجبار جل جلاله وتتغيظ وتتسرع ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ، قد تعلق بكل زمام

سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم ، وتأتى على أهل الموقف والملائكة الذين يحبسونها وجوههم مثل الجمر وأعينهم مثل البرق الخاطف : فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه

بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار ، كأمثال الجبال الراسيات العظام ورءوسها كراءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة وأعينهم زرق ووجوههم كلحة ، قد خلقوا من نار السموم ، تريد جهنم أن تنفلت من أيدي الملائكة من غضب الجبار جلا جلاله .

هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس -رضى الله- تعالى- عنهم .

### بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله تبارك وتعالى جاءت بالهول الأكبر والفرع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد . فإذا قربت من الخلائق ، سمعوا لها شهيقا ، ورأوا لها حريقا ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت وأرادت أن تثب عليهم فاغتازت وتمحمت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، وتريد أن تنفلت من أيدي الخزان فتهرب الخلائق ، فلا يجدون منفذا ولا مكانا يستغيثون إليه . ومناد ينادى ( يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان )<sup>(١)</sup> أى بحجة - ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها ، لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلقت من أيدي الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها صلوات الله وسلامه عليه محمد الرسول ، وكل نبي يومئذ بنفسه مشغول .

### رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد ﷺ بزمامها ويقبض على خطامها ، فيردها على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو ﷺ يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره ﷺ وتناديه ايها النبی المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيل من يديك ، فما جعل الله لى ولا يعجزى <sup>يعجزى</sup> من سلطان عليك ، فيناديها الملك الجليل الجبار ، هذا محمد حبیبى سيد الأبرار ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليله تحت سكون وخمود بإذن الملك المعبود ، لمحمد ﷺ صاحب الخوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود ، ولو



تركها خاتم النبيين وسيد المرسلين لأهلك الخلائق أجمعين غضبا لغضب رب العالمين أعاذنا الله وإياكم - برحمته - منها إنه أرحم الراحمين .

### جهنم وزفيرها

وقيل إن جهنم - أعاذنا الله منها وزحزحنا وإياكم برحمته عنها - إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة ، فترمى شررا على رؤوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رؤوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين ، فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها وجفت أزهارها ، وييست عيونها وأنهارها من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

### الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى ، فلا تبقى دمعة في عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ولا يسأل أحد إلا نفسه البر والفاجر .

### الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهي أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا بنى مرسل ، ولا ولي ولا صديق ، إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم وجميع المرسلين إلا ما خلا من حبيب رب العالمين محمد ﷺ خاتم النبيين ، فإنه لا يسأل عن هول النار قد خلصه الله من أهوالها .

### الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة وهي أعظم من الأولى والثانية والثالثة ، فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل - عليهما السلام - بساق العرش ، وكل ملك ينادى نفسى نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ويقول أيضا كل واحد منهم بحرمة محمد وبقدر محمد ﷺ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمة وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها في بعض ، ويقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

### بماذا تحمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ﷺ ويلقى يده في زمامها ، ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك وهو ﷺ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : يا سلام سلم أمتى من العذاب الشديد . وأنشدوا : -

الدمع في خد من عصي حسن      حسب الفتى من دموعه الحزن  
يامن شكى حافظه خلوته      لما خلا والعباد ما فطن  
قد كان ربى عليك مطلعا      وأنت لاهى الفؤاد مفتن  
لم تهتك السر إذ خلوت به      ولا انقضت من عطائه المنن  
النار تسعى إلى العصاة غدا      لم يعلم المذنبون ما وسن  
ياقوم العجب من القلوب التى بليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتماادت على معصية الرب الكريم الجواد .  
ياأخى كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليعثن الجبار ، الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنكير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير فى اليوم المهول العبوس العسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير أرفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم إنه على ما يشاء قدير .  
ثم يبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جهنم ، فيقول لها : الله تعالى يقول لك الطاعة . فتقول وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : يا جبريل ، هل خلق الله خلقا يعذبني به ؟  
فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله تعالى إلا نعمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نعمة لمن عصاه ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .  
عند ذلك - والله - تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آمن بالبعث سرور  
فإننا لله وإننا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، ترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

### من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين - رحمه الله - أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

ياكثير الذنوب أقصر قليلا      قد بلغت المدى من الإسراف  
فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »<sup>(١)</sup>  
فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول سبحانه « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا

مسلمين ﴿ فعند ذلك يأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار ، عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين وتطاير الصحف في الأفق ، فكل امرئ بما اكتسب معترف ، فندم الظالم وخسر الأثم وظهرت في الصحف الفضائح وكثر الخجل واشتد الوجل ، وبدت الفضائح وشهدت على كل امرئ حفظته والجوارح . وأنشدوا : -

طالب والله بالذنوب اشتغالي	وتماديت في قبيح فعالي
ليت شعري إذا أتيت فريدا	والموازين قد نصبت حيالي
والدواوين قد نشرت وجثنا	والنبيون يشهدون سؤالي
ما اعتذاري وما أقول لربي	في سؤالي وما يكون مقالي
أورثني الذنوب دار هموم	لست أبقى لها ولا تبقى لي
يا عظيم الجلال ما لي عذر	بل حقيق أنا بنار السفال
غير أن الرجاء فيك مكين	فارحم العبد يا جميل الفعال
وتفضل على عبيد بشيء	ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

### هذا يوم الدين

١ - روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( إذا جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين نادى مناد هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كتم به تكذبون ) .

فانظر لنفسك يامسكين ياضعيف الايمان واليقين يامن يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ما أجراك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين ، فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب ، وأنشدوا : -

يا طبيب الذنوب والآثام	هل دواء أبرأ به من سقامي
إن داء الذنوب أضعف جسمي	ومشيبي موكل بحماسي
وشفائي أعياء الأطباء إني	قد تغذيت مدق بالحرام
وركبت الذنوب سرا وجهرا	وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمي	وكلامي يزيد قرح كلامي

١ - لم أعر على هذا اللفظ فيما بين يدي من مراجع .  
والذي وقعت عليه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن أبي عبد الله الجليلي قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمر وكعب الاحبار يتحدثون في بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس في صعيد واحد فينقلهم البصر ويسمعهم الداعي ويقول الله : هذا يوم لا ينطقون هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، اليوم لا ينجو مني جبار ولا شيطان مرید ... الخ ، الحديث الطويل « راجع الدر المنثور ٦ / ٣٠٥ »

أيهما الناس قد علمتم ذنوبى      واغترارى وشقوق واجترامى  
 وأنا أرغب الدعاء فجدوا      فى فكاكى من الذنوب العظام  
 واشتياقى إلى الطواف شديد      وإلى الركن والصفاء والمقام  
 وإلى يشرب يحسن فؤادى      كى أزور النبی خیر الأنام  
 فسلوا الله فى الوصول فى      ذو اشتياق لحج بيت حرام  
 فلعل الاله يغفر جرمى      وينجى من هول يوم القيامة  
 ويفك ذو الجلال عبدا ضعيفا      مات خوفا من العذاب الغرام  
 الغرام : لعله يريد العذاب الغريم أى الملازم فاضطرته القافية لذلك ، وقد سبق أن نبهنا على  
 أن هذة الأشعار ، هى ألفاظ عامة يلاحظ فيها المعنى لا التركيب البديعى .

### موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال لكعب : يا كعب خوفنا فأطرق برأسه ، ثم رفع  
 رأسه وعينه تذرقان دموعا ، فقال : يا أمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة ،  
 فتقطع السلاسل التى بأيدي الزبانية الذين يمسكونها بها ، حتى تفيض على أهل الجمع وتلقى الزبانية  
 على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبى ، ومائة  
 ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها ، فعند ذلك يعرض لها النبى ﷺ  
 وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى كفى عن أمتى ، كفى عن  
 أمتى ثلاثا . فتقول له : يا أيها النبى الكريم والرسول الرؤوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على  
 أمتك من سبيل ، فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذا رأى الأهوال العظام بالنبى - عليه الصلاة  
 والسلام - فيقول يا رسول الله : أنقذنى من عذاب الله ، فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى ، فلم  
 عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوق ، فيقول ﷺ لا شقوة على أحد من  
 أمتى ولا على من قال فى الدنيا مخلصا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع  
 فيه . وأنشدوا : -

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى      شفيح الناس فى يوم التنادى  
 إذا نشر الخلائق من قبور      عراة يتغنون نداء المنادى  
 وقربت الجحيم لمن يراها      فيالله من خوف العباد  
 وقد زفرت جهنم فاستكانوا      سقوطا كالفراش وكالجراد  
 وقد بلغت حناجرهم قلوبا      وقد شخصوا بأبصار حداد  
 فياجبار عفوا منك فالطف      ويبارحمن رقبا بالعباد  
 ونودوا للصراط ألا هموا      فهذا ويحكم يوم المعاد  
 تسوقكم إليه سوق عنف      مقامع من زبانية شداد

ألا يا معشر الاسلام هبوا من الإغفال في غمر الرقاد

### حديث في الترهيب

روى عن النبي ﷺ أنه قال : ( كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله وعين غضت عن محارم الله وعين باتت تحرس في سبيل الله )<sup>(١)</sup>  
فقدموا عباد الله في السير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه في العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة النقصان .  
ففكر فيما تسمع أيها الانسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الانسان وأنشدوا : -

مقام المذنبين غدا ذليل	وقدر الطائعين غدا جليل
إذا مد الصراط على جحيم	يطول على العصاة ويستطيل
ونادى مالكا خذ من عصاني	فإني اليوم لست لهم أقيـل

### سجود جهنم

ذكر في بعض الأخبار أن جهنم - أعادنا الله منها وزحزحنا برحمته عنها - تستأذن يوم القيامة في السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ، ثم يقال لها ارفعي رأسك ، فترفع رأسها وهي تقول : الحمد لله الذي خلقني لينتقم بـ ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا من خلقه ينتقم به مني .  
إلهي قد اشتد بلائي وأخذت ناري ، وغلا حميمي وزقومي ، وكثرتني وغسليني ( هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم وزيد فيه الباء والنون ) وأكل بعضي بعضا . إلهي عجل على بأهلي ، فوعزت لك لأنتقم من لك ، ممن عصاك ، واتبع هواه وجحد آياتك ، وكذب رسلك ، وجعل معك إلهها غيرك ، لا إله إلا أنت .

فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعا ، ثم تغتاظ على أهل المعاصي فترمي بشر ( فسر ابن عباس بأعناق النخل ) كعدد النجوم في السماء وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رؤوس الخلائق ، فيقع على رؤوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجابا بينه وبين شر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضا لشر جهنم ، أعادنا الله منها وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

قوله تعالى ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتي يا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

روى أن عقبة بن أبي معيط كان يكثر مجالسة النبي ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه ، حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبات ، فقال : لا والله ولكن أبي أن يأكل من طعامي وهو في بيتي ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أَرْضَى منك إلا أن تأتيه ، فتطأقفاه ، وتبزيق في وجهه ، فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبي ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبي بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة ، فوقعت في ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم في جوفه ، فجعل كما يخور الثور ، فأقى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه ، حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله الآية .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل ) أخرجه أبو داود والترمذي<sup>(١)</sup> .

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ ( لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامكم إلا تقي )<sup>(٢)</sup> .

وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال : ( مثل المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن يتباع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة )<sup>(٣)</sup> .

والمراد بالعض على اليدين الندم والحسرة والألم واللوعة النفسية ، وهنا يتمنى النادم أن يكون قد اتخذ مع الرسول طريقا ، يوصل إلى الحق ، وعلى صراط مستقيم ، ثم يتمنى الهلاك لنفسه بقوله : ( ياويلتي ) يامصيبتى احضري فقد آن أوانك ، ليتني لم آتخذ فلانا خليلا وصاحباً . نعم خير الأصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الأصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك ،

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن . يقتدى

ثم بين له ذلك فقال : - ( لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ) والمراد بالذكر هنا القرآن العظيم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(٤)</sup> . ( ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون )<sup>(٥)</sup> .

(١) الحديث رواه أبو داود في الأدب ١٦ ، والترمذي في الزهد / ٤٥ ، وأحمد في مسنده ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ .

(٢) الحديث رواه أبو داود في الأدب / ١٦ ، والترمذي في الزهد / ٥٦ .

(٣) الحديث رواه البخاري في الذبائح ٣١ ، ومسلم في البر ١٤٦ .

(٤) سورة الحجر آية رقم : ٩ .

(٥) سورة الزخرف آية رقم : ٣٦ - ٣٩ .

وليست هذه الآيات خاصة بظالم بعينه ، بل تشمل كل ظالم ، كما أنها تشمل ( لعن ) كل قرين سوء ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ (٢) .

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا	فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة	وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه	ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة	فلا خير فى ود يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله	ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده	ويظهر سرا كان بالأسس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها	صديق وفى يصدق الوعد منصفاف

قوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الانسان ، فيصرفه عن الحق ، ويدعوه إلى الباطل ، ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيه منه . قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنها فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ . كتب الامام ابن القيم فى كتابه ( الفوائد ) يقول : هجر القرآن أنواع : أحدهما هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

الثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاده لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

(١) سورة الاحزاب الآية رقم : ٦٤ - ٦٨

(٢) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٢

(٣) سورة فاطر الآية رقم : ٦

(٤) سورة الحشر الآية رقم : ١٦ ، ١٧

الخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به في جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل في قوله : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ وان كان بعض المهجر أهون من بعض .  
فاجب معى لأمة تهجر كتابها المنزل من ربها على نبيها .  
فالله نور السماوات والأرض والقرآن نور قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ (١) .

ونبيها نور : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (٢) أمة شأنها هكذا ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش في الظلمات ؟ ! إلا فلتعلم هذه الأمة ، فضائل هذا الكتاب ومناقبه ، فتعود إليه ، رافعة لواء الاسلام مرددة نشيد الايمان .

### فضائل القرآن ومناقبه

قال تعالى : ، ولقد آتيناك سبعا من المثان والقرآن العظيم ﴿ (٣) .  
١ - وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : ( إن هذا القرآن مآدبة الله في أرضه فتعلموا مآدبته ما استطعتم ، وان هذا القرآن هو حبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعبد ولا ينقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقروه ، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول : ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة ) .

٢ - وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ) .

٣ - وعن أبي الدرداء يرفع إلى النبي ﷺ : « القرآن أفضل من كل شيء دون الله ، فمن قرأ القرآن فقد قرأ الله ، ومن لم يقرأ القرآن ، فقد استخف بحرمة الله ، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده )

(١) سورة التغابن الآية رقم : ٨

(٢) سورة المائدة الآية رقم : ١٥

(٣) سورة الحجر الآية رقم : ٨٧

١ - الحديث رواه الدارمي في فضائل القرآن عن ابن مسعود باب / ١

وأورده المنذرى الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٤ وقال : رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجرى عن ابي الاحوص عنه وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح أ هـ وذكره المحدث عبد الله الصديق القمارى في فضائل القرآن ١ / ٩ بلفظ مقارب وقال : رواه أبو عبيد في فضائل القرآن ومحمد بن نصر المروزي في قيام الليل والحاكم وابن حبان وفي سنده ابراهيم بن مسلم الهجرى ، قال ابو حاتم : لين ليس بالقوى أ هـ

وأورده الهيثمى في مجمع الزوائد ٧ / ١٦٤ بلفظ مقارب وقال : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن ابراهيم الهجرى وهو متروك أ هـ

٢ - الحديث رواه الترمذى في ثواب القرآن / ٢٥ ، والدارمي في فضائل القرآن / ٦

٣ - حديث طويل في جمع الجوامع ١ / ٤٣٦ جمع بينها - وزاد كلا ما في وسطه وعزاه لابي نصر السجزي في الابانة عن عائشة رضى الله عنها وقال هذا من أحسن الحديث وأعذبه وليس في اسناده الا مقبول ثقة - والحكيم عن محمد بن على مرسل - والحاكم في =



١ - وعن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : ( من قرأ ثلث القرآن ، أوق ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن ، أوق نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثي القرآن ، أوق ثلثي النبوة ، ومن قرأ القرآن كله ، أوق النبوة كلها ، ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما ( معه من ) القرآن ثم يقال : اقبط فيقبض ، فيقال : هل تدري ما في يديك فإذا في اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم ) .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها - عن النبي ﷺ أنه قال : ( حملة القرآن محفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، فمن عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم . فقد والى الله يقول الله عز وجل : يا حملة كتاب الله تحبوا إلى الله بتوفير كتابه يزدكم حبا ، ويحييكم إلى خلقه ) يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالي القرآن بلوى الآخرة ، والمستمع آية من كتاب الله ، خير من ثبير ذهباً ولتال آية من كتاب الله ، خير مما تحت العرش إلى تحوم الأرض السفلى ) .

٣ - وعن أبي بريدة قال : كنت عند النبي ﷺ فسمعتة يقول : ( القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفني ؟ فيقول ما اعرفك . فيقول انا صاحبك القرآن الذي اظمأتك في الهواجر . واسهرت ليلتك وان كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة ) .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بم كسينا هذا ؟ فيقال لهما : يأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها . فهو في صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلاً ) .

عن معاذ قال : ( كنت في سفر مع رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله حدثنا بحديث ينتفع به ، فقال : ( إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى

في تاريخه عن محمد بن الحنفية عن علي بن أبي طالب موصولا .  
والحديث أورده ابن الجوزي في الموضوعات ( من رواية ابن عساکر عن انس بلفظ مقارب وقال : وفيه على بن الحسن الشامي ووافقه السيوطي ثم ابن عراق الكنتاني على ذلك ( راجع تنزيه الشريعة ( ١ / ٢٩٤ ) .

في تنزيه الشريعة ١ / ٢٩٢ : من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ ثلثيه أعطى ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن فكأنما أعطى النبوة كلها . الحديث . أورده ابن الجوزي في الموضوعات من حديث أبي أمامة وقال : لا يصح ، فيه بشير بن نمير . ( وتعقب ) بان بشيرا من رجال ابن ماجه ( قلت ) قال الحافظ في التقریب : متروك متهم والله أعلم ، والحديث أخرجه البيهقي في الشعب ، وقد ورد مثله من حديث ابن عمر . الخ مقال ( راجع تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١ / ٢٩٢ - ٢٩٣ )

- الحديث رواه ابن ماجه في الأدب / ٥٢ ، والدارمي ( سنن الدارمي ٢ / ٣٢٤ ) في فضائل القرآن / ١٥ ، وأحمد في مسنده ٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

ورواه أيضا البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح ، وقال الهيثمي بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح أ هـ وقال ابن كثير بعد عزوه له : وهذا إسناد حسن على شرط مسلم - وفي رواية : كالرجل الشاب ( راجع تفسير ابن كثير ١ / ٣٣ ط الحلبي ، المطالب العالية ٣ / ٨٤ ، بصائر ذوي التمييز ١ / ٦٠ - ٦١ ، اللآلئ المصنوعة ١ / ١٢٦ ، الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٠ - ٣٥١ ، المنهل العذب المورود ٨ / ١٢٤ ( شرح ) وفيه : الحاكم عن بريدة .

هـ : المز : الاسراع بالقراءة - والترتيل : القراءة بتؤدة .

يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان في الميزان (١) .  
وعن عقبة بن عامر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في الصفة ، فقال : (أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين في غير لائم ولا قطيعة رحم ؟) قلنا : كلنا يا رسول الله يحب ذلك . قال :

(لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد ، فيتعلم آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، ومن أعدادهن من الابل) (٢) .

وعن عائشة قالت :

(قال رسول الله ﷺ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يتتبع فيه له أجران) (٣)  
وروى عن أبي ذر أنه جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به ، فقال - ﷺ - (لا يعذب الله قلبا أسكنه القرآن) (٤) .

وعن أنس عن النبي - ﷺ - أنه قال : (من علم آية من كتاب الله كان له أجرها ماتليت) (٥) .  
وعن ابن مسعود أن النبي - ﷺ - قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا ؟ فإن فيه علم الأولين والآخرين ، ألم تسمعوا قوله : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٦) .  
- وعن واثلة بن الأسقع أن النبي - ﷺ - قال : أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطي المائدة مكان الانجيل وأعطي المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل (٧) .  
وعن عثمان بن عفان أنه قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (٨) .

(١) الحديث رواه الديلمي عن غضيف بن الحارث

(راجع : بصائر ذوى التمييز ٦١ / ١ نقلا عن كنز العمال ١٣٦ / ١)

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٥١ ، وأبو داود في كتاب الصلاة - أبواب الوتر ١٤ ، وأحمد في مسنده ١٥٤ / ٤

(٣) الحديث رواه البخارى في تفسير سورة عبس بمسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٤ ، وأبو داود في كتاب الوتر / ١٤

والترمذى في أبواب ثواب القرآن / ١٣ ، وابن ماجه في أبواب الأدب / ٥٢ ، والدارمى في كتاب فضائل القرآن / ١ وأحمد في مسنده ٤٨ / ٦ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٤) الحديث رواه الدارمى في كتاب فضائل القرآن ١

(٥) الحديث ورد بلفظه في بصائر ذوى التمييز ٦٢ / ١ ولكنه في جمع الجوامع ٨٠٢ / ١ بلفظ : من علم آية في كتاب الله كان له ثوابها ماتليت - وقال (رواه ابن لال عن أبان عن أنس)

(٦) الحديث ورد بلفظه في كتاب بصائر ذوى التمييز ٦٢ / ١ ولكنه في كنز العمال ٥٤٨ / ١ رقم ٢٥٤ ورد بلفظ : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن (رواه الديلمي عن أنس) أى فليثور عنه وليفكر في معانيه

(٧) الحديث رواه النسائى في كتاب الافتتاح ٢٦ ، والدارمى في كتاب فضائل القرآن / ١٧

(٨) الحديث رواه البخارى في كتاب فضائل القرآن ٢١ ، وأبو داود في كتاب الصلاة - أبواب الوتر (عون المعبود ٣٢٥ / ٤ باب في ثواب قراءة القرآن) والترمذى في أبواب ثواب القرآن / ١٥ ، وابن ماجه في المقدمة ١٦ ، والدارمى في كتاب فضائل

وعن أبي موسى الأشعري عن النبي - ﷺ - قال : مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل الثمرة : طعمها طيب ، ولا ريح لها ، ومثل الذى يقرأ القرآن ولا يعمل به كمثل الريحانة ، لها رائحة وطعمها مر ، ومثل الذى لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة لا طعم لها ، ولا رائحة ( البخارى ومسلم )<sup>(١)</sup> .  
( والأتربة ضرب من الفواكه ) .

وسئل النبي - ﷺ - من أحسن الناس صوتا ؟ قال من إذا سمعته يقرأ خشية تخشى الله<sup>(٢)</sup> وكان - ﷺ - يقول لأصحابه : ( اقرأوا القرآن بحزن ، فإنه نزل بحزن )<sup>(٣)</sup> .  
( كنز العمال )

- وقال - ﷺ - ( إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد .  
قيل : فما جلاؤها يارسول الله ؟ قال : ذكر الموت وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾<sup>(٤)</sup> .

- وقال - ﷺ - : ( القرآن هو الدواء )<sup>(٥)</sup> ( كنز العمال )

وقال - ﷺ - : ( القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه )<sup>(٦)</sup> .

ورد فى الإتقان وذكر أنه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أبى هريرة  
وقال - ﷺ - : القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق ( وماحل بكسر الحاء المهملة أى : ساع وقيل :

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأطعمة/٣٠ ، وفى كتاب فضائل القرآن/١٧ ، ٣٦ ، وفى كتاب التوحيد/٥٧ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٣ ، وأبو داود فى كتاب الأدب/١٦ ، والترمذى فى أبواب الأدب/٧٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان/٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة/١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/٨ ، وأحمد فى المسند/٤/٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨

(٢) الحديث رواه الدارمى فى سننه ٢/٣٣٨ رقم ٣٤٩١ عن طائوس بلفظ : من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله وفى كنز العمال ١/٦٠٨ رقم ٢٧٨٨ بلفظ : إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله ( ابن ماجه عن جابر )

وفى كنز العمال ١/٦٠٢ - ٦٠٣ رقم ٢٧٥٠ بلفظ : ( أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ أريت أنه يخشى الله ) رواه محمد ابن نصر فى كتاب الصلاة والبيهقى فى الشعب والخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأورده الهيثمى فى المجمع ٧/١٧٠ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وثقه ابن حبان وقال ربما أخطأ ويقية رجال البزار رجال الصحيح وقال : وفيه حميد بن حماد بن خوار

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الإمامة رقم/١٧٦ ورواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الأوسط عن بريدة بلفظ : اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن (كنز العمال ١/٦٠٦ رقم ٢٧٧٧

(٤) الحديث فى كنز العمال ١٥/٥٤٩ - ٥٥٠ رقم ٤٢١٣٠ بلفظ : إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : وما جلاؤها ؟ قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن : ( رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر )

(٥) رواه السجزي فى الإبانة والقضاعى عن علي-رضى الله عنه

( كنز العمال ١/٥١٧ رقم ٢٣١٠ )

(٦) رواه ابن عساكر ومحمد بن نصر عن أنس رضى الله عنه ( كنز العمال ١/٥١٦ - ٥١٧ رقم ٢٣٠٧ )  
وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/١٥٨ وقال : رواه أبو يعلى عن أنس وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف أ هـ

خصم مجادل) رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾  
 أى كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان في الأمم الماضين ،  
 لأن الله جعل لكل نبي عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى :  
 ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا  
 ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصنفى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه  
 وليقتربوا ما هم مقتربون ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه  
 واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره في الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هاديا ونصيرا ﴾ لأن المشركين كانوا  
 يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال :  
 ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين ﴾ الآية ..

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك  
 ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى  
 جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيههم ، حيث قالوا ﴿ لولا  
 نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب ، الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما  
 نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله  
 تعالى عن ذلك ، بأنه إنما أنزل منجما في ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من  
 الأحكام ، لثبت قلوب المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه  
 تنزيلا ﴾<sup>(٣)</sup> ولهذا قال سبحانه : ﴿ لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ قال قتادة : بيناه تبينا .  
 وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى :  
 ولا يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من  
 مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أى بما يلتبسون به عيب القرآن  
 والرسول ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا  
 اعتناء وكبير شرف للرسول - ﷺ - حيث كان يأتيه الوحي من الله عز وجل - بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا  
 ونهارا سفرا وحاضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ،  
 فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -

(١) رواه ابن حبان والبيهقي في الشعب عن جابر رضى الله عنه ، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن  
 مسعود رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ رقم ٢٣٠٦)

(٢) سورة الأنعام آية رقم : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم : ١٠٦

فالقُرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد - ﷺ - أعظم نبي أرسله الله تعالى ، وقد جمع الله للقُرآن الصفتين معا ، ففي الملأ الأعلى ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .  
 روى النسائي بإسناده عن ابن عباس قال : ( وأنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة )<sup>(١)</sup>

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾  
 وقال تعالى : ﴿ وَقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾  
 ثم قال تعالى : مخبرا عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾  
 وفي الصحيح عن أنس أن رجلا قال يارسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟  
 فقال - ﷺ - : ( إن الذي أمشاه على رجله قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة )  
 وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .  
 قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ؛ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ، ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾  
 يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا - ﷺ - من مشركي قومه ومن خالفه ، وعذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا ، أي نبيا مؤافرا ومؤيدا وناصرا فكذبها فرعون وجنوده فدمرناهم تدميرا ، قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾<sup>(٢)</sup> وقال سبحانه ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاستل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يافرعون مشورا ﴾<sup>(٣)</sup>  
 وقال تبارك اسمه : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملكه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ، ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) الحديث رواه النسائي في كتاب ( فضائل القرآن ) ص ٥٩ رقم ١٥ / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠ هـ - طبعة دار الثقافة بالمغرب عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة في ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئا أحدثه .

(٢) سورة مريم آية رقم : ٥١ - ٥٣

٢ - سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون الآيات رقم : ٤٥ - ٤٩

ثم يأتي الحديث عن قوم نوح فيقول تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ (١) فاعجب معى لقوم يظل فيهم نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى التوحيد ليلا ونهارا ، ويبذل في سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الدعوة ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم أسراراً ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (٢) ثم بعد ذلك تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (٣) فيالله للبشرية إذا ماوقفت تلك المواقف ، التى تحار فيها الأبواب ، وتنشق فيها قلوب الأسود ، وتتفت لها مرائر النمر .

قوله تعالى : ﴿ وعادا واثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم (٥) اعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (٤) وقال تبارك اسمه :

﴿ وعادا واثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾ (٦) .

أما أصحاب الرس ، فهم الذين قتلوا نبيهم ، وكانوا يقطنون اليمامة وقال ابن جرير : هم أصحاب الأخدود ، الذين ورد ذكرهم في سورة البروج في قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ قوله تعالى : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ أى : إنما كثيرة أهلكناهم لما كذبوا رسلنا . قال تعالى : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لهم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ (٧)

(١) سورة العنكبوت. الآيات رقم : ١٤ - ١٥

(٢) سورة نوح الآيات رقم : ٨ - ١٢

(٣) سورة هود . آية رقم : ٤٠

(٤) سورة فصلت الآيات رقم : ١٥ - ١٨

(٥) سورة العنكبوت . آية ، رقم : ٣٨

(٦) سورة الأنعام آية رقم : ٦

وقال سبحانه : ﴿ ثم أرسلنا رسlnا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ (١) وقال عز من قائل : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفكرون ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا ، وبيننا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار فتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفضع الإهلاك وأشدّه ونحو ذلك قوله تعالى فى شأن الظالمين : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتىهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرايبيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ .

أى: وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ؛ لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة ما يوجبّه فقال : ﴿ أفلم يكونوا يرونها ؟ ﴾ أى: أفلم يروا مانزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم ، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال : ﴿ بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ أى: لأنهم ما كذبوا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عند الله ؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ما حل بالقرية التى وصفت ، بل كذبوه من قبل بأنهم قوم لا يخافون نشورا بعد الممات ، ولا يوقنون بعقاب ولا ثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله .

(١). سورة المؤمنون آية رقم : ٤٤

(٢). سورة الأحقاف الآيتان : ٢٧ - ٢٨

(٣). سورة إبراهيم الآيات رقم : ٤٢ - ٥٢

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .

- أي: وإذا رآك هؤلاء المشركون اتخذوك موضع هزؤ وسخرية ، وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد في قبحه في زعمهم فقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ أي ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا ، ونحو ذلك قوله

تعالى : ﴿ وانطلق الملائمة أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ، ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا

عذاب ﴾<sup>(٤)</sup> . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم يذكرون الرحمن هم كافرون خلق الإنسان من عجل ساريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ أي: إنهم حين يشاهدون العذاب ، الذي استوجبوه بكفرهم سيعلمون من الضال ومن المضل ؟ وفي هذا رد لقولهم : إن كاد

ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر ، فاعجب معي لأهل الباطل ، يصبرون على آلهتهم وضلالتهم وباطلهم ، وأهل الحق يستعجلون ، نعم يامولانا

يامن قلت وقولك الحق :

﴿ لتبطلون في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾<sup>(٦)</sup> وقلت : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين

واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾<sup>(٧)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أرايت من اتخذ الله هواه أفأنت تكون عليه وكيلًا ﴾ .

(١) سورة هود آية رقم : ٨٢ ، ٨٣

(٢) سورة الصافات آية رقم : ١٣٣ - ١٣٨

(٣) سورة الحجر آية رقم : ٧٣ - ٧٧

(٤) سورة ص آية رقم : ٦ - ٨

(٥) سورة الأنبياء آية رقم : ٣٦ - ٣٧

(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٨٦

(٧) سورة النحل آية رقم : ١٢٦ - ١٢٨



أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولأتأبه به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا ، تزجره عما هو عليه من الضلال ، وترشده إلى الصراط السوى ، وخلاصة ذلك ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لا يرى معبودا له إلا هواه ، لا تستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (١) وقوله تبارك اسمه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ (٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٣) . الهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواه ، وتمنى على الله الأمانى ، ومن عرف الهوى فقد هوى ، وقد صح فى الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ) .

قال الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ذم الهوى وتحت عنوان ( فى ذم الهوى والشهوات )

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى مايلئمه ، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم مأكلا ، وإلى المشرب ماشرب ، وإلى المنكح مانكح ، وكذلك كل مايشتهيه ، فالهوى مستجلب له مايفيد ، كما أن الغضب دافع عنه مايؤذى ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق ، وإنما يذم المفرط من ذلك ، وهو مايزيد على جلب المصالح ودفع المضار . ولما كان الغالب من مواقف الهوى أنه لايقف منه على حد المنتفع ، أطلق ذم الهوى والشهوات ، لعموم غلبة الضرر ، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى فى النفس ، وإذا فهم تعذر وجود العمل به ونذر مثاله : ان شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء ، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولايتعدى ، فإن وجد ذلك انغمز ذكر الهوى فى حق هذا الشخص ، وصار مستعجلا للمصالح ، وأما الأغلب من الناس فلمنهم يوافقون الهوى . فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنا وتبعا ، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت فى هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا ، ووسمت كتابي بـ « ذم الهوى » لذلك المعنى .

(١) سورة الجاثية آية رقم : ٢٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٥ - ١٧٧

(٣) سورة ص آية رقم : ٢٦

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ما ذكر الله عز وجل الهوى في موضع من كتابه إلا ذمه . وقال الشعبي : إنما سمى هوى ؛ لأنه يهوى بصاحبه .

فصل :

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كانت سببا للألم والأذى ومنع لذات في الآجل .

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما ، وشهوة تورث ندما ، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى .

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى ، وإن أذاه إلى التلف ! فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك ، وقد يقع التساوى بينهما في الميل والهوى ، وبهذا القدر فضل الأدمى على البهائم - أعنى ملكة الارادة - لأن البهائم واقفة مع طباعها ، لانظر لها إلى عاقبة ، ولا فكر في مآل ، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر ، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أى وقت اتفق ، والأدمى يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه .

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا ، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل ، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة ، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى ، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة .

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذى غايته . وليعلم العاقل أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها ، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطرارى ، ولهذا ترى مدمنى الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن ، غير أن العادة تقضيه ذلك فيلقى في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده . ولوزال رين الهوى عن بصر بصيرته ، لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ ، لاهو نال ما خدع به ، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه .

فإن قال قائل : فكيف يتخلص من هذا وقد نشب فيه ؟ قيل له : بالعزم القوى في هجران ما يؤذى ، والتدرج في ترك ما لا يؤمن أذاه ، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونها سبعة أشياء .

أحدها : التفكير في أن الإنسان لم يخلق للهوى ، وإنما هيء للنظر في العواقب والعمل للآجل ، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة الطعام والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان ، مع عيش هنى خال عن فكر وهم . ولهذا تساق إلى منحرها ، وهى منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب . والأدمى لا ينال ماتناله لقوة الفكر الشاغل ، والهوى الواغل ، وضعف الآلة المستعملة ، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما نجس حظ الأدمى الشريف منه ، وزيد حظ البهائم ، وفى توفير حظ الأدمى من العقل ونجس حظه من الهوى ، ما يكفى في فضل هذا وذم ذلك .

والثاني : أن يفكر في عواقب الهوى . فكم قد أفات من فضيلة ، وكم قد أوقع في رذيلة ، وكم من مطعم قد أوقع في مرض ، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم .  
غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى ! فأقرب الأشياء شبهها به من في المدبغة ، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان .

والثالث : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة ، فإنه يراه يرى على الهوى أضعافا . وقد أنشد بعض الحكماء .  
وأفضل الناس من لم يرتكب سببا حتى يميز ماتجنى عواقبه

والرابع : أن يتصور ذلك في حق غيره ، ثم يتلمح عاقبته بفكرة . فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام .  
والخامس : أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات ، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشيء وإنما عين الهوى عمياء .

وفي الحديث عن ابن سعود رضي الله عنه ( إذا أعجبت أحدكم امرأة فليذكر مناتها )  
والسادس : أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر ، فإنه مامن أحد غلبه هواه إلا أحس بقوة عز ، ومامن أحد غلب هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر .  
والسابع : أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا وسلامة النفس والعرض ، والأجر في الآخرة . ثم يعكس ، فيتفكر لو وافق الهوى ، في حصول عكس ذلك على الأبد ، ويفرض لهاتين الحالتين حالتين آدم ويوسف عليهما السلام . في لقمة هذا وصبر هذا .  
ويأياها الأخ النصوح أحضر لي قلبك عند هذه الكلمات ، وقل لي . بالله عليك ، أين لذة آدم التي قضاها ، من همة يوسف التي مأمضاها ؟  
من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة : فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت .

فصل :

وأعلم أن الهوى يسرى بصاحبه في فنون ، ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون .  
وقد يكون الهوى في العلم فيخرج بصاحبه ضد ما أمر به العلم .  
وقد يكون في الزهد فيخرج إلى الرياء .  
وكتابتنا هذا لذنم الهوى في شهوات الحس ، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا .  
وإذ قد ذكرنا في هذا الفصل من ذم الهوى ما أملاه العقل فلنذكر من ذلك ما يحويه النقل .  
فصل :

قد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال سبحانه ﴿ ومنهى النفس عن الهوى ﴾ <sup>(١)</sup> قال المفسرون :

هو نهي النفس عما حرم الله عليها .

قال مقاتل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

وقال عز وجل : ﴿ واتبع هواه فمثلته كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾ (١)

وقال : ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (٢) وقال : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ (٣) وقال : ﴿ بل

اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله ﴾ (٤) وقال : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾ (٥)

وقال : ﴿ فاعلم أننا يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ (٦) وقال :

﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ (٧) وقال : ﴿ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾ (٨) وقال : ﴿ ولئن

اتبعت أهواءهم ﴾ (٩) وقال : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ (١٠) وقال : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك

عن سبيل الله ﴾ (١١) .

قال الحسن في هذه الآية : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : هو المنافق لايهوى شيئاً إلا

ركبه .

وقال الغريابي بسنده عن الحسن ، قال : المنافق يعبد هواه ، لايهوى شيئاً إلا ركه . وقال أيضاً

بسنده عن قتادة ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : إذا هوى شيئاً ركه .

وعن أنس ، أن النبي ﷺ قال ( حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات ) أخرجه مسلم (١٢) .

وفي لفظ البخاري ( حجبت ) مكان ( حفت ) (١٣)

وعن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل ،

يعني إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله عز

وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحجبت بالمكاره ،

وقال ارجع إليها وانظر إليها ، فرجع فإذا هي قد حجبت بالمكاره فقال : لقد خشيت ألا يدخلها أحد

(١) سورة الاعراف آية رقم : ١٧٦

(٢) سورة الكهف آية رقم : ٢٨

(٣) الفرقان آية رقم : ٤٣

(٤) سورة الروم آية رقم : ٢٩

(٥) سورة محمد آية رقم : ١٦

(٦) سورة القصص آية رقم : ٥٠

(٧) سورة الانعام آية رقم : ١١٩

(٨) سورة الكهف آية رقم : ٢٨

(٩) سورة البقرة آية رقم : ١٢٠ ، ١٤٥

(١٠) سورة النساء آية رقم : ١٣٥

(١١) سورة ص آية رقم : ٢٦

(١٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة حديث رقم ١ ، وأبو داود في كتاب السنة رقم ٢٢ والنسائي في كتاب الإيمان رقم ٣

والدارمي في كتاب الرقاق رقم ١١٧ ، وأحمد ٢ / ٢٦٠ .

(١٣) البخاري في كتاب الرقاق رقم ٢٨ ، وأحمد ٢ / ٣٣٣ ، ٣٧٣

قال : فانظر إلى النار وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها وإلى ما أعد لأهلها فيها ، فإذا هي يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له ارجع إليها فانظر إليها فإذا هي قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها )

( قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح )<sup>(١)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ أنه قال : ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ) ( أخرجه الطبراني وأبو نعيم في أربعينه ، وهو حسن صحيح )<sup>(٢)</sup> .

ورد عن أبي بردة الأسلمي ، قال : قال رسول الله ﷺ :

( أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغنى في بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن ) ( أخرجه أحمد والبخاري والطبراني بلفظ إنما أخشى .. )<sup>(٣)</sup> .

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني ، عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ ( إن أخوف ما أخاف على أمتي حكم جائر وزلة عالم وهوى متبع ) ( أخرجه البخاري والطبراني بلفظ إن أخاف )

- وعن أبي أمامة الباهلي ، قال : قال رسول الله ﷺ :

( ماتحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع ) ( أخرجه الطبراني في الكبير )<sup>(٤)</sup> .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

( ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه ) ( أخرجه البخاري والبيهقي واسناده ضعيف )<sup>(٥)</sup>

وعن بلال بن أبي الدرداء ، عن أبيه ، عن النبي ﷺ قال : ( حبك الشيء يعمي ويصم ) أخرجه أبو داود وأحمد وهو حسن<sup>(٦)</sup> .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ( ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ، فتقوى الله في السر والعلانية ، والقول بالحق في الرضا والسخط ، والقصد في الفقر والغنى . وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه وهي شرهن ) ( أخرجه البخاري والبيهقي )

(١) الحديث رواه الترمذى في أبواب الجنة رقم ٢١

(٢) الحديث رواه الحكيم الترمذى وأبو نصر السجزي في الإبانة وقال بحسن غريبه والخطيب عن ابن عمرو . ( راجع جمع الجوامع ٩١٨ / ١ )

(٣) الحديث رواه أحمد في مسنده ٤ / ٤٢٠ ، ٤٢٣

(٤) الحديث رواه الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة ( مجمع الجوامع ١ / ٦٩٩ )

(٥) الحديث رواه البخاري وأبو نعيم والبيهقي والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في التريخ كلهم عن أنس رضي الله عنه - قال الحافظ العراقي : سنده ضعيف

( فيض القدير ٣ / ٣٠٦ - ٣٠٧ رقم ٣٤٧١ والحديث أوله : ثلاث منجيات .. )

(٦) الحديث رواه أحمد في مسنده ٥ / ١٩٤ ، ٤٥٠ / ٦ ، وأبو داود في كتاب الأدب ( عون المعبود ١٤ / ٣٩ باب في الهوى )

وروى عن الخليل بن خدويه ، قال : مر إبراهيم الخليل عليه السلام فرأى عبدا في الهواء متعبدا ، فقال له ، بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال : بأمر يسير ، فطمت نفسي عن الدنيا ، ولم أتكلم فيها لايعنيني ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهاني عنه فأنتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطاني ، وإن دعوته أجابني وإن أقسمت عليه أبر قسمي ، سألته أن يسكنني الهواء فأسكنني .

وروى عن وهب بن منبه يقول : كان في بني اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان في البحر ، إذا هما برجل يمشي في الهواء ، فقالا له : يا عبد الله بأى شيء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسي عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لايعنيني ، ورغبت فيما دعانى إليه ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمي ، وإن سألته أعطاني .

وروى عن منصور بن عمار ، قال : قال سليمان بن داود : الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده .

وروى عن حذيفة بن قتادة المرعنى ، قال : كنت في المركب فكسر بنا ، فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : أنا عطشى ، فسألت الله تعالى أن يسقيها ، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء ، فشربت . فرفعت رأسى أنظر السلسلة ، فرأيت رجلا جالسا في الهواء متربعا ، فقلت : من أنت ؟ قال : من الإنس قلت : فما الذى بلغك هذه المنزلة ؟ قال أثرت مراد الله على هواى فأجلسنى كما تراه .

وروى عن عبد الله بن الصلت ، قال : قال معاوية : المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى . وعن أبى الدرداء ؛ قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

وروى عن مالك بن دينار أنه قال : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق الشيطان من ظله .

وقال أيضا : بشس العبد عبد همه هواه ويطنه .

وروى عن صفوان بن سليم قال : ليأتين على الناس زمان تكون همه أحدهم فيه بطنه ، ودينه هواه .

وروى عن الأصمعى ، قال سمعت أعرابيا يقول : إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى .

وروى عن ابن السحال : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك . داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

وروى أنه قال رجل لأبى الحسن المدائنى : يا أبا سعد أى الجهاد أفضل ؟ قال جهادك هواك . وعن الأصمعى قال : مررت بأعرابى به رمد شديد ودموعه تسيل ، فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : زجرنى الطيب ، ولاخير فيمن إذا زجر لايتزجر ، وإذا أمر لايتأمر ، فقلت أما تشتهى شيئا ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى ، لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .  
وروى عن وهب بن نعيم يقول : قال بشر : اعلم أن البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك لهواك .

وروى عن الفضل بن عياض يقول : من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق .  
وروى عن سنيد : سمعت حجاجا يقول : الكفر في أربعة أشياء : في الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ، ثم قال حجاج رأيت منه اثنتين ، رجلا غضب فقتل أمه ، ورأيت رجلا عشق فتنصر .  
وروى عن حسين بن حسن الأسدي ، عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت ، فنظر إلى امرأة جميلة ، فمشى إلى جانبها ثم قال :  
أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقلت له : دع أحدهما تنل الآخر .  
وقد رويت لنا هذه الحكاية على غير هذا الوجه . فبلغنا عن عمر بن شبة بسنده عن أبي غسان أحمد ابن عثمان ، عن أبيه ، قال لقي عبد الله بن حسن امرأة جميلة في الطواف ، فلما نظرت إليه ، وإلى جماله مالت نحوه وطمعت فيه ، فأقبل عليها وقال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبني فكيف لي بهوى اللذات والدين  
نفس تزين لي الدنيا وزينتها وزاجري من حذار الموت يثني

فتركته ومضت .  
وروى عن إسحاق الموصلي قال : قال لي المعتصم ؛ يا إسحاق إذا نصر الهوى ذهب الرأي . .  
وروى عن أبي سليمان الداراني أنه قال في قول الله عز وجل : ﴿ وجزاءهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾ (١) قال ( صبروا ) عن الشهوات .

وروى عن محمد بن محمد بن أبي الورد أنه قال : إن الله عز وجل - يوما لا ينجو من شره منقاد لهواه . وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة . وإن العقول لما جرت في ميادين الطلب كان أوفر حظا من يطالبها بقدر ما استصحبته من الصبر . وإن العقل معدن والفكر معول .  
وروى عن يحيى بن معاذ يقول : حفت الجنة بالمكاره وأنت تكريها ، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية ، وإن جزعت نفسه مما يلقي طالت به علة الفتى .

وقال أيضا : عندما قيل له من أصح الناس عزما ، قال : الغالب لهواه .  
وروى عن الوليد بن هشام القحذمي ، قال دخل خلف بن خليفه على سليمان حبيب بن المهلب

بالأهواز ، وعند سليمان جارية له يقال لها البدر ، من أحسن الجوارى وجها وأكملة ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأت عيناى جارية قط أحسن منها . فقال خذ بيدها .

فقال خلف : ماكنت لأفعل ، ولا أسلبها الأمير وقد عرفت عجبها .  
فقال : خذها ويحك على عجبى بها ، ليعلم هواى إنى غالب فأخذها بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضلنى      عن غير مسألة منى سليمان  
أعطانى البدر خودا فى مجاسدها      والبدر لم يعطه إنس ولا جان  
ولست حقا بناسى عرفه أبدا      حتى يغيبنى لحد وأكفان

وروى عن يحيى بن يحيى يقول : قال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى .

وروى عن الحسن بن محمد الجريرى يقول : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد فى الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القود إلى مايكره .  
وروى عن ابن عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : من أرضى الجوارح فى اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وروى عن الحسن بن على المطوعى : حتم كل إنسان هواه ، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : لقي عالم من العلماء راهبا من الرهبان ، فقال له كيف ترى الدهر ؟ فقال يخلق الأبدان ، ويجدد الأمال ، ويبعد الأمنية ، ويقرب المنية . قال له : فأى الأصحاب أبر ؟ قال العمل الصالح . قال : فأى شيء أضر ؟ قال النفس والهوى .

وروى عن ابن أبى الحوارى قال : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له أنت عليل ؟ قال : نعم . قلت منذ كم ؟ قال منذ عرفت نفسى قلت فتداو قال : قد أعيانى الدواء وقد عزمت على الكى . قلت : وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى .

وروى عن الأصمعى والعتبى ، قالا سمعنا أعرابيا يقول : ما أشد تحويل الرأى عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق من جنسه ، وإنما يعرف مأقول من أبكته المنازل والطلول .  
وروى عن بشر بن الحارث يقول : ( لاتجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد )

وروى عن أبى سليمان الدرانى : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس .

وروى عن السرى يقول : ( لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه )



وروى عن أحمد بن خضرويه : لانوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة .

وروى عن يوسف بن الحسين : عين الهوى عوراء .  
وروى عن أبي بكر الوراق أنه قال : أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيا .  
وروى عن أبي علي الثقفي : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، وقال ليس شيء أولى بأن تمسكه من نفسك ، ولا شيء أولى بأن تغلبه من هواك .

وروى عن علي بن سهل : العقل والهوى يتنازعان ، فمعين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر كانت في خيره .  
وروى عن أبي الحسين الوراق ؛ يقول الشهوة أغلب سلطان على النفس ، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج .

وروى عن ابراهيم القصار : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوى على ردها .

قال السلمى بسنده قال المرتعش ، وقيل له: إن فلانا يمشى على الماء فقال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، هو أعظم من المشى على الماء .

أبنانا أحمد بن أحمد المتوكلي قال : أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت ، قال: عن أبي بكر بن أبي الدنيا قال : بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء : العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره ويتنكح حريمه ؟ فقال الحكميم : بإغفال الخذر وبسط أمد الأمل وبغى وسوف ولعل ، قال الملك : بم يعتصم من الشهوة وقد ركبت في أبدان ضعيفة ، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن ؟ قال الحكميم : إن الشهوة من نتاج الفكر ، وقرين كل فكرة عبرة ، ومع كل شهوة زاجر عنها ، فمن قرن شهواته بالاعتبار ، وحاط نفسه بالازدجار ، انخلت عنه ريقه العدوان ، ودحض سيء فكره بإيثار الصبر على شهوته لما يرجو من ثواب الله على طاعته ويخاف من عقابه على معصيته .

قال بشر الحافي لحسن الفلاس : من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب ، واعلم أن البلاء كله في هواك ، والشفاء كله في مخالفتك إياه .

وقد حكى عن أنوشروان أنه سئل : أي الأشياء أحق بالاتقاء ؟ فقال أعظمها مضرة : قيل فإن جهل قدر المضرة ؟ قال أعظمها من الهوى نصيبا .

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : بم نلت مانلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .  
وقال بشر الحافي لقيت عليا الجرجاني بجبل لبنان على عين ماء ، فلما بصر بي قال بذنب مني لقيت اليوم إنسانا فسعيت خلفه ، وقلت أوصني فالتفت إلي وقال : أمستوص أنت ؟ عانق الفقر وعاشر

الصبر ، وعاد الهوى وعف الشهوات ، واجعل بيتك أخلى من لحذك يوم تنقل إليه على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل .

قال أبو على الدقاق : من ملك شهوته في حال شببته صيره الله ملكا في حال كهولته كيوسف عليه السلام ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوج فهو لعاب وقال أعرابي لابنه : يا بني من خاف الموت بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات والجنة والنار أمامك .

وقال بعض الحكماء : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه  
وقال آخر : العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله .  
وقال آخر : الهوى ملك عسوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .  
وقال آخر : النفس اذا هويت شيئا مالت إليه ، حتى تكون عند الذى هويت أكثر من كونها عند جسدها .

وقال آخر : ان لكل شيء أبا جاد إن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال .

### أشعار قيلت في دم الهوى

دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب في حيطانها بفحمة :  
مأرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئا أو مصيبا .  
فرأى ذلك البيت عبد الله بن على فكتب تحته .

ان كنت تعلم حين تصبح آمنا	ان المنايا إن أقمت تقيم
فالزم هواك كما رضيت فإنه	لامثل ذلك فى النعيم نعيم .

وقال آخر :

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل	من الناس مرغوب إليه وراغب
وما يستوى الصابى ومن ترك الصبا	وإن الصبا للعيش لولا العواقب

عن الأصمعى قال سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه	فإذا هويت فقد لقيت هوانا
-----------------------------	--------------------------

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هو ان سرقت نونه  
فنظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

عن أبي بكر القرشي قال : انشدني الحسن بن سلمان الأبلئ :  
كم أسير لشهوة وقتيل أف للمشتهى خلاف الجميل  
شهوات الانسان تورثه الذل وتلقيه في البلاء الطويل

وأنشد آخر :

رب مستور سبته صبوة فتعري ستره فانتهدكا  
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار الملكا .

وقد أنشدوا لابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة العبد عبد النفس في شهواته  
الا يرى لك عن هواك نزع والحر يشبع تارة ويجوع .

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر :

خير ما اجتنب به المرء التقى فأتخذها عدة دون العدد  
وأرى الشهوة مفتاح الردى فاجتنبها وأنا عنها وابتعد

ولصالح بن عبد القدوس :

عاص الهوى ان الهوى مركب يصعب بعد اللين منه الذليل  
ان يجلب اليوم الهوى لذة ففي غد منه البكا والعميل  
ما بين ما يحمد فيه وما يدعو إليك الذم إلا القليل .

ولابن الرومي .

اتبع العقل إنه حاكم الله ولا تمشي في طريق عناده  
ما الهوى في لفيقه ان تأملت بقرن للعقل في أجناده  
لا تعرض سداد رأيك للطعن عليه من ناقص في سداده

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى الى بعض مافيه عليك مقال  
وقال غيره

وأترك الشيء أهواه ويعجبني أخشى عواقب مافيه من العار  
وقال غيره :

إن المرأة لاتريك عيوب وجهك مع صداها  
وكذاك نفسك لاتريك عيوب نفسك مع هواها  
وقال آخر

وكل امرئ يدرى مواقع رشده  
يشير عليه الناصحون بجهدهم  
هوى نفسه يعميه عن قصد رشده .  
ولكنه أعمى أسير هواه  
فيأبى قبول النصيح وهو يراه  
ويبصر عن فهم عيوب سواه

### وصايا ومواعظ وزواجر

عن الأوزاعي قال : حدثني يحيى بن أبي كثير ان ابا بكر الصديق كان يقول في خطبته : أين الوضأة الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان أين الذين كانوا يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعض بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور ، ألوحا ألوحا النجا النجا .

وعن ابن مسعود أنه كان يقول : إنكم في عمر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مازرع .

عن أبي زكريا التيمي قال بينا سليمان بن عبد الملك في المسجد الحرام اذ اتى بحجر منقور فطلب من يقرأه فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك ، لزهدت في طويل أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك فبان منك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

كتب الأوزاعي إلى أخ له : أما بعد ، فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وإن يكون آخر عهدك به والسلام .  
عن الفضيل بن عياض قال : بلغني أن رجلا كتب إلى داود الطائي أن عطني بموعظة قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد . والسلام .  
قال : فكتب إليه : زدني فكتب إليه :

أما بعد : فافرض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

عن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنه ليست عقوبتي لمن عرفني واجترأ على كمن لم يعرفني .

وعن أبي بكر محمد بن عبد الله الرازي يقول : سمعت محمد بن حاتم الترمذي يقول : رأس

مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالايعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله .

عن ابراهيم بن بشار يقول مررت أنا وأبو يوسف الغولى فى طريق الشام فوثب إليه رجل فسلم عليه ثم قال :

ياأبا يوسف عظمى بموعظة أحفظها عنك

قال فبكى ثم قال :

اعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغى لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أو راض عنك بفضلته ورحمته،ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس ، وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا ، فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكى لبكائهما ووقعا مغشيا عليهما .

ووعظ اعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ، ولا الأيام تنذك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك وأحب أمريك اليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء الى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينها الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

### عود إلى رحاب التفسير

قوله تعالى : ﴿ أم نحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

ونحوه قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (١) .  
فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتتهدى ، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثررون يدعونهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم .

والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق ، فتجنبه ، وما ينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأبصار ، فهم أضل من البهائم ، فإن من لا يهتدى إلى الرشـد

وللى الطريق مع الدليل إليه ، هو أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدى ، حيث لا دليل معه .

### من آيات الله الكونية

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْ آسَى كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ \* وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

### تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر .

إلى ربك : أى الى صنعه .

مد : بسط

الظل : ما يحدث من مقابله جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها .

ساكننا : أى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لا يزول ولا تذهب الشمس .

دليلا : أى علامة .

قبضناه : أى محواه

يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها .

سباتا : من السبت وهو القطع لانقطاع التعب فيه أو لانقطاع الحياة الكاملة .

والنشور : البعث

بشرا : ( تخفيف بشر بضمين ) واحدها بشور كرسل ورسول اى مبشرات .  
 والرحمة : المطر بين يديه : اى قدامه  
 طهورا : اى يتطهر به البلدة : الأرض  
 والميت : التى لانبات فيها  
 الأنعام : الأبل والبقر والغنم وخصها بالذكر؛ لأنها ذخيرتنا ومعاش أكثر أهل المدر منها .  
 أناسى : واحدهم لإنسان ( أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء )  
 صرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة الى بلدان متعددة  
 ليذكروا : أى ليعتبروا . كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها  
 نذيرا : اى نبيا ينذر أهلها .  
 والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها  
 فرات : اى مفرط العذوبة .  
 أجاج : أى شديد الملوحة . برزخا . . أى حاجزا،حجر محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغي  
 أحدهما على الآخر ولايفسد الملح العذب  
 نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم وإناتا يصاهر بهن .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ انظر أيها المخاطب العاقل إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها .  
 ﴿ ولو شاء لجعله ساكنا ﴾ أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لايتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون ( المسلات ) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة وطرق حكيمة متنوعة ، واتخذ العرب المزاويل لمعرفة أوقات الصلاة ، فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شئ مثله عند الاثمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لايجب إلا إذا بلغ ظل كل شئ مثليه .  
 ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس

والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولاً الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة ما عرف النور .  
﴿ ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً ﴾ أى ثم أزلناه بضوء الشمس يسيراً يسيراً ، ومحوناه على مهل جزءاً  
فجزءاً بحسب سير الشمس ، يقول العلامة ابن القيم فى تفسير هاتين الآيتين :  
أخبر تعالى أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركاً تبعاً لحركة الشمس ، ولو شاء لجعله ساكناً  
لا يتحرك ، إما بسكون المظهر له والدليل عليه ، وإما بسبب آخر .

ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضاً يسيراً ، وهو شئ بعد شئ ، لم يقبضه جملة ، فهذا من أعظم  
آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته .

فندب سبحانه الى رؤية صنعته وقدرته وحكمته فى هذا الفرد من مخلوقاته ، ولو شاء ربنا لجعله  
لاصقاً بأصل ماهو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره ، فلم ينتفع به أهله ، فإن كمال الانتفاع به تابع  
لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ، وفى مده وبسطه تم قبضه شيئاً فشيئاً : من المصالح والمنافع  
مما لا يخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكناً دائماً أو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به  
وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئاً فشيئاً لازم لحركة الشمس على ما قدرت عليه من مصالح العالم .  
وفى دلالة الشمس على الظلال . ما تعرف به أوقات الصلوات وماضى من اليوم ومابقى منه .  
وفى تحركه وانتقاله : ما يبرد ما أصابه حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من  
الآيات الدالة عليه وفى الآية وجه آخر : وهو أنه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ،  
ودحا الأرض من تحتها ، فالقت القبة ظلها عليها ، فلو شاء سبحانه لجعله ساكناً مستقراً فى تلك  
الحال ، ثم خلق الشمس ونصبها دليلاً على ذلك الظل ، فهو يتبعها فى حركتها يزيد بها وينقص ،  
ويمتد ويقلص ، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله .

وفىها وجه آخر : وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة يقبض أسبابه ، وهى الأجرام التى  
تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر اعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله : ﴿ قبضناه  
إلينا ﴾ كأنه يشعر بذلك .

وقوله ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ يشبه قوله ﴿ ذلك حشر علينا يسيراً ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ قبضناه ﴾ بصيغة الماضى لا ينافى ذلك كقوله تعالى :

﴿ أتى أمر الله ﴾<sup>(٢)</sup> والوجه فى الآية هو الأول .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾ .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على قدرته ورحمته ، فقد شاء سبحانه أن يجعل الليل بظلمته

لباساً ساتراً ، وأن يجعل النوم سباتاً قاطعاً لتأعب النهار ، فتنامون فيه كما تموتون ، وكما قال ﷺ :  
( والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان  
إحساناً ، وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً ) . سبحانه رب من قائل : ﴿ وهو الذى

(١) سورة ق آية رقم : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية رقم ١



يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينثبكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴿٢﴾ وإذا كان الليل والنهار آيتين من آيات الله ، فإن الله جل جلاله يتحدى بهما كل من على وجه الأرض من معاندين ومكابرين وجاحدين ﴿٣﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٤﴾ .

سبحانك من فائل : ﴿٥﴾ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴿٦﴾ سبحانك من حكيم جعلت الليل والنهار مطيتين إلى الآخرة فالعاقل من أحسن استعمالهما .

نموت وأيامنا تذهب	ونلعب والموت لا يلعب
عجبت الذى لعب قد لهى	عجبت ومالى لأعجب
أيلهو ويلعب من نفسه	نموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار	ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الحديدان جمعا بنا	وليس لنا منهما مهرب
وكل له مدة تنقضى	وكل له أثر يكتب

إن الله تعالى جعل النوم قطعاً لمتاعب النهار ولذا فإن النوم نعمة من نعم الله قال عز من قائل : ﴿٧﴾ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴿٨﴾ ماذا قالوا عن النوم :

قالوا: إن النوم طرح روحى مؤقت وقالوا :

لقد دامت أبحاث العلم والطب وقتاً طويلاً ، لتجد تعليلاً لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث فى النوم بعد أن عجز العلم عن بيان الأسباب الدافعة المباشرة للنوم . . فقل إن النوم رغبة جامحة للراحة تنتاب المرهق المتعب ، ونفى ذلك أن غير المتعب ينام أيضاً وتتأهب الرغبة فى النوم ، مثل المكدود فى مواعيد متقاربة ، بل إن من قضت عليه الظروف بالراحة فى الفراش أياماً أو شهوراً أو أعواماً ينام كذلك فى ساعاته المعهودة . . بالرغم من الراحة الجسدية التى حتمتها عليه ظروف وجوده فى الفراش ،

(١) سورة الأنعام الآيات / ٦٠ - ٦٢

(٢) سورة القصص الآيات / ٧١ - ٧٣

(٣) سورة النبا الآيات - ٦ - ١١

(٤) سورة الروم الآية رقم / ٢٣

وفي ذلك يقول الدكتور هريوارد كارنيجتون عضو جمعية البحوث النفسية .  
 قدم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها ، ولم يكن من بينها واحدة ملائمة تفي بالغرض مثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية ، تحاول تحليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد ، وترمى بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة في دورة المخ الدموية . ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة . وبعضها ينسبها إلى الاسترخاء العضلي ، ولكن هذه النظريات كلها عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق ، التي لاشك في أنها وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم .

وقد عد العلماء أن ماوصل إليه العلم من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، نصرا ما بعده من نصر ، إذ أمكن تفسير الأحلام التي يراها الإنسان في نومه ، فيتحقق منها بعد يقظته طالت المدة أو قصرت ، وأمكن تحليل رؤية النائم لأمكنة أو أشخاص لم يسبق له رؤيتهم ، فإذا مازار هذه الأمكنة أو التقى بهؤلاء الناس عرفهم فوراً ، وتعجب من دقة وتطابق للحالتين ، حالة الرؤيا في النوم والملاحظة في اليقظة .

وكان أول من قال إن من دلائل انسحاب الروح في النوم ، ماتقوم به من سياحات أثناء النوم ، فيراها النائم كأنها حلم وأثبت ذلك الدكتور هدسون تتل إذ يقول في كتابه ( أسرار الروحية ) إن سيدة ولدت عمياء استطاعت في أحلامها أن ترى الأشياء بوضوح وأن تصفها بدقة ، ولما توفيت شرحت جثتها عقب وفاتها وظهر من التشريح أن أعصاب البصر عندها كانت ميتة .

ويقول الدكتور جورج لندسى جونسون إنه أجرى عملية جراحية في عين فتاة في التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قط رأت شيئا ألبتة ، ولكنها لما شفيت ورفعت الأربطة ، تبينت شكل كل فرد في الحجرة وملبسه ، واستطاعت أن تميز بين الألوان المختلفة ، مما يؤكد أن روحها كانت تنطلق في منامها فترى ما لم تستطع أن تراه بعينها .

وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها في أحلامهم ، مثل الموسيقار آرثر سيمور سوليفان الذى ألف أغنيته المشهورة « النور الضائع » في نومه وجوسيب ثارثيني الذى يقول إنه سمع في نومه كأن الشيطان يغنى ، فما أن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه « أغنية الشيطان » .  
 والرياضى المعروف هنرى بوانكاريه ، رأى معادلات جبرية أدت إلى استكشافه قانونا هاما رياضيا .

ولعل من الأحلام التي رددت الأوساط صدها كثيرا ، تلك الرؤيا التي نشرت في عدة كتب وطبعت بأكثر من لغة وفيها : « كان في الصحراء . . في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لاصديق له . . نفذ الماء وعلف الدواب ومعهما رجال من الأدلاء والحراس ، والعمران قصى بعيد والاتجاه في أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعاً إليها طريقا غير

مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منها ومن رجالهما القنوط ، فأنيمت الإبل وجلست القافلة في ذلك القفر ، لا مؤنس لهما : إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لاحالة ، فإما طريق إلى الدنيا وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلما وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوما من أيام حياتهم وحلم بامرأة بيضاء أو تلبس البياض لم يستطع أن يصفها قالت له :

« خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك ، وتعال معي إلى قمة هذا الكتيب ، ثم ادفنها هناك ، وفي الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى آثار قدميك وقدمي معا ، وبذلك تعرف الطريق » وفعل السيد كما أمر .

وفي الصباح نهض من نومه ، وتذكر الحلم فاصطحب السيد رفيقة سفره ورجاله ، وأراهم آثارها أقدام ذاهبة إلى الكتيب ثم هابطة . واحتفر في المكان الذي رآه في نومه فوجد ثم تابع الأقدام فوجد المكان المأهول الذي نجا هو والقافلة بالعثور عليه .

أما السيد فهو المرحوم أحمد محمد حسنين أما السيدة فالجواله روزينا فوربس صاحبة الكتاب . والأمثلة التي تشابه ذلك لاتقع تحت حصر ، بل إن كل فرد لابد قد رأى في نومه حلما تحقق ، وبهذا أمكن إثبات أن النوم إنما هو حالة طرح روحى مؤقت ، والرؤيا ماهى إلا سياحة بالروح إلى حيث شاء الله .

وقبل ذلك بمئات السنين يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن النوم فتقول الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

فجعل النوم كالموت أى طرح روحى يكون دائما حين الموت ومؤقتا في النوم . والقرآن الكريم أول كتاب ذكر النوم بالنهار فالآية ٢٣ من سورة الروم نصها : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . وظل موضوع النوم في النهار موضع جدل حتى وصل العلم والطب إلى ماقرره القرآن الكريم ، إذ ينصح مدير التربية البدنية في جامعة ييل تلاميذه نصيحة خالدة نصها « عليك في الظهر نسبة من النوم » .

ويقول داي جيلز في مجلة « تدهوفر » أما وقد بلغ الإرهاق كل مبلغ بالأجسام والعقول والأرواح ، فقد آن الأوان لإعادة النظر في خطة بسيطة تزيدنا مقدرة على العمل وشعورا بالراحة وتلك هى أن يغفوا الإنسان غفوة كل يوم .

لقد اتفق الأطباء على أن هذه الغفوات التي تتخلل النهار تدفع الكلال وتخفف ضغط الدم حوالى ١٥ - ٣٠ ملليمترا وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب .

وقد لوحظ أن الإغفاء قبل القيام بأى مجهود بدنى أو عقلى أو بعده يصنع العجائب بالنسبة للإنتاج العضلى والذهنى وللحالة الصحية عامة .

ولقد سئل ديبو عضو الشيوخ الأمريكى والخطيب المشهور كيف يستطيع أن يتكلم عدة ليال في الأسبوع ، ويقوم مع ذلك بعمله المرهق أثناء النهار فأجاب « إنى أعامل مصرفا للنوم مأسحب من رصيدى فيه شيئا بالسهر إلا أودعت في نفس اليوم وديعة أخرى فيظل رصيدى تام التوازن على الدوام » .

وقد أكد الدكتور آدموند جاكوبسون الذى ألف كتابيه عن « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » والذى ظل عدة سنين مديرا لمعامل الفسيولوجيا الإكلينيكية بجامعة شيكاغو حقيقة وجوب النوم أثناء النهار .

ويقول ديل كارنيجى في كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » . لقد استطاع جون د . روكفلر الأب أن يضرب رقمين قياسيين الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم في عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين ، فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة .

أما السبب الثانى فهو اعتياده الإغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم في غرفة مكتبه ، فكان يستلقى على أريكته في غرفة المكتب ويستسلم للراحة التامة . . .

ويتابع قوله إذا تعذر عليك أن تغفو ظهرا فإنك على الأقل تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء فإذا نمت ساعة في اليوم فإنك بذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك .

لأن ساعة تنامها في خلال النهار مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلا تجعل المجموع سبع ساعات أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلا .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ أى والله الذى أرسل الرياح بمشرات بقدوم الأمطار .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به في غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتتفعون به في طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى ﷺ قال في البحر : ( هو الطهور ماؤه الحل ميتته ) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى (١) .

( لنحى به بلدة ميتا ) أى وأنزلناه لنحى به أرضا طال انتظارها للغيث ، فهى هامة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب الطهارة ٤١ ، والترمذى في أبواب الطهارة ٥٢ ، والنسائى في كتاب الطهارة ٤٦ ، وفي المياه / ٤ ، وفي كتاب الصيد / ٣٥ ، وابن ماجه في أبواب الطهارة / ٣٨ ، وفي أبواب الصيد / ١٨ ، ومالك في الموطأ في كتاب الطهارة / ١٢ ، وفي كتاب الصيد / ١٢ ، والدارمى في كتاب الوضوء / ٥٣ ، وفي كتاب الصيد / ٦ ، وأحمد في مسنده / ٢ / ٢٣٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣٧٣ / ٣ ، ٣٦٥ / ٥

ونحو الآية قوله : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (١)  
وقوله : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (٢) .

﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ، وآخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما في حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا مايكون منه سقياهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموق لعلكم تذكرون ﴾ (٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٤) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي الموق وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ (٥) .  
وقوله جل شأنه ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلال وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ (٦) .

وقوله جل جلاله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (٧) .

وقوله جلا جلاله : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴾ (٨) .  
وقوله تبارك اسمه : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ (٩) .

فى رحاب الآيات نعيش مع الحقائق العلمية والعلم يدعو إلى الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾ (١٠) .

كتب الدكتور جمال الفندى فى كتابه ( القرآن والعلم )

تحت عنوان : الطبيعة الجوية والقرآن . . دورة الرياح العامة وتوزيع السحاب والمطر .

(٦) سورة النور آية رقم / ٤٣

(٧) سورة فاطر آية رقم / ٩

(٨) سورة الرعد آية رقم / ١٢

(٩) سورة الشورى آية رقم / ٢٨

(١٠) سورة فصلت آية رقم / ٥٣

(١) سورة الحج آية رقم / ٥

(٢) سورة الروم آية رقم / ٥٠

(٣) سورة الأعراف آية رقم / ٥٧

(٤) سورة الروم آية رقم / ٤٦

(٥) سورة الروم الآيات رقم / ٤٨ - ٥١

يقول الله تعالى في سورة البقرة :

إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴿١﴾ .

ويتضمن توزيع الرياح على الأرض في طبقات الجو المختلفة ومن ثم صعودها أو هبوطها وإثارتها للسحب الممطرة ، موضوع دراسات واسعة المدى من الناحيتين الديناميكية والطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الحديثة لم تكتمل بعد ، فإننا سنلخص أهم النتائج العلمية التي تم التوصل إليها للنسب أهميتها وعمق ماتشير إليه الآية الكريمة .

فمن حيث طبقات الغلاف الجوى كانت معظم معلوماتنا عنه حتى عهد قريب - قبل عصر الفضاء - إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم ( التروبوسفير ) أو منطقة التغير باستخدام البالونات أو الطائرات التي قلما تصل إلى علو يزيد على ٣٠ ميلا ثم الطبقة التي تعلوها وهي ( الأوزونوسفير ) أو منطقة تجمع الأوزون باستخدام أجهزة قياس تجمع الأوزون في الاتجاه الرأسى ( يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين ) .

وتكون ( الأوزونوسفير ) الجزء السفلى من طبقة ( الستراتوسفير ) أو المحيط ذو الطبقات . وهي الآن تدرس بالصواريخ كذلك ويل ( الستراتوسفير ) من أعلى طبقة متأينة هي ( الأيونوسفير ) التي يتواجد فيها الأكسجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التأين الذى يحدد عمليا درجات تركيز الكهارب على الارتفاعات المختلفة داخل ( الأيونوسفير ) ، تتكاثر هذه الكهارب في طبقات معينة تعرف علميا باسم طبقات ( هفينسيد ) وهي التي تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف الفجر القطبى وهو ظاهرة ضوئية تحدث في أعالي الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلومترو يطلق عليه الفرنجة اسم ( الأورورا ) وهو لا يشاهد عادة إلا بالقرب من قطبى الأرض .

وبلغ ارتفاع الطبقة السفلى ( التروبوسفير ) نحو ١٨ كيلومترا عند خط الاستواء ، ٨ كيلومترا فقط عند القطبين .

وتحدث كافة التقلبات الجوية في هذه الطبقة : ففيها تثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير . ومن أهم صفاتها الطبيعية أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر .

وعلة ذلك أن مصدر الحرارة في هذه الطبقة هو سطح الأرض ، بما يكتسب من الإشعاع الشمسى . ولقد قدر بالقياسى والحساب أن نحو ٣٠ في المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم في تبخير المياه من الأسطح المائية ، ويتحول إلى حرارة كامنة في البخار العالق في الجو ، وتنطلق هذه الحرارة الكامنة كلها في طبقة ( التروبوسفير ) عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب ومطر .

وترتفع درجة الحرارة في طبقة (الأوزونوسفير) نظرا لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التي ترسلها الشمس .

وتصل درجة الحرارة أقصى ارتفاع لها عند علو نحو ٥٠ كيلو مترا .  
وحديثا أطلق على الجزء العلوى من ( السترانوسفير ) اسم ( الميزوفير ) أو الكرة الوسطى . وفي هذه الطبقة لا تكفى كثافة الأوكسجين لتكوين الأوزون ، ولذلك تنخفض درجة الحرارة كلما صعدنا قدما إلى أعلى حتى تصل أقل قيمة لها في جوالأرض على ارتفاع نحو ٨٠ كيلو مترا ، وبعد ذلك يلعب الأوكسجين الذرى الموجود في الجو العلوى دورا هاما في امتصاص بعض الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس ، فيسبب تسخين تلك الطبقات من جديد .

ولهذا تعرف مشارف الهواء العلوى كذلك باسم ( الثيرموسفير ) أو المحيط الحرارى . وفوق ( الثيرموسفير ) منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها كثافة الهواء إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى . هذه المنطقة هي ( الأكوسفير ) أو المحيط الخارجى .

وليست هناك أية حدود معينة عليا لهذه الطبقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفضاء الكونى القريب وهو نحو ١٠٠ جسيم مثلا لكل سنتيمتر مكعب . ولقد دلت عمليات الرصد الجوى على سطح الأرض خلال العديد من السنين على مساحات واسعة أن الرياح إنما تتبع في سيرها قواعد معينة تجعلها توزع على الأرض بطريقة خاصة في المتوسط هي الدورة العامة .

ولما كان الدافع للهواء على الحركة هو اختلاف الضغط الجوى أو كثافة الهواء من مكان لآخر ، فانه من الطبيعى أن نجد توزيع الرياح على الأرض مرتبطا بتوزيع الضغط الجوى ، وهذا الأخير يرتبط بتوزيع درجات الحرارة التى هي المحدد الأول لكثافة الهواء على الأرض .

ومن البديهي أن تتواجد درجات الحرارة العظمى ( والكثافات والضغط المنخفضة ) في المناطق الاستوائية عموما ، كما تتواجد درجات الحرارة المنخفضة ( والكثافات الكبيرة والضغط العالية ) في المناطق الباردة وخاصة داخل القارات في الشتاء وحول القطبين .

وتهب الرياح بميل حول خطوط الضغط المتساوى ( الأيسوبازز ) إلى مناطق الضغط المنخفض متدفقة من مناطق الضغط العالى ، متبعة في قاعدة عامة هي :

« في نصف الكرة الشمالى تدور الرياح حول خطوط الضغط المتساوى منحرفة نحو الضغط المنخفض بحيث تكون هذه المراكز على يسارها وتكون مراكز الضغط العالى يمينها ، ويحدث العكس في نصف الكرة الجنوى »

وتبعا لذلك نجد أن للرياح ( دورة عامة ) من أهم مظاهرها :

أولا : توجد حول خط الاستواء منطقة ضغط خفيف وتتركز هذه المنطقة عادة شمال خط الاستواء بقليل ، كما أنها تتذبذب صوب الشمال أو الجنوب متبعة في ذلك الوضع الظاهرى للشمس .

ثانيا : يحد هذه المنطقة من شمالها ومن جنوبها منطقتان من الضغط العالى ( مابين خطى عرض ١٥ درجة و ٣٠ درجة شمالا وجنوبا ) .

وهما يظهران بوضوح وجلاء فوق المحيطات ، وخاصة في نصف الكرة الجنوبي حيث يقل اتساع اليابس نسبيا عما هو عليه في نصف الكرة الشمالى ، وتعرف المنطقتان عادة باسم ( ركاب الخيل ) ويهب من كل منها هواء يتجه إلى مناطق الضغط الخفيف حولها وينحرف هذا الهواء تجاه الغرب أثناء سيره إلى منطقة الضغط الخفيف عند خط الاستواء فيغطى الرياح الشمالية الشرقية في نصف الكرة الشمالى ، والرياح الجنوبية الشرقية في نصف الكرة الجنوبي . وتعرف هذه الرياح عندنا باسم ( الرياح التجارية ) .

ثالثا : - الأهوية التى تتجه إلى القطبين تنحرف صوب الشرق بحيث تصير جنوبية غربية في نصف الكرة الشمالى ، وتعرف باسم ( الغربيات السائدة ) .

وشمالية غربية في نصف الكرة الجنوبي وهى شديدة السرعة . وتميل الضغوط الجوية إلى الهبوط والتناقص في مناطق هبوب الغربيات السائدة . وذلك نظرا لما يتولد فيها من آن لآخر من عواصف محلية واضطرابات جوية متجولة تعرف باسم ( الانخفاضات العرضية ) هذه الانخفاضات تتابع في سلسلة تجعل توزيع الضغط العام يهبط نسبيا داخل مناطق هبوب الغربيات السائدة بينما تظل مناطق القطبين عالية الضغوط نظرا لبرودتها وهبوط الهواء فيها من أعلى .

رابعا : - تكون منطقة كل قطب أشبه شئ ببطاقيّة من الضغط العالى الذى تنطلق منه غالبا رياح شرقية تتجه إلى مناطق هبوب الغربيات السائدة .

نرى مما سبق أن الرياح التجارية ريح شرقية عموما ، تهب بشدة على المحيطات حيث تكون أثبت أنواع الرياح على الأرض ، وهى تلعب دورا هاما في توزيع طاقة الاشعاع الشمسى التى تصل المحيطات كما أنه لا ينتابها إلا بعض الاضطرابات التى تكون في صورة أمواج تسبب من آن لآخر ظهور نكباء المناطق الحارة التى طالما هذدت السفن وسببت الرعب للملايين في مختلف العصور .

أما داخل القارات فإن حزام الرياح التجارية كثيرا ما يتقطع ويصبح غير متصل كما أن أهويتها تكون جافة ولهذا تكثر في مناطق هبوب التجارية الصحارى والقفار مثل الصحراء الكبرى وصحراء الغرب .

أما الغربيات السائدة فهى غير ثابتة ، تتغير شدتها واتجاهاتها تبعا لحالة الجو المحلية ، فقد تصبح جنوبية شرقية أو جنوبية غربية أو حتى غربية .

وفي المحيط الأطلسى تدفع الغربيات السائدة معها مياه البحر الدافئة من مناطق ركاب الخيل إلى شواطئ غرب أوروبا حتى خط عرض نحو ٨٠ درجة شمالا .

ونظرا لهبوبها من مناطق ساخنة نسبيا إلى أخرى أبرد فهى رياح ممطرة ، ذلك لأن تبريد الهواء أو انخفاض درجة حرارته هو السبب في حمل أبخرة الماء العالقة فيه على التجمع والتكاثف أو التحول إلى نقط من الماء تكون السحب والأمطار ونحوها .



وتتذبذب منطقة الغربيات السائدة أيضا صوب الشمال أو الجنوب تبعاً للوضع الظاهري للشمس فهي في فصل الشتاء تغمر منطقة البحر الأبيض المتوسط ومصر وتصيبها بأمطار شتوية . وتتابع الانخفاضات العرضية ( وهي مناطق الضغط المنخفض التي تتولد تباعاً على شمال الأطلسي في مناطق هبوب الغربيات السائدة وتسير من الغرب إلى الشرق وتدور حولها الأهوية في سلسلة تغمر المنطقة كلها بمتوسطات من الضغوط الخفيفة فتقبل إليها الرياح من الشمال والجنوب ) ولعل هذا هو السبب في عدم اقترحام هذا المحيط حتى عهد قريب نسبياً .

أما المحيط الهندي وبحر العرب فتجتاحهما في أشهر الصيف رياح موسمية جنوبية غربية تبدأ من نصف الكرة الجنوبي ( جنوب خط الاستواء ) كرياح جنوبية شرقية تنحرف إلى جنوبية غربية بعد عبورها خط الاستواء وتستمر لكي تغذي انخفاض الهند الموسمي الصيفي وانخفاض السودان الصيفي المعروفين «

وفوق منطقة الركود تلتقي الرياح التجارية المقبلة من الجنوب والشمال فتصعد إلى أعلى مثيرة السحب الممطرة التي تنشأ عنها الغابات الاستوائية . وعند حوالي خطي عرض ٣٠ درجة شمالاً وجنوباً تهبط الرياح من أعلى فترتفع درجة حرارتها ولا تثار السحب وتنشأ الصحارى المدارية . وحول خطي عرض ٦٠ درجة شمالاً وجنوباً تلتقي الغربيات السائدة مع الشرقيات القبلية فترتفع مثيرة للسحب الممطرة التي تنشأ عنها الغابات الصنوبرية . أما على القطبين فإن الهواء يهبط من أعلى ولا تتكون السحب ، وبذلك تنشأ الصحارى الجليدية .

وهكذا نرى أن تصنيف الرياح أو توزيعها إنما يتبعه توزيع السحب العام على الأرض ، ومن ثم الأمطار التي تتحكم في عالم النبات ويضطرب الجو في مناطقنا والمناطق المعتدلة مثل حوض البحر المتوسط وأوروبا تحت تأثير مرور ماعرفناه علمياً باسم الانخفاضات العرضية التي سبق ذكرها . والانخفاض العرضي عبارة عن جزء من الجوى ينخفض فيه الضغط الجوى انخفاضاً كبيراً بحيث تحدث ذبذبة في الضغط كثيراً ما تفوق سعتها ساعة التغيرات السنوية ، إذ قد تصل السعة إلى ٥٠ ملليبار في المركز . والانخفاض لا يثبت بعد تكوينه في مكان واحد إلا نادراً وتحت ظروف خاصة ، والعادة أنه يسير من الغرب إلى الشرق ( في نصف الكرة الشمالي ) وتصحبه أثناء سيره التقلبات الجوية التي تتكرر في كل مكان بتكرار مرور هذه الانخفاضات .

وتتفاوت الانخفاضات العرضية من حيث الاتساع والعمق ، فمن حيث الاتساع تتراوح أقطارها ما بين ٣٠٠٠ كيلو متر إلى ما لا يزيد قطره على ٣٠٠ كيلو متر . أما من حيث العمق فقد يهبط الضغط في مركز الانخفاض إلى ٩٣٠ ملليبار وقد يظل عند ١٠٠٠ ملليبار ، ولا يدل عمق الانخفاض على شدته ، وإنما ترتبط شدة الدورة حول الانخفاض ارتباطاً وثيقاً « بتدرج الضغط » ( أى تقارب خطوط الضغط من بعضها ) وفي العادة يبلغ تدرج الانخفاض في المتوسط نحو ٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلومتر ويزداد في الانخفاضات النشطة إلى ١٥ ملليبار لكل ١٠٠ كيلومتر ، ويمتد تأثير بعض هذه الانخفاضات أحياناً

من بحر البلطيق شمالا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا وتدور الرياح حول هذه الانخفاضات في اتجاه مضاد لعقارب الساعة .

ولدراسة الانخفاض من حيث تولده وتحركه ثم امتلاؤه بعد ذلك ، ولإمكان عمل التنبؤات الجوية ، ترسم خرائط الطقس ، وهى خرائط عادية تبين مواقع محطات الرصد وتوقع عليها عناصر الجو لكل محطة ثم ترسم عليها خطوط الضغط المتساوى ، ويتكرر ذلك فى ساعات معينة كل يوم وفقا بالنظام الدولى الخاص بالأرصاد .

وترسم خطوط الضغط المتساوى بحيث تتفاوت عن بعضها البعض بمقدار ٢ أو ٤ أو ٥ ملليبار وتحدد بذلك مناطق الضغط الخفيف أو الانخفاضات وترسم أيضا إلى جانب ذلك خرائط الجو العلوى وهو تبين توزيع الضغط والحرارة على ارتفاعات معينة وتفيد فى أعمال التنبؤ إذ أنها لاتتأثر فيها العناصر الجوية مثل درجة الحرارة واتجاه الرياح وسرعتها بالعوامل المحلية .

وهناك عدة نظريات تشرح تولد الانخفاض العرضى ، ومن أهم هذه النظريات ، وأقربها للحقيقة والواقع ، وأعمها شيوعا نظرية الجبهة القطبية ، وهذه الجبهة هى السطح التخيلي الذى يفصل الغربيات السائدة عن التيارات القطبية الشمالية الشرقية . وتتكون نواة الانخفاض فى بادىء الأمر فى صورة التواء أو تنوء فى هذه الجبهة وينمو هنا التنوء على غرار نمو الدوامات تقريبا ويبدأ الانخفاض مثلا بسطح مستوي يفصل بين تيار شمالى شرقى بارد وآخر جنوبى غربى ساخن نسبيا ثم يندفع الهواء الساخن داخل التيار البارد فى صورة تنوء لايلبث أن ينمو مكونا القطاع الساخن أى حوض الهواء الساخن المتجمع داخل الهواء البارد نسبيا . وتبعاً لذلك تلتوى الجبهة الفاصلة بين الكتلتين فى صورة موجة يتميز نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بميزات معينة ، ويسمى النصف الأمامى الجبهة الساخنة والنصف الخلفى الجبهة الباردة . ونقطة تلاقيهما هى مركز الانخفاض . ويتحرك مركز الانخفاض غالبا فى اتجاه الرياح داخل القطاع الساخن .

وهناك جبهة مدارية كشفها المؤلف كذلك تتكون عليها الانخفاضات الخماسين فى الربيع ، وهواؤها ساخن جدا يعرف بالسموم أو الخماسين التى تنفذ أتربتها إلى العيون والأذان والأنوف والحناجر .

وقد تصل أتربة هذه العواصف إلى بحر البلطيق شمالا . وقد تبلغ النهاية العظمى لدرجة الحرارة فيها ٤٨ أو أكثر فى الظل ، كما تصل درجة الرطوبة النسبية حدود ٢ فى المائة ، أى منتهى الجفاف ، مما يعمل على هلاك النبات والأحياء من الدواب على السواء ، خصوصا إذا ما ازدادت سرعة الرياح ، وطالت مدتها ، واشتدت حدتها .

والمعروف أو المألوف أن « الحسومات » فترة من العواصف الحادة التى تهب فى موسم الخماسين فى الشرق الأوسط ، وربما تميظ لنا هذه الحقيقة اللثام عن تفسير الآية الخاصة بالرياح المعجزة التى أهلكت قوم عاد فى قوله تعالى :

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ - الحاقة - .

وعلى أية حال فالمعروف أن رياح الخماسين أهلكت جيش قمبيز وهو في طريقه إلى سيوه عندما كانت عامرة في القدم .

وعموما أى انخفاض عرضى عندما تدخل الجبهة الساخنة يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوب أو الجنوب الغربى ، وتسوء الرؤية نوعا ما بحسب محتويات الهواء الساخن من الأتربة ونحوها . وعندما يكون متشعبا بأبخرة المياه تتكون أيضا السحب المنخفضة الممطرة .

أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة كافية كما هو الحال في الشرق الأوسط عموما ، حيث يأتى الهواء الساخن من قلب الصحارى ، فإن الجبهة الساخنة قلما يصحبها مطر ، وقد يكون في صورة رذاذ فقط قرب الساحل ، وتنعدم السحب تقريبا وسط القطاع الساخن ، ثم تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع باقتراب الجبهة الباردة ، فالسحب الركامية المنخفضة الممطرة نتيجة الحركات الرأسية العنيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة حيث يتدفق الهواء البارد من آن لآخر إلى السطح فيدفع بالهواء إلى أعلى ، ويتغير اتجاه الرياح إلى الغربى فالشمالى الغربى وتحسن الرؤية ، ويكون المطر في صورة رخات متواصلة أو متقطعة تتوقف شدتها على كميات أبخرة المياه العالقة وعلى مدى استقرار الجو وعدمه في الطبقات العليا .

وفي العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى في المقدمة ، ولهذا يأخذ القطاع الساخن في التناقص تدريجيا من الخلف ، وتنطبق بذلك أجزاء الجبهة الباردة بأجزاء الجبهة الساخنة القريبة من المركز ويمتد هذا الانطباق تدريجيا كلما انكشفت مساحة القطاع الساخن مكونا جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء ولا تزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختفى القطاع الساخن وبذلك يتم رفع جميع الهواء الساخن إلى أعلى ويختفى القطاع الساخن بحلول الهواء البارد محله . ويصحب هذه الظاهرة في العادة المطر المتواصل في أوروبا .

وهناك أنواع عديدة من الانخفاضات العرضية الأخرى مثل انخفاضات قبرص الجوية التى يرجع السبب الرئيسى في تولدها إلى هبوب تيارات باردة حول الانخفاضات العرضية الممتلئة في شرق البحر المتوسط . وأهم مميزات هذه الانخفاضات تعدد الجبهات الباردة وعدم وجود قطاع ساخن واضح يتبعها ، والمؤلف أول من أطلق عليها هذا الاسم وأحاط عنها اللثام في بحث مفصل .

والحديث عن تقسيم الرياح بمثل هذا التفصيل إنما يبصرنا بآيات الخالق في مجال واحد من مجالات البحث والتنقيب عن أسرار هذه الأرض الذى هو موضوع كتابنا هذا فما بال المجالات الأخرى !! .

والحق أن تصنيف الرياح إنما يتم وفق نظام محكم ، هو أساس دراسات الطبيعة الجوية . وإتماما لما قدمنا نقول إن هناك أيضا الارتفاعات الجوية وهى مناطق الضغط العالى ، ويصحبها غالبا طقس هادى جميل . وتكثر فيها ظاهرة هبوط أو تساقط الهواء من أعلى ، ولذا تصفو السماء كما ترتفع درجات الحرارة عموما وخاصة أثناء النهار بالإشعاع الشمسى ، وينشط فيها الإشعاع الحرارى أثناء الليل وتزداد حالات تكون الضباب والندى في الصباح المبكر .

ويمكن أن تقسم الارتفاعات الجوية عموما إلى ثلاثة أنواع :

الارتفاعات الموسمية . ومن أمثلة ذلك ارتفاع سيبيريا الشتوى ، حيث يرتفع الضغط إلى ١٠٥٠

ملييار ( أو ما يعادل نحو ٧٨٠ ملليمتر ) وهو لا يضمحل إلا في أواسط الربيع . وكثيرا ما يزحف أثناء الشتاء إلى أوروبا وينشر فيها الصقيع حيث قد تصل درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر . وهو أيضا قد تزحف أطرافه إلى البلقان وآسيا الصغرى ويعطى نفس الظواهر ثم يسبب إثارة الجوفى الشرق الأوسط عموما ، إذ تولد ألسنة الهواء البارد عند عبورها البحر المتوسط أكثر الانخفاضات الجوية نشاطا ، ( هى انخفاضات قبرص الجوية ) .

هذا كما أن هنالك الارتفاعات النسبية ، وهى تتواجد بين الانخفاضات وتتحرك عموما بغير انتظام وببطء ، وإذا تحركت سميت « باردة » أما الارتفاعات الجوية الثابتة فهى ( دافئة ) ذلك لأن حالات الركود وعدم الحركة فيها تجعل ظاهرة هبوط الطبقات العليا أهم عامل لتسخين الهواء تدريجيا بالتضاغط وخاصة في المركز . ويحدث الهبوط عادة بمعدل ثلث كيلو متر في اليوم .

وتوجد أيضا الارتفاعات العرضية ، وهى مناطق من الضغط العالى التى تتكون لمدة قصيرة نسبيا ثم تضمحل دون أن ترتبط بالانخفاضات العرضية .

ومن أمثلة ذلك الارتفاع الذى يقع فوق مصر في الاعتدالين وأغلب فصل الشتاء . أما الأعاصير الاستوائية فهى تتولد في المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء أو داخل التجاريات ، وهى تسير معها من الشرق إلى الغرب عموما على عكس الانخفاضات العرضية التى تتولد في مناطق الغربيات السائدة ، وأهم المناطق المشهورة بهذه الأعاصير هى جزر الهند الغربية ، وخليج المكسيك وبحر العرب وبحر الصين وجزائر الفلبين واليابان والمحيط الهندى وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادى وشرق أستراليا ويطلق عليها اسم ( ولى ولى ) ، وتسمى ( للتيفون ) في الصين واليابان والهوكنين في الولايات المتحدة ، وقد سبق أن عرفناها باسم النكباء .

ومن أهم الأوصاف الدقيقة التى وردت في القرآن الكريم خاصة بهذه الأعاصير عندما تحتاج السفن وتدهمها عبر المحيط قوله تعالى :

﴿ أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ - النور ( ٤٠ ) -

ومن الإعجاز العلمى في هذه الآية أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع ( أو السعة ) والصفات ، يلاحق بعضها بعضا تحت ظلمة السحاب المنعقد في السماء . ونحن نستطيع من دراسة هذه الأمواج عندما تصل إلى محطاتنا الأرضية الخاصة برصد موج البحر وتحليلها رياضيا أن نحدد مركز العاصفة . وجدير بالذكر أن الرسول ( ﷺ ) لم يكن قد سافر قط عبر هذه المحيطات حتى يذكر مثل هذا الوصف الدقيق . مما يثبت قطعا أنه من وحي الخالق العظيم .

ويلاحظ أن جميع مناطق هذه الأعاصير تقع إلى الجانب الغربى من المحيطات ، وليس في الجانب الشرقى منها . وهى تظهر أولا عادة على البحار

وتستمر في عنفوانها إلى أن تدخل اليابس فتضمحل نوعا ما ، ثم تتحول إلى انخفاضات صغيرة تتلاشى سريعا . وتدور الرياح حول الأعاصير كدورتها حول ( الانخفاضات ) مع ازدياد هائل في

السرعة ثم في تدرج الضغط ، وكثيرا ما يبدأ الإعصار بإتساع يزيد على ٨٠ كيلو مترا ثم يزداد إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر . وفي مركز الإعصار يسود الهدوء وتنكشف السماء ويهطل المطر في منطقة محدودة هي « عين الإعصار » لا يزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو مترا ، وأهم مميزات الأعاصير غزارة الأمطار ، فقد تهطل مئات المليمترات في بضع ساعات ، وتلعب الحرارة التي تنطلق بعمليات التكاثف هذه دورا هاما في نشاط الإعصار :

وهناك نوع من العواصف يقال له ( التورنادو ) ، وهذا نوع من الأعاصير الشديدة الصغيرة الحجم ولا يزيد قطرها عموما على نصف كيلو متر ولكنها تشتهر بالتدمير وذلك لشدة هبوط الضغط الجوي فيها ثم سرعة دوران الرياح من حولها : فقد تصل أحيانا إلى ٥٠٠ كيلو متر في الساعة ، وأهم مناطقها وادي نهر المسيسيبي بأمريكا ، وكثيرا ما يصحبها ظهور قمع من السحب يتدلى إلى الأرض . ويستغرق مكثها في أى مكان قبل تحركها إلى مكان آخر نحو ساعة فقط يحدث خلالها تدمير شامل لكل ماتصادفه أو يعترضها على الأرض .

وهنا نحب أن نشير إلى أن أعاصير البحر عندما تدنو من الشواطئ فقد تحدث طوفانات محلية تغرق الأرض ومن عليها ، خصوصا المناطق المنخفضة .

\* في الهواء ماء على هيئة بخار \*

### لاتراه الأعين

لعل أول كتاب قرر حقيقة أن السحاب المطر إنما تثيره الرياح هو القرآن الكريم ، وقد كانت الفكرة السائدة في الحضارات القديمة أن المطر يأتي من ماء مخزون في السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ !! والآن لندرس قوله تعالى :

١ - ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه في السماء ﴾ الروم ( ٤٨ ) .  
وكذلك قوله تعالى :

٢ - ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلدا ميتا - فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ - الأعراف ٥٧ -  
يظهر لنا مدى الإعجاز العلمي في الآيتين ، إذا ما تذكرنا أنه في العهد الذي نزل فيه القرآن الكريم لم يكن أحد من الناس - ربما إلا قلة نادرة - يعرف أن الهواء يحمل مقادير وفيرة من الماء على هيئة بخار ، وأن هذا البخار هو الذي يكون السحب ، ويعطى المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبرد تحت تأثير الانتشار بتقليل ضغط الواقع عليها بالارتفاع .

ويسمى هذا التبريد علميا باسم التبريد الذاق ( أى منه فيه ) ، وهو يفسر المبدأ الذي تعمل به ثلاجات الكهرباء ، وتبلغ قيمة التبريد الذاق من الهواء الصاعد الذي لا يحده التكاثف درجة واحدة سنتجrad لكل ١٠٠ متر ، فإذا ما حدث التكاثف بسبب التبريد ، تهبط قيمة معدل التبريد الذاق إلى ٦٥ . درجة سنتجrad لكل ١٠٠ متر .

والمعروف علميا أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة ، وباستمرار

التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء العالق في الهواء إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حالة الصلابة (بللورات ثلج).

ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علميا باسم (نوى التكاثف)، وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب في الماء أو تمتصه، مثل ملح الطعام وكلورود الكلسيوم وثاني أكسيد الكبريت، وتتجمع جزئيات بخار الماء على هذه النوى مكونة نقطا دقيقة جدا لا تلبث أن تنمو بالتصادم والالتصاق مع بعضها البعض.

وفي الثلجات الكهربائية يعمل المحرك (الموتور) على ضغط نوع معين من الغاز ببطء ويتركه يتمدد فجأة حول صندوق التبريد، أما في الجو فإن التمدد إنما يحدث بالصعود إلى أعلى، ويضطر الهواء إلى الصعود إلى أعلى تحت تأثير عوامل عديدة مثل التجمع من كل الجهات في صعيد واحد عند سطح الأرض، ومثل حالات عدم الاستقرار التي يتواجد فيها الهواء البارد الكثيف فوق الهواء الساخن الخفيف، ومما يعمل على نقص كثافة الهواء إضافة بخار الماء إليه، فالهواء الرطب أقل وزنا أو كثافة من الهواء الجاف، الذي في نفس درجة الحرارة وتحت نفس الضغط.

ومما يدلنا على مبلغ ما استحدثته هذه الآلة من جديد في ميدان الطبيعة الجوية، نقول إن قدماء المصريين مثلا كانوا يفاخرون الإغريق بأن النيل الخالد الذي يروى مصر، إنما يفيض من المحيط الأعظم الذي لا ينفد، أما بلاد الإغريق، فأغلب ما تعتمد على المطر الذي يأتي من ماء مخزون في السماء، عندما يفتح الآلهة أبواب السماء، ومامن شك أنه سيأتي يوم ينفد فيه هذا الماء!! لقد فاتهم - وفات غيرهم - أن الهواء هو الذي يثير السحب ويعطي المطر، وأن للماء العذب على الأرض دورة مستمرة، وأنه يتجدد على الدوام، تحت تأثير الطاقة الشمسية التي تبخر بعض ماء البحر، وأن ماء المطر، إنما يعود في النهاية إلى البحر عن طريق الأنهار والمياه الجوفية والمطر المباشر، ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الحقيقة، كما ذكر حقيقة أن الهواء يحمل نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب واستمرار عمليات التكاثف في إعجاز بليغ أخاذ كما سنبين فيما يلي.

### تلقيح الرياح للسحب لتجود بالمطر،

(نوى التكاثف)،

### دورة الماء ما بين الجو والأرض

تحت هذا العنوان تدخل قائمة هامة من أحدث الحقائق العلمية الرائعة، التي لم يتوصل إليها الإنسان إلا في عصر النهضة العلمية، بعد أن اخترع الأجهزة التي يقيس بها عناصر الجو مثل: الضغط الجوي، ودرجة الحرارة، ودرجة الرطوبة، وسرعة الرياح واتجاهها، الخ... وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة، وظهرت فيها المؤلفات العديدة، نقول بعد كل هذا المجهود العلمي الضخم الذي اشتركت فيه أغلب أمم الأرض، توصل الإنسان إلى أن عمليات التكاثف داخل السحب، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم (نويات التكاثف) كما ذكرنا. وأهم أنواع هذه

النويات أو النوى ، هى مساحيق ملح الطعام ، وكلورور الكالسيوم التى تتطاير من سطح الأرض والبحر مع تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج من عمليات الاحتراق . ووظيفة هذه النوى تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها لتكون نقطة صغيرة من الماء أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذي يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى ، هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها . وعندما تعجز الرياح لسبب ما عن تلقيح السحب بهذه النوى لتجود بالمطر ، يعتمد الناس إلى التلقيح الصناعى باستخدام الطائرات أو المولدات الأرضية ، التى يمكن أن تقذف بالمساحيق إلى أعلى الجو . وتعرف هذه العمليات علمياً الآن باسم ( المطر الصناعى ) ، وأهم المواد التى تستخدم هى يودور الفضة ، أو مسحوق ملح الطعام الصخرى . ويستخدم كذلك ثانى أكسيد الكربون الجاف . وفى الواقع نجد أن نظرية المطر الصناعى وحتى المطر الطبيعى ، هى أكثر تعقيداً من ذلك ، إذ يستغل فيها حقيقة أن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة فوق التشبع ، بالنسبة لبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، وبذلك تنشط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنباً إلى جنب مع نقط الماء البارد ، ويتكون هذا الثلج على نوى التكاثف الصلبة التى على غرار مساحيق ملح الطعام ، أو يودور الفضة أو حتى ثانى أكسيد الكربون الجاف الذى يمكن أن تلقح به السحابة لتلقيحها طبيعياً بواسطة الهواء ( ملح الطعام ) أو صناعياً بواسطة الطائرات كما قلنا .

وفى الطبيعة يمكن أن تتواجد نقط الماء ، وهى فى حالة السيولة تحت درجات حرارة منخفضة جداً ، قد تصل إلى ٤٠ درجة ستجrad تحت الصفر ، وعندئذ تسمى نقط الماء فوق المبرد . ويعطى الجدول الآتى ضغط بخار الماء اللازم للتشبع بالنسبة لنقط الماء وبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، لتبين كيف تكون السحابة المشبعة بالنسبة لنقط الماء فوق المبرد فى حالة من فوق التشبع ، إذا تكون الثلج فيها عن طريق تلقيح السحابة بنوى التكاثف ، وعندما تنمو البللورات الثلجية داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد تزداد سرعات تساقطها نسبياً ، فتتصادم مع غيرها من النقط الصغيرة وتلتحم بها ، وهكذا تنمو النقط سريعاً ، وتزداد حجوماً ، فتتساقط على هيئة مطر .

أما الآية التى تقرر كل هذا فى إعجاز أخذ وإيجاز رائع فهى قوله تعالى :

﴿ وأرسلنا الرياح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴾ <sup>(١)</sup> .

وهكذا تربط الآية الشريفة وتوثق العلاقة بين تلقيح الرياح للسحاب بنوى التكاثف وبين نزول المطر . وثمة معنى آخر هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر ، بسبب إرسالها لتتجمع فى صعيد واحد إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . وقد حسب المؤلف مقدار الهواء الذى يصعد فى انخفاضات قبرص الجوية ، فوجده نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة فى المتوسط !!!

وأعجب من كل هذا وأروع أن الآية تمضى فتقول : ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ ، أى من الماء

الذى ينزل من السماء على هيئة مطر لا يختزنه أحد ، ولا يمكن أن يختزن ، بل هو يتجدد دائما ، إشارة إلى الدورة العظمى لماء الأرض ما بين سطحها وسمائها أو غلافها الجوى .

فهل بعد ذلك إعجاز علمي ؟ وهل بعد ذلك يقول قائل : إن هذا القرآن من صنع محمد ؟ ويعود القرآن ليذكر الناس بهذه الحقيقة حين يقول في سورة الطارق - ١١ - ﴿ والسما ذات الرجع ﴾ أى التى تعود مرتدة إلى الأرض والمراد ماء السحب .

والمطر ، كما هو معروف ، مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء ومورد الثروة الدائم منذ القدم ، وإذا شحت كمية المطر عن معدّلها فى إقليم ما ، أجذبت الأراضي ، وأقحلت المراعى ، ونفقت الماشية ، وقد لاتنصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . وتتوقف أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر المباشر ، أو بالأنهر والترع والقنوات ، على ما تجود به السماء من مطر كل عام .

ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان يعالج شتونه بالسحر والشعوذة . وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة ، ومنها صلاة الاستسقاء لتجود السماء بالماء ، بعد طول الجفاف واشتداد البلاء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة - قال تعالى :

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ﴾ (١) .

وكان الرسول ( ﷺ ) يستسقى فيدعو الله تعالى ، ومن دعائه :

( اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضعف مالا نشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا ) .

ويوجه القرآن كذلك أنظارنا إلى أن ماء المطر العذب ؛ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعطينا مثلا يتجدد أمام أعيننا ليوم البعث الذى يحيى فيه الله الموتى . ومن الآيات التى تؤدى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ (٢) .

وهنا مرة أخرى يربط القرآن الكريم بين إرسال الرياح وإثارة السحب المطيرة ، ولقد حسب المؤلف حجم الهواء ، الذى يتجمع ويصعد إلى أعالي الجو عندما تنساب الرياح حول انخفاض قبرص الجوى ، الذى يسبب أمطار الشتاء فى الشرق الأوسط ، فوجده يعادل نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة كما قدمنا . وعندما ننظر إلى قوله تعالى :

﴿ أفرايتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناء أجاجا فلولوا تشكرون ﴾ (٣) .

(١) سورة نوح الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة فاطر آية رقم ٩

(٣) سورة الواقعة الآيات من ٦٨ - ٧٠



نجد أن الظروف الطبيعية التي تؤدي إلى تكوين المزن ، ( وهو السحاب المطر ) ونزول المطر لا يمكن أن يصنعها البشر ، بل حتى لاسبيل إلى التحكم فيها ، ولا يزال موضوع المطر الصناعي - أو استمطار السحب العابرة - في مرحلة التجارب التي لم يتم نجاحها بعد . وحتى إذا ماتم نجاحها ، فإنه من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعي ، حتى يمكن استمطار السماء صناعيا ، أى أن واجب علماء الطبيعة الجوى لا يتعدى قدح الزناد فقط ، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية ، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد ، بقذف بعض المواد التي تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة ، مثل ملح الطعام ، أو يودور الفضة ، أو بللورات ثاني أكسيد الكربون ، وتمضى الآية الكريمة فتقول إنه لو شاء الله لجعل ماء المطر ملحا زعانا كماء البحر لا يشرب .

وآيات طبيعة السحب متعددة ، منها على سبيل المثال :

١ - ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ (١) .

إن ثورة الطبيعة التي تلازم الجو العاصف من برق ورعد وصواعق ومطر . . كلها تذكرنا بطاعة الله تعالى خوفا وطمعا . خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته - والرعد ، رغم جبروته ، إنما يحدث وفق أمره وحسب سننه وتبعاً لحكمته .

٢ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ (٢) .

ونحب أن نضيف هنا أن التيارات الهوائية العليا التي تنساب فى أعالي ( التروبوسفير ) إنما تلعب دورا هاما فى تقلبات الجو على سطح الأرض ، وهذه التيارات لا يمكن أن يتحكم فيها البشر بحال من الأحوال ، كما أنه لم يتم التعرف عليها بالتفصيل إلا فى السنين الأخيرة ، التي استخدم فيها الطيران العالى .

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم ( التيارات العليا النفاثة ) وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيها بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علويقارب ارتفاع « التروبوبوز » أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية ، وحديثا جدا تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى ، الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دورا هاما فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التي ينجم عنها فيضان النيل .

٣ - ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ﴾ (٣) .

والمعروف علميا أن المطر فى أية منطقة على الأرض إنما يصحب هبوب تيارات هوائية معينة على

(١) سورة الرعد الآية ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الروم الآية رقم ٤٨

(٣) الروم الآية رقم ٤٦

المنطقة . ففي مصر مثلا تقبل الأمطار مع الرياح الشمالية الغربية خلال الشتاء ، وفي السودان تكون الرياح الموسمية الممطرة في الصيف ، هي الجنوبية الغربية أو الجنوبية عموما . . ويمكن التعرف عليها من خواصها .

٤ - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ <sup>(١)</sup> - ، أما رياح الكتل الهوائية الجافة الساخنة المتربة ( الصفراء ) فمن أوصافها :

٥ - ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ - الروم ( ٥١ ) - ، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفرا ، نظرا لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفرا علامة الجفاف والجذب والحر .

٦ - ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبا ﴾ <sup>(٢)</sup>

والمراد الرياح الشديدة التى تثير الحصى . والمعروف أن الرياح هى التى تثير الرمال والحصى كلما اشتدت وزادت سرعتها ، فتكون عواصف الرمال والأعاصير . وتتوقف درجة التركيز - أى عدد الحبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء - على سرعة الرياح وحجوم الحبيبات المثارة . ولتيارات الهواء الصاعدة أثرها فى رفع الحصى ونقله عبر مسافات كبيرة ، وتعظم هذه التيارات وتشتد فى حالات عدم الاستقرار الجوى ، أو مرور الجبهات الباردة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾ <sup>(٣)</sup> إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائل يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينما بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجو وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

قوله تعالى : ﴿ ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾

أى صرفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة ، فيشكروا ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرانا بخالقها ، ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقيل من أعباء النبوة ، ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴾

أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ما أعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : ﴿ قل يأيتها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٣) سورة النمل آية رقم : ٨٨

(٤) سورة الأعراف آية رقم : ١٥٨

(١) الأعراف الآية رقم ٥٧

(٢) القمر آية رقم ٣٤

وجاء في ( الصالح ) ( بعثت إلى الأحمر والأسود »<sup>(١)</sup> أى إلى العجم والعرب . والخلاصة - إنا عظمتك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز مادخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته ، فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولا عليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهادا كبيرا ﴾  
أى فلاتطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم وجاهدوهم بالشدة والعنف لا بالملاينة والمدارة لتكسب ودهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلاها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لا يقادر قدره .  
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليهما حكيما . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون ﴾<sup>(٤)</sup> والقول الفصل ماجاء في قوله تبارك اسمه : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾<sup>(٥)</sup> .

الله اكبر إن دين محمد      وكتابه أقوى وأقوم قبيلا  
لاتذكروا الكتب السوالف عنده      طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

والخلاصة - إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد في دعوتك ، ولا تتوان فيها ، ولا تحفل بوعيدهم فإن الله ناصر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾

أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلج البحرين متجاورين متلاصقين وجعلها لا يمتزجان ، ومنع المالح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لا يبغي عليه .

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب المساجد/ ٣ ، والدارمى في كتاب السير/ ٢٨ ، وأحمد في مسنده ٢٥٠/ ١ ، ٣٠١ ، ٤١٦/ ٤ ، ١٤٥ / ٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ من هذا يتضح أن قوله في الصحيحين خطأ .

(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٣ وسورة التحريم آية رقم : ٩

(٣) سورة الأحزاب الآيات ١ - ٣

(٤) سورة القلم الآيتان ٨ ، ٩

(٥) سورة الكافرون .

والخلاصة - أنه تعالى جعل البحرين مختلطتين في مرأى العين ، منفصلين في التحقيق بقدرته تعالى بحيث لا يختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ولا يتغير طعم أحدهما بالآخر ولا يفسده .  
ونحو الآية قوله في سورة الرحمن : ﴿ مزج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (١) .

### \* مبحث يتعلق بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم \*

يقول الدكتور/ ابراهيم عوض فى كتابه ( مصدر القرآن - دراسة فى الإعجاز النفسى ) .  
وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن ، والتي لم أذكر هنا سوى بعضها ، ماورد فى القرآن أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : - تاريخية وجغرافية وأحيائية ( بيولوجية ) وطبية ، وتشريحية ، وكيميائية وطبيعية ( فيزيائية ) ، وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحي الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أحد فى عصره فى شرق العالم أو غربه أو شماله أو جنوبه ، وبلى وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم به أن يكون على علم بها . وأقل مايمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ماخرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى ، من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلة بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمان ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظواهر الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة ويفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » ليس هذا فحسب بل يمضى العالم الطبيب الفرنسى قائلا : « وبفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأنجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأنجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، ودون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولا المقدره العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ما قام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى مايقوله الدكتور بوكاى : « إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لا يحتملها التصديق وتلك الأخرى

التي لا تتفق والعلم ، لا يبدو لي أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولا تتقعر المسئولية فيها الا على البشر .

ولا يستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ومانصيب الخيال والهوى في عملية تحريرها ، أو مانصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو مانصيب التعديلات غير الواعية التي أدخلت على الكتب المقدسة . ثم يعود الدكتور بوكاي إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول : « أما الجزء الثالث ( يقصد من كتابه ) فسيجد فيه القارئ أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .

كما سيجد القارئ في ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذي هو في متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التي ظلت حتى الآن مستغلة أو غير مفهومة . ولا عجب في هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان . وأنا إذ أستشهد بالدكتور بوكاي ، لأعني أن أحدا لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكنني قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهي فقط أحد الجوانب التي يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهي ، قد أدت بهذا العالم . إلى الدخول في دين الإسلام . ولست أنوي أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم في القرآن المجيد فما أكثر الكتب التي قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة ، وإن غالى بعضها في الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبعض الآيات ، التي يصعب على الدارس الموضوعي الذي لا يغلبه تحمسه لدينه على نفسه أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من بعضهم الذين يرون في بعض الآيات أشياء لا وجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التي بهذا الشكل وسأقف عند بعضها مستأنيا بعض الشيء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها في ضوء حقائق العلم الحديث : ﴿ ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن . . ﴾ (١) .

﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ (٢)

﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ (٣)

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . . ﴾ (٤) .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٥)

(٣) سورة النور آية : ٤٣

(٤) سورة النحل آية : ٦٦

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢

(٢) سورة الأعراف آية : ٥٧

﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾<sup>(١)</sup> ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾<sup>(٢)</sup> ﴿والشمس تجري لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل في فلك يسبحون﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿فليَنظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾<sup>(٤)</sup> . ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاي ، الذي يقول : « ومن الثابت فعلا أنه في فترة تنزيل القرآن . . كانت المعارف العلمية في مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمي الذي واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذي يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذي سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذي يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة ، فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن عمدا ﷺ بالتالي قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ولو سيرا تاريخ الاسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافي والعلمي في العالم العربي في القرون الوسطى لاحق لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما في القرآن لم تلق التأييد إلا في العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسري القرآن ربما في ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، في تفسير بعض الآيات التي لم يكن باستطاعتهم أن يفتنوا إلى معناها الدقيق .

وهنا نصل إلى الآيات التي ذكرت آنفا ، إنني أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت في التفاسير القديمة ما يؤكد هذا الذي يقوله الدكتور بوكاي ، ففي تفسير قوله تعالى : ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾<sup>(٥)</sup> .

يقول الشريف الرضي : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأصناف النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى في أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة ، والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنتقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها فقال سبحانه ﴿يخرج من بطونها﴾ والمراد « من جهة بطونها » وجهة بطونها أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان وشرائط هذا الكلام  
فانظر كيف أن العلماء المحققين في عصر الشريف الرضي ( القرن الخامس الهجري ) يقررون أن

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٠

(٢) سورة الزمر آية ٦

(٣) سورة يس ٣٨ - ٤٠

(٤) سورة الطارق الآيات : ٥ - ٧

(٥) سورة النحل الأيتان : ٦٨ ، ٦٩

العسل لا يخرج من بطون النحل ومن ثم عد هو قوله تعالى : ﴿ يخرج من بطونها شراب .. ﴾ مجازات القرآن التي أدار عليها كتابه الذي اقتبسنا منه النص السابق ، والصواب هو ما قاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل التي تجمع الرحيق ، ويتحول في معدتها إلى عسل تقوم بافرازه بعد ذلك .

وفي خطأ مشابه يقع الإمام الباقلاني ، إذ يعد قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾<sup>(١)</sup> نوعا من التعميم في التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال : إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا .

الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . وإذا مانوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيتحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟

والطريف أن الباقلاني قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون في عصره مطعنا في القرآن الكريم . وهذا نص كلامه « وأما قوله عز وجل : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾

قال الملحدون : وفي هذه الآية ! حالة من وجوه ! أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها ما يخلق من بيض وتراب ونطف .. والجواب أن قوله « كل » لا يقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب ما لم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلاني عليهما لايحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله في عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، هما المخطئان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .. ﴾<sup>(٢)</sup> .

فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا ( عاش في القرن الثامن الهجرى ) ، عبارة « كأنما يصعد في السماء على النحو التالى : « شبهه ( أى شبه الله من يريد أن يضله ) مبالغة في ضيق صدره بمن يزاول مالا يقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبه به على أن الإيمان يتمتع منه كما يتمتع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدة في الحرب منه . أما تفسير الآية في ضوء مكتشفات العلم التجريبي ، فهو أن الذى يضله الله يشعر بنفس ضيق الصدر

١ - سورة النور آية رقم / ٤٥

٢ - سورة الأنعام آية رقم / ١٢٥

الذى يحسنه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلا تجد الرثان كفايتها من الهواء والأكسجين . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب على أن أوافق الدكتور موريس بوكاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٠٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى فى الآية ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع .

وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو ما لم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام ( بغض النظر عن حادث المعراج ) ولا فيما بعده ببضعة عشر قرنا لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه .

كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو أبى بكر إلى يثرب . . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . بل إنى لا أذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث الشديد على تسجيل كل ما يعترضهم أثناء ذلك من تأثيرات عضوية أو نفسية . ولم يثبت أن الرسول ﷺ قد زار صنعاء التى يشير إليها الدكتور ( بوكاى ) بل إنى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشئ من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك .

وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعد فى الجبال »

ثم ها هى ذى كتب التفسير القديمة ، لاتجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول ، إن المقصود هو أن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان ، كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو ما يدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار إليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلا شك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أزانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى الذى يكرر كلام المفسرين القدامى . وهذه هى ﴿ وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ وفى تفسيرها يقول د . بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ماتشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ، ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهري دجلة والفرات ، الذين يشكلان بالتقائهما جسرا ، إذا جاز القول ، طوله أكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى وذلك يضمن ربا طيبا .



والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع . فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى ، على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات ، إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل ( الظلام ) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لاتشير إلى ظلام بعينه ، ولأرياح بعينها ، ولا ماء معين ، ولا أنعام ، ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقال إذن إن « البحرين » هناهما بحران معينان ( دجلة والفرات ) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون ( البحرين ) أيضا هما « النهر والبحر » بإطلاق أى أن ( الـ ) فيها هى ( الـ ) الجنس لا العهد ، فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، وفضلا عن ذلك ، فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة كان ظاهر الأمر ، أن النهر ييغى فى البداية على البحر ( عندما شق ماء الملح وأزاحه عن طريقه ) ليعود البحر فييغى فى النهاية عليه ( عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته )

فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ، أما المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية ، إنها ربما ( تشير إلى نعمة الله على عباده ، بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطئء بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منها فوق الملح ، كأن بينهما برزخا يمنع بغي أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لانراه . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته ( بالنسبة لى على الأقل ) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لايمكن تسميتهما بحرین .

ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لايلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا ، كما قلنا من قبل ، يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية ، هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح ، كل هذه الدهور المتطاوله التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيقيان إلى أن يرث الله الأرض والسموات ، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا .

بيد أن التقدير الإلهى ، قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال ، وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان وهكذا دواليك ، وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح ، ويتعايش البحرين دون أن ييغى أحدهما على الآخر ، ويقضى عليه ، فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم . والله أعلم .

ثم يستطرد الباحث قائلا :-

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أترث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحرين : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون

حلية تلبسونها ﴿١﴾ .

مأكثراً ما قرأت هذه الآية ولكن لم ألقت إلى ما تنبّهت إليه وأفزعني منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ما تؤكده الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان ( المذكورين فى آية متشابهة فى سورة « الرحمن » )

لا يوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن ثمة آية أخرى متشابهة فى سورة « الرحمن » ولكنها لا تثير آية مشاكل ، فنصها هو : ﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منها اللؤلؤ والمرجان ﴾ ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن فى يدى هاتين مائة جنية ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلوت تماماً من أى نقود ، ولا تكون قد عدت الحقيقة . أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة ﴿ ومن كل .. وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ ولم يسعنى ما عندى من تفاسير قديمة فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم - رحمه الله - ( فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش ) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما ، ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية .  
( مادة Pearl )

والمنتخب من تفسير القرآن الكريم « فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضاً فى المياه العذبة . وكان الكتاب الأخير يرد على حيرتى إذ يقول :

« وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدراً للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضاً من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلئ فى المياه العذبة فى إنجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان . . الخ ، بالإضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ما تحمله المياه العذبة من المعادن العالية

الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة بالبرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا ( الأورال وسيبيريا ) وهو فلور سيليكات الألمونيوم ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا والزيركون CIRON حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية ، وحتى يقدر القارئ رد فعل الأولى حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوروبيين فى العصر الحديث ، قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى ، وقد تجلّى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

Yet from bath yoeat drerh jish, and take jarth for you atname nts to wear .  
 فعبرة ( fram bath ) تصلح لترجمة آية سورة الرحمن لا هذه الآية ، كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى :

Aus beiden est ihr jrisches Fleirch إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا ﴾ وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة " Irisch " ومعناها الدقيق « طازج » لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

Umd ( aus dem S alzmeer )geurmmt ihr Schwuck um ihm euch anzulegen .  
 والذى ترجمته : « وتستخرجون ( من البحر الملح ) حلية تلبسونها . ويرى القارئ أن المترجم قد

أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر الملح ( aus dem Salzmeer ) وهو مايوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق ، وغيرهما من أنواع الحلى على ماتقول الآية الكريمة .

( أما ترجمتا سيل وبالم ( الانجليزيتان ) وترجمتا كاز يمريسكى وماسون ( الفرنسيتان ) وكذلك

ترجمتا ماكس هنخ ومولانا صدر الدين ( الألمانيتان ) على سبيل المثال فقد ترجمت كل النص القرآنى كما هو ولكنها لظمت الصمت فلم تعلق بشيء .

ويرى القارئ من هذه الآية بالذات كيف ان القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، قد أشار إلى حقيقة يستبعداها واحد مثل يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الانجليزى رودويل ونظيره

الألماني رودى باريت فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة ، تستخرج منها تقع في بلاد سحيفة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلاً لم تكتشف إلا في العصور الحديثة ؟ أخشى ما أخشاه إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ؟ أن يزعموا أن سيدنا رسول الله - ﷺ - قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفية في الفترات التى كان يدعى فيها لزوجته أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله وجعله كامل الخلقة ذكرا وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقربات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديرا ﴾

### \* لا معبود إلا الله \*

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ ۖ إِنْ شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ۚ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

### \* معاني المفردات \*

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه أى على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : أى ونزّهه وصفه بصفات الكمال ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره . والخير بالشيء : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به . والبروج : منازل السيارات الأثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله .

حمل الثور جوزة السرطان      وزعى الليث سنبل الميزان  
ورمى عقرب بقوس لجدى      نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوث وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب،والزهرة ولها الثور والميزان،وعطارد ولهاالجوزاء والسنبلة،والقمر :وله السرطان،والشمس ولها الأسد،والمشتري وله القوس والحوث،وزحل : وله الجدى والدلو .  
وهى فى الأصل القصور العالية فأطلقت عليها على طريق التشبيه

والسراج : الشمس .  
خلفه : أى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ، أعاد الكرة مرة أخرى وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعونون عن غيهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والاوتان ، ومالاينفع فيه إن عبد ومالاضر فيه ان ترك إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناوئون أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشيء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون من جاء لنفعهم ، وهو الرسول الذى يشرهم بالخير العميم . إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ثم هو على ذلك لايتغنى أجرا .

ثم أمر رسوله بالآل يرهب وعيدهم ، ولايخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، ونزّهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد وهو الخير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ومن قبائح هؤلاء أنهم بعد ظهور الأدلة ، وقيام البراهين ، ونصب الآيات التكوينية ، عبدوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

نعم عبدوا مالا ينفعهم لو عبدوه ولا يضرهم إذا تركوا عبادته ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ (١) .  
﴿ قال أتعبدون ما نتحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٢) .

وقال سبحانه ﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وأبائكم الأقدمون فإنهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقئ وإذا مرضت فهو يشفين والذى يمتتى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ (٣) .  
سبحانك ربى :

مافى الوجود سواك رب يعبد	كلا ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحده
انت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

سبحانه .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قمطير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير يأيتها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ (٤) .  
قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

قال العلامة ابن القيم :

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٨٢

(٤) سورة فاطر الآيات : ١٣ - ١٤

(١) سورة مريم الآيات رقم : ٨١ ، ٨٢

(٢) الصافات الآيات رقم : ٩٥ ، ٩٦

وعدوره ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه ، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .  
وعبارات السلف على هذا تدور ، وقد ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عوننا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث ومجاهد : يظاهر الشيطان على معصيته الله يعينه عليها . وقال : زيد بن اسلم : ظهيرا أى مواليا .

والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معينا له على مساخط ربه ، فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه ، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وملذاته .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ﴾ وهذه العبارة هى الموالاة والمحبة والرضا بعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم .  
فظاهر أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾

نعم مبشرا بالجنة ، ونذيرا للعصاة بالنار ، فأنت النبى المجتبى ، والرسول المختار ، الذى زكى الله عقله فقال : ﴿ ماضل صاحبكم وماغوى ﴾ ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال :

﴿ إن هو الا وحى يوحى ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ الصبر وماطنى ﴾ وزكى رسالته فقال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنتك لعلى خلق عظيم ﴾ .

سيدى أبى القاسم يارسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى	والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وماعسى	أن يجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى	مااشتاق مشتاق إلى مشواك

لقد خاطبك الله بقوله : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه

وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا ﴿١﴾ .

وإذا كنت انت المبشر النذير فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ولا تخزن عليهم ولاتك في ضيق مما يمكرون )

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبال المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾ (٢) .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتُمون ﴾ (٣)

فبشر الذين يعملون الصالحات بالجنة ، وانذر العصاة من عذاب النار ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قويا لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكتين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (٤) .

وكيف يكذبونك ويقفون منك موقف العناد ، وأنت الصادق المعصوم الذى لاتسألم عن التبليغ أجرا ﴿ أم تسألم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾ (٥)

قال تعالى : ﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر ﴾ (٦) أى أجر اذ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾

أى لكن من أراد أن يتخذ لنفسه أجرا عند الله ومثوبة وسبيلا إلى الجنة فليفعل ذلك بالانفاق فى . مرضات الله والجهاد فى سبيله .

﴿ وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ (٧) . ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (٨) .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده ﴾

أما أنت أيها النبى ، فلا تأسى على القوم الكافرين ، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد - لن يضروك بشيء ولو اجتمعوا على ذلك ؛ لأن الله تعالى يعصمك من الناس ، فتوكل على الحى الذى لايموت ، وسبح بحمده ، أى قل سبحان الله وبحمده ونزه ربك عن كل نقص تنزيها مصحوبا بالحمد لنعمة ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾

(٥) سورة الطور آية رقم : ٤٠

(٦) سورة (ص) آية رقم : ٨٦

(٧) سورة البقرة آية رقم : ١٩٥

(٨) سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ - ٤٨

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ - ٣٥

(٣) سورة المائدة آية رقم : ٩٩

(٤) الكهف الآيات : ١ - ٦



فهو الذى يعلم ماتكسب كل نفس ، الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ، صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً ﴾ .

قال الامام مالك : ( الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ماكان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان . سبحانه فلا العرش يحمله ، ولا الكرسي يسندة ، بل الكل محمول بقدرته ، مقهور بآرادته ، علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

خالق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ﴾ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (١)

كيف يكون له شريك أو ولد ، ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٢)

( الرحمن ) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تتوكلوا إلا عليه . والخلاصة : توكلوا على من لا يموت ، وهو رب كل شيء وخالقه ، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها وما فيها من عوالم ، لا يعلم كنهها إلا هو ، وخالق الأرض السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أى فاسأل عن خلق ما ذكر خبيراً به يخبرك بحقيقته ، وهو الله سبحانه ، لأنه لا يعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو .

### بيان فضيلة التوكل

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى فى كتابه الإحياء عن فضيلة التوكل :

أما من الآيات فقد قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ (٣)

وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٥)

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ (٦)

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه ، فمن كان الله

(٤) سورة ابراهيم آية : ١٢

(٥) سورة الطلاق آية : ٣

(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٥٩

(١) سورة الملك الايتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الأنعام الايات : ١٠١ - ١٠٤

(٣) سورة المائدة آية : ٢٣

تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ <sup>(١)</sup> فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال في معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ <sup>(٣)</sup> أى عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجنباه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ <sup>(٤)</sup> بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه .  
وقال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ <sup>(٥)</sup>

وقال عز وجل : ﴿ والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ <sup>(٦)</sup> .  
وقال عز وجل : ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد اذنه ﴾ <sup>(٧)</sup> وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار : فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود ( أريت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء تسعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يارسول الله ؟ قال الذين لا يكتنون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني فيهم فقال : رسول الله ﷺ : اللهم اجعله فيهم فقام آخر فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة <sup>(٨)</sup> .  
وقال ﷺ : ( لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خالصا وتروح بطانا ) <sup>(٩)</sup>

(١) سورة الزمر آية رقم : ٣٦

(٢) سورة الانسان آية : ١

(٣) سورة الأنفال آية : ٤٩

(٤) سورة الأعراف آية / ١٩٤

(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ١٧

(٦) سورة المنافقون آية : ٧

(٧) سورة يونس آية : ٣

(٨) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان دخول

طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ( صحيح مسلم ٣ / ٨٨ ) ، وأبو عوانه الاسفرائينى ( مسند أبى عوانه ١ / ١٤٠ ، ٨٦ -

٨٧ ورواه الدارمى فى الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢

(٩) الحديث رواه أحمد فى المسند وفى الزهد والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح وأقره الذهبى .

( المسند ١ / ٣٠ ، ٥٢ الزهد / ٥٨ ، تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ماجاء فى الزهادة ، فيض

القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢٠

وقال ﷺ ( من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها )<sup>(١)</sup>

وقال ﷺ ( من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه )<sup>(٢)</sup> ويروى عن رسول الله ﷺ ( أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربي عز وجل قال عز وجل ﴿ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾<sup>(٣)</sup> وقال ﷺ ( لم يتوكل من استرقى واكتوى )

وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا . . وفاء بقوله حسبي الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأنزل الله تعالى ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياداد مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجاً<sup>(٤)</sup>

وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبيرة لدغتنى عقرب فأقسمت على أمتى لتسترقين فناولت الراقي يدي التي لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾ إلى آخرها فقال ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى مقامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال ابراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربي

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الصغير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، واسناد الطبرانى مقارب وابن ابى الدنيا وعن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب قال الحافظ العراقى : لم يسمع منه وفيه ابراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم من رواية الحسن بن عمران ، واختلف فى سماعه منه / ورواه عنه أيضا الخطيب وابن أبى حاتم فى تفسيره ( الدر المنثور ٦ / ٢٣٣ ، احياء علوم الدين ٤ / ٢٣٩ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين ص ٦٥١ )

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ( الاحياء ٤ / ٢٣٩ )  
(٣) الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام - قال : الحافظ العراقى : ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه اهـ ( الاحياء للغزالي بتخريج العراقى ٤ / ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل ) وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ثابت رضى الله عنه وعبد الرزاق فى المصنف عن رجل من قريش وأخرجه سعيد بن منصور فى مسنده وابن المنذر فى تفسيره من طريق عثمان عن حمزة بن عبد الله بن سالم ( الزهد ص ٤٦ ، سعادة الدارين ص ٦٥١ )

(٤) الاحياء للغزالي ٤ / ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل  
وأخرجه أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل على عبدى لوكدته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج ( الدر المنثور ٦ / ٣٣٤ )

من أين يطعمنى .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرنى أن أكون ، فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ، قال أويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة ، وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيفا ، وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

### بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل ، هو المسمى إيماناً فى أصل اللسان ، إذ الإيمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب ، فهو علم ، وإذا قوى سمي يقيناً ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانئى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والإيمان بالقدرة الذى يترجم عنه قولك : له الملك ، والإيمان بالجود والحكمة ، الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ، فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، تم له الإيمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازماً لقلبه غالباً عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولا يتم علم المعاملة إلا بها ، فإذا لا تتعرض إلا للقدر ، الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لا ساحل له ، فنقول : للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشريتين وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالمرتبة الأولى من التوحيد ، هى أن يقول الانسان بلسانه لا إله إلا الله ، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة لا يرى فى الوجود إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد ، كان فانياً عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان ، والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقده ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله ، تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضاً أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاماً ، والعارف به يسمى متكلماً ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن

تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لاتنحل عقده ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق ، كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا ، وقد انكشفت له الحقيقة كما هي عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذا لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد .

فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث انه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لآخر فيها ، بل ان أكل فهو مر المذاق ، وان نظر إلى باطنه فهو كرية المنظر ، وان اتخذ حظبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وان ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مدموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة فى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هى القلب والبدن ، وتوحيد المناق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف انما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالاضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة ، التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ (١) وبقوله عز وجل : ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ (٢) . وكما ان اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور الا يشاهد الا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة ، وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات ، وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥

(٢) سورة الزمر آية رقم : ٢٢

وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه انسان واحد ، فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والمثلث إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل مافي الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرى سواء كثيرة بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وأن كان لا يطابق الغرض ، ولكنه ينه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحدا ، ويستئين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وإن لم يكن ماأمنت به صفتك ، كما أنك اذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التي لا يظهر منها إلا الواحد الحق تارة ، وتارة تطراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام . نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور في الأسفار ، فقال : فبماذا أنت فقال : أجدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ، فكان الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .  
فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيانه ، وليس التوكل أيضا مبينا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح  
وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام ، وقد ذكر في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه .  
وأما الثالث : فهو الذي يبني عليه التوكل ، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذي يرتبط التوكل به ، دون تفصيله ، الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمتفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لاستقلالهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضا كما أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يتغنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات الثاني الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات ، فكاعتمادك على المطر في خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك في

التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا في القللك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾<sup>(١)</sup> .  
 قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه ، علم ان الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهى الى المحرك الأول ، الذى لا يحرك له ولا هو متحرك فى نفسه - عز وجل - فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتجز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشغل بذكر الخبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فىرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وانما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والخبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم فى الأرض وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقل لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى : ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾<sup>(٢)</sup> .  
 فإذا انكشف لك ان جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه ، انصرف عنك الشيطان خائفا ، وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات الى إختيار الحيوانات فى الافعال الاختيارية ، ويقول كيف ترى الكل من الله ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبته بسيفه ، وهو قادر عليك إن شاء حز رقبته ، وإن شاء عفى عنك ، فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه ، وأمره بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له ايضا نعم ان كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زلت اقدام الأكثرين الا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين ، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما نشاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع ، فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم ، لضيق حديقته ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب ، وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمجاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ، بقدرته التى بها نطق كل شئ ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد

(١) العنكبوت آية رقم ٦٥

(٢) سورة الأنفال آية رقم ١٧

به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربى ولا عجمى .  
 فإن قلت فهذه أعجوبة لا يقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا  
 نطقت ، وكيف سبحت ووقدت ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ، فاعلم أن لكل ذرة فى السموات  
 والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد من  
 بحر كلام الله تعالى الذى لا نهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر ﴾ (١) الآية ..  
 ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والمملوك ، وإفشاء السر لئلا يبل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت  
 قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوحى بخفياها ، فنادى بسرّه على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر  
 لنا لما قال النبى - ﷺ - ( لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا )  
 بل كان يذكر ذلك لهم حين يكون ولا يضحكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر ، ولما قال ( إذا  
 ذكر النجوم فامسكوا وإذا ذكر القدر فامسكوا وإذا ذكر أصحابي فامسكوا )  
 ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار فاذا من حكايات مناجاة ذرات الملك والمملوك  
 لقلوب أرباب المشاهدات مانعان :  
 أحدهما استحالة إفشاء السر .

الثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكن فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من  
 مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتداء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف  
 والأصوات ، وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول :  
 قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالخبر ، مابال  
 وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ، فلم سودت وجهك ، وما السبب فيه فقال  
 الكاغد :

ماأنصفتنى فى هذه المقالة ، فأنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الخبر ، فانه كان مجموعا فى  
 المحبرة التى هى مستقره ، ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال :  
 صدقت ، فسأل الخبر عن ذلك فقال :

ماأنصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن الا أبرج منها ، فاعتدى على القلم  
 بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى ، وفرق جمعى وبدنى كما ترى على ساحة  
 بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ، فقال : صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج  
 الخبر من أوطانه ، فقال سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة  
 الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ، وفرقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت  
 بين انابى ، ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الخبر وحرارته ، وهى تستخدمنى وتمشينى على  
 قمة رأسى .



ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، ففتح عني وسل من قهرني ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ، وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي ترددني وتجول في نواحي الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ، ولا يتحرك بنفسه ، إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدي الموق تساويني في صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني ، فإني مركب أزعجني من ركبني ، فقال : صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفي عليك أمري ، وكيف ظننت اني ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة ثوما ظن الظانون بي أني ميتة أو معدمة ، لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك ، حتى جاءني موكل أزعجني وارهقني إلى ما تراه مني ، فكانت لي قوة على مساعدته ، ولم تكن لي قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجني من غمرة النوم ، وارهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي ، فقال : صدقت ، ثم سأل الارادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى حدفتها إلى التحريك ، وأرهقتها إليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت : الارادة : لا تعجل على فعل لنا عذرا ، أو أنت تلوم ، فإني ما انتهضت بنفسي ولكن انهضت وما انبعثت ، ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر حازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطراب ، فإني مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا أدري بأي جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكني أدري اني في دعة وسكون ، ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وفقا وألزمت طاعته الزاما ، بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عني عتابك ، فإني كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا      الا تفارقهم فالراحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاب الارادة وتسخيرها لأشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ، ولكن أشعلت ، وقال القلب : اما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكن بسطت ، وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسي ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عني ، فسل القلم عني ؛ لان الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعنت السائل ولم يقنعه جواب ، وقال : قد طال تعبي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن

كنت أطيب نفسا بكثرة الترداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في الفؤاد ، وعذرا ظاهرا في دفع السؤال ، فأما قولك إني خط ونقش ، وإنما خطني قلم فلست أفهمه ، إني لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالخبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ، ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فقال له القلم : ان صدقت فيما قلت ، فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة ، فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا في استتمام الطريق الى المقصد ، فائق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والخبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثاني عالم الملكوت ، وهو رائي فاذا جاوزتني انتهيت إلى منازل ومنه المهامه والنيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المفرقة ، ولا أدري كيف تسلم فيها . والثالث عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل ، في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ، لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه نهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت ، يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والماء ، فلا هي في حد اضطراب الماء ، ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها ، وكل من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة ، كان كمن يمشي في عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة ، مشى في عالم الملكوت من غير تتعنت ، فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافي ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب ، وحصول اليقين الذي يمشي به على الماء ، اما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام : ( لو ازداد يقينا لمشي على الهواء ) لما قيل له إنه كان يمشي على الماء ، فقال السالك السائل : قد تجبرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدري أطيع قطع هذه المهامة التي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوي ، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، اما ترى ان النبي ﷺ في أول امره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قسبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدي ، ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان ، بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ،

ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وغفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا ، فما أراك إلا نختا بين  
 نحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته  
 وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف  
 في يده وقلمه ولوحه وخطه ، فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ : ( إن الله خلق آدم على صورته )<sup>(١)</sup>  
 الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا ، وإلا فلا تلعب  
 بالتوراة وإن فهمت شبه الصورة الباطنة ، التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ومقدسا  
 فحلا واطو الطريق ، فإنك بالوادي المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار  
 هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إني أنا ربك ﴾<sup>(٢)</sup> فلما سمع السالك  
 من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه ، وأنه نخت بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة  
 غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار  
 فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيتته ، فاصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه  
 الفرصة ، وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره ، فأنكشف له القلم الإلهي ، فإذا هو  
 كما وصفه العلم في التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام  
 في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له في كل قلب رأس ولا رأس له ، فقضى منه العجب ،  
 وقال نعم الرفيق العلم فجازه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ،  
 فإني أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال قد طال مقامى من عندك ، ومرادى لك  
 وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، واسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها  
 القلم ، تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها الى  
 المقدورات فقال : أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته  
 فأحالك على اليد ، قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابى مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه ، قال  
 القلم : أما سمعت الله تعالى خلق آدم على صورته ، قال : نعم ، قال : فسل عن شأنى الملقب بقين  
 الملك ، فإنى في قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الأدمى  
 في معنى التسخير ، وإنما الفرق في ظاهر الصورة ، فقال : فمن يمين الملك ، فقال القلم : أما سمعت  
 قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾<sup>(٣)</sup> قال : نعم ، قال : والاقلام ايضا في قبضة يمينه ،  
 هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على  
 عجائب القلم ، لا يجوز وصف شيء من ذلك ، ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات .

كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، يد لا كالأيدي ، وأصبع لا كالأصابع ،

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب الامتنان رقم ١ ، ومسلم في كتاب البر حديث رقم ١١٥ ، وفي كتاب الجنة حديث رقم ٢٨ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٢٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩ .

(٢) سورة طه الآية رقم : ١٢

(٣) سورة الزمر الآية رقم : ٦٧

فراى القلم محركا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحضر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وقيل : ( لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ) فخر صعقا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق ، قال : سبحانك ما أعظم شأنك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ، ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك واتضرع إليك ، وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى ، لأثنى عليك ، فنودى من وراء الحجاب ، إياك أن تطمع فى الثناء ، وتزید على سيد الأنبياء ، بل ارجع اليه ، فما آتاك فخذ ، وما نهاك عنه ، فانت عنه ، وما قاله لك فقله ، فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال ( سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ) .

### من أقوال الرسول ﷺ

#### فى التوكل واليقين

عن ابن عباس رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : ( عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت انهم أمتى فقبل لى : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الافق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقبل لى : انظر إلى الافق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقبل له : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : ( ما الذى تخوضون فيه ؟ ) فآخبروه فقال : ( هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون ) فقام عكاشة بن محض فقال : ( ادع الله أن يجعلنى منهم فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله أن يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة )<sup>(١)</sup> . متفق عليه .

« الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : و « الأفق » الناحية والجانب . « سواد عظيم » أى اشخاص كثيرة « لا يسترقون » لا يطلبون الرقية من غيرهم . « ولا يتطيرون » أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . و « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف صحابى من أصحاب الرسول ﷺ .

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ، ومسلم فى كتاب الايمان - دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ( صحيح مسلم ٣ / ٨٨ ) ، وأبو عوانة الاسفرائينى ( مسند أبى عوانة ١ / ١٤٠ ، ٨٦ - ٨٧ ) ، والدارمى فى كتاب الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢ .

وعن ابن عباس رضى الله عنها أيضا ان رسول الله ﷺ كان يقول ( اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت : اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ان تضلني أنت الخى الذى لا تموت والجن والانس يموتون )<sup>(١)</sup> . متفق عليه « لك أسلمت » استسلمت لحكمك وامرك . « وأنبت » رجعت إلى عبادتك ، والاقبال على ما يقرب منك « وبك خاصمت » اعداء الدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنها أيضا قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار ؟ وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ( رواه البخارى ) .

وفي رواية للبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنها قال : ( كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار : حسبى الله ونعم الوكيل )<sup>(٢)</sup> .  
وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفدتهم مثل أفئدة الطير »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم

قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا آتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ : معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى ؟ قال : لا ، فقال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله .

وفي رواية لأبى بكر الاسماعيلي في صحيحه - فقال من يمنعك منى ؟  
قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ وسلم السيف فقال من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال لا ولكنى أعاهدك الا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئكم من عند خير الناس )<sup>(٤)</sup> متفق عليه  
وعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا )<sup>(٥)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن معناه

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب التهجد رقم / ١ ، وفي كتاب الدعوات رقم / ٩ ، وفي كتاب التوحيد رقم ٨ ، ٢٤ ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١١٩ ، وفي كتاب الذكر حديث رقم ٦٨ ، وأبو داود في كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، والترمذى في أبواب الدعوات رقم / ٢٩ ، والنسائى في كتاب قيام الليل رقم / ٩ ، وابن ماجه في أبواب الاقامة رقم / ١٨٠ والدارمى في كتاب الصلاة رقم ١٦٩ ، ومالك في الموطأ في كتاب القرآن رقم / ٣٤ ، وأحمد في مسنده ١ / ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ .

(٢) راجع فتح البارى ٩ / ٢٩٧ كتاب التفسير ( سورة آل عمران ) باب قوله : الذين قال هم الناس ... الخ .

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الجنة / ٢٧ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٤) الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٣١١ ، وأحمد في مسنده ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ ( وليس متفقا عليه كما ذكر )

(٥) الحديث رواه أحمد في مسنده ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، وفي الزهد ص ٥٨ ، والترمذى في جامعه وقال حسن صحيح ( تحفة الأحوذى ٨ / ٧ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ، والنسائى في سنته ، وابن ماجه والحاكم في كتاب الرقائق وقال صحيح واقره الذهبى ( فيض القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢ ) .

تذهب أول النهار خماسا : أى ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .  
وعن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ ( يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهى وجهى إليك : وفوضت أمرى إليك والجات ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا )<sup>(١)</sup> متفق عليه وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله ﷺ : ( إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل وذكر نحو هذا الحديث ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول )<sup>(٢)</sup> .  
( أسلمت نفسى ) أى جعلتها منقادة لك ، طائعة لحكمك ، راضية بقضائك ، قانعة بقدرك ، والجات : أى اسندت « ظهري إليك » إلى حفظك ، رغبة ورهبة إليك ، أى طمعا فى ثوابك وخوفا من عقابك . آمنت بكتابك الذى أنزلت : أى القرآن وقوله ﷺ : « على الفطرة أى على الايمان » .  
وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : ( نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رؤوسنا فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما )<sup>(٣)</sup> متفق عليه .

ومعنى ( الله ثالثهما ) أى بالنصر والمعونة والحفظ ، أيصيهما ضيم ؟ وعن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ان النبى ﷺ ( كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله : اللهم إني أعوذ بك ان أضل أو أضل أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو أجهل أو يجهل على )<sup>(٤)</sup> .  
ومعنى « ان أضل » بفتح أوله وكسر الضاد المعجمة أى أغيب عن معالى الأمور أو أضل « بضم ففتح » أى يضلنى غير . . أو أزل فتح فكسر أى أزل عن الطريق المستقيم أو « أزل » بضم ففتح أى يستولى على من يزلنى عن معالى الأمور إلى سفاسفها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال : ( هذه إذا خرج من بيته : - بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفى رواية أبى داود فيقول يعنى الشيطان - لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووفى ؟ )<sup>(٥)</sup> .

(١) الحديث فى عمدة القارىء ٢٥ / ١٥٦ - ١٥٧ كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى أنزل به علمه ، صحيح مسلم ١٧ / ٣٣ - وفى فتح البارى ١٧ / ٢٤١ : بلفظ : أصبت أجرا .

(٢) وفى رواية للبخارى وأبى داود : فإن مت من مت على الفطرة واجعلهم آخر ما تقول ( فتح البارى ١٣ / ٣٥٥ - ٣٥٧ ، عون المعبود ١٣ / ٣٨٩ ) .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم ٢ / ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ ، ١١ وأحمد فى مسنده ١ / ٤ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الأدب رقم ١٠٣ والترمذى فى أبواب الدعوات رقم ٢٨ / ، والنسائى فى كتاب الاستعاذة رقم ٣٠ ، ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الدعاء رقم ١٨ / ، وأحمد فى مسنده ٦ / ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ .

(٥) الحديث رواه أبو داود والترمذى وقال بحسن صحيح غريب وابن السنى وعبد الرزاق فى مصنفه .  
( عون المعبود ١٣ / ٤٣٧ - ٤٣٨ كتاب الأدب - باب ما يقول إذا خرج من بيته ، تحفة الاحوذى ٩ / ٣٨٤ أبواب الدعوات ، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته ، عمل اليوم والليلة ص ٧٥ رقم ١٧٧ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، المصنف ٥ / ٣٢ - ٣٣ رقم ١٩٨٢٧ ) .

وعن أنس رضي الله عنه قال : ( كان أخوان على عهد النبي ﷺ وكان أحدهما يأتى النبي ﷺ والآخر يحترف ، فشكا المحترف أخاه للنبي ﷺ فقال : لعلك ترزق به )<sup>(١)</sup> رواه الترمذى بإسناد صحيح ومعنى « يحترف » أى يكتسب ويتسبب .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نفورا ﴾ ومن قبائح هؤلاء الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، أنهم كانوا إذا أمروا بالسجود للرحمن ، سألوا متجاهلين ، وما الرحمن نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وهكذا لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وفى دينهم يترددون ، ثم ازدادوا فسوقا وعصيانا ، فقالوا نسجد لما تأمرنا ، قالوها تهكما واستهزاء ويوم القيامة سيعضون على أيديهم ندما ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾<sup>(٢)</sup> وقد كان موقف فرعون مشابها لموقفهم ، لما قالوا وما الرحمن ؟ فقد قال فرعون لموسى : وما رب العالمين ؟ وهو يعلم علم اليقين ما رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاستل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مشورا ﴾<sup>(٣)</sup> .

روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رأهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين ، وقد ورد فى فضل سجود التلاوة ، قوله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار<sup>(٤)</sup> رواه احمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

( والويل : الهلاك يقصد نفسه : أى يحزن الشيطان ويأهلاكه ) .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كائى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك اجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فرأيت النبي ﷺ ، قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتة يقول وهو ساجد : كما حكى الرجل عن كلام الشجرة<sup>(٥)</sup> رواه الترمذى .

وحكم هذا السجود كما بين العلماء : فقد ذهب جمهور العلماء إلى ان سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، لما رواه البخارى عن عمر انه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة ، فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال يأيها الناس

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح : صحيح الترمذى بشرح الامام ابن العربى ٢٠٨/٩ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا - الطبعة الاولى ١٣٥٣ هـ مصطفى البابى الحلبي .

(٢) سورة ن الآية رقم ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤٤٣/٢ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠

إننا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه .  
لقد اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة من طهارة واستقبال قبله وستر عورة .

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، وقد صح عن رسول الله ﷺ انه كان يقول في سجوده (سجد وجهي للذي خلقه وشتق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين) (١) رواه الخمسة إلا ابن ماجه .

وبالنسبة لسجود التلاوة في الصلاة : يجوز للامام والمنفرد ان يقرأ كل منها آية السجدة في الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها روى البخارى ومسلم عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة رضى الله عنه : صلاة العتمة أو قال صلاة العشاء فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال سجدت فيها خلف أبي القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه (٢) : قال النووي : لا يكره قراءة للسجدة عندنا للامام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

ومواضع السجود في القرآن الكريم خمسة عشر موضعا في سورة (الاعراف آية ٢٠٦) ، (الرعد آية ١٥) ، (النحل آية ٤٩) ، (الاسراء آية ١٠٧) ، (مريم آية ٥٨) ، (الحج آية ١٨) ، (الحج آية ٧٧) ، (الفرقان آية ٦٠) ، (النمل آية ٢٥) ، (السجدة آية ١٥) (ص آية ٢٤) ، (فصلت آية ٣٧) ، (النجم آية ٦٢) ، (الانشقاق آية ٢١) ، واسجد واقترب - العلق آية ١٩) . فتأمل حال السعداء من حال الاشقياء ، السعداء إذا امرؤ بالسجود خروا سجدا وبكيا ، الاشقياء إذا امرؤ بالسجود قالوا : ﴿ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

كان سفيان الثوري يقول في هذه الآية : إلهي زدني لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا . ثم يأتي الجواب قاطعا والبرهان ساطعا عما سألوا عنه ، انهم لما قالوا : وما الرحمن ! جاءتهم الاجابة من قبل الرحمن في قوله تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .  
أى تقدس ربنا الذي جعل في السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة أكثر من مائتي ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم بين آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال سبحانه : ﴿ وهو الذي جعل

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠١ ، وفي كتاب الجنائز حديث رقم ٧ ، وأبو داود في كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، وفي السجود ٧ ، وفي كتاب الجنائز رقم ١٧ ، والترمذي في أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفي أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، والنسائي في كتاب التطبيق رقم ٦٧ / ٧٠ ، وابن ماجه في أبواب الاقامة رقم ٧٠ ، وفي أبواب الجنائز رقم ٦ ، وأحمد في مسنده ٦ / ٣١ ، ٢١٧ ، ٢٩٧

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب الأذان رقم ١٠٠ ، ١٠١ ، وفي كتاب السجود رقم ١١ ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ١١٠ .



الليل والنهار خليفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿١﴾ أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيها ويتفكر فى صنعه أو أراد ان يشكر نعمة ربه ليبنى ثمار كل منها ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السامة والملل وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الآخر ، إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا ﴾ (١) وإذ يقول سبحانه : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ (٢) ويقول سبحانه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣)

وفى رحاب هذه الآيات نعيش مع قصة الايمان ( للشيخ نديم مفتى طرابلس ولبنان الشمالى ) فقد كتب تحت عنوان ( المطويات بيمينه ) قال بأسلوب شائق ممتع فيه الروعة والجمال فى صورة سؤال وجواب التلميذ واسمه حيران بن الاضعف يسأل والشيخ واسمه ابو النور الموزون من علماء سمرقند .

قال الشيخ : - والآن يا حيران بأى آيات الله فى مخلوقاته نبدا ؟  
حيران : الخيار لك يامولاى ، فمخلوقات الله فى السماء والأرض أكثر من ان تحصى ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ : ليس الخيار لى ولكنى سأتابع نهج القرآن الكريم ، وأختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة حين يقول : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ ﴾ (٤) ونقسم هذه النظرة الشاملة حين يقول ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (٥) ويختار من آياته ، فى الآفاق وفى أنفسنا ، أشياء يخصها بالذكر ، فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت يا حيران ، لتفصيل الكلام عن كل شئ من آيات الله ، فلا بد ان نحصر الكلام فى نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لتتخذ منه ، كما أراد لنا العليم الحكيم ، منطلقا للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران : إذا نبدا بآيات الله فى الآفاق  
الشيخ : نعم فى الآفاق .

(٤) سورة الاعراف آية رقم : ١٨٥

(٥) سورة فصلت آية رقم : ٥٣

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢

(٢) سورة النور آية رقم ٤٤

(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣

حيران : ونبدأ بالسء

الشيخ : نعم نبدأ بالسء يا حيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ، ما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم فى كتابه الكريم : ﴿ والسء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ (١) .

ويقول سبحانه : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شء ﴾ (٢) .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ (٣) .

- ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ (٤) .

- ﴿ وجعلنا السء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾ (٥) .

- ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى

من فطور ﴾ (٦) .

- ﴿ أنتم أشد خلقا أم السء بناها رفع سمكها فسواها ﴾ (٧) .

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ (٨) .

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً ﴾ (٩) .

- ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد

كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك

يسبحون ﴾ (١٠) .

- ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ (١١) .

فتعال يا حيران ننظر كما أمر الله سبحانه ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما فى هذه السء من شء

مخلوق بلا تفاوت ، وبنیان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، وإلى

ما هى عليه هذه السء من سعة تستحق ان يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية : ﴿ والسء بنيناها

بأيد وإنا لموسعون ﴾ وإلى ما فى بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من ( مواقع )

تستحق ان تكون محلا للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم بماذا أحدثك عن سعة السء يا حيران . . ؟

ان السعة التى عرفها العلم اليوم من السء لم تكن تخطر على قلب بشر فى العصر الذى نزل فيه القرآن .

أنت تعلم ان الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل ( أو ٣٠٠ ألف كيلو متر ) أى أنه يقطع فى

الدقيقة ( ١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل ) وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع ( ستة ملايين مليون ميل أو

ستة آلاف مليار ميل تقريبا ) بهذه المسافة هى التى اصططلحوا على تسميتها ( السنة الضوئية ) ليعبروا بها

(٧) سورة النازعات آية رقم ٢٧ ، ٢٨

(٨) سورة فاطر آية رقم ٤١

(٩) سورة الفرقان آية رقم ٦١

(١٠) سورة يس الآيات من رقم ٣٨ - ٤٠

(١١) سورة الواقعة الايتان ٧٥ ، ٧٦

(١) سورة الذاريات آية رقم ٤٧

(٢) سورة الاعراف آية رقم ١٨٥

(٣) سورة ق آية رقم ٦

(٤) سورة الرعد آية رقم ٢

(٥) سورة الانبياء آية رقم ٣٢

(٦) سورة الملك آية رقم ٣

عن أبعاد السماء الهائلة ؟ فمتى قيل لنا إن نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، يا حيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية إلى الأرض ، يصل نوره إلينا في أقل من ثانيتين ؛ لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا اما الشمس فيصل نورها إلينا في نحو ٨ دقائق لأن بعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريبا . فهل تدرى يا حيران كم يبعد عنا أقرب نجم إلينا بعد الشمس ؟

حيران : اذكر انى تعلمت فى المدرسة ان نور الشمس يصل إلينا فى ٨ دقائق ولا أذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ : ان اقرب نجم إلى الارض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريبا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريبا .

حيران : هذا شيء هائل .

الشيخ : هذا شيء تافه يا حيران ، فوراء ذلك ( النسر الطائر ) الذى يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، ( والنسر الواقع ) الذى يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و ( الشمال الراح ) الذى يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى ( ٢٩٤ مليون مليون ميل ) تقريبا .

حيران حقا إن ذاك شيء تافه ، فهذا هو الهائل ، الشيخ - وهذا ايضا تافه يا حيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجراتنا هذه سدم منها سديم ( المرأة المسلسلة ) الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو أبعد فى تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا يا حيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذى عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله : ﴿ والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون ﴾ .

حيران : سبحان الخلاق العظيم .. سبحانه .

الشيخ : هذا فى سعة السماء ، أما عدد النجوم فماذا أحدثك ؟ إنهم فى الماضى كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم صاروا يعدونها الى مليارين - اما اليوم فإنهم يقدرّون عدد النجوم فى المجرة التى نحن من عالمها بثلاثين مليارا .

حيران : ثلاثون مليارا فى مجرتنا وحدها .

الشيخ : نعم ثلاثون مليارا فى مجرتنا هذه التى تسمى عندنا ( درب التبان )

وتسمى عند الافرنج ( الدرب اللبنة ) . وهذه المجرة ، التى يقع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم .

ومن جملته سديم المرأة المسلسلة بل عوالم السدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير ( ٥٠٠ ) ألف سديم ، ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اتقانا ، لرأينا أكثر من مليون سديم . حيران : ياللهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ : وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك يا حيران ... ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع

لا تبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها ( الثوابت ) ، ومنها شمسنا . . وما هي بثوابت كما حقق العلماء في هذا العصر ، بل كلها تدور وتجرى ، لمستقر لها في مجريين مختلفين ، متداخل أحدهما في الآخرة ، كأنها فوجان من النحل مختلطان .

، ولكن هذا الجرى يتم ويستمر في مواقع ومدارات لا تبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذى كان محل القسم العظيم .

حيران : والشمس تجرى معها أيضا ؟

الشيخ : كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة ، إنها تجرى مثلها ومعها أيضا ساحبة وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الأرض .

حيران : فرج الله عنك يامولاي كما فرجت عني . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخي في معنى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ .

الشيخ : ألم تتعلم يا حيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجرى ، والشمس معها تدور وتجرى إنهم عرفوا من قبل ، أنها تدور على محورها مرة في مدة ٢٦ يوما ، ولكنهم كان يحسبونها ثابتة لا تتقل ولا تجرى ، أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتها لا ريب فيه ، أنها تجرى ، وان النظام الشمسى كله يجرى في السماء ، كما تجرى كل النجوم في مجرتنا وفيها وراءها جريا عجيبا لمستقر لها ، كما قال القرآن . ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقدارا ثابتة .

مقدرة بحسب نورها وعددها ! عدوا منها في الماضى البعيد ستة اقدار ووقفوا ، ثم مازال العلم يكشف الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ثم إلى القدر الحادى والعشرين . والعجيب في هذه الاقدار انها تسير متريقة أو متدنية بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ، في نسب مذهشة تطرد في عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ في القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ في القدر الحادى والعشرين مليارى نجم . اما في قوة النور ، فالعجيب ان قوة النور في تلك الاقدار ، تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ، واما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور في التضائل .

وترى مثل هذا التناسب بين الأبعاد في عالم الشمس . فأنت تعلم أن في المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنبتون فزحل فالمشتري ، ثم بلوتو الذى كشفوه منذ ثلاثين سنة ( وهو كوكب شاذ في صغر حجمه وفي بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعا لإبطال النسبة العجيبة التى سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس ) . هذا في ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتى على ترتيب آخر : فأقربها عطارد الذى يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهرة

ومتوسط بعدها ٦٧ مليوناً ، فالأرض ومتوسط بعدها ٩٣ مليوناً ، فالمرخ وبعده ١٤٢ مليوناً ، فالمشتري وبعده ٤٨٤ مليوناً ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليوناً فأورانوس وبعده ١٧٨٢ مليوناً ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليوناً من الأميال .

وما ذكرت هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه في أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرت لأعرفك بما تنطوي عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطرده تسير وفق ( ٩ ) منازل : أولها ( الصفر ) ثم نليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد ( ٣ ) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : ( ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ - ٣٨٤ ) .

فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد ( ٤ ) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التي في منزلة العدد ، عن الشمس . أى أنه بإضافة ( ٤ ) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : ( ٤ - ٧ - ١٠ - ١٦ - ٢٨ - ٥٢ - ١٠٠ - ١٩٦ - ٣٨٨ ) : فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس ( ٣٦ ) مليون ميل كما سبق القول ، وبما ان منزلته في البعد هي الأولى ، فيكون رقمها ( ٤ ) فإذا ضربنا  $٩ \times ٤$  ملايين يكون حاصل الضرب ( ٣٦ ) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة . ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التي اكتشفوها في تفاوت الأبعاد تسع منازل في حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا أن منزلة العدد ( ٢٨ ) ليس فيها كوكب ، بل يأتي ، بعد المرخ صاحب العدد ( ١٦ ) ، كوكب المشتري الذي هو صاحب العدد ( ٥٢ ) . فما هو السر في هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور في مرتبة العدد ( ٢٨ ) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المرخ والمشتري .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا أخيراً في هذا الفراغ الشيء الذي قدروا انه لابد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكباً كبيراً بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المرخ والمشتري ، أى في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة فهل هذا التناسب في مواقع النجوم وأقذارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران ؟

حيران : زدنى يامولاي من هذه العجائب زدنى .  
الشيخ : ماذا أزيدك ، خذ لك كتاباً من كتب الفلك واقراه تزدد إيماناً وخشوعاً يا حيران . بماذا أحدثك ؟ أحدثك عن أحجام النجوم والشموس التي تبهر العقول ؟ أحدثك عن الأضواء التي تبهر الأبصار . . . . ؟ وما قولى تبهر الأبصار كأنى أحدثك عن شمسنا .

حيران : إذن فهناك نجوم أبهر نورا من شمسنا وأكبر .

الشيخ : وما هي شمسنا هذه يا حيران في نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء ( ثلاثة آلاف مليون مليون مليون شمس ) ، ولكن ما قولك إذا عرفت

أن نور النجم المسمى ( الشعري اليمانية ) أقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة . . . وإن هنالك ، في النجوم البعيدة ، شمساً نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة . . . .  
حيران - ياللهول !

الشيخ : وما قولك إذا عرفت ان العلم اكتشف اليوم أن هنالك نجوماً نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة . . . ؟  
حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : الهول الهائل في أحجام النجوم الكبرى وأوزانها يا حيران .  
فحجم أرضنا هو أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب ، والشمس في حجمها أكبر من أرضنا ( بمليون و ٣٠٠ ألف مرة ) . لأن متوسط قطر الأرض هو ( ١٢٧٥٦ ) كيلو متراً في حين أن متوسط قطر الشمس هو : ( مليون و ٣٩٠ ألف ) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض إلى قطر الشمس كنسبة ( واحد إلى ١٠٩ ) . ومن المعلوم أن أحجام الكرات تتناسب وكعوب أقطارها . فيكون حجم الشمس ( ١٠٩ مكعبة ) أى ( مليون و ٣٠٠ ألف مرة ) أكثر من حجم الأرض .  
وأرضنا هذه وزنها ( خمسة آلاف مليون مليون مليون ) طن . أما الشمس فلا يستطيع أن أقول لك كم وزنها ، ولكن أقول لك ان كتلة الشمس (masse) أى وزنها أكبر من كتلة الأرض بمقدار ( ٣٣٢ ألف ) مرة فاضرب وزن الأرض بـ ( ٣٣٢ ألف مرة ) وانظر هل تستطيع أن تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعد أن عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة للأرض فإنى مخبرك ان قطر النجم المسمى ( منكب الجوزاء ) هو أطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه إذن أعظم من حجم الشمس ( بمائة مليون مرة ) تقريباً .  
حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : وهذا أيضاً ضئيل وتافه بالنسبة إلى حجم ( سديم المرأة المسلسلة ) الذى يضرب العلماء مثلاً ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم الشمس ، فيقولون لك : ( هذه الهباءة من الغبار التى تراها في شعاع الشمس النازل من الكوة إلى أرض غرفتك كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس إلى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس الى سديم المرأة المسلسلة ، وحق لهم ان يضربوا هذا المثل ، فان كتلة سديم المرأة المسلسلة ، أى وزنها يفوق قدر كتلة الشمس بنحو ( ألف مليون مرة ) . أما حجمه يا حيران فأعظم بكثير . . فلكى تعرف ما هو حجم سديم المرأة المسلسلة بالنسبة إلى حجم الشمس ، يجب أن تعرف مقدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذى سبق معك ان طولاه مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر ، فهل تدري كم هو طول قطر سديم المرأة المسلسلة ؟ إنه يبلغ نحو ٣٠ ألف سنة نورية . . أى أن حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس ( مليون مليون مليون مليون مرة ( أو الف مليار مليار مليار مرة . )

حيران : ياللهول الهائل . . سبحانه الله العظيم . . . كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة

في الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ : يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ ويقول لك : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ .  
أما العلم فيقول إن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التي شاهد العلماء آثارها ، وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد أسرارها . . . ولعمري انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم اثرا من آثار المصادفة العمياء يا حيران . . . ؟  
﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (١) .

### عباد الرحمن

وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾  
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾  
وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خُلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ

رَبِّ لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧﴾

### معاني المفردات

الهُون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون في سكينه ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ،  
الجاهلون : أى السفهاء  
سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لاسلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سلام عليك »  
يبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلعا .  
غراما : أى هلاكاً لازماً ، قال الأعشى  
إن يعاقب يكن غراما وإن يعط جزىلا فإنه لا يبالى  
الاسراف :- مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .  
التقتير : التضييق والشح  
قواما : أى وسطا عدلا

لا يدعون : أى لا يشركون  
الآثام : الاثم والمراد جزاؤه  
مهانا : أى ذليلا مستحقرا  
لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .  
واللغو ما ينبغى أن يلغى ويطرح عما لا خير فيه .  
كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه  
الخرور : السقوط على غير نظام وترتيب .  
قرة العين : يراد بها الفرح والسرور .  
الامام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .  
الغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة .  
ما يعبا بكم : أى لا يعقد بكم .  
دعاؤكم : أى عبادتكم .  
لزاما : أى لازماً يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

### المناسبة وإجمال والمعنى

بعد أن وصف الكافرين بالاعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود لمعز اسمه - ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين وبين ما لهم من فاضل الصفات ، وكامل الاخلاق ، التى لأجلها استحقوا



جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ، وقد عد من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ ولا تمس في الأرض مرحا ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما من صبيب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شاباً يمشى رويداً ، فقال ما بالك أنت مريض ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فعلاه بالدرة وامره ان يمشى بقوة، وإنما بالمراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ ( إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما أدركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا ) .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله ( وعباد الرحمن ) قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة .

قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاضم في نفوسهم بشيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه . وقوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ أى إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيد شدة الجاهل عليه إلا حلماً ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ .

وروى الامام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن المزني قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله ﷺ : ( أما إن ملكاً بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به ) (١) .

وقال مجاهد ( قالوا سلاما ) يعنى قالوا: سدادا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفًا من القول ، وقال الحسن البصرى ، قال سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ أى فى طاعته وعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (١) وقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (٣) .

### فضل قيام الليل

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ( يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان ) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .  
وابن ماجه وقال : ( فيصبح نشيطا طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وإن لم يفعل أصبح كسلا خبيث النفس لم يصب خيرا ) (٤) رواه ابن خزيمة فى صحيحه ونحوه .  
وزاد فى آخره : فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين .

المعنى : -

[ قافية ] الرأس : مؤخره ومنه سمي آخر بيت الشعر قافية .

يعقد : أى يأتى بأشياء حقيقية وينويها ويثبتها ويسحر عليها ، كى تمنع الانسان من القيام من نومه ، ليعبد ربه ، كما يعقد الساحر من سحره . قال العينى واكثر ما يفعله النساء : تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليها بالكلمات ، فيتأثر المسحور عند ذلك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابنا الكريم : ﴿ ومن شر النفثات فى العقد ﴾ (٥) فالذى خذل يعمل فيه ، والذى وفق يصرف عنه ، والدليل على كونه على الحقيقة ما رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر من طريق صالح عن أبى هريرة مرفوعا ( على قافية رأس أحدكم حبل فيه ثلاث عقد ) (٦) إلى أن قال بعضهم : هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه ، فكأنه يوسوس بأن

(١) الذاريات الآية رقم : ١٧ ، ١٨

(٢) السجدة الآية رقم : ١٦

(٣) الزمر الآية رقم : ٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١٢ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم / ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين رقم

٢٠٧ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم / ١٨ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم

٩٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٣ .

(٥) سورة الفلق الآية رقم ٤

(٦) الحديث رواه ابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٣

عليك ليلا طويلا ، فيتأخر عن القيام بالليل ، وقال صاحب النهاية : المراد تثقيله في النوم وإطالته ، فكأنه قد سد عليه سدا وعقد عليه عقدا .

يضرب : يمر بيده ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول والعجز والتقصير عن الطاعات ، وتحصيل الدرجات ، ونيل الحسنات وكسب الخيرات ، وقيل يضرب بالرقاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فضربنا على آذانهم في الكهف ﴾<sup>(١)</sup> ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ قائلا عند كل ضربة : نم ليالك طويل .

فارق : نم واهدا .

فأصبح : يستقبل يومه بسرور ، وصباحه بحبور ، ويكورته بفرح جزيل ، قوى البنية ، منشرح الصدر ، باسم الثغر ، مثلوج الفؤاد ، قرير العين ، لان الله تعالى وفقه لطاعته ، وجلب المحامد ، وكسب المحاسن ، وقد بارك له في وقته وفي نفسه وتصرفه الحسن ، وأزال سلطان الشيطان عليه وقهره .

وإلا : وإن ترك ما كان اعتاده أو نواه من فعل الخير ، ولم يقم من نومه ، يتعجد ، طلع النهار وعليه الغضب والخبث (كسلان) ببقاء أثر تشييط الشيطان عليه ، قال الكرمانى : وأعلم أن مقتضى (وأصبح) أن من لم يجمع الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة ، فهو داخل تحت من الصباح خبيث النفس كسلان وإن أتى ببعضها ، وقال العيني : وإن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ، يصبح خبيث النفس كسلان ؟ وفيه أن الذكر يطرد الشيطان ، وكذا الوضوء والصلاة ، ويجزىء كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، ولا تحل عقدة الجنب إلا بالاغتسال .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من ذكر ولا أثنى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا قام توضأ وصلى ، انحلت العقد وأصبح خفيفا طيب النفس قد أصاب خيرا )<sup>(٢)</sup> . رواه ابن خزيمة في صحيحه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل )<sup>(٣)</sup> . رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة في صحيحه .

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : ( أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام )<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى

(١) سورة الكهف الآية رقم : ١١

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢ / ١٧٥ - ١٧٦ رقم ١١٣٣ ، كتاب الصلاة قال أبو بكر ابن خزيمة : الجرير : الحبل .

(٣) الحديث رواه مسلم في كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، والترمذى في ابواب المواقيت رقم ٢٠٧ ، والنسائى في كتاب قيام الليل رقم ٦ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٣٤٤

(٤) الحديث رواه الترمذى في أبواب القيامة رقم ٤٢ ، وابن ماجه في أبواب القيامة رقم ١٧٤ ، وفي ابواب الاطعمة رقم ١ ، والدارمى في كتاب الصلاة رقم ١٥٦ ، وفي كتاب الاستئذان رقم ٤ ، وأحمد ٥ / ٤٥١ .

## المعنى

أفشوا : اكثروا من رمية على من عرفت ومن لم تعرف ، والسلام من الله الأمان والرحمة .  
 أطعموا الطعام : اكثروا من إطعام الطعام والجلود والكرم وبذل المعروف وإيواء الجائع .  
 وصلوا الأرحام : زوروا أقاربكم وودوهم بصلة وهدية وساعدوهم وأعينوهم واستجلبوا رضاهم .  
 وصلوا بالليل : - تهجدوا

بسلام : بلا عذاب

انجفل الناس : أى أسرعوا ومضوا كلهم .

استبنته : أى تحققته وتبينته .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال ابو مالك الأشعرى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام )<sup>(١)</sup> رواه الطبرانى فى الكبير

## المعنى

أطاب الكلام : أحسن القول ، وأبش وجهه ، وطاب كلامه ، وعذب لفظه ، وكثر خيره ، وعم بره ولطفه ، وجل أدبه وعظم حياؤه ، ورق شعوره ودق إحساسه .  
 بات قائما : يذكر الله تعالى ، ويتهجد ويعبد ربه فى ليله ، والناس نائمون ، وأفشوا فعل أمر : أى أظهره برفع الصوت ، وأن تسلم على كل من لقيته من المسلمين وإن لم تعرفه ، وبذل الطعام أن تصدق بما فضل عن نفقة من تلزمك نفقته .

قال النووى : السلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودة ، وفى إفشائه تمكين ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم من غيرهم من أهل الملل ، مع ما فيه من رياضة النفوس ، ولزوم التواضع ، وإعظام حرمان المسلمين .

وبه يزول التنافريأخى المسلم فسلم ، لتدوم المحبة وتجتمع القلوب ، فعليك به ، اجعله تحيتك لأهل بيتك وللمسلمين ، وإفشاؤه سبب رضاء الله تعالى عن عبده ، ويثيب عليه ، قال ﷺ : ( أفشوا السلام فإنه لله تعالى رضا ) رواه عمر بن الخطاب .

وعن أبى الدرداء ( أفشوا السلام كى تعلوا ) حديث حسن أى إذا أفشيتم السلام تحاببتكم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام )<sup>(٢)</sup>

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن والحاكم وقاله صحيح على شرطهما . ( الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤ )

(٢) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ٦٨ رقم ٦٤١ .

رواه ابن حبان في صحيحه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله إني إذا رأيتك طابت نفسي وقرت عيني أنبئني عن كل شيء ، قال : ( كل شيء خلق من الماء فقلت أخبرني بشيء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام )<sup>(١)</sup> رواه احمد وابن أبي الدنيا .  
المعنى : -

طابت : فرحت وظهرت واستبشرت وطابت نفسه بالشيء : إذا سمحت به من غير كراهة ومنه الحديث أنه قال لعمار : « مرحبا بالطيب المطيب » أى الطاهر المطهر .  
وقرت : سرت ومنه حديث « لو رأيك لقرت عيناه » أى لسر بذلك وفرح وحقيقته : أبرد الله دمعة عينيه لأن دمعة الفرح والسرور باردة ) .  
وقيل : معنى أقر الله عينك بلغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره .

أنبئني : - أخبرني

كل شيء خلق من ماء : - الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم وكل شيء خلق منه وفي قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾<sup>(٢)</sup>

قيل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه موضوع على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء .  
وروى عن على رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فطير بهم حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة يارب بما بلغ عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم : كانوا يصلون بالليل ، وكنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجنبون<sup>(٣)</sup> رواه ابن أبي الدنيا  
المعنى : -

لا تروث : لا تنزل ثغلا للطعام

خطوها : أى مقدار الخطوة الواحدة نهاية امتداد البصر فى الآفاق ، بمعنى أنها تنهب الأرض نهباً وتطويها طياً بقدرة الله تعالى ، لتظهر البهجة والرواء والعزة والنعيم ، وتذهب إلى أى مكان أراداه أهل الجنة ، فيراهم من هم أقل منهم عملاً صالحاً فى دنياهم ، ويسألون الله - عز وجل - عن سبب هذا

(١) الحديث رواه أحمد ٢/٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ ورواه أيضاً ابن أبي الدنيا فى كتاب التهجد، وابن حبان فى صحيحه، والحاكم وصححه (الترغيب والترهيب ١/٤٢٥)

(٢) سورة هود الآية رقم ٧

(٣) الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٥

النعيم ، فيفضل المولى تبارك وتعالى بالاجابة بفضل التهجد ، وصيام النافلة ، وكثرة الصدقات ، وعمل مشروعات الخير ، وإعانة المحتاج والافتاق في البر والجهاد في إعلاء دين الله ، والشجاعة في إظهار الحق ، والمروءة في العدل والشمم في نصر الدين ، والدفاع عن شرع الرسول ﷺ .  
وروى عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : ( يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة فينادى مناد فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب )<sup>(١)</sup> رواه البيهقي .  
المعنى : -

صعيد واحد : وجه الأرض أى مستوى .  
تتجافى جنوبهم : يستيقظون ويهجرون فراش النوم في السحر وفيه دليل على أن التهجد يمنع من الحساب .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقبل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : ( أفلا أكون عبدا شكورا )<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم والنسائي .  
المعنى : -

تورمت قدماه : أصابها ورم وانتفاخ ، وفي النهاية انتفخت من طول قيامه في صلاة الليل ، يقال : ورم يرم ، والقياس يورم وهو أحد ما جاء على هذا البناء .  
وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ، فقبل له : أى رسول الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله ان قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : ( أفلا أكون عبدا شكورا )<sup>(٣)</sup> رواه ابن خزيمة في صحيحه  
المعنى :

ترم : فعل مضارع مبنى للمجهول وترم بكسر الراء . من ورم جلده يرم تورم وورمه غيره توريبا .  
وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : ( أفلا أحب أن أكون عبدا

(١) الحديث أورده المنذرى في الترغيب والترهيب بصيغة التمريض ( روى ) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ كتاب الصلاة - الترغيب في قيام الليل وعزاه للبيهقي .

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير ( سورة الفتح ) ( فتح البارى ١٠ / ٢٠٦ ) ومسلم في كتاب صفات المؤمنين واحكامهم ( صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢ ) ، النسائي ١ / ٢٤٤ كتاب قيام الليل وتطوع النهار ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، الترمذى ( تحفة الأحوذى ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١ ) ، البيهقي في السنن الكبرى ٣ / ١٦ كتاب الصلاة ، باب من وثق بنفسه فشدد على نفسه بالعبادة .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٠١ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٨٤

شكورا<sup>(١)</sup> رواه البخارى ومسلم

المعنى :

تتفطر : أى تتشقق وتتألم من كثرة الوقوف .

عبدا شكورا : بينه ﷺ بأنه يتهجد ثلث الليل ويكثر من صوم التطوع . قال الشرقاوى : أى أترك قيامى وتهجدى لما غفر لى ( فلا أكون عبدا شكورا ) . يعنى أن غفران الله لى سبب لأن أقوم وأتهجد شكرا له فكيف أتركه : كأن المعنى ألا أشكره وقد أنعم على وخصنى بخير الدارين ، فان الشكور من أبنية المبالغة يستدعى نعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الاكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثم وصفه به فى مقام الاسراء ولأن العبودية تقتضى صحة النسبة ، وليست الا بالعبادة والعبادة عين الشكر ، وفيه أخذ الانسان على نفسه بالشدة فى العبادة ، وهو أفضل إن لم يخش الملل ؛ لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله وأثقلت ظهره الأوزار ، ولا يأمن غدا النار .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ( أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما )<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

المعنى : -

يقوم ثلثه : وقت تجلّى الرب تبارك وتعالى على عباده .

ينام سدسه : ليستريح من تعب القيام فى بقية الليل ، وإنما كان هذا أحب إلى الله تعالى ، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السامة المؤدية إلى ترك العبادة ، والله يحب أن يوالى فضله ويديم إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ؛ لأن النوم بعد القيام ، يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، ولأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الاخير ، أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أنه يخفى عمله الماضى على من يراه . أشار إليه ابن دقيق العيد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة )<sup>(٣)</sup> رواه مسلم

المعنى :

قال النووى : فيه إثبات ساعة الاجابة فى كل ليلة ، ويتضمن الحث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير ( سورة الفتح ) فتح البارى ٣ / ٢٥٦ باب قيام النبى ﷺ بالليل ، ومسلم ( صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢ ) كتاب صفات المؤمنين وأحكامهم ، إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ٧ / ، وفى كتاب الانبياء رقم ٣٨ / ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ١٤ / ، وفى كتاب الصيام رقم ٦٩ ، وابن ماجه فى أبواب الصيام رقم ٣١ ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧ .

أيها المكروب . إذا أصابك هم فالجأ إلى الله تعالى ، واستيقظ من نومك سحرا ، وتوضأ وصل ركعتين لله نافلة ، وتضرع إليه جل وعلا عسى أن تصادفك ساعة الاجابة ، فيزيل الله كربك ويشرح صدرك ، ويذهب عسرك ويبعد ضيقك .

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ( عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم )<sup>(١)</sup> رواه الترمذى .  
المعنى :

دأب : العادة والشأن من دأب العمل : جد وتعب .  
مكفرة للسيئات : سبب تغطية الذنوب وسترها ومزيلها وفي النهاية أصل الكفر : تغطية الشيء تغطية تستهلكه ومنه ( من ترك الرحي فنعمة كفرها ) .

منهاة : أى مبعدة وفي النهاية أى حالة من شأنها ان تنهى عن الاثم ، أو هى مكان مختص بذلك ، وهى مفعلة من النهى والميم الزائدة والنهى العقول واحداثها نية بالضم ، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح .

نعم إن الذى تعود أن يقف بين يدي ربه يناجيه بلسان الاخلاص شرح الله صدره للعبادة فظهر نفسه من أدران الحياة ، فيتحرى الصالحات فيعملها .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم ، ومطرده للداء عن الجسد )<sup>(٢)</sup> رواه الطبراني في الكبير  
المعنى : -

مقربة : يفتح لكم أبواب رحماته ، ويتجلى عليكم برضوانه ، فيستجاب دعاؤكم وتشعرون بالرضا .

مطرده : - فى النهاية ( هو قربة إلى الله تعالى ، مطردة الداء عن الجسد ) أى أنها حالة من شأنها إبعاد الداء ، أو مكان يختص به ويعرف ، وهى مفعلة من الطرد . إن هذا وصف طيب النفوس ، من قام ليله صفا جسمه ، وملك صحته ، وأزال الله مرضه ، وحسبك الالتجاء إلى الحكيم الخالق أن يشفيه ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقن وإذا مرضت فهو يشفين ﴾<sup>(٣)</sup>  
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت . وأيقظت

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ١٠١ ، ورواه أيضا ابن خزيمة فى صحيحه ١٧٦ / ٢ - ١٧٧ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٣٥

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى المجمع وعزاه للطبراني فى الكبير وقال : وفيه عبد الرحمن بن سليمان بن أبى الجون وثقه دحيم وابن حبان وابن عدى وضعفه ابو داود وابو حاتم ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥ ) وأورده أيضا بلفظ : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهاة عن الاثم .  
- وقال : رواه الطبراني فى الكبير والوسط عن أبى أمامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث ، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث : ثقة مأمون وضعفه جماعة من الأئمة أ هـ

(٣) سورة الشعراء الآيات رقم : ٧٨ - ٨٠



زوجها ، فإن أبي نضحت في وجهه الماء<sup>(١)</sup> رواه أبو داود

المعنى :-

نضح : أن يأخذ قليلا من الماء فيرش به ، وقد نضح عليه الماء ونضح به : إذا رشه عليه ، وفيه من السنن العشر الانتضاح .

أي يرش مذاكيره بعد الوضوء لينفى عنه الوسواس ، يدعو النبي ﷺ لمن استيقظ ليتجهجد فيوقظ  
زوجه بالرحمة والخير ، وشموله بالبركة والرضوان فإذا فتر الصديق ، أو كسل عن اليقظة ، أتى خليله  
وخدنه بقليل من الماء يمره على وجهه ، ليزول نومه ، ويبعد كسله ، ويملك شعوره ، ويتعاونان على  
عبادة الله . هذه التربية العالية أيها المسلمون أن يتفق الرجل وزوجه على طاعة الله ، وبذا توجد الثقة  
والاطمئنان ويدوم العيش الرغد ، وترفرف السعادة بين المتألفين ، وحسبك أنها في ظل الله يوم  
القيامة ، وهما أحد السبعة ( اجتماعا عليه وتفرقا عليه ) وقد دعا ﷺ أيضا للزوجة إن استيقظت للعبادة  
ودعت زوجها النائم للتجهد أن الذي يفعل ذلك بتعاليم القرآن عمل لآخرته ، ودخل في زمرة من  
قال الله فيهم : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين  
يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾<sup>(٢)</sup> . يقول البيضاوي ( مبارك ) كثير النفع  
والفائدة ، مصدق الكتب التي قبله أو التوراة ، ولينذر أهل مكة ، وأهل الشرق والغرب ، فإن من  
صدق بالآخرة خاف العقابة ، ولا يزال الخوف يحمله على التدبر والنظر ، حتى يؤمن بالنبي ﷺ  
والكتاب والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الإيمان .

وروى الطبراني في الكبير عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما  
من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غلبها النوم نضح في وجهها الماء ، فيقومان في بيتهما  
فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل إلا غفر لهما )<sup>(٣)</sup>

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : ( إذا أيقظ الرجل أهله من  
الليل فصليا ، أو صلى ركعتين جميعا ، كتبنا في الذاكرين والذاكرات )<sup>(٤)</sup> رواه أبو داود  
وعن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( فضل صلاة الليل على صلاة النهار  
كفضل صدقة السر على صدقة العلانية )<sup>(٥)</sup> رواه الطبراني

المعنى :-

فضل : ثواب والمعنى المحافظة على التهججد تسبب حسنات لمصليها جمة ، لبعدها عن الرياء ،

(١) الحديث رواه أبو داود في كتاب التطوع رقم / ١٨ ، وفي كتاب الوتر رقم / ١٣ ، والنسائي في كتاب قيام الليل رقم / ٥ ، واحد  
في مسنده ٢ / ٢٥٠ ، ٤٣٦

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٢

(٣) جمع الجوامع ١ / ٧١٧ - قال الهيثمي : وفيه محمد بن اسماعيل بن عياش وهو ضعيف ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٣ )

(٤) الحديث رواه أبو داود في كتاب الوتر رقم / ١٣ ، وابن ماجه في أبواب الاقامة رقم / ١٧٥

(٥) الحديث رواه ابن المبارك في الزهد والطبراني في الكبير وابو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال الهيثمي ورجاله  
ثقات أ هـ وخرجه البيهقي باللفظ المذكور وصححه وقفه ( فيض القدير ٤ / ٤٣٦ رقم ٥٨٧٢ ، مجمع الزوائد ٢ / ٢٥١ )

ولمجاهدة النفس في ترك لذة النوم ، وطلب مناجاة الرب جل وعلا ، وقال المناوى : يؤخذ منه أن المقتدى به المعلم غيره صلاة النهار في حقه أفضل ، كما في إظهار المقتدى به الصدقة بقصد أن يتبعه الناس .

وقد علق عليه الشيخ الحنفى : يؤخذ من هذا التشبيه ، أنه لو كان يصلى في النهار ، لقصد تعليم الناس ، أو ليقضى به غيره ، كان أفضل من صلاة الليل ، كما أن صدقة العلانية حينئذ أفضل . وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : ( أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وتراً )<sup>(١)</sup> رواه الطبرانى والبخارى .  
المعنى : -

نصلى من الليل : صلاة التهجد وبعد ذلك نختم بالوتر . هذا في حق من أنس القيام بالليل وضمن اليقظة وأمن الغفلة .

وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال : ( صلاة في مسجدي تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل )<sup>(٢)</sup> رواه ابو الشيخ بن حبان في كتاب الثواب  
المعنى : -

مسجدي : مسجده ﷺ بالمدينة : ثواب الركعة فيه مضاعف حسنات تساوى هذا العدد في غيره .

المسجد الحرام : - بمكة

أرض الرباط : - المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون

جوف الليل : - وسطه ، والمعنى أن ثواب الركعتين مضاعف الأجر كثير الثواب . وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا بد من صلاة بليل ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل )<sup>(٣)</sup> رواه الطبرانى  
المعنى : -

حلب : - أى تصلى في وقت قدر إخراج اللبن من ضرع الشاة : أى في نحو خمس دقائق . الليل : - بعد راحة وفتور الجسم ، وأخذ قسطاً ، ولو قليلاً من النوم ولا يعد التهجد إلا بعد القيام من نومه . قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى في الأوسط والكبير وابو يعلى - وللإسناد في رواية : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نصلى كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة نحوه - وإسناده ضعيف - قاله الهيثمى ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ )

(٢) الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٠ كتاب الصلاة - الترغيب في قيام الليل .

(٣) الحديث رواه الطبرانى في الكبير ، قال الهيثمى : وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ )

(٤) سورة السجدة آية رقم ١٦ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فذكرت قيام الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : (نصفه ثلثه ربه ، فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة) <sup>(١)</sup> رواه ابو يعلى وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ، ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة) <sup>(٢)</sup> رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط المعنى : -

أمره ﷺ للندب ، والترغيب فى قيام الليل ، وذكر الله وتسبيحه وعدم غفلة المسلم، وكنت واقفا أمام سيدنا الحسين رضى الله عنه فجاءنى رجل أعده وليا من أولياء الله ، وأكثر من ذكر هذه الجملة ( من كثر دمه كثر نومه ، ومن كثر نومه فالتار أولى به ) .

فأيقنت أن هذا يخاطب الجمهور ، ولكن يعلمنى لعل أفقه فاعمل . وعن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : ( جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد : عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) <sup>(٣)</sup> رواه الطبرانى فى الأوسط المعنى : - عن الناس :

سيدنا جبريل عليه السلام يعطى درسا لأشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، ليرشد أمته ﷺ ان العمر وإن طال فمآله الفناء ، وكل محاسب على عمله ، إن خيرا وإن شرا مجازى به ومستول عنه ، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلّى بمكارم الأخلاق ، ليكسب الانسان الذكر الحسن بعد فراقه ﴿ كل من عليها فان ﴾ <sup>(٤)</sup> وأخبر أن التهجد رفعة ، ورقى ومحامد ، والعز عدم سؤال أى مخلوق . أشرف : -

كرماء وفضلاء وأعاضم وأسياد أمتى الذين يحفظون القرآن ، ويعملون بأوامره ، ويجتنبون مناهيه ، ويصونون قراءته عن الابتذال ، ويتحرون أماكن النظافة والمستمعين ويكونون قدوة حسنة وأسوة صالحة .

أصحاب الليل : - المتجهدون العابدون الذاكرون المستغفرون . وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من صلى منكم من الليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتستمتع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء وجيرانه فى مسكنه ، يصلون بصلاته ويستمعون قراءته ، وإنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين وإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يهتدى بها أهل السماء كما يهتدى بالكوكب الدرى فى لجج البحار وفى الأرض القفر ، فإذا مات صاحب القرآن

(١) الحديث رواه ابو يعلى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبدالله وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه زافر بن سليمان ، وثقه احمد وابن معين وابو داود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣)

(٤) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦

رفعت تلك الخيمة ، فتنظر الملائكة من السماء ، فلا يرون ذلك النور . فتلقيه الملائكة من سماء إلى سماء فتصلي الملائكة على روحه في الأرواح ، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه ، ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم يبعث ، وما من رجل تعلم كتاب الله ، ثم صلى ساعة من ليل ، إلا أوصت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة ، أن تنبهه لساعته وأن تكون عليه خفيفة ، فإذا مات وكان أهله في جهازه ، جاء القرآن في صورة حسنة جميلة فوقف عند رأسه ، حتى تدرج في أكفانه فيكون القرآن على صدره دون الكفن ، فإذا وضع في قبره وسوى وتفرق عنه أصحابه ، أتاه منكر ونكير عليهما السلام فيجلسانه في قبره فيجىء القرآن حتى يكون بينه وبينهما ، فيقولان له : إليك حتى نسأله ؟ فيقول : لا ورب الكعبة إنه لصاحبى وخليلى ولست أخذ له على حال ، فإن كنتما أمرتما بشيء ، فامضيا لما أمرتما ودعاني مكانى ، فإنى لست أفارقه حتى أدخله الجنة ، ثم ينظر القرآن إلى صاحبه فيقول : أنا القرآن الذى كنت تجهز بى وتخفينى وتحببى ، فأنا حبيبك ومن أحببته أحبه الله ليس عليك بعد مسألة منكر ونكيرهم ولا حزن ، فيسأله منكر ونكير ويصعدان ويبقى هو والقرآن ، فيقول لأفرشك فراشا لنا ، ولأدثرنك دثارا حسنا جميلا بما أسهرت ليلك وأنصبت نهارك .

قال : فيصعد القرآن إلى السماء أسرع من الطرف ، فيسأل الله ذلك له ، فيعطيه ذلك فيجىء القرآن فينزل به ألف ألف ملك من مقرى السماء السادسة فيجىء القرآن فيحييه فيقول : هل استوحشت ما زدت منذ فارقتك أن كلمت الله تبارك وتعالى ، حتى أخذت لك فراشا ودثارا ومصباحا ، وقد جئتكم به فقم حتى تفرشك الملائكة عليهم السلام . قال : فتنهض الملائكة إنهاضا لطيفا ثم يفسح له فى قبره مسيرة أربعمائه عام ، ثم يوضع له فراش بطانته من حرير أخضر حشوه المسك الأذفر ، ويوضع له مرافق عند رجله ورأسه من السندس والاستبرق ، ويسرج له سراجان من نور الجنة عند رأسه ورجليه يزهران إلى يوم القيامة ثم تضعه الملائكة على شقه الايمن مستقبل القبلة ثم يؤتى بياسمين الجنة وتصعد عنه ويبقى هو والقرآن ، فيأخذ القرآن الياسمين ، فيضعه على أنفه غضا فيستنشقه حتى يبعث ، ويرجع القرآن إلى أهله ، فيخبرهم كل يوم وليلة ، ويتعاهده كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده بالخير ، فإن تعلم أحد من ولده القرآن بشره بذلك ، وإن كان عقبه عقب سوء دعا لهم بالصلاح والاقبال أو كما ذكر<sup>(١)</sup> رواه البزار .

المعنى : -

يطرد : يبعد

فساق : عصاة

مردة : جمع مارد : العاقى الشديد

خيمة : ظلة ساترة ومنه خيم بالمكان : أقام فيه وسكنه ، فاستعارها لظل رحمة الله ورضوانه ، وأمنه ، وهذا معنى « الشهيد فى خيمة الله تحت العرش » .

(١) الحديث رواه البزار ، قال الهيثمى قال البزار ، قال : ابن معدان لم يسمع من معاذ قلت : وفيه من لم أجد من ترجمه أهـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤) .

بالكوكب : أى الشديد الانارة ، كأنه نسب إلى الدر تشبيها بصفاته ، وقال الغراء : الكوكب الذى عند العرب هو العظيم المقدار ، وقيل : هو أحد الكواكب الخمسة السيارة .  
لجج : فضائها الواسع ولجة البحر : معظمة ، والمعنى فى شدة تلاطم أمواجه وظلمه يسطع النور السارى .

القفر : المفازة : الصحراء التى لا تنبت ، والمعنى يستضىء الماشى فى المهامة به ، كذلك يستضاء بالقرآن .

قتلقاه : أى فتقابله بالبشرى وتستقبله بالفرح .  
فتصلى : فتدعو له بنعيم روحه ، وتجعل الملائكة احتفالا بهيجا لحراسه والحافظين عليه فى حياته .

تستغفر : تكون وظيفة الملائكة طلب الاستغفار له من الله جل وعلا ، حتى ينشر ويخرج من قبره للحساب .

صلى : ذكر الله وسبح واستغفر وتهجد جزءا من الزمن فى سحره .  
الليلة : الليلة الآتية الجديدة توصيها سابقتها بيقظته . . والرافة به وتلطيف هوائها وإزالة شرها : وإبعاد أذاها ، حتى يتجدد نشاطه وتقوى صحته ويزداد انشراحا وقبولا ويشعر بالسرور جهازه : الاستعداد لدفعه

دون : يتمثل القرآن نورا ملاصقا لصدره فوق كفنه  
فيجىء القرآن : يمثل الله القرآن بشفيق قوى الحجة مدافع عنه  
إليك : إبعد عنا وتنح  
ولست أخذه : والله لا أهزمه ولا أتركه  
فامضيا : اسألا ونفذا مهمتكما واعملا بواجبكما  
ودعانى : اتركانى ملازما له .

تجهر : كنت تقرأ فى الجهر وفى السر ولا تخشى فى الله لومة لائم وتحترمنى وتعظ الناس بى وتعمل بأدأبى .

ويصعدان : يذهبان إلى ربهما .  
ولأدثرنك : والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعر ( القميص ) ، ومنه  
دثرونى : أى غطونى بما أدفا به . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكْبِيرٌ ﴾ (١) . وإن القلب يدثر كما يدثر السيف فجلاؤه ذكر الله : أى يصدأ كما يصدأ السيف .

أسهرت : بعدت جفونك عن النوم .  
وأنصبت : - أقميت يومك فى العبادة والتلاوة .  
الطرف : لمح البصر .

مقرب : الأبرار المقربين المطيعين

فيحييه : - يقدم له أجل تحية مباركة للاستئناس .

فتنهضه : - تطلب منه تخلّي هذا المكان برفق لتكسوه من أغلى الرياش وأفخر الأثاث ( بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر )

مسيرة أربعمئة عام : - بمقدار سير ناقة نجبية مسرعة . قبره يساوى هذه المسافة في الاتساع .

حشوه المسك : كثير الطيب منتشر الرائحة .

السندس : الحرير الرقيق .

الاستبرق : الحرير الغليظ . قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عليهم ثياب

سندس خضر واستبرق ﴾ (١)

يسرج : - يضاء له

يزهران : يلعبان وفي صفته ﷺ أنه كان أزهر اللون ، والزهر الأبيض المستنير والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان .

ياسمين : نوع من أحسن الرياحين عرفها ذكي وشذاها طيب .

غضا : طريا لم يتغير ومنه حديث على هل ينتظر أهل غضاضة الشاب أى نضارته وطراوته .

عقب : إن ترك ذرية فاسقة ، تضرع القرآن لربه عز وجل أن يوفقهم للعمل كأبيهم . وهذه بشارة عظيمة لحامل القرآن أن يبارك الله في ذريته ويحيطهم برحمته ، ويشملهم برضاه تعالى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من بات ليلة في خفة من الطعام والشراب يصلى تراكضت حوله الحور العين حتى يصبح) (٢) رواه الطبراني في الكبير .

المعنى : -

تراكضت : - أى لازمته وأحاطت به وفي حديث ابن عمرو بن العاص ( المؤمن أشد ارتكاضة على الذنب من العصفور حين يعذف به ) أى أشد حركة واضطرابا ، والركض : الضرب بالرجل والاصابة بها . وفي الحديث طلب الأكل الخفيف في العشاء وعدم ثقافت المعدة بالطعام ، رجاء اليقظة للتهجد ولذكر الله تعالى ، ليعمه نعيم الله ورضوانه ، وتحفه رياض الجنة ، وزهرتها ، ويحوطه نساء الجنة الحسان يدعون له بالتوفيق ، برجاء أن يزف إليهن يوم القيامة . يأخى : السيدة الحسنة والغادة الهيفاء تبتهج بعبادتك وتنتظرك ، لتتمتع بها في آخرتك وتنادى مهرها للتهجد .

وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن خطب الحساء لم يغلها مهر

وعن عمرو بن عتبة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : ( أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن ) رواه الترمذى .

(١) سورة الانسان الآيتان ٢٠ ، ٢١

(٢) الحديث رواه الطبراني في الكبير ، قال الهيثمى : وفيه أصرم بن حوشب وهو متروك (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥) .

المعنى :

جوف الليل : بعد نصف الليل إلى مطلع الفجر كما قال ﷺ : ( ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعوني فأستجيب له ، ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له ؟ ) أى تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللفظ .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما خيب الله امرأ قام في جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران )<sup>(١)</sup> رواه الطبرانى في الأوسط  
المعنى : - ما خيب :

أى ما أسقط وما حرم ، والخائب : الذى لا نصيب له فى الخير وخاب يخيب ويخوب ومنه الحديث : ( خيبة لك وياخية الدهر )

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء . )<sup>(٢)</sup> رواه الطبرانى  
المعنى : يكفيه : يبعد عنه شرهم ويزيل ضررهم .

يذر : يترك لذته ويتبعد عن تمتعه بزوجه الحسنة حبا فى ذكر الله وتسبيحه تهجدا .  
رقد : نام وأحل الله له ذلك وتمتع .

ركب : جماعة رفقاؤه

فهرؤا : أدلجوا طول الليلة ولم يذوقوا النوم .

هجعوا : ناموا ليلا وفى حديث الثورى : طرقتى بعد هجع من الليل . والهجع والهجة

والهجيع : طائفة من الليل .

السحر : آخر الليل يتحمل آلام السهر فى طاعة الله وذكره ويشعر بالسرور فى درك ثواب الله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله وانهمز أصحابه وعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع ، فرجع حتى يريق دمه فيقول الله انظروا إلى عبدى رجع رجاء فيما عندى وشفقة مما عندى حتى يهريق دمه )<sup>(٣)</sup> رواه احمد

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيمى : وفيه ليث بن أبى سليم وفيه كلام وهو ثقة مدلس أ هـ ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٤ )

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيمى : ورجاله ثقات ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥ )

(٣) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٤١٦ واللفظ له ، وابو يعلى والطبرانى فى الكبير ، قال الهيمى بعد عزوه لهم : وإسناده حسن ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥ )

المعنى : -

ثار : - بعد من ثار الشيء يثور : انتشر وارتفع ومنه الحديث ( فرأيت الماء يثور من بين أصابعه )  
أى ينبع بقوة وشدة .

الشيء المذللول : الموطوء : أى ترك فراشه وغطاه الدفء . والوطاء : ما تحت الأقدام .  
حبه : أقربائه وحبيبه .

رغبة : رجاء ثوابي وحبا في طلب رضاى

شفقة : - خوفا من عذابي ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ (١) أى خائفون .

ما عليه : علم أن الاندحار سبب موته وأسره وقتله ولكن جاهد حتى يشهد طلبا في نعيم الله .  
يهريق : - يراق ويسال دمه ، والمعنى أن رجلين اكتسبا زيادة الأجر من الله تعالى :

أ- من هجر لذة نومه وترك سريره ليتجهد

ب- المجاهد في سبيل الله المستبسل ولم يفر عند الهزيمة .

\* وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الرجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة وإذا وضأ رجله انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له ) (٢) . رواه احمد  
المعنى :

الطهور : الوضوء : أى ما يتطهر به

عقد : خيال غلب عليه الشيطان وكتفه بخيوط الكسل والغفلة وجرى مجرى عروق الدم منه  
رجاء نسيان ذكر الله ورقوده وسباته ، فإذا اراد الله له باليقظة ، فذكر الله حطم سلسلة من قيوده وفرق عقدة من اغلاله ، وهكذا حتى يتم الوضوء ، فيتجلى عليه الرب جل وعلا ويباهى بفعله هذا ملائكته المقربين ، ويأمرهم ان ينظروا إلى فعل طاعته ، وتذلل لربه رجاء رحمته تعالى ، ثم يشيرون بإجابة كل ما سأل تفضلا وتكرما ، الله اكبر هذا وقت المعاملة الحسنة مع الله ، والتجارة مع الغنى الكريم والتضرع إليه وقد تكفل سبحانه بعدم رد طلب لمن سأل .

\* وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : قال عبد الله : إنه مكتوب في التوراة : « لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ما لم ترعين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل » قال ونحن نقرؤها ( فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ) (٣) رواه الحاكم .

(١) سورة سأل الآية رقم ٢٧

(٢) الحديث رواه احمد في مسنده ١٥٩ / ٤ ، ٢٠١ - قال الهيثمى : وفيه ابن لهيعة وفيه كلام ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٤ )

(٣) الحديث رواه الحاكم في المستدرک ٤١٤ / ٢ كتاب التفسير ( سورة السجدة ) وقال صحيح وقره الذهبى ولفظه ولا يعلمه نبي

مرسل ولا ملك مقرب... أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

قال الحافظ المنذرى : ابو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، وقيل سمع ( الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٧ )



المعنى : عبدالله : سيدنا عبدالله بن سلام كان حبراً وعالماً انبأنا عما في التوراة لسيدنا موسى ، وقد أوفقه كلام الله عز وجل في قرآنه عن جزاء المتعهد العابد الذاكر المستغفر سحراً .  
 \* وعن عبد بن أبي قيس رضى الله عنه قال : قالت عائشة رضى الله عنها : « لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً »<sup>(١)</sup> رواه أبو داود  
 المعنى : لا تدع : لا تترك . لا : الناهية  
 لا يدعه : كان لا يتركه

مرض أو كسل : أعياه التعب : ولحق به العناء .  
 \* وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان رضى الله عنه لينظر ما اجتهداه قال : « فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له ، فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ، فإذا صلى الناس العشاء صبروا عن ثلاث منازل .

منهم : من عليه ولا له ، ومنهم : من له ولا عليه ومنهم : من لا له ولا عليه ، فرجل اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب فرسه في المعاصي ، فذلك عليه ولا له . ومن له ولا عليه : فرجل اغتتم ظلمة الليل وغفلة الناس ، فقام يصلى فذلك له ولا عليه ، ومن لا له ولا عليه : فرجل صلى ثم نام فلا له ولا عليه : إياك والحققة وعليك بالقصد ودوامه . رواه الطبراني في الكبير موقوفاً .  
 المعنى : - ما اجتهداه : ما اسم استفهام مبتدأ : أى شيء بلغ اجتهداه .  
 كفارات : - مزيلات الصغائر وسائر الخطايا التي يقتربها الانسان .

المقتلة : ما لم تفعل الكبائر التي أوعدها الله بها العقاب الأليم ونهى عنها وشدد على مرتكبيها مثل الزنا ، والسرقة ، والشرك بالله ، والسحر ، والربا ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقذف المحصنات الغافلات ، والغيبة والنميمة ، والكبر والحسد ، والفتنة .  
 من له : أى يجاهد نفسه في التوبة من المعاصي وكثرة الاستغفار والالتوبة إلى الله والاقلاع عن الشرور والتهجد .

فركب : أى استرسل في إدراك شهوات نفسه وأطلق لها العنان في فعل الموبقات ، فذلك أوزاره جمة وسيئاته كثيرة وعذابه أليم وحسابه عسير .

فذلك : - له الثواب الجزيل ولا ذنب عليه .

نام : - لا له ولا عليه .

ودوامه : - أى استمر في العبادة جهد الطاقة ، ولا تتعب نفسك بكثرة السهر واطرك الغلوف في

العبادة ، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها ، وفيه ان الانسان يصلى العشاء وينام رجاء أن الله يوفقه بالقيام للتهجد ، لينال من الله النعيم ، ويجاب دعاؤه ، ويحذر أن يسهر في معصية ويسامر في غضب الله ،

وفيه النهى عن المغالاة في العبادة « إن الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

الحققة : بحاءين مهملتين مفتوحتين وقافين ، الأولى ساكنة ، والثانية مفتوحة : هو أشد السير ، وقيل : هو أن يجتهد في السير ويلح فيه ، حتى تعطب راحلته ، أو تقف ، وقيل غير ذلك .  
\* وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا : ( ليس في الدنيا حسد إلا في اثنتين : الرجل يغبط أن يعطيه الله المال الكثير فينفق منه فيكثر النفقة ، يقول الآخر : لو كان لي مال لأنفقت مثل ما ينفق هذا وأحسن فهو يحسده ، ورجل يقرأ القرآن فيقوم الليل ورجل إلى جنبه لا يعلم القرآن فهو يحسده على قيامه وعلى ما علمه الله عز وجل القرآن ، فيقول : لو علمني الله مثل هذا لقمتم مثل ما يقوم )<sup>(١)</sup> رواه الطبراني في الكبير المعنى : -

حسد : هنا غبطة : أي تمنى أن تفعل خيرا مثله وليس الحسد المذموم الذي هو تمنى زوال النعمة عن أخيك .

ما علمه الله عز وجل من القرآن : - يبين رسول الله ﷺ خصلتين تمنى أن تتحلّى بهما أيها المسلم :

أ - خلة الانفاق والجود على إنشاء مشروعات الخير وتشجيع الصالحات وتنظر إلى المحسنين ، فتمنى أن يكون لك مال لتعمل مثلهم .

ب - خلة التقوى المنبعثة من قراءة القرآن الداعية إلى التهجّد الغارسة دوحات العلم النافع في قلب حافظه ، فتمنى أن تفقه القرآن وتقرأه لتظهر تعاليمه وتثمر أوراقه في حديثك . الحسد : -

يطلق ويراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام بالاتفاق ويطلق ويراد به الغبطة وهو تمنى حالة كحالة المغبط من غير تمنى زوالها عنه ، وهو المراد في هذا الحديث وفي نظائره ، فإن كانت الحالة التي عليها المغبط محمودة فهو تمنى محمود ، وإن كانت مذمومة فهو تمنى مذموم يأثم عليه المتمنى .  
\* وعن عبد الله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار )<sup>(١)</sup> رواه مسلم

وعن يزيد بن الاخنس وكانت له صحبة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ( لا تنافس إلا في اثنتين : رجل اعطاه الله قرآنا ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، فيقول رجل لو أن الله اعطاني ما اعطى فلانا ، فأقوم به كما يقوم ، ورجل اعطاه الله مالا ، فهو ينفق منه ويتصدق ، فيقول رجل مثل ذلك )

(١) الحديث رواه الطبراني في الكبير ، قال الميثمى : وفي اسناده بعض ضعف ورواه البزار بإسناد ضعيف ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٦ )

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب التمنى رقم / ٥ ، وفي كتاب التوحيد رقم / ٤٥

رواه الطبراني في الكبير .

تنافس : التسابق في الخير وانتهاز فرص نيل الثواب .

آناء : ساعاته جمع إنا بالكسر والقصر أو جمع آناء بالفتح والمبد قال تعالى ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾<sup>(١)</sup>

والمعنى انه يعظ الناس به في أوقات الليل ان سنحت الفرصة وكذا في النهار مع العمل به ، ويقرأ امام الفقراء ويحترم قراءته ونفسه ثم رسخ الايمان بقلبه ، فتهجد وذكر الله في السحر .  
يتفق : ينشئ به الاعمال الصالحات ومشروعات تفيد الابناء ، ويوجد اعمالا للعاطلين ، ويكسو عريانا ويطعم جائعا ويصرف في وجوه البر ويذكرى

- وعن فضالة بن عبيد وتميم الداري رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار والقنطار خير من الدنيا وما فيها فإذا كان يوم القيامة ، يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهى إلى آخر آية مئة يقول ربك عز وجل للعبد : اقبط ، فيقول العبد بيده : يارب أنت أعلم يقول لهذه الخلد وهذه النعيم )<sup>(٢)</sup> . رواه الطبراني

ظاهره من أى سورة ينال ثوابا لو وزن لرجحت كفته عن القنطار ، وهذا خير من نعيم الدنيا الفانى على ان الله تعالى يتفضل ويرقيه إلى درجات عالية كل آية درجة يصعد بها إلى العلياء والعز والنعيم المقيم لما في الآيات من ذكر الله وتسييحه وتقديسه ، بمعنى انه يتهجد وبعد فاتحة الكتاب يقرأ ما تيسر من القرآن يحفظ الله له ذلك ذخيرة عنده يوم القيامة ويجازيه ، وما من كمال إلا وعند الله اكمل منه ، قال ﷺ : ( ان في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والأرض فإذا سألت الله فاسأله المقنطرين )<sup>(٣)</sup>

- وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين )<sup>(٣)</sup> رواه ابو داود

لم يكتب من الغافلين : أى صلى نافلة وتلا في صلاته عشر آيات عد من الذاكرين الله كثيرا وعحيت عنه الغفلة ، ومن قام أى تهجد في صلاته فقرأ مائة آية ، كتبه الله من الطائعين الخاشعين العابدين وفيه ( تفكر ساعة خير من قنوت ليلة )

(١) سورة طه آية رقم ١٣٠

(٢) الحديث رواه الطبراني في الكبير واللاوسط ، قال الهيثمي : وفيه اسماعيل بن عياش ، ولكنه من روايته عن الشاميين وهى مقبولة ( مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧ )

(٣) الحديث رواه البخارى في كتاب الجهاد رقم / ٤ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٢٢ والترمذى في أبواب الجنة رقم ٤ / واحد ٢ / ٣٣٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود في سننه واللفظ لدوابن حبان ولفظه : ومن قام بمائتى آية كتب من المقنطرين - قال في عون المعبود : قال السندى : والحديث سكت عنه المنذرى أ هـ ( المنهل العذب ٨ / ١٥ - ١٦ ، عون المعبود ٤ / ٢٧٤ أبواب قيام الليل ، باب تحزيب القرآن ، موارد الظمان ١٧٢ رقم ٦٦٢ كتاب المواقيت ، باب القراءة في الليل .

وقال ابن الانبارى : القنوت على أربعة اقسام :  
 الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت أ . هـ ومنه :  
 أ - ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ وقيل اى الصلاة أفضل ؟  
 قال : طول القنوت اى الاشتغال بالعبادة ورفض كل من سواه سبحانه وتعالى فعليك أخى بكثرة  
 القراءة فى الصلاة عسى ان تنال هذه الصفة قال تعالى :  
 (ب) ﴿ ان إبراهيم كان أمة قانتا ﴾ (١)  
 (ج) ﴿ يامريم اقتنى لربك ﴾ (٢)  
 (د) ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا  
 كريما ﴾ (٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (القطار اثنا عشر ألف أوقية .. الأوقية  
 خير مما بين السماء والأرض) (٤) رواه ابن حبان فى صحيحه  
 - وعن أبى امامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من  
 الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ومن قرأ اربعمائة آية  
 كتب من العابدين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ومن  
 قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية  
 خير مما بين السماء والأرض . أو قال : خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من  
 الموجبين) (٥) رواه الطبرانى  
 المعنى : -

الحافظين : الذين أجادوا معرفته وعد من المطهرين المقربين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وإن  
 عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (٦) ما شاء الله زيادة التلاوة فى الصلاة ، تنقى  
 صحائف القارىء ، وتطهره من الآثام ، وتجعله فى صفوف الابرار الصالحين الذين يخافون الله جل  
 وعلا الذين يعينهم الله بقوله : ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ (٧)  
 الخاشعين : المتواضعين الذين يعينهم الله بقوله : ﴿ فاهلكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين  
 الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم  
 ينفقون ﴾ (٨) .

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٠

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٣

(٣) سورة الاحزاب آية رقم ٣١

(٤) موارد الظمان إلى زوائد ابن حبان ص ١٧٢ حديث رقم ٦٦٣

(٥) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه يحيى بن عتبة بن أبى العيزار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ /

(٢٦٨ - ٢٦٧)

(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٧) سورة الرحمن آية رقم ٤٦

(٨) سورة الحج الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥

المختبين : زيادة التواضع والذلة لله يقال أخبت الله .  
 أى زاد تواضعه : الموجب : الذى أتى بفعل يوجب له الجنة وكذلك من أتى بفعل يوجب له النار  
 أربع خصال حازها المختبون : أولا : خوف الله ، ثانيا : الصبر عند المصائب ، ثالثا : إقامة الصلاة .  
 رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ ييسرهم ربهم برحمة منه ورضوان وحنان لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .

صلاة التهجد سعادة وهى ثمرات دوحات نبتت فى قلوب المتقين فازهرت .  
 أى الصلاة بالليل بعد العشاء وأصله ترك الهجود وهو النوم : قال ابن فارس : التهجد : المصلى  
 ليلا وفى نسخة من الليل  
 أريد ان ابين للمسلمين ان القيام ليلا لذكر الله يجلب هناءة الضمير وقرة العين وإنشراح الصدر .  
 أولا : لازالة سلطة الشيطان عليه وقهره وفك عقد كسله ( فأصبح نشيطا )  
 ثانيا : سبب دخول الجنة وحصن منيع من النار ، وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر ملكين اخذاه  
 الى النار ، فقابله آخر قال : ( لن تراعى لن تراعى ) فقص الرؤيا على أخته ( السيدة حفصة ) فقصتها على  
 سيدنا رسول الله ﷺ فقال : ( نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل ) فما ترك التهجد بعدئذ .  
 قال شراح الحديث : فيه ان القيام بالليل يمنع عذاب النار ، وأى فرح وعز وشعور بالنجاة والسرور  
 من ان يضمن الانسان لنفسه السلامة من جهنم والفوز بجنة اعداها الله للمحسنين الصالحين .  
 ثالثا : يقف الخلائق للحساب إلا التهجد فيمر بسلام .

رابعا : لعل التهجد يتفق دعاؤه ساعة تفتحت لها أبواب رحمة الله تعالى فيجابه دعاؤه وينال  
 سؤاله وتقضى آماله فينجح ويربح .

خامسا : اخبرنا الصادق المصدوق ﷺ ان قيام الليل يجدد للجسم نشاطه ويبعث الصحة ،  
 ويقوى دوة الدم وينقيه باستنشاق نسيم السحر العليل البليل الجميل .  
 ويعطى الرثتين قوة ومناعة وتصح العينان ، ويسلم الرأس من عوارض الزكام والصداع ، وتطرد  
 الأدواء عن الجسم ( ومطرودة للداء عن الجسد ) كما قال ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام : ( ما ضل  
 صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ذو مرة )<sup>(١)</sup>  
 صدق أيها المسلم واحى هذه العادة الجميلة لتحيا حياة الابرار وتعيش عيشة الاخيار الاطهار .  
 سادسا : تبادل الثقة بين الزوجين : الرجل يوقظ زوجته أو هى توقظ زوجها وقد دعا لها ﷺ  
 بالرحمة ان فعلا ذلك ، هذه هى السعادة ان يتعاونوا على طاعة الله وهنا تتجدد عرى الصداقة وتقوى  
 روابط الأسرة ، ويزول سوء التفاهم ، وتشرق أنوار السعادة على هذا البيت ، فيخرج الزوج إلى عمله  
 قدير العين ، مثلوج الفؤاد ، آمنا على عرضه ، مطمئنا على بيته وقديما قيل ( رأس الحكمة مخافة الله )  
 وأترك للقارىء حوادث سوء النية للزوج أو الزوجة اللذين لا يخافان الله وإنها لكثيرة : شقاق وكدر  
 وغضب ومحاكم وتبرج ونزاع وإسراف وقلة أدب ، وهكذا مما يجره عدم العمل بكتاب رب العالمين

وسنة سيد المرسلين ونسيان قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾<sup>(١)</sup> وقوله ﷺ : ( فصلى وأيقظ امرأته ) .

سابعاً : عد ﷺ قيام الليل شرفاً وسيادة ، وعلو نفس طماعة إلى كسب المعالي ، وجنى ثمار المحامد ، ولو كشف الله بصيرته لرأى جمال الهيئة وأنوار ملائكة الرحمة ، وفرح الحور العين بعمله ، وتجليات المولى جل وعلا عليه بالرحمة واستظلاله بظل الله ، والناس غافلون ، وقد نفى ﷺ الخيبة في طلبه والخسران في عمله ، وكفل له الربح والفلاح وأمنه الله من المكاره وزال عنه الاخطار .  
ثامناً : تخفيف الطعام في العشاء من سنة رسول الله ﷺ لتستريح المعدة ، ويهدأ نومه وهذا نهاية العطب ومجلب للصحة .

### أدلة التهجد من القرآن

قال تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

قيل المراد بالصلاة صلاة المغرب ثم بين مبدأ الوقت ومنتهاه وقال ﷺ : ( أتاني جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر وقيل : لغروبها ( وقرآن الفجر ) صلاة الصبح تشهد ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد قدرة الخالق جل وعلا من تبدل ظلمة الليل بضياء النهار والنوم بالانتباه ، ليعتبر العقلاء ، فيقوموا لذكر الله وشاهدنا ( ومن الليل فتهجد به ) أى وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة ، والضمير للقرآن ( نافلة لك ) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك رجاء مقام يحمد القائم فيه وكل من عرفه .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : ( هو المقام الذى أشفع فيه لأمي )<sup>(٣)</sup> ثم دعا ﷺ بدعاء ( أدخلني ) أى فى القبر إدخالاً مرضياً ( وأخرجني ) أى منه عند البعث إخراجاً ملقى بالكرامة ، أو أدخلني يارب المدينة أو مكة ظاهراً عليها ، أو فيما جعلتني من أعباء الرسالة ، وأخرجني من مكة سالماً آمناً من المشركين ، أو أخرجني مما حملتني من عباء الرسالة مؤدياً حقه ، أو أدخلني الغار وأخرجني سالماً وقوفى بحجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكاً ينصر الاسلام على الكفر . والحق الاسلام ، والباطل الشرك كان مضمحلاً غير ثابت .

عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل ينكت بمخصرته فى عين واحد واحد منها فيقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب

(١) سورة طه آية رقم ١٣٢

(٢) سورة الاسراء الآيات رقم ٧٨ - ٨١

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ / ٤٤١ ، ٥٢٨ عن أبي هريرة

لوجهه حتى ألقى جميعها ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر فقال يا على : ارم به فصعد فرمى به فكسره<sup>(١)</sup> .

قال الشرقاوى : فى صحيح النووى انه نسخ عنه التهجد كما نسخ عن أمته قال : ونقله الشيخ ابو حامد عن النص وهو الاصح أو الصحيح ففى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ما يدل عليه أو فضيلة لك فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحينئذ فلم يكن فعل ذلك يكفر شيئا ، ويرجع التكليف كلها فى حقه عليه الصلاة والسلام قرة عين وإلهام طبع ، وتكون صلاته فى الدنيا مثل تسبيح اهل الجنة فى الجنة لا على وجه الكلفة والتكليف ، وهذا كله مفرع على طريقة إمام الحرمين من أن التكليف يستلزم الوعيد ، وأما على طريقة القاضى حيث يقول : لو أوجب الله تعالى شيئا لوجب وإن لم يكن وعيد فلا يمتنع حينئذ بقاء التكليف فى حقه عليه الصلاة والسلام على ما كانت عليه مع طمأنينته عليه الصلاة والسلام من ناحية الوعيد ، وعلى كلا التقديرين فهو معصوم ولا ذنب ولا عتب ، وأما أمره بالاستغفار فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ فهو تعبد على الفرض والتقدير : أى استغفر مما عساه ان يقع لولا عصمتك .

ب - ﴿ ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾<sup>(٢)</sup>  
ج - ﴿ يأبىها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾<sup>(٣)</sup> .

روى انه عليه الصلاة والسلام كان يصلى متلفا بمرط مفروش على عائشة رضى الله عنها وأصله المتزمل فادغم التاء فى الزاى من تزمل المزمل : تحمل الحمل : أى يأبىها المتحمل أعباء النبوة قم إلى الصلاة أو داوم عليها ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلاً ﴾<sup>(٤)</sup> . قولاً : أى القرآن لما فيه من التكليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذا كان عليه ان يتحملها ويحملها أمته ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ أى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام .

أو قيام الليل على ان الناشئة له أو العبادة التى تنشأ بالليل : أى تحدث أو ساعات الليل ؛ لأنها تحدث واحدة بعد أخرى ﴿ هى أشد وطأ ﴾ أى كلفة أو ثبات قدم وقرىء ﴿ وطأ ﴾ أى مواطأة القلب اللسان لها أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والاخلاص ﴿ وأقوم قيلاً ﴾ أى وأشد مقالا أو اثبت قراءة لحضور القلب وهذه الاصوات .

﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾<sup>(٥)</sup> أى تقبلا فى مهماتك

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة الاسراء ، وفى كتاب المظالم ومسلم فى كتاب الجهاد ، الترمذى فى تفسير سورة الاسراء -

وقال حسن صحيح - واحد ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٢) سورة الذاريات آيات : ١٥ - ١٩ (٣) سورة المزمل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة المزمل آيات ٥ ، ٦

(٥) المزمل الآيات : ٧ - ٨

واشتغالا بها فعليك بالتهجد فإن مناجاة الحق تستدعى فراغا ( قرىء سبخا ) أى فراغا تفرغ قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه ودم على ذكر ربك ليلا ونهارا وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم ( وتبتل ) وانقطع إليه بالعبادة وجرّد نفسك عما سواه .

أيها المسلم : هل تقتدى بسيدنا رسول الله ﷺ امره الله بالتهجد ، فزاد كمالا . ونصره الله ، ودانت له الأرض ، وعز ملكه وانتشر دينه ﷺ ونال الشفاعة العظمى وخصه الله بمحامد ومكارم وأخلاق .

قال تعالى : ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١) ( غير ممنون ) غير مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسط ، لأنك تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضی الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » ألسنت تقرأ القرآن ؟ بلى اقرأ قد أفلح المؤمنون اللهم صلى عليه وانفعنا بسنته ووفقنا لنهج منهجه إنك عزيز حكيم . وقد اخبر الله تعالى في محكم كتابه انه ﷺ وأصحابه قاموا بالتهجد خير قيام ، قال جل وعلا : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ (٣) ( أدنى ) استعار الأدنى للآقل ، لأن الأقرب إلى الشيء أقل بعدا منه ويقوم بذلك جماعة من أصحابك ولا يعلم مقادير ساعات الليل والنهار كما هي إلا الله سبحانه وتعالى ، ولن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات ( فتاب عليكم ) بالترخيص في ترك القيام المقدّر ورفع التبعة ، كما رفع التبعة عن التائب ( فاقرءوا ما تيسر من القرآن ) : فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل : فاقرءوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم والضرب في الأرض المسافرة للتجارة أو لتحصيل العلم .

﴿ فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة التحذير من صلاة الانسان وقراءته حال النعاس .

عن عائشة رضی الله عنها ان النبي ﷺ قال : (إذا نعس احدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن احدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه ) . رواه مالك والبخارى ومسلم

إذا نعس احدكم وهو يصلى فليصرف فلعله يدعو على نفسه وهو لا يدري . وعن انس رضی الله عنه ان النبي ﷺ قال : (إذا نعس احدكم في الصلاة فلينب حتى يعلم ما

(١) سورة ( ن ) الآيتان : ٣ - ٤

(٢) سورة المزمل الآية رقم : ٢٠



يقروه .) رواه البخارى والنسائى إلا انه قال : (إذا نعس احدكم فى صلاته فليصرف وليرقد) (١)  
 نعس : اخذه النوم يقال نعس نعسة ونعاسا وهو الوسن وأول النوم ، نهى ﷺ ان يستمر النعاس  
 فى صلاته خشية ان يدعو على نفسه وهو لا يدري وخشية عدم إتمام الأركان ، فليقطع صلاته ولينم حتى  
 يذهب عنه النوم ، وحتى يذهب ليفعل الوسائل التى تزيل وسنه ، وفيه ان المصلى لابد ان يملك شعوره  
 ويعلم حركاته واقواله وان المتعبد اذا لم يذهب نومه بل غلبه ينام أحسن من الاستمرار فى الصلاة خوفا  
 من الخلط وسب نفسه .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إذا قام احدكم من الليل فاستعجم  
 القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع ) (٢) رواه مسلم .

المعنى : استعجم : استغلق

على لسانه : اى ثقلت عليه القراءة كالأعجمى لغلبة النعاس .

قال العلقمى : قال القرطبى : القرآن مرفوع على انه فاعل استعجم اى صارت قراءته  
 كالعجمية لاختلاف حروف النائم وعدم بياها .

فليضطجع : قال المناوى : للنوم ندبا ان خف النعاس بحيث يعقل القول ، أو وجوبا ان غلبه  
 بحيث أفضى الى الاخلال بواجب . أ . هـ .

وقال العلقمى : لثلا يغير كلام الله ويبدله أ . هـ .

وقال الحفنى : والتقيد بالليل للغالب من ان النوم فى الليل وإلا فالنوم فى النهار كذلك . أ . هـ .  
 واقول : ينام إذا كان فى تهجد ليلا أو نافلة نهارا ، أما اذا كان يصلى الفرض وينام فيقطع صلاته  
 ويرش على وجهه الماء ويذهب النوم عنه ويصلى خشية ان يضيع الوقت وخوفا من ذهاب الفضيلة ،  
 والله سبحانه وتعالى اعلم .

## التحذير من نوم الانسان الى الصباح

### وترك قيام شيء من الليل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى أصبح قال : ذاك  
 رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال فى أذنه) (٣) رواه البخارى ومسلم .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوضوء رقم ٥٣ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٢ ، وأبو داود فى كتاب  
 صلاة التطوع رقم ١٨ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٦ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، ومالك فى الموطأ  
 فى كتاب صلاة الليل رقم ٣ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٠٧ ، وأحمد فى مسنده ٥٦ / ٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٣ /  
 ١٤٢ ، ١٥٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٣ ، وأبو داود فى كتاب التطوع رقم ١٨ ، وابن ماجه فى ابواب  
 الاقامة رقم ١٨٤ ، وأحمد ٢ / ٣١٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ١٣ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث  
 رقم ٢٠٥ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٥ ، وابن ماجه فى ابواب الامامة رقم ١٧٤ ، وأحمد ١ / ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ /  
 ٤٢٧ ، ٢٦٠

المعنى : بال : قيل معناه سخر منه وظهر عليه حتى نام عن طاعة الله عز وجل كقول الشاعر :  
بال سهيل في الفضيق ففسد .

أى لما كان الفضيق يفسد بطلوع سهيل كان ظهوره عليه مفسدا له وعن الحسن مرسل ان النبي ﷺ قال : ( فإذا نام شجر الشيطان برجله فبال في اذنه ) وسهيل الفضيق كوكبان وشجر رفع احدى رجليه ليبول ، والمعنى ان الشيطان يسلح على الغافل تارك التهجد وهو كالتغوط للانسان .

وروى الطبراني في الأوسط حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه قال رسول الله ﷺ : ( إذا اراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك فقال له : ( قم فقد أصبحت فصل وأذكر ربك فيأتيه الشيطان فيقول : عليك ليل طويل وسوف تقوم ، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين وإن هو اطاع الشيطان حتى أصبح بال في اذنه )  
المعنى : ملك : من ملائكة الرحمة الحفظة .

فصل : قربت من السحر فتهدج  
قرير العين : مسرورا اقر الله عينه اعطاه حتى تفرح فلا تطمح إلى من هو فوقه ودمعة السرور باردة والحزن حارة .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : ( يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان )<sup>(١)</sup> رواه مالك والبخارى ومسلم .  
فيصبح نشيطا طيب النفس قد أصاب خيرا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب خيرا .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : ( قالت ام سليمان بن داود لسليمان : يا بنى : لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجه  
فقيرا : خاليا من الحسنات .

وعنه رضى الله عنه ايضا ان النبي ﷺ قال : ( ما من مسلم ذكر ولا انثى ينام الا وعليه جرير معقود فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا وقد انحلت عقده كلها وان استيقظ ولم يذكر الله أصبح وعقده عليه ، وأصبح ثقيلا كسلان ولم يصب خيرا )<sup>(١)</sup> رواه ابن حبان . و ابن خزيمة .

(١) سبق تخريجه ص ٢١

(٢) الحديث رواه ابن ماجه في ابواب الاقامة رقم ١٧٤

(١) هذا الحديث رواه ابن ماجه في صحيحه بهذا اللفظ

قال الحافظ المنذرى في الترغيب والترهيب ١/ ٤٤٦ بعد ذكره لهذه الرواية : رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما واللفظ لابن حبان وتقدم لفظ ابن خزيمة أ هـ

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ان الله يبغض كل جعظرى جواظ صخاب فى الاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة )<sup>(١)</sup> رواه ابن حبان .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الشديد الغليظ

الجواظ : الأكل

والصخاب : الصياح .

المعنى : يخبر ﷺ ان الله تعالى خلق الانسان للعمل والعبادة ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾<sup>(٢)</sup>

أى لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، وجعل خلقهم مغياها مبالغة فى ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع ان الدليل يمنع . لنا فى ظاهره قوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ﴾<sup>(٣)</sup> ذرأ خلق وقد قرأ ابن عباس رضى الله عنها ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ﴾ وقيل معناه الا لأمرهم بالعبادة ، وهو منقول عن على رضى الله عنه وقيل : لا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : كل عبادة فى القرآن توحيد والكل يوحدونه فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ اى ما أريد أى أحد منكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا بما انتم كالمخلوقين له أو المأجورين به ، والمراد ان يبين ان شأنه مع عباده ليس شأن السادة من عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معاشهم ، والله تعالى يرزق كل من يفتقر الى الرزق ، وفيه إيحاء باستغنائه عنه . . فسبحانه غنى شديد القوة ، واذا عرفت معنى هذه الآية علمت ان الذى خلق لياكل مذموم وتراه معتنيا بملذاته وترفه ، فيغالب جسمه ويتضخم ، ثم يتفنن فى الطعام والشراب وينسى حقوق الله ويترك الصدقة ، ثم يكثر اللغظ والسباب والفسوق والصياح ، ولا يذكر الله تعالى ، فالله ينتقم منه ويعذبه يوم القيامة ، ويمنع عنه سبحانه وتعالى رحمته ، ويحمل عليه سخطه ( حمار بالنهار ) اى شغال لجمع الدنيا ولا يفقه فى الدين ، وعالم بظاهر الحياة بلا عمل صالح . قال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾

(١) الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه والاصبهانى

(الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧)

(٢) سورة الذاريات الآيات رقم : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٣) سورة الاعراف الآية رقم ١٧٩

(٤) سورة الانعام الآية رقم ٢٣

(٥) سورة الروم الآية رقم ٧

وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض قوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ أى بشس المستقر وبشس المقام جهنم .

قال ابن ابى حاتم عند قوله : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ حدثنا ابى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحارث قال : ( إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى الى بعض ابوابها ، قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاسود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة ) .

وقال ايضا عن عبيد بن عمير قال : ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشقارهم فكشطت لحومهم الى اقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الامام أحمد بسنده عن انس عن مالك عن النبى ﷺ قال : ( إن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة يا حنان يا منان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا ، فينطلق جبريل فيجد اهل النار مكبين ييكون فيرجع الى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتنى به فانه فى مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له يا عبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى فيقول يارب ما كنت ارجو اذ اخرجتنى منها ان تردنى فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى <sup>(١)</sup> )

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أى ليسوا بمبذرين فى انفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصررون فى حقهم ، فلا يكفونهم بل عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا .

﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ .

قال الامام أحمد عن ابى الدرداء عن النبى ﷺ ( من فقه الرجل قصده فى معيشته ) . وقال الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ( ما عال من اقتصد ) وقال الحافظ البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ ( ما أحسن القصد فى الغنى وما أحسن القصد فى الفقر وما أحسن القصد فى العبادة ) .

وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن

وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ) .

قال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية، حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تزاني حليلة جارك » . قال عبدالله وأنزل الله تصديق ذلك ( والذين لا يدعون مع الله إلها آخر )<sup>(١)</sup> وقال النسائي حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع « ألا إنما هي أربع » فما أنا بأشجع عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ، ( لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا )<sup>(٢)</sup> وقال الامام أحمد حدثنا علي بن المديني رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الانصاري سمعت ابا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : ( ما تقولون في الزنا ؟ ) قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : ( لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره ) قال ( فما تقولون في السرقة ؟ ) قالوا حرمها الله ورسوله فهي حرام . قال : ( لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من بيت جاره )<sup>(٣)</sup> وقال ابو بكر بن ابي الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مريم عن الهيثم بن مالك الطائفي عن النبي ﷺ قال : ( ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له ) . وقال ابن جريج أخبرني يعلى عن سعيد بن جبيرة أنه سمع ابن عباس يحدث ان ناسا من اهل الشرك قتلوا فأكثرُوا وزنوا فأكثرُوا ثم اتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو نخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ﴾ الآية وقال ابن ابي حاتم حدثنا ابي حدثنا ابن ابي عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبي فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل ( إن الله ينهك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهك أن تقتل ولدك وتغذم كلبك ، وينهك أن تزني بحليلة جارك ) قال سفيان وهو قوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك يلق أثاما ) . روى عن عبدالله ابن عمرو أنه قال : أثاما : واد في جهنم ، وقال عكرمة ( يلق أثاما ) نكالا : كنا نحدث انه واد في جهنم .

وقد ذكر لنا ان لقمان كان يقول : يا بني ! إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ذكر في الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبي إمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بثران في قعر

(١) الحديث رواه البخارى في كتاب التفسير ( تفسير سورة البقرة ٢٥ ، وفي التوحيد رقم ٤٠ ، ٤٦ ، ومسلم في كتاب الايمان حديث رقم ١٤١ ، ١٤٢ ، والترمذى في تفسير سورة ٢٥ ، والنسائي في كتاب التحريم رقم ٤ ، واحمد ١ / ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

(٢) الحديث رواه أحمد ٤ / ٣٣٩

(٣) الحديث رواه أحمد ٦ / ٨

جهنم أجارنا الله منها ، بمنه وكرمه . وقال السدى ( يلقى أثاما ) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسرهم بما بعده مبدلا عنه وهو قوله تعالى : ﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ أى يكرر عليه ويغلظ . ﴿ يخلد فيه مهانا ﴾ أى حقيرا ذليلا .

قال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على ان من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللطم ﴾ . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : ( الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر )<sup>(١)</sup> وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات : إحداها ان تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية ، الثانية ان تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شيء من الكبائر ، الثالثة ان تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : ( ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يا رسول الله ، فقال : الاشرار بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور )<sup>(٢)</sup> وروى فى الصحيح عنه ﷺ : ( اجتنبوا السبع الموبقات . قيل وما هن يا رسول الله ؟ قال : ( الاشرار بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا . والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات )<sup>(٣)</sup> وفى الصحيح عنه ﷺ ، انه سئل أى الذنب أكبر عند الله قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل ثم أى ، قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ واختلف الناس فى الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبدالله بن مسعود : هى أربعة وقال غيره هى إحدى عشر ، وقال آخر هى سبعون ، وقال أبو طالب المكي : جمعتهما من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى : الشرك بالله ، والاصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والأمن مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنان فى الفرج وهما : الزنا واللواط . واثنان فى اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة حديث رقم ١٤ ، ١٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٣٦ ، وابن ماجه فى ابواب الطهارة رقم ٧٨ ، ١٠٦ ، وأحمد ٢ / ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم ٣٥ ، وفى كتاب الايمان رقم ١٦ ، وفى كتاب الاستئابة رقم ١ ، وفى كتاب الدييات رقم ٢ ، وفى كتاب الشهادات رقم ١٠ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٣ ، ١٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والترمذى فى أبواب البر رقم ٤ ، وفى أبواب البيوع رقم ٣ ، وفى أبواب الشهادات رقم ٣ ، وفى تفسير سورة ٤ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٣ ، وفى كتاب القسامة رقم ٤٩ ، والدارمى فى كتاب الدييات رقم ٩ ، وأحمد ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٤ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوصايا رقم ٢٣ وفى كتاب الطب رقم ٤٨ ، وفى كتاب الحدود رقم ٤٤ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والنسائى فى كتاب الوصايا رقم ١٢ .

الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهى عقوق الوالدين . والذين لا يحصرونها بعدد منهم من قال : كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة . وقيل كل ما رتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة . وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة، وقيل كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة . وقيل كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة للجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر . فانظر الى من عصى أمره وانتهاك محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهى مستوية فى هذه المفسدة . قالوا ويوضح هذا ان الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب . قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى . ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان اتى بإحدى المفسدتين وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب . قالوا ويدل على هذا ان المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمة وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمة بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية . فإن ملكا عظيما مطاعا لو أمر أحد مملوكيه ان يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب له فى شغل الى جانب الدار فعصياه وخالفاه أمره لكانا فى مقتته والسقوط من عينه سواء، قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة ، وهو جار المسجد اقبج عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائة درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لا يستويان فى منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواءهما فى العقوبة اذا كان كل منهما مصرا على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا .

## فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة ان يقال إن الله عز وجل ارسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحى ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وما خلقتنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت

(١) سورة الذاريات آية ٥٦

(٢) سورة الحجر آية ٨٥

(٣) سورة الطلاق آية ١٢

الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢) فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه وأن الشرك ظلم كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر بتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصي ، فلما كان الشرك بالله منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الإطلاق . وحرّم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه أن يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعاة أو يستجيب له في الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عشرة . فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا ، وذلك غاية الجهل به كما أنه غاية الظلم منه . . . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهي أن المشرك إنما قصده لعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، أو أنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه وتدخلى عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء وكان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا في النار وموجبا سفك دماء أصحابه واستباحة حريمه وأمواهم وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو أنه هل يجوز أن يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح في الفطر والعقول يمتنع أن تأتي به شريعة بل جاءت بتقرير مافي الفطر والعقول من قبحه الذي هو اقبح من كل قبيح ، وما السبب في كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٣) . .

وتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فإنه من يهdy الله فهو المهتد ومن يضل فلا هادى له ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود واسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك في عبادته

(١) سورة المائدة آية ٩٧

(٢) سورة الحديد آية ٢٥

(٣) سورة النساء الآية رقم ٤٨ ، ١١٦



ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد انه سبحانه لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، والشرك الأول نوعان ، احدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون اذ قال : وما رب العالمين ؟ . . وقال تعالى مخبرا عنه انه قال : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا ﴾ (١) .

فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ، لكن لا يستلزم اصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التي ترجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كمال المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون وهنا شيان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وأنه لم يكن معدوما اصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أساء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه اذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

### فصل

النوع الثاني شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل اسماءه وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق افعال نفسه ، وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وإرادته ، ولهذا كانوا من اشباه المجوس ، ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم في ربه اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احى وأميت ، فهذا جعل نفسه ندا لله يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك ان تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأت الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزاما على طرد الدليل ان كان حقا ، ومن هذا شرك كثيرا ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم ، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ، ومن هؤلاء من يزعم ان معبوده هو الإله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم انه إله من جملة الآلهة ، وأنه اذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم ان معبودهم الادنى ، يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه والفوقانى يقربه إلى ما هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله

سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

### فصل

وأما الشرك في العبادة ، فهو أسهل من هذا الشرك وأخف أمرا ، فإنه يصدر ممن يعتقد انه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله في معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، وطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخالق تارة ، فله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه : ( الشرك في هذه الأمة اخفى من ديب النمل . قالوا وكيف ننجم منه يا رسول الله ؟ قال : قل : ( اللهم إني أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم ) فالرياء كله شرك . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ <sup>(١)</sup> أى كما انه إله واحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى ان تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالالهية يجب ان يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ( اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا ) وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمل ، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ <sup>(٢)</sup> فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذى اتى به شيء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء ﴾ .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر ، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شيء منه مغفور فممنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بان يحب مخلوقا كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال أصحاب هذا الشرك لأهتهم وقد جمعهم الجحيم : ، تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ <sup>(٤)</sup> . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والامانة والأحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٢

(٢) سورة البينة الآية رقم ٥

(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٥

(٤) سورة الشعراء الآية رقم ٩٧ ، ٩٨

الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ، فأى ظلم أقبح من هذا ، وأى حكم أشد جورا منه ، حيث عدل من لا عدل له يخلقه ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ (١) فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه .

### فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الاقوال والأفعال ، والارادات ، والنيات ، فالشرك في الأفعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله في الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبي ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى الله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ، وفي الصحيحين عنه انه قال : ( لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد .. ) وفي الصحيح عنه ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد (٢) وفي الصحيح ايضا عنه ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك ، وفي مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : ( لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ) (٣) . وقال : ( اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد ) (٤) وقال : ( إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة ) (٥) فهذا حال من سجد لله في مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه ) وقد قال النبي ﷺ اللهم لا تجعل قبرى وثنا

#### (١) سورة الأنعام الآية رقم ١

تعليق قصير جدا على هذه الأحاديث

قال الحافظ في الفتح ٧١ / ٢ ط : الحلى : قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم الله ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجدا في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد أه والكلام كثير في الرد على من يرى غير ذلك ( كصاحب هذا الكتاب ) ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) الحديث رواه أحمد في مسنده ٤٣٥ / ١

(٣) الحديث رواه أبو داود في كتاب الجنائز رقم ٧٨ ، والترمذى في ابواب الصلاة ٩٢١ ، والنسائى في كتاب الجنائز رقم ١٠٤ ، وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

(٤) الحديث رواه البخارى في كتاب المغازى رقم ٢٤ ، ومسلم في كتاب الجهاد حديث رقم ١٠٦ ومالك في الموطأ في كتاب السفر رقم ٨٥ ، وأحمد ١ / ٢٨٨ ، ٢ / ٣١٧ ، ٤٩٢

(٥) الحديث رواه البخارى في كتاب الصلاة رقم ٤٨ ، ٥٤ ، وفي كتاب الجنائز رقم ٧٠ ، وفي كتاب مناقب الانصار رقم ٣٧ ، ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ١٦ ، وفي كتاب الفتن حديث رقم ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣١ ، والنسائى في كتاب المساجد رقم ١٣ .

يعبد<sup>(١)</sup> . وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين وسد الذريعة ، بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس ، وأما السجود لغير الله ، فقال لا ينبغي لأحد ان يسجد لأحد إلا الله ، ولا ينبغي في كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو في غاية الامتناع شرعا . كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولدا ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ وما تنزل به الشياطين وما ينبغي لهم ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله عن الملائكة : ﴿ ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾<sup>(٥)</sup> ...

## فصل

ومن الشرك به سبحانه - الشرك به في اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه - ﷺ - أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وصححه الحاكم وابن حبان<sup>(٦)</sup> .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبي ﷺ انه قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : أجعلتني لله ندا . قل ، ما شاء الله وحده<sup>(٧)</sup> وهذا مع أن الله قد أثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك . وأنا في حسب الله وحسبك . وما لى إلا الله وأنت . وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك . والله لى في السماء وأنت لى في الأرض . ويقول : والله وحياة فلان أو يقول : نذرا لله ولفلان . وأنا نائب لله ولفلان أو أرجو الله ولفلان ، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت . ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبي ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ في شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل والالانة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدًا . والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، وفي مسند الامام أحمد ان رجلا اتى به إلى النبي ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال قد عرف الحق لأهله .

(١) الحديث رواه مالك في الموطأ في كتاب السفر رقم ٨٥ ، وأحمد في مسنده ٢ / ٢٤٦ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٢

(٣) سورة يس الآية ٦٩

(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ ، ٢١١

(٥) سورة الفرقان الآية ١٨

(٦) الحديث رواه أحمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذي في ابواب النذور رقم ٩ ، والنسائي في كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه في ابواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمي في كتاب النذور رقم ٦

(٧) الحديث رواه أحمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذي في ابواب النذور رقم ٩ ، والنسائي في كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه في ابواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمي في كتاب النذور رقم ٦ .

(٨) الحديث رواه أحمد ١ / ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨٣ ، ٣٤٧

## فصل

وأما الشرك في الارادات والنيات ، فذلك البحر الذي لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، فمن أراد بعمله غير وجه الله نوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه. فقد أشرك في نيته وإرادته ، والاخلاص ان يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هي الحيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها ، وهي حقيقة الاسلام كما قال تعالى : ﴿ ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (١) وهي ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

## فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة إن فتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول : ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه في الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأوكسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبها والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالشرك مشبه للمخلوق بالخالق في خصائص الالهية ، فإن من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق ، فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره ، تشبها بمن له الأمر كله ، فأزمة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها احد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد فمن اقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغني بالذات ، ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب ان تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاحلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة ان يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة ان يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك اقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده انه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، ومن خصائص الالهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونها غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الاصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به في خالص حقه ، وهذا من المحال ان تأتى به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدي الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره ، فقد شبه المخلوق به ومنها

التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيماً واجلالاً ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا في جانب التشبيه . واما في جانب التشبه به فمن تعاضم وتكبر ودعا الناس إلى اطرائه في المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفاً ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه في ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيقة بان يهيئه غاية الهوان وبذله غاية الذل ، ويجعله تحت اقدام خلقه وفي الصحيح عنه ﷺ قال ﴿ يقول الله عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبت ﴾<sup>(١)</sup> وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذاباً يوم القيامة لتشبهه بالله في مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله في الربوبية والالهية كما قال النبى ﷺ : ( أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون . يقال لهم : احيوا ما خلقتم )<sup>(٢)</sup> . وفي الصحيحين عنه ﷺ انه قال : ( قال الله عز وجل : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة »<sup>(٣)</sup> فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منها وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به في صنعة صوره ، فكيف حال من تشبه به في خواص ربوبيته وإلهيته . وكذلك من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : ( إن اخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك إلا الله )<sup>(٤)</sup> وفي لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الأملاك<sup>(٥)</sup> فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به في الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لا غيره .

## فصل

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسئء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض اسماء وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾<sup>(٧)</sup> وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أفكأ آلهة دون الله

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب البر حديث رقم ١٣٦ ، وأبو داود في كتاب اللباس رقم ٢٥ ، وابن ماجه في ابواب الزهد رقم ١٦٠ ، واحد في مسنده ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ ، ٦ / ١٩

(٢) الحديث رواه البخارى في كتاب اللباس رقم ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ والترمذى في ابواب المواقيت رقم ١٤٩

(٣) الحديث رواه البخارى في كتاب التوحيد رقم ٥٦ ، واحد ٢ / ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٥٢٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى في كتاب الأدب رقم ١١٤ ، وأبو داود في كتاب الأدب رقم ٦٢ ، والترمذى في ابواب الأدب رقم ٦٦ ، واحد ٢ / ٢٤٤

(٥) الحديث رواه احمد ٢ / ٣١٥

(٦) سورة الفتح الآية رقم ٦

(٧) سورة فصلت الآية رقم ٢٣

تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴿١﴾ أى فما ظنكم ، اى يجازيكم به إذا لا قيموه وقد عبدتم غيره ، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره ، وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ، حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من انه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وانه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج في رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء الغنى عن كل شيء الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقض لحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع في العقول والفطر ، وقبحه مستقر في الفطر السليمه فوق كل قبيح ، يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع ، وهذا خالص حقه فمن اقبح الظلم ان يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذى جعل شريكه في حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفeskم هل لكم مما ملكت أيما نكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾ (٢) أى إذا كان أحدكم يأثف أن يكون مملوكه شريكا له في رزقه ، فكيف تجمعون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به متفرد ، وهو الالهية التى

لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسوائى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمى حق عظمتى ولا أفردنى بما أنا متفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾ (٣) إلى قوله ﴿ لقوى عزيز ﴾ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وان يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾ (٤) فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا ، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق اسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عبادة من طاعتهم . ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته

(٣) سورة الحج الآيات ٧٣ ، ٧٤

(٤) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

(١) سورة الصافات الآيات رقم ٨٥ - ٨٧

(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٨

ومشيئته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون في ملكه ما لا يشاء ويشاء ما لا يكون ، فتعالى عن قولة أشباه المجوس علوا كبيرا ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أيعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البتة ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، فهو سبحانه الذي جبر العبد عليه وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول ان السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه وإليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ، ثم يعاقب عليه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس . والطائفتان ما قدر الله حق قدره ، وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله في كل مكان ، وصانه عن عرشه ان يكون مستويا عليه ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتخرج الملائكة والروح، وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء الى الأرض ، ثم تخرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله في كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان ان يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه ، وغضبه ومقتته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة مجيئه واتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عبادہ بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله سبحانه يحل في جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود ، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكركم ، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزو وضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، أهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب . تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ، وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى في رب العالمين ، انه ارسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ، ويقول : قال كذا وامر بكذا ، ونهى عن كذا . وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحریمهم ويقول : الله اباح لي ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقربه ، ويجيب دعواته ويمكنه بمن يخالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفربه ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحديث ادلة تصديقه شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة، ومعلوم ان هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته ورؤيته تعالى الله عن قول الجاحدين . علوا كبيرا . فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز ان يعذب أوليائه ، ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كل الامرین بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه



للخير لا للمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه في كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم انه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من في القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه ، والمسيء فيه بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمة ، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه امره فعصاه ، ونهى فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه وكان هواه أثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلهذا الفضلة من قلبه وعلمه ، وقوله وعمله وماله وسواه المقدم في ذلك ؛ لأنه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه وإطلاعه عليه وهو في قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق إليه وإطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام في حق ربه ان ساعده القدر قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحي ان يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ، فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما اشرك معه أبغض الخلق اليه وأهونهم عليه وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ . إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٦٠ ﴾ .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ لَهُمْ جَمِيعًا . ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ١٦١ ﴾ .

فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم انه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهي التي تخاطبهم وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم انه يعبد من امره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم . لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ١٦٢ ﴾ فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١

(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١

للسيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه ، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه مع الله الذى هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس ﴾ . اى من اغوائهم واضلالهم ﴿ وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ (١)

فهذه اشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وانه لا يغفره بغير التوبة منه ، وانه يوجب الخلود فى النار ، وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلها غيره ، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال ان يأذن فى مشاركته فى ذلك او يرضى به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

### فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر يتافيان ذلك ، ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

### فصل

ويل ذلك فى كبر المفسدة القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم اثما عند الله فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما ان من اقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقريبا اليه خيرا ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا امر مستقر فى سائر الفطر والعقول فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عباده واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة اعظم له واجلالا فداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى عن امام المعطلة فرعون انه انكر على موسى ما أخبر به من ان ربه فوق السموات ﴿ ياها مان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب اسباب السماوات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا ﴾ ، واحتج الشيخ ابو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب ، وهو كتاب اجتماع

الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية في اثبات العلوم . والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكديبا بما اخبر به عن نفسه واخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا ، كانت من اكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لان المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، وقال إبليس لعنه الله : أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بلا اله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثت فيهم الالهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع في أصل الدين ، وفتنة المذنب في الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصددهم عنه والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع قادح في أوصاف الرب وكماله ، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ ، والعاصي ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطيء السير بسبب ذنوبه .

### فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذي قامت به السموات والأرض وأرسل الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم - وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، كان أى الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته في العظمة بحسب مفسدته في نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذي لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه وتعالى القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه في مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشدّه ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحة واستحقاق من قتله السعى في إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس غدايا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبي ، ويليهِ من قتل إماما عادلا ، أو عالما يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصّحهم في دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا ، الخلود في النار ، وغضب الجبار ولعنته واعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه . فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن احمد والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لأدمى لم يستوفه في دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلا بد ان يستوفى له في دار العدل . قالوا فما استوفاه الوارث ، فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك بظلامته حصل له باستيفاء وارثه ، وهذا اصح القولين في المسألة ان حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهي وجهان لأصحاب الشافعي واحمد وغيرهما ، ورأت طائفة انه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذي قد جناه قد اقيم عليه حده ، قالوا : وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ، وقد

قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أُحرقوا أولياءهم وفتنهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ يا عبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ (١) وهذا فى حق التائب وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه ، قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق فى المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق للمظلوم المقتول وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولى ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح أو العفو وبقي حق المقتول يعرضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا ، وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من مال إلى الوارث فقد برىء من عهده فى الآخرة ، كما برىء منها فى الدنيا . وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذ باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلماته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به فى طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بإدراكه ، وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعددت الورثة كانت المطالبة للجميع ، لانه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد ، وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من اخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى له كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه واخذه بل حال بينه وبينه ظلما وعدوانا فالطلب له فى الآخرة ، وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التى احرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فى حق المطالبة لمن تلف على ملكه ، فينبغى أن يقال ، فإذا كان المال عقارا وأرضا أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ما له استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا ، وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال المطالبة لها جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقوقهم منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم أولى بها من بعض والله أعلم .

### فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس

جميعاً<sup>(١)</sup> وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا معلوم ان إثم قاتل مائة أعظم إثماً عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم ان التشبيه في مقدار الاثم والعقوبة، والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْعِدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾<sup>(٣)</sup> وذلك لا يوجب ان لبثهم في الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبي ﷺ : ( من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر في جماعة فكأنما قام الليل كله )<sup>(٤)</sup> أى مع العشاء كما جاء في لفظ آخر وأصرح من هذا قوله : من صام رمضان وأتبعه ستة من شوال فكأنما صام الدهر<sup>(٥)</sup> وقوله ﷺ من قرأ قل هو الله فكأنما قرأ ثلث القرآن<sup>(٦)</sup> ومعلوم ان ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به . فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلي الفجر والعشاء في جماعة في قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتي احد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فإن قيل ففي أى شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعاً ، قيل : في وجوه متعددة : أحدها ان كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ ، يخالف لأمره متعرض لعقوبته ، وكلاهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود في نار جهنم واعدلهم عذاباً عظيماً ، وان تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبياً أو إماماً عادلاً أو عالماً يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس . الثاني انها سواء في استحقاق ازهاق النفس ، الثالث انها سواء في الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفساً بغير استحقاق بل لمجرد الفساد في الأرض ولأخذ ماله فإنه يجترئ على قتل كل من ظفر به وامكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانساني ، ومنها انه يسمى قاتلاً أو فاسقاً أو ظالماً أو عاصياً بقتله واحداً ، كما يسمى ذلك بقتله الناس جميعاً ، ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحصى والسهر . فإذا ائلف القاتل عضواً من ذلك الجسد فكأنما ائلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذى مؤمناً واحداً فقد آذى جميع المؤمنين وفي آذى جميع المؤمنين آذى جميع الناس كلهم ، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فيأذء الخفير فيأذء المخفر وقد قال النبي ﷺ : - ( لا تقتل النفس ظلماً بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل ولم يجيء هذا الوعيد في أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر .

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٢

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٦

(٣) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥

(٤) الحديث رواه البخارى في كتاب الاذان رقم ٣٤ ، ومسلم في كتاب المساجد حديث رقم ٢٦٠ ، والترمذى في ابواب الصلاة رقم ٢٨ ، واحد ١ / ٥٨ ، ٦٨

(٥) الحديث رواه البخارى في كتاب الصوم رقم ٥٩ ، وفي كتاب النكاح رقم ١ ، ومسلم في كتاب الصيام حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، والترمذى في ابواب الصوم رقم ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، والنسائى في كتاب الصيام رقم ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، وابن ماجه في ابواب الصيام / ٣٢ ، واحد ٥ / ١٤٦ .

(٦) الحديث لفظه : (من قرأ قل هو الله احد فكأنما قرأ ثلث القرآن) رواه احمد والنسائى في اليوم والليلة عن ابن بن كعب ، أو عن رجل من الانصار - قال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح (

(المسند ٥ / ١٤١ ، مجمع الزوائد ٧ / ١٤٧ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٧ ط : الحلبي

وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل؛ لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبي - ﷺ - عمرو بن لحي الخزاعي يعذب أعظم العذاب في النار ؛ لأنه أول من غير دين ابراهيم - عليه السلام - وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافرين ﴾ <sup>(١)</sup> ، أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى جامع الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : ( يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يارب سل هذا فيما قتلتنى فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ <sup>(٢)</sup> ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة قال الترمذى : هذا حديث حسن <sup>(٣)</sup> .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : ( أول ما يتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم ألا يأكل الا طيبا فليفعل ومن استطاع الا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل ) <sup>(٤)</sup> .

وفى جامع الترمذى عن نافع قال : ( نظر عبد الله بن عمر يوما الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك ) قال الترمذى هذا حديث حسن .

وفى صحيح البخارى - أيضا - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - : ( لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما ) <sup>(٥)</sup> .

وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال : ( من ورطت الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله ) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه : ( سباب المؤمن فسوق . وقتاله كفر ) <sup>(٦)</sup> .

وفيهما أيضا عنه - ﷺ - ( لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ) <sup>(٧)</sup> .

وفى صحيح البخارى عنه ﷺ : ( من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد مسيرة

(١) سورة البقرة الآية : ٤١

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب تفسير القرآن » ج ٤ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ عن ابن عباس بلفظ « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول : يارب قتلتنى هذا حتى يدينه من العرش ، قال : فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية .. » الخ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) صحيح البخارى كتاب الاحكام - باب من شاق شق الله عليه « من حديث طويل » من سَمِعَ الله به يوم القيامة .. الخ عن جندب .

(٥) الترغيب والترهيب .. كتاب الحدود .. باب الترهيب من قتل النفس .. الخ ج ٣ ص ٢٩٢ حديث رقم ٤ وهذا جزء من حديث ابن عمر . ثم قال المنذرى : رواه البخارى والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٦) الترغيب والترهيب كتاب الادب وغيره باب الترهيب من السباب واللعن .. الخ ج ٢ ص ٤٦٦ الحديث رقم ٢ عن ابن مسعود - رضى الله عنه - بلفظه ..

(٧) صحيح البخارى كتاب العلم - باب « الانصات للعلماء » ج ١ ص ٤١ عن جرير ان النبي - ﷺ - قال له فى حجة الوداع : استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض .

وانظر سنن الترمذى كتاب الفتن ابواب القدر ج ٢ ص ٣٢٩ حديث رقم ٢٢٨٩ .

أربعين عاما<sup>(١)</sup> .

هذه عقوبة قاتل عدو الله اذا كان معاهدا في عهده وامانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن .  
واذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرأها النبي - ﷺ - في  
النار والهرة تخذشها في وجهها وصدرها . فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم . وفي بعض  
السنن عنه - ﷺ - ( لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق ) .

### ﴿ مفسدة الزنا ﴾

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب وحماية  
الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة  
صاحبه وبنته واخته وأمه وفي ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنه الله -  
سبحانه - بها في كتابه ورسوله - ﷺ - في سنته . قال الامام احمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم  
من الزنا وقد أكد الله سبحانه حرمة بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس  
التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢) ، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في  
النار وفي العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال  
تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (٣) . فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح  
الذى قد تناها قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخارى في  
صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت في الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القرد على  
فرجها حتى ماتا (٤) ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا  
وسبيل عذاب في الآخرة وخزى ونكال ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال انه  
كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح  
بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ الى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء  
ذلك فأولئك هم العادون ﴾ (٥) . وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من  
المفلحين ، وانه من الملمومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اثم العدوان ، ووقع في اللوم ،

(١) « الترغيب والترهيب » كتاب الحدود باب « من قتل معاهدا .. الخ ج ٣ ص ٢٩٨ ، حديث رقم ٢٣ عن عبد الله بن عمرو بن  
العاص بلفظه . وقال المنذرى : رواه البخارى واللفظ له ، والنسائي إلا انه قال : من قتل قتيلًا من أهل الذمة »  
وانظر البيهقى ج ١ ص ١٣٣ باب ما جاء في اثم من قتل ذميا .. الخ بزيادة « بغير حق » وقال رواه البخارى في الصحيح

عن قيس بن جعفر .. الخ

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٦٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٣٢

(٤) صحيح البخارى « القسامة في الجاهلية » ح ٥٦ عن عمرو بن ميمون بلفظ قال : « رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها  
قردة قد زنت فرجوها فرجتها معهم »

(٥) سورة المؤمنون الآيات من ١ - ٧

فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ونظير هذا أنه ذم الانسان ، وانه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل اذا مسه الخير منع وبخل ، واذا مسه الشر جزع إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر عنهم ﴿ الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وأمر الله - تعالى - نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾<sup>(١)</sup> . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستغر الشرر .

### ﴿ أثر المعاصي ﴾

وللمعاصي من الآثار القبيحة المدمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها :

حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور ، ولما جلس الامام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية . وقال الشافعي :

فأرشدني إلى ترك المعاصي  
وفضل الله لا يؤتاه عاصي

شكوت إلى وكيع سوء حفظي  
وقال : اعلم بان العلم فضل

ومنها حرمان الرزق :

وفي المسند أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولما أن كانت تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصي .

ومنها وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من في قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريا بتركها ، وشكا رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان :

ومنها الوحشة التي تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرمة البركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما يبعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته



وولده وأقاربه وبيته وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه وقال بعض السلف : إني لأعصى الله فأرى ذلك في خلق دابتي وامراتي ،

وفي تعسير أموره عليه . فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه . وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا ، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا .

وبالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى .

ومنها ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة . وهو لا يشعر كأعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا في الوجه حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : إن للحسنة ضياء في الوجه ونورا في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق .

وإن للسيسة سوادا في الوجه ، وظلمة في القبر والقلب ووهنا في البدن ، ونقصا في الرزق ، وبغضة في قلوب الخلق .

ومنها أن المعاصي توهن القلب والبدن ، وأما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه . وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون الى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم . ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا انه يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة أخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة ، منعه من عدة أكالات أطيب منها . والله المستعان .

ومنها أن المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته ولا بد فإن البر كما يزيد في العمر فالفجور ينقص . وقد اختلف الناس في هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصي هو ذهاب بركة عمره ومحققا عليه ، وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصي .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده قالوا : ولا تمنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والأجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وإن كانت بقضاء الله - عز وجل - فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسيئاتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة ، وهى حياة القلب ، ولهذا جعل الله - سبحانه وتعالى .. الكافر ميتا غير حى ، كما قال سبحانه ﴿ أموات غير أحياء ﴾ <sup>(١)</sup> فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الانسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته ، بالله ، فتلك ساعات عمره .

فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها . وبالجمله فالعبد اذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب لإضاعتها يوم يقول : ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ <sup>(٢)</sup> فلا يخلو اما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ، فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا ، وان كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضرارها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة ان عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته .

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة سيئة بعدها ، وان من ثواب الحسنة حسنة بعدها . فالعبد اذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملنى أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية .. كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات . أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاعت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، حتى ان كثيرا من الفساق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث قال :

وكأس شربت على لذة      وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر :

وكانت دوائى وهى دائى بعينه      كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله - سبحانه - برحمته عليه الملائكة تآذيه اليها أزا ، وتحرضه عليها ، وترعجه عن فراشه ، ومجلسه اليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتآذيه اليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا اكثر من أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

(١) سورة النحل من الآية : ٢١

(٢) سورة الفجر من الآية : ٢٤

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مراقبتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك .

ومنها ان ينسخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي - ﷺ - ( كل أمتي معافي إلا المجاهرين وان من الاجهار ان يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يا فلان عملت البارحة يوم كذا وكذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه )<sup>(١)</sup> .

ومنها أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمة من الأمم التي أهلك الله - عز وجل - فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلوفى الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصي لا يس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبي من أنبياء بنى اسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائي ، ولا تلبسوا ملابس أعدائي ، ولا تركبوا مراكب أعدائي ، ولا تطعموا مطاعم أعدائي ، فتكونوا أعدائي كما هم أعدائي .

وفي مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي - ﷺ - قال : ( بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم )<sup>(٢)</sup> .

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾<sup>(٣)</sup> . وان عظمهم الناس في الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم لهم في قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها ان العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر في قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر في عين العبد عظم عند الله .

(١) الحديث في رياض الصالحين - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن اشاعتها لغير ضرورة - ص ١٢٦ ولفظه ، عن ابن هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كل أمتي معافي الا المجاهرين ، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله » متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد المجلد الثانى ط دار الفكر العربى ص ٥٠ بلفظه عن ابن عمر .

(٣) سورة الحج من الآية : ١٨

وقد ذكر البخارى فى صحيح على بن مسعود قال : ( ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال : هكذا فطار )<sup>(١)</sup> .  
ومنها ان غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال ابو هريرة : ان الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : ان البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

ومنها ان المعصية تورث الذل ولا بد ، فان العز كل العز فى طاعة الله - تعالى - قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾<sup>(٢)</sup> . فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها إلا فى طاعته ، وكان من دعاء بعض السلف ( اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلى بمعصيتك ) . قال الحسن البصرى : انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ان ذل المعصية لا تفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك .

رأيت الذنوب تमित القلو	ب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلو	ب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملو	ك واحبار سوء ورهبانها

ومنها أن المعاصى تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفىء نور العقل ، ولا بد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص ، وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر ، فانه لو حضر عقله لحجزه

عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته . شهود عليه ، ناظرون اليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، ولفظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم .

ومنها ان الذنوب اذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾<sup>(٣)</sup> قال هو الذنب بعد الذنب وقال

(١) شرح السنة للإمام البيهقى كتاب الدعوات - باب التوبة - ج ٥ ص ٨٦ ط/ المكتب الاسلامى عن الحارث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض ، فحدثنا بحدِيثين - حدِيث عن نفسه ، وحدِيث عن رسول الله - ﷺ - قال : « ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف ان يقع ، وان الفاجر يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أشد فرحا بتوبة عبده ... الخ

وانظر صحيح البخارى ج ١١ ص ١٠٢ باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٣) سورة المطففين آية : ١٤

الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ، وأصل هذا ان القلب يصدى من المعصية فاذا زادت غلب الصدى حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما ، فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . .

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله - ﷺ - فانه لعن على معاص والى غيرها اكبر منها ، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصلة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة ، ولعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيا وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وأكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الأرض وهى اعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ، ولعن المخشئين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كره أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من رسم دابة في وجهها، ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة في دبرها ، وأخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب الى غير ابيه ، وأخبر ان من أشار الى اخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة ، وقد لعن الله من أفسد في الأرض وقطع رحمه واذاه وأذى رسوله ، ولعن من كتم ما انزل الله - سبحانه - من البينات والهدى ، ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ، ولعن من جعل سبيل الكافر أهدي من سبيل المسلم ، ولعن رسول الله - ﷺ - الرجل يلبس لباس المرأة ، والمرأة تلبس لباس الرجل ، ولعن الراشئ والمرتشئ والرائش وهو الوساطة في الرشوة ، ولعن على اشيء آخر غير هذه لولم يكن في فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو الى تركه . ومنها حرمان دعوة رسول الله - ﷺ - ودعوة الملائكة فان الله - سبحانه - أمر نبيه ان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) . فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها .

ومن عقوبات المعاصي - ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمره بن جندب قال : ( كان النبى - ﷺ - مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة : انه أتانى الليلة آتيان وأنها أنبعثا لى وأنها قالوا لى : انطلق وانى انطلقت معهما وإنا اتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة وإذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتهدده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصبح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد وإذا هو يأتى احد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصبح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : سبحان الله ما هذان ؟ فقال لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور وإذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة وإذا هم يأتيتهم لهب من أسفل منهم فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : فقالوا لى : انطلق انطلق قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما يرجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجرا قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل كربه المرأى كأكره ما أنت راء رجلا مرأوا إذا هو عنده نار يحثها ويسعى حولها قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع وإذا بين ظهرائى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال : قلت : ما هذا ؟ وما هؤلاء ؟ قال : قالوا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال : قالوا لى : ارق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فد خللناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قال لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر قال : وإذا نهر معترض يجرى كان ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال : قالوا لى : هذه جنة عدن وهناك منزلك قال : فسما بصرى صعدا فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالوا لى : هناك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما فذراني أدخله قال : أما الآن فلا، وأنت داخله قال : قلت لهما : فإنى رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت قال : قالوا لى : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الافاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزواني ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا ، وأما الرجل

الكريه المنظر الذى عند النار يحثها ويسعى حولها ، فانه مالك خازن جهنم ، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى - ولد على الفطرة . فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين فقال رسول الله - ﷺ - وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم <sup>(١)</sup> .

ومن آثار الذنوب والمعاصى انها تحدث فى الأرض انواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما انى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء ، وقال قتادة : اما البر فأهل العمور وأما البحر فأهل القرى والريف قلت : وقد سمى الله - تعالى - الماء العذب بحرا فقال : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ﴾ <sup>(٣)</sup> . وليس فى العالم بحر حلوا واقفا وانما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه ، وقال ابن زيد : ظهر الفساد فى البر والبحر قال : الذنوب ، قلت : أراد ان الذنب سبب الفساد الذى ظهر وان أراد ان الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصي العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ، والظاهر - والله أعلم - ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا وانما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصى فى الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله - ﷺ - على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبيارهم حتى أمر الا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات . وقد ذكر الامام احمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة الحبة بقدر نواة الثمر وهى فى صبرة مكتوب عليها كان هذا ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله - سبحانه وتعالى - بما أحدث العباد من الذنوب .

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص ١٢٥ وما بعدها ورد الحديث عن سمرة بن جندب مع اختلاف فى اللفظ .

(٢) سورة الروم الآية : ٤١

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٥٣

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن ، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها . . . وانما حدثت من قرب ، وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق فقد روى الترمذى في جامعه عن النبي - ﷺ - انه قال : ( خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعاً<sup>(١)</sup> ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله ان يطهر الأرض من الظلمة والخنوة والفجرة أخرج عبداً من عباده من أهل بيت نبيه - ﷺ - فيملأ الأرض قسطاً كما ملئت جوراً ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقمة الواحدة يكفى الفئام من الناس وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله - تعالى - التي محقتها الذنوب والكفر ، ولا ريب ان العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقية آثارها سارية في الأرض تطلب ما يشاء ، كلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم فتناست كلمة الله وحكمه الكوني أولاً وآخراً وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجنائية ، والأخف للأخف ، وهنا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء ، وتأمل مقارنة الشيطان وعمله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل عمل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة .

ومن عقوباتها : انها تطفىء من القلب نار الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فان الغيرة حرارته وناره التي تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكبر تحبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم قدراً وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبي - ﷺ - أغير الخلق على الأمة ، والله - سبحانه - أشد غيرة منه كما ثبت في الصحيح عنه ﷺ انه قال : ( اتعجبون من غيرة سعد لأننا أغير منه والله أغير مني )<sup>(٢)</sup> كوفي الصحيح ايضا عنه انه قال - ﷺ - في خطبة الكسوف ( ياأمة محمد ، ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته )<sup>(٣)</sup> وفي الصحيح - أيضا - عنه - انه قال : ( لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك اثني على نفسه<sup>(٤)</sup> فجمع في هذا الحديث بين الغيرة التي أصلها كراهة القبائح ويغضها وبين محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان . والله - سبحانه -

(١) مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٢ ورد الحديث عن ابي هريرة بلفظ : « دخل خلق الله - عز وجل - آدم على صورته طوله ستون ذراعاً . . الخ »

وانظر كثر العمال ج ٦ ص ١٢٩ حديث رقم ١٥١٢٩ وعن ابي هريرة بلفظ : « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً . . الخ »

(٢) صحيح البخارى ج ٧ ص ٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظه .

(٣) وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٤٨ ورد الحديث عن المغيرة بن شعبه مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) صحيح البخارى ج ٧ ص ٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظ : « ياأمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزني عبده أو أمته » انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٨١



مع شدة غيرته يحب ان يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ، ولاجل ذلك ارسل رسله وانزل كتبه اعدارا وانذارا وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيرته من تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير اعدار منه ، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر اليه ، بل قد يكون له في نفس الامر عذر ولا تدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع في طرق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر . وكل منها غير ممدوح على الاطلاق ، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : ( إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة من غير رية <sup>(١)</sup> ) وذكر الحديث وإنما الممدوح اختزان الغيرة بالعذر فيغار في محل الغيرة ويعذر في موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو المندوح حقا .

ولما جمع - سبحانه - صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغي له بل هو مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه - سبحانه - في صفة من صفاته ، ومن وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمame وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له ، فانه - سبحانه - رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف ، حتى يحب أهل الجفاء ، جميل يحب ما يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ، ولولم يكن في الذنوب والمعاصي الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الانصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة نصير إرادة ، والارادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم نصير فعلا ، ثم نصير صفة لازمة ، وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به ، والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس ، وقد تضعف في القلب حدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ، ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك ، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره

وزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له في تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله واللجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدل على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميم القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغيرة في القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل

(١) السنن الكبرى للبيهقى ج ٩ ص ١٥٦ كتاب السر - باب الخيلاء في الحرب - ورد الحديث عن جابر بن عتيك بلفظ : « ان من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغض الله ، فاما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة في الرية ، وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة في غير رية .. الخ

قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفي الصحيح عنه - ﷺ - انه قال : ( الحياء خير كله )<sup>(١)</sup> وقال : ( ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت )<sup>(٢)</sup> وفيه تفسيران : أحدهما : انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح ، اذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يوافقها . وهذا تفسير ابي عبيدة والثاني : ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذي ينبغي تركه ما يستحى فيه من الله ، وهذا تفسير الامام احمد في رواية ابن هاني فعلى الاول : يكون تهديدا كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾<sup>(٣)</sup> وعلى الثاني : يكون اذنا واباحة . فان قيل : فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار احد المعنيين يوجب اعتبار الآخر ، والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله؛ والحامل على ذلك انسلخه من الحياء ، واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق في صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال : فديت من لا يفلح .

والحياء مشتق من الحياة والغيث سمي حيا بالقصره لان به حياة الأرض والنبات والدواب . وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت في الدنيا شقى في الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطلبه حثيثا ، ومن استحى من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستح من الله - تعالى - من معصيته لم يستح الله من عقوبته .

ومن عقوباتها : انها تضعف في القلب تعظيم الرب - جل جلاله - وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر وقال : انما يحملني على المعاصي حسن الرجاء وطمعى في عفوه لا ضعف عظمته في قلبي ، وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله - تعالى - وجلاله في قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدره حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أحمل المحال وأبين الباطل ، وكفى بالعاصي عقوبة ان يضمحل من قلبه تعظيم الله - جل جلاله - وتعظيم حرماته ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته

(١) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج ٨ ص ٢٦ باب « ما جاء في الحياء » .. ورد الحديث بلفظه عن انس

(٢) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج ٨ ص ٢٧ باب « ما جاء في الحياء » ورد الحديث بلفظه عن حذيفة .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٠

يعظم الناس حرماته ، وكيف ينتهك عبد حرمت الله ويطمع الا ينتهك الناس حرماته ، ام كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ، أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار- سبحانه - الى هذا في كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وانه اركس اربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وانه نسيهم كما نسوه واهانهم كما اهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا امره ، ولهذا قال تعالى : في آية سجود المخلوقات له : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ <sup>(١)</sup> . فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه اهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد ان اهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من اكرم .

ومن عقوباتها : انها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ <sup>(٢)</sup> فأمر بتقواه ونهى ان يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى : أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره ، فترى العاصي مهملاً لمصالح نفسه مضيعاً لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط في سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنما هى سحابة صيف أو حبال طيف .

أحلام نوم أو كظل زائل  
ان اللبيب بمثلها لا يخدع  
وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبيها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض .

من كل شيء اذا ضيعته عوض  
وليس فى الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شيء ما سواه ولا يعوض منه شيء ، ويعفى عن كل شيء ولا يغنى عنه شيء ، ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء ، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء ، كيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره ، حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان اذا باشر القلب منعه عن المعاصي ، فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبه وخوفه

(١) سورة الحج من الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الآيتان : ١٨ ، ١٩

ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين ارادة المعاصي فضلا عن موافقتها ، فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقة الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فان اراد الله به خيرا أقره في دائرة عموم المؤمنين ، فان عصاه بالمعاصي التي تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبي - ﷺ - ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبه ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، اياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد ) . ومن فاته رفقة المؤمنين خرج عن دائرة الايمان ، فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير ربه الله في كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الاجر العظيم ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ (١) .  
ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ (٢) . ومنها استغفار حملة العرش لهم ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ (٣) .

ومنها موالة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا ﴾ (٤) . ومنها أمره ملائكته بتبيتهم ﴿ اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ (٥) . ومنها ان لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ﴿ والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (٦) . ومنها معية الله لاهل الايمان ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾ (٧) . ومنها الرفعة في الدنيا والآخرة ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (٨) . ومنها اعطاهم كفلين من رحمته واعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم ، ومنها اللود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحبهم الى ملائكته وانبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم الخوف يوم يشتد الخوف ﴿ من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٩) . ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم المستقيم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ (١٠) .

والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان ، فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئا يخرج من دائرة الايمان ، ويحول بينه وبينه ، ولكن لا تخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب واصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن

(٦) سورة المنافقون من الآية : ٨

(٧) سورة الأنفال من الآية : ١٩

(٨) سورة المجادلة من الآية : ١١

(٩) سورة المائدة من الآية : ٦٩

(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٦

(٢) سورة الحج من الآية : ٣٨

(٣) سورة غافر من الآية : ٧

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٧

(٥) سورة الانفال من الآية : ١٢

الاسلام بالكلية ، ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم : انتم تخافون الذنوب وانا أخاف الكفر .

ومن عقوباتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة، هذا ان لم ترده عن وجهته الى ورائه ، فالذنوب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسير ، فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان .

فالذنوب إما يميت القلب ، وإما يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ، ولا بد حتى ينتهي ضعفه الى الاشياء الثمانية التي استعاذ منها النبي ﷺ - وهي الهم ، والحزن ، والكسل ، والعجز ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فإن المكروه والوارد على القلب ان كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وان كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان ، فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وان كان لعدم ارادته فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فان عدم النفع منه ان كان بيدنه فهو الجبن ، وان كان بماله فهو البخل ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان استيلاء الغير عليه ان كان بحق فهو من ضلع الدين ، وان كان بباطل فهو من قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال النعم ، وتحول عافيته وفجأة نقمته وجميع سخطه .

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فما زالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال علي بن ابي طالب - رضي الله عنه : ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (٢) فاخبر الله تعالى انه لا يغير نعمته التي انعم بها على احد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره واسباب رضاه بأسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ (٣) فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (٤) وفي بعض الآثار الالهية عن الرب - تبارك وتعالى - انه قال : ﴿ وعزقي وجلالي لا يكون عبد من عبيدي على ما أحب ثم ينتقل عنه الى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب عبيدي الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدي على ما أكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره الى ما يحب ﴾ وقد أحسن القائل :

إذا كنت في نعمة فارعها فان الذنوب تزيل النعم

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦

(٤) سورة الرعد من الآية : ١١

(١) سورة الشورى من الآية : ٣٠

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٥٢

وحطها بطاعة رب العباد	فرب العباد سريع النقم
واياك والظلم مهما استطعت	فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى	لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم	شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر	من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن	قصور واخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعم	وكان الذى نالهم كاللحم

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله - سبحانه وتعالى - من الرعب والخوف فى قلب العاصى فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الأمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا. ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصى إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائر إن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وان سمع وقع قدم خاف ان يكون نذيرا بالعطب ، يحسب كل صبيحة عليه وكل مكروه قاصدا اليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا ان المخاوف والاجرام فى قرن

ومن عقوباتها : انها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشا مذ وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبينه ، وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووزان بين لذة المعصية وما يولد فيه من الخوف والوحشة . لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، اذ باع أنس الطاعة وأمنها وخلاوتها بوحشة المعصية وما توجه من الخوف ..

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب - سبحانه - وكلما اشتد القرب قوى الأنا ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينها ، وان كان ملايسا له قريبا منه ، ويجد أنسا قويا بينه وبين من يحب ، وان كان بعيدا عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها ، وحشة الشرك الكفر ، ولا تجد أحدا يلبس شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ملايسه منه فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه .

ومن عقوباتها : انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى

الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها الا تركها ، وقد أجمع السائرون الى الله ان القلوب لا تعطى منها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولا يصح ذلك إلا بمخالفة هواها ، وهواها مرضها ، وشفاؤها مغالفتها ، فإن استحكمت المرض قتل أو كاد ، وكما ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة لا يشبه نعيم أهلها نعيم البتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup> مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل في دورهم الثلاثة كذلك أعنى : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء في نعيم ، وهؤلاء في جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وإنقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة ، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار ، فهو يضرب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه . وأنواع المعارضات ، فاذا سلبه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار، وأما في البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجى عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم ، بل عملها في النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طرباً وفرحاً وانسا بربه ، واشتياقاً اليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم : في حال نزعه واطرباه ، ويقول آخر : ان كان اهل الجنة في مثل هذا الحال انهم لفى عيش طيب ، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيق العيش فيها وما ذاقوا أطييب ما فيها ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن في هذا العقد وهو يرى انه قد غبن اذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين ، فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول - ﷺ - وقد بعثها بغاية الهوان .

اذا كان هذا فعله عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ - ١٤

(٢) سورة الحج من الآية : ١٨

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصر القلب وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية ، وقد قال مالك للشافعي - رحمهما الله تعالى - لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إني أرى الله - تعالى - قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم - فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ويا سرة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها ، فإذا كانت عند الموت ظهرت في البرزخ فامتلاً القبر ظلمة كما قال النبي - ﷺ - : ( إن هذه القبور مملئة على أهلها ظلمة ، وإن الله ينورها بصلاحي عليهم )<sup>(١)</sup> فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل احد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيألفها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها ، فكيف يقسط العبد المنخص المنكد المتعب في زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزيكها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٢)</sup> . والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنها قوله تعالى : ﴿ يدسه في التراب ﴾<sup>(٣)</sup> فالعاصي يدس نفسه في المعصية ويخفي مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به ، قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شيء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله - تعالى - وبهذا الذل حصل لها هذا الشرف والعز والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

ومن عقوباتها أن العاصي دائما في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوء حالا عن أسير أسره أعدى عدوله ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ، وكيف يخطو خطوة واحدة اذا قيد القلب طرقته الآفات ، وكلما نزل استوحشه جانب بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات ، وفي الحديث : ( الشيطان ذئب الانسان ) وكما ان الشاة التي لا حافظ لها وهي بين الذئب سريعة العطب فكذا العبد اذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولا بد ، وانما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهي وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هي وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب الى الهلاك ، فأجى ما تكون الشاة اذا قربت من الراعى ، وانما يأخذ الذئب القاصي من الغنم ، وهي أبعدهن من الراعى ، وأصل هذا كله

(١) سنن الدار قطنى كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر ج ٢ ص ٧٧ حديث رقم ٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن انس .

(٢) سورة الشمس الايتان : ٩ - ١٠

(٣) سورة النحل من الآية : ٥٩



أن القلب اذا كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد العبد عن الله ، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة أعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك أعظم من ذلك كله . ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمترلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فان أكرم الخلق عند الله اتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده ، فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده ، واذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ، ساقط القدر ، ذرى الحال ، لا حرمة له ، فلا فرح له ، ولا سرور ، فان خول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل هم وغم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة .

ومن أعظم نعم الله على العبد ان يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴿<sup>(١)</sup>﴾ أى خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سألته ابراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ وقال - سبحانه وتعالى - عنه وعن نبيه : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وقال لنبيه - ﷺ - ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

ومن عقوباتها : انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعايد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والرضى ، ونحوها ، وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسيء ، والمفسد ، والخبث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق ويشس الاسم الفسوق بعد الايمان التى توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان .

وتلك أسماء توجب رضا الرحمن ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان ، فلولم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولولم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب . ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

(٤) سورة الشرح الآية : ٤

(٥) سورة الحج الآية : ١٨

(١) سورة صس الأيتان : ٤٥ - ٤٦

(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٤

(٣) سورة مريم الآية : ٥٠

ومن عقوباتها : انها تؤثر بالخاصة في نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص  
إلا وعقل المطيع منها أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب  
القرآن انما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾ <sup>(١)</sup> .  
وكقوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعص من هو في قضيته وفي داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو  
بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضب عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قرب ،

وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ،  
وحرمانه وروح رضاه وجهه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر الى وجهه في زمرة أوليائه ، الى  
أضعاف اضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأى عقل لمن أثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضي  
كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل  
الذي تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه ، وأسلم  
عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

واما تأثيرها في نقصان العقل العيشي فلولا الاشتراك في هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل  
عاصينا ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت ان الطريق الذي  
يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش انما هو في رضاء من النعم كله في رضاه ، والألم  
والعذاب كله في سخطه وغضبه ، ففى رضاه قرة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة  
الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف  
به ، بل اذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضا منه ، ومع هذا فهو يتنعم  
بنصيبه من الدنيا أعظم من نعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم  
المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين  
آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له في خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال سبحانه : ﴿ إن تكونوا  
تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجعون ﴾ <sup>(٤)</sup>

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبر ، والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله  
عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم  
جهنم وساءت مصيرا .

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين وربه - تبارك وتعالى - واذا وقعت

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧

(٢) سورة المائدة من الآية : ١٠٠ ، وسورة الطلاق من الآية : ١٠

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦٩

(٤) سورة النساء من الآية : ١٠٤

القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طرفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين اعداء عدو له ، فتولاه عدوه ، وتحلى عنه وليه ، فلا تعلم نفس مالهذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وانواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله - سبحانه - وبين الشيطان فان اعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وان تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ افْتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكُمْ لَهُمْ عَدُوٌّ بَشَرٌ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ <sup>(١)</sup> ﴾ يقول سبحانه لعباده : أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتى كلهم ان يسجدوا له تكريما وتشريفا فأطاعوني ، وأبى عدوى وعدوه فعصى أمرى وخرج عن طاعتي ، فكيف يحسن بكم بعد هذا ان تتخذوه وذريته أولياء من دوى ، فتطيعوه فى معصيتى ، وتوالوه فى خلاف مرصاتي ، وهم أعداء عدو لكم ، فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن وإلى اعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعداء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعى انك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم ، فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه اعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل ان يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۝ وَكَمَا نَبِهَ عَلَى قُبْحِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۝ فَتَبَيَّنَ ان عداوته لربه وعداوته لنا كل منها سبب يدعو الى معاداته ، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال بش للظالمين بدلا ، ويشبه ان يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفا عجيبا ، وهو ان عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتى فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعادة ان عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة .

ومن عقوباتها : انها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجمله انها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۝ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَأَلَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا لَنَفْتَنَهُمْ فِيهِ ۝ <sup>(٣)</sup> ﴾ .  
وان العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه ، وفى الحديث : ( ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وان الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط ) <sup>(٤)</sup> وقد تقدم الأثر الذى

(١) سورة الكهف من الآية : ٥٠

(٢) سورة الاعراف من الآية : ٩٦

(٣) سورة الجن الآية : ١٦٠ وجزء من الآية : ١٧

(٤) كشف الخفاء ج ١ ص ٢٦٨ حديث رقم ٧٠٧ ورد بلفظ .. ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت النفس حتى تستكمل

ذكره احمد في كتاب الزهد ( أنا الله اذا رضيت باركت وليس لبركتي منتهى ، واذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابغ من الولد ، وليست سعة الرزق والعمل بكثرتي ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه ) وقد تقدم ان عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبه وعبادته وحده ، أو الانابة اليه والطمانينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به في الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض ، واذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحي الذي لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له في شيء له من ذاته البتة . عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ، وانما كانت معصية الله سبباً لمحق بركة الرزق والأجل ؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته محققة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل ، والشرب ، واللبس ، والركوب ، والجماع ، لما في مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها، وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فإن الرب هو الذي يبارك وحده والبركة كلها منه ، وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبد المومن النافع لخلق مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنائنه من أرضه وهي الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك الا ما نسب اليه ، اعنى الى محبته وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب الى ربوبيته وخلقته ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريباً من ذلك ففيه من البركة على قدر قربته منه ، وضد البركة اللعنة فأرض لعننا الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه السبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه ابليس وجعله ابعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربته منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصي أعظم تأثير في محق بركة العمر ، والرزق ، والعلم ، والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصي الله به ، أو بدن ، أو جاه ، أو علم ، أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ، ولهذا من الناس من يعيش في هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله في الحقيقة لا يبلغ الف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه . والعلم وفي الترمذى عنه - رحمته الله - ( الدنيا ملعونة

رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب . . وانظر حلية الأولياء ج ١٠ ص ٢٧ عن ابي امامة قال : قال رسول الله - رحمته الله - « ان روح القدس نفث في روعي ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاجملوا في الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق ان يطلبه بمعصية فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته . »

ملعون ما فيها إلا ذكر الله - عز وجل - وما والاه أو عالما أو متعلما<sup>(١)</sup> وفي أثر آخر (ملعون ملعون ما فيها إلا ما كان لله هذا هو الذي فيه البركة خاصة والله المستعان .

ومن عقوباتها انها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيبا لأن يكون من العلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : عليا ، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعلين في الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين في الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما في مسند احمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبي - ﷺ - انه قال : ( جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال في نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال في ارتفاع حتى يكون من الأعلين )<sup>(٢)</sup> وقد يجتمع للعبد في أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو ان العبد قد ينزل نزولا بعيدا أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض لا يفيء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما في الصحيح عن النبي - ﷺ - انه قال : ( ان العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقي لها بالا يهوى بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب )<sup>(٣)</sup> فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته او الى أرفع منها بحسب يقظته ، ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته ، وقد لا يصل اليها ، وقد يرتفع عنها ، فانه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون اصعب همة ، وقد تعود همتها كما كانت ، ومنهم من يكون نزوله الى معصية اما صغيرة وإما كبيرة ، فهذا يحتاج في عودته الى درجته الى توبة نصوح ، وانا بصادقة ، واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التي كان فيها بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أولا يعود بناء على أن التوبة تأثيرها في اسقاط العقوبة ، واما الدرجة التي فاتته فانه لا يصل اليها قالوا : وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة في الزمن الذي عصي فيه لصعود آخر وارتفاعه بجمله أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجمله ماله الذي يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه في زمن المعصية ارتفاع ، وريح بجمله أعماله ، فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى أعلى

(١) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٧٧ كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة حديث رقم ٤١١٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد باب ما قيل في الرماح ج ٤ ص ٤٩ عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - « جعل رزقى تحت ظل رحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى »

وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ فقد ورد هذا الحديث جزءا من روايتين لابن عمر .

(٣) صحيح البخارى كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ج ١١ ص ٣٠٨ حديث رقم ٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨ الروايتان عن أبي هريرة فقد ذكر الحديث مع اختلاف يسير في الفاظ الحديث الذى معنا .

وانظر مسند الامام احمد المجلد الثانى ص ٣٧٩ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « ان العبد يتكلم بالكلمة يزل بها في النار أبعد ما بين الشرق والغرب »

وبينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان في سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فتزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود فان الذي لم يتزل يعلو عليه ولا بد ، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكما مقبولا فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته ، ومنهم من يعود الى درجته . قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله ، وقد تقوى على هذه الأمور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة في حقه رحمة ، فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ، ومولاه، والى عفو عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه من ان يشمخ بها أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدي ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدي ربه مستحيا خائفا منه وجلا محترقا لطاعته مستعظا لمعصيته ، عرف نفسه بالنقص والذم وربّه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل :

استأنر الله بالوفى وبالحمد  
وولى الملامة الرجل

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن اليه اذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه ، فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنبدوان صغر فان مقابله العظيم الذى لا شئ أعظم منه ، الكبير الذى لا شئ أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ، ولا أجل ، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقتها وجليلهامن أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فان مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالردائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله أهل السموات والأرض ، ولولا ان رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لزلزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق بمقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزلت السموات والأرض ، من معاصي العباد قال تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ <sup>(١)</sup> فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجدد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجنة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ، وقد أخبر - سبحانه - عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، وقد أخرج الله - سبحانه - الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نبيه ولعن إبليس

وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى      درج الجنان لدى النعيم الخالد  
ولقد علمنا أخرج الأبوين من      ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتعرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على اعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته ، هذا كله اذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى امر يقدر في اصل ايمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد اسلامه من رأسه .

ومن عقوباتها : انها تجتريء على العبد ما لم يكن يجتريء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترىء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغريض وانسائه ما مصلحته في ذكره ومضرته في نسيانه ، فتجترىء عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصيته الله أزا وتجترىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره ، ويجتريء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف : انى لأعصى الله فأعرف ذلك في خلق امرأتى ودابتي .

وكذلك يجتريء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التي ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجترىء عليه نفسه فتأسد عليه وتضعب عليه فلو أرادها الخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب - تبارك وتعالى - الذي من دخله كان من الأمنين فإذا فارق الحصن اجتراً عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصي الله يكون اجتراء هذه الآفات والنفوس عليه وليس شيء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وارشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التي ترد المرض وتقاومه فاذا سقطت القوة غلب وورد المرض وكان الهلاك ، ولا بد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم .

وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى ، فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فان كل احد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وألبسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفي ذلك تفاوت معارف الناس وهمهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من أثر هذه على هذه ، كما ان أسفهم من عكس الأمر والمعاصي تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه في تحصيل هذا العلم . وإيثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم

وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له في الدارين ، فاذا وقع في مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض ، فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه شيئا ، والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب ، فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم ملكها ، وكذلك النفس فانها تحب بالشهوات والمعاصي وتضعف أعنى النفس المطمئنة وان كانت الامارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت هذه ، فبقى الحكم والتصرف للأمانة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة ، فهذا ميت في الدنيا ميت في البرزخ غير حي في الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط ، والمقصود ان العبد اذا وقع في شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شيء له : فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله - تعالى - والالابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحس اللسان والقلب على المذكور ، بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه ان تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصي لمن له جند يدفع عنه الاعداء فأهمل جنده وضعفهم وأضعفهم وقطع اخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه ان يستفرغوا وسعهم في الدفع عنه بغير قوة ، هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر ، وهو ان يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله - تعالى - فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل : لا إله إلا الله ، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها ، وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فقال شاه رخ غلبتك ، ثم قضى ، وقيل ، لآخر : قل لا إله إلا الله فقال : يارب قائلة يوما وقد تعبت : أين الطريق الى حمام منجاب ثم قضى وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يهزى بالغناء ويقول: تاتا نتنتا ، فقال : وما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبها ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ، ذلك فقال : وما يغني عني وما أعلم أني صليت لله - تعالى - صلاة ثم قضى ولم يقلها ، 'وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى، وقيل لآخر ذلك فقال: كلما أردت ان أقولها فلساني يمسك عنها، وهناك بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتى قضى ، وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه : لا إله إلا الله وهو يقول : هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى ، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذي يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، واذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال ادراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصي وقد أغفل قلبه عن ذكر الله - تعالى - وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزاع وجمع الشيطان له كل قوته وهيمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فان ذلك آخر العمل فاغوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو في تلك



الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾<sup>(١)</sup> فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله - سبحانه - قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً فبعيد من قلبه بعيد من الله - تعالى - غافل عنه متعبد لهواه ، مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشغلة بمعصية الله ان يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكان المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالايمان ﴿ أم لكم ايمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون \* سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

يا آمنة من قبيح الفعل يصنعه	هل أذاك تواقيع أم انت تملكه
جمعت شيئين أمانا واتباع هوى	هذا واحداهما في المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد	ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت في الزرع وقت البذر من سفه	فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك في	دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفه إذا بالله أنت أم	المغبون في البيع غبنا سوف تدركه

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولا بد ، فإذا عمى القلب وضعف فاته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه في نفسه وفي غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته ، فان كمال الانسان مداره في أصليين : معرفة الحق من الباطل ، وإثارة عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله - تعالى - في الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين وهما اللذان أثنى الله بهما - سبحانه - على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - في قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾<sup>(٣)</sup> فالأيدي : القوة في تنفيذ الحق ، والأبصار : البصائر في الدين فوصفهم بكمال ادراك الحق ، وكمال تنفيذه .

وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام : فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله - تعالى - القسم الثاني : عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم اكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحى الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار القسم الثالث : من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه . القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء قمر ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحما ، والدواء النافع سماً ، وليس في هؤلاء من يصلح للامامة في الدين ، ولا هو موضعاً لها سوى القسم الأول قال

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧

(٢) سورة القلم الأيتان : ٣٩ - ٤٠

(٣) سورة ص الآية : ٤٥

الله - تعالى ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾<sup>(١)</sup> فأخبر - سبحانه - ان بالصبر واليقين نالوا الامامة في الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله - سبحانه - من جملة - الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعى الخاسرين والدائخين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾<sup>(٢)</sup> فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه ويحثه عليه ، فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين ، فمعلوم ان المعاصي والذنوب تعمى بصيرة القلب ، فلا يدرك الحق كما ينبغي ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس ادراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقا ، والحق باطلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا ، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره الى الدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التي رضىت بالحياة الدنيا واطمأنت بها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقاءه ، ولولم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصلقه وتقويه وتثبتته حتى يصير كالمرآة المجلوة في جلائها وصفائها فيمتلئ نورا فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ، فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الأنس .

فيا نظرة من قلب حر منور يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذ الشيطان وطنه ، وأعد مسكنه ، إذا تصبح بطلعته حياه وقال : فديت من لا يفلح في دنياه ولا في أخراه .

أنا قرينك في الدنيا وفي الحشر بعدها      فأنت قرين لي بكل مكان  
فان كنت في دار الشقاء فإنني      وأنت جميعا في شقا وهوان

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإِنَّهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾<sup>(٣)</sup> .

فأخبر - سبحانه - ان من عشى عن ذكره وهو كتابه الذي أنزل على رسوله - ﷺ - وبارك فيه

(١) سورة السجدة آية : ٢٤

(٢) سورة العصر الآيات : ١ - ٢ - ٣

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩

فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيص الله له شيطاناً عقوبة له في إعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذي لا يفارقه لا في الإقامة ولا في المسير ، ومولاه وعشيرته الذي هو بش المولى وبش العشير .

رضيى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم واج عوض لا يترقى

ثم أخبر - سبحانه - ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ، وبحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدى ، حتى اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين - كنت لى فى الدنيا أضللتنى عن الهدى بعد إذ جأنى ، وصددتنى عن الحق ، وأغويتنى حتى هلكت، وبئس القرين انت لى اليوم ، ولما كان المصاب اذا شاركه غيره مصيبتة حصل بالتأسى نوع تخفيف وتسليه - أخبر الله - سبحانه - ان هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وان القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وان كانت المصائب فى الدنيا اذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الساكنين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي  
وما ييكون مثل اخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى  
ألا يا صخر لا أنساك حتى افارق عيشتى وورود رمسى

فمنع الله - سبحانه - هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

ومن عقوباتها : انها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه ، وذلك ان الله - سبحانه - ابتلى هذا الانسان بعدو لا يفارقه طرفه عين ، صاحبه ينام ولا ينام عنه ، ويغفل لا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده فى معاداته بكل حال ، ولا يدع أمراً يكيد به به يقدر على ايصاله اليه إلا أوصله ، ويستعين عليه ببني جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن ، وقد نصب له الجبائل وبغى له الغوائل ، ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم ، لا يفوتكم ولا يكون حظهم الجنة وحظكم النار ، ونصبيه الرحمة ونصبيكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزي واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم ان يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، اذ فاتنا شركة صالحهم فى الجنة ، ولما علم - سبحانه - ان آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها ، وأمد عدوهم - أيضاً - بجند وعساكر يلقاهاهم به ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر التى هى بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من انفسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه وهى التوراة

والانجيل والقرآن ، ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه - سبحانه - ثم أمرهم ان يستبشروا بهذه الصفقة التي من أراد ان يعرف قدرها فلينظر الى المشتري من هو ، الى الثمن المبذول في هذه السلعة ، الى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ، ثم أكد - سبحانه - معهم هذا الأمر بقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ \* تَوَدُّونَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَنْجِيَكُمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ \* وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١)؛

ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذي هو أحب المخلوقات اليه الا لأن الجهاد أحب شيء اليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم اليه وسيلة ، فعقد - سبحانه - لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي هو محل معرفته ومحبة وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والابانة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعقب بعضهم بعضا كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يشبثونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدون بكرامة الله ، ويصبرونه ويقولون : انما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيدته - سبحانه - بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله - ﷺ - وانزل اليه كتابه ، فازداد قوة الى قوته ، ومددا الى مدده ، وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيلا له ومدبرا ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتا له ومؤيدا وناصرا ، وباليقين كاشفا له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله - تعالى - أوليائه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر امر جيشه ، والمعرفة تضع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللاتقة بها ، والايمان يشبثه ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ، ثم مد - سبحانه - القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعة ، والأذن صاحب خبرة ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحمله عرشه يستغفرون له ، ويسألون له ان يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى - سبحانه - الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون ، وهؤلاء جنده ، وان جندنا لهم الغالبون ، وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ولا يتم امر هذا الجهاد الا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهي مقاومته ومنازلته ، فاذا صابر عدوه احتاج الى امر آخر وهو المراقبة وهي لزوم ثغر القلب وحراسته، لئلا يدخل منه العدو ، ولزوم ثغر العين، والأذن واللسان، والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمراقبة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه ، فهؤلاء أصحاب رسول الله - ﷺ - خير الخلق بعد النبيين والمرسلين - صلى

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

الله عليهم وسلم - أجمعين - وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم - وقد خلوا المكان الذى أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان - واجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المراقبة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر ، فانظر الآن فيك الى إلتقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى ، اقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب فى حصنه جالسا على كرسي مملكته ، أمره نافذ فى أعوانه وجنده قد حصنوا به ، يقاتلون عنه ، ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، ف قيل له هى النفس ، فقال لأعوانه : أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها ، فاذا اطمئنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم ، فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والقم واليد والرجل فربطوا على هذه الثغور كل المراقبة ، فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مشخن بالجراحات ، ولا تخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها ، وان غلبتم فاجتهدوا فى اضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل الى القلب ، فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئا ، فاذا استوليت على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين ان يكون نظره اعتبارا ، بل اجعلوا نظره تفرحا واستحسانا وتلها ، فان استرق نظرة عبرة فأفسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانه اقرب اليه واعلق بنفسه وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم ، فاني ما أفسدت بنى آدم بشيء مثل النظر فإني أبذر به فى القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمانة ، ثم لا أزال أعدده وأمنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة الى انخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهو نوا عليه أمره ، وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع، والتأمل والتجمل صفته ، وحسن هذه الصورة التى انما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفرت به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له هذه الصورة مظهر من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد ، فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من اخوان النصارى، فمروهم حيثئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا - واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائى واكبر جندى بل انا من جنده وأعوانه .

ثم امنعوا ثغر الأذن ان يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا الا تدخلوا منه الا الباطل ، فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه ، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للآلباب ، أمزجوه بما تهوى النفس مزجا ، وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيده بأخواتها ، فكلما صادفتم منه استحسان شيء فاهجوا له بذكره ، وإياكم ان يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله أو كلام رسوله - ﷺ - أو كلام النصحاء ، فان غلبتم على ذلك ودخل شيء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بإدخال ضده عليه وإما بتحويل ذلك وتعظيمه ، وان هذا امر قد

حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه ، وهو حمل ثقیل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، واما بإرخاصه على النفوس ، وان الاشتغال ينبغى ان يكون بما هو أعلى عند الناس واعز عليهم واغرب عندهم ، وزبونه اكثر ، وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغى ، والربح بين الناس أولى بالاثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه في كل قالب يقبله ويخف عليه ، ويخرجون له الحق في كل قالب يكرهه ويثقل عليه ، واذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء مالا يطيق ، والقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب - تعالى - بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله - ﷺ - في قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ، ويسمون علو الله على خلقه واستوائه على عرشه ومبايئته لمخلوقاته تحيزا ، ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألني فأعطيه تحركا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم من صفاته أعراضا ، ثم يتوصلون الى نفى ما وصف به نفسه بهذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التي نطق بها كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل في قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله - تعالى - ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ﴾ (١) فسماه زخرفا وهو القول الباطل بلان صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه الى سماع المغرور فيغتر به ، والمقصود ان الشيطان قد لزم ثغر الاذن ان يدخل فيها ما يضر العبد ، ويمنع ان يدخل اليها ما ينفعه ، وان دخله بغير اختياره أفسده عليه .

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوا ان يجرى عليه شيء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده ، أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم في هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم . أحدهما : التكلم بالباطل فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم ، الثاني : السكوت عن الحق فان السكوت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثاني أنفع لإخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والسكوت عن الحق شيطان أخرس ، فالرباط الرباط على هذا الثغر ان يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق ، واعلموا يابني ان ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بنو آدم وأكبهم منه على مناخرهم في النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ، وأوصيكم بوصية فاحفظوا : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه اعادتها ، وكونوا .

أعوانا على الانس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد ، أما سمعتم  
قسمي الذي أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ قال فيها أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم  
لائينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا نجد أكثرهم شاكرين ﴿ (١) . أما ترونى قد  
قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتى أو

بعضها ، وقد حذرهم ذلك رسول الله - ﷺ - وقال لهم : إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد  
له بطريق الاسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم فقد له بطريق الهجرة  
فقال : أتهاجر وتذر أرضك وساءك ؟ فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل  
ويقسم المال وتنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير ، فإذا أراد أحدهم أن  
يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له فى نفسه : أخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير  
بمزلته أنت وهو سواء ، أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال : أموالنا  
إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقة مخوفة مشقة يتعرض سالكها  
لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتنا ثم  
اقعدوا على المعاصي فحسنوها فى عين بنى آدن وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا أكبر أعوانكم على ذلك  
النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ، ثم الزموا ثغر اليمين والرجلين فامنعوها أن  
تبطن بما يضركم أو تمشى فيه ، واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمانة  
فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى  
كسرها وإبطال قواها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع مواردها عنها فإذا انقطعت مواردها عنها وقويت موارد  
النفس الأمانة وطاعت لكم أعوانها فاستنزوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس ،  
فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تنجىكم بما تكرهونه البتة مع أنها لا تخالفكم فى شيء تشيرون به  
عليها بل إذا اشرتم عليها بشيء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم  
الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة  
عروس توجد ، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب  
وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسألة ومرارة تلك المحاربة ، فدفع الحرب  
تضع أوزارها فليست بيوم وينقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن الحرب الدائم  
واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معها . أحدهما : جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن  
الله - تعالى - والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شيء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب  
إذا غفل عن الله - تعالى - تمكنت منه ومن أعوانه الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى  
أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منها ، واستعينوا على الغفلة  
بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقربوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذكر ، ولا يغلب واحد

خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونبيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببني جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم ، وبالجمله فأعدوا للأمر أقرانها وادخلوا على كل واحد من بني آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها ، وكونوا له أعوانا على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا وربطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصتكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بني آدم في أعظم من هذين الموطنين ، واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه فانه بالحرى ألا يملكها عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وأمزوجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه الى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم في بني آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وإنما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحدا بني آدم أخاه ، واعلموا أن الغضب جرة في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، وإياكم أن تمكثوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك .

وقال : إن الغضب جرة في قلب ابن آدم أما رأيتم من احرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ . وقال لهم : إنما تطفأ النار بالماء وقد أوصاهم الله أن يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وانسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاهم الغفلة واتباع الهوى ، واعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى ، فإذا رأيتم الرجل مخالفا لهواه فاهربوا من ظلمه ولا تدنوا منه ، والمقصود أن الذنوب والمعاصي سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال : ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب أن العبد يسعى بنفسه ، في هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد في حرمانها من حظوظها واشراقها ، وهو يزعم أنه يسعى في حفظها ويبذل جهده في تحقيرها وتصغيرها وتدنيها ، وهو يزعم أنه يسعى في صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها ، وكان بعض السلف يقول في خطبته ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم أنه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراعى لحقها ، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله ما لا يبلغه عدوه والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها ، فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسي نفسه فأى شيء يذكره وما معنى نسيانه نفسه قيل : نعم ينسى نفسه أعظم



نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾<sup>(١)</sup> فلما نسوا ربهم - سبحانه - نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾<sup>(٢)</sup> فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه ، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه ، فالحلاك أدنى إليه من اليد للقم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها وإصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك كله جميعه فلا يخطر بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همه فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفات ، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها ، وأيضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعى في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مشخن بالمرض ومرضه مترام به الى التلف ، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة ، فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضعفها ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وإصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له أن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضعفها وإضاعوا حظها من الله ، وياعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن في العقد الذى عقده لنفسه في هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر في هذه الدنيا لأخرته ، فالحاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الريح والكسب ، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة ، وحظهم فيها في حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان يسعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وياعوا أجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ، فكيف أبيع حاضرا نقدا شاهدا في هذه الدار بغائب نسيئة في دار أخرى غير هذه ، وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومجة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق في هذه التجارة الخاسرة التى قال الله في أهلها : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ﴾<sup>(٣)</sup> وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾<sup>(٤)</sup> فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن في هذه التجارة ، فتقطع عليهم النفوس حشرات ، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيا بيباق ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله - تعالى - والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها في هذا الزمن القصير الذى هو في الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها \* فيم أنت من ذكراها \* الى ربك متنها \* انما أنت منذر من يخشاها \* كأنهم

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٦

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٦

(٥) سورة يونس من الآية : ٤٥

(١) سورة الحشر من الآية : ١٩

(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧

يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ كانوا يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾ ﴿٢﴾ وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴿٣﴾ وقال تعالى : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾ يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا ﴿٤﴾ نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴿٥﴾ فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وان لهم دارا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء ، رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم ربح تجارتهم ومقدار ما شروه ، وكل أحد في هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يقد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ ﴿٦﴾ فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ، فتاجروا أيها المفلسون ويا من لا يقدر على هذا الثمن ، ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ ﴿٧﴾ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿ والمقصود ان الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرباحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله - سبحانه - لكل شيء سببا وآفة سببا يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفات المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة في نفسه وغيره ، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصيته الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم وكان هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ، فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلي الكبير . ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له ، وأنفعهم له ، ومن سعادته في قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان ، فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

(١) سورة النازعات الآيات : ٤٢ - ٤٦

(٢) سورة الاحقاف من الآية : ٣٥

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١١٢ - ١١٤

(٤) سورة طه الآيات : ١٠٢ - ١٠٤

(٥) سورة التوبة آية : ١١١

(٦) سورة التوبة آية : ١١٢

(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١

بعيدة ، وفي بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ، وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأت ، وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشیطان ، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وإن افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة في حياته وعند موته وعند مبعثه ، قال الله - تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ (١) وإذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوْحَىٰ بِرُبِّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَتَىٰ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) ويقول الملك عند الموت لا تخف الموت ، وفي القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره ، ومؤنسه في وحشته ، وصاحبه في خلوته ، ومحدثه في سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء في الأثر الذي يروى مرفوعا وموقوفا !! للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك إبعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وإذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ، والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفي الحديث : ( إن السكينة تنطق على لسان عمر - رضي الله عنه ) وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقي في القلب الحق ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقي الباطل في القلب ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصي : أنها تبعد من العبد وليه الذي سعادته في قربه ومحاورته وموالاته ، وتدنس منه عدوه الذي شقاؤه وهلاكه وفساده في قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفه وسبه ، كما اختصم بين يدي النبي - ﷺ - رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس ( وإذا دعا العبد المسلم في ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال : ولك بمثل ذلك ، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه ، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله - ﷺ - استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام العبد المؤمن بات في شعاره ملك ، فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبت به أن ينسى جواره ويبالغ في أذاه وطرده عنه وابعاده ، فإنه ضيفه

(١) سورة فصلت الآية : ٣٠ وجزء من الآية : ٣١

(٢) سورة الانفال من الآية : ١٢

وجاره ، وإذا كان اكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم ، وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصي والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال : لا جزاك الله خيرا ، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان ، قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم : ان معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرمواهم ، والأهم ممن لا يستحي من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين \* كراما كاتبين \* يعلمون ما تفعلون ﴾ <sup>(١)</sup> أى استحيوا من هؤلاء الحفاظين الكرام وأكرمواهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يريكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويمص بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مراد هلاك العبد في دنياه وآخرته فإن الذنوب هي أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولا بد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلط الردية التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمة يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والاخلط الردية منه ، وحمة توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها ، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره ، وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فانها تستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتمى لها كيف تكون صحته ويقاؤه ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصته      غافة من ألم طارى  
وكان أولى بك أن تحتمى      من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتنال الأوامر واستعمل الحمية باجتنب النواهي واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا والله المستعان .

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرا في قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع السارق في ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة في إيلاج الحشفة في فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطئ ذكرا مثله ، وقتل

المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة في الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التي رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعي إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع طبعيا وما ليس في الطباع داعيا إليه اكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا ، كأكل الرجيع، وشرب الدم وأكل الميتة وما كان في الطباع داعيا إلى ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعي الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعي الطباع إلى الزنا من أقوى الدواعي كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع : الجلد مع زيادة التعذيب ، ولما كان اللواط في الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعي السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد ، وتأمل حكمته في افساد العضو الذي باشر به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذي جنى به ، إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكثفى من ذلك بإيلاام جميع بدنه بالجلد ، فان قيل : فهلا أفسد على الزاني فرجه الذي باشر به المعصية ؟ قيل بوجوه :

أحدها : أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية إذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك .  
الثاني : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج .  
الرابع : أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة ، والمقصود أن الذنوب انما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله على العبد وقد يرفعها عن تاب وأحسن .  
وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية .

فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففها ولا يكاد الرب - تعالى - يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم تف إحداها برفع موجب الذنب ، ولم يكن في زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب - تبارك وتعالى - لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .  
وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة : فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأوا الناس المنكر فاشتركوا في ترك انكاره ، أو شك أن يعمهم الله - تعالى - بعقابه ، وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله - سبحانه - على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقر به وهو الزنا واللواط ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد رحمه الله : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله : ( أى الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل

ولذلك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل تصديقها في كتابه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (١) الآية . . . والنبي - ﷺ - ذكر كل نوع أعلاه ليطلق جوابه سؤال السائل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع . فاعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا .

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشربه .  
وأعظم أنواع الزنا أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق ، فالزنا بالمرأة التي لها زوج أعظم إثماً وعقوبة من التي لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج ، وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثماً وجرمًا من الزنا بغير ذات البعل ، فإن كان زوجها جارا له أنضاف إلى ذلك سوء الجوار ، وإذا أجاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق ، وقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال : (٢) ( لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه ) ولا بائقة أعظم من الزنا بإمراته ، فالزنا بمائة امرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار ، فان كان الجار أخا له أو قريباً من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائباً في طاعة الله كالصلاة ، وطلب العلم ، والجهاد ، تضاعف الإثم ، حتى إن الزاني بامرأة الغازي في سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقول : خذ من حسناته ما شئت قال - النبي - ﷺ (٣) : ( فما ظنكم أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم في أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقاً يجب عليه ) فان اتفق أن تكون المرأة رحماً منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق على أن يكون الزاني محصناً كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخاً كان أعظم إثماً وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون في شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفسد الذنوب وتضاعف درجاتها في الإثم والعقوبة . والله المستعان .

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذي لا يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال في الاختفاء ، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالصقور والحية التي تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترفع مفسدة سرقة إلى القتل ولا تندفع بالجلد ،

(١) مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٨٠ ورد هذا الحديث وكذا في ص ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ من رواية عبد الله مع اختلاف يسير في بعض الفاظه .

انظر سنن النسائي ج ٧ ص ٨٢ باب ذكر أعظم الذنوب ورد هذا الحديث عن عبد الله مع اختلاف يسير في بعض الفاظه . سورة الفرقان من الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب بيان تحريم إيذاء الجار ج ١ ص ٦٨ حديث رقم ٧٣ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة باب حرمة نساء المجاهدين ، واثم من خائهم فيهن ج ٣ رقم ١٥٠٨ برقم ١٣٩ .

فأحسن ما دفعت به مفسدته أبانة العضو الذي تسلط به على الجنابة ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف فدارت عقوباته - سبحانه - الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع :

العتق وهو أعلاها .

والإطعام والصيام .

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام :

قسم فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد .

وقسم لم يترتب عليه حد فشرع فيه كفارة كالوطء في نهار رمضان ، والوطء في الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ والحنث في اليمين ، وغير ذلك .

وقسم لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان :

أحدهما ما كان الوازع عنه طبيعياً كأكمل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثاني ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة ، والقبلة واللمس ،

والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك وشرع الكفارات في ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ثم عرض تحريمه فباشره في الحالة التي عرض فيها التحريم كالوطء

في الإحرام ، والصيام ، وطرده الوطء في الحيض ، والنفاس ، بخلاف الوطء في الدبر ، ولهذا كان

إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء في الحيض لا يصح فإنه لا يباح في وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط

وشرب المسكر .

النوع الثاني : ما عقد الله من نذر ، أو ما لله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله

سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه

بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجباً ، وقد يكون مستحباً ، وقد يكون مباحاً ، وإنما الكفارة حل

لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فاتت كفارة قتل الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، وكفارة

قتل الصيد الخطأ ، وإن لم يكن هناك إثم ، فإن ذلك من باب الجوابر .

والنوع الأول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد

والتعزير في معصية بل إن كان فيها حد اكتفى به كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع

التعزير والكفارة في المعصية التي لا حد فيها فيه وجهان ، وهذا كالوطء في الإحرام ، والصيام ، ووطء

الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة .

ف قيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجنابة .

وقيل : لا تعزير في ذلك اكتفاء بالكفارة لأنها جابرة وماحية .

وأما العقوبات القدرية فهي نوعان :

نوع على القلوب والنفوس .

ونوع على الأبدان والأموال .

والتي على القلوب نوعان :

أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب .

والثاني : قطع المواد التي بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها .

وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهي أصل عقوبة الأبدان ، وهذه العقوبة تقوى وتزايد حتى تسرى من القلب الى البدن ، كما يسرى ألم البدن الى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقا بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهي المسماة بعذاب القبر ، ونسبته الى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان الى هذه الدار .

والتي على الأبدان - أيضا - نوعان :

نوع في الدنيا .

ونوع في الآخرة . وشدتها ودوامها بحسب مفاصد ما رتب عليه في الشدة والخفة ، فليس في الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبي - ﷺ - يستعيز منهما في خطبته بقوله : ( ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ) وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله الى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعها وثمراته .

وقد اختلف في معنى قوله : ومن سيئات أعمالنا . هل معناه الشيء عن أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أو يكون بمعنى من ، وقيل : معناه من عقوباتها التي تسوء ، فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التي تسوءنا ، ويرجح هذا القول ان الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهي تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه أو هي أصله .

ثم ذكر غاية الشر ومتهاه وهو السيئات التي تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿ وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ <sup>(١)</sup> فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التي تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاههم جزاء السيء وإن كان قوله : ﴿ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ﴾ أظهر في عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه - سبحانه - أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد السيئة التي سألوا وقايتها الأعمال السيئة ، ويكون الذي سألوه الملائكة نظير ما استعاذ منه النبي - ﷺ - ولا يرد على هذا قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم . وهي سيئات في نفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان :



أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثاني : وقاية جزاؤها بالمغفرة فلا يعاقب عليها .

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية ، وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدي استغفارهم وتوسلهم إلى الله - سبحانه - بسعة علمه وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة في بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذي لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبه ، فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء .

ثم سأله أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذي هو معرفته ومحبه وطاعته فيها أمر وترك ما يكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذي يحبها .

ثم سأله أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التي وعدهم بها ، وهو - سبحانه - وإن كان لا يخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم الجنة ، يدخلونها برحمته التي منها : أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك ، وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضى - سبحانه وتعالى - ما يشاء ، ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر ، والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام فى الدار الآخرة ، فالذنوب لا يخلو من عقوبة البتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتيب الاحراق على النار ، والكسر على الإنكار ، والاعتراف على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض للأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة للذنوب ، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيرا ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيقه ، ولا يدري أنه يعمل ، وعمله على التدريج شيئا فشيئا كما تعمل السموم ، والأشياء الضارة حذو القذفة بالقذفة ، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنوب على الذنب كل يوم . . . وكل ساعة . . . والله المستعان .

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله - سبحانه وتعالى - على الذنوب ، وجوز وصولها إليك ،

واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفى العاقل مع التصديق ببعضه .  
فمنها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على القلوب ، وجعل  
الأكنة عليها ، والرین عليها ، والطبع عليها ، وتقلب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ،  
وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر  
ضييقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، وصرف القلوب عن الحق وزیادتها مرضا على مرضها ، واركاسها  
وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - انه قال :  
القلوب أربعة :

فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن .

وقلب أغلف فذلك قلب الكافر .

وقلب منكوس فذلك قلب المنافق .

وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منها .

ومنها الشبط عن الطاعة والابتعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فيصير النسبة بين  
القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات وعین الأعمى والألوان ولسان  
الأخرس والكلام<sup>(١)</sup> وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات ، والحقيقة والجوارح بالفرض  
والتبعية . ( فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور )<sup>(٢)</sup> وليس المراد نفى العمى  
الحسى عن البصر كيف وقد قال تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال : ﴿ عبس وتولى \* ان  
جاءه الأعمى ﴾<sup>(٤)</sup> وإنما المراد : أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه  
كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبى - ﷺ - ( ليس الشديد بالصرعة ولكن  
الذى يملك نفسه عند الغضب ) وقوله - ﷺ - ( ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان  
ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفتن له فيتصدق عليه ) ونظائره كثيرة والمقصود أن من  
عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين . وصاحبه لا  
يشعر ، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب  
الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جو الأحوال البر والخير ومعالي الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق  
قال بعض السلف : إن هذه القلوب جواله : فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول  
الحشر ، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه في  
أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يمسخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ  
على خلق كلب أو حمار أو عقرب وغير ذلك . وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ وما

(٣) سورة النور من الآية : ٦١

(٤) سورة عبس الايتان : ١ - ٢

(١) مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٧ ورد الحديث

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم<sup>(١)</sup> قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب ، وأخلاق الخنزير ، وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس في ثيابه لحماً بتطوس الطاووس في ريشه ، ومنهم من يكون بليداً كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، قال : منهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذي هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الذئاب ، ومنهم أشباه الثعالب التي يروغ كروغانها ، وقد شبه الله - تعالى - أهل الجهل والغى بالحمير تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطناً حتى تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفياً يراه المتفرسون ، ويظهر في الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ، ولا يزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام ، فيقلب الله - سبحانه وتعالى - الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قروداً وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بستر الله عليه ، ومستدرج بنعم الله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة .

ومنها مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزئ ، وإزاغته لقلب الزائغ عن الحق . ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقاً ، والحق باطلاً ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، ويفسد ويرى انه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى انه يدعو إليها ، ويشتري الضلالة بالهدى وهو يرى انه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم انه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب .

ومنها حجاب القلب عن الرب في الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا إليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وان يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب إليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقربه عيناً ، وتطيب به نفساً ، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً \* ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾<sup>(٣)</sup> وفسرت المعيشة الضنك ، بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه - سبحانه - رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وان تنعم في الدنيا بأصناف النعم ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي يقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وانما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٨

(٢) سورة المطففين من الآية : ١٥

(٣) سورة طه من الآية : ١٢٤

سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر في مسكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله - ﷺ - في دنياه ، وفي البرزخ ويوم معاده ، ولا تفر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بأهلها ومعبودها الذي هو حق ، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تفر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله - تعالى - إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحا كما قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسن يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ (٢) ونظيرها قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ (٣) .

ففاض المتقون المحسنون بنعم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين ، فان طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقال الآخر : إن في الدنيا جنة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة : ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبي - ﷺ - إلى هذه الجنة بقوله : ( إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : خلق الذكر . وقال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ) (٤) .

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ وإن الفجار لفى جحيم ﴾ (٥) يختص بيوم الميعاد فقط ، بل هؤلاء في نعيم في دورهم الثلاثة ، وهؤلاء في جحيم في دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم في الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب - تعالى - ومحبة والعمل على موافقته ، وهل عيش في الحقيقة إلا عيش القلب السليم . وقد أثنى الله - تعالى - على خليله - عليه السلام - بسلامة القلب فقال : ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ (٦) وقال حاكيا عنه أنه قال : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ (٧) .

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل ارادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عنه الله . فهذا القلب السليم في

(١) سورة النحل الآية : ٩٧

(٢) سورة النحل الآية : ٣٠

(٤) سنن الترمذى أبواب الدعوات ج ٥ ص ١٩٤ الحديث ٣٥٧٧ من رواية انس ابن مالك الحديث بلفظه ولم يرد فيه : « وقال : ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن انس .

(٥) سورة الانفاطار الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٦) سورة الصافات الآيتان : ٨٣ ، ٨٤

(٧) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

جنة معجلة في الدنيا ، وفي جنة في البرزخ ، وفي جنة يوم المعاد ، ولا يتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد ويدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهو يناقض التجريد ، والإخلاص يعم ، وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفراد الأشخاص لا تحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله ان يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة وليس شيء أنفع

منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم ، وإن عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، وما نريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص ، وقد لا يقوم ، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص ، قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه ، وقد صرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار في الخلق فمستقل ومستكثر ، وليس في طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الأركاس الذي أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم ، وما حلفت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب - تبارك وتعالى - على صراط مستقيم في قضائه وقدره وأمره ونهيه ، فيهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذي هو عليه فهو على صراط مستقيم ، ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما ، دعاهم جميعا إليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم إلى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا الفضل وهذا العدل عن صراطه المستقيم الذي هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلق صراطا مستقيما يوصلهم إلى جنته ، ثم صرف عنه من صرف في الدنيا وأقام من أقام في الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذي كان في قلوبهم في الدنيا نورا ظاهرا لهم يسعى بين أيديهم وبآيمانهم في ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفىء نور المنافقين أحوج ما كانوا إليه ، كما أطفأه من قلوبهم في الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنتي الصراط كالليب وحسكا تحفظهم كما تحفظهم في الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم إليه في الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه في الدنيا وحرمة من الشرب هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله سبحانه في الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لاشك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها وغودجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم في هذه الدار في الإيمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط في الدنيا والآخرة .

## \* التوبة معروضة بعد \*

قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴿<sup>(١)</sup> .  
هذا استثناء مما سبق فالذين سبق الحديث عنهم من أهل الكبائر شاءت رحمة الله الواسعة ألا تقنط أحدا ﴿ قل يا عبادي الذي أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد قال ﷺ في حديثه الجامع : ( لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن إلى آخر الحديث )<sup>(٣)</sup> قال في نهايته ( والتوبة معروضة بعد ) وفي قوله جل شأنه : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .  
قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : هم المؤمنون كانوا من قبل لإيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحوّلهم إلى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بدلن بعد حره خريفا وبعد طول النفس الوجيفا

يعنى: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها. وقال عطاء بن أبي رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا .

وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصري : أبدلهم الله بالعمل السيئ العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبي العالية وقتادة وجماعة آخرين .

( والقول الثانى ) : إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة في صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف - رضى الله عنهم - فعن أبي ذر رضى الله عنه : قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول : نحوا عنه كبار<sup>(٤)</sup> )

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٣) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان نقصان الايمان بالمعاصي .. الخ ج ١ ص ٧٧ حديث رقم ١٠٤ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

(٤) صحيح مسلم كتاب الايمان باب - أدنى أهل الجنة منزلة فيها - ج ١ ص ١٧٧ حديث رقم ٣١٤ من رواية أبي ذر مع اختلاف بعض الفاظه .

وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٧ .

ذنبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا ، وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها ههنا ) قال فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، انفرد باخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم بسنده عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إذا نام ابن آدم قال الملك للشیطان أعطني صحيفة فيعطيه إياها فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكتب ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعاً وثلاثين تحميدة ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة )<sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن سلمان قال : ( يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر في أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر في أعلاها فإذا هي قد بدلت حسنات )<sup>(٢)</sup> .

وقال أيضا حدثنا أبي عن هشام بن عمار بسنده عن أبي العنسي عن أبيه عن أبي هريرة قال : ( ليأتيني الله - عز وجل - بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم يا أبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات )<sup>(٣)</sup> .

وقال أيضا حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبي الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا فعند ذلك مح الله السيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا : ( هاؤم اقرءوا كتابيه )<sup>(٤)</sup> .

أكثر أهل الجنة . وقال علي بن الحسين زين العابدين ( يبدل الله سيئاتهم حسنات ) قال في الآخرة .

وقال مكحول يغفرها لهم فيجعلها حسنات رواها ابن أبي حاتم<sup>(٥)</sup> .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : ( جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ولو<sup>(٦)</sup>

(١) الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨٢ ط دار الفكر الحديث بلفظه أخرجه الطبراني عن أبي مالك الأشعري .

(٢) الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨٠ ط/ دار الفكر ورد الحديث بلفظ عن سلمان وأخرجه عبد بن حميد وابن

أبي حاتم .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة . وانظر الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨١ بلفظ . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم

استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يارسول الله ؟ قال : الذين بدل الله سيئاتهم حسنات )

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ ورد الحديث بلفظه عن أبي الصيف .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه - عن أبي جابر انه سمع مكحولا .

(٦) وانظر الدر المنثور في التفسير بالماثور للسيوطي ج ٦ ص ٢٨١ فقد ورد الحديث وقد أخرجه ابن أبي حاتم عن مكحول غير أن به

اختلافا في بعض ألفاظه .

قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبه ؟ فقال النبي - ﷺ - أسلمت ) قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبي - ﷺ - ( فان الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات ) فقال يارسول الله وغدراقي وفجراقي ؟ فقال ( وغدراتك وفجراتك ) فولى الرجل يكبر ويهمل .

وروى الطبراني من حديث أبي المغيرة عن أبي فروة أنه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال ( أسلمت ؟ ) فقال نعم ، قال ( فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها ) قال وغدراقي وفجراقي ؟ قال ( نعم ) فمازال يكبر حتى توارى . رواه الطبراني من طريق أبي فروة الرهاوي عن ياسين الزيات عن أبي سلمة الحمصي عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعاً<sup>(١)</sup> .

وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبي عبيد الشماسي عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ( جاءني امرأة فقالت هل لي من توبة ؟ إني زني وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهي تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبي - ﷺ - الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله - ﷺ - : ( بشما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟ ) ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - إلا من تاب ﴾<sup>(٢)</sup> الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذي جعل لي مخرجا ، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا .

فقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾<sup>(٣)</sup> أي فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾<sup>(٤)</sup> .

وتلك من صفات عباد الرحمن وما أجلها من صفة وما أعظمها من فضيلة وهم أهل الفضائل والكرم وقد ورد في تفسير ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أقوال لأئمة التفسير نبينها فيما يلي :

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٣٨ - ١٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه .  
وانظر أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٥٢٥ عن أبي بكر بن أبي عاصم عن أبي طويل شطب المدود مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٢) سورة الفرقان من الأيتان : ٦٨ - ٧٠

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٧١

(٤) سورة الفرقان الأيتان : ٧٢ - ٧٤



قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس - وغيرهم : هو أعياد المشركين وقال عمرو بن قيس : هي المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهري : شرب الخمر لا يحضره ولا يرغبون فيه كما جاء في الحديث ( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر )<sup>(١)</sup> وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى شهادة الزور وهى الكذب معتمدا على غيره كما فى الصحيحين عن أبى بكره قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا : قلنا : بلى يارسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت )<sup>(٢)</sup> والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضره ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى لا يحضرون الزور وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشئ . ولهذا قال ﴿ مروا كراما ﴾ وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابراهيم بن ميسرة أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - ( لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما )<sup>(٣)</sup> .

وحدثنا الحسين بن محمد بسنده عن ميسرة قال بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - ( لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ) ثم تلا ابراهيم بن ميسرة ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ . وهذه - أيضا - من صفات المؤمنين ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٤)</sup> بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾<sup>(٥)</sup> فقله ﴿ لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ أى بخلاف الكافر الذى إذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد قوله : ﴿ لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

وقال قتادة قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ . يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعملوا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حمران عن ابن عون قال سألت الشعبي قلت الرجل

(١) سنن الدارمى ج ٢ كتاب الأشربة باب النهى عن القعود على مائدة يدار عليها الخمر ج ٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب ج ٨ ص ٤ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن أبى بكره عن أبيه - رضى الله عنه .

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٤٠ فقد ورد ذلك عن ابن أبى حاتم .

(٤) سورة الانفال الآية : ٢

(٥) سورة التوبة الآية : ١٢٤ وجزء من الآية ١٢٥

يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعنى أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين : قال الإمام ابن القيم - رحمة الله تعالى - فى تفسير هذه الآية :

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقموا عليه صبا ، لم يسمعوه ، وعميانا : لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به .

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليها صبا وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبي : يخرون عليها سمعا وبصرا .

وقال الفراء : وإذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه : فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قد يشتنى ، كقولك : قام يشتنى وأقبل يشتنى . والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صبا وعميانا .

وقال الزجاج : المعنى إذا تليت عليهم آيات ربهم خروا سجدا ويكيا سامعين ، مبصرين ، كما أمروا به .

وقال ابن قتيبة : أى لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها . قلت : ههنا أمران : ذكر الخرور وتسلط النفى عليه : وهل خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه . فلهم عليها خرور بالقلب خضوعا أو بالبدن سجودا أو ليس هناك خرور ، وعبر به عن القعود .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ <sup>(١)</sup> . يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبدوه وحده لا شريك له قال : قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم فى الدنيا والآخرة ، قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين .

وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شئ أقرب لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله - عز وجل - قال ابن جريج فى قوله ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله - تعالى - لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الإمام احمد بسنده عن جبير بن نصير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال : طوى لهاتين العينين اللتين رآيا رسول الله - ﷺ - لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجعلت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدري لو شهد كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله - ﷺ - أقوام اكبههم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله اذ أخرجكم من بطون

أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتهم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبي - ﷺ - على أشرف حال بعث عليها نبيا من الأنبياء في فترة جاهلية ، ما يرون أن ديننا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده

إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تفرع عنه . وهو يعلم أن حبيبه في النار وأنها التي قال الله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه <sup>(١)</sup> .  
وقوله تعالى ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ .

قال ابن عباس والحسين والسدي وقتادة والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا في الخير ، وقال غيرهم ، هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية ) <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ) . لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أى : المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهى الجنة . . قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بما صبروا ﴾ أى : على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أى : فى الجنة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى يتبدرون فيها بالتحية والاكرام . ويلقون التوقير والاحترام . فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أى : مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا ييغون عنها حولا كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ أى حسنت منظرا وطابت مقبلا ومنزلا .  
ثم قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ أى : لا يبالي ولا يكثر بكم اذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحده ويسبحوه بكرة وأصيلا ، قال مجاهد وعمر بن شعيب ﴿ ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول ما يفعل بكم ربى .  
وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول لولا إيمانكم وأخبر

(١) صحيح مسلم ج ٦ ص ٢ ، ٣ ، ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن جبيرة عن أبيه .  
(٢) الترغيب والترهيب « كتاب العلم » باب من علم ومن لم يعلم « ج ١ ص ٩٩ حديث ٩٩ عن أبى هريرة بلفظ : « قال رسول الله - ﷺ - : ( إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ) وقال : رواه مسلم وغيره .

(٣) سورة هود من الآية : ١٠٨

تعالى الكفار انه لا حاجة له بهم اذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب اليهم الايمان كما حبه الى المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتهم ﴾ أيها الكافرون .

﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعنى مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر كما فسر به بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وعبد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم وقال الحسن البصري ﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أي: يوم القيامة ولا منافاة بينهما ، آخر تفسير سورة الفرقان والله الحمد والمنة .

### ﴿ سورة الشعراء ﴾

#### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آية واحدة : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ إلى آخره ، عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون في عدد الكوفي والشامي وست في عدد الباقيين .

كلماتها ألف ومائتان وسبع وسبعون . وحروفها خمسة آلاف وخمسمائة وثمانان وأربعون .

وسميت سورة الشعراء لاختتامها بذكرهم في قوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ .

مقصود السورة وجل ما اشتملت عليه : ذكر القسم ببيان آيات القرآن وتسلية الرسول عن تأخير

المنكرين عن الايمان وذكر موسى وهارون ومناظرة فرعون الملعون ، وذكر السحرة ومكرهم في الابتداء ، وإيمانهم وانقيادهم في الانتهاء ، وسفر موسى ببني اسرائيل من مصر وطلب فرعون إياهم ، وانفلاق البحر وإغراق القبط وذكر الجبل ، وذكر المناجاة ودعاء ابراهيم الخليل .

وذكر استغاثة الكفار من عذاب النيران ، وقصة نوح وذكر الطوفان ، وتعدى عاد وذكر هود ،

وذكر عقوبة ثمود ، وذكر قوم لوط وخبثهم ، وقصة شعيب وهلاك أصحاب الأيكة لعبثهم ، وتنزيل

جبريل على النبي بالقرآن العربي وتفصيل حال الأمم السالفة الكثيرة وأمر الرسول - ﷺ - بإنذار

العشيرة ، وتواضعه للمؤمنين ، وأخلاقه اللينة وبيان غواية شعراء الجاهلية وأن العذاب منقلب الذين

يظلمون في قوله : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

#### المتشابهات :

قوله : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ سبق في الأنبياء . ﴿ فسيأتيتهم ﴾ سبق في

الأنعام ، وكذا ﴿ أو لم يروا ﴾ وما تعلق بقصة موسى وفرعون سبق في الأعراف .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ مذكور في ثمانية مواضع : أولها : في محمد - ﷺ - وإن لم يتقدم

ذكره صريحا ، فقد تقدم كناية ووضوحا ، والثانية : في قصة موسى ، ثم ابراهيم، ثم نوح ، ثم هود ،

ثم صالح ، ثم لوط ثم شعيب .

قوله ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ الى قوله : ﴿ العالمين ﴾ مذكور في خمسة مواضع في قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب - عليهم السلام - ثم كرر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ في قصة نوح ، وهود ، وصالح ، فصار ثمانية مواضع ، وليس في ذكر النبي - ﷺ - ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ لذكرها في مواضع وليس في قصة موسى ؛ لأنه رباه فرعون حيث قال : ﴿ ألم نريك فينا وليدا ﴾ ولا في قصة ابراهيم ؛ لأن أباه في المخاطبين حيث يقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ وهو رباه فاستحيا موسى وابراهيم ان يقولوا : ما أسألكم عليه من أجر ، وان كانا منزهين من طلب الأجر .

قوله : في قصة ابراهيم : ﴿ ما تعبدون ﴾ وفي الصفات ﴿ ماذا تعبدون ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ لمجرد الاستفهام فأجابوا فقالوا : ﴿ نعبد أصناما ﴾ و ﴿ ماذا ﴾ فيه مبالغة وقد تضمن في الصفات معنى التوبيخ فلما وبخهم ولم يجيبوا زاد في التوبيخ فقال ﴿ أفنكأ آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ فجاء في كل سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده .

قوله : ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ والذي هو يطعمني ويسقين \* واذا مرضت فهو يشفين ﴾ زاد ﴿ هو ﴾ في الاطعام والشفاء ؛ لأنها مما يدعى الانسان ، فيقال : زيد يطعم وعمر ويداوى . فأكد إعلاما لأن ذلك منه - سبحانه وتعالى - لا من غيره وأما الخلق والموت والحياة فلا يدعيها مدع . فاطلق .

قوله في قصة صالح : ﴿ ما أنت ﴾ بغير واو وفي قصة شعيب ﴿ وما أنت ﴾ لأنه في قصة صالح بدل من الأول وفي الثانية عطف وخصت الأولى بالبدل ؛ لأن صالحا قلل في الخطاب ، فقللوا في الجواب وأكثر شعيب في الخطاب فأكثرنا في الجواب .

### ﴿ فضلها ﴾

عن البراء بن عازب ان النبي - ﷺ - قال : ( إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المثني مكان الانجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلني بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى ) .

### ﴿ مناسبتها ﴾

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

( أ ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر في موضوعات سالفاتها .

( ب ) إن كليتيها قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

( ج ) إن كليتيها ختمت بإيعاد المكذبين .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

طَسَمَ ﴿١﴾ نِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسَكَ ءَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

﴿٤﴾ إِنْ نَّشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٥﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٦﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾

### ﴿ تفسير المقررات ﴾

(لعلك) لعل : هنا للاستفهام الذي يراد به الانكار ، وقال العسكري : إنما للنهي ، (و) باخع (نفسك) : أى مهلكها من شدة الحزن . وأصل البخع . ان تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستيطان فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح . (و ذكر) : أى : موعظة (أنباء) والمراد بالأنباء ما سجل بهم من العذاب (و زوج) : أى صنف ، والكريم من كل شيء : المرضي المحمود منه .

### ﴿ التفسير ﴾

(قوله تعالى : ﴿ ط . س . م . بعض حروف الهجاء وفيها اشارة الى الكتاب المعجز الذى أعجز فحول البلاغة واساطين البيان ( قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى : هذه آيات القرآن الواضحة البينة التى تزاحم الشمس فى الجلاء ، وترسل اشعتها الكاشفة تبدد غياهب الظلمات وتحبى كل موات فهى روح ونور ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا يهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أى لا تقتل نفسك عليهم حزناً وهما وكعدا وغما قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾ (٣) وقال جل شأنه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ قال مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أى : قاتل نفسك قال الشاعر :

(١) سورة الاسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة الشورى الايتان : ٥٢ - ٥٣

(٣) سورة فاطر الآية : ٨

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه لشيء نَحْتَهُ عن يديه المقادر

قوله تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أى لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك ؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختيارى وقال تعالى ( لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾<sup>(٣)</sup> وقال جل شأنه ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تبارك اسمه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبئليه فجعلناه سميعا بصيرا \* إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾<sup>(٥)</sup> وقال تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾<sup>(٦)</sup> وقال عز وجل ﴿ ونفس وما سواها \* فألهمها فجورها وتقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٧)</sup> ولذلك لما اقترحوا على رسول الله ما اقترحوه من الآيات ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا \* أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا \* أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾<sup>(٨)</sup> لما اقترحوا تلك الآيات كان الرد عليهم ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ وفى التعبير بخضوع الاعناق ما يفيد الرضوخ والقهر والجبر وليس هذا موافقا لحقيقة الايمان إذ الايمان تصديق ناشئ عن رضا ويقين فليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل فالإيمان عمل من أعمال القلوب لا يستوى مع القسر والقهر .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ هذا شأنهم وديدنهم وهجيرهم تكذيب وجحود وعناد وإصرار ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا \* فلم يزدتهم دعائى إلا فرارا \* وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾<sup>(٩)</sup> وقال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا حشرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾<sup>(١٠)</sup> وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولا كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعد القوم لا يؤمنون ﴾<sup>(١١)</sup> ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾<sup>(١٢)</sup> أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى متقلب ينقلبون ﴾<sup>(١٣)</sup>

(٨) سورة الاسراء من الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٩) سورة نوح الآيات : ٥ - ٧

(١٠) سورة يس الآية : ٣٠

(١١) سورة المؤمنون آية : ٤٤

(١٢) سورة الشعراء الآية : ٦

(١٣) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦

(٢) سورة يونس الآية : ٩٩

(٣) سورة هود الآيات : ١١٨ - ١١٩

(٤) سورة الكهف من الآية : ٢٩٠

(٥) سورة الانسان الآيات : ٢ - ٣

(٦) سورة البلد الآية : ١٠

(٧) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (١) .

وفي هذا تنبيه على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه للذين اجتروا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثوري عن رجل عن الشعبي : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو ليثم .

تأمل في نبات الأرض وانظر	إل آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات	بأبصار هي الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات	بأن الله ليس له شريك

تباركت ربنا وتعاليت يامن قلت وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ (٢) .

ويامن قلت وقولك الصدق : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ (٣) .

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نبيه . ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ (٥) وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ (٦) ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذي عز كل شيء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أي : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : العزيز في نعمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأتاب .

(٤) سورة يوسف الآية : ١٠٣

(٥) سورة الأنعام الآية : ١١٦

(٦) سورة الرعد الآية : ١

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩

(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ ، ١١

(٣) سورة ق الآيات : ٧ - ١١



مع موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَتَيْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۖ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٣﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴿١٤﴾ وَلَهُمْ عَلَىٰ ذُنُوبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٥﴾ قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بَايِلْتَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٦﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٩﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢١﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبْدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۖ أَلَا تَسْمِعُونَ ﴿٢٦﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُودِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ أُولَٰئُو جِثَّتْكَ بَشَرٌ مِثِّي ۖ وَثَبِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ فَأَتِ بِهِ ۚ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٣٣﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٤﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ ۚ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٧﴾ بِأُتُوكَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٩﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٤٠﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ الْقَوَامَا ۖ أَنْتُمْ مَلَاقُونَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا جِبَالَهُمْ وَعِصْبَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا إِنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَارْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِن هَٰؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَحَمِيعُ حَذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ وَأَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

## تفسير المفردات

﴿كلا﴾ كلمة زجر وردع والمراد اتق بالله وانزجر عن خوفك منهم . ﴿بآياتنا﴾ المراد هنا معجزاتنا . ﴿فقرت منكم﴾ خرجت من بينكم إلى مدين . ﴿مبين﴾ : أى : ظاهر أنه ثعبان بلا ثوبه ولا تحييل كما يفعل السحرة ، ﴿الملا﴾ : إشراف القوم ، ﴿عليم﴾ : أى : خير بفن السحر حاذق في تلك الصنعة ، ﴿فماذا تأمرون﴾ : أى : فبم تشيرون ، ﴿أرجه وأخاه﴾ : أى : أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة . ﴿حاشرين﴾ : أى : اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة ﴿الملاقات﴾ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام ﴿اليوم المعلوم﴾ هو يوم الزينة الذى حدده موسى في قوله : ﴿موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ ، ﴿وبعزة فرعون﴾ : أى : قوته التى يمتنع بها من الضيم ، ﴿تلقف﴾ : أى : تبتلع بسرعة . ﴿ياأفكون﴾ : أى : يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، ﴿من خلاف﴾ : أى : بقطع الايدى اليمنى

والأرجل اليسرى ، لا ضمير ، أى : لا ضرر علينا فيما ذكرت ، ﴿ يتقلبون ﴾ أى : راجعون .  
 ﴿ اسرى ﴾ : سار ليلا ، ﴿ متبعون ﴾ : أى : يتبعكم فرعون وجنوده ﴿ والشرذمة ﴾ : الطائفة  
 القليلة من الناس ، ﴿ غائظون ﴾ أى : فاعلون ما يغيظنا ﴿ حاذرون ﴾ : أى من دأبنا الحذر فى  
 الأمور ، كنوز أى : أموال كنزوها وخزنها فى باطن الأرض ، ﴿ ومقام كريم ﴾ : أى : قصور عالية  
 ودور فخمة ، ﴿ أورثناها ﴾ : أى ملكناها لهم تمليك الميراث ، ﴿ مشرقين ﴾ : أى داخلين فى وقت  
 الشروق ، ﴿ تراءى الجمعان ﴾ أى : تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، ﴿ المدركون ﴾ أى :  
 سيدركوننا ويلحقون بنا ، ﴿ كلا ﴾ : أى لن يدركوكم ، ﴿ انفلق ﴾ : انشق ، ﴿ الفرق ﴾ الجزء  
 المنفرد منه ، ﴿ والطود ﴾ : الجبل ، ﴿ وأزلفنا ﴾ أى : قربنا . ﴿ وثم ﴾ : أى هناك ، ﴿ لآية ﴾ أى :  
 لعظة وعبرة توجب الايمان بموسى .

#### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وقبيح لجاحهم سلى رسوله ﷺ - على ذلك  
 بأن قومه ليسوا ببديع فى الأمم وانه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما  
 أتى به من باهر الآيات وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، فحاق بالمكذبين ما كانوا به  
 يستهزئون وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم فى اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ، وتكذيبهم بعد ظهور  
 المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

#### التفسير

هذا جزء من قصة موسى على نبيا وعليه الصلاة والسلام - وقد جاء بعد ذلك الحديث عن  
 إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب

#### كلمة عن القصة فى القرآن

##### الحدث التاريخي والقصة

إن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من  
 الخيال ، ولا يطررها طارق منه . . ثم هى مع هذا « قصة » حيث سُمى القرآن كل ما جاء على هذا  
 النحو قصصا ، فقال تعالى مخاطبا النبى الكريم : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ (١) وقال  
 تعالى : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ (٢) .

(١) سورة طه الآية : ٥٩

(١) سورة يوسف الآية : ٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ٦٢

هكذا أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدث به من أخبار القرون الأولى في مجال الرسائل السماوية ، وما كان يقع في محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين مواكب النور وجحافل الظلام .

والقصص القرآني كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدي التاريخ من وثائق ، فما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة .

### الشخصية والحادثة

يقوم العمل القصصي على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث . . بمعنى ان تكون الشخصية هي الفلك الذي تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هي المركز الذي تدور في دائرته الشخصيات : وقد تتوازن في العمل القصصي الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع مرة بعد مرة . . ! ويلاحظ في القصص التاريخي غلبة الشخصية على الحدث . . فيكون الشخص هو محور الحركة في القصة ، وهو منطلق الأحداث الجارية فيها . .

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخي أشخاصا لا أحداثا . .

وفي القصص القرآني نرى تديبرا عجيبا معجزا ، في توزيع المشاهد القصصية توزيعا محكما متوازنا ، بين الحدث والشخصية . . فلا تجد موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها . . وإنما تلتقى الشخصية مع الحادثة أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون هو الذي يصبح بطل الموقف . فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويكون صوته اندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطانا على المشاهدين أو المستمعين !

فالأشخاص في القصص القرآني - أيا كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد إبراز معالمهم وكشف أحوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم . . وإنما يعرض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية في مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفي صراعها مع الخير والشر وفي تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار . .

إن الشخصية في القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذي تؤدي فيه دورها كشاهد من شواهد الإنسانية ، في قوتها أو ضعفها ، وفي استقامتها أو انحرافها ، وفي هداها أو ضلالها ، وفي رشدتها أو غيها ، وفي حكمتها أو سفاهتها . . إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الإنسانية ، وتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها في مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن في الأحداث التي يعرضها القرآن في قصصه . . إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الاحسان والسوء فيهم . . ! ومن أجل هذا ، كان ذلك الذي نشهده في القصص القرآني ، من عرض الشخصية في معارض

كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيرا من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة في القرآن الكريم ، وذلك في أزمنة متباعدة ، في عرض القرآن لها ، حسب نزوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصدا أصليا لذكرت أحداثها ومواقفها في معرض واحد . . فكنا نجد قصة موسى مثلا في سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم ، وعيسى ، ونوح وغيرهم . . ولكن الذى كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى غايتها في موقفه منها أو موقفها منه . . ثم ينتهى المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن - طال أو قصر - طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذى يقال عنه في القصص القرآنى ليس تكرارا للحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولا ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة .

ولما الذى دعا إلى هذا القول هو ظهور الشخصية في مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل التكرار الممل الذى لا تدعو اليه داعية ، من حال أو مقام ! إن الشخصية في القصص القرآنى ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظورا إليه نظرة القصص التاريخية إلى شخصياته ، وعرضهم في معارض البطولة . . في أى مجال من مجالاتها . ولما الأحداث والوقائع . . أولا ، ثم الشخصيات التى تلبست بها أو لابستها الأحداث . . ثانيا . . لأن مناط العبرة والعظة إنما هو في الحدث ، وفي موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسيء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف . . ومن خلال هذه المواقف التى يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها . . وهذا ما جاء القصص القرآنى من أجله . .

#### لا تكرار في القصص القرآنى

والذى يتبع القصص القرآنى يجد أن أحداثه كلها تقريبا تدور في محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الاله الواحد ، الخالق ، رب العالمين . . . ولذلك كانت دعوات الأنبياء هى الشخصية الغالبة في القصص القرآنى ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم وهكذا . . والملاحظ الذى نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو أنه لو كانت الشخصية - لا الحادثة - هى مناط القصة ودافعها الأصلي لجاءت قصة كل نبي أو كل شخصية غير نبي في موضع واحد من القرآن ، في سورة أو بعض سورة . . ولما كان هناك داع لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة في مواضع متباعدة في القرآن ، ولكن إذا نحن اعتبرنا الحادثة - لا الشخصية - هى محور القصة - لم نجد هذا التمزق في الشخصيات ، وإنما نجد في كل حادثة أو موقف قصة كاملة وإن كان هذا لا يمنع من أن نلتقى بالشخصية الواحدة في أكثر من حدث وفي أكثر من موقف ، مع تباعد الزمان والمكان . كما أن هذا لا يمنع من أن تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها

إلى بعض في مساق واحد ، وفي عرض متصل ، في سورة أو بعض سورة !  
وهذا ما نجده فعلا في القصص القرآني !

ففي أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت أحداث كثيرة لعدد من الانبياء حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وفي هذا الجمع ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما في الانسان من عناد وكنود ، وأن الانسان هو الانسان حيث اختلف زمانه ومكانه .

### مفهوم القصة في القرآن

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمي بالأحداث والوقائع قصصا ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحي ، ومع المحتوى الفني للقصة ، كما تعرف في الآداب الانسانية قديما وحديثا ؟

ونحن ننظر في المعنى اللغوي للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذي قام عليه أصل التسمية للقصص القرآني . فالقصة مشتقة من القص وهي تتبع الأثر ، قال تعالى : ﴿ وأتته قصبة ﴾ (١) أي : تتبع آثاره ، على ما انتهى إليه أمره .  
ومن هذا قولهم قص الأثر نظر فيه ، واقتفى آثاره وشواهد .. يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت في أثر فلان قصصا .

وفي القرآن ﴿ فارتدا على آثارهما قصصا ﴾ (٢) .. وقص عليه الرؤيا والحديث ...  
وفي القرآن ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك ﴾ (٣) .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف في عصرنا بتصوير « البصمات » أو رفع الآثار وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .  
والقصة في القرآن إنما تتبع أحداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى علاضيه ! ومن هنا كانت تسميه الأخبار التي جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل في المعنى العام للكلمة خبرا أو نبأ . وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضي ، وإن كان قد فرق بينهما في المجال الذي استعملاه فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام واعجاز ... فاستعمل النبأ والأنباء في الأخبار عن الأحداث التي مضى الزمن بعيدا بها ، ولفها في أطوائه .. على حين أنه استعمل الخبر والأخبار في الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التي لا تزال شواهدا قائمة ماثلة للعيان .  
ففي النبأ والأنباء يقول تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (٤)  
ويقول سبحانه في شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ﴾ (٥) ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين ..

(١) سورة القصص الآية : ١١

(٢) سورة الكهف الآية : ٦٤

(٣) سورة يوسف الآية : ٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣

(٥) سورة هود الآية : ١٠٠

﴿ تلك من أبناء الغيب نوحيتها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. الآية ﴾<sup>(١)</sup> وفي الخير والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين !

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾<sup>(٢)</sup> .  
ويقول جل شأنه فيما يكون من أحداث يوم القيامة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾<sup>(٣)</sup> والتحدث بالأخبار إنما يكون في هذا الوقت الذي تقوم فيه الساعة .  
وانظر في قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾<sup>(٤)</sup> تجد أن القصص القرآني إنما هو من قبيل الأنباء .. أي الأخبار التي بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا سماها القرآن : من أبناء الغيب .

وحين ننظر في القصص القرآني نجد أنه يجيء بمادته كلها من الماضي البعيد دون أن يكون فيه شيء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلية  
ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن ان يجيء بقصص يصور الأحداث الواقعة الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية ، أو بأحداث مستقبلية تنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى في كثير من القصص الأدبية التي يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة في ضباب الأحداث المظلمة على الحياة ، أو في المستقبل الذي ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصص القرآني مثل هذا القصص الأدبي ؟

والجواب عن هذا من وجوه :

فأولا : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة في محيط الدعوة الإسلامية في أوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وإبان عن وجه الحق فيها ﴿ كما ترى ذلك في حديث الافك ، وفي وقعة بدر وأحد وحنين ، وفي بيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن الكريم في أحوال وشئون ملابسة لنزوله كذلك جاء القرآن الكريم مخبرا عن أحداث ووقائع مستقبلية .  
فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذي كان دائرا بين الفرس والروم ، وإن معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها للروم على الفرس . قال تعالى : ﴿ ال م غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين الآية ﴾<sup>(٥)</sup> كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس في دين الله أفواجا في قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾<sup>(٦)</sup> كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه ﴿ سيهزم

(١) سورة هود الآية : ٤٩

(٢) سورة محمد الآية : ٣١

(٣) سورة الزلزلة الآيتان : ٤ ، ٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣

(٥) سورة الروم الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٦) سورة النصر الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

الجمع ويولون الدبر<sup>(١)</sup> وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه - يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأسأل : أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ؟ ورسول الله ﷺ - يقرأ : ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ) فرأيت الجمع المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون ان تفقد لمحة واحدة من ملامحها ، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت - كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة فى جانب ، وإلى صورها الواقعة فى المرأة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصا ، لأن القصة تتبع للآثار الماضية والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام !

وثانيا : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل وتحرك ، وتلد عظات وعبرا . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة أو المستقبلية التى يكشف القرآن عن وجهها إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذى يتم بمجرد نزول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث . وثالثا : الاشتقاق اللغوى للقصة هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، والفتهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة ، وهكذا كان القصص القرآنى ، ولهذا جاء ، قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ورابعا : فى القصص الأدبى الذى يعالج الحياة الواقعة أو المتوقعة يختلط فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشطحات والروى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة فى هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة - وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل رجما بالغيب ، ولا خيالا من الخيالات ، ولا حلما من الأحلام ، ولكنه الصديق المصفى ، والحق المبين . . ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التى جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذى لا بد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التى تثير الدهش والاستغراب ، والتى يلعب فيها الخيال فى عقول الناس دورا كبيرا . فصان الله سبحانه أخبار الغيب التى نطق بها القرآن من أن تقع فى نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .

القصة والحكاية

ومع هذا يلقانا سؤال آخر ، هو !

لماذا لم يطلق على القصص القرآنى اسم الحكاية بدلا من القصص ؟ والحكاية كما نرى هى أقرب شيء إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضى وتشخيصا ، ومحاكاة له ، لاسيما أن لفظ

(١) سورة القمر الآية : ٤٥

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١



« القصص » يوحى بأن جانباً من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التى تدل على محاكاة ماثلة للحدث أو الأحداث ، دون تزييد عليها ؟

والجواب عن هذا ، هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلاً لشخصها ومشاهدها ، وإنما هو بعث لها ، وإعادة لوجودها فى النظم المعجز الذى ينقل إلينا الماضى أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة فى زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التى عرضها القرآن اذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشئ وتتبعه ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته . ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآنى هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشئ من الخيال ، ولم يدخل عليها شئ غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق ، مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذى لا يصلح عليه القصص الأدبى بحال أبداً .

#### اعتراضات وتوبيهات

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول بأن القصص القرآنى تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت دون أن يدخل عليها شئ من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف بحيث يغير من وجوهها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها .

#### وتتلخص هذه الاعتراضات فى :-

أولاً : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملابساته ، فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى المشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزئياتها لكان ذلك - على استحالاته - ضرباً ، بل ضرورياً من العبث الذى يدعو إلى الملل والسآمة ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر على احتمال هذا اللغو والسخف تصور - مثلاً - حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع كل يوم على مرأى ومشهد من الناس ، ولتكن سيارة صدمت شخصاً ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقاتها . . وانظر أتستطيع قوة بشرية أن ترصد مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ - السيارة ، لونها ، شكلها ، رقمها ، سائقها ، هيئته - طولها - عمره - ثم الشخص الذى صدم . . أوصافه الجسدية وكيف صدم ، وإيه كانت الصدمة ، ومدى آثارها - ثم اجتماع الناس - والتفافهم حول الحادثة ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والإسعاف - ثم انجلاء الموقف - وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة من صورها وما دار فى محيطها .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جداً مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حساب أحد . .

فكم من الناس من شهدوا هذا الحادث مثلا ؟ وكم الذكور وكم الاناث منهم ؟ وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ؟ وماذا يلبس كل واحد ؟ ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة في نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أو انصرف إلى وجهة أخرى ؟ إن لكل إنسان من هؤلاء قصة طويلة .. لا تكاد تنتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوف من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة - يمكن أن يجتمع منها كتاب ضخيم لو تتبعها متتبع ، ثم يبقى بعد ذلك كثير من عجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين : أولهما : استحالة نقل الحدث مهما صغر نقلا كاملا ، بملابساته جميعها عما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : ان نقل جميع الملابسات التى تتلبس بالحادث - على فرض امكانها - لا داعى إليها فى التعرف على وجه الحادثة والاستدلال على مشخصاتها والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفى من هذه الشخصيات ما يصور الملامح الواضحة للحادث ويشخصه .

ويدهى ان القصص القرآنى إذ نقل صورا من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب وبعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لا تدعو الحاجة إليه .. فى تصويرها وتشخيصها !

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى .. فإنه يعنى أن هذا القصص لج يجىء بالواقع كله بل أخذ بعضا وأعرض عن بعض .. ويعنى أيضا أن هناك تفاوتا واختلافا كثيرا أو قليلا بين هذا القصص وبين الواقع ..

وهذا يعنى - مرة ثالثة - أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما .. وهذا يعنى - مرة رابعة - ان هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما يتصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية من الروايات ، وهذا يعنى أخيرا ان انباء القصص القرآنى ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق .

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن القرآن الكريم شأنه شأن القصص الأدبى .. لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منها قصصا فنيا ، الأمر الذى جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى تجد النفس إقبالا عليه ، لما فيه من جدة وغرابة ولما فى هذه الجدة والغرابة من إثارة

وثانيا : يقدم أصحاب هذا الرأى أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه .. حيث إن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة تتغير بها صور الحوادث وألوانها .

فمثلا :

في قصة موسى !

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله - سبحانه وتعالى - له وذلك في أكثر من موضع من القرآن .

ففي سورة طه ، يقول تعالى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إن أنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى .. فلما أتاها نودي يا موسى إن أنا ربك فأخلع نعليك إنيك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري .. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه ، فتردى .. وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مارب أخرى .. قال ألقها يا موسى فآلقها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى - لنريك من آياتنا الكبرى ﴾<sup>(١)</sup>

وفي سورة القصص تحيىء هذه الأحداث هكذا .. يقول الله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إن أنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنيك من الأمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذائك برهانان من ربك إلى فرعون وملته ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفي سورة النمل تحيىء القصة هكذا . ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، إذ قال موسى لأهله امكثوا إن أنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودي أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم - وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ، ثم بدل حسنا بعد سوء فإني غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾<sup>(٣)</sup> .

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التى وردت فيها هذه القصة هى سور « مكية » ومعنى هذا ان الداعى الذى جاءت له هذه القصة هو هو لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الاسلامية فى مواجهة قريش ، ولم يجرى بعد الدور الذى واجهته فيه البلاء مواجهة مباشرة بعد الهجرة !

وإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف فى وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت

(١) سورة طه الآيات : من ٩ - ٢٣

(٢) سورة القصص الآيات : من ٢٩ - ٣٢

(٣) سورة النمل الآيات : من ٦ - ١٢

إليه ، فيتغير الأسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فعن أى داع إذن كان هذا التكرار ؟ .  
والآن نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف في هذه المواقف التي عرضتها هذه الآيات  
القرآنية في السور الثلاث ، ولهذا الجانب الذي عرضته من قصة موسى - عليه السلام - وذلك لنرى وجه  
هذا التكرار وهل كان لمجرد التأكيد والتقرير بعرض الوقائع في هذا اللون من التكرار - أم أن ذلك كان  
لإضافات جديدة تزد على كل عرض منها . لتكتمل من ذلك كله الصورة التي يراد تقريرها . . والتي  
تمثل في مجموعها الواقع كما وقع ؟!

وننظر في هذا فنرى ان الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

( ١ ) موسى في طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى نارا  
موقدة .

( ٢ ) عندئذ طلب إلى أهله أن يمكثوا حيث هم . وان يذهب هو إلى حيث رأى النار .

( ٣ ) غايته من هذا الذهاب ، وأنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ، ليقود منها نارا يصطلي  
بها هو وأهله . . أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته في هذه المتاهة الموحشة .

( ٤ ) وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله - سبحانه وتعالى - يخبره فيه ان هذا الذي رآه ليس نارا ،  
ولما هو نور الحق . . وان المتكلم هو الله - سبحانه - وانه سبحانه قد اختار موسى ليكون رسوله إلى  
فرعون وإلى بنى إسرائيل .

( ٥ ) واذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله - سبحانه وتعالى - بين يديه معجزات يحتاج بها  
فرعون ، وان هذه المعجزات - هي عصاه التي يلقيها من يده فتقلب حية عظيمة تسعى . . ويده التي  
يدخلها في جيبه ثم يخرجها فإذا هي بيضاء مشرقة وضيئة من غير سوء !

هذه هي أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التي عرضها القرآن في ثلاثة معارض من النظم  
القرآني - في سورة : طه ، والقصاص ، والنمل .

ولكى يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض - نجعل بعضها إزاء بعض على هذا  
النحو :

سورة طه .

- ١ - ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ﴾ .
- ٢ - ﴿ فقال لأهله امكثوا .. إني آنست نارا ﴾ .
- ٣ - ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجدر على النار هدى ﴾ .
- ٤ - ﴿ فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخرج نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك  
فاستمع لما يوحى .. إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ﴾ . .
- ٥ - ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى .. قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب  
أخرى ، قال ألقيها يا موسى ، فألقاها فإذا هي حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها  
الأولى ﴾ .
- ٦ - ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى .. لنريك من آياتنا الكبرى  
أذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

## سورة النمل

- ١ - ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ .
- ٢ - ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .
- ٣ - ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسَبِّحَانَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .
- ٤ - ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِي مُدَبِّرًا ، وَلَمْ يَعْقِبْ . يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلِينَ ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بِسُوءٍ ، فَيَأْتِي غُفُورٌ رَحِيمٌ ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

## سورة القصص

- ١ - ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ .
  - ٢ - ﴿ قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ ، أَوْ جَذُوءٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .
  - ٣ - ﴿ فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .
  - ٤ - ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌ وَلِي مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَا مُوسَى أِقْبِلْ وَلَا تَخَفْ .. إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴾ .
  - ٥ - ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ . وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ .. فَذَانِكَ بِرَهْأَنَانَ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمُلْتَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .
- فهذه خمسة مشاهد أو مواقف في هذه القصة :

ويلاحظ :

أولاً : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار في سورة النمل ، على حين قد جرى ذكره في السورتين الأخريين : طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ، بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التي تسبق رفع الستار في الرواية المسرحية . ومع هذا فإن في كل حال من هذه الأحوال الثلاثة نغماً خاصاً يمهّد به للجو الذي تعرض فيه القصة .. ففي سورة ( طه ) كانت القصة امتداداً لتعداد ما حوى القرآن الذي نزل على النبي الكريم من آيات ، وعبر وعظات ، منها

( ١ ) سورة النمل الآيات من ٦ - ١٢

( ٢ ) سورة القصص الآيات من ٢٩ - ٣٢

القصص ، وفيه قصة موسى هذه .. وكذلك الشأن في سورة النمل حيث تجيء القصة منبثة عن حكمة الحكيم العليم .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .. إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا ﴾ أما في سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة موسى كلها التي بدأت من أولها في هذه السورة ، وشملت قصة حياته من مولده ، وإلقائه في اليم ، ونجاته ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببني إسرائيل من مصر ..

ثانيا : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة واحدة للمشهد في المعارض الثلاثة في السور الثلاث كما ترى .. ففي السور الثلاث جاءت الآية التي تنصدر هذا المشهد هكذا : ﴿ قال لأهله امكثوا إني آنست نارا ﴾ .. مع تغيير لا يكاد يحس به ، حيث يزيد في إحداها حرف العطف ( الفاء ) : ( فقال ) .. وفي الأخرى تقدمها الظرف ( إذ ) .. ( إذ قال ) وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذي جاءت الآية لأدائه .

ثالثا : وفي الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافا في مقول القول لموسى .. وإن كان هذا الاختلاف اللفظي لا يغير شيئا من المعنى .. ولكن نحن بصدد البحث في التزام القرآن بحكاية الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التي وقعت - فإن هذا الاختلاف يثير كثيرا من التساؤل !

ففي سورة طه يجيء بقول موسى : ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى ﴾ على حين يكون قوله في سورة القصص ﴿ لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ثم يجيء قوله في سورة ( النمل ) هكذا : ﴿ سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ . فهناك أمران اقتضاهما هذا الموقف الذي وقفه موسى من أهله حين رأى نارا فدعاهم إلى الانتظار حيث هم في مكانهم لا يبرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين : أولهما : هو أن يأتي بجذوة من النار . وثانيهما : أن يجد عند النار من يؤنس وحشتهم ، في هذا المكان القفر الموحش . وقد رأينا صور التعبير عن هذين الأمرين تختلف في كل آية من الآيات الثلاث في السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المطلوبين على الآخر ، وتارة يؤخر .. ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى ﴾ ﴿ لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ومرة يكون الحديث عن النار المستجلبة بأنها جذوة ، ومرة بأنها شهاب قبس ، ومرة ثالثة بأنها شهاب ، وحسب . وفي آية يكون أحد المطلوبين ( خبرا ) يلتمس عند النار ، وفي آية أخرى يكون هذا المطلوب ( هدى ) يلتمس عند النار أيضا .

وفي سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجى ( لعل ) على حين يذكر المطلوب في السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا . هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقا .. فهو موقف واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل في هذا الموقف فكيف يتفق هذا مع هذه المقولات الثلاث

وما بينها من اختلاف؟

إن هذا الاختلاف لو كان في غير القرآن لما كان له هذا الشأن الذى نجده له هنا فى القرآن الكريم ، حيث إن للقرآن مقامه من الصدق فى نقل الأخبار ، والمشاهد والأحداث ، وحيث إن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذى يرجح وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء فى الإخبار عن الواقع نتقبلها من غير القرآن ، لأن المعول عليه فى نقل الأخبار هو المعنى ، وهى بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، فى مجلته ، وإن اختلفت صور الأداء .

أما والقرآن هو الذى يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطلق فى جميع صورته وأشكاله . . وكل صورة من صورته فهو الحق الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شيء مطلقا من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق فى هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف ؟

أترید الجواب ؟

إذن ، فلا تعجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر معا ، فإننا بين یدى أسرار محجبة ، وكنوز مصونة فى روائع الكلم ، لا تأذن بشيء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفا ، متأنيا ، متخاشعا !!

ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى فى موقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمأنينة لهم ، وإشاعة الغبطة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء فى ضوء هذه النار .

فهذا الرأى على وجاهته لا نراه يغطى هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع . والذى نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :

أولا : ان مقول موسى لأهله هو قوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا ﴾ ولهذا جاء فى السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو إختلال فى حرف واحد . . ﴿ امكثوا إني آنست نارا ﴾ . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ، وإلا شعور واحد ينطلق منه هذا القول .  
ثانيا : ان بقية مقول القول لا يعدو أن يكون أحد الصور الثلاث : ﴿ لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ أو ﴿ سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أو ﴿ لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ . وليس فى مقدورنا أن نقطع بأى منها هو الذى كان القول الذى أسمعته موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما - فى رأينا - مما كان يدور فى خلد موسى ويخطر فى خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار التى رآها . .

فهو بين يأس ورجاء مما سيجد عند النار . . فقد يكون موقد النار ركب تجار ، أو قطاع طرق ! . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتى بخبر راجع نفسه ، فقد غير هذا التقدير . . ثم عاوده الأمل ثم طلع عليه الخوف . . وهكذا . . ثم قال : لعل وعسى !! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع

إليهما . . الحصول على قبس من النار ، والعثور على الأنيس الذي يبدد مخاوف هذا المكان المخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معا ، طامع فيهما جميعا ، فهو وإن قدم أحدهما لفظا فإنه قد يكون هو المقدم في خاطره ، ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه . . وهكذا .

والنار التي تصور أنه سيحصل عليها ليست في تصوره لها على حال واحدة ، لأنه لا يدري ما هو الذي يمكن أن سيحصل عليه منها ، أهو بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها . وهكذا تكون هذه الصورة المتكررة هي من منطوق موسى عليه السلام ، ومن الخواطر المتلبسة بهذا المنطوق أيضا . . وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن أن يكون في غير القرآن . .

ولا يمكن أن يحتمله نظم غير نظم القرآن .

ثم إنه لا يمكن أن يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعا كما هو واقع في هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكت ألوان الصورة وتدافعت ، ولطم بعضها وجه بعض ! هذا ، ويمكن أن تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس الخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسي ، فكانت ألفاظا مسموعة من موسى أسمعها أهله ، ليكونوا على بينة مما وراء هذا الوجه الذي يتجه إليه ، ولا يدري على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده .

وفي المشهد الرابع . . وهو الذي يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التي رآها ليست على ما تصور وتخیل ، وإنما هي نور الحق جل وعلا . . وإن على موسى - وقد عرف هذا - أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغي له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمر بخلع نعليه ، وإن يتهيا لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى . . فقد اختارته العناية الإلهية ليكون رسولا من رسل الله إلى عباده - في هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث التي صورت بها المشاهد الثلاثة إنما هي صورة واحدة ، قد توزعت توزيعا دقيقا محكما ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن أن يقوم بنفسه ، مستغنيا عن غيره ، فترى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومفترقة ! كما يمكن إذا انضم إلى المشهدين الآخرين أن يكون معهما صورة مسجدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمرات ، وما استتر وراء الكلمات ! فنحن نرى من مجموع الصور الثلاث التي تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة أن مكان هذا الحدث كان بالوادي المقدس طوى ، وأنه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وإن موسى سمع صوت الحق يناديه : ﴿ إني أنا ربك . . فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله . . لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري ﴾ (١) .

﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ (٢) - ﴿ إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ (٣) وواضح من هذا أن هذه الكلمات التي تفرقت في السور الثلاث يمكن أن تظهر في مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تفكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا في تعاطف واشتياق ، فهي

(١) سورة طه الآيات : من ١٢ - ١٤

(٢) سورة القصص الآية : ٣٠

(٣) سورة النمل الآية : ٩



جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى في هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضاً منه ، وهذا البعض كاف لذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع اطار الصورة ، فإزدادت وضوحاً ، وإن لم تتغير محتوى ومضمونها !

وواضح أيضاً أن هذا التكرار في الحديث عن الله - ﴿ إني أنا ربك . . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني . . إني أنا الله رب العالمين . . إني أنا الله العزيز الحكيم ﴾ هذا التكرار المتلاحق في سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذي اهتز له موسى من اقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكناً لقلب موسى ، وامساكاً لنفسه وقد كادت تذهب شعاعاً !

أما في المشهد الخامس ، وهو الذي يكشف عن المعجزات التي وضعها الله - سبحانه وتعالى - في يد موسى ، وما كان من موسى حين رأى هذه المعجزات تنفجر من بين يديه لأول مرة - في هذا المشهد نرى فيه ما رأينا في سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للمشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن أن يستقل كل مقطع منها في سورته بتأدية المعنى الذي تؤديه الصورة مجمعة في مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التي كانت تطل من وراء حجاب ، في مقطعها الذي شكلت فيه !!

ففى أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التي يعرفها لها ، والتي صاحبها عليها . . الأمر الذي لا نجده في المقطعين الآخرين .

ونرى العصا حين يؤمر موسى بإلقائها من يده تنقلب حية تسعى في أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان في المقطعين الآخرين . . فتكتمل بذلك الصورة الحقيقية لما صارت إليه العصا . . فهي حية في ضخامتها ، جان في خفتها ونشاطها وحيويتها التي تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفرع والهلل منها . . وأنت ترى في تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسعى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذي كشف عنه ما وصفت به في المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » . . كما نرى في تصويرها وهي « جان » بأنها تهتز - ما يشعر بضخامتها لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز بل انطلاق أشبه بانطلاق السهم !

فالحية التي تسعى والجان الذي يهتز . . كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا . . فهي حية في جان ، و جان في حية . . ( والجان هو فرخ الحيات ) وقد جاء في القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا . . وهو ﴿ ثعبان مبين ﴾ . . وهذا الوصف يناظر تماماً الوصفين السابقين لها . . فهي ثعبان في خفة الحركة ولكنه ثعبان مبين في عظم الجسم وضخامته ! وهكذا نجد التكرار الذي يحدث في بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدي وظيفة حيوية في إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير بل لا بد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكي تحمل في كل مرة بعضاً من مشخصات المشهد وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقارنة للمشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك على بعد ما بين المشبه والمشبّه به . . بالتصوير ( الفتوغرافي ) . . اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . تصويراً كاملاً صامتاً . . فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج في قراءتها إلى مهارة وحذق ،

للكشف عن مضمونها أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف ( اللقطات ) حتى تتجسم الأحداث وتحرك الشخصيات وتتكشف كل خافية كانت مخبئة وراء الصورة ( الفتوغرافية ) إن تكرار الأحداث القصصية في القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن . تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يرى لها وجه في أية لغة وفي أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه في جلاله وروعته وسطوته ! وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدي ما يؤديه العمل السينمائي اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة - ( طولها وعرضها وعمقها ) وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوف ! أما النظم القرآني فإنه ينقل المشاهد بأبعادها وأعماقها وبحركاتها وسكناتها وينطقها وصمتها ويوسوسة خواطرها . وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلمحة أو لقطتين أو ثلاث للمشاهد الواحد كله . ومن تدبير القرآن في هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات في معرض واحد حتى لا تتراكم وتتراكب بل جعلها موزعة في مواضع متباعدة في القرآن الكريم بحيث يمكن أن تستقل كل ( لقطه ) منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى الماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعا صورة واحدة . . وإذن فالذين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة في عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآني قصص واقعي بجميع عناصره ومقوماته ، هذا القول إنما يستقيم في نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام يرسل على عواهنه ويلقى به بغير حساب ولا تقدير ، ولكنه لا يستقيم أبدا عند من ينظر في القرآن بعين بصيرته فيرى في كل كلمة من كلمات الله عالما فسيحا لا حدود له مشرقا بأضواء الحق من أرضه وسمائه .

ثالثا : وما يراه أصحاب هذا الرأي مؤيدا لوجهة نظرهم فيه أيضا أن القرآن جاء بلسان عربي مبين ، والشخصيات التي وردت في هذا القصص لم يكن لسانها عربيا كموسى . وفرعون ويوسف واخوته . والعزیز وامرأة العزيز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، والأنبياء وأقوامهم ، إلى كثير من الشخصيات التي نطق عنها القرآن بلسان عربي . . وفرعون مثلا نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة كقوله : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ أفلا تبصرون ؟ ﴾ (١) . وقوله : ﴿ يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾ (٢) .

وإنه مما لاشك فيه أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات في مقاطعها وحروفها ، وإنما الذي نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . فهي ترجمة أمينة صادقة لما قال ! وهذا النقل أيا كان من الدقة والاحكام في نقل المعاني من لسان إلى لسان فإنه على أي حال صورة مخالفة للواقع ولو في الصورة والشكل وإن لم يكن في المضمون والمحتوى ، وأي مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس فينطقوا بغير اللغة التي نطقوا بها ؟ وفرعون - ولغته المصرية القديمة - ينطق بالعربية الفصحى ، وأصحاب الكهف

(١) سورة الزخرف الآية : ٥١

(٢) سورة غافر الآية : ٣٦

ولا تعرف لغتهم على وجه التحديد- يتحاورون بلسان عربى مبين .. وهكذا؟  
وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين ﴿ ثم استوى إلى السماء  
وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها .. قالتا أتينا طائعين ﴾ (١) ..  
﴿ قالت غلة : يأبىها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا  
يشعرون ﴾ (٢) ..

والهدهد ينطق بين يدى سليمان قائلا : ﴿ أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبا يقين ، إنى  
وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم ﴾ (٣)  
فهذه المفارقات وأشباهاها قد جعل منها بعض الدارسين منفذا آخر ينفذون به إلى القول بأن  
القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى الذى لا يكون قصصا إلا إذا لونه القاص بالوان من  
خارج الواقع وجعل لنفسه سلطانا على الأحداث فيغير ويبدل كما يقتضى الحال وتستدعى أجواء  
القصة .

#### دعوى متهافة :-

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مباحكات وتلبises متهافة ، لا تقوم على أساس من الحجة  
الواضحة والمنطق المستقيم .. فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها  
متلبسة بكل ما صاحبها من صور وأشكال ساكنة ومتحركة فى مجال الزمان والمكان على سواء - هذا  
القول - مع تسليمنا به لا تقوم منه حجة أبدا على أن القصص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو  
كثير ..

ذلك أن الحياة كلها بأزمته وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها حاضرة عتيدة كلها بين يدى  
الحكيم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء !  
وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو  
عرض لبعض المواقف وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى  
الضمير وازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة .  
فالقصص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها .. وإنما يمسك من الأحداث  
والوقائع بما يراه مجليا عن عبء كاشفا عن عظة ، لتتفع بها الدعوة الإسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ،  
والإنابة إليه .. ولا يعنيه أن يكون الحدث مدويا صارخا ، أو مزلزلا عاتيا بقدر ما تعنيه الدلالة التى  
يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها .. ولا شك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقطعها القصص  
القرآنى من ( شريط ) الحياة هى الصدق الخالص ، والحق الذى لا يأتبه باطل من بين يديه ولا من

(١) سورة فصلت الآية : ١١

(٢) سورة النمل الآية : ١٨

(٣) سورة النمل الآيتان ٢٢ ، ٢٣

خلفه .. يقطعها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، وينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقدها ، وقد تساقط منها ما جف من أوراقها ، وما ذبل من أغصانها .. وإذا هي ثمر طيب ، داني القطوف ، تأخذ العين وتشتهيه النفس ! .

وإذن فليس تخلص القصص القرآني من الزوائد والحواشي التي لا تغني شيئا في تصوير الحدث وعرضه في معرض الاعتبار والعظة - ليس هذا التخليص إلا عملية غربلة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغناء والزبد ، ليصفو موره ، ويسوغ مذاقه للواردين .. وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابس التي اتصلت بالحدث من كل جهة من جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد !

وهذا التصرف الذي كان من صنيع القرآن في عرض الأحداث ، وفي تخيير الجوانب التي تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها - ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن - وقد أباح التصرف في الأحداث على أي وجه من الوجوه قد - أدخل في القصص القرآني ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل في معالجه . فهذه مغالطة - كما قلنا - لأن ما جاء في القصص القرآني هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة في صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخبط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شيء مما وراء هذا الظاهر ! وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها من صور .. كقول موسى لأهله :

﴿ امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ (٢) .

ثم قوله : ﴿ امكثوا إني آنست نارا ، سأتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ (٣) .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة في المقام الذي لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار ( امكثوا ) إذ لم يكن ثم سبيل إلى تردد في هذا الأمر . وكذلك الشأن في قوله ﴿ إني آنست نارا ﴾ فهذا سبب ، لا سبب غيره في دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وحيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك !

ثم كان هذا التردد الذي تذهب النفس في شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يعني من وراء ذهابه إلى النار .. إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدرى ماذا هنالك عندها ، ومن

(١) سورة طه الآية : ١١

(٢) سورة القصص الآية : ٢٩

(٣) سورة النمل الآية : ٧

موقدها .. وأخيرا أيصيب عندها خيرا أم شرا؟ .  
ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره . فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك في  
ظاهر أمره وباطنه جميعا .. وإما أن يكون الاختلاف في اللفظ عن اختلاف في الأحوال والمواقف ..  
كقوله في وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقيها من يده .. فهي مرة ( حية تسعى ) وهي مرة  
أخرى ( ثعبان مبین ) وهي مرة ثالثة ( تهتز كأنها جان ) .. فهي صور من أحوال العصا يكمل بعضها  
بعضا .. فهي حية في ضخامتها ، وهي ثعبان في خفتها ونشاطها ، وهي جان فيما تثير من رعب  
وفزع .. ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على تلك الوجوه التي تكشفت له منها .  
وأما أن القرآن قد تحدث بلسانه العربي عن ألسنة غير عربية ، أو نطق عن دلالة الحال ، كما في  
تحديثه عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجيء منه الادعاء بأن القرآن قد تقول على من نطق  
عنه ، وإنما هذا الذي نطق به القرآن مترجما به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال - إنما  
هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو أشارت إليه دلالات الأحوال .  
وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا في مثل هذه الأحوال إذا أريد نقلها وعرضها في الحياة ؟  
أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجيء القرآن بالأشخاص والأحداث فيبعثها من مرقدها ويحركها  
على مسرح الحياة من جديد لتتطرق هي بما نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟  
إن قدرة الله تعالى لا يعجزها شيء .. ولكن هل تحمل الحياة هذا لو أنه حدث ؟ وهل يلقاه  
الناس فلا يفتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم في تحبط مجنون ؟ هو قل لو كان في الأرض ملائكة  
يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا <sup>(١)</sup> !  
ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات التي نطق بها أصحابها كما نطقوها بالستهم ، أو  
بأصواتهم - هل يفهمون شيئا ، أو ينتفعون مما استمعوا بشيء ؟  
إن القصص القرآني لكي يكون قصصا مثمرا نافعا ، فقد جاء على وفق الحياة التي يحيها  
الناس ، ولم يخرج على مألوفها .. !  
ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفاتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة  
والاضطراب ! .

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقلونها ، على تعدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة ..  
ثم لا يكون شيء من ذلك حائلا بينهم وبين أن يفيدوا منها وينتفعوا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .  
وغاية ما يمكن أن ينظروا إليه في هذا الأحوال ، هو الصدق في الرواية ، والأمانة في النقل ،  
والدقة في التصوير والتعبير . وإذا كان هناك ملتصق تلتصق فيه هذه الغاية على أتم تمامها ، وأكمل  
كمالها فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا في القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن .  
إن القصص القرآني وإن يكن سماوي المطلع فهو بشري الصورة ، إنساني المنازع والعواطف ،  
يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرأون

اطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، ويتفعلون به انتفاع الأرض بصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهول !

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة في القصص القرآني :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التي قلناها في القصص القرآني ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبرة والعظة منها ، كما انه تخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الصورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات .. وهو : إذا كان ما في القصص القرآني هو مجرد أحداث تاريخية . فكيف تحسب هذه الأحداث في عداد القصص ؟ ومن أي باب تدخل إليه ؟ وهي ليست إلا تاريخا ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية ؟ وفي القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، مع هذا فلم تدخل في القصص القرآني المعروف ! فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص ؟

والجواب عن هذا من وجهين :

أولا : الأسلوب الذي جاء عليه القرآن من هذا النظم الرائع المعجز المفجر هو في ذاته آية الآيات في فن الكلام .. ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فنا عاليا لا يطاول .. من فنون القول ، وكان أي لون من ألوان الحقائق معجبا مشيرا إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته في هذا النظم المعجب المعجز ! وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو لسامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولي ، في مجال النثر أو الشعر ، وفي مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية - أو الآيات من الكتاب الكريم - لك ان تطلق عليها الوصف الذي يروعك ويروك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة .. لا تعني بذلك الأسلوب الذي نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعني ما دخل عليك منها من آثار فنية ، ملكت عليك عقلك وقلبك .. وهذا ما كان من قريش وهي تستمع من القرآن فتأخذها منه روعة ، وتغشاها من تلقائه سطوة .. ثم لا تدري ماذا تقول فيه .. فتقول مرة .. إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة : أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر ،

وهكذا تمضي في تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالا أشبه بهذه الأحوال التي تجدها للشعر ، وللسحر ، وللأخبار الغريبة التي يحدث بها الكهان وأصحاب الأساطير .. وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ اثرا ، وأصدق خبرا ..

ومن أجل هذا اراد بعضهم ان يكيد للنبي ، وهو يدعو قريشا إلى الاسلام ، فجلب قينات يعزفن ويغنين ، ليجذب قريشا إليه ، وليملأ أسماعهم بتلك الألحان والأغاني ، التي استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فما التفت احد إلى هذا

العبث إزاء ما كان يملأ به القرآن الأذان والقلوب من آياته البينات المعجزة ، وفي هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾<sup>(١)</sup> . وحين لم ينفع هذا شيئا من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، حتى لا يخلص منه إلى الأذان ما ينفذ إلى القلوب منه من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصبياني ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهشة والإثارة ، بما لا تستطيع أروع آيات الفن الكلامي ان تبلغ أقل القليل منه .. متفرقة ومجمعة ! ..

وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية في النظم القرآني لها من الإثارة الفنية ما لا يحدثه أروع الملاحم ، وأكثرها إغرابا في الخيال .. حتى لو كانت هذه الأحداث التي يعرضها القرآن تساق مساعق الخير ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتكاك بغيرها من الأحداث .

ثانيا : اذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه ، وما لهذا النظم من روعة أسرة وسلطان قاهر متحكم في العقول والقلوب ، فإن اطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التي جاء بها لا تأباه هذه الأحداث ، بل إنها في هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ولا عرض للأحداث وإنما هي - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة في الأرض الموت !

وإذن فليست الأحداث التي جاء بها القصص القرآني محتاجة إلى شيء جديد من مواد التشويق والإثارة ، تضاف إليها ، لكي تكتسب ألوانا من الإثارة والتأثير .. إذ أنها فو هذا النظم القرآني غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال والجلال .. فكل حسن إلى حسن باهت ، وكل جمال إلى جمالها ما حل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل ! . وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول ...

الأمثال في القرآن :-

هذا ، وهناك امثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهي على امتداد القصص ، من حيث إنها للعبارة والعظة ، كما يقول الله تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون ﴾<sup>(٣)</sup> .

ومع هذا فلم يدخلها القرآن في القصص ولم يعدها منه .

وماذا في هذه التفرقة ؟ :-

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن في كيانه من العناصر المعروفة في القصص ما ليس في غيرها من الحقائق التي تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .

(١) سورة لقمان الآية : ٦

(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦

(٣) سورة الحشر الآية : ٢١

ونعم .. فإن الذى يتأمل القصص القرآنى ، وينظر فى الأحداث والمواقف التى أطلق عليها القصص - يجد أن الحادثة القصصية فى القرآن حادثة متميزة بطابع خاص ، لا نجده فى تلك الأحداث التى تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة .

ففى أحداث القصص القرآنى صور من الصراع بين قوى الخير والشر ، وبين النور والظلام ، والإيمان والشرك .. والهدى والضلال ، كما أن فيها صورا من الحوار والجدل الذى تنشأ عنه ( أزمة ) الحدث أو عقده ، وأخيرا تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو تحل العقدة ..

ثم إن هذه القصص أيضا لا تعدم مشاهدة وجه المرأة كما تعرفها الحياة . فى عقلها وطيشها ، وفى حبها وبغضها ، وفى قوتها وضعفها ..

والمرأة كما نعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما أن الحوار المنتج للأزمات ، والمولد لحلولاها عنصر قوى فيها أيضا . وبهذين العنصرين - الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها - بهذين العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . ( القصة ) ! وهذا وذاك جميعه من واقع الحياة ومن صميمها ..

لم تشبه شائبة توليد ، أو تخيل ( المرجع : القصصى القرآنى فى منطق ومفهومه . للاستاذ عبد الكريم الخطيب )

والآن إلى كلام الله موسى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون ﴾ (١) . أى : اذكر لقومك وقت نداء ربك موسى من جانب الطور الأيمن وقوله له : ائت القوم الظالمين قوم فرعون . الذين عم ظلمهم البلاد والعباد ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وأعجب معى لهذا الموقف الرهيب : موسى عندما خرج من مصر قال : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ (٢) . ولما التقى بشيخ مدين وقص عليه القصص قال : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ (٣) . ولما ناداه ربه من جانب الطور الأيمن قال له : ﴿ ائت القوم الظالمين ﴾ ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾ (٤) .

فانظر إلى مراحل الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، وعاقبته خسران مبین ، وعقابه أليم . قال جلت قدرته : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة

(٤) سورة القصص الآية : ٢٥

(٥) سورة التحريم الآية : ١١

(١) سورة الشعراء الأيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة القصص الايات : ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة القصص الآية : ٢١



يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يتقون ؟ ﴾ أى ألا يتقون الله ؟ ألا يحذرون عقوبته ؟ ألا يخافون عذابه ؟ ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (٢) .  
قوله تعالى : ﴿ قال رب إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا يتطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ (٣) .

هذا تضرع من كلم الله موسى لربه : إني أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى من تكذيبهم ولا يتطلق لسانى بالدعوة من شدة ما يصيبني من التكذيب . فأرسل إلى هارون أى : أرسل جبريل بالوحي لتشد به عضدى ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى . أشد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنيك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت لسؤللك يا موسى ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ (٥) تفسيره في قوله تعالى : ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴾ (٦) وليس الخوف من القتل في حد ذاته ، فالمرسلون يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا . إنما الخوف من أن يقتلوه قبل أن يبلغ رسالات ربه ويؤدى أمانة الدعوة . وقصة القتل هى التى وردت في قوله جل ذكره : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

والخلاصة أن موسى سأل ربه أمرين : أحدهما أن يرسل معه أخاه هارون كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إني أخاف أن يكذبون ﴾ (٧) فاستجاب له ربه . قال تعالى : ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٨) . وقال عز وجل : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ (٩) .

(١) سورة القصص الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢

(٢) سورة الطه الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤

(٤) سورة طه الآيات : ٢٥ - ٣٦

(٥) سورة الشعراء الآية : ١٤

(٦) سورة القصص الآية : ٣٣

(٧) سورة القصص الآية : ٣٤

(٨) سورة القصص الآية : ٣٥

(٩) سورة مريم الآيات : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

والامر الاخر ان يصرف الله عنه شرهم حتى يتمكن من إبلاغ الدعوة فاستجاب له ربه ﴿ قال ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ . قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴿ (١) ﴾ . وفي سورة الشعراء ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ (٢) : والمراد بالآيات المعجزات الباهرات وخوارق العادات كالعصا واليد . ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أن معكم فتيوتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾ (٣) . وما أعظم قوله جل ذكره : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ (٤) . وما أكرم قوله جل ذكره : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٥) . وقوله تعالى : ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل ﴾ (٦) : وإنما جاء بلفظ الرسول مفردا نظرا إلى توحيد دعوتها كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ (٧) فرسل الله جميعا قد عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعا . قال تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ (٨) وقال : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ (٩) وقال : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ (١٠) . وقال : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ (١١) . وقال : ﴿ كذب أصحاب لثيقة المرسلين ﴾ (١٢) . وقد جاء موسى إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ (١٣) . وقال جل شأنه : ﴿ فاتيا فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئتكم بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾ (١٤) .

(٨) سورة الشعراء الآية : ١٠٥

(٩) سورة الشعراء الآية : ١٢٣

(١٠) سورة الشعراء الآية : ١٤١

(١١) سورة الشعراء الآية : ١٦٠

(١٢) سورة الشعراء الآية : ١٧٦

(١٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(١٤) سورة طه الآية : ٤٧

(١) سورة طه الايتان : ٤٥ ، ٤٦

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥

(٣) سورة الأنفال الآية : ١٢

(٤) سورة التوبة الآية : ٤٠

(٥) سورة النحل الآية : ١٢٨

(٦) سورة الشعراء الايتان : ١٦ ، ١٧

(٧) سورة الحاقة الايتان : ٩ ، ١٠

﴿ وكان فرعون قد استعبد بنى إسرائيل وأعمل فيهم القتل فذبح الأبناء واستحيى النساء ، وطفى وبغى وتجاوز كل حد حتى لقد تجاوز حدود العبودية ، فحشر فتادى فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾<sup>(١)</sup> وقال فرعون ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

لقد ظل استعباده لبنى إسرائيل قرونا فأراد ربك ان يرفع عنهم تلك القيود ، وأن يخرجهم عن تلك الأسوار والحدود .

قوله تعالى : ﴿ قال : ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾<sup>(٣)</sup> فى الكلام جل طواها القرآن كما يطوى البرق معصرات الغمام وذلك للعلم بها . وكما قال العلامة ابن مالك :

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندهما

والبلاغة الايجاز كما جاء فى قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وقال الذى نجا منها وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق ﴾<sup>(٤)</sup> . وتقدير الكلام : فأرسلوه فذهب إلى يوسف فى سجنه وجلس معه ثم قال له : يوسف أيها الصديق :

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾<sup>(٥)</sup> أى فذهب وألقى الخطاب فقرأته وقالت : إنى ألقى إلى كتاب كريم .

فقد يطوى القرآن جملا تعلم من سياق الكلام . أى فذهب موسى إلى فرعون واستأذن فى الدخول عليه وأبلغه رسالة ربه فقال فرعون : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾<sup>(٦)</sup> أى أبعد أن ربيناك فى بيوتنا ولم نفتلك فى جملة من قتلنا وأنعمنا عليك بنعمنا ردحا من الزمن تقابل الاحسان بكفران النعمة وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة .

- وقوله ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾<sup>(٧)</sup> أى وقتلت ذلك القبطى الذى وكزته وهو من خواصى فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والاحسان إليك . وخلاصة ما سلف - أنه عدد نعماءه عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه وهو بهذا أيضا قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى وترك أمر التربية لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها فى توجيه الرسالة فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم سواء أكانوا أنعموا

(٥) سورة النمل الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

(٦) سورة الشعراء الآية ١٨

(٧) سورة الشعراء الآية : ١٩

(١) سورة النازعات الآيتان : ٣٣ ، ٣٤

(٢) سورة القصص الآية : ٣٨

(٣) سورة الشعراء الآية : ١٨

(٤) سورة يوسف الآيتان : ٤٥ ، ٤٦

عليه أم لم ينعموا .

﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ <sup>(١)</sup> أى قال موسى مجيباً فرعون : فعلتى هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى . وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكزى تأتى على نفسه فإنى إنما تعمدت الوكر للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

﴿ ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾ <sup>(٢)</sup> أى فخرجت هارباً منكم حين توقعت مكروها يصبنى حين قيل لى ﴿ إن الملائكة يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ <sup>(٣)</sup> فوهب لى ربى علماً بالأشياء على وجه الصواب وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال - إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصوداً لى بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى وإن أنتم أسأتم إلى : فقد أحسن إلى ربى فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال :  
﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ <sup>(٤)</sup> يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبداً ، وتمن من المنة بمعنى الانعام : أى وما أحسنت إلى وريثتى إلا وقد أسأت إلى بنى إسرائيل جملة فجعلتهم عبيداً وخدماء تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة .

وخلاصة ذلك - أيفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت به إلى مجموعهم ؟ فهو ليس بشيء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع ، وكأنه قال : إن هذا ليس بنعمة لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى فكيف تذكر إحسانك إلى على الخصوص وتنسى استعباد الشعب كله .  
وأخذ فرعون يسأل موسى - عليه السلام - ﴿ قال فرعون مارب العالمين ﴾ <sup>(٥)</sup> لأن موسى قال له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ والمراد بالعالمين هنا كل ما سوى الله تعالى مما يعلم به وجود الخالق فكان الجواب ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ <sup>(٦)</sup> أى إن كان عندكم يقين وتصديق فالذى رفع السموات بلا عمد وبسط الأرض وخلق ما بينهما هو الرب المعبود بحق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان .

حتى أريك بديع صنع البارى  
لروائع الآيات والأثار  
تمحو أثيم الشك والانكار

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى  
الأرض حولك والسماء اهترتا  
من شك فيه فنظرة فى خلقه

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢

(٥) سورة الشعراء الآية : ٢٣

(٦) سورة الشعراء الآية : ٢٤

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١

(٣) سورة القصص الآية : ٢٠

قوله تعالى ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ ﴾ أى التفت فرعون إلى الملأ والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلهاً غيرى ؟ ثم زاد موسى وصف إله إيضاحاً وبياناً .  
﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أى قال : إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر في الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر في الأنفس وما فيها من عجيب الصنع فإن التناسل المستمر في النبات والحيوان والانسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر في الآفاق .

ولما لم يستطع رداً لما جاء به أورد ما يشك قومه في حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :  
﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ أى : قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولاً لا نعرفه ولا نفهمه فهو يدعى أن ثمة إلهاً غيرى .  
ثم وصف موسى الإله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان . ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾

أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقاً وتطلع منه الكواكب والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إن فى كل أدلة على أن هناك إلهاً مصوراً صور هذ العوالم كلها وابدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .  
وقد لا ينهم أولاً وعاملهم بالرفق حيث قال لهم : إن كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم واغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر كما حكى سبحانه عنه .

﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ أى قال له : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها وشديد أهوالها وكانت سجنونه أشد من القتل لأنه إذا سجن أحداً لم يخرججه حتى يموت وكان يطرحه فى هوة عميقة تحت الأرض وحده وفى توعده بالسجن ضعف منه ، لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعا شديداً .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهرياً ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .  
﴿ قال أولو جئتكم بشيء مبين ؟ ﴾ أى أتفعل هذا ولو جئتكم بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .  
وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

﴿ قال فات به إن كنت من الصادقين ﴾ في دعوى الرسالة فإن من يدعى النبوة لا بد له من حجة على صدق ما يدعى وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ أى فبعد أن قال له فرعون مقاتله ألقى عصاه فإذا هي ثعبان واضح لا لبس فيه ولا تحييل ولا تمويه وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت في السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون ، فقال : بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت . وقد جاء في آية أخرى ﴿ كأنها جان ﴾ والجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جراء الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم . ﴿ ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أى وأدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي تضيء الوادى من شدة نورها وكأنها فلق قمر . قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع للناظرين لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجة بادر بالكذب والعناد وذكر لأشرف قومه أمورا ثلاثة :  
١ - ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أى قال لرؤساء دولته وأشرف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل البارع في السحر حاذق في الشعوذة ومراذه من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لا من وادى المعجزات . ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

٢ - ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر فيكثر أعوانه وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم .

٣ - ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أى فأشيروا على ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر في مكافحة العدو والتغلب عليه جهد المستطاع .

قال المفتى أبو السعود : بهر سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبده في زعمه ، والامثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أى قالوا : أخر البت في أمرهما ولا تعاجلها بالعقوبة حتى تجمع لها من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ويكون لك النصر والتأييد عليه وتجتذب قلوب الشعب إليك . وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ليجتمع الناس في صعيد واحد وتظهر آيات الله وحببه للناس في وضوح النهار جهرة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملأ : لا تفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة في

أمره وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليهم ، ظنا منهم أنهم إذا أكثروا غلبوه على أمره وتم لفرعون الغلب . فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ أى إن الملاء بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت في أمر موسى وبأن من الخير له أن يجمع السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قوله - رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى ، وأحب أن تقع المناظرة في يوم عيد لهم لتكون بمحضر الجحيم الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله .

﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون في ذلك الميقات لتروا ما سيكون في ذلك اليوم المشهود وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع من موسى الموقع الذى يريده لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة في الاستظهار للمحققين وقهر للمبطلين .

﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى نرجو أن يكون هم الغلبة فنتبعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ .

أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الاحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته . بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . ﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ .

أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم على إبطال ما أدعيه من المعجزات فآلقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حيت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء في سورة طه ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل ما فوقها وأن النصر قد كتب لهم . ﴿ فآلقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون صورته وحالته الأولى بتمويههم وتخيل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء في آية أخرى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ . وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم كما أشار إلى ذلك

سبحانه بقوله :

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴾ أى فخرؤا سجدا لله لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخيل السحرى ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .  
وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا .  
ثم فاهوا بما - يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .  
﴿ قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ أى قالوا : آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .  
وفى هذا إيحاء إلى عزل فرعون عن الربوبية وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهارون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ولكن ذلك لم يجد فى السحرة شيئا ولم يزداهم إلا إيمانا وتسليما إذ كان حجاب الكفر قد انكشف واستبان لهم نور الحق وعلمهم ما جهل قومهم وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .  
﴿ قال آمستم له قبل أن أذن لكم ؟ ﴾ . أى قال لهم : أنؤمنون به قبل أن تستأذنوا وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك ، والا فتفتاتوا على ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؟  
ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ، ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ فأنتم فعلتم ذلك عن مواطاة بينكم وبينه .  
ولاشك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطلان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى افادهم صناعة السحر ؟! ثم توعدهم فقال :  
﴿ فلسوف تعلمون ﴾ وبإل ما فعلتم ، وسوء عاقبة ما اجترحتم ، ثم بين ذلك بقوله .  
﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف وأصلبنكم أجمعين ﴾ أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .  
فأجابوه غير مكثرئين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس ويرد اليقين :

أ - ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أى قالوا لا ضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبأى به ، لأن كل حى لا محالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات غيره تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت على الموت أم وقع الموت على ؟

٢ - ﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟ ﴾ أى ولأنا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما



فعلنا من السحر ، واعتقدناه من الكفر ، من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، واعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

قوله تعالى : ﴿ وَأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون فأرسل فرعون في المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشردمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى :

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا ، وكان خروجه بهم فيها ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع الفجر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كشف القمر تلك الليلة فآله أعلم وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم ، وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على ابن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن ابان بن صالح حدثنا بن فضيل عن يونس بن أبي اسحاق عن ابن أبي بردة عن أبيه عن أبي موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابي فأكرمه فقال له رسول الله ﷺ : ( تعاهدنا ) فأتاه الأعرابي فقال له رسول الله ﷺ : ( ما حاجتك ؟ ) قال : ناقة برحليها وأعتر يحتلبها أهلى ، فقال : ( أعجزت أن تكون مثل عجوز بني إسرائيل ؟ ) فقال له أصحابه وما عجوز بني إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : ( إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببني إسرائيل أضل الطريق فقال لبني إسرائيل ما هذا ؟ فقال له علماء بني إسرائيل نحن نحدثك ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله الا نخرج من مصر حتى نقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأبكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا ما يعلمه إلا عجوز من بني إسرائيل ، فأرسل إليها فقال لها دليني على قبر يوسف ، قالت والله لا أفعل حتى تعطيني حكمتي ، فقال لها وما حكمك ؟ قالت : حكمتي أن أكون معك في الجنة ، فكانه ثقل عليه ذلك فقليل له أعطها حكمها - قال - فانطلقت معهم إلى بحيرة - مستنقع ماء - فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما انضبوه قالت احفروا فلما حفروا واستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار ) .

وهذا حديث غريب جدا والأقرب انه موقف والله أعلم . فلما أصبحوا وليس في ناديم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿ إن هؤلاء ﴾ يعنى بني إسرائيل ﴿ لشردمة قليلون ﴾ أى بطائفة قليلة ﴿ وإنهم لنا لغائظون ﴾ أى كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿ وإنا لجميع حاذرون ﴾ .

أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف ﴿ وإنا لجميع حذرون ﴾ أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن استأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزى في نفسه وجنده بما اراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ﴾ أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الحميم وتركوا لكم المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر في الدنيا ﴿ كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ (١) الآية وقال تعالى : ﴿ ونريد أن نغن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من انه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل ففيه نظر ، وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفي ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذي أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد ادركهم فرعون بجنوده فلماذا قالوا : ﴿ إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ أى لا يصل إليكم شيء مما تحذرون فإن الله سبحانه هو الذي أمرنى ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هارون عليه السلام في المقدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون . وموسى عليه السلام في الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يا نبى الله ههنا أمرك ربك ان تسير ؟ فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق بإذن الله .

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة ابن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شيء والمكون لكل شيء والكائن بعد كل شيء اجعل لنا مخرجاً فأوحى الله إليه (٢) :

(١) سورة الاعراف الآية : ١٣٧

(٢) انظر الدر الثور للسيوطى ٢٩٩ / ٦

﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى ، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبي الله أين أمرك ربك - عز وجل - ؟ قال : أمرني أن أضرب البحر قال : فاضربه ، وقال محمد بن اسحق : أوحى الله - فيما ذكر لي - إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظارا لما امره الله ، وأوحى الله إلى موسى ﴿ ان اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذي اعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد انه جاءه فكناه فقال انفلق على أبا خالد بإذن الله . قال تعالى ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أى كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراساني : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقا . . لكل سبط طريق ، وزاد السدي وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فسار ييسا كوجه الأرض قال الله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقا في البحر ييسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ <sup>(١)</sup> وقال في هذه القصة : ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أى هنالك . قال ابن عباس وعطاء الخراساني وقتادة والسدي ﴿ وأزلفنا ﴾ أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأتينا بهم إليه ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . أى أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل الا هلك ، وروى ابن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي حاتم حدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبي شيبه حدثنا شعبة حدثنا يونس بن أبي اسحاق عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود ان موسى عليه السلام حين أسرى بني إسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فانفرق لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبي الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعنى البحر فأقحم فرسه فسيح به فخرج فقال أين أمرت يا نبي الله ؟

قال : والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى ان اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتنام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم ، وفي رواية إسرائيل عن أبي اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : ( فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون إنظم عليهم البحر فما رثى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أى في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة طه الآية : ٧٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي ٣٠١ / ٦

## نبا إبراهيم

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا مَّا  
 فَنَظَلُّ لَهَا عَافِيَةً ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ  
 ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾  
 أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّ نُهُم عِدْوِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ  
 يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا امْرَأَتِي فَهُوَ يُمْسِكُنِي ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُبَيِّتُنِي  
 ثُمَّ يُحْيِيَنِي ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا  
 وَأَلْخِفْ لِي الْوِصْلَ الْخَلِيقَ ﴿٨٣﴾ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ  
 النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفِرْ لِأَيِّهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ  
 لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْتَقِينَ  
 ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَّتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ آيَنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ  
 يَنْصُرُونَكُم أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ  
 ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ  
 الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ  
 ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ  
 ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

تفسير المفردات

نبا : النبا الخبر المهم .

عاكفين : مقيمين على عبادتها .

خطيئتي : ذنبي

حكما : فهما علما وحكمة ومنه قولهم : الصمت حكم وقليل فاعله

لسان صدق : أى : ثناء حسنا  
وأزلقت الجنة : قربت وأدنت ليدخلوها .  
وبرزت الجحيم : المراد ظهرت جهنم .  
فككبوا فيها : ألقوا فيها ، والككببة الإلقاء على الوجه مرة بعد مرة .  
كرة : رجعة إلى الدنيا  
وتتلخص القصة التى ذكرت فى هذه السورة :  
أ - فى محاجة إبراهيم لأبيه وقومه فى عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد القهار .  
ب - ما ينتظره المؤمنون والكافرون يوم القيامة من أحوال .  
ج - العبرة من القصة .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر فى أول السورة شدة حزنه ﷺ على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون فى ذلك تسلية له وليعلم أنه ليس ببدع فى الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا فقد أتى موسى بياهر المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين إلا النذر اليسير - اردف ذلك بقصص إبراهيم أبى الانبياء ، و خليل الرحمن وكليم الله ، ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد وآلامه كانت أمض ، فهو كان يرى أن أباه وقومه صاثرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم وقد أكثر حجاجهم حتى حجهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهى لا تسمع دعاءهم ( ولا يسمع الصم الدعاء ) ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات الرب الذى ينبغى أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه - ذكر مسألته ودعائه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه ليستغرق فى معرفة ربه ومحبته ، ويصير أقرب شبيها بالملائكة الذين يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به فى دينه ودنياه وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء فى الأثر حكاية عن الله تعالى ﴿ من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ﴾ .  
وبعد أن ذكر أنه لا يتفع فى هذا اليوم مال ولا بنون وإنما يتفع العبد بعده عن الكفر والنفاق - ذكر هنا من وصف هذا اليوم أمورا تبين شديد أهواله ، وعظيم نكاله .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ : إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظّل لها عاكفين - قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو يتفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك

يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴿١﴾ .  
هذا خطاب من العلى العظيم إلى نبيه الكريم محمد - ﷺ - أن يتلو على أمته خبر إبراهيم الخليل  
إمام الخلفاء<sup>(١)</sup> إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى  
صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة  
إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ﴿٢﴾ .

لقد كان لإبراهيم نبأ عظيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه لأن الداعية  
الصادق هو الذى يبدأ بأهله ثم بمن يعول . وهكذا فعل الصادق المعصوم محمد - ﷺ - ( عندما جمع  
أهله وأخذ يخاطب كلا منهم يا عباس عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة محمد  
اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا )<sup>(٣)</sup> . وهو الذى  
قال : ( لو سرت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول لأهله اتقوا الله  
يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم )<sup>(٤)</sup> .  
وقد قال أحد الحكماء :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذى	كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشفى	بالقول منك وينفع التعليم
ولا تنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم

لقد ضرب إبراهيم الشرك فى جبهتيه حطمه وجعله جذا إذا ضربه فى صورة الأفلاك وضربه فى صورة  
الأصنام .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آخراً أتأخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى  
إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي  
فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربى لأكونن

(١) أخرجه الترمذى - كتاب فضائل القرآن ٥ / ١٨٤ رقم ٢٩٢٦

وقال : هذا حديث حسن غريب

(٢) سورة النحل الآيات : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣

(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة

(٤) متفق عليه من حديث عائشة

من القوم ضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا رب هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهي الذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتأججونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شئ علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشأ إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴿١﴾ .

وكذلك ضرب الشرك فى عالم الأوثان والأصنام والتمائيل اقرا معى هذا المشهد القرآنى المهيـب : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وأبائكم فى ضلال مبين . قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بأهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم . قل بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (٢) .

ثم اقرا بعد ذلك هذا المشهد القرآنى الرائع ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٤ ، ٩٠

(٢) سورة الانبياء ٥١ - ٧٣

أى مقيمين على عبادتها ودعائها ﴿ قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ يعنى اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون .

فهم على آثارهم يهرعون .

وتلك أمة التقليد الأعمى التى ألقى القرآن على أهلها باللائمة ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ (٢) .

إن الاسلام حرر العقل من قيود التقليد الأعمى وجعل التفكير فريضة ولذا ذم التقليد وأصحابه من أهل الضلال .

قال إبراهيم لهم ﴿ أفأرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾ (٣) . أى إن كانت هذه الأصنام شيئاً ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدو لها لا أبالى بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى خبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ (٤) الآية وقال هود عليه السلام ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنى ربي على صراط مستقيم ﴾ (٥) . وهكذا تبرأ إبراهيم من آهتهم فقال ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ﴾ (٦) الآية وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ﴾ إلى قوله ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إئنى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٧) . يعنى لا إله إلا الله .

قوله تعالى ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطمعنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمينى ثم يمين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ .

وهكذا يذكر إبراهيم لهؤلاء الضالين أن لهذا الكون إلهاً لا شريك له بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ويؤكد تلك الحقيقة العليا فيقول ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ فيثبت لله تعالى صفة الخلق والايجاد . ﴿ أفأرأيتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت . وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٢ - ٢٥

(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠

(٣) سورة يونس الآية : ٧١

(٤) سورة هود الآيات : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦

(٥) سورة الأنعام الآية : ٨١

(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

(٧) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨



تذكرون . أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتهم تفكهون . . إنا لمغرمون بل نحن محرون . أفرايتم الماء الذى تشربون . أنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرايتم النار التى تورون أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسيح باسم ربك العظيم ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .  
هذا هو الله الخالق البارئ المصور خالق الانسان ومبدع الأكوان ﴿ سيح اسم ربك الأعلى .  
الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾<sup>(٢)</sup> .

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
ياحى يا قيوم أنت المرتجى      وإلى علاك عنا الجبين الساجد .

سبحانك ربى الذى خلقنى فهو يهدين . فلا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أى هو الخالق الذى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجرى على ما قدر له وهو الذى يهذى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقنى ﴾ أى هو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسى كثيرا .

لا تجعلن فليس الرزق بالعجل      الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا      لكنه خلق الإنسان من عجل

وقوله ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى أمرا للمصل أن يقول ﴿ اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾<sup>(٣)</sup> . فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله ادبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾<sup>(٤)</sup> . وكذلك قال إبراهيم ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ أى وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾ أى هو الذى يحيى ويميت لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذى يبدى ويعبد ، ﴿ والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ أى لا يقدر على غفران الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ - ٧٤

(٢) سورة الأعلى الآيات : ١ - ٥

(٣) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧

(٤) سورة الجن الآية : ١٠

هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء .  
 قوله تعالى ﴿ رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين . واجعل لي لسان صدق في الآخرين . واجعلني من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبي إنه كان من الضالين . ولا تخزني يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وهنا يتوجه الخليل إلى رافع السماء بلا عمد يدعوه ويسأله أن يهب له حكما قال ابن عباس : هو العلم وقال عكرمة : هو اللب .

وقيل : الحكم هو الحكمة وهي جماع كل خير فهي العلم الغزيز والحكم والصواب والعمل الموفق قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال في شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 وفي شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
 قوله ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي : اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة .  
 كما قال النبي - ﷺ - عند الاحتضار : « اللهم في الرفيق الأعلى » <sup>(٤)</sup> قالها ثلاثا .  
 وفي الحديث في الدعاء : ﴿ اللهم أحينا مسلمين وأمنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبديلين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ <sup>(٦)</sup> .  
 والمرء مع من أحب فاللهم احشرونا مع هؤلاء الذين أنعمت عليهم واجمع بيننا وبينهم في مستقر رحمتك .

قوله : ﴿ واجعل لي لسان صدق في الآخرين ﴾ أي : اجعل لي ثناء جميلا وذكرنا حسنا بعدى أذكر به ويقتدى بي في الخير كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين ﴾ <sup>(٧)</sup> .  
 قال مجاهد وقتادة : ( واجعل لي لسان صدق في الآخرين ) يعني الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ <sup>(٨)</sup> . وكقوله : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا ﴾ <sup>(٩)</sup> .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٢٢

(٣) سورة القصص الآية : ١٤

(٤) البخاري - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله ١٣٢/٨ ، ١٣٣ مسلم - كتاب السلام - باب استحباب رقية المريض ١٧٢٢/٤

(٥) مسند الامام احمد عن عبد الله الرزقي ٣ / ٤٢٤

(٦) سورة النساء الآية : ٦٩

(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠

(٨) سورة النحل الآية : ١٢٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٢٧

قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة .  
 دقات قلب المرء قائلة له      إن الحياة دقائق وثوان  
 فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها      فالذكر للانسان عمر ثان  
 واصبر على نعم الحياة وبؤسها      فنعم الحياة وبؤسها سيان

قوله تعالى : ﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ وهكذا جمع إبراهيم في دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة حيث طلب الثناء الحسن فى الدنيا وجنة النعيم فى الآخرة وكان عليه السلام كريها فقد دعا للمؤمنين بالمغفرة والرحمة حيث قال : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (١) وهكذا دعاء الصالحين يطلبون من الله خيرى الدنيا والآخرة .  
 ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ﴾ (٢) . وهكذا يحكم الله تعالى لأهل الصلاح والتقوى بأنهم ورثة الفردوس .

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (٣) .

قوله : ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ هو كقوله ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٤) .

وهذا مما رجع عنه إبراهيم - عليه السلام - كما قال تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما يتبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ (٥) وقد قطع تعالى الاحلاف فى استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدأ حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شئ ﴾ (٦)

وقوله ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون ﴾ وهكذا دعاء الصالحين : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانهك . فقنا . عذاب النار . ربنا إنك من

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٤١

(٥) سورة التوبة الآيات : ١١٣ ، ١١٤

(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤١

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٠١

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١٠

تدخل النار فقد أخزيتة وما للظالمين من أنصار . ربنا إنا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴿١﴾ .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يلقي إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة ) ﴿٢﴾ .

قوله : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أى لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله واخلص الدين له والتبرى من الشرك وأهله .

ولذا قال : ﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ وقرأ معنى فى مشاهد القيامة قوله تعالى ﴿ يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبه وأخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيهِ كلا ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الحجيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قتره . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ ﴿٥﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية . ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾ ﴿٦﴾ .

أما أصحاب القلوب السليمة فانهم فى روح وريحان وجنة نعيم ودولة القلوب كلها اسرار لا يملك مفاتيحها الا علام الغيوب .

وللامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - صولات وجولات فى عالم القلوب جاء فى كتابه ( إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ) وتحت عنوان ( فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت ) جاء هذا العلم النافع .

قال رحمه الله تعالى :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها . انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة .

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ - ١٩٤

(٢) البخارى - كتاب الانبياء - باب قول الله تعالى : [ واتخذ الله إبراهيم خليلاً ] ١٦٩/٤

(٣) سورة المعارج الآيات : ١١ - ١٥

(٤) سورة النازعات الآيات : ٣٤ - ٤١

(٥) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٤٢

(٦) سورة الحديد الآية : ١٥

فالقلب الصحيح : هو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به  
كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . والسليم هو السالم  
وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذى قد صارت  
السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير ، وأيضا فانه ضد المريض والسقيم والعليل .  
وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من  
كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خيره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم  
غير رسوله ، فسلم بلا محبة لله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والابانة إليه ،  
والذل له ، وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التى لا  
تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله منه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته  
لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخبارا وخشية وزجاء ، وخلص عمله لله ، فان أحب فى الله وان  
ابغض البغض فى الله وان أعطى أعطى الله وإن منع منع الله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد  
والتحكيم لكل من عدا رسوله - ﷺ - فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الإثتمام والاتكسبه وحده دون كل  
أحد من الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهى العقائد وأقوال اللسان وهى الخبر عما فى القلب وأعمال  
القلب وهى الارادة والمحبة والكرهية وتوابعها أعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقة  
وجله . هو ما جاء به الرسول - ﷺ - فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل . كما قال تعالى :  
﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ (١) .

أى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعلة - وان صغرت -  
الا ينشر لها ديوانيان : لم ؟ وكيف ؟ أى لم فعلت وكيف فعلت ، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه  
وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو  
خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام نحو  
العبودية وطلب التودد والتقرب الى الرب سبحانه وتعالى . وابتغاء الوسيلة إليه .

ومحل هذا السؤال : إنه ، هل كان عليك ان تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك .  
والثانى : سؤال عن متابعة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فى ذلك التعبد أى هل كان ذلك العمل  
ما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص والثانى عن المتابعة فان الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .  
فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص وطريق التخلص من السؤال الثانى  
بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من ارادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع . فهذا حقيقة سلامة  
القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة .

## فصل في القلب الميت

والقلب الثاني : ضد هذا وهو القلب الميت الذي لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبد به بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله . حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه . وإن أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه . فهو أثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه فهو بالفكر في تحصيل الأغراض الدنيوية مغمور ويسكره الهوى وبحب العاجلة مغمور . ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، لا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريده الدنيا تسخطه والهوى يعميه عما سوى الباطل ويعميه فهو في الدنيا كما قيل في ليلي :  
عدو لمن عادت وسلم لأهلها      ومن قربت ليلي أحب وأقربا

مخالصة هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك .

## فصل في القلب المريض

والقلب الثالث : قلب له حياة وبه علة . فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلت عليه منها ، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والاخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحسد على تحصيلها والخبر والكبر والعجب وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعو إلى الله ورسوله والدار الآخرة وداع يدعو إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربها منه بابا وادناهما إليه جوارا . فالقلب الأول حى مخبت لين واع والثاني يابس ميت والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وأما إلى العطش أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (١) .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة . .

قلبين مفتونين وقلبا ناجيا . فالفتنونان : القلب الذى فيه مرض والقلب القاسى . والناجى : القلب

المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .  
وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما  
هى له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليسه وقساوته . وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد  
الشلاء واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، والعين لا تبصر شيئا . وأما بمرض وآفة فيه تمنعه من  
كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد . فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة . فالقلب  
الصحيح السليم : ليس بينة وبين قبول الحق ومحبه وإيثاره سوى إدراكه فهو صحيح الإدراك للحق ،  
تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى : لا يقبله ولا ينقاد له .  
والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق  
بالسليم .

فما يليقه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ وفى القلوب من الشبه والشكوك . فتنة لهذين القلبين .  
وقوة للقلب الحى السليم لأنه يردد ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم أن الحق فى خلافه فيخبت للحق  
ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له ،  
فلا يزال القلب المفتون فى مرية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح فلا يضره ما يليقه الشيطان  
ابدا .

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : ( تعرض الفتن على القلوب كعرض  
الحصير عودا عودا . فأى قلب اشربها نكتت فيه نكتة سوداء . وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة  
بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين . قلب اسود مرباء كالكوز مجخيا . لا يعرف معروفا ولا ينكر  
منكرا ، الا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض )<sup>(١)</sup> فشبّه  
عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئا فشيئا ، وقسم القلوب  
عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب اذا عرضت عليه فتنة اشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنتكت فيه  
نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله : ( كالكوز  
مجخيا ) أى مكبوبا منكوسا ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مثراميان به  
إلى الهلاك : أحدهما :

اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحکم عليه هذا  
المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل  
حقا ، الثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ .  
وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب ابيض قد أشرق فيه نور الايمان . وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها  
وردها ، فإزداد نوره وأشراقه وقوته .

(١) مسلم - كتاب الايمان - باب الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا  
١٢٨ / ١ رقم ١٤٤ ، ومسنّد أحمد ٣٨٦ / ٥

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها ، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغنى والضلال فتن المعاصي والبدع ، فتن الظلم والجهل . فالأولى توجب فساد القصد والارادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة - رضى الله عنهم - القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة ابن اليمان : ( القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمدد مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما )<sup>(١)</sup> .

فقوله ( قلب أجرد ) أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق - و ( فيه سراج يزهر ) وهو مصباح الإيمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغنى ، ويحصل السراج فيه إلى اشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار بالقلب الأغلف إلى قلب الكافر ، لانه داخل في غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكيا عن اليهود :

﴿ وقالوا قلوبنا غلف ﴾<sup>(٢)</sup> وهو جمع أغلف ، وهو الداخل في غلافه ، ككلف وأكلف ، وهذه الغشاوة هي الأكنة التي ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله ، فهي أكنة على القلوب ووقر في الاسماع ، وعمى في الابصار ، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا ﴾<sup>(٣)</sup> . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، وإلى أصحابها على ادبارهم نفورا . وأشار بالقلب المنكوس - وهو المكبوب - إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبوا ﴾<sup>(٤)</sup> . أى نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه . بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة . وهذا شر القلوب وأخبثها ، فهو يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الإيمان ولم يزهر فيه سراج ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب وإليه يرجع .

### في ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء

(٤) سورة النساء الآية : ٨٨

(٥) سورة البقرة الآية : ١٠

(٦) سورة الحج الآية : ٥٣

(١) مسند أحمد ١٧/٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٤٥



إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴿١﴾ أمرهن ألا يملن فى كلامهن ، كما تلىن المرأة المعطية اللبان فى منطقها ، فيطمع الذى فى قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشن فى القول بحيث يلتحق بالفحش ، بل يقلن قولاً معروفاً ، وقال تعالى : ﴿ لئن لم يتنه المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لثغرينك بهم - الآية ﴾ (٢).

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ (٣) ، أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، فذكر سبحانه خمس حكم : فتنة الكافرين . فىكون ذلك زيادة فى كفرهم وضلالهم ، وقوة يقين أهل الكتاب ، فىقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فتقوم الحجة على معاندهم ، وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه . وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به ، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك ، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به . فهذه أربع حكم : فتنة الكفار ، ويقين أهل الكتاب ، وزيادة إيمان المؤمنين ، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب .

والخامسة : حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض ، وعمى قلبه عن المراد بذلك ، فىقول ﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها ، قلب يفتن به كفراً وجحوداً ، وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً ، وقلب يتيقنه ، فتقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى ، فلا يدرى ما يراد به . واليقين وعدم الريب فى هذا الموضع ، إن رجعا إلى شىء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقراً لليقين ومؤكداً له ، ونافياً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائد إلى عموم ما أخبر الرسول به ، لدلالة هذا الخبر الذى لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف هذا الخبر بعد صدق الرسول - ﷺ - ظهرت فائدة ذكره . والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٥) فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغى ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى . والغى مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين . فقال : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٦) ووصف رسوله - ﷺ - خلفاء بضدها فقال : ﴿ عليكم

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٢

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٦٠

(٣) سورة المائدة الآية : ٣١

(٤) سورة يونس الآية ٥٧

(٥) سورة النجم الآيتان : ١ ، ٢

يستقى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ﴿١﴾ وجعل كلامه سبحانه كموعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاما لما فى الصدور ، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بل من داء به ظن انه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (٢)، والأظهر أن (من) وهنا لبيان الجنس ، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين .

#### فصل فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن بخلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى ، لفساد يعرض له ، يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية ، فإما ان يذهب ادراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، وأما أن ينقص إدراكه ، لضعف فى آلات الادراك مع استقامة إدراكه وأما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه ، كما يدرك الخلو مرا ، والخبيث طيبا ، والطيب خبيثا .  
وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الادراك والحركة .

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال : إما فساد فى الكمية وإما فى الكيفية .

فالأول : إما لنقص فى المادة ، فيحتاج إلى زيادتها ، وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصها .  
والثانى : إما بزيادة الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة ، أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك ، ومدار الصحة على حفظ القوة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة : فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض ان يفطر فى رمضان . ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برىء ، حفظا لقوتها عليهما ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، والصوم يضعفها .  
وأما الحمية عن المؤذى : فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل ، إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه .

وأما استفراغ المادة الفاسدة : فإنه سبحانه اباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ،

(١) أخرجه ابو داود - كتاب السنة - باب لزوم السنة ١٣/٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ١٦/١ رقم ٤٢ والبيهقى ١٠/١١٤ وابن حبان ١٠٤/١ رقم ٥

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

فيستفرغ بالخلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت إلى الغرب في معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا ، أو كما قال :

وإذا عرف هذا ، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان وأوراد الطاعات ، وإلى حمية عن المؤذى الضار ، وذلك بإجتنباب الآثام والمعاصي ، وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له ، وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غافر الخطيئات ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، ويفسد به تصوره للحق واداعته له ، فلا يرى الحق حقا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به ارادته له ، فيبغض الحق النافع ، تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة في قوله تعالى :

﴿ في قلوبهم مرض ﴾<sup>(١)</sup> أى شك ، وتارة بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾<sup>(٢)</sup> ، فالأول مرض الشهوة ، والثاني مرض الشهوة .  
والصحة تحفظ بالمثل والشبه ، والمرض يدفع بالضد والخلاف وهو يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده .

ولما كان البدن المريض يؤذيه مالا يؤذى الصحيح : من يسير الحر ، والبرد ، والحركة ، ونحو ذلك ، فكذلك القلب . إذا كان فيه مرض أذاه أدنى شيء : من الشبهة أو الشك ، حيث لا يقوى على دفعها إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوي يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته . وبالجمللة فإذا حدث للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ، مالم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه .

في اقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية ، وشرعية  
مرض القلب نوعان : نوع لا يتألم به صاحبه في الحال ، وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات ، وهذا النوع أعظم النوعين ألما ، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم ، وإلا فالله حاضر فيه حاصل له ، وهو منوار عنه باشتغاله بضده ، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما .  
وعلاجه إلى الرسل واتباعهم . فهم أطباء هذا المرض .

والنوع الثاني : مرض مؤلم له في الحال كآلهم والغم والحزن والغيط وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب . وما يدفع موجبها مع قيامها وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب ويشقى ما يشقى به .

(١) سورة البقرة الآية : ١٠

(٢) سورة الاحزاب الآية : ٣١

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وهذه قد لا توجب وحدها شقاء وعذابه بعد الموت وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الايمانية النبوية فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء ، ولهذا يقال : ( شفى غيظ ) فإذا استولى عليه عدوه آله ذلك فإذا انتصف منه اشتفى قلبه . قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ﴾ (١) فأمر بقتال عدوهم وأعلمهم ان فيه ست فوائد : فالغيظ يؤلم القلب ، ودواؤه في شفاء غيظ ، فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده

مرضا من حيث ظن أنه يشفيه وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخرى أصعب من مرض العشق ، وكذلك الغم والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور ، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه ، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل وأعقب أمراضا هي أصعب وأخطر .

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب ، فمن الناس من يداويه بعلم لا تنفع ، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهي في الحقيقة انما تزيد مرضا إلى مرضه ، لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه ، بسبب جهله بالعلوم النافعة التي هي شرط في صحته وبرئه ، قال النبي - ﷺ - : في الذين افتوا بالجهل ، فهلك المستفتى بفتواهم ( قتلوه ، قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العي السؤال ) (٢) فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم .

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب منه ، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره : وحصل له برد اليقين ، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشد ، وينشرح بالهدى والعلم . قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾ (٣) . والمقصود : ان من أمراض القلب ما يزول بالأدوية الطبيعية ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية والايمانية ، والقلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن .

انتهى المجلد الثاني والخمسون من كتابنا : في رخاب التفسير ويليهِ بمشيئة الله تعالى المجلد الثالث والخمسون مبدوءاً بتلك العبارة :

( في ان حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شرفيه )

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) أخرجه أبو داود - كتاب الطهارة - باب المجروح يتيمم ٢٤٠ / ١ رقم ٣٣٧ وابن ماجه - كتاب الطهارة - باب المجروح تصيبه الجنابة ١ / ١٨٩ رقم ٥٧٢ والحاكم ١ / ١٧٨ وابن حبان رقم ٢٢٠١ واحد ١ / ٣٣٠

(٣) سورة الانعام الآية : ١٢٥

## فصل

فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .  
أصل كل خير ، وسعادة للعبد ، بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره ، فالحياة والنور مادة الخير كله .

قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ؟ (١) .

فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ، ومحبه للحسن ، وبغضه للقيح ، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه ، فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يفرق بين الحسن والقيح كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : ( هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر ) .

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، وكذلك إذا قوى نوره ، وإشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه ، فاستبان حسن الحسن بنوره ، واثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه فقال تعالى :  
﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة ، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله ﷺ - متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضيء وتشرق به .

كما قال تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (٣) .

أى أو من كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ، ووقفناه للإيمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته ، فجعل الكافر - لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه ، وترك الأخير بنصيبه من رضاه ، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته - بمنزلة الميت الذى لا ينفع نفسه بنافعة ، ولا يدفع عنها من مكروه ، فهديناه للإسلام ، وأنعشناه به ، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ، ويعمل فى خلاصها من سخط الله - تعالى - وعقابه ، فابصر الحق

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٥٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢

بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد اعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضيء به ، فيمشي بنوره بين الناس وهم في سدف الظلام .  
كما قيل :

ليلى بوجهك مشرق      وظلامه فى الناس سارى  
الناس فى سدف الظلا      م ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين المائى والنارى لوحيه ولعباده .  
أما الأول : فكما قال فى سورة الرعد : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا وما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ (١) .

فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والاشراق .  
وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فواد كبير يسع ماء كثيرا ، وواد صغير . يسع ماء قليلا .  
كذلك القلوب مشبهة بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، وقلب صغير يسع بقدره ، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحي لها ، وإمازته لما فيها من ذلك بما يحتمله السيل من الزبد .

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد ، والقاء الوادى له ،  
وإنما يستقر فيه الماء الذى به النفع ، وكذلك فى المثل الذى بعده : يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر ويستقر صفوه . .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال فى سورة البقرة ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾ (٢) .

فهذا المثل النارى .

ثم قال : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ﴾ (٣) .

فهذا لمثل المائى والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وخلاصه موقوف على هذين الأصلين .  
قال تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ﴾ (٤) .  
فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والانتذار به إنما يحصل لمن هو حى القلب ، كما قال فى موضع آخر :  
﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ (٥) .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٩

(٤) سورة يس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

(٥) سورة ق من الآية : ٣٧

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٧ ، ١٨

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ (١) .  
 فأخبر سبحانه وتعالى : أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم  
 والايمان ، فعلم أن موت القلب وهلاكه يفقد ذلك .  
 وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور .  
 وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم .  
 فقال الله تعالى : ﴿ ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ (٢) .

ولقد أحسن القائل

وفي الجهل قبل الموت	موت	لأهله
وأجسامهم	قبل	القبور قبور
وأرواحهم في وحشة	من	جسومهم
وليس لهم	حتى	النشور نشور

ولهذا جعل سبحانه : وحيه الذى يلقيه إلى الأنبياء روحا كما قال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره  
 على من يشاء من عباده ﴾ (٣) .  
 في موضعين من كتابه :

وقال سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ (٤) .  
 لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه من قبل وحيه ، وعمل  
 به .

فقال سبحانه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم  
 أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٥) .

فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم  
 ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ (٦) .  
 ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار  
 المتقين ﴾ (٧) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ﴾ (٨) .  
 فبين سبحانه : انه يسعد المحسن باحسانه فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أخبر أنه يشقى المسيء بإساءته  
 فى الدنيا والآخرة .

(٥) سورة النحل الآية : ٩٧

(٦) سورة هود من الآية : ٣

(٧) سورة النحل من الآية : ٣٠

(٨) سورة الزمر من الآية : ١٠

(١) سورة الأنفال من الآية : ٢٤

(٢) سورة فاطر آية : ٢٢

(٣) سورة غافر من الآية : ١٥

(٤) سورة الشورى من الآية : ٥٢

قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) .  
وقد جمع بين النوعين ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ (٢) .  
فأهل الهدى والايمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج .

وقال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ (٣) .  
فأهل الايمان في النور وإنشراح الصدر ، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدر .  
والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .  
\* في أن حياة القلب وصحته لا تحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريدا له ، مؤثرا له على غيره .  
لما كان في القلب قوتان : قوة العلم والتمييز ، وقوة الارادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، ويعود عليه بصلاحه وسعادته ، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق ، ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، وباستعمال قوة الارادة والمحبة في طلب الحق ومحبته ، وإيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه .

وقد أمرنا الله سبحانه - وتعالى - : أن نسأله في صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال ، لأنهم أمة جهل . واليهود أخص بالغضب ، لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هي المنعم عليهم ولهذا قال سفيان بن عيينه : ( من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه ) .  
وفي المسند والترمذى من حديث عدى بن حاتم عن النبي ﷺ - قال : ( اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون ) (٤) .

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع من كتابه ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ (٥) .

فجمع سبحانه بين الاستجابة له والايمان به . ومنها قوله عن رسوله ﷺ - : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ (٦) .

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٣) سورة الزمر من الآية : ٢٢

(٤) انظر سنن الترمذى في ( كتاب تفسير القرآن ) باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ج ٥ ص ٢٠٤ رقم ٢٩٥٤

(٥) سورة البقرة الآية : ١٨٦

(٦) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٧



وقال تعالى : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وألئك هم المفلحون ﴾ (١) .

وقال تعالى في وسط السورة : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة - إلى آخر الآية ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٣) .

فأقسم سبحانه بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرباحة والخسارة ، على أن كل واحد فى خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته . فهذا كماله فى نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك وهو الصبر . فكملى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعى - رحمه الله - : ( لو فكر الناس فى سورة العصر لكففتهم ) وهذا المعنى فى القرآن فى مواضع كثيرة : يخبر سبحانه أن أهل السعادة : هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأن أهل الشقاوة : هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغى أن تعرف أن هاتين القوتين لاتتعطلان فى القلب ، فهو إما استعمل قوته العلمية فى معرفة الحق وإدراكه ، وإما استعملها فى معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإما استعمل قوته الارادية العملية فى العمل به ، وإلا إستعملها فى ضده ، فالانسان حارس همام بالطبع ، كما قال النبى ﷺ - : ( أصدق الأسماء : حارث وهمام ) (١) فالحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد ، فإن النفس متحركة بالارادة ، وحركتها الارادية لها من لوازم ذاتها ، والارادة تستلزم مرادا يكون مصورا لها ، متميزا عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبتة ، وأرادته ولا بد .

\* فى أنه لاسعادة للقلب ، ولا لذة ، ولا نعيم ، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو الهه وفطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

معلوم أن كل حى - سوى الله سبحانه - : من ملك أو إنس أو جن أو حيوان ، هو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولا يتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار ، والمنفعة من جنس النعيم واللذة ، والمضرة من جنس الألم والعذاب .

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٧

(٣) سورة العصر من الآية : ١ - ٣

فلا بد له من أمرين : أحدهما معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذى ينتفع به ويلتذ بإدراكه ، والثانى : معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . وبإزاء ذلك أمران آخران ، أحدهما : مكروه بغضض ضار ، والثانى : معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء : أحدهما أمر هو محبوب مطلوب الوجود . الثانى : أمر مكروه مطلوب العدم . الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب ، الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان ، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها . فإذا تقرر ذلك ، فالله - تعالى - هو الذى يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب . الذى يراد وجهه ، ويبتغى قربه ، ويطلب رضاه ، وهو المعين على حصول ذلك . وعبودية ما سواه والالتفات إليه ، والتعلق به . هو المكروه الضار ، والله هو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه . فهو المعبود المحبوب المراد . وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به : ( أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك )<sup>(١)</sup> .

وقال : ( اللهم إني أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمري إليك ، وأجاثت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك )<sup>(٢)</sup> . فمنه المنجى ، وإليه الملجأ ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذى خلقه بمشيئته . فالأمر كله له ، والحمد كله له ، والمملك كله له ، والخير كله فى يديه ، لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته فى تحقيق معنى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾<sup>(٣)</sup> فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب .

فالأول : من معنى ألوهيته ، والثانى من معنى ربوبيته ، فإن الاله هو الذى تأله القلوب : محبة ، وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما ، وتعظيما ، وذلا ، وخضوعا ، وخوفا ، ورجاء ، وتوكلا ، والرب هو الذى يربى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى مصالحه . فلا إله إلا هو ، ولارب إلا هو . فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك إلهية ما سواه .

وقد جمع الله - سبحانه - بين هذين الأصلين فى مواضع من كتابه كقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله عن نبيه شعيب : ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر الترمذى والنسائى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت نائمة الى جنبى النبى ﷺ - ففقدته من الليل فلمسته فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول : أعوذ برضاك .. الخ .. ورواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) انظر البخارى ومسلم وأبو داود الترمذى

(٣) سورة الفاتحة الآية : ٥

(٤) سورة هود ، من الآية : ١٢٣

(٥) سورة هود ، من الآية : ٨٨

وقوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذة وكيلا ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقوله عن الخنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ <sup>(٣)</sup> فهذه سبعة مواضع تتنظم هذين الأصلين الجامعين لمعنى التوحيد للذين لا سعادة للعبد بدونها البتة .

الوجه الثانى : أن الله - سبحانه وتعالى - : خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمعرفته والانابة إليه ومحبته ، والاخلاص له ، فذكره تطمئن القلوب ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئا هو أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة ، ولم يعطهم فى الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره .

وقد جمع النبى ﷺ - بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والامام أحمد ، وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول الله ﷺ - كان يدعوه : ( اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة العدل والحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا يبيد ، وقرة عين لاتنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين ) <sup>(٤)</sup> .

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه سبحانه . ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم ما يضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال : ( فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ) . ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشدا له ، قال : ( واجعلنا هداة مهتدين ) <sup>(٥)</sup> .

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لاقبله ، فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء إنفسخ ذلك العزم ، سأل الرضى بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه . فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه ﷺ : ( إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله وإن من شقاوة ابن آدم ترك

(١) سورة الفرقان من الآية : ٥٨

(٢) سورة المزمل من الآيتين : ٨ ، ٩

(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٠

(٤) سورة الممتحنة من الآية : ٤

(٥) انظر مسند الامام أحمد - من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان فى ذكر جواز دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢ رقم ١٩٦٨

استخارة الله وسخطه بما قضى الله تعالى (١) .

ولما كانت خشية الله عز وجل رأس كل خير في المشهد والمغيب ، سألته خشيته في الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق في رضاه فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضا رضاه في الباطل ، وسأل الله عز وجل أن يوقفه إلى كلمة الحق في الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : ( لا تكن ممن إذا رضى أدخله رضاه في الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق ) .  
ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحتتين يبتلى الله بهما عبده ، ففى الغنى ييسط يده ، وفى الفقر يقبضها . سأل الله - عز وجل - القصد في الحالين ، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولا تقير .  
ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن ، ونوعا للقلب ، وهو قرة العين ، وكماله بدوامه وإستمراره ، جمع بينهما في قوله ( أسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ) .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمهما قدرا وأجلهما خطرا ، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العقبى ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال : ( زينا بزينة الإيمان ) (٢) .

ولما كان العيش في هذه الدار لا يبرد لأحد كائنا من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ، وعغوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع في هذا الدعاء بين أطيب ما في الدنيا ، وأطيب ما في الآخرة .  
فإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتألّيههم له ، كحاجتهم إليه في حاجتهم إلى تأليهه وعجبه وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الألوهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر ، وقرره أهل الكلام في كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا كما في الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : ( أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما ق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه الا يعذبهم بالنار ) (٣) ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن في ذلك أعظم لذة العبد وسعاده ونعيمه ، فليس في الكائنات شيء غير الله عز وجل يسكن القلب إليه ، ويطمئن به ويأنس به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عبد غيره سبحانه وحصل

(١) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ومسنده أبى اسحاق سعد بن أبى وقاص ح ١ ص ١٦٨

(٢) جزء من حديث رواه الامام أحمد في مسنده من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان في جواز دعاء المرء في الصلاة

بما ليس في كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢

(٣) انظر مسن الامام أحمد من حديث معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦

له به فرع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى : فسد فسادا لا يرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى : وحده أكرم ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ويخافه ، ويتوكل عليه ، وينيب إليه .

الوجه الثالث : إن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه : وحده لا يشرك به شيئا ليس له نظير ، فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه ، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ، لكن بينها فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإله الحق الذى ( لا إله إلا هو ) ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه ، ولا بد له من لقائه ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل ، فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى حال ، وبهذا فى حال ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به هو أعظم أسباب آله ومضرته . وأما إله الحق فلا بد له منه فى كل وقت ، وفى كل حال ، وإينا كان فنفس الايمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الايمان ودلت عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطر والجنان ، لا كما يقوله : من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، ونحس حظه من الاحسان إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل ، كالمعاوضة بالاثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هى مقالات من نقص حظه من معرفة الرحمن ، وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان ، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرّة عين الانسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشأن والله المستعان وعليه التكلان .

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمنا وتبعاً فى بعضها ، لأسباب اقتضته لابد منها ، هى من لوازم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه ، وحقه الذى أوجبه على عباده ، وشرائعه التى شرعها لهم ، هى قرّة العيون ولذة القلوب ، ونعيم الأرواح وسرورها ، وبها شقاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكما لها فى معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم فى الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ (١) .

قال سعيد الخدرى : ( فضل الله : القرآن ورحمته : أن جعلكم من أهله ) وقال هلال بن يسان ( بالاسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة ) .

والتحقيق : أن كلا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله - عليه الصلاة والسلام - فقال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ (١) والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان . ووضع من وضع بعدهما .

فإن قيل : فقد وقع نسبة ذلك تكليفا في القرآن كقوله : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (٢) وقوله : ﴿ لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ (٣) .

قيل : نعم إنما جاء ذلك في جانب النفس ، ولم يسم سبحانه أوامره وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها روحا ونورا ، وشفاء وهدى ورحمة ، وحياة ، وعهدا ، ووصية ، ونحو ذلك . الوجه الرابع : أن أفضل نعيم الآخرة وأعلاها على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب - عز وجل - وسماع خطابه كما في صحيح مسلم عن صهيب - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - ( إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه ) (٤) وفي حديث آخر ( فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه ) فبين عليه - الصلاة والسلام - أنهم مع كمال تبعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه . من مشاهد القيامة

قوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو يفتنونكم أو يتنصرون . فكذبوا فيها وهم الغاؤون . وجنود إبليس أجمعون - قالوا وهم فيها يختصمون بالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنتكون من المؤمنين إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٥) .

هذا إخبار منه تبارك وتعالى عن دار الجزاء في الآخرة ، فالجنة قد أزلفت وقربت وزينت للمتقين الذين خافوا الجليل ، وعملوا بالتنزيل ، ورضوا بالقليل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، إنهم الذين تناديهم الحور العين نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبئد ، طوبى لمن كنا له وكان لنا قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٦)

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٦

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢

(٤) الحديث رواه مسلم في ( كتاب الإيمان ) باب : اثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ج ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١ بلفظ : ( إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم يبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل ) .

(٥) سورة الشعراء من الآية : ٩٠ - ١٠٤

(٦) سورة السجدة الآية : ١٧

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
 وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيس عيش الآخرة  
 قف خاشعا أمام هذا الجلال ، ومتع السمع والبصر بهذا الجمال ، وأملأ القلب روعة بهذا  
 الكمال ، قف أمام هذا المشهد المشرق البسام ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ،  
 عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون  
 الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إننا نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا . إنا  
 نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما  
 صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا مهجيرا ودانية عليهم ظلالها  
 وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة  
 قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسيلا ، ويطوف عليهم  
 ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عليهم ثياب  
 سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء  
 وكان سعيكم مشكورا ﴿ (١) .

وينتقل بنا النظم الكريم من نور الوعد إلى نيران الوعيد ، ومن منازل السعداء إلى درك  
 الأشقياء ، فيقول تبارك اسمه ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴿ أى : سارت الجحيم ظاهرة لمن يرى غير  
 خافية ﴿ هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسح هذا أم أنتم لاتبصرون . اضلوهما فاصبروا أو  
 لاتصبروا سواء عليكم إنما تحزون ما كنتم تعملون ﴿ (٢) إنها منزل لكل من ضل وغوى عن سواء  
 السبيل ، ﴿ إن جهنم كانت مرصدا للطاغين مآبا لاتبين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا  
 حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا .  
 فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴿ (٣) .

القبر باب وكل الناس داخله	يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الاله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر بنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

إن الغاوين الضالين يقال لهم يوم القيامة : ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله ﴿ (٤) ﴿ إنكم  
 وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها  
 خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿ (٥) هل ينصرونكم ؟ إنهم لا يستطيعون ، أو ينتصرون

(٤) سورة الشعراء من الآية : ٩٢ ، ٩٣ .

(٥) سورة الأنبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٢٢

(٢) سورة الطور الآيات : ١٤ - ١٦

(٣) سورة النبا الآيات : ٢١ - ٣٠

لأنفسهم ! إنهم لا يقدرّون ﴿ فكذبوا فيها وهم الغاؤون ﴾ <sup>(١)</sup> والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ <sup>(٢)</sup> كذلك ألقى فيها جنود إبليس ﴿ فلم تغادر منهم أحدا ﴾ وفي لفظ الككببة ما يفيد التدهور والقاء بعضهم على بعض مما يوحى بالازدراء والاستهانة ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ <sup>(٣)</sup>

﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ <sup>(٤)</sup> هذا حديث عن أهل النار وهم فيها ونحو قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ <sup>(٥)</sup> ونحو قوله تعالى : ﴿ قال أدخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أوراها لأولاها ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأوراها فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين . لم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ <sup>(٦)</sup> ثم أقسموا قائلين تالله إن كنا لفي ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾ <sup>(٧)</sup> .

لقد أقسموا بالله بأنهم كانوا في ضلال مبين ( فإن ) هنا مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والتقدير إنه كنا لفي ضلال مبين أى : كان شأننا هكذا في بعد عن الحق واضح ، ثم بينوا وجه ضلالهم فقالوا : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ثم اعترفوا قائلين ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾ <sup>(٨)</sup> ولكن بعد ما فات الأوان وأدرجوا في أكفان القدر ودخلت الشمس في منطقة الكسوف . وذهبت السكره ، وحلت الفكرة ، وانقضت الدنيا ، وانفض السوق ، ربح منه من ربح ، وخسر فيه من خسر ، يقول الامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - : في قوله تعالى : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ان هذه التسوية إنما كانت في الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا في الخلق والقدرة والربوبية وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار ، كقوله ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ <sup>(٩)</sup> .

وأصح القولين : أن المعنى ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدمونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ، ويعظمون أمره .

وقال في طريق المهجرتين : وهذه التسوية لم تكن منهم في الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله - سبحانه - في أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها في المحبة والعبودية

(١) سورة الشعراء الآية : ٩٤

(٢) سورة الشعراء الآية : ٩٥

(٣) سورة الزخرف الآية : ٧٦

(٤) سورة الشعراء الآيات : ٩٦ - ٩٨

(٥) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٤٨

(٦) سورة الأعراف الآيات : ٣٨ - ٤١

(٧) سورة الشعراء الآيات : ٩٧ ، ٩٨

(٨) سورة الشعراء الآية : ٩٩

(٩) سورة الأنعام آية : ١



والتعظيم ، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله .  
فحقيق لمن نصح نفسه ، وأحب سعادتها ونجاتها : أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا ، وتكون  
أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله . فإن الشأن كله فيها ، والمدار كله عليها ، والسؤال يوم  
القيامة عنها .

قال تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾<sup>(١)</sup> قال غير واحد من السلف : هو  
عن قول « لا إله إلا الله » وهذا حق ، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها ، وواجباتها  
ولوآزمها . فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ، ولوآزمها وحقوقها . قال أبو العالية : كلمتان  
يسأل عنهما الأولون والآخرون ( ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ ) .

فالسؤال عما ذا كانوا يعبدون : هو السؤال عنها نفسها . والسؤال عما ذا أجابوا المرسلين : سؤال  
عن الوسيلة والطرق المؤدية إليها هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها ؟ فعاد الأمر كله إليها .  
وأمر هذا شأنه حقيق بأن تبنى عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر .  
ولا يؤخذ بأطراف الأنامل ، ولا يطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الأعظم ، وما سواه إنما يطلب  
على الفضلة . أ هـ .

أما قول أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾<sup>(٢)</sup> فهو كقوله تعالى : ﴿ ما سلككم في  
سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيو  
الدين حتى آتانا اليقين فما تنفعهم شفاع الشافعين ﴾<sup>(٣)</sup> قال بعض المفسرين : أى من الملائكة وكما  
يقولون : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل  
عنهم ما كانوا يفترون ﴾<sup>(٤)</sup> قال تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعه عنده إلا لمن أذن له ﴾<sup>(٥)</sup> وقال سبحانه :  
﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعه ولا هم ينصرون ﴾<sup>(٦)</sup>  
وقال تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعه ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾<sup>(٧)</sup> وقال : ﴿ من ذا الذى  
يشفع عنده إلا باذنه ﴾ ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾<sup>(٨)</sup> فلا شفاعه هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم  
كفار . ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به  
أولئك لهم عذاب اليم . وما لهم من ناصرين ﴾<sup>(٩)</sup> وليس لهم صديق حميم ، أو قريب ، أو ولى أو  
نصير . قال سبحانه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم  
يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بينه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض  
جميعا ثم ينجي . كلا ﴾<sup>(١٠)</sup> .

لقد تمنوا العودة إلى الدنيا فقالوا : ﴿ لو أن لنا كرة فكنون من المؤمنين ﴾<sup>(١١)</sup> ونحوه قوله تعالى :

(٧) سورة البقرة من الآية : ٤٨ ، ٢٥٥

(٨) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨

(٩) سورة آل عمران آية : ٩١

(١٠) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥

(١١) سورة الشعراء الآية : ١٠٢

(١) سورة الحجر الآية : ٩٢

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٠ ، ١٠١

(٣) سورة المدثر الآيات : ٤٢ - ٤٨

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٣

(٥) سورة سبأ من الآية : ٢٣

(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٣

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾ (١) .

لقد سبق في علمه القديم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بداهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (٢) قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية ﴾ (٣) أى فيها سبق من قصة الخليل .

وذكر الوعد والوعيد لعبرة وعظة ولكن هل تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ! قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ (٤) ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ (٥) قوله تعالى : ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٦) العزيز الذى لا يغلب ولا يقهر إن يشأ يستأصلهم بعذاب من عنده ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ (٧) لكنه وسعت رحمته كل شيء ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلا ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٩) وقال سبحانه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليا قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ (١٠) نوح وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١١٠﴾ \* قَالُوا أَنْتُمْ مِّنْ لَّكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عَلِمَىٰ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوَ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا

(١) سورة فاطر الآيات : ٣٦ - ٣٨

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٣) سورة الشعراء من الآية : ١٢١

(٤) سورة القمر الآيات : ٢ - ٥

(٥) سورة الشعراء الآية : ١٢٢

(٦) سورة الشمس الآية : ١٥

(٧) سورة الكهف الآية : ٥٨

(٨) سورة النحل الآية : ٦١

(٩) سورة فاطر الآيات : ٤٤ ، ٤٥

(١٠) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٢٢

بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ  
الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

## تفسير المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكر ويؤنث ، أخوهم : أى : أخوة نسب ، كما  
يقال : يا أخا العرب ، يا أخا تيم ، يريدون يا من هو واحد منهم . الأرذلون : واحداهم أرذل ،  
والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ، لاتضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من  
المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ، فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكمة ، والفلك :  
يستعمل واحدا وجمعا ، المشحون : أى المملوء .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص على رسوله ﷺ - قصص أبيه ابراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم  
إليه من أدلة التوحيد وما حججهم به من الآيات - أردف بقصص رسول من أولى العزم وهو نوح - عليه  
السلام - ، وفيه مالا قاة من قومه من شديد التكذيب لدعوته ، وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان  
وأنة مع طول الدعوة لهم لم يزداهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم  
عن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾ (١) فأغرقهم الطوفان  
ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

## التفسير

هذه قصة شيخ الأنبياء نوح الذى بعث إلى قوم وصفهم نوح لربه قائلا : ﴿ رب إني دعوت  
قومي ليلا ونهارا . فلم يزداهم دعائى إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى  
أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم  
وأسررت لهم إسرارا ﴾ (٢) كم ظل على هذه الحال إقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه  
فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ﴾ (٣) ماذا كان مصيرهم ﴿ فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ وماذا  
كان مصيره والذين آمنوا معه ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ (٤) وماذا كان الهدف ﴿ وجعلناها آية  
للعالمين ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣

(٢) سورة نوح الآيات : ٥ - ٩

(٣) سورة العنكبوت : الآية : ١٤

(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٥

ماذا قال لهم في دعوته ﴿ألا تتقون إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون﴾<sup>(١)</sup> أمر بالتقوى والطاعة فهل في هذا فظاظة أو غلظة أو خسران أو ضرر ، لقد بين لهم أنه رسول أمين مفوض إليه بشرع من الله ، وأمور بتبليغه ، وهو أمين على تبليغ هذا الوحي ، أمين عليهم : إنه أخوهم والرائد لا يكذب أهله ، اقرأ معي مرة ثانية هذه الآيات التي تسيل رقة وعطفا ورحمة ورفقا ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾ ألا تحذرون عقاب الله ، ألا تحافون عذابه ألا تحشون يوما ترجعون فيه إلى الله ، ألا تظنون أنكم مبعثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاتقوا الله الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وأطيعون فيما أمرتكم به ، فأنا لأسألكم على التبليغ اجرا فإن الرسل أصحاب رسالات بعثوا هادين لاجابين ﴿وما أسئلكم عليه من أجر﴾<sup>(٢)</sup> والنكرة هنا في سياق النفي تفيد العموم أى ما أسألكم عليه أى أجر ﴿إن أجرى إلا على رب العالمين﴾<sup>(٣)</sup> فإننا لانلتمس الأجر من أحد غيره ﴿قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله﴾ ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة فقال ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾<sup>(٤)</sup> فانت ترى هنا أن الأمر بالتقوى يملأ الجو عبيرا وأريجا ويتضوع مسكا وطيبا ، لقد قال لهم ﴿إن لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله﴾ فالعز كل العز في وحدانيته ، وطاعته وإفراده بالعبادة ، والذل كل الذل في معصيته وعبادة غيره .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى  
وخير لباس المرء طاعة ربه  
وجميل قول هذا الحكيم :  
إلا إنما التقوى هو العز والكرم  
وحبك للدنيا هو الذل والندم

ثم بما أمرهم اسمع معنى إلى هذا القلب الكبير الذى يرسل أشعته الكاشفة تبدد غياهب الظلمات في قلوبهم ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا﴾<sup>(٥)</sup> ثم يحرك فيهم هذه النفوس التي نامت على هدهة الشهوات بين قسوة العاطفة وغفوة الضمير ﴿ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا﴾<sup>(٦)</sup> فيما ردوا عليه ، ردوا بلسان الكبر وسوء الأدب ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾<sup>(٧)</sup> لقد احتقروا أتباع الأنبياء واستهانوا بهم لفقرهم وقلة مالهم ، وهكذا كان دأب الملأ وسيظل في كل زمان ومكان ، وقد قال الملأ من قريش لرسول الله ﷺ - اطرده هؤلاء الصعاليك من حولك ونحن نؤمن

(١) سورة الشعراء من الآية : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٩

(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٠

(٤) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٤

(٥) سورة الشعراء الآية : ١١١

(٦) سورة الأنعام الآية : ٥٢

(٧) سورة الأنعام من الآية : ٥٤

بك ، وكانوا يقصدون بذلك أمثال عمار وبلال وصهيب وخباب وابن مسعود . فقال له ربه : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ <sup>(١)</sup> بل لقد أوصاه بهم خيرا فقال ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ <sup>(٢)</sup> بل وأمره أن يصبر نفسه معهم ، ونهاه أن يسمع لهؤلاء المستكبرين ، فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فماذا قال نوح لهم ؟ ﴿ وقال وما علمى بما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٤)</sup> فكل إنسان مسئول عما قدمت يده أمام الله ، والمسئولية في الاسلام فردية ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ <sup>(٥)</sup> من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها <sup>(٦)</sup> ﴿ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ <sup>(٧)</sup> ﴿ فقل لى عملى ولكم عملكم ﴾ <sup>(٨)</sup> ﴿ إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون ﴾ <sup>(٩)</sup> فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وجل - جلال الله - إذ يقول ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ <sup>(١٠)</sup> ، وأذ يقول ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

ثم يقول نوح عليه السلام ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ <sup>(١١)</sup> وكيف يطردهم وقد بعث الأنبياء لتجميع القلوب ، وجاءوا بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم . . إن وظيفة الأنبياء دعوة إلى الله ، وهداية العباد ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار المعاندين وسياسة الدنيا بالدين ، لذا قال نوح : ﴿ إن انا إلا نذير مبين ﴾ وقال ﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربى وأتأتى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزددى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ <sup>(١٢)</sup> .

(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١٣

(٨) سورة فاطر من الآية : ١٨

(٩) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(١٠) سورة الشعراء الآية : ١١٤

(١١) سورة الشعراء الآية : ١١٥

(١٢) سورة هود الآيات : ٢٨ - ٣١

(١) سورة الكهف الآية : ٢٨

(٢) سورة الشعراء الآية : ١١٢

(٣) سورة المدثر الآية : ٣٨

(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

(٥) سورة النجم الآية : ٢٨

(٦) سورة يونس الآية : ٤١

وهكذا تسير القافلة والذئاب تعوى ، فينتقل بهم الحديث من الحجة والبرهان الذى يتكلم الأنبياء بها إلى الوعيد والتهديد من قبل أهل الباطل ، ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ (١) : إن لم تنته عما تقوله من الدعوة إلى عبادة إله واحد لنقتلك رجما ﴿ قال نوح رب إنهم عصونوا اتباعوا من لم يزد ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبيرا ، وقالوا لا تذرنا آهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ (٢) .

فبما قابل نوح هذا التهديد ، لقد توجه إلى ربه ﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾ (٣) وكفى بهذه التهمة ثقلا ، وألما ، ولوعة ، وجوى ، فى نفوس الأنبياء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة ، والتبليغ والفظانة ، والعصمة ، ثم يسأل نوح ربه أن يحكم فهو خير الحاكمين . ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ﴾ (٤) يا سريع الحساب ، يا من إذا حكمت عدلت ، فلا معقب لحكمك ، ولأراد لقضائك ، ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾ (٥) وهنا يقول ربك : ﴿ فدع ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحن أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ (٦) ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾ بأهل الايمان ﴿ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾ (٧) وهم أهل الكفر والعصيان ، وهكذا حكم الله . وأرخى الستار على تلك المأساة إن فى ذلك الذى حدث لآية وعبرة . وما كان أكثرهم مؤمنين ، لقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٨) الذى لا يغلب ولا يقهر ومع عزته فهو الرحيم بعباده ، من أقبل ناداه من قريب فأهل ذكره أهل عبادته ، وأهل طاعته أهل محبته ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل معصيته لا يقنطهم من رحمته .

هود عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِى أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوَعِّظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَعَّظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ

(٥) سورة القمر الآيات : ١٠ - ١٤

(٦) سورة الشعراء الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠

(٧) سورة الشعراء الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢

(٨) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ - ١٤٠

(١) سورة الشعراء الآية : ١١٦

(٢) سورة نوح الآيات : ٢١ - ٢٤

(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٧

(٤) سورة الشعراء الآية : ١١٨

﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

تفسير المفردات

عاد : اسم أبي القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو يا بني فلان أو آل فلان ، والريع ( بالفتح والكسر ) المكان المرتفع ، ويقال : كم ريع أرضك أى : ارتفاعها ، آية : أى قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أى تفعلون العبث ، ومالا فائدة فيه ، مصانع : أى قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه ، أى : كأنكم تخلدون والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاقى بلا رافة ولاشفقة أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد . خلق الأولين : أى عادتهم التى كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون نموت ونحيا بلا حساب ولابعث .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه ، أردف هذا قصص هود - عليه السلام - مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى الأعراف ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة ﴾ يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل قريبة من حضر موت متاخمة ببلاد اليمن ، وكانت لهم أرزاق دارة وأموال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله فيهم نبيا منهم يشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويحذرهم نقمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

التفسير

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ (١) .

لكى تعلم مدى ما كان عليه القوم من جيروت فعليك أن تقرأ قوله - عز وجل - : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾ (٢) وحسبك أن تقف أمام ما قالوه ﴿ من أشد منا قوة ؟ ﴾ استفهام انكارى يفيد النفى أى لأحد فى هذا الكون أشد منا قوة ، وجاء الجواب مشعرا بجيروت هؤلاء ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ (٣) لذا كان العقاب ملائما للجرم ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا .

(١) سورة هود الآيات : ٥٩ - ٦٠

(٢) سورة فصلت الآية : ١٥

(٣) سورة فصلت من الآية : ١٥

في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿١﴾ .  
ويوضح هذا الجزء ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية سخرها عليهم  
سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من  
باقية ؟ ﴾ (٢) .

وكانت شدة العذاب ظاهرة في قوله جل شأنه : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا  
عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى  
ونذر ﴾ (٣) .

قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إني لكم رسول أمين .  
فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (٤) جاءت هذه المقالة  
على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته  
فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا في  
تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور ، وأن الأنبياء متزهون عن المطامع الدنيوية لا يأبهون  
بها ، ولا يجعلونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الإيمان أتبعه الانكار بعض ما هم عليه فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية  
تعشون ؟ ﴾ أى أتبنون في كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى ﴿ وتتخذون مصانع  
لعلكم تخلدون ﴾ أى : وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم تخلدون في الدنيا .

روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء - رضى الله عنه - لما رأى ما أحدث المسلمون في غوطة دمشق  
من النبيان ونصب الشجر ، قام في مسجدهم فنادى يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى  
عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ،  
وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون  
فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا  
ملكنا ما بين عدن وعمان خيلا وركابا ، فمن يشتري منى ميراث عاد بدرهمين ؟ (٥) .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	إن السلامة فيها ترك ما فيها
إلا الذى كان قبل الموت بينها	لا دار للمرء بعد الموت يسكنها
وإن بناها بشر خاب بانيها	فإن بناها بخير طاب مسكنه
حتى سقاها بكأس الموت ساقيا	إن الملوك التى كان مسلطنة

(١) سورة فصلت الآية : ١٦

(٢) سورة الحاقة الآيات : ٦ ، ٨

(٣) سورة القمر الآيات : ١٨ - ٢١

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ - ١٢٧

(٥) انظر تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير ج ٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣



ودورنا لخراب الدهر ننبها  
أموالنا لذوى الميراث نجتمعها  
أمت خرابا وأفنى الموت أهليها  
كم فى المدائن فى الآفاق قد بنيت  
من المنية آمال تقويها  
لكل نفس وإن كانت على وجل  
والمرء يبسطها والدهر يطويها  
الدين أولها والعقل ثانيها  
والجود خامسها والفضل سادسها  
والبر سابعها والشكر ثامننا  
ولست أرشد إلا حين أعصيتها  
فالموت لاشك يفينا ويفنيها  
والجار أحسن والرحمن ناشيها  
والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> وهذا إخبار عن أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، جفاة الطباع ، لو وزعت قسوة قلب أحدهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، ثم يأمرهم بتقوى الله والطاعة له ، فيقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : اتقوا الله فلا تخالفوا أمره ، وأطيعوني فأنا لكم ناصح أمين ، ثم يعيد الأمر مرة أخرى فيذكرهم بنعم الله عليهم ، فيقول : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم يفصل ما أجل ويبسط النعم بسطا فيقول ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَاتٍ وَعَيْوْنَ ﴾ <sup>(٤)</sup> أبعد هذه النعم تعصون ، وبعد هذا الكرم تخالفون ، وعلى رب العزة تتمردون ، أنعام تضيق بها شعاب الجبال من إبل وبقر وغنم ، وأبناء أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، وجنات من أعناب ونخيل وفواكه كثيرة منها تأكلون وعيون تجرى بالماء عذبا فراتا سلسيلا ، فماذا قالوا لهذا الناصح الأمين والنبي الكريم : ؟ ﴿ قَالُوا سِوَاهُ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

قالوا هذا بعد ما حذرهم من عذاب الله وقال لهم : ﴿ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ <sup>(٦)</sup> فتأمل الفرق الشاسع بين الموقفين : يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وهم ينكرون هذا اليوم فأى الفريقين أحق بالأمن الذى يخاف عذاب الله ، أم الذى يأمن مكر الله إنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا سِوَاهُ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أى : هون عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدو ، وضرب فى حديد بارد ، فإننا لن نرجع عما نحن عليه ، ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم : ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ، وَمَا نَحْنُ

(١) سورة الشعراء الآية : ١٣٠ ، ١٣٤

(٢) سورة الشعراء الآيات : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) سورة الشعراء الآية : ١٣٥

(١) سورة الشعراء الآية : ١٣٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٣١

(٣) سورة الشعراء : ١٣٢

بمعذبين ﴿١٤١﴾ أى : ما هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا وموت كما ماتوا ، ولابعث ولامعاد ولاثواب ولاعقاب ، ولاجنة ولا نار . ﴿١٤٢﴾ فكذبوه فأهلكناهم ﴿١٤٣﴾ أى : فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : ( ريح عظيمة ذات برد شديد ) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿١٤٤﴾ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴿١٤٥﴾ وقوله : ﴿١٤٦﴾ وأنه أهلك عادا الأولى ﴿١٤٧﴾ ﴿١٤٨﴾ إن فى ذلك لآية ﴿١٤٩﴾ أى : إن فى إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولا - لعبرة ﴿١٥٠﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٥١﴾ أى : وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا . ﴿١٥٢﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿١٥٣﴾ أى : وإن ربك هو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين .

صالح عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنَحُّنُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدْمِينِ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنْ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

تفسير المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر . والهضيم : هو النضيج الرخص اللين اللطيف : والنحت : النجر والبرى ، والنحت : ما ينحت به ، والعزة : النشاط وشدة الفرح . من المسحرين : أى الذين

(١) سورة الفجر الآية : ٦

(٢) سورة النجم الآية : ٥٠

(٣) سورة الشعراء الأيتان : ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٤١ - ١٥٩

سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : ( بالكسر ) النصيب والحظ ، فعقروها : أى : رموها بسهم ، ثم قتلوها .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود - قص قصة صالح وقومه وقد كانوا عربا مثلهم يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى والشام ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش فى رحلة الصيف ، وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا بعد أن اتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ، ولم تبق منهم ديارا ولا نافع نار .

التفسير

هذا إخبار من الله - عز وجل - عن عبده ورسوله صالح - عليه السلام - أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة فدعاهم نبيهم صالح إلى الله - عز وجل - أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوا وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا يتغنى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله - عز وجل - ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال سبحانه :

﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال يوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذى يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ (١) .

يقول لهم : واعظا ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات ، وأثبتت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال لهم : ﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾ قال ابن عباس : إذا رطب واسترخى فهو هضيم . وقال مجاهد : هو الذى إذا ييس تهشم وتفتت وتناثر . وقال عكرمة وقتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم . وقال الحسن البصرى : هو الذى لانوى له .

وقوله تعالى : ﴿ وتنحتون من الجبال يوتا فارهين ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعنى حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد ، ولا منافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة ، فى الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكنها ، وكانوا حاذقين متقين لنحتها ونقشها . ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أى : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ يعنى : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك

والكفر ومخالفة الحق .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين - قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم . ففعلوها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (١) .

يقول تعالى : نخبرنا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح - عليه السلام - حين دعاهم إلى عبادة ربهم - عز وجل - إنهم ﴿ قالوا : إنما أنت من المسحرين ﴾ قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿ من المسحرين ﴾ يعنى : من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا عصفير من هذا الأنام المسحر

يعنى : الذين لهم سحر ، والسحر هو الرثة ، والأظهر في هذا قول لمجاهد وقتادة أنهم يقولون : إنما أنت في قولك هذا مسحور لاعقل لك ، ثم قالوا : ﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ يعنى : فكيف أوحى اليك دوننا ، كما قالوا في الآية الأخرى : ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشتر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر ﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشاء ، وأشاروا إلى صخرة عندهم ، من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبي الله صالح - عليه السلام - فصلى ثم دعا الله - عز وجل - أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عشاء على الصفة التي وصفوها ، فأمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ قال : هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ، ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينما من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، ويتنفعون بلبنها يحلبون منها ما يفيضهم : شربا وريا ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماأوا على قتلها وعقرها . ﴿ ففعلوها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحسبون ، وأصبحوا في ديارهم جائمين . ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

\* لوط وقومه \*

كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

﴿١٦٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٦٦ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦٦  
 ﴿١٦٧﴾ أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٧ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٧ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ١٦٧ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ١٦٨ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٨ فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٦٧ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ١٦٩ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ١٦٩ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ١٧٠ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١٧٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٧٠

تفسير المفردات :

آخرهم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخرى إبراهيم وهما من أرض بابل ، والذكوران : واحداهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون : أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أى : ممن تخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعالهم ، والقل : البغض الشديد ، كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقلية قلى وقلاء ، الغابرين : أى الباقيين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .  
 المناسبة وإجمال المعنى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر بن أخى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سدوم وما حولها من المدائن من بلاد الغور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وإرتكاب ما كانوا قد ابتدعوه من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فأحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ .

﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوه لوط ألا تتقون ؟ إني لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعوا . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١) . تقدم تفسير هذا فى سالف القصص وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخسهم على قبيح ما ابتدعوه ، بقوله : ﴿ أتأتون الذكور من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ أى : أنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعل الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلالا لكم تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم . ﴿ بل أنتم قوم عادون ﴾ أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

بالعدوان وتجاوز الحدود التي تسيغها العقول وتبيحها الشرائع بارتكابكم هذا الجرم الذي لم يخطر ببال أحد ممن قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق ، وانقطعت حجتهم لجأوا إلى التهديد واستعمال القوة : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾ أى : لئن لم تنته عما أنت فيه من إنكارك ما تنكره من أمرنا لتنفيذك من قريننا ، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعنف والعسف ، واحتباس الأموال : ﴿ كما هو شأن الظلمة ، إذا أجلوا بعض من يغيظونهم ، صادروا أملاكهم ﴾ . حينئذ أجابهم بأن إبعاده لا يقف به عن الإنكار عليهم .

﴿ قال إني لعملكم من القالين ﴾ أى : إني برىء مما تعملون ، فبغض له ، لأحبه ولا أرضاه ، ولا يضيرني تهديدكم ولا وعيدكم ، وإنى لراغب فى الخلاص من سوء جواركم . وقال ﴿ من القالين ﴾ دون ( قال ) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه ، كما يقال : فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم ، إذ الأولى تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال : ﴿ رب نجنى وأهلى مما يعملون ﴾ أى رب نجنى من شؤم أعمالهم ، وأبعدنى من عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه واغاثه بعد أن استغاثه قال : ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين ﴾ أى فنجيناه وأهله جميعا مما حل بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم ما نزل ، إلا عجوزا قد بقيت ولم تخرج معه وهى إمرأته كما جاء فى سورة هود : ﴿ إلا امرأتك إنه مصيها ما أصابهم ﴾ وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطا فى الدين ولم تخرج معه . والخلاصة - فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول العذاب بهم ، إلا عجوزا قدر الله بقاءها ، لسوء أفعالها ، وقبح طويتها ، ولما لها من ضلع فى استحسان أفعالهم . ﴿ ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾ أى : ثم أهلكنا الآخرين عن لوط ، فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار . وبش المطر هذا وما أشد وطأته وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا جعل عاليها سافلها .

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ سبق تفسيره تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق إن هذا هو القصص الحق .

كتب الشيخ المراغى : ( رحمه الله تعالى ) تحت عنوان ( إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون ) ويقصد بها قصة لوط - عليه السلام - مع قومه كتب يقول : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل . وأهل بيته ، ولوط

وإبنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزع إليهما من الشمال طلبا للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحل في ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية وبعضهم يقول : إنها قصة واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت ( بحيرة لوط ) وقد قام الدكتور ( أولبرابط ) بمباحث واسعة في وادى نهر الأردن ، وعلى سواحل البحر الميت ، حيث يظن أن سدوم وعموره والثلاث مدن الأخرى كانت فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - انحدر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ، ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة فرأى لوط : حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم .

واختار منطقة وادى الأردن التى كانت فيها سدوم وعمورة ، وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التى فى الشمال ، وضرب خيامه هنالك . وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم ويجواره ( المذبح ) هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين فى ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قربانهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التى كانت فى منطقة الأردن .

وبعض علماء الجيولوجيا ( طبقات الأرض ) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت أهلة بالسكان .

وفى التوراة : إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته فى حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة ، فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة ، واحتفى بهم ، وفى أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم فى شهواتهم البهيمية ، ولا سيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا توا إلى منزل لوط ابن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقدمهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موقعا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط ( صوغر ) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء ، وقلب تلك المدن وجميع ساكنها ، ونظرت امرأة لوط إلى الورا فصارَت عمود مسلح : ( اختنقت بالغازات الكثيرة التى التهبت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو ) .

وفى التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات هيلوجية شبيهة بحادثة ( سدوم وعمورية ) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المجاورة ، فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هى وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها . والخلاصة - إن هذه المدن كانت قاعدة للوك جبارين ، وكانت ذات رياض غناء ، وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتهما ، وشمل أهلها الفساد ، ورتعوا فى شهواتهم البهيمية ولم يبق فيها بر إلا لوط

وأهله ، فانتقم الله منهم ، فأمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فأهلب البراكين النارية التي فيها ، فجعلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن . فسبحانه الله رب العالمين الذي قال في محكم آياته : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه . هدى للمتقين ﴾<sup>(١)</sup> . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾<sup>(٢)</sup> .

يا أمة الاسلام هذا كتاب ربكم من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، وما من يوم ينشق فجره إلا وتؤكد الحقائق العلمية صدقه المطلق ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾<sup>(٣)</sup> .

اقبلوا على هذا القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وأقيموا دولة الاسلام في بيوتكم تقم على أرضكم .

### في التحذير من عمل قوم لوط

يقول الامام الجليل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه الجامع : ( ذم الهوى ) . أخبرنا هبة الله بن محمد الشيباني قال : أنبأنا الحسن بن علي التميمي قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثني أبي قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحق عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ - : ( ملعون ملعون من عمل بعمل قوم لوط )<sup>(٤)</sup> .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جقال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبي قال : حدثنا عبد الرحمن عن زهير ، عن عمرو يعني : ابن أبي عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ - قال : ( لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط )<sup>(٥)</sup> .

أخبرنا محمد بن عبد الباقي البزار قال : أنبأنا محمد بن الحسن بن الغراء قال : أنبأنا علي بن عمر السكري قال : حدثنا حامد بن بلال قال : حدثنا محمد بن عبد الله يعني : البخاري قال : حدثنا يحيى بن النضر قال : حدثنا عمار بن عمر بن الصباح عن مقاتل بن حيان عن أبي الجارود العباسي عن جابر بن عبد الله قال : بلغني حديث في القصاص - وكان صاحب الحديث بمصر - فاشتريت بعيرا وشددت عليه رحلا ، ثم سرت شهرا ، فذكر الحديث إلى أن قال : فلقيت الرجل فقال : سمعت

(١) سورة البقرة الآية : ٢

(٢) سورة الاسراء من الآية : ٩

(٣) سورة فصلت : الآية : ٥٣

(٤) الحديث انظره في نصب الراية للزيلعي : في كتاب الحدود ص ٢٣٨ ج ٣

(٥) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٤٨١ باب لعن الله من ذبح لغير الله وقال : رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي ، وعند النسائي آخره مكررا وروى مسلم نحوه



رسول الله ﷺ - يقول : ( ان أخوف ما أخاف على أمتي من بعدى عمل قوم لوط ، ألا فليرتقب أمتي العذاب إذا كان الرجال بالرجال والنساء بالنساء )<sup>(١)</sup> .

أخبرنا عبد الله بن علي قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا أبو القاسم بن بشر ان قال : حدثنا الأجرى قال : حدثنا أبو مسلم الكشي قال : حدثنا سليمان الشاذكوني .

وأخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا طراد قال : أنبأنا علي بن محمد بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر الجثمي قال : حدثنا عبد الوارث قال : حدثنا القاسم بن عبد الواحد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : ان رسول الله ﷺ - قال : ( إنه أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط )<sup>(٢)</sup> .

أخبرنا المبارك بن علي قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندي قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : حدثنا محمد بن أحمد السلمي قال : حدثنا محمد بن جعفر السامري قال : حدثنا إبراهيم بن الجنيدي قال : حدثنا يوسف بن أبي أمية الثقفي قال : حدثنا عبد الله بن سعد الكندي قال : حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخزومة بن سليمان ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - ( لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها )<sup>(٣)</sup> .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا محمد بن علي بن ميمون قال : أنبأنا علي بن المحسن التنوخي قال : أنبأنا عبد الله بن إبراهيم الزيني قال : أنبأنا محمد بن سفيان الحنائي قال : حدثنا محمد بن عيسى بن حيان قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا أبو زيد محمد بن حسان قال : حدثنا إبراهيم بن يحيى عن ابن أبي ذئب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال النبي ﷺ - : لم يعمل فحل فحلاً حتى كان قوم لوط فإذا علا الفحل الفحل ارتج أو اهتز عرش الرحمن - عز وجل - فاضطربت الملائكة تعظيماً لفعلها فقالوا : يارب ألا تأمر الأرض أن تعزرها وتأمّر الساء أن تحصبها ؟ فقال : إني حلّيم لا يفوتني شيء )<sup>(٤)</sup> .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : أنبأنا أبو محمد الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا الفضل بن دكين قال : حدثنا مسعر عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال : إن الرجل ليأتى الرجل فتصيح الأرض من تحتها ، والسماء من فوقها ، والبيت والسقف كلهم يقولون : أي رب ائذن لنا أن ينطبق بعضنا على بعض فنجعلهم نكالا ، ومعتبراً فيقول الله عز وجل : إنه وسعهم

(١) الحديث في الترغيب والترهيب للمنزدي باب في الترهيب من اللواط ج ٣ ص ٤٧٨ رقم ١ وقال : رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم : وقال صحيح الاسناد

(٢) أخرجه الحاكم في (كتاب الحدود) وقال : صحيح الاسناد

(٣) انظر الترغيب والترهيب للمنزدي باب : لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في دبرها ج ٣ ص ٤٨٥ رقم ١٢ وقال رواه الترمذي ، والنسائي وابن حبان في صحيحه ، وصححه ابن حزم .

(٤) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبي : في الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض ألفاظه وقال المحقق : ذكر السيوطي حديثاً نحو هذا الحديث رآه على ظهر نسخة ابن أبي شيبة بخط مغربي .

حلمى ولن يفوتونى .

أخبرنا عبد الله بن على ومحمد بن أبى منصور قالوا : أنبأنا طراد قال : حدثنا أبو الحسين بن بشران قال : حدثنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خراش قال : حدثنا مسلم ابن قتيبة قال : سمعت سفيان الثورى يقول : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجله يريد الشهوة لكان لواطاً .

### فصل

وأعلم أن المرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل .

أخبرنا عبد الله بن على ، ومحمد بن ناصر قالوا : أنبأنا على بن محمد بن العلاف قال : أنبأنا عبد الملك بن بشران ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى قال : حدثنا عمار بن نصر الخرساني قال : أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن الحراني عن عنبسة بن عبد الرحمن القرشى عن العلاء ، عن مكحول ، عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ﷺ - : ( سحاق النساء زنا بينهن )<sup>(١)</sup> .

### في عقوبة اللوطى في الدنيا

اعلم أن الله - عز وجل - قص علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارهم الفاحشة ، وميلهم إليها ، وشرح عقابه إياهم في الدنيا ، فأطال في ذكر ذلك ما لم يطل في ذكر كفرهم . ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة ، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال ، وقصة القوم في القرآن في مواضع ، وقد عرفنا منها أنه عاقبهم في الدنيا بالرجم والحجارة . وقد رويت في عقوبة اللوطى في الدنيا أحاديث :

أخبرنا عبد الله بن على وابن ناصر قالوا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خدّاش قال : حدثنا عبد العزيز الداوردى قال : حدثنا عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ﷺ - قال فيمن عمل عمل قوم لوط : ( يقتل الفاعل والمفعول به )<sup>(٢)</sup> .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثني أبى قال : حدثنا أبو القاسم ابن أبى الزناد قال : أخبرني ابن أبى حبيبة وداود ابن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - : ( اقتلوا الفاعل والمفعول به في عمل قوم لوط )<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه ابن حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية في كتاب الحدود - باب : السحاق ج ٢ ص ١١٥ رقم ١٨٠٩

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده - مسند ابن عباس ج ١ ص ٣٠٠

(٣) أخرجه أبو داود في الحدود - باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ص ٢٥٧ ج ٢ والترمذى باب : ما جاء في حد اللوطى ص

١٨٨ - ج ١ وعند ابن ماجه في الحدود - باب : من عمل عمل قوم لوط ، ص ١٨٧ ح ٢ وعند الحاكم في الحدود ، ص

٣٥٥ - ج ٢ وقال : صحيح الاسناد

أخبرنا عبد الله بن علي قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الأجرى قال حدثنا أبو بكر بن أبي داود قال : حدثنا الحسن بن الصباح قال : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، وأخبرنا بن ناصر قال أنبأنا عبد القادر بن محمد قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس قال : حدثنا عيسى بن شعيب كلاهما عن عباد بن منصور ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - ( اقتلوا الفاعل والمفعول به )<sup>(١)</sup> .

أخبرنا المبارك بن علي قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندي قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا محمد بن أحمد بن الوليد قال : حدثنا محمد بن جعفر السامري قال : حدثنا علي بن داود القطري قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنا يحيى بن ايوب عن عباد بن كثير أن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل حدثه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - ( من عمل بعمل قوم لوط فاقتلوه )<sup>(٢)</sup> .

قال السامري : وحدثنا أحمد بن ملاعب قال : حدثنا يعقوب بن الزبيرى قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ - ( من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل )<sup>(٣)</sup> .

ذكر ما روى عن أبي بكر الصديق وغيره من الصحابة في ذلك :

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا طراد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر قال : حدثنا عبد العزيز بن أبي حازم ، عن داود بن بكر ، عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - أنه وجد رجلا في بعض الأضاحى ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ﷺ - منهم علي بن أبي طالب فقال ، علي : إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة ، ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ﷺ - أن يحرق بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك<sup>(٤)</sup> .

وبالاسناد قال حدثنا القرشي قال : حدثنا سويد قال : حدثنا ابن أبي زائدة عن ابن أبي ليلى ، عن يزيد بن قيس أن عليا - عليه السلام - رجم لوطيا<sup>(٥)</sup> .

وقد روى عن عمر أنه قال : ( من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه ) .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا علي بن محمد قال : - أنبأنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الأجرى قال : حدثنا ابن مخلد قال : حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى قال :

(١) أخرجه أبو داود في الحدود باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ج ٢ ص ٢٥٧ والحاكم في الحدود ج ٤ ص ٣٥٥

(٢) انظر نصب الراية للزيلعي ج ٣ / ٣٤٠

(٣) أخرجه ابن ماجه في الحدود - باب : من عمل عمل قوم لوط ج ٤ ص ٣٥٥

(٤) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب الأقوال في حد اللوطي ج ٣ ص ٤٨٣ رقم ١٠

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في (كتاب الحدود) ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٨٨ في اللوطي حد كحد الزاني وقال : أخرجه الزيلعي في

قصة الراية ج ٣ ص ٣٤١ وقال : أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٨ / ٢٣٢

حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا غسان بن مضر ، عن سعيد بن يزيد قال : سئل ابن عباس ما حد اللوطي ؟ قال : ينظر أعلى بيت في القرية فيرمى منكسا ثم يتبع بالحجارة<sup>(١)</sup> .  
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس بن يزيد قال : حدثنا غسان قال : حدثنا أبو مسلمة عن أبي نضرة قال : سئل ابن عباس عن حد اللوطي قال : ينظر إلى أعلى بناء في القرية فيرمى به منكوسا ثم يتبع بالحجارة<sup>(٢)</sup> .

### ذكر كلام التابعين ومن بعدهم في ذلك :

أخبرنا المبارك بن علي قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر الخرائطي قال : حدثنا علي بن حرب قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبي قال : اللوطي ( يرمج أحصن أو لم يحصن )<sup>(٣)</sup> .  
 وبالإسناد قال : حدثنا الخرائطي قال : وحدثنا أحمد بن منصور الرمادي قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا إبراهيم بن سعد قال : حدثنا صالح بن كيسان ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب قال : ( على اللوطي الرجم أحصن أو لم يحصن )<sup>(٤)</sup> .  
 قال : وحدثنا عباس الدوري قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال حدثنا سفيان عن حماد عن إبراهيم قال : ( حد اللوطي حد الزاني )<sup>(٥)</sup> .

قال سفيان : وحدثنا حماد ، عن قتادة ، عن جابر بن زيد في اللوطي يرمج .  
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الحسن بن علي الجوهري قال : حدثنا محمد بن المظفر الحافظ قال : حدثنا الهيثم بن خلف الدوري قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن النضر قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال حدثنا محمد بن بشر عن سفيان عن ابن أبي نجيج ، عن عطاء قال : ( حد اللوطي حد الزاني ) وعن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال : ( اللوطي حده حد الزاني ان أحصن رجم وإلا جلد )<sup>(٦)</sup> .

وبه قال الهيثم : وحدثنا عبد الرحمن بن منصور قال : قال معاذ بن هشام : وحدثني أبي عن قتادة ، عن الحسن أنه قال في الرجل خالط الرجل : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن كان لم يحصن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (في كتاب الحدود) باب في اللوطي حد كحد الزاني ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦ وقال : أخرجه الزيلعي في نصب الراية ج ٣ / ٣٤٢ وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢  
 (٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢ (في كتاب الحدود) باب ما جاء في حد اللوطي وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في (كتاب الحدود) باب في اللوطي حد كحد الزاني ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦  
 (٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه في (كتاب الحدود) باب : حد كحد الزاني ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩٠ وقال المحقق : أورده ابن حزم في المحل ١١ / ٤٦٧ من الشعبي .  
 (٤) انظر البيهقي في السنن الكبرى في (كتاب الحدود) باب : ما جاء في حد اللوطي ج ٨ ص ٢٣٢  
 (٥) أخرجه ابن أبي شيبة في (كتاب الحدود) باب اللوطي حد كحد الزاني ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩١ وقال المحقق : أخرجه عبد الرازق في مصنفه في باب من عمل عمل قوم لوط رقم ١٣٤٨٧  
 (٦) انظر السنن الكبرى للبيهقي في (كتاب الحدود) باب : ما جاء في حد اللوطي ج ٨ ص ٢٣٣

جلد ونفى ) وقال معاذ : وحديثي أبي عن قتادة ، عن جابر بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن معمر .  
أنهما قالا : عليه الرجم إن كان أحسن وإن لم يحسن .  
قال قتادة : وقول الحسن أعجب إلى .

وقال قتادة : وكان الحسن يقول في الرجل يخالط البهيمة : إن كان أحسن جلد ورجم ، وإن لم  
يحسن جلد ونفى .

وبالاسناد عن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن سعيد الكندي قال : حدثنا حماد بن خالد ، عن  
مالك بن أنس ، عن الزهري قال : يرمم إن أحسن أو لم يحسن ، وكذلك قال ربيعة وابن هرمز  
ومالك : يرمم أحسن أو لم يحسن ، وقال الزهري سنة ماضية .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن علي قالا : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا ابن بشران قال : حدثنا  
الأجري قال : حدثنا عبد الله بن العباس الطيالسي قال : حدثنا إسحاق الكوسج قال : قلت لأحمد بن  
حنبل : أيرجم اللوطي أحسن أو لم يحسن ؟ قال : يرمم أحسن أو لم يحسن . وقال إسحاق بن  
راهوية : كما قال أحمد .

وقد روى عن أحمد أن حد اللوطي كحد الزاني يختلف بالثبوت والبكارة وهذا قول أبي يوسف  
ومحمد .

وعن الشافعي كالروايتين عن أحمد .

وقال الحكم : يضرب اللوطي دون الحد ، وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وقال النخعي : لو كان أحد ينبغي أن يرمم مرتين لكان ينبغي للوطي أن يرمم مرتين .  
أخبرتنا شاهدة بنت أحمد قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا عبد العزيز بن علي  
قال : أنبأنا علي بن جعفر الصوفي قال : سمعت الموازيني يقول : قال لي رجل من الحجاج : مررت  
بديار قوم لوط فأخذت حجرا مما رجوا به فطرحت في مغللة ودخلت مصر فنزلت في بعض الدور في  
الطبقة الوسطى ، وكان في سفلى الدار حدث فأخرجت الحجر من خرجي ووضعت في روزنة ( الكوة )  
في البيت فدعا الحدث الذي كان في السفلى صبييا إلى عنده واجتمع معه فسقط الحجر على الحدث من  
الروزنة فقتله ) .

أخبرتنا شاهدة قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن محمد ابن عثمان بن مكي  
قال : أخبرني جدى أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن حمد قال : أنبأنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء  
المغزي قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحليم يقول : سمعنا يونس بن عبد الأعلى  
يقول : خرجت حاجا إلى مكة ، فلما كان ليلة عرفات رأى الامام الذي حج بنا تلك الليلة مناما فلما  
صرنا إلى مكة بعد انقضاء الحج سمعنا مناديا ينادى فوق الحجر أنصتوا يا معشر الحجاج ، فأنصت  
الخلق فقال : يا معشر الحجيج إن إمامكم رأى أن الله - عز وجل - قد غفر لكل من وافى العام البيت إلا  
رجلا واحدا فإنه فسق بغلام .

في ذكر عقوبة اللوطي في الآخرة

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : : أنبأنا أبو محمد الخلال قال :

حدثنا العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن أبي عبد الله الشعرائي قال : حدثنا داود بن المحبر ، عن أبي عائشة السعدي ، عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة وابن عباس قالا : ( خطبنا رسول الله ﷺ - فقال في خطبته : ) من نكح امرأة في دبرها ، أو غلاما أو رجلا حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة ينادى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ، ولا يقبل منه صرفا ولا عدلا ، ويجعل في تابوت من النار ، ويسمر عليه بمسامير من حديد من نار ، فتستل تلك المسامير في وجهه وفي جسده )<sup>(١)</sup> .

قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

أخبرنا عمر بن هدية الصواف قال : أنبأنا علي بن أحمد بن بيان قال : أنبأنا أبو الحسن بن مخلد قال : أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار قال : أنبأنا الحسن بن عرفة قال : حدثني علي بن ثابت الجزري ، عن مسلم بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس ابن مالك عن النبي ﷺ - قال : سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولا يجمعهم مع العاملين ، يدخلون النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن خمر ، والضارب أبويه حتى يستغيثا ، والمؤذي جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره )<sup>(٢)</sup> .

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن يونس قال : حدثنا محمد بن حيان قال : أنبأنا روح بن مسافر ، عن حماد عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - ( اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا )<sup>(٣)</sup> .

أخبرنا أبو منصور بن عبد الرحمن القزاز قال : أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت قال : أخبرني أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد القاضي قال : حدثنا مسلم بن عيسى قال : حدثنا أبي قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن سهيل ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ - ( من مات من أمتي يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم )<sup>(٤)</sup> .

أخبرنا عبد الله بن علي ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسن بن بشران قال : حدثنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا سويد بن سعيد قال : حدثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال : لو أن الذي عمل ذلك العمل -

(١) ذكر صدر الحديث في تحفة الأحوذ بشرح جامع الترمذي في باب ما جاء في كراهية إتيان النساء في أدبارهن ج ٤ ص ٣٣٩ رقم ١١٧٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر كتاب الكباير للشيخ شمس الدين الذهبي - باب الكبيرة الحادية عشرة اللوط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض الفاظه والحديث في كنز العمال للمفتي الهندي باب : الترهيب السباعي من الاكمال ج ١٦ ص ٩٠ ، ٩١ رقم ٤٤٠٤٠ وقال : رواه البيهقي في شعب الايمان والحسن بن عرفة في جزئه عن أنس .

(٣) انظر اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩

(٤) انظر الخطيب البغدادي في تاريخه ج ١١ ص ١٦٠ رقم ٥٨٥٣ في ترجمة عيسى بن مسلم الصفار وفي كشف الخفاء ج ٢ ص ٣٨٧ رقم ٢٦٢١ وقال : رواه الديلمي بلا سند مرفوعا عن أنس وحكاه ابن وقيع فيما أسنده ابن عساكر عنه

يعنى : عمل قوم لوط - لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة في الأرض لم يزل نجسا<sup>(١)</sup> .  
 أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهري قال : حدثنا  
 محمد بن المظفر قال : أنبأنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباد بن الوليد الغنوي قال : سمعت إبراهيم  
 ابن شماس يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : لو ان لوطيا اغتسل بكل قطرة من السماء لقي  
 الله غير طاهر<sup>(٢)</sup> .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد  
 الهاشمي قال : حدثنا علي بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا أبو أيوب  
 ابن سليمان ، عن طلحة بن زيد ، عن برد بن سنان ، عن أبي المنيب ، عن عبد الله بن عمرو قال :  
 (يحشر اللوطيون يوم القيامة في صورة القردة والخنازير)<sup>(٣)</sup> .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس الهاشمي  
 قال : حدثنا محمد بن يحيى الأزدي قال : حدثنا أحمد بن نصير قال : حدثنا سعدان بن عمرو المعافري  
 عن أبي الصهباء ، عن سعيد بن جببر ، عن ابن عباس قال : من خرج من الدنيا على حال خرج من  
 قبره على تلك الحال حتى إن اللوطي يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رؤوس الخلائق  
 يوم القيامة .

قصة شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ \* أَوفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولَى ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(١) انظر الآلاء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٩ وقال : أخرجه البيهقي في شعب الإيمان  
 انظره في التعليق على الحديث السابق

(٢) انظر كتاب الكباير لشمس الدين الذهبي في الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف في بعض ألفاظه قال  
 المحقق : ذكره ابن الجوزي في الموضوعات مرفوعا .

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ - ١٩١

## تفسير المفردات

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا .

من المسحرين/ : أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لهم .  
والقسطاس : الميزان .

والمستقيم : أى العدل . ولا تعثوا : أى لا تفسدوا .  
والجبلية : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ويضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة .  
كسفا : واحدها كسفة كقطة ( وزنا ومعنى ) .  
والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

## المناسبة واجمال المعنى

قص الله تعالى : علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحههم بإيفاء الكيل والميزان ، وألا يعثوا فى الأرض فسادا ، فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد ، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من غيرها ، فيخرجون ، ثم أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحتقروا جميعا .

## التفسير

سبحانك ربى ما أعذلك لاتعجل كعجلة أحدنا وإنما تلى للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنها ليإمام مبين ﴾ .  
هذا خطيب الأنبياء شعيب على نبينا وعليه - الصلاة والسلام - يرسله ربه إلى أصحاب الأيكة ، وكانوا قوما يعبدون المال ويخسرون الميزان والمكيال ، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان .  
قوله تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ <sup>(١)</sup> .  
هذا ديدن أهل الباطل تكذيب يقابله من الأنبياء منطق العدالة والحق ، والانبيا الذين ارسلوا إلى أقوامهم كان منطقهم ألا تتقون ؟ ويقول كل منهم إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . .  
أمين على وحى السماء ، أمين على هدايتكم ، وإرشادكم ، فاتقوا الله واحذروا عقابه ، واطيعون فيما أبلغكم عن الله ، فانا صاحب رسالة لأسألكم على التبليغ أجرا ، وأصحاب الرسالات يتجردون عن طلب الأجر لأنهم يبتغون ما عند الله ، والله خير وأبقى ، هذا منطق المرسلين ، ولقد قال شعيب :  
مثلبا قال اخوانه الأنبياء ، ثم توجه إلى القوم آمرا وناهيا .  
﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أى : إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ، ولا تبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم ، فخذوا كما لو كان البيع لكم .



وخلاصة ذلك - خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون .  
﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ أى : وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء فى سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثهم ليوم عظيم ﴾ .  
ثم عمم النهى عن البخس فى كل حق فقال : ﴿ ولا تبسخوا الناس أشياءهم ﴾ أى : ولا تنقصوا الناس حقهم فى كيل أو وزن أو غيرهما ، كالمذروعات والمعدودات ، كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير ، وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد فى الأرض بجميع ضروبه وأشكاله فقال : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى : ولا تكثرُوا فيها الفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق ، والسلب والنهب ، ونحوها وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال : ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للإصلاح فى الأرض ، وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا ، كقوم هود الذين قالوا : من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا .

( ١ ) ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أى : ما أنت ألا ممن سحر عقله مرة بعد أخرى فصار كلامه جزافا لا يعبر عن حقيقة ولا يصيب هدف الحق .

﴿ وما أنت إلا بشر مثنا ﴾ فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا أيضا .

ثم أكدوا هذا الإنكار بقولهم :

﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أى : ولما نعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول : ولم يرسلك

الله نبيا إلينا .

( ٢ ) ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أى فإن كنت صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا - إلى أن قالوا - أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ (١) وقوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢) .

فأجابهم شعيب :

﴿ قال رب أعلم بما تعملون ﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى

( ١ ) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ - ٩٢

( ٢ ) سورة الأنفال الآية : ٣٢

أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء نفسى ، ولا أدعى القدرة على عذابكم .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ أى : وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من الساء فجعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولا ماء ولا شراب ، فاضطروا إلى أن يخرجوا إلى البرية ، فأظلمتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا كلهم تحتها فأمطرتهم شواظا من نار فاحترقوا .

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : إن فى ذلك الانجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور لدلالة واضحة على صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين ، مع أنك قد أتيتهم بما لا يكون معه شك لما يصحبه من الدليل والبرهان .  
﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ أى : وإن ربك هو العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

( تنبيه ) :

جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فإن النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم هى مثل النتائج التى حصل عليها النبى ﷺ - ولم يكن حين نزولها ذا شوك ولا ذا قوة ، وإن ما أصيب به من التكذيب والأذى ، وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين ، نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .  
منطق الحق والعدل

وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٦﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٧﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٨﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠٠﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَؤُهُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٠١﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٢٠٢﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٣﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٥﴾ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٦﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٧﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٨﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٩﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٠﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿٢١١﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢١٢﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢١٣﴾ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٤﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٥﴾ إِنَّهُمْ عَنْ

الَسَّمْعَ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ  
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ  
عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرِنُّكَ حِينَ  
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلِبُكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَنْبِئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ  
تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾  
وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا  
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ  
بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

## تفسير المفردات

- الروح الأمين : هو جبريل - عليه السلام - ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين .  
وحيه تعالى : وموصله إلى من شاء من عباده .  
على قلبك : أى على روحك ، لأنه المدرك والمكلف دون الجسد .  
الزبر : الكتب ، واحداها زبرة كصحف وصفحة .  
الآية : الدليل والبرهان .  
الأعجمين : واحداهم أعجمى ، وهو من لا يقدر على التكلم بالعربية .  
سلكناه : أى أدخلناه .  
المجرمين : مشركى قريش .  
بغته : فجأة .  
منظرون : أى مؤخرون .  
ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم وما ينبغي لهم أى : ما ييسر ولا يتسنى لهم ، وما يستطيعون :  
أى ما يقدرون على ذلك لمعزولون : أى لمنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .  
أنبئكم : أى أخبركم . والآفك : كثير الافك والكذب .  
الاثيم : كثير الذنوب والفجور .  
يلقون السمع : أى يصغون أشد الاصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره  
الكذب .  
الغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

الوادي : الشعب ، يهيمنون : أى يسرون سير البهائم حائرين لايهتدون إلى شيء .  
المنقلب : المرجع .

\* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص ، وبين مدار بين الأنبياء وأقوامهم من الججاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر في العاقبة لرسله المتقين ، فإن سنته في كل صراع بين الحق والباطل أن تزول دولة الباطل ، ويتصر الحق وإن طال الزمن ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ﴾ (١) .

وفي ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له ، بأنه مهما أودى من قومه ولقى منهم من الشدائد ، فإن النصر والفوز له ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ (٢) .

أردف هذا بيان أن هذا القرآن الذي جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل - عليه السلام - بلسان عربى مبين ، لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين ، وأن ذكره في الكتب المتقدمة الماثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيباً في ملته يبشر به كما قال : ﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ (٣) وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره في كتبهم كما قال : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل ﴾ (٤) .

وكما أن الأعجمين إذا قرء عليهم لم يدروا منه شيئاً ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لا يؤمنون به كفراً وعناداً حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لا يشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذ ؟ ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ (٥) .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوماً إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين . ثم رد على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد ﷺ - تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة - بأن الشياطين من سجايهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة في السماء ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهاباً مدة إنزال القرآن على رسوله ﷺ - فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ (٦) .

ويعد أن بالغ سبحانه في تسليته رسوله ﷺ - وأقام الحجة على نبوته ، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه - أردف ذلك أمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ، ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم

(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٧

(٥) سورة غافر : آية : ٨٥

(٦) سورة الجن الآيتان : ٨ ، ٩

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٦٢

(٣) سورة الصف آية : ٦

ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .  
 روى البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : لما أنزل الله : ﴿ وأنذر عشيرتك  
 الأقربين ﴾ أتى النبي ﷺ - الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل  
 يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ - ( يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهد ، يا  
 بنى لؤى ، أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ قالوا نعم ،  
 قال : فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبأ لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا  
 لهذا ؟ ) وأنزل الله تعالى : ﴿ تبث يدا أبي لهب وتب ﴾ <sup>(١)</sup> .

ويعد أن أبان سبحانه امتناع الشياطين بالقرآن ، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين - أعقب هذا  
 بيان استحالة تنزله على رسول الله ﷺ - ، فإنها لا تنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق  
 أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيهم وهو تخيلات لا تطابق الحق  
 والواقع .

ويعدن ذكر أن محمدا ﷺ - ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون في كل واد من أودية القول من  
 مدح وهجو وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لا تترجم عن حقيقة ، وليس بينهما وبين  
 الصدق نسب ، ومحمد ﷺ - لا يقول إلا الصدق فأنى له أن يكون شاعرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من  
 المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن القرآن العظيم ، فهو تنزيل من حكيم حميد ، ونحو ذلك  
 قوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من  
 الله العزيز الحكيم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله جل وعز : ﴿ تنزيل من  
 الرحمن الرحيم ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله تبارك وتعالى :

﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ <sup>(٦)</sup>  
 ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ جبريل - عليه السلام - ونحوه قوله تعالى : ﴿ قل من كان عدوا

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في مسنده - مسند ابن عباس : ٣٠٧/١ ورواه البخارى ، تفسير سورة (تبث يدا أبي لهب وتب) :  
 ٢٢١ ، ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ١٤٠/٦ . ومسلم ، كتاب الايمان ، باب في قوله تعالى : ( وأنذر عشيرتك  
 الأقربين ) : ١٣٤/١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (تبث) الحديث ٢ ، ٣٤ : ٢٩٦/٩ - ٢٩٨ وقال الترمذى : ( هذا حديث  
 حسن صحيح ) .

(٢) سورة السجدة آية : ٢

(٣) سورة الأحقاف آية : ٢

(٤) سورة غافر آية : ٢

(٥) سورة فصلت آية : ٢

(٦) سورة فصلت من الآية ٤١ ، ٤٣

لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴿١﴾ .  
 ونحوه أيضا : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ ﴿٢﴾ .  
 ونحوه قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون .  
 تنزيل من رب العالمين ﴾ ﴿٣﴾ .  
 وقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ ﴿٤﴾ .

وسمى جبريل الروح ، لأنه يروح ويغدو بين الله ورسله ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين على الوحي لا يزيد ولا ينقص ، وما هو على الغيب بضنين : وهكذا كان جبريل من بين ملاكة الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء .

﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أى على قلب رسول الله ﷺ - لانذار البغاة المعاندين .  
 ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ ﴿٥﴾ .  
 ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير  
 وبشير ﴾ ﴿٦﴾ . ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك جرح منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ ﴿٧﴾ .  
 ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ بلسان عربى مبين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ﴿٩﴾ وقوله :  
 ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ ﴿١٠﴾ وقوله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم  
 يعلمون ﴾ ﴿١١﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه  
 أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ ﴿١٢﴾ .

\* نزول القرآن الكريم \*

نزل القرآن مفرقا ، وفي أوقات متباعدة وتاريخه هو تاريخ الرسالة المحمدية ، ومدته هى مدتها ،  
 أو قريبا من ذلك .

وقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى :  
 ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ ﴿١٣﴾ .  
 وقال ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ ﴿١٤﴾ .  
 وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة  
 مباركة ﴾ ﴿١٥﴾ .

- (٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥  
 (٩) سورة يوسف آية : ٢٠  
 (١٠) سورة الزخرف آية : ٣  
 (١١) سورة فصلت آية : ٣٠  
 (١٢) سورة النحل آية : ١٠٣  
 (١٣) سورة البقرة من الآية : ١٨٥  
 (١٤) سورة القدر الآية : ١  
 (١٥) سورة الدخان الآية : ٣

- (١) سورة البقرة آية : ٩٧  
 (٢) سورة التكوين الآية : ٢٠  
 (٣) سورة الحاقة الآيات : ٤١ - ٤٢  
 (٤) سورة النجم آية : ٥  
 (٥) سورة يس ، الآيتان : ٦٩ ، ٧٠  
 (٦) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢  
 (٧) سورة الأعراف آية : ٢

ورمضان مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة ، فقد جاء في مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( أنزلت صحف ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان )<sup>(١)</sup> .  
ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت : أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة . فيكون إنزاله في ليلة خمس وعشرين .

وهذه الكتب المنزلة ماعدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذى نزل عليه جملة واحدة . وأما القرآن المجيد : فمعلوم أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا من حين رسالته إلى قرب وفاته ، بيد أن ظاهر هذه الآيات يدل على أنه نزل كله جملة واحدة في ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهو أيضا ظاهر حديث واثله السابق . وهذا يثير في النفس تساؤلا . كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقينا من أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا في اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريبا ، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم في سورة الفرقان : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول : إن الذى أنزل في ليلة القدر إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾<sup>(٣)</sup> فيكون قوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ معناه شهر رمضان الذى ابتدئ فيه إنزال القرآن . وقوله : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ معناه إنا ابتدأنا إنزاله .

وهذا الجواب ليس بسديد ، لأن فيه حمل الآيات على غير ظاهرها . والجواب السديد هو ما أجاب به ابن عباس في آثار صحيحة مروية عنه نكتفى منها بما يلي :  
أولا : أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ( فصل القرآن من الذكر ، فوضع في بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ - ومعنى قوله : ( فصل القرآن من الذكر ) أن الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلا من اللوح المحفوظ ، ثم أنزلوا ما كتبوه إلى مكان في السماء الدنيا يسمى بيت العزة .

ثانيا : أخرج النسائي والحاكم والبيهقي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : ( أنزل

(١) مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع ج ٤ ص ١٠٧ وفي الدر المنثور في التفسير المأثور لجلال الدين السيوطي ج ١ ص ٤٥١ في الجزء الثانى أخرجه أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم والطبرانى والبيهقى في شعب الايمان والأصبهانى في الترغيب عن واثله بن الأسقع .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٢

(٣) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٤) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٣ وقال الحاكم : صحيح الاسناد

القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد في عشرين سنة<sup>(١)</sup> . وقوله ( في عشرين سنة ) فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو سنتان وخمسة أشهر تقريبا .  
ثالثا : - أخرج ابن مردويه والبيهقي وابن أبي حاتم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه سأل عطاء بن الأسود ، فقال : ( وقع في قلبى الشك )<sup>(٢)</sup> قول الله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ وقوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾ وقوله :

﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ وقد أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس - رضى الله عنهما - إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر ، وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام وقوله : ( وقع فى قلبى الشك ) .

لا يقصد به حقيقة الشك فإن القرآن لا يشك فيه مسلم ، وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذى يبدو لأول وهلة يثير فى النفس حيرة عن الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لا ريب فيه .  
وقوله : ( أنزل على مواقع النجوم ) معناه أنه أنزل مفرقا على مثل مساقط النجوم فإن النجوم تسقط أمام الأنظار فى أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضا .

وقوله : ( رسلا ) بكسر الراء - معناه ( تؤده ) أى فى زمن طويل . ولا شك أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى موضع مخصوص فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة - لا يقوله ابن عباس - رضى الله عنهما - اجتهدا ، ولا تخمينا ، فإنه من علم الغيب الذى لا يطلع الله عليه إلا رسوله ﷺ .  
وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فإنه لا يعارض نزوله الحسى فى التاريخ المذكور ، أى : ابتداء نزوله على الرسول ﷺ - مفرقا ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان ، غيبى وحسى وتاريخهما واحد .

ويتساءل العلامة الزركشى عن السر فى هذا النزول ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : ( فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لأمره ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لتنزله عليهم ) .

وقد بين الله تعالى : حكمة نزول القرآن مفرقا لاجملة واحدة فى موضعين فى الكتاب العزيز .  
الموضع الأول : قوله تعالى فى سورة الاسراء : ﴿ وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ .

( ١ ) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرک ( فى كتاب التفسير ) باب : أنزل القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر الى السماء الدنيا ج ٢ ص ٢٢ وقال الحاكم : حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرجه الامام النسائى والبيهقى عن ابن عباس .  
( ٢ ) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى فى الجزء الأول ص ٤٥٦ قال : وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم ، والطبرانى وابن مردويه والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن مقسم قال : سأل عطاء بن الأسود ، ابن عباس فقال : وذكر الحديث .



الموضع الثاني : قوله تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ .

وصدر آية سورة الاسراء ﴿ وقرأنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة وهى أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدرج وتخليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدرج أيضا وآخرها ﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾ .

يرشدك إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة ، وهى الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى : وليس من قول البشر ، فإنه مع نزوله مفرقا حسب الحوادث ، وإعجازه بهذا الترتيب الزمنى كان الرسول ﷺ - يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى : بعد آية كذا ، من سورة كذا ، فكان ترتبه فى التلاوة غير ترتيبه فى النزول وكان مع ذلك متناسبا أعظم التناسب ، بل معجزا للخلق جميعا أن يأتوا بمثله ، فهذا إعجاز متكرر مرتين .

أولاهما : بترتيبه فى التلاوة آيات وسورا طوالا وقصارا وأوساطا والآية الأولى من آيتى ( الفرقان ) : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ .

ترشد إلى حكمة ثالثة ، وهى تثبيت قلب الرسول ﷺ - بتجدد الوحي ، ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانسراح الصدر مع ما فى ذلك من تيسر الحفظ ، وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الاتيان بمثله كلما تحداهم .

والآية الكريمة الثانية من آيتى الفرقان : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ ترشد إلى حكمة رابعة ، وهى مساقرة الحوادث بإجابة السائلين ، وبيان حكم الله تعالى : فى الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأول ، وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للإسلام والمسلمين .

وكان أول ما نزل هو وقوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما تفيده السنة الصحيحة ، ففى البخارى عن عائشة قالت : ( أول ما بدئ به رسول الله ﷺ - من الوحي الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده ... الحديث (١) .

(١) انظر تفسير القرطبي - سورة العلق ج ٢٠ ص ١٠٨ وفى مسلم الرؤيا الصادقة كما جاء فى نهاية الحديث . وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحي) ٣ - باب ج ١ ص ٢٣

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر : ( أول ما نزل من القرآن سورة المدثر )<sup>(١)</sup> وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحي التي تلت النزول الأول .

والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها وهى عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهري عن أبي سلمة ، عن جابر أن النبي ﷺ - قال : وهو يحدث عن فترة الوحي :

( بينما أنا أمشي ، إذا سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، زاد مسلم فذرُونى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله : والرجز فاهجر ﴾<sup>(٢)</sup> فحمى الوحي وتتابع فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التي فى حديث عائشة ، وأن التي فى حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحي لا يكون إلا بعد وحى سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتوح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا أيها المدثر .

وإذا كانت أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ كما ثبت لدينا بالدليل القاطع ، فإن آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : ﴿ واثقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾<sup>(٣)</sup> . أخرجه النسائي وابن مردويه والطبري عن ابن عباس .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم فى الاسلام ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ، ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه ، المقترضة لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .

وقد نزل القرآن بأرقى صور الوحي . إذ ورد فى القرآن أن الله تعالى يكلم الناس فى صور ثلاث قال تعالى :

﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾<sup>(٤)</sup> .

فأول صورة لكلام الله - سبحانه وتعالى - للانسان ، هى الايحاء ، ومعناه الاشارة السريعة تلقى فى روح الانسان ، وفى هذه الحالة يتكلم الأنبياء وغيرهم من المتقين بنفث من روح القدس ، فيلقى فى نفس الموحى إليه فكرة تشع فى روعه بنور خاطف كأنه البرق ، ولا يكون الأيحاء فى هذه الصورة مصاغا بكلام ، بل يكون خطرة تخطر بالبال لا يسبقها تفكير وتجلي بها شكوك .

(١) انظر الحديث فى تفسير القرطبي - تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٠

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحي) ٣- باب ج ١ ص ٢٧ رقم ٤

(٣) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٢ ص ١١٦ قال : وأخرج أبو عبيد وعبيد بن حميد وابن مردويه والبيهقي فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت من القرآن على النبي ﷺ - ﴿ واثقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ .

(٤) سورة الشورى من الآية : ٥١

وثاني صورة لكلام الله - سبحانه وتعالى - للانسان : هي الكلام من وراء حجاب . وثالث صورة لكلام الله للانسان : الحالة التي يرسل الله - سبحانه وتعالى - بها كلاما منه يحمله ملك رسول إلى الموحى إليه .

وهذه الصورة هي أعلى مراتب التنزيل حيث اختص الله - سبحانه وتعالى - بها أنبياء ورسله دون سواهم لتبليغ رسالاته إلى الناس ، وأما صورتان الأوليان : الإيحاء والكلام من وراء حجاب ، فتقل مرتبتهما عن الصورة الثالثة ويشارك فيها الأنبياء ومن عداهم ممن سلكوا نهجهم من عباد الله المتقين . وأما الرسل فقد أمرهم الله بأن يبلغوا رسالاته إلى الناس وينذروهم بها ، وذلك لتجنبيهم مواطن الضلال ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم المفضي إلى نجاتهم وإسعادهم ، ورسالة هذه غايتها تكون أشد شأنا مما عداها ، ويكلم الله فيها رسوله بأعلى صور الكلام مرتبة ، فلا تكون فكرة عابرة ، ولا كلاما يسمعه الرسول وينطق به بنفث من روح القدس ، بل يرسل الله تعالى : كلاما يحمله روح القدس إلى الرسول ، ويسمى كلام الله هذا الوحي المتلو ، وبه نزل القرآن كله بدون استثناء . فالقرآن وحي متلو على النبي نزل به الروح الأمين على قلب النبي بكلام عربي مبين وبأرقى صور الوحي .

وهناك صور أخرى للوحي فقد ورد أن النبي كان يرى قبل نزول القرآن الرؤيا الصادقة ( إن أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصادقة فكان رسول الله لا يرى رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح ) . ويتبع هذه الصورة من الوحي ما ورد من أن رسول الله ﷺ - كان يسمع أصواتا خفية ، وهذه الصورة يعبر عنها بالوحي الخفي يوحى بها الله إلى الرسول .

وتختلف حالة الانسان أثناء تلقي الوحي باختلاف صوره . ففي القسمين الأولين تعترى الانسان حالة غير عادية ، سواء أناه الإيحاء في وقت النوم أو اليقظة ، ولا يحدث تغيير بين في الموحى إليه ، وأما في الصورة الثالثة : وهي التي اختص الله بها أنبياء ورسله فتتغير حالة الموحى إليه تغييرا كبيرا ، فينتقل معها من عالم إلى آخر ، ولا يزال الموحى إليه يقظا تمام اليقظة غير مصروع ولا غائب عن وعيه ، شاعرا بوطأة الوحي ويستطيع من حوله من الناس أن يشاهدوا هذا التغير المحسوس أثناء الوحي ، عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ - فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال الرسول : أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وبهاتين الحالتين : نزل القرآن على الرسول ﷺ - ، ففي كليهما كان الرسول يرى جبريل ، وفي كليهما كان جبريل ينقل كلام الله إليه فيفصم عنه فيعي ما يقول ، ولا فرق بين الحالتين سوى أنه في إحدهما كان جبريل يظهر على صورة رجل ينقل كلام الله بصوت هاديء لين ، وأما في الحالة الثانية

فكان الوحي يأتي كصلصلة الجرس - أى : أن جبريل كان ينقل كلام الله بصوت قوى شديد . وكان الوحي على هذا أشد وطأة على الرسول - ﷺ - من الحالة السابقة ، وكان الحامل لكلام الله تعالى : في كلتا الحالتين جبريل - عليه السلام - وكان الرسول الكريم وقت نزول الوحي ينتقل - كما ذكرنا من عالم إلى آخر ، وكان يبلغ منه الجهد مبلغا كبيرا حتى كان جبينه يتصبب عرقا في أشد أيام البرد .

وسواء أظهر جبريل - عليه السلام - في صورة رجل أم لا ، وسواء أبلغت الرسالة في صوت هادئ لين أم في صوت قوى شديد ، فإنه لا ريب في أن الموحى به كان كلاما من الله يحمله جبريل إلى الرسول - ﷺ - ونزل القرآن جميعه بهذه الصيغة منجما على الرسول بواسطة جبريل . وقد كان الرسول يتلقى التنزيل بصورتيه وهو جالس مع أصحابه أحيانا ، ويستخلص من ذلك أن الرسول كان يرى جبريل ويسمع منه التنزيل .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات في قصة الافك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة ، وصح نزول جملة ﴿ غير أولى الضرر ﴾ وحدها وهى بعض آية .

والحكمة في نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى في أن يتمكن النبى - ﷺ - من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونها .

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة : وهى كل القرآن تقريبا . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب ، وكان هو سببا في نزوله ، فقد روى عنه أنه قال : وافقت ربي في ثلاث قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ .

وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله نساؤه في الغيرة فقلت لهن : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا مكن ﴾ فنزلت كذلك . (١) .

وفي رواية أخرى : أنه لما نزلت الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ قال عمر بن الخطاب قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت الآية كما نطق عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

وفي طبقات ابن سعد عن الواقدي : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ) .

ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : ( وما محمد إلا رسول ) ثم قتل فسقط اللواء .

قال محمد بن شر حبيب وما نزلت هذه الآية ( وما محمد إلا رسول ) يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .  
 وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله ﴿ غير أولى الضرر ﴾ وكذلك قوله تعالى : (١) .  
 ﴿ وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ بعد قوله تعالى :  
 ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (٢) .

كانت الآيات التشريعية وهى آيات الأحكام تنزل على الرسول ﷺ - فى الغالب جوابا لحوادث فى المجتمع الاسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن ، وأحيانا كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلاً ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة .

ولنضرب أمثلة لكل من هذين القسمين :

١ - أرسل رسول الله ﷺ - مرثداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوماً مسلمين مستضعفين ، فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه ، وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفاً من الله ، ثم أقبلت عليه تريد زواجه ، فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ﷺ - فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله ﷺ - وطلب إجازة ذلك النكاح فنزل قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٣) .

٢ - ورد فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم من ذلك قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس وإثمها أكبر من نفعها ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تفكرون فى الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ (٤) ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ (٥) .

﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد

(١) انظر الحديث فى القرطبى فى تفسير سورة النساء آية : ٩٥ ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٨

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٢١

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١٩ ، ٢٢٠

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٢٢

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴿٤﴾ .  
 وفى سورة النساء : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ ﴿٥﴾ .  
 إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التى أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة ، وقلما نرى حكما لم يذكر له المفسرون حادثا أنزل الحكم مرتبا عليه ولسعة زمن نزول القرآن واختلاف أماكنه نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها ( مكية ) أو ( مدنية ) : نسبة إلى مكة وهى المهد الأول للدعوة الإسلامية ، وإلى المدينة وهى مستقر هذه الدعوة . كما قد ينسب منه شىء إلى غير هاتين المدينتين هى أشهر نسبة وإليها وجهت العناية ببيان المكي والمدنى من آى القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك .

وقد ذكر السيوطى اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين المكي والمدنى ، قال : اعلم أن للناس فى المكي والمدنى اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

١ - أن المكي ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار .

أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى بن سدم قال :

ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى - ﷺ - المدينة فهو مكي ، وما نزل على النبى - ﷺ - فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدنى وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكي اصطلاحا .

٢ - أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الوساطة . فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكي ولا مدنى ، وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام : ( وقيل فى تفسير الشام : إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح ) .  
 قال السيوطى : ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل ببنى وعرفات والحديبية . وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

٣ - أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكي والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبى - ﷺ - فى ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت (٣) .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٧

(٢) سورة النساء من الآية : ١٧٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير فى مقدمته ج ١ ص ١٢ فقد ذكر الحديث وقال المحقق : رواه ابن جرير الطبرى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود .

وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ، فقال : نزلت في سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع .

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكي من المدني ، وهذه الضوابط هي من قبيل الاحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء في مصحف عثمان بن عفان .

أولا : إن آيات المكي على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية وشاهد ذلك أن السور تزيد قليلا على ٣٠ / ١١ من القرآن وعدد آياتها ١٤٥٦ أى : أنها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته . ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء قد سمع كله مدني وعدد آياته ١٣٧ وجزء تبارك مكي وعدد آياته ٤٣١ ، وجزء عم مكي وعدد آياته ٥٧٠ .

ومن ذلك الأنفال والشعراء كلتاها نصف جزء من القرآن ، لكن الأولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية المكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبى ، فقد يوجد في بعض الآيات المكية طول وأكثره في السور الطوال .

ثانيا : - خطاب الجمهور في الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقلما يرد بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ وأما خطابه في الآيات المكية

فبالعكس ، ولم نر في السور المكية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

أما في السور المدنية فورد يا أيها الناس سبع مرات .

١ - يا أيها الناس اعبدوا ربكم .

٢ - يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا . كلتاها ( بالبقرة ) .

٣ - يا أيها الناس اتقوا ربكم .

٤ - إن يشأ يذهبكم أيها الناس .

٥ - يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم .

٦ - يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم ( بالنساء ) .

٧ - يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ( بالحجرات ) .

ثالثا : آيات المكي ليس فيها شيء من التشريع التفصيلي ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى

المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى : وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من

عذابه ، ووصف يوم الدين وأحواله ونعيمه ، والحث على مكارم الأخلاق التي بعث رسول الله ﷺ -

ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبيأؤها .

أما التشريع التفصيلي فمعظمه وارد في الآيات المدنية .

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ

الحوادث التي عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الأذهان . وقد بدأت عناية

الأقدمين المبكرة بالتأليف في أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعا من أنواع الدراسات القرآنية التي

سموا مجموعتها ( علوم القرآن ) واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها .

كما وضعت الكتب المفردة في تلك الأسباب ، مثل كتاب ( الباب المنقول ، في أسباب النزول ) للسيوطي وغير ذلك من كتب في أسباب النزول .

وقالوا : ( لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، ويحثوا عن عللها .

كما قدروا ما قد يقع من وهم الراوي للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم ، ( كأن تتلى الآية عند الحادثة فيهم الراوي فيقول : فنزل عند ذلك كذا ) وبهذه الدقة يجب النظر في أسباب النزول فهنا للقرآن المجيد .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ (١) .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملته بالبشارة بأحمد ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ (٢) والزبر ههنا هي الكتب وهي جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود ، وقال الله تعالى :

﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ (٣) .

أى مكتوب عليهم في صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ (٤) أى أو ليس مكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول فهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ - ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن . منهم ، كعبد الله بن سلام والفارسي عمن أدركه منهم ، ومن شاكلهم .

قال الله تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى ﴾ (٥) ثم قال تعالى : نخبرنا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لايؤمنون به ، ولهذا قال : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ (٦) كما أخبر عنهم في الآية الأخرى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ﴾ (٩) .

انتهى بمشيئة الله تعالى : المجلد الثالث والخمسون من كتابنا في رحاب التفسير ويليهِ إن شاء الله المجلد الرابع والخمسون مبدوءاً بقوله تعالى : ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين ﴾ .

(١) سورة الشعراء الآية : ١٩٦

(٢) سورة الصف آية : ٦

(٣) سورة القمر آية : ٥٢

(٤) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٥) سورة الاعراف آية : ١٥٧

(٦) سورة الشعراء الآية : ١٩٨

(٧) سورة الحجر آية : ١٤

(٨) سورة الأنعام آية : ١١١

(٩) سورة يونس آية : ٩٦



## بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم . فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون . أفعذابنا يستعجلون . أفرأيت إن متعنهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وما أهلكتنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - انه أدخل التكذيب والكفر والعناد في قلوب هؤلاء الجاحدين جزاء ما وقفوا من الحق موقف الإنكار . والمجرمون في كل زمان ومكان يقفون للحق بالمرصاد ، قال - تعالى - ﴿إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١) وقال - جلّت قدرته - ﴿ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (٢)

وقال - تبارك اسمه - : ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾ (٣)

ثم يقول - سبحانه - : ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾  
 أى : لا يصدقون بالحق ولا يوقنون به ، وستظل حالهم هكذا إلى أن يروا العذاب الأليم ، حيث لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا ﴾ (٤)  
 قال - تعالى - : ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٥)  
 وقال - تعالى - : ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ الآية ﴿وقد عصيت قبل وكنت من الكافرين . فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ (٦)

إن هؤلاء الناس لا تقبل منهم معذرة ، قال - تعالى - : ﴿ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ (٧)

يقول - تعالى - عن العذاب النازل بهم ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وكفى ببغته العذاب من عذاب ! ! وكفى بنعمة الأمن للمؤمنين من نعمة ، كيف حال هؤلاء عند نزول العذاب بهم بغتة ؟ قال - تعالى - : ﴿فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أى : آخر هذا العذاب عنا ، كما قال - سبحانه - : ﴿وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين

(٥) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .

(٦) الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ من سورة يونس .

(٧) من الآية ٥١ ، والآية ٥٢ من سورة غافر .

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

(٤) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .

لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴿١﴾

قوله - تعالى - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾

هذا تهديد ووعد تنخلع من هوله القلوب وتنفطر من شدته الأفتدة ، لقد كانوا يستعجلون العذاب استهزاء ويقولون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿٢﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴿٣﴾

وقال - سبحانه - ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ﴾ ﴿٤﴾ وقال - تبارك اسمه - : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات ﴾ ﴿٥﴾

وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ ﴿٦﴾

وقال أصدق القائلين : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول : ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ ﴾ ﴿٧﴾

وقال أصدق القائلين : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ﴾ ﴿٨﴾

قوله - تعالى - : ﴿ أفرايت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان - وإن طال - ثم جاءهم أمر الله أى شئ يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ ﴿٩﴾ وقال - تعالى - : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾ ﴿١٠﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ ﴿١١﴾ ولهذا قال - تعالى - : ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾

وفى الحديث الصحيح : ( يؤق بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل رأيت نعيماً قط ؟ فيقول : لا والله يارب : ويؤق بأشد الناس بؤساً كان فى الدنيا فيصبغ فى

(١) الآية ٤٤ من سورة ابراهيم

(٢) من الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الملك

(٤) الآية ١١ من سورة الاسراء

(٥) من الآية ٦ من سورة الرعد .

(٦) الآية ١١ من سورة يونس .

(٧) الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٨) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة المعارج .

(٩) الآية ٤٦ من سورة النازعات

(١٠) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(١١) الآية رقم ١١ من سورة الليل .

الجنة صبغة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا والله يارب (١) أى : ما كان شيئا كان ، ولهذا كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يتمثل بهذا البيت .

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى أنت تطلب  
قال - سبحانه - ﴿ وأما من أوقى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حساييه . ياليتها كانت القاضية : ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ (٢)

قوله - تعالى - : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ونحوه قوله - تعالى - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ (٣)

وقال - سبحانه - ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٤)

وقال - سبحانه - : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ (٥)  
وقال : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾ (٦)  
قوله - جل شأنه - : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾

هذا إخبار منه - تبارك وتعالى - عن حفظ القرآن من كل شيء خلافة ، كما أن في ذلك إخبارا عن سلامة القرآن وعصمته من كل خطأ ، وفي ذلك تحقيق لوعده الله في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٧) وفي قوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وذلك لثلاثة وجوه  
أولها : قوله - تعالى - : ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لأنه معجز ولأنهم أهل فساد ، والقرآن نور ، وهدى ، والشياطين ظلمات وضلال .

والوجه الثانى : قوله - تعالى - : ﴿ وما يستطيعون ﴾ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهرا ﴾ (٨)

والوجه الثالث : في قوله - تعالى - : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وهذا الوجه قد بينه - عز وجل - في قوله حكاية عن الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾ (٩) وقال - سبحانه - ﴿ ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾ (١٠) وقال - تبارك

(١) انظر مسند أحمد (مسند انس) ج ٣

ص ٢٥٣ مع تقديم وتأخير ، واختلاف في بعض الالفاظ .

(٢) الايات من ٢٥ - ٢٩ من سورة الحاقة

(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص .

(٤) الآية ١٥ من سورة الاسراء .

(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .

(٦) الآية ١٣١ من سورة الانعام .

(٧) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٨) الآية ٨٨ من سورة الاسراء .

(٩) الايات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الجن .

(١٠) الايات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من سورة الحجر .

اسمه - : ﴿ ولقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ (١)

فسبحان من حفظ كتابه ووحى فقال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ (٢)

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ .  
قوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ﴾

هذا نهى عن الشرك بكل معانيه ، والنهى عن الشئ  
أمر بضده ، فهو أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك ، قال تعالى : - ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام ﴾ (٣)  
وقال - سبحانه - : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (٤) وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٥) وقال - صلوات ربى وسلامه عليه - : ( أفضل ما قلته أنا والنبيون قبل لا إله إلا الله ) (٦)

أما عاقبة المشركين فكما قال - تعالى - بعد فاء السببية الواقعة بعد النهى ﴿ فتكون من المعذبين ﴾ والعذاب هنا خالد دائم ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ (٧)

وقال - سبحانه - ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ (٨)

وقال - عز من قائل - : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٩)

(١) الآية ٥ من سورة الملك .

(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الجن .

(٣) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١ ، والآية ٢ من سورة النحل .

(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٦) انظر تنوير احوالك شرح على موطأ مالك ( كتاب الحج ) باب : جامع الحج ج ١ ص ٣٦٩ فقد رواه عن طلحة بن عبيد الله بن كريبه ان رسول الله ﷺ قال : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

(٧) الآية ١١٦ من سورة النساء .

(٨) الآية ٦ من سورة البينة .

(٩) من الآية ٣١ من سورة الحج .

قوله - تعالى - : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ أى : الأدينين إليه ، وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه - عز وجل - وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لاتنافی العامة ، بل هى جزء من أجزائها ، كما قال - تعالى - ﴿ لتنذر قوما ما أنذر أبائهم فهم غافلون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ <sup>(٣)</sup>

وقال - تعالى - : ﴿ لتبشّر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ <sup>(٤)</sup>  
وقال - تعالى - : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ <sup>(٥)</sup>

كما قال - تعالى - : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وفى صحيح مسلم : ( والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يؤمن بى إلا دخل النار ) <sup>(٦)</sup> وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها : - قال الامام أحمد - رحمه الله - بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما نزل الله - عز وجل - : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : ( يا صباحاه ) فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : - ( يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى : أرايتم لو أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني ؟ ) قالوا : نعم . قال : ( فإنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد ) فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله : ﴿ تبث يدا أبى لهب وتب ﴾ <sup>(٨)</sup>

قال الامام أحمد بسنده عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : ( يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبد المطلب ، يا بنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا سلون من مالى ما شئتم ) <sup>(٩)</sup>

قال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ - قريشا فعم وخص ، فقال : ( يامعشر قريش : أنقذوا

(١) الآية ٦ من سورة يس .

(٢) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٥١ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٩٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ١٧ من سورة هود .

(٧) الحديث رواه الامام مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الايمان ) باب وجوب الايمان برسالة النبى ﷺ ج ٢ ص ١٨٦ بشرح النووى : عن أبى هريرة ، ولفظه : « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به إلا كان من أصحاب النار .

(٨) الآية ١ من سورة المسد .

وانظر الحديث فى مسند الامام أحمد ( مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ) ج ١ ص ٢٨١

(٩) الحديث فى مسند الامام أحمد ( مسند عائشة - رضى الله عنها - ) ج ٦ ص ١٨٧

أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى - والله - لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سائلى ببلاها<sup>(١)</sup>

قال الامام أحمد بسنده عن زهير بن عمرو قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ صعد رسول الله : رضىمة من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : ( يا بنى عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : يا صباحاه )<sup>(٢)</sup>

قال الامام أحمد بسنده عن على - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا ، قال : قال لهم : ( من يضمن عنى دينى وموايعدى ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى ؟ ) فقال رجل - لم يسمه شريك - يا رسول الله أنت كنت بحرى من يقوم بهذا ، قال : ثم قال الآخر - ثلاثا - قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال على : أنا )<sup>(٣)</sup>

قال الامام أحمد بسنده عن على - رضى الله عنه - قال : جمع رسول الله : أودعا رسول الله : بنى عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب ، وقال : ( يا بنى عبد المطلب : انى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فايكم يبايعنى على ان يكون أخى وصاحبى ؟ ) قال : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقمت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال : ( اجلس ) ثم قال - ثلاث مرات - كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : ( اجلس ) حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى )<sup>(٤)</sup>

( طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخرى ) :

روى الحافظ البيهقى بسنده عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ قال رسول الله ﷺ : ( عرفت أنى إن بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره ، فصمت ، فجاءنى جبريل - عليه السلام - فقال : يا محمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك ) .

قال على - رضى الله عنه - فدعانى فقال : ( يا على إن الله - تعالى - قد أمرنى أنذر عشيرتک الأقربين ، فعرفت انى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما أكره ، فصمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل

(١) اورد الامام أحمد هذا الحديث فى مسنده (مسند أبى هريرة) ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) انظر مسند أحمد (قبصة بن غارق - رضى الله عنه) ج ٥ ص ٦٠ من رواية قبصة بن غارق ، وزهير بن عمرو : قالوا : لما نزلت : وأنذر عشيرتک الأقربين .. الحديث

(٣) انظر كنز العمال ج ١٣ ص ١٢٨ ، ١٢٩ رقم ٣٦٤٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن على من رواية الامام أحمد .

وانظر مسند الامام أحمد (مسند على بن أبى طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١١١

(٤) انظر مسند الامام أحمد (مسند على بن أبى طالب - رضى الله عنه) ح ١ ص ١٥٩

فقال : يا محمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك (١) فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب ) ففعلت ، فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه ابو طالب وحمة والعباس وابو لهب الكافر الخبيث ، فقدمت إليهم تلك الجفنة فاخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : ( كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله - ﷺ - ( اسقهم ياعلى ) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره ابو لهب إلى الكلام فقال : لشدة ما سحركم صاحبكم . ففارقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ ( ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم . . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : ( اسقهم ياعلى ) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ

أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لشدة ما سحركم صاحبكم . ففارقوا ولم يكلمهم رسول الله : فلما كان الغد قال رسول الله : : - ( ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم ) ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله : كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا ، ثم سقيتهم من ذلك القعب حتى نهلوا عنه ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله : : ( يا بنى عبد المطلب : إني والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتمكم به إني قد جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ) وقد رواه ابن جرير بسنده عن على بن أبى طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله : ( إني جئتمكم بخير الدنيا والآخرة ) : ﴿ وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟ ﴾ قال : فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت وإني لأحدثهم سنا ، وأدعمهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأخمشهم ساقا : أنا يابى الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتي ثم قال : ( إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا ) ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم :

عن على رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ قال لى رسول الله ﷺ : ( اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا ) قال : ففعلت ، ثم قال لى : ( ادع بنى هاشم )

( ١ ) انظر السنن الكبرى للبيهقى ( كتاب السير ) باب مبتدأ الغرض على النبى ﷺ . . . الخ ج ٩ ص ٧ فقد ذكر الحديث الى قوله : « عذبك ربك » ثم قال البيهقى : ثم ذكر قصة فى جمعهم وانذاره إياهم . وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ فى تفسير سورة الشعراء ، فقد ذكر الحديث وقصته .

قال فدعوتهم لإنهم يومئذ أربعون غير رجل أو أربعون ورجل ، قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال : فلما اتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : (كلوا) فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يزدردوا منها إلا اليسير ، قال : ثم أتيتهم بالأثناء فشربوا حتى رووا ، قال : وفضل فضل . فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كالיום في السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : ( اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام ) فصنعت ، قال : فدعاهم فلما أكلوا وشربوا قال : فبدروه ، فقالوا مثل مقالته الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : ( اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام ) فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ فقال : ( أيكم يقضى عنى دينى ويكون خليفتى فى أهلى ؟ ) قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت انا لسن العباس ، ثم قال مرة اخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يارسول الله ، قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ضخيم البطن مخمش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه فى أهله : يعنى ان قتل فى سبيل الله . كأنه خشى إذا قام بأعباء الانذار أن يقتل ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾<sup>(١)</sup> فعند ذلك أمن ، وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على رضى الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا - والله أعلم - :

دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش

عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير والله يهذى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء - رضى الله عنه - يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقليل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله : يقول : ( أزهّد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون )<sup>(٢)</sup>

وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾

قوله - تعالى - ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أى : فى جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلّى كلمتك .

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٢) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب ( كتاب التوحيد ) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة رضى الله عنها



وقوله - تعالى - ﴿الذى يراك حين تقوم﴾ أى : هو معتن بك كما قال - تعالى - ( واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا )<sup>(١)</sup> قال ابن عباس : ( الذى يراك حين تقوم ) وقال الحسن : ( الذى يراك حين تقوم ) يعنى الى الصلاة وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده إذا صليت وحدك وقال الضحاك : ( الذى يراك حين تقوم ) أى : من فراشك أو مجلسك وقال قتادة : ( الذى يراك ) قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله - تعالى - ( وتقلبك فى الساجدين ) قال قتادة : ( الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين ) قال : فى الصلاة يراك وحدك ، ويراك فى الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراساني والحسن البصري .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : ( سوا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهري )<sup>(٢)</sup>

وروى البزار وابن ابى حاتم من طريقين عن ابن عباس أنه قال فى هذه الآية : نعنى تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبيا وقوله - تعالى - : ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أى السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال - تعالى - : ﴿وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه﴾<sup>(٣)</sup>

قوله - تعالى - ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون )

يقول - تعالى - مخاطبا لمن زعم من المشركين ان ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شئ افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رثى من الجن ، فنزه الله - سبحانه وتعالى - جناب رسوله عن قولهم وافتراءهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وأنه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم .

وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ، ولهذا قال الله - تعالى - ﴿هل أنبئكم﴾ أى : أخبركم ﴿على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثيم﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفك ﴿أثيم﴾ وهو الفاجر فى أفعاله ، فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة ﴿يلقون السمع﴾ أى : يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من

(١) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣) من الآية ٦١ من سورة يونس

الانس فيحدثون بها ، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث كما رواه البخارى عن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة - رضى الله عنها - : سأل ناس النبی ﷺ عن الكهان فقال : ﴿ إِنْهُمْ لَيْسُوا بِشَيْءٍ ﴾ قالوا : يارسول الله فإنهم يحدثون بالشئ يكون حقا . فقال النبی ﷺ : ( تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرقها في أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة )<sup>(١)</sup>

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : إن النبی ﷺ - قال : ( إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض - وصفه سفيان بيده فحرفها ويدد بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقونها إلى من تحته ، ثم يلقونها الآخر إلى من تحته حتى يلقوها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقوها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء )<sup>(٢)</sup> تفرد به البخارى .

وروى مسلم من حديث الزهري عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الانصار قريبا من هذا .

وقال البخارى بسنده عن عائشة عن النبی ﷺ انه قال : في الأرض ، إن الملائكة تحدث في العنان والعنان ( الغمام ) بالأمر فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ .

قوله - تعالى - ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾<sup>(٣)</sup> قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الكفار يتبعهم ضلال الانس والجن . وكذا قال مجاهد - رحمه الله -

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فنتصر لهذا فثام من الناس ولهذا فثام من الناس ، فأنزل الله - تعالى - : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبی ﷺ ( خذوا الشيطان - أو امسكوا الشيطان - لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خيرا له من أن يمتلئ شعرا )<sup>(٤)</sup> وقوله - تعالى - : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : في

( ١ ) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب ( كتاب التوحيد ) باب قراءة الفاجر والمناق ج ٩ ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة - رضى الله عنها -

( ٢ ) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

( ٣ ) انظر صحيح البخارى ( كتاب بدء الخلق ) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

الحديث في مسند الامام أحمد ( مسند أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - ) ج ٣ ص ٨ و ص ٤١ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٤ .

كل لغوي خوضون . وقال الضحّاك عن ابن عباس : في كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره .  
وقال الحسن البصري : قد - والله - رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها ، مرة في شتمة فلان ، ومرة في  
مديحة فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . قوله - تعالى - : ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ  
مَالًا يَفْعَلُونَ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله : أحدهما من الأنصار  
والآخر من قوم آخرين ، وإنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فقال  
الله - تعالى - : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا  
يَفْعَلُونَ ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذي قاله ابن عباس  
- رضي الله عنه - هو الواقع في نفس الأمر ، فإن الشعراء يتبعجون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا  
عنهم فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما  
يوجب حداً هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين : وقد ذكر  
محمد بن إسحق ومحمد بن سعد في ( الطبقات ) والزيبر بن بكار في كتاب ( الفكاهة ) أن أمير المؤمنين  
عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استعمل النعمان بن عدى فضلة على ميسان من أرض البصرة وكان  
يقول الشعر ، فقال :

الاهل أتى الحسناء ان خليلها	بميسان يسقى في زجاج وحتتم
إذا	ورقاصة تحنو على كل مبسم
ت غتنى دهاقين قرية	ولا تسقى بالأصغر المتثلّم
فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني	تنادمننا بالجوسق المتهدم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه	
فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب	

- رضي الله عنه - قال : أي - والله - إنه ليسوؤي ذلك ، ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه  
عمر : ( بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب  
شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ) أما بعد : فقد بلغني قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه تنادمننا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوؤي ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله يا أمير  
المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لسان . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن  
- والله - لا تعمل لي عملاً أبداً وقد قلت ما قلت . فلم يذكر انه حده على الشراب ، وقد ضمنه  
شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر - رضي الله عنه - ولامه على ذلك وعزله به ، ولهذا  
جاء في الحديث : ( لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خيراً له من أن يمتلئ شعراً ) والمراد من هذا أن  
الرسول - ﷺ - الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه

ظاهرة ، كما قال - تعالى - ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ <sup>(٢)</sup>

وهكذا قال ههنا : ﴿ إنه لتنزيل رب العالمين - نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾ إلى أن قال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ إلى أن قال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾

وقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبي الحسن سالم البراد بن عبد الله - مولى تحيم الدارى . قال : لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ - وهم سيكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، وذكر الله كثيرا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

وقد روى ابن أبي حاتم أيضا عن أبي سعيد الأشج ، عن أبي أسامة ، عن الوليد بن أبي كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبي الحسن - مولى بنى نوفل - أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ يبيكان ، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ حتى بلغ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ وقال أيضا : عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله : قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن اسلم وغير واحد : إن هذا استثناء عما تقدم ، ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الانصار؟ وفي ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مراسلات لا يعتمد عليها . والله اعلم .

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الانصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية ، بدم الاسلام

وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه .  
كما قال عبد الله بن الزبيرى حين أسلم :

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .

(٢) الآيات : ٤٠ - ٤٣ من سورة الحاقة .

يارسول المليك إن لسانى  
إذا أجارى الشيطان فى سنن الغى  
راتق ما فتقت إذ أنابور  
ومن مال ميله مشبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجو ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه .

وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ان أبا سفيان ضمير بن حرب لما أسلم قال : يارسول الله : ثلاث اعطينهن قال : ( نعم ) قال : معاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال : ( نعم ) قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : ( نعم ) وذكر الثالثة ، وهكذا قال - تعالى - ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ﴾

قيل معناه : ذكروا الله كثيراً فى كلامهم ، وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق . وقوله - تعالى - : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد . وهذا لما ثبت فى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال لحسان : ( اهجم - أو قال : هاجهم - وجبريل معك )

وقال الامام أحمد بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبي ﷺ ان الله - عز وجل - قد أنزل فى الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذي نفسى بيده لكان ما ترمونهم به نضح النبل ﴾ (١)

وقوله - تعالى - : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

كقوله - تعالى - : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ (٢)

وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ﴿ إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ﴾ (٣) قال قتادة بن دعامة فى قوله - تعالى - ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ يعنى من الشعراء وغيرهم . وقال ابو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تيممة قال : حضرت الحسن ومر عليه بجنابة نصرانى فقال : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان ابن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا

(١) انظر صحيح مسلم .. كتاب الفضائل .. باب من فضائل ابى سفيان بن حرب فقد ذكر الحديث من رواية ابن عباس ج ٤ ص ١٩٤٥ رقم ١٦٨ / ٢٥٠١ وذكر الثالثة التى لم تذكر فى روايتنا وقال : عندى احسن العرب وأجمله : أم حبيبة بنت ابى سفيان أزوجكها ..

(٢) الآية ٥٢ من سورة غافر .

(٣) انظر صحيح مسلم ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ من رواية جابر ابن عبد الله ، بلفظ : « اتقوا الظلم .. الحديث » ورقم ٥٧ / ٢٥٧٩ من رواية ابن عمر ، بلفظ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وانظر مسند الامام احمد ( مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - ) ج ٢ ص ١٠٦ فقد اورده بلفظ : « يأياها الناس اياكم والظلم .. الحديث » وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٧ .

### أى منقلب ينقلبون ﴿

وقال ابن وهب : أخبرني ابن سريج الاسكندراني عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتون عليها أو يصطلون إذا بركبان قد أقبلوا ، فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم - قال - وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم - كما قال ابن أبي حاتم : - ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطى حدثني الهيثم بن محفوظ ابو سعد النهدي حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كتب ابى في وصية سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب : إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه ، وإن يجبر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴾ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴿

### سورة النمل

#### مقدمة

● قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها خمس وتسعون في عدد الحجاز ، وأربع في عد الشام ، والبصرة ، وثلاث في عد الكوفة ، كلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون . وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعون . والآيات المختلف فيها ﴿ أولوا بأس شديد ﴾ ، ﴿ من قوارير ﴾ مجموع فواصل آياتها ( من ؟ ) وسميت سورة النمل ، لاشتغالها على مناظرة النمل سليمان في قوله : ﴿ قالت غلة يا أيها النمل ادخلوا ﴾

\* مقصود السورة ومعظم ما تضمنته : بيان شرف القرآن ، وما منه نصيب أهل الايمان ، والشكايه من أهل الشرك والعصيان ، وإشارة إلى ذكر الوادى المقدس ، وموسى بن عمران ، وذكر خبر داود وسليمان ، وفضل الله - تعالى - عليهما بتعليمهما منطق الطير وسائر الحيوان ، وقصة النمل ، وذكر الهدد ، خبر بلقيس ، ورسالة الهدد إليها من سليمان ، ومشاورتها أركان الدولة ، وبيان أثر الملوك إذا نزلوا في مكان ، وإهداء بلقيس إلى سليمان ، وتهديده لها ، ودعوة آصف لاجتماع بلقيس في أسرع زمان ، وتغيير حال العرش لتجربتها ، وإسلامها على يد سليمان ، وحديث صالح ومكر قومه في حقه ، وطرف من حديث قوم لوط أولى الطغيان ، والبرهان في الحقائق ، والأشجار ، والبحار والأنهار ، وإجابة الحق دعاء أهل التضرع ، والابتهاال إلى الرحمن ، وهداية الله الخلق في ظلمات أكبر ، والبحر ، وإطلاع الحق - تعالى - على أسرار الغيب ، وتسلية الرسول ﷺ في إعراض المنكرين عن قبول القرآن ، وقبول الايمان ، وخروج الدابة ، وظهور علامة القيامة ، والإخبار عن حال الجبال في ذلك اليوم ، وبيان جزاء المجرمين ، وإعراض الرسول عن المشركين ، وإقباله على القرآن الكريم ،

وأمر الله له بالحمد على إظهار الحجة ، أعنى القرآن في قوله : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته ﴾

### المتشابهات

قوله : ﴿ فلما جاءها نودى ﴾ ، وفي القصص وطه ﴿ فلما أتاها ﴾ .. قال في هذه السورة : ﴿ سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ فكرر ﴿ آتيكم ﴾ فاستقل الجمع بينها وبين ﴿ فلما أتاها ﴾ فعدل إلى قوله : ﴿ فلما جاءها ﴾ بعد أن كانا بمعنى واحد . وأما في السورتين فلم يكن إلا ﴿ سآتيكم ﴾ ﴿ فلما أتاها ﴾ .

قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ وفي القصص : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ ، لأن في هذه السورة ﴿ نودى ان بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ﴾ فحيل بينها بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة ( أن ) وفي القصص : ﴿ أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ﴾ فلما يكن بينهما جملة أخرى عطف بها على الأول ، فحسن إدخال ( أن )

قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ، وفي القصص : ﴿ أقبل ولا تخف ﴾ خصت هذه السورة بقوله : ﴿ لا تخف ﴾ لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به ، وهو قوله : ﴿ إني لا يخاف لدى المرسلون ﴾ ، وفي القصص اقتصر على قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ولم يبين عليه كلام ، فزيد قبله ﴿ أقبل ﴾ ليكون في مقابلة ﴿ مدبرا ﴾ أى : أقبل آمنا غير مدبر ، ولا تخف فخصت هذه السورة به .

قوله : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ وفي القصص : ﴿ اسلك يدك في جيبك ﴾ خصت هذه السورة بـ ﴿ ادخل ﴾ لأنه أبلغ من قوله : ﴿ اسلك يدك ﴾ لأن ﴿ اسلك ﴾ يأتي لازما ، ومتعديا ، و ﴿ ادخل ﴾ متعد لا غير ، وكان في هذه السورة ( في تسع آيات ) أى : مع تسع آيات مرسلًا إلى فرعون وخصت القصص بقوله : ﴿ اسلك ﴾ موافقة لقوله : ﴿ اضمم ﴾ ثم قال : ﴿ فذائك برهاتان من ربك ﴾ [ وكان ] دون الأول فخص بالأدون من اللفظين .

قوله : ﴿ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ ، وفي القصص : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ لأن الملأ أشرف القوم ، وكانوا في هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها ﴾ .. الآية ، فلم يسهمهم ملأ بل سماهم قوما . وفي القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات ، فسماهم ملأ ، وعقبه : ﴿ وقال فرعون ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ . وما يتعلق بقصة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق ..

قوله : ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ وفي حم ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ و ﴿ نجينا ﴾ و ﴿ انجينا ﴾ بمعنى واحد . وخصت هذه السورة بـ ﴿ أنجينا ﴾ موافقة لما بعده وهو : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ وبعده : ﴿ وأمطرنا ﴾ ، ﴿ وأنزلنا ﴾ كله على لفظ أفعل . وخص حم بـ ﴿ نجينا ﴾ موافقة لما قبله : ﴿ وزينا ﴾ وبعده ﴿ وقيضنا لهم ﴾ وكله على لفظ فعل

قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ سَبَقَ ﴾  
 قوله : ﴿ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهِ ﴾ في خمس آيات ، وختم الأولى بقوله : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ ثم  
 قال : ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ ثم قال : ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا  
 يُشْرِكُونَ ﴾

ثم ﴿ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى : عدلوا ، وأول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم  
 يعلموا ، ولو علموا لما عدلوا ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فأشركوا من غير حجة وبرهان .  
 قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُفِخَ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾  
 وفى الزمر ﴿ فَصَعَقَ ﴾ : خصت هذه السورة بقوله : ﴿ فَنُفِخَ ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وَهُمْ مِنْ فِرْعَ  
 يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ ، وخصت الزمر بقوله : ﴿ فَصَعَقَ ﴾ ، موافقة لقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مِتُّونَ ﴾ لان  
 معناه : مات .

### مناسبتها ما قبلها من وجوه !

- ( ١ ) إنها كاللتمة لها ، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمان .
- ( ٢ ) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى - عليهما السلام - .
- ( ٣ ) إن كليتهما قد اشتملتا على نعت القرآن وأنه منزل من عند الله .
- ( ٤ ) تسليمة رسوله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم ، وإصرارهم على الكفر به والاعراض  
 عنه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَإِنْ كُنَّا مِنْكُمْ مُبِينِينَ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ  
 يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ  
 بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي  
 الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

### تفسير المفردات

﴿ طس ﴾ : بعض حروف الهجاء ، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم الذى أنزله الله بتلك  
 الحروف العربية .



﴿ يعمهون ﴾ : يترددون متحيرين

﴿ من لدن ﴾ : أى : من عند .

﴿ حكيم ﴾ : منزّه عن العبث

### التفسير

قوله - تعالى - ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ القرآن المجيد معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا ، والقرآن دستور دولة ، وقانون حكم ، وإصلاح مجتمع ... اخرج به محمد رسول - الهدى - الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى البر والتقوى ، اخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن البغى إلى الرشd ، ومن الجهل إلى المعرفة ...

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾<sup>(١)</sup>

قال العلامة ( فينى ) : إن القرآن ليس بكتاب دينى فقط ، بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام السياسية التى إن لم توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

لم يستطع الذين صاولوا الدعوة الاسلامية أول عهد الاسلام ان يجحدوا إعجازه أو ينكروا بلاغته مع استمرار العناد فى نفوسهم ، واستفحال المكابرة فى صدورهم وذلك لان القرآن المجيد فى طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما فى الكون من سماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن ، وكان فى طريقة عرضه معجزا ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين ان هذا الذى جاء بالقرآن رجل أُمى ، نشأ فى أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم تنشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أُمى كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك العلوم والمعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ .

قال الله تعالى - مقرأ لهذا الإعجاز : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبتلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾<sup>(٢)</sup> وقد توفر المسلمون على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة

(٢) الأيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت

بجواهرهم الفطرية ، وملكاتهم السليمة من ناحية ، وبما يشرحه الرسول الكريم ويبينه لهم بأقواله وأعماله ،

كما قال الله - تعالى - ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> كان همهم الأول هو القرآن المجيد يحفظونه ويفهمونه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه . وبهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الانساني هو أقوى شيء في هذا الوجود ، فمتى صفا وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجيب . وقد أتت الأمة العربية بالعجب في الهداية والارشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر العزيز ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والعدل في ذلك العهد : دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ، ثم دانت لهم الدنيا ففتحوا بعض دول أوروبا ، وأقاموا فيها دولة عربية ، كانت النواة الناجحة في نهضة أوروبا المعاصرة . . . تلك هي دولة الأندلس .

قال السير ريتشارد وود في تقرير رسمي طبع ونشر عام ١٨٧٨ .  
( إن القرآن يتضمن أحكام الدين وفي نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية ) .  
وإن كثيرا من مؤلفي الافرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء في معارج الحضارة ماداموا مقيدين بنصوص القرآن التي يقولون : إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفي برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل ارسطو وإقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم .

فقال الفيلسوف الألماني ( جوته ) : إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .  
إن القرآن في الاسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو في الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير .

وذكر الشيخ محمد الخضري : ( الكتاب هو القرآن ، وهو أجل من ان يعرف )  
وقال محمد فريد وجدي : القرآن علم للكتاب الذي يقده المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ويتبركون به ، ويتبعون سننه وفرائضه ، ويعتقدون اعتقادا راسخا انه أنزل على النبي العربي محمد بن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا .

وقال الراغب الأصبهاني في المفردات : القرآن في الأصل مصدر - على وزن فعلان - بالضم - مثل : رجحان وكفران ، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنْ عَلَيْنَا جُمُوعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ <sup>(٢)</sup>  
قال ابن عباس : إذا جمعناه وأثبتناه في صدرك فاعمل به .  
وأورد السيوطي خمسة أقوال في لفظ القرآن هي :

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل

(٢) الأيتان ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة .

أولا : ما ذهب إليه الشافعي أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا ، بل وضع علما على الكلام المنزل على محمد ﷺ .  
 ثانيا : ما نقل عن الأشعري وأقوام انه مشتق من : قرنت الشيء بالشيء : إذا ضممته إليه . ثم جعل علما على اللفظ المنزل ، وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .  
 ثالثا : ذهب الفراء إلى انه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك ، وهو على هذين غير مهموز أيضا ، كالذي قبلها ونونه أصلية .  
 رابعا : قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان - مهموز - مشتق من ( القرء ) بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء في الحوض : إذا جمعته .  
 وسمى الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآنا ؛ لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامسا : ما ذهب إليه الحياى وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، سمي به المقروء ، من تسمية المفعول بالمصدر .  
 وينقل كتاب الاتقان عن الجاحظ أن الله سمي كتابه اسما مخالفا لما سمي العرب كلامهم . .  
 سمي جملته قرآنا ، كما سمي العرب جملة كلامهم ديوانا ، وسمى بعضه سورة ، كقصيدة ، وسمى بعض السورة آية ، كالبيت ، وسمى آخر السورة فاصلة ، كقافية .  
 ويذكر الاتقان أن الله سمي القرآن بخمسة وخمسين اسما : سماه كتابا ، ومبيناً ، في قوله ﴿ حم ، والكتاب المبين ﴾ <sup>(١)</sup>

وقرآنا ، وكريما ، في قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ <sup>(٢)</sup>  
 وكلاما : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ <sup>(٣)</sup>  
 ونورا : ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾ <sup>(٤)</sup>  
 وهدي ، ورحمة : ﴿ هدى ورحمة للمؤمنين ﴾ <sup>(٥)</sup>  
 وفرقانا : ﴿ نزل الفرقان على عبده ﴾ <sup>(٦)</sup>  
 وشفاء : ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ﴾ <sup>(٧)</sup>  
 وموعظة : ﴿ قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ﴾ <sup>(٨)</sup>

(١) الأيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف والدخان .

(٢) الآية ٧٧ من سورة الواقعة .

(٣) الآية ٦ من سورة التوبة

(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء .

(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس

(٦) الآية ١ من سورة الفرقان

(٧) الآية ٨٢ من سورة الاسراء

(٨) الآية ٥٧ من سورة يونس .

- وذكرنا ، ومباركا : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ (١)  
وعليا : ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي ﴾ (٢)  
وحكمة : ﴿ حكمة بالغة ﴾ (٣)  
وحكيا : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ (٤)  
ومهيما : ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيما عليه ﴾ (٥)  
وحبلا : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ (٦)  
وصراطا مستقيما : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما ﴾ (٧)  
وقيا : ﴿ قيا لينذر ﴾ (٨)  
وقولا ، وفصلا : ﴿ إنه لقول فصل ﴾ (٩)  
ونبا عظيما : ﴿ عما يتساءلون . عن النبا العظيم ﴾ (١٠)  
وأحسن الحديث ومثاني ومتشابهها : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴾ (١١)  
وتنزila : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ (١٢)  
وروحا : ﴿ أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ (١٣)  
ووحيا : ﴿ إنما أنذركم بالوحي ﴾ (١٤)  
وعربيا : ﴿ قرآنا عربيا ﴾ (١٥)  
وبصائر : ﴿ هذا بصائر ﴾ (١٦)  
وبيانا : ﴿ هذا بيان للناس ﴾ (١٧)  
وعلما : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾ (١٨)  
وحقا : ﴿ إن هذا هو القصص الحق ﴾ (١٩)  
وهاديا : ﴿ إن هذا القرآن يهدي ﴾ (٢٠)  
وعجبا : ﴿ قرآنا عجبا ﴾ (٢١)  
وتذكرا : ﴿ وإنه لتذكرا ﴾ (٢٢)

- |   |                                    |
|---|------------------------------------|
| (١٤) الآية ٤٥ من سورة الأنبياء  | (١) الآية ٥٠ من سورة الأنبياء      |
| (١٥) الآيات ٢ من سورة يوسف ، ١١٣ من سورة طه ، ٢٨ من سورة الزمر ، ٣ من سورة فصلت ، ٧ من سورة الشورى ، ٣ من سورة الزخرف . | (٢) الآية ٤ من سورة الزخرف         |
| (١٦) الآية ٢٠ من سورة الجاثية .   | (٣) الآية ٥ من سورة القمر .        |
| (١٧) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .   | (٤) الآية ١ من سورة يونس .         |
| (١٨) الآيتان ١٤٥ من سورة البقرة ، ٦١ من سورة آل عمران .   | (٥) الآية ٤٨ من سورة المائدة .     |
| (١٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران .  | (٦) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .   |
| (٢٠) الآية ٩ من سورة الاسراء .  | (٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .    |
| (٢١) الآية ١ من سورة الجن .   | (٨) الآية ٢ من سورة الكهف .        |
| (٢٢) الآية ٤٨ من سورة الحاقة .  | (٩) الآية ١٣ من سورة الطارق .      |
|   | (١٠) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النبا . |
|   | (١١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .      |
|   | (١٢) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء .   |
|   | (١٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .     |

والعروة الوثقى : ﴿ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 وصدقا : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 وعدلا : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
 وأمرنا : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
 ومناديا : سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ <sup>(٥)</sup> .  
 وبشرى : ﴿ هدى وبشرى ﴾ <sup>(٦)</sup> .  
 ومجيذا : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ <sup>(٧)</sup> .  
 وزبورا : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور ﴾ <sup>(٨)</sup> .  
 وبشيرا ونذيرا : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ﴾ <sup>(٩)</sup> .  
 وعزيزا : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ <sup>(١٠)</sup> .  
 وبلاغا : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ <sup>(١١)</sup> .  
 وقصصا : ﴿ أحسن القصص ﴾ <sup>(١٢)</sup> .  
 وسماه أربعة أسماء في آيتين : ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة ﴾ <sup>(١٣)</sup> .  
 وقد سمي القرآن ﴿ النور ﴾ لأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام ، ﴿ وأما الهدى ﴾ فلأن فيه الدلالة على الحق . وأما ﴿ الفرقان ﴾ فلأنه فرق بين الحق والباطل .  
 ﴿ وأما الشفاء ﴾ فلأنه يشفى من الأمراض القلبية : كالكفر ، والجهل ، والغل ، والبدنية أيضا .  
 ﴿ وأما الذكر ﴾ فلما فيه من المواعظ ، وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضا : المشرف ، قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أى شرف لأنه بلغتهم .  
 ﴿ وأما الحكمة ﴾ فلأنه نزل على القانون المتبر من وضع كل شيء في محله ، أولأنه مشتمل على الحكمة .

(١) الأيتان ٢٥٦ من سورة البقرة ، ٢٢ من سورة لقمان .

(٢) الآية ٣٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٥) الآية ١٩٣ من سورة آل عمران .

(٦) الآيات ٩٧ من سورة البقرة ، ١٠٢ من سورة النحل ، ٢ من سورة النمل .

(٧) الآية ٢١ من سورة البروج .

(٨) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .

(٩) الآية ٣ ، وجزء من الآية ٤ من سورة فصلت .

(١٠) الآية ٤١ من سورة فصلت .

(١١) الآية ٥٢ من سورة إبراهيم .

(١٢) الآية ٣ من سورة يوسف .

(١٣) الأيتان ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

وأما ﴿الحكيم﴾ فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعاني ، وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين .

وأما ﴿المهيمن﴾ فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة .

﴿وأما الحبل﴾ فلأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى ، والحبل : السبب .

﴿وأما الصراط المستقيم﴾ فلأنه طريق إلى الجنة قويم لا عوج فيه .

وأما ﴿المثاني﴾ فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه .

وأما ﴿المتشابه﴾ فلأنه يشبه بعضه بعضا في الحسن والصدق .

وأما ﴿الروح﴾ فلأنه تحيا به القلوب والأنفس .

وأما ﴿المجيد﴾ فلشرفه .

وأما ﴿العزیز﴾ فلأنه يعز على من يروم معارضته وأما ﴿البلاغ﴾ فلأنه أبلغ منه الناس ما أمروا به ونهوا عنه ، ولأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره .

قوله - تعالى - ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن

به واتبعه وصدق وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة

والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرا وشرها والجنة والنار ، كما قال - تعالى - : ﴿قل هو

للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان

بعيد﴾<sup>(١)</sup> وقال - تعالى - : ﴿لتبشر به المتقين وتندر به قوما لدا﴾<sup>(٢)</sup> ولهذا قال - تعالى - ههنا ﴿إن

الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ أى : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون﴾

أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم ، فكان هذا جزاء على ما

كذبوا من الدار الآخرة ، كما قال - تعالى - : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول

مرة﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿أولئك الذين لهم سوء العذاب﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿وهم فى الآخرة هم

الآخسرون﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل الحشر .

وقوله - تعالى - : ﴿وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أى : ﴿وإنك﴾ يا محمد

﴿لتلقى﴾ أى : لتأخذ ﴿القرآن من لدن حكيم عليم﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى

أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبيره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما

قال - تعالى - : ﴿وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا﴾<sup>(٤)</sup>

مع موسى كليم الله

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاءَ تِيبُكُمْ مِنْهَا يَخْبِرُ ۖ أَوْ أَنِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(٣) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

(١) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ  
 كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾  
 إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ  
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾  
 فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ  
 ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

### تفسير المفردات

﴿ أنست ﴾ أى : أبصرت إبصارا حصل لى به أنس . ﴿ بخبر ﴾ أى : عن الطريق وحاله .  
 ﴿ بشهاب ﴾ أى : بشعلة نار . ﴿ قبس ﴾ أى : قطعة من النار مقبوسة . ومأخوذة من أصلها .  
 ﴿ تصطلون ﴾ أى : قد تستدفئون بها . ﴿ جان ﴾ أى : حية صغيرة سريعة الحركة . ﴿ ولى مدبرا ﴾  
 أى : التفت هاربا . ﴿ ولم يعقب ﴾ أى : لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما ورائه ، من قولهم :  
 عقب المقاتل : اذا كر بعد الفر . ﴿ من غير سوء ﴾ أى : من غير برص ولا نحوه من الآفات .  
 آيات ﴾ أى : معجزات دالة على صدقك . ﴿ مبصرة ﴾ أى : بينة واضحة ﴿ فجحدوا بها ﴾ أى :  
 كذبوا . ﴿ واستيقنتها أنفسهم ﴾ أى : علمت علما يقينيا انها من عند الله ﴿ وعلوا ﴾ أى : ترفعا  
 واستكبارا .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن وصف - عز اسمه - القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من اعرض عنه كان من  
 الخاسرين . . أردفه بذكر قصص النبيين تسلية لرسوله ﷺ وأنه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد  
 كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات ، وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ،  
 وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس

لعلكم تصطلون ﴿١﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فضل الطريق فى ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إني أبصرت نارا سأتىكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتاكم بشعله ، من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا ، فاشتبه عليهما الطريق ، والبرد شديد ، وفى مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بعد ، لما يرجى فيها من زوال الحيرة ، وأمن الطريق ، ومن الانتفاع بها للاصطلاء ومن ثم قال لها هذه المقالة . قوله - تعالى - ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾ . أى : فلما وصل إلى النار نودى بأن بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هو البقعة المباركة المذكورة فى قوله - تعالى - من سورة القصص : ﴿ نودى من شاطئ الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ﴾ (١) ﴿ ومن حولها ﴾ من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا . وقوله : ﴿ سبحان الله ﴾ : تنزيهه لنفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ، وإيدان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ إن الله لا ينام ، ولا يتبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجبا به النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات أنوار ) وجهه كل شئ أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيده ( أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ) .

وفى التوراة : ( جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران ) فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمدا ﷺ ( وفاران : مكة ) .

ولما تشوقت النفس إلى تحقيق ما يراد بالتصريح قال - تعالى - : تمهيدا لما اراد اظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة : ﴿ ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أى : ياموسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عز كل شئ وقهره ، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله . ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ، ليعلم ذلك علم شهود فقال : ﴿ وألقى عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ أى : وألقى عصاك ، فلما ألقتها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رآها كذلك ﴿ ولى مدبرا ﴾ ولى هاربا خوفا منها ولم يلتفت وراءه من شدة فرقه .

وحينئذ تاقت النفس إلى معرفة ما قيل إذ ذاك فقال : ﴿ ياموسى لا تخف إني لا يخاف لدى



المرسلون ﴿١﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإن لا يخاف عندى رسلى وانبيائى الذين اختصهم واصطفهم بالنبوة .

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإن غفور حيم ﴾ أى : ولكن من ظلم من سائر العباد ، فإنه يخاف ، إلا إذا تاب ، فبدل بتوبته حسنا بعد سوء ، فإن أغفر له وأحوذتوبه وجميع آثارها ، كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفى هذا بشارة عظيمة لسائر البشر : فإن من عمل ذنبا ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ (٢) ثم أراه - جلّت قدرته - آية أخرى ذكرها بقوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى : وأدخل يدك فى جيبك « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » قميصك تخرج بيضاء بياضا عظيما ، ولها شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما فى يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

فهاتان آيتان من خوارق العادات ، وفى ذلك كله تأييد لك .

قوله - تعالى - : ﴿ فى تسع آيات ﴾ وهى : اليد ، والعصا ، والطمس على الأموال ، كما جاء فى قوله - تعالى - : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (١) ورابعة الآيات الأخذ بالسنين العجاف والقحط ، قال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ (٢) والآيات الباقية جاءت فى قوله - جل شأنه - : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (٣) .

ولقد ذكر الله - عز وجل - فى كتابه العزيز أن القوم راوغوا وظنوا أنهم يخادعون الله ، وجهلوا أنهم إنما يخادعون أنفسهم وما يشعرون قال - تعالى - : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ (٤) وهذا جزاء كل أمة تكذب بآيات ربها ، وتعصى رسله ، وتضرب بأحكامه عرض الحائط ، وتغفل عن آياته ، إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : « يأمعاء اسمعى ، يابركة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية أبى موسى الأشعرى ، وانظر الحديث ٢٩٥ عن أبى موسى . وانظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ رقمى ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

(١) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

(٢) آية : ١٣٠ من سورة الأعراف .

(٣) آية : ١٣٣ من سورة الأعراف .

(٤) آيات : ١٣٤ - ١٣٦ من سورة الأعراف .

ارتفعى ، يا عين لا تشبعى « ان ظلم الشعوب جرم كبير ، لا يرضاه الله ، بل إنه - تعالى - لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليتمكن للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

لقد أيد الله موسى بتسع آيات بينات ، وأرسله إلى قوم فاسقين خارجين عن حدود الله قال كبيرهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ (٢) وقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ (٣) فماذا كان موقف القوم من تلك الآيات المبصرة الواضحة الدلالة البينة البرهان ؟

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ فتأمل معى كيف حكموا على الحقائق بأنها سحر ، وعلى المعجزات بأنها تخیلات فى الحس وأوهام فى العقل ؟ وشتان شتان بين المعجزة والسحر ، فالمعجزة امر خارق للعادة يظهره الله على أيدي الأنبياء تصديقا لهم فى دعواهم ، مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثل هذه الآيات ، فأى سحر فى انقلاب العصاحية ؟ ! وأى تخیلات فى انشقاق القمر بعد ما رأوه بأعينهم ؟ ! إن أهل الباطل يحاولون قلب الحقائق والحكم على الأشياء بغير واقع الأمر ، قال - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ (٤) مع إنك لو اطلعت على ما فى قلوبهم علمت أنهم فى قرارة انفسهم يوقنون بصدق الآيات ، ولكنهم يكذبونها ظلما وعلوا واستكبارا وإباء حتى لا يظهر امام قومهم بأنهم قد خضعوا للحق ، قال - تعالى - : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فلا بد من وقوع العاقبة ، ولا بد من الجزاء العادل ، قال - تعالى - : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وقد بين الله تلك العاقبة الوخيمة فى قوله : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (٥)

وفى قوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ (٦)

### مع داود وسليمان

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .

(٣) الآية ٢٤ من سورة النازعات .

(٤) الأيتان ١ ، ٢ من سورة القمر .

(٥) الآية ١٣٧ من سورة الاعراف .

(٦) الآية ٤٠ - ٤٢ من سورة القصص .

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحِشْرَ لُسَيْمَنْ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ  
 وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ  
 لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنْ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ  
 أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي  
 بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا مَنْ كَانَ مِنْ  
 الْأَغَايِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا عَذِيبَهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذْبَحَنَّهُ وَأَوْلِيَايَتِي بِلِسْطَنِ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ  
 بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً  
 تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾  
 أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾  
 اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ \* قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾  
 أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا  
 الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَىٰ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾  
 أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً  
 أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي  
 مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً  
 وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ  
 سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَيْنِيَ اللَّهُ خَيْرَ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٧﴾  
 قَالَ يَأْتِيَنَّهَا أَلْمَلُؤُاُ الْيَكْمُ يَا تِينِي بَعْرَشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ عَفْرَيْتُ مِنَ الْجِنِّ  
 أَنَاءَ اتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٢٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ  
 مِنَ الْكِتَابِ أَنَاءَ اتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ  
 هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرَ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ  
 رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ  
 ﴿٣١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا  
 مُسْلِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ قِيلَ  
 لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ  
 مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

## تفسير المفردات

﴿ورث سليمان داود﴾ أى : قام مقامه فى النبوة والملك . ﴿منطق الطير﴾ أى : منهم ما  
 يريده كل طائر إذا صوت : ﴿حشر﴾ أى : جمع ﴿يوزعون﴾ أى : يحبس أولهم ليلحق آخرهم  
 فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد . ﴿وادی النمل﴾ : واد بأرض الشام . ﴿لا يحطمنكم﴾  
 أى : لا يهشمنكم . ﴿أوزعنى﴾ أى : يسر لى . ﴿التفقد﴾ : طلب ما فقد . ﴿بسلطان مبين﴾  
 أى : بحجة واضحة ، والاحاطة بالشئ علمه من جميع جهاته . وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب  
 ابن قحطان أبو قبيلة باليمن ، و ﴿نبأ﴾ أى : خبر عظيم والعرش : سرير الملك . ﴿عن السبيل﴾  
 عن سبيل الحق والصواب و ﴿الخبء﴾ : هو المخبوء من كل شئ كالطر وغيره من شئون الغيب  
 ﴿تول عنهم﴾ أى : تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك . ﴿فانظر﴾  
 أى : تأمل وفكر ﴿يرجعون﴾ أى : يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه . و  
 ﴿الملا﴾ : أشرف القوم وخاصة الملك . ﴿ألا تعلوا على﴾ أى : ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس  
 والهو . ﴿مسلمين﴾ : أى : منقادين خاضعين . ﴿أفتونى﴾ أى : أشيروا على بما عندكم من  
 الرأى والتدبير فيما حدث . ﴿قاطعة أمرا﴾ أى : باتة فيه منفذته ﴿تشهدون﴾ أى : تحضرون ،

والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات في الحرب . العفريت من البشر : الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين ، المارد . ﴿ مقامك ﴾ أى : مجلسك الذى تجلس فيه للحكم . ﴿ قوى ﴾ أى : قادر على حمله لا أعجز عنه . ﴿ أمين ﴾ أى : على ما فيه من لآلىء وجواهر وغيرها . ﴿ الكتاب ﴾ هو علم الوحي والشرائع ، والذى عنده علم هو سليمان - عليه السلام - كما اختاره الرازى وقال : إنه أقرب الآراء ، ﴿ يرتد ﴾ أى : يرجع ، والطرف ، تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة . ﴿ مستقرا ﴾ أى : ساكنا قارا على حاله التى كان عليها . الفضل : التفضل والاحسان ﴿ ليلونى ﴾ أى : ليعاملنى معاملة المختبر . ﴿ أم أكفر ﴾ أى : أقصر فى أداء واجب الشكر . كفر : أى : لم يشكر . ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى : غيروا هيئته وشكله بحيث لا تعرفه بسهولة ، ﴿ مسلمين ﴾ أى : خاضعين منقادين . ﴿ صدها ﴾ أى : منعها . و ﴿ الصرح ﴾ : أى : القصر ، وكل بناء عال . واللجة : الماء الكثير . ﴿ ممرد ﴾ أى : ذو سطح أملس . القوارير : الزجاج . واحدها : قارورة . ﴿ أسلمت ﴾ أى خضعت .

### المناسبة والمعنى الجملى

يعد أن ذكر - سبحانه - قصة موسى - عليه السلام - أردفه قصص داود وسليان ، وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق الطير ثم بين أن سليمان طلب من ربه أن يوفقه الى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكن من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم وسخر الله لسليمان الجن والأنس والطير وجعلهم جنودا له وذكر أنه احتاج جنديا من جنوده وهو الهدهد ، فبحث عنه فلم يجده ، فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل ، وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ، ووصف له ما لها من جلال الملك وابهته وانها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس العليم بكل شئ فى السموات والأرض ، والعليم بما نخفى وما نعلن ، والعليم بالسر والنجوى ، وهورب العرش العظيم . ثم امره سليمان بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ ، والتنحى جانبا ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه ، وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإننا قوم أولوا بأس ونجدة ، والأمر مفوض إليك فافعل ما بدا لك وهنا قالت : إني أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإني أرى ان نهاده ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، عله يقبل ذلك منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحرينا ، ولما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان قال له : أتمدنون بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ثم قال له : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . فتجهزت بلقيس للسفر مقبلة إلى سليمان ، وكان سليمان قد احضر عرشها فى لمح البصر وأمر بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سألها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدقه فى دعواه النبوة وتظاهرها لديها الأدلة على قدرة المولى - سبحانه وتعالى - فحينما

رأت ملكه العظيم أيقنت بأن دين سليمان هو الحق ، وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض ، وصاحت تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : ( إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام - ؟

وفي الآية إخبار منه - تعالى - عن أنه - بفضلله وكرمه - قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحي المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبين ملكين ، وفي هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمده على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد في حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك في حاجة إلى شكر ؟ !

يقول الامام ابن القيم في [ اثبات الحمد كله لله عز وجل ]

إنه - تعالى - هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود فضلله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (١)

### ﴿ التفسير ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرني أبي عن جدي قال : كتب عمر بن عبد العزيز : ( إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ،

لو كنت لا تعرف ذلك إلا في كتاب الله المنزل ، قال الله - تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان - عليهما السلام ؟

وفي الآية إخبار منه - تعالى - عن أنه - بفضله وكرمه - قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحي المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفي هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداً على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد في حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك في حاجة إلى شكر؟!]

يقول الامام ابن القيم في [ اثبات الحمد كله لله عز وجل ]

إنه - تعالى - هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله في أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبج بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (١) .

وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شيء بعد فله - سبحانه - الحمد حمداً يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السموات والأرض ، ويملاً ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده ، وذلك يحمل أمرين :

أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض ، والمعنى : أن الحمد ملء ما خلقته ، وملء ما تخلقه بعد ذلك .

الثانى أن يكون المعنى : ملء ما شئت من شيء بعد يملأه حمدك ، أى : يقدر مملوءاً بحمدك ، وإن لم يكن موجوداً . ولكن يقال : المعنى الأول أقوى ، لأن قوله : ﴿ ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى أنه شيء يشاؤه ، وما شاء كان ، والمشئمة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له . فتأمل . لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه . فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد . فلا بد أن يكون شيئاً موجوداً يملأه حمده . وأيضاً قوله : ﴿ من شيء بعد ﴾ يقتضى أنه شيء يشاؤه - سبحانه - بعد هذه المخلوقات ، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ، ولو أريد تقدير خلقه لقليل : وملء ما شئت من شيء ، ومع ذلك لأن المقدر يكون مع المحقق . وأيضاً فإنه لم يقل : ملء ما شئت أن يملأه الحمد ، بل قال : ما شئت ، والعبد قد حمد حمداً أخبر به ، وإن ثناءه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب

- سبحانه - وما يشاء بعد ذلك وأيضا فقله : ﴿ وملء ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر ، وقد لا تتعلق ، وأيضا فإذا قيل : ﴿ ما شئت من شيء بعد ذلك ﴾ كان الحمد مائلا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ، ولا ريب ان له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما إذا قدر ما يملأه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها ، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الاعداد : ولو أريد هذا المعنى لم يحتاج إلى تعليقه بالمشيئة ، بل قيل : ﴿ ملء ما لا يتناهى ﴾ فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرا ، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها ، فهذا كله مما يشاؤه بعد .

وأىضا الحمد : هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود - تعالى - إما قائمة بذاته ، وإما ظاهرة فى مخلوقاته ، فأما المعدم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها ، فلا محامد فيه البتة ، فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد فيها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته ، والمحاسبة الظاهرة فى مخلوقاته ، وأما مالا وجود له فلا محامد ولا مذام ، فجعل الحمد مائلا له لما لا حقيقة له .

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما ، فقالت طائفة : على جهة التمثيل ، أى : لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما . قالوا : فإن الحمد من قبيل المعانى والأعراض التى لا تملأ بها الأجسام ، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام . والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد ، فإن ملء كل شيء يكون بحسب الملىء والمملوء . فإذا قيل : امتلأ الاناء ماء ، وامتلأت الجفنة طعاما ، فهذا الامتلاء نوع . وإذا قيل : امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر ، كما فى أثر معروف . ( أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه . وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له ) وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود : كنيف ملء علما ، ويقال : فلان علمه قد ملأ الدنيا . وكان يقال : ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما ، ويقال : خبث فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق ، وحبه قد ملأ القلوب ، وبغض فلان قد ملأ القلوب ، وامتلا قلبه رعبا . وهذا أكثر من ان تستوعب شواهد ، وهو حقيقة فى بابه ، وجعل الملىء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة ، والأصل الحقيقة الواحدة ، والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال ، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك . . .

﴿ والحمد كله لله ﴾ فهذا له معنيان : ( احدهما ) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام ؛ وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا - كما يحمد رسله وأنبيأؤه وأتباعهم - فذلك من حمده - تبارك وتعالى - بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وهذا كما أنه بكل شيء عليم . وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه . وفى الدعاء المأثور : ( اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وببيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله )



وهو - سبحانه - له الملك وقد آتى من ملكه بعض خلقه ، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء . وكما أن ملك المخلوق داخل في ملكه فحمده أيضا داخل في حمده . فما من محمود يحمده على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولية أيضا . وإذا قال : ﴿ اللهم لك الحمد ﴾ فالمراد به : أنت المستحق لكل حمد ، ليس المراد به الحمد الخارجى فقط .

﴿ والمعنى الثانى ﴾ أن يقال : ﴿ لك الحمد كله ﴾ أى : الحمد التام الكامل . فهذا يختص بالله ليس لغيره فيه شريك .

والتحقيق ان له الحمد بالمعنيين جميعا ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه - سبحانه - فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو ، وليس الملك التام الكامل الا له .

قوله - تعالى - : ﴿ وورث سليمان داود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ﴾

أى : ورث سليمان داود فى الملك والنبوة وليس المراد وراثته المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ نحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة ﴾ (١) وقال : ﴿ يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الانس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعا أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان ابن داود - كما قد يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تنزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله - سبحانه - كان قد أفهم سليمان ما تتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات على اختلاف أصنافها ولهذا قال - تعالى - : ﴿ علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أى : مما يحتاج إليه المملك ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الانس وكانوا هم الذين يلونه ، والجن هم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلمته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له ، قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاهها على اخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان - عليه السلام - بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ﴿ قالت غملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول الى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان - عليه السلام - منها ﴿ فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعلمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالاسلام لك ، والايمان بك ، ﴿ وأن أعمل صالحا ترضاه ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ﴿ وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك والرفيق الأعلى من أوليائك .

قد دل بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتتخذ القرى فى باطن الأرض ، وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتخفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق حذرا من ماء المطر . وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لايقاظ العقول إلى ما أعطيت من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لهم تحت أمرها وجمعها لرقم ليشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتدبيرها لأموورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك ، وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكره الكتاب . الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ؛ فيفهمون حال هذه الكائنات وكيف ان النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن امة لا تصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان .

﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ <sup>(١)</sup> فسبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ <sup>(٢)</sup>

أسمعت إلى قصة النملة مع أخواتها وكان لها إمرة على هذا النمل فوقفت موقف الناصح الأمين كمسئولة عن رعيتهما ؟ ثم أسمعت قبلها إلى قصة موسى ؟ ثم أسمعت إلى قصة سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ؟ إن فى قصص القرآن عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

قوله - تعالى - : ﴿ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا يدل .

(١) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

سليمان - عليه السلام - على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الانسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مسافة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان - عليه السلام - الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان - عليه السلام - يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفي القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق - وكان كثير الاعتراض على ابن عباس - قال له : قف يا بن عباس ، غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تحبر عن الهدهد أنه يرى الماء في تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة في الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع في الفخ فيصيده الصبى . قال ابن عباس ، لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما أجبتة ، ثم قال : ويحك ؛ إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك في شيء من القرآن أبدا . وقد ذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة أبي عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق ، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ، فروى ابن عساكر بسنده إلى أبي سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه ، فألح عليه شهورا فأخبره ان رجلين من أهل خراسان نزلا عند جمعة في قرية برزة وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه فأخرجاه مجامر وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار ، فاستبشرا بها عظيما ، وقالا : الحمد لله الذي لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر وأخذا الحية فأدخلها في عينها ميلا فاكتمحلا به ، فسألتهما أن يكحلانا ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لا بد من ذلك ، ووعدتهما بالدولة ، فكحلا عيني الواحدة اليمنى ، فحين وقع في عيني نظرت الى الارض تحتى مثل المرأة انظر ما تحتها ثم قالالى : سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى اذا بعدت عن القرية اخذاني فكتفاني وادخل احدهما يده في عيني ففقاها ورمى بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بى نفر ففك وثاقي ، فهذا ما كان من خبر عيني . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغساني ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان - عليه السلام - عنبر وقال محمد بن إسحق : كان سليمان - عليه السلام - إذا غدا إلى مجلسه الذي كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان - فيما يزعمون - يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ﴾ أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله : ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ﴾ قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى ينتف ريشه ، وقال عبد الله ابن شداد : نتف ريشه وتشميسه ، وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ أو لأذبحنه ﴾ يعنى : قتله . ﴿ أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير : ما خلّفك فقد نذر سليمان دمك ؟ فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم ، قال :

﴿لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين﴾ قال : نجوت إذا . قال مجاهد إنما دفع الله عنه بيره بأمه .

قوله - تعالى - : ﴿فمكث غير بعيد﴾ فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين ، إن وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴿ .

قوله - تعالى - : ﴿فمكث غير بعيد﴾ أى : غاب زمانا يسيرا ثم فاجأ سليمان بقوله : ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ أى : علمت بأشياء لم تعلمها أنت ، وإنما فاجأه بهذا القول ليثير فيه عامل الاصفاء واستمالة قلبه إلى قبول عذره ، وليبين خطر ما شغله .

قال صاحب الكشاف : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوق من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيهها على ان فى ادنى خلقه وأضعفه من احاط بما لم يحط به ، لتتأخر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفه فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة . وإنما قال : ﴿نبأ يقين﴾ حتى يعلم سليمان أنه خبر جدير بالمعرفة والبحث ، إذ التخمين لا تنبنى عليه أحكام ، ولم يدع الهدهد النبأ غامضا إنما فصله قائلا : مبينا فى قوله ثلاثة أشياء :

( ١ ) إن ملكتهم امرأة وهى بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

( ٢ ) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال الشيء الكثير الذى لا يوجد مثله إلا فى الممالك العظمى .

( ٣ ) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع اللائى والجواهر فى قصر كبير رفيع الشأن ، وفى هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رفقته ورفعة شأنه بين الممالك . وبعد أن بين الهدهد لسليمان شئون القوم الدنيوية شرع يبين شئونهم الدينية ، وما هم عليه من مخالفات جسيمة : من الشرك ، وعبادة غير الله ، فقال : ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون﴾ أى : وجدتها وقومها فى ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لارب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن وصدهم عن الطريق القويم الذى بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده . ثم فرع على ذلك القول : ﴿فهم لا يهتدون﴾ وإنما

فعل بهم ذلك حتى لا يعرفوا الطريق القويم ، وحتى لا يسلكوا الصراط المستقيم ، ولئلا يسجدوا لله رب العالمين ، الذى يخرج كل شئ نخبوء فى السموات والأرض ، فهو الذى ينزل المطر وينبت النبات ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينها وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ هو كقوله - تعالى - : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله - جل شأنه - : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(٢)</sup> ثم اسند الأمر المتعلق بالألوهية الحققة لله وحده لا شريك له فهو المستغنى عما سواه ، والمفتقر إليه جميع من عداه ، فوجب إفراده بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، فلا سجود الا له ، ولا خضوع الا له ، ولا تعظيم إلا له ، فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح باسم ربك الاعلى .

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ، ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم  
قوله - تعالى - : ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت ياأيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على واثنوى مسلمين ﴾ .  
﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ ﴾ أى : قال : سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول أم أنت من الكاذبين ؟ وهذا شأن الحاكم العادل إذا وصله نبأ عن قوم لا بد ان يتثبت ، ومن الخطأ الشنيع أن يصدر الأحكام دون ان يتبين ، عندئذ سيخطئ الحساب ويأتى بأورخم العواقب ، وإنما قال له ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ ولم يقل : ﴿ أصدقت أم كذبت ﴾ إيذانا بأن تلفيق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها - من غير ان يكون لها حقيقة تعبر عنها - لا يصدر إلا ممن مرن على الكذب وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد انه كاذب على أتم وجهه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .

(٢) الأيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ثم شرع يفعل ما يختبره به ، فكتب له كتابا موجزا ، وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال : ﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ أى : اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم ، واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونقاشهم فيه .

ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال : ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم ﴾ أى : وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب القاه إلى الملكة ، ففضت خاتمه وقرأته ، وجمعت أشراف قومها ومستشاريها ، وقالت تلك المقالة المشهورة ، وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إنباء إلى أمور :

- ( ١ ) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب إليهم .
- ( ٢ ) إنه اوقى قوة المعرفة فاستطاع ان يفهم بالسمع كلامهم .
- ( ٣ ) إنها ترجمت ذلك الكتاب فوراً بواسطة تراجمتها .
- ( ٤ ) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلا عن المرسل إليهم بعد اداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى فى مملكتها فقالت : ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على واثون مسلمين ﴾ .  
ونص هذا الكتاب على وجازته يدل على أمور :

- ( ١ ) إنه مشتمل على إثبات الاله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيماً .
- ( ٢ ) نهيهم عن اتباع أهوائهم ، وجوب اتباعهم للحق .
- ( ٣ ) أمرهم بالمجئء إليه منقادين خاضعين . وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

قوله - تعالى - : ﴿ قالت يا أيها الملأ أفتون فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

﴿ قالت يا أيها الملأ أفتون فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ . أى : قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا على فى أمر هذا الكتاب الذى ألقي إلى ، فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه . وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصيح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبدلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عوناً لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم

قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم . وربما كان في استبدادها برأيها وهن في طاعتها ، وتعمية في تقدير أمرهم ، وكان في مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم في جوابهم : ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ على ما لها من عقل راجح وأدب جم في التخاطب وعلى هذا النهج سار الاسلام ، فقد قال - سبحانه - لنبيه : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ <sup>(١)</sup> وقد مدح - سبحانه - صحابة رسوله بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ . <sup>(٢)</sup>

فأجابوا عن مقالها :

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظر ماذا تأمرين ﴾ أى : قال الملأ من قومها حين شاورتهم في أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة في القتال ، إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن امر القتال والسلم مفوض إليك ، فانظري وقلبي الرأي على وجوهه ثم مرينا نأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم في غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ أى : قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمارتها وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والاجلاء عن موطنهم ، أو قتلهم تقتيلا ، ليم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم في النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا ، وفي هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما في الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عازمت عليه من المسألة بقولها : ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة . بم يرجع المرسلون ﴾ أى : وإني سأرسل إليهم هدية من نفائس الأموال لأتعرف حاله ، واختبر امره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا ان نتبعه على دينه . وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفي الحديث : ﴿ تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء ﴾ <sup>(١)</sup> ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض تولد في قلوبهم الوصالا  
وتزرع في الضمير هوى وودا وتكسبهم إذا حضروا جمالا

قوله - تعالى - : ﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ . لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولآلىء وغيرها مما يقدمه الملوك

( ١ ) انظر اتخاف السادة المتقين : شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣٤٦ من حديث عائشة رضى الله عنها فيما رواه الطبراني ولكن بزيادة « وهاجروا تورثوا أبناءكم مجدا » .

العظام . قال سليمان للرسول : أتصانعونني بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ابداً إن الذي أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء ، والمال الوفير ، خير مما أنتم فيه ، فلا حاجة لي بهديتكم ، وليس رأيي في المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دوني ، فارجع بما جئت به إلى من أرسلك ولنأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتونى مستسلمين منقادين .

قوله - تعالى - : ﴿ قال ياأيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلون أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

وهكذا أبى سليمان ، ان يقبل المال ؛ لأنه لا مساومة على دين الله ووحدانيته ، وأصحاب الرسالات لا يرضون الدنية في دينهم ، فهم القمم العوالى والجبال الراسيات التى لا تستطيع الدنيا ان تقتحم عليهم تلك الأسوار العالية ، ليس في العقيدة أنصاف حلول . إن المال الذى قدمته بلقيس - ملكة سبأ - كانت قد ظنت بتقدمه أنه سيخضع سليمان وبلين من قلبه ويجعله في حالة انعدام وزن من أمره وتنتقل القضية بهذا المال من مجال العقيدة الى المناورة والمساومة على المزيد لكن أنبياء الله كما وصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ - وصفوا كذلك بالفطنة ، والفطنة : حضور البديهة وسرعة الادراك وقوة الحجة . كذلك وصفوا بالعصمة ، فقد حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ، لذا فإن سليمان أصدر إنذارا حاسما لا تردد فيه ولا رجوع عنه : ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ هذه عزة النفس وكرامة الدين وعظمة الرسالة . ثم أضاف : ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ثم يعقد سليمان جلسة طارئة يلقي فيها هذا السؤال على الملأ : ﴿ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ .

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئا . وبعثت إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعوننا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد والؤلؤ فجعل في سبعة أبيات بعضها في بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكي فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف قبيل من ملوك اليمن ، تحت يدي كل قبيل ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل



يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ . ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا عمل خارق عظيم ان يأتوا بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة .

لقد قال لها رجالها وعظماء قومها : ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدَ ﴾ فأراد سليمان أن يثبت لها أن قوة الله فوق كل قوة ، وإرادته فوق كل إرادة ، وما كان الله ليعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليا قديرا . سبحانه كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾<sup>(١)</sup> لقد قال لها الملأ من قومها : ﴿ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ وكانوا في هذا القول من الغافلين عن الحقيقة العليا : ﴿ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته . وتقديست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من علة . كيف يفوضون إليها الأمر ؟ لقد نسوا أو تناسوا أن للكون إله يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء .

فيا بن آدم لا تخف سلطان أحد مادام سلطان الله باقيا ، وسلطان الله دائم لا يزول أبدا . . لقد أراد نبي الله سليمان أن يلقنها دروسا في العقيدة تتمركز في سويداء قلبها ؛ ليعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

قال عفريت من الجن ( أى : مارد ) : ﴿ أَنَا أَتَيْكَ بِهِ ﴾ ( أى : بعرشها ) ﴿ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴾ وقد فصل الأئمة هذا المقام : فقال ابن عباس - رضى الله عنه - يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدى وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . قوله : ﴿ وَإِنِّي عَلَيْهِ لِقَوَى أَمِينٌ ﴾ أى : قوى على حمله والأتیان به ، أمين لن تمتد يدي إليه بسوء ، بل سأتى به كاملا غير منقوص ، إذ الأمانة ضد الخيانة . ومعلوم أن العفريت مارد . قد يتجاوز الحدود ، لذلك فقد ذكره هاتين الصفتين : القوة والأمانة حتى لا يتطرق الشك إلى قلوب السامعين ، لكن سليمان قال : أريد أعجل من ذلك . ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وللمفسرين في الذي عنده علم من الكتاب أقوال : قال ابن عباس : هو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء . وكان صديقا يعلم

(١) الآيات ١٥ - ١٧ من سورة فاطر .

(٢) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود .

الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنا من الانس واسمه آصف .

ويرى الشيخ المراغى - رحمه الله تعالى - ان الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه : قال الشيخ فى تفسيره لهذه الآية : أى : قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا أحضره قبل ارتداد طرفك إليك . وقد كان كما قال .

ويقول العلامة ابن كثير - رحمه الله تعالى - فى قوله : ، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴿ أى : ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، فذكروا أنه امره ان ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله - تعالى - قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والاكرام . وقال الزهرى : قال : ياإلهنا وإله كل شئ إلهنا واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قال : فمثل بين يديه . وهكذا طويت المسافات الشاسعة ، وقطعت مئات الأميال من اليمن إلى القدس بقدرة من لا يغفل ولا ينام ، وبعظمة من يقول للشئ : كن فيكون ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ <sup>(١)</sup> نعم لقد اتى بالعرش ما بين طرفه عين وانتباهتها ، وسبحان من يقول : ﴿ إنا كل شئ خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴿ <sup>(٢)</sup> ومن يقول : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شئ قدير ﴿ <sup>(٣)</sup> ومن يقول : ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴿ <sup>(٤)</sup> ومن يقول : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿ <sup>(٥)</sup> .

سبحانك ربى :

ولا الأمر أمرى ولا التقدير تقديرى  
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى  
ولا الشئون التى تجرى  
تدبيرى  
احاط بى علمه من قبل تصويرى

فيا بن آدم : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت باستعن بالله .

سهرت أعين ونامت عيون فى شئون تكون أو لا تكون  
إن ربا كفالك بالأمس ما كان سيكفيك فى غد ما يكون

فاجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

إذا أصابتك ضراء فقل : يارب ، وإذا تنكر لك الأصدقاء فقل : يارب ، وإذا عزَّ الدواء فقل :

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٢) الأيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٧٧ من سورة النحل .

(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .

(٥) الآية ١٨ من سورة الأنعام .

يارب ، وإذا قل ناصرك وكثروا واترك فقل : يارب ، وإذا نمت على فراش المرض فقل : يارب ، وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل : يارب .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصب  
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعو من جبل الوريد وأقرب  
ماذا قال سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده ؟ هل استطاع الغرور أن يقتحم عليه  
أسوار نفسه المنيعه ؟ فقال بلسان الفخر الكاذب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمنت كلمات من به صمم  
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟  
هل دخل الكبر نفسه العظيمة فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفون ؟  
هل هاجت ثعابين الغرور فى قلبه فقال :

إن لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ؟

هل قال للرعية : والله لا حزم منكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ؟ لا . ثم  
لا . ثم لا . . لقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . وبقلب ذاكر . وفؤاد شاكِر : ﴿ هذا من  
فضل ربى ليلونى أشكر أم أكفر ﴾ إنه منطق الأنبياء ، إنها صفة الصفوة ولغة المصطفين الأخيار .

قوله - تعالى - : ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربه غنى كريم ﴾ هذا من قبيل  
قوله - تعالى - : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ <sup>(١)</sup> . وكقوله - جل شأنه - : ﴿ ومن  
عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون ﴾ <sup>(٢)</sup> . . فالله هو الغنى عن العباد وعبادتهم ، كريم فى نفسه وإن لم  
يعبده أحد ، فإن عظمت له ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ وإن تكفروا أنتم ومن فى  
الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد ﴾ <sup>(٣)</sup> وفى صحيح مسلم : ( يقول الله - تعالى - : يا عبادى ؛ لو أن  
أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا .  
يا عبادى ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من  
ملكى شيئا ، يا عبادى ؛ إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد  
الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ) <sup>(٤)</sup> .

قال - تعالى - : ﴿ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت  
قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدّها ما كانت تعبد من  
دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبتة لجة وكشفت عن ساقها قال

(١) الآية ١٥ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الروم .

(٣) الآية ٨ من سورة إبراهيم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ رقم ٢٥٧٧/٥٥ من  
حديث أبى ذر : « يا عبادى إلى حرمت الظلم على نفسى . . فهذا جزء حديث .

إنه صرح بمرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿١﴾  
أراد سليمان - عليه السلام - أن يختبر ذكاء بلقيس وحصافة عقلها ورجاحة رأيها ، فلما جرى له  
بالعرش قبل أن تأتى إليه قال : ﴿ نكروا لها عرشها ﴾ أى : غيروا فيه بعض معاملة . قال المفسرون فى  
هذا التنكير أقوالاً :

قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحر جعل  
أصفر ، وما كان أصفر جعل أحر ، وما كان أخضر جعل أحر ، غير كل شيء عن حاله . وقال  
عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا .  
ولقد بين سليمان الحكمة من هذا فقال : ﴿ تنظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما  
جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ ﴾ لقد ألقت بلقيس نظرة فاحصة على العرش . فلم تعرفه ، وفى نفس  
الوقت لم تنكره ، فلم تقدم على أن هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن  
غير وبدل ونكر فقالت : ﴿ كأن هو ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا دليل على أنها كانت صائبة الرأى  
ثاقبة الفكر متوقدة الذكاء . وقيل : إنها شبّهت عليهم كما شبّها عليها . فلما كان السؤال ب : أهكذا  
عرشك ؟ قالت كأنه هو . ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت : إنه هو . أما قوله - تعالى - : ﴿ وأوتينا  
العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ فقد قال مجاهد : إن هذه العبارة من كلام سليمان ، أى : الله آتانا  
العلم بأنها ستسلم ، وعلمنا ذلك قبل أن تعلنه علينا ، وكنا مسلمين لله رب العالمين .

وقال غيره : إن هذه العبارة من كلام بلقيس ، كأنها تقول لسليمان لما نكر لها عرشها : لست فى  
حاجة إلى كثير من المعجزات ، فقد أوتينا العلم بنبوتك وصدق رسالتك ، فقد قامت الأدلة على ذلك -  
فقد كان الهدهد آية من آيات الله دلت على صدق رسالتك . وما سمعناه عنك من معجزات أخرى  
كتسخير الريح والشياطين والطير ، وكنا مسلمين . وما صدنا عن الاسلام إلا أننا نشأنا فى بيئة تعبد  
الشمس فتكيفنا بتلك البيئة وتقليد الآباء الأقدمين .

قال تعالى : - ﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ أى : ومنعها من الاسلام ما كانت تعبد  
من دون الله ، ولو أنها فتحت أمامها نوافذ المعرفة - وأزيل عنها التقليد الأعمى لأسلمت من قبل أن يأتى  
الهدهد بخبرها ، لكنها كانت من قوم كافرين جاحدين مقلدين . والتقليد شر ما يبتلى به الانسان .  
﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم  
إلى عذاب السعير ﴾<sup>(١)</sup>

قوله - تعالى - : ﴿ قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبتة لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح  
مرد من قوارير قالت ربى إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ :  
روى ان سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى  
من تحته الماء ، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس فى

صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقها لثلا تبتل أذيالها - كما هي عادة من يخوض الماء - فقال لها سليمان : إن ما تظنينه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج ، فسترت ساقها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله ، وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسي بالثبات على ما كنت عليه من الكفر ، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شيء ، وأخلصت له العبادة .

### الاسلام دين الأنبياء

قالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فقولها : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين دليل ساطع وبرهان قاطع وحجة بالغة على أن دين الأنبياء هو الاسلام . فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : « لا إله إلا الله » ، ونظرة في كتاب الله الكريم تعطيك هذا المعنى ، فكل الأنبياء آمنوا بالله ربنا وبالاسلام ديننا . قال نوح - عليه السلام - : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال إبراهيم : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ <sup>(٢)</sup>

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهنا واحدا ونحن له مسلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال - جل شأن - : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ قل أنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال يوسف : ﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفى مسلما وألحقني بالصالحين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ <sup>(٦)</sup> وقال الله - تعالى

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .

(٣) الأيتان ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) الآيات ١٣٦ - ١٤١ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٨٤ من سورة يونس .

للمسيح بن مريم - : ﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال - تعالى - : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال - تعالى - : لآمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال لأهل السموات والأرض : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ <sup>(٤)</sup> وحذر من مخالفة ذلك الحكم مبينا عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة فقال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ <sup>(٥)</sup>

### تعقيب

بعد ما مضى من القصص في هذه السورة المباركة يحسن بنا أن نذكر شيئاً عن القصة في القرآن من كتاب ( تذكرة الدعاة ) للشيخ البهي الخولي ، قال - رحمه الله تعالى - :

تمتاز القصة بأنها تصور نواحي الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وإتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهيجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعاً بذوى النفوس المظلمة ، والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها . فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بنسق القصصى البارع استشرافاً لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التي يتوصل بها الداعية لبلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ؛ فهي بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان ، وترفع نبض المشاعر . . . وهي بالميزة الثانية : - ميزة التنبيه والتقبل - تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك - يا أخى - فإنه من سنة الله والله - عز شأنه - قد سنه في القرآن الكريم ، فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتاً له ولأتمته على الحق : ﴿ وكلا نقص

(١) الآية ١١١ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴿١﴾  
وخير القصص كله : قصص القرآن الكريم شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما  
فيه ، لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الاسلامية ،  
فكانت أوفى وأكمل الحضارات ..

### مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلاً قصة سليمان ومملكة سبأ ، ولا تؤاخذني إن قصر بي العجز عن الاحاطة  
بمراميها القيمة البعيدة .

إن هدهدا كشف لسليمان - عليه السلام - ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم  
سليمان أن يسلموا لرب العالمين ، فحاولوا إسترصاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئاً ، فقد  
رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنوداً لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه  
مسلمين .

وفي هذه القصة يقرر الله - تبارك وتعالى - القواعد الأصلية : المادية والروحية ، التي لا بد منها لقيام  
الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتي :-

#### ( ١ ) قوة وعلم :

يقوم الملك العظيم على دعائتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم .  
فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الأسلحة والآلات .  
والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة  
لتسخير ما يمكن تسخيره منها في منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله - عز وجل - .  
هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله - عز وجل - في مواضع كثيرة من كتابه : ﴿ قالوا  
أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ ! قال إن الله اصطفاه عليكم  
وزاده بسطة في العلم والجسم ، والله يؤت ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾ <sup>(٢)</sup> ولكن الله - عز  
وجل - لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظري لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكاً عملياً ، ودولة  
نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان ، في معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على  
بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال - ولن نبلغه - فلنحقق منه ما تتسع به الطاقة .

#### القوة في قصة سليمان :

إن الله - عز وجل - يريد لنا ملكاً عملياً ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ، ثم أوردنا محققة في  
ملك سليمان ؛ لنكون عمليين في بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين ، فما القوة هنا ؟ وما كثافة  
الجند ؟ اقرأ معي قول الله - عز وجل - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم ﴾ من  
كثرتهم وتزاحمهم ﴿ يوزعون ﴾ : يدفعون حفظاً لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم

( ١ ) الآية ١٢٠ من سورة هود .

( ٢ ) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

التأخر ولا يتأخر المتقدم ، وهذه الجنود الكثيفة التي لم يعرف لها مثل في تعدد اجناسها تبعث الرعب في جميع الآفاق ، حتى ليدخل الوجل في قلوب النمل فضلا عن غيره ، فإذا ﴿ أتوا على واد النمل قالت غملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ . ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، وأنها لا يقف لها شيء في الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ . أرأيت - يا أخي - الجند مصورا هذا التصوير الرائع في مثل هذا الكلام اليسير الموجز ؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحي الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إلقاؤه الرعب في قلوب المخلوقات ، حتى اليسير منها والتي لا قصد للجنود إليها ، وكونه جندا غالبا مظفرا على أعدائه في كل المواطن ، فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم ! العلم في قصة سليمان :

ثم أين العلم في هذه القصص ؟ واين رسالته التي أداها للدولة ؟ اقرأ معي قول الله - عز وجل - ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالوا : الحمد لله الذي فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان ﴾ ميراث نبوة وعلم ﴿ داود ﴾ وهذا العلم الذي اشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات ، وسائر أنواع العلم في قوله : ﴿ يا أيها الناس علمنا منطق الطير . وأوتينا من كل شيء . إن هذا هو الفضل المبين ﴾ .

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه في حوارهِ المعروف مع الهدهد ، وتراه كذلك في فهمه ما قالت النملة التي أُنذرت ذوبها بجنده ليدخلوا مساكنهم . وأما ما عدا اللغات من اى أنواع العلم فهو قوله : ﴿ وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين ﴾ .

ونرجو ان نتأمل قول الله - عز وجل - : ﴿ إن هذا هو الفضل المبين ﴾ وهذا الفضل هو العلم معترفا به على لسان سليمان الشاكر الذاكر - عليه السلام - . وأما ثمرة هذا العلم العملية في الدولة ﴿ فهي السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة ، ليسخرها أهله في منافع الدولة ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يلي :

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان - عليه السلام - ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لا بد أخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة في وفد كبير ذاهبة إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد - عليه السلام - ان يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للايمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : ﴿ يا أيها الملأ أياكم يأتي بي بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده أمين . قال الذي عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ﴾ أرأيت الذي عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والامام الفاضل والنبى الصالح ؟ .. وهذا الذي عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على



سليمان ليكونوا في خدمة ملكه ، فلما تحقق فضل الله - بتسخير هذا العلم عمليا - اعترف به فقال : ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ .

وفضل الله كما نراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ في هذه السورة : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وتقرأ في سورة أخرى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد ﴾ (١) فسبحان الله العظيم ، فسخر الاسرار للعالمين في الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٢) وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهدا لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهي وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة ، لملك سليمان في آيات أخرى : ﴿ وسليمان الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ﴾ (٣)

هذا شأن العلم والقوة في هذه القصة ، وقد شرحت لنا بأوفى بيان وأكمله ورسالة . ( ٢ ) ورسالة :

ولابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها فما هذه الرسالة ؟ هل هي اتساع الملك ، وكثرة المستعمرات والاستيلاء على أراضي الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك ان تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد في الأرض رسالة مجيدة ؟ ان علم الله أرفع من ان يسخر لمثل هذه المخازي والمآسي ، وإن الله - عز وجل - أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الأثمة ، إن الغاية الفاضلة التي يجب ان تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها غير نازرة إلى شيء سواها ، هي : توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الايمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ، يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية ، والعملية ، التي تكفل استقرار الناس في ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتي هي أحسن فيها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية فلتتدرج بالتي هي أحسن أيضا ، وليس أحسن في هذه الحالة من القوة المسلحة فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا ، وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله حتى نطهر الأرض من رجسهم : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (٤) ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ (٥)

إنتهى المجلد الرابع والخمسون ويليه المجلد الخامس والخمسون مبدوءا بعبارة ﴿ تلك هي الغاية التي يجب ان تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ) .

(٤) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

(١) الآية ١٠ من سورة سبا

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ١٢ ، ١٣ من سورة سبا .

## بسم الله الرحمن الرحيم

تلك هي الغاية التي يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنه عاشوا لها : لتطهير الأرض من الرجس .  
ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه :

﴿ كُتِمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .  
وأثنى على القائد الصالح القوي صاحب سورة الكهف ، الذي آتاه من كل شيء سببا ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم ﴿ قلنا ياذا القرنين ، إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾ (٢) . فوضع لقوته دستورا صالحا ، يعذب عليه أو يشيب . ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وستقول له من أمرنا يسرا ﴾ (٣) .

وهذا حسن في موضعه بالغ درجة الحسن ، لأنه الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ، أما حين أراد تصويره عمليا ، فقد أقامه لنا في قصتنا الخالدة ، في منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم - وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدت وأقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾

وهذا ضلال في العقيدة ، وضلال في العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها إلى شر المصير . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . . وبعد أن تبين الهدهد فساد هذه الدولة وعقيدتها وأعمالها ، استمر في بيان العقيدة الصالحة التي يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفرادا وجماعات : ﴿ ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ونرى سليمان عليه السلام ، وهو رئيس الدولة الأعلى ، يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق ما يحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز

الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلموا على واثقون مسلمين ﴾ ويصر سليمان على أن يترهم على حكم الإسلام ، فيهدد ما يهدد بالقوى المسلحة الجبارة . حتى تقول ملكتهم في النهاية :

﴿ رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

(١) آل عمران آية رقم ١١٠

(٢) الكهف آية رقم ٨٦

(٣) الكهف الآيتان ٨٧ ، ٨٨

ألا ترى يا أخى أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقا عاملة لهذه الغاية الكريمة ، أولا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة في النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه .  
(٣) إيمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شئ :

والحقيقة الثالثة في هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة ، أن يكون رئيسها الأعلى عالما بغايتها ، مؤمنا بها ، عاملا جهدها .

هذه واحدة والأخرى أن يكون يقظا ومتنبها ، متعهدا لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازما في محاسبة المسئولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق في قوى الدولة وانفرط عقدتها . وهذا كلام لا غبار عليه ولا تردد في قبوله ، فلا نطيل في الإستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتزمه مصورا في قصتنا أبداع تصوير . ﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ ﴾ ... ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذى يعنى بتفقد الطير ، لا يفوته أن يتفقد ماهو أهم منه ، وذلك إستقصاء كامل في رعاية نواحي الدولة ، والعناية بأمرها ... ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته الحساسة إذ يفطن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له ، فيقف متسائلا ﴿ مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ وهذا مثل أعلى في يقظة الحس ، من العسير إن لم يكن من المستحيل على بشر عادى أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبي من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى في اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا ، وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرنى بربك ، ماقيمة هدهد في هذه الجيوش الجرارة ؟

ما غناء هذا الهدهد إذا حضر وما مضرتة إذا غاب ؟ .. هو القائد الحكيم يا أخى يرى أن لكل شئ رسالة صغر أو كبر . ولكل جندى عملا لا يؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق في العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ، ومن هنا يعظم في صدر القائد الحساس مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما في مؤاخذه أصحابها مؤاخذه تحمل العذاب الشديد ، وتمتد إلى عقوبة الإعدام ﴿ لأعذبه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ وفى المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان ، هذا المقال ، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحاسب العسير الحازم على ما قد يبدو تافها ، لا يمكن أن يفرط في المؤاخذه على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال ﴿ سنتنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ .

وأما إيمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ، فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شيء لله . وحسبك منه انصرافاً عن كل ماعدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأمله أصدق تصوير ، فلما جاء سليمان قال متهمكها : ﴿ أتمدونن بمال ؟ فما آتاني الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف ما يشبه ذلك : ﴿ قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض - فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً . قال : مامكنى فيه ربي خير - من المال - فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ (١) .

( ٤ ) إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة :

ورابعة نقلها من هذه القصة ، ولا بد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية - يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ، وكل مامضى مما قرناه يصبح عديم الجدوى .

- إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ، وأنت ترى الهدهد ، يعترز بواجبه ، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطباً سليمان ، وهو حاكم الجن والإنس :

﴿ أحطت بما لم تحط به ! وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إن وجدت امرأة تملكهم و . . الخ ﴾ ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة ، أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه فهو لا يعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن .

ياأيها الناس ، ياأيها الشباب ، اعرفوا واجيبكم . واسعوا فى صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لا يساوى رجالها هدهدا هى أمة من الغناء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال هى أمة مقعدها فى السماء فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا فى هذه القصة يأخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه فى دولة سبأ ، لا يخلق إلا رجالاً لاعقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس ، لتستشيرهم فيها نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : ﴿ الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ وماجمعتهم لهذا ، وإنما جمعتهم لتقول لهم . ﴿ ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ فلم يسعفوها برأى تستأنس به ، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة . ولا تبنيه إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان .

نحن فى هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لا تقوم دولة عظيمة إلا بها .

(١) قوة وعلم (٢) رسالة مجيدة (٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقدته - في انتباه - كل شيء  
(٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة إخلاصهم لواجبهم .. فخبيرى يأخى ، لو أن قصصيا من  
الأفذاذ النوابع ، أراد تصوير هذه المعاني الجليلة ، أكان يعرضها عليك في مثل هذه القوة ، وفي مثل  
هذا الوضوح ، الذى يفوق ضوء الشمس في شدة جلالته ، أو كان يعرضه عليك في مثل هذا القدر  
الوفير من البيان الرائع المعجز !! .

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن أحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مراعى  
الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعاني والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع  
من أسرار الإعجاز ، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر .. لا يحيط به إلا الله  
الذى خلق كل شيء وأحاط بكل شيء علما ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(١)</sup> وصدق الله  
العظيم : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ولو كان  
بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٢)</sup> .

أقول : لسنا بصدد شيء من إثبات هذا الإعجاز القرآنى وإنما بصدد طبيعة القصة ، فى عرضها  
للمعاني الدقيقة عرضاً مصوراً فى حوادث عملية . ونحسب أن قد قمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى  
بالإقناع لما قصدنا إليه .

والآن نسوق إليك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه فى سورة النمل :  
﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً ، وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث  
سليمان داود وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ،  
وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت  
نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من  
قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ،  
وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : ما لى لأرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ .  
لأعذبه عذاباً شديداً ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال : أحطت بما لم  
تخط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش  
عظيم . وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن  
السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون  
وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال تنتظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب  
بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم إنه  
من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعملوا على واثقون مسلمين . قالت يا أيها الملأ أفتتون فى  
أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك

فأنظري ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ! فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال : يا أيها الملأ أئكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصددها ماكانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها أدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال : إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴿ .

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار وسوء عاقبته على الذين يحل بهم فى قوله تعالى :

﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ وإن هذا ديدهم فى كل زمان ومكان ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ فلا ينفكون عنه . وترى فطنة بلقيس ، وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها ، واختبار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال وإلا كانت غبية . وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج ، وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه - فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ، فإذا تبين لها ذلك كان حقا عليها - وهى العاقلة الذكية - ألا تتردى فى مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة . .

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة . . ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس : ﴿ وإنى مرسله إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ فقوها : ﴿ فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ يضع يدك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه . . وتلمح هذا الذكاء أيضا حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروه ، فغيروا معاملهم بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها فى بلادها والمسافة بعيدة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل ليس عرشى ، لأنها تراه بكثير من معاملته وصفاته . . ولم تقل لا أدري لأنه غباوة وبلادة ذهن ، فخرجت من هذا السؤال المحرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التى ماكان يصلح للموقف غيرها . . فقالت : ﴿ كأنه هو ﴾

وتر فى القصة غير هذا من اللفتات اللبقة الدقيقة ، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال . فعليك بقصص القرآن ياأخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك ، فإنه يسعفك بما لايسعفك به قصص آخر .

## \* صالح مع قومه ثمود \*

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَنِلْكَ بِبُيُوتِهِمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَنَتَوْنَ ﴿٥٣﴾

معاني المفردات : ( يختصمون ) يتنازعون ( اطيرنا ) تطيرنا أى تشاءمنا والطيرة تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يميناً أو شمالاً ( تفتنون ) تمتحنون ( رهط ) الجماعة ( لوليه ) من له ولاية دمه ( مهلك ) هلاك .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ هذا أمر بتوحيد الألوهية ، وهو أفراد المعبود بالعبادة ، دون أن يشرك به ، كما قال سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) وتلك رسالة الأنبياء جميعاً ، اشتملت على هذا المبدأ الوطيد ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ وَإِلَى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ (٣) .

وقال : ﴿ وَإِلَى ثُمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من

(١) سورة الكهف آية رقم ١١٠

(٢) سورة هود الآيتان ٢٥/٢٦

(٣) سورة هود الآية ٥٠

الأرض واستعمركم منها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴿١﴾ .  
 وقال سبحانه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا  
 المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم مخطط ﴾ (٢) وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا  
 من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣) وقال عز من قائل : ﴿ واسأل من  
 أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قال  
 الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا  
 إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمتم به كافرون ﴾ (٥) .  
 قوله تعالى : ﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أى لم تستعجلون العذاب ، وكان  
 الواجب عليكم بمقتضى عقولكم أن تطلبوا الهداية والرحمة ، قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه  
 بالخير وكان الإنسان عجولا ﴾ (٦) .

لقد قالوا - وهم كفار مكة - ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من  
 السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٧) .

وكان المنطق السليم يقتضى أن يقولوا : فاهدنا إليه ، لكنهم لما ملكت قلوبهم ظلما وعلوا لم يهتدوا  
 صراطا مستقيما ، ولذا قال صالح لقومه : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ أى كان عليكم أن  
 تطلبوا المغفرة من الله تعالى ، ليرحمكم بدلا من أن تطلبوا العذاب ، فإن الله هو التواب الرحيم .  
 قوله تعالى : ﴿ قالوا اطيننا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾  
 أى مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحدا منهم  
 سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارا  
 عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما  
 طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٨) .

وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من  
 عندك . قل كل من عند الله ﴾ (٩) . أى بقضائه وقدره ثم قال تعالى بعد ذلك ( فمال هؤلاء القوم  
 لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ وقال سبحانه في سورة يس ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها

(١) سورة هود الآية آ ٦١

(٢) سورة هود آيه رقم ٨٤

(٣) سورة الأنبياء آية رقم آ ٢٥

(٤) سورة الزخرف آية رقم آ ٤٥

(٥) سورة الأعراف آية رقم آ ٧٥

(٦) سورة الأسراء آية رقم آ ١١

(٧) سورة الأنفال آية رقم آ ٣٢

(٨) سورة الأعراف آية رقم آ ١٣١

(٩) من النساء آية رقم آ ٧٨



المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ماأنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وماعلينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجنكم ولیمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أثن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴿١﴾ .  
وقال هؤلاء لنبيهم صالح عليه السلام ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أى الله يجازيكم على ذلك .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .  
قال تعالى : ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴿٢﴾ كما قال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وكان في المدينة ﴾ أى مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أى تسعة نفر ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبارهم ورؤساءهم . وهؤلاء هم طغاة البلاد وجبابرهم ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وماأرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ ﴿٥﴾ .  
قال العوفي عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم ، قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك - وكان من هؤلاء التسعة - قدار بن سالف عافر الناقة ، أى الذى يأشر ذلك بيده .

قال تعالى : ﴿ فننادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ ﴿٦﴾ وقال سبحانه :  
﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولايخاف عقباها ﴾ ﴿٧﴾ .

ووجوه الإفساد في الأرض كثيرة لا تحصى فقول الله تعالى : ﴿ يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يفيد أن إفسادهم أكثر من أن يستقصى ، فكل المعاصي إفساد ، سواء أكانت في العرض ،

(١) سورة يس الآيات رقم آ ١٣ إلى آ ١٩

(٢) سورة الأنبياء الآية رقم آ ٣٥

(٣) سورة الفرقان الآية رقم آ ٢٠

(٤) سورة الأنعام الآية رقم آ ١٢٣

(٥) سورة سبأ الآية رقم آ ٣٤

(٦) سورة القمران الآية رقم آ ٢٩

(٧) سورة الشمس الآيات من ١١ - ١٥

أم المال ، أم النفس ، أم العقل ، فإن وجوه الفساد لا تكاد تقف عند حد ، قال تعالى في صفة أهل الفساد : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهاد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال عز من قائل : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال جل جلاله : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال جل جلاله : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة . فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم .

ولأئمة التفسير في هذه الآية الكريمة أقوال :

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين . وقال قتادة : توثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينا هم معانق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهلكهم .

قال العوفي عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا : حين عقروها لنبيتين صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ماشهدنا من هذا شيئا ومالنا به من علم فدمرهم الله أجمعين . وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ما عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان

(٤) سورة القصص الآيات ٧٦ ، ٧٧

(٥) سورة القصص آية رقم ٨٣

(٦) سورة الأنفال آية رقم ٧٣

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ - ١٦

(٢) سورة البقرة الآيات ٢٠٥ - ٢٠٦

(٣) سورة القصص آية رقم ٤

صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ، كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا لبيتوه في أهله ، فدفعتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم في ثلاث ، فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم .  
قال عبد الرحمن بن أبي حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ (١) .

قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث ، وكان لصالح مسجد في الحجر عند شعب هناك يصل في فيه ، فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا ، فقالوا إذا جاء يصل قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم ، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم في ذلك الغار ، فلا يدري قومهم أين هم ولا يدرون ما فعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ، ثم قرأ ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أى فارغة ليس فيها أحد ﴿ بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

المكر من العبد حيلة سيئة وخداع ، والمكر من الله تعالى بطش انتقام ، قال سبحانه : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ﴾ أى خداعهم ﴿ أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ قوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ دليل على أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل ، بل إنه ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال سبحانه : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئ لهم إن كيدى متين ﴾ (٢)

وقال عز من قائل : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾ (٣) .

إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها إقرأ قوله جل شأنه : ﴿ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ (٤) .

(١) سورة هود آية رقم ٦٥

(٢) سورة القلم الآيتان رقم ٤٤ / ٤٥

(٣) سورة إبراهيم الآيتان رقم ٤٢ / ٤٣

(٤) سورة يوسف الآية رقم ١٥

وقال عز من قائل : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾ (١).

وقال عز من قائل : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾ (٢).

وقال سبحانه وتعالى ﴿ أم أبرموا أمرا فإننا مبرمون . أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بل ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ (٣).

وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (٤).

وقال عظمت حكمته : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ (٥).

وقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ بجزاء ما كذبوا وخدعوا وضلوا وأضلوا ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآيتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (٦).

﴿ فتلک بیوتهم خاویة ﴾ أى ساقطة سقطت سقفوها وعروشها ، كما أن جذرانها قد هوت على سقفوها أمست خرابا وأفنى الموت أهلها ، أصبحت تنعق فوقها البوم والغربان بسبب ظلمهم وطغيانهم ، فالظلم لا يدوم وإذا دام دمر ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، إن في ذلك لآية وعبرة لقوم يعلمون ، أما الغافلون فهم كالأنعام بل هم أضل لا يهتدون سبيلا ولا يعرفون للحق طريقا .

﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قال تعالى : ﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين ﴾ (٧).

وقال سبحانه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب

المون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (٨).

ثم كانت نهاية المطاف أن وقف نبي الله صالح وقال : ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (٩).

(١) سورة القصص الآية رقم ٩

(٢) سورة القصص الآية رقم ١١

(٣) سورة الزخرف الايتان رقم ٨٠ / ٧٩

(٤) سورة الأنفال الآية رقم ٣٠

(٥) سورة الاعراف الايتان ٩٥ / ٩٤

(٦) سورة النبا الايات ٢٧ - ٣٠

(٧) سورة يونس آية ١٠٣

(٨) سورة فصلت الايتان ١٧ ، ١٨

(٩) سورة الاعراف الآية رقم ٧٩

لوط عليه السلام وقومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ  
شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ \* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا  
أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ  
قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٥٨﴾

### معاني المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة المنكرة ، والمراد بها إتيان الذكور في أدبارهم . قدرناها : قضينا أنها  
من الغابرين ، أى الهالكين فى العذاب . يتطهرون : أى يتزهدون أنفسهم ، ويتباعدون عما نفعله  
ويزعمون أنه من القاذورات

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ أى : ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه - أهل سدوم - فقال لهم  
مؤثبا وداعيا :  
﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ أنكر عليهم إتيان الفعلة المتناهية فى الفحش ، حتى كأنها  
المعروفة به وحدها ، ومن العجيب أنهم يأتونها وهم يبصرون ، ويعلمون أنها فاحشة وماكانوا يستترون  
حين فعلها ، بل يبصرون وينظرون بعضهم لبعض عتوا وتمردا ، واستكبارا فى الأرض وفسادا .  
أئنكم لتأتون الرجال فى أدبارها ؟ متجاوزين النساء وهن محل ذلك العمل وخلقن من أجله ،  
تأتون ذلك الفعل المنكر للشهوة فقط لا لشيء آخر ، وهذا تفسير للفاحشة التى ذكرت أولا ، بل أنتم  
قوم تجهلون حقيقة ماخلقت المرأة له وتجهلون أنفسكم ومكانكم فى المجتمع الإنسانى ، وتجهلون خطر ما  
أقدمتم عليه ومقدار دعوة نبيكم الذى أرسل رحمة لكم ، فما كان جواب قومه على هذا إلا أن قالوا :  
أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب يأمرهم بإخراج لوط ومن آمن به من  
القرية ، لأنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب العاجب . من الناس من ينقمون على إخوانهم ، لأنهم  
آمنوا بربهم . ودعوا غيرهم إلى الدين الحق .

ولكن هل يغفل الحق-تبارك وتعالى-أمر هؤلاء وهؤلاء ؟ لا . أبدا . . لن يكون ذلك ، فهذا لوط  
مع قومه العتاة العصاة المتجبرين ، قد نجاه الله وأهله والذين آمنوا معه إلا امرأته ، فقد قضى عليها أن

تكون من الهالكين ولم ينفعها قربها من لوط مادامت تستحق الهلاك لكفرها ، وأمطر الله على العصاة المتكبرين مطر السوء ، وأبادهم وخسف بهم الأرض ، فساء وقبح مطر المنذرين ، وتلك عاقبة العصاة الفاسقين .

### \* الإيدز عقاب الله \*

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ السيد جويل بحثا عن الشذوذ الجنسي قال : منذ صيف عام ١٩٨١ وقد اكتشف مركز مقاومة الأمراض بولاية جورجيا الأمريكية المرض توالى أقلام الكتاب والباحثين الكتابة عنه دون إصدار كتاب باللغة العربية .

ولم يرفع النقاب عنه في مصر ، إلا حينما دق ناقوس الخطر ، مما دفع إحدى المجلات المصرية أن تفاوض مسئولاً كبيراً حول مخاوفها من انتشاره مع أحد المصريين أثناء اغترابه في عملية نقل دم له بمستشفيات الغرب ، وأصبحت البلاد الإسلامية على خطر داهم ، إما من المنحرفين والعصاة الآتين إليها من ملاهى أمريكا وأوروبا وأماكنها المشبوهة ، أو في استيراد الدماء والمستحضرات الدموية من تلك البلاد الموبوءة ، ولاسيما أمريكا ، فرغم أنها تحذر وتتأكد من خلوها من الإيدز فمن يضمن لنا إجابة هذا السؤال المطروح ؟ هل ستلتزم بهذه القواعد الصارمة عندما يتعلق الأمر بالبلاد الإسلامية وبمصالحها الإسلامية ؟ !

خاصة .. بعد أن أصبحت أنباء الإيدز تحتل الصفحات الأولى من الصحف وأغلقت المجلات العالمية ، وأصبحت تفرد له برامج تليفزيونية وإذاعية بل وصل الأمر إلى تكوين جماعات مهمتها الإنذار والتحذير من العدوى وأخرى لمساعدة المرضى بعد أن أصبح المريض منبوذاً :  
- فصاحب السكن والعمل يطرده .

- وتبتراً منه عائلته وأصدقائه .

- وترفض الممرضات في المستشفيات استقباله . حتى أن أحد متعهدي دفن الموتى قد رفض دفن

جثة أحد الهالكين بالمرض وصدق أحد الباحثين في قوله :

« أصبح الناس يفرون من مرض الإيدز كما كانوا يفعلون في القرون الوسطى مع مرض الطاعون »

حتى وصل الأمر بأن بعض رجال الشرطة والعاملين في الخدمات العامة قد امتنعوا عن التعامل مع الأشخاص المصابين .. مما دفع المجلس البلدى للمدينة إلى إصدار قرار يعاقب من يميز بين هؤلاء المرضى وبقية السكان .

ومما زاد الرعب في العالم ارتباط المرض باسم الممثل العالمى روك هيدسون المشهور ، والذي عاقبه الله لشذوذه الجنسي - واجترائه على الفطرة بأن داهمه المرض ، ففر عنه معجبيه ، وأصبح آية لعالم الشواذ ، ودليلاً لعقاب الله للمجتمعات البشرية الضالة . ويخدعون الشباب اليوم بالمغنى مايكل جاكسون المخنث ، وهو أحد المصابين بهذا المرض الذين ينتظرون الموت والهلاك كذلك .

ثم قال :

مأصدق ماقاله الصادق المصدق حين أخبر أن الفاحشة إذا ظهرت في قوم ابتلاهم الله بالأوجاع والأمراض ، روى ابن ماجه قوله ﷺ : ( ولم تظهر الفاحشة في قوم قط يعمل بها علانية إلا فشا فيها الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ) .

وهذا مجتمع أمريكا وقد انتشر فيه الشواذ جنسيا ، وأصبحت لهم نواد علنية يمارسون فيها الشذوذ وطغت فيهم الفاحشة في أحط صورها ، فأصابهم الله بمرض يحكم على صاحبه بالإعدام ، فمئذ أن اكتشف فيروس المرض في عام ١٩٨١ بولاية جورجيا الأمريكية وتستقبل المستشفيات الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ ، ٣٠ سنة ، وهم أقرب إلى الأشباح عما أصابهم من شحوب وهزال . . وأصبح المجتمع الأمريكي يصبح ويمسى في رعب من اللعنة القادمة والهلاك المدمر ، حتى أنه قد انتشرت لافتات التحذير من عدوى الإيدز في كل مكان على الفنادق ودورات المياه العامة وغيرها .

وقد أعلنت وزارة الصحة الأمريكية في تقرير لها توقعاتها بظهور مايقرب من ٣٥٠ ألف حالة إيدز سنويا في أرجاء أمريكا ، وماتم رصده منذ خمس سنوات حوالى ١٢ ألف حالة توفى نصفهم ، وحاليا في نيويورك وحدها يوجد مليون مصاب ٩٣ ٪ منهم من الرجال كلهم معرضون للموت المحقق . وفي الوقت الذى يعلن فيه ريجان فلسفة ردع الاعتداء بالقوة ، فإنه أمام خطر الإيدز تقف حكومته مشلولة أمام عقاب الله لهم بمرض اللاشفاء أو قل مرض الموت والهلاك ، ولذا فقد أعلن شيلي لينجل رئيس الشئون الصحية بأمريكا أن الحكومة أنفقت ١١٠ ملايين دولار هذا العام على الأبحاث الخاصة به في حين أنها خصصت ١٢٦ مليوناً أخرى للعام القادم ولم تصل الأبحاث بعد إلى مصل واحد من المرض ، ويحذر الدكتور روبرت جالو وهو أحد مكتشفى فيروس إيدز من أن عدد المصابين بالإيدز سوف يتزايد ويصيب نوعيات مختلفة وجديدة في المجتمع الأمريكى . هذا في الوقت الذى يتكلف فيه مريض الإيدز ما بين ٥٠ ألفا ، ١٥٠ ألف دولار لعلاج دون احتمال لشفائه حتى الآن ، بل أن أحد مشاهير الأطباء ممن يعملون في مجال الإيدز قد أعلن :

« إن من يعملون في المعركة مع الإيدز أشبه بغريق في خضم الأمواج يبحث عن قشة يتعلق بها لينجو » وذلك لأن الإصابة بالمرض تبقى خافية في دور الحضانة فترة من الزمن قد تمتد إلى خمس سنوات

أو أكثر ثم لا يلبث أن يلقي حتفه بعد ثلاث سنين من ظهور الأعراض .

ويرى البروفيسور غالو : وهو من أبرز الباحثين المهتمين بهذا المرض أن ٩٨ ٪ من الحاملين لهذا المرض لايزالون غير مكتشفين وغير معروفين .

- وزحف هذا المرض في غير المجتمع الأمريكى إلى مجتمعات الشذوذ والفاحشة ، فتظهر في فرنسا ٣٠٠ حالة حتى أبريل الماضى وتزداد في سويسرا عما دفع الحكومة إلى تخصيص مبلغ ٨ ملايين دولار لمنع زحفه وانتشاره .

وفي ظل هذه الحقائق تنبّهت مجتمعات الغرب إلى ماهى فيه من انحطاط وترد ، فبدأت عمليات فرز الشواذ والابتعاد عنهم ونبذهم ، وخلت شوارع أوروبا والبرازيل من الشواذ والمنحرفات ، وهجر

الأمريكيون المطاعم التي يشتهر عن جرسوناتا ممارسة الشذوذ ، وقد أصبحت مواطن الشذوذ من مقاه وملاه خالية من زبائننا ، واجتاح الذعر قلوب الشواذ لدرجة أنهم قاموا بمظاهرات لمطالبة الحكومة الأمريكية بحمايتهم من هذا الوباء القاتل . المدمر . الفتاك ، الذي يفتك بالخلايا الدموية البيضاء ، وهي العنصر الذي لا يمكن الاستغناء عنه في جهاز المناعة بالجسم البشري ، ويفتك كذلك بخلايا المخ والجهاز العصبي إلى حد قد يصل إلى تدميرها على أنه يصيب خلايا العين .

وهناك حقيقة كبرى لا يراها غير المتأمل البصير ، وهي أنه لا تطفئ الشهوة في مجتمع ، إلا إذا تخلى عن الإيمان ونحى دين الله بعيدا عن الحياة ، فحينئذ تملأ قديما قوم لوط عن منهج الله طغت فيهم الشهوة في أحط صورها . . فكان عقاب الله لهم بأن جعل على القرية سافلها . ولم يكن ذلك عقابا وانتهى ليتعظ الناس . . وتتأمله القصص والروايات . . وإنما كان عقابا ممتدا ودرسا مستمرا مكرورا :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ (١) . وما يحدث اليوم في مجتمعات الأرض الكافرة التي شردت عن المنهج من عقاب لأفصح بيان لهذه الحقيقة .

وقد رأينا طرفا مما تتكلفه هذه المجتمعات الضالة في جاهليتها الحديثة من جراء معصيتها ونكوصها عن الطريق السوي وتنكبها منهج الله الذي فيه الصلاح والطهارة والنقاء . ثم قال : إن اللواط والسحاق والممارسات الجماعية للجنس والزواج التجريبي أو الحب السابق للزواج ونوادي العراة وعلب الليل والأفلام الماجنة والصور الخليعة . . كل هذه وغيرها باتت السمة المميزة للمجتمعات البشرية في شتى أنحاء الأرض .

هذه الثورة الجنسية المحمومة ، التي اندلعت في تلك المجتمعات ، كانت نتيجة متوقعة منذ اللحظة الأولى ، التي بدأ فيها الفكر المادي يجتاح الوجود الإنساني . . منذ اللحظة التي قطع الناس فيها صلتهم بالسماء ، وأنكروا وجود ضوابط أخلاقية لحياتهم وعقوبات ربانية لتصرفاتهم .

منذ تلك اللحظة غدا الإنسان حيوانا ، يغيش بغرائزه ولها ، ويحيا لنزواته وبها ، فصارت الشهوات أكبر همه ، وأصبحت الدنيا مبلغ علمه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ (٢) وإذا كان الله - تعالى - قد دمر من قديم قوم لوط ، بأن جعل على القرية سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل يتلو بعضها بعضا ، لانحرافهم عن منهج الله ، وشذوذهم عن الفطرة ، فيجب على الناس أن يتيقنوا أن أمثال هذا العقاب الإلهي ليس ببعيد عنهم ، إن هم ساروا على نهج قوم لوط أو غيرهم ، ممن أداروا ظهورهم لدعاة الحق ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٣)

(١) سورة طه الآية : ١٢٤

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩

(٣) سورة الجاثية ٢٤



وإن أراد الناس دليلا ماديا على صدق ما نقول ، فهاكم تلك الظاهرة المرضية العجيبة الغربية ، التي بدأت تنشر الفزع في أوساط الممارسين للشذوذ الجنسي في المجتمعات الغربية ، والتي اصطلح على تسميتها ( إيدز ) وهي اختصار لمجموعة من الكلمات معناها : ظهور عوارض نقص المناعة . ولقد أعلنت منظمة الصحة العالمية أثناء اجتماعها في الدانمارك ، أن هذا المرض قد هاجم الدول الأوروبية بدرجة كبيرة ، ففي بريطانيا يوجد ٢٤ مصابا وفي فرنسا ٩٤ مصابا ، وفي ألمانيا الغربية ٤٢ مصابا ، وفي بلجيكا ٣٨ مصابا ، وفي سويسرا يوجد ١٧ مصابا .

والمعروف أن هذا المرض يبدأ بالأعضاء التناسلية ، ثم يشمل بقية الجسم ويتسبب في الوفاة وحتى الآن لا يعرف الأطباء السبب الكامن وراء الإصابة به ، كما أنهم لا يعرفون له علاجا وإن كان معظم المصابين به من الشواذ جنسيا .

ثم يمضى كاتب هذا البحث فيقول : ولقد كتب الأستاذ أنيس منصور في عموده المعروف ( مواقف ) في أهرام ٨ / ١٠ / ١٩٨٣ مايلي :

( ليست الحروب الجديدة هي التي أفزعت أمريكا وأوروبا أخيرا ، فقد اعتاد العالم على الحروب . ففي العالم الآن ٤٣ حربا بين الدول المتجاورة ، وإنما هو ظهور مرض جديد يسمى ( إيدز ) وهي حروف أولى لكلمات معناها : ظهور أعراض نقص المناعة . ويكون ذلك على شكل دمامل وأورام وفقر دم حاد ، وتتلاشى الكريات البيضاء في الدم ، الكريات التي تساعد على المقاومة ، والكريات التي توقف المقاومة عند حد معين .

أما المرض المفاجيء فيجىء عن طريق الشذوذ الجنسي عند الرجال والنساء أو للإسراف في الجنس ، وقد يصيب الأطفال في بطون أمهاتهم وعن طريق الاختلاط بكل أبناء جزر تاهيتي الموجودين في أمريكا .

أما ضحايا هذا المرض فهم ٧٥ ٪ من كل الذين يصابون به بعد سنة أو سنة ونصف ، وكان الشواذ جنسيا قد اكتسبوا حقوقا كثيرة في أوروبا وأمريكا ، حق الزواج الشاذ ، وفتح الأندية والمظاهرات . . . وارتداء الملابس الخليعة .

ولكن بعد ظهور هذا المرض بدأت الأندية الشاذة تغلق أبوابها ، وبدأت الشركات والمحلات تطرد الشواذ ، بل إن بعض الآباء طردوا أبناءهم وبناتهم ، كما أن بعض المحلات امتنعت عن البيع هؤلاء الشواذ ، حتى لا تنتقل العدوى إلى بقية الزبائن .

وكانت فرحة رجال الدين والتعليم والتربية عظيمة ، وهذا المرض أكبر عقوبة للشواذ وللذين أعطوهم هذه الحقوق الهائلة ودقت أجراس الكنائس تعلن نهاية الحضارات الغربية بسبب الانحراف الجنسي ، وكما يحدث دائما سوف يجد العلماء والأطباء تفسيراً لظهور هذا المرض الشاذ ، وسوف يعرفون الميكروب أو الفيروس ناقل العدوى ، ويجدون علاجا لذلك تماما ، كما اهتموا إلى علاج الزهري والسلان واكتشفوا حبوب منع الحمل .

ومع ذلك فليست هذه العقاقير ولا هذه الحبوب هي التي تمنع الإنسان عن الرذيلة أو الانحراف

وإنما يمنعه دينه وأخلاقه .. يمنعه الخوف من الحرام والرديلة .. يمنعه أنه هو شخصيا لا يريد ذلك .. )

ومن قبل كتب جورج بالوش في كتابه الثورة الجنسية :  
( إن أطنانا من القنابل الجنسية تنفجر كل يوم ويترتب عليها آثار تدعو إلى القلق ، قد لاتجعل أطفالنا وحوشا أخلاقيا فحسب ، بل قد تشوه مجتمعات بأسرها ) .

وتعالت في الغرب - مؤخرا - صيحات تستنكر الانحرافات الجنسية الخطيرة ، وتذكر الأمريكيين ماصرح بهم رئيسهم كيندى سنة ١٩٦٢م بأن مستقبل أمريكا في خطر ، لأن شبابها مائع منحل ، غارق في الشهوات ، لايقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد ، يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التي غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية .  
إن هذه الصيحات وغيرها ، لاتمثل في نظرنا غير رد فعل عابر غير مرتكز على أسس عقائدية وأخلاقية سليمة ، وتصحيح الواقع الاجتماعى فى رأينا لن يبدأ إلا بعودة الناس إلى خالقهم واستقامة أهل الأرض على منهج السماء .

### \* سر المرض الفتاك (إيدز) \*

\* لايعرف له علاج :

حالة من الذعر تنتاب الولايات المتحدة ، نتيجة هذا المرض الفتاك ، الذى لايعرفون له علاجا ، وأخذ فى الانتشار بصورة وبائية منذ عام ١٩٨١م ، وزاد الذعر عندما بدأت تظهر حالات فى أناس لم يمارسوا الشذوذ ، ولكن نقل لهم دم من بنوك الدم ، يشتهب فى أنها تبرع من شواذ .  
كما ظهرت حالات بين الأطفال !! ودق جرس الإنذار .. وعم التشاؤم فى الأوساط الطبية الأمريكية .

\* يتشر بين الأطفال :

والقصة كما تقول النيوزويك تقول :

إن المرض الفتاك نشب فى أوساط الشواذ ، وترعرع بين مدمنى الهيروين واللاجئين الهايتيين ومرض الهيموفيليا (مرض سيولة الدم) ، ويخشى خبراء الصحة العامة أن ينتشر الوباء بين الأطفال وحتى بين المرضى الذين احتاجوا إلى عمليات نقل دم !!! ومع ظهور كل حالة يزداد صوت إنذار الخطر ارتفاعا ، وخاصة لعدم معرفة الأوساط الطبية لأسباب هذا المرض .  
\* إصابات قاتلة :

وقد سمي هذا المرض الجديد Aids وذلك اختصارا لعدة كلمات بمعنى ( انهيار وسائل الدفاع الطبيعية فى الجسم ) وهذا يقود إلى إصابات قاتلة بأنواع من السرطان قاتلة مختلفة ، وعدوى بأمراض قاتلة ، لايقدر الجسم أن يدافع فيها عن نفسه ، لانهيار هذه الوسائل الطبيعية .  
وقد سجل المركز الطبى لمكافحة الأوبئة ٨٢٧ حالة إصابة و ٣١٢ حالة وفاة ونسبة الوفيات من

المرض هي ٣٨٪

ويقول الدكتور هنرى ماسيور من المعهد الوطنى للصحة :  
( إنه لا يعرف حالة واحدة من الحالات التى قام بدراستها قد نجت من الموت فى مدة أقصاها ثمانية عشر شهرا ، فما إن يصابوا بالمرض بشدة ، إلا وأعتقد أنهم هالكون ) .  
وقد نشر مرض ( الإيدز ) الذعر فى مجتمعات الشواذ ، ويشبه ( لارى كرامر ) حالة الذعر هذه السائدة الآن بين الشواذ فى أمريكا ، بحالة سكان مدينة لندن أثناء القصف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، فهم لا يعرفون أين تسقط القنبلة الثانية ، ويقول أيضا :  
( إنه شخصيا فقد حتى الآن ١٧ صديقا والآخرى فى المستشفيات ) .

\* عوارض المرض :

ويبدو أن المرض يتسلل إلى المصاب على مدى شهور أو سنوات ، ويظهر على شكل أورام فى الغدد الليمفاوية ، مع نقص فى الوزن ، وعرق فى الليل وانخفاض فى الحرارة ، وفى ٤٠٪ من الحالات تتحول الأورام إلى أورام سرطانية ، وهو نوع من السرطان موجود فى إفريقيا الاستوائية .  
كما يتعرض ( ضحايا الإيدز ) إلى أخطار العدوى بأمراض فتاكة ، قلما يتعرض لها الإنسان الصحيح ، ومن أسوأ هذه الأمراض مرض يسببه طفيلي عن نوع ( الهربس ) وهو يهاجم الجهاز العصبى المركزى .

\* اختلال التوازن بين الخلايا :

والخلل الذى يسببه ( الإيدز ) مرتبط بتناقض شديد فى إعداد الخلايا البيضاء ، وهى الخلايا المجهزة لمجابهة أنواع من الفيروس والفطريات ، وجسيمات من نوع Tb والطفيليات فيختل التوازن بين الخلايا ، التى تعمل على تنشيط الحصانة وتلك التى تعمل على تقليلها ، والنسبة الصحيحة بين الاثنين ٢ : ١ على التوالى ولكنها فى ضحايا ( الإيدز ) تكون عكس ذلك .

\* ومرض آخر يستشرى فى الشواذ :

وعلى غلط مرض ( الإيدز ) وبالطريقة نفسها ينتشر ( الهيباتيتى ب ) وهو مرض فى الكبد يستشرى فى الشواذ ومدمنى المخدرات ، وأحيانا المرضى الذين ينقل لهم دم ، وينتقل المرض عند الاتصال الجنسى ، أو عدوى من إبر المخدرات الملوثة ، أما السبع حالات التى ظهرت فى مرض الهيموفيليا ( سيولة الدم ) فقد تكون عدوى منقولة بسبب تعاطى هؤلاء المرضى ( عوامل تخثر الدم ) بانتظام .  
ومن الحالات المحزنة إصابة طفل فى سنته الثانية ، وكان قد تلقى عمليات نقل متعددة ، وقد أمكن تتبع مصدر الدم وكانت منها وحدة مأخوذة من رجل توفى ( بالإيدز ) وحيث إن الرجل كان سليما

وقت تبرعه بالدم ، فلا يمكن للأطباء الجزم بأنه السبب في مرض الطفل .  
وقد سجلت اثنتان وعشرون حالة مرض ( بالإيدز ) في الأطفال حتى الآن ، ويؤكد الدكتور ( جيمس أوليسك ) في مركز سانت ميشائيل الطبي في نيوارك بنينوجيرس ، بأن الثمان حالات التي عالجها في الأطفال ، هي حالات ( إيدز ) وأن الأطفال المصابين من عائلات تعتبر شديدة التعرض للإصابة بالمرض بسبب نشاطها الجنسي الشاذ ، أو استعمال المخدرات أو الأصل الهايتي ، وقد تكون إصابة هؤلاء الأطفال ، قد حدثت عن طريق المشيمة في أثناء الوضع ، أو بحكم التصاق المولود بأمه ، ويبدو الطفل طبيعيا عند الولادة ، ولكن سرعان ما يبدأ في فقد الشهية مع حمى وسعال ، وأحيانا إسهال وطفح جلدي ثم التهاب حاد يهدد الحياة .

ولا يعرف أحد الصلة بين المرض وهايتي ، وهناك نظرية تقول : إن المرض كان كامنا وغير وبائي في الجزيرة ، والتقطه شواذ ممن يتخذون هايتي مرتعا لسياحتهم ولهوهم .  
وقد باءت جميع محاولات عزل العامل المسبب ( الإيدز ) بالفشل ، ولم يقدر الباحث أن ينقلوا ( الإيدز ) للحيوانات بحقنهم بدماء المرض كخطوة أولى منطقية .  
\* إعادة النظر في أساليب نقل الدم :

والوقاية خير من العلاج . وستعيد دائرة الصحة والخدمات أساليب نقل الدم والتبرع به ، ويقترحون عدم قبول التبرع من المستهترين والشواذ ، ولكن موظفي الصحة العامة بالولايات المتحدة ، ينصحون بعدم المبالغة في إنذار لا موجب له ، حيث إن حالة واحدة فقط هي التي تأكدت .  
سببها نقل الدم والمخاطرة بالنسبة لعدد السكان قليلة ، والحاجة إلى الدم أهم من التخوف من الإيدز حاليا . وكان هذا رأى الدكتور هارولد يافى .

\* بعض الشواذ يرتعدون !!

وقد بدأ الكثير من الشواذ في تغيير خط حياتهم ، وبدأت مظاهر الكساد تنزل بالحمامات وغيرها ويقول كرامر :

( إن الشواذ أصبحوا أقل إقبالا على ممارستهم ، فالأمر يحتاج إلى غياء مطلق للاستمرار فيه بعد ذلك )  
وبعد أيها القارئ الكريم : أليس هذا مصداقا للحديث النبوي الشريف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال :

( خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن أو أن يقعن فيكم ، ماظهرت الفاحشة في قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم )<sup>(١)</sup> . الحديث : حديث حسن .

الطاعون : أى : الوباء ، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم . أى : الأمراض التي لم تكن في أسلافكم .

(١) الترغيب والترهيب ص ١٩٨ ج ٣ - وأخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٣٣٢ ، ص ١٣٣٣ برقم ٤٠١٩ وقال في الزوائد : هذا حديث صالح للعمل به ، كما أخرجه الحاكم في المستدرک ج ٤ ص ٥٤٠ كتاب الفتن والملاحم . وقد بدأ الحديث بقول النبي صلى الله عليه وسلم يامعشر المهاجرين .

## \* عواقب أخرى تنتظر الشواذ \*

إذا كان هذا المرض الرهيب (إيدز) من حصاد تلك الثورة الجنسية ، فإن أضرارا أخرى كثيرة وخطيرة ، تنتظر أهل الشذوذ عن الفطرة ، والانحراف عن الطريقة المشروعة للممارسة الجنسية السليمة .

وقد جمعها الدكتور محمد وصفى في كتابه (الإسلام والطب) ونقلها لكم هنا بشيء من التصرف .

## - أولا : التأثير على الجهاز العصبي :

فاللواط يسبب اختلالا في الجهاز العصبي وارتباكاً في التفكير وركوداً في التصرفات وبلاهة في العقل ، وضعفاً في الإرادة ، ويرجع ذلك كله إلى قلة الإفرازات التي تفرزها الغدة الدرقية وغيرها . كما أن اللواط علة شاذة ، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، ولا تقوم بإرضاء المجموع العصبي .

## - ثانيا : الرغبة عن المرأة :

من الأمور الفطرية ميل الرجل إلى المرأة ، ولكن من شأن اعتياد الممارسة الجنسية بطريقة اللواط ، أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى الحد الذي يعجز فيه عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج وهي التناسل ، ولوقدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج ، فإن زوجته تكون ضحية معذبة معلقة ، لا هي متزوجة ولا هي مطلقة .

## - ثالثا : تأثيرات موضعية :

فاللواط من ناحية أخرى ، يتسبب في تمزيق المستقيم ، وهتك أنسجته ، وارتخاء عضلاته ، وسقوط بعض أجزائه ، وقد يصل الأمر إلى فقدان السيطرة على عملية التبرز ، فتخرج الفضلات بغير إرادة أو شعور .

## - رابعا : اللواط والصحة العامة :

يصاب مقترف اللواط بضيق في الصدر ، وخفقان في القلب ، وضعف عام يجعله عرضة للإصابة بعدديد من الأمراض ، كما أن اللواط يضعف فرز مراكز الإنزال الرئيسية في الجسم ، ويقضى على الحيوية المنوية ، ويؤثر في تركيب المنى مما يؤدي إلى عدم القدرة على الإنجاب .

## - خامسا : التيفود وغيره من الأمراض المعدية :

يتسبب اللواط في كثير من الأحيان في الإصابة بمرض التيفود وغيره من الأمراض المعدية ، وذلك عن طريق التلوث بالمواد البرازية التي تحتوى على أنواع كثيرة من الميكروبات .

## - سادسا : أمراض الزنا :

إن الأمراض التي تنتشر عن طريق الزنا ، مثل الزهري والسيلان ، تنتشر كذلك عن طريق اللواط .

- وأخيرا : فإن اللواط لوثة أخلاقية ، ومرض نفسى خطير ، فنجد جميع من يتصفون به سيء

الخلق ، لا يميزون بين الفضائل والردائل ، ليس لهم وجدان يؤنبهم ، ولا ضمير يردعهم ، لذلك لا يتحرج أحدهم من السطو على الأطفال ، واستعمال العنف لإشباع عاطفته الفاسدة .  
ولذا حرص التشريع الإسلامى على التنكيل بمقتربه ، وأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

### \* دلائل التوحيد \*

قال تعالى : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ؕ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لِّهَمَّ قَوْمٍ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ أَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾

### معاني المفردات

اصطفى : اختار ، حدثت : جمع حديقة وهى البستان الذى عليه سور وحائط ، لأن الحائط أحاط به . بهجة : البهجة : حسن المنظر يعدلون يميلون يقال : عدل عنه أى : مال عنه . قرارا : مكانا يقر عليه الإنسان وغيره بمعنى يستقر . خلالها : أى : بين جهاتها المختلفة حاجزا : مانعا ، المضطر : الذى أصابه الضر . بشرا : مخفف بشرا جمع بشير والمراد مبشرات .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين ، وذكر أخبارهم الدالة على

كمال قدرته وعظيم شأنه وعلى ماخصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم ، وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد ، وبطلان الشرك والكفر ، وأن من اقتدى بهم ، فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم ، فقد تردى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره عليه الصلاة والسلام بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله :

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾

أردف هذا أمره - عليه الصلاة والسلام ، بأن يحمد - تعالى - على تلك النعم ، ويسلم على الأنبياء كافة ، لفضلهم وأداء لحق تقدمهم ، واجتهادهم فى الدين ، وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير وجوب عبادته وحده ، وأنه لا ينبغى عبادة شيء سواه من الأصنام والأوثان .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى .. ﴾ هذا خطاب من الله - تعالى - إلى حبيبه ومصطفاه ، كما يشمل كل من يتأتى منه الخطاب ، فالكل مأمور بحمد الله تعالى والثناء عليه ، فهو صاحب الإنعام والكرم ، وصاحب النعماء والفضل العظيم ، فالحمد لله ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، ( الحمد لله ) أى على نعمه على عباده من النعم التى لاتعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبيأؤه الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء ، قال وهو كقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ وسلام على المرسلين \* والحمد لله رب العالمين ﴿ (١) . والقصد أن الله - تعالى - أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم ما فعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزي والنكال والقهر ، أن يحمده على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

قال الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآية :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

هؤلاء هم أعلى الطبقات وأكرمها على الإطلاق . وهم المرسلون فأكرم الخلق على الله ، وأخصهم بالزلفى لديه . هم رسله . وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم فى الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ (٢) وقال : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ كذلك نجزي المحسنين ﴿ (٣) وقال : ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ (٤)

(١) الصافات الايات رقم ١٨٠ - ١٨٢

(٢) الصافات آية رقم ٧٩

(٣) الصافات آية رقم ١٠٩

(٤) الصافات آية رقم ١٣٠

وقال : هل السلام من الله ؟ فيكون المأمور به : الحمد والوقف التام عليه ، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعا ؟

فالجواب عنه : أن الكلام يحتمل الأمرين . ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح . فيرجح كونه داخلا في جملة القول لأمر :

منها : اتصاله به ، وعطفه عليه من غير فاصل ، وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد فيهما ، هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع ، ولهذا إذا قلت قل : الحمد لله ، وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل في القول .

ومنها : أنه إذا كان معطوفا على القول ، كان عطف خبر على خبر ، وهو الأصل ، ولو كان منقطعا عنه ، كان عطف جملة خبرية على جملة الطلب ، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب .

ومنها : أن قوله : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل : الحمد لله ، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ، ولم يقل سلام على عبادي .

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور .

أحدها : مطابقتها لنظائره في القرآن ، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى ، كقوله : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ وقوله ﴿ سلام على ابراهيم ﴾ ، و ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ و ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ .

والثاني : أن عباده الذين اصطفى : هم المرسلون : والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم ، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم .

أما الأول : فقال تعالى : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾ وسلام على المرسلين ﴿ وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ، ثم سلام على رسله ، وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا ، كما نزه نفسه عما يقول ضلال خلقه فيه ، ثم سلم على المرسلين .

وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم ، المخالفون لهم . وإذا سلموا من كل مارماهم أعداؤهم لزم سلامة كل ماجاءوا به من الكذب والفساد .

وأعظم ماجاءوا به : التوحيد ومعرفة الله ، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد ، فهو الحق المحض . وماخالفه : فهو الباطل ، والكذب المحال .

وهذا المعنى بعينه في قوله : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال ، والأفعال الحميدة ، والأسماء الحسنى ، وسلامه رسله من كل عيب ونقص وكذب ، وذلك يتضمن سلامة ماجاءوا به من كل باطل فقابل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه ، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى ، كما هو في آخر سورة الصافات .



وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان ﴾ (١) . وقوله : ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ (٢) ونظائره كثيرة .

وفصل الخطاب في ذلك : أن يقال : الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنظمها انتظاما واحدا ، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه ، وليس له فيه إلا البلاغ ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى . فهو الذى حمد نفسه ، وسلم على صفوة عباده ، وأمر رسوله بتبليغ ذلك ، فإذا قال الرسول : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده . فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ، ومن العباد : اقتداء وطاعة .

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى : ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ وكلمة « السلام » ههنا يحتمل أن تكون داخلة في حيز القول ، فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهى « الحمد لله » ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا .

وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة . ويكون محلها النصب ؟ محكية بالقول . ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة ، معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا : فلا محل لها من الإعراب ، وهذا التقدير أرجح .

وعليه يكون السلام من الله عليهم ، وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وعلى التقدير الأول : يكون أمرنا بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب ، مع تنافر ما بينهما فلا يحسن أن يقال قم وذهب زيد ، ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب عن هذا : بأن جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ، وعلى هذا لا يمتنع عطف الخبر على الجملة الطلبية : لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (٣) .

فقوله تعالى : ﴿ وما تغفى الآيات ﴾ ليس معطوفا على القول وهو ﴿ انظروا ﴾ بل معطوف على الجملة الكبرى ، على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ (٤) .

والمقصود : أنه على هذا القول : يكون الله سبحانه مقدس على المصطفين من عباده ، والرسول أفضلهم وقد أخبر تعالى : أنه أخلصهم كما قال تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإناهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ (٥) .

(١) الأنبياء آية رقم ١١٢

(٢) المؤمنون آية رقم ١١٨

(٣) يونس آية رقم ١٠١

(٤) الأنبياء آية رقم ١١٢

(٥) (ص) الأيتان ٤٦ - ٤٧

ويكفي في شرفهم وفضلهم : أن الله اختصهم بوحيه : وجعلهم أمناء على رسالته ، وواسطته بينه وبين عباده ، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم من اتخذ خليلا ، ومنهم من كلمه تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده طريقا للوصول إليه إلا من طريقهم ، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم .

وقوله تعالى : ﴿ ءآله خير أما يشركون ﴾ الاستفهام هنا فيه إنكار شديد على الذين اعترفوا بالله ربا وأشركوا به إلهًا . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تصرفون ﴾ (١) لقد اعترفوا لله بالربوبية من خلق ورزق وملك للسمع والأبصار وتدبير للأمر ولكنهم أشركوا في عبادته ، وقالوا عن الشركاء : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٢)

فقال لهم الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد \* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٣) وقال : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ (٤)

ءآله خير أم هؤلاء الشركاء بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأتى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم لا يهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ (٥) قال عز وجل : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتهم ثم يحييهم هل من شركائكم من يفعل من ذالكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٦)

فتوحيد الربوبية وحده لا يكفى ، إذ لابد من توحيد الألوهية معه قال تعالى :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (٧)

ثم أقام سبحانه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه المعبود بحق لا يشرك في حكمه أحدا فقال تبارك اسمه : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أهله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

﴿ أمن خلق السموات ﴾ أى : خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب المنيرة ، والنجوم الزاهرة ، والأفلاك الدائرة ، وخلق الأرض في أشكالها وكثافتها وما جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافي والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار ،

(١) يونس الأيتان ٣١ ، ٣٢

(٢) الزمر آية رقم ٣

(٣) قى الآيات من ١٦ - ١٨

(٤) البقرة آية رقم ١٨٦

(٥) يونس الآيات من ٣٤ / ٣٦

(٦) الروم آية رقم ٤٠

(٧) الكهف آية رقم ١١٠

والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أى: جعله رزقا للعباد ﴿ فأنبثنا به حدائق ﴾ أى: بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أى: منظر حسن وشكل بهى ﴿ ماكان لكم أن تثبتوا شجرها ﴾ أى: لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ماسواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ <sup>(٢)</sup> أى: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أأله مع الله ؟ ﴾ أى: أأله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعترفون به أيضا أنه الخالق الرازق .

ومن المفسرين من يقول معنى قوله : ﴿ أأله مع الله ﴾ فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول ، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به ، فيقال فكيف تعبدون معه غيره ، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية . وقوله تعالى ههنا : ﴿ أمن خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ أمن ﴾ فى هذه الآيات كلها ، تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ، لأن فى قوة الكلام مايرشد إلى ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ والله خير أما يشركون ﴾ ثم قال تعالى فى الآية الأخرى: ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ أى يجعلون الله عدلا ونظيرا . وهكذا قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ <sup>(٤)</sup> . أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾  
 ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نوز من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ <sup>(٦)</sup> أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيقه ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها من دون الله ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ﴾ وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

سبحانك ربى

يامن يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حى طاعتك

(١) الزخرف آية رقم ٨٧

(٢) سورة العنكبوت رقم ٦٣

(٣) النحل آية رقم ١٧

(٤) الزمر آية رقم ٩

(٥) الزمر آية رقم ٢٢

(٦) الرعد آية رقم ٣٣

تخفى على الناس سنى طلعتك وكل مافى الكون من صنعتك

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأفلاك ومدارها ، والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها ، والأرض واتساعها ، والجبال وشموخها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بأعماله ، ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره . سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج .

وهذى الصحارى والجبال الرواسيا	سل الواحة الخضراء والماء جاريا
سل الليل والإصباح والطير شاديا	سل الزوض مزدانا ، سل الزهر والندى
وسل كل شئ تسمع الحمد ساريا	وسل هذه الأنسام والأرض والسماء
فمن غير رب يرجع الصبح ثانيا	فلو جن هذا الليل وامتد سرمدًا

نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والكون ، على أنه الواحد سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ (١) . حدثنا عن خلق الكون العلوى والسفلى فقال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ (٢) ثم حدثنا عن خلق أنفسنا فقال : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ (٣) ثم انتقل إلى خلق الأنعام والدواب فقال سبحانه : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفع ومنافع ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾ والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ (٤) .

ثم أنبأنا بما سيجد من وسائل المواصلات ، فى العصور اللاحقة فقال: ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ ثم أنعم علينا ببيان السبيل المستقيمة فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ وأخبر أن هناك من يسلك طرقا معوجة فقال: ﴿ ومنها جائر ﴾ وبين أن قانون المشيئة مهيم على الكون كله فقال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٥) ثم انتقل النظم الكريم بنا إلى عالم الماء والنبات فقال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (٦) . ثم انتقل بنا إلى عالم الفلك فقال سبحانه: ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٧) .

(٥) النحل آية ٩  
(٦) النحل الآيات ١٠ - ١١  
(٧) النحل الآية ١٢

(١) النحل آية رقم ٢  
(٢) النحل آية رقم ٣  
(٣) النحل آية رقم ٤  
(٤) النحل الآيات ٥ - ٨

ثم انتقل بنا إلى مافى الأرض من كنوز فقال تعالى : ﴿ وما ذرا لكم فى الأرض مختلف ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ (١).

ثم انتقل بنا إلى عالم البحار ، ومافيه من أسرار ، فقال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٢).

ثم انتقل إلى طبقات الأرض وما بها من جبال فقال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون \* وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ (٣).

ويعد هذه الآيات الباهرات والبراهين الساطعات ، ألقى بهذا السؤال على أصحاب العقول ، فقال تعالى : ﴿ أقم يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ (٤).

وبعدما طال تعدد النعم قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ (٥) ثم أثبت لذاته صفة العلم الشامل الكامل المحيط فقال : ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ (٦) ثم قال مثبتا عجز غيره : ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ (٧) ثم بين تلك الحقيقة العليا فقال عز وجل : ﴿ إلهكم إله واحد ﴾ (٨).

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتضى وإلى علاك عنى الجبين الساجد  
قوله تعالى : ﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين  
البحرين حاجزا أمه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

هو كقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم  
ورزقكم من الطيبات ذالكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين \* هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين  
له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ (٩).

وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ﴾ (١٠).

فسبحان من خلقها وأرسانها بالجبال ، قال تعالى : ﴿ ولقد مكنناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها  
معايش قليلا ما تشكرون ﴾ (١١).

وجل جلال الله إذ يقول : ( خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد  
بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا منها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله

(٧) النحل آية ٢٠ ، ٢١

(٨) النحل آية ٢٢

(٩) غافر آية ٦٤ ، ٦٥

(١٠) النبا الآيتان ٦ ، ٧

(١١) الأعراف آية رقم ١٠

(١) النحل آية رقم ١٣

(٢) النحل آية ١٤

(٣) النحل الآيتان ١٥ ، ١٦

(٤) النحل آية ١٧

(٥) النحل آية ١٨

(٦) النحل آية ١٩

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿١﴾ .

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور أأنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾ ﴿٢﴾ وكما قال أيضا : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى \* الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى \* كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ ﴿٣﴾ قوله تعالى : ﴿ وجعل خلاها أنهارا ﴾ أى : جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها فى خلاها وصرفها فيها ، مابين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذراهم فى أرجاء الأرض ، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ أى : جبالا شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا أى : مانعا يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا ، وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى أن تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى : ﴿ وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ﴿٥﴾

وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ أعله مع الله ﴾ فعل هذا ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ إن ماسوى الله باطل لا يملك لنفسه خيرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فهم جاهلون إذ أشركوا مع الله غيره .  
﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون \* قل أغفیر الله تأمرونى أعبد أیها الجاهلون \* ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت لیحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين \* بل الله فاعبد وكن من الشاکرين \* وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ﴿٧﴾ .

(١) لقمان الآيتان من ١٠ - ١١

(٢) الملك آية رقم ١٦

(٣) طه الآيات من ٥١ - ٥٥

(٤) الفرقان آية رقم ٥٣

(٥) فاطر آية رقم ١٢

(٦) الرحمن الآيتان ١٩ / ٢٠

(٧) الزمر الآيات من ٦٢ - ٦٧

قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أأله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾  
هذه سلسلة متصلة الحلقات من نعم الله على عباده ، وآلائه التي لا تحصى ، وأفضاله التي لا تستقصى .

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم      ويكشف الضر والبلوى مع السقم  
إن كان أهل التقى فازوا بما فعلوا      فمن يجود على العاصين بالكرم

### كلمة في الدعاء

١ - الأمر به :

أمر الله الناس أن يدعوه ، ويضرعوا إليه ، ووعدهم أن يستجيب لهم ، ويحقق لهم سؤلهم .  
(١) فقد روى أحمد وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الدعاء هو العبادة ) ثم قرأ : ﴿ ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (١) .

(٢) وروى عبد الرزاق عن الحسن : أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : أين ربنا ؟ فأنزل الله : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (٢) .  
(٣) وروى الترمذى وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( ليس شيء أكرم على الله من الدعاء ) (٣)

(٤) وروى الترمذى عنه : أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : ( من سره أن يستجيب الله تعالى له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء ) (٤)

(٥) وثبت عنه ﷺ قوله : ( من لم يسأل الله يغضب عليه ) (٥) .  
(٦) عن عائشة مرضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( لا يغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل وما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة )  
رواه البزار والطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد (٦) .

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء برقم ٣٨٢٨ ج ٢ ، وأحمد ج ٤ ص ٢٦٧ والترمذى برقم ٣٤٣٢ ج ٥ وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية ( وإذا سألك عبادي عني )

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٨٢٩ كتاب الدعاء ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٢٩ في أبواب الدعاء ج ٥ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عمران القطان

(٤) أخرجه الترمذى في أبواب الدعوات برقم ٣٤٤٢ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن غريب

(٥) أخرجه الطبراني برقم ٢٣٠٦٨ ج ١ ص ٦٠٣ وابن ماجه برقم ٣٨٢٧ ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٣٣ ج ٥

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٤٩٢ كتاب الدعاء والحديث في الصغير للطبراني برقم ٩٩٧٧ ص ٤٥٣ كما رواه البزار في كتاب القدر ج ٣ ص ٢٩ برقم ٢١٦٤ ، ٢١٦٥

(٧) وعن سلمان الفارسي-رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر ) رواه الترمذي (١) .  
آدابه

للدعاء آداب ينبغي مراعاتها نذكرها فيما يلي :

(١) تحرى الحلال :

أخرج الحافظ بن مردويه عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يارسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : ( يأسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به )

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا - وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرِّسْلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر - أشعث أغبر - ومطعمه حرام - وملبسه حرام - وغذى بالحرام - يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، فإني يستجاب لذلك (٢)

(٢) استقبال القبلة إن أمكن ، فقد خرج النبي يستسقى فدعا واستسقى واستقبل القبلة .  
(٣) ملاحظة الأوقات الفاضلة والحالات الشريفة ، كيوم عرفة وشهر رمضان ويوم الجمعة ، والثالث الأخير من الليل ، ووقت السحر ، وكحالة السجود ، ونزول الغيث ، وبين الأذان والإقامة والتقاء الجيوش ، وعند الوجل ، ورقة القلب .

أ - فعن أبي أمامة قيل : يارسول الله : أى الدعاء أسمع ؟ قال : ( جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات ) رواه الترمذي بسند صحيح (٣) .  
ب - وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء ) (٤)

وأخادith أخرى كثيرة .

(١) أخرجه الترمذي برقم ٢٢٢٥ ج ٣ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ أبواب القدر وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٢٨

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات رقم ٣٥٦٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن وقد روى عن أبي ذر وابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : ( جوف الليل الآخر الدعاء فيه أفضل وأرجى )

وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ج ٢ ص ٧٠٣ برقم ١٠١٥ / ٦٥  
(٤) أخرجه أبوداود في كتاب الصلاة باب الدعاء والركوع والسجود ج ١ ص ٥٤٥ برقم ٨٧٥  
وأخرجه مسلم برقم ٤٨٢ ج ١ ص ٣٥٠ كتاب الصلاة



(٤) رفع اليدين حذو المنكبين فقد روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما ، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة ، والابتهاال أن تمد يديك جميعا وروى عن سليمان ، أنه ﷺ قال : ( إن ربكم - تبارك وتعالى - حيى كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا )<sup>(١)</sup> .

(٥) أن يبدأ بحمد الله وتمجيده والثناء عليه ، ويصلى على النبي ﷺ لما رواه أبو داود والنسائي والترمذى وصححه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو في صلاته لم يمجده الله - تعالى - ولم يصل على النبي فقال : ( عجل هذا ) ثم دعاه ، فقال له أو لغيره : ( إذا صلى ( دعا ) أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه جل وعز والثناء عليه ، ثم يصلى على النبي ﷺ ، ثم يدعو بما يشاء )<sup>(٢)</sup> .

(٦) حضور القلب ، وإظهار الفاقة والضراعة إلى الله - جل شأنه - وخفض الصوت بين المخافتة والجهر قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾<sup>(٣)</sup> قال ابن جرير : تضرعا : تذللا واستكانة لطاعته . وخفية : يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بواحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارا مرأاة

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : ( يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميما بصيرا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله )<sup>(٤)</sup> .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ( القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتهم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل )<sup>(٥)</sup> .

(٧) الدعاء بغير إثم أو قطيعة رحم . لما رواه أحمد عن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : ( مامن مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له في الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذن نكثر يا رسول الله ؟ قال : ( الله أكبر )<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البغوى في شرح السنة برقم ١٣٨٦ ج ٥ ولكن بلفظ : إن الله حيى كريم ويزياده حتى يجعل فيها خيرا . والحديث من رواية أنس بن مالك .

وأخرجه الترمذى في أبواب الدعوات برقم ٣٦٢٧ ج ٥ ص ٢١٧

(٢) أخرجه الترمذى برقم ٣٥٤٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الأعراف آية رقم ٥٥

(٤) أخرجه البخارى في باب ما يكره رفع الصوت بالتكبير ج ٤ ص ٦٩

وأخرجه مسلم برقم ٢٧٠٤ ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . وأخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٣ برقم

١٥٢٨

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢ ص ١٧٧ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد ج ٣ ص ١٨

- (٨) عدم استبطاء الإجابة لما رواه مالك عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ( يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لي ) (١) .
- (٩) الدعاء مع الجزم بالإجابة لما رواه أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لا يقولن أحدكم : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٢) .
- (١٠) اختيار جوامع الكلم مثل ( ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ) (٣) فقد كان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ما سوى ذلك .
- (١١) تجنب الدعاء على نفسه وأهله وماله . فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : ( لاتدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على خدمكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لاتوافقوا من الله -تبارك وتعالى- ساعة نيل فيها عطاء فيستجاب لكم ) (٤) .
- (١٢) تكرار الدعاء ثلاثا : ( فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يعجبه أن يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا ) رواه أبو داود . (٥)
- (١٣) إذا دعا لغيره أن يبدأ بنفسه .
- قال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ (٦) .
- وعن أبي بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه (٧) رواه الترمذي بإسناد صحيح .

### دعاء الوالد والصائم والمسافر والمظلوم

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي بسند حسن : أن النبي ﷺ قال : ( ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم ) (٨)

### دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب

روى أبو داود والترمذي : أن النبي ﷺ قال : ( أسرع الدعاء إجابة ، دعوة غائب لغائب ) (٩) .

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٩٥ في كتاب الدعاء والاستغفار والتوبة

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٦٣ برقم ١٤٨٣ كتاب الصلاة - باب الدعاء -

(٣) البقرة آية رقم ٢٠١

(٤) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٥ برقم ١٥٣٢ كتاب الصلاة باب النهي عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله .

(٥) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٢ برقم ١٥٢٤ .

(٦) الحشر آية رقم ١٠

(٧) أخرجه الترمذي برقم ٣٤٤٥ ج ٥ ص ١٣١ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٨) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٧ برقم ١٥٣٦ وأخرجه الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٨ وأخرجه الترمذي في أبواب الدعوات برقم

٣٥٠٩ ج ١ ص ٣٥١٠ ج ٥ ص ١٦٤

(٩) أخرجه الترمذي في باب البر برقم ٢٠٤٦ ج ٣ ص ٢٣٧

وأخرجه أبو داود في باب الوتر

بعض ماورد فيما ينبغي أن يستفتح به الدعاء رجاء أن يقبل :

١ - عن بريدة : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول :

( اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ) فقال : ( لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب ) رواه أبو داود والترمذى وحسنه<sup>(١)</sup>

٢ - وعن معاذ بن جبل : أن النبى ﷺ سمع رجلا وهو يقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : ( قد استجيب لك فسل ) رواه الترمذى وقال حسن .<sup>(٢)</sup>

٣ - وعن أنس قال : مر رسول الله ﷺ بأبى عيش ، زيد بن الضامت الزرقى وهو يصلى - وهو يقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت يا حنان يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى<sup>(٣)</sup> رواه أبو داود وغيره .

٤ - وعن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من دعا هؤلاء الكلمات الخمس ، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه : لا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله )<sup>(٤)</sup> رواه الطبرانى بإسناد حسن .  
﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله قليلا ما تذكرون ﴾

أى : من هو الذى لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لا يكشف ضر المضرورين سواه .  
قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾<sup>(٥)</sup>  
وقال جل شأنه : ﴿ وما بكم من نعمه فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ﴾<sup>(٧)</sup> .  
روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه أتاه رجل فقال : يا رسول الله إلام تدعو؟ قال : ( أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر دعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض كفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك ، قال : قلت أوصنى قال : ( لاتسبن أحدا ولا تزهدن فى المعروف ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٥٤٢ ج ٥ ص ١٧٨ وقال : هذا حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص ١٦٧ برقم ١٤٩٣ باب الدعاء

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٣٦

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة باب ادعاه برقم ١٤٩٥ ج ٢ ص ١٦٧ .

(٤) أخرجه الطبرانى برقم ٢١٩٢٧ ج ٦ ص ٣٧٩

(٥) الإسراء آية رقم ٦٧

(٦) النحل آية رقم ٥٢

(٧) يونس آية رقم ١٢

واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة (١).

وقال ابن أبي حاتم عن عبيد الله بن أبي صالح قال :

دخل على طاوس يعوذني فقلت له : ادع الله لي يا أبا عبد الرحمن فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال وهب بن منبه : قرأت في الكتاب الأول أن الله تعالى يقول : (يعزق إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فلإن أجعل له من بين ذلك مخرجاً ومن لم يعتصم بي فلإن أخسف به من تحت قدميه الأرض فأجعله في الهواء فأكله إلى نفسه) .

وذكر الحافظ بن عساكر في ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي ، قال : هذا الرجل كنت أكرى على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبدان ، فركب معي ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لي : خذ في هذه فإنها أقرب ، فقلت لا خبرة لي فيها ، فقال بل هي أقرب ، فسلكتها فأنتهينا إلى مكان وعر ، وواد عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لي : أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدني ، ففررت من بين يديه ، وتبعني فناشدته الله ، وقلت : خذ البغل بما عليه فقال : هو لي وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال : عجل فقممت أصلي فارتج على القرآن ، فلم يحضرني منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيراً وهو يقول :

هيا أفرغ ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي ويده حربة ، فرمى بها الرجل ، فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، قال : فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أى يخلف بعضكم بعضاً كقوله جل شأنه : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (٢) .

وكقوله جل شأنه :

﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (٤) .

إن الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ممن ناداه وينادى هل من تائب فأتوب عليه

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٦٤

(٢) الأنعام آية ١٦٥

(٣) فاطر آية ٣٩

(٤) البقرة آية ٣٠

هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له .  
 وإن الذى جعلكم خلفاء الأرض هو الله وحده ، إله مع الله فعل هذا ، كلا ، ثم كلا ، ثم  
 كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم . ولكنكم قليلا ما تذكرون .  
 قوله تعالى : ﴿ آمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أنه  
 مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

وتلك نعمة جليلة من نعم الله تعالى على عباده ، إذ يهديهم فى أسفارهم فى ظلمات البر والبحر  
 ولولا ذلك لضلوا الطريق لكنه جل شأنه رؤوف رحيم بهم قال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسي أن  
 تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ﴾ وعلامات وبالنجم هم يهتدون <sup>(١)</sup> .  
 وقال جل شأنه : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 وكما هدانا الله برا وبحرا فى أسفارنا ، فقد هدانا فى أسفارنا جوا ، فها هو ذا عالم الطيران يجوب  
 المعمورة شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، وها هو ذا الإنسان يركب سفن الفضاء ، وينظر فيها فىرى  
 كوكب الأرض معلقا فى فضاء فسيح ، ويسأل نفسه من الذى أمسك هذا الكوكب فى هذا الفضاء ،  
 وتأتيه الإجابة ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه  
 كان حليما غفورا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وينتقل بنا النظم الكريم ، إلى نعمة أخرى ، وهى نعمة إرسال الرياح مبشرات بالمطر ، ويرسل  
 الرياح بشرا بين يدي رحمته ، والمطر نعمة عظمى ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين  
 يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك  
 نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
 وقال : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ويشعر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال عز  
 من قائل :

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق  
 يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ <sup>(٦)</sup> من الذى يقوى أن يرسل  
 الرياح ، فتثير السحاب ، وينزل الماء ، أنه مع الله فعل هذا ، تعالى الله عما يشركون ، هو الواحد فى  
 ذاته ، لا قسيم له ، الواحد فى صفاته ، لا شبيه له الواحد فى أفعاله ، لا شريك له !

ما فى الوجود سواك رب يعبد  
 كلا ولا مولى هناك فيقصده  
 إله مع الله فعل هذا . الطبيعة الصماء . أم الصدقة العمياء . كلال هو الله العزيز الحكيم .  
 قوله تعالى : ﴿ آمن يملأوا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أنه مع الله قل هاتوا  
 برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ .

(٤) الأعراف آية ٥٧

(٥) الشورى آية ٢٨

(٦) الروم آية ٤٨

(١) النحل آية ١٥ ، ١٦

(٢) الأنعام آية ٩٧

(٣) فاطر آية ٤١

أى: هو الذى بقدرته وسلطانه ، يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ \* إنه هو يبدىء ويعيد ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال سبحانه : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله : ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أى: بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض .

كما قال تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾<sup>(٦)</sup> .  
فاعلم أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ﴿ وما تدرى نفسى ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾<sup>(٧)</sup> .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل      الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا      لكنه خلق الإنسان من عجل  
واعلم أن ما قدر على فكيك أن تمضغه ، فلا بد أن تمضغه فامضغه بعزة .  
ولو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه ، لركب الرزق البرق ، حتى يقع فى فم ابن آدم ، أهله مع الله فعل هذا ، لا إله إلا الله ، قل هاتوا برهانكم ودليلكم على شرككم إن كنتم صادقين فيما تدعون .

وحيث قامت الأدلة فى الأنفس والآفاق على وحدانية الله تعالى - فلا برهان لكم على باطلكم ، فلو سألتكم العالم من عرشه الى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقتلتم له من خالفك لقال لكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى  
لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى  
لا إله إلا الله أفنى بها عمرى  
لا إله إلا الله أدخل بها قبرى  
لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

(٥) الطارق الآيتان ١١ / ١٢

(٦) سبأ آية ٢

(٧) لقمان آية ٣٤

(١) البروج الآيتان : ١٢ ، ١٣

(٢) الروم آية ٢٧

(٣) يس آية ٧٩

(٤) يونس آية ٣٤

## إنكارهم البعث

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ  
 أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا  
 إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾  
 وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ  
 صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو  
 فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا  
 يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِمَّنْ غَاثِبَةٌ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

## معاني المفردات

ادارك : أصله تدارك بمعنى تلاحق .  
 عمون : جمع عم . والمقصود بالعمى هنا الضلال والبعد عن الحق .  
 قال تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ (١) .  
 أساطير : جمع أسطورة وهي ماسطره الأقدمون من خرافاتهم وأحاديثهم .  
 ضيق : في ضيق صدر .  
 ردف لكم : تبعكم ولحقكم .  
 ماتكن صدورهم : ماتخفيه .  
 غاثبة : التاء فيها للمبالغة كالتاء في علامة ونسابة والأصل غائب

## التفسير

قل لهم يا محمد : لا يعلم من استقر في السموات والأرض ، من الملائكة والإنس والجن ، حتى  
 الأنبياء والرسل لا يعلمون الغيب ، أي : ما غاب عنهم ، ومن جلته قيام الساعة لكن الله يعلم الغيب  
 والشهادة ، ويعلم السر وأخفى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام

وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا و ماتدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴿١﴾ .  
 قالت عائشة : من زعم أن محمدا ﷺ ، يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية ﴿٢﴾ ولو كنت  
 أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير ﴿٣﴾

وهذا يفيد وصف الله بالعلم التام الشامل ، بعد وصفه بالقدر والوحدانية ، وذلك كله يفيد  
 انفراده بالألوهية وما يشعر الكفار فى أى وقت يبعثون للحساب والجزاء ، وستأتيهم الساعة بغتة ، وهم  
 يجهلون ، بل ادرك علمهم وتلاحق أى تكامل علمهم فى الآخرة عنها ، لأنهم رأوا كل ما وعدوا به  
 معاينة ، فتكامل علمهم به بعد إنكارهم لأحوالها كلها ، بل هم فى شك منها فى الدنيا ، بل هم من  
 الآخرة وأحوالها عمون بقلوبهم ، لا يؤمنون بها ولا يفكرون فيها .

وقال الذين كفروا بالله وبرسوله : أنذا كنا ترابا بعد موتنا نحن وآباؤنا أننا لمخرجون - من قبورنا  
 بعد أن صرنا ترابا - للبعث والجزاء ؟ إن هذا شيء لا يمكن أن نصدقه ، ولا أن نؤمن به ، لقد وعدنا  
 هذا نحن وآباؤنا من قبل كثيرا ، ولم نسمع أن قام أحد بعد موته وصيرورته ترابا ، ما هذا الذى تدعوننا  
 اليه وتخبرنا به أيها الرسول إلا أساطير الأولين وأكاذيبهم ، التى دونوها رأى الله - سبحانه وتعالى - فيهم هذا  
 الإنكار للبعث ، وهو يعلم أن سبب ذلك جهلهم للدنيا وافتتانهم بها ، وحبهم للرياسة الكاذبة والزخرف  
 الزائل ، فعالج هذا الداء من أساسه ، وأمر رسوله أن ينههم إلى السير فى أرض الحجاز والشام  
 واليمن ، لينظروا بأعينهم كيف كانت عاقبة الكفار المجرمين ، هؤلاء هم الذين اغتروا بديانهم ،  
 وافتتنوا بزخرفها ، وما هى إلا ساعة ، حتى فارقوها وتركوا ديارهم تنعاهم لمن بعدهم ، فأيها الناس  
 آمنوا وصدقوا ولا تغتروا بالدنيا ، فهى متاع زائل وعرض حائل والآخرة خير وأبقى .  
 وأنت يا محمد لا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق وكرب مما يمكرون ، فإن الله معك وناصرك  
 وعاصمك من الناس ومؤيدك .

وانظر إليهم وهم يقولون : متى هذا الوعد ؟ إن كنتم - أيها القائلون : صادقين وهذا سؤال المراد  
 منه الإنكار واستبعاد تحقق الوعد فيرد الله عليهم : قل لهم يا محمد : عسى أن يكون ردكم ولحقكم  
 واقترب منكم بعض الذى تستعجلون من العذاب ، وعسى فى كلام الله للتحقق ، وقد تحقق هذا فى  
 غزوة بدر ، ويتحقق فى عذاب القبر قريبا .

وإن ربك لذو فضل على الناس جميعا ، أنعم حيث أنعم على الجميع بنعمه فى  
 الدنيا ، وعلى المؤمن خاصة بنعمة الهداية ، وعلى الكافر بتأخير العذاب ، لعله يثوب إلى رشده ، وإن  
 ربك ليعلم السر وأخفى ، ويعلم الغيب والشهادة ، وهو العليم بذات الصدور وما من شيء يغيب عنه  
 ويخفى خفاء شديدا ، أينما كان فى السماء أو الأرض ، إلا كان فى كتاب مسطور كتاب مبين ﴿٤﴾ يابنى إنما  
 إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف  
 خبير ﴿٥﴾ .

(١) لقمان آية ٣٤

(٢) الأعراف آية ١٨٨

(٣) لقمان آية ٣٤



## البعث حق

من الكلمات الجامعة التي بلغت أعلى طبقات البلاغة ماجاء في قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ <sup>(١)</sup> .

يبين لنا مولانا دجل في علاه - أن دنيانا هذه لا قرار فيها ولا استقرار ، إنما الإنسان فيها راحل منها إلى دار القرار .

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ <sup>(٢)</sup> فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في الزمان إلا لبنة في بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال ، فلا بد من دخول القبر . جاء في الحديث الشريف عن المعصوم عليه السلام :

أنه قال : ( والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً )

والبعث قضية من قضايا العقيدة ، لا يؤمن أحد إلا إذا آمن بأنه حق ، وإن الساعة آتية لا ريب فيها ، ولما سبق في علم الله تعالى - أن هناك ناساً سيسألون هذا السؤال : ﴿ أفأذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ <sup>(٣)</sup>

أقام الله الأدلة الكونية المنصوبة في الآفاق ، وأقطار الكون ، ليقطع الطريق على هؤلاء المجادلين المعاندين المكابرين ، الذين يقحمون أنفسهم في المتاهات ، التي لانهاية لها وينسون أنفسهم . يقول مولانا تبارك اسمه - ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ <sup>(٤)</sup> .

هذه الآية الرائعة الحاسمة الجازمة الباذخة الراسخة أنتجت خمس نتائج اجتمعت في قوله تعالى :

- (١) ذلك بأن الله هو الحق .
- (٢) وأنه يحيى الموتى .
- (٣) وأنه على كل شيء قدير .
- (٤) وأن الساعة آتية لا ريب فيها .
- (٥) وأن الله يبعث من في القبور <sup>(١)</sup> .

(١) المؤمنون الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) الانشقاق آية ٦

(٣) الرعد من الآية : ٥

(٤) الحج آية ٥

واسمع إليه تبارك اسمه وهو يقدم للبعث في سورة الرعد فيقول عز من قائل : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ \* الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ \* وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ثم يعقب سبحانه على تلك الآيات فيقول :

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد ﴾

ثم يحكم الله تعالى على هؤلاء الخاقدين فيقول :

﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١) .

يقول الأستاذ عبد الله سراج في كتابه « الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها »

قال الله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ (٢)

أن من أصول الاعتقادات الإيمانية : الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى - يبعث الخلائق بعد موتها فيجمع أجزائها بعد تفرقها ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ويعيدها كما بدأها .

قال تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (٤) .

فهو سبحانه يعيد هذا الخلق بجواهره بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة وليس في هذا شيء من المحال العقلية ولا المناقضات الفكرية .

وذلك أن العاقل إذا اتبع نظراته العابرة في العالم الإنساني وتكويناته الخلقية وتطوراتها وتقلباتها في تلك الأدوار وتغيراته في تلك الأطوار .

وهكذا أجال نظره في عالم النبات وانفلاق تلك النواة الدفينة في بطن الأرض بقدره الباري - تعالى - عن شجرتها وفروعها وأغصانها وثمراتها ، ثم جعل يتقل في عجائب الأرض ، وعظمة السموات وما فيها من المبدعات ، فإنه حينئذ تتجلى له حقائق قدرة الباري - تعالى - ويشاهد آيات إبداعه وخلقه ، ويعلم يقينا أن من قدر على بدء الخلق هو القادر على إعادتهم بلا ريب .

ولقد جاء القرآن العظيم بطرق واضحة ، تثبت أمر المعاد الجسماني والروحاني ألا وهي طريقة

(١) الرعد الآيات : ١ - ٥

(٢) المؤمنون الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٣) الروم آية : ٢٧

(٤) الأعراف من الآية : ٢٩

البرهان وطريقة العيان ، وليس بعد البرهان والعيان دليل وتبيان وتلك الحجج القرآنية هي المحجة البيضاء التي لا تعشو فيها الأبصار ولا تتخط فيها العقول والأفكار .

الطريقة الأولى : النظر في الآيات الأفاقية والنفسية قال الله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ﴾ وعاد وفرعون وإخوان لوط ﴾ وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من الخلق جديد ﴾ (١) .

إذا أمعن القارئ في هذه الآيات الكريمة ، وتدبر مافيها ، يتضح له وجه المناسبات الحكيمة ، وأنها كلها براهين قطعية ، وأدلة عيانية ، شاهدة على أن الإعادة حق ، وأن الله على كل شيء قدير ، وأنه لا يعجزه شيء ، وذلك أن للإعادة أشباها ونظائر ، يتقبلون فيها ويشاهدونها بأعينهم ، فعلام يعجب الجاحدون ، وينكر المنكرون ؟

﴿ فقال الكافرون هذا شيء عجيب . إذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ .

استبعدوا الرجعة بعد الموت ، وتفرق الأجزاء وبلاها ، فجاءهم الجواب :

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ وذلك أن ماتأكله الأرض من أجزائهم هو معلوم عند الله تعالى . لا يغيب مهما تباعد وتفرق ، فهو سبحانه يعلم كل جزء عمن انفصل ، وبين كان اتصل ، وأن تلك الأجزاء كلها محفوظة في كتاب جمعها كلها ، فهي وإن غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة في ذلك الكتاب الذي عنده سبحانه بذواتها وذراتها فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة ، فهذه السماوات والأرض ، أكبر خلقا منهم وأشد ، فإن كانوا يرون أن الإعادة ليست أكبر من البدء ؛ فالذى قدر على البدء يقدر على الإعادة .

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبر من البدء وأعظم ، فلقد خلق الله سبحانه ما هو أكبر منهم وأشد خلقا منهم ، وهي السماوات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم .

إلى هذا يرشد سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾

أي : وهي الجبال التي نصبها سبحانه ، وأودع فيها ما أودع من خزائن ومعادن وخصائص . ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ تبصرة ﴾ للمستبصرين ( وذكرى ) للمتذكرين . وما يتبصر ويتذكر إلا

كل عبد منيب .

ولذا قال سبحانه : ﴿ وذكروا لكل عبد منيب ﴾

ثم بين الله - تعالى - في سياق الحجة على منكرى الإعادة بعد الموت ، فقال سبحانه : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ كذلك الخروج ﴾ وهكذا الدليل يثبت قدرة الله - تعالى - ويثبت عظمة القدرة الإلهية وسعتها . وهذا الدليل يقرب أمر الإعادة ، ويبين أن لها نظائر وأشباها مشهورة أمامهم .

### \* الحجة والنواة \*

وذلك أنه سبحانه أنبت في هذه الأرض من حبة أو نواة دفيئة في بطنها أصنافا من زروع وأشجار وثمار على مختلف ألوانها وطعمها وتنوع منافعها ، وذلك دليل باهر يصر به أرباب البصائر ، ويستدل به أولو العقول على إثبات البعث ، وكيفية الإعادة لهذا الجسم ، الذي تحتفظ الأرض بأجزائه ، مهما تفرقت وتبددت وتباعدت ، ومن تلك الأجزاء الدفيئة ينشئ الله - تعالى - النشأة الآخرة . ولذا قال سبحانه : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أى : مثل هذا الإخراج المشهود المعين أمامكم من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ، فيخرجكم من الأرض بعدما غيبت فيها ودفنتم في أنحائها وبطونها .

### \* تكذيب الجاحدين \*

ثم إنه سبحانه بين في قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ الآيات - أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل : هو عادة كل جبار عنيد ، يكذب بالحق بعدما تبين ، وينكر الواقع بعدما تضح ، فلا فائدة في الجدل معه فإنه لا يستخرج منه العناد إلا سطوة رب العباد ، وأخذة بالعذاب والعقاب .

### ( كل كذب الرسل فحق وعيد )

ثم بين سبحانه وتعالى دليلا نفسيا على إثبات الإعادة لهذا الخلق ، بأنه سبحانه لما بدأ هذا الخلق لم يعى ، ولم يمسه لغوب ولا تعب ، فيعجز عن إعادته ثانيا ، فإن كانوا قد عموا وصموا عن الأدلة السابقة كلها : السماوية والأرضية ، فليفكروا في أنفسهم ، وليتأملوا في نشأتهم الحاضرة التي هم فيها ، فإنهم الآن يتقلبون في خلق جديد يتجدد عليهم . غير أنهم قد التبس الأمر عليهم ، فظنوا أنهم هم في كل حال ، وأنهم لا يعترفهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد ، ولكن الأمر ليس بذلك ، بل إنهم في كل لحظة ، بل في أقل من أجزاء اللحظة ، تنفى منهم أجزاء خلقية وجواهر فردية ، ويخلق الله - تعالى - غيرها ، ويجدد عليهم وجودها ، وهكذا وهكذا .. وهذا الأمر لا يخالف فيه إلا جاهل مكابر

## \* أطوار خلق الإنسان \*

إن الله خلق الإنسان أولا نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغه ، ثم جنينا ، ثم طفلا ، ثم مراهقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا ، ثم هرمًا فانيا .  
ومن المقطوع البديهي أنه لم ينتقل من طور إلى طور دفعة واحدة ، بل مرت عليهم لحظات وساعات فنية منهم أجزاء ، وتجددت فيهم أجزاء أخرى شيئا فشيئا تدريجيا ، حتى انتقل إلى الطور الثاني ، وهكذا دواليك ، ولكن لم يتبين له ذلك التجديد والتحويل .

قال الله تعالى : ﴿ مالكم لا ترجون الله وقارا ﴾ وقد خلقكم أطوارا <sup>(١)</sup> .  
وقال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ <sup>(٢)</sup>

فلا فرق بين تلك الأطوار التي يقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه وتعالى ، ولا يعجزه شيء في ذلك ، بل إن جميع ذلك يسير عليه ، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير وقال الله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم . قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

## \* المجادلة في البعث \*

روى ابن أبي حاتم وغيره عن ابن عباس-رضي الله عنهما:- أن العاص بن وائل الجاهلي ، أخذ عظما من البطحاء ففثه بيده ، ثم قال لرسول الله - ﷺ - : أحيى الله هذه بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : ( نعم ، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم ) <sup>(٤)</sup> . فنزلت هذه الآيات ردا عليه وعلى أمثاله .

(١) سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٦

(٣) سورة يس الآيات : ٧٧ - ٨١

(٤) انظر تفسير الطبري : ٢٣/٢١ .

وروى أن ائقائل ذلك هو أبى بن خلف ، فجاء الجواب القرآن على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه :  
١ - أن هذا الضال استبعد الإعادة والحياة فى عظام رفات ، وترك نفسه من الاعتبار ، فإن الله- تعالى الذى خلق الإنسان ونقله من العدم إلى الوجود - هو قادر على الإعادة ، فما لهذا الضليل نسى خلقه بعد العدم ، فراح ينكر حياته بعد الموت ؟

٢ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ (١) . فإن إيجاد البادىء أصعب فى مطرد العادة والعرف من رد شىء كان إلى ما كان عليه من ذى قبل : يعنى أن القادر على البداية هو قادر من باب أولى على الإعادة .

٣ - ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ فإن جميع أجزاء الإنسان مهما تفرقت وتباعدت ، فإنها معلومة عند الله تعالى ، محفوظة عنده ، ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ (٢) . ولا يلتبس عليه شىء .

٤ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾ (٣) .  
وفى هذا دليل على أن هناك قوة تتغلب على المتنافرين المتناقضين ، وهما : الأخضر الحى ، والنار اليابسة - ألا وهى : قدرة الله- تعالى - الذى يستخرج الشىء من ضده ، بل من نقيضه . .  
٥ - أن الذى أبرز النار التى كانت كامنة فى الشجر والحجر ، فأظهرها بالقدح ، وأشعلها بالنفخ - هو قادر على أن يبرز الميت الدفين فى التراب الكامن فى الحبايا الأرضية . بسبب أنه سبحانه يأمر إسرأفيل عليه السلام بالنفخ فى الصور ، والنقر فى الناقور .

الطريقة الثانية من الحجج التى أقامها الله- تعالى- على عباده ، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هى : طريقة الشهود والعيان ، وهى أن الله- تعالى- أجرى فى ذلك أمورا فعلية ، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان ومن الحيوان ومن الطيور . ثم أحياهم بعد موتهم على مشهد ومرأى من الناس ليعلموا أن الذى أعاد ذلك بعد الموت ، هو قادر على أن يعيد الأموات كلهم بعد موتهم . وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع ، وبين أنها أمور معلومة ومشهودة لدى الأمم الماضية .

### \* قوم أحياهم الله بعد موتهم \*

فمن ذلك القوم الذين أخبر الله- تعالى- عنهم بقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بنى إسرائيل ، استوخوا أرضهم ، وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى

(١) الآية: ٧٩ من سورة يس .

(٢) الآية: ٥٢ من سورة طه .

(٣) الآية: ٨٠ من سورة يس .

البرية ، فنزلوا واديا أفيح - واسعا - فملأوا ما بين عدورتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم : ثم إنهم تفرقت أجزاءهم وتمزقت فلما كان بعد دهر مر بهم نبي من أنبياء بنى إسرائيل يقال له : ( حزقييل ) فسأل الله تعالى أن يحييهم على يديه ، فأجابه إلى ذلك وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ (١) .

أى: فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدامغة ، التى تثبت أن الله تعالى - قادر على إعادة الأموات بلا ريب .

### \* أصحاب موسى عليه السلام \*

ومن ذلك أيضا : السبعون الذين اختارهم موسى - عليه الصلاة والسلام - للميقات الذى وعده الله تعالى - إن يكلمه فيه ، وينزل عليه التوراة ، أماتهم الله - تعالى - ثم أحياهم .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك ﴾ (٢) . أى بأن الله - تعالى - أعطاك التوراة ، أو أن الله تعالى قد كلمك .

﴿ حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى: نار من السماء أحرقتهم ، أو صيحة سماوية خروا لها صبعقين ميتين يوما وليلة .

﴿ وأنتم تنتظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ (٣) .

وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى - عليه الصلاة والسلام - ومناشدته ربه .

### \* دحض شبهة باطلة \*

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم في الدنيا مرتين مع قوله تعالى : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ﴾ (٤) . لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم ، وإنما هو موت عقوبة ، فكأنه ليس بموت ، أى: إنه عارض أعقبه حياة في الدنيا نفسها لا في عالم آخر ، فلا يختلف مع الآية الثانية .

### \* قصة العزيز \*

ومن ذلك : أيضا قصة العزيز عليه السلام - أماته الله - تعالى - مائة عام ثم بعثه ، قال الله تعالى :

(١) من الآية: ٢٤٣ من سورة البقرة .  
 (٢) من الآية: ٥٥ من سورة البقرة .  
 (٣) من الآية : ٥٥ ، والآية : ٥٦ .  
 (٤) من الآية: من سورة غافر ١١ .

﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى همارك ولنجعملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

قال جمهور السلف رضى الله عنهم : إن هذا الذى مر على قرية هو ( العزيز ) أحد أنبياء إسرائيل ، مر على بلد بيت المقدس ، بعدما دخلها ( بختنصر ) وخربها ، فرآها العزيز وهي خاوية على عروشها ، أى : ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت تسقط أولا ، ثم تهتدم الجدران وتتساقط عليها ، أى : على السقوف .

قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟؟

قال ذلك استعظاما للأمر ، وتفخيما من عظمة قدرة الله تعالى - القدير على كل شيء ، لا من باب الاستبعاد والإنكار .

وذلك نظير قول زكريا عليه الصلاة والسلام : فيما أخبر الله تعالى عنه لما بشر بالغلام : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾ (٢) . يعنى : أن ذلك الأمر عظيم ، جدير بأن يتعجب من عظمتة وفخامته .

﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ : أحياء بعد موته ﴿ قال كم لبثت ﴾ ؟ وهذا السؤال وزد لإظهار عجز العزيز وغيره من الإحاطة بشئون الله - تعالى - وعظيم قدرته .

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ .

وأما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبعث بعد المائة قبل الغروب ، فقال قبل أن ينظر إلى الشمس : ﴿ يوما ﴾ ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب ، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية ، فقال : ﴿ أو بعض يوم ﴾ على طريق الاضراب .

﴿ قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ .

أى : لم يتغير فى هذه المدد الطويلة والسنين العديدة ، وكان طعامه على ما روى عننا وتينا ، وشرابه عصيرا أو لبنا .

﴿ وانظر إلى همارك ﴾ : كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله ، وهكذا أمره الله تعالى أن ينظر أولا إلى طعامه وشرابه ، لم يتغير ، حتى يبين له أن الذى حفظ له طعامه وشرابه من التغير والفساد على طول السنين المائة ، هو الذى حفظ العزيز من التغير ، ومن أن تأكله الأرض ، وتفسده على مر السنين العديدة ، بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه ، من البلى ، لأنه الله تعالى - حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

وأمره الله تعالى أن ينظر ثانيا إلى حمارة ، وقد بلى وتفرق وتمزق ليزداد يقينا بأنه مر عليه مائة سنة .

(١) الآية : من سورة البقرة ٢٥٩

(٢) الآية : من سورة مريم ٨



ثم قال تعالى له : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أى عبرة ودليلا على قدرة الله تعالى ، على احياء الأموات وبعثها ، وانه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد من أراد حفظهم ، وانه سبحانه قدير على كل شىء ، ولا يعجزه شىء .

ثم قال له : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ أى عظام الحمار البالى المتفرقة أوصاله وعظامه ﴿ كيف ننشزها ﴾ أى كيف نرفعها عن الأرض ونركبها فوق بعضها ونعيدها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ ثم نكسوها لحما ﴾ أى نستر العظام باللحم .

﴿ فلما تبين له ﴾ اتضح له ايضا تماما ، وعان كيفية الاحياء ﴿ قال ﴾ أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴿ وذلك علم رؤية وعيان ، فوق ما انا عليه من اليقين والإيمان .

### \* إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام \*

ومن ذلك : قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا ابراهيم ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم بعد قصة العزيز عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحمى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضى الله عنهم فى سبب سؤال الخليل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ربه أن يريه كيفية إحياء الموتى .

فجاء عن الحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينقل من مرتبة علم اليقين الى عين اليقين .

وقد جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : ( ليس الخبر كالمعاينة ، ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت ) (٢) .

وروى عن ابن عباس والسدى وسعيد بن جبير ان الملك بشر الخليل عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذ خليلا ، وأنه يجيب دعوته ، وانه يحبى الموتى بدعائه ، فلذلك سأل الله ما سأل .

وروى عن محمد بن إسحق ان سبب سؤال الخليل ذلك - هو منازعة النمرود إياه فى إحياء الموتى ، حين قال له الخليل : ﴿ ربى الذى يحى ويميت ﴾ (٣) .

ورد على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم هو إحياء له وان تنفيذ القتل فيه إماتة له ، وراح النمرود يتوعد الخليل بالقتل ان لم يحى الله الموتى على يد الخليل بحيث يشاهد النمرود ذلك ، فدعا سيدنا الخليل ربه حيثذ فقال : ﴿ رب أرنى كيف تحمى الموتى قال ﴾ أولم تؤمن ﴿ (٤) . أى ألم تعلم وتؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى عنه ؟

(٣) الآية من سورة البقرة : ٢٥٨

(٤) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠

(١) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠

(٢) أخرجه الإمام احمد ج ١ ص ٢١٥ ، ص ٢٧١

أولم تؤمن بأنى قد اتخذتك خليلا ؟

أولم تؤمن بأن الجبار النمروذ لا يستطيع أن يقتلك ؟ ﴿ قال بلى ﴾ أى أنا مؤمن بذلك ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بانضمام رؤية العيان الى الايمان بأنك القادر على ذلك ، وليطمئن قلبى بالخلة التى تفضلت بها على ، وأكرمتنى بها وبلوازمها ، من إجابة الدعاء وما وراء ذلك . أو ليطمئن قلبى بأن الجبار لا يقتلنى بعدما يشاهد كيفية إحياائك للموق على يدى .

وعلى كل ، فسؤال الخليل لم يكن عن شك أصلا ، بدليل قوله : ﴿ أولم تؤمن ﴾ قال : بلى ﴿ أى : أنا مؤمن ﴾ ولكن ليطمئن قلبى ﴿ .

وقد قطع النبى ﷺ دابر الوهم الذى يتلاعب فى بعض الخواطر ، فقال كما فى الصحيحين عن أبى هريرة : ( نحن أحق بالشك من إبراهيم عليه السلام اذ قال : رب أرنى كيف تحمى الموق ) (١) . ويعنى بذلك - ﷺ - أنا لم نشك أصلا . فكأنه ﷺ يقول : إن شك إبراهيم فنحن أحق بالشك ولكننا نحن لم نشك ، فإبراهيم لم يشك ، صلوات الله تعالى على حبيبه وخليفه وآلهما أجمعين . قال سبحانه : ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ أى مختلفة الأنواع .

وإنما خص الطير بذلك لسهولة ما يفعل بها من التجزئة والتوزيع والفرقة على الجبال ، ففى جمعها وإعادتها وإحيائها مزيد ظهور لقدرته سبحانه وتعالى . ﴿ فصرهن ﴾ أى قطعهن أجزاء واضممن ﴿ إليك ﴾ واجمعهن ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ .

وهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام ان يذبح تلك الطيور ويقطعها إربا إربا ، ويجزئها ما استطاع ، يخلطها الى بعضها ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا . ﴿ ثم ادعهن يأتينك سعيًا ﴾ أى ساعيات مسرعات فى العدو والعودة اليك .

والحكمة فى سعى الطيور اليه مشيا دون الطيران اليه هى انه لو طارت لتوهم متوهم انها غير الطيور الميتة التى ذبحها ومزقها ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ غالب لا يعجزه شيء ، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها .

وفى هذا دليل على ان هذا الأمر كان على مشهد من الناس وعلى مرأى من النمروذ ، ليكون حجة للخليل عليه السلام ، قائمة على النمروذ وأتباعه .

ولذلك جاءت هذه القصة بعدما ذكر الله تعالى الحاجة التى جرت بين الخليل والنمروذ . قال سبحانه :

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ﴾ (٢) . الآية .

فهذه وقائع ثابتة أجراها الله تعالى وأوقعها ليقيم الحجة على العباد ، وليبين لهم أنه قادر على إحياء

(١) أخرجه الامام مسلم فى كتابه الفضائل رقم ١٥٢ ، ٥١ ص ١٨٣٩ ط الخلبى

(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

الموت - سبحانه - وإعادتهم الى حياة جديدة في عالم آخر يوم القيامة ، أى :  
﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾<sup>(١)</sup> .

### \* البعث في القرآن الكريم \*

لما كانت قضية البعث من أكثر القضايا جدلا عند ذوى القلوب المريضة ، فإن القرآن الكريم بسط القول فيها بسطا لا يكاد يدع لمرتاب شبهة ، إلا أن يكون فى أذنيه وقر ، وقلبه فى أكنة ومن بينه وبين الحق حجاب .  
نرى القرآن الكريم فى بعض مواضعه يقدم الأدلة على القضية وأحيانا يقدم القضية ثم يقيم الأدلة عليها .  
ففى سورة الحج يقدم القرآن العظيم الأدلة ثم يذكر النتيجة .

### \* عالم الأرحام \*

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .  
ثم يستتبع القرآن من هذه الأدلة خمس نتائج :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ وأنه يحى الموتى ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾<sup>(٥)</sup> .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾<sup>(٦)</sup> .

وهذه أضواء فى تفسير تلك الآيات البينات ، يذكرها لنا العلامة ابن كثير فىقول :  
لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد ، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب ﴾ أى فى شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فإننا خلقناكم من تراب ﴾ أى أصل برئه لكم من تراب وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ .

(٤) الآية من سورة الحج ٦

(٥) الآية من سورة الحج ٧

(٦) الآية من سورة الحج ٧

(١) الآية ٦ من سورة المطففين .

(٢) الآية من سورة الحج ٦

(٣) الآية من سورة الحج ٦

وذلك انه اذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك ، يضاف اليه ما يجتمع اليها ، ثم تنقلب علقه حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوما ، ثم تستحيل فتصير مضغة . ( قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ) .

ثم يسرع في التشكيل والتخطيط فيصور منها رأسا ويدين وصدرًا وبطنًا وفخذين ورجلين وسائر الأعضاء .

فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ أى كما تشاهدونها ﴿ لنبين لكم فقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ أى وتارة تستقر في الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق .

فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا اليها فنفخ فيها الروح وسواها ، كما يشاء الله عز وجل : من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقيا أو سعيدا ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : ( وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقيا أو سعيدا ، ثم ينفخ فيه الروح ) (١) .

وروى ابن حاتم وابن جرير من حديث داود أبى هند عن الشعبي عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت في الرحم جاءها ملك بكفه فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن قيل : غير مخلقة ، لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دما . وإن قيل : مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله ، فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله ، فيقال له : اذهب الى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش في أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت في ذلك . ثم تلا عامر الشعبي ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

فإذا بلغت مضغة نكست في الخلق الرابع فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن أبي الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ، يبلغ به النبي ﷺ قال : ( يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين يوما أو خمسا وأربعين يوما فيقول : أى رب ، أشقى أم سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان . فيقول : أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان . ويكتب عمله وأثره وزاده وأجله ، ثم تطوى

الصحف فلا يزداد على ما فيها ولا ينقص<sup>(١)</sup> . ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينه ، ومن طريق آخر عن أبي الطفيل بنحو معناه .

وقوله : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أى : ضعيفاً فى بدنه وسمعه وبصره ، وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار . ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أى : يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أى : فى حال شبابه وقواه .  
 ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والضعف : ضعف القوة والفهم وتناقض الأحوال وضعف الفكر ولهذا قال : ﴿ لكىلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾ .  
 كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾<sup>(٢)</sup> .

### \* منح إلهية للطائعين \*

قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا خالد الزيات ، حدثنى داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى عن أنس بن مالك رفع الحديث قال :

( المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم ، وأمر الملكين اللذين كانا معه أن يحفظا وأن يشددا ، فإذا بلغ أربعين سنة فى الإسلام أمنه الله من البلى الثلاث : الجنون والجذام والبرص . فإذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه . فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء . فإن بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه فى أهل بيته وكتب أمين الله ، وكان أسير الله فى أرضه . فإذا بلغ أرذل العمر لكىلا يعلم من بعد علم شيئاً كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير . فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه )<sup>(٣)</sup> . رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده موقوفاً ومرفوعاً .

فقال : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج ، حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العامل عن عمرو بن جعفر عن أنس قال : ( إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من أنواع البلى : من الجنون والبرص والجذام ، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم ٢٦٤٤ كتاب القدر ، والإمام أحمد ( حديث حنيفة بن أسيد ج ٤ ص ٧

(٢) الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢١٨/٣

عليها ، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته ، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله في أرضه وشفع في أهله ) .

ثم قال : حدثنا هشام ، حدثنا الفرج ، حدثني محمد بن عبد الله العامري عن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ مثله .  
ورواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا أنس بن عياض ، حدثني يوسف بن أبي بردة الأنصاري عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : ( ما من معمر يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والبرص والجذام )<sup>(١)</sup> . وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن شبيب عن أبي شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبي قتادة العدوي عن ابن أخي الزهري عن عمه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما من عبد يعمر في الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون والجذام والبرص ، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله وأحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله في الأرض وشفع في أهل بيته ) .

### \* دلالة إحياء الأرض على البعث \*

وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدي : ميتة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ :  
أي : فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت ، أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ﴿ وربت ﴾ أي ارتفعت لما سكن فيها الترى : ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشجارات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي : حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي : الخالق المدبر الفعال لما يشاء .  
﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أي : كما أحيا الأرض الميتة وأنبتت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها

لحمى الموت إنه على كل شيء قدير ﴿ .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أى كائنة لاشك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ : أى يعيدهم بعدما صاروا فى قبورهم ربما ويوجدتهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾<sup>(٢)</sup> .

والآيات فى هذا كثيرة .

قال الامام أحمد : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلي واسمه لقيط بن عامر انه قال : ( يارسول الله : أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( أليس كلكم ينظر إلى القمر مغلّيا به ؟ ) قلنا : بلى . قال : ( فالله أعظم ) قال : قلت يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال ( أما مررت بوادى أهلك ممحلا ) ؟ قال : بلى قال : ثم مررت به فاهتز خضرا ؟ قال : بلى . قال : ( فكذلك يحيى الله الموتى وذلك آيته فى خلقه ) .

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الامام أحمد أيضا : حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبى رزين العقيلي قال : ( أتيت رسول الله ﷺ وقلت : يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : ( أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخضبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور )<sup>(٤)</sup> . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبى الحجاج عن معاذ بن جبل قال : ( من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة ) .

وهكذا انتهى النموذج الأول من نماذج إثبات البعث فى القرآن الكريم بتقديم الأدلة ، ثم إثبات النتيجة .

### \* النموذج الثانى فى الاستدلال على البعث \*

أما النموذج الآخر ، فإنه يبدأ بقضية البعث ، ثم يقيم الأدلة الكونية والآفاقية على أنه حق واقع .

(١) الآية ٨٢ من سورة يس

(١) الآيات ٧٨ - ٨٠ من سورة يس .

(٢) أخرجه الامام أحمد ٤ / ١٢٤١١ وابن ماجه رقم ١٨٠ ج ١ ص ٦٤ ، وابو داود برقم ٤٧٣١ ص ٩٩ ، ص ١٠٠ ج ٥

(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤ / ١١

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مِنْ يَحْيَى الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١) ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة :

- ١ - ﴿ قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .
- ٢ - ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تَوَفَّدُونَ ﴾ (٣) .
- ٣ - ﴿ أَوْ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤) .

٤ - ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٥) .

٥ - ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦) .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجيلا .

يقول رحمه الله تعالى : قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : ( جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أترغم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ) (٧) .

### \* القرآن هدى ورحمة \*

قوله تعالى : **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصَّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ** **وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴿٧٧﴾ **إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِ بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ** **فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ** ﴿٧٨﴾ **إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۗ وَمَا أَنْتَ بِهَادِيَ الْعُمَىٰ ۚ أَنْ تَسْمِعَ ۚ إِلَّا مَنْ يُّؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ** ﴿٨١﴾

### \* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور ، وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، أردف ذلك

(١) الآيات ٧٧ - ٧٨ من سورة يس

(٢) الآية ٧٩ من سورة يس .

(٣) الآية ٨٠ من سورة يس .

(٤) الآية ٨١ من سورة يس .

(٥) الآية ٨٢ - ٨٣ من سورة يس .

(٦) الآية ٨١ - ٨٣ من سورة يس .

(٧) انظر تفسير الطبرى ٢١/٣٢



الكلام في نبوة محمد ﷺ ، وأقام الأدلة على صحتها ، وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ، لا جرم بين الله تعالى فصاحته وبلاغته وإعجازه من وجوه :

- (١) أن ما فيه من القصص موافق لما في التوراة والإنجيل مع أنه كان ﷺ أمياً ولم يخالط أحداً من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذن إلا من وحى إلهي من لدن حكيم خبير .
- (٢) أن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر في دنياهم وآخرتهم - لا يوجد له نظير في كتاب آخر ، فلا بد أن يكون ذلك من عند الله .
- (٣) أنه قد بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر ، وأنه من الملأ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقدرة .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكماً على بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق في هذا كاختلافهم في أمر المسيح ، فمن قائل هو الله، ومن قائل هو ابن الله، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب في دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ما هي منزهة عنه ، وقالوا: إن النبي المبشر به في التوراة هو ( يوشع ) عليه السلام أو هو نبي آخر يأتي آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه ، وأنه لا يحكم إلا بالعدل فقول الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لا يعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعي ، وأذان تسمع دعوة الداعي إلى الحق ، فتستجيب لها .

### \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ : هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن الكتاب الكريم والقرآن العظيم ، بما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقصص على بني إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل ، أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسوله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي : هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم في العمليات وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٣) .

(١) الآية ٣٤ من سورة مريم .

(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس .

وقوله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾<sup>(١)</sup> .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزنا ..  
ثم قال تعالى :

﴿ إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم ﴾ أى: يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾  
أى: فى انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

سبحانه إذا أراد قضاى المراد ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ .

أى: كل جميع أمورك إلى الله ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على ذكائه زل ، ومن اعتمد على عقله اختل ، ومن اعتمد على الله فلا قل ولا مل ، ولا ضل ولا زل ولا اختل .

﴿ إنك على الحق المبين ﴾ إنه القرآن العظيم والإسلام النظيف قال تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى: ﴿ إنك لا تسمع الموق ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

أى: لا تسمعهم شيئا ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أى: إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب ، والبصيرة ، الخاضع لله ، وكما جاء عنه على السنة الرسل-عليهم السلام..

### \* خروج الدابة \*

\* وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

(٣) من الآية ١٤ من سورة الرعد .

(٤) من الآية ٢٥ من سورة النور .

(٥) الآية ٦٢ من سورة الحج .

## \* التفسير \*

ورد في ذكر هذه الدابة أحاديث ذكرها المفسرون بيانا وتفسيرا .  
قال الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : ( لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم - عليه السلام - والدجال وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا )<sup>(١)</sup> .

( طريق أخرى ) : عن رسول الله ﷺ أنه قال : ( لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعني مكة - ثم تكمن زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها في أهل البادية ويدخل ذكرها القرية ) يعني مكة قال رسول الله ﷺ : ( ثم بينا الناس في أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترعو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شيء ومعا ، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلت وجوههم ، حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت في الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى أن الدجال ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يا فلان الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه في وجهه ثم تنطلق ويشارك الناس في الأموال ويصطحبون في الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى أن المؤمن ليقول يا كافر اقضنى حقى ، وحتى أن الكافر ليقول يا مؤمن اقضنى حقى )<sup>(٢)</sup> .

● قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتها كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على أثرها قريبا )<sup>(٣)</sup> .

● روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : ( بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم )<sup>(٤)</sup> .

● عن أبي هريرة رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : ( تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان - عليهما السلام - فتخطم أنف الكافر بالعصا وتحلى وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر )<sup>(٥)</sup> .

قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ابن عباس قال : ( هى دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة ) .

(١) أخرجه الإمام أحمد ٧/٤ وأخرجه مسلم برقم ٢٩٠١/٣٩ ج ٤ ص ٢٢٢٦ .

(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٦ .

(٣) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢٢٦٠ برقم ١١٨ / ٢٩٤١

(٤) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢٢٦٧ برقم ١٢٨ / ٢٩٤٧

(٥) الدر المنثور ٥/ ١١٦

قال محمد بن اسحق عن إبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال ( الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم أولو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها قيل فتصنع ماذا يا عبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل ثم ماذا قال ثم لا أعلم ) .

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك :  
قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه ( تكلمهم كلاما ) أى : مخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول لهم : (إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون) .  
وهناك أقوال أخرى فى بيان تلك الدابة ضربنا الذكر عنها صفحا لضعفها ولأن فى سنة رسول الله ﷺ التى بينت تلك الآية الجواب الكافى والدواء الشافى .

### \* مشاهد وعظات \*

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ وَقَالَ  
أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا  
ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لَيْسِكُنَا فِيهِ وَلِأَنَّهُمْ مُبْصِرُونَ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ  
فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٩٠﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ  
السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ  
مِّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ  
يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَاهُ وَلَهُ  
كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَعْنَدَىٰ فَإِنَّمَا

يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ ؕ آيَاتِهِ  
فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾

### \* تفسير المفردات \*

نحشر : أى : نجمع .  
فوجا : أى : جماعة من الرؤساء .  
يوزعون : أى : يحسن أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة أولم  
تحيطوا بها علما : أى : ولم تدركوا حقيقة كتبها .  
ألم يروا : أى : ألم يعلموا .  
ليسكنوا فيه : أى : ليستريحوا فيه ويهدأوا .  
مبصرا : أى : ليصروا بما فيه من الإضاءة طرق القلب فى أمور معاشهم .  
الصور : البوق  
داخرين : أى : أذلاء صاغرین .  
جامدة : أى : ثابتة فى أماكنها .  
أتقن : أى : أحكم . يقال رجل تقن ( بكسر التاء وسكون القاف ) أى : حاذق بالأشياء .  
الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات .  
السيئة : الإشرار بالله والمعاصي .  
كبت : أى : ألقيت منكوسة .  
البلد : هى مكة .  
أتلو القرآن : أى : أواظب على تلاوته .  
من المنذرين : أى : المخوفين قومهم من عذاب الله .

### \* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن ذكر سبحانه خروج الدابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم ،  
وأنه حينئذ ينفخ فى الصور فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجري  
وتمرر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم قسمين : مطيعين يعملون الحسنات  
فيثابون عليها بما هو خير منها ، ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكبون فى النار على وجوههم  
ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .  
وبعد أن بين سبحانه أحوال المبدأ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة أمر رسوله أن يقول للمشركين

هذه المقالة تنبيهها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق في مراقبته غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهمهم بالطف وجه إلى تدارك أحوالهم ، وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبير فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التي تكفى في إرشادهم ، وتشفى عللهم وأمراضهم .

### \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ .  
 هذا مشهد عصيب من مشاهد الآخرة ، إنه حشر المكذبين إلى ربهم ، وسؤالهم عن تكذيبهم بآيات الله البينات ، والحشر هو سوق العباد إلى أرض الموقف ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا \* ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا \* لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ (١) .  
 قال تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا \* وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا \* ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ (٢) .  
 وفي قوله تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ إخبار منه عز وجل عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا ، تقريرا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا ، فقال تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ أى من كل قوم وقرن فوجا أى جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ .  
 كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ (٣) . وقال تعالى ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ (٤) .

وقوله تعالى ﴿ فهم يوزعون ﴾ : قال ابن عباس رضى الله عنهما يرفعون ، وقال قتادة : وزعه : ترد أولهم على آخرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المسائلة ﴿ قال أكذبتكم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ﴾ .  
 أى فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم

(١) الآيات ٨٥ - ٨٧ من سورة مريم .

(٢) الآيات ٤٧ - ٤٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

(٤) الآية ٧ من سورة التكاوير .

﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ ولكن كذب وتولى ﴿<sup>(١)</sup> . فحيث قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به .

كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴿<sup>(٢)</sup> . وهكذا قال ههنا ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ .  
أى بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

فما أسوأ المصير ، وما أتعس المآب ، حيث يقال لهم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ﴾ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ﴾ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ كأنه جمالت صفر ﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا يوم لا ينطقون ﴾ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ ويل يومئذ للمكذبين ﴿<sup>(٣)</sup> .

ما أتعس ما بهم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴿<sup>(٤)</sup> .

اقرأ قوله عز وجل لترى ما سوف يحيق بالمكذبين الضالين : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴿<sup>(٥)</sup> .

ثم بين الله تعالى عظيم قدرته وجليل نعمته على عباده ، وكان الواجب عليهم أن يشكروا ولا يكفروا ، وأن يؤمنوا ولا يجحدوا ، فقد ذكر سبحانه من هذه النعم آيتين عظيمتين فقال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ أى فى ظلام الليل ، لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى منيرا مشرقا ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعاش والمكاسب والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار

(١) الآيتان ٣١ - ٣٢ من سورة القيامة .

(٢) الآيتان ٣٥ - ٣٦ من سورة المرسلات .

(٣) الآيات ٢٩ - ٤٠ من سورة المرسلات .

(٤) الآيتان ٣٩ - ٤٠ من سورة مريم .

(٥) الآيات ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت .

نشورا ﴿١﴾ .

وقوله جل شأنه ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ (٢) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ \* قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣) .

وقوله عظمت حكمته ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ \* والجبال أوتادا ﴾ \* وخلقناكم أزواجا ﴾ \* وجعلنا نومكم سباتا ﴾ \* وجعلنا الليل لباسا ﴾ \* وجعلنا النهار معاشا ﴾ (٤) .

فوا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد

قوله تعالى ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾ \* وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن الهول الذى سيعقب النفخ في الصور ، قال سبحانه ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ \* وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾ \* ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ (٥) .

والصور كما جاء في الحديث ( قرن ينفخ فيه ) .  
وفى حديث الصور إن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض ( إلا من شاء الله ) وهم الشهداء ، فلأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .  
قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري حدثنا أبى حدثنا شعبة بن النعمان ابن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

(١) الآية : ٤٧ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ١٢ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

(٤) الآيات : ٦ - ١١ من سورة النبأ .

(٥) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الزمر .



وجاءه رجل فقال : ( ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما - لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا . إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب البيت ويكون ويكون ، ثم قال : قال رسول الله ﷺ : ( يخرج الدجال فى أمي فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما ، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه )<sup>(١)</sup> . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال ( فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبيون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا - قال - وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبلة قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله - أو قال ينزل الله - مطرا كأنه الطل - أو قال الظل - شعبة الشاك - فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق ) .

وقوله : ( ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا ) الليت : هو صفحة العنق أى أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا ، فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ، ولهذا قال تعالى ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ . داخرين أى صاغرين ، مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره .

كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبيون بحمده ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾<sup>(٣)</sup> . وفى حديث الصور أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله عز وجل : وعزنى وجلالى لترجعن كل روح إلى أجسادها . فتدب فيها كما يدب السم فى اللدغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ، قال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾<sup>(٤)</sup> .

### يا أخا الإسلام

تزود من التقوى فإنك راحل      وسارع الى الخيرات فيمن يسارع  
فما المال والأهلون إلا ودائع      ولا بد يوما ان ترد السودائع

(١) انظر ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : ( ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة ) أول سورة الحج .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء

(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٤) الآية ٤٣ من سورة المعارج .

قوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ .  
 أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أى تزول عن أماكنها كما  
 قال تعالى : ﴿ يوم تمور السماء مورا ﴾ وتسير الجبال سيرا ﴿ (١) ﴾ .  
 وقال تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ﴾ فيلذرها قاعا صفصفا \* لا ترى فيها  
 عوجا ولا أمنا ﴿ (٢) ﴾ .  
 وقال تعالى ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ (٣) .  
 وقال تعالى ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء ﴾ : أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذى أتقن كل  
 شيء ﴾ أى أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع .  
 قوله تعالى : ﴿ إنه خير بما يفعلون ﴾ أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه  
 أتم الجزاء .

### \* مبحث علمى فى الجبال \*

يتحدث هذا المبحث عن عالم الجبال وهو عالم رهيب ومهيب ، كما يتضمن تفسيراً لبعض الآيات  
 التى تتحدث عن الجبال ، فاقراً هذا المبحث بفكر وروية ، وفقك الله للعلم النافع . تحت عنوان الجبال  
 فى القرآن كتب الباحث الدكتور : محمد أحمد الغمراوى فى كتابه : ( الإسلام فى عصر العلم )  
 قال :

#### ١ - الجبال والقيامة :

جاء ذكر الجبال فى القرآن بلفظها فى نحو تسع وعشرين آية ، ويوصفها أنها رواسى فى نحو تسع  
 آيات ، ومن الآيات التسع والعشرين إحدى عشرة آية تتعلق بالقيامة وأشراطها ، هى حسب ترتيب  
 نزول الوحي بها : الزمل ، والتكوير ، والقارعة ، والمرسلات ، وطه ، والواقعة ، والكهف ،  
 والطور ، والحاقة ، والمعارج ، والنبأ ، ومن بين هذه الإحدى عشرة سورة أربع أنبأت أن الجبال تسير  
 فتسير ، ألا وهى : التكوير ، والكهف ، والطور ، والنبأ - فى الأربع آيات هى حسب ترتيب النزول  
 ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ (١) . التكوير : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾ (٢) . الكهف ،  
 ﴿ ويوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا ﴾ (٣) الطور ، ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ (٤) .  
 النبأ .

(١) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور

(٢) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه

(٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٣ من سورة التكوير .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٦) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور .

(٧) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

وآية سورة التكوين جاءت تتلوها آية ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ فدل ذلك على أن تسيير الجبال علامة من علامات الساعة ، أو هو بدء قيامها ، إذا العشار كانت لا تزال موجودة في الدنيا ، وإنما أصابها التعطيل ، وهاتان الآيتان وما قبلها وما بعدها أحداث يتلو بعضها بعضا ، والله أعلم بفترات ما بينها وهي في العدد اثنا عشر حدثا عظيما ، وتأملها يدل على أن نصفها الأول من الأشراف ، ونصفها الثاني من الوقائع التي تكون بعد قيام الساعة في يوم البعث ، فتسيير الجبال حدث من الأحداث سنة عظمى ، تقع بين يدى يوم البعث ، ولذا جاء الفعل فيها مبني للمجهول . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سِيرَتْ ﴾ كما جاءت أفعال الآيات العشر الأخرى في أوائل سورة التكوين .

وتحىء آية سورة الكهف ﴿ وَيَوْمَ نَسِيرُ الْجِبَالُ ﴾ (١) . بضمير المتكلم ، ضمير الجلالة ، فتدل على أن الجبال حين سيرت إنما سيرها الله سبحانه ، فبأمره قامت ، وبأمره سارت سيرا فعليا ، كما تدل عليه آية الطور ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ﴾ (٢) . ثم تحىء آية النبأ فيها الفعل مبني للمجهول مرة أخرى ، بعد أن سبق النص بضمير الجلالة في آية الكهف على أن المسير هو الله سبحانه ، لكن ليس في هذه الآيات الثلاث بترتيب نزولها هذا ما يدل على مصير الجبال بعد مسيرها حتى تأتي رابعة آيات التسيير آية سورة النبأ : ﴿ وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٣) . فتنبئ بأن الجبال حين تسير فتسير إنما ينتهي بها سيرها إلى الفناء ، فلا يبقى لها من الوجود الذي كان إلا كالوجود الذي يكون في السراب . هذه أربع آيات كريمة يجمع بينها اشتراكها في ذكر ظاهرة تقع بالجبال عند الرجفة الأولى بين يدى يوم البعث يوم القيامة الكبرى وهناك أربع آيات أخرى تتعلق بظاهرة أخرى تقع أيضا بالجبال هي ظاهرة النسف . . هذه الآيات الأربع هي بترتيب النزول ﴿ يَوْمَ تَرْجَفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِيلاً ﴾ (٤) . ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسْفَتْ ﴾ (٥) . ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾ لا ترى فيها عوجا ولا أمثا ﴿ (٦) .

و ﴿ إِذَا رَجَتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ وبست الجبال بسا ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ (٧) . والآيات الأربع المقصودة هي طبعاً التي ذكرت الجبال فيها بلفظها ، وقد ذكر معها من الآي ما يزيد موضوعها وضوحاً ، وقد ذكر النسف صراحة في الآيتين الثانية والثالثة وذكر بمعناه في الآية الرابعة أما الآية الأولى آية المزمل فهي تمهد للنسف بذكرها مقدمته من صيرورة الجبال كثيًّا مهيلًا ، إذ من الواضح أن الجبال إذا صارت كثيًّا مهيلًا فقد أعدت لأن تنسف نسفا وتكون هباء منبثا ومن هنا ألحقت آية المزمل بالآيات الثلاث الأخرى ، وإن لم يذكر فيها النسف لا باللفظ ولا بالمعنى .

(١) من الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٢) من الآية ١٠ من سورة الطور .

(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

(٤) الآية ١٤ من سورة المزمل .

(٥) الآية ١٠ من سورة المرسلات .

(٦) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .

(٧) الآيات ٤ - ٦ من سورة الواقعة .

هاتان إذن مجموعتان كل من أربع آيات تتحدث عن ظاهرة تقع بالجبال ظاهرة تسيير وسير ﴿وتسير الجبال سيرا﴾<sup>(١)</sup>.

وظاهرة نفس ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾<sup>(٢)</sup>.  
فهل هما يا ترى ظاهرة واحدة فيكون تسيير الجبال هو عين نفسها أو هما ظاهرتان مختلفتان ؟  
إن التسيير الذى تطيعه الجبال فتسير سيرا حقيقيا غير النفس الذى تبس فيه الجبال بسا فتكون هباء منبثا ، واتحادهما يقتضى حمل أحدهما على المجاز ، والمجاز يقتضى قرينة تدل عليه في نفس الكلام ، وهذه القرينة مفقودة في أى الآيات الثمانى ، فالتسيير والنسف إذن على حقيقتها هما ظاهرتان مختلفتان تنزلان بالجبال ، إما على التعاقب فيسير الجبل ثم ينسف ، وإما على التقسيم : فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر ، ولا ثالث لهما لذين الاحتمالين .

لكن الاحتمال الأول تمنع منه آية سورة النبأ ﴿وسيرت الجبال فكانت سرابا﴾<sup>(٣)</sup>.  
إذ الجبال بعد أن انتهى بها التسيير إلى أن تفتى وتكون سرابا ، لا يمكن أن يلحق بها نفس ، وقد انعدمت بالفعل فلم يبق إلا الاحتمال الثانى .

ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصا ببعض الجبال ، والفناء عن طريق النفس خاصا ببعض الآخر ، وهذا يقتضى أن تكون الجبال صنفين : أحدهما يقبل بفطرته التى فطره الله عليها أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيبا مهيلا ، والآخر يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سرابا ، ولا بد من تغيير في هذا الصنف يمهد للتسيير ، كما مهد للنسف فى الصنف الأول بالانهيال إذ كل من الصنفين فى حالته الدنيوية راس راسخ لا بد فى حكمة الله من إعداده للنسف والتسيير .

وفى آيتى المعارج والقارعة ما يؤيد هذا الاستنباط ، من أن الجبال صنفان ، لأنها تذكران تحولا تصير إليه الجبال يخالف ويقابل ما تصير إليه من كثيب مهيل ، كما فى آية المزمل ، فإن الآيتين كليهما تذكران ان الجبال تكون كالعهن ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾<sup>(٤)</sup> وتزيد آية القارعة وصفا للعهن ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾<sup>(٥)</sup>.

والعهن هو الصوف المصبوغ ، فالآية الكريمة تقول إن الجبال يوم القارعة تكون كالصوف المصبوغ المنفوش ، ولكل من هذه الكلمات الثلاث دلالتها ، فالصوف فيه من التماسك ما ليس فى الرمل الذى يكون فى الكثيب المهيل .

وإذن ، فالجبال التى تصير بالرجفة كثيبا مهيلا غير الجبال التى تصير كالصوف فى طبيعتها وتكوينها وفيما تصير إليه يوم الرجفة ، وإذا كان انهيال الأولى يهيئها للنسف فتفكك الثانية حتى تكون كالصوف يهيئها للسير بالتسيير الذى تصير به بعد سرابا .

(١) الآية ١٠ من سورة الطور

(٢) الآية ١٠٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

(٤) الآية ٥ من سورة القارعة .

(٥) الأيتان ٤ - ٥ من سورة القارعة .

والجبال التي قال الله عنها في الآية ( ٢٧ ) من سورة فاطر : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ .

هى التى تصير بالقارة كالصوف المصبوغ ، و ( من ) التبعية فى هذه الآية الكريمة تدل على أن الملون من الجبال هو الذى يصير كالعهن وأن ليس كل الجبال كذلك ، ففيها مثلاً الأبيض كله مثل جبال الطباشير والحجر الجيرى المتبلور أو غير المتبلور ، وهذه لا يمكن أن تكون هى المشبهة بالعهن والصوف المصبوغ .

فالجبال فى الآيتين الكريمتين ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ ، و ﴿ تكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ .

مقصود بها الملون من الجبال لا مطلق الجبال ، وهذا يحل لنا الإشكال الناشئ عن المعنى المتبادر من فهم الجبال على إطلاقها فى هذا النص وغيره من نصوص الآيات الثمانى السابقة ، فالجبال كلها مصيرها الى الزوال والفناء بين يدى الساعة ، أو حين تقوم ، لكن لا بطريقة واحدة ، فليس كلها يصير كشيئا مهيلاً ، وليس كلها يصير كالعهن قبل أن يذهب ويزول ، إذ ليس كلها ذا تكوين واحد ، ولا خواص واحدة ، وعلماء طبقات الأرض الذين تعددت أقسام الجبال عندهم هم الذين يستطيعون زيادة هذه الناحية من الموضوع بياناً .

ووصف العهن بالمنفوش فى آية سورة القارة له أهميته ودلالته ، لا من حيث تيسير تسيير الجبال بعد أن تصير إلى هذه الحال فيما يبدو ، ولكن من حيث توكيد تقسيم الجبال الى ذينك الصنفين اللذين يصير احدهما بالرجفة كشيئا مهيلاً ، ويصير الآخر كالعهن المنفوش ، فلولا وصف العهن بالمنفوش فى الآية لجاز أن يكون تشبيه الجبال بالعهن راجعاً إلى التشابه فى اللون والصبغة فحسب ، لا إلى التشابه فى شيء من صفات الصوف الأخرى كالتماسك الذى يكون بين أليافه وفيها ، والذى استفدنا إليه فى التفرقة بين الجبال التى تنهال كشيئا ، والجبال التى تنفش كالصوف .

تبقى من الإحدى عشرة آية المتعلقة بالجبال ، وأحداث القيامة آية واحدة هى آية الحاقة ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ (١) .

والله أعلم بكيفية ذلك الحمل ثم بكيفية ذلك الدك لكنها على أى حال يستتبعان تلك الأحداث التى تقدمت بها تلك الآيات الكريمة العشر ، فالدك يحول الجبال إما إلى كتيبان مهيلة ينسفها الله بما يشاء كيف يشاء ، وإما إلى حالة من التحلل والتفكك تصير بها بنية الجبال كالصوف المصبوغ المنفوش ثم يسيرها الله بعد ذلك بما يشاء كيف يشاء ، حتى تصير سراباً ، وأثراً بعد عين .  
بقيت آية عن الجبال هى معجزة قرآنية علمية ، لأنها تقرر حركة انتقالية للأرض قبل أن يعرفها العلم بقرون ، ويلحقها قدامى المفسرين بالآيات السابق ذكرها ، إذ لم يكن يخطر ببالهم أن للأرض حركة .

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

وينكر بعض المحدثين أن تكون الآية عن الجبال في الدنيا ، في حياتنا هذه ، صونا للآيات القرآنية أن تقحم عليها النظريات العلمية ، بل أن تقحم عليها الحقائق العلمية ، ناسين أن الطريق الصحيح لصون القرآن عن مثل هذا ليس هو إيراد الباب دون إثبات الإعجاز العلمي للقرآن ، ولكن هو النقد الدقيق لدليل ذلك الإعجاز .

تلك الآية العجيبة هي آية أواخر سورة النمل : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

وكل حجتهم فيما أنكروا أن آية الجبال مسبوقة بآية النفخ في الصور ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾ . فالسياق في رأيهم يقتضى أن تكون آية الجبال متعلقة بيوم النفخ في الصور .

وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة في غير إفاضة ، اكتفاء بما سبق معها من دليل على أن الآية تنبئ بحركة للجبال تشبه حركة السحاب الذى يتحرك ، لا بالذات ولكن بواسطة الرياح التى تحملها ، وإذن فللجبال حركة ، لا بالذات ( لأنها فى رأى العين جامدة ) ولكن بواسطة الأرض التى تحملها ، أى أن الآية تثبت للأرض حركة انتقالية عن طريق إثبات حركة للجبال تشبه حركة السحاب ، وهى معجزة علمية قرآنية لا شك فيها .

والسياق الذى استند إليه منكر هذا المعنى لا ينبغي أن يقتصر فيه على الآية قبلها فحسب ، وإذا توسعنا فيه ليشمل أربع آيات أخر قبلها وجدنا مثالا كالذى احتجوا به ، إلا أن الحجة فيه عليهم لا لهم .

وحسبنا ثلاث آيات فى يوم البعث أو الحشر ، تليها آية كونية لا يمكن أن ترجع إلى يوم الحشر ، والآيات الأربع هى :

﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ﴾ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

فلو صحت حجة من يزعم أن آية ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ متعلقة بيوم النفخ في الصور ، لمجرد أنها مسبوقة بآية ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ لصحت حجة زاعم أن آية ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل . . . . ﴾ متعلقة بيوم الحشر ، لمجرد أنها مسبوقة بآيات عنه .

فالسباق فى هذه الآيات الأربع دلالة على عكس ما يظنون : يذكر بيوم القيامة إنذارا ووعيدا وزجرا لغير المؤمنين ، ثم يأتى ببعض آيات الله فى الكون الدالة عليه سبحانه لعلمهم يؤمنون . وكذلك الحال فى الآيتين التاليتين للآيات الأربع ، يذكر وينذر بيوم القيامة فى آية ﴿ ويوم ينفخ في الصور ﴾ ثم يذكر آية أخرى لله فى الكون تدل عليه سبحانه . ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة ﴾ ثم يتابع حديث يوم القيامة فى الآيتين بعدها ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تمحزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

ثم يعود إلى الدعوة إلى الله على لسان رسوله ، وهي المقصود الأول في هذا ، وفي القرآن كله ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .  
وحتى آخر السورة : ﴿ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

## ٢ - آيات الجبال في القصص القرآني

بقي من الآيات التي ذكرت الجبال فيها بلفظها سبع عشرة آية تتعلق بالجبال فيما دون القيامة ، أى في دنيا الأرض هذه التي استخلف فيها الإنسان ، قد وردت في ست عشرة سورة ، هي حسب ترتيب نزول الوحي بها : ( ص ) ، والأعراف ، والشعراء ، وهود ، والحجر ، وسبأ ، والغاشية ، والنحل - آيتان - وإبراهيم ، والأنبياء ، والنبأ ، والنازعات ، والأحزاب ، والرعد ، والنور ، والحج ) وآيات الجبال في الست السور الأولى آيات قصص يلتحق بها آية سورة الأنبياء .  
فهذه سبع آيات ، ثلاث منها وردت في قصص داود عليه السلام في ( ص وسبأ ، والأنبياء ) ، وثلاث في قصص ثمود في : الأعراف ، والشعراء ، والحجر ، وواحدة في قصة نوح في سورة هود .

### \* الجبال في سورة ص ، سبأ ، الأنبياء \*

وأول تلك الآيات آية سورة ( ص ) يذكر الله فيها معجزة كبرى أتاهها نبيه داود ، أوهما معجزتان في آيتين كريمتين : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ﴾ والطير محشورة كل له أبواب ﴿ (١) .

ولعظم دلالة هاتين المعجزتين على قدرته سبحانه من ناحية ، وفضل داود عليه السلام من ناحية أخرى ، أعاد الله ذكرهما في إجمال معجز في بعض آية إذ قول في سورة سبأ ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد ﴾ (٢) .

وإذ يقول في سورة الأنبياء : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾ (٣) .  
والمأمل هذه الآيات الكريمة الثلاث يجد بينها اشتراكا واختصاصا في التعبير ، ولكل دلالة العجيبة ، فالحرف ( مع ) مشترك بينهما ، وكذلك ضمير الجلالة للمتكلم . ودلالة الحرف أن داود كان يبدأ التسبيح فتشاركه الجبال .

ولو كان التعبير باللام ( بدلا من مع ) لأثبت التسبيح فقط للجبال .  
أما دلالة الضمير فهي أعجب وأعظم ، فهو أولا لا يمكن أن يرجع إلا إلى الله عز وجل ، إذ لا

(١) الآيتان ١٨ - ١٩ من سورة ص .

(٢) الآية ١٠ من سورة سبأ .

(٣) الآية ٧٩ من سورة الأنبياء .

يقدر على تسخير الجبال غيره سبحانه ، وهو ثانيا ضمير الجلالة للمتكلم ، فدل بوضوح على أن الآيات القرآنية الثلاث إنما هي من عند الله سبحانه وتعالى ، لا من عند محمد أو غيره ، كما يزعم المستشرقون ومقلدوهم ، وكما غفل عن ذلك أو أغفله المشركون الذين قالوا إن محمدا افتراه .

وضمير الجلالة مثبت في القرآن كله ، لتكون له هذه الدلالة القاطعة بأن القرآن كله إنما هو من عند الله .

أما عن الاختصاص في الآيات الكريمة الثلاث : فقد اختصت الآية الأولى وأختها معها بتفصيل ما أجمل في الآيتين الأخريين ، ومن بين ذلك تبين الوقت ، وقت التسبيح .

واختصت الآية الثانية ، آية سبأ ببناء الجبال ، وأمرها أن ترجع التسبيح مع داود ، ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ (١) ونداء الجبال وأمرها تسخير لا يمكن أن يكون إلا من خالق الجبال سبحانه .

واختصت الآية الثالثة آية الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ بعد قوله عز وجل ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ وفي ذلك تنبيه إلى عظم المعجزتين ، ونفى لما قد يرد على الخاطر من استبعاد أن يكون التسبيح بلسان المقال ، ومن حمله على التسبيح بلسان الحال المذكور في آية الإسراء : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (٢) .

فدلالة الأشياء على الله بما أودع سبحانه فيها من أسرار وخواص أمر عام للناس أجمعين ، أما تسبيح الجبال مع داود عليه السلام فأمر خاص به ، ومعجزة آتاه الله إياها ..

### \* الجبال في قصص ثمود \*

وآيات الجبال في قصص ثمود تدل على أن ثمود كانوا قوما أولى عمارة وتشيد ونحت مثل قدماء المصريين ، وأولى تلك الآيات الثلاث آية الأعراف التي هي أولى آيات الجبال في القرآن ، حسب ترتيب المصحف ، وثانيها حسب نزول الوحي ، وقد وردت ، هي وأختها آية سورة الشعراء ، على لسان نبي الله صالح إذ يدعوهم إلى الله ويذكرهم بنعم الله عليهم ويحذرهم الكفران ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهوها قصورا وتنتحون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ (٣) .

وآية الشعراء : ﴿ أتركون فيما هاهنا آمنين . في جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنتحون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون ﴾ (٤) .

والشاهد هو طبعاً في رابعة هذه الآيات الخمس .

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٧٤ من سورة الأعراف .

(٤) الآيات ١٤٦ - ١٥٠ من سورة الشعراء .



ويبدو أن ثمود كانوا يقتطعون الصخور من الجبال يبنونها قصورا في السهول ، كما تشهد له آية الفجر ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ (١) .

كما كانوا يتخذون البيوت ينحتونها في الجبال نفسها ، كما تدل عليه آية سورة الأعراف ، ويشهد للأمريين جميعا آية سورة الشعراء ، وتحقيق هذا ميسور بدراسة مساكن ثمود في الحجر ، فإنهم هم أصحاب الحجر الذين يقول الله فيهم في سورة الحجر ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ (٢) .

وما أظن أحدا من الأثريين الا فرنج قام بهذه الدراسة ، وأجدر الجامعات أن تقوم بها الجامعة الأزهرية ، لتعرف مبلغ التشابه بين ثمود وقدماء المصريين في نحت الجبال ، ذلك التشابه المتوقع من قوله تعالى ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ (٣) . بعد قوله ﴿ الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ (٤) .

ومتأمل الآيات الثلاث وسياقها يدرك أولا أن التكرار في القصص القرآني ليس مجرد تكرار المعنى والتعبير ، بل هو صور من الإعجاز في المعنى والأسلوب - وفي آيتي الجبال في سورتي الشعراء والحجر مثال من زيادة الفائدة في المعنى مع الاشتراك في أكثر الألفاظ : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ الشعراء ( ١٤٩ ) ، ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ الحجر ( ٨٢ ) .

ولكل من الآيتين في سياقها إعجازها ، ففي التعبير مثلا باسم الفاعل ( فارهين ) إعجاز معنوي عجيب ، لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه : مرة من باب كرم معناه حذق ، ومن باب فرح معناه أشر وبطر ، كما في القاموس واسم الفاعل يدل على المعنيين .

فنبى الله صالح يذكر قومه بنعمة الله عليهم فيما آتاهم من الحذق في اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال ، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة ، إذ يسيئون استعمالها بالتعالى في تلك البيوت أشرا وبطرا ، فجمع الله ذلك المعنى كله في لفظة واحدة ( فارهين ) اسم الفاعل من الفعلين جميعا . وما أظن كلمة واحدة في غير العربية كانت تتحمل كل هذا ، فمثل هذا سر من أسرار العربية التي أعدها الله في سابق علمه لتكون لغة كتابه العزيز الذي أنزله معجزة خالدة للناس .

أما آية الحجر ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ إعجازها فيما يبدو وهو في الجواب الذي يضيفه عليها ضمير الجلالة للمتكلم . في الآية قبلها ، ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ وتضيفه عليها الآية بعدها ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ (٥) ، بعد الأمن الذي كانوا فيه ، ودل على استقراره فيهم صيغة الحال في كلمة آمنين .

وقد يظن أن سياق كل من آيتي الأعراف والشعراء قد خلا من دلالة ضمير الجلالة الظاهر في سياق آية الحجر ، وليس الأمر كذلك فآية الجبال في الأعراف جاءت عقب قوله ﴿ وإلى ثمود أخاهم

(١) الآية ٩ من سورة الفجر .

(٢) الايتان ٨٠ - ٨١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ١٠ من سورة الفجر .

(٤) الآية ٩ من سورة الفجر .

(٥) الآية : ٨٣ من سورة الحجر والايتان قبلها

صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره ﴿ (٧٣) ﴾ عطفًا على قوله ﴿ وإلى ثمود أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ ﴿ (٦٥) ﴾ في مفتتح قصة عاد .

وهذه جاء ، عطفًا على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ في مفتتح قصة نوح في الآية ( ٥٩ ) . وهى أول قصص الأنبياء في سورة الأعراف . فمن الواضح أن التقدير هو ﴿ وإلى عاد ﴾ ﴿ أرسلنا أخاهم هودا ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود ﴾ ﴿ أرسلنا ﴾ ﴿ أخاهم صالحا ﴾ في الآيتين الكريميتين ( ٥٩ ، ٦٥ ) .

وحذف كلمة ( أرسلنا ) اعتمادا على ورودها في الأول ، وإبقاء مفعولها منصوبا دليلا في كل من الآيتين هو مثل من الإعجاز القرآنى في الإيجاز اللفظى .

أما سورة الشعراء ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ ( ١٤٩ ) .

فقد ناب عن ورود ضمير الجلالة فيها وروده في ختام قصة عاد قبلها مباشرة في الآية ( ١٣٩ ) ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ( ١٣٩ ، ١٤٠ ) .

مع اشتراك القصتين في المبدأ من حيث الصيغة : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ وكذبت ثمود المرسلين ﴾ وفى النهاية بالذات ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

وفى ضمير الخطاب ضمير الرسالة . فى قوله تعالى ﴿ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ دليل آخر يقطع بأن هذا القصص ليس من عند محمد ، ولكن من عند ربه عز وجل الذى أرسله رحمة للناس . بقيت من آيات الجبال فى القصص القرآنى آية سورة هود ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ ( ٤٢ ) وفيها تشبيه رهيب لموج الطوفان الذى أغرق الله به قوم نوح ، استدل به الفخر الرازى على أن الطوفان كان مصحوبا برياح شديدة العصف ، وهو استنتاج صحيح ، فقد ذكر العالم الرياضى الطبيعى ( إذنجتن ) عن تولد الأمواج بالرياح أن الريح لا تحدث أى تغضن فى سطح الماء إلا إذا بلغت سرعتها ميلا فى الساعة ، وهو ما يسميه بالأمواج الشعرية .

أما الموج كما نعرفه فلا يبدأ ظهوره إلا إذا بلغت سرعة الريح فى الساعة ميلين ، فما ظنك بسرعتها إذا بلغ الموج من العظم أن صار كالجبال ؟

والقصة التى وردت فيها الآية الكريمة تكرر فيها ضمير الجلالة للمتكلم فى الأول وأثناءها وفى الآخر ، كما تكرر فيها ضمير الرسالة إذ جاء فى الوسط مرة ﴿ أم يقولون افتراء قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾ ( ٣٥ ) ، وفى الآخر مرت فى الآية ( ٤٩ ) ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ فكان فى ذلك برهان مضاعف أن القصة كأخواتها إنما هى من عند الله .

### ٣ - اقتران ذكر الجبال بذكر الأرض والسماء

بقيت بعد آيات الجبال والقيامة ، وآيات الجبال فى القصص القرآنى ، آيات إحدى عشرة جاءت

الجبال فيها بلفظها في عشر سور هي : مريم، والغاشية والنحل، وإبراهيم، والنبأ، والنازعات، والأحزاب، والرعد، والنور، والحج مرتبة هكذا حسب ترتيبها في نزول الوحي بها .

وآية سورة مريم هي ثلاثة الآيات الكريمة ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ﴾ (٨٨ - ٩٠) .

وهي آيات قد تؤخذ على أنها من باب المبالغة عند من لا يفقه كيف يكون قول من ينسب الولد إلى الله سبحانه سببا يدنى السموات من الانفطار ، والأرض من الانشقاق ، والجبال من الانهداد لكن المبالغة لا تكون إلا في كلام محدودى القدرة ، ما يعجزون عنه ( ويعلمون أنه لا يمكن أن يتحقق ) . يقولون عند المبالغة أنه تحقق أو كاد ، في ظرف من الظروف لأمر من الأمور . أما الحق سبحانه الذى لا يعجزه شيء والذى بيده أمر السموات والأرض ، فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده ، إلا أن ترد على لسان من يحكى عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة . وإذن فالآيات الكريمة الثلاث ليست من المبالغة في شيء ، وإنما تقرر حقيقة . من الحق أن نسبة الولد إلى الله هي من الشناعة ومن الإجرام في جنب الله بحيث تغضبه الغضب الذى لولا حلم الله سبحانه وتعالى ، ولولا حكمته لعجل الله من أجله بالقيامة ، ليحاسبهم على ما يفترون ، إذ الأحداث الهائلة المذكورة في الآية الكريمة لن تقع إلا عند القيامة .

ونسبة تلك الأحداث إلى السماء والأرض والجبال في الآية الكريمة هي من الاعجاز البلاغى ، ومن أدلة ان القرآن من عند الله ، إذ ليس يخطر على بال مخلوق أن يحكى عن السماء أنها تنفطر ، وعن الأرض أنها تهوى ، فهذه لقول يقوله فريق من عباد الله ينسبون به الولد إلى الله سبحانه . ولعل هذه الصيغة الإعجازية وخلوها من التصريح بأن الله هو فاعل ذلك كله لو كان ، لعل ذلك هو الذى ييسر حمل الآية على المبالغة عند بعض الناس ، لكن الآية لم تخل من الإشارة إلى أن تلك الأجرام الهائلة ، من سماء وأرض وجبال ، لا تنفطر ولا تنشق ولا تنهد من نفسها ، والإشارة هي : أولا في المصدر المنسوب على التمييز في ختام الآية الكريمة ﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ والهد هو الهدم الشديد ، كما في القاموس ، والهدم لا بد له من فاعل ، ولا يقدر على هدم الجبال وهذا إلا الله سبحانه وتعالى :

وإذ قد ظهر أن أحد الأحداث الثلاثة المذكورة في الآية هو من فعل الله ، فالجدتان الآخران هما من فعله أيضا . وثانيا يؤيد ذلك ويشير إليه الفعل المطاوع المسند إلى السماء وإلى الأرض لأن المطاوعة في الفعل تقتضى فعلا متعديا يناسبه ، وليس يقدر على شق الأرض وتفتير السماء إلا الله . فانظر إلى هذا الإعجاز في الإيجاز وفي المعنى .

وعجبية عن الجبال في الآية الكريمة ينبغى ألا تغيب عن تاليها المنكر فيها ، تلك هي أن الجبال قد ذكرت مع السموات والأرض على سواء ، فلا بد أن يكون في الجبال من أسرار الخلق ومن الخصائص ما يجعل انهداها جديرا أن يسلك مع تفتير السماء وانشقاق الأرض في سلك ، خصوصا من حيث أثره في حياة الناس .

وأسرار الخلق ، خلق الجبال ، قد أمرنا في آية سورة الغاشية أن نتعرفها وننظر فيها نظرة تأمل واعتبار ، والآية هي ثلاثة الآيات الكريمة الآتية ﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (١) .

وهنا نلتقى بتلك العجيبة مرة أخرى ، عجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء ، وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء ، وقبل ذكر الأرض لما بين رفعة السماء وارتفاع الجبال من تناسب ، وما بين نصب الجبال وبسط الأرض من تقابل ، والجبال جزء من الأرض ، فأى سر ذاك ، وأية حكمة في رفعها عن سطح الأرض ؟

أو- إذا نظرنا إليها من الناحية المقابلة - أى سر ذلك وأية حكمة في خفض سطح الأرض عن سطح الجبل ، وفي خفض سطح الجبال بعضها عن بعض ، إن علوم الفلك وطبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية وما إليها من فروع العلم هي الكفيلة بالإجابة عن ذلك ، وتبيانه لمن أراد التعمق ، وإلا ففينا يعرفه الناس ، كل بقدر علمه وعقله ، ما يكفى للهداية إلى رب السماء والأرض والجبال . ونستقرىء بقية الآيات لنرى هل من بينها ما تحققت فيه أيضا تلك العجيبة ، عجيبة ذكر الجبال مع الأرض والسماء على سواء ، فنجدها تحققت في أربع من التسع الباقية في سورة النبأ والنازعات المكييتين ، والأحزاب والحج المدنيتين ، فالأولى هي ﴿ والجبال أوتادا ﴾ من قوله في سورة النبأ : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبينا فوقكم سباعا شدادا ﴾ (٢) .

والثانية هي ﴿ والجبال أرساها ﴾ من قوله في سورة النازعات : ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاه . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ ( ٢٧ - ٣٢ ) .

وأما المدنيتان فهما آخر سورة الأحزاب : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ ( ٧٢ ) .

ثم الآية ١٨ من سورة الحج : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ .

وفي هذه الآية الأخيرة ذكرت الشمس والقمر والنجوم بدلا من السماء ، وذكرت الجبال والشجر والدواب بدلا من الأرض ، مادام المقام مقام تعديد كل ما يسجد لله في الكون ، أى كل ما يطيعه سبحانه تمام الطاعة ، وينقاد لحكمه أتم انقياد ، لم يستثن من هذا الشمول إلا الناس ، فكثير منهم يسجد ويطيع ، ويلزم من هذا أن باقيهم لا يفعل ، فهو داخل في الكثير الذي حق عليه العذاب .

لكن هذا الكثير ليس مقصورا على الكافرين والعاصين من الناس ، بل يشمل الشياطين وعصاة الجن أيضا ، وإلا لدخل هؤلاء في الساجدين المنقادين الذين دل عليهم الاسم الموصل للعاقل في قوله

(١) الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية

(٢) الآيات ٦ - ١٢ من سورة النبأ .

﴿ ومن في الأرض ﴾ وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسكوتاً عنهم مادام قوله تعالى : ﴿ وكثير حق عليهم العذاب ﴾ يمكن أن يشملهم ويشمل العاصين والكافرين من الناس فتلوا الآية الكريمة شاملة حكم الله في كل مخلوق خلقه .

وآية سورة الحج هذه تبين النتيجة العملية لما أخبرت به آية آخر سورة الأحزاب : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴾ ( ٧٢ ) ، بأن الأمانة عند جمهور المفسرين فيما حكاه أبو حيان هي ( كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا والشرع كله أمانة فهي فيما يبدو أمانة العقل والاختيار وما يتبعها في الدين من التكليف والجزاء ) .

فالسموات والأرض والجبال هابت أن توهب نعمة العقل والاختيار مقرونين بشرط التكليف والجزاء بالمشيئة إن أطاعت والعقوبة إن عصت ، وآثرت السلامة والعافية في تمام الطاعة والانقياد لسنن الله فيها ، خوفاً وإشفاقاً أن يضلها النظر والاختيار فتزيغ عن أمر الله فتعرض لعذابه .

أما الإنسان فقد قبل أن يحمل ما أشفت السموات والأرض والجبال من حمله ، راجياً أن يقوى على أداء ما يكلفه الله به ، عازماً أن يطيع ولا يعصى حتى إذا ما ابتلى إبليس الذي لا يملك من فتنته إلا أن يوسوس إليه ويقترح عليه الكفر والمعصية مجرد اقتراح ووسوسة ، لا يملك معها أن يجبره ، وهو مع ذلك قد حذر أنه له عدو مبين . حتى إذا كان ذلك نسي العهد وأهل وأساء الاختيار ، فكان ذلك منه سفهاً وجهلاً وظلماً لنفسه ولبن معه من الناس ، اللهم إلا من أعطى الأمانة حقها في الكثير الغالب ، واستغفر الله وتاب إليه كلما خدغه الشيطان عن شيء من دينه ، فكان ممن قال الله فيهم ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ( الفرقان ٧٠ ) ولم يكن من الكثير الذين حق عليهم العذاب .

وواضح أن موضوع هاتين الآيتين المدينتين غير موضوع بقية الآيات الأربع ، آيات مريم والغاشية والنبا والنازعات . وإن اتفقت كلها في ذكر الجبال مع السموات والأرض أو السماء والأرض ، على سواء ، والاختلاف بينهما في البيئة التي نزلت فيها ، فالبيئة المدنية غلب عليها الإسلام ، فلم تحتاج إلى ما احتاجت إليه البيئة المشركة المكية من إقامة الدليل على الله من آيات الله الواضحة الظاهرة في الكون ، ومنها آياته في السماء والأرض والجبال على النحو المتجلى في آيات الغاشية والنبا والنازعات . أما آية مريم فالمخاطب بها فيما يبدو من كان يغشى البيئة المكية من النصارى ، والزجر الشديد الذي فيها وفي الآيات التي تليها ، يذهب بما يوسوس به المستشرقون من النصارى من أن محمداً أخذ عن نصارى مكة أو بعض رهبان الشام شيئاً مما جاء به من الدين .

لكن المهم فيما نحن بصدده أمران : أن ذكر الجبال على الخصوص ، وهي جزء من الأرض ، في آيات ست ذكرت فيها السموات والأرض ، أو السماء والأرض دليل ليس بعده دليل على الأهمية القصوى للجبال من ناحية ، ومن ناحية عظم أثرها في حياة الناس ، وحياة غيرهم مما على الأرض من الأحياء .

وعلينا نحن معشر أهل القرآن أن نحيط بما عرفه العلم من ذلك ، ونكشف عما لم يعرفه وأشار

إليه القرآن ، هذا أمر ، والأمر الثاني هو التنوع العجيب فيما ذكر عن السموات والأرض والجبال في تلك الآيات .

فآية مريم لم تزد على ذكر السموات والأرض والجبال شيئا من صفاتها أو خواصها ، لأن ما لها من الروعة في النفوس يكفى في الزجر الذي سيقى الآية من أجله .

وآيات الغاشية لفتت الناس من السماء إلى رفعتها كيف كانت ، ومن الجبال إلى ارتفاعها عن الأرض وتماسكها كيف كان ، ومن الأرض إلى كيف سطّحها الله حول الجبال .

وآيات النبأ لفت الله فيها الناس من الأرض إلى أنه قد سطّحها على وجه يجعلها صالحة للعيش عليها ، والراحة فيها ، كأنها مهد للإنسان ، ولفته من الجبال إلى سر فيها لم يكشف للإنسان عن كنهه إلى الآن ، وأشار الله إلى مفتاح كشفه ، فشبهها بالأوتاد ، ثم لفتهم من السموات إلى عددها ، وإلى أنه سبحانه قد خلقها تشد بعضها بعضا شد البنيان بعضه بعضا ، بحيث لا تسقط علينا وهي فوقنا .

وآيات النازعات لفتت مفكرى البعث من الناس إلى أن الله بناها - وفي الفعل ( بنى ) مفتاح سر إنشائها ، ولفتهم إلى عظم البعد بينها وبين الأرض وبين بعضها وبعض ، وإلى أن لها ليلا مظلمة غير ليل الأرض ، وإلى أن الله أخرج ضوءها أى ضوء ما فيها من شمس ونجم ، لا مجرد ضوء شمسها كما يقول الزمخشري وغيره ، والعلم قد أثبت أن نجومها شمس ينفجر الضوء منها بتفجر ذراتها ، كالذى يحدث في التفجر النووى فى القنابل الايدروجينية ، وما إليها بل أشد .

أما الأرض فقد لفتنا الله فى الآيات الثلاث المتعلقة بها إلى أنه سبحانه بسطها ، وأخرج منها الماء والمرعى ، بعد أن كان قد خلق السماء والأرض إذ خلق إحدهما يستلزم خلق الأخرى لما بينهما فى اللغة من تقابل ، فهما خلقتا معا لا قبل ولا بعد ، كما تدل عليه آيات سورة فصلت .

ثم لفتنا سبحانه إلى إرساء الجبال فى الأرض ، ويكفى أن ننبه إلى ما فى الآيات الأربع ، حسب ترتيب نزول الوحي بها ، من مثل رائع للترقى بالناس فى معارج النظر إلى آيات الله فى السماء والأرض والجبال ، عسى أن يهتدوا إلى خالقها سبحانه .

#### ٤ - والجبال أوتادا

نبدأ بحث هذه الآية الكريمة مستعينين بالله فى محاولة لالتماس حكمته سبحانه فى أن ذكر الجبال مع السموات والأرض على سواء فى مواطن عدة من القرآن الكريم ، أحدهما فى سورة النبأ فى آيات هذه إحداها ﴿ والجبال أوتادا ﴾ ( ٧ ) ، والجبال فى هذه الآية منصوبة بالفعل ( نجعل ) فى الآية التى قبلها : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ﴾ ( ٦ ، ٧ ) .

وهى واردة فى معرض من الله على عباده بآيات له فى الخلق هى من مظاهر قدرته ومجال حكمته ، ففى منافعها للناس بعض تجليات حكمته ، وفى أسرار خلقها وتصييرها إلى صورتها التى يشهدها الناس بعض دلائل قدرته التى ليس يعجزها شيء .

وينبغى أن يتحقق الأمران جميعا فى معنى الكلمتين الكريمتين ﴿ والجبال أوتادا ﴾ ينبغى أن

يكون في تشبيه الجبال بالأوتاد ، هذا التشبيه المحذوف منه أداة التشبيه ، والذي يسميه علماء البيان من أجل ذلك بالتشبيه البليغ ، لأنه يجعل المشبه عين المشبه به ، توكيدا للشبه الشديد بينهما ، ينبغي أن يكون ذلك هاديا إلى أطراف المعنى من ناحيته ، من ناحية الدلالة على القدرة وكما لها ، ومن ناحية الهداية إلى الحكمة وجلالها ، وأطراف المعنى إنما تتبين من تعدد أوجه الشبه بين الجبال والأوتاد تعددا يدل على مجاوزته المألوف في كلام الناس إذا بالغوا في التشبيه .

إن التشبيه البليغ هنا هو من قبل الحق سبحانه ، ثم هو تشبيه للأعلى بالأدنى ، وللضخم الرائع بالضئيل الممتن عند الناس ، فليس هو في شيء من تهويل الناس ومبالغتهم في تشبيهاتهم البليغة ، ولكنه دليل على أمور في الجبال هي من آيات الله في الخلق ، تناظرها أمور يعرفها الناس في الأوتاد ، على عظم الفرق بين الجانبيين في النسبة والمقدار . فكأن ذلك التشبيه العجيب مفتاح أو مصباح يستكشف به المجهول من أمر الجبال ، عن طريق المعروف من تظاهر لها في الأوتاد .

والجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، وناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هذا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز في مداه وفي درجات الميل .

والجبال تختلف في الارتفاع وفي درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها في الأرض ، وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ في ذلك كله ، وإذا كان تفسير هذا في الأوتاد هينا فتفسيره في الجبال يحتاج إلى علم واختصاص ، فالأوتاد إلى هنا لم تزد على أن تشير إلى نواح ينبغي أن يتجه إليها الباحث ، ليقف على مظاهر من آيات الله في الجبال .

لكن هناك عوامل في اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على تظاهر لها في نشأة الجبال ، لم تكن تخطر ببال الإنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لا بد في إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها في الأرض بقوة ما .

وإذن فجعل الجبال أوتادا فيما أنبأ الله في كتابه من شأنه أن يقتضى أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أو قوى ، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ ، فما بالك إذا كان بين القوى في الحالتين تناظر وتشابه من أكثر من وجه ؟

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا في القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها ، حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدرج في الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجيا بالجفاف البطيء .

تلك القوى الهائلة لها نظائر ، على قدر ، عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التناقل عند هبوط قشرة الأرض ، والضغط الجانبية على التربة من حوالى الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة في القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها ، حتى تتموج إلى نجاد ، هي الجبال

والهضاب ، وهاد منها الوديان ، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟  
وفى علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التربة - من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس ، والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتعتت بتعاقبها المستمر طبقات الصخر طبقة بعد طبقة ، وتأق الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تنفتت ، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبيا فى النهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاوله على أنه فى العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه - هذه العوامل تعمل فى انتقاص الجبال فى الوقت الذى تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى ، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس هذين النوعين .

فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير فى تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها فى الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغى أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائما غير منزوع .

فالتناظر والتشابه ، كما ترى ، تام أو يكاد يكون تاما بين الجبال والأوتاد فى النشأة ، وفى طوارئ الحدثنان عليها ، حتى ليكاد تاريخ حياة الثابت من الأوتاد يدل بذلك التشبيه البليغ القرآنى على تاريخ حياة الجبال ، ولا يزال فى أوجه الشبه بقية .

فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين اثنتين فى كتابه العزيز . هما الآية السابقة من سورة النبأ ﴿ والجبال أوتادا ﴾ .

\*\*\*

على أننا لم نتناول من الآية الكريمة إلا ناحية ما أودع الله فيها من دلالة على قدرته ، وبقيت الناحية الأخرى ، ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة فى وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس .

والمفسرون جميعا قالوا فى تفسير آية النبأ : إن الله سبحانه ثبت الأرض بالجبال كى لا تميد ، كما تثبت بيوت الأعراب والخيام بالأوتاد ، ولكنهم فى قياسهم هذا لم يكونوا منطقيين دقيقين ، لأن الأوتاد حين تدق فى الأرض لا يقصد بها تثبيت الأرض ، ولكن تثبيت شئ فوق الأرض هو الخيمة ، أو بيت الجلد الذى من الله علينا به سبحانه ، إذ يقول : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ ( النحل ٨٠ ) .

فالدقة فى قياس الجبال على الأوتاد فى المنفعة والوظيفة تقتضى شيئا فوق الأرض يعلو سطحها فى جملة ، ويمسه فى أطرافه كما تفعل الخيمة ، وتكون الجبال معينة على الاحتفاظ به على الأرض ، نقول معينة لأن الأوتاد وحدها لا تكفى للاحتفاظ بالخيام ، إذ لابد لكل خيمة مع الأوتاد من عماد ، فما هو الشئ الذى فوق سطح الأرض يعلوها كالخيمة ، ويساعد الجبال على حفظه على الأرض ، ثم ما هو العامل الآخر الذى يتم عمل الجبال فى الاحتفاظ بذلك الشئ كما يتم العماد عمل الأوتاد ؟

أظن الجواب صار قريبا ، أو ينبغى أن يكون ، فالشئ الذى فوق الأرض يعلو الناس ويعمل



عمله في وقايتهم ، كما تعلقوا الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر ، هو الغلاف الهوائي الذي يحيط بالأرض من جميع الجهات ، ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات .  
ويكفى الناس على الأقل شر الشهب ، وشر القذرات المؤذى من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية .

وهذا كاف في تحقيق الشبه الكبير في الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لا عداد لها تغطي وجه الأرض ، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبا إلى أن الجبال تعمل في الاحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد ، أما الذي يعمل عمل العماد متمما عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجلة الهواء .

والعماد لم يرد لها ذكر في الآية ، ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم ، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد ، وهذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغى في القرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى ، حقيقة التجاذب بين الأرض والقبة الهوائية ذات الكتلة الهائلة ، ذلك التجاذب العمودى الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية الأرضية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوى ولا يزدون ، لكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التى عرفها العلماء تلك الإشارة للزومية العجيبة في آية النبا ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه ، يتمم عمل الجاذبية التى يعرفونها ، وهذا معناه ، أو هذا مقتضاه .

حقيقة أخرى غير معروفة : أن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان قرآنيان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة الى اليوم ، وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنها علميا حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامى وغير الإسلامى معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن .

وسيكون البحث عنها صعبا وربما عويضا ، وسيحتاج فيه إلى الرياضة العالية ، وربما إلى إجراء تجارب لتقدير كتل الجبال كتلك التجربة البندولية التى أجراها ( مسككين ) على جبل ( شيهالين ) لتقرير كتلته ، وليتوصل بها إلى تقدير كتلة الأرض عن طريق قانون الجاذبية العام ( لنيوتن ) وأهل هذا البحث أخير بما يلزم له وبالمسلك الذى يسلك فيه ، لكننى أرجو ألا يصددهم عنه ما يتوقعون من صعاب فيه ، لأن الحق سبحانه لا يشير في كتابه إلى آية من آياته في الخلق إلا ويسر فقهها لمن يصدقه الجهاد في سبيل كشفها .

والبحث في هذا الأمر الخطير - إذا كان لمثل أن يشير فيه برأى - يمكن أن يؤخذ على خطوات ، أو يتخذ عدة اتجاهات ، فمن الممكن مثلا التساؤل عن جاذبية الأرض أكانت تكون كافية للاحتفاظ بالطبقة الهوائية لو أن كتلتها ( أى الأرض ) . نقصت بقدر كتلة جبالها ؟ وهذا طبعا يحتاج إلى تقدير كتلة مجموعة الجبال ولو بالتقريب ، فإذا ظهر أن الجبال هى من الكبر بحيث لو أنقصت من كتلة الأرض لعجزت الأرض عن الاحتفاظ بجوها ، كان هذا حقيقة جديدة أدت الآية الكريمة إلى كشفها . .

لكن الجبال كما اختصت بثقلها اختصت أيضا بارتفاعها فهل لارتفاعات الجبال دخل في احتفاظ الأرض بجوها ، وباستمرار الحياة فيها بالتبع ؟ أى لو أن الجبال اندكت في الأرض ، لم تبرز ، وكان سطح الأرض لا تنوء فيه مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة ، أكانت جاذبيتها عندئذ تكفى للاحتفاظ بهوائها ؟ أم كان يتسرب منها إلى الفضاء الكوني بالتدرج ، حتى إذا مضت حقبة كافية فقدت الأرض جوها كما فقد القمر جوه ؟ هذا سؤال يبدو أصعب حالا ، لكنه أمس بجوهر معنى الآية الكريمة لأنه يتعلق بالجبلية نفسها متمثلة في ارتفاعات الجبال .

ثم يبقى بحث أثر الجبال من حيث توزيعها على سطح الأرض ، فهي فيما يبدو تكون سورا فيه ثغراته ، لكنه على العموم يكون في كل من جانبيه شبه حوض تعلو الكتل الهوائية وتنخفض فيه من غير أن تزايله ، فالرياح تصطدم بالجبال وترتد عنها صاعدة أو هابطة أو راجعة ، فماذا يا ترى كان يؤول إليه أمرها لو لم تجد هذا السور يحبسها على صورة ما في شبه الحوض الذى تكونه سلاسل الجبال في توزيعها الحاضر على سطح الأرض ؟ .

إن وتدية الجبال - التى من الله بها على عباده ، ولفتهم بآية النبأ إلى سر جديد فيها من أسرار خلقه ، هو الذى عرضناه هنا - هى جديرة بتضافر الجامعات الإسلامية على بحثها مع الثقة مقدما بالنتيجة ، فقد أنبا الله بها عن طريق تلك المشابهة العجيبة بين الجبال والأوتاد ، وهذا ينبغى أن يثبت أهل البحث من المؤمنين بالقرآن ويعينهم على تذليل صعوباته حتى يفوزوا بالإثبات العلمى لتلك الحقيقة الكبرى المنطوية في تلك الآية من كتاب الله العزيز .

إن الرجاء كبير فى أن تكون جامعة الأزهر هى البادئة بالنظر فى أمر هذا البحث الخطير ، وسواء أطل أمد هذا الأمر أم قصر ، فإننا نرجو أن يكون تبين للآية الكريمة بعض مظاهر أخرى لإعجازها العلمى عن طريق الفحوى وباللزم والقياس التمثيلى الدقيق .

## ٥ - والجبال أرساها

هذه آية كريمة أخرى من كلمتين فى الجبال ، نزل الوحي بها بعد أخت لها تأملناها قبل هذه مباشرة .. هذه من سورة النازعات ، وأختها من سورة النبأ .

والسورتان ترتيبهما واحد فى المصحف ، وفى نزول الوحي بهما - فآية النازعات هى آخرة الآيات المكية التى ذكرت فيها الجبال مطلقة ، وإن كانت آخرة الآيات حسب ترتيب المصحف هى آية سورة الغاشية : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ (١) .

وقد رأينا كيف جمع الله لعباده من الجبال فى آية سورة النبأ ما لا يكاد المتأمل يقضى حقه عجا من الحقائق الطبيعية التى كانت مجهولة للعالم أجمع فى عصر نزول القرآن ، وظلت كذلك حتى كشف عنها العلم الحديث .

وفى الآية مزيد من أسرار خلق الجبال أودعها الله الفعل ( أرسى ) إن أول معنى لهذا الفعل ، هو

(١) الآية ١٩ من سورة الغاشية .

ثبت بتشديد الباء ، وعلى هذا المعنى اقتصر أهل التفسير ، لكن الكلمة تستعمل مادتها أيضا مع السفن ، ففي القاموس من استعمالاتها ( رست السفينة : وقفت على الأنجر ) وفيه تحت مادة أنجر : والأنجر مرساة السفينة وهي خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست السفينة . وإرساء الجبال أمر مجهول لقارئ الآية الكريمة ، وإرساء السفينة أمر معلوم له ، فهل يستطيع أن يتوصل بهذا الذي يعرف إلى شيء عن ذلك الذي يجهل ، ويكون ما يتوصل إليه عن هذا الطريق موافقا للمعروف في العلم عن الجبال ؟ .

إن أول ما يتجه إليه الذهن هو القوى المؤثرة في السفينة في مرساها . هناك ثقل المرساة وثقل السفينة إلى أسفل يقابله ثقل الجبال ، وهناك رفع الماء للسفينة إلى أعلى يقابل ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرتها على الجبال ، وهناك القوى الجانبية المؤثرة في السفينة من نحو فعل الموج ، وقوى الشد المتغير بين السفينة والمرساة الواحدة أو المتعددة عن طريق ما يصل بين السفينة وبينها من جبل أو سلسلة ، ويقابلها في حالة الجبال تلك القوى الجانبية الهائلة التي أنشأ الله الجبال بفعلها في قشرة الأرض حتى تموجت على العموم جبالا ووديانا ، وأقام الله الميزان بينها وبين غيرها من القوى فاستقرت الجبال ورسّت في الأرض ، كما رست السفينة واستقرت في مرساها بتوازن القوى المؤثرة فيها .

والى هنا نجد كلمة ( أرساها ) في آية النازعات قد أدت إجمالا إلى نفس النتائج التي أدى إليها تأمل جعل الله الجبال أوتادا ، فيما يتعلق بالنشأة مما لفت الله إليه بآية النبأ . لكن هناك العلاقة بين السفينة والبحر التي من أجلها احتاجت السفينة إلى المرساة ، فهل لهذه الناحية شيء يقابلها في إرساء الجبال ؟ وبعبارة أخرى هل هناك سائل رست فيه الجبال كما رست السفينة في ماء البحر ؟

المقارنة تقتضي أن يكون جوف الأرض سائلا ، وأن الجبال تستقر عليه كما تستقر السفينة على ماء البحر ، وسيولة جوف الأرض المستنبطة هكذا من كلمة ﴿ أرساها ﴾ في الآية حقيقة واقعة ، ينم عنها ما نشاهده في بعض البراكين عند ثورانها من قذفها بالحجم والصخر المنصهر ، لكن الرسو على هذا الجوف السائل لا ينطبق في العلم إلا على نوع من الجبال هو ما يسمى بالجبال النارية في مقابل ما يسمى بالجبال الرسوبية ، وهما النوعان الأساسيان من أنواع الجبال .

وفي هذا الصدد يقول العالم الجيولوجي ( أ . فيشر ) : ( إن البحث من ناحيته الرياضية والجيولوجية يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة في منصهر سائل مادته أثقل من مادتها ) .

وقد دل البحث على يد غير ( فيشر ) على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو نحو ( ٢.٦ ) ومتوسط كثافة الأرض هو نحو ( ٥.٥ ) ، فبطن الأرض السائل أكتف حتى من جبالها ، وهذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة السفينة أى وزنها مقسوما على حجمها هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر ، والا لما طفت عليه بل لغرقت فيه .

فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال في أحد نوعيها الأساسيين وبين إرساء

وتبارك الذى أودع هذه الحقائق عن الأرض وجبالها آية واحدة من كلمتين فى كتابه ﴿ والجبال أرساها ﴾ ، لكن الآية الكريمة فيها بعد ذلك مزيد .

إن سيولة جوف الأرض ورسو الجبال النارية فيها هدت إليها سيولة ماء البحر ، لكن ماذا عن البحر نفسه ومائه ورسو السفن فيه ؟ أليس لذلك مقابل فى الجبال إن العلم يحدثنا أن الجبال الرسوبية تنشأ طبقاتها أول ما تنشأ فى البحر قريبا من شواطئه ، بما تحمله الأنهار إلى البحار من طمي ورمال وما اليهما ترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى إذا تراكمت وعظم سمكها فى الحقب الطوال رفعها الله بقوى من تحتها وجانبتها ، حتى تصير جبالا شاطئية ظاهرة الطبقات الرسوبية .

وإذن فالآية الكريمة تدل بالفعل ( أرسى ) ، المسند إلى ضمير الجلالة ، على أهم نوعين من الجبال . النارى منها والرسوبى . كل راس راسخ ، هذا على شاطئ البحر وذلك بجذوره فى طبقات سائلة من منصهر الصخر فى جوف الأرض ، فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين تكونان آية من آيات كتابه العزيز .

وإذا تتبعنا مادة ( رسا ) متعلقة بالجبال فى الكتاب العزيز وجدناها وردت فى صيغة اسم الفاعل مجموعا فى تسع آيات ، ذكرت فيها الجبال لا بلفظها ولكن بوصف انها رواسى .

وذلك فى تسع سور : واحدة مدنية وهى ( الرعد ) ، وثمان مكية هى حسب نزول الوحي بها : ( المرسلات ) و ( ق ) ، ( والنمل ) ، ( والحجر ) ، ( ولقمان ) ، ( وفصلت ) ، ( والنحل ) ( والأنبياء ) .

وآية المرسلات هى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ (١) . ( فيها ) أى فى الأرض المذكورة فى الآيتين قبلها : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا ﴾ (٢) .

وآية ( ق ) هى : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ (٣) . وبالفعلين ( جعل ) و ( ألقى ) جاء التعبير عن خلق الجبال فى بقية الآيات الكريمة التسع ، بالفعل ( جعل ) فى آيات ( النمل ) ، ( فصلت ) ، ( الأنبياء ) ، ( الرعد ) ، وبالفعل ( ألقى ) فى آيات ( الحجر ) ، ( ولقمان ) ، ( والنحل ) .

والدلالة فى ( جعل ) عامة تشمل أنواع الجبال كلها ما ذكرنا منها وما لم نذكر . لكن الدلالة فى ( ألقى ) أخص منها فى ( جعل ) .

وقد لاحظ ذلك ( ابن عطية ) فيما ذكره ( أبو حيان ) عند تفسير آية النحل إذ نقل عنه قوله : قال المتأولون ( ألقى ) بمعنى ( خلق وجعل ) ، وهى عندى أخص من خلق وجعل ، وذلك أن

(١) الآية ٢٧ من سورة المرسلات .

(٢) الأيتان ٢٥ - ٢٦ من سورة المرسلات .

(٣) الآية ٧ من سورة ق .

( ألقى ) تقتضى أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روى فى القصص . وإلى آخر ما قال عن ( الحسن ) ، ( وهب بن منبه ) .  
وقد أحسن فى التنبيه إلى أن ( ألقى ) أخص من ( جعل ) لكنه لم يكن يعرف أن الجبال أنواع مختلفة النشأة ، وأن الفعل ( ألقى ) ينطبق تماما على نشأة الرسوب منها ، فهى بالفعل يلقيها الحق سبحانه فى الأرض ، فمادتها تنقلها الأنهار وتلقيها قرب شواطئ البحار بأمره ، حتى إذا تراكمت إلى الحد الذى قدره سبحانه وتماسكت بالتضاغط وبغيره رفعتها تلك القوى جبلا شاطئية بأمره .  
فقد خلق الله الجبال من الأرض وخلق ثانى نوعيها الأساسيين من قدرته واختراعه ، لا فجأة مرة واحدة كما فهم ( ابن عطية ) من الفعل ( ألقى ) . وما روى فى القصص ، ولكن قدر الله سبحانه خلقها حين ألغها خطوات ، كما قدر خلق الجنين فى بطن أمه فى أطوار ، لتكون كل خطوة ككل طور آية حقيقية ، يمكن إذا آن الأوان أن يكشف عنها عباده ، وليكون انطباق ما يكشفون عنه من حقائق الفطرة على حرفية ما أنزل فى كتابه العزيز ، كما رأيت فى ( أرسى ) و ( ألقى ) ، شاهد صدق على أن من أنزل القرآن هو فاطر الفطرة سبحانه .

٦ - والأرض مددناها

وخلق الجبال الرسوبية بهذه الصورة التى كشف عنها علم طبقات الأرض هو مثل يفسر معنى مد الأرض فى الآية ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي ﴾ هو مثل من أمثلة ، وصورة من صور ، اذ لا بد أن تكون هناك صور أخرى لمد الأرض ، كما يشير إليه تقديم مد الأرض على إلقاء الرواسي فى آية ( ق ) وفى أختها آية ( الحجر ) : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾ (١) . وفى آية الرعد : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ﴾ (٢) .  
صحيح ان الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب حتما ، كما تفيد الفاء وثم ، لكن ترتيب الذكر عند العطف بالواو فى كتاب الله خصوصا إذا تكرر بذاته كما فى الآيات الثلاث ، لا بد أن تكون له حكمة ، كما هو واضح مثلا فى مجيء المحارم ، حسب درجات القرابة فى قوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ ( النساء ٢٣ ) .  
ولو لم يأت التعبير إلا بالفعل ( ألقى ) فى الآيات الثلاث التى ورد فيها ذكر الرواسي مقرونا بذكر مد الأرض ، لكان هذا كافيا فى قصر صور هذا المد على ما تلقيه الأنهار من رواسب فى المياه الضحلة ، كمياء شواطئ البحار فى العادة ، سواء أرفعت طبقات الرواسب المتراكمة جبلا بعد ذلك أم لم ترفع ، بل بقيت أرضا تزرع وتسكن كما فى دلتنا الأنهار .  
لكن التعبير جاء أيضا بالفعل ( جعل ) حين ورد ذكر الرواسي مقرونا بمد الأرض فى آية الرعد ، ودلالة هذا الفعل عامة شاملة لأنواع الجبال .

وإذن فالجبال النارية على الأقل لا بد أن يكون فيها أيضا مثال لما ذكر الله فى الآيات الكريمة الثلاث من مده الأرض أى اليابسة ، إذ على هذا ينبغى هنا أن يفهم معنى الأرض مادام يابس الأرض

(١) الآية ١٩ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٣ من سورة الرعد .

هو الذى يزداد ويكثر بالجبال الرسوبية ، ودلتنا الأنهار ، وهذا طبعا لا يمنع أن يكون لمد الأرض معنى آخر ، قد يكون الفلكيون عرفوه فى تاريخ نشأة الأرض الكوكب السيار ، لكن المد بمعنى الزيادة فى يابس الأرض هو الذى يوحى به الإنباء عنه مقترنا بالإنباء عن الرواسى (إلقاء) فى آيتين ( وجعلا ) فى آية ، أى على وجه الخصوص بالرواسى الرسوبية فى آيتين ، وعلى وجه العموم بها وبغيرها فى آية . وقد تحقق المد بالمعنى الخاص المتضمن فى الفعل ( ألقى ) فهل هو متحقق على وجه أوسع ، كما يشير إليه الفعل ذو المعنى الأعم ؟

والعجيب أن المد بالمعنى الأوسع المستفاد من هذه الإشارة القرآنية متحقق بالفعل ، متحقق أيضا فى الجبال النارية ، أو هى معروفة فيه بالجزر البركانية ، مثل جزائر ( هاواى ) وأكثر جزر المحيط الهادى .

وفى دائرة معارف ( هتشنسون ) المصورة .

إن الجزائر إما قارية تتصل بالقارات من تحت الماء كأنها كانت جزءا منها ، وإما محيطية أى فى المحيطات منقطعة عن القارات ، وهذه بركانية تكونت بارتفاع قاع المحيط بالقوى البركانية بالتدرج ، أو بها فى غير تدرج ، كأنما ثار قاع المحيط بركانا وارتفع فجأة ، فهى جميعا أشبه بقمم بادية من جبال مغمورة فى المحيط .

وفى بعضها مثل ( جاوة ) سلاسل جبال صخرها نارى وفيها براكين أكثرها خامد وأقلها يثور من حين لحين . فهذه الجزر وجبالها كانت يوما ما قاعا للمحيطات ، ثم رفعها الله للعيان زيادة فى اليابسة كما زادها بالرسوب من الجبال وبدلتنا الأنهار .

وفى الآيات الكريمة الثلاث لطيفة أخرى تستتج من أن مد الأرض ورد فى آيتين مع الفعل ( ألقى ) وفى آية مع الفعل ( جعل ) إشارة فيما يبدو إلى أن المد فى اليابسة عن طريق رواسب الأنهار أكثر وأغلب ، إن لم تكن ضعف مداها عن طريق رفع القيعان الصخرية النارية جزرا وجبالا فى البحار . وهذا يحتاج فى تحقيقه إلى بحث جغرافى ، لكنه أجدر أن يكون واقعا بالفعل ، إن لم يكن بالنسبة إلى الرسوب والنارى من الجبال ، فبالنسبة إلى النارى من الجزر ، والرسوب من دلتنا الأنهار . فتأمل وانظر إلى تلك الحقائق العلمية التى دل عليها القرآن بتشبيه بليغ ، يأتى فى آية ﴿ والجبال أوتادا ﴾ .

أو بلفظ فعل يأتى التعبير به كما فى الفعل ( أرسى ) والفعل ( ألقى ) أو بتقديم ظاهرة فى الفطرة على ظاهرة فى الذكر كلما ذكرت الظاهرتان معا ، كما فى مد الأرض وخلق الرواسى ، أو حتى بنسبة التكرار فى الذكر بين فعل وفعل كما فى ألقى وجعل .

ثم تأمل مع هذا كيف جاء ضمير الجلالة فى كل آية حاملا على قبول ما يظهر من أسرارها ، باعثا على استنباطها فى دقة وحذر ، واحكم ماذا كان يكون أثرها ووقعها لو كان من المسلمين ( الفخر الرازى ) مثلا من سبق الى استنباطها هكذا من اللفظ والتعبير القرآنى ، فسبق بذلك عن طريق القرآن إلى الكشف عن تلك الحقائق المتعلقة بالجبال ، قبل أن يكشف عنها العلم الحديث .

فهذا جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن من الناحية العلمية لا يمكن أن ينسب بحق إلى عبقرية بشر ، لأن العبقرى إنما تظهر عبقريته في ميدان هو مشغول به متفرغ له ، ثم هو لا يكتفى في ذكر نتاج عبقريته بالإشارة يودعها كلمة أو كلمتين أو كلمات معدودة ، كالألفاظ في أى آية كونية من آيات القرآن ، على أن ضمير الجلالة في الآية القرآنية يحول قطعاً دون مثل هذا الاحتمال .

## ٧- وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم

من تسع آيات في القرآن ذكرت الجبال فيها بالرواسي ، نظرنا في ثلاث ذكرت الرواسي فيها متصلة بمن الله على عباده بمد الأرض ، وهى آيات ( ق ) و ( الحجر ) و ( الرعد ) ، ولهذه في الآيات الست الباقية نظائر ، ثلاث ذكرت الرواسي فيها سبباً لنعمة أخرى كبرى ، هى أن الله منع بها الأرض أن تُميد وتضطرب بالناس .

تلك الآيات الثلاث هى حسب ترتيب نزول الوحي بها آية سورة لقمان ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم ﴾<sup>(١)</sup> .

وآية النحل ﴿ وألقى في الأرض رواسي أن تُميد بكم وأنهارا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وآية سورة الأنبياء ﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميد بهم ﴾<sup>(٣)</sup> .

والخطاب في آيتي لقمان والنحل للناس كافة ، أما ضمير الغائب في آية الأنبياء فراجع الى ( الذين كفروا ) في الآية قبلها ، إذ يذكرهم بعجائب من آيات قدرته وحكمته عسى ان يؤمنوا به وحده ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ وجعلنا في الأرض رواسي أن تُميد بهم ﴾<sup>(٤)</sup> .

وأسرار الفطرة المنبه اليها في الآيات الثلاث متعددة لكننا نقصر القول هنا على ما تعلق منها بالجبال ، ما كشف العلم الحديث عنه وما ينتظر الكشف ، وأول ذلك ما في قوله تعالى ﴿ أن تُميد بكم ﴾ وفي القاموس ( ماد يُميد ميذا وميذانا تحرك وراغ ) من إشارة واضحة إلى حركة الأرض ، فإن الذى يخشى منه أن يُميد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن .

وحركة الأرض لم تكن معروفة للمفسرين القدامى ، وإنما الأرض كانت عندهم ساكنة كما كانت عند الناس أجمعين حتى الفلاسفة ، ولذا ردوا احتمال اضطراب الأرض إلى ما يحيط باليابسة من البحار ، كأنما الأرض سفينة فوق ماء ، يخشى أن يضطرب بها لولا أن ثقلها الله بالجبال . وكذا فسروا ( وتدية ) الجبال في قوله تعالى ﴿ والجبال أوتادا ﴾ بأنها تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة ، وليست الأرض بخيمة كما بينا عند النظر في هذه الآية الكريمة .

(١) الآية ١٠ من سورة لقمان .

(٢) من الآية ١٥ من سورة النحل .

(٣) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية : ٣٠ ومن الآية : ٣١ من سورة الأنبياء .

فلننظر الآن فيما يمكن أن يقال من الناحية العلمية في الجبال ، كيف يمكن أن تكون سببا في عدم اضطراب الأرض في حركتها ليستقيم بعدم اضطرابها عيش الناس عليها ، فلو أنها اضطربت بهم في حركتها اليومية لساء عيشهم فيها سوءا لا يقدره ، ولا يدرك أى نعمة الله على الناس في امتناعه ، إلا من اضطربت به السفينة في البحر أو الطائرة في الهواء ، وطال ذلك عليه ثم ذهب ما كان به حين هدا البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو النزول في المطار ، وليتصور الإنسان بعد ذلك ماذا كان يكون حاله لو أن ذلك الاضطراب استمر به طول الحياة ؟

إن الأرض كرة - أو كالكرة - تدور أمام الشمس ، من المغرب إلى المشرق دورة كاملة في اليوم ، حول محور لها يصنع مع مستوى فلك دورانها حول الشمس زاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ونصف .

هذا الدوران المستمر حول محور ثابت يسمى في اللغة دروارا - في القاموس ( در السهم دروارا . دار دورانا على الظفر ، وأدرت الغازلة المغزل فتلته فتلا شديدا حتى كأنه واقف من دورانه ) . والدورور في الأرض ثابت المقدار والاتجاه طبقاً لسنة كشف عنها ( نيوتن ) هي قانون من قوانين الحركة النسوية إليه يقول إن الجسم المتحرك لا تتغير حركته في المقدار أو الاتجاه إلا بقوة تؤثر فيه من حيث المقدار أو الاتجاه أو كليهما .

وقد صان الله الأرض منذ فطرها على تلك الحركة اليومية عن كل قوة عارضة كي تدوم حركتها تلك إلى ما شاء الله ، أى إلى أن يشاء الله طلوع الشمس من مغربها كما جاء في الحديث الصحيح ، إذ من الممكن في العلم أن يحدث هذا .

والشمس تجرى بمجموعتها في الفضاء بسرعة ( ١٢ ) ميلا في الثانية - بأن تقترب من نجم أكبر منها يغلبها على الأرض بالقدر الذى يتغير به اتجاه حركتها اليومية ، فيصبح من المشرق إلى المغرب بدلا من المغرب إلى المشرق ، فيصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، كما في الحديث الصحيح .

وسنة ثانية لله سبحانه يعرفها علماء حركة الأجسام : أن الجسم المتناسك في الكتلة حول محور لا يضطرب ولا يميل إذا دار أو ( در ) حول ذلك المحور ، والأرض في الواقع لا تميد ولا تضطرب في درورها أو دورانها المستمر حول محور لها لا يتبدل ولا يتغير ، فلا بد طبقا لسنة الله هذه أن تكون متماثلة في الكتلة بالنسبة لهذا المحور .

هذه نتيجة رياضية يقينية ، أظن العلماء اكتفوا بها فلم يحققوها عمليا لما يكتنف تحقيقها من الصعوبات ، خصوصا فيما يتعلق بتوزيع كتل الجبال ، إذ معنى التماثل في الكتلة أن أى مستوى يقطع الجسم مارا بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين في الكتلة : لكل جزء في أحد القسمين نظير في القسم الآخر يساويه في الكتلة والوزن لا في الهيئة والحجم .

لكن الله فاطر الأرض ومرسى جبالها ببنىء عباده في كتابه العزيز أنه أرسى الجبال فيها بحيث يتمتع ميدان الأرض واضطرابها ، فأول تفسير لهذا ، طبق سنته تعالى في الجسم الدوار غير المضطرب ،



إن الجبال موزعة في الأرض بحيث تتماثل في الكتلة بالنسبة لحركة الأرض اليومية ، وهي نتيجة عجيبة حقا .

فمن أعجب عجائب القدرة والإحكام أن تتماثل كل الجبال الواقعة في شقى الأرض إذا انشقت في أى اتجاه بمستوى يمر بمحور دورانها اليومي أمام الشمس .

فهذا مجال واسع أمام علماء الفطرة ، وخاصة من أهل القرآن ، ليشبتوا عمليا ولو في اتجاه واحد أن الجبال ذات كتل متماثلة بالنسبة لمحور درور الأرض وهو عمل عظيم لا بد من اشتراك الحكومات فيه لتكفل ما يقتضيه من نفقات .

ومن يقل ان هذا ناتج نظريا من قانون عدم اضطراب الجسم الدوار ، وإذن فلا داعى لتحقيقه عمليا . إذا قامت دونه الصعوبات ، قلنا له كفى إعجازا علميا للقرآن ودليلا كونيا على أنه من فاطر الفطرة وخالق الأرض بحيث تدور ولا تميد .

إن القرآن نبه مرة بعد مرة إلى هذه الحقيقة النظرية الرياضية ، قبل أن يعرف العلم القانون الذى ينتجها .

وقد يكون الأمر أعظم سرا حتى من هذا ، قد تكون هناك عوامل ثانوية تعمل على اتزان الأرض في حركتها اليومية ، حتى لا يشعر بها الناس ، مثل فعل حركة الجزء السائل في جوف الأرض أثناء الدوران أو فعل حركة مياه البحار على الشاطئ ، وما أكثرها إن كان لها أثر مثل هذا ، فإن كان هذا له دخل فقد أشارت إليه الآيات بكلمة (رواسى) التى سميت بها الجبال ، إذا تذكرنا الحقائق العلمية التى ذكرناها عند النظر في قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ (١) .

وعلى أى حال فقد نهبت تلك الآيات إلى عجيبة من عجائب آيات الله في الفطرة تتصل بعيش الناس في الأرض ، وعليها يتوقف هناؤهم فيها ، وعلى علماء الفطرة أن يبحثوها وأولاهم بذلك علماء الفطرة من أهل القرآن ، فإن لم يفعلوا فسيقض الله غيرهم لبحثه ، والكشف عنه ، وفاء بوعدده سبحانه في قوله : ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ( فصلت ٥٣ ) كما قد حدث فعلا على أيدي علماء الفلك الحديث بالكشف عن جريان الشمس في الفضاء ، وعن الحركات الذاتية للنجوم ، تفسيراً لقوله : ﴿ والشمس تجري ﴾ (٢) من سورة يس ، و ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ (٣) من سورة الأنبياء .

## ٨ - بقية الآيات الموصوفة فيها الجبال بالرواسى

من الآيات التسع التى وصفت فيها الجبال بالرواسى ثلاث ، اقترن فيها ذكر الرواسى بمد

(١) الآية ٣٢ من سورة النازعات .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة يس .

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الأنبياء .

الأرض ، وثلاث بمنع ميدانها ، وثلاث أطلق الذكر فيها ، فلم يقترن بظاهرة خاصة في الأرض كالتى ذكرت في الآيات الست الأخرى .

هذه الآيات الثلاث الأخيرة هي حسب ترتيب نزول الوحي بسورها ﴿ وجعلنا فيها رواسى شامخات ﴾ ( المرسلات ٢٧ ) وبقيتها :

﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ والآية ( ٦١ ) من النمل :

﴿ أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

والآية ( ١٠ ) من فصلت : ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾

وقد جاء ذكر الأرض صريحا في آية النمل كما ترى ، وبالضمير في آيتى المرسلات وفصلت ، فإن الضمير في ( فيها ) في كل منها راجع إلى الأرض المصرح بها في أولى الآيتين ( ٢٥ ، ٢٦ ) من سورة المرسلات : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتا \* أحياء وأمواتا ﴾

وفي الآية ( ٩ ) من فصلت : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ﴾ .

وآية سورة المرسلات أول آية قرآنية ذكرت فيها الجبال بالوصف لا باللفظ ، وقبلها نزل الوحي بثلاث آيات ذكر فيها الجبال باللفظ ، هي آية الزمل : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ ( ١٤ ) .

وآية التكويد ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ ( ٣ ) .

وآية القارعة ، ثانية الآيتين : ﴿ يوم يكون الناس كالفرش المبثوث \* وتكون الجبال كالمنهوش ﴾ ( ٤ ، ٥ ) .

وكلها كما ترى تتعلق بأمور هائلة تقع بالجبال بين يدي الساعة أو عند قيامها . وإذن فآية المرسلات هي أول الآيات القرآنية التى ذكرت فيها الجبال من حيث علاقتها بهذه الحياة ، أى من حيث وجودها لافنائها ، ومن حيث دلالتها على الله الذى فطرها ، وحقق بها ماحقق من منافع للناس ، ومن هنا نتبين حكمة ذكرها باسمها في آيات التذكير بهول يوم القيامة ، وذكرها بوصفها في أول آية لفت الله بها عباده إلى مظهر من مظاهر قدرته في خلق الجبال .

وفي الآية الكريمة وصفان للجبال كما ترى : أنهن رواسى ، وأنهن شامخات على التنكير لا على التعريف ، تنبيهها إلى قبيل خاص من الجبال ، فلئن كانت كلها رواسى من حيث الثبوت والرسوخ في الأرض ، وهو المعنى الذى يعرفه كل أحد ، فليست كلها شوامخ بالغة الارتفاع ، وإن كان تقدير الشموخ نسبيا عند الناس ، ولكن مهما يكن اختلافهم في التقدير فالكلمة في اللغة تدل على امتياز في الارتفاع ، ففي القاموس ( شمع الجبل : علا وطال )

ولعل في العلم حدا لا يعتبر الجبل شامخا دونه عند علماء الجغرافيا الطبيعية أو الجيولوجيا . أو

الأرصاء الجوية ، فإن لم يكن فالآية تلفت إلى بحث هذه الناحية فيما تلفت إليه من بحث الكيفية التي رفع الله بها الجبال من ناحية ، وخالف بين ارتفاعها من ناحية أخرى ، حتى كان منها الشامخ الممتاز في ارتفاعه عند أهل كل إقليم ، إذ الآية تتحدث عن الأرض عامة لا أرض العرب خاصة .  
والضمير في ﴿ وأسقيناكم ﴾ من قوله ﴿ وأسقيناكم ماء فراثا ﴾ ضمير خطاب للناس في عصر نزول القرآن أولا ، ثم في كل عصر يأتي بعده ؛ ولأن الماء العذب ضروري للحياة في كل زمان ومكان .  
وقد جاءت آية الماء الفرات تتلو في السورة الكريمة آية الرواسي الشاغحات ، ليدل التتالي على أن بين الأمرين صلة ، وأن شموخ الجبال له دخل كبير في نزول الماء يسقاه الناس ، وما لهم من صنوف الزروع والحيوان ، ودخلها هذا حق يقرره علماء الجغرافيا الطبيعية والأرصاء ، ويعرف بعض وجوه كل مثقف بين الناس .

فمن المعلومات العامة بين المثقفين أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال . والماء الفرات ، أى العذب جدا كما يقول القاموس ، يدل أول ما يدل على ماء المطر ، لكن تنكيهه في الآيات الكريمة يفيد العموم فهو يشمل كل ماء عذب في الأرض سواء أكان ماء نهر أو بئر أو مطر ، بل إلى الأمطار في النهاية مرد مياه الأنهار والعيون والعذب من الآبار .

والمطر في العلم يشمل كل ما ينزل من السماء من ماء أو ثلج أو برد ، وطبق سنة الله سبحانه في دورة الماء العذب بين البحار الملح والمحيطات وبين اليابسة ، فكل عذب على الأرض أصله الماء الأجاج .

ومنه سبحانه على الناس بالماء الفرات في آية المرسلات لا يخلو بهذا الوصف من إشارة إلى هذه الحقيقة الكبرى عند من يخلط ضمير الجلالة في الآية ، ويعلم أن البحار والمحيطات التي في مجموعها تغطي نحو واحد وسبعين في المائة من مساحة الكرة الأرضية . يتبخر ماؤها باستمرار طبق سنن الله في تبخر الماء في مختلف الظروف ، حتى إذا حملت الرياح البخار إلى أعالي الجو تكاثف سحابا ، وتكاثف السحاب مطرا طبق سنن الله في ذلك كله ، حتى إذا جرت الأنهار خلال الأرض منصبة نحو البحار عاد معظم الماء إلى المصدر الذي منه جاء ، وهكذا دواليك بإذن الله في دورة تتوقف عليها الحياة في الأرض ، من غير أن يضيع فيها من الماء العذب شيء .

فإن ما يظن الإنسان ضياعه ذهابا في جوف الأرض أو في الجو ، مصيره أن يختزن في باطن الأرض ، ليتفجر حيث يشاء الله عيونا طبيعية ، وآبارا ارتوازية ، أو أن يتكثف إلى سحاب ليعود مطرا من جديد .

ويتضمن وصف الرواسي بالشاغحات في آية المرسلات حقيقة أخرى في الفطرة ، وظاهرة معجبة ، تلك هي ظاهرة الثلج الدائم يكلل هامات الجبال التي تكون درجة الحرارة في قممها دائما تحت الصفر ، إذا زاد ارتفاعها عن حد خاص يتوقف على موقعها من خط الاستواء ، حيث الحد الأعلى لارتفاع بدء منطقة الثلج ، أو خط الثلج الدائم كما يسمونه ، فهو عند خط الاستواء بين ستة عشر وسبعة عشر ألف قدم ، أى نحو خمسة آلاف متر في المتوسط ، وهو يقل عن ذلك بالتدرج كلما بعد الموقع عن خط الاستواء ، أى كلما قلت درجة الحرارة الجوية في المنطقة .

ففى مدار السرطان مثلا ، أى شمال خط الاستواء بنحو ٢٣ درجة يكون ارتفاع خط الثلج الدائم نحو ثلاثة عشر ألف قدم ، ويصغر ارتفاعه إلى نحو ستة آلاف قدم عند خط عرض ( ٥٠ ) شمال خط الاستواء ، ونحو ( أربعة آلاف ) قدم عند خط عرض ( ٦٠ ) ° ، وهلم جرا حتى ينمحي تماما عند خط عرض ( ٧٠ ) ° إذ يكون الثلج دائما على مستوى سطح البحر ، كما يدل عليه الرسم البياني لخط الثلج الدائم فى نصف الكرة الشمالى فى دائرة معارف ( هتشنش ) المصورة ، وانحواؤه هذا يحول دون اتخاذه معيارا عاما لشموخ الجبال فى كل منطقة .

لكن من الممكن اتخاذه معيارا للشموخ فى المنطقتين الحارة والمعتدلة ، فيكون الجبل شامخا فى المنطقة وايضت هامته بالثلج على الدوام .

وكثير من الجبال يزيد ارتفاعه على ارتفاع خط الثلج الدائم فى منطقته ، فإذا كان الفرق بين الارتفاعين كبيرا كان لتراكم الثلج فيما بينهما فضل فى تغذية الأنهار بالماء ، نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا على السفلى ، ولانزلاق ماعلا على ماذاب من أسفل ، ليتعدى حد خط الثلج شيئا فشيئا ، ولايكاد يتعداه حتى يسيل ، ولن تنفد الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها الدنيا لأنها كما تسيل هكذا باستمرار تتجدد أيضا باستمرار ، ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأنهار التى تجرى فى وديان تحفها الصحراء إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها .

وينبغى أن نذكر أن الرياح التى تضع حملتها من الماء على شوامخ الجبال تهب على ماوراءها ولا ماء فيها ، لكن الله - سبحانه وتعالى - يرسل الغيث على ماوراءها عن طريق آية أخرى له فى الخلق ، هى الكهربائية الجوية التى يلفت الله عباده إلى ما أودعه فيها من مظاهر قدرته ورحمته فى الآيات التى تذكر الرعد والبرق فى كتابه العزيز .

ويتبين طرف من هذا الموضوع عندما نتأمل الآية ٤٣ من سورة النور ، لكن لايفوتنا التنبيه هنا إلى أن العموم الذى أفاده تنكير الماء فى آية المرسلات يشمل ماء الطريقتين جميعا ، طريق الكهربائية الجوية وطريق شوامخ الجبال .

وقد تكرر ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات فى آية المرسلات عند ذكر الأرض ، وعند ذكر الرواسى الشامخات ، وعند ذكر الماء الفرات ، للدلالة على جلال ماودع الله فى كل من أسرار قدرته وحكمته ورحمته ، مما ذكرنا بغضه وما لا يستطيع استقصاءه أحد ، ولكيلا يستكثر أحد على الآية منها أن تدل على ما علم الله أنه سيهدى أهل العلم الحديث إليه من أسرارها ، وما كشف أو يكشفه العلم الحديث من تلك الأسرار ، إن هو إلا تفصيل لما أجملته كل آية من حجة الله على الناس ألا يعبدوا إلا إياه .

أما آية النمل ( ٦١ ) ﴿ أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ فقد أقام الله حجته على عباده فيها بالأرض أيضا ، ولكن من حيث أنها قرار ، وبالماء ولكن من حيث أنه أنهار ، وبالرواسى من غير تخصيص بالشامخ منها ، وبآية رابعة له سبحانه فى الخلق تتصل اتصالا وثيقا بالأنهار ، وهى الحجز بينها وبين البحار الأجاج ، التى تصب فيها حتى

لاتطغى البحار عليها ؛ لأن البحرين المذكورين في غير وصف في قوله : ﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ هما عين البحرين المذكورين في قوله من سورة الفرقان ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾ (١) وسورة الفرقان قد نزل بها الوحي قبل سورة النمل . وهذا يفسر ذكر البحرين في آية النمل من غير وصف ، بعد أن تبين وصفها في آية الفرقان . وكذلك الأمر في ذكر حاجز بين البحرين مجردا في آية النمل ، كأنه تلخيص للبرزخ والحجر المحجور ، وبيان لحكمة الله فيه .

وليس هذا موضع بيان كيف أن سنة الله في جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها هو الحاجز بين البحر أن يطغى على النهر ؛ لأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذى يجرى عليه النهر ، فبسنة الله العامة في الجاذبية ينزل الله الأمطار ، ويجرى الأنهار ، ويحفظها من أن تطغى عليها البحار .

وللأنهار تاريخ طويل في ماضيها وحاضرها يبحث عنها كيف نشأت وشقت مجاريها وتشقها في الأرض ، وعلماء طبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية هم الذين يدركون جلال ماتدل عليه هذه الكلمة القرآنية الفذة .

أما الرواسى في الآية فينبغى تقدير آيات الله فيها من حيث علاقتها بجعله سبحانه الأرض قرارا لمن عليها ، وذلك ليس فقط ؛ لأن السياق يقتضى هذا ، ولكن أيضا بقرينة لفظة في الآية قليلة الحروف كبيرة الدلالة هى قوله تعالى :

( لها ) بدلا من ( فيها ) في الآية الكريمة ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ . وأول ذلك ماتبين هنا من صلتها بالأنهار ، أو صلة الشوامخ منها ، وثانى ذلك حفظ الله الأرض بها أن تميد بالناس ، أما علاقة الرواسى بمد الله الأرض فقد تأملنا آياتها أيضا فيما مضى ، وهو فيما تبين هناك موضوع إنشاء الجبال فى أهم أنواعها .

وتبقى آية فصلت من الآيات الثلاث المذكورة فى صدر هذا الحديث ، وواضح فيها ومن الآية قبلها أن ذكر الرواسى فيها كان طورا من أطوار خلق الأرض ، تمهيدا للطور الرابع الذى بارك الله فيه الأرض ، وقدر فيه أقواتها ، والدليل على الأمرين جميعا جمعه سبحانه يومى الطورين الأول والثانى مع يومى الطورين الثالث والرابع فى قوله :

﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾ (٢) بعد قوله : ﴿ قل أأنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾ (٣)

وقوله فى ثانية آيتين بعدها ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ (٤) .

فهذه ثمانية أيام فى مجموعها ، لو أخذت مستقلا بعضها عن بعض . لكن الله سبحانه قد أخبر

(٣) من الآية ٩ من سورة فصلت

(٤) من الآية ١٢ من سورة فصلت

(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .

(٢) من الآية ١٠ من سورة فصلت

في آيات متعددة أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام .  
 فلا مناص من أن الأربعة الأيام في ثانية آيتي فصلت تشمل حتما اليومين في أولاهما ، واليوم هذا ليس من أيام الدنيا ، ولكن من أيام الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ( السجدة ٢٥ ) ، ويقول : ﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ ( الحج ٤٧ ) ، ويقول سبحانه : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ ( المعارج ٤ ) .  
 فالله أعلم بطول اليوم في كل من أيام خلق الأرض والسموات .  
 وقد ثبت في علم الفلك الحديث أن الأرض انفصلت عن الشمس استنادا على الأخص إلى ماثبت في علم الكيمياء ، من أن المشترك من العناصر بين الأرض والشمس لا يقل بل : يزيد على الستين والنيف ، وأن الارتفاع الهائل في درجة حرارة باطن الشمس كاف في تحليل مازاد على الستين والنيف من ثقل عناصر الأرض ، وهى العناصر التى لم يكشفها التحليل الطيفى فى الشمس .  
 وإذن فالיום الأول من أيام خلق الأرض هو الحقبة التى تم فيها انفصال جزء من الشمس ، الذى صار فيما بعد أرضا ، واليوم الثانى هو الحقبة التى تم فيها تبريد نفس الجزء حتى جمعه ، واليوم الثالث هو الحقبة التى خلق الله فيها الجبال فى الأرض بما على قشرتها من القوى الهائلة التى لا يعرف قدرها إلا هو ، والتى عرف علماء طبقات الأرض كثيرا منها .

ومن عجائب الإعجاز العلمى البيانى فى آية فصلت أن دل الله سبحانه على التداخل بين آخر طور التبريد والتجميد ، وأول طور خلق الجبال ، بجمعه يومى الطورين الأول والثانى إلى يومى الطورين الثالث والرابع ، ودل عليها جميعا بقوله : ﴿ فى أربعة أيام ﴾ كما دل أيضا على أن خلق الجبال كان ضروريا لخلق الحياة ، وتقدير الأقوات فى الأرض ، فقد أخبر سبحانه فى سورة الأنبياء أنه جعل من الماء كل شئ حى ، ودل بذكر الأنهار أو الزروع فى أكثر آيات الجبال فى القرآن على أن الجبال ضرورية لسقيا الأرض وأهلها وزروعها وحيواناتها بالماء الفرات ، وهذا فيما يتعلق بالإنسان هو الحكمة الأولى الكبرى فى خلق الجبال الرواسى .

### \* الجزء العادل \*

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾  
 قد يراد بالحسنة هنا الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد يقصد بها الإخلاص لله تعالى ، وقد يراد بها قول « لا إله إلا الله » أو كل عمل طيب كالبر والصلة والصدق والأمانة وقد فصل الله تعالى - هذه الخيرية ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ <sup>(١)</sup> وفى قوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم يأتى الفضل العظيم متمثلا فى الأمن من الفزع يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام

(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة

أولئك عنها مبعدون \* لا يسمعون حيثها وهم فيما اشتت أنفُسهم خالدون \* لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ (٢) .

إن نعمة الأمن من أعظم ما ينعم الله به على العبد بعد نعمة الإسلام قال تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين . في جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ وعلى الجانب الآخر يأتي الحديث عن الذين جاءوا بالأعمال السيئة : وهكذا يقترن الوعد بالوعيد . قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٤) . . . وقد تفسر السيئة بالشرك والمعنى يشمل كل هذا . جزاء هؤلاء أن يكبوا على وجوههم في النار كما قال تعالى : ﴿ فكبكبوها فيها هم والغاوون \* وجنود إبليس أجمعون ﴾ (٥) . ويقال لهم : ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ (٦) ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٧) .

سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٨) . وقلت : ﴿ إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما كنتم تلحقون ﴾ (٩) . ويامن قلت عن هؤلاء : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴿ (١٠) ثم قلت : ﴿ ونادوا يامالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون ﴾ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ (١١) .

قوله تعالى : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين ﴾ .

(١) الآيات من ١٠١ إلى ١٠٣ من سورة الانبياء

(٢) الآية ٣٧ من سورة سبأ

(٣) الآيات من ٥١ إلى ٥٧ من سورة الدخان

(٤) الآية ٢٧ من سورة يونس

(٥) الآيات : ٩٤ - ٩٥

(٦) من الآية ٩٠ من سورة النمل

(٧) الآية ٤٤ من سورة يونس

(٨) الآية ٧٦ من سورة الزخرف

(٩) الآية ٤٠ من سورة فصلت

(١٠) الآيتان : ٧٤ - ٧٥ من سورة الزخرف .

(١١) الآيات : ٧٧ - ٨٠ من سورة الزخرف .

ويعبد بيان الجزاء العادل يأمر الله تعالى رسوله ومصطفاه أن يقول للأمة :  
﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ والمقصود بها مكة المكرمة . وإضافتها إلى الرب سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم - زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وعظمة - إن هذا الأمر فيه التوحيد الخالص ﴿ قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين ولا تدع من دون الله مالا يتفكك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين . وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصا له ديني ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ قل إني هدى ربي إلى صراط مستقيم ديننا قنينا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ (٣) .

وقد بين رسول الله ﷺ حرمة البلد الحرام في قوله الذي جاء في الصحيحين عن ابن عباس يوم فتح مكة : ( إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعصده شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها ) (٤) .

قوله تعالى : ﴿ وله كل شيء ﴾ فلا يخرج شيء عن إرادته وعلمه ومشيئته وقدرته فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا . اللهم إني أعوذ بك من شر نفس ومن شر كل دابة ، أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم . سبحانه جعلت لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما من دخل هذا البيت كان آمنا قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حراما آمنا ﴾ (٥) . وكما أمر الله تعالى رسوله أن يعبد رب هذه البلدة أمره أن يكون من المسلمين . فصلوات ربي وسلامه عليه هو أول المسلمين المبعوث رحمة للعالمين . شمس الهداية الربانية

(١) الآيات ١٠٤ إلى ١٠٩ من سورة يونس

(٢) الآيات ١١ : ١٤ من سورة الزمر

(٣) الآيات ١٦١ إلى ١٦٤ من سورة الأنعام

(٤) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الحج ج ٢ ص ٩٨٦

(٥) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت



ومبعوث العناية الإلهية ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . . كما أمره سبحانه أن يتلو القرآن عليهم فقال : ﴿ وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ ﴾ امتثالا لقوله عز وجل ﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ (١) . وقوله : ﴿ أَتْلُ مَا أُوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدَ ﴾ (٣) فمن اهتدى واتبع سبيل المتقين فلنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها قال تعالى : ﴿ مَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبِّكَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٤) وقال : ﴿ مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٥) . وقال : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (٦) .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّطِرٍ ﴾ (٧) وقوله : ﴿ وَكَذَبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ \* لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٨) .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبِّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٩) .

قال الإمام ابن القيم في الحمد : المقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدث من إحسان ونعمة وامتحان وبلية . وما يقضيه من طاعة ومعصية . والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر ، أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق إذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين . وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الإحسان ، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة ، والطاعة من أجل نعمة .

وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ، ولكنه يحب ما يرتب عليها من التوبة والاستغفار ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا ضلت راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها في أصل شجرة فجاء حتى أخذها . فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته .

(١) الآية ٢٧ من سورة الكهف

(٢) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

(٣) الآية ٤٥ من سورة ق

(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت

(٥) الآية ١٥ من سورة الاسراء

(٦) الآية ١٠٤ من سورة الأنعام

(٧) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الفاشية

(٨) الآيتان ٦٦ ، ٦٧ من سورة الأنعام

(٩) الآية ٩٣ من سورة النمل

فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحب إليه سبحانه من عدمه ، وله أسباب ولوازم لا بد منها ، وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب إليه بكثير ، ووجوده بدون لازمة ممتنع ، فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة . هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه ، وأما بالإضافة إلى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لا تحصل بدونها . فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه ، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه ، والرب سبحانه محمود على الأمرين . فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لا ينقص البداية ، وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملأ الأعلى . ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها . فلا بد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليرتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل . فإن هذه النفوس إذا كانت مهية لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهية له ولا يليق بها سواه ، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له ، فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى ، فحمده وحكمته تقتضي ألا لا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه في محل غير قابل لها .

قوله تعالى : ﴿ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ هذا وعد صادق وعده من لا يخلف الميعاد ، فقد أمر سبحانه وتعالى بالنظر في الآفاق والأنفس . قال تعالى : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) . وقال : ﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نَنشُرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ (٢) وقال : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ (٣) وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٤) وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ (٥) وقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ (٦) وقال : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ (٧) وقال : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رَفَعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نَصَبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سَطَحَتْ ﴾ (٨) . لقد صدق الله وعده إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ . أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٩) .

سبحانك رب أنت القائل : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وكيف لا يكون ذلك كذلك وأنت الله الحي القيوم لا إله إلا أنت ، الوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع وإرادتك ، علوت

٦ - الآية ٢٤ من سورة عبس  
٧ - الآية ٦ من سورة ق  
٨ - الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الفاشية  
٩ - الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة فصلت

١ - من الآية ١٠١ من سورة يونس  
٢ - من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة  
٣ - من الآية ٩٩ من سورة الأنعام  
٤ - من الآية ١٨٥ من سورة الأعراف  
٥ - الآية ٥ من سورة الطارق

فقهرت ، وبطنت فخبرت، وملكت فقدرت ، وحكمت فعدلت ، خلقتنا فأنت على كل شيء قدير ، ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا فأنت الجبار ذو القوة المتين،ونحيينا فأنت أسرع الحاسبين ، وأحكم الحاكمين،وأعدل العادلين .

### سورة القصص

قال صاحب البصائر في تلك السورة :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها ثمان وثمانون وكلماتها ألف وأربعمائة وواحدة وحروفها خمسة آلاف وثمانمائة . وسميت سورة القصص لاشتغالها عليها في قوله ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أى قص موسى على شعيب .

مقصود السورة : بيان ظلم فرعون بنى إسرائيل ، وولادة موسى ، وعجة آسية له،ورد موسى على أمه ، وحديث القبطى والإسرائيلى ، وهجرة موسى من مصر إلى مدين وسقيه لبنات شعيب ، واستئجار شعيب موسى ، وخروج موسى من مدين ، وظهور آثار النبوة ، واليد البيضاء ، وقلب العصا ، وإمداد الله تعالى له بأخيه هارون،وحيلة هامان فى معارضة موسى ، وإخبار الله تعالى عما جرى فى الطور ، ومدح مؤمنى أهل الكتاب ، وقصة إهلاك القرون الماضية ، ومناظرة المشركين يوم القيامة ، واختيار الله - تعالى - ماشاء ، وإقامة البرهان على وجود الحق إياه بالقهر ، ووعد الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة ، وبيان أن كل مادون الحق فهو فى عرضة الفناء والزوال ، وأن زمام الحكم بيده ( تعالى ) فى قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

### المتشابهات :

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه ﴾ أى كمل أربعين سنة . وقيل : كمل عقله وقيل : خرجت لحيته . وفى يوسف ﴿ بلغ أشده ﴾ فحسب ؛ لأنه أوحى إليه فى صباه . قوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ وفى يس : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾ قيل : اسمه خزيبيل مؤمن من آل فرعون وهو النجار . وقيل شمعون وقيل : حبيب وفى يس هو هو . قوله : ﴿ من أقصى المدينة ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون ﴿ من أقصى المدينة ﴾ صفة لرجل . والثانى أن يكون صلة لجاء ، والثالث أن يكون صلة ليسعى . والأظهر فى هذه السورة أن يكون وصفا ، وفى يس أن يكون صلة . وخصت هذه السورة بالتقديم لقوله تعالى قبله : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ ثم قال : ﴿ وجاء رجل ﴾ وخصت سورة يس بقوله : ﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ ولما جاء بالتفسير أنه كان يعبد الله فى جبل ، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا . قوله ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ وفى الصافات ﴿ من الصابرين ﴾ لأن ماهنا من كلام شعيب . والمعنى : ﴿ ستجدنى من الصالحين ﴾ فى حسن العشرة والوفاء بالعهد ، وفى الصافات من كلام إسماعيل حين قال له أبوه ﴿ أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ فأجاب ﴿ يأبى أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ أى على الذبح .

قوله : ﴿ ربى أعلم بمن جاء ﴾ ويَعْدُه : ﴿ من جاء ﴾ بغير باء . الأول هو الوجه ، لأن ﴿ أعلم ﴾ هذا فيه معنى الفعل ، ومعنى الفعل لا يعمل في المفعول به ، فزيد بعده باء ، تقوية للعمل . وخص الأول بالأصل ثم حذف من الآخر الباء اكتفاء بدلالة الأول عليه . ومحل نصب بفعل آخر ، أى يعلم من جاء بالهدى ولم يقتض تغييرا ؛ لأن دلالة الأول قام مقام التغيير ، وخص الثانى لأنه فرع . قوله : ﴿ لعل أطلع إلى إله موسى ﴾ وفى المؤمن ﴿ لعل أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾ لأن قوله : ﴿ أطلع إلى إله موسى ﴾ فى هذه السورة خبر لعل . وفى المؤمن عطف على خبر ( لعل ) وجعل قوله ﴿ أبلغ الأسباب ﴾ خبر لعل ، ثم أبدل منه ﴿ أسباب السموات ﴾ وإثما زاد ليقع فى مقابلة قوله : ﴿ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ ؛ لأنه زعم أنه إله الأرض ، فقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ أى : فى الأرض ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ فجاء فى كل سورة على ما اقتضاه ما قبله .

قوله : ﴿ وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ وفى المؤمن ﴿ كاذبا ﴾ ؛ لأن التقدير فى هذه السورة : وإنى لأظنه كاذبا من الكاذبين ، فزيد ﴿ من الكاذبين ﴾ لرءوس الآية ثم أضمر ﴿ كاذبا ﴾ لدلالة ﴿ الكاذبين ﴾ عليه . وفى المؤمن جاء على الأصل ، ولم يكن فيه موجب تغيير . قوله : ﴿ وما أوتيتم من شيء ﴾ بالواو . وفى الشورى ﴿ فما أوتيتم من ﴾ بالفاء ؛ لأنه لم يتعلق فى هذه السورة بما قبله أشد تعلق ، فاقصر على الواو ، لعطف جملة على جملة ، وتعلق فى الشورى بما قبلها أشد تعلق ؛ لأنه عقب ما لهم من المخافة بما أوتوه من الأمانة ، والفاء حرف التعقيب . قوله ﴿ وزيتها ﴾ وفى الشورى ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ فحسب ؛ لأن فى هذه السورة ذكر جميع ما بسط من الرزق وأعراض الدنيا كلها مستوعبة بهذين اللفظين .

فالمتاع : مالا غنى عنه فى الحياة : من المأكول والمشروب والملبوس والملبس والمنكوح . والزينة : ما يتجمل به الإنسان ، وقد يستغنى عنه كالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، والدور المخصصة ، والأطعمة الملبقة . وأما فى الشورى فلم يقصد الاستيعاب ، بل ما هو مطلوبهم فى تلك الحالة : من النجاة والأمن فى الحياة ، فلم يحتاج إلى ذكر الزينة .

قوله ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ﴾ ويَعْدُه ﴿ إن جعل الله عليكم النهار سرمدا ﴾ قدم الليل على النهار ؛ لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل ، ثم ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ بناء على الليل وختم الأخرى بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ بناء على النهار ، والنهار مبصر ، وآية النهار مبصرة .

قوله : ﴿ ويكأن ﴾ ﴿ ويكأنه ﴾ ليس بتكرار ؛ لأن كل واحد منهما متصل بغير ما اتصل به الآخر . قال ابن عباس : وى صلة . وإليه ذهب سيويه . فقال : وى : كلمة يستعملها النادم بإظهار ندامته . وهى مفصولة من ( كأنه ) . وقال الأخفش : أصله ويك ( وأن ) بعده منصوب بإضمار العلم ، أى : أعلم أن الله . . وقال بعضهم أصله : ويك وفيه ضعف . وقال الضحاك : الياء والكاف صلة . وتقديره وأن الله .

## وجه المناسبة

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

( ١ ) أنه سبحانه بسط في هذه السورة ما أوجز في السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ما أجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجد إلقاء موسى حين ولادته في اليم خوفا عليه من الذبح ، ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه بيته ، ثم مناجاته لربه .

( ٢ ) أنه أجمل في السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ، وبسط هنا أتم البسط .  
( ٣ ) أنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا في قوله ﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ الآيات .

( ٤ ) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأُلقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ قُودًا أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ

لَأُخْبِتَهُ فُصَيْهٌ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ \* وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَىٰ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِنَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

### تفسير المفردات

نتلو عليك : أى ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تحير واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لا يتفقوا . يستضعف : أى : يجعلهم ضعفاء مقهورين . والطائفة هنا هم بنو اسرائيل . وغن : أى : تفضل .

الأئمة : واحد هم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا ويقال : مكن له إذا جعل له مكانا موطأ مهيأ يجلس عليه . والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها . وهامان : وزير فرعون

يحذرون : أى : يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى اسرائيل . الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ (١) والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل . والحزن : ( بفتح الحين ويضم فسكون كالرشد والرشد والسقم والسقم ) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل .

واليم : البحر والمراد هنا نهر النيل . والالتقاط : أخذ الشيء فجأة من غير طلب له . والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى رأى وهو حق الصواب والمراد به الشرك والعصيان لله وقرت به العين : فرحت به وسرت

فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ماجاء فى قوله : ﴿ وَأَفْلَتَ مِنْهُمْ هَوَاءٌ ﴾ (٢) أى خلاء لاعتقول بها . والإبداء : إظهار الشيء والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته .

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل

(٢) من الآية ٤٣ من سورة ابراهيم

وقصيه : أى : اقتفى أثره وتتبعى خبره .  
 فبصرت به : أى : بصرت به .  
 عن جنب : أى : عن بعد . لا يشعرون : أى : لا يدرون أنها أخته . حرمانا : أى : منعنا .  
 يكفلون : أى : يضمنون رضاعه والقيام بشئونه . والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون  
 ماينفعه فى غذائه وتربيته ولا يقصرون فى خدمته .  
 واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة  
 والشدة : القوة والجلادة  
 وبلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتد به .  
 والاستواء : اعتدال العقل وكماله ويختلف باختلاف الأقاليم والأزمان والأحوال  
 والحكم : الحكمة .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾  
 الطاء والسين والميم بعض حروف الهجاء التى تشير إلى إعجاز هذا الكتاب المبين وحقا أنه معجز  
 ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض  
 ظهيراً ﴾ (١) .

### \* كلمة عن الإعجاز \*

قال صاحب البصائر : إعلم أن الإعجاز إفعال من العجز الذى هو زوال القدرة عن الإتيان من  
 عمل أو رأى أو تدبير . والذى يظهر على الخلق من هذا المعنى ثلاث درجات : مخرقة وكرامة  
 (ومعجزة) وبين المخرقة والمعجزة فروق كثيرة .  
 منها أن المخرقة لابقاء لها ، كعصى سحرة فرعون ، والمعجزة باقية كعصا موسى . ومنها أن  
 المخرقة لاحقيقة لها ، ولا معنى ، لأن بناءها على الآلات والحيل ، والمعجزة لا آلة لها ، ولا حيلة ،  
 ومنها أن العوام يعجزون عن المخرقة ، وأما الحذاق والأذكياء فلا يعجزون عنها . وأما المعجزة فالخواص  
 والعوام على درجة واحدة فى العجز عنها .  
 ومنها أن المخرقة متداولة بين الناس فى جميع الأزمان غير مختصة بوقت دون وقت ، وأما المعجزة  
 فمختصة بزمان النبوة ، خارجة عن العرف ، خارقة للعادة .  
 ومنها أن المخرقة يمكن نقضها بأصدادها ، ولا سبيل للنقض إلى المعجزة .

وأما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو أن المعجزة مختصة بالنبي دائما .  
وقت إظهارها مردد بين الجواز والوجوب ، ويقرن بالتحدى ، وتحصل بالدعاء ، ولا تكون ثمرة  
المعاملات المرضية ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد ويجوز أن يحيل النبي المعجزة إلى نائبه  
لينقلها من مكان إلى مكان كما في شمعون الصفا الذى كان نائبا عن عيسى فى إحياء الموتى ، وأرسله إلى  
الروم ، فأحيا الموتى هناك . وأيضا يكون أثر المعجزة باقيا بحسب إرادة النبي ، وأما الكرامة فموقوفة  
على الولي ، ويكون كتمانها واجبا عليه ، وإن أراد إظهارها وإشاعتها زالت وبطلت .  
وربما تكون موقوفة على الدعاء والتضرع . وفى بعض الأوقات يعجز عن إظهارها .  
وبما ذكرنا ظهر الفرق بين المعجزة والكرامة والمخرقة .  
وجملة المعجزات راجعة إلى ثلاثة معان : إيجاد معدوم ، أو إعدام موجود ، أو تحويل حال  
موجود .

إيجاد معدوم كخروج الناقة من الجبل بدعاء صالح عليه السلام .  
وإعدام الموجود كإبراء الأكمه والأبرص بدعاء عيسى عليه السلام .  
وتحويل حال الموجود كقلب عصى موسى ثعبانا .  
وكل معجزة كانت لنبي من الأنبياء فكان مثلها لرسول الله - ﷺ - ، وكان إظهارها له ميسرا  
مسلمها .

وأفضل معجزاته وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذى نزل عليه بأفصح اللغات ، وأصحها ،  
وأبلغها ، وأوضحها وأثبتها ، وأمتها ، بعد أن لم يكن كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً ، ولا عارفاً بطريق  
الكتابة ، واستدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم وفصحائهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فأعرضوا  
عن معارضة ، عجزا عن الإتيان بمثله . فبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم .  
ثم اختلف الناس فى كيفية الإعجاز .

ف قيل : لم يكونوا عاجزين عن ذلك طبعاً ، إلا أن الله صرف همهم ، وحبس لسانهم ،  
وسلبهم قدرتهم ، لطفاً بنبيه ﷺ ، وفضلاً منه عليه . وذلك قوله : ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم وكان  
فضل الله عليك عظيماً ﴾ (١) . وهو قول مردود غير مرضى .

وقال آخرون : لم يكن عجزهم عن الإتيان بمثل لفظه ، وإنما كان عن الإتيان بمثل معناه .  
وقيل : لم يعجزوا عنها ، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه ، فإن أنواع كلامهم كانت  
منحصرة فى الأسجاع ، والأشعار ، والأراجيز ، فجاء نظم التنزيل على أسلوب بديع لا يشبه شيئاً  
من تلك الأنواع ، فقصرت أيدي بلاغاتهم عن بلوغ أدنى رتبة من مراتب نظمه .

ومذهب أهل السنة أن القرآن معجز من جميع الوجوه : نظماً ، ومعنى ، ولفظاً ، لا يشبهه  
شيء من كلام المخلوقين أصلاً ، يميز عن خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، باثنى عشر معنى لولم  
يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعانى لكان معجزاً ، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعاً .



ومجملها إيجاز اللفظ ، وتشبيه الشيء بالشيء ، واستعارة المعاني البديعة ، وتلاؤم الحروف ، والكلمات ، والفواصل ، والمقاطع في الآيات ، وتجانس الصيغ والألفاظ ، وتعريف القصص والأحوال ، وتضمين الحكم والأسرار ، والمبالغة في الأمر والنهي ، وحسن بيان المقاصد والأغراض ، وتمهيد المصالح والأسباب ، والإخبار عما كان ، وعما يكون .

أما إيجاز اللفظ مع تمام المعنى فهو أبلغ أقسام الإيجاز . ولهذا قيل : الإعجاز في الإيجاز نهاية إعجاز . وهذا المعنى موجود في القرآن إما على سبيل الحذف ، وإما على سبيل الاختصار . فالحذف مثل قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ <sup>(١)</sup> أى أهلها ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ <sup>(٢)</sup> أى بر من آمن . والاختصار ﴿ ولكم في القصص حياة ﴾ <sup>(٣)</sup>

هذه أربع كلمات وستة عشر حرفا يتضمن ما ينيف على ألف ألف مسألة ، قد تصدى ليائها علماء الشريعة ، وفقهاء الإسلام في مصنفاتهم ، حتى بلغوا ألوفاً من المجلدات ، ولم يبلغوا بعد كتبها وغايتها .

وأما تشبيه الشيء بالشيء فنحو قوله تعالى : ﴿ أعمالهم كسراب بقيعة ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ <sup>(٣)</sup> وكل مثل من هذه الأمثال ورج جواهر ، وبرج زواهر ، وكثر شرف ، وعالم علم . وحق حقائق ، وبحار درر دراية ، ومصابيح سالكي مسالك السنة . ولهذا يقال : الأمثال سراج القرآن . وأما استعارة المعنى فكالتعبير عن المضي والقيام بالصدع ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ <sup>(٧)</sup> . أى قم بالأمر ، وكالتعبير عن الهلاك ، والعقوبة بالإقبال والقدوم ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل ﴾ <sup>(٨)</sup> وكالتعبير عن تكوين الليل والنهار بالسلخ ﴿ وعاءية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ <sup>(٩)</sup> ولا يخفى مافى أمثال هذه الاستعارات من كمال البلاغة ، ونهاية الفصاحة ، يحكى أن أعرابيا سمع ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد ، فسئل عن سبب سجده فقال : سجدت في هذا المقام ، لفصاحة هذا الكلام .

وأما تلاؤم الكلمات والحروف ففيه جمال المقال ، وكمال الكلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ <sup>(١٠)</sup> ﴿ وأسلمت مع سليمان لله ﴾ <sup>(١١)</sup> ﴿ ياأسفى على يوسف ﴾ <sup>(١٢)</sup> ﴿ فأقم وجهك للدين القيم ﴾ <sup>(١٣)</sup> ﴿ فأدلى دلوه ﴾ <sup>(١٤)</sup>

(٨) الآية ٢٣ من سورة الفرقان

(٩) الآية ٣٧ من سورة يس

(١٠) الآية ٢٤ من سورة البقرة

(١١) الآية ٤٤ من سورة النمل

(١٢) الآية ٨٤ من سورة يوسف

(١٣) الآية ٤٣ من سورة الروم

(١٤) الآية ١٩ من سورة يوسف

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف

(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٧٩ من سورة البقرة

(٤) الآية ٣٩ من سورة النور

(٥) الآية ١٨ من سورة ابراهيم

(٦) الآية ١٩ من سورة البقرة

(٧) الآية ٩٤ من سورة الحجر

﴿ فروح وزيحان ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾<sup>(٢)</sup> ونظائرها . وأما فواصل الآيات ومقاطعها فعلى نوعين : أما على حرف كطه ، فإن فواصل آياتها على الألف ، وكاقتربت ، فإن مقاطع آياتها على الراء ، وإما على حرفين كالفاتحة ؛ فإنها بالميم والنون ، :

﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ ونحو ﴿ ق ، والقرآن المجيد ﴾ فإنها بالباء والذال .  
وأما تجانس الألفاظ فنوعان أيضا : إما من قبيل المزاجعة ، كقوله ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ إنما نحن مستهزءون الله يستهزئ بهم ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ يكيدون كيدا وأكيد كيدا ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾<sup>(٩)</sup> وإما من قبيل المناسبة كقوله :

﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾<sup>(١٠)</sup> ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾<sup>(١١)</sup>  
وأما تصريف القصص والأحوال فهو أن الله تعالى ذكر بحكمه البالغة أحوال القرون الماضية ، ووقائع الأنبياء ، وقصصهم ، بالألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة ، بحيث لو تأمل غواصو بحار المعاني ، وخواضو لجج الحجج ، وتفكروا في حقائقها ، وتدبروا في دقائقها ، لعلموا وتيقنوا ( وتحققوا ) وتبينوا أن مافيه من الألفاظ المكررة المعادات ، إنما هي لأسرار ولطائف لا يرفع برقع حجابها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، ولا يكشف ستر سرائرها من النحارير إلا واسطتهم وقصصهم .  
وأما تضمين الحكم والأسرار فقولنا في الفاتحة :

إن في ( بسم ) إلتجاء الخلق إلى ظل عنايته ، وكلمة الجلالة تضمن آثار القدرة والعظمة ، وكلمة الرحمن إشارة إلى أن مصالح الخلق في هذه الدار منوط بكفايته . وكلمة الرحيم بيان لإحتياج العالمين إلى فيض من خزائن رحمته . والنصف الأول من الفاتحة يتضمن أحكام الربوبية . والنصف الثاني يقتضى أحكام العبودية . وخذ على هذا القياس . فإن كل كلمة من كلمات القرآن كثر معان ، ويحر حقائق ومن جوامع آيات القرآن قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾<sup>(١٢)</sup> فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق ، وقوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾<sup>(١٣)</sup> مستجمعة لجميع أسباب السياسة والإيالة . وقوله : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾<sup>(١٤)</sup> محتوية على حاجات الحيوانات

- ١- الآية ٨٩ من سورة الواقعة
- ٢- الآية ٥٤ من سورة الرحمن
- ٣- الآية ١٩٤ من سورة البقرة
- ٤- الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة البقرة
- ٥- الآية ١٤٢ من سورة النساء
- ٦- الآية ١٥ من سورة الطارق
- ٧- الآية ٥٤ من سورة آل عمران
- ٨- الآية ٤٠ من سورة الشورى
- ٩- الآية ٦٠ من سورة الرحمن
- ١٠- من الآية : ١٢٧ من سورة التوبة
- ١١- من الآية : ٣٧ من سورة النور
- ١٢- الآية ١٩٩ من سورة الأعراف
- ١٣- الآية ٩٠ من سورة النحل
- ١٤- الآية ٣١ من سورة النازعات

كافة وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتئل ما حرم ربكم عليكم ﴾ <sup>(١)</sup> إلى آخر ثلاث آيات الجامعة لجميع الأوامر والنواهي ، ومصالح الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ يشمل على أمرين ، ونهيين وخبرين ، وبشارتين .

وأما المبالغة في الأسماء والأفعال فالأسماء ﴿ فعال لما يريد ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾ <sup>(٣)</sup> ، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ <sup>(٤)</sup> ، ﴿ الملك القدوس ﴾ <sup>(٥)</sup> .

﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ <sup>(٦)</sup> ، ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ <sup>(٧)</sup> ، ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾ <sup>(٨)</sup> . والأفعال : ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ <sup>(٩)</sup> ، ﴿ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ <sup>(١٠)</sup> ، ﴿ وقطعناهم في الأرض أثما ﴾ <sup>(١١)</sup> ، ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾ <sup>(١٢)</sup> ، ﴿ وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ <sup>(١٣)</sup> ، ﴿ وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ <sup>(١٤)</sup> ، ﴿ قدروها تقديرا ﴾ <sup>(١٥)</sup> .

وأما حسن البيان فلتتمام العبارة : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾ <sup>(١٦)</sup> ، وليبيان فصل الخصومة والحكومة ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾ <sup>(١٧)</sup> وللحجة للقيامة ﴿ يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ <sup>(١٨)</sup> ، وللنصيحة والموعظة ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم ﴾ <sup>(١٩)</sup> ولثبات الإيمان والمعرفة : ﴿ كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ <sup>(٢٠)</sup> ، وليبيان النعت والصفة ﴿ بكل شيء عليم ﴾ <sup>(٢١)</sup> ، ﴿ على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٢٢)</sup> ، ودليلا لثبوت الرسالة ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾ <sup>(٢٣)</sup> وإظهارا للعلم والحكمة ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ <sup>(٢٤)</sup> ، وللرحمة السابقة واللاحقة ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ <sup>(٢٥)</sup> ، وبرهانا على الوجدانية والفردانية ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ﴾ <sup>(٢٦)</sup> ، وتحقيقا للجنة والنار : ﴿ أعدت للمتقين ﴾ <sup>(٢٧)</sup> ، ﴿ أعدت للكافرين ﴾ <sup>(٢٨)</sup> ، وتحقيقا للرؤية واللقاء ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ <sup>(٢٩)</sup> وتمهيدا لمصالح الطهارات ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ <sup>(٣٠)</sup> وللصلاة ﴿ أقيموا الصلاة ﴾ <sup>(٣١)</sup> وللزكاة والصيام والحج ﴿ وءاتوا الزكاة ﴾ <sup>(٣٢)</sup> ، ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ <sup>(٣٣)</sup> ، ﴿ والله

- ١- الآية ١٥١ من سورة الأنعام
- ٢- الآية ١٠٧ من سورة هود
- ٣- الآية ٨٢ من سورة طه
- ٤- الآية ٤٦ من سورة فصلت
- ٥- الآية ٢٣ من سورة الحشر
- ٦- الآية ١١١ طه
- ٧- الآية ٣٤ النساء
- ٨- الآية ٤٦ يوسف
- ٩- الآية ٦١ الأحزاب
- ١٠- الآية ٦ إبراهيم
- ١١- الآية ١٦٨ الأعراف
- ١٢- الآية ٣٢ الفرقان
- ١٣- الآية ١٢ الاسراء
- ١٤- الآية ٣٩ الفرقان
- ١٥- الآية ١٦ الانسان
- ١٦- الآية ٢٥ الدخان
- ١٧- الآية ١٧ النبأ

- ١٨- الآية ٧٩ يس
- ١٩- الآية ٥٧ يونس
- ٢٠- الآية ٢٢ المجادلة
- ٢١- الآية ٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٢ البقرة ، ١٧٦ النساء ، ٩٧ المائدة
- ٢٢- الآية ١٧ ، ١٩ ، ٤٠ المائدة ، ١٧ الأنعام
- ٢٣- الآية ٤٥ الزخرف
- ٢٤- الآية ١٧ النساء
- ٢٥- الآية ٤٣ الأحزاب
- ٢٦- الآية ٢٢ الأنبياء
- ٢٧- الآية ١٣٣ آل عمران
- ٢٨- الآية ١٣١ آل عمران
- ٢٩- الآية ٢٢ من سورة القيامة
- ٣٠- الآية ٤٨ من سورة الفرقان
- ٣١- الآية ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ من سورة البقرة ، ٧٧ ، ١٠٣ من سورة النساء
- ٣٢- الآية ٢٩ الأعراف ، ٨٧ يونس ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور ، ١٣١ الروم
- ٣٣- الآية ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ البقرة ، ٧٧ النساء ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور
- ٣٣- الآية ١٨٣ البقرة

على الناس حج البيت ﴿١﴾ ، وللمعاملات ﴿٢﴾ أحل الله البيع ﴿٣﴾ وللصيانة والعفة ﴿٤﴾ وأنكحوا الأيامى منكم ﴿٥﴾ ، وللطلاق والفراق بشرط العدة ﴿٦﴾ فطلقوهن لعدتهن ﴿٧﴾ ولرعاية مصلحة النفوس ﴿٨﴾ ولكم في القصاص حياة ﴿٩﴾ ولكفارة النذور والأيمان ﴿١٠﴾ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴿١١﴾ . وعلى هذا القياس جميع أحكام الشريعة تأيدت بالآيات القرآنية .

وأما الإخبار عما كان وعما يكون : أما المتقدم فكتخليق العرش ، والكرسى ، وحال الحملة والحزنة . وكيفية اللوح والقلم ، ووصف السدرة ، وطوى وسير الكواكب ، ودور الأفلاك ، وحكم النيرين ، والسعدين ، والنحسين ، وقرآن العلويين والسفليين ، ورفع السماء ، وتمهيد الأرض ، وتركيب الطبائع والعناصر ، وترتيب الأجسام والأجرام ، وحكم المشرق والمغرب من الأفق الأعلى إلى ماتحت الثرى مما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون : من أحوال آدم ، وعالمى الجن والإنس ، والملائكة ، والشياطين ، ففى القرآن من كل شيء إشارة وعبرة تليق به .

وأما المتأخر فكأخبار الموت ، والقبر ، والبعث ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، والعقاب ، والعرض ، والحوض-السؤال ، ووزن الأعمال ، والميزان ، والصراط ، والجنة ، والنار ، وأحوال المتنعمين ، والمعذبين فى الدرجات ، وأحوال المقربين فى الدرجات ، ما بين مجمل ومفصل ، لا إجمالاً يعترضه شك ولا تفصيلاً يورث كلاله وملالة .

كل ذلك على هذا الوجه مذكور فى القرآن ، فلا غرو أن يترقى هذا الكلام عن إدراك الأفهام ، وتناول الأوهام ، ويعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ومقابلته . وبلغنى عن الأئمة الراسخين ، والعلماء المحققين أن الذى اشتمل عليه القرآن من الدقائق ، والحقائق والمباني ، والمعاني ، سبعون قسماً .

وهى المحكم ، والمتشابه ، والناسخ ، والمنسوخ ، والحقيقة ، والمجاز ، والمنع ، والجواز ، والحذف ، والزيادة ، والبيان ، والكناية ، والمقلوب ، والمستعار ، والإظهار ، والإضمار ، والإيجاز ، والاختصار ، والإخبار ، والاستخبار ، والخاص ، والعام ، والحدود ، والأحكام ، والتحليل ، والتحريم ، والسبر ، والتقسيم ، والأمر ، والنهى ، والجحد ، والنفى ، والقصص ، والأمثال ، والتفصيل ، والإجمال ، والزجر ، والتأديب ، والترغيب ، والترهيب ، والوعد ، والوعيد ، والعطف ، والتوكيد ، والتحكم ، والتهديد ، والوصف ، والتشبيه ، والكشف ، والتنبيه ، والتقديم ، والتأخير ، والتأويل ، والتفسير ، والتكرار ، والتقرير ، والتعريض ، والتصريح ، والإشارة ، والتلويح ، والتجنيس ، والتقريب ، والتعجيب ، والسؤال ، والجواب ، والدعاء ، والطلب ، والبشارة ، والندارة ، والفاتحة ، والخاتمة ، ولكل قسم من ذلك نظائر وشواهد فى القرآن لا نطول بذكرها .

والغرض من ذكر هذا المجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لا قعر له ، ولا

١ - الآية ٨٧ آل عمران

٢ - الآية ٢٧٥ البقرة

٣ - الآية ٣٢ النور

٤ - الآية ١ الطلاق

٥ - الآية ١٧٩ البقرة

٦ - الآية ٨٩ المائدة

ساحل ، فأنى للمعارض الماحل ( الماكر ) يحكى أن جماعة من أهل اليمامة قدموا على الصديق الأكبر - رضى الله عنه - فسألهم عن مسيلمة وعما يدعيه أنه من الوحي النازل عليه ، فقرأوا عليه منه هذه السورة .

( يا ضفدع نقى نقى إلى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الطين تفارقين ، ولا العذوبة تمنعين ) . فقال الصديق - رضى الله عنه - والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل ( من قبل الله سبحانه وتعالى ) . ويحكى عن بعض الأشقياء أنه سمع قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ <sup>(١)</sup> . فقال مستهزئا : انظر إلى ( هذا الدعوى المعرى ) عن المعنى . الذى يدعيه محمد يأتينا به المعول والفئوس . فانشقت في الحال حدقتها ، وتضمخت بدم عينيه خداه ، ونودى من أعلاه ، قل للمعول والفئوس ، يأتيان بماء عينيك .

وذكر أن بعض البلغاء قصد معارضة القرآن وكان ينظر في سورة هود ، إلى أن وصل إلى قوله تعالى : ﴿ يا أرض ابلعى ماءك وياسماء ألقى ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية فانشقت مرارته من هيبة هذا الخطاب . ومات من حينه . ودخل الوليد بن عقبة على النبي ﷺ وقال : يا محمد اقرأ على شيئا مما أنزل عليك فقرأ قوله تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية فقال الوليد : إن لهذا الكلام لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن لى فيه نظرا ، ولا يقول مثل هذا بشر .

وفى الآثار أنه ما نزل من السماء آية إلا سمع من السماء صلصلة كسلسلة جرت في زجاجة ، ولم يبق في السماء ملك مقرب إلا خروا لله ساجدين . وأغمى على النبي ﷺ من ثقل برحاء الوحي . وكان إذا سرى عنه ارتعدت مفاصله فرقا ، وتصيب وجهه عرقا فهذا طرف مما ذكر في إعجاز لفظ القرآن .

\* قوله تعالى : ﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ﴾ \* إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين \* ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين \* ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿

يخبر تعالى في هذه الآيات بأنه يتلو على نبيه ومصطفاه ﷺ خبر موسى وفرعون وذلك كقوله جل شأنه ﴿ ذلك نتلو عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ <sup>(٥)</sup> وقوله تعالى : ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ ؛ لأن أهل الإيمان هم أهل العبرة والإمثال فهم المنتفعون بهذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ نتلو ﴾ بأسلوب المضارع هكذا يفيد ذكر الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى : ﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أى تكبر وتجبّر وطفى ﴿ وجعل أهلها

(٤) الآية ٥٨ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٣ من سورة يوسف

(١) الآية ٣٠ من سورة الملك

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود

(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل

شيعا ﴿ أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى : ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا وقد سلب عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أحسن الأعمال ، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم إهانة لهم وإحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكان القبط قد تلقوا هذا من بنى إسرائيل فيما كانوا يدرسون من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ماجرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانة فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر . فالله تعالى يقول : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ (١) ويقول : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ (٢) ويقول : ﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ (٣) وفى هذه الآية يعرض علينا الكتاب العظيم الصحيفة الجنائية لطاغية من طغاة الأرض فقد أتى أفعالا جساما .

علا فى الأرض واستكبر حتى قال : أنا ربكم الأعلى . وقال : ياأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى . ثم : التفرقة بين الرعية . يستضعف طائفة منهم . ثم : سفك الدماء بغير حساب وإزهاق الأرواح البريئة بغير ما جرم ولا ذنب يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . ثم : يركز تلك الجنايات وغيرها فى قوله : ﴿ إنه كان من المفسدين ﴾ وكلمة المفسدين تتسع لوجوه الفساد والشر وهكذا أطلقها القرآن الكريم لتذهب النفس فيها كل مذهب .

وأراد ربك ولا راد لما أراد وقضى وإذا قضى فلا نقض لقضائه ولا استئناف ، وحكم وإذا حكم فلا معقب لحكمه . بماذا حكم وماذا أراد . قال : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكنهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ .

وقد نفذ وعد الله . قال سبحانه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون ﴾ (٤) . قال تعالى : ﴿ واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون ووزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴿ (٥) وقال جل شأنه : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾ (٦) أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى . فما نفعه ذلك مع قدرة المالك العظيم الذى

٤ - الآية ١٣٧ من سورة الأعراف

٥ - الآية ٢٨ من سورة الدخان

٦ - الآيات ٥٧ إلى ٥٩ من سورة الشعراء

١ - الآية ٨٢ من سورة يس

٢ - الآية ٣٨ من سورة الرعد

٣ - الآية ١١ من سورة المنافقون

لا يخالف أمره القدرى ولا يغلبه بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذى احتترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيته وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

عبدى : أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد . فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد . سبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق : ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ إنه هو يبدىء ويعيد \* وهو الغفور الودود \* ذو العرش المجيد \* فعال لما يريد \* هل أتاك حديث الجنود \* فرعون وثمود ﴿<sup>(١)</sup> .

ويامن قلت : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد \* التى لم يخلق مثلها فى البلاد \* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد \* وفرعون ذى الأوتاد \* الذين طغوا فى البلاد \* فأكثروا فيها الفساد \* فصب عليهم ربك سوط عذاب \* إن ربك لبالمرصاد ﴿<sup>(٢)</sup> ويا من قلت : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾<sup>(٣)</sup>

إن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٤)</sup> وسبحانه عز من قائل : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون \* وأملى لهم إن كيدى متين ﴾<sup>(٥)</sup> سبحانك ربى يامن تهمل ولا تهمل .

قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين \* وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴿

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيلون هم ماكانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون، إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هارون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت

١ - الآيات ١٢ إلى ١٨ من سورة البروج

٢ - الآيات ٦ إلى ١٤ من سورة الفجر

٣ - الآية ٤٢ من سورة ابراهيم

٤ - الآية ١٠٢ من سورة هود

٥ - الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم

المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذبايحون بأيديهم الشفار المرفهة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى .

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها غيائل الحمل كغيرها ولم تفتن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحب طبعاً وشرعاً ، قال الله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ <sup>(١)</sup> فلما ضاقت به ذرعا ألهمت في سرها وألقى في خلدها ونفت في روعها كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهداً وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعت في ذلك التابوت وسيرته في البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل من تخافه فذهبت فوضعت في ذلك التابوت وأرسلته في البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملته فذهبن به إلى امرأة فرعون ولا يدرين مافيه وخشين أن يفتن عليها في فتحه دونها ، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأباه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها ومآراده الله من كرامتها وشقاوة بعلمها ولهذا قال : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾ خبران هما : أوحينا وخفت . وأمران هما : أرضعيه وألقيه . ونهيان هما : ولا تخافي ولا تحزني . ويشارتان هما : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين . وسببان من هذا كلامه ، قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ . قال محمد بن إسحق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولا شك أن ظاهر اللفظ يقتضي ما قالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله تعالى قبضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ في إبطال حذرهم منه ، ولهذا قال تعالى :

﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ . إن يد الله تعمل في الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - أنه كتب كتاباً إلى قوم من القدرية في تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة في علمه السابق ، وموسى في علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى ﴿ ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون ولياً وناصره والله تعالى يقول : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ﴾ الآية يعني أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفاً من أن يكون من بنى إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذنب دونه وتجيئه إلى فرعون فقالت ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون أمالك فتعم وأمالى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .



وقوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وقد حصل لها ذلك وهذاها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله : ﴿ أو نتخذها ولدا ﴾ أى أرادت أن تتخذها ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أى لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة . قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ أى من كل شأن من شئون الدنيا بل أصبح شغلها الشاغل وليدها الرضيع الذى ألقته بين معترك الأمواج وحسبك أن تعلم أن للأم قلبا أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم سداه الرحمة ولحمته الرأفة . قوله تعالى : ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقناة وغيرهم أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى : ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه ﴾

أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى ما يقال لها فقالت لها ( قصيه ) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ .

قال ابن عباس : عن جانب ، وقال مجاهد : بصرت به عن جنب عن بعيد . وقال قناة : جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليها المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى :

﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أى تحريما قديرا وذلك لكرامته عند الله وصيانتة له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه : ﴿ قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنّت إليها وأعطتها عطاء جزيلا وهى لاتعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها .

ثم سألتها أسية أن تقيم عندها فترضعه فأبى عليها وقالت : إن لى بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها

النفقة والصلوات والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا في عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء في الحديث :

( مثل الذى يعمل ويحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراها )<sup>(١)</sup> ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ﴾ أى به ﴿ ولا تحزن ﴾ أى عليه ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته في تربيته ماينبغى له طبعاً وشرعاً . وقوله تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة في نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهم خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ فمضى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ اتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴿ . وهكذا ذكر لنا القرآن الكريم مولده . كما ذكر مولد إسحق ويحيى وعيسى ؛ لأن موسى ولد في عصر رجل كان يقتل الأبناء ويستحيى النساء فنجاه الله منه بل رباه في قصره وتلك إرادة الله ولا غالب لإرادته بل هو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون كما نص على ولادة اسحق ؛ لأنه ولد من أبوين كبيرين قالت أمه لما بشرت بمولده ﴿ ياويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴿ كما نص القرآن على مولد يحيى ؛ لأنه أيضاً ولد من أبوين قد بلغا من الكبر عتياً لذا قال أبوه زكريا : ﴿ أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً ﴾ قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾<sup>(٤)</sup> .

كما نص على مولد المسيح ؛ لأنه ولد من غير أب . حتى قالت أمه مريم لما بشرت بمولده : ﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً ﴾<sup>(٥)</sup> كما قاس القرآن ولادة المسيح بخلق آدم ؛ لأنها خلقا بالكاف والنون فقال : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾<sup>(٦)</sup> وكل المخلوقات خلقت بكن فيكون إلا أن النص هنا يفيد أن الله لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض فإذا كان

(١) الحديث بمعناه في فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٨١٤٣ بلفظ : ( مثل الذين يغزون من أمى ويأخذون الجمل يتقون به على عدوهم مثل أم موسى : ترضع ولدها وتأخذ أجراها ) من رواية أبى داود في مراسيله ، والبيهقى في السنن الكبرى عن جبير بن نفير مرسلًا ورمز له بالصححة .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٩ من سورة النساء .

(٤) الأيتان ٨ ، ٩ من سورة مريم

(٥) الأيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة مريم

(٦) الآية ٥٩ من سورة آل عمران

خلق آدم بلا أب ولا أم فأى غرابة فى خلق المسيح من أم بلا أب ؟ إنه لا غرابة وكان ربك قديرا الحق من ربك فلا تكن من الممترين . لكنه لما أراد أن يحدثنا عن مولد المصطفى ﷺ قال : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾ (١) .

مشيرا إلى أن حياة الأب أو موته لا يغير من مقادير الله شيئا بل قدرة الله ماضية وأمره نافذ لا محالة . فقد ولد يوسف تحوطه عناية أبيه ورعايته فلم يغن ذلك عنه شيئا وفرق بينهما بينما ولد محمد يتيما فكان اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين والقائد العظيم الذى علم المتعلمين وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى مرفأ الأمان وشاطئ الله رب العالمين : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (٢) . ولما حدثتنا سورة القصص عن مولد موسى بلغت بنا الآيات إلى قوله جل شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ أى قوى عوده واستوى على سوقه ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ قال مجاهد : المقصود بالحكم : النبوة . وقد يراد بالحكم الحكمة وهى حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق .

ومثل ذلك الجزاء الحسن يجزى الله المحسنين وأهل الفضل ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ (٣) . ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ (٤) فسبحانه من إله منعم متفضل . ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وما تعلنون ﴾ (٥) .

### \* أحداث فى حياة موسى \*

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَةِ هَٰذَا وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ ۖ فَوَكَّزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۖ قَالَ

(١) الآية ٦ من سورة الضحى

(٢) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة

(٤) الآية ٧٤ من سورة آل عمران

(٥) الايتان ١٨ ، ١٩ من سورة النحل

لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ  
 أُتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۚ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا  
 تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمْوَسَىٰ إِنَّ  
 الْأَمْلَاءَ يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ۖ إِنَّكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا  
 يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ  
 يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ  
 مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ  
 كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ  
 إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ۖ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ  
 وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبُ اسْتَعْجِرْهُ  
 إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِأَهْنَأٍ ۖ قَالَتَا هُنَّ عَلَىٰ أَنْ  
 تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٍ ۖ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْقِيَكَ سَنَعْدُبُكَ ۖ إِنْ شَاءَ  
 اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ  
 مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

## معاني المفردات

المدينة: هي مصر

على حين غفلة: أي: وقت لا يتوقعون دخولها فيه

من شيعته: أي: ممن شايعه وتابعه في الدين وهم بنو اسرائيل

من عدوه: أي: من مخالفه في الدين وهم القبط

فاستغاثه: أي: طلب غوثه ونصره

فوكزه: أي: فضربه بجمع يده أي بيده مجموع الأصابع

ففضى عليه: أي: فقتله وأنهى حياته

من عمل الشيطان : أى : من تزيينه  
 مبين : أى : ظاهر العداوة والاضلال  
 فاغفر لى : أى : فاستر ذنوبى  
 بما أنعمت على : أى : اقسم بنعمك على  
 ظهيرا : أى : معينا  
 يترقب : أى : ينتظر مايناله من أذى  
 استنصره : أى : طلب نصره ومعونته  
 يستصرخه : أى : يطلب الاستغاثة برفع الصوت  
 غوى : أى : ضال  
 يبطش : أى : يأخذ بصولة وسطوه  
 والجبار : هو الذى يفعل مايفعل دون نظر فى العواقب . من المصلحين : أى : ممن ييغون  
 الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .  
 أقصى المدينة : أى : أبعداها مكانا .  
 يسعى : أى : يسرع  
 الملاء : أشراف الدولة ووجوهها .  
 يأتمرون بك : أى : يتشاورون فى أمرك  
 يترقب أى : يلتفت يمئة ويسرة  
 توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه  
 تلقاء مدين أى : جهتها  
 ورد : أى : وصل والمراد بماء مدين البشر التى كانوا يستقون منها  
 أمة : أى : جماعة  
 تذودان : أى : تطردان غنمها عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء .  
 ماخطبكما أى : ماشأنكما ولما لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤية ياعجبا ماخطبه وخطبى ؟  
 يصدر الرعاء : أى : يصرفون مواشيهم عن الماء والرعاء : واحداهم راع  
 تولى : أى : انصرف  
 والظل : ظل شجرة كانت هناك  
 والخير : يكون بمعنى الطعام كما فى الآية . وبمعنى المال كما قال : ﴿ إن ترك خيرا ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 وبمعنى القوة كما قال : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾ <sup>(٢)</sup>  
 وبمعنى العبادة كقوله : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فقير : أى محتاج

الاستحياء : شدة الحياء

ليجزيك : أى : ليثيبك

القصص : الحديث المخصوص أى : المخبر به

أنكحك : أزوجك

ويقال أجرته أى : كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا

والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة . أشق عليك أى : أدخل عليك مشقة

الأجلين : أى : الأطول أو الأقرب

فلا عدوان : أى : فلا حرج

وكيل : أى : شهيد

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما أفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل أردفه ذكر ما أنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ثم ذكر ما حصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى فوكزه بجمع يده وكان ذلك سببا فى موته ثم طلبه المغفرة من ربه على ما فعل ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا فقال له المصرى : أتريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين. وأعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون وبطانته إليه فأتهم هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتنم إيمانه فأسرع إليه يخبره الخبر وينصحه بالهرب فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ما قصه الله علينا فى هذه الآيات إلى أن رجع إلى مصر وقد أوقى النبوة وهو قافل فى طريقه .

### التفسير

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾

أى : دخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ؛ لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ما كانوا عليه ثم أبان ما حدث منه حينئذ فقال :

( فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان )

أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباح فرعون وكان قد

طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى فطلب الاسرائيلي من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾  
 أى : أنه عدو فينبغى الحذر منه مضل فلا يقود إلى خير بين العداوة والضلال .  
 ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾  
 أى : قال رب إني ظلمت نفسي بقتل نفس لا يحل قتلها فاغفر لي ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفرا . هـ - ثم لم يزل - ﷺ - يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى أنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه إني قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها وإنما عده ذنبا وقال : ﴿ إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾ من أجل أنه لا ينبغي لنبي أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .  
 وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : يا أهل العراق : ما أسألکم واركيكم للكبيرة سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إن الفتنة تجيء من هاهنا - وأوما بيده نحو المشرق - من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل  
 ﴿ وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾ <sup>(١)</sup>

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال : فغفر له أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه ويعدئذ ذكر ما هو العلة لما قبله فقال : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾

أى : أنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه المتفضل عليه بالعفو عنها الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ورجع عن حوبته  
 ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :  
 ﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾  
 أى : قال رب اعصمنى بحق ما أنعمت على بعفوك عن قتل هذه النفس . لأمتنع عن مثل هذا الفعل ولن أكون معينا للمشركين فأصبحهم وأكثر سوادهم وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون وقد يكون المراد لأمتنع عن مظاهرة من تؤول مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الاسرائيلي التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تركزوا إلى الذين ظلموا ﴾ <sup>(٢)</sup>

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الفتن وأشرط الساعة ج ٤ ص ٢٢٢٩ رقم ٤٧

(٢) الآية ١١٣ من سورة هود

﴿ فاصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ﴾

أى : فصار موسى في تلك المدينة التي قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التي جناها بقتله النفس التي قتلها وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وماهم بالغوه به وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به وإذا الإسرائيل الذي استنصره بالأمس على المصرى يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى : إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ثم دنا منها .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ﴾ أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوها بالشدة والعنف قال له منكرا: أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه . ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ أى : ماتريد إلا أن تكون قاهرا عاليا في الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر في العواقب ولا تريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملائمة يؤتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين ﴾

أى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : ياموسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكائد وينصبون لك الحبالل يريدون أن يقتلوك فالبدار البدار والهرب الهرب قبل أن يقبضوا عليك وينفذوا مادبروه ويقتلوك فاخرج من المدينة مسرعا وإني لك لناصر أمين فانتصح بنصحه وتقبل قوله ﴿ فخرج منها خائفا يترقب ﴾ أى : فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينا ويسارا وينظر أيتبعه أحد ؟

ثم لجأ إلى الله - تعالى - علما منه أن لاملجأ إلا إليه ﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾ أى : قال رب نجنى من هؤلاء الذين من دأهم الظلم والعسف ووضع الأمور في غير مواضعها فيقتلون من لا يستحق القتل ومن لايجرم إلى أحد فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين .

روى أن فرعون لما بعث في طلبه قال :

﴿ اركبوا بنيات الطريق ﴾ فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا فقاتهم ونجا من بغيتهم ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾

أى : ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون قال: رب اهدنى إلى سواء السبيل



وارشدني إلى الطريق القويم ونجني من هؤلاء الظلمة. وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه وقد كان لا يعرف الطريق فعن له ثلاث طرائق فسار في الوسطى وأخذ طالبيه في الآخرين وقالوا: المريب لا يسلك أعظم الطرق بل يأخذ بنياتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقي ثمانى ليال وهو حاف لا يطعمم إلا ورق الشجر إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها ثم ذكر سبحانه ماجرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾

أى : ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرده رعاء الشاء فوجد جماعة منهم يسقون نعمهم ومواشيهم ووجد في مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها فلما رأهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما قال : ما خبركما ثم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟ فأجابته : قالتا لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى وأبونا شيخ كبير لا يستطيع السقى بنفسه فنحن نلجأ إلى ماترى نشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر ما فعله بعد أن سمع هذا القصص فقال :

﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ .

أى : فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلا : إني لمحتاج إلى شيء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال :

لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ولقد افتقر إلى شق ثمرة ولصق بطنه بظهره من شدة

الجوع .

فجاء الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه

فجاءته إحداها تمشى على استحياء قالت: (إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا) .

أى : فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهي حبيبة قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك

ليكافئك على ما صنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا في الأجر .

قوله تعالى : ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أى: فلما

جاء موسى هذا الشيخ وحدثه عن فرعون وآله في كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله

وهربه منهم بعد الذى علمه - قال له : لا تخف من حولهم وطولهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء

الظلمة ، إذ لا سلطان لهم علينا ، ولسنا في دائرة ملكهم .

ولما آمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

( قالت إحداها ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين )

أى : قالت : إحدى ابنتي هذا الرجل قيل : هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت

لأبيها (ياأبت استأجره) أى: لرعيه هذه الغنم .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وقتادة وغير واحد لما قالت ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ قال لها أبوها وماعلمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التى لا يطيق حملها إلا عشرة رجال وإن لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كوفى من ورائى فإذا اختلف على الطريق فاحذنى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه .

﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل إن وجدته صالحا كما عرض عمر ابنته حفصة على أبى بكر . وقوله : ﴿ على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك ﴾ أى : على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك وإلا ففى الثمانى كفاية ﴿ وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ أى : لأشاقك ولاأؤاذيك ولا أماريك . وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية .

قال له موسى عليه السلام ﴿ قال ذلك بينى وبينك أيها الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل ﴾

قال موسى الأمر على ما قلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشرا فمن عندى فانا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال ﴿ أيها الأجلين قضيت فلا عدوان على ﴾ أى: فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحا لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى : ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه ﴾ (١) هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما وقال البخارى بسنده عن سعيد ابن جبير قال : سألتى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لأدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضى الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذ قال فعلى .

وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: ( سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما ) (٢) .

### موسى فى طريقه لتبليغ الرسالة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ

١ - الآية ٢٠٣ من سورة البقرة

٢ - الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٤٦٠٩ بلفظه ورواية أبى يعلى والحاكم فى المستدرک عن ابن عباس ، ورمز له بالصحة .

لأَهْلِهِ آمَكُثُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْوِسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذُنُوكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْشِدُ عُصْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ مُلْكًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِمَا يَنْتَنَانِ ۚ أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قُلُوبُهُمْ ۚ أَلَا سِحْرُ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ ۚ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيُّهَا الْمَلَأَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْلِمُنْ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُيْمَةً يُدْعَوْنَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين \* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون .. إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون .. قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون .. قال فرعون آمستم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون \* وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين \* .

وفى سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجلت لنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون إئتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون \* فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلله إن الله لا يصلح عمل المفسدين \* ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون \* هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا ، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلدات النفسية التى وقعت في مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هي صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة .. فإنك إذ تنظر في الصورة الكبيرة ثم تنظر في أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هي الملامح ، والصورة هي الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها في معرض واحد ، حيث يمضى القارئ في القراءة أو المرتل في الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه - بصورة أكثر وضوحا - خلو القصص القرآنى من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذى كان في نظر الأغبياء

والادعاء تهمة يرمى بها القرآن في أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .  
وتنظر في الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :-

- ١ - موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات .
- ٢ - فرعون ، والملا الذين معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

- ٣ - ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان .
- ٤ - ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنيعنا هنا هو أن نجتمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر في هذه الصور الأربع التي عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(أ) موسى وهارون في مواجهة فرعون ؛  
موسى وهارون : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾<sup>(١)</sup> . ( من سورة طه )  
موسى وهارون : ﴿ إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾<sup>(٢)</sup> . ( من سورة الشعراء ) .

موسى : ﴿ يافرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق  
قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾<sup>(٣)</sup> .  
أما الصورة الرابعة - والتي جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقراً هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، نجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد تجاوزت به متلبسا بكل ما كان يجرى في النفوس من مشاعر وأحاسيس .  
فهذه المقولات الثلاث ليست قولاً واحداً جاء به القرآن في ثلاثة معارض من القول . . وإنما هي أقوال ثلاثة فعلاً كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته .  
ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذي بين هذه الأقوال ، وأيهما يسبق صاحبه أو يتأخر عنه . . ومع هذا فإن الترتيب الذي تجتمع عليه في كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .  
ويكفى أن ننظر إليها في وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذي جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

- ١ - فهذا موسى ومعه أخوه هارون . . يدخلان على فرعون معا ، ويتحدثان بصوت واحد معا . . إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل أن يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون . فهو أفصح منه لساناً ، فيقولان : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾<sup>(٤)</sup> . ( سورة طه ) .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية ١٨

(١) سورة طه الآية ١٨

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

وهي قوله لا تلقى فرعون لقاءً مواجهاً ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾  
 ٢- ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاءً  
 مباشراً ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ \* أن أرسل معنا  
 بنى إسرائيل ﴿ (١) . ( سورة الشعراء ) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من  
 فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ،  
 ويثبت جنانه .

٣- ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل  
 الصدمات الأولى لها .

- ها هو ذا يلقي فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . في قوة وصراحة .  
 ﴿ يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ \* حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئكم ببينة  
 من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴿ (٢) .

بالإعجاز الذى تذلل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !  
 يا فرعون !

هكذا يقولها موسى في وجه فرعون !

أترأه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف  
 حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يا فرعون ! ولا أن يقول بعدها : إني ؟ هذا الضمير المحقق  
 لشخصيته والمؤكد لذاتيته : إني .. لا أحد غيرى ( رسول من رب العالمين ) ولحرف الجر ( من ) هنا ما  
 له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها  
 ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان  
 الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين .. ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز  
 بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء .. ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادراً مدوياً  
 فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ١١ ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء  
 الذى أسمعه - موسى وهارون - لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما  
 بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من  
 قبل .

ننظر ونرى !

( ب ) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشاً عجباً لهذا التطاول عليه ، والخروج

(١) سورة الشعراء الايتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الايتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المؤلف في حضرته .. ثم إنه مع هذا هو فرعون !! يسيطر سلطانه على أهل المجلس ، يلقي نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك .. إنه هنا المحور الذي تدور به ومن حوله الأحداث وطبيعي ألا يأخذ اتجاهها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه .. فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملاء ..

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التي عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هي ( لقطات ) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعي أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهي إلى هذا التحدى الذي حددا موعده ، والذي يلتقى فيه موسى بالسحرة .. ولكن المقدر في هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه في تصوير مشاهد هذا الموقف في أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التي كان يعيش بها أصحابها في هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزماني أو المكاني فيها خلخلة ، أو ازدواج . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، في موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون أن تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا في الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغلة التي طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذي قال . له ، في قوة وجراة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين \* وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ؟ ( سورة الشعراء ) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى في الصميم وإنها ستخفض رأسه في حضرته .. إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التي فعلها ، وهي قتل المصري .. ١

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين \* ففررت منكم لما خفتكم فوہب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين \* وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ ( سورة الشعراء ) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما ياموسى ؟ ﴾ ( سورة طه )

وانظر إلى كيد فرعون في هذا السؤال الماكر .. إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما في لسان موسى من حبة .. وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبة لسانه :

﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾<sup>(١)</sup> . (سورة طه) .  
ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾<sup>(٢)</sup> . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى \* الذى جعل لكم الأرض مهذا و سلك  
لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى  
ذلك لآيات لأولى النهى \* منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾<sup>(٣)</sup> . (سورة  
طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى  
يكثُر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان  
يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه .. ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر  
لقدرته الله ، ول هذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة .. فيجىء إلى موسى من طريق  
آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾<sup>(٤)</sup> . (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حوالبه . عجبا ، دهشا ، مستكرا .. يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا

تستمعون ﴾<sup>(٥)</sup> . سورة الشعراء

وإلى هذه الجهة الجديدة التى فتحتها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم  
الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتثير هذه الجرأة حق فرعون .. إذ كيف يجروا موسى على تحطى فرعون  
ومخاطبة غيره فى حضرته .. ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه  
إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾<sup>(٦)</sup> . (سورة الشعراء)  
ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل .. فيقول : ﴿ رب المشرق  
والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾<sup>(٧)</sup> . (سورة الشعراء)

(١) سورة طه الآية ٥٠

(٢) سورة طه الآية ٥١

(٣) سورة طه الآية ٥٢

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤

(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦

(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧

(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨



وفي قوله موسى هذه تحريض قوى هؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .  
ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم - قوم فرعون - من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾<sup>(١)</sup> . (سورة الشعراء)  
ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جئتكم بشيء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)  
ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)  
ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)  
ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين ﴾<sup>(٢)</sup> . (سورة الأعراف)  
وليس بين يدي موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة أخرى .  
﴿ فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾<sup>(٣)</sup> . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة ( الشعراء ) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..  
وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدي دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾<sup>(٤)</sup> ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾<sup>(٥)</sup> . (سورة الأعراف) .  
ويمسك فرعون مرة أخرى بزمام الموقف ، بعد أن أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٠٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨

(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥

(٥) سورة الأعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر في تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى :

﴿ أَجِئْنَا لَنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى ﴾ (١)

وانظر في هذا الاعجاز الذي تتقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد في معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قوله فرعون في سورة ، وجعل قوله الملائكة في سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى في هذه المقولة : ﴿ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ ؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملائكة من حوله .. إنها الكلمة التي كانت تدور على الألسنة في مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : ( ما العمل ؟ ) .. ثم يجيء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذي كاد يستقر عليه الرأي ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ \* يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٢)

﴿ قَالُوا : أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ، يَأْتُونَكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ (٣)

وإذا كان الرأي قد غلب في إرجاء موسى وأخيه . وفي البحث عن السحرة في كل مكان ، فإن الرأي كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر في السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل ساحر .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « ساحر » في المرة الأخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريميتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما في موقف ، وإن كنا قد جمعناهما في موقف واحد .

(ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد في المجتمع المصري يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف في اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشُر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذي اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذي كان موعد اللقاء في هذا اليوم هو الساعة التي تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتها ..

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتجلى فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل .. وهو بهذا صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائماً فى خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تحف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم فى السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضاً يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..

فنحن نعرف فى الموقف الذى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه فى المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر . ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحر عليم ﴾ (١) .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ (٢) .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾ (٣) . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحاً لتنفيذ هذه المهمة : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ (٤) . ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير .. فها هم أولاء السحرة قد جئ بهم من كل مكان ، وها هى ذى أبواق الدعاية تنفخ فى كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم \* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون \* لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (٥) .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شيء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدي فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال .. ١  
ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أنن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ (٦) .

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

(٣) سورة طه الآية : ٦٠

(٤) سورة يونس الآية : ٧٩

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

فهذا الاسترخاء والمطال الذي توحى به كلمة : ﴿ فلما جاء السحرة فرعون ﴾ يوحي بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقيهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى .. ثم يشعروا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت في قولهم : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذون برهبة الموقف بين يدي فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا .. أئن لنا لأجرا ؟ .. إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المتى بوعده غير منجز ، وعد موقوف بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التي يقع عليها .. ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها .. استفهاما ، وجوابا عنه : فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين <sup>(١)</sup> .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التي حملها محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بين يديه ، وعلى لسانه وفي قلبه ، هدى ورحمة للعالمين ..

١ - فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة ( فلما ) تلك الكلمة التي تشعر بالاسترخاء والمط - كما قلنا - والتي تدل على أن السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال ..  
٢ - أخذ الفعل ( جاء ) مفعوله وهو ( فرعون ) في الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول في الصورة الاولى ..

أ - ولما جاء السحرة .. قالوا لفرعون ..

ب - وجاء السحرة فرعون .. قالوا ..

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقيهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير في مواجهة فرعون ، وفي تلقى توجيهه الاخير لما أعدهم له .

٣ - في الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذي يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا في هذا الموقف - أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصديق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء في اللحظة الاخيرة وقد أزفت الأزفة ، وواجه فرعون الامتحان .. تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقصاء لأجر في مقابل عمل .. ﴿ إن لنا لأجرا .. إن كنا نحن الغالبين ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة .. ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ بعد أن كان قوله لهم : ﴿ نعم وإنكم إذن لمن المقربين ﴾ .

فكلمة ( إذا ) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساهر أو هما معا .  
 وها قد عبثت القوى التي أعدها فرعون لموسى .. وها هي ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد  
 احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقترية ، في حديث متصل ، وفي  
 تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا في انتظار ان يرفع الستار عن هذا  
 المشهد المشهود .. وبلغة المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار ( الصالة ) وأضيئت أنوار  
 المسرح : وها هي ذى الدقات التقليدية التي تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !  
 إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعتة نفخات ( البوق ) إلى  
 التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هي الإشارة الوحيدة التي ذكرت في القرآن لتصوير هذه اللحظة التي نجعلنا وجها لوجه امام  
 المعركة ! وما كانت هذه الإشارة لتكرر مرة أخرى في أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع  
 الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون في القصص القرآني تكرارا أن يقفوا طويلا عند  
 هذه ( اللقطة ) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوها  
 المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، ومثلًا للفراغات التي تدل عليها الآلات  
 والاحوال ، والتي قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .  
 ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا في جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه في جانب !  
 وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين في وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه  
 موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التي يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذرهم اليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا  
 الضلال الذي يعملون له ، ويحيون فيه .

﴿ قال لهم موسى .. ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من  
 افترى ﴾ (٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين  
 بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم ..  
 ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى ﴾ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم  
 من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى \* فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفًا ، وقد أفلح اليوم  
 من استعمل ﴿ (٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التي كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

(١) سورة طه الآية : ٦٠

(٢) سورة طه الآية : ٦١

(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ - ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لا بد ان ينجلي عن هزيمة احدهما .. وقد كان ! وبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام ..

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾<sup>(١)</sup>  
وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾<sup>(٢)</sup> ويجب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر .. من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات .. ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف .. فكان كلما تابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعا غيرها .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾<sup>(٤)</sup>

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه المضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! .. وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عيني موسى :

١ - ﴿ فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

٢ - ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ فآوجس فى نفسه خيفة موسى<sup>(٦)</sup> .

٣ - ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾<sup>(٧)</sup> .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥

(٢) سورة طه الآية : ٦٥

(٣) سورة يونس الآية : ٨٠

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣

(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤

(٦) سورة طه الايتان : ٦٦ ، ٦٧

(٧) سورة الاعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة في المشاهدين جميعا ..  
 وفي هذا الكرب الكرب والبلاء العظيم يجيء صوت الحق ليملا قلب موسى أمنا وسكينة :  
 ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ (١)  
 ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى \* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٢) ..  
 فهاتان لقطان تصوران النداء الذي ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :  
 ﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكان موسى لم يجد في هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر  
 الشارح الواضح :  
 ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى \* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .  
 ويمتلئ كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه في يده ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :  
 ﴿ ماجئتم به السحرة إن الله سيبطلهن الله لا يصلح عمل المفسدين \* ويحق الله الحق بكلماته ، ولوكره المجرمون ﴾ (٣) .  
 ثم يلقي عصاه ..  
 ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون .. ﴾ (٤)  
 وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ (٥) .  
 ﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ (٦) ..  
 ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ (٥) ..  
 ثم يجيء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لا بد منه ، لأنه المنهل الذي ترتوى منه النفوس التي أظلمها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..  
 ﴿ وألقى السحرة ساجدين ۝ قالوا آمنا برب العالمين \* رب موسى وهارون ﴾ (٨)

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٧

(٢) سورة طه الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

(٣) سورة يونس الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٥

(٥) سورة الاعراف الآية : ١١٧

(٦) سورة طه الآية : ٦٩

(٧) سورة الاعراف الآيتان : ١١٨ ، ١١٩

(٨) سورة الاعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فآلقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ (١) .

﴿ فآلقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ (٢) .

فهذا التكرار على صورة واحدة في الصورتين الاوليين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانباً ثالثاً من جوانب هذا الحشد تحجى بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدوياً عالياً بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلناً عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضاً من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقراراً قوياً مؤكداً بالتسليم والإيمان لهارون فضلاً عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينييه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذة حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال آمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ (٣) .

﴿ قال آمتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾ (٤) . .

﴿ قال فرعون : آمتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون \* لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ (٥) .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجندة تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩

(٢) سورة طه الآية : ٧٠

(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) سورة طه الآية : ٧١



إن ذلك معناه ضياع هيئته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ أمتم له قبل ان آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟  
 إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الدهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيئته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال ان يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى الثيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .  
 ( فسوف تعلمون )

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾  
 ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾  
 ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾  
 كلمات يرددها ويهدى بها هذيان المحمود .  
 ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحذ عنيذ ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !  
 ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا \* إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى ﴾ (١) . (سورة طه )

﴿ قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون \* إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ (٢)  
 ﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون \* وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ (٣) .

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير . وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرنا ، وقد اخترناها عن قصد لنواجه بها القول بالتكرار في القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن في مجال الجدل ! أو في مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تحيء لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هي ( لقطات ) للإلفات والذكرى .. تحيء في مواقف الإلفات والتذكير .  
فمن ذلك :

١ - ما جاء في سورة النمل : ﴿ فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (١) .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جميعاً ، في هذا العرض الموجز السريع .  
٢ - ومثل هذا ما جاء في سورة القصص : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٢) .

٣ - ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة النازعات .. وقد جاء عرضاً لقصة موسى كلها !  
﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى \* اذهب إلى فرعون إنه طغى \* قل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدبر يسمي \* فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى \* فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (٣) .

٤ - ومثل هذا ما جاء في سورة الذاريات :

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاطن مبين \* فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملجم ﴾ (٤) .

٥ - وكذلك ما جاء في سورة الإسراء :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .. وإني لأظنك يافرعون مثبورا \* فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ (٥) .  
وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها - كما قلنا - الإلفات والتذكير ، في مقام الإلفات والتذكير ، فهي ليست من القصص ، وإن كانت تضم في كيانها أحداث القصة كلها .

(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ - ٤٠

(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ - ١٠٣

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة القصص الآيتان : ٣٦ : ٣٧

(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ - ٢٦

وأحسب أن القول بأن في القصص القرآني تكرارا بعد هذا العرض الذي عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهي قصة موسى - أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن في القصص القرآني ، فإنه في غير القصص أظهر وأبين ..

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار في غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذي يقوم عليه كل تكرار يلحظ في القرآن ويكفي أن نقف بين يدي الآية الكريمة :

﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة . بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون ﴾<sup>(١)</sup> .  
في هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد .. هو موقف المشركين من يوم القيامة .. فهؤلاء ليسوا على حال سواء في أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة في إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له ..  
ولتصوير هذه المشاعر في جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغي أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة ..  
ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة في كشف الموقف العام للمشركين منه .. إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التي يكاد يلوح فيها بينها فرق إلا تحت النظر ( الميكروسكوب ) .  
وإذن فإن العمل الذي يجدي في هذه الحال هو ضبط الناس في ( مجاميع ) كل مجموعة تمثل اتجاهها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذي فعله القرآن هنا :

فقد قسم المشركين في نظرهم ليوم القيامة ، وفي شعورهم له - إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك في صريح الآية الكريمة : ﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلي المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية في هذا ..

وأمر الساعة من الأمور الغيبية التي يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثا يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .

ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التي لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه .. فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية .. هي التي انتهى بها هذا العلم العقلي المجرد إلى أودية الضلال والتهيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات .. فهم في شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة .. هي التي لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين \* فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون .. إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم . وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . قال فرعون أمتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لكم مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون \* وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين .

وفي سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أنقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجتئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون إئتوني بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون \* فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلله إن الله لا يصلح عمل المفسدين \* ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون \* هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا ، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلجات النفسية التى وقعت في مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هي صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة . . فإنك إذ تنظر في الصورة الكبيرة ثم تنظر في أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هي الملامح ، والصورة هي الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها في معرض واحد ، حيث يمضى القارئ في القراءة أو المرتل في الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه - بصورة أكثر وضوحا - خلو القصص القرآني من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذي كان في نظر الأغبياء

والادعاء تهمة يرمى بها القرآن في أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .  
ونتظر في الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :-

- ١ - موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات .
- ٢ - فرعون ، والملا الذين معه من قومه ، وسجرتة ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

- ٣ - ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان .
- ٤ - ما كان من فرعون حين خذله سحرتة ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر في هذه الصور الأربع التي عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(أ) موسى وهارون في مواجهة فرعون ؛  
موسى وهارون : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ <sup>(١)</sup> . ( من سورة طه )  
موسى وهارون : ﴿ إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ <sup>(٢)</sup> . ( من سورة الشعراء ) .

موسى : ﴿ يافرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق  
قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
أما الصورة الرابعة - والتي جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقراً هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، تجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاوزت به متلبساً بكل ما كان يجرى في النفوس من مشاعر وأحاسيس .  
فهذه المقولات الثلاث ليست قولاً واحداً جاء به القرآن في ثلاثة معارض من القول .. وإنما هي أقوال ثلاثة فعلاً كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته .  
ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذي بين هذه الأقوال ، وأيهما يسبق صاحبه أو يتأخر عنه .. ومع هذا فإن الترتيب الذي تجتمع عليه في كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .  
ويكفى أن ننظر إليها في وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذي جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

- ١ - فهذا موسى ومعه أخوه هارون .. يدخلان على فرعون معاً ، ويتحدثان بصوت واحد معاً .. إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل أن يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون . فهو أفصح منه لساناً ، فيقولان : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ <sup>(٤)</sup> . ( سورة طه ) .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية ١٨

(١) سورة طه الآية ١٨

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

وهي قوله لا تلقى فرعون لقاءً مواجهها ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾  
 ٢ - ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاءً  
 مباشرا ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ \* أن أرسل معنا  
 بنى إسرائيل ﴿ (١) . ( سورة الشعراء ) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من  
 فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ،  
 ويثبت جنانه .

٣ - ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل  
 الصدمات الأولى لها .

ها هو ذا يلقي فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . في قوة وصراحة .  
 ﴿ يافرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ \* حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جننكم ببينة  
 من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴿ (٢) .  
 باللاعجاز الذى تذلل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !  
 يافرعون !

هكذا يقولها موسى في وجه فرعون !  
 أترأه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف  
 حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !  
 وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يافرعون ! ولا أن يقول بعدها : إني ؟ هذا الضمير المحقق  
 لشخصيته والمؤكد لذاتيته : إني . . لا أحد غيرى ( رسول من رب العالمين ) ولحرف الجر ( من ) هنا ما  
 له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها  
 ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان  
 الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين . . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز  
 بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . . ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادرا مدويا  
 فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ١١ ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء  
 الذى أسمعاه - موسى وهارون - لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما  
 بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من  
 قبل .

ننظر ونرى !

( ب ) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشا عجبا لهذا التطاول عليه ، والخروج

(١) سورة الشعراء الايتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الايتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المؤلف في حضرته .. ثم إنه مع هذا هو فرعون !! ييسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقي نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك .. إنه هنا المحور الذى تدور به ومن جوله الأحداث وطبيعى ألا يأخذ إتجاهها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه .. فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملاء ..

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هى ( لقطات ) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهى إلى هذا التحدى الذى حددا موعده ، والذى يلتقى فيه موسى بالسحرة .. ولكن المقدر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن يئأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزمانى أو المكانى فيها خلخلة ، أو ازدواج . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون أن تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا فى الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغلة التى طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذى قال . له ، فى قوة وجراءة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين \* وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ؟ ﴾ ( سورة الشعراء ) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم وإنما ستخفض رأسه فى حضرته .. إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة خفيفة لفعلته التى فعلها ، وهى قتل المصرى .. ١

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين \* ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين \* وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ ( سورة الشعراء ) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما يا موسى ؟ ﴾ ( سورة طه )

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر .. إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسان موسى من حبسة .. وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبسة لسانه :

﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾<sup>(١)</sup> . (سورة طه) .

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾<sup>(٢)</sup> . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى \* الذى جعل لكم الأرض مهذا \* وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى \* منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾<sup>(٣)</sup> . (سورة طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه . . ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر لقدرة الله ، ولهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾<sup>(٤)</sup> . (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حوالیه . عجباً ، دهشاً ، مستنكراً . . يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا

تستمعون ﴾<sup>(٥)</sup> . سورة الشعراء

وإلى هذه الجهة الجديدة التى فتحتها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتشير هذه الجرأة حتى فرعون . . إذ كيف يجزؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾<sup>(٦)</sup> . (سورة الشعراء)

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل . . فيقول : ﴿ رب المشرق

والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾<sup>(٧)</sup> . (سورة الشعراء)

(١) سورة طه الآية ٥٠

(٢) سورة طه الآية ٥١

(٣) سورة طه الآية ٥٢

(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤

(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦

(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧

(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨



وفي قوله موسى هذه تحريض قوى هؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .  
ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم - قوم فرعون - من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾<sup>(١)</sup> . (سورة الشعراء)  
ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جثتك بشيء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)  
ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)  
ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)  
ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فات بها إن كنت من الصادقين ﴾<sup>(٢)</sup> . (سورة الأعراف)  
وليس بين يدي موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة أخرى .  
﴿ فألقى عصاه ، فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾<sup>(٣)</sup> . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة ( الشعراء ) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..

وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدي دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾<sup>(٤)</sup> ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾<sup>(٥)</sup> . (سورة الأعراف) .  
ويمسك فرعون مرة أخرى بزمام الموقف ، بعد أن أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٠٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨

(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥

(٥) سورة الأعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر في تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى : ﴿ أجبثنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ﴾ (١) .

وانظر في هذا الاعجاز الذى تنقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد في معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قوله فرعون في سورة ، وجعل قوله الملائكة في سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى في هذه المقولة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ ؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملائكة من حوله .. إنها الكلمة التى كانت تدور على الألسنة في مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : ( ما العمل ؟ ) .. ثم يجيء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذى كاد يستقر عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين \* يأتوك بكل سحار عليم ﴾ (٢) .

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ (٣)

وإذا كان الرأى قد غلب في إرجاء موسى وأخيه . وفى البحث عن السحرة في كل مكان ، فإن الرأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر في السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحار .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « سحار » في المرة الأخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريميتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما في موقف ، وإن كنا قد جمعناهما في موقف واحد . (ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد في المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف في اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذى كان موعد اللقاء في هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتها ..

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتتجلى فيه آياته ، في صراعه مع الباطل .. وهو بهذا صورة كريمة من الصور التي ينبغي أن تكون متمثلة دائما في خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تحف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم في السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف في مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضا يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى ..

فنحن نعرف في الموقف الذي كان بين موسى وفرعون أن الرأي قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه في المداخن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر . ﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المداخن حاشرين ، يأتوك بكل سحر عليم ﴾ (١) .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل في المداخن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ (٢) .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وما هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره ﴿ فتولى فرعون فجمع كيد ﴾ (٣) . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحا لتنفيذ هذه المهمة : ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ (٤) . ثم نرى المحصول الذي اجتمع من هذا التدبير .. فها هم أولاء السحرة قد جئ بهم من كل مكان ، وها هي ذى أبواق الدعاية تنفخ في كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم \* وقيل للناس هل أنتم مجتمعون \* لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ (٥) .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شيء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدي فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال .. ١

ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذي تم في يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة .. قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ (٦) .

(٤) سورة يونس الآية : ٧٩

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

(٣) سورة طه الآية : ٦٠

فهذا الاسترخاء والمط الذي توحى به كلمة : ﴿ فلما جاء السحرة فرعون ﴾ يوحي بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى .. ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت في قولهم : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذِينَ برهبة الموقف بين يدي فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا .. أئن لنا لأجرا ؟ .. إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المنى بوعده غير منجز ، وعد موقوف بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التي يقع عليها .. ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها .. استفهاما ، وجوابا عنه : فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذا لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴿ (١) .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التي حملها محمد - صلوات الله وسلامه عليه - بين يديه ، وعلى لسانه وفي قلبه ، هدى ورحمة للعالمين ..

١ - فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة ( فلما ) تلك الكلمة التي تشعر بالاسترخاء والمط - كما قلنا - والتي تدل على أن السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال ..

٢ - أخذ الفعل ( جاء ) مفعوله وهو ( فرعون ) في الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول في الصورة الاولى ..

أ - ولما جاء السحرة .. قالوا لفرعون ..

ب - وجاء السحرة فرعون .. قالوا ..

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير في مواجهة فرعون ، وفي تلقى توجيهه الاخير لما أعدهم له .

٣ - في الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذي يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا في هذا الموقف - أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصديق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء في اللحظة الاخيرة وقد أزفت الأزفة ، وواجه فرعون الامتحان .. تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر في مقابل عمل .. ﴿ إن لنا لأجرا .. إن كنا نحن الغالبين ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة .. ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ بعد أن كان قوله لهم : ﴿ نعم وإنكم إذن لمن المقربين ﴾ .

فكلمة ( إذا ) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساخر أو هما معا .  
 وها قد عبثت القوى التي أعدها فرعون لموسى .. وها هى ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد  
 احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقتربة ، فى حديث متصل ، وفى  
 تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا فى انتظار ان يرفع الستار عن هذا  
 المشهد المشهود .. وبلغه المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار ( الصالة ) وأضيئت أنوار  
 المسرح : وها هى ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !  
 إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعتة نفخات ( البوق ) إلى  
 التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيدته ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هى الإشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة التى تجعلنا وجها لوجه امام  
 المعركة ! وما كانت هذه الإشارة لتتكرر مرة أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع  
 الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكرارا أن يقفوا طويلا عند  
 هذه ( اللقطة ) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوها  
 المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، وملئاً للفراغات التى تدل عليها الآلات  
 والاحوال ، والتى قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .  
 ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب !  
 وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه  
 موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر اليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا  
 الضلال الذى يعملون له ، ويحيون فيه .  
 ﴿ قال لهم موسى .. ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من  
 افترى ﴾ (٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين  
 بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !  
 ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم ..  
 ﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرروا النجوى ﴾ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم  
 من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى \* فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفًا ، وقد أفلح اليوم  
 من استعلى ﴾ (٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التى كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

(١) سورة طه الآية : ٦٠

(٢) سورة طه الآية : ٦١

(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ - ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لابد ان ينجلي عن هزيمة احدهما .. وقد كان ! ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام ..

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾<sup>(١)</sup>  
وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾<sup>(٢)</sup> ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر .. من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات .. ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف .. فكان كلما تتابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعا غيرها .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾<sup>(٤)</sup> .

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! .. وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عينى موسى :

١ - ﴿ فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

٢ - ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ فأوجس فى نفسه خيفة موسى<sup>(٦)</sup> .

٣ - ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾<sup>(٧)</sup> .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥

(٢) سورة طه الآية : ٦٥

(٣) سورة يونس الآية : ٨٠

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣

(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤

(٦) سورة طه الآيتان : ٦٦ ، ٦٧

(٧) سورة الاعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة في المشاهدين جميعا ..  
 وفي هذا الكرب الكرب والبلاء العظيم يجيء صوت الحق ليملا قلب موسى أمنا وسكينة :  
 ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾ (١)  
 ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ \* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٢) ..  
 فهاتان لقطان تصوران النداء الذي ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :  
 ﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكان موسى لم يجد في هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر  
 الشارح الواضح :  
 ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ \* وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا  
 يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .  
 ويمتلئ كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه في يده ، وكأنه ينظر إليها  
 لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :  
 ﴿ ما جئتم به السحرة إن الله سيظلمه إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ \* ويحق الله الحق بكلماته ،  
 ولو كره المجرمون ﴾ (٣) .  
 ثم يلقى عصاه ..  
 ﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون .. ﴾ (٤)  
 وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما  
 يأفكون ﴾ (٥) .  
 ﴿ وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ﴾ (٦) ..  
 ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقيها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا  
 يعملون ﴾ \* فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾ (٥) ..  
 ثم يجيء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لا بد منه ، لأنه المنهل  
 الذي ترتوى منه النفوس التي أظلمها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..  
 ﴿ وألقى السحرة ساجدين ﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴾ رب موسى وهارون ﴾ (٨)

(١) سورة الأعراف الآية : ١١٧

(٢) سورة طه الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

(٣) سورة يونس الآيتان : ٨١ ، ٨٢

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٥

(٥) سورة الأعراف الآية : ١١٧

(٦) سورة طه الآية : ٦٩

(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١١٨ ، ١١٩

(٨) سورة الأعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فالتقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ (١) .

﴿ فالتقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ (٢) .

فهذا التكرار على صورة واحدة في الصورتين الاوليين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانباً ثالثاً من جوانب هذا الحشد تحمىء بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدوياً عالياً بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلنا عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضاً من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان أكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقراراً قوياً مؤكداً بالتسليم والإيمان لهارون فضلاً عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينيه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذهم حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال أمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . وأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ (٣) .

﴿ قال أمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف . وأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ (٤) .

﴿ قال فرعون : أمتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ . لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾ (٥) .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجندته تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨

(٢) سورة طه الآية : ٧٠

(٣) سورة طه الآية : ٧١

(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩

(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤



إن ذلك معناه ضياع هيئته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمتنم له قبل أن أذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟  
 إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الدهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيئته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال أن يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى الثيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾ ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .  
 (فسوف تعلمون)

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾  
 ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾  
 ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾  
 كلمات يرددها ويهدى بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !  
 ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من اليينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا \* إنا آمننا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى ﴾ (١) . (سورة طه)

﴿ قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون \* إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾ (٢)

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون \* وما تنقم منا إلا أن آمننا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ (٣)

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير . وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرنا ، وقد اخترناها عن قصد لتواجه بها القول بالتكرار في القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن في مجال الجدل ! أو في مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تحيى لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هي ( لقطات ) للإلفات والتذكير .. تحيى في مواقف الإلفات والتذكير . فمن ذلك :

١ - ما جاء في سورة النمل : ﴿ فلما جاءهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ (١) .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جمعاً ، في هذا العرض الموجز السريع .  
٢ - ومثل هذا ما جاء في سورة القصص ! ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾ (٢) .

٣ - ومثل ذلك أيضاً ما جاء في سورة النازعات .. وقد جاء عرضاً لقصة موسى كلها ! ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى \* اذهب إلى فرعون إنه طغى \* قل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدبر يسمي \* فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى \* فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (٣) .

٤ - ومثل هذا ما جاء في سورة الذاريات :

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسطان مبین \* فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو ملیم ﴾ (٤) .  
٥ - وكذلك ما جاء في سورة الإسراء :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحوراً \* قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .. وإني لأظنك يافرعون مثيراً \* فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ (٥) .  
وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها - كما قلنا - الإلفات والتذكير ، في مقام الإلفات والتذكير ، فهي ليست من القصص ، وإن كانت تضم في كيانه أحداث القصة كلها .

(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ - ٤٠

(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ - ١٠٣

(١) سورة النمل الآيات : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة القصص الآيات : ٣٦ : ٣٧

(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ - ٢٦

وأحسب أن القول بأن في القصص القرآني تكرارا بعد هذا العرض الذي عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهي قصة موسى - أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن في القصص القرآني ، فإنه في غير القصص أظهر وأبين ..

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار في غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذي يقوم عليه كل تكرار يلحظ في القرآن ويكفي ان نقف بين يدي الآية الكريمة :

﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة . بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون ﴾<sup>(١)</sup> .  
في هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد .. هو موقف المشركين من يوم القيامة .. فهؤلاء ليسوا على حال سواء في أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة في إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له ..  
ولتصوير هذه المشاعر في جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغي أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة ..  
ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة في كشف الموقف العام للمشركين منه .. إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التي يكاد يلحظ فيها بينها فرق إلا تحت النظر ( الميكروسكوبي ) .  
وإذن فإن العمل الذي يجدي في هذه الحال هو ضبط الناس في ( مجاميع ) كل مجموعة تمثل اتجاهها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذي فعله القرآن هنا :  
فقد قسم المشركين في نظرهم ليوم القيامة ، وفي شعورهم له - إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك في صريح الآية الكريمة : ﴿ بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلي المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية في هذا ..  
وأمر الساعة من الأمور الغيبية التي يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثا يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .  
ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التي لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه .. فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية .. هي التي انتهى بها هذا العلم العقلي المجرد إلى أودية الضلال والتهيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات .. فهم في شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة .. هي التي لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

والتسليم .. هي هذا الصنف من الناس الذين يعيشون كما يعيش الأنعام بلا عقل ، ولا قلب ! ..  
﴿ بل هم منها عمون ﴾ !

الحاجة إلى إرسال الرسل مع سوق بعض الأدلة على صدق الرسول :

قوله تعالى : وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ

الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ

تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ ائْتَيْنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً

مِّن رَّبِّكَ لِنُذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن

تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ

ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ

مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ

كُفْرٍ وَكُنَّا قُلُوبًا يَّكْتُمُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾

فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ آتَبَعَ هَوَاهُ بَغْيٍ هُدًى

مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ \* وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾

**المفردات :** ﴿ الشاهدين ﴾ الحاضرين ﴿ قرونا ﴾ أما ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ أى : طال  
عمرهم ﴿ ثاويا ﴾ مقبيا يقال ثوى بالمكان يثوى به أقام ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ المراد فإن لم يفعلوا  
﴿ تظاهرا ﴾ تعاونا ﴿ وصلنا لهم القول ﴾ اتبعنا بعضه بعضا من الإنزال ليتصل التذكير .

وهذا لون من العبرة بقصة موسى ، ونتيجة عامة لسوقها ، إذ هي من الأدلة على صدق الرسول  
حيث قص أخبارا صادقة عن قوم لم يشهدهم ولم يكن معهم ، ولم ترد له أخبارهم ، فلم يبق إلا الوحي  
مصدرا لهذا كله ، وفي ذلك عبرة وعظة ، ودليل على صدق النبي - ﷺ - وهذا أيضا شروع في بيان أن  
إنزال القرآن الكريم جاء في زمن ، الحاجة فيه ماسة وداعية إليه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ .

في هذه الآية الكريمة تنبيه وإخبار منه تعالى على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كان سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمي لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (١) الآية أى وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ الآية . وقال في آخر السورة : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ﴾ (٢) وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ الآية وقال في سورة طه ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ (٣) الآية وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إحياء الله إليه وتكليمه له ﴿ وما كنت بجانب الغرب إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعنى ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطئ الوادى ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك ولكن الله - سبحانه وتعالى - أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدا ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ﴾ أى: مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبينا شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه .  
كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين \* بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٤) الخ القصة .

قوله تعالى : ﴿ ولكننا كنا مرسلين ﴾ أى ولكننا أوحينا إليك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا وقوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أى إذ نادينا موسى كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وأذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا \* وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ﴾ (٥) وكما قال جل شأنه : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ات القوم الظالمين ﴾ (٦) وقال : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ (٧) .

(١) سورة آل عمران الآية : ٤٤

(٢) سورة هود الآية : ١٠٠

(٣) سورة طه الآية : ٩٩

(٤) سورة هود الآيات : ٨٤ - ٨٦

(٥) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢

(٦) سورة الشعراء الآية : ١٠

(٧) سورة النازعات الآيتان : ١٥ ، ١٦

وقال أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه أخبرنا علي بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن علي بن مدرك عن أبي زرعة عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ قال نودوا أن يأمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني وأجبتكم قبل أن تدعوني . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

قوله تعالى : ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ولكن الله تعالى أنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . وقوله تعالى : ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل لعلهم يتذكرون ويهتدون .

﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (١) .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ (٢) .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٣)

قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ففتيح آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ (٤) قال الإمام ابن القيم : فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة ، بحيث استحقوا أن يصابوا بها بالمصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل . وهذا هو فصل الخطاب .

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم ، إن القبح ثابت للفعل في نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة . وهذه النكتة هي التي فأت المعتزلة والكلابية كليهما ، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى ، لعدم جمعها بين هذين الأمرين ! فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل ، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي . وأحسنوا في رد ذلك عليهم . واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة ، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح ، واستواء الأفعال في أنفسها وأحسنوا في رد هذا عليهم .

فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب . وأما من سلك هذا المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ، ولا الظفر عليه أصلا ، فإنه لوافق لكل طائفة على

(١) سورة الفرقان الآية : ١

(٢) سورة الفتح الآية : ٢٨

(٣) سورة سبأ الآية : ٢٨

(٤) سورة القصص : آية ٤٧

ما معها من الحق مقرر له . مخالف لها في باطنها منكر له .  
 وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ <sup>(٤)</sup> الآية . والآيات في هذا كثيرة .  
 قوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ .  
 يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والاحاد : ﴿ لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التي أجراها الله تعالى على يدى موسى - عليه السلام - حجة وبرهانا له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لها : ﴿ قالوا أجبنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾ <sup>(٦)</sup> ولهذا قال ها هنا : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ﴾ أى : أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ أى : تعاونا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أى : بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدرى إذا يمت أرضا      أريد الخير أيهما يلينى

أى : فما أدرى يلينى الخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ قال يعنى موسى وهارون صلى

(٤) سورة المائدة الآية : ١٩

(٥) سورة يونس الآية : ٧٨

(٦) سورة المؤمنون الآية : ٤٨

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤ / ٢٥١

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة النساء الآية : ١٦٥

الله عليهما وسلم (تظاهرا) أى : تعاونوا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله : ( ساحران ) يعنون موسى وهارون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس : ( قالوا ساحران تظاهرا ) قال : يعنون موسى ومحمدا ﷺ وهذه رواية الحسن البصرى . وقال الحسن وقتادة : يعنى عيسى ومحمد ﷺ وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكرهنا والله أعلم . وأما من قرأ ( سحران تظاهرا ) فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبد الرحمن بن يزيد بن أسلم قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال عكرمة : يعنون التوراة والانجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره ابن جرير . قال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن والله - سبحانه وتعالى - أعلم بالصواب والظاهر على قراءة ( سحران ) أنهم يعنون التوراة والقرآن لانه قال بعده : ﴿ قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه ﴾ وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾ ( إلى أن قال ) وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴿ (٢) وقال فى آخر السورة : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن ﴾ (٣) الآية وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلنا مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾ (٤) وقالت الجن : ﴿ إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ﴾ (٥) وقال ورقة ابن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران - عليه السلام - وهو الكتاب الذى قال الله فيه : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحلا لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى : ﴿ قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ (٦) .

أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أى فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول ، وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ قال مجاهد وغيره : ( وصلنا لهم ) يعنى قرىشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن

(١) تفسير الطبرى ٢٠ / ٥٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٤ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٥٥ .

(٥) سورة الأحقاف الآية : ٣٠ .

(٦) سورة المائدة الآية : ٤٤ .



سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعه - رفاعه هذا هو ابن قزطة القرظي - وجعله ابن مندة : رفاعه بن شموال خال صفية بنت حيى وهو الذى طلق تيممة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير - قال : نزلت ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن ابى حاتم من حديثه .

### المؤمنون من أهل الكتاب

قوله تعالى : الَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ الْاسِيَّةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات : ﴿ ويدرأون ﴾ يدفعون يقال درأ عنه كذا أى دفع ﴿ اللغو ﴾ هو ما لا يعتد به من القول أو ما كان فيه أذى من شتم أو سب ﴿ لا تبتغى الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جبیر . نزلت هذه الآية فى سبعين من القيسيين بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ فلما ندموا عليه قرأ عليهم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها فجعلوا يبيكون وأسلموا .

### التفسير

وهذا هو الصنف الذى فى قلبه ميل إلى الخير ، وفى نفسه استعداد لقبول الطيب من الدعوات ، وهم جماعة من أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ، ولم يحرفوا كلمهم وبشارة كتبهم بالنبى العربى فهم قد آمنوا به أولا بظهور الغيب ثم آمنوا به ثانيا إيمان مشاهدة وإقرار بما سبق ، وإذا يتلى على هؤلاء القرآن قالوا : آمنا به وصدقناه وصدقنا من جاء على لسانه ، وكأن سائلا سأل وقال لم هذا ؟ فأجابوا إنه الحق من ربنا نعم إنه كلامه الحق الذى لا شك فيه ، ونحن أدرى به من غيرنا ، إنا كنا من قبل نزوله مسلمين ومنقادين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا مرة لإيمانهم بكتابتهم ونبيهم ومرة لإيمانهم بالقرآن

والنبي ، وصبرهم على ذلك كله ، وهم يدراون بالحسنة السيئة ، ويدفعون الشر بالخير وينفقون مما رزقناهم في سبيل الله .

وإذا سمعوا لغوا من قول المشركين أو أصابهم أذى منهم ، أعرضوا عنهم ، وقالوا لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم سلام ترك وموادة ، نحن لا نبتغي الجاهلين ، ولا نطلب مصاحبتهم .

### رد على بعض مزاعم المشركين

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا إِنَّمَا يَجْعَلِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ يَنْسُكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۚ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَمَا وَكُنَّا مُهْلِكُ الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَّعَةً ثُمَّ جَاءَهُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

### المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والارشاد إلى طريق الخير وهي التي أثبتها الله لرسوله في قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء في قوله : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا ﴾ وهي بهذا المعنى نفيت عن رسول الله ﷺ في هذه الآية . يجبي إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبي الماء في الحوض : أى جمعه ، والجابية : الحوض العظيم . والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد . ونتخطف من أرضنا : نتزع منها بسرعة . أو لم نمكن لهم حرما آمنا . نجعل مكانهم حرما ذا أمن - بطرت معيشتها أى : بغت وتجبرت ولم تحفظ الله . وأما أكبرها وأعظمها وهي أصلها وعاصمتها ، من

المحضرين : أى الذين يحضرون للعذاب وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال ﴿ لكنت من المحضرين ﴾ وقال : ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والالزام ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا . فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الايمان والدخول فى الاسلام ، فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر والله الحكمة التامة . قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومى - رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده ابا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ ( يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله ) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك <sup>(١)</sup> فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قرى ﴾ وأنزل فى أبى طالب : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ هكذا رواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : ( يا عمه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة ) فقال : لولا أن تعيرنى بها قرىش يقولون ما حملة عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقر بها عينك <sup>(٢)</sup> فأنزل الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ﴾ يدل دلالة صادقة وقاطعة على مدى المسئولية الفردية قال تعالى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال - عز وجل - ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرى ﴾ <sup>(٤)</sup> وها هو ذا نبي الله نوح يدعو ابنه إلى النجاة فيأبى قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ <sup>(٥)</sup> وتأخذ الرأفة قلب نوح

(١) أخرجه البخارى - باب قصة أبى طالب ٥ / ٦٥ - ٦٦

ومسلم - كتاب الايمان - باب أول الايمان قوله لا إله إلا الله ١ / ٥٤ رقم ٢٤

(٢) أخرجه مسلم - فى كتاب الايمان - باب أول الايمان قول لا إله إلا الله ١ / ٥٥ رقم ٢٥ والترمذى فى سننه كتاب تفسير القرآن - باب تفسير سورة القصص ٥ / ٣٤١ رقم ٣١٨٨

(٣) سورة النحل الآية : ١١١

(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

(٥) سورة هود الآية : ٤٢ - ٤٣

وتملك عليه الرحمة جنبات نفسه وتعتلج لواعج الشوق في فؤاده فينادى ربه : ﴿ رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾<sup>(١)</sup> فبم أجابه العلي الأعلى جل جلاله ؟ ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إن أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾<sup>(٢)</sup> وما هو ذا نبي الله ابراهيم يدعو أباه إلى الايمان بالله وحده ، فيقول له آزر : ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك وأهجرني مليا ﴾<sup>(٣)</sup> ثم يعده بالاستغفار له فيقول : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك رب إن كان بي حفياء ﴾<sup>(٤)</sup> . ويبر إبراهيم بوعده مع أبيه فيدعوربه ويقول : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾<sup>(٥)</sup>

ثم يأتي فصل الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾<sup>(٦)</sup> . نعم ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ . ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ . . وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل يقول : ﴿ سبحان الله يخرج الحى من الميت ﴾

إذا طاب أصل الشيء طابت فروعه ومن عجب جادت يد الشوك بالورد

وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ليظهر فعل الله فى العكس والطرود

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ لقد أبطل القرآن حجج هؤلاء المعاندين الذين قالوا لرسول الله ﷺ إننا نخاف إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا ما كان عليه الآباء وخرجنا على مألوف الاجداد - لو قلنا ذلك لحاربنا هؤلاء وأولئك وتخطفونا من أرضنا . فأبطل الله تعالى قولهم هذا بقوله : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ﴾ قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم . أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) سورة هود الآية : ٤٥

(٢) سورة هود الآيتان : ٤٦ ، ٤٧

(٣) سورة مريم الآية : ٤٦

(٤) سورة مريم الآية : ٤٧

(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٦

(٦) سورة التوبة الآية : ١١٤

(٧) سورة التحريم الآيتان : ١٠ ، ١١

(٨) سورة العنكبوت الآية : ٦٧

ومن نعم الله على هذا الحرم الآمن المطمئن أن يجبى إليه ثمرات كل شيء استجابة لدعوة الخليل ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١) وقد أصبحت فاكهة الشام تؤكل رطبة في أرض الحجاز ﴿ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فمن الذى يرزق إلا الله ؟ ومن الذى يجود بالكرم ويهب النعم إلا الله ولكن أكثرهم لا يعلمون أن شكر المنعم واجب فهم معرضون .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ : وهنا إخبار منه تعالى عن كثرة إهلاكه للقرى الطاغية الباغية الظالمة التى بدلت نعمة الله كفرا كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ (٢) وكما قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾ (٣)

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحدا إلا بعد الانذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ أى : وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبرائها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب حيناً والترهيب حيناً آخر فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المَعذرة . وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة وأعرف بمواقع الحق إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى أم ما حولها . ونحو الآية قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٤)

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ أى : ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ، ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكتهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾ .

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٧

(٢) سورة النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣

(٣) سورة الاسراء الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

قال رسول الله ﷺ ( والله ما الحياة الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ماذا يرجع إليه ) .<sup>(١)</sup>

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر : ( كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور ) .

ومهما أوتي الإنسان من شيء في هذه الدنيا فهو متاع إلى زوال ، قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا ثم هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾<sup>(٦)</sup>

وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾<sup>(٧)</sup>

وقال تعالى : ﴿ بل تؤثر الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾<sup>(٨)</sup> . فيا بن آدم جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كثود .

تالله لو عاش الفتى في دهره	ألفا من الأعوام مالك أمره
متنعما فيها بكل نفيسة	متلذذا فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة	كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله في أن يفى	بمبيت أول ليلة في قبره

قال عمر بن عبد العزيز للحسن البصرى : ياتقى الدين عظنا وأوجز . قال : يأمر المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صباحها يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أى أجنتم فلا تعقلون ؟ يامن تؤثرن الفانية على الباقية والعاجلة على الآخرة :

دنياك ساعات سراع الزوال	وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا	وتشتري دنيا المتى والضلال

(١) مسلم - كتاب الجنة - باب فناء الدنيا

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٩٨

(٥) سورة النحل الآية : ٩٦

(٦) سورة الاسراء الآيات : ١٨ - ٢١

(٧) سورة الحديد الآيتان : ٢٠ ، ٢١

(٨) سورة الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧

تفسير الطبرى ٢٠ / ٦٢

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ :

يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذاب بلقاء الله ووعدته ووعدته فهو ممتع في الحياة الدنيا أياما قلائل ﴿ ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل وقيل : في حمزة وعلى وأبي جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو في الدرجات وذاك في الدرجات فقال : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّ لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنِّي لَمُحْضَرُونَ ﴾

### بعض مواقف المشركين يوم القيامة

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿١٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُم فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١٦٧﴾

### المفردات

حق عليهم القول : ثبت ووجب يقال : حق يحق ويحق ثبت ، أغوينا : أى أضللنا يقال : غوى يغوى ضل . فعميت عليهم الأنباء : أى صارت كالعمى لا تهتدى إليهم ، واصل التركيب فعموا عن الأنباء ثم حصل قلب وهذا مألوف في اللغة العربية .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه - يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب - اردف ذلك ببيان ما يحصل في هذا اليوم من الاهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون في الجواب عنها ، ويشتد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصا ومعدرة تبرر لهم ما كانوا يقتربون ، فيسألهم أولا عن الآلهة التي كانوا يعبدونها في الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو يتتصرون ؟ ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم

عما أجابوا به الرسل حين دعواهم إلى الإيمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التي تنجيهم من العذاب الذي لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقونه من حجة لهل الموقف واشتداد الخطب ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الاعمال وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ هذا سؤال توبيخ وتقريع لهؤلاء الذين اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم والزعم مطية الكذب فهم كاذبون فيما اشركوا به قال تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (١) فالكون كله يهتف بوحداية الله ، ويقر بكماله ويسبح بجلاله ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره قال تعالى لهؤلاء الضالين : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ (٢) فاسألوا الكائنات عن خالقها تخبركم بلسان الحال والمقال بأنه : ﴿ الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٣) . اسألوا الكون كله ينبئكم الخبر ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذللكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ذللكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إلى من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ (٤) .

فسبحان من خشعت له الأصوات وعنت له الوجوه وهو الحي القيوم . الذي يحيى العظام وهى رميم وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . هو الواحد في ذاته لا قسيم له . الواحد في صفاته لا شبيه له الواحد في أفعاله لا شريك له .

(١) سورة الانعام الآية : ٢٤

(٢) سورة الانعام الآية : ٩٤

(٣) سورة الحشر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٤) سورة الانعام الآيات : ٩٥ - ١٠٦



قال تعالى : ﴿ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ . أى : قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله :

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ <sup>(١)</sup> فدخلوا النار - قالوا - : ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منالهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإجاء ، فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .  
وخلاصة ذلك : أن تبعة غيهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعياً إلى الكفر ، فقد كان في مقابلته دعاء الله لهم إلى الإيمان ، بما وضع من الأدلة العقلية ، وبعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفاً عن الكفر ، داعياً إلى الإيمان .  
وصدق الله - تعالى - إذ يقول في شأن هؤلاء :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ <sup>(٢)</sup>  
وقال - تعالى - : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
وقال الخليل - عليه السلام - لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
وقال الله - تعالى - : ﴿ إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ولهذا قال : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أى : ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدعوه فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أى : ويتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة .  
وقوله : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا ، وهذا كقوله - تعالى - : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوه فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وقوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ <sup>(٧)</sup> النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

(٥) الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ من سورة البقرة .

(٦) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الكهف .

(٧) الآية : ٦٥ من سورة القصص .

(١) من الآية : ١١٩ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .

(٣) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .

(٤) الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .

ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه ؟ لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال - تعالى ﴿ فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾ <sup>(١)</sup> قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب ، وقوله : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحا ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : يوم القيامة ، و ( عسى ) من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

### كلمة فى التوبة

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله - تعالى - لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :  
أحدها : أن يقطع عن المعصية .  
والثانى : أن يندم على فعلها .  
والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدا .  
فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفو ، وإن كان غيبة استحلت منها .  
ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته - عند أهل الحق - من ذلك الذنب ، وبقي عليه الباقي . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال الله - تعالى - : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
وقال - تعالى - ﴿ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة ) <sup>(٦)</sup> رواه البخارى .  
وعن الأغربن يسار المزنى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( يا أيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة ) رواه مسلم <sup>(٧)</sup> .

(١) الآية : ٦٦ من سورة القصص .

(٢) الآية : ٦٧ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٤) من الآية : ٣ من سورة هود .

(٥) من الآية : ٨ من سورة التحريم .

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى ( كتاب الدعوات ) باب استغفار النبى ﷺ فى اليوم واللييلة ج ٨ ص ٨٣ .

(٧) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه

وعن أبي حمزة انس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ - رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : ( الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد اضله في أرض فلاة ) . متفق عليه<sup>(١)</sup> .

وفي رواية لمسلم ( لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح )<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعرى - رضى الله عنه عن النبي ﷺ - قال : ( إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ) . رواه مسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ ( من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه ) رواه مسلم<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ : قال : ( إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - أى : تصل الروح حلقومه )<sup>(٥)</sup> . رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ذر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال - رضى الله عنه - أسأله عن المسح على الخفين فقال : ما جاء بك يا ذر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : ( إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب . فقلت : إنه قد حك في صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرأ من أصحاب النبي ﷺ فجئت أسألك : هل سمعته يذكر في ذلك شيئا ، قال : نعم ، كان يأمرنا إذا كنا سفرا - أو مسافرين - ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر في الهوى شيئا ؟ قال : نعم ، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فبينما نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى : يا محمد ؟ فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته هاؤم ( أى : خذ ) فقلت له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا ! فقال : والله لا أغضض .

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى ( كتاب التوبة ) باب فى الحض على التوبة والفرح بها ص ٧٤٧ رقم ١٨٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب فى الحض على التوبة والفرح بها ج ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٧ / ٢٧٤٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ، فى ( كتاب التوبة ) باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة ج ٤ ص ٢١١٣ رقم ٣١ / ٢٧٥٩ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج ٤ ص ٢٠٧٦ رقم ٤٣ / ٢٧٠٣ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى ( أبواب الدعوات ) ج ٥ ص ٢٠٧ رقم ٣٦٠٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

قال الأعرابي : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبي ﷺ : ( المرء مع من أحب يوم القيامة ) . فما زال يحدثنا حتى ذكر بابا من المغرب مسيرة عرضه - أو يسير الراكب في عرضه - أربعين أو سبعين عاما . قال سفيان أحد الرواة : ( قبل الشام ، خلقه الله - تعالى - يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه )<sup>(١)</sup> رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدرى - رضى الله عنه - أن نبى الله ﷺ قال : ( كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

فقال ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه بينهم - أى : حكما - فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة )<sup>(٢)</sup> متفق عليه . وفى رواية فى الصحيح : ( فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها ) . وفى رواية فى الصحيح : ( فأوحى الله تعالى إلى هذه ان تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له ) وفى رواية : فتأى بصدرة نحوها .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب - رضى الله عنه - من بنيه حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك - رضى الله عنه - يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى قد تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون غير قريش حتى جمع الله - تعالى - بينهم وبين عدوهم بغير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام . وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها . وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها ( أى : أوهم انه يريد غيرها )

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى ( أبواب الدعوات ) باب ما جاء فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده جده ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ رقم ٣٦٠٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب التوبة ) باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ص ٧٥٢ رقم ١٧٦٠ مع اختلاف فى اللفظ تنفق مع الرواية الثالثة فى الصحيح .

حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ ( يريد بذلك الديوان ) قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم يئزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أعدو لكي أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئا وأقول - في نفسي - : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بي حتى استمر بالناس الجدد ، فأصبح رسول الله ﷺ غائيا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتني فعلت !! ثم لم يقدر ذلك لي ، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أنى لا أرى لى أسوة ، إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله - تعالى - من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه . فقال له معاذ بن جبل - رضى الله عنه - : بش ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول الله ﷺ فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون . قال كعب : فلما بلغنى ان رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بشى فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشى أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبإيعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى - حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعالى ، فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت : يا رسول الله انى - والله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد اعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لأرجو فيه عقبنى الله - عز وجل - والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فىك . وسار رجال من بنى سلمة فاتبعون فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت فى الا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم :

لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة ابن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي .

قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لي . ونهى رسول الله - ﷺ - عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه ، قال : فاجتنبنا الناس - أو قال : تغيروا لنا - حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبيكان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلمني أحد ، وآتى رسول الله - ﷺ - فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه ، فوالله ما رد علي السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة : أنشدك بالله : هل تعلمني أحب الله ورسوله - ﷺ - فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته . فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءني ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتباً . فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضية ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى إذا رسول رسول الله - ﷺ - يأتيني فقال : إن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ، بل اعترها فلا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . فقلت لامراتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله - ﷺ - فقالت له . . يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه - والله - ما به من حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله - ﷺ - في امرأتك ؟ فقد اذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله - ﷺ - وما يدرينى ماذا يقول رسول الله - ﷺ - إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بذلك عشر ليال فأكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا : قد ضاقت على نفسي ، وضافت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أو فى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، فأذن رسول الله - ﷺ - الناس بتوبة الله - عز وجل - علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يشيروننا .

فذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يشرني نزعته له ثوبي فكسوتها إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجا فوجا يهتئونني بالتوبة ، ويقولون لي : لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - يهرول حتى صافحني وهنأني .

والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله عز وجل ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله : إن من توبتي أن أنخلع ( أخرج ) من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخير . وقلت : يا رسول الله إن الله - تعالى - إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي إلا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله - تعالى - في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظني الله - تعالى - فيما بقى ، قال : فأنزل الله - تعالى - : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ (١) . حتى بلغ : ﴿ إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ (٢) حتى بلغ : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٣) قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله ﷺ إلا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله - تعالى - قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال الله - تعالى - : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (٤) قال كعب : كنا خلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ - حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله - تعالى - فيه بذلك . قال الله - تعالى - ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ (وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا - عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه ) (٥).

(١) من الآية : ١١٧ من سورة التوبة .

(٢) من الآية : ١١٧ ومن الآية ١١٨ من سورة التوبة .

(٣) من الآية : ١١٩ من سورة التوبة .

(٤) الايتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

(٥) انظر الزؤلؤ والمرجان ( كتاب التوبة ) باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ص ٧٥٤ - ٧٦٢ رقم ١٧٦٢ مع اختلاف يسير في بعض الالفاظ .

متفق عليه . وفي رواية ( ان النبي ﷺ خرج في غزوة تبوك يوم الخميس ، وكان يجب ان يخرج يوم الخميس ) في رواية : ( وكان لا يقدم من سفر إلا نهارا في الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه ) .

وعن أبي نجيد عمران بن الحصين الخزاعي - رضى الله عنهما - أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله : أصبت حدا فأقمه على ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال : ( أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتني ، ففعل ، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : ثم تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ ) رواه مسلم (١) .

وعن ابن عباس وانس بن مالك - رضى الله عنهم - أن رسول الله ﷺ قال : ( لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب ) متفق عليه . (٢) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( يضحك الله - سبحانه وتعالى - إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيشهد ) متفق عليه (٣) .

### من دلائل التوحيد

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَظْلُمٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب الحدود ) باب من اعترف على نفسه بالزنا جـ ٣ ص ١٣٢٤ رقم ١٦٩٦ / ٢٤ .

(٢) انظر الولؤ والمرجان ( كتاب الزكاة ) باب : لو أن لابن آدم واديين لا يتنقى ثالثا ص ٢٢١ برقمى ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٣) انظر الولؤ والمرجان ( كتاب الامارة ) باب : بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة . ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٨ .



وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

المفردات :

(الخيرة) أى : الاختيار . ( تكن ) : تخفى ( سرامدا ) دائما ، مأخوذ من السرد ، وهو المتابعة .  
( تسكنون فيه ) : تهدأون فيه وتستريحون . ( ونزعنا ) : أخرجنا ( وضل عنهم ) : تاه

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ، أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه ، واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .  
وبعد أن ذكر - سبحانه - أنه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من المن ، أردف هذا تفصيل ما يجب أن يحمد عليه منها ، ولا يقدر عليه سواه .  
وبعد أن وبخ المشركين أولا على فساد رأيهم في اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله - عاد إلى تقريرهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن اشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى ، كما يرشد إلى ذلك قوله : ( قل هاتوا برهانكم ) .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا اله الا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

يخبر الله - تعالى - أنه المنفرد بالخلق والاختيار وما سوى الله لا يخلق شيئا ، بل هو المخلوق ، ولا يختار ، لأن إرادة الله فوق كل إرادة ، فهو إذا أراد قضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له : كن فيكون ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾ (١) . ويقول - سبحانه - : ﴿ قل أغير الله

أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾ .

ويقول - سبحانه - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً ﴾ (٢) . ولما كان - سبحانه - هو المنفرد بالخلق والاختيار جاء تذييل الآية تنزيهاً من الشرك ( سبحانه الله وتعالى عما يشركون ) وليس هذا الانفراد بالخلق والاختيار عبثاً - تعالى الله عن ذلك - : انما هو مبني على العلم الشامل والحكمة البالغة . قال - تعالى - : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً . اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، ومن شر كل دابة أنت أخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . سبحانه : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٣) .  
﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٤) .  
إذا علمت ذلك - أيها المؤمن - فاطلب الخيرة من الله ، واعلم أن هناك صلاة تسمى صلاة الاستخارة ، واليك بيانها .

### صلاة الاستخارة

يسن لمن أراد أمراً من الأمور المباحة ، والتبس عليه وجه الخير فيه ، أن يصلى ركعتين من غير الفريضة ، ولو كانتا من السنن الراتبة ، أو تحية المسجد ، فى أى وقت من الليل أو النهار ، يقرأ فيها بما شاء بعد الفاتحة ، ثم يحمد الله ويصلى على نبيه ﷺ ثم يدعو بالدعاء الذى رواه البخارى من حديث جابر - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : ( إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : عاجل أمرى وآجله - فاقدره لى ، ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم

(١) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٣) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأنعام .

أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال : عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم أَرْضني به <sup>(١)</sup> قال : ويسمى حاجته ، أي : يسمى حاجته عند قوله : ( اللهم إن كان هذا الأمر ) .

ولم يصح في القراءة فيها شيء مخصوص ، كما لم يصح شيء في استحباب تكرارها . قال النووي : ينبغي أن يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له ، فلا ينبغي أن يعتمد على انشراح كان فيه هوى قبل الاستخارة ، بل ينبغي للمستخير ترك اختياره رأسا ، وإلا فلا يكون مستخيرا لله ، بل يكون غير صادق في طلب الخير وفي التبري من العلم والقدرة وإثباتها لله - تعالى - فإذا صدق في ذلك تبرأ من الحول والقوة ومن اختياره لنفسه .

### أساس كل خير

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها . وتتضرع إليه الا يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكللك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك . وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد . وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا أن التوفيق الا يكللك الله إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلو بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجوء والرغبة والرهبة إليه . فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ، ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجا دونه .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه ، وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه - سبحانه - وإعانتة ، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر همهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم . والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فالله - سبحانه - أحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين ، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به ، والخذلان في مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم .

وما أتى من أتى إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء . ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك : الصبر ، فإنه من الإيمان بمنزلة

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في ( كتاب الصلاة ) باب التطوع مثنى مثنى جـ ٢ ص ٧٠ وفي جـ ٨ ص ١٠١ في ( كتاب الدعوات ) باب الدعاء عند الاستخارة .

ورواه أحمد جـ ٣ ص ٣٤٤ وانظر الترمذي ( كتاب ابواب التطوع ) باب ما جاء في صلاة الاستخارة جـ ١ ص ٢٩٨ رقم ٤٧٨ وابو داود ( كتاب الصلاة ) باب : في الاستخارة جـ ٢ ص ١٨٧ رقم ١٥٣٨ .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) جـ ١ ص ٤٤٠ رقم ١٣٨٣

الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد .  
وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله . خلقت النار لإذابة القلوب  
القاسية . أبعد القلوب من الله القلب القاسي . إذا قسا القلب قحطت العين .  
قسوة القلب من أربعة أشياء : إذا جاوزت قدر حاجة الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة .  
كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب . فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه  
المواعظ .

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته - القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر  
تعلقها بها . القلوب آتية الله في أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها . شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو  
شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم  
وطرف الفوائد - إذا غدى القلب بالتذكر وسقى بالتفكير ونقى من الدغل رأى العجائب ، وأهم  
الحكمة .

ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها ، بل أهل المعرفة والحكمة الذين  
أحيوا قلوبهم بقتل الهوى ، وأما من قتل قلبه فأحيا الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه .  
خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الحشية والذكر . إذا زهدت القلوب في موائد  
الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة ، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد .  
الشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا ، من وطن قلبه عند ربه سكن  
واستراح ، ومن أرسله في الناس اضطرب واشتد به القلق .

لا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الحمل في سم الابرة . إذا أحب الله عبدا  
اصطنعه لنفسه واجتباها لمحبه واستخلصه لعبادته فشغل همه به ، ولسانه بذكره ، وجوارحه بخدمته .  
والقلب يمرض كما يمرض البدن ، وشفائه في التوبة والحمية ، ويصداً كما تصدأ المرأة وجلاؤه بالذكر .  
ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظماً كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة  
والمحبة والتوكل والانابة والخدمة .

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ولأيامك وأنفاسك أمدا . ومن كل ماسواه بد ولا بد لك  
منه - من طلب الاختيار والتدبير في طلب زيادة دنيا أو جاه ، أو في خوف نقصان ، أو في التخلص من  
عدو توكل على الله وثقة بتدبيره له ، وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه ، وسلم الأمر إليه ،  
ورضى بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان ، ومن أبى إلا تدبيره لنفسه وقع في النكد  
والنصب وسوء الحال والتعب ، فلا عيش يصفو ، ولا قلب يفرح ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يقوم ،  
ولا راحة تدوم .

والله - سبحانه - سهل لخلق السبيل إليه ، وحجهم عنه بالتدبير ، فمن رضى بتدبير الله له ،  
وسكن إلى اختياره ، وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب إلى ربه ، واطمأن إليه وسكن -  
المتوكل لا يسأل غير الله ، ولا يرد على الله ، ولا يدخر مع الله .

ومن شغل بنفسه شغل عن غيره . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فييطله - الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام . الناس فى الدنيا معذبون على قدر همهم بها - للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع له : ثلاثة سافلة ، وثلاثة عالية ، فالسافلة ، دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لا تزال تجول فيها .

والثلاثة العالية : علم يتبين له ، وعقل يرشده ، وإله يعبده . والقلوب جواله فى هذه المواطن . اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فإن اتباع الهوى يعمى عن الحق معرفة وقصدا . وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها - لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره ، اذا اراد الله بعبد خيرا جعله معترفا بذنبه ، ممسكا عن ذنب غيره . جوادا بما عنده ، زاهدا فيما عند غيره ، محتملا لأذى غيره ، وإن أراد به شرا عكس ذلك .  
الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

تعرف لصفة من الصفات العليا ، تزداد بمعرفتها محبة وارادة ، وملاحظة لمنه تزداد بملاحظتها شكرا وطاعة ، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية ، فإذا تعلق الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى اودية الوسواس والخطرات .

من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته ، ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا خاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمضى يصل إلى مقصده ؟!

قوله - تعالى - : ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

﴿ وهو الله لا إله إلا هو ﴾ أى : هو المنفرد بالالهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته . ﴿ وله الحكم ﴾ أى : الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

ولما كانت كلمة التوحيد أساس العقيدة آثرنا أن نبين فضلها ، فقد قال رسول الله ﷺ لما قال له أبو هريرة :

(١) من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : ( لقد ظننت يا أبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه - أو نفسه ﴿ ١ ﴾ . رواه البخارى

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ/زروق ( كتاب العلم ) باب الحرص على الحديث ... جـ ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ رقم ٣٧

(٢) وعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ( من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وإن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل - زاد جنادة - : من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء )<sup>(١)</sup> رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم .

(٣) وفي رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار )<sup>(٢)</sup> .

ومعنى حرم : أبعد عنه العقاب .

(٤) وعن أنس - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال : ( يا معاذ بن جبل ؟ ) قال : لبيك يا رسول الله وسعديك - ثلاثا - قال : ( ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار ) . قال : يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : ( إذا يتكلموا ) وأخبر بها معاذ عند موته تأثما<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

معنى ( تأثما ) أى : تخرجنا من الائم ، وخوفا منه أن يلحقه إن كتمه ( قال المملى ) عبد العظيم : وقد ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الاطلاقات التى وردت فيمن قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو حرم الله عليه النار ، ونحو ذلك إنما كان في ابتداء الاسلام ، حين كانت الدعوة إلى مجرد الاقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، وإلى هذا القول ذهب الضحاك ، والزهرى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم . وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ في ذلك ، فإن كل ما هو من أركان الدين وفرائض الاسلام هو من لوازم الاقرار بالشهادتين ، وتتماته ، فإذا أقر ثم امتنع عن شيء من الفرائض جحدا ، أو تهاونا - على تفصيل الخلاف فيه - حكمنا عليه بالكفر ، وعدم دخول الجنة ، وهذا القول أيضا قريب ، وقالت طائفة أخرى : التلطف بكلمة التوحيد سبب يقتضى دخول الجنة والنجاة من النار ، بشرط أن يأتى بالفرائض ، ويجتنب الكبائر ، فإن لم يأت بالفرائض ولم يجتنب الكبائر لم يمنعه التلطف بكلمة التوحيد من دخول النار ، وهذا قريب مما قبله ، أو هو هو ، وقد بسطنا الكلام على هذا ، والخلاف فيه في غير ما موضع من كتبنا . والله - سبحانه وتعالى - أعلم .

(٥) روى عن زيد بن ارقم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قال : لا إله إلا الله

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الايمان ) باب : من لقي الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٧ رقم ١٧ .

وانظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب الانبياء ) باب قوله تعالى : يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم . . الخ ج ٦ ص ٤٢٣ رقم ١٠٧ .

(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه في ( كتاب الايمان ) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ رقم ٤٧ / ٢٩ .

(٣) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، في ( كتاب الايمان ) باب من لقي الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٨ رقم ٢٠ .

وانظر البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب العلم ) باب : من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا . . الخ ج ١ ص ٣٠٧ رقم ٦٥ .

مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله<sup>(١)</sup> . رواه الطبراني في الأوسط ، وفي الكبير إلا أنه قال : ( أن تحجزه عما حرم الله عليه ) .  
- ومعنى ( تحجزه ) أى : تمنعه وتبعده عن ارتكاب المعاصي وغشيان الفجور .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ .

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله . قال - تعالى - ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾<sup>(٢)</sup> . وقد تحدى الله - تعالى - بهاتين الآيتين عباده الذين لم يحسنوا الظن به ، وظنوا أنهم قادرون على هذه الأرض ، وخاصة الجبابرة الذين ذكر القرآن نموذجين منهم في هذه السورة ( سورة القصص ) : الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكائنة ، طاغوت الحكم ، وطاغوت المال ، ولقد كان هذا التحدى ومازال وسيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفي هاتين الآيتين امتنان من الله - تعالى - لعباده الشاكرين ، فيقول - تعالى - عمتنا على هؤلاء العباد بما سخر من الليل والنهار للذين لا قوام لهما بدونها وبين أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولسئمت النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه . ﴿ أفلا تسمعون ﴾ ؟ ثم أخبر - تعالى - أنه لو جعل النهار سرمدا ، أى : دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أفلا تبصرون . ومن رحمته ﴾ أى : بكم ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ أى : خلق هذا وهذا ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أى : في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أى : في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال وهذا من باب اللف والنشر ، وقوله : ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى : تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال - تعالى - : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) الحديث في مجمع الزوائد في ( كتاب الايمان ) باب فيمن شهد ان لا إله إلا الله جـ ١ ص ١٨ وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الأوسط والكبير إلا أنه قال في الكبير : قال رسول الله ﷺ : ( إخلاصه : ان تحجزه عما حرم الله عليه )  
ثم قال : وفي اسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضاع اهـ : مجمع

(٢) الآية : ١٢ من سورة الاسراء

(٣) الآية : ٦٢ من سورة الفرقان .

يقول الامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

خص - سبحانه - النهار بذكر البصر ، لأنه محله . وفيه سلطان البصر وتصرفه ، وخص الليل بذكر السمع ، لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار ، لأنه وقت هدوء الأصوات ، وخبود الحركات ، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس ، فيه قوة سلطان البصر ، وضعف سلطان السمع .

فقوله : ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ راجع إلى قوله ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أى : إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتاكم به ؟  
وقوله : ﴿ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة .

قوله - تعالى - : ﴿ وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ .  
وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهًا آخر يناديهم الله - تعالى - على رءوس الأشهاد فيقول : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ أى : فى دار الدنيا ﴿ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ قال مجاهد : يعنى رسولا . ﴿ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ﴾ أى : على صحة ما ادعيتمره من أن الله شركاء ﴿ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ﴾ أى : لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جوابا ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

### قصة قارون

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٧٦)  
وَأَتَّبَعْنَا فِيمَا هَدَانَاكَ اللَّهُ الْدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ ﴾ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يَسْعَى عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ



لِمَنْ أَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

## المفردات

﴿ فبغى عليهم ﴾ : تكبر عليهم ، أو ظلمهم ، ﴿ الكنوز ﴾ : كثر المال : جمعه وادخره ، والكنز : المال المدفون ، وجمعه : كنوز ﴿ لتتوء بالعصبة ﴾ : لتثقل ، يقال : ناء به الحمل : ثقل عليه ، والعصبة الجماعة من الناس . ﴿ وابتغ ﴾ : اطلب . ﴿ على علم عندي ﴾ : أوتيته على معرفة عندي ﴿ ويلكم ﴾ : الويل : الهلاك ، أو العذاب . ﴿ فخسفنا ﴾ المراد : جعلنا عاليها سافلها . ﴿ وى كآئه ﴾ وكلمة ﴿ وى ﴾ بمعنى : أتعجب ، و ﴿ كأن ﴾ للتشبيه . ﴿ ويقدر ﴾ أى : يضيق ويقتر . ﴿ علوا ﴾ تكبرا وغلبة . وهذه هى آخر القصص التى ذكرت فى تلك السورة .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - حديث أهل الضلالة وما يلقونه من الإهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رموس الشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم ، أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلاً يضرب للناس فى ظلمه وعتوه ، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة ، فيندمون على ما فعلوا .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

وبعد أن ذكر فيما سلف بغى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيته من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ، أردف ذلك تفصيل بعض مظاهر بغيه وكبرائه ، فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى

حليته وحلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه ، قصدا للتعالي على العشيرة ، وابناء البلاد ، وفي ذلك كسر للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة . فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون في الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شذر مذر ، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته ، بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوقى قارون ، ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصي ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله الى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه ، كما بسط لقارون ، ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

وبعد أن ذكر - سبحانه - قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير - أعقب ذلك بذكر محل الجزاء ، وهو الدار الآخرة ، وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث في هذه الدار ، جزاء على الأعمال في الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما لا يحيط به الإعلام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها ، لظفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : ( إن قارون كان من قوم موسى ) قال : كان ابن عمه . وقال ابن جريج : هو قارون بن يسهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث . ولقد نافق قارون كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله . قال - تعالى - : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين . فكلما أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله - تعالى - ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أى : الأموال ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾

أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الاصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا . قوله - تعالى - : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أي : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ . قال ابن عباس : يعنى المرحين . وقال مجاهد : يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم . وقوله :

﴿ وابغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي : مما أباح الله فيها من المأكول والمشرب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولزورك عليك حقا ، فاعط كل ذي حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض وتسئ إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

هذه خمس نصائح وجهها قومه إليه ، والدين النصيحة ، والنصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

وللإسلام موقف جليل فيما يتعلق بالدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة : قال - تعالى - : ﴿ وادع إلى ربك ﴾ <sup>(١)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال - تعالى - : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري البدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من دل على خير فله مثل أجر فاعله ) رواه مسلم <sup>(٥)</sup> .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : ( من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا ) <sup>(٦)</sup> .

(١) من الآية : ٦٧ من سورة الحج .

(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .

(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) من الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٥) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب الامارة ) باب فضل اعانة الغازي في سبيل الله .. ج ٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٣٣ /

. ١٨٩٣

(٦) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب العلم ) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة جـء ص

٢٠٦٠ رقم ١٦ / ٢٦٧٤

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي - رضى الله عنه - ان رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : ( لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ) فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله - ﷺ - كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : ( وأين على بن أبي طالب ) فقليل : يا رسول الله هو يشتكى عينيه . قال : ( فأرسلوا إليه .. فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرئ ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . قال على - رضى الله عنه - : يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : ( انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله - تعالى - فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ) <sup>(١)</sup> . متفق عليه . قوله : ﴿ يدوكون ﴾ أى : يخوضون ويتحدثون . قوله : ﴿ رسلك ﴾ بكسر الراء ويفتحها لغتان ، والكسر أفصح .

- ﴿ حمر النعم ﴾ النعم : الابل ، والحمر منها أنفس أموال العرب ..  
وعن أنس - رضى الله عنه - أن فتى من أسلم قال : يا رسول الله : انى أريد الغزو ، وليس معى ما أتجهز به ؟ قال : ( ائت فلانا قد كان تجهز فمرض ) فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ، ويقول : أعطنى الذى تجهزت به ، فقال : ( يا فلانة أعطيه الذى تجهزت به ولا تحبسى منه شيئا ، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك لنا فيه ) <sup>(٢)</sup> رواه مسلم .  
إن فى النصيحة والدلالة إلى الخير تعاوننا على البر والتقوى ، وقد أمر الله - تعالى - بذلك فقال : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال - تعالى - : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
قال الامام الشافعى - رحمه الله - كلاما معناه : إن الناس - أو أكثرهم - فى غفلة - عن تدبر هذه السورة .

وعن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهنى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا ) <sup>(٥)</sup> . متفق عليه .  
- معنى ( خلف ) - بفتح الخاء المعجمة وتخفيف اللام - أى : قام بما يحتاجون إليه .  
وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بعث بعثا إلى بنى لحيان من هذيل فقال : ( لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما ) رواه مسلم . <sup>(٦)</sup> .

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب فضائل الصحابة ) باب : من فضائل على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الامارة ) باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله .. الخ ج٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٨٩٤ / ١٣٤

(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) سورة العصر .

(٥) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الامارة ) باب فضل إعانة الغازى .. الخ ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٩ .

(٦) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الامارة ) باب فضل إعانة الغازى .. الخ ج٣ ص ١٥٠٧ رقم ١٨٩٦ / ١٣٧ .

وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - ان رسول الله ﷺ لقي ركبا بالروحاء فقال : ( من القوم ؟ ) قالوا : المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : ( رسول الله ) فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت : لهذا حج ؟ قال : ( نعم ولك أجر ) رواه مسلم .  
( الروحاء ) : مكان بقرب المدينة المنورة .

وعن أبي موسى الأشعرى - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : ( الخازن المسلم الأمين الذى ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذى أمر له به : أحد المتصدقين ) متفق عليه<sup>(١)</sup> وفى رواية ( الذى يعطى ما أمر به ) وضبطوا ( المتصدقين ) بفتح القاف مع كسر النون على التثنية ، وعكسه على الجمع ، وكلاهما صحيح .

بم أجاب قارون قومه ؟ ( قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ) .  
كان هذا جواب قارون الذى أجاب به قومه بعد أن نصحوه ، فهو يقول لهم : لست بحاجة إلى نصائحكم أو توجيهاتكم أو ارشاداتكم ، لأننى أوتيت هذا المال على علم عندى ، وهو كقوله - تعالى - : ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمتنا منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله جل شأنه : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ﴾<sup>(٣)</sup> . أى هذا استحققه . ولهذا قال - تعالى - رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ لكثرتها . وظهورها عيانا بيانا . قال الامام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ الآية . وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه : لولا أن يستحق ذلك لما أعطى .

إن الصراع بين النفس والمال عنيف إذا كان صاحب هذه النفس لا يعرف الله ولا يتقيه .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغىها

وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

لقد ظن ذلك الطاغية أن ما أعطاه الله من المال دليل على رضاه عنه . كلا : ﴿ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾<sup>(٤)</sup> . كلا ، فليس المال دليلا على الرضا وليس الفقر دليلا على السخط .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الزكاة ) باب اجر الخازن الأمين والمرأة اذا تصدقت من بيت زوجها .. الخ ص ٢١٣ رقم ٦٠٢ .

(٢) الآية : ٤٩ من سورة الزمر .

(٣) من الآية : ٥٠ من سورة فصلت .

(٤) الأيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر .

هي القناعة فاحفظها تكن ملكا      لو لم تكن لك إلا راحة البدن  
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها      هل راح منها بغير القطن والكفن

صدق رسول الله - ﷺ - إذ يقول : ( نعم المال الصالح للعبد الصالح )<sup>(١)</sup> .

ما في الحياة بقاء      ما في الحياة ثبوت  
نبى البيوت وحتما      تنهار تلك البيوت  
تموت كل البرايا      سبحان من لا يموت .

قوله - تعالى - : ﴿ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ .

نعم يا ربنا لقد جلت حكمتك ، وعظمت آيتك ، أنت القائل : ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ فأنت حين تريد عقابهم لا تسألم عن مقدار ذنوبهم ، ولا عن كثرتها ، لأنك عليم ، ولا تعاتبهم عليها ، كما قلت : ﴿ وما هم من المعتبين ﴾<sup>(٢)</sup> . وقلت : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾<sup>(٣)</sup> . ونحو الآية قولك : ﴿ فيؤمذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾<sup>(٤)</sup> .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقرير وإهانة ، كما جاء في قولك : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين \* عما كانوا يعملون ﴾<sup>(٥)</sup> .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخر من مشاهد القصة . إن قارون يخرج في زينته على قومه مختالا فخورا ، والدنيا إذا أقبلت على انسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . فكل سيئة للغنى في نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير في نظر الناس سيئة ، فالغنى إذا كان أبكم قال الناس : إنه رزق ، وإذا كان جباناً قال الناس : إنه حكيم ، وإذا كان ممسكا قال الناس : إنه محافظ على النعمة . والفقير إذا كان كريما قال الناس : انه متلاف ، وإذا كان شجاعا قال الناس : إنه متهور ، وإذا كان فصيحاً قال الناس : إنه ثرثار .

يمشى الفقير وكل شيء ضده      والناس تغلق دونه أبوابها  
وتراه ممقوتا وليس بمذنب      ويرى العداوة لا يرى أسبابها  
حتى الكلاب اذا رأت رجل الغنى      حنت اليه وحركت أذناها

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده (حديث عمرو بن العاص) جـ ٤ ص ١٩٧ ولفظه : ( نعم المال الصالح للفرء الصالح )

وانظر كشف الخفاء جـ ٢ ص ٤٤٢ رقم ٢٨٢٣ .

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة فصلت .

(٣) من الآية : ٨٤ من سورة النحل .

(٤) من الآية : ٣٩ من سورة الرحمن .

(٥) الايتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة الحجر .

واذا رأت يوما فقيرا ماشيا نبحت عليه وكشرت انيابها يقول - تعالى - مخبرا عن قارون : إنه خرج ذات يوم في زينة عظيمة ، وتجميل باهر : من مراكب ، وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى . ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم : ﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون ، كما فى الحديث الصحيح : (يقول الله - تعالى - : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر<sup>(١)</sup> . وقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم \* دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾<sup>(٦)</sup> . قوله - تعالى - : ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أى : ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار ، واتفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه ولمجتمعه ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، يبذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

### عاقبة قارون

قال - تعالى - : ﴿ فخشفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ص ٧٩٤ رقم ١٧٩٨ من رواية أبى هريرة - رضى الله عنه .

(٢) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

(٣) الآيات : ٧ - ١٠ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ١٨ ، ١٩ من سورة الاسراء .

(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة هود .

(٦) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

المتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴿١﴾ .

المراء في زمن الاقبال كالشجرة والناس من حولها مادامت الثمرة  
حتى إذا راح عنها حملها انصرفوا وخلفوها تقاسى الحر والغبرة

إن الاسلام العظيم أقام ميزان العدالة صادقاً في تقدير الناس . قال - تعالى - : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) . ولكن لما انتكست موازين الناس واختلت المعايير ، واهترت القيم أصيب كل شيء بالانتكاسة :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال  
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا

\*\*\*

رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب  
ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا

\*\*\*

رأيت الناس منفضة إلى من عنده فضة  
ومن لا عنده فضة فعنه الناس منفضة

إن من سوء التقدير ، ومن الظلم المبين أن تكون الموازين مبنية على المال ، والفقر والغنى ، والجاه والقوة والضعف ، فترى الناس لا يحترمون إنساناً إلا لماله :

إذا قل مالى فما خل يصاحبني وفي الزيادة كل الناس خلاني  
كم من عدو لأجل المال صادقني وكم صديق لفقد المال عاداني  
إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا : أصبت وصدقوا ما قالوا  
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضللاً  
إن الدراهم في المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلالاً  
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالاً

يقول الامام ابن كثير - رضى الله عنه - : لما ذكر - تعالى - اختيال قارون في زينته ، وفخره على قومه ، وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبيداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : ( بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة ) (٢) . ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ نحوه (٣) وقال الامام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاضي ،

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه في (كتاب بدء الخلق) باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ج ٤ ص ٢١٥

(٣) انظر حديث أبي هريرة في اللؤلؤ والمرجان ، في (كتاب اللباس والزينة) باب تحريم التبخر في المشي مع اعجابه بشيابه ص ٥٤٤ رقم ١٣٥١ ونصه : ( بينما رجل يمشى في حلة تعجبه نفسه ، مرجل جته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة ) .



حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ ( بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة )<sup>(١)</sup> تفرد به أحمد واسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا خيثمة ، حدثنا يعلى بن منصور ، أخبرني محمد بن مسلم : سمعت زياد النميري يحدث عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( بينما رجل ممن كان قبلكم خرج في بردين فاختلف فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> . وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر في كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابا في مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وقامه وجماله : فقال : مالك تنظر الى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته في كفه وذهب به . وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبي الله - عليه السلام - واختلف في سببه ، فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبته موسى بحضرة الملائكة من بنى اسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله - تعالى - فتقول : يا موسى إنك فعلت بى كذا كذا ، فلما قالت ذلك فى الملائكة لموسى - عليه السلام - أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما قلت بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خر موسى لله - عز وجل - ساجدا ، وسأل الله فى قارون ، فأوحى الله إليه : أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبطلعه وداره فكان ذلك .

وقيل : أن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب ، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ، فمر فى محفله ذلك على مجلس نبي الله موسى - عليه السلام - وهو يذكرهم بأيام الله ، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه ، فدعاه موسى - عليه السلام - وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى - عليه السلام - تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال : بل أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى : أدعو ؟ قال : نعم ، فقال موسى : اللهم مر الأرض أن تطيعنى اليوم ، فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى اقدامهم ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم ، ثم قال : أقبل بكنوزهم وأموالهم ، قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليهم ، ثم أشار موسى بيده ، ثم قال : واذهبوا بنى لاوى ، فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ ص ٤٠

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٨٢٢ فقد ورد هناك حديثان من رواية ابن عمر وأبى سعيد الخدرى بنفس المعنى .

وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَنْصِرِينَ ﴾ أى : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نعمة الله وعذابه ونكاله . ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ ﴾ أى : الذين لما رأوه فى زينتته ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون : ( ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ) أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : ( إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الايمان إلا من يحب ) .

﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به ، لأننا وددنا أن نكون مثله . ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا : ﴿ ويكأن ﴾ فقال بعضهم : معناه ويلك لعلم أن . ولكن خفف فقيل : ويك ، ودل فتح ﴿ أن ﴾ على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوى ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى . والله أعلم . وقيل : معناها ﴿ ويكأن ﴾ أى : ألم تر أن . قاله قتادة . وقيل : معناها ﴿ وى كأن ﴾ ففصلها وجعل حرف وى للتعجب أو للتنبيه ، وكأن بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى ﴿ ألم تر أن ﴾ واستشهد بقول الشاعر :

سألتانى الطلاق إذ رأتنى      قل مالى وقد جئتمانى بنكر  
ويكأن من يكن له نشب يح      بب ومن يفتقر يعيش عيش ضر

قوله - تعالى - : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسئنة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تسمى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة

إن العاقبة للمتقين : تلك حقيقة ثابتة قررها العليم الخبير . قال لحبيبه ومصطفاه : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (١) .

وها هو ذا القرآن الكريم يزيدها توكيدا فيقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ والدار الآخرة ونعيمها الباقي الذي لا يفنى ولا يزول أبدا ، أعد الله هذا النعيم المقيم للمتواضعين الطائعين .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر      على صفحات الماء وهو رفيع  
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه      إلى طبقات الجو وهو وضع

وفي تفسير ﴿ العلو ﴾ أقوال لأئمة التفسير : قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى . وقال سفيان بن سعيد الثوري عن منصور عن مسلم البطين : العلو في الأرض التكبر بغير حق ، والفساد : أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج : ﴿ لا يريدون علوا في الأرض ﴾ تعظما وتجبرا ﴿ ولا فسادا ﴾ عملا بالمعاصي . وقال ابن جرير : حدثنا وكيع ، حدثنا أبي ، عن أشعث السمان ، عن أبي سلام الأعرج ، عن علي قال : ان الرجل ليعجب من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل في قوله - تعالى - : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ وهذا محمول على ما اذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ( أنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد )<sup>(١)</sup> . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجل فلهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يا رسول الله اني أحب أن يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : ( لا ، إن الله جميل يحب الجمال )<sup>(٢)</sup> .

وقال - تعالى - : ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ فله خير منها ﴾ أي : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة ؟! وهذا مقام الفضل ، ثم قال : ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا مقام الفضل والعدل .

### بشارة وتوجيهات

قوله - تعالى - : **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه في ( كتاب الأدب ) باب في التواضع ج ٥ ص ٢٠٣ رقم ٤٨٩٥ من حديث عياض بن حمار بلفظ : ( إن الله أوحى إلى ... الخ ) .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب : البغى ج ٢ ص ١٤٠٩ رقم ٤٢١٤ من حديث انس بن مالك قال في الزوائد : هذا اسناد حسن لاختلاف في اسم سنان بن سعد ، أو سعد بن سنان .

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب الايمان ) باب تحريم الكبر وبيان ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ من رواية عبد الله ابن مسعود ، وهو جزء حديث . وانظر المعجم الكبير للطبراني ج ٨ ص ٢٤٠ / ٧٨٢٢ من حديث ابن امامة الباهلي .

(٣) الآية : ٩٠ من سورة النمل .

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات :

(فرض) أنزله عليك . (معاد) قيل : هو المقام المحمود الذي وعد ان يبعث فيه ، وقيل : هو مكة ، إذ معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف منها ثم يعود إليها . (ظهيرا) : معينا وناصرا . يقول الفخر الرازي في تفسيره : ثم إنه - سبحانه وتعالى - لما شرح لرسوله أمر يوم القيامة واستقصى في ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال : (إن الذي فرض عليك القرآن ...) (هالك) أى : معدوم . (الحكم) أى : القضاء النافذ .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بغي قارون . واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه ، أردف هذا قصص محمد - ﷺ - وأصحابه مع قومه ، وإيذاءهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها منصورا ظافرا .

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ فرضه عليك ، أى : أنزله وأوجب عليك تبليغه وهو الله - تعالى ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup> ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(٢)</sup>

قوله - تعالى - : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ لأئمة التفسير فيها أقوال : قال بعضهم : ﴿لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال - تعالى - : ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وقال - تعالى - : ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿وَجِئْنَا بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾<sup>(٥)</sup> وقال السدى عن أبي صالح عن ابن عباس : (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول : لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد

(١) الآية : ٢ من سورة السجدة .

(٢) الآية : ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٧ من سورة الأعراف . (٤) من الآية : ١٠٩ من سورة المائدة .

(٥) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .

مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : ( لرادك إلى معاد ) قال : إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهري ، وقال الثوري عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : ( لرادك إلى معاد ) إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وفي بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبي قزعة وأبي مالك وإبي صالح . وقال الحسن البصري : أى - والله - إن له لمعادا فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى في التفسير من صحيحه : حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العصفورى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ( لرادك إلى معاد ) قال : إلى مكة . وهكذا رواه النسائي في تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطنافسى - به ، وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس ( لرادك إلى معاد ) أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال محمد بن إسحق عن مجاهد في قوله : ( لرادك إلى معاد ) إلى مولدك بمكة .

قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة : عن الضحاك قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ إلى مكة .

قوله - تعالى - : ﴿ قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾ أى : قل لمن خالفك وكذبك - يا محمد - من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ، قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . ثم قال - تعالى - مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذا أرسله إليهم : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أى : ما كنت تظن أن ينزل الله عليك النبوة والكتاب ، لأن ذلك كان فى مكنون علم الله - تعالى - ولكن الله أنزله إليك وأرسلك به إلى الناس بشيرا ونذيرا ، ورحمة من لدنه بعباده ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ <sup>(١)</sup> إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى بيدد الله به غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور <sup>(٢)</sup> .

إذا كان ذلك كذلك ﴿ فلا تكونن ظهيرا للكافرين ﴾ فالله ناصرهم عليهم ، ومؤيدك ، وجاعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ أى : لا يمنعك أحد منهم عن تبليغ آيات الله مهما اشتدت مخالفتهم ، وزاد عنادهم ، فإن الله معك ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا وادع إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن ، واثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، ولا تكونن من المشركين ، واثبت على توحيد

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٢) الأيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

الالهية والربوبية ، ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغى الالهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت .

كما قال - تعالى - : ﴿ كل من عليها فان \* ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ <sup>(١)</sup> . فغير بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله ههنا : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا إياه ، وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( أصدق كلمة قالها الشاعر ليبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل ) <sup>(٢)</sup> . وقال مجاهد والثورى فى قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا يتنافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله - تعالى - من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته - تعالى - وتقدس - فإنه الأول والآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدينا فى كتابه ( التفكير والاعتبار ) : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين ، فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . وقوله : ﴿ له الحكم ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم فيجزىكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

### سورة العنكبوت

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، عدد آياتها تسع وستون بالانفاق ، وكلماتها تسعمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعون . سميت سورة العنكبوت لتكرر ذكرها فيها ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

### معظم مقصود السورة

توبيخ أهل الدعوى ، وترغيب أهل التقوى ، والوصية ببر الوالدين للأبرار ، والشكاية من

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الشعر ) ص ٥٨٦ رقم ١٤٥٤ ونص الحديث : ( أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة ليبيد ) ( ألا كل شيء ما خلا الله باطل ) وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم

المنافقين في جرأتهم على حمل الأوزار ، والاشارة إلى بلوى نوح والخليل ، لتسلية الحبيب ، وهجرة إبراهيم من بين قومه إلى مكان غريب . ووعظ لوط قومه باختيار الخبث ، وعدم اتعاضهم ، وإهلاك الله إياهم ، والاشارة إلى حديث شعيب ، وتعيير عباد الاصنام ، وتوبيخهم ، وتمثيل الصنم بيوت العنكبوت ، وإقامة حجج التوحيد ، ونهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، وأدب الجدال مع المنكرين ، والمبتدعين ، وبيان الحكمة في كون رسولنا - ﷺ - أميا ، والخبر عن استعجال الكفار العذاب ، وأن كل نفس بالضرورة ميتة ، ووعد المؤمنين بالثواب ، وضمان الحق رزق كل دابة وبيان أن الدنيا دار فناء وممات ، وأن العقبي دار بقاء وحياة ، وبيان حرمة الحرم وأمنه ، والإخبار بأن الجهاد ثمنه الهداية ، وأن عناية الله مع أهل الإحسان ، في قوله : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ إلى آخر السورة .

### المتشابهات

قوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ ، وفي لقمان ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾<sup>(١)</sup> وفي الأحقاف : ﴿ بوالديه إحسانا ﴾<sup>(٢)</sup> الجمهور على أن الآيات الثلاث نزلت في سعد بن مالك ( وهو سعد ابن أبي وقاص ) وأنها في سورة لقمان اعتراض بين كلام لقمان لابنه ، ولم يذكر في لقمان ﴿ حسنا ﴾ لأن قوله بعده : ﴿ أن أشكر لى ولوالديك ﴾<sup>(٣)</sup> قام مقامه ، ولم يذكر في هذه السورة ﴿ حملة ﴾ ولا ﴿ وضعه ﴾ موافقة لما قبله من الاختصار ، وهو قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾ ، فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام ، وأحسن نظام ، ، ثم قال بعده : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أى : ألزمناه ﴿ حسنا ﴾ في حقها ، وقياما بأمرهما ، وإعراضا عنها ، وخلافا لقولهما إن أمراه بالشرك بالله . وذكر في لقمان والأحقاف حاله في حملة ووضعه .

قوله : ﴿ وإن جاهدك لتشرك بى ﴾ وفي لقمان : ﴿ على أن تشرك ﴾ ، لأن ما في هذه السورة وافق ما قبله لفظا ، وهو قوله : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ وفي لقمان محمول على المعنى ، لأن التقدير : وإن حلاك على أن تشرك .

قوله : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ بتقديم العذاب على الرحمة في هذه السورة فحسب ، لأن إبراهيم خاطب به غمرد وأصحابه ، فإن العذاب وقع بهم في الدنيا .  
قوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ ، وفي الشورى ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾<sup>(٤)</sup> ، لأن ( ما ) في هذه السورة خطاب لنمرود حين صعد الجوموها أنه يحاول السماء ، فقال له ولقومه ؟

(١) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .

(٤) من الآية : ٣١ من سورة الشورى .

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ﴾ أى : من في الأرض : من الجن والإنس ، ولا من في السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟ ! وقيل : من في السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟ ! وقيل : وما أنتم بفائتين عليه ، ولو هربتم في الأرض ، أو صعدتم في السماء ، فقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ لو كنتم فيها . وما في الشورى خطاب للمؤمنين ، وقوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾<sup>(١)</sup> يدل عليه . وقد جاء ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ في قوله : ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ من غير ذكر الأرض ولا السماء .

قوله ﴿ فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وقال بعده : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ . فجمع الأولى ووجد الثانية ، لأن الأولى إشارة إلى إثبات النبوة ، وفي النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم - كثرة ، والثاني إشارة إلى التوحيد وهو - سبحانه - واحد لا شريك له .

قوله : ﴿ إنكم ﴾ جمع بين استفهامين في هذه السورة وقد سبق في الأعراف . قوله : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا ﴾ . وفي هود : ﴿ ولما جاءت ﴾ بغير ﴿ أن ﴾ ، لأن ﴿ لما ﴾ يقتضى جوابا وإذا اتصل به ( أن ) دل على أن الجواب وقع في الحال من غير تراخ ، كما في هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ سئء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ ومثله في يوسف : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ وفي هود اتصل به كلام بعد كلام ، إلى قوله : ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فلما طال لم يحسن دخول ﴿ أن ﴾ .

قوله : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ﴾ هو عطف على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث ﴾ .

قوله : ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيدا ﴾ أخره في هذه السورة لما وصف . وقد سبق . قوله : ﴿ الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ وفي القصص ﴿ ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ وفي الرعد والشورى : ﴿ لمن يشاء ويقدر ﴾ لأن ما في هذه السورة اتصل بقوله : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها . . ﴾ الآية ، وفيها عموم فصار تقديره : ييسط الرزق لمن يشاء من عباده أحيانا ، ويقدر له أحيانا ، لأن الضمير يعود إلى ﴿ من ﴾ وقيل : يقدر له البسط ، من التقدير . وفي القصص تقديره : ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء . وكل واحد منهما غير الآخر ، بخلاف الأولى . وفي السورتين يحتمل الوجهين فأطلق .

قوله : ﴿ من بعد موتها ﴾ وفي البقرة والجاثية : ﴿ بعد موتها ﴾ لأن ما في هذه السورة وافق ما قبله وهو ﴿ من قبله ﴾ فإنهما يتوافقان ، وفيه شيء آخر ، وهو أن ما في هذه السورة سؤال وتقرير ، والتقرير يحتاج إلى التحقيق فوق غيره ، ففقد الظرف بمن ، فجمع بين طرفيه ، كما سبق . قوله : ﴿ هو ولعب ﴾ سبق قوله : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سبق قوله .



قوله : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ بغير واو لاتصاله بالأول أشد اتصال ، وتقديره : ذلك نعم أجر العاملين .

### مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) إنه ذكر في السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته وجعل أهلها شيعة ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الايمان ، دون ما عذب به فرعون بنى اسرائيل ، تسليية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، كما قال : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ .
  - (٢) ذكر في السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده الى مصر رسولا نبيا . ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا ، وذكر هنا نجاة نوح - عليه السلام - وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه .
  - (٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم في ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .
  - (٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالها .
  - (٥) ذكر هناك في الخاتمة الاشارة إلى هجرة النبي ﷺ في قوله :
- ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ وفي خاتمه هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله :
- ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي

الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحُمِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾

## المفردات:

( الفتنه ) : الامتحان والاختبار . ﴿ ليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ أى : ليظهرن صدقهم ( السبق ) : الفوت ، والمراد به : الفوت عن المجازاة . ( السيئات ) هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها . ( ساء ما يحكمون ) أى : قبح حكمهم أنهم يهربون منا . ( يرجو ) أى : يطمع . ( لقاء الله ) أى : نيل ثوابه وجزائه . ( أجل الله ) : الوقت المضروب للقاءه . ( جاهد ) أى : بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس . ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أى : أمرناه ، فكلمة ( وصى ) فى اللغة كأمر فى معناها وتصرفها . ( حسنا ) أى : نأن يفعل معهم حسنا ، أى : فعلا ذا حسن ، أو هو نفس الحسن مبالغة . ( فتنة للناس ) أى : أذاهم ، واستعمال القوة والعنف فى الرد عن الاسلام . ( أثقالهم ) : أوزارهم . والمراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها : ثقل وهو الحمل الذى يثود حامله ، والمراد به الذنب والاثم .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن قال - سبحانه - فى اواخر السورة السالفة : ﴿ وادع إلى ربك ﴾ وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن فى الحرب ، لأن النبى ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين - اردف ذلك تنبيههم إلى أن المؤمنين لا يتبين ايمانهم الحق إلا إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا من كانوا بمكة آمنوا ، فكتب اليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة : لا يقبل منكم اسلام حتى تهاجروا وتخرجوا إلى المدينة ، فتابعهم

المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآيات ، فكتبوا إليهم : أنزلت فيكم آية كذا وكذا . فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فممنهم من قتل ، وممنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (١) . وبين - سبحانه - أن العبد لا يترك في الدنيا سدى . وإن من ترك ما كلف به عذب وأردف ذلك بيان أن من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر أن طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله - تعالى - فهو غنى عن الناس جميعا ، ثم أرشد إلى أن جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ، ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة . وأعقب ذلك - سبحانه - بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ؟ لأنها سبب وجوده ، فلهما عليه الاحسان والطاعة ، فالاحسان إلى الوالد بالانفاق ، وإلى الوالدة بالاشفاق ، إلا إذا حرصاه على الشرك ، وأمراه بالمتابعة على دينها إذا كانا مشركين ، فإنه لا يطيعهما في ذلك ، ثم بين أن من يعمل الصالحات يدخله الله في زمرة الانبياء والأولياء ويؤتيه الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ما أوتي هؤلاء . وبين - سبحانه - أن الناس ثلاثة أقسام في الدين : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر يجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ويبطن الكفر في فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : ﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وبين أحوالها بقوله : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات ﴾ إلى قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ثم أردف ذلك القسم الثالث بقوله : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله .. ﴾ الخ .

روى أن الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أودى وضرب فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

### التفسير

قوله - تعالى - :

المر : بعض حروف الهجاء التي تشير إلى إعجاز هذا الكتاب ، قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ (١) . كما أن هذه الحروف تشير إلى التنبيه إلى ما سيأتي بعد من أخبار وأحكام حتى يستيقظ العقل ويتنبه للتلقى ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ .

الاستفهام هنا للإعجاز الذي يفيد النفي ، أى : أن المؤمن لن يترك دون ما اختبار ، فليوطن المؤمنون أنفسهم على هذا ، قال - تعالى - : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ (٢) .

وقال - عز من قائل - : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين

(١) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .

(٢) الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿١﴾ .

وقال - تبارك اسمه - : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾ (٢) .

وقال رسول الله - ﷺ - في الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء ﴾ (٣) .

ولذا قال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أى : ولقد اخترنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصحبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى اسرائيل بفرعون وقومه ، واصحابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بن كذبه وتولى عنه - لاجرم ليصيبين أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خباب بن الارت قال : « شكونا إلى رسول الله ﷺ وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : ( قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها - ثم يؤق بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ) » (٤) .

وعن أبي سعيد الخدرى قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدي عليه ، فوجدت حره بين يدي فوق اللحاف فقلت : يا رسول الله ما أشدها عليك ! قال : ( إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر ) قلت : يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : ( الأنبياء ) قلت : ثم من ؟ قال : ( ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجويها ( يمزقها ) وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء ) » (٥) .

(١) الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٦ من سورة التوبة .

(٣) الحديث فى الصغير رقم ١٠٥٤ من رواية أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجه : عن سعد بن أبى وقاص . وانظر جامع الترمذى ( كتاب الزهد ) باب : ما جاء فى الصبر على البلاء ج٤ ص ٦٠١ ، ٦٠٢ رقم ٢٣٩٨ فقد ورد الحديث من رواية سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وفى الباب عن أبى هريرة وأخت حذيفة ابن اليمان ..

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الفتن ) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ فقد ذكره عن سعد بن أبى وقاص أيضا .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى ( كتاب الاكراه ) باب : من اختار الضرب والقتل والهوان ج٩ ص ٢٥ ، ٢٦ . وانظر سنن أبى داود ( كتاب الجهاد ) باب فى الاسير يكره على الكفر ج٣ ص ١٠٨ رقم ٢٦٤٩ .

(٥) الحديث أخرجه ابن ماجه فى ( كتاب الفتن ) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ رقم ٤٠٢٤ قال فى الزوائد : إسناده صحيح . رجاله ثقات .

﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعوى الايمان عن هو كاذب فى قوله ودعواه والله - سبحانه وتعالى - يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : ﴿ إلا لنعلم ﴾ : إلا لنرى : وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

قوله - تعالى - : ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون ﴾ أم هنا بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسب الذين يقتربون السيئات والمعاصى أن يهربوا من عقابنا ، وأن يفلتوا من عذابنا مهما أوتوا من قوة وسلطان ؟ لقد قبح حكمهم هذا وساء سبيلا ، قال - تعالى - : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إهم لا يعجزون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ وكل شيء أحصيناه كتابا ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال - سبحانه - : ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال - تبارك اسمه - : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذهم أليم شديد ﴾ <sup>(٦)</sup> فسبحان من يمهل ولا يهمل ، ولا يعجل كعجل أحدنا ، إنه ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا      فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
تنام عينك والمظلوم منتبه      يدعوك عليك وعين الله لم تنم

قوله - تعالى - : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ هذا وعد من الله - تعالى - والله لا يخلف الميعاد ، إذا وعد أنجز ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وإذا دعا هدى إلى الصراط المستقيم . فمن كان يرجو ثواب الله فى الدار الآخرة فليعمل عملا صالحا ، ثم ليثق فى أن أجل الله الذى أجله ، والموعود الذى حدده آت لا محالة ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ، قال - سبحانه وتعالى - يعلمنا الدعاء : ﴿ ربنا آتتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ <sup>(٧)</sup> وقال - تبارك اسمه - : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾ <sup>(٨)</sup> وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ <sup>(٩)</sup> فالجنة حق لا مرأى فى ذلك ، كما ان النار حق ، والذى أخبر بهذا هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم .

قوله - تعالى - : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾ .

(٥) الآية : ٤٢ من سورة إبراهيم .  
(٦) الآية : ١٠٢ من سورة هود .  
(٧) الآية : ١٩٤ من سورة آل عمران .  
(٨) الآية : ٩ من سورة العنكبوت .  
(٩) الآية : ٤٢ من سورة الأعراف .

(١) الآية : ٥٩ من سورة الأنفال .  
(٢) الآية : ٢٢ من سورة العنكبوت .  
(٣) الآية : ٢٩ من سورة النبأ .  
(٤) الآية : ١٢ من سورة الجن .

الجهاد والمجاهدة : بذل الطاقة واستفراغ الوسع ، وهو يتنظم جهاد الدعوة وجهاد السيف وجهاد النفس وغير ذلك ، فمن فعل فإنما خيره عائد لنفسه ، كقوله - جل شأنه - : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ <sup>(١)</sup> وليعلم الجميع أن الله - تعالى - غنى عن العالمين أجمعين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل هو الغنى الذى يحتاج إليه كل خلقه ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ومن جهاد النفس : الصبر وحقيقته : هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها ، وسئل الجنيد بن محمد فقال : ( تجرع المرارة من غير تعيس ) وقال ذو النون : ( هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة ) وقيل : ( الصبر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب ) وقال أبو عثمان : ( الصبار : هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره ) ( وقيل الصبر : المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية ) ومعنى هذا أن الله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه ، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر ، وصحبة البلاء بالصبر ، وقال الخواص : ( الصبر على أحكام الكتاب والسنة ) .

وقال على بن أبى طالب : ( الصبر مطية لا تكبو ) وقيل : الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب ، والصبر والجزع ضدان ، والجزع قرين العجز وشقيقه ، والصبر قرين الكيس ومادته ، والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب .

والنفس فيها قوتان : قوة الإقدام وقوة الإحجام ، فحقيقة الصبر : أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره . ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره ، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعى هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه . ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين .

وقيل : ( الصبر : ثبات باعث العقل والدين فى مقابلة باعث الهوى والشهوة ) ومعنى هذا أن المطيع يتقاضى ما يحب ، وباعث العقل والدين يمنع منه ، والحرب قائمة بينهما وهى سجال ، ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات .

فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم كانت مراتبه

(١) من الآية : ٤٦ من سورة فصلت .

(٢) الآية : ١٥ من سورة فاطر .

(٣) الآيات : ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

وأسماءه بحسب متعلقه ، فإنه إن كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمي عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر ، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمي شرف نفس ، وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس ، وإن كان عن اظهار ما لا يحسن اظهاره من الكلام سمي كتمان سر ، وضده إذاعة وافشاء ، أو تهمة أو فحشا أو سبا أو كذبا أو قذفا ، وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا ، وضده سمي حرصا وإن كان على قدر يكفى من الدنيا سمي قناعة ، وضدها الحرص أيضا ، وإن كان عن إجابة داعي الغضب سمي حلما ، وضده تسرعا ، وإن كان من إجابة العجلة سمي وقارا وثباتا ، وضده طيشا وخفة ، وإن كان عن إجابة داعي الفرار والهرب سمي شجاعة ، وضده جبنا وخورا ، وإن كان عن إجابة داعي الانتقام سمي عفوا وصفحاً ، وضده انتقاما وعقوبة ، ، وإن كان عن إجابة داعي الامساك والبخل سمي جودا ، وضده بخلا ، وإن كان عن إجابة داعي الطعام والشراب في وقت مخصوص سمي صوما ، وإن كان عن إجابة داعي العجز والكسل سمي كيسا وإن كان عن إجابة داعي إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلهم سمي مروءة ، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه والاسم الجامع لذلك كله ( الصبر ) وهذا يدل على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها . وهكذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين ، وضده الظلم ، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار ، وعلى هذا جميع منازل الدين .

### في ذكر أقسام الصبر باعتبار متعلقه

ويقول ابن القيم :

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .  
وهذه الأنواع الثلاثة هي التي قال فيها الشيخ عبدالقادر في فتوح الغيب « لابد للعبد من أمر يفعل ، ونهى يجتنبه ، وقدر يصبر عليه به ، وهذا الكلام يتعلق بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى . وطرف من جهة العبد .

فأما الذى من جهة الرب فهو أن الله تعالى : له على عبده حكمان : حكم شرعى ديني ، وحكم كوني قدرى . فالشرعى متعلق بأمره . والكوني متعلق بخلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وحكمه الدينى الطلبى نوعان : بحسب المطلوب . فإن المطلوب إن كان محبوا له فالمطلوب فعله إما واجبا وإما مستحبا . ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وإن كان مبغوضا له ، فالمطلوب تركه ، إما تحريما وإما كراهة ، وذلك أيضا موقوف على الصبر ، فهذا حكمه الدينى الشرعى . وأما حكمه الكونى فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التي لا صنع له فيها ، فقرصته الصبر عليها ، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء : وهما وجهان في مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب ، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحذور ، والصبر على المقدور .

وأما الذى من جهة العبد فإنه لا يتفك عن هذه الثلاث مادام مكلفا ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث

حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر . لا تستوى إلا عليه ، كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها .

فالصبر متعلق بالمأمور والمحذور والمقدور بالخلق والأمر . وهذه الثلاثة هي التي أوصى بها لقمان ابنه في قوله : ﴿ يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾<sup>(١)</sup> فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الأمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق \* والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب \* والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾<sup>(٢)</sup> فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان في هذه الأوصاف ، فوصفهم بالوفاء بعهد الذى عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهد إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه ، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . ويدخل في هذا ظاهر الدين وباطنه ، وحق الله وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له ، والقيام بطاعته والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وحبه وخوفه ، ورجائه والتوبة إليه ، والاستكانة له ، والخضوع والدلة له ، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها ، فهذه هي الوصلة بين الرب والعبد . وقد أمر الله بهذه الأسباب التي بينه وبين عبده أن توصل ، وأمر أن توصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه ، وتحكيمه في كل شيء ، والرضا لحكمه والتسليم له ، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين . - صلوات الله وسلامه عليه - فدخل في ذلك القيام بحقه وحق رسوله ، أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه في نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا .

فهذا كله بما أمر الله به أن يوصل ، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشية وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الصلة ، ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله في أصل واحد هو أرضية ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه ، وهو الصبر فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه . ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهي الصلاة فقال سبحانه : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهذا العنوان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾

(١) الآية : ١٧ من سورة لقمان .

(٢) سورة الرعد من الآية : ١٩ والآيات : ٢٠ - ٢٢



وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴿١﴾ وقال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾ ﴿٢﴾ .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإتفاق عليهم سرا وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإتفاق عليهم ، ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا ، إنهم لا يقابلون ذلك بمثله ، بل يدراون بالحسنة السيئة ، فيحسنون إلى من يسيء إليهم . فقال : ﴿ويدراون بالحسنة السيئة﴾ ﴿٣﴾ وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون الذنب بالحسنة بعده ، كما قال تعالى : ﴿إن الحسنتات يذهبن السيئات﴾ ﴿٤﴾ وقال ﷺ : ( أتبع السيئة الحسنة تمحها ) ﴿٥﴾ والتحقيق أن الآية تعم النوعين . والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها . اشتملت على فعل المأمور وترك المحذور والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة في قوله : ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا﴾ ﴿٦﴾ وقوله : ﴿إنه من يتق ويصبر﴾ ﴿٧﴾ وقوله : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ ﴿٨﴾ فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحذور .

والصبر : اختياري واضطراري ، والاختياري أكمل من الاضطراري ، فإن الاضطراري يشترك فيه الناس ، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختياري ، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من الحبس والمكره أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألغوه في الحب وفرقوا بينه وبين أبيه ، وباعوه بيع العبيد . ومن الصبر الثاني إنشاء الله - سبحانه - له ما أنشأ من العز والرفعة والملك والتمكين في الأرض ، وكذلك صبر الخليل إبراهيم ﷺ والكليم موسى ، وصبر نوح والمسيح ، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ﷺ كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ، ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال تعالى ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ ﴿٩﴾ .

### ومن الجهاد جهاد السيف

والمجاهدون في سبيل الله ، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ، ويحفظ بهم بيضة الإسلام ، ويحمي بهم حوزة الدين ، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا ، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه ، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها ، وإن باتوا في ديارهم ، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه . وقد تظاهرت آيات الكتاب ، وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد ، والحض عليه ،

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٢٥ .

(٧) سورة يوسف من الآية : ٩٠ .

(٨) سورة آل عمران : ٢٠٠ .

(٩) سورة الأخفاف من الآية : ٣٥ .

(١) سورة البقرة آية : ٤٥ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٥٣ .

(٣) سورة الرعد من الآية : ٢٢ .

(٤) سورة هود من الآية : ١١٤ .

(٥) حديث شريف

ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ، ويكفى في ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ﴾ <sup>(١)</sup> فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم ، فقال سبحانه : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ فكان النفوس ضمت بحياتها وبقائها فقال سبحانه : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> يعنى : أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلام ، فكأنها قالت : فمالنا في الجهاد من الحظ ؟ !

فقال سبحانه : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ ومع المغفرة ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فكأنها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا ؟ فقال سبحانه : ﴿ وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ <sup>(٤)</sup> فالله ما أحلى هذه الألفاظ ، وما ألصقها بالقلوب ، وما أعظمها جذبا لها ، وتسييرا إلى ربها ، وما ألطف موقعها من قلب كل محب .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون \* يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم \* خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾ <sup>(٥)</sup> . فأخبر سبحانه : أنه لا يستوى عمار المسجد الحرام ، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة . هذه هي عمارة المساجد المذكورة في القرآن ، وأهل سقاية الحاج لا يستون هم وأهل الجهاد في سبيل الله ، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون ، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات .

وقال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾ <sup>(٦)</sup> فنفى سبحانه وتعالى : التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد ، وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات ، وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات إن كانوا هم القاعدين الذين فضل الله عليهم أولى الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا ، وعلى هذا فمواجه استثناء أولى الضرر وهم لا يستون ، والمجاهدون أصلا ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدا ، فهذا وجه الإشكال ، ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله فاختلفت القراء في إعراب

(١) سورة الصف الآية : ١٠ .

(٢) سورة الصف الآية : ١١ .

(٣) سورة الصف ، الآية : ١٢ .

(٤) سورة الصف ، الآية : ١٣ .

(٥) سورة التوبة ، الآيات : ١٩ - ٢٢ .

(٦) سورة النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ .

(غير) : فقرئ رفعاً ونصباً وهما في السبعة ، وقرئ بالجرف في غير السبعة وهى قراءة أبى حيوه .  
فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء ، لأن غيرا يعرب في الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد إلا وهو  
النصب ، هذا هو الصحيح . وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال أى : لا يستوى القاعدون غير  
مضرورين ، أى : لا يستوون في حالهم صحتهم ، هم والمجاهدون والاستثناء أصح ، فإن غيراً لا تكاد  
تقع حالا في كلامهم إلا مضافة إلى نكرة . فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها ، والكلام في  
عدم تعريف غير بالإضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر . وأما الرفع فعلى النعت  
للقاعدين ، هذا هو الصحيح . وقال أبو إسحق ، وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : الذين هم  
غير أولى الضرر . والذي حمله على هذا ظنه أن غيراً لا تقبل التعريف بالإضافة ، فلا تجرى صفة  
للمعرفة . وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى أن غيراً توغلت في الإبهام ، فلا تعرف بما  
تضاف إليه . . وجواب هذا أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه . وأما  
قراءة الجر ففيها وجهان : أحدهما - وهو الصحيح - أنه نعت للمؤمنين ، والثاني - وهو قول المبرد - أنه  
بدل منه ، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة . وعلى الأقوال كلها فهو مفهوم معنى الاستثناء وإن نفى  
التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه غيره ، وقوله تعالى : ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين  
درجة ﴾ هو مبين لمعنى نفى المساواة . . قالوا : والمعنى فضل الله المجاهد على القاعد من أولى الضرر  
درجة واحدة لامتيازاه عنه بالجهاد بنفسه وماله ، ثم أخبر سبحانه وتعالى : أن الفريقين كليهما موعود  
بالحسنة .

فقال سبحانه : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى : المجاهد والقاعد المضروور ، لاشتراكهما في  
الإيمان . . قالوا : وفي هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير ، لأن الله أخبر أن المجاهد بماله  
ونفسه أفضل من القاعد ، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله  
تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ (١) فأين مقام من حكم  
له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج ، قالوا فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد . وأما  
القاعد من غير أولى الضرر فقال تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات  
منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) وقوله ﴿ درجات ﴾ قيل : هو نصب على البدل من قوله  
﴿ أجراً عظيماً ﴾ وقيل : تأكيد له وإن كان بغير لفظه ، لأنه هو في المعنى ، قال قتادة : كان يقال :  
الإسلام درجة ، والهجرة في الإسلام درجة ، والجهاد في الهجرة درجة ، والقتل في الجهاد درجة . وقال  
ابن زيد : الدرجات التى فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع : وهى التى ذكرها الله - تعالى - في  
سورة براءة إذ يقول تعالى : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا خمصة في سبيل الله ولا يظأون  
موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر  
المحسنين ﴾ فهذه خمس ثم قال : ﴿ ولا يتفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٢ .

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٥ ، والآية : ٩٦ .

به عمل صالح ﴿١﴾ فهاتان اثنتان وقيل : الدرجات سبعون درجة بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضر سبعين سنة . والصحيح أن الدرجات هي المذكورة في حديث أبي هريرة الذي رواه البخارى في صحيحه ، عن النبي - ﷺ - أنه قال : ( من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها ) قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال : ( إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة ) (٢) .

قالوا : وجعل سبحانه وتعالى : التفضيل الأول بدرجة فقط ، وجعله هنا بدرجات مغفرة ورحمة ، وهذا دليل على أنه يفضل على غير أولى الضرر فهذا تقرير القول وإيضاحه .

ولكن بقى أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم ألا يستوى مجاهد وقاعد مطلقا ، فلا يبقى في تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة ، فإنه لا يستوى المجاهدون والقاعدون الذين هم أولو الضرر أيضا ، وأيضا فإن القاعدين المذكورين في الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر لا القاعدون الذين هم أولو الضرر فإنهم لم يذكر حكمهم في الآية ، بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم فاللام في ﴿ القاعدين ﴾ للعهد ، والمعهود هم غير أولى الضرر لا المضرون ، وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد ، كما ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال : ( إن بالمدينة أقواما ما سرتهم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة ، حبسهم العذر ) . وعلى هذا فالصواب أن يقال : الآية دلّت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولى الضرر لا يستوون هم والمجاهدون وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين ، بل هذا النوع منقسم إلى معذور من أهل الجهاد عليه عذره وأقعدته عنه ، ونيتة جازمة لم يتخلف عنها مقدورها ، وإنما أقعدته العجز ، فهذا الذى تقضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد . وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفى التسوية وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل ، أو مقدماته نزل صاحبه في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام . كما دل عليه قوله - ﷺ - : ( إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه ) (٣) .

ومثله من سأل الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى : منازل الشهداء ولو مات على فراشه ونظائر ذلك كثيرة .

والقسم الثانى : معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما ، فهذا لا يستوى هو والمجاهد ، في سبيل الله ، بل قد فضل الله المجاهدين عليه ، وإن كان معذورا لأنه لا نية له تلحقه

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٠ ، ١٢١ .

(٢) أخرجه البخارى في (كتاب التوحيد) باب : وكان عرشه على الماء ج ٩ ص ١٥٣

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه في (كتاب الديات) باب : قول الله تعالى ومن أحيائها . الخ ج ٩ ص ٥ بلفظ إذا التقى المسلمان بسيفهما الخ .

بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول . وقد قال النبي - ﷺ - في حديث عثمان بن مظعون ( إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته )<sup>(١)</sup> فلما كان القسم المذخور فيه التفضيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقا ، ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ، ودلالة المفهوم لا عموم لها . فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة ، وعوارض الألفاظ ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموما يجب اعتباره ، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين : أحدهما التخصيص ، والآخر التعليل . فاما التخصيص : فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضي نفى الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفضيل فيه ، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه إما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق ، وإما في وقت دون وقت . بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبدا ، ونحو ذلك من فوائد التخصيص ، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة ، فإثباته مجرد الحكم . وأما التعليل : فإنهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضي نفى الحكم عما عداه ، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة . وهذا أيضا لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه ، وإنما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفية عنها الوصف ، وأما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر ، وعلة أخرى ، فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلة مختلفة وفي الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقا من حيث الضرورة ، بل إن ثبت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهي النية الجازمة والعزم التام ، والضرر المانع من الجهاد في ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة في الأجر والله أعلم .

والمقصود الكلام على طبقات الناس في الآخرة . وأما النصوص الدالة على فضل الجهاد وأهله فأكثر من أن تذكر هنا ، فهذه الدرجات الثلاث هي درجات السبق ، أعنى درجة العلم والعدل والجهاد وبها سبق الصحابة . وأدركوا من قبلهم ، وفاتوا من بعدهم واستولوا على الأمد والبعيد ، وحازوا قصبات العلاء ، وهم كانوا السبب في وصول الإسلام إلينا ، وفي تعليم كل خير وهدى ، وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولوه ، وأعظمها جهادا في سبيل الله والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة ، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلا على أيديهم ، ومن طريقهم نالها ، ولا يسكن بقعة من الأرض آمنا إلا بسبب جهادهم وفتحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلا كانوا هم السبب في وصولهم إليه ، فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف ، والقلوب بالإيمان ، وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم ، والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافا إلى أجر أعمالهم التي اختصوا بها ، فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء . وإنما نالوا هذا

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده من حديث جابر بن عتيك ح ٥ ص ٤٤٦ وهو جزء من حديث . وفي فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٤٥ رقم ١٧٥٩ عن مالك من رواية أحمد ، أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في المستدرک عن جابر بن عتيك ورمز له بالصححة .

بالعلم والجهاد والحكم بالعدل ، وهذه مراتب السبق التي يهبها الله من يشاء من عباده .

### جزاء الصالحين

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾<sup>(١)</sup> يخبر سبحانه وتعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم وضع بره وإحسانه بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾<sup>(٢)</sup> وقال ههنا : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

### الإحسان إلى الوالدين

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾<sup>(٣)</sup> .

( روى الترمذى عند تفسيره لهذه الآية : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال أنزلت في أربع آيات فذكر قصته ، وقال : قالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاهما فأنزلت ) ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾<sup>(٤)</sup> الآية وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهذا دليل على اقتران الإيمان ببر الوالدين كما قال سبحانه : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾<sup>(٦)</sup> فالله تعالى : هو الموجد الحقيقي للإنسان والوالدان هما السبب المباشر ، والوالد يكرم ولده بالإتفاق ، والأم تكرمه بالإشفاق . وقد أمر الله تعالى : بطاعتها إلا إذا أمرا ولدهما بالشرك عندئذ لا طاعة في معصية الله ، ولكن مع مصاحبتها بالمعروف إذ المرء يوم القيامة يحشر مع من أحب في الله وكل نفس بما كسبت رهينة ، وكل امرئ بما

( ١ ) سورة العنكبوت الآية : ٧

( ٢ ) سورة النساء آية : ٤٠

( ٣ ) سورة العنكبوت الآيتان : ٨ ، ٩

( ٤ ) الحديث أخرجه الإمام الترمذى في سننه في ( كتاب تفسير القرآن ) باب : ومن سورة العنكبوت ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ رقم

٣١٨٩ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

( ٥ ) سورة النساء من الآية : ٢٦ .

( ٦ ) سورة الإسراء من الآية : ٢٣ .

كسب رهين . فليحرص الإنسان على سلامة دينه مهما كانت الأمور إذ المرجع والمآب إلى الله في يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه فليحرص المسلم على أن يكون مع الموحدين الصادقين يوم البعث قال تعالى في سورة لقمان : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١) .

فكن باراً بوالديك وأطعهما إلا فيما يغضب الله ، ولا تشرك بالله وإن قطعت أو حرقت واحرص على أن تكون ممن قال فيهم بعد ذلك : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ (٢) .

### الإسلام دين البر والصلة

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : ( الصلاة على وقتها . قلت : ثم أي ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله . رواه البخاري ومسلم ) (٣) . ( ومعنى بر الوالدين : طاعتها ) وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه ) (٤) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه - معنى مملوكا : عبدا ملكه الغير .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : جاء رجل إلى نبي الله - ﷺ - فاستأذنه في الجهاد ، فقال : ( أحى ولدك ؟ قال : نعم . قال : فيها فجاهد ) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي (٥) معنى : فيها فجاهد : فآكرمها محبة في ثواب الله لتنال ثواب الجهاد . بالانقياد إلى أوامرها .

وفي رواية لمسلم : أقبل رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله . قال : ( فهل من والدك أحد حي ؟ قال : نعم ، بل كلاهما حي . قال : فتبتغي الأجر من الله ؟ قال : نعم . . قال : فارجع إلى والدك ، فأحسن صحبتها ) (٦) . معنى ( فتبتغي ) : فتطلب .

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٩

(٣) الحديث في رياض الصالحين للإمام النووي رقم ٣١٠ وقال المحقق : ( متفق عليه ) يعني رواه البخاري ومسلم في باب : بر الوالدين وصلة الأرحام . ورواه الترمذي في ( كتاب البر والصلة ) باب ما جاء في بر الوالدين ج ٤ ص ٣١٠ رقم ١٨٩٨ بالفاظ متقاربة ومتحدة في المعنى . وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٤) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١١ قال المحقق : رواه مسلم . في كتاب البر والصلة والآداب وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة باب : ما جاء ، في حق الوالدين رقم ١٩٠٦ ج ٤ ص ٣١٥ وقال : حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سهيل بن صالح ، وقد روى سفيان الثوري وغير واحد عن سهيل بن أبي صالح هذا الحديث . كما رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

(٥) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١٩ وقال المحقق : متفق عليه أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، والآداب باب : بر الوالدين وأنها أحق ، وأخرجه البخاري في ( كتاب الجهاد ) باب : الجهاد بإذن الأبوين .

(٦) الحديث لمسلم ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب : بر الوالدين وأنها أحق به رقم ٢٥٤٩ ج ٤ ص ١٩٧٥ .

وعن عبدالله بن عمرو - رضى الله عنها - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - ، فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : ( ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبيكتهما ) رواه أبو داود<sup>(١)</sup> معنى ( أضحكهما ) : أدخل عليهما السرور وأجلب لهما الفرح .

وعن أبي سعيد - رضى الله عنه - أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول - ﷺ - فقال : ( هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى . قال : أذن لك ؟ قال : لا . قال : فارجع إليهما ، فاستأذنها ، فإن أذن لك فجاهد ، وإلا فبرهما )<sup>(٢)</sup> رواه أبو داود . معنى ( برهما أحسن إليهما بطاعتك ) .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبي - ﷺ - يستأذنه في الجهاد ، فقال : ( أحمى والدك ؟ قال : نعم . قال : ففيها فجاهد )<sup>(٣)</sup> رواه مسلم وأبو داود وغيره وعن أنس - رضى الله عنه - قال : أتى رجل رسول الله - ﷺ - فقال : إني أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : ( هل بقى من والدك أحد ؟ قال : أمى . قال : قابل الله في برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد )<sup>(٤)</sup> رواه أبو يعلى والطبرانى في الصغير والأوسط وإسنادهما جيد ، ميمون بن نجيع وثقه ابن حبان ، وبقية رواته ثقات مشهورون . ومعنى ( فأنت حاج ومعتمر ومجاهد ) أى إن أرضيت أمك حزت ثواب الذى حج واعتمر وحارب في سبيل الله تعالى ترغيب في إطاعة الأم .

وروى عن طلحة بن معاوية السلمى - رضى الله عنه - قال : أتيت النبي - ﷺ - فقلت : يا رسول الله إني أريد الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ( أمك حية ؟ قلت : نعم قال النبي - ﷺ - : ( الزم رجلها فثم الجنة )<sup>(٥)</sup> رواه الطبرانى - ومعنى : ( الزم رجلها فثم الجنة ) : الخضوع لها واقترب منها

وراعها واخدمها فهناك الجنة بسبب رضاها تحظى بنعيم الله ( الجنة تحت أقدام الأمهات )<sup>(٦)</sup> . وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - أن رجلا قال : يا رسول الله ( ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : مما جنتاه وشارك )<sup>(٧)</sup> رواه ابن ماجه من طريق على بن يزيد عن القاسم . وعن معاوية بن جهم أن جاهمة جاء إلى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله أردت أغزو ، وقد جئت أستشيرك فقال : ( هل

( ١ ) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ( في كتاب الجهاد ) باب : في الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ رقم ٢٥٢٨ وقال الخطاطى : وأخرجه النسائى : ٣١٠٥ ( في الجهاد ) باب الرخصة لمن له والدان ص ٥ ص ١٠ وابن ماجه حديث ٨٢٢٧ في الجهاد باب : الرجل يغزو وله أبوان .

( ٢ ) الحديث أخرجه أبو داود في ( كتاب الجهاد ) باب : الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٩ رقم ٢٥٣٠ .

( ٣ ) أخرجه مسلم في ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب : بر الوالدين ج ٤ ص ١٩٧٥ رقم ٢٥٤٩ .

( ٤ ) الحديث في مجمع الزوائد ( في كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء في البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والطبرانى في الصغير والأوسط ورجلها رجال الصحيح غير ميمون بن نجيع ووثقه ابن حبان .

( ٥ ) الحديث في مجمع الزوائد ( في كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء في البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه الطبرنى عن ابن إسحاق وهو مدلس عن محمد بن طلحة ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

( ٦ ) في مجمع الزوائد ( في كتاب البر والصلة - باب : ما جاء في البر وحق الوالد ج ٨ ص ١٣٨ عن معاوية بن جهم بلفظ : ( الزمها فإن الجنة تحت أقدامهما ) وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

( ٧ ) الحديث أخرجه ابن ماجه في ( كتاب الأدب ) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٢٦٦٢ : قال في الزوائد : قال ابن معين : على بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة : هى ضعيفة كلها ، وقال الساجى : اتفق أهل الثقل على ضعف على بن يزيد .



لك من أم ؟ قال : نعم . قال : فآلزمها . فإن الجنة عند رجلها (١) رواه ابن ماجه والنسائي ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد - معنى ( فإن الجنة عند رجلها ) كناية عن شدة إكرامها ورضاها والتذلل طاعة لها . قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ (٢) .

ورواه الطبراني بإسناد جيد ، ولفظه قال : أتيت النبي - ﷺ - أستشير في الجهاد ، فقال النبي - ﷺ : ألك والدان ؟ قلت : نعم . قال : الزمهما فإن الجنة تحت أرجلها .

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أن رجلا أتاه فقال : إن لي امرأة ، وإن أمتي تأمرني بطلاقها ؟ فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه ) (٣) رواه ابن ماجه والترمذي واللفظ له ، وقال : ربما قال سفيان : أمتي ، وربما قال : أبي ، قال الترمذي حديث صحيح .

- معنى . ( فأضع ) فأذهب ، من أضاع بمعنى ترك ، ورواه ابن حبان في حديثه ولفظه : أن رجلا أتى أبا الدرداء ، فقال : إن أبي لم يزل بي حتى زوجني ، وإنه الآن يأمرني بطلاقها ؟ قال : ما أنا أمرك أن تعق والديك ولا بالذي أمرك أن تطلق امرأتك غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول : ( الوالد أوسط أبواب الجنة ، فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دع ) ، قال : فأحسب عطاء قال : فطلقها (٤) .

- معنى ( دع ) : اترك وتجنب .

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( من سره أن يمد له في عمره ويزاد في رزقه فليبر والديه ، وليصل رحمه ) (٥) رواه أحمد ، ورواه محتج بهم في الصحيح ، وهو في الصحيح باختصار ذكر البر .

- معنى : ( فليبر والديه ) فليكرمهما .

معنى : ( وليصل رحمه ) وليود بالهدية والزّيارة أقاربه .

وعن معاذ بن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( من بر والديه طوي له زاد الله في عمره ) (٦) رواه أبو يعلى والطبراني والحاكم والأصبهاني ، كلهم من طريق زيان بن قائد عن سهل بن

( ١ ) الحديث في مجمع الزوائد - كتاب البر والصلة - باب : ما جاء في البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمي : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح . وأخرجه الحاكم في المستدرک باختلاف يسير ( في كتاب البر والصلة ) باب : بر أمك ثم أباك .. الخ ج ٤ ص ١٥١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

( ٢ ) سورة الإسراء آية : ٢٤ .

( ٣ ) وأخرجه ابن ماجه في سننه ( في كتاب الأدب ) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٣ الحديث أخرجه الترمذي في سننه ( في كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء من الفضل في رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ رقم ١٨٩٩ وقال : هذا حديث صحيح .

( ٤ ) انظر الحاكم في المستدرک ( في كتاب البر والصلة ) باب : الوالد أوسط أبواب الجنة ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

( ٥ ) انظر مسند الإمام أحمد - مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ٢٦٦ وانظره في البخاري ( في كتاب البيوع ) باب : من أحب البسط في الرزق . وفي مسلم في كتاب البر والصلة والآداب باب : صلة الرحم وتحريم قطعها ج ٤ ص ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧ .

( ٦ ) الحديث في مجمع الزوائد ( في كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء في البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٧ وقال الهيثمي : رواه أبو يعلى والطبراني وفيه زيان بن قائد وثقه أبو حاتم وضعفه غيره ، وبقيّة رجال أبي يعلى ثقات .

معاذ عن أبيه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

- ومعنى ( طوبى ) : شجرة فى الجنة يملك قدر ظلها البار بوالديه . وعن ثوبان - رضى الله عنه - قال : قال رسول - الله - ﷺ - ( إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر )<sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه وابن حبان فى ' صحيحه ، واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال : صحيح الإسناد .

- معنى : ( ليحرم ) ليمنع ويضيق عليه . وعن سلمان - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر )<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناءكم ، ومن أتاه أخوه متصلا فيقبل ذلك محقا كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الخوض )<sup>(٣)</sup> رواه الحاكم من رواية سويد عن أبى رافع عنه وقال : صحيح الإسناد . [ قال الحافظ ] : سويد عن قتادة هو ابن عبد العزيز واه .

- معنى ( متصلا ) متبرئا عاتبا معترفا بذنبه . بر . يبر من باب علم وضرب . ومعنى ( محقا ) أى صاحب حق أو كان على باطل ، يترك الجدل ، والمعنى يقبل اعتذار من اعتذر ويكون سهلا لينا كريما ظريفا لا يحمل ضغنا ، فإن كان جافا غليظ الطبع طرد من الشرب من الخوض يوم القيامة .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم [ رغم أنفه ] : أى لصق بالرغام ، وهو التراب .

وعن جابر ، يعنى ابن سمرة - رضى الله عنه - قال : صعد النبى - ﷺ - المنبر فقال : ( آمين ، آمين ، آمين . قال : أتانى جبريل - عليه السلام - ، فقال : يا محمد : من أدرك أحد أبويه فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله ، فقل آمين ، فقلت : آمين ، فقال : يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له ، فأدخل النار ، فأبعده الله فقل آمين - فقلت : آمين . قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله فقل : آمين فقلت : آمين )<sup>(٥)</sup> .

( ١ ) الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه ( فى كتاب الفتن ) باب . العقوبات ج ٢ ص ١٣٣٤ مع اختلاف فى بعض ألفاظه واتحاد فى المعنى وقال فى الزوائد : إسناده حسن وأخرجه ابن حبان فى صحيحه باب : ( الأدعية ) ذكر الإخبار عما يستحب للمرء من المواظبة على الدعاء ج ٢ ص ١١٦ .

( ٢ ) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى ( كتاب القدر ) باب : ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ج ٤ ص ٤٤٨ رقم ٢١٣٩ . ( ٣ ) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرک ( فى كتاب البر والصلة ) باب : من بر والديه ج ٤ ص ١٥٤ وقال الذهبى فى المحيى . . قلت : سويد ضعيف .

( ٤ ) الحديث فى صحيح مسلم فى ( كتاب البر والصلة ) باب : فى بر الوالدين وأنها أحق بيا : رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر ، فلم يدخل الجنة ج ٤ ص ١٩٧٨ رقم ١٥٥١ .

( ٥ ) الحديث فى مجمع الزوائد فى ( كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٩ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى بأسانيد وأحدها حسن .

رواه الطبراني بأسانيد أحدها حسن ، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة إلا أنه قال فيه : « من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين »  
رواه أيضا من حديث الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده ، وتقدم ورواه الحاكم وغيره من حديث كعب بن عجرة ، وقال في آخره . ( فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبير عنده أو أحدهما ، فلم يدخله الجنة . قلت آمين )<sup>(١)</sup> رواه الطبراني من حديث ابن عباس بنحوه ، وفيه : ( ومن أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه . قلت : آمين )<sup>(٢)</sup> .  
- ومعنى : آمين ( اللهم استجب ) .

ومعنى ( أسحقه ) أهلكه وأبعده عن رحمته .

وعن مالك بن عمرو القشيري - رضي الله عنه - : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( من اعتق رقبة مسلمة فهي فداؤه من النار ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله زاد في رواية : وأسحقه )<sup>(٣)</sup> رواه أحمد من طرق أحدها حسن . وروى البخاري قال : ( بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : أنظروا أعمالا عملتموها لله - عز وجل - صالحة ، فادعوا الله بها لعله يفرجها ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صبية صغار كنت أرعى ، فإذا رحت عليهم فحلبت لهم بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه نأى الشجر فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجت بالحلاب ، فقامت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبيبة قبلهما ، والصبيبة يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله - عز وجل لهم حتى رأوا منها السماء )<sup>(٤)</sup> .  
- معنى ( غار ) بيت منقور في الجبل .

معنى ( فانحطت ) نزلت .

معنى ( يفرجها ) يزيلها ويوسعها .

معنى ( يتضاغون ) ييكون جوعا .

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك )<sup>(٥)</sup> رواه البخاري ومسلم .

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک جزء من حديث في کتاب البر والصلة باب : لعن الله العاق لوالديه .. الخ ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٥٠ ، ٣٤٤ .

(٤) الحديث في صحيح البخاري في ( کتاب الأدب ) باب : دعاء من بر والديه ج ٨ ص ٣ وهذا جزء من حديث طويل .

(٥) الحديث في صحيح مسلم في کتاب ( البر والصلة والأداب ) باب بر الوالدين وأبهما أحق به ج ٤ ص ١٩٧٤ برقم ١ - ٢٥٤٨ وفي حديث قتيبة : من أحق بحسن صحابتي ؟ ولم يذكر الناس .

وأخرجه البخاري في صحيحه ( في کتاب الأدب ) باب : من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ .

- الرجل هو جدهز بن حكيم . قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، قال وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب في التربية ، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ﴾<sup>(١)</sup> من سورة لقمان . فسوى بينهما في الوصاية وخص الأمور الثلاثة ، وقال القرطبي : المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر وقال عياض : وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل في البر على الأب .

وقد رتب - ﷺ - في حديث ( أمك وأباك ثم أختك وأخاك ثم أدناك أدناك ) أى تقدم القرابة من ذوى الرحم . وأخرج أحمد والنسائي وصححه الحاكم من حديث عائشة : سألت النبي - ﷺ - أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : ( زوجها ! قلت فعلى الرجل قال أمه )<sup>(٢)</sup> .

وعن أسماء بنت أبي بكر - رضى الله عنها - قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله - ﷺ - ، فأستفتيت رسول الله - ﷺ - . قلت : قدمت على أمى ، وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك<sup>(٣)</sup> رواه البخارى ، ومسلم وأبو داود . ولفظه قالت : ( قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب ، وهى راغبة مشركة ، فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت على . وهى راغبة مشركة أفأصلها ! قال نعم : صلى أمك ) .

[ راغبة ] أى طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها .

[ راغبة ] أى كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد )<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى ، ورجح وقفه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، قالوا : صحيح على شرط مسلم ، ورواه الطبرانى من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : ( طاعة الله طاعة الوالد ، ومعصية الله معصية الوالد )<sup>(٥)</sup> ورواه البزار من حديث عبد الله بن عمر ، أو ابن عمرو ، ولا يحضرنى أيهما .

(١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرک ( فى كتاب البر والصلة ) باب بر أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب ج ٤ ص ١٥٠ وسكت عنه الحاكم . والذهبي .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى مع اختلاف فى بعض ألفاظه فى ( كتاب الأدب ) باب : صلة المرأة أمها ولها زوج ج ٨ ص ٥ وأخرجه مسلم فى صحيحه ( فى كتاب الزكاة ) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين ... الخ ج ٢ ص ٦٩٦ رقم ٤٩ - ١٠٠٣ وأخرجه أبو داود فى سننه فى ( كتاب الزكاة ) فى باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ رقم ١٦٦٨ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه فى ( كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ بلفظ : « رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد » .

وفى الحاكم : بلفظ : ( رضا الرب ) الخ ( فى كتاب البر والصلة ) باب رضا الرب .. الخ ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي فى التلخيص .

(٥) وفى مجمع الزوائد : ( فى كتاب البر والصلة ) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن كيسان وهو لين عن إسماعيل بن عمرو البجلي وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره وثقه رجاله رجال الصحيح .

ولفظه قال : ( رضا الرب تبارك وتعالى في رضا الوالدين ، وسخط الله تبارك وتعالى في سخط الوالدين )<sup>(١)</sup>.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : ( أتى النبي - ﷺ - رجل فقال : إني أذنبت ذنبا عظيما فهل له من توبة ؟ فقال : هل لك من أم ؟ قال : لا . قال : فهل لك من خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرها )<sup>(٢)</sup> رواه الترمذی ، واللفظ له . وابن حبان في صحيحه والحاكم إلا أنها قالا : هل لك والدان بالثنية ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

- معنى برهما : أحسن إليهما . والبر : ضد العقوق . ببر خالقه : يشكره ويطيعه .  
وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي - رضي الله عنه - قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بني سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما )<sup>(٣)</sup> واه أبو داود وابن ماجه وابن حبان في صحيحه . وزاد في آخره . قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيعه . قال : فاعمل به .

- معنى ( الصلاة عليهما ) : الدعاء لهما بالنعيم . معنى ( الاستغفار لهما ) : أطلب من الله تعالى أن يعفو عن زلاتهما . معنى ( إنفاذ عهدهما ) : العمل بوصيتهما . معنى ( صلة الرحم ) : مودة الأرقاب المحارم وغير المحارم . معنى ( إكرام صديقهما ) : رعاية واجب أصحابها .

وعن عبد الله دينار عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه . قال ابن دينار : فقلت له : أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب وإني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .

- معنى ( الأعراب ) : سكان البوادي يتحملون خشونة العيش وشظفه . معنى ( أهل ود أبيه ) : إن أعظم الصلة لأصحاب أهلك الذين كان يودهم ويحبهم ويعاملهم .

وعن أبي بردة قال : قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت لا . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه

( ١ ) وأخرجه البزار في كشف الاستار عن زوائده في ( كتاب البر والصلة ) باب بر الوالدين ج ٢ ص ٣٦٦ رقم ١٨٦٥ وقال البزار : لا نعلم رواه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة .

( ٢ ) انظر كتاب البر والصلة في سنن الترمذی ، باب : ما جاء في بر الخالة ج ٤ ص ٣١٣ رقم ١٩٠٤ بلفظ : ( الخالة بمنزلة الأم ) .

( ٣ ) الحديث أخرجه أبو داود في سننه ( في كتاب الأدب ) باب في بر الوالدين ج ٥ ص ٣٥٢ رقم ٥١٤٢ . وأخرجه ابن ماجه ( في كتاب الأدب ) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٤ .

( ٤ ) أخرجه مسلم في صحيحه ( في كتاب البر والصلة والأدب ) باب : فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ٢٥٥٢ .

بعده ، وإن كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك (١) رواه ابن حبان في صحيحه .

- معنى ( يصل أباه ) يقدم لأبيه صلة ورحمة . معنى ( إخوان أبيه ) أصحابه .

فوائد بر الوالدين من فقه أحاديث سيدنا رسول الله - ﷺ -

أولا : إكramهما من العمل الذي يحبه الله - تعالى - ويساوى ثواب الجهاد في سبيل الله تعالى ، بل هو أفضل .

ثانيا : يساوى ثواب الحاج والمعتمر .

ثالثا : يوصل إلى نعيم الجنة ( الزم رجلها ) .

رابعا : يزيد في العمر ، وفي الأرزاق ويسبب البركة في المال ( من سره ) بسبب إكramهما الله النجاة في الأبناء والطهارة والهداية والتوفيق فتشبه على محبة الوالدين ( بروا آباءكم ) .

خامسا : فرصة سانحة لضمان دخول الجنة ومن ضيعها خاب ( ورغم أنفه ) .

سادسا : يزيل الهموم ويجلب اليسر ويضمن النجاة ( لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا

الله ) .

سابعا : لقد قرن الله رضاه - سبحانه - برضاها .

### الآيات الدالة على طلب إكram الوالدين

١- ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾ (٢) سورة النساء .

ب - وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون ﴾ (٣) من سورة العنكبوت .

أى : يأتيناهما فعلا ذا حسن ، والآية نزلت : في سعد بن أبي وقاص وأمه حمّة ، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ، ولبثت ثلاثة أيام كذلك ، وكذا التي في لقمان والأحقاف وقد أخرج مسلم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال : ( حلفت أم سعد لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك ، وأنا أمرك بهذا ، فنزلت : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ .

( ج ) : وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التي

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه : باب : حق الوالدين باب : ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصلة رحمه في قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

(٢) سورة النساء الآية : ٣٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٨ .

أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذرىقى إى تبت إىلك وإى من المسلمين \* أولئك الذىن نىقبل عنهم أحسن ما عملوا وىنتجاوز عن سىئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴿١﴾ من سورة الأحقاف .

( د ) وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إى تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ (٢) من سورة الإسراء .

( أف ) : فلا تضجر مما يستغفر منها وتستقل من مؤونتهما ولا تزجرهما عمالا يعجبك بإغلاظ ( قولا كريما ) : جمىلا لا شراسة فىه ، وتذلّل لهما وتواضع ( من الرحمة ) : من فرط رحمتك علىهما ، وادع الله - تعالى - أن ىرحمهما برحمته الباقية . ( للأوابين ) : للتوابين ( غفورا ) : ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير .

هـ - وقال تعالى : ﴿ ووصىنا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالدك إى المصير \* وإى جاهداك على أن تشرك بى ما لىس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبىيل من أناب إى ثم إى مرجعكم فأنبئكم بما كىتم تعملون ﴾ (٣) من سورة لقمان .

### فريق من الناس

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من ىقول آمنا بالله فإذا أودى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك لىقولن إنا كنا معكم أو لىس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . ولىعلمن الله الذىن آمنوا ولىعلمن المنافقین ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من ىقول آمنا بالله \* أى بلسانه لا بقلبه فقد تلفظ بها لسانه دون أن تستقر كلمة الإیمان مع قلبه فإذا أودى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من ىعبد الله على حرف فإن أصابه خىر اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والأخرة ذلك هو الخسران المبین ﴾ (٥) .

قال الزجاج : ىنبغى للمؤمن أن ىصبر على الأذى فى الله . أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو لىلى عن أنس قال : قال - ﷺ - : ( لقد أوديت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله ، وما

( ١ ) سورة الأحقاف الآيات : ١٥ ، ١٦ .

( ٢ ) سورة الإسراء الآيات ٢٣ - ٢٥ .

( ٣ ) سورة لقمان الآية : ١٤ ، ١٥ .

( ٤ ) سورة العنكبوت الايتان : ١٠ ، ١١ .

( ٥ ) سورة الحج آية : ١١ .

يخاف أحد ، ولقد أتت على ثلاثة ، ومالى ولعيالى طعام يأكله ذو كبد إلا مايوارى إبط بلال (١) .  
والخلاصة أن هناك فريقا يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ،  
جعل فتنة الناس في الدنيا كعذاب الله في الآخرة ، فارتد عن إيمانه ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن  
يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارقة له عن الإيمان ، كما  
أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ليس له دافع ،  
وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة  
للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ (٢) يفسره قوله تعالى : ﴿ الذين  
يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم  
نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ (٣) وقوله جل شأنه : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من  
عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم ناديين ﴾ (٤) وهذه حال المنافقين في كل عصر ومكان . عالة  
على الأمة في السراء وسوس ينخر في عظامها في البأساء والضراء وحين البأس وسبحانه القائل : ﴿ يأيتها  
الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله  
لا يهدي القوم الظالمين ﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا  
دائرة ﴿ (٥) وسبحان من يقول : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله  
إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في  
أنفسهم قولا بليغا ﴿ (٦)

هؤلاء المراءون المخادعون الله - تعالى - يعلم ما في صدورهم من الخبايا والأمراض ، ومن ثم جاء  
تذييل الآية . ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ والمنافقون فريق منهم ﴿ ومن الناس من يقول  
آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما  
يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٧) وليظهرن الله  
مدلول علمه لعباده المؤمنين فيختبر الناس بالسراء والضراء والاختبار هو الذى يمحص ويميز المؤمنين  
من المنافقين قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام ندواها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء  
والله لا يحب الظالمين ﴾ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند أنس ج ٣ ص ١٢٠ وأخرجه ابن ماجه في سننه بلفظه كما جابه المؤلف في كلمة :  
(ولبلال) (وما وارى) (في المقدمة) باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد ج ١ ص ٥٤ رقم ١٥١ وقال : أخرجه الترمذى في آخر  
باب الزهد ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ١٠

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤١ .

(٤) سورة المائدة من الآية : ٥٢ .

(٥) سورة المائدة الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٦) سورة النساء الآيتان : ٦٢ - ٦٣ .

(٧) سورة البقرة الآيات : ٨ - ١٠ .



الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿١﴾ وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ ما كان الله ليلذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ ﴿٢﴾ وصدق الله إذ جمع تلك المعاني في قوله ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليستلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴿٣﴾

ألا يعلم هؤلاء الضالون المضلون أن كل إنسان يوم القيامة سيحمل أوزاره دون أن يحملها عنه غيره قال تعالى : ﴿ كل امرئ بما كسب رهين ﴾ ﴿٤﴾ وقال : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ ﴿٥﴾ وقال جل شأنه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ وتكون الجبال كالعهن ﴾ ولا يسأل حميم حميما ﴾ يصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه ﴾ وصاحبه وأخيه ﴾ وفصيلته التي تؤويه ﴾ ومن في الأرض جميعا ثم ينجي ﴾ كلا ﴿٦﴾ وقال سبحانه : ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ وأعطى قليلا وأكدى ﴾ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أم لم يتبأ بما في صحف موسى ﴾ وإبراهيم الذي وفى ﴾ ألا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ وأن سعيه سوف يرى ﴾ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ وأن إلى ربك المنتهى ﴿٧﴾

وقال عز من قائل : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة يطلمون ﴾ ﴿٨﴾ وقال تعالى : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ ﴿٩﴾ وقال عظمت حكمته : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿١٠﴾

غدا توفى النفوس ما كسبت  
ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم  
وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وفي قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ ﴿١١﴾ إخبار عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ - ١٤٢

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٧٩ .

(٣) سورة العنكبوت آية : ١١ - ١٣ .

(٤) سورة الطور من الآية : ٢١ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ - .

(٦) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥ .

(٧) سورة النجم الآيات : ٢٣ - ٤٢ .

(٨) سورة الإسراء من الآية : ١٥ .

(٩) سورة النحل الآية : ١١١ .

(١٠) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٣٧ .

(١١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .

الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا ( ولنحمل خطاياكم )  
 أى : وآثامكم إن كانت لكم آثام فى ذلك علينا ، وفى رقابنا كما يقول  
 القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتي ، قال الله - تعالى - تكذبا لهم :  
 ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ (١) أى : فيما  
 قالوه أنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال  
 الله تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا  
 قربى ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميائه يبصرونهم ﴾ (٣) وقوله  
 تعالى : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ﴾ (٤) إخبار عن الدعاة إلى  
 الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزار آخر بسبب  
 ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما قال تعالى :  
 ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير  
 علم ﴾ (٥) الآية وفى الصحيح ( من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل  
 أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن  
 دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير  
 أن ينقص من آثامهم شيئا ) (٦) وفى الصحيح ( ما قتلت نفس ظلما إلا كان  
 على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل ) (٧) وقوله تعالى :  
 ﴿ وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أى : يكذبون ويختلفون من  
 البهتان ، وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا .

فقال : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى  
 العالية ، حدثنا سليمان بن حبيب المحاربى ، عن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بلغ  
 ما أرسل به ثم قال : ( إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزق وجلالى لا يحوزنى اليوم  
 ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان ابن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس

(١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٨ .

(٣) سورة المعارج الآية : ١٠ ، ١١ .

(٤) سورة العنكبوت من الآية : ١٣ .

(٥) سورة النحل من الآية : ٢٥ .

(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم فى ( كتاب العلم ) باب : من سن سنة حسنة أو سيئة الخ ج ٤ ص ٢٠٦٠ .

(٧) انظر سنن الترمذى ( فى كتاب العلم ) باب : ما جاء الدال على الخير كفاجله ج ٥ ص ٤٢ رقم ٢٦٧٣ بلفظ ما من نفس تقتل  
 ظلما إلا كان على ابن آدم كفل من دمها ، وذلك لأنه أول من أسن القتل : ( وقال عبدالرزاق : سن القتل ) قال أبو عيسى : هذا  
 حديث حسن صحيح .

وانظر فى تفسير ابن كثير سورة العنكبوت آية : ١٣ ج ٣ ص ٣١ وانظره ايضا فى مختصر ابن كثير فى تفسير سورة المائدة آية : ٣١  
 ج ١ ص ٥٠٨ .

إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدي الرحمن - عز وجل - ثم يأمر المنادي فينادي من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلهم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدي الرحمن فيقول الرحمن : «اقضوا عن عبدى ، فيقولون كيف نقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلمات فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون لم يبق له حسنة فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه» (١) ثم نزع النبى - ﷺ - بهذه الآية الكريمة ﴿وليحملن أثقالهن وأثقالا مع أثقالهن وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ (٢) وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من غير هذا الوجه (إن الرجل لياتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه) (٣) وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة الثمالى ، عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : قال لى رسول الله - ﷺ - ( يا معاذ إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ، فلا ألفينك تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك ) .

### نوح وقومه

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

تفسير المفردات والمعنى الجملى

(الطوفان) ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو موت أو ظلام ليل .  
وهذه قصة نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمرا ، دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع هذا فلم يؤمن معه إلا قليل ، وقد سبقت تسلية وعبرة لمن يعتبر ، وقد ذكر بعدها قصص بعض الأنبياء بهذا الغرض .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا ﴾ - وقد ورد أنه أول نبى أرسل إلى قومه ، وكانوا أهل كفر وفسق وعصيان ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويذكرهم بيوم القيامة ، ولكنهم كانوا يردون عليه أسوأ رد وأفحشه ، وقد بذل نوح منتهى ما فى وسعه كبشر ، وطال الزمن وهو يدعوهم

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة العنكبوت آية : ١٢ ، ١٣ وقال المحقق : أخرجه أبى حاتم عن أبى أمامة مرقوعا .

(٢) سورة العنكبوت آية : ١٣ .

(٣) انظره فى مختصر تفسير ابن كثير تفسير سورة العنكبوت آية رقم ١٣ ج ٣ ص ٣١ .

أن يقلعوا عن عبادة الأصنام فلم يزدتهم دعاؤه إلا إعراضا واستكبارا ، وقال نوح : ﴿ رب إنهم عصوى واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبيرا ﴾ <sup>(١)</sup> ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فقال لما ضاق به الأمر : (رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا) وكان أن صنع السفينة وركبها والمؤمنون وترك الكفار فغرقوا جميعا ، وأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وأنجاه الله هو ومن معه في الفلك المشحون ، وجعل ربك سفينة نوح آية وعبرة للعالمين ، فهل من مذكر !!

قال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أن يغلب فانتصر . ففتحت أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمرٍ قد قدره وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مذكر . فكيف كان عذاب ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾ <sup>(٤)</sup> .

### \* قصة إبراهيم وقومه \*

قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ <sup>(١٦)</sup> إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ <sup>(١٧)</sup> وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ <sup>(١٨)</sup> أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ <sup>(١٩)</sup> قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ <sup>(٢٠)</sup> يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ <sup>(٢١)</sup> وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ <sup>(٢٢)</sup> ﴾

(١) سورة نوح الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة الفرقان آية : ٣٧ .

(٣) سورة النجم الآية : ٥٢ .

(٤) سورة القمر الآيات : ٩ - ١٧ .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾  
 فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَبَلَغُنَّ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَسُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن  
 تَنْصِيرٍ ﴿٢٥﴾ \* فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ  
 إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي  
 الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾

### معنى المفردات

(أوثاناً) : الوثن هو ما اتخذ من جص أو حجر ، والصنم : ما كان من معدن ، والتمثال : ما لوحظ فيه أن يكون مثالا لكائن حي .  
 (إفكاً) : الإفك الكذب مأخوذ من الإفك وهو صرف الشيء عن وجهه ، والكذب : كلام مصروف عن وجهه (النشأة الآخرة) : هي إعادة الخلق في الآخرة (تقلبون) : تردون (ولى) : صديق وناصر أو متولى أمر الإنسان (حرقوه) : أحرقوه (مودة بينكم) : لتوادوا بينكم وتتواصلوا .  
 وتلك قصة إبراهيم أبى الأنبياء فانظر يأياها الرسول كيف كان موقفه مع قومه ، وما انتهى إليه أمره وأمرهم والأمر كله لله .

### المناسبة وإجمال المعنى :

بعد أن قص علينا القرآن العظيم قصة نوح وقومه أتبع ذلك بقصة إبراهيم مع قومه . ولقد أقام إبراهيم دعوته كما أقامها جميع الأنبياء على التوحيد الخالص فأمرهم بعبادة الله وحده وهدم عبادة الأوثان لأنها لا تملك ضراً ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وحذرهم من عاقبة التكذيب إذ في ذلك هلاكهم ، وأن ليس عليه إلا البلاغ المبين .

وبعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ، ثم الرسالة بقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ (١) شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور وهذه الأصول الثلاثة لا يكاد يتفصل بعضها

من بعض في الذكر الإلهي ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث . وبعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدةانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء ، أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ، ولم يجدوا للدفاع سبيلا وحينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره .

فقالوا لقومهم : ﴿ ابنوا له بنيانا فآلقوه في الجحيم ﴾ فأنجاه الله من كيدهم وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى قومهم بعد أن أخرج من النار وقال إن تمسكتكم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب ، وتستبين الأمور لليب الأريب ، ويكفر بعضكم بعضا ، فيقول العابد : ما هذا معبودي ، ويقول المعبود : ما هؤلاء بعبدي ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيقول هذا : لذاك أنت الذي أوقعتني في العذاب حيث عبدتني ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذي أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادته ، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه ، وأنى لهما ذلك ، وهما مجتمعان في النار ؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها كما خلصني رب من النار التي أقيمتون فيها . وبعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لا يفقه قدرها إلا من كان ذكي الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التي أودعها الله في الكون أردف هذا ببيان أنه لم يصدق به ما رأى إلا لوط - عليه السلام - ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان في قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يش من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام - فرارا بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدد نعمه العاجلة عليه في الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ، وآتاه الذكر الحسن إلى يوم القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب في عداد الكملة في الصلاح والتقوى .

### التفسير

قوله تعالى :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ (١) .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليته إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده في الشكر ، فإنه المشكور على النعم لا مجرى لها غيره فقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي : إذا فعلتم ذلك جعل لكم الخير في الدنيا والآخرة

واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى : أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإننا اختلقتم أنتم لها فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العراقي عن ابن عباس . وروى الوالبي عن ابن عباس : وتصنعون إفاكا أى تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد في رواية : وعكرمة والحسن وقتادة .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ وهذا أبلغ في الحصر كقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ ولهذا قال ﴿ فابتغوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أى لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئا ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله .

### كلمة عن الشكر

الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، قال غير واحد من السلف : ( الصبر نصف الإيمان ) وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - ( الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ) ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فى سورة إبراهيم وفى سورة جمعت ، وفى سورة سبأ ، وفى سورة لقمان ، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات : أحدها : أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهى توجه إلى شطرين فعل وترك ، فالفعل هو العمل بطاعة الله ، وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية . والدين كله فى هذين الشيتين . فعل المأمور وترك المحذور .

الاعتبار الثانى : أن الإيمان مبنى على ركنين : يقين وصبر ، وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ <sup>(١)</sup> فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب ، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ، ولا يصل له التصديق بالأمر والنهى إنه من عند الله ، وبالثواب والعقاب إلا باليقين ، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحذور إلا بالصبر فصار الصبر نصف الإيمان ، والنصف الثانى الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه .

الاعتبار الثالث : أن الإيمان قول وعمل . والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح . وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا ، كما قال عن قوم فرعون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم

(١) سورة السجدة الآية : ٥٤

(٢) سورة النمل من الآية : ١٤

الشیطان أعمالهم فصدهم عن السبیل وكانوا مستبصرين ﴿١﴾ وقال موسى لفرعون : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾ ﴿٢﴾ فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه مالميس في قلبه لم يكن بذلك مؤمنا ، بل كان من المنافقين ، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالة والمعاداة .

فيحب الله ورسوله ، ويوالي أولياء الله ، ويعادي أعداءه ، ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته ، والتزام شريعته ظاهرا وباطنا ، وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به .

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه ، وهي ترجع إلى علم وعمل ، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهي وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر . فصار الإيمان نصفين : أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل .

الاعتبار الرابع : أن النفس لها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام وهي دائما تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحمج عما تكرهه . والدين كله إقدام وإحجام . إقدام على طاعة الله وإحجام عن معاصي الله . وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر .

الاعتبار الخامس : أن الدين كله رغبة ورهبة . فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾ ﴿٣﴾ وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه ( اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك - وأجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ) ﴿٤﴾ .

فلا تجد المؤمن أبدا إلا راغبا وراهبا . والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر . فرهبته تحمله على الصبر ، ورغبته تقوده إلى الشكر .

الاعتبار السادس : أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره في الدنيا والآخرة ، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى . وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان . ففعل ما ينفعه هو الشكر . وترك ما يضره هو الصبر .

الاعتبار السابع : أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجري عليه وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأثور هو الشكر وترك المحذور والصبر على المقدور هو الصبر .

الاعتبار الثامن : أن العبد فيه داعيان : داع يدعو إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها ، وداع يدعو إلى

(١) العنكبوت الآية : ٣٨ .

(٢) سورة الإسراء من الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٩٠ .

(٤) الحديث في الترغيب والترهيب للمنزى - الترغيب في كلمات يقولهن حين يأوى إلى فراشه .. الخ ج ١ ص ٤١٠ رقم ١ وقال المنزى : رواه البخاري في كتاب التوحيد ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .



الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأولياؤه من النعيم المقيم . فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر . وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر .

الاعتبار التاسع : أن الدين مداره على أصليين : العزم والثبات . وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي - ﷺ - ( اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد )<sup>(١)</sup> وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق .

الاعتبار العاشر : أن الدين مبنى على أصليين : الحق والصبر . وهما المذكوران في قوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه . فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

### في بيان تنازع الناس في الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزي في ذلك ثلاثة أقوال ( أحدها ) : أن الصبر أفضل ( والثاني ) : أن الشكر أفضل ( والثالث ) : أنهما سواء كما قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ( لو كان الصبر والشكر يعيرين ما باليت أيهما ركبت ) ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها في احتجاجها بعون الله وتوفيقه .

قال الصابرون : قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأمله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله في كتابه في نحو تسعين موضعاً وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفي فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر ، ويكفي في فضله قوله - ﷺ - ( الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر )<sup>(٢)</sup> فذكر ذلك في معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر ، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به ، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله ( مدمن الخمر كعابد وثن ) ونظائر ذلك قالوا وإذا وازنا بين النصوص الواردة في الصبر والواردة في الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها .

ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيها في سائر الأبواب فلا تجد الأحاديث النبوية في باب أكثر منها في باب الصلاة والجهاد . قالوا وأيضاً فالصبر يدخل في كل باب بل في كل مسألة من مسائل الدين . ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

قالوا وأيضاً فالله - سبحانه وتعالى - علق على الشكر الزيادة فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾<sup>(٣)</sup> وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب . وأيضاً فإنه سبحانه أطلق جزاء

(١) أخرجه الامام احمد في مسنده - من حديث شذاد بن اوس ج ٤ ص ١٢٣ ورواه صاحب كتاب انجاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين ج ٥ ص ٧٦ كما رواه النسائي في سننه ب ٦١ - ٣٩١٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الصوم ) باب : فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر ج ١ ص ٥٦١ رقم ١٧٦٤ .

(٣) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

الشاكرين فقال : ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾<sup>(١)</sup> وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾<sup>(٢)</sup>.

قالوا وقد صح عن النبي - ﷺ - أنه قال : يقول الله تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به »<sup>(٣)</sup> وفي لفظ ( وكل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها ) قال الله تعالى « إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به » وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما في الحديث نفسه يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجل . ولهذا قال النبي - ﷺ - لمن سأل عن أفضل الأعمال ( عليك بالصوم فإنه لا عدل له )<sup>(٤)</sup> ولما كان الصبر حبس النفس من إجابة داعي الهوى ، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعي شهوة الطعام والشراب والجماع .

فسر الصبر في قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾<sup>(٥)</sup> أنه الصوم وسمى رمضان شهر الصبر . وقال بعض السلف : الصوم نصف الصبر . وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعي الشهوة والغضب ، فإن النفس تشتهي الشيء لحصول اللذة بإدراكه ، وتغضب لفترتها من المؤلم لها ، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهي شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعي الأمرين . وقد أشار إلى ذلك النبي - ﷺ - في الحديث الصحيح وهو قوله ( إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحد سابه أو شاتمه فليقل إلى صائمه )<sup>(٦)</sup> فأرشد - ﷺ - إلى تعديل قوى الشهوة والغضب وأن الصائم ينبغي له أن يحتسى من إفسادهما لصومه ، فهذه نفسه صومه ، وهذه تحبط أجره ، كما قال في الحديث الآخر : ( من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه )<sup>(٧)</sup>.

قالوا : ويكفي في فضل الصبر على الشكر قوله تعالى : ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾<sup>(٨)</sup> فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ لا شيء يعدل معيته لعبده ، كما قال بعض التعارفين : ذهب الصابرون بخيرى الدنيا والآخرة ، لأنهم نالوا معية الله . وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾<sup>(٩)</sup> وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمة .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٩٦ .

(٣) أخرجه البخارى في ( كتاب الصوم ) باب : هل يقول : إني صائم إذا شئت ج ٣ - ٣٤ .

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرک في ( كتاب الصوم ) باب : إذا كان أول ليلة من رمضان الخ ج ١ ص ٤٢١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد .

(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٥ .

(٦) الحديث في البخارى في ( كتاب الصوم ) باب من لم يدع قول الزور والعمل به ج ٣ ص ٣٤ بلفظ وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب الخ وهو جزء من حديث وفي صحيح مسلم في ( كتاب الصيام ) باب : حفظ اللسان للصائم ج ٢ ص ٨٠٦ رقم ١١٥١ بلفظ : إذا أصبح أحدكم يوماً صائماً ، فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله : الحديث .

(٧) الحديث أخرجه أبو داود في ( كتاب الصوم ) باب : الغيبة للصائم ج ٢ ص ٧٦٧ رقم ٢٣٦٢ وقال الخطابي : أخرجه البخارى في الصوم باب : من لم يدع قول الزور ( ٣ - ٣٣ ) .

(٨) سورة المؤمنون الآية : ١١١ .

(٩) سورة الطور من الآية : ٤٩ .

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء : كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهي صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم ، وتخصيصهم بالهداية في قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ <sup>(١)</sup> وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم ، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك .

قالوا وقد دل الدليل على أن الزهد في الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها والزهد فيها حال الصابر ، والاستكثار منها حال الشاكر . قالوا : وقد سئل المسيح - ﷺ - عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه ، وأخذته الآخر وأنفقته في طاعة الله تعالى . أيهما أفضل ؟

فقال الذي لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله . قالوا ويدل على صحة هذا أن النبي - ﷺ - عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها - وقال ( بل أجوع يوما وأشبع يوما ) ولو أخذها لأنفقها في مرضاة الله وطاعته فأثر مقام الصبر عنها والزهد فيها قالوا ، وقد علم أن الكمال الانساني في ثلاثة أمور : علوم يعرفها وأعمال يعمل بها ، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله ، وأفضل العلم والعمل والحال ؛ العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء ، فهذا أشرف ما في الدنيا وجزاؤه أشرف ما في الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنغم بذكره . وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا هو الغاية التي تطلب لذاتها وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة ، وإلا فهو في الدنيا وإن شعر بذلك ببعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التي عليه والمحن التي امتحن بها ، والا فليست السعادة في الحقيقة سوى ذلك ، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم في فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، فهو أعلى مما دونه ، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذي خلق له فهو أقرب مما دونه ، وكذلك الأعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره لهذا كانت الصلاة والجهد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلى المقصود ، وهكذا يجب أن يكون . فإنه كلما كان الشيء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها . فالعمل المعد للقلب المهيء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك . وإذا اشتركت عدة أعمال في هذا الإفضاء فأفضلها أقربها إلى هذا المفضى . ولهذا اشتركت الطاعات في هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصي في حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية ، فكانت منهيًا عنها وتأثير الطاعات والمعاصي بحسب درجاتها .

وها هنا أمر ينبغي التفتن له . وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه في حق غيره . فالغنى الذي بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شيء منه فصدقته وإيثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة . والشجاع الشديد الذي يهاب العدو سطوته . وقوفه في الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع . والعالم الذي قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير

والشر : مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم في دينهم أفضل من اعتزاله وتفرغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح . . . وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده : جلوسه ساعة للنظر في المظالم وانصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل . أفضل من عبادة سنين من غيره . ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته . وتأمل تولية النبی - ﷺ - لعمر بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبى ذر ، بل قال له: إني أراك ضعيفا وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ، وأمره وغيره بالصيام وقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له . وأمر آخر بالآلا يغضب .

وأمر ثالثا بالآلا يزال لسانه رطبا من ذكر الله . ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لا استفراغ وسعه فيما هو مستعد له . قابل له قد هيء له . فإذا استفراغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل :  
ما زال يسبق حتى قال حاسده  
هذا طريق الى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به . وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه ، فالشح المطاع مثلا من المهلكات ، ولا يزيله صيام مائة عام ، ولا قيام ليلها . وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع في العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده ، ولو قيل أيهما أفضل : الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب أن هذا في موضعه أفضل . وهذا في موضعه أفضل .

وإذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال ، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه . فتهايا لمعرفة الله ومحبته فهو دواء للداء الذى في القلب يمنعه من المقصود . وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء . وتوفرت قوته على استفراغ الوسع في حصول المقصود ، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا : فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه . بأن قالوا : الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب . ومرض القلوب بما لا يشعر به غالبا . فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب ، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك .

قالوا : وإذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة . وحال الشاكر المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم . قال الشاكرون : لقد تعديتم طوركم ، وفضلتم مقاما غيره أفضل منه

وقد متم الوسيلة على الغاية . والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه والعمل الكامل على الأكمل ، والفاضل على الأفضل ، ولم تعرفوا للشكر حقه ولا رقيتموه مرتبته . وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر والصبر خادما لهما ، ووسيلة إليهما وعون عليهما قال تعالى : ﴿ اذكروني أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ (١) وقرن سبحانه الشكر بالايمان وأخبر أنه لا غرض له من عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ (٢) أى إن وفيتم ما خلقتكم له وهو الشكر والايمان فما أصنع بعذابكم ؟ هذا وأخبر سبحانه : أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ (٣) وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله . قال تعالى فى الانسان : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (٤) .

وقال نبيه سليمان : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أشكر أم أكفر ومن شكر فإنا يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ (٦) . وقال تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ (٧) وهذا كثير فى القرآن .  
يقابل سبحانه بين الشكر والكفر ، فهو ضده قال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (٨) .

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الايمان فلم ينقلبوا على أعقابهم . وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله : ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾ (٩) وقوله فى الاجابة ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾ (١٠) وقوله : فى الرزق ﴿ يرزق من يشاء ﴾ (١١) وفى المغفرة ﴿ ويغفر لمن يشاء ﴾ (١٢) والتوبة

(٧) جزء من آية فى سورة الزمر رقم ٧ .

(٨) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

(٩) سورة التوبة من الآية : ٢٨ .

(١٠) سورة الانعام من الآية : ٤١ .

(١١) سورة النور من الآية : ٣٨ .

(١٢) سورة المائدة من الآية : ٤٠ .

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٢ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٧ .

(٣) سورة الانعام الآية : ٥٣ .

(٤) سورة الانسان الآية : ٣ .

(٥) سورة النمل من الآية : ٤٠ .

(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾<sup>(١)</sup> وأطلق جزاء الشكر إطلاقاً حيث ذكر كقوله ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾  
﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه فقال : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾<sup>(٢)</sup> ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾<sup>(٣)</sup> .

وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه سمع رجلاً يقول : ( اللهم اجعلني من الأقلين ) . فقال ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إن الله قال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾<sup>(٦)</sup> ( فقال عمر صدقت ) .

وقد أثنى الله سبحانه - وتعالى - على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً ﴾<sup>(٧)</sup> وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثاني . فإن الله تعالى : لم يجعل للخلق بعد الفرق نسلاً إلا من ذريته كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾<sup>(٨)</sup> فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فإنه كان عبداً شكوراً .

وقد أخبر سبحانه أننا يعبد من شكره . فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾<sup>(٩)</sup> وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى : ﴿ يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾<sup>(١٠)</sup> وأول وصية وصى الله بها الإنسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾<sup>(١١)</sup> وأخبر أن رضاه في شكره فقال تعالى : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾<sup>(١٢)</sup> وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباؤه وهده إلى صراط مستقيم ﴾<sup>(١٣)</sup> فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به في الخير ، وأنه قانت لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله .

(١) سورة التوبة من الآية : ١٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧ .

(٣) سورة سبأ من الآية : ١٣ .

(٤) سورة هود من الآية : ٤٠ .

(٥) سورة سبأ من الآية : ١٣ .

(٦) سورة (ص) من الآية : ٢٤ .

(٧) سورة الإسراء الآية : ٣ .

(٨) سورة الصافات آية : ٧٧ .

(٩) سورة البقرة من الآية : ١٧٢ .

(١٠) سورة الأعراف : آية : ١٤٤ .

(١١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

(١٢) سورة الزمر من الآية : ٧ .

(١٣) سورة النحل الآية : ١٢٠ ، ١٢١ .

وأخبر سبحانه : أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التي خلق عبده لأجلها ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ (٢) ويجوز أن يكون قوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ تعليلا لقضائه لهم بالنصر ، ولأمره لهم بالتقوى ، ولهما معا : وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والأمر ، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾ (٣) قالوا : فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ، فهو خادم الشكر . وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - ﷺ - أنه قام حتى تفتطرت قدماه فقبل له أنفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : ( أفلا أكون عبدا شكورا ) (٤) وثبت في المسند والترمذي أن النبي - ﷺ - قال لمعاذ : ( والله إني لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ) (٥) وقال ابن أبي الدنيا : حدثنا اسحاق بن اسماعيل ، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون وهشام بن عروة قال : ( كان من دعاء النبي - ﷺ - : ( اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ) قال : وحدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن اسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكر ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا وزوجة لا تبغيه خوفا في نفسها ولا في ماله ) (٦) وذكر أيضا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي - ﷺ - قال : ( ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها ، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره ، وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له ) (٧) .

(١) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢٣ .

(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ .

(٤) في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان الطبعة المصرية بالكويت ( في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ) باب : أكثر الأعمال والاجتهاد في العبادة رقم ١٧٩٥ وقال المحقق : أخرجه البخاري ( في كتاب التهجد ) باب : قيام النبي - ﷺ - حتى تودم قدماه ورواه الامام احمد في مسنده عن المغيرة بن شعبة كما جاء في تفسير سورة الفتح في مختصر ابن كثير ج ٣ - ٣٤٠ وقال : أخرجه البخاري ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود ، كما أخرجه مسلم والامام احمد .

(٥) الحديث في الوابل الصيب ورافع الكلم والطيب لشمس الدين بن قيم الجوزية ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ وقال محققه الشيخ الأنصاري : لم أجده في الترمذي والذي ذكره شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية في كتاب الكلم الطيب أن هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائي ذكر ذلك في الفصل الذي عقده للدعاء في الصلاة وبعد التشهد ، وقال الحافظ ابن عبد الهادي في كتابه « المحرر في الحديث » وعن معاذ أن رسول الله - ﷺ - أخذ بيده وقال : يا معاذ إني أحبك ، أوصيك يا معاذ لا بد عن في دبر كل صلاة تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك رواه احمد وابو داود والنسائي .

(٦) الحديث أخرجه الطبراني في معجمه الكبير في ترجمة طلق بن حبيب عن ابن عباس ج ١١ ص ١٣٤ رقم ١١٢٧٥ وقال المحقق : ورواه في الأوسط ١٩١ مجمع البحرين بنفس السند والسنن فلا معنى لقول الحافظ الهيثمي في المجمع ٤ - ٢٧٣ ورجال الأوسط رجال الصحيح . فهو في الكبير بنفس السند . قال المنذرى في الترغيب ٣ - ٢٠٦ رواه الطبراني بإسناد جيد . وضعفه شيخنا في سلسلة الضعيفة ١٠٦٦ .

(٧) في مجمع الزوائد .

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه - ﷺ - أنه قال : ( إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها ) (١) فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ (٢) في مقابلة شكره بالحمد . وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله ابن صالح : حدثنا أبو زهير يحيى بن عطار القرشى ، عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - ( لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة ) (٣) لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ (٤) وقال الحسن البصرى ( إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا ) ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ » لأنه يحفظ النعم الموجودة و « الجالب » لأنه يجلب النعم المفقودة وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال لرجل من همدان : ( إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان في قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبيد ) . وقال عمر بن عبد العزيز ( قيدوا نعم الله بشكر الله ) وكان يقال : ( الشكر قيد النعم ) وقال مطرف بن عبد الله ( لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبلى فأصبر ) وقال الحسن ( أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر ) وقد أمر الله تعالى : نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ (٥) والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال وقال على ابن الجعدى : سمعت سفیان الثورى يقول : ( إن داود عليه الصلاة والسلام قال : الحمد لله حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلالة فأوحى الله إليه : يا داود أتعبت الملائكة .

وقال شعبة : حدثنا المفضل بن فضالة ، عن أبى رجاء العطارى قال : ( خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : ( إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ) (٦) وفي صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى - ﷺ - قال : ( كلوا واشربوا وتصدقوا في غير خيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ) (٧) وذكر شعبة عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن أبيه قال : ( أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا كشف الهيئة ، فقال هل لك من مال ؟ قال : قلت : نعم ، قال : من أى المال ؟

(١) الحديث في صحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ج ٤ ص ٢٠٩٥ رقم ٢٧٣٤ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٢ .

(٣) أنظر الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطى في تفسير سورة إبراهيم ج ٥ ص ٩ بمعناه .

(٤) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

(٥) سورة الضحى الآية : ١١ .

(٦) مجمع الزوائد في (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٢ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات .

(٧) هذا جزء من حديث أخرجه الترمذى في سننه في (كتاب الأدب) باب : ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٢٨١٩ .



قلت : من كل المال قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم قال : فإذا آتاك الله مالا فلير عليك<sup>(١)</sup> وفي بعض المراسيل : أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مأكله ومشربه . وروى عبد الله بن يزيد المقرئ عن أبي معمر عن بكير بن عبد الله رفعه ( من أعطى خيرا فرؤى عليه سمي حبيب الله محدثا بنعمة الله ، ومن أعطى خيرا ولم ير عليه سمي بغيض الله معاديا لنعمة الله )<sup>(٢)</sup> وقال فضيل بن عياض كان يقال : من عرف نعمة الله بقلبه وحده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقال : ( من شكر النعمة أن يحدث بها ) وقد قال تعالى : ( يا ابن آدم إذا كنت تتقلب في نعمتي وأنت تتقلب في معصيتي فاحذرنى لأصرعك بين معاصي ، يا ابن آدم اتقني ونم حيث شئت ) وقال الشعبي ( الشكر نصف الإيمان ) واليقين الإيمان كله وقال أبو قرربة ( لا تضرركم دنيا شكرتموها ) وقال الحسن ( إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث نعمته عليهم عذابا ) وقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذي لا يشكر نعمه . قال الحسن ( إن الانسان لربه لكنود ) بعد المصائب وينسى النعم وقد أخبر النبي - ﷺ - أن النساء أكثر اهل النار لهذا السبب قال : ( لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط ) فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهي في الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله .

والظلم مردود على من ظلم  
تشكو المصيبات وتنسى النعم

يا أيها الظالم في فعله  
إلى متى أنت وحتى متى

ذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي عبد الرحمن السلمى ، عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - ( التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة . والفرقة عذاب )<sup>(٣)</sup> . قال مطرف بن عبد الله : ( نظرت في العافية والشكر فوجدت فيها خير الدنيا والآخرة ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبلى فأصبر ) ورأى بكر بن عبد الله المزنى حمالا عليه حمله وهو يقول : الحمد لله أستغفر الله قال : فانتظرت حتى وضع ما على ظهره وقلت : أما تحسن غير هذا ؟ قال : بلى . أحسن خيرا كثيرا ، أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفر لذنوبى فقلت الحمال أفقه من بكر .

(١) في مجمع الزوائد في (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٣ وقال الهيثمي : رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا باب : شكر الصنعة (كتاب قضاء الحوائج) ص ٩٠ رقم ٧٧ .

(٣) الحديث أخرجه ابن كثير في تفسير الضحى ج ٨ ص ٤٤٩ بتقديم وتأخير في بعض الفاظه وقال : استاده ضعيف وقال المحقق رواه الامام احمد في مسنده : ٤ - ٢٧٨ ، ٣٧٥ .

وذكر الترمذى من حديث جابر عن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه فقراً عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال : (قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن رداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد )<sup>(١)</sup> وقال مشعر : لما قيل لآل داود ( اعملوا آل داود شكراً ) لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصل . وقال عون بن عبد الله : قال بعض الفقهاء إني رأيت في أمرى ، لم أر خيراً إلا شراً معه إلا المعافاة والشكر ، فرب شاكر في بلائه ، ورب معافى غير شاكر ، فإذا سألتهم الله فاسألوهما جميعاً . وقال أبو معاوية : لبس عمر بن الخطاب قميصاً فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم مد يديه فنظر شيئاً يزيد على يديه فقطعه ، ثم أنشأ يحدث ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( من لبس ثوباً ( أحسبه جديداً ) فقال : حين يبلغ ترقوته ، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسبه مسكيناً لم يزل فى جوار الله ، وفى ذمة الله وفى كنف الله حياً وميتاً ، ما بقى من ذلك الثوب سلك )<sup>(٢)</sup> .

وقال عون بن عبد الله ( لبس رجل قميصاً جديداً فحمد الله فغفر له ، فقال رجل ارجع حتى اشتري قميصاً فألبسه وأحمد الله ) وقال شريح : ( ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان الله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت فى دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لا بد كائنة فقد كانت ) وقال عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز : ( ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عليه إلا قال : اللهم إني أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفراً ، وأن أكفرها بعد أن عرفتها ، وأن أنساها ولا أثنى بها ) وقال روح ابن القاسم : ( تنسك رجل فقال لا أكل الخبيص لا أقوم بشكره ) فقال الحسن : هذا أحق وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ .

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله - عز وجل - : ( ابن آدم خيرى إليك نازل وشرك إلى صاعد ، أتحب إليك بالنعم ، وتتبغض إلى بالمعاصي ، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح ) قال ابن أبى الدنيا حدثني أبو على قال : كنت أسمع جاراً لى يقول فى الليل : ( يا إلهى خيرك على نازل وشركى إليك صاعد ، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح ، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلى بالنعم ، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك المعاصي ، وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى ) وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد قال : أصبحنا مغرقين فى النعم عاجزين عن الشكر يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون . وقال عبد الله بن ثعلبة : إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى ، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد ، وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوباً جديداً قال : بسم الله والحمد لله . وقال أنس بن مالك : ( ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعزم رزقه ، فجعله فى أيدي بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه ، فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر وأن أباه وجد

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى ( كتاب تفسير القرآن باب : تفسير من سورة الرحمن ) ص ٣٩٩ رقم ٣٢٩١ وقال أبو عيسى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٢) الحديث فى كتاب الدعاء باب : أدعية اللباس : ما يقوله المسلم إذا لبس ثوباً جديداً رقم ٣ ص ١٣٢ .

الغنى الحميد عبادا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبي تيمية : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أفضل . ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرني بها أحد . . ومودة قذفها الله في قلوب العباد لا يبلغها عملي » .

وروى ابن أبي الدنيا عن سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن عبد الله بن سلام ، أن موسى - عليه السلام - قال : « يا رب ما الشكر الذي ينبغي لك ؟ قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكرى » وروى سهيل بن أبي صالح عن أبيه ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ( دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي - ﷺ - فانطلقنا معه ، فلما طعم وغسل يديه قال : الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع رب ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسى من العرى ، وهدى من الضلالة وبصر من العمى ، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا . الحمد لله رب العالمين ) . وفي مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : ( ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت ) ويذكر عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال : يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم ) ذكره ابن أبي الدنيا . وقال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا صالح ، عن أبي عمران الجوني ، عن أبي الجلود قال : قرأت في مسألة داود أنه قال : ( يا رب كيف لي أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك . . قال : فأتاه الوحى : يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإنى أرضى بذلك منك شكرا ) (١) .

وقال عبد الله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا أبو الوليد ، عن سعيد بن عبدالعزيز قال : ( كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء ) . وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثني الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود ( أحبنى وأحب عبادى وحبيبي إلى عبادى قال : يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحبيك إلى عبادك ؟ قال : تذكرني عندهم فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن ، فجل جلال ربنا ، وتبارك اسمه وتعالى جده ، وتقديست أسماؤه ، وجل ثناؤه ولا إله غيره ) وقال أحمد : حدثنا عبدالرازق بن عمران قال : سمعت وهبا يقول : ( وجدت في كتاب آل داود : بغزق أن من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجا . ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السوء ، وأخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله في الهواء ، ثم أكله إلى نفسه . كفى بى لعبدى مالا ، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألنى ، وأجبتة قبل أن يدعوني ، وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه ) .

وقال أحمد : حدثنا يسار ، حدثنا حفص ، حدثنا ثابت قال : كان داود - عليه السلام - قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها ، قال فعمهم تبارك وتعالى في هذه الآية : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادي الشكور ﴾ <sup>(١)</sup> .

قال أحمد : وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عتبة ، قال داود : ( يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرا لك مني ؟ فأوحى الله إليه : نعم الضفدع . وأنزل الله عليه ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ﴾ قال يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم علي ، ثم ترزقني على النعمة الشكر ، ثم تزيدني نعمة بعد نعمة ، فالنعم منك والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك ؟ قال : الآن عرفتني يا داود <sup>(٢)</sup> قال أحمد : وحدثنا عبد الرحمن ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن قال نبي الله داود : ( إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والذهر ما وفيت حق نعمة واحدة <sup>(٣)</sup> ) وذكر ابن أبي الدنيا عن أبي عمران الجوني ، عن أبي الجلد قال . قال موسى : يا رب كيف لي أن أشكر وأصغر نعمة وضعتها عندي من نعمك لا يجازي بها عملي كله ، قال : فاتاه الوحي : يا موسى الآن شكرتني .

قال بكر بن عبد الله : ( ما قال عبد قط الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول الحمد لله فجاءت نعمة أخرى ، فلا تنفد نعم الله ) وقال الحسن ! سمع نبي الله رجلا يقول : الحمد لله بالاسلام ، فقال : ( إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة ) . وقال خالد بن معدان : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : ( ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ في الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذي أنعم علينا وهادانا للاسلام ) وقال سليمان التيمي : إن الله سبحانه : أنعم على عبده على قدره . وكلفهم الشكر على قدرتهم وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول : ( الحمد لله ، ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالاسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافة ، كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا وجمعت فرقنا وأحسنست معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطينتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا في قديم أو حديث أو سر أو علانية ، أو خاصة أو عامة أو حي أو ميت ، أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ) .

وقال الحسن : قال موسى ( يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدي شكر ما صنعت إليه . خلقتك بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له ، فقال يا موسى : علم أن ذلك مني فحمدني عليه ، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه ) وقال سعد بن مسعود الثقفي إنما سمي نوح عبدا

( ١ ) الحديث في الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨٠ وقال : وأخرجه ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإيمان انظره .

( ٢ ) الحديث أخرجه السيوطي في الدر المنثور في التفسير بالمأثور في تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨١ .

( ٣ ) جزء من حديث أورده صاحب الدر المنثور في التفسير بالمأثور ج ٦ ص ٦٨١ وقال : عن أبي الجلد ( بدل الخلد ) .

شكورا لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما إلا حمد الله . وكان على بن أبي طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال : يا لها من نعمة لو يعلم العباد شكرها وقال مخلد بن الحسين : كان يقال : الشكر ترك المعاصي . وقال أبو حازم : كل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية . وقال سليمان : ذكر النعم يورث الحب لله . وقال حماد بن زيد : حدثنا ليث عن أبي بردة قال : قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لي : ألا تدخل دخلة النبي - ﷺ - ونطعمك سويقا وتمرا ؟ ثم قال : (إن الله إذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم . فيقول العبد ما آية ذلك ؟ فيقول آية ذلك أنك في كربة كذا وكذا قد دعوتني فكشفتها . وآية ذلك أنك كنت في سفر كذا وكذا فاستصحبتي فصحبتك . قال : يذكره حتى يذكر ، فيقول : آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبتها معك خطاب فزوجتك ورددتهم . يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكي ثم بكى ثم قال : إني لأرجو الله ألا يقعد الله عبدا بين يديه فيعذبه). وروى ليث بن أبي سليم عن عثمان ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - يؤق بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله - عز وجل - لنعمة من نعمه : خذى حقا من حسناته ، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها ) وقال بكر بن عبد الله المزني ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه ، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره ، يقول : إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه ، قال : أولا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه ، ولكن الله صرفه عني . وذكر ابن أبي الدنيا عن صدقة ابن يسار قال : (بيننا داود عليه السلام في محرابه إذ مرت به ذرة : فنظر إليها وفكر في خلقها وعجب منها وقال : ما يعبؤ الله بهذه ؟ فأنطقها الله فقالت : يا داود أتعجبك نفسك فوالذي نفسي بيده لأنا على ما آتاني الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله ) .

وقال أيوب : ( إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء النبي - ﷺ - ) وقال نضيان الثوري : كان يقال : ليس بنقيه من لم يعد البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة . وقال زازان : مما يجب لله على ذي النعمة بحق نعمته ألا يتوصل بها إلى معصية . قال ابن أبي الدنيا أنشدني محمود الوراق .

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة	على له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضلله	وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها	وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة	تضيق بها الأفهام والبر والبحر

وقد روى الدرا وردي عن عمر بن أبي عمرو ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - يعني : قال الله - عز وجل - : (إن المؤمن عندي بمنزلة كل خير ، يحمدي وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه). ومر محمد ابن المنكدر بشاب يغامر امرأة فقال : يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك . وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال : قال أبو العالية : إني لأرجو ألا يهلك عبد بين

اثنين : نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه . وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقعة ( أما بعد ) : فلتكن التقوى من بالك على كل حال ، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها ، فإن فى النعم حجة وفيها تبعة ، فأما الحجة بها فالمعصية بها . وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها ، فعفا الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب ، أو قصرت من حق ، ومرو الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة ، فجلس يحمد الله ويبكى ، قيل له ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية ، وأهل النار بأهل البلاء ، فذلك الذى أبكاني . وقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - ( إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فليَنظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه ) ، قال عبد الله بن المبارك أخبرنى يحيى بن عبد الله قال : سمعت أبى قال : سمعت أبا هريرة فذكره .

وقال ابن المبارك : حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال : قال أبو الدرداء : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه . قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس ، عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سلم على رجل فرد عليه السلام ، فقال عمر للرجل كيف أنت ؟ قال الرجل : أحمد إليك الله ، قال : هذا أردت منك ، قال ابن المبارك : وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لعلنا نلتقى فى اليوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله - عز وجل - . وقال مجاهد : فى قوله تعالى ( وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ) قال : لا إله إلا الله ، وقال ابن عيينة : ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله ، قال : وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا .

وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد : أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبرا ، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون ، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون ، وأصبح الناس يتتجون وأنتم تركبون ، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون ، فبكى وأبكاهم . وقال عبد الله بن قرط الأزدي : وكان من الصحابة على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب . يا لها من نعمة ما أشبعها ، ومن كرامة ما أظهرها ، مازال عن قوم شيء أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنع .

وقال سلمان الفارسي - رضى الله عنه - إن رجلا بسط له من الدنيا فانتزع ما فى يديه فجعل يحمد الله ويثنى عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية ، قال : فجعل يحمد الله ويثنى عليه ، وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية : أرايتك أنت على ما تحمد الله ؟ قال : أحمد على ما لو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه . قال وما ذاك ؟ قال أرايتك بصرك ، أرايتك لسانك ، أرايتك يديك ، أرايتك رجلك .

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له . يونس : أيسرك بيضرك هذه مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا قال فبيديك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال فبرجليك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فذكره نعم الله عليه ، فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة ، وكان أبو الدرداء يقول : الصحة الملك .

وقال جعفر بن محمد - رضى الله عنه - : فقد أبى بغلة له فقال : إن ردها الله على لأحمدنه بمحامد يرضاه ، فما لبث أن أتى بسرجهما ولاجمها ، فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال : الحمد لله لم يزد عليه فقيل له : في ذلك فقال : هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن اسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه ، عن جده قال : بعث رسول الله - ﷺ - بعثا من الأنصار وقال : إن سلمهم الله وغنمهم فإن الله على في ذلك شكرا ، قال : فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا ، فقال بعض أصحابه : سمعناك تقول : إن سلمهم الله وغنمهم فإن الله على في ذلك شكرا ؟ قال : قد فعلت ( اللهم لك الحمد شكرا ولك الحمد وصلا ) .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم يا أبا حازم ما أكثر من يلقاني فيدعولي بالخير ، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرا قط ؟ فقال أبو حازم : لا تظن أن ذلك من قبلك ، ولكن انظر إلى الذي ذلك من قبله فاشكره ، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ (١) وقال على بن الجعد : حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون ، حدثني من أصدقه أن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - كان يقول في دعائه : ( أسالك تمام النعمة في الأشياء كلها ، والشكر لك عليها حتى ترضى ، وبعد الرضا والخيرة في جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم ) .

وقال الحسن : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ . قال ابن أبي الدنيا : وبلغني عن سفيان بن عيينة أنه قال : هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ثم قال : وقال بعض أهل العلم إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمد عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغي له أن يشكره ، فكان الحمد له أفضل قلت لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة ، فإن قوله الحمد لله نعمة من نعم الله ، والنعمة التي حمد الله عليها أيضا نعمة من نعم الله ، وبعض النعم أجل من بعض ، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم . وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ، وفعل العبد هو مفعول الله ، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض . وقال بعض أهل العلم : لنعم الله علينا فيما زوى عنا الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا ، فأنا أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه .

وقال ابن أبي الدنيا : بلغني عن بعض العلماء أنه قال : ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما زوى

عنه من شهوات الدنيا ، كما يحمد على ما أعطاه ، وأين يقع ما أعطاه الله ، والحساب يأتي عليه ، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به ، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه .  
وحدث عن ابن أبي الحواري قال : جلس فضل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذكran النعم ، فجعل سفيان يقول : ( أنعم الله علينا في كذا وكذا ، أنعم الله علينا في كذا فعل بنا كذا ) وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان في قوله : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال : يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر ، وقال غير سفيان كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة . وسئل ثابت البناني عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين . وقال يونس في تفسيرها إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة حفظها وبقي عليها ثم شكر الله بما أعطاه ، أعطاه أشرف منها ، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ، وكان تضييعه الشكر استدراجاً .

وقال أبو حازم : نعمة الله فيما زوى عني من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطاني منها ، إني رأيته أعطاهما أقواماً فهلكوا ، وكل نعمة لا تقرب من الله فهي بلية ، وإذا رأيت الله سابغاً عليك نعمة وأنت تعصيه فاحذره .

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعي أنه وعظهم فقال في موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التي أصبحتم فيها ، على الحرب من نار الله الموقدة التي تتطلع على الأفئدة ، فإنكم في دار : الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعماراً ، وأمد أجساداً ، وأعظم آثاراً ، فقطعوا الجبال ، وجابوا الصخور ونقبوا في البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالي أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكركم فما تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم ركزا ، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذي نزل بساحتهم بياناً من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم في دارهم جائمين ، وأصبح الباقون ينظرون في آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها ، أن للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى ، وأصبحتم من بعدهم في أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه ، وذبح رخاؤه ، فلم يبق منه إلا حمة شر ، وصباية كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال فتن وتتابع زلازل ورددات خلف ، بهم ظهر الفساد في البر والبحر . ولا تكونوا أشباهاً لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، وتبلغ بطول الأمان ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره ، وعقل بشره فمهد لنفسه . اهـ

وكان يقال : الشكر ترك المعصية ، وقال ابن المبارك : قال سفيان ليس بفقير من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

ودعى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى قوم على رية فانطلق ليأخذهم ففترقوا قبل أن يبلغهم فاعتق رقبة شكراً لله ألا يكون جرى على يديه خزي مسلم .

وقال رجل لأبي حازم : ما شكر العينين يا أبا حازم ؟ قال : إن رأيت بهما خيراً أعلنته ، وإن رأيت بهما شراً سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إن سمعت بهما خيراً وعيته ، وإن سمعت بهما شراً دفعته ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال لا تأخذ بهما ماليس لهما ولا تمنع حقاً لله هو فيهما : قال : فما شكر



البطن ؟ قال أن يكون أسفله طعاما ، وأعلاه علما ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال : قال الله ﷻ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيماهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﷻ (١) قال فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله ، وإن منعته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر . وذكر ابن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما رأى ما في وجوهنا قال : إني أبشركم بما يسركم ، إنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله نصر نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأتى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بني حمزة . فقال له جعفر : فما بالك جالسا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق ، قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى - ﷺ - أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما أحدث الله لهم من نعمة ، فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع .

وكان رسول - ﷺ - إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا له - عز وجل - ذكره أحمد وقال عبد الرحمن بن عوف : « خرج علينا رسول الله - ﷺ - فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود فقلت : يا رسول الله ، : سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها ، فقال : إن جبريل أتاني فبشرني أن الله - عز وجل - يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » رواه أحمد (٢).

وعن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال : خرجنا مع النبي - ﷺ - من مكة نريد المدينة ، فلما كنا قريبا من عزور نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا ثم قام فرقع يديه ساعة ثم خر ساجدا - فعله ثلاثا - وقال : إني سألت ربي وشفعت لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخرت ساجدا شكرا لربي ، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي فخرت ساجدا لربي ، ثم رفعت رأسي فسألت ربي فأعطاني الثلث الآخر ، فخرت ساجدا لربي . رواه أبو داود (٣) ولقد سجد كعب بن مالك في عهد النبي - ﷺ - لما بشر بتوبة الله عليه ، والقصة في الصحيحين .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٥ - ٧

(٢) الترغيب والترهيب : كتاب الذكر والدعاء ، باب الترغيب في إكثار الصلاة على النبي - ﷺ - ... الخ ج ٢ ص ٤٩٥ حديث ٤ عن عبد الرحمن بن عوف ولفظه « خرج رسول الله - ﷺ - فاتبعته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ، قال : فبحث أنظر فرقع رأسه فقال : مالك يا عبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له قال : فقال : إن جبريل - عليه السلام - قال لي : ألا أبشرك إن الله - عز وجل - يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه . زاد في رواية : فسجدت لله شكرا .. رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد (٣) سنن أبو داود « كتاب الجهاد » باب في سجود الشكر .. ج ٣ ص ٢١٧ رقم ٢٧٧٥ ورد الحديث بلفظه عن عامر بن سعد عن أبيه ..

فإن قيل : فنعم الله دائما مستمرة على العبد فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ، وقد تكون المستدامة أعظم ؟ . قيل : الجواب من وجوه :  
أحدهما : أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة ، والإنسان موكل بالأدنى  
الثانى : أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله  
السجود شكرا له .

الثالث : إن المتجددة لها وقعها فى النفوس ، والقلوب بها أعلق ، ولهذا يهتأ بها ويعزى بفقدائها .  
الرابع : أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها ، وكثير مايجر ذلك إلى الأشر والبطر ،  
والسجود لله ذل لله وعبودية وخضوع ، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرا  
بدوام تلك النعمة ، وإذا تلقاها بالفرح الذى لا يحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث  
الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال ، وانقلبت نقمة ، وعادت استدراجا .  
( فصل ) ومن دقيق نعم الله على العبد التى لا يكاد يظن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه  
من يطرق عليه الباب يسأله شيئا من القوت ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبى مطيع : دخلت على مريض أعوده فإذا هويثن فقلت له : اذكر المطروحين على  
الطريق ، اذكر الذين لا مأوى لهم ولا لهم من يخدمهم ، قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعتة يقول  
لنفسه : اذكرى المطروحين فى الطريق ، اذكرى من لا مأوى له ولا له من يخدمه .

وقال عبد الله بن أبى نوح : قال لى رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره  
فعاملتك بما تحب ؟ قلت : ماأحصى ذلك كثرة ، قال : فهل قصدت إليه فى أمر كريك فخذلك ؟  
قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إلى وأعاننى . قال : فهل سألته شيئا فلم يعطكه قلت : وهل منعى شيئا  
سألته ؟ ما سألته شيئا قط إلا أعطانى ، ولا استعنت به إلا أعاننى . قال : أرأيت لو أن بعض بنى آدم  
فعل بك بعض هذه الخلال ماكف جزاؤه عندك ؟ قلت : كنت أقدر له مكافأة وجزاء ، قال : فربك  
أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره ، وهو المحسن قديما وحديثا إليك ، والله لشكره أيسر  
من مكافأة عبادته ، إنه تبارك وتعالى يرضى من العباد بالحمد شكرا .

وقال ابن زيد : إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله - عز وجل - فيقضى لذلك المجلس  
حوائجهم . كلهم .

وقال وهب : عبد الله عابد خمسين عاما فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك قال : أى ربى ، وما  
تغفر لى ولم أذنّب ؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ، ثم سكن فقام ، ثم أتاه  
ملك فشكا إليه فقال مالقيت من ضربان العرق ، فقال الملك : إن ربك يقول : إن عبادتك خمسين  
سنة تعدل سكون العرق .

( فصل ) وبهذا تبين معنى الحديث الذى فى الصحيح : لن ينجى أحدا فيكم عمله ، قالوا ولا

أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ، فإن أعمال العبد لاتوافي نعمة من نعم الله عليه<sup>(١)</sup> .

( فصل ) ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله - سبحانه - يحب أن يسأل العافية ومايسأل شيئا أحب إليه من العافية كما في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام أبو بكر - رضي الله عنه - على المنبر ثم قال : « سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبد بعد اليقين خيرا من العافية »<sup>(٢)</sup> . وفي الترمذي عن العباس قلت : يا رسول الله ، علمني شيئا أسأله الله ؟ قال : سل الله العافية ، فمكثت أياما ثم جئت فقلت : علمني شيئا أسأله الله ؟ فقال لي : يا عباس ، يا عم رسول الله - ﷺ - سل الله العافية في الدنيا والآخرة .

وفي حديث آخر : « سلوا الله العفو والعافية والمعافة »<sup>(٣)</sup> وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية في الحال والمعافة في المستقبل بدوام العافية واستمرارها .

وفي صحيح مسلم أنه - ﷺ - عاد رجلا قد خفت - أي هزل - فصار مثل الفرخ . فقال - ﷺ - هل كنت تدعو الله بشيء أو تسأله إياه ؟ قال نعم كنت أقول اللهم ماكنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول الله - ﷺ - : سبحانه لاتطيقه ، أو لاتستطيعه ، أفلا قلت : اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فدعا الله له فشفاه .<sup>(٤)</sup>

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلسا يقول : لك الحمد بالاسلام ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا ، وأظهرت أمتنا ، وأحسنست معافاتنا ، ومن كل ماسألناك أعطينا ، فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا . أعطيت خيرا كثيرا وصرفت شرا كثيرا ، فلوجهك الجليل الباقي الدائم الحمد .

وقال الحسن : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى ، فقال آدم : يارب ألا سويت بين ولدي قال : يا آدم إني أريد أن أشكر .

وفي السنن عنه - ﷺ - « من قال حين يصبح : اللهم ماأصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فهنك وحدك لا شريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، إلا أدى شكر ذلك اليوم ومن قالها حين يمسي

( ١ ) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٣ ، ٥٣٧ ، ج ٣ ص ٣٦٢ فقد ورد الحديث بها بروايات مختلفة .

( ٢ ) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣ ورد هذا الحديث عن أوسط ضمن حديث بلفظ « .. فقال أبو بكر : سلوا الله المعافاة أو قال العافية فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة .. الخ .

( ٣ ) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣ ورد هذا الحديث من رواية رفاعة بن رافع بلفظ « .. سمعت أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول على منبر رسول الله - ﷺ - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ( فيكي أبو بكر حين ذكر رسول الله - ﷺ - ثم سري عنه ثم قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول في هذا الغيظ عام الأول : سلوا الله العفو والعافية واليقين في الآخرة والأولى ..

( ٤ ) انظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة .. الخ باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدين ج ٤ ص ٢٠٦٨ ، ٢٠٦٩ حديث رقم ٢٣ / ٢٦٨٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس

فقد أدى شكر ليلته»<sup>(١)</sup>.

- ويذكر عنه - ﷺ - أنه أوصى رجلا بثلاث ، فقال : أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه ،  
وعليك بالدعاء ، فإنك لا تدري متى يستجاب لك ، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة»<sup>(٢)</sup> .  
- ويذكر عنه - ﷺ - أنه إذا أكل قال : «الحمد لله الذي أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا»<sup>(٣)</sup> .  
- ويذكر عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عنها فقد أدى شكرها»<sup>(٤)</sup> .

وذكر على بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن بختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس في جب وأضرى  
أسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائما يصلى والأسدان في ناحية الجب لم  
يعرضا له . فقال له : ما قلت حين دفع غنك ؟ قال : قلت : « الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ،  
والحمد لله الذي لا يخيب من رجاءه ، والحمد لله الذي لا يكل من توكل عليه إلى غيره ، والحمد لله  
الذي هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد  
لله الذي يكشف عنا ضرا بعد كربتنا ، والحمد لله الذي يجزى بالإحسان إحسانا ، والحمد لله الذي  
يجزى بالصبر نجا» .

وقال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم ، إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .  
وقال مقاتل في قوله تعالى :

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾<sup>(٥)</sup> قال أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم  
بالمعاصي .

وقال أبو هريرة - رضي الله عنه - « من رأى صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك  
به وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا فقد أدى شكر تلك النعمة »

وقال كعب : « ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله  
نفعها في الدنيا ورفع له بها درجة في الآخرة ، وما أنعم الله على عبد نعمة في الدنيا فلم يشكرها ولم  
يتواضع بها إلا منعه الله نفعها في الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه » .  
وقال الحسن : من لا يرى الله عليه نعمه إلا في مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر  
عذابه .

(١) انظر سنن أبي داود «كتاب الأدب» باب ما يقول إذا أصبح ج ٥ ص ٣١٤ ، ٣١٥ حديث رقم ٥٠٧٣  
ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن غنم البياضي . وقال الخطابي : بنسبه المنذرى للنسائي في السنن الكبرى .

(٢) انظر حلية الأولياء للأصبهاني في ج ٧ ص ٣٠٥

(٣) انظر سنن أبي داود وكتاب الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ وورد الحديث  
بلفظ من أبي أيوب الأنصاري وقال الخطابي - ونسبه المنذرى للنسائي أيضا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الذكر والدعاء باب التسبيح والتكبير والتحميد . الخ ج ٢ ص ٧٣٩ حديث رقم ٥٠  
رواية جابر - رضي الله عنه - مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه ، وقال رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .  
وقد زاد في هذا الحديث : «فإن قالها ثانيا جدد الله ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله ذنوبه ،

(٥) سورة لقمان من الآية : ٢٠

وقال ابن المبارك : سمعت عليا بن صالح يقول في قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ <sup>(١)</sup> قال : أى من طاعنى ، والتحقيق أن الزيادة من النعم ، وطاعته من أجل نعمه .  
 وذكر ابن أبي الدنيا : أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانا أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد ، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذى صاحبه فلك الحمد ، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذى شففته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد . ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا .

وقال ابن المبارك بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :  
 سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرا شاكرا ، فمن نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به . ومن نظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على ما فضله به عليه ، كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر في دينه إلى من هو دونه ونظر في دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاتته منه لم يكتبه الله صابرا شاكرا » <sup>(٢)</sup>  
 وعن ابن عمر : أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتا في الجنة « من كان عصمة أمره لا إله إلا الله ، وإذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإذا أعطى شيئا قال : الحمد لله . وإذا أذنب قال استغفر الله » .

وقال ابن مبارك بسنده عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾ <sup>(٣)</sup> قال : لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه . ولم يشرب شرابا قط إلا حمد الله عليه ، ولم يبطش بشيء قط إلا حمد الله عليه ، فأثنى الله عليه إنه كان عبدا شكورا .  
 وقال ابن أبي الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال « لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى أن لا يعصى لشكر نعمته » .

(فصل) - والله - تبارك وتعالى - على عبده نوعان من الحقوق لا ينفك عنها :  
 أحدهما : أمره ونبيه اللذان هما محض حقه عليه .

والثانى : شكر نعمه التى أنعم بها عليه فهو - سبحانه - يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره ، فمشهد الواجب عليه لا يزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ، فإن لم يداركه بذلك هلك ، وكلما كان أفقه في دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم ، وشهوده لتقصيره أعظم ، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله .

(١) سورة ابراهيم من الآية : ٧

(٢) انظر كنز العمال الكتاب الثالث من حرف الهمزة في الأخلاق من قسم الأقوال باب الأخلاق والأفعال المحمودة الفصل الأول في حرف الشين - الشكر ج ٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ برقم ٦٤٢٣ وهذا الحديث روى عن عبد الله بن عمر بلفظ حديث حسن غريب

(٣) سورة الإسراء من الآية : ٣

وأكثر الديانين لا يعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس ، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصره الله ورسوله ودينه وكتابه . فهذه الواجبات لا تخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها ، فضلا عن أن يفعلوها ، وأقل الناس ديناً وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد في الدنيا جميعها ، وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره الله ويغضب لحرماته ويبدل عرضه في نصرته دينه . وأصحاب الكباثر أحسن حالا عند الله من هؤلاء . وقد ذكر أبو عمرو وغيره أن الله - تعالى - أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقرية ، فقال يارب : إن فيهم فلانا العابد الزاهد قال : به فابدأ وأسمعي صوته ، إنه لم يتمعر وجهه في يوم قط .

(فصل) وأما شهود النعمة فإنه لا يدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ولو عمل أعمال الثقلين ، فإن نعم الله - سبحانه - أكثر من أعماله ، وأدنى نعمة من نعمه تستنفذ عمله ، فينبغي للعبد ألا يزال ينظر في حق الله عليه .

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لا تدع له حسنة يراها ، ولا يزال مزريا على نفسه ذاما لها ، وما أقرببه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان .

### أيهما أفضل الغنى الشاكر أم الفقير الصابر

والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما الله - تعالى - ، فإن فرض استواءهما في التقوى استويا في الفضل ، فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يفضل بالفقر والغنى ، كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال - تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ <sup>(١)</sup> وقد قال - ﷺ - « لا فضل لعربي على عجمي ولا فضل لعجمي على عربي إلا بالتقوى » <sup>(٢)</sup> .

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر ، والشكر . وكل من الغنى والفقير لا بد له منها ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم ، وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل ؟ .

قيل : أتقاهما الله في وظيفته ومقتضى حاله . ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة ، كما قال تعالى في الأثر الإلهي : ﴿ ما تقرب إلى عبدي بمثل مداومة ما افترضت عليه . ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فإن قيل : فقد ثبت عن النبي ﷺ قال : « يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم . وذلك خمسمائة عام » <sup>(٤)</sup> قيل : هذا لا يدل على فضلهم على الأغنياء في الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٣

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٤١١ وهذا جزء من حديث الرسول ﷺ في خطبة الوداع :

(٣) انظر السنن الكبرى ج ١ ص ٢١٩ كتاب الشهادات باب ينبغي للمرأة ألا يبلغ منه ولا من غيره من تلاوة قرآن ولا صلاة نافلة ولا نظر في علم ما يشغله عن الصلاة حتى يخرج وقتها من رواية أبي هريرة ورواه البخاري في الصحيح عن محمد بن عثمان بن كرامة .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٣ من رواية أبي هريرة .

بالدخول . فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل في الدخول لحسابه . فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل في المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الأحمال بعده .

قيل : احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين .

والتحقيق : أن الله - سبحانه وتعالى - جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه وكان سيد الأغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر مالم يحصل لأحد سواه . ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه . ومن تأمل سيرته - ﷺ - وجد الأمر كذلك فكان ﷺ أصبر الخلق في موطن الصبر ، وأشكر الخلق في موطن الشكر . وربه - تعالى - كمل له مراتب الكمال فجعله في أعلى رتب الأغنياء الشاكرين . وفي أعلى مراتب الفقراء الصابرين .

والمقصود : أنه - سبحانه وتعالى - خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به كما في المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله - تعالى - » إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ﴿١﴾ »

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة وذلك الذي ينفعه في معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخر الدنيا والآخرة . والمقصود أنه - سبحانه - جعل الفقر والغنى ابتلاء وامتحانا للشكر والصبر والصدق والكذب والإخلاص والشرك قال تعالى : ﴿ المر . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ (٣)

فجعل الدنيا عرضا عاجلا ، ومتاع غرور ، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (٤) . فأخبر - سبحانه - أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال - سبحانه - :

﴿ قل أؤنبشكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾ (٥)

ثم ذكر - سبحانه - من يستحق هذا المتاع ومن أهله الذين هم أولى به فقال : ﴿ الذين

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أبي واقد الليثي مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه . وانظر صحيح البخاري كتاب الدعوات باب ما يتقى من فتنة المال ج ٨ ص ١١٥ فقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(٢) سورة المعنكوت الأيتان : ١ - ٣

(٣) سورة التغابن الآية : ١٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٥

يقولون ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار»<sup>(١)</sup> فأخبر سبحانه أن ما أعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان : ثواب يتمتعون به وأكبر منه وهو رضوانه عليهم .

قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال :

« مالى وللدنيا إنما مثل ومثل الدنيا كراكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها »<sup>(٢)</sup> .

وفي جامع الترمذى من حديث سهل بن سعد قال : قال رسول الله -ﷺ- « لو كانت الدنيا ترز عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »<sup>(٣)</sup> قال الترمذى حديث صحيح .

وفي صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد ، قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع وأشار بالسبابة »<sup>(٤)</sup> .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله -ﷺ- « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه ، وعالم أومتعلم »<sup>(٥)</sup> أخرجه الترمذى وقال حسن .

قول تعالى : ﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ .

وهذا مقام الرسالة التي تنطق حقا وتقول صدقا فيه الوعد والوعيد ، أى : إن تكذبوا بما جئتكم به من التوحيد والنبوة والبعث . فإن هناك أما سبقتكم كذبت رسلها فحق عليهم الوعيد فأهلكهم الله . قال تعالى : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾<sup>(٦)</sup> وقال عز من قائل : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون . فآما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد من قوة أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٦ - ١٧

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٤٤١ وهذا جزء من حديث مروى عن عبد الله بن مسعود

(٣) انظر المستدرک کتاب الرقاق ج ٤ ص ٣٠٦ عن رواية سهل بن سعد من حديث طويل والحديث الذي معنا جزء منه ، غير أنه جاء بكلمة «تزل» بدلا من «تعذل» وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وانظر كنز العمال ج ٣ ص ١٩٧ حديث رقم

٦١٣٢ فقد ورد برواية سهل بن سعد غير أنه جاء بكلمة تعذل - أيضا .

وانظر حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٥٣ فقد ورد الحديث عن سهل بن سعد بلفظ «تعذل» وقال : هذا حديث غريب من حديث عبد الحميد بن سليمان عن أبي حازم .

(٤) انظر صحيح مسلم «كتاب الجنة وصفة نعيمها» باب .. فناء الدنيا - الخ ج ٤ ص ٢١٩٣ حديث رقم ٢٨٥٨/٥٥ فقد ورد هذا الحديث من رواية المستورد بلفظه مع زيادة لفظ «والله» ومع تقديم وتأخير في الجزء الأخير من الحديث .

وانظر مجمع الزوائد «كتاب التوبة» باب «مثل الدنيا مع الآخرة» ج ١٠ ص ٢٨٨ فقد ورد الحديث برواية عن شداد بن آدمي الفهرى ، وانظر سنن الترمذى كتاب الزهد ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٥ فقد ورد الحديث عن مستورد . وقال : هذا حديث حسن صحيح

(٥) انظر سنن الترمذى «كتاب الزهد» باب ما جاء في هوان الدنيا على الله .. ص ٣٨٤ حديث ٢٤٢٤ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) سورة العنكبوت الآية : ٣٨



في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجين الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فإنما عليه ماحل وعليكم ماحلتكم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ (٢) ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ (٣) وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ﴾ (٤) ثم انتقل إبراهيم بعد بيان التوحيد والرسالة الى إثبات البعث وهذه الأصول الثلاثة قد أجمعت عليها رسالات السماء : الإلهيات - والنبوات - والسمعيات قال :

﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾

قياس الإعادة على البدء دليل على أن الإعادة أهون ، فالذى خلق من العدم قادر على أن يعيد مابداً بعد الفناء قال سبحانه :

﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ماتت لسوف أخرج حيا . أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ (٦) وقال جل جلاله ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٧) لذا جاء تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ . ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ (٨) .

ثم أقام الأدلة على أن البعث يسير على الله فقال :

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ لقد بدأه من العدم وبعد أن لم يكن شيئا مذكورا ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (٩) ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١٠) وعلى كل كفار عنيد أن يسأل نفسه هذا السؤال الذى أدلى به القرآن الكريم على سمع كل عاقل ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ (١١)

(٦) سورة مريم الآيتان : ٦٦ - ٦٧

(٧) سورة يس الآيات : ٧٧ - ٧٩

(٨) سورة لقمان الآية : ٢٨

(٩) سورة فصلت الآية : ٥٢

(١٠) سورة غافر الآية : ٥٧

(١١) سورة الطور الآيتان : ٢٥ - ٢٦

(١) سورة فصلت الآيات : ١٣ - ١٨

(٢) سورة النور من الآية : ٥٤

(٣) سورة ق من الآية : ٤٥

(٤) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ - ٢٢

(٥) سورة الروم الآية : ٢٧

إن الذى أبدع هذا الكون قادر على أن ينشئ النشأة الآخرة ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿ (١)

لذا جاء تذييل الآية ﴿ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾ فسبحان من اقتضت حكمته أن يعيد الخلق بعد فنائهم ليقيم ميزان العدالة ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٢) قال تعالى :

﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ بمقتضى العدالة فالقيامة دار جزاء واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

القبر باب وكل الناس داخله	يأليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك أى الدار تختار
مالعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفار

( وإليه تقلبون ) أى ترجعون فاعلموا أنكم غدا بين يدي الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ (٣) فسبحانك ربى كل شيء قائم بك ، وكل شيء خاشع لك ، يا عز كل ذليل يا قوة كل ضعيف ، يا غنى كل فقير ، يا مفرج كل ملهوف من عاش فعليك رزقه ، ومن مات فإليك منقلبه ، من سكت علمت سره ، ومن تكلم سمعت نطقه ، يا عالم السر والنجوى ، يا كاشف الضر والبلوى ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

قوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ أى : لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه ﴿ ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أى : جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ أولئك يثسوا من رحمتى ﴾ أى لانصيب لهم فيها ، ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أى موجع شديد فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وقال ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾

( ١ ) سورة يس الآيات : ٨١ - ٨٣

( ٢ ) سورة النجم من الآية : ٣١

( ٣ ) سورة الشعراء من الآية : ٢٢٧

وهذا منطق الباطل الذى عهدناه من قوم إبراهيم لقد دعاهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنهم لإفلاسهم الفكرى وبعد قيام الحجة عليهم لجأوا إلى استعمال العنف والقوة والقسوة فلم يقابلوا الحجة بالحجة والدليل بالدليل إنما استعملوا القوى العضلية مقابل القوى العقلية . ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ (١) وذلك أنهم حشدوا فى جمع أخطابا عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها هب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وخرج منها سالما بعدما مكث فيها أياما ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله تعالى : ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أى : سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وهكذا حكمت بحكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقا ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ (٢) فأصدرت بحكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فورا . ﴿ قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ (٣) نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين ونجيناهم ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ (٤) . وكان إبراهيم عندما ألقى فى النار يقول : حسبى الله وتعم الوكيل ، وهذه الكلمة أمان الخائف قال تعالى :

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ﴾ يقول لقومه مفزعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم فى عبادتهم للأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا

صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخذكم هذا لتحصل لكم المودة فى الدنيا فقط ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضا وشتانا ثم ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أى تتجاهدون ماكان بينكم ﴿ ويلعن بعضكم بعضا ﴾ أى يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ (٦)

وقال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (٧)

(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٧٣ - ١٧٥

(٦) سورة الأعراف من الآية : ٣٨

(٧) سورة الزخرف الآية : ٦٧

(١) سورة الصافات الايتان : ٩٧ - ٩٨

(٢) سورة الانبياء الآية : ٦٨

(٣) سورة الانبياء الآية : ٦٩

(٤) سورة الانبياء الايتان : ٧٠ - ٧١

وقال ههنا : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ﴾ الآية : أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالككم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . قال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي حدثنا أبو عاصم الثقفي حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جمعة بن هبيرة المخزومي عن أبيه عن جده عن أم هانئ أخت علي بن أبي طالب ، قالت : قال لى النبي - ﷺ : « أخبرك أن الله - تعالى - يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد فمن يدري أين الطرفان ؟ - قالت ، الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبون - قال أبو عاصم : يرفعون رءوسهم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة يا أهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم - قال - : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض في ظلمات الدنيا - يعنى المظالم - ثم ينادى يا أهل التوحيد ليحف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب » (١) . قوله تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إن مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ . ﴿ فآمن له لوط وقال إن مهاجر إلى ربى ﴾ أى : فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى ؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال : إن مهجرة كان من كونه من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ في الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاءه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لا فائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقي عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله - عز وجل - بأهله عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله - ﷺ - خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يا محمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : على أى حال رأيتها ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ﴿ التى تدب في الأرض ولا تسرع ﴾ وهو يسوقها ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صحبها الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » (٢) .

ثم ذكر العلة في الهجرة فقال

﴿ إنه العزيز الحكيم ﴾ أى : إن ربى هو العزيز الذى لا يذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراد به بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه . ثم ذكر سبحانه مامن به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كفاء إخلاصه له فقال :

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم هانئ .

(٢) انظر كنز العمال- كتاب الهيئة فصل الاكمال كتاب المهجرتين من قسم الأقوال ج ١٠٦ ص ٦٥٦ حديث رقم ٤٦٢٥٧ . وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٣ ص ٣٩٩ - ٣٤٠ تفسير سورة العنكبوت فى قوله تعالى ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾

(١) - ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ أى : ورزقناه من لدنا إسحاق ولدا ويعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله : ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلنا جعلنا نبيا﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾<sup>(٢)</sup> وفى الصحيحين : «إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»<sup>(٣)</sup>

(٢) - ﴿وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب﴾ فلم يوجد نبي من بعده إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .  
(٣) - ﴿وآتيناه أجره فى الدنيا﴾ فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولا جاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم : ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾<sup>(٤)</sup> وهذا لا يقال إلا فى المجهول بين الناس ، الا أنه تعالى اتخذ خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) - ﴿وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾ أى : وإنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين . وقصارى أمره - أنه - سبحانه - جمع له بين سعادة الدارين وآتاه الحسنى فى الحياتين .

### \* قصة لوط مع قومه \*

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَنَا تُؤْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَيْنَكُمْ لَنَا تُؤْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ

(١) سورة مريم الآية : ٤٩

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧٢

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٢٤ كتاب بدء الخلق باب من انتسب إلى آبائه فقد ورد الحديث بلفظ عن ابن عمر وأبى هريرة .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٦٠

الْقَرْيَةَ إِنَّا أَهْلُهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهْتَدُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

### \* تفسير المفردات

( الفاحشة ) أى : الفعلة الفاحشة المتناهية فى القبح قيل : هى إتيان الرجال فى أدبارها ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أى : الطريق ( المنكر ) الأمر المخالف للشرع المجافى للطبع السليم كاللواط وأنواع الفحش ( بالشرى ) بالبخارة بإسحاق ويعقوب ( الغابرين ) الباقين فى العذاب ( سىء بهم ) جاءته المساءة والغم بسببهم ﴿ ضاق بهم ذرعا ﴾ أى ضاق ذرعه بهم ، وذرع الإنسان طاقته كقولهم : ضاقت يده عن كذا مثلا ﴿ رجزا من السماء ﴾ عذابا شديدا منها وسمى بذلك لأنه يقلق المعذب مأخوذ من قولهم : ارتجز إذا ارتجس أى : اضطرب .

### \* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن قص علينا - سبحانه - قصص إبراهيم ومالاقاه من قومه من العتو والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا . أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتن قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفا لإبراهيم - عليه السلام - ولما استنصر لوط - عليه السلام - بربه بقوله : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ استجاب دعاءه وبعث لنصرته ملائكته ، وأمرهم بإهلاك قومه ، وأرسلهم من قبل بالشرى لإبراهيم فجاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصي ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال : إن فى القرية لوطا ، فقالوا : إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ينزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين ، وآية بينة لقوم يعقلون .

### \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

المقصود بالفاحشة هنا : ماجاء في قوله تعالى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ﴾ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم <sup>(١)</sup> وما جاء في قوله تعالى : ﴿ أنثكم لتأتون الرجال ﴾ وهذه الفعل الشنيعة لم يسبقهم بها أحد لذا عذبوا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين . قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴿ وقال عز من قائل : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ مسومة عند ربك للمسرفين <sup>(٢)</sup>

وقال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ فغشاها ماغشى <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابي ونذر ﴾ <sup>(٤)</sup> ولقد أضافوا إلى تلك الفعل الشنيعة كفرهم بالله وقطعهم السبيل على المارة فكانوا يسلبونهم أموالهم ويعتدون عليهم بكل أنواع الأذى كما أضافوا إلى ذلك إتيانهم المنكر فى ناديههم ومجتمعاتهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة أخبرني حاتم بن أبي صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب ، عن أبي صالح - مولى أم هانئ - عن أم هانئ . قالت لى : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله تعالى : ﴿ وتأتون فى نادىكم المنكر ﴾ قال : كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه <sup>(٥)</sup>

قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطا بسىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف وإنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون ﴾ .

لما استنصر لوط - عليه السلام - بالله - عز وجل - عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغى للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لاهمة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه أنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع

(١) سورة الشعراء الآية : ١٦٥ وجزء الآية : ١٦٦

(٢) سورة الذاريات الآيتان : ٣٣ - ٣٤

(٣) سورة النجم الآيتان : ٥٣ - ٥٤

(٤) سورة القمر الآيتان : ٣٨ - ٣٩

(٥) انظر مستند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ حديث أم هانئ ، فقد ورد الحديث عن روح عن أم هانئ بلفظه .

لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾  
 أى : من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان فلما رأهم كذلك ﴿ ساء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ أى : اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يصفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ وذلك أن جبريل - عليه السلام - اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منته وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بيّنة ﴾ أى واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإنكم لتعمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (١)

### \* قصص مدين وعاد وثمود وغيرهم \*

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثُمُودَ أَوْ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فصدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

### تفسير المفردات

(الرجفة) الزلزلة يقال : رجف يرجف رجفة أى : اضطراب (جاثمين) باركين على ركبهم ميتين (سابقين) فائتين غير مدركين (حاصبا) ريحا حاصبا أى : فيها حصباء يقال حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء (الصيحة) الصرخة الشديدة .



## \* التفسير \*

وإلى مدين أرسلنا لهم أخاهم شعيبا فدعاهم إلى الإيمان بالله وقال لهم : يا قوم اعبدوا الله ربكم  
مالك من إله غيره ، وارجوا اليوم الآخر أى افعلوا ما ترجون به العافية فى يوم الحساب والجزاء وإياكم  
والفساد فى الأرض ، فإن عاقبته وخيمة . فكذبوه ولم يؤمنوا به فأخذتهم الصيحة بالعذاب فارتجفت  
قلوبهم واضطربت حيث لا ينفع الاضطراب والخوف ، وأصبحوا فى ديارهم جائمين على ركبهم ميتين  
كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ! ؟ فهل من مدكر ؟ وأهلكنا عادا لما أرسلنا لهم أخاهم  
هودا يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسله ، فكذبوا وكفروا وأهلكنا ثمودا لما أرسلنا لهم أخاهم صالحا  
يدعوهم إلى عبادة الله فكفروا به وكذبوه .

وهاأنتم أولاء يا أهل مكة . ويامشركى العرب قد تبين لكم ذلك أى : إهلاكهم ، وظهرت لكم  
الأدلة الواضحة على عذابهم ، وهم قد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل الحق والصرط  
المستقيم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وكانوا مستبصرين أى : عقلاء أصحاب فكر ونظر ولكنهم لم  
ينتفعوا بذلك أفليس من العقل والحكمة أن تعتبروا وتتعضوا بهؤلاء الفاعقل من اتعظ بغيره ، والسعيد  
من اتعظ بنفسه ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

وأهلكنا قارون لما طغى وبغى ولما يمثل أمر الله ، وأهلكنا فرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى  
بالبينات من عند ربهم فاستكبروا فى الأرض ، إنهم كانوا خاطئين وكان فرعون وهامان عالين من  
المفسدين ، ولكنهم ماكانوا سابقين فائتين ، بل أدركهم أمر الله وبطشه ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ إنها أن  
تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف  
خبير ﴿ ١ ﴾

فكلا من هؤلاء وهؤلاء أخذنا بذنبه إذ كل نفس بما كسبت رهينة فمنهم من أرسلنا عليه ريحا  
حاصبة أهلكته وهم قوم لوط إنهم كانوا قوما يعملون الخبائث ، ومنهم من أخذته الصيحة بالعذاب  
كمدين وثمود ، صيحة ترجف الأرض منها والجبال فكانت بحق هى الرجفة ، ومنهم من خسفنا به  
وبداره الأرض . وهو قارون ليكون عبرة لكل طاغية جبار .

ومنهم من أغرقنا كقوم نوح وفرعون ، لما طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك  
سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد . وماكان الله ليظلمهم أبدا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

## \* مثل اتخاذ الأصنام آلهة \*

قوله تعالى :

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ  
الْعَنَكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

### - تفسير المفردات -

( أولياء ) أصناما يرجون نفعها ( العنكبوت ) حشرة معروفة ( أوهن ) أضعف ( مثل ) المثل : الصفة التي تشبه المثل في الغرابة .

### - المناسبة وإجمال المعنى -

لما بين الله تعالى أنه أهلك المشركين وأفناهم لما كذبوا الرسل وبالغوا في العناد ، وكان هذا بمثابة تعجيل العذاب لهم في الدنيا زيادة على ما أعد لهم في الآخرة من عذاب مقيم ، ولم ينفعهم في الدارين من دون الله معبود ، ولم يدفع عنهم العذاب ركوعهم للأصنام وسجودهم . لما بين هذا ضرب لهم مثلاً في اتخاذهم معبوداتهم آلهة باتخاذ العنكبوت بيتاً لم يقها من شر عاد عليها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ يقول العلامة ابن القيم : إن الله - سبحانه - ذكر أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم : فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . وهو أوهن البيوت وأضعفها .

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء . فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا على ضعفهم كما قال تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ (١) وقال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾ (٢) وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيء ﴾ (٣) .

(١) سورة مريم الآيتان : ٨١ - ٨٢

(٢) سورة يس الآيتان : ٧٤ - ٧٥

(٣) سورة هود الآية : ١٠١

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ، ويتكبر به ، ويستقر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده .

وفي القرآن أكثر من ذلك . وهو من أحسن الأمثال وأدناها على بطلان الشرك ، وعلى خسران صاحبه وحصوله على مقصوده . فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ؟

فالجواب : أنه - سبحانه - لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخذهم الموق أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا ، فلو علموا ذلك ما فعلوه ، ولكن ظنوا أن اتخذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقدرة . والأمر في الواقع بخلاف ماظنوه .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾ بعد التمثيل ! ولقد قال الزمخشري في تفسير الآية : وهذا زيادة توكيد على التمثيل . . على معنى أن الله يعلم أنهم لا يدعون من دونه شيئا له وجود ، وهو العزيز الحكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم العليم الخبير ، ويشغل بعبادة ما ليس بشيء أصلا .

وتلك الأمثال الرائعة التي هي من عيون الكلام لعمق أثرها في النفس ، وقوة فعلها في العقل نضربها للناس لا للبهائم والجمادات ، وما يعقلها ويدرك سرها ويقف على إشاراتها إلا العالمون ، ويقول الفخر : العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الفكري الدقيق يعقله العالم ، والمقصود من هذا أن العلم الذي أساسه محسوسات يسمى علما حدسيا كالاستدلال بالصوت على حياة صاحبه . أما إذا كان أساس العلم أمورا نظرية وآيات علمية كان إدراكها علما فكريا دقيقا يحتاج إلى معلومات وأفهام ، وذلك كالأمثال ، ومن هنا ندرك السر في تعبير القرآن : وما يعقلها إلا العالمون

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾

وفي هذه الآية سلوى للمؤمنين ، أي : إذا لم يؤمنوا مع وضوح الأدلة وذكر القصص وضرب الأمثال فلا يكون ذلك مانعا لكم مشككا في صحة دينكم فإن خلق الله السموات والأرض بالحق هو للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان واضح وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، حقا إن في ذلك أي خلق السموات والأرض آية للمؤمنين أما خلقها فقط فهو آية لكل عاقل كما قال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١)

### \* آداب إسلامية \*

أَتْلُ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٥٥﴾

### \* التفسير \*

اتل يا محمد ، وكذا كل مسلم ، اتل ما أوحى إليك من الكتاب الكامل الذى لا ريب فيه هدى للمتقين ، اتله واحفظه ليبقى مدى الدهر ، واعمل بما فيه ، ففيه نجاتك وضرك وعلاجك وعليك بالصلاة فهي عماد الدين ، وهي الصلة بين العبد والرب ، فإن جفاك الناس وألم بك حادث تكرهه فعليك بالقرآن ، والجا إلى الصلاة تتصل بالله ، وإذا اتصلت به كنت ربانيا روحانيا عند ذلك تدين لك الصعاب ، وتخضع الرقاب ، وتصل إلى ماتريد .

الصلاة عملية تطهير لصاحبها ، تتكرر لتغسل أذنه ، وما قد يكون علق بنفسه وروحه من غبار الدنيا ، وهي كما يقول النبي - ﷺ - مامعناه : هي عين أمام بيتك تغتسل منها خمس مرات فهل يبقى عليك درن ووسخ ؟ !!

الصلاة الحقيقية التامة الأركان ، المستوفية الشروط ، المقومة بأركانها وسننها وآدابها ، الصادرة من قلب برىء خالص ، سليم من الرياء والنفاق ، مملوء بالخوف من الله والرجاء في عفوه . هذه الصلاة هي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر . عن ابن عباس وابن مسعود قالا : « في الصلاة منتهى ومزدرج عن معاصي الله - تعالى - فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزد بصلاته من الله - تعالى - إلا بعدا » وقال الحسن وقتادة : « من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه » <sup>(١)</sup> ومن هنا ندرك كيف يقع من بعض المصلين فحش ومنكر ؟ والجواب : أنها صلاة بلا روح صلاة بلا خشوع ولا خضوع ، صلاة فيها رياء وسمعة ، صلاة لا يمكن أن تنهى عن فحشاء ومنكر . فليست الصلاة تنهى بقيامها وركوعها وسجودها لا إنما تنهى بذكر الله وتذكره .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ <sup>(٢)</sup> ومن هنا قال الله : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ والله يعلم الغيب والشهادة وهو العليم بذات الصدور فراقبوا الله مراقب من يعلم أن الله يسمعه ويراه . والذكر النافع هو الذى يكون مع العلم وإقبال القلب وتفرغ النفس مما سوى الله ، وأما مالا يتجاوز اللسان فشيء آخر والله يعلم ماتصنعون .

قوله تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ قيل في معناها : انكم في الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكركم ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من

(١) سنن الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٤٣٦ ورد الحديث بلفظ : « حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جارٍ غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات .

وعن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - مثله فماذا يبقى ذلك من الدرن ؟

(٢) سورة الرعد من الآية : ٢٨

ذكركم إياه ، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود - رضى الله عنهم - وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية « ولذكر الله أكبر .. قال هو قوله تعالى : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ <sup>(١)</sup> فذكر الله - تعالى - لكم أكبر من ذكركم إياه .  
وقال ابن زيد وقتادة : معناه ، ولذكر الله أكبر من كل شيء .  
وقيل لسلمان أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء .

( ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم وتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قلنا : بلى . قال ذكر الله ) <sup>(٢)</sup>  
وكان شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر . فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى مشتملة على ذكر الله - تعالى - ولما فيها من ذكر الله - تعالى - ، أعظم من نهىها عن الفحشاء والمنكر .  
وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس : أنه سئل أى العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر .

### \* كلمة في الذكر \*

الذكر : هو ما يجرى على اللسان والقلب ، من تسبيح الله - تعالى - وتزييه وحده والثناء عليه ، ووصفه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال والجمال .

١ - وقد أمر الله بالإكثار منه فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

٢ - وأخبر أنه يذكر من يذكره فقال : ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ وقال في الحديث القدسي الذى رواه البخارى ومسلم : ( أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملائكته فى ملائكته ، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا . وإن اتانى يمشى أتيتته هرولة ) <sup>(٤)</sup> .

ومعنى ﴿ أنا عند ظن عبدى بى ﴾ أى : إن ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله - ومن استغفره وظن أن الله يغفر له فإنه يغفر له وهكذا .

ومعنى ﴿ أتيتته هرولة ﴾ أى : أنه كلما زاد إقبال العبد على ربه كان الله له بكل خير أسرع .  
٣ - وأنه - سبحانه - اختص أهل الذكر بالتفرد والسبق فقال رسول الله - ﷺ - « سبق المفردون » .

(١) سورة البقرة من الآية : ١٥٢

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل ذكره ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ فقد روى الحديث عن أبي الدرداء مع اختلاف فى لفظى : أزكاها - اتفاق فقد جاء بلفظى أرضاها ، وإعطاء وانظر اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ ، وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧

(٣) سورة الأحزاب الآيتان : ٤١ - ٤٢

(٤) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء الخ باب فضل الذكر والدعاء .. الخ ج ٤ ص ٢٠٦٨ ص ٢٠٦ حديث ٢٦٧٥ ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة وانظر أحمد ص ١٢٢ من رواية أنس .

قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : «الذاكرون الله كثيرا والذاكرات» رواه مسلم<sup>(١)</sup>  
 ٤ - وأنهم هم الأحياء على الحقيقة ، فعن أبي موسى : أن النبي - ﷺ - قال : « مثل الذى يذكر ربه ،  
 والذى لا يذكر مثل الحى والميت »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى .  
 ٥ - والذكر رأس الأعمال الصالحة ، من وفق له فقد أعطى منشور الولاية ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل أحيانه .

ويوصى الرجل الذى قال له : إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشئ أتثبت به ؟ فيقول  
 له : « لا يزال فوك رطبا من ذكر الله » ويقول لأصحابه : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند  
 مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم  
 فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى ، يارسول الله قال : « ذكر الله »<sup>(٣)</sup> رواه الترمذى  
 وأحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد .  
 ومعنى ( أتثبت ) أى أتمسك به .  
 ومعنى ( الورق ) الفضة .

٦ - وأنه سبيل النجاة فمن معاذ رضى الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « ماعمل آدمى عملا قط أنجى له  
 من عذاب الله من ذكر الله عز وجل »<sup>(٤)</sup> رواه أحمد .  
 ٧ - وعند أحمد : أنه ﷺ قال « إن ماتذكرون من جلال الله - عز وجل - من التهليل ، والتكبير ،  
 والتحميد ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن  
 يكون له ما يذكر به ؟ »<sup>(٥)</sup>

### \* حد الذكر الكثير :-

أمر الله - جل ذكره ، بأن يذكر ذكرا كثيرا ، ووصف أولى الألباب الذين يتفعون بالنظر فى آياته  
 بأنهم : ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾<sup>(٦)</sup> والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد

(١) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء .. الخ باب الحث على ذكر الله تعالى ج ٤ ص ٢٠٦٢ حديث ٢٦٧٦ ورد عن أبي هريرة  
 بلفظ : قال كان رسول الله ﷺ - يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان فقال : « سيروا ، هذا جمدان . سبق  
 المفردون .. الخ » وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٥ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٦  
 (٢) انظر صحيح البخارى ج ٨ ص ١٠٧ كتاب الدعاء : باب فضل ذكر الله - عز وجل - فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي  
 موسى .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣٧٩٠ فقد روى الحديث عن أبي الدرداء  
 مع تغيير فى بعض ألفاظه فقد ذكر « أرضاها » بدلا من « أزكاها » وإعطاء بدلا من « انفاق وانظر تخاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧  
 فقد ورد الحديث عن رواية أبي الدرداء - وقد ذكر فيه لفظ « إعطاء » بدلا من « انفاق » أيضا .  
 وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد عن رواية لأبي الدرداء .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » حديث ٣٧٩٠ فقد جاء فى آخر الحديث قال معاذ بن جبل :  
 « ماعمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله - عز وجل - من ذكر الله » .

وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث برواية معاذ - رضى الله عنه .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٩١

الله لهم مغفرة وأجرا عظيما<sup>(١)</sup> .

وقال مجاهد : لا يكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .  
وسئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات فقال : إذا وازب  
على الأذكار الماثورة المثبتة صباحا ومساء ، فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا ، كان من الذاكرين  
الله كثيرا والذاكرات ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى هذه الآيات قال :  
إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، وعذر أهلها فى حال العذر ، غير  
الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال :  
﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾<sup>(٢)</sup> بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر ، والحضر  
والغنى والفقر ، والسقم ، والصحة ، والسر والعلانية وعلى كل حال

### - شمول الذكر كل الطاعات .

قال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله ، وأراد بعض السلف أن يخصص هذا  
العام ، فقصر الذكر على بعض أنواعه ، منهم عطاء حيث يقول : مجالس الذكر هى مجالس الحلال  
والحرام ، كيف تشتري وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتبكي وتطلق ، وتحج وأشياء مثل ذلك . وقال  
القرطبي :

مجلس الذكر ، يعنى مجلس علم وتذكير ، وهى المجالس التى يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ،  
وأخبار السلف الصالحين ، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين ، المبرأة عن التصنع والبدع ، والمنزهة عن  
المقاصد الرديئة والطمع .

### \* آداب الذكر :-

المقصود من الذكر تزكية الأنفس ، وتطهير القلوب ، وإيقاظ الضمائر وإلى هذا تشير الآية  
الكريمة : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ أى أن ذكر الله فى  
النهى عن الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة وذلك أن الذاكر حين يفتح لربه جنانه وينهج بذكره لسانه  
يمده الله بنوره فيزداد إيمانا إلى إيمانه ويقينا إلى يقينه ، فيسكن قلبه للحق ويطمئن به ﴿ الذين آمنوا  
وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾<sup>(٣)</sup>  
وإذا اطمأن القلب للحق اتجه نحو المثل الأعلى ، وأخذ سبيله إليه ، دون أن تلفته عنه نوازع

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٠٣

(٣) سورة الرعد الآية : ٢٨

الهوى ، ولا دوافع الشهوة . ومن ثم عظم أمر الذكر ، وجل خطره في حياة الإنسان . ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان ، فإن حركة اللسان قليلة الجدوى ، ما لم تكن مواظمة للقلب . وموافقة له ، وقد أرشد الله إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه المرء أثناء الذكر فقال : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ (١) .

والآية تشير إلى أنه يستحب أن يكون الذكر سرا ، لا ترتفع به الأصوات ، وقد سمع رسول الله - ﷺ - جماعة من الناس رفعوا أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار ، فقال : ( يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ) (٢) . كما تشير إلى حالة الرغبة والرغبة التى يحسن بالإنسان أن يتصف بها عند الذكر . ومن الأدب أن يكون الذكر نظيف الثوب ، طاهر البدن طيب الرائحة ، فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطا ، ويستقبل القبلة مأمكنا ، فإن خير المجالس ، ما استقبل به القبلة .

### \* استحباب الاجتماع في مجالس الذكر :-

يستحب الجلوس في حلق الذكر . وقد جاء في ذلك ما يأتى :

١ - عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن الله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم » (٣)  
٢ - روى مسلم عن معاوية أنه قال : خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . قال : « الله ما أجلسكم إلا ذاك ، أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة » (٤)

٣ - وروى أيضا عن أبي سعيد الخدرى وأبي هريرة رضى الله عنهما :  
أنهما شهدا على رسول الله - ﷺ - أنه قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ،

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٠٥

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب : استحباب خفض الصوت بالذكر حديث ٢٧٠٤ / ٤٤ فقد ورد عن أبي موسى حديث بهذا المعنى .

(٣) انظر مستند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٠ فقد ورد الشق الأول من الحديث من رواية لأنس إلى قوله : « .. حلق الذكر » وانظر سنن الترمذى أبواب الدعوات « باب ٨٧ ص ١٩٤ حديث رقم ٣٥٧٧ من رواية لأنس إلى قوله : « حلق الذكر » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٤) انظر مستند الإمام أحمد ج ٤ ص ٩٢ فقد ورد هذا الحديث عن أبي سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء الف باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ج ٤ ص ٢٠٧٥ حديث ٢٠٧١ / ٤٠ فقد ورد الحديث عن أبي سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية .



وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده»<sup>(١)</sup>

**فضل من قال : لا إله إلا الله مخلصا :**

١ - عن أبي هريرة أن النبي - ﷺ - قال :  
« ما قال عبد : لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر »<sup>(٢)</sup>

رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .  
معنى ( يفضى إلى العرش ) أى يصل هذا القول إليه ، وهذا كقول الله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ - وعنه أنه ﷺ - قال : جددوا إيمانكم ، قيل : يارسول الله - وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله »<sup>(٤)</sup> رواه أحمد بإسناد حسن .

٣ - وعن جابر : أن النبي ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »<sup>(٥)</sup> رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

**\* فضل التسبيح والتحميد والتلهيل والتكبير وغير ذلك :**

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »<sup>(٦)</sup> رواه الشيخان والترمذى ..

٢ - عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس »<sup>(٧)</sup> رواهما مسلم والترمذى .

(١) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل الذكر ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ص ٣٧٩١ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة وأبي سعيد مع تغيير في بعض ألفاظه .  
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٤٧ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة وأبي سعيد مع تقديم وتأخير في بعض جملة وما تغير في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء .. الخ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الخ ج ٤ ص ٢٠٧٤ حديث رقم ٣٩ / ٢٧٠٠ فقد ورد الحديث رواية أبي هريرة وأبي سعيد .  
(٢) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٣ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٠ رواية أبي هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

(٣) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٥٩ فقد ورد هذا الحديث بلفظه عن أبي هريرة

(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب آ ٥٥ فضل الحامدين ج ٢ ص ١٢٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه

(٦) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب ٥٦ فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة - رضى الله عنه .

وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ١٧٤ أبواب الدعوات باب آ ٦١ حديث رقم ٣٥٣٤ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة .  
(٧) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء ، فضل التلهيل والتسبيح والدعاء حديث رقم ٢٦٩٥ / ٣٢ وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبو الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

٣ - عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله قلت : أخبرني يا رسول الله . قال إن أحب الكلام إلى الله سبحانه الله وبحمده » (١) رواه مسلم والترمذى ولفظه أحب الكلام إلى الله - عز وجل - ما اصطفى الله لملائكته . سبحانه ربي وبحمده . سبحانه ربي وبحمده .

٤ - عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من قال سبحانه الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة » (٢) رواه الترمذى وحسنه

٥ - وعن أبي سعيد أن النبي قال : استكثروا من الباقيات الصالحات قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٣) رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٦ - عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : لقيت إبراهيم ليلة أسرى بي فقال : « يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذى والطبراني وزاد « ولا حول ولا قوة إلا بالله » (٤) .

- معنى ( قيعان ) جمع قاع أى أنها مستوية منبسطة واسعة .

٧ - وعند مسلم : أن النبي ﷺ قال : « أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت : سبحانه الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر » (٥) .

٨ - وعن أبي مسعود رضى الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » (٥) رواه البخارى ومسلم .

أى « أجزأته عن قيام الليلة » وقيل كفتاه ما يكون من الآفات تلك الليلة ، وقال ابن خزيمة في صحيحه ، « باب ، ذكر أقل ما يجزىء من القراءة في قيام الليل » ثم ذكره .

٩ - وعن أبي سعيد رضى الله عنه قال : قال النبي : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء فضل سبحانه الله حديث رقم ٢٧٣١/٨٥ وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٦١ من رواية أبي ذر

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح لانعرفه إلا من حديث أبي الزبير عن جابر .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبي سعيد فقد ورد الحديث بلفظه مع اختلاف في بعض ألفاظه . وانظر الحاكم « كتاب الدعاء » ج ١ ص ٥١٢ .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ حديث رقم ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ حديث ٢١٣٧/١٢ فقد ورد هذا الحديث عن سمرة بن جندب بلفظ قال : قال رسول الله - ﷺ - « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحانه الله - والحمد لله - ولا إله إلا الله - والله أكبر لا يضرك بأيهن بدأت ، ولا تسمين غلامك يسارا ، ولا رباحا .. الخ ..

(٦) انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الخ ج ١ ص ٥٥٥ حديث ٢٥٦/٨٠٨ فقد ورد الحديث من رواية أبي مسعود الأنصارى .

فشق ذلك عليهم . وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله : ! فقال ﷺ . . الله الواحد الصمد ثلث القرآن<sup>(١)</sup> رواه البخارى ومسلم والنسائى .

- معنى ( الله الواحد الصمد ) يقصد سورة الإخلاص .

١٠ - وعن أبى هريرة : أن رسول الله قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا أحد عمل أكثر من ذلك »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه . وزاد مسلم والترمذى والنسائى ، ومن قال سبحان الله ويحمده ، فى يوم مائة مرة ، حطت خطاياهم ولو كانت مثل زبد البحر<sup>(٣)</sup>

### \* فضل الاستغفار :-

عن أنس-رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يا ابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب .

وعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنها - قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب »<sup>(٥)</sup> رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

- معنى ( العنان ) السحاب

- معنى ( القراب ) ما يقارب ملأها .

### \* الذكر المضاعف وجوامعه :-

١ - عن جويرية رضى الله عنها أن النبى - ﷺ - خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث عن أبى مسعود بلفظ أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة الله الواحد الصمد .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل لا إله إلا الله . . ج ٢ ص ١٢٤٨ حديث ٣٧٩٨ فقد ورد الحديث بلفظه مع تقديم وتأخير وتغيير فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه .  
(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه وانظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣٣ من رواية أبى هريرة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وانظر ص ١٧٥ حديث ٣٥٣٥

(٤) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٠٨ « كتاب الدعوات » باب آ ١٠٦ حديث رقم ٣٦٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك ، وقال هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب الاستغفار ج ٢ ص ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ حديث رقم ٣٨١٩ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عباس بلفظه .

جالسة ، فقال : « ما زلت على الحال التي فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبي :

لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله ويحمده ، عدد خلقه ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »<sup>(١)</sup> رواه مسلم وأبو داود .  
٢ - ودخل رسول الله - ﷺ - على امرأة ، وبين يديها نوى أو حصى ، تسبح الله به فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل فقال : « سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض ، وسبحان الله عدد ما خلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك »<sup>(٢)</sup> . رواه أصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣ - وعن ابن عمر - رضي الله عنهما : أن رسول الله - ﷺ - حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى السماء فقالا : ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله - عز وجل - وهو أعلم بما قال عبده - : ماذا قال عبدى ؟ قالوا : يارب ، إنه قال :

يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله - عز وجل - لهما « اكتبها كما قال عبدى حتى يلقياني فأجزيه بها »<sup>(٣)</sup> رواه أحمد وابن ماجه .  
- معنى ( فعضلت ) اشتدت وعظمت .

\* عد الذكر بالأصابع وأنه أفضل من السبحة :-

١ - عن بسيرة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - « غليكن بالتسبيح ، والتهليل والتقديس ، ولا تَقُولُنَّ فَتَنْسِينَ الرحمة ، واعقدن بالأنامل ، فإنهن مسئولات ، ومستنطقات »<sup>(٤)</sup>

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٠ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب « التسبيح أول النهار وعند النوم حديث ٧٩ / ٢٧٢٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن جويرية

وانظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب « فضل التسبيح باب ٥٦ ج ٢ ص ١٢٥١ حديث رقم ٣٨٠٨ فقد ورد الحديث عن جويرية -

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب الدعوات » باب في دعاء النبي - ﷺ - « وتعوذه في دبر كل صلاة ج ٥ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ حديث ٣٦٣٩ عن أبي سعد بن أبي وقاص فقد ورد الحديث بلفظه ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث سعد .

(٣) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الحامدين » ج ٢ ص ١٢٤٩ حديث رقم ٣٨٠١ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمر

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٣٧٠ / ٣٧١ حديث بسيرة فقد ورد الحديث بلفظه

(ن) (ل) (د) (ب) (م) (ع) بسيرة

رواه أصحاب السنن والحاكم بسند صحيح .

- معنى ( مستنطقات ) في هذا دليل على أن التسييح على الأصابع أفضل من السبحة وإن كان يجوز العد عليها .

٢ - وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسييح بيمينه <sup>(١)</sup> . رواهما أصحاب السنن .

\* الترهيب من أن يجلس الإنسان مجلسا لا يذكر الله فيه

ولا يصلى على نبيه :

عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

« ما قعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » .

رواه الترمذى وقال : حسن ، ورواه أحمد بلفظ : ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا كان

عليهم تره ، ومامن رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله تعالى إلا كان عليه تره ، ومامن رجل آوى إلى

فراشه فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة .

وفى رواية إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة للثواب <sup>(٢)</sup>

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الصلاة » باب التسييح بالخصى ج ٢ ص ١٧٠/١٧١ حديث رقم ١٥٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه

عن ابن عمر ، وقد أخرجه النسائي في الافتتاح باب رقم ٢٩٤ عقد التسييح حديث ١٣٥٦ والترمذى في الدعوات باب عقد التسييح باليد حديث آ ٣٤٨٢ وقال : ( حسن غريب من هذا الوجه )

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب : ما جاء في القوم يجلسون ولا يذكرون الله ج ٥ ص ١٢٩ باب ٨ حديث آ

٣٤٤٠ فقد ورد الحديث من أبي هريرة بلفظ « ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » وقال : هذا حديث حسن ، وقد روى عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - من غير وجه .

انظر الحاكم في المستدرک ج ١ ص ٤٩٦ كتاب الدعاء عن أبي هريرة .

- معنى الترة : الحسرة أو النقص ، أو التبعة .

وفى فتح العلام : الحديث دليل على وجوب الذكر والصلاة على النبي ﷺ في المجلس لاسيما مع تفسير الترة : بالنار أو العذاب ، فقد فسرت بهما ، فإن التعذيب لا يكون إلا لترك واجب ، أو فعل محظور ، وظاهره أن الواجب هو الذكر والصلاة عليه ﷺ معا .

\* ذكر كفارة المجلس :

١ - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم ويحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كفر الله له ماكان في مجلسه ذلك »<sup>(١)</sup> .

- معنى ( لغطه ) : من باب نفع : واللغط : كلام فيه جلبة واختلاط .  
- معنى ( كفر ) ستر .

مايقوله من اغتاب أخاه المسلم : -

روى عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبت ، تقول : اللهم اغفر لنا وله »<sup>(٢)</sup>  
والمذهب المختار أن الاستغفار لمن اغتیب وذكر محامده يكفر الغيبة ولا يحتاج إلى إعلامه واستسماحه .

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٦ ص ٢٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة إلا أنه جاء في آخر الحديث « إلا غفر الله له ، بدلا من « إلا كفر الله له »

وانظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٤ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة

وانظر كنز العمال ج ٩ ص ١٤٢ حديث رقم ٢٥٤١٨ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث عن أنس موقوفا بلفظ « إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبت ، تقول : « اللهم اغفر لنا وله » وهو ضعيف .

\* مجادلة أهل الكتاب \*

قوله تعالى : \* وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَالِغِي أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهُنَا وَالْهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ فَالَّذِينَ آتَيْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾

معاني المفردات

(ولا تجادلوا) المجادلة المناقشة (يجحد) الجحد إنكار الشيء بعد معرفته (لارتاب) لشك (المبطلون) غير المحقين فيما ذهبوا إليه .

\* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - أنه الواحد المعبود بحق وأن الذين اتخذوا من دونه أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وبعد أن بين لنا أنه يضرب الأمثال للناس وبعد أن أدبنا ووجهنا إلى الخلق القويم فأمرنا بإيقام الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . بعد ذلك علمنا أدب المجادلة مع أهل الكتاب وفي هذه الآيات شروع في إرشاد أهل الكتاب ومعالجتهم ودعوتهم إلى الدين الحق دين الفطرة السليمة ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى - عليهما السلام - ، وهم قوم يقولون بوجود الله واليوم الآخر والتصديق ببعض الكتب والأنبياء . هذه عقائدهم الأساسية ، وإن حاولوا طمسها في بعض الأحيان والأحوال .

وهذه الآية تدعونا إلى البحث في واجب المسلمين نحو دعوتهم ونشر دينهم ، وماذا يكون موقفهم أمام معارضيهم وأعدائهم .

والخلاصة : أن علينا نشر الدعوة لأنها دعوة عامة شاملة صالحة لكل زمان ومكان ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ (١) .

ومن ندعوه إن قبل الإسلام فقد كفى الله المؤمنين القتال ، ومن حاربنا ووقف في طريقنا وكم

أفواه دعائنا حاربناه لاسيما مشركى العرب الذين بالغوا فى عداوة الإسلام ، ودعوتنا إلى الإسلام أولا تكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

لهذا لانعجب إن رأينا آيات فى القرآن تحثنا على الدعوة إلى الإسلام بالحسنى وآيات تأمرنا بالقتال وتحث عليه ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. الآية ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾

فى هذا النص الكريم توجيه وإرشاد لنا معشر المسلمين كما أن فيها حثا على مجادلة من أراد الاستبصار من أهل الكتاب بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (٢) وكما قال جل ذكره لموسى وهارون ﴿ اذهبوا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلال ويقاثلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله - عز وجل - ﴿ لقد أرسلنا رسlnا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٤) . قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ، قال مجاهد : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ أى : إيماننا إجماليا بالذى لم يدخله التحريف أو التبديل وفى السنة المطهرة أحاديث ترشد إلى هذا الإيمان الإجمالى والمعنى : إذا أخبروا بما لانعلم صدقه ولا كذبه فهذا لانقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيماننا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلها واحد ونحن له مسلمون » (٥) وهذا الحديث تفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو وأخبرنا يونس عن الزهري أخبرنى ابن أبى نجلة أن أبا نجلة الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ « الله أعلم » .

(١) سورة التوبة من الآية : ٥

(٢) سورة النحل الآية : ١٢٥

(٣) سورة طه الايتان : ٤٣ - ٤٤

(٤) سورة الحديد الآية : ٢٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٦ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول للنبي : لاتسألوا أهل الكتاب عن شيء « من رواية أبى هريرة » .



قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « سابقنا أهل جهادنا ، ومقتصدنا أهل حضرننا ، وظالمنا أهل بدونا ، لا يشهدون جماعة ولا جمعة »

وقيل : الظالم : المقصر فى العمل بالقرآن ، والمقتصد العامل به فى أغلب الأوقات ، والسابق الذى يضم التعليم والإرشاد إلى العمل . وقال الحسن : الظالم : من خفت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته . والسابق من رجحت حسناته على سيئاته . وقد اختلف فى هذه الأصناف على نيف وأربعين قولاً ، ثم عقب سبحانه وتعالى الآيات المذكورة بقوله - سبحانه - تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والظاهر أن الضمير المرفوع فى ( يدخلونها ) عائد على الأصناف الثلاثة . وهو قول عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأبى سعيد ، وعائشة ، ومحمد بن الحنفية ، وجعفر الصادق ، وغيرهم - رضى الله تعالى عنهم - .

وقال الزنجشري : هو عائد على السابق فقط ، ولهذا جعل ذلك إشارة إلى ( السابق ) المفهوم من قوله : ( سابق ) ، قال : وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم . والسكوت عن الآخرين مافيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذراً ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر - رضى الله عنه - ، عن رسول الله ﷺ : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »<sup>(١)</sup> فإن شرط ذلك صحة التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾<sup>(٣)</sup> ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ، ولم يعمل نفسه بالخدع .

فإن قلت : ما الحكمة فى تأخير السابق وتأخير الظالم : أجيب : لثلاث يعجب السابق ، ويأس الظالم من رحمته . ولما كان الظالم له ذلة ، والسابق له صولة ، يرفع تعالى ذلة الظالم بقوله : ( لنفسه ) وكسر صولة السابق بقوله : ( بإذن الله ) كأنه يقول : يا ظالم - ارفع رأسك ، ظلمت ولكن على نفسك ياسابق - اخفض رأسك ، سبقت ولكن بإذن الله - تعالى - وفى قوله فى بقية الآية : ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة ، و ﴿ شكورا ﴾<sup>(٤)</sup> إشارة إلى ( السابق ) ، وأنه كثير الحسنات . و ( دار المقامة ) هى الجنة ، لأنها دار مقامه لا يرحل عنها .

وقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾<sup>(٥)</sup> أى يقرأونه ويدأومون على تلاوته ، وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير :

(١) انظر التحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٦٠٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث عمر

أنظر كنز العمال ج ٢ ص ٤٨٥ من سورة فاطر - حديث رقم ٤٥٦١ ، ٤٥٦٣

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٢

(٣) سورة التوبة من الآية : ١٠٦

(٤) سورة فاطر من الآية : ٣٤

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٩

هذه آية القراء ، والمراد : يتبعون كتاب الله فيعملون بما فيه . وقال الكلبي : يأخذون بما فيه . وقال السدي : هم أصحاب الرسول ﷺ . وقال عطاء : هم المؤمنون . ولما ذكر الله تعالى وصفهم بالخشية ، وهي عمل القلوب ، ذكر أنهم ( يتلون كتاب الله ) وهو عمل اللسان ، و ( أقاموا الصلاة ) وهي عمل الجوارح ، ( وأنفقوا ) ، وهو العمل المالى وقوله : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ خبر إن ، أى : لن تكسد ، ولن يتعذر الربح فيها ، وهو إشارة إلى الإخلاص ، أى يفعلون تلك الأفعال من التلاوة وإقام الصلاة والإنفاق ، يقصدون بذلك وجه الله ، لا الرياء والسمعة . وقوله ( ليوفيههم ) متعلق بـ ( يرجون ) ، أو بـ ( لن تبور ) ، أو بمضمر تقديره : فعلوا ذلك . أقوال . وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت ( يرجون ) فى موضع الحال ، أى : أنفقوا راجين ليوفيههم ، أى فعلوا جميع ذلك لهذا الغرض .

وخبر إن قوله : ﴿ إنه غفور رحيم ﴾ على معنى : غفور لهم ، شكور لأعمالهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل : بتشفيهم فيمن أحسن إليهم . قاله أبو وائل وفى الحديث . بتضعيف حسناتهم . وقيل : بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وفى قوله : ﴿ إن الله بعباده خبير بصير ﴾<sup>(١)</sup> مع قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إشارة ؛ كأنه تعالى قال : إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر ، فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب .

وفى الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »<sup>(٢)</sup> وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يارسول الله .. ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته »<sup>(٣)</sup> ، رواه النسائى والحاكم . أى حفظة القرآن ، العاملون به ، هم أولياء الله ، والمختصون به ، إختصاص أهل الإنسان به ، وليس من أهله من حفظ لفظه وضيق حدوده .

وسئل ذو النون المصرى عن حملة القرآن ، فقال : هم الذين مطرت عليهم سحائب الأشجان ، ونصبوا ركبهم والأبدان ، وتسربلوا بالخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين ، وراضوا أنفسهم رياضة المتقين ، كحلوا أبصارهم بالسهر ، وغضوها عن النظر ، فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان ، وتغيرت منهم الأبدان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع

(١) سورة فاطر الآية : ٣١

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٥٨ عن رواية عثمان بن عفان سطر ١٩ .

وانظر صحيح البخارى ج ٦ ص ٢٣٦ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه والحديث مروي عن عثمان بن عفان .

وانظر تحف السادة المتقين للعلامة الزبيدي ج ٤ ص ٤٦٤ قال العراقى رواه البخارى من حديث عثمان بن عفان .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ من رواية أنس .

الراغبين ، فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوابهم من تحذيره ، ﴿ أولئك الذين هدامهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾<sup>(١)</sup>

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ( الم ) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وصححه . وروى السلفى فى البلدانيات عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس ، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما تزور البيت العتيق »<sup>(٣)</sup> .

وعن جبير بن مطعم عن النبي ﷺ : « أبشروا إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً »<sup>(٤)</sup> رواه : ( الطبرانى فى الكبير ) وعنه ﷺ : « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض »<sup>(٥)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ﴾ هو كتاب الله ، وهذا من أبلغ الاستعارات ، وألطف الإشارات لما كان يتوصل بالحبل والسبب إلى نيل الأغراض استعير للقرآن الموصل إلى نيل السعادة الدنيوية والأخروية . وعن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ : « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، نجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعجب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته . كل حرف عشر حسنات ؛ أما إني لا أقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »<sup>(٦)</sup> . رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص عنه ، وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح .

وفى فتاوى ابن الصلاح قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر ، فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك ، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الإنس

(١) سورة الزمر الآية : ١٨

(٢) انظر إتحاف السادة المثقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٥ من رواية ابن مسعود .

وانظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله ج ١ ص ٥٣٤ رقم ٢٣٩٤ بلفظ عوف بن مالك

وانظر الترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ١٦ ماجاء فى من قرأ حرفاً من القرآن ج ٤ ص

٢٤٨ برقم ٣٠٧٥ قال : حديث حسن صحيح غريب عن رواية عبد الله بن مسعود .

(٣) انظر اللآلء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ١١٥ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبى هريرة :

(٤) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٢ ص ١٨٨ حديث رقم ٤٩١ رواية عن أبى شريح الخزاعى فيه زيادة فى أوله ولفظه :

« أبشروا أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، قالوا : بلى قال : « إن هذا القرآن .. الخ .

(٥) انظر كنز العمال ج ١ ص ١٨٨ حديث رقم ٩٥٦ برواية ( ش وابن جرير عن أبى سعيد )

(٦) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب أخبار فى فضائل القرآن جملة .. ج ١ ص ٥٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله

ابن مسعود .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق ، له أجران »<sup>(١)</sup> وفي روايه : « والذي يقرأ القرآن وهو يشتد عليه له أجران »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داود والترمذى وابن ماجه ، والسفرة : جمع سافر ، ككاتب وكتبة والسافر : الرسول والسفرة الرسل ؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله تعالى . وقيل : السفرة : الكتبة ، والبررة : المطيعون ؛ من البر : وهو الطاعة . والماهر : الحاذق الكامل الحفظ ، الذى لا يتوقف ، ولا تشق عليه القراءة ، لجودة حفظه وإتقانه . قال القاضى عياض : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة ، لاتصافه بصفتهم ، من حمل كتاب الله تعالى . قال :

ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم . وأما الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه ، فله أجران . أجر القراءة ، وأجر تعب ومشقته . فإن قلت : يلزم أن يكون المتتعتع أفضل من الماهر ؛ من حيث إن له أجرين ، ولم يذكر للماهر أجرين ؟ أجيب : بأنه ﷺ قد ذكر لكل واحد فضيلة ، ليكون حثا له على القراءة ، فذكر للمتتعتع أجرين ، وللماهر كونه مع السفرة ، والكون مع السفرة لا يتقاعد على حصول الأجرين . وقال القاضى عياض : ليس معناه أن الذى يتتعتع له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا ، فإنه مع السفرة ، وله أجور كثيرة ، وكيف يلتحق به من لم يعتن بكتاب الله ، وحفظه وإتقانه ، وكثرة تلاوته ودراسته ، كاعتناؤه به حتى مهر فيه .

وفى الأصل التاسع من نواذر الاصول لأبى عبد الله الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبى الدرداء . قالوا : قال رسول الله ﷺ :

« إن بيوتات المؤمنين لمصابيح إلى العرش ، يعرفها مقربو السموات السبع ؛ يقولون : هذا النور من بيوتات المؤمنين التى تنال فيها القرآن »<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٧٩٨ / ٢٤٤ برواية عن عائشة بلفظه

وانظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى فضل قارئ القرآن : ج ٤ ص ٣٤٤ حديث رقم ٣٠٦٨ فقد ورد الحديث عن عائشة غير أنه جاء فى آخره « والذي يقرأه - قال هشام - هو شديد عليه وقال شعبة وهو عليه شاق له أجران » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٧٩٨ / ٢٤٤ بلفظه من رواية وكيع .

وانظر سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - باب ماجاء فى فضل قارئ القرآن ج ٤ ص ٣٤٤ لحديث عائشة .

(٣) انظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله الاكمال من الفصل الأول ص ٥٥٤ برقم ٢٤٨١ بلفظ أبى هريرة وأبى الدرداء

وانظر نواذر الاصول للحكيم الترمذى الأصل التاسع فى مرتبة روح المؤمن ص ١٦ فقد ورد هذا الحديث من رواية لأبى هريرة .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله الجنة ، شفعه في عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار »<sup>(١)</sup>.

ورواه الترمذى وأبو عيسى . وقال حديث غريب ، وخرجه أبو داود ، وصححه الحاكم ، من حديث معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والده يوم القيامة تاجا من نور ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس ، في بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا »<sup>(٢)</sup> . وروى الحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، من حديث بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وتعلمه ، وعمل بما فيه ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوءه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان ، لا يقوم بهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ؟ ! فيقال بأخذ ولدكما القرآن »<sup>(٣)</sup> . وروى الترمذى وحسنه ، من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب - حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيقال : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة »<sup>(٤)</sup> . وروى الترمذى أيضا ، وصححه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »<sup>(٥)</sup>.

قال الخطابى فيما نقله عن الحافظ عبد العظيم المنذرى وغيره : جاء في الأثر « أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارئ : إرق في الدرج على قدر ماكنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درجة الجنة في الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه في الدرج على قدر ذلك . فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة .

قوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغضى ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ، ثم قال تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك ﴾ أى : قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لا تقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أُمى لا تقرأ ولا تكتب وهكذا صفته

(١) انظر سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن ج ٤ ص ٢٤٥ حديث رقم ٣٠٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن على بن أبى طالب - وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآى متفرقة » ج ١ ص ٥٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه ، وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٣) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآى متفرقة » ج ١ ص ٥٦٨/٥٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن بريدة الأسلمى عن أبيه : وقال هذا الحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ما جاء في من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ج ٤ ص ٢٤٨ حديث رقم ٣٠٧٦ فقد ورد الحديث برواية عن أبى هريرة .

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ١٨ ج ٤ ص ٢٥٠ حديث رقم ٣٠٨١ فقد ورد الحديث بروايته عن عبد الله بن عمرو .

في الكتب المتقدمة كما قال تعالى :

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ (١) الآية .

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما إلى يوم القيامة لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحي والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه - عليه السلام - كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فلما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد التكبر من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالا وخطبوا به في محافلهم : وإنما أراد الرجل - أعني الباجي - فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارا عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » .

وفي رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أى تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفي ولا تخطه يمينك تأكيدا أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا لارتاب المبطلون ﴾ أى لو كنت تحسبها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا هذا مع علمهم بأنه أمي لا يحسن الكتابة ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ (٢)

قال الله تعالى : ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض ﴾ (٣) الآية وقال ههنا : ﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أى هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ (٤) وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبي إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » (٥) .

وفي حديث عياض بن حماد في صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إني مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان » (٦) أى لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٧

(٢) سورة الفرقان آية : ٥

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٦

(٤) سورة القمر الآية : ١٧

(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة وانظر صحيح البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم ج ٩ ص ١١٣ برواية لأبي هريرة .

(٦) انظر صحيح مسلم وكتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ج ٤ ص ٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥/٦٣ فقد ورد حديث طويل عن عياض ورد فيه الحديث كجزء منه مع اختلاف في بعض الألفاظ

المحل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر : « لو كان القرآن فى إهاب لما أحرقتة النار »<sup>(١)</sup> ولأنه محفوظ فى الصدور مىسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أنا جيلهم فى صدورهم ، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ بل العلم بأنك ماكنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تحطه بيمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب ، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت : وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس ونقله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾

أى : ما يكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أى : المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾<sup>(٢)</sup>.

### \* ذكر بعض الشبه والرد عليها \*

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

### معانى المفردات

(شهيذا) يشهد بصدقى (أجل مسمى) معلوم محدد (بغتة) فجأة (يغشاهم) يصيبهم .

(١) انظر مستند الامام احمد ج ٤ ص ١٥٤ / ١٥٥ فقد ورد الحديث عن عقبه مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة يونس الايتان : ٩٦ - ٩٧

## \* المناسبة وإجمال المعنى \*

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد ﷺ أردف هذا شبهة أخرى لهم ، وهي أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كنانة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك . إلى الله لا إليه ، فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ما طلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهي القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبا من بعدهم وحكم ما بينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما في السموات والأرض . ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره . أخرج الدارمي وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ماسمعه من اليهود ، فقال النبي ﷺ - « كفى بقوم حقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم »<sup>(١)</sup> فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ الآية وأخرج البخاري عند تفسير الآيات قوله ﷺ ليس منا من لم يتغن بالقرآن »<sup>(٢)</sup> أى يستغنى به عن غيره . وعن عبد الله بن الحارث الأنصاري قال : دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها

مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك . فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله فقط . فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا . وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم ، أنا حظكم من النبين ، وأنتم حظي من الأمم »<sup>(٣)</sup> أخرجه عبد الرزاق .

وبعد أن أئذر المشركين بالعذاب ، وهددهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء : إن كان هذا حقا فأتنا به ، وهم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لا يأتيكم بسؤالكم ولا يجعل باستعجالكم لأن الله أجله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، لعجله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتيكم فجأة وأنتم لاتشعرون به ، ثم تعجب منهم في طلبهم الاستعجال وهو سيحيط بهم في جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون .

(١) انظر تفسير القرطبي « سورة العنكبوت » عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ ج ١٣ ص ٣٥٥ فقد ورد الحديث عن يحيى بن جعدة مع اختلاف في بعض ألفاظه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل سور متفرقة ج ١ ص ٥٧٠ فقد جاء الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر كنز العمال الباب الثانى فى الاعتصام بالكتاب والسنة ج ١ ص ١٨٣ حديث رقم ٩٢٧ من رواية لعبد الله بن الحارث فقد ورد الحديث بلفظه .



## \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ يقصدون الآيات هنا المعجزات التى جاء بها الرسل من قبل كنانة صالح وعصا موسى فقال لهم الله - تبارك وتعالى - إنما الآيات عند الله فلو علم سبحانه أنكم ستهدون بتلك الآيات لأجراها على يدي حبيبه ومصطفاه لكنكم إنما تطلبون ذلك عنادا وكبرا .

قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ (١)

وقال جل شأنه ﴿ إن الدين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٢)

وقال عزت حكمته :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ (٣) .  
لقد اقترحوا على رسول الله ﷺ آيات كثيرة ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ﴾ (٤)

هذا هو الرد الحاسم فالرسول البشر والبشر الرسول لا يملك الآيات إنما الذى يملكها هو خالق القوى والقدر لذا جاء الرد فى سورة العنكبوت ﴿ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ ثم قال تعالى بعد ذلك :

﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ قال ﷺ : « كفى بقوم ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » (٥) ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾

ولما قال الفاروق عمر - رضى الله عنه - يارسول الله ، إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال له الرسول الكريم « أمتهوكون أنتم ؟ أى أمتهوكون - كما تهوكت اليهود

(١) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) سورة يونس الآيتان : ٩٦ - ٩٧

(٣) سورة القمر الآيات : ١ - ٥

(٤) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٥) انظر فتح البارى للمسقلان « كتاب فضائل القرآن » ج ٩ ص ٦٨ باب من لم يتغن بالقرآن .

والنصارى - لقد جتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ماوسعته إلا اتباعى» (١) .

وفى قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ إخبار منه تعالى عن إنزال الكتاب العظيم الذى فيه خبر ما قبلهم ونبا ما بعدهم وحكم ما بينهم أو لم يكفهم ذلك آية وأنت رجل أمى لا تقرأ ولا تكتب ولم تحالط أحدا من أهل الكتاب فجثتهم بأخبار ما فى الصحف الأولى ببيان الصواب بما اختلفوا فيه وبالحق الواضح المبين الجلى كما قال تعالى : ﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى ﴾ (٣) وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

قال رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » (٤)

وفى هذا الكتاب رحمة وشفاء ﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ (٥) كما أن فيه ذكرى وموعظة لقوم يؤمنون وفيه من الفضائل ما لا يحصى ومن المحاسن ما لا يستقصى وإذا تقرر هذا فاعلم أن القرآن هو كلام الله تعالى القائم بذاته غير مخلوق ولا خال فى المصاحف ولا فى القلوب والألسنة والأذان بل معنى قديم قائم بذات الله تعالى مكتوب فى مصاحفنا بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه قال الله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾ (٦) مقروء بالسنتنا بحروفه المنظومة المسموعة قال عليه الصلاة والسلام لا يقرأ القرآن حائض ولا جنب ، مسموع بأذاننا قال تعالى ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ (٧)

محفوظ فى صدورنا بالألفاظ المخيلة

قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وهذا كما يقال :

النار جوهر محرق يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا وحرفا . وتحقيقه أن للشيء وجودا فى الأعيان ووجودا فى الأذهان ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة فالكتابة تدل على العبارة وهى على ما فى الأذهان وهو على ما فى الأعيان فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما فى قولنا :

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٣٨٧ فقد ورد الحديث عن عمر بن الخطاب وفيه اختلاف فى بعض ألفاظه .

وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٠٠ حديث رقم ١٠٠٩ عن ابن عباس مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣٣

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٥) سورة الإسراء من الآية : ٨٢

(٦) سورة الواقعة الأيتان : ٧٧ - ٧٨

(٧) سورة التوبة من الآية : ٦

القرآن غير مخلوق فالمراد حقيقته الموجودة فى الخارج وحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة ( كما فى قولنا قرأت نصف القرآن ) أو المخیلة ( كما فى قولنا حفظت القرآن ) أو الاشكال المنقوشة ( كما فى قولنا يحرم على المحدث مس القرآن )

قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾

أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ما أقول لكم من إخبارى عنه بأنه أرسلنى فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى :

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (١)

ولما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿ يعلم ما فى السماوات والأرض ﴾ أى لا تخفى عليه خافية .

﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

أى : يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ويقابلهم على ما صنعوا فى تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسول الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزىهم على ذلك إنه حكيم عليم .

قوله تعالى :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢)

وقال ههنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾

أى : لولا ما حكم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب سريعا كما استعجلوه ثم قال ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أى : فجأة ﴿ وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾

أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لأعماله قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة ، قال فى قوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ قال ابن عباس ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم .

(١) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

ثم قال - عز وجل : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾ (٣) الآية :

فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسى . وقال تعالى : وتقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (٤) . وقال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنا نجزون ما كنتم تعملون ﴾ (٥)

قوله تعالى ﴿ يعبادى الذين ءامنوا إن ارضى وسعة فإنى فاعبدون ﴾ (٥٦) كل نفس ذائقة الموت ؕ ثم إلینا ترجعون ﴿ (٥٧) والذين ءامنوا وعملوا الصالحات لنبوينهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ﴿ (٥٨) الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿ (٥٩) وكان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿ (٦٠) ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴿ (٦١) الله يبسط الرزق لمن يشاء من عبادة ويقدر له ؕ إن الله بكل شيء عليم ﴿ (٦٢) ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿ (٦٣) وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴿ (٦٤)

معاني المفردات

لنبوتهم : لنزلهم ، غرfa : الغرف جمع غرفة وهى الحجرة ( وكأين ) أى كم بمعنى كثير ، من

(١) سورة الأعراف من الآية : ٤١

(٢) سورة الزمر من الآية : ١٦

(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٣٩

(٤) سورة القمر الأيتان : ٤٨ ، ٤٩

(٥) سورة الطور الآيات : ١٣ - ١٦

الدواب ، دابة : كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان يقال له دابة . يؤفكون : يصرفون ، يقدر له : يضيق عليه مثل يقتر عليه رزقه ، هو : الله الاشتغال بما لا يعنى ، ومالا ينفع عن النافع المفيد ، وفى المصباح ، اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، واللعب : هو العبث . الحيوان : الحياة الدائمة الخالدة .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأنذرهم بالخسران ، وجعلهم من أهل النار - اشتد عنادهم للمؤمنين وكثر أذاهم لهم ومنعواهم من العبادة فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم . ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كرهية لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لاحالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فهناك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

وبعد ما بين للمشركين وذكر لهم مغبة أعمالهم - خاطب المؤمنين بما فيه مذكر لهم ، وإرشاد للمشارك لو تأمله وفكر فيه ، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان : أحدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أولاً ، فإن لم يسمع يعرض عنه ، ويلتفت إلى الرشيد قائلاً : إن هذا لا يستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولا تكن كهذا المفسد ، فيكون فى هذا نصيحة للمصلح ، وزجراً للمفسد ، ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ هذا خطاب تشريف وتكريم للمؤمنين حيث أضافهم الله تعالى إلى ذاته وخاطبهم بطريق النداء وبشرهم بأن أرضه واسعة ﴿ والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ (١) وأمرهم بعبادته وحده فكل الوجود ملكه ، وكل قضاء له حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (٢) .

(١) الآية ١١٤ من سورة البقرة

(٢) من الآية ١٥ من سورة الملك

أخرج الامام أحمد في مسنده عن الزبير بن العوام قال . قال رسول الله ﷺ ( البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم ) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى فأواهم وأيدهم بنصره وجعلهم أصحاب كرامة ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابه الباقيون إلى المدينة النبوية<sup>(١)</sup> .

وعلى هذا فإن المؤمن إذا ضاقت به أرض بلاده فعليه أن يضرب في عرصات الأرض فإن الله تعالى جاعل له فرجا ومخرجا ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

إذا أنت لم تكرم بأرضك فارتحل فلا خير في أرض مهان كريمها

وقال آخر

إن الفلا حدثني وهي صادقة	فيما تحدث أن العز في النقل
وقال الشافعي رضي الله عنه :	
ما في المقام لذي عقل وذى أدب	من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه	وانصب فإن لذيد العيش في النصب
إني رأيت وقوف الماء يفسده	ان سال طاب وان لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب ما فترست	والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت في الفلك دائمة	للمها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى في أماكنه	والعود في أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه	وان تغرب ذاك عز كالذهب

ثم تأتي الحقيقة التي لا ريب فيها ولا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول إنها حقيقة الموت حيث يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾<sup>(٣)</sup> فلا عجب أن تجد قضايا الموت كلها موجبة كلية أي قد سورت بسور كل لم يسبقه نفى قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال عظمت حكمته : ﴿ ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال جلّت قدرته : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾<sup>(٦)</sup> ولو كتب

(٤) من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

(٥) الآية رقم ٨٨ من سورة القصص

(٦) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد في مسنده ١ / ١٦٦

(٢) الآية ٤١ من سورة النحل

(٣) من الآية ٥٧ من سورة العنكبوت

الخلود لاحد لكان لرسول الله صلوات ربي وسلامه عليه ولكنه تعالى أخبره بمصيره المحتوم حيث قال له ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (١) وقال له ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإلین مت فهم الخالدون ﴾ (٢) ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلینا ترجعون ﴾ (٣) (ولقد نام رسول الله ﷺ على فراش الموت وكان يمسح وجهه الشريف بماء بارد ويقول اللهم هون على سكرات الموت . سبحان الله أن للموت سكرات وقال له جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به وأحب من شئت فإنك مفارقة واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) (٤) . ولما علم المسلمون بموت رسول الله ﷺ غشيتهم غاشية حتى وقف عمر كالأسد الرباب وقد ديس عرينه يوعد ويهدد : من قال إن محمدا قد مات ضربته بسيفى هذا . لقد ذهب إلى ربه وسيعود كما عاد موسى لولا أن قبض الله لهذا الموقف رجل الساعة الصديق رضى الله عنه وكان غائبا ساعة الوفاة فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فكشف الغطاء عن الوجه الشريف وقبله وقال له : طبت حيا وميتا يا رسول الله . أما الموت الذى كتب عليك فقد ذقته ولن تذوق الموت بعد ذلك أبدا ، ثم خرج على الناس بهذا البيان الحاسم الجازم ايها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ﴾ (٥) ونزلت هذه الآية على قلب عمر كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى نزلت بردا وسلاما حتى قال عمر لكأنى لم أسمعها إلا الآن يا أبا بكر وهكذا ودع رسول الله دنينا هذه إلى الرفيق الأعلى حيث النعيم المقيم والخلود ، والروح والريحان قال الله تعالى ﴿ ثم إلینا ترجعون ﴾ (٦) وقال ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٧) وقال ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ (٨) وقال تعالى ﴿ إنا إلینا إياهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾ (٩) .

تزود من حياتك للمعاد      وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركز إلى الدنيا كثيرا      فإن المال يجمع للنفاد  
اترضى أن تكون رفيق قوم      لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم بين الله تعالى مصير المؤمنين المتقين فقال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدین فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (١٠)

(٦) من الآية ٥٧ من سورة فاطر  
(٧) من الآية رقم ١٥ من سورة لقمان  
(٨) من الآية رقم ١٤ من سورة لقمان  
(٩) الأيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية  
(١٠) الآية رقم ٥٨ من سورة العنكبوت

(١) الآية ٢٠ من سورة الزمر  
(٢) الآية ٣٤ من سورة الانبياء  
(٣) الآية ٣٥ من سورة الانبياء  
(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الجنائز حديث ١٦٢٣  
(٥) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران

( روى ابن حاتم بسنده عن أبي مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام ) (١) .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين يتفقدون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٢) المخصوص بالمدح هنا الجنة .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة  
وقد رصف الله هؤلاء المؤمنين الذين بوأهم من الجنة غرفا وانزلهم بها منازل السعداء وصفهم بالصبر والتوكل فالصبر مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح أو هو حبس النفس على طاعة الله تعالى ، أو هو ثبات باعث الدين في مقابل باعث الشهوات .  
قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصها	وان هما محضاك النصيح فاتهم
ولا تطع منها خصما ولا حكما	فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل ان تهمله شب على	حب الرضاع وان تقطمه ينقطع
كم زينت لذة للمرء قاتلة	من حيث لم يدرك السم في الدسم

والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب وتفويض العواقب إلى مولانا سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله مالك الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ( عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي ليس معه أحد إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقبل لي : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فحاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام فلم يشركوا بالله - وذكروا أشياء - فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم فقال :

(١) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي مالك الأشعري مرفوعا  
(٢) الآيات أرقام ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة آل عمران



« أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة <sup>(١)</sup> متفق عليه . « الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : والأفق : الجانب ، وعكاشة بضم العين وتشديد الكاف صحابى .

وروى البخارى عن ابن عباس أيضا قال : كان آخر قول ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل <sup>(٢)</sup> .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( من قال - يعنى اذا خرج من بيته ، بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان ) <sup>(٣)</sup> رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالرزق لما بينهما من كمال الاتصال .

عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خالصا وتروح بطانا ) <sup>(٤)</sup> رواه الترمذى . ومعناه . تذهب أول النهار خالصا ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وروى عنه ﷺ ( ان روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب ) <sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ <sup>(٦)</sup> أى لا تطيق جمعه وتحصيله ولا تدخر شيئا لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أى الله يفيض لها رزقها على ضعفها ويسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾ <sup>(٧)</sup> وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال قلت لأشتهييه يا رسول الله قال لكنى اشتهييه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقبصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبثون رزق ستهم بضعف اليقين ؟ <sup>(٨)</sup> قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ <sup>(٩)</sup>

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد ٢٧١/١ والبخارى فى كتاب الطب باب ٤٢ ح ٧ ص ٢٥ ، ومسلم فى كتاب الايمان ح ١ ص ٧٩

(٢) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى تحاف السادة المتقين ٣٢٦/٤ ، القرطبى ٤٠٧/١٠ ، كنز العمال ٤١٥٣٦ والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته حديث ٥٠٩٥ ج ٥ ص ٣٢٨ ، والترمذى فى الدعوات حديث ٣٩٢٢ ، ونسبه المنذرى الى النسائى .

(٤) الحديث : أخرجه الترمذى حديث ٢٣٤٤ ، ابن ماجه فى كتاب الزهد حديث ٤٨٦٤ واحد ٥٢/١

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الصيد باب ٩

(٦) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٦ من سورة هود

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ٣٥٩/١٣ ، تحاف ٢٤٥/٩ ، والدر المثور ١٤٥/٥

(٩) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

فقال رسول الله ﷺ ( إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإنى لا أكثر دينارا ولا درهما ولا أخبىء رزقا لغد ) وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيرا صغارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رآوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رآوه قد اسود ريشه عطفوا عليه بالحنانة ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعاب في عشه وجابر العظم الكسير الخافض

وقال البيهقي بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( سافروا تصحوا وتغنموا ) وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا )<sup>(١)</sup> وفي لفظ ( سافروا مع ذوى الجذ والميسرة ) وقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾<sup>(٢)</sup> أى السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم .

قالوا للحسن رضى الله عنه ما سر زهدك في الدنيا يا تقى الدين قال : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملى لن يقوم به سوى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع على فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعدت الزاد للقاء الله .

إن الله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا  
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطننا  
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> .  
إن الذين أقروا بأن الله هو الذى خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وبأنه المالك المتصرف والرزاق أقروا بذلك ولكنهم اشركوا في عبادته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فَمَاذَا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾<sup>(٤)</sup> .  
فيا من آمتم بالله ربا لم اشركتم به معبودا ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾<sup>(٥)</sup> ثم يقول تعالى نخبرا عن أنه الباسط القابض الرافع الخافض الذى بيده

(١) الحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى واحد ٢ / ٣٨٠

(٢) من الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٣) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ من سورة العنكبوت

(٤) الأيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس

(٥) من الآية ١١٠ من سورة الكهف

مقاليد الأمور والذى قدر الأرزاق على عباده فيقول سبحانه ﴿الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم﴾ (١) فاليسط والقبض فى الرزق ليس عبثاً إنما لحكمة علمها الله تعالى ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ (٢) وقضية الرزق قضية تتعلق بالعقيدة فلوركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل  
لكنه خلق الإنسان من عجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لذا أقسم المولى سبحانه وتعالى فقال ﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون﴾ (٣) ﴿فوق رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ (٤) .

كما ألقى باللائمة على الذين يظنون أن كثرة الأولاد تضعى الرزق وتضيقه فقال فى سورة الأنعام ﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾ (٥) وقال فى سورة الإسراء ﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾ (٦) .

للأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى  
ولا الشئون التى تجزى بتقديرى  
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى  
أحاط بى علمه من قبل تصويرى

قوله تعالى ﴿ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد بل أكثرهم لا يعقلون﴾ (٧)

وهذه آية أخرى من آيات الله التى لا يقوى عليها سواه ، فهو الذى أنزل من السحاب ماء بقدر معلوم فأحيا الأرض بالنبات بعد ما كانت هامدة فأنبتت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها قال تعالى ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾ (٨) .

وقال جل شأنه ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحي الموتى إنه على كل شىء قدير﴾ (٩) . وقال عظمت حكمته ﴿وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا﴾ (١٠) وقال جل قدرته ﴿هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب

(٦) الآية ٣١ من سورة الإسراء  
(٧) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت  
(٨) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الحج  
(٩) الآية ٣٩ فصلت  
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الفرقان

(١) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت  
(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون  
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات  
(٤) الآية ٢٣ من سورة الذاريات  
(٥) الآية ١٥١ من سورة الانعام

ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١﴾ وقال تبارك اسمه ﴿٢﴾ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴿٣﴾ وقال جل جلاله ﴿٤﴾ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴿٥﴾ كل هؤلاء لو سألتهم عمن فعل هذا فسوف يقولون انه الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون لانهم لو عقلوا وتدبروا ما أشركوا بعبادته وما اتخذوا من دونه أولياء .

قوله تعالى ﴿٦﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا هو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا . فسوف يعلمون ﴿٧﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها وغاية ما فيها هو ولعب ﴿٨﴾ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴿٩﴾ أى الحياة الدائمة الحق الذى لا زوال له ولا انقضاء بل هي مستمرة أبد الأبد وقوله تعالى ﴿١٠﴾ لو كانوا يعلمون ﴿١١﴾ أى لا ثروا ما يبقى على ما يفنى . قال تعالى ﴿١٢﴾ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿١٣﴾ ثم يقول سبحانه ﴿١٤﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿١٥﴾ .

وقال تبارك اسمه ﴿١٦﴾ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿١٧﴾ ثم يقول سبحانه ﴿١٨﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿١٩﴾ وقال عز وجل ﴿٢٠﴾ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿٢١﴾ ثم يقول سبحانه ﴿٢٢﴾ قل أؤنبشكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إنا آتينا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمتفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿٢٣﴾ .

(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد  
(٨) الآية ٢١ من سورة الحديد  
(٩) الآية ٢٤ من سورة يونس  
(١٠) الآية ٢٦ من سورة يونس  
(١١) الآية ١٤ من سورة آل عمران  
(١٢) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة آل عمران

(١) آيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل  
(٢) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة ق  
(٣) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس  
(٤) الآيات ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ من سورة العنكبوت  
(٥) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت  
(٦) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت

وقال عز وجل: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ (١) وقال تبارك اسمه ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقبذرا ﴾ (٢).

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ (٣) وقال وسعت رحمته: ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ (٤).

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأبى بجزيتهما فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ فقالوا أجل يا رسول الله فقال ابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم) (٥) متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزيتها) (٦) متفق عليه .  
وعنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء) (٧) رواه مسلم .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة) (٨) متفق عليه .

(١) الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة الاسراء

(٢) الآية ٤٥ من سورة الكهف

(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف

(٤) الآية ٢٠ من سورة الشورى

(٥) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد حديث ٢٩٦١ ج ٤ ص ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤ والبخارى في الجزية ج ٤ باب ١٢

(٦) الحديث فى احمد ٢١/٣ وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤١ ج ١ ص ٢٨٧ والبخارى فى باب الزكاة على

الرقاب باب ٤ ج ٢ ص ٢١٦ .

(٧) الحديث أخرجه الامام احمد ١٩/٣ ، ٢٢ ، ٦١ وأخرجه البخارى فى باب فضائل الصحابة باب ٤٣ ج ٤ ص ٢٠٩

(٨) الحديث أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ٤٨/٧ ، ٣٩/٩ ، وفى حلية الأولياء ٣٠١/٢ والبخارى ١١٧/١

وعنه عن رسول الله ﷺ قال: (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله) (١) متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة - فيصبغ في النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا والله ما مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط ) (٢) رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فليظفر به يرجع ) (٣) رواه مسلم .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كفتيه فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : ( أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا إنه أسك فكيف وهو ميت . فقال ( فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم ) (٤) رواه مسلم قوله « كفتيه » أى عن جانبيه ، « والأسك : الصغير الأذن » .

وعن أبي ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرة ( أرض ذات حجارة سود ) بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال « يا أبا ذر » قلت : لبيك يا رسول الله . فقال : « ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً قضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا ) عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال : ( إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا ومن خلفه ومن خلفه ( وقليل ما هم ) ثم قال لى : « مكانك لا تبرح حتى آتيك » ثم انطلق في سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت ان يكون أحد عرض للنبي ﷺ فأردت أن آتية فذكرت قوله : « لا تبرح حتى آتيك » فلم أبرح حتى أتاني فقلت : لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : « وهل سمعته ؟ قلت نعم قال : « ذاك جبريل أتاني فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ) (٥) متفق عليه .

وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ( لو كان لى مثل أحد ذهباً لسرنى ألا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شيء إلا شيء أرصده لدين ) (٦) متفق عليه .

(١) الحديث في فتح الباري ١١/ ٣٦٢ ، والبخارى ٨/ ١٣٤ ، ومسلم في الزهد المقدمة رقم ٥ والترمذى حديث ٢٣٧٩ وانحاف السادة المتقين ٦/ ٣٠٠ ، ٨/ ١٤٦ .

(٢) الحديث أخرجه الامام احمد ٣/ ٢٠٣ .

(٣) الحديث أخرجه الامام احمد ٤/ ٢٢٩ ، والحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج ٤ ص ١٩٣ ، حديث ٢٨٥٨/ ٥٥ .

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم في كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث ٢٩٥٧/ ٢ .

(٥) الحديث أخرجه البخارى في كتاب الرقاق ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه الامام مسلم في كتاب الزكاة باب الصدقة ص ٦٨٧ حديث ٦٨٧ .

(٦) الحديث أخرجه البخارى في كتاب الرقاق باب ١٣ ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم ) (١) متفق عليه .

وعنه عن النبي ﷺ قال : ( تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وان لم يعط لم يرض ) (٢) البخارى .

وعنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء : إما إزار وإما كساء قد ربطوا في أعناقهم ، فمتها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته ) (٣) رواه البخارى .

وعنه قال رسول الله ﷺ ( الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ) (٤) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنها قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكى وقال : ( كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ) وكان ابن عمر يقول ( إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمريضك ومن حياتك لموتك ) (٥) رواه البخارى .

وعن أبي العباس سهل بن سعيد الساعدي قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال ( ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ) (٦) حديث حسن رواه ابن ماجه .

وعن النعمان بن بشير قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه « والدقل » بفتح الدال والقاف : ردىء التمر .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ( توفي رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى ) (٧) متفق عليه . قولها شطر شعير قال الترمذى أى شيء من شعير .

وعن عمرو بن الحارث قال : ( ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا أمة ولا شيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة ) (٨) رواه البخارى .

وعن خباب بن الارت قال : ( هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجهه الله تعالى فوقع أجرنا على

(١) الحديث أخرجه البخارى ح ٨ فى كتاب الرقاق ص ١٢٧ ، ١٢٨ ومسلم ص ٢٢٧٥ ج ٤ كتاب الزهد والرقائق حديث ٨ / ٢٩٦٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير باب ٩ ج ٣ ص ٢٠٤

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ١٢٠

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث رقم ١ / ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٢ ج ٧ ص ١٥٩

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا حديث ٤١٠٢ ج ٢ ص ١٣٧٣ ، ١٣٧٤

(٧) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد باب ٢٧ ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ حديث ٢٧ / ٢٩٧٣

(٨) الحديث أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣ كتاب الوصايا

الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك تنمية فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجله بدا رأسه فامرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجله شيئا من الاذخر ( نبت طيب الرائحة ) ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها <sup>(١)</sup> متفق عليه .

وعن سهل قال : قال رسول الله ﷺ : ( لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بغوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ) <sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلما ) <sup>(٣)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن . معنى ملعونة : أى مبغوضة ساقطة . وما والاه : أى قاربه من الطاعة الموصلة لمرضاة الله تعالى ولا يفهم من هذا الحديث سب الدنيا مطلقا ولعنبا بل الملعون منها ما يبعد عن الله تعالى ويشغل عنه كما يوحى إليه آخر الحديث .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لاتتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا ) <sup>(٤)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومعنى ضيعة : العقار . لاتتخذوا الضيعة فترغبوا عن صلاة الآخرة كما قال ﷺ : ( فترغبوا في الدنيا ) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها قال : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاصنا فقال : « ما هذا ؟ » فقلنا : قد وهى فنحن نصلحه فقال : ( ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك ) <sup>(٥)</sup> رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم وقال الترمذى حديث حسن وصحيح . ومعنى : الخصاص ( بضم الخاء المعجمة وتشديد الصاد المهملة ) بيت من خشب وقصب سمي خصا لما فيه من الخصاص وهى الفرج والأثقاب . قد وهى ( بفتح الحاء ) أى ضعف وهم بالسقوط . وعن كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال ) <sup>(٦)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

ومعنى فتنة ( بكسر الفاء ) أى ما يمتحنون به .

وعن أبي عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : ( ليس لابن آدم فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته . وجلف الخبز ، والماء ) <sup>(٧)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث صحيح . قال الترمذى : سمعت أبا داود سليمان بن سالم

(١) الحديث ذكره ابن الأثير فى اسد الغابة فى ترجمة مصعب بن عمير ترجمة رقم ٤٩٢٩ ج ٥ ص ١٨١ ، ١٨٣

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ ص ٣٨٣ حديث ٤٢١٢

(٣) الحديث أخرجه الترمذى ج ٣ فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ حديث ٢٤٢٤ ص ٣٨٤

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هم الدنيا حديث ٢٤٣٨ ج ٣ ص ٣٨٦

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى قصر الأمل ج ٣ حديث ٢٤٣٨

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أن فتنة هذه الأمة فى المال ج ٣ ص ٣٨٩ حديث ٢٤٣٩

(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ج ٤ ص ٣ حديث ٢٤٤٤



البلخى يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف : الخبز ليس معه إدام . وقال غيره : هو غليظ الخبز . وقال الهروى : المراد به هنا وعاء الخبز ، كالجوالق والخرج والله أعلم .  
وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : أتيت النبی ﷺ وهو يقرأ : ( أهاكم التكاثر ) قال : ( يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت !؟ )<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبي ﷺ يا رسول الله والله إنى لأحبك فقال : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إنى لأحبك ، ثلاث مرات فقال : ( إن كنت تحببني فأعد للفقير تحففا فإن الفقر أسرع إلى من يحببني من السيل إلى متناه )<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن .  
« التجفاف » بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة وهو شيء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الانسان .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه )<sup>(٣)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .  
وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ( نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر في جنبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء . فقال : مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها )<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .  
معنى وطاء : « بكسر الواو وياء المد » هو الفراش الوطىء . وفى رواية ابن ماجة فقلت يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك شيئا يقيك .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام )<sup>(٥)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبي ﷺ قال : ( إطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء وإطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء )<sup>(٦)</sup> متفق عليه من رواية ابن عباس ، ورواه البخارى أيضا من رواية عمران بن الحصين .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : ( قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين . وأصحاب الجدد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار )<sup>(٧)</sup> متفق عليه و« الجدد » الحظ والغنى .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ج ٣ ص ٢٢٧٣ حديث ٢٩٥٣

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٧ حديث ٢٤٥٤

(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٦ حديث ٢٤٨٢

(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٧ حديث ٢٤٨٣

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٨ حديث ٢٤٥٨

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ ومسلم فى كتاب التركى ج ٢ ص ٣٢٠

(٧) الحديث البخارى فى كتاب النكاح باب ٨٧ ج ٧ ص ١٨٧ ومسلم فى كتاب الذكر ب ٢٦ ج ٢ ص ٣٢٠

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ( أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . ألا كل شيء ما خلا الله باطل )<sup>(١)</sup> متفق عليه .

### \* بيان حال الكفار في الشدة والرخاء \*

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتَعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

### معاني المفردات

(الفلك) السفينة في البحر (مخلصين له الدين) صادقين في نياتهم (حرما آمنا) حرما ذا أمن وطمانينة (مثوى) مأوى ومستقر (يتحطف) الخطف الأخذ بسرعة والمراد يقتل بعضهم بعضا بسرعة ويسبى بعضهم بعضا (أظلم) الظلم وضع الشيء في غير موضعه .  
المناسبة واجمال المعنى :

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق ، وهم بعد ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها - أردف ذلك أن هذه الدنيا باطل وعبت زائل . وإنما الحياة الحققة هي الحياة الآخرة التي لا فناء بعدها ، فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواء في الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا في الشدائد ، كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب ، وخافوا الغرق نادوا الله ، معترفين بوحدانيته ، وأنه لا منجى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سرعان ما يرجعون القهقري ، ويعودون سيرتهم الأولى ، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

وبعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجأوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة - ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا في حصنهم الحصين وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب ٩٠ ج ٧ ص ١٠٠ ومسلم في كتاب الشعر ص ١٧٦٨ ج ٤

عاقِل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الاخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لاتجديهم فتىلا ولاقطمير؟

## \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم ييغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنتنبثكم بما كنتم تعملون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾<sup>(٢)</sup> . وقوله جل شأنه : ﴿ ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ وإذا غشيهم موج كالأظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل خثار كفور ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال ههنا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾<sup>(٦)</sup> وقد ذكر محمد بن اسحاق عن عكرمة ابن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارا منها فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لاينجى ههنا الا هو ، فقال عكرمة والله لئن كان لاينجى في البحر غيره فإنه لاينجى في البر أيضا غيره ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رعوفا رحيا فكان كذلك وقوله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لايقصدون ذلك ولاشك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل ، قوله تعالى : ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أسلوب وعيد وتهديد كما في قوله تعالى : ﴿ فذرهم في غمرتهم حتى حين أيعسبون أنما نغدhem به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾<sup>(٧)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾<sup>(٨)</sup> وقوله تعالى : ﴿ فذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم

(٥) الآية ٦٧ من سورة الاسراء

(٦) من الآية ٦٥ من سورة العنكبوت

(٧) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون

(٨) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الحجر

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس

(٢) الآية ٦٣ من سورة الانعام

(٣) الآية ٣١ من سورة لقمان

(٤) الآية ٣٢ من سورة لقمان

قليلاً ﴿١﴾ . وقوله تبارك اسمه ﴿٢﴾ لا يفرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴿٣﴾ .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا  
تنام عينك والمظلوم متببه  
فالظلم ترجع عقباه إلى الندم  
يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال آخر :

يا نائم الليل مسرورا بأوله  
إن الحوادث قد يأتين أسحارا

وقال غيره :

هي الدنيا تقول بملء فيها  
فلا يغرركم منى إبتسام  
حذار حذار من بطشي وفتكى  
فقولى مضحك والفعل مبكى

وقال آخر :

لكل شيء إذا ما تم نقصان  
فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقال غيره :

هي الأيام لا تبقى عزيزا  
إذا نشر الضياء عليك نجم  
وساعات السرور بها قليلة  
وأشرق فارتقب يوما أفولا

وقال غيره :

وكم من جبال كم علت شرفاتها  
رجال فزالوا والجبال جبال

قوله تعالى : ﴿١﴾ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿٣﴾ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴿٤﴾ أى أو لم يعلم هؤلاء ويصبروا أن الله تعالى قد أنعم عليهم بنعمة الحرم الأمن كما قال تعالى : ﴿٥﴾ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٦﴾ ردا على الذين قالوا : ﴿٧﴾ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴿٨﴾ وكما قال تعالى : ﴿٩﴾ ومن دخله كان آمنا ﴿١٠﴾ وقال : ﴿١١﴾ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴿١٢﴾ والناس من الأعراب يتخطفون من حول الحرم بطريق السلب والنهب . قال

(٤) من الآية ٥٧ من سورة القصص  
(٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران  
(٦) من الآية ٢٦ من سورة الحج

(١) الآية ١١ من سورة المزل  
(٢) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران  
(٣) من الآية ٥٧ من سورة القصص

تعالى : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ كان الواجب على هؤلاء أن يقابلوا النعمة الجليلة بالشكر كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (١) لكنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ أقبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ (٣) والباطل شرك وتكذيب والنعمة إيمان وتصديق لذا قال جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ (٤) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال : إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فىنا ﴾ يعنى الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبيلا ﴾ أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقتنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فىنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لا يعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارائى فاعجبه وقال ليس ينبغى من أ لهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله : ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبي قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الاحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . والله أعلم . فلكى تنال الهداية إلى سبل الخير لا بد أن تجاهد نفسك ومجاهدة النفس من أعظم أنواع الجهاد ولكى تنال المعية الكريمة لا بد أن تكون محسنا ولكى تنال الهداية والمعية لا بد مع المجاهدة المحاسبة .

يقول الامام ابن الجوزى رحمه الله تعالى : اعلم بأن النفس مجبولة على حب الهوى فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة ومتى لم تزجر عن الهوى هجم عليها الفكر فى طلب ما شغفت به فاستأنست بالآراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأمانى العجيبة ، خصوصا إن ساعد الشباب الذى هو شعبة من الجنون وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب .

عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : ( الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،

(١) سورة قريش الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٢) الأيتان ١١٢ ، ١١٣ من سورة النحل

(٣) من الآية ٦٧ سورة العنكبوت

(٤) الآية ٦٨ سورة العنكبوت

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله<sup>(١)</sup> أخرجه الترمذى وقال حسن ، وابن ماجه .  
وقال أبو بكر القرشى : ( من أتبع نفسه هواه ) . وقال ابن الأنبارى : ( الكيس من أدان نفسه )  
و« الفاجر » بدل « العاجز » . قال : وقال لنا أحمد بن يحيى النحوى : الكيس عند العرب العاقل  
والكيس العقل .  
وأنشدنا :

فكن أكيس الكيسى إذا ما لقيتهم      وكن جاهلا إذا ما لقيت ذوى الجهل

قال : وقوله : « من أدان نفسه » معناه : أخذ لنفسه من نفسه ، من صحته لسقمه ، ومن غناه  
لفقره .

ومن روى : « من دان نفسه » معناه : من استعبد نفسه وأذلها لطاعة الله . قال الأعشى :  
هو دان الذئب إذ كرهها الدين دراكا بعزة وصيال . معناه : هو استعبد الذئب .  
عن ابن الجبير ، وكان من أصحاب النبى ﷺ ، قال أصاب النبى يوما جوع شديد ، فوضع  
حجرا على بطنه ، ثم قال : « ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب  
مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ، ألا يارب متخوض متنعّم فيما أفاء الله  
على رسوله ما له عند الله من خلاق ، ألا وإن عمل الجنة حزنة بربوة ، ألا وإن عمل النار سهل  
بسهوة ، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا » . ( والحزن ضد السهل . والربوة المكان المرتفع  
من الأرض ) والمراد من الحديث أن عمل الجنة صعب ، وعمل النار سهل ، لأن ذلك يخالف الطباع ،  
وهذا يوافقها .

عن جابر ، قال : قدم النبى ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله ﷺ : « قدمتم خير مقدم ،  
وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : « مجاهدة  
العبد هواه »<sup>(٢)</sup> .

اعلم أنه إما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء ، لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب .  
لأنها لا تدعو إلا إلى ما تشتهى ، وموافقة المحبوب فى المكروه محبوبة ، فكيف إذا دعا إلى محبوب ! فإذا  
عكست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب ، اشتد الجهاد وصعب الأمر ، بخلاف  
جهاد الكفار ، فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء .

وقال ابن المبارك فى قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ قال : هو جهاد النفس  
والهوى .

وعن ثابت بن الحجاج ، قال : قال عمر بن الخطاب : ( حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا  
أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة . وتزينوا  
للعرض الأكبر ، يؤمئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية .

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الموت حديث ٤٢٦٠ ج ٢  
(٢) الحديث أورده صاحب كنز العمال حديث ١١٢٦٠ ، ١١٧٧٩ ، والخطيب ج ١٣ ص ٤٩٣

وعن أنس بن مالك قال : سمعت عمر بن الخطاب يوما ، وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول ويبنى وبينه جدار : ( عمر بن الخطاب ! يخ بنخ والله بنى الخطاب ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك ) .

وعن الحسن قال : أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله عز وجل فى الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذى هموا به لله عز وجل مضوا فيه ، وإن كان عليهم أمسكوا . قال : وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور فى الدنيا اتخذوا على غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر . ثم قرأ : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ (١) .

وعن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشئ يعجبه فيقول : والله إنى لأشتيهك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى وهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم . إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لا يأمن شيئا حتى يلقي الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سماعه ويصره ولسانه وجوارحه .

وعن الحسن قال : فى وصية لقمان لابنه : يا بنى إن الإيمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرت ، فإذا اجتمعا استقامتا . إن النفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا فوضت إليها أساءت ، وإذا حملتها على أمر الله صلحت . وإذا تركت الأمر إليها فسدت . فاحذر نفسك واتمهما على دينك ، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها ولا بد له منها . وإن الحكيم يذل نفسه بالمكاره ، حتى تعترف بالحق ، وإن الأحمق يخير نفسه فى الأخلاق ، فما أحببت منها أحب وما كرهت منها كره .

وعن حجاج بن الأسود قال : سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم إن كنت تريد ألا يأتى الخير إلا عن نشاط ، فإن نفسك إلى السامة والفتور والملل اقرب ، ولكن المؤمن هو العجاج ، والمؤمن هو المتوفى والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون إلى الله عز وجل بالليل والنهار ، والله مازال المؤمنون يقولون ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم .

وعن أبى عبيدة الناجى ، أنه سمع الحسن يقول حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، وأقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنما تنازع إلى شر غاية ، وأنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا ، فتصبروا وتشددوا ، وإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالج ما بحضرتكم .

إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما صبر على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته .

وعن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ <sup>(١)</sup> قال : تندم على ما فات وتلوم نفسها .

وعن ميمون بن مهران قال : لا يكون الرجل تقيا حتى يحاسب نفسه محاسبته لشريكه .  
وعنه أيضا أنه قال : لا يكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .  
عن سلمة بن منصور ، عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال : كنت أصحابه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء ، وكان يجيء الى المصباح فيضع إصبعه ثم يقول : حس . ثم يقول : يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! .

وعن مالك بن دينار قال : إن قوما من بني إسرائيل كانوا في مسجد لهم فجاء شاب حتى قام على باب المسجد ، فقال ليس مثلي من يدخل معكم ، أنا صاحب كذا أنا صاحب كذا ، يزرى على نفسه ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن فلانا صديق .

وعن حبيش قال : قال وهب بن الورد : بينما امرأة في الطواف ذات يوم وهي تقول : يارب ذهبت اللذات وبقيت التبعات ، يارب سبحانه إنك لأرحم الراحمين ، يارب ما لك عقوبة إلا النار .  
فقال صاحبها لها : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين ، وأشارت إلى قدميها ، أهلا للطواف حول بيت ربى عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطوبها بيت ربى ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ! .

وعن عبد الجبار بن النضر قال : مر حسان بن أبى سنان بغرفة ، فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة فصامها .

وعن منكدر بن محمد عن أبيه ، أن تميا الدارى نام ليلة لم يقم يتعبد فيها ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

قال معاوية بن هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ فذكر كلاما طويلا إلى أن قال : كان أشد الناس على نفسه سلطانا .

وعن محمد بن سعيد الدارمي ، عن أبيه ، قال : قيل لرجل : صف لنا الأحنف بن قيس . فقال : ما رأيت أحدا أعظم سلطانا على نفسه منه .

وعن شيب بن شيبه قال : قال سليمان بن عبد الملك بن هشام لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ؟ قال : إن شئت أخبرتك عنه ألفا ، وإن شئت حذفته فيه القول حذفًا . قال : بل احذفه حذفًا . قال : ان شئت ثلاثا ، وإن شئت إثنين وإن شئت واحدة . قال : هات الثلاث . قال : كان لا يشره ، ولا يحيد ولا يمنع أحدا من حق ، قال : فهات الاثنتين . قال : كان موفقا للخير



عن أبى ربيعة قال : قال عمر بن عبد العزيز : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس .  
وعن عمر بن واصل قال : سمعت سهلاً يقول : من صحب نفسه هلك ، ومن صحبته نفسه لم  
يسلم .

وعن محمد بن أحمد بن سعيد قال : سمعت أبا بكر الوراق يقول : استعن على سيرك إلى الله  
بترك من شغلك عن الله عز وجل ، وليس بشاغل يشغلك عن الله عز وجل كنفسك التى هى بين  
جنبيك .

وعن أبى على الروذبارى قال : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ،  
فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد مجتهد فى ردها ، فمتى أعنها فهو شريكها فى فسادها .  
وعن سمنون قال : أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته  
لنفسه .

وعن أبى بكر الكنانى قال : قال لى على بن سعيد : رأيت فى النوم امرأة لاتشبه نساء الدنيا ،  
فقلت من أنت ؟ قالت : حوراء .

قلت : زوجي نفسك . فقالت : اخطبني إلى سيدى . قلت : فما مهرى ؟ قالت : حبس  
نفسك عن مآلوفاتها .

وعن إبراهيم بن الأشعث أنه سمع الفضل بن عياض يقول فى قوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا  
أنفسكم ﴾ (١) قال : لاتغفلوا عن أنفسكم ، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها .

وعن أحمد بن على البوارنجى قال : سمعت أبا عمران الحديثى يقول : ما مددت يدي مذ عقلت  
عن الله عز وجل ، ولنفسى فيه نصيب ، ولولا أن الله عز وجل أودعنا هذه النفوس بحفظها له لجعلنا  
على ذروة كل جبل منها قطعة .

وعن على بن عبد الحميد الغضائرى ، قال : سمعت السرى يقول : أقوى الفتوة غلبتك  
نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن  
عيوب النفس .

وعن أحمد بن سليمان قال : وجدت فى كتابى عن حاتم الأصم قال : الموت الأحمر مخالفة  
النفس .

وعن أحمد بن أبى الحوارى قال : من لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور .  
وعن منصور بن عبد الله قال : سمعت محمد بن حامد يقول : قال رجل لأحمد بن خضروية  
أوصنى . فقال : أمت نفسك تحيها .

وعن الحسن بن علوية يقول : قال يحيى بن معاذ : لاتربح على نفسك بشئ أجل من أن  
تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها .

معصوما عن الشر . قال فهات الواحدة : قال : لم أر أحدا قط كان أقوى سلطانا على نفسه منه .  
وعن عبد الله بن محمد ، قال : حدثني ابن أبي شميعة ، قال : دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممن كان يوصف بالعقل والأدب . فقال له عبد الملك تكلم . قال : بم أتكلم . وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم وبإل عليه . إلا ما كان لله ! فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله ، لم يزل الناس يتواظون ويتواصلون . قال : يا أمير المؤمنين إن للناس في القيامة جولة لا ينجو من غصص مرارتها إلا من أرضى الله بسخط نفسه .

قال عبد الله الأهم لابنه : « يا بني توق نفسك ، فإن في خلافها رشذك » .  
وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله عز وجل حاجة ، فصام سبعين سبتا يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرّة ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : منك أتيت ، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك .

قال محمد بن المنكدر : إني خلفت زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه في المسجد ، يقول : اجلسي ، أين تريدن ؟ أين تذهبين ؟ أخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟ انظري إلى ما فيه ، تريدن أن تبصرى دار فلان ودار فلان ؟!  
قال : وكان يقول لنفسه : مالك من الطعام إلا هذا الخبز وهذا الزيت ومالك من الثياب إلا هذين الثوبين ، ومالك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبين أن تموتى ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش .

قال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع في شهوتك ؟ قال : ما في الأرض نفس أبغض إلى منها ، فكيف أعطيها شهوتها .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا ، وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره ، فينبغي لنا أن نكرها .

وعن جميلة بن الحارث أنه كان يقول : اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم ، فوالذي نفسي بيده إنى لألبس ما يساوى ثلاثة دراهم فأظل أنظر في عطفى ! .

وعن محمد بن بلال بن أبي الدرداء أن أمة عثامة كف بصرها ، فدخل عليها ابنها يوما وقد صلى ، قالت أصليتم بنى ؟ فقال نعم فقالت :

عثام مالك لاهية	حلت بدارك لاهية
ابكى الصلاة لوقتها	إن كنت يوما باكية
وابكى القرآن إذا تلى	قد كنت يوما تالية
تتلينه بتفكر	ودموع عينك جارية
فاليوم لاتتلينه	إلا وعندك تالية
لهفى عليك صباية	ما عشت طول حياتيه

وعن أحمد بن حمدون قال : سمعت أبى يقول : من استطاع منكم ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل .

وعن الحسن بن علوية قال : قال محمد بن الفضل : أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ولا بد له منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل .

وعن أبى صالح قال : قال أبو سعيد الخراز : مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف ، فإن حركته ظهر ما تحته من الحمأة . وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ومن لم يعرف ما فى نفسه فكيف يعرف ربه .

وعن أبى محمد الجريرى قال : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلامه ولا يستحليه ، وإن كثرت ترداده على لسانه .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصرى : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه . وعن أبى بكر بن الضرير المرقى يقول : دافعت الشهوات حتى صارت شهوق المدافعة . وعن الجريرى قال : سمعت الجنيد يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنيات .

وعن الحسن بن أحمد الصوفى قال : قال فراس العابد : قلت لراهب أوصنى فقال : عليك بما تكره نفسك فألزمه قلبك ، فإنه يقدم بك على ما تحب ، وإياك وما تحبه ، فإنه يقفك على ما تكره .  
\* ذكر أشعار قيلت فى ذلك :

عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا ، فبلغ منه وجهه ، فقال :	قدمى اعتورا رمل الكثيب
واطرقا الأجمن من ماء القلب	رب يوم رحتما فيه على
زهرة الدنيا وفى واد خصيب	وسماع حسن من حسن
صخب المزهى كالظبي الريب	فاحسبا ذاك بهذا واصبرا
وخذا من كل فن بنصيب	إنما أمشى لآنى مذنب
فلعل الله يعفو عن ذنوبى	

وعن أحمد بن على بن ثابت ، قال : أنشدنى أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازى الواعظ :

نسبت إلى غير الحجا والتكرم	إذا ما أطلعت النفس فى كل لذة
دعتك إلى الأمر القبيح المحرم	إذا ما أجبت النفس فى كل دعوة

وقال عبد الله بن المعتز :

فلا تؤكلن بأنبيائها	وكم دهمى المرء من نفسه
فلا يبدفعلك إلا بها	وإن أمكنت فرصة فى العدو

وإياك من ندم بعدها وتأميل أخرى وأنى بها

أنشدنى أبو زيد بن الحسن الطبرى :  
إذا طالبتك النفس يوما بحاجة  
فكان عليها للقبیح طريق  
فدعها وخالف ما هويت فإنما  
هواك عدو والخلاف صديق

واعلم ان المغلوب بموافقة الهوى والنفس مهوور ، ولذلك تجد فى نفسه ذلك لمكان القهر ، وغالب الهوى ذو صولة ، ولذلك وقع عظيم فى الشرع وعند الخلق .  
أما فى الشرع فإن قهر الهوى يوجب المباحاة .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : ( عجب ربنا من شاب ليس له صبوة ) (١) .  
وعن يزيد بن ميسرة قال : ان الله عز وجل يقول : ( أيها الشاب التارك شهوته من أجل ، أنت عندى كبعض ملائكتى ) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : ( أيها الشاب التارك شهوته لى ، المتبذل شبابه من أجل ، أنت عندى كبعض ملائكتى ) .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول : قال الله تعالى : ( من كان لى مطيعا كنت له وليا ، فليثق بى وليحكم على ، فو عزق لو سألنى زوال الدنيا لأزلتها له ) .  
وأما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد ، ويذلون له ، ويتبركون به ، لأنه قوى على حمل ما ضعفوا عنه ، وهجر ما يستطيعون هجره .

وقد كان أهل الحزم يعودون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحا ، ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقا ، وليطلب الأرباح فى المعاملة بترك المباح .

عن عبد الله بن أبى عثمان ، قال : كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التى يقال لها رميثة ، وقال : إنى سمعت الله قال فى كتابه : ﴿ بن تناالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (٢) ، وإنى والله إن كنت لأحبك فى الدنيا اذهبى فانت نوجه الله .

عن إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى ، قال : كانت لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن العزيز جارية ذات جمال فائق ، وكان عمر معجبا بها قبل أن تنفضى إليه الخلافة . فطلبها منها وحرص ، فأبت دفعها إليه وغارت من ذلك ، فلم تنزل فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية ، فأصلحت ثم جلبت فكانت حديثا فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر ، فقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت بفلانة جارىتى معجبا وسألتنيها ، فأبیت ذلك عليك ، وإن نفسى قد طابت لك بها اليوم فدونكها ، فلما قالت ذلك استبان الفرح فى وجهه ، ثم قال : ابعثى بها لى ،

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥ ، ٧١

(٢) من الآية ٩٢ من سورة آل عمران

ففعلت فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجباً ، فقال لها : ألقى ثوبك ، فلما همت أن تفعل ، قال : على رسلك ، أقعدى ، أخبريني لمن كنت ومن أين أنت لفاطمة ؟ قالت : كان الحجاج ابن يوسف أغرم عاملاً كان له من أهل الكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فاستصفاى عنه مع رقيق له وأموال ، فبعث بى إلى عبد الملك بن مروان ، وأنا يومئذ صبية ، فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة . قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وما ترك ولدا ؟ قالت : بلى . قال : وما حالهم ؟ قالت : سيئة . قال : شدى عليك ثوبك .

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرح لى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرم الحجاج أباك ، فلم يرفع إليه شيئاً إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعته إليه ، فلما أخذ بيدها قال : إياك وإياها فإنك حديث السن ، ولعل أباك أن يكون قد وطئها ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين هى لك .

قال : لا حاجة لى فيها . قال : فابتعها منى ، قال : لست إذن بمن ينهى النفس عن الهوى ، فمضى الفتى بها ، فقالت الجارية : فأين موجدتك بى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنها لعلى حالها ولقد ازدادت فلم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى اللحد حتى وقفت بين يدى الله تعالى ، فحاسبنى حساباً يسيراً ، ثم أمر بى إلى الجنة ، فبينما أنا أدور بين أشجارها وأنهارها ، ولا أسمع حساً ولا حركة ، إذ سمعت قائلاً يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، قال : تحفظ أنك آثرت الله على هواك يوماً ؟ قال : قلت : إى والله ، فأخذتنى صوائى النثار من جميع الجنة .

وعن محمد بن سهل بن عسكر قال : سمعت عبد الرازق يقول : بعث أبو جعفر الخشابى حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثورى فاصليوه ، قال : فجاء التجارون ونصبوا الخشب ، ونودى سفيان ، وإذا رأسه فى حجر الفضل ، ورجلاه فى حجر ابن عيينه . قال : فقالوا له : يا أبا عبد الله اتق الله ولا تشمت بنا الأعداء . قال فتقدم إلى الأستار ثم أخذها ، ثم قال : يرث منه إن دخلها أبو جعفر . قال : فمات قبل أن يدخل مكة . فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئاً . فتلمح يا أخى أثر خلاف الهوى ، كيف بان فى مقام لو أقسم ! وميز ما بين إدلال المطيع وذل العاصى .

( لو أقسم ) يشير إلى قول الرسول : رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره . وقد سمعت أن عمر لما جاءه منكر ونكير جذب بذؤابة هذا وذؤابة هذا وقال : من ربكما ؟! ولولا انقباض يده عن الهوى ما انبسطت إلى منكر ونكير .

وقد قال بعض الحكماء : ظاهر التقوى شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة ، واعلم أنك إذا عكست هذه الحال فى حق موافق الهوى والنفس ، رأيت الذل ملازماً والجاه منكسراً ، وكذلك الأمر عند المخلوقين فى الأمرين جميعاً ، فإنه من عرف عندهم بقهر الهوى عظم ، ومن نبذ بأنه مقهور الهوى أهين ، فالعجب من سكرة ذى الهوى ، كيف غلبت عليه فلما أفاق لم ير غير اللوائم .

## \* سورة الروم \*

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . عدد آياتها خمس وستون عند المكيين ، وستون عند الباقين وكلماتها ثمانمائة وسبع ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون ، والآيات المختلف فيها أربع : ألم ( غلبت الروم ) ( في بضع سنين ) ( يقسم المجرمون ) فواصل آياتها نمر ، على الرء آيتان ( قدیر فی موضعین ) وسميت سورة الروم لما فيها من ذكر غلبة الروم .

معظم مقصود السورة : غلبة الروم على فارس ، وعيب الكفار في إقبالهم على الدنيا ، وأخبار القرون الماضية ، وذكر قيامة الساعة وآيات التوحيد ، والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان بعث القيامة ، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف ، والإحسان إلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أداء الزكاة ، والأخبار عن ظهور الفساد في البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع في السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة في الربيع وإصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز ، وإحياء الخلق بعد الموت ، والحشر والنشر ، وتسلية رسول الله ﷺ ، وتسكينه عن جفاء المشركين وأذاهم في قوله : ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ (١) .

قوله : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ (٢) ، وفي فاطر وأول المؤمن بالواو ، وفي غيرهن بالفاء ، لأن ما قبلها في هذه السورة ﴿ أو لم يتفكروا ﴾ (٣) وكذلك ما بعدها ( وأثاروا ) بالواو ، فوافق ما قبلها ، وما بعدها وفي فاطر أيضا وافق ما قبله وما بعده ، فإن قبله ﴿ ولن نجد لسنة الله تحويلا ﴾ (٤) ، وبعدها ﴿ وما كان الله ﴾ (٥) وكذلك أول المؤمن قبله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ (٦) وأما آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده ، وكان بالفاء ، وهو قوله : ﴿ فأى آيات الله تنكرون ﴾ (٧) ، وبعده ﴿ فما أغنى عنهم ﴾ (٨) .

قوله : ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ (٩) ( من قبلهم ) متصل بكون آخر مضمرة وقوله : ﴿ كانوا أشد منهم قوة ﴾ (١٠) : إخبار عما كانوا عليه قبل الإهلاك ، وخصت هذه السورة بهذا النسق لما يتصل به من الآيات بعده . وكل إخبار عما كانوا عليه وهو ( وأثاروا الأرض وعمروها ) وفي فاطر : ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا ﴾ (١١) بزيادة الواو ، لأن التقدير : فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشد منهم قوة . وخصت هذه السورة به لقوله : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء ﴾ الآية . وفي المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ فأظهر ( كان ) العامل في ( من قبلهم ) وزاد ( هم ) لأن في هذه السورة وقعت في أوائل قصة نوح ، وهى تتم

(٧) من الآية ٨١ من سورة غافر  
(٨) من الآية ٨٢ من سورة غافر  
(٩) من الآية ٤٣ من سورة فاطر  
(١٠) من الآية ٤٣ من سورة فاطر  
(١١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

(١) من الآية ٦٠ من سورة الروم  
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم  
(٣) من الآية ٨ من سورة الروم  
(٤) من الآية ٤٣ من سورة فاطر  
(٥) من الآية ٤٤ من سورة فاطر  
(٦) من الآية ١٤ من سورة الرعد

فى ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط ، وفى آخر المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴾ <sup>(١)</sup> فلم يبسط القول ، لأن أول السورة يدل عليه .

قوله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وختم الآية بقوله ( يتفكرون ) لأن الفكر يؤدى إلى الوقوف على المعانى التى خلقت لها من التوائس والتجانس ، وسكون كل واحد منها إلى الآخر .

قوله : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾ <sup>(٣)</sup> وختم بقوله : ( للعالمين ) لأن الكل تظلمهم السماء ، وتظلمهم الأرض ، فكل واحد منفرد بلطفه فى صورته يمتاز بها عن غيره ، حتى لاترى اثنين فى ألف يتشابه صورتاهما ويلتبس كلاهما ، وكذلك ينفرد كل واحد بدقيقة فى صورته ، يتميز بها من بين الأنام ، فلا ترى اثنين يشبهان ، وهذا يشترك فى معرفته الناس جميعا . فلهذا قال : ( لآيات للعالمين ) ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات ، واختلاف الألوان على السواد والبياض ، والشقرة والسمرة . فالاشتراك فى معرفتها أيضا ظاهر . ومن قرأ ( للعالمين ) بالكسر فقد أحسن ، لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ وختم بقوله ﴿ يسمعون ﴾ فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم لا يقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقن أن له صانعا مدبرا ، قال الامام : معنى ( يسمعون ) ههنا : يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب . وختم الآية الرابعة بقوله : ( يعقلون ) لأن العقل ملاك الأمر فى هذه الأبواب ، وهو المؤدى إلى العلم ، فختم بذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته يريكم أى أنه يريكم . وقيل : تقديره : ويرىكم من آياته البرق . وقيل : أن يريكم ، فلما حذف ( أن ) سكن الباء وقيل : ( ومن آياته ) كلام كاف ، كما تقول : منها كذا ، ومنها كذا ، ومنها .. وتسكت ، تريد بذلك الكثرة .

قوله : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾ <sup>(٤)</sup> وفى الزمر : ﴿ أو لم يعلموا ﴾ <sup>(٥)</sup> لأن بسط الرزق مما يشاهد ويرى ، فجاء فى هذه السورة على ما يقتضيه اللفظ والمعنى . وفى الزمر اتصل بقوله ﴿ أوتيته على علم ﴾ ويَعْدَهُ ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فحسن أو لم يعلموا قوله : ﴿ ولتجرى الفلك بأمره ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وفى الجاثية ﴿ فيه بأمره ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الرياح ، وهو قوله ﴿ أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ بالمطر ، وإذاعة الرحمة ، ولتجرى الفلك بالرياح بأمر الله تعالى .

ولم يتقدم ذكر البحر . وفى الجاثية تقدم ذكر البحر ، وهو قوله ﴿ الله الذى سخر لكم البحر ﴾ <sup>(٧)</sup> فكفى عنه ، فقال : ﴿ لتجرى الفلك فيه بأمره ﴾ <sup>(٨)</sup> .

(٥) من الآية ٥١ : من سورة الزمر

(٦) من الآية ٤٦ : من سورة الروم

(٧) من الآية ١٢ : من سورة الجاثية

(٨) من الآية ١٢ : من سورة الجاثية

(١) من الآية ٤٣ : من سورة فاطر

(٢) من الآية ٢١ : من سورة الروم

(٣) من الآية ٢٢ : من سورة الروم

(٤) من الآية ٣٧ : من سورة الروم

\* مناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التي يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون في الله ولوجهه فكان هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن ما في هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر في الآفاق ، والأنفس مفصل لما جاء منه مجملًا في السورة السالفة ، إذ قال في السالفة : ﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ﴾ (١) إلخ ، وهنا بين ذلك ، فقال : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض ﴾ (٢) إلخ ، وقال : ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ (٣) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ۝ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۝ اللَّهُ أَلَمٌ مِّن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَ يُنْفَخُ أَلْمُؤْمِنُونَ ۝ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ۝ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

يَعْلَمُونَ ظَهَرَ أَمِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ۝

### معاني المفردات

(الْم) فيها ما مر في أخواتها من حيث القراءة والمراد (الروم) هي مملكة الرومان وعاصمتها القسطنطينية (في أدنى الأرض) المراد أقرب الأرض إلى العرب من جهة الشام مما يلي فارس . (في بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة إلى التسع من السنين .

نزلت هذه الآيات عندما غزا الفرس الرومان ، وغلبوهم في مشارف الشام ، مما يلي بلاد العرب ، ففرح بذلك مشركو العرب إذ قالوا : إن الفرس لا كتاب لهم مثلنا ، والرومان لهم كتاب مثلكم لأنهم من النصارى ، ولنتنصرون عليكم كما انتصر الفرس ، فحلف أبو بكر بعد نزول الآية أن الرومان سيغلبون الفرس بعد هزيمتهم هذه ، فقالوا له : إجعل لنا موعدا ونراهنك على ذلك فغضب موعدا بسيطا ثم استشار النبي ﷺ فقال له : زد في الرهان ومد الأجل فإن البضع من ثلاث إلى تسع

(١) من الآية ٢٠ من سورة العنكبوت

(٢) من الآية ٩ من سورة الروم

(٣) من الآية ١١ من سورة الروم



ف فعل وانتصر الرومان فى السنة التاسعة ، وأخذ أبو بكر الجعل وتصدق به .

### \* التفسير \*

( ألم ) حروف هجائية افتتح القرآن الكريم بها بعض سوره إذا جمعناها وحذفنا المكرر منها أنتجت لنا عبارة تقول : ( نص حكيم قاطع له سر ) وفيها إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد : قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ (١) . قوله تعالى : ﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾ قال ابن عباس كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : ( أما إنهم سيغلبون ) فذكره أبو بكر لهم فقالوا إجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ( ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - ) (٢) قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله : ﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

والروم من سلالة العيص بن إسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطنس وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوف فتابعها يقال له تقيية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لا ينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعابين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساوسة ثم الشماسة وابتدعوا

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة

(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤

الربانية وبني لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهي القسطنطينية يقال إنه بنى في أيامه اثني عشر ألف كنيسة وبني بيت لحم بثلاثة محاريب وبنيت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله ﷺ (إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة) <sup>(١)</sup> والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم في رئاسة عظيمة وأبهة كثيرة فناواه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رئاسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهود أن كسرى غزاه بنفسه في بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانته لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الأمر دبر قيصر مكيذة ورأى في نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصلحه عليه .

ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لا يقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتهما عن جمع عشرة وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى في تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إني خارج في أمر قد أبرمته في جند قد عينته من جيش فان رجعت اليكم من قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتي وإن شئتم وليتم عليكم غيري فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة في جيش متوسط هذا وكسرى يخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث في بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهي كرسي مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه في غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذ فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجاء في حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التي لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها . فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق إليها وهو أنه أُرصد جنده وحواصله التي معه عند قم المخاضة وركب في بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبر

(١) الحديث أخرجه أبو داود في سننه - كتاب السنة باب شرح الحديث ٤٥٩٦ ج ٤/ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ وابن ماجه في كتاب الفتن باب افتراق الأمم الحديث ٣٩٩٢ ج ٢ ص ١٣٢٢

والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فامرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير فقاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا عند التصارى وبقي كسرى وجيوشه حائرين لا يدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربت الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم وكانت الواقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلي بلاد الحجاز وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر فى مناجبه ﷺ الم . غلبت الروم ﷻ الآية ( ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟ )<sup>(١)</sup> ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى ﷻ الله الأمر من قبل ومن بعد ﷻ أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت ﷻ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﷻ أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن أبي سعيد قال : ( لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به )<sup>(٢)</sup> وأنزل الله ﷻ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﷻ .

وليس ثمة أدنى شك كان يوم عيد للأمة الاسلامية بنصر الله لعباده المؤمنين . قال تعالى : ﷻ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﷻ<sup>(٣)</sup> ثم يقول تعالى : ﷻ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ﷻ<sup>(٤)</sup> ويقول سبحانه ﷻ ولقد نصركم الله ييدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﷻ<sup>(٥)</sup> وقد

(١) الحديث فى تحفة الاحوذى ، تفسير سورة الروم ٩/ ٥٢ ، وتفسير الطبرى ٢١/ ١٢ وأخرجه الترمذى

(٢) الحديث أخرجه الامام احمد فى مسنده ج ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤

(٣) الأيتان ١١ ، ١٢ من سورة الأنفال

(٤) الآية ١٧ من سورة الانفال

(٥) الآية ١٢٣ من سورة آل عمران



أَكْثَرِ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِذُ يَنْفَرِقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

## معاني المفردات

(وَأَثَارُوا الْأَرْضَ) حرثوها وزرعوها (السوءى) مؤنث الأسوء والمراد بها النار (يبلس) أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمل أن تكون له حجة ، والمبلس الساكت المنقطع في حجته اليائس من أن يهتدى إليها (روضة) الروضة الجنة وأصلها النبات حول الغدير من البقول (يحبرون) ينعمون ويسرون من الخبور وهو السرور .

## المناسبة وإجمال المعنى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده ، وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون - أردف هذا أن الأدلة متظاهرة في الأنفس والأفاق على وجوه وتفردة بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير في أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

\* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ . المقصود بالتفكر : التدبر والنظر . قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ

والأرض ﴿١﴾ وقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ وقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولتجملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾ (٣) وقال جل شأنه : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ (٤) والنظر هو التدبر في الأمور الجزئية بقصد الوصول إلى حكم كلي وقد أمر الله تعالى بالتفكر قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ (٥) كما أمر هنا بالتفكر في الأنفس والعالم العلوى والسفلى من السموات والأرض ليعلموا أن الله واحد وأن البعث حق وإن كثيرا من الناس بعد وضوح الأدلة وظهور الآيات بقاء ربهم لكافرون .

وداؤك فيك وما تبصر      وداؤك منك وما تشعر  
وأنت الكتاب المبين النذی      بأحرفه يظهر المضمهر  
وتزعم أنك جرم صغير      وفيك انطوى العالم الأكبر

### \* كنوز الأسرار \*

ولكى نسلك مدارج الأنوار ونقف على حقائق الأسرار فبين أيدينا الآن كتاب : ( مفتاح دار السعادة ) للامام ابن القيم يحدثنا فيه عن الآيات الباهرة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة على عظمة الله تعالى ووحدانيته وقدرته . فيقول رحمه الله : إذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته . ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها ( فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه ) إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (٧) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ (٨) وقال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من مئى معنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ (٩) وقال

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس

(٢) الآيات ٢٤ الى ٣٢ من سورة عبس

(٣) من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة

(٤) من الآية ٩٩ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٤٦ من سورة سبأ

(٦) الآية ٥ من سورة الطارق

(٧) الآية ٢١ من سورة الذريات

(٨) من الآية ٥ من سورة الحج

(٩) الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة القيامة

تعالى : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ .  
 وقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقها من أعظم الدلائل على خالقه وفطره وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما يقتضى الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره .

قال الله تعالى : ﴿ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نَظْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرُهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ﴾ <sup>(٣)</sup> فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والترائب ولا لتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث ( فانظر الآن إلى النطفة ) بعين البصيرة وهى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطبوعة لمشيئته مذلة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك المائين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقها من أعماق العروق والأعضاء وجمعها في موضع واحد جعل لها قرارا مكيئا لا يناله هواء يفسده ولا يبرد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مغالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهياتها وقدرها وملبسها ولونها .

( وانظر ) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشدّه وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركبها عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهى محفوفة به ، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والشم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطها وقسم رؤوسها بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه ( ثم انظر ) الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربها وخالقها

(١) الآية ٧٧ من سورة يس

(٢) الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون

(٣) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة عبس

بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركبه الذكر في الأنثى ومنها ما تركبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملته وبدنه وبيعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نفرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمس وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركب سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الخواص الخمس وآلات الإدراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليلة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدَم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين .

( فانظر ) كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانها من البارد المؤذى والحر المؤذى ثم غرس في أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ولمنافع آخر وراء الجمال والزينة ثم أودعها ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقيد الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع إتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع ( وخلق ) الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحسن بدبيب الحيوان فيها فيبادر بإخراجه وجعل فيها غضونا ونجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو يتنبه لامساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظهما فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه إذ لو كان على غير



ذلك الصفة لأحالتها إلى طبيعته كما أن من عرض لقمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرّة كما قيل .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

( ونصب سبحانه ) قصبة الأنف فى الوجه فأحسن شكله وهياته ووضعها وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيها حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الزوايح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل فى الأذن لثلا يمسك الرائحة - فيضعفها ويقطع مجراها وجعل سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتتجمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملاء ثم يتصاعد فى مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه .

ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجزا لثلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين فى الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجرى فيها فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنف في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين خجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين ( وشق سبحانه ) للبعد الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهز العقول عجائبه فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار واللسان بزيده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد .

( واقتضت حكمته سبحانه ) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة فى إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ( وأيضا ) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومترلة منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق يستره ويصونه وجعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدّها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد ( ثم زين سبحانه الفم بما فيه ) من الأسنان التى هى جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤوسها ويبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها

الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعها من المنافع والحكم ما أودعها وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعها وهياتها وجعلها غطاء للفم وطبقا له وجعلها إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الخلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الوسطة واقتضت حكمته أنه جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة .

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشبه صوتان إلا نادرا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بأصواتهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور ( وزين سبحانه ) الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت به من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجيين وجعلها وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسها وأحسن خطها وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتها من العنفقة ( وكذلك خلقه سبحانه ) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس حال معاشه فطولها بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والابهام بإثنين ووضع الأصابع الأربع في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرين على أن يستبطنوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصحيفة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رءوسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم للأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطيور وآلة لمعاشه وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكمة لاشتدت حاجته اليه ولم يقدّم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليد ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة .

( ثم انظر كيف جعل ) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها

فى بعض هى مجمع أضلاعه والى تمسكها أن تحل وتنصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع ( وانظر ) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظم الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك عظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظمًا مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلوزادت عظمًا واحداً لكان مضرة على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظمًا واحداً كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فى هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين ( ثم إنه سبحانه ربط تلك ) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة فى الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومعالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحداً اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هى له كالألات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين وبعدا للجاحدين ( ومن عجائب خلقه ) أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذة بعضها إلى بعض ، خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسرارها ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل ( ومن عجائب خلقه ) ما فيه من الأمور الباطنة التى لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع ( فأما القلب ) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود محموم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوان والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هى جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذى يكشف له المراتيات . فإن رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا إستقر فيه شيء ظهر فيها فهى مرآة المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى لسمع ما فيه .

ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله: ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مشغولا ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله: ﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿ صم بكم عمى ﴾ <sup>(٣)</sup> وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله فى حق رسوله محمد ﷺ: ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ <sup>(٥)</sup> ثم قال: ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ <sup>(٦)</sup> وكذلك الأذن هى رسوله المؤدى إليه ( وكذلك ) اللسان ترجمانه وبالجمل فسائر الأعضاء خدمه وجنوده

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأسراء

(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الاحقاف

(٣) من الآية ١١ من سورة النجم

(٤) من الآية رقم ١٨ من سورة البقرة

(٥) الآية ١٧ من سورة النجم

وقال النبي ﷺ: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب) <sup>(١)</sup> (وقال أبو هريرة) القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرثة كالمروحة تروح عليه دائماً لأنه أشد الأعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فإنه جعل بارداً واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ بارداً لتبريد الحرارة التي في القلب ليردها عن الإفراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرثة أو يكون قريباً منه في الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى: بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرثة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للدماغ ولهذا كان الدماغ يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الاقذار والكدر خال من الجلبة والزجل، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وتطور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحاً له ولهذا تجود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة): مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق، قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الأجسام التي فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئاً أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتاً أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة.

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا (إن قيل كيف) يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمدّه عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالاً قريباً أو بعيداً قالوا وينبثق منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق، وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى، ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكويناً. قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل في الرأس (فالصواب أن مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله: ﴿أفلم يسيروا في الأرض

فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴿ وقال : ﴿ إن فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب ﴿ ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب . ونازعهم فى ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة ( والصواب التوسط ) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهى قوة معنوية لا تحتاج فى وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب ( والمقصود التنبيه ) على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الانسان والأمر أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التى هى شئ بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه . وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط فى مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم يدخل منه آلة تقطعه صغارا ثم طاحون تطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهى خزانة وموضع إجتماعه ولها بابان : أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفلّه والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه .

والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام فى موضعه فإذا انتهى المضم فإن ذلك الباب يفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك ، والأعلى يسمى فم المعدة . والطعام ينزل إلى المعدة متكيا فإذا استقر فيها إثماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدرة بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالخضا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابه علا صفوه إلى فوق ورسى كدره إلى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما فى ذلك والطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرا أو إلى السمع سمعا وإلى الشم شما وإلى كل حاسة بحسبها فهذا الطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقي إلى الأعضاء فى تلك المجارى بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا إلى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء إذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغنا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفا ينصب إليه ويجتمع فيه ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله فوضع الماراة مصفا للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تتمص أشرف ما فى ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة فى أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجيب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه

وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى المنصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافقة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وأنه لو اجتمع الانس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لمجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين . فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات قال الله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسوها ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ (٢) وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالإضافة إلى السموات كقطرة في بحر .

ولهذا قل أن تحيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما إقسامها بها وإما دعاء إلى النظر فيها وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتتام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكمن من قسم في القرآن بها كقوله ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ (٣) ﴿ والسماء والطارق ﴾ (٤) ﴿ والسماء وما بناها ﴾ (٥) ﴿ والسماء ذات الرجوع ﴾ (٦) ﴿ والشمس وضحاها ﴾ (٧) ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ (٨) ﴿ والنجم الثاقب ﴾ (٩) ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾ (١٠) وهي الكواكب التي تكون خنسا عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ، ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسيم لو تعلمون عظيم ﴾ (١١) وأظهر القولين أنه أقسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم النجوم عند الإطلاق إنما ينصرف إليها

(١) الآية ٢٧ من سورة النزاعات

(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران

(٣) الآية ١ من سورة البروج

(٤) الآية ١ من سورة الطارق

(٥) الآية ٥ من سورة الشمس

(٦) الآية ١١ من سورة الطارق

(٧) الآية ١ من سورة الشمس

(٨) الآية ١ من سورة النجم

(٩) الآية ٣ من سورة الطارق

(١٠) الآية ١٥ من سورة التكويد

(١١) الأيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الواقعة

وأيضاً فإنه لم تجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم فى آيات القرآن ولا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عاداته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضاً فإن نظير الاقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم فى قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾<sup>(١)</sup> وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده . هذه طريقة القرآن قال الله تعالى ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ حم والكتاب المبين ﴾<sup>(٥)</sup> ونظائره ( والمقصود أنه سبحانه ) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المفكرين فى خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾<sup>(٦)</sup> وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى ﴿ وبيننا فوقكم سبعا شدادا ﴾<sup>(٧)</sup> وقال تعالى ﴿ أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾<sup>(٨)</sup> وقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار إرتفع من الماء وهو الدخان . فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها فى الحركة على الدوام من غير فتور فى حركتها ولا تغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قد رتب لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها ويديعها وانظر إلى كثرة كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها .

فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى ( ثم انظر ) إلى مسير الشمس فى فللكها فى مدة سنة ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم ، أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة ، وكيف قدر لها العزيز العليم سافرين متباعدين ، أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثانى سفرها هابطة إلى حضيبضها ، تنتقل فى منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من

(١) سورة النجم الآية ١

(٢) الآية ١ من سورة ص

(٣) الأيتان ١ ، ٢ من سورة يس

(٤) الآية ١ من سورة ق

(٥) الأيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف

(٦) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

(٧) من الآية ١٢ من سورة النبأ

(٨) الآية ٢٧ من سورة النازعات

الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها . ( وانظر ) إلى القمر وعجائب آياته كيف يديه الله كالخييط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه ، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشاتهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنون ، وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكمة والآيات والعبر التي لا يحصيها إلا الله ( وبالجملته فما من كوكب من الكواكب ) إلا وللرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ، ثم في مقداره ، ثم في شكله ولونه ، ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها ، وقربه ويعلمه من الكوكب الذي يليه ، وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له ، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها . وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة . والكواكب التي تراها كثيرا منها أصغرها بقدر الأرض وهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذى ، ان بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك (١) ، وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر ، وذلك بقدر لحظة واحدة لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام ، والعبد غافل عنه وعن آياته ، وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا ، نعم ، فبين اللفظين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ، ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾ (٢)

والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان ، نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا فوقه السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر . والثاني ان يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ، ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه

(١) الحديث في سنن الترمذى ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ في تفسير سورة الحديد من حديث أبي هريرة

(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ - ١٠



بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها مليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل ، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، واجارة مستجير ومدد لضعيف ، وإغاثة للمهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف العدوان . فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى اقطار العوام لا يشغله سمع شئ منها عن سمع غيره ، ولا تغلظه كثرة المسائل والجوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فحيثئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقا لهيبته خاشعا لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدى الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد . فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ، ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه واجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب .

وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم . وجعل فيها السبل ليستقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم . وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ، ودحاها فمدّها وبسطها ، وطحاها فوسّعها من جوانبها ، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ماداموا أحياء ، وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ماتوا ، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض فى كتابه ، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى ( والأرض فرشناها فنعم الماهدون )<sup>(١)</sup> ، ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السياء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾<sup>(٥)</sup> وهذا كثير فى القرآن ، فانظر إليها وهى مية هامة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخير ، بهيج للناظرين ، كريم للمتاولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار ، وأنواع الأدوية . ومراعى الدواب والطيور . ( ثم انظر ) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة فى اللون

(١) سورة الذاريات الآية ٤٨

(٢) سورة غافر الآية ٦٤

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢

(٤) سورة الغاشية الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٥) سورة الجاثية الآية ٣

والشكل والرائحة والطعم والمنفعة ، واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١) فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم ، وكيف كان حملها من لقاح واحد ، صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ، وهدهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (٢) . فجعل النظر في هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها ، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراهيات ، الشوامخ ، الصم الصلاب ، وكيف نصبتها فأحسن نصبها ، وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لثلا تضمحل على تطاول السنين ، وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ، ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها ، وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحل والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم على شيء منه ولا قدرة عليه .

( من آياته الباهرة ) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض ، يدرك بحس اللمس عند هبويه ، يدرك جسمه ولا يرى شخصه ، فهو يجرى بين السماء والأرض ، والطير مختلفة فيه ، سابعة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ، ولا قها للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقي الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة بالمبشرات والنشر والذاريات والمراسلات والرخاء واللواقح . ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر ، والعقيم ، والصرصر ، وهما في البر ، ان شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيا وأودعه عذابا اليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرنا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه ، وهى مختلفة في مهاياها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وابدان الحيوان ، واخرى تحففه ، واخرى تهلكه ، وتعطبه ، واخرى تشده وتصلبه ، واخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب ، وريح تلقحه ، وريح تحمله على متونها ، وريح تغذى النبات . لما كانت الرياح مختلفة في مهاياها وطبائعها ، جعل لكل ريح ريحا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ، ويبقى لينها ورحمتها ، فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لاهلاك ما ترسل لإهلاكه ، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون

(١) سورة الرعد آية ٤

(٢) سورة الحج آية ٥ ، ٦ ، ٧

كالجيش العظيم الذى لا يقاومه شىء ، يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر ، وأما فى البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى : هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ﴿<sup>(١)</sup>﴾ فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التى تأتى من وجه واحد فإذا اختلفت الريح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها ، فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر ، اذ المقصود فى البحر ان تكون واحدة طيبة لا يعارضها شىء فأفردت هنا وجمعت فى البر . ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذى يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يتعلق به الأجسام الصلبة القوية الممتعة ، ويزعجها عن أماكنها ويفتها ويحملها على متته ، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل فى الزمن مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه لتغمسه فى الماء لم يطف ، وضع الحديد والصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد ، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه ، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه لان الهواء يمتنع من الغوص فى الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة ، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف ، وتعلق به حتى أمِنَ من الغرق ، وهذا كالذى يهوى فى قلب فيتعلق بذيل رجل قوى شديد يمتنع من السقوط فى القلب فينجو بتعلقه به ، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد ، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض ، كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتسيره كثفاً ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ، ثم تلحقه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقع ، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه ، فإذا علاها واستوى عليها اهراق ماء عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجوف تذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى إذا رويت واخذت حاجتها منه ألقع عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح . وفى الترمذى وغيره ان النبى ﷺ لما رأى السحاب قال : « هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه » <sup>(٢)</sup> فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا : والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : ( بينا رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتاً فى سحابة اسق حديقة فلان ، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسجى الماء بها فقال : ما اسمك يا عبد الله ؟ قال فلان للاسم الذى سمعه فى السحابة ) <sup>(٣)</sup> ( وبالجملته ) فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لاكدورة فيه ، وكيف يخلقه الله متى شاء ، وإذا شاء ، وهو مع لينة ورخاوته

(١) سورة يونس آية ٢٢

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٧٧ تفسير سورة الحديد . مع اختلاف فى لفظ يذكرونه قال ولا يدعون .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق باب الصدقة فى المساكين ح ٤ ص ٢٢٨٨ رقم ٢٩٨٤ / ٤٥

حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزل منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ، ولا يتأخر متقدمها ، وتترك القطرة صاحبته فلا تمزج بهابل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عنيت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كله على أن يخرجوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانية في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا ، وكذا ، ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية ، والأشواب فهذا النبات يغذى ، وهذا يصلح الغذاء ، وهذا ينقذه ، وهذا يضعف ، وهذا سم قاتل ، وهذا شفاء من السم ، وهذا يمرض ، وهذا دواء من المرض ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق . وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها ، وهذا يدفع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل اليه ، وهذا يهيج الدم ، وهذا يسكنه ، وهذا ينوم ، وهذا يمنع النوم ، وهذا يفرح ، وهذا يجلب الغم ، إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء في تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديق كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف في تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتندق إلى غاية لا يناها البصر .

ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كنتقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجيب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . بينما تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها اذا كساها ربها وخالقتها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة ، وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى ، ثم اطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ، ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبن أمه ، ثم رباه ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء ، هذا وكم لله من آية في كل ما يقع الحس عليه ويصيره العباد وما لا يبصرونه تفتى الأعمار دون الاحاطة بها وبجميع تفاصيلها . ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبيده كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾ (١) وقوله عز وجل ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾ (٢) وقوله عز وجل

(١) سورة فصلت آية ٣٧

(٢) سورة الفرقان آية ٧

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله عز وجل ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنته من الصبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا اخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها وتصرفها جاء قالى الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة وفرقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصلحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدته النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ، ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة ، ولا قصور فى حكمته ، ولا فى علمه ، يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهذا ايضا من آياته الباهرة أن يعنى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ، ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء إلى خلقه وهو يستغيث من العطش ويتكرر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل .

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكثفة لأقطار الأرض التى هى خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيته وحبسه الماء لطغى على الأرض وعلاها كلها ، هذا طبع الماء ، ولهذا حار عقلاء الطبيعة فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك الا الاعتراف بالعناية الأزلية . والحكمة الألهية التى اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الأرضى فى الأرض ، وهذا حق ولكنه يوجد الاعتراف بقدرة الله ، وإرادته ومشيته ، وعلمه ، وحكمته ، وصفات كماله ، ولا يحصى عنه .

وفى مسند الامام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : ( ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يفرق بنى آدم )<sup>(٣)</sup> وهذا أحد الأقوال فى قوله عز وجل ﴿ والبحر المسجور ﴾<sup>(٤)</sup> إنه المحبوس حكاة ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهى القلادة من غود أو حديد التى تمسكه ، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض ، فالأرض فى البحر كبيت فى جملة الأرض ، وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها . وأشكالها ، ومقاديرها ، ومنافعها ، ومضارها ، وألوانها ، حتى أن فيها حيوانات أمثال الجبال لا يقوم له شيء ، وحتى أن منه من الحيوانات

(١) سورة الأنبياء آية ٣٣

(٢) سورة غافر آية ٦١

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عمر بن الخطاب ح ١ ص ٤٣ مع اختلاف فى الألفاظ

(٤) سورة الطور آية ٦

ما يرى ظهورها فنظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله ، حتى الانسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤ كيف أودعت في كل كالييت لها وهي الصدفة تكنها ، وتحفظها ، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذي في صدفه لم تمسه الأيدي . وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصباء تحت الماء على هيئة الشجر .

هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر ولا تستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد ليقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لأجرائها ، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٢) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيرا :

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيتها إلا الله سبحانه . وقال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ (٣) .

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجله ومنه الماشي على أربع ، ومنه ما جعل سلاحه في رجله وهو ذو مخالب ، ومنه ما جعل سلاحه المناكير كالنسر والرخم والغراب ، ومنه ما سلاحه الأسنان ، ومنه ما سلاحه العياصي وهي القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ، ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فان سلاحه قوته ، ومنه ما سلاحه في ذرقة وهو نوع من الطير إذا دنا منه يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ويكرر في القرآن أمر عباده بالنظر في الآيات مرة أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن ؟

قال الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأنى تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباننا

(٥) سورة آل عمران آية ١٩٠

(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧٠ - ٢٠

(٧) سورة الأعراف آية ١٨٥

(١) سورة الشورى آية : ٣٢ ، ٣٣

(٢) سورة النحل آية : ١٤

(٣) سورة الحاقة آية : ١١ ، ١٢

(٤) سورة يونس آية ١٠١

ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴿١﴾ فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه . يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ، ثم خروجه من حد العقوصة واليبوسة والمرارة

والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع ، والطعم اللذيذ الشهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس ان يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا إليها . . ثم تلا : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ ﴿٢﴾ ولو أردنا أن نستوعب ما فى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذى لا إله إلا هو الذى ليس كمثله شىء ، وأنه الذى لا أعظم منه ، ولا أكمل منه ، ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرين عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغى ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك .

تأمل فى وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آياته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه ، فالسما سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد ويساط ، وفراش ، ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له ، وزينة وادلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر ، والخواصل المعدة المهيأة كل شىء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمأربه ، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه ، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغناء ، ومنها اللباس ، والأمتعة ، والآلات ، ومنها الخرس الذى وكل بحرس الانسان يحرسه - وهو نائم وقاعد - مما هو مستعد لاهلاكه وأذاه ، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للانسان قرار بينهم وجعل الانسان كالمملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول وبداية الفطر ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، اذله لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم

(١) سورة الأنعام الآيات ٩٥ - ٩٩

(٢) سورة الانعام آية ٩٩

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخران أن يقدحوا فيها بقدر صحيح ، أو يأتوا بأحسن منها ، ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منها ، ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر ، وسنفرد ان شاء الله كتابا مستقلا لأدلة التوحيد .

فتأمل خلق السماء ، وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها ، بل هي ممسوكة بقدرة الله الذي يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له ، حتى ان من أصابه شيء أضر ببصره يؤثر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجابة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المستقبلية فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له ، هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لأقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معاشهم ، ويتصرفون في أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ، ثم تأمل الحكمة في غروبها فإنه لولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات ، وجوم الحواس وانبعاث القوى الباطنة كظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها ، من حيوان ، ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا ، مع تضادها متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنوا فيه أفلا تبصرون ﴾ (١) .

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وعمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقلوه أفلا تسمعون راجع إلى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ﴾ وقال تعالى : ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو



الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿١﴾ فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنها خلفه أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ، ولو اجتمع معه لفانت المصلحة بتعاقبها واختلافها وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، لا يجامعه ، ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حيثما حتى يزيله عن سلطانه ثم يجىء الآخر عقبه فيطلبه حيثما يزيله عن سلطانه فهما دائما يطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفانت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفا كله لفانت منافع مصالح الشتاء ولو كان صيفا كله لفانت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ويستكشف فى الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حلته حرارة الصيف من الأبدان ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتتضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان والاختلاط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ، ولهذا تبرد العيون والأبار ، ولا تهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى جمة البرد بعد استعداد وقبول ، حكمة بالغة وآية باهرة . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج ، وترتيب ، وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والاضاءة ، وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل يتزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة ، وتمام مصالح حساب العالم الذى لا غناء لهم فى مصالحهم عنه ، فبذلك يعلم حساب الأعمار والأجال المؤجلة للديون والأجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك ، فلولا حلول الشمس والقمر فى تلك المنازل وتنقلها فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ (٣)

(١) سورة الفرقان آية ٦١ ، ٦٢

(٢) سورة يونس آية ٥

(٣) سورة الاسراء آية ١٢

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم - سبحانه - فإنها لو كانت تطلع في موضع في السماء فتقف فيه ولا تغدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل احد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم ، والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء ، فاقتضت الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة من جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتتظم مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم واللييلة لو زاد على ما قدر أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك ، بل جعل مكبا لها أربعاً وعشرين ساعة وجعلها يتقارضان الزيادة والنقصان بينها فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ (١) وفيه قولان : أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه . وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار للقول الثاني أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الاقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الانسان ولا يتكون فيه النبات ، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ، ولا نبات لفرط برده ويبسه ، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه ، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان ، والنبات ، هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب ، واعد لها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ، ويكون فيها اعتدالان ، خريفان وربيعان ، ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل ، والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان ، والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمتع الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار ، أو لشدة الحرارة أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان ، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أهل الحروث والزروع ، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات ، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوءه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما ، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم ، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه

وإحسانا ، فسبحان من أتقن من صنع وأحسن كل شئ خلقه .

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يتهدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ، ثم تأمل تسخيرها منقادا بأمر ربها - تبارك وتعالى - جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه ألا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ، ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين ، مرتفعة ، ومنخفضة ، وقدر سيرها تقديرا واحدا ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها ، فمنها ما يقطعها فى شهر واحد وهو القمر ، ومنها ما يقطعها فى عام ، ومنها ما يقطعها فى عدة أعوام ، كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابا لما يحدثه - سبحانه - فى هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التى تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الشريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التى تقارنها ، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ، ثم تأمل جعله سبحانه بنان نعش وما قرب منها ظاهر لا تغيب لقرنها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة الإلهية ، وإنما بمنزلة الاعلام التى يتهدى بها الناس فى الطرق المجهولة فى البر والبحر ، فهم ينظرون إليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت ارادوا فيهتدون بها حيث شاءوا .

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجذب بعضها لا يسير إلا مع رفيقه ، ولا يفرد عنهم سيره أبدا بل لا يسيرون إلا جميعا ، وبعضها يسير سيرا مطلقا غير مقيد برفيق ولا صاحب ، بل إذا اتفق له مصاحبته منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى ، فبينما تراه ورفيقه وقرينه إذا رأيتها مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط ، وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف ، سير عام يسير بها فلکها ، وسير خاص تسير هى فى فلکها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رعى ذات الشمال ، والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة فى ذلك حركتان مختلفتان إلى جبهتين متباينتين ، أحدهما بنفسها ، والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها ، وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ،

ثم يسير فلکها وبمنزلها إلى جهة الغرب ، فسل الزنادقة والمعطلة أى طبيعة اقتضت هذا ؟ وأى فلک أوجبه ؟ ، وهلا كانت كلها راتبة أو متنقلة ؟ أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد ؟ وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذى ليس كمثله شئ أحسن كل شئ خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر ! : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره أלה الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ <sup>(١)</sup> فإن قلت : فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتبا وبعضها

متنقلا ؟ قيل إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ، ولا رسم يقاس عليها ، لأنه انما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما تقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها ، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ، ولتشبه المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد ، فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من ادلة الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته .

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه ، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ، وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد ، وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات ، وهل يخفى على ذى بصيرة أن هذا ابداع المبدع الحكيم ، وتقدير العزيز العليم ، ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله ، وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الاقرار به ، فقالت لهم : ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾<sup>(١)</sup> فوجوده - سبحانه - وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

وقال تعالى : ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفي خلقكم وما يبث من دابة ﴾ إلى قوله : ﴿ وآياته يؤمنون ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ﴾ إلى قوله : ﴿ في ضلال مبين ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هم خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ إلى قوله : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾<sup>(٥)</sup> وتأمل كيف وجد سبحانه الآية من قوله : ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ﴾ إلى آخرها<sup>(٦)</sup> . وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد ، وهو الماء الذي أنزله من السماء ، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد ، وأمه واحدة ، فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب في حكمة ذلك وبديع صنعه

(٤) سورة لقمان آية ١٠ - ١١

(٥) سورة النحل آية ٤ - ١٧

(٦) سورة النحل آية ١٠

(١) سورة إبراهيم آية ١٠

(٢) سورة الرعد آية ٢ - ٤

(٣) سورة الجاثية آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

والاستدلال به على خالقه وباريه ، وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وهى آيات متعددة مختلفة فى أنفسها وخلقها ، وكيفياتها ، إظلام الجول لغروب الشمس ومجئ الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فيهزم عسكر الظلام ، وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية اخرى ، ثم فى الشمس التى هى آية النهار آية اخرى ، وفى القمر الذى هو آية الليل آية اخرى ، وفى النجوم آيات اخر ، كما قدمناه ، هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الريح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر ، فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر ، والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاهما حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التى هى أعظم منها إلى العقل الذى هو فوق الفكر فتأمل ، فأما قوله فى الآية الثالثة ﴿إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء ، فإن ما ذرأ فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله فى محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك ان يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ (١) فالتبصر التعقل والتذكيرة والتذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته . واخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل فإن قلت ما الفرق بين التذكر والتفكير فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكير والتذكر اصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام فى التفكير فى هذا الوجه لعظم المنفعة ، وشدة الحاجة إليه قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير فى التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسمع وأبصار . فاعلم ان التفكير طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالتفكير ينتقل من المقدمات والمبادئ التى عنده الى المطلوب الذى يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إثاره وما ينبغى اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره ويتذكره على تفكره مادام عاقلا ، لأن العلم والادارة لا يقفان على حد بل هو دائما سائر بين العلم والادارة . ( وإذا عرفت ) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة

وذكرى ، يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما انقضت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعليق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته .

فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خلا في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفي تلك الحديقة من يلم شعنها ، ويحسن مراعاتها وتعهداها ، والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذائنا على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام ، أترى هذا إتقاناً بلا صانع ؟ ولا مختار ولا مدبر ؟ بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك إتقاناً من غير فاعل ، ولا قيم ، ولا مدبر ، افترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان ؟ وما الذى يفتيك به ؟ وما الذى يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم ان خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق اعينا لا أبصار لها ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهى لا تراها ، فما ذنبها ان أنكرتها وجحدتها ، فهى تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا ولقد أحسن القائل :

وهبنى قلت هذا الصباح ليلا أيعمى العالمون عن الضياء

ثم تأمل المسك للسموات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيها أفترى من المسك لذلك ؟ ومن القيم بأمره ؟ ومن المقيم له ؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة . من كان يصلحه ؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان ؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمداً . من الذى كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ؟ ولو حبسها في الأفق ولم يسيرها ، فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ؟ ولو أن السماء والأرض زالتا ، فمن ذا الذى كان يمسكهما من بعده ؟ ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام النبات والحيوان عليهما ، وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدرج والمهلة حتى يبلغ لنهايتها ، ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها ، وبالنبات ، كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك فإن قلت هذا التدرج والمهلة إنما كان لبطء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها ، قيل لك فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع ؟ فإن قلت السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها ، قيل لك ، فما السبب في بعد المسافة ؟ ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببها حتى تقضى بك إلى أحد أمرين ؟ اما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك إتقان من غير مدبر ولا صانع ، وإما الاعتراف برب

العالمين ، والاقرار بقيوم السموات والأرضين ، والدخول فى زمرة اولى العقل من العالمين . ولن نجد بين القسمين واسطة ابداء ، فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحددين ، فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين ، واذا طلع فجر الهدى واشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور ، فإنها لو كانت ظاهرة ابداء كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر ابداء لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقترضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعل فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانفعال والسلامة من الضرر قال تعالى : ﴿ أفرايتم النار التى تورون ﴾ إلى قوله ﴿ فسيح باسم ربك العظيم ﴾ (١) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفافنا بيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين ، فأخبر سبحانه انه جعلها تذكرة بنار الآخرة فتستجير منها ونهرب إليه منها ، ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء ، - والقواء هى الأرض الخالية - وهى أحوج إلى الانتفاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والتدفى والأنس وغير ذلك ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خص بها الانسان دون غيره من الحيوانات ، فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهى هذا المصباح الذى يتخذة الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفا فى ظلمة الليل الداجى ، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حوله كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يقرض أو يقدر من خلق الله كيف لا ينفى ولا ينفد ولا يضعف ، وأمامنا فى النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجهيف ما لا ينتفع الا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع الا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى . ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا المسك يمسكه لذهب نازلا ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوى التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها ؟ وهل هذا ؟ الا بتقدير العزيز العليم .

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان ، والمسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتغذى به ظاهرا وباطنا ، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها

وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل ، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الرياح ، وكذلك تأتيه الأصوات ، وهو ايضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات ، وتأمل منفعة الريح وما يجرى له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب ، وتأمل كم سخر السحاب من ريح حتى امطر فسخرت له المثيرة أولا فتشير بين السماء والأرض ، ثم سخرت له الحاملة متى تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كفه وقطعه ، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقا واحدا ، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقيح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاه لكان جهاما لا ماء فيه ، ثم سخرت له المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ، ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجوف فلا ينزل ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا ، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ، ومن منافعها أنها تبرد الماء ، وتضرم النار التي يراد اضرامها ، وتحفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها . وبالجملية فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح ، فإنها لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وانتن العالم وفسد ، الا ترى اذا ركبت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لودام لأتلف النفوس واسقم الحيوان وامرض الاصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع واحداث الوباء في الجو ، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته ، كما قال النبي ﷺ في الرياح : «إنها من روح الله تأتي بالرحمة»<sup>(١)</sup> وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهو أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعة عنده فسيبه قرع أو قلع فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم ، فلو كان اثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجاتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة فإن ما يلقي من الكلام في الهواء أضعاف ما يودع في القرطاس ، فاقترضت حكمة العزيز الحكيم ان جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحي بإذن ربه فيعود جديدا نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان

(١) الحديث في مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ عن أبي هريرة قال ، ( حدثنا عبد الله ، حدثني أبي حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهري حدثني ثابت ابن قيس ان ابا هريرة قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر بن الخطاب حاج فاشتدت عليهم الريح فقال عمر لمن حوله من يحدثنا عن الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغني الذي سأل عنه عمر من ذلك فاستحثت براحتي حتى ادركته فقلت يا أمير المؤمنين اخبرني انك سألت عن الريح واني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( الريح من روح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوها الله خيرها واستعيذوا به من شرها )



والنبات والامتعة ، ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم ، والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوءا ، ولا ثبت لهم عليها بناء ، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب منها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ( وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم ... )<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى: ﴿الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ..﴾<sup>(٢)</sup> وقوله: ﴿الذى جعل لكم الأرض مهدا ...﴾<sup>(٣)</sup> وفى القراءة الأخرى مهادا .

وفى جامع الترمذى وغيره من حديث انس ابن مالك عن النبى ﷺ قال : ( لما خلق الله الأرضين جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شئ أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شئ أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شئ أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة يمينه يخفيها عن شماله )<sup>(٤)</sup> ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يسها فإنها لو أفرطت اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها ، فنقصت عن ييبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليوسة فتها على جميع المصالح .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وتروىها ثم تفيض فتصب فى البحر . فكما أن البانى إذا رفع سطحا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده . كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك واضر بالخلق ، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى اتقن كل شئ . ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع ما لا يحصىه إلا خالقها وناصبها ، وفى حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ : ( بالذى نصب الجبال وأدع فيها المنافع الله أمرك بكذا وكذا ؟ ، قال اللهم نعم ) . فمن منافعها أن

(١) سورة النحل آية ١٥

(٢) سورة غافر آية ٦٤

(٣) سورة الزخرف آية ١٠

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ح ٣ ص ١٢٤ عن رواية انس بن مالك ثم انظر الحديث فى كتر العمال ح ٦ ص ٣٩٨ رقم ١٦٢٤٠ ، وانظر صحيح الترمذى ح ٥ ص ٤٢٣ أبواب تفسير القرآن - باب المعوقين رقم ٣٣٦٩ . تحقيق الشيخ شاكر .

الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلا لشراب الناس الى حين نفاذه ، وجعل فيها ليزوب اولاً فأولاً فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد ، والربا ضروب النبات والفواكة والأودية التي يكون مثلها في السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولا دفعة لأذيته . ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع ، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من احجارها للأبنية على اختلاف اصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزربرجد والزمرد ، واضعاف ذلك من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها أيضاً انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية ، ومن منافعها انها ترد عنهم السيول اذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، ومن منافعها انها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة الى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلاماً فقال ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ (١) فالجوارى هي السفن وأعلام الجبال واحداً علم فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور .

ومن منافعها أيضاً ما ينبت فيها من العقاقير والأودية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال ، وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بها إلا الخلاق العليم .

ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن ، ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ، ورواسى بمنزل مراسى السفن ، أعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالست واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها . ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمساكن ولما أت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام . فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الى النظر فيها وفي كيفية خلقه

فقال ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ (١) فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة بارئها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته ، هذا مع أنها تسبح بحمده وتحشع له وتسجد وتشقى وتبسط من خشيته ، وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها واشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه ، ومنها الجبل الذى حبيب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه ، وجعل الصفا فى ذيل أحدهما ، والمروة فى ذيل الآخر ، وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعباتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات ، فله كم به من ذنب مغفور ، وعثرة مقالة وزلة مغفوة عنها ، وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة ، كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق ، وقوا لربهم خاضعين لعظمته ، خاشعين لعزته ، شعثاً غيراً ، حاسرين عن رؤوسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنونهم ثم يباهى بهم الملائكة ، فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو فى غارهِ فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم ، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك ، فسبحان من أختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاتى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه ، فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها ، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحبه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ، ووضع له القبول فى الأرض .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وإنها لتعلم لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له . وكانت أم الدرداء - رضى الله عنها - إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها ، أسمعتم الجبال ما وعدا ربها فيقال ما أسمعها فتقول ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزدها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (٢) .

فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وبارئها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله . فيأعجبا من مضغة لحم أفسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تحشع ولا تنيب ، فليس بمستكبر على الله عز وجل ، ولا يخالف حكمته أن تخلق لها

(١) سورة الغاشية آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢) سورة طه آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجه ومواعظه ، فمن لم يلن الله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليمتنع قليلا فإن أمامه الملين الأعظم ، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم .

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمال ليستفيع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربه أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها - سبحانه - كفاتا للأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعهم في بطنها ، فكانت كفنا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا ، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد اثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربه وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيتها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله - سبحانه - لها في الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والانبابة والاقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم .

وقد قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعيبكم وقال عمر بن الخطاب فخطبهم ووعظهم وقال : « لئن عادت لا أسكنكم فيها »

ثم تأمل حكمة الله عز وجل في عزة هذين النقيدين ، الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتها والتشبه بخلق الله إياها مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكثوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة في الناس حتى صاروا كالسعف والفخار ، وكانت تعطل المصلحة التي وضعا لأجلها وكانت كثرتها جدا سبب تعطل الانتفاع بها فإنه لا يبقى لها قيمة ، ويبطل كونها قima لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ، ولم يتسخر بعض لبعض اذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة ، فلو اغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها منها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده .

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الأنباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فانتبهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلبا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين . ومن ثم فقد اقتضت حكمة الله عز وجل عزة هذين الجوهرين وقتلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان

نفيسا عزيزا مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشى وكثر فى أيدي الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه .

ومن هذا قول القائل : نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

وتأمل الحكمة البعيدة تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها ، فاعتبر هذا بالأصول الاربعة التراب ، والماء ، والهواء ، والنار .

وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته ، فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد .

فتأمل حكمة الله فى أن سخر له الرياح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره واذاه ، فسل الجاحد ، من الذى دبر هذا التدبير ؟ ، وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا ، أو ضبابا ، أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ، ولولا ذلك لضاقت عن ساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيتهم ومنابت ثمارهم واعشابهم . فإن قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة فاعلم أن فيها معاش لا يحصىه الا الله من الوحوش والدواب وعليها ارزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم ، كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء صارت قصورا وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا اذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطربهم إلى النقلة منها . وكذلك الماء لولا كثرته وتدفعه فى الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت . وأما النار فقد تقدم ان الحكمة اقتضت مكنونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي إن لم تكن ماثورة فى كل مكان فإنها عتيده حاصلة متى احتيج إليها ، واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلوها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أقى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر ، وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشئ

سبحانه السحاب وهى روايا الأرمن ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقي الفحل الأنثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفى هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت  
مضى لجج خضر لهن نشيج  
وفى الموطأ مرفوعا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة ( إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة <sup>(١)</sup> ) فالله سبحانه وتعالى ينشئ الماء فى السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التى ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهورها لم يحصل عموم السقى الا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقى لأجزائها فصاعده - سبحانه - إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية اللطف والحكمة التى لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض .  
ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما - أعنى الصحو والغيم - يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساد ، فلو توالى الأمطار لأهلك ما على الأرض ، ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزرع والخضرات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء ، فحدثت ضروب من الأمراض ، وفسد أكثر المأكول وتقطعت المسالك والسبل ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضر واصطدم الهواء فييس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وحدث ذلك ضروريا من الأماض عسرة الزوال ، فاقضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منها عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلاح .

ثم تأمل الحكمة الالهية فى اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة ، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار وهذا بارد ، وهذا معتدل وكل فى فصله موافق للمصلحة ، لا يليق به غير ما خلقكم فيه . ثم انه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم واداة الأبينة والسفن والرحال والأوانى وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرأى الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم اذا تأملت اخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم

( ١ ) الحديث فى موطأ مالك ح ١ ص ١٩٢ كتاب الاستسقاء باب الاستسقاء بالنجوم وقال ابن عبد البر : هذا الحديث لا أعرفه يوجه من الوجوه ، فى غير الموطأ ، إلا ما ذكره الشافعى فى الأم .

اخراج تلك الثمار على اختلاف انواعها واشكالها ومقاديرها والوانها وطعومها ورائحتها ومنافعها وما يراد منها ، ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم ، فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف ابراز هذا التصوير العجيب ! وهذا التقدير المحكم ! وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وابرازه وترتيبه شيئا فشيئا ؟ وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن ادراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ؟ ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات ؟ وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر

كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجار وطرق قد احكمت غاية الأحكام ، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقه كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ، ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيد على قدر صاحبه ، فسل الجاحد من اعطاها هذا ، ومن هداها إليه ووضعها فيها ؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وارادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة او صناعة أو حيلة أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته ! ، كما قيل :

أم كيف يجحده الجاحد  
وتسكينه أبدا شاهد  
تدل على أنه واحد

فواعجبا كيف يعصى الاله  
ولله فى كل تحريكة  
وفى كل شيء له آية

ثم تأمل اذا نصبت خيمة وفطاطا تمده من كل جانب بالاطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعرج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة فى الأرض متشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت اعاليه امتدت عروقه واطنابه من اسفل فى الجهات ، ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف ، وتأمل سبق الخلق الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفاطيط من خلقه للشجر والنبات لان عروقه اطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفاطيط ثم يحاكي بها الشجرة .

ثم تأمل الحكمة فى خلق الورق فإنك ترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهى الناظر ، فمنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة فى عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم فى أيام قلائل من ذلك ما

يملا الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ، إن هي إلا إرادته النافذة في كل شيء ، وقدرته التي لا يمنع منها شيء ﴿١﴾ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴿٢﴾ ، فتأمل الحكمة في تلك العروق المتخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبنوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد احكمت صنعتها ومهدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها ولهذا اذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها ، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا احسن منه ، فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منه ورقة الا بإذنه ولا تسقط الا بعلمه ، ومع هذا فلو شاهدوا العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ (١) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ وإن من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (٢) ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابهم فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط ثم تأمل حكمته سبحانه في ابداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم والفوائد التي منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظام والثمرة بمنزلة اللحم الذي يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها ان في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يغرس فيعود مثلا . ومنها ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والاصباغ وضروب اخر من المصالح التي يعلمها الناس وما خفى عليهم منها أكثر ، فتأمل الحكمة في اخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهيا يتفكه به ابن آدم ، ثم تأمل هذه الحكمة البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غشاء يحفظها ، وغشاء يوارئها كالرمان والجوز واللوز ونحوه ، وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يوارئها لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلاق سحما مترا كما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدي ان تنضد ، وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج



والطفه وأدقه على غير منوال ، الا منوال كن فيكون ، ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه احسن ضم ، فتأمل هذه الحكمة البديعة فى الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضا إذ لو مد بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزه فى ذلك الشحم ، وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق اختها بل يجرى الغذاء فى تلك العرق مجرى واحد ثم ينقسم منه فى مجارى الحبوب كلها فينبعث منه فى كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم انه لف ذلك الحب فى تلك الرمانة بتلك اللقائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظا ومسكا له بإذن الله وقدرته ، فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ، واللييب يكتفى ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يعرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ (١) غافلون عن موضوع الدلالة فيها ، - ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما انبتت سبعمائة حبة ولو انبتت حبة واحدة مثلها لا يكون فى القلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويفوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع يربيع هذا الربيع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة ، وكذلك ثمار الأشجار والنخيل ، وكذلك ما يخرج مع الاصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ، ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لاعطى اهله ما يبدرونه فيه وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان اخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

- ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الاسنة فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها ، فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول درنه لتمكن منه كل التمكن فأفسد وعاب وعاث واكب عليه اكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للانسان فانه اولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهي دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربه فى الحمل احتسبت الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة فى اجوافها عملها وتبنيها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للجمل وسرى الماء فى أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق وما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبيان للناظر عملها علم حيث ذكروا طيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة فى بطون امهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن

وقت الفطام وتدلت إليك إقفاها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الافنان كأنها تلقاك بأولادها وتحبيك وتكرمك بهم وتقدمهم اليك حتى كأن مناولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضجعا وكذلك ترى الرياحين كأنها تحبيك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا اكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات افيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها ، فكيف اذا استعنت بها على معاصيه ، وصرفتها في مساخطة ، فكيف اذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال سبحانه : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ (١) فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوفقه على المراد منها ما هو ؟ ولأى شيء خلق ؟ ، ولما نذ هي ؟ ، وأى امر طلب منه على هذه النعم ؟ ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ (٢) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة ، وشهود تقصيره بل تفريطه في القليل مما يجب لله عليه والله در القائل .

قد هياك لأمر لو فطنت له فاربا بنفسك ان ترعى مع الهمل

- ثم تأمل الحكمة في شجر اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله ثمارا كبيرا جعل نباته منبسطا على الأرض اذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقترضت حكمة مبدعها وخالقها ان بسطه ومدته على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطا على الأرض وثماره ماثورة حواله كأنها حيوان قد اكتنفها اجزاؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوباء والبادنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته انبته الله منتصبا قائما على ساقه اذ لا يلقي من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

- ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الالهية موافات اصناف الفواكه الثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموفات الماء للظمآن فتلقاها الطبيعة بانسراح واشتياق منتظرة لقدمها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافي الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا بوروده مع ما كان فيه من المضره للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف او ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ، ولهذا نجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن ان هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير .

ثم تأمل هذه النخلة التي هي احدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه أنث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإنائه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ من وجوه كثيرة . ( احدها ) ثبات اصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجشت من فوق

الأرض ما لها من قرار .  
( الثانى ) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

( الثالث ) دوام لباسها وزيتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء ،  
كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزيتها حتى يوافي ربه تعالى .  
( الرابع ) سهولة تناول ثمرتها وتيسره اما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها . وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها هيئت منها المراقى والدرج الى اعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللثيم .

( الخامس ) ان ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة وباسة يكون قوتا وادما وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والاشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق الثمار .

( السادس ) من وجوه التشبيه ان النخلة اصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف افنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

( السابع ) ان النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من النافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستريح به الفرج والخلل ، وخصوصها يتخذ منه المكائل والزنايل وأنواع الأنية والحصر وغيرها ، وليفها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على اعداء الله واهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ . . . (١)

( الثامن ) انها كلما اطال عمرها ازداد خيرها وجاء ثمرها وكذلك المؤمن اذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

( التاسع ) ان قلبها من أطيب القلوب وأحلاها وهذا امر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

( العاشر ) انها لا يتعطل نفعها بالكلية ابدا بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخصوصها وليفها وكرها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط ان أجذب منه جانب من الخير أنصب منه جانب آخر فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا .

فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو ؟ ! تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى

معرضة كاللحمة كنعو المنسوج باليد وذلك لتشد وتصلب الجذع فلا تنقصف من حمل الحيوان الثقيل ، وتصير على هز الرياح العاصفة ولبثها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذ تأملته شبه النسيج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه دخل بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أمتن له وأهيا لما يراد منه . فإنه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والامتعة والاسرة والتوابيت وما اشبهها ، ومن بديع الحكمة في الخشب ان جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والامتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المؤنة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه - سبحانه - بهيمة الانعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصلحتها ويكمل انتفاع الانسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول - على كبر - خلقها التي للانسان ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له ، فأعطيت من التمييز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذلت له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الانسان وليظهر ايضا فضيلة التمييز والاختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر اجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيرها قال الله تعالى : ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ (١) أى مطبقين ضابطين . وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ (٢)

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلا متقادا ، ولو ناخ عليه لسواه بالأرض . ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الانسان وغيره ، فالانسان لما خلق مهيبا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق وضم الشيء إلى مثله ، والحيوان البهيم لما لم يتهيا لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف مدججة ذوات برائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلافا تقيها خشونة الأرض اذا جالت في طلب المرعى ، وبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخص القدم لتنطبق على الأرض وتتهيا للركوب والحمولة ولم يخلق لها برائن ولا أنيابا لان غذاءها لا يحتاج إلى ذلك ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ... ﴾ (٣)

(١) سورة الزخرف آية ١٢ ، ١٣

(٢) سورة يس آية (٧١ ، ٧٢)

(٣) سورة النحل آية ١٨

فأعد النظر فيك وفي نفسك من الذى دبرك بالطف التدبير وانت جنين فى بطن أمك فى موضع لا يد تناك ، ولا بصير يدركك ، ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ، ولا فى دفع الضرر . فمن الذى أجرى اليك من دم الأم ما يغذوك ؟ كما يغذى الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به فى أضييق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى اديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدى والتقلب على الغبراء ، هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيا إزعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول ، والاشتمال حين وضعت نقطة وبين

هذا الدفع والطرود والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج الى ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ؟ ، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه لمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ، فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب ، فمن الذى أوحى إليه ان يتضايق عليك وأنت نقطة حتى لا تفسد هناك ، وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال ، أخرج خلق الله واضعفهم وافقرهم ، فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى خزانتي معلقتين الطف سوق على مجار وطرق قد تهبأت له فلا يزال واقفا فى طرقه ومجاريه ، حتى تستوفى ما فى الخزانة فيجرب وينساق إليك فهو بشر لا

تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها ، يسوقها اليك فى طرق لا يهتدى اليها الطواف ولا يسلكها الرجال ، فمن صفاه لك وأطاب طعمه وحسن لونه واحكم طبخه اعدل إحكام ؟ ! لا بالحر المؤذى ولا بالبارد الردى ، ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة ، بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلال ما كان فى البطن فوافاك فى أشد اوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد ، وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفئك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالأداة قد تدلى اليك وأقبل بدره عليك ثم جعل فى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ، ولا

تتعب بالتقامها ، ثم نقب لك فى رأسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ، ولم يوسعها فتتخنى باللبن ، ولم يضيقه فيمتصه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصالحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ؟ حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدق صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وان حياتها تزداد فى حياتك ، فمن الذى وضع ذلك فى قلبها ؟ حتى إذا قوى بدنك واتسعت امعاؤك وخشنت عظامك واحتجت الى غذاء اصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليك لحملك ، وضع فى فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها ، فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفها بها ، ثم أعطاكها أيام الكلال رحمة بك وإحسانا إليك ولطفها بك ، فلو إنك خرجت من البطن ذا سن

وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ، ولو أنك فعلتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التي لا تسبغها إلا بعد تقطيعها وطحنها ، وكلما ازدادت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل الأطعمة المختلفة زيد لك في تلك الآلات حتى تنتهي إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ، ثم اذا ازدادت قوة زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الاضراس فمن الذي ساعدك بهذه الآلات وانجذك بها ومكنك بها من ضرور الغذاء ؟ ثم انه اقتضت ان أخرجك من بطن امك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل ولا الفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا ، فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك ، فاعتبر ذلك ، وكان دخولك هذا العالم وانت غبي لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير ، فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الاشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير والافتقار لها ، وفي ذلك وجوه اخر من الحكمة غير ما ذكرناه ، فمن هذا الذي هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآداب والآلات في وقت حاجتك ؟ ، لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ، ثم انه اعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن اكثر العمل لما كان برءوس الأصابع وعليها الاعتماد أعينت بالاظفار قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذي لا يخرج اللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ، ثم جعلك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد ، اذ هو مجمع الخواص ومعدن الفكر والذكر وثمره العقل تنتهي إليه ثم خص الذكر بان جعل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا ، وفرقا بينه وبين الاناث ، وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون اهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع ، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللحاق واحد ، فمن الذي اعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثة ؟ إنه ذلك المرسوم الألهي الذي يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول : يارب ذكر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيوحى ريبك ما يشاء ويكتب الملك ﷻ ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴿١﴾ فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال ، احدها من تلد الاناث فقط . الثانية من تلد الذكر فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى ، وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له من زوجين ذكرا وأنثى الرابعة العقيم التي لا تلد أصلا .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكر والأنثى جميعا على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم ، وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوفا لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ، ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من اجزاء

الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الانثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ التخليق ، ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائتها ولطافته إذا مازج ما الرجل غلظ وشدته قوى به واستحكم ، ولو كان الماءان رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منها وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وانضاجه فيها ، ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . وفيها أنها لما كانت محلا للجماع اعطيت من الآلة ما يليق بها ، فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقه . . كل منها عليه .

فارجع الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك ، وتأمل أعضائك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها ، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والاعطاء والمحاربة والدفع ، والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب وانتصاب القامة ، والعينان للاهتمام والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والأرض وآياتها وعجائبها ، والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك ، والأنف للنفس واخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه ، واللسان للبيان والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك ، والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه اصلاحا آخر وطبخا اخر غير الاصلاح والطبخ الذى توليته من الخارج فأنت تعاني انضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن انه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وانضاج آخر ، وطباخة الداخل ومنضجه يعانى من نضجه وطبخه ما لا تهتدى إليه ولا تقدر عليه ، فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهى فى اللطف موضع منك لا تحرقك ولا تلهب وهى أشد حرارة من النار والا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى يجعلها ماء ذائبا ، وجعل الكبد للتخليص واخذ صفوة الغذاء والطفه ، ثم رتب منها مجارى وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر ، وجعل المنازل والأبواب لادخال ما ينفعك واخراج ما يضرك . وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك ، فهذه خزانة للطعام ، وهذه خزانة للحرارة ، وهذه خزانة للدم ، وجعل منها خزائن مؤديات لثلاث تختلط بالخزائن الأخرى ، فجعل خزائن للمرارة السوداء ، واخرى للمرارة الصفراء ، واخرى للبول ، واخرى للمنى . فتأمل حال الطعام فى وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها إلى البدن فإنه اذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتحيد صنعته ثم تبعته الى الكبد فى مجار دقائق ، وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالصفاء الضيقة الأنجاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد انفذته إلى البدن كله فى مجار مهياة له بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك فى الأرض فيعمها بالسقى ، ثم يبعث ما بقى من الخبث والفضول إلى مقابض ومصارف قد اعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة . فمن ذا الذى تولى ذلك كله واحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير ؟ . هـ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴿١﴾ .

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها منه واعدادها لما أعدت له واعداد هذه الاعوية المعدة لحمل الفضلات وحجمها لكيلا تنتشر في البدن فتفسده ، ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة اجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ، ولو أن صانعنا اخذ تمثالا من ذهب او فضة او نحاس فأراد ان يجعله اكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك الا بعد ان يكسره ويصوغه صياغة اخرى ؟ والرب تبارك وتعالى ينمى جسم الطفل واعضائه الظاهرة والباطنة وجميع اجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يترايل ولا ينفك ولا ينقص .

وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدي ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع ، إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ، وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبيد الصنعة ، كل هذا صنع الله أحسن الخالقين .

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الاشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل في الأعضاء التي تمتن كاليدين والرجلين فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ، ولا جعلها في الاعضاء التي وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك الاكتفات والاطلاع على الاشياء . فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس البق المواضع بها وأجلها ، فالرأس صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة في ان جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس فجعل البصر في مقابلة المبصرات ، والسمع في مقابلة الأصوات ، والشم في مقابلة انواع الروائح المختلفة ، والذوق في مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس في مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ، ولما كان ما عداها انما يدرك بالباطن اعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون : المفكر المتأمل ضرب أخماسه في اسداسه فأخماسه حواسه الخمس واسداسه جهاته الست واراودا بذلك نه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضررها فيها لشدة فكره .

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات اخرى منفصلة عنها تكون واسعة في إحساسها ، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولا لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئا ، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الاصوات في الجو يلقها إلى الأذن فتحويه ثم تنقله إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا ، وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا ، وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه يحيل تلك الطعوم الى طعمه ولا يحصل به مقصوده واعنى حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شيء من خارج بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها لأنها انما تدركها بالاجتماع والملاسة فلم تحتج إلى واسطة .



ثم تأمل حال عدم البصر وما يناله من الخلل فى أمور فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله ، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقنتله ، ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رame بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه أقرب من سلامته . ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ، ومن كمال لطفه ان عكس نور بصره إلى بصيرته فهو اقوى الناس بصيرة وحذا وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف ، فأما من أصيب بعينه بعد البصر فهو بمجزلة سائر أهل البلاء المتقلين من العافية إلى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما آلفه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره

فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب ، وحى كميث ، وقريب كبعيد ، وقد اختلف النظار فى أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش والذى يليق بهذا الموضع - أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما ديناً واحدهما عاقبة ، وعادم السمع أقلهما ضررا فى دينه وأجلهما بدينه واسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وافسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدرکها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها ، فضرره فى دينه أكثر ، وضرر الأعمى فى دينه أكثر ، ولهذا لم يكن فى الصحابة أطروش وكان فيهم جماعة أضراء وقل ان يبتلى الله أوليائه بالطرش ويبتلى كثيرا منهم بالعمى فهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة . فمضرة الطرش فى الدين ، ومضرة العمى فى الدنيا ، والمعافى من عافاه الله منها ومتعه بسمعه وبصره وجعلها الوارثين منه .

ثم تأمل حكمته فى الأعضاء التى خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما فى ذلك من الحكم البالغة ، فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحدا فقط اذ لا مصلحة فى كونه أكثر من ذلك الا ترى انه لو اضيف إلى الرأس رأس آخر لاثقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج اليها مجتمعة فى رأس واحد ، ثم إن الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من احدهما وسمع به وابصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وابصر وسمع بها معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه ، وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان فى فم واحد فإن تكلم بها كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا ، وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بها معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ . وهذا بخلاف الأعضاء التى خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفيتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية ، فلو كان الانسان بعين واحدة لكان مشوه الخلق ناقصا وكذلك الحاجبان وأما اليدان

والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضرورى للانسان لا تتم مصلحته الا بذلك ، الا ترى من قطعت احدى يديه او رجله كيف تبقى حاله وعجزه فاقتضت الحكمة ان اعطى من هذا الضرب من الجوارح اثنين اثنين . وكذلك اعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته الا بهما ، وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومر الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك ، وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب انفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم ، وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التي هى مجمع القدمين والمسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين ، وكذلك أجفان العينين ، فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء العينين ، ووقاية لهما ، وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هى عليه من العدد والشكل والهيئة ، فلوزادت أو نقصت لكان نقصا فى الخلقة ، ولهذا يوجد فى النوع الانسانى من زائد فى الخلقة ونقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى ، وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا ، وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه ، وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد فى خلقه مالا يحتاج إليه . ولم ينقص منه ما يحتاج إليه ، كما يراه فى غيره ، فهو أجدر أن يزداد شكرا وحدا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك من صنع الله الذى أنقذ كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبین منفصل عن من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل فى النوع الانسانى بين صورهم فقل أن يرى اثنان متشابهان من كل وجه ، وذلك من اندر ما فى العالم ، بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطيور وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الطباء والثلة من الغنم والذود من الأبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر الا بعد طول تأمل ، أو بعلامة ظاهرة ، والناس مختلفة صورهم وخلقته فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان فى صفة واحدة وخلقة واحدة ، بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة ، والحكمة البالغة فى ذلك ان الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجرى من المعاملات ، فلولا الفرق والاختلاف فى الصور لفسدت أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ، ولا المدين من رب الدين ، ولا البائع من المشتري ، ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ، ولا هى تعرف بعلمها من غيره ، وفى هذا أعظم الفساد والخلل ، فمن الذى ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف ؟ ! فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل فى الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق فى النوع ؟ ! وأين قول الطبائعين ان فعلها متشابه لأنها واحدة فى نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها ؟ ! فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا ؟ ! ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وربما وقع فى النوع الانسانى تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما لتعظم عليهم المؤنة فى معاملتهما وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق ، وإذا كان هذا يعرض فى التشابه فى الأساء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقي ، فما الظن لو وضع التشابه فى الخلقة والصورة ؟ ! ولما كان الحيوان البهيم والطيور والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم

تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين الذى وسع حكمته كل شئ ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا ادركا اشتراكا فى نبات العانة ، ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية ، فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قريبا على المرأة وجعلها كالخول له والعانى فى يديه ميزه عليها بما فيه ، له من المهابة والعز والوقار والجلالة لكمالها وحاجته إلى ذلك ، ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتركا فى سائر الشعور والحكمة والمنفعة التى فيها .

ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجدد الحكمة بالباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوية الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفيتين والاسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبین منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كل أمره ونبيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله ، فمنه المضحك ، ومنه المبكى ، ومنه المؤيس ، ومنه المطمع ومنه المخوف ، ومنه المرجى المسلى ، والمحزن ، والقاطب للنفس والجوارح ، والمنشط لها ، والذى يسقم الصحيح ويرى السقيم ، ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ، ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ، وتستمال به القلوب ، ويؤلف به بين المتباغضين ، ويؤلى به بين المتعادين ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ومنه الكلمة التى لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، والكلمة التى لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ، ولا أين ينتهى ولا أين مستقره ، هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التى لا يحصىها إلا الله ، فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلفظه فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذى هو جارية واحدة فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت ، فالآية فى ذلك كالأية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج من ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار ، تلك الأنواع المختلفة المتباينة ، ولهذا أخبر الله سبحانه فى كتابه أن فى كل منها آيات ، قال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف السنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١) وقال : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ﴾ (٢) الآية فانظر الآية فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان ، والشفتان ، والاسنان لصياغة الحروف والنغمات ، الا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقد الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقد الرء واللام ، ومن عرضت له آفة فى حلقة كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشریح

(١) سورة الروم آية ٢٢

(٢) سورة الرعد آية ٤

مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والعضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الخنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفيتين والاسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا . والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قبل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحرأك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدماغ والعروق والعظام ويابعد ما بينهما ، ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسييح الرب - تعالى - وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النعمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الخناجر والحلوق والألسنة والشفة والأسنان ، فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم . وفى هذه الآلات ما رُب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام فى الخنجرة مسالك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع ، وفى اللسان منفعة الذوق فتذوق به الطعم وتذكر لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق ، وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم ، وفيها إسناد الشفتين وإمساكها عن الاسترخاء وتشويه الصورة ، ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه ، وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بهما الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يتبدى ما يلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضا جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك ، وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره . وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى ، هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجيب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل ، قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التى تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التى على رأس المحارب ، ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ، ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له ، فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين ؟ ! وقدره هذا التقدير ؟ !

وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ، ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين ، وصانها أعظم صيانة ، وجعلها معدن الخواص والإدراكات ، ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشجار كالرفوف والأهداب كالرفوف عليها إذا أفتحت ؟ ! ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعا ؟ ! ، وجعل لكل طبقة منفعة

وفائدة ؟ ! ، فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ، ومن شقها في الوجه أحسن شق ؟ ! وأعطاهما أحسن شكل ؟ ! وأودع الملاحظة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطلية وحارسا البدن ؟ ! ، ورائدا يرسله كالجند في مهماته ، فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ، ومن أودع النور الباصر فيه في قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقات ؟ ! ، وجعلهما في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الراية العالية ريثة للبدن ! ، ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة ، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة في خدمته وذللها له ؟ ! ، فهي مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره ، فمنها رسوله ، ومنها بريده ، ومنها ترجمانه ، ومنها أعوانه ، وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أراد الراحة أو عز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته ، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لا تفتر ، فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا ، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) فدعا عباده إلى التفكير في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وبارئها ولولا هذا لم نوسع الكلام في هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية ، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس ، وكم له من خادم ، وكم له من عبيد ولا يشعر به ، والله ما خلق له وهيا له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب ، فلما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه ، وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الأليم ، فلو عقل هذا السلطان ماهيئ له لضمن بملكه ولسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبيد ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

\* ومن جعل في الخلق منفذين ؟ ! ، أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرثة ، والآخر للطعام والشراب وهو المرء الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر ، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرثة لأهلك الحيوان ، ومن جعل الرثة مروحة للقلب تروح عليه لاثن ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائئا فتفسد على الإنسان عيشه ، ويمنع الناس مجالسة بعضهم بعضا . ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وانضاجها فلو كانت لحما غضا لانطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها ،

ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة ؟ ! ، لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها

ويصونها فلا تفسد ولا تذوب ؟ ! ، ومن جعل الدم السيل محبوسا محصورا في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجري ؟ ! ، ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات ؟ ! ، ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليترد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل. وقد انكسرت حدة الهواء فلا يتكوأه وليعذر على الهولم النفوذ إليها قبل أن يمسك وليمسك ما عساه أن يغشاه من الوسخ وغير ذلك من الحكم . ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقبها من الأرض ؟ ! ، فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحاً يحفظها من الذوبان ؟ وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض ، وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ، ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع ؟ ! ، كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلي في أستر موضع في الدار ، وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزا من خلقه ولا ناشزا بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا ، فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الأدمى لأنها قد تطول وتمتد ، وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لآلمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبثاق الشعر ؟ ! ، لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف . ولهذا الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لانبثاق الشعر لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضي انبثاقه هناك نبث حول هن الرجل والمرأة ، ولهذا الحكمة سلب عن الشفتين ، وكذا باطن الفم ، وكذا أيضا القدم أخفصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك ، فلو كان هناك شعر لأذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان ، وليس هذا للإنسان وحده ، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخلت هذه المواضع منه لهذه الحكمة ، أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة ؟ ! ، وجاءت بكل صواب ، وكل منفعة ، وكل مصلحة ، ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به ، عابوا الشعور تحت الأباط ، وشعر العانة ، وشعر باطن الأنف ، وشعر الركبتين ، وقالوا أى حكمة فيها وأى فائدة وهذا من فرط جهلهم ، فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها ، بل لانسبة لما علموه إلى ما جهلوه فيها لو قيسست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لا يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق ،

وما مثل هؤلاء الحمقى إلا كمثل رجل لا علم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلائهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم فخفيت عليه ، فجعل كل ما خفى عليه منها شيء ، قال هذا لأفائدة فيه ،

وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها ، فما الظن بمن بهرت حكمته القول الذى لا يشاركه مشارك في حكمته كما لا يشاركه في خلقه ، فلا شريك له بوجه ، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله ، أو يجعل عقله عيارا عليها ، فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه ، فهو من أجهل الجاهلين والله في كل ما خفى على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر . فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ، ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن ، وهى أقبل لنبات الشعر وأهيا ، فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعرا ولو حبست في داخل البدن لأضرته وآذت باطنه ، فخرجها عين مصلحة الحيوان ، واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه ، وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكما لها . ولهذا يكون احتباسه لفساد الطبيعة ونقص فيها . ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانته كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب ، فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذى عرفت بعض حكمته فمالك لا تعتبره في الشعر الذى خفيت عليك حكمته . ومن جعل الريق يجرى دائما في الفم لا ينقطع عنه ؟ ! ، ليبل الحلق واللهاوت ويسهل الكلام ويسيق الطعام . قال قراط : الرطوبة في الفم مطية الغذاء ، فتأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لا يستغنى عنه .

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة . فإن الأطباء والطبائعين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة ، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتنصح . وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوى الأعصاب ، وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه ، فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لا تعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا إيلاهم الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ما قد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرشية وسلوكوا في هذا الباب مسالك . فقالت طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة ، وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل . وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفى حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها ، وإنما المراد بالآية إفراجه بالإلهية والربوبية وأنه لكمال حكمته لا معقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ، ألا ترى إلى قوله :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (١) كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لا يسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراجه بالربوبية

والإلهية ، وقوله: وهم يستلون ، ففى صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة ، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرق ؟ فهذا الذى سبق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا فى إنكار حكمته وتعليل أفعاله بآياتها المحموده وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة فى ابتلائهم تعويضهم فى الآخرة بالثواب التام ، فقل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلاء . فأجابوا بأن توسط الإيلاء فى حقهم كتوسط التكليف فى حق المكلفين ، فقل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلاء أطفال الكفار ؟ فأجابوا بأننا لا نقول إنهم فى النار كما قاله من قاله من الناس ، والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم ، وكذا الكلام معهم فى مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبيين بما ليس هذا موضعه فإن هذا لا تعويض فيه قطعا ، ولا هو عقوبة على الكفر ، فإن العقوبة لا تكون سلفا وتعجيلا فحاروا فى هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه ما يلازم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التى لم يخلق منفكا عنها فهى كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز ، فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع ، والحاجة إلى الشرب عند الظم ، وإلى النوم والراحة عند التعب ، فإن هذه الآلام هى من لوازم النشأة الإنسانية التى لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان ، فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقا آخر ، وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين . ولكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم ، وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل ، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة ، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر ، فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فيألامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كيألامه بالجوع والعطش والبرد والحر ودون ذلك أو فوقه وما خلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة .

قالوا : فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك ؟ وهلا خلق خلقه غير قابلة للألم ؟ فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه فى عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهى عرضة للآفات ، وركبه تركيبا معرضا لأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التى لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها ، وهى لا محالة توجب امتزاجا واختلاطا وتفاعلا يبنى بعضها على بعض بكيفية تارة ، وبكميته تارة ، وبهما تارة ، وذلك موجب للآلام وجودا وضرورة الملزوم بدون لازمه محال ، ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة ما يوجب حركته الدائبة وسعيه فى طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعنيه تارة ، فأحوج النوع بعضه إلى بعض ، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض ، فحدث من ذلك الآلام والشور بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض . والآلام لا تختلف عن هذا الامتزاج أبدا إلا فى دار البقاء والنعيم المقيم لا فى دار الابتلاء والامتحان ، فمن ظن أن الحكمة فى أن تجعل خصائص تلك الدار فى هذه فقد ظن باطلا ، بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها بيلاتها ، وراحتها بعنائها ، ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها ، وفرحها بغمها ، فهى دار ابتلاء تدفع بعض آفاتنا ببعض آفات :  
أصبحت فى دار بليات \* أدفع آفات بآفات



ولقد صدق ، فإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ماقبله من الآلام والبليات ، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع ، وبالشرب ألم العطش ، وباللباس ألم الحر والبرد ، وكذا سائرهما ، ومن هنا قال بعض العقلاء :

إن لذاتها لنا هى دفع الآلام لاغير ، فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وإن الحكمة التى اقتضت ذلك هى أولى باقتضاء دارين دار خاصة للذات لايشوبها ألم ، ودار خالصة للآلام لايشوبها لذة ما ، والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار ، أفلا ترى كيف ذلك على ماأنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ، ورأيت شواهدهما وأدلة فى وجودهما من نفسك حتى كأنك تعانيتها عيانا وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار ، فتأمل كيف قاد النظر فى حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وماأخبروا به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا ، فأين هذا من مقام من أداة عمله إلى المعارضة بين ماجاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلتها ، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فجعلت بها عساكر الخذلان من كل جانب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر فى هذه الأفعال الطبيعية التى جعلت فى الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها فى الطبع المجرد والداعى الذى يقتضيه ويستحثه ، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته ، والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن ، والأعضاء وإجماع القوى وعودتها إلى قوتها جديدة غير كالة ، والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل ، وقضاء الوطر وتام اللذة ، فتجد هذه الدواعى تستحث الإنسان هذه الأمور ، وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة ، فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لايشعر ، كماإذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكمت به الداء أهلكه ، فاقترضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصلحته ، وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم انظر إلى مايعطيه من القوى المختلفة التى بها قوامه فأعطى القوة الجاذبية الطالبة المستحثة التى تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ، ثم أعطى القوة المسكة التى تمسك الطعام وتمجسه ريثما تنضجه الطبيعة وتمكّم طبعه وتهبى لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التى تصرفه فى البدن وتهضمه عن المعدة . ثم أعطى القوة الدافعة وهى التى تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه ، فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ؟ ! ، ومن جعلها خادما لك ؟ ! ، ومن أعطاهما أفعالها ولمستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ؟ ! ، ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت فى شخص واحد ؟ ومحل واحد ؟ ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضها ، فمن كان يحول بينه وبين ذلك ، فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ؟ ، ولولا المسكة كيف كان الطعام يذهب فى الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ، ولولا الهاضمة

كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ؟ ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذى القاتل لو انحبس يخرج أولا بأول ؟ فيستريح البدن فيخف وينشط ، فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك ، فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه ، قد وكل بتلك الدار أقواما يقومون بمصالحها ، فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها ، وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه إلى أن يهيا ويصلح ، وبعضهم يقبضه فيهيئه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجتهم ، وبعضهم لمسح الدار ، وتنظيفها ، وكنسها من المزابيل والأقذار ، فالملك هو الملك الحق المبين - جل جلاله - والدار أنت . والحشم ، والخدم ، الأعضاء ، والجوارح ، والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها .

فرق بين نظر الطبيب والطبايعى في هذه الأمور ، فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم ، فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط ، وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خلقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

● ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيها من الحكم وما للعبد فيها من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التي خص بها لدخل عليها الخلل في أموره كلها ، ولم يعرف ماله وما عليه ، ولا ما أخذ ولا ما أعطى ، ولا ما سمع ورأى ، ولا ما قال ولا ما قيل له ، ولا ذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه ، ولا من عامله ولا من نفعه فيقرب منه ، ولا من ضره فينبأ عنه ، ثم كان لا يهتدى إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على ماضى ، بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا ، فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ، ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ، ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيئته ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ، ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع ذكر الآفات ، ولا رجا غفلة عدو ، ولا نقمة من حاسد ، فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله في كل واحد منهما ضربا من المصلحة .

● ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان - وهو خلق الحياء الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتها الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شيء ، ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ، ولم يوف بالوعد ، ولم تؤد أمانته ، ولم يقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره ، والقبيح فتجنبه ، ولا ستر له عورة ، ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقا ، ولم يصل له رحما ، ولا بر له والدا ، فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوي علوى وهو حياء فاعلها من الخلق ، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلاق لم يفعلها صاحبها . وفي الترمذى وغيره مرفوعا : ( استحيوا من الله حق الحياء قالوا : وما حق الحياء ؟ قال : أن تحفظ الرأس

وما حوى والبصر وما وعى وتذكر المقابر . . . والبلى<sup>(١)</sup> . وقال ﷺ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت<sup>(٢)</sup> .  
وأصح القولين فيه قول أبو عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى : ﴿إِعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله  
﴿كُلُوا وَتَمْتَعُوا قَلِيلًا . . .﴾<sup>(٤)</sup> وقالت طائفة هو إذن وإباحة ، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا  
فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله ، وإن كان مما لا يستحيا منه  
فافعله ، فإنه ليس بقبیح ، وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر ، وهو فى قوة  
قولهم من لا يستحى صنع ما يشتهى ، فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو فى معنى الخبر  
والمعنى أن الردع عن القبیح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ما شاء وإخراج هذا المعنى فى<sup>(٥)</sup>  
صيغة الطلب لنكتة بديعة جدا ، وهى أن للإنسان أمرين وزاجرين : أمر وزاجر من جهة الحياء ، فإذا  
أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهى ، وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع أمر الحياء  
وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة ، ولابد، فإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن  
يقال من لا يستحى صنع ما يشتهى .  
وهكذا تبين لنا بما تقدم مدى حكمة الله البالغة وقدرته الباهرة وسلطانه القاهر وآياته الظاهرة ،  
يشاهدها كل مخلوق فتبارك الله رب العالمين .

### إنذار المشركين

قوله تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ  
قُوَّةً ، وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ، وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ،  
وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾  
أى : أقعد هؤلاء المكذبون الجاحدون ولم يسيزوا فى جنات الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة  
الذين من قبلهم من الأمم الطاغية الباغية، لقد كانوا أشد منهم قوة بل لقد بلغ من جبروتهم أن قالوا :  
من أشد منا قوة ؟ فجاء الجواب من الله تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً  
وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ . فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي  
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾<sup>(١)</sup> لقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا  
وأثاروا الأرض وحراثوها ، ونقبوا فى بطنها حتى أخرجوا منها الكنوز كما عمروها ، واتخذوا من سهولها  
قصورا ونحتوا الجبال بيوتا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم فرحوا بما عندهم من العلم فكان  
العذاب عاقبتهم ومصيرهم جزاء تكذيبهم وإستهزائهم بآيات الله ورسله ، كما قال تعالى : ﴿رِثْمَ كَانَ

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٣ ، ٥٤ أبواب صفة القيامة رقم ٢٥٧٥

- انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ٢٤٦ رقم ٣١٩٢

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٨٣ مسند حذيفة بن اليمان

انظر سنن أبى داود ج ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩ كتاب الأدب باب فى الحياء . رقم ٤٧٩٧

(٣) سورة فصلت جزء من الآية ٤٠

(٤) سورة المرسلات آية ٤٦

(٥) سورة فصلت الآيات ١٥ ، ١٦

عاقبة الذين أساءوا السواى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴿ فكان هذا العذاب جزاءهم ، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزئون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ (١) .

ولقوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزئون . كل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) وكقوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ (٣) وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون . فلما بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عبادته وخسر هنالك الكافرون ﴾ (٥) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض أنه كان عليا قديرا ﴾ (٦) . وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ (٧) بعد أن قال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيها إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ﴾ (٨) وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . . إن في ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لسييل مقيم . إنه في ذلك لآية للمؤمنين . وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فاتتقنا منهم وإنها ليإمام مبين ﴾ (٩) وقوله جل جلاله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (١٠) . وقوله جل جلاله : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ (١١) .

(٦) سورة فاطر آية ٤٤

(٧) سورة الأحقاف آية ٢٧

(٨) سورة الأحقاف آية ٢٦

(٩) سورة الحجر الآيات من ٧٣ - ٧٩

(١٠) سورة الصافات الآيات ١٣٧ ، ١٣٨

(١١) سورة السجدة آية ٢٦

(١) سورة الأنعام الآيات ٤ ، ٥ ، ٦

(٢) سورة الأنعام الآيات ١٠ ، ١١

(٣) سورة محمد الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيات ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥

قوله تعالى : ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعوا وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ .

﴿ يقول تعالى ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ﴾ أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴾ ثم إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ قال ابن عباس :

يبأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون وفي رواية يكتشب المجرمون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أى ما شفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ماكانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هى والله الفرقة التى لا اجتماع بعدها . يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون كثيرا .

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أى جحدوا آيات الله التى بعث بها أنبياءه وجحدوا اليوم الآخر ﴿ وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ﴾ (١) . فجزاء هؤلاء أنهم محضرون في العذاب لا يخفف عنهم ولا هم ينصرون ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكنون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (٢) . قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعملك مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

### \* أوقات التسبيح والعبادة \*

قوله تعالى : فَسُبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّ الْأَرْضَ

(١) سورة الزخرف الآيات ٧٧ ، ٧٨

(٢) سورة فاطر الآيات ٣٦ ، ٣٧

بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾  
- معاني المفردات

(فسبحان) : علم على التسبيح وهو التنزيه ، وقيل هو الصلاة . (تمسون) : تدخلون في المساء وهو انتشار الظلام (وعشيا) : العشي والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة وقيل العشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغرب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر وذلك هو وقت العصر .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه أن المقام الأعلى لمن آمن وعمل صالحا حيث قال : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال إذا علمتم ذلك ، فاعلموا أن الإيمان تنزيه بالجنان ، وتوحيد باللسان ، وعمل صالح يشمل جميع الأركان ، وكل هذا تنزيه وتقديس ، وتحميد وتسبيح ﴿ فسبحان الله ﴾ أي سبحوا الله تسبيحا ، علمه سبحانه الله وهو بهذه المعاني ، إيمان وتوحيد وعمل - فإنه الموصل إلى الحبور والجالب للسرور في جنا الخلد والنعيم ..

عنه - الصلوات الخمس في القرآن قيل له : أين ؟ فقال : قال الله : ﴿ فسبحان الله حين تمسون ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ وحين تصبحون ﴾ صلاة الفجر ﴿ وعشيا ﴾ صلاة العصر ﴿ وحين تظهرون ﴾ صلاة الظهر ، ولعل تخصيص هذه الأوقات للعبادة إشارة إلى ما يجب عمله في تحصيل المعاش ، وجلب الرزق ، فالإسلام دين الجد والعمل ، لادين الرهبانية والكسل .

ولله الحمد سبحانه وتعالى في السموات والأرض ، نعم له الحمد من كل مخلوق ، وهذه الجملة معترضة بين الأوقات للإشارة إلى أن هذا التسبيح لله في الصلاة إنما هو لأصحابه ولا يعود منه شيء على الله ، فعليهم أن يحمده حمدا يوازي نعماءه وهدايته .

والله سبحانه وتعالى يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحيى الأرض بالنبات بعد موتها وجدها ، ومثل ذلك الإخراج والانتقال من حال إلى حال مخالفة تخرجون وتبعثون من موت وفناء إلى حياة خاصة للثواب والعقاب .

وعلى هذا فالمراد بالتسبيح في الآية ما يعم الصلاة والتنزيه لله عن صفات النقص ووضفه بصفات الكمال والجلال ، ولا شك أن الصلاة عماد ذلك وعموده .

ولعل المناسبة بين هذه الآية والآية التي قبلها أن الإنسان في الصباح يخرج من الموت الأصغر وهو النوم إلى الحياة ، فكذلك تبعثون من الموت إلى الحياة الآخرة .

- وانظر صحيح البخارى - كتاب الدعوات باب فضل التسبيح ج ٨ ص ١٠٧  
- انظر سنن الترمذى كتاب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٤ . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .  
- ثم انظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦  
- والحدِيث في مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٣٢ مسند أبي هريرة

وعن رسول الله ﷺ : ( من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ <sup>(١)</sup> الآية

### \* التفسير \*

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى : ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أى هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ثم قال تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا ، وهذا فائق الإصباح وجعل الليل سكنا .

كما قال تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ والضحى . والليل إذا سجد ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لمسمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » <sup>(٥)</sup> وروى الطبراني بسنده عن عبد الله بن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . الآية بكماها أدرك مافاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك مافاته في ليلته » <sup>(٦)</sup> .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال . قال رسول الله - ﷺ - :  
( كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ) . رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجه <sup>(٧)</sup> .

(١) الحديث في جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطى ص ٧٨٥ بلفظ « من سره أن يكتال بالميكال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة سبحان ربك رب العزة عما يصفون ... » إلى آخر السورة الديلمى عن على .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الليل الآيتان ١ ، ٢

(٤) سورة الضحى الآيتان ١ ، ٢

(٥) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٩ مسند سهل بن معاذ عن أبيه .

(٦) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١

وقال محقق الطبراني . ورواه أبو داود ٥٠٥٥ وقال الحافظ في تخريج الكشاف ٤٧٢/٣ أخرجه أبو داود والعقيل وابن عدى من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف . وقال البخارى لا يصح . وقال المنذرى في إسناده محمد بن عبد الرحمن البيهقي عن أبيه وكلاهما لا يحتج به . وقال ابن كثير في تفسيره ٤٢٨/٣ إسناده ضعيف .

(٧) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٤/٣١ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل التهليل

والتسبيح .

وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ . قلت : يا رسول الله أخبرني بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله ويحمده ) . رواه مسلم والنسائي والترمذي إلا أنه قال : سبحان ربي ويحمده . وقال حديث حسن .

وفي رواية مسلم : أن رسول الله ﷺ سئل أى الكلام أفضل ؟ قال : ما صطفى الله للائكته ، أو لعباده : سبحان الله ويحمده .<sup>(١)</sup>

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : ( من قال سبحان الله ويحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ومن قال : لا إله إلا الله كان له بها عهد عند الله يوم القيامة ) رواه الطبراني بإسناد فيه نظر<sup>(٢)</sup> .

زاد في رواية له عن أيوب بن عقبة عن عطاء عن بنحوه ، فقال رجل : ( كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتطول الله برحمته )<sup>(٣)</sup> . - معنى ( تستنفد ) : تذهب .

- معنى ( يتطول ) : يتفضل وينعم ويسامح ، وفيه الإكثار من ذكر الله . ورواه الحاكم من حديث إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده ولفظه : قال رسول الله - ﷺ - : ( من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو وجبت له الجنة ، ومن قال : سبحان الله ويحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعين ألف حسنة . قالوا : يا رسول الله إذا لايهلك منا أحد ؟ قال : قال بلى إن أحدكم ليجيئ بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلتة ثم تحيىء النعم فتذهب بتلك ثم يتناول الرب بعد ذلك برحمته ) . قال الحاكم : صحيح الإسناد<sup>(٤)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

( من قال سبحان الله ويحمده غرست له نخلة في الجنة )<sup>(٥)</sup> . رواه البزار بإسناد حسن

وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال قال : رسول الله - ﷺ - :

( من هاله الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله فليكثر من : سبحان

(١) الحديث في صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل سبحان الله ويحمده . ج ٤ ص ٢٠٩٤ رقم ٢٧٣١/٨٥

(٢) انظر الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .

وقال محققه . قال في المجمع ٨٧/١٠ وفي النضر بن عبيد ولم أعرفه وبقي رجاله وثقوا .

(٣) هذه الرواية الزائدة في المعجم الكبير للطبراني وهي جزء من الحديث رقم ١٣٥٩٥ ج ١٢ ص ٤٣٧ .

(٤) الحديث في كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٥١ . وقال (صحيح)

(٥) الحديث في سنن الترمذي أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣١



الله ويحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه في سبيل الله عز وجل ) . رواه الفرياني والطبراني واللفظ له<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( ومن قال سبحان الله ويحمده في يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زيد البحر )<sup>(٢)</sup> رواه مسلم والترمذى .  
- ( زيد البحر ) : كناية عن المبالغة في الكثرة

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال : حدثني أبي قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ( أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فكتب له ألف حسنة ، أو تحط عنه ألف خطيئة )  
رواه مسلم والترمذى وصححه<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم والترمذى .  
- وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت )<sup>(٥)</sup> رواه مسلم والنسائي وزاد : وهن من القرآن

- وعن رجل من أصحاب النبى - قال : ( أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر )<sup>(٦)</sup> رواه أحمد .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - مر به وهو يغرس غرسا ، فقال : ( يا أبا هريرة ، ما الذى تغرس ؟ قلت غراسا . قال : ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر تغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة )<sup>(٧)</sup> رواه ابن ماجه بإسناد

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠  
وقال محققه . قال فى المجمع ٩٤/١٠ وفيه سلمان بن أحمد الوسطى وثقه عبدان وضعفه الجمهور ، والغالب على بقية رجاله التوثيق .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم . وهو جزء من الحديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ ج ٤ ص ٢٠٧١  
( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .  
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٣ وقال . هذا حديث حسن صحيح .  
(٣) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الذكر والدعاء ) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ٤ ص ٢٠٧٣ رقم ٢٦٩٨ / ٣٧ .  
وأنظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٣٠ . وقال . هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة وإستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٢ / ٢٦٩٥ .

وأنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ . أبواب الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .  
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الأدب ) باب كرهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ رقم ٢١٣٧ / ١٢ . وقد ورد هذا الحديث بلفظه .

الحديث فى سنن الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٦ مستند حديث بعض أصحاب النبى .  
(٧) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ ( كتاب الأدب ) باب فضل التسبيح برقم ٣٨٠٧ ، وقال : فى الزوائد : إسناده حسن . وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان الحنفى ، يختلف فيه .

حسن .

- وعن ابن سعد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لقيت ابراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال : يا محمد : أقرى أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر )<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .  
( القيعان : أمكنة مستوية منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ويستوى نباتها والقيعان جمع قاع )

وعن أبى هريرة وأبى سعيد - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : ( إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال : سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لا إله إلا الله ، فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة )<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والنسائى واللفظ له ، والبيهقى ، وفى آخره : ومن أكثر ذكر الله فقد برىء من النفاق

وعن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملأن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك ، أو عليك ، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ) رواه مسلم<sup>(٣)</sup>

وعن أبى ذر - رضى الله عنه - أن ناساً من أصحاب النبى - ﷺ - قالوا للنبى - ﷺ - : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال : ( أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يا رسول الله أىأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ ! فكذا إذا وضعها فى الحلال كان له أجر )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .  
( والبضع ) بضم الباء : هو الجماع .

- وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : جاء أعرابى إلى النبى - ﷺ - فقال : علمنى كلاماً أقوله ، قال ( قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم )

( ١ ) أنظر سنن الترمذى ( أبواب الدعوات ) باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٢٩ . وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

( ٢ ) الحديث فى مستد الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٠٢ مستد أبى هريرة

( ٣ ) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الطهارة ) باب فضل الوضوء ج ١ ص ٢٠٣ رقم ٢٢٣

( ٤ ) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الزكاة ) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٢ ص ٦٩٧ رقم ٥٣ / ١٠٠٦

قال : هؤلاء لربى فمالى ؟ قال قل : (اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى . وفى رواية أخرى قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك). رواه مسلم<sup>(١)</sup> .

- وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - ( قال : استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ) رواه أحمد ، وأبو يعلى والنسائى<sup>(٢)</sup> .

- وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن مما تذكرون من جلال الله ، التسبيح ، والتهليل ، والتحميد ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له من يذكر به). رواه ابن أبى الدنيا ، وابن ماجه واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - أخذ غصنا فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض فقال رسول الله - ﷺ - : (إنه سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها) . . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح<sup>(٤)</sup> .  
وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله - قال رسول الله - ﷺ - : . رواه ابن أبى الدنيا ، والبزار والطبراني . والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم<sup>(٥)</sup> .  
قوله تعالى : ﴿ يخرج الحمى من الميت ويخرج الميت من الحمى ﴾ فهو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائنا حيا لاتعرفه العرب ولا تعترف به . . ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيدا جرضا .  
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾<sup>(٧)</sup> .

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والاستغفار) ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٦ / ٣٣ .  
وانظر الحديث أيضا بمعناه فى مسند أحمد ج ٤ ص ٣٥٦ مسند ابن أبى أوفى .

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ (مسند أبى سعيد الخدرى)  
وانظر الحاكم كتاب الدعاء ج ١ ص ٥١٢

(٣) والحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧١ مسند النعمان بن بشير  
وانظر كتاب المستدرک (كتاب الدعاء) ج ١ ص ٥٠٣

ثم انظر الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥٢ (كتاب الأدب) باب ٥٦ برقم ٣٨٠٩  
(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٢ مسند أنس

(٥) الحديث فى كتاب المستدرک للحاكم ج ١ ص ٥٠٢ . وقال ، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٦) سورة يس آية ٣٣ .

(٧) سورة الحج آية ٥ .

﴿ وكذلك نخرجون ﴾ أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه وإثماء الأرض بإنباتها بعد موتها -  
يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .  
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحي  
الموت وهو على كل شىء قدير ﴾ (١) .  
وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن  
الذى أحيّاها لمحي الموت إنه على كل شىء قدير ﴾ (٢) .

### بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ  
آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ  
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ  
الْسِّنِّكُمْ وَالْوَلَوْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَلَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ  
وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ  
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ  
الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قُنُوتٌ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي  
يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

### معاني المفردات

(تنتشرون : أى منتشرين فى الأرض تبتغون من فضل الله . لتسكنوا إليها : يقال سكن إليه إذا مال  
إليه واطمأن .

مودة ورحمة : قال السدى : المودة ؛ المحبة . والرحمة ؛ الشفقة ، البرق : هو الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . قانتون : مخلصون فى طاعته . المثل الأعلى : الصفة العليا .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أمر - سبحانه - بتتزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا - سبحانه - أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها خلقكم من التراب الذى لم يشم رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ماأنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالأزدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

ثم أعقب ذلك بدلائل أخرى فى الأكوان المشاهدة ، والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لاحصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهارا . فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها . ثم ذكر سبحانه مايعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفينة بعد الفينة ، مما فيه العبرة لمن ادكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شئ خلقه ثم هدى . وبعد أن أقام الأدلة على الوجدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر وهى الأصل الثانى - أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ يقول الله تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم ، بشر تتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقه ، ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيفا القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار بينى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكر وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكر والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تتشرون ﴾ أخرج الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين

ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك « رواه أبو داود والترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح (١) »

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى خلق لكم من جنسكم إناثا لتكون لكم أزواجا . ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام ، ونحو الآية قوله ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (٢) . يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بن آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم أو من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهم مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتة لها أو لرحمته بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

### - الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح .

- ١ - قال تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ﴾ ٣٢ من سورة النور وهذا أمر .
- ٢ - وقال تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ ٢٣٢ من سورة البقرة ، وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .
- ٣ - وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية .. ﴾ ٣٨ من سورة الرعد ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .
- ٤ - وقال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ٧٤ من سورة الفرقان : سبحانه مدح أوليائه بسؤال ذلك فى الدعاء .

### فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب .

- أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد والتمتع البهيمى ، وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقي الله عزبا وتلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالي :
- ١ - موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .
- ٢ - محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .
- ٣ - طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .  
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٩

٤ - طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .  
ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس ، وإيناسها بالمجالسة ، والنظر ، والملاعبة إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، وهى عن الحق نفور قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١)  
رابعا : تفرغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ ، والكنس ، والفرش وتنظيف الأواني وتهئية أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .  
قال أبو سليمان الدارنى فى رحمة الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفرغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا . وقال محمد بن كعب القرطبى به فى معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة . . ﴾ قال : المرأة الصالحة .  
خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده .

قال - عليه الصلاة والسلام - :

( ماأنفق الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته ) (٢)

### وآفات النكاح

أولا : العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب ، والإطعام من الحرام ، وربما يتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانيا : القصور عن القيام بحقوقهن ، والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته

قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول » (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات .

ثالثا : أن يكون الأهل والولد شاغلا عن الله تعالى وجاذبا إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١ وقال (أن يضيع من يعول) .  
- انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٦٩٦/٤٠ . وقال « كفى بالمرء إثما أن يحبس عن يملك قوته » .

للأولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ما أشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشغوم على صاحبه فينقل من التمتع المباح إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانثتهن والإمعان في التمتع بهن ..

**ترغيب الزوج في الوفاء بحق زوجته ، وحسن عشرتها والمرأة بحق زوجها وطاعته، وترهيبها من إسقاطه ومخالفته .**

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخاري ومسلم<sup>(١)</sup>

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح<sup>(٢)</sup> وقوله ﷺ خياركم لنسائهم أي أفضل المسلمين : المحسنون إلى أزواجهم وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ -

(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)<sup>(٣)</sup> . رواه ابن حبان في صحيحه وقوله : (وأنا خيركم لأهلي) : برا ونفعاً وفي هذا حث للمؤمنين على الاقتداء به ﷺ في حسن معاملة الزوجة .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء )<sup>(٤)</sup> رواه البخاري ومسلم وغيره .

( وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ) إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة في إثبات هذه الصفة لهن ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلاً لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها ، وفيه لسانها ، وهو الذي يحصل منه الأذى ، واستعمال أعوج ، وإن كان من العيوب لأنه أفعل الصفة ، وأنه شاذ ،

(١) - الحديث في صحيح البخاري ج ٢ ص ٦ كتاب الجمعة

- وانظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر رقم ١٨٢٩ / ٢٠

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ - كتاب الإمارة - باب فضيلة الإمام العادل . رقم ١٨٢٩ / ٢٠ .

(٢) الحديث في سنن الترمذي ج ٢ ص ٣١٥ أبواب النكاح باب ما جاء في حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث في صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ رقم ٤٣٦ : باب ذكر استحباب الاقتداء بالمصطفى . انظر بسنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح باب حسن معاشره النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٤) انظر صحيح البخاري ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء

الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٨ / ٦٠ .

انظر كنز العمال ج ١٦ ص ٣٧٣ حديث رقم ٤٤٩٥٨



وإنما يتمتع عند الالتباس بالصفة ، فإذا تميز عنه بالقرينة جاء البناء . ( وكسره - طلاقها ) .  
وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لا يفرِّك مؤمن مؤمنة إن كره  
منها خلقا رضى منها آخر )<sup>(١)</sup> رواه مسلم

يفرك بسكون الفاء ، وفتح الياء ، والراء أيضا : أى ييغض .  
والمعنى لا يكره الزوج زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء .  
ولتضييع أخلاقها الحسنة شذوذها أحيانا ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .  
- وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ماحق زوجة أحدنا عليه ؟  
قال : ( أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ولا تهجر إلا في  
البيت )<sup>(٢)</sup> رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه .  
( لا تقبح ) بتشديد الباء : أى لا تسمعها المكروه ، ولا تشتمها ، ولا تقل قبحك الله ، ونحو  
ذلك .

وعن عمر بن الأحوص الجشمي - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - في حجة الوداع  
يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ . ثم قال : ( ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان  
عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن في  
المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ألا إن لكم على نسائكم  
حقا ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم  
لن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن )<sup>(٣)</sup> رواه ابن ماجه والترمذى  
وقال حديث حسن صحيح . ( عوان : أسيرات )

( فاحشة مبينة ) أى معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .  
( غير مبرح ) غير مهلك لم يؤذ بكسر .  
( فلا تبغوا ) فلا تطلبوا غير الطاعة طريقا .  
( ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ) لا يكون الفراش لأجنبى وطاء سهلا يتمتع بلذته  
وعن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - :

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ١٤٦٩ / ٦١  
(٢) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٦ كتاب النكاح باب حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢  
- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥٠ .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ كتاب النكاح باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٣ وقال هذا حديث  
حسن صحيح .  
- انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(أيا امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة) (١) رواه الترمذى وحسنه  
(وفيه الحث على إرضاء الزوج وطاعته والإخلاص له رجاء كسب نعيم الله ورضوانه .  
وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -  
(إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلمها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت) (٢)  
رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ -  
( أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : زوجها . قلت فأى الناس أعظم حقا على الرجل ؟  
قال أمه ) (٣) . رواه البزار وإسناده حسن

- وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ( جاءت امرأة إلى النبى ﷺ - فقالت : يا رسول  
الله ! أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا  
أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله  
ﷺ . أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله ) (٤)  
رواه البزار هكذا مختصرا .  
( وقليل منكن من يفعله أى من يقوم بحق الزوج ) .

وعن ابن أبى أوفى - رضى الله عنه - قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى - ﷺ - ،  
فقال رسول الله - ﷺ - « ما هذا ؟ قال يارسول الله . قدمت الشام ، فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم  
وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك ؟ قال : لاتفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن  
تسجد لزوجها والذي نفسى بيده لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها » (٥) رواه ابن ماجه وابن  
حبان فى صحيحه .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( لو كنت أمرا أحدا أن يسجد لأحد  
لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ) (٦) . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .  
انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ أبواب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٧١ . وقال هذا حديث حسن غريب .  
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٤ كتاب النكاح باب إيجاب الجنة للمرأة إذا أطاعت زوجها رقم ٤١٥١ . وقال .  
أبو حاتم . تفرد بهذا الحديث عبد الملك بن عمير من حديث أبى سلمة ومارواه عن عبد الملك إلا هدية بن المنهال وهو شيخ أهوازي  
- وانظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ كتاب النكاح باب ثواب المرأة على طاعتها لزوجها .  
(٣) الحديث فى كشف الاستار عن زوائد البزار ج ٢ ص ١٧٦ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٤٦٢ . قال البزار ؛  
لانعلمه مرفوعا إلا بهذا الإسناد ، وأبو عتبة لانعلم حدث عنه إلا مسمر .  
(٤) الحديث فى زوائد البزار ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ كتاب النكاح باب ثواب من أطاعت زوجها رقم ١٤٧٤ . وقال البزار :  
لانعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور

(٥) الحديث فى مسند ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ انظر صحيح ابن حبان ج ٦  
ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب النكاح باب استحباب الاجتهاد للمرأة فى قضاء حقوق زوجها رقم ٤١٥٩  
(٦) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٢  
- انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦٩ . وقال ( وفى الباب عن معاذ بن جبل  
وسراق بن مالك ابن جعشم وعائشة وابن عباس وعبد الله بن أبى أوفى وطلق بن عل وأم سلمة ، أنس وابن عمر . حديث أبى  
هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه ، من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( لا يحل لامرأة أن تصوم ، وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه )<sup>(١)</sup> رواه البخارى ومسلم .

المراد صيام النفل والأفضل أن تفطر حتى إذا أراد منها شيئاً فعل ولا تأذن بدخول أحد ، أو بتصدق ، أو ببيع شيء إلا بإذنه .

وعن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( المرأة لا تؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله ، ولو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها )<sup>(٢)</sup> رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( لا تؤدى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخیل يوشك أن يفارقك إلينا )<sup>(٣)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأتته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »<sup>(٤)</sup> رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى ( إلى فراشه : كناية عن طلبها بجواره ليتمتع بها فظل طول ليله ساخطاً عليها لعدم إجابتها اكتسبت دعوات الملائكة عليها بالطرد ، والاقصاء والعذاب : ودعاء الملائكة مستجاب .

وفى رواية للبخارى ومسلم قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها »<sup>(٥)</sup> .  
وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الأبق حتى يرجع إلى مواله فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو )<sup>(٦)</sup> رواه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

- 
- (١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعاً / ط / الشعب .  
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٨ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة .  
- انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٧ رقم ٤١٥٩ كتاب النكاح باب استحباب للمرأة فى قضاء حقوق زوجها .  
- الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ .  
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٤٩ كتاب النكاح باب فى المرأة تؤذى زوجها رقم ٢٠١٤ .  
وانظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٢٠ أبواب الرضاع باب ١٩ رقم ١١٨٤ وقال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ورواية اسماعيل بن عياش عن الشاميين أصلح . وله عن أهل الحجاز وأهل العراق مناكير .  
الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٤٣٦ / ١٢٢ .  
(٤) الحديث فى صحيح البخارى كتاب النكاح باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ج ٧ ص ٣٩ .  
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٤٣٦ / ١٢١ .  
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ٣٧٠ رقم ٥٣٣١ .  
انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ رقم ٣٤ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :  
( إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره ، لعنها كل ملك في السماء وكل شيء مرت عليه غير  
الجن والإنس حتى ترجع )<sup>(١)</sup> . رواه الطبراني في الأوسط .

وقد رهب الإسلام من الظلم عند تعدد الزوجات

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( من كانت عنده امرأتان فلم يعدل  
بينهما جاء يوم القيامة ، وشقه ساقط )<sup>(٢)</sup> ، رواه الترمذي والحاكم وقال صحيح على شرطهما .

( شقه ساقط : أى مائل معوج والمعنى جاء على حالة نقص .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : ( كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : ( اللهم  
هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك )<sup>(٣)</sup> ، يعنى القلب ، رواه أبو داود والترمذي وقال  
مرسلا وهو أصح .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ - : ( إن  
المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم  
وأهلهم وما ولوا )<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .

ولو علم المسلم مدى ما عند الله تعالى من الأجر العظيم له لوقام على أهله بالمعروف والعدل  
والإحسان ، وأحسن تربيتهم ، وكان راعيا صالحا لشئونهم ، لو علم ذلك ماغضض له جفن عن  
رعايتهم وإسداء المعروف لهم .

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( دينار أنفقته في سبيل الله ،  
ودينار أنفقته في ربة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذي  
أنفقته على أهلك )<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

وعن ثوبان - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : قال - قال رسول الله ﷺ ( أفضل دينار ينفقه  
الرجل . دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على فرسه في سبيل الله ، ودينار ينفقه

( ١ ) الحديث في الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ ، ١٠٤ . وقال رواه الطبراني في الأوسط ، ورواته ثقات إلا سويد بن  
عبد العزيز ، قال في الميزان ( سويد بن عبد العزيز الدمشقي قاضي بعلبك أصله واسطي . قال ابن معين ليس حديثه بشيء ، وقال  
النسائي ليس بثقة ، وقال أبو حاتم لين ، وقال الدارقطني يعتبر به .

( ٢ ) الحديث في سنن الترمذي ج ٢ ص ٣٠٤ أبواب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم ١١٥٠ . وقال : ولا نعرف  
هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام

- الحديث في سنن أبي داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء رقم ٣١٣٣

( ٣ ) الحديث في سنن الترمذي ج ٢ ص ٣٠٤ . أبواب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٩ . قال . وهذا أصح  
من حديث حماد بن سلمة .

- انظر سنن أبي داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب في القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ .

( ٤ ) الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧ / ١٨

( ٥ ) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٩٩٥ / ٣٩ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك .

على أصحابه في سبيل الله). قال أبو قلابة : بدأ بالعيال : ثم قال : أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم الله به ويغنيهم ؟<sup>(١)</sup> رواه مسلم والترمذى .  
وعن ابن مسعود البدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - :  
قال : ( إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة )<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وعن عبد الله بن سعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعمل أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك )<sup>(٣)</sup>  
( أى اختر الأقرب فالأقرب ) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

وعن كعب بن عجرة - رضى الله عنه - قال : مر على النبى - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - جلده ونشاطه ، فقالوا يارسول الله . لو كان هذا في سبيل الله فقال رسول الله - ﷺ - : ( إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان )<sup>(٤)</sup> رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .  
وروى عن جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : ( أول ما يوضع في ميزان العبد نفقته على أهله )<sup>(٥)</sup> رواه الطبرانى في الأوسط .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : ( مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا )<sup>(٦)</sup> . رواه البخارى خلفا : أى عوضا وزيادة ، والممسك : البخيل المقتر ، تلفا : خرابا ودمارا  
وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال قال رسول الله - ﷺ - : ( كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت )<sup>(٧)</sup> رواه أبو داود والنسائى .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩١ ، ٦٩٢ كتاب ( الزكاة ) باب فضل النفقة على العيال والمملوك . رقم ٩٩٤/٣٨ . وانظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ . أبواب البر والصلة . باب ما جاء في النفقة على الأهل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث في صحيح البخارى ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الايمان باب ما جاء إن الأعمال بالنيات .

وانظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٥ رقم ١٠٠٢/٤٨

(٣) الحديث في المعجم الكبير للطبرانى ج ١ ص ٧٩ رقم ١٣٨٤ مع اختلاف في الألفاظ : ورجاله رجال الصحيح .  
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٦٤ مسند ( حديث رجل من بنى يربوع رضى الله عنه )

- انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ . باب في النفقة على الزوجة والعيال برقم ٧ وقال اسناد حسن .  
(٤) الحديث في المعجم الكبير للطبرانى ج ٩ ص ١٢٩ رقم ٢٨٢ . وقال في المجمع ورجاله رجال الصحيح . وهو في الثلاثة بإسناد واحد . وقال المنذرى في الترغيب ورجاله رجال الصحيح .

- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١١ . قال ورجاله رجال الصحيح .

(٥) الحديث في الترغيب والترهيب ج ٣ باب نفقة الرجل على أهله صدقة ص ١١٣ رقم ١٤

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ رقم ١٠١٠/٥٧

- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٤ . وقال . وهو حديث مرسل فإن الحسن وهو البصرى لم يذكر الصحابى الذى روى عنه ولعله رواه عن أنس رضى الله عنه بدليل الحديث الذى بعده .

(٧) الحديث في سنن أبي داود . كتاب الزكاة باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١

وعن الحسن - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ( إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته )<sup>(٥)</sup> رواه ابن حبان في صحيحه .  
 عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندي شيئا غير تمر واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال : ( من ابتلى من هذه البنات بشيء ، فأحسن إليهن كن له سترا من النار )<sup>(٦)</sup> رواه البخارى ومسلم والترمذى وفى لفظ له : من ابتلى بشيء من البنات فصبر عليهن كن له حجابا من النار ) ( فأحسن إليهن : بالإئناق والتأديب وتعليم الدين وتقوى الله .

وعن أنس - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : ( من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه )<sup>(٣)</sup> رواه مسلم .  
 ( وعال : ربى وعاهد ، والمعنى تقرب منزلته فى الجنة بجوار منزلة رسول الله ﷺ ) .  
 وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :  
 ( مامن مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة )<sup>(٤)</sup> رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال  
 ( مامن مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبين أو يمتن إلا كن له حجابا من النار ، فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان )<sup>(٥)</sup> .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ  
 ( من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة ، قيل : يا رسول الله فإن كانتا اثنتين ؟ قال : وإن كانتا اثنتين قال : فرأى بعض القوم أنه لو قال . واحدة لقال : واحدة )<sup>(٦)</sup>  
 رواه أحمد بإسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾  
 يقول تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أى خلق

( ١ ) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ١٢ كتاب السير باب ذكر الأخبار بسؤال الله عز وجل من استرعى رعية رقم ٤٤٧٥ - وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٥

( ٢ ) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ كتاب البر والصلة باب فضل الإنسان إلى البنات رقم ٢٦٢٩ / ١٤٧ - انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ كتاب البر والصلة رقم ١٩٨٠ . وقال هذا حديث حسن صحيح .

( ٣ ) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ٢٦٣١ / ١٤٩  
 ( ٤ ) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١٠ كتاب الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم ٣٦٧٠ . بلفظ مامن رجل .

( ٥ ) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٨ ص ٥٦ رقم ١٠٢ . وقال محققه وفيه النحاس بن فهم وهو ضعيف . قلت ورواه أحمد ولم ينسبه إليه .

( ٦ ) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٠٣ .

السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وشقوق أجرامها ، وزهارة كواكبها ، ونجومها الثابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها ومافىها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار .  
 وقوله تعالى : ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء اكراد ، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله - تعالى - من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم ، وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشئ من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا . يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

أى يعون . قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلي حدثنا محمد بن عبد الله بن علان حدثنا ثور بن يزيد عن خالد بن معدان سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ . فقال « قل اللهم غارت النجوم، وهذأت العيون، وأنت حى قيوم ، يا حى يا قيوم أتم عيني - واهدئ ليلي » (١) فقلتها فذهب عني .

قوله تعالى :

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾  
 ومن آيات الله تعالى فى كونه البرق . وهو تلك الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . فيكون فى رؤيته الخوف مما قد يكون وراء ذلك من الصواعق المهلكة المدمرة .

قال تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ (٢) وقد يكون فى رؤية البرق الرجاء والطمع فيما يكون وراءه من المطر الذى يحيى الله به

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٤٨١٧  
 وقال محققه قال فى المجمع ١٠ / ١٢٨ وفيه عمرو بن الحصين العقيلي وهو متروك .  
 (٢) سورة الرعد جزء من الآية ١٣

الأرض بعد موتها . إن في ذلك ، الذى سبق ، لآيات لقوم يعقلون ويتدبرون ويعلمون أن هذه الآيات لا يمكن أن تكون ناشئة عن الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء إنما هذه الآيات تصيح بلسان الحال والمقال قائلة : أنا مخلوقة للواحد الديان .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا اجتهد فى اليمين أقسم قائلا والذى تقوم السماء والأرض بأمره . ونحو الآية قوله تعالى

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ (١) .

وقوله جل شأنه ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ (٢)

وهذا منتهى الإتيان ولا عجب فإنه صنع الله الذى أنقذ كل شيء . وستظل الحال هكذا ، فالسموات قائمة بأمره ، والأرض قائمة بأمره إلى أن يأذن ربك بقيام الساعة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٣) . وقرأ قوله جل شأنه :

﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (٤)

قوله تعالى : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

والمراد بالخروج هنا هو البعث والدعوة هى ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ (٥) وقوله جل شأنه : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ (٦) وقوله تبارك اسمه . ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٧) فبجان من أقام الأدلة فى الأنفس والآفاق ليقطع المعاذير على كل ختار كفور وأفاك أثيم .

قوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ورد فى الحديث الشريف عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا ( كل حرف فى القرآن يذكر فيه

القنوت فهو الطاعة ) (٨)

(٥) سورة النازعات آية ١٣ ، ١٤

(٦) سورة يس آية ٥٣

(٧) سورة القمر آية ٥٠

(٨) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد

(١) سورة فاطر آية ٤١

(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة الحج

(٣) سورة الإنفطار الآيات ١ - ٥

(٤) سورة المرسلات الآيات ٨ - ١٥



فالكل عبيده ، والسموات والأرض ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع وإرادته وله أسلم من فى السموات والأرض وإليه يرجعون . ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (١) قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ للمفسرين أقوال فى هذا النص الكريم .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هيئة ، وكذا قال عكرمة وغيره. وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له

ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقلوه لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياى فقلوه اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ) (٢) وقوله ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كقلوه تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء ﴾ وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره .

تأمل فى الوجود بعين فكر	ترى الدنيا الدنية كالحىال
فكل الكائنات غدا ستفنى	ويبقى وجه ربك ذو الجلال

فسبحان من دلت آياته على عظيم قدرته، وبرهنت آياته على دليل قدرته .

إذا سكن الغدير على صفاء	رجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا امتراء	كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى	يرى فى صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذى لا يغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شىء وقهر كل شىء بقدرته وسلطانه الحكيم فى أقواله وأفعاله شرعا وقدرًا . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر فى قوله تعالى ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال لا إله إلا الله .

مثل فى التوحيد

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٩ تفسير سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ باب ٤٩٧٤

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

### معاني المفردات

مثلا : صفة غريبة تشبه المثل في الغرابة .

نفضل : نوضح ونبين بعد ما ظهرت الآيات الناطقة بالوحدانية والقدرة في الإنسان وأطواره . وهذا الكون العجيب وأحواله وثبت بهذا أنه له المثل الأعلى والصفات العلى التى منها الوحدانية وغيرها ، ضرب مثلا لهؤلاء المشركين كشف به سترهم وقوض به حجتهم وكان المثل فى أقرب شيء لهم وهى نفوسهم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾

قال الإمام بن القيم فى تفسير هذه الآية .

هذا دليل قياسى . احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبده وملكه شركاء ،

فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لا يحتاجون فيها إلى غيرهم .

ومن أبلغ الحجاج . أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو فى نفسه مقرر عندها ، معلوم

لها . فقال ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء فى المال والأهل ؟ أى هل

يشارككم عبيدكم فى أموالكم وأهلكم فأنتم وهم فى ذلك سواء ؟ تخافون أن يقاسموكم أموالكم

ويشاطروكم إياها ويستكثرون ببعضها عليكم ، كم يخاف الشريك شريكه ؟ !

وقال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم ، يرث بعضهم بعضا .

والمعنى : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه فى ماله وأهله حتى يساويه فى التصرف فى

ذلك ؟ فهو يخاف أن ينفرد فى ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار ، فإذا لم

ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بى من خلقى من هو مملوك لى ؟ فإن كان هذا الحكم باطلا فى فطركم

وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم ممكن فى حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم

إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عباد لى ، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم فى حقى ؟

مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى وملكى وخلقى ؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول .

قوله تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من

ناصرين ﴾

لكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا

الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشـد ولكن أنى لهم ذلك ؟  
﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره لسوء استعدادة وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟  
﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

### الإسلام دين الفطرة

فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ \* مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

### معانى المفردات

( حنيفا ) : مائلا عن جميع الأديان المحرفة ( فطرة الله ) : خلقه الله ( القيم ) : المستقيم على الطريق الحق ، ( منيبين إليه ) : مقبلين عليه . ( شيعة ) : جمع شيعة وهى الحزب والجماعة المتشيعه لإمامها ( حزب ) : الحزب الجماعة المتحزبة المتجمعة حول رأى خاص .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا غلص لهم مما هم فيه ، ولا ينقذهم من ذلك لاهو ولا غيره فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمته ولا يسره ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله بتسديد وجهه إلى دين الله الحنيف المائل عن كل انحراف ، والخطاب كذلك موجه إلى كل عاقل رشيد رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ذلك لأن التوحيد هو فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل

لخلق الله، ذلك لأن الله تعالى خلق جميع عباده على تلك الفطرة دون تبديل أو تغيير . جاء في الحديث : « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين عن دينهم »<sup>(١)</sup> وقد يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أى لا تبدلوا خلق الله بتغيير فطرة التوحيد ، فيكون خبرا يفيد النهى والإنشاء كما في قوله : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾<sup>(٢)</sup> أى آمنوا من دخله . ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى المستقيم الذى لا انحراف ولا اعوجاج فيه ﴿ قل إني هادي ربي إلى صراط مستقيم ديننا قيبا ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾<sup>(٣)</sup> إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين وقد لقننا الله تعالى تلك الدعوة في سورة الفاتحة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ كما أمر باتباع هذا الصراط فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾<sup>(٤)</sup> . قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لأنهم اتبعوا الهوى ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأصروا واستكبروا استكبارا عن الحق ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾<sup>(٥)</sup> والناس أعداء ما جهلوا وإذا كانوا لا يعلمون فإنهم جاهلون وعلى أعينهم غشاوة . قال تعالى :

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾<sup>(٦)</sup>

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »<sup>(٧)</sup> . ثم يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسن عن الأسود بن سريع قال :

أتيت رسول الله - ﷺ - وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟ »

(١) هذا الحديث جزء من حديث (الأن إن ربي أمرني أعلمكم ما جهلتم ...)

صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣ /

٢٨٦٥

(٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦١ - ١٦٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٥) سورة فصلت الآيات ٥ ، ٦

(٦) سورة الكهف الآيات ١٠٠ ، ١٠١

(٧) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ مسند أبى هريرة .

فقال رجل : يارسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها<sup>(١)</sup>

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال : فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي<sup>(٢)</sup> وروى الإمام أحمد بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل ما نحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فآضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك ، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت رب إذا يثلغ رأسى فیدعه خبزة قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك ، وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من

عصاك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف متعفف ذو عيال وقال - وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا ، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . الإنابة : هى الرجوع إلى الله تعالى . والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك لا تدرى	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا	وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها	وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم	وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة	وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستقيمة كاملة بأركانها وشروطها وسنتها ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ أى اثبتوا على التوحيد فلاهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٥ مسند الأسود بن سريع

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢١٥ مسند ابن عباس

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٦٦ مسند عياض بن حماد وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ ، ٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الطافات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٢٨٦٥ / ٦٣ .

روى ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبي سريم قال : مر عمر - رضى الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال عمر . ما أقوام هذه الأمة قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهى الفطرة . . فطرة الله التى فطر الناس عليها . والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر صدقت .  
قوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى لا تكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم . أى تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ﴾ الآية (١) فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال : « من كان على من أنا عليه اليوم وأصحابى » .

### بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ فَغَاتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ رَبِّ لَيْرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا ءَاتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ﴿٤٢﴾

## معانى المفردات

(ضر) : المراد شدة وبلاء : (سلطانا) : حجة قوية تتسلط عليهم (يقنطون) : القنوط اليأس من رحمة الله . (يسط) : يوسع (يقدر) : يضيق ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ : المراد ما فعلتم من ربا وجئتم به . (المضعفون) : مأخوذ من أضعف إذا صار ذا ضعف بأن يضاعف له ثواب ما أعطاه كأقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار :

## المناسبة وإجمال المعنى

لما أرشد سبحانه إلى التوحيد ، وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسياء لا ينكرونها ، وهى أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شنشتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على ما اجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ؛ وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقثارها بيده وحده ، وقد جعل ذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى ما يريد ، وليس علينا إلا أن نطمئن نفوسنا إلى ما يكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ، ونعمل ، ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

وبعد أن بين سبحانه أنه ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر - أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل فإنه إذا بسط الرزق لمن ينقصه الإنفاق ، وإذا قدر لم يزد الإمساك .

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها \* على الناس طرا إنها تتقلب  
فلا الجود يغنيها إذا هى أقبلت \* ولا البخل يقيها إذا هى تذهب

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن حال فريق من الناس فى الضراء والسراء إن أصابهم ضر من فقر أو مرض أو شدة توجهوا إلى الله بالدعاء طالبين كشف الضر ، فإذا ما أذاقهم الله منه رحمة فكشف ما بهم من ضر وأسبغ عليهم نعمة أشركوا به غيره وأسندوا الفضل إلى من لا يملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا

أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره كذا ذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴿١﴾  
 ماعاقبة هؤلاء الضالين . قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى  
 ستكون عاقبتهم الكفر بما آتاهم الله من نعم وأسبغ عليهم من آلاء فتمتعوا فسوف تعلمون . هذا تهديد  
 ووعيد منه تعالى هؤلاء كما فى قوله جل شأنه ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف  
 يعلمون ﴾ (٢) . قال بعضهم والله لو تواعدنى حارس درب لحقت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول  
 للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة  
 ولا برهان .

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا  
 استفهام إنكار أى لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها .  
 وإن نصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من  
 عصمه الله ووقفه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ ذهب السيئات عني إنه لفرح  
 فخور ﴾ (١) أى يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك  
 خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ (٢) أى صبروا فى الضراء  
 وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له  
 إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » (٣) . وقال تعالى : ﴿ أو لم  
 يروا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على  
 قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قوله تعالى : ﴿ فات ذا القربى حقه  
 والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ هذا أمر منه - سبحانه  
 وتعالى - بإيتاء ذى القربى حقه من البر والصلة والإحسان كذلك إعطاء المسكين الذى لا يملك شيئا أو  
 يملك مالا يكفيه ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر الذى يحتاج إلى ما يعينه من النفقة فذلك كله خير  
 للذين يقصدون ما عند الله ويؤدون العمل خالصا لوجهه تبارك وتعالى ، وهؤلاء هم الذين حكم الله لهم  
 بالفلاح فى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة  
 تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى  
 لهم فهذا لاثواب له عند الله ، بهذا فسر ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب  
 والشعمى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله

(١) سورة يونس آية ١٠

(٢) سورة الحجر آية ٣

(٣) سورة هود جزء من آية ١٠

(٤) سورة هود جزء من الآية ١١

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرفائق باب المؤمن أمره كله خير رقم ٢٩٩٩/٦٤



الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾<sup>(١)</sup>  
 أى لا تعط العطاء تريد أكثر منه ؛ فمن كان يريد ثواب الله فليدفع من ماله الزكاة فإنها ثناء  
 وطهارة وبركة ويريد بها وجه الله تعالى دون رياء أو سمعة . إن الذين يفعلون هذا هم المضعفون الذين  
 يضاعف لهم الثواب يوم القيامة ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل  
 فى كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل  
 الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾<sup>(٣)</sup>  
 وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم لرفقاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل حبة من بربوة  
 أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾<sup>(٤)</sup>  
 وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾<sup>(٥)</sup>

وفى الصحيح : « ماتصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربها  
 لصاحبها كما يرى أحدكم فلوله أو فصيلة حتى تصير التمرة أعظم من أحد »<sup>(٦)</sup>  
 وروى عن أبى برزة الأسلمى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن العبد  
 ليتصدق بالكسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أحد )<sup>(٧)</sup> . رواه الطبرانى فى الكبير .  
 - معنى الكسرة : القطعة من الخبز .

وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله عز وجل  
 ليدخل باللقمة الخبز ، وقبضة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة : رب  
 البيت الأمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله  
 الذى لم ينس خدمنا )<sup>(٨)</sup> . رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط .  
 - معنى ( القبضة ) بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو ما يتناوله الأخذ  
 برعوس أنامله الثلاث .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :  
 ( ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز  
 وجل )<sup>(٩)</sup> رواه مسلم والترمذى ، ورواه مالك مرسلا .  
 وروى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ( يا أيها

(١) سورة المدثر آية : ٦

(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٢

(٤) سورة البقرة آية : ٢٦٥

(٥) جزء من الآية ٣٩ من سورة سبأ

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب رقم ١٠١٤/٦٣

(٧) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٦٨ ، مسند أبى هريرة .

وانظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٣٣٣

(٨) الحديث فى كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٥ كتاب الأطعمة . وقال هذا حديث صحيح على

شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠١ كتاب البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع رقم ٢٥٨٨/٦٩

الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ويادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة في السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا<sup>(١)</sup> . رواه ابن ماجة .

- معنى : ﴿ كثر ذكركم له ﴾ أى داوموا على ذكر الله وحمده وتسييحه واستغفاره والصلاة على حبيبہ ﷺ .

- ومعنى ﴿ تجبروا ﴾ تجب دعواتكم وتغتنوا .

### من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال

قوله تعالى : **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مَن شَيْءٌ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿٤٠﴾ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيَ النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴿٤١﴾ **قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّشْرِكِينَ** ﴿٤٢﴾ **فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ** ﴿٤٣﴾ **مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ** ﴿٤٤﴾ **لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ** ﴿٤٥﴾

### معاني المفردات

(الفساد) : الجذب ، وأخذ المال ظلماً ، والمفسدة ، ضد المصلحة .

(يرجعون) : يثوبون إلى رشدهم ويؤمنون بربهم . (لامرد له) : لا راد له ولا مانع منه .

(يصدعون) : يتفرقون (يمهلون) : يوطنون لأنفسهم فراشاً ومسكناً وقراراً .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما

(١) الحديث في سنن ابن ماجة ج ١ ص ٣٤٣ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب في فرض الجمعة رقم ١٠٨١

يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ﴾<sup>(١)</sup> - أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمان الله ، واجترحوا المعاصي ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثرت الحروب ، وافتن الناس في أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين . ويعد أن ينهى الكافر عن بقاءه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ما هم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهادا يستريح عليه بما قدم من صالح العمل . وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه مالا يخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسابان والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه ييغضه ويمقتة جزاء مادى به نفسه من سىء العمل .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتهم ثم يحييهم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ الخالق الرازق هو الله وحده ، والمحيى المميت هو الله وحده . الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(٢)</sup> .

يقول جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> . وهكذا جمعت الآيتان بين الخلق والرزق .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى

(٤) سورة النساء آية ١

(٥) سورة الأعلى آية ١ ، ٢

(٦) سورة الأعراف آية ١٨٩

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢

(٢) سورة الانعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٣) سورة البقرة آية ٢١ ، ٢٢

خلقت فسواك فعدلك . في أى صورة ماشاء ركبك . ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . ثم قرن الرزق بالخلق لأن الرزق قضية طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها أعماق القلوب . ومن ثم فقد أكدها القرآن إلى أبعد مدى من التوكيدات . قال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ وقال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وقال جل شأنه : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ وقال : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ فاعلم يا ابن آدم أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله فلوركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع في فمه .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل      الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل  
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا      لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم أنه ما قدر على ماضيك أن تمضغه فلا بد أن تمضغه فامضغه بعزة .  
لا تخضعن لمخلوق على طمع      فإن ذلك نقص منك في الدين  
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة      إلا بإذن الذى سواك من طين  
فلا تصاحب غنيا تستعز به      وكن عفيفا وعظم حرمة الدين  
واستغن بالله عن دنيا الملوك      كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين  
واسترزق الله مما في خزائنه      فإن رزقك بين الكاف والنون

ومن هنا فإن الله تعالى ذكر الخلق والرزق بصيغة الماضي ليفيد معنى الثبوت والاستقرار، ثم ذكر الموت والحياة بصيغة المضارع ليفيد أنها سيأتيان فيما بعد لاحالة فقال : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ثم قال : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ ثم أجاب سبحانه قائلا : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ واقرأ معى قوله جل جلاله : ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ سبحانه اللهم خلقتنا فأنت على كل شيء قدير ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، ونميتنا لأنك أنت الجبار ذو القوة المتين ،

(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ١٥١

(٦) سورة الإسراء آية ٣١

(٧) سورة العنكبوت آية ٦٠

(٨) سورة النمل آية ٦٤

(١) سورة الانقطار الآيات ٦ ، ٧ ، ٨

(٢) سورة الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣

(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨

(٤) سورة هود آية ٦

وتحيينا فانت أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين .  
 قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس لىذيقهم بعض الذى عملوا  
 لعلهم يرجعون ﴾ لأئمة التفسير فى هذه الآية أقوال نبينها فى مايلى : قال ابن عباس وعكرمة والضحاك  
 والسدى وغيرهم : المراد بالبر ههنا الفياق وبالبحر الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة :  
 البحر الأمصار ، والقرى ماكان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو  
 البحر المعروف ، وقال زيد بن رفيع ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن  
 البحر يعنى دوابه ، رواه ابن أبى حاتم . وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرئ عن سفيان  
 عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ قال فساد البر قتل ابن آدم ،  
 وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر مافيه من المدائن والقرى ، وبالبحر  
 جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثر ، ويؤيده ماقاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول  
 الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾ أى بأن النقص فى  
 الزروع والثمار بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء  
 بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : ( لَحْدٌ يَقَامُ فى الأرض أحب إلى أهلها من أن  
 يُمْطَرُوا أربعين صباحاً )<sup>(١)</sup> والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم  
 عن تعاطى المحرمات ، وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا  
 إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل  
 الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى  
 زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فياكل من الرمانة الفثمم من الناس  
 ويستظلون بحققها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا بركة تنفيذ شريعة محمد - ﷺ -  
 فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ، ولهذا ثبت فى الصحيحين ( أن الفاجر إذا مات يستريح منه  
 العباد والبلاد والشجر والدواب )<sup>(٢)</sup> . وقال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبى نختم قال : وجد رجل  
 فى زمان زياد أو ابن زياد حبرة فيها حب يعنى من بر أمثال النبى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان  
 يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك ، وفيه نظر وقوله  
 تعالى : ﴿ لىذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ الآية . أى يتلهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا  
 منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

(١) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ١٦٢ كتاب قتال أهل البنى باب فضل الإمام العادل .

- الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٦٢ مسند أبى هريرة

- انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٨٤٨ كتاب الحدود باب إقامة الحدود رقم ٢٥٣٧ ، ٢٥٣٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ماجاء فى مستريح ومستراح منه ج ٢ ص ٦٥٦ رقم ٩٥٠ / ٦١

أى عن المعاصى . كما قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات . لعلمهم يرجعون ﴾ (١)  
قال ابن زيد المراد بالفساد الذنوب .

قال الإمام ابن القيم : قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها .

فيكون اللام فى قوله ﴿ وليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول : فالمراد بالفساد : النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا دائما ، أذاقنا الله الشيء اليسير من أعمالنا ، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾

أى الذين من قبلكم . ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أى فانظروا ما حل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) ثم يقول سبحانه : ﴿ فكلأ أخذنا بذنبة فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٣)  
قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات ، ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ أى يوم القيامة إذا أراد كونه ، فلا راد له ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أى يتفرقون . ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى :  
﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى مايشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم الذى لايجور .

### من آياته فى الرياح والمطر

قوله تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ

(١) جزء من الآية ١٦٨ سورة الأعراف

(٢) سورة الانعام آية ١١

(٣) سورة العنكبوت آية ٤٠

وَلِتَجْرِىَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رَسُولًا  
إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ  
﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى  
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِنْ  
كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لُمَبْلِسِينَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ إِلَى آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ  
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا  
فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٢﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ  
إِذَا أُولُوا مَذِيرِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ  
مُسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾

### معانى المفردات

(مبشرات) : تبشر بالخير (أجرموا) : فعلوا جرماً وارتكبوا إثماً . (فتشير) : تهيجه وتحركه  
(فيسطه) : المراد ينشره متصلاً ببعضه ببعض . (كسفا) : جمع كسفة وهى القطعة من الشيء  
(لمبلسين) : يقال أبلس الرجل فهو مبلس سكت فلم ينطق وقيل أيس . (مصفرا) : أى رأوا الزرع  
مصفرا لجفافه (الرياح) : جمع ريح قال أبو عمر : كل ماكان بمعنى الرحمة فهو جمع . وماكان بمعنى  
العذاب فهو مفرد ، وعليه قول النبى - ﷺ - : ( اللهم اجعلها ريحا ولا تجعلها ريحا ) (١) : ( فترى  
الودق ) الودق هو المطر .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب الشرك والمعاصى ، نبههم إلى دلائل وحدانيته  
بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأقطار ، فتحيا بها الأرض بعد موتها . وجرى الفلك حاملة لما  
هم فى حاجة إليه ، مما فيه غذاؤهم ، وعليه مدار حياتهم .

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٧٥ حديث رقم ١٨٠٣٣ . وقال محققه . رواه الطبرانى وفيه حسن بن قيس - وهو متروك  
وبقية رجاله رجال الصحيح ؛

ولما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور ، ولم يرعو بها المشركون ، بل لجوا في طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله - ﷺ - فذكر له أنك لست أول من كذب ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبثس بما كانوا يعملون ، ولنجرين عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقم منهم ، ولننصرنك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

وبعد أن سلى رسوله - ﷺ - على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع في الرسل ، فكأن من رسول قبله قد كذب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة في الأفاق ، مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى في الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لائح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفينة بعد الفينة ، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لم اذكر ؟

وبعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده . ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة .

ووعده وأوعده بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ثم مازادهم دعاء الرسول إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصرارا وعنادا - أردف هذا تسليته على ما يراه من التماذى في الإعراض ، وكثرة العباد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأهم موق ، فأنى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فهو إذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ، ويتذلل لمواعظ كتابه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ﴾

أى ومن الأدلة على وحدانيته تعالى ، والحجج القائمة على أنه رب كل شيء أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا الأرض وينبت الثمر والزرع فتأكلون منه مالد ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار منتقلة من قطر إلى قطر ، فتأتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب والعكس بالعكس ، فلا تحتجين الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفا على قوم بأعيانهم . ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أى وليعبدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة وخيراته العظيمة التى لا تحصى كما قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين كما أرسلناك إلى قومك عابدى



الأوثان من دون الله فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله فكذبوهم كما كذبك قومك ، وردوا عليهم ماجاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ماجتتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام واكتسبوا السيئات من أقوامهم ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرى قومك وبمن آمن بك سنة الله التى شرعها لعباده ولن نجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لا يخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » <sup>(١)</sup> ثم تلا ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ولا يخفى مافى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه والوعيد والنكال والخسران فى المال ، لمن كذب به من قومه .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ .  
أى : الله الذى يرسل الرياح فتتشب سحابا فيثثره ويجمعه جهة السماء تارة سائرا وأخرى واقفا وحينما قطعها فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .  
﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾  
أى : وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبل ذلك أيضا إذا هم ترقبوه فى إبانة فتاخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتاخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط وبعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

﴿ فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ . أى : فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أنبت من الزرع والأشجار والثمار وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .  
وإذا قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربا إربا ومن ثم قال :

﴿ إن ذلك لمحى الموتى ﴾ . أى : أن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام حين البعث .

ثم أكد هذا بقوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ فلا يعجزه شىء فإحياءكم من قبوركم حين عليه ونحو الآية قوله ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) الحديث فى شرح السنة للبخارى ج ١٣ ص ١٠٦ حديث رقم ٣٥٢٨ وقال فيه ليث وشهر وحى ضعيفان .  
- الحديث فى سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٩ أبواب البر والصلة باب ماجاء فى الذب عن المسلم . رقم ١٩٩٦ .

(٢) سورة يس جزء من الأيتان ٧٨ ، ٧٩

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به وإن أصابهم السوء يشسوا وأبلسوا وانقطع رجاؤهم من الخير فقال :  
﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾

أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعه ونما واستوت على سوقه فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرتة - لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم . ولا يخفى مافى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذا كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ويلجأوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا يئأسوا من روح الله ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم وأتوا بما يؤذيهم .

### إفراد الريح وجمعها

بعد أن تحدث ابن القيم فى كتابه « بدائع الفوائد » عن أفراد السماء فى قوله - تعالى - ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ (١) من سورة يونس وجمعها فى قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ (٢) من سورة سبأ ، قال : ومن هذا الباب ذكر الرياح فى القرآن جمعا ومفردة ، فحيث كانت فى سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت فى سياق العذاب أتت مفردة ، وسر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهَاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم حدتها فينشأ من بينها ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها فى مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت فى الرحمة ريحا ، وأما فى العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ولا يكسر شدتها ، فتمثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف - سبحانه - الريح التى أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ (٣) وهى التى لا تلقح ، ولا خير فيها ، والتى تعقم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا فى قوله فى سورة يونس : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ﴾ (٤) فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الافراد ؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ،

(١) من الآية : ٣١ من سورة يونس

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة سبأ

(٣) من الآية : ٤١ من سورة الذاريات .

(٤) من الآية ٢٢ من سورة يونس .

فالملطوب هناك ربح واحدة لا ربح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ربحا عاصفة ، بل هى مما يفرح بها لطبيها ، فليتزهر الفطن بصيرته فى هذه الرياض الموفقة المعجبة التى ترقص القلوب لها فرحا ويتغذى بها عن الطعام والشراب ، والحمد لله الفتاح العليم . فمثل هذا الفصل يعرض عليه بالنواجز وتثنى عليه الخناصر ، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنبها من كلام الله ، والله الموفق للصواب .

### منطق العلم

وللعلم كلمته الدالة على قدرة العلى الحكيم وعظمته ووحدانيته وما له من قوة فائقة فى صنع هذا الكون وظواهره : من سحب ومطر ورياح وجبال وكهربائية جوية ، ولنسلط الأضواء على تلك المخلوقات لنقف على مدى ما تشتمل عليه من صنع الله الذى أتقن كل شئ .

### السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولا بد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرها فى الهواء العلوى ، الأول : أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار . والثانى : أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريدا كافيا ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجوفى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدرج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ؛ لأنه يتمدد أثناء صعوده ، ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ، فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد فكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ، ويكثر فى العواصف الرعدية ، ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الرياح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت برياح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى ، وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى : كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين : دافئة وباردة ربح واحدة فوق المشبعة وقد كان

الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة في الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينها عند محتكها ويكون السحاب عندئذ متموجا لتموج الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح دخل عظيم في تكوين السحاب وتوزيعه لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التي تصطدم بأعاليها ؛ لأن أعالي الجبال الشاخنة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال ، هذا طريق . والطريق الثاني : طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالي تلك الجبال .

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفي وحده في تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما ، بخلاف ما إذا كان في الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع أو درجة ( الندى ) كما يسمونها . وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هي كل ما يتكاثف عليه بخار الماء في الهواء ، ولو كانت هي كل ما يمكن أن يصلح نوى لقطيرات الماء في الهواء فوق التشبع لعز تكون السحاب ، ولاقتصر على المناطق التي يكثر في أجوائها العليا هذا الغبار ، لكن الذي قدر الأشياء ، وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء ، جعل مما يتكاثف عليه البخار في أعالي الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هي الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات جمع الأويلب ، تصغير آلب ، من الفعل : ألبى ، بمعنى : ساق وجمع واجتمع وأسرع - كما في القاموس - .

وعوامل أولية أو تأيين الهواء ، أى : تكوين الأيونات أو الأويلبات فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار فيها غازات محملة بالنوعين الموجب والسالب ، ومنها الضوء ، فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أينته أو أوليته ، فيتكون في مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التي تخرج من العناصر الشعاعية الموجودة في القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر المعروفة بأشعة رنتجن . ومنها احتكاك الماء في البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض وبالساحل أو بالصخور ، فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك . والبخار الذي يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء بعضها أو كلها إلى الطبقات العليا الجوية ، وكل جزء من جزيئات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات - يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار .

فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود في الطبقات العليا الجوية ، سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشبع - ولو قليلا - التبريد .

## المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا غث قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء ، إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية ، فهي تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيها ، والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء .

وإن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

## الرياح والجبال والكهربائية الجوية

والرياح كما لها أبعد الأثر فى تكوين السحاب لها أبعد الأثر فى تكثيفها مطرا بفعل الجبال أو بفعل الكهربائية الجوية ، فأما الجبال فإنها مكثفات هائلة نصبها الله لتكثيف السحاب من الجو إذا حملته إليها الرياح ، لكن السحاب إذا لامس أعلى الجبال الباردة سواء أكان متكونا عليها أو محمولا إليها تكاثف على سطحها ماء بالتجمع والتبريد ، ومن هنا كانت الأنهار منابعها كلها من الجبال .

وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة التى من الله فيها بالجبال من هذه الناحية على الإنسان إذ يقول - سبحانه - : ﴿ أَلَمْ نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شاخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ (١)

وأظنك الآن تدرك بعض سر ترتيب سقى الناس الماء على شموخ الجبال ، وإذا تذكرت أن هذا الماء كله مصدره البحار المالحة أدركت سر وصف الماء هنا بالذات .

والكهربائية التى تتولد فى الهواء والتى ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات أو الأويلبات التى تحملها هذه فى الطبقات العليا الجوية ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب أو السالب والسالب يتدافعان أو يتنافران كما تشاء أن تقول ، هذا التدافع أو التنافر من شأنه . تفريق السحاب ذى النوع الواحد .

لكن الله - سبحانه - قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، وقد كانت قبل سحابتين أو أكثر ، وتكبر شحنتها الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قريبا كافيا فى اتجاه أفقى أو فى اتجاه رأسى ، أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولايزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لا يكون محيص من اختلاطهما واتخاذ كهربائيتها بهدوء ، أو من اتخاذ كهربائيتها من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هى البرق الذى كثيرا ما يرى فى

البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائي ، سواء حدث في هدوء أو بلا براق ، فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة في السحابتين فتجذب كل منهما قريبتها أو قريباتها حتى تتحد وتكون قطرة فيها ثقل فتتزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية وما تجتذب من قطيرات أثناء اختراقها السحاب المكهرب الذى يكون بعضه فوق بعض في السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائي في شدة البرق وعنفه فإنه يحدث لابين القطيرات ولكن بين الكتل من السحاب ويسهل حدوثه عند تخلخل الهواء ، أى : قلة ضغطه في تلك الطبقات .

والبرق يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شراسته قد تبلغ أميالا في طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد على بضعة أمتار ، فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة فهي تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة مخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها مادام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشععت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية - وما أسرع ما تبرد - خف منها الضغط وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه أو هديره ، هذا الصوت قد يكون صدى الرعد بين كتل السحاب يتردد ، فنسميه قعقة الرعد ، أو حدوث الشرارة الكهربائية البرقية ، فهو بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقعته ، لذلك نسمع الرعد ضعيفا في الأول ثم يزداد كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة المفردة بانطلاق بطاريات برمتها من المدافع الضخمة في الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية العظيمة الهاجمة في المنطقة المفرغة ، وهى إذا تمددت بردت برودة شديدة فيتكاثف ما فيها من البخار ومن كتل السحاب فينزل على الأرض إما مطرا وإما بزدا حسب مقدار البرودة الحادثة في تلك المناطق ، وهذا هو السبب في أن الرعد والبرق يعقبهما في الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التى حدث فيها التفريغ .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، ويطنت فخبرت ، وملكك فقدرت .

فواعجبا كيف يعصى الإله      أم كيف يجحده الجاحد  
وفى كل شيء له آية      تدل على أنه الواحد

قوله - تعالى - ﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَقْوَ وَلَا تَسْمَعُ الصَّغِيرَ الدَّاعِيَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُوْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (١)

قال العلامة ابن كثير :

يقول - تعالى - كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجدانها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدم على هداية العميان عن الحق وردداهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ - تعالى - بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء - إذا شاء - ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال - تعالى - ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ (١) وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قلب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعانيتها إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يا رسول الله ما يخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : ( والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون ) (٢) وتأولته عائشة - على أنه قال : ( إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ) وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته تقريبا وتوبيخا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا : ( ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ) (٣) وثبت عنه ﷺ لأمره إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه ، فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدم والجما ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : ( ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ) (٤) وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام . وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدري قال : رأيت عاصما الجحدري فى منامى بعد موته بستين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - فى روضة من رياض الجنة ؟ أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله

(١) الآية : ٣٦ من سورة الأنعام

(٢) رواه أحمد فى مسند عبد الله بن عمر ح ٢ ص ١٣١ والرواية التى معنا هى رواية انس فى صحيح مسلم برقمى ٢٨٧٣/٧٦ ، ٢٨٧٤/٧٧ ح ٤ ص ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٣ وانظر مسند انس فى مسند الامام أحمد .

(٣) ابن كثير فى تفسيره ح ٦ ص ٣٣٠

(٤) الحديث فى التحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ح ١٠ ص ٣٦٥ وقال العراقى بـ رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور وفيه عبد الله بن سميان ولم أقف على حاله . ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ، وصححه عبد الحق الاشيل .

المزنى فتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات !! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته . قال : وحدثنا محمد ابن الحسين بسنده عن حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين ؟ قال : بلغنى أن المولى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال : حدثنا محمد ، حدثنا عبد العزيز ابن أبان قال : حدثنا سفيان الثوري قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خدّاش ، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبي التياح يقول : كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قد جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم : ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم .

حدثني محمد بن الحسن بسنده عن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبي جزعت عليه جزعاً شديداً ، فكنت أتى قبره في كل يوم ، ثم قعدت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيت يوماً فبينما أنا جالس عند القبر غلبتني عيناي فنمت ، فرأيت كأن قبر أبي قد انفرج وكأنه قاعد في قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته قال : يا بني ما أبطأ بك عني ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتيني فأسر بك ويسر من حولى بدعائك . قال : فكنت آتية بعد ذلك كثيراً .

حدثني محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام عن عثمان بن سويد الطفاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : يا ذخرى وذخيرى ، من عليه اعتمادى في حياى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت فكنت آتيتها في كل جمعة فأدعو لها واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم في منامى فقلت لها : يا أمى كيف أنت ؟ قالت : أى بنى : إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الرياحان وتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم . قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ؛ فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا أقبلت من أهلك ، يقال لى : ياراهبة هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثني محمد ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال :



أنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأنسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينما أنا نائم إذا بخلق قد جاءونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلِكَ ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه .  
قال عبد الله بن المبارك بسنده عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءا قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : حدثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظمى قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك . فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته .

قال ابن أبى الدنيا ، وحدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى خالد بن عمرو الأموى ، حدثنا صدقة ابن سليمان الجعفرى ، قال : كانت لى شرة ممجة فمات أبى فستبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيتها زلة ، فرأيت أبى فى المنام فقال : أى بنى : ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديدا ، فلا تحزننى فيمن حولى من الأموات . قال : فكنت اسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكان جاراً لى بالكوفة : أسألك إياها لا رجعة فيها ولا حور ، يامصلح الصالحين ، وياهادى المضلين ، وياأرحم الراحمين .  
وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول :

اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

### الآيات التى فى الإنسان وختام السورة

\* اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ

سَاعَةً كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٩﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦١﴾

### معاني المفردات

- (ضعف) الضعف : ما قابل القوة . (شبهة) أى : شيا ، وهو بياض الشعر الأسود ، (الساعة) : ) : مدة من الزمن قليلة .  
 (يؤفكون) : يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصلح والخير .  
 (ولا هم يستعتبون) أى : لا يطلب منهم الإعتاب ، وحقيقة أعتبه : أزلت عتبه ، فالإعتاب : إزالة العتب بفعل ما يرضى ،  
 يقال : استعتبته ، فأعتبني ، أى : استرضيته فأرضاني .  
 (مبطلون) أى : متبعون الباطل والسحر .  
 (ولا يستخفئك) يقال : استخف فلان فلانا ، أى : استجهله حتى حمله على اتباعه في الغي .

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها دلائل الأنفس ، فذكر خلق الأنفس ، في أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم . وبين أنه العليم بها في مختلف أحوالها ، التقدير على تغييرها واختلاف أشكالها ،  
 ويعد أن ذكر فيها سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة في شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ، أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ؛ ليكون في ذلك عبرة لمن يذكر .

ويعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشقى البراهين ، وبديع الأمثال - أردف ذلك أنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول ﷺ قد أدى واجبه ، وأن من طلب

شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح ، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الله - تعالى - لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، فإنه خلق الإنسان من ماء مهين ، فجعله فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، ثم خلقه إنسانا سويا ، ثم أمده بالقوة من بعد ضعف ، ثم عاد ضعيفا حال الشيخوخة والهرم ، ثم غزا الشيب رأسه ، أليس ذلك بقادر على أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة ؟ ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (١) واسمع إلى قوله - جل شأنه - ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث . فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنتبت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٢)

فسبحان الخالق المحيى المميت الباعث الوارث المعز المذل الرافع الخافض الباسط القابض الأول الآخر الظاهر الباطن يخلق ما يشاء بقدرته ، ويحكم ما يريد بحكمته ، وهو العليم الذى أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، القدير الذى لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، سبحانه يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ (٣) قوله - تعالى - : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ .

(١) الأيتان : ٦٧ ، ٦٨ من سورة غافر

(٢) الآيات : ٥ - ٧ من سورة الحج

(٣) الآيات : ٥ - ٨ من سورة الطارق

وهذا مشهد من مشاهد القيامة ، وما أكثر مشاهدنا !!

﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تغلظ نفس شيئا ولا تحجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ (١) إن المجرمين كما كذبوا على الله في الدنيا وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، كذلك يقسمون في الآخرة كذبا وبهتاناً قائلين : ما لبثنا غير ساعة . أى : ما لبثنا في الدنيا إلى هذا اليوم غير ساعة ، أى : ما لبثنا إلا زمنا يسيرا . قال - تعالى - ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ (٢)

وقال - جل شأنه - : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال : اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري . وكنتم منهم تضحكون . إلى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ (٣) نعم قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئا . إن هؤلاء ضيعوا أعمارهم في شهوات البطن والفرج ، وغرثهم أموالهم وأولادهم حتى ماتوا وفوجئوا بالبعث ، فأقسموا مالبثوا غير ساعة

قال - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (٤) لقد جهلوا حق الله في الدنيا وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ، وبمثل هذا الجهل كانوا يؤفكون ويصرفون عن الحق ، أما المؤمنون من أولى العليم بالعقيدة والإيمان ، والذين قال الله فيهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ (٥) فإنهم يردون عليهم قائلين : لقد لبثتم فيما كتبه الله لكم من الأعمار في الدنيا ، وبعد البرزخ إلى يوم البعث ، أتدرون ما يوم البعث الذي أنكرتموه وجحدتموه وقتلتم وأقسمتم بالله جهد أيمانكم لا يبعث الله من يموت ؟ هذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فقد

(١) الآيات : ٥١ - ٥٤ من سورة يس

(٢) الآية : ٦٠ من سورة الزمر .

(٣) الآيات : ١٠١ : ١١٦ من سورة المؤمنون

(٤) الآيتين : ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .

من الآية : ١٨ من سورة آل عمران .

يعلمون . قال - تعالى - : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال - سبحانه - : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استجبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

أما أنت يا صاحب الرسالة العصماء ، يامبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، فاصبر إن وعد الله حق ، كما قال - تعالى - : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ <sup>(٦)</sup> وكما قال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ <sup>(٧)</sup> وكما قال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ <sup>(٨)</sup> .

﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ أى : لا يحملنك أفعال هؤلاء الذين خلت قلوبهم من اليقين والإيمان على الجزع والقلق ، فإن الله معك يرباك بعنائه ورعايته ، فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

### سورة لقمان

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية ، سوى آيتين : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام .. ﴾ إلى آخر الآيتين . عدد آياتها ثلاث وثلاثون عند الحجازيين ، وأربع وثلاثون عند الباقيين . وكلماتها خمسمائة وثمان وأربعون . وحروفها ألفان ومائة وعشر ..

معظم مقصود السورة :

بشارة المؤمنين بنزول القرآن ، والأمر بإقامة الصلاة ، وأداء الزكاة ، والشكاية من قوم اشتغلوا بلهو الحديث ، والشكاية من المشركين فى الإعراض عن الحق ، وإقامة الحجّة عليهم ، والمنة على لقمان

(٥) الآيات : ١٠٦ - ١٠٨ من سورة النحل

(٦) الآية : ١٠٩ من سورة يونس

(٧) الآيات : ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود

(٨) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

(١) الآية : ١٧ من سورة فصلت

(٢) الأيتان : ٦ ، ٧ من سورة البقرة

(٣) من الآية : ٥ من سورة الصف

(٤) من الآية : ١٥٥ من سورة النساء

حجبكم عن العلم عنادكم وجحودكم ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بداهم ما كانوا يخفون من قبل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ <sup>(١)</sup> ففى هذا اليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم . قال - تعالى - ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله يخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا إن طلبوا ذلك ، أو لا يعاتبون وإنما يعاقبون أو . وإن يطلبوا الرضا فلن ينالوه ؛ فما هم من أهل الرضا . ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله - تعالى - ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

يذكر - سبحانه وتعالى - أنه وضع لعباده وبين لهم كل ما يلزمهم فى معاشهم ومعادهم ، ومن أساليب الإيضاح والتبيين أنه ضرب لهم فى القرآن من كل مثل سواء فى أصول العقيدة ، أو شعائر العبادات ، أو شرائع السلوك ، أو مناهج الأخلاق ، أو مبادئ الأحكام ، أو قواعد النظام . قال - تعالى - : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ <sup>(٦)</sup> ومع هذا الإيضاح وذلك البيان فإنك لو جئتهم بآية كما اقترحوا عليك فسوف يقول الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون وكاذبون ؛ لأنهم جبلوا على العناد والجحود ﴿ إن الذين حققت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ <sup>(٧)</sup> ومثل ذلك الجحود يؤدى إلى الطبع على قلوبهم والختم عليها حتى لا يتسرب إليها نور المعرفة ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا

(٥) من الآية : ٢٥ من سورة إبراهيم

(٦) من الآية ٣٥ من سورة النور .

(٧) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

(١) الآيات : ٢٧ - ٢٩ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات : ٤٤ - ٤٦ من سورة إبراهيم

(٣) الآيات : ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت

(٤) الآية : ٤٣ من سورة العنكبوت

بما أعطى من الحكمة ، والوصية ببر الوالدين ، ووصية لقمان لأولاده ، والمنة بإسباغ النعمة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وبيان أن كلمات القرآن بحور المعاني ، والحجة على حقية البعث ، والشكاية من المشركين بإقبالهم على الحق فى وقت المحنة ، وإعراضهم عنه فى وقت النعمة ، وتخويف الخلق بصعوبة القيامة وهولها ، وبيان أن خمسة علوم مما يختص به الرب الواحد - تعالى - فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ... ﴾ إلى آخرها .

### المتشابهات التى فى سورة لقمان :

قوله : ﴿ كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ وفى الجاثية : ﴿ كأن لم يسمعها فبشره ﴾<sup>(١)</sup> زاد فى هذه السورة : ﴿ وكان فى أذنيه وقرا ﴾ جل المفسرين على أن الآيتين نزلتا فى النضرين الحارث ، وذلك أنه ذهب إلى فارس ، فاشترى كتاب كليلة ودمنة ، وأخبار رستم واسفنديار ، وأحاديث الأكاسرة ، فجعل يرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول : إن عمدا يحدثكم بحديث عاد ، وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار ، ويستملحون حديثه ، ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله هذه الآيات ، وبالف فى ذمه ، لتركه استماع القرآن . فقال : ﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : صمما ، لا يقرع مسامعه صوت . ولم يبالغ فى الجاثية هذه المبالغة ؛ لما ذكره بعده : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾<sup>(٢)</sup> لأن ذلك العلم لا يحصل إلا بالسمع ، أو ما يقوم مقامه : من خط وغيره .

قوله ﴿ يجرى إلى أجل مسمى ﴾ وفى الزمر ﴿ لأجل ﴾ قد سبق شطر من هذا . ونزيد بيانا أن ( إلى ) متصل بآخر الكلام ، ودال على الانتهاء ، واللام متصلة بأول الكلام ، ودالة على الصلة .

### مناسبتها لما قبلها من وجوه :-

- (١) إنه - تعالى - قال فى السورة السالفة : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .
- (٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : ولئن جتتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ وقال فى هذه : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا لى مستكبرا ﴾
- (٣) إنه قال فى السورة السابقة : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقال هنا : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ففى كليهما إفادة سهولة البعث .
- (٤) إنه ذكر هناك قوله : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ وقال هنا : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .
- (٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة وذلك يقتضى ترك المحاربة . وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

(١) من الآية ٨ من سورة الجاثية .

(٢) من الآية ٩ من سورة الجاثية .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ نِلَّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وهذا بدء سورة كريمة جاء على وفق ما هو معروف غالباً في السور المكية التي تبدأ بأحرف هجائية ، حيث تكلمت عن القرآن وآياته ، وهو افتتاح شبيه بافتتاح سورة البقرة .

### التفسير

﴿الم﴾ : بعض حروف الهجاء التي يقصد بها إعجاز هذا الكتاب الحكيم الذي تلك آياته ، والحكيم : اسم من أسمائه .  
قال صاحب البصائر :

اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله في أمر من الأمور . أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ؟ وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته ؟ وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ؟ وكذلك كثرة أسماء الله - تعالى - دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبي - ﷺ - دلت على علو رتبته ، وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه ، وفضيلته .

وقد ذكر الله - تعالى - للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد :

الأول : العظيم ( سبعا من المثنى والقرآن العظيم ) الحجر

الثاني : العزيز ( وإنه لكتاب عزيز ) فصلت

الثالث : العلى ﴿ لدينا لعل ﴾ الزخرف

الرابع : المجيد ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ البروج

الخامس : المهيمن ﴿ ومهيمننا عليه ﴾ المائدة

السادس : النور ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ الأعراف

السابع : الحق ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ يونس

الثامن : الحكيم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ يس

التاسع : الكريم ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ الواقعة

العاشر : المبين ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ الزخرف



- الحادى عشر : المنير ﴿ والكتاب المنير ﴾ آل عمران  
 الثانى عشر : الهدى ﴿ هدى للمتقين ﴾ البقرة  
 الثالث عشر : المبشر ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ الكهف  
 الرابع عشر : الشفاء ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾ يونس  
 الخامس عشر : الرحمة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ النمل  
 السادس عشر : الكتاب ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ الأنعام  
 السابع عشر : المبارك ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ الأنعام  
 الثامن عشر : القرآن ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ الرحمن  
 التاسع عشر : الفرقان ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾ الفرقان  
 العشرون : البرهان ﴿ برهان من ربكم ﴾ النساء  
 الحادى والعشرون : التبيان ﴿ وتبيننا لكل شىء ﴾ النحل  
 الثانى والعشرون : البيان ﴿ بيان للناس ﴾ آل عمران  
 الثالث والعشرون : التفصيل ﴿ وتفصيلا لكل شىء ﴾ الأنعام - الأعراف  
 الرابع والعشرون : المفصل ﴿ الكتاب مفصلا ﴾ الأنعام  
 الخامس والعشرون : الفصل ﴿ إنه لقول فصل ﴾ الطارق  
 السادس والعشرون : الصديق ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾ الزمر  
 السابع والعشرون : المصدق ﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ الأنعام  
 الثامن والعشرون : ذكرى ﴿ وذكرى لكل عبد مئيب ﴾ ق  
 التاسع والعشرون : الذكر ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ الأنبياء  
 الثلاثون : التذكرة ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ الإنسان  
 الحادى والثلاثون : الحكم ﴿ أنزلناه حكما عربيا ﴾ الرعد  
 الثانى والثلاثون : الحكمة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر  
 الثالث والثلاثون : محكمة ﴿ سورة محكمة ﴾ محمد  
 الرابع والثلاثون : الإنزال ﴿ وأنزلنا إليك ﴾ النساء  
 الخامس والثلاثون : التنزيل ﴿ وإنه لتنزيل ﴾ الشعراء  
 السادس والثلاثون : التصديق ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يونس  
 السابع والثلاثون : المنزل ﴿ منزل من ربك ﴾ الأنعام  
 الثامن والثلاثون : التبصرة ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ ق  
 التاسع والثلاثون : البصائر ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ الجاثية  
 الأربعون : الموعظة ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ البقرة  
 الحادى والأربعون : البينة ﴿ بينة من ربكم ﴾ الأنعام

الثاني والأربعون : البشير ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ البقرة وفاطر  
 الثالث والأربعون : الوحي ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ النجم  
 الرابع والأربعون : الرسالة ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ المائدة  
 الخامس والأربعون : النبا ﴿ قل هو نبي عظيم ﴾ ص  
 السادس والأربعون : القيم ﴿ قيا لينذر ﴾ الكهف  
 السابع والأربعون : قيمة ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ البينة  
 الثامن والأربعون : الروح ﴿ روحا من أمرنا ﴾ الشورى  
 التاسع والأربعون : الكلام ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ التوبة  
 الخمسون : الكلمات ﴿ ما نفذت كلمات الله ﴾ لقمان  
 الحادى والخمسون : الكلمة ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأنعام  
 الثانى والخمسون : الآيات ﴿ تلك آيات الله ﴾ البقرة  
 الثالث والخمسون : البينات ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ العنكبوت  
 الرابع والخمسون : الفضل ﴿ قل بفضل الله ﴾ يونس  
 الخامس والخمسون : القول ﴿ يستمعون القول ﴾ الزمر  
 السادس والخمسون : القيل ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ النساء  
 السابع والخمسون : الحديث ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ الأعراف  
 الثامن والخمسون : أحسن الحديث ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الزمر  
 التاسع والخمسون : العربى ﴿ قرآنا عربيا ﴾ يوسف  
 الستون : الحبل ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ آل عمران  
 الحادى والستون : الخير ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ النحل  
 الثانى والستون : البلاغ ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إبراهيم  
 الثالث والستون : البالغة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر  
 الرابع والستون : الحق ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ الحاقة  
 الخامس والستون : المتشابه والمثانى ﴿ كتابا متشابها ﴾ الزمر  
 السادس والستون : الغيب ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ البقرة  
 السابع والستون : الصراط المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الفاتحة  
 الثامن والستون : المبين ﴿ قرآن مبين ﴾ الحجر  
 التاسع والستون : الحجة ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ الأنعام  
 السبعون : العروة الوثقى ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ البقرة - لقمان  
 الحادى والسبعون : القصص ﴿ فاقصص القصص ﴾ الأعراف  
 الثانى والسبعون : المثل ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ إبراهيم - النحل

الثالث والسبعون : العجب ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ الجن  
الرابع والسبعون : الأثارة ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : ما يؤثر عن الأولين أى : يروى عنهم

الأحقاف

الخامس والسبعون : القسط ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ المائدة .  
السادس والسبعون : الإمام ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ الإسراء .  
السابع والسبعون : النجوم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ الواقعة .  
الثامن والسبعون : النعمة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ القلم  
التاسع والسبعون : الكوثر ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر  
الثمانون : الماء ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ المؤمنون  
الحادى والثمانون : التلو ﴿ يتلون حق تلاوته ﴾ البقرة  
الثانى والثمانون : المقروء ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ الإسراء  
الثالث والثمانون : العدل ﴿ كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ الأنعام  
الرابع والثمانون : البشرى ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ البقرة  
الخامس والثمانون : المسطور ﴿ وكتاب مسطور ﴾ الطور  
السادس والثمانون : الثقل ﴿ قولا ثقيل ﴾ الزمل  
السابع والثمانون : المرتل ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ الزمل  
الثامن والثمانون : التفسير ﴿ وأحسن تفسيراً ﴾ الفرقان  
التاسع والثمانون : المثبت ﴿ ما ثبت به فؤادك ﴾ هود  
ومنها : الصحف ، والمكرم ، والمرفوع ، والمطهر ( فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة )  
ومن أسماء القرآن الواردة فى الحديث النبوى : القرآن ، حبل الله المتين ، وشفافه النافع ، بحر  
لا تنقضى عجائبه ، والمرشد : من عمل به رشد ، العدل : من حكم به عدل .  
المعتصم الهادى : من اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم .  
العصمة : عصمة لمن تمسك به .  
قاصم الظهر : من بدله من جبار قصمه الله . مأدبة الله فى أرضه  
النجاة : ( ونجاة لمن اتبعه )  
النبا والخبر : ( فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم )  
الدافع : يدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة  
صاحب المؤمن : يقول القرآن للمؤمن يوم القيامة : أنا صاحبك  
كلام الرحمن : الحرس من الشيطان . الرجحان فى الميزان  
فهذا الكتاب الذى أبى الله أن يؤق بمثله ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيرا وذلك لأنه كتاب  
جاء من غيب الغيب ، بعالم من العلم ، وصل إلى القول ، ومن القول إلى القلم ، ومن القلم إلى

صفحة اللوح ، إلى حد الوحي ومن الوحي إلى سفارة الروح الأمين ، ومن سفارته إلى حضرة النبوة العظمى .

واتصل منها إلى أهل الولاية حتى اشعلوا سرج الهداية ، وظفروا منها بكاف الكفاية ، فلم يزل متعلقة بحروفها وكلماته الراحة فالرحمة والعزة والنعمة ، ففي حال الحياة للمؤمن رقيب ، وبعد الوفاة له رفيق ، وفي القبر له عدیل ، وفي القيامة له دليل ، وميزان طاعته به ثقیل . وفي عرضات الحشر له شفیع وكفیل ، وعلى الصراط له سائق ورسيل ، وفي الجنة أبداً الأبدین له أنیس وخلیل . جعله الله لنا شفیعا ، ومنزلنا بالعلم والعمل بما فيه رفيعا .

قوله - تعالى - ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ﴾ أى : هذا الكتاب الكريم هدى ورحمة ، فالهدى : هو الإرشاد إلى طريق النجاة والرحمة : ما يرحم الله به عباده فى البأساء والضراء وحين البأس ، فهذا الكتاب من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقیم ، والمحسنون هم الذين قال الله فيهم : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أى : هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهم على علم ويقين بأنه يراهم . والصلاة نموذج للعبادة البدنية والقلبية ، والزكاة نموذج للعبادة المالية ، والإيمان باليوم الآخر نموذج العقيدة الصحيحة ، فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحه العادات ، رياضة أبدان وطهارة أروان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، فانظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع .

وكيف سادت العلية بالزعم ، والزكاة فيها النماء والطهارة والبركة والإصلاح الإجتماعى ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (١) .

والإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمن لنظام المجتمع ، وهو محور الارتكاز لحسن السلوك فى الدنيا ، وهو حجر الزاوية لإصلاح أى أمة تؤمن باليوم الآخر ، قال - تعالى - ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ (٢) لذا جاء الحكم لهؤلاء صادقاً شافياً كافياً وأفيا ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ (وعلى) هنا تفيد التمكن والثبات ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وضمير الفصل هنا وتعريف الطرفين المسند والمُسند إليه كل هذا يفيد الحصر والقصر ، أى : أولئك هم المفلحون لا سواهم ، وهذا تشريف وتعظيم وتكريم من رافع الساء بلا عمد فطوي لكم أيها المحسنون المهتدون المفلحون . طوي لكم وحسن مآب .

(١) من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة

(٢) الآيات : ٤ - ٦ من سورة المطففين

## الكافرون بالقرآن والمؤمنون به

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِ لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٧٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاءٌ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٧٢﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٣﴾

## معانى المفردات

(لهو الحديث) اللهو : كل باطل ألهى عن الخير .  
(هزوا) أى : مهزوا بها .  
(وقرا) : ثقلا وصميا .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله ويتفجعون بسماعه ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاقى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ (١) أردف ذلك ذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .  
روى عن ابن عباس أن الآية نزلت في بن الحارث : اشترى قينة (مغنية) وكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها إليه فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشتري كتب الأعاجم فيرويهما ويحدث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستلمون حديثه ويتركون سماع القرآن .

## التفسير

قوله - تعالى - ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴿

لما ذكر - تعالى - حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتنفعون بسماعه ، كما قال - تعالى - ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ <sup>(١)</sup> عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع الزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله - تعالى - ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ قال : هو والله الغناء .

روى ابن جرير بسنده عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ فقال عبد الله بن مسعود : الغناء - والله الذي لا إله إلا هو - يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن علي بسنده عن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ﴾ قال : الغناء . وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلى بن بزيمة . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراءه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ يشتري هو الحديث ﴾ اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : ( لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله - عز وجل - على ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ <sup>(٢)</sup> )

وقال الضحاك في قوله - تعالى - : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ﴾ قال : يعني الشرك وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ، وعلى قراءة فتح الباء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قيسوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله - تعالى - ﴿ ويتخذها هزوا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزئ بها . وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر ، ثم قال - تعالى - ﴿ وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعهما كأن في أذنيه وقرا ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم ، كأنه ما سمعها : لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

(٢) الحديث في مسند الامام احمد (مسند أبي أمامة - رضى الله عنه) ج ٥ ص ٢٥٢ بدون قوله : « وأنزل الله على فيهن .. الخ »

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الشجارات) باب : ما لا يحل بيعه ج ٢ ص ٧٣٣ رقم ٣١٦٨

أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى : يوم القيامة يؤله كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .  
قوله - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدون فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويأتى نور الوعد بعد نيران الوعيد لتكون حال المؤمن بين الخوف والرجاء ، فالمؤمنون الصالحون لهم جنات النعيم ، لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) وما أجل قوله - تعالى - : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (٢)

وما أجل قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتقا ﴾ (٣) وما أعظم قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدون فيها لا ييغون عنها حولا ﴾ (٤) .

قوله - تعالى - ﴿ خالدون فيها وعد الله حقا ﴾ كقوله - تعالى - ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة يطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ومسكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٥) فأنت ترى هنا أن الإيمان قد اقترن بالعمل الصالح ، فبين المؤمنين ولاية نصره ومحبة ومودة ، ومن أعمالهم الصالحة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما قر فى القلب وصدقه العمل ، فالإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، والذى حكم لهم بالجنة والخلود فيها هو العزيز الغالب الذى لا راد لقضائه ، وهو الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، والذى تنزهت أفعاله عن العبث إذا قال صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا حكم عدل .

فالموت لا شك يضمننا ويضمنها	لا تتركنا إلى الدنيا وما فيها
والجار أحمد والرحمن ناشيها	واعمل لدار غدا رضوان خازنها
والزعران حشيش نابت فيها	قصورها ذهب والمسك طيبتها

(٤) الأيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف

(٥) الأيتان : ٧١ ، ٧٢ من سورة التوبة

(١) الأيتان : ٩ ، ١٠ من سورة يونس

(٢) الآية ٢٥ من سورة البقرة

(٣) الأيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .

## هذا خلق الله

خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا<sup>٤</sup> وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي<sup>٥</sup> أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ<sup>٦</sup> وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ<sup>٧</sup>  
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا  
خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾

## معاني المفردات

- (عمد) جمع عماد ، وهو ما يعمد به ، أى : يسند ، يقال : عمدت الحائط : إذا دعمته .  
والدعامة : ما يسند به الحائط إذا مال لتمنعه السقوط .  
(رواسي) : ثوابت  
(أن تميد بكم) : تضطرب  
(وبث) : نشر وفرق  
(زوج) : صنف .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ، أردف ذلك الاستشهاد لما سلف بخلق  
السموات والأرض وما بعده مع تقرير وحدانيته وإبطال أمر الشرك وتبكيته أهله .  
التفسير

من آيات قدرة الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وعظمته أنه رفع السموات بغير عمد ، والكل  
يشاهد ذلك ويراه ، كما ألقى الجبال على الأرض رواسي ثابتات شامخات حتى لا تميد وتهتز . ونشر في  
الأرض من كل دابة ، فهو مبدع الكائنات وخالق كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل ، وهو الذى أنزل  
من السماء ماء فأنبت في الأرض من كل نوع كريم وزوج بهيج ﴿١٠﴾ الله الذى رفع السموات بغير عمد  
ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات  
لعلكم بقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل  
فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات  
وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في  
الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿١١﴾ .



من الخالق لكل هذا ؟ الطبيعة الصماء ؟ أم الصدفة العمياء ، كلا، بل هو الله العزيز الحكيم .  
هذا خلق الله وحده لا شريك له ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل  
شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (١)

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك  
على قضب الزبرجد ، شاهدات بأن الله ليس له شريك

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ إنهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا  
ولا ضرا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو  
اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق  
قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٢)

فمن يقل إن هناك خالقا غير الله فهو من الظالمين ، والظالمون فى ضلال مبين .  
﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا  
بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى  
الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من  
الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه  
سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٣) فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحمة عرشك وجميع خلقك أنك  
أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبداً ونبيك ورسولك ، رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً  
وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

### كلمات ربى

من كتاب ( قصة الإيمان ) يقول الشيخ نديم الجسر مفصلاً هذا الحوار بين التلميذ واسمه  
( حيران ) والشيخ واسمه ( الموزون ) يقول ( الشيخ نديم الجسر )  
يقول حيران بن الأضعف خرجت من غرفة الشيخ بعد أن ناولته المصحف ، وأويت إلى فراشى  
فلم أجد إلى النوم سبيلاً ؛ لأنى ما تعودت أن أنام فى هذه الساعة ، ولم أجد إلى المطالعة سبيلاً ، لأن  
المصباح لا يزال عند الشيخ ، فأخذت أتناوم .  
وبعد لآى أغفيت إغفاءة خفيفة صحوته منها على صوت سعال الشيخ . فرأيت أنه لا يزال  
ساهراً . . ثم استغرقت فى النوم إلى أن صحوته على الخادم العجوز يقرع الباب، ولما نهضت من فراشى

(١) الأيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام

(٢) الأيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج .

(٣) الآيات : ٦٢ - ٦٧ من سورة الزمر .

لأفتح له وجدت المصباح في غرفة الشيخ لا يزال منيرا ، ولما أذن المؤذن لصلاة الصبح وخرج الشيخ إلى وضوئه سأله عن سهره ، فقال : إنني لم أنته من التلاوة إلا الساعة .

قلت : إن السهر يامولاي يضرنيك

قال : كل هذا من أجلك يا حيران .

قلت : من أجل أنا ؟

فتبسم ومر إلى وضوئه ، ثم صلينا الصبح ، وانفتل بعد الصلاة إلى غرفته وهو يقول : لن أخرج اليوم إلى الغياض .. إنني بحاجة إلى النوم .

وقضيت نهاري كله بين الغياض أراجع ما أملاه على الشيخ ليلة أمس ، وأعيد الجمع والحساب في ( أحجية الورقة المقطعة ) .. فوجدتها يقينية فأمّنت بأن عقولنا تكل أحيانا عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها ... وعرفت أنه لا يجوز لنا أن نجمد أمام هذا الكلال العقلي ، بل علينا أن نأخذ بالبرهان القاطع الذي قام لدينا ، ونؤمن بأن ذلك الكلال وهم ، والوهم لا يقاوم البرهان . فتذكرت ما قاله الغزالي في هذا الباب ، فراجعته ، وأدركت الآن معنى قوله : ( إنه لم يجد لنفسه علاجا من الشك وأوهامه إلا بالدليل ، والدليل لا يكون إلا من تركيب الأوليات والضروريات التي لا يصل العقل إلى اليقين إلا بها ) .

ثم قلت : يا ويل نفسي ! ! كيف كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان القاطع لو لم يقبض الله لي هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت : يا ويل الناس من هذه الشكوك التي لا يخلص منها أحد كما قال الشيخ ، أتراهم يستطيعون أن يتفروا على مثل هذه الدراسة الطويلة ؟ إن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. فكيف يدفعون هذه الشكوك عن إيمانهم .

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيت يكتب في دفتر كبير بعض آيات القرآن ، فألقيت السلام وأهويت على يديه أقبلهما ، فتبسم وقال الشيخ : مالك تقبل يدي بلا داع ؟ أأراك تودعني ... ؟ أتخسب أنك انتهيت من الدرس فأردت أن ترجع إلى بلدك ؟ كلا يا حيران ؛ فشوطك في الدرس لا يزال بعيد المدى .

حيران : لم يخطر ببالى أن أفارقك يامولاي . ولو ذهبت لزيارة أبي لعدت إليك فقد انقطعت عن العلم في جامعة ( بشاور ) ولا أجد - والله - خيرا منك لوصل ما انقطع ، وإنما قبلت يديك لأنى أحب أن أناجيك بنجوى ثقيلة ، فأردت أن أقدم بين يدي نجوى صدقة .

الشيخ : قل ما تريد ، فلا أجد منك شيئا ثقيلا .

حيران : لقد فكرت مليا فيما كشفت لي ليلة أمس من الحق ، فكيف بالله يامولاي كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان العقلي القاطع ، لو لم يقبض الله لي هاديا مرشدا مخلصا ، صبورا ، واسع الصدر مثلك يامولاي الكريم ؟ الشيخ : الهداة المرشدون كنز يا حيران ، وعنهم أخذنا . وليس على طالب الهدى إلا أن ينعم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل أهل الذكر .

حيران : وهل يتاح لكل الناس أن يتركوا مشاغل الحياة وأسباب الرزق ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟  
 الشيخ : هذا حق يا حيران : وهذا الذى كنت أريد أن أصل بك إليه ، وأدلك عليه ، وأنصحك به ، بعد أن بلغت ما أردته من إرشادك إلى صحة البراهين النظرية المركبة وصدقها ، بل أنصح به كل إنسان من الذين لا يتاح لهم أن يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل . . ألم تر أن قضيت الليل كله أقرأ القرآن من أجلك ؟

حيران : بماذا تنصحنى يا مولاي ؟

الشيخ : إننى أنصحك وأنصح نفسى ، بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد : وهو أن نلجأ فى إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الفوص فى حجج الاستدلال والجدل ، ومن غير أن يعتريه ارتباك أو كلال أو عجز أو وهم ، وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف ، أما الساذج فيدركها إجمالا لبساطتها ووضوحها ويداها ، وأما العالم فيدركها تفصيلا ويعلم أن هذه البداة فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف بمجموعها حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا - والله - عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاي الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكما عقليا يعد إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت القرآن يا حيران ؟

حيران : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : ألا تذكر قول أبيك لك فى الرؤيا : ( ألا تقرأ القرآن ؟ )

حيران : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تنعم النظر فى قوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ <sup>(١)</sup> لتدرك أنه - سبحانه - حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ،

حيران : لقد سألت عن هذا ، فقليل لى : إن المقصود بالآية ( علماء الدين )

الشيخ : وهل المقروض من علماء الدين أن يكون علمهم مقصورا على المعنى الاصطلاحي ( للفقهاء ) الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وألا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق عن طريق العلم والفلسفة ؟ كلا يا حيران ، فالفقه هو ( الفهم ) لكل شئ ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن نفهمه هو كلام الله ، وأول شئ يجب أن نفهمه من

كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ، وعلى أنه الخالق العليم ، القادر المريد ، البارئ المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما في الكون من أسرار الخلق والنظام والإحكام والإتقان . فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم ( الحصر ) الوارد في قوله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ والمراد به الخشية الكاملة ، إلا إذا كانوا عارفين من العلوم الكونية كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق التي دلنا عليها القرآن ، وذكر لنا بعضها ؛ لأن هذه الآية لم ترد في سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في إنزال المطر وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله - تعالت قدرته - : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

حيران : لا ريب في أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل لما جاء في القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفترق إلى ثلاثة أمور : جمع هذه الآيات كلها في صعيد واحد حتى تكون في متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ؛ فلا يتشتت الفكر للبحث عنها في خضم القرآن . ورغبة صادقة في درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين ، وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأي رأى ديني أو فلسفي .

حيران : إنني سمعت من بعض العلماء أن القرآن لم يترك شيئا من العلوم إلا وأشار إليه .

الشيخ : كلا ياحيران كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكياء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية ، ولا من مقاصده إرشاد الناس إلى العلوم الكونية من باب التعليم ، ولكن ما ورد فيه من الآيات التي تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم ، إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما في خلق العالم من آثار الإرادة والقدرة والعلم والحكمة والإتقان والاعتزان الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسماءها فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ببيان عجيب يفهمه على ظاهره البدوي الساذج في القرن السابع ، ويفهم أسرارهم رجل العلم في القرن العشرين . وفي هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا في بلاغته وحدها كما سبق القول ؛ فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة ، وإلى هذا الضرب من الإعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٢) . وقد أراهم - سبحانه - بعد عصور وعصور آياته في آفاق السموات والأرض وفي أنفسهم كما وعدهم فتبين لهم أنه الحق ، وألقوا في ذلك المطولات في بلاد المغرب . ولكننا - نحن

(١) الآية : ٢٧ وبعض الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

المسلمين - الذين كان لنا السبق والفضل فى كشف كثير من تلك الآيات من طريق العلم قصرنا فى إراءة أولئك العلماء أن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ ألف وأربعمائة سنة .

وخلاصة القول يا حيران أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وعنايته ورحمته وجميع صفات كماله ، ووعد ووعد للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام فى العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية فى الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ، ولكن أهم هذه الأقسام وأعظمها عند الله هو القسم الأول ؛ لأن الإيمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه .

ولذلك ترى - وأنت تتصفح القرآن - أن الآيات الدالة على الله لا تكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال : الشيخ - هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله - تعالى - إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها - سبحانه - من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والأتزان فى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والجبال والأنهار والبحار والنبات والحيوان والإنسان والأسماع والأبصار والافئدة ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس ، فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستغرقها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاي لإيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟ الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن لترى كيف توالى الوحي وتتابع الهدى فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم الذى اتبعه القرآن . يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى . فقرأت الآيات الآتية : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

وللآيات بقية نذكرها عند تفسير قوله - تعالى - : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبهر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . من سورة لقمان

## وصية لقمان لابنه

قوله - تعالى - . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلُهِ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

## معاني المفردات

(لقمان) : كان نجارا أسود من السودان مصر ، آتاه الله الحكمة ، ومنحه النبوة .  
 (الحكمة) : العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه :  
 أي بني : إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها بالإيمان ، وشرعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .  
 وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا . والذل في طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية .  
 وقوله : يا بني لا تكن حلوا فتبتلع ولا مرا فتلفظ  
 وقوله : يا بني إذا أردت أن تواخي رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فأخه ،  
 وإلا فاحذره .  
 والشكر : الثناء على الله - تعالى - وإصابة الحق ، وحب الخير للناس وتوجيه الأعضاء وجميع

النعم لما خلقت له .  
 العظة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام .  
 (جاهداك) أى : حرصا على متابعتك لهما فى الكفر .  
 (أناب) : أى رجع .  
 المثقال : ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل : مثل فى الصغر .  
 (لطيف) أى : يصل علمه إلى كل خفى .  
 (خبير) أى : عليم بكنه الأشياء وحقائقها .  
 (من عزم الأمور) أى : من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب . تصغير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين ..  
 وفى الحديث : (يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتى)<sup>(١)</sup>  
 والأصعر : المعرض بوجهه كبيرا . وفى الحديث : (كل صغار ملعون)<sup>(٢)</sup>  
 أى : كل ذى أهبة وكبر هو كذلك .  
 (مرحا) أى : فرحا وبطرا .  
 والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء ، وهى التبختر فى المشى كبيرا .  
 والفخور : من الفخر ، وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك .  
 (اقصد) أى : توسط .  
 (اغضض) أى : انقص منه وأقصر ، من قولهم فلان يغض من فلان : إذا قصر به ، ووضع منه ، وحط من قدره .  
 (أنكر الأصوات) أى : أقبحها وأصعبها على السمع ، من نكر بالضم أى : صعب

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شيء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضال ، أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها ، ثم بين - سبحانه - أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس أثناء الليل وأطراف النهار ، أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها - سبحانه - الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم وردا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ثم رجع إلى ذكر بقية التى بعضها بحقوقه ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

(١) انظر تفسير القرطبي : طبع الشعب ، (تفسير لقمان) ص ٥١٥

(٢) القرطبي (تفسير سورة لقمان) ص ٥١٥٣

## التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِي حَمِيدٌ ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن جزيل نعمته على عبده لقمان ؛ فقد آتاه الحكمة ، والحكمة : علم غزير ، وحكم صواب ، وعمل موفق ، قال - تعالى - ﴿ يُوْقَى الْحِكْمَةُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذْكَرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (١) وقد دعا الخليل ربه أن يهبه الحكمة ، فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حِكْمًا وَالْحَقْقَى بِالصَّالِحِينَ ﴾ (٢) وقال تعالى - في شأن يوسف : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حِكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٣) وقال في شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حِكْمًا وَعِلْمًا ﴾ (٤) وقال في شأن خاتم الأنبياء محمد ﷺ : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفَى ضَلَالٍ مَبِينٍ ﴾ (٥)

ثم أمر الله - تعالى - لقمان بالشكر ، وهو صرف الجوارح إلى طاعة الله ، فلكل جارحة شكر وذكر ، فذكر العينين : البكاء ، وذكر الأذنين : الإصغاء ، وذكر اللسان : الشاء ، وذكر اليدين : العطاء ، وذكر البدن : الوفاء ، وذكر الروح : الخوف والرجاء ، وذكر القلب : التسليم والرضاء ، فمن ذكر فقد شكر ، قال موسى لربه : ﴿ يَا رَبِّ كَيْفَ أَشْكُرُكَ ؟ قَالَ : يَا مُوسَى تَذْكُرُنِي وَلَا تَنْسَانِي ، إِنَّكَ تَذْكُرُنِي شُكْرَتِي ، وَإِنْ نَسِيتَنِي كَفَرْتَنِي ، اقْرَأُوا إِنَّ شُكْرَكُمْ قَوْلَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (٦)

ثم قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ إذ العمل الصالح يعود على صاحبه ، قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمْهَدُونَ ﴾ (٧) والكفر يقابل الشكر ، فشكر النعمة يقابله الجحود ، لذا قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِي حَمِيدٌ ﴾ كما جاء في قوله - جل شأنه - ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شُكِرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٨).

ولما رأى نبي الله سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، وقد سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين بالاصفاد ، وقال له ربه : ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنِ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٩) فماذا قال سليمان بعد هذه النعم ؟ هل استطاع الغرور ان يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعه ؟ إن الغرور مقبرة النجاح ، لقد قال سليمان بلسان العبد الشاكر : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَفِي كَرِيمٌ ﴾ (١٠) ولقد كان ﷺ سيد الذاكرين الشاكرين ، خير بين أن يكون نبيا عبدا ونبيا ملكا ، فتواضع لله وقال بل نبيا عبدا ، أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك .

(٦) الآية : ١٥٢ من سورة البقرة .

(٧) الآية : ٤٤ من سورة الروم .

(٨) الآية : ٧ من سورة ابراهيم .

(٩) الآية : ٣٩ من سورة ص .

(١٠) الآية : ٤٠ من سورة النمل .

(١) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ٨٣ من سورة الشعراء .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة يوسف .

(٤) الآية : ١٤ من سورة القصص .

(٥) الآية : ١٦٤ من سورة آل عمران .



ورأوته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم  
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم  
فصبرت ، وأعطيت فشكرت ، وظلمت فغفرت ، ولقد أقمنا على المحجة البيضاء ، ليلها  
كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فجزاك الله خير ما جزى به نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .  
إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم  
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النعم  
قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم .  
ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير .  
وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعمهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل  
من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبتكم بما كنتم تعملون ﴾

وأخذ لقمان يعظ ابنه ، فنهاه عن الشرك ، وفي النهي عن الشرك أمر بالتوحيد ، وفي التوحيد  
الأساس المتين لكل إصلاح ، قال - تعالى - : ﴿ وإلهم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ (١)  
وفي الشرك إحباط لكل عمل ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح  
في مكان سحيق ﴾ (٢) وكان لقمان عبدا صالحا يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ؛  
فقد بدأ الموعدة بالأصل الأول الذي تبنى عليه الأعمال وهو توحيد الألوهية والربوبية ، والأسماء  
والصفات ، ولم يقف عند هذا الحد بل بين عاقبة الشرك في قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أى :  
هو من أعظم الظلم ، قال البخارى بسنده عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا  
إيمانهم بظلم ﴾ (٣) شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ - وقالوا : أين لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال  
رسول الله ﷺ ( إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم  
عظيم ﴾ (٤) والموعدة فيها حياة للقلوب ، وبقظة للعقول ، فهي تسرى في الأفئدة سريان الماء في العود  
الأخضر ، لذا كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعدة حتى ينبه الغافل ، ويذكر الناسى ، إن النفس  
البشرية كالزجاجة إن لم يملأها شيء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ،  
والموعدة كاللدواء الذي لا بد أن يرج قبل تعاطيه وإلا رسبت العقاقير ، ومن ثم فعلى الواعظ الحكيم ،  
أن يتعهد الناس بالمواعظ كما يتعهد الطبيب مريضه ، والفلاح زرعه ، والأم أطفالها ، ولقد عقد ابن  
- رجب الحنبلى مجلسا في التذكر والوعظ قال فيه :

(١) الآية : ١٦٣ من سورة البقرة

(٢) الآية : ٣١ من سورة الحج .

(٣) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .

(٤) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه ، في ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ج ٦ ص ٤١٧ رقم ١٠١ ( البخارى بشرح الشيخ  
زروق ) طبع مطبعة

وانظره في تفسير سورة الأنعام في صحيح البخارى .

وأخرجه الترمذى في جامعه الصحيح في ( أبواب تفسير القرآن ) ج ٥ ص ٢٦٢ باب : ومن سورة الأنعام رقم ٣٠٦٧ قال ابو  
عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أخرج الامام أحمد والترمذى وابن حبان في صحيحة من حديث أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قلنا : يا رسول الله ؛ مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا في الدنيا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا خرجنا من عندك فأنسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : ( لو أنكم إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة في بيوتكم ، ولو لم تذبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم )<sup>(١)</sup> كانت مجالس النبی ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله ، وترغيب وترهيب ، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة ، وتعليم ما ينفع في الدين ، كما أمره الله - تعالى - في كتابه أن يذكر ويعظ ويقص ، وأن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبشر وينذر ، وسماه الله مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فقل : سراجا للمؤمنين في الدنيا ، ومنيرا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة ، وسمى سراجا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا يتنقص من نوره شيء .

والتبشير والإنذار هو الترغيب والترهيب ، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه كما ذكر ابو هريرة في هذا الحديث رقة القلوب ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ، فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر ؛ فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ، ويذهب الغفلة عنه ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ . الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾<sup>(٤)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَال عَلَيْهِمْ الْأَمَدُ فَنَسُوا قُلُوبَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> وقال - تعالى - : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾<sup>(٦)</sup> وفي السنن عن الوياخي بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . وقال ابن مسعود : نعم المجلس المجلس الذي تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هي مجالس الذكر . وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه ، فقال : أدنه من الذكر ، وقال : مجلس الذكر بحياة العلم ويحدث في القلب الخشوع . وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة ، وتحف الملائكة ، ويذكر الله أهلها فيمن عنده ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنباً ، وربما بكى فيهم

(١) انظر مسند الامام احمد ٣٠٥/٢ ورواه الترمذى في جامعه الصحيح برقم ٢٥٢٦ والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ح ٩ ص

(٢) الآية : ٢٨ من سورة الرعد .

(٣) الآية : ٢ من سورة الانفال .

(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة الحج .

(٥) الآية : ١٦ من سورة الحديد .

(٦) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر .

باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له ، وهى رياض الجنة ، قال ﷺ ( إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال : مجالس الذكر )<sup>(١)</sup> وإذا انفض مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام : فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه فى مجلس الذكر ، ولا يزداد هدى ، ولا يرتدع عن ردى ، وهؤلاء أشر الأقسام ، ويكون ما سمعوه حجة عليهم ، فتزداد به عقوبتهم ، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومنهم من يتتفع بما سمعه وهم على أقسام : فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ومنهم من يرتقى عن ذلك إلى التشمير فى نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ، ويشتاق إلى اتباع آثار السلف الصالح ، وهؤلاء السابقون المقربون .

وينقسم المتتفعون بسماع الذكر فى استحضار ما سمعوه فى المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام : فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها ، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه فى مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعدته ووعيده ، وثوابه وعقابه ، وهذا هو الذى شكاه الصحابة إلى النبى ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم - أن يكون نفاقا ، فأعلمهم النبى ﷺ أنه ليس بنفاق .

وفى صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال : يا رسول الله نافق حنظلة . قال : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكركنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا رجعنا من عندك عافنا ( أى عاجلنا ) الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . فقال : ( لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ) .

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب فى جميع الأحوال عزيز جدا ولا يقدر كثير من الناس عليه ، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانا وإن وقعت الغفلة عنه فى حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك ، بل يلوم نفسه عليه ، ويحزنه ذلك من نفسه ؛ فالعارف يتأسف فى وقت الكدر على زمن الصفا ، ويحن إلى زمان القرب والوصال فى حال الجفا .

ما أذكر عيشنا الذى قد سلفا      إلا وجف القلب وكم قد وجفا  
واها لزماننا الذى كان صفا      هل يرجع بعد فوته ؟ وا أسفا

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى ( أبواب الدعوات ) باب ٨٣ ح ٥ ص ٥٣٢ رقم ٣٥١٠ من رواية أنس - رضى الله عنه -

وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٢) الآية : ١٠٨ من سورة النحل

(٣) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) ح ١٧ ص ٦٦ باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة ( مسلم بشرح النووى )

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى ( كتاب الجمعة ) باب خطبته ﷺ - فى الجمعة ح ٦ ص ١٥٣ .

وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر ، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازما لهم . وهؤلاء على قسمين ، أحدهما : من يشغله ذلك عن مصالح الدنيا المباحة ، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ، ولا القيام بوفاء حقوقهم ، وكان كثير من السلف على هذه الحال ، فمنهم من كان لا يضحك أبدا ، ومنهم من كان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة لفسد . والثاني من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه ، ويدخل بيده في مصالح دنياه : من اكتساب الحلال ، والقيام على العيال ، وبخالط الخلق قويا يوصل إليهم به النفع ، مما هو عبادة في نفسه : كتعلم العلم ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وهؤلاء أشرف القسمين ، وهم خلفاء الرسل ، وهم الذين قال فيهم على - رضى الله عنه - ( صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى ) وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر تغيير ، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم .

وفي الصحيحين عن عدى بن حاتم أن النبي ﷺ قال : ( اتقوا النار وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح - ثلاثا - حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة ) .

وفي صحيح مسلم عن جابر أن النبي ﷺ ( كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته ، كأن منلر جيش يقول : صبحكم ومساكم )<sup>(١)</sup> وسئلت عائشة ؟ كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه ؟ قالت : كان كرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا ، وكان ضحاکا بساما . فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم ، وعاشروا الخلق بأبدانهم .

ولقد جعلتلك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي  
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

( والمواظ ) سيات تضرب بها القلوب فتؤثر في القلوب كتأثير السياط في البدن ، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره في حال وجوده ، لكن يبقى أثر التأم بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار ، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاما عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة . وإنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له ، فماذا ينفع تأديبه بالضرب ؟ كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا ، وكان أحمد لا تذكر الدنيا في مجلسه ولا تذكر عنده ، قال بعضهم : لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب ، فإنها تصل إلى القلب ، فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه بشرح النووي في ( كتاب الجمعة ) باب خطبته ﷺ في الجمعة - ح ٦ ص ١٥٣

من الأخرى . قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

فى بعض الكتب السالفة ( إذا أردت أن تعظ الناس فعظ نفسك ، فإن اتعظت وإلا فاستح ( منى ) .

وطيب يداوى الناس وهو سقيم	وغير تقى يأمر الناس بالتقى
هلا لنفسك كان ذا التعليم	ياأيها الرجل المعلم غيره
فإن انتهت عنه فانت حكيم	فابدأ بنفسك فانها عن غيرها
بالقول منك وينفع التعليم	فهناك يقبل ما تقول ويقتدى
عار عليك اذا فعلت عظيم	لاتنه عن خلق وتأتى مثله

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ، قال رجل لابن عباس : أريد أن أمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر . فقال له ابن عباس : إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ، ثم تلا : ﴿ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ (١) وقوله - تعالى - : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ (٢) وقوله حكاية عن النبى شعيب - عليه السلام - : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ (٣) قال النخعى : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث ومع هذا كله فلا بد للإنسان من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا بعصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب فمن يعظ العاصين بعد محمد  
خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يوما فقال فى موعظته : إني لا أقول هذه المقالة وما أعلم  
عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، فاستغفر الله وأتوب إليه .  
وقوله ﷺ : ( لو لم تذبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذبوا فيغفر لهم ) فالمراد بهذا أن الله - تعالى  
حكمة - فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا حتى تقع منهم بعض الذنوب ، فإنه لو استمرت لهم  
اليقظة التى يكونون عليها حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب ، وفى إيقاعهم فى الذنوب أحيانا فائدتان  
عظيمتان ، إحداهما : اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولا هم ، وتنكيس رءوس عجبهم ،  
وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب ، قال  
بعضهم : ذنب أفقر به إليه أحب إلى من طاعة أدل بها عليه .

وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسيحين ؛ لأن زجل المسيحين ربما شابه الافتخار ، وأنين  
المذنبين يزيه الانكسار والافتقار . قال الحسن : إن العبد ليعمل بالذنب فلا ينسأه ولا يزال متخوفا منه

(١) الآية : ٤٤ من سورة البقرة .

(٢) الأيتان : ٢ ، ٣ من سورة الصف

(٣) الآية : ٨٨ من سورة هود .

حتى يدخل الجنة .

والفائدة الثانية . حصول المغفرة والعفو من الله لعبده ؛ فإن الله يحب أن يعفو ويغفر ، ومن أسمائه « الغفار والعفو ، والتواب » فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة ؟

يارب أنت رجائي وفيك حسنت ظني  
يارب فاغفر ذنوبي وعافني واعف عني  
العفو منك إلهي والذنوب قد جاء مني  
والظن فيك جميل حقق بحققك ظني

وعقد الأستاذ عبد الله ناصح علوان في كتابه ( تربية الأولاد في الإسلام ) فصلا تحت عنوان « التربية بالموعظة » قال فيه : من أهم وسائل التربية المؤثرة في تكوين الولد إيمانيا ، وإعداده خلقيا ونفسيا واجتماعيا . . تربيته بالموعظة ، وتذكيره بالنصيحة ، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير في تبصير الولد حقائق الأشياء ، ودفعه إلى معالي الأمور ، وتحليه بمكارم الأخلاق ، وتوعيته بمبادئ الإسلام فلا عجب أن نجد القرآن الكريم قد انتهجها ، وخاطب النفوس بها ، وكررها في كثير من آياته ، وفي مواطن عدة من توجيهاته وعظاته . . وإليكم بعض النماذج في تكرار القرآن العظيم لكلمات الوعظ والنصيحة والانتفاع بالذكر :

قال الله - تعالى - في سورة لقمان :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . . . ) ١٢ - ١٩

وقال تعالى في سورة سبأ على لسان الرسول ﷺ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ٤٥ - ٤٩

وقال تعالى في سورة هود على لسان نوح - عليه السلام - ﴿ قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ٣٢ - ٣٤ وقال الله - تعالى - في سورة الأعراف على لسان هود - عليه السلام - ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . . . ﴾ ٦٥ - ٦٨

وأسلوب القرآن الكريم متنوع فى الدعوة إلى الله ، وفى التذكير بالله ، وفى إلقاء الموعدة ، والإرشاد بالنصيحة .. حيث جرى ذلك كله على ألسنة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وتردد على أفواه الدعاة من جماعتهم وأتباعهم .

ولا يختلف اثنان أن الموعدة المخلصة ، والنصيحة المؤثرة إذا وجدت لها نفسا صافية ، وقلبا متفتحا ، وعقلا حكيما متديرا .. فإنها أسرع للاستجابة وأبلغ فى التأثير .

والقرآن الكريم قد أكد هذا المعنى فى كثير من آياته وكرر الانتفاع بالذكر ، والتأثير بالكلمة الهادية ، والنصيحة الراشدة . ﴿ إن فى ذلك للذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ( ق : ٣٧ ) .

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ( الذاريات : ٥٥ ) .

﴿ وما يدرك لعله يزكى . أو يذكر فتنتفه الذكرى ﴾ ( عبس ٢ - ٣ )

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ ( ق : ٨ )

ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ ( هود : ١١٤ )

﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ( الطلاق : ٢ )

والقرآن الكريم ملئ بالآيات التى تتخذ أسلوب الوعظ اساسا لمنهج الدعوة ، وطريقا إلى الوصول لإصلاح الأفراد ، وهداية الجماعات .. ومن استعرض صفحات القرآن الكريم يجد ظاهرة الأسلوب الوعظى حقيقة ملموسة فى كثير من آياته .. تارة بالتذكير بالتقوى ، وأخرى بالتنويه بالتذكرة ، وثالثة بالتعبير بالموعدة ، ورابعة بالحض على النصيح ، وخامسة باتباع سبيل الرشاد ، وسادسة بالإغراء بالترغيب ، وسابعة باستعمال أسلوب التهديد ، وهكذا يجد القارىء ظاهرة الوعظ مناسبة فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه بقوالب متعددة ، وأساليب متنوعة .. مما يؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن للوعظ فى القرآن الكريم أهمية بالغة فى تربية النفوس على الخير ، وحملها على الحق ، واستجابتها للهدى ..

وسبق أن ذكرنا جملة من الاستشهادات القرآنية التى تفصح بشكل قاطع لا يقبل الشك أن النفوس الصافية ، والقلوب المتفتحة ، والعقول الواعية المتديرة .. إذا تراءى لها الحق مناسبا بالكلمة المؤثرة والموعدة البليغة ، والنصيحة الرشيدة ، والتذكرة المخلصة .. فإنها سرعان ما تستجيب فى غير تردد ، وتتأثر من غير توقف .. بل سرعان ما تخضع للحق ، وتتقبل هدى الله الذى أنزله . هذا فى الكبير .. فكيف بالمولود الصغير الذى ولد على الفطرة وقلبه الطاهر البرىء لم يَتَلَوَّنْ بعد ؟ ونفسه البيضاء الصافية لم تتدنس بمفاسد الجاهلية ، ولم تتقلب فى مدارج الإثم والعدوان .. ؟ فلا شك أن تأثره بالموعدة أبلغ ، وقبوله للتذكرة أقوى ! ..

فما على المربين إلا أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن ينهجوا منهج القرآن الكريم فى مواعظه وإرشاداته فى إعداد أولادهم الصغار - قبل سن التمييز وبعده - إيمانيا وخلقيا ، وتكوينهم نفسيا واجتماعيا .. إذا أرادوا لأولادهم الخير والكمال . والنضج الخلقى والعقل والاتزان .

ولابد في هذا المضمار أن نلمح طريقة القرآن الكريم في الموعظة والنصح عسى أن ينتهجها من كان له في عنقه حق التربية ، ليصلوا بأولادهم أو تلامذتهم إلى الغاية المثلى في الإعداد والتكوين ، والتهديب والتعليم .

وفي تقديرى أن طريقة القرآن في الموعظة تتميز بالأساليب التالية :

● النداء الإقناعى : مصحوبا بالاستعطاف أو الاستنكار . وهذا الأسلوب له إحياءاته المؤثرة على المشاعر . وتأثيره البالغ في القلوب .. وهذا الأسلوب من الإقناع الاستنكارى أو الاستعطافى ظاهر واضح في مخاطبة القرآن لقلوب الناس وعقولهم ، على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وطبقاتهم ، على ألسنة الأنبياء والدعاة .

واليكم نماذج من هذه النداءات بأساليبها المتنوعة :

● نداءه للأبناء : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله .. ﴾

وعلى لسان نوح - عليه السلام - : ( يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ) ﴿ ( هود : ٤٢ )

وعلى لسان يعقوب - عليه السلام - ﴿ يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن

الشیطان للإنسان عدو مبين ﴾ ( يوسف : ٥ )

وعلى لسان إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - ﴿ يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا

وأنتم مسلمون ﴾ ( البقرة : ١٣٢ )

نداءه للنساء : على لسان الملائكة لمريم - عليها السلام - ﴿ يا مريم إن الله اصطفىك وطهرتك واصطفاك

على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ ( آل عمران ٤٢ - ٤٣ )

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض

وقلن قولا معروفا ﴾ ( الأحزاب : ٣٢ )

● نداءه للأقوام : على لسان موسى - عليه السلام - : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم

العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب

الرحيم ﴾ ( البقرة : ٥٤ ) .

وعلى لسان الداعية الذى آمن من قوم موسى : ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما

هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار .. ﴾ وقوله : ﴿ ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة

وتدعوننى إلى النار .. ﴾ ( غافر ٣٨ : ٤١ )

وعلى لسان الجن الدعاة :

﴿ يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق

مستقيم . يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾

( الاحقاف ٣٠ - ٣١ )

نداءه للمؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ ( البقرة ١٥٣ )



﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٢)  
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. ﴾ (الأنفال : ٢٤)

### نداءه لأهل الكتاب :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران : ٦٤)  
 ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ (المائدة : ٦٨) .

● نداءه للناس أجمعين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة ٢٠ - ٢٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ (النساء ١٧٤)  
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تُرَوَّنَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنْ عَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج ١ - ٢) .

وهذا النداء كثير في القرآن الكريم .

### ٢ - الأسلوب القصصى مصحوبا بالعبرة والموعظة :

وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية ، وانطباعاته الذهنية ، وحججه المنطقية والعقلية .. وقد استعمله القرآن الكريم في كثير من المواطن ، ولا سيما في أخبار الرسل مع أقوامهم ، وقد من الله على رسوله - عليه اله آية والسلام - بأن قص عليه أحسن القصص ، ونزل عليه أحسن الحديث .. ليكون للناس آية وعبرة وللرسل - عليه الصلاة والسلام - عزيمة وثبات .

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ (يوسف ٣)

﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا ﴾ (الأعراف ١٠١)

﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَنْثِي بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (هود ١٢٠)

﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف ١٧٦)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (النازعات : ١٥)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرَمِينَ ﴾ (الذاريات ٤)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ، فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ (البروج ١٧ - ١٨)

والقرآن الكريم ملئ بقصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وأحيانا تكون القصة مكررة في سور عدة من القرآن ، لإظهار القصة في كل مرة بأسلوب جديد يختلف عن أسلوبها في

المرات السابقة ، لتذوق الإعجاز القرآني في أسلوبه الرائع ، وبياناه الفريد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لظهور عبرة أخرى تكمن وراء الآيات ، وتترأى خلال الألفاظ والمعاني التي لا يدركها إلا الراسخون في العلم ، والمتذوقون لبلاغة القرآن الكريم !

ولنضرب على ذلك مثلاً .

قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون مذكورة مرات ومرات في القرآن ، فلنختر قصتين من هذه القصص ، ثم نقارن بينهما ليعلم القارئ سر هذا التكرار :

القصة الأولى في سورة الأعراف ( ١٠٤ - ١٣٩ )

﴿ وقال موسى يافرعون إني رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

القصة الثانية من سورة النازعات ( ١٥ - ٢٦ ) :

﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

من المقارنة بين القصتين يتبين الأمور التالية :

- ١ - الأولى مفصلة وطويلة ، والثانية مختصرة وقصيرة .
  - ٢ - فرق كبير بين الأسلوبين ، سواء ما يتعلق بالآيات وفواصلها في طولها وقصرها ، أو معانيها وتراكيبها ، أو صيغ الأمر والنهي فيها . . .
  - ٣ - التركيز على العبرة في سورة الأعراف يتناول :
    - أ - إقامة الحجة على فرعون .
    - ب - إظهار المعجزات الدالة على صدق موسى - عليه السلام -
    - ج - الحوار الذي دار بين موسى والسحرة
    - د - إيمان السحرة بعد قيام الحجة .
    - هـ - تهديد فرعون ووعيده .
    - و - عدم اكتراث السحرة بالتهديد بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم .
    - ز - أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .
    - ح - انتقام الله منهم بالفرق .
  - أما التركيز في سورة النازعات فيتناول :
    - أ - إهلاك الله لفرعون لادعائه الألوهية .
    - ب - أخذ العبرة لمن يريد أن يتذكر أو يخشى
- بعد هذا البيان تبين لك الفرق الكبير ما بين القصتين ، سواء ما يتعلق بالتذوق البلاغي ، أو

بأخذ العبرة والعظة ، إذن فلا يجوز أن نرى في القصص المعادة مجرد تكرار ، لأن القصص التى كررها القرآن الكريم ليست كذلك ، كما رأيت من الفارق الكبير من عرض القصتين .

### ٣- التوجيه القرآنى مصحوباً بالوصايا والمواعظ

القرآن الكريم ملئ بالآيات المصحوبة بالوصايا والنصوص المقرونة بالمواعظ لتوجيه القارىء إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه وآخرته ، وتكوينه فى روحه وعقله وجسمه ، وإعداده ليكون رجل دعوة وبطل جهاد .

وللقرآن الكريم تأثيره البالغ على الأرواح والقلوب ، فحينما يسمع المسلم آيات الله تتلى ، يتخشع لها قلبه ، وتتوق إليها نفسه ، وتحرك لجرسها روحه ، فيعاهد الله - سبحانه - على أن يعمل بمواعظها ، ويستجيب لوصاياها ، ويمثل أوامرها ، ويتجنب نواهيها ، لأنها تنزيل من حكيم حميد ، فيها البلسم الشافى لأسقامه . والعلاج الواقى لأمراض الجسم ، وآفات القلوب .  
وإليك بعض هذه النماذج التوجيهية من القرآن الكريم :

( أ ) من سورة لقمان : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه .. ﴾

( ب ) ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ ( الفرقان ٦٣ - ٧٧ )

( ج ) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين يتفقون أمواهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ ( النساء ٣٦ - ٣٨ )

( د ) ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ ( البقرة ١٧٧ )

(هـ) ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كنتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴿ الاسراء : ٢٣ - ٣٨  
إلى غير ذلك من هذه الوصايا ، والمواعظ والتوجيهات ، والأوامر والنواهي التي تفيض فيها آيات الله ، ويدعو إليها قرآنه المجيد !!

ويتفرع من هذا :

- (أ) التوجيه القرآني المصحوب بأدوات التوكيد : كقوله - تعالى - :  
﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله :  
﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾<sup>(٤)</sup>  
(ب) التوجيه القرآني المصحوب بأدوات الاستفهام الإنكاري : كقوله - تعالى - : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾<sup>(٥)</sup> .  
﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾<sup>(٦)</sup>  
﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾<sup>(٧)</sup>  
﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) من الآية : ١٢ من سورة النحل ، ومن الآية : ٤ من سورة الرعد ، ومن الآية : ٢٤ من سورة الروم .  
(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .  
(٣) من الآية : ٢٣ من سورة الروم .  
(٤) من الآية : ٣٧ من سورة ق .  
(٥) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الطور .  
(٦) الآية : ٣٢ من سورة الطور .  
(٧) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة الطور .  
(٨) الآية : ٣٥ من سورة الطور .

- ﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ؟ ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطنون ؟ ﴾<sup>(٢)</sup>  
 ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ؟ ﴾<sup>(٣)</sup>  
 ﴿ أم له البنات ولكم البنون ؟ ﴾<sup>(٤)</sup>  
 ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ ﴾<sup>(٥)</sup>  
 ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾<sup>(٦)</sup>  
 ﴿ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴾<sup>(٧)</sup>  
 ﴿ أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ؟ ﴾<sup>(٨)</sup> (الطور : ٣٠ - ٤٣)  
 (هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بالأدلة العقلية : كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة : ١٦٤)  
 ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (الأنبياء : ٢٢)  
 ﴿ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ؟ ﴾ (الطور : ٣٦)  
 ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢٠ - ٢١) .  
 (د) التوجيه القرآنى المصحوب بشمولية الإسلام : كقوله - تعالى - : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة : ١٧٧)  
 - وفى سورة النحل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (النحل : ٨٩)  
 - وفى سورة الأنعام : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شئ ﴾ (الأنعام : ٣٨)

(١) الآية : ٣٦ من سورة الطور .

(٢) الآية : ٣٧ من سورة الطور .

(٣) الآية : ٣٨ من سورة الطور .

(٤) الآية : ٣٩ من سورة الطور .

(٥) الآية : ٤٠ من سورة الطور .

(٦) الآية : ٤١ من سورة الطور .

(٧) الآية : ٤٢ من سورة الطور .

(٨) الآية : ٤٣ من سورة الطور .

(هـ) التوجيه القرآني المصحوب بقواعد التشريع : كقوله - تعالى - :  
 - في قاعدة العدل القضائية : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ ( النساء : ٥٨ )  
 - وكقوله في قاعدة الشورى الدستورية : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ ( آل عمران : ١٥٩ ) .  
 ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ ( الشورى : ٣٨ )  
 وكقوله في قاعدة المساواة الإنسانية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ( الحجرات : ١٣ )  
 تلکم أهم الأساليب التي سلكها القرآن الكريم في نصائحه ومواعظه .. وهي أساليب متنوعة لها إحياءاتها المؤثرة ، وحساسياتها البالغة ، واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب ! ..  
 ومن بديهيات القول أن المرابين جميعا لو سلكوا هذه الأساليب التي انتهجها القرآن الكريم في تأديب أولادهم ، وتهذيب أفلاد أكبادهم .. لنشأ الأولاد - ولا شك - على خير ما ينشأون من التربية الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، والسلوك الإنساني القويم ، والوعى الاسلامى الشامل ..  
 والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد اهتم للنصيحة ، ووجه المرابين والدعاة .. إلى إلقاء الموعظة ، وأهاب بكل مسلم في الحياة أن يكون الداعية إلى الله في كل مكان يحل فيه ، وفي كل بيئة يوجد فيها .. عسى أن يتأثر بمواعظه وإرشاداته من كل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعسى أن يقوم بمهمة الإنقاذ - عن طريق الدعوة والموعظة - لرجال توحلوا في مستنقع الجاهلية ، وتعثروا في دروب الانحلال ، وضاعوا في متاهات الزيف والضلال ..  
 وإليكم أهم توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - في بث النصيحة ، وإلقاء الموعظة والدعوة إلى الله :

- روى مسلم عن تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : ( الدين النصيحة ؛ قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم )<sup>(١)</sup> .  
 - وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : ( بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم )<sup>(٢)</sup> .  
 - وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من دل على خير فله مثل أجر فاعله )<sup>(٣)</sup> .  
 - وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا )<sup>(٤)</sup> .

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم في صحيحه بشرح النووى في ( كتاب الايمان ) باب : الدين النصيحة ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في ( كتاب الايمان ) باب بيان ان الدين النصيحة ج ١ ص ١٢ رقم ٣٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووى في ( كتاب الامارة ) باب فضل الصدقة في سبيل الله تعالى ج ١٣ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٢٧ في ( كتاب العلم ) باب من سن سنة حسنة أو سيئة .

- وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال لعل - كرم الله وجهه - لما وجهه إلى فتح خيبر : ( انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم ) (١) .

- معنى ( حمر النعم ) النعم : الإبل ، والحمر منها انفسها .  
والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة ومستفيضة ، فعلى المربين أن يأخذوا بتوجيهاتها ، وأن يكونوا محققين لما جاء فيها .. ولا سيما الأمور التى تخص أولادهم وتلامذتهم ومريديهم .  
ومعلمنا الأول - عليه الصلاة والسلام - له منهجه الأفضل ، وطريقته المثل فى إلقاء الموعظة ، وتجدد أسلوها ، وتنوع عرضها ..

وإليكم أهم ما فى هذا المنهج وهذه الطريقة :  
(أ) انتهاج أسلوب القصة : ولنذكر بعض الامثلة :

١ - قصة الأبرص والأقرع والأعمى :  
روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ يقول : ( إن ثلاثة من بنى إسرائيل ، أبرص ، وأقرع ، وأعمى ) أراد الله أن يتليهم ( يختبرهم ) فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص :

الملك : أى شىء أحب إليك ؟

الأبرص : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره ، وأعطى لونا حسنا .

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأبرص : الإبل ، فأعطى ناقه عشراء ( حاملا ) .

الملك : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع :

الملك : أى شىء أحب إليك ؟

الأقرع : شعر حسن ، ويذهب عني هذا الذى قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا ..

الملك : . فأى المال أحب إليك ؟

الأقرع : البقرة فأعطى بقرة حاملا .

الملك : بارك الله لك فيها ..

فأتى الأعمى :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الفضائل ) باب : من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

الملك : أى شيء أحب إليك ؟

الأعمى : أن يرد الله بصرى ، فأبصر الناس ، فرد إليه بصره

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأعمى : الغنم ، فأعطى شاة والدة (حاملًا) .

فأنج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

- ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم (أى : معونة من

المال) إلا بالله ثم بكى ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن . والجلد الحسن والمال ، بغيرا أتبلغ به فى سفرى .

الأبرص : الحقوق كثيرة !!

الملك : فإنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟

الأبرص : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر (أبا عن جدا) !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ،

أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن ، والمنظر الحسن ، والمال ، بقرة أتبلغ بها فى سفرى .

الأقرع : الحقوق كثيرة !!

وأنى الأقرع فى صورته وهيبته :

الملك : كانى أعرفك ، ألم تكن أقرع يقدرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟ .

الأقرع : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأنى الأعمى فى صورته وهيبته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت به الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ،

أسألك بالذى رد عليك بصرى ، شاة أتبلغ بها فى سفرى .

الأعمى : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ، ودع ماشئت ، فوالله لأجهدك

(لأعارضك) بشيء أخذته الله عز وجل .



الملك : أمسك مالك فإنما ابتليتكم (اختبرتم) . فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك<sup>(١)</sup> .

## ٢ - قصة الخشبة العجيبة .

روى البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - :  
« أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه (يقرضه) ألف دينار المقرض : اتنى بالشهداء أشهدهم .

المقترض : كفى بالله شهيدا !

المقرض : فائتني بالكفيل .

المقترض : كفى بالله كفिला !

المقرض : صدقت !! فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر ، ففضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار . وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها (أى : سده) ثم أتى بها البحر . المقترض : « اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا (اقترضت منه) ألف دينار ، فسألنى كفिला ، فقلت : كفى بالله كفिला ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت (بذلت جهدى) أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له ، فلم أقدر ، وإنى أستودعها (أى : أجعلها فى أمانتك) ، فرمى بها فى البحر !! حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه (أقرضه) ينظر : لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال !!! فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بألف دينار .

المقترض : والله ما زلت جاهدا فى طلب مركب لأتيك بمالك ، فما وجدت مركبا قبل الذى أتيت فيه .

المقرض : هل كنت بعثت إلى بشيء ؟ .

المقترض : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه .

المقرض : فإن الله أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بألف الدينار راشدا<sup>(٢)</sup> .

## قصة هاجر وإسماعيل

روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : جاء إبراهيم - عليه السلام - بأم إسماعيل (هاجر) ، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه (شجرة) فوق زمزم من أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضع عندهما جرابا (كيسا) فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى (رجع) إبراهيم - عليه السلام - منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزهد والرفائق) ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : ما يستخرج من البحر ج ٢ ص ١٥٩ .

تذهب ؟ وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء !! -  
قالت له ذلك مرارا ، وهو لا يلتفت إليها !!  
هاجر : آله أمرك بهذا ؟ .

إبراهيم : نعم .

هاجر : إذن ألا يضيعنا !!

ثم رجعت فانطلق إبراهيم - عليه السلام - ثم إذا كان عند الثنية ( مكان بمكة ) حتى لا يرونه  
استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فرفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد  
غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ،  
وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ (١) .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء  
عطشت وعطش ولدها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت  
( الصفا ) أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم  
تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها ( ثوبها ) ثم سعت سعى  
الإنسان المجهود ( المتعب ) حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها فنظرت هل ترى  
أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : إن رسول الله - ﷺ - قال :

« فلذلك سعى الناس بينها »

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : ضه !! تريد نفسها -

ثم تسمعت فسمعت أيضا - فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ( إغاثة ) فأغث .  
فإذا هى بملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه - أو قال - بجناحه ، حتى فجر الماء ، فجعلت  
تحوضه ( تجعله حوضا ) ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف بسقائها وهو يفور بعدما تغرف ،  
فشربت وأرضعت ولدها .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال النبى - ﷺ - :

« رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا »

فقال لها الملك : « لا تخافوا ضيعة ( هلاك ) ، فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله  
لا يضيع أهله » .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله .  
فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم ( اسم قبيلة ) مقبلين من طريق كداء ( اسم  
موضع ) فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عاثقا ( حاثما ) فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء !!

لعهشنا بهذا الوادى وما فيه ماء !! فأرسلوا جريا ( رائدا ) فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

جرهم : أأأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

هاجر : نعم ، ولكن لاحق لكم بالماء .

جرهم : نعم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال رسول الله - ﷺ -

« فألقى ذلك ( وجد الحى ) أم إسماعيل وهى تحب الأنس »

فنزّلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنفسهم ( أى : سبقهم ) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم - عليه السلام - بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ( يتفقد أسرته ) فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه .

الكنة : خرج يصيد لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيتهم .

الكنة : نحن بشر !! نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه !!

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له يغير عتبة بابيه ( كناية عن الطلاق ) .

إسماعيل : هل جاءكم من أحد ؟

زوجته : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ( وصفته له ) فسألنا عنك ، فأخبرته ، فسألنى كيف

عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

إسماعيل : فهل أوصاك بشىء ؟

زوجته : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : « غير عتبة بابك »

إسماعيل : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقتك ، الحقى بأهلك ، فطلقها .

وتزوج إسماعيل منهم مرة أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم - عليه السلام - ماشاء الله ، ثم أتاهم

بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسأل عنه :

إبراهيم : أين إسماعيل ؟ وكيف أنتم ؟

الكنة : ذهب يصيد لنا ، ونحن بخير وسعة ، ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟

إبراهيم : وما طعامكم وشرابكم ؟

الكنة : طعامنا لحم ، وشرابنا الماء .

إبراهيم : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم .

فقال أبو القاسم - ﷺ -

« بركة دعوة إبراهيم » .

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه « يثبت عتبة بابيه » .

جاء إسماعيل وهو يقول : هل أأاكم من أحد ؟

الزوجة : نعم أأانا شيخ حسن الهيئة ، ( وأأنت عليه ) ، فسألنى عنك فأخبرته أنا بخير .

إسماعيل : فأوصاك بشيء ؟

الزوجة : نعم : يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .

إسماعيل : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يرى نبلا له ( قوسا ) تحت دوحه ( شجرة ) قريبة من زمزم . فلما رآه قام إليه ، وصنع كما يصنع الوالد بالولد ( أى : تعانقا ) إبراهيم : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

إسماعيل فاصنع ماأمرك ربك .

إبراهيم : وتعيننى ؟

إسماعيل : أعينك .

إبراهيم : فإن الله أمرنى أن أبني بيتا ههنا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

فعند ذلك رفع القواعد من البيت .

فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر ( المقام ) فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان :

( ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم )<sup>(١)</sup>

إلى غير ذلك من هذه القصص الواردة .

فالواعظ البارع ، والمربي الحكيم ، والداعية الموفق . يستطيعون أن يكيّفوا عرض القصة بالأسلوب الملائم الذى يتناسب مع عقلية المخاطبين ، كما أنهم يستطيعون أن يستخرجوا من القصة أهم مواطن العبرة والعظة . . ليكون التأثير أبلغ ، والاستجابة أقوى .

إذن فما على المربي إلا أن يستغل انفعال العاطفة ، ومثار الانتباه فى عرض القصة لدى السامع حتى إذا تفاعل روحيا ، وتفتح ذهنيا . . صب فى مشاعره وأحاسيسه وأعماق قلبه من معين العبرة ، وسلسيل العظة . .

وإذا هو مذعن ملتزم خلشع غبت لله رب العالمين . وعندئذ يأخذ المربي عليه العهد ليلتزم الإسلام منهاجا وتشريعا . ويتخلق بمبادئ هذا الدين سلوكا ومعاملة .

وهكذا يستطيع المربي الواعظ أن يضيف - بأسلوبه الشائق واستجلاته مواطن العبرة - على القصة جلالاتها ، وأن يترك فى النفوس أثرها ، وأن ينقل المستمع إلى أجواء الطهر والروحانية والخشوع .

( ب ) انتهاج أسلوب الحوار والاستجواب :

وذلك بطرح الأسئلة على أصحابه ، ليشير انتباههم ، ويحرك ذكاءهم ، ويقده فطنتهم ، ويسقيهم المواعظ المؤثرة فى قالب الإقناع والمحااجة .

ولنضرب على ذلك أمثلة :

١ - روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال :

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه بشرح الشيخ زروق ، فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ج ٦ ص ٣٦٠ - ٣٦٨ رقم ٤٤

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال : أتدرون من المؤمن ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم .

ثم ذكر المهاجر فقال : والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه » (١) .

٢ - وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء ؟ »

قالوا : لا يبقى من درنه شيء .

قال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمنحو الله بهن الخطايا » (٢) .

٣ - وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - :

« أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع .

قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف

هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ،

فإن فنيت قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار » (٣) .

( ج ) بدء الموعظة بالقسم بالله - تعالى : -

وذلك لتنبية السامع على أهمية القسم عليه لفعله أو اجتنابه :

- روى مسلم فى صحيحه عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « والذى نفسى بيده لا تدخلوا

الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. أو لا ادلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام

بينكم » . (٤)

- وروى البخارى من حديث أبى شريح - رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « والله

لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لا يأمن جاره بوائقه » (٥)

أى شروره ، وهذا كثير فى توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - ..

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما) - ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم . انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد) باب المشى إلى الصلاة .. الخ ص ١٣٢ رقم ٣٨٩

(٣) هذا الحديث رواه الإمام مسلم فقط .

انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ١٦ ص ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) باب لا يدخل الجنة إلا المؤمنون ج ٢ ص ٣٥

وانظر جامع الترمذى (كتاب الاستئذان) باب ماجاء فى إفشاء السلام ج ٥ ص ٥٢ رقم ٢٦٨٨

(٥) انظر صحيح البخارى (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٤

عبد الحميد كشك

في

# رَحَابِ التَّفْسِيرِ

سورة السجدة والاهزاب  
الجزء الحادي والعشرون

المكتبة المصرية الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR  
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY  
GENERAL DEPARTMENT  
For Research, Writting & Translation

الأزهر  
جمع البحوث الإسلامية  
الإدارة العامة  
بحوث والتأليف والترجمة

السيد / الأستاذ الدكتور / مدير مكتب البحوث (أحمد محمد)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته - وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : مراجعة لبيان  
الحزب الحارثي / أحمد محمد : تأليف : أحمد محمد / أحمد محمد  
نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع  
من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث  
النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام  
إدارة البحوث والتأليف والترجمة

بموقع حاهر

فهرست



تحريرا في ١٤/١٢/١٩٩١  
الموافق ٢٠/٨/١٩٩١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

في رحاب التفسير



المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر  
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧  
الاسكندرية ٧ شارع نوبل المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢  
فاكسيل القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

## (د) دمج الموعظة بالمداعبة

وذلك لتحريك الذهن ، وإذهاب الملل ، وتشويق النفس .. من هذا :

مارواه أبو داود والترمذي عن أنس - رضي الله عنه - قال : إن رجلا جاء إلى رسول الله - ﷺ - يستحمه بعيرا من الصدقة ليحمل عليه متاع بيته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إني حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ » (١)

فأنهمه - ﷺ - عن طريق هذه المداعبة أن اجمل ولو كان كبيرا يحمل الأثقال ما يزال ولد الناقة . وهذا كثير في مداعباته - عليه الصلاة والسلام - .

## (هـ) الاقتصاد بالموعظة مخافة السامة :

- روى مسلم عن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال : « كنت أصلي مع النبي ﷺ فكانت صلاته قصدا ، أي : وسطا » (٢)

- وروى أبو داود عن جابر بن سمرة : « كان رسول الله - ﷺ - لا يطيل الموعظة يوم الجمعة - إنما هي كلمات يسيرات » . (٣)

- وبما يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - : « أنه إذا خطب لا يخل ولا يُمل »

وأیضا : « كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السامة » (٤)

## (و) الهيمنة بالتأثير الوعظي على الحاضرين :

روى الترمذي عن العرباض بن سارية أنه قال : « وعظنا رسول الله - ﷺ - موعظة مضت - احترقت - منها الجلود - وذرفت منها العيون . ووجلت منها القلوب ، فقلنا : كان هذه موعظة مودع يا رسول الله ؟ فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أن اتقوا الله ، وأن تتبعوا سنتي ، وسنة الخلفاء المهديين من بعدي ، وعضوا عليها بالنواجذ ، فإن كل بدعة ضلالة » (٥)

(١) انظر سنن أبي داود بتحقيق أحمد محيى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء في المزاج ج ٤ ص ٣٠٠ رقم ٤٩٩٨ وانظره في سنن الترمذي (في كتاب البر والصلة) باب ماجاء في المزاج ج ٤ ص ٣٥٧ رقم ١٩٩١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب ..

(٢) رواه مسلم بمعناه في (كتاب الصلاة) باب القراءة في الصبح ج ١ ص ٣٣٧ رقم ٤٥٨ / ١٦٩

وانظر نصه في مسلم في (كتاب الجمعة) باب تخفيف الصلاة والخطبة ج ٢ ص ٥٩١ رقم ٨٦٦ / ٤١

(٣) انظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) تفريع أبواب الجمعة : باب إقصار الخطب ج ١ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ رقم ١١٠٧

(٤) انظر صحيح البخاري (كتاب كيف كان بدء الوحي) باب ماكان النبي - ﷺ - يتخولهم بالموعظة والعلم .. الخ ج ١ ص ٢٧ من رواية ابن مسعود - رضي الله عنه .

وانظر صحيح مسلم (كتاب صفة المنافقين وأحكامهم) باب الاقتصاد في الموعظة ج ٤ ص ٢١٧٢ ، ٢١٧٣ رقم ٨٢ ، ٨٣ والترمذي رقم ٢٨٥٥ .

(٥) انظر الجامع الصحيح للترمذي (كتاب العلم) باب ماجاء في الأخذ بالسنة واختتاب البدع ج ٥ ص ٤٤ رقم ٢٦٧٦ ولفظه « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبد حبشي ؛ فإنه من يشئ منكم ير اختلافًا كثيرا ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

جاء فى المسند ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله - ﷺ - يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر : يمجّد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله - ﷺ - المنبر ، حتى قلنا :  
ليخرن به ، أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ (١) .

ولا يتصف الواعظ الداعية بهذه الهيمنة والتأثير إلا أن يكون مخلص النية ، رقيق القلب ، خاشع النفس ، طاهر السريرة ، مشرق الروح ، وإلا فالمسئولية كبيرة عند رب العالمين .  
روى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلًا بإرسال جيد عن مالك بن دينار عن الحسن - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أراد بها ؟ » (٢) .

فكان مالك إذا حدث بهذا الحديث بكى ، ثم يقول : تحسبون أن عيني تفر بكلامى عليكم ؟ وأنا أعلم أن الله - عز وجل - سائلى عنه يوم القيامة : ما أردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك ، لم أقرأ به على اثنين أبدا .

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبى به قلوب الرجال ، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام ، يتكلم بنبضات قلبه ، ولواعج حزنه وأساه ، لما آل إليه حال المسلمين !! فلا شك أن تأثير الثانى أبلغ ، والاستجابة إليه أقوى ، والاتعاظ بكلامه أعظم .  
قال عمر بن ذر لأبيه : يا أبت : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يا بنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة .

روى أبو داود عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :  
« من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا » (٣) .  
- معنى ( الصرف ) : التوبة ، والعدل : الفدية .

( ز ) الموعظة بضرب المثل .  
كان - عليه الصلاة والسلام - يستعين على توضيح مواعظه بضرب المثل مما يشهده الناس بأم

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب صفة القيامة والجنة والنار ) ج ١٧ ص ١٣٢ ولفظه :  
قال : « ياخذ الله - عز وجل - سمواته وأراضيه بيديه فيقول : أنا الله - ويقبض أصابعه ويسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إني لأقول : أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ !  
وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب : ذكر البعث فقد أورده مع اختلاف فى بعض الألفاظ وقال فى الزوائد : إسناده صحيح .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ( باب : من لم ينفعه علمه ضره جهله ) ج ١ ص ١٢٦ وقال المنذرى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلًا بإرسال جيد .

(٣) انظر سنن أبى داود بتحقيق محمد عمى الدين عبد الحميد ( كتاب الأدب ) باب ماجاء فى المنشق فى الكلام ج ٤ ص ٣٠٢ رقم

أعينهم ، ويقع تحت حواسهم ، وفي تناول أيديهم ؛ ليكون وقع الموعظة في النفس أشد ، وفي الذهن أرسخ .

- روى النسائي في سننه عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة ( فاكهة تشبه البرتقال ) ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير ( كمثل الحداد النافخ في النار ) إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » (١)

وفي هذه التشبيهات النبوية أبلغ ترغيب في الخير ، وأزجر تحذير عن الشر ، بأوضح أسلوب يدركه المخاطبون .

### ( ح ) الموعظة بالتمثيل باليد :

وكان - ﷺ - إذا أراد أن يؤكد أمراً هاماً يمثل بكلتي يديه إشارة منه إلى الأمر الهام الذى يجب أن يهتموا به ويمثلوه .

- روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً - وشبك رسول الله بين أصابعه - » . (٢) .  
- روى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنهم - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى . (٣) .

- وروى الترمذى في سننه عن سفيان بن عبد الله البجلي - رضى الله عنه - قال :

قلت : يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به ، قال : « قل ربى الله ثم استقم »

قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ فأخذ - عليه الصلاة والسلام - بلسان نفسه ثم قال :

( هذا ) (٤) .

(١) انظر سنن النسائي ( كتاب الإيمان وشرائعه ) باب : مثل الذى يقرأ القرآن من مؤمن ومتناق ج ٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ من رواية أنس عن أبى موسى الأشعرى .

وليس في الحديث : « ومثل جليس السوء ... الخ »  
وأما نص الحديث الذى معنا ففى سنن أبى داود ، في ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ .

(٢) الحديث في اللؤلؤ والمرجان في ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .. الخ ص ٧٠٣ رقم ١٦٧٠ بلفظ : « إن المؤمن .. الحديث »

(٣) انظر صحيح البخارى ( كتاب الطلاق ) ج ٦ ص ١٧٠ ، و ( كتاب الأدب ) ج ٧ ص ٧٢ وفي سنن أبى داود في ( كتاب الأدب ) باب فيمن ضم اليتيم ج ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠

(٤) روى الترمذى هذا الحديث في ( كتاب الزهد ) باب : مجاء في حفظ اللسان ج ٤ ص ٦٠٧ رقم ٢٤١٠ عن سفيان بن عبد الله الثقفى .

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

## (ط) الموعظة بالفعل التطبيقى :

وكان - ﷺ - يعطى لأصحابه النموذج الحى فى أسلوب التعليم والتربية والتكوين . وإليكم بعض الأمثلة :

- روى أبو داود والنسائى وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله كيف الطهور ؟ ( أى : الوضوء ) فدعا رسول الله - ﷺ - بماء فى إناء ، فغسل كفيه ثلاثا حتى استوفى ، ثم قال : « فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدى وظلم » . (١) .  
- وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - ﷺ - توضأ أمام جمع من الناس ، ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين ، لا يحدث فيهما نفسه بشئ من الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه » . (٢) .

- وروى البخارى حديثا ذكر فيه أنه - ﷺ - صلى مرة بالناس إماما وهو على المنبر ليروا صلاته كلهم ، ولتتعلموها من أفعاله ومشاهداته فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « يا أيها الناس : إنما صنعت هذا لتأتموا بى ، ولتعلموا صلاتى » . (٣) .

## (ك) الموعظة بإنتهاز المناسبة :

وكان - ﷺ - كثيرا ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم ؛ لتكون أبلغ فى التأثير ، وأفضل للفهم والمعرفة ، ومن ذلك :

- روى مسلم عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - مر بالسوق داخلا من بعض العالمة والناس كفتيته ( أى : عن جانبيه ) فمر بجدى أسك ( أى : صغير الأذنين ) ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » قالوا : مانحب أنه بشئ ، أو مانصنع به ؟  
قال : « أحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيا كان هذا السك عيبا ، فكيف وهو ميت ؟  
فقال : « فو الله ، للذنيا أهون على الله من هذا عليكم » . (٤) .

- وروى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قدم على رسول الله سبى فإذا امرأة من السبى ( الأسرى ) قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى ، فأخذته فالزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ - وهى تقدر على ألا تطرحه - ؟ » .

(١) سنن أبى داود (كتاب الطهارة) باب : الوضوء ثلاثا ج ١ ص ٣٣ رقم ١٣٥ .

ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطهارة) باب الاعتداء فى الوضوء ج ١ ص ٨٨ .

وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة) باب : ماجه فى القصد فى الوضوء وكراهية التعدى فيه ج ١ ص ١٤٦ رقم ٤٢٢ .

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الطهارة) باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ج ١ ص ٣٣١ رقم ٢١ من رواية عثمان بن عفان ، وفى ص ٣٣٥ رقم ٢٦ .

وأنظره فى (كتاب الصوم) من نفس المصدر ، باب : سواك الرطب واليابس للضائم ج ٤ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ رقم ٤١ .

(٣) البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجمعة) باب : الخطبة على المنبر ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ رقم ٣٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (فى كتاب الزهد) ج ١٨ ص ٩٣ .

قلنا : لا والله ، قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .<sup>(١)</sup>

( ي ) الموعظة بالالتفات إلى الأهم :

وكان - ﷺ - يلفت السؤال عن سؤال إلى شيء أهم ، من ذلك :

ماروى البخارى ومسلم عن أنس - رضى الله عنه - أن أعرابيا سأل رسول الله - ﷺ - فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « ماذا أعددت لها ؟ » قال : حب الله ورسوله .

فقال : « أنت مع من أحببت » .<sup>(٢)</sup>

فلفته - ﷺ - عن سؤاله عن قيام الساعة - التي اختص الله بعلمها - إلى شيء آخر هو أحوج مايكون إليه ، وهو اعداد العمل الصالح لهذا اليوم الذى يقوم فيه الناس لله رب العالمين .

( ل ) الموعظة بإظهار المحرم الذى ينهى عنه :

وكان - ﷺ - يحمل بيده الشيء المحرم الذى ينهى عنه ، ويرفعه أمام المخاطبين ، ليقرر لهم الشيء المنهى عنه بالقول والمشاهدة ، ليكون ذلك أزجر للنفوس ، وأقطع فى الدلالة على التحريم ، من ذلك :

ماروى أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : أخذ رسول الله - ﷺ - حريرا بشماله ، وذها بيمينه ، ثم رفع بهما يديه ، فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى ، حل لإنائهم » .<sup>(٣)</sup>

تلكم أهم الأساليب التى كان يتبعها المعلم الأول - ﷺ - فى توجيه الكبار ، وتعليم الصغار ، وإرشاد الخاصة ، وهداية العامة ، وتثبيت الفضائل ، وتقويم الاعوجاج . . . وهى . . . كما رأيتم - أيها المربون - طرائق متنوعة ، ووسائل مختلفة . . . بل كان - عليه الصلاة والسلام - لا يختص بأسلوب واحد فى إرشاد الناس وهدايتهم ، وإصلاحهم وتوجيههم ، وإنما كان ينتقل بهم من القصة إلى الحوار والاستجواب ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن ضرب الأمثال إلى التوضيح بالرسم أو التمثيل باليد . . . ومن الموعظة بالكلمة إلى الاقتداء بالفعل ، ومن التذكير بالقرآن الكريم إلى استجلاء العبرة بانتهاز المناسبة . . . ومن السؤال المهم إلى السؤال الأهم ، ومن النهى بالقول إلى النهى بالمشاهدة . . .

ولا يخفى مافى هذا التنوع من الأساليب من أثر كبير فى ترسيخ المعلومات ، وإثارة الفهم ، وتحريك الذكاء ، وقبول الموعظة ، وقدح الفطنة والانتباه لدى المخاطب والولد . . . فالمرء حين يحسن عرض هذه الأساليب فى إلقاء مواعظه وإرشاداته على من يقوم بإعدادهم وتربيتهم من أهل وولد وتلاميذ . . . فإنهم - لاشك - يتعلمون ويطبقون ويتأثرون . . . ويكونون دعاة خير

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب التوبة) باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ص ٧٤٨ رقم ١٧٥١

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب المرء مع من أحب ص ٧١٤ رقم ١٦٩٣

(٣) أبو داود (كتاب اللباس) باب : فى الحرير للنساء ج ٤ ص ٥٠ رقم ٤٠٥٧ والنسائى (كتاب الزينة) باب : تحريم الذهب على الرجال ج ٨ ص ١٦٠ وابن ماجه (كتاب اللباس) باب ليس الحرير والذهب للنساء ج ٢ ص ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥ .

وأئمة هدى ، وجنود رسالة ، وأبطال جهاد . . بل يكونون القاعدة الصلبة فى بناء المجتمع الفاضل ، وإقامة دولة الإسلام .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بطرق الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى التوجيه وأساليبه فى الموعدة لكونها أحسن الطرق وأفضل الأساليب ؛ لأن الرسول - ﷺ - لا ينطق عن الهوى ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو مصنوع على عين الله ، ومشمول دائماً برعايته وعنايته .

وإذا كان الأمر كذلك فكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال وتقريرات فهى تشريع للإنسانية وهداية لها على مدى الزمان والأيام .

ويكفيه - عليه الصلاة والسلام - فخرا وشرفا وخلودا أن يقول الله - سبحانه - فيه : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ الأحزاب : ٢١ وأن يقول أيضا : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ( النساء : ٨٠ )

وعلينا أن نعلم أن المربى إن لم يتحل بما يقول ، وإن لم يطبق ما يعظ الناس به ، فلا أحد يقبل كلامه ، ولا إنسان يتأثر بموعظته ، ولا مخاطب يستجيب لندائه ، بل يكون محل نقد العامة ، واستهزاء الخاصة ، واستهجان الناس أجمعين لأن الكلمة التى لاتنبعث من القلب ، لاتنفذ إلى القلب . . والموعظة التى لاتمتزج بالروح لاتؤثر فى النفس ، ولقد سمعتم قبل قليل ما أجاب الأب ولده حين سأله : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ أجاب :

( يابنى ليست النائحة التكللى مثل النائحة المستأجرة )

ويقصد ليس الداعية المكلم على الإسلام ، والمتحل بالإيمان ، مثل الواعظ المناق المهرج . أسأل الله - تعالى - أن ينفعنا بما سمعنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وقد عقد الإمام أبو الفرج بن الجوزى - رحمه الله تعالى - بابا فى الوصايا والمواعظ والزواجر ، قال فيه بسنده عن يحيى بن كثير قال : إن أبا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاه الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا ، النجا النجا .

وقال أحمد بسنده : عن ابن مسعود ، أنه كان يقول : إنكم فى عمر الليل والنهار ، فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة ، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مازرع .

وقال إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبى زكريا التيمى : قال : بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب مابقى من أجلك لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك ورحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك

وحشمك ، فبان منك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيب ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا في حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة ، قبل الحسرة والندامة .

وقال محمد بن أبي منصور بسنده عن يحيى بن عبد الملك قال : كتب الأوزاعي إلى أخ له : أما بعد : فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، وأعلم أنه يسارك في كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال المحمّدان بن عبد الملك بسنده عن الفضيل بن عياض قال : بلغني أن رجلا كتب إلى داود الطائي : أن عظمي بموعظة .

قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك ، واجعل فطرك الموت ، فكان قد . والسلام .  
قال : فكتب إليه : زدني . فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك ، كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

وقال محمد بن ناصر بسنده عن سفيان ، قال : أوحى الله - تعالى - إلى موسى بن عمران : أنه ليست عقوبتي لمن عرفني واجترأ على كمن لم يعرفني .

وقال ابن ناصر بسنده عن ابن حاتم الترمذي قال : رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالا يعينك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله ؟ !  
وقال محمد بن أبي منصور بسنده عن إبراهيم بن بشار قال : مررت أنا وأبو يوسف الفسولي في طريق الشام ، فوثب إليه رجل فسلم عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف عظمي بموعظة أحفظها عنك .  
قال : فبكى ، ثم قال :

أعلم يا أخى أن اختلاف الليل والنهار ومجرهما يسرعان في هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغي لك يا أخى ألا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أوراخ عنك بفضلته ورحمته ؟

ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا فسترد وتعلم وتندم في وقت لاينفعك الندم .

قال : ويكى أبو يوسف : ويكى الرجل ويكى لبكائهما ، ووقعا مغشيا عليهما !!  
ووعظ أعرابي ولده فقال : لا الدهر يعظك ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك ، وأحب أمريك إليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن في أضغاث أحلام . والسلام



## \* الإحسان إلى الوالدين \*

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تعطهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ التفسير :

قال مجاهد : مشقة : وهن الولد

وقال قتادة : جهدا على جهد

وقال عطاء الخراساني : ضعفا على ضعف

وقوله ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ، كما قال - تعالى -  
﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١) الآية  
ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال في الآية  
الأخرى :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾ (٢) وإنما يذكر - تعالى - تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في شهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال - تعالى - : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾ (٣) .

ولهذا قال : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إلى المصير ﴾ أى : فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء  
قال ابن حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبي شيبه ومحمود بن غيلان ، قالا : حدثنا  
عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحق ، عن سيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان  
بعثه النبي - ﷺ - فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إني رسول رسول الله - ﷺ - إليكم أن تعبدوا  
الله ، ولا تشركوا به شيئا . وأن تطيعوني لا آلوكم خيرا ؛ وإن المصير إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار ،  
إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أى : إن حرصا عليك  
كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعه ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا  
معروفا ، أى : بحسنا إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما  
كنتم تعملون ﴾

قال الطبراني في كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد  
ابن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبي هند أن سعد بن مالك قال : أنزلت  
في هذه الآية .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما .. ﴾ الآية . قال : كنت رجلا برا

(١) الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الإسراء .

بأمرى فلما أسلمت قالت : يا سعد : ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ ! لقد عن دينك هذا أو لا أكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، فيقال : يا قاتل أمه .

فقلت : لا تفعل يا أمه فإنى لا أدع دينى هذا لشيء .

فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لا تأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه تعلمين - والله - لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشيء ، فإن شئت فكلى وإن شئت لا تأكلى . فأكلت .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -

« خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم فأصابهم السماء فلعجأوا إلى جبل ، فوقع عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : عفا الأثر ، ووقع الحجر ، ولا يعلم بمكانكم إلا الله ، فادعوا الله بأوثق أعمالكم ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى امرأة تعجبنى فطلبته فأبى على فجعلت لها جعلا فلما قربت نفسها تركتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا ، فزال ثلث الحجر . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى والدان ، وكنت أحلب لهما فى إنائهما ، فإذا أنيتهما وهما نائمان قمت حتى يستيقظا فإذا استيقظا شربا ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا .

فزال ثلث الحجر . وقال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيورا يوما فعمل لى نصف النهار فأعطيته أجرا فسخطه ولم يأخذه فوفرتها عليه حتى صار من كل المال ، ثم جاء يطلب أجره ، فقلت : خذ هذا كله ، ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأول ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا . فزال الحجر وخرجوا يتماشون . رواه ابن حبان فى صحيحه <sup>(١)</sup> وعن أبى هريرة أيضا - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابى ؟ قال : أمك ، قال :

ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك . رواه البخارى ومسلم <sup>(٢)</sup>

وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنها - قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله - ﷺ - فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صلي أمك » . رواه البخارى ومسلم <sup>(٣)</sup> وأبو داود ، ولفظه :

قالت : قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب وهى راغبة مشركة ، فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغبة مشركة ،

(١) الحديث فى الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى ( كتاب الرقائق ) باب ذكر الخصال التى يرمى للمرء باستعمالها زوال الكرب فى الدنيا عنه . ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ رقم ٩٦٧

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب : بر الوالدين .. الخ ص ٦٩٣ رقم ١٦٥٢

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الزكاة ) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين .. الخ ص ٢٠٦ رقم ٥٨٧ .

أفأصلها؟ قال : « نعم صلى أمك . »<sup>(١)</sup> ومعنى ( راغبة ) أى : طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها ، ومعنى ( راغمة ) أى : كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :  
« رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » . رواه الترمذى ، ورواه الطبرانى<sup>(٢)</sup>  
من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : « طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد » .  
وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال : بينا نحن جلوس عند رسول  
الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد  
موتهما؟

قال : « نعم ؛ الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى  
لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » . رواه أبو داود وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى  
آخره : قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيعيه؟ ! قال : « ما عمل به »<sup>(٣)</sup>  
وعن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه  
بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت فى رأسه .  
قال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير . فقال عبد الله بن  
عمر : إن أباه هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أبر البر  
صلة الولد أهل ود أبيه » رواه مسلم<sup>(٤)</sup>

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك؟ قال :  
قلت : لا . قال : سمعت رسول - ﷺ - يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل لإخوان أبيه  
بعده » وأنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك . رواه ابن حبان فى  
صحيحه .<sup>(٥)</sup>

### احذر عقوق الوالدين :

وكما أوصى الإسلام ببر الوالدين وحث عليه حذر فى نفس الوقت من عقوقهما ، ورهب منه :

(١) انظر سنن أبى داود ( كتاب الزكاة ) باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ١٢٧ رقم ١٦٦٨  
(٢) انظر الترمذى ( أبواب البر والصلة ) باب الفضل فى رضا الوالدين ج ٣ ص ٢٠٧ رقم ١٩٦٢ وانظر مجمع الزوائد للهيثمى  
( كتاب البر والصلة ) باب ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦  
وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب البر والصلة ) باب : رضا الرب فى رضا الوالد ج ٤ ص ١٥٢  
(٣) سنن أبى داود ( كتاب الأدب ) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤٢ وابن ماجه ( كتاب الأدب ) باب : صل من  
كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) انظر فى صحيح مسلم فى ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم  
٢٥٥٢/١١

(٥) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ( كتاب البر والإحسان ) باب ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته  
من وصله رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال :  
 « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة  
 السؤال ، وإضاعة المال » . رواه البخارى وغيره .<sup>(١)</sup>  
 وعن أبى بكره - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ -  
 ثلاثا قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال :  
 ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .

رواه البخارى ومسلم والترمذى<sup>(٢)</sup>  
 وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : « الكبائر :  
 الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى<sup>(٣)</sup> .  
 وفى كتاب النبي - ﷺ - الذى كتبه إلى أهل اليمن ، ويحث به مع عمرو حزم : « وإن أكبر  
 الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراف بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق ، والفرار فى سبيل الله يوم  
 الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ..  
 الحديث » رواه ابن حبان فى صحيحه<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم  
 القيامة :

العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان عطاءه . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ،  
 والديوث ، والرجلة »

رواه النسائى والبزار<sup>(٥)</sup>

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« ثلاثة لا يقبل الله - عز وجل - منهم صرفا ولا عدلا :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الأقضية ) باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات .. الخ ص ٤٣٠ رقم ١١١٧

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الإيمان ) باب بيان الكبائر وأكبرها ص ١٦ رقم ٥٤ وانظر سنن الترمذى ( كتاب البر والصلة ) باب ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٤ ص ٣١٢ رقم ١٩٠١ .

(٣) صحيح البخارى ( كتاب الإيمان والنور ) ج ٧ ص ٢١٢ و ( كتاب الديات ) ج ٨ ص ٣٤

(٤) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى ( باب كتب النبي ﷺ ) وذكر كتبه المصطفى - ﷺ - كتابه إلى أهل اليمن ج ٨ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ رقم ٦٥٢٥

(٥) رواه النسائى فى سننه فى ( كتاب الزكاة ) باب : المنان بما أعطى ج ٥ ص ٨٠ ، ٨١ مع تقديم وتأخير فى الألفاظ . وانظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وقال : رواه البزار بإسنادين رجالهما ثقات .

والحديث فى كشف الاستار عن زوائد البزار فى ( كتاب البر والصلة ) باب العقوق ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ١٨٧٥

عاق ، ولا منان ، ومكذب بقدر ، رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة بإسناد حسن<sup>(١)</sup> وروى عن ثوبان - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبرانى فى الكبير<sup>(٢)</sup>

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا :

يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ؛ يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى<sup>(٣)</sup>

وعن عمرو بن مرة الجهنى - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله ، شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان . فقال النبى - ﷺ - : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - ما لم يعق والديه » رواه أحمد والطبرانى<sup>(٤)</sup>

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : أوصانى رسول الله - ﷺ - بعشر كلمات ، قال : « لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت ، ولا تعتن والدك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك »<sup>(٥)</sup> وروى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن مجتمعون ، فقال : « يامعشر المسلمين : اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ؛ فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريع الجنة توجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين ، والكذب كله إثم إلا ما نفع به مؤمنا ،

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد من طريق آخر فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧ والحديث من طريق أبى أمامة أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ج ٨ ص ١٤٠ رقم ٧٥٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ تفسير سورة الأنفال .

وقال : هذا أيضا حديث غريب جدا .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بيان الكبائر وأكبرها ص ١٧ رقم ٥٧ ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين رقم ١٩٠٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤١ والترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ص ٢٠٨ رقم ١٩٦٥ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الدر المنثور للسيوطى فى تفسير سورة النساء (تفسير قوله تعالى : ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم . الآية ج ٢ ص ٥٩٠ من رواية أحمد عن عمرو بن مرة الجهنى ورواه فى الترغيب والترهيب للمنذرى فى (كتاب البر والصلة) باب الترهب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٢ وقال الترمذى : رواه أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما باختصار .

(٥) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب الترهب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٣ وقال المنذرى : رواه أحمد وغيره .

ودفعت به عن دين ، وإن في الجنة لسوقا مايباع فيها ولا يشتري ، ليس فيها إلا الصور فمن أحب صورة من رجل أو امرأة دخل فيها . رواه الطبراني في الأوسط .<sup>(١)</sup>

وعن أبي بكرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه في الحياة قبل الممات »<sup>(٢)</sup> رواه الحاكم والأصبهاني كلاهما من طريق بكار بن عبد العزيز ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد وروى عن عبد الله بن أبي أوفى - رضى الله عنه قال :

كنا عند النبي - ﷺ - فأتاه آت ، فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لا إله إلا الله ، فلم يستطع .

فقال : « كان يصلى ؟ » فقال : نعم ، فنهض رسول الله - ﷺ - ونهضنا معه ، فدخل على الشاب فقال له :

« قل : لا إله إلا الله » فقال : لا أستطيع . قال :

« لم ؟ » قال : كان يعق والدته . فقال النبي - ﷺ - :

« أحيه والدته ؟ » قالوا : نعم . قال : « ادعوها »

فدعوها فجاءت ، فقال : « هذا ابنك ؟ » فقالت :

نعم . فقال لها : « أرايت لو أجمت نار ضخمة فقيل لك : إن شفعت له خلينا عنه ، وإلا

حرقناه بهذه النار ، أكنت تشفعين له ؟ » قالت :

يا رسول الله إذن أشفع له . قال : « فأشهدى الله وأشهدينى قد رضيت عنه » قالت : اللهم إني

أشهدك وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابني فقال له رسول الله - ﷺ - : « يا غلام قل : لا إله إلا

الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » فقالها . فقال رسول الله - ﷺ - : « الحمد لله

الذى أنقذه من النار »

رواه الطبراني ، وأحمد مختصرا<sup>(٣)</sup>

وعن العوام بن حوشب - رضى الله عنه - قال : نزلت مرة حيا ، وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ،

فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد إنسان ، فنهق ثلاث

نهقات .

(١) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب : ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ج ٣ ص ٥٤٤ رقم ١٤ ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد في (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء في العقوق ج ٨ ص ١٤٩ وقال : رواه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن كثير عن جابر الجعفي وكلاهما ضعيف جدا .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم في (كتاب البر والصلة) ج ٤ ص ١٥٦ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبي فقال : قلت : بكار ضعيف .

(٣) انظر مجمع الزوائد للهيتمي كتاب البر والصلة باب ما جاء في العقوق ج ٨ ص ١٤٧ بنفس لفظه وقال الهيثمي : رواه الطبراني وأحمد باختصار كثير وفيه فائد أبو الزقاء وهو متروك .

ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : ما لها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت :

وما كان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يا بنى اتق الله ، إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قالت : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر . رواه الأصبهاني وغيره . قوله - تعالى :

﴿ يا بنى إنما إنك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصمر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ (١) .

وأخذ لقمان الحكيم يربي ملكة الرقابة الإلهية في نفس ابنه ، وفي نفس كل عاقل رشيد ، فقال له : يا بنى : إنما إنك مثقال حبة من خردل أى : المظلمة أو الخطيئة التى يفعلها العبد لو كان حجمها كأصغر الأشياء ، واحتجبت حجبا منيعا في صخرة ، أو كانت في عالم السموات العلا أو في أرجاء الأرض فإن الله يأتى بها يوم القيامة ، ويسأل : العبد عنها .

فيأليها العاقل : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

الله يدري كل ما تضممر      يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت للناس لم تستطع      خداع من يطوى ومن ينشر

ويأتى ختام الآية مناسبا لصدرها ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أى : عليم بدقائق الأشياء ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (٢)

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (٣) .

فسبحان من يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء في الليلة الظلماء .

يامن يرى من البعوض جناحه      في ظلمة الليل البهيم الأليل

ويرى نياط عروقتها في نحرها      والمخ في تلك العظام النحل

(١) من الآية : ١٦ - ١٩ من سورة لقمان .

(٢) من الآية : ٣ من سورة سبأ .

(٣) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

ويرى ويسمع ما يرى مادونها في قاع بحر زاخر متجندل

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقيض أجل مسمى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (١)

ويقول : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . إلا الله بكل شيء عليم ﴾ (٢)

ويقول : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٣)

ويقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٤)

ويقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ (٥)

ثم يجمع له الخير كله فيقول له :

( يا بني أقم الصلاة ) وإقامتها : الإتيان بها كاملة تامة الأركان والشروط والسنن ، مستقيمة الأداء ، إذ أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، وهي مفتاح الجنة ، إن حسنت حسن سائر أعمال العبد .

كان رسول الله - ﷺ - يحدثنا ونحدثه ، ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

هكذا قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها -  
فالصلاة عماد الدين ، وهي الصلة بين العبد وربّه ، ثم بعد ذلك يأتي بصمام أمن المجتمع فيأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو ركن من أركان الدين ، ويوم يختل ذلك الركن سيصير

(١) الأتيان : ٥٩ ، ٦٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الأتيان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

(٤) الآية : ١٩ من سورة غافر .  
سورة الزلزلة .



المنكر معروفا والمعروف منكرا ، والذئب راعيا والخصم العنيد قاضيا .  
ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الحصون المنيعه ، والأسوار العاليه التى ضربت حول  
الأمة لتقيها شر الذئاب الضارية ، والكلاب العاديه ، والجرائم الشنيعه ، والإثم والبغى والعدوان  
والفواحش - لما كان ذلك كذلك - شدد رسول الله - ﷺ - فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى  
أحاديث تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأفئدة .

عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يؤق بالرجل يوم  
القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل  
النار ، فيقولون : يا فلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟

فيقول : بلى !! كنت آمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية » رواه البخارى ومسلم . (١)  
وفى رواية لمسلم قال : قيل لأسامة بن زيد : لو أتيت عثمان فكلمته ؟ فقال : إنكم لترون أنى  
لا أكلمه إلا أسمعكم ، وإنى أكلمه فى السر دون أن أفتح بابا لا أكون أول من فتحه ، ولا أقول لرجل أن  
كان على أميرا : إنه خير الناس بعد شئ سمعته من رسول الله - ﷺ - قال : وما هو ؟ قال : سمعته  
يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ،  
فيجتمع أهل النار عليه ويقولون : يا فلان ماشأنك ؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟  
فيقول :

كنت آمركم بالمعروف ولا آتية ، وأناهم عن الشر وآتية » . (٢)

( الأقتاب ) : الأمعاء ، واحدها : قتب

( تندلق ) أى : تخرج

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« رأيت ليلة أسرى بى رجلا تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال :

الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ ! »

رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، والبيهقى . (٣)

وفى رواية لابن أبى الدنيا : « مرت ليلة أسرى بى على قوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار :  
كلما قرضت عادت ، فقلت :

يا جبريل : من هؤلاء ؟ قال : خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ؟ »

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الزهد والرقائق ) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ص  
٨٣٣ ، ٨٣٤ رقم ١٨٨٢ .

انظر البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب بدء الخلق ) باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٦ ص ٣٠١ رقم ٧٧  
(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الزهد ) باب : عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ج ١٨  
ص ١١٧ ، ١١٨ ورواية مسلم هذه هى التى وردت بلفظ :

« يثبت .. الحديث » وليست كما ذكرها المؤلف ، فهناك اختلاف فى كثير من الألفاظ .  
وهذه الرواية تتفق كثيرا مع لفظ حديث البخارى .

(٣) انظر صحيح ابن حبان ( كتاب الإسراء ) باب ذكر وصف الخطباء الذين يتكلمون على القول دون العمل حيث رآهم -

وفى رواية للبيهقى قال : « أتيت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالا يفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - قال : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ما أردت بها ؟ قال : فكان مالك - يعنى ابن دينار - إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عيني تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائل عن يوم القيامة ؟ قال : ما أردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبدا . رواه أبى الدنيا ، والبيهقى مرسلًا بإسناد جيد (١) .

وروى عن الوليد بن عقبة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » . رواه الطبرانى فى الكبير (٢) .

وعن أبى تيمية عن جندب بن عبد الله الأزدي صاحب رسول الله - ﷺ - ، رضى الله عنه عن رسول الله - ﷺ - قال : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ، ويحرق نفسه » . (٣) رواه الطبرانى وإسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبى برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

وعن عمران بن حصين - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إني أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان » . رواه الطبرانى فى الكبير والبزار . (٤)

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - ، عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الرجل لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله . ويأمن جاره بوائقه » رواه الأصبهاني . (٥)

وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إني لا أخوف على أمتي مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أخوف عليكم منافقا

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ رقم ٨ وقال : - رواه ابن أبى الدنيا - والبيهقى مستندا بإسناد جيد .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ رقم ٧ وقال : - رواه الطبرانى فى الكبير .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٦ رقم ١١ وقال : - رواه البزار عن أبى برزة . وانظر رقم ١٣ من نفس المرجع . وقال (٤) المنذرى رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن .

(٥) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٨ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ورواه محتج بهم فى الصحيح ، ورواه أحمد من حديث عمر بن الخطاب .

انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٨ رقم ١٩ وقال : رواه الاصبهاني بإسناد فيه نظر .

عالم اللسان يقول ماتعرفون ، ويفعل ماتنكرون . رواه الطبرانى فى الصغير ، والأوسط من رواية الحارث (١)

- معنى ( فيحجزه ) : يمنعه . ومعنى ( يقمعه ) : يضربه بالقمعة كالمجن .

وعن الأغرب بن مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بعث إليه فدعاه فأتاه ، فقال : إني أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق ، وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف ، وعمل بالمنكر ، يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تحجب يدك من دمائهم ، وأن تضمر بطنك من أموالهم وأن تحجب لسانك عن أعراضهم فافعل ، ولا قوة إلا بالله . رواه الطبرانى

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »

رواه ابن حبان فى صحيحه (٢)

- معنى ( الجذع ) : جذع النخلة .

قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى : من الأمور المعزوم عليها ، المرغوب فيها ،

المحبة إلى قلوب المؤمنين .

قوله - تعالى - : ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾

أى : امش مقتصدا ، مشيا ليس بالبطء المتشط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين .

قال - تعالى - : ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ (٣)

وقال - جل شأنه - :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ (٤)

وقال فى حق النساء : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾ (٥)

وقال : ﴿ فجاءته إحداها تمشى على استحياء ﴾ (٦)

أى : لاتبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه .

﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال مجاهد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٧ وقال : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث - وهو الأعدو - وقد وثقه ابن حبان وغيره .

(٢) انظر ابن حبان الخطر والإباحة باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تفقد عيوب نفسه .. الخ ج ٧ ص ٥٠٦ رقم ٥٧٣١

(٣) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء

(٤) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية : ٣١ من سورة النور ..

(٦) من الآية : ٢٥ من سورة القصص .

رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله - تعالى - وتشبيه الصوت هنا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه ، وذلك كتشبيه العائد في هبته كالكلب الذى يعود فى قيئه . قال - ﷺ - :  
« ليس منا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه » (١) .

روى النسائى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :  
« إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيى الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ؛ فإنها رأت شيطانا » . (٢) .

تعقيب طيب :

عقب الإمام الحافظ ابن كثير على تلك الوصايا اللقمانية تعقيبا مفيدا ، أسأل الله أن ينفع به .  
قال - رحمه الله تعالى - :

هذه وصايا نافعة جدا ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم ، وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أغودجا ودستورا إلى ذلك ، قال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله - ﷺ - قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن القاسم بن غيمرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بنى إياك والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار »  
وقال لابنه : إن الحكمة أجلسست المساكين مجالس الملوك .

وقال أيضا لابنه : يا بنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام ، ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأحل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

### فى فضيلة الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا مفردا ، ونحن نذكر منه مقاصده ، قال :

حدثنا إبراهيم بن المنذر بسنده عن أنس بن مالك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره » (٣) وروى أيضا عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الهبة) ج ٣ ص ١٣١

(١) انظر عمل اليوم والليلة لابن السنى (باب مايقول إذا سمع الديكة) ص ٩٧ رقم ٣١٢

وانظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : مجاء فى الديك والبهائم ج ٤ ص ٣٢٧ رقم ٥١٠٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد بنحوه ج ٣ ص ١٤٥ وانظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ١ ص ٢٣٤ و ٢٣٥

غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصاييح مجردون من كل فتنة غبراء مشتة (١) وفى رواية أخرى « قلوبهم مصاييح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » وقال أيضا : حدثنا اسحاق بن إبراهيم بسنده عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن من أمتى من لو أتي باب أحدكم يسأله دينارا أو درهما أو فلسا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأل الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » قال ابن كثير : حديث مرسل من هذا الوجه (٢) وعن عبد الله بن عمرو قال : « أحب عباد الله إلى الله الغبراء : قيل ومن الغبراء ؟ قال : الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم » (٣) وقال الفضيل بن عياض بلغنى : أن الله - تعالى - يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أترك ؟ ألم .. ألم .. ألم أجعل ذكرك ؟ » ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تعرف فافعل ، وما عليك الاثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموما عند الناس محبوا عند الله ؟ ! . وكان ابن محيرز يقول : اللهم إني أسألك ذكرا خاملا . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك .

### باب ماجاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى بالسند عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرئ من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » (٤) . قيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟ فقال : إنما المراد : من يشار إليه فى دينه بالبدعة ، وفى دنياه بالفسق . وعن على - رضى الله عنه - قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر ، . وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم - رحمه الله - ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس . وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . ورأى طلحة قوما يمشون معه فقال : ذباب طمع ، وفراش نار . وقال ابن عون : عن

(١) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٣) انظر تفسير بن كثير ج ٦ فى تفسير سورة لقمان ص ٣٤٥ فصل فى الخمول والتواضع .

(٤) انظر إتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٢٣٢ باب بيان ذم الشهرة وإنتشار الصيت وقال العراقى هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبي هريرة ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرًا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما .

الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ما أعلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلاً . وقال عبد الرازق معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كان في طول القميص ، واليوم في تسميره .

وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في الفقهاء ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التي يحتق فيها ويستذل دينه .

وقال الحسن - رحمه الله - : إن قوما جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه ما لهم تفاقدوا ؟ ! . وفي بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبني إسرائيل : ما لكم تأتون عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ؟ ! البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بالخشية .

### فصل في حسن الخلق

قال أبو النياح عن أنس - رضي الله عنه - : « كان رسول الله - ﷺ - من أحسن الناس خلقاً »<sup>(١)</sup> وعن عطاء عن ابن عمر : قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً »<sup>(٢)</sup> وعن أنس مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد »<sup>(٣)</sup> وعنه أيضاً مرفوعاً : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »<sup>(٤)</sup> وعن عائشة مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار »<sup>(٥)</sup> وقال ابن أبي الدنيا بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - سئل رسول الله - ﷺ - : عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »<sup>(٦)</sup> وقال أسامة ابن شريك : كنت عند رسول الله - ﷺ - فجاءته

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢٧٠١٣ (مسند أنس رضي الله عنه -) ومسلم في كتاب الفضائل باب : كان رسول الله - ﷺ - أحسن الناس خلقاً ج ٤ ص ١٨٠٥ رقم ٢٣١٠/٥٥

(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٥٩ من رواية عطاء عن ابن عمر ، ونصه : عن ابن عمر أنه قال : كنت مع رسول الله - ﷺ - فجاء رجل من الأنصار فسلم على النبي - ﷺ - ثم قال : يا رسول الله ؛ أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقاً » قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكراً ، وأحسنهم لما بعده استعداداً ، أولئك الأكياس » .

(٣) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٦)

(٤) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثم ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ باب ماجاء في حسن الخلق وقال الهيثمي رواه الطبراني عن شيخه المقدم بين داود وهو ضعيف . وقال ابن دقيق العيد في الإمام : - أنه وثق . وبقية رجاله ثقات .

(٥) انظر مسند أحمد ٦٤/٦ ورواه أبو داود في (كتاب الأدب) باب في حسن الخلق ٥ ص ١٤٩ رقم ٤٧٩٨

(٦) انظر مسند أحمد (مسند أبي هريرة) ٢٩١/٢ وابن ماجه في (كتاب الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ رقم ١٤١٨ والترمذي (أبواب البر والصلة) باب : ماجاء في حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ رقم ٢٠٧٢ وابن ماجه (الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ ص ١٤١٨ رقم ٤٢٤٦

الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يا رسول الله : ماخير ما أعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » (١) وعن مكحول عن أبي ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » (٢) وعن أبي إويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا أحاسنكم أخلاقا الموطنون أكتافا الذين يؤلفون ويألفون » (٣).

وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبي هريرة مرفوعا : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق » (٤) وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

### فصل فى ذم الكبر

قال علقمة عن ابن مسعود رفعه إلى النبى - ﷺ - : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولايدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » (٥) . وقال إبراهيم بن أبي عيلة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه فى النار » (٦) وقال الحسن : عجا لابن آدم يغسل الجزء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات والأرض .

وقال الحسن عن يحيى عن أبي قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وأن قزحه وملحه . (٧) وقال محمد بن الحسين بن على - من ولد على رضى الله عنه - : مادخل قلب رجل من شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك . (٨) .

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته - وذلك قبل الخلافة - فطعن طاوس فى جنبه بأصبعه وقال : ليس هذا شأن من فى بطنه خرة ؛ فقال له كالمعتذر إليه : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبي الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٧٨

(٢) مسند أحمد (حديث أبي ثعلبة الخشني) ج ٤ ص ١٩٣

وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢١ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال : - رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال صحيح .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٤) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٢ باب ماجاء فى حسن الخلق . وقال : - رواه أبي يعلى واليزار ، وزاد : - (وحسن الخلق) وفيه عبد الله بن سعيد المقبورى وهو ضعيف .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ١/ ٤١٢ ، ٤٥١ .

(٦) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٨ .

(٧) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٨)

(٨) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٩)

## فصل في الاختيال

عن ابن أبي ليلى عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا إلى النبي - ﷺ - : « من جرثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » (١) .

وعن أبي هريرة مرفوعا : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرأزاره ، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » (٢) .  
وبعد :

فهذه نصائح لقمانية تفيض حكمة وتشع ضياء ، فما أجدر كل والد أن ينصح بها ولده ، لقد وجه لقمان ابنه إلى رقابة الله عليه عندما قال له :

( يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ) كما أمره بأداء الصلاة أداء مستقيما ، وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم أردف ذلك بالصبر على المصيبة : ( يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ) وإنما جاء الأمر بالصبر على المصيبة بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن الأمر والنهي قد يتعرض لشدائد ، وقد يعتريه الألم من معاملة الناس له ، فلا بد أن يصبر ، وأن يوطن نفسه على ذلك ، كان عمر - رضي الله عنه - يقول : « يا حق لم تبق لي صاحبا »

وكان على يقول : « صدق المقال لم يبق لي صديقا »  
قال - تعالى - : ﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣)

فإن صبرك قاتله  
إن لم تجد ماتأكله

اصبر على كيد الحسود  
فالنار تأكل بعضها

وقال آخر :

طويت أتاح لها لسان حسود  
ماكلن يعرف طيب عرف العود

وإذا أراد الله نشر فضيلة  
لولا اشتعال النار فيما جاورت

وقال غيره :

وآبى أن أكون له مجيبا  
كعود زاده الإحراق طيبا

يخاطبني السفیه بكل قبح  
يزيد سفاهة فأزيد حلما

(١) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٩ وأخرجه الامام أحمد عن طريق سفيان ج ٥ ص ٩ : ١٠ وانظر صحيح البخاري كتاب اللباس باب قول الله تعالى : - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ج ٧ ص ١٨٢

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .



وقال غيره :

إن يحسدوني فإن غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد  
فتم لى ولهم ماى ومايهم حسدوا ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال غيره :

عداى لهم فضل على ومنه لاأذهب الرحمن عنى الأعاديا  
هم بحشوا عن زلتى فاجتبتها وهم نافسون فاكسبت المعاليا

إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة ، كل ذلك من عزم  
الأمور ، ومن أطيب الأخلاق ، ومن أحب الشرائع وأكرم السجايا .  
وبعد هذا ينهى لقمان ابنه عن الكبر فى صورتين : عندما يلقى الناس لايصغر خده ، ولا يعمل  
بروجه عنهم كبرا ، وعندما يمشى لايمشى الخيلاء : ﴿ إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال  
طولا ﴾ (١)

﴿ فتبسمك فى وجه أخيك صدقة ﴾ ولا تصغر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله  
لا يحب كل مختال فخور ﴿ أى : متكبر يترفع على الناس ويلوى وجهه عنهم ، فخور بما أوق من مال  
وجاه .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع  
ولا تك كال دخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو وضع

ثم يوجهه إلى المشى المحبوب لدى الله ، والصوت المرغوب فيه فيقول :  
﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ﴾ وينفره من الصوت العالى فى غير حاجة إلى ذلك  
فيقول : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ فاللهم علمنا ماينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وهب لنا  
علما ينفعنا ، وعملا يرفعنا .

نعم الله وآياته

قوله - تعالى - :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ

وَبَاطِنَةً ۖ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ أَقِيلَ لَهُمُ  
 اتِّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ  
 السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ \* وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ  
 الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
 الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ  
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ  
 وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ  
 بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا  
 كَنَفْسٍ وَاحِدَةً ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ  
 فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾  
 ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾  
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ  
 صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ  
 فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

## معاني المفردات

(سخر) : ذلل ، (أسخ) : أكمل وأتم ، يجادل : يخاصم . (بغير علم) : بغير حجة .  
 وهذا رجوع إلى ماضى قبل قصة لقمان من خطاب المشركين ، وتوبيخ لهم على إصرارهم على

ماهم عليه على مشاهدتهم لدلائل التوحيد .  
 (ومن يسلم وجهه إلى الله) : يخلص عبادته إليه ، (محسن) الإحسان : الإيتقان ،  
 (نضطرهم) : نلجئهم ونسوقهم . (يولج) : يدخل الليل فى النهار . (أجل مسمى) : أى :  
 معلوم مقدر ، (الفلك) : السفن . (صبار) : كثير الصبر . (كالظلل) : جمع ظلة : وهى الجبال  
 التى تظل من تحتها . (مقتصد) متوسط ، (ختار) : اختر : أسوأ الغدر ، (كفور) : جاحد لنعم  
 الله كافر به .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الأدلة - سبحانه - على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة ، عاد إلى خطاب  
 المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ما هم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة  
 للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرها لما فيه مصالحهم فى المعاش  
 والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيرا من  
 الناس يجادلون فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على ما يدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه  
 يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد ما يعتقدون ، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم  
 يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم  
 مقتدون ﴾<sup>(١)</sup> وماذا إلا نزغات الشيطان ، والشيطان لا يدعوا إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبش  
 القرار .

وبعد أن ذكر - سبحانه - حال المشرك المجادل أردف ذلك ذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى  
 الله ، وبيان عاقبته وماله ، ثم سلى رسوله على ما يلقاه من المشركين من العناد والكفران ، وبين له أنه قد  
 بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء . وبين - سبحانه - أن المشركين  
 معترفون بأنه هو الخالق لهذه السموات ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق  
 الحمد هو الذى يستحق العبادة ، فأمرهم عجب !! يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى  
 تستتبعها ، فيعبدون من لا يستحق عبادة ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا : من الأصنام والأوثان .  
 ثم أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لا حصر لها ، ولا يعلمها إلا خالقها ، ولما  
 كانت تلك النعم لانهائية لها ، وربما ظن أنها مبعثرة لا قانون لها ، أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها  
 وتصريف شئونها كما يريد - دفع هذا بقوله : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾  
 روى أنه لما نزل بمكة قوله - تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح .. ﴾ الآية وهاجر رسول الله -  
 ﷺ - إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : بلغنا أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾<sup>(٢)</sup>  
 أتعني أم تعنى قومك ؟

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) من الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .

قال : كَلَّا عَنيت . قالوا : « أَلست تتلوفيا جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ؟ فقال - ﷺ - : هـى فى علم الله قليل ، وقد أناكم ماإن عملتم به انتفعتم . قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول :

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾ <sup>(١)</sup> فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ؟ فتزلت الآية :  
﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴾  
وهذا امتنان من الله - تعالى - على عباده ، وهو صاحب الفضل والمنة ، وهو مولى النعم ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ <sup>(٢)</sup> ألم تروا - أيها المخاطبون - رؤية بصرية وعلمية أن الله - تعالى - سخر لكم ما فى السموات من نجوم وشمس وقمر وسحاب إلى غير ذلك ؟ كما سخر لكم ما فى الأرض من بحار وأنهار ونبات إلى غير ذلك ؟ ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائيين وسخر لكم الليل والنهار . وآناكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ <sup>(٤)</sup>  
واقرا قوله - جل شأنه - فى سورة النحل أو سورة النعم :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والنخل والبغال والحمير لتربوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرا لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم ﴾ <sup>(٥)</sup>

(١) من الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ١٥ من سورة الملك .

(٣) الآية : ١٨ من سورة النحل .

(٤) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة إبراهيم .

(٥) الآيات : ٥ - ١٨ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾

روى ابن النبی ﷺ قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وماحسن من خلقك ، والباطنة : ماستر عليك من سوء عملك » وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ، وقيل : الظاهرة : مايرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : مايجده المرء في نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، ومايدفع عن العبد من الآفات .

ومع هذا التسخير وذلك الإسباغ فإن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يشكرون ولا يعقلون ، بل تراهم في خوضهم يلعبون ، وفي طغيانهم يعمهون ، وفي ريبهم يترددون ، بل يجادلون في الله بغير علم وعلى غير هدى ، وليس بين أيديهم كتاب منير يستندون إليه في جدالهم ، قال تعالى : ﴿ وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴾ (١) وقال جل شأنه :

﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (٣)

وما يزيد الطين بلة أن هؤلاء المجادلين بالباطل إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله- ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (٤) وفي آية أخرى : ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ﴾ (٥) هذا هو التقليد الأعمى الذى لا يثبت أمام الحق ، ولا يصمد في مجال النور والبرهان ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ (٦)

﴿ قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٧)

وهنا يلقي الله عليهم باللائمة الشديدة فيقول في موضع : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ وفي موضع آخر : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾ وهنا في سورة لقمان يقول : ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾

فأنت ترى في تلك المواضع أنه لا عقل ولا اعتداء ولا علم ، وحيث كان ذلك كذلك فلم يبق إلا

(١) من الآية : ١٣ من سورة الرعد .

(٢) الأيتان : ٣ ، ٤ من سورة الحج .

(٣) الآيات : ٨ - ١٠ من سورة الحج .

(٤) من الآية : ٢١ من سورة لقمان .

(٥) من الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .

(٦) الأيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الزخرف .

(٧) الأيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الزخرف .

طريق الشيطان ﴿ يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أقم زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾<sup>(٤)</sup>  
قوله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبتهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن الفريق الآخر ، وهو الذى لم يجادل فى الله ولم يتبع أسلوب تقليد الآباء والأجداد ، بل آمن بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً . ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾<sup>(٥)</sup> إنه فريق المخلصين الذين اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

لقد استمسكوا بالعروة الوثقى ، والصلة القوية . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾<sup>(٦)</sup> إنه الفريق الناجى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾<sup>(٧)</sup> أما الذين جادلوا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وقلدوا الأجداد والآباء ﴿ أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(٨)</sup>

إن العروة الوثقى هى الميثاق الأكيد والصلة القوية ، هى الإسلام ، هى التوحيد ، هى كلمة الله العليا ، وإلى الله عاقبة الأمور ، فهو الذى يعلمها ، وهى التى تؤول إليه وترجع لا إلى غيره قال تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٩)</sup> أم من كفر وأدبر وتولى وعمى عن الحق فلا تذهب نفسك على هؤلاء حسرات ولا يحزنك كفره . ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾<sup>(١٠)</sup>

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾<sup>(١١)</sup>

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سلبا فى السماء

(١) الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ١٢٣ من سورة هود .

(٥) الآية : ٣٣ من سورة الأنعام .

(٦) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

(١) الآية : ١٢٠ من سورة النساء .

(٢) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .

(٣) الآية : ٢٠ من سورة المجادلة .

(٤) الآيات ٥ - ٨ من سورة فاطر .

(٥) الآية : ١٣١ من سورة البقرة .

فتأتىهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ﴿١﴾

قال تعالى : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ (٢)

لا تحزن على هؤلاء فإن إلينا مرجعهم ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ ، ثم إن علينا حسابهم ﴿ ﴿٣﴾ فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ (٤)

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ (٥) ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٦) ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (٧) ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ (٨)

هؤلاء الكافرون الذى غرتهم الدنيا وغرهم المال والأولاد ﴿ تمتعهم قليلا ﴾ (٩) ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ (١٠) فالدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكمن ملك رفعت له علامات فلما علامات .

﴿ لا يغررك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ (١١) ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ (١٢)

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾ (١٣) ﴿ تمتعهم قليلا ثم نضطرهم ﴾ أى : نلجئهم ( إلى عذاب غليظ ) أى : فظيع وشنيع . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ (١٤) .

(١) الآية : ٣٥ وبعض الآية ٣٦ من سورة الأنعام .

(٢) الأيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .

(٣) الأيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .

(٤) من الآية : ٦ من سورة المجادلة .

(٥) من الآية : ١١٩ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٧ من سورة المائدة . ومن الآية : ٢٣ من سورة لقمان .

(٦) الآية : ١٩ من سورة غافر .

(٧) الآيات : ٢٧ - ٣٠ من سورة النبأ .

(٨) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران .

(٩) من الآية : ٢٤ من سورة لقمان .

(١٠) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .

(١١) الأيتان : ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران .

(١٢) الأيتان : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .

(١٣) الآية : ٣ من سورة الحجر .

(١٤) الآية : ٥٦ من سورة النساء .

قوله تعالى :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . الله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ الله مافى السموات والأرض ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

قال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ قال أئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوالا جديرة بالاحترام والتوقير ، قال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله : من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ ، فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ماكان لتنفذ عجائب ربه وحكمته وخلقته وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ ... الآية ، يقول : لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول .

قال الإمام الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

يقول تعالى مخبرا عن عظمتهم وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام

والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفذت كلمات الله ﴾ أى : لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمتهم وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى :



﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾<sup>(١)</sup> فليس المراد (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم هلم جرا ، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته .

وسبب نزول هذه الآية مارواه ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يا محمد ، رأيت قولك : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلاهما » قالوا : ألسنت تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها في علم الله قليل ، وعندكم من ذلك ما يكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه في ذلك ﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب قاهر ، لا يغلبه أحد ولا يقهره غيره ، حكيم متزنه عن العبث ، يضع الأمور في نصابها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ ما خلقكم من العدم ولا بعثكم بعد الفناء إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾<sup>(٦)</sup>

﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾<sup>(٧)</sup>

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ إن الله سميع بأقوال العباد ، بصير بشئونهم أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا ، تبارك سمع الله إذ يقول ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله ﴾<sup>(٨)</sup> وجل بصر الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء . هو الذي يصوركم في الأحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٩)</sup>

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .

(٣) من الآية : ٤٧ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٣٥ من سورة مريم .

(٤) الآية : ٨٢ من سورة يس .

(٥) الآية : ٧٧ من سورة النحل .

(٦) الآية : ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .

(٧) الآية : ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .

(٨) الآية : ١ من سورة المجادلة .

(٩) الآية : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

وعظم علم الله إذ يقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾<sup>(١)</sup>  
قال الشيخ لتلمذه حيران :

إن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين : دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعد ، للترغيب في طاعته والتحذير من معصيته - وتوكيد ليوم البعث وحض على مكارم الأخلاق - وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام ، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ؟ لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وهو الأساس لكل ماعده ، ولذلك ترى - وأنت تتصفح القرآن - أن الآيات الدالة على الله ، لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا ، في السورة الواحدة .  
يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولني الشيخ الدفتر الذي كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ : هذا هو الدفتر الذي جمعت لك به ، على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التي أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، الباري ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها - سبحانه - من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاتزان في : خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والاسماع ، والأبصار والأفئدة ، وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس . فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ، ولم يوردها على ترتيب السور ؟  
الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذي نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحي ، وتتابع الهدى ، في خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا في نفسك ، وأيسر في تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذي اتبعه القرآن .  
يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعى ، فقرأت الآيات الآتية :  
﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات : ١ - ٥

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المعرى . فجعله غثاء أحوى ﴾ سورة الأعلى : الآيات : ١ - ٥

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ سورة الإخلاص  
﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أى شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ سورة عبس - الآيات : ١٧ - ٢٠

﴿ فليتنظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا

وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ﴿ سورة عبس ، الآيات : ٢٤ - ٣١ ﴾  
والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء  
وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها ﴿ سورة الشمس ، الآيات : ١ - ٧

﴿ ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ سورة التين : الآية : ٤  
﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل  
منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ سورة القيامة .

﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقىات ذكرا .  
علرا أو نذرا ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ١ - ٦

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه في قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل  
يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شاخات وأسقيناكم  
ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ٢١ - ٢٨

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها  
رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا  
فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا  
كذلك الخروج ﴾ سورة ق الآيات : ٦ - ١١

﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفقتين . وهديناه النجدين ﴾ سورة البلد ، ﴿ إنا كل شيء خلقناه  
بقدر ﴾ سورة القمر الآية : ٤٩

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يفتى الليل النهار  
يطلبه حيثما والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾  
سورة الأعراف : الآية : ٥٤

﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به  
الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموق لعلكم تذكرون ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٧  
﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾ سورة الأعراف ﴿ هو الذى  
خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سورة الأعراف ، ﴿ أيشركون ما لا يخلق  
شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة الأعراف : من الآية : ١٩١ .

﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل  
وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحانه الذى  
خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا  
هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد  
كالمرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك  
يسبحون ﴾ سور يس ، الآيات : ٣٣ - ٤٠ .

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧١ - ٧٣

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧٧ - ٨١

﴿ وخلق كل شئ فقدره تقديرا ﴾ سورة الفرقان ، من الآية : ٢

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٤٥ - ٥٠

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٥٣ ، ٥٤ .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيات : ٦١ ، ٦٢

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأن تؤفكون ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٣

﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٩

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حليه تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ سورة فاطر ، الآيات : ١١ - ١٣

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ سورة فاطر ، الآيات : ٢٧ ، ٢٨

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٤١

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ سورة مريم ، الآية : ٦٧  
 ﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ سورة طه ، الآيات : ٤٩ - ٥٤ ﴿ نحن خلقناكم فلو لا تصدقون . أفأرأيتم ماتموتون . أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٥٧ - ٥٩ .

أفأرأيتم الماء الذى تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفأرأيتم النار التى تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٦٨ - ٧٤ ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسى لو تعلمون عظيم ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٧٥ - ٧٦ ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ سورة الشعراء ، الآيات : ٧ - ٨ .

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ سورة النمل ، الآيات : ٦٠ ،

٦١  
 ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٦

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٨

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ سورة القصص ، من الآية : ٦٨  
 ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة القصص ، الآيات : ٧١ - ٧٣

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ سورة الإسراء ، الآية : ١٢  
 ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيم ﴾ سورة الإسراء : ٦٦

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ سورة الإسراء : ٧٠

﴿ ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ سورة الاسراء الآية :

٨٥

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ سورة يونس : ٥ ، ٦

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ . سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهdy إلى الحق قل الله يهdy للحق أفمن يهdy إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهdy إلا أن يهdy فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ سورة يونس ٣٤ - ٣٦

﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

سورة يونس : ٦٧

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ سورة يونس :

١٠١

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليكفور ﴾ سورة هود : ٩  
﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ سورة يوسف : ١٠٥  
﴿ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين . وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ سورة الحجر : ١٩ - ٢٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ سورة الحجر : ٢٦

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ سورة الحجر : من الآية ٨٥

﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون .

هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ سورة الأنعام : ١ - ٢

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ سورة الأنعام : من الآية ٣٨

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى

كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم

يهدى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴿ سورة الأنعام : ٧٥ - ٧٩

﴿ إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالفق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر ويتعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿ سورة الأنعام : ٩٥ - ٩٩

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدرکه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴿ سورة الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣ .  
﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿ سورة الأنعام : ١٤١ - ١٤٢

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴿ سورة الصافات : ١١  
﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴿ سورة لقمان : ١٠ - ١١

﴿ ألم تر أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴿ سورة لقمان : ٢٠  
﴿ ولو أن مافى الأرض من شجرة أفلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴿ سورة لقمان : ٢٧

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿ سورة لقمان : ٢٩ - ٣١

﴿ ويرى الذى أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴿  
﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴿ سورة الزمر : ٥ - ٦ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا ۝ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۝ سورة الزمر : ٢١ ﴾  
 ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبِدُ أَبْيَها الْجَاهِلُونَ ۝ سورة الزمر : الآيات : ٦٢ - ٦٤ ﴾  
 ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا مَنْ يَنْبِئُ ۝ سورة المؤمن أو غافر : ١٣ ﴾

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفِكُونَ ۝ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ سورة المؤمن : ٦١ - ٦٤ ﴾  
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ هُوَ الَّذِي يَحْيِي وَيَمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ سورة غافر : ٦٧ - ٦٨ ﴾  
 ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفَلَكَ تَحْمِلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ۝ سورة غافر : ٧٩ - ٨١ ﴾  
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ سورة فصلت : الآية ٣٧ ﴾  
 ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ سورة فصلت : ٥٣ ﴾

﴿ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ سورة الشورى : ١١ ﴾  
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ ۝ سورة الشورى : من الآية : ٢٩ ﴾  
 ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ إِنَّ يَشَأْ يُسْكِنَ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ سورة الشورى : الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ ﴾  
 ﴿ وَلَثِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سَبِيلًا لِعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ سورة الزخرف : ٩ - ١٢ ﴾

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبَأَى حَدِيثُ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ سورة الجاثية : ٣ - ٦١ ﴾  
 ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْيَمْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ وسخر



لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ سورة الجاثية :

١٢ - ١٣

﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون .  
 قل أرايتم ماتدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات اثنون بكتاب  
 من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴿ سورة الأحقاف : ٣ - ٤  
 ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴿ سورة الذاريات : الآيتان : ٢٠ ، ٢١  
 ﴿ والسماء ببنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين  
 لعلكم تذكرون ﴿ سورة الذاريات : الآيات : ٤٧ - ٤٩

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى  
 الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر ﴿ سورة الغاشية : الآيات ١٧ - ٢١  
 ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴿ سورة  
 الكهف : ٣٧

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴿  
 سورة الكهف : ١٠٩

خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين .  
 والأنعام خلقها لكم فيها دفسه ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون .  
 وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيول والبغال  
 والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴿ سورة النحل : الآيات ٣ - ٨

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ، ينبت لكم به الزرع  
 والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل  
 والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرا لكم فى  
 الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا  
 وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى  
 فى الأرض رواسى أن تُميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن  
 يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لَغفور رحيم . والله يعلم  
 ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴿ سورة النحل :

١٠ - ٢٠ ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿ سورة النحل : ٤٠  
 ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى  
 الأنعام لعبرة . نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات  
 النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن  
 اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا  
 يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿ سورة  
 النحل : ٦٥ - ٦٩

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكنهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظللا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وسراويل تقيكم بأسكم ﴾ سورة النحل الآيات : ٧٨ - ٨٢

﴿ وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم لإخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ سورة نوح : ١٤ - ٢٠

﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ سورة إبراهيم ، من الآية : ١٠  
﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٦

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائيين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ سورة إبراهيم : ٣٢ ، ٣٣

﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حيا أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسي أن تعمد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء : ٣٠ - ٣٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصيغ للأكليين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ سورة المؤمنون : ١٢ - ٢٢  
﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض - وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ سورة المؤمنون :

٧٨ - ٨٠

﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ﴾ سورة السجدة : الآيات ٧ - ٩

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ سورة السجدة : ٢٧

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ﴾ سورة الطور : ٣٥ - ٣٦

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ سورة الملك : ١ - ٤

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً ﴾ سورة الملك : من الآية ١٥

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ سورة الملك : من الآية ١٩

﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ سورة الملك : ٢٣

﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بما معين ﴾ سورة الملك : ٣٠

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ سورة الحاقة : ٣٨ - ٣٩

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ سورة المعارج : ٤٠

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبينا فوقكم سبعة شدادا . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حبا ونباتاً . وجنات ألفافاً ﴾ سورة النبا : الآيات ٦ - ١٦

﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاهاً . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ سورة النازعات : الآيات ٢٧ - ٣٢

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء

ركبك ﴾ سورة الانفطار : ٦ - ٨

﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى . . ﴾ سورة

الروم : من الآية ٨

﴿ فسيبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين

تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون .

ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً

لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات

والأرض واختلاف ألستكم واللوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار

وابتغؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من

السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ سورة الروم : ١٧ - ٢٤

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله

ولعلكم تشكرون ﴾ سورة الروم : ٤٦

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . . . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ سورة الروم : ٤٨ : ٥٠

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . . ﴾ سورة العنكبوت : من الآية ١٠

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾ (١)

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعلقها إلا العالمون ﴾ (٢) سورة العنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ (٣) . سورة العنكبوت

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ (٤) سورة العنكبوت

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٥) سورة البقرة

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . من الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكا شىء عليم ﴾ (٦) سورة البقرة .

﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٧) سورة البقرة  
﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٨) سورة البقرة .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (٩) سورة البقرة

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ (١٠) سورة البقرة .

(٦) سورة البقرة الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

(٧) سورة البقرة الآية : ١١٧

(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٤

(٩) سورة البقرة الآية : ١٧١

(١٠) سورة البقرة من الآية : ١٨٩

(١) سورة العنكبوت الآية : ٢٠

(٢) سورة العنكبوت الآيات : ٤١ - ٤٣

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦١

(٤) سورة العنكبوت الآية : ٦٣

(٥) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) سورة آل عمران

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٢) سورة آل عمران .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك عن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (٣) سورة آل عمران .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ﴾ (٤) . سورة آل عمران

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء ... ﴾ (٥) سورة النساء .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ... ﴾ (٦) سورة الحديد

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ (٧) سورة الحديد

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أغناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٨) سورة الرعد

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ﴾ سورة الرعد .

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أناخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾ (٩) سورة الرعد .

﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾ (١٠) سورة الرحمن .

(٦) سورة الحديد من الآية : ٦

(٧) سورة الحديد من الآية : ١٧

(٨) سورة الرعد الآيات : ٢ - ٤

(٩) سورة الرعد الآية : ١٦

(١٠) سورة الرحمن الآيات : ١ - ٥

(١) سورة آل عمران الآيات : ٦ ، ٧

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨

(٣) سورة آل عمران الآيات : ٢٦ ، ٢٧

(٤) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ ، ١٩١

(٥) سورة النساء من الآية : ١

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ (١) ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ (٢) سورة الطلاق

﴿ ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٣) سورة النور .

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم لنخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾ (٤) سورة الحج .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ (٥) سورة الحج .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٦) سورة الحج .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وإن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله لطيف خبير . له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغني الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ (٧) سورة الحج .

﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٨) . ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾ (٩) سورة التغابن .

(٦) سورة الحج الآية : ٤٦

(٧) سورة الحج الآيات : ٦١ - ٦٦

(٨) سورة الحج الآيات : ٧٣ ، ٧٤

(٩) سورة التغابن الآية : ٣

(١) سورة الانسان الآيتان : ١ ، ٢

(٢) سورة الطلاق من الآية : ٣

(٣) سورة النور الآيات : ٤٣ - ٤٥

(٤) سورة الحج الآيتان : ٥ ، ٦

(٥) سورة الحج الآية : ١١

يقول جيران بن الأضعف ولما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت للشيخ الموزون : جزاك الله عنا خيرا يامولاي فقد والله ، قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على فى كل ما أتيج لى فى عمرى ، من التلاوات ، وما أظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، فى التلاوة المعتادة للتبرك .  
الشيخ : لا يكفى أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين ولكن يجب ان تصنفها أصنافا ليجتمع أمام عينيك ، فى كل شىء من خلق الله ، الآيات المشيرة إليه ، وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

### من آيات الله الكونية

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ (١) .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، فالليل والنهار آيتان من آيات الله . قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ (٢) وقال عز من قائل ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ (٣) ومن آيات الله فى الليل والنهار انه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . ألم تشاهد أيها الناظر ، بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : أنه يأخذ فى الليل من النهار ، فيقصر ذاك ويطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .  
﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم .

﴿ كل يجرى إلى أجل مسمى ﴾ أى : كل منها يجرى بأمره إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كورت الشمس والقمر .

﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ أى : وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أى : إنما يظهر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو

(١) سورة لقمان الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(٢) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣

الباطل الذى يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه .  
﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ أى : وأنه تعالى المرتفع على كل شيء والمتسلط على كل شيء ،  
فكل شيء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .  
قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل  
صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد  
وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ (١)

وكما أن الليل والنهار آيتان من آيات الله يولج كلا منهما فى الآخر ، فكذلك تسخير الشمس  
والقمر من آيات الله ، والكل يجرى إلى أجل مسمى حدده الله تعالى . ﴿ هو الذى جعل الشمس  
ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق . . يفصل  
الآيات لقوم يعلمون ﴾ ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم  
يتقون ﴾ . كذلك جريان الفلك فى البحر بنعمة الله حسب قانون الأجسام الطافية وما ركزه الله تعالى فى  
هذا الكون من نواميس آية آخر . ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح ﴾ ﴿ وله  
الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .

هذا الكون من نواميس آية آخر ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن  
رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .  
قال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى  
الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ وما يستوى البحران  
هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها  
وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب السفن وهى  
تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، ومن بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع  
الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحوال  
الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فيما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى  
إن فيما ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرضاء ، قال الشعبى : الصبر نصف  
الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، ألم تر إلى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل  
صبار شكور ﴾ وقوله ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيमान  
نصفان : نصف صبر ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويلجئون إليه حين الضراء فقال : ﴿ وإذا غشيهم موج  
كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة  
والأوثان . الأمواج العالية كالجبال ، وأحرق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن - فزعوا



بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحدون بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنه من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه . سبحانك ربى كل ما فى الكون من صنعتك ، فأنت الخالق المدبر الحكيم المريد القدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذكركم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ (١) .

### ختام السورة

قوله تعالى : يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزَى وَالِدَعَن وَلِدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعَن وَلِدِهِ شَيْعًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

### معانى المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور ، ما غر الانسان من مال وجاه . وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة . ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال متنوعة - أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا

عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان فيزين لكم بوساوسه المعاصي والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما في الكائنات ، وهي الخمس التي اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾ هذا خطاب للبشرية جمعاء فيه أمر بالتقوى ، والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ أى : احذروا هذا اليوم الذى يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، فالوالد لا يملك أن يفدى ولده ، وكذلك المولود لا يستطيع أن يفدى والده ، بل إن الولد يلقي أباه فيقول له : يا أبت لقد كنت بك برا وإليك محسنا وعليك مشفقا فهل أجد لديك من حسنة يعود على خيرها اليوم ، فيقول له أبوه : يا بني ليتنى أستطيع ذلك اننى اشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له يا بني : لقد كان بطنى لك وعاء وكان ثدى لك سقاء ، وكان حجرى لك وطاء . فهل أجد عندك من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : ليتنى أستطيع ذلك اننى أشكو مما منه تشكين . . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قَرْبَى ﴾ . وكما أمر الله تعالى : عباده بالتقوى والخشية من يوم يجعل الولدان شيبا أخبرهم بأن وعده حق ، فهو الحق وقوله الحق ولقاؤه حق ووعدته حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها الخادعة ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكَافِرَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفُورًا . ثُمَّ يَكُونُ حِطَامًا ﴾ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴿ وَلَا يَغْنَمُكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان الذى قال الله فيه : ﴿ يَعْدهم وَيَمْنِهِمْ وَمَا يَعْدهم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ . وقال ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخَذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ فما طريق النجاة ؟ ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿ .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . إِنْ اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

هذه خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله : إن الله عنده علم الساعة فلا يعلمها أحد سواه ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، كما قال : ﴿ لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ ﴾ .

(٢) ﴿ وَيُنْزِلُ الْغَيْثَ ﴾ فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى .

(٣) ﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ أذكر هو أم أنثى ، أتمام الخلق أما ناقصه ، أو نحو ذلك من

الأحوال العارضة له .

(٤) ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا﴾ من خير أو شر .  
 (٥) ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ أى : لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى بر ، أم فى سهل أم فى جبل .  
 ﴿إن الله عليم خبير﴾ أى : إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة ( أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا محمد متى قيام الساعة ، وقد أجذبت بلادنا ، فمتى تحصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فأى أرض أموت ، فنزلت الآية : ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ (١) الخ .  
 وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : ( مفاتيح الغيب خمس : ﴿إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير﴾ (٢) .  
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .  
 قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها واخرها . ﴿وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك ، وهذا شبيهه بقوله تعالى : ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( خمس لا يعلمهن إلا الله - عز وجل - : ( إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ) (٣) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : ( أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ( إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ح ٦ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ فى تفسير قوله تعالى : إن الله عنده علم الساعة الآية .

(٢) فى الدر المنثور فى تفسير المأثور فى تفسير سورة لقمان آية « إن الله عنده علم الساعة » الآية ح ٦ ص ٥٦١ وقال أخرج الفريابى والبخارى ومسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر وذكر الحديث . . .

(٣) رواه الامام احمد فى مسنده ( من حديث بريدة ) ح ٥ ص ٣٥٥

غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير<sup>(١)</sup> .

وقال البخارى : بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يتمشى ، فقال : يا رسول الله ما الايمان ؟ قال ؟ « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » قال : يا رسول الله ما الاسلام ؟ قال : « الاسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » قال : يا رسول الله ما الاحسان ؟ قال : ( الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) قال : يا رسول الله متى الساعة ؟ قال : ( ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس ، فذاك من أشراطها فخمس لا يعلمهن إلا الله ﷻ ) إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﷻ . الآية : ثم انصرف الرجل فقال : رددوه على فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا قال : ( هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم )<sup>(٢)</sup> روى الإمام أحمد بسنده عن حراش عن رجل من بنى عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « إخرجنى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : السلام عليكم أدخل » قال : فسمعتة يقول ذلك ، فقلت السلام عليكم أدخل ؟ فأذن لى ، فدخلت فقلت : بسم أتيئنا ؟ قال ( لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهرا وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم ) . قال : فقال فهل بقى من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : ( قد علمنى الله - عز وجل - خيرا وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - : الخمس ) ( إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام )<sup>(٣)</sup> الآية . وقد جاء فى الحديث : ( إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة )<sup>(٤)</sup> .

### جنس الجنين

### ولد أو بنت

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه : خلق الانسان بين الطب والقرآن قضية تشغل بال الآباء والأمهات كثيرا .. ترى ماذا يكون الحمل ؟ ولد أو بنت .. ذلك سر مغلق بالنسبة للآباء والأمهات

(١) رواه الامام احمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب الايمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الايمان والاسلام ، والاحسان وعلم الساعة .. الخ ج ١ ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) مسند الامام أحمد (من أحاديث رجال من أصحاب النبى ﷺ) ج ٥ ص ٣٦٩ .

(٤) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦٧ رقم ٤٠٤ وقال المناوى : أخرجه احمد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن أبى عزة ، يسار بن عبد الله او ابن عبد او ابن عمر الهزلى له صحبة سكن البصرة ، وقيل : هو مطرب بن عكاس لان حديثها واحد ، وهو هذا ، وقيل : غيره ، ورواه عنه الترمذى فى العلل ثم ذكر انه سأل عنه البخارى فقال : لا أعرف لأبى عزة إلا هذا انتهى قال الهيثمى : يعد عزوه لأحد والطبرانى . فيه محمد بن موسى الحرشى ، وفيه خلف انتهى . ورواه عنه ايضا البخارى فى الأدب والحاكم وباجملة : فهو حسن .

حتى يحين موعد الولادة . ولكن العلم الحديث توصل إلى معرفة ذلك السر ، إنه سر لا يباح كثيرا ، فليس من اليسير عمل الفحوصات الخاصة بمعرفة الجنين ، إذ أن ذلك يتطلب سحب كمية من السائل الامينوسى ( الرهل ) المحيط بالجنين والمتاثرة فيه بعض خلاياه ويفحص هذه الخلايا ، وبالذات فحص أجسامها الملونة ( الكروموسومات ) يمكن تحديد نوع الجنين ذكر أو أنثى ، ولكن الأطباء لا يجرون مثل هذه الفحوص إلا إذا كانوا مشتبهين بوجود تشوهات خلقية ، وفى أثناء ذلك يتعرفون على جنس الجنين ومن الناحية الطبية ليست هناك أى أهمية لمعرفة نوع الجنين المهم أن يكون سليما من التشوهات تام الخلقة . مكتمل الاعضاء . . ومن المقرر علميا أن جنس المولود يتحدد فى اللحظة الأولى التى يلتقى فيها الحيوان المنوى بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة (Y) بالبويضة ، فإن الجنين سيكون ذكرا بإذن الله . أما إذا كان الحيوان المنوى الذى سيلقح البويضة . يحمل شارة الأنوثة فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله . إذن فالحيوان المنوى أو نطفة الرجل هى التى تحدد نوعية الجنين : ذكر أم أنثى . ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذ تمنى ﴾ (١) والنطفة التى تمنى : هى نطفة الرجل بلا ريب . ويقول تعالى أيضا : ﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه ( أى المنى ) الزوجين الذكر والأنثى . . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ (٢) .

وبالنسبة للأطباء فإنه لا يمكن معرفة الجنين إلا بعد مضى أربعة أشهر على الأقل عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الأمينوسى لفحص خلايا الجنين . . هل تحمل شارة الذكور ؟ (Y) أو تحمل شارة الأنوثة (X) أما فى الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطا ، ويشرح تشريحا كاملا حتى نهاية الاسبوع السادس الرحمى ، فغدد التناسل : الخصية ( فى الذكر ) والمبيض ( فى الأنثى ) تتشابهان تماما فى هذه المرحلة المبكرة من النمو . . ولا يمكن التمييز بينهما . . وفى نهاية الاسبوع السابع تبدأ الخصية بالنمو قبل المبيض ويظهر فيها نسيج خاص ، كما أنها تلف بغلالة بيضاء تدعى اللفافة البيضاء ويقول المصطفى - صلوات الله عليه - ( إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق شمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أو أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ) وفى تلك اللحظة يعلم الملك نوع الجنين ذكر أو أنثى أما فى علم الله فهو معروف منذ الأزل . . وعلى مستوى الصيفات ( الكروموسومات ) يتحدد نوع الجنين منذ لحظة التلقيح . . وإلتقاء الحيوان المنوى ( ماء الرجل ) ببويضة المرأة ( ماء المرأة ) وتنمو الخصية أو المبيض من الحذبة التناسلية فى منطقة بين الصلب ( العمود الفقرى ) والترائب ( الأضلاع ) ، ثم تنزل تدريجا إلى الحوض ابتداء من الاسبوع العاشر للحمل حتى تصل إلى الحوض فى الشهر السابع ، ثم تواصل الخصية نزولها فى الشهر التاسع إلى كيس الصفن خارج الجسم ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ (٣)

(١) سورة النجم الايتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة القيامة الآيات : ٣٦ - ٤٠ .

(٣) سورة الطارق الآيات : ٥ - ٧ .

## \* الأعضاء التناسلية الظاهرة :

يصعب التفريق بين الذكر والأنثى من حيث الأعضاء التناسلية الظاهرة إلى بداية الشهر الرابع من الحمل .. ومن ثم يكون التمييز بينهما .. أما بداية تكون هذه الأعضاء فتبدأ في الأسبوع الرسمى السادس ( ٤٢ يوما ) وتستمر في النمو . ولكن التمييز لا يظهر إلا في بداية الشهر الرابع وتبدأ الأعضاء الظاهرة برعما صغيرا فوق شق .. أما البرعم فيتحول إلى قضيب أو بظر ( حسب نوع الجنين ) وأما الشق فلما أن يبقى فيكون على جانبه الشفران كما هو في البنت أو يلتصق ويكون كيس الصفن كما هو في الولد ، ثم تنزل الخصية من كل جانب إلى كيس الصفن في الشهر التاسع .

ويبدأ التكوين الجنسى ( في الأسبوع السادس ) ( ٤٢ يوما ) إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ) ويبدأ الملك عمله منذ تلك اللحظة في توجيه الأنسجة والخلايا الصماء إلى وظائفها وأماكنها المحدودة في وقتها المعلوم ، وعندما تكتمل مراحل النطفة والعلاقة والمضغة يؤمر الملك بالدخول مرة أخرى ليحدد الأعضاء الظاهرة هذا ذكر وهذه أنثى . هذا تقدير بعد تقدير وتصوير بعد تصوير ..

فقد قدر الله - سبحانه - أمر المخلوقات قبل خلقها في اللوح المحفوظ ، ثم قدرها وهى في عالم الذرحين قبض قبضة من اليمين فقال : هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون . وقبض الأخرى وقال : هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون . ثم قدر سبحانه - وتعالى - حيوانا منويا بعينه من بين بلايين الحيوانات المنوية التى يقذفها الرجل ليلقح بويضة واحدة ثم غوها من بين ملايين البويضات الموجودة في مبيض جنين الأنثى .. ثم اختارها من بين مئات البويضات التى تنمو كل شهر تحت تأثير هورمون الغدة النخامية وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (١) والسلالة : هى الخلاصة .. ونسل الانسان من خلاصة الخلاصة . من الماء المهين ( المني ) .. الذى يختار الله منه حيوانا منويا واحدا فقط ليلقح البويضة المختارة من بين آلاف البويضات الموجودة في مبيض المرأة ، ويتحدد جنس الجنين على مستوى الصفات ( الكروموسومات ) في لحظة التلقيح فإذا ما لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة كان الجنين أنثى بإذن الله .

أما على مستوى الأنسجة فلا يتحدد جنس الجنين إلا في الأسبوع السابع بعد دخول الملك حينها تعلم الغدة التناسلية هل هى مبيض او خصية .. ثم تحدد بعد ذلك الأعضاء التناسلية الخارجية في الأسبوع الثانى عشر .. وقد لا يتطابق التكوين الجنسى الظاهرى للأعضاء التناسلية مع التكوين الجنسى للغدة التناسلية فقد يكون جنس المولود ذكرا في الحقيقة بينما أعضاؤه التناسلية توحي بأنه أنثى وقد يكون العكس .. وهذا ما تكتبه الصحف والمجلات من أن سعيدة قد أجريت لها عملية وتحولت إلى سعيد والواقع أن الجراح لم يغير جنس الجنين بل أعاده إلى وضعه الطبيعى ، وهناك حالات أكثر تعقيدا تركها

للأطباء .. ومن المعلوم أن الأعضاء التناسلية الخارجية إنما تنشأ من نتوءات بالجلد ولا يتم تكوين الجلد الا فيما بين الاسبوع العاشر والثاني عشر .. وحديث رسول الله ﷺ الذى اخرجه مسلم ، يقول : ( إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها .. ثم قال : رب اذكر أم أنثى ؟ ) (١) .

ومعنى ذلك أن الأعضاء التناسلية الخارجية لا تظهر إلا بعد ظهور السمع والبصر والعظام واللحم والجلد ... ومن الإعجاز ههنا أن يُذكر تكون الجلد قبل ظهور أعضاء التناسل الخارجية ، لأن الجلد يسبق ظهورها .. بل ومنه تتكون الأعضاء التناسلية الخارجية . ( إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويامر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله أشقى أم سعيد ) (٢) .

قد يسأل سائل فيقول : أليس فى هذا معرفة للغيب .. والله قد استأثر بعلم الغيب عنده .. وذكر ان مفاتيح الغيب خمسة من المذكور فى الآية ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ . وجاء فى تفسير ابن كثير عن هذه الآية ما يلى :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله - تعالى - بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى . فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يعلمها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد ان يخلقه الله تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا . علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها أو أخرها ، ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان .. لا علم لأحد بذلك .

وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب . قال ابن حجر : ( وأما ما ثبت بنص القرآن ان عيسى - عليه السلام - قال إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف قال : إنه ينبئهم بالطعام قبل أن يأتى إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء إلا من ارتضى من رسول ) فإنه يقتضى إطلاع الرسول على بعض الغيب . والولى التابع للرسول عن الرسول ليأخذ به يكرم ، والفرق بينهما أن الرسول يطلع على ذلك بأنواع الوحي كلها . والولى لا يطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام . والله أعلم . ونقول : إن الآية الكريمة جعلت التعبير مختلفا من جملة إلى أخرى .. ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ فهو المختص وحده بعلمها ﴿ يسألونك عن الساعة أيا نمرساها فيم أنت من

(١) جزء من حديث اخرجه مسلم فى صحيحه ( فى كتاب القدر ) باب كيفية الخلق الأدمى فى بطن أمه .. الخ ج ٤ ص ٢٠٣٧

ذكرها إلى ربك متنهاها ﴿﴾ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربى ﴿﴾ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴿﴾ .

وعندما سئل عنها رسول الله ﷺ قال : ( ما المسئول عنها بأعلم من السائل ) . فقد أخبر ﷺ عن أشراتها وعلاماتها وذكر كثيرا من هذه العلامات الصغرى والكبرى .  
﴿ وينزل الغيث ﴾ فهو وحده الذى ينزل الغيث : ولكن الله تعالى لم ينف عن البشر أن يعرفوا مواقيت نزول الغيث بأمارات وإشارات .. تختلف قوة إدراكها من شخص لآخر ، ومن زمان لزمان .. حسب الخبرة وتجمع المعلومات ، ومع هذا فرغم الدقة العلمية ، التى بلغها الانسان فى هذا الزمان ، فإن التنبؤات الجوية كثيرا ما تخيب وتفشل .. وعلم نزول الغيث ظنى بالنسبة للانسان لا يقنى ، ولا شك أن هناك فرقا هائلا ويونا شاسعا بين علم الله .. سبحانه وتعالى : غير المحدود واللانهاى .. والذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا يمكن قط أن يخطئ .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبين علم البشر المحدود القابل للخطأ وللنسيان وللتبديل والتخريف ، ومعرفة نزول الغيث معرفة إشارات وعلاماته . مثل أن ترى السحاب الكثيف من بعد مع خبرة بأنواع السحاب تصدق فى كثير من الأحيان ، وتخيب وتفشل فى معرفة بعضها استنادا إلى عوامل متعددة تدخل فيها خبرة الشخص ووسائله المتاحة له ، ومع وجود عوامل اخرى ، قد تأتى وتعارضها فجأة ، وكذلك علم ما فى الأرحام ، فالله وحده هو الذى يعلم علما محيطا شاملا بما فى الأرحام . ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام .. وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ فعلمه سبحانه شامل كامل محيط يعرف كل صغيرة وكبيرة فى الرحم وغيره . ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر .. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٣)</sup> فعلم الله - سبحانه وتعالى - شامل لما فى الرحم من ذكورة وأنوثة ، ومن طول وقصر ، ومن صفات وملامح وشيات ، ومن طبائع موروثه ، وأخرى ستكتسب فيما يقبل من الأيام ، بل إن الملك الموكل بالرحم يعلم ذلك ويكتبه كما مر معنا فى الأحاديث النبوية الشريفة ويعلم ذلك مجملا فى نهاية الأربعين الأولى من عمر النطفة ، ثم يعلمها مفصلة فى نهاية مرحلة المضغة .. ويكتب ذلك بين عينيه حتى النكبة ينكبها ويكتب أربع كلمات : ( رزقه - وأجله - وعمله - وشقى أم سعيد ) .

تلك التفاصيل الهائلة سقط أم تمام مشوهة الخلق ، أم سليمها ناقص الأطراف مبتورها ، أم كاملها .. بعين واحدة أم بعينين ، بشفة مبتورة شمراء أم كاملة ، سقف حنكه تام أم ناقص . قلبه سليم التكوين أم به عيوب خلقية ، وما أكثرها . جهازه العصبى .. دماغه وأعصابه مساراتها المختلفة .. عضلاته .. واسرارها .. جلده وما يحمله .. شراينه وأورده ومجاريها .. غدده

(١) سورة الرعد الآية : ٨

(٢) سورة لقمان الآية : ١٦

(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٩



المختلفة .. إلى آخره .. حتى الجسيمات الملونة (الكروموسومات) وأسرار البروتينات وأسرار الأنوية ، وأسرار التكوين ، ثم بعد ذلك أسرار الروح .  
 وأسرار النفخة الكريمة التى اختص بها الانسان ، ترى من يعلم كل ذلك .. من غير الله ... ؟ فإذا عرفنا نوعية الجنين ذكر أم أنثى فتلك معرفة ناقصة مبتورة ، ومع هذا يمكن أن تخطئ يمكن أن يكون الأعضاء الظاهرة لأنثى ، وتكون الغدد التناسلية للذكر ، ويحتاج الطفل بعد ولادته لعملية لارجاعه إلى جنسه الحقيقى ، وقد يكون العكس ظاهره ولد وحقيقته أنثى ولا يعلم ذلك إلا بعد الولادة ، وبعد فحوص طويلة ، وقد يكون الأمر أعقد وأغرب .. وهو ختى حقيقية تحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة .. تحمل الخصية والمبيض معا فمتى يدرك الانسان ذلك ، وهى لا تعرف إلا بعد إجراء فحوص وعمليات بعد الولادة لفترة من الزمان إذن : فعلم الانسان بما فى الأرحام ظنى لا يقينى ، وعلم الله - سبحانه وتعالى - شامل كامل محيط لا يتسرب إليه الشك ولا الخطأ .. علم الانسان على النقيض من ذلك كله .. علم ما فى الأرحام يشبه علم التنبؤات الجوية .. تصدق حيناً وتخطئ أخرى ، وقد يغلب الصواب فيها بناء على الخبرة والمعرفة والعلوم الحديثة ، واستخدام الوسائل التقنية البارة ، ولكن ذلك كله لا يخرجها إلى علم اليقين المطلق .. تظل كما هى فى حدود البشرية قابلة للخطأ .. قابلة للنقد .. قابلة للتحريف .. وكذلك علم ما فى الأرحام .

### سورة السجدة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، سوى ثلاث آيات ، فإنها مدينة ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث : عدد آياتها تسع وعشرون عند البصريين وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون ، وحروفها ألف وخمسمائة وتسع وتسعون . ولها ثلاثة أسماء (سورة السجدة) لاشتغالها على سجدة التلاوة ، الثانى سجدة لقمان ، للتميز عن (حم السجدة) ، الثالث المضاجع : لقوله ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ .

### مقصود السورة :

تنزيل القرآن ، وإنذار سيد الرسل ، وتخليق السماء والأرض وخلق الخلائق ، وتخصيص الانسان من بينهم ، وتسليط ملك الموت على قبض الأرواح ، وتشوير العاصيين فى القيامة ، وملء جهنم من أهل الانكار ، والضلالة ، وإسقاط خواص العباد فى أجواف الليالى للعبادة ، وإخبارهم بما ادخر لهم فى العقبى : من أنواع الكرامة والتفريق بين الفاسقين ، والصادقين فى الجزاء ، والثواب فى يوم المآب ، وتسليمة النبى ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء الماضين ، وتقرير حجة المنكرين للوحدانية ، وأمر الرسول ﷺ بالاعراض عن مكافأة أهل الكفر ، وأمره بانتظار النصر ، بقوله : ﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون ﴾ .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وفي سأل سائل ( خمسين ألف سنة ) موضع بيانه التفسير . .  
والغريب فيه ما روى عن عكرمة في جماعة : أن اليوم في المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى  
انقضائها ، وأنها خمسون سنة ، لا يدري أحدكم كم مضى وكم بقى إلا الله - عز وجل - .  
ومن الغريب أن هذه عبارة عن الشدة ، واستطالة أهلها إياها ، كالعادة في استطالة أيام الشدة  
والحزن ، واستقصار أيام الراحة والسرور ، حتى قال القائل : سنة الوصل سنة ، وسنة الهجر سنة .  
وخصت هذه السورة بقوله : ألف سنة ، لما قبله ، وهو قوله : ﴿ في ستة أيام ﴾ وتلك الأيام من جنس  
ذلك اليوم ، وخصت : سورة المعارج بقوله : ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها ،  
فكان هو اللائق بها .

قوله : ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ ( ثم ) ههنا يدل على أنه ذكر مرات ثم تأخر وأعرض عنها . والفاء  
يدل على الاعراض عقيب التذكير قوله : ﴿ عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ، وفي سبأ ﴿ التي  
كنتم بها ﴾ لأن النار وقعت في هذه السورة موقع الكناية ، لتقدم ذكرها ، والكنايات لا توصف ،  
فوصف العذاب ، وفي سبأ لم يتقدم ذكر النار ، فحسن وصف النار . قوله : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا  
من قبلهم من القرون ﴾ بزيادة ( من ) سبق في سورة طه .

قوله : ﴿ إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ليس غيره ، لأنه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع  
حسن جمع الآيات ، ولما تقدم ذكر الكتاب - وهو مسموع - حسن لفظ السماع غنم الآية به .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) اشتمال كل منها على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر في السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل

الثاني ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتيح الغيب التي ذكرت في خاتمة ما قبلها ، فقوله : ﴿ ثم يعرج

إليه في يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ شرح لقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وقوله : ﴿ أولم يروا أنا  
نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ شرح لقوله : ﴿ وينزل الغيث ﴾ وقوله : ﴿ الذي أحسن كل شيء  
خلقه ﴾ تفصيل لقوله : ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ وقوله : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾  
إيضاح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ وقوله : ﴿ أنذا ضللنا في الأرض ... الخ ﴾  
شرح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

وقد عقد الامام ابن القيم فصلا عن خصائص يوم الجمعة ذكر فيه : وكان من هديه - صلى الله  
عليه وسلم - تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره .

وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي ﴿ ألم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا

علم عنده : أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة . ويسمونها سجدة الجمعة ، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ، استحسب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة ، دفعا : لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيميه يقول : إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها ، فإنها اشتملتا على خلق آدم ، وعلى ذكر المعاد ، وحشر العباد ، وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان في قراءتها في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ، والسجدة جاءت تبعا ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها ، حيث اتفقت . فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٦﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ﴿٨﴾

### معاني المفردات

لا ريب : لا شك ، افتراه : اختلقه ، أيام : جمع يوم والعرب تطلقه على جزء من اليوم . وقال النحاس اليوم في اللغة بمعنى الوقت ، العرش : الملك ، يدبر الأمر : أى أمر الدنيا ثم يعرج إليه : يرجع ويصعد ، نسله : ذريته وسميت الذرية نسلا لأنها تنسل منه أى : تنفصل مهين : أى ضعيف هو النطفة ، ثم سواه : أى سوى خلقه وأتمه .

روى البخارى في كتاب الجمعة : بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان النبي ﷺ

يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿الم تنزيل﴾ السجدة و ﴿هل أتى على الإنسان﴾<sup>(١)</sup>.

### التفسير

قوله تعالى : ﴿الم﴾ هذه بعض حروف الهجاء وفيها إشارة وتنبه إلى إعجاز هذا الكتاب العربي المبين ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ .  
﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أى : أن هذا الكتاب الكريم منزل من لدن حكيم عليم على وجه اليقين والقطع :

﴿قل أنزلني الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾<sup>(٢)</sup> .  
﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾<sup>(٣)</sup> .  
﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾<sup>(٤)</sup> .  
﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتندر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون﴾<sup>(٦)</sup> .

أم هنا : بمعنى ( بل ) ( والمهمزة ) أى : بل أيقولون افتراه ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهم قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزلني الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما﴾<sup>(٧)</sup> وقال تعالى : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾<sup>(٨)</sup> وقال جل شأنه : ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق﴾<sup>(٩)</sup>.

وقد رد الله تعالى على فريتهم فقال : ﴿بل هو الحق من ربك﴾ فالله هو الحق وكتابه حق ، ولقاؤه حق ، ووعدته الحق ، والساعة حق والجنة ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق

(١) سورة السجدة الآيات : ١ - ٩

في فتح الباري بشرح صحيح البخارى في ( كتاب الجمعة ) باب : ما يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ج ٢ ص ٣٧٧ رقم ٨٩١

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٥١

(٤) سورة الفرقان الآية : ١

(٥) سورة الاسراء الآية : ١٠٥

(٦) سورة السجدة الآية : ٣

(٧) سورة الفرقان الآيات : ٤ - ٦

(٨) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٩) سورة الرعد الآية : ٣٧

﴿ يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿ لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾<sup>(٢)</sup> وتلك رسالة الأنبياء إنذار وخوف ورجاء ، ودعوة إلى الهداية لعلهم يهتدون ، فالقرآن هو الروح الذى يحى الله به الموات ، والنور الذى يبده الله به غياهب الظلمات ، ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب والإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ إن هذا القرآن يهدى للقى هى أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يهرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾<sup>(٥)</sup> .

ومن آيات قدرته أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام : فقد خلق السموات فى يومين ، والأرض فى يومين ، وما بينهما فى يومين ، ولو شاء لخلق الجميع فى أقل من طرفة عين فأمره بالكاف والنون . ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾<sup>(٦)</sup> سبحانه مالك الملك ومملك الملوك . ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق بذاته فلاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى : كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى : ما لكم غير الله من ولى ، يل أموركم ولا شفيع يشفع لكم ، فكل ما سوى الله باطل ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾<sup>(٧)</sup> ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿ ومن يضل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾<sup>(٩)</sup> أنسيتم فلا تتذكرون ، أغفلتم فلا تعلمون ، ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا مسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة قال مجاهد وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة

(٦) سورة (ق) الآية : ٣٨

(٧) سورة النور من الآية : ٤٠

(٨) سورة الحج من الآية : ١٨

(٩) سورة الكهف من الآية : ١٧

(١) سورة النور الآية : ٢٥

(٢) سورة السجدة من الآية : ٣

(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الاسراء الآيتان : ٩ ، ١٠

(٥) سورة السجدة الآيات : ٤ - ٦

عين ولهذا قال تعالى : ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ (١) أى : المدير لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها ، وصغيرها ، وكبيرها ، هو العزيز الذى قد عز كل شيء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ (٢) أى : وهو الذى أحسن كل شيء خلقه فالكل من خلق الله ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ والكل قد أحسن الله خلقه . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ (٣) .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ (٤) فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والجبال ورسوخها ، والبحار ومعينها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، وإلى كل متحرك وساكن ، وظاهر وكامن ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره ، ويعد أن حدثنا سبحانه وتعالى : عن إحسان كل شيء خلقه حدثنا عن خلق الإنسان فقال سبحانه ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ﴾ (٥) ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٦) .

وكما قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٧) .

(١) سورة السجدة من الآية : ٥ ، ٦

(٢) سورة السجدة الآيات : ٧ - ٩

(٣) سورة الملك الآيات : ١ - ٥

(٤) سورة (ق) من الآية : ١ - ١١

(٥) سورة ص الآية : ٧١

(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

(٧) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣

قوله تعالى : ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

### حركات إرادية في الجنين

#### نفخ الروح

قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شئ خلقه .. وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار الأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربه وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال - ﷺ - فى الحديث الذى أخرجه الشيخان : ( إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقه فى ذلك مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح الحديث )<sup>(٤)</sup> .

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل : كان فيه حركة النمو والاعتداء كالنبات . ولم تكن حركة غموه واعتدائه بالارادة ، فلما نفخت انضمت حركة حسيته وارادته إلى حركة غموه واعتدائه .

الروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا أنه من أمر ربه ، وما أوق البشر من العلم إلا قليلا ، ولكن الله - سبحانه وتعالى - قد أخبرنا أنه كرم آدم بنفخ الروح فيه .

وكذلك كرم نبيه آدم حيث جعل نسله « من سلاله من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه .. »

والرسول الكريم ﷺ يوضح لنا متى ينفخ الروح فى الجنين فيقول : إن ذلك إنما يكون بعد مروره فى مراحل واطوار مختلفة .. النطفة أولا .. وقد شرحناها فيما سبق ، وقلنا ان المبيض إنما يفرز بويضة واحدة فى الشهر .. تمكث بعد ذلك يوما أو يومين على الأكثر ليتم تلقيحها بإذن الله بالحيوان المنوى ( نطفة الرجل ) ، وتتحد النطفتان لتكونا معا النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل ( الحيوان المنوى ) ، وماء المرأة ( البويضة ) ، وتنمو النطفة الأمشاج لتصبح مثل الكرة ، أو التوتة ، ثم تغلق فى الرحم بعد أسبوع من تكونها ( أى النطفة الأمشاج ) ، وتكون علقه بجدار الرحم ، ثم تكون مضغة

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ - ٩

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٩

(٣) سورة الاسراء الآية : ٨٥

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى ( كتاب القدر ) باب : كيفية خلق الأدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه مع اختلاف فى بعض ألفاظه رقم ١٦٩٥ ص ٧١٥ .

يتخلق فيها الجنين ، وتتكون أعضاؤه وفي هذه الأثناء تتكون العظام ، ثم يكسوها اللحم ( العضلات ) وتتكون وتتكامل الأجهزة : القلب - الكبد - الاطراف - السمع - البصر - الدماغ - وتبدأ في الجنين حركات ارادية في نهاية الشهر الثالث ، يمص أصابعه - يمسك بالحبل السرى ويصبح كثير الحركة . . يتقلب في الرحم . . ينام ويصحو . . يسمع الأصوات . . تكتب على جبينه وترسم كتابة لا نظير لها مطلقا . . تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه أو عاصروه أو سيلحقونه ، بصمات أصابعه المتفردة تظهر في نهاية الشهر الثالث - الكتابة والرسم العجيب على جبينه يظهر في نهاية الشهر الثالث - المشيمة تستقل بوظيفتها في الشهر الثالث - الكبد والقلب والدماغ والاطراف والسمع والبصر يكتمل بناؤها الأساسي في الشهر الثالث .

وفي نهاية هذا الشهر أيضا ، تتميز الأعضاء التناسلية الباطنة والظاهرة ، ويمكن التفريق بين الذكر والأنثى ، كما ان فحص عينة من السائل الأمينوس ( الرهل ) تصبح ممكنة بعد الشهر الثالث ، ويفحص خلايا الجنين التي تسقط في السائل يمكن معرفة بعض الأمراض الوراثية ، كما يمكن معرفة نوعية الجنين ذكرا أم أنثى .

وفي هذه الفترة ايضا يتخذ وجهه الشكل الانساني المميز . . أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر أو الأرنب . . لا فرق واضحا يمكن الاعتماد عليه لنقول هذا جنين دجاجة أو سمكة أو جنين إنسان عدا ان مراحل النمو تختلف من نوع إلى آخر ، ومن فصيلة إلى أخرى . وفي هذا الشهر تظهر السمات الانسانية ، ويكتمل نمو الوجه تقريبا ، وتكسى العظام بالعضلات ، وتكتمل تغذية العضلات وتبدأ العضلات الارادية بالتحرك ، بل إن عضلات الوجه تعبر عن حالة الجنين وما يعانيه .

في نهاية هذا الشهر الجنين يسمع . . الجنين يتحرك إراديا . . الجنين ترسم على وجهه علامات الرضا أو الضيق . . في نهاية هذا الشهر يعرف جنس الجنين . . وتظهر ملامح شخصيته المتفردة المتميزة عن بقية البشر .

أليست هذه كلها دلائل على نفخ الروح ؟ بلى ، ويؤكد الحديث الشريف ( أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما . . ثم يكون علقه في ذلك مثل ذلك . . ثم يكون مضغة في ذلك مثل ذلك . . ثم ينفخ فيه الروح ) .

وتدل عليه الآية الكريمة : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ( من كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن د . محمد علي البار )

قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم



السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ أعلمت مقدار هذه النعم ؛ نعمة السمع ونعمة البصر ونعمة الأفئدة .

تعالى معى لنستمع معا إلى صوت الحقائق العلمية تحدثنا عن بديع صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وكيف تكونت هذه الخواص .

### تكوين السمع

قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمعيا بصيرا ﴾<sup>(٢)</sup> وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلا ما تشكرون ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾<sup>(٣)</sup> .  
﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٤)</sup> .  
﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾<sup>(٥)</sup> .

### جهاز السمع

فى كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله - سبحانه وتعالى - السمع على البصر ، ولا تكاد تجد آية قدم فيها البصر على السمع .. ذلك لأن السمع أعظم وأهم من البصر ذاته على عظيم أهمية نعمة البصر ..

ويتعلم المولود بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر ، والأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة ابدا ، فهو أبكم أيضا ؛ بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة ، بل اللغات بكل يسر ، وتستطيع ان تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدى نعمة البصر ، ولكنه من العسير ان تعد الأحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع ، وخاصة اذا كان فقد السمع منذ الولادة او فى الطفولة الباكرة ؛ ولهذا جاء فى الآية الكريمة : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .  
فقدم سبحانه ذكر السمع على البصر فى معرض سياق الطرق الاساسية التى بها يكتسب الانسان المعرفة .

ويتكون جهاز السمع العجيب الذى منحنا الله - تبارك وتعالى - إياه دون ان نقدره حق قدره ، ولا نشكره حق شكره ، يتكون هذا الجهاز من الأذنين ولكل أذن ثلاثة أجزاء .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨

(٥) سورة الاسراء الآية : ٣٦

(١) سورة النحل الآية : ٧٨

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

(٣) سورة السجدة من الآية : ٩

( ١ ) الأذن الخارجية : وتشكل صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، وتنتهى عند طبلة الأذن ، ووظيفتها جمع الأصوات .

( ٢ ) الأذن الوسطى : وهى قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة - الركاب - السندان ووظيفتها نقل الاصوات إلى الأذن الداخلية .

الأذن الداخلية : وهى مكونة من جهازين مختلفين تمام الاختلاف : أولهما : جهاز السمع المستقبل للاصوات والذي ينقلها بواسطة العصب السمعى إلى المخ ( الدماغ ) .

والثانى : جهاز للتوازن ، وهو جهاز معقد أيضا ، وبواسطة قنوات هلالية متصلة ببعضها وبدخلها شعيرات تستطيع ان تميز أى حركة أو اهتزاز أو تغيير فى وضع الجسم ، فترسل بذلك اشارات إلى الدماغ ، حيث يستقبل هذه المعلومات ويسجلها ويستفيد منها ثم يرسل أوامره إلى الجسم والعضلات لتوائمه هذا التغيير ، ولعل القارئ الكريم قد لاحظ أن الله - سبحانه وتعالى - وحد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار ، وذلك لأن هناك مركزين للابصار فى مؤخرة الدماغ ، بينما نجد ان مركزى السمع فى الدماغ ( فى العضدين الصدغيين ) مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث يمكن اعتبارهما مركزا واحدا .

### تكوين الأذن الداخلية

تتكون الأذن الداخلية من الطبقة الجرثومية ( جرثومة الشيء : أصله ومنبعه ) الخارجية ( الكتودرم ) ويبدأ تكوينها مبكرا جدا إذ تبدأ فى اليوم الثانى والعشرين ( أى : بداية مرحلة المضغة ) كثخانة من سطح الطبقة الخارجية ( الكتودرم ) على جانبى موقع المخ المؤخرى ، وتتحول هذه الثخانة فى الأسبوع الرابع إلى حفرة ، ثم إلى حويصلة ، وتعرف عندئذ بحويصلة السمع .

وفى الأسبوع الخامس تنقسم هذه الحويصلة السمعية إلى قسمين : -

( ١ ) قسم أمامى : ويتحول إلى كيس صغير وقناة القوقعة .

( ٢ ) قسم خلفى : سرعان ما يصبح - العيبية ( وهى تصغير عيبية أى : قرية ) والقنوات نصف

الدائرية ( الهلالية ) .

وتعرف هاتان المجموعتان المذكورتان آنفا بالنبية الغشائى ، ثم يحاط هذه التية الغشائى

بالعظام ، ويعرف عندئذ بالتية العظمى ، ويفصل بين التية العظمى والغشائى باحتان ضيقتان بهما سائل لمغاوى .

وفى أثناء تكوين الحويصلة السمعية تنفصل منها ( أى : من الحويصلة السمعية ) مجموعة من

الخلايا مكونة عقدة السمع ، وعقدة التوازن ، وتغذى عقدة السمع جهاز كورق للسمع الذى يتكون

من القوقعة . كما تغذى عقدة التوازن جهاز التوازن الموجود فى القنوات نصف الدائرية ، والكيس

والعيبية وفى الأسبوع السادس تستطيل قناة القوقعة ، ثم تنطوى على محورها إلى أن تكمل دورتين

ونصف فى الأسبوع الثامن ، ويتكون شريط داخل قناة القوقعة يفصلها إلى جزئين :

الجزء الدهليزى ، والجزء السمعى ، وذلك فى الأسبوع العاشر .

وعلى هذا الشريط والذي يدعى الغشاء القاعدى تتكون الشعيرات السمعية المتصلة بعقدة السمع .

وهذه الشعيرات السمعية وما يتصل بها من عصب ليست إلا امتدادا من الدماغ ( المخ ) المؤخرى تماما ، كما سنرى ان حويصلة الأبصار ليست إلا امتدادا من المخ المسمى . ويعرف جهاز السمع الداخلى هذا والمكون من الشعيرات السمعية وما يحيط بها من أغشية يعرف باسم عضو كورقى على اسم مكتشفها .

ويتكون جهاز التوازن من القنوات الهلالية ( نصف دائرية ) والكيس ( تصغير كيس ) والعيبة أو الشكوة وتظهر القنوات الهلالية فى الأسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، كما تظهر العيبة ، أو الشكوة والكيس بوضوح فى الأسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، ويتصل كل من جهاز السمع وجهاز التوازن بالعصب السمعى الدهليزى ، وهو العصب الرأسى الثامن ، والذي يصب فى المخ المؤخرى .

الأذن الوسطى : تتكون الأذن الوسطى من غشاء الطبلية وعظام الأذن الثلاث : المطرقة والركاب والسندان ، ووظيفتها نقل الأصوات إلى الأذن الداخلية ، ويتكون غشاء الطبلية الداخلية ( الأنتودرم ) كامتداد لجيب القوس البلعومى الأول . . الذى يظهر فى الأسبوع الرابع ، ويلى هذا الغشاء طبقة رقيقة آتية من الميزودرم ( الطبقة المتوسطة ) المحيطة بالأقواس البلعومية ، ثم يليه غشاء مكون من امتداد الجلد أى من الطبقة الجرثومية الخارجية ( الاكتودرم ) وتتكون عظام الأذن الوسطى كما يلى :  
( ١ ) المطرقة والسندان : - وتتكونان من امتداد غضروف القوس البلعومى الأول أى قوس الفك السفلى .

( ٢ ) الركاب : - ويتكون من غضروف القوس البلعومى الثانى أى القوس اللامى ، ويحيط بهذه العظام خلايا من الطبقة الداخلية ( الأنتودرم ) التى تبطن الجيب البلعومى الأول وقرب نهاية الحمل فى الشهور بعد الولادة يتسع التجويف الطبلى نتيجة امتصاص النسيج الضام المحيط بالعظام فتصبح العظام حينئذ قادرة على الحركة لدى أى اهتزاز .

ومع هذا فمن الثابت الآن أن الجنين يستطيع السمع فى الشهر الرابع .

الأذن الخارجية : تتكون الأذن الخارجية من صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، ووظيفته تجميع الأصوات التى تنتقل عبر القناة السمعية الخارجية إلى طبلية الأذن ، فإذا ما اهتزت طبلية الأذن نتيجة الموجات الصوتية ، انتقلت هذه الذبذبات عبر عظام الأذن التى تنقلها إلى الغرفة السمعية فى الأذن الداخلية ( فى قوقعة الأذن ) ، حيث تؤثر على الشعيرات السمعية ، فتنتقلها عبر عصب السمع إلى الدماغ الذى وهب الله القدرة على تمييز هذه الأصوات ، ومعرفة مصدرها وصاحبها ، كما وهب الله القدرة على فهمها ، واستيعابها وتسجيلها ورصدها ، ذلك ان من خلق وقدر .

صوان الأذن : - يتكون صوان الأذن من جملة نتوءات من الجيب البلعومى الأول والثانى ، وتبدأ هذه النتوءات بجانب فتحة الأذن الخارجية ( الصماغ ) فى الأسبوع السادس ، وتتحد هذه النتوءات وتستدير لتكون شكل صوان الأذن ، أو ما يعرف لدى العامة بالأذن .

وجميع هذه التواءات مصدرها الطبقة الجرثومية المتوسطة (الميزدوم) الموجودة في القوسين البلعوميين الأول والثاني وتغطي بعد ذلك بالجلد وهو من الطبقة الجرثومية الخارجية الاكتودرم .  
قناة السمع الخارجية : تصل قناة السمع الخارجية ما بين صوان الأذن وطبلة الأذن ، وتتكون من بطانة الشق البلعومي الأول الذي يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة .

وفي البداية تكون هذه القناة مقفلة ومصمتة نتيجة امتلائها بخلايا مكونة ما يعرف باسم سدادة الصماخ ، ثم تمتص هذه السدادة وتزاح في الشهر السابع .

﴿ سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ﴾<sup>(١)</sup> .

وسياتى عندما نتحدث عن العين كيف تقفل الجفون ويلتصق الجفنان ، ثم في الشهر السابع تشق وتفتح ، وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره .. الذي وضعه حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يناجي ربه في سجوده .. كما قد مر معنا كيف يصور الوجه في الصور المتلاحقة العجيبة حتى يخلقه الله في أحسن صورة . ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ ﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾<sup>(٢)</sup> .

أفلا يكون بعد هذا كله حري بنا أن نسجد ونطيل السجود ، ونسبح فنتطيل التسبيح ، ونشكر فنزيد في الشكر للذي خلق وصور وشق السمع والبصر ، إن ذلك هو أقل ما توجهه علينا هذه النعم المتتالية للخالق الباري المصور تباركت أسماؤه وعزت صفاته .

### تكوين البصر

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾<sup>(٣)</sup> تبارك .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾<sup>(٤)</sup> السجدة .

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٥)</sup> لا شك ان حاسة البصر من النعم التي لا تقدر بثمن .. بل لو وزنت أعمال العبد الصالح جميعا لما كانت كفاء لنعمة البصر التي أنعم الله بها على الانسان ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة البصر مقترنة بنعمة السمع والفؤاد ، والسمع والبصر هما أهم الوسائل التي بها يتعرف الانسان على ما حوله وتتشرك بعد ذلك بقية الحواس الخمس من اللمس والذوق والشم في إمدادنا بالمعلومات عن البيئة التي حولنا ، ولكنها جميعا لا ترقى إلى ما تدرك بواسطة السمع والبصر ، ولذا جاء

(١) في دعاء للدكتور محمد السيد طنطاوى من أدعية السجود ( جزء من حديث رواه مسلم واصحاب السنن (ج ١ ص ١٤٤ رقم ١

(٢) سورة آل عمران من الآية : ٦

(٣) سورة الملك الآية : ٢٣

(٤) سورة السجدة من الآية : ٩

(٥) سورة النحل الآية : ٧٨

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (١) .

يخرج الطفل إلى الدنيا وليس لديه من المعرفة شيء ، ولكنه يكتسب هذه المعرفة بالحواس الخمس وأهمها : السمع والبصر . فالمولود يسمع أى ضجة وينزعج لها ، ويستطيع أن يميز بسرعة صوت أمه ، بل إن الجنين فى بطن أمه يستطيع سماع الأصوات ، وذلك منذ الشهر الرابع بينما هو فى ظلام تام فى رحم الأم ، ولا يستطيع بأى حال أن يرى شيئا .

أما نعمة الفؤاد وما يعبر عنه بالقلب فهى : أتم النعم وأكملها إذ ليس المقصود بالفؤاد تلك العضلة الصنوبرية الشكل والمودعة فى الجانب الأيسر من الصدر ، فهو كما يقول الامام الغزالى فى الاحياء : موجود للبهائم فهو ( قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر ، فضلا عن الأدميين ، ولكن المقصود بالفؤاد هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . ( أحياء علوم الدين كتاب عجائب القلب ) ونعمة البصر : مرتبطة بالعين ، والعين تشبه الكاميرا حيث أنها تلتقط الصور التى تنعكس على العدسة فى الشبكية التى تشبه الفيلم ، ثم تنتقل عبر ملايين الأعصاب المتجمعة فى العصب البصرى الى مؤخرة المخ ، حيث يقوم المخ بتحريض الصور وطبعها ، والتعرف عليها ، وكل ذلك يتم فى جزء بسيط من الثانية ، إذ أن سرعة الارسال تبلغ ألف متر فى الثانية ، وكذلك تتم عمليات الطبع والتحريض ، والادراك بمثل هذه السرعة الرهيبة .

كما تقدم ترى : أن الجزء المبصر من العين هو فى الواقع امتداد للمخ ، وكذلك تنمو حويصلة الأبصار كامتداد من المخ المبدئى ، ويبدأ أول ظهورها فى الأسبوع الثالث بعد التلقيح ، وفى الأسبوع الرابع تبدأ خلايا حويصلة الابصار تنفصل من المخ المبدئى . وفى الأسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين . والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطى شبكية العين فيما بعد : أما الطبقة الداخلية . فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين .

وتتباين الطبقة الداخلية إلى جزئين :

( ١ ) جزء خلفى : ويمثل أربعة أخماس الكوب ، وقوامه نسيج عصبى وهو الذى يكون شبكية العين بطبقاتها المختلفة ، وهو الجزء الحساس للضوء ويشبه فى ذلك الفيلم فى الكاميرا ، حيث تسجل عليه الصور وترسل عندئذ عبر العصب البصرى إلى المخ لتحريضها ، وإدراك ابعادها ومرامها .

( ٢ ) جزء أمامى : - ويمثل الخمس الأمامى من كوب الأبصار ، ويساهم فى تكوين القرنية والجسم الهدبى . والقرنية هى التى تعطى العين لونها الأسود أو العسل أو الأزرق حسب ما فيها من صبغة ، كما أنها التى تتحكم فى لؤلؤ ( فتحة ) العين ، ويتحكم الجسم الهدبى بواسطة عضلاته فى تحذب

عدسة العين ، بحيث تتمكن العدسة من زيادة تحدبها أو انقاصه لنرى الأشياء القريبة (زيادة التحذب) أو البعيدة (اقلال التحذب) .

وعضلة الجسم الهدبي : هى العضلة الوحيدة فى الجسم التى تتكون من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) ، أما بقية عضلات الجسم الارادية ، وغير الارادية ، فتتكون جميعها من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وفى الشهر الثالث : تنمو شبكية العين إلى أربع طبقات ، وفى تمام الشهر السابع يكتمل نمو الشبكية إلى طبقاتها التسع المعروفة فى المولود ، كما يتكون الصلب البصرى ويتصالب فى مساره المعروف بالتصالب البصرى ، حتى يصل إلى المخ المؤخرى .  
العدسة البصرية :

يبدأ ظهور العدسة كثخانة فى الطبقة الخارجية (الاكتودرم) والتى يتكون منها الجلد ايضا فى المنطقة التى يظهر فيها الكوب البصرى ، وذلك فى أواخر الاسبوع الرابع وأوائل الخامس ، وتترشح نواة العدسة من الطبقة الخارجية والتى تكون الجلد أيضا إلى داخل الكوب البصرى ، ثم تنفصل تماما عن الطبقة الخارجية (الاكتودرم) .

وتفقد خلايا العدسة أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البلور وتدعى عندئذ العدسة البلورية البصرية تصور أن العدسة الشفافة ليست إلا نوعا من الجلد شاءت يد القدر المبدعة ان يكون مبصرا .  
ويغطى العدسة محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتسمى عندئذ المحفظة العدسية الدعائية ؛ لأنها تتخللها الأوعية الدموية التى تضم فى الشهر السابع ، وتشق هذه المحفظة فى وسطها مكونة فتحة وفرجة تعرف باسم حدقة العين أو « الثؤثؤ » وقد مر معنا فى فصل السمع كيف يشق السمع عندما تزاح سدادة الصماخ ، وتشق قناة السمع الخارجية فى الشهر السابع ، وكذلك تشق محفظة العدسة لتكون الثؤثؤ أو حدقة العين ، ثم تشق الجفون وتفتح فى الشهر السابع .  
الصلبة والقرنية والغشاء المشهى

إن العين كالكرة ولكنها مكونة من ثلاث طبقات : الداخلية : وهى كوب الابصار الذى وصفناه ، وقلنا : إنه امتداد للمخ ، ويكون أساسا للشبكية بطبقاتها المختلفة كما يساهم الجزء الامامى فى هذا الكوب فى تكوين القرنية والجسم الهدبي وتحيط بهذه الكرة أو كوب الابصار كرة ثانية تسمى بالغشاء المشيمى للعين وهى كرة تكثر فيها الأوعية الدموية ، وتساهم مع الجزء الامامى من كوب الابصار فى تكوين الجسم الهدبي والقرنية ، ومصدر خلايا هذه الكرة هى الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتلى هذه الكرة كرة اخرى من الخارج ، وهى ايضا من الطبقة المتوسطة ، وتحيط بالغشاء المشيمى مكونة من جزأين :

( ١ ) الجزء الخلفى ويشكل  $\frac{1}{6}$  من الكرة وهو من نسيج ليفى ثخين وقوى ابيض اللون ويسمى لذلك الصلبة ويمنع دخول الضوء .

( ٢ ) الجزء الامامى ويشكل  $\frac{1}{6}$  من الكرة وهو رقيق وشفاف ويسمح للضوء بالدخول ويسمى القرنية .

وتظهر الصلبة والقرنية فى الاسبوع السابع ، وكذلك تظهر مشيمة العين فى هذه الفترة وتتكون الرطوبة الزجاجية خلف العدسة ، وأمام الشبكية وذلك فى الشهر الثالث نتيجة امتصاص خلايا المزودرم .

الجفون :

يبدأ تكون الجفنين العلوى والسفلى فى الاسبوع السابع من الطبقة الخارجية ( الاكثودرم ) الموجودة فى منطقة الجبهة ، ويتكون رطب ذو طبقتين يتوسطهما نسيج من الطبقة المتوسطة ( الميزودرم ) .

وتكون الطبقة الخارجية ( الاكثودرم ) ( ١ ) جلد الجفن ( ٢ ) رموش العين ( ٣ ) الملتحمة ويكتمل نمو الجفون فى الشهر الثالث ، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت إذ لا حاجة للجنين بالرؤية فى ذلك الظلام الدامس ، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الامنوسى ( الرهل ) ، وفى الشهر السابع تنفتق الجفون مرة اخرى استعدادا لخروج الجنين إلى الدنيا ومرة اخرى نقول : مع المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه فى سجوده ( سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشفق سمعه وبصره )<sup>(١)</sup> .

#### الغدة الدمعية

تتكون الغدة الدمعية من الجزء الوحشى من الحفرة الجحاجية ، ويبدأ ظهورها مبكرا جدا فى الاسبوع التاسع كامتداد من الملتحمة وتكون على هيئة ستة اعواد مليئة ، ولكنها سرعان ما تشق لتكون قنوات تفتح على الملتحمة ، وللدموع وظائف غير البكاء ، وتبريد لوعة الحزن ، وأهمها ترطيب العين وتعقيمها وتنظيفها مما يعلق بها من أتربة وغبار وميكروبات ، ففى هذه الدموع مواد مطهرة تقتل الميكروبات ، ومواد منظفة تزيل الأتربة .

وافراز الدموع مستمر لكننا لا نراه ، لأنه يندفع بيسر فى الملتحمة ليصب فى القناة الدمعية فى الأنف ، فيتبخر منها . . إلا إذا زاد الافراز ، فعندئذ تمتلأ المآقى بالدموع وتنسكب من العيون وتسيل من الأنف .

وكما أن للدموع وظيفة غسل العين وتنظيفها وتطهيرها ؛ فإن لها كذلك وظيفة غسل الأدران من القلب اذا كانت العين تبكى من خشية .

( لا تمس النار عينا بكى من خشية الله ولا عينا باتت تحرس فى سبيل الله ) ولترك إذن من حين لآخر لمآقينا أن تمتلأ بالدموع ولتنسكب العبرات تتبعها الزفرات ، فإن فى ذلك تطهيرا للقلوب من أدرانها ، وللنفوس من كثافتها وطغيانها ، وليس هناك ما يجلى الصدا عن القلب مثلما تجلوه عين بكى من خشية الله .

من الذى خلق هذا ؟ ومن الذى قدر فهدى ؟ ومن الذى اتقن كل شيء ؟ الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

( ١ ) انظر الدعاء للدكتور محمد سيد طنطاوى باب من ادعية السجود ج ١ وقال ص ١٠٠ رقم ١ رواه مسلم وأصحاب السنن .

انظر إلى المرء وقل	من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه	بقُدرة مفتكرة
ذاك هو الذى	انعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقُدرة مقتدرة

## إنكارهم للبعث

وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَفِرُونَ ﴿١٠﴾ \* قُلْ  
يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ  
نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾  
وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ  
أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ  
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

## المفردات :

ضللنا : العرب تقول ضل الماء في اللبن إذا ذهب ، وتقول للشئ غلب عليه غيره حتى خفى فيه  
أثره ضل وتقول : لما غاب في الأرض ضل : والمراد هلكنا وصرنا ترابا . « يتوفاكم » : توفي العدد  
والشئ إذا استوفاه وقبضه جميعا وقالوا : توفاه الله أى قبض روحه ، والتوفى والاستيفاء بمعنى واحد  
والمراد : يقبض ارواحهم حتى لا يبقى احد منهم .  
( ناكسوا رؤوسهم ) : مطأطئوها وخافضوها  
( الجنة ) الجن

## التفسير

يقول تعالى : مخبرا عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ﴾  
أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض ، وذهبت ﴿ أَئِذَا لَقِيَ خَلْقٌ جَدِيدٌ ﴾ أى : أننا لنعود بعد  
تلك الحال ؟ يستعدهن ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذى



بدأهم وخلقهم من العدم الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال لنا : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة ابراهيم وقد سمي فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد : وله أعوان وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت<sup>(١)</sup> قال مجاهد : ( طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء )<sup>(٢)</sup> ورواه ابن محمد عن النبى - ﷺ - مرسلا . وقاله ابنه - رضى الله عنهما - وروى ابن أبى حاتم بسنده عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله - ﷺ - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى - ﷺ - ( يا ملك الموت أرفق بصاحبى ، فإنه مؤمن ) فقال ملك الموت : يا محمد طب نفسا وقر عيننا ، فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم ان ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا اتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم<sup>(٣)</sup> والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها . قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله فى تلك الحال العظيمة عن ابراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهد يقول ، ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر إلا وملك الموت يطوف به كل يوم مرتين . . وقال كعب الاحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه أحد امر ان يتوفاه<sup>(٤)</sup> رواه أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .  
قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس وأجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٥)</sup> .

يخبر تعالى : عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدى الله - عز وجل - حقيرين ذليلين ناكسى رؤوسهم أى : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير فى نفس المصدر والصفحة ص ٣٦٣

(٣) انظر تفسير ابن كثير نفس السورة السابقة ج ٦ ص ٣٦٣ وقال المحقق أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى حاتم وأبى الشيخ : ١٧٤/٥

ولكننا وجدناه فى الدر المنثور للسيوطى عن أبى حاتم وأبى الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على فى تفسير سورة السجدة الجزء الحادى والعشرين ج ٦ ص ٥٦٣ مع اختلاف فى بعض الفاظه وزيادة ونقص .

(٤) انظر تفسير ابن كثير سورة السجدة من الآية : ٧ - ١١ وقال : أخرجه ابن أبى حاتم .

(٥) سورة السجدة الآيات : ١٢ - ١٤

أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم باللاماة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وهكذا : هؤلاء يقولن • ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أى : إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى : منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارا ، ويكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية .

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أى : من الصنفين فدارهم النار لا عجد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته الثامة من ذلك .

﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : يقال : لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناس لأنه تعالى : لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقال تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ لا يدوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميما وغساقا إلى قوله ... فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (١) .

### المؤمنون وجزاؤهم

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِمَا يَنْتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(١) سورة النبأ الآيات : ٢٤ - ٣٠

(٢) الآيات من ١٥ - ٢٢ من سورة السجدة .

﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

المفردات ( تتجافى ) : التجافى : الابتعاد والارتفاع - « المضاجع » جمع مضجع وهو الموضوع الذى يضجع فيه بفرش للنوم .  
« قرة أعين » : القرة اسم لما يحصل به القرير أى : الفرح والسرور .  
« فاسقا » : أى كافرا .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ﴾ أى إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوا قولاً وفعلًا ، ( وسبحوا بحمده ربهم وهم لا يتكبرون ) عن إتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهله من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنْ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيفة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل . وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس أيضا : هو انتظار العتمة <sup>(١)</sup> ،

رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعا ﴾ أى : خوفاً من وبال عقابه ، وطمعا فى جزيل ثوابه ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله - ﷺ - كما قال عبدالله ابن رواحه - رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه	إذا أنشق معروف من الصبح ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا	به موقنات أن ما قال واقع
يبيب يجافى جنبه عن فراشه	إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الإمام أحمد بسنده عن الهمداني عن ابن مسعود مسعود عن النبى - ﷺ - قال ( عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولخافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى : فانهزموا ، فعلم ماعليه من الفرار وما له فى الرجوع . فرجع حتى أهرق دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى فيقول : الله - عز وجل - للملائكة انظروا إلى عبدى رجع دمه رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهرق دمه ) <sup>(٢)</sup> وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه <sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - مسند عبد الله بن مسعود ج ١ ص ٤١٦

(٣) وأخرجه أبو داود فى سننه ( فى كتاب الجهاد ) باب : فى الرجل الذى يثرى نفسه حديث رقم ٥٢٣٦ ، ج ٣ ص ٩ - ٢٠

عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ، ونحن نسير فقلت : يا نبي الله ! أخبرني بعمل يدخلني الجنة ، ويباعدني من النار : ( لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة ، وصلاة الرجل في جوف الليل - ثم قرأ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال : أخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟ - فقلت : بلى يا رسول الله : فقال : ( رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله ، ثم قال : ( ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ ) فقلت : بلى يا نبي الله : فأخذ بلسانه ثم قال : كف عليك هذا ) فقلت : يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم <sup>(١)</sup> ، رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله - ﷺ - قال له : ( ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تطفى الخطيئة ، وقيام العبد في جوف الليل ، وتلا هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ <sup>(٢)</sup> رواه أيضا من حديث الثوري .

وعن معاذ أيضا عن النبي - ﷺ - في قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : ( قيام العبد من الليل ) وروى ابن أبي حاتم بسنده عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبي - ﷺ - في غزوة تبوك فقال : ( إن شئت نباتك بأبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفى الخطيئة ، وقيام الرجل في جوف الليل ) ثم تلا رسول الله - ﷺ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية ، ثم قال : حدثنا أبي حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا علي بن مسهر ، عن عبد الرحمن بن اسحق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ، قالت : قال رسول الله - ﷺ - ( إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق ، سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقيم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية ، فيقومون وهم قليل ) <sup>(٤)</sup> ، وقال ليزار بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال : لما نزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ كنا نجلس وناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق <sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده مسند معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٣١

(٢) انظر أيضا في تحفة الاحوذى ابواب الايمان ، باب : ما جاء في حرمة الصلاة ، الحديث ٢٧٤٩ : ٣٦٢/٧ - ٣٦٥ وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : كف اللسان في الفتنة الحديث ٣٩٧٣ ج ٢ / ١٣١٤ - ١٣١٥ .

(٣) وانظره في تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٤) نظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٥) الحديث في مجمع الزوائد في كتاب التفسير - سورة السجدة ج ٧ ص ٩٠ وقال الهيثمي : رواه اليزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

وقال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .  
 فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم واللذات التي لم يطلع على مثلها  
 أحد ، لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فإن الجزاء من جنس  
 العمل ، قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب  
 بشر . رواه ابن أبي حاتم . قال البخارى : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة  
 أعين ﴾ حدثنا على بن عبد الله بسنده ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :  
 ( قال الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب  
 بشر ﴾ <sup>(١)</sup> ،

قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ قال :  
 وحدثنا عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال : فأى شيء ؟ ورواه  
 مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عيينه به . قال الترمذى حسن صحيح <sup>(٢)</sup> ثم قال البخارى :  
 بسنده عن أبي هريرة ، عن النبى - ﷺ - يقول الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين  
 رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخرا لمن بله ما أطلعتم عليه ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم قرأ : ﴿ فلا  
 تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال أبو معاوية : عن الأعمش ، عن  
 أبي صالح قرأ أبو هريرة ( قرأت أعين ) انفرد به البخارى من هذا الوجه <sup>(٤)</sup> وقال الإمام أحمد : بسنده  
 عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن الرسول - ﷺ - ، ( إن الله تعالى قال أعددت  
 لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ <sup>(٥)</sup> ،  
 وقال حماد بن سلمة : بسنده عن حماد أحسبه عن النبى - ﷺ - قال : ( من يدخل الجنة ينعم لا  
 يبأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب  
 بشر ﴾ <sup>(٦)</sup> رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - يقول : شهدت من  
 رسول الله - ﷺ - مجلسا ، وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : في آخر حديثه ( فيها ما لا عين  
 رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ) ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع إلى  
 قوله يعملون ﴾ <sup>(٧)</sup> أخرجه مسلم .

وقال ابن جرير : حدثني العباسى بسنده عن عقبة بن عبد الغافر عن أبي سعيد الخدرى . عن رسول  
 الله ﷺ - يروى عن ربه - عز وجل - قال : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

(١) أخرجه البخارى في تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ١٤٥

(٢) أخرجه مسلم ، في كتاب الجنة : ١٤٣ / ٨ وتحفة الأحوى تفسير سورة السجدة الحديث ٣٢٤٩ : ٩ / ٥٦  
 (٣) في فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٥ قال الخطاى كأنه يقول : دع ما استطعتم عليه فإنه سهل في جلب  
 ما ادخر لهم ويعقب ابن حجر بقوله : « وهذا لا يثق بشرح ( بله ) بغير تقدم ( من ) عليها ، وأما إذا تقدمت ( من ) عليها ،  
 فقد قيل : هي بمعنى « كيف » .. الخ .

(٤) أخرجه البخارى في تفسير سورة السجدة : ٦ - ١٤٥

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - مسند أبي هريرة - ج ٢ ص ٣١٣ من حديث طويل .

(٦) أخرجه مسلم في ( كتاب الجنة ) باب : في دوام نعيم أهل الجنة ج ٨ / ١٤٨

(٧) أخرجه الإمام أحمد في مسنده - من حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدى ج ٥ ص ٣٣٤ وأخرجه مسلم في صحيحة في

ولا خطر على قلب بشر ﴿١﴾

وقال مسلم أيضا : في صحيحه بسنده عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبي - ﷺ قال : ( سأل موسى عليه السلام ربه - عز وجل - ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هورجل يجيء بعدم أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة : فيقول أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربى ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما أشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاها منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصادقه من كتاب الله - عز وجل - ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ (١) ،

ورواه الترمذى عن ابن عمر وقال : حسن صحيح ، قال في ورواه بعضهم عن الشعبي ، عن المغيرة ، ولم يرفعه والمرفوع أصح قال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن المدائنى ، حدثنا ابو بدر بن شجاع بن الوليد ، حدثنا زيادة بن خثيمة ، عن محمد بن حجازة ، عن عامر بن عبد الواحد ، قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت ، فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ، فتقول له : قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التى قال الله ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن لهيعة : بسنده عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ويخبرون أن الله عنهم راض ، وروى ابن جرير بسنده عن أبى اليمان الهوزنى أو غيره قال : الجنة مائة درجة ، أولها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساكنها فضة ، وآنيتها فضة ، وتراها المسك ، والثانية : ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وتراها المسك ، والثالثة : لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ ، وتراها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم ﴾ (٢) الآية وقال ابن جرير : بسنده عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - عن الروح الأمين ، قال : ( يؤتى بحسنات العيد وسناته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [ واحدة ] وسع الله له فى الجنة ، قال : فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهب الحسنة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم ﴾ الآية قلت : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من

( كتاب الجنة ) ١٤٣ / ٨٩ .

(١) انظر تفسير الطبرى : ج ٢١ ص ٦٧

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان باب . أدنى أهل الجنة منزلة ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

انظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ٣٦٩ تفسير سورة السجدة

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٦٦ / ٢١

قرة أعين ﴿ قال : العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين <sup>(١)</sup> ،

وفى قيام الليل وفضلة : يحدثنا الرسول - ﷺ - فيقول : فى فضل قراءة القرآن فى قيام الليل : - (س) قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القائمين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين <sup>(٢)</sup> ، رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه .

- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية ، الأوقية ، خير مما بين السماء والأرض ) رواه ابن حبان وروى عن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - : ( من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليل ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ، ومن قرأ اربعماية آية كتب من العابدين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحفاظين ، ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المختبين ، ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار . والقنطار ألف ومائتا أوقية ، الأوقية خير مما بين السماء والأرض - أو قال ) خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين ﴿ <sup>(٣)</sup> رواه الطبرانى

المعنى : الاخبات : زيادة التواضع والذلة لله . يقال : أحببت الله تعالى : أى زاد تواضعاً . أربع خصال حازها المختبون .

أولاً : خوف الله . ثانياً : الصبر عند المصائب . ثالثاً إقامة الصلاة . رابعاً : الانفاق فى الخيرات ﴿ يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴿ الموجب هنا : الذى أتى بفعل يوجب له الجنة .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنديقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴿ <sup>(٤)</sup>

التفسير

يخبر تعالى : عند عدله وكرمه ، أنه لايساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً . أى : خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسول الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١ / ٦٧

(٢) أخرجه أبو داود فى (كتاب الصلاة) باب : تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه فى (ابواب التطوع بالليل) باب فضل قراءة ألف آية فى ليلة . . . الخ

(٣) الحديث فى مجمع الطبرانى من حديث القاسم بن عبد الرحمن بن يزيد الشامى مولى معاوية عن أبي أمامة ، الخ ج ٨ ص ٢١٢ رقم ٧٧٤٨ وقال المحقق : قال فى المجمع : ٢ / ٢٦٨ .

(٤) سورة السجدة الآيات : ١٨ - ٢٢

حسب الذين اجتروحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴿١﴾ .

وقال تعالى ﴿٢﴾ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴿٣﴾ .

وقال تعالى ﴿٤﴾ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴿٥﴾ ولهذا قال تعالى : هنا ، ﴿٦﴾ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستويون ﴿٧﴾ أى عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما : أنها نزلت في علي بن أبي طالب وعقبة بن أبي معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال ﴿٨﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿٩﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات ﴿١٠﴾ فلهم جنات المأوى ﴿١١﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿١٢﴾ نزلا ﴿١٣﴾ أى ضيافة وكرامة ، ﴿١٤﴾ بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا ﴿١٥﴾ أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله . ﴿١٦﴾ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴿١٧﴾ قال الفضيل بن العياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ، ﴿١٨﴾ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴿١٩﴾ .

أى : يقال لهم ذلك تقريرا توبيخا ، وقوله تعالى : ﴿٢٠﴾ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢١﴾ .

قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتا ، وما يحل بأهلها مما يتلى الله به عباده ليتوبوا به ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية . وقال ابن عباس فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن اسرائيل عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢٢﴾ .

قال : سنون أصابتهم ، وقال عبد الله بن الامام بسنده عن أبى بن كعب فى هذه الآية ﴿٢٣﴾ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴿٢٤﴾ قال : القمر والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام وقال عبد الله بن مسعود ايضا فى رواية عنه : العذاب الأدنى ما صابهم من القتل والسبى يوم بدر ، وكذا قال : مالك عن زيد بن أسلم ﴿٢٥﴾ قال السدى وغيره : لم يبق بيت بمكة الا دخله الحزن على قتيل لهم أو اسير فاصيبوا أو نرموا ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله تعالى : ﴿٢٦﴾ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿٢٧﴾ أى : لا أظلم ممن ذكره

(١) سورة ص الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٣) سورة السجدة الآية : ١٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، سورة السجدة آية رقم ٢١



الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجعلها واعرض عنها ، وتناساها كأنه لايعرفها .  
قال قتادة: إياكم والاعراض عن ذكر الله ، فإن من اعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز  
أشد العوز ، وعظم من اعظم الذنوب ولهذا قال تعالى : متهددا لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين  
متقون ﴾ سأنقم ممن فعل اشد الانتقام .

وروى ابن جرير ، حدثني عمران بن بكار بسنده : عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله  
ﷺ - يقول : ( ثلاث من فعلهن فقد أجرم ، من عقد لواء في غير حق ، أو عقى والديه ، أو مشى مع  
ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين متقون ﴾ (١) .

### مواظ وعبر

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾  
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنْ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ  
بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ  
الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ  
الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾  
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿٣٠﴾

### المفردات

مرية : شك

أئمة : جمع إمام أى: زعماء وقادة في الدين

أو لم يهد لهم : أو لم يتبين لهم .

القرون : الأمم السابقة

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن معاذ بن جبل وأخرجه ابن منيع.. أيضا انظره

(٢) سورة السجدة من الآية : ٢٣ - ٣٠ آخر السورة .

الجرز : هى الارض اليابسة التى جرز نباتها أى : قطع لرعى أو لعدم الماء فيها مع صلاحيتها للنبات وقيل : رجل جروز إذا كان لا يبقى شيئاً ، ألا أكله . وناق جروز : أى : تأكل كل شئ تجده ، وسيف جراز : أى ، قاطع ماض ( متى هذا الفتح ؟ ) متى هذا الحكم ؟ إذ الفتح القضاء . وقيل : للحاكم فاتح وفتاح ، لأن الأشياء تنفتح على يديه ، وتنفصل ، وعليه قوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ .

وهذا رجوع إلى أحد الأصول الثلاثة ، وهى الرسالة والتوحيد وإثبات البعث التى تعنى بها السور المكية ، وإنما اختار موسى لكثرة الشبه بينه وبين النبى محمد ﷺ ولكثرة أتباعه وقوة تأثيرهم فى المجتمع العربى ، وكل من المسحيين واليهود يؤمنون به ، ومع هذا كثير من المواعظ والعبر .

### المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة : الرسالة والتوحيد والبعث - عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، وبعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد مع ذكر البرهان عليه بما يرويه من المشاهدات التى يبصرونها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أى : ولقد آتينا موسى أخاك الكتاب فأودى وكذب ، وناله ماناله من ألوان العذاب والسخرية ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك مالمقيه من التكذيب والأذى ، إذ تلك سنة الكون ونظام الناس ، لا بد من اضطراع أهل الحق مع أهل الباطل ، وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى هدى ونورا لبنى اسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة وقادة ، وهم أنبياء بنى اسرائيل يهدون الناس بأمرنا ، ويدعونهم ويعظونهم ، وكانوا بآياتنا يوقنون ، كل ذلك لما صبروا على أحكام الدين وتكاليفه ، وصبروا على البلاء وعلى متاع الدنيا الزائل .

إن ربك هو يفصل بين المؤمنين والكافرين المنكرين للرسالة ، ويقضى بحكمه العدل فيجازى كلا على عمله ، ويعطيه ما يستحق من ثواب أو عقاب .

وقيل المعنى : إن ربك يقضى بين الأنبياء وأممهم بالحق .

أغفلوا ولم يتبين لكفار مكة إهلاكنا كثيرا من الامم السابقة ؟ حالة كونهم يمشون للتجارة فى مساكنهم فيعتبروا ويتعظوا بما حل بغيرهم ، إن فى ذلك لآيات دالات على قدرة الله وحكمة العدل بين الكفار والمؤمنين أفلا يسمعون سماع قبول وتدبر بقلوبهم ؟

أعموا أنا يروا- إن نسوق الماء الى الأرض الجرز التى لا نبات فيها بواسطة المطر أو الانهار والسيول ، فنخرج بالماء زروعا وثمارا تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون !

ألم يروا إلى مثل مصر فإنها هبة النيل ، ولولا أن الله ساقه إليها لبقيت مصر قطعة من الصحراء  
 لاخير فيها ولا حياة ، وأن ربك على كل شىء قدير أفلا يبصرون ذلك فيعتبرون ويتعظون .  
 وكان المسلمون يقولون : غدا سيفتح الله علينا ويحكم بيننا بالحق وهو خير الفاصلين ، فكان  
 المشركون يقولون : متى هذا الفتح ؟ استبعادا وانكارا واستهزاء بالنبى وصحبه ! قل لهم : يوم الفتح  
 والقضاء الفصل هو يوم القيامة ، يومئذ لاينفع الذين كفروا إيمانهم بأنهم على باطل وأنهم تركوا  
 الصراط المستقيم ، واتبعوا سبل الشيطان فضلوا عن سواء السبيل ، ولاينفعهم إيمانهم بأن النبى  
 والقرآن حق ، ولا هم ينظرون ، بل سيأخذون جزاءهم فورا .

فأعرض عنهم وانتظر ماينحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة وانهم منتظرون بك حادث موت  
 أو قتل فيستريحون منك ، وما علموا أن الله عاصمك من الناس ومؤيدك ، حتى تؤدى رسالتك كاملة  
 غير منقوصة .

## سورة الأحزاب

قال صاحب البصائر :-

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها ثلاث وسبعون . كلماتها ألف ومائتان وثمانون . حروفها خمسة  
 آلاف وسبعمائة وستة وتسعون .

سميت سورة الاحزاب : لاشتغالها على قصة حرب الأحزاب فى قول : ﴿ يحسبون الأحزاب لم  
 يذهبوا ﴾ .

معظم مقصود السورة : التى اشتملت عليه : الأمر بالتقوى ، وأنه ليس فى صدر واحد قلبان ،  
 وأن المتبنى ليس بمنزلة الابن ، وأن النبى ﷺ للمؤمنين بمكان الوالد ، وأزواجه الطاهرات بمكان  
 الأمهات ، وأخذ الميثاق على الانبياء ، والسؤال عن صدق الصادقين ، وذكر حرب الأحزاب ،  
 والشكاية من المنافقين ، وذم المعرضين ، ووفاء الرجال بالعهد ، ورد الكفار بغيظهم ، وتخيير أمهات  
 المؤمنين ووعظهن ونصحهن ، وبيان شرف أهل البيت الطاهرين ، ووعد المسلمين والمسلمات بالأجور  
 الوافرات ، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحرج عن النبى ﷺ وختم الانبياء به - عليه السلام -  
 والأمر بالذكر الكثير ، والصلوات والتسليمات على المؤمنين ، والمخاطبات الشريفة لسيدنا المصطفى  
 ﷺ - وبينان النكاح والطلاق والعدة ، وخصائص النبى ﷺ فى باب : النكاح وتخيره فى القسم بين  
 الأزواج ، والحجر عليه فى تبديلهن ، ونهى الصحابة عن دخول حجرة النبى ﷺ - بغير إذن منه ،  
 وضرب الحجاب ، ونهى المؤمنين عن تزويج أزواجه بعده والموافقة مع الملائكة فى الصلاة على النبى  
 ﷺ - وتهديد المؤذنين للنبى وللمؤمنين ، وتعليم آداب النساء فى خروجهن من البيوت ، وتهديد  
 المنافقين فى إيقاع الأراجيف ، وذل الكفار فى النار ، والنهى عن أيداء الرسول ﷺ - والأمر بالقول  
 السديد ، وبيان عرض الأمانة ( على السموات والأرض ) وعذاب المنافقين وتوبة المؤمنين فى قوله :  
 ﴿ أنا عرضنا الأمانة ﴾ (١) . إلى آخر السورة .

المتشابهات : ذهب بعض القراء الى أنه ليس فى هذه السورة متشابه . وأورد بعضهم فيها كلمات

وليس فيه كثير تشابه بل قد تلبس على الحافظ القليل البضاعة .

فأوردناها ، إذا لم يخل من فائدة وذكرنا مع بعضها علامة يستعين بها المبتدئ في تلاوته .  
 منها قوله : ﴿ ليسئل الصادقين عن صدقهم ﴾ <sup>(١)</sup> . وبعده ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾  
 ليس فيها تشابه ، لأن الأول : من لفظ السؤال وصلته ( عن صدقهم ) وبعده ﴿ وأعد للكافرين ﴾  
 والثاني : من لفظ الجزاء وفاعله الله ، وصلته ﴿ بصدقهم ﴾ بالياء وبعده ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ ومنها  
 قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 وبعده ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ <sup>(٣)</sup> . فيقال للمبتدئ : إن الذي يأتي بعد  
 العذاب الأليم نعمة من الله على المؤمنين .

وما يأتي قبل قوله ﴿ هو الذي يصلى عليكم ﴾ .  
 اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴿ شكرا على أن انزلكم منزلة نبيه في صلاته وصلاة ملائكته عليه حيث  
 يقول ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ ومنها قوله : يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ﴿ ليس  
 من المتشابه ، لأن الأول : في التخير والثاني : في الحجاب .

ومنها قوله : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ [ في موضعين ] .  
 وفي الفتح ﴿ سنة الله التي قد خلت ﴾ <sup>(٤)</sup> التقدير في الآيات : سنة الله التي قد خلت في الذين  
 خلوا ، فذكر في كل سورة الطرف الذي هو أعم ، واكتفى به عن الطرف الآخر ، والمراد بما في أول هذه  
 السورة النكاح نزلت حين عيروا رسول الله بنكاح زينب ، فأنزل الله : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من  
 قبل ﴾ <sup>(٥)</sup> أى : النكاح سنة في النبيين على العموم . وكانت لداود تسع وتسعون ، فضم إليها التي  
 خطبها أوريا ، وولدت سليمان . والمراد بما ففى آخر هذه السورة القتل ، نزلت في المنافقين والشاكرين  
 الذين في قلوبهم مرض ، والمرجفين في المدينة ، على العموم وما في سورة الفتح يريد به نصره الله  
 لأنبيائه . والعموم في النصره أبلغ منه في النكاح والقتل ، ومثله في حم ﴿ سنت الله التي قد خلت في  
 عباده ﴾ فإن المراد بها عدم الانتفاع بالإيمان عند البأس فلهذا قال : ﴿ قد خلت ﴾ .  
 ومنها قوله : إن الله كان لطيفا خبيرا ﴿ وكان الله على كل شيء رقيبا ﴾ ﴿ وكان الله قويا  
 عزيزا ﴾ ﴿ وكان الله عليا حكيما ﴾ وهذا من باب الاعراب ؛ وإنما نصب لدخول كان على الجملة  
 فتفردت السورة ، وحسن دخول ( كان ) عليها ، مراعاة لفواصل الآية .

### مناسبتها لما قبلها

وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبي - ﷺ -  
 بالاعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه - الصلاة والسلام - بالتقوى ،  
 وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى إليه من ربه مع التوكل عليه .

(٤) سورة الفتح من الآية : ٣٣

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٦٢

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٨

(٢) سورة الأحزاب من الآية : ٩

(٣) سورة الأحزاب من الآية : ٤١

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَتَى اللَّهَ وَلَا تَطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾  
وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ  
بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ الَّتِي تَظَاهَرُونَ  
مِنْهُمْ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ  
وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ  
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ  
قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ  
وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ  
تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعَهُ فَا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ  
النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا  
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لَيَسْئَلَ الْمُصْطَفِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

### معاني المفردات

تظاهرون ﴿١﴾ أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمي قصدا إلى تحريمها أدعياءكم ﴿٢﴾  
أجمع دعوى وهو من يدعى لغير أبيه على أنه ابنه وفي الواقع هو ابن غيره . ﴿٣﴾ أقسط ﴿٤﴾ : أعدل وأقوم  
﴿٥﴾ ومواليكم ﴿٦﴾ : المراد هم بنو عمومته . ﴿٧﴾ وجناح ﴿٨﴾ : ذنب ﴿٩﴾ مسطورا ﴿١٠﴾ : مكتوبا .  
﴿١١﴾ ميثاقهم ﴿١٢﴾ : الميثاق هو العهد المؤكد . ﴿١٣﴾ ميثاقا غليظا ﴿١٤﴾ : ميثاقا شديدا .

## المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنها - قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبی - ﷺ - أن يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات (١) .

وبعد أن أمر سبحانه نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم - ضرب لنا الأمثال ليبين أنه لا يجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد ، فمضى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة في امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبني في انسان .

روى الشيخان والترمذى والترمذى والنسائى في جماعة آخرين عن ابن عمر - رضى الله عنها - أن يزيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه الا زيد بن حارثة مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ ادعوهم لأبائهم ﴾ الآية : فقال رسول الله - ﷺ - : أنت زيد بن حارثة بن شراحيل (٢) .

وكان من خبره أن سعى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ، فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختر البقاء مع رسول الله - ﷺ - فاعتقه وتبناه .

وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ، قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبني حكم الابن حقيقة في جميع الاحكام التي تعطى للابن .

وبعد أن ابان سبحانه : أن الدعى ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد - ﷺ - ليس أبا لزيد بن حارثة ، ثم أعقب ذلك بالارشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن في الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت اخي في الدين - أردف ذلك بيان أن محمدا - ﷺ - ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لان بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقايتهم الروحي ، فإذا كيف يستأذن الناس آبائهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبي هريرة قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : ( مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس

(١) انظر الدر المنثور في تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٥٦٠ تفسير سورة الاحزاب .

(٢) أخرجه البخارى في تفسير الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأخرجه مسلم في (كتاب الفضائل) باب : فضائل زيد بن حارثة ج ٨ / ١٣٠ ، ١٣١ وفي تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى (تفسير سورة الاحزاب) ج ٩ ص ٧٢ رقم ٣٢٦٢ .

به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم ﴿ النبى أوى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا ، فليثره عصيته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً ( عيلاً ) فليأتني ، فأنا مولاه ﴿ (١) .  
وفى الصحيح : أن عمر - رضى الله عنه - قال : ( يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شئ إلا من نفسى ، فقال - ﷺ - : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شئ ، حتى من نفسى ، فقال - ﷺ - : الآن ياعمر ) وبعد أن أبان سبحانه أحكاماً شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الاسلام ، ثم أبطلت ونسخت اتبع ذلك بذكر مافيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولا سيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية أخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبيكيت للمكذبين من الكفار فقال : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ (٣) .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليهما حكيماً . واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .  
قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وقال على - رضى الله عنه - التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك راحل وسارع الى الخيرات فيمن يسارع  
فما المال والأهلون الا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾ أى : اثبت ودوام على تقوى الله ، وقد جاء مثل ذلك فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٤) أى اثبتوا وداوموا على ذلك . وفى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى ﴾ ونداؤه بعنوان النبوة تكريم له - ﷺ - ومآناه ربه إلا بعنوان النبوة ، أو الرسالة . والله تعالى عندما يخاطب أنبياءه فى القرآن الكريم يخاطبهم بأسمائهم . يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴿ (٥) ﴾ يانوح اهبط بسلام منا ﴿ (٦) ﴾ يابراهيم . قد صدقت الرؤيا ﴿ (٧) ﴾ ياموسى إني أنا

(١) أخرجه البخارى : فى تفسير سورة الأحزاب : ج ٦ ص ١٤٥  
(٢) الحديث فى مسند الامام احمد من رواية زهرة بن معبد ج ٤ ص ٣٣٦ وفى صحيح البخارى - كتاب الايمان والنذور - باب :

كيف كان يمين النبى - ﷺ - ج ٨ / ١٦١

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٩

(٤) سورة النساء الآية : ١٣٦

(٥) سورة البقرة من الآية : ٣٥

(٦) سورة هود من الآية : ٤٨

(٧) سورة الصافات الايتان : ١٠٤ ، ١٠٥

ربك ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ياداوود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ يازكريا إنا نبشرك بغلام ﴿٥﴾ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴿٦﴾ يا عيسى إنا متوفيك ورافعك إلى ﴿٧﴾ فإذا أراد أن يخاطب نبيه ومصطفاه قال : ﴿٨﴾ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ﴿٩﴾ ﴿١٠﴾ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿١١﴾

ياسيد العقلاء ياخبر الورى  
وبعث بالقرآن فينا هاديا  
والله ما خلق الاله ولا برى  
يامن أتيت إلى الحياة مبشرا  
وظلعت في الأكوان بدرا نيرا  
بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿١﴾ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴿٢﴾ أى لاتسمع منهم ولا تستشروهم . ﴿٣﴾ إن الله كان عليا حكيما ﴿٤﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿٥﴾ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴿٦﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿٧﴾ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴿٨﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ، ﴿٩﴾ وتوكل على الله ﴿١٠﴾ أى : في جميع أمورك وأحوالك . ﴿١١﴾ وكفى بالله وكيلًا ﴿١٢﴾ أى : وكفى به وكيلًا لمن توكل عليه وأتاب إليه .

قوله تعالى : ﴿١٣﴾ ماجعل الله لرجل من قلوبين في جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ، ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباهم فأخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيمًا ﴿١٤﴾ .

يقول تعالى : موطنًا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصوير زوجته - التى يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى - أماله ، كذلك لا يصير الدعوى ولدا للرجل إذا تبناه ، فدعاه ابنا له فقال : ﴿١٥﴾ ماجعل الله لرجل من قلوبين في جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴿١٦﴾ كقوله : عز وجل ﴿١٧﴾ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴿١٨﴾ وقوله تعالى : ﴿١٩﴾ وما جعل ادعياءكم أبناءكم ﴿٢٠﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة - رضى الله عنه - مولى النبى - ﷺ - وكان النبى - ﷺ - قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى : أن يقطع هذا الالحاق ، وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿٢١﴾ وماجعل أدعياءكم أبناءكم ﴿٢٢﴾ كمال قال تعالى : في أثناء السورة ﴿٢٣﴾ ماكان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین . وكان الله بكل شىء عليا ﴿٢٤﴾ وقال ههنا : ﴿٢٥﴾ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴿٢٦﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لا يقتضى أن يكون ابنا

(٥) سورة آل عمران الآية : ٥٥

(٦) سورة الاحزاب الآية : ٤٥

(٧) سورة المائدة الآية : ٦٧

(٨) سورة المجادلة الآية : ٢

(١١) سورة طه من الآيات : ١١ ، ١٢

(٢) سورة ص الآية : ٢٦

(٣) سورة مريم الآية : ٧

(٤) سورة مريم الآية : ١٢



حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

قوله تعالى : ﴿ والله يقول الحق وهو يهذى السبيل ﴾ للعلماء فى تفسير الحق أقوال : قال سعيد ابن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أى : العدل . وقال بعضهم : الحق : ضد الباطل وقال البعض : الحق هو طريق التوحيد وقالوا ؛ الحق هو دعوة الله الخالصة ، له دعوة الحق . ﴿ وهو يهذى السبيل ﴾ قال قتادة : أى الصراط المستقيم . قال بعض المفسرين . وذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن أبى ظبيان قال : أن أباه حدثه قال : قلت : لابن عباس أرايت قول الله تعالى : ﴿ وما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ما معنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله - ﷺ - يوما يصلى فخطر خطر فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ <sup>(١)</sup> قوله تعالى : ﴿ ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا ناسخ لما كان فى ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى : برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وروى البخارى بسنده : عن عبد الله بن عمر قال : أن زيد بن حارثة - رضى الله عنه - مولى رسول الله - ﷺ - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ قوله تعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى : برد انساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ، ومواليهم أى : عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يوم خرج من مكة عام عمرة ، وتبعته ابنه حمزة - رضى الله عنه - تنادى ياعم ياعم ، فأخذها - على رضى الله عنه - وقال لفاطمة - رضى الله عنها - : دونك ابنة عمك ، فاحتملها فاختصم فيها على وزيد وجعفر - رضى الله عنهم - فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة . فقال على - رضى الله عنه - أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد : ابنة اخى وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى يعنى : أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى - ﷺ - لخالتها ،

وقال : ( الخالة بمنزلة الأم ) وقال : لعلى - رضى الله عنه - : ( أنت منى وأنا منك ) وقال لجعفر - رضى الله عنه - ( اشبهت خلقى وخلقى ) وقال لزيد : - رضى الله عنه - : ( أنت أخونا ومولانا ) ففى هذا الحديث احكام كثيرة من أحسنها انه - ﷺ - حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد : - رضى الله عنه - ﴿ أنت أخونا ومولانا ﴾ <sup>(٢)</sup> كما قال تعالى : ﴿ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ .

(١) مسند الامام احمد ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

(٢) البخارى : تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ - ١٤٦

(٣) البخارى : ( كتاب الصلح ) باب : كيف يكتب : هذا ما صالح فلان ابن فلان . ج ٣ / ٢٤١ ، ٢٤٢

## كلمة عن زيد بن حارثة

حب رسول الله - ﷺ - الذي قال في شأنه : ( أنت مولاي ومنى وأحب القوم إلى ) نشأته وشأنه ، ومكانته في الإسلام :

خرجت أمه ( سعدى بنت ثعلبة ) معه تزور قومها ( بنى معن ) فأغارت خيل لبني القين بن جسر ، فمروا على أبيات ( بنى معن ) فاحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل « فحج قوم من « كلب » وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكي « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيدا » فعرفهم ، وعرفوه وأقبل عليهم ، وعلموا منه ان خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعتمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله - ﷺ - وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه ، وقدا مكة ، فسألا عن النبي - ﷺ - فدخلوا عليه وقالوا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ! يا ابن هاشم ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير جثنا في ابنتنا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء ، فقال لهم الرسول - ﷺ - : ( ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني ) . فدعاه النبي - ﷺ - وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا

أبي وهذا عمي . فقال رسول الله - ﷺ - : ( فأنما من علمت ورأيت صحبتي لك ، فأختارني أوفاخترها ) فقال زيد : ما أنا بالذي اختار عليك احدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم . فقالا : ويحك يا زيد ! أنتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ، ما أنا بالذي اختار عليه احدا ابدا فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك أخرجه إلى الحجر ، وقال : ( يا من حضر ، اشهدوا أن زيدا ابني : أرثه ويرثني ) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء . ولم يفارق النبي - ﷺ - لحظة فأحبه النبي حبا شديدا . وأذن النبي - ﷺ - في الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة . ولما هاجر الرسول الأعظم إلى « يثرب » وأخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين في الله ، ثم أخى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير<sup>(١)</sup> .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ، واستخلفه رسول الله - ﷺ - على المدينة ، حين خرج إلى « المريسيع » « وشهد الخندق » و « الحديبية » و « وحنينا » وخرج زيد اميرا في سبع سرايا : أولها « القردة » واعترض لغير قريش

(١) انظره في أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨٣ رقم ١٨٢٩ في ترجمة زيد بن حارثة

فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر « زيد » فرات بن حيان العجلي »  
 وقدم بالبعير على النبى - ﷺ - وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .  
 قالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - : « مابعث رسول الله - زيد بن حارثة فى جيش قط ،  
 إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلفه » (١) .

وأراد رسول الله - ﷺ - ان يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه  
 على الأمراء الآخرين قائلا : ( عليكم زيد بن حارثة فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن  
 أصيب جعفر : فعبد الله ابن رواجه » (٢) .

وتحرك الجيش الاسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » أليس فى هذا المعنى ما يعطى  
 الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟  
 هذا « زيد » يقود جيشا فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد بن  
 الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « اسامه » الحملة بعد وفاة رسول  
 الله - ﷺ - قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه ابو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه  
 الأمة .

( أى : دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى : ! معنى أوضح من هذا المعنى ؟ ) .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الاسلام الذى كرم  
 البشرية ، وزكى النفوس وطهر القلوب !  
 سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء  
 والمسلمون جميعهم جسد إذا عضو شكا ، سهرت له الأعضاء  
 سار المسلمون ، وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤنة » وهناك علموا بتجمع جيوش الروم  
 فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .  
 ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدونها ؟ !  
 وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله - ﷺ - وأخيرا : استشهد الأمير .  
 أيتها النفس الكبيرة !

( ١ ) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير سورة الأحزاب : الآية ٣٧ وقال : أخرجه الامام احمد فى مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها .

( ٢ ) انظره فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٢ ص ٢٨٣

لقد عرف النبي الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : ( زيد ابني ) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .  
 وفي المدينة وقف النبي - ﷺ - يقول : ( استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى ) ثم أتى اهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبي - ﷺ - حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول - ﷺ - : ( ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ) .  
 يرحمك الله يا زيد بن حارثة يا من أننى عليك رسول الله خيرا ، وبإيمان أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . . يا من ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيته شهيدا ، وعشت في دار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) . لقد حرم الاسلام التبنى ووضع الأمور في نصابها وسمى الأشياء بأسمائها ووضع النقاط على حروفها . جاء في الحديث الشريف : ( ليس من رجل ادعى الى غير أبيه وهو يعلمه الا كفر ) (٢) وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد في التبرى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى : ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أى إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه كما أرشد اليه في قوله تبارك وتعالى آمرا عباده ان يقولوا : ( ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ) (٣) وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - : قال : ( قال الله - عز وجل - قد فعلت ) (٤) وفي صحيح البخارى عن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ؛ ( اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر ) (٥)

وفي الحديث الآخر ( إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه ) وقال تبارك وتعالى هنا : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله عفورا رحيم ﴾ أى : وإنما الاثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم ﴾ (٦)

وروى الامام أحمد بسنده عن عمر - رضى الله عنه - قال : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : ﴿ ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ﴾ وأن رسول الله - ﷺ -

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضل زيد بن حارثة ٤ / ١٨٨٤ رقم ٢٤٢٥ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ٢ / ٢٨٢

(٢) سورة آل عمران الأيتان : ١٦٩ ، ١٧٠

(٣) البخارى - كتاب المناقب ٤ / ٢١٩

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٦

(٥) مسلم - كتاب الايمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف الا ما يطاق آ ١١٦ رقم ٢٠٠

(٦) البخارى - كتاب الاعتصام - باب أجر الحاكم اذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ١٣٧٩ .

(٧) ميشق ابن ماجه - كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسي ج ١ ص ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥

(٨) سورة البقرة الآية : ٢٢٥

قال : ( لا تطرونى كما أطرى عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - فإنما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله ، وربما قال عمر ( كما أطرت النصارى ابن مريم )<sup>(١)</sup> ورواه فى الحديث الآخر ( ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم )<sup>(٢)</sup> )

قوله تعالى : ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك فى الكتاب مسطوراً﴾ .

جاء فى الصحيح : ( والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين )<sup>(٣)</sup> وفى الصحيح أيضا ان عمر رضى الله عنه قال : يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى ، فقال - ﷺ - : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء حتى من نفسى ، فقال - ﷺ - : « الآن ياعمر »<sup>(٤)</sup> قال ابن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختره لرسالته ثم اطلع على القلوب بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لصحبته فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

لقد شرح الله صدره ورفع ذكره وعلم أنه أرحم الناس بالناس فأمر بطاعته والرضا بحكمه . قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾<sup>(٥)</sup> وقرن الله طاعته بطاعته فقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾<sup>(٦)</sup> وجعل اتباعه شرطاً فى محبة الله فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾<sup>(٧)</sup> .

قال البخارى عند قوله تعالى : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ حدثنا ابراهيم بن المنذر بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ( ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة : إقرأوا إن شئتم : ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيا مؤمن ترك مالا فليورثه عصبته من كانوا وان ترك ديناً أو ضياعاً فليأتنى فأنا مولاه )<sup>(٨)</sup>

(١) مسند الامام احمد - مسند عمر بن الخطاب ٤٧/١

(٢) رواه مسلم والامام احمد عن ابى مالك الاشعري انظر مسلم - كتاب الجنائز - باب التشديد فى النياحة ٦٦٤/١ رقم ٢٩ ومسند احمد ٣٤٧/٥

(٣) البخارى - كتاب الايمان - باب حب الرسول ﷺ ١٧٨

(٤) البخارى - كتاب الايمان والنذور - باب كيف كان يحين النبى ﷺ ١٦٧/٨

(٥) سورة النساء الآية : ٦٥

(٦) سورة النساء الآية : ٨٠

(٧) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٨) البخارى تفسير سورة الاحزاب ١٤٥/٦ وفى كتاب الاستقراض باب الصلاة على من ترك ديناً ١٥٥/٣

سیدی آبا القاسم یارسول الله

فإليك حتماً تنتهي الخطوات  
وتعرضوا لمهالك خطرات  
يتشققون بألفه الكلمات  
ما غير دينك سلم لنجاة  
يا صاحب الآيات والسورات  
في كل ماض في الزمان وآت  
تاج الزمان وغرة السنوات  
وترد كل جديدة لموات  
ويزيد في الاشرار والنفحات  
ولك الكتاب الخالد الصفحات  
للخير والتوفيق والبركات  
من شهوة تطفئ ومن نزوات  
تيها من الأهوال والظلمات  
ان ينقذ الدنيا من العثرات  
فيضا من الأنوار والرحمات  
وبسطته في حكمة وأناة  
بالحق والأنوار والصلوات  
ما كان ابعدهم من الخيرات  
وأقمت بين إساءة وإذاة  
أعناقهم في عزة وثبات  
وأقمت دينك خافق الرايات  
لا يستوى حق بغير حاة  
نفسى وهامت بالسعادة ذات  
في زحمة الدنيا وفي خلوات  
ألقاك في صحوى وفي غفوات  
في بسمتى تأتى وفي عبراتى  
ولأنت في شرى؟ تذود دعائى  
وخواطرى ومشاعرى وحياتى

لو شرق القوم الكبار وغربوا  
ضلت علومهم برغم نبوغهم  
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا  
لو ادركوا معنى السلام لأسلموا  
القول فيك معطر الكلمات  
أيام مولدك الكريم مضيئة  
يوم أتى بك للوجود فإنه  
تتعاقب الايام في دوراتها  
وضياك يسطع كل يوم نوره  
فالحق انت وأنت إشرار الهدى  
علمتنا سر الحياة وقدتنا  
جنبنا الزلل الكبير وصتنا  
من يقصد الدنيا بدونك يلقيها  
لما أراد الله جل جلاله  
أهداك ربك للورى ياسيدى  
يا صاحب الحق الكبير عرفته  
وطلعت في الليل البهيم مؤذنا  
دعوت للخيرات قوما ضللو  
ودعوت حتى كنت اصبر من دعا  
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت في  
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا  
وضربته مثلاً لكل مكابر  
ياسيدى لما ذكرتك أشرقت  
الفاك في الحق المجلل في دمي  
ألقاك في الليل البهيم وفي الضحا  
ألقاك من حولى وبين جوانحي  
فلأنت في خيرى تزيد دعائه  
ولأنت في قلبى وملء نواظرى

قوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى في الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ،

ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن واخواتهن بالاجماع ، وان سمي بعض العلماء

بناتهن اخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى - رضى الله عنه - فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

قوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾ أى فى حكم الله من المؤمنين والمهاجرين ﴾ قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الانصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى أخى بينهما رسول الله - ﷺ - وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : أنزل الله - عز وجل - فىنا خاصة معشر قريش والانصار ﴾ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك انا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان فواخيناهم ووراثناهم فأخى ابو بكر - رضى الله عنه - خارجة بن زيد ، وأخى عمر - رضى الله عنه - فلانا ، وأخى عثمان - رضى الله عنه - رجلا من بنى زريق : ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره . قال الزبير - رضى الله عنه - وواخيت انا كعب ابن مالك فجئت فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يابنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فىنا معشر قريش والانصار خاصة فرجعنا إلى موارثنا . قوله تعالى : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أولياكم معروفا ﴾ أى ذهب الميراث ببقى النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ،

وقوله تعالى : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يبدل ولا يغير . قال مجاهد وغير واحد وإن كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم انه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشرعى والله اعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ ونحو ذلك قولع تعالى : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ (١) وقد أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء ونص على خمسة منهم وهم أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم أجمعين - وعطف هؤلاء الخمسة على النبيين من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بهم سبحانه وتعالى فى آية اخرى قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ (٢) .

(١) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١٣ .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الارسال كما قال : ﴿ وَلِنَسْأَلَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١).

وقد جرت العادة ان الملك اذا ارسل رسولا ، وأمره بشيء وقبله كان ذلك ميثاقا عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، وحتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة ثم بين علة اخذ الميثاق على النبيين فقال :

﴿ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقَتِهِمْ ﴾ أى وأخذنا من هؤلاء الانبياء كما أسأل المرسلين عما اجابتهم به امهم ، وما فعل أقوامهم فيما ابلغوهم عن ربهم من الرسالة .  
﴿ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى ليسأل الصادقين عن صدقتهم ، وأعد لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعد لهم عذابا أليما .

### غزوة الاحزاب وبنى قريظة

قوله تعالى : يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَّهَا وَمَا تَلَبَّشُوا بِهَا إِلَّا سِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْعُورًا ﴿١٥﴾ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ \* قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا



١٨ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى  
 عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادِ أَشْحَةً عَلَى الْخِيَرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا  
 فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ  
 الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قُتِلُوا  
 إِلَّا قَلِيلًا ٢٠ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ  
 وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ٢١ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ  
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ٢٢ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ  
 فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ٢٣ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ  
 بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ٢٤ وَرَدَّ اللَّهُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ٢٥  
 وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَلَهُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَافِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ  
 وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرًا ٢٧

## معاني المفردات

المراد بالجنود هنا . الأحزاب ، وهم قريش يقودهم ابو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ،  
 وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم ابو الأعور  
 السلمي ، وبنو النضير من اليهود ، ورؤساؤهم حبي بن أخطب ، وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من  
 اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - عهد فنبذه كعب بنسعى حبي  
 وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، « والجنود التي » لم تروها : هي الملائكة ،  
 ﴿ من فوقكم ﴾ أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، ﴿ ومن أسفل منكم ﴾

أى : من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبني كنانة وأهل تهامة ، ﴿ زأغت الأبصار ﴾ أى : انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ يراد به فزعت فزعا شديدا ﴿ ابتلى المؤمنون ﴾ أى اختبروا وامتحنوا ، ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ أى اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو ، ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالاسلام ، ﴿ الا غرورا ﴾ أى وعد غرور لا حقيقة له ؛ ﴿ يثرب ﴾ من أساء المدينة ، ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى لا ينبغي لكم الإقامة ها هنا . ﴿ عورة ﴾ أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السراق ﴿ والأقطار ﴾ واحداها قطر وهو الناحية والجانب ، ﴿ والفتنة ﴾ الردة ومقاتلة المؤمنين ﴿ آتوها ﴾ أى عطوها ، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾ أى : وما أقاموا بالمدينة ، ﴿ يعصمكم ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿ المعوقين ﴾ أى : المبطلين عن القتال مع رسول الله - ﷺ - ﴿ هلم إلينا ﴾ أى : أقبلوا إلينا ، ﴿ والبأس ﴾ الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، ﴿ أشحة ﴾ واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، ﴿ تدور أعينهم ﴾ أى : تدبر أعينهم احداقهم من شدة الخوف ، ﴿ سلقوكم ﴾ أى : آذوكم بالكلام ، ﴿ بالسنة حداد ﴾ أى : ألسنة دربة سلطة تفعل فعل الحديد ، ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى : بخلاء حريصين على مال الغنائم ، ﴿ أحبط الله أعمالهم ﴾ أى : أبطلها لإضرارهم الكفر ، ﴿ لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ أى : خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، ﴿ أسوة ﴾ أى : قدوة والمراد به المقتدى به ، ﴿ قضى نحبه ﴾ أى : فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، ﴿ والغيب ﴾ أشد الغضب ، ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أى : وقاهم شره ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا مستوليا على كل شئ ، ﴿ ظاهرهم ﴾ أى : عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أى : من بنى قريظة ، ﴿ من صياصيهم ﴾ أى : من حصونهم واحداها صيصية وهى كل ما يمتنع به ، قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يتدنن الصياصيا

﴿ وقذف ﴾ أى : ألقى ، ﴿ والرعب ﴾ الخوف الشديد .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد ان امر سبحانه عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه - ذكر هنا تحقيق ما سلف فأبان انه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم اعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق . وتفسير هذا على ما قاله أرباب السير : أن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوههم الى حرب رسول الله - ﷺ - وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعمائها .

ولما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سليمان الفارسي ، وعمل فيه رسول الله - ﷺ - والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يترجم بكلمات ابن رواحه ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا  
فأنزلن سكينه علينا وثبت الأقدام إن لاقينا (١)

وفى أثناء (٢) العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ؛ فلما علم بها رسول الله - ﷺ - أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لايتها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبّر رسول الله - ﷺ - تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضيء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله - ﷺ - : ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتي الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب . فأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا ؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمينكم ويعدكم بالباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، أنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون ان تبرزوا ، فتزل : ﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ الخ . ونزل : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾ (٣) الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الاحزاب الذين حزبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت مصادمات بين القوم كرا وفرا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك . ثم (٤) إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله - ﷺ - فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال - ﷺ - : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا اخذتم منهم رهنا من أشrafهم يكونون بأيديكم تقية لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسموا حربه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخرج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تحاذل اليهود والعرب ، ودب بينهم ديب الفشل . وما زاد فى فشلهم ان بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آيتهم .

(١) البخارى - كتاب الجهاد - باب الرجز فى الحرب ٧٨/٤ وكتاب المناق - باب غزوة الخندق ١٤٠/٥

(٢) تفسير الطبرانى ١٣٤/٢١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٦

(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣٤٨/٥

وقد قام رسول الله - ﷺ - ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يا رسول الله منعى أن أجيبك الضر والقر ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتيني ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله - ﷺ - يده يقول : يا صريخ المكروبين ، ويا عجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال اصحابى فتزل جبريل وقال : ان الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله - ﷺ - على ركبته ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت اصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع ابا سفيان يقول : يامعشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنو قريظة ، وبلغناهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله - ﷺ - فضحك حتى بدت انيابه فى سواد الليل .

### بلغة العسكريين

ولنستمع الآن الى وصف دقيق لوقائع غزوة الخندق وبنى قريظة بلغة العسكريين كما يرويهما لنا اللواء (محمود شيت خطاب) فى كتابه (الرسول القائد) كتب تحت عنوان (الخندق) فقال :

### الموقف العام

١ - المسلمون : نجح المسلمون فى إعادة النظام إلى صفوفهم بعد «أحد» وتخلصوا من يهود بنى النضير ، وبذلك قوى مركزهم فى المدينة قاعدتهم الأمانة ، كما اثروا على معنويات قريش وكافة القبائل التى طمعت فى مهاجمة المدينة لقد استعادوا فى هذه الفترة سمعتهم ، وأصبح سلطانهم مهيبا فى المدينة وخارجها على حد سواء .

٢ - المشركون واليهود : -

لم تستطع قريش لقاء المسلمين فى (بدر) الصغرى ، لأنها قدرت أن قوة المسلمين اكبر من ان تستطيع القضاء عليها وحدها .

كما لم تستطع القبائل ان تهاجم المدينة كما ارادت ، اذ هاجمها المسلمون على انفراد فى عقر دارها وتغلبوا عليها بالتعاقب .

وكان اليهود اضعف من ان يفكروا فى التعرض وحدهم للمسلمين ، ولكنهم كانوا يترقبون

الفرص .

وكان لابد من تجمع قوى قريش والقبائل الاخرى واليهود فى صعيد واحد للقضاء على المسلمين ، إذ اصبح المسلمون بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم اذ لم تحتشد كافة قوى اعدائهم ؛ وفعلًا قام الموتورون من يهود بنى النضير بمهمة تجميع قوات المشركين واليهود حول المدينة ، ونجحوا فى حشد اكبر قوة متفوقة للقضاء على الدين الجديد .

### قوات الطرفين

- ١ - المسلمون : ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول - ﷺ -
- ٢ - المشركون : عشرة آلاف عدا اليهود من بنى قريظة ، منهم أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من بنى سليم وأسد وفزارة واشجع وغطفان . كانت قريش بقيادة ابى سفيان بن حرب بن أمية . وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف . وكانت أشجع بقيادة مسعود بن ربيعة وهم أربعمائة . وكانت سليم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية وكانت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى .

### أهداف الطرفين

- ١ - المسلمون : الدفاع عن الاسلام .
- ٢ - المشركون واليهود : القضاء على المسلمين وانتهاك أموالهم وذرائعهم .

### التوقيت

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة واستمر الحصار حوالى شهر واحد .

### قبل المعركة

- ١ - المسلمون :
- أ - قرر المسلمون البقاء فى المدينة وحفروا خندقا عميقا يحيط بشمال المدينة ويقع بين حرة المدينة وجبل « سلع » لان هذه المنطقة هى المنطقة الوحيدة المكشوفة ؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى ، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة فى أطراف المدينة عدا الشمالية منها ، حيث إنها مكشوفة كما أسلفنا ، لذلك أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق فى هذه المنطقة ، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفًا عند العرب من قبل .

قسم الرسول منطقة الحفر على أصحابه : لكل عشرة منهم أربعون ذراعا ، واشتغل هو بالحفر أيضا ، كآى فرد منهم ، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات أثناء الحفر كظهور الصخور فيحضر بنفسه لتفتيتها .

وكان العمل يستمر طيلة النهار ، ثم يأوى المسلمون ليلا الى دورهم ليأخذوا قسطا من الراحة ، وقد سيطر الرسول بنفسه على العمل . فلا يذهب احد لعمله الخاص إلا بموافقة .

ب - عسكر المسلمون الى سفح « سلع » وجعلوا « سلعا » خلف ظهورهم .

ج - جمع الرسول النساء والأطفال في بيوت قوية البنيان في منطقة أمينة داخل المدينة للإفادة من مناعتها لحمايتهم ، وهجروا البيوت الواهنة .

د - بعد انجاز حفر الخندق ، احتل المسلمون مواضعهم خلف الخندق واستفادوا من مناعة جبل « سلع » لحماية ظهورهم وجناحهم الأيسر من التفاف الأحزاب لقطع خط رجعتهم الى المدينة المنورة وضربهم من الخلف وتطويرهم .

٢ - المشركون واليهود :

أ - قصد نفر من اليهود قريشا في مكة منهم سلام بن أبي الحقيق وحى بن أخطب ، فدعوههم إلى حرب الرسول ، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم في القتال .

فلما وافقت قريش على قتال المسلمين ، قصد اليهود غطفان وغيرها من القبائل ، ودعوههم إلى حرب الرسول أيضا ، وأخبروهم ان قريشا معهم على ذلك ، فوافقت غطفان والقبائل الأخرى .

ب - لما وصلت قريش وغطفان والقبائل الأخرى الى ضواحي المدينة استطاع حى بن أخطب التأثير على اليهود من بنى قريظة ، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا مع الأحزاب .

ج - كانت مواضع قتال الأحزاب في ضواحي المدينة كما يلي :

أولا : قريش في موضع يجتمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة

ثانيا : غطفان وقبائل نجد في موضع ذنب نقي الى جانب « أحد »

ثالثا : بنو قريظة في حصونهم في ضواحي المدينة .

### سير القتال

١ - تخرج موقف المسلمين كثيرا ، خاصة بعد انضمام بنى قريظة للأحزاب ، فقد كان بإمكان هؤلاء اليهود التسلل إلى داخل المدينة والتعريض بالنساء والأطفال خاصة أنهم يعرفون تفاصيل مسالكها لأنهم من أهلها ، مما يؤثر على معنويات المسلمين الذين يقاتلون في ساحة المعركة لأنهم أصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذرائعهم وأموالهم .

كما كان بإمكان اليهود القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة ، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر .

لذلك كان وقع نكت بنى قريظة لعهدهم شديدا على نفوس المسلمين ، وقد ارسل اليهود رجلا منهم الى داخل المدينة ، فاستطاع التسلل إلى الدور التي تجمع بها النساء والأطفال ، ولكن هذا اليهودى لم يعد الى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والأطفال ، وعن درجة مناعتها وحمايتها ، لأن امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع ، فاستطاعت قتله مستفيدة من عمود خشبي .

إن هذا اليهودى كان دورية استطاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال ، حتى يمهد بما يحصل عليه من معلومات لقيام اليهود بهجوم مباغت عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم ، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من مواضعهم الاصلية لنجدة أهلهم وإنقاذ أموالهم . إن قتل هذا اليهودى خلص المسلمين من خطر داهم ، إذ جعل اليهود يفكرون أن داخل المدينة حراسا أشداء من المسلمين ، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة ، لذلك قبع اليهود في حصونهم لا يفكرون في الخروج .

٢ - تحركت مفرزة من فرسان قريش فيهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، ومروا ببني كنانة واستثاروا حميتهم للقتال ، فلما وصلت هذه المفرزة إلى الخندق استطاعوا منطقة ضيقة فيه ، فعبروها بخيولهم ، فخرج على بن أبى طالب في نفر من المسلمين للقائهم ، وانجھوا فورا إلى الكثرة التي عبر المشركون منها لقطع خط رجعة المشركين أولا ولنزع الامدادات من الاحزاب اليهم ثانيا ثم نازل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود فقتله ، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين ، وعادت بقية فرسان قريش هاربة إلى قواعدها .

٣ - قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه دار الرسول - ﷺ - فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل ، فلما حانت صلاة العصر تخرج موقف المسلمين لاقترب المشركين من منزل الرسول ، حتى لم يستطع المسلمون ان يصلوا ، ولكنهم استطاعوا مع الليل صد مفرزة المشركين خائبة على أعقابها .

٤ - حاول الرسول - ﷺ - ان يرد بعض الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار ، وكاد أن يصل في مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق ، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا الا يعطوا المشركين شيئا من ثمارهم ، فوافق الرسول - ﷺ - على اقتراحهم هذا .

٥ - اثر بقاء الاعراب مدة طويلة حول المدينة على معنوياتهم خاصة وان الموسم شتاء ، وان الاعراب لا يطيقون الصبر طويلا على الحصار ولا على قتال مديد بصورة عامة ، لذلك اخذوا يبدون تذرهم من بقائهم مدة طويلة دون جدوى .

٦ - جاء نعيم بن مسعود الغطفاني الى الرسول وأخبره انه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه ، فقال له الرسول : ( إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة ) (١) .

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان نديا لهم في الجاهلية ، فقال لهم : ( عرفتم ودى إياكم ، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون ان تتحولوا منه ، وإن قريشا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك

لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنا من أشrafهم حتى تناجزوا محمدا .

قالت بنو قريظة : « أشرت بالنصح ولست عندنا بمتهم » ثم خرج نعيم إلى قريش ، فقال لهم : « بلغنى ان قريظة ندموا ، وقد ارسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجلا من أشrafهم فنعطيكهم فتضرب اعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ فأجابهم ان نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا » .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : « أنتم أهلى وعشيرتى » . وقال لهم مثل ما قال لقريش ... وحذرهم ! !

أرسل ابو سفيان وسادة غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فى ليلة سبت ، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت ، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت ، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأى هجوم ! قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم .

ولما رفض طلب قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت :

لقد صدق نعيم ! وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم .

٧ - أرسل الرسول - ﷺ - حذيفة بن اليمان ليلا ليستطلع اخبار الأحزاب ، فرأى قريشا تشد رحالها متجهة إلى مكة ، فلما علمت غطفان بارتحال قريش دون علمها ، عادت ادراجها مع القبائل الاخرى الى مواطنها .

وحينذاك علم الرسول - ﷺ - ببصيرته النافذة ان المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة ، وأن مثل هذه الفرصة لن تعود اليهم مرة اخرى ، وإذا لم يستطع المشركون بعد تجمعهم الضخم هذا ان يقضوا على المسلمين فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرقهم ؟

### خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

سنة شهداء

٢ - المشركون :

ثلاثة قتلى .

### أسباب فشل الأحزاب

١ - قيادة غير موحدة :-

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل



الحاسم فى الوقت الحاسم .

كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد ، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين ؛ وقد كان من المستحيل اتفاهم على قائد منهم لى سطر على اللمى لأن هذا القائد سىنال شرفا عظىما ىمتاز به على الآخرين ، ولا ىمكن للآخرىن ان ىرضوا بهذا الامتياز .

لقد كانت النعرة الجاهلىة لا الهفء المشترك هى التى تسىطر على القىاءة ، ولا ىمكن ان تنجح مثل هذه القىاءة فى أى موقف بأى معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المؤاتىة كما فى غزوة الخنفء بالنسبة للاحزاب والىهود .

٢ - المباغءة بالخنفء : -

لقد كان حفر الخنفء مباغءة تامة للأحزاب ، فلم تكن العرب تعرف هذا الاسلوب ، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف .

لذلك بقى القتال مستكنا طول مدة الحصار ، عفا محاولات قلىلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخنفء باءت كلها بالفشل ..

٣ - الطقس ..

كان موسم القتال شتاء ، وكان الاعراب فى العراء ىعشون فى غير مواطنهم التى ىستفىدون فىها من موادهم المتسرة للتدفئة وللعاشة وللسكنى .

لذلك لم ىستطىعوا البقاء لحصار المءىنة مدة طويلة .

٤ - انعدام الثقة : -

كانت الثقة بىن الاحزاب انفسهم من جهة وبىنهم وبىن الىهود من جهة اخرى واهنة جدا ، بل لم تكن هناك ثقة بىنهم على الاطلاق .

قرىش ترىء القضاء على المسلمين بالافاءة من جهود القبائل الاخرى ، والىهود والقبائل الاخرى ترىء الأسلاب بالءرءة الاولى من اى مصدر كان ، ولو وقعت اموال احلافهم بنى قرىظة بىدهم لآخذوها أىضا .

والىهود لا ىثقون فى اللمىع وىرىءون القضاء على المسلمين بءماء قرىش والقبائل الاخرى ، وهكذا انعمءت الثقة بىنهم لتفرق الأهداف والمقاصء .

٥ - الصبر على الحصار :

ىحتاج الصبر على الحصار الى قوات مءربىة لها اهداف معلومة وقىاءة مسيطرة ، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار ، لانها اعتاءت على التنقل بىن فترة واخرى ، كما انها لا تطىق صبرا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة .

لذلك تءمر الاعراب من طول مدة الحصار - على قصرها - وآثروا الارتحال على الصبر .

### ءروس من غزوة الخنفء

١ - القىاءة : عالجنا أسلوب القىاءة المرتبك عند الأحزاب والىهود ، مما كان له أسوأ الأثر على نءىءة

معركتهم .

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة ، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة قرر الرسول ﷺ - البقاء في المدينة ، وأمر بحفر الخندق ، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة ، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه ، وسيطر على العمل ، فلا يستطيع احد ترك واجبه إلا بأمر منه ، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين .

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تماما ، بل استأثر دونهم بالمحلات الصلبة التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها - كفلق الصخور القاسية !!

ثم قسم واجبات احتلال الموضع بين أصحابه ، بحيث لا يغفل احد عن شبر من الخندق ليلا ونهارا ، على الرغم من برودة الطقس ، وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره الا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليشجعهم ويرفع من معنوياتهم ، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحي المدينة بقوات متفوقة على المسلمين ، وحين نكثت قريظة عهدها ، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من الداخل والخارج .

٢ - تعبئة جديدة : -

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة ، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة في التاريخ .  
إن القائد العبقري هو الذي يستخدم اسلوبا جديدا او سلاحا جديدا في القتال ، والخندق هو الأسلوب الجديد الثاني الذي استخدمه الرسول ﷺ - في القتال ، بعد أن استخدم اسلوب الصفوف في معركة بدر .

لقد أخذ الرسول ﷺ - بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسي ، لذلك قال فيه كلمته الخالدة : ( سلمان منا اهل البيت )<sup>(١)</sup> ، ليشجع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيات .

٣ - الحرب خدعة : -

رأينا أثر الاشاعات التي بثها نعيم بن مسعود في تفريق كلمة الأحزاب ؛ ولا يمكن نجاح الاحزاب او غيرهم الا بجمع الكلمة ، فلما تفرقت كلمتهم ، فشلوا ، إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبليلة الافكار ، وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش .

وبقدر ما كانت الاشاعة تعمل عملها في صفوف الاحزاب ، فإن الاشاعة لم يكن لها أى أثر في صفوف المسلمين .

حاول المنافقون ان يثووا سموم اشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين ، ولكن محاولتهم فشلت . وعندما ارسل الرسول ﷺ - أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة ، وعاد هؤلاء اليه بعد ان تأكدوا

من صحة إشاعة نكت بنى قريظة بعهدوها ، حرصوا على ان يخبروا الرسول - ﷺ - بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول - ﷺ - نفسه « بالرموز » حتى لا يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين .

لقد عرف المسلمون اثر الاشاعة على المعنويات قبل اربعة عشر قرنا .

٤ - المبادأة : -

غزوة الخندق هي المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة بدر الكبرى ، فلو نجح المشركون واليهود في هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الاسلامى .

لقد استطاع اليهود ان يجمعوا الأحزاب حول المدينة ، وعاونهم اليهود من بنى قريظة ، للقضاء على المسلمين ، وهذا التجمع فرصة لا تعود ابدا ، خاصة اذا فشلت الاحزاب .

إن معنى فشل الاحزاب بعد هذا التجمع الهائل ، انهم لن يجتمعوا مرة اخرى وانهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد ان عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين ، ولهذا النتيجة اثر حاسم على انتشار الاسلام فيما بعد .

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع الى دور الهجوم فى اليوم الذى انتهت به غزوة الخندق ، لذلك قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » (١) .

وانتقلت المبادأة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ، ولم يتركوها حتى شمل الاسلام شبه الجزيرة العربية كلها ، وارتفعت راية الاسلام شرقا وغربا فوق كل راية ﷻ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا .

### محاسبة الغادرين

#### الموقف العام

١ - المسلمون : استطاع المسلمون الثبات امام الأحزاب واليهود فى ظروف قاسية جدا ضد قوات العدو المتفوقة عليهم تفوقا ساحقا ، فثبتوا تجاه الخطر الداهم الذى يهددهم من خارج المدينة ومن داخلها . وهذا النجاح وهذا الثبات جعل معنويات المسلمين فى وضع ممتاز لم يسبق له مثيل من قبل .

لقد تخلصوا من الاحزاب ، وبقي أمامهم بنوقريظة جيرانهم فى المدينة الذين لم يرعوا للجار حقا ولم يحافظوا على العهد ، وخانوا المسلمين فى أشد أوقات محتتهم ، فلا بد من تصفية الحساب معهم .

٢ - المشركون : انسحب الاحزاب وقريش إلى ديارهم يحملون معهم كل معانى الفشل ، فلم تستطع قريش القضاء على المسلمين ، ولم تستطع القبائل الاخرى نهب اموال المسلمين ، ولم يعودوا بأية فائدة يمكن ان تخفف عنهم ما بذلوه من جهد فى السفر والحصار ايام الشتاء ، ومن مال صرفوه لامداد قواتهم

بالمواد . والأرزاق قبل المعركة واثناءها وبعدها .

لقد اثر ذلك على معنويات المشركين ، وجعلهم يخافون المسلمين كل الخوف .

٣- اليهود : بقى اليهود من بنى قريظة وحدهم بعد انسحاب الاحزاب ، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التى فضحت طواياهم ، فأصبحوا كالمجرم الذى ثبتت ادانته فهو يرقب القصاص العادل . لقد كانت معنوياتهم منحلة للغاية ، إذ كانوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم ويعرفون نتيجة هذا الهجوم .

### الهدف الحيوى

محاسبة الغادرين من اليهود على غدرهم بالمسلمين فى أشد اوقاتهم حرجا ، ومحاسبة القبائل التى غدرت بدعاة المسلمين .

### غزوة بنى قريظة

١- أسباب الغزوة : نكث بنى قريظة لعهدهم مع المسلمين عند تجمع الاحزاب حول المدينة .  
قوات الطرفين :

أ- المسلمون : ثلاثة آلاف بقيادة الرسول - ﷺ - معهم ستة وثلاثون فارسا فقط .  
ب- بنو قريظة : من ٦٠٠ - ٧٠٠ مقاتل بقيادة كعب بن اسد يعاونه حى بن أخطب رأس اليهود الذين حشدوا الاحزاب وجمعوها حول المدينة .

٣- الهدف : القضاء على بنى قريظة لنكثها بعهودها ، مما جعل المسلمين مهددين بالابادة .  
٤- الحوادث : عاد الرسول - ﷺ - إلى المدينة صباح الليلة التى انسحب الاحزاب فيها الى ديارهم وأمر أصحابه ظهر ذلك اليوم بالحركة إلى بنى قريظة والاسراع بالاطباق على حصونهم بحيث لا يصلون العصر إلا هناك ، وعلى الرغم من تعب المسلمين الشديد لبقائهم مدة طويلة محاصرين ، وعلى الرغم من برودة الطقس ، فقد أسرع المسلمون لتنفيذ امر الرسول - ﷺ - وانجزوا تجمعهم حول حصون بنى قريظة قبل ان يحل الظلام من ذلك اليوم ! واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض المناوشات الطفيفة بالنبل والحجارة ، كان من اثرها استشهاد احد المسلمين مصابا برحى رمت بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها .

لم يجرؤ بنو قريظة على الخروج من حصونهم طيلة مدة الحصار ، وكانوا مترددين لا يستقر رأيهم على شيء من شدة الخوف . طلب منهم قائدهم ان يعتنقوا الاسلام ، فرفضوا ؛ فطلب منهم الخروج للقتال ، فرفضوا ايضا ، ويقوا فى حصونهم لا يفعلون شيئا .

واخيرا أرسل اليهود يعرضون الخروج إلى « أذرعات » تاركين وراءهم ما يملكونه ؛ فأبى الرسول الا أن يسلموا بدون قيد أو شرط .

وعاد اليهود يطلبون التسليم على أن يحكم سعد بن معاذ فى مصيرهم ، وقد اختاروه لأنه سيد الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، لعل الرسول - ﷺ - يقبل من حلفاء الأوس ما قبل من يهود بنى قينثاف حلفاء الخزرج .

ورضى الرسول - ﷺ - بتزولهم على حكم سعد ؛ وقبل سعد أن يقوم بالتحكيم بين المسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى بعد أن اخذ الموائيق على الطرفين أن يرضى كلاهما بقضائه ، فلما أعطوه الموائيق ، أمر بنى قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ، ففعلوا . . . وكان حكم سعد فيهم : « أن يقتل المقاتلون ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، لأن سعدا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لكان مصير المسلمين الابداء من الوجود ، فجزاهم سعد بمثل ما عرضوا المسلمين له .

لم تكن حرب بنى قريظة حرب ميدان انما كانت حرب أعصاب ، فلم يستطع اليهود أن يتحملوا الحصار على الرغم من توافر المواد الغذائية لديهم وتوافر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها ، فآثروا التسليم على مكابدة الحصار .

والحق أن الموقف العسكرى كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس ، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت ، فلم يقاوموا طويلا كما كان المؤمل وقتل مقاتلو بنى قريظة جميعا ومعهم حى بن أخطب الذى تزعم حركة تجميع الأحزاب ضد المسلمين ، إلا ثلاثة رجال من اليهود اسلموا ، ولم يقتل من الأطفال والنساء أحد عدا المرأة التى قتل الشهيد المسلم برحائها ، فقتلت بجزمها هذا .

### سرية عبد الله بن عتيك

١ - الهدف : قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى الذى حرض الأحزاب مع حى بن أخطب ، ثم فر إلى يهود « خيبر » ليتخلص من العقاب .

الحوادث : بعد القضاء على بنى قريظة ، خرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى خيبر ، للقضاء على أبى رافع بن أبى الحقيق وإلقاء الرعب فى قلوب يهود خيبر ، حتى لا يعيدوا الدور الذى قام به اليهود الآخرون ، وقد كانت هذه المفرة بقيادة عبد الله بن عتيك .

وصل المسلمون « خيبر » ليلا ، فأمر عبد الله بن عتيك أصحابه بالبقاء قريبا من الحصن حتى يستطلع لهم موضع ابن أبى الحقيق ، فلما وصل حصنه استطاع دخوله وكمن فى اسطبل الحيوانات . وعندما آوى ابن أبى الحقيق إلى فراشه وهدأت الأصوات والحركة ، خرج عبد الله فأخذ مفاتيح الحصن من موضعها الذى كانت فيه ، ثم ذهب الى غرفة ابن أبى الحقيق فناده ليعرف مكانه من صوته ، لأن الظلام كان يغمر الغرفة التى كان بها ابن أبى الحقيق ، ثم هجم بالسيف عليه حتى قضى عليه ، وانسحب الى أصحابه بعد أن سقط من الدرج وانكسرت رجله .

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة عدوا لدودا ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، مما زاد هيبة المسلمين في النفوس وجعلهم يسيطرون سيطرة تامة على المدينة من كافة الوجوه ، فلم يبق أى صوت لليهود أو المنافقين .

### غزوة بنى لحيان

#### ١ - الهدف :

أ - عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلوا وهم ستة من الصحابة : اغتالت أربعة منهم وباعت الاثنين الباقيين لقريش ، فضربت قريش عنق أحدهما وصلبت الثانى .

ب - التأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى .

#### ٢ - الحوادث :

علم الرسول - ﷺ - بمحاولة قريش التجمع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر في الحركة اليهم للتأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى والتعرض لبنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين . . . أظهر الرسول - ﷺ - أنه يريد الشام حتى يستطيع مباغته بنى لحيان دون ان يعرفوا بحركته اليهم ، فتحرك بقواته شمالا ، فلما أطمأن إلى انتشار أخبار حركته إلى الشمال باتجاه الشام ، عاد راجعا باتجاه مكة مسرعا في حركته حتى بلغ منازل بنى لحيان « بجران » ، ولكن بنى لحيان فروا إلى رؤوس الجبال ، واستطاعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم . عند ذاك ترك الرسول - ﷺ - القسم الأكبر من قواته في « بجران » وسار على رأس مائتى راكب باتجاه مكة حتى وصل « عسفان » شمال مكة للتأثير على معنويات قريش ، فلم تخرج قريش للقائه ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة متحملين شدة الحر ، بعد ان أثروا على معنويات القبائل وجعلوهم يخافون المسلمين اشد الخوف .

### غزوة ذى قرد

١ - الهدف : مطاردة عيينة بن حصن مع جماعة من غطفان لإعادة ابل المسلمين التى انتهبها المشركون .

#### الحوادث :

أغار عيينة بن حصن الفزارى على أطراف المدينة ، فوجد هناك بعض اللقاح ترعى بحراسة مسلم وامراته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وهو ابن ابى ذر الغفارى ، وساقوا الابل واحتملوا المرأة . ولكن سلمة بن عمرو بن الأكوع الاسلمى بصر بالقوم وقد اقتادوا الابل فأنذر المسلمين فنادى : الفرع الفرع : فنودى : ياخيلى الله اركبى ! وكان أول ما نودى بها ! وقام سلمة بمطاردة عيينة وأصحابه وحده ، حتى لحق به المسلمون الذين استطاعوا تخليص الابل والمرأة المسلمة بعد ان وصلوا بمطاردتهم ماء « بذى قرد » .

وجاء من يخبر المسلمين ان عيينة وأصحابه وصلوا موضعا بعيدا عن « ذى قرد » فنحروا لهم جزورا ، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارا ، فتركوا جزورهم فى محلها وهربوا بسرعة ، لانهم ظنوا أن المسلمين اقتربوا من مواضعهم ولم يكذب هؤلاء الاعراب يصدقون انهم يستطيعون النجاة بأنفسهم !!!

### سرايا توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى

١ - الهدف : تأمين المدينة القاعدة الامينة للاسلام وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التى حولها وتشديد وطأة الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

٢ - الحوادث :-

أ - سرية عكاشة بن محصن الاسدى الى الغمر :

وجه رسول الله - ﷺ - عكاشة بن محصن الاسدى فى شهر ربيع الأول سنة ست للهجرة الى « الغمر » فى أربعين رجلا ، فخرج سريعا يغذ السير ، ولكن الاعراب علموا بمسيره اليهم فهربوا وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائة بعير وعادوا الى المدينة دون ان يلقوا كيدا .

ب - سرية محمد بن مسلمة الى « ذى القصة »

بعث رسول الله - ﷺ - محمد بن مسلمة فى ربيع الآخر سنة ست للهجرة الى بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة وهم ( بنى القصة ) فى عشرة نفر ، فوردوا عليهم ليلا ، ولكن الاعراب وهم مائة رجل استطاعوا قتل أصحاب محمد بن مسلمة وجرحه فبعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا الى مصارع المسلمين فلم يجدوا احدا ووجدوا نَعْمًا وشاء فساقه ابو عبيدة ورجع الى المدينة .

ج - سرية ابي عبيدة بن الجراح الى ذى القصة :-

بعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا فى شهر ربيع الآخر الى ( ذى القصة ) الى بنى محارب وأغار الذين اجمعوا ان يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى « بهيفا » فمشوا اليهم بعد صلاة المغرب حتى وافوا ( ذا القصة ) فى عماية الصبح ، فأغاروا عليهم ، فهرب الاعراب ، واصاب ابو عبيدة رجلا واحدا فأسلم وتركه وأخذ نَعْمًا من نعمهم فاستاقه كما اخذ متاعهم وقدم بذلك الى المدينة .

د - سرية زيد بن حارثة الى سليم بالجموم :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة فى شهر ربيع الآخر سنة ست للهجرة الى بنى سليم فسار حتى ورد ( الجموم ) فأصاب نَعْمًا وأسرى ، ثم عاد بأصحابه الى المدينة .

هـ - سرية زيد بن حارثة الى العيص :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي فى جمادى الأولى سنة ست للهجرة يتعرض لغير قريش فى طريق عودتها من الشام الى مكة ، فأخذ المسلمون العير وما فيها وأسروا ناسا ممن كان فى العير وعادوا الى المدينة .

و- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي في جمادى الآخرة سنة ست للهجرة الى الطرف فخرج إلى بني ثعلبة في خمسة عشر رجلا فأصاب نهما وشاء ، وهربت الأعراب وصبح زيد بالنعم إلى المدينة بعد أن غاب أربع ليال دون أن يلقي كيدا .

ز- سرية زيد بن حارثة إلى حسمى

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبي في جمادى الآخرة سنة ست للهجرة إلى ( حسمى ) في خمسمائة رجل ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بني عذرة ، فلما وصل ( حسمى ) هجم على القوم مع الصبح فقتلوا فيهم فأوجعوا وأغاروا على ما شيتهم فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبي مائة من النساء والصبيان .

ولكن زيد بن رفاعة الجذامي رحل في نفر من قومه إلى رسول الله - ﷺ - فدفع إليه كتابه الذي كان كتب له ولقومه ليألى قدم عليه فأسلم ، فبعث على بن أبي طالب إلى زيد بن حارثة يأمره ان يخل بينهم وبين اموالهم وحرملهم .

وكان سبب هذه الغزوة أن دحية بن خليفة الكلبي اقبل مرة عند قيصر في طريق عودته الى المدينة ، فلقية الهنيد بن عارض وابنه عارض ابن الهنيد في ناس من جذام بحسمى ، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب ، فقدم دحية على النبي - ﷺ - فأخبره بذلك ، فبعث زيدا لاعطاء درس قاس لجذام حتى لا يعودوا لمثلها ابدا .  
ح - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل :-

بعث رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف في شعبان سنة ست للهجرة الى بني كلب في دومة الجندل ، وقبل أن يبعثه دعاه فأقعه بين يديه وعممه بيده وقال : ( اغز باسم الله وفي سبيل الله فقاتل من كفر بالله ! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا ! ) (١) .

سار عبد الرحمن حتى قدم « دومة الجندل » فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الاسلام ، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيا وكان رأسهم ، واسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية .

ط - سرية على بن أبي طالب إلى بني بكر بفدك

بلغ رسول الله - ﷺ - ان جمعا من بني سعد بن بكر يريدون ان يمدوا يهود خيبر ، فبعث اليهم على بن أبي طالب في مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى « الهجع » فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال : أخبركم على أنكم تؤمنون ، فأمنوه فدلهم ، فأغاروا عليهم ، فأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد وقدم على المدينة ولم يلق كيدا .

ي - سرية زيد بن حارثة إلى أم قرقة بوادي القرى :

خرج زيد بن حارثة في تجارة الى الشام ومعه بضائع لاصحاب النبي - ﷺ - فلما كان دون ( وادي القرى ) لقيه ناس من بني بدر فضربوه وضربوا اصحابه واخذوا ما كان معهم .

وعاد زيد الى المدينة فبعثه رسول الله - ﷺ - في شهر رمضان سنة ست للهجرة اليهم ، فكمنوا النهار



وساروا الليل ، وعلم بنو بدر بحركة المسلمين اليهم ولكن زيدا وأصحابه صنيحوهم واخذوا منهم اسرى وعاد زيد الى المدينة وبشر رسول الله ﷺ - بنصر الله .

ك - سرية عبد الله بن رواحة الى اسير بن زارم :-

لما قتل ابورافع سلام بن ابى الحقيق امرت اليهود عليهم اسير بن زارم . فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ - فوجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سنة ست للهجرة سرا فسأل عن خبر اسير فأخبر بذلك وقدم ابن رواحة على النبى ﷺ - وأخبره خبر اسير ، فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة ، فقدموا على اسير وقالوا : إن رسول الله ﷺ - بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خير ويحسن اليك ، فطمع في ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين حتى اذا كانوا « بقرقرة ريثار » ندم اسير واراد الغدر بالمسلمين ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوا اصحابه جزاء غدرهم . وعادوا الى المدينة فأخبروا رسول الله ﷺ - بغدر اليهود ، فقال : ( نجاكم الله من القوم الظالمين ) .

ل - سرية كرز بن جابر الفهرى الى العرانيين :-

قدم نفر من « عرينة » ثمانية على رسول الله ﷺ - فأسلموا ، فأمر بهم إلى لقاحه وكانت ترعى في منطقة ( قباء ) على ستة أميال من المدينة ، فكانوا فيها حتى ضحوا وسمنوا فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله ﷺ - ومعه نفر فقاتلهم فقتلوه يده ورجله وعرزوا الشوك في لسانه وعينيه حتى مات .

وبلغ رسول الله ﷺ - الخبر ، فبعث في ائره عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهرى فأدركوهم واحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم ثم اردفهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، فقتلوا .

م - سرية عمرو بن أمية الضمري :-

قال ابو سفيان لنفر من قريش « الا احد يغتال محمدا ، فإنه يمشى في الاسواق ؟ » فأتاه رجل من الأعراب متطوعا لقتل النبى الكريم ، فأعطاه ابو سفيان بعيرا ونفقة وقال : « إطو أمرك » فخرج ليلا حتى قدم المدينة بعد خمسة أيام .

ولما رأى رسول الله ﷺ - هذا الأعرابي رابه امره فقال : « إن هذا ليريد غدرا » . وحاول الأعرابي اغتيال رسول الله ﷺ - فجذبه أسيد بن الحضير فأسره من إزاره فوجد خنجرا لديه ، فقال له رسول الله ﷺ - : - ( أصدقنى ما أنت ؟ ) قال : وأنا آمن ؟ ، قال : « نعم » فأخبره بأمره وما جعل له ابو سفيان ، فخلى عنه .

وبعث رسول الله ﷺ - عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب وقال : « إن أصبتما منه غرة فاقتلوه » ، فدخلا مكة ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلا فرآه معاوية بن أبى

سفیان ففره ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه وطلبوه .  
وهرب عمرو وسلمة ، وقتل عمرو في طريق عودته إلى المدينة رجلين مشركين .

### دروس من غزوات محاسبة الغادرين

#### ١ - الوقت :-

انسحبت الأحزاب عن المدينة ، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب ، واصر الرسول - ﷺ - امره الانذارى للحركة إلى بنى قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه ، على الا يصلح المسلحون العصر الا في ديار بنى قريظة .

لقد ادرك الرسول - ﷺ - بثاقب فكرة أهمية الوقت في الحصول على نتائج باهرة في القتال ، فلو أن الرسول - ﷺ - أبطأ بحركته هذه ، لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائها أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم ، أو التثبيت بالحصول على قوات من القبائل لتساند قوتهم ، ولكان بإمكانهم إكمال قضايهم الادارية التي يحتاجون اليها في القتال ، حتى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مدة ممكنة .

ولكن إسراع الرسول - ﷺ - بحركة قواته لتطويقهم ، حالت بين اليهود وبين كل ذلك ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين .

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافي لليهود لتنظيم أى خطة على الإطلاق ، فقد ظهر لنا من سير الحوادث في غزوة بنى قريظة ان اليهود لم يفعلوا شيئاً ، وكانوا مترددين في كل شيء ، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم ، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التي كانت بجانبهم والتي كان بإمكانهم - لو أحسنوا التصرف - الاستفادة من هذه المحسنات لكي يقاوموا المسلمين وقتاً غير قصير . حصونهم قوية ومنيعه وعددهم كبير ، وسلاحهم وفير ، والأرزاق والماء متيسران ، كل ذلك يساعد على الصمود ، ولكن هذه المحسنات العسكرية التي بجانب اليهود لا تقيد شيئاً مادامت معنوياتهم منحطة تماماً ، ولولا استفادة الرسول - ﷺ - من الوقت لتحسنت معنويات اليهود ولاستطاعوا ان يقوموا بدور أكثر حزمًا من الدور الذي قاموا به أثناء حصارهم .

وبما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ، ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب .

لقد كانوا منهوكن القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم حوالى شهر في موقف عصيب يحطم اعصاب أشجع الشجعان .

وكان الطقس بارداً ، وقد تحملوا البرد في العراء وقتاً طويلاً أثناء حصارهم ، فلما انسحبت

الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القرية . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ما هى إمكانات اعاشتهم مثلا وهى اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ خاصة ان الجندى يمشى على بطنه كما يقولون .

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل بغرض الاسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الاعجاب والتقدير .

## ٢ - المباغته . . .

تكون المباغته بالوقت والمكان والأسلوب .

المباغته بالمكان ، أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو . والمباغته بالزمان ان تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو . والمباغته بالاسلوب ان تقوم بالقتال بأسلوب جديد او بسلاح جديد . والقائد العبقري هو الذى يحاول ان يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا ؛ لأن المباغته ، الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا .

لقد طبق الرسول - ﷺ - أساليب المباغته ، لقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال هو حفر الخندق ، كما رأينا كيف أنه باغت قريشا بالقتال بأسلوب الصفوف .

وفى غزوة بنى قريظة باغت اليهود بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها ، فشل من معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة .

وفى غزوة بنى لحيان تحرك شمالا باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية ، وبذلك باغتهم بالمكان إن المباغته أهم مبادئ الحرب قديما وحديثا ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر .

## ٣ - القصاص :

القصاص العادل الذى أصاب بنى قريظة بعد تسليمهم ، يقره كل إنسان واقعى سليم التفكير والانصاف .

لقد طعن هؤلاء اليهود المسلمين فى اخرج وقت من أوقات محتتهم ، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لكان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم ، ولكن أى عذر لهم وقد خانوا العهد فى مثل تلك الظروف ، وأحب ان اتساءل : لو نجح الأحزاب فى غزوة الخندق ، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين ؟ ألم تكن عاقبة المسلمين الابادة والتمثيل ؟ فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة اعدائهم على إبادتهم ؟ لقد أفسح المسلمون المجال أمام بنى قينقاع وبنى النضير من اليهود للجلاء الى خير أو الى ضواحي الشام ، فماذا كانت النتيجة ؟ أثار هؤلاء اليهود الاحزاب وحشدوهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين . ومع ذلك فالوقوف جد مختلف بين هؤلاء اليهود وبين يهود بنى قريظة . إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان فى اخرج الأوقات وأشدهم خطورة على مستقبل الاسلام والمسلمين .

فهل يبقى المسلمون سلما على بنى قريظة ليقوموا بدور اسلافهم بنى قينقاع وبنى النضير ؟ ..

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِ صُدُورُ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾<sup>(١)</sup> .  
لقد كان بإمكان هؤلاء اليهود ان يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم ، فنجوا بحياتهم وأموالهم .

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم فعلا بعد أن خانوا عهودهم وعرضوا المسلمين للإبادة ، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى ، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من اليهود لم يصابوا بسوء .

والمرأة الوحيدة التي قتلت من بنى قريظة هي التي قتلت مسلما بقذفه بالرحى من فوق سطحها ، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر . اما قتل أبي رافع بن أبي الحقيق ، فلأنه أحد رءوس اليهود الذين حرضوا الأحزاب ، وقتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته في المستقبل وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل في مثل هذا الموقف ، فهذا اليهودي كان من بنى النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول - ﷺ - فحاصروهم وتغلب عليهم واضطروهم الى الاستسلام ، ثم سمح لهم بالرحيل بعيدا عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه ، فإذا نكث هذا بالعهد وحرض الأحزاب على تطويق المدينة ، وحرض بنى قريظة على نكث عهدهم مع المسلمين ، إذا كانت هذه أعماله بعد ان أطلقه الرسول - ﷺ - مع قومه بعد استسلامهم ، فمن حق المسلمين ان يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف .

وما يقال عند ذلك يقال عن سرايا القصاص التي بعثها الرسول - ﷺ - لمحاسبة الغادرين الآخرين .

لقد كان قصاص المسلمين من اليهود ومن غيرهم ضروريا وعادلا .

٤ - العقيدة :-

ظهر لنا في هذه الفترة من كفاح الرسول - ﷺ - ، أثر العقيدة في توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها ، وأثرها في اندفاع المسلمين ، كل يسابق اخاه إلى الشهادة ، وأثرها في جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به احد غيره من الناس .

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبي لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه ، وقد كان أبو لبابة حليفا لهم في الجاهلية وصديقا شريفا لا يشكون في إخلاصه ، فأرسله الرسول - ﷺ - فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعويل ، فآثر ذلك على نفسيته كإنسان . واستشاره اليهود : اينزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : « نعم » وأشار إلى حلقة كأنه ينههم إلى أن مصيرهم الذبح .

ولكن أبا لبابة ادرك لفوره انه خان الرسول - ﷺ - « بإشارته » تلك وانه خضع لشعوره لا لعقيدته فيما وقع منه ، فمضى هائما على وجهه نادما حتى وصل مسجد المدينة ، فربط نفسه إل سارية فيه ، وحلف لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه .

وبقى على حاله هذا متشفعا بالرسول - ﷺ - حتى تاب الله عليه ، لم يعرف احد بإشارة أبي لبابة

إلى حلقه حين استشاره اليهود فى التسليم ، ولم تكن اشارته هذه نتيجة تدبير وتفكير ، ومع ذلك لم يستر أبو لبابة فعلته هذه وأعلنها للناس جميعا وعاقب نفسه بنفسه عقابا صارما مما يدل على عقيدته الراسخة وإيمانه العظيم .

وحكم سعد بن معاذ على بنى قريظة بأن يقتل الرجال ونسبى الذرية وتقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة أيضا .

لقد كان سعد سيد الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية ، وقد توقع اليهود أن تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم ، كما توقع الأوس أيضا أن يتساهل سعد مع اصداقائهم الاقدمين ، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين : يا أبا عمرو ! أحسن فى مواليك .

وقد أحسنت الخرج قبل ذلك فى مواليتها اليهود عندما استسلموا للمسلمين ، فلماذا لا يحسن الأوس فى مواليتهم مثلما أحسن الخرج ؟ ولكن سعدا صاح بقومه وقد اكثروا عليه الرجاء : « قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم » .

وأصدر سعد حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وإيمانه العظيم : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (١) .

وماذا يعنى دخول عبد الله بن عتيك وحده الحصن الذى يسكنه اليهودى ابو رافع بن ابى الحقيق فى وسط اهله وعشيرته ، وتعرض عبد الله نفسه للخطر الداهم بينما ترك اصحابه خارج الحصن فى أمان ؟ !

هل يعنى هذا العمل الا استئثار القائد لنفسه بالخطر دون اصحابه طمعا فى الشهادة ، فقد كان بإمكانه تكليف احد اصحابه بهذا الواجب ، ولكنه أثر أن يقوم بنفسه بهذا العمل كله ، فنجح فى القضاء على ابن ابى الحقيق ، والتحق بأصحابه ليلا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن . هذه الأمثلة التى ظهرت لنا فى هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير ، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة فى نفوسهم ، مما جعلهم يستهينون بكل شئ فى سبيل عقيدتهم .

٥ - القضايا الادارية :-

- الغنائم :-

قسمت غنائم بنى قريظة على المسلمين : سهم للراجل وثلاثة اسهم للفارس منها سهمان للفارس ، وذلك تشجيعا للاكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة فى القتال ، وبقي الخمس للرسول - ﷺ - لتوزيعه على المحتاجين ولتأمين اعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما يتفقونه على أنفسهم فى الجهاد .

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة ، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والاسلحة من نجد ! استعدادا للحركات المقبلة .

ب - الماء :-

عندما وصل المسلمون إلى حصون بنى قريظة ، سيطروا على بئر تعود لبنى قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها في أيام الحصار .

ولولا سرعة المسلمين في الاستيلاء على هذه البئر ، لكان من المؤكد ان تقوم قريظة بتدميرها حتى تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم في القتال .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودُ فَارِسْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا . إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّاءَ ﴾ .  
رواية الإمام ابن كثير :

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضيله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وكان سبب قدوم الأحزاب ان نفرا من أشراف يهود بنى النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله - ﷺ - من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبي الحقيق وسلام بن مسكم وكنانة ابن الربيع خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش وألبوهم على حرب النبي - ﷺ - ووعدوهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضا ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها وقائدها أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن ابن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي - رضي الله عنه - فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله - ﷺ - التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقى المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم في أعالي ارض المدينة كما قال الله تعالى ﴿ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ وخرج رسول الله - ﷺ - ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة ان تصل إليهم وجعل النساء والدراري في أطام المدينة ، وكانت بنو قريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقى في المدينة ولهم عهد من النبي - ﷺ - وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب إليهم حمى بن أخطب النضري فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالوا الأحزاب على رسول الله - ﷺ - فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ ومكثوا محاصرين للنبي - ﷺ - وأصحابه قريبا من شهر الا أنهم لا يصلون إليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا ان عمرو بن ود العامري وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقترحوا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله - ﷺ - خيل المسلمين إليه فيقال انه لم يبرز إليه احد ،

فأمر عليا - رضى الله عنه - فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله علي - رضى الله عنه - فكان علامة على النصر . ثم ارسل الله - عز وجل - إلى الأحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم تبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله - عز وجل - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ﴾ قال مجاهد وهى الصبا ، ويؤيد الحديث الآخر : ( نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور )<sup>(١)</sup> . وقال ابن جرير بسنده عن عكرمة قال : ( قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى نصر رسول الله - ﷺ - فقالت الشمال : إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا )<sup>(٢)</sup> ورواه ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فذكره . وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال أرسلنى خالى عثمان بن مظعون - رضى الله عنه - ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال : ( اثنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله - ﷺ - فأذن لى وقال : ( من أتيت من اصحابى فمرهم يرجعوا ) قال : فذهبت والريح تسفى كل شيء فجعلت لا ألقى أحدا الا امرته بالرجوع إلى النبى - ﷺ - قال : فما يلوى احد منهم عنقه ، قال : وكان معى ترس لى فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال : فضربت الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى فأبعدها إلى الأرض<sup>(٣)</sup>

وقوله ﴿ وَجُنُودًا ﴾ لم تروها ﴿ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بنى فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله - عز وجل - فى قلوبهم من الرعب ، .

وقال محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال : ( قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان - رضى الله عنه - يا أبا عبد الله رأيت رسول الله - ﷺ - وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن اخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قل الفتى والله لو أدركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا قال : قال حذيفة - رضى الله عنه - يا ابن اخى والله لو رأيتنا مع رسول الله - ﷺ - بالخندق وصلى رسول الله - ﷺ - هوى من الليل ثم التفت فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبى - ﷺ - ان يرجع - ادخله الله الجنة )<sup>(٤)</sup> .

قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هوى من الليل ثم التفت لهما فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله - ﷺ - هوى من الليل ثم التفت لينا فقال : ( من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع - يشترط له رسول الله - ﷺ - الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة ) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم احد دعانى رسول الله - ﷺ - فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال - ﷺ - ( يا حذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما

(١) البخارى - كتاب الاستسقاء - باب قول النبى - ﷺ - نصرت بالصبا والرعب ٤٠/٢

(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢١

(٣) تفسير الطبرى ٨٠/٢١

(٤) مسند الامام أحمد ٣٩٢/٥

يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا ) قال فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله - عز وجل - تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء فقام ابو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر كل امرئ من جلسه قال حذيفة - رضى الله عنه - فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت من أنت ، فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال ابو سفيان : يامعشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمك لنا بناء فارتحلوا فإن مرتحل ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله - ﷺ - : ألا تحدث شيئا حتى تأتيني لو شئت لقتلته بهم ، قال حذيفة - رضى الله عنه - فرجعت إلى رسول الله - ﷺ - وهو قائم يصلى في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رأتى أدخلنى بين رجله وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم . واخرج ابو داود في سننه منه « كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر صلى » (١) .

قوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ أى : الأحزاب . ومن أسفل منكم والمقصود بهم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أى : من شدة الخوف والفرغ ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ وفيه أقوال : قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله - ﷺ - أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن اسحاق في قوله تعالى : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير اخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله - عز وجل - ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون ان محمدا - ﷺ - وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون ان ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابى سعيد - رضى الله عنه - قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : - ﷺ - نعم ، قولوا ﴿ اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ﴾ (٢) قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح وكذا رواه الامام احمد بن حنبل عن أبى عامر العقدي .

قوله تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ . وهذا بيان لحال المؤمنين عندما حوصرت مدينتهم وحوصروا من الأحزاب لقد نزل بهم بلاء عظيم حتى زلزلت النفوس من الخوف والفرع زلزالا شديدا ولا عجب فإن النفس البشرية قد يعترها

(١) ابو داود في سننه - كتاب الصلاة - باب وقت قيام النبي - ﷺ - من الليل ٧٨٢ - ١٣١٩

(٢) مسند أحمد ٣/٣



الخوف والأمان والفرع والطمانية والرجاء والقلق وحيتل نجم النفاق وتحركت آثاره في قلوب المرضى حتى قال قائلهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ لا حقيقة لتلك الوعود وهكذا النفوس المريضة اذا تحركت فيها عقارب البغضاء وهاجت في جحورها ثعابين الحقد فالمنافقون ومرضى القلوب في كل زمان ومكان عالة على المجتمع في السراء وسوس ينخر في عظام الأمة في البأساء والضراء وحين البأس قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخلدون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ، وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزئ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا أنتم مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتحة من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالا يراعون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبلين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يأبىها الذين آمنوا لا تتخلوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا الله عليكم سلطانا مينا . إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب المقصود يشرب المدينة كما جاء في الصحيح : ( رأيت في المنام دار هجرتكم أرضا بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هي يثرب ) (٢) وفي لفظ المدينة . ويقال إنما كان اصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهلايل بن عوض بن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله الهيلي ، قال وروى عن بعضهم أنه قال ان لها في التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكنة والجابرة والمحبوذة والقاصمة والمحجورة والعذراء والمرحومة .

وقوله : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى : لا إقامة لكم في ميدان القتال مع رسول الله - ﷺ - فارجعوا إلى المدينة ثم بعد ذلك ابتدعوا من الأعداء ما يدل على سوء طويتهم وخبث نفوسهم وسواد قلوبهم . قالوا ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنه - المراد بالطائفة بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق . قال ابن اسحاق ان القائل لذلك هو اوس بن قيطى يعنى اعتذروا في الرجوع الى منازلهم بأنها عورة اى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وما هي بعورة ﴾ أى ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فرارا ﴾ أى هربا من الزحف .

(١) سورة النساء الأيتان : ١٣٨ ، ١٣٩

(٢) البخارى - كتاب المناقب ٢٤٧/٤ وكتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبي - ﷺ - واصحابه الى المدينة ٧٧٥ وكتاب التعبير - باب اذا رأى بقرأ تنحر ٥٢٨ ومسلم - كتاب الرؤيا - باب رؤية النبي - ﷺ - ١٧٧٩/٤ رقم ٢٢٧٢

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مستولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهي الدخول في الكفر لكفروا سرعيا وهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم في غاية الذم ، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف : ألا يولوا الأدبار ولا يفرؤا من الزحف ﴿ وكان عهد الله مستولا ﴾ أى : وإن الله سيسألم عن ذلك العهد لابد من ذلك ، ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر أجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببا في تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أى : بعد هربكم وفراركم ﴿ قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ﴾ (١) ثم قال تعالى : ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أى يمنعكم ﴿ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا منغيث .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منك والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

هذا إخبار عن علم الله المحيط بكل شيء وما علم الله تعالى علم هؤلاء المعوقين المعرقلين الذين يمنعون غيرهم من الزحف المقدس جهادا في سبيل الله ويقولون لإخوانهم وعشائرتهم ( هلم إلينا ) وأقبلوا علينا لنعيش في الظلال والثمار ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ أى : أنهم عازفون عن الجهاد وحضور الغزو وشهود المعارك ، إن الله يعلم ما عليه هؤلاء ولن يقعد قوم عن الجهاد إلا ضربت عليهم الدلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

قوله تعالى : ﴿ أشحة عليكم ﴾ أى : بالخير فهم بخلاء أنانيون ﴿ قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . إنهم ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت

إن كنتم صادقين ﴿١﴾ فرد عليهم المولى الكريم بقوله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون - فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالآيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نغلى لهم خبيرا لأنفسهم إنما نغلى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتنبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴿٢﴾ .

إن هؤلاء المعوقين القائلين لاخوانهم : ( هلم إلينا ) المخلدين إلى الراحة والظلال والثمار قد اختلفت احوالهم سلما وحربا ، أمنا وخوفا إنهم اذا جاء الخوف واحيط بهم وسمعوا النفير يعلن الجهاد والرد على المعتدين رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى تتنابه غمرات الموت وسكراته إنهم جبناء رعاديد ، فإذا ما ذهب الخوف وجاء الأمن استأسد الحمل وتعملق القزم وسلقوكم بالسنة حداد فليس لهم سلاح إلا تلك الألسنة إذ قلوبهم واجفة خائفة إنهم لا يصمدون أمام الأحداث ولكنهم كما قال القائل :

أسد على وفي الحروب نعامه

إنهم ( أشحة على الخير ) لا يعرفون من الاسلام الا اسمه ومن المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نسائهم إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك

السنة عندهم بدعة والبدعة عندهم سنة يلقاك احدهم بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب تحسبه ملاكا فى مظهره ولكنه شيطان رجيم فى مخبره .

ودع الكذب فلا يكن لك صاحبا  
يلقاك يقسم انه بك واثق  
ان الكذب يشين حرا يصحب  
وإذا توارى عنك فهو العقرب

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٨

(٢) سورة آل عمران الآيات : ١٦٩ - ١٨٠

يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب  
لقد حكم الله على هؤلاء بقوله : ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ ( إذ الإيمان ما وقر في القلب وصدقه  
العمل وإن قوما غرتهم الدنيا وألغتهم الأمانى ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو  
احسنوا الظن لأحسنوا العمل ) (١) ﴿ ويل لكل أفيك أئيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا  
كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ (٢)  
وإذا لم يؤمنوا فقد أحبط الله أعمالهم وأبطلها ﴿ كالذى ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر  
فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي  
القوم الكافرين ﴾ (٣).

وليس إحباط أعمال هؤلاء بالأمر العسير بل كان ذلك على الله يسيرا وسهلا ميسورا .  
قوله تعالى : ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب  
يستلثون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

وهذا أيضا من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل  
هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ، ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون  
عن أنبائكم ﴾ أى ويودون إذا جاءت الأحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة بل في البادية  
يسألون عن أخباركم وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ أى : ولو  
كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم الا قليلا لكثرة جنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله - سبحانه وتعالى -  
العالم بهم .

قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله  
كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا  
إيمانا وتسليما ﴾

هذا بيان منه تعالى في أن الأسوة الحسنة تتمثل في الفرد والجماعة ، اما الفرد فهو المثل الأعلى  
والانسان الكامل محمد - ﷺ - فهو الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، وأما الجماعة ففي محمد وصحبه قال  
تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا  
من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع  
أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا  
وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (٤)

لمثل هذا فليعمل العاملون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد  
قلب محمد - ﷺ - خير قلوب العباد فاختره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب  
أصحابه خير قلوب العباد فاخترهم لصحبته فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن .

(١) أخرجه البخارى في التاريخ

(٢) سورة الجاثية الآيات : ٧ - ٩

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٤

(٤) سورة الفتح الآية : ٢٩

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح  
 هذه الاسوة الحسنة إنما يقربها ويعترف من كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا فكل  
 من كان يرجو لقاء ربه فإنه يعمل لهذا اللقاء والعمل إنما يتقبله الله بشرطين ان يكون صوابا وان يكون  
 خالصا ولن يكون صوابا إلا إذا كان على هدى - رسول الله - ﷺ - ولن يكون خالصا إلا إذا ابتغى به  
 وجه الله وقد اجتمع الشرطان في قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا  
 يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ (١).

وإنما جاءت آية الأسوة كاللؤلؤة بين آيات الغزوة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم أثناء الغزوة من  
 الثبات والقوة والصبر والحلم لقد كان يعلم اصحابه ان يقولوا : ﴿ اللهم استر عوراتنا وآمن روعلتنا ﴾ (٢)  
 سيدى ابا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش عظماء عهد الضلال وأدب السفهاء  
 وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فاتقوا سعداء  
 لقد كان حال المؤمنين وقت الشدة حال الوثائق الثابت الموقن بوعده الله وصدقه : ﴿ ولما رأى  
 المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ أى من الابتلاء والشدائد ﴿ وصدق الله  
 ورسوله ﴾ الوعد ﴿ وما زادهم ﴾ هذا ﴿ إلا إيمانا وتسليما ﴾ الا إيمانا ويقينا وتسليما وتفويضا ، ونحو  
 ذلك قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء  
 والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين امنوا متى نصر الله الا ان نصر الله قريب ﴾ (٣) .  
 وقوله جل شأنه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدو منكم ويعلم  
 الصابرين ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من  
 دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾ (٥) .  
 الأسوة الحسنة

لقد زكى الله عقل نبينا فقال سبحانه : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٦) ، وزكى لسانه فقال  
 ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٧) وزكى شرعه فقال ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٨) وزكى معلمه فقال  
 ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٩) وزكى فؤاده فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (١٠) وزكى بصره فقال ﴿ ما زاغ  
 البصر وما طغى ﴾ (١١) وزكى امته فقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس  
 ويكون الرسول شهدا ﴾ (١٢) وزكاها مرة أخرى فقال : ( كنتم خير أمة أخرجت للناس ) وزكى أهل  
 بيته ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

(٧) سورة النجم الآية : ٣  
 (٨) سورة النجم الآية : ٤  
 (٩) سورة النجم الآية : ٥  
 (١٠) سورة النجم الآية : ١١  
 (١١) سورة النجم الآية : ١٧  
 (١٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣

(١) سورة الكهف الآية : ١١٠  
 (٢) مسند احمد : ٢/٣  
 (٣) سورة البقرة الآية : ٢١٤  
 (٤) سورة آل عمران الآية : ١٤٢  
 (٥) سورة التوبة الآية : ١٦  
 (٦) سورة النجم الآية : ٢

وزكى رسالته فقال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (١) وزكاه كله فقال ﴿ وإنك لملئ خلق عظيم ﴾ (٢).

أنت الذى من نورك البدر اكتسب	والشمس مشرقة بنور بهك
أنت الذى لما رفعت إلى السما	بك قد سميت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا	ولقد دعاك لقربه وحبك
وخفض دين الشرك ياعلم الهدى	ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى	أن تجمع الكتاب من معنك
صلى الله عليك ياعلم الهدى	ما اشتاق مشاق مثواك الى مساواك

إن أجل الغايات وأشرفها ، وأكرم الأهداف وأسمها : أن تتعقد عزائمنا على اتباع رسول الله ، وإن تتأكد روابط قلوبنا على محبته ، والعمل بسنته ، وأن تتنافس فى التأسي به ، واقتفاء آثاره النبوية الشريفة ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ (٣).

والذى لا شك فيه ، أننا نحن الذين نستفيد من الاستظلال بلواء رسول الله - ﷺ - فقد غفر الله له ذنبه ، ورفع له ذكره ، وشرح له صدره ﴿ وأناه سؤله ، وهداية الهدى الأنبياء جميعا ، وجعله اماما وشهيدا .

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ (٤) فهو إذن صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود .

وإذا كان الله عز وجل أكرم نبينا ومرشدنا بهذه المكارم كلها فتحن مع ذلك لسأل الله المزيد له رفعة درجته رفعة لنا ، بل للبشرية جميعا ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥) . وإذا كان من بلاغة القول أن يسلس البيان ، ويهذب الوجدان ويجعل العقول والأفئدة تتمايل تمايل الطروب الشوان .

فإن من البلاغة أيضا أن تنبهر فتعجز عن التعبير ، وأن تحاول الكلام فتعجز عن التصوير . ومقام البلاغة الثانى هو الذى يلزمنا هنا وفى كل زمان ومكان ، كلما أردت عن النبى - ﷺ - كلاما ، أو فى الرسول مديحا .

دع ما ادعته النصارى فى نبهم	واحكم بما شئت قدرا فيه واحتكم
فمبلغ العلم فيه انه بشر	وانه خير خلق الله كلهم

لقد كانت عظمة الرسول - ﷺ - عظمة مستمدة من مكنون القدس ، وداخل النفس ، فهى عظمة غير مكتسبة بمال ، ولا جاه ، ولا سلطان ! وهى عظمة لا يزيدها الرخاء ولا تنقصها الشدة ، ولا

(١) سور الانبياء الآية : ١٠٧

(٢) سورة القلم الآية : ٤

(٣) سورة المطففين الآية : ٢٦

(٤) سورة النساء الآية : ٤١

(٥) سورة الانبياء الآية : ١٠٧

يظهرها الغنى ولا يخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ولا يصغرها زواله ، ولا يقويها نصر ولا تضعفها هزيمة .

إنما هى عظمة ثابتة ثبات الأزل ، لأنها من الأزل نفسه ، السارية فى الكون سريان القوانين الالهية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض واعتبرتها بأسرارها العلمية ، لرأيت فيها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم الكون الكبير بسنن وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت ان هذا النبي الكريم ، إن هو الا معجم نفسى حى ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديدا ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله .

فهو إنسان غرس فى التاريخ غرسا ليكون حدا للزمن وأولا للزمن بعده ، وما كانت حياته تلك الا طريقة غرسه ، وهو ابداء قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته ... فلن يتغير أو يمحى الا اذا تغير أو محى المشرق والمغرب (وحى القلم لمصطفى صادق الرافعى : ج ٢) . ونحن لا نريد بحب رسول الله - ﷺ - ذلك الحب البارد أو الفاتر الذى ينتهى بالصلوات والتسبيحات ، والهمهمات والتمنات إن هذا الحب لا يبنى فردا ، ولا مجتمعا ، ولا يقيم صرحا ولا عمدا انما نريد الحب المشتعل ، والفؤاد المفعم الوثاب ، والعاطفة المشدودة الى مثلها العليا التى خطها لها النبي الأعظم - سيدنا محمد ﷺ - ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾ (١) ولذلك كان من صحة الايمان او كماله ، أن يكون هوى المؤمن تبعا لما جاء به نبيه وهاديه .

فيكيف نفسه بهدا ، ويربطها بسماه ، ويعبقها بشداه ، ويسخط بسخطه ويرضى لرضاه . ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

فالتجرد لهذا الحب هو ما يطالب به الاسلام ، وهو « بطاقة » الجنة ، وهو الذى يرسخ قدمك على الأرض ، ويمد قامتك إلى عنان السماء !]

\*\*\*

### هل النبي يستحق هذا الحب ؟

ونضيف إلى هذا السؤال سؤالا آخر : وهل حبنا لرسول الله - ﷺ - أمر تعبدي أو وجداني ، أو تمليه الشخصية « اليتيمة » والافاضة الربانية غير المحدودة ؟ والجواب عندي أن حبنا مهما زاد ، وعملنا مهما اتصل ، فلن نقدر رسول الله قدره ، ولا ان نوفيّه حقه ، ولا بعضا من هذا الحق الذى أصبح ديننا مستكنا فى أعماق النفس البشرية لا يجحده إلا جهول

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٤

ولا ينكره إلا مأفون ! وهو حب على من الأقدار ؛ لأنه نبى اجتمعت فيه خصائص الأنبياء ، وحب يفيض به الوجدان لأنه يجد فيه الانسان المفرد في مزاياه ، المنزه عن الشركة في طبائعه وسجاياه فهو حب هابط على القلوب ونابع عنها ، يزرعه الاله ، ويرويه الانسان وينميه الدين ، فهو حب من غير اكراه ، حب يقذف في اعماق النفس ، وهو حب يسمو به المحب ويعلو حتى يصل إلى درجات الصديقين ! !  
والمسلمون اليوم ينقصهم الحب الذكى المتفاعل مع جوارح الانسان وعواطفه واذا كانت الامم تجتمع على زعمائها المخلصين لها ، فيفتانون في إرضائهم ويتسابقون في تقديرهم ..

أفلا نستمسك - نحن المسلمين - بعروة نبينا الوثقى ، ونتنافى في إرضائه ، ونحرص على الحنيفة السمحة التي بعث بها ﷺ ان زعماء الدنيا تتوقف زعامتهم بأيام معدودة ، وتنتهى بانتهائهم . أما رسولنا العظيم ، فقد قادنا أيام حياته إلى أقوم صراط ، وسيقودنا في يوم الزحام ، إلى الخوض لنشرب ، وإلى الجنة لننعم إلى المجتمع الذى لاغل في صدره ، ولا تفكك في صفوفه :  
﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ (١) .

- لقد عاش سلفنا الصالح في نبههم فسادوا وقادوا ، وفتحوا وعمروا فهل يعيش الخلف المعاصر عيشهم ليسودوا ويقودوا . ويفتحوا ويعمروا ؟

هذه هى الأمنية الوحيدة التي توظف المسلمين من سباتهم العميق ، وتشعل عواطفهم التي ران عليها ما كسبه من الآثام والسيئات ان هذا « التجمع » حول نبينا - ﷺ - هو وحده الذى يجعلنا نقاوم طغيان الطغاة ، وعبث العابثين .

- وإذا كانت الأمم تجعل مثلها الأعلى نابعا من بيئتها وتفكيرها ، فبعض الأمم ينبع مثلها الأعلى من غريزتها ، فيكون امرأة جميلة وقدا مستقيما ، والبعض ينبع مثله الأعلى من بطنه فيكون في أكلة - طيبة .. وشربة حلوة وكفى .

والبعض ينبع مثله الأعلى من طبيعته المتجبرة ، فيكون سلطانا واستعبادا واذلالا وإقهارا . ولكن الله - عز وجل - أراد من الأمة المسلمة ان تجعل مثلها الأعلى هو رسول الله - ﷺ - في كل شيء ! ! في علمه وعمله ، في ضحكه وبكائه ، في نومه ويقظته ، في قعوده وسيره ، في حربه وسلمه ، في مأكله ومشربه ، في حلمه وغضبه ، في جميع أفعاله وتصرفاته ، لانه ﷺ ، هو أكمل النماذج البشرية جميعا وأعظم المستويات جميعا .

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .  
- والأمة حين تتوحد في عاداتها/على عادات هذا النبي ، وفي هديها على هديه ، وفي سلوكها على سلوكه ، تكون سيدة الأمم هديا ورقيا وحضارة وسلوكا .

والحمد لله الذى جعلنا من أمة هذا النبي الذى طلعت شمسها علينا فأطفأت كل قنديل ، وهى شمس تملأ الدنيا حرارة وقوة ، ونماء وازيجا ﴿ كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون



عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿١﴾ .

قال مصطفى صادق الرافعى رحمه الله :

كما تطلع الشمس بأنوارها ، فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار ، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها .

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى فى عملها للمادة تحول به وتغير . والنبى يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع فى عملة للروح تترقى فيه وتسمو .

ورعشان الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور . وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين أجرام النور من الشمس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء فليس النبى إنسانا من العطاء ، يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة . ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل التلسكوب فى الدقة معه العلم ، ومع العلم الايمان ، ثم يدرس بكل ذلك على طبيعته النورانية وحدها . والحياة تنشئ علم التاريخ . ولكن هذه الطريقة فى درس الانبياء - صلوات الله عليهم - تجعل التاريخ هو ينشئ علم الحياة . فإلما النبى إشراف إلهى على الانسانية ، يقومها فى فلکها الاخلاقى ويوجد بها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب . أ هـ .

إننا نطالب الأمة الاسلامية ونهيب بها ان تجتمع حول هذا النبى العظيم ، لتتوحد تحت رايته ولترتبط به ، وتربط قلوبنا عليه !!

فالمسلمون اليوم تتوزعهم شعارات مختلفة ، وتفرقهم أهواء متبانية فلكل دولة شعار ، ولكل بلد تقاليد وعادات ، ولكل أمة سبيل ومنهاج فلماذا هذا الخلاف والصراط مستقيم ، والنبى واحد ، والقبلة واحدة ، والدين واحد .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ ﴿٢﴾ .

قال الاستاذ أحمد عبد الجواد الدومى ( رحمه الله ) .

وفى هذه الأيام تتعرض الأمة الاسلامية للطواحين الطاحنة ، والأفكار المسمومة ، والثقافات الدخيلة .

وما يؤسف له أن عاداتنا العربية ذابت فى تقاليد الغرب ، وإن فلسفتنا الشرقية انصهرت فى الفلسفة الغربية ، وإن حضارتنا العريقة انطمست معالمها على مرأى منا وبسمع ، وحيث الحضارات الملوثة ، والرطانات المخبولة .

إنك تدخل بيوت كثير من عظمائنا العرب وعظمائنا المسلمين ، فلا تشم الا رائحة التقليد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٢

الغربي في المأكل والمشرب ولا تنظر إلا الزرابي المبنوثة ، والنمارق المصفوفة ، ومع ذلك فلو سألت عن سجادة او حصير للصلاة لا تجد شيئا من ذلك في هذه البيوت الفخمة لان الصلاة ليست في الحسبان ، ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون . وتجلس على الموائد الممدودة ، فلا تجد مظهرا من مظاهر الاسلام ولا أدبا من آدابه .

لقد اختفى مظهر البساطة ، ومظهر غسل اليد قبل الطعام ، ومظهر الأكل مما يليك ، مع مضغ اللقمة ، كما اختفى مظهر الحديث الهادئ الوديع ، وحل محل ذلك كله الأيدي القاطعة بالمدى ، والأعين الزائغة الطائرة ، والنفوس الطامعة المسعورة ، والحديث عن آخر المودات والتقاليع . كأن ذلك هو كل ما ورثناه ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون .

وأصبح المسلم ابن المسلم يستحي ان يخرج من المسجد ولا يستحي حين يخرج من السينما ، ويمشي مع خليلته كما يمشي مع خليلته ، ومع ذلك كله فنحن نزعم اننا عرب وأننا مسلمون ! قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ﴾ .

قال البخارى رحمه الله تعالى بسنده عن خارجه بن زيد بن ثابت عن ابيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله - ﷺ - يقرأها لم أجدها إلا مع خزيمة ابن ثابت الانصارى - رضى الله عنه - الذى جعل رسول الله - ﷺ - شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١)

وقال الامام أحمد بسنده عن ثابت قال : قال أنس : عمى أنس بن النصر - رضى الله عنه - سميت به لم يشهد مع رسل الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهد رسول الله - ﷺ - غبت عنه لئن ارانى الله تعالى مشهدا فيا بعد مع رسول الله - ﷺ - ليرين الله - عز وجل - ما اصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله - ﷺ - يوم احد فاستقبل سعد بن معاذ - رضى الله عنه - فقال له أنس - رضى الله عنه - يا أبا عمرو أين ؟ واهل لريح الجنة إلى اجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل - رضى الله عنه - قال : فوجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت اخته عمى الربيع ابنة النصر : فما عرفت أخى الا بينانه قال فنزلت هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون انها نزلت فيه وفر أصحابه - رضى الله عنهم (٢)

وأخرج مسلم والترمذى من حديث سليمان بن المغيرة وقال ابن ابى حاتم بسنده عن أنس - رضى

(١) البخارى تفسير سورة الأحزاب ١٤٦٦

(٢) مسند الامام احمد ١٩٣/٤

الله عنه - قال : ان عمه يعنى انس بن النضر - رضى الله عنه - غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله - ﷺ - المشركين لئن اشهدنى الله - عز وجل - قتالا للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم احد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني اعتذر إليك عما صنعته هؤلاء - يعنى أصحابه - وابراً إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فلقية سعد - يعنى ابن معاذ - رضى الله عنه - دون أحد فقال : أنا معك قال سعد - رضى الله عنه - فلم استطع أن أصنع ما صنع فلما قتل قال : فوجد فيه بضعة وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزلت ﴿ فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ﴾ (١)

وروى ابن جرير بسنده عن موسى بن طلحة عن ابن طلحة - رضى الله عنه - قال : لما أن رجع رسول الله - ﷺ - من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ (٢)

قال مجاهد ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ يعنى عهده (ومنهم من ينتظر) قال : يوما فيه القتال فيصدق في اللقاء . وقال الحسن ( فمنهم من قضى نحبه ) يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلاً . وقال بعضهم : ﴿ نحبه ﴾ ﴿ نذره ﴾ ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ أى : وما غيروا عهدهم وبدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ ﴿ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله سؤلاً ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تعتبر برقية عزاء ربانية ظاهرة نزل بها أمين السماء وسفير الأنبياء وكبير امناء وحى صاحب العظمة والكبرياء ، نزل بها الروح الأمين على قلب أمين الأرض والسماء وقد شهد الله هؤلاء الطاهرين الطيبين في هذه الآية بثلاث خصال : شهد لهم بالايمان ، وهو العقيدة التى إذا تابشرت بشاشتها شغاف القلوب وتمكنت تكاد تجعل المستحيل ممكناً والملح الأجاج عذبا فراتا سلسيلاً ، كما شهد لهم بالرجولة ، والرجولة عملة نادرة وكلمة طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب والاسلام صانع الرجال الذين جعلوا من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان في ارض الإسلام قال تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال ﴾ وقال : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ (٣) وقال أصدق القائلين ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ (٤) وقال تعالى :

(١) مسلم - كتاب الامارة - باب ثبوت اللجنة للشهيد ١٥١٢/٣ رقم ١٩٠٣ والترمذى - كتاب التفسير سورة الاحزاب ج ٥ / ٢٨ رقم

(٢) تفسير الطبرى ٩٢/٢١

(٣) سورة التوبة الآية : ١٠٨

(٤) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك لمن الناصحين ﴾ (١)

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يستلکم اجرا وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إني إذا لقي ضلال مبين إني آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ (٣)

ان الاسلام يؤمن بالواحد ، إذ الكثرة قد تكون عبثا ثقيلا على كاهل الجماعة إذا كانت تلك الكثرة غناء كغناء السيل وكما شهد الله لهم بالايمان والرجولة شهد لهم بصدق العهد . فاعجب معى لقوم عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ثم نقضوا العهود ونكثوا العهود ، أما هؤلاء الأبطال الصناديد لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وحسب الصدق شرفا أن يقول عنه رسول الله - ﷺ - كما جاء فى الصحيح « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى للفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » (٤) فالؤمن إذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا اتّمن أدى والمناق إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا اتّمن خان ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر . فشتان ثم شتان ما بين هؤلاء وأولئك ، ان الفرق بين الفريقين كالفرق بين الأرض والسماء ، والثرى والثريا ومسابع الاسماك ومدارج الافلاك ، وعليين وسجين ان فريقا المؤمنين اظهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام ، انهم النور الذى يهتدى بهم من ضل السبيل ( انهم مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلمات ) .

وجل جلال الله إذ يقول فى هؤلاء : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾ (٥)

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾

(١) سورة القصص الآية : ٢٠

(٢) سورة يس الآية : ٢٠

(٣) سورة غافر الآية : ٣٨

(٤) البخارى - كتاب الأدب - باب قول الله تعالى : ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٣٠/٨

(٥) سورة التوبة الآية : ١٠٠

هذا حكم الله تعالى فى الفريقين والله - سبحانه وتعالى - اذ حكم عدل واذا قال صدق واذا اراد فلا راد لما اراد واذا قضى فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم » أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلازل ليميز الخبيث من الطيب فيظهر امر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع انه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعلموا بما يعلمه منهم حتى قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ (١) فهذا علم بالشيء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده . وكذا قال الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليجزى المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطالعكم على الغيب ﴾ (٢) ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ أى : يصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظةهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لاوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت المشيئة فى الدنيا ان شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وان شاء تاب عليهم بان ارشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إن الله كان غفورا رحيمًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾

وهذا إخبار منه تعالى عما أنزله بالمشركين من الهوان والخزى العظيم فقد ردوا الى بلادهم خائبين خاسرين يجرون أذيال الندامة بغيظهم وحنقهم وحقدهم ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ وهذه نعمة من نعم الله على عباده ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يسبوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٣) وكان الله قويا ﴿ لا يضعف ﴾ عزيزا ﴿ لا يغلب ﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴿ (٤) وقال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٥) وقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٦)

وقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٧) فمن كان الله معه فمن عليه ! ومن وجد الله فماذا فقد ، كل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ، ومفرج كل ملهوف ، من تكلم يسمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فاليه منقلبه .

(٥) سورة الحج الآية : ٤٠

(٦) سورة الحديد الآية : ٢٥

(٧) الداريات الآيات : ٥٦ - ٥٨

(١) سور محمد الآية : ٣١

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٩

(٣) سورة المائدة الآية : ١١

(٤) سورة المجادلة الآية : ٢١

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْنُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ ﴾ .

لما قدمت جنود الاحزاب ونزلوا على المدينة نقض بنو قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - من العهد وكان ذلك بسفارة حبي بن أخطب النضري لعنه الله فقد دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئت بك بجز الدهر اتيتك بقريش واحاييشتها وغطفان واتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله اتيتني بذل الدهر ويحك يا حبي انك مشثوم فدعنا منك ، فلم يزل يقتل في الذروة والغارب حتى اجابه واشترط له حبي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له

استوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما ايده الله تعالى ونصره وكبت الاعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله - ﷺ - إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله - ﷺ - يغتسل من وعاء تلك المراقبة في بيت أم سلمة - رضي الله عنها - اذ تبدي له جبريل - عليه السلام - معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟

قال - ﷺ - : ( نعم .. قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعي من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك ان تنهض إلى بني قريظة ، وفي رواية فقال له عذيرك من مقاتل اوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال لكننا لم نضع اسلحتنا بعد . انهض الى هؤلاء قال

- ﷺ - : وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال - ﷺ - : لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق فصلى بعضهم في الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله - ﷺ - إلا تعجيل المسيرة ، وقال آخرون لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن

أم مكتوم - رضي الله عنه - وأعطى الراية لعل بن أبي طالب - رضي الله عنه - ثم نازلهم رسول الله ﷺ - وحاصرها خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس - رضي الله عنه - لانهم كانوا حلفاءهم في الجاهلية واعتقدوا انه يحسب اليهم في ذلك كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول في مواله بني قينقاع حين استطلقهم رسول الله - ﷺ - فظن هؤلاء ان سعدا سيفعل

فيهم كما فعل ابن أبي في اولئك ولم يعلموا ان سعدا - رضي الله عنه - كان قد اصابه سهم في أكحله ايام الخندق فكواه رسول الله - ﷺ - في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعود من قريب وقال سعد - رضي الله عنه - فيما دعا به : اللهم إن كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فأبقني لها ، وإن كنت وضعت الحرب

بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عيني من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم ان نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله - ﷺ - من المدينة ليحكم فيهم ، فلما اقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون ياسعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال - رضى الله عنه - ، لقد آن لسعد الا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا انه غير مستبقيهم فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - : ( قوموا الى سيدكم ) فقام اليه المسلمون فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله - ﷺ - : إن هؤلاء - وأشار اليهم - قد نزلوا على حكمك فأحكم فيهم بما شئت . . فقال - رضى الله عنه - وحكمى نافذ عليهم ، قال - ﷺ - « نعم » قال وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله - ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله - ﷺ - اجلا لا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله - ﷺ - : « نعم » فقال - رضى الله عنه - انى احكم ان تقتل مقاتلتهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله - ﷺ - : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة اربعة » (١) وفى رواية ( لقد حكمت بحكم الملك ) ثم امر رسول الله - ﷺ - بالاخذيد فخذت فى الأرض وجرى بهم مكتفين فضرب اعناقهم وكانوا ما بين السبعمئة الى الثمانمئة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله - ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأُمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل . ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ (٢) فعليهم لعنة الله ، وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعنى حصونهم ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبى - ﷺ - وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليخزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب اليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا ، وارادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، واضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة ان هذه هى الصفقة الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضا لم تظنوها ﴾ قيل : خيبر وقيل : مكة وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون المراد الجميع ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فقد

(١) البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الخندق ٥/١٤٣

ومسلم - كتاب الجهاد - باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ رقم ١٧٦٩ ومسنند احمد ١٤١٧/٦

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٩

هزم الأحزاب وحده ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيههم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ﴾ هؤلاء المؤمنون الذين ورثوا تلك الأرض والديار والأموال كانوا جديرين بهذا النصر لقد وقفوا عند قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (١) فقد اصطلحوا مع الله وكان تلك الآية معاهدة صلح استوفت كل الشروط ويوم نعود إلى الله ونعمل بما أمرنا به ونجتنب ما نهانا عنه يومها سنكون ممن قال الله فيهم : ﴿ ولننصرن الله من ينصره ﴾ (٢) ومن قال فيهم ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ (٣) .

### قصة التخيير

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَدْنَسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

### معاني المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها  
فتعالين : أى : أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين .  
أمتعنكن : أعطكن المتعة وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة - ملاءة - بحسب السعة والافتقار .  
وأسرحكن : أى : أطلقكن  
سراحا جميلا : أى : طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة  
بفاحشة : أى : فعله قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله .  
مبينة : أى : ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين .  
ضعفين : أى : ضعف عذاب غيرهن أى : مثليه .  
يسيرا : أى : هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى بل هذا سبب له .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نصر الله تعالى نبيه - ﷺ - فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه

(١) سورة الحج الآية : ٤١

(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

(٣) سورة الروم الآية : ٤٧



- رضى الله عنهن - أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والاماء والخول - الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهم معاملة نساء الملوك وابناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المأكول والمشرب ، ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

- روى احمد عن جابر - رضى الله عنه - قال : ( أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ - والناس ببابه جلوس والنبى ﷺ - جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضى الله عنه - فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلوا والنبى ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبى ﷺ - لعله يضحك ، قال : يا رسول الله ! لو رأيت إبنه زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة أنفا فوجأت عنقها . فضحك النبى ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألتنى النفقة » فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبى ﷺ - ما ليس عنده فهما رسول الله فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله - عز وجل - الخيار فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - فقال لها إني أذكر لك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستامرى أبويك . قالت ما هو ؟ فتلا عليها ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك ﴾ الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفيك استامر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال - ﷺ - ( إن الله تعالى لم يعثنى معنفا ولكن يعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ) رواه مسلم والنسائى (١)

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما هن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين لأنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الاسلامية وعنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف فأجدر بهن أن يكن المثل العليا فى ذلك ويكن قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ويألها منقبة أوتيت هن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أى : يا أيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لانفسكن إحدى خلتين : أولاهما ان تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندى مقام إذ ليس عندى شئ منها فأقبلن على أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إيا هن بالطلاق ، تطيبا لخاطرهن

(١) مسند احمد ٣/٣٢٨

ومسلم - كتاب الطلاق - باب بيان ان تحيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ٣/١١٠٣ رقم ١٤٧٥

وتعويضاً لمن عا لحقهن من ضرر بالطلاق وهى كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر واليسار والاقتار كما قال تعالى : ﴿ وتمعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾ ثم أسرحكن وأطلقن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله :

﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ (١) وكان عند رسول الله - ﷺ - يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة . وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة - رضى الله عنهن - ، وأربع من غير القرشيات . زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حى بن اخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهم رسول الله - ﷺ - ذلك وبدأ بعائشة وكانت احب أهله إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاخترت الله ورسوله والدار الآخرة ففرح رسول الله - ﷺ - ثم تابعتها بقية نساءه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

﴿ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ أى وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنه فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثواباً عظيماً تستحقن الدنيا وزيتها دونه كفاء إحسانهن . والخلاصة - انتن بين أحد أمرين : أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن وتطعن الله وأن يمنعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله - أتبع ذلك بعظتهن وتهديدتهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى - ﷺ - وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

﴿ يانسأ النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ أى : من يعص منكن الرسول - ﷺ - ويطلب ما يشق عليه ويضق به ذرعاً ويغتم لأجله - يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعف عذاب غيرها لأن قبح المعصية منهن أشد ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشهر منه للجاهل العاصى وكان ذلك سهلاً يسيراً على الله الذى لا يحابى أحداً لأجل أحد إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئاً ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلاً قال لزين العابدين - رضى الله عنه - إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال : نحن أخرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى - ﷺ - من أن نكون كما قلت إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئتنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

كلمة عن رسول الله وأزواجه

من قواعد الايمان الأساسية ان تحب رسول الله - ﷺ - - حبا بينه نبى الله فى قوله الكريم « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين » (٣)

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٦

(٢) سورة الطلاق الآية : ١

(٣) مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب عبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد جـ ١ ص ٦٧

ورسول الله - ﷺ - جدير بهذا الحب . أليس هو النبى الذى رفع الله ذكره وأعلى قدره وقرن اسمه باسمه إذ يقول ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ (١) .

أليس هو الذى حذر الله من مخالفة أمره إذ يقول : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ﴾ (٢) .

- أليس هو الذى قرن الله طاعته بطاعته فقال ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾ (٣) .

أليس هو الذى سيندم العصاة على مخالفته ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

- أليس هو الذى قرن الله محبته باتباع هديه والسير وراءه فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (٤) .

أليس هو الذى أمر الله المؤمنين بالصلاة والسلام عليه وهو الذى يصلى عليه وملائكته ؟

﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام .

كل القلوب إلى الحبيب تميل ومعى بهذا شاهد ودليل

أما الدليل إذا ذكرت محمدا صارت دموع العارفين تسيل

هذا رسول الله هذا المصطفى هذا لرب العالمين . رسول

ياسيد الكونين يا علم الهدى هذا المقيم فى حماك نزيل

ماذا أقول عنك يا رسول الله وقد أخذ الله من النبيين ميثاقهم فى مشهد ربانى رائع فقال : ﴿ وإذ

أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به

ولتقررنه قال ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾

هذا النبى الهاشمى محمد هذا لكل العالمين رسول

هذا الذى رد العيون بكفه لما بدت فوق الخدود تسيل

هذا الذى شرف الوجود بهديه منهاجه للسالكين سبيل

هذا الغمامة ظللته إذا مشى كانت تقيه اذا الحبيب يقبل

صلى عليك الله يا علم الهدى ملاح برق فى السماء دليل

(١) سورة التوبة الآية : ٦٢

(٢) سورة النور الآية : ٦٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٠

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٥) سورة آل عمران الآية : ٨١

إن مثل ومثلك يا رسول الله كمثل أعرابي ضل الطريق في الصحراء ولما طلع عليه القمر اهتدى بنوره ، فقال ماذا أقول لك أيها القمر ؟ أقول رفعك الله ، لقد رفعك .. أقول نورك الله ؟ لقد نورك ، أقول جملك الله ، لقد جملك وأنا ماذا أقول لك يا سيدي يا رسول الله ؟ أقول رفعك الله ؟ لقد رفعك ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .  
 أقول نورك الله ؟ لقد نورك ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 أقول جملك الله ؟ ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

يا سيدي يا رسول الله معذرة	إذا كبا فيك تبيان وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة	وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير	تدعو إلى الله فى سر وتبشير
على جبينك نور الحق منبججا	وفى يدك لواء العدل والنور

لقد أحبتك القلوب المؤمنة وعرفت لك قدرك وأجلت فيك إخلاصك وصفاءك ونقاء سريرتك .  
 وهل ننسى يوم نزلت السوق فسمعت عبدا ينادى وسيده يعرضه للبيع والعبد يقول : من أراد شرائى فلا يمتنعى من الصلاة وراء رسول الله - ﷺ - فاشتره أحد الناس وظل العبد يواظب على الصلاة وراءك ولا تفوته تكبيرة الاحرام فى فريضة . ولما بلغك أنه مريض ذهبت بنفسك لتعوده . ولما توفى صليت عليه لتكون صلاتك شفاعا له فى الآخرة .  
 أنت الذى أقيمت ميزان العدالة ورفعت لواء الحق عندما قرأت على الوجود قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

نعم لا ننسى يوم دخلت على ثوبان ، ذلك الغلام المتواضع الفقير فرأيت يبكى فسألته ما يبكيك يا ثوبان ؟ قال : يا رسول الله إنك إذا غبت عنى اشتقت إليك فتبكي عيناي فإذا تذكرت الآخرة وأننى لن أكون معك فى الجنة حيث أنت فى أعلى درجاتها ازداد بكائى عندئذ هبط الأمين جبريل بقول الله - تبارك وتعالى - ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾ <sup>(٤)</sup> .

صلوا على من تدخلون بهديه دار السلام وتبلغون المطالب

١ - الآية ١٥ من سورة المائدة

٢ - الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٤) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء

صلوا عليه وسلموا وترحموا	تردوا بها حوض الكرامة مشربا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أوفاك دين المذنبين وأحسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أحلاك ذكرا فى القلوب وأنسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما	أزكاك فى الرسل الكرام وأطيبا .

وهذا مشهد تملأ له النفس روعة وجلالا لصدق الخب الذى امتلأت به قلوب أصحاب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه .

روى الامام مسلم عن ربيعة بن مالك الأسلمى قال : قال لى الرسول - صلى الله عليه وسلم ( سل ، فقلت . أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود ) (١) .

أسأل الله أن يجعلنا يوم القيامة تحت لوائك ، وأن يسقينا من كفك الشريف شربة ماء لا نظما بعدها أبدا .

### \* المثل الأعلى فى الأنبياء \*

جاء فى كتاب ( المثل الأعلى فى الأنبياء ) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوّة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (٢) .

رسالة خلت من كل نزعة شخصية أو قبلية . ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال ، لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالانسانية . ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا - ﷺ - جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه . وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الانسان له ، وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم عن قوله تعالى : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ (٣) كما تتحدث عن تعلم العلوم والنس كان الناس يجهلون وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ، وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلكها الجنس البشرى كله .

ومعلوم أن الانسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علق ، كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه - وهو الذى

١- الحديث فى صحيح مسلم- كتاب الصلاة- باب فضل السجود والحث عليه- ج ( ١ ) ص ٣٥٣ رقم ٢٢٦

٢- الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق

٣- الآية ٤ من سورة العلق

أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علة أن يبلغ به غاية الكمال العقلي والخلقي والروحي .  
فبلغ الانسان - عن طريق رسوله - هذا الغرض الأسمى وأبان له في أول وحى نزل عليه الوسائل  
الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان ( المثل الأعلى في الأخلاق ) فيقول : « نزل جبريل الأمين بالوحى  
على النبى - ﷺ - في غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بواده فقال ( زملونى ..  
زملونى ) فزملوه ، حتى ذهب عنه الروح فقال لخديجة وأخبرها الخبر : يا خديجة لقد خشيت على  
نفسى .

ف قالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك تصدق الحديث ولا تجزى بالسيئة السيئة وتؤدى  
الأمانة وتصل الرحم وإن خلقتك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق ) .  
ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا لذكر رسول الله - ﷺ - فأعترضهم  
النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لرائهم ، يا معشر قريش . انه قد نزل بكم  
أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا  
وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم به قلم سحر وكاهن وشاعر ومجنون لقد  
استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون ، يا معشر  
قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لانكذبك ولكن نكذب ما جئت به ) انتهى كلامه .  
أجل يارسول الله .. أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشافقة الطاهرة ( لا يؤمن عبد  
حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين )<sup>(١)</sup> .

والذى نفسى بيده يارسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير . أهل لهذه المحبة . لا  
يجحدك إلا كل ظلم جهول ، ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم .  
وها نحن أولاء نذكر هذه الاشارات وتلك التنبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسر من التقدير  
وتقدير من التيسير :-

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعد ما      نطق بك الآيات من رب السما  
كلا ولو جعلوا القوافي أنجبا      أروم مخلوق ثناءك بعد ما

أننى على أخلاقك الخلاق

١ - الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله - ﷺ - أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين  
مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد ج ١ ص ٦٧ رقم ٦٩ .

## \* مكانة النبى ﷺ \*

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدي القارىء ليتبين مدى فضل رسول الله ومدى مكانته فى القرآن الكريم وكيف تربع على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الاسلامية : يقول تبارك اسمه :

﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعل خلق عظيم ﴾ (١) .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٢) .  
﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيل ﴾ (٣) .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴾ (٤) .

﴿ قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٥) .  
﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم عن الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) .  
﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٧) .  
﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٨) .

وبالاشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ :  
( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحللت لى الغنائم ولم تحل لأحد

- ١- الآيات ١ إلى ٤ من سورة القلم
- ٢- الأيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة
- ٣- الآيات ٤٥ إلى ٤٨ من سورة الأحزاب
- ٤- الآية ٤٠ من سورة الأحزاب
- ٥- الآية ١٥٨ من سورة الأعراف
- ٦- الأيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة
- ٧- الآية ٢٨ من سورة سبأ
- ٨- الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

قبل ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبی یبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة (١) .  
ويرحم الله الامام البوصیری حيث یقول :

كيف ترقى رقيق الأنبياء	ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقد	حال سنا منك ونهم وسناء
تباهى بك العصور وتسمو	بك علياء فوقها علياء

### نسبه صلى الله عليه وسلم

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا ، وأعلاهم قدرا وحسبا ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذي ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . إن الله تعالى اصطفى من ولد اسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفى محمدا - صلى الله عليه وسلم - من بنى هاشم فهو خيار من خيار ، عترته خير عتره وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت في حرم ويسقت في كرم .

وأمه - صلى الله عليه وسلم - السيدة أمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فهي تلتقى مع نسبه من أبيه في جده حكيم وكل منها ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم وكان الله - تعالى - قد أراد أن يلتقى كل منها إلى أمر قد قدر .  
فما أشرف نسبه وما أطهر مولده . وما زال - ﷺ - ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزاكية ، حتى استقر في رحم أمنة .

أبان مولده عن طيب عنصره	يا طيب مبتدا منه وغنم
كالشمس تظهر للعنين من بعد	صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته	قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر	وأنه خير خلق الله كلهم .

### \* مولده الشريف \*

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أبيك إبراهيم ﷺ وابتعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم



آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿١﴾  
فكنت أنت هذه الدعوة ، وما أجعلها وما أجعلها !!  
وأنت بشارة أخيك عيسى .

﴿٢﴾ وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة  
ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴿٣﴾ .  
يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة .

البدر دونك فى حسن وفى شرف      والبحر دونك فى خير وفى كرم  
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له      وأنت أحييت أجيالا من العدم  
أنت رؤيا أملك أمانة  
لقد رأيت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضواء لها قصور الشام . فكنت أنت ذلك النور  
يا رسول الله

أنت مصباح كل فضل فما تصدر      إلا عن ضوئك الأضواء  
لم تزل فى ضمائر الكون تختار      لك الأمهات والأباء

فى ليلة صفت سماؤها ، ورقق ماؤها ، وطاب هواؤها ، وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله ،  
وصفوة رسله ، محمداً ( ﷺ ) وأذاعت على الكون هذا النبأ السعيد .

تجلى مولد الهادى وعمت      بشائره البوادرى والقصابا  
وأسدت للبرية بنت وهب      يدا بيضاء طوقت الرقابا  
لقد ولدته وهاجا منيرا      كما تلد السموات الشهابا  
فقام على سماء البيت نورا      يضىء جبال مكة والنقابا  
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا      وفاح القاع أرجا وطابا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سماه ( محمدا ) .

١- الحديث فى صحيح مسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة - ج ١ ص ٣٧٠ رقم ٣  
وفى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ذكر الخصال التى فضل - ﷺ - بها على غيره - ج ٨ ص ١٠٤ رقم ٦٣٦٤ .  
١- الآية ١٢٩ من سورة البقرة  
٢- الآية ٦ من سورة الصف

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : ( محمدا ) فقيل له : كيف سميت به باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟ فقال : إني لأرجو أن يحمداه أهل الأرض كلهم . ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثوبية جارية عمه أبي هب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده . فيمتهل فرحا وبهجة ، ويقول لها اذهبي فأنث حرة ، وتكون أول جرة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية ، فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ، ويجعل منهم سادة ، ومن المستضعفين قادة . والله تبارك وتعالى لن يضيع هذا العمل لأبي هب . فإن العذاب يخفف عنه كل يوم اثنين إكراما لهذا . وقد نظم بعضهم هذا الموقف في قوله :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه      وثبت يده في الجحيم مخلدا  
الا أنه في يوم الاثنين دائما      يخفف عنه للسرور بأحدا  
فما الظن بالعبد الذي كان عمره      بأحمد مسرورا ومات موحدا

ولقد أخبر الرسول ( ﷺ ) عن نفسه فقال :

﴿ إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بـ الكفر ، وأنا العاقب الذي لا نبي بعدى ﴾ (١) . وفيما رواه الامام أحمد :

﴿ أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبي الرحمة ، ونبي التوبة والحاشر والمقفى ، ونبي الملاحم ﴾ (٢) . لقد كان في مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبد المطلب يقدم الله ندرا إن رزقه الله بعشرة من الذكور أن يتقرب بذبح واحد منهم ، ويرزقه الله بهذا العدد ويأتى يوم الوفاء بالندر ، ويجرى القرعة بين أولاده ، فتأتى القرعة على عبد الله ، ولكن عبد المطلب يجد في داخل نفسه ما يمنعه من الاقدام على ذبحه ، فيعيد القдах مرة أخرى ، فتأتى على عبد الله ، ولكنه يجد نفس المانع ، وتعاد القдах فلم تجاوز عبد الله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الابل وبين عبد الله ، فكلما جاءت على عبد الله ذبح العشرة ، وأخذ العدد يتزايد إلى أن بلغت الابل مائة ، وبعدها فارقت القرعة عبد الله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير ، فكان في هذا عبرة لمن يعتبر . من الذي منع عبد المطلب أن يقدم على ذبح عبد الله ولماذا ؟ . إن الذي منعه هو الله الذي منع السكين أن تذبح إسماعيل بن إبراهيم كان الخليل يريد أن

١ - الحديث رواه الامام احمد - حديث جبير بن مطعم - ج ٤ ص ٨٠  
٢ - الحديث رواه الامام احمد - حديث حذيفة ابن اليمان - ج ٥ ص ٤٠٥

يذبح ، ولكن الجليل أراد الا يذبح ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى اى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا ايت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديتاه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴿ (١) . كذلك حدث مع عبد الله بعد ما لزمته القداح ولما تفارقه ، ومن ثم يقول النبى (ﷺ) « أنا ابن الذبيحين » (٢) .

لماذا منع الله عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله ؟ ، لأن فى صلب عبد الله خير خلق الله ( عبدى : أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد ) .

### \* عبرة أخرى \*

وتلك عبرة أخرى . بعد ما دخل عبد الله بأمنة قضى معها أياما قلائل ، ونادى المنادى للخروج إلى رحلة الشام صيفا ، فكان عبد الله من الذين خرجوا فى هذه القافلة وترك عروسه آمنة فى أيامها الأولى ، وتمر الأيام سريعا ، وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله ، لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك فى أحشائها ، ولكن أهل القافلة عادوا جميعا ما عدا واحدا هو الذى تأخر . لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت فى يثرب فمات عند أخواله من بنى النجار ، ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ، ولكن ماذا تفعل ؟ .

مشيناها خطى كتبت علينا      ومن كتبت عليه خطى مشاها  
ومن كانت منيته بأرض      فليس يموت فى أرض سواها

ومت مدة الحمل كما أراد الله .

﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ (٣) .

وجاء هذا النبى إلى الكون يتيمًا حتى لا يقول : أبى أبى ، وإنما يقول : ربى ربى . وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئا ؟ كلا . . هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، نشأ فى كنف أب أكن له الحب ، وأفعم قلبه بالعطف عليه ، ولكنه ذات يوم تلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه ، وتقع الفرقة بينهما . فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟ .

١ - الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ من سورة الصافات

٢ - الحديث فى تاريخ دمشق الكبير لابن عسكرك - ذكر ما كان من أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك - ج ٢ ص ١٥٠ ، وفى كشف الخفاء للعجلون ج ١ ص ٢٣٠ رقم ٦٠٦ .

(٣) سورة فاطر الآية : ١١

﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قاتل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وأنا له لحاظون . قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين ﴾ (١) .

فانظر وتأمل هذا المشهد . لقد ولد الرسول محمد - ﷺ - فلم يجد أبا على قيد الحياة . وسارت المقادير في مجراها كما أراد الله . وولد يوسف بن يعقوب ووجد نفسه في كنف أب يحبوه بالعناية ، ولكن وقعت العزلة بينها وأيضا سارت المقادير في مجراها كما أراد الله .

دع المقادير تجري في أعنتها      ولا تبتتن إلا خالي البال  
ما بين طرفه عين وانتباهتها      يغير الله من حال إلى حال

### \* كان مولده بشير نصر \*

كما كان مولد النبي - ﷺ - بشيرا لتحرير العبيد ، وجعلهم سادة وأساتذة وقادة عندما ارتشف أول جرعة من ثدى جارية أبي لهب . كذلك كان مولده بشير نصر ، فقد ولد في عام ٥٧١ ميلادية ، وهذا العام يعرف بعام الفيل ، وجددير بنا أن نركز على هذا المغزى ونؤكد هذا المعنى ، ماذا حدث هذا العام ،

قبل ميلاد الرسول - ﷺ - غزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وأصبح أبرهة الأشرم حاكما فيها ، له السلطة العليا ، والكلمة المسموعة ، والأمر المصحب بالهبة والقوة والنفاذ ، لكن أبرهة كان متعجرفا خسيسا ، فلم يرض لليمانيين أن ينقادوا إليه ، ويطيعوا أوامره ، ويتجنبوا نواهيهم ، ولم يرض

لهم ان يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وإتاوات فادحة ، مست الزرع والضرع ، وقضت على التجارة والصناعة وما يدخرون من أموال وأقوات ، ولم يرض لهم هذه السخرية الممضة المؤلة ، التى كان ينوء بها أهل اليمن حيناً بعد حين . لم يرض أبرهة بهذا كله ، ولم يقتنع به فراح يبغي أكثر ما يكون البغى ، ويفجر أشد ما يكون الفجور ، ويحاسب على الشبهة حساباً فادحاً عسيراً ، ويعاقب بقسوة على الهنات وصغائر الأمور .

وفى يوم سأل أبرهة وألح فى السؤال ، سأل عما يشغل اليمانيين فى هذه الأيام شغلاً دائماً مستمراً ، وسأل عن السر الكامن وراء هذه التجمعات والاستعدادات التى تفرض عليهم فرضاً إلى جهة معينة ، ومكان قصى بعيد . وسأل عن نتيجة هذا السفر الذى جعل اليمانيين يقضون ليلهم ونهارهم فى تأهب واستعداد للرحيل .

وعلم أبرهة - ويا ويل ما علم - علم أن اليمانيين وغيرهم من سائر بلاد العرب يذهبون فى هذا الوقت بالذات إلى مكة لزيارة البيت العتيق ، والتمتع بالشعائر والمناسك التى ورثوها عن أبيهم إبراهيم وعلم أن العرب يهرعون إلى البيت من كل فج عميق ، وأنهم يأتونه مشاة وركبانا ، ويقتحمون المشقات والأهوال ، ويرونها هيئة فى سبيل رؤية هذا الحرم الذى يقدسونه ويعظمونه ، لأنه يربطهم بعالم السماء . ويزيل عنهم مغبة الذنب وثقل الفحش ، وينقى قلوبهم من الدغل والمظالم والآثام . وعلم أبرهة أن العرب فى هذه الأيام يكفون عن القتال ، ويضعون الأسلحة فى أغمادها ، فيلقى الخصم خصمه وذو الثأر قاتل أبيه أو أخيه فلا يشرع فى وجهه سيفاً ، أو يصوب إليه نبلاً ، لا لعجز أو خوف ، وإنما تعظيماً لهذا البيت واحتراماً لأوامر الله .

وعلم أبرهة أن العرب يمجدون مكة ولها عندهم شعارات خاصة ، وامتيازات لم يسمع بمثلها لآى بلد من البلدان .

سمع أبرهة هذا الحديث فتغيظ تغظياً ألماً ، وكره أن يحظى هذا البيت بثلث المزايا ، وينال هذه المكانة القصوى ، ثم سأل بم بنى هذا الحرم ؟ فقيل له إنه بنى من الحجارة ، فأقسم بالمسيح لبنيين كنيسة أفخم منه منظراً ، وأعظم شأنًا ، وأقسم ليجعلها مثابة للعرب وأمنًا ، وبذلك ينصرفون عن مكة وما ورثوه عن أبيهم إبراهيم .

وتذكر روايات التاريخ أن أبرهة بنى كنيسة من الرخام الملون ، ورصعها بالجواهر ، وجعل لها أبواباً صفائحها من الفضة ، ثم جعل عليها سدنة يطلقون فيها البخور المزوج بالكافور ، ولكن الله خيب ظنه ، فلم يجد من العرب من يهجر البيت الحرام ويذهب إلى كنيسة أبرهة ، فازداد حنقا ، وأقسم ليهدم الكنعة حجراً حجراً . ورفع أبرهة الأمر إلى قائده بالحيشة ، وطلب منه إمدادات حربية تعينه على غزو مكة ، فأرسل إليه أسلحة وجندا وبما شاء له أن يرسل من مؤن وعتاد وأفيال ، وخرجت قوات أبرهة تنهب الأرض نهباً ، فأوغلت فى الجبال والوهاد والقفار ، غير عابئة بما تتحملة من مكاره الطريق وضراوة الصحراء .

ومضى أبرهة بجيشه الجرار إلى أن وصل أرض تهامة اليمينة ، وعندما وجد جموعاً غزيرة من

العرب اعترضوا طريقه واستعدوا لقتاله ، هاجمهم هجوما عنيفا ، ويدد شملهم وأسر قائدهم .  
وتقدم جيش أبرهة ، فلما اقترب من مكة ! استراح في الطائف ، فجاء عظماء العرب وساداتها  
وعرضوا عليه مالا كثيرا في سبيل أن يترك بيتهم فأبى إباء تاما ، وأظهر العزم والحزم على هدم الكعبة ،  
فتركوه وشأنه دون أن يمسه بسوء أو أن يفعلوا معه شيئا مذكورا .

وفي الصباح أمر أبرهة بالاغارة على مكة ونهب ما يمكن نهبه من متاع ، فأبدى جيشه كل  
المساوىء من قرصنة وسلب ونهب ، وأخذ ما شاء له أن يأخذ من إبل وغنم وأبقار ، ومن بينها مائتان  
من الابل لعبد المطلب سيد قريش وزعيمها المطاع .

لم يقف أبرهة عند هذا الحد ، بل أعطى أهل مكة إنذارا نهائيا قال فيه : إننى ما جئت غازيا  
لبلدكم . ولا ناهبا لأموالكم ، ولا مزمعا لإذلالكم ، وإنما جئت لأهدم الكعبة حجرا حجرا ، فإن  
رضيتم فيها ونعمت ، وإن لم ترضوا أجبرتكم على الرضا ، وسلطت عليكم جندى وحل عليكم  
غضبي ، وقهرتكم قهرا لا شفاعة فيه ولا تسويق .

عندئذ اضطربت مكة اضطرابا ، ولفها حزن عميق قاتم ، وبان على أهلها قلق وهم مريرون ،  
ورأى عبد المطلب أن يذهب إلى هذا الطاغية عسى أن يرده بالحكمة ويمنعه باللين ، ويعطيه ما سلبه  
جيشه من أنعام .

ودخل عبد المطلب سراذق الملك ، وحين رآه أبرهة رأى شيخا مهيبا عظيما فيه نداوة باسقة وملامح  
جليلة ، ووقار لم يره على رجل من قبل ، فسأل عنه فقبل له هذا شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم أعز  
العرب جاها ، وأكثرهم يدا ، وأعظمهم سخاء ، يحمل على الجياد ، ويعطى الأموال ، ويطعم ما  
هبب الريح . فوقف له أبرهة لإجلالا وحاول أن يجلسه بجواره ، لكنه خشى أن تنكر عليه الحبشة ذلك  
فتزل من على سريره ، وجلسا معا على البساط ، ثم سأله عن حاجته ، فقال عبد المطلب : أن ترد على  
إبلى التى أخذتها طلائعك . قال أبرهة - مستهزئا ساخرا - لقد أعظمتك حين رأيتك ، أما الآن فإنك  
أصغر شأننا وأقل خطرا ، كيف تحدثنى أن أرد إليك مائتين من الابل ، ولم تحدثنى في أمر البيت الذى هو  
دينك ودين آبائك ؟ قال عبد المطلب : أما الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .  
فأمر أبرهة برد الابل ، فأخذها عبد المطلب وأرسلها هديا للبيت وقرى الله لكى يذود عنهم  
ويباعد بينهم وبين ما يخافون .

وأمر عبد المطلب المكيين أن يخرجوا من مكة ويتفرقوا في الشعاب ، ويركبوا رعووس الجبال قبل  
أن يحيق بهم مكر الغزاة ، ويضربوهم من حيث لا يشعرون فأذعنت قريش للأمر ، وخرجت متحصنة  
بالمغارات والكهوف وما عسى أن يمنعهما من هذا الأخطبوط اللعين . وقبل أن ينصرف عبد المطلب عن  
مكة ، ذهب إلى البيت وامسك بحلقة بابه ومعه عدد قليل من أبناء عمومته رافعى الأكف ، حاسرى  
الهامات ، داعين ربهم أن يحفظ أرض الحرم من الدمار ، ولا يعرض قبلتهم للهدم وسوء البلاء . ثم  
برز صوت عبد المطلب قائلا في نشيد جزين مكروب :

لاهم' إن العبد يمنع      رحله فامنع رحالك  
لا يغلبن صليبهم      ومحالم أبدا محالك

وزحف جيش العدو إلى البيت يريد هدمه حجرا حجرا كما أراد أبرهة ، وتقدم أمامه فيل لم يسمع بمثله قط ، ولم ير أضخم منه شكلا ولا أثقل وزنا ولا افظع منظرا ، بيد أن الفيل برك ولم يتقدم خطوة واحدة ، وكأنه أصيب بجاصب أثقله المشى والحركة والتوازن .

وكان أعجب من ذلك كله أن الفيل كان يمشى إلى أى جهة يريد لها ساسته شرقا وغربا وجنوبا ماعدا جهة البيت فإنه يعجز تاما ، رغم الضرب الذى يضربونه له بالسياط ، ورغم الاستنهاض الذى يستنهضونه إياه بوسيلة أو أخرى .

وفجأة ومن غير مقدمات جد ما لم يكن فى الحسبان ، فأرعدت السماء ، واكفهر الجو ، وأظلمت الأرض ، وإذا بطير يحلق فوق جيش العدو وإذا به يسقط حجارة صغيرة ودقيقة ، لكنها لاذعة ومبيدة ، وما وقعت على رجل إلا طحنته طحنا ، وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريميم ، وما أصابت جسما إلا تركته حصيدا كأن لم يغن بالأمس .

فارتعب الجيش ، وأخذت أفرادهم يرمون بعضها فى بعض ، والطير يلاحقها بالهجوم ، ويقذفها بالموت الزوأم ، حتى هلكت جميعا إلا من شاء الله .  
أى قوة أصابت هذا الجيش المتمرد على الله وعلى بيته العتيق ، وعلى العرب ذوى الكرم والوفاء والسخاء ؟

وأى نجدة أطلت على العرب من عل فبدلت هزيمتهم نصرا ، وعسرهم يسرا وكربتهم فرجا ؟ .  
إنها قوة الله ولا شيء غير الله تلك التى أطاحت بجيش العدو وجعلت أبرهة المتبجح المنفوخ يرجع القهقري وفى رأسه داء يغلى ، وفى قلبه بركان أوشك على الانفجار .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾<sup>(١)</sup> .

ودخل أبرهة صنعاء فى بقية صغيرة هزيلة لا حياة فيها ولا موت ، تن من الهول ، وتتلوى من ثقل المرض ، وعلى الفور حل أبرهة إلى داخل قصره وهو يصرخ صراخا ويهتز اهتزاز . وبعد لحظات انفجر قلبه ، واندلقت أمعاؤه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فوورى إلى مشواه الأبدى مشيعا باللعنة والهزيمة والطرده من ملكوت الله ورحمته ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ولد الرسول فى هذا العام ، فكان مولده إيذانا بنصر هذا الحرم وبخاصة من أيدي الأثمين .

١ - الآيات ١ إلى ٥ من سورة الفيل

٢ - الآية ١٦٧ من سورة البقرة

سعدت بمولد أحمد الأزمان	وتعطرت بعبيره الأكوان
والشرك أنذر بالنهاية عندما	ولد البشير وأشرق الايمان
ولدته آمنة النقية مشرقا	باهي المحيا صاغة المنان
تتلاها الأنوار في قسماته	وأتم حسن صفاته الرحمن
وبدت لمولده الكريم بشائر	قدسية وتزلزل الإيوان

### \* كان مولده إنذارا للظالمين \*

ظهرت لمولد المصطفى أمارت وارهاصات كانت بمثابة إنذار شديد للطغاة الظالمين ، والجبابرة المستبدين . انشق إيوان سرى الذى ملأ الأرض جورا وظلما . كان هناك استعباد واستبداد وظلم وفساد وشرك وإلحاد ، وأخذت نار فارس ، وكانت تعبد من دون الله ، فكان هذا إعلانا وتنبها إلى أن الدنيا

قد تشرفت بمولد هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى الذى سيغير مجرى التاريخ سيقتود سفينة العالم الحائر إلى بر النجاة ، إلى طريق الله رب العالمين ، إنه سيد البشرية ، المبعوث رحمة للعالمين . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ومحيا كالشمس منك مضيئا	أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للدين	سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد	ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا	آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه	كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان	لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه فى طالع الكفر	وبال عليهم ووباء
فهنيئا به لآمنة الفضل	الذى شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمد	أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب	من فخار ما لم تنله النساء
وأنت قومها بأفضل مما	حملت قبل مريم العذراء
شمלתه الأملاك إذ وضعت	وشفتنا بقولها الشفاء
رافعا رأسه وفى ذلك الرفع	إلى كل سؤود إسماء
رافعا طرفه السماء ومرمى	عين من شأنه العلو العلاء



## \* كان مولده تكريما لليتامى \*

هكذا قال رسول الله ﷺ : ( خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم )<sup>(١)</sup> .  
وهكذا قال رسول الله ﷺ : ( أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة )<sup>(٢)</sup> .  
لقد أكرم الله هذه البشرية بمولد هذا اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين وقد امتن الله عليه فقال له : ﴿ ألم يجعلك يتيما فأوى ﴾<sup>(٣)</sup> .

ووضع الاسلام السلوك السوى فى معاملة اليتامى فقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وحذر من أكل أموالهم وتبديدها ، وعدم العناية بها ، بعد ما أمر بأن يؤتوا أموالهم كاملة ، فكان هذا أول أمر فى سورة النساء بعد الأمر بتقوى الله . قال عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تاكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾<sup>(٥)</sup> .

وأمر تعالى باستثمار أموالهم فى طرق الحلال حتى لا ينفد رأس المال بالنفقة فقال عز من قائل : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾<sup>(٦)</sup> وهذا هو سر التعبير بقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ ولم يقل ﴿ وارزقوهم منها ﴾ حتى يكون الرزق من ربحها وثمره العمل فيها ، فإذا ما بلغ اليتيم رشده فإن الله تعالى أمر بدفع ماله إليه كاملا غير منقوص قال عز من قائل ﴿ فإن آتستهم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ﴾<sup>(٧)</sup> ووصى من يعمل فى مال اليتيم أن يستعفف عن أخذ الأجرة إن كان غنيا وأن يأكل بالمعروف إن كان فقيرا . قال سبحانه : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾<sup>(٨)</sup> .  
وبين أن الاحسان فى معاملة اليتيم كنز مدخر لذرية المحسن بعد موته قال عز من قائل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾<sup>(٩)</sup> .

وشدد الوعيد والانذار والتهديد لمن نزل فى جوفه مال اليتيم . قال تبارك اسمه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾<sup>(١٠)</sup> .

١ - الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الأدب - باب حق اليتيم - ج ٢ ص ١٢١٣ رقم ٣٦٧٩ .

٢ - الحديث فى سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب فى من ضم اليتيم ج ٥ ص ٣٥٦ رقم ٥١٥٠ .

٣ - الآية ٦ من سورة الضحى

٤ - الآية ٢٢٠ من سورة البقرة

٥ - الآيتان ١ ، ٢ من سورة النساء

٦ - الآية ٥ من سورة النساء

٧ - الآية ٦ من سورة النساء

٨ - الآية ٦ من سورة النساء

٩ - الآية ٩ من سورة النساء

١٠ - الآية ١٠ من سورة النساء

سیدی ابا القاسم یا رسول الله :-

ولد الیتیم لیتقذ الایتام من	بؤس الحیاة إذا رمی الحدثنان
ولد الفقیر لیتقذ الفقراء من	ظلم الغنی فیواد الحرمان
ولد المنشأ نشأة أمیة	فسما بنور کتابه العرفان
وتعلم الحکماء من نفحاته	شقی المعارف وارتوی الظمان
ولد المؤسس للعباد حضارة	سجدت لها ما أسس الرومان
وبنی علی الأخلاق أعظم دولة	قانونها وعمادها القرآن
فازدانت الدنیا بأبهی حلة	من نسجها وخیوطها العمران
والکون أضحی مشرقا من بعد ما	عبدت به الأحجار والنیران
ولد ابن عبد الله أعظم مصلح	وأجل من دانت له التيجان
فهو الأساس لكل ملک خالد	لم یستقم من غیره سلطان
یاخیر من قصد الحجيج رحابه	وسعت إلی أعتابه الركبان
کیف السیل إلی مدیحک بعدما	أطری کریم خلالك الفرقان
والله أعلى فی المآذن ذکرك	مع ذکره مادامت الأزمان

### \* رضاعته ﷺ \*

جاءت المراضع إلی مكة تطلب الموالید ، لكن هذا الیتیم كان من حظه مرضعة تسمى حلیمة السعدیة . ولما أخبر عبد المطلب بذلك الشأن قال ستكون حلما وسعادة علیه . أخذته حلیمة وذهبت به إلی ديار بنی سعد بن بكر .

ولقد سبقته العناية الالهية إلی ديار بنی سعد ، فكان هو بشیر الیمن وحسن الطالع علی أهلها ، فقد أجمع رواة السيرة أن بادية بنی سعد كانت تعاني إذا ذاك سنة مجذبة ، قد جف فیها الضرع ، وبس الزرع ، فما هو إلا أن صار محمد بن عبد الله فی منزل حلیمة ، واستکان إلی حجرها وثديها ، حتی عادت منازل حلیمة من حول خبائها ممرعة خضراء ، فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلی الدار شباعا ممتلئة الضرع .

وإذا سخر الاله إناسا لسعيد فلإنهم سعداء

وهل هناك أسعد فی هذا الوجود من رسول الله - ﷺ ؟

لقد كان قدومه علی بنی سعد خیرا وبركة حتی قال زوج حلیمة لها . ما رأیت نسمة أعظم بركة

من هذا الغلام . وقد صدق فإن هذا المولود هو الذى سيربىه الله ليربى به العرب ، ويربى بالعرب العالم أجمع ، يدعوهم إلى رسالته ، ويبين لهم منهاجه وصراطه المستقيم .  
لقد قضى رسول الله فى هذه الديار خمس سنوات ، يستظل بسماتها الصافية ، وأرضها الفسيحة ، وجبالها الشاهقة التى تربى فى النفس قوة وصلابة ، وهكذا كان العرب يذهبون بأولادهم إلى هذه العرصات الفساح ، يخرجون بهم من ضيق المساكن التى ينعكس أثرها على النفس .  
وجاء الرسول بعد ذلك إلى أمه آمنة سالما عزيزا .

### \* حادث شق الصدر \*

جاء فى كتاب تهذيب السيرة ص ٣٦ ، وسيرة ابن هاشم الجزء الأول ص ١٦٤ ، وفى صحيح مسلم الجزء الأول ص ١٠١ ، ١٠٢ ، أنه ﷺ أثناء وجوده فى ديار بنى سعد ، وقع حادث شق الصدر .

روى الامام مسلم :

( بينما هو يلعب مع الغلمان أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقه فقال : هذا خط الشيطان منك ، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ) .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - قائلين إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممثقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا ، فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر .  
فقد روى الامام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله ﷺ - عن أشياء لا يسأل عنها غيره فقال : يا رسول الله ما أول ما رأيت فى أمر النبوة ؟ فاستوى رسول - ﷺ - جالسا وقال : ( لقد سألت أبا هريرة ) .

( إنى لفى صحراء ، ابن عشر سنين واشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : ( أهو هو ) ؟ قال : نعم .

( فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، فأقبلا إلى ىمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعانى بلا قسر ( اجبار ) ولا هصر ( ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثينا ظهرى ولم يكرهانى ) .  
وقال أحدهما لصاحبه :

أفلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ، ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج

الغل والحسد ، فأخرج شيئا كههيئة العلقه ، ثم نبذها فطرحها .  
فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هزا ابهام رجلي اليمنى وقال : أغد  
واسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير .

إن حادث شق الصدر قد ينظر إليه الماديون نظرة إن دلت على شيء فإنما تدل على أنهم يقيسون  
الأمر بمقياس غير قادر عن ادراك الحقيقة ، فيثيرون ، الجدل العقيم ، ويستعملون في ذلك شتى  
ضروب المراء المقوت .

والقضية في حقيقتها دلالة صادقة على عناية الاله القادر بهذا الرسول الكريم فإن هذا القلب  
وهذا الصدر ليس شيئا عاديا . إنه جهاز إرسال سيذيع على العالم أجمع برامج السوء في شتى نواحي  
الحياة ، فلا بد أن يكون ذلك الجهاز من القوة والصفاء والحكمة والرأفة والمحبة ، بحيث يؤدي ما أمر  
الله ، ويبلغ رسالات الله ، ويخشى الله ولا يخش أحدا إلا الله .

﴿ قل إنما بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا  
ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾<sup>(١)</sup> .

فهو وإن كان بشرا إلا أننا يجب أن نراعى الحقيقة القائلة ( يوحى إلى ) وهى قضية الوحي .  
فهو بشر يوحى إليه . وقضية الوحي تقتضى قوة فى القلب وحكمة وإيمانا ورحمة .  
وفى حادث شق الصدر ما يشير إلى ذلك ، وإذا فليس هناك مجال لعبث المادية فى هذه القضايا  
الالهية .

### \* وفاة أمه \*

وهكذا تتحرك بنا الأحداث سراعا متوالية ، فإن الرسول ﷺ بعد ما عاد إلى أمه ، وقد بلغ من  
العمر ست سنوات ، رأت أمه من باب الوفاء أن تأخذه وتزور به قبر أبيه بيثرب ، إذ أنه قد دفن عند  
أخواله من بنى عدى بن النجار .

وجلس اليتيم أمام قبر أبيه الذى لم يره .

وبينما هما فى طريق العودة ، وكان معها جارية تسمى ( بركة الحبشية ) وكيبتها ( أم أيمن ) وعند  
قرية تسمى ( الأبواء ) بين مكة والمدينة وهى إلى المدينة أقرب ، شكت أمينة وجعا ألم بها ، ونظرت إلى  
ابنها محمد الذى كان وقتئذ فى عمر الزهور ، فنظرت إليه نظرة الأم الراحلة ، وتلفت الرسول حواليه  
على امتداد الصحراء المترامية الأطراف . الليل موحش والجبال ممتدة الرؤوس والرمال كثيفة وليس معه

إلا أمه وجاريتها ، لكن هذا الألم الذى شكت منه آمنة كان إيذاناً بغروب شمس العمر .  
أخذت تجذب محمداً إليها . هى لا تريد فراقه . لكن الموت أخذ يجذبها إليه .  
وقالت له : يا محمد كن رجلاً .  
ولقد كان محمد كذلك . بل كان سيد الرجال .  
كان رجلاً فى طفولته ، فقد تقلب على بساط اليتيم ، كلما أوشك البساط أن ينطوى امتد من جديد .

وكان رجلاً فى صباه .  
وكان رجلاً فى شبابه .  
وكان رجلاً فى رجولته .  
وكان رجلاً فى شيخوخته .  
ولحق بالرفيق الأعلى وهو سيد الأولين والآخرين .

نعم :

مشيناهما نخطى كتبت علينا      ومن كتبت عليه خطى مشاها  
ومن كانت منيته بأرض      فليس يموت فى أرض سواها .

هذه حكمة الله .  
يرجع محمد إلى مكة ، وقد أهيل التراب على أمه ، وهى الأم التى أنجبت أعظم مخلوق .. عاد مع أم أيمن ، وقد قال لها : ( أنت أمى بعد أمى ) .

سيدى يارسول الله :

ولدت بمولدك المكارم والندى      والحلم عند الغيظ والاحسان  
والرفق والصفح الجميل عن الأذى      والعزة الشياء والغفران  
فأقمت للمخلوق الكريم منارة      وسما بعذب حديثك التبيان  
فصل الخطاب لقد ملكت زمانه      ونشرت مالم يستطيعه لسان  
وأيتت بالتوحيد صرفاً خالصاً      لله لم يشرك به إنسان

### \* كفالة جده عبد المطلب \*

بعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ، وإمتلأ قلبه لليتيم رقة ورحمة ، لم تسبق له فى ولده ، لقد

كان يرى فيه عوضاً عن عبد الله ، ولو اطلع عبد المطلب على صفحة الغيب لعلم أن هذا اليتيم سيكون له شأن عظيم يملأ به الأرض نورا وبركة ، ويخاطبه هذا الخطاب الالهى العظيم ﴿ يا أيها النبیؐ إن أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾ (١) .

### \* وفاة عبد المطلب \*

لما بلغ رسول الله ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب ، وهكذا امتد بساط اليتيم من جديد ، إن الموت فلسفة حارت فيها عقول المفكرين ، ووقفت واجهة حياتها عبقریات البارعين .  
الموت لغز لا يحل وطلسم لا يفك ، لأنه متعلق بالروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ (٢) .  
وقد أخفى الله صفحة الأجل عن خلقه ، واستأثر بعلمه .

ذكروا أن الامام مالك بن أنس - رضى الله عنه - إمام دار الهجرة ، رأى فى المنام ملك الموت فسأله : يا ملك الموت كم بقى من عمري ؟ فأشار له الملك بأصابعه الخمس . فسأل الامام أحس سنوات ، أم شهور أم أيام ؟ ولكن الملك لم يجبه . واستيقظ الامام من نومه ، وذهب إلى أحد العلماء الذين يعبرون الرؤيا ، وقصها عليه ، فقال له العالم : ليست الخمسة أعواماً ولا شهوراً ولا أياماً ، ولكن ملك الموت يريد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ .  
فسبحان من له العزة القائمة والمملكة الدائمة ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ (٣) .

### \* كفالة عمه أبى طالب \*

كان أبو طالب رجلاً كثير العيال قليل المال ، لكنه بعد كفالته لابن أخيه محمد صار القليل فى يده كثيراً ، وشعر بتوسعة الله عليه فى رزقه ، ببركة هذا اليتيم ، الذى امتن به ربه عليه بقوله : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ (٤) .  
كان أبو طالب إذا وضع الطعام لا يقربه أحد قبل محمد ، فإذا جاءت أقذاح اللبن فإن محمداً يكون أول من شرب .

وهكذا أحاطه الله بالعناية فى كفالة عمه أبى طالب .  
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد السادات يامن قدره	لا تستطيع له الورى إدراكا
ماذا يقول الناس فيك وربهم	بأتم تربية له رباك
حلاك بالخلق العظيم ، وفضله	الفضل العظيم عليك ما أعلاك
أواك من يتم وإعطاك الغنى	ولدينه الدين القويم هداك
شكرا لك اللهم أنت كفته	نعم الكفيل تقدست أسماك

### \* سفره إلى الشام \*

لما بلغ الرسول - ﷺ - اثنتى عشرة سنة سافر عمه أبو طالب إلى الشام فى ركب للتجارة . فأخذه معه ولما نزل الركب مدينة ( بصرى ) مروا على راهب هناك يقال له ( بحيرى ) وكان عليا بالانجيل خبيرا بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرى النبى - ﷺ - فجعل يتأمله ويكلمه ثم التفت إلى أبى طالب وقال له ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابنى وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه - فقال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون أبو هذا الغلام حيا .

فقال : هو ابن أخى

قال فما فعل أبوه ؟

قال مات وأمه حبلى به

قال بحيرى : صدقت فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه هنا ليلبغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة

سيدى أبا القاسم يارسول الله

يا مبعث النور الذى عم الورى	فسار على مشكاته الحيران
أفسحت للفكر الصحيح سبيله	فسما الحجا واستعصم الوجدان
ودعوت للتفكير حتى أذعن	العلماء والأخبار والرهبان

لم يكن الرسول - ﷺ - يريد الحياة عالة على غيره ، كذلك لم يردها عبثا على أحد . خرج يستقبل

الحياة ويأكل لقمة عيشه بكدّ اليمين وعرق الحين فاستقبل فترة شبابه بالسعى للرزق وراح يشتغل برعى الغنم وقال عن نفسه فيما بعد ( كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة )<sup>(١)</sup> .  
 إن في رعى الغنم حكمة بالغة فهي تعرس في النفس صفات القيادة الحكيمة وما من نبي إلا ورعى الغنم ففي رعيها يتعلم الانسان الحكمة والحلم والصبر وبعد النظر إذ أن فيها الشاردة والواردة ،  
 وكان في هذا العمل تدريبا عمليا على معاملة الناس والصبر على أذاهم والحلم مع سيئهم والحكمة مع سفهائهم .

وإذا شئت ان تحيا سليما من الأذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ	فكلك عورات وللناس السن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا	فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتى هى أحسن

### عناية الله به في شبابه

أحاطه الله بعنايته وحماه برعايته فحفظه عن التلبس بما تنبوعه الأذواق السليمة وتنفر منه الطباع المستقيمة .

فكان - ﷺ - في شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .  
 قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه

( ما همت بشيء مما كانوا في الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبينه .  
 ثم ما همت به حتى أكرمنى الله بالرسالة  
 قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما  
 يسمر الشباب .

فقال : أفعل

فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فجلست أسمع  
 فضرب الله على أذنى فتمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبي فسألنى فأخبرته ثم قلت له  
 ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما همت بعده بسوء<sup>(٢)</sup>

١ - الحديث في صحيح البخارى - باب في الايجارة - ج ٣ ص ١١٦

٢ - الحديث في مجمع الزوائد - كتاب علامات النبوة - باب عصمته ﷺ - من الباطل - ج ٨ ص ٢٢٦



سيدى أبا القاسم يارسول الله

يامن لحضرته الشفاعة واللوا  
لولا كتابك فى البرية لم يقم  
للق قسطاس ولا ميزان  
فلك التحيات الزكيات العلى  
والخوض قد أعطاكها المنان  
ما هيت للعاملين جنان

### تجارته فى مال خديجة

يروى ابن الأثير وابن هاشم أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشئ تجعله لهم منه .  
فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .  
وقد قبل محمد بن عبد الله - ﷺ - هذا العرض فرحل إلى الشام عاملا فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد ١١ خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم

### شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبى - ﷺ - وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له وإعجابا به .  
رأى الصدق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته .  
رأه سمحا إذا باع سمحا إذا اشتري سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها وقد صدق أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى - إذ يقول : إذا اتى على الرجل جيرانه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه .

نعم ليس الاسلام خطبا رنانة ولا عبارات طنانة .

ولا فلسفات عقيمة .

إن الاسلام فى حقيقته عقيدة وعمل -

وقد صدق الرسول إذ يقول ( انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ) (١) .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة  
ميسرة على الحقيقة شيئا  
وإنها لشهادة حق ومازاد  
فأنت يارسول الله أهل لذلك

وأكثر من ذلك

يا صاحب الأخلاق والآيات	القول فيك معطر الكلمات
في كل ماض في الزمان وآت	أيام مولدك الكريم مضيئة
تاج الزمان وغرة السنوات	يوم أتى بك في الوجود فإنه
وترد كل جديدة لمرات	تتعاقب الأيام في دوراتها
ويزيد في الاشراق والنفحات	وضياك يسطع كل يوم نوره

### قصة زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة فوجدت في نفسها قلبا طهورا طيبا فتمكنت من القلب كل تمكن لقد أعجبت بصدقه وأمانته وكفى بهما . . إنها رأس مال ضخمة ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

الصدق أمانة والكذب خيانة وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة فالسعد رائدها والتوفيق حليفها ويلبسها الله لباس العز والشرف وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة فالذل رائدها والخذلان حليفها ويذيقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ورأى الرسول في خديجة سيدة ذات خلق كريم وعقل راجح رعم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة . ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم	وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغورها	وتصغر في عين العظيم العظائم

كلم الرسول أعمامه فوافقوا على هذا الزواج فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين الأول منها ( عتيق بن عائذ التميمي ) ثم خلفه عليها ( أبو هالة التميمي ) واسمه ( هند بن زرة ) وبعد موتها طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا فلم تفتح لهم بابها ، لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق . لكنها رأت في محمد الانسان الصادق الأمين خطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة

الطاهرة فرضيها زوجها .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقي خطبة الزواج وقف يقول :  
الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما  
وجعلنا الحكماء على الناس . أما بعد/ فإن محمد بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح  
به برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قلا فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وإن لمحمد  
رغبة فى خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى .

### دعوى باطلّة

نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ، وباطلة ، لأنها جاءت بدافع الحقد  
والحسد على رسول الاسلام ونبتت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء .  
لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج رسول الله - ﷺ - بالسيدة خديجة رضى الله عنها أن نعقب  
بهذا البحث لنلجم السنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على  
التعدد فى أزواج رسول الله - ﷺ - وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ .  
فلو تحول الناس جميعا إلى كناسين لثيروا التراب على السماء فسيثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء  
هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة وأبناء الغزو الثقافى  
إن الرسول لن يضيره أن تنجح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .  
وما ضر الورود وما عليها . إذا المزكوم لم يطعم شذاها

نعم ثم نعم

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة  
إنه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .  
ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

وما نحن أولاء نسلط مدفعية الاسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرنا قاعا

صفصفا

إن قصة زواجه - ﷺ - من خديجة - رضى الله عنها - كما ذكرنا توضح للإنسان وضوحاً لا تلبس معه الرؤية أن رسول الله - ﷺ - لم يكن في اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع فيمن هي أقل منه سناً أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير .

ويتجلى لنا أنه - ﷺ - إنما رغب فيها لشرفها ونبيلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً وقد ناهز النبي - ﷺ - الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى . وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً - ﷺ - تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر بأن يضم إلى خديجة مثلها من الاناث : زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الاماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلاً عن انه تزوج خديجة وهي أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفي هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الاسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسرون من ورائهم ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وان يمدوا إلى الشمس يداً سلاء .

إنهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبلاً لقد ظنوا أنهم واجدون في موضع زواج النبي - ﷺ - مقتلاً يصاب منه الاسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى - ﷺ - وتخيّلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهوانى الغارق في لذة الجسد العازف في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح حاشا لله يارسول الله . والله ما علمنا عليك من سوء انها فرية ما فيها مرية ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذباً﴾<sup>(١)</sup> .

للخير والتوفيق والبركات  
من شهوة تطفئ ومن نزوات  
فإليك حتماً منتهى الخطوات  
وتعرضوا لمهالك خطرات  
يتشدقون بأجوف الكلمات  
ما غير دينك سلم لنجاة

علمتنا سر الحياة وقدتنا  
جنبتنا الزلل الكبير وصبتنا  
إن شرق القوم الكبار وغربوا  
ضلت علومهم برغم نبوغهم  
وتنكبوا سبل السلام واقبلوا  
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا

ما ثمة أدنى شك فى ان المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للاسلام . يتخذون القبح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها . كما هو معلوم .  
أما الأغرار الذين يسировون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الاسلام على السماع والتقليد ، ولا يعينهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للاسلام ليس إلا من نوع الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز فخصومة هؤلاء للاسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الاسلامى فى شيء ، وإن ولاءهم ، إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم !!

أجل ، إن مخاصمتهم للاسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبني جلدتهم ، وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج .

ولا فموضوع زواج النبى ( ﷺ ) من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبىه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما .

يريدون أن يلصقوا به ( ﷺ ) صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد !! .  
وموضوع زواجه ( ﷺ ) هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماما . فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها غفيف النفس دون أن ينساق فى شيء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله . والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب . ضعف عمره . ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه الى شيء مما حوله وإن من حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ، ثم من غيرها ، فإن لكل منهم قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ( ﷺ ) ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .  
أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان احرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلا ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية . يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية ما نصه . لقد طعن كثير من سفلة البشر من أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام ، واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا (١) . فى حين ان زواجه ( ﷺ ) يسمو بانسانيته إلى الحد الذى لا يجاربه

فيها إنسان ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد ان يضم في بيته كرائم العقائل ونفائس الخدائد ، لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب ، وأجل الجوارى من سبايا فارس والروم ، يرفلن في حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه كسماط . قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفي كفه منها شيء .

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا .

ولم يضم في حريمه سوى المغتربات المكتهلات ، التي مات عنها زوجها ، فلم تجد مأوى ، والتي غز عليها العيش في كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة ، هي عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق ﴿ ثاني اثنين إذ هما في الغار ﴾ (١) .

وعندما بلغت قسوة الحياة متهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير :

﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ (٢) .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار وقلن جميعا : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتحت لهن بذلك السعادة ، وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء وأعرقهن نسبا وحسبا ، ولها بعد ذلك فضل السابقة في الاسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه ( ﷺ ) خمسا وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها وفاء المتعة والحسن ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهى اصغر زوجاته واحبهن إليه .

فترى من هذا أنه ( ﷺ ) قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه .  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا ؟!

### \* زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة - رضى الله عنها - وكانت زوجا للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها - بعد

١ - الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

موت زوجها - لعذوبها وفتنوها فى دينها ، فكفلها ( ﷺ ) ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة . فترى من هذا أنه ( ﷺ ) لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ( ﷺ ) فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

\* زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق ، الذى كان معه ( ﷺ ) ثانى اثنين اذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا (١) ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمنا أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ، خصوصا ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

\* زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضى الله عنها - وكانت زوجا لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها - ﷺ - مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

\* زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكبير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أصلا لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

وقد تزوجها ( ﷺ ) بعد طلاقها من زيد بوحي من الله تعالى للتشريع ﴿ لَكَى لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (٣) .

١ - الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ - الآية ١٣ من سورة الحجرات

٣ - ٣٧ من سورة الاحزاب

وقد كان زواجه إعفاء لها من إهمال يصيبها بعد طلاق يذمها ، فيقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء ؟  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

### \* زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنها ، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ( ﷺ ) إيواء لها وجبرا لمصاها فى زوجها ، وحفظا لدينها .  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

### زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة أم سلمة ( هند بنت أبى أمية ) وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلميا قديما ، وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها ( ﷺ ) .

ويروى عنها أنها سمعت رسول الله ( ﷺ ) يقول ( ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلفنى خيرا منها إلا أخلفه الله خيرا منها ) فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟

رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله ( ﷺ ) . ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله ( ﷺ ) فأواها وحفظها .

فترى من هذا أنه ( ﷺ ) تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد ، فأواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها .  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!!

### \* زواجه بالسيدة أم حبيبة - رضى الله عنها \*

وتزوج بالسيدة أم حبيبة « رملة بنت أبى سفيان » وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تنتصر معه وخالفته ، واختارت الاسلام عليه ، فآتم الله تعالى لها : الاسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .



ويروى أن أباهـ - أبا سفيان - قدم المدينة فدخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته  
دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عني أم بى عنه ؟  
فقلت : بل هو فراش رسول الله ﷺ - وأنت امرؤ نجس .  
فقال : لقد أصابك بعدى شر . قالت : بل خير .  
وقد خطبها ( ﷺ ) من ملك الحبشة حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ؟  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين  
سنة ، وقد تزوجها لإيواء لها وتألّفا لقومها . وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن  
أختها : سيف الاسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجا لمائع بن صفوان المصطلقى . وقد  
قتل كافرا يوم المريسيع . وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق . وكانت سيدة بنى المصطلق  
وينت سيدهم . فأعتقها - ﷺ - وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى  
المصطلق ، وقالوا : هم اصهار رسول الله - ﷺ - فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وحسن  
إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها ، وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من  
الرق ، وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب

رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت

زوجا لسلام بن مشكم القرظي ، ثم فارقتها ، فتزوجها كنانة بن أبي الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، فأخذت رضى الله عنها في السبي ، فخبرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول ، فاخترت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة في إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم .  
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ - لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ، لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .  
هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ، وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ، والتي لا يستطيع تبليغها الرجال ، كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء - على وجهها الأكمل - سوى النساء .  
ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين - امرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره ، ويسط شرائعه .

وقد ثبت أنهم أذعن عنه - ﷺ - علما وفضلا وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريد سائر الملوك والأمراء - من التمتع واللذة ليس غير ، لا نتخب الحسان الأبيكار ، والكواعب والأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل بعد هذا لمبشر - غر سمج ، عتل زعيم أن يقول عنه ﷺ - إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟! فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟  
فسبحان من هداانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وفضلا عن ذلك ، فلم تكن علاقاته - عليه أفضل الصلاة وأتم السلام - بزواجه كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرفيقة ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل - بالغ ما بلغ من المروءة والرقوة وسعة الصدر - الا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدأ منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .  
ولكن الرسول - ﷺ - الذى أوق جماع الفضائل ، وبعث ليتم مكارم الأخلاق ..  
الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر . ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم : لم يكن آنذلك .

ولم يكن هذا منه - ﷺ - جينا أو ضعفا ، بل كان كمالا وجلالا .

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الانسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها . فإن من يقهر نفسه باختياره ليتفرق بضعيف ، لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، هو الشجاع الباسل القوى وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟

### قصة التخيير

قال تعالى :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ (١) .  
إن رسول الله - ﷺ - لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقية ، لأن قلبه كان مليئا بالقناعة والرضا ، والايمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، وقال فى ذلك « أجوع يوما فأذكرك ، وأشبع يوما فأشكرك ، ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتها ، ولو أرادها مملكة ونعيا وخدما وحشما وترفا . لكان له ذلك .

ورودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته	قوم نيام تسلاوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقا فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت : إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله - ﷺ - نار يطبخ عليها .

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية .

(٢) إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد - ﷺ - فى هذه الكلمات « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ،

١ - الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

٢ - الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ - ص ٣١٠

وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .  
ليست السعادة في انتشاء الكتوس المترعة ، ولا في الاستمتاع بالغيد الأماليد إنما السعادة في رضاك عن الله ؟ وفي رضا الله عنك ، وفي تزكية النفس وإشراق العقل وانتصار الذهن واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادئ التي تحقق في الإنسان إنسانيته . كيف يقال على هذا النبي إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذي كان يمكث في بيته شهرين ولم توقد في بيته نار يطبخ عليها ؟  
الله درك يارسلو الله

الحق أنت وأنت إشراق الهدى      ولك الكتاب الخالد الصفحات  
من يقصد الدنيا بغيرك يلقيها      تيهها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه - صلى الله عليه وسلم - بهاتين الآيتين في أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ، لوfer لمن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآني بما تيسر من التقدير يقول رحمه الله تعالى :  
« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله - ﷺ - أن يخبر نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة - فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها زوج النبي - ﷺ - أخبرته أن رسول الله - ﷺ - جاءها حين أمره الله تعالى أن يخبر أزواجه قالت ، فبدأ بى رسول الله - ﷺ - فقال : إني ذاكرك أمرا فلا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك ، وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمران بفراقه . قالت : ثم قال : إن الله تعالى قال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ﴾ . . . إلى تمام الآيتين فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وروى الامام أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس ، والنبي - ﷺ - جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم اذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلا ، والنبي - ﷺ - جالس وحوله نساؤه ، وهو - ﷺ - ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبي - ﷺ - عليه يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه - يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة أنفا فوجأت عنقها ؟ فضحك النبي - ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولي يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنها إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله

عنه إلى حفصة - كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ - فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال . وأنزل الله - عز وجل - الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « انى ذاكرتك أمرا ما أحب أن تعجلنى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : وما هو ؟ قال : فتلا عليها ( يا أيها النبى قل لأزواجك ) الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، لكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ، مسلم .

أرأيت يا أبا الإسلام لم كان التخيير وفيه كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى ( أمتعن وأسرحن سراحا جميلا ) أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن . لو كان هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟ سبحانه ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة لقد قال الله - تعالى - لنساء هذا البيت ﴿ وأذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ (١) .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحي من رب الماء . بيت قرآن يفوح من أريج القرآن عطرا وريحانا . إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (٢) .

## بحث قيم

جاء فى كتاب ( الاسلام والعلم الحديث ) للأستاذ عبد الرازق نوفل بحث قيم فى زواج النبى - ﷺ - وقد أثربنا ان نشبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا : نسوقه بنصه قال المؤلف : « لم تظهر حكمة زواج الرسول - ﷺ - بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث . فإذا ما استعرضنا زواج النبى - ﷺ - نجد أن كل زواج انما كان يحقق غرضا ساميا أو كسبا للدين ، أو

١ - الآية ٣٤ من سورة الأحزاب

٢ - الآية ٣٣ من سورة الأحزاب

عملا بشريع جديد . وإن الرسول الأمين كان بعيدا كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقا المخزومي ولما مات تزوجت أبا هالة التميمي فمات أيضا ، بذلك ورثت عنها مالا وفيرا علاوة على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبي الله ليشرّف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحا لم تعهدها ، ورواجا لم تكن تتوقعه . فلما سألت غلامها ميسرة الذى صاحب الرسول - ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ، وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهارة سريرته ، وحدثها بما شاهدته من أمانته المطلقة . ونزاهته وعفته . . فأرسلت له صديقتها ( نفيسة بنت منبه ) تقترح عليه أن يتزوجها - وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول أعداء الاسلام شغوبا بالنساء ؟  
وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين ، وتكبره بخمسة عشر عاما ؟  
لقد شددت خديجة أزر الرسول بمالها ورجالها وعصبيتها ، حتى إنه عندما جاء الوحى وخشى منه ، سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة ، حيث قال له ، وقد قابله فى طواف الكعبة ، ( والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الذى جاء به موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرنا يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشا فيعلن لهم دعوة الله .  
كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر - وعاشت معه خمسة وعشرين عاما أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة ، تقاسمه ما يلقي من غنت وشدة حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاما - وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى اذائها للنبي - ﷺ - فخرج إلى الطائف يدعو إلى الاسلام فوجد من ثقيف التكذيب والاعراض ، وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفرا . فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشة أو عزوا إلى خولة بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجة بيته ، وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبى بكر أو سودة بنت زمعة التى أمنت به وأسلمت وهاجرت ، إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ماجد بعد ذلك من زواج .  
فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون ان يرتبطوا مع وزراءهم وقوادهم

برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم إلى تحقيقها .  
 فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ﷺ - بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب .  
 وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمدا - ﷺ - برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى - أقوى الرجال فى الاسلام وأول من أسلموا .

- وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه ، فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب اخواته وأصدقائه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراما لزوجها ، وذلك للاشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله . ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين . فمن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجا لهم ، إما لكبر سنهن أو لكثرة أولادهن ، فزاد تلك من تعلق المسلمين برسولهم ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أباً يحنو على أولاده ، ولولم يجد من المسلمين لوجد نبي الله نفسه ، بل حبيب ذلك الاسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجة عبد الله بن جحش أحد امراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الاسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ، ومنهم أبوبكر وعمر ، فرفضت حيث قالت ( إني امرأة مسنة وأم أيتام ) وعز على الرسول ﷺ - أن تظل السيدة حزينة وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الاسلام فى زواج الرسول ﷺ - يقول الله تعالى فى سورة الحجرات ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ <sup>(١)</sup> وقد كان الرق منتشرًا فى بلاد العرب . فدعا الاسلام إلى العتق وتحرير الرقيق وكان للسيدة خديجة زوجة النبي - عبد اسمه « زيد » وهيته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد هذا العبد الذى تحرر .

هل من بين العرب من يجروا فيعتبره ندا له فيزوجه من قريبته مثلاً ؟

لقد طلب زيد يوماً من الرسول - ﷺ - أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمه الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن ذويها . ولكن الله تعالى أمر

بأنعام هذا الزواج حيث قال ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالا مبينا ﴾ (١).

وتزوج العبد السابق من سيدة قریش سليلة المجد والحسب ، وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين ، وعملا بقول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ (٢) . ولم يدم ذلك الزواج طويلا ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبي كما في جاء في سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ (٣) . وأراد الله تعالى تشريعا جديدا ، إذ كانت التقاليد لا تميز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه ، كما لا تميز للمتبنّى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول في سورة الأحزاب :

﴿ وما جعل أدياءكم أبناءكم ذالكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهتد السبيل ﴾ (٤) .

لذلك أمر الله تعالى بأن يكون الرسول القدوة للناس في ذلك ، وخشى في نفسه - ﷺ - أن يقول عنه الناس : تزوج من كانت زوجا لادعيه ، وكان يخفى في نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ، ولكن الله مبدى هذا ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

هذه هي حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش ، وهي بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الاسلام من أن الرسول - ﷺ - كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جامها ، فطلب من زوجها ان يطلقها ليتزوجها .

وأيّن كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهي ابنة عمته ، والتي كانت يعرفها تماما ؟؟ أو لم تستهوه محاسنها وهي عذراء ؟ ولكنه الحق على الاسلام ، ونبي الاسلام الذي يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكم من زواج الرسول . إذ حقق به أهدافا سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل ، كانت ريحانة بنت عمرو زوجة الحكم احد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول في الغنائم ، فعرض الرسول عليها الاسلام ، فأسلمت وتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر في نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

١ - الآية ٣٦ من سورة الأحزاب

٢ - الآية ٢٢١ من سورة البقرة

٣ - الآية ٣٧ من سورة الأحزاب

٤ - الآية ٤ من سورة الأحزاب



وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق . كانت جويرة بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول فى فك أسرها ، فعرض عليها الرسول الاسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فدخلوا جميعا فى الاسلام .

- ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفية بنت حى بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظا لكرامتهم ، وتخفيفا من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الاسلام فى جزيرة العرب ، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى أوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صديقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها ، تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة كما كانت سياسية بارعة ؟ إذ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمي الاسلام ؟ ويزواجه منها انتصر على آخر معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصارا دون إراقة دماء ، ويدون حروب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء . منهم : هرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، يدعوهم إلى الاسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جارينتان احدهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ، وسيرين التى اهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبي الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياما ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة .

وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمرًا ، ولا يأتون معصية ، ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجارا أو أوثانا وإنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر . زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ - ، كما كانت تصح دائما ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعا . وكذلك أسلم عثمان ابن طلحة حارس الكعبة . وباسلامهم أسلم كثيرون من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ - فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه النساء ؟ وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها ؟ وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين .

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف ، وانتفت الأسباب التى من أجلها

أحل الله لنبية تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - فهل فيه ما يثير في أى نفس الشك في أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟  
أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبي - ﷺ - وعلى الحق أى افتراء ، ، انتهى ؟؟

\*\*\*

والى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول - ﷺ -  
سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلاله	ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى	فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته	وبسطته في حكمة وأناة
وطلعت في الليل البهيم مؤذنا	بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا	ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا	وأقمت بين إساءة وإذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت في	أعناقهم في عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا	وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر	لا يستوى حق بغير حاة

### الاسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا محمد - ﷺ - أن نعقب هنا بكلمة عن حكمة الاسلام البالغة في إباحة تعدد الزوجات .

وقبل هذه السطور ، نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تنبئ عليها دائما الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

### عالمية الدعوة

القاعدة الأولى من تشريعات الاسلام أنه شريعته عالمية ، وليس حكما إقليميا قال سبحانه وتعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وقال ﷺ - ( كل بنى يبعث الى قومه خاصة ، وبعثت الى كل أحر وأسود )<sup>(٣)</sup> .  
وإذ قد تقرر ذلك فلا بد أن يكون تشريع الاسلام شاملا لكل مقتضيات الزمن ومحيطا بكل نواحي الحياة .

### عدالة الاسلام

القاعدة الثانية أن الاسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من سائله . ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله . فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات أو غير ذلك من القضايا الاسلامية جورا أو ظلما لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة .  
قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يفكرون ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وقال ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وقال سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شتان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وقال سبحانه ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾<sup>(٧)</sup> .

### الاسلام يخاطب العقل

القاعدة الثالثة : أن الاسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .  
جاء ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد . وقد قيل لأعرابي : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .  
وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾<sup>(٨)</sup> وإذ يقول ﴿ قل إننى

١- الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

٢- الآية ٩ من سورة الصف

٣- الحديث فى تحاف السادة المتقين - صفة الشفاعة - ج ١٠ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨

٤- الآية ٢١ من سورة الروم

٥- الآية ٣ من سورة النساء

٦- الآية ٨ من سورة المائدة

٧- الآية ٢٣٧ من سورة البقرة

٨- الآية ٣٠ من سورة الروم

هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيميا مئة إبراهيم حنيفا ومكان من المشركين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .  
وإذ يقول ﴿فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا  
ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ <sup>(٢)</sup> .

وبناء على ما تقرر من قواعد كان كل تشريع إسلامى له حكمته البالغة وله هدفه الرفيع .  
الاسلام : دين عالمى ، دين العدالة ، لا يجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .  
وقد جاءت حكمة الاسلام بالغة فى تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لابد من وجوده فى صيدلية الاسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج  
مشاكل العالم إذا كان الدواء الذى يعالج به الداء - هو غير تعدد الزوجات ؟ .  
إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة ، فلا بد أن يعالج الاسلام جميع مشاكلها ، ويداوى  
بالحكمة جراحها .

والاسلام كما عهدناه فى علاجه كالنسيم الهادى يدفع الشراع دون أن يفرق المركب ، وكالنار  
الهائلة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء لم يدع شيئا لصالح البشرية إلا  
بينه ، ولا أمرا فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فصله ، وقد كان أوائل هذه الأمة - رضى الله عنهم - حين  
يعزبهم أمر أو تعترضهم مشكلة يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر ويتنهون عما نهى عنه  
وزجر .

ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلا يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شرداء تبلى به  
المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه قال سبحانه ﴿أفلا  
يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾ <sup>(٣)</sup> .  
الله جل جلاله أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله ﴿فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث  
 ورباع﴾ <sup>(٤)</sup> .

وهذه الإباحة ليس فيها غموض : إذ الأمر فى هذه الآية دليل الإباحة كما فى قوله تعالى ﴿يا أيها  
الناس كلوا مما فى الأرض حلال طيبا﴾ .  
فالأمر هنا لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾ <sup>(٥)</sup> علم أن هناك  
صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل وثانيهما تعدد مع الظلم .

١ - الآية ١٦٦ من سورة الأنعام

٢ - الآية ١٢٣ من سورة طه

٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء

٤ - الآية ٣ من سورة النساء

٥ - الآية ٣ من سورة النساء

والصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة . أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز ، لأنه مبنى على العدل ، والعدل منفي كما جاء في قوله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ (١) فقد غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق - كما فهموا - لكان تناقضا ولغوا ، والقرآن الكريم منزّه عن ذلك تنزيها كاملا . ألم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢) . ألم يقرأوا قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (٣) .

إذ ليس من المعقول ، ولا من المستساغ ولا من المقبول أن يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون في حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق في كل واحد من راغبي التعدد .

تعالى الله من ذلك علوا كبيرا . وكان الأحرى والأجدر إذا كان هذا هو المعنى المقصود ألا يذكر العدد أصلا ، إياحة وحظرا . أما وقد ذكر التعدد في القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الاسلامية في شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى ( ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ) .

وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع إنما هو العدل فى الميل القلبي والمحبة القلبية ، إذ أن قلوب بنى الانسان بين يدي الرحمن يصرفها ويقلبها كيف شاء . قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ (٤) . لذا كان - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول ( اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك ) .

ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريم وهو قوله تعالى ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ (٥) . لعلموا أن العدل هنا قلبي . إذ أن الله لم يقل فلا تميلوا بعض الميل لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجراح المؤلمة بها ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾ (٦) والمعلقة هى المرأة التى اساء زوجها معاشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة .

وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم

١ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

٢ - الآية ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت

٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء .

٤ - الآية ٢٤ من سورة الانفال

٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

٦ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

الا تعدلوا فواحدة ﴿١﴾ المقصود به العدل فيما يملك الانسان من الامور المادية المحسوسة . كالمساواة بين الزوجات في المسكن والكسوة والنفقة والمبيت . أما العدل في الآية الثانية وهو قوله جل شأنه ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ .

فالمراد منه العدل القلبي والمحبة القلبية وهذا عاجله القرآن بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ وعلى هذا يستقيم الميزان في الفهم ويتفنى التناقض والاختلاف عن أحكام الله سبحانه وتعالى جلّت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعا مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه في قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾ (٢) .

وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة فها هو ذا صريح القرآن وها هو ذا الاجماع . فإذا مذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : ( لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم ) (٣) .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن وقد جاء في قوله تعالى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ (٤) جواز الجمع بين من عداهما .

وقد أمر ﷺ غيلان الثقفي حين أسلم وله عشر نسوة أن يستبقى أربعا منهن هذا يدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك أو الجدل .

أن التعدد من بديهيات المباحات وأن التكلم في منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله وهو جريمة ﴿ قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل الله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ (٥) .

ليس في تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة سواء كانت متزوجة على أخرى أو متزوجة عليها بأخرى فأما الحالة الأولى فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأودها فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يرفع عن كاهلها عبء الفاقة وذلل العوز وغائلة الجوع وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها فلا بأس من طلبها الطلاق لأن الاسلام لا يرضى بالضرر وشريعتنا السمحة تأبى ذلك . ومهما يكن من شيء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

١- الآية ٣ من سورة النساء

٢- الآية ٣ من سورة النساء

٣- الحديث رواه أبو داود - كتاب النكاح - ج ٢ ص ٥٥٣ رقم ٢٠٦٥ وأخرجه البخارى تعليقا فى النكاح باب وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف - ج ٦ ص ٩٨ .

والترمذى فى باب النكاح حديث رقم ١١٢٦

٤- الآية ٢٣ من سورة النساء

٥- الأيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس

ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴿١﴾ .  
 فقل لهؤلاء المجادلين ﴿٢﴾ أنتم أعلم أم الله ؟ ﴿٣﴾  
 ثم قل لهم ﴿٤﴾ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٥﴾ .  
 ويراعى الاسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الاسفاف أو الاسراف  
 إذ أن الاسلام لا يرضى بالضرر أو الضرر فقاعده الأولى « لا ضرر ولا ضرار » ﴿٦﴾ .  
 وقد يكون فى التعدد ناحية انسانية أخلاقية قد تكون الزوجة مريضة مرضا لا يمكنها من أداء  
 واجبها نحو زوجها من ناحية، المباشرة أو القيام بخدمته فهل الأولى والأفضل ان يرميها بعيدا ويقطع ما  
 بينه وبينها من علاقة أم يبقى عليها مع زوجة تؤدي له حقوقه الشرعية ؟  
 وقد تكون الزوجة عاقرا ولا تنجب والزوج يريد ولدا فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة  
 العاقر بعيدا عن كنفه بعد طول معاشرة أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الانسانية  
 التى أمر الله بها فى قوله ﴿٧﴾ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفورا رحيمًا ﴿٨﴾ ما من شك فى أن جانب  
 الانسانية يبدو واضحا فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .  
 وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدي إلى إفساد العلاقات بين الأخوة غير الأشقاء فهى دعوة  
 فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافين متحابين .  
 هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة  
 وملئت فيها الملاجىء بأبناء الزنا والبيوت بالأبناء غير الشرعيين إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس  
 من الناس قال بالتعدد فهل يجوز لانسان مهما أوتى من علم وفهم أن يأتى فيقول : لا . . إن التعدد  
 نظام بغض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة فإن الرجال فضلا عن  
 زيادة عدد النساء عليهم معرضون لنقصان مستمر بسبب قيامهم بشاق الأعمال وبأعباء الحروب وغيرها  
 وتعرضهم للمهالك وليس من الحكمة فى شيء أن ندع جانبا كبيرا من بناتنا بدون إحصان .  
 إن الأوربي يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيع لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ويرى  
 والد الفتاة مع ابنته عشيقها فيسر ويغتبط بل ويمد لها جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتها  
 وطمانيتها .

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة وتحرم المرأة النظر إلى الرجل  
 فقد كان من العدالة أن توجد توازنا لهذه القاعدة فجعلت الزواج مكان السفاح ووضعت الحلال مكان

١ - الآية ٣٦ من سورة الاحزاب

٢ - الآية ١٤٠ من سورة البقرة

٣ - الآية ٦٦ من سورة آل عمران ، ٢٣٢ من سورة البقرة

٤ - الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣١٣

٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء .

الحرام وإلا فمن للعوانس وربات الخدور؟ ألهن العهر والفجر ولنا العفاف والطهر؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم؟

وهل من المستحسن أن يكن ضرائر أم يكن فواجر؟

إن الاسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم . فلم يقبل أن تكون في علاقاتها معه إلا على حالة واحدة وهى أن تكون زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لا يستطيع الرجل التنصل منها وفي الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة وجميع ما من شأنه الخط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الانسانية إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الأئمة ويضرب بيد من حديد على أيدي المتلاعبين بالأعراض الخائضين في ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الأئمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض في ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد انسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء وفي أى دين أو أى نظام أو أى عرف تكون الخليفة أفضل من الخليفة؟

ويقولون أيضا : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر في نظر المجتمع آثما ، لأنه يخلق العداوة بين نسائه والبغضاء بين ابنائه فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداها شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ولا يكون خالقا للعداوة بين نسائه وابنائه وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ (١) .

هذه شريعة الله شريعة الحق شريعة العدل وهذا منهاج الخالق البارئ المصور .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) .

### شهادات الخصوم لنبي الاسلام

لم تكن شهادات الخصوم لنبي الاسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين في القرن العشرين أو ما قبله من القرون العريية إنما سبقت ذلك شهادات له - ﷺ - من بنى قومه الذين لقبوه قبل بعثته

١ - الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون

٢ - الآية ١٤ من سورة الملك



بالصادق الأمين لما رأوا فيه من كريم الخلق وحيد السجيا ورفيع الشماثل ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفتنة وسرعة البديهة وقوة الادراك ذلك المشهد هو اشتراكه - ﷺ - فى بناء الكعبة بعد ما تصدعت. ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ألا وهى وضع الحجر الأسود من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟ لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف إذن فلتسلك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحي من الله تعالى وأمره له بذلك ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾ (١).

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (٢) وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وكان من بين هذه العوادى سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظا من شرعة ابراهيم عليه السلام بين العرب . ولقد شارك الرسول ﷺ - قبل البعثة فى بناء لكعبة وأعاد تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا ازاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح . ولقد كان له - ﷺ - أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى ابداه حلا للمشكلة علما منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع .

لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما وأدخلوا أيديهم فيها توكيدا لأيمانهم ولذلك سبوا ( لعقة الدم )

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم وكان فيهم شريفا مطاعا قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا فلما رأوا محمدا أول من دخل

١ - الآية ٩٦ من سورة آل عمران

٢ - الآية ١٢٧ من سورة البقرة

قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم ورأى العداوة تبدو في أعينهم ففكر قليلا ثم قال : هلم إلى ثوبا فأني به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعا إلى ما يحاذي موضع الحجر من البناء ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه في موضعه وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعا ورفعوا بها عن الأرض هكذا وقف الصادق الأمين موقفا شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ثاقب الفكر صائب الرأي عبقرى الفؤاد ذكى القلب .

### شهادات الفلاسفة والمفكرين

#### تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان ( من هو محمد ) ؟  
( إن محمدا - ﷺ - هو مؤسس ورسول الديانة الاسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس ( يعنى فى حساب وزمان تولستوى )

ثم قال : ولد النبى محمد - ﷺ - فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام من أبوين فقيرين وكان فى حداثه سنة راعيا يرعى الغنم وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية حيث كان يتأمل فى الله وخدمته - أى طاعته - إن العرب المعاصرين له عبدوا أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى وهو أن الله اصطفاه لارشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم اعتقاده الراسخ .

وبعد ما وصف تولستوى الديانة الاسلامية وصفا صحيحا موجزا قال :  
( وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيرا من الاضطهاد شأن كل نبي بعث قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدا لم يقل إنه النبى الوحيد بل جاء متمما للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضا ) .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

#### ( كارليل )

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال : ( وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا واعظاما وما كان ممكنة أن يقدمهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجهادون حوله لقد كان فى هؤلاء

العرب جفاء وغلظة وكانوا حماة الأنوف وأبابة الضمير فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى خضعوا له واستفادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا في طاعتهم مقدار ما ناله في ثوبه المرقع بيده فكذا تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

### دائرة المعارف البريطانية

جاء في دائرة المعارف البريطانية ما نصه :  
( كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا ) .

### دينسون

يقول دينسون عنه - ﷺ - في كتابه ( الحركات كأساس للحضارة ) .  
( وفي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو إذذاك أن المدنية الكبرى التي قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الممجية .  
إذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم بأجمعه ) .

### جيمس متشنز

يقول عن رسول الله - ﷺ :  
( إن محمدا هذا الرجل الملهم الذي اقام الاسلام ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية في قبيلة عربية تعبد الأصنام ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة في شبه الجزيرة العربية وفي الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينا يدعو إلى الله وحده وأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيرا ونذيرا ) .

### البروفيسور جارسون دى ناس

قال في كتابه ( الاسلام ) إن محمدا رسول الله - عليه الصلاة والسلام كان منذ نعومة أظفاره مجانبا للرزيلة محبا للفضيلة حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين .

### البروفيسور كارادى فو

( إن محمدا أتم طفولته في الهدوء ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود وقد عاش هادئا في سلام حتى بلغ الأربعين من عمره وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة وكان النبى والملم والمؤسس ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التي كان عليها ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين إن شعور المساواة والاخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الاسلامية كان يطبق عمليا حتى على النبى نفسه ) .

( رأى المستشرق الأمريكى إدوارد ورمسى )

## رأى المستشرق الأمريكى ادوارد ورس

قال : ( كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد - ﷺ - فى أحط الدركات ، حتى يصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التى كانت سائدة فى كل مكان ، فالفوضى العظيمة التى كان الناس منهمكين فيها فى ذلك العصر ، وجرائم الأطفال [ يعنى قتلهم خشية الاملاق ] ووآد البنات وهن أحياء والضحايا البشرية التى كانت تقدم باسم الدين ، والحروب الدائمة التى تنشب أنا بعد آن بين القبائل المختلفة ، والنقص المستديم فى نفوس أهل البلاد وعدم وجود حكومة قوية ، كل هذه كانت سببا فى سيادة الهمجية بين الناس ، وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات ، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها ) .  
ثم قال :

( كانت بلاد العرب فى حالة تشويش وبلبلة ، وفى فوضى منتشرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ أمة من الأمم ، حتى أن بيت الله الحرام الذى بناه ابراهيم الخليل - عليه السلام - لاقامة الشعائر الدينية فيه قد حول إلى معبد يحتوى على أربعمائة صنم لكل قبيلة صنم يعبدونه ) .  
ثم يقول :

( كان العرب يعيشون فى جو فاسد مملوء بالغبار والميكروبات الاجتماعية ، حتى أن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس ، وهكذا كانت أحوال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هى عاداتهم حينما جاء محمد - ﷺ - شارحا للعالم رسالة الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان [ يعنى القرآن ] وبيده اليسرى نور المدينة الوضاء ، وإنما ذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ( به - عز وجل - ) .

ثم قال : ( وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى فى الأفق ، وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التى أخفت النور السماوى عن أبصار الناس زمنا طويلا ، وأتى اليوم الذى أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد - ﷺ - ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحي من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين فى أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرأى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائره ويهبون لقتل محمد - ﷺ - ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه فقد كانوا يشعرون بذلك حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيرا كبيرا ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ولم يجدوا بدا من السلوك فى النقاء الجديد ، لأنه اجتاحت كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شئ يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة ، وأخذت قوة الله هاتيك الشرور والآثام ، وحررت الانسانية من قبضة الوحشة ) .  
وفى الختام قال :

( وبالإجمال أتى الوحي من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة ) .

## لويل توماس

وقال الكاتب الانجليزى الكبير لويل توماس : ( قبل أن يكتشف كولب أمريكا بألف سنة أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالي الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قريش - يشير إلى السيدة خديجة - وسرعان ما يشعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله الانسان بدون مشقة ، وقد علم أصحابه حب آدم و ابراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين ) .

ثم قال توماس : ( لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى أول من وحد قبائل العرب المتناثرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة جاء محمد وجمع كلمة العرب ووحده صفوف العرب ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم ، أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به وقد فاق فتى مكة جميع الرسل وقادة الرجال بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلبا واحدا .

ومات النبى محمد - ﷺ - وتدفقت بعده موجة فتوحات الاسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكرا خالدا أبديا لذلك الرجل العظيم الذى انتجته وأنتبته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمرا لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وافريقيا إلى أن استولت على أواسط أوروبا ، تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم ) .

وفى الختام قال توماس :

( وفى ذلك العصر عصر الفتوحات الاسلامية قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الاسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة وبذلك فإن الاسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق .

## ادوارد مونيته مدير جامعة جينيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

( ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد ، بل لا توجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الاسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة نبى الاسلام - ﷺ - وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد - ﷺ - وعهود خلفائه الأولين ( يريد الخلفاء الأربعة ) ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها ) .

وقال مونتيه في محاضرة أخرى بجنيف ما ترجمته :

( الاسلام في واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : ( إنه ينتشر بواسطة المسلمين انفسهم لأن كل مسلم في البلاد الوثنية رسول لدينه مبدئيا ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، تلك خاصية من خاصيات الدين الاسلامي أن يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكلية وجزئية ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المباليين فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامي ، وإننى اكرر أن المسلم غالبا يحمل في جسمه أنسجة البشر ، فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التي تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية ، أو الديار التي تعبد فيها الأصنام ، فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة خاصة في البلاد وفي الشعوب التي يقومون فيها بأداء عملهم الديني ، وهنا نرى العامل الديني يعمل عمله بجانب العاملين : الاجتماعي والاقتصادي ، فالاسلام في البلاد الشاسعة التي ينتشر فيها ويمتد نفوذه ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية في أرقى الحالات وتباعا يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقى ) .

### الدكتور ليتز

يقول : ( إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله الذي هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها لو كان يوحى إلى عباده فدين محمد - ﷺ - هو دين الوحي ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هي الشاهدة على الالهام فرسالة محمد هي هذا الالهام ) .

### البروفيسور بورسورث سميث

يقول : ( عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد ويطولته ، ما كان منها في بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة - وكم من البطولات المعجزة أحدثوا - أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى إن الإنسانية لم تعرف له مثيلا ) .



## توجيهات وآداب ربانية

﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (٣١) يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴿

## معاني المفردات

- (يقنت) القنوت : الطاعة في سكون والعبادة في خشوع .  
 (مرض) تطلع إلى الفسق والفجور .  
 (وقرن في بيوتكن) يقال : قررت في المكان أقر به إذا أقمت فيه .  
 (ولا تبرجن) التبرج : الظهور مع إظهار ما يجب ستره .  
 (الرجس) الدنس الحسى (والحكمة) هي حديث رسول الله - ﷺ - .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا آتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال ، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ، ولا يخشين من أجله العقاب ، وفي الآخرة يرزقن مالا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .  
 وبعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من في قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار في بيوتهن ، ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله



ورسوله فيها يأمر وينهى ، لأنه سبحانه أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهم بتعليم غيرهم القرآن وما يسمعه من النبي ( ﷺ ) من السنة .

وبعد أن أمر سبحانه نساء نبيه ( ﷺ ) بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكرهنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبد الرحمن بن شبية قال : « سمعت أم تسلمة زوج رسول الله ( ﷺ ) تقول : قلت للنبي ( ﷺ ) : مالنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهم فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس : إن الله تعالى يقول في كتابه ( الم ) المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات - إلى قوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (١) .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ومن يقات منكن الله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ .  
أى : من تطع منكن وتستجب لله - تعالى - ورسوله ( ﷺ ) وتعمل من الصالحات ، وتفعل الطيبات ، وتجتنب المنهيات نضاعف لها الأجر والثواب ، وأعتدنا لها رزقا كريما في الدنيا والآخرة فإن أزواج النبي ( ﷺ ) أمهات المؤمنين وهن في الآخرة مع رسول الله ( ﷺ ) في الجنة وكفى بهذا شرفا وقدرًا .  
قوله تعالى :

﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ .  
هذه آداب ربانية وتوجيهات إلهية حكيمة اشتملت على نصائح قيمة رفيعة ، خاطب الله بها نساء النبي ونساء الأمة تبعها هن ، ومن ظن أنها مقصورة على نساء رسول الله محتجا بقوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾ فقد أعظم على الله الفرية ، فإن نساء الأمة مأمورات بما أمر الله به نساء نبيه ( ﷺ ) ولكن نساء النبي لسن كأحد من نساء الأمة فى العقوبة والثوبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقات منكن الله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن اتقيتن ﴾ أى : أن أتيتن بتقوى الله فليس هناك من يعد لكن من نساء الأمة إذ التقوى هى السلاح الأقوى .

ثم ساق الآداب والتوجيهات فقال : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال السدى - رضى الله عنه - يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ أى : دغل ومرض القلوب قد يكون مرض شبهة ، وقد يكون مرض شهوة كما فى هذه الآية .

أما مرض الشبهة فكما في قوله جل شأنه : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ قوله تعالى : ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

قال ابن زيد : قولا حسنا جميلا معروفا في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

قوله تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أى الزمن بيوتكن . ففيها الوقار والسكينة لكن والاحترام والهمية . فالمرأة في بيتها مصباح مضى وسراج منير ، ولا تخرجن إلا الحاجة . ومن الحوائج الشرعية : الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ( ﷺ ) : ( لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات ) (١) وفي رواية : ( وبيوتهن خير لهن ) .

وقال الحافظ أبو بكر البراز بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله ( ﷺ ) فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله - تعالى - فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ( ﷺ ) : ( من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فلإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ) (٢) ثم قال : لا نعلم رواه عن ثائب إلا لروح ، وهو بصرى مشهور .

وقال البزار بسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبي ( ﷺ ) قال : ( إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها ) (٣) .

وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبي ( ﷺ ) قال : ( صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ) (٤) ، وهذا إسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ لأئمة التفسير أقوال فيها . قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشبة وتكسر وتفتنج فنهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده ، فيواري فلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج هو ثم عمت نساء المؤمنين في التبرج .

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ بعد أن نهاهن عن السوء

(١) انظر سنن أبي داود ج ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ « كتاب الصلاة » باب ماجاء في خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٦٥ ، حديث رقم ٥٦٧ .

(٢) انظر كشف الاستار عن زوائد البزار « كتاب النكاح » باب ثواب من أطاعت زوجها « ج ٢ ص ١٨٢ حديث رقم ١٤٧٥ من رواية لأنس ، قال البزار : لا نعلم من رواه عن ثائب إلا روح وهو بصرى مشهور .

(٣) انظر تحفة الأحوف بشرح جامع الترمذي ( أبواب الرضاع ) باب ١٨ حديث رقم ١١٨٣ فقد ورد الحديث عن رواية لعبد الله ابن عمر بلفظ : ( المرأة عورة ، فإذا اخرجت استشرفها الشيطان ) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٤) انظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب التشديد في ذلك ٥٤ أى في خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٧٠ برواية عن عبد الله بن مسعود بلفظ : ( صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ) .

أمرهن بإقام الصلاة ففي الصلاة عصمة وأمان . قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه صلى ﴾<sup>(٣)</sup> وقال ﴿ واستمعوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقور ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾<sup>(٤)</sup> ففي الصلاة طهارة للمصل من اللغو والرفث ، كما أمرهن بعد ذلك بإيتاء الزكاة ففيها طهارة المال وطهارة القلوب من الشح . قال تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾<sup>(٥)</sup> وقد جاءت الزكاة مقترنة بالصلاة في أساليب متنوعة وصيغ مختلفة جاءت بصيغة الماضي كما في قوله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾<sup>(٦)</sup> وجاءت بصيغة المضارع كما في قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله - إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٧)</sup> وجاءت بصيغة الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير نجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾<sup>(٨)</sup> . وجاءت بصيغة الصفة كما في قوله تعالى ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾<sup>(٩)</sup> وجاءت بصيغة المصدر كما في قوله تعالى ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾<sup>(١٠)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى في كل ما أمر به ونهى عنه وهو من باب عطف العام على الخاص .

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . قال الامام ابن كثير هذا نص في دخول أزواج النبي - ﷺ - في أهل البيت ههنا ، لأنهم بسبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادى في السوق ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

(١) سورة العنكبوت من الآية : ٤٥ .

(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ١ - ٢ .

(٣) سورة الأعلى الآيتان : ١٤ - ١٥ .

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ٤ .

(٦) سورة التوبة آية : ١٨ .

(٧) سورة التوبة آية : ٧١ .

(٨) سورة الزمل آية : ٢٠ .

(٩) سورة النساء آية : ١٦٢ .

(١٠) سورة النور الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴿ نزلت في نساء النبي (ﷺ) خاصة<sup>(١)</sup> وهكذا روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ قال نزلت في نساء النبي (ﷺ) خاصة ، وقال عكرمة : من شاء باهله إنها نزلت في شأن نساء النبي (ﷺ) فإن كان المراد أنهم كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهم المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : ( الصلاة يا أهل البيت ) ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطاء بن أبي رباح حدثني من سمع أم سلمة - رضى الله عنها - تذكر أن النبي - ﷺ - كان في بيتها فأتته فاطمة - رضى الله عنها - بيرة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال - ﷺ - لها : ( ادعى زوجك وابنيك ) قالت : فجاء على وحسن وحسين - رضى الله عنهم - فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته - ﷺ - كساء خيبرى قالت وأنا في الحجرة أصلى فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ قالت - رضى الله عنها - فأخذ - ﷺ - فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : ( اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ) قالت : فأدخلت رأسي البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال - ﷺ - ( إنك إلى خير إنك إلى خير )<sup>(٣)</sup> .

قال ابن جرير بسنده عن حكيم بن سعد قال ذكرنا على بن أبي طالب رضى الله عنه عند أم سلمة - رضى الله عنها - فقالت : في بيتي نزلت ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . قالت أم سلمة : جاء رسول الله (ﷺ) إلى بيتي فقال : ( لا تأذني لأحد ) فجاءت فاطمة - رضى الله عنها - فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن - رضى الله عنه - فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده (ﷺ) وأمه - رضى الله عنها - ثم جاء على - رضى الله عنه - فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فجللهم رسول الله - ﷺ - بكساء كان عليه ثم قال : ( هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ) . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت فوالله ما أنعم

(١) انظر تفسير الطبري : ج ٢٢ ص ٧ : تفسير سورة الأحزاب فقد ورد الحديث عن علقمة قال : ( كان عكرمة ينادى في السوق .. الخ .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح الترمذى تفسير سورة الأحزاب ج ٩ ص ٦٧ - ٦٨ حديث رقم ٣٢٥٩ فقد ورد الحديث بلفظة عن أنس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ ج ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ج ٨ ص ٢٩ .

انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبي وائل عن عبد الله .

وقال : ( إنك إلى خير ) (١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطية الطفاوى عن أبيه قال : إن أم سلمة - رضى الله عنها - حدثته قالت : بينما رسول الله في بيتي يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليها - رضى الله عنها - بالسدة قالت : فقال لى رسول الله ( ﷺ ) ( قومي فتحنى عن أهل بيتي ) قالت : فقامت فتحنى في البيت قريبا فدخل على فاطمة ومعها الحسن والحسين - رضى الله عنهم - وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما في حجره فقبلهما واعتنق عليا - رضى الله عنه - بإحدى يديه وفاطمة - رضى الله عنها - باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خيمصة سوداء وقال : ( اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتي ) قالت : فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال - ﷺ - : ( وأنت ) (٢) .

وقال ابن جرير بسنده عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : إن هذه الآية نزلت في بيتي : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ، أأنت من أهل البيت ؟ فقال - ﷺ - : ( إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبی ( ﷺ ) ) قالت وفي البيت رسول الله - ﷺ - وعلى وفاطمة والحسن والحسين - رضى الله عنهم (٣) .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن محمد بن يزيد عن العوام يعني ابن حوشب - رضى الله عنه - عن ابن عم له قال : دخلت مع أبي على عائشة - رضى الله عنها - فسألتها عن علي - رضى الله عنه - فقالت - رضى الله عنها - : تسألني عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله - ﷺ - وكانت تحته ابنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله - ﷺ - دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا - رضى الله عنهم - فألقى عليهم ثوبا فقال : ( اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ) . قالت : فدنوت منهم فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال - ﷺ - : ( تنحى فإنك على خير ) .

وقال ابن جرير بسنده عن أبي سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : ( نزلت هذه الآية في خمسة : في ، وفي علي ، وحسن ، وحسين ، وفاطمة ) ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ (٤) .

وقال مسلم في صحيحه : حدثني زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثني أبو حيان ، حدثني يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسمه إلى زيد بن أرقم - رضى الله عنه - فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله ( ﷺ ) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا .

( ١ ) انظر تفسير الطبري - تفسير سورة الأحزاب - ج ٢٢ ص ٤٦ ص ٧ فقد ورد الحديث عن حكيم بن سعد  
( ٢ ) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي رباح وعن عطية الطفاوى عن أميه وانظر ص ٣٠٤ و ٣٠٥

( ٣ ) انظر تفسير الطبري ( تفسير سورة الأحزاب ) ج ٢٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد عن أم سلمة .

( ٤ ) انظر تفسير الطبري ( تفسير سورة الأحزاب ) ج ٢٢ ص ٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي سعيد الخدرى .

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ﷺ) قال : يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعمى من رسول الله (ﷺ) فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله (ﷺ) يوما خطيبا بماء يدعى خميا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : ( أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب وأنا تارك

فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ) فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : ( وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ) ثلاثا . فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس - رضى الله عنهم - قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم<sup>(١)</sup> .

قال ابن كثير : والذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي (ﷺ) داخلات في قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ قال ابن جرير : واذكرون نعمة الله عليكن بأن جعلكن في البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهى السنة ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

وقال قتادة : ﴿ واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ قال يمتن عليهن بذلك رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى في قوله تعالى : ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يعنى لطيفا باستخراجها خبيرا بمواضعها . رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

قوله تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجر عظيما ﴾ .

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٨٧٣ حديث رقم ٣٦ - ٣٤٠٨ من رواية زيد بن أرقم وقد ورد الحديث بلفظه . وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ حديث ( زيد بن أرقم - رضى الله تعالى عنه - ) فقد ورد الحديث بلفظه .

قال الامام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن شبية قال : سمعت أم سلمة رضي الله عنها زوج النبي (ﷺ) تقول : قلت للنبي (ﷺ) ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري ثم خرجت إلى حجرى حجرة بيتي فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : ( يا أيها الناس إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ) إلى آخر الآية (١) .

قوله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ يفيد أن الاسلام غير الايمان ، فالاسلام هو الامثال الظاهري والايمان هو التصديق القلبي . كما قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ .

وفال - ﷺ - : ( لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ) (٢) ومعنى ذلك أن الايمان يسلب منه حين الزنا ولكن لا يسلب منه الاسلام . فهو ليس بكافر بإجماع المسلمين . والاسلام والايمان وإن كانا متغايرين مفهومًا إلا أنها قد يتحدان أفرادًا . قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ (٣) ومعلوم أن المقصود بهم هم الذين آمنوا بلوط - عليه السلام - وهم مسلمون في نفس الوقت . وهم أهل بيته ولا بد أن يتوافر للمرء لكي ينجو . الاقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان .

قوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون . قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض كل له قانتون ﴾ (٥) يا مريم اقتني لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ (٦) وقوموا لله قانتين ﴾ (٧) فالاسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الايمان ثم القنوت ناشئ عنها .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة - رضي الله عنهم - لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الاسلام ، وهو علامة على الايمان كما أن الكذب أمانة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث من رواية عبدالرحمن بن أبي شبية .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي الزبير من حديث طويل .

(٣) سورة الذاريات الايتان : ٣٥ - ٣٦ .

(٤) سورة الزمر آية : ٩ .

(٥) سورة الروم آية : ٢٦ .

(٦) سورة آل عمران آية : ٤٣ .

(٧) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨ .

يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً<sup>(١)</sup> ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ( والايमान أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات وهى الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ .  
الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث : ( اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك )<sup>(٢)</sup> :

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ .  
الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين . قوله ( ﷺ ) ( سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : أمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخافها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع )<sup>(٣)</sup> وفى الحديث الآخر : ( والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار )<sup>(٤)</sup> .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه :  
( الصوم زكاة البدن )<sup>(٥)</sup> أى يزكيه ويظهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، قال سعيد

( ١ ) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ ج ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله ج ٨ ص ٢٩ .  
وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

( ٢ ) انظر مجمع الزوائد ( كتاب الصلاة ) باب فى صلاة العشاء الآخرة والصبح فى جماعة ج ٢ ص ٤٠ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لابی الدرداء .  
( ٣ ) انظر صحيح مسلم ( كتاب الزكاة ) باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم ٩١ - ١٠٣١ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .

وانظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة من رواية أخرى .  
( ٤ ) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ كتاب الزهد ( باب الجسد ) حديث رقم ٤٢١٠ ص ١٤٠٨ وقد ورد أيضاً من رواية لأنس فى كتاب الفتن ( باب ) كف اللسان فى الفتن ج ٢ حديث رقم ٣٩٧٣ ص ١٣١٤ من رواية لمعاذ .  
وانظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٩٩ فقد ورد الحديث عن جابر بن عبد الله .  
( ٥ ) انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٥٥ ( كتاب الصيام ) باب فى الصوم زكاة الجسد ( حديث ١٧٤٥ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ ( لكل شئ زكاة وزكاة الجسد الصوم ) .



ابن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ والصوم من أكبر العون على كسر الشهوة قال رسول الله ( ﷺ ) : ( يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء )<sup>(١)</sup>.

﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿ والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : إن رسول ( ﷺ ) قال :

( إذا أيقظ الرجل امراته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات )<sup>(٣)</sup>.

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى قال : قلت يا رسول الله : أى العباد أفضل درجة عند الله - تعالى يوم القيامة ؟ قال ( ﷺ ) ( الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ) . قال : فقلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال : ( لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه )<sup>(٤)</sup>.

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ( ﷺ ) يسير فى طريق مكة فأتى على جمدان فقال : ( هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون ) قالوا : وما المفردون ؟ قال ( ﷺ ) : ( الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ) ثم قال ( ﷺ ) : ( اللهم اغفر للمحلقين ) قالوا : والمقصرين قال ( ﷺ ) ( اللهم اغفر للمحلقين ) قالوا : والمقصرين . قال ( ﷺ ) : ( اللهم اغفر للمحلقين ) قالوا : والمقصرين . قال الامام أحمد حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة عن زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة قال : إنه بلغنى عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - أنه قال : قال رسول ( ﷺ ) : ( ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ ) قالوا : بلى يا رسول الله . قال ( ﷺ ) : ( ذكر الله عز وجل )<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ( أبواب النكاح ) ج ٤ ص ١٩٩ حديث ١٠٨٧ من رواية لعبد الله بن مسعود مع اختلاف فى ألفاظه .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥ - ٧ .

(٣) انظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب ( قيام الليل ) ج ٢ ص ٧٤ حديث ١٣٠٩ فقد ورد الحديث عن رواية أبي سعيد وأبي هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) باب ( ما جاء فىمن أيقظ أهله الليل ) ج ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ حديث رقم ١٣٣٥ من رواية أبي سعيد وأبي هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٧٥ فقد ورد الحديث لفظه من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة من حديث طويل وانظر صحيح مسلم ( كتاب الذكر والدعاء ) الخ باب ( الحث على ذكر الله - تعالى - ) ج ٤ ص ٨٦٢ حديث ٢٦٧٦ عن أبي هريرة .

(٦) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ .

وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زيان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجعفي عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال : إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) ( أكثرهم لله تعالى ذكرا ) قال فأى الصائمين أكثر أجرا ؟ قال (ﷺ) : ( أكثرهم لله عز وجل ذكرا ) ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول ( رسول الله ﷺ ) ( أكثرهم لله ذكرا ) فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله (ﷺ) ( أجل )<sup>(١)</sup> .

﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أى : أن الله - تعالى - قد أعد لهم أى : هيا لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة .

ومثل هذه الآية قوله تعالى . ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله جل شأنه ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله عز وجل : ﴿ الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسان والمحرور . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

### قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾<sup>(٥)</sup> وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَنُحْنِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخْشَى

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٣٨ من رواية لمعاذ بن جبل .

(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١ .

(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ - ٣٥ .

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى  
 الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٧﴾  
 مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ  
 اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ  
 وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ  
 النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾

### معاني المفردات

(الخيرة) الاختيار (مبديه) مظهره (وطرا) الوطر كل حاجة للمرء له فيها همة والمراد : بلغ ما  
 أراد من حاجته منها (حرج) ضيق وإثم .  
 وزيد بن حارثة بن شر حبيل كان عبدا لخديجة فوهبته للنبي (ﷺ) فأعتقه وتبناه فكان يدعى  
 زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لأبائهم ﴾ ف قيل : زيد بن حارثة .  
 وزينب هذه بنت جحش ، وأخوها عبد الله بن جحش ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمه رسول  
 الله (ﷺ) ، فهي من ذؤابة قريش .  
 روى : أن رسول الله خطب زينب بنت عمته فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريد لها لزيد  
 كرهت ذلك وامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها ومكانتها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا  
 فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من  
 أمرهم ﴾ رضيوا وقال أخوها : مرن بما شئت فزوجها رسول الله لزيد (١) .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخبر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا ، وفهم من هذا أن  
 الرسول (ﷺ) لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شيء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره .  
 - ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الانسان في كل شيء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا  
 اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهي ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع وما أراد النبي (ﷺ) فهو  
 الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

(١) انظر تفسير الطبري ج ٢٢ ص ٩ فقد وردت روايات متعددة في هذا المعنى .

وقد نزلت هذه الآيات في زينب بنت جحش بنت عمة النبي (ﷺ) أميمة بنت عبدالمطلب ، وقد خطبها رسول الله (ﷺ) على مولاه زيد بن حارثة فأبى وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزل : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة .. ﴾ الخ . فلما نزلت قال : رضيينا يا رسول الله ، فأنحكها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما ، وخمارا ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة في هذا الزواج الذي لما يبال فيه النبي بإبائه زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدياء بالبيوت واتصافهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعدّه أصلا ترجع إليه في الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعي جميع حقوق الابن ويجرون عليه الأحكام التي يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب . فأراد الله عمو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ، ومن ثم قال في أول السورة : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ﴾ . وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعي إلى من تبناه ، والا يكون للمتبنّى إلا حق المولى والأخ في الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ في النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بارادة قوية تسخر بسلطانها . ولا تجعل لها حكما في الأعمال إذا كانت المصلحة في خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل ، كما ألغى بالقول في أحد عتقائه . ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهي جديد . ذلك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله - (ﷺ) المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء في تنفيذ حكم الله ويقول لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ ثم أكد هذا بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

التفسير

قول تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالا مبينا ﴾ .

قال العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك أن رسول الله - ﷺ - انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة - رضي الله عنه - فدخل على زينب بنت جحش الأسدية - رضي الله الله عنها - فخطبها فقالت لست بناكحته فقال رسول الله - ﷺ - ( بل فأنكحها ) قالت : يا رسول الله ، أؤمر في نفسي ؟ فينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول

الله - ﷺ - قالت : قد رضيت يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله - ﷺ - ( نعم ) قالت : إذ لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد أنكحته نفسي <sup>(١)</sup> .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ هذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ <sup>(٢)</sup> وفي الحديث ( والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ) <sup>(٣)</sup> ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ كقوله تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ﴾ <sup>(٤)</sup> ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ <sup>(٥)</sup> وكقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وكقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ <sup>(٧)</sup> وقوله جل شأنه ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الحزى العظيم ﴾ <sup>(٨)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكمها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

إنعام الله - تعالى - على زيد إنما يتجلى في نعمة الاسلام والتوحيد والهدايا إلى الحق ، وإنعام النبي - ﷺ - عليه بفضل الله - تعالى - إنما هو بالعتق والتحرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - قال كنت في المسجد فأتاني العباس وعلى بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فقالا يا أسامة أستاذنا لنا على رسول الله - ﷺ - فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان ، فقال - ﷺ - : ( أتدرى ما حاجتهما ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال - ﷺ - : ( لكنني أدري ) قال فأذن لهما ، قال : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا أي : أهلك أحب إليك ؟ قال - ﷺ - : ( أحب أهل إلى فاطمة بنت محمد ) قال : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة ، قال - ﷺ - : ( فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه ) <sup>(٩)</sup> وكان رسول الله - ﷺ - قد زوجه بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية - رضي الله عنها - وأمها أميمة

(١) انظر تفسير الطبري ج ٢٢ ص ٩  
 (٢) سورة النساء آية : ٦٥ .  
 (٣) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة النساء - ج ص ٢٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه .  
 (٤) سورة التوبة جزء الآية : ٦٢ والآية ٦٣ .  
 (٥) سورة آل عمران آية : ٣٢ .  
 (٦) سورة النساء آية ٨٠ .  
 (٧) سورة الأنفال من الآية : ٢٤ .  
 (٨) سورة التوبة جزء الآية : ٦٢ والآية ٦٣ .  
 (٩) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ تفسير سورة الأحزاب ص ٤١٩ .  
 (٤) سورة النور آية : ٦٣ .

بنت بن المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمسين مدامن طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينها فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله - ﷺ - فجعل رسول الله - ﷺ - يقول له : ( أمسك عليك زوجك واتق الله ) . قوله تعالى : ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ أى : تخفى في نفسك الأمر الذى أعلمك الله به من أن زيدا سيطلق زينب وستكون زوجا لك ، وقد كان رسول الله - ﷺ - قد غلبه الحياء فأخفى هذا الأمر ، كما أنه كان يخشى أن يقول الناس عنه إنه تزوج امرأة متبناه ، وقد روى البخارى أن هذه الآية ﴿ وتخفى في نفسك ما الله مبديه . . ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة - رضى الله عنهما .

### الحكمة من زواج زينب بزيد ثم من الرسول - ﷺ -

جاء في كتاب ( أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ ) للدكتور ابراهيم شعوط ما نسوقه بنصه قال :

- ١- قصة زواج الرسول بزينب بنت جحش :  
كانت تقاليد العرب في الجاهلية تقضى - في نظام الأسرة - بأمور :  
أحدهما أن المرأة القرشية لا يمكن أن تتزوج مولى من الموالى مهما كانت ثقافته ومنزلته ، وتعتبر مثل هذا الزواج . خروجا على التقاليد والعادات . التى تحترم فروق الطبقات .  
ثانيهما : أنه إذا حدث أن تزوج المولى بامرأة من قريش وطلقها فإن منزلتها تهون بهوان زوجها . فلا يتزوجها شريف ولا محترم .  
وثالثهما : أن زوجة الابن المتبنى ، كانت تحرم على الوالد بالتبني . كما تحرم زوجة الابن من الصلب فلما جاء الاسلام كان لابد له أن يغير من وضع هذا المجتمع ، كما ذكر القرآن الكريم ضمن المحرمات على الرجل قوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ (١) وذلك بخلاف الابناء عن طريق التبني ويحطم نظام الطبقات ، كما يقضى على عادات الجاهلية الممقوته .  
فأوحى إلى رسول الله - ﷺ - أن يزوج شريفة قرشية ، من أعلى سلالات قريش نسبا - يزوجها - من مولاه ( زيد ) الذى كان رقيقا وأعتقه رسول الله - ﷺ - ثم تناه ، ليرتب على هذا الزواج الأمور الآتية :

أولا : أن تكون القرشية التى تقوم بهذا الدور ، هى بنت عمه الرسول ، ومن القمة في قريش . لتكون تحت هذا المولى ، فتحطم الفوارق بالأصل والحسب ، ويصبح التفاضل بمعايير أخرى جديدة . تقوم على المبدأ الإلهى الجديد وهو ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٢) ﴿ ولا فضل لعرب على عجمي

(١) سورة النساء من الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٣ .

إلا بالتقوى ﴿١﴾ فيخطب رسول الله - ﷺ - بنت عمته زينب بنت جحش ، لمولاه أو ابنه المتبنى ( زيد ابن حارثة ) فيثور الكبرياء العربى فى نفس زينب وأخيها عبد الله بن جحش ، وتتمثل لها المهانة كلها فى هذا الزواج لكن قرآنا ينزل فى شأن زينب وأخيها بالذات ، ليقطع عليهما طريق الجدل فيتلو عليهما رسول الله - ﷺ - فى أمره تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً ﴾ .

وخضع الرجل وخضعت المرأة المؤمنة للأمر الإلهى ، فسلمت جسدها لزيد ، ولكنها لم تستطع أن تعطيه قلبها الذى تملكه عادات موروثه ويتحكم فيه العجز عن مجابهة الحقيقة الجديدة ، التى لم تسبقها تجربة قبل تطبيقها على زينب ، فتظل جاعحة نافرة من قسوة التجربة وغرابة التطبيق ، فلا تستطيع أبدا أن تتصور أن هناك كفاءة بينها وبين زيد ، لأنه شتان بين نسبها ونسبه . وحسبها وحسبه . وكان موقفها أمام الأمر الإلهى ورغبة الرسول ، ينطبق عليه المثل الانجليزى الذى يقول : ( فى وسعك أن تأق بالجواد إلى شاطئ النهر ، ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد ) . نعم ، إن زينب استجابت ببدنها وجسدها ، ولكنها تجدد الغصة ، دائما فى حلقها ، وتحس التمرد فى قلبها ، كلما تذكرت أنها - وحدها - من بين الشريقات الحرائر ، يكتب عليها الزواج من إنسان كان - إلى عهد قريب - من ضمن العبيد الأرقاء . بينما نظيراتها - ومن هن أقل منها - يتزوجن من أكابر الأشراف والأحرار !!

وكان زيد ، يعانى من تلك العوامل النفسية عند زينب ، أشد ما يعانىه المعذبون فى حياتهم الزوجية .

كان هذا هو التخطيط الإلهى لأنه سترتب على فساد العشرة بين زيد وزينب ، أثر آخر لابد من تحقيقه فى المجتمع . ولكن موعد هذا الأمر لم يكن معروفا لرسول الله ، وإن كان يعلم أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بعد زيد ، ليقضى على فكرة تحريم زواج الوالد من زوجة ابنه المتبنى إذا طلقها . ولكن متى ذلك ؟ هذا هو الذى لم يعرفه رسول الله - ﷺ - ولذلك كان يقول لزيد - حينما يشكو له - : ( أمسك عليك زوجك واتق الله ) . وكان رسول الله - ﷺ - يدور فى خلدته ، مقالة قریش فى الخروج على العادات والتقاليد ، كلما شكأ له زيد من عجزه عن العيش مع زينب ومن أجل ذلك نزلت الآيات .

﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ .

وثانيا : كان من وراء هذا التدبير ، أن يطلق زيد زينب ، فيتزوجها رسول الله ليحقق غرضين :

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ باب ( حديث رجل من أصحاب النبى ) فقد ورد الحديث عن فقرة من حديث طويل .

(١) أن يبطل ما كان تدين به العرب من مساواة الأدياء - الأبناء بالتبني - بالأبناء الحقيقيين في كل شيء ، تنفيذاً للأمر الإلهي في الآية : ( وما جعل أدياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل )<sup>(١)</sup> وكذلك النص على المحرمات من النساء لقوله : ( وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم )<sup>(٢)</sup>

٢ - أن يضرب مثلاً آخر لاتباعه في المجتمع الجديد ، بإحقاله على زواج المرأة التي هانت منزلتها - بعيشها تحت عبد رقيق - لأنها لو تركت من غير أن يتزوجها رسول الله . لبقيت في مهانة إلى الأبد : لا يقربها شريف من قومها ، ولا يرد لها اعتبارها .

فمن الذي يرفع قدرها ، ويشرح صدرها ، ويعيد إليها مكانتها بين أترابها ؟ من غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم الذي أمرها أن تتزوج من مولاه ؟

فإذا كان أمر رسول الله هو سبب نزولها - فإن زواجها من رسول الله هو الذي يداوى جراحها ، ويرفع هامتها ، ويمدها بالعز والمجد والعظمة هذه هي صورة زواج رسول الله من زينب بنت جحش .

فهل رواها المفسرون والمؤرخون على هذا الوجه المتزعزع من الحقيقة والواقع ومما ترتب عليها من التشريع الجديد الذي يعتبر مفخرة للإسلام ورسول الإسلام ؟

تعالى معنى لنمحص على المؤرخين - والمفسرين المسلمين - غفلتهم وهم يمدون خصوم الإسلام بالأسلحة التي يطعنون بها معتقداتنا ، ومقدساتنا ، فذكروا رسول الله - وهو المعصوم - بأمر يطعنه في خلقه ، وهو الذي أثنى عليه ربه من أجله فقال له : ( وإنك لعلی خلق عظيم )<sup>(٣)</sup> .

فهذا الطبري ، وابن الأثير ، وهما من كبار المؤرخين المسلمين جاء فيهما نقلا عن زواج رسول الله بزينب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج يريد زيدا وكان على باب زيد ستر من شعر ، فرفعه الريح فرأى زينب وهي حاسرة فأعجبته ، وكرهت إلى زيد فلم يستطع أن يقربها .

وقال المفسرون : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مربيت زيد ولم يكن فيه زيد ، فرأى زينب فبهره حسننها وقال : « سبحان مقلب القلوب » ( راجع تفسير ابو السعود ج ٤ تجد فيه ما لا يليق بمسلم ان يذكره عن رسول الله المعصوم ) وقال آخرون : انه لما فتح باب زيد ، عبث الهواء بالستار الذي على غرفة زينب ، فرآها في قميصها ممددة - كما تقول المستشرق التافهة مدام « ديكاميه » - فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة ، وعائشة وحفصة ، وريبت بنت مخزوم ، وام سلمة ، نسي كذلك ذكرى خديجة .

ومن هؤلاء الدكتور طه حسين الذي يقول : ( إن الله أراد أن يمتحن نبيه ويمتحن في ذلك زيدا ، ويمتحن في ذلك المؤمنين الصادقين جميعا فيلقى في قلب النبي حب زينب زوج زيد ، ويلقى في قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها ) .

والمؤسف فيما كتبه المؤرخون المسلمون ، أنهم أخذوا من المستشرقين الذين يهملهم تشويه سمعة الرسول وأصحابه .

(١) الأحزاب آية : ٤

(٢) النساء آية : ٢٣

(٣) القلم آية : ٤



- ومن الذين صوروا هذه القصة تصويرا لا يليق ، المستشرق جوستاف لوبون في كتابه ( حضارة العرب ) حيث يقول : ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال : ( حب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها ، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين ، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين ، وأطلق محمد العنان لهذا الحب . حتى انه رأى اتفاقا . زوجة ابنه بالتبني وهي عارية ، فوقع في قلبه شيء منها ، فسرحتها بعلمها ليتزوجها محمد فاعتم المسلمون فأوحى الله الى محمد بواسطة جبريل ، الذي كان يتصل به يوميا ، آيات تسوغ له ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت

ومما يثير الأسى والحزن ويحدث الجراح الدامية في عقيدة المسلمين . ما ذكره الزمخشري وأبو السعود في تفسير سورة الأحزاب عند ذكر زواج زينب .

### اسمعوا يا شباب الاسلام واحذروا !

يقول الامام الزمخشري في الجزء الثاني من تفسيره وأبو السعود في الجزء الرابع : ( إن رسول الله - ﷺ - أبصر زينب بعد ما أنكحها إياه ، فوقعت في نفسه فقال : ( سبحان مقلب القلوب ) وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لا ختطبها ) . ثم يقول الزمخشري :

فإن قلت : ما الذي افضى في نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها . ثم يقول الزمخشري ايضا : ( فإن قلت : كيف عاتبه الله على ما استهجن التصريح به - وما له لم يعاتبه في نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس - أن تنزع إلى زينب وتتبعها ؟ قلت : كم من شيء يتحفظ منه الانسان ويستحي من اطلاق الناس عليه . وهو - في نفسه - مباح متسع وحلال مطلبه ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله ) .

ثم يقول : ( لأن طموح القلب إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها ، غير موصوف بالقبح في العقل ، ولا في الشريعة ، لأنه ليس بفعل الانسان ولا وجوده باختياره ) !! ثم يستطرد الزمخشري فيقول : ( فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حيث كتمه ، وبالف في كتمه بقوله ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ لا يرضى إلا اتحاد الضمير والظاهر . والثبات في مواطن الحق . حتى يقتدى المؤمنون به ، فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وإن كان مرا .

هكذا قال الزمخشري وأفاض . . وتبعه الطبري في تاريخه ، وأبو السعود والنسفي في تفسيريهما ، وابن الأثير في تاريخه ، ومن نقل عن كل هؤلاء حتى مكثوا للمستشرقين من الاطناب في تخريج هذه الروايات واتخاذها بوقا ضخما يذيعون منه ما تجود به بغضاؤهم وأحقادهم على رسول الله - ﷺ - .

ونحن نقول : ( عدو عاقل خير من صديق جاهل ) يا مسلمون ؟ ان القصة تعتبر من مفاخر محمد - ﷺ - ، وتبرهن على تنفيذ ما أمر به من تشريع ، يراد به محو تقاليد الجاهلية وعاداتها ووجد في ذلك عنتا شديدا ، من مخالفته عادات القوم وتقاليدهم ، حتى اضطر إلى إخفاء الخطأ المرسومة بينه

وبين ربه إلى أن يجد الظروف المناسبة لإعلان ما أخفاه . وهذا واضح جدا فى قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يلبغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .

فكيف تؤخذ هذه القصة المأخذ الدنى ؟ وكيف تصور تصوير قصص الغرام والوله ؟ وكيف يرويه رواة مسلمون فى كتب انتشرت فى كل أنحاء العالم من غير تدبر فيما تهدف إليه ، دون أن يدركوا أنه يكفى لتفنيدها أمور عدة : .

أولا : أن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ليكلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ فى الآية الكريمة ذكر صحيح صريح لسبب تزويج زينب من رسول الله - ﷺ - وهو إسقاط حرج المؤمنين من زواج نساء أولادهم بالتبني ، بعد أن يكون هؤلاء الأولاد قد قضوا من أزواجهم كل غرض . ولم يكن فيما طوت الآية ولا ما صارت به ما يدل - من قريب أو بعيد على أن رسول الله كان يهوى زينب أو وقعت من قلبه فى مكان عميق ، حتى يحوقل ، ثم يقول : ( سبحان مقلب القلوب ) كما قال السادة المفسرون والمؤرخون !

ثانيا : أن زينب ابنة عمة محمد - ﷺ - .

ثالثا : أنها ربيت بعينه وتحت رعايته ، فيعرف منها مفاتيحها ومحاسنها قبل زواجها .

رابعا : أنه شاهدها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب فلو كان فى نفسه إعجاب بها ما زوجها لزيد ولاثرها لنفسه أولا .

خامسا : أنه هو الذى خطبها على مولاه زيد ، فلما امتنعت وأبى أخوها نزل القرآن فى شأنها وشأن أخيها ، يأمرهما بتنفيذ أمر رسول الله فكيف يقال - بعد كل هذه الأدلة والشواهد - فى حق رسول الله - ما يقال فى حق أى عرييد ، مع علمنا بأن زواجه عليه السلام من زينب هذه ، كان بالأمر الإلهي ، ليطل الحقوق التى كانت مقررة للتبني والادعاء ويرفع من مقام زينب ويدفع عنها خسيستها ، بعدما تزوجت من مولى كان - الى عهد قريب - عبدا رقيقا ، ثم ليرفع من قدر زيد كذلك ، ولا يأنف الشرفاء أن يردوا موارد زيد وأمثاله ، وليذيب فوارق الحسب والنسب ، التى كانت دستورا للعرب فى الجاهلية ، لأن المؤمنين سواسية ( كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ) .

### سبحان مقلب القلوب

ماذا يراد بهذا العبارة التى صدرت من رسول الله - ﷺ - بعدما راجع زيدا مرارا ، وهو يقص عليه تعاطف زينب وإبائها وإصرارها على أن تنظر إلى زوجها من برجها العاجى ؟ أدرك الرسول أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ، ولا يأتمر بإرادة أو يدعن لعقل . فلما رآها رسول الله بادية الحزن ؟ كثية الخاطر ، أدرك أنه لا يستطيع أن يلزم زينب بالبقاء مع زيد لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه رسول الله ، كما يحب لزينب أن تسعد فى زواجها به . فقال هذه العبارة من وحى ما رأى من تبرم زينب بزواجها زيد قال : ( سبحان مقلب القلوب ) . وليس يفهم لهذا القول مدلول سوى هذا المدلول .

وبعد ، فلعل السر في وقوع السادة المفسرين والمؤرخين في هذا الخطأ هو ما قاله ابن خلدون في هذه العبارة : ( إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لا اعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو ثميना ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ) ونحن ننقل ما رواه المفسرون والمحدثون في هذه القضية .

### موضوع زينب بنت جحش

فتح الباري بشرح البخارى لابن حجر ج ١٠ ص ١٤٢ قال : كان رسول الله - ﷺ - أراد أن يزوجه من زيد بن حارثة مولاه . فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله - ﷺ - فزوجها إياه ، ثم أعلم الله - عز وجل - بنيه - ﷺ - بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحي أن يأمره بطلاقها وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ! وكان قد تبنى زيدا . وفي رواية عن علي قال : ( أعلم الله نبيه - ﷺ - أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فما أتاه زيد يشكوها إليه قال له : ( أمسك عليك زوجك واتق الله ) قال الله : قد أخبرتك أنى مزوجكها ﴿ ونخفى في نفسك ما الله مبديه ﴾ .

وقد أطنب الترمذى الحكيم ، في تحسين هذه الرواية ، وقال ( إنها من جواهر العلم المكنون ) . ثم يقول ابن حجر : ( والخاصل أن الذى كان يخفيه النبى - ﷺ - هو اخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة الذى يدعى ابنه . ووقع ذلك من إمام المسلمين ليكون ادعى لقبولهم . وإنما وقع الخلط في تأويل متعلق الخشية ) وأخرج الترمذى بسنده عن عائشة قالت ( لو كان رسول الله - ﷺ - كاتما شيئا من الوحي ، لكتم هذه الآية ) ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه . . . . ﴾ الآية . وان رسول الله لما تزوجه ، قالوا تزوج حليمة ابنه فأنزل الله : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ الآية .

### حول عبارة ( سبجان مقلب القلوب )

كتاب الكافي الشافى في تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ وعلى هامش تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٣٤ قال : ( ذكر الثعلبى من غير سند وأخرج الطبرى معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله : وفي الصحيحين عن أنس قصة زينب مختصرة وليس فيه مما في أوله أ . هـ .

تفسير الخازن ج ٤ ص ٢٦٢ لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن توفى عام ٧٢٥ هـ يقول :

فإن قلت ما ذكره في تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، من محبتها في قلب النبى - ﷺ - كما رآها ،

وإرادته طلاق زيد لها ، فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه - ﷺ - من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا : قلت : هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفته بحق النبي - ﷺ - وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهي بنت عمته هو ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه - ﷺ - وهو يزوجه لزيد ، فلا يشك في تنزيه النبي - ﷺ - عن أن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، كما ذكر عن جماعة المفسرين .

قال : وأصح ما في هذا الباب .. أن الله عاتبه وقال : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟ وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء : وهو مطابق للتلاوة لأن الله - تعالى - أعلم نبيه أن يهدي ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ فلو كان الذي أضمره الرسول - ﷺ - محبتها وإرادة تطليقها لكان ظهر ذلك ، لأنه لا يجوز أن يخبره أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره . فدل ذلك على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون من زوجاته ، وإنما أخفى ذلك استحياء : أن يخبر زيدا أن التي تحتك وفي نكاحك ، ستكون زوجتي . وهذا قول حسن مرضى - الخ .

تفسير بقية المشهد .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ﴾ .

المقصود بالوطر : الحاجة والارب ، والمراد : أنه لما قضى زيد حاجته من زينب وتزوجها وعاش معها ثم طلقت ( زوجناكها ) وذلك لحكمة بالغة وهدف حكيم بينه الله في قوله تعالى : ﴿ لكي لا يكون المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ لما فصل الله - تعالى - في القضية وقال : ﴿ ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ فبعد إبطال الاسلام للتبني صارت امرأة المتبنى بعد طلاقها ممن أحلهم الله للمتبنى إذا تزوجها ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أى : نافذا فالله - تعالى - إذا حكم لا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وهو سريع الحساب قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قلداً مقلوداً ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب - رضى الله عنها - التي طلقها دعيه زيد بن حارثة - رضى الله عنه - وقوله تعالى : ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أى : هذا حكم الله - تعالى - في الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصا في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذي كان قد تبناه . ﴿ وكان أمر الله قلداً مقدوراً ﴾ أى وكان أمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ، ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله

حسبنا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴿١﴾ .

هذا مقام من أسمى المقامات ، وهدف من أعلى الأهداف إنه تبليغ رسالات الله بأمانة وصدق إلى عباده ، وهذا المقام يشمل أنبياء الله الذين قللهم الله فيهم ﴿٢﴾ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴿٣﴾ .

إن الذى يبلغ رسالة الله قد امتلأ قلبه من خشيته والخوف منه وحده ﴿٤﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٥﴾ وقال تعالى : ﴿وما لنا إلا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾ ﴿٦﴾ .

لقد علموا أن سلطان الله باق لا يزول ، فلم يخشوا ذا سلطان ، ووثقوا أن الرزق بيد الله ، وأن خزائن الله لا تنفذ أبدا فاعتمدوا على الله ، وعلموا أن من اعتصم بالله أدخله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ولا يبالي كيف أهلكه ، لقد علموا أن الناصر والحسيب والمعين هو الله فاعتمدوا عليه وسلموا الأمر إليه .

﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ ﴿٧﴾ .

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿٨﴾ .

﴿كتب الله لا غلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز﴾ ﴿٩﴾ .

وعلى رأس هؤلاء جميعا ، أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية محمد - الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، كان كل نبي يبعث لقومه خاصة ويبعث هو إلى كل أحر وأسود ﴿١٠﴾ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴿١١﴾ ﴿تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ورحمى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأسمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأسمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴿١٣﴾ (٨) .

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .

(٢) سورة ابراهيم من الآية : ١٢ .

(٣) سورة الحج آية : ٣٨ .

(٤) سورة غافر آية : ٥١ .

(٥) سورة المجادلة آية : ٢١ .

(٦) سورة الانبياء من الآية : ١٠٧ .

(٧) سورة الفرقان آية : ١ .

(٨) سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ : ١٥٨ .

نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ونصحت الأمة ، ومحويت الظلمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خيرا . خير ما جزاء نبيّا عن أمته ، ورمولا عن قومه .

يا داعيّا للواحد الديان      يا هازما للبغى والطغيان  
يا رافعا صوت العدالة عاليا      ومؤذنا في الناس بالقرآن

لقد ورثت أمته مقام البلاغ بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضى الله عنهم - بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلايته فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها . فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهمجهم يسلك الموفقون .

قال - ( ما تزال طائفة من أمتي ظاهرين بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله )<sup>(١)</sup> وقال : ( إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها )<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾<sup>(٣)</sup> .  
روى الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ( لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقالا ثم لا يقوله فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴾ نهي أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه - ( ) لم يعيش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه - ( ) ولد له القاسم والطيب والظاهر من خديجة - رضى الله عنها - فماتوا صغارا ، وولد له - ( ) ابراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا وكان له - ( ) من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة - رضى الله عنهم أجمعين - فمات في حياته - ( ) ثلاث وتأخرت فاطمة - رضى الله عنها - حتى أصيبت به - ( ) ثم ماتت بعده لسته أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾<sup>(٥)</sup> فهذه الآية نص في أنه لانيى بعده وإذا كان لانيى بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأخرى .

لقد توج الله رسالته بأربع بشرىات ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تحوشوهم واخشون

(١) مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه برواية لثويان من حديث طويل .  
(٢) انظر المستدرک للحاكم « كتاب الفتن والملاحم » ج ٤ ص ٥٢٢ فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة .  
(٣) سورة الصافات الآيتان : ١٧١ - ١٧٣ .  
(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي سعيد الخدرى .  
(٥) سورة الانعام من الآية : ١٢٤ .

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴿١﴾  
 وإذا كان الله قد أكمل به الدين وأتم به النعمة فلا نبي بعده ، ومن ثم فلا رسول إذ الرسالة  
 أخص من النبوة ، ومن ختم الأعم فقد ختم الأخص فلا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ﴿٢﴾ ومن أظلم  
 ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ  
 الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم  
 تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة  
 وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع  
 بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴿٣﴾.

### أحاديث في ختم النبوة

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي بن كعب عن أبيه - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : ( مثل  
 في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنه لم يضعها فجعل الناس يطوفون  
 بالبنان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة <sup>(١)</sup> ) ورواه  
 الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن  
 الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبي » قال : فشق ذلك على الناس فقال : ولكن  
 المبشرات .. قالوا يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء  
 النبوة <sup>(٢)</sup> .

وقال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( مثل والنبيين من  
 قبل كمثل رجل بنى داراً فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة <sup>(٣)</sup> ) .

وقال أيضاً بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول - ﷺ - : ( إن مثلى ومثل  
 الأنبياء من قبل كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها  
 فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون الا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك - قال رسول الله -  
 ﷺ - : ( فكننت أنا اللبنة <sup>(٤)</sup> ) .

وأخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( فضلت على

(١) سورة المائدة من الآية : ٣ .

(٢) سورة الأنعام الايتان : ٩٣ - ٩٤ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٣٦ ، ١٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي بن كعب عن أبيه وانظر سنن الترمذى  
 « أبواب المناقب » باب ٢٢ حديث ٣٦٩٢ من رواية أبي بن كعب عن أبيه .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٢٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٦) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأرسلته إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون (١) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن العرياض بن سارية - رضى الله عنه - قال : قال لي النبي - ﷺ - : (إني عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجدل فيطيته) (٢) .

٣ وقال الزهري أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( إن لي أسماً أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله - تعالى - به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي ) (٣) فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف . له ، وقد أخبر الله - تبارك وتعالى - في كتابه ورسوله - ﷺ - في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ليغلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ، أفاك ، دجال ، ضال ، ولو تخرق وشعبذ وأق بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله - سبحانه وتعالى - على يد الأسود العنسي باليمن ومسلمية الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنها كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يخنموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله - تعالى - معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله - تعالى - بخلقه فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرؤن بمعروف ولا ينهؤن عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الافك والفجور في أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ﴾ . تنزل على كل أفاك أثيم (٤) الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرؤن به وينهؤن عنه ، ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمرا مادامت الأرض والسموات . ( وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ) .

الأمر بذكر الله وفوائده

قال تعالى ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ ﴾ (١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧١ حديث ٥٢٣/٥ من رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لعرياض بن سارية من حديث طويل .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الفضائل » باب « في أسمائه » ج ٤ ص ١٨٢٨ حديث رقم ١٢٤ ٢٣٥٤ من رواية لمحمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وانظر الحديث رقم ١٢٥ ٢٣٥٤ .

(٤) سورة الشعراء الأيتان : ١٢٢ - ١٢٣ .



﴿٤٣﴾ نَحْبِتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۖ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه النبى - ﷺ - مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، أرشد عباده إلى تعظيمه - تعالى - وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم ، وملائكته يستغفرون لهم ، كى يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان وكان بعباده المؤمنين رحيمًا .

وبعد أن ذكر - سبحانه - توجيهاته لنبىه فى أول السورة وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۚ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۚ نَحْبِتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ يقول تعالى - أمرا - عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجيل المآب . قال الامام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : ( أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِعْطَاءِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ) قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ( ﷺ ) : ( ذكر الله عز وجل ) (١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : دعاء سمعته من رسول الله ( ﷺ ) لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شركك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك (٢)

(١) انظر سنن ابن ماجه «كتاب الأدب» «باب فضل الذكر» ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ رواية لأبى الدرداء . وانظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث عن رواية لماعز بن جبل . وانظر تحف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء . وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء . (٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٧٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابيان الى رسول الله ( ﷺ ) فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير قال - ﷺ - : ( من طال عمره وحسن عمله ) وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت علينا فممن بأمر أنشئت به ، قال - ﷺ - : ( لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى )<sup>(١)</sup> .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه قال : إن رسول الله ( ﷺ ) قال : ( أكثروا ذكر الله - تعالى - حتى يقولوا مجنون )<sup>(٢)</sup> . وقال الطبرانى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنها - قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : ( اذكروا الله ذكرا ، حتى يقول المنافقون إنكم تراءون )<sup>(٣)</sup> وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنها - قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : ( ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة )<sup>(٤)</sup> .

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنها - فى قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ إن الله - تعالى - لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فإن الله تعالى لم يجعل لها حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : ﴿ اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال عز وجل : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾<sup>(٥)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ هو الذى يصل عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهيج إلى الذكر أى أنه سبحانه وتعالى يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عز وجل : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال النبى ( ﷺ ) : ( يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه )<sup>(٧)</sup> . والصلاة من الله - تعالى - ثناؤه على العبد عند الملائكة هكذا قال البخارى بسنده عن الربيع بن أنس . وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

(١) أنظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١٩٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن بشر .

(٢) أنظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٣) أنظر حلية الأولياء للأصبهانى ج ٣ ص ٨٠ - ٨١ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس بلفظ « اذكروا الله ذكرا يقول المنافقون إنكم تراءون » وقال : غريب من حديث أبي الجوزاء لم يوصله الا سعيد عن الحسن .

(٤) أنظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو .

(٥) سورة الروم الآيتان : ١٧ - ١٨ .

(٦) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ - ١٥٢ .

(٧) أنظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعمت وأسماى الله ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة من حديث طويل .

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وفرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ : أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رَحِيمًا ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الفكر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة . وأما رحمته بهم فى الآخرة فأمّنهم من الفرع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وماذاك إلا لمحبته لهم ورأفته .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : مر رسول الله ( ﷺ ) فى نفر من أصحابه - رضى الله عنهم - وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته . فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فخفضهم رسول الله ( ﷺ ) وقال : ( لا ، والله لا يلقى حبيبه فى النار ) (٢) .

وفى صحيح الامام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله ( ﷺ ) رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فالصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ( ﷺ ) : ( أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟ ) قالوا : لا ، قال رسول الله ( ﷺ ) : ( فوالله الله أرحم بعباده من هذه بولدها ) (٣) وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أى : من الله - تعالى - يوم يلقونه سلام أى : يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ (٤) وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانه اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ وأعد لهم أجرا كريما ﴾ (٦) يعنى الجنة وما فيها من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والمنافع والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الامام ابن القيم : فى الذكر نحو من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن - عز وجل - .

(١) سورة غافر الآيتان : ٧ - ٨ وجزء من الآية : ٩ .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ١٠٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية انس .

(٣) انظر صحيح البخارى «كتاب الأدب» باب «رحمة الولد» فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٤) سورة يس الآية : ٥٨ .

(٥) سورة يونس من الآية : ١٠ .

(٦) سورة الاحزاب من الآية : ٤٤ .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم من القلب .

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن .

السادسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة : أنه يورثه المحبة التى هى روح الاسلام ، وقطب رضى الدين ، ومدار السعادة

والنجاة ، وقد جعل الله لكل شىء سبباً ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله -

عز وجل - ، فليلهج بذكره ، فإنه الدرس والمذاكرة ، كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة ،

وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

العاشر : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الاحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل

للغافل عن الذكر إلى مقام الاحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورثه الانابة ، وهى الرجوع إلى الله - عز وجل - فمضى أكثر الرجوع إليه

بذكره ، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله - عز وجل - مفزعه وملجأ ، وملاذه

ومعاده ، وقبلة قلبه ومهربه عند التنازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر

خفلة يكون بعده منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه - عز وجل - وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع

الله - تعالى - بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر الله - تعالى - له ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾

[ البقرة : ١٥٢ ] ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلاً وشرفاً .

وقال النبى ( ﷺ ) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ( من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ،

ومن ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير منه ) (١) .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية - قدس الله تعالى

روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسماك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ .

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقد العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين

قوته .

وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله - تعالى - إلى قريب من

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعت وأسماء الله ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

انتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتي ، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتي ، وكلاما قريبا من هذا . وقال لى مرة : لا أترك الذكر إلا بينه إحجام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صدهاء كما تقدم فى الحديث وكل شيء له صدأ ، وصدأ الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وربّه - تبارك وتعالى - فإن الغافل بينه وبين الله - عز وجل - وحشة لا تزول إلا بالذكر .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربّه - عز وجل - من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الامام أحمد رضى الله عنه فى ( المسند ) عن النبى ( ﷺ ) أنه قال : ( إن ما تذكرون من جلال الله - عز وجل - من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به ؟ ) (١) .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرف إلى الله - تعالى - بذكره فى الرخاء ، عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع للذاكر لله - تعالى - إذا أصابته شدة أو سأل الله - تعالى - حاجة ، قالت الملائكة : يا رب صوت معروف ، من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله - عز وجل - إذا دعاه أو سألّه ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت منكر من عبد منكر .

الثالثة والعشرون : أنه ينجى من عذاب الله - تعالى - ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - ويروى مرفوعا : ( ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى ) (٢) .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى ( ﷺ ) .

الخامسة والعشرون : أنه سبب إشغال اللسان عن الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله - تعالى - ، وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، فلا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله - تعالى - والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ، ومن ييس لسانه عن ذكر الله - تعالى - ، ترطب بكل باطل ولغو وفاحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة - مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبها إليه ، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) انظر حاية الأولياء ج ١ ص ٢٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ - رضى الله تعالى عنه -

كان .. والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .  
الثامنة والعشرون : أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى ثاب عليه حسرة وترة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء في الخلوة سبب لاطلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه ، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف ، وهذا الذاك مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : قال الله : ( من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ) .

الحادى والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الانسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى في جامعة من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : ( لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل - عليه السلام - فقال : يا محمد أقرئ أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر )<sup>(١)</sup> .  
وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ، عن جابر عن النبى ( ﷺ ) قال : ( من قال سبحان الله ويحمده غرست له نخلة في الجنة )<sup>(٢)</sup> .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .  
ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ( ﷺ ) قال : ( من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، )<sup>(٣)</sup> ومن قال سبحان الله ويحمده فى يوم مائة مرة . حطت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر )<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ٦ ج ٥ ص ١٧٣ حديث رقم ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن مسعود ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

( ٢ ) سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ٦١ ج ٥ ص ١٨٤ حديث رقم ٣٥٣١ ، ٣٥٣٢ فقد ورد الحديثان من رواية أبى الزبير عن جابر . وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

( ٣ ) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الأدب ) « باب » « فضل » لا إله إلا الله » ج ٢ ص ١٢٤٨ حديث رقم ٣٧٩٨ .

( ٤ ) المرجع السابق .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ) (١) .

وفي الترمذى من حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله ( ﷺ ) قال : ( من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حمة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أعتق الله ربعة من النار ، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا أعتقه الله من النار ) (٢) .

وفيه عن ثوبان ، أن رسول الله ( ﷺ ) قال : ( من قال حين يمسي وإذا أصبح : رضيت بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ( ﷺ ) رسولا ، كان حقاً على الله أن يرضيه ) (٣) .

وفي الترمذى : ( من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة ) (٤) .

الرابعة والثلاثون : أن ذكر الرب - تبارك وتعالى - يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٥) .

وإذا نسى العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها ، فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولا بد هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ،

وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطاً ، فانفرط عليه أمره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهمج به ، والا يزال اللسان رطباً به ، وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذى إذا فقدته فسد جسمه وهلك ، ومنزلة الماء ، عند شدة العطش ، ومنزلة اللباس في الحر والبرد ، ومنزلة السكن في شدة الشتاء

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٤ « كتاب الذكر والدعاء » فضل سبحان الله حديث رقم ٨٥ - ٢٧٣١ وانظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٦١ من رواية أبي ذر .

(٢) انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك وانظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ « كتاب التوافل » « باب » الترغيب في آيات وأذكاد يقولها إذا أصبح وإذا أمسى حديث رقم ١١ من رواية لانس .

(٣) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ج ٥ ص ١٣٣ حديث ٣٤٤٩ من رواية لثوبان « لم يرد منها » وإذا أصبح وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا دخل السوق ج ٥ ص ١٥٥ حديث رقم ٣٤٨٨ من رواية لسالم ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده .

(٥) سورة الحشر آية : ١٩ .

والسوم فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ، فأين هلاك الروح والقلب وفسادها من هلاك البدن وفساده ، هذا هلاك لا بد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ، وأما هلاك القلب والروح ، فهلاك لا يرجى معه صلاح وفلاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .  
ولولم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها ، فمن نسي الله - تعالى - أنساه نفسه في الدنيا ، ونسيه في العذاب يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ (١) .  
أى : تنسى في العذاب كما نسيت آياتنا ، فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها . وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ، وهو كتابه ، وهو المراد ويتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ، وأسمائه وصفاته وأوامره ، وآلائه ، ونعمه ، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه - تعالى - ، فإن الذكر فى الآية إما مصدرا مضافا إلى معموله الذى هو المذكور وإما إسما مضافا إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى من أعرض عن كتابى ولم يتلّه ، ولم يتدبره ولم يعمل به ، ولم يفهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيق عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء ، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح : أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب . وهذا عكس أهل السعادة والفلاح ، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة وفى البرزخ ، ولهم فى الآخرة أفضل الثواب .  
قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾ (٢) فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٣) هذا فى البرزخ والآخرة . وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾ (٥) فهذا فى الآخرة .  
وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٦) .

هذه أربعة مواضع ذكر الله - تعالى - فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء فى الدنيا ، وجزاء فى الآخرة . فالإحسان له جزاء معجل ولا بد ، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد ، ولولم يكن إلا

(١) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٩٧ .

(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ٤١ .

(٥) سورة هود من الآية : ٣ .

(٦) سورة الزمر آية : ١٠ .



ما يجازى به المحسن ، من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ، ولذته بمعاملة ربه - عز وجل - ، وطاعته وذكره ، ويعم روحه بمحبته ، وذكره وفرحه بربه - سبحانه وتعالى - أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسيء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب ، وتشبته وظلمته ، وحزازاته ، وغمه ، وهمه ، وحزنه ، وخوفه ، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسن وحياة يرتاب فيه ، بل الهموم والغموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دينوية ، وجهنم حاضرة والاقبال على الله تعالى ، والانابة إليه ، والرضابه وعنه ، وامتلاء القلب من محبته ، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبته وسمعت شيخ الاملام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى ويستانى فى صدرى ، إن رحمت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .  
وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بدلت لهم مثل هذه القلعة ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : ( اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ) .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه - تعالى - ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : ( فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب )<sup>(١)</sup> وعلم الله ما رأيت أحدا أطيّب عيشاً منه قط - مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق ، وهو مع ذلك من أطيّب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقراهم قلباً ، وأسرههم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضائق بنا الأرض ، أتينا ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب إنشراحاً وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فأتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وماذاقوا أطيّب ما فيها ؟ .

قيل : وما أطيّب ما فيها ؟ قال : محبة الله - تعالى - ومعرفته وذكره .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ، ومعرفته ، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه ، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ،

هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .  
ولأننا تقرأ أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله - عز وجل - فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين ، ومن لم تقرأ عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حشرات .

ولأننا يصدق بهذه الأمور من كان في قلبه حياة ، وأما ميت القلب ، فيوحشك ، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك ، فإذا ابتليت به ، فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشتغل به عما هو أولى بك .

وأعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله - عز وجل - وإنقطاعك عنه ، وضياح وقتك عليه ، وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك . فإذا بليت بهذا - ولا بد لك منه - فعامل الله - تعالى - فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك ، وتقرب إلى الله - تعالى - بمروضاته فيه ، وإجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن في سيره مطمع ، فلا تقف معه ، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضمن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلع عليك الفجر ، وأنت في المنزلة فتسير الرفاق فتصبح وحدك وأنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه ، وفي سوقه ، وفي حال صحته وسقمه ، وفي حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه ، وسفره وإقامته ، فليس في الأعمال شيء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فسيق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل في ساقية الركب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحكى عن رجل من العباد : أنه نزل برجل من العباد ضيفا ، فقام العابد ليله يصلي ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب ، وهذا ونحوه له محمل صحيح ، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، ولأننا محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه - عز وجل - وألصق حبه قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا وما فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفي قلبه ما الله - تعالى - به عليم .

وآخر قائم يصلي ويتلو ، وفي قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ، ما الله به عليم ، أو قلبه في واد وجسمه في واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبدان ، والمعول على الساكن ، لا على الأطلال ،

والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت . السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استتارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله - تعالى - : قال الله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِنَّا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ (١) فالأول هو المؤمن استنار بالايمان بالله ومحبه ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله - تعالى - المعرض عن ذكره ومحبه ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، في النور ، والشقاء كل الشقاء في فواته .

ولهذا كان النبي ( ﷺ ) يبالغ في سؤال ربه - تبارك وتعالى - حين يسأله أن يجعله في لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه ، حتى يقول : ( وإجعلني نورا ) فسأل ربه - تبارك وتعالى - أن يجعل النور في ذاته الظاهرة الباطنة ، وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نورا . فدين الله - عز وجل - نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التي أعدها لأولياته نور يتلأأ ، وهو - تبارك وتعالى - نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه . وفي دعاء النبي ( ﷺ ) يوم الطائف : ( أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل علي غضبك ، أو ينزل بي سخطك ، لك العتيبي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ) .

وقال ابن سعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه .

وقد قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ (٢) فإذا جاء - تبارك وتعالى - يوم القيامة للفصل بين عباده ، أشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، ويذهب نورهما ، حجابهم تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى الأشعري : قام فينا رسول الله ( ﷺ ) بخمس كلمات فقال : ( إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابهم النور ، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ) (٣) ثم قرأ : ﴿ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (٤) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ، وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ، ساخ الجبل في الأرض ، وتكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٦٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب في قوله عليه السلام : إن الله لا ينام - الخ ج ١ ص ١٦١ - ١٦٢ حديث رقم ٢٩٣ - ١٧٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي موسى .

(٤) سورة النمل من الآية : ٨ .

عباس في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾<sup>(١)</sup> قال : ذلك الله - عز وجل - ، إذا تجلى بنوره لم يقدّر له شيء .

وهذا من بدیع فهمه - رضی الله تعالى عنه - ، ودقیق فطنته ، وكيف لا وقد دعا له رسول الله (ﷺ) أن يعلمه التأویل ، فالرب - تبارك وتعالى - يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رآته فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس - والله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كما هي عليه ، ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فقال : ألسنت ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : أفترى فيها ؟ قال : لا ، قال : فالله - تعالى - أعظم وأجل .

وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - لنوره في قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال - سبحانه وتعالى - ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدي الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾<sup>(٢)</sup> [ النور : ٣٥ ] .

قال أبي بن كعب : مثل نوره في قلب المسلم . وهذا هو النور الذي أودعه في قلبه من معرفته ومحبه والايمن به ، وذكره ، وهو نوره الذي أنزله اليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله في قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم في ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه في قلوبهم في الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضيء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره في الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت في الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا ، لا باطنا ، أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب . وضرب الله - عز وجل - لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلا بالمشكاة ، وهي الكوة في الحائط ، فهي مثل الصدر ، وفي تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبهت بالكوكب الدرّي في بياضه وصفائه ، وهي مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هي في قلب المؤمن ، وهي : الصفاء ، والرقّة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله - تعالى - ، ويغلظ عليهم ويشد في الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، فلا تبطل صفة من صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعد وتعاوضها ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٣ .

(٢) سورة النور آية : ٣٥ .

(٣) سورة الفتح من الآية : ٢٩ .

حولك ﴿١﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلق عليهم﴾ ﴿٢﴾ وفي أثر : (القلوب آنية الله - تعالى - في أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفها) .  
وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان في طرفي نقیض . أحدهما : قلب حجري قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق ، وبإزائه قلب ضعيف مائي ، لا قوة فيه ولا استمسك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير في غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث ، وفي الزجاجة مصباح ، وهو النور الذي في الفتيلة ، وهي حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة في أعدل الأماكن تصيها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضيء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .  
وكذلك مادة نور المصباح الذي في قلب المؤمن ، هي من شجرة الوحي التي هي من أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هي أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هي وسط بين الطرفين المذمومين في كل شيء ، فهذه مادة مصباح الايمان في قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضيء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نورا على نور . وهكذا المؤمن قلبه مضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحي إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته ، فيكون نورا على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآيات العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعاني الشريفة ، فذكر - سبحانه وتعالى - نوره في السموات والأرض ، ونوره في قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذي استتارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذي استتارت به أقطار العالم العلوي والسفلي ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعيش فيه آدمي ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التي لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولا بد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان في مكان لا نور فيه . والله - سبحانه وتعالى - يقرن بين الحياة والنور ، كما في قوله - عز وجل - : ﴿أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ ﴿٣﴾ وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٣ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا فهدى به من نشاء من عبادنا ﴿١﴾ .  
وقد قيل : إن الضمير في ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب وقيل : إلى الايمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح ، أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نورا ، فسماه روحا لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الاشراق والاضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والاضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فهذا يضرب - سبحانه وتعالى - المثلين : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الاشراق والنور ، كما ضرب ذلك في أول سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾ (٢) . وقال : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ ولم يقل : بنارهم لأن النار فيها الاحراق والاشراق ، فذهب بما فيه الاضاءة والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والاحراق . وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقي فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرهما وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ، فأصلاهم الله - تعالى - إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على الأفئدة ، فهذا مثل من لم يصحبه نور الايمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (٤) وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الاسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عيانا ، ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ فهم لا يرجعون ﴾ (٥) إليه ، لأنهم فارقوا الاسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه . وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ لأنهم لم يعقلوا الاسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ، صم بكم عمى ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا ، وإلى الايمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا ، وإلى طريق الرشاد هاديا ، لقد أسمع منادى الايمان لو صادف آذانا واعية ، وشفت مواضع القرآن لو وافقت القلوب من غيها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ٣٩ .

(٤) سورة البقرة آية : ١٧١ .

(٥) سورة البقرة آية ١٨ .

وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام . ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و ( ما لجرح بميت إيلام ) .

والمثل الثاني المائي قوله تعالى : ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ (١) .

الصيب : المطر الذي يصب من السماء ، أى : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذي به حياة القلوب ، كالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات والمثالات التى حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ( ﷺ ) ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأوى والأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس ذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقًا يكاد يخطف البصر ، ورعدًا عظيمًا وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرًا لا يدرى أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو فى نفسه ، بل لا يدرك إلا رعدًا ، وبرقًا ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفرع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيب وعلم ما يحصل به من الخيرات والحياة والنفع وعلم أنه لا بد من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه نصيبه من الصيب . فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل ( ﷺ ) من عند رب العالمين - تبارك وتعالى - على قلب رسول الله ( ﷺ ) ليحى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء حكمة بالغة وأسباب منتظمة نظمها العزيز الحكيم . فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده ، وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، ماستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما يتيقنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش فى نحر الظهيرة ، وسمعه فى المثل المائي كسمع من يموت من صوت الرعد .

وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد ، وإذا صادف هذه العقول والأسماع والنجس شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت فيها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين هؤلاء ، والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم عدادا وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرا .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم في كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : ﴿ ومنهم .. ومنهم .. ﴾ حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر في أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفي أوصاف الكفار آيتين ، وفي أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجملة مظهرون الموافقة والمنصرة ، بخلاف الكافر الذي قد نابذ العدو ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى منابذته ومفارقه . ونظير هذين المثليين المثان المذكوران في سورة الرعد في قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾ (١) فهذا المثل هو المثل المائي ، شبه سبحانه الوحي الذي أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذي أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل . فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية بقدرها . ولما كانت الأودية ومجاري السيول فيها الغناء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحصله السيل فيطفو على وجه الماء زبدا عاليا ، يمر عليه متراكبا ولكن تحته الماء الفرات الذي به حياة الأرض ، فيقذف الوادي ذلك الغناء الى جنبتيه حتى لا يبقى منه شيء ، ويبقى الماء الذي تحت الغناء يسقى الله - تعالى - به الأرض ، فيحى به البلاد والعبادة والشجر والدواب ، والغناء يذهب جفاء يجفى ، وي طرح على شفير الوادي .

فكذلك العلم والايمان الذي أنزله من السماء في القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مغالطته لها ما فيها من غناء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا في أعلاها ، استقر العلم والايمان والهدى في جذر القلب وهو أصله ومستقره كما قال النبي ( ﷺ ) ( نزل الايمان في جذر قلوب الرجال ) (٢) رواه البخارى من حديث حذيفة .. فلا يزول كله ، ويبقى العلم النافع والايمان الخالص في جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويزرعون . وفي الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري عن النبي ( ﷺ ) قال : ( مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة

(١) سورة الرعد من الآية : ١٧ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الفتن » باب إذا بقى في حثالة من الناس جـ ٩ ص ٦٦ فقد ورد الحديث من رواية حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن .. الخ » .

وانظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٧١ ، جـ ٨ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال فعملوا من القرآن .... الخ » .



طية ، قبلت الماء فأنبئت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، وانفع بما بعثني الله به ، فعلم وعلم وهمل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به <sup>(١)</sup> فجعل النبي (ﷺ) الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات : الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملاً ودعوا إلى الله - عز وجل - ورسوله (ﷺ) ، فهؤلاء أتباع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - حقاً ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء (ﷺ) الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ <sup>(٢)</sup> فالأيدي القوة في أمر الله والأبصار البصائر في دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقہ في الدين والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهماً خاصاً ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل : هل خصكم رسول الله (ﷺ) بشيء دون الناس ؟ فقال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فيها يؤتيه الله عبداً في كتابه .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلاً والعشب الكثير الذي أنبته الأرض ، وهو الذي تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذورها في أرض قابلة للزرع والنبات فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ، ووردوها كل بحسبه . ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ <sup>(٣)</sup> وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبي (ﷺ) : ( نضر الله إمرأ سمع مقالتي فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ) <sup>(٤)</sup> وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبي (ﷺ) لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذي يقول فيه : سمعت ، ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، ويورك في فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقهاً . وقال أبو محمد بن حزم : جمعت فتاويه في سبعة أسفار كبار ، وهي بحسب ما بلغ جامعها ، والا فعلم ابن عباس كالبهر ، وفقهه واستنباطه وفهمه في القرآن بالموضع الذي فاق به الناس ، وقد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب العلم » باب فضل من علم وتعلم ج ١ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي موسى الأشعري .

(٢) سورة ص آية : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٦٠ .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه . وانظر تخاف السادة المتعنتين للزبيدي ج ٨ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة . وانظر مجمع الزوائد كتاب « العلم » باب في سماع الحديث وتبليغه ج ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة .

سمع كما سمعوا ، وحفظ كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضي وأقبلها للزراع ، فبذر فيها النصوص ، فأثبتت من كل زوج كريم : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾<sup>(١)</sup> وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره واستنباطه ، من فتاوى أبي هريرة وتفسيره ، وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الإطلاق : يؤدي الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها وهكذا الناس بعده قسمان : قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه . وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية فالطبقة الأولى أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراسة بل حظهم من الرواية أوفر . والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ولا رعاية ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾<sup>(٢)</sup> فهم الذين يضيقون الديار ، ويغفلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرحه ، فإن ترقى همته فوق ذلك كان في داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقى همته فوق ذلك ، كان همه في الرياسة والانتصار للنفس الكلبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه نصرة النفس السبعية ، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء ؟ فإن النفوس ثلاثة : كلبية وسبعية وملكية . فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة والجيفة والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل يقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل . وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والإيمان ، ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذه لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها ، لا لتقطع به عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا ، وهو المثل الناري ، فقال : ﴿ وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾<sup>(٣)</sup> ، وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير لتمحس وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذي ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ، ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا ، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا : فقال : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافي الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الفرقان من الآية : ٤٤ .

(٢) الرعد آية رقم ٧٧

(٣) الرعد آية رقم ١٨

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة فحياة الموجودين الروحي والحس بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الاضاءة فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ، فيه انفساحه وانسراحه وسعته ، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم : ( إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح )  
قالوا : وما علامة ذلك ؟

قال : ( الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله )<sup>(١)</sup>  
ونور العبد هو الذي يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدره عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهي أرواح المؤمنين التي استنارت بالنور الذي أنزله على رسوله ﷺ ، والملائكة : الذين خلقوا من نور كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ( خلقت الملائكة من نور وخلقت الشياطين من نار وخلق آدم مما وصف لكم )<sup>(٢)</sup> .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هي التي تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهي بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدي الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه في عليين ،

فلما كانت هذه الروح ، روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة ، صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة ، وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها صرھا ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها ، وماهى منه ، وهذا مبين في حديث البراء بن عازب الطويل الذي رواه الامام أحمد وأبو عوانة الاسفراييني في صحيحه والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح<sup>(٣)</sup> .

والمقصود : أن الله عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح ، إلا ماكان منها نورا ، وأعظم الخلق نورا ، أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ ( إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن اخطأ ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله تعالى )<sup>(٤)</sup>

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الايمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذي ألقاه عليهم سبحانه وتعالى ، هو الذي أحياهم وهداهم ، فأصابته العظمة منه

(١) انحاف السادة المتقين ج ١ ص ٤٢٤

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرفائق ج ٤ ص ٢٢٩٤ برقم ٦٠ / ٢٩٩٦ والامام أحمد ج ٦ ص ١٥٣

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ٤ ص ٢٨٧

(٤) أخرجه الترمذی فی أبواب الايمان ج ٤ ص ١٣٥ برقم ٢٧٨٠ وقال هذا حديث حسن .

حظها ، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم وأتمه بالروح ، الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام ، والنور الذى أوحاه اليهم ، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق ، الذى حصل لها يوم إلقاء النور فانضاف نور الوحي والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح واذعنت به الجوارح للطاعات طوعا واختيارا ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر ، هو أعظم منه وأجل ، وهو نور الصفات العليا ، الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الايمان ، مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المراثيات إلى العين ، وذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الايمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسول الله ﷺ يدبر أمر الممالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقضى وينفذ ، ويعز ويزل ، ويقلب الليل والنهار ، ويذل الأيام بين الناس ، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتى بأخرى . والرسول من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب ارادته ومشيتته ، فما شاء كان كما شاء ، فى الوقت الذى يشاء ، على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تقدم ولا تأخر ، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات والأرض وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وما تحتها ، وفى البحار والجو ، وفى سائر أجزاء العالم وذراته ، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، ووسع كل شيء رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات ، فلا تختلف عليه ولا تشبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالخاح الملحين ذوى الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المراثيات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ، ولم تتحرك به شفتاه ، وأخفى منه مالم يخطر بقلبه بعد ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا

فى وقت كذا وكذا ، له الخلق والأمر ، وله الملك وله الحمد ، وله الدنيا والآخرة ، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الملك كله ، وله الحمد كله ، ويده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شيء ، ووسعت رحمته كل شيء ، وسعت نعمته إلى كل حى ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾<sup>(١)</sup> : يغفر ذنبا ، ويفرج هما ، ويكشف كربا ، ويجبر كسيرا ، ويغنى فقيرا ، ويعلم جاهلا ، ويهدى ضالا ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ، ويفك عانيا ، ويشيع جائعا ، ويكسو عاريا ، ويشفى مريضا ، ويعافى مبتلى ، ويقلب تائبا ، ويجزى محسنا ، وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ، ويقلب عشرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ،

لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجاب النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى ، لا تغيضها نفقة ، سخاء الليل والنهار . أرايتم ما أنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض مافي يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول :

أنا الملك ، أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ، لا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها ، لو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، مازاد ذلك فى ملكه شيئا ، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، مانقص ذلك من ملكه شيئا ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه ، وإنسهم وجنهم ، وحيهم وميتهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه فأعطى كلا منهم ما سأل ، مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها - من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا - أقلام ، والبحر وراء سبعة أبحر تمده من بعده مدادا . فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ، لفنيت الأقلام ونفد المداد ، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى . وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاذ ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟ هو الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء ، والظاهر الذى ليس فوقه شيء ، والباطن الذى ليس دونه شيء ، تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، وأنصر من أبتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد ، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حق واجب      كلا ولا سعى لديه ضائع  
ان عذبوا فبعد له - أو نعموا      فبفضله ، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذى لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلی فلا شبيه له ، ولا سمي له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل ملك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نعمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصي وسجل الآثار ، وكتب الأجل ، فالقلوب له منضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١) .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا مالا يخطر

بالبال ، ولا تناله عبارة .

والمقصود : أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء ، وهو نور العبد في دنياه ، وفي البرزخ ، وفي يوم القيامة .

وعلى حسب نور الايمان في قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله ، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله ، إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل ، وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط ، وهكذا يكون نور وجهه في يوم القيامة والله تعالى المستعان وعليه التكلان .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأمور ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر ، وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل مايريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شيء .  
الثامنة والثلاثون : أن في القلب خلة وفاقه لايسدها شيء ألته ، إلا ذكر الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعار القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبع له ، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة ، ويغنى الفاقة ، فيكون صاحبه غنيا بلا مال ، عزيزا بلا عشيرة ، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته ، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المتجمع ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وارادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب في تفرقتها وتشتتها عليه ، وانفراطها له ، والحياة كل الحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه ، وعزومه وارادته ، ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم ، والغموم والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه ، ويفرق أيضا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياها وأوزاره ، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ، ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن ابليس لايزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلما كان أقوى طلبا لله سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وارادة له ، كانت السرية أكثر وأعظم شوكة ، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والارادة ، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر ، وأما تقريبه البعيد فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل ، فلايزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها ، فحينئذ تصغر في عينه الدنيا ، وتعظم في قلبه الآخرة ، ويبعد القريب اليه ، وفي الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، متى قربت من قلبه بعدت عنه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان .

الفائدة الأربعون : أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم مافاتة في نومته ، شد المئزر ، وأحيا بقية عمره ، واستدرك مافاتة ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .  
وحسبنا هذا القدر من فوائد الذكر سائلين الله تعالى أن يعلمنا ماينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا .

قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ، وَبَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَن لَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا . وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ .  
سيدى أبا القاسم يارسول الله :

صلت عليك ملائكة الرحمن  
لما طلعت على الوجود مزودا  
وسرى الضياء بسائر الأكوان  
يحمى الاله وراية القرآن

لقد مدحك الله تعالى بما منحك فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup>  
أرسلك للناس عامة ، ونصرك بالرعب بين يدي سيرة شهر ، وجعل لك ولأمتك الأرض  
مسجدا وطهورا ، وأحل لك الغنائم ولم تحل لأحد قبلك ، وأتاك جوامع الكلم ، وأعطاك الشفاعة  
العظمى .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقاء  
فيسجد تحت العرش لله سجدة  
فلا أحد في الرسل يشفع إلا هو  
ويسأله فصل القضاء فيعطاه

فسلام عليك في الأولين ، وسلام عليك في الآخرين ، وسلام عليك في الملأ الأعلى إلى يوم الدين ،  
وسلام عليك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قال البخارى في البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وقال  
وهب بن منبه : إن الله تعالى أوحى إلى نبي من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعيب : أن قم في قومك بنى  
إسرائيل فإن منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا ضحاح في  
الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكنته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت  
قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا ، لا يقول الخنا . أفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده  
بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ،  
والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل  
سيرته ، وألهدى إمامه والاسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ،  
وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به  
بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، واستنقذ به فتاما من الناس  
عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ،  
موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ، ألهمهم التسييح والتحميد ، والثناء والتكبير  
والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجهم ومنقلبهم ومشواهم ، يصلون لى قياما وقعودا ،

ويقاتلون في سبيل الله صفوفا وزحوبا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفاً ، يطهرون الوجوه وللاطراف ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأنجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل لبيوت بالنهار ، وأجعل من أهل بيته وذريته السابقين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، أمة من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن يتزع شيتاً مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعين إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيته من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .<sup>(١)</sup> .

لقد كمل الله نبيه ﷺ بالخلق الكريم فهو الداعية إلى الله على بصيره ، الشاهد لله بالتوحيد ، والشاهد على الأمم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾<sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾<sup>(٤)</sup>

وقال : ﴿ وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾<sup>(٥)</sup>

وهو المبشر للمؤمنين بالجنة : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا ماكتسب فيه أبدا ﴾<sup>(٧)</sup> وقال سبحانه : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾<sup>(٨)</sup> .

وهو النذير من عذاب النار قال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾<sup>(٩)</sup> وقال : ﴿ وتنذر قوما لدا ﴾<sup>(١٠)</sup> وقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾<sup>(١١)</sup> وقال : ﴿ لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزقة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾<sup>(١٢)</sup>

وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب

- |                                 |                                 |
|---------------------------------|---------------------------------|
| (٧) سورة الكهف آية ٢            | (١١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩٦ ، |
| (٨) سورة التوبة الآيتان ٢١ ، ٢٢ | ص ٤٩٧ ج ١ دار التراث            |
| (٩) سورة الكهف آية ٤            | (٢) سورة البقرة آية ١٤٣         |
| (١٠) سورة مريم آية ٩٧           | (٣) سورة النساء آية ٤١          |
| (١١) سورة مريم آية ٣٩           | (٤) سورة النحل آية ٨٩           |
| (١٢) سورة غافر الآيات ١٥ - ١٨   | (٥) سورة الحج آية ٧٨            |
|                                 | (٦) سورة البقرة آية ٢٥          |



دعوتك وتتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴿١﴾ وقال : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾ ﴿٢﴾  
 وقال : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ ﴿٣﴾  
 وهو الداعي إلى الله على بصيرة ﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعني وسبجان الله وما أنا من المشركين ﴾ ﴿٤﴾

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ ﴿٥﴾ وهو السراج المنير والقمر الساطع بنوره ، الذى يبدد غياهب الظلمات ، ويحيى بدعوته الأرض والسموات ، وهو الذى بعثه الله تعالى ليملأ الأرض عدلا وقسطا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، وفرق بين السراج المنير ، والسراج الوهاج ، فالسراج المنير فيه نور وليس فيه حرارة تؤذى ، والسراج الوهاج فيه نور وحرارة كالشمس فإذا ماعدت مقارنة بين السراجين ، السراج المنير ، وهو رسول الله ﷺ ، والسراج الوهاج وهو الشمس ، رأيت أن السراج الوهاج يطلع نهارا ويغيب ليلا ، أما نور دعوة رسول الله ﷺ فإنه لا يغيب ليلا ونهارا ، الشمس قد تؤذيكم بحرها صيفا ، ودعوة رسول الله ﷺ بما فيها من نور ، تدفئك شتاء ، وتنعشك صيفا ، والسراج الوهاج إذا اقتربت منه أو ذيت بحره ، أما سراج رسول الله ﷺ فكلما ازدادت منه قربا ازدادت من الله حبا ، لقد أمره الله ونهاه ، أمره بقوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ ونهاه بقوله : ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيل ﴾ وأى فضل بعد رضوان الله عليهم ، وأى نعمة بعد الجنة ، كل نعيم دون الجنة حقير .

وكل بلاء دون النار عافية ؛ لقد نهاه الله تعالى في أول هذه السورة عن طاعة الكافرين والمنافقين ، ويفيد ذلك النهى تثبيتته على ما هو عليه ، وهنا أعاد الذهن مرة أخرى توكيدا وتقوية ، وأمره في أول السورة بالتوكل على الله ، ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيل ﴾ وهنا أعاد الأمر بالتوكل لما فيه من زيادة التسليم والتفويض لله ، فالتوكل هو زاد الدعاة الذى لا ينضب ، ورصيدهم الذى لا ينفد ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد ؟

﴿ يا أيها النبی إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيل ﴾ .

### كلمة عن التوكل

وهو يقال على وجهين : يقال : توكلت لفلان بمعنى توليت له . يقال : وكلته توكيلا ، فتوكل

(١) سورة ابراهيم آية ٤٤

(٢) سورة النبا آية ٤٠

(٣) سورة سبأ آية ٤٦

(٤) سورة يوسف آية ١٠٨

(٥) سورة النحل آية ١٢٥

لى ، وتوكلت عليه بمعنى اعتمد عليه .

وقد أمر الله تعالى بالتوكل فى خمسة عشر موضعا من القرآن :

الأول : إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا على : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ إلى قوله

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup> .

الثانى : إذا أعرضت عن أعدائى فليكن رفيقك التوكل :

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله ﴾<sup>(٣)</sup>

الثالث : إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو

عليه توكلت ﴾<sup>(٤)</sup> .

الرابع : إذا تلى القرآن عليك ، أو تلوته ، فاستند على التوكل : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته

زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٥)</sup> .

الخامس : إذا طلبت الصلح والاصلاح بين قوم لاتتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل : ﴿ وإن جنحوا

للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾<sup>(٦)</sup> .

السادس : إذا وصلت قوافل القضاء استقبلها بالتوكل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو

مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾<sup>(٧)</sup>

السابع : إذا نصبت الأعداء حبالات المكر ادخل أنت فى أرض التوكل ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا

بينة وما نحن بتاركى آهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء قال

إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدون جميعاً ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله

ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربه على صراط مستقيم ﴾<sup>(٨)</sup> وقال سبحانه : ﴿ قالت

لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتىكم

بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على

ماأذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾<sup>(٩)</sup>

وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى

بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا

تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمون ﴾<sup>(١٠)</sup> .

الثامن : وإذا عرفت أن مرجع الكل إلينا ، وتقدير الكل منا ، وطن نفسك على فرش التوكل :

﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾<sup>(١١)</sup>

(٦) سورة الأنفال آية ٦١

(٧) سورة التوبة آية ٥١

(٨) سورة هود آيات ٥٣ - ٥٦

(٩) سورة ابراهيم الآيتان ١١ ، ١٢

(١٠) سورة يونس الآيات ٧١ ، ٧٢

(١١) سورة هود آية رقم ١٢٣

(١) سورة آل عمران آية ١٦٠

(٢) سورة المائدة آية ٢٣

(٣) سورة النساء آية ٨١

(٤) سورة التوبة آية ١٢٩

(٥) سورة الأنفال آية ٢

التاسع : إذا علمت أنى الواحد على الحقيقة ، فلا يكن اتكالك إلا علينا ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾<sup>(١)</sup>

العاشر : إذا عرفت أن هذه الهداية من عندى ، فلاقتها بالشكر والتوكل : ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

الحادى عشر : إذا خشيت بأس أعداء الله ، والشيطان الغدار فلا تلتجئ إلا إلى بابنا : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾<sup>(٣)</sup>

الثانى عشر : إن أردت أن أكون أنا وكيلك فى كل حال فتمسك بالتوكل فى كل حال : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا ﴾<sup>(٤)</sup>

الثالث عشر : إن أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل فى مقام التوكل ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً مجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٦)</sup>

الرابع عشر : إن شئت النزول على المحبة فاقصد أولاً طريق التوكل : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾<sup>(٧)</sup>

الخامس عشر : إن أردت أن أكون لك ، وتكون لى ، فاستقر على تحت التوكل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ﴾<sup>(٨)</sup> ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾<sup>(٩)</sup> ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرًا ﴾<sup>(١٠)</sup> ثم أعلم أن التوكل نصف الدين ، والنصف الثانى الانابة . فإن الدين استعانة ، وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والانابة هى العبادة ..

ومنزلة التوكل أوسع المنازل : لا يزال معمرًا بالنازلى لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العاملين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار ، والفجار ، والطير ، والوحوش ، والبهائم ، وأهل السموات والأرض ، وأن المكلفين ، وغيرهم فى مقام التوكل سواء وإن تباين متعلق توكلهم .

فأولياؤه وخاصته متوكلون عليه فى حصول ما يرضيه منهم ، وفى إقامته فى الخلق ، فيتوكلون عليه

(١) سورة العنكبوت الآيتان ٥٨ ، ٥٩

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠

(٣) سورة الطلاق آية ٣

(٤) سورة النمل آية ٧٩

(٥) سورة الفرقان آية ٥٨

(١) سورة الرعد آية ٣٠

(٢) سورة إبراهيم آية ٧٢

(٣) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠

(٤) سورة النساء آية ١٣٢

(٥) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢

في الايمان ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، وفي محابه ، وتنفيذ أوامره .  
ودون هؤلاء من يتوكل عليه في معلوم يناله : من رزق ، أو عافية أو نصر على عدو ، أو زوجة ،  
أو ولد ، ونحو ذلك .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه في حصول مالا يحبه الله ، ولا يرضاه : من الظلم والعدوان ،  
وحصول الاثم ، والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لا ينالون غالبا إلا باستعانتهم ، وتوكلهم  
عليه ، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم في  
المهلك ، معتمدين على الله - تعالى - أن يشفهم ، ويظفرهم بمطالبهم .

- فأفضل التوكل في الواجب : أعنى واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس ، وأوسع  
وانفعه التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينه ، أو في دفع مفسدة دينه . وهو توكل الأنبياء عليهم  
الصلاة والسلام - في إقامة دين الله ، ودفع المفسدين في الأرض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس في التوكل على حسب أغراضهم . فمن توكل على الله في حصول الملك ، ومتوكل عليه في  
حصول رغيف ، ومن صدق توكله على الله في حصول شيء ناله . فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه  
العاقبة المحمودة . وأن كان مسخوطا مبغوضا كان ما حصل له بتوكله مضرة ، وإن كان مباحا حصلت له  
مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه ، إن لم يستعن به على طاعة .

فإن قلت مامعنى التوكل ؟ قلت : قال الامام أحمد : التوكل : عمل القلب : يعنى ليس بقول ، ولا  
عمل جارحة ، ولا هو من باب العلوم والادراكات .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف فيقول : هو علم القلب بكفاية العبد من الله . ومنهم  
من يقول : التوكل هو جهود حركة القلب ، واطراحه بين يد الله كإخراج الميت بين يدي الغاسل : يقبله  
كيف يشاء ، وقيل التوكل : ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجارى الأقدار ، ومنهم من يفسره  
بالرضا ، ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه .

وقيل التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .

وقال أبو سعيد الخراز : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . وقال سهل : من  
طعن في الحركة ، فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الايمان ، فالتوكل حال النبى  
ﷺ ، والكسب سنته . فمن عمل على حاله فلا يترك سنته .

وحقيقة الأمر أن التوكل : حال مركب من مجموع أمور لا يتم حقيقة التوكل الا بها ، وكل أشار  
إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر ، فأول ذلك معرفة الرب وصفاته ، من قدرته ، وكفايته ،  
وفيوضه وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها من شيبته ، وقدرته وهذه المعرفة أولى درجة .

والثانية اثبات الأسباب والمسببات ، فإن من نفاها فتوكله مزح ، وهذا عكس ما يظهر في بادىء  
الرأى ، من أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل . ولكن الأمر بخلافه . فإن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم  
توكل البتة . فإن التوكل أقوى الأسباب في حصول المتوكل به ، فهو كالدعاء الذى جعله الله سببا في  
حصول المدعو به .

الدرجة الثالثة : وسوخ القلب في مقام التوحيد ، فإنه لا يستقيم توكله حتى يصح توحيده .  
 الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله تعالى ، واستناده عليه ، وسكونه إليه ، بحيث لا يبقى فيه اضطراب من جهة الأسباب .  
 الخامسة : حسن الظن بالله ، فعلى قدر حسن ظنك به يكون توكلك عليه .  
 السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه .  
 السابعة : التفويض ، وهو روح التوكل ، ولبه ( حقيقته ) فإذا وضع قدمه في هذه الدرجة ، انتقل منها إلى درجة الرضا وهي ثمرة التوكل .

### الرسول القدوة

إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .  
 ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (١) إنه الأُمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين ، والمعصوم الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى مرفأ الأمان ، وشاطئ الحق المبين . هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، كان ينساب فى أخلاق أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء :

يامن له الأخلاق ماتهوى العلا      منها ومايتعشق الكبراء  
 زانتك فى الخلق العظيم شمائل      يغرى بهن ويولع الكرماء

وهاك تلك الباقة العبة التى جمعنا فيها من كل بستان زهرة ، ومن كل حديقة وردة من رياض الأخلاق المحمدية الكريمة .

### تواضعه ﷺ . ( من كتاب شمائل النبی للترمذی )

قال بعض العارفين : ( لا يبلغ العبد حقيقة التواضع إلا إذا دام تجل الشهود فى قلبه ، لأنه يذيب النفس ويصفىها عن غشى الكبر والعجب فتلين وتطمئن ، ولا تنظر إلى قدرها )  
 والتواضع لغة : التدلل والخضوع .  
 وعرفا : خروج الانسان عن مقتضى جاهه ، وتنزله عن مرتبة أمثاله وعند المحققين : التواضع هو : ألا يرى العبد لنفسه مزية ، ويرى الحالة التى هو فيها أعظم من أن يستحقها وسئل أبو زيد : متى يكون العبد متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير العبد لنفسه مقالا ولا حالا .

(١) عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله .<sup>(١)</sup>

### الشرح

والأطراء : هو مجاوزة الحد في المدح ، والمدح المنهى عنه هو دعوى أن رسول الله ﷺ بلغ مرتبة الألوهية ( كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ) وقالوا إنه إله أو ابن إله .. وإلى هذا يشير البوصيري حين يقول :

دع مادعته النصارى في نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٢) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : إن لى إليك حاجة . فقال أجلسي في أى طريق المدينة شئت أجلس إليك .<sup>(٢)</sup>

### الشرح

ويظهر أن الحاجة كانت تريد إخفاءها عن الذين حول النبي ﷺ وتجلي خلق النبي العظيم حين طلب منها أن تجلس في أى مكان ليجلس إليها .

وهذا داخل في تيسير حوائج المسلمين والعمل على تسهيل أمورهم . ولا يقال إن النبي ﷺ خلا بالمرأة ، فإن الجلوس كان بمكان عام وكان للضرورة وعلى قدرها !! والغالب أن المرأة كانت عجوزا أو أرملة ولذلك ذكر هذا الأمر في باب تواضعه ﷺ .

٣ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد . وكان يوم بنى قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف<sup>(٣)</sup> .

فقد كان ﷺ يزور المريض أيا كان عبدا أو حرا ، بل ورد أنه زار غلاما يهوديا وهو مريض ودعاه للإسلام فأسلم ، وكان يقول للمريض . كيف تجدك أو كيف أصبحت ، أو كيف أمسيت ، أو لابأس عليك ، ظهور إن شاء الله ، أو كفارة وطهور ، وقد يضع يده على المكان الذى فيه الألم ثم يقول ( بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك الله يشفيك ) .

وجاء في مختصر السيرة للمحب الطبرى . أن رسول الله ﷺ ركب حمارا إلى قباء ، وكان معه أبو

(١) أخرجه ابن حبان ج ٨ ص ٤٦ برقم ٦٢٠٦ والبخارى ج ٤ ص ٢٠٤ طبع الشعب

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٢٣٢٦ / ٧٦

(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد برقم ٤١٧٨ ج ٢

هريرة ، فقال : أحملك بها فقال ماشئت يا رسول الله . فوثب ليركب ، فلم يقدر فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعا .. وحاول أبو هريرة الركوب مرة أخرى فوقعا جميعا ..

وكان يجيب دعوة العبد في طعام وغيره ، قرب المكان أو بعد .

وكان النبي ﷺ يركب .. حمارا مخطوما أى ذى خطام وهو الزمام بحبل من ليف ( وعليه إكاف ) هو كالسرج للفرس ( من ليف ) من بيانية وركوب الحمار مع هذا الانتصار على بنى قريظة . خلق لا يقدر عليه إلا السيد المختار .

( ٤ ) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبي ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والأهالة السنخة فيجيب . ولقد كان له درع عند يهودى فما وجد مايفكها حتى مات .<sup>(١)</sup>

### الشرح والبيان

الاهالة السنخة : الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث . وكان النبي ( ﷺ ) يجيب إلى ذلك ، تطيبا لخاطر الداعى . والدرع هى ذات الفضول . واسم اليهودى أبو الشحم . وكان الرهن فى ثلاثين أو عشرين لأجل سنة كما فى البخارى . وكان رهن النبي ( ﷺ ) عند اليهودى لبيان جواز ذلك . ( فما وجد مايفكها ) إلخ . لأنه ﷺ مات فقيرا . وقد فكها من بعده أبو بكر ، وقيل الامام على . وهذه الحال مع ماكان عليه النبي ( ﷺ ) من مال خبير وأرض فذك وغنائم الجهاد .  
( ٥ )

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حج رسول الله ( ﷺ ) على رطل رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم ؛ فقال : اللهم اجعله حجا لأرياء فيه ولا سمعة .<sup>(٢)</sup>

### الشرح والبيان

الرطل للجمل كالسرج للفرس ، والرث : البالى الخلق . وعلى الرطل قطيفة أى كساء . ( لاتساوى أربعة دراهم ) أى لبساطتها ( اللهم اجعله حجا إلخ ) أى خالصا لوجهك ، وافتقارا لربوبيتك ، وفى الحديث تشريع للأمة وحث على التواضع وخلوص النيات .  
( ٦ )

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ( ﷺ ) قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك

### الشرح والبيان

كانت الصحابة تحب رسول الله أكثر من حبهن لأموالهم وأولادهم وأنفسهم وقد استفاضت الأخبار فى ذلك . !

( ١ ) أنحاف السادة المتقين ج ٧ ص ١٠١ وكتر العمال ١٨٢٠٩

( ٢ ) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٨٩٠ ، ج ٢ ص ٩٦٥ حلية ٥٤ / ٣

ولكنهم مع ذلك لا يقومون له ، لأنه ﷺ كان يكره ذلك ، وقد اختلف العلماء في القيام . فذهب أكثر العلماء إلى كراهته ، وذهب الأقل إلى جوازه .

عن الحسن بن علي قال : سألت خالي هند بن أبي هالة ، وكان وصافا عن حلية رسول الله ( ﷺ ) وأنا أشتى أن يصف لي منها شيئا .

فقال : كان رسول الله ( ﷺ ) فخما مفخما ، يتلأأ وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر ، فذكر الحديث بطوله . قال الحسن : فكتمتها الحسين زمانا ، ثم حدثته فوجدته قد سبقني إليه . فسأله عما سأله عنه ؛ ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا قال الحسين : فسألت أبي عن دخول رسول الله ( ﷺ ) فقال : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئا ، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم في الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيشغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مساءلتهم عنه وإخبارهم بالذي ينبغي لهم . . ويقول : ليلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة ، لا يذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير ، قال فسألت عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؛ كان رسول الله ( ﷺ ) يخزن لسانه إلا فيما يعينه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويؤليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى

عن أحد منهم بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل غفلة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ؛ أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ، ومؤازرة ، قال فسألت عن مجلسه ، فقال : كان رسول الله ( ﷺ ) لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده في الحق سواء ؛ مجلسه علم وحياء ، وأمانة وصبر ، لا ترفع فيه الأصوات ولا تؤن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته ، متعادلين ؛ بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى ؛ متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

### الشرح والبيان

قال الحسن : ( فكتمتها ) أى هذه الرواية أو هذه الحلية .



( زمانا ) فيه احتمال أن هذا الكتمان فيه قصدا ، كما يحتمل أن يكون اتفاقا ولكن الحسين رضى الله عنه كان قد سبق في السؤال عن أحوال النبي ( ﷺ ) في مدخله ومخرجه ومجلسه وغير ذلك . والمراد بالشكل هنا أى طريقته فى أصحابه .

جاء فى كتب اللغة أن الشاكل والشكل : الطريقة والمذهب .  
وليس المراد هنا الصفة والصورة . ( فلم يدع ) أى فلم يترك الامام على شيئا مما سأله عنه الحسين إلا وأجاب عنه .

قال الامام على :

( كان إذا أوى إلى منزله ) أى استقر فيه ، وهو بالمد أو بالقصر .  
( جزأ دخوله ) : أى قسم زمانه ( جزء الله ) أى العبادة والتهجد .  
( وجزأ لأهله ) أى لمؤانستهن وعشرتهن ومراعاة حقوقهن ، فقد كان خير الناس لأهله ( وجزأ لنفسه ) وهذا الجزء لم يخلص لنفسه ، بل قسمه بين نفسه وبين الناس ، والمراد بالخواص : الخلفاء الأربعة وكبار الصحابة .

أى أن هؤلاء الخواص يبلغون عنه ما يسمعون منه .  
( ولا يدخر عنهم شيئا ) بل يقدم النصح للجميع كاملا غير منقوص .  
وكان من عادته ( ﷺ ) أن يؤثر أهل الفضل ويقدمهم بإذنه والمراد بأهل الفضل أهل الصلاح والتقوى .

وكان يبدأ بأصحاب الحاجات الذين يحبون أن يسألوا عن أمور دينهم .  
( فيتشغل بهم ) أى بذوى الحاجات ( ويشغلهم ) بفتح الياء ( فيما يصلحهم والأمة ) أى فى الذى يعود عليهم وعلى الأمة بالصلاح والاصلاح ، وهذا إشراف تربوى من أدق المناهج ، فلا يدع الأصحاب ينشغلون بما لايعنيهم .

وكان ( ﷺ ) يتعهد كل واحد بما يناسبه .  
وبعد تبليغهم وإفادتهم بأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، ويقول لهم أوصلوا إلى حاجة الغائبين والمرضى والمستضعفين الذين لا تبلغنى حاجاتهم .

ورغب الرسول فى ذلك بثبيت القدم على الصراط يوم القيامة . وهذا أمر يعرفه من يدرك أهوال هذا اليوم العظيم .

وقد كانت هذه عادة الرسول ( ﷺ ) فى مجلسه ، لا يقبل الكلام اللغو ، ولا الدخول فيما لايعنى .

( يدخلون روادا ) بتشديد الواو ، جمع رائد ، وهو فى الأصل من يتقدم القوم . والرواد هنا أكابر الصحابة .

( ولا يفترون إلا عن ذواق ) بفتح الواو . أى لا يفترون إلا بعد الاستفادة العلمية ( ويخرجون من عنده أدلة ) أى هداة للناس .

وهذه حال النبي (ﷺ) في بيته .

فأما في مخرجه فقال الامام على :

( كان ليخزن لسانه . إلخ ) أى لا يتكلم إلا في حاجة ( ويؤلفهم ) ويتحجب إليهم بحسن أخلاقه ، ولا ينفهم . ( ويكرم كريم كل قوم ) لأن في ذلك إكراما لقومه وجذبا لهم ، وقيل يحذر بفتح الياء ، وهو الأنسب هنا لقوله ( ويحترس منهم ) من غير أن يطوى عن أحد من الناس بشره ، أى طلاقة وجهه .

( ويتفقد أصحابه ) أى يسأل عن حال الواحد منهم ولماذا غاب ، فإن كان مسافرا دعاه ، أو مريضا عاده ، أو ميتا استغفر له .

( ويسأل الناس عما في الناس ) ليعرف أصحاب الحوائج فيقضيها ( ويحسن الحسن . إلخ ) أى يمدحه ( ويقبح القبيح ويوبهيه ) أى يظهر قبحه وينفر الناس منه ( معتدل الأمر غير مختلف ) أى أن أمره جميعا يجرى مع الوسط وهو خير الأمور ( لا يغفل ) أى عن إرشادهم :  
( مخافة أن يغفلوا ) أى يتكاسلوا ويذهبوا عن الحق .  
( لكل حال عنده عتاد ) ، أى كان يعد لكل أمر ما يناسبه .

( كان لا يقصر عن الحق ) أو بيانه أو استيفائه ( الذين يلونه إلخ ) أى الأقربون منه هم الخيار ، وكان النبي يفضل من الناس من تكون نصيحته أعم ، ويعظم الذين يواسون الناس ويعاونوهم ، فآله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه ، ثم قال الحسن راويا عن الحسين : فسأله عن مجلسه ، فقال الامام على :

( كان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ) أى أن الذكر هو مبدأ جلوسه ومنتهاه . ( وكان يجلس حيث ينتهي به المجلس ، ويدعو إلى ذلك ، لأن ذلك هو البساطة المحبوبة ، وكان يقدم لكل جليس ما يستحقه من البشر والعناية دون أن يقصر في أى إنسان ، حتى يحسب جليسه أنه أكرم الجالسين عنده . وهذا خلق لا يطيقه إلا نبينا محمد (ﷺ) .

( من جالسه أو فاوضه ) أى شاوره . ( صابره ) أى أن النبي (ﷺ) يجالسه ويشاوره حتى ينتهى أمر المشورة من غير أن يظهر سأمًا ولا مللا ( ومن سألته . إلخ ) واضح ( قد وسع ) أى عم الناس بسطه ، أى طلاقة وجهه ودوام بشره ( فصار لهم أبا ) فى الشفقة ، بل كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم . ( وصاروا عنده فى الحق سواء ) أى متساوين فى الحق . ( مجلسه إلخ ) أى أن مجلسه كان كله صلحا وعلمًا وصبرا أو أدبا وأمانة وعدم رفع للأصوات وصفاء وسرور . ( ولاتنشى فلتاته ) أى لاتشاع ولا تذاق . والضمير للمجلس ، أى لاتشاع هفوات المجلس . ( متعادلين ) أى متساوين . فلا تفاخر ولا تكبر .

فقد كان أصحاب رسول الله كما وصفهم القرآن . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .  
وبقية الأوصاف واضحة .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت )<sup>(١)</sup> .

### الشرح والبيان

الكراع : بضم الكاف . مادون الكعب من الدواب .  
وقيل : هو مستدق الساق من الغنم والبقر .  
والجمع أكرع . ورسول الله ( ﷺ ) يؤكد قبوله الهدية ، أى ولو كانت كراعا . وكذا يعلن إجابة الدعوة !! وهذا هو الخلق الذى عرفنا عليه رسول الله ( ﷺ ) .  
( ٩ )

عن جابر رضى الله عنه قال : جاءنى رسول الله ( ﷺ ) ليس براكب بغل ولا برذون .

### الشرح والبيان

البغل : معروف .  
والبرذون : الفرس العجمى .  
وهذا حديث يفيد أن رسول الله ( ﷺ ) يزور أصحابه ويعودهم ماشيا ، لما فى ذلك من كثرة الثواب ، وعظيم التواضع .  
( ١٠ )

أنبأنا يحيى بن أبى الهيثم العطار قال : سمعت يوسف بن عبد الله بن سلام قال : سمانى : رسول الله ( ﷺ ) يوسف وأقعدنى فى حجرة ومسح على رأسى<sup>(٢)</sup>

### الشرح والبيان

الحجر : بكسر الحاء وفتحها وسكون الجيم . وهو طرف الثوب المقدم منه .  
ويطلق على المنع من التصرف ، وعلى الاثنين من الخيل .  
وذكر يوسف هذا الحديث ليثبت لنا . كيف كانت معاملة النبى ( ﷺ ) الرفيقة الرقيقة للصغار !! أجلسه فى حجره . وسماه ، ومسح بيده على رأسه زاد الطبرانى . ودعا لى بالبركة .  
فما أجمنا بالتأسى بهذا الخلق فى معاملة الصبيان .  
( ١١ )

عن أنس بن مالك أن رجلا خياطا دعا رسول الله ( ﷺ ) فقرب منه ثريدا عليه دبء قال : فكان

(١) أخرجه : الامام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٥١٢

(٢) أخرجه : مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٢٦ ، ص ٣٢٧

رسول الله (ﷺ) يأخذ الدباء وكان يحب الدباء . قال ثابت : فسمعت أنسا يقول : فما صنع لي طعام أقدر على أن يصنع فيه دبا إلا صنع<sup>(١)</sup> .

### الشرح والبيان

ذكروا أن الخياط كان من مواليه : ( فقرب منه ) أى إليه . والثريد : الخبز المشرود بمرق اللحم .  
(وعليه دبا) بالقصر والمد وهو القرع !!

(١٢)

عن عمرة قالت : قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته ، قالت : ( كان بشرا من البشر : يغلى ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه )

### الشرح والبيان

( كان بشرا من البشر ) : هذا أعظم تعبير تمهد به السيدة عائشة للأحوال التي ستذكرها عن رسول الله (ﷺ) وهي تفيد ندرة هذه الأخلاق واستحالة وقوعها إلا من نبينا العظيم .

لقد كان له تسع زوجات وكلهن يتسابقن إلى خدمته ويتنافسن في قضاء مصالحه ؛ ومع ذلك فقد كان كما قالت السيدة عائشة ، ( يغلى ثوبه ) أى يفتشه عما علق به ، ( ويحلب شاته ) ويخدم نفسه .

### باب ماجاء في خلق رسول الله (ﷺ)

الخلق بضم الخاء واللام هو الطبع والسجية ، وهو من الأوصاف الباطنية قال الامام الغزالي : الخلق هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ، فإن كانت الهيئة جميلة ، سميت خلقا حسنا ؛ وإلا : سميت خلقا سيئا .

وهذه ترجمة لبعض أخلاق النبي وبعض سجايه ، لا جميعها ، بدليل أن التواضع مثلا من أخلاق النبي (ﷺ)

(١)

عن خارجة بن زيد بن ثابت قال : دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله (ﷺ) قال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحي بعث إلى فكتبته له ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله (ﷺ) (٢)

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦١٥ برقم ٢٠٤١ / ١٤٥

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧

## الشرح والبيان

كان زيد هذا من كتاب الوحى ، وكتاب الوحى هم : زيد ، وعثمان ، وعلى ، وأبى ، ومعاوية ، وخالد بن سعيد ، وحنظلة بن الربيع ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبان بن سعيد . والمراد بذكر الدنيا ، أى أمور الدنيا الأمور النافعة ، والمراد بذكر الآخرة : أى تفاصيل يوم القيامة وما يقع فيه .

والمراد بذكر الطعام : ما يفيد منه وما لا يفيد . ويدل هذا على التبسيط فى الحديث والمجالسة .

( ٢ )

عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله ( ﷺ ) يقبل بوجهه وحديثه على أشرف القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت : يا رسول الله ، أنا خير أو أبو بكر ، قال : أبو بكر ، فقلت يا رسول الله . أنا خير أو عمر فقال عمر ، فقلت يا رسول الله : أنا خير أو عثمان قال عثمان ، فلما سألت رسول الله فصدقنى فلوددت أنى لم أكن سألته<sup>(١)</sup>

## الشرح والبيان

( أشرف القوم ) إثبات الألف قليل ، والأكثر عدمها . وكان الرسول ( ﷺ ) يقبل على أشرف القوم ليتألفه . قال ( ﷺ ) : ( إني أعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، خشية أن يكبه الله فى النار )<sup>(٢)</sup> وكان إقبال رسول الله على عمرو لأنه كان حديث عهد بالاسلام فأراد أن يتألفه حتى يتمكن الأيمان فى قلبه ، ولقد تمكن الايمان فى قلب عمرو ، حتى أصبح صحابيا جليلا . وقد أغرى إقبال النبى على عمرو حتى سأله هذه الأسئلة . ولكن إجابة النبوة الصريحة الصادقة ، جعلت ابن العاص يتصاغر أمام نفسه ، ويتمنى لو لم يكن قد سأل النبى ( ﷺ ) .

( ٣ )

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله ( ﷺ ) عشر سنين فما قال لى أف قط ؟ وما قال لى لشيء صنعته لما صنعتته . ولا لشيء تركته لم تركته . وكان رسول الله ( ﷺ ) من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ( ﷺ ) ، ولا شمتت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبى ( ﷺ )<sup>(٣)</sup>

## الشرح والبيان

كانت خدمة أنس للنبى ( ﷺ ) هذه المدة الطويلة فى السفر والحضر ، وهى مدة تكشف الخلق

(١) كنز العمال ج ٧ ص ١٦٠ برقم ١٨٥٢٢

(٢) أخرجه الامام أحمد ج ١ ص ١٨٢ مسند سعد بن مالك عن أبيه .

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٤ برقم ٢٣٠٩ ، ص ١٨١٥ برقم ٢٣٣٠ / ٨٢

على طبيعته ، فقد يتكلف المرء معيشة أيام وطباع ليال ، ولكن لا يدوم التكلف شهورا بل أعواما بحال من الأحوال « وأف » بتشديد الفاء مفتوحة ومكسورة ، وهى كلمة تبرم تقال لما يتضجر منه . « وقط » وهى ظرف بمعنى الزمن الماضى ، وقد يستعمل بمعنى دائما . ولم يكن النبى ( ﷺ ) يحاسب أنسا لاعتقاده أن الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه . ولذلك كان يقول : قدر الله وماشاء فعل .

( وكان من أحسن الناس خلقا ) لعل من زائدة . ( ولا مسست ) بكسر السين على الأفصح

« خزا » ثوبا فيه حرير ، ( ولا حريرا ) أى خالصا .

( ولا شيئا ) تعميم بعد تخصيص ( ألين منه ) ولين النبى ( ﷺ ) كان طبيعة فى الخلقة .

( ولا شممت ) بكسر الميم وفتحها . ( مسكا ) وهو أطيب الطيب وأشهره وكان عرق النبى -

بفتح الراء أطيب من المسك والعطر . لأن هذا مما تميز به النبى ( ﷺ )

( ٤ )

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ( ﷺ ) أنه كان عنده رجل به أثر صفرة قال :

وكان رسول الله ( ﷺ ) لا يكاد يواجه أحدا بشيء يكرهه ، فلما قام قال للقوم : لو قلتم له يدع هذه

( الصفرة )<sup>(١)</sup>

### الشرح والبيان

لعل الصفرة التى كانت على الرجل من أثر الزعفران . وكان النبى يكره هذه الصفرة ، ولكنه لم

يكن يواجه أحدا بشيء يكرهه . فأوعز إلى من حوله أن يقولوا له : دع هذه الصفرة .

( ولو ) هذه شرطية أو للتمنى . والظاهر أن هذا الرجل كان ممن يخشى منه مخالفة النبى

( ﷺ ) ، فأوعز إلى أحد الصحابة أن يكلموه .

( ٥ )

عن عائشة أنها قالت : لم يكن رسول الله ( ﷺ ) فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ولا

يجزى بالسيئة السيئة ؛ ولكن يعفو ويصفح<sup>(٢)</sup>

### الشرح والبيان

كان النبى ( ﷺ ) بعيدا عن الفحش كل البعد . وكذلك لم يكن ( صخابا ) . أى كثير الصياح ،

ولا يقابل السيئة بالسيئة . بل كان يعفو ويصفح !! وبذلك كان يعفو بعد القدرة .

لا يستهين بعفوك الجهلاء .

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا

(١) هامش المواهب اللدنية ص ١٧٣

(٢) أخرجه فى سنن الدارمى ج ١ ص ١٥ برقم ٨

(٦)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماضرب رسول الله ( ﷺ ) بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأة (١)

### الشرح والبيان

كان النبي ( ﷺ ) لا يضرب مع وجود أسباب الضرب ، لأن الحلم كان طبيعته ، وكظم الغيظ كان سجيته ، ( إلا أن يجاهد ) فإن الدفاع عن النفس في الجهاد من شيمة الأبطال . وقد قتل رسول الله ابن خلف في غزوة أحد وكان جريحا مطعونا .

عن عائشة قالت : مارأيت رسول الله ( ﷺ ) منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله شيء ، فإذا انتهك من محارم الله شيء كان من أشدهم في ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن مائثا (٢) .

### الشرح والبيان

لم يكن النبي ﷺ ينتصر لنفسه ، مهما ظلمه الظالمون ، بل يعفو قادرا ويصفح . وقد عفا عن قال له : ( إن هذه القسمة مأريد بها وجه الله ) . وكثير وكثير ، ( مالم ينتهك ) بالبناء للمفعول . وعندئذ يغضب فلا يهدأ حتى يعود للحق نصابه ، ويؤدب المنتهك ، أو يقام عليه الحد ، لأنه أصبح من حقوق الله . وكان إذا خير بين أمرين من أمور الدنيا ، اختار أيسرهما وأسهلها . ولذلك فينبغي أن يختار الانسان الأيسر من الأمور . ( مالم يكن الأيسر مائثا ) بفتح الميم ، أى مفضيا إلى الأثم وعندئذ فيكون الرسول بعيدا عن هذا الأيسر .

(٨)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال : بش آبن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فلما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت يا رسول الله قلت ماقلت ثم ألنت له القول فقال : يا عائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه (٣) .

### الشرح والبيان

صرحت بعض الكتب باسم الرجل فقالت : إنه مخزومة بن نوفل . والأرجح من هذا أنه عينية بن حصين الفزارى . وكان الأحق المطاع في قومه . ويظهر أنه كان فاجر الخصومة ، ولذلك قال فيه النبي

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٤ برقم ٢٣٢٨ / ٧٩

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٢٣٢٧ / ٧٧

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٢ برقم ٢٥٩١ / ٧٣

( ﷺ ) : بش أخو العشيرة والعشيرة هي القبيلة . ولقد حدث بعد وفاة النبي ﷺ أن عيينة هذا ارتد عن الإسلام وجيء به أسيرا في زمن الخليفة الأول أبي بكر فلما دخل المدينة صاح الصبيان : هذا هو الذي خرج من الدين ، فقال لهم : ومتى دخلت فيه حتى خرجت منه . ومن هذا يعلم سبب قول النبي ﷺ فيه ولكن الروايات ذكرت أنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وقد اعتبر العلماء قول النبي ﷺ فيه وهو غائب وإلآته له وهو حاضر من باب المداراة والتألف . ولقد فرقوا بين المداراة والمداينة فقالوا : إن المداراة بذل الدنيا للدين ، والمداينة بذل الدين للدنيا .

ونبينا محمد ﷺ كان قادراً أن يكلم عينية بما يستحقه ولكنه كان يحب الرفق في الأمور كلها .

( ٩ )

عن الحسن بن علي قال : سألت أبي عن سيرة النبي ( ﷺ ) في جلساته فقال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكتار وما لا يعينه ، وترك الناس من ثلاث كان لا يذم أحدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكنت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه

ويصبر للغريب على الجفوة في منطقة ومسألته ، حتى إن كانوا أصحابه ليستجلبوهم ويقول : إذا رأيتم طالب بحاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيطعه بنهى أو قيام .

### الشرح والبيان

( دائم البشر ) أى طلاقة الوجه ( سهل الخلق ) أى ليس بصعب ولا خشنه ( لين الجانب ) أى سريع العطف ، كثير اللطف ، جميل الصفح ، مع الوقار والسكون ( ليس بفظ ولا غليظ ) أى ليس فيه جفاء ولا غلظة . ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (١) ( ولا صخاب ) وليس كثير الصخب ، أى الصياح : ( ولا فحاش ) أى لا يعرف الفحش ولا يقع منه ( ولا عياب ) أى لا يعيب غيره أبدا ، ولا عاب طعاما قط ( ولا مشاح ) اسم فاعل من المشاحة ، وهى عدم المساهلة مع التعقيد ( يتغافل عما لا يشتهي ) أى يظهر الغفلة والاعراض عن الشيء الذى لا يستحسنه . ( ولا يؤيس ) أى لا يقطع رجاءه . بل يرد بالحاجة أو بميسور من القول ثم يستمر الامام على فى وصف الأخلاق النبوية فيقول : ( قد ترك نفسه من ثلاث خصال مذمومة : ( المراء ) أى الجدال ولو بحق ، لحديث : من ترك المراء وهو محق ، بنى الله له هيتا فى ربض الجنة .



(والاكثر) من الكلام أو المال (ومالا يعنيه) أى لا يتدخل فيها لايغنيه ، وهو القائل : ( من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه ) .

( وترك الناس من ثلاث ) : ( كان لا يذم أحدا ) أى مواجهة ولا غير مواجهة ( ولا يعيبه ) فى نسخة : ولا ( يعيره ) من التعيير وهو التوبيخ ( ولا يطلب عورته ) أى لا يتبع عورة المسلم . ( ولا يتكلم إلا فيما جاثوا به ) أى فى الشيء النافع المطلوب ( وإذا تكلم أطرق جلساؤه ) أى أرخو أنظارهم إلى الأرض ، وأصغوا إليه ، كأنما على رؤوسهم الطير ( فإذا سكت تكلموا أى لا يتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون وهو يتكلم ) لا يتنازعون عنده الحديث ( لأنه لا ينبغي التنازع ولا التخاصم فى حضرته . ( ومن تكلم عنده . إلخ ) لأن هذا من آداب الحديث ( حديثهم عنده حديث أولهم ) أى يتحدث عنده من جاء أولا ثم من بعده على الترتيب .

( يضحك . إلخ ) أى موافقة لهم وتطبيبا لحاظرهم . ( ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقة ومسألته ) أى يسامح الغريب إذا حدثت منهم غلظة وجفوة فإن للغريب لدهشة . وقد ورد أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن يعزله ، حتى كان الصحابة رضوان الله عليهم يستجلبون الغرباء إلى مجلس النبى ( ﷺ ) ، ليتمكنوا من العلم والتبسط ، وليجدوا مالم يكونوا يجدونه إذا لم يوجد ( الغرباء ) ( إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه ) أى أعينوه على طلب الحاجة حتى يصل إليها . ( ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ ) أى لا يقبل مديحا إلا من إنسان أحسن إليه ، وماسوى ذلك أعرض عنه وأشاح بوجهه . ( ولا يقطع عن أحد حديثه ) أى لا يقاطعه فى كلامه ، وإنما يستمع إليه حتى يفرغ منه . ( حتى يجوز ) أى يتجاوز الحد ، فيقطعه بنهى أو قيام . ( ١٠ )

عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا (١)

### الشرح والبيان

المعروف أن رسول الله ﷺ لا يسأل عن شيء إلا كان يعطى سائله الحاجة المطلوبة ، أو يدعوله ، أو يعده بها ثم يوفى له ما وعد به .

( ١١ )

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى شهر رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة (٢)

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٥ برقم ٢٣١١ / ٥٦

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٣ برقم ٢٣٠٨ / ٥٠

## الشرح والبيان

كانت مراتب جوده ﷺ ثلاثة :

(١) الجود العادى وهو فوق جود البشر .

(٢) جود أعلى منه وهو فى رمضان

(٣) جود أكثر وأكثر ، وكان عندما يلقي جبريل ويدارسه القرآن والجود فى المحسوسات

والمعنويات . وقد استفاضت الأخبار فى أن الدنيا لم تسكن قلبه أبدا . لقد كان يعطى عطاء الملوك ، بل عطاء من لا يخشى الفقر أبدا . ( فلهو أجود بالخير من الريح المرسلة ) أى بالمطر ، لأن الريح تتسبب فى السحاب الذى يتحول إلى الماء والانبات .

(١٢)

عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان النبى ﷺ لا يدخر شيئا لغد<sup>(١)</sup> .

## الشرح والبيان

عدم الادخار يستلزم عظيم توكله على الله عز وجل . وهذا لا ينافى ماورد من أنه كان يدخر قوت عام ، فلقد كان هذا المدخر يذهب غالبا إلى الصدقات والمساعدات ، ويفنى بعد قليل . فالصفة الغالبة على أحواله ﷺ هى عدم الادخار .

(١٣)

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبى ﷺ ماعندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاء لى شيء قضيته ، فقال عمر : يارسول الله قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر . فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله ﷺ وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : بهذا أمرت<sup>(٢)</sup> .

## الشرح والبيان

( ابتع على ) أى اشتر حاجتك دينا على وأنا أوفى عنك وأقضى دينك ، وهذا لأنه لم يكن هناك شيء عند رسول الله ﷺ فى هذه الحال .  
ويظهر أن سيدنا عمر أشفق على حال رسول الله فقال كلمته . وكرهية الرسول لكلام عمر ، لأن فيه نزولا على العادة من أحوال البشر ، ورسول الله ﷺ يحب دائما أن يسبق غيره ، ( فقام رجل من الأنصار ) .

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٦٧ ص ١٠ ج ٤

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ج ١١ برقم ٢٠٠٥٧ ص ١٠٩ فى وصية عمر بن الخطاب - رضى الله عنه .

لم يذكروا اسمه ، ولكن يبدو أنه استدرك ، ليرضى رسول الله ، ويذهب هذه السحابة الخفيفة التى ارتسمت على جبينه الشريف ، ( أنفق ) ولو فوق طاقتك ( ولا تحف من ذى العلاش إقلا لا ) والاقلاال الافتقار والحرمات - فانفجرت أسارير المصطفى ﷺ ، وعرف البشر في وجهه .

- ١٤ -

عن عائشة أن النبي ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها .<sup>(١)</sup>

### الشرح والبيان

الاثابة على الهدية : إعطاء عوض عن الهدية للمهدى . فمن الخلق الحسن أن ندعو للذين أحسنوا إلينا ونكافئهم ، ونحفظ لهم جائلهم .  
\* هذه الأحاديث تشرح بعض جوانب هذه النفس الرفيعة ، والاحاطة بهذه النفس التى لا يمكن أن يلم بها واصف ، أو يحيط بها فقيه ولا عالم . إنه ﷺ قد جعل على أكمل الفضائل ، وأتم الصفات ، وأقوى المحاسن ، وأزكى الطباع . اللهم حسن خلقنا وخلقنا ؛ واهدنا لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها ؛ لا يصرف عنا سيئها إلا أنت ؛ فإن أثقل شيء في الميزان كما قال نبيك ﷺ : ( خلق حسن )<sup>(٢)</sup> .

### \* باب ماجاء في حياء رسول الله ( ﷺ )

الحيا : بالقصر هو المطر . والحياء بالمد : هو خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ويبعد بصاحبه عن كل مايشين بالمروءة . وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال :  
( الحياء خير كله )<sup>(٣)</sup> ولقد جمع هذا الحديث أقسام الحياء جميعا .  
ولقد كان بعض الصالحين يستحى من نفسه ، حتى كأن نفسه نفسان لا نفس واحدة .  
عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئا عرف في وجهه .<sup>(٤)</sup>

### الشرح والبيان

العذراء هى البكر ، والخدر : بكسر الخاء وسكون الدال وهو ستر يجعل للبكر في جانب البيت لتستر به حتى عن بعض النساء .

(١) أخرجه الامام احمد ج ٦ ص ٩٠

(٢) أخرجه الترمذى ج ٣ ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ برقم ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١

(٣) أخرجه الامام مسلم ج ١ ص ٦٤ برقم ٣٧ / ٦١ وفى رواية ( الحياء كله خير )

(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٩ برقم ٢٣٢٠ / ٦٧

وكان حياء رسول الله ﷺ أشد من حياء هذه البكر المخدرة .  
(وكان إذا ذكره شيئا عرفناه في وجهه ) فلا يصرح حياء ، وإنما يعرف أثر الكراهة في وجهه ، لأنه صاف منير ، مشرق وضاء ، ومن المعروف بداهة أن الحياء المدحوح هو الذي لا يضر بصاحبه ، أو هو الذي لا يتسبب في انعزاله عن المجتمع ، أما غير ذلك فمذموم . قال رسول الله ﷺ : ( نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين )<sup>(١)</sup>

( ٢ )

عن مولى لعائشة قال : قالت عائشة : ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ : أو قالت : ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط .

### الشرح والبيان

يؤكد هذا الحديث مجاء عن عائشة : ( ما رأيت منه ولا رأى مني ) والحديث الآخر عنها أيضا : ( ما أتى رسول الله ﷺ أحدا من نسائه إلا مقنعا ، يرخي الثوب عن رأسه )<sup>(٢)</sup> أورده ابن الجوزي في كتاب الوفاء .

\* وفي الباب حديثان !!

لقد كان ﷺ إذا وعظ قال : ما بال أقوام ، ولعل المقصود واحد وكان لا يثبت بصره في وجه أحد .

وكان خافض الطرف ؛ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .

### لاعدة للمطلقة قبل الدخول بها

قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَالَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

### معاني المفردات

نكحتم : يطلق النكاح تارة ( يراد به العقد . ويطلق تارة ويراد به الوطء . والمراد به هنا العقد باتفاق العلماء بدليل قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ ( وأصل النكاح في اللغة . الضم والجمع . قال القرطبي : النكاح حقيقة في الوطء وتسمية العقد نكاحا للملاسته له من حيث أنه طريق إليه ، ونظيره تسميتهم الخمر إثما لأنها سبب في اقتراف الاثم ، ولم يرد لفظ النكاح في القرآن إلا في معنى

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٦١ رقم ٣٣٢ / ٦١

(٢) أخرجه أحمد ج ٦ ص ٦٣ ، ١٩٠

العقد ، لأنه فى معنى الوطء ، وهو من آداب القرآن الكناية عنه بلفظ ( الملامسة . والمماسه . والقربان . والتعشى . والاتيان )

المؤمنات : فيه إشارة إلى أنه ينبغى أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات ، وليس لفظ الايمان فى قوله ﴿ المؤمنات ﴾ للقيد أو الشرط ، بل هو لمراعاة الغالب من حال المؤمنين أنهم لايتزوجون إلا بمؤمنات .

وهذا مما اتفق عليه الفقهاء ، ولو كان للقيد أو الشرط لكان حكم ( الكتابيات ) مختلفا عن حكم المؤمنات مع أن الحكم واحد .

تمسوهن : المراد بالمس هنا ( الجماع ) بإجماع الفقهاء . وقد اشتهرت الكناية به ولفظ الملامسة والمماسه ونحوها فى لسان الشرع عند الجماع ، وهو كما أسلفنا من آداب القرآن ، لأن القرآن العظيم يتحاشى ذكر الألفاظ الفاحشة ، فيكنى عنها ، مثل قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴾ (١) ولو كان المراد فى الآية حقيقة المس باليد ، وهى إصاق اليد بالجسم ، للزمت العدة فيها لو طلقها بعد أن مسها بيده من غير جماع ولاخلوة ، ولم يقل بذلك أحد من الفقهاء .

عدة : العدة فى اللغة مأخوذة من العد لأن المرأة تعد الأيام التى تجلسها بعد طلاق زوجها لها أو وفاته . وهى شرعا : المدة التى تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها . أو للتعبد . تعتدونها : أى تعدونها عليهن . أو تستوفون عددها عليهن .

فتمتعوهن : أى أعطوهن المتعة . والمتعة فى الأصل ما يتمتع به من مال أو ثياب ، وقد حددها بعض الفقهاء بأنها ( قميص وخمار وملحفة ) والصحيح أن المتعة لا تختص بالكسوة بل هى فى لسان الشرع :

كل ما يعطيه الزوج لمطلقاته ارضاء لها وتخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها . وسرحوهن : أى طلقوهن . قال القرطبى : التسريح إرسال الشئ ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض ، وسرح الماشية : أرسلها . سراحا جميلا : أى طلاقا بالمعروف ، والسراح الجميل يكون بالتلطف مع المطلقة بالقول وترك أذاها . وعدم حرمانها مما وجب لها من حقوق .

### المناسبة والمعنى الجملى

كان الحديث فى الآيات السابقة عن نساء النبى ﷺ وما ينبغى أن يكن عليه من طاعة الله ورسوله . وزهد فى الدنيا وطهارة وكمال ، لأنهن لسن كبقية النساء ، والله تبارك وتعالى يريد لمن أن يحافظن على ذلك الشرف الرفيع ، وهو انتسابهن إلى رسول الله ، حيث أصبحن أمهات للمؤمنين ، وزوجات الرسول الطاهرات ، وقد أعقب ذلك بذكر قصة ( زيد بن حارثة ) وتطليقه ( زينب ) رضى الله عنها التى تزوجها الرسول بعد ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وذلك لحكمة جليلة وهى إبطال

(بدعة التبنّي) ثم جاء الخطاب هنا للمؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل المساس ، وكيف يجب على المؤمنين أن يفعلوا فيما إذا وقع منهم الطلاق قبل المعاشرة ، وما هي الأحكام الشرعية التي ينبغي عليهم أن يتمسكوا بها في مثل هذه الأحوال ، فيقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمْ ﴾ أى إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ، ثم طلقتموهن من قبل أن تقر بهن فليس لكم عليهن حق في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم طلقتموهن قبل المساس ، وهذا لا يستلزم احتباس المرأة في البيت وجلوستها في العدة ، من أجل صيانة نسبكم ، لأنكم لم تعاشرهن فليس هناك احتمال للحمل فالواجب عليكم أن تمتعهن بدفع ما تطيب نفوسكم لهن . وتكرموهن بشيء من المال أو الكسوة تطيبا لخاطرهن وتخفيفا لشدة وقع الطلاق عليهن وأن تفارقوهن بالمعروف فلا تؤذوهن بقول أو عمل . ولا تحرموهن مما وجب لهن عليكم من حقوق . فإن ذلك من مقتضى إيمانكم وطاعتكم الله عز وجل والله تعالى أعلم .

### لطائف التفسير :-

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ نَكَحْتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ﴾ فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يتخير لنطقه ، وأن ينكح المؤمنة الطاهرة ، لأن إيمانها يجعلها تحافظ على عفتها ، ويحجزها عن الوقوع في الفاحشة والشر ، فتصون عرض زوجها ، وتحفظه في حضرته وغيبته وصدق الله ﴿ وَلَأَمَّةٌ مِّمَّنْ خَلَقَ مِنْ مِشْرَكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبْتُمْ ﴾ (١) .

اللطيفة الثانية : قوله ﴿ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ ﴾ التعبير (بشم) دون الفاء أو الواو والعطف بها يفيد (التراخي) للإشارة إلى أن الطلاق ينبغي أن يكون بعد تريض وتفكير طويل ، ولضرورة ملحة ، لأن الطلاق من الأمور التي يبغضها الله ، حيث فيه هدم وتحطيم للحياة الزوجية ، ولهذا قال بعض الفقهاء إن الآية ترشد إلى أن الأصل في الطلاق الحظر ، وأنه لا يباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية ، ولم تفلح وسائل الإصلاح بين الزوجين ، والحكم واحد لا يختلف فيمن تزوج امرأة فطلقها على الفور ، أو طلقها على التراخي .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ ﴾ كنى بالمس عن الجماع ، وهذا أدب من آداب القرآن ينبغي على المسلم أن يتأدب به فيكنى عن كل شيء قبيح أو فاحش .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ ﴾ في إسناد العدة إلى الرجال إشارة إلى أنها حق للمطلق ، فوجوب العدة على المرأة من أجل الحفاظ على نسب الانسان ، فإن الرجل يغار على ولده ، ويهمه ألا يسقى زرعه بماء غيره ، ولكنها على المشهور ليست حقا خالصا للعبد . بل تعلق بها حق الشارع أيضا ، فإن منع الفسء باختلاط الانساب من حق الشارع . والصحيح أن وجوب العدة فيها (حق الله ، وحق العبد) ولهذا قال الفقهاء العدة تجب لحكم عديدة : لمعرفة (براءة الرّحم ، وللعبد ، أو التفجع) .

## الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يقع الطلاق قبل النكاح ؟  
 أجمع الفقهاء على أن الطلاق لا يقع قبل النكاح ، استدلالا بقوله تعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح وعطفه (بشم) التي تفيد الترتيب مع التراخي ، واستدلالا بقوله ﷺ ، ( لا طلاق قبل النكاح ) واختلفوا فيمن علق الطلاق مثل قول الرجل : ( إن تزوجت فلانة فهي طالق ) أو قوله : ( كل امرأة أتزوجها فهي طالق ) على مذهبين .  
 أ - مذهب الشافعي وأحمد : أنه لا يقع الطلاق وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنه .  
 ب - مذهب أبي حنيفة ومالك : أنه يقع الطلاق بعد عقد الزواج وهو مروى عن ( ابن مسعود ) رضي الله عنه .

## أدلة الشافعية والحنابلة :

أ - استدل الامامان الشافعي وأحمد رحمهما الله على أن التعليق مثل التنجيز طلاق قبل النكاح ، وإذا طلق الانسان امرأة ، لا يملكها لا يقع الطلاق ، لأن الطلاق لا بد أن يعتمد على الملك ، وهو يشبه ما لو قال لأجنبية لا يملكها ( أنت طالق ) فإنه لا يقع باتفاق ، فكذا المعلق من الطلاق لا يقع به طلاق .  
 ب - واستدلوا بحديث ( لانذر لابن آدم فيما لا يملك ، ولا عتق له فيما لا يملك ، ولا طلاق له فيما لا يملك ) الحديث رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا وقال الترمذى حديث حسن ، وهو أحسن شيء روى في هذا الباب <sup>(١)</sup>

وهذا الرأي ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين وقد عد البخارى منهم أربعة وعشرين في باب ( لا طلاق قبل النكاح ) وهو منقول عن ( ابن عباس ) رحمه الله . فقد روى أنه سئل عن ذلك أى ( عن الطلاق المعلق ) فقال : هو ليس بشيء فقيل له إن ( ابن مسعود ) يخالفك يقول : إذا طلق مالم ينكح فهو جائز . فقال رحم الله أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال لقال لقال الله تعالى : ﴿ يأيتها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن ﴾ ولكن إنما قال : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ أدلة المالكية والحنفية :

واستدل الحنفية والمالكية بأن الطلاق يعتمد على الملك أو الاضافة إلى الملك ، لكنه في حالة الاضافة إلى الملك ، يبقى معلقا ، حتى يحصل شرطه ، فإذا قال للأجنبية ( إن تزوجتك فأنت طالق ) كان هذا تعليقا صحيحا ، ولا يقع الطلاق به الآن إنما يقع بعد أن يتزوجها . فهو مثل قولك : ( إن دخلت الدار فأنت طالق ) لا يقع الطلاق إلا بعد الدخول ، فكذا هنا لا يقع الطلاق إلا بعد أن يعقد عقد الزواج عليها ، فيكون الطلاق واقعا في الملك بالضرورة ، فكأنه أوقعه عليها حينذاك ، وقالوا : الفرق واضح بين تنجيز الطلاق على الأجنبية ، وبين تعليق طلاقها على النكاح ، فإن قول الرجل

لأمرأة أجنبية ( هي طالق ) كلام لغو ، لأنها ليست زوجته وقد طلق ما لم يملك فهو طلاق قبل النكاح لا يقع أصلاً ، أما قوله : ( إن تزوجت فلانة فهي طالق ) فهو معلق على الملك والفرق واضح بينهما . وهذا القول قال به جمع غفير من العلماء منهم ( ابن سعود ) ودليله قوى وهو الأحوط كما نبه عليه ( ابن العربي والجصاص )

والخلاصة : فإن الطلاق بعد النكاح يقع باتفاق الفقهاء ، والطلاق المنجز قبل النكاح لا يقع بإتفاق ، والطلاق المعلق على النكاح يقع عند الحنفية والمالكية ، ولا يقع عند الشافعية والحنابلة ، ولكل وجهة هو موليها والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الخلوة الصحيحة توجب العدة والمهر ؟  
ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ الذى هو كناية عن الجماع أن الخلوة ولو كانت صحيحة لا توجب ما يوجب الجماع من العدة والمهر ، وهذا مذهب الامام الشافعى رحمه الله تعالى ، ودليله : أن الله سبحانه وتعالى نفى وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع ، والخلوة ليست جماعاً فلا يجب بها العدة ولا المهر .  
وذهب الجمهور ( المالكية والحنفية والحنابلة ) إلى أن الخلوة كالجماع توجب المهر كاملاً ، وتوجب العدة .

( ١ ) واستدلوا بما رواه الدارقطنى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : ( من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل )<sup>(١)</sup>  
( ب ) وروى عن عمر أنه قال ( إذا أغلق باباً وأرخصى ستراً ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث )<sup>(٢)</sup> .

( ج ) وروى عن زرارة بن أبى أوفى أنه قال : ( قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخصى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملاً وعليها العدة دخل بها أو لم يدخل )  
الترجيح : وأنت ترى أن أدلة الجمهور أقوى ، وحجتهم أظهر ، إذ يحتمل أن يبقى الرجل مع زوجته عاماً كاملاً ، يبيت معها فى فراش واحد ، ولكنه لم يجامعها طيلة هذه المدة ، فلا بد أن نوجب عليه دفع المهر كاملاً ، ونلزمها بالعدة ، وذلك اعتباراً بالخلوة الصحيحة ودفعاً للنزاع والخلاف .  
وقد اختلف القائلون بوجوب العدة بالخلوة الصحيحة فمنهم من يقول :  
إنها واجبة ( ديانة وقضاء ) ومنهم من يقول بوجوبها قضاءً لا ديانة لأنه القاضى إنما يحكم بالظاهر والرأى الأول أصح .

الحكم الثالث : ما هو حكم المطلقة رجعيًا هل تستأنف العدة إذا راجعها زوجها ثم طلقها قبل

المساس ؟

(١) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣٣ والبيهقى ج ٧ ص ٢٥٦

(٢) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣١



اختلف الفقهاء في المرأة المطلقة رجعيا فيما إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسه على أقوال :

( ١ ) مذهب الظاهرية : أنه لاعدة عليها جديدة والعدة الأولى قد بطلت بالطلاق الثاني ، فلا يجب عليها أن تكمل العدة الأولى ( وهذا رأي ضعيف )

( ب ) مذهب الشافعي : تبني على عدة الطلاق الأول وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة .

( ج ) مذهب مالك وأبي حنيفة : عليها أن تستأنف عدة جديدة .

قال القرطبي : وعلى هذا أكثر أهل العلم .

دليل الظاهرية : استدل داود الظاهري ومن قال بقوله : أن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضي عدتها ثم فارقتها قبل أن يمسه ، أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلية ، لأنها مطلقة قبل الدخول بها أخذا بظاهر الآية .

دليل الشافعي : استدل الشافعي رحمه الله بأن المطلقة تبني على عدتها الأولى وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة بأن الطلاق الثاني لاعدة له ، لأنه طلاق قبل المساس ، ولكن لا ينبغي أن يبطل ماوجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول يجب أن تراعى فيه حكم الشارع في إيجاب العدة ، فطلاقها قبل أن يمسه في حكم من طلقها في عدتها قبل أن يراجعها ، ومن طلق امرأته في كل طهر مرة بنت ولم تستأنف .

دليل المالكية والحنفية : قالوا إن عليها أن تستأنف عدة جديدة ، لأن الطلاق الثاني وإن كان لم يفصل بينه وبين الرجعة مس ولا خلوة ، لكنه لا يصدق عليه أنه قد حصل قبل الدخول على الاطلاق ، إذ المفروض أن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، فيجب عليها أن تستأنف عدة كاملة لأنها في حكم الموطوءة .

قال القرطبي : نقلا عن الإمام مالك : إنها تنشئ عدة مستقبلية ، وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها .

وعلى هذا أكثر أهل العلم ، لأنها في حكم الزوجات المدخول بهن في النفقة والسكن وغير ذلك ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام .

الحكم الرابع : هل تجب المتعة لكل مطلقة ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ فمتعهن ﴾ إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء فرض لها مهرا ولم يفرض لها مهرا ، ويقوى هذا الظاهر قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾ <sup>(١)</sup> فقد أوجبت لكل مطلقة ( المتعة ) وقد اختلف الفقهاء في وجوب المتعة على أقوال :

( ١ ) أنها واجبة لكل مطلقة ، فرض لها مهر أم لم يفرض لها مهر ، عملا بظاهر الآية . وهو مذهب ( الحسن البصري ) .

( ب ) أن المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول التي لم يفرض لها مهر ، وهو مذهب ( الحنفية والشافعية ) . وبهذا قال ( ابن عباس ) رضى الله عنهما . وأما التي فرض لها مهر فتكون المتعة لها مستحبة .

( ج ) ان المتعة مستحبة للجميع وليست واجبة لأحد من النساء وهو مذهب ( المالكية ) وسبب الخلاف بين الفقهاء في ( وجوب المتعة ) أو استحبابها هو أنه قد ورد في القرآن الكريم آيات كريمة ظاهرها التعارض ، فمنها ما يوجب المتعة على الإطلاق ، ومنها ما يوجب المتعة عند عدم ذكر المهر المفروض لها ، ومنها ما ينص على المتعة أصلاً فلماذا وقع الخلاف بين الفقهاء ، أما الآيات الكريمة فهي آية الأحزاب ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ <sup>(١)</sup> وآية البقرة ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ <sup>(٢)</sup> وآية البقرة كذلك ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ <sup>(٣)</sup> - الآية . فالآية الأولى مطلقة والثانية مقيدة بقيدين ( عدم المس ، وعدم الفرض ) وأول الآية هو قوله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ﴾ الآية .

والثالثة : أوجبت نصف المهر فقط ولم تذكر المتعة . فمن الفقهاء من جعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب ويكون المعنى ( فمتعوهن إن لم يكن مفروضاً لهن المهر في النكاح ) وبهذا التفسير قال ( ابن عباس ) ويؤيده أن المتعة انما وجبت دفعا لايحاش الزوج لها بالطلاق ، فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابراً للوحشة فلا تحب لها المتعة ..  
الترجيح : ويظهر من الأدلة أن حجة الفريق الثاني وهم ( الحنفية والشافعية ) أقوى وأظهر وهو مذهب ابن عباس وفيه جمع بين الأدلة والله أعلم .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- أولاً - على الانسان أن يختار في الزواج المرأة المؤمنة الطاهرة .
- ثانياً : الطلاق هدم للحياة الزوجية فلا يصح أن يقع إلا في الحالات الضرورية .
- ثالثاً : لا تحب العدة بالاجماع اذا/ طلقت المرأة قبل الدخول بها .
- رابعاً : على الزوج أن يجبر خاطر زوجته المطلقة بالمتعة .
- خامساً : حرمة اizard المطلقة وتسريحها بالمعروف والاحسان .

### حكمة التشريع

شرع الله تعالى الزواج لبقاء النوع الانساني ، وعزز من روابطه واركانه وأحاط الأسرة بسياج

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩

(٢) سورة البقرة آية ٢٣٦

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧

مقدس من التكريم والتقدير وأقام الحياة بين الزوجين على أساس التفاهم والتعاون ، والمحبة والمودة ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١).

وقد أباح الاسلام الطلاق في ظروف استثنائية ضرورية ، وذلك ليخلص الانسان من شقاء محتم ، وينقذه من مشكلة قد تحرمه السعادة ، أو تكلفه حياته ، والطلاق في الاسلام أبغض الحلال إلى الله ، لان فيه هجراب البيوت ، وضياع الأسرة ، وتشريد الأولاد ، ولكنه ضرورة لا بد منها عند اللزوم . فلا بد أن تكون الأسباب فيه جلبة . والدوافع قاهرة ، وألا يكون ثمة طريق إلى الخلاص من ذلك الشقاء إلا بالطلاق . وقد قيل في الأمثال « آخر الدواء الكى »

وقد أرشد الاسلام إلى الاستعمال الحكيم لهذا العلاج ، ألا يقدم عليه الانسان إلا بعد درس وتمحيص وروية وبصيرة فإن الطلاق مasherع إلا ليحقق الطمأنينة والسعادة للانسان ، ويدفع عنه مرارة العيش ، وقساوة الحياة ، وإذا لم يستعمله المرء في الطريق المأمون انقلب إلى اعصار مخرب مدمر ، فحرم الأسرة الأمن والاستقرار ، فهو إذن سلاح ذو حدين : فإما أن يستعمله الانسان فيما يجلب اليه الشقاء . أو يستعمله فيما يخلصه من الشقاء .

وقد حكم الباري جل وعلا بأن من طلق زوجته قبل المساس . فليس له عليها حق أن يمنعها من الزواج ، لأنها لاعدة عليها . والعدة إنما تجب لمعرفة براءة الرحم ، وصيانة لحق الزوج لئلا يختلط نسبه بنسب غيره ، ولما كان هذا الطلاق قبل المعاشرة والاتصال الزوجي ، إذن فلاعدة ولا سبيل له عليها . فيجب أن يحسن معاملتها ، ويخلي سبيلها ، ولا يجمع لها بين الاساءتين : إساءة العشرة بسبب الفراق وإساءة المعاملة بمنعها من الزواج ﴿ فتمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ .

وبذلك صان المولى جل وعلا كرامة المرأة ودفع عنها عدوان الزوج وطغيانه ، وحفظ لكل حقه ، فلم يظل المرأة ولم يفرض في حق الرجل ، وفسح المجال لكل من الزوجين في الحياة السعيدة الكريمة . فما اسمى تعاليم الاسلام ، وما أعدل نظمه وأحكامه !!

### أحكام زواج النبي ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّاتِ أَتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ النَّبِيِّاتِ هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢) \* تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُعَوَّى إِلَيْكَ مِنْ

تَشَاءُ وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ  
وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿١٠﴾ لَا يَحِلُّ  
لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿١١﴾

### معاني المفردات

أحللنا : الاحلال معناه الاباحة ، وكل شيء أباحه الله فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، قال في  
لسان العرب : والحل والحلال والحليل . نقيض الحرام وأحله الله وحلله .  
أجورهن : مهورهن والمراد في الآية : الأزواج اللواتي تزوجهن عليه الصلاة والسلام بصداق ،  
وسمى المهر أجرا ، لأنه مقابل الاستمتاع بالمرأة في الظاهر ، وأما في الحقيقة فهو بذل وعطية ، لاظهار  
( حظر المحل ) وشرفه ، كما قال تعالى : ﴿ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ <sup>(١)</sup> أى هبة وعطية عن طيب  
نفس ، فالمهر تكريم للمرأة وإيناس لها ، وتطيب لحاظها ، وليس هو مقابل المنفعة أو الاستمتاع ، كما  
نبه عليه الفقهاء .

ملكك يمينك : يعنى الجوارى والاماء ، لأنهن يتملكن عن طريق الحرب والجهاد ، بالجهد  
والتضحية ، وبذل النفس والمال في سبيل الله ، ولذلك أطلق عليهن ( ملك اليمين ) .  
أفاء الله : أى مما غنمته منهن . وما رده الله عليك من الكفار ، كصفية وجويرية : فإنه عليه  
السلام أعتقهما وتزوجهما ، وأصل الفاء : الرجوع ، وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع إلى المسلمين  
من أموال الكفار بدون قتال ، فكأنه كان في الأصل للمسلمين ، فرجع إليهم بدون حرب ولا قتال .  
هاجرن معك : المراد بالهجرة هى هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ، والمعية هنا ( محل ) يراد بها  
الاشتراك في الهجرة ، لا في الصحبة ، فمن هاجرت حلت له ، سواء هاجرت في صحبته أو لم تهاجر في  
صحبته ، قال أبو حيان : تقول : دخل فلان معى ، وخرج معى أى كان عمله كعملى ، وإن لم يقتربا  
في الزمان ، وإن قلت : فرجعنا معا اقتضى المعنيان : الاشتراك في الفعل ، والاشتراك في الزمان .  
يستنكحها : الاستنكاح طلب النكاح ، لأن السين والتاء للطلب ، مثل استنصر طلب النصرة ،  
واستعجل طلب العجلة ، والمراد من قوله : ( إن أراد النبي ) أى إن رغب النبي في نكاحها ، فالارادة  
هنا بمعنى الرغبة في النكاح .

خالصة : أى خاصة لك لا يشاركك فيها أحد ، يقال : هذا الشيء خالصة لك : أى خالص لك

خاصة . قال ابن كثير : أى لاتحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل ، لم تحل له حتى يعطيها شيئا ، وكذا قال مجاهد والشعبي .

ما فرضنا عليهم : أى ما أوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود فى العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور .  
حرج : أى ضيق ومشقة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ لكىلا يكون عليك حرج ﴾ أى لكىلا يكون عليك ضيق فى دينك ، حيث أختصصناك بما هو أولى وأفضل . وأحللنا لك أجناس المنكوحات توسعة لك . وتيسيرا عليك ، لتفرغ لشئون الدعوة والرسالة .

ترجى : قال فى لسان العرب : ارجأ الأمر : أحزه وترك الهمة لغة والارجاء : التأخير ، قال ابن عباس فى معنى الآية : تطلق من تشاء من نسائك وتمسك من تشاء منهم لاحرج عليك . وقال مجاهد والضحاك : المعنى تفسم لمن شئت ، وتأخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت ، وتكثر لمن شئت . لاحرج عليك فى ذلك .

فإذا علمن أن هذا حكم الله وقضاؤه زالت الاحنة والغيرة عنهن ، ورضين وقرت أعينهن .  
وتؤوى : أى تضم : يقال أوى وآوى بمعنى واحد قال تعالى :  
﴿ أوى إليه أخاه ﴾ <sup>(١)</sup> أى ضمه إليه وأنزله معه ، قال ابن الجوزى ( وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نسائه كيف يشاء ، من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهما . غير أنه كان يسوى بينهما )

تقر أعينهن : أى تطيب نفوسهن بتلك القسمة قال أبو السعود ( ذلك أدنى أن تقر أعينهن ) أى أقرب إلى قرة العيون ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن ) .  
علما حليما : أى مبالغا فى العلم فيعلم كل ما تبدونه وتحفونه .  
حليما لايعاجل بالعقوبة ، فلا تغتروا بتأخيرها ، فإنه تعالى يمهل ولا يهمل .

### المناسبة والمعنى الاجمالى

أحل الله تعالى لنبيه ﷺ صنفا من النساء ، صنفا يدفع له المهر ( المهورات ) وصنفا يتمتع به بملك اليمين ( المملوكات ) ، وصنفا من أقاربه من نساء قريش ، ونساء بنى زهرة ( المهاجرات ) ، وصنفا رابعا ينكحه بدون مهر ( الواهبات ) أنفسهن وقد خص البارى جل وعلا رسوله فى أحكام الشريعة بخصائص لم يشاركه فيها أحد ، وذلك توسعة عليه ، وتيسيرا له فى نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، فتزوجه ﷺ بأكثر من أربع ، واختصاصه بنكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر ، وعدم وجوب

القسم عليه بين الأزواج ، كل ذلك خاص به صلوات الله وسلامه عليه ، تشريفا له وتكريما وإظهارا لمقامه السامي عند المولى عز وجل .

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ( كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحي امرأة أن تهب نفسها لرجل ؟ ! حتى أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء ومنه وتؤوى إليك من تشاء ﴾ فقلت « ما أرى ربك إلا يسارع في هواك »<sup>(١)</sup> ومعنى الآيات الكريمة : يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك ما ملكت يديك من السبي في الحرب ، وأحللنا لك قريباتك من بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ، وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات ، اللواتي وهبن أنفسهن ، حبا في الله وفي رسوله ، ورغبة في التقرب لك ، إن أرت أن تتزوج من شئت منهن ، بدون مهر خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا على المؤمنين في زوجاتهم ورفيقاتهم من شرائط العقد ، ووجوب المهر في غير المملوكات ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرا لك لكيلا يكون عليك ضيق أو حرج ولك - أيها الرسول - أن تترك من زوجاتك من تشاء ، وتضم إليك من تشاء ، وتقسم لمن تشاء منهن ، وأن تراجع بعد الطلاق من تريد . ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن لعلمهن أنه بأمر الله وترخيصه لك ، فيرضين بكل ما تفعل ، ويقبلن به عن طيب نفس ، وكان الله عليهما بما انطوت عليه القلوب ، حلما لا يعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره وعصاه .

وسبب نزول الآية ، أنه لما نزلت آية التخيير ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحا جميلا ﴾ .

أشفق نساء النبي ﷺ أن يطلقهن فقلن : يا نبي الله أجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ، ودعنا في عصمتك ، فنزلت هذه الآية ﴿ ترجى من تشاء ومنه وتؤوى إليك من تشاء ﴾ الآية . ( أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين )<sup>(٢)</sup> .

### لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : الاحلال معناه الاباحة والحل . واسناده إلى الله عز وجل ﴿ أحللنا لك أزواجك ﴾ دال على أن التحليل والتحريم خاص به سبحانه ، والتشريع لله وحده ، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ولا يملك أحد سلطة التشريع ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾<sup>(٣)</sup> اللطيفة الثانية : في وصفه تعالى النساء بقوله : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ تنبيه على أن الله عز وجل اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأكمل ، فإن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيرها ، والتعجيل كان سنة السلف لا يعرف منهم غيره ، وقد شكوا بعض الصحابة عدم القدرة على التزوج ، فقال له عليه السلام ( فإين درعك الحطمية ؟ )

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ج ١٠ ص ٤٩

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ج ٤ ص ٣٠٤

(٣) سورة يوسف آية ٤٠

وليس تأخير بعض المهر وتقسيمه إل (معجل ومؤجل) إلا شيء استحدثه العرف ، واقتضاه التغالي بالمهور ، أو الحذر على مستقبل الفتاة من الطلاق بعد أن فسد حال الناس ، فذكر الأجور ليس للقيّد أو الشرط وإنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ماملكت يمينه في قوله تعالى : ﴿ مما أفاء الله عليك ﴾ للإشارة على أنها أحل وأطيب مما تشتري من الجلب . فما سبى من دار الحرب قيل فيه ( سبى طيبة ) وما كان عن طريق العهد قيل ( سبى خبيثة ) والله تعالى لا يرغب نبيه إلا في الطيب دون الخبيث ( أفاده أبو حيان في البحر المحيط ) .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات ، في قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾

قال ابن العربي : والحكمة في ذلك أن العم ، والخال في الاطلاق ( اسم جنس ) كالشاعر ، وليس كذلك في العمة والخالّة ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذي جرى عليه العرب .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى ﴿ إن أراد النبی ﴾ ثم الرجوع إلى الخطاب في قوله ﴿ خالصة لك ﴾ وذكره ﷺ بعنوان ( النبوة ) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى ، تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه ﷺ ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته . قال الزجاج : وإنما قال : ( إن وهبت نفسها للنبي ) ولم يقل : لك . لأنه لوق قال : لك . جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز في بنات العم وبنات العمات .

### الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز النكاح بلفظ الأجارة أو الهبة ؟

لاخلاف بين الفقهاء على أن عقد النكاح ينعقد باللفظ الصريح ، وهو لفظ ( النكاح أو الزواج ) وبكل لفظ مشتق من هذه الصيغة . إذا لم يقصد به الوعد لقوله تعالى : ﴿ فأنكحوهن بإذن أهلهن ﴾ <sup>(١)</sup> ولقوله ﷺ ( إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ) <sup>(٢)</sup> فصيغة النكاح والتزويج وردت في الكتاب والسنة ، وهي من الصيغ الصريحة في النكاح .

وقد اتفق الفقهاء أيضا على أن ألفاظ ( الاباحة ، والاحلال ، والاعارة والرهن والتمتع ) لايجوز بها عقد النكاح ومثلها لفظ ( الاجارة ) فلا يجوز به عقد النكاح عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو الحسن الكرخي : يجوز بلفظ الاجارة لقوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ <sup>(٣)</sup> وحجته أن الله عز وجل سمى المهر أجرا ، والأجر يجب بعقد يتحقق بلفظ الأجارة فيصح به النكاح .

(١) سورة النساء آية ٢٥

(٢) أخرجه الترمذي ج ٢ ص ٢٧٤ برقم ١٠٩٠ ، ١٠٩١

(٣) سورة الأحزاب ٥٠

## الرد على الكرخي

والجواب : أن معنى ( الإجارة ) يتنافى مع عقد النكاح ، إذ النكاح مبني على التأييد ، والتوقيت يطله ، وعقد الإجارة مبني على التوقيت ، حتى لو أطلق كان مؤقتا ويتجدد ساعة فساعة ، فكيف يصح جعل ماهو موضوع على التوقيت ذالا على ما يطله التوقيت

ومن جهة ثانية فإن الإجارة عقد على المنافع بعوض ، والمهر ليس مقابل العوض . بل هو عطية أوجبها الله تعالى إظهارا لخطر المحل ، ولذلك يصح النكاح مع عدم ذكر المهر ، ويجب مهر المثل بالدخول ، ولا يصح النكاح بلفظ الإجارة ، حتى لا يلتبس الأمر بعقد المتعة الباطل ، ولهذا لم يوافق أحد من فقهاء الحنفية الكرخي فيما ذهب إليه .

أما النكاح بلفظ الهبة فقد أجازته الحنفية ، ومنعه جمهور الفقهاء .

استدل الحنفية على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة بما يلي :

( ١ ) قوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ ووجه الاستدلال أن الله عز وجل سمى العقد بلفظ الهبة نكاحا فقال : ( أن يستنكحها ) فدل على جواز النكاح بلفظ الهبة ، وإذا جاز هذا للنبي ﷺ فقد جاز لنا أيضا ، لأننا أمرنا باتباعه والافتداء به .

( ب ) وقالوا أيضا : إن النبي ﷺ وأمه في عقد النكاح بلفظ ( الهبة ) سواء وخصوصيته التي أشارت إليها الآية الكريمة ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ إنما هي في جواز النكاح بدون مهر ، بدليل قوله تعالى في آخر الآية : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ وذلك يشير إلى أن الخصوصية دفعت حرجا ، والحرج إنما يكون في الزام المهر ، لأنه يلزم مشقة السعي في تحصيل المال . وهو عليه السلام مشغول بشئون الرسالة ، وليس ثمة حرج في أن يكون العقد بلفظ النكاح ، أو التزويج ، فتكون الخصوصية له عليه السلام في النكاح بدون مهر .

ج - وقالوا : مما يؤيد هذا ما روى عن عائشة أنها كانت تعير النساء اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وتقول :

( ألا تستحي أن تعرض نفسها بغير صداق !! ) فلما نزل قوله تعالى ﴿ ترجى من تشاء ممنهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ إلى قوله ﴿ فلا جناح عليك ﴾ قالت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . . وقد تقدم الحديث . (١) .

( د ) واستدلوا بحديث سهل بن سعد ( إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله : جئت لأهب نفسي لك وفيه ( فقام رجل من الصحابة فقال يا رسول الله . ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، وذكر الحديث إلى قوله : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن ) (٢) .

ففي هذا الحديث أنه عقد له النكاح بلفظ التملك والهبه من ألفاظ التملك . فوجب أن يجوز

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) أخرجه البخاري ج ٧ ص ٢٦ كتاب النكاح



بها عقد النكاح فكل ماكان من ألفاظ . ( الاباحة ) لم ينعقد به عقد النكاح قياسا على المتعة ، وكل ماكان من ألفاظ ( التملك ) ينعقد به عقد النكاح قياسا على سائر عقود التمليكات .  
حجة الجمهور

واستدل الجمهور ( المالكية والشافعية والحنابلة ) على عدم جواز النكاح بلفظ الهبة بما يأتي :  
( ١ ) أن الله تعالى خص رسوله بهذه الخصوصية . وهي جواز النكاح بلفظ الهبة بدون مهر فقال جل ثناؤه : ﴿ وإمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبي ﴾ وقوله : ﴿ خالصة لك ﴾ دليل على أن إحلال المرأة عن طريق الهبة إنما كان خاصا بالنبي ( ﷺ ) بدليل قوله تعالى : ﴿ من دون المؤمنين ﴾ فالخصوصية له عليه السلام كانت بالهبة ( لفظا ومعنى ) لأن اللفظ تابع للمعنى .  
ب - وقالوا ماكان من خصوصياته عليه السلام . فلا يجوز أن يشاركه فيها أحد . والآية دلت على أن هذا خاص بالرسول ( ﷺ ) أى أن النكاح بدون مهر . ويلفظ الهبة معا . من خصائصه عليه السلام .

فمن أين لكم الخصوصية في المعنى دون اللفظ ؟ ومن أين لكم أنه يجوز عقد النكاح لغير النبي ( ﷺ ) بلفظ الهبة مع إيجاد المهر ؟  
ج - وأما استدلال الحنفية بحديث ( سهل بن سعد ) أن النبي عليه السلام زوج الصحابي بلفظ التملك بقوله ( اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن )  
فليس منه مايدل لهم . فقد جاء في بعض الروايات ( اذهب فقد زوجتكها )  
وليس كل مايدل على التملك ينعقد به النكاح . فلفظ الاجارة يدل على التملك ومع ذلك لاينعقد به النكاح باتفاق .

الترجيح : أقول : أدلة الحنفية كما بسطها الامام ( الجصاص ) وإن كانت قوية إلا أن النص ورد بالخصوصية للرسول عليه السلام في ( نكاح الهبة ) والظاهر أن المراد منه ( اللفظ والمعنى ) ، وحمله على المعنى دون اللفظ يحتاج إلى دليل ، وصيغ النكاح لايجزئ فيها القياس ، فما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح كما قال الامام مالك رحمه الله : إن الهبة لا تحل لأحد بعد النبي ( ﷺ ) إن كانت هبة نكاح ، والله أعلم .

الحكم الثاني : هل الهبة شرط في النكاح ؟

ظاهر الآية الكريمة يدل على أن من لم تهجر معه من النساء لا يحل له نكاحها لقوله تعالى : ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ الآية . وإلى هذا الظاهر ذهب بعض العلماء قال القاضي أبو يعلى : وهذا يدل على أن من لم تهجر معه من النساء لم يحل له نكاحها . قالت أم هانئ بنت أبي طالب : خطبني رسول الله ( ﷺ ) فاعتذرت إليه فبذرنى ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ إنا أحللتنا لك أزواجك .. ﴾ إلى قوله : ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ قالت : فلم أكن لأحل له . لأنى لم أهاجر معه . كنت من الطلقاء .

وجهور المفسرين على أن الهجرة ليست بقيد ولا شرط . وإنما هي لبيان الأفضل كما في قوله تعالى : ﴿ اللاتي آتيت أجورهن ﴾ فالآية ذكرت الأصناف التي يباح للرسول ﷺ أن يتزوج منها ، وبين ما هو أفضل له وأكمل ، فكما أن ذكر ( الأجور ) ليس للقيد وإنما هو لبيان الأفضل فكذا هنا . قال أبو حيان : ( والتخصيص باللاتي هاجرن معك . لأن من هاجر معه من قرابة غير المحارم أفضل من غير المهاجرات ، وقيل : شرط الهجرة في التحليل منسوخ ) . وحكى الماوردي في ذلك قولين : أحدهما : أن الهجرة شرط في إحلال النساء له على الإطلاق . والثاني : أنه شرط في إحلال قراباته المذكورات في الآية دون الأجنبية . الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه جمهور المفسرين أن تقييد القريبات بكونهن مهاجرات لبيان الأكمل والأفضل ..

الحكم الثالث : هل كان عند النبي امرأة موهوبة ؟ ذكر أكثر العلماء إلى أن الهبة وقعت من كثير من النساء ، وقد وردت روايات كثيرة منها القوى ومنها الضعيف في أسماء الواهبات أنفسهن . منهن ( أم شريك ) و ( خولة بنت حكيم ) و ( ليل بنت الخطيم ) . ولم يكن عند رسول الله ﷺ . منهن أحد ، وقيل ( ميمونة بنت الحارث ) و ( زينب بنت خزيمة ) كذلك من الواهبات أنفسهن والصحيح هو الأول . قال أبو بكر بن العربي : ( وروى عن ابن عباس ومجاهد أنها قالا : لم يكن عند النبي ﷺ ) امرأة موهوبة .

قال ابن كثير : ( اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ) كثير ، كما قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ ) وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء . ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾

قلت : ما رأى بك إلا يسارع في هواك ) .

الحكم الرابع : هل كان القسم واجبا على رسول الله ﷺ ؟ يرى بعض العلماء أن القسم كان واجبا على رسول الله ﷺ ) وأنه كان يقسم بينهن بالعدل ويقول : ( اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تؤاخذني فيما لا أملك )<sup>(١)</sup> يريد بقوله : ( مالا أملك ) ميل للقلب نحو بعض نسائه كعائشة رضي الله عنها . واستدلوا بأن القسم كان واجبا عليه بأنه عليه السلام كان يستأذن بعض نسائه فيقول : أتأذن لي أن أبيت عند فلانة . وقد ورد في ذلك أحاديث صحيحة .

وذهب أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ ) معاشرة من شاء من نسائه دون أن يكون القسم عليه واجبا ، ومع ذلك فقد كان يعدل بينهن ويسوى في القسمة . قال الجصاص : « وهذه الآية تدل على أن القسم بينهن لم يكن واجبا على النبي ﷺ ) وأنه كان

غيرا في القسم لمن يشاء ، وترك من شاء منهم )

وقال ابن كثير : ( وذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم ، إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه ، ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخاري عن معاذ عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبي ﷺ يستأذنا في يوم المرأة منا ، بعد أن نزلت هذه الآية :

﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ فقلت لها : ما كنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فإني لأرى يارسول الله أن أؤثر عليك أحدا )<sup>(١)</sup>

والصحيح أن القسم لم يكن واجبا عليه وهو اختيار الجمهور ، قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافي قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾

﴿ ترجى من تشاء منهم وتؤوى باليك من تشاء ) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نساءك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر في ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك في ذلك .

والخلاصة : أنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبي رزين قال : ( لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يارسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ماشئت ، ودعنا كما نحن فنزلت هذه الآية . فأرجأ رسول الله ﷺ بعضهن ، وآوى إليه بعضهن . وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهم خمسا : أم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وصفية ، وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ماشاء ، ثم بين السبب في الايواء والارجاء ، وأنه كان ذلك في مصلحتهن ، فقال :

﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ ، أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم لا جناح عليك في أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لمن اختيارا منك لا وجوبا عليك . ففرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعتفرن بمبتك عليهن في قسمك لمن . وتسويتك بينهن ، وإنصافك لمن ، وعدلك بينهن .

﴿ والله يعلم مافي قلوبكم ﴾ من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر له في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : ( اللهم هذا فعل فيا أملك فلا تلمني فيما غلك ولا أملك ) . يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين مافي القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهم بما دبر الله له من ذلك ،

وفوضه إلى مشيئته ، ويعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافي بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ .  
﴿ وكان الله عليا حليما ﴾ أى وكان الله عليا بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ،  
ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .  
قوله تعالى : ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ . وكان الله على كل شيء رقيبا .  
تضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ،  
ولإى ذلك أشار بقوله :

( ١ ) ﴿ لا يحل لك النساء من بعد ﴾ أى لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في  
عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن في ذلك أخرج أبو داود في ناسخه وابن  
مردويه والبيهقي في سننه عن أنس قال :

( لما خيرهن فاخترن الله ورسوله ﷺ قصره سبحانه عليهن ) .

وروى عن ابن عباس أنه قال في الآية : « حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه »  
( ٢ ) ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك ﴾ أى ولا يحل لك أن  
تستبدل بهن أزواجا غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتتكح بدلا أخرى مهما كانت بارعة في الحسب  
والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسراها وأولدها  
إبراهيم ومات رضيعا .

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبي ( ﷺ ) قال :  
« إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل »<sup>(١)</sup> وعن المغيرة بن  
شعبة قال : ( خطبت امرأة فقال لي النبي ﷺ : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : انظر إليها فإنه  
أحرى أن يؤدم بينكما ) .

﴿ وكان الله على كل شيء رقيبا ﴾ أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شيء ، عليا بالسر  
والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده ، وتخطى حلاله إلى حرامه .

### آداب الاستئذان والوليمة والحجاب

قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ  
نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ  
ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مَنْ آخَقَّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ  
مَتَعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا

رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٢﴾  
 إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٣﴾

## معاني المفردات

يؤذن لكم : أى تدعوا إلى تناول الطعام ، والأصل أن يتعدى بـ ( فى ) تقول : أذنت لك فى الدخول ، ولا تقول أذنت لك إلى الدخول ، ولكن اللفظ لما ضمن معنى ( الدعوة ) عدى بـ ( إلى ) بدل ( فى ) ومعنى الآية .

لاتدخلوا بيوت النبي إلا إذا دعيتم إلى تناول الطعام .

قال الزمخشري : ﴿ إلا أن يؤذن ﴾ فى معنى الظرف تقديره : وقت أن يؤذن لكم . ناظرين إناه : أى منتظرين نضجه ، قال فى اللسان : وإنى الشيء : بلوغه وإدراكه ، وفى التنزيل ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه ، تقول : أنى يأتى إذا نضج إنى أى نضجا ، والانى بكسر الهمزة والقصر : النضج فهو على هذا مصدر مضاف إلى الضمير .

ويرى بعض المفسرين أنه ظرف بمعنى ( حين ) وهو مقلوب ( آن ) بمعنى ( حان ) فعلى الأول يكون المعنى : غير منتظرين نضجه ، وعلى الثانى يكون المعنى : غير منتظرين وقته أى وقت إدراكه ونضجه ، وهما متقاربان .

فانتشروا : أى أخرجوا وتفرقوا ، يقال انتشر القوم : أى تفرقوا ومنه قوله تعالى :

﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ (١) أى تفرقوا فى الأرض لطلب الرزق والكسب . مستأنسين لحديث : معنى الاستئناس : طلب الأئس بالحديث لأن السين والتاء للطلب تقول : استأنس بالحديث : أى طلب الأئس والطمأنينة والسرور به . وتقول : ما بالدار أنيس ، أى ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ، وقد كان من عادة الناس أنهم يجلسون بعد الأكل فيتحدثون طويلا ، ويأنسون بحديث بعضهم بعضا فعلمهم الله الأدب ، وهو أن يتفرقوا بعد تناول الطعام . ولا يثقلوا على أهل البيت ، لأن المكث بعده فيه نوع من الاثقال .

إن ذلكم : اسم الإشارة راجع إلى الدخول بغير إذن . والمكث عقب الطعام للاستئناس بالحديث . وقيل : هو راجع إلى الأخير خاصة ، ومعنى الآية : إن انتظاركم واستئناسكم يؤذى النبى . ،

فيستحى منكم : أى يستحى من اخراجكم من بيته ، والله لا يستحى من بيان الحق فهو على حذف مضاف .

متاعا : المتاع : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ، وهو فى اللغة : ما يستمتع به حسيا كان كالثوب والقدر والماعون . أو معنويا كمعرفة الأحكام الشرعية والسؤال عنها ، وقد يأتى المتاع بمعنى

التمتع بالشئ والايقاع به كما قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ <sup>(١)</sup> وفي الحديث الشريف : ( الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ) <sup>(٢)</sup> .  
حجابها : أى ساتر يستره عن النظرة قال فى اللسان : حجب الشئ يحجبه أى ستره ، وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب . وامرأة محجوبة قد سترت بستر ، والحجاب : اسم ما احتجب به .

وكل ما حال بين شيئين فهو حجاب . قال تعالى : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ <sup>(٣)</sup> ومعنى الآية : إذا سألتموهن شيئا مما يستمتع به ويتفتع فاسألوهن من وراء ستر وحجاب أظهر : أى أسلم وأتقى . أفعل تفضيل من الطهارة بمعنى النزاهة والنقاء .  
والمعنى : سؤالكم للسؤال من وراء حجاب ، أكثر نقاء وتنزيها لقلوبكم وقلوبهن من الهواجس والخواطر ، التى تتولد فيها عند اختلاط الرجال بالنساء ، وأبعد عن الريبة وسوء الظن .  
أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يتأدبوا بالآداب الاسلامية الكريمة ، ويتمسكوا بما شرعه لهم من التوجيهات والارشادات الحكيمة ، التى بها صلاح دينهم ودنياهم ، وخاصة مع النبى ﷺ ، فمقام النبوة لا يعادله مقام ، وإيذاء النبى ﷺ - سواء كان بالقول أو الفعل - من أعظم الكبائر عند الله ، وقد ألزمتنا الله سبحانه بتلك الآداب الفاضلة ، وأمرنا بالتمسك بها حتى يتحقق المجتمع الفاضل الذى ينشده الاسلام . وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أمرين هامين .  
الأول : الأدب فى أمر الطعام والاستئذان ودخول البيوت ( أدب الوليمة )  
الثانى : الأدب فى مخاطبة النساء ، وعدم الاختلاط بهن أو الخلوة .

### أدب ( الحجاب الشرعى )

يقول الله جل ثناؤه مامعناه : يا أيها المؤمنون لا تدخلوا بيوت النبى إلا بعد الاذن ولا تترقبوا أوقات الطعام فتدخلوا عليه فيها ، أو تنتظروا إلى أن يحين وقت نضج الطعام فتستأذنوا عليه فى الدخول ، إلا إذا كنتم مدعوين إلى وليمة قد أعدها لكم رسول الله ( ﷺ ) . ومع ذلك إذا دعيتم وطعمتم فاخرجوا وتفرقوا ولا تثقلوا على الرسول الكريم بالجلوس بعد الطعام ، فإن حيائه يمنعه أن يأمركم بالانصراف . أو يظهر لكم الامتعاض من جلوسكم فى بيته ، فهو ذو الخلق الرفيع ، والقلب الرحيم ، لا يصدر منه إلا ما يسركم . فلا يليق بكم أن تثقلوا عليه ، أو تؤذوه فى نفسه أو أهله ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات ، فاسألوهن من وراء حاجز وحجاب ، لأن ذلكم أزكى لقلوبكم وقلوبهن ، وأنفى للريبة ، وأبعد عن التهمة وأظهر لبيت النبوة .  
ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تؤذوا رسولكم ، الذى هداكم الله به وأخرجكم من الظلمات إلى

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ الحديد آية ٢٠

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٠٩٠ برقم ١٤٦٧/٦٤

(٣) سورة فصلت آية ٥

النور ، فهو كالوالد لكم ، وأزواجه كالأمهات لكم ، وهل يصح لمؤمن أن يتزوج أمه ؟ فلا تؤذوه في حياته ولا بعد مماته ، ولا تتزوجوا بأزواجه من بعده أبدا ، فإن إيداء الرسول ، ونكاح أزواجه من بعد وفاته ، ذنب عظيم عند الله لا يغفره الله لكم أبدا ، وهو عند الله بالغ الذنب والعقوبة .

### سبب النزول

تعرضت الآية الكريمة لأمرين هامين هما : ( آداب الدعوة ) و ( مشروعية الحجاب ) ولكل منهما سبب نزول .

أما الأول : فقد روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله فصنعت ( أم سليم ) أمى حيسا فجعلته في تور وقالت يا أنس : اذهب إلى رسول الله ﷺ فقل بعثت به إليك أمى ، وهى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منا قليل يا رسول الله !!!

قال : فذهبت به إلى رسول الله ﷺ وقلت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا لك منا قليل يا رسول الله . فقال : ضعه ثم قال : اذهب فادع لى فلانا وفلانا ، ومن لقيت وسمى رجالا ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، قيل لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة . قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ يا أنس هات التور ، قال فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله ( ﷺ ) ليتخلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه . فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم .

فقال لى : يا أنس : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ وجلس منهم طوائف يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ وهو جالس وزوجه مولىة وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب وخرجوا كلهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس فى الحجرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج على وأنزل الله هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ فخرج رسول الله ﷺ فقرأها على الناس .<sup>(١)</sup>

ثانيا : وأما بالنسبة لمشروعية الحجاب فقد كان سبب النزول ما روى فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ الآية . وهذه إحدى الموافقات الثلاثة التى نزل القرآن الكريم فيها موافقا لرأى عمر رضى الله عنه . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : ( وافقت ربه فى ثلاث :

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى اتفاق عليه الشيخان ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، برقم ٩٠٥ والامام مسلم ج ٢ ص ١٠٥١ برقم ٩٤ /

قلت يا رسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾<sup>(١)</sup> . وفي الحجاب : فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبي ( ﷺ ) في الغيرة فقلت : ( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن )<sup>(٢)</sup> فنزلت كذلك .

### لطائف التفسير

اللطفية الأولى : قوله تعالى : ﴿ بِيُوتِ النَّبِيِّ ﴾ إضافة البيوت إلى النبي ( ﷺ ) إضافة تشريف ، مثل ( ناقة الله ) و ( بيت الله ) الإضافة فيها للتكريم والتشريف فليبيوت النبي ( ﷺ ) من الحرمة مالميس لغيرها من البيوت ، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت النبي ( ﷺ ) تكريما له عليه السلام وتشريفا .

اللطفية الثانية : قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ ﴾ في الكلام باء محذوفة تسمى ( باء المصاحبة ) أى إلا بأن يؤذن لكم ، وتضمن ( الاذن ) معنى ( الدعوة ) للاشعار بأنه لا ينبغي أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن وجد صريح الاذن بالدخول ، حتى لا يكون الانسان ( طفيليا ) يحضر الوليمة بدون سابق دعوة .

ومما يدل على هذا التضمن قوله تعالى بعدها : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ فإنها صريحة في أن المراد بالاذن ( الدعوة ) فتنبه لهذا السر فإنه دقيق .

اللطفية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ قال الامام الرازى : ( فيه لطيفة وهى أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن : لا تدخلوها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء ، فقال : لا تفعلوا مثل مايفعله المستكفون ، بل كونوا طائعين سامعين ، إذا قيل لكم : لا تدخلوا فلا تدخلوا ، وإذا قيل لكم : ادخلوا فادخلوا ، وهذا معنى لطيف .

اللطفية الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَلَا مَسْتَأْذِنِينَ لِحَدِيثٍ ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الإطلاق . فالأمر أمر وليمة وقد انتهت .

ولم يبق إلا أن يفرع أهل البيت لبعض شأنهم . والبقاء بعد ذلك فيه نوع من الاثقال غير محمود .

قال بعض العلماء : هذه الآية نزلت في الثقلاء ، وقرأها بعضهم فقال : ( هذا أدب من الله تعالى أدب به الثقلاء ) ويروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما : ( حسبك في الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم ) وأنشد بعض الفضلاء :

(١) سورة البقرة آية ١٢٥

(٢) التحريم آية ٥



وثقيل أشد من ثقل الموت      ومن شدة العذاب الأليم  
لو عصت ربها للجحيم لما كان      سواء عقوبة للجحيم

وقال آخر :

ربما يثقل الجليس ولو كان      خفيفا في كفة الميزان  
ولقد قلت حين وتد في البيت      ثقیل أربى على سهلان  
كيف لم تحمل الأمانة أرض      حملت فوقها أبا سفيان

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ﴾ الاستحياء لا يكون من الذات ، وإنما يكون من الأفعال ، بدليل قوله تعالى : ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ ولم يقل : والله لا يستحي منكم والكلام فيه حذف تقديره : فيستحي من إخراجكم أو من أمركم بالانصراف والله لا يستحي من بيان الحق ، وأطلق استحياء الله وأراد منه عدم السكوت عن بيانه ، فسمى السكوت عليه استحياء على ( طريق المشاكلة ) لوقوعه بجانب استحياء الرسول على حد قول القائل :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا .  
اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ذلکم أطهر لقلوبکم وقلوبهن ﴾ فيه إشارة دقيقة إلى ما بين العين والقلب من صلة وثيقة ، فالعين طريق الهوى والنظرة بريد الشهوة ، فإذا لم تر العين لا يشتهى القلب ، وكما قال بعض الأدباء :  
وما الحب إلا نظرة إثر نظرة      تزيد غموا إن تزده لجاجا .

فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أطهر .  
اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ إن ذلکم کان عند الله عظیما ﴾ الإشارة في قوله ( ذلکم ) يعود إلى ما ذكر من إيدائه عليه الصلاة والسلام ، ونكاح أزواجه من بعده ، وقد جاء التعبير بلفظ ( ذلکم ) ولم يأت بلفظ ( هذا ) للتهويل والتعظيم .  
قال أبو السعود :

وما فيه من معنى البعد للايدان ببعد منزلته في الشر والفساد ، وقوله : ﴿ کان عند الله عظیما ﴾ أى أمرا عظيما . وخطبا هائلا ، لا يقادر قدره ، وفيه من تعظيمه تعالى بشأن رسوله ﷺ ، وإيجاب حرمة حيا وميتا مالا يخفى ، ولذلك بالغ تعالى في الوعيد .

## الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز تناول الطعام بدون دعوة ؟ اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز دخول البيوت إلا بإذن ، ولا يجوز تناول طعام الانسان إلا بإذن صريح أو ضمني ، لقول عليه السلام : ( لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس )<sup>(١)</sup>

وقد دلت الآية الكريمة على حرمة دخول بيوت النبي ﷺ إلا بعد الاذن ، وعلى حرمة التطفل ، وهو أن يحضر إلى الوليمة بدون دعوة وفاعله يسمى بـ ( الطفيل ) والحكم عام في جميع البيوت ، فلا يجوز للانسان أن يدخل بيت أحد بدون إذنه ، ولا أن يتناول الطعام بدون رضا صاحبه . وهذا أدب رفيع من الآداب الاجتماعية ، التي أرشد إليها الاسلام . قال ابن عباس : كان ناس يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام ، وينتظرون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم ، فنزلت هذه الآية .

وقال ابن كثير رحمه الله :

حظر الله تعالى على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية وابتداء الاسلام ، حتى غار الله هذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة ومعنى الآية : أى لا ترقبوا الطعام إذا طبخ ، حتى اذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه ثم قال : وهذا دليل على تحريم التطفل وهو الذى تسميه العرب ( الضيفن ) .

الحكم الثانى : هل الجلوس بعد تناول طعام الوليمة حرام ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ على ضرورة الخروج بعد تناول الطعام ، وهذا من الآداب الاسلامية التى أدب الله بها المؤمنين .

فالمكث والجلوس بعد تناول الطعام ، ليس بحرام ولكنه مخالف لآداب الاسلام ، لما فيه من الاثقال على أهل المنزل ، سيما إذا كانت الدار ليس فيها سوى بيت واحد ، اللهم إلا اذا كان الجلوس بإذن صاحب الدار أو أمره ، أو كان جلوسا يسيرا تعارفه الناس ، لا يصل إلى حد الأثقال المذموم

ومع ذلك فالأفضل الخروج ، ولهذا جاء التعبير بالفاء ، التى تفيد الترتيب والتعقيب ( فانتشروا ) فالمكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الاطلاق ، ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم ، والبقاء بعد ذلك نوع من الأثقال غير محمود ، ، يتنافى مع الأدب الرفيع ، والدوق السليم .

الحكم الثالث : هل الأمر بالحجاب خاص بأزواج النبي أو هو عام ؟

الآيات الكريمة وردت في شأت بيوت النبي ﷺ خاصة ، تعظيما لرسول الله وتكريما لشأنه ، ولكن الأحكام التى فيها عامة ، تعم جميع المؤمنين ، لأنها آداب اجتماعية ، وإرشادات إلهية ، يستوى

فيها جميع الناس ، فالأمر بعدم الاختلاط بالنساء وبسؤالهن من وراء حجاب ، ليس مقصورا على أزواج الرسول ﷺ ولكنه عام يشمل جميع نساء المؤمنين ، فإذا كان نساء الرسول ﷺ لا يجوز الاختلاط بهن ، ولا النظر إليهن ، مع أنهن ﴿ أمهات المؤمنين ﴾ يحرم الزواج بهن ، ولا يجوز سؤالهن الا من وراء حجاب ، فلا شك أن الاختلاط بغيرهن من النساء ، أو التحدث إليهن بدون حجاب ، يكون حراما من باب أولى ، لأن الفتنة بالنساء متحققة .

ثم أن أمر الحجاب ليس خاصا بأزواج الرسول ﷺ ، بل هو عام لجميع نساء المؤمنين ، بدليل قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾

فهل خرجت مؤمنة من هذا الخطاب ؟ وهل أمر الحجاب خاص بنساء الرسول حتى يزعم بعض المضلين ، أن الحجاب مفروض على نساء الرسول ﷺ خاصة دون سائر النساء ؟  
الحكم الرابع : هل الطعام المقدم للضيف على وجه التملك أو الإباحة ؟  
أشارت الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ الى أن الطعام الذى يقدم للضيف ، لا يكون على وجه التملك ، وإنما هو على وجه الإباحة ، فلو أراد الضيف ان يحمل معه الطعام الى بيته ، لا يجوز له ذلك ، لأن المضيف إنما أباح له الأكل فقط ، دون التملك له أو أخذه أو إعطائه لأحد .

قال العلامة القرطبي : ( فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ، لأنه تعالى قال : ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقي الملك على أصلة

الحكم الخامس : هل زال النكاح عن أمهات المؤمنين بموت النبي ﷺ ؟  
قال القرطبي : فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : اختلف العلماء فى أزواج النبي ﷺ بعد موته ، هل بقين أزواجا أو زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت ، فهل عليهن عدة أو لا ؟  
ف قيل : عليهن العدة ، لأنه توفى عنهن والعدة عبادة .  
وقيل : لعدة عليهن ، لأنها مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة .

والقول الثانى هو الصحيح لقوله عليه السلام ( ماتركت بعد نفقة عيالى ) وروى ( أهلى )<sup>(١)</sup> وهذا اسم خاص بالزوجية فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن ، لكونهن نساء وحرمن على غيره ، وهذا هو معنى بقاء النكاح ، وإنما جعل الموت فى حقه عليه السلام بمنزلة المغيب فى حق غيره ، لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ، فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق ، وبقي فى حق النبي ﷺ ، وقد قال عليه السلام : ( كل سبب ونسب ينقطع الاسببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة )<sup>(٢)</sup>

(١) القرطبي ج ٨ ص ١٧٨ ، ج ١٤ ص ٢٢٩

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٤٠٩ برقم ١٣٩١٤ .

فأما زوجاته عليه السلام اللاتي فارقهن في حياته ، مثل الكلبيّة وغيرها .  
 فهل كان يحلّ لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ؛ لما روى أن الكلبيّة التي  
 فارقها رسول الله ﷺ تزوجها (عكرمة بن أبي جهل)  
 وقيل إن الذي تزوجها (الاشعث بن أبي جهل)  
 قال القاضي أبو الطيب : الذي تزوجها (مهاجر بن أبي أمية) ولم ينكر ذلك أحد ، فدل على أنه  
 إجماع .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- (١) النهي عن دخول بيوت الرسول ﷺ بغير اذنه وبدون سابق دعوة .
- (٢) لا ينبغي الحضور قبل نضج الطعام ، ولا المكث بعد تناول الوليمة .
- (٣) وجوب احترام الرسول ﷺ ، وتعظيمه ، وامثال أوامره ، وتقديم طاعته . على كل  
 شيء .
- (٤) حرمة إيذاء الرسول ﷺ بالأقوال أو الأفعال ، والتأدب معه في جميع الأقوال .
- (٥) حرمة نكاح أمهات المؤمنين من بعد وفاته ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ .
- (٦) خلق الرسول الرفيع يمنعه من أمر الناس بالخروج من منزله ، فينبغي عدم الانتقال عليه .
- (٧) نساء الرسول ﷺ ، هن القدوة والاسوة الحسنة لسائر النساء ، فينبغي مخاطبتهن من وراء  
 حجاب .
- (٨) في عدم الاختلاط بالنساء ، صفاء النفس ، وسلامة القلب ، ونقاء السريرة ، والبعد عن  
 مظان التهم .
- (ج) الآداب التي أرشد إليها القرآن ، ينبغي التمسك بها وتطبيقها تطبيقاً كاملاً .

### حكمة التشريع

حرم الله تعالى على المؤمنين دخول بيوت النبي ﷺ بدون إذن ، تكريماً لرسول الله عليه السلام  
 وتعظيماً لشأنه ، ومنع الناس من الانتقال على رسول الله ﷺ ، سواء بالدخول إلى بيوته دون سابق  
 دعوة ، أو المكث فيه بعد تناول طعام الوليمة ، لأن في ذلك إنتقالاً على الرسول الكريم ، وإيذاء له  
 والتطفل ، والانتقال على أهل الدار ، ليس من أوصاف المؤمنين ، وقد كان رسول الله ﷺ شديد  
 الحياء ، وكان كما في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه .  
 (أشدّ حياءً من العذراء في خدرها<sup>(١)</sup>) ولم يكن من خلقه الكريم ، أن يجابه أحداً بما يكره ، مهما

(١) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٦١١ برقم ١٤٩٩ من رواية أبي سعيد الخدري ، زوائد البزار عن أنس

اصابه الاذى والضرر ، ولا من عادته أن يأمر الزائر بالانصراف ، مهما طال المكث والبقاء ، لأن هذا لا يتفق مع خلق الداعية ، فكيف بخلق النبوة وأوصاف سيد المرسلين ﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (١) .

وكان بعض الناس ممن لم تهذب أخلاقهم بعد ، يتحينون طعام النبي ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن ينضج ، ثم يأكلون ، ولا يخرجون ، فكان الناس بحاجة إلى أن يتعلموا الآداب الرفيعة ، وأن يكون عندهم ( ذوق اجتماعي ) وشعور رقيق ، يمنعهم عن ارتكاب النقائص ، وفعل مايخل بالمروءة .

لذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات الكريمة تعليما للأمة ، وإرشادا لها الى سلوك الطريق القويم ، وقد قال اسماعيل بن ابي حكيم : ( هذا أدب أدب الله به الثقلاء )

وقال آخر : هذه الآية نزلت في الثقلاء وحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

ولقد كان هناك من بعض المنافقين إيذاء لرسول الله ﷺ بالفعل أو القول ، حتى قال رجل من المنافقين حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد وفاة زوجها أبي سلمة : مابال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمنا ، لأجلنا السهام على نسائه يريد اقتسمناهن بالقرعة ، فنزلت الآية في هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لمن حكم الأمهات تطيبا لحاظه الشريف ، وهذا من خصائصه عليه السلام تمييزا ، لشرفه ، وتنبهها على مرتبته ، وما كان لمؤمن أن يؤذي في نفسه ، أو أهله ، لأنه عليه الصلاة والسلام أب للمؤمنين ، وهل يليق بالانسان أن يتزوج امرأة أبيه ، وهي أمه ينص القرآن الكريم وصدق الله .

﴿وماكان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما﴾ قوله تعالى : ﴿ان تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما﴾

هذه مبالغة في الوعيد والتهديد . أى أن ماتكنه ضمائرهم ، وتنطوى عليه سرائركم ، فالله يعلمه ، إذ لا تخفى عليه خافية ، ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور﴾ (٢)

ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية ، والكلام ، وان كان عاما بظاهره ، فالمقصود مايتعلق بزواجه عليه الصلاة والسلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب ، قال رجل : أنهى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جوير عن ابن عباس ( ان رجلا أتى بعض أزواج النبي فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي ﷺ : لاتقومن هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يارسول الله إنها ابنة عمي ، والله ماقلت منكرا ، ولا قالت لي قال النبي ﷺ :

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة غافر آية ١٩

قد عرفت ذلك : أنه ليس أحد أغير من الله تعالى - وانه ليس أحد أغير مني فمضى ثم قال : ما يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية فأعتق الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله وحج ماشيا لأجل كلمته )

وروى ان بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد ابن سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه ففزلت .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِمْ فِيءِ آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَاتِهِمْ وَلَا نِسَاءَ بِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٥٥ ﴾

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب ، أردف ذلك استثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهن من وراء حجاب ؟ ففزلت .

### التفسير

لا لائم على أزواج النبي ﷺ في ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع ، أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدي ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد ، لما في الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

وأخشين الله في السر والعلن ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة أن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملتكم فاتقوه فيما تأتون وما تلدرون .

### الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦ ﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٤﴾

### معاني المفردات

يصلون : الصلاة في اللغة معناها : الدعاء والاستغفار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾<sup>(١)</sup> . أى ادع لهم بالمغفرة والرحمة ، قال الأعشى :

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى \* \* \* نوما ، فإن لجنب المرء مضطجعا

أى لك من الدعاء مثل ما دعوت لى به .

وسميت الصلاة المفروضة صلاة ، لما فيها من الدعاء والاستغفار ، وتأى الصلاة بمعنى الرحمة ، ومنه قوله ( ﷺ ) : ( اللهم صل على آل أبى أوفى )<sup>(٢)</sup> .

قال الأزهرى : هى بمعنى الرحمة . أى ارحم آل أبى أوفى ، وقال الشاعر :

صل على عزة الرحمن وابتها \* \* \* ليلى وصل على جارتها الآخر

قال ابن عباس : ( أراد أن الله تعالى يرحمه ، والملائكة يدعون له ويبركون وقال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاتهم دعاؤهم له ) .

النبى : قال الجوهري : والنبى المخبر عن الله عز وجل ، لأنه أنبا عنه وجمعه أنبياء ، وفى النهاية : يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه .

قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز فى النبى ، كما تركوه فى الذرية والبرية ، إلا أهل مكة ، فإنهم يهزمون هذه الأحرف ، ثم قال : والهمز فى ( النبى ) لغة رديئة ، واشتقاقه من نبأ وأنبا أى أخبر .

وجمع النبىء : انبياء ونباء .

قال ابن مرادس :

ياخاتم النبأ إنك مرسل	بالخير كل هدى السبيل هداكا
إن الإله أننى عليك محبة	فى خلقه وعمدا أسماكا

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٢) أخرجه الامام مسلم ج ٢ ص ٢٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ كتاب الزكاة والامام أحمد ح ٤ ص ٣٥٣ .

أقول : كل ماورد في القرآن من خطاب للنبي أو الرسول ، فإنما يقصد به محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين يؤذون الله : إيذاء الله : وصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود : ﴿ يد الله مغلولة ﴾<sup>(١)</sup> . ، و﴿ عزير ابن الله ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقول النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾<sup>(٣)</sup> . ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾<sup>(٤)</sup> . وقول كفار قريش : الملائكة بنات الله ، وسائر ما لا يرضى الله عز وجل من الكفر والعصيان .

وإيذاء الرسول كقولهم عنه : مجنون ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، أو إلحاق الأذى به ، كشج وجهه الشريف ، وكسر رباعيته في أحد ، وأمثال ذلك من الأذى الحسى أو المعنوى ، الذى كان يلحقه به المنافقون والكفار . لعنهم الله : اللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾<sup>(٥)</sup> .

بهتان : البهتان : الإفتراء والكذب الواضح ، وهو من البهت بمعنى التحير . قال في اللسان : بهت الرجل يبهته بهتانا . وباهته استقبله بأمر يقذفه به وهو منه برىء . والبهتان : الباطل الذى يتحير من بطلانه . مبينا : بينا ظاهرا لأنه واضح الكذب والبهتان : تقول : بان الشيء ، وبان الأمر ، وبان الحق ، اذا ظهر جليا واتضح ، قال الشاعر .

فبان للعقل ان العلم سيده فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

وتسمى البينة بينة ، لأنها تكشف الحق وتظهره .

### المعنى الإجمالى

يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم ، من جاه عظيم ، ومنزلة سامية ، ومكانة رفيعة عند الله تعالى ، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى ، وما خصه الله تعالى به من الثناء العاطر ، والذكر الحسن ، فيقول الله تعالى ما معناه : إن الله تعالى يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار ، وجنده الأطهار ، يدعون للنبي عليه السلام ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يبارك ويمجد عبده ونبيه محمدا ( ﷺ ) وينيله أعلى المراتب ، ويظهر دينه على جميع الأديان ، ويجزل له الأجر والثواب ، على ما قدم لأمته من خير عظيم ، وفضل جسيم ، فيأيتها المؤمنون : صلوا أنتم عليه ، وعظمووا أمره ، واتبعوا شرفه ، وأكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، ومهما فعلتم فلن تؤدوه حقه ، فقد كان المنفذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، وبه أخرجكم الله من الظلمات إلى النور .

(١) سورة المائدة آية ٦٤

(٢) ، (٣) سورة التوبة آية ٣٠

(٤) سورة المائدة آية ٧٣

(٥) سورة الأحزاب آية ٦١



﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات يبينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾<sup>(١)</sup> . فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف : اللهم صل على محمد وسلم تسليما كثيرا ، وادعوا الله أن يجزيه عنكم خير الجزاء ، ثم أخبر تعالى أن الذين يؤذون الله ورسوله قد استحقوا غضب الله ولعنته ، عليهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأن الله أعد لهم عذابا شديدا لا يدرك كنهه ولا يعرف هوله ، وكذلك الذين آذوا المؤمنين والمؤمنات ، فنسبوا إليهم مالم يفعلوه ، واتهموهم بالكذب والزور والبهتان ، وتقولوا على الستهم ، مالم يقولوه ، هؤلاء الذين فعلوا ذلك لهم أيضا عذاب أليم فى الدنيا والآخرة جزاء ما اقترفوا من سوء الأعمال .

### وجه الارتباط بالآيات الكريمة السابقة

فى الآيات الكريمة السابقة ، كان الحديث عن حرمة دخول بيوت النبى ، وعن حرمة نكاح أزواجه الطاهرات ، وقد بين تعالى فيها أن شأن المؤمنين ألا تكون منهم أذية للرسول عليه الصلاة والسلام ، لما له عليهم من حق عظيم ، وفى هذا تكريم وإرشاد إلى تكريمه ( ﷺ ) وحيطة لمقامه الشريف ، وهنا بين تعالى أن الله يكرم نبيه ، ويرحمه ويعلى شأنه ، وملائكته كذلك ، فكيف لا يكرمهم المؤمنون ، مع أن الله يصلى عليه ؟ وهو لا يستحق إلا كل تكريم وتمجيد ، فكأنه قيل لهم : لا ينبغي لكم أن تؤذوه ، فإن الله يصلى عليه وملائكته ، فهذا وجه الارتباط ، والله تعالى أعلم .

### لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون ﴾ .  
ورد ذكر الثناء على الرسول ( ﷺ ) بهذه الصيغة ، فجاء الخبر مؤكدا بـ ( إن ) اهتماما به ، وجيء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وكانت الجملة إسمية فى صدرها ، ﴿ إن الله ﴾ فعلية فى عجزها ﴿ يصلون ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى ، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .  
اللطيفة الثانية : قد يقول قائل : اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا عليه .  
نقول : الصلاة عليه ليس لحاجة إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه السلام لشيئنا الله تعالى عليه ،  
ولهذا قال عليه السلام : ( من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا )<sup>(٢)</sup> . فصلوات ربى وسلامه عليه .  
اللطيفة الثالثة : قال الإمام الفخر : الصلاة الدعاء ، يقال فى اللغة صلى عليه : أى دعا له ،

(١) سورة الحديد آية ٩

(٢) أخرجه النسائى ج ٣ ص ٤٣

وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى ، فإنه لا يدعوله ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث ، والجواب : أن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا ، وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز ، وهذا مذهب الشافعى رحمه الله ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار ، وهما يشتركان فى العناية بحال المرحوم ، والمستغفر له . والمراد هو القدر المشترك .

اللطيفة الرابعة : أمرنا الله بالصلاة على نبيه المصطفى ( ﷺ ) وكان يكفى أن نقول صلينا عليه ، أو يقول الإنسان : أصلى عليه ، فلماذا نقول عند الصلاة عليه : اللهم صل على محمد ؟

والجواب : أن الله لما أمرنا بالصلاة عليه ، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك ، أحلناه على الله تعالى ، وقلنا : اللهم صل أنت على محمد ، لأنك أعلم بما يليق به ، فنحن عاجزون عن توفيته حقه ، وقاصرون عن معرفة الثناء الذى يليق بقدره ، وقد أوكلنا القدر إليك فتدبر سر هذه الجملة : ( اللهم صل على محمد ) فإنه نفيس ودقيق .

اللطيفة الخامسة : قال بعض العلماء : معنى قولنا : اللهم صل على محمد أى عظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته ، وإعطائه المقام المحمود .

### فضائل الصلاة على النبى ( ﷺ )

- ١ - عن أبى طلحة رضى الله عنه أن النبى ( ﷺ ) : ( جاء ذات يوم والسروور يرى فى وجهه ، فقلنا : إنا لنرى السروور فى وجهك !! فقال : إنه أتانى الملك فقال يا محمد : إن ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا )<sup>(١)</sup> .
- ٢ - وقال ( ﷺ ) : ( إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم على صلاة )<sup>(٢)</sup> .
- ٣ - وقال ( ﷺ ) : ( البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يصل على )<sup>(٣)</sup> . اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك . على سيد المرسلين ، وإمام المتقين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، إنك سميع مجيب الدعاء .

### الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هى صيغة الصلاة والتسليم على النبى عليه السلام ؟

صيغة الصلاة على النبى ( ﷺ ) وردت فيها طرق كثيرة من السنة النبوية المطهرة ، وقد ذكرت فيها صور مختلفة عن كيفية الصلاة عليه من المؤمنين ، واختلافها يشعر بأن الغرض ليس تحديد ( كيفية

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٣ ط النهضة الحديثة .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١ ص ٣٠٢ برقم ٤٨٢ ، اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٤٨

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٤ ط النهضة الحديثة .

الترمذى ج ٥ ص ٢١١ برقم ٣٦١٤ أبواب الدعوات احمد ج ١ ص ٢٠١ .

خاصة ) وإنما هي ألوان من التعظيم والثناء له عليه السلام ، وستقتصر على بعض ما صح من هذه الكيفيات ، لأن استيعابها يطول ، فنقول ومن الله نستمد العون .

أولاً : روى الشيخان عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يا رسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ . قال : قل : ( اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد )<sup>(١)</sup> .

ثانياً : وروى مالك وأحمد والشيخان عن أبي حميد الساعدي رضى الله عنه أنهم قالوا يا رسول الله : كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : ( اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد )<sup>(٢)</sup> . ثالثاً : وأخرج الجماعة عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : قلنا : يا رسول الله : هذا السلام عليك قد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : ( اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم ، في العالمين ، إنك حميد مجيد )<sup>(٣)</sup> .

رابعاً : وروى مسلم والترمذي والنسائي عن أبي مسعود البدرى أنه قال : أتانا النبي ( ﷺ ) ونحن في مجلس ( سعد بن عباد ) فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يا رسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال قولوا : ( اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم ) .

وفي بعض رواياته : ( اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد )<sup>(٤)</sup> . وأما التسليم فصيغته معروفة وهي أن يقول المؤمنون : السلام عليك يا رسول الله . وفي التشهد يقول المصلي : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ومعنى التسليم : الدعاء بالسلامة من جميع البلاء والآفات والأسقام ، وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم : الانقياد وعدم المخالفة أى سلموا لما يأمركم به والله أعلم .

الحكم الثانى : ما معنى صلاة الله والملائكة على النبي عليه السلام ؟ تقدم معنا أن الصلاة فى اللغة تأتى بمعنى ( الدعاء ) وتأتى بمعنى ( الرحمة ) وتأتى بمعنى التمجيد والثناء ، ومن الأخير قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٩٥ كتاب الدعوات/ ومسلم ج ١ ص ٣٠٥ برقم ٦٦/٤٠٦ والنسائى ج ٣ ص ٤٠ وأبو داود ج ١ ص ٦٠٠ رقم ٩٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٧٨/ ومسلم ج ١ ص ٣٠٦ برقم ٦٩/٤٠٧ كتاب الصلاة وأحمد ج ٥ ص ٤٢٤/ وأبو داود ج ١ ص ٦٠٠ برقم ٩٧٩ .

(٣) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٥١ تفسير سورة الاحزاب . والنسائى ج ٣ ص ١٧٨ وأحمد ج ٣ ص ٤٧ .

(٤) أخرجه النسائى ج ٣ ص ٣٨ ، ص ٣٩ .

(٥) سورة البقرة آية ١٥٧ .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصلاة من الله تعالى على نبيه معناها تمجيده والثناء عليه وإلى هذا ذهب البخارى وطائفة من العلماء وهو الأظهر .

وقال آخرون : المراد بالصلاة على النبي رحمة ومغفرته وإلى هذا ذهب الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، وقيل : المراد بها البركة والكرامة . وأما صلاة الملائكة فمعناها : الدعاء له عليه السلام والاستغفار لأمته ، وعلى جميع الأقوال فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة .

ولما جاء اللفظ مجموعا مضافا إلى واو الجماعة ( إن الله وملائكته يصلون على النبي ) وكانت الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة ، لذلك فقد اختلف المفسرون في تأويل الآية على أقوال : أ - فذهب بعضهم إلى أن في الآية حذف دل عليه السياق ، تقديره : إن الله يصل على النبي ، وملائكته يصلون على النبي ، فتكون واو الجماعة راجعة إلى الملائكة خاصة ، ويؤيد هذا قراءة الرفع ( وملائكته ) وليس اللفظ مشتركا بين الله تعالى والملائكة .

ب - وذهب بعضهم إلى أنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو اختيار الفخر الرازى ومذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، فعنده يجوز استعمال اللفظ المشترك في معنييه معا ، كما يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فيكون لفظ ( يصلون ) عائدا إلى الله وإلى الملائكة بالمعنيين معا ويصبح معنى الآية ( **﴿** إن الله تعالى يرحم نبيه وملائكته يدعون له **﴾** .

ج - وذهب جماعة إلى القول بأنه من باب ( عموم المجاز ) لا من باب ( الجمع بين الحقيقة والمجاز ) فيقدرون معنى مجازيا عاما ، ينتظم أفرادا كثيرة يشملها هذا اللفظ ، وهذا المعنى العام هو مثلا ( العناية بشأن النبي ) ( **﴿** **﴾** ) فالاعتناء يكون من الله تعالى على وجه ويكون من الملائكة على وجه آخر ، وهذا اختيار أبى السعود وأبى حيان والزحشرى ، وغيرهم من مشاهير المفسرين .

قال أبو السعود : قوله تعالى : **﴿** يصلون على النبي **﴾** قيل : الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، وقال ابن عباس : أراد أن الله يرحمه ، والملائكة يدعون له . . . فينبغى أن يراد في **﴿** يصلون **﴾** معنى مجازى عام ، يكون كل واحد من المعاني المذكورة فردا حقيقيا له ، أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ، ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ، وذلك من الله سبحانه بالرحمة ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

وقال أبو حيان في البحر المحيط : ( وصلاة الله غير صلاة الملائكة فكيف اشتركا ؟ والجواب : اشتركا في قدر مشترك وهو إرادة وصول الخير إليهم ، فالله تعالى يريد برحمته إياهم وصول الخير إليهم ، والملائكة يريدون بالاستغفار ذلك )

الحكم الثالث : هل الصلاة على النبي ( **﴿** **﴾** ) على سبيل الندب أو الفرض ؟ أمر الله سبحانه المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم ، وهذا الأمر للوجوب ، فتكون الصلاة على النبي ( **﴿** **﴾** ) واجبة ، ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة في العمر ، لقد حكى ( القرطبى ) الإجماع على ذلك ، عملا بما يقتضيه الأمر ( صلوا ) من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام في ذلك كالتلفظ بكلمة التوحيد ، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها .

وقد اختلف العلماء في حكم الصلاة على النبي ( **﴿** **﴾** ) هل تجب في كل مجلس ، وكلما ذكر اسمه

الشریف ﷺ ؟ أم هي مندوبة ؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة في العمر مرة واحدة .  
أ - فقال بعضهم : إنها واجبة كلما ذكر اسم النبي عليه السلام .

ب - وقال آخرون : تجب في المجلس مرة واحدة ولو تكرر ذكره عليه السلام في ذلك المجلس عدة مرات .

ج - وقال آخرون : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد أو مجلس ، ولا يكفي أن تكون في العمر مرة .

وحجة القائلين بالوجوب في المجلس ، أو كلما ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن الله عز وجل أمر بها ، والأمر يفيد التكرار ، ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصل على رسول الله عليه السلام ، .

كقوله : ( البخيل الذي من ذكرت عنده فلم يصل على )<sup>(١)</sup> .  
وقوله عليه السلام : ( ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم )<sup>(٢)</sup> .  
\* معنى ترة : حسرة وندامة .

وقول جبريل للنبي عليه السلام : ( بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين ) .  
فهذه تفيد الوجوب عندهم .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبي الله ، قرينة وعبادة ، كالذكر والتسبيح والتحميد .  
وأنها واجبة في العمر مرة ، ومندوبة ومسنونة في كل وقت وحين ، وانه ينبغي الإكثار منها لما صح عنه ( ﷺ ) انه قال :

( من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا )<sup>(٣)</sup> . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة في فضل الصلاة على النبي عليه السلام . فهي مطلوبة ولكن لا على سبيل ( الوجوب ) بل على سبيل ( الندب ) والاستحباب .

قال العلامة أبو السعود : ( والذي يقتضيه الاحتياط ويستدعيه : معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام ، أن يصل على كلما جرى ذكره الرفيع . وما ذهب اليه الجمهور هو الأصح والأرجح والله أعلم .

الحكم الرابع : هل تجب الصلاة على النبي عليه السلام في الصلاة ؟

اختلف الفقهاء في حكم الصلاة على النبي ( ﷺ ) في الصلاة على مذهبين :

أ - مذهب الشافعي وأحمد : أنها واجبة في الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها .  
ب - مذهب مالك وأبي حنيفة : أنها سنة مؤكدة في الصلاة ، وتصح الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٣٤

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ج ٥ ص ٢١١ برقم ٣٦١٤ وأحمد ج ١ ص ٢٠١ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٣ ص ٤٣ تحاف السادة المتقين ج ٣ ص ٢٨٨ أحمد ج ٣ ص ٢٦١ .

### - أدلة الشافعية والحنابلة :

استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبي ( ﷺ ) واجبة في الصلاة بأدلة نوجزها فيما

يلي :

أ - الأمر الوارد في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ والأمر يقتضي الوجوب ، ولا وجوب في غير التشهد ، فتكون الصلاة على النبي واجبة في الصلاة .

ب - حديث كعب بن عجرة ( قلنا يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد )<sup>(١)</sup> . الحديث قال ابن كثير رحمه الله : ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصلى على رسول الله ( ﷺ ) في التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته ، وهو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، وهو مذهب الإمام أحمد ، واليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله .

### - أدلة المالكية والأحناف :

واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ ﴾ قالوا : قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبي ( ﷺ ) وظاهره يستضي الوجوب ، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة في صلاة أو غير صلاة ، فقد أدى فرضه ، وهو مثل كلمة التوحيد والتصديق بالنبي ( ﷺ ) متى فعله الإنسان مرة واحدة في عمره ، فقد أدى فرضه ، والأمر يقتضي الوجوب لا التكرار .

ب - حديث ابن مسعود حين علمه ﷺ فقال : ( اذا فعلت هذا ، أو قلت هذا ، فقد تمت صلاتك ، فإن شئت أن تقوم فقم ، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت ) ولم يأمره بالصلاة على النبي عليه السلام .

ج - حديث معاوية السلمى وفيه أن النبي ﷺ قال : ( إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتهليل وقراءة القرآن )<sup>(٢)</sup> . ولم يذكر الصلاة على النبي ﷺ .

د - ما روى عن كثير من الصحابة أنهم كانوا يكتفون بالتشهد في الصلاة وهو : ( السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ) ولا يوجبون الصلوات الإبراهيمية .

قال أبو بكر الرازي : ( زعم الشافعي أن الصلاة على النبي ( ﷺ ) فرض في الصلاة ، وهذا قول لم يسبقه إليه أحد من أهل العلم - فيما نعلمه - وهو خلاف الآثار الواردة عن النبي ( ﷺ ) لفرضها في الصلاة ) .

الحكم الخامس : هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ يرى بعض العلماء أن الصلاة تجوز على غير الأنبياء ، لأن الصلاة معناها الدعاء ، والدعاء يجوز للأنبياء ولغير الأنبياء .

(١) أخرجه : البخارى ج ٤ ص ١٧٨ الترمذى ج ١ ص ٣٨١ برقم ٤٨٢

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ج ١ ص ٣٨٢ ، ٣٨١ برقم ٥٣٧/٣٣

واستدلوا بما ورد عنه ﷺ من قوله : ( اللهم صل على آل أبي أوفى )<sup>(١)</sup> .  
 وذهب الأكثرون إلى أن الصلاة ( شعار ) وهي خاصة بالأنبياء ، فلا تجوز لغيرهم فلا يصح أن  
 تقف : اللهم صل على الشافعي مثلا أو على أبي حنيفة ، وإنما تترحم عليهما ، ويجوز الترضي عن  
 الصحابة والتابعين ولا تجوز الصلاة عليهم لأنها شعار الأنبياء والمرسلين .  
 قال العلامة أبو السعود : ( وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا ،  
 وتكره استقلالاً . لأنه في العرف شعار ذكر الرسل . ولذلك لا يجوز أن يقال : ( محمد عز وجل ) مع  
 كونه ﷺ عزيزاً جليلاً .

والمراد بقوله أن تقول مثلاً : اللهم صل على محمد وآله وذريته وأتباعه المؤمنين فلا يصح أن  
 تقول : اللهم صلي على ذرية محمد ، ولا اللهم صل على أزواج محمد ، وإنما إذا صليت على الرسول  
 يجوز لك أن تضيف تبعا من شئت من عباد الله الصالحين . والله أعلم .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- (١) منصب النبوة منصب عظيم ، ومكانة الرسول مكانة عظيمة عند الله تعالى .
  - (٢) ثناء الله عز وجل على نبيه الكريم وثناء الملائكة الأطهار مظهر من مظاهر رفعة الرسالة .
  - (٣) احترام الرسول وتعظيم أمره واجب على المؤمنين ، لأنه من تعظيم أمر الله وطاعته جل وعلا .
  - (٤) الصلاة على الرسول ﷺ ينبغي أن تكون بالصيغة الشرعية : ( اللهم صل على محمد ) إلخ .
  - (٥) يندب للمسلم أن يصلي على الرسول ( ﷺ ) كلما ذكر اسمه الشريف ﷺ امتثالاً للأمر الإلهي .
  - (٦) إيذاء الرسول ﷺ إيذاء الله تعالى ، وهو سبب لسخط الله وغضبه .
  - (٧) إيذاء المؤمنين واتهامهم بما ليس فيهم من الكبائر التي ينبغي أن يتعد عنها المسلم .
- خاتمة البحث :

مجد الله رسوله ( ﷺ ) وأثنى عليه الثناء العاطر ، ورفع مكانته على جميع الأنبياء والمرسلين ،  
 وأحل له المحل الرفيع الذي يليق بمنزله السامية ، ومرتبته العالية ، وأمر المؤمنين بالتأدب مع الرسول  
 الكريم ، وبتعظيم أمره ، وتمجيد شأنه ، وصلى عليه في الملأ الأعلى مع الملائكة الأطهار ، وكل ذلك  
 ليعلم المؤمنين مكانة هذا النبي العظيم ، ليجلوه ويحترموه ، ويطيعوا أمره ، لأنه سبب سعادتهم  
 وفلاحهم في الدنيا والآخرة ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾<sup>(٢)</sup> .  
 وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصلاة على الرسول الكريم ، وجعل ذلك فرضاً لازماً لا  
 يتم إيمان بدونه ، وحرّم إيذاءه بالقول أو بالفعل ، ونهى عن كل ما يمس مقامه الشريف من إساءة أو

(١) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٧٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ . والامام احمد ج ٤ ص ٣٥٣ .

(٢) سورة الفتح آية ٩

عدوان ، وجعل ذلك إيذاء له تعالى . لأن في تكذيبه ﷺ تكذيباً لله تعالى ، وفي الاستهزاء بدعوته ، استهزاء بالله تعالى ، لأنه رسول رب العالمين ، فيجب أن يطاع في كل أمر ، وأن يحترم قوله ، لأنه مبلغ من عند الله وصدق الله حيث يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ (١) .

وقد حكم الله جل وعلا باللعة والغضب على من آذى الرسول عليه السلام ، لأنه كفران للنعمة ، وجحود للفضل الذى أسداه الرسول ﷺ لأمته ، وكيف يليق بالمؤمن أن يؤذى رسول الله ، مع أنه صلوات الله عليه سبب لإنقاذنا من الضلالة ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ؟! وهو باب الرحمة الإلهية ، ومظهر الفضل والإحسان والجود ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (٢) . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين . وصدق من قال :

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه ، فما مقدار ما تمدح الورى ؟

### حجاب المرأة المسلمة

قال الله تعالى :

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝٥٩﴾

### معانى المفردات

أزواجك : المراد بكلمة الأزواج ( أمهات المؤمنين ) الطاهرات رضوان الله عليهن ، ولفظ الزوج في اللغة يطلق على الذكر والأنثى ، قال تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (٣) . ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (٤) . وإطلاق لفظ ( الزوجة ) صحيح ولكنه خلاف الأفصح وأنكر الأصمعى لفظ ( زوجة ) بالهاء .

وقال : هى زوج لا غير . واحتج بأنه لم يرد في القرآن إلا بدون هاء ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾ (٥) . والصحيح أنه خلاف الأفصح وليس بخطأ قال الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى كساع الى أسد الثرى يستبيلها  
وفى حديث عمار بن ياسر قوله عن السيدة عائشة : ( والله انى لأعلم انها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أنطيعونه أم تطيعونها ) .

(١) سورة النساء آية ٨٠

(٢) سورة التوبة آية ١٢٨

(٣) البقرة آية ٣٥ والأعراف آية ١٩

(٤) الأعراف آية ١٨٩

(٥) الأحزاب آية ٣٧



يدنين : أي يسدلن ويرخين . وأصل الإدناء التقريب .  
يقال للمرأة اذا زُل الثوب عن وجهها أدن ثوبك على وجهك . والمراد في الآية الكريمة يغطين  
وجوههن وأبدانهن ليميزن عن الإمام والقينات .  
ولما كان متضمنا معنى الإرخاء والسدل عدى بعل ( يدنين عليهن ) .  
جلايبهن : جمع جلباب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن .  
قال الشهاب هو ازار يلتحف به . وقيل هو الملحفة وكل ما يغطي سائر البدن . قال في لسان العرب :  
الجلباب ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطي به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو الملحفة .  
قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلا لها :

مشى العذارى عليهن الجلايب

تمشى النسور إليه وهي لاهية

وقيل جلباب المرأة : ملاءتها التي تستمل بها واحدا جلباب والجماعة جلايب وانشدوا . مجلبب من  
سواد الليل جلبابا .  
وفي الجلالين : الجلايب جمع جلباب ، وهي الملاءة التي تستمل بها المرأة .  
قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن وجوههن بالجلايب ، إلا عينا واحدة ليعلم  
أنهن حرائر .  
والخلاصة فإن الجلباب هو الذي يستر جميع بدن المرأة ، وهو يشبه الملحفة المعروفة في زماننا نسأله  
تعالى الستر والسلامة .  
أدنى : افعل تفضيل بمعنى أقرب من الدنو بمعنى القرب ، يقال أدنانى منه أى قربنى منه .  
وقوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ <sup>(١)</sup> . أى قريبة المنال وتأتى كلمة ( أدنى ) بمعنى أقل وقد جمع  
المعنيان في قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى الى شرف من الانسان

غفورا : أى ساترا للذنوب ، ماحيا للآثام ، يغفر لمن تاب وأتاب ، ما فرط منه ﴿ وإني لغفار لمن تاب  
وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
رحميا يرحم عباده ويلطف بهم ومن رحمته تعالى انه لم يكلفهم مالا يطيقون .  
المعنى الاجمالى :

يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يوجه النداء إلى الأمة الاسلامية جمعاء ، بأن تعمل على

(١) سورة الحاقة ٢٣

(٢) سورة طه آية ٨٢

التمسك بأداب الاسلام ، وإرشاداته الفاضلة ، ونظمه الحكيمة ، التي بها صلاح الفرد ، وسعادة المجتمع ، وخاصة في أمر اجتماعي هام ، يتعلق بالأسرة المسلمة ، ألا وهو (الحجاب الشرعي) الذي فرضه الله على المرأة المسلمة ، ليصون لها كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النفوس المريضة ، والنوايا الخبيثة ، التي يكنها الفساق من الرجال للنساء غير المحتشمت ، فيقول الله تعالى ما معناه :  
يا أيها النبي بلغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وابدأ بنفسك ، فمر زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات ، وبناتك الفضليات الكريمات ، أن يرتدين الجلباب الشرعي ، وأن يحتجبن عن أنظار الرجال ، ليكن قدوة لسائر النساء في التعفف والتستر والاحتشام ، حتى لا يطمع فيهن فاسق أو ينال من كرامتهن فاجر ، وأمر سائر نساء المؤمنين ، أن يلبسن الجلباب السابغ ، الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويرفع عنهن السنة السوء ، وأمرهن كذلك أن يغطين وجوههن ، وأجسامهن بجلايبهن ، ليميزن عن الاماء والقينات ، فلا يكن هدفا للمغرضين ، وليكن بعيدات عن التشبه بالفواجر ، فلا يتعرض لهن إنسان بسوء ، فذلك أقرب إلى أن يعرفن بالعفة والتصون ، فلا يطمع فيهن من في قلبه مرض ﴿ وكان الله غفورا ﴾ يغفر لمن امثل أمره ، رحيمًا بعباده حيث لا يشرع لهم إلا ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة

### سبب النزول

روى المفسرون في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أن الحرة والأمة كانتا تخرجان ليبي لقضاء الحاجة في الغيطان ، وبين النخيل من غير تمييز بين الحرائر والاماء ، وكان في المدينة فساق لايزالون على عاداتهم في الجاهلية ، يتعرضون للاماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم يقولون حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الاماء في الزي ، فيتسترن ليحتشمن ، ويهبن فلا يطمع فيهن ذوو القلوب المريضة ، فأنزل الله ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك .. الآية .

وقال ابن الجوزي : سبب نزولها أن الفساق كانوا يؤذون النساء اذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا هذه حرة ، واذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فأذوها ، فنزلت هذه الآية . قاله السدي .

### لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : بدأ الله تعالى بنساء النبي ﷺ وبناته في الأمر بـ ( الحجاب الشرعي ) وذلك للإشارة إلى أنهن قدوة لبقية النساء ، فعليهن التمسك بالأداب الشرعية ، ليقتندي بهن سائر النساء ، والدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، ومن أحق من ( بيت النبوة ) بالتمسك بالأداب والفضائل ، وهذا هو السر في تقديمهن في الخطاب في قوله تعالى : ﴿ قل لأزواجك وبناتك ﴾ .

اللطيفة الثانية : الأمر بالحجاب إنما جاء بعد أن استقر أمر الشريعة على وجوب ( ستر العورة ) فلا بد أن يكون الستر المأمور به هنا زائدا على ما يجب من ستر العورة ، ولهذا اتفقت عبارات المفسرين على اختلاف الفاظها - على أن المراد بالجلباب . الرداء الذي تستر به المرأة جميع بدنها فوق الثياب وهو ما يسمى في زماننا بـ ( الملاعة ) أي المحلفة ، وليس المراد ستر العورة كما ظن بعض الناس .

## اللطيفة الثالثة

في هذا التفصيل والتوضيح ﴿ أزواجك .. بناتك .. نساء المؤمنين ﴾ رد صريح على الذين يزعمون أن الحجاب انما فرض على أزواج النبي ﷺ خاصة .  
فإن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يدل دلالة قاطعة ، على أن جميع نساء المؤمنين مكلفات بالحجاب ، وأنهن داخلات في هذا الخطاب العام الشامل ، فكيف يزعمون أن الحجاب لم يفرض على المرأة المسلمة ؟!

## اللطيفة الرابعة :

أمر الحرائر بالتستر ، ليميزن عن الاماء ، قد يفهم منه ان الشارع أهمل أمر إجماء ، ولم يبال بما ينالهن من الايذاء ، وتعرض الفساق لمن فكيل يتفق هذا مع حرص الاسلام على طهارة المجتمع ؟  
الجواب :

ان الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن في الأسواق ، لقضاء الحاجات وخدمة سادتهن ، فاذا كلفن بلبس الحجاب السابغ كلما خرجن كان في ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر ، لأنهن مأمورات بالاستقرار في البيوت ﴿ وقرن في بيوتكن ﴾<sup>(١)</sup> . وعدم الخروج الا عند الحاجة ، فلم يكن عليهن من الحرج والمشقة في التستر ما على الاماء ، وقد وردت الآية السابقة ﴿ ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ وهى تنوعد المؤذنين بالعذاب الاليم ، وهذا يشمل الحرائر والاماء .

## اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ فيه ذكر للعله أى ( الحكمة ) التى فرض من أجلها الحجاب والاحكام الشرعية كلها مشروعة لحكمة وجمهور المفسرين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ أن يعرفن ﴾ أى يعرفن أنهن حرائر ويميزن عن الإماماء ، وقد اختار ( أبو حيان ) وجها آخر غير الوجه الذى سلكه الجمهور ، فجعل الأمر بالحجاب موجها الى جميع النساء سواء منهن ( الحرائر والاماء ) .  
وفسر قوله تعالى ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد .

واليك نص كلامه كما فى البحر المحيط :

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر ، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .  
وقوله : ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة اذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها ، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها وهو رأى تبدو عليه مخايل الجودة والدقة فى الاستنباط .

وما اختاره أبو حيان ، هو الذى نختاره لأنه يحقق غرض الاسلام فى التستر والصيانة . والله أعلم .

### الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل يجب الحجاب على جميع النساء ؟  
يدل ظاهر الآية الكريمة على أن الحجاب مفروض على جميع المؤمنات ( المكلفات شرعا ) وهن :  
( المسلمات . الحرائر . البالغات ) لقوله تعالى :  
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الآية .

فلا يجب الحجاب على الكافرة ، لأنها لا تكلف بفروع الإسلام ، وقد امرنا ان نتركهم وما يدينون ، ولأن لحجاب عبادة ، لما فيه من امتثال أمر الله عز وجل ، إذا تركته تقلدا للمجتمع الفاسد مع اعتقادها بوجوبه فهي عاصية مخالفة لتعاليم القرآن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿<sup>(١)</sup>

وغير المسلمة - وان لم تؤمر بالحجاب - لكنها لا تترك تفسد فى المجتمع ، وتتعرى أمام الرجل وتخرج بهذه الميوعة والانحلال الذى نراه فى زماننا ، فإن هناك ( آدابا اجتماعية ) يجب ان تراعى وتطبق على الجميع ، وتستوى فيها المسلمة وغير المسلمة ، حماية للمجتمع ، وذلك من السياسات الشرعية التى نحب على الحاكم المسلم .

وأما الأول فقد عرفت مافيه من أقوال للعلماء ، وقد ترجح لديك رأى العلامة ( أبى حيان ) فى أن الأمر بالتستر عام ، يشمل الحرائر والاماء ، وهذا ما يتفق مع روح الشريعة فى صيانة الأعراض ، وحماية المجتمع من التفسخ والانحلال الخلقي ، وأما البلوغ فهو شرط التكليف . أقول : يطلب من المسلم أن يعود بناته منذ سن العاشرة ، على ارتداء الحجاب الشرعى ، حتى لا يصعب عليهن بعد ارتداؤه ، وإن لم يكن الأمر على وجه التكليف ، وإنما هو على وجه التأديب ، قياسا على أمر الصلاة . ( مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع )<sup>(٢)</sup> .

الحكم الثانى : ما هى كيفية الحجاب ؟

أمر الله المؤمنات بالحجاب وإرتداء الجلباب ، صيانة لهن وحفظا ، وقد اختلف أهل التأويل فى كيفية هذا التستر على أقوال :

(١) الأحزاب آية ٣٣

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ج ١ ص ٢٣٤ برقم ٤٩٥

- ١ - فأخرج ابن جرير الطبري عن ابن سيرين انه قال : سألت ( عبيدة السلماني ) عن هذه الآية ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقع بها ، وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه ، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر .
- ٢ - وروى ابن جرير وأبو حيان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ( تلوى الجلباب فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وان ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .
- ٣ - وروى عن السدى في كيفيته انه قال : ( تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين . قال أبو حيان وكذا عادة بلاد الأندلس ، لا يظهر من المرأة إلا عينا الواحدة .
- ٤ - وأخرج عبد الرازق وجماعة عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت : ( لما نزلت هذه الآية ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ خرج نساء الأنصار ، كان على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسها )<sup>(١)</sup> .

الحكم الثالث : هل يجب على المرأة ستر وجهها ؟ تقدم معنا في سورة النور ، أن المرأة منية عن إبداء زيتها إلا للمحارم ﴿ وَلَا يَدْنِينَ زِيَّتَهُنَّ إِلَّا لِبَعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ ﴾ الآية .  
ولما كان الوجه أصل الزينة ، ومصدر الجمال والفتنة ، لذلك كان ستره ضروريا عن الاجانب ، والذين قالوا ان الوجه ليس بعورة ، اشترطوا ألا يكون عليه شيء من الزينة ، كالأصباغ والمساحيق التي توضع عادة للتجمل ، وبشرط أمن الفتنة ، فاذا لم تؤمن الفتنة فيحرم كشفه .  
ومما لا شك فيه أن الفتنة في هذا الزمان غير مأمونة ، لذا نرى وجوب ستر الوجه حفاظا على كرامة المسلمة ، وقد ذكرنا بعض الحجج الشرعية على وجوب ستره في بحث ( بدعة كشف الوجه ) . من سورة النور ، ونزيد هنا بعض أقوال المفسرين في وجوب ستر الوجه .  
( طائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستر الوجه ) .

أولا : قال ابن الجوزي في قوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ أى يغطين رءوسهن وجوههن ليعلم أنهن حرائر ، والمراد بالجلابيب : الأردية قاله ابن قتيبة .  
ثانيا : وقال أبو حيان في البحر المحيط : وقوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ شامل لجميع أجسادهن ، أو المراد بقوله : ﴿ عَلَيْهِنَ ﴾ أى على وجوههن لأن الذى كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه .

ثالثا : وقال أبو السعود : الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء ، تلويه المرأة على رأسها ، وتبقى منه ما ترسله على صدرها ، ومعنى الآية : أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن ، إذا برزن لداعية من الدواعي .

وعن السدى : تغطي إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين .  
رابعا : وقال أبو بكر الرازى في هذه الآية ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبية ، وإظهار الستر والعفاف عند الخروج ، لئلا يطمع فيها أهل الريب .

خامسا : وفى تفسير الجلالين : الجلابيب جمع جلباب ، وهى الملاية التى تشتمل بها المرأة ، قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ، ليعلم أنهن حرائر .

سادسا : وفى تفسير الطبرى : عن ابن سيرين انه قال : ( سألت عبيدة السلماني عن قوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه . وأخرج عينة اليسرى من شق وجهه الأيسر . وروى مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد تقدم الحديث سابقا .

فهذا وأمثاله كثير من أقوال مشاهير المفسرين ، يدل دلالة واضحة على وجوب ستر الوجه وعدم كشفه أمام الأجانب ، اللهم إلا إذا كان الرجل خاطبا ، أو كانت المرأة فى حالة احرام بالحج ، فانه وقت عبادة والفتنة مأمونة ، فلا يقاس على هذه الحالة كما يفعل بعض الجهلة اليوم ، حيث يقولون : اذا جاز لها أن تكشف عن وجهها فى حالة الاحرام ، فمعناها انه يجوز لها ان تكشفه فى غيره من الأوقات ، لان الوجه ليس بعورة فهذا كلام من لم يفقه شريعة الاسلام .

ومن درس حياة السلف الصالح ، وما كان عليه النساء الفضليات - نساء الصحابة والتابعين - وما كان عليه المجتمع الاسلامى فى عصره الذهبى من التستر ، والتحفظ ، والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون ان الوجه لا يجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة ، لأجل ان يتخلصوا من الاثم - بزعمهم - فى كتم العلم ، وما دروا انها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التدرج بالمرأة المسلمة الى التخلص من الحجاب الشرعى ، الذى عمل له الاعداء زمنا طويلا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الحكم الرابع : ماهى شروط الحجاب الشرعى ؟

يشترط فى الحجاب الشرعى بعض الشروط الضرورية وهى كالآتى : أولا : ان يكون الحجاب ساترا لجميع البدن ، لقوله تعالى : ﴿ يَدْنِينَ عَلَيْهِنَ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ﴾ وقد عرفت معنى ( الجلباب ) وهو الثوب السابغ الذى يستر البدن كله ، ومعنى ( الادناء ) وهو الارحاء والسدل ، فيكون الحجاب الشرعى ما ستر جميع البدن .

ثانيا : ان يكون كثيفا غير رقيق ، لأن الغرض من الحجاب الستر ، فإذا لم يكن ساترا لا يسمى حجابا ، لانه لا يمنع الرؤية ولا يحجب النظر ، وفى حديث عائشة أن ( أسماء بنت أبى بكر ) دخلت على رسول الله ﷺ ( الحديث رواه ابو داود بسند مرسل )<sup>(١)</sup> .

ثالثا : ألا يكون زينة فى نفسه ، أو مبهرجا ذا ألوان جذابة ، يلفت الأنظار لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ الآية ، ومعنى ﴿ ما ظهر منها ﴾ أى بدون قصد ولا تعمد ، فإذا كان فى ذاته زينة ، فلا يجوز ارتداؤه ، ولا يسمى ( حجابا ) لأن الحجاب هو الذى يمنع ظهور الزينة للأجانب .

رابعا : ان يكون فضفاضا غير ضيق ، ولا يشف عن البدن ، ولا يجسد العورة ، ولا يظهر أماكن

الفتنة في الجسم ، وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ انه قال ( صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضرب بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا .. ) . وفي رواية أخرى : وان ريحها ليوجد من مسير خمسمائة عام <sup>(١)</sup> .

ومعنى قوله عليه السلام : ( كاسيات عاريات ) أى كاسيات في الصورة ، عاريات في الحقيقة ، لأنهن يلبسن ملابس لا تستر جسدا ، ولا تخفى عورة ، والغرض من اللباس الستر ، فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عاريا .

ومعنى قوله : ( مميلات مائلات ) أى مميلات لقلوب الرجال مائلات في صشيتهن ، يتبخترن بقصد الفتنة والإغراء ، ومعنى قوله : ( كأسنمة البخت ) أى يصففن شعورهن فوق رءوسهن ، حتى تصبح مثل سنام الجمل ، وهذا من معجزاته عليه السلام .  
خامسا : ألا يكون الثوب معطرا فيه إثارة للرجال ، لقوله عليه الصلاة والسلام ( كل عين نظرت زانية ، وان المرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعنى زانية ) ( رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح ) .

وفي رواية أخرى ( إن المرأة اذا استعطرت فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهي زانية ) <sup>(٢)</sup> .  
وعن موسى بن يسار قال : ( مرت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف ، فقال لها : أين تريدين يأمة الجبار ؟ قالت الى المسجد ، قال : وتطيت ؟ قالت : نعم قال : فارجعى فاغتسلى فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( لا يقبل الله من امرأة صلاة ، خرجت الى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع الى بيتها فتغتسل ) <sup>(٣)</sup> .

سادسا : ألا يكون الثوب فيه تشبه بالرجال ، أو مما يلبسه الرجال ، لحديث أبى هريرة : ( لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل ) <sup>(٤)</sup> . وفي الحديث ( لعن الله المختشين من الرجال ، والمترجلات من النساء ) <sup>(٥)</sup> . أى التشبهات بالرجال فى أزيائهن وأشكالهن كبعض نساء هذا الزمان نسأله تعالى السلامة والحفظ .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- ١ - الحجاب مفروض على جميع نساء المؤمنين ، وهو واجب شرعى محتم .
- ٢ - بنات الرسول ونسأؤه الطاهرات ، هن الأسوة والقودة لسائر النساء .
- ٣ - الجلباب الشرعى يجب أن يكون ساترا للزينة والثياب ولجميع البدن .

(١) أخرجه مسلم : ج ٣ ص ١٦٨٠ برقم ٢١٢٨/١٢٥ ترغيب ج ٣ ص ٩٥

(٢) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٩٤ برقم ٢٦٣٧/النسائى ٢٨٣/٢ أبو داود ١٩٢/٢ .

(٣) أخرجه البيهقى ١٣٣/٣ ، ٢٤٦ ترغيب ٩٤/٣ .

(٤) أخرجه أبو داود ١٨٤/٢ ابن ماجه ٥٨٨/١ احمد ٣٢٥/٢ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٩٤ برقم ٢٩٣٥ .

- ٤ - الحجاب لم يفرض على المسلمة تضييقا عليها ، وإنما تشريفا لها وتكريما .
- ٥ - في ارتداء الحجاب الشرعى صيانة للمرأة ، وحماية للمجتمع من ظهور الفساد ، وانتشار الفاحشة .
- ٦ - على المسلمة أن تتمسك بأوامر الله ، وتتأدب بالآداب الاجتماعية التى فرضها الاسلام .
- ٧ - الله رحيم بعباده ، يشرع لهم من الأحكام ما فيه خيرهم وسعادتهم فى الدارين .

### حكمة التشريع

قد يظن بعض الجهلة أن الحجاب لم يفرضه الاسلام على المرأة المسلمة ، وانه من العادات والتقاليد التى ظهرت فى العصر العباسى ، وهذا الظن ليس له نصيب من الصحة ، وهو وإن دل فإنما يدل على أحد أمرين .

أ - اما الجهل الفاضح بالاسلام ويكتاب الله المبين .

ب - واما الغرض الدفين فى قلوب أولئك المتحللين .

وأحب ان أكشف الستار ، لتوضيح الحقيقة ، حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ولا يختلط الخبيث بالطيب ، وحتى يظهر الصبح لذى عينين ، فما أكثر هؤلاء المصللين فى هذا الزمان ، الذين يزعمون انهم أرباب المدنية ودعاة التقدمية !! وما أشد خطرهم على الأخلاق والمجتمع ، لأنهم يفسدون باسم الاصلاح ، ويهدمون باسم البناء ، ويدجلون باسم الثقافة والعلم ، ويزعمون انهم مصلحون .

### النصوص الواردة فى الحجاب

- ١ - يقول الله سبحانه : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ (١) .
- ٢ - ويقول تعالى : ﴿ وإذا سألتهم عن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ (٢) .
- ٣ - ويقول سبحانه مخاطبا نبيه العظيم ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾ (٣) . الآية .
- ٤ - ويقول سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا یبدین زینتهن الا لبعولتهن ﴾ (٤) . الآية .

فمن هذه النصوص الكريمة ، نعلم أن الحجاب مفروض على المرأة المسلمة ، بنصوص فى كتاب الله قطعية الدلالة ، وليس كما يزعم المتحللون انه من العادات والتقاليد التى أوجدها العصر العباسى .. الخ فإن حبل الكذب قصير ..

(١) سورة الاحزاب آية ٣٣

(٢) سورة الاحزاب آية ٥٣

(٣) سورة الاحزاب آية ٥٩

(٤) سورة النور الآية ٣١



ومن خلال هذه الآيات الكريمة ، نلمح أن الاسلام ، إنما قصد من وراء فرض الحجاب ، أن يقطع طرق الشبهات ونزغات الشيطان أن تطوف بقلوب الرجال والنساء ، وفي ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ ذلكم أظهر لقلوبكم وقلوبهم ﴾ وهدفه الأول إنما هو صون ( الشرف ) والمحافظة على ( العفة والكرامة ) ولا ننسى ان هناك كثيرا من ضعفاء القلوب ومرضى الضمائر يترصدون بالمرأة السوء ، ليهتكوا عنها ستر الفضيلة والعفاف .

ولا يشك عاقل ان تهتك النساء وخلاعتهم ، هو الذى أحدث ما يسمونه ( أزمة الزواج ) ذلك لأن كثيرا من الشباب قد أحجموا عن الزواج ، لأنهم أصبحوا يجدون الطريق معبدا لاشباع غرائزهم من غير تعب ولا نصب ، فهم فى غنى عن الزواج ، وهذا بلا شك يعرض البلاد الى الخراب والدمار ، وينذر بكارثة لا تبقى ولا تذر ، وليس انتشار الخيانات الزوجية وخراب البيوت إلا أثرا من آثار هذا التبرج الذميم .

يقول ( الشيخ سيد سابق ) فى كتابه فقه السنة :

( إن أهم ما يتميز به الانسان عن الحيوان اتخاذ الملابس ، وأدوات الزينة ، يقول الله تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ﴾ (١) . الآية .  
والملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة ، والتجرد عنها إنما هو ردة إلى الحيوانية ، وعودة الى الحياة البدائية ، وإن أعز ما تملكه المرأة الشرف ، والحياء ، والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة فى أسمى صورها ، وليس من صالح المرأة ، ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام ، ولا سيما وان الغريزة الجنسية هى أعنف الغرائز ، وأشدّها على الإطلاق (٢) .

### ﴿ امنعوا الاختلاط .. وقيدوا حرية المرأة ﴾

وتحت هذا العنوان نشرت صحيفة ( الجمهورية ) بالقاهرة مقالا لصحفية أمريكية تدعى ( هيلسيان متانسيرى ) قالت هذه الكاتبة الأمريكية بعد أن مكثت شهرا فى جمهورية مصر العربية ما نصه : ( ان المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم ، ومن الخلق بهذا المجتمع ان يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشاب فى حدود المعقول ، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبى والأمريكى ، فعندكم تقاليد موروثه تحتم تقيد المرأة ، وتحتم احترام الأب والأم ، وتحتم أكثر من ذلك عدم ( الإباحية الغربية ، التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوروبا وأمريكا ) .  
ان القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة صالحة ونافعة ، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقيكم ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، بل ارجعوا الى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وإنطلاق ومجون أوروبا وأمريكا .

(١) سورة الاحراف آية ٢٦

(٢) فقه السنة ج ٢

امنعوا الاختلاط ، فقد عانينا منه في أمريكا الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكي مجتمعاً معقداً ، مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين ، يملأون السجون والأرصفة ، والبارات والبيوت السرية ، ان الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات ( جيمس دين ) وعصابات المخدرات والرقيق .

ان الاختلاط ، والإباحية ، والحرية في المجتمع الأوربي والأمريكي ، هدد الأسر وزلزل القيم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة - تحت سن العشرين - في المجتمع الحديث ، تخالط الشبان ، وترقص ، وتشرب الخمر ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية . وهي تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ، ومدرسيها والمشرفين عليها . . تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق ، تتزوج في دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكلفها أكثر من امضاء وعشرين قرشاً . وعريس ليلة (١) .

أقول : هذا رأى الكاتبة الأمريكية ، والفضل ما شهدت به الأعداء . . !

وصدق الله العظيم : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

﴿ من كتاب تفسير آيات الأحكام - للمصابوني ﴾ .

### ﴿ جزاء المنافقين وأحكام أخرى ﴾

قال تعالى : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴾ (١٥) ﴿ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْنِيلاً ۖ ﴾ (١٦) ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ ﴾ (١٧) ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ۖ ﴾ (١٨) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۖ ﴾ (١٩) ﴿ خَلِدِينَ فِيهَا أَلَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ ﴾ (٢٠) ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيِّنَّا أَطْعَمَنَا اللَّهُ وَأَطْعَمَنَا الرَّسُولَ ۖ ﴾ (٢١) ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطْعَمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ۖ ﴾ (٢٢) ﴿ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمُ لَعْنًا كَبِيرًا ۖ ﴾ (٢٣) ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ۖ ﴾ (٢٤) ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۖ ﴾ (٢٥) ﴿ يُصْلِحْ

لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾  
 إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا  
 وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ  
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا  
 رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

### معاني المفردات

مرض : المراد مرض الفسوق والعصيان ، المرجفون والرجفان الاضطراب الشديد ، والمراد الملتمسون  
 الفتنة المشيعون للأكاذيب والأباطيل ( لتغرينك بهم : لنسلطنك عليهم . الساعة : يوم القيامة ، وما  
 يدريك : أى وأى شئ يعلمك وقت قيامها ، سعيها : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا  
 جمع السيد وهو كبير قومه ، وكبراءنا : أى ذوى الاسنان أو العلماء ، ضعفين من العذاب : أى مثل  
 عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا .

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ، ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر . القول السديد :  
 القول الصادق الذى يراد به الوصول الى الحق ، من قولهم : سدد سهمه اذا وجهه للغرض المرمى ولم  
 يعدل به عن سميته . العرض : هنا ، النظر الى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن  
 عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل  
 انها حقوق أوجبها الله على المكلفين واثمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم  
 بالمحافظة عليها وأدائها دون الاخلال بشئ منها .

فأبين : أى كن غير مستعدي لها ، وحملها الانسان : أى كان مستعدا لها ، انه كان ظلوما جهولا : أى  
 كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور ، لما غلب عليه  
 من القوة الشهوية .

### المناسبة واجمال المعنى

روى انه لما كانت الحرائر والاماء فى المدينة ، يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل  
 بلا فارق بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فاذا  
 كلموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء - فطلب من رسوله ان يأمر الحرائر ان يخالفن الاماء فى الزى  
 والتستر ، ليتمايزن ويهبن ، فلا يطعم فيهن الفساق وامراض القلوب ، وبعد ان ذكر حال هذه الفئات  
 الثلاث فى الدنيا وهم : ١ - المنافقون الذين يؤذون الله سرا ، ٢ - ومن فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين  
 باتباع نسائهم ، ٣ - والمرجفون الذين يؤذون الرسول بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من  
 المدينة الى نحو ذلك مما يراد به اظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم - وانهم يلعنون ويهانون  
 ويقتلون عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة ، فذكرهم بيوم القيامة ، وبين ما يكون لهم فى هذا  
 اليوم .

وبعد ان بين سبحانه عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات ، عقب على ذلك بذكر الذين آذوا موسى من بني إسرائيل ، ونسبوا اليه ما ليس فيه ، فبرأه الله منه ، لأنه ذو كرامة ومنزلة لدية ، فلا يلصق به ما هو نقص فيه . وبعد ان نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، أرشدهم الى ما ينبغى ان يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز : النجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله ورسوله ، وان من يراعيها فله الفوز العظيم ، وأن من يتركها يستحق العذاب ، أردف ذلك عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية ، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان ان ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام انما يكون بلا جبر ولا التزام .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ .

أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يسترون الكفر ويظهرون الايمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم ، وركنوا الى الخلاعة والفجوز ، وأهل الأرجاف فى المدينة الذين ينشرون الاخبار الملققة الكاذبة ، كاظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكن من خفائهم ، كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراعمهم ، ونحو ذلك مما فى اظهارة مصلحة للعدو وكسر لشوكة المسلمين - لنسلطنك عليهم ، وندعونك الى قتالهم واجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها الا قليلا ، وتخلو المدينة منهم بالموت أو الأخراج ، ثم بين مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، فقال عز وجل : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ ملعونين أى مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أى وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلهم وقتلهم ﴿ وقتلوا تقتيلا ﴾ ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا ، هو شرعة الله فى أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم فقال تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ أى هذه سنته فى المنافقين اذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم ، ان أهل الايمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أى وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

يقول تعالى فخرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، انه لا علم له بالساعة ، وان سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها الى الله عز وجل : ﴿ كما قال تعالى فى سورة الأعراف وهى مكية ، وهذه مدنية فاستمر الحال فى رد علمها ، الى الذى يقيمها ، لكن أخبره انها قريبة بقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . وقال : ﴿ اقترب للناس

حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ أأتى أمر الله فلا تستمجلوه ﴾ ﴿٢﴾ .  
 قوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا . لا يجدون وليا ولا  
 نصيرا . يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا  
 ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيرا ﴾ أى في  
 الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها . ونحو  
 ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . إن الذين كفروا  
 وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله  
 يسيرا ﴾ ﴿٣﴾ . وقوله جل شأنه : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب  
 أليم ﴾ ﴿٤﴾ . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ ﴿٥﴾ . وقوله  
 تبارك اسمه : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا بشئ فيها أحقبا . لا يدقون فيها بردا ولا  
 شرابا . إلا حميا وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء  
 أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ ﴿٦﴾ .

وقوله جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم  
 جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ ﴿٧﴾ .

قوله تعالى : ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أى وليس لهم منيث ولا معين ، ينقذهم مما هم  
 فيه . ثم قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أى  
 يسحبون في النار على وجوههم كما قال تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسمر يوم يسحبون في النار  
 على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ ﴿٨﴾ .

وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار  
 جرون ﴾ ﴿٩﴾ . وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا  
 ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم في حال العرضات بقوله تعالى : ﴿ ويوم بعض الظالم على  
 يديه يقول باليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا \* ياويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن

(١) سورة الانبياء آية ١

(٢) سورة النحل آية ١

(٣) سورة النساء الآيات ١٦٧ - ١٦٩

(٤) سورة المائدة آية ٣٧

(٥) سورة الجن آية ٢٣

(٦) سورة النبا الآيات ٢١ - ٣٠

(٧) سورة النساء آية ٥٦

(٨) القمر الآيتان ٤٧ - ٤٨

(٩) سورة طه الآيتان ٧١ - ٧٢

الذكر بعد اذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ﴿٢﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ ﴿٣﴾ .

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه انهم يودون ان لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول في الدنيا ﴿ وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاوس : سادتنا يعنى الاشراف وكبراءنا يعنى العلماء - رواه ابن ابي حاتم - اى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا ان عندهم شيئا وانهم على شيء فاذا هم ليسوا على شيء ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ اى بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ .

قال البخارى في أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضى الله قال : قال رسول الله ﷺ ( ان موسى عليه السلام كان رجلا حيا ستيلا لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب فى جلده إما برصى وإما أدره وإما آفة ، وان الله عز وجل أراد ان يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فعلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ اقبل على ثيابه ليأخذها وان الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملا من بنى اسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله عز وجل وأبراه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا - قال - فذلك قوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ ﴿٥﴾ .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار ان هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت ياعدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : ( رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر ) ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أى ذا وجاهة وجاه ، قال أئمة المفسرين ومنهم الحسن

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٨ - ٢٩

(٢) سورة الحجر آية ٢

(٣) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ - ٢٨

(٤) سورة ص آية ٦١

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب الانبياء ج ٤ ص ١٩٠

(٦) أخرجه الامام احمد ج ١ ص ٣٨٠

البصرى ، كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وقال معظم : من وجاهته عند الله انه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ (١) . وكقوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معي ردءا يصدقنى ، إني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . قال ان ابى حاتم بسنده عن ابى موسى الأشعرى قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ الينا بيده فجلسنا فقال : ان الله تعالى أمرنى أن آمركم ان تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا ( ثم أتى النساء فقال : ( ان الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا ) (٣) . وروى عن ابن عباس موقوفا : من سره ان يكون اكرم الناس فليتنق الله . قال عكرمة القول السديد . لا آله إلا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد هو السداد ، وقال غيره هو الصواب والكل حق ، فيقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، أن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وان يقولوا ( قولا سديدا ) أى مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم انهم اذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بان يصلح لهم أعمالهم أى يوفقهم للأعمال الصالحة ، وان يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع منهم فى المستقبل ويلهمهم التوبة ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ وذلك انه يجاز من نار الجحيم ويصير الى النعيم المقيم ..

والتقوى هى السلاح الأقوى ، ومصدر كل سعادة فى المعاش والمعاد ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ (٤) .  
وقال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ (٥) .  
وقال : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ﴾ (٧) .  
وقال تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٨) .  
وقال تعالى : ﴿ وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئا ﴾ (٩) .

(١) سورة مريم الآيات ٥١ - ٥٣

(٢) سورة القصص الآيات ٣٤ - ٣٥

(٣) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٤٧٦

(٤) سورة آل عمران آية ٢٠٠

(٥) سورة النساء آية ١٣١

(٦) سورة الأعراف آية ٢٦

(٧) سورة البقرة آية ١٩٧

(٨) سورة يوسف آية ١٩٧

(٩) سورة البقرة آية ٢٨٢

وقال : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾<sup>(١)</sup>  
 وقال : ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ﴾<sup>(٢)</sup> .  
 وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾<sup>(٣)</sup> .  
 وقال : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾<sup>(٤)</sup> .  
 وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾<sup>(٥)</sup>  
 وقال : ﴿ ياعباد أفاتقون ﴾<sup>(٦)</sup> .  
 وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾<sup>(٧)</sup> .  
 وقال ﷺ لمعاذ : ( اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن )<sup>(٨)</sup> .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى      تقلب عريانا ولو كان كاسيا  
 وخير لباس المرء طاعة ربه      ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيم ﴾ .  
 جاء فى معنى الأمانة أقوال نوضحها فيما يلى :

قال العوفى عن ابن عباس الأمانة : الطاعة ، عرضها عليهم قبل ان يعرضها على آدم ، فلم يطقنها فقال لأدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .

وقال ابن عباس أيضا : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم ، وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك ، وأشفقوا عليه من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله الا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم ، فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ يعنى غرا بأمر الله .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢

(٢) سورة الحشر آية ١٨

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة المائدة آية ٣٥

(٥) سورة الحج آية ١

(٦) سورة الزمر آية ١٦

(٧) سورة آل عمران آية ١٠٢

(٨) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ١٥٣ ، ١٥٨ .



وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : ان الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون : هي الطاعة ، قال ابى بن كعب من الامانة أن المرأة أوتمنت على فرجها ، وقال قتاده الامانة الدين والفرائض والحدود ، وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هي متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو انه ان قام بذلك أثيب ، وان تركها عوقب ، فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق الله وبالله المستعان .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن زيد بن أسلم في هذه الآية . قال الانسان بين أذنى وعاتقى ، فقال الله عز وجل : إني معينك عليها ، إني معينك على عينيك بطبقتين فاذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين فإذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه الى ما أكره<sup>(١)</sup> .

وقال ابن جرير بسنده عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( خمس من جاء بهن يوم القيامة مع ايمان دخل الجنة . من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها - وكان يقول - وأيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة ) قالوا ياأبا الدرداء وما اداء الامانة ؟ قال رضى الله عنه : الغسل من الجنابة فان الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيره<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن جرير ايضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ انه قال . . القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها . . أو قال يكفر كل شيء إلا الامانة يؤتى بصاحب الامانة فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك . . فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به الى أمه الهاوية فيذهب به الى الهاوية فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها الى شفير جهنم حتى اذا رأى انه قد خرج زلت قدمه فهوى في أثرها أبد الأبد . . قال : والأمانة في الصلاة والأمانة في الصوم والأمانة في الوضوء والأمانة في الحديث وأشد ذلك الودائع . . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق<sup>(٣)</sup> .

وروى الامام أحمد بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت احدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها أثر المجمل كجمر دحرجته على رجلك تراه متتبرا وليس فيه شيء . . قال ثم أخذ حص فدحرجه على رجله قال . . فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال انه في بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل ما أجلدته وأظرفه وأعقله وما في قلبه حبة خردل من ايمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم ما بعث ان كان مسلما ليردنه على دينه ، وان كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه فأما اليوم فما

(١) تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٥٥

(٢) حلية الأولياء ج ٢ ص ٢٣٤ ترجمة ابى الدرداء

(٣) تفسير ابن جرير الطبرى ج ٢٢ ص ٥٦ ط الحلبي

كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا ، واخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup> .

وروى البخارى بسنده عن أبي هريرة قال بينا النبي ﷺ في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ في حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ! قال ها أنا يا رسول الله قال : فاذا ضيبت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة<sup>(٢)</sup> .

وروى الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال ( أربع اذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمه )<sup>(٣)</sup> . وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، فقد ورد في حديث مرفوع ، قال أبو داود بسنده .

عن أبي بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( من حلف بالأمانة فليس منا )<sup>(٤)</sup> .

وللإمام النسفى تفسير في هذه الآية جديد بالذكر ، قال رحمه الله تعالى : ( إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ) وهو يريد بالأمانة الطاعة لله ، ويحمل الأمانة الخيانة ، يقال فلان حامل للأمانة ومحمّل لها ، لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، اذا الأمانة كأنها راكبة للمؤمن عليها ، وهو حاملها ، ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق ، فاذا أداها لم تبقى راكبة له ولا هو حامل لها ، يعنى ان هذه الاجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته ، ايجادا وتكويناً وتسوية ، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال سبحانه : ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾<sup>(٥)</sup> . وأخبر ان الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله ، وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله ، واما الانسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه ، وهو العاقل الصالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات ، فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، وهذا معنى قوله : ﴿ فأبين أن يحملها ﴾ أى ابين الخيانة فيها والا يؤدينها ﴿ وأشفقن منها ﴾ وخفن من الخيانة فيها ﴿ وحملها الانسان ﴾ أى خان فيها وأبى الا يؤديها . ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ لكونه تاركا لأداء الأمانة ﴿ جهولا ﴾ لخطائه ، ما يسنده مع تمكنه منه وهو أداؤها قال الزجاج الكافر والمنافق حملا الأمانة ، أى خانا ولم يطيعا ومن أطاع من الانبياء والمؤمنين فلا يقال ظلوما جهولا .

وقوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أى إنما حمل ابن آدم الأمانة ، وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهران الايمان خوفا من

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٢٩ كتاب الرقاق/ واحد ج ٥ ص ٣٨٣ ومسلم فى كتاب الايمان ج ١ ص ١٢٦ برقم ١٤٣/٢٣٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ٢٢٠ كتاب طواف الوداع .

(٣) أخرجه الامام احمد ج ٢ ص ١٧٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٤٧ .

(٥) سورة فصلت آية ١١ .

أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهراً وباطناً على الشرك بالله ومخالفة الرسل .

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى ويرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى وكان الله ستاراً للذنوب عباده ، كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ، ورجع الى حظيرة قدسه ، وأخلص له العمل ، وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم ان تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات وتثيبنا بالفوز العظيم ، انك سميع قريب مجيب الدعوات .

### تفسير سورة سبا

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها أربع وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف وخمسمائة واثنان عشر ..

مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول ﷺ - ومعجزات داود ، وسليمان ، ووفائهما وهلاك سبا ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة سادة الضلال ، وسفلتهم ، ومعاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفيين والمصدقين بالاختلاف والرجوع بإلزام الحجة على مفكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع الى الدنيا فى قوله : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ مرتين بتقديم السموات ، بخلاف يونس ، فإن فيها ( مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ) لأن فى هذه السورة تقدم ذكر السموات فى أوائل السورة ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ وقد سبق فى يونس .

قوله : ﴿ أفلم يروا ﴾ بالفاء ليس غيره . زيد الحرف ، لأن الاعتبار فيها بالمشاهدة على ما ذكرنا ، وخصت بالفاء لشدة اتصالها بالأول لأن الضمير يعود الى الذين قسموا الكلام فى النبى ﷺ وقالو : نعمد أما عاقل كاذب ، وأما مجنون هاذ ، وهو قولهم ﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ فقال الله : بل تركتم القسم الثالث وهو اما صحيح العقل صادق .

قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ وفى الاسراء : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ ، لأن فى هذه السورة اتصلت بآية ليس فيها لفظ الله ، فكان التصريح أحسن ، وفى الاسراء اتصل بآيتين فيهما ( بضعة عشر ) مرة ذكر الله صريحاً وكنياً ، ( وكانت ) الكناية أولى وقد سبق .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ ويَعْدَهُ ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ بالجمع ، لأن المراد بالأول : لآية على احياء الموتى ، فخصت بالتوحيد ، وفى قصة سبا جمع ، لأنهم

صاروا اعتبارا يضرب فيهم المثل ، تفرقوا أيدي سبأ ، فرقوا كل مفرق ، وفرقوا كل ممزق ، فوقع بعضهم الى الشام ، وبعضهم الى يثرب ، وبعضهم الى عمان ، فحتم بالجمع ، وخصت به لكثرتهم ، وكثرة من يعتبر بهن .

فقال : ﴿ لَايَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على المحنة ﴿ شَكُورٍ ﴾ على النعمة أى المؤمنين . قوله : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّى يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ وبعده : ﴿ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ سبق . وخص هذه السورة بذكر الرب ، لانه تكرر فيها مرات كثيرة منها ﴿ بِلَدَةٍ طَيِّبَةٍ وَرَبِّ غَفُورٍ ﴾ ﴿ رَبَّنَا بَاعِدْ ﴾ ﴿ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ﴾ ﴿ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ولم يذكر مع الأول ﴿ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ لأن المراد بهم الكفار ، وذكر مع الثانى ، لانهم المؤمنون . وزاد ﴿ لَهُ ﴾ وقد سبق بيانه . قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ ولم يقل : من قبلك ، ولا قبلك خصت السورة به ، لأن في هذه السورة اخبارا مجردا ، وفي غيرها اخبار للنبي ﷺ ، وتسلية له ، فقال : ﴿ قَبْلَكَ ﴾ قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَلْ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ وفي غيرها ﴿ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

لأن قول ﴿ أَجْرَمْنَا ﴾ بلفظ الماضى ، أى قبل هذا ، ولم يقل : نجرم فيقع في مقابلة ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ لأن من شرط الايمان وصف المؤمن ان يعزم ألا يجرم . وقوله : ﴿ تَعْمَلُونَ ﴾ خطاب للكفار ، وكانوا مصرين على الكفر فى الماضى من الزمان والمستقبل ، فاستغنت به الآية عن قوله ( كنتم ) . قوله : ﴿ عَذَابُ النَّارِ الَّتِي ﴾ وقد سبق . صلتها بما قبلها .

(١) ان الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها ، تشاكل الصفات التى نسبت اليه فى مختم السورة السالفة .

(٢) انه فى السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم انكارها صريحا ، وطعنهم على من يقول بالبعث ، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَٰنَكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ ۝

وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ  
 وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزِ الْإِيمِ ﴿٤﴾ وَيَرَى  
 الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ  
 ﴿٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنٰتِكُمْ إِذَا مِزَقْتُمْ كُلُّ مِزْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ  
 جَدِيدٍ ﴿٦﴾ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلٰلِ  
 الْبَعِيدِ ﴿٧﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئًا نَّحْسِفَ  
 بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾

## معاني المفردات

- الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله .  
 الحكيم : الذي احكم أمر الدارين ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة .  
 الخبير : هو الذي يعلم بواطن الأمور وخوافيها .  
 يلج في الأرض : أى يدخل فيها .  
 ويعرج : أى يصعد .  
 لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه .  
 مثقال ذرة : أى مقدار أصغر غملة .  
 والكتاب المبين : اللوح المحفوظ .  
 رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا من عليه .  
 معاجزين : أى مسابقين يظنون انهم يفوتونا فلا نقدر عليهم .  
 رجز : أى عذاب شديد .  
 العزيز : أى الذى يغلب ولا يغلب .  
 الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه  
 وصراطه : هو التوحيد والتقوى  
 تمزيق الشيء : تقطيع أوصاله وجعله قطعاً قطعاً ، يقال ثوب مزيق وممزق وممزق ومنه قوله :  
 إذا كنت مأكولاً فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب  
والجنة : الجنون وزوال العقل  
كسفا : قطعاً واحداً كسفة  
منيب : أى راجع الى ربه مطيع له .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه ان له الحمد فى الآخرة على ما أسدى الى عباده من النعم ، أردف ذلك بيان أن كثيراً منهم ينكرها أشد الإنكار ، ويستهزئ بمن يثبتها ، ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظناً منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر ان مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا بيان ان الناس فريقان ، مؤمن بآيات ربه ، يرى أنها الحق وأنها تهدى الى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى ابطالها . ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال ، وبعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا ، وأكد كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون اذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم ، على ما عمل من صالح الاعمال ، وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب فى الجحيم ، على ما دسى به نفسه من اجترار المعاصى ، وفاسد المعتقدات ، أردف ذلك ذكر مقال للكافرين ذكره تهكماً واستهزاء . ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد ، لعلمهم يرجعون عن عنادهم ، ويثوبون الى رشدهم .

### التفسير

حمد الله تعالى ذاته ليلقن عباده كيف يحمدونه ، وقد سبق فى سورة الفاتحة قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وفى سورة الانعام قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ وفى سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ .

وهنا يحمد الله تعالى ذاته لان له ما فى السموات وما فى الأرض فهو المالك المدبر ، والسيد المتصرف ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ (١) .

فهو جلّت قدرته بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو المحمود فى الدارين ، وهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، وهو الحكيم الذى تنزه عن العبث ، وتقّدى عن النقائص ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، الخبير العليم بدقائق الأشياء ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٢) .

﴿ يابىئ إنما إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ (١) . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢) .  
لذا جاء تفسير الخبير في الآية التي تليها قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أى ما يدخل فيها ، كما يعلم ما يخرج منها ، ويعلم ما ينزل من السماء ، كما يعلم ما يعرج فيها ويصعد اليها ، أحاط علمه بكل شيء كما أحصى كل شيء عددا ، وهو الرحيم ، الذى شملت رحمته هذا الملك العظيم ، الغفور الذى يستر الذنوب ﴿ ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ (٣) .  
﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (٤) .  
وسبحان القائل : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ (٥) .

يامن يرى مد البعوض جناحه	في ظلمة الليل الميم الأليل
ويرى نياط عروقها في نحرها	والمنخ في تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها	في قاع بحر زاخر متجندل

وسبحان من علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

### بصيرة في الحمد

قال صاحب البصائر :

الحمد : الثناء بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر ، فإن المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره ، وما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الانسان بطول قامته ، وصباحة وجهه ، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه ، والحمد يكون في الثاني دون الأول ، والشكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة ، فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكرا ، وكل حمد مدح ، وليس كل مدح حمدا ، وفلان محمود اذا حمد ، ومحمد اذا كثرت خصاله الحمودة ، ومحمد كمكرم اذا وجد محمودا .

(١) سورة نعمان آية ١٦

(٢) سورة الملك آية ١٤

(٣) سورة الشورى آية ٢٥

(٤) سورة المجادلة آية ٧

(٥) سورة ق آية ٤

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾<sup>(١)</sup> . يصح ان يكون في معنى المحمود وان يكون في معنى الحامد ، وجماداك ان تفعل كذا ، أى غايتك المحمودة .  
 وقوله تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ ﴾<sup>(٢)</sup> . فأحمد اشارة الى النبي ﷺ باسمه ، تنبيها على انه كما وجد احمد ، يوجد وهو محمود في أخلاقه وأفعاله ، وخص بلفظ احمد فيما يشير به عيسى عليه السلام ، تنبيها انه احمد منه ومن الذين قبله .  
 قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ محمد ههنا وان كان اسما له علما ، ففيه اشارة الى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾<sup>(٤)</sup> . على معنى الحياة .

### بصيرة في الشكر

وهو تصور النعمة وإظهارها ، وقيل : هو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف ، ليقال : شكرته وشكرت له وتعديته باللام أفصح .  
 قال تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال جل ذكره : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾<sup>(٦)</sup> .  
 وقوله تعالى : ﴿ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾<sup>(٧)</sup> . يحتمل ان يكون مصدرا ، مثل قعد قعودا ، ويحتمل أن يكون جمعا ، مثل برد وبرود ، وكفر وكفور .  
 والشكران : خلاف الكفران ، والشكور : الشاكر والشكور من الدواب ، الذي يجترىء بالعلف القليل ، ويسمن عليه قال الأعشى : ولا بد من غزوة في الربيع . . رهب تكل الوقاح الشكورا وقيل : الشكر مقلوب الكشر ، أى الكشف وقيل : أصله من عين شكرى ممتلئة ، والشكر على هذا : الامتلاء من ذكر المنعم .  
 والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على النعم ، وشكر بسائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

﴿ اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ انتصابه على التمييز ومعناه : اعملوا ما تعملونه شكرا لله وقيل : شكرا مفعول لقوله : ﴿ اَعْمَلُوا ﴾ ولم يقل : اشكروا ، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ فيه تنبيه ان توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين ، قال في وصف ابراهيم عليه السلام :

(١) هود آية ٧٣

(٢) البص آية ٦

(٣) الفتح آية ٢٩

(٤) مريم آية ٧

(٥) البقرة آية ١٥٢

(٦) لقمان آية ١٤

(٧) الانسان آية ٩



﴿ شاكرا لأنعمه ﴾<sup>(١)</sup> وقال في نوح عليه السلام : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾<sup>(٢)</sup> . وإذا وصف الله بالشكر في قوله ﴿ والله شكور حلیم ﴾<sup>(٣)</sup> فإنما يعني به إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقامه من العبادة .  
واعلم ان الشكر أعلى منازل السالكين وفوق منزلة الرضا . فإنه يتضمن الرضا وزيادة ، والرضا مندرج في الشكر ، اذ يستحيل وجود الشكر بدونه ، وهو نصفت الايمان ، وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببا للمزيد من فضله ، وحارسا وحافظا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسما من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور ، وهو موصل الشاكر ، الى مشكوره ، بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية رضا الرب عن عبده ، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال : ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال عن خليفه ابراهيم : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾<sup>(٦)</sup> وعن نبيه نوح : ﴿ انه كان عبدا شكورا ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٨)</sup> .

وقال : ﴿ أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون ﴾<sup>(٩)</sup>

وقال : ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾<sup>(١٠)</sup>

وقال : ﴿ واذا تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾<sup>(١١)</sup> وقال ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾<sup>(١٢)</sup>

وسمى نفسه شاكرا وشكورا ، وحسبك بهذا حجة للشاكرين وفضلا ، وأعاد به الشكر مشكورا ، كقوله : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾<sup>(١٣)</sup> . ورضا الرب عن عبده كقوله ( وإن تشكروا يرضه لكم ﴾<sup>(١٤)</sup> . وقلة أهله في العالمين على انهم من خواصه .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ : ( انه قام حتى تورمت قدماه ف قيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : ( أفلا أكون عبدا شكورا ) ﴾<sup>(١٥)</sup> . وقال لمعاذ ( يامعاذ إني أحبك فلا تنس ان تقول في دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ) ﴾<sup>(١٦)</sup> .

(١) البقرة آية ١٧٢

(١٠) لك عمران آية ١٤٤

(١١) ابراهيم آية ٧

(١٢) سبأ آية ١٩

(١٣) الانسان آية ٢٢

(١٤) الزمر آية ٧

(١٥) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ برقم ٢٨١٩/٧٩

(١٦) أخرجه في الحلية ج ١ ص ٢٤١ ترجمة معاذ بن جبل

(١) النحل آية ١٢١

(٢) الاسراء آية ٣

(٣) التغابن آية ١٧

(٤) البقرة آية ١٧٢

(٥) البقرة آية ١٥٢

(٦) النحل آية ١٢١

(٧) الاسراء آية ٣

(٨) النحل آية ٧٨

وفي الترمذى فى بعض دعائه المشهور : ( رب اجعلنى لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطوعا لك محبنا اليك أواها منيبا )<sup>(١)</sup> . وقال هذا حديث حسن صحيح .

والشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، ووجه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره ، هذه الخمسة هى أساس الشكر وبنائؤه عليها ، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ، وكل من تكلم فى الشكر فكلامه اليها يرجع وعليها يدور .

ف قيل حده : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على المحسن بذكره احسانه ، وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره ، والثناء عليه ، وقيل : هو مشاهدة المنّة وحفظ الحرمة .

وما ألطف ما قال حمدون القصار : شكر النعمة : ان ترى نفسك طفيليا ، وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر ، وقيل : الشكر إضافة النعم الى موليا . وقال الجنيد : الشكر : الا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وهذا معنى قول حمدون : أن ترى نفسك فيها طفيليا ، وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة يفتى فى الخدمة وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويحتمل كلامه أمرين : أحدهما ان يغنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة ، الثانى ألا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها وهذا أكمل ، والأول أقوى عندهم والكمال ان يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم ، كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفتى عنها ، ويغيب عن شهودها ، وقيل : الشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة ، وشكر العامة على المطعم والملبس ، وقوة الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والايمان وقوة القلوب ، وقال داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك ، وشكرى نعمة على من عندك تستوجب بها شكرا ؟ فقال : الآن شكرتنى ياداود .

وفي أثر اسرائيل قال موسى : يارب خلقت آدم بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت ، فكيف أطاق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم ان ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

وقيل : التلذذ بشنائه على ما لم يستوجب من عطائه وقال الجنيد : وقد سأله سرى عن الشكر وهو صبي بعد : الشكر ألا يستعان بشيء من نعم الله على معاصيه ، قال من أين لك هذا ؟ قال : من مجالستك . وقيل : من قصرت يداه عن المكافأة ، فليطل لسانه بالشكر ، والشكر مع المزيد أبدا لقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾<sup>(٢)</sup> . فمتى لم تر حالك فى مزيد ، فاستقبل الشكر ، وفى أثر الهى يقول الله : أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيادتى وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، ان تابوا فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فأنا طيبهم أبتليتهم بالمصائب لأطهرهم عن المعاييب .

(١) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٢١٤ برقم ٣٦٢١

(٢) ابراهيم آية ٧

وقيل : من كتم النعمة ، فقد كفرها ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها .  
قال أبو تمام :

ومن الرزية ان شكرى صامت      عما فعلت وان برك ناطق  
أرى الصنيعة منك ثم أسرها      انى اذا لندى الكريم لسارق

وتكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر ، وأيهما أفضل وفي الحديث : ( الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره ) والفرق بينهما ان الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته فيه ،

والحمد أعم من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ومعنى هذا ان الشكر ، يكون بالقلب خضوعاً واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافاً ، وبالجوارح طاعة وانقياداً ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الاحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

### إنكار الكافرين البعث

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سمعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ ، ان يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره . من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ (١) .  
والثانية في سورة التغابن قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ (٢) والثالثة هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ قال مجاهد وقتادة : لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أى الجميع مندرج تحت علمه ، فلا يخفى عليه شيء ، فالعظام وان تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهب ، وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فانه بكل شيء عليم ، ثم بين حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة .

بقوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سمعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أى سمعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل ، اذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضا ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ (٣) . يقال أيضا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٤) . ﴿ لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾ (٥) .

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

العزيز هو المنيع الجناب ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شئ وغلبه ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

وهذا انكار بعد انكار للبعث بعد الموت فقد قالوا قبل ذلك : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ فقال لهم المولى ملقنا رسوله الاجابة : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ وهنا قال بعضهم لبعض فى سخرية وتهكم واستهزاء : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ يقصدون به عمدا ﷺ إمام الانبياء وخاتم الرسل : ﴿ ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق ﴾ وتفرقت أعضاؤكم تحت الثرى كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا إذا ضللنا فى الأرض أنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآيتنا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة

(١) الحشر آية ٢٠

(٢) ص آية ٢٨

(٣) الأعراف آية ٤٣

(٤) يس آية ٥٢

(٥) الروم آية ٥٦

والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿١﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ ويقول الانسان إذا مامت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ (٢) . وهنا يقولون : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ ثم يكيلون التهم جزافا ، فيقولون على أصدق الناس وأعقلهم ﴿ أفترى على الله كذبا ﴾ وهم الذين من قبل سموه الصادق الأمين ﴿ أم به جنة ﴾ أى أصابه جنون ، وهم الذين يعلمون أنه أعقل العقلاء ، وأعظم خلق الله على الإطلاق ، فلم يعرف الكذب الى قلبه سيلا ، كما لم يعرف الجنون الى عقله طريقا ، ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويصرون بأيكم المفتون ﴾ (٣) .

ياسيد العقلاء ياخير الورى	يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا	وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله ولا برى	بشرا يرى كمحمد بين الورى

قال ابن عباس : والله ما خلق الله ولا برا ولا ذرا نسمة أفضل من رسول الله ﷺ ، وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ (٤) .

بلغ العلا بكماله	كشف الدجى بجماله
عظمت جميع خصاله	صلوا عليه وآله

قوله تعالى : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ لقد أنكروا البعث بعد الموت ، وجعلوا ان الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، فعاشوا فى أسباب العذاب . وضلوا بذلك ضلالا بعيدا ، ثم يأتى التحذير والوعيد والتهديد لهؤلاء كالصواعق والقواصف والرعود ، التى تنخلع لها الجبال الشم والرواسى الشاغات .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أى أعموا وأصبخوا لا يرون أن أرض الله وساءه ، محيطة بهم ، أينما كانوا وحيشا وجدوا . من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيماهم وعن شمائلهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (٥) . ولا أحد يملك هذا السلطان إلا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

(١) السجدة الآيات ١٠ - ١٤

(٢) مريم الآيات ٦٦ ، ٦٧

(٣) القلم الآيات ١ - ٦

(٤) الحجر آية ٧٢

(٥) الرحمن آية ٣٣

قال تعالى : ﴿ إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال الله تعالى : ﴿ أَفَأَمَّنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَاهِمٌ بِمَعْجَزِينَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup> . قال تعالى : ﴿ أَفَأَمَّنُوا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مِنْ مَكَرِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> . وكما أن مشيئتنا صالحة لخسف الأرض ، فإنها صالحة لإسقاط قطع من السماء لتحققهم محققاً . ﴿ أَمُتُّمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمُتُّمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴾<sup>(٤)</sup> . ثم يقول تعالى : ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ فالمنيب هو التائب الراجع إلى ربه وهو الذي يعتبر بالآيات ، ويتعظ بها ، ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، وهكذا أنكر الكفار البعث بعد الموت ، وكان القرآن لهم بالمرصاد ، كلما ساقوا حجة دحضها ، وكلما أثاروا شبهة سحقتها ، وكلما قدموا دليلاً هدمه ، ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَإِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾<sup>(٥)</sup> .

### ﴿ البعث حق ﴾

ما هو البعث :

﴿ ويقول الإنسان إذا مات لسوف أخرج حياً أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾<sup>(٦)</sup> .  
البعث إحدى قضيتين من قضايا الإسلام ، دارت حولها العقيدة الراسخة ، التي أوجب الإسلام على أتباعه اعتقادها ..

فقضية الألوهية وقضية البعث ، هما القضيتان اللتان دارت حولهما رضى الإسلام .

فما هو البعث :

اتفقت كلمة علماء العقيدة على أن البعث ، هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقال الصادق الأمين ﷺ وهو يعلن هذه المبادئ بعدما أمره الله بالجهرة بالدعوة في قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾<sup>(٨)</sup> . نادى على قبائل العرب - بعدما صعد الصفا وقال

(١) سبا آية ٩

(٢) سورة النحل الآيات : ٤٥ - ٤٧

(٣) سورة الأعراف آية : ٩٩

(٤) سورة الملك الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧

(٦) سورة مريم الآيات : ٦٦ - ٦٨

(٧) الحج الآيتان ٦ ، ٧

(٨) الحجر آية ٩٤

لهم : ( إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، رأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا )<sup>(١)</sup> .

صدقت يا سيدى يا رسول الله ! فقد أعطاك الله جوامع الكلم ، واختصر لك الكلام اختصارا : ذكرت قضايا العقيدة بأسلوب بلاغى واضح ، فقد شبهت الموت بالنوم ، ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبثكم بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وشبهت البعث باليقظة : ﴿ ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا أولينا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾<sup>(٣)</sup> . ولخصت الحكمة من النشأة الآخرة ، فقلت وقولك الحق : ( ولتحاسبن بما تعملون ) .

إذن : فليست الدنيا دار جزاء ، وإنما هى دار امتحان وبلاء . . قد ترى فيها المؤمن مضيقا عليه ، بينما ترى الفاجر يرتع ويلعب فى جناتها ويعربد على ظهرها .

إذن : فالحقيقة الكبرى ، هى الدار الباقية ، قال جل شأنه : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نمى لهم خير لأنفسهم ، إنما نمى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين ﴾<sup>(٥)</sup> .

ولقد قال رسول الله ( ﷺ ) : ( إذا رأيت الله ينعم على العبد وهو يعصيه فاعلم أنه مستدرج ) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين ﴾<sup>(٦)</sup> .

ولخصت الحقيقة الرابعة فبينت وجه العدالة الإلهية حيث قلت - وقولك الصدق : ( ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ) .

أجل ! ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد ﴾<sup>(٨)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾<sup>(٩)</sup> . وقال تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾<sup>(١٠)</sup> .

(١) الاعراف الايتان : ١٨٢ - ١٨٣

(٢) النساء آية : ٤٠

(٣) فصلت آية : ٤٦

(٤) الانبياء آية : ٤٧

(٥) الزلزلة الايتان : ٧ - ٨

(١) أخرجه ابن عساكر ٣٩٩/٦/ مسانيد ٦٠٨/٢ الجامع الكبير .

(٢) الأنعام آية ٦٠

(٣) يس الآيات : ٥١ - ٥٣

(٤) الأنبياء آية ٣٥

(٥) آل عمران آية : ١٧٨

تشاد المباني والقبور دوارس ولا يمنع الأقدار باب وحارس  
ومهما يكن ، فالله باق ودائم ويجنى الفتى - من بعد - ما كان يفرس

يا لله للمسلمين ! ويا لله للناس أجمعين ! ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾ (١) .

تملك الناس الهوى والغرور وقتة الغيد وسكنى القصور  
ولو تزال الحجب بانث لهم زخارف الدنيا وعقبى الأمور

وصدقت ياسيدى يارسول الله حين بينت أن فى الآخرة دارا للمتقين وأخرى للفاستقين ،  
فقلت : ( وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا ) .

سبحانك رب ! يا من قلت : ﴿ أفمن كان مؤمنا ، كمن كان فاسقا ؟ لا يستون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار : كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به يكذبون ﴾ (٢) .  
ويا من قلت : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟ ! ﴾ (٣) .

وقررت هذا الجزاء العادل :

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ (٤) .

القبر باب وكل الناس داخله	يالىت شعرى ، بعد الموت : ما الدار
دار نعيم إن عملت بما	يرضى الإله وإن خلفت فالنار
هما محلان ، ما للمرء غيرهما	فانظر لنفسك : أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة ، فالرب غفار

(١) الأنبياء الآيات : ١ - ٣

(٢) السجدة الآيات : ١٨ - ٢٠

(٣) القلم الآيتان : ٣٥ - ٣٦

(٤) قى الآيتان : ٣١ - ٣٢



تباركت ربنا وتعاليت !! يا من قلت وقولك الحق :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ، دعواهم فيها : سبحانك اللهم ونحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

أخا الإسلام :

إن الله عبادا فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها ، فلما علموا	أنها ليست لحى سكننا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ (٢) .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة	واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل	يارب إن العيش عيش الآخرة .

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومسكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ﴾ (٣) .

إلهى : لست للفردوس أهلا	ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى	فإنك غافر الذنب العظيم

فما هو البعث :

هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة .

(١) يونس الآيات : ٧ - ١٠

(٢) الكهف آية ٣٠

(٣) الصف الآيات : ١٠ - ١٢

## البعث حق

﴿ قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل لله : كتب على نفسه الرحمة ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ (١) .

أمر الله رسوله ( ﷺ ) أن يقسم به جل شأنه في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم ، وهذه المواضع تدور حول قضية واحدة ؛ هي قضية البعث :

فقد جاء في سورة يونس : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين ﴾ (٢) .

وجاء في سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ، قل بلى ، وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ (٣) .

وجاء في سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴾ (٤) .

ولكون « البعث » قضية تناولتها عقول الماديين بالانكار ، فقد تناولها الكتاب العزيز من جميع جوانبها تحليلًا وتمحيصًا ، حتى سمي اليوم الذى سنبعث فيه أسماء تدل على الثبوت والوقوع . قال جل شأنه في ذلك :

﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ (٥) .

وقال أيضا : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة .. خافضة رافعة ﴾ (٦) .

ولكونه محقق الوقوع : عبر القرآن عنه بصيغة الواقع فعلا ، فقال سبحانه :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (٧) .

وعبر عنه بالقرب القريب فقال : ﴿ أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ (٨) .

وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (٩) .

وقد تعددت أسماء هذا اليوم ، ونظرا إلى ضخامة شأنه ، وعلو قدره سماه الله تعالى بالساعة ،

فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون . ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ﴾ (١٠) .

وسماه بيوم البعث فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم

البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾ (١١) .

(٧) الروم الآية : ٥٥  
(٨) الواقعة آية ١ ، ٢  
(٩) النحل آية ١  
(١٠) النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨  
(١١) الروم آية : ٥٦

(١) الانعام آية : ١٢  
(٢) يونس آية ٥٣  
(٣) سبأ آية ٣  
(٤) التغابن آية ٧  
(٥) الحاقة الآيتان ١ ، ٢  
(٦) القمر الآيتان : ١ ، ٢

وسماه بيوم الحسرة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ (١).

وسماه باليوم الموعود فقال : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾ (٢).  
وسماه بيوم الآفة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الآفة إذ القلوب لدى الجناحر كاظمين ﴾ (٣).  
وسماه بيوم التلاق فقال : ﴿ لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون . لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ (٤).

وسماه بيوم التناد ، كما جاء في القرآن الكريم ، حيث يقول جل شأنه :  
﴿ ويقوم إن أخاف عليكم يوم التناد ﴾ (٥).  
وسماه بالقارعة فقال تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة ﴾ (٦).  
وسماه بالطامة الكبرى فقال : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسمى ﴾ (٧).

وسماه بالصاخة فقال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (٨).

وسماه بيوم الدين فقال : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين . ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ (٩).  
وسماه بيوم القيامة فقال : ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ (١٠).  
وسماه باليوم الآخر فقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ (١١).  
وفخم من شأنه بالصورة التي تليق به ، فقال تبارك وتعالى :  
﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بأذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾ (١٢).

وأورده في كتابه العزيز بصيغة التنكير الذي يفيد التهويل والتعظيم ، فقال : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون ﴾ (١٣).  
وقال : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون ﴾ (١٤).

وقال : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾ (١٥).

(٨) عيسى الآيات : ٣٧ / ٣٣  
(٩) الانفطار الآيات : ١٧ ، ١٨  
(١٠) القيامة آية : ١  
(١١) البقرة آية : ١٧٧  
(١٢) هود آية : ١٠٥  
(١٣) البقرة آية : ٢٨١  
(١٤) آل عمران آية : ٢٥  
(١٥) هود آية : ١٠٣

(١) مريم آية : ٣٩  
(٢) البروج الآيات : ١ ، ٢  
(٣) غافر الآيات : ١٨  
(٤) غافر الآيات : ١٥ ، ١٦  
(٥) غافر الآيات : ٣٢  
(٦) القارعة الآيات : ١ - ٣  
(٧) النازعات الآيات : ٣٤ ، ٣٥

وقال : ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ (١) .

وقال : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾ (٣) .

وجعل لهذا اليوم مقدمات تنخلع لها القلوب ، وتنفطر منها الأفئدة ، فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (٤) . وفي هذه المقدمات للبعث ، تختل سنن الحياة ونواميسها ، كما قال سبحانه : ﴿ فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهي يومئذ واهية . والمملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون . لا تخفى منكم خافية ﴾ (٥) .

وقال جل شأنه :

﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلقت . علمت نفس ما أحضرت ﴾ (٦) .

وقال عز من قائل : ﴿ فإذا برق البصر . وخنس القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا ، لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ (٧) .

وقال عز من قائل : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال . وكانت الجبال كثيبا مهिला ﴾ (٨) .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٩) .

### البعث حقيقة واقعة

أخى القارئ الكريم : إن قضية البعث ثارت حولها اعتراضات وأفكار من قديم الزمن ، ولذلك اهتمت العقيدة الإسلامية بالتأكيد عليها ، والتركيز على معانيها وأدلتها .

- (١) المزمّل آية ١٧
- (٢) الإنسان آية ١٠
- (٣) النور آية ٣٧
- (٤) الحج الآيات : ١ ، ٢
- (٥) الحاقة الآيات : ١٣ - ١٨
- (٦) التكويد الآيات : ١ - ١٤
- (٧) القيامة الآيات : ٧ - ١٢
- (٨) المزمّل آية : ١٤
- (٩) الانفطار الآيات : ١ - ٥

ونحن في هذا الباب سنعرض للأدلة عرضاً عقلياً ، على أن البعث حق نخاطب فيه العقل الرشيد ، بالمنطق السديد ، دون ماتعسف أو تعصب إلا للحق ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ الحق أحق أن يتبع ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾<sup>(٣)</sup> ولكي نثبت أن البعث حق ، فلا بد لذلك من مقدمات ثلاث .

المقدمة الأولى : قضية الألوهية .

المقدمة الثانية : القرآن الكريم حق .

المقدمة الثالثة : النبي ( ﷺ ) حق .

المقدمة الأولى :

### قضية الألوهية

لقد أثبتت الحقائق العلمية أن هذا الكون وما يحتويه من أجزاء المخلوقات من أول الذرة إلى المجرة ، ومن أول الخلية إلى الإنسان ، لا بد أن يكون له مبدع خالق ومدبر حكيم ، وأن كلمة العلماء القدامى والمحدثين ، انعقدت على أن هذه المخلوقات لا يمكن بحال ، أن تكون وليدة الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء . ومن قال بذلك فقد ألغى فكره ، وعطل عقله .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فأن تؤفكون . فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وبعد بيان هذه الأدلة التي تخاطب العقل : تأتي النتيجة مسلماً بها لاحتياج إلى نقاش أو جدال

(١) الأنعام آية : ١٠٤

(٢) يونس آية : ٣٥

(٣) يونس آية : ٣٢

(٤) في الآيات : ٦ - ١١

(٥) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩

فيقول جل شأنه : ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل .  
لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(١)</sup> .  
إذن : فكل الكائنات بما حوته من إبداع وإحكام وإتقان ونظام تنطق بلسان الحق وتشهد بمنطق  
الصدق : أن له خالقا لاتدركه الأبصار ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .  
المقدمة الثانية : -

### القرآن الكريم حق

القرآن الكريم : هو ذلك الكتاب العربي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق  
الوحي ، المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتحدى بلفظه المتعبد بتلاوته .  
ولكى نوضح أن القرآن الكريم حق ، يجب علينا أن نعلم أنه منقول إلينا بطريق التواتر ، وهو  
عبارة عن نقل جماعة عن جماعة يؤمن تواترهم على الكذب ، وهو طريق يفيد قطعاً الثبوت ، كذلك  
يجب أن نعلم أن القرآن ليس كلاماً عادياً ، بل هو كلام الله جل جلاله ، الذي أعجز الخلق ،  
وتحداهم أن يأتوا بمثله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا  
القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٢)</sup> .  
بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث قال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله  
مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل  
بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾<sup>(٣)</sup> ؟  
بل لقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فقال سبحانه ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا  
فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا  
النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾<sup>(٤)</sup> .  
ولهذا نؤمن بهذا القرآن الكريم ونقول إنه كلام رب العالمين :  
إن القرآن أعجز العرب جميعاً ببلاغته وفصاحته وعلو طبقته ، وهم أهل البلاغة وأساطين  
الفصاحة ، ولذلك يلمح قارئه أنه - أي القرآن الكريم - يصدر كثيراً من سورته بالحروف العربية  
المقطعة :

فأحياناً بحرف واحد مثل : ( ض ، ن ، ق )  
وأحياناً بحرفين ، مثل : ( خم ، وطس )  
وأحياناً بثلاثة ، مثل : ( الم ، طسم )

(١) الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) الاسراء آية : ٨٨

(٣) هود الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٤) البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

وأحيانا بأربعة مثل : ( المص ، المر )  
 وأحيانا بخمسة ، مثل ( كهيعض ، خم غيسق )  
 ويعد ذكر هذه الحروف يرد ذكر الكتاب ، مثل : ﴿ الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾<sup>(١)</sup> .  
 ومثل : ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup>

ومثل : ﴿ المر . تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ﴾<sup>(٣)</sup> .  
 ومثل : ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر ﴾<sup>(٤)</sup>  
 ومثل : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾<sup>(٥)</sup> .  
 إن في ذكر هذه الحروف العربية المقطعة ، مقترنا بذكر القرآن الكريم والكتاب الحكيم - في  
 الأكثرية الساحقة من السور المفتحة بتلك الحروف - إشارة قوية إلى أن القرآن نزل بتلك الحروف  
 العربية .

فإن كنتم يأرباب الفصاحة ، وبأساتذة البلاغة : في ريب أو شك أو التباس في أنه من عند  
 الله ، فاتوا بكتاب مثله إن كنتم صادقين فأنتم عرب ولسانكم عربى .  
 وقد ثبت تاريخيا - بطريق موثوق به - أنهم عجزوا كل العجز ، ولم يقولوا في هذا المجال شيئا  
 يذكر ، وبذلك ثبت للقرآن أنه حق نزل به جبريل عليه السلام من قبل الحق ، على النبی الحق .  
 صلوات الله وسلامه عليه .

لقد بهرت هذه البلاغة القرآنية عمر بن الخطاب رضى الله عنه جبار الجاهلية ، فانقلب فجأة بعد  
 سماع صدر من سورة « طه » فتمثلت له الآيات كأنها ملائكة حملته على أجنحة النور إلى مافوق قبة  
 الفلك ، فأصبح بعد ما كان جبار الجاهلية : عملاق الاسلام .

قد كنت أعدى أعاديتها فصرت لها بفضل ربك حصنا من أعاديتها

القرآن معجز :

اقرأ يا أخى بقلب مخلص هذه الآيات : ﴿ طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن  
 يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوات العلا . الرحمن على العرش استوى . له ما فى السموات  
 وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو  
 له الأسماء الحسنی ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) البقرة الآيتان ١ ، ٢

(٢) الأعراف الآيتان ١ ، ٢

(٣) الرعد آية ١

(٤) ص آية ١

(٥) ق آية ١

(٦) طه الآيات : ١ - ٨

ثم أعد قراءتها ، واجعل عقلك يعيش فيها ، ويندمج في أضوائها ، فإن فيها أسراراً لا يلحق بها ولا يشق لها غبار .

إنه من الملاحظ أن آيات التحدى في القرآن نزلت في مكة ، وقد ظل النبي ﷺ بها ثلاثة عشر عاماً ، فما استطاع أحدهم أن يأتي بسورة من مثل هذا القرآن ، بل كل ما قالوه : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ (١) .

بل كانوا يأتون بما يندى له جبين الحياء خجلاً :

كان النضر بن حارث يأتي بالأقاصيص والخرافات ، ليجعل منها مجالاً ، يصرف به الناس عن سماع القرآن . . قال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كان لم يسمعها كان في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ (٢) .

بل لقد انحدروا إلى الدرك الأسفل ، فأتوا بأفعال صبيانية ، ليكون ذلك منهم حاجزاً وحجاباً عن وصول القرآن إلى الأسماع .

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٣)

ويلغ الاستهتار ببعضهم أنه ظن أن القرآن صور متحركة ، يمكن تبديلها وتغييرها كأنه أمام خشبة المسرح : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ (٤) .

بلغ لقد بلغ الحمق ببعضهم ، أنهم كادوا يعتدون على الذين يتلون القرآن ، قال سبحانه : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ (٥) .

حصل هذا في الوقت الذي كان البعض يذهب سرا ، ليستمع إلى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ في الليل .

كان أبو سفيان بن حرب - قبل أن يسلم - يذهب متخفياً ، ويجلس بجانب بيت الرسول ﷺ ، ويستمع إلى القرآن الكريم منه ، وهو يرتله ، وإذا به يجد أبا جهل قادماً ، فيقول له : يا أبا حنظلة : ما الذي جاء بك إلى هنا في هذا الوقت ؟ فيقول له : يا أبا الحكم جئت لأستمع إلى القرآن من محمد ، فما الذي جاء بك أنت ؟ فيقول أبو جهل : نفس الذي جاء بك ، وإذا برأس من رؤوس الكفر يأتي - هو الأخنس بن شريق - فيسألانه :

(١) الأنفال الآيتان : ٣١ ، ٣٢

(٢) لقمان الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) فصلت آية : ٢٦

(٤) يونس آية : ١٥

(٥) الحج آية : ٧٢



ما الذى جاء بك ؟

فيقول نفس الذى جاء بكما .. ويعد أن يستمعوا ويهموا بالانصراف ، يعاهد بعضهم ألا يأتي أحد منهم ، خشية أن يتمكن القرآن من قلوبهم فيخضعوا لمحمد ويسيروا وراء لوائه !  
ويظن كل منهم أنه لن يأتي أحد غيره ، فيتسلل أبو سفيان خفية ، ويأتى إلى القرآن مستمعا ، ويتسلل أبو جهل كذلك ، ويأتى الأخنس أيضا ، وكل منهم يظن أن أحدا من رفقاته لن يراه ، ثم يعيدون العهد . كل ذلك وحلاوة القرآن تجذبهم .

لو كان ذلك من كلام أحد من العرب ، فإن هؤلاء عرب يستطيعون أن يقولوا مثله ، ولكنه من كلام خالق الكون رب العالمين .

ويشهد الوليد بن المغيرة لهذا القرآن ، شهادة خالدة بعد أن استمع إليه ، وأدار أسلوبه في نفسه ، فوجده يتقاطر نورا ورحمة غضا نديا ، لا يذبل عوده ، ولا يجف ورقه .. تسرى فيه روح الحياة ، كما يسرى الماء في العود الأخضر فيقول الوليد :

( لقد سمعت من محمد كلاما ماسمعت مثله فقط ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام البشر ، وإنه يعلم ولا يعلم عليه ) .  
لقد اختار الله تعالى البلاغة وجعلها من معجزات القرآن لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، يقصد به تحدى القوم ، وإنما يكون التحدى بصورة أقوى ، إذا جاء من جنس مابرع فيه القوم .  
فقد كانت معجزة موسى عليه السلام : إبطالا للسحر ، في عصر برع فيه السحرة .  
ومعجزة عيسى عليه السلام : تحدى الطب البشرى ، في عصر نبغ فيه الأطباء .  
وجاء القرآن معجزة بلاغية ، في عصر برع فيه البلغاء والفصحاء والأدباء ، فضلا عن أنه اشتمل على جوانب أخرى من الإعجاز ، يتحدى بها العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .  
تنبؤات القرآن العظيم :-

ومن الأدلة القاطعة على أن القرآن حق ؛ أنه اشتمل على تنبؤات في المستقبل تحققت وصدقت ، كما أخبر عنها ؟ ذلك : لأنه كلام علام الغيوب .  
نذكر منها قوله تعالى :

﴿الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون . في بضع سنين . الله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ (١) .

قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

( أما إنهم سيغلبون ) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا ، كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم ، كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : ( ألا جعلتها إلى مادون العشر ) قال سعيد بن جبير : البضع : مادون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد ذلك .

وهو الذى قاله سعيد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فى بضع سنين ﴾ ولقد حدث ماتنبأ به القرآن الكريم ، وانتصرت الروم على الفرس ، كما أخبر بذلك علام الغيوب .

كذلك من تنبؤات القرآن العظيم أنه أخبر عن أشخاص ؛ بأنهم سيدخلون النار ويموتون على الكفر .

من هؤلاء : الوليد بن المغيرة ، الذى منعه كبره ، وحجبه ظلمه عن الدخول فى الاسلام ، فقد قال الله تبارك وتعالى فى شأنه :

﴿ ذرى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبينين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾ (١) .

وقال جل شأنه فى حقه أيضا : ﴿ سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر ؟ . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾ (٢) .

ولقد سمع الوليد هذه الآيات فعلا ، وثبت ما أخبر به القرآن الكريم ، ومات الوليد على غير الاسلام .

ومن هؤلاء : أبو هب بن عبد المطلب - عم الرسول - ﷺ - فقد أخبر تبارك وتعالى عنه بقوله : ﴿ تبت يدا أبا هب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات هب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ﴾ (٣) .

وقد سمع أيضا أبو هب وامراته هذه الآيات وماتا على الكفر ، وصدقت فيهما أخبار القرآن الكريم .

ومن هؤلاء أيضا : النضر بن الحارث - الذى سبق الكلام عنه فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ (٤) .

وقد سمع النضر هذه الآيات ومات على الكفر : ولو أن أحدا من هؤلاء الذين ذكرناهم ، مات على الاسلام ماصدقت النبوة ، ولكنه إخبار الله الذى إذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وهو أسرع الحاسبين .

(١) المدثر الآيات : ١١ - ١٧

(٢) المدثر الآيات : ٢٦ - ٣٠

(٣) سورة المسد كلها

(٤) لقمان آية : ٦

ومن جوانب النبوة في القرآن الكريم ، أنه أخبر عن هزيمة المشركين في يوم بدر قبل وقوع الغزوة .. قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ . سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ (١) .

كما أخبر عن أشخاص ، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فقتلوا يوم بدر ، وفيهم يقول الله سبحانه : ﴿ إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ (٢)

وأخبر أنه - جل شأنه - سيحفظ هذا الكتاب الكريم ، وتحقق ذلك ، فقد مرت بالاسلام إحنا طاحنة ، وعن قاسية ، فلم تستطع يد أئمة أن تغير أو تبدل في كتاب الله ، وظل هذا الكتاب الكريم في حفظ ورعاية وصيانة : ﴿ إِنَّا نَحْنُ أَنْزَلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) .

كذلك من جوانب إعجاز القرآن - غير البلاغة والنبؤات - ما اشتمل عليه من نظم صحيحة وصالحة لكل زمان ومكان ، لو فهمها الخلق وطبقوها تطبيقاً سليماً ، لمكن الله لهم في الأرض وبدل خوفهم أمناً .

ومن هذه النظم السياسية التي جمع الله مبادئها في آيات بينات : ﴿ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْإِحْسَانَ وَإِيْتَاءَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٤) وقوله جل شأنه : ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (٥) ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ (٦) .

وغير ذلك من القوانين والمعاهدات الدولية ، التي اشتملت عليها سور كثيرة من القرآن الكريم : كسورق الأنفال ، والتوبة .

كما اشتمل على نظم إجتماعية ، أفاضت في ذكرها سور النساء والنور والأحزاب ، كما اشتمل على النظم والقوانين المدنية ، كما في آية المدينة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾ (٧) .

كما وضع نظاماً للمال والاقتصاد وتدور عليه دواليب الحياة ، وقد أفاضت في هذا الموضوع سورتا البقرة والنساء .

كما اشتمل على نظم الجهاد والنواحي العسكرية ، كما في السور : آل عمران والتوبة والأحزاب .. إلى غير ذلك من جميع ما يحتاج إليه العالم في شتى النظم .

وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٨) .

(١) القمر الآيتان : ٤٤ ، ٤٥

(٢) الحجر آية : ٩٥

(٣) الحجر آية : ٩

(٤) النحل آية : ٩٠

(٥) آل عمران - : ١٥٩

(٦) الشورى : ٣٨

(٧) البقرة : ٢٨٢

(٨) النحل آية : ٨٩

## القرآن الكريم والعلم الحديث :

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر ، نقطف من كل بستان زهرة ونشق من كل حديقة وردة ..  
ذلك الجانب هو ما اشتمل عليه القرآن العظيم من الحقائق العلمية .  
( وسوف نورد نماذج لحقائق علمية مختلفة ، سبق القرآن بها العلم )  
الطب الحديث ، وتحريم الخمر في القرآن :

يقول الطب عن الخمر : إن شربها ينتج عنه تليف في المعدة ، والكبد ، والأعصاب ، والألياف  
التي تتكون في الأنسجة ، تخنق الذرات النافعة في المعدة والكبد والأعصاب ، فتضعف وظائفها  
الحوية ، وهذه الحالة شفاؤها صعب ، ويمتد ضررها إلى الذرية البريئة .  
صدقت يارب العزة ، إذ قلت عن الخمر : إنها ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم  
تفلحون ﴾ (١) .

## الصحة الغذائية في القرآن :

وهذه حقيقة علمية أخرى ذكرها العلم مخبرا عن وظائف الرضاعة وأهميتها ، يقول العلم في هذا  
الصدد : إن الله لم يخلق الثديين للأنثى عشا ، بل خلقهما لترضع منها أطفالها ، فيجب عليها إذن :  
إرضاع طفلها المدة الكافية ، فإذا رفض الطفل أخذ ثديها ، أو أحست هي بقلة لبنها ، فعليها أن  
تستشير الطبيب ، ليعرف سبب هاتين الحالتين ، فتعالجه ليرجع الطفل إلى غذائه الطبيعي .  
ويقول العلم : إن الأم التي ترضع طفلها يتحسن جسمها ، إذ أن المبيضين يفرزان أثناء الرضاعة  
مادة تقوى الجسم وتجمل شكله .

## المقارنة بين لبن الأم ولبن الحيوان :

تحاول كثيرات من السيدات ، أن يرضعن أطفالهن بألبان البقر وغيرها ، ولكن الأفضل  
والأصح : هو لبن الأم ، ذلك لأن لبن الحيوان ، قد يكون ملوثا بميكروب الدرن - مثلا - أو تكون  
الأيدي التي حلبته غير نظيفة ، أو يكون الاناء كذلك ، أو يكون قد خلط بعناصر غريبة ، بالإضافة إلى  
أن التحليلات ، قد أثبت أن اللبن تتكاثر فيه الميكروبات بسرعة ، فأين هذا من لبن ثدى الأم ، الذى  
يدخل معدة الطفل معقما نظيفا . سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين  
كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (٢) .

## المقارنة بين لبن الأم والألبان الجافة :-

أما الرضاعة بطريق الألبان الجافة ، فقد اجتهدت بعض المصانع في تركيب ألبان كلبن الأم ،  
ولكن سرعان ما عرف أن تعقيم اللبن ، يفقده ما فيه من الفيتامينات ، كما اتضح أن فى لبن الأم ، مواد  
تقى الطفل من أمراض الجهاز الهضمى من قىء وإسهال ، كما تقيه من بعض الأمراض الأخرى ،  
ولاشئ من هذه الخواص فى اللبن الصناعى .

فمن الذى أثبت لنا هذه الحقائق فى الصحة الغذائية ، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ؟

(١) المائدة آية : ٩٠

(٢) البقرة آية : ٢٣٣

إنه القرآن الكريم الذى يقول : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١)

ولماذا التحديد بحولين ؟

إنما حددت مدة الرضاعة بحولين لا أكثر ، لأن الأبحاث الطبية ، تفيد أن الطفل إذا أرضع أكثر من حولين تقل قواه العقلية ، ويتعرض للاصابة بالأنيميا . فسبحان من يعلم مصالح عباده ويرشدهم إليها ! إعجاز علمى آخر :

قال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ (٢) .

ماذا يقول العلم فى قوله جل شأنه : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ ثم التعليل لذلك بقوله : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ ؟

إن فى ذلك إعجازا علميا .. ذلك لأن الآية الكريمة حددت الشعور بألم الاحراق فى الجلد السطحى للخمس ، فلو احترق الجلد ، ووصل الكى إلى اللحم ، لما كان هناك شعور بالألم ، لأن الأعصاب التى تشعر بالكى : موجودة فى الجلد دون سواه !

إذن : فمن الذى أثبت هذه الحقيقة العلمية ، التى لم يكتشفها الطب إلا منذ قرنين فقط ؛ ومن الذى أخبر أن مراكز الاحساس ، هى فى الجلد دون غيره ؛ إنه كلام العليم الخبير !! القرآن والطبيعة الجوى :

قال سبحانه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ (٣) .

نظرة فى هذا النص الكريم تفيد أن إنزال الماء من السماء مبنى ومرتب على إرسال الرياح لواقح : فما السر فى هذا ؟ وماذا يقول العلم وتنطق الحقيقة به فى هذا الصدد ؛ إن العلم يثبت أن الرياح تقوم بتلقيح السحب بنوى التكاثف أو بمعنى آخر : هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر بسبب إرسالها ، لتتجمع فى صعيد واحد ، إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . إن الانسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة ، إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة ، التى يقيس بها عناصر الجو : مثل الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة وسرعة الرياح واتجاهها ، ويعد أن درست طبيعة السحب المطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة .

يقول العلم بعد ذلك : إن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم « نويات التكاثف » وأهم أنواع هذه النويات - « أو النوى » - هى مساحيق ملح الطعام وكلوريد الكالسيوم ، التى تتطاير من سطح الأرض والبحر من تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج عن عمليات الاحتراق .

(١) البقرة آية : ٢٣٣

(٢) النساء آية : ٥٦

(٣) سورة الحجر آية : ٢٢

ووظيفة هذه النوى ، بجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها ، لتكون نقطا صغيرة من الماء ، أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذي يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها ، فمن الذى أثبت - منذ أربعة عشر قرنا - هذه الحقيقة العلمية فى الطبيعة الجوية ، وهى أن الرياح تقوم بتلقيح السحب ، فيترتب على ذلك إنزال الماء ؟ إنه كتاب الله - عز وجل - أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ! حقيقة تناقص الضغط الجوى والأكسجين مع الارتفاع :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يرد أن يضله ، يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ (١).

إن العلم يقف عند هذه الآية موقف الاكبار والاجلال والإعظام ، مقرا بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، إنما هو كلام خالق القوى والقدر .

لماذا يضيق الصدر عندما يصعد الانسان فى طبقات الجو ؟ إن وراء ذلك التعبير سرا علميا وحقيقة ثابتة .

فماذا يقول العلم والعلماء ؟

يقول العلم : إن الصدر عندما يرتفع الانسان فى طبقات الجو يحس بضيق ناشئ عن نقص الضغط الجوى وكميات الأكسجين التى تستقبلها الرئتان ، وهذه الحقيقة ، ليس من السهل تقريرها عمليا ، إلا إذا صعد الانسان فعلا فى الجو .

ثم يقول العلم : إن من عناية الله بسكان هذا الكوكب الأرضى أن جعل له غلافا هوائيا ، يقع تحت طائل قانون الجاذبية فى نفس الوقت ، الذى يخضع فيه لقانون الانتشار ، فهو يتمدد ، ولكن بدرجة لا تسمح له بالإفلات من قبضة الأرض ، والتلاشى فى خضم الفضاء الفسيح ، إلا بعد مئات الأميال من سطح الأرض .

ثم يستطرد العلم قائلا : كلما صعد الانسان قدما فى السماء ؛ صار الهواء قليل الضغط والكثافة .. والعكس صحيح .

وعلة ذلك أنه يستجيب للضغط الواقع عليه ، وبطبيعة الحال : تضغط كل طبقة على كل ماتحتها وعند سطح الأرض تبلغ مقادير هذا الضغط وزن كيلو جرام واحد على السنتيمتر المربع ؛ ومن ثم : فإنه قد ثبت أن الانسان ، إذا ارتفع نحو ستة كيلومترات : فإن الضغط الجوى ، يعادل نحو نصف قيمته عند سطح الأرض ، بمعنى أن نصف كتلة الغلاف الجوى ، إنما تنحصر بين سطح الأرض وهذا الارتفاع ، ولقد بنى الله أجسامنا ، بحيث تتحمل على سطح الأرض هذا الضغط ، الناجم عن تراكم طبقات الهواء إلى قمة الغلاف الجوى ، وتكفى كميات الأكسجين العالقة فيه لتنقية الدم وبقائنا على قيد الحياة !

وعلى هذا فيستفاد من هذا التقرير العلمى ، أن الانسان كلما ارتفع إلى أعلى تناقص الضغط الجوى والأكسجين ، فيشعر بضيق فى الصدر .

وذلك ما أقرته تلك الآية الكريمة : ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾<sup>(١)</sup> .  
سبحانك ربى : أنت العليم الحكيم ، وأنت على كل شيء قدير !

القرآن حق :

فالقرآن الكريم فى بلاغته وأسلوبه معجز ، وفى نبوءاته معجز ، وفى حقائقه التى أكدها العلم فى أبحاثه معجز : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾<sup>(٢)</sup> .  
المقدمة الثالثة :

### ( النبى ﷺ حق )

كما ثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، وكما ثبت كذلك أن القرآن حق ، وحيث كان ذلك كذلك ، فإن النبى ﷺ الذى أوحى الله إليه هذا القرآن : حق .  
لأنه ثبت بطريق التواتر القطعى ، أن النبى محمدا ﷺ كان أميا ، لم يذهب إلى أستاذ ، ولم يتلق العلم على يدى فيلسوف ؛ كما أنه لم يجلس أمام معلم ، إنما تلقى علمه بطريق الوحي من رافع السماء بلا عمد .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾<sup>(٣)</sup> ، ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يحد بأياتنا إلا الظالمون ﴾<sup>(٥)</sup> .  
فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه النواحي المعجزة فى القرآن العظيم ، وهو الأمى الذى لم يتلق علمه على يدى بشر ؟ .

من الذى علمه أخبار الأنبياء السابقين وأممهم السالفة ؟  
إنه الحق جل جلاله ، الذى ختم له قصص الأنبياء بآيات تفيد أن المصدر الوحيد ، هو الله وحده .

فبعد أن حدثه عن قصة نبى الله نوح عليه السلام ، قال فى نهايتها :  
﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك : ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾<sup>(٦)</sup>

وبعد ذكر قصة كليم الله موسى عليه السلام يقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغرب إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾<sup>(٧)</sup> . ويقول له أيضا : ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾<sup>(٨)</sup> ويقول : له كذلك : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾<sup>(٩)</sup> .

(٥) هود آية : ٤٩

(٦) القصص آية : ٤٤

(٧) القصص آية : ٤٥

(٨) القصص آية : ٤٦

(١) الفرقان آية : ٦

(٢) النمل آية : ٦

(٣) الشورى آية : ٣

(٤) العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩

وبعد قصة الصديق يوسف عليه السلام يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (١).

وبعد قصة آل عمران يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٢).

وبعد قصص الأنبياء يقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكراً ﴾ (٣)، ويقول : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (٤).

كل هذا وغيره يدل دلالة قاطعة على أن هذا النبي الأُمى إنما أرسله الله بأمرى ودين الحق ، بعد ما أقسم بالنجم على تزكيته في شتى نواحي شخصه :

زكى عقله : فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ (٥) .

وزكى لسانه ، فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ (٦) .

وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ (٧) .

وزكى أستاذه وجليسه ؛ فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ (٨) .

وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ (٩) .

وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر ، وما طغى ﴾ (١٠) .

وزكاه كله ، فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ (١١) .

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ورزقنا الله شفاعتك وشرف المرافقة ..

يوم نجد كل نفس ما عملت من خير محضراً .

في أى الجامعات تخرج هذا النبي الأُمى ؛ وعلى أى الأساتذة تلقى علومه ، إنه تخرج فى جامعة الأنبياء ، التى يقول فيها الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (١٢) .

وتلقى علومه من علام الغيوب الذى يقول .

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (١٣) .

وكان موضوع رسالته : القرآن .

وهو أعظم كتاب ، نزل به أعظم ملك ، على أعظم نبي فى خير ليلة فى أفضل شهر فى أكرم بلد !

قال تعالى فى حق القرآن العظيم : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (١٤) .

- (٨) النجم آية : ٥  
(٩) النجم آية : ١١  
(١٠) النجم آية : ١٧  
(١١) القلم آية : ٤  
(١٢) الأنبياء آية : ٢٥  
(١٣) النساء آية : ١١٣  
(١٤) الزخرف آية : ٤

- (١) يوسف آية : ١٠٢  
(٢) آل عمران : ٤٤  
(٣) طه آية : ٩٩  
(٤) هود آية : ١٢٠  
(٥) النجم آية : ٢  
(٦) النجم آية : ٣  
(٧) النجم آية : ٤



وفي حق الملك : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾ (١)  
 وفي حق النبى ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢) .  
 وفي حق الليلة : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ (٣) .

وقال فى حق الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ (٤) .

وقال فى حق البلد الذى بدأ فيه نزول القرآن : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شئ وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾ (٥) .  
 من علم محمدا هذه الحقائق الغيبية ؟

إنه ﴿ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ﴾ (٦) .  
 ومن الذى علمه تلك الحقائق العلمية ، علم الأجنة وحقائق الأرحام ؛  
 ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٧) !!

هل ذهب محمد ﷺ إلى المعامل ، وهل استعمل أنابيب الاختبار ، واستخدم التجربة ، واستعمل الآلات الدقيقة ، التى يستخدمها العلماء فى العصر الحديث .

بل من الذى علم محمدا ﷺ علوم البحر ؛  
 ذكروا أن المستر « براون » - أحد رجال البحرية البريطانية - درس القرآن ، فوقف عند قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ (٨) .

قرأ المستر ( براون ) هذه الآية الكريمة ، وأعمل فكرة فيها ، فوجدها قد اشتملت على حقائق ثابتة فى علوم البحار ، فسأل أحد علماء الهند المسلمين وقال له :

« أركب محمد نبيكم البحر ؛ »

قال العالم : لا

قال : ( فمن الذى أخبره بعلوم البحر ؛ أشهد بأن هذا الكلام ليس كلام محمد ، إنما هو وحي من رب محمد ) .

(٥) النمل الآيتان : ٩١ ، ٩٢

(٦) الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٧) المؤمنون الآيات : ١٢ ، ١٤

(٨) النور آية : ٤٠

(١) التكويد آية : ٢٠

(٢) الأنبياء آية : ١٠٧

(٣) القدر الآيات : ١ - ٣

(٤) البقرة آية : ١٨٥

وعندئذ نطق « براون » بالشهادتين ودخل الاسلام ، بسبب بحثه وإعمال فكره .  
هذا هو الحق ينطق بلسان الصراحة والقوة ، عندما يتجرد العقل من الضلالة العمياء والجهالة  
الجهلاء .

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه :  
إن العقل البشرى فى ميسر الحاجة إلى رسالات السماء ، ولا يمكن أن يسلك طريق الحياة  
معتمدا على ذاته .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ العلامة رشيد رضا :  
( إن حكمة الحكماء وعلومهم : آراء بشرية ناقصة ، وظنون لا تبلغ من عالم الغيب ، إلا أنه  
موجود مجهول ، وهى عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من  
يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهوته ؛ إذ لاسلطان لها على  
وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان وإسلام الاذعان والتعبد ، لأن النوع البشرى يأبى طبعه  
وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته ، واتفاقه فى علمه وحكمته ، وإنما يدين  
لمن يعتقد أن له سلطانا غيبيا عليه ، بما يملكه من القدرة على النفع والضرر بذاته ، دون الأسباب  
الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه ؛  
ثم يستطرد الأستاذ العلامة فيقول :

وأضرب لهذا مثلا : إنه كان للفيلسوف الرئيس « ابن سينا » خادما متعلما ، فعجب بعلومه  
وفلسفته ، وكان يعجب منه : كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه ، وهو فى رأيه أعلم منه وأرقى ؟ .  
وكان يكشفه بذلك ، فيعرض عنه « ابن سينا » أو يوبخه ؛ فاتفق أن كانا فى مدينة « أصفهان »  
فى ليلة شديدة البرد ، كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس « ابن سينا » خادمه فى وقت السحر ، وطلب منه ماء  
ليتوضأ به ؛ فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح ، وطلب منه  
الماء ، فاعتذر بشدة البرد حتى إذا قال المؤذن :

أشهد أن محمدا رسول الله ، قال الرئيس لخادمه : ( اسمع ماذا يقول المؤذن ؟ قال : إنه يقول :  
أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، قال الرئيس : الآن قد آن لى أن ابين لك ضلالك القديم ، إنك  
خادمى ، لا هم لك غير خدمتى ، وإنك أشد الناس إعجابا بى وإجلالا وتعظيما لى ، حتى إنك تفضلنى  
على رسول الله ﷺ ، وتنكر على أن أومن به وأتبعه ، وإنك على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة  
أطلبها منك فى داخل الدار ، معتذرا بشدة البرد ، وإن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر ،  
ويصعد هذه المنارة ، وهى أشد مكان فى البلد بردا ، حتى إذا لاح له الفجر ، أشاد فى أذانه بذكر محمد  
العربى ، بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته ، إيمانا وإذعانا وتعبدنا واحتسابا ) ؟  
فتأمل هذا وتدبره فى نفسك ، يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس ، وسلطان العلم  
والفلسفة . « انتهى كلامه » .

من الذى أرشد رسول الله ﷺ ، إلى هذه النظم القويمة وتلك المناهج السليمة : سياسيا ،  
اجتماعيا ، واقتصاديا ، وأخلاقيا ، وعسكريا ، وعقائديا ؛

إنه الله الذي أقسم له قائلا : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم ﴾ (١) .

### \* البعث حق \*

بعد هذا الذي أسلفنا وثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، والقرآن حق ، والنبي ﷺ حق ، نقول إن كل ما جاءنا من الله وبلغه عنه رسوله ﷺ : فهو حق .  
﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾ (٢) ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾ (٣) .  
ومن القضايا التي سجلها القرآن الكريم في عديد من المواضع : أن هناك حياة مديدة وخالدة ، وأبدية ، ولا نهائية ، بعد مرحلة الدنيا وانتهائها ، إنها الحياة الآخرة !  
لذلك أقسم الله في عديد من آياته على أن البعث واقع وحق . . . أقسم بالرياح الذاريات ، والسحب المثقلات ، والسفن الجاريات ، والملائكة المقسمات ، فقال ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾ (٤) .  
إذن : فجواب القسم هنا : هو صدق الوعد ووقع الجزاء ، حتى أن الله تعالى سمي البعث : بالنبا العظيم ، وألقى باللائمة على الذين يختلفون في شأنه : كيف يقع منهم ذلك ، وآيات الله البيّنات ناطقة بقدرته على ما هو أعظم منه شأننا وأبعد شأنا ؟  
﴿ هم يتساءلون ؟ . عن النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون ؟ . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾ (٥) .

ثم يعدد آيات قدرته فيقول : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حيا ونباتا ، وجنتا ألفافا ؟ !  
إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ﴾ (٦) .  
ولما ثبت تقرير هذه المسألة - مسألة البعث - في القرآن العظيم وأصبح العلم بها ضروريا ، نجد أن مولانا تبارك وتعالى : يقسم في بعض المواضع ، على أن هذا الأمر حق ، ولا يذكر جواب القسم ، لأن السياق والسباق واللاحق يدل عليه :  
يقول سبحانه : ﴿ ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منلر منهم فقال الكافرون : هذا شيء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ؛ ذلك رجع بعيد ﴾ (٧) .  
فالله سبحانه قد أقسم بالقرآن المجيد ، ولكن أين جواب القسم ؛ إنه من الظهور والوضوح

(٥) النبا الآيات : ١ - ٥

(٦) النبا الآيات : ٦ - ١٨

(٧) ق الآيات : ١ - ٣

(١) يس الآيات : ١ - ٤

(٢) الأحزاب الآيات : ٤٥ ، ٤٦

(٣) المائدة الآية : ٦٧

(٤) الذاريات الآيات : ١ - ٦

بحيث لا يحتاج المخاطب إلى ذكره ، لأن السياق يدل عليه : ﴿ أفعمينا بالخلق الأول ﴾<sup>(١)</sup> ؟ إذن : فليعلم أن جواب القسم تقديره « ليعثن » .

وإذن : فليكن التقدير هكذا : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ليعثن

وفي موضوع آخر يقسم الله تبارك وتعالى قائلا : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا ﴾<sup>(٢)</sup> .

على أى شيء يقسم الله بهذه الجماعات من الملائكة : التى تنزع الأرواح وتخرجها ، وتسبح بها ، وتسبق إلى تنفيذ أمر ربها ؟

إن جواب القسم معلوم الثبوت من قوله تعالى :

﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمرجودون فى الحافرة ؟ . أئذا كنا عظاما نخرة ١٩ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وإذن : فليكن جواب القسم تقديره : « لتبعثن »

كل هذا دليل على أن البعث حق لا مرية فيه ولا جدال بعد ما ثبت من القضايا التى قررناها وبينناها أن الله حق والقرآن حق والنبي ﷺ حق .

وإذن : فما حقيقة البعث ؟

البعث بالروح والجسد :

﴿ وعرضوا على ربك صفا : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾<sup>(٤)</sup> .

### أقوالهم فى البعث

ثار جدال حول هذه القضية :

فذهب بعضهم مذهبا باطلا وهم بعض الفلاسفة القدامى ، فقالوا :

إن البعث روحانى فقط ، وغفلوا عن أن قضية البعث ، لا يكون العقل فيها هو المرجع فى ثبوت حقيقتها وكيفيتها وشكلها وجوهرها وموضوعها ، وإنما المرجع فى ذلك كله إلى الله وحده لاشريك له .

وقد تضافرت آيات الكتاب الكريم ، على أن البعث الانسانى : إنما هو بالروح والجسد . قال

سبحانه وتعالى - فى حق المشركين : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) ق الآية : ١٥

(٢) النازعات الآيات : ١ - ٥

(٣) النازعات الآيات : ٦ - ١١

(٤) الكهف آية : ٤٨

(٥) القمر الآيات : ٦ - ٨

وقال في حق البشرية جمعاء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم : إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تُرونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (١)

وقال أيضا : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (٢) وقال سبحانه : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ (٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فإذا برق البصر . وَاخْسَفَ الْقَمَرُ . وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ : أَيْنَ الْمَفْرُجُ ؟ ﴾ (٦) . وقال أيضا : ﴿ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ . يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ﴾ (٧) .

ففى التعبير بلفظ « الإنسان » فى الآية الكريمة ، دليل صريح على أن البعث روحانى وجسمانى ، قال سبحانه : ﴿ ونفخ في الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : يا ويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (٨) . يقول العلامة الأستاذ رشيد رضا فى هذا الصدد :

« البعث الإنسانى : جسمانى روحانى ، كما جاء فى القرآن : مخالف لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء . . إن الإنسان فى الحياة الأخرى ، يكون إنسانا كما كان فى الدنيا . إلا أن أصحاب الأنفس الزكية ، والأرواح العالية ، يكونون أكمل أرواحا وأجسادا مما كانوا عليه ، وذلك بتزكية أنفسهم فى الدنيا ، وأصحاب الأنفس الخبيثة ، والأرواح السافلة ، يكونون أنقص وأخبث مما كانوا ، وذلك بتدسية أنفسهم فى الدنيا .

ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين ، أن الأديان القديمة ، كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد ، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم ، فيبعثون بها عيناها ، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان ، وأنها تكون بقيام هباء منبثا . وقال علماء العقائد من أهل السنة : إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام .

(١) الحج الآيتان : ١ - ٢ .

(٢) الأعراف آية : ٣٠ .

(٣) الأنبياء آية : ١٠٤ .

(٤) الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .

(٥) الأنعام آية : ٩٤ .

(٦) القيامة الآيات : ٧ - ١٠ .

(٧) الفجر الآية : ٢٣ .

(٨) يس الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن تبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ (١) .

ولو كان البعث للأرواح وحدها ، لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق ، المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية ، ويتحقق حكم الله وأسرار صنعه فيهما معا ؛ : من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى ، والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد ، إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية ، مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصا في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها ، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها . وأصل هذا الافراط - أو التفريط - غلو الهند في احتقار الجسد ، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضيات الشاقة ، وتبعهم فيه نساك النصارى ، كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث .

على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح ، وقال لهم : إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت ربى ) ( متى ٢٦ - ٢٩ ) .

وجرى اليهود على عكس ذلك .

وجاء الاسلام بالاعتدال ، فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في إنسانيته ، مرجحا لروحانيته على حيوانيته ، متزودا من دنياه لأخرته .

ويؤخذ مما ورد في الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ، أن القوى الروحية ، تكون هي الغالبة والمتصرفة في الأجساد ، فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة ، وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة والتخاطب بالكلام ، بين أهل الجنة وأهل النار ، وإن ترقى البشر في علم الكيمياء ، وخواص الكهرباء والصناعات في عصرنا ، قد قرب كل هذا من حس الانسان ، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدونها من تخيلات سيدنا محمد ﷺ كما في قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾ (٢) .

وما نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبا بالمسرة ، ونسمع خطبهم بالمدياع ، ونراهم ويروننا بآلة التليفزيون أ . هـ وهكذا ينتهى بنا المطاف من هذا البحث ، إلى أن عقيدة المسلم الصحيحة في قضية البعث ، أن الانسان سيبعث بروحه وجسده يوم القيامة . قال سبحانه وتعالى في أهل الجنة : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾ (٣) .

(١) الواقعة الآيات : ٦٠ - ٦٢

(٢) الأعراف آية : ٤٤

(٣) مريم آية : ٨٥

وقال في أهل النار : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾<sup>(١)</sup> .  
 وقال في أهل الجنة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾<sup>(٢)</sup> .  
 وقال في أهل النار : ﴿ وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾<sup>(٣)</sup> .  
 فعليك يا أخا الاسلام أن تركّز هذا المعنى في قلبك ، وتعلم أنك ستخرج يوم القيامة من القبر بروحك وجسدك ، فاعتقد هذا لتلقى الله بعقيدة سليمة صحيحة ، تؤيد مانطق به القرآن الكريم ، المنزل على نبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

### الجزء الأخرى

#### حسى ومعنوى

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية فاما من أوتى كتابه يمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه إلى ظننت أنى ملاق حساييه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه . خلدوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾<sup>(٤)</sup> .

هذا المشهد القرآنى العظيم الرائع ، يبين لنا حقيقة القضية ، التى ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية البعث : ألا وهى قضية الجزاء فى الآخرة ، والتى ينطق بها الكتاب الكريم حيث يقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أنثقالها . وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾<sup>(٥)</sup> .

ثم أن الجزاء فى الآخرة ، مظهر من مظاهر العدالة الإلهية ، فقد شاءت حكمة الله العليا ، أن يلهم النفس فجورها وتقواها ، بعد ما بين لنا طريق تركيتها وتدسيستها ، وشاء جل شأنه أن يهدى الإنسان السبيل :

إما شاكرا وإما كفورا ، بعد ما جعله سميعا بصيرا ، كما أراد سبحانه أن يهديه التجدين ، بعدما جعل له عينين ولسانا وشفقتين .

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة فى جلاء ووضوح فقال :

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٨ - ٣٧

(٢) سورة الزلزلة كاملة

(٣) مريم آية : ٨٦

(٤) القيامة الأيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٥) القيامة الأيتان : ٢٤ ، ٢٥

﴿ إن سعيكم لشتى . فإما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾<sup>(١)</sup> .

إذن : فالطريق واضحة المعالم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالجزاء : عدالة إلهية : ﴿ أفجعل المسلمين كالمجرمين ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾<sup>(٤)</sup> .

والقضية التى نعرض لها فى هذا البحث : تدور حول حقيقة الجزاء والعقيدة ، التى يجب أن يعتقدها المسلم هى : أن الجزاء فى الآخرة حسى ومعنوى .

وفى هذه القضية تعثرت أقلام وزلت أقدام وانفلت خيال بعض الكتّاب ، الذين اتبعوا فى بحثهم هواهم ، ولم يتبعوا هدى الله . فقد ذكروا أن الجزاء الأخرى معنوى فقط ، لا دخل له بالأمور الحسية ، وكانوا فى ذلك بعيدين كل البعد عن المصادر الأساسية ، التى تستقى منها المعلومات اليقينية ألا وهى : ( كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ) وظنوا أن قولهم بمعنوية الجزاء ، يعطيهم سموا فى التفكير ، أورقة فى الطبع ، وغفلوا عن أن الجانب الحسى فى الجزاء ، له أثره ، وله قيمته ومكانته فى الآخرة ؛ ثوبا كان أو عقابا ، وأن القضية ليست موضع إجتهد ، أو قول بالرأى بعد مادل على ذلك صدق الأدلة القرآنية كما ظنوا أن القول بمعنوية الجزاء ، أمر يدعو إلى الرأفة بالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغفلوا عن أن الذى قرر هذا الجزاء : هو الله ، أرحم الراحمين ، الذى ييسط يده بالليل ، ليتوب مسيء النهار ، وييسط يده بالنهار ، ليتوب مسيء الليل والذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : ﴿ أنا عند ظن عبدي بى وأنا معه إذا ذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملائحته ذكرته فى ملائحته خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ﴾<sup>(٥)</sup>

لما قال إبليس لرب العزة : لأغوينهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، قال الله له : « لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى » إذن : فأى داع يدعو إلى أن نقول بأن الجزاء معنوى فقط ، بعدما تبين لنا فى البحث السابق ، أن البعث روحانى وجسمانى ؛ فإذا كان الروح والجسد متعاونين فى الدنيا على الخير والشر ، فإن منطق العدالة ، يقضى أن يكون الجزاء مطابقا لحالهما ، فهما مرتبطان متعاونان ، فلم يقتصر الجزاء على جانب واحد ، وهو جانب المعنويات ، بعدما تضافرت الأدلة على ثبوت الجانبين فى الجزاء : ثوبا كان أو عقابا ؟ .

(٣) القلم آية : ٣٥  
(٤) من الأيات : ٢٧ - ٢٨

(١) الليل الآيات : ٤ - ١٠  
(٢) فصلت آية : ٤٦

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٧ - ١٤٨ من رواية لأبى هريرة ( انظر الصفحة التالية )

(٦) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة .



وفي المشهد القرآني الذي صدرنا به هذا البحث يلتقي الجزء المعنوي بالجزء الحسي ، بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار :

فالجزء المعنوي لأهل الجنة يتمثل في قوله تعالى : ﴿ فبهو في عيشة راضية ﴾ (١) .

والجزء الحسي : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ (٢) .

كما يتمثل الجزء المعنوي لأهل النار في قول كل منهم ﴿ ياليتني لم أوت كتابه ولم أدر ما حسابه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ (٣) .

ندامة وخزي وذلل وانكسار !

كما يتمثل الجزء الحسي في العقوبة في قوله جل شأنه : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ (٤) .

وهل هناك أوقع على النفس بالنسبة لأهل النار - من الجهة المعنوية - من قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ (٥) ومن الجهة الحسية في قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ (٦) .

والغسلين : هو مايسيل من أجساد أهل النار !

ثم ماذا يقول القائلون بمعنوية الجزء في قوله جل شأنه :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ (٧) .

أليست الجنات حسية والأنهار حسية والثمرات حسية والازواج حسية .

وماذا يقولون في قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾ (٨) .

أليست النار حسية ؟

أليس نضج الجلود حسيا ؟

أليس ذوق العذاب حسيا ؟

إن الرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل ، وإن اتباع الهدى أقوم سبيلا من غواية الهوى .  
إننا كثيرا مانلمح آيات في القرآن الكريم ، تجمع بين الجزاءين الحسي والمعنوي في أسلوب رفيع وبلاغة معجزة .

(١) الحاقة آية : ٢١

(٢) الحاقة آية : ٢٤

(٣) الحاقة الآيات : ٢٨

(٤) الحاقة الآية : ٣٠ - ٣٢

(٥) الحاقة الآية : ٣٥

(٦) الحاقة الآية : ٣٦

(٧) البقرة الآية : ٢٥

(٨) النساء آية : ٥٦

منها قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

وإننا نلمح الجزء الحسى واضحا في الجنات والأنهار والمسكن ، ونلمح الجزء المعنوى جليا في الخلود ورضوان الله ، ونلمح الخاتمة السعيدة متمثلة في الفوز العظيم .  
كما تمثل الجزء بالنسبة لجانب العقوبة حسيا ومعنويا في قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعبدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٢) .

إنك ايها القارئ الكريم تلمح بوضوح الجزء المعنوى متمثلا في قوله جل شأنه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعبدوا فيها ﴾  
فلفظ ( كلما ) يفيد التكرار ولفظ : الغم يملأ جنبات النفس أسى ولوعة ، تكاد الكبد تنفطر منها ، والقلوب تنخلع من هولها .

وتلمح العذاب الحسى في هذه الآية الكريمة متمثلا في قوله جل شأنه : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾

وتعال معى لترى الجزء الآخرى متمثلا في سورة الرحمن ، التى إذا قرأها المؤمن يتدبر وإعمال فكر ، ومر بآيات العذاب فيها : شغل بأن زفير جهنم بين أذنيه ، فإذا مر بآية تبشر بالجنة : بكى شوقا إليها .

اقرأ معى هذه الآيات في جزاء المجرمين ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٣) .

أرأيت وسمعت الى هذه الأهوال الجسام ؟  
المجرمون لهم علامات تميزهم : فهم سود الوجوه زرق العيون تأخذهم الزبانية أخذا عنيفا من نواصيهم

ومقدم رؤوسهم ومن أقدامهم ليطوفوا بين جهنم وبين ماء حميم بلغت درجة غليانه النهاية القصوى يصهر به مافى بطونهم والجلود ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بشس الشراب وساءت مرتفقا ﴾ (٤) .

صدقن يا رسول الله يامن قلت وقولك الحق :  
( اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ﴾ (٥) .

(١) التوبة آية : ٧٢

(٢) الحج آية : ٢٢

(٣) الرحمن الآيات : ٤١ - ٤٤

(٤) الكهف آية : ٢٩

(٥) كنز العمال ج ١ ص ٦٠٩ برقم ٢٧٩٤ وحلية ج ٣ ص ١٠٣

ويا من قلت وقولك الصدق : ﴿ حركوا به القلوب وقفوا عند عجائبه ﴾  
 يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سمع قارئاً يقرأ من سورة الطور :  
 ﴿ والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ﴾ حتى إذا  
 بلغ قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾ (١) خر عملاق الاسلام مغشياً عليه ،  
 لسماعه تلك الآية ، حتى لقد ذكروا أنه ظل مريضاً شهراً كاملاً ! تعال معي يا أخا الاسلام ، لنطوف  
 برياض الجنة ، وننعم بوارف ظلها ، ونمتع النفس بروحها وريحانها .  
 قال سبحانه : ﴿ ولن خاف مقام ربه جتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأى آلاء  
 ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء  
 ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهن  
 قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى  
 الآء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٢) .  
 هنيئاً لكم يا من فزتم بهذه الدرجة العليا من درجات الجنان ، يقول ترجمان القرآن عبد الله بن  
 عباس رضى الله عنهما :

« الجنتان : بستانان فى عرض الجنة » وكان لله حكمة أن يعطى المؤمن جنتين .  
 فقد قال بعض المفسرين : ( إن فاكهة الدنيا قد يموت بعض الناس دون أن يأكلها ، فيخلقها له  
 الله يوم القيامة فى جنة وفاكهة الآخرة : فى جنة )  
 والأفنان : هى الأغصان .

وإذا كانت بطائن الفرش من إستبرق ، وهو ماغلظ من الحرير ، فكيف تكون حال الظهارة .  
 والمراد بجنى الجنتين : ثمارها وقطوفها الدانية القريبة ، التى تنالها الأيدي دون عناء أو نصب .

وأما قاصرات الطرف : فالمراد بهن نساء الجنة .  
 والمراد أنهن حاسبات العيون على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، وهؤلاء الأزواج المطهرة ، لم  
 يفض بكارتهن إنس ولا جان ، وقد شبههن بالياقوت والمرجان : جمالا وصفاء ، هل جزاء الاحسان إلا  
 الاحسان .

هذا منطق العدالة الالهية المطلقة .  
 اللهم إنا نسألك الفردوس يارب العالمين .  
 وتلك درجة عالية من درجات الجنة .  
 فتعال معي إلى درجة أخرى ينالها أقوام طبقاً لأعمالهم :  
 قال سبحانه : ﴿ ومن دونها جتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما

(١) الطور الآيات : ١ - ٨

(٢) الرحمن الآيات : ٤٥ - ٦٠

تكذبان . فيها عيتان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيها فاكهة ونخل وريمان فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات في الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴿١﴾ .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة ، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾

ولعل القارئ إذا استعرض أوصاف الجنتين المتقدمين في قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ واستعرض الجنتين المذكورتين في قوله جل شأنه : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ لعله بعد هذا الاستعراض ، يجد أن كلا منهما اشتمل على الفاكهة والثمار ، والاتكاء على الأرائك ، والحدود العيون ، التي لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان .

ولعله بعد ذلك يسأل فيقول : فأين التفاضل إذن ، وقد اشتمل كل منهما على ما اشتمل عليه الآخر ؟

والجواب على ذلك ، يظهر جلياً في ذلك الحديث الذي رواه البخاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( جنتان من فضة : آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب : آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن ) (٢) . أخرجه الجماعة وورد في الحديث أيضاً في قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

( المراد بالورق : الفضة )

وهذه الآيات عامة في الجن والانس ، إذ مبني الجزاء على العمل وعلى العمل وحده . وإذن فالتفاضل ، إنما هو في المادة التي اشتملت عليها كل من هذه الجنان ، كذلك في علو درجاتها ، وفي قرب أصحابها من الله تعالى قال سبحانه : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ (٣) فقد ظهر التفاضل في معادنها ومواد صنعها ، كما ورد في الحديث الشريف .

أما معنى قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ فإنها شديدتا الخضرة من كثرة الري ، حتى كأنها تبدوان في لون أسود .

أما العينان النضاختان ، فإنها فوارتان ، تخرجان الماء بصورة بديعة ، ومنظر جميل . ولعلك إذا قارنت الجنتين السابقتين بهاتين الجنتين :

تجد أن الله وصف الأوليين بقوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾

(١) الرحمن الآيات : ٦١ - ٧٨

(٢) أخرجه البخاري : ج ٦ ص ١٨١ / أحمد ج ٤ ص ٤١١

(٣) الأنعام آية : ١٣٢

ووصف هاتين بقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ والأول أعلى درجة ووصف الأولين بقوله : ﴿ فيها عينان تجريان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيها عينان نضاختان ﴾ والجري أوقع في النفس وأروع في صوره .

ووصف الأولين بقوله تعالى : ﴿ فيها من كل فاكهة زوجان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيها فاكهة ونخل ورمان ﴾

وأنت خير بالفرق بين لفظ ( كل ) وبين الآية الثانية ، وقد وفد وفد من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد : أفي الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان قالوا : أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : نعم وأضعاف ذلك قالوا : أفيقضون الحوائج ؟ قال : لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله مافي بطونهم من أذى <sup>(١)</sup> .

فسبحانك رب أعددت لأهل الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ : الحور العين ، والحور : جمع حوراء ، وهي التي صفا بياض عينيها وسوادهما ، والعين : جمع عيناء ، وهي واسعة العينين ، وقد وصف الله الحور في الآيات الأولى بقوله تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ ووصفهن هنا بأنهن ﴿ مقصورات في الخيام ﴾ والقاصرة : أفضل من المقصورة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ﴾ الوسائد وهي جمع وسادة وهذا مارآه الحسن البصري رضي الله عنه .

والمراد بالعبقري الحسان : هي البسط التي بلغت من الحسن والجمال مبلغ الغرابة والعجب ، وهذا رأى الحسن ايضا

ويحسن أن يكون العبقري من كل شيء : أعجبه وأغربه وذلك وصف ينطبق على كل مافي الجنة .

وقد وصف الله أصحاب الدرجات الأولى بقوله : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ وليس ثمة أدنى ريب أن الأرائك ، التي يضطجعون عليها ، تكون أروع وأوقع في النفس ، إذا كانت بطائنها من حرير خالص .

وقد ختم الله تعالى هذه السورة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ : فقد عظمت بركته ، وعمت رحمته ، وبلغت حكمته ، وهو الحقيق بالاكرام ، والعظمة والجلال .

وقد تخللت الآيات الكريمة ، آية تخاطب الثقليين من الجن والانس ، وهي قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

والاستفهام هنا يفيد الانكار ، الذي يؤدي معنى النفي : أى ليس هناك آية ولا نعمة من آلاء الله

ونعمه ، يكذب بها ، فقد ظهرت واضحة جلية : فبأى آية وبأى نعمة تكذبان يامعشر الجن والانس ؟ !

وتكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة في تلك السورة ، التي اشتملت على ثمان وسبعين آية يدل على طبائع النفس البشرية ، التي انطوت على نسيان الجميل وجحود النعمة : ﴿ إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد ﴾<sup>(١)</sup> فيا أخا الاسلام :

بادر بفعل الباقيات الصالحات ، لتكون من المقربين ، أو أصحاب اليمين ، الذين إذا دخلوا الجنة ، نادى مناد من قبل الله تعالى ، فقال يا أهل الجنة : ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴾<sup>(٢)</sup> . . . ﴿ ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٣)</sup> .

فالموت لاشك يفينا ويفنيها	لا تركزن إلى الدنيا وما فيها
والجار أحمد والرحمن ناشيها	واعمل لدار غدا رضوان خازنها
والزعفران حشيش ثابت فيها	قصورها ذهب والمسك طيبتها

ونخلص من هذا البحث وسابقه إلى أن عقيدة المسلم في البعث : أنه روحاني وجسماني ، وعقيدته في الجزاء أنه حسي ومعنوي ، بهذا نطق صريح الكتاب وصحيح السنة .

#### من مشاهد القيامة

اعلم يا أخا الاسلام أن الله أعد الجنة لكل طائع ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ، ولو كان حرا قرشيا .

﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوم ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمتنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إن جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) العاديات الآيتين : ٦ - ٧

(٢) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٥١ برقم ٣٢٩٧ / أحمد ج ٣ ص ٩٥ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ برقم ٢٢ / ٢٨٣٧

(٤) المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

(٣) الأعراف آية : ٤٣

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، تشيب له نواصي الأطفال ، وترتعد له العصبية أولو القوة ، ونحر من هوله الجبال هذا ، إنهم كانوا يتخذون من الناصحين محل سخرية واستهزاء ، يضحكون منهم ويسخرون بهم ، حتى إذا مازهبت السكره وحلت الفكرة ، وذوى غصن الشباب ، وانفض السوق قالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

ولكن علام الغيوب لا تنظلي عليه الحيلة ، ولا يخدع بهذه الأضاليل ، فقد قال لهم : ﴿ إخشأوا فيها ولا تكلمون ﴾

وهل رد إبليس من حظيرة القدس والرحمة ، إلا بسبب الاعجاب بنفسه والاستكبار على غيره ؟ .

وإذا كان سر الكبرياء قسامة الوجه ، وفراة الجسم ، وشدة الأسر ، فأرسلها نظرة خاطفة إلى ماحتواه الجوف .

تعرف أن الانسان يكذب الناس بجمال عنوانه ، ويخدعهم عن خبيث أوصاره وأدراجه . ثم خبرني : هل لهذا الحسن بقاء ، وفي كل يوم تتعاور سطوره بالمحو والفناء ؟ وما خطب قوتك التي اتعبت بها السنة الفخار ؟ .

أن وعكة من حمى : كفيفة ، ان تعفى على هذا السراب ، وتطوى صفحات ذلك الكتاب . فلا قوة ولا جمال ولا شباب !

وهل أنا وأنت وهو ، إلا حفئات تراب تمشي فوق التراب !

تعال معي ياأخى ، لتسمع هذه الدرر الغوالي ، وتعي بقلبك هذه التوجيهات السامية ، التي وجهها سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه إلى الأمة في لحظات حياته الأخيرة ، حيث دنا من الرفيق الأعلى :

رووا انه لما اشتد المرض على رسول الله ﷺ جزع المسلمون وأحاطوا بالمسجد ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ متوكئا على العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما وكان عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس فجلس في أسفل درجات المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه ( أيها الناس : بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبل من بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا أنى لاحق برى وإنكم لاحقون بى .

فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد .

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوأوا في الدار والايمان من قبلكم ألم يشاطروكم الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم في الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنها وليعف عن مسيئتها ألا وإنى سابق لكم وأنتم لاحقون بى ،

وإن موعدنا الخوض إلا فمن أحب أن يرده على غدا فليتكف لسانه إلا فيما ينبغى )

سيدى ابا القاسم يارسول الله .

وأقمت بعدك للعباد شريعة      لا سوقة فيها ولا أمراء  
الله فوق الخلق فيها وحده      والناس تحت لوائها أكفاء  
والدين يسر والخلافة بيعة      والأمر شورى والحقوق قضاء

لقد جئتنا يأيتها النور ، تحمل النور من مصدر النور ، لنقرأ فيك كتاب العجائب المنشور ، فانت فينا يارسول الله ولن تزال على وجه الزمان ، آية الآيات مادامت الأرض والسموات ، ومستظل فينا تعاليمك السماوية المصونة المرغية ، التى نغديها بالأرواح والآباء والأمهات .

لقد حق فيك قول الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ (١)  
وكنت جديرا ، أن يجعل الله منك الأسوة الحسنة ، عندما خاطب الأمة فقال : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ (٢) .  
لقد بنيت بقوة الايمان نفوسا ، وأقمت على نور اليقين قلوبا ، عرفت الطريق إلى الله .

### مع العمرين

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم .. إن التشبه بالرجال فلاح  
وهذه كلمة عن رجلين أحدهما صحابى ، والآخر تابعى ، وكلاهما من النماذج التى يحتذى بها ،  
فهما قد حكما المسلمين حكما قام على العدل والحق والزهد والنظافة ، فمن سار على هديهما هدى إلى  
صراط مستقيم ، وكان ممن يقول الله فيهم :

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ (٣)

إن الرجلين هما عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز  
ومما يسرني ويسعد قلبي ، أن أذكر هنا وصية لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه -  
يقدمها هدية خالصة إلى المؤمنين ، الذين يريدون وجه الله وجواره فى الآخرة .  
وقبل أن أكتب هذه الوصية الغالية ، فإننى أذكر نبذة مختصرة عن هذا الخليفة العابد الزاهد ،  
خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه وأرضاه :

- نسبه رضى الله عنه :

بينما كان الفاروق عمر رضى الله عنه ، يجوب شوارع المدينة ليلا - على عادته فى عسسه - ينفض

(١) الشورى آية : ٥٢

(٢) الأحزاب آية : ٢١



الليل عن أهل الريبة ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، إذا بصوت يخترق حجب الليل ، فيرعيه الفاروق سمعه ، ليتبين هذا الحوار العجب .

أم تقول لابنتها : دونك يا ابنتي هذا اللبن ، فامزجيه بالماء ؛

فتجيب الفتاة أمها : أو ما علمت يا أمي بما كان اليوم من عزمة أمير المؤمنين ؟

فتقول الأم : وما كان من عزمته يا بنية ؟

فتجيبها : أنه أمر مناديه ، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء .

فتقول الأم : امزجى يا ابنتي اللبن بالماء ، فإنك بموضع لا يراك فيه عمر ولا منادى عمر !

فتقول البنت : والله يا أمي ما كنت أطيعه في الملا ، وأعصيه في الخلا ، وإن استطعت أن أستخفى

من عمر ، فكيف أستخفى من رب عمر ؟ !!

سمع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ذلك الحديث كله ، وكان معه رجل يدعى « أسلم »

فقال : يا أسلم : اعلم المكان ، واعرف الموضع ، وما إن تنفس الصبح ، حتى ذهب « أسلم » في

الوجه الذي ابتعته إليه « عمر » باحثا متقصيا ، ثم عاد فأخبره أنها فتاة تعيش مع أمها ؛ وكلتاها أيم لا

بعل لها .

فما تردد عمر رضي الله عنه أن اختار هذه الفتاة ، التي أعجب بها وبكلامها وبأمانتها وخلقتها لابنه

(عاصم) ، فولدت لعاصم بنتا هي :

(لبنى بنت عاصم) ، وولدت (لبنى بنت عاصم) : (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الزاهد .

ولا عجب بعدما اختار الله له هذه الغصون الطاهرة ، أن يتزع إلى جده ابن الخطاب رضي الله

عنه .

فقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه (تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس) (١) .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، أشبه الناس بعمر بن الخطاب حزما ، وعزما ،

وعدالة ، وورعا ، ووداعة ، وتواضعا ، وعزوفًا عن الدنيا وما فيها من مفاتن ومناج .

ولقد كان اتفاق كليهما في الاسم من أعاجيب القدر ، فقد شاءت إرادة الله أن يسمى كل منهما

« عمر »

وقد أراد الله أن تأتي الخلافة منقادة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، تجر أذيالها ، وهو عنها

راغب وعنها زاهد ، فكان مثالا يحتذى به في النزاهة والعدل والرحمة والزهد . . رضي الله عنه

وأرضاه .

وبعد أن قدمنا هذا الموجز المختصر عن نشأة الخليفة الزاهد ، نأتى إلى وصيته الغالية فنقول :

خطب المسلمين عقب توليه الخلافة فقال - بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

(أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء ، وليس من تقوى الله عز وجل

خلف ، واعملوا لأخركم ، فإن من عمل لأخوته كفاه الله أمر دينه ، وإن هذه الأمة لم تختلف في

ربها ، ولا فى نبيها ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدى حقا ؛

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس جميعا وقال : ( ياأيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له .. أطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ) . وهكذا تكون الوصايا النافعة :

تبدأ أولا بتقوى الله ، فإن التقوى هى السلاح الأقوى . هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل !! ثم انظر إلى بعد النظر ، وإشراق القلب ، حيث يؤكد عمر حقيقة من الحقائق الواقعية ، إن هذه الأمة ربها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، لا اختلاف على شيء من هذه القضايا الثابتة ، فإذا وقع اختلاف فى صفوفها ، فلن يكون فى شيء من العقائد ، إنما سيكون الاختلاف على الدرهم ، والدينار ، والدنيا .

وقد سبق أن حذر المصطفى - ﷺ - من الدنيا حيث قال : ( إن هذه الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها : فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء )<sup>(١)</sup> .

وفى حديث آخر : ( إن هذا المال خضر وحلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع )<sup>(٢)</sup> . صدقت ياسيدى يارسول الله :

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ	قالوا أصبت ، وصدقوا ماقالا
وإذا الفقير أصاب ، قالوا كلهم	أخطأت يا هذا ، وقلت ضللا
إن الدراهم فى المجالس كلها	تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة	وهى السلاح لمن أراد قتالا .

عبقريته رضى الله عنه :

وقد كان عمر بن عبد العزيز رجلا عبقرىا عظيما ، إذ أنه طبق ماقاله تطبيقا عمليا ، فقد عمد فى اليوم الأول من خلافته إلى كل مظاهر الملك من مواكب مطهمة ، وسرادقات ضخمة ، وفرش فخمة ، فقال لمولاه « مزاحم » :

« يامزاحم : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين » .

ودخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك فقال لها : ( إن أردت صحبى ، فردى مامعك من مال وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم .. فردته جميعه )

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ج ٢ ص ١٣٢٥ برقم ٤٠٠٠

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٦ كتاب الرقاق

وفاطمة هذه : هى بنت أمير المؤمنين ، وأخت أمير المؤمنين ، وزوجة لأمر المؤمنين ، ولكن عمر أراد أن يكون معها ، كما قال بعض الحكماء :

- وقد حدد موقفه من الأغنياء فقال - : ( يأكلون وتاكل ، ويلبسون وتلبس ، وعندهم فضل مال ينظرون إليه ، وهم فى القيامة محاسبون عليه ونحن منه براء ) .

ذكروا أن هشام بن عبد الملك لما تولى الخلافة بعد أمير المؤمنين عمر ، عرض على أخته فاطمة زوجة عمر ، أن يرد عليها ما وضعه عمر فى بيت مال المسلمين ، من حليها وجواهرها وثيابها ، وقال لها : ( قد مات عمر )

فقالت بلسان اليقين . ومنطق الحق المبين : ( والله ما كنت لأرضيه وهو حى ، ثم أغضبه وهو ميت )

وأبت أن يرد عليها شيء من ذلك .

ولقد كان لعمر رضى الله عنه غلام اسمه « درهم » يحتطب له ، فسأله عمر يوما عما يقوله الناس ، فقال ( درهم ) : ( وماذا عسى أن يقولوا ؟ الناس كلهم بخير ، وأنا وأنت بشر ) . فقال له عمر : « وكيف ذلك ؟ »

قال : ( إني عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسا ، فاره المركب ، طيب الطعام ، فلما وليت ، رجوت أن أستريح وأتخلص ، فزاد عملى شدة ، وصرت أنت فى بلاء ) . فقال عمر : ( فأنت حر . اذهب عني ودعني وما أنا فيه ) .

\* فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام \*

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰ جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ إِنَّ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّيِّدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۚ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَّاحُها شَهْرٌ ۖ وَأَسْلَمْنَا لَهُ الْفِطْرَ ۖ وَمِنَ الْجِبِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ۝١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ ۖ وَجَفَّانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ ۖ وَاعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۝١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِن سَائِهِ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبِ ۖ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝١٤﴾

### معانى المفردات

فضلا : أى أمرا عظيما فضلناه به على غيره ، والمراد به النبوة والزبور ، وقيل : ما خصه الله تعالى به على سائر الأنبياء من النعم ، كتسخير الجبال ، والطير ، والآلة الحديد ، وحسن الصوت ، وغير ذلك من النعم .

أوب معه : أى سبى معه ، ورجعى معه التسبيح قال تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالمشى والإشراق ﴾<sup>(١)</sup> .

قال القرطبي : فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغت إليه الطير ، فكأنها فعلت ما فعل .

قال ابن قتية ! وأصل التأويب فى السير ، وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا ، فكأنه أراد : أو أبى النهار كله بالتسبيح معه إلى الليل . وقيل المعنى : سبرى معه حيث شاء ، من التأويب وهو السير . سابغات : أى دروعا واسعات ، فذكر الصفة ، لأنها تدل على الموصوف والسابغات : الدروع الكوامل التى تغطى لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض .

وقدر فى السرد أى فى النسج ، والمراد اجعله على قدر الحاجة ، لاتجعل حلق الدرع صغيرة ، فتفصم الحلقة ، ولا واسعة فلا تقى صاحبها السهم والرمح .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود صفائح فكانت ثقالا ، فأمر بأن يجمع بين الخفة والحصانة ، ويقال لصانع الدروع سراد وزراد بإبدال السين بالزاي . والسرد : إتباع الشيء بالشيء من جنسه .

قال القرطبي : وأصل ذلك فى سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويحعل نظام حلقتها ولواء غير مختلف .

عين القطر : قال الزجاج : القطر الصفر وهو النحاس . أذيب لسليمان وكان قبل سليمان لا يذوب لأحد .

قال المفسرون : أجرى الله لسليمان عين الصفر ، حتى صنع منها ما أراد من غير نار ، كما ألين لداود الحديد بغير نار ، فبقيت تجرى ثلاثة أيام ولياليهن كمجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطى سليمان .

قال القرطبي : (وتخصيص الاسالة بثلاثة أيام لايدرى مأخذه ، ولعله وهم من الناقل ، والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون الماء ، دلالة على نبوته .

يزغ : أى يعدل عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ، يقال : زاغ أى مال وانصرف . محارب : أى قصور عظيمة ، ومساكن حصينة - قال القرطبي : المحراب فى اللغة كل موضع

مرتفع ، وقيل للذى يصلى فيه محراب ، لأنه يجب أن يرفع ويعظم . وروى عن أبى عبيدة أنه قال : المحراب أشرف بيوت الدار ، وقيل : هو ما يرقى إليه بالدرج

كالغرفة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ إذ تسوروا المحراب ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقيل المراد بالمحارب : المساجد ، ونقل عن قتادة أنها المساجد والقصور الشاخصة ، وسمى القصر بالمحراب ، لأنه يحارب من أجله ، وما يرجح هذا رأى ، أن الله تعالى ذكر أنها من عمل الجن ، ولعل عمل القصور الضخمة الشاخصة كان مما يستعصى على الناس فى ذلك الزمن ، لجهلهم بفن

العمارة ؛ فكانت الجن مسخرة لسليمان لتعمل له تلك الأعمال التي يعجز عنها البشر .  
 وتمثيل : وهو في اللغة : الصورة ، ومثل الشيء : صورته حتى كأنه ينظر إليه . قال في اللسان :  
 ومثل الشيء بالشيء سواء وشبهه به ، وجعله مثله وعلى مثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبها  
 بخلق من خلق الله ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء : إذا قدرته على قدره ، ومثال الشيء مايمثله  
 ويحكيه ، ولم يرد في القرآن هذا الوزن (تفعال) إلا في لفظين :  
 (تلقاء ، وتبيان) .

وقال القرطبي : « التمثال : كل ماصور على مثل صورة من حيوان ، أو غير حيوان .  
 وجفان : جمع جفنة ، وهي القصعة الكبيرة  
 قال أبو عبيدة : كان لعبد الله بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب ، وذكر المدائني أنه وقع  
 فيها صبي فغرق .

كالجواب : جمع جابيه ، وهي الحوض الكبير يجبي فيه الماء . أى يجمع .  
 قال المفسرون : كان الجن يصنعون لسليمان القصاع كحياض الابل يجتمع على القصعة  
 الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

راسيات : أى ثوابت ، يقال : رسا الشيء يرسو : إذا ثبت ، والمراد أنها لعظمها لاتنقل ، فهي ثابتة  
 في أماكنها ، ومنه قيل للجبال : رواسى قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها رواسى شامخات ﴾ (١) .

دابة الأرض : هى حشرة تسمى ( الأرضة ) تأكل الخشب وتنخره .

منسأته : المنسأة : العصا ، وهى ( مفعلة ) من نسأت الدابة : إذا سقطها .

قال الزجاج : وإنما سميت منسأة لأنه ينسأها : أى يطرد ويزجر .

خر : سقط على الأرض أى سقط ميتا .

العذاب المهين : المراد به التكاليف والأعمال الشاقة التي كلف سليمان عليه السلام بها الجن .  
 قال المفسرون : كانت الانس تقول : إن الجن يعلمون الغيب ، الذى يكون فى المستقبل ،  
 فوقف سليمان عليه السلام فى محرابه يصل متوكئا على عصاه ، فمات ومكث على ذلك حولا ، والجن  
 تعمل تلك الأعمال الشاقة ، ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان ، فسقط على الأرض  
 فعلموا موته . وعلم الانس أن الجن لاتعلم الغيب ، ولو علموا الغيب لما أقاموا هذه المدة الطويلة فى  
 الأعمال الشاقة .

### المناسبة وإجمال المعنى

يخبر المولى تعالى بما أنعم على عبده ورسوله ( داود ) عليه السلام ، من الفضل المبين ، والجاه  
 العظيم . حيث جمع له بين ( النبوة والملك ) والجنود ذوى العدد والعدد ، وما منحه إياه من الصوت

الرخيم ، الذى كان إذا سبج تسبج معه الجبال الراسيات . وإذا قرأ الزبور تقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات ، تكف عن طيرانها ، ثم تردد معه الزبور مع التسبيح والتمجيد ، معجزة له عليه السلام ، وقد آلاى الله تعالى له الحديد ، حتى كان بين يديه كالعجين ، يصنع منه الدروع السابغة ، التى تقى الانسان شر الحروب ، كما قال تعالى : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ (١) .

وكما أنعم الله على ( داود ) أنعم على ولده ( سليمان ) عليهما الصلاة والسلام ، فسخر له الريح ، وسخر الجن ، وعلمه لغة الطير ، وأسأل له عين النحاس ، فكانت عينا جارية تسيل بقدرة الله ، وكانت الريح تقطع به المسافات الشاسعة الواسعة ، فى ساعات معدودات ، تحمله مع جنده ، فتنتقل به من بلد إلى بلد ، وتسير به مسيرة شهرين فى أقل من نهار واحد ( غدوها شهر ورواحها شهر ) أى تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر آخر ، وكأنها ( طائرة نفائة ) تحمل ذلك الجيش العرزم ، وتنتقل به فى ساعات محدودات ، تقطع به مسيرة شهرين ، كما سخر له الجن يعمل بين يديه بأمره وإرادته ، مايعجز عنه البشر من القصور الشاغرة ، والتماثيل العجيبة ، والقصاع الضخمة ، التى تشبه الأحواض ، والقصور الراسيات ، التى لا تتحرك لكبرها وضخامتها ، وأمره أن يشكر الله على هذه النعم .

ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه نحو سنة ، وهو ميت ، والجن لا تعلم ذلك ، حتى أكلت الأرضة العصا فكسرت ، وسقط على الأرض ، فعلموا حينئذ موته ، ولو كانوا يعلمون الغيب ، مامكنوا هذه المدة الطويلة مسخرين فى الأعمال الشاقة ، التى كلفهم بها سليمان عليه السلام .

ومناسبة قصة ( داود ) وولده ( سليمان ) عليهما السلام لما سبق من الآيات الكريمة هى : أن الكفار لما أنكروا البعث والنشور لاستحالته فى نظرهم ، أخبرهم الله عز وجل بوقوع ما هو مستحيل فى العادة ، مما لا يمكنهم إنكاره ، من تأويب الجبال والطيور وإلانة الحديد ، حتى كان بين يديه كالشمع ، أو كالعجين ، مع أنه جرم صلب ، وكذلك تسخير الريح لسليمان تحمله مع جنده ، وإسالة النحاس له حتى كان يجرى بقدرة الله كمجرى الماء ، وتسخير الجن تعمل له ماشاء ، وكل هذا أثر من آثار قدرة الله عز وجل ، فلا استحالة إذن ، لأن الله على كل شىء قدير ، وهذه هى وجه المناسبة بين هذه الآيات الكريمة ، والآيات السابقة .

### التفسير

لطائف التفسير :

البطيفة الأولى : خص الله تعالى نبيه ( داود ) عليه السلام ببعض الخصوصيات فسخر له الجبال

والطير تسبح معه ، وألان له الحديد ، وجمع له بين ( النبوة والملك ) كما جمع ذلك لولده ( سليمان ) عليه السلام ، وذلك من الفضل الذي أعطيه آل داود .

قال ابن عباس : كانت الطير تسبح مع داود إذا سبح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته ، وبكت لبكائه .

وقال وهب بن منبه : كان يقول للجبال : سبحي ، وللطير ، أجيبي ، ثم يأخذ في تلاوة الزبور بصوته الحسن ، فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ، ولا يسمعون شيئا أطيب من ذلك .  
اللطيفة الثانية : التنكير في قوله تعالى : ﴿ فضلا ﴾ للتفخيم أى فضلا عظيما خصصناه به من بين سائر الأنبياء ، وقوله : ﴿ منا ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الفضل هائل ، لأنه صادر من الله تعالى مباشرة ، تكريما لنبيه داود ، كما قال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾ (١) .

قال أبو السعود : وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ، فإن ماحقه التقديم إذا أخر ، تبقى النفس مترتبة له ، فإذا ورد يتمكن عندها فضل تمكن .  
اللطيفة الثالثة : ذكر سليمان عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، ولم يجيء ذكره لتوفيه قصة بتمامها ، وإنما هو لتعداد آلاء الله على سليمان ، فمنها ذكاؤه وبصره النافذ في الحكم والقضاء ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في المحرث ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ (٢) ومنها تعليمه منطق الطير ﴿ وورث سليمان داود وقال يأياها الناس علمنا منطق الطير ﴾ (٣) ومنها تسخير الريح له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ ومنها إسالة عين القطر وهو النحاس المذاب ، وفي القرآن إشارة إلى عملية صهر المعادن الصلبة ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ ومنها تسخير الجن يعملون له ما يعجز عنه البشر ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ (٤) وقوله ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ وقد أعطاه الله الجاه الكبير ، والسلطان الواسع ، والملك العظيم الذى لم يعطه أحد بعده ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ (٥) .

وكل هذا من الفضل الذى خص الله تبارك وتعالى به آل داود عله السلام

اللطيفة الرابعة : قال العلامة أبو السعود رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ « فى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المخاطبين المطيعين لأمره تعالى ، المذعنين لحكمه . المشعر بأنه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق ، إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته ، من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى ، وكمال كبرياء سلطانه مالا يخفى على أولى الألباب » .

(١) الكهف آية : ٦٥

(٢) الأنبياء آية : ٧٩

(٣) النمل آية : ١٦

(٤) ص آية : ٣٧

(٥) ص آية : ٣٥

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أى مسيرة شهر ، فهو على حذف مضاف ، والتقدير غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير ، لأن الغدو والرواح ليسا بالشهر ، وإنما يكونان فيه ، فتنبه له فإنه دقيق .  
قال قتادة : ( كانت الريح تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين )

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ الآية فإن قيل : إن الاجتماع بالجن فيه مفسدة للانسان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾<sup>(١)</sup> فكيف سخرت الشياطين لسليمان عليه السلام ؟  
فالجواب : أن ذلك الاجتماع والتسخير كان بأمر الله عز وجل وتسخيره ، بدليل قوله : ﴿ بإذن ربه ﴾ فلم يكن فيه مفسدة ، وإنما كان فيه مصلحة لسليمان عليه السلام ، ولفظ الرب ينبيء عن التربية والحفظ والرعاية ، فسليمان عليه السلام كان في حفظ الله ورعايته ، فلذلك لم يصله ضرر من جهتهم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ في الآية الكريمة إشارة دقيقة ، إلى أن الجن الذين كانوا مسخرين لسليمان ، لم يكونوا من المؤمنين ، وإنما كانوا من المردة الكافرين ، لأن سليمان لا يعذب المؤمنين ، ولا يذيقهم أنواع العذاب ، لأن كل رسول يكون رحيماً بأتباعه ، ودل على هذا المعنى ايضا قوله تعالى : ﴿ مالبثوا في العذاب المهين ﴾ لأن المؤمن لا يكون في زمان النبي في العذاب المهين .

#### اللطيفة الثامنة

قوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ فيه إشارة إلى أن الشكر الوافر الكامل ، بالقلب واللسان والجوارح لا يمكن أن يتحقق ، لأن التوفيق لشكر الله تعالى نعمة من الله ، تستدعى شكراً آخر لا إلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله ، فلا قدرة لأحد عليه و ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾<sup>(٢)</sup> ومع ذلك فإن الشكر بقدر الطاقة قليل فى الناس ، والكفران لنعم الله أكثر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

### الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل كانت التماثيل مباحة فى شريعة سليمان عليه السلام ؟ يدل ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب ﴾ على حل اتخاذ التماثيل ، وعلى أنها كانت مباحة فى شريعة سليمان عليه السلام ، فالقرآن الكريم صريح فى امتنان الله تعالى على ( سليمان ) بأن سخر له الجن تعمل له ما يشاء من ( محاريب ، وتماثيل ، وجفان

(١) المؤمنون الايتان : ٩٧ ، ٩٨

(٢) البقرة آية : ٢٨٦



كالجواب ، وقدور راسيات ) وتخصيص هذه الأشياء بالذكر في معرض الامتنان ، دليل على جوازها ، وإذن من الله تعالى باتخاذها ، وللعلماء في هذه الآية الكريمة أقوال نجم لها فيما يلي :

١ - إن التماثيل التي أشار إليها القرآن كانت مباحة في شريعة سليمان ، وقد نسخت في الشريعة الاسلامية ، ومن المعلوم أن شريعة ما قبلنا إنما تكون شريعة لنا إذا لم يرد ناسخ ، وقد وجد هذا الناسخ ، فيكون اتخاذ التماثيل محرما في شريعتنا قطعا .

ب - إن التماثيل التي كانت في عهد نبي الله سليمان عليه السلام ، لم تكن تماثيل لذى روح من إنسان أو طير أو حيوان ، وإنما كانت تماثيل لما لا روح فيه له ، كالأشجار والبحار والمناظر الطبيعية ، فتكون شريعته عليه السلام موافقة لشريعتنا ، كما نبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .  
الحكم الثاني :

ما هو حكم التماثيل والصور في الشريعة الاسلامية ؟

نعم القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليها ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ ﴾ (١) وندد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة ﴿ أتعبدون ما تضحون والله خلقكم وما تعملون ﴾ (٢)

وفي القرآن الكريم من قصص إبراهيم عليه السلام في تحطيم الأصنام ، ما هو معروف ، وقد ورد أن رسولنا الأعظم ﷺ ، حطم الأصنام ، التي كانت في جوف الكعبة ، والتي كانت على الصفا والمروة .

والدين الاسلامي دين التوحيد ، وعدو الشرك ، وليس في الاسلام ذنب أعظم من الشرك ، ولذلك فقد كانت حملته الشديدة على الوثنية وعبادة الأصنام ، وحرمت الشريعة الاسلامية ( التماثيل ) لأنها تؤدي إلى ذلك المنكر الفاحش .

والسنة المطهرة جاءت بالنهي عن التصوير والمصورين ، والنهي عن اتخاذ الصور والتنفير منها ، ولذلك فإن من المقطوع به أن الاسلام حرم التماثيل والتصاوير تحريما قاطعا جازما .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم . حتى كادت تبلغ حد التواتر . وسنعرض إلى ذكر بعض هذه النصوص فنقول ومن الله نستمد العون .

### الأدلة القاطعة على تحريم التصوير

النص الأول : روى البخاري ومسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : ( أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله ) (٣)

(١) الأنبياء آية : ٥٢

(٢) الصافات الآيةان : ٩٥ ، ٩٦

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب ومسلم في كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٢١٠٧/٩٢

النص الثاني : روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال ( إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتكم )<sup>(١)</sup> .

النص الثالث : روى البخارى ومسلم وأحمد عن أبي زرعه قال : دخلت مع أبي هريرة دار مروان ابن الحكم . فرأى فيها تصاوير وهى تبنى فقال : ( سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله عز وجل : ( ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو فليخلقوا شعيرة )<sup>(٢)</sup> .

النص الرابع : روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له : إني أصور هذه الصور فأفتن فيها ، فقال له أدن منى فدنا ، ثم قال : أدن منى فدنا ، حتى وضع يده على رأسه وقال : أنبتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول :

( كل مصور في النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه في جهنم )<sup>(٣)</sup> .

قال ابن عباس : ( فإن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ومالا روح فيه )

وفي رواية أخرى منه : سمعته يقول : ( من صور صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا )<sup>(٤)</sup> ثم قال له ابن عباس : إن ابنتك إلا أن تصنع ، فعليك بهذه الأشجار ، كل شيء ليس فيه روح )

النص الخامس : روى الشيخان وأصحاب السنن عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت ثمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها النبي ﷺ قام على الباب فلم يدخل ، قالت : فعرفت في وجهه الكراهية ، فقلت يارسول الله ، أثوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت ؟ فقال : ما بال هذه الثمرقة ؟ قلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال : إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، فيقال لهم : أحيوا ما خلقتكم ، وقال : إن البيت الذى فيه الصور لا تدخله الملائكة )<sup>(٥)</sup> .

النص السادس : روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدى قال :

قال لى على رضى الله عنه : ( ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته )<sup>(٦)</sup> .

النص السابع : ( روى الستة عن عائشة رضى الله عنها قالت :

خرج النبي ﷺ في غزاة فأخذت غطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة في وجهه ،

( ١ ) أخرجه البخارى في كتاب اللباس والزينة باب عذاب المصورين يوم القيامة ج ٧ ص ٢١٥ طبع الشعب وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦

( ٢ ) أخرجه البخارى في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ٢١١١ / ١٠١

( ٣ ) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧٠ برقم ٢١١٠ / ٩٩

( ٤ ) أخرجه البخارى في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب / مسلم في اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ٢١١٠ / ١٠٠

( ٥ ) أخرجه البخارى في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب / ومسلم في اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦

( ٦ ) أخرجه أحمد ج ١ ص ٨٧ / ومسلم في كتاب الجنائز ج ٢ ص ٦٦٦ برقم ٩٦٩ / ٩٣

فجذبه حتى هتكه وقال : ( ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين !!  
 قالت عائشة : فقطعت منه وسادتين وحشوتها ليفا ، فلم يعب ذلك على )<sup>(١)</sup> .  
 النص الثامن : روى الشيخان والنسائي عن عائشة رضى الله عنها قالت :  
 لما اشتكى النبي ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها ( مارية ) وكانت أم سلمة ، وأم حبيبة أتتا  
 أرض الحبشة ، فذكرتا من حسنهما وتصاوير فيها فرفع ﷺ رأسه فقال : ( أولئك إذا مات فيهم الرجل  
 الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله )<sup>(٢)</sup>  
 أقول : هذه النصوص وأمثالها كثير ، تدل دلالة قاطعة على حرمة التصوير . وكل من درس  
 الاسلام علم علم اليقين أن النبي ﷺ حرم التصوير ، واقتناء الصور وبيعها .  
 وكان يحطم مايجده منها ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، واتفق الأئمة الأربعة على  
 تحريم الصور ، لم يخالف في ذلك أحد .  
 ولبعض العلماء استثناء شيء منها . سنذكره فيما بعد . كما نذكر علة التحريم ، ونعرج بعد ذلك  
 على حكم التصوير الشمسي ( الفوتوغرافي ) وننقل آراء العلماء فيه على ضوء النصوص الكريمة .

### « العلة في تحريم التصوير »

يظهر لنا من النصوص النبوية السابقة ، أن العلة في تحريم التماثيل والصور ، هي ( المضاهاة  
 والمشابهة لخلق الله تعالى يدل على ذلك :

أ - حديث : ( أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله )<sup>(٣)</sup>  
 ب - وحديث : ( إن أصحاب هذه الصور يعذبون : - يقال لهم : أحيوا ماخلقتهم )<sup>(٤)</sup> .  
 ج - وحديث ( ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . . فليخلقوا حبه ، أو فليخلقوا شعيرة )  
 فالعلة هي إذن : التشبه بخلق الله ، والمضاهاة لصنعه جل وعلا كما أن الحكمة أيضا في تحريم  
 التصوير هي : البعد عن مظاهر الوثنية ، وحماية العقيدة من الشرك ، وعبادة الأصنام ، فما دخلت  
 الوثنية إلى الأمم الغابرة إلا عن طريق ( الصور والتماثيل ) كما دل عليه حديث أم سلمة وأم حبيبة  
 السابق ، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام :  
 ( أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك  
 التصاوير ، أولئك شرار خلق الله يوم القيامة ) .

وقد روى أن الأصنام التي عبدها قوم نوح ( ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا ) التي ذكرت في  
 القرآن الكريم في سورة نوح - كانت أسماء لأناس صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم  
 صورا ، تذكيرا بهم وبأعمالهم ، ثم انتهى الحال آخر الأمر إلى عبادتهم .

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧ / ٢١٠٧ / أحمد ج ٦ ص ٢٤٧

(٢) أخرجه البخارى في كتاب الصلاة باب ٥٤ ج ١ ص ١١٨

(٣) سبق تخريجه ص ٦٧

(٤) سبق تخريجه ص ٦٧

ذكر الثعلبي عن ابن عباس : في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ، وَلَا تَذَرُنَّ وَدًا وَلَا سِوَاعَا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾<sup>(١)</sup>  
 أنه قال : هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن أنصبوا في مجالسهم ، التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عادت من دون الله .  
 قال ابو بكر ابن العربي : ( والذي أوجب النهي في شريعتنا - والله أعلم - ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام ، فكانوا يصورون ويعبدون ، فقطع الله الذريعة وحى الباب )  
 قال ابن العربي : ( وقد شاهدت بغير الاسكندرية . إذا مات ميت صوروه من خشب في أحسن صورة ، وأجلسوه في موضعه من بيته ، وكسوه بزيه ان كان رجلا ، وحليتها ان كانت امرأة واغلقوا عليه الباب ، فإذا أصاب واحدا منهم كرب أو تجدد له مكروه ، فتح الباب عليه ، وجلس عنده يبكي ويناجيه ، حتى يكسر صورة حزنه بأهراق دموعه ، ثم يغلق الباب عليه وينصرف ، وإن تمادى بهم الزمان تعبدوها من جملة الأصنام ) ( أحكام القرآن لابن العربي ج ٣ )

### «أنواع الصور»

قسم العلماء الصور إلى قسمين :

١ - الصور التي لها ظل وهي المصنوعة من جبس ، أو نحاس ، أو حجر أو غير ذلك وهذه تسمى ( التماثيل ) .

ب - الصور التي ليس لها ظل ، وهي المرسومة على الورق ، أو المنقوشة على الجدار ، أو المصورة على البساط والوسادة ونحوها ، وتسمى ( الصور ) .  
 فالتمثال : ما كان له ظل ، والصورة ، ما لم يكن لها ظل ، فكل تمثال صورة ، وليس كل صورة تمثالا .

قال في لسان العرب : « والتمثال : الصورة ، وأجمع التماثيل ، وظل كل شيء تمثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع شبهها بخلق الله من خلق الله . وأصله : من مثلت الشيء بالشيء إذا قدرته على قدره ، ويكون تمثيل الشيء بالشيء تشبيها به ، واسم ذلك الممثل تمثال ) . .

وقال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ وَتَمَائِيلٌ ﴾ جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ، ونحاس ، ورخام ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور في المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا . .

فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟

قلنا : كان ذلك جائزا في شرعه . ونسخ ذلك بشرعنا .

## ما يحرم من الصور والتماثيل

يحرم من الصور والتماثيل ما يأتي :

أولا : التماثيل المجسمة ، إذا كانت لذي روح من إنسان ، أو حيوان ، تحرم بالاجماع للحديث الشريف ، ( إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ، ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب )<sup>(١)</sup> .

ثانيا : الصورة المصورة باليد لذي روح حرام بالاتفاق لقوله ﷺ :

( إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ما خلقتكم )<sup>(٢)</sup> ولحديث : ( من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ )<sup>(٣)</sup> . « رواه أصحاب السنن »  
ثالثا : الصورة إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لا ينقصها إلا نفخ الروح ، حرام كذلك بالاتفاق لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق : ( أمر أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ) .

ولحديث عائشة : ( دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستورة بقرام فيه صورة ، فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله . قالت عائشة : فقطعته فجعلت منه وسادتين : فكان النبي ﷺ يرتفق بهما )<sup>(٤)</sup>

\* معنى : ( قرام ) ستر رقيق .

فهتكه عليه السلام للستر يدل على التحريم ، وتقطع عائشة له وجعله وسادتين ، بحيث انفصلت أجزاء الصورة ، ولم تعد صورة كاملة ، تدل على الجواز ، فمن هنا استنبط العلماء ، أن الصورة ، إذا لم تكن كاملة الأجزاء فيها .

رابعا : الصورة إذا كانت بارزة تشعر بالتعظيم ، ومعلقة بحيث يراها الداخل حرام أيضا بلا خلاف ، لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : ( كان له ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : حولي عنى هذا ، فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا )<sup>(٥)</sup> . رواه مسلم  
ولحديث أبي طلحة عن عائشة قالت : ( خرج النبي ﷺ في غزاة فأخذت غطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة في وجهه ، فجذبه حتى هتكه وقال : إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين ، قالت : فقطعت منه وسادتين وحشوتها ليفا ، فلم يعب ذلك على )<sup>(٦)</sup> . ( رواه الستة ) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٥ برقم ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ / ٢١٠٦ البخاري ج ٧ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ط الشعب ، ترغيب ج ٤ ص ٧٤ رقم ١٤

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧

(٣) أخرجه البخاري ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب ومسلم ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠ / ٢١١٠

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم باب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٩٢ / ٢١٠٦

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٨ / ٢١٠٧ ط الشعب

(٦) أخرجه مسلم في اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧ / ٢١٠٧ ط الشعب

## « ما يباح من الصور والتماثيل »

ويباح من الصور والتماثيل ما يأتي :

أ - كل صورة أو تمثال ماليس بذى روح ، كتصوير الجمادات ، والأنهار والأشجار ، والمناظر الطبيعية التي ليست بذات روح ، فلا حرمة في تصويرها ، لحديث ابن عباس السابق حين سأل الرجل إلى أصور هذه الصور فأفتني فيها ؟ فأخبره بحديث رسول الله ﷺ ، ثم قال له ابن عباس : ( إن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ، وما لا روح له ) .

ب - كل صورة ليست متصلة الهيئة ، كصورة اليد وحدها مثلا ، أو العين أو القدم ، فإنها لا تحرم ، لأنها ليست كاملة الخلق ، لحديث عائشة :  
( فقطعتها فجعلت منها وسادتين فلم يعب ﷺ ذلك على ) .

ج - ويستثنى من التحريم ( لعب البنات ) لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت سبع سنين وزفت إليه وهي بنت تسع ولعبها معها ، ومات عنها وهي بنت ثمان عشرة سنة ) . رواه مسلم .

وروى عنها أنها قالت : ( كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ ، وكان لي صواحب يلعبن معي ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معي )  
\* معنى ( ينقمعن ) أى يتغيبن من البيت حياء منه ﷺ .  
- معنى : ( يسربهن ) أى يرسلهن ويبعثهن .

قال العلماء : وإنما أبيحت لعب البنات للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات ، حتى يتدربن على تربية أولادهن ، ثم إنه لابقاء لذلك ، ومثله ما يصنع من الخلوة أو العجين لابقاء له ، فرخص في ذلك والله أعلم .

## \* أقوال العلماء في التصوير

قال القاضي ابن العربي : مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء : ( إلا ما كان رقما في ثوب ) فخص من جملة الصور ،  
ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة في الثوب المصدر : ( أخبره عنى فإني كلما رأيته ذكرت الدنيا )<sup>(١)</sup> .

ثم بهتكة الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها في النمرقة المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فمنع منه وتوعد عليه ، ثم نسخه المنع منه ، فهكذا استقر الأمر فيه .

وقال أبو حيان : ( والتصوير حرام في شريعتنا ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، ول بعض العلماء استثناء في شيء منها ، وفي حديث ( سهل بن حنيف ) : لعن الله المصورين <sup>(١)</sup> ، ولم يستثن عليه السلام ، وحكى أن قوماً أجازوه ، قال ابن عطية : وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزوه . وقال الألوسي : ( الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملاً لم تكن في شريعة سليمان عليه السلام ، وإنما هي في شرعنا ، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل ، أو لا تكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد ، أو جدار مثلاً ، وقد ورد في شرعنا من تهديد الوعيد على المصورين ماورد ، فلا يلتفت إلى غيره ، ولا يصح الاحتجاج بالآية )

وقال القرطبي : ( لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن ، وقال : ( إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم ) <sup>(٢)</sup> .

وفي الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

( يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عيان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله لها آخر ، وبالمصورين ) <sup>(٣)</sup> . وفي البخاري : ( أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون ) <sup>(٤)</sup> يدل على المنع من تصوير أي شيء كان .

وقال الامام النووي : إن جواز اتخاذ الصور ، إنما هو إذا كانت لا ظل لها ، وهي مع ذلك مما يوطأ ويداس ، أو يمتهن بالاستعمال كالوسائد .

وقال العلامة ابن حجر في شرحه للبخاري : ( حاصل ما في اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام حرم بالاجماع ) وإن كانت رقماً في ثوب فأربعة أقوال : الأول : يجوز مطلقاً عملاً بحديث إلا رقماً في ثوب . الثاني : المنع مطلقاً عملاً بالعموم .

الثالث : إن كانت الصورة باقية بالهيئة ، قائمة الشكل حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس ، أو تفرقت الأجزاء جاز ، قال : وهذا هو الأصح .

الرابع : إن كانت ما يمتهن جازاً وإلا لم يجز ، واستثنى من ذلك لعب البنات .

### « حكم التصوير الفوتوغرافي »

يرى بعض المتأخرين من الفقهاء ، أن التصوير الشمسي ( الفوتوغرافي ) لا يدخل في دائرة

(١) أخرجه البخاري في باب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب

(٢) أخرجه مسلم في كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٢١٠٧ / ٩٦

(٣) أخرجه الترمذي ج ٤ ص ١٠٣ برقم ٢٧٠٠

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٧٠ كتاب اللباس برقم ٢١٠٩ / ٩٨

التحريم الذي يشمل التصوير باليد المحرم ، وأنه لا تتناوله النصوص النبوية الكريمة ، التي وردت في تحريم التصوير ، إذ ليس فيه (مضاهاة) أو مشابهة لخلق الله ، وأن حكمه حكم الرقم في الثوب المستثنى بالنص .

يقول فضيلة الشيخ السائيس مانصه : ( ولعلك تريد أن تعرف حكم ما يسمى بالتصوير الشمسي ، فتقول : يمكنك أن تقول إن حكمها حكم الرقم في الثوب ، وقد علمت استثناءه نصا ، ولك أن تقول : إن هذا ليس تصويرا . بل حبسا للصورة ، وما مثله إلا كمثل الصورة في المرآة . لا يمكنك أن تقول إن مافي المرآة صورة ، وإن أحدا صورها .

والذي تصنعه آلة التصوير هو صورة لما في المرآة ، غاية الأمر أن المرآة ( الفوتوغرافية ) تثبت الظل الذي يقع عليها ، والمرآة ليست كذلك ، ثم توضع الصورة أو الخيال الثابت ( العفريته ) في حمض خاص فيخرج منها عدة صور .

وليس هذا بالحقيقة تصويرا ، فإنه إظهار واستدامة لصور موجودة . وحبس لها عن الزوال ، فإنهم يقولون : إن صور جميع الأشياء موجودة غير أنها قابلة للانتقال بفعل الشمس والضوء ، مالم يمنع من انتقالها مانع ،

والحمض هو ذلك المانع ، ومادام في الشريعة فسحة بإباحة هذه الصورة كاستثناء الرقم في الثوب ، فلا معنى لتحريمها ، خصوصا وقد ظهر أن الناس قد يكونون في أشد الحاجة إليها .

أقول : إن التصوير الشمسي ( الفوتوغرافي ) لا يخرج عن كونه نوعا من أنواع التصوير ، فما يخرج بالآلة يسمى ( صورة ) . والشخص الذي يحترف هذه الحرفة ، يسمى في اللغة والعرف ( مصورا ) فهو وإن كان لا يشمل النص الصريح ، لأنه ليس تصويرا باليد ، وليس فيه مضاهاة لخلق الله إلا أنه لا يخرج عن كونه ضربا من ضروب التصوير ، فينبغي أن يقتصر في الإباحة على ( حد الضرورة ) ، وما يتحقق به من المصلحة ، قد يكون إلى جانبها مفسدة عظيمة ، كما هو حال معظم المجلات اليوم ، التي تنفث سمومها في شبابنا ، وقد تخصصت للفتنة والاغراء ، حيث تصور فيها المرأة بشكل يندى له الجبين ، بأوضاع وأشكال تفسد الثين والأخلاق .

فالصور العارية ، والمناظر المخزية ، والأشكال المثيرة للفتنة ، التي تظهر بها المجلات الخليعة ، وتغمل معظم صفحاتها بهذه الأنواع من المجون ، مما لا يشك عاقل في حرمة ، مع أنه ليس تصويرا باليد ولكنه في الضرر والحرمة أشد من التصوير باليد .

ثم إن العلة في التحريم ، ليست هي ( المضاهاة ) والم مشابهة لخلق الله فحسب ، بل هناك نقطة جوهرية ينبغي التنبيه لها وهي أن ( الوثنية ) مادخلت إلى الأمم السابقة إلا عن طريق ( الصور ) حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، صوروه تخليدا لذكراه ، واقتداء به ، ثم جاء من بعدهم فعبدوا تلك الصورة من دون الله ، فما يفعله بعض الناس من تعليق الصور الكبيرة المزخرفة في صدر البيت ، ولو كانت للذكرى ، وليس تصويرا باليد ، مما لا تجيزه الشريعة الغراء ، لأنه قد يجر في المستقبل إلى تعظيمها وعبادتها ، كما فعل أهل الكتاب بأنبيائهم وصلحائهم .



فإطلاق الاباحة في التصوير الفوتوغرافي ، وأنه ليس بتصوير ، وإنما هو حبس للظل ، مما لا ينبغي أن يقال ، بل يقتصر فيه على حد الضرورة ، كإثبات الشخصية ، وكل ما فيه مصلحة دنيوية مما يحتاج الناس إليه والله تعالى أعلم .

### الشبه الواردة على تحريم التصوير

يذهب بعض أدياء العلم ، ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، إلى إثارة بعض الشبه على تحريم التصوير ، بقصد التزلف إلى الحضارة الغربية ، والاندماج فيها خيل لهم أنه فن راق ، وذوق سليم ، أو بقصد التقرب إلى المترفين ومسائرتهم على أهوائهم ، لينالوا بعض المناصب .

**الشبهة الأولى :**

يزعمون أن ماورد من نصوص في تحريم التصوير ، إنما هو إجراء مؤقت اقتضته ظروف الدعوة الإسلامية ، لمجابهة الشرك الوثنية ، وأن الغاية هي قطع الطريق على الوثنية ، فلما زال الخوف من عبادة الأوثان والأصنام زالت الحاجة إلى تحريم التصوير .

وللرد على هذه الشبهة سنكتفى بنقل كلام فضيلة الشيخ أحمد شاکر رحمه الله في دحض هذه الشبهة ، حيث جاء في تعليقه على الحديث آ ٧١٦٦ / من المسند مانصه :

( وكان من حجة أولئك ، أن تأولوا النصوص بعله لم يذكرها الشارع ، ولم يجعلها مناط التحريم ، هي - فيما بلغنا - أن التحريم ، إنما كان أول الأمر لقرب عهد الفاس بالوثنية ، أما الآن وقد مضى على ذلك دهر طويل ، فقد ذهبت علة التحريم ، ولا يخشى على الناس أن يعودوا لعبادة الأوثان ، وقد نسي هؤلاء ما بين أيديهم من مظاهر الوثنية الحقبة ، بالتقريب إلى القبور وأصحابها ، واللجوء إليها عند الكروب والشدائد ، وأن الوثنية عادت إلى التغلغل في القلوب دون أن يشعر بها أصحابها .

وكان من أثر هذه الفتاوى الجاهلة ، أن ملئت بلادنا بمظاهر الوثنية الكاملة ، فنصبت التماثيل ، وملئت بها البلاد ، تكريرا لذكرى من نسبت إليه وتعظيما ، ثم يقولون لنا : إنها لم يقصد بها التعظيم . ثم صنعت الدولة - وهي تزعم أنها إسلامية في أمة مسلمة - معهدا للفنون الجميلة . . معهدا للفجور الكامل الواضح . يدخله الشبان الماجنون ، من الذكور والاناث ، يقفن عرايا ، ويضطجعن عرايا ، وعلى كل وضع من الأوضاع الفاجرة ، لا يسترون شيئا ، ثم يقولون لنا : هذا فن .

**الشبهة الثانية :** يقولون : إن الأحاديث الدالة على التحريم ، هي أحاديث آحاد ولا تفيد القطع ، وأنه لا يمكن أن ننسب إلى الإسلام تحريم ( فن ) من الفنون مالم يكن هناك نص قطعي بالحرمة .

وللرد على هذه الشبهة نقول : ( هذا جهل فاضح بأحكام الشريعة الغراء ، فإن كل ما ثبت عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو عمل ، يجب الأخذ به سواء كان النقل بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد ، هذا متفق عليه بين العلماء ، ومن المعلوم بالضرورة أن أكثر الأحكام الفقهية الشرعية ، إنما ثبتت بخبر الآحاد ، فلو كانت أخبار الآحاد لا تفيد القطع - كما زعموا - لضاعت أكثر أحكام الشريعة

وهذا كلام لا يصدر عن فقيه عالم ، إنما يصدر عن جاهل بأصول الشريعة الغراء ، وطرق استنباط الأحكام .

ومن المفارقات العجيبة أن الذين يحتجون بأمثال هذه الحجج الواهية ، يأخذون بأحاديث - لا ثبات رأيهم - لاتصلح للاحتجاج لنكارتها ، وضعف سندها - وجهل روايتها ، ولكنها لما كانت موافقة لأهوائهم يتمسكون بها ، ويجادلون بشأنها ، شأن أهل الأهواء ، وقد ردّ الأصوليون وفي مقدمتهم الامام الشافعي رحمه الله على هذه الشبهة ردا شافيا ، وبينوا أن خبر الآحاد يلزم العمل به إذا ثبت ، ولم يزل العلماء المسلمون يعملون بأخبار الآحاد ويحتجون بها ، لأن في إبطالها إبطالا لأكثر أحكام الشريعة .

ومن جهة ثانية فإن النصوص الواردة في تحريم التصوير بلغت حد التواتر ، وتناقلها المسلمون جيلا عن جيل فلا مجال للمتشككين ان يدخلوا من هذا الباب ، ونزيدك علما بأن الشعوب الاسلامية لم يوجد فيها تصوير اونحت بقدر كبير ، وأن الفنانين المسلمين انصرفوا عن التصوير ، وصنع التماثيل ، إلى استخدام النقش الهندسي ، والتزيين العربي ، والتشكيل النباتي وغيرها ، وكل ذلك بسبب ما يعلمون من تحريم الاسلام للتصوير . فلو لم يكن في اعتقادهم محرما لما تركوه وانصرفوا إلى غيره ، ويكفي هذا الرد على أولئك الزاعمين .

### الشبهة الثالثة : -

يستشهدون على إباحة التصوير بآيات من القرآن الكريم ، لا يصح الاحتجاج بها لأنها ليست من شريعتنا ، وإنما هي من الشرائع السابقة المنسوخة بشريعة الاسلام ، منها الآية الكريمة التي هي موضوع بحثنا وهي قوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور ﴾ .

فإن هذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على حل التصوير ، لأنها إخبار عما كان يعمل الجن لسليمان عليه السلام ، وليس فيها ما يدل على ان التماثيل كانت لذى روح ، ومع ذلك فإنها شريعة سابقة ، وقد نص العلماء على ان ( شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد ناسخ ) وقد ورد الناسخ في الشريعة الاسلامية فلا حجة فيها .

وهذه القاعدة متفق عليها بين علماء المسلمين ، فالسجود بقصد التحية لغير الله تعالى كان جائزا في شريعة يوسف عليه السلام ، وقد حرمه شرعنا فلا يصح الاحتجاج بما ذكره الله من سجود اخوة يوسف له على إباحة السجود لغير الله ، وشريعتنا ناسخة لما قبلها من الشرائع وقد حرمت التماثيل فلا يصح الاحتجاج بهذه الآية الكريمة والله أعلم .

## ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- أولا : الفضل العظيم الذى خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام .
- ثانيا : تسبيح الجبال والطيور مع النبی ( داود ) كان معجزة له عليه السلام .
- ثالثا : الصناعات والحرف لا تحط من قدر الانبياء ، فداود عليه السلام علمه الله صنع الدروع .
- رابعا : سخر الله لسليمان الريح تجرى بأمره ، كما سخر لأبيه الجبال والطيور تكريما له عليه السلام .
- خامسا : الجن كانت تعمل لسليمان عليه السلام ما يعجز عنه البشر من الأعمال بأمر الله تعالى .
- سادسا : صنع التماثيل كان مباحا في شريعة النبي سليمان عليه السلام ثم نسخ في الشريعة الاسلامية .
- سابعا : منصب ( النبوة ) أعلى من منصب ( الملك ) وقد جمع الله لسليمان بين النبوة والملك .
- ثامنا : فضل الله عظيم على عباده وخاصة منهم الأنبياء فعليهم ان يشكروا الله على نعمته .
- تاسعا : الجن لا تعلم الغيب ولو كانت تعلمه لعرفت موت سليمان عليه السلام وما بقيت في الأعمال الشاقة .
- \* خاتمة البحث

## حكمة التشريع

جاءت الشريعة الاسلامية الغراء ، والناس في وثنية غارقة ، قد تدهورت احوالهم ، وانحطت اوضاعهم ، حتى وصلوا إلى درجة عبادة ( الأوثان والأصنام ) وقد كان حول الكعبة المعظمة ثلاثمائة وستون صنما - بعدد أيام السنة - كلها آلهة تعبد من دون الله ، فلما فتح عليه الصلاة والسلام مكة حطمها بنفسه فلم يبق لها أثرا وهو يردد قوله تعالى : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (١) .

وقد دخلت هذه الوثنية إلى العرب ، عن طريق اهل الكتاب ، وبسبب التماثيل والتصاویر ، وانتشرت بينهم انتشار النار في الهشيم ، حتى غدت الجزيرة العربية مهدا للوثنية ، ومركزا لعبادة الأوثان والأصنام ، فلما جاء الاسلام حرم الصور والتماثيل ، وكل ما يدعو إلى ( الوثنية ) من قريب أو بعيد ، وحمل حملة شعواء على المصورين ، فمنع من تصوير كل ذی روح . حماية للعقيدة وصيانة للأمة ،

وتطهيرا للمجتمع من لوثة الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك اقتلع الاسلام الوثنية من جذورها ، وقضى على الشرك في مهده ، وطهر الجزيرة من كل مظاهر الوثنية والاشراك .

وقد يقول قائل : ان الوثنية قد انقضى زمانها بالتقدم الفكرى عند الانسان ، فلم يعد هناك من يعبد الأصنام والأوثان ، فلم إذن تبقى حرمة التصوير ؟

والجواب : ان العقل البشرى معرض للانتكاس في كل حين وزمان ، ولا يستبعد ابدا ان يؤدي نصب التماثيل في الشوارع العامة ، وانتشار الصور في المحلات والبيوت إلى تعظيمها وعبادتها في المستقبل ، كما فعل من سبقنا من الأمم حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح صوره ونصبوا هذه الصور في أماكن بارزة ليتذكروا سيرته وأعماله ، ثم جاء من بعدهم فعظموها ثم جاء من بعدهم فعبدوها من دون الله .

وإذا كنا نجد في هذا العصر بالذات من المتناقضات ما يطير له عقل الانسان فرقا ، حيث طغت الرذائل على الفضائل ، وتبدلت المفاهيم والقيم الاخلاقية ، وأصبحت مظاهر ( الهمجية ) من التكشف والعري ، والخلاعة والمجون ، تعتبر في هذا العصر من مظاهر ( الرقى والتقدمية ) ، فأى انسان لا يخاف على مستقبل البشرية وهو يرى هذه العجائب والغرائب ، تتمثل لعينيه والصور المضحكة المبكية .

ثم إننا لا نزال نرى في هذا العصر الذى يسمونه - عصر النور - من لا يزال يعبد البقر ويتبرك بأروائها ، فكيف نظمئن على العقلية البشرية من التردى نحو الهاوية ؟ إن الذى يعبد البقر لا يستبعد عليه ان يعبد الصور ؟ لذلك فإن التحريم شريعة الله وسيظل هذا التشريع فوق عقول البشر ؛ لانه شرع الله ودينه الخالد .

### قصة سبأ

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدًا طَيِّبَةً رَبُّ غُفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلٌّ مُمَزَّقٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ

صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ  
سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ۚ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٢١﴾

### معاني المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان والمراد به هنا القبيلة .  
والمسكن : موضع السكن وهو مأرب ( كمزول ) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب .

جنتان : اى بستانان

فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم

والعُرم : واحدها عُرمة وهى الحجارة المركومة كخزان اسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبي النيل وكانت له ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع امام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل .

والأكل : الثمر

الخمط : كل شجرة مرة ذات شوك .

الائل : الطرفاء وهو المعروف فى مصر ( بالائل )

والسدر : شجر النبق .

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام .

قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الأكام وهى أصح القرى .

وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ومن سار من بعد الظهر وصل الى أخرى حين الغروب فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية و لا يخاف من عدو ولا سبع .

آمنين : أى من كل ما يكرهون وظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بطروا النعمة .

والأحاديث : واحدها أحذوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق

الصبار : كثير الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى شاق الطاعات .

والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا لانهم اكلهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى

اللذات .

سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة .  
حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين اليه أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب موعظة لقريش وتحذيراً لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

وبعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم في مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار قص علينا ما أعطوه من النعم في مسائرهم ومتاجرهم ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

وبعد أن ذكر جلته قدرته قصص سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان أردف ذلك الاخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم وفي أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾<sup>(١)</sup> .

### التفسير

قال الامام احمد بسنده عن عبد الرحمن بن دعله قال سمعت ابن عباس يقول ان رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم ( بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمدحج وكندة والأزد والاشعريون وأغار وحير وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان )<sup>(٢)</sup> رواه عن عبد الحسن بن مرسي عن ابن لهيعة به وهذا اسناد حسن .

### معلومة تاريخية

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس من جملتهم وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ويعت الله تبارك وتعالى اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيديهم سبأ شذر مذر .

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر

(٢) الحديث رواه الامام أحمد في مسنده - مسند عبد الله بن عباس ح ١ ص ٣١٦

قال علماء النسب - منهم محمد بن اسحق - اسم سبا عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وانما سمي سبا ، لأنه أول من سبا في العرب وكان يقال له الراثي ؛ لانه أول من غنم في الغزو فأعطى قومه فسمى الراثي والعرب تسمى المال ريشا ورياشا وذكروا انه پشر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم . وقال في ذلك شعرا :

سيملك بعدنا ملكا عظيما	نبي لا يرخص في الحرام
ويملك بعده منهم ملوك	يدينون القياد بكل دامي
ويملك بعدهم منا ملوك	يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبي	تقى غبت خير الأنام
يسمى احمد ياليت أنى	أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى	بكل مدجج ولكل رام
مق يظهر فكونوا ناصريه	ومن يلقيه يبلغه سلامي

ومعنى قوله ﷺ ( فتيا من منهم ستة وتشاءم منهم اربعة ) .

أى بعد ما ارسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من اقام ببلادهم ومنهم من نزع عنها إلى غيرها . وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقدام فبنوا بينها سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الاشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والجهن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة : إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ؟ وهو الذى تغترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرتة ونضجه . انه وكان هذا السد بمأرب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون سدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيت ولا شيء من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحده ويعبده .

كما قال تبارك وتعالى ﴿ لقد كان لسبا في مسكنهم آية ﴾

ثم فسرهما بقوله - عز وجل - ﴿ جتان عن يمين وشمال ﴾ أى من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أى غفور لكم ان استمررتم على التوحيد وقوله تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ أى عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وجئتك من سبا بنبا يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ (١) .

قوله تعالى ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ وقد ورد في تفسير العرم أقوال : قيل المراد به المياه وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع .  
وذلك غير واحد منهم ابن عباس وهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله - عز وجل - لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبتة قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبتة فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره الجرذ نقبت أسافله حتى إذا ضعف وهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء في أسفل الوادى وضرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال فيست وتطمط وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النظرة كما قال الله - تبارك وتعالى - ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل حطخ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراساني والحسن وقادة والسدى وهو الأراك وأكلة البرر ( وأثل ) قال العوفي عن ابن عباس هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله أعلم .

وقوله ﴿وشىء من سدر قليل﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : ﴿وشىء من سدر قليل﴾ فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين اليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ولهذا قال تعالى : ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور﴾ أى عاقبناهم بكفرهم وللمفسرين في هذه العبارة أقوال قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور وقال ابن ابى حاتم عن هشام بن صالح التغلبى عن ابن خيرة وكان من أصحاب على رضى الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسر في اللذة قيل : وما التعسر في اللذة قال لا يصادف لذة حلالة إلا جاءه من ينغصه إياها قوله تعالى ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ .

المراد بالقرى التي باركنا فيها إما أن تكون قرى بصنعاء كما قال وهب بن منبه وإما أن تكون قرى الشام كما قال أبو مالك ومجاهد والحسين وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن اسلم وقتادة والضحاك والسدى وابن زيد وغيرهم . ويعنون بذلك أنهم كانوا يسировن من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة وقال العوفي عن ابن عباس القرى التي باركنا فيها بيت المقدس وقال العوفي عنه أيضا هي قرى عربية بين المدينة والشام ( قرى ظاهرة ) أى بينة واضحة يعرفها المسافرون يقبلون في واحدة ويبيتون في أخرى .



وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن هذا العيش الرغيد والحياة الرخية التي وصفها الله تعالى بقوله ﴿ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامَا آمَنِينَ ﴾ فقد كانت لهم جنتان عن يمين وشمال فيها القطوف الدانية والثمار الناضجة والزرورع والأشجار يبيتون ويقبلون بين أنهار جارية وجنات ذات بهجة وحدائق وثمار . قوله تعالى ﴿ وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ أى جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون اليه ﴿ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامَا آمَنِينَ ﴾ أى الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلا ونهارا . والأمن نعمة عظيمة من نعم الله تعالى على عباده لذا امتن الله بها على قريش في قوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ (١) .

وقال جل شأنه مبينا مقدار هذه النعمة في قوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ (٢) وقد امتن الله تعالى بتلك النعمة العظمى على المؤمنين فقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ (٣) وقال في حق اهل الجنة ﴿ ان المتقين في مقام أمين ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ (٥)

وقال تعالى في الحديث القدسي : ﴿ يا ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع ولا من كثير تشيع اذا كنت معافا في بدنك آمنا في سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء ﴾ (٦)

قوله تعالى ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وهذا بظن منهم لنعمة الله كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفولها وعدسها ويصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى ومايشتهون من مأكول ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾ (٧) وقال عز وجل ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ (٨) وقال تعالى في حق هؤلاء ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ أى بكفرهم ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى جعلناهم حديثا للناس وسمرا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش تقول العرب في

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة قريش

(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل

(٣) الآية ٨٢ من سورة الانعام

(٤) الآية ٥١ من سورة الدخان

(٥) الآية ٥٥ من سورة الدخان

(٦) الحديث بمعناه في الجامع الكبير للسيوطي ح ١ ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ وفي أحاديث ضعفاء الرجال من كتب الكامل لابن عدى ح

ص ١٤٥٨

(٧) الآية ٦١ من سورة البقرة

(٨) الآية ٥٨ من سورة القصص .

القوم إذا تفرقوا أيدي سبا وأيادي سبا وتفرقوا شذر مذر وروى ابن أبي حاتم انه كان عكرمة يحدث بحديث أهل سبا قال : ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جتان عن يمين وشمال ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سبيل العرم ﴾ وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشيء من أخبار السباء فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلمهم فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنيهِ وهو أعزهم أخوالا يابني إذا كان غدا وامرتك بأمر فلا تفعله فإذا انتهرتك فانتهرني فإذا لطمتك فالطمني قال يأبئ

لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد قال يابني قد حدث أمر لا بد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك فلما أصبحوا واجتمع الناس قال يابني افعل كذا وكذا فأبى فانتهره أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينها حتى تناوله أبوه فلطمه فوثب على أبيه فلطمه فقال ابني يلطمني ؟ على بالشفرة قالوا ما تصنع بالشفرة قال اذبحه قالوا تريد أن تذبح ابنك : الطمه أو اصنعب ما بدا لك قال فأبى قال فارسلوا إلى أخواله .

فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذ منا ما بذاك فأبى إلا أن يذبحه قالوا فلتموتن قبل أن تذبحه قال فإذا كان الحديث هكذا فأبى لا أرى أن أقيم ببلد يحال بيني وبين ابني فيه اشتروا مني دوري اشتروا مني أرضي فلم يزل حتى باع دوره وأرضه وعقاره فلما صار الثمن في يده وأحضره قال : أي قوم ان العذاب قد أظلمكم وزوال أمركم قد دنا فمن أراد منكم دارا جديدا وحمى شديدا وسفرا بعيدا فليلحق بعمان ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببصرى ومن أراد الراسخات في الوحل : المطاعم في المحل المغيمات في القحل فليلحق ببشر ذات نخل فأطاعه قومه فخرج أهل عمان إلى عمان وخرجت غسان إلى بصرى وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان إلى يثرب ذات النخيل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لا ينبغي به بدلا فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من أصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة وتوجه أهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان إلى بصرى .

وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار في أول السيرة ما كان من أمر عمرو بن عامر الذي كان أول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشهاده بارسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثني به أبو زيد الأنصاري انه رأى جرذا يحفر في سد مأرب الذي كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من

أرضهم فعلم أنه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا اغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا اقيم ببلد لطم وجهي فيها أصغر ولدي وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن أغتتموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو في ولده وولد ولده وقالت الأسد لا تتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالا ففى ذلك يقول عباس بن

مرداس السلمى - رضى عنه - :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا ، بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا في البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا ونزلت ازد السراة ونزلت ازد عمان ثم ارسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفي ذلك انزل الله عز وجل هذه الآيات .  
وقوله تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى إن في هذا الذى حل بهؤلاء من النعمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم .

قال الامام احمد بسنده عن رسول الله ﷺ « عجب من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة ليرفعها الى في امرأته » (١) وفي الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه « عجا للمؤمن لا يقضى الله تعالى له قضاء الا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » (٢)

وقال قتادة ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى اذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر .

قوله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطانه إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنها وغيره هذه الآية كقوله تعالى اخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال ﴿ رأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتكن ذريته الا قليلا ﴾ (٣) وقال ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (٤) ولما ذكر تعالى قصة سبا وما كان من أمرهم في اتباعهم الهوى والشيطان اخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾

وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منها وقال إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ظنا من

(١) الحديث رواه الامام أحمد في مسنده - مسند أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص - ج ١ ص ١٧٣ وعبد بن حميد والبيهقى والفضلاء المقدس ، عن سعد بن أبى وقاص

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب المؤمن امره كله خير - ج ٤ ص ٢٢٩٥

(٣) الآية ٦٢ من سورة الاسراء

(٤) الآية ١٧ من سورة الاعراف

إبليس فأنزل الله عز وجل ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح أعدته وأمنيه واخذه فقال الله تعالى وعزى وجلالى لا أحجب عنه التوبة مالم يغفر بالموت ولا يدعونى إلا أجبته ولا يسألنى إلا أعطيته ولا يستغفرونى إلا غفرت له رواه جين ابى حاتم

ولقد حذر الله تعالى عباده من هذا الشيطان الرجيم فقال ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ (٢) وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ﴾ (٣) وقال ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٤) قوله تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ (٥) قال ابن عباس رضى الله عنهما - أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ماضريهم بعضا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه

قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلمونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب اليم ﴾ (٦) وقال جل شأنه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنها فى النار خالدتين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٧)

وقد امرنا الله تعالى ان نتبع هداه حتى لا نضل ولا نشقى قال سبحانه ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٨) وإذا كان الشيطان لاسلطان له على المؤمنين كما لاسلطان له على أحد إلا بالغواية والغرور والأمانى الكاذبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ (٩) إذا كان ذلك كذلك فإنه فتنة يختبر الله عباده بها ليظهر مدلول علم الله القديم فيمن يؤمن

(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم

(٧) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر

(٨) الآيات ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه

(٩) الآية ١٢٠ من سورة النساء

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٢١ من سورة النور

(٣) الآية ٦ من سورة فاطر

(٤) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ من سورة يس

(٥) الآية ٢١ من سورة سبأ

بالآخرة وفيمن هو منها في شك وريب ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ فقد أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً والشیطان ابتلاء فعلى المؤمن أن يحذره حتى لا يقع في شركه وشبائه ومكائده ومصائده .

وقد عقد الإمام ابن الجوزي باباً في مكاييد الشيطان عنوانه بقوله :

في التحذير من فتن إبليس ومكائده .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله عليه : اعلم أن الأدمي لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ما ينفعه ووضعه فيه الغضب ليدفع به ما يؤذيه وأعطى العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب وخلق الشيطان محرصاً له على الأسراف في اجتلابه واجتنبابه فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذي قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام وقد بذل عمره ونفسه في فساد أحوال بني آدم

وقد أمر الله تعالى بالخذ من فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (٢) وقال تعالى ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً ﴾ (٣) وقال ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون ﴾ (٤)

وقال تعالى : ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾ (٥)

وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ (٦) وقال تعالى ﴿ ولا يفرنكم بالله الغرور ﴾ (٧)

وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ (٨)

وفي القرآن من هذا كثير .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله : وينبغي أن تعلم أن إبليس الذي شغله التلبس أول ما التبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود فأخذ يفاضل بين الأصول فقال : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ (٩) ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال : ﴿ رأيتك هذا الذي كرمت علي ﴾ (١٠) والمعنى أخبرني لم كرمته على عز ذلك الاعتراض أن الذي فعلته ليس بحكمة ثم اتبع ذلك بالكبر فقال ﴿ أنا خير منه ﴾ (١١) ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التي أراد تعظيمها باللعنة

(٧) الآية ٣٣ من سورة لقمان ، ٥ من سورة فاطر

(٨) الآية ٦٠ من سورة يس

(٩) الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص

(١٠) الآية ٦٢ من سورة الأسراء

(١١) الآية ٧٦ من سورة ص

(١) الأيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء

(٤) الآية ٩١ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٥ من سورة القصص

(٦) الآية ٦ من سورة فاطر

والعقاب .

فمضى سول للانسان أمرا فينبغى أن يحذر منه اشد الحذر وليقل له حين امره اياه بالسوء انما تريد بما تأمر به نصحي ببلوغى شهوى وكيف يتضح صواب النصيح للغير لمن لا ينصح نفسه ثم كيف اثق بنصيحة عدو فانصرف فما في لقولك منفذ فلا يبقى الا انه يستعين بالنفس ، لأنه يحث على هواها فليستحضر العقل الى تثبيت الفكر فى عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيزته فيهزم عسكر الهوى والنفس ، عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس إن الله تعالى أمرنى ان اعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا فإنه قال إن كل مال نحلته عبدى فهو له حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم . وأمرتهم الا يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وإن الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . . الحديث (١)

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجرى أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ما صنعت شيئا قال ثم يجرى أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيذنيه منه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت (٢)

وعن جابر بن عبد الله يرفعه قال « إن إبليس قد يش أن يعبد المصلون ولكن فى التحريش بينهم (٣)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى الله التقم قلبه (٤)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن الشيطان طاف بأهل مجلس الذكر ليفتنهم فلم يستطع ان يفرق بينهم فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم ففارقوا » وعن قتادة رضى الله عنه قال : « ان لابليس شيطانا يقال له قبقب يجمه أربعين سنة ، فإذا دخل الغلام فى هذا الطريق قال له دونك إنما كنت أجك لمثل هذا أجلب عليه وأفتنه » .

وعن ثابت البناني رضى الله عنه قال : بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شيء فقال يحيى : يا إبليس ماهذه المعاليق التى أرى عليك قال : هذه الشهوات التى أصيد بهن ابن آدم قال : فهل لى فيها من شيء قال : ربما شبعث فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر قال : فهل غير ذلك قال لا والله قال الله على ان لا أملا بطنى من طعام أبداً قال إبليس : والله على الا أنصح مسلما أبدا .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى باب (إن الله) ص ١٦٢ من رواية الطبرانى فى الكبير ، عن عياض بن حماد

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣١٤

(٣) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣٦٦

(٤) الحديث رواه ابن أبى الدنيا وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أنس بن مالك (الجامع الكبير) وفى حلية الأولياء ص ٦ ص ٣٦٨

وعن الحارث بن قيس رضى الله عنه قال : اذا أتاك الشيطان وانت تصلى فقال انك مرء فزدها طولا وعن النبي ﷺ يقول : « كان راهب في بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها الراهب فأبى أن يقبلها فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده فأتاه الشيطان فسول له إيقاع الفعل بها فأحبها ثم أتاه فقال له الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن أتوك فقل ماتت فقتلها ودفنها ، فأبى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى في قلوبهم انه احبها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها يسألونه عنها فقال : ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى ضربتها وخنقها وأنا الذى ألقى في قلوب أهلها وأنا الذى أوقعك في هذا فأطعنى تنج اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذى قال عز وجل ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ (١)

وقد روى هذا الحديث على صفة أخرى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن عابدا كان في بنى اسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرها ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون اختهم ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها : قال : فأجمع رأيهم على ان يخلفوها عند عابد بنى اسرائيل وكان ثقة في أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن اختهم قال فلم يزلوا به حتى أطاعهم فقال أنزلوها في بيت حذاء صومعنى قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها فمكثت في جوار ذلك العابد زمنا ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلط بابه ويصعد الى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه في الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان اعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها قال فلبث على هذه الحالة زمنا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم .

لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها فلبث على ذلك زمنا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة قال : فلم يزل به حتى حدثها زمنا يطلع إليها من فوق صومعته قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها قال : فلبثا زمنا يتحدثان ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبا من باب بيتها فحدثتها كان أنس لها فلم يزل به حتى فعل قال فلبثا زمنا ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وفيما له عند الله - سبحانه وتعالى - من حسن

(١) الحديث في تفسير ابن كثير - ج ٨ ص ١٠١ - في تفسير سورة الحشر عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... ﴾ وفي تفسير الطبري - ج ٢٨ ص ٣٣

الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا ذلك حيناً ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها .

فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبها فولدت له غلاماً فجاء إبليس فقال : أرايت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفصح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل فقال له أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليها وصعد إلى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو فجاءوا فسألوه عنها فنعاهوا لهم وترخم عليها وبكاها وقال : كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ثم انصرفوا إلى أهاليهم فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر فيدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف أراهم موضع قبرها فكذب الشيطان وقال لم يصدقكم امر أختكم وانه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه واذبحها معه فزعا منكم وألقاها في حفرة احتفرها خلف باب البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذي كانت فيه عن يمين من دخله فانكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً .

وأق الأوسط في منامه فقال له مثل ذلك ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى فقال كبيرهم هذا حلم ليس بشيء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم والله لا أمضي حتى آتي إلى هذا المكان فانظرنا فيه

قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذي كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذي وصف لهم في منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين في الحفرة كما قيل فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بها فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له قد علمت أني أنا صاحبك الذي فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها واذبحتها وابنها فإن أنت اطعنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقتك وصورك خلصتك مما أنت فيه قال : فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه قال : ففيه نزلت هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك - إلى قوله - جزاء الظالمين ﴾ (١)

وعن وهب بن منبه - رضى الله عنه - قال : كان راهب في صومعته في زمن المسيح عليه السلام



فأراده إبليس فلم يقدر عليه فاتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه فاتاه متشبها بالمسيح فناداه : أيها الراهب أشرف على أكلمك قال : انطلق لشأنك فلست ارد مامضى من عمرى فقال : اشرف على فانا المسيح فقال إن كنت المسيح فما لى اليك حاجة ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك فانطلق اللعين عنه وتركه .

وعن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله رضى الله عنه عن ابيه قال : لما ركب نوح عليه السلام فى السفينه رأى فيها شيخا لم يعرفه فقال له نوح ما أدخلك قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح عليه السلام اخرج يا عدو الله فقال إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنين فأوحى الله تبارك وتعالى الى نوح عليه الصلاة والسلام - انه لاحاجة لك إلى الثلاث مره يحدثك

بالاثنتين فقال بهما أهلك الناس وهما لا يكذبان : الحسد والحرص فبالحسد لعنت وجعلت شيطاننا رجيا وبالحرص أبيح لأدم الجنة كلها فأصبت حاجتى منه فأخرج من الجنة قال ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال : ياموسى انت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى الى ربى - عز وجل - أن يتوب على ، فدعا موسى ربه فقبل ياموسى قد قضيت حاجتك فلقى موسى إبليس فقال له قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك فاستكبر وغضب وقال : لم أسجد له حيا أسجد له ميتا ثم قال إبليس : ياموسى ان لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لأهلك فيهن اذكرنى حين تغضب فانا وحى فى قلبك وعينى فى عينك واجرى منك مجرى الدم واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقي الزحف فأذكره ولده وزوجه وأهله حتى يولى وليناك ان تجالس امرأة ليست بذات محرم فإنى رسولها اليك ورسولك اليها .

وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : مابعث الله نبيا الا لم يأمن إبليس ان يهلكه بالنساء وعن الفضيل بن عياض قال حدثنى بعض أشياخنا أن إبليس لعنه الله جاء الى موسى عليه الصلاة والسلام وهو يناجى ربه تعالى فقال له الملك : ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة يناجى ربه قال : أرجو منه مارجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة

عن عبد الرحمن بن زياد - رضى الله عنه - قال : بينما موسى عليه السلام جالس فى بعض مجالسه اذ أقبل إبليس وعليه برنس له يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه وقال له السلام عليك ياموسى : فقال له موسى - عليه السلام - من أنت : قال أنا إبليس قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمزلتلك عند الله تعالى ومكانك منه قال : فما الذى رأيته عليك قال : به اختطف قلوب بنى آدم قال : فما الذى اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذرك ثلاثا :

لا تغفلون بامرأة لا تحل لك قط فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفنته بها .

ولا تعاهد الله عهدا إلا وفيت به فإنه ما عاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به .

ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين إخراجها ثم ولى وهو يقول : ياويله ثلاثا علم موسى ما يحذر به بنى آدم . وعن حسن بن صالح قال : سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى ارمى به فلا أخطىء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى .

قال وهب بن منبه : قال راهب للشيطان وقد بدا له أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وعن سليمان بن المغيرة عن ثابت رضى الله عنه قال : لما بعث النبى ﷺ جعل إبليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى ﷺ فيجيثون إليه بصحفهم ليس فيها شيء فيقول لهم مالكم لاتصيبون منهم شيئا فقالوا : ماصحبنا قوما مثل هؤلاء فقال رويدا بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بث جنوده فى الأرض فيقول من أضل مسلما ألبيسته التاج فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق أمرأته قال يوشك أن يتزوج ويقول آخر لم أزل بفلان حتى علق قال يوشك أن يبر .

ويقول آخر لم أزل بفلان حتى زنى قال أنت ويقول آخر لم أزل بفلان حتى شرب الخمر قال أنت قال : ويقول آخر لم أزل بفلان حتى قتل فيقول : أنت أنت وعن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل فقال لأقطع هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضبا لله فلقه إبليس فى صورة إنسان فقال : ماتريد ؟ أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لأقطعنها فقال له الشيطان هل لك فيما هو خير لك لاتقطعها ولك ديناران كل يوم اذا أصبحت عند وسادتك قال فمن أين لى ذلك قال أنا لك فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئا فقام غضبا ليقطعها فتمثل له الشيطان فى صورته وقال ماتريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى قال كذبت مالك الى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدرى من أنا ؟ أنا الشيطان جئت أول مرة غضبا فلم يكن لى عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركها فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك .

وعن زيد بن مجاهد قال : لابلis خمسة من ولده قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره ثم سماهم : فذكر بثر والأعور ومسوط وداسم وزكنبور فأما بثر فهو صاحب المصيبات الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الحدود ودعوى الجاهلية

وأما الأعور فهو صاحب الزنا الذى يأمر به ويزينه وأما مسوط فهو صاحب الكذب الذى يسمع فيلقى الرجل فيخبره بالخبر فيذهب الرجل إلى القوم فيقول لهم قد رأيت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه حدثنى بكذا وكذا وأما داسم فهو الذى يدخل فى الرجل الى أهله يريه العيب فيهم ويغضبه عليهم وأما زكنبور فهو صاحب السوق الذى يركز رايته فى السوق .

وعن محمد بن الحسين قال : مانب الله العباد الى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين مايبالي بأيهما ظفر : إما غلوفيه وإما تقصير عنه .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن إبليس موثق في الأرض السفلى فإذا هو تحرك كان كل شرفي الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه .

وفتن الشيطان ومكايده كثيرة ولكثرة فتن الشيطان وتشبهها بالقلوب عزت السلامة فإن من يدع الى ما يحث عليه الطبع كممداد سفينه منحدره فياسرعة انحدارها ولما ركب الهوى في هاروت وماروت لم يستمسكا فإذا رأت الملائكة مؤمنا قد مات على الايمان تعجبت من سلامته وعن عبد العزيز بن رفيع قال : إذا عرج بروح المؤمن الى السماء قالت الملائكة سبحان الله الذي نجى هذا العبد من الشيطان ياويحه كيف نجا .

### ذكر الإعلام بأن مع كل انسان شيطانا

عن عروة بن الزبير قال : **﴿** إن عائشة زوج النبي **ﷺ** حدثته أن رسول الله **ﷺ** خرج من عندها ليلا قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : مالك يا عائشة أغرت ؟ فقلت : وما لي لا يغار مثلي على مثلك ؟ فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يا رسول الله أو معي شيطان ! قال نعم قلت : ومع كل إنسان قال نعم قلت : ومعك يا رسول الله ؟ قال نعم ولكن ربي - عز وجل - أعانني عليه حتى أسلم **﴿** (١) انفرد به مسلم . ويحيى بلفظ آخر أعانني عليه فأسلم : عامة الرواة يقولون : فأسلم على مذهب الفعل الماضي إلا سفيان بن عيينة فإنه يقول فأسلم من شره وكان يقول الشيطان لا يسلم وقول ابن عيينة حسن وهو يظهر اثر المجاهدة لمخالفة الشيطان إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينة وهو ( مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يا رسول الله قال : وإياي ولكن الله - عز وجل - أعانني عليه فلا يأمرني إلا بحق وفي روايه فلا يأمرني إلا بخير .

بيان أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم

عن صفية بنت حيى زوج النبي قالت كان رسول الله **ﷺ** معتكفا فأتته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معي ليقلبنى ( أى ليردني إلى منزلي ) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله **ﷺ** أسرعا فقال النبي - **ﷺ** على رسلكما إنها صفية بنت حيى فقالا : سبحان الله يا رسول الله قال : **﴿** إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم شرًا - أو قال شيئا **﴿** (٢) .

قال الخطابي : وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ويخطر بالقلوب وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب ويحكي في

(١) الحديث رواه الامام مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ج ٤ ص ٢١٦٨ رقم ٧٠

(٢) الحديث في رياض الصالحين ص ٦٦٨ رقم ١٨٤٦ متفق عليه

هذا عن الشافعي - رضي الله عنه - انه قال : خاف النبي - ﷺ - ان يقع في قلوبهم شيء من أمر فيكفروا وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لاعلى نفسه .

### ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم

قد أمر الله تعالى - بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة فقال تعالى ﴿ ولما قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ (١)

وعند السحر فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ (٢) الى آخر السورة .

فإذا أمر بالتحرز من شره في هذين الأمرين فكيف في غيرهما

قيل لعبد الرحمن بن حنبل : أدركت النبي - ﷺ - قال : نعم قلت كيف صنع رسول الله - ﷺ - ليلة كادته الشياطين ؟ فقال : إن الشياطين تحدت تلك الليلة على رسول الله - ﷺ - من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعبة نار

يريد أن يحرق بها وجه رسول الله - ﷺ - فبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد قل : قال : ما أقول ؟ قال :

قل : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذراً ويراً ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن قال : فطفت نارهم وهزمهم الله تعالى .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي - ﷺ - قال : ﴿ ان الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله - تبارك وتعالى - فيقول : فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ﴾ (٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه قال : ﴿ ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ (٤) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « كان رسول الله - ﷺ - يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول هكذا

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل

(٢) الآية ١ من سورة الفلق

(٣) الحديث رواه ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان ، وابن السني في عمل يوم وليلة ، عن عائشة ( الجامع الكبير للسيوطي ج ١ ص ٢٠٢ )

(٤) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٧٩ رقم ٩٩٩٣

كان أبى ابراهيم - ﷺ يعوذ اسماعيل واسحاق<sup>(١)</sup> أخرجاه في الصحيحين . والهامة هي واحد الهوام ويقال هي كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون ذلك أخف على اللسان .

قال مطرف : نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدي لله - عز وجل - وبين إبليس فمن شاء أن يعصمه عصمه وإن تركه ذهب به إبليس .

وحكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ماتصنع بالشیطان إذا سؤل لك الخطايا قال ؟ أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال أجاهده .

قال هذا يطول أرأيت إن مررت بغنم فنجك كلبها أو منعك من العبور ماتصنع ؟ قال أكابده وارده جهدى قال هذا يطول عليك ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك .

وأعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام فمر به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلها أحسأ لم يبرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه في طرده الذكر والثاني مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه . نعوذ بالله من الشيطان .

### في معنى التلييس والغرور

التلييس إظهار الباطل في صورة الحق ، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والردى جيدا سببه وجود شبهه أو جبت ذلك وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم . وأعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللور أبواب وفيه ثلم وساكنه العقل ، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن وإلى جانبه ربض فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن وأهل الربض ، والشياطين لاتزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم . فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، وأن لا يفتر عن الحراسة لحظة . فإن العدو ما يفتر .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لونام لوجدنا راحة ؟ وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان .

وفيه مرآة صقيلة يترامى فيها صور كل ما يمر به ، فأول ما يفعل الشيطان في الربض اكثار الدخان فتسود حيطان الحصن ، وتصعد المرأة وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرأة ، وللعنوا حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعات وربما اقام لغفلة الحارس ، وربما ركذت الريح الطاردة فتسود حيطان الحصن وتصعد المرأة فيمر الشيطان ولا يدور به ، وربما جرح الحارس لغفلته واسرو استخدم واقيم يستببط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار

(١) الحديث أخرجه البخارى - في الانبياء - ج ٤ ص ١٧٩ ، والترمذى في الطب حديث ٢٠٦١ وأحمد ج ١ ص ٢٣٦ ، وابن ماجه في الطب حديث ٣٥٢٥

كالفقيه في الشر قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لي قد كنت ألقيت الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم .

وربما هجم الشيطان على الذكي الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر إليها فيستأسره ، وأقوى القيد الذي يوثق به الأسرى الجهل ، وأوسطه في القوة الهوى ، وأضعفه الغفلة ، ومادام درع الايمان على المؤمن ، فإن نبيل العدو لا يقع في مقتل .

ويقول الحسن بن صالح - رحمه الله - يقول : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير يريد به بابا من الشر .

وعن حماد بن شعيب عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا : ليس علينا اشد من يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإننا نلعب بهم لعبا .

نختم هذا البحث بتلك القاعدة النافعة التي ذكرها ابن القيم في تفسيره للمعوذتين فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ، ويحترز به منه .

وذلك عشرة اسباب . (الجزء الأول)

الجزء الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ (١) وفي موضع آخر ﴿ إنه سميع عليم ﴾ (٢) وقد تقدم : إن السمع المراد به ههنا سمع الاجابة لا مجرد السمع العام وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالالف واللام في سورة حم لاختضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه في سورة الأعراف ، لاستغناء المقام عنه . فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالاحسان إليه . وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ، ولا يلقاه الا ذو حظ عظيم . كما قال تعالى ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ (٣) .

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه الى الانتقام ، ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه الى الاعراض عنه والا يسئ إليه ولا يحسن فلا يؤثر الاحسان الى المسيء الا من خالفه وآثر الله وماعنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض . فقال فيه ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ . وأما في سورة الأعراف : فإنه أمره ان يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالاحسان ، بل الاعراض . وهذا سهل على النفوس ، غير مستعص عليها . فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالاحسان فقال ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ .

(١) الآية ٣٦ من سورة فصلت

(٢) الآية ٢٠٠ من سورة الأعراف

(٣) الآية ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت

وفي صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن حرد قال « كنت جالسا مع النبى ﷺ ورجلان يستبان . فأحدهما احمر وجهه وانتفخت اوداجه . فقال النبى - ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد » (١) .

الحرز الثانى :

قراءة المعوذتين فإن لهما تأثيرا عجيبا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبى - ﷺ

« ماتعوز المتعوزون بمثلها » (٢) وقد كان يتعوذ بهما كله ليلة عند النوم ، وأمر (عقبة) أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وقال ﷺ « إن من قرأهما مع سورة الاخلاص ثلاثا حين يمسي ، وثلاثا حين يصبح ، كفته من كل شئ » (٣)

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسي . ففي الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « وكلفني رسول الله - ﷺ - بحفظ زكاة رمضان فأتى آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت إلا رفعتك الى رسول الله - ﷺ - فذكر الحديث ، الى أن قال - فقال : إذا أويت الى فراشك فاقرا آية الكرسي ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى - ﷺ - : صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان » (٤)

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففي الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لاتجعلوا بيوتكم قبورا . وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » (٥)

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ : « ( من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه ) » (٦) وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - ﷺ - قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » (٧)

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ج ٤ ص ١٥١

(٢) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤٤ ، وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٤٩ تفسير سورى المعوذتين وفى كنز ٢ ص ٣١٢ رقم ٤٠٨٩

(٣) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤١ وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٣٩ تفسير سورة الاخلاص وفى كنز العمال - ج ٢ ص ٣١١

(٤) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - فضل البقرة - ج ٦ ص ٢٣٢

(٥) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٣٩ رقم ٢١٢ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٧

(٦) الحديث فى صحيح مسلم - صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٥٥ رقم ٢٥٦ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٤ رقم ٣٠٤٣

(٧) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٥ رقم ٣٠٤٤

الحرز السادس : أول سورة حم المؤمن الى قوله ( اليه المصير ) مع آية الكرسي .  
ففى الترمذى بسنده عن ابى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « من قرأ حم المؤمن الى قوله ( اليه المصير ) او آية الكرسي حين يصبح حفظ بها حتى يمسى ، ومن قرأها حين يمسى حفظ بها حتى يصبح » (١) والحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .  
ففى الصحيحين من حديث ابى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة . » وميت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير على من يسره الله عليه ، (٢)

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل . ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعري أن النبى - ﷺ - قال « ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، وانه كاد ان يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى اسرائيل ان يعملوا بها . فلما أن تأمرهم ولما أن أمرهم . فقال يحيى : أخشى أن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب . فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلا ، وقعدوا على الشرف . فقال : ان الله امرنى بخمس كلمات أن أعمل بين وأمركم ان تعملوا بين : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن مثل من اشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى الى غير سيده . فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته مالم يلتفت : وأمركم بالصيام : فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه

صبره فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها . وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أقديه منكم بالقليل والكثير فقدى نفسه منهم .

وأمركم ان تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى اثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك القيد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبى - ﷺ - وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بين ! السمع والطاعة . والجهاد . والهجرة ، والجماعة فإن من

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٩

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء - ج ٤ ص ٢٠٧١ رقم ٢٨



فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الاسلام من عنقه ، إلا أن يراجع . ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل : يا رسول الله وإن صلي وصام قال : وإن صلي وصام . فادعوبدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله» (١)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى الحارث الأشعري له صحبه . وله غير هذا الحديث)

فقد أخبر النبى - ﷺ - فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس . والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس ، وتجمع وانقبض وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى اليه الوسواس التى هى مبادئ الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة . فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث ابن سعيد الحدرى عن النبى ﷺ - أنه قال « ألا وإن الغضب جرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم إلى جرة عينيه وانتفاخ اوداجه ! فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض » (٢)

وفى أثر آخر « أن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء » فما أطفأ العبد جرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار والوضوء يطفئها ، والصلاة اذا وقعت بخشوعها والاقبال فيها على الله أذهبت أثر كله . وهذا أمر تجربته تغنى من إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام والطعام ، ومخالطة الناس : فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة . فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى - ﷺ - أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غص بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه » (٣) أو كما قال ﷺ

فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لاحسرة ؟ كما قال

الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر      ومعظم النار من مستصغر الشرر  
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها      فتك السهام بلا قوس ولا وتر !

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الامثال - ج ٤ - ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٣

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الفتن - ج ٣ - ص ٣٢٧ رقم ٢٢٨٦

(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى - باب النظرة - ص ٤٥٢

وفى كتر العمال ج ٥ ص ٣٢٩ رقم ١٣٠٧٥ وفى المستدرک للحاكم ج ٤ ص ٣١٤

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا  
رأيت الذى لا كله أنت قادر

ولى من أبيات :

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا  
وباعث الطوف يرتاد الشفاء له  
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض  
ومفنيا نفسه فى إثر أقبحهم  
وواها عمره فى مثل ذا سفها  
وبائعا طيب عيش ماله خطر  
غبت والله غبنا فاحشا فلو اسـ  
وواردا صفو عيش كله كدر  
وحاطب الليل فى الظلماء منتصبا  
شاب الصبا والتصاى بعد لم يشب  
وشمس عمرك قد حان الغروب لها  
وفاز بالوصل من قد فاز وانقضت  
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت  
مافى الديار وقد سارت ركائب من  
فافرش الخد ذيك التراب ، وقل  
ماربع مية محفوقا يطوف به  
ولا الحدود وإن أدمين من ضرج  
منازل كان يهواها ويألفها  
فكلما جليت تلك الربوع له  
أحياه الشوق تذكّار العهود بها  
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه  
مافى الخيام أخو وجد ريحك إن  
وأسر فى غمرات الليل مهتديا  
وعاد كل أخى جبن ومعجزة  
وخذ لنفسك نورا تستضيء به  
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه

لقلبك يوما اتعبتك المناظر  
عليه ، ولاعن بعضه انت صابر

انت القتل بما ترمى ، فلاتصب  
ترفه ، انه يرتد بالعطب  
فهل سمعت بيرء جاء من عطب ؟  
وصفا للسطخ حجال فيه مستلب  
لوكنت تعرف قدر العمر لم تهب  
بطيف عيش من الآلام منتهب  
ترجعت ذا القعد لم تغبن ولم تحب  
أمامك الورد صفوا ليس بالكذب  
لكل داهية تدنى من العطب  
وضاع وقتك بين اللهو واللعب  
والضى فى الأفق الشرقى لم يغب  
عن أفقه ظلمات الليل والسحب  
ورسل ربك قد وافتك فى الطلب  
تهواه للصب من سكنى ولاأرب  
ماقاله صاحب الأشواق فى الحقب  
عيلان أشهى له من ربك الحزب  
أشهى الى ناظرى من خدك الترب  
أيام كان منال الوصل من كتب  
يهوى إليها هوى الماء فى حيب  
فلو دعا القلب للسلوان لم يجب  
وماله فى سواها الدهر من رغب  
بثته بعض شأن الحب ، فأغترب  
بنفحة الطيب لا بالنار والحطب  
وحارب النفس لاتلقيك فى الحرب  
يوم اقتسام الورى بالأنوار بالرتب  
إلا بنور ينجى العبد فى الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد ابواباً من الشر كلها مداخل للشيطان ، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي - ﷺ - لمعاذ « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد الستهم »<sup>(١)</sup> وفي الترمذى أن رجلاً من الأنصار توفى فقال بعض الصحابة : طوي له ، فقال النبي - ﷺ - « فما يدريك ؟ فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »<sup>(٢)</sup>

وأكثر المعاصي : إنما يولدها فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان . فإن جارحيتها لا يملأن ، ولا يسأمان ، بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترأ من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الاطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات . وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ماشيء أحوج إلى طول سجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي ، ويشغلها عن الطاعات . وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقى شر بطنه وقى شراً عظيماً .

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء في بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » وقال النبي - ﷺ - « ماملأ آدمى وعاء شراً من بطن »<sup>(٣)</sup> ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ، ومناه وشهاه ، وهام به في كل واد . فإن النفس إذا شبت تحركت وجالت وطافت على ابواب الشهوات . وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة :

فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست في القلب من حزازات تزيل الجبال الراسيات وهى في القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة . ويجعل الناس فيها أربعة أقسام : متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل الشر . أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب اعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وامره ، ومكايد عدوه ، وامراض القلوب وادويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه . فهذا الضرب في مخالطتهم الريح كل الريح .

(١) الحديث في سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - ج ٢ ص ١٣١٤ ، ١٣١٥ رقم ٣٩٧٣

(٢) الحديث في سنن الترمذى - أبواب الزهد - ج ٣ ص ٢٨٢ رقم ٢٤١٨

(٣) الحديث في مسند أحمد - ج ٤ ص ١٣٢

القسم الثاني : مَنْ غَالَطَهُ كالدواء ، يحتاج اليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام مآنت محتاج اليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث : وهم من غَالَطَهُمْ كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من غَالَطَهُ كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه في دين ولادنيا . ومع ذلك فلا بد من أن تحسر عليه الدين والدنيا او احدهما .

فهذا اذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف .

ومنهم من غَالَطَهُ كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من غَالَطَهُ حى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لا يحسن ان يتكلم فيفيدك ، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل ان تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع اعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن انه مسك يطيب به المجلس . وان سكت فاثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولاجرها على الأرض . ويذكر عن الشافعى - رحمه الله - أنه قال : ما جلس ثقيل الا وجدت الجانب الذى هو فيه انزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه - ابن تيمية - رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت الى وقال : مجالسة الثقيل حى الربيع . ثم قال . لكن قد أدمنت أرواضا على الحمى ، فصارت لها عادة او كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حى الروح ، فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد ان يتبلى بواحد من هذا الضرب . وليس له بد من من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من غَالَطَهُ اهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب فى الناس لاكثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله - ﷺ - الداعون الى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا .

ان جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وان جردت المتابعة لرسول الله - ﷺ - قالوا : أهذرت الأئمة المتبوعين .

وان وصفت الله بما وصف به نفسه ، وبما وصف به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا : أنت من

المشبهين .

وان أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا :

أنت من المفتنين .

وان اتبعت السنه وتركت ماخالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

وان انقطعت الى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : انت من الملبسين .  
وان تركت مانت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم ، التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل بأعتابهم ،  
ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بدمهم ولا بغضهم . فإنه عين كما لك كما قال :  
وإذا اتتك مذمتى من ناقص . . . فهي الشهادة لى بأنى فاضل  
فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التى هى اصل البلاء ، وهى فضول  
النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعجل مذكرناه من الاسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان  
فقد اخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها ابواب الرحمة ، وانغمر ظاهره  
وباطنه ويوشك ان يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح  
يحمد القوم السرى والله الموفق لارب غيره ، ولا إله سواه .

### مناقشة المشركين وإفحامهم

قال تعالى : ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ  
وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ  
عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ، حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ  
وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ (٢٣) \* قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ  
لَعَلَىٰ هُدًىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْشَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢٥) قُلْ  
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٢٦) قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أُحَقِّقُ بِهِ  
شُرَكَاءَ كُلِّ بَلٍّ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢٧) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٩) قُلْ  
لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغْدِمُونَ ﴾ (٣٠) \*

## معاني المفردات

مثقال ذرة : وزن ذرة - ظهير : معين ، فزع عن قلوبهم : هن التفزيع وهو إزالة الفزع والخوف عن قلوبهم - أجرمنا : أذنبنا من الجرم وهو الذنب ، يفتح : يحكم ، والفتاح الحاكم ، لأنه يفتح طريق الحق ويظهره . كلا : كلمة ردع لهم ، كافة : أى مانعاهم من الكف وهو المنع ، أو جامعا لهم مأخوذ من الكف بمعنى الجمع والتاء للمبالغة والمراد جامعا للناس فى الإبلاغ .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر عزت قدرته ماآتاه الشاكرون من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لا حصر لها ، ومافعله بسبأ حين بطرو النعمة وكذبوا الرسل - أعقب ذلك بأمر رسوله - ﷺ - أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا ألهتكم الذين زعمتموهم شركاء الله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فأعلموا انهم مبطلون . ثم ذكر سبحانه أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعباد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك ، إذ لا تصرف لهم فى شيء فى السموات والأرض لاستقلالهم ولا شركة ، ولا هم معينون للخالق فيهما ، ولا تنفع الشفاعة لديه فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم . ثم أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرد بالخلق والرزق وانفراده بالالهية وان يخبروا بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد مبطل والآخر حق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ماأنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لا تؤاخذون بما نعمل ولا تؤاخذ بما تعلمون ، وأن يقول لهم : ان ربنا هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلال الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل هو الله الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل مايفعل ويعد أن أقام سبحانه الأدلة على التوحيد ، وضرب لذلك الأمثال . شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون غن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ﴾ هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع وحجة دامغة .. تصيح بأعلى صوتها ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ أى معبوداتكم التى اتخذتموها آله من دون الله ، أى شيء فيها من خصائص الألوهية ، إن هذه المعبودات باطلة ، انهم لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض اذا لاخالق ولا رزاق إلا الله .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ، يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾<sup>(١)</sup> .

وما أصدق قوله جل شأنه : ﴿ أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَلْتُم صَامِتُونَ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . أَلَمْ أَرْجُل يمشون بها ، أَمْ لَمْ أَيْد يبطشون بها أَمْ لَمْ أَعْيُن يُبْصِرُونَ بها أَمْ لَمْ أَأْذَان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم الى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾<sup>(٢)</sup>

وما اعظم قوله تبارك اسم ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وما أجل قوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾<sup>(٤)</sup> .

وأمر الله تعالى نبيه بالحمد على التوحيد فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا ﴾<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى ﴿ وما لهم فيها من شرك ﴾ أى ليس لهؤلاء الآلهة الذين اتخذوهم أولياء من دون الله نصيب فى السموات ولا فى الأرض قوله تعالى ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ قال قتادة : من عون يعينه بشيء . فاسألوا انفسكم ايها المعاندون المجادلون بالباطل ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعم الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وماتعلنون والذين يدعون من

(١) الآيات ١٣ الى ١٧ من سورة فاطر

(٢) الآيات ١٩١ الى ١٩٨ من سورة الأعراف

(٣) الآيات ١ الى ٣ من سورة الفرقان

(٤) الآيات ١ الى ٤ من سورة الملك

(٥) الآية ١١١ من سورة الاسراء

دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء وما يشعرون آيان يبعثون ، إلهاكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴿١﴾ .

قوله تعالى ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ . ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ ﴿٣﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله - ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعني ماشاء الله أن يدعني ، ويفتح علي بمحامد لأحصيها الآن ثم يقال يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع - الحديث » ﴿٤﴾ .

وقوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضا مقام رفيع في العظمة وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السماوات كلامه ارعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي ، قاله ابن مسعود - رضي الله عنه - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر وابو عبد الرحمن السلمي والشعبي وإبراهيم النخعي والضحاك والحسن وقتادة في قوله - عز وجل - ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ يقول خلى عن قلوبهم ، ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان .

وقال آخرون في معنى قوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعني المشركين عند الاحتضار ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا منه من الغفلة في الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين في الدنيا .

وقال مجاهد ( حتى إذا فزع عن قلوبهم ) كشف عنها الغطاء يوم القيامة . وقال الحسن ( حتى إذا فزع عن قلوبهم ) يعني مافيها من الشك والتكذيب . ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير ﴾ قال وهذا في بني آدم هذا عند الموت أقروا حين لا ينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير أن الضمير عائد على الملائكة وهذا هو الحق الذي لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار . ولنذكر منها طرفا يدل على غيره قال البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول ان نبي الله - ﷺ - قال ( إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال الحق وهو العلي الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقها الى من تحته ، ثم يلقها الآخر الى من تحته ، حتى يلقها على لسان الساحر او الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل ان يلقها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء ) ﴿٥﴾ انفرد به البخاري

(١) سورة النحل الآيات : ١٧ - ٢٣ (٤) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١

(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة وفي صحيح البخاري - كتاب التفسير - سورة "آقرة" ج ٦ ص ٢١ ، ٢٢ ط

(٣) الآية ٢٨ من سورة الانبياء (٥) الحديث في صحيح البخاري - تفسير سورة الحجر - ج ٦ ص ١٠٠ ط



دون مسلم من هذا الوجه ، وقد راوه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة .  
وقال ابن ابي حاتم بسنده عن النواس بن سمعان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ  
( اذا اراد الله - تبارك وتعالى - أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة -  
أو قال رعدة . شديدة من خوف الله تبارك وتعالى فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله  
سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به  
جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بساء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا يا جبريل ، فيقول  
عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل فينتهى جبريل بالوحى الى  
حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض ) (١) .

وقد روى ابن ابي حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وعن قتادة انها فسرنا  
هذه الآية بابتداء إحياء الله تعالى الى محمد - ﷺ - بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة  
والسلام ، ولاشك ان هذا اولى ما دخل فى هذه الآية .

قال الامام ابن القيم فى تفسير قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون  
مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيها شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده  
الا لمن أذن له ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين بجامع الطرق التى دخلوا منها  
الى الشرك وسدت بها عليهم الباب ابلغ سد واحكمه ؟ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ،  
ولا فلو كان لا يرجو منفعة منه فلا يتعلق قلبه به ابدا ، وحينئذ فلا بد ان يكون المعبود إما مالكا  
للسبب التى ينتفع بها عابده ، أو شريكا للملكها ، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له ، أو وجيها ذا حرمة  
وقدر ، يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت اسباب الشرك وانقطعت  
مواده .

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة فى السموات والأرض . فقد يقول المشرك : هى  
شريكة للمالك الحق . نفى شركها له .

فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا أو وزيرا ، أو معاونا . فقال سبحانه ﴿ وما له منهم من  
ظهير ﴾ .

ولم يبق الا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده الا بإذنه فإن لم يأذن للشافع  
لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون فى حق المخلوقين . فإن المشفوع عنده يحتاج الى الشافع  
ومعاونته له فيقبل شفاعته ، وإن لم يأذن له منها . وأما من كل ماسواه فقير اليه بذاته ، فهو الغنى بذاته  
عن كل ماسواه .

فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه ؟

( ١ ) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٧ من رواية ابن جرير وابن ابي حاتم وابن الشيخ فى العظمة وابن مردويه وفى  
الاسماء والصفات والطبرانى فى الكبير عن النواس بن سمعان

## كلمة في الشفاعة

تعريفها :

الشفاعة لغة : كمال قال ابن الأثير في النهاية : قد تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمر الدنيا والآخرة ، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال : شفّع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفّع ( بكسر الفاء ) الذي يقبل الشفاعة ، والمشفّع ( بفتح الفاء ) الذي تقبل شفاعته .

وفي القاموس وتاج العروس : والشفيع صاحب الشفاعة والجمع شفعاء ، وهو الطالب لغيره يتشفّع به الى المطلوب .

وفيها ايضا : وشفعته فيه تشفيعا حين شفّع كمنع شفاعة اى قبلت شفاعته .  
وفي حديث الحدود : ( إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفّع ) ( موقف على الزبير بن العوام )

وفي حديث ابن مسعود : ( القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق )<sup>(١)</sup> .  
أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته وصدق عليه فيما يرفع من مساويه .  
فالمشفّع : الذى يقبل الشفاعة ، والمشفّع ( بفتح الفاء ) الذى تقبل شفاعته ، ومنه حديث « اشفع تشفع »

والشفاعة في الشرع موافقة للمعانى اللغوية . فمن الشفعاء من يشفع ابتداء ، ومنهم من يشفع بعد الطلب ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه في الأحاديث .  
آيات خاصة بالشفاعة

ورد في القرآن الكريم آيات تنفى الشفاعة ، وأخرى تثبتها وقد جمع العلماء بينها ولنذكر الآيات التى تنفيها ثم نتبعها بالآيات التى تثبتها ثم نذكر ما قاله العلماء في الجمع بينها : -

## الآيات الواردة في نفى الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى : ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال تعالى حاكيا عن بعض الصالحين ﴿ أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئا ولا ينفقون ﴾<sup>(٤)</sup> ففى هذه الآيات نفى الشفاعة .

(١) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧

(٢) الآية ٤٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة

(٤) الآية ٢٣ من سورة يس

وقال تعالى : ﴿ وأُنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى ﴿ وَذُرْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَاطِلٍ هُوَ غَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ تَبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ، وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدَلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَنْتَبِثُوكُم مِمَّنْ لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .  
وقال تعالى حاكياً عن أهل النار ﴿ فَمَالْنَا مِنْ شَافِعِينَ ، وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ . فَلَوْ أَنَّ لِلنَّارِ فَنَّكَونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

وقال تعالى ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥) .  
وقال تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ . قُلْ اللَّهُ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٦) .  
وقال تعالى ﴿ وَأُنذِرُهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ مَالِ الظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا تَمِيعٌ يَطَاعُ ﴾ (٧) .

ففى هذه الآيات نفى الشفيع

### الآيات فى إثبات الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ (٨)

وقال تعالى ﴿ مِمَّنْ شَفِيعٌ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ (٩)

وقال تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ، سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (١٠)  
ففى هذه الآيات إثبات الشفيع بشروط .

وقال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا : لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ (١١) .

(٦) الآية ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر

(٧) الآية ١٨ من سورة غافر

(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة

(٩) الآية ٣ من سورة يونس

(١٠) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء

(١١) الآيات ١٠٥ - ١٠٩ من سورة طه

(١) الآية ٥١ من سورة الأنعام

(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنعام

(٣) الآية ١٨ من سورة يونس

(٤) الآيات ١٠٠ الى ١٠٢ من سورة الشعراء

(٥) الآية ٤ من سورة السجدة

وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ (١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ثم قال ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان ( الشفاعة ) أى لا يقدرُونَ على الشفاعة لهم ( إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ) هذا استثناء منقطع أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . أهـ .  
وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ (٢).

هذه الآيات تدل على الشفاعة المثبتة بشروط .

### الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية

يتحصل من هذا أن النفى مقصود به الشفاعة التى تطلب من غير الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعاً ﴾ والشفاعة المثبتة لاتقبل الا بشروط .

١ - قدرة الشافع على الشفاعة كما قال تعالى فى حق الشافع الذى يطلب منه وهو غير قادر على الشفاعة : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أنتبثون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فعلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب عن لا يملكها قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيها من شرك وماله منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ .  
٢ - اسلام المشفوع له : قال تعالى : ﴿ مالم الظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ والمراد بالظالمين هنا ، الكافرون ، بدليل الأحاديث المتواترة فى الشفاعة لأهل الكبائر وستأتى إن شاء الله فى موضعها .  
قال الحافظ البيهقى - رحمه الله - فالظالمون هاهنا هم الكافرون ، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذهى فى ذكر الكافرين . أهـ .

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - فى تفسير هذه الآية : أى ليس للذين ظلموا انفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . أهـ .  
٣ - الأذن للشافع ، كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ .  
٤ - الرضا عن المشفوع له كما قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ .

( ١ ) الآية ٨٦ من سورة الزخرف

( ٢ ) الآية ٢٦ من سورة النجم

## الشفاعة العظمى

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نيسة ثم قال :

( أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذلك ؟ يجمع الناس - الأولين والآخرين - فى صعيد واحد يسمعون الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكره مالا يطيقون ولا يهتملون ، فيقول الناس : ألا ترون ما قد بلغكم ؟ ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت ابو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ ألا ترى الى ما قد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحا ، فيقولون : يانوح انك انت اول الرسل الى اهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى وعز وجل - قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة ، دعوتها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم ، فيقولون يا ابراهيم انت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك ألا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانى قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن ابو حيان فى الحديث نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : ياموسى انت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتل نفسا لم أوامر بقتلها نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون الى عيسى فيقولون : ياعيسى انت رسول الله وكلمته الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس من المهد صبيا ، اشفع لنا ، ألا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى . إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد - ﷺ - فيأتون محمدا ، فيقولون : يا محمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ فانطلق فأتى تحت العرش فاقع ساجدا لربى - عز وجل - ثم يفتح على من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبل ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يا محمد ادخل من امك من لاحتساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب - ثم قال - واللذى نفسى بيده ان ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجير . وكما بين مكة وبصرى <sup>(١)</sup> .

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١ ص ١٨٤ رقم ٣٢٧

وفى مسند أحمد - ج ١ ص ٢٨١

الحديث أخرجه مسلم والترمذى وأحمد وابن خزيمة وأبو عوانه وعندهم كلهم إلا البخارى وأبا عوانه (ما بين مكة وهجر) .

وأخرج البخارى أيضا بسنده عن أنس أن النبى - ﷺ - قال : يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون : لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون يا آدم أما ترى الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر لهم خطيئة التى أصاب ولكن اتوا نوحاً لميأتون نوحاً فيقول : لست هاك ويذكر خطيئته التى أصاب ولكن اتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول :

فيأتون ابراهيم فيقول : لست هناك ويذكر لهم خطاياهم التى أصابها ولكن اتوا موسى عبداً آتاه الله التوراة وكلمه تكليماً فيأتون موسى فيقول : لست هناك ويذكر خطيئته التى أصابها ولكن اتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول : لست هناك ولكن اتوا محمداً - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عبداً غفر له ماتقدم من ذنبه ماتأخر فيأتونى فأنطلق فاستأذن على ربى فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى : ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال : ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ثم أرجع فأقول : يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود

فقال النبى - ﷺ - : ( يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه مايزن من الخير ذرة )<sup>(١)</sup>

### شفاعة النبى ﷺ وكونه

#### أول شفيع

روى الامام مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ - ( أنا أول الناس يشفع فى الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً )<sup>(٢)</sup>  
عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - وآله وسلم : ( أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة )<sup>(٣)</sup> .

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب التوحيد - ج ٩ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ج ١ الشعب

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٠

(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣١

وعن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ - ( أنا أول شفيع في الجنة ولم يصدق بني ماصدقت وإن من الأنبياء نبياً ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد ) (١) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ - ( آتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد فيقول : بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك ) (٢) .

عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله ﷺ - ( للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها - قال - ويبقى منبري لأجلس عليه ولا أقعد قائم بين يدي الله ربى مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدى فأقول : يارب أمتي فيقول الله عز وجل - : يا محمد ماتريد أن تصنع بأمتك فيقول : يارب عجل حسابهم فيدعى بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى أن مالكا خازن النار يقول يا محمد ماتركت للنار لغضب ربك من نعمة ) (٣) .

الحديث أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يحتجا بمحمد بن ثابت البناني وهو في مسند الحديث وهو قليل الحديث يجمع حديثه والحديث غريب في أخبار الشفاعة فتعقبه الذهبي فقال : ضعفه غير واحد والحديث منكر .

روى ابن خزيمة بسنده عن سلمان الفارسي قال : ( يأتون النبي ﷺ فيقولون : يائي الله أنت الذي فتح الله بك وختم وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا إلى ربك فيقول : نعم أنا صاحبكم فيخرج بحوش النار حتى ينتهي إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة في الباب من ذهب فيقرع الباب فيقال : من هذا فيقال : محمد قال : فيفتح له قال : فيجىء حتى يقوم بين يدي الله فيستأذن في السجود فيؤذن له قال : فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتحه لأحد من الخلائق فينادى : يا محمد ارفع رأسك وسل تعطه وادع تجب قال : فيرفع رأسه فيقول : رب أمتي أمتي ثم يستأذن في السجود فيؤذن له فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتح لأحد من الخلائق فينادى : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع وادع تجب قال : يفعل ذلك مرتين أو ثلاثا فيشفع لمن كان في قلبه حبة من حنطة أو مثقال شعيرة أو مثقال حبة من خردل من إيمان .

قال سلمان : فذلك المقام المحمود )

وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : ( إني لأول الناس تنشق الأرض عن مجتمه يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر سأتى باب الجنة فيفتحون لي فأسجد لله تعالى فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع لك وقل يقبل منك واشفع تشفع فأرفع فأقول : أمتي يارب فيقول : اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأدخله الجنة فأقبل بمن وجدت في قلبه ذلك فأدخلهم الجنة وآتى الجبار وأسجد له فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك وقل يقبل قولك واشفع تشفع فأقول : أمتي أمتي فيقول : اذهب إلى أمتك

(١) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٢

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٣

(٣) الحديث في المستدرک للحاكم - ج ١ - كتاب الايمان ص ٦٥

فمن وجدت في قلبه مثقال نصف حبة من شعير من الايمان فأدخله الجنة ، فأذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك فأدخله الجنة قال : فأق الجبار فأسجد له فيقول : ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمتي أمتي أى رب فيقول : إذهب فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأدخله الجنة فأذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك فأدخلهم الجنة وفرغ من الحساب حساب الناس ..

ونمام الحديث كما في مسند الإمام أحمد ج ٣ : وأدخل من بقى من أمتي النار من أهل النار فيقول أهل النار ما أغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لا تشركون به شيئا فيقول الجبار عز وجل : فبعزق لأعتقهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون في نهر الحياة فينبثون فيه كما تنبت الحبة في غناء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل (١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال ( أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع وأنا بيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وأول شخص يدخل على الجنة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومثلها في هذه الأمة مثل مريم في بنى اسرائيل (٢) .

### الشفاعة لأهل الكبائر

روى البخارى بسنده عن أبي هريرة أنه قال : قيل يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ ( لقد ظننت يا أبا هريرة الا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه (٣) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال : سألت رسول الله ﷺ : ماذا رد إليك ربك في الشفاعة فقال : ( والذي نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي لما رأيت من حرصك على العلم والذي نفس محمد بيده ما يهمني من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندي من تمام شفاعتي وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه (٤) .

(١) الحديث في مسند أحمد - مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) الحديث بمعناه في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠

وفي الجامع الكبير للسيوطي ج ١ ص ٣٣٩ حديث بلفظ : « أول شخص يدخل الجنة فاطمة بنت محمد ، ومثلها في هذه الأمة مثل مريم في بنى اسرائيل »

(٣) الحديث في صحيح البخارى - كتاب العلم - ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ط الشعب

(٤) الحديث في مسند أحمد - مسند أبي هريرة ج ٢ ص ٣٠٧



هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي ليس فيها التصريح بالشفاعة لأهل الكبائر فمن قال لا إله إلا الله يشمل أهل الكبائر وغيرهم ممن لا يشرك بالله شيئاً .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن دارة مولى عثمان قال : ( بين أنا بالقيع مع أبي هريرة إذ سمعناه يقول : أنا أعلم الناس بشفاعة محمد - ﷺ - قال : فتذاك الناس عليه فقالوا : إيه يرحمك الله ؟ قال : يقول : اللهم اغفر لكل عبد مسلم لقيك مؤمن بي لا يشرك بك ) .  
وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : ( لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوى شفاعة لأمتي في الآخرة )<sup>(١)</sup> .

وروى ابن ماجه بسنده عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - ( خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين )<sup>(٢)</sup>

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - كان يحرسه أصحابه فقامت ذات ليلة فلم أره في منامه فأخذني ما قدم وما حدث فذهبت أنظر فإذا أنا بمعاذ قد لقي مثل الذي لقيت فسمعنا صوتاً مثل هزيز الرجا فوقاً على مكانها فجاء النبي - ﷺ - من قبل الصوت فقال : ( هل تدرون أين كنت ؟ وفيم كنت ؟ أتاني آت من رب - عز وجل - فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فقالا : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنا في شفاعتك فقال انتم ومن مات لا يشرك بالله شيئاً في شفاعتي )<sup>(٣)</sup>

### شفاعته ﷺ وعلى آله وسلم

#### لأناس قد أمر بهم إلى النار

روى الحافظ بن أبي الدنيا بسنده عن عبد الله بن الحارث أن النبي - ﷺ - قال : ( أمر بقوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار قال : فيقولون : يا محمد ننشدك الشفاعة قال : فأمر الملائكة أن يقفوا بهم قال : فأنطلق واستأذن على الرب - عز وجل - فيأذن لي فأسجد وأقول : يارب قوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار قال : فيقول لي : انطلق فأخرج منهم قال : فأنطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج ثم ينادى الباقيون يا محمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لي فأسجد فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأثني على الله بثناء لم يشن به عليه أحد ، وأقوم : ثم قوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار فيقول انطلق فأخرج منهم قال : فأقول يارب أخرج منهم من قال : لا إله إلا الله ومن كان في قلبه حبة من إيمان قال : فيقول : لي يا محمد ليست تلك لك .. تلك لي قال فأنطلق وأخرج من

(١) الحديث في صحيح البخاري - كتاب الدعوات - ج ٨ ص ٨٢ ط الشعب

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - ج ٢ ص ١٤٤١ رقم ٤٣١١

(٣) الحديث في مسند أحمد - حديث أبي موسى - ج ٤ ص ٤٠٤

شاء الله أن أخرج قال : ويبقى قوم فيدخلون النار فيعيرهم أهل النار فيقولون : انتم كنتم تعبدون الله ولا تشركون به ادخلكم النار قال : فيحزنون لذلك قال : فيبعث الله ملكا بكف من ماء فينضح بها في النار ويغبطهم أهل النار ثم يخرجون ويدخلون الجنة فيقال : انطلقوا فتضيفوا الناس . فلو أنهم جميعهم نزلوا برجل واحد كان لهم عنده سعة ويسمون المحررين ) .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا يقتضي تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها ويكون معنى قوله ( أخرج ) أى انقذ بدليل قوله بعد ذلك ( ويبقى قوم فيدخلون النار ) والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . هـ

وروى الحافظ أبو نعيم في الحلية : حدثنا محمد بن المظفر بن موسى الحافظ حدثنا أبو حفص أحمد ابن محمد بن عمر بن حفص الأوصالي حدثنا ابن حمير حدثنا الثوري حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ) قال : ( أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف في الدنيا )<sup>(١)</sup> شفاعته ﷺ

### لأناس يدخلون الجنة بغير حساب

روى الترمذى بسنده عن محمد بن زياد الألهاني قال : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ( وعدني ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربى )<sup>(٢)</sup>

### شفاعته ﷺ في رفع

### درجات بعض من يدخل الجنة فوق

### ماكان يقتضيه عمله

روى البخارى بسنده عن أبي موسى - رضى الله عنه - قال : لما فرغ النبي - ﷺ - من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أو طاس فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى : وبعثنى مع أبي عامر فرمى أبو عامر في ركبته فانتبهت إليه فقلت : ياعم من رماك فأشار إلى أبي موسى فقال ذاك قاتلى الذى رمانى فقصدت له فلحقته فلما رآنى ولى فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحى ألا تثبت فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبي عامر : قتل الله صاحبك قال : فانزع ذا السهم فنزعته فتزا منه الماء قال : يابن أخى أقرئ النبي - ﷺ - السلام وقل له : استغفر لى واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرا ثم مات فرجعت فدخلت على النبي - ﷺ - فى بيته على

(١) الحديث فى حلبة الأولياء ج ٤ ص ١٠٨

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٥ رقم ٢٥٥٤

سرير مرمّل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لي فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : ( اللهم اغفر لعبيد أبي عامر ورأيت بياض إبطيه ثم قال : ( اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس فقلت : ولى فاستغفر فقال : اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما )<sup>(١)</sup>  
قال أبو بردة : إحداهما لأبي عامر والأخرى لأبي موسى .

وروى الإمام مسلم - رحمه الله - بسنده عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله - ﷺ - على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال ( إن الروح اذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال ( لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال : ( اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له في قبره ونور له فيه )<sup>(٢)</sup>

### في الشفاعة في خروج الموحدين من النار

قال البخارى - رحمه الله - بسنده عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟  
قال ( هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحب ؟  
قالوا : لا يا رسول الله  
قال : ( فهل تمارون في الشمس ليس دونه سحب ؟  
قالوا : لا

قال : ( فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول :

أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه  
فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأتمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل  
وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟

قالوا نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تحطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفوهم بآثار السجود وحرّم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار .

(١) الحديث في صحيح البخارى - باب غزاة أوطاس - ج ٥ ص ١٩٧ ط الشعب

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧

فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا - أى احترقوا - فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار .

فيقول يارب اصرف وجهي عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها  
فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ؟

فيقول : لا وعزتك

فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار  
فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ما شاء الله أن يسكت ثم قال :  
يارب قدمنى عند باب الجنة

فيقول الله له : أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى كنت تسأل ؟ فيقول : يارب  
لا اكون أشقى خلقك فيقول : فما عسيت أن أعطيت ذلك ألا تسأل غيره ؟  
فيقول لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ما شاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها ومابها من النضرة والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت  
فيثرون : يارب أدخلنى الجنة  
فيقول الله :

ويحك يا ابن آدم ما أعذرك أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألا تسأل غير الذى أعطيت ؟  
فيقول : يارب لا تجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله - عز وجل - منه  
ثم يأذن له فى دخول الجنة  
فيقول : تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته قال الله - عز وجل -  
من كذا وكذا أقبل

يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله - تعالى - : لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبى  
هريرة - رضى الله عنهما - إن رسول الله - ﷺ -

قال : قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله  
قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله - ﷺ - إلا قوله  
لك ذلك ومثله معه

قال أبو سعيد إني سمعته يقول :  
ذلك لك وعشرة أمثاله

قال ابن حبان - رحمه الله - كما فى موارد الظآن بسنده عن صالح بن أبى ظريف ، قال : قلت لأبى

سعيد الخدرى : أسمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول فى هذه الآية : ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ ؟ فقال : نعم ، سمعته يقول : ( يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعد ما يأخذ نقمته منهم ، قال : لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون : أليس كنتم تزعمون فى الدنيا أنكم أولياؤه ؟ فما لكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبيون حتى يخرجوا بإذن الله ، فلما أخرجوا قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج من النار ، فذلك قول الله ( ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ) قال : فيسمون الجهنمين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : ربنا أذهب عنا هذا الاسم ، فيغتسلون فى نهر الجنة ، فيذهب ذلك منهم )<sup>١</sup>

### فى طلب الشفاعة من المخلوق فيما يقدر عليه

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : شكا الناس إلى رسول الله - ﷺ - قحوط المطر ( احتباسه ) فأمر بمنبر فوضع له بالمصلى ووعده الناس يوما يخرجون فيه ، فخرج حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال ( إنكم شكوتم جذب دياركم وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدهم أن يستجيب لكم ثم قال ( الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل ما يريد : اللهم لا إله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، وأجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغاً إلى حين ) ثم رفع يديه فلم يزل ( يدعو ) حتى رثى بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره وقلب رداءه وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى فلم يأت مسجده حتى سألت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكن ( البيت ) ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال « أشهد أن الله على كل شيء قدير . وأنى عبد الله ورسوله »<sup>(٢)</sup> ( رواه الحاكم وصححه وابع داود وقال حديث غريب واسناده جيد ) .

وأخرج الامام أحمد رحمه الله بسنده عن أنس قال : سألت النبى - ﷺ - أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : قال ( أنا فاعل بهم ) قلت : ( يارسول الله فأين اطلبك ؟ قال ( اطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط ، قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان قال : قلت : فإن لم ألقك عند الميزان . قال : ( فأنا عند الخوض ، لا أخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة )<sup>(٣)</sup> أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب .

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٩ ص ٢٦٢

(٢) الحديث فى المستدرک للحاكم ج ١ ص ٣٢٨ ، وفى سنن أبى داود - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٦٩٢ رقم ١١٧٣

(٣) الحديث فى مسند أحمد - مسند أنس بن مالك - ج ٣ ص ١٧٨

## في شفاعة المؤمنين

أخرج الترمذى بسنده عن أبي سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : ( إن من أمتي من يشفع للفتام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة )<sup>(١)</sup> ( وقال هذا حديث حسن ) .

## في شفاعة الأولاد لأبائهم

قال الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول : يارب أنى لى هذه ؟ فيقال : باستغفار ولدك لك )<sup>(٢)</sup> ( الحديث رجاله رجال الصحيح )

وأخرج مسلم بسنده عن أبي حسان قال : قلت لأبي هريرة : أنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله - ﷺ - بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : قال : نعم ( صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال : أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده - كما أخذ أنا بصنفه ثوبك هذا ، فلا يتناهى - أو قال : فلا ينتهى - حتى يدخله الله وأباه الجنة )<sup>(٣)</sup>

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - ( مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وإياهم بفضل رحمته الجنة ، وقال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، قال : فيقولون : حتى يجيء أبوانا ، قال ثلاث مرات ، فيقولون مثل ذلك ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم )<sup>(٤)</sup>

وقال الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن قره عن أبيه قال : إن رجلا كان يأتي النبی - ﷺ - ومعه ابن له ، فقال له النبی - ﷺ - ( أتجبه ؟ ) فقال : يارسول الله أحبك الله كما أحبه ، ففقدته النبی - ﷺ - فقال : ( ما فعل ابن فلان ؟ قالوا : يارسول الله مات : فقال النبی - ﷺ - لأبيه : ( أما تحب ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرک ) .

فقال الرجل يارسول الله أله خاصة ، أو لكلنا ؟ قال ( بل لكلكم )<sup>(٥)</sup>

## في أسباب الشفاعة

## شفاعة القرآن :

قال الترمذى بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبی ﷺ قال : ( إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى ( تبارك الذى بيده الملك )<sup>(٦)</sup> . هذا حديث حسن .

(١) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٦ رقم ٢٥٥٦

(٢) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥٠٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٩ رقم ١٥٤

(٤) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥١٠

(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث قره المزق - ج ٥ ص ٣٥

(٦) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٨ رقم ٣٠٥٣

وأخرج ابن حبان بسنده عن جابر عن النبي - ﷺ - قال ( القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار )<sup>(١)</sup> الحديث حسن .

وقال مسلم - رحمه الله - بسنده عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غيأتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة )<sup>(٢)</sup> .

### من أسباب الشفاعة سكنى المدينة والموت بها

قال الامام مسلم بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا »<sup>(٣)</sup>

وأخرج ابن حبان بسنده كما في موارد الظمان عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عنبه عن الصحبة امرأة من بني ليث سمعها تحدث صفية بنت أبي عبيد أنها سمعت رسول الله ﷺ - يقول ( من استطاع منكم ألا يموت إلا بالمدينة فليمت بها فإنه من يمت بها يشفع له أو يشهد له )<sup>(٤)</sup> .

( الحديث على شرط مسلم )

وقال الترمذى بسنده عن ابن عمر قال : قال النبي - ﷺ - ( من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنني أشفع لمن يموت بها )<sup>(٥)</sup> . ( هذا حديث حسن صحيح )

### الصلاة على النبي ﷺ

وطلب الوسيلة له .

قال مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي - ﷺ - يقول ( إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا

(١) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - ج ١ ص ٥٥٣ رقم ٢٥٢

(٣) الحديث في صحيح مسلم - كتاب الحج - ج ٢ ص ١٠٠٤ رقم ٤٨٢

(٤) الحديث في الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ج ٦ ص ٢١

(٥) الحديث في سنن الترمذى - باب جاء في فضل المدينة - ج ٥ ص ٣٧٧ رقم ٤٠٠٩

الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة (١) .

وأخرج البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : ( من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة ) (٢) .

### شفاعة المصلين على الميت الموحد

أخرج مسلم بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى - ﷺ - ( مامن ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له ، إلا شفعا فيه ) (٣) .  
وأخرج مسلم أيضا بسنده عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان ، فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس ، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : نعم ، قال أخرجوه ، فإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفّعهم فيه ) (٤) .

### أعمال متنوعة من أسباب الشفاعة

أخرج الإمام أحمد بسنده عن زياد بن أبى زياد مولى بن مخزوم عن خادم النبى - صلى الله عليه - وعلى آله وسلم - رجل أو امرأة قال : كان النبى - ﷺ - مما يقول للخادم : ( ألك حاجة ) قال ( حتى كان ذات يوم فقال : يا رسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة ، قال ( ومن ذلك على هذا ؟ قال ربي ، قال : ( أما لا فأعنى بكثرة السجود ) (٥) .

### المسلم الذى لا تقبل شفاعته

أخرج مسلم بسنده عن أم الدرداء عن أبى الدرداء سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( إن اللعائين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة ) (٦) .

- 
- (١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٢٨٨ رقم ١١  
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب التفسير - سورة بنى إسرائيل - ج ٦ ص ١٠٨  
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٤ رقم ٥٨  
(٤) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٥ رقم ٥٩  
(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث خادم النبى - ﷺ - ج ٣ ص ٥٠٠  
(٦) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٠٦ رقم ٨٦



## الشفاعات الدنيوية

الشفاعات الدنيوية منها ما هو مشروع ، ومنها ما ليس بمشروع قال الله سبحانه ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقبلاً ﴾ (١) .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ( من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ) ﴿ : أى من يسعى في أمر فيرتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ﴾

أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح عن النبى ﷺ - أنه قال : ( اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء ) (٢)

وقد جاءت السنة المطهرة ببيان ما يحل من الشفاعة وما يحرم .

أخرج البخارى بسنده عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ - إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال ( اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه - ﷺ - ما شاء ) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له . مغيث ، كأنى أنظر إليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى ﷺ - لعباس : يا عباس : ( ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثا ؟ فقال النبى ﷺ - ( لو راجعته قالت : يا رسول الله تأمرنى ؟ قال : إنما أشفع ( قالت لاحاجة لى فيه ) (٣) .

## مالا تحل الشفاعة فيه

قال البخارى - رحمه الله - حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة - رضى الله - عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ - ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ - ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ﷺ - : ( أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : ( إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ) ( من كتاب الشفاعة لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى ) .

(١) الآية ٨٥ من سورة النساء

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ١٤٥

(٣) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الطلاق - ج ٧ ص ٦٢ ط الشعب

## لا يملك الرزق إلا الله

قوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . قل لا تسئلون عما أجرمتا ولا نسئل عما تعملون . قل يجمع بيتنا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم . قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ .  
يقول تعالى مقررا تفرد بالخلق والرزق وانفراده بالالهية ايضا فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾ وفى سورة يونس ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض .. الآية ﴾ (١) .

قال الامام ابن القيم : فإن قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى فى سورة يونس ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض .. الآية ﴾ وبين قوله فى سورة سبأ ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله ﴾

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها ، وألطفها فرقا ، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع ، فإن الآيات التى فى سورة يونس سبقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم . ومدبر أمورهم وغيرها ، ومخرج الحى من الميت والميت من الحى . فلما كانوا مقرين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم : أن فاعل هذا هو الله الذى لا إله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئا من هذا ، ولا يستطيعون فعل شيء منه ولهذا قال بعد أن ذكر من شأنه تعالى ( فيقولون الله ) أى لا بد أنهم يقرون بذلك ( ولا يجحدونه . فلا بد أن يكون المذكور مما يقرون به . والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها بالحق ، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء الى سماء حتى تنتهى اليهم ، ولم يصل علمهم الى هذا . فأفرد لفظ السماء هنا ، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها ، لاسيما والرزق ههنا هو المطر فمجئته من السماء التى هى السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه .

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب فى السماء بقوله ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ﴾ (٢) والسحاب إنما هو مبسوط فى حيز العلو ، لافى نفس الفلك وهذا معلوم بالحس ، فلا يلتفت إلى غيره .

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا أفراد السماء ، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح .

فلا بد من الوحي الذى به الحياة الحقيقية الأبدية . وهو أولى باسم الرزق من المطر الذى به الحياة الفانية المنقضية . فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطف والمواد الربانية ، والتنزلات

(١) الآية ٣١ من سورة يونس

(٢) الآية ٤٨ من سورة الروم

الآلهية ، ومابه قوام العالم العلوى والسفلى من أعظم أنواع الرزق ، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم ، بحيث لا يمكنهم انكاره أما الآية التى فى سبا : فلم تنتظم ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال ( قل : من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله ) ولم يقل : سيقولون الله . فأمر تعالى نبيه - ﷺ - أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذى ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع . وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها فى واحدة من الاثنين . إذ يقربه كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر .

وقوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد - ﷺ - للمشركين والله مانحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد وقال عكرمة معناها : أنا نحن لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين . والمعنى أ أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ، ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجاحد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع - لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لاشك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى معاورتها لارضاء العنان للمخاطب حتى اذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خطب به لقد أنصفك صاحبك . ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله - ﷺ - قبل أن يسلم أنهمجه ولسن له بكفاء . . فشركما لخيركما الفداء .

وفى ذكر هذا بعد ماتقدم من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضال والإيحاء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكتة بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسند الأجرام إلى انفسهم والعمل للمخاطبين فقال : ﴿ قل لاتسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين . أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الأثام وارتكبنا من الذنوب ونحن لاتسأل عما تعملون من عمل - خيرا كان أو شرا ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء تعملون ﴾ (١) ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهناك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية .

كما قال سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون فأما الذين آمنوا و عملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الأخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ (١) .  
ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة بتيكيتا لهم فقال : ﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أى قل لهم : ما الذى غواكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟  
ثم نبه إلى فاحش غلطهم ، وعظيم خطيئهم بقوله :  
﴿ كلا . بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى ليس الأمر كما وصفتم فلا نظير له تعالى ولاند ، بل هو الله الواحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياته الأولى والأخرة .

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .  
قال ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمة ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنها يقول : إن الله تعالى فضل محمدا - ﷺ - على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال - رضى الله عنه - إن الله تعالى قال ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ (٢) وقال للنبي - ﷺ - ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والانس . وهذا الذى قاله ابن عباس - رضى الله عنه - قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيا رجل من امتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبل ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ) (٣) .  
وفى الصحيح أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : ( بعثت إلى الأسود والأحمر ) (٤) قال مجاهد يعنى الجن والانس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح . وقال محمد بن كعب فى قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمدا - ﷺ - إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم الله عز وجل . والآية الكريمة نص صريح فى عموم رسالته - ﷺ - ونحوها قوله تعالى ﴿ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ (٥) وقوله جل شأنه ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾ (٦) وقوله تبارك اسمه ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٧) وقوله جل شأنه ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

(١) الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ من سورة الروم

(٢) سورة ابراهيم آية : ٤

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ١ ص ١١٩ كتاب الصلاة باب قول النبي جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا .

الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٣ - ٥٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ كتاب المساجد رقم ٣ - ٥٢١ أنظر مسند احمد ج ١ ص ٢٥٠ مسند ابن عباس .

(٥) سورة الاعراف آية ١٥٨ .

(٦) سورة الفرقان آية ١٠٧ .

(٧) سورة الفرقان آية ١

ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴿١﴾ قوله تعالى ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ كقوله جل شأنه . ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ ﴿٢﴾ وقوله ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ ﴿٣﴾ وقوله ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ ﴿٤﴾ وقوله ﴿لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون﴾ ﴿٥﴾ .

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فأنت المبشر للطائعين بالجنة ، المنذر للعصاة من عذاب النار .  
صلت عليك ملائكة الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان  
لما طلعت على الوجود مزودا بحمى الإله وراية القرآن

صلى الله عليك يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام .  
قوله تعالى : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ هذا سؤال تهكم وإنكار واستعجال ونحوه قوله تعالى ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ ﴿٦﴾ وقوله جل شأنه ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ ﴿٧﴾ ولقد جاء الجواب حاسما وقاطعا بقوله تعالى ﴿قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ وذلك مثل قوله تعالى ﴿ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾ ﴿٨﴾ وقوله جل جلاله ﴿وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد﴾ ﴿٩﴾ فياله من يوم ما أطوله ، وجبار ما أعد له ، وخطب ما أهوله . ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾ ﴿١٠﴾ وإذا كان تأخيره محالا عند عجيبه فكذلك تقديمه ، وإذا كان ذلك كذلك فإن المبعوثين لا يستقدمون ولا يستأخرون .  
﴿... وفتخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾ ﴿١١﴾ ﴿يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ ﴿١٢﴾ ﴿ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا﴾ ﴿١٣﴾ .

- |  |                                  |
|--|----------------------------------|
| (١) سورة الفتح آية رقم ٢٨ .            | (٨) سورة النبأ آية : ٣٩          |
| (٢) سورة هود نهاية الآية ١٧ .          | (٩) سورة هود الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥ |
| (٣) سورة يوسف آية ١٠٣                  | (١٠) النبأ آية : ٤٠              |
| (٤) سورة الأنعام آية ١١٦ .             | (١١) سورة الكهف : جزء الآية ٩٩ . |
| (٥) سورة الزخرف آية ٧٨ .               | (١٢) النبأ آية : ١٨              |
| (٦) سورة الأعراف : الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨ . | (١٣) الكهف آية : ٤٧ ، ٤٨         |
| (٧) سورة الشورى : آية ١٨ .             |                                  |

وقوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تغلظ نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿١﴾ .

### الظالمون في ساحة الحساب

قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرَ مِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

### معاني المفردات :

موقوفون : محبسون ومنوعون ، استضعفوا : هم المستضعفون ( استكبروا ) هم المستكبرون من الرؤساء والمقدمين ، مكر الليل والنهار : المكر : الاحتيال والخديعة والمراد مكرهم بالليل والنهار ، اندادا : جمع ند وهو النظير والشبيه والمثل . ( واسروا الندامة ) أى أظهروها ، الأغلال : جمع غل وهو طوق من حديد يوضع في العنق فلا يفلت صاحبه :

### المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه الأصول الثلاثة وهي التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا - ذكر شأن جماعة من المشركين جاهرُوا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين

الضالين ومضليهم من الكفار ، وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحقيق بهم من الاهانة بوضع الأغلال في الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سوء الأعمال وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ هذا إصرار منهم على الكفر والعناد والجحود مهما جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر فقد كفروا بكل ما أنزل الله من كتب ، كفروا بالقرآن الكريم ، كما كفروا بما تقدمه من الكتب التي نزلت على الأنبياء ، فيأتى بعد ذلك تهديد ووعيد من الله ، وبيان لحال هؤلاء في ساحة الحساب ، وما يترد من حديث بين الضعفاء والمستكبرين . يصوره الكتاب العزيز تصويرا تنخلع له القلوب وتنفطر لهولة الأفتدة .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ﴾ ، أى يتردد الحديث بينهم ، ﴿ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين ﴾ فيلقون بالتبعة على المستكبرين أى لولا أنتم صددتمونا عن طريق الله وآياته ورسوله لكننا مؤمنين بما أنزل الله ولكننا من الناجين اليوم من عذاب الله ، فماذا يقول المستكبرون لهم ؟ ﴿ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كتمم مجرمين ﴾ وهذا منطق إبليس مع الغاوين .

قال تعالى : ﴿ وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (١) .

ومن ثم فقد رمى المستكبرون المستضعفين بالاجرام فقالوا لهم ﴿ بل كتمم مجرمين ﴾ فماذا قال لهم المستضعفون ﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا ﴾ أى أن مكرهم بنا بالليل والنهار وتديبركم لنا المكاييد وأمركم إيانا أن نكفر بالله ونشرك به اندادا ، هو الذى أضلنا عن سواء السبيل ولكن جاء القول الفصل عندما فصل الواحد القهار بينهم ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادركوا فيها جميعا قالت أوراها لأولاها ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون - وقالت أولاها لأوراها فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كتمتم تكسبون ﴾ (٢) .

(١) سورة إبراهيم الأيتان : ٢١ - ٢٢

(٢) سورة الأعراف آية ٣٨ ، ٣٩ .

وقال تعالى ايضا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يُلَاحَظَ فِي سَمِ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمَجْرِمِينَ ، لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ خَوْفِهِمْ غَوَاشٌ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١) .

وقال تعالى أيضا ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنْهُم مِّنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لَخُزْنَةُ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنْكُمْ يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ . قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إن جهنم لما سبق إليها أهلها تلقاهم لهابها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب ) (٣) .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إن جهنم . لما سبق أهلها تلقاهم خبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب ) (٣)

وروى ايضا بسنده عن الحسن بن يحيى الحشني قال ما في جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة الا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته ابا سليمان الداراني رحمة الله عليه فبكي ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد في رجله والغل في يديه والسلسلة في عنقه ثم أدخل النار وأدخل الحضار ؟ اللهم سلم ) (٤) .

### الرد على أهل الباطل :

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ (١) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٢) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِآتِي تَقَرِّبِكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَضْعِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (٤) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ (٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي

(٢) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٥٠

(١) سورة الأعراف الآيات : ٤٠ - ٤١

(٣) الحديث في حلية الأولياء ج ٤ ص ٣٦٣ في ترجمة عبدالله بن أبي الهذيل ، وقال لم يرد مرفوعا مفصلا .

(٤) الحديث في حلية الأولياء ج ٨ ص ٣١٨ في ترجمة الحسين بن يحيى الحشني .



يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۖ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ  
الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

**معاني المفردات :** (مترفوها) : أغنياؤها وقادتها ، (يبسط الرزق) : يوسعه .

(زلفى) : زلفى وزلفة كقربى وقربة فى الوزن والمعنى .

(جزاء الضعف) : أى الجزاء المضاعف : (معاجزين) : مغالبيين .

(يقدر له) : يقرر ويضيق ، (يخلفه) : يجعل له خلفا .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قول المشركين لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد أن طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ (١) سلاه على ما ابتلى به من مخالفة مترقى قومه له وعدواتهم إياه بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فهو ليس بدعا من بينهم ، فما من نبي بعث فى قومه إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال : ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ (٢) ثم ذكر محجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الايمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره ، كما يكون للبر يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ، ثم ذكر أن المتقين يتمتعون اذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف وأوعد المسكين بالإتلاف .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ يقول تعالى مسلينا نبيه - ﷺ - وأمرأ له بالتأسى بمن قبله من الرسل ونخبه بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال فى قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ ... أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (٣) ، وقال الكبراء من قوم صالح ﴿ للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون - قال الذين استكبروا إنا بالذى آمتم به كافرون ﴾ (٤) .

(٣) سورة الشعراء آية ١١١ .

(٤) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٥ ، ٧٦ .

(١) سورة الكهف آية رقم ٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .

وقال عز وجل : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ وقال جل وعلا ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ أى نبي ورسول ، ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جابرتهم وقادتهم ورءوسهم في الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أى لا تؤمن به ولا تتبعه قال ابن ابي حاتم بسنده عن عاصم عن أبي رزين قال كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقي الآخر فلما بعث النبي - ﷺ - كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارتهم ثم أتى صاحبه فقال دلنى عليه وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبي - ﷺ - فقال : إلام تدعو ؟ قال ( « أدعو إلى كذا وكذا » ) قال أشهد أنك رسول الله . قال - ﷺ - ( وما حملك على ذلك قال إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل إليه النبي - ﷺ - إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت <sup>(٣)</sup> وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل .

قوله تعالى ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن المترفين المكذبين أنهم قالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين أى افتخروا بكثرة الأموال والأولاد واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتناؤه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة وهيهات لهم ذلك قال الله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تبارك وتعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال عز من قائل ﴿ ذرى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا - إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾ <sup>(٦)</sup> وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله في الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ قل إن ربى ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة .

(١) سورة الانعام آية ٥٣ .

(٢) سورة الاسراء آية ١٦ .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٤٠ تفسير سورة سبأ .

(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) سورة التوبة آية ٥٥ .

(٦) سورة المدثر الآيات من ١١ : ١٧ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ﴾ أى ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم . قال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال ( إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم )<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ أى إنما يقربكم عندنا زلفى الايمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أى تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ﴿ وهم فى الغرفات آمنون ﴾ أى فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ان فى الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ) فقال أعرابي لمن هى ؟ قال - ﷺ - ( لمن طيب الكلام ، واطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام )<sup>(٢)</sup> قوله تعالى ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ﴾ أى يسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ أى جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها يحسبهم ، وقوله تعالى ﴿ قل إن ربى يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أى بحسب ماله فى ذلك من الحكمة يسطر على هذا من المال كثيراً ، ويضيق على هذا ويقتصر على هذا رزقه جداً وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره . كما قال تعالى ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾<sup>(٣)</sup> أى كما هم متفاوتون فى الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غنى موسع عليه فكذاك هم فى الآخرة هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات وهذا فى الغمرات فى أسفل الدرجات ، وأطيب الناس فى الدنيا كما قال - ﷺ - ( قد أفلح من أسلم ورزق كافاً ) وقنعه الله بما آتاه<sup>(٤)</sup> رواه مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما . وقوله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أى مهما أنفقتم من شيء فيها أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث ( يقول الله تعالى : ( انفق انفق عليك )<sup>(٥)</sup> وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما ( اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً )<sup>(٦)</sup> وقال رسول الله - ﷺ - ( انفق بلالاً ، ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً )<sup>(٧)</sup> وقال ابن أبى حاتم بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٨٥ مسند أبى هريرة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥٠٩ تفسير سورة سبأ ( طبعة الشعب ) .

(٣) سورة الاسراء الآية ٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٧٣٠ كتاب الزكاة باب فى الكفاف والقناعة رقم ١٢٥ - ١٠٥٤ .

- وانظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٦ أبواب الزهد رقم ٢٤٥٢ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٥٤١ تفسير سورة سبأ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧ - ١٠١٠ .

(٧) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ ( طبعة الشعب ) .

الله - ﷻ : ( ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض بعض الموسر على ما في يده حذار الانفاق ) ثم تلا هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ (١) وروى ( شرار الناس يبايعون كل مضطر إلا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه ) (٢) وقال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم .

### بعض مواقف الكفار في الدنيا والآخرة

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (١) قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْسَ مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٢) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٣) وَإِذَا تَنَلَّى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٤) وَمَا ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٥) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَهُمْ فَكَذَّبُوا أَرْسِلْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ (٦) \* قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيَكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْنَى وَفَرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٧) قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٨) قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَٰمُ الْغُيُوبِ (٩) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (١٠) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (١١) وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبا ( طبعة الشعب ) .

(٢) انظر المرجع السابق .

وَأَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ ؕ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُسُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾  
 وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٨﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ  
 مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٩﴾

### معاني المفردات

(يصدقكم) : يمنعكم ، (إفك) : كذب ، (مفتري) : مخلق لا أساس له ، (يدرسونها) :  
 يقرءونها ، (معشار) : المعشار والعشر سواء ، وقيل المعشار عشر العشر أى واحد فى المائة ، وقيل هو  
 عشر العشير والعشير عشر العشر أى واحد فى الألف ، (نكير) : المراد فكيف كان عقابى وعذابى ،  
 (مثنى وفردى) : المراد وحدانا وجماعات ، (من جنة) : من جتون ، (يقذف بالحق) : المراد يبين  
 الحجة ويرمى بها الباطل ، (فزعوا) : الفزع الخوف والاضطراب ، (فلا فوت) : أى فلا هروب ولا  
 نجاة ، (التناوش التناول بسهولة ويسر ، (ويقذفون) : يرمون ، (بأشياءهم) : جمع شيع الذى هو  
 جمع شعية وهى الجماعة التشيعية للمذهب أو رجل .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن حال النبى ﷺ مع قومه ليس بدعا من الرسل ، فحاله معهم كحال  
 الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، فكلهم كذبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ، ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم  
 بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله ولا سخطه - أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة  
 من التقرير والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم . هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم  
 كانوا يعبدون الجن والشياطين بوسوستهم لهم ، ثم بين أنهم فى فى ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا  
 يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم ، ذوقوا عذاب النار التى كتتم بها  
 تكذبون ، ثم أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب وهو صدهم عن دعوة الرسول ﷺ  
 بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفتري وإنه سحر واضح لا شك فيه ، وقد كان فيما حل بالأمم قبلهم  
 مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ  
 عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه ، وأوصاهم أن يشمروا عن ساعد الجذ طلبا للحق  
 متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكرون ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم  
 يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة ، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم فى دعوته ، فهو لا  
 يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوته عند ربه المطلع على كل شئ ، ثم أبان لهم أن الحق  
 قد وضح ، وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور

الحق ﴿ فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾<sup>(١)</sup> ويعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم ييق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم اصرروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك في مكنتهم في دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتىلا ولا قطميرا من جزاء ما كانوا فيه من شك مريب في الحياة الأولى ، وتلك سنة الله في أشباههم من قبل .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ . هذا مشهد من مشاهد القيامة يحشر الله فيه الذين عبدوا من دونه أولياء ثم يسأل الملائكة المكرمين أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون وهذا سؤال تقريع يراد به افحام المشركين كما في قوله تبارك وتعالى : لعيسى ابن مريم : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسك ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليهم شهيذا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شئ شهيد ﴾<sup>(٢)</sup> وكما برىء عيسى من هؤلاء كذلك تبرأ الملائكة منهم حيث يقولون لرب العزة ﴿ سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ أى شياطين الجن كما في قوله تعالى ﴿ إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾<sup>(٣)</sup> وكما جاء في قوله تعالى ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ﴾<sup>(٤)</sup> . وكما قال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾<sup>(٥)</sup> .

وهكذا أظهرت الملائكة براءتهم من عبادة هؤلاء وأقرت أنهم كانوا يعبدون الشياطين أكثرهم بهم مؤمنون لذلك يقول تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون لو كان

(١) سورة الرعد جزء من الآية ١٧ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٦ ، ١١٧ .

(٣) سورة الأعراف جزء من الآية ٣٠ .

(٤) سورة الفرقان الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٥) سورة الاسراء الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿١﴾ ثم استثنى الله الملائكة والصالحين من عباده مثل المسيح والعزير فقال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيها اشتتت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذين كنتم توعدون ﴾ ﴿٢﴾ ثم يأتي اليوم الفصل في حق هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيقول تعالى ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ لأنكم قد جئتم إلينا لا حول لكم ولا قوة فأنتم ومن استنصرتم بهم لا تملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتهم ما حولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ ﴿٣﴾ .

ثم يأمر بالظالمين إلى النار قال تعالى ﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم انتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناكم فكذبوا رسل فكيّف كان نكير ﴾ لقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يحكم الله على هؤلاء بالعذاب جزاء ما قدمت أيديهم ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لناركوا آلهتنا الشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ ﴿٥﴾ وفي هذا المشهد إخبار من الله تعالى أن الكفار يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله - ﷺ - ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ قال تعالى : ﴿ وما آتيناكم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد - ﷺ - ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكننا أهدى من غيرنا ، فلما من الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناكم ﴾ وقد يطلق المعشار ويراد العشر أي ما يساوي واحدا في المائة أو ما يساوي واحدا في الألف .

قال ابن عباس رضي الله عنهما ، أي من القوة في الدنيا وكذلك قال قتادة والسدي وابن زيد كما قال تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم

(٢) سورة الانبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣

(٣) سورة الانعام آية : ٩٤

(١) سورة الانبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠

(٤) سورة الطور الآيات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الصافات الآيات : ٣٥ - ٣٩

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿١﴾ أى وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال ﴿فكذبوا رسلى فكيف كان تكبير﴾ أى فكيف كان عقابى ونكالى وانتصارى لرسلى .

قوله تعالى ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ .

قال مجاهد ومحمد بن كعب والسدى وقتادة وغيرهم فى معنى هذه الآية قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين انك مجنون ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾ أى إنما آمركم بواحدة وهى ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ أى تقوموا قايما خالصا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضا ﴿ثم تتفكروا﴾ أى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد - ﷺ - ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة﴾ .

قوله تعالى ﴿إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾ قال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، أنه قال : صعد النبى - ﷺ - الصفا ذات يوم فقال ( يا صباحاه ) فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال ( أرأيتم لو أخبرتكم إن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقون ) قالوا بلى ؟ قال - ﷺ - ( فإنى نذيركم بين يدي عذاب شديد ) فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعنا ؟ ! فأنزل الله عز وجل ﴿تبت يدا أبى لهب وتب﴾ (٢) وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : ( أيها الناس تدرن ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال - ﷺ - ) (إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يترأى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم ) (٣) ثلاث مرات وبهذا الاسناد قال : قال رسول الله - ﷺ - ( بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى ) (٤) تفرد به الامام أحمد فى مسنده .

قال الشيخ المراغى فى تفسير هذه الآية : أى قل لهم : إنى أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا بل اتشدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه ، وجدوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين ، لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل ، وتكونون قد انصفتم الحقيقة وأمطمت الحجب التى غشت أبصاركم ورائت على قلوبكم فلم تجعل للحق منفذا . وإنما طلب اليهم التفكير وهم متفرون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا لأن فى الازدحام تهويز الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف وفيما يشاهد كل يوم من

(١) سورة الأحقاف آية ٢٦ .

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٧ تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب) باب ٢ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .



الاضطراب وتبليبل الأفكار في الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا ، ثم أبان لهم ان نتيجة الفكر ستؤدى بهم الى ان يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لا دعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه ، وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى فوجب عليكم ان تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم ايماء الى أنه معروف لهم مشهور لديهم فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنبل وكرم الخلال مما لم يتهيا لأحد من أترابه ولداته .

قوله تعالى ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد . قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربي إنه سميع قريب ﴾ هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يقول للقوم : يا قوم لا أسألكم عليه اجرا ان أجرى إلا على الله ولا أسألكم على تبليغ الرسالة والنصح والأمر بالتوحيد جعلاً أو مكافأة ، إنما رسالة ربي فالأجر لكم ان اتبعتم أمري ، فلکم سعادة الدنيا والآخرة ، وأنا لا أبتغى إلا ثواب الله وقد كان ذلك على لسان الأنبياء السابقين قال تعالى على لسان نوح ﴿ ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ (١) وقال على لسان هود ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾ (٢) وقال على لسان صالح ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (٣) كذلك قال على لسان لوط وشعيب فى سورة الشعراء وفى سورة سبا يقول لرسوله ومصطفاه ﴿ إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾ أى هو العالم بما تكنه الصدور الرقيب الذى لا يغيب . ﴿ قل إن ربي يقذف بالحق ﴾ والقذف هو الرمى بشدة أى يقذف الباطل بالحق فإذا هو زاهق قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (٤) وقال ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ (٥) فهو علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولا بد لهذا الدين ان ينتصر له دعوة الحق ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أى لا يستطيع الباطل ان يبدىء شيئا أو يعيده إذ لا حياة فيه ، فقد اضمحل وزال وذهب ادراج الرياح .

الله اكبر إن دين محمد

لا تذكروا الكتب السوالف عنده

وكتابه أقوى وأقوم قبلا

طلع الصباح فاطفشوا القنديلا

(١) سورة هود آية ٢٩ .

(٢) سورة هود آية ٥١ .

(٣) سورة الشعراء آية ١٤٥ .

(٤) سورة الأنبياء آية ١٨ .

(٥) سورة الاسراء آية ٨١ .

إن اهل الباطل لو اجتمعوا ليشيروا التراب على السماء فسوف يشيرونه على انفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

فكم زالت رياض من رباها      وكم بادت نخيل فى الروابي  
ولكن نخلة الاسلام تنمو      على مر العواصف والعواذى  
ومجدك فى حى الاسلام باق      ببقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحي إلى ربى ﴾ أى الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة أقول فيها برأى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمضى ومن الشيطان والله ورسوله بريان منه . وقوله تعالى ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أى سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى ههنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين « انكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا » (١) .

قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ ولو ترى يا محمد إذ فرعوا من شدة أهوال يوم القيامة ، وما سيلقونه من شدائد تجعل الولدان شيبا فلا فوت لهم ولا مهرب ولا ملجأ ﴿ يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ (٢) وأخذوا من مكان قريب ﴿ قبل أن يعنوا فى الهروب الذى ظنوا أنهم يستطيعونه . ولأئمة التفسير فى هذا النص أقوال : قال الحسن البصرى حين خرجوا من قبورهم وقال مجاهد وعطية العوفى وقتادة من تحت أقدامهم وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - والضحاك يعنى عذابهم فى الدنيا وقال عبدالرحمن بن زيد يعنى قتلهم يوم بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة الكبرى وإن كان ما ذكر متصل بذلك . قوله تعالى ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أى إذا كان يوم القيامة قال الكافرون آمنا بالله ربا وبلاسلام ديننا وبمحمد نبيا ورسولا كما فى قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ (٣) ولهذا قال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ أى وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر - رقم ٤٤ - ٢٧٠٤ .

(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة السجدة آية ١٢ .

إلى قبول الايمان كما لا سبيل الى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد قال مجاهد ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ قال التناول لذلك . وقال الزهري : التناوش تناولهم الايمان وهم في الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى أما أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال وتعاطوا الايمان من مكان بعيد وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة عما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة . وقوله تعالى ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أى كيف يتأتى لهم ذلك وكيف يخادعون أنفسهم بما قالوا وهم الذين كفروا في الدنيا بكل ما آمنوا به في الآخرة بعدما بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . قوله تعالى ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ قال بالظن ، فتارة يقولون عن الرسول - ﷺ - انه شاعر ، وتارة يقولون انه ساحر ، وأخرى يقولون أنه كاهن ، إلى غير ذلك من الأباطيل التي قالوها رجما بالغيب ويحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿ <sup>(١)</sup> لقد كذبوا بالبعث والنشور والمعاد ﴾ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴿ <sup>(٢)</sup> قال قتادة ومجاهد يرجون بالظن لا بعث ولا جنة ولا نار وقوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ لائمة التفسير في النص أقوال .

قال الحسن البصرى والضحاك وغيرهما يعنى الايمان وقال السدى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن انس - رضى الله عنهم - وهو قول البخارى وجماعة والصحيح انه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ما طلبوه في الآخرة فمنعوا منه .

قوله تعالى ﴿ كما فعل بأشياهم من قبل ﴾ أى كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسول لما جاءهم بأس الله تمنوا ان لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سته الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ أى كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فان من مات على شك بعث عليه ومن مات على يقين بعث عليه .

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة الجاثية جزء من آخر الآية ٣٢

(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

## سورة فاطر

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية اجماعا ، عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين ، وعند الشاميين ست وأربعون ، وكلماتها سبعمائة وسبعون ، وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاث وثلاثون .

معظم مقصود السورة :

بيان تخليق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتركيز النعمة ، والتحذير من الجن وعداوتهم ، وتسلية الرسول ، وإنشاء السحاب وإثارته وحوالة العزة إلى الله ، وصعود كلمة الشهادة ، وتحويل الانسان من حال إلى حال ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وتخليق الليل والنهار ، وعجز الاصنام عن الربوبية ، وصفة الخلائق بالفقر والفاقة ، واحتياج الخلق في القيامة ، وإقامة البرهان والحجة ، وفضل القرآن ، وشرف التلاوة ، وأصناف الخلق في ميراث القرآن ، ودخول الجنة من أهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، وأن عاقبة الكفر الخسران ، والمثبة على العباد بحفظ السماء والأرض عن تخلخل الأركان ، وأن العقوبة عاقبة المكر ، والإخبار بأنه لو عدل ربنا في الخلق لم يسلم من عذابه أحد من الأنس والجان .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ وَاللّٰهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ ۖ ﴾<sup>(١)</sup> بلفظ الماضي ، موافقة لأول السورة ﴿ الْحَمْدُ لِلّٰهِ فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ جَاعِلِ ۖ ﴾ لأنها للماضي لا غير وقد سبق قوله ﴿ وَتَرَى الْفَلَكَ فِيْهِ مَوَاقِرَ ۖ ﴾<sup>(٢)</sup> بتقديم ( فيه ) موافقة لتقدم ﴿ وَمَنْ كُلْ تَآكُلُوْنَ ۖ ﴾<sup>(٣)</sup> وقد سبق قوله : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰتِ وَبِالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ ۖ ﴾<sup>(٣)</sup> بزيادة الباءات قد سبق .

قوله : ﴿ مَخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۖ وَيَعْدُهُ ۖ أَلْوَانُهَا ۖ ﴾ ثم ( ألوانه ) لأن الأول يعود إلى ثمرات والثاني يعود إلى الجبال وقيل حمر والثالث يعود إلى بعض الدال عليه ( من ) لأنه ذكر ( من ) ولم يفسره كما فسر في قوله ﴿ وَمَنْ الْجِبَالِ جَدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ ۖ فَاخْتَصَّ الثَّالِثُ بِالتَّذْكِيْرِ .

قوله ﴿ إِنْ اللّٰهُ بَعَادَهُ خَبِيرٌ بِصِيْرِ ۖ ﴾ بالتصريح وبزيادة اللام وفي الشورى ﴿ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بِصِيْرِ ۖ ﴾ لأن الآية المتقدمة في هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله مصرح باسمه سبحانه وتعالى وفي الشورى متصل بقوله ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللّٰهُ ۖ ﴾ فخص بالكناية ودخل اللام في الخبر موافقة لقوله ﴿ إِنْ رَبَّنَا

(١) سورة فاطر آية ٩ .

(٢) سورة فاطر من آية ١٢ .

(٣) سورة فاطر آية ٢٥ .

لغفور شكور ﴿ وقوله ﴿ جعلكم خلائف في الأرض ﴿ على الأصل قد سبق ﴿ أو لم يسيروا في ﴿ سبق ﴿ على ظهرها ﴿ سبق .

قوله : ﴿ فلن نجد لسنة الله تبديلا ولن نجد لسنة الله تحويلا ﴿<sup>(١)</sup> كرر ، وقال في الفتح : ﴿ ولن نجد لسنة الله تبديلا ﴿ وقال في سبحان ﴿ ولا نجد لستتنا تحويلا ﴿ التبديل تغيير الشيء عما كان عليه قبل مع بقاء مادة الأصل ، كقوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴿<sup>(٢)</sup> وكذلك ﴿ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴿<sup>(٣)</sup> .

والتحويل : نقل الشيء من مكان إلى مكان آخر ، وسنة الله لا تبدل ولا تحول فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين وذكر لهم عرضين وهو قوله ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴿<sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ استكبارا في الأرض ومكر السيء ﴿ .

وقيل : هما بدلان من قوله : ﴿ نفورا ﴿ فكما ثنى الأول والثاني ثنى الثالث ليكون الكلام كله على غرار واحد وقال في الفتح ﴿ ولن نجد لسنة الله تبديلا ﴿ فاقصر على مرة واحدة لما لم يكن ( التكرار موجبا ) .

وخص سورة سبحان بقوله : ﴿ تحويلا ﴿ لأن قريشا قالوا لرسول الله - ﷺ - : ( لو كنت نبيا لذهبت إلى الشام فأنها أرض المبعث والمحشر فهم النبي - ﷺ - بالذهاب إليها فهيا أسباب الرحيل والتحويل فتزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآيات ، وهي : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴿<sup>(٥)</sup> وختم الآيات بقوله ﴿ تحويلا ﴿ تطبيقا للمعنى .  
مناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه في آخر سابقتها هلاك المشركين وانزالهم منازل العذاب لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء في قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿<sup>(٦)</sup> .

قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَهُوَ الْعَزِيزُ

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٦ .

(٣) سورة ابراهيم من الآية ٤٨ .

(٤) سورة فاطر من الآية ٣٩ .

(٥) سورة الاسراء آية ٧٦ .

(٦) سورة الأنعام آية ٤٥ .

الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعَمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ  
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴿٢﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ  
مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٣﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ  
الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٤﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا  
حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ  
حَسَنًا فَإِنْ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ  
عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٧﴾

## معاني المفردات

(فاطر) : أصل الفطر الشق ، وقد شق العدم بإخراج الساء والأرض منه والمراد خلقهما  
ابتداءً ، (أولى أجنحة) : أصحاب أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع ) : والمراد اثنين اثنين فعدل عن هذا  
التركيب إلى قوله مثنى ، وكذا ثلاث ورباع ، وهذا أسلوب معروف في اللغة العربية . ( ما يفتح ) :  
المراد ما يرسل من رحمة ، ( تؤفكون ) : هذا اللفظ إن أخذ . الإفك بمعنى الصرف كان معناه : كيف  
تصرفون عن الإيمان إلى الكفر ، وإن قلنا مأخوذ من الإفك بمعنى الكذب كان المعنى من أين يقع لكم  
التكذيب بتوحيد الله ، ( تغرّنكم ) : تلهينكم ، ( الغرور ) : الشيطان ، ( حزبه ) : أصحابه  
المتحزبين له المجتمعين حوله ، ( سوء عمله ) : المراد عمله السيئ ، ( حسنا ) : صوابا ، ( فلا تذهب  
نفسك ) : فلا تتعاط أسباب ذهاب النفس أي هلاكها ، ( حسرات ) : جمع حسرة وهى هم النفس  
على فوات أمر بمعنى التلهف الشديد على الشيء الغائب .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى  
وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .  
لأئمة التفسير في قوله تعالى فاطر السموات والأرض أقوال : قال سفيان بسنده عن ابن عباس -  
رضي الله عنهما - : قال كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بشر  
فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أي بدأتها وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضا : ﴿ فاطر السموات

والأرض ﴿ اى بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقد حمد الله ذاته فهو خالق السموات والأرض ومبدعها على غير نظام سابق ، كما حمد ذاته لانه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، كما حمد ذاته فى أول سورة الانعام لانه الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، كما حمد ذاته فى أول سورة الكهف على نعمة إنزال الكتاب الذى لم يجعل له عوجا ، كما حمد ذاته لانه مالك السموات والأرض فى سورة سبأ ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات ولما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ .

وهنا يحمد ذاته لانه فاطر السموات والأرض ، وجاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ﴿ إن الله على شىء قدير ﴾ .

والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض فاللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك خاصمت وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى ولا إله إلا أنت ) .

ولك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، أحمدك على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك ، فيا الله عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ، وعاملنا بإحسانك لا يميزانك واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وبالإجابة جدير قوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ . ﴿ جاعل الملائكة رسلا ﴾ أى بينه وبين أنبيائه ، ﴿ أولى أجنحة ﴾ أى يطيرون بها ليلغوا ما أمروا به سريعا ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أى منهم من له أكثر من ذلك . كما جاء فى الحديث أن رسول الله - ﷺ - ( رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ﴾ (١) ولهذا قال جل وعلا ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقال الزهرى وابن جريج فى قوله تعالى ﴿ يزيد فى الخلق ما يشاء ﴾ يعنى حسن الصوت .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .  
الحديث فى مسند احمد ج ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود .

## بحث فى الملائكة

## الصفات الخلقية وما يتعلق بها

## فى مادة الخلق

قال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الذى ترويه السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنها - . ( خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم )<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

فبين - ﷺ - أن المادة التى خلقوا منها هى النور .

## متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أب البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾<sup>(٢)</sup> والمراد بالخليفة آدم - عليه السلام - وأمرهم بالسجود له حين خلقه . ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾<sup>(٣)</sup> .

## عظيم خلقهم

قال الله تعالى فى ملائكة النار : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(٤)</sup> .

## عظم خلق جبريل ( أمين الوحي )

روى الإمام احمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل ( الأشياء المختلفة الألوان من الدرواليواقيت )<sup>(٥)</sup> قال ابن كثير فى هذا الحديث : إسناده جيد . وقال سبحانه فى وصف أمين الوحي جبريل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾<sup>(٦)</sup> والمراد بالرسول الكريم هنا جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه وتعالى .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ - ٢٩٩٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة التحريم آية ٦ .

(٥) الحديث فى مسند أحمد ج ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود . انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) سورة التكوين الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .



## عظم خلق حملة العرش

روى أبو داود عن جابر عن عبد الله - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( أذن لي أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام )<sup>(١)</sup> .  
ورواه ابن أبي حاتم وقال ( تحقق الطير ) قال محقق المصابيح إسناده صحيح . وذكره الألباني في سلسلة الاحاديث الصحيحة .

## للملائكة أجنحة :

كما أخبرنا سبحانه ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك قال تعالى ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ وقد سبق ذكر الحديث التي يخبر فيها الرسول - ﷺ - أن لجبريل ستمائة جناح .  
جاءهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى ﴾<sup>(٢)</sup> قال ابن عباس ذو مرة : ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن ، وقيل ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر .  
وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك قال تعالى في قصة يوسف ﴿ فلما رأيته أكبره وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾<sup>(٣)</sup> .

## تفاوتهم في الخلق والمقدار

١ الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان وبعضهم له ثلاثة وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة . ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾<sup>(٤)</sup> سورة الصافات .

وقال في جبريل ﴿ إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾<sup>(٥)</sup> أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله . وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ففى صحيح البخارى عن رفاعه بن رافع : أن جبريل جاء النبي - ﷺ - فقال ( ما تعدون من شهد بدرًا فيكم ؟ قلت . خيارنا ، قال . وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة )<sup>(٦)</sup> .

(١) الحديث في سنن أبي داود ج ٥ ص ٩٦ كتاب السنة رقم ٤٧٢٧ ..

(٢) سورة النجم الآيتان ٥ ، ٦ .

(٣) سورة يوسف آية ٣١ .

(٤) سورة الصافات آية ١٦٤ .

(٥) سورة التكويد الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٦) الحديث في مسند احمد ج ٣ ص ٤٦٥ مسند رافع بين خديج . انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٣ باب قصة غزوة بدر باب شهد الملائكة بدرًا .

## لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث ، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله . قال تعالى وهو يحكى هذه الخرافة ويناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقتنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾ (١) سورة الصافات وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (٢) سورة الزخرف .

## لا يأكلون ولا يشربون

فقد أخبر سبحانه أن الملائكة جاءوا إبراهيم في صورة بشر فقدم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه . قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بمعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف وبشروه بغلام عليم ﴾ (٣) سورة الذاريات . وفي آية أخرى قال سبحانه ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تحف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ (٤) سورة هود .

## لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى في وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٥) سورة الانبياء .

ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفي الآية الأخرى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ (٦) تقول العرب : سئم الشيء : أى مله .

(١) سورة الصافات الآيات من ١٤٩ - ١٥٦ .

(٢) سورة الزخرف آية ١٩ .

(٣) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .

(٤) سورة هود الآية رقم ٧٠ .

(٥) سورة الانبياء الآية رقم ٢٠ .

(٦) سورة فصلت آية : ٣٨ .

منازلهم :

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ (١) .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيّطت بهم ، ووكلت إليهم ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ (٢) ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة كليلة القدر ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ (٣) .

عددهم :

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم الا الذى خلقهم ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ (٤) سورة المدثر .

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله - ﷺ - في البيت المعمور الذى في السماء السابعة : ( فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم ) (٥) رواه البخارى ومسلم .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - ( يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ) (٦) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك .

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التى تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملك لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

اسماؤهم :

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل واليك الآيات والأحاديث النبوية التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة .

(١) سورة الشورى آية ٥ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة القدر آية رقم ٣ ، ٤ .

(٤) سورة المدثر جزء من الآية ٣١ .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٩ كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله رقم ٢٦٤ ١٦٤ .

- انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٤ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب في شدة حر جهنم رقم ٢٩ - ٢٨٤٢ .

١ ، ٢ جبريل وميكائيل : قال تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾ (١) .

٣ - اسرافيل  
ومن الملائكة اسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين يذكرهم الرسول - ﷺ - فى دعائه كلما استيقظ من الليل ( اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم ) (٢) .

٤ - مالك  
ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقتض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾ (٣) .  
٥ - رضوان :

قال ابن كثير : ( وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحا به فى بعض الأحاديث ) .  
٦ ، ٧ - منكر ونكير

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر .  
٨ ، ٩ هاروت وماروت :

ومنهم ملكان سماهما الله باسم ( هاروت وماروت ) قال تعالى ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر ﴾ (٤) .

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنه للناس فى فترة من الفترات ، وقد نسجت حولهما فى كتب التفسير أساطير كثيرة لم يثبت شئ منها فى الكتاب والسنة ، فيكتفى فى معرفة أمرهما . بما دلت عليه الآية .

عزرائيل

جاء فى بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجد فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم ( قاله ابن كثير فى البداية والنهاية ) .  
رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد استدلالا بقوله تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٥) وما ذكره غير

(١) سورة البقرة الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه . رقم ٧٧٠ - ٧٧٠ .

(٣) سورة الزخرف آية ٧٧ .

(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٢ .

(٥) سورة ق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

صحيح ، فالرقيب والعيتد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعيتد أى ملكان حاضران شاهدان لا يغييان عن العبد وليس المراد أنها اسمان للملكين .  
هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (١) قال ابن كثير هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت . وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء ، ويقول سبحانه لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ (٢) .

ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شئ هالك إلا وجهه ﴾ (٣) وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا مالا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

### الصفات الخلقية

الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدى سفرة . كرام بررة ﴾ (٤) أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : ( سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم ) . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله - تعالى - وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم ، وقد وصفهم بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .  
روى الامام أحمد بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : ( الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأه . هو عليه شاق له أجران ) (٥) .  
استحياء الملائكة

من أخلاق الملائكة التى أخبرنا الرسول - ﷺ - بها : الحياء فى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة أن الرسول - ﷺ - كان مضجعا فى بيتها كاشفا عن فخذه أو ساقه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث . ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، فتحدث

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .

(٢) سورة غافر من الآية ١٦ .

(٣) سورة القصص من الآية ٨٨ .

(٤) سورة عبس آية ١٥ ، ١٦ .

(٥) الحديث فى مسند احمد ج ٦ ص ٤٨ مسند عائشة ( رضى الله عنها ) .

ثم استأذن عثمان فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل ابوبكر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك - فقال : ( ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة )<sup>(١)</sup> .  
قدراتهم

قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم فقد أرسل الله جبريل إلى مريم في صورة بشر واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا<sup>(٢)</sup> .

وابراهيم - عليه السلام - جاءته الملائكة في صورة بشر ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

وجاءوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه ، يقول ابن كثير : تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وقد كان جبريل يأتي الرسول - ﷺ - في صفات متعددة ، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي ، ( صحابي كان جميل الصورة ) وتارة في صورة أعرابي . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك ففي الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ، وفي الحديث أنه سأله عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها . وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم<sup>(٣)</sup> .

ورأت عائشة الرسول - ﷺ - واضعا يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه فلما سألت عن ذلك قال - ﷺ - ( ذاك جبريل وهو يقرئك السلام )<sup>(٤)</sup> أخرجه أحمد في مسنده وابن سعد في الطبقات بإسناد حسن .

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا ، ( أنه لما هاجر تائبا جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكا جاءهم في صورة آدمي يقول عليه الصلاة والسلام ( فجاءهم ملك في

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٦٦ كتاب فضائل عثمان بن عفان رضى الله عنه رقم ٣٦ - ٢٠٤١ .

(٢) سورة مريم الآيات ١٦ - ١٩ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام رقم ٨ - ١ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضى الله عنها رقم ٩٠ - ٢٤٤٧ .  
- انظر مسند احمد ج ٦ ص ١٢٦ مسند عائشة ( رضى الله عنها ) .

صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له <sup>(١)</sup> ولا بد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمى والقصة في صحيح مسلم باب التوبة .  
عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة ( ١٨٩ ) ألف ميل في الثانية الواحدة . أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك ، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر ، كان السائل يأتي إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة - سبحانه وتعالى - واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى ( مليار ) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

علمهم

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء ﷻ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم <sup>(٢)</sup> فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى ولكن الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الإنسان ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة ﷻ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون <sup>(٣)</sup> .  
اختصاص الملائكة بالأعلى :

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ففى سنن الترمذى ومسنند أحمد عن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : ( أتاني الليلة ربي - تبارك وتعالى - في أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كفتي حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات وما في الأرض فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : نعم في الكفارات والدرجات )  
والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وأسباب الوضوء في المكاره .

قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .  
وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإن تغفر لي وترحمني وتتوب علي وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٤٦ - ٢٧٦٦ .

(٢) سورة البقرة الآيتان ٣١ ، ٣٢ .

(٣) سورة الانقطار آية ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

والدرجات : إشفاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام<sup>(١)</sup> .  
قال ابن كثير فى هذا الحديث : ( هذا حديث المنام المشهور ومن جعله يقظة فقد غلط وهو فى السنن من طرق وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبد الله اليمامى وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور فى القرآن فى قوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى الى إلا أنا أنا نذير مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .  
فإن الاختصاص المذكور فى الحديث قد فسره الرسول - ﷺ - والاختصاص المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . . ﴾<sup>(٣)</sup> الآيات .

فالاختصاص المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

### منظمون فى كل شئونهم :

الملائكة منظمون فى عبادتهم وقد حثنا الرسول - ﷺ - على الاقتداء بهم فى ذلك فقال : ( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ) ؟ قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال : ( يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف )<sup>(٤)</sup> وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة .  
وفى يوم القيامة يأتون صفوفًا منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ ويقفون صفوفًا بين يدى الله تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾<sup>(٥)</sup> والروح جبريل .

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر فى صحيح مسلم ومسنند أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى - ﷺ - قال : ( أتى باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك )<sup>(٦)</sup> .

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ١ ص ٣٦٨ مسند ابن عباس .

(٢) سورة ص الآيتان ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) سورة ص الآيتان ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٤) الحديث فى مسند أحمد ج ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .

(٥) سورة النبأ آية ٣٨ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٨ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٣٣ - ١٩٧ .

- انظر مسند أحمد ج ٣ ص ١٣٦ مسند أنس بن مالك .



## عبادة الملائكة

نظرة في طبيعة الملائكة :

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ليس لديهم القدرة على العصيان ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(١)</sup> فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلة لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم . ولعل هذا هو السبب الذي دعا فريقا من العلماء الى القول بأن الملائكة ليسوا بمكلفين وأنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسوا بمكلفين بنفس التكاليف التي كلف بها أبناء آدم أما القول بعدم تكليفهم مطلقا فهو قول مردود فهم مأمورون بالعبادة والطاعة . ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(٢)</sup> وفي الآية إنهم يخافون ربهم والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾<sup>(٣)</sup> .

## مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله ، ولكنهم عباد مكرمون قال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾<sup>(٤)</sup> .

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم عيط لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون وعلى احتمال ان بعضهم تعدى طوره فإن الله يعذبه جزاء تمرده ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ولا يعترضون على أمر من أوامره بل هم عاملون بأمره مسارعون مجيبون ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول - ﷺ - لجبريل ( ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ ) قال : فنزلت : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة التحريم آخر الآية ٦ .

(٢) سورة النحل آية ٥٠ .

(٣) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .

(٤) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٣٧٧ رقم ٥١٦٧ . انظر مسند احمد ج ١ ص ٢٣٤ مسند ابن عباس .

نماذج من عبادتهم :

الملائكة عباد الله مكلفون بطاعته وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة وسنورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .  
التسبيح :

الملائكة يذكرون الله تعالى وأعظم ذكرهم التسبيح يسبحه تعالى حملة عرشه ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ﴾ (١) . كما يسبحه عموم الملائكة : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾ (٢) وتسبيحهم الله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٣) وكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة . وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ (٤) وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر . عن أبى ذر قال : سئل رسول الله - ﷺ - : أى الذكر أفضل ؟ قال : ( ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده ) (٥) .

صلاتهم :

عن رسول الله - ﷺ - قال ( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال ( يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف ) (٦) وفى القرآن عن الملائكة ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ (٧) وهم يقومون ويركعون ويسجدون فى مشكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال : ( بينا رسول الله - ﷺ - فى أصحابه إذ قال لهم : أسمعون ما أسمع قالوا : ما نسمع من شئ قال : إني لأسمع أطيظ السماء وما تلام ان تثط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم ) (٨) .

حجهم :

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها هذه الكعبة هى التى أسماها الله تعالى : البيت المعمور وأقسم به فى سورة الطور ﴿ والبيت المعمور ﴾ (٩) .  
قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : ( ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : ( ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفا لا

(١) سورة غافر آية ٧ .

(٢) سورة الشورى جزء من الآية ٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٠ .

(٤) سورة الصافات الأيتان ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله . رقم ٢٧٣١ - ٨٤ .

(٦) الحديث فى مسند احمد ج ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .

(٧) سورة الصافات آية ١٦٥ .

(٨) الحديث فى سنن ابن ماجه - ٢ ص ١٤٠٢ كتاب الزهد رقم ٤١٩٠ .

(٩) سورة الطور آية ٤ .

يعودون إليه آخر ما عليهم) <sup>(١)</sup> يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره الى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية والجزء من جنس العمل ) وذكر ابن كثير ان البيت المعمور بحيال الكعبة أى فوقها لواقع لواقع عليها وذكر أن فى كل سماء بيتا يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذي فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة وهذا الذى ذكره ابن كثير من ان البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب أخرج بن جرير من طريق خالد بن عرعة أن رجلاً قال، لعلى رضى الله عنه ما البيت المعمور؟ قال ( بيت فى السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمة فى السماء كحرمة البيت فى الأرض يصلى فيه كل يوم سبعون الفا من الملائكة ولا يعودون فيه أبداً ) <sup>(٢)</sup> .

قال فيه الشيخ ناصر الدين الألبانى ( الأحاديث الصحيحة ) ورجاله ثقات غير خالد بن عرعة وهو مستور ثم ذكر أن له شاهداً مرسلًا صحيحاً عن الرسول - ﷺ - عن رواية قتادة قال : ذكر لنا أن النبى - ﷺ - قال يوماً لأصحابه ( هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : فإنه مسجد فى السماء تحته الكعبة لوخر لخر عليهم ) <sup>(٣)</sup> .

ثم قال المحقق ( الألبانى ) وجملة القول ان هذه الزيادة ( حيال الكعبة ) ثابتة بمجموع طرقها .

خوفهم من الله وخشيتهم له :

ولما كانت معرفة الملائكة برهبهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له عظيمة قال الله فيهم : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

يبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سميان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة وقال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً فيكون أول من يرفع رأسه جبريل - عليه السلام - فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ) <sup>(٥)</sup> وفى معجم الطبرانى الاوسط بإسناد حسن عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( مررت ليلة أُسرى بى بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالى من خشية الله تعالى ) <sup>(٦)</sup> والجلس : كساء ييسط فى أرض البيت ) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الايمان باب الاسراء والمعراج رقم ٢٥٩ - ١٦٢ .

(٢) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٩ ، ١٠ تفسير سورة الطور .

(٣) انظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١٠ تفسير سورة الطور قوله تعالى ﴿ والبيت المعمور ﴾ .

(٤) سورة الانبياء آخر آية ٢٨ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير - سورة سبأ ج ٣ ص ٥٣٧ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥ تفسير سورة الاسراء .

## الملائكة والإنسان

## الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد وسفك دماء وعصيان وكفر فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكماً لا يعلمونها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١).

سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٢) وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ فسجد للملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣).

توجيه الملائكة لآدم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - ( خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها نجيتك ونجية ذريتك فذهب فقال السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ) قال ( فزادوه ورحمة الله ) (٤) متفق عليه .

غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفي آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به فأعلمتهم الملائكة .  
ففي مستدرک الحاكم ومعجم الطبرانی الأوسط بإسناد صحيح عن أبي - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - ( لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترا وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده ) (٥)  
وقد ثبت في صحاح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبي عامر الذي استشهد في معركة أحد فقد قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد مقتل حنظلة ( إن صاحبكم تغسله الملائكة ، يعني حنظلة ) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب فقال رسول الله - ﷺ - ( لذلك غسلته الملائكة ) (٦) رواه الحاكم .

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة ص الآيتان ٧٠ ، ٧١ .

(٣) سورة ص آية ٧٢ .

(٤) الحديث في صحيح مسام ج ٤ ص ٢١٨٣ - ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفتها باب يدخل الجنة اقوام رقم ٢٨ - ٢٨٤١ .

(٥) الحديث في كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ص ٥٤٥ كتاب التاريخ باب ذكر آدم عليه السلام .

(٦) الحديث في كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة ج ٣ ص ٢٠٤ باب ذكر مناب حنظلة ابن عبد الله .

## الملائكة وبنو آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحي من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته ويتزعمون روحه إذا جاء أجله وستناول ذلك بشيء من التفصيل .

## دورهم في تكوين الإنسان

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ) (١) .

وفى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق ( إن أحركم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ) (٢) .

وفى الصحيحين أيضا عن أنس بن مالك عن النبى - ﷺ - قال : ( وكل الله تعالى بالرحم ملكا فيقول : ( أى رب : نطفة : أى رب : علقه ، أى رب : مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه ) (٣) . حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (٤) .

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه - خلوا عنه .

وقال مجاهد : ( ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك إلا شيء أذن الله فيه فيصيه وقال رجل لعلى ابن أبى طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال ( أى على ) : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه وإن الأجل جنة حصينة ) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر . باب كيفية الخلق الأدمى رقم ٣ - ٢٦٤٥ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية خلق الأدمى رقم ١ - ٢٦٤٣ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٨ كتاب القدر باب كيفية خلق ابن آدم رقم ٥ - ٢٦٤٦ .

(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ ، ١١ .

والمعقبات المذكورة فى آية الرعد هى المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ (١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتى أجله المقدر له .

يلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه ﴾ (٢) .

قال ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (٣) وقد يأت بالوحى غير جبريل - وهذا قليل - كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : ( بينما جبريل قاعد عند النبى - ﷺ - سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك أنزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما بنى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته ) (٤) . وفى التاريخ لابن عساكر بإسناد صحيح عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال ( أتانى ملك فسلم على نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ) (٥) وفى المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبى بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : ( أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت زدنى ، فقال اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت زدنى كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف كلها شاف كاف ) (٦) .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبى :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولا أو نبيا فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم كما أرسله إلى أم اسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها ورأى الصحابة جبريل فى صورة أعرج ، وأرسل الله ملكا إلى ذلك الرجل الذى زار أخا له فى الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه وهذا كثير وإنما المراد التنبيه . كيف كان يأتى الوحى الرسول - ﷺ - :

سأل الحارث بن هشام - رضى الله عنه - الرسول - ﷺ - فقال يا رسول الله كيف يأتىك الوحى ؟

(١) سورة الانعام آية ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية ٩٧ .

(٣) سورة الشعراء الآيتان ١٩٣ ، ١٩٤ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين باب فضل فاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤ - ٨٠٦ .

(٥) الحديث فى تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج ٤ ص ٩٨ مسند حذيفة بن اليمان .

(٦) الحديث فى مسند أحمد ج ٥ ص ١٢٢ مسند أنس بن مالك عن أبى بن كعب .

فقال الرسول - ﷺ - : ( أحيانا يأتينى مثل صلصة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قاله وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعنى ما يقول )<sup>(١)</sup> .

فجبريل كان يأتي الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو فى حالته الملكية وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية الى البشرية وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : ( بينما أنا امشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا المنك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى ) والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء وهاتان المراتان مذكورتان فى سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتमारونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طفى ﴾<sup>(٢)</sup> .

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى فقد كان يأتيه فى كل عام فى رمضان فى كل ليلة من لياليه فيدارسه القرآن ) والحديث صحيح أورده البخارى فى صحيحه<sup>(٣)</sup> .

إمامته للرسول

وقد أم جبريل الرسول - ﷺ - كى يعلمه الصلاة كما يريد الله تعالى :  
ففى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : ( نزل جبريل فأمنى فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس مرات )<sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : ( أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشئ مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظل الشئ مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشئ مثليه وصل بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصل بى العشاء الى ثلث الليل ، وصل بى الفجر فأسفر ثم التفت إلى وقال : يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين )<sup>(٥)</sup> رواه

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة والحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨١٦ ، ١٨١٧ كتاب الفضائل باب عرق النبی رقم ٢٣٣٣ .

(٢) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٦٠٤ تفسير سورة النجم .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٥) الحديث فى مسند احمد ج ١ ص ٣٣٣ مسند ابن عباس .

انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ١٩٣ كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة .

الامام أحمد ولم يعلمه كيفية الصلاة عمليا وأوقاتها فحسب بل علمه الوضوء ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة ان الرسول - ﷺ - قال (أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى فعلمنى الوضوء والصلاة فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه) (١).

رقيته للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال قال رسول الله - ﷺ - (أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم قال : بسم الله أريقك من كل شىء يؤذك من شر كل ذى نفس وعين حاسد . . بسم الله أريقك والله يشفيك) (٢).

أعمال أخرى

ومن ذلك انه حارب مع الرسول - ﷺ - فى بدر والخندق وصحب الرسول - ﷺ - فى الاسراء وغير ذلك .

تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله بكل انسان قرينا من الملائكة وقرينا من الجن ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : ( وإياى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير ) (٣) ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله قيضه الله له ليهديه ويرشده وقرين الانسان من الملائكة وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه ، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن للشيطان لمة بآدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فيأعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فيأعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ (٤) .

قال ابن كثير بعد سوجه لهذا الحديث : هكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما

جميعا .

ويقول رسول الله - ﷺ - ( إذا آوى الانسان الى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك : اختم بخير ويقول الشيطان : اختم بشر ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ( يعنى النوم ) طرد الملك الشيطان

(١) الحديث فى المستدرك للحاكم ج ٣ ص ٢١٧ كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب زيد الحب بن حارثة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧١٨ كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى رقم ٣٩ - ٢١٨٥ .  
- الحديث فى مسند احمد ج ٢ ص ٥٨ مسند أبى سعيد الخدرى انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٢٢٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٩ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٦٧ ، ٢١٦٨ كتاب صفات المنافقين واحكامهم رقم ٦٩ - ٢٨١٤ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٢٨٨ كتاب التفسير - تفسير سورة البقرة رقم ٤٠٧٣ .



وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ! ويقول الشيطان افتح بشر ! فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعدما أماتها ولم يمتهها فى منامها ، الحمد لله الذى يمस्क التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمस्क السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله يمस्क السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه<sup>(١)</sup> ذكره الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر .  
هذه الأحاديث توجهنا الى الاكثار من الأعمال الخيرة التى تصلح نفوسنا وتقرب الملائكة منا ففى قرب الملائكة منا خير عظيم فقد كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسلة )

### حفظ اعمال ابن آدم

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وإنا عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾<sup>(٢)</sup> وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه يحصيان عليه أعماله وأقواله ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾<sup>(٣)</sup> ومعنى قعيد أى مترصد ورقب عتيد : أى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت . والظاهر أن الملائكة الوكيلة بالإنسان ، تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال لا يتركون شيئا لقوله تعالى ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل شيء صدر منه ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين ﴿ يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾<sup>(٤)</sup> وفى مسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن إن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث<sup>(٥)</sup> .  
وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكلك بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ

(١) الحديث فى كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥٤٨ كتاب الدعاء . باب الذكر عند الاضطجاع والدعاء عند اليقظة .

(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة ق الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية ٤٩ .

(٥) الحديث فى مسند احمد ج ٣ ص ٤٦٩ مسند باب بن الحارث الخزنى .

السيئات ، فاعمل ما شئت أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (١) .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت . . شربت ذهبت . . جئت رأيت . . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقي سائرته ( وذلك قوله تعالى ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ ) وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يثن في مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الأنين فلم يثن أحمد حتى مات رحمه الله .

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات :  
في معجم الطبراني الكبير بإسناد حسن عن أبي أمامة أن رسول الله - ﷺ - قال : ( إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء فإن ندم واستغفر الله منها القاهها والا كتبت واحدة ) (٢) .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟  
استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى ﴿ يعلمون ما تفعلون ﴾ فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة .

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه بقول الرسول - ﷺ - : ( قال الله عز وجل : إذا هم عبدي بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا ) (٣) وفي الحديث الآخر المتفق عليه أيضا ( قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة [ وهو أبصر به ] فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها فاكتبوها له حسنة . إنما تركها من جرائي ) (٤) .

شبهة :

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (٥) فالجواب : إن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى فهو وإن خفى عن البشر فلا يعلم أحدهم ما في ضمير أخيه فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور وهو الإرادة والقصد أما بقية الأمور كالأعتقادات فلا دليل على كونها تعلمها .

(١) سورة الاسراء الايتان ١٣ ، ١٤ .

(٢) انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٨ ص ٢١٨ رقم ٧٧٦٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٣ - ١٢٨ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت . وإذا هم بسيئة لم تكتب رقم ٢٠٥ - ١٢٩ .

(٥) سورة غافر آية ١٩ .

دعوة العباد إلى فعل الخير :

في صحيح البخارى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبى قال : ( ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا )<sup>(١)</sup> .  
 وذكر ابن حجر في شرحه للحديث رواية أخرى عن أبي الدرداء وفيها ( وما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا غربت شمسه الا وبجنتها ملكان يناديان )<sup>(٢)</sup> فذكر مثل حديث أبي هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم :

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ففي البخارى ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - انه سمع النبى - ﷺ - يقول : ( إن ثلاثة من بنى اسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى أراد الله ان يتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عني الذى قدرنى الناس فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو قال البقر فأعطى ناقة عشراء ( أى حامل ) فقال : بارك الله لك فيها فأتى الأقرع : فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عني الذى قدرنى الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك قال أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا فأنج هذا وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم .  
 ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيبته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى .

فقال : الحقوق كثيرة فقال : كأتى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرک الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كائرا عن كابر .

فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .  
 وأتى الأقرع فى صورته وهيبته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيبته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرک شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته الله عز وجل

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب المسك والمنفق رقم ٥٧ - ١٠١٠ .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٦٦ ، ٧٧ باب الترغيب فى الانفاق فى وجوه الخير .. الخ

فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتكم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك (١) .

### الملائكة تنزع روح الانسان :

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (٢) والذين يقبضون الارواح اكثر من ملك ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٣) وينزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعا شديدا عنيقا بلا رفق ولا هوادة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٤) وقال ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٥) وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (٦) أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رقيقا .

### تبشيرهم المؤمنين عند النزاع :

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تنزل عليه تبشره وتبته ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ (٧) وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ (٨) . موسى يفتأ عين ملك الموت :

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك قال : ( فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها قال : ( فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت وقد فقا عيني قال : ( فرد الله إليه عينه وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة ( وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة ) قال : ثم مه ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب (٩) .

(١) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٦ ص ٥٠٠ باب (٥١) باب حديث ابرص أوعمى وأقرع فى بنى اسرائيل .

- انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ ، ٢٢٧٧ كتاب الزهد والرقائق رقم ١٠ - ٢٩٦٤ .

(٢) سورة السجدة آية ١١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٥) سورة الأنفال آية ٥٠ .

(٦) سورة محمد آية ٢٧ .

(٧) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١ .

(٨) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام رقم ١٥٨ - ٢٣٧٢ .

وملك الموت إنما جاء موسى في صورة انسان كما في رواية صحيحة في المسند وهذا الذي فعله موسى لأن الأنبياء يخبرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية لأن عقولهم لا تستسيغها وقد نسوا أن أول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك في مطلع سورة البقرة فإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾ (١).

سؤالهم العبد في القبر وما يكون منهم في المحشر والجنة والنار :

فهناك منكر ونكير اللذان يسألان العبد في قبره عن ربه ورسوله ودينه ، ومنهم ملائكة ينعمون العباد في قبورهم ، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين في يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل في الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار في النار . وسلامهم على المؤمنين .

### محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل في السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض ) (٢).

### تسديد المؤمن :

روى الترمذى وابن ماجه أن الرسول - ﷺ - قال : ( من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسده ) (٣).

### صلاتهم على المؤمنين

قال تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ (٥) والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبي العالية وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ولا منافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فيمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم .

### نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

### معلم الناس الخير !

روى الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح عن أبي أمامة أن الرسول - ﷺ - قال : ( إن الله

(١) سورة آل عمران آية ٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٧٣ ، ١٧٤ كتاب التوحيد . الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبدا رقم ١٥٧ - ٢٦٣٧ .

(٣) الحديث في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٧٧٤ كتاب الأحكام باب ذكر القضاة : تم ٣٢٠٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

وملائكته ، حتى النملة ، في جحرها ، وحتى الحوت في البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير<sup>(١)</sup> ( صحيح الجامع )

الذين يؤمنون المساجد للصلاة :

في صحيح مسلم ( أن الملائكة تصلي على الذي يأتي المسجد للصلاة فتقول : اللهم صل عليه ،  
واللهم ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه )<sup>(٢)</sup> .

الذين يصلون في الصف الأول :

في سنن أبي دواد وابن ماجه وسنن الإمام احمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ -  
قال : ( إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول )<sup>(٣)</sup> .

الذين يمكنون في مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود في سننه والنسائي بإسناد صحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ -  
قال : ( الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه الذي صلى فيه ، ما لم يحدث ، أو يقيم : اللهم  
اغفر له ، اللهم ارحمه )<sup>(٤)</sup> .

الذين يسدون الفرج بين الصفوف

في سنن ابن ماجه وسند احمد ومستدرك الحاكم بإسناد حسن عن عائشة أن الرسول - ﷺ - قال :  
( إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة )<sup>(٥)</sup>  
( صحيح الجامع ) .

الذين يتسحرون

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن  
رسول الله - ﷺ - قال : ( إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين )<sup>(٦)</sup> ( صحيح الجامع ) .

الذين يصلون على النبي

روى أحمد في سننه ، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة بإسناد حسن أن رسول الله - ﷺ -

(١) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ١٥٤ أبواب العلم رقم ٢٨٢٦ .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٩ كتاب المساجد ومواقع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة رقم ٢٧٢ - ٦٤٩ .

(٣) الحديث في سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٧ كتاب إقامة الصلاة . انظر مسند احمد ج ٤ ص ٢٦٩ مسند النعمان بن بشير .

(٤) الحديث في سنن الترمذي ج ٢ ص ٤٣ كتاب الصلاة باب الترغيب في الجلوس في المسجد وانتظار الصلاة .

(٥) الحديث في سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٥ كتاب إقامة الصلاة .

(٦) الحديث في صحيح ابن حبان ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٣٤٥٨ .

قال : ( ما من عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على فليقل العبد من ذلك أو يكثر )<sup>(١)</sup> ( صحيح الجامع ) .  
الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله - ﷺ - قال : ( ما من امرئ مسلم يعود مسلماً إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك يصلون عليه في أى ساعات النهار كان ، حتى يمسي ، وأى ساعات الليل كان ، حتى يصبح )<sup>(٢)</sup> ( صحيح الجامع ) .  
التأمين على دعاء المؤمنين

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الاجابة . ففى سنن ابن ماجة عن أبي الدرداء عن النبي - ﷺ - قال . ( دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه . كلما دعا له بخير قال : آمين ولك بمثله )<sup>(٣)</sup> . ولما كان الدعاء المؤمن عليه حرياً بالاجابة فإنه لا ينبغي للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر .  
ففى صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : ( لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون )<sup>(٤)</sup> .

استغفارهم للمؤمنين :

قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾<sup>(٥)</sup> .

قال سبحانه ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(٦)</sup> .

شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنتهم :

ففى صحيح البخارى ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : ( إن الله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى - تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنتهم إلى السماء الدنيا . . . . الحديث )<sup>(٧)</sup> .

(١) الحديث فى مسند احمد ج ٣ ص ٤٤٥ مسند عامر بن ربيعة عن أبيه .

(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٤ ص ٢٦٨ باب ذكر استغفار الملائكة لعائد المريض . رقم ٢٩٤٧ .

(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٩٦٦ رقم ٢٨٩٥ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر رقم ٩٢٠ .

(٥) سورة الشورى آية ٥ .

(٦) سورة غافر الآيتان ٧ ، ٩ .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٦٩ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٥ .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده )<sup>(١)</sup> .

وفي مسند الامام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعا ( إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع )<sup>(٢)</sup> أى تتواضع له .

فالأعمال الصالحة تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد في حالة عالية من السمو الروحي لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما في الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - ( لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة )<sup>(٣)</sup> ( صحيح الجامع ) .

تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يؤمنون الجمع الأول فالأول ففى صحيح البخارى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الامام طواوا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر )<sup>(٤)</sup> .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى عن رفاعه بن رافع الزرقى قال ( كنا يوما نصلى وراء النبى - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة ، قال ( سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف : قال من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها )<sup>(٥)</sup> فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لكونهم بضعة وثلاثين ملكا .

#### تعاقب الملائكة فينا

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ويشهدون الجمع والجماعات يتعاقبون فينا فطائفة تأتى ، وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيح البخارى ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩ - ٣٨ .

(٢) الحديث فى مسند احمد ج ٤ ص ٢٦٩ مسند صفوان بن عسال .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر رقم ١٢ ، ١٣ - ٢٧٥٠ .

(٤) انظر مسند احمد ج ٣ ص ٨١ مسند أبى سعيد الخدرى .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ١٤٩ - ٦٠٠ .



فينسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، فيقول كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون<sup>(١)</sup> .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾<sup>(٢)</sup> وقرآن الفجر أى صلاة الفجر كما قال المفسرون .

### تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من ينزل من السماء حين يُقرأ القرآن ، فعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن أسيد ابن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مريده ( الجرن ) إذ جالت ( وثبت ) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى ( ابنه ) فقممت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأس فيها أمثال السرج عرجت فى الجوح حتى ما أراها ، فقال ، فغدوت على رسول الله - ﷺ - فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل أقرأ فى مريدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله - ﷺ - : ( اقرأ يا ابن حفيير ) قال : فقرأت ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - : ( اقرأ يا ابن حضير ) قال فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - : ( اقرأ يا ابن حضير ) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجوح حتى ما أراها فقال رسول الله - ﷺ - : ( تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم )<sup>(٣)</sup> ( رواه البخارى ومسلم ) .

### يبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال : ( إن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أمتى السلام )<sup>(٤)</sup> .  
تبشيرهم المؤمنين

فقد حملوا البشرى إلى ابراهيم بأنه سيرزق بذرية صالحة قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾<sup>(٥)</sup> . وبشرت زكريا ﴿ فنادته الملائكة وهم قائم يصلى فى المحراب أن الله يشرك بيبكى ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١٧٤ كتاب التوحيد .

الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما . رقم ٦٣٢ - ٢١٠ .

(٢) سورة الاسراء آية ٧٨ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . رقم ٢٤٢ - ٧٩٦ .

(٤) الحديث فى مسند احمد ج ١ ص ٤٥٢ مسند عبد الله بن مسعود .

(٥) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .

(٦) سورة آل عمران آية ٣٩ .

وليس هذا مقصورا على الانبياء والمرسلين ، بل قد تبشر المؤمنين ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال ( زار رجل أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته ( طريق ) ملكا ، فلما أتى عليه ، قال أين تريد ؟ قال : أريد أخا فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله عز وجل قال : فى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه (١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - ( أتانى جبريل ، فقال ، يا رسول الله أهذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببیت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيها ولا نصب ) (٢) .

الملائكة والرؤيا فى المنام :

روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما قال : ( كان الرجل فى حياة النبی - ﷺ - إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله - ﷺ - فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله - ﷺ - ، وكنت غلاما شابا ، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - فرأيت فى النوم كأن ملكين اخذاني فذهبا بى إلى النار . فإذا هى مطوية كطى البثر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال فلقينا ملك آخر فقال لى : لا ترع ) ( أى لا تخف ) (٣) .

يقاتلون مع المؤمنين ويشتبونهم فى حروبهم

قال تعالى ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (٤) وقال تعالى ﴿ ولقد نصركم الله بيدر وانتم أذلة فأتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ (٥) .

وروى البخارى بسنده أن رسول الله - ﷺ - قال فى يوم بدر ( هذا جبريل أخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب ) (٦) وقد بين سبحانه الحكمة والغاية من هذا الاعداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال أعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ (٧) وقال

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة باب فضل الحب فى الله . رقم ٣٨ - ٢٥٦٧ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٨٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٧١ - ٢٤٣٢ .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٠ باب فضائل اصحاب النبی - ﷺ - باب مناقب عبد الله بن عمر .

(٤) سورة الأنفال آية ٩ .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٣ كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدر . وكذلك غزوة أحد ص ١٢٠ ج ٥ أيضا .

(٧) سورة الأنفال آية ١٢ .

تعالى ﴿ وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾<sup>(١)</sup> ( آل عمران ) وقد حاربت الملائكة في مواقع أخرى ، ففي غزوة الخندق أرسل الله ملائكته . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾<sup>(٢)</sup> والجنود التي لم يروها هي الملائكة وبين في الصحاح وفي غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - يغتسل ، فقال للرسول - ﷺ - وعلى ثنایا جبريل النقع ( الغبار ) ( أوضعتم سلاحكم ، فإننا لم نضع سلاحنا بعد ، فقال إلى أين فأشار إلى بني قريظة )<sup>(٣)</sup> .

### حمايتهم للرسول ﷺ

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قال : فقل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب ، قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلي يزعم ليظاً على رقبته . قال فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال فقل له مالك ، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - ( لو دنا مني لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا )<sup>(٤)</sup> .

### حمايتهم ونصرهم لصالحى العباد وتفريج كربهم

ذكر ابن أبي الدنيا في كتاب المجابين في الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبي - ﷺ - من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجراً يتجر بمال له. ولغيره يضرب به في الأفاق وكان ناسكاً ورعاً فخرج مرة فلقبه لص مقنع في السلاح فقال له ضع ما معك فإنى قاتلك قال فما تريد من دمي ؟ فشأنك والمال قال أما مالك فلى ولست أريد إلا دمك قال أما إذا أبيت فذرني أصلى أربع ركعات فكان من دعائه في آخر سجدة أن قال يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد ، أسألك بعزك الذى لا يرأى وبملكك الذى لا يضام وينورك الذى ملأ أركان عرشك ان تكفينى شر هذا اللص ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى - ثلاث مرات - فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال قم فقال من أنت بأبى أنت وأمى ، فقد أغاثنى الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقل لى دعاء مكروب فسألت الله

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٩ .

(٣) الحديث في صحيح البخارى ج ٥ ص ١٤٢ كتاب المغازى باب مرجع النبي - ﷺ - من الأحزاب ومخرجه الى بني قريظة .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب قوله إن الانسان ليطغى . رقم ٣٨ - ٢٧٩٧ .

أن يولبنى قتله قال الحسن فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب (١).

### شهود الملائكة لجنازة الصالحين

قال الرسول - ﷺ - في سعد بن معاذ ( هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه ) رواه النسائي عن ابن عمر بإسناد صحيح (٢).

### اظلالها للشهيد بأجنحتها

في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما قتل أبى جعلت اكشف الثوب عن وجهه وابكى ، وينهونى ، والنبي - ﷺ - لا ينهانى فجعلت عمى فاطمة تبكى ، فقال النبي - ﷺ - : ( تبكين أو لا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه ) (٣).

### حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : ( على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال ) (٤) وفيه أيضا ليس من بلد الا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق (٥).

### نزول النبي عيسى بصحبة ملكين :

( ينزل النبي عيسى بن مريم فى آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (المهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس وزعفران ) واضعا كفيه على أجنحة ملكين ) ( رواه مسلم فى صحيحه والترمذى فى سنه ) (٦).

(١) ابن ابى الدنيا كتاب المجائدين فى الدعاء .

(٢) الحديث فى سنن النسائي فى ج ٢ ص ٨٢ كتاب الجنائز باب ضمة القبر .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٩١ باب فى الجنائز .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٣ باب حرم المدينة . باب لا يدخل المدينة الدجال ص ٢٨ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٨ باب حرم المدينة .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة بمعناه ج ٤ ص ٢٢٢١ رقم ٢٨٩٧ .

- الحديث فى سنن الترمذى بمعناه ج ٣ ص ٣٤٤ ابواب القدر باب ما جاء فى نزول عيسى ابن مريم .

## واجب المؤمن تجاه الملائكة

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذى يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسئ اليهم ويؤذيهم .

## البعد عن الذنوب والمعاصي

أعظم ما يؤذى الملائكة الذنوب والمعاصي والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهن أن يخلص المرء دينه لربه ، ويتجنب كل ما يغضبه .  
ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التى يعصى فيها الله تعالى أو التى يوجد فيها ما يكرهه الله ويغضبه ، كالأنصاب والتماثيل والصور ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران .  
روى البزار باسناد صحيح عن بريدة - رضى الله عنه - أن الرسول - ﷺ - قال : ( ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران والمتضمخ بالزعفران ، والجنب )<sup>(١)</sup> .  
وقال ابن كثير فى البداية ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله - ﷺ - انه قال : ( لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب ) وفى رواية ( لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس )<sup>(٢)</sup> ( البداية والنهاية ) .

## الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم

ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ روى البخارى ومسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : ( من أكل الثوم والبصل والكراث فلا يقترب من مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم )<sup>(٣)</sup> .  
وقد بلغ الأمر بالرسول - ﷺ - أن أمر بالذى جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبث منه - أن يخرج إلى البقيع ( وهذا ثابت فى صحيح مسلم )<sup>(٤)</sup> .

## النهي عن البصق عن اليمين فى الصلاة

عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : ( إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه فإنه إنما

( ١ ) الحديث فى زوائد البزار ج ٣ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ رقم ٢٩٢٩ وقال البزار : لا نعلمه يروى عن بريدة الا من هذا الوجه ولا نعلم رواه عن يوسف الا عبد الله .

( ٢ ) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٢١٥ باب التصاوير .

( ٣ ) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراتا ونحوه رقم ٥٦٤ - ٧٤ .

( ٤ ) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٩٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب من أكل ثوما أو بصلا أو كراتا أو نحوها . رقم ٥٦٧ - ٧٨ .

يناجي الله مادام في مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ، وليصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها<sup>(١)</sup> .

### موقف الملائكة من الكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة ، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين ، بل يعادونهم ويحاربونهم ، ويزلزلون قلوبهم كما حدث في معركة بدر ، والاحزاب .

### انزال العذاب بالكفار

عندما كان يكذب الرسول ويصر قومه على التكذيب كان الله ينزل في كثير من الأحيان بهم عذابه ، وكان الذي يقوم بالتعذيب أحيانا الملائكة .

### اهلاكهم قوم لوط

قال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببيعد ﴾<sup>(٢)</sup> روى ابن كثير في تفسيره عن مجاهد قال : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعته ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافي جناحه الأيمن<sup>(٣)</sup> .  
لعن الكفرة

قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾<sup>(٤)</sup> ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب بل قد تلعن من فعلوا ذنوبا معينة ومن هؤلاء .

### لعن الملائكة المرأة التي لا تستجيب لزوجها

في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح )<sup>(٥)</sup> .

(١) الحديث في صحيح البخاري ج ١ ص ١١٣ كتاب الصلاة باستقبال القبلة .

(٢) سورة هود آية ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) الحديث في تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٢ تفسير سورة هود - طبعة الشعب - .

(٤) سورة البقرة آية ١٦١ .

(٥) الحديث في صحيح البخاري ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .

لعنهم الذي يشير الى أخيه بحديدة  
 روى مسلم عن أبي هريرة قال قال أبو القاسم ( من أشار الى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ،  
 وان كان أخاه لأبيه وأمه )<sup>(١)</sup> ( لما فيه من ترويع لأخيه ) .

لعنهم من سب أصحاب الرسول - ﷺ -  
 أخرج الطبراني عن ابن عباس بإسناد حسن أن الرسول - ﷺ - قال : ( من سب أصحابي فعليه  
 لعنة الله والملائكة والناس أجمعين )<sup>(٢)</sup> .

لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله  
 في سنن النسائي عن ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - قال : ( من قتل عمدا ففقد يديه ، فمن  
 حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين )<sup>(٣)</sup> فالذي يحول دون تنفيذ حكم الله في قتل  
 القاتل عمدا فعليه هذه اللعنة فكيف بالذي يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟ !

#### رؤية الملائكة

لا يستطيع بنو آدم أن يروا الملائكة ، لأن الله لم يعط أبصارهم القدرة على رؤيتهم .  
 ولم ير الملائكة في صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول - ﷺ - فإنه رأى جبريل مرتين في  
 صورته التي خلقه الله عليها كما سبق ، ولا يستطيع البشر رؤيتهم إلا إذا تمثل الملك في صورة بشر .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٠ كتاب البر والصلة والآداب . باب النهي عن الإشارة بالسلاح الى مسلم رقم ٢٦١٦ - ١٢٥ .

(٢) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ج ١٢ ص ١٤٢ رقم ١٢٧٠٩ .

(٣) الحديث في سنن النسائي كتاب الخلود باب من قتل بحجر أو سوط ج ٨ ص ٣٥ .

## ( لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة )

والله لا يرسل رسله من الملائكة لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر ، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً .  
قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾<sup>(١)</sup> .

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً .  
وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة فإنه لا يتزهم بصورهم الملائكية ، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم .  
﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون \* ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد أخبر تعالى أن طلب الكفرة رؤية الملائكة ومجيء رسول من الملائكة إنما هو تعنت وليس طلباً للهداية ، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا قال تعالى : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾<sup>(٣)</sup> .

## الملائكة وبقية المخلوقات :

## حملة العرش

العرش أعظم المخلوقات محيط بالسموات وفوقها ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾<sup>(٤)</sup> ، ويحمله من الملائكة ثمانية ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾<sup>(٥)</sup> .

## ملك الجبال :

وللجبال ملائكة . وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - يستأمره في إهلاك أهل مكة كما ورد في صحيح البخاري ومسلم . عن عائشة أنها قالت للنبي : ( هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ ) .

(١) سورة الإسراء آية : ٩٥

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٨ - ٩

(٣) سورة الأنعام آية ١١١

(٤) سورة طه آية : ٥

(٥) سورة الحاقة من الآية : ١٧



قال : ( لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا محموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ( موضع قرب مكة ) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني ، فنظرت فإذا منها جبريل . فناداني فقال : إن الله - عز وجل - قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش ( جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا متى ) فقال النبي - ﷺ - ( بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئا )<sup>(١)</sup> .

### الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق

يقول ابن كثير : ( في البداية والنهاية ) وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب - جل جلاله - .

والملائكة موكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **والصافات صفا \* فالزاجرات زجرا \* فالتاليات ذكرا** ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ **والنازعات غرقا \* والناشطات نشطا \* والساجحات سبحا \* فالسابقات سبقا \* فالمدبرات أمرا** ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا \* فالحاملات وقرا \* فالجاريات يسرا \* فالمقسمات أمرا** ﴾<sup>(٤)</sup> .

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب بدء الخلق » باب : « إذا قال أحدكم آمين » ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه ، وانظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب : « ما لقى النبي - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين » ج ٣ ص : ١٤٢٠ - ١٤٢١ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة حديث رقم ١٧٩٥/١١١ غير أنه ورد فيه بعد قول ملك الجبال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك .. الخ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١ - ٢ - ٣ .

(٣) سورة النازعات : ١ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات : ١ - ٤ .

### المفاضلة بين الملائكة والبشر

قال الإمام ابن تيمية ( شيخ الإسلام ) : أن صالحى البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا ، وحياتهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلس لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .  
والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الملائ الأعلى ، منزهون عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .  
قال ابن القيم : ( وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل ) .  
( من كتاب عالم الملائكة الأبرار - عمر سليمان الأشقر ) .

### الأمر كله لله

قال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

على كل مؤمن أن يعلم علم اليقين بل عين اليقين ، أنه لا تهب في هذا الكون نسمة هواء ، ولا تطرف طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذنه - جل جلاله - فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، قال الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله - ﷺ - فدعاني المغيرة فكتبت إليه إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا انصرف من الصلاة : ( لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد )<sup>(١)</sup> .

وسمعتة ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات :

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :  
إن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : ( سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد )<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن المغيرة ، وانظر ص ٢٥٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، ج ١ ص ٣٤٧ حديث رقم ٤٧٧/٢٠٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد الخدري . وانظر أحاديث الباب .

وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضْرَ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ (١).

وقال الإمام مالك رحمه الله عليه قال أبو هريرة - رضي الله عنه - ( إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية :

﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٢).

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

هذا خطاب علوي من الله العلي الأعلى إلى البشرية جمعاء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول الله فيه لعباده : ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ والله - تعالى - لا يريد بالاستفهام طلب الفهم فهو العليم بكل شيء لكن وراء الاستفهام من المعاني ما وراءه ، فالله - تعالى - ينكر على هؤلاء أن يعبدوا غيره وهو صاحب الخلق والرزق ، والاستفهام الانكارى يفيد النفي أى : لا خالق ولا رازق إلا الله فكيف تعبدون غيره ، وكيف تنصرفون عن عبادته ، وهو المالك المتصرف صاحب الخلق والأمر لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل ، الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع وإرادته .

ثم يخاطب الله - تعالى - نبيه ومصطفاه مخففاً عنه ما يلاقيه من تكذيب هؤلاء الجاحدين وهو الصادق الأمين فيقول :

﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزَنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يُمَجِّدُونَ . وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْذَوْا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كِبَارُكَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْغِي نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلماً فِي السَّمَاءِ فَآتِيهِمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ﴾ (٣).

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (٤). إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى واعلم أن مرجع الأمر كله لله يحكم بينهم والله عاقبة الأمور وإليه المصير والمآب .

(١) سورة يونس من الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة فاطر من الآية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ومن الآية : ٣٦ .

(٤) سورة فصلت من الآية : ٤٣ .

قال تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾<sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفي على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ . وهذا خطاب آخر من خالق الناس ورب الناس وملك الناس وإله الناس إلى الناس يخبرهم سبحانه فيه :

أن كل ما وعد به عباده على لسان أنبيائه هو حق اليقين وعين اليقين ، فالله حق ولقاؤه ووعدته حق وقوله الحق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنيبون حق ومحمد حق وقوله الحق : ﴿ يوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾<sup>(٣)</sup> وإذا كان ذلك فأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ولا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها ولعبها وهوها ، فالدنيا إذا حلت أوحلت وإذا جلت أوجلت وإذا كست أوكست وكم من ملك رفعت له علا . فلما علا مات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾<sup>(٤)</sup> .

كما لا يغرنكم الشيطان بغروره لكي يوقعكم في شبابه وشراكه ومصايده ومكايده ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ تلك حقيقة يقررها خالق الأكوان ومبدع الإنسان ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾<sup>(٥)</sup> ﴿ يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليرهما سواتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة الحج من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة غافر من الآية : ١٢ والآيات : ١٣ - ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآية : ٧٣ .

(٤) سورة المنافقون الآيات : ٩ - ١١ .

(٥) سورة يس الآيات : ٦٠ - ٦١ .

(٦) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

فلتكن عداوته لكم معلومة لديكم فله حزب وللرحمن حزب .

قال تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (٢) .

وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ (٣) .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون للكافرين عذاب شديد وأن يكون للمؤمنين مغفرة وأجر كبير قال تعالى : ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .  
مغفرة لذنوبهم وأجر كبير لما قدموا من الصالحات .

﴿ إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ (٤) .

أما جزاء الكافرين فنار تلظى ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لا بين فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً . إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً . إنهم كانوا لا يرجون حساباً . وكذبوا بآياتنا كذاباً . وكل شيء أحصيناه كتاباً . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ (٥) .

(١) سورة المجادلة الآيات : ١٩ - ٢١ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

(٤) سورة النبأ الآيات : ٣١ - ٣٦ .

(٥) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ يَظِلُّ مِنْ يَشَاءٍ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءٍ فَلَا تُدْهِبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

أي : من كان هكذا كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَظِلُّ مِنْ يَشَاءٍ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءٍ ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تُدْهِبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ أي . لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يظلل من يظلل ، ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ .

روى ابن حاتم بسنده عن عبد الله بن الديلمي فقال :

أتيت عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله - عز وجل - )<sup>(١)</sup> .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فُسِقْنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿١٠﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْغِزَةَ فَلِلَّهِ الْغِزَةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴿١١﴾ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِنَبْتَعُوهَا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٦ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعبد الله بن عمرو .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٢﴾  
 إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ  
 يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٣﴾ \*

### معاني المفردات

- ﴿ فخير سحابا ﴾ : فتزعجه وتحركه .
- ﴿ العزة ﴾ : المراد العز والجاه .
- ﴿ يصعد ﴾ : صعود الكلم الطيب فيه تجوز والمراد : قبول الله له أو علمه به .
- ﴿ يسور ﴾ : يهلك ويضيع .
- ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ : أي يزداد في عمره .
- ﴿ فوات ﴾ : شديد العنوبة يقال : فرت الماء فروة عذب .
- ﴿ أجاج ﴾ : شديد الملوحة يقال : أج الماء أجوجا إذا اشتدت ملوحته
- ﴿ حيلة ﴾ : ما يتحلى به من سوار أو خاتم .
- ﴿ مواخر ﴾ : تمخر الماء أي : تشقه شقاً في إقبالها وإدبارها .
- ﴿ قطمير ﴾ : هو لفافة النواة أي : القشرة الرقيقة التي تكون على النواة .

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم ، في ذلك اليوم أردف ذلك بيان أن هذا اليوم لاريب فيه وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ﴾ <sup>(١)</sup> .

وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها فقد كانت تراباً ، ثم نطفة ثم وضعت في الأرحام ، إلى أن صارت بشراً سوياً ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يختار قبل ذلك كما تدل عليه المشاهدة وكل ذلك يسير على الله .

وبعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجري في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار يسقى منه الإنسان والحيوان ، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحماً طرياً فيه لذة للأكلين ، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام يدخل أحدهما في الآخر ، يأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا في قصر ذاك فيعتدلان ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً ، وسخر الشمس والقمر ، والنجوم الثوابت والسيارات ، كل يجري بمقدار معين ، وعلى نهج ثابت لا يتغير وكل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى نقيض ولا يسمعون لكم دعاء ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرعون منكم إذا دعوتهم واستشفعتم بهم ولا ينبئك هذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ .

هذا دليل على إحياء الموتي وبعثهم من قبورهم ، فكما أن الله - تعالى - أرسل الرياح فسيرت السحب فساق تلك السحب إلى الأرض الموات وأحيائها بالمطر وصيرها جنة خضراء ، كذلك يحيى الله موات الأجسام بعدما رمت وبلت .

قال أبو رزين : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتي ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال - ﷺ - : « يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلاً ثم مررت به يهتز خضراً » قلت بلى ، قال - ﷺ - ( كذلك يحيى الله الموتي )<sup>(١)</sup>

ونحو الآية قوله - جل شأنه - : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون ﴾<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١١ فقد ورد الحديث بعدة روايات لأبي رزين .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .



زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴿١﴾ .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى أنه على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يور . والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

يخبر الله تعالى : أن من كان يريد العزة في الدنيا والآخرة فليطع الله ورسوله فإن العز كل العز في طاعة الله ورسوله ، والذل كل الذل في مخالفة ما أمر به الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ (٤) .

وقال - جل شأنه - : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾ (٥) .  
وقال تبارك اسمه حكاية عن المنافقين :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجننا الأعز منها الأذل والله العزة لرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ (٦) .

وللائمة - رحمهم الله تعالى - في هذا النص أقوال :

قال مجاهد : ( من كان يريد العزة ) بعبادة الأوثان فإن العزة لله جميعاً . وقال قتادة : ( من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً ) أي : فليتعزز بطاعة الله - عز وجل - .

(١) سورة الحج الآيات : ٥ - ٧ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٩ .

(٣) سورة ق الآيات : ٧ - ١١ .

(٤) سورة النساء الآيات : ١٣٨ - ١٣٩ .

(٥) سورة يونس الآية : ٦٥ .

(٦) سورة المنافقين آية : ٨ .

وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي ( فإن العزة لله جميعاً ) وحكاه ابن جرير .  
 وقوله - تبارك وتعالى - : ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يعنى : الذكر والتلاوة والدعاء .  
 قال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله - هو ابن مسعود رضي الله عنه - : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله - تعالى - إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهم ملك فجعلهم تحت جناحه ثم صعد بهم إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحبى بهن وجه الرحمن - عز وجل - ثم قرأ عبد الله - رضي الله عنه - : ( إلى يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ )<sup>(١)</sup> .

أما قوله تعالى : ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ فقد روى في تفسير هذا النص أقوال للأئمة الأبرار :

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : الكلم الطيب ذكر الله - تعالى - يصعد به إلى الله - عز وجل - والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله - تعالى - في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله - تعالى - يصعد به إلى الله - عز وجل - ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد :

العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أبو العالية :

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ .

قد يكون المراد بهؤلاء الذين يَمْكُرُونَ بالناس مكر السيئ فيظهرون لهم خلاف ما يبطنون ، أَلَسْتُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الْمُرَادُ بِهِمُ الْمُشْرِكِينَ ، والمعنى يعم هؤلاء وأولئك ، وقد حكم الله - تعالى - عليهم بالعذاب الشديد وأن مكرهم يبور فإنما يَمْكُرُونَ بأنفسهم ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ، ومكرهم هذا يظهر أمام الناس زيفهم وفسادهم .

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عَمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ قال ابن كثير أى : ابتداء خلق أيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ أى : ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها . ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أى : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبري ج ٢٢ ص ٨٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن المخارق عن أبيه .

﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾<sup>(١)</sup> .

( وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ) لأئمة التفسير فيها أقوال : قال ابن كثير : أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل ، وهو عنده في الكتاب الأول ( وما ينقص من عمره ) الضمير عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله - تعالى - لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ( وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له - فذلك قوله تعالى :

﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال التمام بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وما ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال مجاهد : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغاً ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله - تعالى - سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله - تعالى - في كتابه . قال النسائي بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من سره أن ييسر له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه ) رواه البخاري ومسلم<sup>(٢)</sup> .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ - فقال : ( إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة

(١) سورة الأنعام من الآية : ٥٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب البر والصلة » باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ج ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة وأخرى لأنس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والأداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » ج ٤ ص ١٩٨٢ حديث رقم ٢٥٥٧/٢١ ، ٢٥٥٧/٢٠ عن أنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب « صلة الرحم » ج ٢ ص ٣٢١ حديث رقم ١٦٩٣ عن رواية لأنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر<sup>(١)</sup> وقوله عز وجل ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

وقال الشيخ في تفسير هذه الآية :

﴿والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي : والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهي آخرأ إلى الماء والتراب ، منهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكراً وإناثاً بقدر معلوم ، بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى :

﴿وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه﴾ أي : ولا تحمل من أنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هي صاحبة السلطان في هذا العالم لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين ، فيفنى الإنسان والحيوان ونحو الآية قوله : ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب﴾ أي : لا أحد يقضي له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له ، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل ، وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت ، والوباء والحرب . ﴿إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي : أن ذلك النظام البديع للعالم - هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

قوله تعالى : ﴿وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ .

أي : ما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما : عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارية بين

(١) انظر كثر العمال « كتاب النكاح » ج ١١ ص ٤٩٢ حديث رقم ٤٥٦٠٨ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر ( طب - عن أني الدرداء ) .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ - ٩ .

الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيتها : ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

﴿ ومن كل تأكلون لحمأ طرياً ﴾ أي : ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري ، فضلاً من الله ومنه .

﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وتستخرجون الدر والمرجان من الملح الأجاج ، ومن العذب الفرات ، وتجري السفن في كل منهما تشقه شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر ، فتدفع عنكم الخمصة وتسد العوز .

﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ لعلكم تشكرونه - سبحانه - على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك في البحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة - أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر ، فقال تعالى :

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ .

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي : يدخل الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي : وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلاً منه في النهار ، ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم ، لا يقصران دونه ، ولا يتعديان ، وهو يوم القيامة .

﴿ ذلكم الله ربكم له الملك ﴾ أي : ذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم ، له الملك التام ، والسلطان المطلق ، والقهر والجبروت ، وكل من في السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ أي : والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئاً ولو كان حقيراً ، بل هم ملك لخالق القوى والقدر .

ثم أكد ما سلف مبيناً حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله تعالى :

﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

هذه الآية دليل على إبطال عبادة غير الله ، فلا يملك الضر والنفع إلا الله .

ولا يجيب المضطر إذا دعاه ولا يكشف السوء عما ناداه إلا الله ، ولا يقبض ولا ييسط إلا

الله ، ولا يحيى ويميت إلا الله ، ولا يعز ويذل إلا الله ، أما ما دونه فلا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

ومن ثم فإن القرآن يتحدى المشركين فيقول لهم : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾<sup>(١)</sup> يعنى : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها ، ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي : لا يقدرّون على شيء مما تطلبون منها ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي : يتبرعون منكم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبة لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبوأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فيما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً ﴾<sup>(٥)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل ادعوا شركاءكم فدعوههم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة هؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ، فالיום لا يملك بعضكم

(١) سورة الأحقاف الآيات : ٥ - ٦ .

(٢) سورة مريم الآيات : ٨١ - ٨٢ .

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ - ١٦٧ .

(٤) سورة الفرقان الآيات : ١٧ - ١٩ .

(٥) سورة القصص الآيات : ٦٢ - ٦٦ .

لبعض نفعاً ولا ضرراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿١١﴾ .  
 وقوله تعالى : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه  
 مثل خبير بها قال قتادة يعنى نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

### الله هو الغني الحميد

قال تعالى :

يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ  
 وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ  
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يَحْمِلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ  
 رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ  
 الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا  
 الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا  
 أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا  
 وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

## معاني المفردات

﴿ الفقراء ﴾ : المحتاجون إلى الله ، ﴿ لا تزر وازرة ﴾ : المراد لا تحمل نفس وزرة أي : أثمة  
 ﴿ وزر أخرى ﴾ : حمل أخرى ، ﴿ تزكى ﴾ : تطهر ، ﴿ أمة ﴾ : الأمة الجماعة الكثيرة ،  
 ﴿ وبالزبر ﴾ : الكتب المكتوبة ، ﴿ نكير ﴾ أي : عقابى على أعمالهم .

## المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام  
 والأوثان لا يملك شيئاً ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضرراً ، أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة ،  
 بأنه لا افتقار إلا إليه ولا إتكال إلا عليه ، فهو الذي تجب عبادته وحده ، لأنه النفع والضرر بيده لا  
 شريك له ، ثم بين أنه يوم القيامة لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا تستطيع دفع ضررها ولو كانت  
 ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والانذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله ويخاف عقابه وأن  
 من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردّها إليه . ثم ذكر أن الهداية بيده  
 - سبحانه - يمنحها من يشاء ، وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ،  
 وأن الله لم يترك أمة سدى ، بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا ، ومنهم من استكبر  
 وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا والنار في العقبى .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم  
 ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

يخبر - سبحانه وتعالى - بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها يديه ، فقال  
 تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات  
 وهو - تعالى - الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال - عز وجل - : ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي :  
 هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقول ويقدره ويشعره .

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم  
 وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى : ﴿ وما ذلك على الله العزيز ﴾ ويشرح هذه الآيات  
 هذا الحديث القدسي الذي رواه الحبيب المصطفى محمد - ﷺ - عن رب العزة .



عن أبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : ( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيتها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه )<sup>(١)</sup> ( رواه مسلم ) .

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هذا الحديث الجليل :

( يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ) يعني : أنه منع نفسه سبحانه - من الظلم لعباده كما قال - عز وجل - : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يعني : أنه - تعالى - حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره وثبت في الصحيح قول النبي - ﷺ - : ( إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا )<sup>(٥)</sup> .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي - ﷺ - أنه قال : ( إن الظلم ظلمات يوم القيامة )<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث برواية عن أبي ذر .

(٢) سورة ق من الآية : ٢٩ .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٤٤ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الحج » الخطبة أيام منى ج ٢ ص ٢١٥ من رواية لابن عباس من خطبة الرسول - ﷺ - يوم النحر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٦ حديث رقم ٢٥٧٨/٥٦ من رواية عن جابر .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : ( من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحته عليه )<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ﴾ .

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - تعالى - في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله . وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ، ومن لم يتفضل عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾<sup>(٤)</sup> . وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل فقال لقومه :

﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يمتتي ثم يحين . والذي أطع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾<sup>(٥)</sup> .

فإن من تفرد بخلق العبد وبهدياته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا وبمغفرة ذنوبه في الآخرة مستحق أن يفرد بالالهية والعبادة والسؤال والتضرع والتذلل والاستكانة له .

وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالحهم دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة لأنه هو الغني وهم الفقراء المحتاجون إليه - سبحانه .

وقوله : ﴿ يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ﴾

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب المظالم والغصب » باب « من كانت له مظلمة » ج ٣ ص ١٧٠ من رواية أبي هريرة مع اختلاف في الألفاظ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ١٧ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢ .

(٤) سورة هود من الآية : ٦ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٨٣ .

يعنى أن العباد لا يقدرّون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضرراً ، فإن الله - تعالى - في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها قال الله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾<sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ﴾<sup>(٢)</sup> . وكان النبي - ﷺ - يقول في خطبته : ( ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ) قال الله - عز وجل - ﴿ وإن تكفروا فإن الله مافي السموات ومافي الأرض وكان الله غنياً حميداً ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال حاكياً عن موسى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾<sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾<sup>(٦)</sup> . والمعنى أنه - تعالى - يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعي وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح ، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوابعهم إليه وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبه لنفعهم ودفع الضر عنهم فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده .

قال الفضيل بن عياض - رضي الله عنه - مامن ليلة اختلط ظلامها وأرخت الليل سربال سترها إلا نادى الجليل - جل جلاله - : من أعظم مني جوداً والخلائق لي عاصون وأنا لهم مراقب أكلوهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي واتفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم استجب إليه ، أم من ذا الذي سألتني فلم أعطه ، أم من ذا الذي أناخ بباني فنحيته أنا الفضل ومنى الفضل ، أنا الجواد ومنى الجود ، وأنا الكريم ومنى الكرم ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي العبد ما يسألني وأعطيته مالم يسألني ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين إلى غيره يهرب الخلائق وأين عن بابه يلتجئ العاصون ) ؟ ( أخرجه أبو نعيم )<sup>(٧)</sup> .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٧٦ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٣١ .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٨ .

(٥) سورة آل عمران من الآية : ٩٧ .

(٦) سورة الحج من الآية : ٣٧ .

(٧) انظر حلية الأولياء ج ٨ ص ٩٢ ، ٩٣ فقد ورد الحديث .. ثنا هناد بن السرى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : ... الحديث .

وقوله بعد هذا ( يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ) هو إشارة إلى أنه - سبحانه - ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقى قلوبهم على أتقى قلب رجل منهم ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فإنه - سبحانه - وتعالى - الغني بذاته عن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان - وقوله : ( لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ) .

فالمراد بهذا ذكر كمال قدرته - سبحانه - وكال ملكه وإن ملكه وخزائنه لا تنفذ ولا تنقص بالعطاء ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد وفي ذلك حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال : ( يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أفرأيت ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يفيض ما في يمينه )<sup>(١)</sup> .

وقوله : ( لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ) لتحقيق أن ما عنده لا ينقص ألبتة كما قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئاً ، وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً فإنه لا ينقص البحر ألبتة .

وهكذا طعام الجنة وما فيها فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾

وقد جاء : كلما نرعت ثمرة عاد مكانها مثلها وروى مثلاًها فهي لا تنقص أبداً ويشهد بذلك قول النبي ﷺ - في خطبة الكسوف « ورأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلم منه ما بقيت الدنيا »<sup>(٢)</sup> . ( خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ) .

وقوله : ﴿ يا عبادي . إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ﴾ يعني أن سبحانه

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله » ج ٩ ص ١٥٠ فقد ورد الحديث في رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخاري باب الصلاة في كسوف الشمس ، باب صلاة الكسوف جماعة ج ٢ ص ٤٦ ، فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن عباس .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٥٨ ، ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله ابن مسعود .

يخصي أعمال عباده ثم يوفيه إياها بالجزاء عليها ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١)

وقوله : ﴿ فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ﴾ إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه ، فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه ووقفه لطاعته ، وكان ذلك فضلاً منه ورحمة وإذا أراد خذلان عبد وكله إلى نفسه وخلي بينه وبينها فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتباع هواه وكان أمره فرطاً ، وكان ذلك عدلاً منه ، فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول فما بقي لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً قيماً في قوله الله - عز وجل - ﴿ يا أيها الناس أنعم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ﴾ .

فصل في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه : قال رحمه الله : بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل ذاتي للفقير . فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعله أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجبت غناه . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعله ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك ، إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنى بذاته » .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً .

### الفقر فقران :

إذا عرف هذا الفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً . .

والفقر الثاني : فقر اختياري وهو نتيجة علمين شريفيين أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني معرفته بنفسه ، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان انتجتا فقراً هو عين غناه وعنوان سعادته وفلاحه .

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عرف ربه بالغنى المطلق ، عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدره التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالغز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل ، فآله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة ، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوراً محسوساً لكل أحد ، ومعلوم أنه هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى باريه وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً ، وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بنى جنسه ، وسخر له الخيل والإبل وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتحليل على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك وادعى لنفسه ملكاً مع الله سبحانه ، ورأى نفسه لغير تلك العين الأولى ، ونسى ما كان فيه من حالة الاعدام والفقر والحاجة ، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره ، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله - ﷺ - بصق في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ يا ابن آدم أي تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ﴾ (صوت) فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأني أوان الصدقة ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ومن هاهنا خذل من خذل ووفق من وفق . فحجب الخذلان عن حقيقته ونسى نفسه فنسى فقره وحاجته وضرورته إلى ربه ، فطغى وعتا فحققت عليه الشقوة . قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى :

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره لليسرى ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه - ﷺ - : ( أصلح لي شأنك كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين ولا إلى أحد من خلقك ) .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ حديث يسر بن جحاش عن النبي - ﷺ - فقد ورد الحديث بلفظه وجاء فيه بلفظ ( بني آدم » بدلاً من « يا ابن آدم » .

(٢) سورة العلق الآيتان : ٦ - ٧ .

(٣) سورة الليل الآيات : ٨ - ٩ .

وكان يدعو : ( يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ) يعلم - ﷺ - أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئاً ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾<sup>(١)</sup> فضرورته - ﷺ - إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ، ومنزلته عنده . وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء ، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه - ﷺ - ( من كتاب طريق المهجرتين وباب السعادتين ) ، وقال رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

ومن منازل : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾<sup>(٢)</sup> منزلة « الفقر » هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة وسرها ولها وغايتها .  
وحقيقة « الفقر » وكأله كما قال بعضهم - وقد سئل : متى يستحق الفقير اسم : الفقير ؟ - فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقليل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له . وإذا لم يكن له فهو له .

وهذه من أحسن العبارات عن معنى « الفقر » الذي يشير إليه القوم . وهو أن يصير كله لله - عز وجل - لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه فمتى بقى عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

ثم فسر ذلك بقوله : « إذا كان له فليس له ، أي : إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر لا تكون لنفسك ، ولا يكون لها منك شيء ، بحيث تكون كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر .

وهذا « الفقر » الذي يشيرون إليه ! لا تنافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبيأؤه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل - عليه السلام - كان أبا الضيفان . وكانت له الأموال والمواشي .

وكذلك سليمان وداود - عليهما السلام - وكذلك كان نبينا محمد - ﷺ - كما قال الله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾<sup>(٣)</sup> . فكانوا أغنياء في فقرهم . فقراء في غناهم .

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٣) سورة الضحى آية : ٨ .

فالفقر الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال وأن يشهد العبد - في كل ذرة من ذراته -  
الظاهرة والباطنة - فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه .  
فالفقر ذاتي للعبد ، وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً ، وإلا فهو حقيقة .  
وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم : الفقير لا تسبق  
همته خطوته .  
يريد أنه ابن حاله ووقته . فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه .

وقيل : أركان الفقر أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .  
وقال الشبلي : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشيء دون الله .  
وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .  
وقيل بعضهم : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله : دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال ،  
وملازمته السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .  
والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن فبدايته : الذل ، ونهايته : العز . وظاهرة : العدم ،  
وباطنه : الغنى كما قال رجل لآخر : فقر وذل ؟ فقال : لا ، بل فقر وعز . فقال : فقر وثراء ؟ قال :  
لا بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب .  
واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله - مع التخليط - خير من دوام الصفاء مع  
رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معها .  
وإذا عرفت معنى « الفقر » علمت أنه عين الغنى بالله ، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار  
إليه .

### درجات الفقر

الدرجة الأولى : فقر الزهاد : وهو قبض اليد على الدنيا ضبطاً أو طلباً . وإسكات اللسان عنها  
مدحاً أو ذمّاً . والسلامة منها طلباً أو تركاً . وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه .  
قوله : (قبض اليد عن الدنيا ضبطاً أو طلباً) يعني : يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت  
له ، فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها ، وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها ، فلا يطلب  
معدومها . ولا ييخل بموجودها .

وأما « تعطيلها عن اللسان » فهو لا يمدحها ولا يذمها . فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على  
محبتها ورغبته فيها ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وإنما اشتغل بزمها حيث فاتته .



وأما ( تعطيل القلب منها ) فبالسلامة من آفات طلبها وتركها . فإن لتركها آفات وطلبها آفات . والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة ، لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها .

ومن آفات الترك : تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه ، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك .

ومن آفات تركها ، وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو ، وهذا يقابل الزهد فيها وتركها ، كما أن كسرة الأخذ وذلة وتواضعه : يقابل الأخذ التارك . ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات .

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك وهو لا يحصل إلا بفقه في الفقر .  
وقوله رحمه الله .. ( فهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه ) يعني تكلم فيه أرباب السلوك وفضلوه ومدحوه .

قال : « الدرجة الثانية » الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال . ويقطع شهور الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

يريد بالرجوع إلى السبق : الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنة وجوده ، وأن العبد - وكل مافيه من خير - فهو محض وجود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوى العدم ، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به ؛ خلصه من رؤية الأعمال فإنه لا يراها إلا من الله وبالله . وليست منه هو ولا به .  
واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله . ويخلصه منها : شهود السبق ، ومطالعة الفضل .

وقوله : ( ويقطع شهود الأحوال ) .

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره ، فهو محض جوده . فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد له عملاً . فقد جعل عدته للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله .

وكذلك قوله : « يمحص من أدناس مطالعة المقامات » هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال ، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات : فمطالعة الفضل يتمحص من هذا الدنس .

والفرق بين الحال والمقام : أن « الحال » معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ، ولا اكتساب ، ولا تعمد . و « المقام » يتوصل إليه بنوع كسب وطلب . فالمقام يحصل ببذل المجهود ، وأما الحال : فمن عين الجود .

قال : « والدرجة الثالثة : الاضطراب . والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في يداء قيد التجريد . وهذا فقر الصوفية » .

« الاضطراب » شهود كمال الضرورة والفاقة علماً وحالاً .

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار . فهي منقطعة عن الأغيار ، وحدانية في نفسها والوقوع في يدها : الاستسلام والاذعان لها . والدخول في رقها . « وأما الاحتباس في يداء قيد التجريد »

فهو تجريد الفردانية أن يشهد معها غيرها ، وهو الغناء عن شهود السوى . وسمى ذلك « احتباساً » لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار . وجعل للتجريد قيداً . وهو التقيد بشهود الحقيقة . وجعل القيد بيدا لوجهين ،

أحدهما : أن الأغيار تبید فيه وتتعلم . ولا يكون معه سواه .

والثاني : نسعته وفضائه . فصاحب شهوده : في يداء واسعة ، وإن احتبس في قيد شهوده .

وقوله : وهذا فقر الصوفية .. قد يفهم منه : أن التصوف أعلى عنده من الفقر . فإن هذه

الدرجة الثالثة - التي هي أعلى درجات الفقر عنده هي من بعض مقامات الصوفية .. انتهى .

## في تقسيم الغنى إلى عال وسافل

### والله هو الغني الحميد

ولما كان الفقر إلى الله - سبحانه - هو عين الغنى به ، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به ، وأذلهم له أعزهم ، وأضعفهم بين يديه أقواهم ، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله ، وامقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله ، كان ذكر الغني بالله مع الفقر إلا إليه متلازمين متناسبين .

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه فهو مسموم بسمة الفقر كما هو مرسوم بسمة الخلق والصنع وغنى العبد أمر نسبي إضافي عارض له ، فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته ، فهو غنى به فقير إليه ، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته ، فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الأخذ الصمد الغنى الحميد .

### والغنى قسمان :

غنى سافل ، وغنى عال . فالغنى السافل الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . وهذا أضعف الغنى ، فإنه غنى بظل زائل ، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها ، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها ، وكأن الغنى بها كان حلاًماً

فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذي هو ظل زائل وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون ، وإياه يطلبون وحوله يحومون ، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده .

وهذا الغنى مخوف بفقرين : فقر قبله ، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما . فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه ، بل إذا حصل له جعله سبباً لغناه الأكبر ووسيلة إليه ، ويجعله خادماً من خدمه لا مغدوماً له ، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق ، أو يجعلها خادمة لغيره .

### الغنى العالي :

أما الغنى العالي فقال شيخ الإسلام : ( هو على ثلاث درجات ) :  
الدرجة الأولى : غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالته للحكم ، وخلاصته من الخصومة .

الدرجة الثانية : غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب . وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة .

والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب :

الأولى : شهود ذكره إياك .

والثانية : دوام مطالعة أوليته .

والثالثة : الفوز بوجوده .

وإنما قدم شيخ الإسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس ؛ لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه ، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب ، وصلاح النفس متقدم على إصلاحها . هكذا قيل ؛ وفيه ما فيه ، لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر .

ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم . وقد قال النبي - ﷺ - : ( إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب )<sup>(١)</sup> والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنينة خلع على الأمراء والرعية خلعاً تناسبها ، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاخبات .

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار ، وعلى الوجه خلع المهابة والنور والبهاء ، وعلى اللسان خلع الصدق والقول السديد والحكمة النافعة ، وعلى العين خلع الاعتبار في النظر والغض عن

(١) أنظر صحيح مسلم « كتاب المساقاة » باب « أخذ الحلال وترك الشبهات » ج ٣ ص ١٢١٩ ، ١٢٢٠ حديث رقم ١٠٧ /

١٥٩٩ ، فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل عن النعمان بن بشير .

المحارم ، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده ، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيد . وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ ، فعدا العبد وراح يرفل في هذه الخلع ويحمر لها في الناس أذياً وأرداناً . فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرغ عليه . فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس .

فقوله في الدرجة الأولى وهي غنى القلب : ( إنه سلامته من السبب ) أي : من الفقر إلى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون إليه والثقة به ، فمن كان معتمداً على سبب غناه واثقاً به لم يطلق عليه اسم الغنى ، لأنه فقير إلى الوسائط ، بل لا يسمى صاحبه غنياً إلا إذا سلم من علة السبب استغناء بالسبب ، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تديره .. فبذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله - سبحانه - . فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسألة - أي : بالانقياد لحكمه - حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تديره ورحمته وحكمته .

ولا يتم الغنى بتدبير الله - سبحانه - لعبده إلا بالمسألة لحكمه بعد الوقوف على حسن تديره ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه

فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيراً إلى حظ من الحظوظ - يسخط لفته ويخاصم الخلق عليه - لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليه وقيامه ومتولى تديره ، فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب ، ومن علة منازعته لأحكام الله - سبحانه - ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه مفوضاً إليه لا يفتقر إلى غيره ، ولا يسخط شيئاً من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه ، فتكون مخاصمته لله وبالله ، ومحاكمته إلى الله كما كان - ﷺ - يقول في افتتاح صلاة الليل :

( اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ) . فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه وقد قالت السيدة عائشة : ( ما انتقم رسول الله - ﷺ - لنفسه قط ) وهذا لتكميل عبوديته . ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر .

وقال تعالى : ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قرى ﴾ .

أي : وإن طلبت نفسي مثقلة بالأوزار والذنوب - إن طلبت - غيرها ليحمل بعض ما عليها فلن يكون ذلك فهي التي تحمل أوزارها وحدها .

غداً توفى النفوس ما كسبت      ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم      وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وهذه الآية تشبيه بالأم التي حملت وأثقلت وأخذت تشعر بآلام الحمل فإن غيرها لا يستطيع أن يحمل عنها بعض آلامها ولو كان ذا قرى ولو كان أباه أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله .

قال عكرمه في قوله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب ، سل هذا لم كان يغلط بابه دوني . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار .

وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني ، أي والد كنت لك فثنى خيراً فيقول له : يا بني ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها فما ترى . فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكني أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجه فيقول : يا فلانة - أو يا هذه ، أي زوج كنت لك فثنى خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لي لعل أنجو بها مما ترين .

قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف .

يقول الله - تعالى - : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويقول تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمّه وأبيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾<sup>(٣)</sup> . رواه ابن أبي حاتم رحمه الله عن أبي عبد الله الزهراني عن حفص بن غفر عن

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٢ .

(٢) سورة لقمان من الآية : ٣٣ .

(٣) سورة عبس الآيات : ٣٤ - ٣٧ .

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه فهذه كلها آثار ذكره لك . ثم إنه - سبحانه - ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس ، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك وتعرف بها إليك وتحبب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء ، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده .

فإذا شهد العبد ذكر ربه - تعالى - له ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه ، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء . فهو يحصل له بشعوره بذكره إسناذه له - غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له ، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد وقد قال - ﷺ - فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ﴿ إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ﴾ (١) فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره له حتى جعله ذاكرة ، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائد على إنعام ربه عليه وعطاياه له .

والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته ، وهذا بخلاف من نسوا الله فأنسيهم ، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم ، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم .

والدرجة الثانية من درجات الغنى بالله - عز وجل - : شهود أوليته - سبحانه - ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله ، والغنى به أتم من الغنى المذكور لأنه من مبادئ الغنى بالحقيقة ، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره ، وهو الاله الحق الكامل في أسمائه وصفاته ، الغنى بذاته عما سواه ، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويتمجده ، فهو معبود محمود حتى قيام له الملك وله الحمد في الأزل والأبد . لم يزل موصوفاً بصفات الجلال . منعوتاً بنعوت الكمال ، وكل شيء سواه فإنما كان به ، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره ، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به ، ولا حاجة به في قيومه إلى غيره بوجه من الوجوه . فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى في وجوده من لم يكن ، وبقي من لم يزل ، وأضمحلت الممكنا في وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التي يبسطها ويمدها ويقبضها فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته .

وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذي قبله فيه شائبة مشيرة إلى وجود العبد ، وهذا الشهود الثاني سائر الموجودات كلها سوى الأول - تعالى - قد اضمحلت وفنيت فيه

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « الحث على ذكر الله - تعالى - ج ٤ ص ٢٠٦١ حديث رقم ٢٦٧٥/٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة :

- وصارت كأوليئها وهو العدم - فأفتتها أولية الحق - سبحانه - . فبقى العبد محواً صرفاً وعدمياً محضاً ، وإذا كانت أنيته ( الأنا ) مشخصة مشاراً إليها ، لكنها لم نسبت إلى أولية الحق - عز وجل - اضمحلت وفنيت وبقي الواحد الحق الذي لم يزل باقياً ، فاضمحل ما دون الحق - تعالى - في شهود العبد كما هو مضمحل في نفسه ، وشهد العبد حينئذ أن كل شيء ما سواه باطل ، وأن الحق المبين هو الله وحده ، ولاريب أن الغنى بهذا الشهود أنتم من الغنى بالذي قبله ، وليس هذا مختصاً بشهود أوليته - تعالى - فقط بل جميع ما يلدو للقلوب من صفات الرب - سبحانه - يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها . فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعملهم به الصادق المصدق ، وتبعد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الدليل بين يدي الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمة وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه ، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الألهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف من الأمانة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومدولة الأيام بين الناس - إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه ، فمراسمه نافذة كما يشاء ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ (١) .

فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به .

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال ، بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من فراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها ، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر .

ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلظه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هي عنده كلها كصوت واحد ، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى ديب التلعة السوداء على الصخراء الصماء في الليلة الظلماء . ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخال وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل ، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية يحرس حركاتها وسكناتها ويتقن أنها بمرأى منه - سبحانه - ومشاهدة لا يغيب عنه شيء .

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس ، وأنه - تعالى - هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه ، وأنه بكمال قيومته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو شهادة أن لا إله إلا هو ، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال .

فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلي له ويسجد ، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله فهو المطاع وحده على الحقيقة ، والمألوه وحده وله الحكم وحده . فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال . وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها ، وكل غنى لغيره فقر وفاقة ، وكل عز لغيره ذل وصغار ، فمشهد الألوهية هو مشهد الحناء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله - جل جلاله - فإن هذا الاسم هو الجامع ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه ، فيقال : الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الغفار ، من أسماء الله ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾<sup>(١)</sup> ، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الألوهية وقام بحقه من التبعيد الذي هو كمال الحب بكمال النيل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق ، وصار من أغنى العباد .

### الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب - سبحانه - : الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى ، لأن الغنى الأول والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجه إليه ، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة ، واستغنى القلب بذلك ، وجعل له أيضاً أنوار الشعور بكفالاته وكفائته لعبده وحسن وكمالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضاً . وأما هذا الغنى الثالث الذي هو الغنى بالحق - فهو من آثار وجود الحقيقة ، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات ، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عهدهما يطلع فجر التوحيد ، فهذا أوله وكمالته عند طلوع شمسبه فينقطع ضباب الوجود الفاني وتشرق شمس الوجود الباقي فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور على عظمة الذات كما كشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات



## صفات الذات :

قإذا كل أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغنى القلب والنفس ، فما ظنك بما  
تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف  
ولا يدخل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ، فياله من فقر ينقضى ومن  
غنى يدوم ومن عيش ألد من المنى ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام فينك وبينه صدق  
الطلب ، وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون .  
وقد جاء في أثر إلهي يقول الله - عز وجل - :

﴿ ابن آدم خلقتك لنفسي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني ،  
فإن وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ﴾ فمن  
طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء ، فأصبح حراً في غنى ومهابة على  
وجهه أنواره وضياؤه .

وإن فاته مولاه - جل جلاله - تباعد ما يرجو وطال عناؤه ، ومن وصل إلى هذا الغنى قرت  
به كل عين لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ، ومن لم يصل إليه انقطعت نفسه عن الدنيا  
حسرات وقد قال - ﷺ - : ( من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه  
شملة ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه  
شملة ، وأتته الدنيا وهي راغمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع )<sup>(١)</sup> ، فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى  
الحقيقي ، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله - سبحانه - أكبر همه ،  
فهذا من باب التنبيه والأولى - انتهى .

## المسئولية الفردية

قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو  
كان ذا قرى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تركى فإنما يتركى لنفسه وإلى  
الله المصير ﴾ .

هذا حكم قضى به الله - سبحانه وتعالى - وفيه يتجلى منطق العدالة الإلهية فليس هناك نفس  
تحمل وزر نفس أخرى ، بل من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

(١) انظر اتحاف المتقين ج ٦ ص ٣٩٠ وانظر ج ١٠ ص ٨ فقد وردت فيها عدة روايات لهذا المعنى عن أنس وابن عباس وعبد الله  
بن عمرو وزيد بن ثابت وأقر بها إلى الحديث الذي معنا ما رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس ، وما جاء في الترمذي أيضاً

## غنى النفس :

قوله في غنى النفس : ( إنه استقامتها على المرغوب وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة ) يريد استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه ، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويغضها وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيماً لله - سبحانه - وأمره وإيماناً به واحتساباً لثوابه ، وخشية من عقابه . لا طلباً لتعظيم المخلوقين له ومدحهم ، وهرباً من ذمهم ، وطلب للجاه والمنزلة عندهم فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه وأنه أفقر شيء إلى المخلوق . فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها . لأنها إذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعاً واختياراً ومحبة وإيماناً واحتساباً ، بحيث تصير لذاتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي - ﷺ - يقول : ( يا بلال أرحنا بالصلاة )<sup>(١)</sup> ، وقال : ( حب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة )<sup>(٢)</sup> ، فقرة العين فوق المحبة : فجعل النساء والطيب مما يحبه . وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، فكيف لا تكون قرة العين ، وكيف تفر عين المحب بسواها . فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأى فقر يخشى معه ، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه ؟ .

## فيما يغنى القلب ويسد الفاقة

وهذه الاستقامة : ترقبها إلى الدرجة الثالثة من الغنى ، وهو الغنى بالحق - تبارك وتعالى - عن كل ما سواه ، وهي أعلى درجات الغنى . فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله - عز وجل - إياك قبل ذكرك له ، وأنه - تعالى - ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداءً قبل وجودك وطاعتك وذكرك ، فقد خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة وذكرك - تعالى - بالإسلام فوفئك له واختارك له دون من خذله ، قال تعالى : ﴿ هو سميعٌ عليمٌ من قبل ﴾<sup>(٣)</sup> فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط . وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره ، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاهه لم يكن إليه سبيل ، ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم ؟ ومن الذي ذكرك سواه بالتوبة حتى وفئك لها ، وأوقعها في قلبك ، وبعث دواعيك وأحى عزماتك الصادقة عليها ، حتى تبت إليه وأقبلت عليه ، فذقت حلوة التوبة وبردها ولذتها ؟ .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٨ ، فقد ورد الحديث بروايتين عن أنس بلفظ : « حب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٣) سورة الحج من الآية : ٧٨ .

الحكم بن إبان عن عكرمة . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهي الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به ﴿ وَمَنْ تَرَكِيَ فَإِنَّمَا يَتْرِكُ لِنَفْسِهِ ﴾ أي : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قوله تعالى :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ فِي الْقُبُورِ . إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ .

هذا مثل ضربه الله - تعالى - لذوي البصائر المؤمنين كما ضربه للذين في قلوبهم أكنة وعلى أبصارهم غشاوة من الكافرين . كما في قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وكما في قوله - جل شأنه - : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> . وكما في قوله جل شأنه :

﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فالؤمن هو البصير الحي ، والكافر هو الأعشى الميت وبين هؤلاء وأولئك بون شاسع لا يستويان ولا يجتمعان .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أي : يهديهم إلى سماع الحجّة وقبولها والانقياد لها . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتبت عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ أي : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين . ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ أي : وما من أمة خلّت من بنى آدم إلا وقد بعث الله - تعالى -

(١) سورة هود الآية : ٢٤ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

إليهم النذر وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾<sup>(١)</sup> .  
 وكما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾<sup>(٢)</sup> الآية والآيات في هذا كثيرة .  
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ وهى المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات .  
 ﴿ وبالزُّبُرِ ﴾ وهى الكتب .  
 ﴿ وبالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى : الواضح البين .  
 ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أى : بالعقاب والنكال .  
 ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً .. والله أعلم .

### من دلائل التوحيد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

### معاني المفردات

﴿ جدد ﴾ : جمع جدة وهى الطرائق المختلفة الألوان .  
 ﴿ وغرابيب سود ﴾ : أصل اللفظ وسود غرابيب ، والعرب تقول للشديد السواد الذى لونه كلون الغراب أسود غريب .  
 ﴿ لن تبور ﴾ : لن تغنى ولن تضع .

(١) سورة الرعد من الآية : ٧ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٣٦ .

### المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً ، أردف ذلك ذكر ما يروونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان ، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور .

إن اختلاف المخلوق دليل على إجادة الخالق ، إذ أن ما الطبيعة لا يختلف ولا يتخلف فلو كانت الحياة التي نعيشها على ظهر هذا الكوكب صدرت عما يسمى بالطبيعة كما يدعى الذين في قلوبهم مرض الاحداد لكانت وجهاً واحداً لا يختلف عن غيره ولكن لما كان هذا الكون قد صدر عن إله عليم مريد قادر فقد اختلف في أشكاله وألوانه وأنواعه ، قال تعالى :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (١) .

وقال عز من قائل : ﴿ وما ذراً لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ (٢) .

وقال جل جلاله : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) .

فانظر إلى الرياض والحدائق والحقول كيف تنوعت أنواع الأزهار وروائحها واسأل نفسك من الذي وزع هذه الألوان عليها ، ثم انظر إلى الحدائق وما اشتملت عليه من أشجار الفواكه ، من الذي

(١) سورة الروم الآية : ٢٢ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد الآية : ٤ .

سقاها ذلك السكر السائل ، وانظر إلى الحقول وما اشتملت عليه من الحبوب من الذي منحها خصائصها ومن الذي جعل النبات الحريف بجانب الفاكهة الحلوة بحيث لا يبغي هذا على ذاك ، ثم تأمل بعد ذلك عظمة الخالق في قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ﴾ <sup>(١)</sup> نعم اختلفت ألوانها وطعومها وروائحها مع أن الأرض واحدة والماء واحد والهواء واحد إنها الحجة الدامغة والبرهان الساطع على علم الخالق وإرادته وقدرته ، وكما وقع الاختلاف في الثمرات كذلك وقع في عالم الجبال ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴾ أي : خلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمرة ، وفي بعضها طرائق وهي الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً .

ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وكذلك وقع الاختلاف في الانسان والحيوان ، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاختِلَافُ أَلْوَانِكُمْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى اللَّهِ فَذَلِكَ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ .

وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهم مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . ولهذا قال بعد هذا ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ قال الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير .

وروى أيضاً عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن حبيب : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله - عز وجل - .

وقال الحسن البصري : العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية .

وقال الإمام مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد وابن صالح المصري معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية وأما العلم الذي فرض الله - عز وجل - أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة - رضي الله عنهم - ومن بعدهم من أئمة المسلمين - فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : ( نور ) يريد به منهم العلم ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله - تعالى - ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض ، والعالم بأمر الله وليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله - عز وجل - .

وكفى العلماء فخراً وشرفاً أنهم شهدوا لله بالوحدانية فسلكهم الله في مصاف الملائكة قال سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

كما وصفهم بركة القلوب وخشوع البصائر لله قال تعالى :

﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذ يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يكون يزيدهم خشوعاً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عزيز غفور ﴾ عزيز لا يغلب بل ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ (٣) .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله .. ﴾ (٤) . ﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ﴾ (٥) .

﴿ غفور ﴾ عظيم المغفرة فهو غافر الذنب لمن يتوب ، قابل التوب لمن يؤوب ، شديد العقاب إذا اسودت القلوب . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٠٧ والآيتان : ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦١ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٨٨ وجزء الآية : ٨٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢ وجزء الآية : ١٣ .

## كلمة عن العلم والعلماء ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

### فضيلة العلم :

شواهدهما من القرآن قوله - عز وجل - : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾<sup>(١)</sup> فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثالث بأهل العلم ونهايك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً . وقال تعالى : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾<sup>(٢)</sup> قال ابن عباس - رضي الله عنهما - للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمئة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمئة عام .

وقال عز وجل : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال عز وجل : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾<sup>(٥)</sup> ، بين سبحانه أن أعظم قدر الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ ولو رددوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾<sup>(٧)</sup> . رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله سبحانه .

وقال تعالى في معرض الامتنان : ﴿ خلق الإنسان . علمه البيان ﴾<sup>(٨)</sup> .

وأما الأخبار عن رسول الله - ﷺ - فقد قال :

(١) سورة آل عمران آية : ١٨ .

(٢) سورة المجادلة من الآية : ١١ .

(٣) سورة الزمر من الآية : ٩ .

(٤) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

(٦) سورة العنكبوت من الآية : ٤٣ .

(٧) سورة النساء من الآية : ٨٣ .

(٨) سورة الرحمن الآيتان : ٣ - ٤ .



( من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين )<sup>(١)</sup> ، وقال - ﷺ - ( العلماء ورثة الأنبياء )<sup>(٢)</sup> ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الورثة لتلك الرتبة .

وقال - ﷺ - : ( يستغفر للعالم ما في السموات والأرض )<sup>(٣)</sup> ، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل الملائكة بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .  
وقال - ﷺ - : ( فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي )<sup>(٤)</sup> ( الترمذي وقال حسن صحيح ) . فانظر كيف جعل العالم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة .  
وروى عنه - ﷺ - أنه قال : ( يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء )<sup>(٥)</sup> .  
وأما الآثار فقد قال علي بن أبي طالب لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .  
وقال علي أيضاً : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف عنه .

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم  
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه  
ففر بعلم تعش حياً به أبداً  
على الهدى لمن استهدى أدلاء  
والجاهلون لأهل العلم أعداء  
الناس موتى وأهل العلم أحياء

وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل : فمن

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « من يرد الله به خير يفقهه في الدين » فقد ورد الحديث بلفظه عن يونس عن ابن شهاب ج ١ ص ٢٧ وانظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر ج ٢ ص ٢٣٤ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

وانظر سنن الترمذي « أبواب العلم » باب « إذا أراد الله بعد خيراً فقهه في الدين ج ٤ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٧٨٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مجمع الزوائد كتاب العلم « باب العلم بالتعلم » ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب فضل الفقه على العبادة ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

وانظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب في فضل العلماء ومجالستهم .. ج ١ ص ١٢٦ فقد ورد الحديث .

(٣) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لأبي الدرداء .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٠٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد الحديث عن أبي أمامة غير أنه جاء بلفظ « أدناكم » بدلاً من « أدنى رجل من أصحابي » .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الزهد » باب « ذكر الشفاعة » ج ٢ ص ١٤٤٣ حديث رقم ٤٣١٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عثمان بن عفان .

السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ولم يجعل ابن المبارك غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم .

### فضيلة العلم

أما الآيات في ذلك :

قال تعالى : ﴿ فلولوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وأما الأخبار فقولہ - ﷺ - : ( من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة )<sup>(٣)</sup> . ( البخاري ) .

وقال - ﷺ - : ( إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع )<sup>(٤)</sup> . ( أخرجه الترمذي ) .

وقال - ﷺ - : ( طلب العلم فريضة على كل مسلم )<sup>(٥)</sup> .

وأما الآثار : فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذلت طالباً فعززت مطلوباً . وقال الحسن البصري : ( باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها ) ( ابن عبد البر ) .

وقال ابن المبارك : ( عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ) وقال أبو الدرداء : ( لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير منهم ، وقال أيضاً كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك .

(١) سورة التوبة آية : ١٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « العلم قبل القول والعمل » .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » حديث ص ٢٨٢٣ ج ٤ ص ١٥٣ ، فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي الدرداء وفيه لفظة « يتبغي » بدلاً من « يطلب » وانظر : ج ١٣٧ باب « فضل طلب العلم » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب « في طلب العلم » ج ١ ص ١٢٠ فقد ورد الحديث عن روايات لأبي سعيد الخدري ، وفيه يحيى بن هشام السمسار كذاب ، ولا بن عباس وفيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف جداً ، وللحسين بن علي وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت ضعيف جداً .

وقال عمر : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي : ( العلم أفضل من النافلة ) .

### فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله تعالى : ﴿ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> والمراد هو التعليم والإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ لَا تَكْتُمُونَهُ ﴾<sup>(٢)</sup> وهو إيجاب للتعليم .

وقوله : ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وهو تحريم لكتمان العلم .

كما قال تعالى في الشهادة : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثَمُ قَلْبِهِ ﴾<sup>(٤)</sup>  
وأما الأخبار فقوله - ﷺ - : لعلي بن أبي طالب :

( لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم )<sup>(٥)</sup> ( الصحيحين ) .

وقال - ﷺ - : ( إن الله - عز وجل - لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون . ( متفق عليه )<sup>(٦)</sup> .

وقال - ﷺ - : ( من علم علماً فكتمه أجمه الله يوم القيامة بلجام من نار )<sup>(٧)</sup> ( أبو داود )

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٤٦ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب « دعاء النبي إلى الإسلام » ج ٤ ص ٥٨ عن رواية لسهل بن سعد - رضي الله عنه - من حديث طويل .

(٦) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « كيف يقبض العلم » ج ١ ص ٣٦ فقد ورد الحديث برواية عبد الله بن عمرو ابن العاص مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في ذهاب العلم » فقد ورد الحديث برقم ٢٧٩٠ ج ٤ ص ١٣٩ برواية لعبد الله بن عمرو بن العاص مع اختلاف في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب العلم » باب « رفع العلم وقبضه » ج ٤ ص ٢٠٢٨ ، فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله ابن عمرو بن العاص : ٢٦٧٣/١٣ .

(٧) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في كتمان العلم » ج ٤ ص ١٣٨ حديث رقم ٢٧٨٧ برواية عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .

وقال - ﷺ - : ( الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا<sup>(١)</sup> ) ( الترمذي ) .

وقال - ﷺ - : ( إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير )<sup>(٢)</sup> ( الترمذي وقال حسن صحيح ) .

وقال - ﷺ - : ( إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به .. )<sup>(٣)</sup> ( مسلم ) .

وقال - ﷺ - : ( لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير )<sup>(٤)</sup> ( متفق عليه ) .

وقال - ﷺ - : ( من دل على خير فله مثل أجر فاعله )<sup>(٥)</sup> ( مسلم ) .  
وأما الآثار : قال ابن عباس : ( معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر ) ، وقال بعض العلماء :

العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فليُنظر كيف يدخل .  
وقال الحسن البصري : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمنًا . قيل : وما هو ؟ قال :  
أن تضعه فيمن يحسن عمله ولا يضيعه .  
وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم قيل : وكيف ذلك قال : لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب الزهد » باب « ما جاء في هوان الدنيا على الله » ، ج ٣ ص ٣٨٤ حديث رقم ٢٤٢٤ من رواية لأبي هريرة ، وقال هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد هذا الحديث عن أبي أمامة الباهلي . ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » ج ٣ ص ١٢٥٥ ، فقد ورد الحديث ١٦٣١/١٤ من رواية لأبي هريرة بلفظ « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة برواية مسلم .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « الاغتياب في العلم والحكمة » ج ١ ص ٢٨ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وانظر صحيح مسلم كتاب « صلاة المسافرين » ج ١ ص ٥٥٩ ، فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود حديث ٨١٦/٢٦٨ .

(٥) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « إن الدال على الخير كفاعله » ج ٤ ص ١٤٨ حديث ٢٨١٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه برواية عن أبي مسعود البصري ( عقبه بن عمرو ) .

وقيل : أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره .  
وقال معاذ : ( تعلموا العلم فإن تعلمه الله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قرينة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصير على السراء والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمم أفعالهم وترغب الملائكة في خلعتهم وبأجنتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها ) .

لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الإبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله - عز وجل - وبه يعبد ، وبه يوعد ، وبه يوحد ، وبه يعجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله حسن التوفيق .

### في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن ننظم تفاريقها عشر جمل :  
الوظيفة الأولى :

تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذا العلم عبادة القلب ، وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله - تعالى - وكما قال لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن ، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن جنائب الأخلاق وأنجاس الأوصاف .

والقلب بيت هو منزل الملائكة ، ومهبط أثرهم ، ومحل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل : الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب وأخواتها كلاب نابجة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله - تعالى - في القلب إلا بواسطة الملائكة . وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم ؟ فهيات ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة ، الجالب للسعادة ، فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة ، وهل رأيت من يتناول سمّاً مع علمه بكونه سمّاً قاتلاً ، إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بالسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . فإنما العلم الخشية .

### الوظيفة الثانية :

أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة .

### الوظيفة الثالثة :

ألا يتكبر على العلم ولا يتأمر على المعلم ، بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفضيل ، ويدعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبي : ( صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنها يا ابن عم رسول الله - ﷺ - فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا - ﷺ - ) (الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم) (١) .

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبر على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماسة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب إلا مشهور أو خامل ، وضرواة سبع النار بالجهال بالله - تعالى - أشد من ضرواة كل سبع ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان .

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢) .

### الوظيفة الرابعة :

أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء ما كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤسبه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه .

### الوظيفة الخامسة :

ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحموده ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال بالانفكاك عن عداوة وذلك

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب معرفة الصحابة » ذکر مناقب زيد بن ثابت ج ٣ ص ٤٢٣ فقد ورد الحديث

عن ابن عباس ، وقال : صحيح الاسناد على شرط مسلم .

(٢) سورة ق الآية : ٣٧ .

العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : ﴿ وإذا لم يمتدوا به فيقولون هذا إفاك قديم ﴾ (١) .

وقال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرأً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله - تعالى - أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله - تعالى - .

#### الوظيفة السادسة :

ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعى الترتيب ، ويتبدى بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة .

#### الوظيفة السابعة :

ألا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج .

#### الوظيفة الثامنة :

أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيان : أحدهما : شرف الثمرة ، والثاني : وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخرة الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف ، ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة الدليل وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظته الثمرة الأولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين .

وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله - عز وجل - وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فيأياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

#### الوظيفة التاسعة :

أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله - سبحانه وتعالى - والترقي إلى جوار الملاء الأعلى ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه وممارسة السفهاء ومباهاة الأقران .

## الوظيفة العاشرة :

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهكم ولا يهكم إلا شأئك في الدنيا والآخرة ، وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبد الآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ، والأعمال سعيّاً إلى المقصد ، ولا مقصد إلا لقاء الله - تعالى - ففيه النعيم كله .

## بيان وظائف المرشد المعلم

## الوظيفة الأولى :

الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله - ﷺ - : ( إنما أن لكم مثل الوالد لولده )<sup>(١)</sup> ( أبو داود والنسائي ) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب .

فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه . ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التراحم ، والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> وداخلون في قوله تعالى : ﴿ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

## الوظيفة الثانية :

أن يقتدي بصاحب الشرع - صلوات الله عليه وسلامه - فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءً ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله - تعالى - وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم ، لأن التقرب إلى الله

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الطهارة » باب « كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة » ج ١ ص ١٨ حديث رقم ٨ عن أبي هريرة بلفظ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم .. الخ » .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية : ٦٧ .



- تعالى - بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمفعتها بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ (١).

#### الوظيفة الثالثة :

ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله - تعالى - دون الرياسة والمباهاة والمنافسة . وقد رؤي سفيان الثوري - رحمه الله - حزيناً فقيلاً له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً .

#### الوظيفة الرابعة :

وهي من دقائق صناعة التعليم : أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، وينبهك على هذا قصة آدم وحواء - عليهما السلام - وما نهاها عنه فما ذكرت القصة لتكون سمرّاً ، بل لتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد مزج التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

#### الوظيفة الخامسة :

أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ؛ كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وإن ذلك مجرد سماع ونقل وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه .. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب ، بل المتكفل يعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

#### الوظيفة السادسة :

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقي إليه مالا يبلغه عقله فينفره أو يخط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد العلماء وإمام الأتقياء بسيد البشر - ﷺ - حيث يقول : ( نحن معاصر الأنبياء

أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم<sup>(١)</sup> (أبو داود) وروى أنه قال - ﷺ - :  
( ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم )<sup>(٢)</sup> .

### الوظيفة السابعة :

إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقي إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله - سبحانه - في كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد الماثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصدها ويملاً قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن الكريم ولا يحرك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليها جلها فيشقى ويهلك ، وبالجمل لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

### الوظيفة الثامنة :

أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سهم مهلك سخر الناس به واهتموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش على الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب « في تنزيل الناس منازلهم » ج ٥ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظ « أنزلوا الناس

منازلهم .. وهو من رواية يحيى بن العمان ، قال أبو داود : حديث يحيى مختصر .

وانظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٢ فقد ورد الحديث بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن

ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم » .

قال العراقي : حديث أبي داود ، وحديث الاتحاف هما حديثان مستقلان وليسا حديثاً واحداً .. الخ ( انظر الاتحاف ج ١

ص ٣٤٢ ) .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> ولذلك كل وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويتقيدون به ، ومن سن سنة فعلية وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي - رضي الله عنه - قصم ظهري رجلاً :  
عالم مهتك ، وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرم بتهتكه ، والله أعلم .

### علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وقصدي بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعيم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها .

قال - ﷺ - : ( إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه ) <sup>(٢)</sup> .  
وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : ( لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء وتمارزوا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار ) <sup>(٣)</sup> . ( ابن ماجه بإسناد صحيح ) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر - بإسناد جيد - عن النبي - ﷺ - قال : (لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين ) <sup>(٤)</sup> .  
وفي الحديث المتفق عليه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( يؤتي بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا آتية وأنهى عن الشر وآتية ) <sup>(٥)</sup> .

(١) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٢) انظر تحاف السادة المتقين « كتاب العلم » الباب السادس في آفات العلم : ج ١ ص ٣٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٢٥٤ فقد ورد الحديث عن جابر مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر الحديث ٢٥٩ ( المرجع نفسه ) فقد ورد الحديث من رواية لحذيفة وهو أقرب للحديث الذي معنا حيث الاختلاف يسير .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٤٥ فقد ورد الحديث من روايتين عن أبي تميم الحيشي لأبي ذر أنق مع اختلاف يسير في الألفاظ .

وانظر تحاف السادة المتقين ج ١ ص ٣٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والدقائق » باب « عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ حديث رقم ٢٩٨٩/٥١ ، فقد ورد الحديث عن أسامة بن زيد مع اختلاف في بعض الألفاظ .

وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾<sup>(١)</sup> لأنهم مجدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا الله - سبحانه - ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء : ﴿ وَاَتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله - تعالى - فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أي : سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلث بالشهوات . قال عيسى بن مريم : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع .

والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أحسن حالاً ، وأشد عذاباً من الجاهل ، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(٥)</sup> . ولهم علامات ومن علاماتهم :

ألا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكنورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها ، وجلالة ملكها ، ويعلم أنها متضادتان وأنها كالضرتين مهما أرضيت إحداها أسخطت الأخرى ، وأنها ككفتي الميزان مهما رجحت إحداها خففت الأخرى .

قال عمر - رضي الله عنه - إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الكتب السالفة أن الله - تعالى - يقول : إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه .

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٥ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٩ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم .

وكان يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله - يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم ، قصوركم قصيرة ، وبيوتكم كسروية ، وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقد وصف الله - سبحانه وتعالى - علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال - عز وجل - في علماء الدنيا : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِتَّسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ (١) .

وقال تعالى في علماء الآخرة : ﴿ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ هُمُ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ .. ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْدَهُمْ خُشوعًا ﴾ (٣) .

وقال تعالى في قصة قارون : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ (٤) فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

### ومن علامات علماء الآخرة

ألا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشئ مالم يكن هو أول عامل به قال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ كَبِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٦) .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٧ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩ .

(٣) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٤) سورة القصص الآيتان : ٧٩ - ٨٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٦) سورة الصف آية : ٣ .

وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .. ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾<sup>(٢)</sup> . ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال رسول الله - ﷺ - : ( مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم : فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهي عن الشر ونأتيه )<sup>(٤)</sup> ( أخرج ابن حبان عن أنس ) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عباد الأوثان .

وقال حاتم الأصم - رحمه الله - : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً	إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تفصحهم بالوعظ مجتهداً	فالموبقات لعمري أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها	وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لأنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فمن علامات علماء الآخرة أنهم يقولون ما يفعلون .

ومن علامتهم : أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقيال والقال .

ومن علاقتهم : أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل البتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يجترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن

(١) سورة هود من الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٢ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٨ .

(٤) انظر صحيح ابن حبان « كتاب الإبراء » باب « ذكر وصف الخطباء .. الخ » ج ١ ص ١٣٥ حديث رقم ٣٥ من رواية أنس بن مالك بلفظ « رأيت ليلة أسرى بي رجلاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمئك ، يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون . »  
وانظر ص ٣٦٩ من المرجع نفسه فقد ورد الحديث بلفظه .

يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه ، أو يسبكت عن الإنكار عليهم فيكون مدهاناً لهم ، أو بتكلف في كلامه كلاماً لمرضااتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت ، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : ( إن أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون : نأني الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بدنيا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا )<sup>(١)</sup> (رواه ابن ماجه ورجاله ثقات ) .

وقال سعيد ابن المسيب - رحمه الله - : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلاطين ، فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقي إليه أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

### فعلماء الآخرة لا يدخلون على السلاطين ولا يخالطوهم

ومن علاماتهم : ألا يكون سارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما لا يشك فيه قال لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولما سئل رسول الله - ﷺ - عن خير البقاع في الأرض وشرها : قال : ( لا أدري حتى ينزل عليه جبريل - عليه السلام - فسأله فقال : ( لا أدري إلى أن أعلمه الله - عز وجل - ) (إن خير

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ حديث رقم ٢٥٥ عن رواية لابن عباس

فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٣٦ .

البقاع المساجد وشرها الأسواق<sup>(١)</sup> ( أخرجه أحمد والبخاري وصححه من حديث ابن عمر ) .  
وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن  
تسع ، وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء  
من يقول : لا أدري أكثر ممن يقول أدري ، منهم : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن  
حنبل ، والفضل بن عياض . وقد كان ابن عيينه يقول : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف  
العلماء ، وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - إذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد ، وكان ابن عمر  
- رضي الله عنهما - يقول : سلوا سعيد بن المسيب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة  
طريق الآخرة ، وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تفضي  
إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب .  
ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، فإن اليقين هو رأس مال  
الدين ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله - ﷺ - : ( اليقين الإيمان كله )<sup>(٢)</sup> ( البيهقي بإسناد حسن ) .

وقد قال - سبحانه وتعالى - عن أئمة الدين : ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا  
وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾<sup>(٣)</sup> فوصف علماء الآخرة وأئمة الدين بالصبر واليقين .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته  
وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله  
- تعالى - وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في  
السكينة والذلة والتواضع وقد قيل : ما ألبس الله عبداً لبسه أحسن من خشوع في سكينته ، فهي لبسة  
الأنبياء وسيم الصالحين والصديقين والعلماء ، وأما التهاف في الكلام والتشديق والاستغراق في  
الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله  
- تعالى - وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العنماء  
ثلاثة : كما قال سهل التستري - رحمه الله - : عالم بأمر الله - تعالى - لا بأيام الله وهم المفتون في  
الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله - تعالى - لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب العلم » باب « خیر البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق » ج ١ ص ٩٠ فقد  
ورد عن ابن عمر الحديث بلفظه .

(٢) انظر حلیة الأولیاء وطبقات الأصفیاء للأصفهانی ج ٥ ص ٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٧٣ .



عموم المؤمنين ، وعالم بالله - تعالى - وبأمر الله تعالى وبأيام الله - تعالى - ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم .

وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة ، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه ، وقال عمر - رضي الله عنه - تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .

وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة .

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :

لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها ، وأوامرها وزواجرها ، وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة لا يدري ما أمره وما زاجره ، وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل .

وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله - عز وجل - : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

فأما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ <sup>(١)</sup> وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ وَاخْفُضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى :

﴿ فَمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لَنت لَهُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ولما تلا رسول الله - ﷺ - قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩٩ .

(٣) سورة الحجر من الآية : ٨٨ .

(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .

(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

فقيل له : ما هذا الشرح ؟ فقال : ( إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال - ﷺ - نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإناية إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله )<sup>(١)</sup> أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن سعود .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسرها . ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فإن أصل الدين التوقي من الشر .

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله - تعالى - بالقلب واللسان ، وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب ميسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة .

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضيه ، ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تقع أبداً وإن وقعت لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلزمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع منهم نفسه اللازم بهم غيره النادر إثارةً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله - سبحانه - ، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق وجزاؤه من الله ألا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين . وذلك هو الخسران المبين ، ولقد كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأقربهم هدياً من الصحابة - رضي الله عنهم - اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة في شهوات النفس ، وقد قيل : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان ، وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله - ﷺ - كانوا يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ، وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وكان حذيفة - رضي الله عنه - أيضاً قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة - رضي الله عنهم - يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا دعى إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر ، فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب لعلماء الآخرة ؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله - تعالى - .

وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد .  
وعلى الجملة ، فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق ، فإن الحق مر ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطرة عند الموت .

ومن علامات الآخرة : أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة - رضي الله عنهم - وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم ، أكان في التدريس والتصنيف ، والمناظرة ، والقضاء ، والولاية ، وتولى الأوقاف ، والوصايا ، وأكل مال الأيتام ، ومخالفة السلاطين ، ومجاملتهم في العشرة ، أم كان في الخوف والحزن والتفكير والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الأثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن .

وأعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة ، وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . وفي الحديث المشهور ( من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد )<sup>(١)</sup> ( متفق عليه ) . وقال ابن عباس : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال تعالى : ﴿ وذُرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سَوَاءُ عَمَلِهِ فَرَاَهُ حَسَنًا ﴾<sup>(٣)</sup> فكل ما أحدث بعد الصحابة - رضي الله عنهم - مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو .

فهذه علامات علماء الآخرة : ألا يطلب الدنيا بعلمه ، وألا يخالف فعله قوله ، وأن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع ، وأن يتعد عن مخالطة السلاطين والأمراء ، وألا يكون مسارعاً إلى الفتيا ، وأن يكون اهتمامه بمراقبة القلب ، وأن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، وأن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ، وأن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور . فهذه علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة فيها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين : إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الأقضية » باب « نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور » ج ٣ ص ١٣٤٣ حديث رقم

١٧١٨/١٧ من رواية عن عائشة غير أنه ورد بلفظ « في أمرنا » بدلاً من « في ديننا » .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٧٠ .

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨ .

بدلت آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، فنسأل الله - تعالى - أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ، ولا يغره بالله الغرور .  
( مختصر من كتاب إحياء علوم الدين ، باب العلم ، للإمام الغزالي ) .

### تجارة لن تبور

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ .  
هذه سوق من أسواق الآخرة إنها تجارة لن تبور ، لأنها مع الله ومثلها قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومثل هذه التجارة أيضاً قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وهناك أسواق خاسرة نعوذ بالله منها قال الله - تعالى - في شأنها :  
﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال :  
﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
وقال : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآيات : ١١١ - ١١٢ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٨٦ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٧٥ .

ما أعظم التجارة إذا كانت مع الله ، وما أعظم مصيرها وشأنها لأن ذلك المصير هو الخلود في الجنة ، والتجارة مع الله من وجوه كثيرة .

منها : تلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق سراً وعلناً ، إلى غير ذلك من وجوه لا تحصى ومقامات لا تستقصى ، فمن عاش فيها سلك مدارج الأنوار ، ووقف على حقائق الأسرار ، وعاش في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن هذه تجارة ضمن الله لها الربح وعدم البوار قال تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي : ثوابهم في الآخرة ويزيدهم فوق الثواب من فضله ، فهو صاحب النعم والآلاء ، فقد كانوا في الدنيا رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، حافظوا على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فجزاهم الله أحسن ما عملوا وزادهم من فضله ﴿ إنه غفور شكور ﴾ غفور واسع المغفرة يستر العيوب ويفرج الكرب ﴿ شكور ﴾ عظيم الشكر يعطي الجزيل ويبه الكثير ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات ، ويقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضي له الحاجات .

قال قتادة : كان مطرف - رحمه الله - إذا قرأ هذه الآية يقول :  
هذه آية القراء .

## في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

### فضيلة القرآن :

قال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفي الصحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله - ﷺ - :  
( أقرعوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شافعاً لصاحبه ) <sup>(٣)</sup> .

(١) سورة المزمل من الآية : ٤ .

(٢) سورة ص من الآية : ٢٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « فضل قراءة القرآن وسورة البقرة فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبي أمامة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شافعاً لأصحابه ، أقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران .. الخ .

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( خيركم من تعلم القرآن وعلمه )<sup>(١)</sup> ( البخاري ) .

وعن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( أهل القرآن أهل الله وخاصته )<sup>(٢)</sup> ( أخرجه الحاكم ) .

وأما الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : أقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن .

وقال ابن مسعود : أقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه كل حرف عشر حسنات ، أما إنني لا أقول : الم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف .

وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم . وقال أيضاً : من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أبو هريرة : « إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه القرآن ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له أحد حاجة إلا إلى الخلفاء ممن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه .

وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة .

### ( في ذم تلاوة الغافلين )

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ، وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر . وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون ، وبنهاره إذا

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ج ٦ ص ٢٣٦ فقد ورد الحديث من رواية لعثمان - رضي الله عنه - فقد ورد بلفظه .

(٢) انظر المستدرک علی الصحيحین للحاکم « کتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٦ ، فقد ورد الحديث عن أنس بلفظ : قال : قال رسول الله - ﷺ - : إن الله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يا رسول الله ، قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته « وقال قد روى هذا الحديث عن أنس من ثلاثة أوجه هذا أمثلها .

الناس يفرطون ، وبجزنه إذا الناس يفرحون ، ويبكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعب نفسه وهو لا يعلم يقول : ألا لعنة الله على الظالمين ، وهو ظالم لنفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين ، وهو منهم .

### آداب الصلاة :

آداب ظاهرة وهي عشرة :

الأول : في حال القاريء : وهو أن يكون على الوضوء ، واقفاً على هيئة الأدب والسكون ، إما قائماً وإما جالساً ، مستقبل القبلة مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكئ ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه .

وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال ، فإن قرأ على غير وضوء وكان مضجعاً في الفراش فله أيضاً ولكنه دون ذلك في الأجر . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١) فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضجعاً .

الثاني : في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار : فمنهم من يختم القرآن في اليوم واللييلة مرة ، وبعضهم مرتين ، ومنهم من يختم في الشهر مرة ، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول الرسول - ﷺ - : ( من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفْقَهه ) (٢) ( أصحاب السنن ) .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ، وأمر النبي - ﷺ - عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : ( أن يختم القرآن في كل سبع ) (٣) ( متفق عليه ) .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٩١ .

(٢) انظر سنن الترمذي « أبواب القراءات » ج ٤ ص ٢٢٦ حديث رقم ٤٠١٦ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » بتقديم لفظه « لم يفقه » .

وانظر الحديث ٤٠٢٠ نفس المرجع ص ٢٦٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « في كم قرأ القرآن » ج ٦ ص ٢٤٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وكذلك كان جماعة من الصحابة - رضي الله عنهم - يخطمون القرآن في كل جمعة كعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب - رضي الله عنهم - .

**الثالث :** في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة - رضي الله عنهم - القرآن أحزاباً . فروى أن عثمان بن عفان كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد يوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطله إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن الرحيم ويختم ليلة الخميس .

**الرابع :** في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحرمة وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه .

**الخامس :** الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن ، فالمقصود من القراءة التفكير ، والترتيل معين عليه ، ولذلك نعتت أم سلمة - رضي الله عنها - .

قراءة رسول الله - ﷺ - فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً<sup>(١)</sup> ( الترمذي حسن صحيح ) .

وقال ابن عباس : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلها وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذمة .

وأعلم أن الترتيل مستحب لا مجرد التدبر ، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذمة والاستعجال .

**السادس :** البكاء : البكاء مستحب مع القراءة ، فعن سعد ابن أبي وقاص قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( اتلو القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا )<sup>(٢)</sup> ( إسناده جيد ) وقال - ﷺ - : ( ليس منا من لم يتغن بالقرآن )<sup>(٣)</sup> ( البخاري ) .

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » ج ٤ ص ٢٥٤ باب « ما جاء كيف كانت قراءة النبي - ﷺ - » فقد ورد الحديث رقم ٣٠٩١ من رواية يعلى بن مملك : « أنه سأل أم سلمة زوج النبي - ﷺ - عن قراءة النبي - ﷺ - وصلاته .. الخ » وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن أبي مكينة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذري باب الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ج ٢ ص ٦١٠ ، ٦١١ فقد ورد الحديث عن سعد بن أبي وقاص بلفظ « إن هذا القرآن نزل يحزن فإذا قرأتموه فإن لم تبكوا فتابكوا وتغنوا به فمن ليغتن بالقرآن فليس منا » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به » ج ٩ ص ١٨٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة .. وزاد غيره ويجهر به .



ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجه فيحزن لا محالة ويكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليكن على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب .

السابع : أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد ، ويشترط في سجود التلاوة شروط الصلاة في ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث .

الثامن : أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾<sup>(١)</sup> .

وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبّح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخون استعاذ ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه ، فيقول : سبحان الله ، استغفر الله ، نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ، اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله ﷺ - كان لا يمر بآية عذاب إلا تعوذ ، ولا بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية تنزيه إلا سبّح<sup>(٢)</sup> ( مسلم ) .

التاسع : في الجهر بالقراءة : ولا شك في أنه لا بد أن يجهر له إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته ، فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ، ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الأسرار ما روى أنه - ﷺ - قال : ( فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية )<sup>(٣)</sup> ( أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه ) .

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله ﷺ - عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلي إن كنت تريد الله - عز وجل - بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغفوا

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » ج ٤ ص ٤٩١ . فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « صليت مع رسول الله ﷺ - فكان لا يمر بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبّح » .

انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » باب ٢٠ ج ٤ ص ٢٥٢ حديث ٣٠٨٦ ، فقد ورد الحديث عن عتبة بن عامر بلفظ قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : « الجاهر بالقرآن كالجهير بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمر بالصدقة » وقال : هذا حديث حسن غريب .

عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته ، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف ، وهو يومئذ أمير المدينة .

ويدل على استحباب الجهر ما روي في الصحيحين من حديث عائشة : أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله - ﷺ - ( رحم الله فلاناً .. الحديث )<sup>(١)</sup> .

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته - أيضاً - تتعلق بغيره ، فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارئ ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف إليه مسمعه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله . ولهذا نقول : قراءة القرآن في المصاحف أفضل ، إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه .

**العاشر : تحسين القراءة وترتيلها :** بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة .

قال - ﷺ - : ( زينوا القرآن بأصواتكم )<sup>(٢)</sup> ( أبو داود ) .

وقال عليه الصلاة والسلام : ( ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن )<sup>(٣)</sup> . متفق عليه .

وقال : ( ليس منا من لم يتغن بالقرآن )<sup>(٤)</sup> .

وقال - ﷺ - : ( من أراد أن يقرأ القرآن غصاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد )<sup>(٥)</sup> أي عبد الله بن مسعود ( أخرجه أحمد ) .

(١) انظر انحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » باب « في ظاهر آداب التلاوة » ج ٤ ص ٤٩٣ ، فقد ورد الحديث من رواية عن عائشة .

(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم كتاب « فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٧١ ، فقد ورد الحديث بلفظه من البراء بن عازب بغدة روايات .

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب قول النبي - ﷺ - الماهر بالقرآن مع الكرام البررة زينوا القرآن بأصواتكم » ج ٨ ص ١٩٣ ، فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب « قول الله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم .. الخ ﴾ » فقد ورد الحديث في ج ٨ ص ١٨٨ من رواية لأبي هريرة . وزاد غيره « ويجهر به » .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بلفظ « أحب » بدلاً من « أراد » ولم يرد فيه لفظ « طرياً » .

واستمع - ﷺ - إلى قراءة أبي موسى فقال : ( لقد أوتي هذا من مزامير آل داود )<sup>(١)</sup> فبلغ ذلك أبا موسى فقال :

( يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحييراً ) ( متفق عليه ) .

وقد كان عمر يقول لأبي موسى - رضي الله عنهما - : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال : يا أمير المؤمنين ، الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة .

### في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة : فهم أصل الكلام ، ثم التعظيم ، ثم حضور القلب ، ثم التدبر ، ثم التفهم ، ثم التخلي عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثر ، ثم الترتي ، ثم التبري .

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله - سبحانه وتعالى - ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

الثاني : التعظيم للمتكلم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله - عز وجل - غاية الخطر فإنه تعالى قال : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾<sup>(٢)</sup> . وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ، ويقول : هو كلام ربي هو كلام ربي ، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم . ولن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا حضر بياله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليه والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، أن أنعم بفضله ، وإن عاقب فبعده ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهذا غاية العظمة والتعالي فبال تفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « حسن الصوت بالقراءة » ج ٦ ص ٢٤١ ، فقد ورد الحديث عن أبي موسى بلفظ : عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزمراً من مزامير آل داود .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٦ حديث ٢٣٦ فقد ورد الحديث برواية لأبي موسى .

(٤) سورة الواقعة الآية : ٧٩ .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس وقيل في تفسير قول الله : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾<sup>(١)</sup> أي : بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن معظم الكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ، وهو متنزّه ومتفرج ، والذي يتفرج في المتنزّهات لا يتفكر في غيرها ، فقد قيل : إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير ورياضاً .  
الرابع : التدبر . قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالتدبر وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن عن نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن ، قال علي - رضي الله عنه - : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها .

إذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام .

عن أبي ذر قال : ( قام رسول الله - ﷺ - بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي ( إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم )<sup>(٣)</sup> .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

الخامس : التفهم :

وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله - عز وجل - وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله - عز وجل - كقوله تعالى : ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .. ﴾<sup>(٥)</sup> فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموقنين .

(١) سورة مريم من الآية : ١٢ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٩ .

(٣) مسند أحمد ١٤٩/٥ .

(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ .

(٥) سورة الحشر الآية : ٢٣ .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله - عز وجل - إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته فإذا قرأ : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ . ﴿ أفرأيتم ما تمثنون ﴾ . ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ . ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحراث والتمني بل يتأمل في المنى وهو نقطة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والكذب والمجادلة كما قال تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نقطة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم .. ﴾ (١) .

وأما أحوال الأنبياء فإذا منها أنهم كيف كذبوا وضربوا فليفهم منه صفة الاستغناء لله - عز وجل - فلو أنه أهلك جمعهم لم يؤثر في ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله - عز وجل - وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وعود وما جرى عليهم فليكن فهم منه استشعار الخوف من سطوته ونقمتهم وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية .

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .

### السادس : التخل عن موانع الفهم .

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم لأسباب وحجب اسدها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن .

وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون الهم منصرف إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان . وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني القرآن فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف .

ثانيها : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وحمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) سورة يس الآيات ٧٧ ، ٧٨ .

الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصره ومشاهده فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تبين مسموعه حمل عليه الشيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد شيوئك وآبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله .

**ثالثها :** أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبط على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الاكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معاني الكلام أشد احتجابا ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تحلى المعنى فيه ، فالقلب مثل المرأة والشهوة مثل الصداة ومعاني القرآن مثل الصور تتراءى في المرأة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصفيل الجلاء للمرأة .

**رابعها :** أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً وأعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل وحسب وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضا من الحجب العظيمة .

#### السابع : التخصيص .

وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن يعتبر به . ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ (١) .

وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى : ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ (٢) .

**الثامن :** التأثير . وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا

(١) سورة يوسف الآية : ١١١

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٣

مقرؤنا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى : ﴿ وإني لغفار ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط - ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ <sup>(٢)</sup> . ذكر أربعة شروط حيث أقصر ذكر شرطاً خاصاً فقال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ <sup>(٣)</sup> . فالاحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حالة الخشية والحزن ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاؤه وقل ضحكته ، وأكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته .

ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود اقرأ على قال : فافتحت بسورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ <sup>(٤)</sup> رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

#### التاسع : الترقى

وأعنى به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله - عز وجل - لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله - عز وجل - واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتعلق والتضرع والابتهال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله - عز وجل - يراه ويخاطبه بالطافة ويناحيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .

الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصوراً المهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مُستغرق بمشاهدة المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره .

وهذه درجة المقربين وقبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذه الدرجات فهو درجات الغافلين .

العاشر : التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والاتلفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصلحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصدّيقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله - عز وجل - بهم . وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً واشفاقاً .

( مختصر من إحياء علوم الدين باب فصل قراءة القرآن وأدابه الظاهرة والباطنة )

(١) سورة طه الآية : ٨٢

(٢) سورة العصر الآيات : ١ - ٣

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٦

(٤) صحيح البخارى - فضائل القرآن : ٦ / ٢٤١

## وعد وعيد

قال تعالى :

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

## تفسير المفردات

﴿أورثنا الكتاب﴾ أعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث ، ﴿اصطفينا﴾ : اخترنا واشتقاقه من الصفو وهو الخلو من شوائب الكدر ، ﴿ظالم لنفسه﴾ الظلم تجاوز الحد ، ﴿مقتصد﴾ : متوسط ، ﴿سابق بالخيرات﴾ سبق غيره وبده يعمل الخير ، ﴿أساور﴾ : جمع اسورة وهى حلية تلبس في اليد ، ﴿كفور﴾ : كثير الكفر ، ﴿يصطرخون﴾ : يستغيثون في النار بصوت عال ، والصراخ الصوت العالي والصارخ والمستغيث والمصرخ المغيث ، ﴿نعمركم﴾ : نجعلكم تعمرن .



## المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيه أجراً - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورشوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، مقتصد ، سابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأنهم يحلون فيها من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ويقولون حيث شاء الله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ويقولون إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب ، وبعد أن بين مآلعباده الذين أورشوا الكتاب من النعم في دار السرور التي قال في مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها هجر مسته سراء  
أردف ذلك ذكر ما لأضدادهم من النعمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعم زائل وجور لا يدوم .

وبعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويرفع العذاب عنهم أردف ذلك بيان أنه محيط بالأشياء علماً فلو كان لهم نصير في وقت ما لعلمه .

إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلدون في العذاب وقد ظلموا في أيام معبودات أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فمهما طال أعمارهم فلن تتغير حالهم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب ﴾ المقصود بالذى أوحينا إليك هو القرآن العظيم والخطاب هنا موجه إلى الرسول الكريم ﷺ هو الحق مصدق لما بين يديه وذلك لقوله تعالى : ﴿ الله لا اله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدق لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ (١).

وكقوله جل شأنه : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدق لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه ﴾ (٢).

(١) سورة آل عمران الآيات : ٢ - ٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

والقرآن حق مطلق وصدق مطلق قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ إن الله بعباده خبير بصير ﴾ .

أى : عالم بدقائق الأشياء بصير مطلع على ماتكنه الصدور فقد أحاط بكل شئ علما وأحصى كل شئ عددا ، قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

في هذه الآية إخبار منه - عز وجل - عن القائمين بهذا الكتاب الذين شرفهم الله - تعالى - بحمل الرسالة حيث قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ .

وكفى باصطفاء الله لهم شرفا وقدرًا ومجدا ونبلا وبرًا وفضلا .

ثم قسمهم تعالى إلى ثلاثة أقسام حيث قال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾<sup>(٤)</sup> . قال : هم أمة - محمد ﷺ - ورثهم ﷺ - تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وروى أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : ﴿ شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ﴾<sup>(٥)</sup>.

قال ابن عباس - رضى الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعه محمد ﷺ .

(١) سورة الاسراء الآية : ١٠٥

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٦

(٣) سورة الزمر الآيتان : ١ ، ٢

(٤) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٥) المعجم الكبير للطبراني ١١ / ١٨٩ رقم ١١٤٥٤

﴿ مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحسبون في طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب <sup>(١)</sup>.

وروى الحافظ أبو القاسم بسنده عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - ( فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ) الآية

قال : قال رسول الله ﷺ ( كلهم من هذه الأمة ) <sup>(٢)</sup>

وروى ابن جرير بسنده عن أنس مسعود - رضى الله عنه - قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلاث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلاث يحاسبون حسابا يسيرا وثلاث يمحشون بذنوب عظام حتى يقول الله - عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم - تبارك وتعالى - فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله - رضى الله عنه - هذه الآية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وروى أبو داود الطيالسي عن عتبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - عن قول الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية ﴾ فقالت لى : يابنى هؤلاء فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلكم ومثلكم قال فجعلت نفسها معنا وهذا منها - رضى الله عنها - من باب الهضم والتواضع وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها فى النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على يعنى الباقر - رضى الله عنهما - عن قول الله تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ فقال : هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام فى هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة فإنهم كما قال الإمام أحمد - رحمه الله - حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أنى الدرداء - رضى الله عنه -

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٨

(٢) المعجم الكبير للطبراني ١ / ١٣١ رقم ٤١٠

(٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٤) مسند أبو داود الطيالسي ٦ / ٢٠٩ رقم ١٤٨٩

وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أى أخى قال حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال لا قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم قال رضى الله عنه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر<sup>(١)</sup> ، وقد تقدم فى أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان ولا أبالي ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أى : ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم لا يقدر قدره .

وبعد ذلك جاء بيان ذلك الفضل مفصلا فى قوله تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ المقصود بعدن الإقامة يدخلونها يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين . ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ - أنه قال ( تبلغ الحلية من المؤمن من حيث يبلغ الوضوء ) ، وذلك كما فى قول تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ لأنهم امثلوا لأمر الله فى الدنيا فلم يلبسوه لأنه كان محظورا عليهم فالبسهم الله تعالى إياه فى الجنة وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( من لبس

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٦

(٢) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحث على طلب العلم ، وتحفه الأحوذى  
كتاب العلم أيضا - باب فى فضل الفقه على العبادة ٧ / ٤٥٠ رقم ٢٨٢٢ وسن أبى ماجه المقدمة - باب فى فضل العلماء والحث

على طلب العلم ٨١ / ١ رقم ٢٢٣

(٣) سورة الكهف الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

الحرير في الدنيا فلن يلبسه في الآخرة وقال هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة ( قال تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ <sup>(١)</sup> .

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : إن أبا أمامة - رضى الله عنه - حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسرون بالذهب والفضة مكللة بالدر وعليهم أكاليل من در ويقوت متواصلة وعليهم تاج كجاج الملوك شباب جرد مرد مكحولون » <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ﴾ أى ما كنا نخذه من الهموم والخوف وما من شك في أن هذه نعمة ما تدانيها نعم بعد الإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ﴾ والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل أمرىء بما كسب رهين وأمددناهم بفأكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون \* وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ <sup>(٣)</sup> وقد قالوا أيضا في موضع آخر : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبؤا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ <sup>(٤)</sup> وإنما جاء الحق هنا وفي هذا المقام بالذات لأن فيه القضاء يقتضى الحمد لذا جاءت سورة الأنعام بعد سورة المائدة لأن في آخر المائدة فصل القضاء وفي أول الأنعام الحمد قال تعالى : ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٥)</sup> ثم قال تعالى في أول سورة الأنعام : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾ <sup>(٦)</sup> وهنا حمدوا الله الذى أذهب عنهم الحزن وقضى لهم بالجنة ونعيمها .

(١) سورة الحج الآيتان ٢٣ ، ٢٤

(٢) الدر المنثور للسيوطي ٢٦/٧ طبعة دار الفكر

(٣) سورة الطور الآيات : ١٧ - ٢٨

(٤) سورة الزمر الآية : ٧٤

(٥) سورة المائدة الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠

(٦) سورة الأنعام الآية : ١

وفي سورة الأعراف يقول تعالى : ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار﴾<sup>(١)</sup>

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ ( ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن )<sup>(٢)</sup>.

قوله تعالى : ﴿إن ربنا لغفور شكور﴾ قال ابن عباس وغيره غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات .

قوله تعالى : ﴿الذى أحلنا دارا لمقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ .

وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد لله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات والأرض وملء ما فيها وملء ما شاء من شيء بعد لقد أدخلهم دار المقامة الدائمة من فضله لا بأعمالهم فإن الأعمال مهما عظمت وكثرت فإن نعمة الجنة والإقامة فيها نعمة لا تدانيها الأعمال وكثرتها ولذلك فإنهم يدخلونها بفضل الله ويتقاسمون درجاتها بأعمالهم قال تعالى : ﴿ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾<sup>(٣)</sup>.

جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : ( لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة ) قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ( ولا أنا أن يتغمدى الله تعالى برحمة منه وفضل ) ومن نعم الله تعالى عليهم في دار الخلد أنهم لا يمسهم فيها نصب أى إعباء ولا لغوب أى تعب والنكرة في سياق النفي تفيد العموم أى لا يمسنا فيها أى نصب ولا أى لغوب قليلا كان أم كثيرا ، لقد ولت الدنيا بهومها وكرها وهم الآن في دار السلام ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة وهم ما يدعون سلام قولاً من رب رحيم<sup>(٤)</sup>.

﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا - به متشابها وهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ ، ٤٣

(٢) الكامل لابن عدى ١٥٨٢/٤

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٩

(٤) البخارى - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٣/٨

ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ١٣٩/٨ رقم ١٤٠

(٥) سورة يس الآيات :

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٥

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها      فالموت لاشك يفنينا ويفنيها  
طوأعمل لدار غدا رضوان خازنها      والجار أحمد والرحمن ناشيها  
قصورها ذهب والمسك طيتها      والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ .

هذا وعيد يأتي بعد الوعد وفيه بيان الحال الأشتياق ﴿ الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ (١) .

وجاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ وقال : ﴿ أما أهل النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ﴾ (٢) .

وقال عز وجل : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ (٣) فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى : ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ كما قال : تعالى ﴿ إن الجرمين في عذاب جهنم خالدون ﴾ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ (٤) وقال سبحانه : ﴿ كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ (٥) وقال : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لا يثن فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ هذا منطلق العدالة الإلهية أي : نجزي هذا الجزاء كل كفور جحد فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٢٨ - ٣٠

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار ١٧٢/١ رقم ١٨٥ وابن ماجه في الزهد - باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٩

(٣) سورة الزخرف الآيتان : ٧٧ ، ٧٨

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦

(٥) سورة الاسراء الآية : ٩٧

(٦) سورة هم الآيات : ٢١ - ٣٠

ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ ﴿٢﴾ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿٣﴾ ﴿٤﴾ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴿٧﴾ ﴿٨﴾ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴿٩﴾. ثم يبين الله حالهم في النار فقال تعالى : ﴿١٠﴾ إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ إنهم يستغيثون يقولون : ﴿١٣﴾ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ﴿١٤﴾ ولكن هيهات لقد كنتم في الدنيا لاهين عابثين وكانت الدنيا دار عمل ولا حساب أما الآخرة فدار حساب ولا عمل قال تعالى : ﴿١٥﴾ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرا وكنتم منهم تضحكون إلى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴿١٦﴾

وقال تعالى : ﴿١٧﴾ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة

(١) سورة يونس الآية : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية : ١١١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٠

(٥) سورة الزخرف الآية : ٧٦

(٦) سورة الكهف الآية : ٢٩

(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨



بغثة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴿١﴾.

وقال جل شأنه : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ ﴿٢﴾.

وقال تعالى : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ ﴿٣﴾.

وهنا يقول لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ أى لقد أعطيناكم العمر فى الدنيا بحيث من أراد أن يتذكر كان له ذلك ولكنكم اتخذتم الدنيا هوا ولعبا وغرتمكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغرتم بالله الغرور ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقد جاءكم النذير وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم وأنزلنا إليكم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم فذوقوا جزاء ما قدمت أيديكم فما للظالمين من نصير ولا معين ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم باذنون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴿٤﴾.

ثم يثبت الله تعالى علمه الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض فيقول سبحانه : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ . فلا أحد يعلم الغيب إلا الله : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ﴿٥﴾ فقد علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين وهو الذى

(١) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٣١

(٢) سورة الحج الآيات : ١٩ - ٢٢

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٣ - ٢٠

(٥) سورة النمل الآية : ٦٥

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾.

بل إن علمه قد بلغ ما هو أدق وأعمق أنه عليم بذات الصدور وما تنطوى عليه النفوس ﴿٢﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿٣﴾ وقد علم ما انطوت عليه صدور هؤلاء من الجحود والكفر لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

﴿٤﴾ قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدكم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إني دعوتهم جهارا ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرار ﴿٥﴾.

مواقف وعبر :

قال تعالى :

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ بَعْلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٩﴾ اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿١٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

(١) سورة الأنعام الآيات : ٥٩ - ٦٠

(٢) سورة نوح الآيات ٥ - ٩ .

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١١﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿١٢﴾

### معاني المفردات :

﴿ خلائف ﴾ : جمع خليفة . ﴿ مقتا ﴾ : غضبا شديدا . ﴿ شرك ﴾ : شركة . ﴿ غرورا ﴾ : باطلا . ﴿ نزولا ﴾ : من الزوال أى يمنعهما منه . ﴿ جهد أيمانهم ﴾ : طاقتها وغايتها . ﴿ نفورا ﴾ : أعراضا وتباعدا عن الهدى . ﴿ يحيق ﴾ : يحيط . ﴿ ينظرون ﴾ : ينتظرون . ﴿ ليعجزه ﴾ : ليسبقه ويفوته .

### المناسبة وإجمال المعنى :

بعد ما بين - سبحانه - أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ما هو فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم . أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ﴿ فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾ ثم أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته وعدم اشراك غيره معه ، وبعد أن ذكر - سبحانه - تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام ، وبكتهم على هذا أشد التبكيت ، وضرب لهم الأمثال ، ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ، أردف ذلك ذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ، ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا فقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، ثم هددهم بأن عقابهم ستكون الهلاك الذى لا محيص عنه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم وستته لا تبدل فيها ولا تحويل ثم نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراد .

ثم ذكر حلمه بعباده وإنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ أى يخلف قوم الآخرين قبلهم وجيل لجيل قبلهم كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ فمن كفر فعليه كفره ﴾ أى فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ولن يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا .

﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقنا ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ﴿ قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ (٢).

وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارؤه رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ﴾ .

يقول تعالى لرسوله أن يقول للمشركين : ﴿ أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ﴾ أى ليس لهم شيء من ذلك ما يملكون من قطمير كما قال تعالى : ﴿ قل أرايتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات اثبوتى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين \* ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (٣). وكقوله تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم \* هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ (٤). وكقوله تعالى فى أول هذه السورة التى بين أيدينا ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير \* وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون \* يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

(٣) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من  
قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم  
ولا ينبتك مثل خبير .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه  
من الشرك والكفر ؟

كما قال تعالى ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأَتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) . ﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ  
الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيتهم التى تمنوها  
لأنفسهم وهى غرور وباطل وزور .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ  
مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة  
والماسكة لهما فقال : ﴿ إِنْ اللَّهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ أى : أن تضطربا عن  
أماكنهما كما قال عز وجل : ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنْ اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ  
رَحِيمٌ ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ  
زَالَتَا إِنْ أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى ما أُمْسِكُهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، لا يقدر على دوامهما  
وابقائهما الا هو . وهو مع ذلك حلیم غفور أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم  
فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستتر آخرين ويغفر ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾  
وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ  
بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقُطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٥) .

وقد جاء فى الصحيحين عن أنى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إِنْ اللَّهُ  
تَعَالَى لَا يَنَامُ وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ  
النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ  
خَلْقِهِ » (٦) .

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة الصافات الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة الحج الآية : ٦٥

(٤) سورة الروم الآية : ٢٥

(٥) سورة سبأ الآية : ٩

(٦) مسلم - كتاب الايمان - باب قوله عليه السلام :

« إِنْ اللَّهُ لَا يَنَامُ .. ١٦/١ رقم ١٧٩ وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة - باب انكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ والامام أحمد

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون ﴾ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها تحيرا أقل انتظروا إنا منتظرون ﴾ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينتههم بما كانوا يفعلون ﴿ (١) .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ (٢) وفي الآية إخبار منه سبحانه وتعالى عن هؤلاء الجاحدين المعاندين الذين أقسموا بالله طاقة الأيمان وأغلظها إن جاءهم نذير وبعث فيهم نبي ليكونن أهدى من أي أمة بعث فيها نبي فلما جاءهم نذير وهو محمد ﷺ برسالاته الخاتمة ما زادهم ذلك إلا نفورا وشرودا عن الحق ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون وليبوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنيهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشركين فبئس القرين ﴿ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن من لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كإزعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولم نؤمن لربك حتى تنزل علينا

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٦٧ - ١٧٠

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣١ - ٣٨

كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا ﴿١﴾ تلك مواقفهم وهذا عنادهم كما قال تعالى : ﴿ استكبارا في الأرض ومكر السيء ﴾ استكبارا عن قبول الحق : لأنهم يغمطون الناس وييطرون الحق ويمكرون بالمؤمنين مكر السيء ﴿ ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ ﴿٢﴾ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لنزول منه الجبال ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لنزول منه الجبال ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ أى وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال محمد بن كعب القرطبي : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغى . أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ ﴿ إنما بغىكم على أنفسكم ﴾ ﴿٤﴾ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴿٥﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره كما قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴿٦﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل بل هى جارية فى كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ أى : تحولا ولا يكتشف ذلك عنهم ويحوله عنهم كما قال تعالى : ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ ﴿٧﴾ . وكما قال تعالى : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣

(٢) سورة النمل الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٦

(٤) يونس الآية : ٢٣

(٥) القمح الآية : ١٠

(٦) سورة الأنعام الآيتان : ١٠ - ١١

(٧) سورة الرعد الآية : ١١

عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أويلبسكم شيئا \* ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴿١﴾.

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها \* فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى في سورة الروم : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ ﴿٣﴾.

وقوله تعالى في سورة غافر : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ ﴿٤﴾.

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ﴿٥﴾.

وقوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم

(١) سورة الأنعام الآيات : ٦٣ - ٦٥

(٢) سورة الحج الآية : ٤٦

(٣) سورة الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات : ٨٢ - ٨٥



يرجعون \* فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴿١﴾.

وقوله تعالى في سورة محمد : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافروين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ (٢).

فقل هؤلاء يا محمد أولاً تأخذون عبرة من الأمم السابقة وإنكم تمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون اقعوا ولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة في الزبر ﴾ أم يقولون نحن جميع منتصر سيزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴿٣﴾.

لقد دمر الله عليهم وما كان الله ليعجزه من شيء أى شيء واللام هنا لام الجحود لأنها مسبقة بكون منفى وهذا يفيد أن الله تعالى صاحب السلطان الأعلى هو القاهر فوق عباده ﴿ إنه كان عليهما قديرا ﴾ لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إذ هو خالقهما لا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم ، علم كل شيء وهو القادر على كل شيء .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ على هذا منطق العدل ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ هذا منطق الفضل فإن يعاقب فيمحض العدل وإن يثب فيمحض الفضل إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . ( إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ) (٤) .

ومثل الآية قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٥).

فاللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك بإحسانك ولا تعاملنا بميزانك وعاملنا بما أنت أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ولا تعاملنا بما نحن أهله فكل ابن آدم خطاء .

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٦

(٢) سورة محمد الآيات : ١٠ ، ١١

(٣) سورة القمر الآيات : ٤٣ - ٤٦

(٤) البخارى - كتاب التفسير - سورة هود - باب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ٩٤/٦ ومسلم - كتاب البر والصلة

- باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣

(٥) سورة النحل الآية : ٦١

## سورة يس

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاجماع عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيين  
وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون ... وحروفها ثلاثة آلاف .  
وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها  
وسورة حبيب النجار لاشتغالها على قصته .

## مقصود السورة :

تأكيد أمر القرآن والرسالة وإلزام الحجة على أهل الضلالة وضرب المثل فى أهل أنطاكية وذكر  
حبيب النجار وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة وإبداء الليل والنهار وسير الكواكب ودور  
الأفلاك وجرى الجوارى المنشآت فى البحار وذلة الكفار عند الموت وحيرتهم ساعة البعث وسعد  
المؤمنين المطيعين وشغلهم فى الجنة وميز المؤمن من الكافر فى القيامة وشهادة الجوارح على أهل المعاصي  
بمعاصيهم والمنة على الرسول ﷺ بصيانتهم من الشر ونظمه وإقامة البرهان على البعث ونفاذ أمر الحق  
فى كن فيكون وكال ملك ذى الجلال على كل حال فى قوله : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل  
شئ وإليه ترجعون ﴾ .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى ﴾ سبق فى سورة القصص .  
قوله ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة ﴾ مرتين ليس بتكرار لأن الأولى هى النفخة التى يموت بها  
الخلق ، والثانية التى يحيى بها الخلق .

قوله : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ وكذلك فى مريم ولم يقل : ﴿ من دونه ﴾ كما فى  
الفرقان بل صرح كيلا يودى إلى مخالفة الضمير قبله فإنه فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما وقد سبق فى  
الفرقان .

قوله : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون ﴾ وفى يونس : ﴿ ولا يحزنك قولهم إنا العزة  
لله جميعا ﴾ تشابها فى الوقف على ( قولهم ) فى السورتين لأن الوقوف عليه لازم ( وإن ) فيها مكسور  
الابتداء بالحكاية ومحكى القول محذوف ولا يجوز الوصل لأن النبى ﷺ منزّه من أن يخاطب بذلك .

قوله : ﴿ وصدق المرسلون ﴾ وفى الصافات . ﴿ وصدق المرسلين ﴾ ذكر فى المتشابه وما  
يتعلق بالإعراب لا يعد من المتشابه .

وجه اتصالها بما قبلها :

وذلك من وجوه .

١ - لما جاء في السورة السالفة قوله : ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقوله : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ﴾ وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

٢ - أنه قال فيما قبلها : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ وقال في هذه : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ .

٣ - ورد في كلتا السورتين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار ففي سورة فاطر ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها ﴾ وفي سورة يس : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴾ . وفي سورة فاطر يقول تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ . وفي سورة يس : ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَقِهِمْ بَغْلًا لَّا فِيهِ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾

معاني المفردات :

﴿ يس ﴾ يرى كثير من المفسرين أنها من الحروف الهجائية التي افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم ، وروى عن أنى عباس - رضى الله عنهما - وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عيينة ان

يس بمعنى يا إنسان . ﴿ والحكيم ﴾ أى : ذى الحكمة ، ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى : طريق قويم ، من عقائد صحيحه ، وشرائع حقه ، ﴿ حق ﴾ أى : ثبت ووجب ، ﴿ الأغلال ﴾ واحدها غل ، وهو ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ﴿ والمقمح ﴾ الذى يرفع رأسه ويغض بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى : من أمامهم ، ﴿ فاغشيناهم ﴾ أى : فغطينا أبصارهم ، ﴿ والذكر ﴾ القرآن ، ﴿ خشى الرحمن ﴾ أى : خشى عقابه ، ﴿ بالغيب ﴾ أى : قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ما قدموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ، وآثارهم : أى : ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كفرس بذور الضلالات بين الناس ، ﴿ فى إمام مبين ﴾ أى : فى أصل يؤتم به .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ هذا قسم منه - سبحانه عز وجل - بالقرآن الحكيم والله تعالى أن يقسم بما شاء لكن لا يجوز للعبد أن يخلف إلا بالله ، وله إذا أقسم بالله - تعالى - أن يكون صادقا فى قسمه وألا يقسم إلا إذا دعت الضرورة لذلك ، والله تعالى يقسم بالقرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى أى شىء يقسم مولانا ؟ يأتى جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ هكذا مؤكدا بـ ﴿ إن ﴾ و ﴿ اللام ﴾ وفى القسم وجوابه رد على كل كفار أثيم ، ورد على المنكرين لنبوة خير الأنام ﷺ والذى قال له ربه فى التوراة كما قال له فى القرآن : ( يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر )

ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

قوله تعالى : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وكما جاء فى قوله - عز وجل : ﴿ قل إننى هادى ردى إلى صراط مستقيم ديننا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين \* قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين \* قل غير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزرر

وازره وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴿١﴾.

قوله تعالى : ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ حم - تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾ (٢). وكما قال سبحانه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم \* صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ لتذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعنى بهم العرب فإنه ما آتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عدائهم لقوله سبحانه : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (٤). ولقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٥).

قوله تعالى : ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ( فهم لا يؤمنون ) بالله ولا يصدقون رسله .

قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون \* وجعلنا من أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون \* وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ قال العوفي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴾ قال هو كقوله عز وجل : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ (٦) يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ فهم مقمحون ﴾ قال رافعى رعو سهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سدا ﴾ قال مجاهد عن الحق ﴿ ومن خلفهم سدا ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون وقال قتادة : فى الضلالات .

(١) الأنعام الآيات : ١٦٣ - ١٦٥

(٢) سورة فصلت الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

(٣) سورة الشورى الآيات : ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٦) سورة سراء الآية : ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴾ أى أغشيناهم أبصارهم عن الحق ﴿ ففهم لا يبصرون ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ! جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه وقرأ : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً - إلى قوله - فهم لا يبصرون ﴾ قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو ؟ لا يبصره ، وروى أنه - ﷺ - خرج من داره مهاجراً وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يدرها على رءوسهم ويقرأ ( يس والقرآن الحكيم حتى انتهى إلى قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ) ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك من الدار فقال مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً قال : قد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب .

قوله تعالى : ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أى : قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الانذار ولا يتأثرون به كما قال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿ وخشى الرحمن بالغيب ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله - تبارك وتعالى - يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل كما قال تعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾<sup>(٣)</sup> قوله تعالى : ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أى لذنوبه ، ﴿ وأجر كريم ﴾ أى : كثير واسع .

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾<sup>(٤)</sup> وكما في قوله سبحانه : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ ، من خشى الرحمن

(١) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة الملك الآية : ١٢

بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴿١﴾.

ثم قال سبحانه : ﴿إنا نحن الموق ﴿٢﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب في سورة الحديد : ﴿اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴿٣﴾﴾.

وقوله تعالى : ﴿ونكتب ما قدموا ﴿٤﴾ أى : من الأعمال ، وفي قوله تعالى ﴿وآثارهم ﴿٥﴾ قولان ( أحدهما ) نكتب أعمالهم التى بأشروها بأنفسهم وآثارهم التى اثروها من بعدهم فنجزهم على ذلك أيضا إن خيرا فخير وإن شرا فشر كقوله ﷺ ( من سن فى الاسلام سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أوزارهم شيئا . رواه مسلم <sup>(٦)</sup> )

وروى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده ) <sup>(٧)</sup>.

( والقول الثانى ) ان المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية قال مجاهد : ( ما قدموا أعمالهم ﴿٨﴾ وآثارهم ﴿٩﴾ قال خطاهم بأرجلهم وكذلك قال الحسن وقتادة .

وقد وردت فى هذه المعنى أحاديث منها .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ) قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال - ﷺ - يابنى سلمة ( دياركم تكتب آثاركم دياركم تكتب آثاركم ) <sup>(١٠)</sup> رواه مسلم أى : الزموا دياركم تكتب آثاركم .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله عمرو - رضى الله عنهما - قال : توفى رجل بالمدينة فصلى عليه النبى ﷺ وقال « ياليتته مات فى غير مولده فقاا . رجل من الناس ، ولم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة » <sup>(١١)</sup>.

(١) سورة ق الآيات : ٣١ - ٣٥

(٢) الحديد الآية : ١٧

(٣) مسلم - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بشق ثمرة أو كلمة طيبة وإنها حجاب من النار ٣ - ٧٠٥ رقم ١٠١٧

(٤) مسلم - كتاب الوصية - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣/١٢٥٥ رقم ١٦٣١

(٥) مسند الإمام أحمد ٣ / ٣٣٢

(٦) مسند الإمام أحمد ٧٧/٢ ورواه النسائى - كتاب الجنائز

وهذا القول لاتنافى بينه وبين الأول بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلان تكتب تلك التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ أى وجميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ ( والأمام المبين ) قال مجاهد وقتادة وغيرهما : هو أم الكتاب قال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر ﴾ <sup>(١)</sup> وقال سبحانه : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون <sup>(٢)</sup> .

### أصحاب القرية مع رسلهم

أَوْ أَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ <sup>(١٣)</sup> إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ <sup>(١٤)</sup> قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ <sup>(١٥)</sup> قَالُوا إِنَّا نَبِإُكُمْ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ <sup>(١٦)</sup> وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ <sup>(١٧)</sup> قَالُوا إِنَّا تَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْنَ لَمْ تَنْزِلُوهَا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ <sup>(١٨)</sup> قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَفِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ <sup>(١٩)</sup> وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَفْقَوْمَ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ <sup>(٢٠)</sup> اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ <sup>(٢١)</sup> وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ <sup>(٢٢)</sup> ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْعًا وَلَا يُنْقِذُونِ <sup>(٢٣)</sup> إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ <sup>(٢٤)</sup> إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ <sup>(٢٥)</sup> قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ <sup>(٢٦)</sup> بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ \*

(٣) سورة التحريم الآية : ١٠

(٤) سورة الجاثية الآيات : ٢٧ - ٢٩

(١) سورة القمر الآيات : ٥٢ - ٥٣

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩



## معاني المفردات :

﴿ ضرب المثل ﴾ : يستعمل تارة تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما في قوله تعالى :  
 ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح ﴾ الآية ويستعمل أخرى في ذكر حال غريبة وبيانها للناس  
 من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : ﴿ وضرينا لكم الأمثال ﴾ أى وبيننا لكم أحوالا غاية  
 في الغرابة كالأمثال والقرية : قيل أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة . ﴿ فعززنا ﴾ أى : فقوينا  
 وشددنا ، ﴿ البلاغ المبين ﴾ أى : التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ، ﴿ تطيرنا ﴾ أى : تشاء منا ،  
 ﴿ لنرجنكم ﴾ : أى : لنرميكم بالحجارة ، ﴿ طائركم ﴾ : أى : سبب شؤمكم ﴿ مسرفون ﴾ :  
 أى يجاوزون الحد في العصيان ، ﴿ أقصى المدينة ﴾ أى : أبعد مواضعها ، ﴿ يسعى ﴾ : أى : يعدو  
 ويسرع ، ﴿ لاتفن ﴾ : أى : لاتنفع ، ﴿ ولا ينقدون ﴾ : أى : لا يخلصون . ﴿ من جند من  
 السماء ﴾ جند السماء ملائكة الوحي أو ملائكة تنزل بالعذاب ﴿ خامدون ﴾ : ميتون وهامدون  
 كالرماد الخامد .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون - اردف ذلك ذكر مثل  
 لقوم حالهم كحالهم في الغلو في الكفر والاصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن  
 سماع الوعظ والارشاد ، وهو أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله  
 كقصص قومك معك ، في العناد والاستكبار والعنوت والطغيان .  
 التفسير :

قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ يقول تعالى :  
 واضرب لهم يا محمد أى لقومك الذين كذبوك وجادلوك اضرب لهم مثلا وهو شأن أصحاب القرية  
 وحالهم العجيبة مع رسلهم الذين أرسلوا إليهم والذين جاء تفصيلهم في قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا إليهم  
 اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ﴾ أى : قويناها بثالث فلما ذهب الثلاثة إليهم قالوا : إنا إليكم مرسلون  
 والمقصود بالقصة مغزاها ومعناها ومرواها لذا فإن القرآن لا يعول على الأسماء ، حتى يكون هناك  
 تركيز على المغزى والمعنى . فماذا قال له أصحاب القرية ؟ ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ وتلك  
 كلمة جاءت على السنة المكذبين من قبلهم فقد قيل في شأن نوح : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه  
 فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا  
 بشر مثلكم يريد أن يفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين إن هو  
 إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين <sup>(١)</sup> وجاء في شأن هود وصالح مع عاد وثمود قوله تعالى :  
 ﴿ فإن أعرضوا قل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن  
 خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لآنزل ملائكة فإنا بما أرسلكم به كافرون <sup>(٢)</sup> .

وجاء في شأن غيرهم من الأنبياء قوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ .

﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلكم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى وقالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (١) .

وجاء في سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ أيعدكم أنكم إذا معم وكهفم ثرابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾ هيات هيات لما توعدون ﴾ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ (٢) .

وجاء في شأن خاتم الأنبياء ﷺ ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ (٤) فانظر كيف اتحدت كلمة الباطل على ألسنتهم مع بعد الزمان أو المكان . ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولذا قال تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٥) وكأن البشرية أصبحت تهمة توجه إلى الأنبياء ، ألم يعلم هؤلاء المكذبون أن الله تعالى جعل الأنبياء بشرا حتى يكونوا على دراية بأحوال البشر ، وحتى يقفوا من مشاكل البشرية موقف الإصلاح في نور الوحي يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعملون وينامون ويمرضون ولو كانوا ملائكة لكانوا بمعزل عن طباع البشر لذا قال تعالى : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾ (٦) .

(٥) سورة فصلت الآية : ٤٣

(٦) سورة النرايات : ٥٣ - ٥٥

(٧) سورة الاسراء الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٩ - ٦١

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٣١ - ٣٧

(٣) سورة الاسراء الآية : ٩٤

(٤) سورة الفرقان الآيات : ٧ - ٩

وقال ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلنا رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾<sup>(١)</sup>

وهؤلاء القوم الذين هم أصحاب القرية تمادوا في عنادهم حتى قالوا لرسول الله : ﴿ وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم ألا تكذبون ﴾ لقد انكروا الرسالة من أصلها ورموا صدق البشر بالكذب والكذب رذيلة من أخط الرذائل إذ هي أصل كل ذنب .

فماذا قال الرسل ، زادوا الأمر توكيدا : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأسندوا إرسالهم إلى علم الله ، وعلم الله لا يقبل الجدل ، فعلمه حقيقة وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية ، كذلك أكدوا الأسلوب بـ ( إن ) و ( اللام ) المؤكدة ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ ثم بينوا لهم مهمة الرسل فقالوا : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبذلون وما تكلمون ﴾<sup>(٢)</sup> وكما قال سبحانه ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ ﴾<sup>(٣)</sup> فماذا قال القوم لرسولهم بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لنجرتكم ولمنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

قال قتادة المقصود بذلك : إنا اصابنا شر فإنما هو من أجلكم وقال مجاهد يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا غلب أهلها ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

ثم أوعدوا الرسل وهددوهم قائلين : ﴿ لنن لهم لنجرتكم ﴾ أى : تكفوا عن قولكم هذا ﴿ لنجرتكم ﴾ أى : بالحجارة ﴿ ولمنكم منا عذاب أليم ﴾ وهذا شرح للرجم كما قال قوم شعيب له ﴿ يا شعيب مانفقة كثيرا فما تقول وإنا لعراك فيها ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير ﴾<sup>(٥)</sup> وكما قال آزر لأبنيه إبراهيم : ﴿ أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لنن لم تنته لأرجمتك وأهجرنى مليا ﴾<sup>(٦)</sup> .

فماذا قال الرسل ؟ لقد قالوا لهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ طائركم معكم ﴾ أى : مردود عليكم ولعلنا سببا في هذا التشاؤم لأننا مؤمنون بأن كل شيء بقضاء الله وقدره .

(٤) سورة هود الآية : ٩١

(٥) سورة مريم الآية : ٤٦

(١) سورة الأنعام الآيات : ٨ - ١١

(٢) سورة النور الآية : ٥٤

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣١

وقوله تعالى : ﴿ أَتَنْذَرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ أى : أئن ذكركم بتوحيد الله والايان به وبرسله أعرضتم ورميتمونا بما ليس فينا بل أنتم قوم مسرفون على أنفسكم بالذنوب والخطايا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ \* اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ \* وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ، أَلَا تَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يُرَدُّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يَقْتَضُونَ إِنْ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مَبِينٍ إِنْ آمَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُون ﴾ .

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة قال قتادة : كان يتعبد في غار هناك جاءهم يسعى أى : لينصرهم من قومه .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة ، وتلك رسالات الأنبياء جميعا لا يسألون الناس على تبليغها أجرا ، إقرأ معى ما جاء فى سورة الشعراء : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمٌ نوح المرسلين \* إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ (١) .

وهكذا جاء على لسان هود وصالح ولوط وشعيب وفى شأن المرسلين يقول تعالى فى سورة سبأ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرَى إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٢) وهذا دليل من أدلة صدق النبوة لا يسألون الناس على التبليغ أجرا إنما يسألون الأجر والمثوبة من العلى العظيم .

ثم يقول ذلك الرجل الصالح : ﴿ وَمَالِيَ لَا أُعْبِدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ كما جاء على لسان الخليل إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينُ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (٣) .

ثم يقول ذلك العبد الصالح : ﴿ أَلَا تَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ ﴾ هذا سؤال تسيل له النفس مرارة والكبد لوعة أهنك آلهة غير الله ﴿ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ \* أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَمْ أَعْيُنْ

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ - ١٠٩

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٧

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ - ٢٨

يصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون \* إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين \* والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿١﴾ ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ ﴿٢﴾ .

لذا أكد ذلك العبد الصالح هذا المعنى قائلا ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ﴾ .

إذ هم لا يملكون الشفاعة قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ﴿٣﴾ وقال : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ﴿٤﴾ .

أنهم كما لا يملكون الشفاعة ، لا يستطيعون أن ينقذوا أحدا من عذاب الله لأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿٥﴾ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿٦﴾ . ثم قال العبد الصالح : ﴿ إني إذا لفي ضلال مبين ﴾ أى إن اتخذت آلهة غير الله وعبدت غيره فإنى فى ضلال مبين واضح ، ثم بعد هذا التسلسل يصل إلى تقرير الحقيقة العليا التى لا يجادل فيها إلا كل ختار كفور فيقول :

﴿ إني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ كما جاءت هذه الحقيقة على لسان خليل الرحمن إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم \* إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون \* قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون \* أو ينفعونكم أو يضرون \* قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون \* قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون \* أنتم وآباؤكم الأقدمون \* فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقنى وإذا مرضت فهو يشفين \* والذى يمتتى ثم يحيين \*

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩٤ - ١٩٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٣٨

(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦

(٥) سورة الأنعام الآيتان : ١٧ ، ١٨

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتي يوم الدين \* رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين \* واجعل لى لسان صدق فى الآخرين \* واجعلنى من ورثة جنة النعيم \* وأغفر لأى إنه كان من الضالين \* ولا تخزنى يوم يبعثون \* يوم لا ينفع مال ولا بنون \* إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿١﴾ .

قوله ﴿ فاسمعون ﴾ قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - يقول لقومه : ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ الذى كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاسمعوا قولى ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ فاسمعون ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده كما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

قوله تعالى : ﴿ قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ .

قال محمد بن اسحاق بسند .. عن ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج مسعأوه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ﴿ قال ياليت قومى يعلمون \* بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿ ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ وعن أى مجلز ﴿ بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ بإيمانى برى وتصديقى المرسلين والمقصود أنهم لو أطلعوا على ما حصل له من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فقد كان حريصا على هداية قومه .

قال إن أبى حاتم بسنده عن عروة بن مسعود الثقفى - رضى الله عنه أنه قال : للنبي ﷺ ابعتنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ ( إني أخاف أن يقتلك ) فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى فقال له رسول الله ﷺ : ( انطلق ) فانطلق فمر على اللات والعزى فقال لاصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : : يا معشر إن الات لالات وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال : ( هذا مثله كمثل صاحب يس ) ﴿ قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾ .

قوله تعالى :

\* وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَحْسَرَةُ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا هَلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

يخبر سبحانه وتعالى ما أنزل على قوم هذا العبد المؤمن الذى قتلوه لتبليغه إياهم كلمة التوحيد ما أنزل من السماء ملائكة للانتقام وانزال العذاب بل لقد كان أكبر من هذا وأهون قال تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ أى قد ذهبت منهم حرارة الحياة فأصبحوا أجسادا هامة لا ترى فيها حركة فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ <sup>(١)</sup>  
يقول جل شأنه فى شأن الظالمين : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ ويقول : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ <sup>(٢)</sup>

ويقول : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾ <sup>(٣)</sup>

وقد تكون الصيحة من جبريل كما قد تكون من صوت العذاب النازل من السماء .  
قوله تعالى : ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ قال على بن أبى طالب : عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أى يا ويل العباد، وقال قتادة : ﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أى : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت فى جنب الله . فعلى كل عاقل أن يحذر موقف الندم حيث لا ينفع الندم قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا

(١) سورة هود آية ١٠٢

(٢) سورة هود آية ١١٧

(٣) سورة يونس آية ١٣

(٤) سورة هود آية ٨٢ - ٨٣

لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لَكاذِبون ﴿١﴾ وقال جل شأنه : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴿٢﴾ ۞

ويقول تبارك اسمه : ﴿ وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٣﴾ ۞

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ لقد اتفقت كلمة الباطل على الاستهزاء برسول الله ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (٤) ۞

قال تعالى : ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٥) ۞ وقال : ﴿ ولقد استهزئ برسول من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ (٦) ۞ وقال جل جلاله : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴿٧﴾ إن هؤلاء المكذبين لم يأخذوا العبرة من الأمم السابقة ومن أهل القرون السالفة ﴾ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ (٨) ۞

وهؤلاء الظالمون لما أهلكهم الله لم يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ (٩) ۞

(١) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ ، ٢٨

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٣) سورة الزمر الآيات : ٥٤ - ٥٩

(٤) سورة الذاريات الآيات : ٥٢ ، ٥٣

(٥) سورة الأنعام الآية : ٢٠

(٦) سورة الرعد الآية : ٣٢

(٧) سورة الأنعام الآية : ٣٤

(٨) سورة الأنعام الآية : ٦

(٩) سورة الحاقة آية ٤ - ١٠



﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخطاة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابسة ﴾ <sup>(١)</sup> أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا لأن لهم موعدا يبعثون فيه يوم القيامة قال تعالى : ﴿ ولئن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ <sup>(٢)</sup> كقوله جل شأنه : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وقال : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾ <sup>(٤)</sup>

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

### من دلائل التوحيد والقدرة

قال تعالى :

وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَيُّ آيَةٍ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً

(١) سورة الكهف آية ٤٧

(٢) سورة الكهف آية ٤٩

(٣) سورة الأنعام آية ٩٤

(٤) سورة الكهف آية ٤٨ - ٤٩

## مِنَّا وَمَتْنَعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

## تفسير المفردات

﴿ الميتة ﴾ المراد التى لا نبات فيها ، ﴿ جنات ﴾ بساتين من شجر النخيل والأعناب ، ﴿ فجرنا ﴾ شققنا وانبعنا فيها عيوناً كثيرة ، ﴿ سبحان ﴾ تنزيها لله عما لا يليق به ، ﴿ الأزواج ﴾ الأصناف والأنواع المختلفة ، ﴿ نسلخ ﴾ نفصل منه النهار ونزيله عنه ، ﴿ قدرناه منازل ﴾ الأصل قدرنا له منازل ثم حذفت اللام ف قيل قدرناه منازل والمراد جعلنا له منازل ، والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى فى حسابهم ٢٧ منزلاً ، ﴿ كالعرجون القديم ﴾ العرجون عود العذق - القنو - ما بين الشماريخ إلى منبتة من النخلة ، ﴿ فى فلك ﴾ والفلك هو المدار الذى يدور فيه الكوكبسمى به لاستدارته كفلكة المغزل ، ﴿ يسبحون ﴾ يسيرون بانبساط وسهولة ، ﴿ المشحون ﴾ المملوء ، ﴿ فلا صرِيح ﴾ فلا مغيب .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل - أردف ذلك ما يدل على أن البعث يمكن وليس بمستحيل ، وآية ذلك الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعا ولا يدفع عنهم ضرراً .

ثم أردف ذلك ذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته ، يتصرف فيها بعظيم سلطانه ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى على الإنسان ، وهى أنه جعل له طريقاً يتخذ فى البحر ويسير فيه كما يسير فى البر جلباً لأرزاقه وتحصيلاً لأقواته ، من أقاصى البلاد فى أنحاء المعمورة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون \* سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

وهذه آيات بينات وحجج ساطعات وبراهين واضحات على الوجدانية والبعث والقدرة ، إحياء الأرض بعد موتها بالنبات ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحيها لمحيمى الموقى إنه على كل شىء قدير ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول سبحانه : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها

الماء اهتزت وربت \* وأنبتت من كل زوج بهيج \* ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴿١﴾

ويقول جل شأنه : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد \* والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ <sup>(٢)</sup> ويقول جل شأنه : ﴿ أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ <sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾ هذان هما المبدعان اللذان يعتمد عليهما الاقتصاد : مبدأ الإنتاج وهو متمثل فى قوله تعالى : ﴿ وأخرجنا منها حبا ﴾ وثانيهما مبدأ الاستهلاك متمثلا فى قوله تعالى : ﴿ فمنه يأكلون ﴾ كذلك جاء المبدعان فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ هذا مبدأ الإنتاج وقوله تعالى : ﴿ ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾ هذا مبدأ الاستهلاك .

لقد أحيا الله هذه الأرض وأمدّها بالماء وأخرج منها الحب وحوّلها إلى جنات من نخيل وأعناب ، وفجر فيها العيون ليأكل العباد من تلك الثمار التى صنعها الله بقدرته وما عملت أيديهم شيئا من هذا ، وكان عليهم أن يشكروا المنعم فإن شكر المنعم واجب ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(٤)</sup>

ويقول جل شأنه : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(٥)</sup>

ويقول جلت قدرته : ﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابهه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ <sup>(٦)</sup>

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات

(١) سورة الحج الآيتان : ٥ - ٦ - ٧

(٢) سورة قى الآيات : ٧ - ١١

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ - ١١

(٥) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٦) سورة الأنعام الآية : ١٤١

بهيجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إليه مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا إليه مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴿١﴾

﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴿٢﴾

﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ﴾ وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴿٣﴾

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴿٤﴾ وإذ يقول : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ ﴿٥﴾ فسبحان من أحسن كل شيء خلقه وسبحان الذي خلق الأزواج كلها والأنواع جميعها مهما اختلفت طعومها وروائحها وأشكالها من نبات وأنفس ومما يعلمه الله ولا نعلمه نحن ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النبي ﴾ ﴿٦﴾

### كلمة علمية عن النبات

من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر يدور هذا الحديث الممتع الجذاب بين الشيخ وتلميذه .

قال الشيخ : وهذه النباتات ، يا حيران ، التي أتى على ذكرها القرآن في آيات كثيرة ، وكرر ذكر اختلافها في الألوان والثمرات ما هو خط المصادفة في تكوينها ، بأنواعها وأشكالها وطعومها وروائحها وخواصها ومنافعها وهي تنبت في تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ؟

يقول القرآن الكريم :

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء

(١) سورة النمل الآيتان : ٦٠ - ٦١

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢١ - ٢٢

(٣) سورة فصلت الآيتان : ٩ - ١٠

(٤) سورة المؤمنون الآيات : ٢٤ - ٣٢ - ١٨ - ٢٠

(٥) سورة عبس الآيتان : ٢٤ - ٣٢

(٦) سورة طه الآيتان : ٥٣ - ٥٤

واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿١﴾

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ﴿٢﴾

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾ ﴿٣﴾

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ﴿٤﴾

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ﴾ ﴿٥﴾

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون أننشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾ ﴿٦﴾

فأنظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله وقدرته بمختلف الآيات الدالة على أن هذا التكوين أثر من آثار القصد والإرادة والحكمة ، لا من أثر المصادفة العمياء .

إن العلم نفسه يقف مذهوشاً أمام هذه القدرة التى جعلت الأرض الواحدة تنبت أنواعاً مختلفة من النبات فيقول العلماء إن العناصر التى تتألف منها النبات معلومة وكلها تتمتع غذائها من الأرض من تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، وتتغذى من هواء واحد ، وتصنع غذاءها من كربون واحد فالأقرب إلى المصادفة أن تنبت كلها نوعاً واحداً . فما هو السر الذى يجعلها تختلف بعضها عن بعض في الثمرات والأكل ، كما قال القرآن حتى لو زرعنا في مساحة لا تزيد على ذراع مربع من الأرض الحلو والحامض والمر والسام ، وسقيناها بماء واحد نجد أن كل صنف يخرج ثماره المختلفة المتميزة من دون أقل اختلاط أو إمتزاج .. ؟

(١) سورة الرعد الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٩

(٣) سورة فاطر الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ - ١١

(٥) سورة ق الآية : ٧ - ١١

(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٨ - ٢٠

لقد عرف العلم اليوم ، أن الله جلت قدرته جعل في بذور النبات كما في بيوض الحيوانات عناصر التخطيط النووي للخلية ، حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره في تكوين الثمرات والأكل على اختلاف ألوانها وثمراتها ، فهل كان هذا التخطيط النووي العجيب أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

ثم أنظر كيف اختار القرآن من أنواع النبات التي تبلغ الملايين الحب والزيتون والنخيل والأعشاب والرمان ، خصها بالذكر من بين كل الثمرات التي تنفع الناس ، ليشير إلى وجود القصد (و العناية) في الخلق . فأنت تعلم أن الأغذية التي نحتاج إليها تتألف ، من المواد النشوية ، السكرية الكربونية ، والمواد الدهنية ، أما البروتينية فيأتيك بيان القرآن لمنابعها عند ذكر الأنعام وأما الثلاثة الأولى ، فالنشوية منها نستخرجها من الحبوب على اختلافها ، والسكرية الكربونية نستخرجها من الأعشاب والنخيل والرمان ، وأما الدهنية فنستخرجها من الزيت - فتأمل يا حيران - تلميذه - في أسرار الخطاب إنه خاطب العرب ، إذ خاطبهم ، بأشياء يعرفونها ، ووجه المنّ بها ظاهر لهم ، وخاطب من ورائهم أقواما علم الله أنهم سوف يأتون بعد أكثر من ألف سنة ، ليفهموا من ذكر هذه الأنواع ، ما ينطوي تحتها من عناصر للتغذية الأولية الضرورية للإنسان ، فضلا عن الحيوان الذي خصه بذكر الأعشاب ..

حيران : أرى القرآن يكثر من ذكر الزيتون ، ويصف شجرته بأنها مباركة ، وقد أدخلها في ضرب المثل عن نور الله .

الشيخ : الزيتون شجرة مباركة ومقدسة عند جميع الأمم التي غمرت حوض البحر المتوسط من قديم الزمان ، وكانت عندهم رمز ( الحكمة ) ( والخصب ) ( والمجد ) ، وهي أكثر ما تنبت في هذه البقعة المتوسطة التي هي ، كما وصفها الله ( لا شرقية ولا غربية ) وفي ما جاورها من الأرض المقدسة ، مهد المدينيات ، ومهد الديانات السماوية كلها ...

وكيف لا تكون مباركة وقد باركها الله ، حين جعلها في عالم النبات من أعجب آيات خلقه ، الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعنايته ، بما أكرمنا فيها من غذاء ودفء ونار ونور ، ما كنا نرجو ولا نتوقع ولا يخطر ببالنا ، أن يكون كامنا كله في هذه الشجرة ذات الورق الدائم الخضرة ، التي نستخرج منها الدهن غذاء أصيلا لأبداننا ، وصبيغا لطعامنا .. ودفا لأجوافنا ، ونستخرج النار ، والنور ، من زيتها هذا ، الذي يكاد يضيء ولو لم تمشسه نار ... ﴿ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ يا حيران ...

### حديث عن الأرض

#### أما الخنوء

قال الشيخ : وآلآن دعنا ننزل إلى الأرض يا حيران ، لنرى على ضوء القرآن والعلم ما في خلقها وتكوينها من آيات النظام والإحكام والانتزان والاتقان والحكمة والنعمة ، ثم نتساءل عن حظ المصادفة العمياء الهوجاء

في تكوين هذا الخلق العجيب العظيم .

يقول الله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ﴾ .

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾

﴿ الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ﴾

﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ﴾

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾

﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾

﴿ ألم نجعل الأرض كفانا \* أحياء وأمواتا \* وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا ﴾

﴿ أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾

﴿ أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾

﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾

إلى غير ذلك من الآيات التى ورد فيها خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة .

فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم كيف ولماذا كانت الأرض هى السيارة الوحيدة التى أتيح لها أن تكون صالحة للحياة بما خصها الله به من كثافة وجاذبية وحركة وهواء وماء وغير ذلك من أسباب الحياة وهل كان ذلك أثر المصادفة أم هو أثر من أثار القصد والعناية والتنظيم والإحكام نحن أمام سبع سيارات كبار أخرى منها ما هو أقرب إلى الشمس من أرضنا ، ومنها ما هو أبعد ، ومنها ما هو أكبر من أرضنا ، ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو أسرع من أرضنا دورانا حول الشمس وحول محوره ومنها ما هو أبطأ وكلها بحسب تقدير العلم الذى أرجح أن يكون صحيحا منفتحه عن السماء كما يقول القرآن أو منفصلة عن الشمس كما يقول العلم والمعنى واحد فلماذا كانت أرضنا وحدها صالحة للحياة دون السيارات الأخرى .

فعطارد يدور كالأرض حول نفسه وحول الشمس ولكنه يتم دورته حول نفسه فى مرة ٨٨ يوماً وهى المدة التى

يلدور بها حول الشمس أى أنه كالقمر مع الأرض ، أحد وجهيه موجه دائماً نحو الشمس فنصفه شمس ونصفه زمهرير وكثافته تقارب نصف كثافة الأرض فالجاذبية فيه قليلة وليس فيه هواء فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة .

والزهرة التى قيل أن مدة دورانها على نفسها هى مدة دورانها حول الشمس وهى ٢٢٥ يوماً تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس دائماً مثل القمر وجيها المتجه حرارته ٩٠ درجة والوجه الثانى ٢٠ درجة تحت الصفر وليس فيها هواء ولا ماء بل فيها بخار سميك فمن البديهي أنها لا تصلح للحياة .

والمرخ الذى توهم بعض الباحثين أن فيه حياة يلدور حول نفسه كل ٢٤ ساعة مرة مثل الأرض ولكن دورته حول الشمس تتم فى مدة ٦٨٧ يوماً وبعده عن الشمس ١٤٢ مليون ميل - وحرارته فى النهار بضع درجات فوق الصفر ولكنها فى الليل تنزل إلى ٧٠ درجة تحت الصفر وسطحه بر لا بحر فيه ، ولا ماء على الرأى الراجح وهوائه مؤلف من غاز الأكسجين وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض فلا تكفى لحفظ الأكسجين فى هوائه فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة أبداً وهذا هو رأى المحققين من العلماء .

والمشتري يتم دورته حول الشمس فى ١٢ سنة ويلدور على محوره مرة فى كل عشر ساعات وبعده عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ودرجة الحرارة فيه ١٣٠ تحت الصفر وكثافته ربع كثافة الأرض ويرجحون أنه كرة من النار والمواد الذائبة . فمن البديهي أنه لا يصلح للحياة .

وزحل يتم دورته حول الشمس فى ٢٩ سنة ونصف سنة تقريبا ودورته عللاً محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل ، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء مما يصل إلى الأرض . وكثافته أقل من ربع كثافته الأرض ويظهر للعلماء أن مادة مسطحة مائعة متحركة ، فمن البديهي أنه لا يصلح للحياة .

أما أورانوس ونبتون وبلوتو فعدم صلاحها للحياة أظهر لأسباب كثيرة ولا سيما أن الأول يتم دورته حول الشمس فى ٤٨ سنة و٧ أيام ويلدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل والثانى يتم دورته حول الشمس فى ١٦٩ سنة تقريبا ويلدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل . وبلوتو يتم دورته حول الشمس فى ٢٤٧ سنة وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل فما رأيك يا حيران فى الحياة على سيار الشتاء فيه ٤٢ أو ٨٤ أو ١٢٣ سنة والصيف فيه كذلك ونهاره خمس ساعات وليله خمس ساعات .

فأرضنا التى منّ علينا الله فى آيات كثيرة وذكرنا فى هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام هى السيار الوحيد الذى جعله الله صالحاً للحياة فقربها من الشمس معتدل والحرارة التى تصل إليها معتدلة وكثافتها تفوق كثافة كل السيارات حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ودورتها اليومية معتدلة وكافية لأحداث نهار



وليل معتدلين صالحين للسعى والراحة ودورتها السنوية معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة صالحة لازدهار الزروع وانضاجها وهي تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة .

فهل كان اجتماع كل هذه الأسباب الصالحة للحياة أثرا من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران - سبحان الخلاق العظيم ولكن مولاى الشيخ أشار إلى سبع مزايا جعلت الأرض صالحة للحياة والقرآن أقتصر على ذكر الحكمة فى خلق الأرض وصلاحها للحياة إجمالاً ولم يذكر القرب والحرارة والكثافة والجاذبية والدورتين .

الشيخ : وإن المزايا التى ذكرتك بها يا حيران إنما هى المزايا الرئيسية وسوف أذكرك بما ينطوى تحتها من مزايا وخواص أما المزايا السبع فقد ذكرها القرآن بكلام يفهم العالم بواطنه ويفهم الجاهل ظواهره فالقرب المعتدل والحرارة المعتدلة مشار إليهما ضمناً بما هى عليه الأرض من صلاح للحياة والزرع .

والكثافة والجاذبية مشار إليهما بوضوح بقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ﴾ فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا لشيء على الأرض قرار أبداً والدورة اليومية مشار إليها بوضوح بذكر الليل والنهار وبذكر مرور الجبال من السحاب وبذكر الظل وقبضه بغياب الشمس والدورة السنوية مشار إليها بوضوح بذكر الأمطار فهل تريد من العليم الحكيم أن يفصل ناموس الكثافة والجاذبية ويشرح الدورة السنوية وشكل المدار وميل الأرض فى عصر لم يكن للإنسانية به علم بهذه الأمور وفى خطاب قوم لم يسمعوها فضلاً عن أن يدركوا معانيها ؟

وهذه الاشارات إلى ذكر الدورة اليومية وحصول الليل والنهار بسببها كثيرة فى القرآن ولا سيما الآيات الآتية :

﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبصار ﴾

﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾

﴿ يتكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾

﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾

﴿ وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ﴾

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ ﴾

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مّد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾

﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾

﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

إلى غير ذلك من الآيات التى من الله بها على عباده بذكر الليل والنهار واختلافهما فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم ما فى خلق الليل والنهار من نظام وحكمة وما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق والتنظيم ؟

أنت تعلم يا حيران أن حجم الأرض أصغر من الشمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة وأن كتلتها أى وزنها أقل من الشمس بـ ( ٣٣٢ ) ألف مرة تقريباً .

وأنها أكثف السيارات جميعاً بل أكثف من الشمس لأن كثافة الشمس هى ربع كثافة الأرض فالثقل النوعى لكل جسم فى الشمس أخف من الثقل النوعى للجسم نفسه وهو على الأرض وأن بعدها عن الشمس ( ٩٣ ) مليون ميل وأن دورتها اليومية تتم فى ٢٤ ساعة وأن دورتها السنوية حول الشمس تتم فى مدة ٣٦٥ يوماً ونحو ربع يوم وأن شكل مدارها حول الشمس اهليلجى وأن سرعة دوراتها حول نفسها ( ١٠٠٠ ) ميل فى الساعة وأن سرعة دوراتها حول الشمس بمعدل ( ١٨ ) ميل فى الثانية أى نحو ٦٥ ألف ميل فى الساعة وأن وضعها على مدارها مسائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة .

ويقول العلم لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر لاختل أمر الحياة أو تغير أو تشوه لأن حجمها متناسب مع سرعتها وقع دورتها وثقلها متناسب مع قوة جذبها فلو زاد

الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدة ولو قل جذبها لأفلت الأوكسجين منها ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل في الساعة أو قلت كما هو الحال في بقية السيارات فكانت مثلاً ( ١٠٠ ) ميل في الساعة لأصبح طول النهار ( ١٢٠ ) ساعة واحترقت زروعنا في هيب النار وذوت في زمهرير الليل ولاختل ميزان العمل في النهار والراحة والنوم في الليل .

ولكن هذه السرعة ثابتة لم يطرأ عليها تبديل في ثانية واحدة منذ ملايين السنين ولولا الجاذبية التي تربطنا بالأرض لطرنا عن ظهرها وانتثرنا انتشاراً نحن وبيوتنا ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية التي تلتصقنا بالأرض وقوة ( البعد عن المركز ) التي تطردنا عن سطحها لطرنا وطارت بيوتنا وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين .

فهل يكون هذا الصنع العظيم والاتقان العجيب والاتزان الدقيق أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران - سبحان الله العظيم .

الشيخ : ولو تأملت يا حيران في الآيات التي ورد فيها ذكر : التكوير وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل وطلب كل منهما للآخر حيثما ومرور الجبال مر السحاب .

لرأيت فيها البيان الصريح منذ أربعة عشر قرناً لكروية الأرض وحركتها اليومية اللتين يتم بهما إختلاف الليل والنهار .

فإن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية .

إذ لا يكون معنى التكوير واضحاً لو نحن تصورنا الأرض مبسطة تطلع الشمس عليها وتغيب عنها كما كان رأى الأقدمين لأن قوله تعالى : ﴿ يَكْوَرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ يتجلى فيها كلها معنى التلاحق وأن تكوير كل منهما على الآخر يجري في آن واحد فكلما لفّ الليل على النهار في جزء من الأرض لفّ مثله النهار على الليل في الجزء الذي يليه ولا يتصور هذا المعنى مع تصور الأرض مبسطة ساكنة لأن الشمس إذا طلعت عليها أنارتها من أولها إلى آخرها دفعة واحدة وإذا غابت عنها أظلمت دفعة واحدة أما مرور الجبال مر السحاب فانه نص صريح في دورة الأرض اليومية على محورها فتأمل يا حيران - زدني يا مولاي زدني

الشيخ : أما الدورة السنوية العجيبة وما ينشأ عنها من إختلاف الفصول الأربعة فمشار إليها عند الذين يعلمون ويعقلون بتكرار ذكر المطر في آيات كثيرة سيأتيك ذكرها فلولا هذه الدورة السنوية ما كانت الفصول ولا الأمطار ولا الحياة .

فتعال ننظر يا حيران على ضوء العلم ما وراء إنزال الأمطار من نظام وترتيب فيما يتعلق بشكل الأرض

ودورتها ووضعها لنرى ما هو خط المصادفة في خلق هذا النظام وتكوينه ؟

يقول العلم أن سرعة الأرض في دورتها حول الشمس هي ١٨ ميلا في الثانية لو زادت أو نقصت ثانية واحدة في كل سنة بل في مئة سنة لاختل هذا النظام لأن الدورة بمرور الملايين من السنين ستطول كثيرا أو تقصر كثيرا فيختل نظام الفصول الأربعة على الأرض باختلال مددها المحكمة ويختل نظام المطر العجيب .

ولو كان الفلك الذى تدور به الأرض حول الشمس لم يكن أهليجياً لاختل نظام الفصول الأربعة .

ولو أن الأرض لم تكن ( حنواء ) أى لو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة لاختل نظام الفصول الأربعة المتنقلة على الأرض ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق في صيف دائم وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو أن درجة هذا الميل زادت عما هي عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطين إما في ليل طويل وشتاء طويل أو ف ينهار طويل وصيف طويل فهذه الدرجة من الميل هي الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب .

وباجتماع هذه الأسباب كلها من السرعة إلى المسافة إلى المدة إلى شكل الأرض وشكل المدار إلى الميل إلى غير ذلك ويتم الاعتدالان ويحصل التبخر في مياه الأرض وتحمل الرياح الأبخرة على متن الغبار الذى تثيره وتسوقها إلى الأجواء الباردة ليم تكاثفها وتتكون هبات المطر ويجلجل الرعد ويومض البرق وتسقط الأمطار التى تحي الأرض بعد موتها .

أفكل هذا النظام والترتيب والأحكام أثر من آثار المصادفة يا حيران .

حيران - سبحان الله العظيم حقا إن أمنا الأرض جذباء حنواء فسبحان من ( حناها ) لنا لتحنو علينا وسبحان من ( احدها ) لتحدب علينا وعلى كل حى

### عالم الفلك

قوله تعالى :

وَأَيُّ لَّهُمْ آلِيلٌ نَسَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا  
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾  
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آلِيلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

﴿٤٠﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وآية الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأق الظلمة ، ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له ، وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس ، وسعى على الرزق ، وفى حالة زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ، كما أن فيه تركا للعمل الذى به قوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .

فإن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وأن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أى : والشمس تجري حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله بحسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رَحَوِيَّةً حول هذا المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده ، القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

قال تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾

أى : وجعلنا لسير القمر منازل ، وهى ثمانية وعشرون منزلاً ينزل فى كل واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، فإذا كان فى آخر منازل دق ونفوس ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ أى : بسير فى منازلها حتى دق وتقوس ويصفر ويكون كالعود الذى عليه الشماريح إذا أقي عليه الحول . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ كالعرجون القديم ﴾ وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أى العذق اليابس ، يعنى ابن عباس - رضى الله عنهما - أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى .

وقوله تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾ أى لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تدرك القمر فى سرعة سيوه ، لأن الشمس تجري مقدار درجة فى اليوم ، والقمر يسير

مقدار ١٣ درجة في اليوم ، ولأن لكل منهما مدارا خاصا لا يجتمع مع الآخر فيه .

﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أى : ولا تسبق آية الليل وهى القمر ، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لا يتغير ولا يتبدل .

قوله تعالى : ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ أى : وكل من : الأرض والشمس والقمر يسبح في فلكه كما يسبح السمك في الماء ، فالشمس تجرى في مدارها ، والأرض تجرى حول الشمس في سنة وحول نفسها في يوم وليلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

وعلماء الفلك قديما جعلوا الكواكب مركوزة في الأفلاك على ما نراه في كتبهم فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به ، وكيف يسبح ما لا حرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره ؟ هكذا كان رأى عندهم . ولكن رأى علماء الفلك المحدثين : أن جميع الكواكب تسير في مدارات في عالم الأثير ، فهى إذا كأنها سمك في بحر لجى .

فاعجب أيها القارئ للقرآن العظيم كيف أثبت ما دل على صمته الكشف الحديث ، ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

( من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر تحت عنوان : أخونا الصغير يدور هذا الحديث بين الشيخ وتلميذه ) أخونا الصغير

الشيخ : وهذا القمر ، أخونا الصغير ، الحلو الظريف الغرير ، الذى ما زلنا نقاربه ، حتى كدنا نتاكبه ، ثم أخذنا نقلقه ، وبالصواريخ نرشقه ... هذا القمر يا حيران ماذا عرف الإنسان ذو النفس الطلعة من أسرار ، وإختلاف أطواره ، فى منازل وأقداره ، وظلماته وأنواره ... ؟

يقول القرآن الكريم : ﴿ ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾ (١) .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾ (٢) .

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (٣) .

(١) سورة نوح الآيات : ١٥ ، ١٦

(٢) سورة الفرقان الآية : ٦١

(٣) سورة فصلت الآية : ٣٧

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ والشمس وضحاها \* والقمر إذا تلاها \* والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾<sup>(٥)</sup> .

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾

﴿ وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾<sup>(٦)</sup> .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاء أولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا : أن هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيفة بذاتها ، ليعكسه بدوره إلى الأرض كما صرح القرآن . وعرفوا أنه تابع للأرض ، يسايرها ويدور معها ومثلها من الغرب إلى الشرق . وأن له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الأرض . ولكن حكمة الله سبحانه قضت أن يتم الدوريتين في وقت واحد ، وأن يبقى متجها بأحد وجهيه إلى الأرض فلا نرى وجهه الثانى أبداً . ذلك أن الأرض تتم دورتها حول نفسها في يوم كامل وتتم دورتها حول الشمس في سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة . أما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الأرض معاً في مدة شهر قمرى واحد أى : أنه في المدة التى يدور بها حول الأرض لا يدور على نفسه إلا مرة واحدة يتجه دائماً بوجه واحد نحو أمة الأرض لا يوليها ظهره أبداً وعرفوا من بدائع صنع الخلاق الحكيم ، أن القمر في دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفاً متدرجاً يبدأ به هلالاً ثم بدرًا ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفى ويطلع بعد ٢٩ يوماً و٨ ساعات هلالاً جديداً نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا أيضاً أن القمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريباً ، وأن كتلته هي جزء من كتلة الأرض .

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة ابراهيم الآية : ٣٣

(٣) سورة الشمس الآيات : ١ - ٤

(٤) سورة الأنعام : الآية : ٩٦

(٥) سورة الرحمن الآية : ٥

(٦) سورة يونس الآية : ٥

وعرفوا أن للكواكب الأخرى أقماراً منها الصغير الصغير الذى لا يزيد قطره على بضعة أميال ، ومنها الكبير الكبير الذى يتم دورته حول كوكبه فى ست ساعات ، ومنها البطيء البطيء الذى لا يتم دورته إلا فى سنتين . وعرفوا أنه ما من قمر يتم دورته فى شهر واحد إلا قمر هذه الأرض التى جعل الله سنتها بفصولها الأربعة اثني عشر شهراً .. عرفوا كل هذه الأسرار التى أشار إليها القرآن ، وأدركوا ما فى هذا النظام والإحكام من حكمة ونعمة فقالوا : لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض فى آن واحد ، ولولم يكن يقطع فى دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان ينتقل فى منازل المختلفة لنرى وجوهه المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة فى شهر واحد ليستأنف شهراً جديداً نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب . ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هى أو أكثر أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر ، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبها فأصبح المد على الأرض طاغياً يغمر اليابسة كلها ، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها . ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلّة الجذب ، وإن زاد البعد جذب القمر كوكب آخر إليه وحرمتنا من نعمه . ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبها ، ولو صغر لقلّت ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الأقمار قصيرة قصيرة فى ساعات ، أو طويلة طويلة فى سنين لاختل هذا النظام الذى جعل الله لنا به القمر حسبنا ، وعاد شهرنا القمري أسبوعاً أو سنتين ...

فهل كل هذا النظام والإحكام الذى خص الله به القمر فى حركاته المحسوبة ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدرة وأقداره المسخرة ، وأنواره المكتسبة وأطواره المرتقبة ، أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران .. ؟ حيران : سبحان الخلاق العظيم . والله إن هذا كله لا يجتمع بالمصادفة ولكنى فهمت من كلام الشيخ أنه يوشك أن يكون كالساحر من عمل العلماء الساعين للوصول إلى القمر .

الشيخ : كيف فهمت هذا ؟ وكيف تظن أنى أسخر من العلم والعلماء وأنا أدلك على الله بما قاله العلم والعلماء ؟ ولكنى إذا كنت ساحراً فإنما ساحر من أولئك الذين تأخذهم كبرياء العلم ؟ من غير العلماء ، فيظنون أن إرسال صاروخ إلى القمر أو إنسان إلى الفلك ضرب من مشاركة الله فى كبريائه وجبروته ، والتصرف فى ملكوته ... وهم لو عقلوا لأدركوا أن الكبرياء لذلك الذى خلق الإنسان فسواه ، وبور العقل هدهاء ، وخلق هذا القمر يشدون إليه الرجال ، ويعقدون على بلوغه الآمال ، ومتى شاء سبحانه شقه ونثره ، ومع النجوم بعثه ، وطمس أثره يومئذ يعلم هذا الإنسان قدره وقدره .

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم أننا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ﴾ إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وآية لهم أننا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ﴾ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن سخر البحر ليحمل السفن فمن ذلك بل أوله سفينة نوح -



عليه الصلاة والسلام - التي أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام - غيرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ أى : أبلعهم ﴿ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التى أمره الله - تبارك وتعالى - أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس : وهى سفينة نوح - عليه الصلاة والسلام - وكذا قال سعيد بن حبيب والشعبي وقتادة :

وقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ قال العوفي عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : يعنى بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وغيرهم : وقال السدى هى الأنعام ، وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أتدرون ما قوله تعالى ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ ؟ قلنا لا ، قال : هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح - عليه مثلها ، وكذا قال مالك والضحك وقتادة والسدى أيضاً : المراد بقوله تعالى : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ أى : السفن قال ابن كثير فى تفسيره : ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله جل وعلا ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية <sup>(١)</sup> .

هذا وقد أمرنا سبحانه بشكر هذه النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لَتَسْتَأْذِنُوا عَلَى ظَهْرِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهُ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> . وكا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٍ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّوْنَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاقِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> . وكا فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مِبْشِرَاتٍ وَلِيَذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> . وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام \* فبأى آلاء ربك تكذبان <sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴾

(١) سورة الحاقة الآيات : ١١ - ١٢

(٢) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤

(٣) سورة الجاثية الآية : ١٢

(٤) سورة فاطر : الآية : ١٢

(٥) سورة الروم الآية : ٤٦

(٦) سورة الرحمن الآيات : ٢٤ - ٢٥

﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ ﴾ يعنى الذين فى السفن ﴿ فَلَآ صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ أى فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يَنْقُذُونَ ﴾ أى : مما أصابهم من الغرق ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا ﴾ هذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم فى البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ ﴾ أى : إلى وقت معلوم عند الله عز وجل ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يَسِيرُكُمُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم برىح طيبة وفرحوا بها جاءتها رىح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنحيتمنا من هذه لنكونن من الشاكرين \* فلما أنجاهم إذا هم يبيغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم \* متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فنبئكم بما كنتم تعملون <sup>(١)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبن ويعف عن كثير <sup>(٢)</sup> .  
وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وإذا غشيهم موج كالأظلم دعوا الله مخلصين له الدين فلما أنجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور <sup>(٣)</sup> .

### من مواقفهم العنادية

قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ | اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ | أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا | أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَلِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولَلَسَ نَا مَنْ

(١) سورة يونس الآيتان : ٢٢ - ٢٣

(٢) سورة الشورى الآيات : ٣٢ - ٣٤

(٣) سورة لقمان الآيتان : ٣١ - ٣٢

بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً  
وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا  
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي  
ظِلٍّ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِعُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ  
رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾

### تفسير المفردات

﴿ متى هذا الوعد ﴾ : أى : متى يتحقق ويحىء ما وعد به ؟ ﴿ ينظرون ﴾ : أى : ينتظرون  
﴿ صيحة واحدة ﴾ : هى النفخة الأولى فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا . ﴿ ونفخ فى  
الصور ﴾ : أى : النفخة الثانية . ﴿ الأجداث ﴾ : واحداها جَدَث ( بفتحين ) القبر .  
﴿ ينسلون ﴾ : أى : يسرعون . ﴿ والويل ﴾ : الهلاك . ﴿ من مرقدنا ﴾ : أى : موتنا  
﴿ محضرون ﴾ : أى : الحساب والجزاء . ﴿ الشغل ﴾ : الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من  
شؤونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصل مسرة كاملة أو مساءة عظيمة . ﴿ الفاكه ﴾ : الطيب  
النفس الضحوك قاله أبو زيد . ﴿ الظلال ﴾ : واحداها ظل وهو ضد الضح ( ما تصيبه الشمس ) .  
﴿ والأرائك ﴾ : واحداها أريكة ، وهى سرير منجد مزين فى قبة أو فى بيت . ﴿ يدعون ﴾ : أى :  
يطلبون .

### المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق - أردف هذا ذكر  
إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثلث ما حل بمن قبلهم ، ثم  
أعقبه بذكرهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا ثم أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم  
البعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به وسخرية منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لا شك فيه ، أنه سيأتيهم بغتة  
من حيث لا يشعرون ، وإذا ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور ، وعظائم  
الأمر ، حين يرون العذاب ويقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدر هذا ووعدكم  
به على ألسنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله ثم أردف ذلك ببيان ما أعدده للمحسن والمسيء فى هذا  
اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجترار  
السيئات .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى : وإذا قيل هؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نعم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم ، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله - وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتكم من السيئات - أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض ديدنهم ، وليس يبدع منهم فقال : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى : وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسله ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١) . ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفأتأتون السحر \* وأنتم تبصرون ﴾ (٢) . ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر : حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحتاجين من المسلمين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الإنفاق على نهج قوله : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (٤) ، وتنبيه إلى عظيم جرمهم فى ترك الإمثال للأمر ، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله وإجمال ذلك - إنهم لم يعظموا الخالق ، ولم يشفقوا على المخلوق ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الأمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال المبين فقال : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم - إلا فى جور بين وبعد عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

(١) سورة الشعراء الآيات ٥ - ٦

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١ - ٣

(٣) سورة القمر الآيات ١ - ٥

(٤) سورة القصص الآية ٧٧

وهذا معذرة البخلاء في كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائماً يقولون : لا نعطي من حرمه الله ، وتلك فرية منهم ، لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضاً ، ابتلاء منه لعباده ، ولأسباب نحن لا نعلمها لا بخلا منه سبحانه وشحاً ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس حاجة منه إلى ما لهم ، بل ليلوهم ويرى أيتثلون الأمر ويؤدون الواجب أم ينكصون على أعقابهم ويقولون مدبرين ؟ ولا ينبغي لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ، لأنه يجهل أسباب ما يشاهدون ويرى في الكون .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وهنا أجابهم الله سبحانه بقوله : ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ .

أخرج البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقوم الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقي منه ، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نجسته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها » <sup>(٣)</sup> .

﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أى : ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة في الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعاً تأخذهم وهم يتنازعون في أمور معاشهم لا يخطر ببالهم جميعها ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾ ثم بين سبحانه سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هي أقرب فقال : ﴿ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ أى : فلا يستطيعون أن يوصوا في أموالهم أحداً ، إذ لا يمهلون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجاً من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى ربهم .

(١) سورة الشورى الآية : ١٨

(٢) سورة النمل الآيتان : ٧١ - ٧٢

(٣) البخاري - كتاب الفتن - باب خروج النار ٩ - ٩٤

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ في الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال سبحانه : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقبنا \* هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون \* فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون \* ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون \* تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون \* ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون \* قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين \* ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون \* قال اخسئوا فيها ولا تكلمون \* إنه كان فريق من عبادي يقولون \* ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إلى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين \* قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون \* وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون \* ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق \* يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم \* الله الواحد القهار \* اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع ﴾ <sup>(٤)</sup> . كقوله تعالى : ﴿ فتول عنهم \* يوم يدع الداع إلى شيء نكر \* خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر \* مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

(٣) سورة الزمر الآيات : ٦٨ - ٧٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٥ - ١٨

وهنا يقول سبحانه : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ النسلان هو المشى السريع . ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ يعنون من قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ قال أئى بن كعب - رضى الله عنه - ومجاهد والحسن وقتادة ينمون نومة قبل البعث قال قتادة وذلك بين النفختين فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقال الحسن : إنما يجيهم الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه أعلم .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة ﴾ فإذا هم بالساهرة ﴿ <sup>(٢)</sup> . وقال جلت عظمتة : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ <sup>(٣)</sup> . أى أنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون .

﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ﴾ أى : من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ كقوله <sup>(٤)</sup> تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأراك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولاً من رب رحيم ﴾ <sup>(٥)</sup> .

في هذا المشهد الكريم : يذكر الكتاب العزيز الوعد بالجنة ، كما يذكر بعد ذلك الوعيد بالنار ، فيخبرنا

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة النحل الآية : ٧٧

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(٥) سورة ياسين الآيات : ٥٥ - ٥٨

سبحانه وتعالى : إن أصحاب الجنة الذين دخلوها بفضل الله وتقاسموا درجاتها بأعمالهم ، يخبرنا أنهم في شغل فاكهون قال الحسن البصري : ( في شغل فاكهون ) في شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد : ( في شغل فاكهون ) أى : في نعيم معجبون أى : به . وكذا قال قتادة : وابن عباس - رضى الله عنهما : ( فاكهون ) أى : فرحون .

نعم إنهم مشغولون بنعيم الجنة ، فهم في روضات يانعة في الأشجار على شواطئ الأنهار يقطفون الثمار وينعمون بالخور العين الأبرار ، اقرأ معنى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل وورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ (١)

ثم اقرأ قوله تعالى : في سورة الواقعة :

﴿ والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عِين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاهما سلاهما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ (٢)

(١) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ - ٧٨

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١٠ - ٤٠



ثم اقرأ قوله تعالى : في سورة الإنسان :

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فواقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يبرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ (١)

ثم اقرأ قوله تعالى :

﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ (٢)

ثم اقرأ قوله تعالى :

﴿ إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاءاً من ربك عطاء حسابا ﴾ (٣)

وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما

(١) سورة الإنسان الآيات : ٥ - ٢٢

(٢) سورة الطور الآيات : ١٧ - ٢٨

(٣) سورة النبأ الآيات : ٣١ - ٣٦

كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون ﴿١﴾

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ ﴿٢﴾

وإذ يقول :

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويذرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ ﴿٣﴾

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه يمينه ، فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه ، إني ظننت أنى ملاق حساييه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ ﴿٤﴾ . لقد كانت أعمالهم فى الدنيا مبنية على الصواب والإخلاص ، فجزاهم ربهم بأعمالهم خيرا ، ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ ﴿٥﴾

إنهم ورثة الفردوس الذين قال الله فيهم :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير

(١) سورة الأعراف الآيات : ٤٢ - ٤٣

(٢) سورة الحشر الآيات : ٢٠

(٣) سورة الرعد الآيات ١٩ - ٢٤

(٤) سورة الحاقة الآيات : ١٨ - ٢٤

(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٥ - ١٩

ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿١﴾  
إنهم الصفوة الطاهرة الذين استثناهم الله - تعالى - في قوله :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دابمون والذين في أموالهم حق معلوم ، للساائل واخروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون ﴾ (٢).

قوله تعالى :

﴿ هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون ﴾

﴿ هم وأزواجهم ﴾ أى : حلائلهم ، وكذلك الحور العين ، وذلك ليجمع الله الشمل فيكون في ذلك تمام النعمة ، ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها وهم فيها مطهرون وهم فيها خالدون ﴾ (٣).

والظلال هنا ظلال الأشجار ، والمراد : ( بالأرائك ) السرر تحت الحجال ( الناموسيات ) .

قوله تعالى : ﴿ هم فيها فاكهة وهم ما يدعون ﴾ لقد أعد الله لهم ما لأذن سمعت ولا لعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ .

فالموت لا شك يفنينها ويفـــــــــــــــــــــــــــــــــ  
والجار أحمد والـــــــــــــــــــــــــــــــــ رحمن ناشيها  
والزعفران حشيش نابت فيها

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها  
واعمـــــــــــــــــــــــــــــــــل لدار غدا رضوان خازنها  
قصورها ذهب والمسك طيـــــــــــــــــــــــــتها

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١

(٢) سورة المعارج الآيات : ١٩ - ٣٥

(٣) سورة البقرة الآيات ٢٥

﴿ ولهم فيها ما يدعون ﴾ أى : ما يطلبون .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وأخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ هذه تحية من عند الله مباركة طيبة ، يقال قولاً : من رب متصف بالبر والرحمة والإنعام والكرم ، ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قِيلاً سَلاماً ﴾ (٣) . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (٤) .

### « الوعيد »

قوله تعالى :

وَأَمَّا تَزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَى كُمْ يَبْنِىْءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِىْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١٠١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا

(١) سورة يونس الآيتان : ٩ - ١٠

(٢) سورة فاطر الآيتان : ٣٤ - ٣٥

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ - ٢٦

(٤) سورة الرعد من الآية : ٢٣ - ٢٤

وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ امتازوا ﴾ أى : انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، ﴿ العهد ﴾ : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان : يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الأمر بها والمزين لها ، ﴿ والجبل ﴾ : الجماعة العظيمة ، ﴿ اصلوها ﴾ أى : قاسوا حرها .

والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويمتلدون إليه ؟ والمسوخ : تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم : أى فى أماكنهم حيث يجترحون القبايح ، ونعمره : أى نطل عمره ، نكسه فى الخلق : أى نقله فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يرد إلى أرذل العمر .

﴿ وما ينبغى له ﴾ : أى لا يليق به ولا يصلح له ، ﴿ ذكر ﴾ : أى عظة من الله وإرشاد للثقلين ، ﴿ حيا ﴾ : أى حى القلب مستنير البصيرة ، ﴿ يحق القول ﴾ : أى يجب العذاب ، ﴿ مالكون ﴾ : ضابطون قاهرون ، ﴿ ذللناها لهم ﴾ : سخرناها لهم ﴿ محضرون ﴾ : يدفعون عنهم ويفضون لهم .

### « المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج فى الجنات - أعقبه بذكر حال

المجرمين ، وأنهم في ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ، ثم أردف هذا أنه قد كان لهم منلوحة من كل هذا بما أرسل اليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيهم ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظاات ما فيه مزدجر لهم أو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وسناوسه ، فحل بهم من النكال والويل ما رأوا آثاره بأعينهم في الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم في العقبى ، ثم ذكر مآل أمرهم وأنهم سيصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم في هذا اليوم لا ينطقون ببنت شفه ، ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت ، وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم في الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أنصروا ، ولم يشأ أن يمسح صورهم ، ويجعلهم كالقردة والخننازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ، ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما أحتجوا بها وهى أن ما عمروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل ، واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عمروا في السن ضعفوا عن العمل ، وقد عمروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طال أعمارهم لا يجديهم ذلك قليلا ولا قطميرا .

وبعد أن ذكر أمر الوجدانية في قوله تعالى : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ وذكرى أمر البعث في قوله : ﴿ اصلوها اليوم ﴾ ذكرهما الأصل الثالث وهو الرسالة في هاتين الآيتين ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ . وبعد ذلك أعاد سبحانه الكلام في الوجدانية ، وذكر بعض دلائلها ، ثم ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم ، وأنكروها وزادوا في ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى : حاكيا عنهم : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ﴾ (١) . والحقيقة أنها لا هى ناصرة ولا منصوره .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإماتوا اليوم أيها المجرمون ﴾ : أى تميزوا عن المؤمنين ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله - عز وجل : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقوله - عز وجل ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهّدون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

هذا تبكيت منه سبحانه وتعالى : للمخالفين الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون المؤمنين ومحسبون أنهم مهتدون ، ألم يعهد الله إليهم ، ألم تصلهم وصيته بأن لا يعبدوا الشيطان ، ألم يقل لهم إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعوا حزنة ليكونوا من أصحاب السعير ، ألم يقل لهم : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ <sup>(٤)</sup>

ألم يقل لهم : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ <sup>(٥)</sup>

ألم يقل لهم : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ <sup>(٦)</sup>

ألم يقل لهم : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ <sup>(٧)</sup> .

ألم يقل لهم : ﴿ وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا

(١) سورة يونس من الآية : ٢٨

(٢) سورة الروم الآية : ١٤

(٣) سورة الروم الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٤) سورة البقرة الآيتان : ١٦٨ - ١٦٩

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٨

(٦) سورة المجادلة من الآية : ١٩

(٧) سورة الأعراف الآية : ٢٧

من دون الله فقد خسر خسرانا ميئا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴿١﴾ .

ألم يعلموا أن الشيطان قال لرب العزة : ﴿ فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ ﴿٢﴾ .  
ألم يعلموا قوله تعالى :

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾ ﴿٥﴾ .

ألم يقرأوا قوله - عز وجل : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ ﴿٦﴾ .

ولقد أخذ الله العهد على كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، أنه هو الله لدى لا إله إلا هو الذي لا معبود سواه وأشهدهم على أنفسهم وشهدوا بذلك ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلمهم يرجعون ﴾ ﴿٧﴾ .

لقد ولدوا على الفطرة والتوحيد ، ولكن الشياطين نزغت بينهم ، فانحرفوا عن طريق الجادة ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه

(١) سورة النساء الآيات : ١١٧ - ١٢١

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٦ - ١٧

(٣) سورة الحشر الآيات : ١٦ - ١٧

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٢٢

(٥) سورة الإسراء الآية : ٥٣

(٦) سورة ( ص ) الآيتان : ٨٢ - ٨٣

سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ - ١٧٤



بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن نحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴿١﴾ .

لقد أمرنا الله - تعالى - وأرشدنا ماذا نصنع إذا شعرنا بنزغ الشيطان ؟ فقال : ﴿ وإما ينزغك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ (٣) . إن الشيطان لبنى آدم كالدئب للغنم ، إن عداوته بينة لا تخفى على أحد ، وقد بين الله - تعالى - إن الصراط المستقيم في عبادته وحده لا شريك له ، ﴿ قل إنني هداى ربي إلى صراط مستقيم ديناً قماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شئ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ (٤) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

استمع إلى وصية الله - تعالى - لعباده : ﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ ثم استمع إلى تلك الحقيقة التى يقررها القرآن الكريم فى قوله - جل شأنه :

﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ (٥) .

واعلم أن الشيطان لا يكف عن إضلال العباد ، ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ (٥) .  
﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (٦) .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ - ١٧٧

(٢) سورة الأعراف الآيات : ٢٠٠ - ٢٠١

(٣) سورة المؤمنون الآيات : ٩٧ - ٩٨

(٤) سورة الأنعام الآيات : ١٦١ - ١٦٤

(٥) سورة النساء من الآية : ٣٨

(٦) سورة الفرقان من الآية : ٢٩

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾<sup>(١)</sup> . ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾<sup>(٢)</sup> .

لقد استطاع الشيطان بوساوسه وشباكه وشرائه ، ومصايد ومكايد ، أن يضل جبلا كثيرا أى : جمعا كثيرا ، أجنتم أيها العقلاء ؟ أفلم تكونوا تعقلون عندما اتبعتموه ،

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة من هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يصررون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكاتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ .

هذه جهنم التي كنتم توعدون ، هذا جزاء المكذبين الذين كذبوا بآيات ربهم وجحدوا بها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾<sup>(٤)</sup> .

واقراً معنى قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله - جل شأنه : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال سبحانه : ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾<sup>(٧)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتمم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغمركم بالله الغرور ، فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) سورة المجادلة من الآية : ١٩

(٢) سورة المجادلة من الآية : ٢٠

(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٠ - ٢١

(٤) سورة النساء الآية : ٥٦

(٥) سورة الرحمن الآية ٤٣ - ٤٤

(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٤٠ - ٤١

(٧) سورة الحج من الآية : ٧٢

(٨) سورة الحديد الآيات : ١٢ - ١٤ - ١٥

وقوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحث العظيم ، وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباءنا الأولون قل إن الأولين والآخريين ، مجمعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمائلون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التي كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنغا تجزون ما كنتم تعلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله - جل شأنه : ﴿ إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالهلل يغلى في البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله - جل شأنه : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لاثنين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذبا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ : أى ادخلوها بسبب كفركم وذلك كقوله - جل شأنه : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ، ولم أدر ما حسايه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

هذه حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت . قال ابن أبي حاتم : بسنده عن أنس بن مالك - رضى الله عنه : كنا عند النبي - ﷺ - فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال - ﷺ : ( أتدرون مم أضحك ، قلنا : الله ورسوله أعلم - قال - ﷺ : ( من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول ربي ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول لا أجزى على إلا شاهدا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ،

(١) سورة الواقعة الايات : ٤١ - ٥٦

(٢) سورة الطور آية ١٣ - ١٦

(٣) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٥٠

(٤) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠

(٥) سورة الحاقة الآيات ٢٥ - ٣٧

وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى فتنتطق بعمله ، ثم يحل بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل (١).

وقال سفيان بن عيينه : عن سهيل ، عن أبيه ، عن أنى هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ - في حديث القيامة الطويل : قال فيه : ( ثم يلقي الثالث ، فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك آمنت بك ، وبنبيك وكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ، وبتنى بخير ما استطاع - قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدا ؟ قال : فيفكر في نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : ( انطقى ) - قال : فتنتطق فخذه ، ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك الذى يسخط الله - تعالى عليه (٢).

وقال ابن جرير : بسنده عن أن موسى الأشعري - رضي الله عنه : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أى رب عملت عملت عملت ، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليفة ترى من تلك الذنوب شيئا ، وتبدوا حسناته فور أن الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ، ويقول : أى رب وعزتك ، لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا في يوم كذا في مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أى رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه ، قال أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه : فإني أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ، ثم تلا ( اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ) (٣).

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم السدى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعبدوا فما هم من المعتبين ﴾ (٤) . وقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٥) .

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد : ٨ - ٢١٧

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد أيضا : ٨ - ٢١٦

(٣) الحديث أورده ابن كثير في تفسير سورة ( يس ) آية ٦٥ قال :

أخرجه ابن جرير وهو حديث موقوف على أنى موسى الأشعري .. رضي الله عنه : وأورده في التفسير الطبرى : ١٧/٢٣ .

(٤) سورة فصلت الآيات : ١٩ - ٢٤

(٥) 'سورة النور الآيتان : ٢٤ - ٢٥

قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأني يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكاتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ .

هي الآية فيها تتجلى قدرة الله تعالى : إذ لو شاء أن يطمس على أعينهم ، فيصيبهم بالعمى لفعل ، فليس هناك عقبة أمام المشيئة ، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ، ولو أعماهم فاستبقوا الصراط : أى الطريق وساروا فيه فكيف يبصرون إنهم لا يبصرون بعد العمى ، وقد يكون العمى هنا بمعنى الضلال والبعد عن الحق ، فهو عمى فى القلوب : أى لو شاء الله إضلالهم لأضلهم عن طريق الحق ، ولكنه أرسل إليهم رسولا ، وأنزل إليهم كتابا ، وزودهم بالعقل قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ (١) .

لقد انقطعت المعاذير ، فلا حجة لمعتذر بعد الإرسال والبيان .

قوله تعالى : ﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكاتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ للأئمة فى تفسير هذه الآية أقوال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : أهلكتناهم ، وقال السدى : لغيرنا خلقهم ، وقال أبو صالح ، لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فما استطاعوا مضيا ﴾ أى إلى أمام ﴿ ولا يرجعون ﴾ إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

قوله تعالى : ﴿ ومن نعلمه ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ، وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا إن الله عليم قدير ﴾ (٢) . وقوله جل شأنه : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٣) .

وقد اقتضت سنة الله تعالى : إنه من يعيش طويلا فى الحياة يرد على حالته الأولى من الضعف ، وخفة العقل إلى غير ذلك مما كان عليه أيام الطفولة ، فعلى العاقل أن يغتنم خمسا قبل خمس ، شبابه قبل هرمه ، وصحته قبل سقمه ، وغناه قبل فقره ، وفراغه قبل شغله ، وحياته قبل موته .

تموت	وأيا من	تذهب
عجبت	لدى	لعب
ألهو	ويلعب	من نفسه
ونلعب	والموت	لا يلعب
عجبت	ومالى	لا أعجب
تموت	ومنزل	يخرّب

(١) سورة النساء الآية : ١٦٥

(٢) سورة الحج آية : ٥

(٣) سورة الروم آية : ٥٤

أرى الليل يطلبنا والنهار  
أحاط الجديدان جمعا بنا  
وكل له مدة تنقضى  
وكل له أثر يكتب

فبادروا أيها العقلاء بالأعمال الصالحة ، هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا  
مفسدا ، أو هروما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

دنياك ساعات سراع الزوال  
فهل تبيع الخلد يا عاقلا  
وانما العقبى خلود المال  
وتشتري دنيا المنى والضلال

إن التنكيس : هو جعل أعلى الشيء أسفله ، وهكذا يرد الإنسان بعد أن يطعن في السن إلى حالة  
الطفولة ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبقة ( ألا يعقلون ) أى أجنوا ، فصاروا لا يعقلون .  
هذه الأحكام ، لا تسوف فإن الموت يأتي بغته ، وإذا فات الأوان فالندم لا ينفع ..

عجوز تمت أن تكون صبية  
فسارت إلى العطار تبغى شبابها  
وقد انحنى الجنبان واحدودب الظهر  
وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر  
قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق  
القول على الكافرين ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن نبيه ومصطفاه ، إنه ما علمه الشعر ﴿ وما ينبغي ﴾ أى ما هو في  
طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ، ولهذا ورد أنه - ﷺ - كان لا يحفظ بيتا وزن منتظم ،  
بل إن أنشدته زحفه أو لم يتمه (١) .

وقال الامام أحمد بسنده : عن عائشة - رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ - إذا استراب الخبر تمثل  
فيه بيت طرفة : ( ويأتيك بالأخبار من لم تزود ) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (٢) .  
أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

قال العلماء : هذا وقع اتفاقا من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .  
وقال أبو داود : بسنده عن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ : ( لأن يمتلىء جوف أحدكم  
قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا ) انفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣) .

(١) ذكره ابن عساكر عن الشعبي في ترجمة ( عتبة بن أبى لهب انظر ابن كثير تفسير يس آية ٦٩ )

(٢) أخرجه الامام أحمد في سننه - مسند عائشة ح ٦ ص ٣١ ، ١٤٦ ، ٢٨٩

وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة رقم ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ وأخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح ، أبواب الأدب ما جاء في إنشاد الشعر  
رقم ٣٢٦ - ٨ / ١٤٠ ، ١٤١ تحفة الأحوذى .

(٣) أخرجه أبو داود ( في كتاب الأدب ) باب : ما جاء في الشعر ح ١ ص ٣٢ ، ٣٣

والمقصود الشعر الذى فيه الهجاء .. والغزل ، والنفاق ، وفى الشعر ما هو مشروع ، كهجاء المشركين الذى كان يتعطاه شعراء الاسلام كحسان بن ثابت - رضى الله عنه - وكعب بن مالك - وعبد الله بن رواحه ، وأمثالهم واضرابهم - رضى الله عنهم أجمعين - ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه رسول الله ﷺ ( آمن شعره وكفر قلبه )<sup>(١)</sup>.

وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب ، عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : ( إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما )<sup>(٢)</sup>.

وما أعظم قول الله تعالى : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾<sup>(٣)</sup> . ثم استثنى أهل الصلاح بقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٤)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿ إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ لينذر من كان حيا ﴾ أى : لينذر هنا القرآن المبين كل حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر ، وقال الضحاك : يعنى عاقلا ( ويحق القول على الكافرين ) أى : هو رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ .

يذكر تعالى : ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ فهم لها مالكون ﴾ قال قتادة : مطيقون . أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بغير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذلك دليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بغير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير ، وقوله تعالى : ﴿ منها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ، ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاءوا نحرروا واحتيزوا .

واسمع معى الى قوله تعالى : ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئنى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر

(١) انظر تفسير ابن كثير ( تفسير سورة يس ) آية : ٦٩

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهما - ( فى كتاب الأدب ) باب : ما جاء فى الشعر ج ٤ ص ٣٣

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ - ٢٢٦

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١﴾ .

واسمع الى قوله تعالى : ﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٢) .

واقرا معنى قوله تعالى : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (٤) .  
وقوله تعالى : ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .. ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ، ويرىكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ ﴿ولهم فيها منافع ﴾ قال تعالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ (٨) . ﴿ومشارب ﴾ كما قال تعالى : ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ ﴿أفلا يشكرون ﴾ أى أيجحدون فلا يعرفون للمنع فضل ولا يشكرون على آلائه لقد بدلوا نعمة الله كفرا

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٤٢ - ١٤٤

(٢) سورة النحل الآيات : ٥ - ٩

(٣) سورة النحل الآية : ٦٦

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٢١

(٥) سورة الزمر الآية : ٦

(٦) سورة غافر الآيات : ٧٩ - ٨١

(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤

(٨) سورة النحل الآية : ٨٠



وأحلوا قومهم دار البوار قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ، يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١)

وقال جل شأنه : ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢).

إن خلق الأنعام آية من آيات الله دعى القرآن الكريم إلى النظر فيها بعين الاعتبار والتفكر ، قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾

وقال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خَلَقْتَ ﴾ (٣)

ودلائل التوحيد مبثوثة في الأنفس والآفاق وليس مقصورة على خلق الإنسان أو الحيوان ، بل إنك لتراها في أقل المخلوقات ، كالبعوضة والذبابة التي قال الله في شأنها :

﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفْزَهُ مِنْهُ ﴾ (٤). وتراها كذلك في الجراد

فواعجبا كيف يعصى  
وفي كل شيء له آية  
أم كيف يحجده الجاحد  
تدل على أنه الواحد

يقول العلامة ابن القيم : في كتابه ( مفتاح دار السعادة ) .

( ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام : الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها ، إذ لو كانت عمياء أو صماء ، لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ، ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لا امتنعت من طاعته واستعصت عليه ، ولم تكن مسخرة له ، فأعطيت من التمييز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له ، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان ، وليظهر أيضا فضيلة التمييز والإختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ، ولم يكن يطيقها لولا تسخيرها . قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ الْفَلَكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لَتَسْتَوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مَقْرِنِينَ ، وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ (٥) وما كنا له مقْرِنِينَ : أى : مطيقين ضابطين . وقال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ .

(١) سورة النحل الآيات : ٨٢ - ٨٣

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٤

(٣) سورة العنكبوت الآية : ١٧

(٤) سورة الحج من الآية : ٧٣

(٥) سورة الزخرف من الآية : ١٢ - ١٤

ففى البعر على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلاً منقاداً ، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ،  
ولفصلة عضواً عضواً فسل المعطل ( فرقة المعطلة التى عطلت صفات الله ) من الذى ذلله وسخره وقاده  
على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات ، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنسانى ، لمصالح معاشه  
ومعاده ، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأعمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال ، لأنه  
كان يحتاج مكان الحمل الواحد إلى عدة أناس يحملون أنقاله وحمله ، ويعجزون عن ذلك ، وكان ذلك  
يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التى لا يحصىها إلا  
الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأواني والركوب والحراث والمنافع الكثيرة والجمال .

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الإنسان وغيره ، فالإنسان لما خلق مهيباً لمثل  
هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها ، خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من  
القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق ، وضم الشيء إلى مثله ، والحيوان إليهم لما لم يتبها لتلك  
الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع ، خلق  
له أكف لطاف مدجة ذوات بدائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ، ولا تصلح للصناعات ، هذا كله من  
آكلة اللحم من الحيوان ، وأما آكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها ، خلق لبعضها أظلالاً  
تقيها خشونة الأرض إذا جالت فى طلبها المرعى ، وبعضها حوافر ململمة مفعرة كأخمص القدم لتتطبق على  
الأرض ، وتنبها للركوب والحمولة ، ولم يخلق براثن ولا أنياباً لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

ثم تأمل الحكمة فى خلقه الحيوان الذى يأكل اللحم من البهائم ، ثم كيف جعلت له أسنان حداد ،  
وبرائين شداد ، وأفواه واسعة ، وأغنيت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد ، والأكل ، ولذلك تجدد سباع الطير  
ذوات مناقير حداد ومخالب ، كالكلاب ولهذا حرم النبى - ﷺ - كل ذى ناب من السباع ومخلب من  
الطير ، لضرره وعداوته وشره ، والمغتذى عليه شبيه بالغازى ، فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها  
وعداوتها وشرها ما يشابهها ، فحرم على الأمة أكلها ، ولم يحرم عليهم الضياع ، وإن كان ذا ناب ، فإنه ليس  
من السباع عند أحد من الأمم ، والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب ، وأن يكون من  
السباع ، ولا يقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبداً ، فصلوات الله وسلامه  
عليه ، على من أوتى جوامع الكلم ، فأوضح الأحكام ، وبين الحلال والحرام .

فانظر حكمة الله - عز وجل فى خلقه وأمره فيما خلقه ، وفيما شرعه ، تجد مصدر ذلك كله الحكمة  
البالغة التى لا يختل نظامها ولا ينخزم أبداً ، ولا يختل أصلاً ، ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة  
الحكمة الأمر الأعظم من مشاهدة حكمة الحق ، وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ، ودينه  
وعرفوا حكمته ، فيما أحكمه وشهدت فطنتهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ، ومصلحة  
أريدت بالعباد فى معاشهم ومعادهم .

ثم تأمل أولاً ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها ، فلا تحتاج إلى الحمل

والتربية ، كما يحتاج إليه أولاد الإنس ، فمن أجل أنه ليس عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة ، أعطاهما اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ ، يدرج ويلقط حين يخرج من البضة ، وما كان منها ضعيف النهوض ، كفراخ الحمام واليمام ، أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعن في أفواه الفراخ من حواصلها ، فتخبأه في أعز مكان فيها ، ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ، ولا تزال كذلك حتى ينهض الفرخ ، ويستقل بنفسه ، وذلك كله من حظها وقسمها الذى وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة .

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت أن تكون زوجا لأفردا ، أما اثنين ، وإما أربعة ، ليتبأ له المشى والسعى ، ويتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك ، لأن الماشى ينتقل ببعض قوائمه ، ويعتمد على بعض ، فنو القائمتين ينقل واحدة ، ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنين ، ويعتمد على اثنين ، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتيه من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ، ولكان مشيه نقرأ كنقر الطائر ، وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر .

ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه ، بخلاف مشيه الطبيعي الذى هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل من يديه مع اليسرى من رجلين ، وقرار يسرى اليدين ويمين الرجلين ثم الآخرين كذلك ، وهذا أسهل ما يكون من المشى وأخفه على الحيوان .

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسطة كأنها سقف على عمد القوائم ، ليتبأ ركوبها وتستقر الحمولة ، ثم خولف هذا في الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبة لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله ، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف ، حتى قيل أن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور اتلابل .

وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام ، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه ، وليكون أيضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به ، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل أن القبان إنما عمل من خلقه الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل لكأنه يوازنه موازنة .

ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها ، ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة ، وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة في أسفل بطنها ، فإذا كانت وقت الضراب ارتفع ونشرب وبرز للفحل ، فيتمكن من ضرابها ، فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم ، خصت بهذه الخاصية عنها ليتبأ الأمر الذى به دوام النسل .

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البيمي هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف ، وكسيت الطيور بالريش .

وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة ، كالسلحفاة ، وبعضها من الريش ما هو كالأسنة ، كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها ، فإنها لم تكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة والآت الحرب ، أعينت بالملابس وكسوة لا تفارقها ، والآت وأسلحة تدفع بها عن نفسها ، وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدت الأحذية والنعال فمعها حذاؤها وسقاؤها ، وخص الفرس والبغل والحمار بالخوافر لما خلق للركض والشد والجرى ، وجعل لها ذلك أيضا سلاحا عند انتصافها من خصمها عوضا عن الصياحى والمخالب والأنياب والبرائن ، فتأمل هذا اللطف والحكمة ، فإنها لما كانت البهائم خرسا لا عقول لها ، ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ، ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسيج والغزل ولطف الحيلة ، جعلت كسوتها من خلقها باقية عليها ما بقيت ، لا تحتاج إلى الاستبدال بها ، وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التى أرادت بها ومنها ، وأما الانسان فإنه ذو حيلة ، وكف مهيئة للعمل ، فهى تغزل وتنسج ، ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال ، وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة ، منها أن يسترخ إذا خلع كسوته إذا شاء ، ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة ، ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء ، فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء ، وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف ، فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة ، ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته ، ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس ، كما يتلذذ بأنواع المطاعم ، فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره ، كما جعلت مطاعمه كذلك ، فهو يكتسب ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ، ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة ، كالحرير والابرسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة ، فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته ، ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم ، كما هو فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان ، فدل على ذلك أكمل وأجل وأبلغ فى النعمة ، ومنها أرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما ميزه عنه فى مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه ، ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحرية وسلمه وطعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته ، فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها ، فلم يجعل كسوته فى هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها ، فهذا من تكرمه وتفضيله على سائر الحيوان .

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع - والدواب على كثرتها لا يرى منها شئ وليست شيئا قليلا ، فتحفى لقلتها بل قد قيل ، أنها أكثر من الناس وأعتبر ذلك بما تراه فى الصحارى من أسراب الطباءة والبقر والوعول والذئاب ، والتمور وضروب الهوام على اختلافها ، وسائر دواب الأرض ، وأنواع الطيور التى هى أضعاف بنى آدم لا تكاد ترى منها شيئا ميتا لا فى كناسة ولا فى أوكاره ولا فى مساقطه ولا فى مراعيه بطريقة وموارده ومناوله ومعاقله ومعاصمه إلا ماعدا عليه عاد إما افترسه سبع ، أو رماه صائد ، أو

عدا عليه عاد أشغله واشتغل في جنسه عن احراز جسمه وأخفاء جيفته ، فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حين لا يول إلى أجسامها ، وقبرت جيفتها قبل نزول البين بها ، ولولا ذلك لامتلاأت الصحارى بجيفتها ، وأفسدت الهواء بروائحها ، فعاد ضرر ذلك بالناس ، وكان سييلا إلى وقوع الوباء ، وقد دل على هذا قوله تعالى ، في قصة ابن آدم ،

﴿ فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوء أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوء أخى فأصبح من النادمين ﴾ (١)

وأما ما جعل عيشه بين الناس كالانعام والدواب ، فلقدرة الانسان على نقله واحتياله في دفع أذيته ، منع مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذي حار فيه بنو ادم وفيه وفيما يفعلون به ، كيف جعل طبعها في البهائم ؟ وكيف تعلموه من الطير ؟

ثم تأمل الحكمة الباهرة في وجه الدابة كيف هو فإنك ترى العينين فيه ساطعتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها ، لأنها تحرس نفسها وراكبها ، فتتقى أن تصدم حائطا ، أو تتردى في حفرة . فجعلت عينها كعيني المنتصب للقامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا في أسفل الخطم ، لتتمكن من العض والقبض على العلف إذا لو كان فوها في مقدم الخطم كما أنه من الانسان في مقدم الذقن ، لما استطاع أن تتناول به شيئا من الأرض ، ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده ، فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفله لتضعه على العلف ، ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهي لها كالشفة للإنسان ، لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد ، وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ، ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة ، فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر ، والغطاء على حياها ، يواريهما ويستترهما ، ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وخر يجتمع عليه الذباب والبعوض ، فيؤذى الدابة ، فجعل أذنانها كالمذاب لها والمراوح تطرد وتستريح إلى تحريكه وتصريفه بمنة ويسرة ، فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدمها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة ، وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها أفهام الخلق ، ويزدرى السامع إذا عرضت عليه ، فإنه لا يعرف موقعها إلا في وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تريض في الوحل فلا يكون شيء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها .

ثم تأمل شفر ( الفيل ) وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم له مقام اليد في تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ، ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئا من الأشياء من الأرض ، لأنه ليست له عنق يمد بها كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ، ليسد مسده ، وجعل قادرا على سدله ورفع ثنيه والتصرف به كيف شاء ، وجعل وعاء أجوف لين الملمس ، فهو يتناول به حاجته ، ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به ، إذا شاء ، ويعطى ويتناول إذا أراد ، فمن الذي عوضه ؟ ومن أخلف عليه مكان العضو الذي منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الزوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم ،

اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه ، وبارئته ومبدعه وفطره ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، ( فإن قلت ، فما باله لم يخلق له عنق كسائر الأنعام ، وما الحكمة في ذلك ؟ قيل ، والله أعلم بحكمته في مصنوعاته ، لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم ، وحمل ثقيل ، فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ، ووهنت بحمله ، فجعل رأسه ملصقا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاؤه ، ولما طالت عنق البعير للحكمة في ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ، ويوهن عنقه ، فسبحان من فأت حكمة عد العادين وحصر الحاصرين .

ثم تأمل خلق ( الزرافة ) واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان ، فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق بعير ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد غمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذبا عليها وعلى الخلقة إذ ليس في الحيوان صنف يلحق صنف آخر وأما بقع هذا نادرا .

فالزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ، ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ، ودلالة على قدرته ، وحكمته التي لا يعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء ، وفي أي لون شاء ، فمنها المتشابه المتناسب الأعضاء ، ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة ، كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيتته تابع لها ، فمنه ما خلق من غير أب ولا أم ، وهو أبو النوع الانساني ( آدم ) ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى ، وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم ، ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم ، ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الانساني فيرى عباده آياته ويتعرف إليهم بالآية وقدرته ، وأنه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة ، فلأن منشأها كما ذكر المعتنون بحالها وساكنتها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا ، فأعينت بطول العنق لتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها ، وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

ثم تأمل هذه التملة الضعيفة وما أعطيتها من الفطنة والحيلة في جمع القوت وادخاره ، وحفظه ودفع الآفة عنه ، فإنك ترى في ذلك عبرا وآيات .

فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له ، فإذا ظفرت به أخذت طريقا من أسرابها إليه ، وشرعت في نقله ، فتراها رفقتين ، رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سريا ذاهبا ، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك في طريقها ، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الداهيين في طريق ، والجماعة الراجعين من جانبهم ، فإذا ثقل عليهم حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل ، وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذي تساعد الفئمة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة

ساعدن عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه ، وإن كان الذى صادفه جماعة تساعدوا عليه ، ثم تقاسمته على باب المبيت ومن عجب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرتة لثلا ينبت ، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرتة أربعاً ، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجه للشمس ثم ترده إلى بيوتها ، ولهذا ترى فى بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ، ومن فطنها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشز من الأرض لثلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل فى بطن واد ، ولكن فى أعلاه وما ارتفع على السيل منه - ويكفى فى فطنتها ما نص الله - عز وجل - فى كتابه من قولها لجماعة النمل ، وقد رأت سليمان - عليه السلام - وجنوده ، فقالت :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب فى هذه النصيحة ، النداء والتنبية والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهم والتعميم والاعتذار فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة ولذلك أعجب سليمان قولها ، وتبسم ضاحكا منه ، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ - قال ، نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ، ثم أحرق قرية النمل ، فأوحى الله إليه ( من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ، فهلا نملة واحدة ) (٢).

ومن عجب الفطنة فى الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا ، فيقع عليه ليأكل منه ، فيشب عليه الثعلب فيأخذه ، ومن عجب حيل العنكبوت أن ينسج تلك الشبكة شركا للصيد ، ثم يكمن فى جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه ومن عجب الفطنة فى هذه الذبابة الكبيرة التى تسمى أسد الذباب ، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبا منه يسكن مليا ، حتى كأنه موات لا حراك فيه ، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وعقل عنه دب ديبا رقيقا حتى يكون منه بحيث يناله ، ثم يثب عليه فيأخذه ، ولا تزدري العبرة بالشئ الحقيق من الذرة والبعوض ، فإن المعنى النفيس يقتبس من الشئ الحقيق ، والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم حزب الله تعالى ، فى كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار ، فأنزل الله تعالى ،

﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا ﴾ (٣)

( فما أغزر الحكم وأكثرها فى هذه الحيوانات التى تزدريها وتحقرها ، وكَم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته فى حكمته ) .

فسل المعطل من أهمها هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة ، فأغناها ما أعطاهها من الحيلة

(١) سورة النحل من الآية : ١٨

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه عن أنى هريوة مرفوعا فى ( كتاب الجهاد ) باب : النبى عن قتل النمل : ٧ - ٤٣

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦

عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته ، فإنه حين قدر بأن يكون طائرا في الجو خفف جسمه وأدج خلخته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنين ، ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ، ثم خلق ذا جَوْجُوٍّ محدود لبسهل عليه اختراق الهول كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة ، وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران ، وكسى جسمه كله بالريش لتتداخله الهواء فيحمله ، ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلخته الإنسان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا ينفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ، ولما عدم الانسان وكان يزدرد الحب صحيحا واللحم غريفا أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب .

وتطبخ اللحم ، فاستغنى عن المضغ والذي يدلك على قوة الحرارة التي أعين بها ، إنك ترى حجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحا ، وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر .

ثم اقتضت حكمته سبحانه : أن جعله يبيض بيضا ، ولا يلد ولادة ، لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان ما يحمل ويمكث حمله في جوفه حتى يستحكم ، ويثقل لأثقله وأعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو سيلهم نفسه أسبوعا أو أسبوعين باختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ، ويحتمل مشقة الحبس ، ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلته ، ويزق فراخه ، وليس بذى رؤية ولا فكرة في عاقبة أمره ، ولا يؤمل في فراخه ، ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرفد ، وبقاء الذكر فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ، ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التي تراها في كثير من الطير ، كالطاووس والدراج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ، ووشيت بالأيدى لم يكن هذا ، فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلوين والصبغ العجيب البسيط ، والمركب الذي لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم ..

ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار ، فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي ، فسبحان الذي قدره ويسره ، كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ، ويفوتها إذا قعدت عنه ، وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران ، والأسطحة والسقوف تناوله بالهوين من السعى ، فلا يشاركها فيه غير بنى جنسها من الطير ، ولو كان ما تقتات به يوجد معدا مجموعا كله ، كانت الطير تشاركها فيه ، وتغلبها عليه ، وكذلك لو وجدته معدا مجموعا ما كبت عليه بجرص ورغبة ، فلا تقلع عنه ، وإن شبت حتى تبشم وتهلك ، وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدا لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشر والبطنة ، ولكثر الفساد وعمت



الفواحش والبغى فى الأرض ، فسبحان : اللطيف الخبير الذى لم يخلق شيئا سدى ولا عبثا .

( وانظر ) فى هذه الطيور التى لا تخرج إلا بالليل ، كالبوم والهام والخفاش ، فإن أقواتها هيئت لها فى الجو لا من الحب ولا من اللحم ، بل من البعوض والفرش وأشباههما بما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ، ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل ، وذلك إن هذه الضروب من البعوض والفرش وأمثالهما مبنوثة فى الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه ، واعتبر ذلك بأن تضع سراجا بالليل فى سطح أو عرصة الدار ، فيجتمع عليه من هذا الضرب شيء كثير ، وهذا الضرب من الفرش نحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس فى الطير أضعف منه ، ولا أجهل ، وفيه يرى من تهافته فى النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك ، فجعل معاش هذه الطيور التى تخرج بالليل من هذا الضرب فتقات منه ، فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها ، فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ، ونهارها بمنزلة ليل غيرها ، ومع ذلك فساق لها الذى تكفل بأرزاق الخلق رزقها ، وخلق لها فى الجو ولم يدعها بلا رزق من ضعفها وعجزها ، وهذه إحدى الحكم والفوائد فى خلق هذه الفرش والجنادب والبعوض ، لكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ، ولولا ذلك لا انتشرت وكثرت حتى اضطرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطرب العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته .

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات ، فانظر إليها وإلى اجتهداتها فى صنعه العسل ، وبنائها البيوت المسدسة التى هى من أتم الأشكال وأحسنها استدارة واحكمها صنعا ، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن فيها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ، ولا آلة ولا بيكار ، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كل من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يفكرون ﴾ (١) .

فتأمل كيف طاعتها وحسن أتمارها لأمر ربها ، اتخذت بيوتا فى هذه الأمكنة الثلاثة ، فى الجبال وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون أى : بينون العروش وهى البيوت ، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة ، وتأمل كيف كثرت بيوتها فى الجبال والشقفان وهو البيت المقدم فى الآية ، ثم فى الأشجار وهى من أكثر بيوتها ، ومما يعرش الناس .

وأقل بيوتها فيهم حيث يعرشون ، وأما فى الجبال والشجر فبيوت عظيمة ، يؤخذ منها من العسل الكثير جدا ، وتأمل كيف أواها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولا ، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت أولا ، ثم بالأكل بعد ذلك ، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذلة لا يستوعد عليها شيء ثم تعود ، ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به ، فهى مؤتمرة لأمره ، سامعة له مطيعة ، وله عليها تكليف وأمر ونهى ، وهى رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها

كما يدبر الملك أمر رعيته ، ثم إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة بعد واحدة تراحم الأخرى ، ولا تتقدم عليها في العبور ، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تراحم ولا تصادم ولا تراكم ، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق ، لا يجوزه إلا واحد واحد ، ومن نذير أحوالها وسياستها ، واجتماع شملها ، وانتظام أمرها وتدير ملكها ، وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ، ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها ، فإن هذه أعمال حكمة متقنة في غاية الإتقان والإحكام ، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله ، وأجهله بنفسه وبحاله ، وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة ، ومن عجب أمرها أن فيها أميران لا يجتمعان في بيت واحد ، ولا يتآمران على جمع واحد ، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه ، واتفقوا على أمير واحد من غير معاداة بينهم ، ولا أذى من بعضهم بل يصيرون يدا واحدة ، ومن أعجب أمرها ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه ، وهي النتائج الذى يكون لها ، هل هو على وجه الولادة والتولد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك ، أو يغطى له ، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين ، وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجب ، فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الكل فتمصها ، وذلك مادة العسل ، ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة ، وتعقدها على رجلها كالعنسة فتملاؤها بالمسدسات الفارغة من العسل ، ثم يقوم ويعسوها على بيته مبتدئا منه ، فينفخ فيه ، ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا ، وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله - عز وجل - فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التى قل من يتفطن لها ، وهذا كله من ثمة ذلك الوحي الإلهي أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج ، فسل المعطل : من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل في طباعها ، ومن الذى سهل لها سبله ذللا منقادا لا تستعصى عليها ، ولا تستوعرها ، ولا تفضل عنها على بعدها ، ومن الذى هداها لشأنها ، ومن الذى أنزل لها من الطل ما إذا خبته رده عسلا صافيا مختلفا ألوانه في غاية الخلوة واللذابة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته في المرآة وسمه لى من جاء به وقال : هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه ، فإذا طعمه ألد شيء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود ، وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها .

وإذا تأملت بما فيه من المنافع والشفاء ، ودخوله إلى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور في كتبهم أصلا ، وإنما كان الذى يستعملونه في الأدوية هو العسل ، وهو المذكور في كتب القوم ، ولعمر الله ، إنه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها ، وأذهب لضررها ، وأقوى للمعدة ، وأشد تفرجحا للنفس ، وتقوية للأرواح ، وتنفيذا للدواء ، وإعانة له على استخراج الدواء من أعماق البدن ، ولهذا لم يجيء في شيء من الحديث قط ذكر السكر ، ولا كانوا يعرفونه أصلا ، ولو عدم من العالم لما احتاج إليه ، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه ، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل ، واستطابوه عليه ، ورأوه أقل حدة وحرارة منه ، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من

الحبة والحرارة ، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها ، فيصير أنفع له من السكر ومتى رأيت السكر يحلو بلغها ، ويذيب خلطا ، أو يشفى من داء ، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء الى العروق للطافته وحلاته... ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل ، فهما الشفاءان هذا : شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها ، وأدواء شبهاتها وشهواتها . وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها ، وأخلاطها ، وآفاتا ، ولقد أصابني أيام مقامي بمكة أسقام مختلفة ، ولا طيب هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن ، فكننت استشفى بالعسل وماء زمزم ، ورأيت فيهما من الشفاء أمرا عجيبا ، وتأمل إخباره سبحانه وتعالى :  
عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال : عن العسل ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ <sup>(١)</sup> . وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل ، وليس موضع استقصاء قوائد العسل ومنافعه .

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله - عز وجل - في الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنيء المرء الخارج من بين الفرث والدم ، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة ، فينقلب بعضه دما بإذن الله ، وما يسرى في عروقه ، وأعضائها ، وشعورها ، ولحومها ، فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو ، أو عصب ، وغضروف ، وشعر ، وظفر ، وحافر إلى طبيعته ، ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له ، إذ به قوام الحيوان ، ثم ينصب ثقله إلى الكرش ، فيصير بلا ، ثم ينقلب باقيه لبنا صافيا أبيض سائغا للشاربين ، فيخرج من بين الفرث والدم ، حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفي الله سبحانه الألف من الثقل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد وصار دما ، وكان مخلوطا بالأخلط الأربعة ، فأذهب الله - عز وجل - كل خلط إلى مقره ، وخزائنه المهيئة له من المرارة ، والطحال ، والكلى ، وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة الكبد ، فينصب من تلك العروق إلى الضرع ، فيقبله الله - تبارك وتعالى - من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه ، فاستخرج من الفرث والدم . فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير ؟ وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ، ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذا كان مسكنه الماء ، ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتاج إليه ، لأنه ينغمس في الماء ، وخلق له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاديف من جانبي السفينة ، وكسى جلده قشورا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف ، والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ ، فهو يصب الماء فيها بفيه ، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك ، كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ، ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري ، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر : بحر هواء يسبح فيه حيوان البر ، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر ، فلو فارق كل من

الصنفين بحره الى البحر الآخر مات ، فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء يختنق الحيوان البحرى فى الهواء فسبحان : من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد ، بل إن علموا فيها وجهها جهلوا منها أوجها ، فتأمل الحكمة البالغة فى كون السمك اكثر الحيوان نسلا ، ولهذا نرى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة ( وحكمة ذلك ) : أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان ، فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع ، لأنها فى حافات الآجام جاثمة تعكف على الماء الصافى ، فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك ، فاخترقته ، فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبار تأكله ، ودواب البر تأكله ، وقد جعله الله - سبحانه - غذاء لهذه الأصناف ، اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ، ولو رأى العبد ما فى البحر من ضروب الحيوانات ، والجواهر والأصناف التى لا يحصىها إلا الله ، ولا يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذى لا شبه له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأى العجب ، ولعلم سعة ملك الله ، وكثرة جنوده التى لا يعلمها إلا الله .

وهذا ( الجراد ) نثر حوت من حيتان البحر ينثره من منخره ، وهو جند من جنود الله ، ضعيف الخلق ، عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات ، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له ، ولا يحصى منه عدد ولا عدة ، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك ، فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل ، فيغشى السهل والجبل والبلد ، والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته ، ويسد وجه السماء بأجنحته ، ويبلغ من الجو الى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه ، فسل المعطل الجاحد من الذى بعث هذا الجند الضعيف الذى لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة ، والكثرة ، والعدد ، والحيلة ، فلا يقدر ، بأجمعهم على دفعه ، بل ينظرون اليه يستبد بأقواتهم دونهم ، ويمزقها كل ممزق ، ويذر الأرض فقرا منها ، وهم لا يستطيعون أن يردوه ، ولا يحولوا بينه وبينها ، وهذا من حكمته سبحانه : أن يسلط الضعيف من خلقه الذى لا مؤنة له على القوى ، فينقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردا ، ولا صرفا .. فسبحان من له فى كل شيء حكمة بالغة ، وآية باهرة . انتهى .

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضون ﴾ .

يقول تعالى : منكرا على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة ، وترزقهم ، وتقربهم إلى الله زلفى ، قال تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أى : لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، بل هى أضعف من ذلك ، وأقل وأذل وأحق وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ، قال تعالى :

﴿ أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوك سواء عليكم أَدْعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إن الذين تدعون من دون الله عباد

أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعو شركاءكم ثم كيدون فلا تتظرون ﴿١﴾

وقوله تعالى : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ قال مجاهد : يعنى عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة بمجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ في حزنهم ، وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم ، قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (٢)

وقال الحسن البصرى في قوله تعالى : ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ المشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهى لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا ، إنما هى أصنام قال ابن كثير : وهذا القول حسن وهو اختيار ابن جرير .

قوله تعالى : ﴿ فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أى لا يحزنك تكذيبهم لك ، وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أى نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزئهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرا ، ولا صغيرا ولا كبيرا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديما وحديثا . ومثله قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنا لن ينصرون ﴾ الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة وهم عذاب عظيم ، إن الذين أشكروا الكفر بالإيمان لن ينصروا الله شيئا وهم عذاب أليم ﴿ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنه قلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يظهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ (٤)

« البعث حق »

قال تعالى :

أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ - ١٩٥ .

(٢) سورة الاحقاق الآية : ٥ - ٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٧٦ - ١٧٧ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٤١ .

خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَائِكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

### « تفسير المفردات »

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ في الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية .. ضرب لنا مثلاً : أى وأورد في شأننا قصة عجيبة هى في غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، الرميم : كالرمة والرفات ، بلى : كلمة جواب كنعم ، تأتى بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه في الابداد ، الملكوت : الملك التام .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته ، ووجوب عبادته ، وبطلان إشراكهم ، بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث - أردف ذلك ذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى : ومبطللة لإنكارهم له ، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعلوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا ، وقالوا : كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة ؟ فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم ، هو الذى يحييها ، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت ، ثم ذكر لهم دليلاً آخر يرفع هذا الاستبعاد ، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء ، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غصاً طرياً ، ثم ييس وبلى ، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان ، وفيه الدليل على قدرته ، وهو خلق السموات والأرض ، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق ، وفيه بطلان لإنكارهم ، فأبان أن كل شيء هين عليه ، فما هو إلا بقول ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ تنزه ربنا ذو الملكوت عن كل ما يقول المشركون ، فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء .

﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ (١)

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة : ( جاء أنى بن خلف إلى رسول الله - ﷺ - وفي يده عظم رميم وهو يفته بيده ، ويلذروه في الهواء ، ويقول : أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا ؟ قال - ﷺ - : ( نعم يبعثك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات من سورة يس ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ الآيات .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة .

- ١ - ﴿ قل يحيى الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .
- ٢ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾ .
- ٣ - ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .
- ٤ - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ﴾ .
- ٥ - ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجميلا يقول - رحمه الله تعالى :

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : ( جاء أنى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله - ﷺ - وفي يده عظم رميم ، وهو يلذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال - ﷺ - : نعم يبعثك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار .. ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. الآيات ﴾ والألف واللام فى الإنسان للجنس يعم كل منكر للبعث .

قوله تعالى : ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هم خصيم مبين ﴾ أى : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلاله من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف معين ، كما قال - عز وجل - : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج ﴾ (٢) .

أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الامام أحمد فى سنده : عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله - ﷺ - بصق يوما فى كفه .

(١) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٢

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

فوضع عليها إصبعه ، ثم قال رسول الله - ﷺ - وقال الله تعالى : ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك ( ثيابك ) ولأرض منك ( صوت ) ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنى أو أن الصدقة ؟ (١) .

قوله تعالى : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ أى : أنه - أى الإنسان الكافر - استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السماوات والأرض - للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله تعالى : خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته . ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل يحيى الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

قال الإمام أحمد بسنده عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة - رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله - ﷺ : فقال : سمعته - ﷺ - يقول : ( إن رجلا حضرو الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامت فاجمعوا لى حطبيا كثيرا جزلا ، ثم أوقدوا فيه نارا ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى ، فامتحنشت ، فخذوها فذوقوها ، فذروها فى اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله تعالى إليه ، ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له ) (٢) .

فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشا .

وقد أخرجه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ، ثم يسبقوه ، ثم يذروا نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر فى يوم رائج ، أى كثير الهواء ، ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى : البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له .

وقوله تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبيا يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والغفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما . كالزناد سواء .

(١). أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٤٥ - ٢١٠ ورواه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الوصايا ) باب : النهى عن الامساك فى الحياة والتبشير عن

الموت ص ٢ - ٩٠٣ رقم ٢٧٠٧

(٢). أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٥ - ٣٩٥



## « كلمة العلم في إثبات البعث »

وللعلم في هذا المقام كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهي .  
يقول المهندس عثمان حلمي في كتابه : ( من آيات الله في الكون ) تحت عنوان ( النار من الشجر الأخضر ) .

( في عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول في إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لاننا في الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التي تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة ، فمن الظواهر التي استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب في جسم النبات الأخضر ومن هذا الخشب توقد النار التي هي .. مصدر للطاقة لا غنى لنا عنها في حياتنا اليومية .. وفي القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وتذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرايتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ .

وعندما نتدبر معنى : هذه الآية الكريمة نجد أنها تشير إلى أصول البحث في علوم مختلفة مثل الكيمياء ، والنبات ، والأحياء ، والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكي يتيسر لهم تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية ، وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله في السماوات والأرض .

وسنعالج فيما يلي تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة من آيات القرآن الحكيم .

فإنه سبحانه وتعالى : خلق خلايا النبات التي تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها ، وقدرها ، ثم هداها لبناء الخشب الذي توقد منه النار بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذي يكمن في هذه الظاهرة .

وفيما يلي شرح مختصر للخطوات التي سلكها النبات لتكوين الخشب : دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتي منه ، وادخاره ليوقده عند الحاجة . وما الفحم الحجري الذي يستخرج من المناجم الغائرة في بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت في الأرض ، وطرأ عليها في غضون تغيرات مختلفة ، فتكربنت ، أي تفحمت وأصبحت ذلك الفحم المعروف .

والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل في تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذي كونه النبات وبناه في جسمه . ومن عجب أن هذه

الكتل من الخشب ، وما نتج عنها الفحم إنما بناها النبات من غاز ثنائي أكسيد الكربون ، الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثنائي أكسيد الكربون الجوى ، ويمثله فى درجة الحرارة العادية ، دون غناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة فى حين أن فصل الكربون عن ثنائي أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض . والله سبحانه وتعالى : أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثنائي أكسيد الكربون . ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخصير أو الكلوروفيل ، ولذا فإن الشجر الأخضر - والأخضر دون سواه - هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصية امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثنائي أكسيد الكربون .

ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر . على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد وتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ، من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية التى يتكون فيها الخشب ، فيخزن فيها ، ثم يتركز تدريجياً ، ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ، مثل اللجنين والسوبرين ، فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١/١٠٠٠ من المليمتر ، ككثير من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا ، وسخر لها الامكانيات ، فقامت بعملها المعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثنائي أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل ، أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال ، وهو الذى أودعها الله الخالق سبحانه وتعالى : فى مادة الخلية ، وهذا لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقترها ، فهو الذى قتر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى .

وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقا محدودة ، ولم يؤته من العلم إلا قليلاً ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أزدله نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ،

تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ (١) .  
 هذا للإنسان الذى يفخر اليوم بجهوه الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية ، وصواريخ يرسلها على  
 بنى جنسه وبالا ودمارا ، يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ،  
 وراح يضرب لخالقه مثالا فقال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ .

فأنزل الله تعالى : فى القرآن الكريم على نبيه ﷺ ﴿ قل يحيىها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق  
 عليم ﴾ ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم ، لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى .  
 وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلمه ، ويعظه . ويظهر له قلة حيلته ، إلى جانب قدرته تعالى ،  
 التى لا تحد فقال ، إن الذى أنشأ العظام أول مرة ، ثم يحيىها ، هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا  
 فإذا أنتم منه توقدون .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة ، أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص  
 لاحتوائه على مادة الكلوروفيل كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامدا فى  
 موضعه ، وقد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت  
 عليه تلك الخلية ، ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجما ، كذلك يضرب الله  
 الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين  
 تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب  
 والمطلوب ﴾ (٢) .

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما  
 تسلبه منه .

ألا فكيف تكون ضالة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة والذبابة الدنيئة أزاء خلق السموات والأرض  
 اللتين هما أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ، ونهينا إلى التمعن والتفكير  
 كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعالى :

(١) سورة الحج من الآية ٥

(٢) سورة الحج الآية : ٧٣

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾<sup>(١)</sup> .

وتأمل بلاغة القرآن في هذه الآيات الموجزة المعجزة وهي تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا !

علم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد في بدء الآية الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيث وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يفضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم ، سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإجابة والتمعن في الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

### « عود على بدء »

وبعد ما استمعنا إلى كلمة العلم في الشجر الأخضر ، نعود إلى كلام العلامة ابن كثير في تفسير الآيات السابقة .

يقول تعالى ، مخبرا منها عن قدرته العظيمة في خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة الثوابت ، والأراضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد يخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال عز وجل : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعي مخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شئ قدير ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ أى : إنما يأمر بالشيء أمرا واحدا ، لا يحتاج إلى تكرار وتأکید إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له كن قوله : ﴿ فيكون ﴾ أى ، يوجد دون ما تراخ .

قال الامام أحمد بسنده عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : إن رسول الله - ﷺ - قال ، ( إن الله

(١) سورة الفاشية الآيات : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥٧ .

(٣) سورة الاحقاف الآية : ٣٣ .

تعالى يقول : ﴿ يا عبادى كلكم مذنب ألا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واحد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له ﴿ كن فيكون ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ سبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أى ، تنزيهه وتقديسه وتبرئته من السوء للحي القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه الأمر وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد للمعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء ﴾ كقوله عز وجل ، ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ <sup>(٢)</sup> ويقول تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك ﴾ <sup>(٣)</sup> فالملك والملكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبت ، وجبر وجبروت .

ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين ، قال الامام أحمد بسنده عن حذيفة وهو ابن اليمان - رضى الله عنه - قال : ( قمت مع رسول الله - ﷺ - ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات ، وكان - ﷺ - إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ، وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى . <sup>(٤)</sup> )

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهباً ، وكل الكائنات توحده
أنت الآله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرب وتشهد

لا يسعنا بعد هذا إلا أن نرد مع الكون كله ، من سمائه إلى أرضه ، من عرشه إلى فرشته ، قوله جل جلاله : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يفتكرون ، ومن آياته خلق السموات

(١) أخرجه الامام احمد فى مسند أى ذر مرفوعاً .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٨٨

(٣) سورة الملك الآية : ١

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ح ٥ ص ٣٨٨ ورواه أبو داود والترمذى والنسائى بنحوه أبو داود - كتاب الصلاة - باب : ما يقول فى

ركوعه وسجوده فى ٨ - ٢٣١ حديث رقم ٨٧٤ والنسائى ( كتاب الافتتاح ) باب : ما يقول فى قيامة : ٢ - ١٩٩ - ٢٠٠ وباب : الدعاء

بين السجدين : ٢ - ٢٣١

والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من في السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم <sup>(١)</sup> .

والقرآن الكريم في عظمة وجلال قد قطع المعاذير بعدما أقام الأدلة القاطعة والبراهين المصاطعة والحجج الباهرة على أن البعث حق لا يمارى في ذلك إلا كل كفار أثيم .

### « شبه المنكرين ودحضها »

يقول الأستاذ عبد الله سراج الدين تحت عنوان ، ( شبه المنكرين لإعادة وبطلانها ) .

لقد أزال الله تعالى ، شبه المنكرين وأبطلها كلها ، وذلك أن شبه المنكرين لإعادة ترجع إلى ثلاثة أمور .  
الأول ، اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض ، واختلاطها بأجزاء أخرى ، فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثاني ، أن القدرة لا تتعلق بذلك في زعم المنكرين ، وأن ذلك غير ممكن في زعمهم .  
الثالث ، زعم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها ، وأن الحكمة تقتضى دوام هذا النوع الانساني جيلا بعد جيل هكذا أبدا على وجه البقاء .

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنية على ثلاثة أصول ، بها أزاح الله تعالى ، شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة .

أولا : تقرير القرآن الكريم سعة علم رب العالمين ، وأحاطته بكل شيء ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه شيء فقال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : فلا يلتبس علينا شيء ، ولا يغيب عنا جزء ، بل نحن جزء عالمون ، وله حافظون في علم عندنا ، فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهي لا تغيب عنا ، بل هي محفوظة لدينا .

ثانيا : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة رب العالمين ، وأنه لا يعجزه شيء قال تعالى : ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ أى : فالذى خلق ما هو أكبر من الإنسان ، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ، ولئن فرض أنها أعظم من البدء ، فلقد خلق ما هو

(١) سورة الروم الآيات : ١٧ - ٢٧

(٢) سورة ق الآية : ٤

أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهود بالبيان .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ .

ثم أنه أرانا أمورا واقعية مشهودة في الانسان والحيوان والطيور أماتها ورفق أجزاءها ، ثم أعادها وأحيائها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم ، ثم أحياهم ، وقصة السبعين رجلا الذين أخذتهم الصاعقه ، وقصة العزيز - عليه السلام - ونحوها كما تقدم ، ليكون ذلك حجة مشهودة ، دالة على قدرته سبحانه ، على إحياء الموتى .

ثالثا : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة رب العالمين ، وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ولیميز الله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى لمن بغى عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب فهو سبحانه ، لم يخلق العالم عبثا ، بل خلق العالم بالحق ، ولا بد أن ينتهى أمر العالم للحق .

قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ، فَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ، كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ، وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

يعنى ، إن الحكم بالتساوى بين المتناقضين هو حكم سىء مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية ، فكيف عند حكمة الخالق التى لا تنهاى ؟ فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار ، فلا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ، ولا الطالح مع الصالح ، بل لابد من التمييز بينهما فى عالم آخر تظهر فيه النتائج ، وتبرز فيه الدقائق ، وتحق فيه الحقائق وهو يوم الحاقة وما أدراك ما الحاقة ؟

قال تعالى : ﴿ الْحَاقَّةُ مَا الْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ <sup>(٥)</sup>

(١) سورة المؤمنون الآية : ١١٥ - ١١٦

(٢) سورة الانبياء الآية : ١٦

(٣) سورة ص الآية : ٢٧ - ٢٨ - ٢٩

(٤) سورة الحاقة الآية : ٢١ - ٢٢

(٥) سورة الحاقة الآية : ١ - ٢

## « النفخ في الصور »

ماذا بعد الكلام عن البعث والأدلة الناطقة بوقوعه ؟

يتحدث العلماء المحققون عن كيفيته ، فيقولون .

إن عدد النفخات في الصور مختلف فيها .

ذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاث ، نفخة فزع وهي السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أى إمامته ، ونفخة إحياء .

فعند نفخة الفزع ، يفرع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ نفخة الصعق أى ، الإمامته فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعد ذلك بجملة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام ينظرون ، وذهب قسم من العلماء ، إلى أن هناك نفختين ، نفخة إمامته ، ونفخة إحياء ، أما الذين استثناهم الله تعالى ، من الفزع والصعق حين ينفخ في الصور ، فقد اختلف فيهم ، فقليل هم ، جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ، على نبينا وعليهم ، الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الأنبياء ، وإلى ذلك جنح البيهقي كما في الفتح .

وقيل ، هم الشهداء ، أى ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم - الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الحور العين ، وخزنة الجنة ، وخزنة النار ، وعلى كل من الأقوال فالواجب اعتقاد أن هناك من استثناهم الله تعالى .

أما المدة فيما بين النفختين ، الإمامته والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال ، قال رسول الله - ﷺ - ( ما بين النفختين أربعون )<sup>(١)</sup> .

قالوا لأنس هريرة ، أربعون يوما ؟ قال ( آيت ) أى ( لا أجزم بذلك ) .

قالوا ، أربعين شهرا ؟ قال ( آيت ) قالوا ، أربعين سنة ؟

قال ( آيت )

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبثون كما ينبث البقل ، قال - ﷺ - ( وليس شيء من الإنسان إلا يبلى إلا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة ) .

في هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة الأربعين ماهى ، ولكن جاء في رواية لأنس دواود أنها أربعون سنة .

## « عجب الذنب »

روى مسلم بسنده عن رسول الله - ﷺ - أنه قال ، إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا ، منه



يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا ، أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال ، عجب الذنب .<sup>(١)</sup>  
وفى رواية مالك وأبى داود والنسائى ( كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب )<sup>(٢)</sup> .

وعجب الذنب هو كما قال الامام النووى بفتح النوى وسكون الجيم ، العظم اللطيف الذى هو فى أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له ، عجم باليم ، وهو أول ما يخلق من الأرض فى ابن آدم ، وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، كما أوضحه النووى - رضى الله عنه - وفى الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها ، وبعثها من قبورها ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقى من ابن آدم وهو عجب الذنب ، ويجمع الله تعالى - ما تفرق من تراب ذلك الجسم ، وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها ، ثم إن الله تعالى ، يأمر الملك فينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فهناك تتطير كل روح إلى جسمها الذى كانت تعمه ( فإذا هم قيام ينظرون ) .

قال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾<sup>(٤)</sup> .

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين فى خبايا الأرض ، وبث الروح فيه ومن هنا ترى أن الله تعالى - يشبه أمر البعث والإعاده بانباته الزروع والأشجار ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها .

وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شئ قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾<sup>(٦)</sup> .

وهذا الماء الذى يحى به الله تعالى ، الأجسام البشرية بعد موتها ، هو ماء الحياة المشتغل على جميع

(١) مسلم - كتاب الفتن وأشرط الساعة : باب : ما بين النفختين ح ٤ ص ٢٢٧١ رقم ١٤٣

(٢) أخرجه أبو داود ( فى كتاب السنة ) باب : فى ذكر البعث والصور ح ٥ ص ١٠٨ رقم ٤٧٤٣

وأخرجه النسائى ( فى الجنائز ) باب : أرواح المؤمنين رقم ٤٠٧٩ وأخرجه مسلم فى الفتن ، والبخارى فى التفسير ٦ - ١٥٨ سورة الزمر وابن ماجه ( فى الزهد ) باب : ذكر القبر والبللى رقم ٤٢٦٦

(٣) سورة نوح الآيات : ١٧ - ١٨

(٤) سورة ق الآيات : ٤٣ - ٤٤

(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٦) سورة الحج من الآية : ٥ - ٦ - ٧

العناصر الوجودية الأربعة ، وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾<sup>(١)</sup> .

فكانت السموات والأرض رتقا أى ، جملة في الماء ، ففتقهما سبحانه أى ، فصل وجودهما الى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه ، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ، ثم فصلهما إلى سبع سماوات وسبع أراضين ، ثم أمطر السقاء وأثبت الأرض .

قال تعالى : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾<sup>(٢)</sup> أى : الماء الذى كانت السموات والأرض رتقا فيه ، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حي ﴿ أفلا يؤمنون ﴾ .

ومما يدل على ذلك ، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد في الآية الكريمة ، الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : قالت : يا رسول الله أنى رأيتك طابت نفسى وقرت عيني ، فأخبرنى عن كل شيء فقال : ( يا أبا هريرة ، كل شيء خلق من ماء )<sup>(٣)</sup> .

وجاء في الصحيحين من حديث الشفاعة ، أن العصاة ( عصاة المؤمنين ، حين يخرجون من جهنم ) يلقون في نهر الحياة فينبتون نبات الحبة من حميل السيل - الحديث<sup>(٤)</sup> .

### « حديث عن الصور »

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين ، هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام ، وتختلف في منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها .

وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن في ضيق أعلاه وسعة أسفله ، فهو ليس كروى الشكل كالأرض ونحوها ، بل قرنى الشكل .

قال الامام الترمذى في سننه ، باب ما جاء في شأن الصور ، ثم أسند إلى عبد الله بن عمر وقال ، ( جاء أعرأى إلى النبى - ﷺ - فقال : ما الصور يا رسول الله ؟ فقال : ﷺ ( قرن ينفخ فيه )<sup>(٥)</sup> .

وعن أنى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال ﷺ ، ( كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن - القرن ، وحنى جبهته ، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى - ﷺ -

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٠

(٣) مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٩٥

(٤) أهذا جزء من حديث طويل في فتح البارى لشرح صحيح البخارى ( في كتاب التوحيد ) باب : قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ح ١٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ رقم ٧٤٣٧

(٥) الحديث في سنن الترمذى ( في كتاب صفة القيامة ) باب : ما جاء في شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

فقالوا ، كيف نفعل أو كيف نقول ؟ فقال - ﷺ ، قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل (١)

وأما صاحب القرن ، أى الصور الذى ينفخ فيه ، فهو إسرافيل عليه السلام ، كما جاء مصرحا به فى جملة الأحاديث .

قال فى الفتح ، اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل - عليه السلام - ونقل فيه الحليمى الإجماع .

فبعد ما يثبت الله تعالى ، هذه الأجسام ، ويجعلها قابلة للروح ، يأمر الملك أن ينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فتتصل كل روح بجسمها ، ولا تخطئه ، فما أشبه ، الإعادة بالبداة .

قال تعالى : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ﴾ (٤)  
هذا هو البعث وكيفيته .

### « ما هو الحشر »

أما الحشر فإنه فى لغة العرب معناه الجمع .

يقول العلماء المراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض قال

تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾ (٥)

قال العلامة الفخر الرازى - رحمه الله تعالى ، أن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفة - أى يوم القيامة

- ويمكن الجمع بينهما بأن نقول ، أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ (٦) أى : مسحت الأرض وجبالها ودق بعضها بعضا .

والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى :

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (٧) أى تصير بعد أن كانت صلبا تصير كالصوف المنلوف .

(١) انظر سنن الترمذى فى ( كتاب صفة القيامة ) باب : ما جاء فى شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ١٠٤

(٣) سورة طه الآية : ٥٥

(٤) سورة نوح الآيتان : ١٧ - ١٨

(٥) سورة الكهف الآية : ٤٧

(٦) سورة الحاقة الآية : ١٤

(٧) سورة القارعة الآية : ٥

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبت في الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ﴾ <sup>(١)</sup> أى فتنت حتى صارت كالدقيق المبسوس أى المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها في الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ ويستلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

والحالة الخامسة : أن تصيرها سرايا ، وهو قوله تعالى : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحي ونغيث وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وهذا المنادى ، هو إسرأفيل - عليه السلام - فإنه ينادى بالأموات عن أمر من الله تعالى ، من مكان قريب من ذاتهم ، وجميع ذواتهم قائلا : يأيها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله تعالى ، يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ <sup>(٥)</sup> أى : يخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر .

﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى : مسرعين إلى الداع ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾

ثم قال سبحانه : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ﴾ <sup>(٦)</sup> وتلك هى النفخة الثانية التى يكون بها الاحياء . ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ من القبور ﴿ إنا نحن نحيى ونغيث ﴾ أى لا شريك لنا فى ذلك ﴿ وإلينا المصير ﴾ مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ .

والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر .

أول من تنشق عنه الأرض :

وأول من تنشق عنه الأرض هو السيد الأكرم ، محمدا - ﷺ - الذى خص بالأوليات فى جميع العوالم .  
روى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( أنا سيد ولد آدم يوم

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥ - ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٥

(٣) سورة النبأ الآية : ٢٠

(٤) سورة ق الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٥) سورة القمر الآيتان : ٦ - ٧

(٦) سورة ق الآية : ٤٢

القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع (١).

وإنما ذكر الرسول - ﷺ - سيادته يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم في كل العوالم ، ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس ، فتظهر فيه سيادته لكل امرئ عيانا فلا إنكار منكر ، فلا ينافي أن سيادته - ﷺ - ثابتة في الدنيا وفي جميع العوالم وأطلق في الوصف بذلك ، أى : بسيادته - ﷺ - ولد آدم لإفادة العموم لأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز ، إذ هو - ﷺ - أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعا ، كما أوضح ذلك المحققون من العلماء .

وعن أنى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، ويبدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من بنى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر ) (٢) أى : هو يقول ذلك - ﷺ - مشكرا ولا فخر بل شكر الله - تعالى - وتحدثا بنعمته وإعلاما للأمة أنه مما يجب تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه - ﷺ .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم انتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين ) رواه الترمذى وقال حسن صحيح (٣).

### « سورة الصفات »

السورة مكية بالاتفاق عدد آياتها مائة وثمانون وآيتان وكلماها ثمانمائة واثنان وستون وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة وست وعشرون .

#### مقصود السورة :

الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوجدانية ، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين في الجنان ، وقهر المجرمين في النيران ، ومعجزة نوح ، وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل في جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب ، وحكاية الناس في حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس في بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين في إثبات النسبة - أى في اعتقاد نسب نبيه سبحانه وبين الجنة والملائكة في قولهم الملائكة بنات الله - ودرجات الملائكة في

(١) أخرجه مسلم في صحيح ( في كتاب الفضائل ) باب : تفضيل نبينا - ﷺ - على جميع الخلائق ص ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٣

(٢) انظر سنن الترمذى : ( كتاب المناقب ) باب : في فضل النبى - ﷺ - ص ٥ ص ٥٨٧ رقم ٣٦١٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث في سنن الترمذى ( في كتاب المناقب ) باب : مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه - ص ٥ ص ٦٢٢ رقم ٣٦٩٢ قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصرة والتأييد ، وتنزيه حضرة الجلال عن الضد والندير في قوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ .

### « المتشابهات »

قوله تعالى : ﴿ أئنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ﴾ . وبعده : ﴿ إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا

لأن الأول : حكاية كلام الكافرين ، وهم ينكرون البعث ، والثاني : قول أحد القرينين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء ، وحصوله فيه : كان لي قرين ينكر الجزاء ، وما نحن فيه ، فهل أنتم تطلعونني عليه ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال : تالله إن كدت لتردين . قيل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين ، وقيل : هما بطروس الكافر ويهوذا المسلم . وقيل : القرين هو إبليس .

قوله : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ وبعده ﴿ فأقبل ﴾ بالفاء . وكذلك في ﴿ ن والقلم ﴾ لأن الأول : لعطف جملة على جملة فحسب ، والثاني : لعطف جملة على جملة بينهما مناسبة والشام ، لأنه حكى أحوال أهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجري في الدنيا بينهم وبين أصدقائهم . وهو قوله : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن يبض مكنون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾

أى : يتذاكرون ، وكذلك في ﴿ ن والقلم ﴾ هو من كلام أصحاب الجنة بصنعاء ، لما رأوها كالصيرم ندموا على ما كان منهم ، وجعلوا يقولون ﴿ سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ بعد أن ذكرهم التسبيح أوسطهم ، ثم قال : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلأمون ﴾ أى : تركهم الاستثناء ومخالفتهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين قوله : ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ لأن في هذه السورة حيل بين الضمير وبين ﴿ كذلك ﴾ بقوله : ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ فأعاده وفي المرسلات متصل بالأول ، وهو قوله : ﴿ ثم نتبعهم الآخريين كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ فلم يحتج إلى إعادة الضمير .

قوله : ﴿ إذا قيل لهم لا إله إلا الله ﴾ وفي القتال ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ بزيادة ( أنه ) وليس لهما في القرآن ثالث ؟ لأن ما في هذه وقع بعد القول فحكى ، وفي القتال وقع بعد العلم فزيد قبله ( أنه ) ليصير مفعول العلم ، ثم يتصل به ما بعده .

قوله : ﴿ وتركنا عليه في الآخرين سلام على نوح في العالمين ﴾ وبعده ﴿ سلام على إبراهيم ﴾ ، ثم ﴿ سلام على آل ياسين ﴾ فيمن جعله لغة في إلياس ولم يقل في قصة لوط ، ولا يونس ، ولا إلياس : سلام ، لأنه لما قال : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين ﴾ ، ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ، وكذلك ، ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ فقد قال : سلام على كل واحد منهم ، لقوله آخر السورة ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ .

قوله : ﴿ وإنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ ، وفي قصة إبراهيم كذلك نجزي المحسنين ﴾ ، ولم يقل : ﴿ إنا ﴾ ، لانه تقدم في قصته ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ وقد بقى من قصته شيء ، وفي سائرهما وقع بعد الفراغ ، ولم يقل في قصتي لوط ويونس : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ ، لانه لما اقتصر من التسليم على ما سبق ذكره اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ بسلام حلیم ﴾ ، وفي الذاريات ﴿ عليم ﴾ وكذلك في الحجر ، لأن التقدير : بسلام حلیم في صباه ، عليم في كبره ، وخصت هذه السورة بحليم ، لأنه - عليه السلام - حلم فائق وأطاع ، وقال : ﴿ يَأْتِ أَفْعَلُ مَا تَوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ ، والأظهر أن الحليم إسماعيل ، والعليم اسحاق ، لقوله : ﴿ فَأَقْبَلْتُ امْرَأَتَهُ فِي صِرَةٍ فَصَكَتَ وَجْهَهَا ﴾ قال مجاهد : الحليم والعليم إسماعيل ، قوله : ﴿ وَأَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ ﴾ . كرر وحذف الضمير من الثاني لأنه لما نزل ﴿ وَأَبْصَرَهُمْ ﴾ قالوا : متى هذا الذي توعدنا به ؟ فأنزل الله ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ ثم كرر تأكيدا . وقيل : الأولى في الدنيا والثانية في العقبى ، والتقدير : أبصر ما ينالهم ، وسوف يبصرون ذلك . وقيل : أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معانيه ، وقيل : أبصر ما ضيعوا من أمرنا فسوف يبصرون ما ﴿ يَحِلُّ بِهِمْ ﴾ ، وحذف الضمير من الثاني اكتفاء بالأول . وقيل : التقدير : ترى اليوم ﴿ غَيْرَهُمْ إِلَى ذَلِّ ﴾ وترى بعد اليوم ما تحتقر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدنيا . وذكر في التشابه : ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ بالفاء ، وفي الذاريات ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ بغير فاء ، لأن ما في هذه السورة (جملة اتصلت) بخمس جمل كلها مبدوءة بالفاء على التوالي وهي : ﴿ فَمَا ظَنُّكُمْ ﴾ الآيات ، والخطاب للأوثان تقريرا لمن زعم أنها تأكل وتشرب ، وفي الذاريات متصل بضمير تقديره : فقره إليهم ، فلم يأكلوا فلما رآهم لا يأكلون ﴿ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ والخطاب للملائكة ، فجاء في كل موضع بما يلائمه .

« وجه المناسبة »

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

( ١ ) إن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة التي أشير إليها إجمالا في السورة السابقة في قوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ .

( ٢ ) إن فيها تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالا في السورة قبلها

( ٣ ) المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها ، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى : على المعاد وإحياء الموتى ، وعكس ذلك بأنه منشئهم وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك ، وهو وحدانيته تعالى ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجابا واعداما إلا إذا كان المرید واحدا ، كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّفَاتِ صَفًا ① فَالزَّجَرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ③ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ④ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ⑤ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ⑥ وَحِفْظًا ⑦ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ⑧ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ⑨ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑩ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ⑪ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ⑫ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ⑬ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ⑭ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ⑮ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ⑯ أَمْ أَذَامِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَمْ نَأْتِي الْمَبْعُوثُونَ ⑰ أَوْءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ⑱ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ⑲ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ⑳ وَقَالُوا يَتَوَلَّىٰ هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ㉑ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ㉒ \* أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ㉓ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ㉔ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ㉕ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ㉖ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ㉗ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ㉘ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ㉙ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ㉚ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ㉛ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ㉜ فَأَغْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ㉝ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ㉞ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ㉟ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ㊱ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوءُ الْهَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ㊲ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ㊳ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ㊴ وَمَا تُحْجِزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ



تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ الصفات ﴾ : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة في الشرف والفضيلة ، وقيل : ﴿ الصفات صفا ﴾ الصف أن يجعل الشيء على خط مستقيم : قال صففت القوم فاصطفوا إذا أقمته على خط مستقيم لأجل الصلاة أو الحرب مثلا .

﴿ الزاجرات زجرا ﴾ : أصل الزجر الدفع عن الشيء بتسلط وصياح ، ثم استعمل في السوق والحث على الشيء ، وفي المنع والنهي ، والمراد هنا : الملائكة ، لأن لهم تأثيرا في قلوب بني آدم بزجرهم عن المعاصي وإلهامهم فعل الخير ، ﴿ والتاليات ذكرا ﴾ : هم الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، ﴿ المشارق ﴾ هي مشارق الشمس بعدد أيام السنة : فهي في كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب ، ﴿ والمغارب ﴾ : كذلك متعددة تعدد المشارق ﴿ الدنيا ﴾ مؤنثة الأدنى ، أى : أقرب السموات من أهل الأرض ﴿ والمارد ﴾ المريد المنعرج من الخير من قوهم : مشجر أمرد : إذا تعرى من الورق ﴿ يستمعون ﴾ : أى يتسمعون .

أى لا يتسمعون مصغين إلى الملائكة الأعلى من الملائكة . ﴿ الملائكة ﴾ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، ﴿ يقذفون ﴾ : يرمون ، ﴿ الدحور ﴾ : الطرد والإبعاد ، ﴿ واصب ﴾ : أى دائم ، ﴿ خطف ﴾ : الخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرة ، ﴿ الشهاب ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، ﴿ الثاقب ﴾ : المضىء أو يثقب ما ينزل عليه . ﴿ فاستفهم ﴾ : أى فاستخبر مشركى مكة من قوهم . استفتى فلانا إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه ﴿ أشد خلقا ﴾ : أى أصعب خلقا وأشق إيجارا ، ﴿ لازب ﴾ : أى ملتصق ببعضه ببعض . ﴿ يسخرون ﴾ : أى يستهزئون ﴿ وإذا ذكروا لا يذكرون ﴾ : أى وإذا وعظوا لا يتعظون ، ﴿ آية ﴾ أى معجزة ، ﴿ يستسخرون ﴾ : أى يبالغون في السخرية والاستهزاء ﴿ وقالوا ياويلنا ﴾ الويل : قال الرجاء : الويل كلمة يقوها القائل وقت الهلكة ، ﴿ الدين ﴾ : الجزء - ﴿ الفصل ﴾ الفرق بين المحسن والمسيء وتميز كل منهما عن الآخر . ﴿ احشروا ﴾ : أى اجمعوا ، ﴿ وأزواجهم ﴾ : أى أمثالهم واشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، وأصحاب الزنا كذلك ﴿ إهدوهم ﴾ : أى دلوهم عليها ، ﴿ الصراط ﴾ : الطريق ، ﴿ الجحيم ﴾ : النار ، ﴿ وقفوهم ﴾ : أى إحبسوهم في الموقف ، مسئولون : أى عن عقائدهم وأعمالهم ، لا تناصرون : أى لا ينصر بعضهم بعضا ، مستسلمون : أى منقادون ، وأصل الاستسلام ، طلب السلامة ويلزمه الانقياد عرفا ، ﴿ عن اليمين ﴾ : أى من جهة الخير وناحيته فتنهونا عنه ، ﴿ من

سلطان ﴿ : أى من قهر وتسلط عليكم ، ﴿ طاغين ﴾ : أى مجاوزين الحد فى العصيان ، فحق علينا :  
أى وجب علينا ، ﴿ فأغويناكم ﴾ أى دعوناكم إلى الفى والضلال ، ﴿ المخلصين ﴾ : هم الذين أخلصهم  
الله لعبادته ، واصطفاهم لدينه وطاعته ، وهم المخلصون الذى أخلصوا لله فى العبادة .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

افتتح سبحانه : هذه السورة بإثبات وجود الخالق ووحدايته ، وعلمه وقدرته ، بذكر خلق السموات  
والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب - وبعد ذلك تحدث عن المنكرين للبعث ثم أثبت الحشر والنشر  
وقيام الساعة ببيان أن من خلق هذه العوالم التى هى أصعب فى الخلق منكم ، فهو قادر على إعادة الحياة  
منكم بالأولى ، كما جاء فى السورة السابقة ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق  
مثلهم ﴾ وجاء فى قوله : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ (١) .

وبعد أن ذكر سبحانه إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه أردف هذا بيان أنهم  
يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم ، ويفتفرون بأنهم كانوا فى ضلال مبين ،  
ويندمون على ما فرطوا فى جنب الله ولات ساعة مندم ، ويتلألمون فيما بينهم حينئذ ، ويتخاصم الأتباع  
والرؤساء ، فيلقى الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا ، إذ كنتم  
قوما ضالين بطبيعة حالكم ، وما ألزمتكم بشيء مما كنتم تعبدون أو تعتقدون ، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا  
لأنفسنا فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم ، ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم فى هذا الدل والهوان ، فبين أنهم قد  
كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد أعرضوا عنها استكبارا ، وقالوا : أنترك دين آبائنا اتباعا لقول شاعر  
مجنون ، ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون ولا هو بالشاعر ، بل جاء بما هو الحق الذى لا محيص عن  
تصديقه ، وهو التوحيد الذى جاء به المرسلون كافة ، ثم بين سبحانه أن لا فائدة من مثل هذا الخصام  
والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصون من  
النعم المقيم .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ والصفات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا إن إلهكم لواحد ، رب السموات  
والأرض وما بينهما ورب المشارق ﴾ .

هذا يقسم به المولى - تبارك وتعالى : وجوابه ﴿ إن إلهكم لواحد ﴾ والله تعالى : أن يقسم بما شاء من

مخلوقاته ، فقد أقسم بالشمس والقمر والليل والنهار والنفس ، كما أقسم بالتين والزيتون وطور سين وهذا البلد الأمين ، كما أقسم بحياة حبيبه محمد - ﷺ - في قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ إلى غير ذلك من أساليب القسم أما العبد فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ومن حلف بغير الله فقد كفر ، وإذا أقسم فعليه أن يكون صادقا لأن اليمين الغموس : أى الفاجرة والكاذبة تغمس صاحبها في النار ، وإذا أقسم ، فإنما يقسم للضرورة هذه مسائل يجب مراعتها في القسم قال تعالى : ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ (١) وقال جل شأنه :

﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حلیم ﴾ (٢)

ولأئمة التفسير فى آيات الصافات أقوال : نذكرها فيما يلى :

قال سفيان الثوري : بسنده عن عبد الله مسعود - رضى الله عنه - أنه قال : ﴿ والصفات صفا ﴾ : هى الملائكة ، ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ : هى الملائكة ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ : هى الملائكة ، وكذا قال ابن عباس - رضى الله عنهما : وغيره ، وقال قتادة : الملائكة صفوف فى السماء ، وقال تعالى : على لسانهم ﴿ وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون ﴾ .

قال مسلم بسنده : عن حذيفة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعل لنا ترابها طهورا إذا لم نجِد الماء ) (٣)

وروى مسلم أيضا عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : ﷺ - ( يتمون الصفوف المتقدمة ، يتراجعون فى الصف ) (٤) .

وقال السدى وغيره : معنى قوله تعالى : ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ انها تزجر السحاب ، وقال الربيع انس : ﴿ فالزاجرات زجرا ﴾ ما زجر الله - تعالى - عنه فى القرآن . ﴿ فالتاليات ذكرا ﴾ : قال السدى : الملائكة يحيون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ فالملقيات ذكرا ، عنذنا أو نلذرا ﴾ : وقوله عز وجل : ﴿ إن ألأهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب

(١) سورة المائدة من الآية ٨٩

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٣) أخرجه مسلم ( فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ) باب : ح ١ ص ٣٧١ رقم ٤

(٤) أخرجه مسلم فى صحيح ( فى كتاب الصلاة ) باب : الأمر بالسكون فى الصلاة - إتمام الصفوف ح ١ ص ٣٢٢ رقم ١١٩ .

المشارك ﴿ : هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴾ وما بينهما ﴿ : أى من المخلوقات ﴾ ورب المشارق ﴿ : أى هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق ، وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن المغرب لدلائلها عليه ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغرب إنا لقادرون .. الآية ﴾ : وقال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعنى فى الشتاء والصيف للشمس والقمر .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال  
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾<sup>(١)</sup> .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(٢)</sup>

لقد أقام القرآن الكريم الأدلة فى الآفاق والأنفس ناطقة بلسان الحال والمقال بأن الله واحد . اقرأ معنى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾<sup>(٣)</sup>

واقرا هذه الآيات البينات من سورة الأنعام : ﴿ إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلکم الله فأنى تؤفكون ، فائق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغیر علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلکم الله ربکم

(١) سورة يونس الآية : ٣٢

(٢) سورة البقرة الآيات : ١٦٣ - ١٦٤

(٣) سورة فصلت الآيات : ٥٣ - ٥٤

لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴿١﴾

واقراً هذه الآيات البينات من سورة النحل :

﴿ أقر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والنخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهارا وسبلا لعلهم يهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ﴿٢﴾

واقراً قوله تعالى من سورة النمل :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أعله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أعله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أعله مع الله قليلاً ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بين يدى رحمته أعله مع الله تعالى الله عما

(١) سورة الأنعام من الآية : ٩٥ - ١٠٤

(٢) سورة النحل الآيات : ١ - ٢٢

يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقهم من السماء والأرض أله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴿١﴾

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	والى علاك عنى الجبين الساجد
ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا . ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها	رهباً وكل الكائنات : توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقر. وتشهد

قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ (٢) يخبر تعالى : انه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب يتمتعون بالنظر إليها ويمتدون بنورها ، قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ (٣) . وقال سبحانه ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ : أى وللحفظ من كل شيطان عات متمرّد ، خارج عن طاعة الله قال قتادة : خلقت النجوم لثلاث : رجوما للشياطين ، ونورا يهتدى بها ، وزينة للسماء الدنيا ، وخص سبحانه : السماء الدنيا بالذكر لأنها هى التى تشاهد بالأبصار وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين : قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ (٤) وقال عز وجل : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مين ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ فالشيطان المتمرد العاقى إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ لا يسمعون إلى الملائكة ﴾

(١) سورة النمل الآيات : ٥٩ - ٦٥

(٢) سورة الصافات الآية : ٦

(٣) سورة ق الآية : ٦

(٤) سورة الملك الآية : ٥

(٥) سورة الحجر الآيات ١٦ - ١٨

الأعلى ﴿ : أى لفلا يصلوا إلى الملاء الأعلى وهى السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحى الله تعالى : مما يقوله من مشرعه وقدره ولهذا قال : ﴿ ويقذفون ﴾ أى يرمون ﴿ من كل جانب ﴾ : أى من كل جهة يقصلون السماء منها ﴿ ذحورا ﴾ : أى رجما يدحرون به ، ويزجرون ويمنعون من الوصول الى ذلك يرمون : ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ : أى فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم مستمر ، كما قال : جلّت عظمته ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ : وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ : أى إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقبها إلى الذى تحته ويلقبها الآخر إلى الذى تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى : قبل أن يأتية الشهاب ، فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن . قال ابن جرير : بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : كان للشياطين مقاعد فى السماء ، قال : فكانوا يستمعون الوحي قال : كانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى ، قال : فإذا سمعوا الوحي نزلوا إلى الأرض ، فزادوا فى الكلمة تسعا ، قال : فلما بعث رسول الله ﷺ - جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده ، فإذا رسول الله ﷺ - قائم يصلى بين جبلى نخلة - قال وكيع : يعنى بطن نخلة قال : فرجعوا إلى إبليس فخبروه ، فقال : هذا الذى حدث . ولقد أخبر الله - سبحانه - عن الجن أنهم قالوا :

﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ، بل عجبنا ويسخرون ، وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون ، أو أباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا ﴾ .

أى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقا هم أم السموات والأرض ، وما بينهما ، فإنهم يقولون أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ، وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما فى قوله - عز وجل - ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وكما فى قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ (٢) ثم بين سبحانه أنهم خلقوا من شىء ضعيف ، فقال سبحانه : ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ : قال الطبرى وصف باللزوب ، لانه تراب مخلوط بماء ، وكذلك خلق آدم من تراب وماء ، ونار وهواء

(١) سورة الجن الآية : ٨ - ٩

(٢) سورة الاحقاف الآية : ٣٣

والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا . والغرض من الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بل عجب ويسخرون ﴾ أى بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى : من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم : من ذلك .

قال قتادة : عجب محمد — ﷺ — وسخر ضلال بنى آدم ، ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أى دلالة على ذلك ﴿ يستسخرون ﴾ ، قال مجاهد وقاتدة : ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أى أن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين ، ﴿ أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ، ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبثكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ﴾ (٣) .

﴿ وقال الذين كفروا أءذا كنا ترابا وءآباؤنا أءنا نخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وءآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ (٤) ﴿ وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا أننا لمبعوثون خلقا جديدا .

﴿ وان تعجب فاعجب قولهم أنذا كنا ترابا أننا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٥) ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ (٦) ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نوت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ (٧) .

قوله تعالى : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أى قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما ، وأنتم داخرون : أى حقيرون كما قال سبحانه : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ ، وقال : ﴿ إن

(١) سورة عبس الآيات : ١٧ - ٢٣

(٢) سورة الطارق الآيات : ٥ - ١٠

(٣) سورة سبأ الآية : ٧

(٤) سورة النمل الآيات : ٦٧ - ٦٨

(٥) سورة الرعد الآية : ٥

(٦) سورة هود الآية : ٧

(٧) سورة الجاثية الآية : ٢٤ - ٢٧



الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴿١﴾ ، ثم قال جلّت عظمته ، ﴿٢﴾ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴿٣﴾ ، أى فإنما هو أمر واحد من الله - عز وجل - يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال سبحانه :

﴿٤﴾ ومن آيته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴿٥﴾ .

وقال : ﴿٦﴾ يقولون أءانلهمردودون فى الحافرة ، أءذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذا كرة خاسرة ، فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴿٧﴾ .

قوله تعالى : ﴿٨﴾ وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، مالكم لا تنصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ﴿٩﴾ .

يخبر تعالى ، عن قول الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ، ﴿١٠﴾ وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ﴿١١﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿١٢﴾ هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴿١٣﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، وبأمر الله سبحانه الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿١٤﴾ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴿١٥﴾ ، قال النعمان بن بشير ، يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال عمر بن الخطاب ، فى قوله تعالى : ﴿١٦﴾ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴿١٧﴾ قال ، أشباههم ، قال ، يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، وهكذا وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبیر : ﴿١٨﴾ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴿١٩﴾ أى من الأصنام والأنداد تحشر معهم فى أماكنهم ، قال تعالى : ﴿٢٠﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ، إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴿٢١﴾ وهنا يقول سبحانه : ﴿٢٢﴾ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴿٢٣﴾ أى أرشدوهم إلى طريق جهنم كما قال :

﴿٢٤﴾ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ماؤاهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴿٢٥﴾ ﴿٢٦﴾ وقفوهم أنهم مسئولون ﴿٢٧﴾ .

أى قفوهم حتى يسئلوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا ، وقال ابن عباس ، يعنى

(١) سورة الروم الآية : ٢٥

(٢) سورة النازعات الآيات : ١٠ - ١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٩٧ - ١٠٠

(٤) سورة الاسراء الآية : ٩٧ - ٩٨

احبسوهم إنهم مخاشبون ، قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ ويقول لهم سبحانه : ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾

قوله تعالى : ﴿ وسبق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولاكن حققت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾<sup>(١)</sup>

ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ ، أى كما زعمتم فى الدنيا ، كنتم تزعمون أنكم تناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر ( نحن جميع منتصر ) وأخر سؤلهم إلى ذلك الحين ، إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقريع حينئذ أشد وقعا ، وأعظم أثرا قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ ثم ذكر سبحانه : أنهم لا ينازعون فى الوقوف ولا فى غيره ، بل يتقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل ، وعجزوا عن الوصول الى السلام من أى طريق يلتمسونها ، فلا فائدة فى المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والخاصمة ﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يؤمئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أنا لنا شركاء إلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾<sup>(٣)</sup> يذكر تعالى : أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة كما يتخاصمون فى دركات النار كما قال تعالى :

﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ ويتخاصمون فى النار ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وقال سبحانه عنهم : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال ابن

(١) سورة الزمر الآية : ٧١

(٢) سورة طه الآية : ١١١

(٣) سورة سبأ من الآية : ٣١ - ٣٢ - ٣٣

عباس : يقولون كنتم تقهروننا بالقدره منكم علينا لأننا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال قتادة : تقول الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين : أى من قبل الخير فتهبونا عنه ، وتبطلونا عنه وقال السدى : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدوننا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به وقال عكرمة : ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال : من حيث نأمنكم ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للأتباع ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكورة للإيمان قابلة للكفر والعصيان ، وما كان لنا عليكم من سلطان ( أى من حجة على حجة ما دعوناكم إليه ، ﴿ بل كنتم قوما طاغين ﴾ ، أى بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءكم به فخالفتموهم ، ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حققت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ﴿ فأغويناكم ﴾ أى دعوناكم إلى الضلالة ، ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ أى فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا أنكم كنتم قوما فاسقين .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلمونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ (١) قال تبارك وتعالى : ﴿ فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون ﴾ : أى الجميع فى النار كل بحسبه كما قال سبحانه : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادار كوافيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فئاتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولاكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فدوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ : أى إن مثل ذلك الجزاء العظيم بالمشركين واستكبارهم وفاقا لما تقتضيه الحكمة ويوجبه العدل ، وهذا العذاب بسبب شركهم واستكبارهم وانكارهم لكلمة التوحيد ، ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ : أى يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ، ويعملوا بمقتضاها ، قال تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملائم منهم أن امشوا واصبروا على آهتكم إن هذا الشيء يراى ما سمعنا بهذا فى الملة

(١) سورة إبراهيم الآية : ٢٢

(٢) سورة الأعراف الآيات : ٣٨ - ٣٩

الآخرة إن هذا اختلاق ﴿١﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ﴿٢﴾ .

ثم ذكر السبب الذى لأجله امتنعوا من استجابة دعوته — ﷺ — ﴿ ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ : أى أنترك عبادة الآلهة التى ورثناها عن آبائنا كبرا عن كابر ، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى ؟ وقد جمعوا فى كلامهم بين إنكار الوحداية ، وإنكار الرسالة ، وإنكار الأولى : فى استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد ، وإنكار الثانية : فى قولهم : ﴿ أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال سبحانه :

﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ : أى أنه — ﷺ — جاء بالحق الذى لا شك فيه ، وهو التوحيد الذى يشبه العقل ويؤيده البرهان ، ويمثله جاء الأنبياء السابقون ، فهو لم يكن بدعا من الرسل ، بل سار على شاكلتهم واتبع نهجهم فكيف يكون من هذا حاله شاعرا أو مجنونا ؟ .

قوله تعالى : ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ : أى إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم الذى لا تنفك أوجاعه عنكم ، وما هو أبدا بمزاييلكم ثم بين العلة فى لحوقه بهم فقال : ﴿ وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أى وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل ، وأسلفتم من معصية وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد أن أبان حال المجرمين ، ذكر حال عباد الله المؤمنين العاملين ، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم فقال تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى لكن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه أولئك لهم الأمن وهم مهتدون أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

### « مع أصحاب الجنة »

قال تعالى :

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي

(١) سورة ص الآيات : ٤ - ٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٤٥

جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٢﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٣﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴿٤٤﴾ بَيَّضَاءَ  
لَّذَّةٍ لِلشَّرِيبِ ﴿٤٥﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٦﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ  
﴿٤٧﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٨﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ  
إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٠﴾ يَقُولُ أَتِنَّكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥١﴾ أَذَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا  
لَمَدِينُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٣﴾ فَأُطِّلَعُوا فَرَأَوْهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٤﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتَ  
لَتُرْدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٦﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبِيتِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا  
الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَدَّيْنَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٩﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٠﴾  
أَذَلِكْ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦١﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي  
أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٣﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٤﴾ فَلْيَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهَا  
بِطُونَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ إِنَّهُمْ  
الْفَوَّاءُ أَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٨﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأُولِينَ  
﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٧١﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٢﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ  
الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٣﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ بكأس ﴾ : أى خمر ، ﴿ من معين ﴾ : أى من نهر ظاهر للعيون جار على وجه الأرض  
﴿ لذة ﴾ : أى ذات لذة ، ﴿ غول ﴾ : أى صداد ، ﴿ ينزفون ﴾ : أى لا تذهب عقولهم بالسكر كما  
ينزف الرجل ماء البئر وينزعه ، ﴿ قاصرات الطرف ﴾ : أى قصرت أبصارهن على أزواجهن لا يمدون طرفا  
إلى غيرهم ، ﴿ عِين ﴾ : واحدته غنياء : أى واسعة العيون فى جمال . ﴿ المكنون ﴾ : المستور الذى  
لا تمسه الأيدي ولا يصاب بالغبار . ﴿ قرين ﴾ : أى خليل وصاحب ﴿ المدينون ﴾ : أى لمحزونون ،

﴿ مطلعون ﴾ : أى مشرفون فناظرون الى أهل النار ، ﴿ سواء الجحيم ﴾ : أى وسط النار للعذاب .  
 ﴿ النزل ﴾ : ما يعد للضيف وغيره من الطعام والشراب ﴿ الزقوم ﴾ : شجرة صغيرة الورق كهيئة  
 الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة فى الآية ، فتنه : أى محنة وعذابا فى الآخرة ، وابتلاء فى الدنيا ،  
 ﴿ أصل الجحيم ﴾ : أى قعر الجحيم ، ﴿ طلعتها ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ رءوس الشياطين ﴾ : أى فى  
 قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح العورة بالملك ﴿ الماء ﴾ : حشو الرعاء بما لا يحتمل الزيادة  
 عليه ، ﴿ الشوب ﴾ : الخلط ، ﴿ الحميم ﴾ : الماء الشديد الحرارة ، ﴿ مرجعهم ﴾ : أى مصيرهم  
 ﴿ ألفوا ﴾ : أى وجدوا ﴿ يهرعون ﴾ : أى يسرعون إسراعا شديدا .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من  
 الهلاك على الآخرين - بين هنا أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجلد ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة  
 جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقيه عباده المخلصين من النعيم المقيم ، واللذات التى قصها علينا فى  
 تلك الآية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ثم بين سبحانه : أنهم لخلو بالهم من  
 المشاغل ، وطيب نفوسهم يسمر بعضهم مع بعض ، ويتحادثون فيما كانوا فيه فى الدنيا مع أخلائهم من  
 شتى الشئون ، مع اختلاف الأهواء ، حتى ليقص بعضهم على بعض إن خليله كاد يوقعه فى الهلاك لولا  
 لطف ربه به ، وقد كان ماله أن صار فى سواء الجحيم ، ثم ذكر نعمة ربه عليه بسبب ما كان يدين به فى  
 الدنيا .

وبعد أن وصف سبحانه : ثواب أهل الجنة ، وذكر ما يتمتعون به من مآكل ، ووصف الجنة ورغب فيها  
 بقوله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ، أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار وما يلاقونه فيها من العذاب  
 اللازم الذى لا يجدون عنه محيصا ، وهو عذاب فى مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم جزاء ما دسّوا به أنفسهم  
 من سئ الأعمال ، وما قللوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان ، من الكفر بالله وعباده الأصنام والأوثان .  
 وذكر سبحانه : بأن كثيرا من الأمم قبلهم ، قد أرسل إليهم الرسل ، فكذبوا بهم ، وكانت عاقبتهم  
 الدمار والهلاك ، ونجى الله عباده المؤمنين المخلصين ، فليكن لك يا محمد فيهم اسوة ، ولا تبخع نفسك  
 عليهم حسرات إن عليك إلا البلاغ .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، يبيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن يبض مكنون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون ﴾ : أى ليسوا ينزفون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها .

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله تعالى : من التضعيف ، وقوله سبحانه : ﴿أولئك لهم رزق معلوم ﴾ قال قتادة : يعنى الجنة ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿فواكه ﴾ : أى متنوعة وهم مكرمون ﴾ : أى يخدمون ويرفهن وينعمون ، ﴿في جنات النعيم على سرر متقابلين ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض ، وقوله تعالى : ﴿يطاف عليهم بكأس من معين ، يبيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ كما قال عز وجل : فى الآية الأخرى ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾<sup>(١)</sup> . نزه الله سبحانه وتعالى :

خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول ، وذهابها بالفعل جملة ، فقال تعالى : ههنا ﴿يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ : أى بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال مالك : عن زيد بن أسلم : خمر جارية يبيضاء : أى لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء من خمرة أو سواد أو اصفرار أو كلورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم ، قال تعالى : ﴿مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى وهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..... الآية ﴾<sup>(٢)</sup> . قوله تعالى : ﴿لذة للشاربين ﴾ : أى طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك ، وقوله تعالى : ﴿لا فيها غول ﴾ : يعنى لا تؤثر فيهم غولا وهو وجع البطن قاله ابن عباس : رضى الله عنهما - وقيل المراد بالغول هنا : صداع الرأس قال قتادة : ووجع البطن ، وقال السدى ، لا تغتال عقولهم : قال ابن كثير : والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن .

وقوله تعالى : ﴿لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم : قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقيء والبول فذكر الله تعالى : خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

(١) سورة الواقعة الآيات : ١٧ - ١٩

(٢) سورة محمد الآية : ١٥

قوله تعالى : ﴿ وَعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ : قاصرات الطرف : أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كما قال سبحانه : ﴿ فهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال تعالى ﴿ حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ <sup>(٢)</sup> : أى لم يطمهن أحد قبل أزواجهن أبكار عرب أتراب . وقوله تبارك وتعالى : ﴿ عين ﴾ : أى حسان الأعين . فوصف سبحانه عيونهن بالحسن والعفة . وقوله جل جلاله : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ : وصفهن بترافه الأبدان بأحسن الألوان ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ : يقول اللؤلؤ المكنون وهذا الوصف جاء فى قوله تعالى : ﴿ وهور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . وقال السدى : البيض فى عشه .

قال ابو القاسم الطبراني : بسنده عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، قالت : قلت : يا رسول الله أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ حور عين ﴾ قال : حور بيض عين ختام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسور .. قلت : أخبرني عن قول الله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ : قال : صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداق الذى لم تمسه الأيدي .. قلت : أخبرني عن قوله : ﴿ فهن خيرات حسان ﴾ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .. قلت : أخبرني عن قوله تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ قال : رقتن كرقعة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشرة وهو الغرقى قلت : يا رسول الله أخبرني عن قوله : ﴿ عوبا أترابا ﴾ قال : هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز ومصا شمتا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محبيات أترابا على ميلاد واحد ، قلت : يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة .. قلت : يا رسول الله وبم ذلك ؟ قال ( بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله - عز وجل - ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقرن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نياس أبدا ، ونحن المقيمات ، فلا نظعن أبدا ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا ) قلت : يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : ( يأثم سلمة إنها تخير ، فتختار أحسنهم خلقا فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه ، يأثم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة ) <sup>(٣)</sup>

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨

(٢) سورة الرحمن الآية : ٧٢ - ٧٣ - ٧٤

(٣) سورة الحديث فى مجمع الزوائد فى تفسير سورة الواقعة ح ٧ ص ١١٩

وقال الهيثمى : رواه الطبراني وفيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى .



وفي حديث الصور الطويل المشهور أن رسول الله ﷺ — يشفع للمؤمنين كلهم في دخول الجنة فيقول الله تعالى : قد شفعتك وأذنت لهم في دخولها وقال رسول الله ﷺ — ( والذي بعثني بالحق ما أنتم في الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشئ الله ) وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله في الدنيا ، يدخل على الأولى : منهما في غرفة من ياقوته على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس واستبرق ، وإنه ليضع يده بين كتفها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها ، كما ينظر أحدكم إلى السلك في قصبة الياقوت كبده لها مرآة يعنى وكيدها له مرآة ، فبينما هو عندها لا يملها ولا تملة ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره ، ولا يشتكى قبلها إلا أنه لا منى ولا منية : فبينما هو كذلك إذ نودي إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أن لك أزواجا غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة ، قالت : والله ما في الجنة شيء أحسن منك ، وما في الجنة شيء أحب إلى منك ) .

وقال الطبراني : بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ — ( إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارا )<sup>(١)</sup> .

وقال أبو داود الطيالسي : بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ — ( يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، قيل : يارسل الله أو يطبق ذلك ، قال : يعطى قوة مائة .. ورواه الترمذى وقال صحيح غريب )<sup>(٢)</sup> .

وقال الحافظ أبو يعلى : بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ — قال : ( إن الحور العين ليغنين في الجنة يقلن نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام )<sup>(٣)</sup> .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — ( أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء إضاءة : لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يثمخطون . أقساطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة — على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا في السماء ، متفق عليه )<sup>(٤)</sup> .

(١) الحديث في المعجم الصغير للطبراني ح ١ ص ٩١ وقال : لم يروه عن عاصم إلا شريك تفرد به يعلى بن عبد الرحمن وانظر في ابن كثير تفسير سورة الواقعة وقال المحقق : أخرجه الطبراني من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعا .

(٢) الحديث في سنن الترمذى ( في كتاب صفة الجنة ) باب : ما جاء في صفة جماع أهل الجنة ج ٤ ص ٦٧٧ رقم ٢٥٣٦ قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة الواقعة آية : رقم ٣٧ وقال المحقق : أخرجه الحافظ أبو يعلى .

(٣) وأخرجه الهيثمي : في مجمع الزوائد في كتاب أهل الجنة ) باب : ما جاء في نساء أهل الجنة من الحور العين وغيرهن ح ١٠ ص ٤١٩ وقال : رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا .

(٤) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأصلها ) باب : أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم رقم ١٨٠٥ وقال المحقق : أخرجه البخاري في ( كتاب الأنبياء باب : خلق آدم .

وفي رواية للبخارى ومسلم : آتيتهم فيها الذهب ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا<sup>(١)</sup>

وعن أبي موسى - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : ( إن للمؤمن في الجنة لحيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا ) متفق عليه<sup>(٢)</sup> .

وعن سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : شهدت من النبي - ﷺ - مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : في آخر حديثه ( فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ) ، ثم قرأ ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾<sup>(٣)</sup> رواه البخارى .

قوله تعالى : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ ، قال قائل منهم إني كان لي قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعدين ، إن هذا هو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ . قوله تعالى : ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : أى عن أحوالهم وكيف كانوا في الدنيا : وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرايبهم واجتماعهم في تناولهم ومعاشرتهم في مجالسهم ، وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويحيثون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال العوفي : عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ قال : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الايمان في الدنيا . ﴿ يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ : يقول المشرك للمؤمن أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء : يعنى يقول : ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ، ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ﴾ قال مجاهد والسدى : محاسبون ، قال تعالى : ﴿ قال هل أنتم مطلعون ﴾ أى مشرفون ، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ، ﴿ فاطلع فرآه في سوء الجحيم ﴾ : فاطلع فرآه في وسط الجحيم .

قال الحسن البصرى : في وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى

(١) جزء من حديث أورد فتح البارى بشرح صحيح البخارى في كتاب بئر الخلق ج ٦ ص ٣١٨ رقم ٣٢٤٥

(٢) انظرو في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب : صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الاهلين رقم ١٨٦٦ قال المحقق : أخرجه البخارى في ( كتاب بئر الخلق ) باب : ما جاء في صفة أهل الجنة وإنها مخلوقة .

(٣) سورة السجدة الآيتان : ١٦ - ١٧

جماجم القوم تغلى ، وذكر لنا كعب الأبحار قال فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر الى عدوه فى النار اطلع فيها ، فازداد شكرا ، ﴿ قال تالله إن كدت لتردين ﴾ : يقول المؤمن مخاطبا للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك ﴿ ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ﴾ : أى ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت محضر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل على ورحمنى ، فهدانى للإيمان ، وأرشدنى الى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ أفما نحن بمبتين . إلا موتنا الأولى وما نحن بمعدين ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغتبطا نفسه بما أعطاه الله تعالى : من الخلد فى الجنة ، والاقامة فى ادار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ إن هذا هو الفوز العظيم ﴾ : وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ أفما نحن بمبتين . إلا موتنا الأولى وما نحن بمعدين ﴾ : قيل لا ، قالوا ﴿ إن هذا هو الفوز العظيم ﴾ . وقوله جل جلاله : ﴿ مثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مثل هذا فليعمل العاملون ﴾ .

قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله — تعالى — معناه : مثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ليصبروا إليه فى الآخرة .

قال العلامة ابن كثير : وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بسنده عن فرات بن ثعلبة النهر انى فى قوله : ﴿ إني كان لى قرين ﴾ قال : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذى له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أراى إلا مفارقتك ومقاسمك فقاسمه وفارقه ، ثم إن الرجل اشترى دارا بألف دينار كانت للملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ؟ اتبعها — أى : اشتريتها — بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإنى أسألك دارا من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ما شاء الله — تعالى — أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاما ، فلما أتاه قال : إني تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار وإنى أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم أنه مكث ما شاء الله — تعالى — أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفى دينار ثم دعاه فأراه فقال : إني ابتعت هذين البستانين بألفى دينار ، فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يارب إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار ، وأنا أسألك بستانين فى الجنة ، فتصدق بألفى دينار .

وفى الرواية الأخرى عند أبى حاتم ... قال : فبقى المؤمن ليس عنده شىء ، قال : فلبس قميصا من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مرا . فجعله على رقبته يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته ، قال : فجاءه رجل فقال : يا عبد الله ، أتأجرنى نفسك مشاهرة شهرا بشهر ، تقوم على ذواب لى تعلقها وتكنس سرقينها ؟

قال : أفعل ، قال : فواجه نفسه مشاهرة شهرا بشهر يقوم على دوابه ، وقال : وكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له : سرقت شعير هذه البارحة ، قال : فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال : لآتين شريكى الكافر فلأعملن فى أرضه فليطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، ويكسوفى هذين الثوبين إذا بليا ، قال : فانطلق يريد فانتهى إلى بابيه وهو ممس ، فإذا قصر مشيد فى السماء ، وإذا حوله البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لى على صاحب هذا القصر ، فإنكم إذا فعلتم سرقة ذلك ، فقالوا له : انطلق - إن كنت صادقا - فتم فى ناحية فإذا أصبحت فتعرض له ، قال : فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام ، فلما أصبح أتى شريكه فتعرض له ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه ، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت ؟ قال : بلى . قال : وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرنى ما صنعت فى مالك ؟ قال لا تسألنى عنه ، قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل فى أرضك هذه فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، وتكسوفى هذين الثوبين إذا بليا ، قال لا ولكن أصنع بك ما هو خيرا من هذا ، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك ، قال : اقرضته ، قال : من ؟ قال : الملىء الوفى ، قال : من ؟ قال : الله رى ، قال : وهو مصافحه فانتزع يده من يده ثم قال : ﴿ أأنك لمن المصدقين أأنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أأننا لمدينون ﴾ .

قال السدى : محاسبون . قال : فانطلق الكافر وتركه ، قال : فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه ، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان ، قال : فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله - تعالى - المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك .

فيقول : سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثناب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك ، فيقول : ( سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثناب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك . فيقول : يا سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثناب بمثل هذا ؟ قال : ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول : ﴿ إنى كان لى قرين يقول أأنك لمن المصدقين أأنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أأننا لمدينون ﴾ قال : فالجنة عالية ، والنار هاوية قال فيه الله - تعالى - شريكه فى وسط الجحيم من بين أهل النار ، فإذا رآه المؤمن عرفه فيقول : ﴿ تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة رى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا هو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ بمثل ما قد من عليه ، قال : فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت ، لذا قال : ﴿ أفما نحن بميتين إلا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا هو الفوز العظيم ﴾ .

اعلم أن من أسمى مراتب الايمان الحب في الله ، والبغض في الله ، فمن أحب الله وأبغض الله ، وأعطى الله ومنع الله ، فقد استكمل الايمان ، واعلم بأن كل صداقة تقوم على معصية الله في الدنيا عداوة يوم القيامة ، قال — تعالى — ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾<sup>(١)</sup> .

الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار .

قال — تعالى — ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال — تعالى — ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ليتني ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾<sup>(٤)</sup>

روى في الصحيح من حديث أنى موسى عن النبي ﷺ ( مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك أما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما تجد ريحا خبيثة )<sup>(٥)</sup>

هذا حديث متفق عليه ، وقوله أن يحذيك .. أى : يعطيك .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذي عن أنى سعيد — أنه سمع النبي ﷺ — يقول : ( لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقي )<sup>(٦)</sup> حديث حسن .

قال أبو سلمان الخطاى في تعليقه على هذا الحديث : هذا إنما جاء في طعام الدعوة دون طعام الحاجة ، وإنما حذر من صحبة من ليس تقي ، وزجر عن مخالطته ، ومؤاكلته ، لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب .

(١) الآية : ٦٧ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات : ٥٥ - ٨٥ من سورة المائدة .

(٣) الآيات : ٢٧ - ٢٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزخرف .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيهما اتفق عليه الشيخان ( كتاب البحر والصلة والآداب ) باب : استحباب مجالسة الصالحين ، وبجانية قرناء السوء ص ٧١١ رقم ١٦٨٧ وأورده أبو داود بمعناه ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ جزءا من حديث .

(٦) سند أنى داود ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( المرء على دين خليله ، فليتنظر أحدهم من يخال )<sup>(١)</sup> .

وقال عمر بن الخطاب : عليكم يا إخوان الصدق ، فإنهم زين في الرخاء ، وعدة عند البلاء . وقال أيضا : ( لا تعترض فيما لا يعينك ، واعتزل عدوك ، واحتفظ من خليلك إلا الأمين ، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء ، ولا تصحب الفاجر ، فليعلمك من فجوره ، ولا تفشي إليه سر ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله عز وجل ) . رواه أبو نعيم في الحلية .

وقال رضي الله عنه : ( جالسوا التوايين ، فإنهم أرق شيء أفدة ) ( أبو نعيم ) ، وقال مالك بن دينار : ( إنك ان تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار ) الخبيص : خلواء تعمل من التمر والسمن ، وقال علقمة بن قيس النخعي — رضي الله عنه : ( اصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة عانك ، وإن قلت سدد مقالك ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن بدت منك ثلثة — عيب — سدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن نزلت بك مهمة — حزن — واساك وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

آداب الأخوة في الله والحب والبعض فيه سبحانه وتعالى

للشيخ أي بكر الرازي والمسلم بحكم إيمانه بالله — تعالى — لا يحب إذا أحب إلا في الله ، ولا يبغض إذا أبغض إلا في الله ، لأنه لا يحب إلا ما يحب الله ورسوله يحب ، ويبغضهما يبغض ، ودليلا في هذا قول الرسول ﷺ : ( من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الإيمان )<sup>(٢)</sup> ( أبو داود ) وبناء على هذا فجميع عباد الله الصالحين يحبهم المسلم ويواليهم ، وجميع عباد الله الفاسقين عن أمر الله ورسوله يبغضهم ويعاديهم ، بيد أن هذا غير مانع للمسلم أن يتخذ إخوانا أصدقاء في الله — تعالى — يخصهم بمزيد محبة ووداد ، إذا رغب الرسول ﷺ — في اتخاذ مثل هؤلاء الإخوان والأصدقاء بقوله : ( المؤمن ألف مألوف ولا خير من لا يألف ولا يؤلف )<sup>(٣)</sup> ( أحمد والحاكم وصحيحه ) .

وقوله : ( ان حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء ) فقالوا : يا رسول الله : صفهم لنا ، فقال : المتحابون في الله ،

(١) انظر سنن أبي داود ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ إلا أنه قال : « الرجل على دين خليله ..... الحديث » .

(٢) الحديث رواه أبو داود في سننه ( في كتاب السنة ) باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ج ٥ ص ٦٠ رقم ٤٦٨١

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند أبي هريرة ) ج ٢ ص ٤٠٠

وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب الإيمان ) باب المؤمن يألف ويؤلف ج ١ ص ٢٣

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولا أعلم له علة ، ولم يخرجاه .. وتعقبه الذهبي فقال : قلت : علة انقطاعه ، فإن أبا حازم هذا هو المدني ، ولا الأشجعي ، ولم يلق أبو صخر الأشجعي ولا المدني لقي أبا هريرة .

والمتجالسون في الله ، والمتزاوون في الله . (النسائي صحيح) <sup>(١)</sup> .

وقوله — ﷺ — ( ان الله — تعالى — يقول : حقت محبتي للذين يتزاوون من أجلي وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي ) ( أحمد والحاكم وصحيحه ) <sup>(٢)</sup> .

وقوله ﷺ : ( سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات حسب وجمال فقال : إني أخاف الله تعالى ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ) ( البخاري ) <sup>(٣)</sup> .

وقوله ﷺ : ( ان رجلا زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا ، فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلانا ، فقال : الحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : فيم ؟ قال أحبه في الله ، قال : فإن الله أرسلني إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه ، وقد أوجب لك الجنة ) <sup>(٤)</sup> .

وشروط هذه الأخوة أن تكون لله وفي الله بحيث تخلو من شوائب الدنيا وعلائقها المادية ، بالكلية ، يكون الباعث عليها الإيمان بالله لا غير .

وأما آدابها فهي أن يكون المتخذ أخا :

١ - عاقلا : لأنه لا خير في أخوة الأحمق وصحبته ، إذ قد يضر الأحمق الجاهل من حيث يريد النفع .

٢ - حسن الخلق : إذ ساء الخلق وإن كان عاقلا فقد تغلبه الشهوة أو يتحكم فيه ، غضب فيسيء إلى صاحبه .

٣ - تقيا : لأن الفاسق خارج عن طاعة ربه لا يؤمن جانبه ، إذ قد يرتكب ضد صاحبه جريمة لا يبالي معها بأخوة أو غيرها ، لأن من لا يخاف الله — تعالى — لا يخاف غيره بحال من الأحوال .

٤ - ملازما للكتاب والسنة بعيدا عن الخرافة والبدعة : إذ المبتدع قد ينال صديقه من شؤم بدعته ، ولأن المبتدع وصاحب الهوى هجرتهما متعينة ، ومقاطعتهما لازمة ، فكيف تمكن خلتها وصدقتها ؟

(١) انظر انخاف السادة المتقين ٦ / ١٧٤ كتاب آداب الأخوة والصحة ( باب فضيلة الأخوة والصحة . وقال الزبيدي : قال العراقي : رواه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات .

(٢) مسند أحمد ( حديث عمر بن عيسى — رضي الله عنه ) ج ٤ ص ٣٨٦ وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب البر والصلة ) باب : لله عباد يغلطهم النيون ..... الخ ج ٤ ص ١٧٠ من رواية عبادة بن الصامت .

(٣) هذا الحديث رواه البخاري ومسلم : انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( كتاب الزكاة ) باب : فضل اخفاء الصدقة ج ١ ص ٢١٦ رقم ٦١٠ من رواية أبي هريرة ورواه الترمذي في سننه في ( كتاب الزهد ) باب : ما جاء في الحب في الله ج ٤ ص ٥٩٨ رقم ٢٣٩١

(٤) انظره في مسلم في ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب الحب في الله ج ٤ ص ١٩٨٨ رقم ٣٨ / ٢٥٦٧ وأحمد ٢ / ٤٦٢ والخطيب ( ١ / ١٢ ، ٣٧٦ ص ١٤ / ٣١ والانخاف ٦ / ١٧٦ .

وقد أوجز هذه الآداب في اختيار الأصحاب أحد الصالحين فقال يوصي ابنه : يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فأصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبتته زانك ، وإن قعدت بك مؤونة عانك ، أصحب من إذا مدد يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها ، أصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . أصحب من إذا قلت صدق قولك ، وإن حاوتما أمرا أمرك ، وإن تنازعتما شيئا أثرك .

### حقوق الأخوة في الله

ومن حقوق هذه الأخوة ما يلي :

١ - المواساة بالمال : فيواسي كل منهما أخاه بماله إن احتاج إليه ، كما روى عن أبي هريرة رضي الله عنه — إذ أتاه رجل فقال : إني أريد أؤاخيك في الله ، قال : أتدري ما حق الإخاء ؟ قال : عرفني ، قال : لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني : قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذهب عني .

٢ - أن يكون كل منهما عوناً لصاحبه : يقضى حاجته ويقدمها على نفسه ، يتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه ، ويؤثر على نفسه ، وأهله وأولاده ، يسأل عنه بعد كل ثلاث ، فإن كان مريضاً عادة ، وإن كان مشغولاً أعانه ، وإن كان نائياً ذكره ، يرحب به إذا دنا ، ويوسع له إذا جلس ، ويضغى إليه إذا حدث .

٣ - أن يكف عنه لسانه إلا بخير — فلا يذكر له عيباً في غيبته أو خبايا نفسه ، وإذا رآه في طريقه لحاجة من حاجات نفسه فلا يفتح ذكراها ، ولا يحاول التعرف إلى مصدرها أو موردها يتلطف في أمره بالمعروف ، أو نهي عن المنكر ، لا يماريه في الكلام ولا يجادله بحق أو بباطل ، لا يعاتبه في شيء ولا يعقب عليه آخر .

٤ - أن يعطيه من لسانه ما يحبه منه ، فيدعوه بأحب أسمائه إليه ، ويذكره بالخير في الغيبة والحضور ، يبلغه ثناء الناس عليه ، مظهرًا اغتباطه بذلك ، وفرحه به ، لا يسترسل في نصحه فيقلقه ، ولا ينصحه أمام الناس فيفضحه ، كما قال الامام الشافعي — رحمه الله — من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه .

٥ - يعفو عن زلاته ، ويتغاضى عن هفواته ، يستر عيوبه ويحسن به ظنونه ، وإن ارتكب معصية سرا أو علانية فلا يقطع مودته ، ولا يهمل أخوته ، بل ينتظر توبته أو أوبته ، فإن أصر فله صرمة وقطعه ، أو الإبقاء على أخوته مع إساءة النصيحة ، ومواصلة المواعظ ، ورجاء أن يتوب ، فيتوب الله عليه . قال أبو الدرداء — رضي الله عنه — إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يموج ويستقيم أخرى .

٦ - أن يفى له في الأخوة فيثبت عليها ويدرع عهدها ، لأن قطعها محبط لأجرها ، وإن مات نقل المودة



إلى أولاده ، من والاه من أصدقائه ، محافظة على الأخوة ووفاء لصاحبها . فقد أكرم رسول الله ﷺ — عجزوا دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : ( إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين )<sup>(١)</sup> ( الحاكم وصحيحه ) .

ومن الوفاء أن لا يصادق عدد صديقه ، إذا قال الشافعي — رحمة الله — إذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشترك في عداوتك .

٧ - أن لا يكلفه ما يشق عليه ، وأن لا يحمله مالا يرتاح معه ، فلا يحاول أن يستمد منه شيئا من جاه ، أو مال ، أو يلزمه بالقيام بأعمال : إذ أصل الأخوة كانت في الله ، فلا ينبغي أن تحول إلى غيره من جلب منافع الدنيا ، أو دفع المضار ، وكما لا يكلفه لا يجعله يتكلف له ، إذ كلاهما فجعل بالأخوة مؤثر فيها ، منقص من أجرها المقصود ، فعليه أن يطوى معه بساط التزمت والتكلف والتحفظ ، إذ بهذه تحصل الوحشة المنافية للألفة .

وآية سقوط الكلفة الموجب للأنس ، والمذهبة للوحشة أن يفعل الأخ في بيت أخيه أربع خصال : أن يأكل في بيته ، ويدخل الخلاء عنده ، ويصلى وينام معه ، فإذا فعل هذه فقد تم الاخاء ، وارتفعت الحشمة الموجبة للوحشة ، ووجد الأنس وتأكد الانبساط .

٨ - أن يدعو له ولأولاده ، ومن يتعلق به بخير ما يدعو به لنفسه وأولاده ومن يتعلق به ، أذ لا فرق بين أحدهما والآخر بحكم الأخوة التي جمعت بينهما ، فيدعو له حيا وميتا وحاضرا وغائبا . قال — عليه الصلاة والسلام : ( إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك فعل ذلك )<sup>(٢)</sup> ( رواه مسلم ) .

وقال أحد الصالحين : أين فعل الأخ الصالح ؟ أن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ، ويتمتعون بما خلف ، والأخ الصالح ينفرد بالحزن ، ومهتما بما قدم أخوه عليه ، وما صار إليه ، يدعو له في ظلمة الليل ، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى .

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم .طلعها كأنه رءوس الشياطين . فانهم لا ياكلون منها فمائلون منها البطون ، ثم إن لهم عليها

(١) ورد في الحاكم حديث في إكرام في ( كتاب البر والصلة ) باب : صلة النبي إلى صدائق خديجة ج ٤ ص ١٧٥ أحدهما مد رواية أنس بن مالك ، ولفظه : أكان النبي — ﷺ — إذا أتى بشيء يقول : أذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت صديقه خديجة . أذهبوا به إلى فلانة فإنها كانت تحب خديجة .

والثاني من رواية عائشة ، ولفظه : ( أن النبي — ﷺ — كان يذبح الشاة فيتبع بها صدائق خديجة بنت خويلد — رضي الله عنها .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الذكر والدعاء .. إلخ ) باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ج ١٧ ص ٤٩ ، ٥٠ فقد أورده بروايتين عن أم الدرداء عن أبي الدرداء : الأولى من طريق طلحة بن عبد الله بن كريب ، ولفظهما : ( ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك بمثل ) وله رواية أخرى بلفظ : ( من دعاء لأخيه بظهر الغيب ... الحديث ) .

والثانية عن طريق صفوان بن عبد الله بن صفوان ، ولفظهما : ( دعوة المرء المسلم لأخيه الغيب مستجاب ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل ) .

لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم إلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون .  
ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المذنبين . إلا عباد  
الله المخلصين ﴿ ١ 〉 .

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ﴾ .

يقول الله تعالى : أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ  
خير ضيافة وعطاء ( أم شجرة الزقوم ) أى التى فى جهنم يأكل منها أهل النار !!! .

وقوله تعالى : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال مجاهد : قال أبو جهل ، لعنه الله : إنما الزقوم التمر  
والزبد أنزقمه ، فأنزل الله — سبحانه — هذه الآية : ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ كقوله — تعالى :  
﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أرىناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا  
كبيرا ﴾ (١) والمراد بالشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم ، فحينما أخبرهم الرسول ﷺ — أنه وأى الجنة والنار  
ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل — عليه لعنة الله : هاتوا لنا تمرا وزبدا ، وجعل يأكل  
من هنا بهذا ويقول : تزقوموا . فلا تعلم الزقوم إلا هذا . حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن  
 وغير واحد .

وقوله تعالى : ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ أى : أصل منبتها فى قرار النار ( طلعتها كأنه  
رؤوس الشياطين ) وكأنه رؤوس الشياطين : تبشيع لها وتكريه لذكرها . وإنما شبهها برؤوس الشياطين — وإن لم  
تكن معروفة عند المخاطبين — لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر . وقوله تعالى : ﴿ فإنهم  
لا ياكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ ذكر — تعالى — أنهم يأكلون من هذه الشجرة منها التى لا أبشع منها  
ولا أقبح منها منظرها مع ما هب عليه من سوء الطعم والريح والطبع فانهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا  
يجدون إلا أياها وما هو فى معناها ، كما فى قوله — تعالى — ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن  
ولا يغنى من جوع ﴾ (٢) .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية  
وقال : ( اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحر الدنيا لأفسدت على أهل الأرض  
معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ) ؟

ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح (٣) .

(١) من الآية : ٦٠ من سورة الاسراء .

(٢) الآيتان : ٦ - ٧ من سورة العاشية .

(٣) انظر سنن الترمذى ( كتاب صفة جهنم ) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٦ ، ٧٧ رقم ٢٥٨٥ إلا أن لفظه : عن  
ابن عباس أن رسول الله ﷺ — قرأ هذه الآية : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تقوتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ قال رسول الله ﷺ : ( لو أن  
قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه !!! ) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله — تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴾ .

قال ابن عباس — رضى الله عنهما — يعنى شرب الحميم على الزقوم .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أمامة الباهلى — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ — أنه كان يقول : ( يقرب — يعنى إلى أهل النار — ماء فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعائه حتى تخرج من دبره )<sup>(١)</sup> وقال بسنده .

عن سعيد بن حبيب ، قال : ( إذا جاع أهل النار استعانوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يطيب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثوا بماء كاللؤلؤ يشوى الوجوه ، وهو الذى قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما فى بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم ، وتتساقط جلودهم ، ثم يضرَبون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله ، يدعون بالشبور .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ مَصَّاعِقٌ لِّالْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم إن مردهم بعد هذا الفصل إلى نار تتأجج ، وجحيم تنوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة فى هذا ، وتارة فى هذا ، كما قال — سبحانه : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آناً ﴾ قال ابن كثير : هكذا تلا فتادة هذه الآية ، وهو تفسير حسن هذه الآيات كقوله — تعالى — فى سورة الدخان : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ ، كَاللَّهُلِ يَغْلَى فِي الْبُطُونِ ، كغلي الحميم ، خلدوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكقوله — تعالى — فى سورة الواقعة : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمَكْذِبُونَ ، لَأَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُومٍ ، فَمَالَتُونَ مِنْهَا الْبُطُونِ ، فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شَرْبَ الْهَمِيمِ . هذا نزلهم يوم الدين ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَقْبَرُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴾ أى : إنما جازيتهم بذلك لأنهم وجلوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال — تعالى : ﴿ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَسْرِعُونَ ﴾ . أى : يسرعون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أُولَئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ

(١) انظر سنن الترمذى ( كتاب صفة جهنم ) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣ قال الترمذى : هذا حديث غريب .

(٢) الآية : ٤٤ من سورة الرحمن .

(٣) الآيات : ٤٣ — ٥٠ من سورة الدخان .

(٤) الآيات : ٥١ — ٥٦ من سورة الواقعة .

(٥) الآية : ٢١ من سورة لقمان .

قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴿١﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جننكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

يخبر — تعالى — عن الأمم الماضية أن أكثرهم ضالون يجعلون مع الله آلهة أخرى ويتبعون في ذلك آباءهم ، ولقد أرسل الله فيهم الرسل منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ، ممن كفر به وعبد غيره ، ولكنهم تمادوا ولجوا في طغيانهم يعمهون ، وكذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

#### قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمَ عَلَى نُوحٍ فِي الْعِلْمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾

#### « تفسير المفردات »

( نادنا ) المراد من النداء : الاستغاثة ( الكرب ) : الغم الشديد .

#### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر — سبحانه — على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السالفة شرع يفصل ذلك ، فذكر نوحا — عليه السلام — وما لقيه من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل من طول مدة لبثه فيهم ، فلما اشتدوا واشتدوا في العناد دعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه ، وأغرق قومه المكذبين ، ونجاه وأهله أجمعين .

(١) الآية : ٧٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٣ - ٢٥ من سورة الزخرف .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ أى دعانا مستغيثا بنا ، لما أشد عليه أذى قومه ، قال تعالى : ﴿ فدعنا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ أى : نحن ، وهنا تتجلى عظمة الخالق — سبحانه وتعالى — فى قوله : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها أية فهل من مدكر ﴾<sup>(٢)</sup> .

قال تعالى : ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ والمقصود بأهله هم المؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿ فأعيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾<sup>(٣)</sup> فى هذا المعنى أقوال : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — يقول : لم تبق إلا ذرية نوح — عليه السلام — وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : الناس كلهم ذرية نوح — عليه السلام .

وقد روى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عن سمرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : ( سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافث أبو الروم )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ قال ابن عباس : المقصود أنه يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم . وقال قتادة والسدى : أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين .

وأما قوله تعالى : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ فإن هذه الجملة جاءت تفسيراً لما قبلها مما قصد به الثناء والحسن ، ولقد دعا إبراهيم ربه فقال : ( واجعل لى لسان صدق فى الآخرين )<sup>(٥)</sup> ولقد استجاب الله له فقال — سبحانه : ﴿ سلام على إبراهيم ﴾<sup>(٦)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ كقوله — جل شأنه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾<sup>(٧)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾<sup>(٨)</sup> وكقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾<sup>(٩)</sup> ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ المصدقين الموقنين الذين ملأ نور الايمان جنبات قلوبهم ، فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقة العمل ، كما أنه تصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، ونطق باللسان ، وهو

(١) سورة القمر الآية : ١٠ .

(٢) الآيات : ١١ - ١٥ من سورة القمر

(٣) الآية : ١١٩ من سورة الشعراء .

(٤) انظر سنن الترمذى ( كتاب تفسير القرآن ) باب : ومن سورة الصافات ج ٥ ص ٣٦٥ رقم ٣٢٣١

(٥) الآية : ٨٤ من سورة الشعراء .

(٦) الآية : ١٠٩ من سورة الصافات .

(٧) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٨) من الآية : ٣٠ من سورة النحل . ومن الآية ١٠ من سورة الزخرف .

(٩) الآية : ٦٠ من سورة الرحمن .

شكر في الرخاء ، وصبر في البلاء ، ورضا بالقضاء .

واضافة العباد إلى ضمير العظمة في قوله تعالى : ﴿ من عبادنا ﴾ إضافة تشريف وتكريم .  
وما زادني شرفاً وقـدرا وكـدت بأـحـمص أطـأ الثـرى  
دخولى تحت قولك يا عبـادى وأن صـيرت أحمـد لى نبيـا

إن العبودية لله عزة ، وأما العبودية لغيره فذل وهوان ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا توكلت فتوكل على الله ، واعلم أن ما كان لفكرك أن تمضغه فلا بد أن تمضغه ، فامضغه بعزة .

قوله تعالى : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أى : أهلكتناهم فلم تبق لهم عين تطرف ، ولا ذكر ، ولا عين ، ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القيحة .

قال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا ألما ﴾ (١) .

#### أضواء كاشفة

( لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ) (٢) .

لما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والعبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تتمه الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدي الغرض منه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ : ابن كثير في كتابه ( قصص الأنبياء ) فلنستمع في خشوع وإنصات وتدبر إلى تلك الدروس الغالية ، عسى الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا .

قال — رحمه الله تعالى — عن نوح عليه السلام :

( هو نوح بن لاحك بن توشلخ بن خنوخ — وهو ادريس — بن يرد بن مهلايل بن قين بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر — عليه السلام وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حيان في صحيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو تعرية ، حدثنا معاذية ابن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعت أبا سلام ، سمعت أبا أمامة : أن رجلا قال : يا رسول الله ءأبنى كان آدم ؟ قال : ( نعم . قال فكم

(١) الآية : ٣٧ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ١١١ من سورة يوسف .

كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون ) .

قلت : وهذا وعلى شرط مسلم ولم يخرججه .

وفي صحيح البخارى عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام .

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة - كما هو المتبادر عند كثير من الناس - فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالاسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون آخر متأخرة لم يكونوا على الاسلام ، لكن حديث أبى أمامه يدل على الحصر فى عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الاسلام .

وهذا يريد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب : أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ <sup>(٤)</sup> وكقوله - عليه الصلاة والسلام : ( خير القرون قرنى .... ) <sup>(٥)</sup> الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يعمره الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين . والله أعلم .

وبالجملة فنوح - عليه السلام - إنما بعثه الله - تعالى - لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس فى الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وكان قومه يقال لهم بنوراسب فكما ذكره ابن خبير وغيره .

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث ، فقيل : كان ابن خمسين سنة ، وقيل : ابن ثلاثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائيه وثمانين سنة : حكاه ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل فيمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، فى غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت ، وأنزل فيه سورة كاملة ، فقال فى سورة الأعراف :

(١) من الآية : ١٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآية : ٣١ من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة الفرقان .

(٤) من الآية : ٩٨ من سورة مريم .

(٥) انظر صحيح مسلم ( كتاب فضائل الصحابة ) باب فضل الصحابة ثم يلونهم ثم الذين يلونهم ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ أرقام

٢١٠ / ٢٥٢٣ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ ، ٢١٢ / ٢٥٣٣ .

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنبرك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتستقوا ولعلكم ترحون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : في سورة يونس :

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامى وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إلى ولا تنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ، فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : في سورة هود :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرىيتم إن كنت على بينة من ربي وعاتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ، قالوا يانوح قد جادلنا فأكثر جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قءء من فلا تبشس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال أركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجلال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع

(١) الآيات : ٥٩ - ٦٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة يونس .



الكافرين ، قال سئوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إني أعوذ بك أن أسئلك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح لهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴿١﴾ .

وقال الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى سورة ( المؤمنون ) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آياتنا الأولى . إن هو إلا رجل به جنة فترصبوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار الثور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى سورة ( الشعراء ) :

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إني لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهـم إلا على رى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٤) .

(١) الآيات : ٢٥ - ٤٩ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٧٦ - ٧٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان : ٢٣ - ٣٠ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٠٥ - ١٢٢ من سورة الشعراء .

وقال تعالى في سورة ( العنكبوت ) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى في سورة ( الصافات ) :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه في الآخرين . سلام على نوح في العالمين . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى في سورة ( القمر ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أني مغلوب فانتصر . ففتحن أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى في سورة ( نوح ) : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إني دعوتهم جهارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلبت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون الله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا . وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبيلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصوني وابعو من لم يزد ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبيرا . وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تدر الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

(١) الآيات : ١٤ - ١٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات : ٧٥ - ٨٢ من سورة الصافات .

(٣) الآيات : ٩ - ١٧ من سورة القمر .

ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لي ولوالدي ولن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴿١﴾ .

وقد تكلمنا عن كل موضع من هذه في التفسير ، ونذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار ، وقد جرى ذكره أيضا في مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه ، وذم من خالفه .  
فقال تعالى في سورة ( النساء ) :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٢) .

وقال تعالى في سورة ( الأنعام ) :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل وإلياس ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ، ومن آباءهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٣) .

وتقدمت قصته في الأعراف ، وقال في سورة ( براءة ) :

﴿ ألم يأتيهم نبي الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٤) .

وقال تعالى في سورة ( إبراهيم ) :

﴿ ألم يأتيكم نبي الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ (٥) .

وقال تعالى في سورة ( الإسراء ) :

(١) سورة نوح — عليه السلام — آية ٢٨

(٢) الآيات : ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء

(٣) الآيات : ٨٣ - ٨٧ من سورة الأنعام .

(٤) الآية : ٧٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٩ من سورة إبراهيم

﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ﴾<sup>(١)</sup> وقال فيها أيضا : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾<sup>(٢)</sup> . وتقدمت قصته في الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت ، وقال في سورة الأحزاب : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال في سورة ( ص ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال في سورة ( غافر ) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم . ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى في سورة ( الشورى ) :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقال - تعالى - في سورة ق :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأبكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقال سبحانه في سورة ( الذاريات ) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾<sup>(٨)</sup> .

وقال سبحانه في سورة ( النجم ) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾<sup>(٩)</sup> .

(٦) الآية : ١٣ من سورة الشورى .

(٧) الآيات : ١٢ - ١٤ من سورة ق .

(٨) الآية : ٤٦ من سورة الذاريات .

(٩) الآية : ٥ من سورة النجم .

(١) الآية : ٣ من سورة الاسراء .

(٢) الآية : ١٧ من سورة الاسراء .

(٣) الآية : ٨ من سورة الأحزاب .

(٤) الآيات : ١٢ - ١٤ من سورة ص .

(٥) الآيتان : ٥ - ٦ من سورة غافر .

وتقدمت قصته في سورة ( اقتربت الساعة ) وقال تعالى في سورة ( الحديد ) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾<sup>(١)</sup>.

قال تعالى في سورة ( التحريم ) :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار من الداخلين ﴾<sup>(٢)</sup>.

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام رواه البخارى .

بداية الشرك :

وذكرنا أن المراد بالقرن : الجيل ، أو المدة على ما سلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور أقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وقالوا لا تدرن آلهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾<sup>(٣)</sup> قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد ابن اسحاق .

وقال ابن جرير في تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين ذكرناهم فظفروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم . وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم ، وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى المطهر قال : ذكروا عند أبى جعفر - هو الباقر - وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل في أرض عُمد فيها غير الله . قال : ذكر ودا رجلا صالحا وكان محببا في قومه ، فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى

(١) الآية : ٢٦ من سورة الحديد .

(٢) الآية : ١٠ من سورة التحريم .

(٣) الآية : ٢٣ من سورة نوح .

إبليس جزعهم عليه تشبه في صورة انسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله . قال : ووضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له في بيته فتذكرونه قالوا : نعم قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناءهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، قال : وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله ودا : الصنم الذي سموه ودا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس .

وقد ذكر أنه لما تناولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسده ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله — عز وجل — ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها في مواضعها من كتابنا التفسير ، والله الحمد والمنة .

وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ — أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التي رأيها بأرض الحبشة يقال لها ( مارية ) فذكرتا من حسناتها وتصاوير فيها ، قال : ( أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شر الخلق عند الله عز وجل )<sup>(١)</sup> .

### أول رسل الله

والمقصود أن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا — عليه السلام — يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، فكان أول رسول بعثه الملك إلى أهل الأرض ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ — في حديث الشفاعة قال : فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، واسكنك الجنة — ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهاني عن الشجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك — عز وجل — فيقول : ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسي نفسي . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها باب : النهي عن بناء المساجد على القبور ج ١ ص ١٦١ رقم ٣٥٥ فقد أورده عن عائشة — رضى الله عنها .

(٢) انظر حديث أبي هريرة في الشفاعة بطوله في اللؤلؤ والمرجان في ( كتاب الايمان ) باب : أوق أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ رقم ١٢٠ .

نوح يدعو إلى التوحيد الخالص ويحذر من عبادة الأصنام

فلما بعث الله نوحا - عليه السلام - دعاهم إلى افراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن لا يعبدون معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا ، وأن يعترفوا بوحديته وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، كما أمر الله - تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته . كما قال - تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال فيه وفي إبراهيم : ﴿ وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : كل نبي من بعد نوح فمن ذريته ، وكذلك إبراهيم ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ واسئلكم من قبلك من رسلنا أجبنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ <sup>(٥)</sup> . ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ <sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ <sup>(٧)</sup> وقال : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ <sup>(٨)</sup> وقال : ﴿ يا قوم اني لكم نذير مبين .. أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا . فلم يزدتهم دعائي إلا فرارا . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا ﴾ <sup>(٩)</sup> الآيات الكريمات .

### استعلاء الكفار

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا منهم وبالغوا في أمرهم ( قال الملائكة من قومه ، أى السادة الكبراء منهم ، أنا لذلك في ضلال مبين قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ) أى : لست كما تزعمون من أني ضال ، بل على الهدى المستقيم ،

(٧) سورة هود الآية : ٢٦

(٨) سورة المؤمنون الآية : ٢٣

(٩) سورة نوح الآيات ٢ - ١٤

(١) سورة الصافات الآية : ٧٧

(٢) سورة الحديد الآية : ٢٦

(٣) سورة النحل الآية : ٣٦

(٤) سورة الزخرف الآية : ٤٥

(٥) سورة الانبياء الآية : ٢٥

(٦) سورة الأعراف الآية : ٥٩

رسول من رب العالمين ، أى : الذى يقول للشيء كن فيكون ( أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ) وهذا شأن الرسول أن يكون بليغاً أى : فصيحاً ناصحاً أعلم الناس بالله — عز وجل — وقالوا له فما قالوا : ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، تعجبوا أن يكون بشراً رسولاً وتتقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم .

وقد قيل : إنهم كانوا من أقتاد الناس وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقل : وهم أتباع الرسل . وما ذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق . وقولهم : ( بادي الرأي ) أى : بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية ، وهذا الذى رموه به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم — فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال الله — ﷻ — مادحا للصديق : ( ما دعوت أحداً إلى الاسلام إلا كانت له كبرة غير أبى بكر ، فإنه لم يتلعم )<sup>(١)</sup> ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضاً سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جليلة عند الصحابة — رضى الله عنهم — ولهذا قال رسول الله — ﷺ — لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ، وقال : يأتى الله والمؤمنون إلا أبى بكر ( رضى الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : ( وما نرى لكم علينا من فضل ) أى : لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا ( بل نظنكم كاذبين ) .

نوح يتابع دعوته برفق ولين .

﴿ قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

وهذا تلطف في الخطاب معهم ، وترفق بهم في الدعوى إلى الحق ، كما قال تعالى : ﴿ فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾<sup>(٣)</sup> . وهذا منه يقول لهم : ﴿ أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ﴾ أى : النبوة والرسالة ( فعميت عليكم ) أى : فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها ( أنلزمكموها ) أى : أنغصبكم بها ونجبركم عليها ( وأنتم لها كارهون ) أى : لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم في دينكم وأخراكم ، وأن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم .

وقوله : ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون ﴾ : كانوا طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم وقال : ( إنهم ملاقوا ربهم )

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٠ .

(٢) الآية : ٤٤ من سورة طه .

(٣) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .



أى : فأخاف إن طردتهم أن يشكوفى إلى الله - عز وجل - ولهذا قال : ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله - ﷺ - أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه فى سورتي الأنعام والكهف ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك ﴾ أى : بل أنا عبد ورسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .

( ولا أقول للذين تردى أعينكم ) يعنى من أتباعه ﴿ لن يؤتيمهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين ﴾ أى : لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كما قالوا فى المواضع الأخرى : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾ (١) .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ (٢) . أى : ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكانوا كلما انقضى جيل وصلوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربه ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه به ومحاربه ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبين أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقى ، وكانت سجايأهم تأتى الإيمان وأتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ (٣) .

العناد القاتل :

ولهذا قالوا : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ أى : إنما يقدر على ذلك الله - عز وجل - فإنه الذى لا يعجزه شيء ، إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون : أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

الشكوى إلى الله :

( وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ) تسلية له عما كان منهم إليه ( فلا تبش بما كانوا يفعلون ) .

(١) الآيات : ١١١ - ١١٥ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ١٤ من سورة العنكبوت .

(٣) من الآية : ٢٧ من سورة نوح .

وهذه تعزية لنوح — عليه السلام — في قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أى : لا يسوءك ما جرى ، فإن النصر قريب ، والنبأ عجيب . ( واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ) وذلك أن نوحا — عليه السلام — لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب ، فلبى الله دعوته أوجب طلبه ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ قال رب إن قومى كاذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجى ومن معى من المؤمنين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ فدع ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ <sup>(٦)</sup> فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم .

#### صنع السفينة :

ودعوة نبيهم عليهم ، فعند ذلك أمره الله تعالى — أن يصنع الفلك ، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ، ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم الجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعهم ، فإن لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولهذا قال : ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ أى يستهزئون استبعادا لوقوع ما توعدهم به ﴿ قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ﴾ أى : نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . ( فسوف تعلقون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ) وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرة . فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول .

#### أمة النبي محمد تشهد يوم القيامة بأن نوحا بلغ الرسالة :

كما قال البخارى : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش عن أنى صالح ، عن أنى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ( يجرى نوح ، عليه السلام — وأمته فيقول الله — عز وجل — هل بلغت ؟

(١) الآيتان ٧٥ - ٧٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ١١٧ - ١٨ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ١٠ من سورة القمر .

(٥) الآية ٢٦ من سورة المؤمنون .

(٦) الآيات ٢٥ - ٢٧ من سورة نوح .

فيقول : نعم أى رب . فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي . فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ <sup>(١)</sup> وهو قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

والوسط : العدل

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبينا الصادق المصدوق أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى حذر قومه المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع ، كما قال البخارى : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله عن يونس ، عن الزهري قال سالم :

وقال ابن عمر - رضى الله عنهما - قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : ( إني لأنذركموه ، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه : لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه ، تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور ) <sup>(٣)</sup>

وهذا الحديث في الصحيحين أيضاً من حديث نبيان عن عبد الرحمن ، عن يحيى ابن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال : ( ألا أحذثكم عن الدجال حديثاً ما حدث به نبي قومه ؟ إنه أعور ، وأنه يحيى معه بمثال الجنة والنار ، والتي يقول عليها الجنة هي النار ، وإني أنذركم كما أنذر به نوح قومه ) لفظ البخارى <sup>(٤)</sup> .

وصف السفينة :

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجراً ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجوه في مائة أخرى ، وقيل : في أربعين سنة . والله أعلم . وقيل : من الصنوبر . وهى نص التوراة . قال النوى : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعاً ، وعرضها خمسين ذراعاً ، وأن يطلّى ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ستمائة ذراع . وقيل : كانت طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعاً ، وكانت ثلاث طبقات ، وكل واحدة عشرة أذرع ، وكان بابها في عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . قال الله تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾ <sup>(٥)</sup> . أى : بأمرنا لك

(١) رواه البخارى فى صحيحه بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) باب : نوح - عليه السلام - ج ٦ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ رقم

١٤ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) : نوح - عليه السلام - ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٢ .

(٤) انظر فى صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٣ .

والحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الفتن وأشراف الساعة ) باب ذكر الرجال وصفته وما معه ص ٨٢٠ رقم ١٨٥٧ .

(٥) الآيتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة المؤمنون .

ويعرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لترشدك إلى الصواب في صنعتك ﴿ فإذا جاء أمرنا وفار التور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾<sup>(١)</sup> . فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أى : أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم ، أى : إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعهم فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد ، كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتور عند الجمهور وجه الأرض ، أى : نبعث الأرض من سائر أرجائها حتى نبعث التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس : التور : عين فى الهند . وعن الشعبي : بالكوفة ، وعن قتادة : بالجزيرة ، وقال على بن أبى طالب : المراد بالتور : فلق الصبح وتنوير الفجر ، أى : إشرافه وصفائه ، أى : عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وهذا قول غريب . وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ . هذا أمر عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يأكل سبعة أزواج ومما لا يأكل زوجين ذكر وأنثى . وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى : فى كتابنا الحق : ﴿ اثنين ﴾ إذ جعلنا ذلك مفعولا به ، وأما إن جعلناه توكيدا للزوجين ، والمفعول به محذوف ، فلا ينافى . والله أعلم .

وذكر بعضهم - ويروى عن ابن عباس - أن أول ما دخل من الطيور ( الدرة ) وآخر ما دخل من الحيوانات ( الحمار ) ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار . وقال ان أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله - ﷺ - قال : ( لما حمل نوح من كل زوجين اثنين قال أصحابه : وكيف تظمنن المواشى ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها ) . هذا مرسل .

وقوله : ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول ﴾ أى : استجيبت فيه الدعوة النافذة ممن كفر . فكان منهم ابنه ( يام ) الذى غرق كما سيأتى نيانه ﴿ ومن آمن ﴾ أى : واحمل فيها من آمن بك من أمتك . قال الله تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا ، بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعد أخرى . قد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم . وعن كعب الأبحار : كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع

(٤) من الآية : ٢٧ من سورة المؤمنون .

بامرأة ( يام ) الذى انخذل وانعزل ، وسلك عن طريق النجاه ، فما عدل إذ عدل .  
 وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هى نص فى أنه قد ركب معه ( من ) غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> . وقيل : كانوا سبعة ، وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم ، وهم حام وسام ويافث ويام ، ويسميه أهل الكتاب ( كنعان ) وهو الذى قد غرق ، وعابر فقد ماتت قبل الطوفان وقيل : لأنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليها القول لكفرها .  
 وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة ، والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 قال الله تعالى :

### « نجاة نوح والمؤمنين »

﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلنى منزلاً مباركا وأنت خير المنزلين ﴾ <sup>(٣)</sup> . أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها ، وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ <sup>(٤)</sup> . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالى لرسوله — ﷺ — حين هاجر : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقد امتثل نوح — عليه السلام — هذه الوصية وقال : ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ﴾ أى على اسم الله ، وذو عقاب أليم مع كونه غفورا رحيم لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى : ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ وذلك أن الله تعالى — أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، كما قال تعالى : ﴿ فدعاه ربه أتى مغلوب فانتصر . ففتحن أبواب السماء جماء منهم . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ <sup>(٦)</sup> .  
 والدسر : المسامير . ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى : بحفظنا وكلاءتنا ، وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جزاء لمن كان

(١) من الآية : ١١٨ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ٢٦ من سورة نوح .

(٣) الآيتان : ٢٨ - ٢٩ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٢ - ١٤ من سورة الزخرف .

(٥) الآية : ٨٠ من سورة الاسراء .

(٦) الآيات : ١٠ - ١٣ من سورة القمر .

كفر ﴿ وقال ابن جرير وغيره : أن الطوفان كان في ثالث عشر من شهر آب في حساب القبط . وقال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ <sup>(١)</sup> . أى السفينة ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعيه ﴾ <sup>(٢)</sup> قال جماعة من المفسرين : ارتفع الماء على أعلى جبل في الأرض خمسة عشر ذراعا ، وعم جميع الأرض طولها والعرض ، سهلها وحرثها وجبالها وقفارها ورمالها ، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير .

قال الامام مالك عن زيد بن أسلم : كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لم تكن بقعة في الأرض إلا ولها مالك وحائز . رواها ابن أبي حاتم . ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

وهذا الابن هو ( يام ) أخو ( سام وحام ويافت ) وقيل : اسمه كنعان ، وكان كافرا عمل عملا غير صالح يخالف أباه في دينه ومذهبه فهلك مع من هلك ، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب لما كانوا موافقين في الدين والمذهب . ﴿ وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ أى : لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد من عبد غير الله — عز وجل — أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تنزل ، أى : تمسك عن المطر . ﴿ وغيض الماء ﴾ أى : نقص عما كان ﴿ وقضى الامر ﴾ أى : وقع بهم الذى كان قد سبق في علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم . ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ أى : نودى عليهم بلسان القدوة : بعدا لهم من الرحمة والمغفرة ، كما قال تعالى : ﴿ فكذبوه فأنجينا والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المندرين ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقال تعالى : ﴿ فأنجينا ومن معه في الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقال تعالى : ﴿ فأنجينا وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ <sup>(٧)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ <sup>(٨)</sup> وقال : ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ <sup>(٩)</sup> فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله

(٨) سورة الشعراء الآية : ٦٦

(٩) سورة القمر الآيات : ١٥ - ١٧

(١) سورة الحاقة الآية : ١١

(٢) سورة الحاقة الآية : ١٢

(٣) سورة الأعراف الآية : ٦٤

(٤) سورة يونس الآية : ٧٣

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٧٧

(٦) سورة الشعراء الآية : ١١٩ - ١٢٢

(٧) سورة العنكبوت الآية : ١٥

أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴿١﴾ .

وقد استجاب الله — تعالى وله الحمد والمنة — دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الامامان أبو جعفر بن جرير ، وأبو محمد بن أبي حاتم في تفسيرهما من طريق يعقوب بن محمد الزهري ، عن قائد — مولى عبد الله بن أبي رافع — أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ ، قال : ( أفلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبي ) قال رسول الله ﷺ — ( مكث نوح — عليه السلام — في قومه ألف سنة ( يعني إلا خمسين عاما ) وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وزهبت كل مذهب ، ثم جعلها سفينة ، وعبرون عليها ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة في البر ؟ كيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار في الشكك خشيت أم الصبي عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبي ، وهذا حديث غريب . وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه هذه القصة . وأخرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار . والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا ، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ، وقال : ابن عناق ، كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ، ويقولون : كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ، ويقولون : كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى ، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه في عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو في السفينة : ما هذه القصيدة التي لك ؟! ويستهزئ به . ويدكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلاثا ، إلى غير ذلك من الهذيات التي لولا أنها مسطرة في كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطها وركاكتها ، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الايمان ، ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ؟! وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبي ولا الصبي ويترك هذا الدعي الجبار الفاخر الشديد الكافر الشيطان المرید على ما ذكروا ؟! .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . وقال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ . ثم هذا الطول الذي ذكره مخالف لما في الصحيح عن النبي — ﷺ — قال : ( إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق يتقص حتى الآن ) (٢) .

(١) الآيات : ٢٥ - ٢٧ من سورة نوح .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب : يدخل الجنة أقوام أفادتهم مثل أفئدة الطير ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ رقم ١٨٠٧ . وانظر صحيح البخاري بشرح الشيخ / زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) آدم عليه السلام ح ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أى : لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك ، وهلم جرا إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزل وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ؟ وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء ، والله أعلم .

مناشدة نوح ربه :

ثم ذكر الله تعالى — مناقشة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ، ووجه السؤال أنك وعدتني بنجاة أهلى معى وهو منهم ، وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أى : الذين وعدت بنجاتهم ، أى : أما قلنا لك : ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القوم منهم ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القوم منهم بأن سيفرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الايمان ففرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

استقرار السفينة :

ثم قال الله : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ . هذا أمر لنوح — عليه السلام — لما نضب الماء على وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى . وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿ بسلام منا وبركات ﴾ . أى : اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد ، أى : من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح — عليه السلام — قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم ( سام وحام ويافث ) .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى — ﷺ — قال : ( سام أبو العرب ، وحام أبو الحبشى ويافث أبو الروم ) .

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أنى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه<sup>(١)</sup> .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله . قال : والمراد

(١) انظر مسند الامام أحمد ( حديث سمرة بن جندب ) ح ٥ ص ٩ ، ص ١١ .



بالروم هنا الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي بن لبطي بن يونان بن يافث بن نوح - عليه السلام - ثم روى من حديث إسماعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : ( ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام العرب ، وفارس والروم . وولد يافث الترك والسقالية ، وبأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر ) قلت : وقد قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانيء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي ، حدثني أبي ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ( ولد نوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث بأجوج ومأجوج والترك والسقالية ولا خير فيهم . وولد لحام القبط والبربر والسودان ) ثم قال لا نعلم يروى مرفوعاً إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلًا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد . قلت : وهذا الذي ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا روى عن وهب بن عقبة مثله . والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوي ضعيف بمرة لا يعتمد عليه<sup>(١)</sup> . وقد قيل : إن نوحا - عليه السلام - لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة ( كنعان ) الذي غرق ، و ( عابر ) مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه في السفينة هم ونسائهم وأمههم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن حاماً واقع امرأته في السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود ، هو كنعان بن حام جد السودان . وقيل : بل رأى أباه نائماً وقد بدت عورته فلم يسترها ، سترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيداً لآخوته .

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق علي بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : ( قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى إلى كتيب من تراب فأخذ كفاً من ذلك التراب بكفه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكتيب بعصاه وقال : قم بأذن الله ، فإذا هو قائم ينفذ التراب من رأسه قد شاب ، فقال له عيسى - عليه السلام - هكذا هلكت ؟ قال : لا ، ولكن مت وأنا شاب ، ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شيت . قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الانس ، وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوصى الله - عز وجل - إلى نوح - عليه السلام - أن اغمر ذنب الفيل ، فغمزه فوق منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، ولما وقع

(١) انظر الزوائد ( كتاب العلم ) بابه : في علم النسب ح ١ ص ١٩٣ وقال الهيثمي : رواه البزار ، وفيه محمد بن يزيد بن سنان الرهاوي ، عن أبيه ، فمن وثقه ابن حبان . وقال أبو حاتم : صدوق . وضعفه يحيى بن معين والبخاري . ويزيد بن سنان : وثقه أبو حاتم ، وقال : محله الصدق . وقال البخاري : مقارب الحديث . وضعفه يحيى وجماعة .

الفأر يخز السفينة بقرضه أوحى الله - عز وجل - إلى نوح - عليه السلام - أن اضرب بين عيني الأسد فخرج من منخره سنور وسنوزة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى : كيف علم نوح - عليه السلام - أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت ، فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت . قال : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله فعاد ترابا ) وهذا أثر غريب جدا .

وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح في السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا في السفينة مائة وخمسين يوما ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها إلى الجودي فاستقرت عليه ، فبعث نوح - عليه السلام - الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأثته بورق الزيتون ولطخن رجلها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودي فاتبنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية ، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح - عليه السلام - يعبر عنهم . وقال قتادة وغيره : ركبوا في السفينة في اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودي شهرا ، وكان خروجهم من السفينة يوم عاشوراء من المحرم .

وقد روى ابن جرير خيرا مرفوعا يوافق هذا وأنها صاموا يومهم ذلك .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدي عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : ( مر النبي ﷺ - بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا الصوم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذي نجا الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي ، فصام نوح وموسى - عليهما السلام - شكرا لله - عز وجل - فقال النبي ﷺ - ( أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم ، وقال لأصحابه : من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه )<sup>(١)</sup> .

وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضا . والله أعلم .

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصبحوها وطحنوا الحبوب يومئذ ، وأكتحلوا بالأمثد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا في ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شيء وإنما يذكر فيه آثار منقطعة عن بن إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقض ويدبر ، وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفي أول يوم من الشهر العاشر رويت رؤوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء ، فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتتظر له ما فعل الماء . فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض ، وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بايذى أهل الكتاب .

وقال ابن إسحاق : وفي الشهر الثانى من سنة اثنين فى ست وعشرين ليلة منه ( قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ) وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له : اخرج من الفلك أنت وامراتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ولينموا وليكثروا فى الأرض ، فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله - عز وجل - وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله - عز وجل - وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق ، قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى : أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة . وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث - يعنون - آدم إلى زماننا هذا . وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسماوات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدا من كفره العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق فى القدر المحتوم .

ذكر شيء من أخبار نوح نفسه عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّه كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ <sup>(١)</sup> . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

وقال الامام أحمد : حدثنا أسامة ، حدثنا زكريا بن أبي زائدة ، عن سعيد بن أبي بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها )<sup>(١)</sup> . وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث أبي أسامة .

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة      يدى ولسانى والضمير المحجب —

### « ذكر صومه عليه السلام »

وقال ابن ماجه ( باب صيام نوح عليه السلام ) : حدثنا سهل بن أبي سهل ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة عن أبي فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : ( صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى )<sup>(٢)</sup> .

وهكذا رواه ابن ماجه عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه .

وقد قال الطبراني : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة عن أبي قتادة ، عن يزيد بن رباح أبي فراس انه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : ( صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى ) وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر )<sup>(٣)</sup> .

### « ذكر حجه عليه السلام »

وقال احافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أنى عند زمعة ( هو ابن أنى صالح ) عن سلمة بن دهران ، عن مكرمه ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله ﷺ — فلما أتى وادى عسفان قال : ( يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : هذا وادى عسفان . قال : لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطهم الليف ، أزهرهم العباء وأرديتهم الثمار ، يحجون البيت العتيق )<sup>(٤)</sup> . فيه غرابه .

(١) انظر مسند الامام أحمد ( مسند أنس بن مالك ) ح ٣ ص ١٠٠ - ١٧ ظ .

(٢) انظره في سنن ابن ماجه في ( كتاب الصيام ) باب : ما جاء في صيام نوح عليه السلام - ج ١ ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ .

في الزوائد : في إسناده ابن لهيعة ، وهو ضعيف .

(٣) روى مسند هذا الحديث ابن ماجه في سننه في ( كتاب الصيام ) باب ما جاء في صيام نوح - عليه السلام - ج ١ ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ إلى قوله : « إلا يوم الفطر ويوم الأضحى » .

ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق في ( ما ذكر من إبراهيم - عليه السلام ) ج ٢ ص ١٥٥ بهامه .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند ابن عباس - رضى الله عنهما ) ج ١ ص ٢٣٢ .

وانظر مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٢٠ .

## « ذكر وصيته لولده عليه السلام »

٣١١ م ٨١ قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن زيد ، عن الصقعب بن زهير ، عن زيد بن أسلم ، قال حماد : أظنه عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله ﷺ - فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس - أو قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس - ورفع كل راع ابن راع ( قال : فأخذ رسول الله ﷺ - بمجامع جبته ، وقال : ( ألا أرى عليك لباس من لا يعقل ! ) ثم قال : ( إن نبي الله نوحا - عليه السلام - لما حضرته الوفاة قال لابنه : إني قاص عليك وصية : آمرك باثنين وأنهاك عن اثنين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمنتهن لا إله إلا الله . وبسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلوات كل شيء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر ) قال : قلت - أو قيل : يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأجدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : ( لا ) قال : هو أن يكون لأجدنا حلة يلبسها ؟ قال : ( لأن قال : هو أن يكون لأجدنا دابة يركبها ؟ قال : ( لا قال : هو أن يكون لأجدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : ( لا قلت - أو قيل : يا رسول الله فما الكبر ؟ قال : ( سفه الحق وغطت الناس )<sup>(١)</sup> . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبراني من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد ابن اسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله ﷺ - قال : ( كان في وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين ) فذكر نحوه .

وقد رواه أبو بكر البزار عن ابراهيم بن سعيد ، عن أنى معاوية الضرير ، عن محمد ابن إسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ - بنحوه . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، كما رواه أحمد والطبراني . والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا - عليه السلام - لما ركب السفينة كان عمره ستائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، وفي هذا القول نظر ، ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض ؟ فإن القرآن يقتضي أن نوحا مكث وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟

فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس - من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة - فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

(١) رواه احمد في مستله ( عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما ) ج ٢ ص ١٧٠ .

وأما قبو - عليه السلام - فروى ابن جرير والأزرقي عن الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلًا ،  
ان قبر نوح - عليه السلام - بالمسجد الحرام .  
وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين من أنه يبلده بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح ،  
وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر ، والله أعلم .

### قصة إبراهيم خليل الرحمن

\* وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۖ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِلْأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا  
تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفِيكَاءَ إِلَهِةَ دُونِ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَنظَرَةً  
فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهِمِ فَقَالَ أَلَا  
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿٩٤﴾  
قَالَ أتعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا آبَاؤُنَا بُنِينَا  
فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ  
رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ  
السَّعْيَ قَالَ يَبْنَىٰ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَأَبَّىٰ أَفْعَلُ  
مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ  
يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكْ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ  
الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾  
كَذَلِكْ نَحْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنْ

الصّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَرَّ كُنَّا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ من شيعته ﴾ أى : ممن سار على دينه ومنهاجه . ﴿ سليم ﴾ أى : سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالخسد والغل وغيرهما من النيات السيئة ، ﴿ وافك ﴾ : الكذب . ﴿ سقيم ﴾ أى : مريض ﴿ فراغ ﴾ أى : فذهب إلى أصنامهم ، وأصل الروغ والروغان : الميل . ﴿ باليمين ﴾ أى : بيده اليمنى . ﴿ يزفون ﴾ أى : يسرعون ، من زف النعام ، أى : أسرع . ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ أى : فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى معه فى أعماله وحاجات المعيشة . ﴿ أسلما ﴾ أى : استسلما وانقادا لأمر الله . ﴿ تله ﴾ أى : كبه على وجهه . ﴿ صدقت الرؤيا ﴾ أى : حققت ما طلب منك . ﴿ البلاء المبين ﴾ أى : الاختبار البين الذى يتميز به المخلص من غيره . ﴿ بدبح ﴾ أى : حيوان يذبح . ﴿ باركنا عليه ﴾ أى : أفضنا عليه البركات .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد ما ذكر - سبحانه - قصة نوح على سبيل إجمالى ، ذكر - سبحانه - قصة إبراهيم ﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ أى : وإن ممن سار على نهج نوح وسار على طريقه فى اعتقاد التوحيد والبعث ، والتقلب فى دين الله ومصابرة الكاذبين - إبراهيم خليل الرحمن - صلوات الله عليه .

ولما أورد عليهم إبراهيم الحجج القوية التى لم يستطيعوا دفعها عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة ، وأوقدوا النيران وقذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأنجاه الله من النار ، وترك بلاد الكفر ، وهاجر من وطنه وطلب من الله الولد ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين . ربي هب لى من الصالحين ﴾ أى : رب هب لى أولادا مطيعين يعينونى على الدعوة ، ويؤنسونى فى الغربة ، ويكونون عوضا من قومي وعشيتى الذين فارقتهم ، فاستجاب ربه دعاءه ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وبعد أن قال - سبحانه : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن المراهقة بقوله : ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن ، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه وإطاعته فى تنفيذ ما أمر به ، وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح ، فأوصى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم ، ثم بشره بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق ، وأنه سيكون من ذريتهما من

هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما : ﴿ وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ يقول : من أصل دينه ، وقال مجاهد : على منهاجه وسنته . فالرسل كلهم رسالتهم .

واحدة ، كما قال - سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ولقد صبروا وأوذوا في سبيل الله ، كما قال - سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأُودُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وروى ابن أبى حاتم مسنده عن عوف ، قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال الحسن : سليم من الشرك .

قال ابن القيم : ( اختلفت عبارات الناس فى بعض القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبرة ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله . فسلم فى محبة الله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكيل عليه ، والانابة إليه ، والذى له ، وإيثار مرضاه فى كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق . وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح إلا الله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة ، وتوكلا ، وإنابة أحب فى الله ، وإن أبغض أبغض فى الله ، وإن أعطى أعطى الله ، وإن منع منع الله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عد رسوله - ﷺ - فيعتقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمان والاقتماد به وحده - دون كل أحد - فى الأموال والأعمال من أقوال القلب ،

(١) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٥١ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .



وهي العقائد ، وأقوال اللسان ، وهي الخير عما في القلب ، وأعمال القلب . وهي الإرادة والهمة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول ﷺ — ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ <sup>(١)</sup> أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر .

قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس ، أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب — سبحانه وتعالى — وانتقاء إليه ؟ .

ومحل هذا السؤال أنه : هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك ؟ والثاني : سؤال عن متابعة الرسول — عليه الصلاة والسلام — في ذلك التعبد ، أى : هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ؟ أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟ .

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله — سبحانه وتعالى — لا يقبل عملا إلا بهما . فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص ، وهوى يعارض الاتباع . فهذه حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ <sup>(٢)</sup> . قوله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أتفكوا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ : أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ إتفكوا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال قتادة : يعنى ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيموه وقد عبدتم معه غيره ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يرفون . قال أتعبدون ما تحتون والله خلقتكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فآلقوه في الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ) . قال ابن كثير : إنما قال إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أرف خروجهم إلى عيد لهم ، فأجب أن يختل بآلهتهم ليكسرهما ، فقال لهم كلاما

(١) سورة الحجرات الآية : ١

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ - ٨٩ .

هو حق في نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه ( فتولوا عنه مدبرين ) قال قتادة :  
والعرب تقول لمن تفكر : نظر في النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يليهم به فقال : ( إني  
سقيم ) أى : ضعيف ، فأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ،  
حدثني هشام ، عن محمد ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ غير ثلاث كذبات : ثنتين  
في ذات الله تعالى قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة : هي اختي  
فهو حديث مخرج في الصحيح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم  
فاعله ، حاشا وكلاهما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجاوزاً ، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد  
شرعى دينى كما جاء في الحديث ( إن في المعارض لمنوحة عن الكذب )<sup>(١)</sup> وقال ابن أبى حاتم : حدثنا  
أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن علي بن زيد بن جدعان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد -  
رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - في كلمات إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - الثلاث  
التي قال : ( ما فيها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى ، ( فقال إني سقيم ) وقال : ( بل فعله كبيرهم  
هذا ) وقال للملك حين أراد امرأته : هي اختي ، قال سفيان في قوله : ( إني سقيم ) يعنى : طعين ،  
وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بأهنتهم ، وكذا قال العوفي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في  
قوله تعالى : ( فنظر نظرة في النجوم . فقال إني سقيم ) فقالوا له وهو في بيت أهنتهم : اخرج ، فقال إني  
مطعون ، فتركوه مخافة الطاعون .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : رأى نجماً طلع فقال : ( إني سقيم ) كابد نبي الله عن دينه ( فقال  
إني سقيم ) وقال آخرون : ( فقال إني سقيم ) أى : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله وقال  
الحسن البصرى : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال : ( إني  
سقيم ) وجعل ينظر في السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى أهنتهم فكسرها . ولهذا قال تعالى : ( فتولوا عنه  
مدبرين ) أى : ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء . ( فقال ألا تأكلون ) وذلك أنهم كانوا قد  
وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً للتبرك لهم فيه .

قال السدى : دخل إبراهيم - عليه السلام - إلى بيت الآلهة ، فإذا هم في بهو عظيم وإذا مستقبل باب  
البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب  
البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاماً ووضعوه بين أيدي الآلهة وقالوا : إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة في  
طعامنا أكلناه ، فلما نظر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - إلى ما بين أيديهم من الطعام قال : ( ألا  
تأكلون - ما لكم لا تنطقون ) .

وقوله تعالى : ( فراغ عليهم ضرباً باليمين ) قال الفراء : معناه : مال عليهم ضرباً باليمين لأنها أشد وأنكى ،  
ولهذا تركهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم في سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

(١) رواه البيهقى في السنن الكبرى ( كتاب الشهادات ) باب : المعارض فيها مفروض عن الكتاب ح ١٠ ص ١٩٩ عن عمران بن حصين ص

تفسير ذلك . وقوله تعالى : ههنا : ( فأقبلوا إليه يرفون ) قال مجاهد وغير واحد : أى يسرعون . وهذه القصة ههنا مختصرة ، وفى سورة الأنبياء مبسطة ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا فعرفوا أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - هو الذى فعل ذلك ، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبتهم فقال : ( أتعبدون ما تحتون ) أى : أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تحتونها وتجعلونها بأيديكم ( والله خلقكم وما تعملون ) : يحتمل أن تكون ( ما ) مصدرية : فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذى ، تقديره : والله خلقكم والذى تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر ، لما رواه البخارى فى ( كتاب أفعال العباد ) عن على بن المدينى ، عن مروان بن معاوية ، عن أبى مالك ، عن ربيع ابن حراش ، عن حذيفة - رضى الله عنه - مرفوعا قال : ( إن الله تعالى ، يصنع كل صانع وصنعتة )<sup>(١)</sup> وقرأ بعضهم ( والله خلقكم وما تعملون ) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذوه باليد والقهر فقالوا : ( ابنوا له بيانا فاقوه فى الجحيم ) وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ونجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدَيْنِ ﴾ . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بسلام حلیم . فلما بلغ معه السعى . قال يا بنى أى أرى فى المنام أى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين . ﴿

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدَيْنِ ﴾ : هذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - عن خليله إبراهيم ، فقد قال هذه الكلمة بعدما بذل الجهد واستضرغ الوسع فى دعوة قومه إلى الله ، وأقام لهم الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، فلم يجد على نارهم هدى ، ولم يسمع لصوته صدى ، ﴿ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّ سَيِّدَيْنِ ﴾ فهو الهادى إلى طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> ثم سأل الله تعالى - الولد الصالح قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ليكون فى ذلك عوض عن قومه الذين قبلوا له ظهر الحجن ، ولبسوا له جلد الثمر ، وناصبوه العدا ، والولد إن لم يكن صالحا لا خير فيه ، لذا قال زكريا لربه : ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾<sup>(٣)</sup> ونعوذ بالله

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٥ - ٢٧٩ من رواية البخارى ، والحاكم ، والبيهقى .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٦ من سورة مريم .

من ولد يكون علينا سيدا ، واستجاب الله دعوة الخليل قال : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل - عليه السلام - فإنه أول ولد بشر به إبراهيم - عليه السلام - وهو أكبر من إسحاق وعمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - تسع وتسعون سنة ، وعندهم : أن الله - تبارك وتعالى - أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيدة ، وفي نسخة أخرى : بكوه ، فأقحموا ههنا كذبا وبهتاناً إسحاق ، ولا يجوز هذا ، لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا ﴿ وحيدك ﴾ بمعنى الذى ليس عندك غيره ، فإنه إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ إنا نبشرك بغلام عليم ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾<sup>(٢)</sup> أى : يولد له في حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله تعالى - قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيراً ، وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ، لأنه مناسب لهذا الختام .

وقوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعى ﴾ أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع أبيه ويمشى معه ، وكان إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يتردد على هاجر وابنها في مكة حيث أسكنهما هناك ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكروا ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إني أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال عبيد بن عمر : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية ﴿ قال يا بنى إني أرى في المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ وإنما أخبر إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل بذلك ليكون فيه عون وتحمل وصبر على قضاء الله ، وليظهر فضل إسماعيل في الطاعة والسمع والتسليم والاذعان لأمر الله ، إذ قال لأبيه : ﴿ يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ ولو أن إسماعيل قال غير ذلك لما ظهر فضله في هذا المقام الذى ترتعد فيه الأوصال وقد تنزل فيه أقدام ، لكنه علم أن قضاء الله لا يقابل بغير التسليم ، وليس له عدة سوى الصبر الجميل ، فامتثل وأذعن ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾<sup>(٤)</sup> وإنما قال إبراهيم لابنه : ﴿ إني أرى في المنام أنى أذبحك ﴾ ولم يقل : إني رأيت في المنام .

(١) من الآية : ٥٣ من سورة الحجر .

(٢) من الآية : ٧١ من سورة هود .

(٣) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية : ٥١ من سورة التوبة .

عبر بالحاضر عن الماضي لاستحضار الصورة كأنها ماثلة أمامه ، وقد يعبر عن المستقبل بالماضي كما في قوله تعالى : ﴿ أُنِىْ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ <sup>(١)</sup> لتحقيق الوقوع ، فوعد الله لا يتخلف أبداً ، ثم قال له : ﴿ سَتَجِدُنِيْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ فعلق الأمر على مشيئة الله ، إذ كل شيء خاشع له وقائم به ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال : ﴿ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ لأن المقام مقام ابتلاء وشدة ، ويناسب ذلك الصبر الجميل . وأسلم .

إبراهيم وإسماعيل أوهما إلى الله ، وألقى إسماعيل على جبينه لينجحه من قفاه ، وشحذ السكين ، وهم بتنفيذ أمر الله ، ولكن السكين لم تؤثر ، فالخليل يريد أن يذبح ، والجليل يريد ألا يذبح : ( عبدى أنت تريد ، وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد ) .

قال الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى : فلما تشهدا وذكر الله تعالى - إبراهيم على الذبح ، والولد شهادة الموت ، وقبل : أسلما : يعنى استسلما وانقادا ، إبراهيم امثل أمر الله تعالى - وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم ، ومعنى ﴿ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ أى : صرعه على وجهه لينجحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد وسعيد بن والضحاك وقتادة : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ اكبه على وجهه .

وقال الامام أحمد : حدثنا شريح ويونس قالاً : حدثنا حماد بن سلمة عن أنى عاصم الفتوى عن أنى الطفيل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : ( لما أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فأسبقه ، فسبقه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ثم ذهب به جبريل . عليه الصلاة والسلام - إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفنى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفنى فيه . فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه : ( أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ) فالتفت إبراهيم فإذا بكيش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن تتبع ذلك الضرب من الكباش <sup>(٢)</sup> وذكر هشام الحديث فى المناسك بطولة .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَقَتِ الرُّؤْيَا ﴾ أى : قد حصل المقصود من رؤياك باضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئاً حال بينها وبينه صنحة من نحاس ، ونودى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عند ذلك : ( قد صدقت الرؤيا ) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكافاة والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ

(١) من الآية الأولى من سورة النحل .

(٢) انظر مسند الامام احمد ( وابن عباس - رضى الله عنهما ) ج ١ ص ٢٩٧ .

على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا <sup>(١)</sup>.

وقد استدلل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافا لطائفة من المعتزلة - والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى - شرع لإبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ أى : الاختبار الواضح الجلى ، حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله تعالى ، منقادا لطاعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ قال سفيان النوى عن علي قال : بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، قال أبو الطفيل : وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : الصخرة التى بمنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء لإسحاق ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذى قرنه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدى به إسماعيل .

وقوله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبح وهو إسماعيل عقب بذكر البشارة بأخيه إسحاق . ( نبيا ) حال مقدرة ، أى سيصير منه نبي صالح . قال تعالى - فى سورة هود : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنينذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامراته قائمة فضحكك فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ <sup>(٣)</sup>.

وقال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . وهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ <sup>(٥)</sup>.

(١) سورة الطلاق الآية : ٢ - ٣

(٢) سورة النجم الآية : ٣٧

(٣) سورة هود الآيات : ٦٩ - ٧٣

(٤) سورة ص الآيات : ٤٥ - ٤٧

(٥) سورة مريم الآيات : ٤٩ - ٥٠

﴿ وبشرناه بإسحاق نيا من الصالحين ﴾ قال ابن عباس : بشر به حين ولد

وقوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ كقوله تعالى :  
﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من معك وأمم ستمتعهم ثم يمسه من عذاب  
اليم ﴾ (١).

ولما كنا بصدد الحديث عن الذبيح ناسب ذلك أن نبين أحكام الأضحية التي ذكرها الفقهاء ، وذلك  
لقوله — ﷺ : ( ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم ) (٢) . ولقوله : ( من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن  
مصلانا ) (٣) .

الأضحية :

تعريفها : الأضحية والضحية : اسم لما يذبح من الابل والبقر والغنم يوم النحر وأيام التشريق تقربا إلى  
الله تعالى .

مشروعيتها : وقد شرع الله الأضحية بقوله — سبحانه :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شئت لك هو الأثر ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾ (٥) . والنحر هنا : هو ذبح  
الأضحية .

وثبت أن النبي — ﷺ — ضحى ، وضحى المسلمون ، وأجمعوا على ذلك .

فصلها : روى الترمذى عن عائشة أن النبي — ﷺ — قال : ( ما عمل آدمى من عمل يوم النحر  
أحب إلى الله من إهراق الدم ، إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله  
بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسا ) (٦) .

(١) الآية : ٤٨ من سورة هود

(٢) رواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الأضاحي ) باب : ثواب الأضحية ج ٢ ص ١٠٤٥ من رواية زيد بن أرقم قال في الزوائد : في إسناده  
أبو داود ، واسمه : نضيع بن الحارث ، وهو متروك ، وانهم يوضح الحديث .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الأضاحي ) باب : الأضاحي واجبة هي أم لا ؟ ج ص ١٠٤٤ رقم ٣١٢٣ من رواية ابى هريرة  
— رضي الله عنه .

في الزوائد : في إسناده عبد الله بن عياش ، وهو — وإن روى له مسلم — فأما أخرجه له في والشواهد وقد ضعفه ابو داود والنسائي . وقال أبو حاتم :  
صدوق . وقال ابن يونس : منكر الحديث . وذكر ابن حبان في الثقات .

(٤) سورة الكوثر .

(٥) من الآية ٣٦ من سورة الحج .

(٦) انظر سنن الترمذى ( كتاب الأضاحي ) باب : ما جاء في فضل الأضحية ج ٤ ص ٨٣ رقم ١٤٩٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن  
غريب ، لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا م هذا الوجه .

**حكمها :** الأضحية سنة مؤكدة ، ويكره تركها مع القدرة عليها لحديث أنس الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ — ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر (١) .

**الأملح :** ما يخالط بياضه سواد . ( أقرنين ) : ماله قرن .  
وروى مسلم عن أم سلمة أن النبي ﷺ — قال : ( إذا رأيتم هلال ذى الحجة وأراد أحدكم أن يضحي فليمسك عن شعره وأظفاره ) (٢) فقله : ﴿ أراد أن يضحي ﴾ . دليل على السنة لا على الوجوب .  
وروى عن أبي بكر وعمر أنهما كانا لا يضحيان عن أهلهما ، مخافة أن يرى ذلك واجبا . متى تجب ؟ : ولا تجب إلا بأحد أمرين :

١ — أن ينذرهما ، لقول الرسول ﷺ — ( من نذر أن يطيع الله فليطعه ) (٣) . وحتى لو مات الناذر فإنه تجوز النيابة فيما عينه بنذره قبل موته .

٢ — أن يقول : هذه لله ، أو هذه أضحية . وعند مالك : إذا اشتراها بنية الأضحية وجبت .  
**حكمتها :** والأضحية شرعها الله إحياء لذكرى إبراهيم ، وتوسعة على الناس يوم العيد ، كما قال الرسول ﷺ — ( إنما هي أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل ) (٤) .

**مم تكون ؟ :** ولا تكون إلا من الإبل والبقر والغنم ، ولا تجزئ من غير هذه الثلاثة بقول الله — سبحانه : ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ (٥) . ويجزئ من الضأن ماله نصف سنة ، ومن المعز ماله سنة ، ومن البقر ماله سنتان ، ومن الإبل ماله خمس سنين ، يستوى في ذلك الذكر والأنثى .  
١ — روى أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : ( نعمت الأضحية الجذع من الضأن ) (٦) . ( الجذع ماله ستة أشهر عند الحنفية ، وماله سنة في الأصح عند الشافعية ) .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحي ) باب : استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل ، والتسمية والتكبير ج ٣ ص ٥١٢ رقم ١٣٨٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الأضاحي ) باب : نهي مريد التضحية أن يأخذ من شعره وأظفاره شيئا ج ١٣ ص ١٣٩ .

(٣) رواه الترمذي في سننه في ( كتاب النور والايان ) باب : من نذر أن يطيع الله فليطعه ح ٤ ص ١٠٤ رقم ١٥٢٦ من رواية السيدة عائشة — رضى الله عنها — رواه ابن ماجة في سننه في ( كتاب الكفارات ) . باب : النذر في المعصية ح ١ ص ٦٨٧ رقم ٢١٢٦ .

(٤) انظر سنن الترمذي ( كتاب الصيام ) باب : في كراهية الصوم في أيام التشريق ح ٣ ص ١٣٤ رقم ٧٧٣ عن عقبة بن عامر . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود في سننه في ( كتاب الصيام ) باب : صيام أيام التشريق ح ٢ ص ٣٢٠ رقم ٢٤١٩ . ورواه النسائي أيضا في سننه في ( كتاب المناسك ) باب : النهي عن صوم يوم عرفة ح ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) من الآية : ٣٤ من سورة الحج .

(٦) الحديث في سنن الترمذي في ( كتاب الأضاحي ) باب : ما جاء في الجذع من الضأن في الأضاحي ح ٤ ص ٨٧ رقم ١٤٩٩ . قال أبو عيسى : حديث أبي هريرة حسن غريب .



٢ - وقال عقبه بن عامر : قلت : يا رسول الله : أصابني جذع قال : ( ضح به )<sup>(١)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

٣ - وروى مسلم عن جابر أن الرسول ﷺ - قال : ( لا يَنْجُوا إِلَّا مَسْنَةً ، فَإِنْ تَعَسَّرَ عَلَيْكُمْ فَادْجُوا جَذْعَةَ مِنَ الضَّأْنِ )<sup>(٢)</sup> . والمسنة : الكيكة ، هي من الإبل مالهأ خمس سنين ، ومن البقر ماله سنتان . ومن المعز ماله سنة ، ومن الضأن ماله سنة أو ستة أشهر ، على الخلاف المذكور من الأئمة . وتسمى المسنة بالثنية .

### الأضحية بالخصي :

ولا بأس بالأضحية بالخصي . روى أحمد عن أنى رافع قال : ضحى رسول الله - ﷺ - بكبشين أملحين موجوءين خصيين<sup>(٣)</sup> ولأن لحمه أطيب وألذ . مالا يجوز أن يضحي به : ومن شروط الأضحية السلامة من العيوب ، فلا تجوز الأضحية بالمعيبة مثل :

١ - المريضة البين مرضها

٢ - العوراء البين عورها .

٣ - العرجاء البين ظلعهما .

٤ - العجفاء التي لا تنقى .

٥ - العضباء التي ذهب أكثر أذنها أو قرننها .

ويلحق بهذه الهتاء ، والعصماء ، والعمياء ، والقولاء والجرباء التي كثر جربها . ( العجفاء : التي ذهب نخها من شدة الهزال ، الهتاء : هي التي ذهب ثناياها من أصلها ، العصماء : ما انكسر غلاف قرننها ، التولاء : التي تلور في المرعى ولا ترعى ) .

يقول الرسول ﷺ - ( أربعة لا تجزئ في الأضاحي : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ظلعهما ، والعجفاء التي لا تنقى )<sup>(٤)</sup> رواه الترمذي : وقال : حسن صحيح .

ولا بأس بالعجماء ، والتبرء ، والحامل ، وما خلق بغير أذن ، أو ذهب نصف أذنه ، أو أليته . والأصح عند الشافعية : لا تجزئ مقطوعة الألية والضرع لفوات جزء مأكول ، وكذا مقطوعة الذنب .

قال الشافعي : لا تحفظ عن النبي - ﷺ - في الأسنان شيئا .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحي ) ح ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨٣ وانظر سنن الترمذي ح ٤ ص ٨٨ رقم ١٥٠٠ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ح ١٣ ص ١١٩ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الأضاحي ) باب : سن الأضحية ح ١٣ ص ١١٧ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ( حديث أنى رافع ) ح ٦ ص ٨ إلا أنه قال : ( موجبين ) مكان ( موجوءين ) ولعل ما في أحمد خطأ مطبعيا .

(٤) انظر سنن الترمذي ( كتاب الأضاحي ) باب : مالا يجوز من الأضاحي ح ٤ ص ٨٦ . رقم ١٤٩٧ فقد رواه عن البراء بن عازب مرفوعا . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

## وقت الذبح :

ويشترط في الأضحية ألا تذبح إلا بعد طلوع الشمس من يوم العيد ويمر من الوقت قدر ما يصلي العيد ، ويصح ذبحها بعد ذلك في أى يوم من الأيام الثلاثة في ليل أو نهار ، ويخرج الوقت بإقتضاء هذه الأيام .

فعن البراء — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : ( إن أول ما نبأ به في يومنا هذا أن نصلي ثم نرجع فننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك في شيء )<sup>(١)</sup> .

وقال أبو برد : خطبنا رسول الله — ﷺ — يوم النحر فقال : ( من صلى صلاتنا ، ووجه قبلتنا ، ونسك نسكنا ، فلا يذبح حتى يصلي )<sup>(٢)</sup> روى الشيخان عن الرسول — ﷺ — ( ومن ذبح بعد الصلاة والخطبتين فقد أتم نسكه وأصاب سنة المسلمين )<sup>(٣)</sup> .

## كفاية أضحية واحدة عن البيت الواحد :

إذا ضحى الانسان بشاة من الضأن أو المعز أجزأت عنه وعن أهل بيته ، فقد كان الرجل من الصحابة — رضى الله عنهم — يضحى بالشاة عن نفسه وعن أهل بيته فهي سنة كفاية .

روى ابن ماجه والترمذى وصححه أن أبا أيوب قال : ( كان الرجل في عهد رسول الله — ﷺ — — يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى )<sup>(٤)</sup> .

## جواز المشاركة في الأضحية :

تجوز في الأضحية إذا كانت من الابل أو البقر ، وتجزئ البقرة أو الحمل عن سبعة أشخاص إذا كانوا قاصدين الأضحية والتقرب إلى الله ، فعن جابر قال : ( نحرننا مع النبي — ﷺ — بالحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة )<sup>(٥)</sup> رواه مسلم وابو داود والترمذى .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الأضاحي ) باب : وقت الأضاحي ح ١٣ ص ١١٤ .  
(٢) الحديث رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي في ( كتاب الأضاحي ) باب : وقت الأضاحي ح ١٣ ص ١١٤ من حديث البراء بن عازب — رضى الله عنه .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨١ فقلوه عن البراء بن عازب ، مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(٤) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب الأضاحي ) باب : من ضحى بشاة عن أهله ح ص ١٠٥١ رقم ٣١٤٧ رواه الترمذى في سننه في ( كتاب الأضاحي ) باب : ما جاء أن الشاه الواحدة تجزئ عن أهل البيت ح ٤ ص ٩١ رقم ١٥٠٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .  
(٥) رواه مسلم في صحيحه في ( كتاب الحج ) باب أجزاء البداية والبقرة عن سبعة ح ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ ( صحيح مسلم بشرح النووي — طبع المطبعة المصرية ) .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الأضاحي ) باب : عن كم تجزئ البدنة والبقرة ح ٢ ص ١٠٤٧ رقم ٣١٣٢ رواه الترمذى في سننه في ( كتاب الأضاحي ) باب : ما جاء في الاشتراك في الأضحية ح ٤ ص ٨٩ رقم ١٥٠٢ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

## توزيع لحم الأضحية :

يسن للمضحى ان يأكل من أضحيته ويهدي الأقارب ويتصدق منها على الفقراء ، قال رسول الله ﷺ — ( كلوا وأطعموا وادخروا )<sup>(١)</sup> .

وقد قال العلماء : الأفضل أن يأكل الثلث ويتصدق بالثلث ويدخر الثلث . ويجوز نقلها ولو إلى بلد آخر ولا يجوز بيعها ولا بيع جلدتها .

( ولا يعطى الجزار من لحمها شيئا كأجر ، وله أن يكافئه نظير عمله ) وإنما يتصدق به المضحي أو يتخذ منه ما ينتفع به . وعند أى حنيفة أنه يجوز بيع جلدتها ويتصدق بثمنه وأن يشتري بعينه ما ينتفع به فى البيت .

## المضحى يذبح بنفسه :

يسن لمن يحسن الذبح أن يذبح أضحيته بيده ويقول : بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عن فلان — ويسمى نفسه — فإن رسول الله ﷺ — ذبح كبشاً وقال : ( بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عنى وعن من لم يضح من أمتى )<sup>(٢)</sup> رواه أبو داود والترمذى .

فإن كان لا يحسن الذبح فليشده ويحضره ، فإن النبى — ﷺ — قال لفاطمة : ( يا فاطمة قومى فاشهدى أضحيتك ، فإنه يغفر لك عند أول قطرة من دمها كل ذنب عملته ، وقولى : ( أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ) .

وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين — فقال أحد الصحابة : يارسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة ؟ أو للمسلمين عامة ؟ قال رسول الله ﷺ : بل للمسلمين عامة<sup>(٣)</sup> ( من كتاب فقه السنة الجزء ١٣ ) .

## العقيقة

( من رسالة : العقيقة سنة لن تموت ، إبراهيم بن محمد )

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الأضاحى ) باب : ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث فى أول الاسلام وبيان نسخة وإباحته إلى من شاء ح ٣ ص ٥١٥ ، ٤١٦ رقم ١٢٩٠ وهو جزء حديث رواه مسلمة بن الأكوع — رضى الله عنه — رواه الترمذى فى ( كتاب الأضاحى ) باب : ما جاء فى الرخصة فى أكلها بعد ثلاث ح ٤ ص ٩٤ ، ٩٥ رقم ١٥١٠ من طريق سليمان بن بريدة عن أبيه . وقال ابو عيسى : حديث بريدة حديث حسن صحيح .

وروى ابن ماجه نحوه من حديثه نبیشه : انظر ( كتاب الأضاحى ) باب : ادخار لحوم الأضاحى ح ٢ ص ١٠٥٥ رقم ٣١٦٠

(٢) انظر سنن أبى داود ( كتاب الأضاحى ) باب : فى الشاة يضحي بها عن جماعة ح ٣ ص ٩٩ رقم ٢٨١٠ فقد رواه عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه .

وانظر سنن الترمذى ( كتاب الأضاحى ) باب : العقيقة بشاه ح ٤ ص ١٠٠ رقم ١٥٢١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث رواه البيهقى فى السنن الكبرى فى ( كتاب الضحايا ) باب : ما يستحب للمرا ان يتولى ذبح نسكه أو يشهده ح ٩ ص ٢٨٣ من رواية عمران بن حصين .

وانظر مجمع الزوائد ( كتاب الأضاحى ) باب : فضل الأضحية وشهده ذبحها ح ٤ ص ١٧ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير والوسط ، وفيه ابو حمزة الشمالى ، وهو ضعيف .

العقيقة لغة : قال الامام أحمد : العق : معناه القطع ، ومنه : عق والديه إذا قطعهما .  
والعقيقة فقها : عق عن ولده يعق عقا ، إذا ذبح يوم أسبوعه ، أى : عن المولود .

### الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في العقيقة

- ١ - عن سلمان بن عامر الضبي قال : قال رسول الله ﷺ - ( مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دما ، وأميطوا عنه الأذى )<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .
  - ٢ - عن سمة قال : قال رسول الله ﷺ - ( كل غلام رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم سابعه ، ويسمى فيه ويحلق رأسه )<sup>(٢)</sup> . رواه أصحاب السنن كلهم وقال الترمذى : حسن صحيح .
  - ٣ - عن عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ - ( عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة )<sup>(٣)</sup> . وفى لفظ : أمرنا رسول الله ﷺ - أن نعق : عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان .. رواه أحمد فى مسنده .
  - ٤ - وعن أم كرز الكعبية : أنها سألت رسول الله ﷺ - عن العقيقة ؟ قال : ( عن الغلام شاتان ، وعن الأنثى واحدة ، ولا يضركم ذكرانا أو إناثا ) أى : ( الذبائح )<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه .
  - ٥ - عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ - عق عن الحسن والحسين كبشا كبشا<sup>(٥)</sup> .
  - ٦ - أمر رسول الله ﷺ - لفاطمة - رضی الله عنها - حين عقت عن الحسن والحسين : أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما .
- الحكمة من العقيقة :**

١ - سنة ، والعمل بالنسبة من أفضل القربان إلى الله .

- (١) الحديث فى صحيح البخارى بحاشية السندى طبع المطبعة العثمانية المصرية فى ( كتاب العقيقة ) باب : إحاطة الأذى عن الصبي فى العقيقة ج ٣ ص ٢٠١ .
- وانظر سنن أبى داود ج ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٩ وسنن الترمذى ج ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٥ وابن ماجه ج ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٤
- (٢) الحديث رواه ابو داود فى سننه فى ( كتاب العقيقة ) ج ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٨ وانظر سنن الترمذى ( باب من العقيقة ) ج ٤ ص ١٠١ رقم ١٥٢٢ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
- ورواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الناحج ) باب العقيقة ج ٢ ص ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ رقم ٣١٦٥ والنسائى فى سننه فى ( كتاب العقيقة ) باب : متى يعق ؟ ج ٧ ص ١٦٦ .
- (٣) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ رقم ١٥١٣ وسنن أبى داود ج ٣ ص ١٠٥ رقم ٢٨٣٤ وسنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٣ واللفظ له : مع تقديم وتأخير .
- (٤) سنن الترمذى ج ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٦ وسنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٢ إلى قوله : ( وعن الجارية شاة ) وفى سنن أبى داود ج ٣ ص ١٠٥ رقم ١٨٣٥ وسنن النسائى ج ٧ ص ١٦٥ .
- (٥) سنن أبى داود ج ٧ ص ١٠٧ رقم ٢٨٤١ والنسائى ج ٧ ص ١٦٦ الا أنه قال : بكشين كبشين .

- ٢ - لأنها سبب تجدد النعمة من الله على الوالدين ، وإظهار للفرح والسرور بخروج نسمة مؤمنة يكثر بها رسول الله ﷺ - الأُم يوم القيامة .
- ٣ - وفيها سر بديع موروث عن فداء إسماعيل - عليه السلام - بالكبش الذي ذبح عنه وفداه الله به ، فصارت سنة في أولاده بعده بأن يفدى أحدهم عند ولادته بذبح يذبح عنه ، ولا يستكر أن يكون هذا حرزا له من الشيطان بعد ولادته ، وأسرار الشرع أعظم من ذلك .
- ٤ - فدية يفدى بها المولود من المصائب والآفات .
- ٥ - فكاك لرهان المولود في الشفاعة لوالديه .
- ٦ - جعل الله - سبحانه - اليوم السابع من الأسبوع عيداً لهم يجتمعون فيه مظهرين شكره وذكره .
- ٧ - تقوية لروابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع ، لاجتماعهم على موائد الطعام ابتهاجا بقدم المولود الجديد .

### الأحكام العامة التي تتعلق بالعقيقة

- ١ - قال أبو عبد الله : عدم كسر عظم الذبيحة سواء حين الذبح أو عند الأكل ولكن يقطع كل عظم من مفصله ، فلا تكسر العظام لقول رسول الله ﷺ - في العقيقة التي عقتها فاطمة عن الحسن والحسين : ( أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل ، وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما ) رواه الامام أبو داود ( في كتاب الراسيل ) عن جعفر بن محمد عن أبيه ( والحكمة من ذلك : إظهار شرف الطعام ، وهو من الجود . وتفاؤلا بسلامة أعضاء المولود وصحتها . ولكن قال ابن شهاب : لا بأس بكسر عظامها ، فقد جرت العادة بذلك لما في ذلك من مصلحة أكله وتمام الانتفاع به .
- ٢ - قال ابن المنذر والامام الشافعي : العقيقة سنة واجبة . ويتقى فيها من العيوب ما يتقى من الضحايا ، ولا يباع إهابها ولا يكسر عظامها ويأكل أهلها منها ويتصدقون ، ولا يمس الصبي بشيء من دمه .
- ٣ - يأكل أهلها منها ويتصدقون ويهدى ولا يباع منها ولا جلدها ولا رأسها ولا سقطها ، وهذا قول الامام أحمد .. وكره الحسن أن يعطى جلدها في أجرة الجازر أو الطباخ .
- ٤ - لا يمس الصبي شيء من دمه .
- ٥ - التسمية عند الذبح : ( بسم الله ، لك وإليك ، هذه عقيقة فلان ) قل ابن المنذر : وهذا حسن ، وإن نوى العقيقة ولم يتكلم به أجزأه إن شاء الله .
- ٦ - يستحب طبخها دون إخراج لحمها نيا . قال بذلك الخلال في جامعة ، وأبو عبد الله ، وهو زيادة في إحسان وفي شكر النعمة وتمتع المساكين بها هنيئة مكفية المؤنة .
- وعند الشافعية : يستحب طبخ لحمها والتصدق به وبمرقها على المساكين بالبعث إليهم أفضل من الدعاء

إليها، ولو دعا إليها قوما جاز ، ولو فرق بعضها ودعا ناسا إلى بعضها جاز ، ويستحب أن يأكل منها ويتصدق ويهدي كما في الأضحية ..

٧ - والسنة : هي العق بالغنم دون غيو .. وهو قول جماعة ، منهم عائشة - رضى الله عنها - والإمام مالك .

٨ - يسن لمن يأكل منها أن يدعو بهذا الدعاء : ( اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك لهم فيما رزقتهم ) .

٩ - ( شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويمنعها الفقراء )<sup>(١)</sup> . ( رواه البخارى ومسلم ) .

مسألة : هل التصديق بثمن العقيقة أفضل ولو بالزيادة ؟

قال أبو عبد الله : العقيقة أفضل - وكذا قال الإمام الشافعى : إن ، إراقة الدم وتنفيذ السنة مقصودة ، فإنها عبادة مقرونة بالصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال سبحانه : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾<sup>(٣)</sup> . ففى كل ملة صلاة ونسيكة لا يقوم غيرها مقامها .

مسألة : هل يحق الاستقراض لها ؟

قال صالح لأبيه عبد الله : الرجل يولد وليس عنده ما يعق : أحب إليك أن يستقرض ويعق عنه ؟ أم يؤخر ذلك حتى يوسر ؟ قال : أشد ما سمعنا فى العقيقة حديث الحسن عن سمرة عن النبى - ﷺ - ( كل غلام رهينة بعقيقة )<sup>(٤)</sup> . وإنى لأرجو أن استقرض أن يعجل الله الخلف ، لأنه أحيا سنة وابتع ما جاء عنه - ﷺ - ( تحفة المودود لابن قيم الجوزية ) .

مسألة : فى حكم اجتماع العقيقة والأضحية :

سئل الإمام أحمد ، فقال : لا أدرى . ثم قال : ( غير واحد يقول به ) أى : جواز أن يضحى مكان العقيقة .

وقال فى موضع آخر : أرجو أن تجزىء الضحية عن العقيقة إن شاء الله .

وقال بن القيم : ووجه اجزاء حصول المقصود منها بالذبح واحد ، فإن الأضحية عن المولود مشروعة كالعقيقة عنه . فإذا ضحى ونوى أن تكون عقيقة وأضحية وقع ذلك عنهما ، كما لو صلى ركعتين ينوى بهما تحية المسجد وسنة مكتوبة .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب النكاح ) باب الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة ص ٣٣٥ رقم ٩٠٧ فقد روى الحديث عن أنى هريوة .

(٢) الآية : ٢ من سورة الكوثر .

(٣) الآية : ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٤) سبق تخريجها .

حكم من لم يعق عنه :

أبواه هل يعق عن نفسه إذا بلغ ؟

قال الرافعي : فإن أفر حتى بلغ سقط حكمها في حق غير المولود . وهو مخير في العقيقة عن نفسه ، قال : واستحسن القفال والثلاثي أن يفعلها ، للحديث المروي أن النبي ﷺ — ( عق عن نفسه بعد النبوة ) قال النووي : ( وأما ) الحديث الذي ذكره في عق النبي ﷺ — عن نفسه فرواه البيهقي بإسناده عن عبد الله بن محرز ، عن قتادة ، عن أنس أن النبي ﷺ — ( عق عن نفسه بعد النبوة ) وهذا حديث باطل قال البيهقي : هو حديث منكر — عبد الله بن محرز — متفق على ضعفه ، ولكن قال عنه حبيب الأعظمي في تحريجه على مصنف عبد الرزاق : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد للهيثمي . ٤ / ٥٩ انتهى ، المصنف ٣٢٩٤ .

وقتها :

تستحب في اليوم السابع ، للأحاديث السابقة ، وقد ذهب في ذلك إلى : يقول الله — تبارك وتعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾<sup>(١)</sup> . ويقول أيضا : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾<sup>(٢)</sup> .

وتقول أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — ففى ( سبعة أيام ، أربعة عشر ، ولأحد وعشرين ) وقال به أبو صالح بن أحمد ، وأبو عبد الله .

وقال الإمام مالك : الظاهر أن التقيد باليوم السابع إنما هو على وجه الاستحباب ، وإلا فلو ذبح عنه في الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده أجزأت ، والاعتبار بالذبح لا بيوم الطبخ والأكل . ( تحفه المودود ) .  
البشرى والتهنئة بالمولود ، قال تعالى : ﴿ وبشره بغلام عليم ﴾<sup>(١)</sup> وتهنئة الإسلام بالمولود قول الحسن البصري : ( بورك في الموهوب شكرت الواهب ، وبلغ أشده ، ورزقت به ) .

### « أضواء كاشفة »

فإن تاريخ الأمم هو تراثها الماضي الذى تستمد منه الإلهام والثقة في حاضرها ، وتستشرف به مستقبلها مقتفية الأثر ، متجنبة الزلل ، آخذة بالمثل العليا ، والأنبياء هم أعظم العظماء ، بهم استنارت القلوب والعقول ، بلغوا رسالات السماء ، وأخرجوا الإنسانية من ظلمات الجهل والجاهلية وأرسوا أسس حضارات متميزة ، مجملوا الفضيلة ، وكانوا حربا على الرذيلة ، ونادوا بارتقاء الإنسانية على الحيوانية ، ورسموا لهم أسس حياة إنسانية راقية .

(١) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٧٨ من سورة الحج .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة النازيات .

ولما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والصبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تنمى الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدي الغرض فيه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء .

قال - رحمه الله - عن إبراهيم خليل الرحمن :

هو إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرقحشد بن سام بن نوح - عليه السلام - هذا نص أهل الكتاب في كتابهم .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم - عليه السلام - يكنى أبا الضيفان ، قالوا : ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم - عليه السلام - وناحور وهاران ، وولد لهاران لوط .

وعندهم أن إبراهيم - عليه السلام - هو الأوسط ، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل .

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحيح ذلك ابن عساكر بسنده عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق في قرية يقال لها : برزة ، في جبل يقال له : قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط - عليه السلام - قالوا : فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور ملكا ابنة هاران ، يعنون بابتة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقرا لا تلد : قالوا : وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه ابن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين في ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين : يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال .

ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكلا لكوكب ، ويعملون لها أعيادا وقرابين . وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط - عليهم السلام - وكان الخليل - عليه السلام - هو الذى أزال به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله - سبحانه وتعالى - آتاه رشده في صغره ، وابتعثه رسولا ، واتخذة خليلا في كبوه ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين ﴾ (١) . أى : كان أهلا لذلك ، وقال تعالى : ﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من



قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا في الأرض قانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وإتيناہ أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴿١﴾ .

ثم ذكر - تعالى - مناظرته لأبيه وقومه كما سندكره - إن شاء الله - وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال - تعالى - ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ (١) فذكر - تعالى : ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألفظ عبارة ، وأحسن إشارة : بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه ، فكيف تغني عنه شيئا ، أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر . ثم قال منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر منه سنا من أبيه : ﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ﴾ أي : مستقيما واضحا سهلا حنيفا يفضي بك إلى الخير في دنياك وأخرأك ، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده ، قال : ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك ﴾ قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعل ﴿ واهجرني مليا ﴾ أي : واقطعني وأطل هجراني ، فعندها قال له إبراهيم ﴿ سلام عليك ﴾ أي : لا يصلحك مني مكروه ، ولا ينالك مني أذى بل أنت سالم من ناحيتي ، وزاده خيرا فقال : ﴿ سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا ﴾ قال ابن عباس وغيره : أي لطيفا ، يعني : في أن هدايتي لعبادته والإخلاص له ، ولهذا قال : ﴿ وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا ﴾ . وقد استغفر له إبراهيم - عليه السلام - كما وعدة في أدعيته . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كان استغفار

(١) الآيات : ١٦ - ٢٧ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات : ٤١ - ٤٨ من سورة مريم .

إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدّها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم<sup>(١)</sup> .  
وقال البخارى بسنده عن أنى هريقة : عن النبى - ﷺ - قال : ( يلقى إبراهيم أياه آزر يوم القيامة وعلى وجهه خرى فترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصنى . فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتني أن لا تخزنى يوم يبعثون ، وأى خرى أخزى من أى الأبعد ؟! فيقول الله : إني حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجلحك ؟ فينظر ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار ) هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفرداً<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾<sup>(٣)</sup>  
هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب - منهم ابن عباس - على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ - بالخاء المعجمة - فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر ، ولعل له اسمين علمين أو أحدهما لقب والآخر علم . وهذا الذى قال محتمل . والله أعلم .

#### مناظرته لقومه

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ يَلْعَنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لئن لم يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَحَاجَةٌ قَوْمِهِ قَالَ أَتَحَاجُونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يُشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ . وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، ويبان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله - عز وجل - لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة منسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب - تعالى - لا يغيب عنه شيء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقي بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، فبين لهم أولاً عدم صلاحية الكواكب - قيل : هو الزهرة -

(١) الآية : ١٤٠ من سورة التوبة .

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى ( كتاب أحديث الأنبياء ) إبراهيم - عليه السلام - ح ٦ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ رقم ٣٠ .

(٣) الآية : ٧٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات : ٧٥ - ٨٣ من سورة الأنعام .

لذلك ، ثم ترق منها إلى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسننها ، ثم ترق إلى الشمس التي هي أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مقدره مربية كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واستجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ (١) ولهذا قال : ﴿ فلما رأى الشمس بازغة ﴾ أى : طالعة : ( وقال هذا رى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئا وما أنا من المشركين . وحاجة قومه قال أحتاجوني في الله وقد هذان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء رى شيئا ) أى : لست أبالي بهذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله فانها لا تنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هي مربية مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منسجورة .

والظاهر أن موعظته في الكواكب لأهل ( حران ) فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحق وغيره ، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا مخالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ وقال في سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بالهتأ إنه لمن الظالمين : قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بالهتأ يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ (٢) .

وقال في سورة ( الشعراء ) :

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .

(٢) الآيات : ٥١ - ٧٠ من سورة الأنبياء .

أفرايتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يمتيتى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴿١﴾ .

وقال تعالى فى سورة ( الصافات ) :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أنفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يرفون . قال أتعبدون ما تحتون . والله خلقتكم وما تعملون . قالوا ابنا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾ (٢) يخبر الله تعالى - عن إبراهيم خليله - عليه السلام - أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان ، وحرقها عندهم وصغرهم وتنقصها فقال : ( ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون )

أى : يعتكفون عندها وخاضعون لها ؟ قالوا : ( وجدنا آباءنا لها عابدين ) ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد ( قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ) . كما قال تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أنفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وقال لهم : ( هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ) سلموا له أنها لا تسمع داعيا ، ولا تنفع ولا تضر شيئا ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال ، ولهذا قال لهم : ﴿ أفرايتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين ﴾ وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرن فيه ( قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين ) يقولون : هذا الكلام الذى تقوله لنا ، وتنقص به آلهتنا ، وتظعن بسببه فى آباءنا ، تقوله محقا جادا فيه أم لا عبا ؟ ( قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ) يعنى : بل أقول لكم ذلك جادا محقا ، وإنما الهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شئ ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله ( وتالله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ) : أقسم ليكيدين هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل : انه قال هذه خفية فى نفسه وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه ليحضره ، فقال : إنى سقيم . كما قال تعالى : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم ﴾ عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق فى بطلان

(١) الآيات : ٦٩ - ٨٣ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات : ٨٣ - ٩٨ من سورة الصافات .

ماهم عليه من عبادة الأصنام التي تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الاهانة ، فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو في بلدهم ( راغ إلى آلتهم ) أى : ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها في بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا لها فقال : لها على سبيل التهكم والازدراء : ( ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين ) لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدم في يده ، كما قال تعالى : ﴿ فجعلهم جذاذا ﴾ أى : حطاما ، كسرها كلها ( إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون ) قيل : إنه وضع القدم في يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار ، فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم ( قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ) وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء ، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخيالهم : ( من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ) أى : يذكرها بالغيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها ، وعلى قول ابن مسعود أى : يذكرهم بقوله : تعالى لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ) أى : فى الملاء الأكبر على رءوس الأشهاد لعلهم يشهدون فعائلته ، ويسمعون كلامه ، ويعانيون ما يحل به من الاقتصاص منه ، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل - عليه السلام - أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى - عليه السلام - لفرعون : ﴿ موعدهم يوم الزينة وأن يحشرون الناس ضحى ﴾<sup>(١)</sup> فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا ( قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا ) قيل : هو الحامل لى على تكسيها ، وإنما عرض لهم فى القول ( فسئلوه إن كانوا ينطقون ) وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد ( فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ) أى : فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها ( ثم نكسوا على رءوسهم ) قال السدى : أى : ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : إنكم أنتم الظالمون ، أى : فى عبادتها . وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أى : فأطرقوا ثم قالوا : ( لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ) أى : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ فعند ذلك قال لهم الخليل - عليه السلام - ( أفنعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ) كما قال تعالى : ( فأقبلوا إليه يرفون ) أى : يسرعون . ( قال أتعبدون ما تحتون ) أى : كيف تعبدون أصناما أنتم تحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ؟! ( والله خلقكم وما تعملون ) وسواء كانت ( ما ) مصدرية أو بمعنى ( الذى ) فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوق مخلوقا مثله ، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له ( قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ) عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة

— إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من منفعهم وطغيانهم ، فكادهم الرب — جل جلاله — وأعلى كلمته ودينه وبرهانه ، كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطباً من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لمن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم ، ثم عملوا إلى حوية عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطربت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط .

ثم وضعوا إبراهيم — عليه السلام — في كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له ( هزن ) وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ، فلما وضع الخليل — عليه السلام — في كفة المنجنيق مقيداً مكتوفاً ثم ألقيوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمُ الْوَكِيلُ . فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ الآية<sup>(١)</sup> .

وقال أبو بعلی عن أبي هريرة قال : قال — ﷺ — ( لما ألقى إبراهيم في النار قال : اللهم إنك في السماء واحد ، وأنا في الأرض واحد أعبدك .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له في الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . ويرى عن ابن عباس وسعيد بن جبیر أنه قال : جعل ملك المطر يقول : أومر فأرسل المطر ، فكان أمر الله أسرع ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ) قال علي بن أبي طالب : أى : لا تضربه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله — تعالى — قال : وسلاماً على إبراهيم لآذى إبراهيم بردها .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك : يروى أن جبريل — عليه السلام — كان معه يمسح العرق عن وجهه ، ولم يصبه منها شيء غيره . وقال السدي : كان معه أيضاً ملك الظل . وصار إبراهيم — عليه السلام — في ميل الحوية حوله النار وهو روضه خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرين على الوصول إليه ، ولا هو يخرج إليهم ، فعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما أرى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم وروى ابن عسكر من عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها — عليه السلام — فنادته : يا بني إني أريد أن أجيء إليك ، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك . فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسها شيء من حر

(١) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

والحديث رواه البخاري في ( كتاب تفسير القرآن ) باب : إن الناس قد جمعوا لكم .. الآية ج ٣ ص ٧٥ ( صحيح البخاري بحاشية السندی — طبع المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٩٣٢ ) .

النار . فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرني أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما ، وإنه قال : ما كنت أياما وليالي أطيب عيشا إذ كنت فيها ، ووددت أن أعيش وحياتي كلها مثل إذ كنت فيها - صلوات الله وسلامه عليه - فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فأتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأхسرين ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ الأسفلين ﴾ . ففازوا بالخسارة والسفال ، وهذا في الدنيا ، وأما في الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما ، بل هي كما قال تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ <sup>(١)</sup> .

قال البخاري : عن أم شريك أن - ﷺ - أمر بقتل الوزغ ، وقال : كان ينفخ على إبراهيم <sup>(٢)</sup> وقال أحمد : إن نافع مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن - ﷺ - قال : ( اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم <sup>(٣)</sup> ) قال : فكانت عائشة تقتلهن . وقال أحمد : عن نافع أن امرأة دخلت على عائشة فإذا ربح منصوب ، فقالت : ما هذا الربح ؟ فقالت تقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن - ﷺ - أن إبراهيم لما ألقى في النار جعلت الدواب تطغى عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه . تفرد به أحمد من هذين الوجهين <sup>(٤)</sup> .

### ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من ادعى

#### الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ <sup>(٥)</sup> يذكر - تعالى - مناظرة خليله من هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل - عليه السلام - دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق الحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار أوهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه التمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، قاله مجاهد وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا - فيما ذكروا - أربعة : مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، والكافران : التمرود ويختصر . وذكروا أن تمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة ، وكان قد طغى وبغى وتجبّر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا .

(١) الآية : ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) انظر صحيح البخاري بشرح الشيخ رزوق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) باب قوله تعالى : بل فعله كبيرهم هذا ج ٦ ص ٣٥٨ رقم ٣٩

(٣) سند أحمد ( مسند عائشة رضي الله عنها ) ج ٦ ص ٢٠٠

(٤) انظر مسند أحمد ( مسند عائشة ) ج ٦ ص ٨٣ ، ص ١٠٩ ، ص ٢١٧

(٥) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحى وأميت .

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحق : يعنى أنه إذا أوقى بالرجلين قد تحتم قتلها ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا ، وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ، ليس يمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع في الحقيقة ، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذى لا بد من استنادها إلى وجوده : ضرورة عدم قيامها بنفسها ، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، خلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إمامتها ، ولهذا **﴿قال إبراهيم ربي الذى يحيى ويميت﴾** <sup>(١)</sup> فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضروهم وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان مادعاه التمرد وانقطاعه جهرة **﴿قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾** <sup>(٢)</sup> أى : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شيء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء وذان له كل شيء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شيء من هذا ، أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما أدعاه وبطلان ما سلكه وسكت ، ولهذا قال **﴿فبهت الذى كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾** <sup>(٣)</sup> .

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين التمرد يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روى عبد الرزاق بن معمر عن زيد بن أسلم أن التمرد كان عنده طعام وكان الناس يفلدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم في حجلة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شيء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كتيب من التراب فملا منه عدليه ، وقال : أشغل أهلى إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رجليه وجاء فنام ، فقلمت امرأته سارة

(١) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .



إلى البعلدين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت من الذى جئت به ، فعرف أنه رزقهموه الله - عز وجل - قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالآيمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى عليه ، ثم الثالثة فأبى عليه ، وقال : أجمع جموعك ، وأجمع جموعى ، فجمع التمرد جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمئة سنة عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمرزاب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله - عز وجل - بها .

### هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية

#### واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله : ﴿ فآمن له لوط ، وقال إني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ ونجيناه لوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت إمرأته عاقرا لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى - بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه - عز وجل - ودعوة الخلق إليه ، والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهى التى قال الله - عز وجل : ﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ قال أنى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفي عن ابن عباس قوله : ﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ثم المشهور أن إبراهيم - عليه السلام - لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرا من بلاده كما تقدم ، والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه : إني جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك ، فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة ، وضرب قبته شرق بيت المقدس ، ثم انطلق مرتحلا إلى

(١) الآيتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة العنكبوت

(٢) الآيتان : ٧١ - ٧٣ من سورة الأنبياء

(٣) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

التيمن ، وأنه كان جوع ، أى : قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر ، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها : قولى : أنا أخته ، وذكروا إخداع الملك لإيهاها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن ، يعنى : أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله ، قوله : ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم ﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : ههنا رجل معه امرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه . قال : أختى فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألتنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبنى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ . فقال : ادعى الله ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها ، أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعا بعض صحبته فقال : إنكم لم تأتوا لى بإنسان ، وإنما أتيتموني بشيطان ، فأخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده : مهيم ، فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره واخدم هاجر . قال ابو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء <sup>(١)</sup> تفرد به من هذا الوجه موقفا .

وقال الامام أحمد : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال رسول الله ﷺ - ( لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : ( إني سقيم ) وقوله : ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقوله لسارة : ( إنها أختى ) قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ... أو جبار من الجبابرة - فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك - أو جبار من الجبابرة - فقيل : قال : أختى ، قال : فأرسل بها ، قال : فأرسل بها إليه وقال : لا تكذبنى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى ، ليس على الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر ) قال : فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال : فأرسل ، ، قال : ثم قام إليها ، قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إلى إلا شيطانا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، قال : فرجعت ، فقالت لإبراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة ؟ <sup>(٢)</sup> تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

وقال ابن أبى حاتم : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ - فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال : ( ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله ، فقال : ( إني سقيم ) وقال : ( بل فعله كبيرهم هذا ) وقال للملك حين أراد امرأته : هى أختى .

فقوله فى الحديث : هى أختى ، أى : فى دين الله ، وقوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى

(١) انظر صحيح البخارى يشرح الشيخ زروق ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ رقم ٢٨ .

(٢) مسند الامام أحمد ( مسند أبى هريرة ) ح ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

وغورك يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغورك ، ويتعين حمله على هذا ، لأن لوطا كان معهم وهو نبي - عليه السلام - وقوله لها لما رجعت : مهم : معناه : ما الخبر ؟ فقالت : إن الله رد كيد الكافرين .. وفى رواية ( الفاجر ) وهو الملك وأخدم جارية .

وكان إبراهيم - عليه السلام - من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله - عز وجل - ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت هي أيضا ، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها. ودعت الله - عز وجل - بما تقدم من الدعاء العظيم ، ولهذا قال - تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ <sup>(١)</sup> فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحببيه وخليله إبراهيم - عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم - عليهن السلام - والذى عليه الجمهور أنهن صديقات - رضى الله عنهن وأرضاهن - ورأيت فى بعض الآثار أن الله - عز وجل - كشف الحجاب فيما بين إبراهيم - عليه السلام - وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ، وكان مشاهدا لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأقرب لعينه ، وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقربتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل : إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها - رضى الله عنها - والله الحمد والمنة .

ثم إن الخليل عليه السلام - رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن ، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبته هاجر القبطية المصرية ، ثم إن لوطا - عليه السلام - نزع بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان ، وكان أهلها أشرا كفارا فجارا ، وأوحى الله تعالى - إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية .

يؤيد ذلك قول رسول الله - ﷺ - ( إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشاوقها ومغارها ، وسيلغ ملك أمتى ما زوى لى منها ) <sup>(٢)</sup> قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط - عليه السلام - فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخير إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، فاستنقذ لوطا - عليه السلام - واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا ، وهزمهم وساق فى آثارهم حتى

(١) من الآية : ٤٥ من سورة البقرة .

(٢) هذا جزء حديث رواه أحمد فى مسنده ( توبان ) ح ٥ ص ٢٧٨ ، ٢٨٤ وفى ح ٥ ص ١٢٣ ومسنند شداد بن أوس . وانظر صحيح مسلم ( كتب الفتن ) باب : هلال هذه الأمة بعضهم ببعض ح ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ ورواه أبو داود فى سننه ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ رقم ٤٢٥٢ ورواه ابن ماجه فى سننه فى ( الفتن ) ح ٢ ص ١٣٠ رقم ٣٩٥٢ وانظر سنن الترمذى ( الفتن ) ح ٣ ص ٣١٩ رقم ٢٢٦٧ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وصل إلى شرق دمشق ، وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمي لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيدا منصورا إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له ، مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاده - صلوات الله وسلامه عليه .

### ذكر مولد إسماعيل - عليه السلام - من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك ، وأنه لما كان لإبراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت سارة لابراهيم - عليه السلام - إن الرب قد أحرمنى الولد ، فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا .

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم - عليه السلام - فحين دخل بها حملت منه ، قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاضمت على سيدتها ، فغارت منها سارة ، فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت ، فنزلت عند عيث هناك ، فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافى ، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيرا ، وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل ، ويكون وحش الناس ، يده على الكل ، ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته ، فشكرت الله - عز وجل - على ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت على وولده محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه الذى سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا ، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ، وعين بشارته ، وكاله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل - عليه السلام - قالوا : وولده لإبراهيم من العمر ستة وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحق من سارة ، فخر لله ساجدا ، وقال له : قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرت ونميته جدا كثيرا ، ويولد له اثنا عشر عظيما ، وأجعل له رئيسا لشعب عظيم .

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى - ﷺ - قال : ( يكون اثنا عشر أميرا ) ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أئى : ما قال ؟ قال : ( كلهم من قريش )<sup>(١)</sup> أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية : لا يزال هذا الأمر قائما . وفى رواية : عزيزا حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

(١) انظر صحيح البخارى بمأشئة السندى ( كتاب الأحكام ) باب بأن فى الاستخلاف ح ٤ ص ١٦٨ وانظر صحيح مسلم ( كتاب الامارة ) ح ٣ ص ١٤٥٣ رقم ٩ - ١٨٢١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ - ١٨٢١ وانظر الترمذى ( كتاب القدر ) باب : ما جاء فى الخلفاء ح ٣ ص ٢٤٠ رقم ٢٣٢٣ .

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضا ، ومنهم بعض بنى العباس ، وليس المراد أنهم يكونون اثني عشر نسعا بل لا بد من وجودهم .

وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة ، الذى أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا ، وهو محمد ابن الحسن العسكرى - فيما يزعمون - فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأحمد نار الفتنة ، وسكن رضى الحروب بين المسلمين ، والباقون من حجلة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور .

وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هو فى الرفوس ، وهذيان فى النفوس ، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر - عليها السلام - لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حتى وضعها حيث مكة اليوم ، ويقال ان ولدها كان إذ ذاك رضيعا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر ، وتعلقت بشيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفيننا فلم يجيبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها ، قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : فإذا لا يضيئنا .

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن زيد - رحمه الله - فى كتاب ( النوادر ) أن سارة تغضبت على هاجر ، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها . قال السهلي : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من تثقب أذنهما منهن ، وأول من طولت ذيلها .

### ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأم هاجر

#### إلى جبال فاران وهى أرض مكة وبناء البيت العتيق

قال البخارى عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء إبراهيم وبانها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قض إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذا لا يضيئنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عن التنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا هؤلاء الذعوات ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ <sup>(١)</sup> وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط -

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبی ﷺ — فلذلك سعى الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : حية — تهذب نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضا — فقالت : قد أسمعت ، إن كان عندك غواث ؟ فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه .. أو قال : بخناخة — حتى ظهر الماء ، فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهى تفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبی ﷺ — ( يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف الماء — لكانت زمزم معنا ) فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخاف الضيعة ، فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبواه وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عاتقا ، فقالوا : إن هذا الطائر لينور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبی ﷺ — فألقى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل آيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل إمرأته ؟ فقالت : خرج يبتغي لنا . ثم سأها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، في حنيق وشدة وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام وقلى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك : غير عتبة بابه . قال : ذلك أئى ، وأمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى ، وليث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجد ، فدخل على إمرأته فسأها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسأها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شربكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال النبی ﷺ — ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب لدعاهم فيه ( وعن الثعلبي : فلو جاءت يومئذ بنخز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمر ) .

قال : فإذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام ومر به يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم

من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أرى ، وأمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يرى نبلاله تحت دوحة قربنا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد . ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعنيك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾<sup>(١)</sup> قال وجعلا بينين حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم قال : عن ابن عباس قال : لما كان إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما تقدم ، وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفي بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الأسرئيليات وفيه أن إسماعيل كان رضيعا إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بعد مضي تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل وفي أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر في موضعه .

وقد ثبت في الحديث الذي رواه البخاري عن أنى هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ - ( اختتن إبراهيم النبي - عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقلوم )<sup>(٣)</sup> والقلوم : هو الآلة ، وقيل : موضع .

### قصة الذبيح

قال الله تعالى : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين رب هب لي من الصالحين .. فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

(١) من الآية : ١٣٧ من سورة البقرة .

(٢) الحديث في صحيح البخاري يشرح الشيخ زروق في ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٦٠ - ٣٦٨ رقم ٤٤ وانظر رقم ٤٥ من نفس المصدر ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

(٣) انظره في صحيح البخاري يشرح الشيخ زروق في ( كتاب أحاديث الأنبياء ) ح ٦ ص ٣٥٤ رقم ٣٦ .

يذكر - تعالى - عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا ، فبشره الله تعالى - بـ غلام حلیم هو إسماعيل - عليه السلام - لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل ، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أول ولد وبكره ، وقوله : ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أى : شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ ( فلما بلغ معه السعي ﴾ أى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل ، فلما كان هذا رأى إبراهيم - عليه السلام - فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعا : ( رؤيا الأنبياء وحى ) <sup>(١)</sup> قال عبيد ابن عمير : وهذا اختيار من الله - عز وجل - لخليله فى أن يذبح الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن ، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به جليس ولا أنيس ولا خرع ، فامثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه ، فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده الذى قد أفرد عن أمر ربه وهو بكره ووحیده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامثل أمره وسارع إلى طاعته ، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويلجحه قهرا ( قال يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ) . فبادر الغلام الحلیم سر والده الخليل إبراهيم فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال الله تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ قيل : أسلما ، أى : استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل : هذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى : للجبين ، أى : ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبیر وقتادة والضحاك وقيل : بل أضجعه كما تضع الذبائح وبقي طرف جبينه لاحقا بالأرض ، وأسلما ، أى : سمي إبراهيم وبكر ، وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره : أمر السكين على حلقة فلم تقطع شيئا ، ويقال : جعل بينها وبين حلقة صفيحة من نحاس . والله أعلم .

فعند ذلك نودى من الله - عز وجل - ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾ أى : قد حصل المقصود من اختيارك وطاعتك ومبادرتك إلى ربك ، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت بيدك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن هذا هو البلاء المبين ﴾ أى : الاختيار الظاهر البين . وقوله : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ أى : وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى - له من الفوضى عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة فى ثبير . قال الثورى : عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال سعيد بن جبیر : كان يرفع فى الجنة حتى تشفق عنه ثبير ، وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذى قره ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى . وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن أنه كان يتسأ من الأروى ، واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما ههنا من



الآثار مأخوذ من الاسرائيليات . وفي القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم . وقد ورد في الحديث أنه كان كبشا .

قال الامام أحمد : عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله ﷺ — إلى عثمان بن طلحة ، وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله ﷺ — قال : إني كنت رأيت قرني الكيش حين دخلت البيت فنسيت أن أمرك أن تخمرها ، فخمرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي . قال سفيان : لم نزل قرنا الكيش في البيت حتى احترق البيت فاحترقا<sup>(١)</sup> وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكيش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد ييس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره . والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : ( وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ) ومن جعله ( حالا ) فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق وإنما هو إسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعاً لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيداً ، وفي نسخة من المعربة : بكره ( إسحق ) فلفظة ( إسحق ) ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . ذاك إسماعيل . وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ — وإسحق والد يعقوب وزادوا فيه ، وهم قوم بهت ولم يقرؤا بأن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء .

وقال عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبي حاتم : سألت أبي عن الذبيح ، فقال : الصحيح أنه إسماعيل — عليه السلام — قال ابن أبي حاتم : وروى عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير ، والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح : أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل — عليه السلام — وحكاها النبوى أيضاً عن الربيع بن أنس والكلبي وأبي عمرو بن العلاء . قلت : وروى عن معاوية ، وجاء عنه أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ — يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله ﷺ — وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحق بن يسار ، وكان الحسن البصري يقول : لا شك في هذا .

وقال محمد بن إسحق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة : ( فبشرناه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ) فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإني لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل — والله — يا أمير المؤمنين ، وإن

(١) انظر مسند أحمد ( حديث صفية بنت شيبة : امرأة من بنى سليم ) ج ٤ ص ٦٨ وانظر ح ٥ ص ٣٨٠ .

اليهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبائكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق : لأن إسحق أبوهيم . وقد ذكرنا هذه المسألة متقصاة بأدلتها واثارها في كتابنا التفسير . والله الحمد والمنة .

( مولد إسحاق )

قال الله تعالى : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ <sup>(١)</sup> وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم - كما سيأتي بيانه في موطنه إن شاء الله تعالى - قال الله تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشروني على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشركنا بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره فلما قره عليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام ( فنكرهم ) إبراهيم ﴿ وأوجس منهم خيفة قالوا لا تحف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾ <sup>(٥)</sup> أى : لندمر عليهم ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشارا بذلك قال الله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ <sup>(٦)</sup> أى : بشرتها الملائكة

(١) الآيتان رقم ١١٢ - ١١٣ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٦٩ - ٧٠ - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ من سورة هود .

(٣) الآيات ٥١ - ٥٢ - ٥٣ - ٥٤ - ٥٥ - ٥٦ من سورة الحجر .

(٤) الآيات ٢٤ - ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ من سورة الذاريات .

(٥) جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة هود .

(٦) من الآية رقم ٧١ من سورة هود .

بذلك ﴿ فاقبلت امرأته في صرة ﴾ <sup>(١)</sup> أى : في صرخة ﴿ فصكت وجهها ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : كما يفعل النساء عند التعجب ﴿ وقالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ﴾ <sup>(٣)</sup> أى : كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضا وهذا بعلى : زوجى شيخا ، تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : ﴿ إن هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ <sup>(٤)</sup> وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارا بهذه البشارة وتثبيتا لها وفرحا بها ﴿ قال أبشركم على أن مسنى الكبر فم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ <sup>(٥)</sup> أكدوا الخبر بهذه البشارة ، وقرروه معه فبشروهما ﴿ بغلام عليم ﴾ <sup>(٦)</sup> وهو إسحق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال : في الآية الأخرى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ <sup>(٧)</sup> وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظي وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل وإن إسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

فقلوه تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ <sup>(٨)</sup> دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أى : يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التخصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنها يتمتعان به ويسران بولده كما بمولد أبيه من قبله وقال تعالى : ﴿ وهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ﴾ <sup>(٩)</sup> وقال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ <sup>(١٠)</sup> وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمشى عن إبراهيم بن زيد التيمي عن أبيه عن أنى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أى : مسجد وضع أول ؟ قال : ( المسجد الحرام قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت كم بينها قال : أربعون سنة قلت ثم أى ؟ قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد ) <sup>(١١)</sup> وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله . وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين

(١) من الآية رقم ٢٩ من سورة النازيات .

(٢) من الآية رقم ٢٩ من سورة النازيات .

(٣) من الآية رقم ٧٢ من سورة هود .

(٤) من الآية رقم ٧٢ - ٧٣ من سورة هود .

(٥) الآيتان ٥٤ - ٥٥ من سورة الحجر .

(٦) من الآية ٥٣ من سورة الحجر .

(٧) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٨) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٩) من الآية ٨٤ من سورة الأنعام .

(١٠) من الآية ٤٩ من سورة مريم .

(١١) انظر صحيح مسلم ج ١ كتاب المساجد ص ٣٧٠ رقم ٥٢٠ .

سنة سواء وقد كان بناؤها ذلك بعد وجود إسحق لأن إبراهيم عليه السلام لما دعا قال : في دعائه كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ، رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّونَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ، رَبَّنَا إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ، رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَمُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رُبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ، رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ، رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ۝ (١) . وما جاء في الحديث أن سليمان بن دؤاد عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي ۝ (٢) ﴾ وكما سنورده في قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنة سوى ابن حبان في تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ بَوَّعْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تَشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَأُذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝ (٣) ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَيْكَةِ مَبَارَكًا وَهَدَى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا . وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝ (٤) ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَبَتَى إِبْرَاهِيمُ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهَنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْتَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ، وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمَّا وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ، وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأَمَتَّه قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ، وَإِذَا يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ (٥) .

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلوات وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذي هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أي : أرشده إليه

(١) الآيات ٣٥ - ٤١ من سورة إبراهيم .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة ص .

(٣) الآيتان ٢٦ - ٢٧ من سورة الحج .

(٤) الآيتان ٩٦ - ٩٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآيتان ١٢٤ - ١٢٩ من سورة البقرة .

بوحى من الله - عز وجل - وقد قدمنا في صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال : بعض السلف أن في كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض ، فأمر الله تعالى إبراهيم - عليه السلام - أن يبنى له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد للملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت في الصحيحين أن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يجيء في خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مينا قبل الخليل - عليه السلام - ومن تمسك في هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكان المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم . وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق وقد قال الله : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾<sup>(١)</sup> أى : أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة .

قيل : مكة وقيل : محل الكعبة ﴿ فيه آيات بينات ﴾<sup>(٢)</sup> أى : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الخنفاء من ولده الذين يقتلون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال : ﴿ مقام إبراهيم ﴾<sup>(٣)</sup> أى : الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم في حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقا بجائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عند الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه في هذا فإنه قد وافقه ربه في أشياء منها قوله لرسوله - ﷺ - لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾<sup>(٤)</sup> وقد كانت اثار قدمى الخليل باقية في الصخرة إلى أول الإسلام وقد قال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة .

وراق لبر في حراء ونـ	وثرور ومن أرسى ثيرا مكانه
وبالله إن ليس بغافل	وبالبيت حق البيت من بطن مكة
اذ اكتنفوه بالضحى والأحائل	وبالحجر السور إذ يحسونه
على قدميه حافيا غير ناعل	وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة

يعنى إن رجله الكريم غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا متعلقة ولهذا قال تعالى :

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾<sup>(١)</sup> أى : فى حال قولهما : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾<sup>(٢)</sup> فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله - عز جل - وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

والمقصود : أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة الماء وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرما وآمنا محتما فاستجاب الله وله والحمد له سألته ولبنى دعوته وأتاه طلبته فقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ أو لم نكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ﴾<sup>(٥)</sup> وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أى : من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة الفصيحة لتتم عليهم نعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا ، وأى رسول ، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف اجناسهم ولغاتهم وحفلاتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة . كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه فى نفسه وكما أرسل به وشرف ببعثته وفصاحة لغته وكال شفقتة على أمته ولطفه ورحمته ، وكرمه ، وعظيم مولده ، وطيب مصدره ، ومورده ، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام إذ كان باني الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراد فليراجعه تم والحمد لله .

فمن ذلك ما قال السدى لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدرك أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت واتباعها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾<sup>(٦)</sup> فلما بلغا القواعد بينا الركن قال : إبراهيم لإسماعيل يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوته بيضاء مثل النعامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبت من جاءك بهذا قال جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما

(١) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ١٢٨ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٦٧ من سورة العنكبوت .

(٥) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .

(٦) من الآية : ٢٦ من سورة الحج .

يدعوان الله ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾<sup>(١)</sup> وذكر ابي حاتم انه بناه من خمسة أجيل وأن ذو القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبينانه فقال : من أمر كما بهذا فقال : إبراهيم الله امرنا به فقال وما يدرينى بما تقول فشهدت خمسة اكباش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقي أنه طاف مع الخليل بالبيت وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلى الشمال على ما هى عليه اليوم .

وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله ابن محمد أى بكر أخبر ابن عمر عن عائشة أن — ﷺ — قال : ( ألم تر : إلى قومك حين بنوا الكعبة أقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم فقال : لولا حدثان قومك وفى رواية لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية أو قال : بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر )<sup>(٢)</sup> .

وقد بناها ابن الزبير — رحمة الله على ما أشار إليه رسول الله — ﷺ — حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج فى سنة ٧٣ هـ كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير إنما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموه الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية . كما هو مشاهد إلى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك .

ثم لما كان فى زمن المهدي بن المنصور استشار الامام مالك فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فقـ له : إني أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

ذكر ثناء الله — ورسوله الكريم — على عبده وخليله ابراهيم

قال الله : ﴿ واذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾<sup>(٣)</sup> ولما وفى ما أمره ربه به من التكليف العظيمة جعله للناس اماما يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه وخالده فى عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام . وسلمت إليه الامامة بزماء واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون ، كما قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وأتيناہ أجره فى الدنيا وإنه

(١) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٢ كتاب الحج باب فضل مكة ص ١٧٩ وانظر صحيح مسلم كتاب الحج ج ٢ ص ٩٦٩ رقم ٣٩٩ .

(٣) الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

في الآخرة لمن الصالحين ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن أبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديتناهم إلى صراط مستقيم ﴾ (٢) .

فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل في الذرية تغليباً وهذا هو الحامل للقتال الآخر إن الضمير على نوح كما قدمنا في قصته والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ﴾ (٣) الآية .

فكل كتاب أنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهي ، ومرتبة عليه لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر ثم إسحق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جدا بحيث لا يعلم عددهم الا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى بن مريم من بنى إسرائيل ، وإما إسماعيل - عليه السلام - فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالة من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم في الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي المكي ثم المدني - صلوات الله وسلامه عليه - فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن النيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والذرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذي يفخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه في صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : ( سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم ) (٤) مدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة في هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق في هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ - ( يعوذ الحسن والحسين ويقول : إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحق . أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ) (٥) وراه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيى الموق قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليه ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ (٦) .

(١) الآية ٢٧ من سورة النكبات .

(٢) الآيات ٨٤ - ٨٧ من سورة الأنعام .

(٣) من الآية ٢٦ من سورة الحديد .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٦٢ رقم ٢٧٣ .

(٥) أنظر البخارى ج ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩ طبعة الشعب .

(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .



ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطاناها في التفسير . وقرناها بأتم تقرير . والحاصل : ان الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فأمره أن يعتمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا في تعيينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره ان يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه في بعض قم يقسمه قسما ويجعل على كل جيل منهم جزءا ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهم بإذن ربه ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى جناحيه وكل ريشه تأتى إلى اختها حتى اجتمع بدون كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدره الذى يقول : للشيء كن فيكون فأتين إليه نعيما ليكون آيين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا ، ويقال : إنه أمر أن يأخذ رؤسهن في يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله ، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترقى من علم اليقين إلى عين اليقين فاجابه الله إلى سؤاله واعطاه غاية مؤمولة .

وقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ (١) ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منه وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم في قوله سبحانه : ﴿ وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده ﴾ (٢) .

أى : فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده ، بمدد متطاولة ولهذا قال : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ إلى أن قال : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ فبين أنه كان على دين الله الخفيف وهو القصد إلى الأخلاص والانحراف عمدا عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحد ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له

(١) الآيات ٦٥ - ٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٦٥ من سورة آل عمران .

مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اعتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكمهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتتأجرون في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء كانوا يهودا أو نصارى قل أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما بغافل عما تعلمون <sup>(١)</sup> .

فنزّه الله - عز وجل - خليفه عليه السلام من أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ <sup>(٢)</sup> . يعنى : الذين كانوا على ملته من أتباعه في زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وهذا النبي ﴾ يعنى محمدا - ﷺ - فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى : ﴿ قل إننى هدى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه . اجتبه وهداه إلى صراط مستقيم وأتيناك في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقال البخارى : عن ابن عباس أن النبي - ﷺ - لما رأى الصور في البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيّت ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزرار فقال : قاتلهم الله ، والله لم يستقسما بالأزرار قط . <sup>(٥)</sup> وفى بعض الفاظ البخارى ( قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط ) .

فقله ﴿ أمة ﴾ أى قدوة وإماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه ، ﴿ قانتا لله ﴾ أى : خاشعا له في جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حنيفا ﴾ أى : مخلصا على بصيرة ﴿ ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه ﴾ أى : قائما يشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ، ﴿ اجتبه ﴾ أى : اختاره الله لنفسه ، واصطفاه لرسالته واتخذة خليلا وجمع له بين خيري الدنيا والآخرة وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ <sup>(٦)</sup> ويرغب تعالى في اتباع إبراهيم - عليه السلام - لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمر به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾ <sup>(٧)</sup> ولهذا اتخذ الله خليلا ، والخلة هى غاية المحبة . كما

(١) الآيات ١٣ - ١٤٠ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٦٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآيات ١٦١ - ١٦٣ من سورة الانعام .

(٤) الآيات ١٢٠ - ١٣٢ من سورة النحل .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٤ كتاب الحج باب من كبر فى نواحى الكعبة .

(٦) الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

(٧) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح منسى وبهذا سمي الخليل خليلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد - صلوات الله وسلامه عليه - كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلي وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : ( أيها الناس إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا )<sup>(١)</sup> وقال : أيضا في آخر خطبة خطبها أيها الناس لو كنت متخذنا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله .

وقال ابن أبي حاتم بنسبته عن إسحاق بن بشارة قال : ( لما اتخذ الله إبراهيم خليلا القى في قلبه الوجع حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير في الهواء ) .

وقال : عبيد بن عمير كان إبراهيم - عليه السلام - يضيف الناس فخرج يوما يلتبس انسانا يضيفه فلم يجد أحدا يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال : يا عبد الله ما ادخلك داري بغير إذنى قال : دخلتها بإذن ربها . قال : ومن أنت قال : أنا ملك الموت أرسلنى ربي إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذته خليلا قال : من هو فوالله إن أخبرتنى به ثم كان باقصى البلاد لآتينه ثم لا ابرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت قال : ذلك العبد أنت قال : أنا قال : نعم قال : فم اتخذني ربي خليلا قال : بأنك تعطى الناس ولا تسألهم رواه ابن أبي حاتم ) وقد ذكره الله تعالى في القرآن كثيرا في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقليل : إنه مذكور في خمسة وثلاثين موضعا منها خمس عشر في البقرة وحدها . وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الانبياء في آيتي الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾<sup>(٣)</sup> الآية . ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد - ﷺ - وهو الذى وجده - عليه السلام - في السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة ثم لا يعدون إليه آخر ما عليهم وقال أحمد : عن أنس هروية قال : قال : رسول الله - ﷺ - ( إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن . تفرد به أحمد )<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر كتر العمال الفضل الثاني في فضل الخلفاء الأربعة ج ١١ ص ٥٤٨ رقم ٣٢٥٧١ ورد الحديث عن ابى اسامه بزيادة ( وان خليلي ابو بكر ) وانظر صحيح مسلم ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النبي عن بناء المساجد على القيوط ج ١ ص ١٧٩ رقم ٢٣ - ٥٣٢ بالفظ الحديث .

(٢) الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٤) الحديث في مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ .

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال : فيه ( وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم )<sup>(١)</sup> رواه مسلم وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه ، - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله : ( أنا سيد آدم يوم القيامة ولا فخر )<sup>(٢)</sup> .

وقال : أحمد عن أبى هريرة : قال : قال رسول الله - ﷺ - ( إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله )<sup>(٣)</sup> تفرد به أحمد ، فأما الحديث الذى رواه الامام احمد عن ابن عباس عن النبي - ﷺ - ( يحشر الناس حفاة عراة فأول من يكسى إبراهيم - عليه السلام )<sup>(٤)</sup> ثم قرأ ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ فاخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس . وهذه الفضيلة المعنية لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون - وأما الحديث الآخر الذى قال : الأمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال : رجل للنبي - ﷺ - ( يا خير البرية فقال : ذاك إبراهيم )<sup>(٥)</sup> فقد رواه مسلم وقال : الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل - عليه السلام - كما قال : لا تفضلوني على الأنبياء وقال : لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدري أفاق قبل أم جوزى بصعقة الطور )<sup>(٦)</sup> وهذا كله لا ينافى ما ثبت بالتواتر عنه - صلوات الله وسلامه عليه - من ( أنه سيد ولد آدم يوم القيامة ) .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - أمر المصلى أن يقول : فى تشهده ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن حجرة وغيره قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال : ( قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد )<sup>(٧)</sup> وقال تعالى : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾<sup>(٨)</sup> قالوا : وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسبه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار .

(١) أنظر صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ١٨٠ - ١٨١ عن رواية رقم ٣٢٢ - ١٩٣ أنس بن مالك وروى الحديث بمعناه .

(٢) الحديث فى مسند الأمام أحمد ج ١ ص ٢٨١ مسند ابن عباس - وفى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٧٨٢ - كتاب الفضائل - باب تفضيل نبينا - ﷺ - على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٢٣ - انظر البخارى ص ١٢٢ ج ٦ فى تفسير سورة الانبياء .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٨٤ - وصحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٣٩ رقم ١٥٠ - ٢٣٦٩ .

(٦) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٤ - كتاب الفضائل - باب - من فضائل موسى عليه السلام برقم ٢٣٧٣ . ومسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٠ - ٤١ بمعناه .

(٧) الحديث الامام مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٣٥٥ رقم ٦٦ - ٤٦ باب الصلاة على النبي - ﷺ - كتاب الصلاة .

(٨) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال : عبد الرزاق انبأنا معمر عن ابن طائوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، ﴿ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَمَهَا ۚ ﴾<sup>(١)</sup> قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد . في الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفي الجسد ، تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن أبي حاتم .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : ( الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط )<sup>(٢)</sup> .

وفي صحيح مسلم وأهل السنة عن عائشة : رضي الله عنها - قالت : قال : رسول الله - ﷺ - عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء يعني الاستنجاء<sup>(٣)</sup> والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام - كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله - عز وجل - وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلع أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى : في حقه من المدح العظيم ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾<sup>(٤)</sup> قصره في الجنة .

قال : الحافظ أبو بكر البراز عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - إن في الجنة قصراً أحسبه قال : من لؤلؤة ليس فيه قصم ولا وهى أعدده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلاً<sup>(٥)</sup> ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فاسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفاً قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه .  
صفة إبراهيم عليه السلام .

قال أحمد : عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - ( رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر . وأما موسى فأدم جسيم . قالوا له : فإبراهيم قالوا : انظروا إلى صاحبكم يعني نفسه )<sup>(٥)</sup> .

ذكر ابن جرير في تاريخه أن مولده كان في زمن التمرود بن كنعان وهو فيما قيل : الضحاك الملك المشهور الذي يقال إنه ملك الف سنة وكان في غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح - عليه السلام - وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٢ رقم ٢٥٧ - ٥٠ كتاب الطهارة بلفظ الحديث .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٣ رقم ٥٦ - ٢٦١ ( كتاب الإيمان بلفظ الحديث .

(٤) انظر روائد البراز ج ٣ ص ١٠٢ رقم ٢٣٤٦ ( ذكر إبراهيم الخليل ) .

(٥) انظر مستند الامام أحمد ج ١ ص ٣٧٤ .

فهاهنا ذلك أهل ذلك الزمان وفزع التمرد فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود في رعبتك يكون زوال ملكك على يديه . فامر عند ذلك يمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل في ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبابا باهرا وابنته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل : بيبابل وقيل : بالسواد من ناحية كوفي ( بالعراق ) وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرق دمشق ، فلما أهلك الله نمرد على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التي في أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم - عليه السلام - وزناها رحمها الله واشترى من رجل من بنى جيث يقال له عفرون بن صخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا : ثم خطب إبراهيم على أبنه إسحق فزوجه بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاة فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الأبل قالوا : ثم تزوج إبراهيم - عليه السلام - قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح . وذكروا ما ولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساکر من غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب في صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم - عليه السلام - أخبارا كثيرة الله أعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان ، والذي ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا : ثم مرض إبراهيم - عليه السلام - ومات عن مائة وخمسة وسبعين وقيل وتسعين سنة ودفن في المغارة المذكورة التي كانت بحبرون الحيشي عند إمراته سارة التي في مزرعة عفرون الحيشي وتولى دفنه إسماعيل وإسحق - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتي سنة كما قال ابن الكلبي .

وقال مالك : عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : ( كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس أختن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال : يارب ما هذا فقال الله : وقار ) فقال يا رب : زدني وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استنجد وأول من لبس السراويل ) فقبره وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب في الربعة التي بناها سليمان بن داود - عليه السلام - ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل إلى اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وأجيل بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماننا هذا أن قبة المربعة تحققا . فأما تعيينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغي أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها أن تبجل وأن تجل أن يداس في أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء - عليهم السلام - تحتها . وروى ابن عساکر بسنده أن وهب بن منبه قال : ( وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة ) .

يَمُوتُ مِنْ جَا أَجْلِهِ

لَمْ تَقْنِ عَنْهُ حِيلَهُ

مَنْ مَاتَ عَنْهُ أَوْلَاهُ

أَلْحَقْ جَهْلًا وَلَا أَمَلًا

وَمَنْ دَنَا مِنْ حَقْفِهِ

وَكَيْفَ يَبْقَى أَخْرَر



وإنما المرء حديث بعــــــــــــــــــــده فكن حديثا حسنا لمن وعى

وقال الآخر : الذكر للانسان عمر ثان قوله تعالى : ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ أى : وجعلنا الملائكة والإنس والجن يسلمون عليهما أبد الدهر ، ولا شئ أدى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال كما ورد في الحديث ( من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها ) ثم ذكر سبحانه سبب هذه النعم فقال تعالى : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ أى : إنهما كانا في زمرة المحسنين فجازيناهما بالإحسان إليهما ﴿ وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ .

قصص إلياس - عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَالَأَتَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَمًا عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَّلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

تفسير المفردات :

( تدعون بعلا ) أتعبدون الصنم المسمى بعلا ، ( لمحضرون ) تحضرهم الزبانية في النار ، ( إلياسين ) يعنى إلياس وأهل دينه ، قال العلماء : يجوز أن يكون إلياس والياسين بمعنى واحد كما يقال ميكال وميكائيل .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ وإن إلياس لمن المرسلين ﴾ قال قتادة : ومحمد بن إسحاق يقال إلياس هو إدريس ، وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال : إلياس هو إدريس . وقال وهب بن منبه : هو إلياس بن نسي ، ابن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون ، بن عمران بعثه الله تعالى فى بنى إسرائيل بعد حزقيل - عليهما السلام - وكانوا قد عبدوا صنما يقال له : بعل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتدوا واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ثم سأله أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالآيمان به إن هم أصابهم المطر ، فدعا الله لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبت ما كانوا عليه من الفكر فسأل الله أن يقضيه إليه ، وكان قد نشأ على يديه اليسه بن أخطوب - عليهما الصلاة والسلام - فأمر إلياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما



جاءه فليركبه ولا يبهه فجاءته فرس من نار فركب فالبسه الله تعالى النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا انسيا سماويا أرضيا . هكذا مكان وهب بن منبه عن أهل الكتاب . قال ابن كثير : والله أعلم بصحته .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أى : ألا تخافون الله - عز وجل - فى عبادتكم غيره ﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما - ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة والسدى بعلا يعنى ربا . قال عكرمة : وقتادة وهى لغة أهل اليمن . وقال ابن إسحاق أخبرنى بعض أهل العلم انهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن هواسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غرى دمشق .

وقوله تعالى : ﴿ أَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أى : أتعبدون صنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى : هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أى : للعذاب يوم الحساب . ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ أى : الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع ثبت .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ أى : ثناء جميلا ﴿ سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ ﴾ يعنى الياسين وأهل دينه . ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ تقدم تفسيره .  
أضواء كاشفة :

قال الحافظ : العلامة ابن كثير فى كتابه : قصص الأنبياء ( عن النبى إلیاس : وأما الیاس علیه السلام .

فقال الله تعالى : بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات ﴿ وَإِنْ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ . أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ . وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى الْيَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قال علماء النسب : هو إلیاس التشى . ويقال : ابن یاسین بن فتحاص ابن العيزار بن هارون . وقيل : الیاس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غرى دمشق فدعاهم إلى الله - عز وجل - وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم : ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ . أَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم .

وقال ابن أبى الدنيا : عن سعيد بن عبد العزيز عن بعض شيوخه دمشق قال : أقام إلیاس - عليه السلام - هاربا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة أو قال : أربعين ليلة تأتیه الغربان برزقه .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه - عز وجل - أن يقبضه إليه لما كذبه وآذوه فجاءته دابة لونها لون المار فركبها وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة الطعام والمشرى وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا وأوصى الى اليسع بن أخطوب ففى هذا نظر وهو من الاسرائيلات التى لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم . ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أى : للعذاب إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون وقوله ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أى : إلا من آمن منهم وقوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ أى : أبقينا بعده ذكرا حسنا له فى العالمين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال : ﴿ سلام على إلياسين ﴾ أى : على إلياس والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل وإسرائيلين ، وإلياس وإلياسين . ومن قرأ سلام على آل ياسين أى : على آل محمد وقرأ ابن سعود وغيره سلام على إدراسين . ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود انه قال : الياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن فראصم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم .

قصص لوط - عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنْ لُّوطًا لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَدِيرِ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ﴿١٤٠﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾

### « تفسير المفردات »

( فى الغابرين ) فى الباقيين فى العذاب ، ( دمرنا الآخرين ) أهلكتناهم ، ( مصبحين ) داخلين فى وقت الصباح .

### « المعنى الاجمالى »

يخبرنا الله تعالى عن عبده ورسوله لوط أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها فإن الله تعالى أهلكتهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنكم تمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾ أى : أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ونجد الآيات قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ، فما كان جواب قومه إلا أن

قالوا أخرجوه آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأخيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن في ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسييل مقيم ، إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ ﴿٢﴾ وقوله ﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾ ﴿٣﴾ .

أضواء كاشفة :

قال الحافظ ابن كثير : في كتابه : ( قصص الأنبياء ) عن قصة النبي لوط مع قومه قال : وما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط - عليه السلام - وما حل بهم من النعمة والغميمة وذلك أن لوطا بن هاران بن تاح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن اخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور اخوة كما قدمنا ويقال : إن هاران هذا هو الذي بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزع عن محلة الخليل عليهما السلام بامر له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرفى ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس واكفرهم واسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة ، يقطعون السيل ، ويأتون في ناديتهم المنكر ولا ينتاهون عن منكر فعلوه لبس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهي ايتان الذكران من العالمين وترك ما خلق من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستحقات فتدادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا في فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثله في العالمين وعبرة يتعظم بها من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى : قصتهم في غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون . فأخيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عقاب المجرمين ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى في سورة هود : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب . قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر

(١) الآيات ٥٤ - ٥٨ من سورة التل .

(٢) الآيات ٧٣ - ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآيات ٨٠ - ٨٤ من سورة الأعراف .

الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروح وجاءته البشري يجادلنا في قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا ساء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قال يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد . إلا امرأتك إنه مصيبيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشركموني على أن مسنى الكبر فم تبشرون قالوا بشركناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ، فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جنناك بما كنوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإننا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تحزون ، قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ، فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن في ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسييل مقيم إن في ذلك لآية للمؤمنين <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تثقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكرا من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إني لعملكم من القالين ، رب نجني وأهلي مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أنكنم لتأتون

(١) الآيات ٦٩ - ٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيات ٥١ - ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآيات : ١٦٠ - ١٧٥ من سورة الشعراء .

الرجال من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴿١﴾ . وقال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿٢﴾ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السيل وتأتون في ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرني على القوم المفسدين ، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴿٣﴾ وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿٤﴾ وإن لوطا لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجزوا في الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴿٥﴾ .

وقال تعالى : في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم ﴿٦﴾ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴿٧﴾ . وقال في سورة القمر : ﴿٨﴾ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتمأروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴿٩﴾ وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في التفسير وقد ذكر الله لوطا وقومه في مواضع أخر من القرآن الكريم تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود . والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار والله المستعان .

وذلك أن لوطا - عليه السلام - لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا باخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل

(١) الآيات ٥٤ - ٥٨ من سورة النمل .

(٢) الآيات ٢٨ - ٣٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيات ١٣٣ - ١٣٨ من سورة الصافات .

(٤) الآيات : ٣١ - ٣٧ من سورة الذاريات .

(٥) الآيات ٣٣ - ٤٠ من سورة القمر .

صوابهم عن خطابهم إذا كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم انهم أناس يتطهرون فيجعلوا غاية المدح ما يقتضى الإخراج وما حملهم على مقاتلتهم هذه الا العناد واللجاج فنظره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن إخراج وتركهم في محلهم خالدين لكن بعد ما صيرهم عليهم بحيرة فتنة ذات أمواج لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج ، وما كان هذا جوابهم الا لما نهاهم عن الطاعة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التي لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويأتون في ناديتهم وهو مجتمهم ومحل حديثهم وسمهم المنكر من الأقوال ، والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا في مجالسهم ولا يستحون من مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستكفون ولا يرفعون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه في الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضي ولا راموا في المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا ويلا وقالوا له : فيما قالوا : ﴿ أأتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبه واستجاب لدعوته واجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤا له من الأمر الجسم والخطب العميم .

قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين ﴿ وقال : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿ وقال الله تعالى : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الأروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴿ وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴿ أى : اعرض عن هذا وتكلم في غيره فإنه قد ختم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ﴿ إنه قد جاء أمر ربك ﴿ أى : قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴿ .

وذكر سعيد بن جبير والسدى وقتادة ومحمد بن إسحق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول ( أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن قالوا : لا ، قال : فمائتا مؤمن قالوا : لا ، قال فاربعمائة مؤمن قالوا : لا ، قال : فاربعة عشر مؤمنا قالوا : لا ) قال ابن إسحق إلى أن قال : ( أفرايتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا : لا . ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها ﴿ الآية وعند أهل الكتاب أنه قال : يارب أهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا قال : لا أهلكهم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل إلى عشرة فقال الله ﴿ لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون ﴿ قال الله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ﴿ .

قال المفسرون لما فضلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل اقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صور شبان حسان اختاروا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا - عليه السلام - وذلك عند غروب الشمس فخشي إن لم يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس ، وسىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ومحمد بن اسحق ، شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعتة الليلة عنهم كما كان يصنع بهم في غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه . وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحى منهم وانطلق امامهم وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا في غيرها فقال لهم : فيما قال : يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال : وكانوا قد امرؤا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبينهم بذلك وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنه لوط تستقى من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا ، فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فأتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادت فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاءتهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فاخبرت قومها فقالت ان في بيت لوط رجلا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ . أى : هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة . ﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد كما ورد في الحديث وكما قال تعالى : ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ <sup>(١)</sup> وفي قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم . وهذا كقوله ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ وهذا هو الذى نص عليه مجاهد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد ابن اسحق وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد عليهم ، كما أخطأوا في قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تحييطا .

وقوله ﴿ فاتقوا الله ولا تحزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴾ نهي لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء . فجرة أقوياء . كفره أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوها منه من قبل أن يسأله عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المحيد . محيين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿ لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد ﴾ يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا في نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا ، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم . ولهذا

(١) من الآية ٦ من سورة الأحزاب .

قال : عليه السلام - ( لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد ) ود أن لو كان بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهري عن سعيد بن المسيب وأبي هريرة رضى الله عنهما مرفوعا ( نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى . وقال محمد بن عمرو : من علقمة عن أبي سلمة : عن : أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ - قال : ( رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله - عز وجل - فما بعث الله من بعده من نبي الا فى من قومه )<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تحزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ﴾ فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيئاتهم هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعون بل كلما يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون ولم يعلموا ما صم به القدر مما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم منتقلون ، ولهذا قال تعالى : مقسما بحياة نبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد أنذرهم بطشتا فتمأروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوطا - عليه السلام - جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ما لهم فى ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد لأحل بكم النكاح . قالت الملائكة : ﴿ يا لوط إننا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وذكروا أن جبريل - عليه السلام - خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الشيطان . ويتوعدون رسول الرحمن . ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شان قال الله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط - عليه السلام - آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمره أن يكون سيئه فى آخرهم كالساق لهم . وقوله ﴿ إلا امرأتك ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله ﴿ فأسر بأهلك ﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك أى : فأنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول اظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلي : واسم امرأة لوط والهة ، اسم امرأة نوح والغة وقالوا له : مبشرين بهلال هؤلاء البغاة العناة الملعونين النظراء والاشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب ﴿ إن موعدهم الصبح ليس الصبح بقريب ﴾ فلما خرج لوط - عليه السلام - بأهله وهم ابتناه ولم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال : ان امرأته

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى تفسير سورة يوسف ج ٨ ص ٥٤١٥٤٠ من رواية عبده وعبد الرحيم عن محمد بن عمر عن أبى هريرة .



خرجت معه فالله أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس عند شروقها جاءهم من أمر الله مالا يرد . ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد . وعند أهل الكتاب أن الملائكة امرؤه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب الى قرية قريبة منهم فقالوا : اذهب فإنها ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نخل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب الى قرية صغر التي يقول الناس : غور زغر ، فلما اشرفت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قراهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم فقالوا : إنهم كانوا أربع مائة نسمة وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات ما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿ وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ والسجيل : هو الشديد الصلب القوى ﴿ منضود ﴾ أى : يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء ﴿ مسومه ﴾ أى : معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال : ﴿ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ وقال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى . فغشاهما ما غشى ﴾ <sup>(١)</sup> يعنى : قلبها فأهوى بها منكسة عاليها وسافلها وغشاهما بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلادهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال : إنها خرجت مع زوجها وبناتها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا ، وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : فخانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد : أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلاهما . فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس : وغيره : من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال : خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا .

وقوله ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أى : وما هذه العقوبة ببعيدة ممن اشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الامام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله —

(٢) الآيتان ٥٣ - ٤٥ من سورة النجم .

(٢) الآية ١٠ من سورة التحريم .

ﷺ - قال : ( من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ) (١) وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى : ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين في انجائهم من المهلكات . وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن في ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسييل مقيم . إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أى : من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة كما روى الترمذى وغيره مرفوعا ( اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ وقوله ﴿ وإنها لسييل مقيم ﴾ أى : الطريق مهىء مسلك إلى الآن كما قال : ﴿ وإنكم تمارون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أى : تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف إن يشابه قوم لوط ( ومن تشبه بقوم فهو منهم ) وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم : فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد : فالعاقل اللبيب الخائف من ربه ، الفاهم ، يمثل ما أمره الله به - عز وجل - ويقبل ما أرشد إليه رسول الله من إيمان ما خلق له من الزوجات الحلال . والجوارى من السراى ذوات الجمال . وإياه أن يتبع كل شيطان مريد . فيحقق عليه الوعيد . ويدخل في قوله تعالى ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ .

قصص يونس عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ

الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

(١) الحديث في تحفة الأخوذى بشرحا مع الترمذى ج ٥ ص ٢١ رقم ١٤٨١ ( أبواب الخلود ) وفي سنن ابن ماجه - كتاب الخلود ( باب ) من عمل قو لوط ج ٢ ص ٨٥٦ رقم ٢٥٦١ .

لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً  
مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَتَأْمَنُوا فَمِتَعْنَهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾

### « تفسير المفردات »

أصل الابق : هرب العبد من سيده ، والمراد : هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ، ( المشحون ) : المملوء ،  
( فساهم ) أى : فقارع من فى النلك ، أى : عمل قرعة . ( المدحضين ) أى : المغلوتين بالقرعة ،  
( فالتقمه ) أى : فابتلعه ، ( ملیم ) : أى أن ما يستحق عليه اللوم ، ( بالعرء ) أى : بالمكان الخالى ،  
( يقطين ) أى : ذباء ( القرع العسلى المعروف الآن ) وقيل : الموز .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أى : وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى  
بالموصل ، ﴿ إِذْ أَتَى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ أى : هرب إلى الفلك المملوء بالأمته قاله ابن عباس :  
﴿ فساهم ﴾ أى : قارع ، ﴿ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ أى : المغلوتين ، وذلك أن السفينة تلعبت بها  
الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقي فى البحر لتخف بهم  
السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام ثلاث مرات وهم يضمنون به أن يلقي من بينهم فتجرد  
من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر ان يشق البحار وأن  
يلتقم يونس - عليه السلام - فلا يهشم له لحما ولا يكسر له عظما فجاء ذلك الحوت وألقى يونس - عليه  
السلام - نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس فى بطن الحوت حسب  
أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى فقام فصلى فى بطن الحوت وكان من جملة دعائه  
يارب اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس ، واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت  
فقليل ثلاثة أيام قاله قتادة : وقيل سبعة . قاله جعفر الصادق - رضى الله عنه - ويقال : أربعين يوما قاله أبو  
مالك وقال مجالد عن الشعبي ، التقمه ضحى ولفظه غشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك ، فى ذلك يقول  
أمية أبى الصلف : (١)

وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وأنت بفضل منك نجيحت يونس

﴿ فَالتقمه الحوت وهو ملیم ﴾ أى : فالتقمه الحوت وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه ،  
وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه . ثم ذكر سبحانه أنه أنجاه لما كان له من عمل صالح فقال :  
﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ، لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل فى  
الرخاء ، وفى الحديث ( تعرف إلى الله فى الرخا يعرفك فى الشدة ) . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما -  
وسعيد ابن حبيب ، والضحاك ، وعطاء ، بن السائب والسدى ، والسحن ، وكتادة ، ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ

(١) الحديث فى تحفة الأخوذى بشرح جامع الترمذى ج ٨ ص ٥٥٥ رقم ٥١٣٣ .

المسيحين ﴿﴾ يعنى المصلين . وقيل المراد : ﴿﴾ فلولا أنه كان من المسيحين ﴿﴾ هو قوله - عز وجل - حكاية عنه كما فى سورة الأنبياء ﴿﴾ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿﴾<sup>(١)</sup> وقال ابن ابي حاتم عن أنس بن مالك عن رسول الله - ﷺ - حين بداله أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة بالعرش قالت الملائكة : يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة فقال الله تعالى : اما تعرفون ذلك ، فقالوا : يارب ومن هو ؟ قال : عز وجل عبدى يونس قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ قالوا : يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه فى البلاء ؟ قال : بلى فأمر الحوت فطرجه بالعراء<sup>(٢)</sup> ولهذا قال تعالى : ﴿﴾ فبذناه بالعراء وهو سقيم ﴿﴾ أى : ألقيناه ﴿﴾ بالعراء ﴿﴾ قال ابن عباس أرض ليس بها نبت ولا بناء ﴿﴾ وهو سقيم ﴿﴾ أى : ضعيف البدن ﴿﴾ وأنبأ عليه شجرة من يقطين ﴿﴾ قال : غير واحد من السلف : هو القرع . وذكر بعضهم فى القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعمته وأنه لا يقرها الذباب وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نياً ومطبوخاً وقشرة أيضاً . وقد ثبت أن رسول الله - ﷺ - كان يحب الدباء ويتبعه من نواحى الصحفة .

وقوله تعالى : ﴿﴾ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴿﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما - إنما كانت رسالة يونس - عليه السلام - بعدما نبذ الحوت . وعن مجاهد : أنه أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت ( قال ابن كثير ) ولا مانع أن يكون الذى أرسل إليهم أولاً أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى النبوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون . وقوله تعالى ﴿﴾ أو يزيدون ﴿﴾ قال ابن عباس : معناها : بل يزيدون فالمراد : ليس أنقص من ذلك بل أزيد . وقوله تعالى ﴿﴾ فآمنوا ﴿﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس - عليه السلام - جميعهم ﴿﴾ فمتعنهم إلى حين ﴿﴾ أى : إلى وقت آجالهم كقوله تعالى : ﴿﴾ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعنهم إلى حين ﴿﴾ .

قال : العلامة الحافظ ابن كثير فى كتابة قصص الأنبياء عن النبى يونس : قال الله تعالى فى سورة يونس ﴿﴾ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ومتعنهم إلى حين ﴿﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء ﴿﴾ وذا النون إذ مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴿﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) من الآية ٨٧ ، الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٢) أنظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الإيدية .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ٨٧ - ٨٨ من سورة الأنبياء .

وقال تعالى في سورة الصافات : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين إذا أبقى إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمعتناهم إلى حين ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى في سورة ن ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبد بالعراء وهو مذموم ، فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس - عليه السلام - إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله - عز وجل - فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك ، عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود : ومجاهد ، وسعيد بن حبيد ، وقتادة ، وغير واحد من السلف فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قذف الله في قلوبهم التوبة والانابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عادوا إلى الله - عز وجل - وصرخوا ، وتضرعوا إليه وتمسكوا لديه ، وبكى الرجال ، والنساء ، والبنون والبنات ، والأمهات وجأت الأنعام ، والدواب ، والمواش ، فرغت الأبل ، وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ﴾ أى : هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نبي إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ وقوله ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومعتناهم الى حين ﴾ أى : آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الايمان في الدار الآخر فينقذهم من العذاب الأخرى كما أنقذهم من العذاب الدينى على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم .

وقد كانوا مائة الف لا محالة واختلفوا في الزيادة فعن محمول عشرة آلاف وروى الترمذى عن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله - ﷺ - عن قوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قال يزيدون عشرين الفا <sup>(٣)</sup> فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا في هذا الباب قال ابن عباس مائة الف

(١) الآيات ١٣٩ - ١٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٤٨ - ٥٠ من سورة القلم .

(٣) الحديث في تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٦ ص ٦٧ رقم ٣٢٨٢ وقال : هذا حديث غريب - وفي تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٦٧ في سورة الصافات .

وثلاثين الفا (١) وقال : سعيد بن حبيب : ( كانوا مائة ألف وسبعين الفا ) (٢)

واختلفوا هل كان أرسلاله فيهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هي مبسطة في التفسير . والمقصود : أنه - عليه السلام - لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب السفينة في البحر فلجأت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقتنعوا فمن وقعت عليه القرعة القوة من السفينة ليتحفظوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس فلم يسمحوا به فاعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا ، فشمز ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة الثالثة فوقعت عليه أيضا لما يريد الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبى الفلك المشحون فسأهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم ﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة القي في البحر وبعث الله عز وجل حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى أن لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت آخر أكبر منه . قالوا ولما استقر في جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحرك فإذا هو حي فخر الله ساجدا وقال : يارب اتخذ لك مسجدا لم يعبدك أحد في مثله .

وقد اختلفوا في مقدار لبثه في بطنه . فقال مجالد : عن الشعبي التقامة ضحى ولفظه عشية . وقال قتادة : مكث فيه ثلاثا وقال جعفر الصادق : سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن أبي الصلت . وأنت بفضل منك نجيت يونساً وقد بات في أضعاف حوت لياليا

وقال : سعيد بن أبي الحسن ، وأبو مالك مكث في جوفه أربعين يوما والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه . والمقصود : أنه لما جعل الحوت يطوف به في قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجي فسمح تسبيح الحيتان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى . فعند ذلك وهنالك قال : ما قال : بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذي يعلم السر ، والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومحجب الدعوات ، وإن عظمت حيث قال : في كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين وإله المرسلين ﴿ وإذا النون إذ ذهب ﴾ إلى أهله ﴿ مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أى : نضيق ، وقيل معناه نقدر من التقدير ﴿ فنادى في الظلمات ﴾ قال ابن مسعود : وابن عباس وسعيد بن حبيب وغيرهم ظلمة الحوت ، وظلمة البحر وظلمة الليل . وقال سالم بن أبي الحجر ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : ﴿ فلولاً أنه كان من المسيحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ قيل

(١) انظر ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ في تفسير سورة الصافات .

(٢) وانظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ في تفسير سورة الصافات .

معناه : لولا أنه سبحانه الله هنالك وقال : ما قال : من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه . للبث هنالك إلى يوم القيامة . ولبعث من جوف ذلك الحوت . وقيل معناه ﴿ فلولا أنه كان ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ من المسيحين ﴾ أى : المطيعين المصلين الذاكرين لله كثيرا ، قاله الضمك بن ميس ، وابن عباس ، وأبو العالية وغيرهم واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس : أن رسول الله ﷺ — قال لى : ( يا غلام إني معلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة )<sup>(١)</sup> رواه ابن جرير والحيزار في سنده عن أبى هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ — ( لما أراد الله حبس يونس في بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخذش لحما ولا تكسرن عظما فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال : في نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو في بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح وهو في بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ( يا ربنا نسمع صوتا بأرض غريبة ) قال : ذلك عبدى يونس ، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه في كل يوم ليلة عمل صالح قال : نعم ، قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقفذه في الساحل كما قال الله : ﴿ وهو سقيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد قال ابن أبى حاتم عن أنس ( أن يونس النبی — عليه السلام — حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال : ( اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ) فاقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذاك قالوا : يارب ومن هو قال : عبدى يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة قالوا : يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه في الرخاء فتنجيه في البلاء قال : بلى فأمر الحوت فطرحه في العراء )<sup>(٣)</sup> وروى ابن جرير عن أبى هريرة أنه قال : ( طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبى هريرة : وما اليقطينة : قال : شجرة الدباء قال : أبو هريرة هيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال هشاش الأرض : قال : فتتنفش عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت )<sup>(٤)</sup> وقال أمية ابن أبى الصلف في ذلك بيتا من شجرة .

فأنبت يقطينا عليه برحمة من الله لولا الله أصبح ضاويًا

وقد قال الله تعالى : ﴿ فنبذناه ﴾ أى : ألقيناه ﴿ بالعراء ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شيء من الأشجار بل هو عار منها ﴿ وهو سقيم ﴾ أى : البدن . ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ قال غير واحد من المفسرين : هو القرع . قال بعض العلماء في انبات القرع عليه حكم جمه . منها أن ورقة في

(١) هذا جزء حديث رواه أحمد في مسنده ( مسند ابى عباس ) ج ١ ص ٣٧ .

(٢) أنظر كشف الأستار عن روائد البزار ج ٣ ص ٦٧ - ٦٨ رقم ٢٢٥٤ ، وانظر الطبري ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .

(٣) انظر الطبري ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الاميرية .

(٤) انظر الطبري ج ٢٣ ص ٦٦ المطبعة الاميرية .

غاية النعمة وكثير وظليل ولا يقره ذباب ، ويؤكل ثمرة من أول طلوعه إلى آخره نيا ومطبوخا وبقيشة وبيذره أيضا ، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة في تسخير الله تعالى له تلك الإلادية التي كانت تصرفه لبها وترعى في البرية وتأتيه بكرة وعشية .

وهذا من رحمة الله به ، ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ فاستجبنا له فنجيناها من الغم ﴾ أى : الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ أى : وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : عن سعد بن أنى وقاص يقول : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول ( اسم الله الذى إذا ادعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال : فقلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها )<sup>(١)</sup> ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناها من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به وقال ابن أبي حاتم عن سعد قال قال رسول الله — ﷺ — ( من دعا بدعاء يونس أستجيب له ) قال : أبو سعيد الأشج يريد به ﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما قال الإمام أحمد : عن سعد بن أنى وقاص ( مررت بعثمان بن عفان فى المسجد فسلمت عليه فملا عينيه منى ثم لم يردد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى السلام شئ قال : لا : وماذا قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمت عليه فملا عينيه منى ثم لم يردد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام . قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى واستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله — ﷺ — لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبي غشاوة قال سعد فأنا أنبئك بها أن رسول الله — ﷺ — ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرأى فشغله حتى قام رسول الله — ﷺ — فلما اشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله — ﷺ — فقال : من هذا . أبو اسحق قال : قلت : نعم . يا رسول الله قال : فمه قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاء هذا الأعرأى فشغلك . قال : نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت )<sup>(٢)</sup> ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شئ قط إلا استجاب له . ورواه الترمذى والنسائى من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد .

فضل يونس :

قال الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتي النساء

(١) انظر الطبري ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .

(٢) الحديث فى سنن أحمد ج ١ ص ١٧٠ بلفظه .



والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وقال الإمام احمد : عن : أبى وائل عن : عبد الله ، قال : رسول الله ﷺ - ( لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى )<sup>(١)</sup> وقال البخارى : عن أبى هريرة عن النبى ، - ﷺ - قال : ( لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى )<sup>(٢)</sup> وكذا رواه مسلم كما ورد فى بعض الأحاديث لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى . وهذا من باب الهضم والتواضع منه - صلوات الله وسلامه عليه - وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .  
افتراء على الله .

قال تعالى :

فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ۖ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ۚ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۖ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۖ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ۚ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۚ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ ۚ (١٥٦) فَأَتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِسْبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۚ (١٥٨) سُبْحٰنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۚ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۚ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ۚ (١٦٢) إِلَّا مِنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ۚ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۚ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ۚ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسِيحُونَ ۚ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ۖ (١٦٧) لَوْ أَن عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۖ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ۚ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۚ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ۚ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ۚ (١٧٢) وَإِن جُنَدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ۚ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۚ (١٧٤) حَتَّىٰ حِينٍ ۚ (١٧٥) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ۚ (١٧٥) أَفَعِزَّادِنَا

(١) أنظر مسند أحمد ( مسند عبد الله بن مسعود ) ج ٢٩٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ ج ١ الشعب - كتاب بدء الخلق - باب قوله تعالى : ﴿ وان يونس لمن المرسلين ﴾ وأنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٦ رقم ٢٣٧٦ الفضائل باب فى ذكر يونس - عليه السلام - وقول النبى ﷺ - ( لا ينبغي لعبد ) .

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَ فَسَوْفَ يُبْصَرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ إفكهم ﴾ كذبهم على الله ، ﴿ أصطفى ﴾ ؟ أختار ؟ استفهام توييح ، ﴿ سلطان ﴾ حجة وبرهان ، ﴿ الجنة ﴾ الملائكة . أو الجن ، ﴿ إنهم محضرون ﴾ إن الكفار لمحضرون للنار ، ﴿ بفاتنين ﴾ أى : بمضلين من قولهم فتن فلان على فلان امرأته إذا افسدا عليه ، ﴿ صال الجحيم ﴾ أى : داخل في النار ومعذب فيها ، ﴿ الصافون ﴾ أى : صافوا أنفسهم للعبادة ، ﴿ ذكر ﴾ أى : كتابا ، ﴿ كلمتا ﴾ : وعدنا ، ﴿ المنصورون ﴾ أى : الغالبون في الحرب وغيرها ، ﴿ جندنا ﴾ أى : اتباع رسلنا ، ﴿ الساحة ﴾ المكان والواسع .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

أمر الله رسوله في صدر هذه السورة بتبكيث قریش وتوييخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة وتظاهرها على وجوده ، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده ولا جحده ، ثم أعقبه بذكر ما سيلقونه من العذاب حينئذ ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين ، وبين ما يلقونه من النعيم ، ثم عطف على هذا انه قد ضل قبلهم أكثر الأولين ، وأنه أرسل إليهم منذرين ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء تقصيلا متضمنا وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل ، وهنا أمره بالتنديد عليهم ثانيا بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائزة التي عملوها وهي جعل البنات لله وجعل البنين لأنفسهم بقولهم : الملائكة بنات الله ، ثم بالتقريع ثالثا على استهانتهم بالملائكة بجعلهم إناثا ، ثم أبطل كلا من هذين بالحجة التي لا يجد العاقل محيصا عن التصديق بها والإذعان لها ، وأتبع ذلك بما نبه به إلى أن هؤلاء المشركين لا يقدرّون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان مستعد له ، وقد سبق في حكم الله أنه من أهل النار وأنه لا محالة واقع فيهم ، ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيها إلى فساد قول من ادعى أنهم أولاد الله . ثم هدد سبحانه المشركين بقوله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وأردف ذلك ما يقوى قلب : رسوله — ﷺ — بوعده بالنصر والتأييد . كما جاء في آية أخرى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وختمت السورة بهذا الختام الرائع ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات وهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبین ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحانه الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

من قبائح هؤلاء المشركين ، أنهم نسبوا لله تعالى الملائكة وقالوا إنهم بنات الله قال تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ فاستفتهم ﴾ في هذا الأمر ﴿ ألربك البنات وهم البنون ﴾ كيف يكون ذلك كذلك وهم يكرهون الإناث ، ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه في التراب إن ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم ﴾ ثم يقول إلى : ﴿ ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن هم الحسنی لا جرم أن هم النار وأنهم مفرطون ﴾ <sup>(٢)</sup> ثم تأمل معى كيف يجعلون لله البنات سبحانه وهم ما يشتهون قال تعالى : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ ثم يقول سبحانه : ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ﴾ أوم هنا بمعنى بل والهمزة أى : بل أخلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون كما قال تعالى : ﴿ أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويسألون ﴾ إن الملائكة عباد مكرمون ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة إنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون ، التسييح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم يقول سبحانه مخبرا عن افتراء هؤلاء العصاة ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ﴾ قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله انصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال جل شأنه ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال سبحانه : ﴿ بديع السموات والأرض أئى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شئ وهو بكل شئ عليم ، ذلکم الله ربکم لا

(١) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات من ٥٨ - ٦٠ من سورة النحل . والآية ٦٢ من نفس السورة .

(٣) الآيات ١٧ - ١٨ من سورة الزخرف .

(٤) الآيات ١ - ٤ من سورة الاخلاص .

(٥) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وقال جل شأنه : ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿اصطفى البنات على البنين﴾ استفهام توييحي فيه تبكيت وتقريع لهؤلاء الجاحدين لعظمة الله تعالى هل يصطفى ويختار البنات على البنين يا من تكبرون البنات وتأدونهم ﴿ما لكم كيف تحكمون﴾ أى : خبل تلبستم به ، كيف تحكمون هذا الحكم ، ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾ إن كان لكم سلطان مبين ، وحجة واضحة فأتوا بهذا الكتاب الذى ثبت هذا الحجة ويبين هذا البرهان . ثم يستطرد النظم الكريم فى بيان قبائح هؤلاء فيقول ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسيا ، ولقد علمت الجنة إنهم محضرون﴾ قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فمن أمهاتهن ، قالوا بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة : وابن زيد ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ولقد علمت الجنة﴾ أى : الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿إنهم محضرون﴾ أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم ، ثم ينزه الله ذاته المقدسة تنزيها مطلقا ، فيقول ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ كما قال فى آخر السورة : ﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون﴾ . وقوله تعالى ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن عباد الله المخلصين ، فإنهم لا يصفون الله إلا بكل كمال يليق بذاته ، وينزهونه عن كل نقص . قوله تعالى : ﴿فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكننا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون﴾ . هذا إخبار منه تبارك وتعالى وخطاب يتوجه به إلى أهل الضلال الذين أضلوا عباد الله وفتنوهم يقول لهم سبحانه : فإنكم يا أهل الضلال وما تعبدون من دون الله لا تستطيعون فتنة أحد ، إلا إذا كان من أهل النار وسيصلى سعيها ويدخل جحيمها . قال سبحانه وتعالى : ﴿قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وقال سبحانه ﴿إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ قوله تعالى : ﴿وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الملائكة المكرمين فما منهم من أحد إلا له مقام معلوم ومكانة فى السماء فإنهم المسبحون الذين جعلت صفوفنا فى الصلاة كصفوفهم فى السماء قال ابن عساكر فى ترجمة : محمد بن خالد بسنده : إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد ، عن أبيه وكان محمد بايع يوم الفتح أن رسول الله - ﷺ - قال يوما لجلسائه

(١) الآيتان ١٠١ - ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة الزمر .

(٣) من الآية ٦٣ من سورة القصص .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الاعراف .

(١)

أطت السماء وحق لها أن تطط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راعع أو ساجد<sup>(١)</sup> ثم قرأ - ﷺ -  
﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾ وقال الضحاك في تفسيره  
﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ قال : كان مسرون يروى عن عائشة : رضى الله عنها - أنها قالت : قال :  
رسول الله - ﷺ - ( ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم ) فذلك قوله تعالى :  
﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ .

ومعنى ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أى : نقف صفوفا فى الطاعة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ والصافات  
صفا ﴾ قال أبو نضرة كان عمر - رضى الله عنه - إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا  
صفوفكم استووا قياما يريد الله بكم هدى الملائكة ثم : يقول : ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ تأخر يا فلان  
تقدم يا فلان ثم : يتقدم فيكبر<sup>(٢)</sup> رواه ابن اى حاتم وابن جرير .

وفى صحيح مسلم عن : حذيفة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( فضلنا على  
الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا )<sup>(٣)</sup>  
قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسّه ونزّهه عن النقائص  
فنحن عبيد له ، فقراء إليه خاضعون لديه .

وقال ابن عباس : رضى الله عنه - ومجاهد ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ الملائكة ﴿ وإنا لنحن  
الصافون ﴾ الملائكة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ الملائكة نسبح الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به  
فسوف يعلمون ﴾ وقد كان ذلك قبل مبعثه - ﷺ - ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على  
الكافرين ﴾<sup>(٤)</sup> وذلك كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى  
من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ، ولا يحيق  
المكر السيئ إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة  
الله تحويلا ، أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما  
كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا ، ولو يؤاخذ الله الناس بما  
كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده  
بصيرا ﴾<sup>(٥)</sup> لقد تمتوا أن يكونوا عباد الله المخلصين ، ولكن وما نيل المطالب بالتمنى ، وليس الإيمان بالتمنى

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة بمعناه ج ٢ ص ١٤٠٢ رقم ٤١٩٠ .

أنظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨ تفسير سورة الصافات .

(٢) انظر الطبر ج ٢٣ ص ٧١ بلفظه .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧١ رقم ٥٥٢ ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة بلفظ الحديث .

(٤) من الآية ٨٩ من سورة البقرة .

(٥) الآيات ٤٢ - ٤٥ من سورة فاطر .

ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل لذلك ذهب تمنيم أدراج الرياح واطهر الله تعالى ما في قلوبهم لقد كفروا به وبكتابه وبرسوله . ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها اتبعه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، ونقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ <sup>(١)</sup> وفي قوله تعالى ﴿ فسوف يعلمون ﴾ وعيد تنخلع له الأفئدة وتنفطر من هوله مرائر الثور ، وتسبل له الأكباد مرارة ولوعة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف ييصررون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف ييصررون . ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ أى : تقدم في الكتاب الأول أن العقابة للرسول وأتباعهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال عز وجل ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ <sup>(٣)</sup> ولهذا قال جل جلاله ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ﴾ أى : في الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم كيف أهلك الله الكافرين ونحن عباده المؤمنين . ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ أى : تكون لهم العقابة . وقوله جل جلاله ﴿ فتول عنهم حتى حين ﴾ أى : اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فانا سنجعل لك العقابة والنصر والظفر ، ولهذا قال بعضهم : ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضا في معناها . وقوله جلت عظمتة ﴿ وأبصرهم فسوف ييصررون ﴾ أى : أنظروهم وارقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ولهذا قال تعالى : على وجه التهديد والوعيد ، ﴿ فسوف ييصررون ﴾ ثم : قال — عز وجل — ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أى : هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة قال الله تعالى ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ أى : فإذا نزل العذاب بجلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم باهلاكم ودمارهم وقال السدى : ﴿ فإذا نزل بساحتهم ﴾ يعنى بدارهم ، ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ أى : بئس الصباح صباحهم . ولهذا ثبت في الصحيحين عن أنس : رضى الله عنه — قال : صبح رسول الله ﷺ — خير فلما خرجوا بفؤوسهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون محمد والله والخميس فقال النبى ﷺ : — ( الله أكبر خرجت

(١) الآيات ٤٨ — ٥١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .

خبر إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يصبرون ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك في قوله تعالى ﴿ فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يصبرون ﴾ ويختتم الله تعالى هذه السورة المباركة بقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدها ويربها عما يقول الظالمون والمكذوبون المعتدون تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوا كبيرا ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ أى ذى العزة التى لا ترام ﴿ عما يصفون ﴾ أى : عن قول هؤلاء المعتدين المغترين ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أى : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه فى ربهم وصحته وحقيقته وجهادهم فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أى : له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما فى هذا الوضع وفى مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال : تبارك وتعالى ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾ وقال سعيد . بن أبى عروبة : عن : قتادة : قال : قال : رسول الله ﷺ — ( إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين )<sup>(٢)</sup> هكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم .

### سورة ( ص )

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . وآياتها ثمان وثمانون فى عدد الكوفة ، وست فى عدد الحجاز ، والشام ، والبصرة ، وخمس فى عدد أيوب بن المتوكل وحده .  
وكلماتها : سبعمائة واثنان وثلاثون . وحروفها . ثلاثة آلاف وسبع وستون . وكلماتها : سبعمائة واثنان وثلاثون . وحروفها : ثلاثة آلاف وسبع وستون .  
مجموع فواصل آياتها : ﴿ حد قطرب من لج ﴾ ولها اسمان : سورة صاد ، لافتتاحها بها ، وسورة داود ، لاشتغالها على مقصد قصته فى قوله ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد ﴾ .  
مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى ﷺ ، ووصف المنكرين رسول الله — ﷺ — بالاختلاف والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء ، وعجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان فى حديث الملك ، على سبيل المنة والعطاء ، وذكر أيوب فى

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٢٦ رقم ١٢٠ - ١٣٦٥ ( كتاب الجهاد والسير ) .

وأنظر البخارى ، كتاب المغارى ، باب غزوة خيبر ج ٥ ص ١٦٧

(٢) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٧٤ بلفظه .

الشقاء ، والابتلاء وتخصيص إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكنى جنة الماوى ، وحجز حال الاشقياء فى سقر ولظى ، وواقعة ابليس مع آدم وحواء وتهديد الكفار على تكذيبهم للنبي المجتبى فى قوله ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

المتشابهات فى سورة .

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون ﴾ بالواو ، وفى ق : ﴿ فقال ﴾ بالفاء ، لأن اتصاله بما قبله فى هذه السورة معنوى ، وهو أنهم عجبوا من مجيء المنذر وقالوا : هذا المنذر ساحر كذاب . واتصاله فى ﴿ ق ﴾ معنوى ولفظى ، وهو أنهم عجبوا ، فقالوا : هذا شيء عجيب . فراعى المطابقة بالعجز والصدر ، وختم بما بدأ به ، وهو النهاية فى البلاغة .

قوله : ﴿ أنزل عليه الذكر من بينا ﴾ وفى القمر ﴿ ألقى ﴾ <sup>(١)</sup> لأن ما فى هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمداً - ﷺ - حين قرأ عليهم ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ <sup>(٢)</sup> فقالوا : أنزل عليه الذكر ومثله ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ﴾ <sup>(٣)</sup> وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده <sup>(٤)</sup> .

وهو كثير ، وما فى القمر حكاية عن قوم صالح . وكان يأتي الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة وألواح مسطورة ، كما جاء إبراهيم وموسى . فلهذا قالوا : ﴿ ألقى الذكر عليه ﴾ <sup>(٥)</sup> مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال .

قوله : ﴿ ومثلهم معهم رحمة منا ﴾ <sup>(٦)</sup> وفى الأنبياء ﴿ من عندنا ﴾ لأن الله تعالى - ميز أيوب بحسن صبره على بلائه ، من بين أنبيائه ، فحيث قال لمن : من عندنا قال له : منا ، وحيث لم يقل لهم : من عندنا قال له : من عندنا . فخصت هذه السورة بقوله : منا لما تقدم فى حقهم ﴿ من عندنا ﴾ فى مواضع ، وخصت سورة الأنبياء بقوله ﴿ من عندنا ﴾ لتفرده بذلك .

قوله ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ﴾ <sup>(٧)</sup> وفى ق : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس ﴾ <sup>(٨)</sup> إلى قوله ﴿ فحق وعيد ﴾ .

(١) من الآية ٢٥ من سورة القمر .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النحل .

(٣) من الآية ١ من سورة الكهف .

(٤) من الآية ١ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية ٢٥ من سورة القمر .

(٦) من الآية ٤٣ من سورة ( ص ) .

(٧) الآية ١٢ من سورة ( ص ) .

(٨) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة ق .



قال الامام : سورة ص بنيت فواصلها على ردف أواخرها بالالف ، وسورة : ق على ردف أواخرها بالياء والواو . فقال في هذه السورة : الأحزاب ، عقاب ، وجاء بإزاء ذلك في ق : ثمود ، وعيد ، ومثله في الصافات : ﴿ قاصرات الطرف عين ﴾ <sup>(١)</sup> وفي ص ﴿ قاصرات الطرف أتراب ﴾ فالقصد إلى التوفيق بين الألفاظ مع وضوح المعاني . قوله في قصة آدم ﴿ إني خالق بشر من طين ﴾ <sup>(٢)</sup> قد سبق .  
مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالتمتمة لها وذلك من وجهين :

١ - إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء ما لم يذكر في تلك كداود وسليمان .

٢ - إنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكننا عباد الله المخلصين . وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم وبدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذى الذكر وفصل ما أحمله هناك من كفرهم :

قال تعالى :

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتْ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى إِلِهِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُورُوا عَذَابٍ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ

(١) الآية ٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧١ من سورة ( ص ) .

وَأَصْحَابُ لَعِينِكُمْ ۖ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَبَ الرَّسُولَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا نَنْظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً مَّالَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَآ قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . .

### « تفسير المفردات »

﴿ الذكر ﴾ : الشرف كما قال : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك ﴾ ﴿ الذين كفروا ﴾ هم رؤساء قريش وأشياعهم ﴿ في عزة ﴾ أى : فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه ، والعزة أيضا الغلبة والقهر . ﴿ شقاق ﴾ أى : مخالفة من قولهم : فلان فى شق غير شق صاحبه ، ﴿ فنادوا ﴾ أى : استغاثوا ، ﴿ لات ﴾ أى : ليس الحين ﴿ مناص ﴾ أى : خيرا وهرب ، ﴿ عجاب ﴾ أى : بالغ فى العجب ﴿ الملة الآخرة ﴾ هى ملة النصارى ، ﴿ اختلاف ﴾ أى : كذب وافتراء ، ﴿ فليرتقوا ﴾ أى : فليصعدوا ، ﴿ فى الأسباب ﴾ أى : فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة : ﴿ جند ما ﴾ أى : جند كثير عظيم ، ﴿ مهزوم ﴾ أى : مغلوب ، ﴿ الأحزاب ﴾ أى : المجتمعين لا يذاء محمد وكسر شوكته وابطال دينه . ﴿ القط ﴾ النصيب والحظ ، والكتاب بالجوائز والجمع القطوطة .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ .

﴿ ص ﴾ هذا مما استأثر الله بعلمه ، ﴿ والقرآن ذى الذكر ﴾ أى : والقرآن ذى الشرف قاله ابن عباس : أى : الشأن والمكانة كقوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وانه فى أم الكتاب لدينا لعل حكيم ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال الضحاك : فى قوله تعالى ﴿ ذى الذكر ﴾ أى : تذكير كم وكذا قال قتادة : واختاره ابن

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيتان ٢١ - ٤٢ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ - ٤ من سورة الزخرف .

جرير : ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والانذار .

وقال المراغى فى تفسيره : ﴿ وَالْقُرْآنَ ذِى الذِّكْرِ ﴾ أى : أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز ، وإن محمدا لصاىق فيما يدعيه من النبوة ، وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر ، وإن كتابه لمنزل من عنده : ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال ! ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أى : إن فى هذا القرآن لمن يتذكر وعبه لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ فى عِزَّةٍ ﴾ أى : استكبارا عنه وحمية

﴿ وَشِقَاقٍ ﴾ أى : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة كما حكى عنهم سبحانه فى موضع آخر ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ <sup>(١)</sup> ثم حذرهم وخوفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم فقال تعالى : ﴿ كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب ، فلم يغنى ذلك عنهم شيئا ، فقد فات الأوان

وحل اليأس ، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب ونحو الآية قوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفروا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون ﴾ <sup>(٢)</sup> ونحو الآية قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ فرغوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ، وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيث من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ <sup>(٤)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ — بشيا ونذيرا كما قال عز وجل : ﴿ أكان للناس عجا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال

الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال جل وعلا ههنا ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أى : بشر مثلهم ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلهاء واحدا ﴾ أى : أزعى أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون بالله فإنهم قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان وأشرته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ — إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الاله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿ أجعل الآلهة إلهاء واحدا إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملائمة منهم ﴾ وهم سادتهم وكبرائهم قائلين ﴿ امشوا ﴾ أى : استمروا على دينكم ﴿ واصبروا على آهتكم ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوك إليه محمد —

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان ٨٤ - ٨٥ من سورة غافر .

(٣) الآيتان ٦٤ - ٦٥ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات ٥١ - ٥٤ من سورة سبأ .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

ﷺ - من التوحيد ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذى يدعوننا إليه - ﷺ - من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

قال ابن كثير : ( ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات ) .

قال السدى إن ناسا من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاصى بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يقون في نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضهم : لبعض انطلقوا بنا إلى أى طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذى يعبد ، فإننا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلا منهم يقال له : المطلب فاستأذن لهم على أى طالب فقال : هؤلاء شيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكيف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسوا الله - ﷺ - قال : يا ابن أخى هؤلاء شيخة قومك وسراتهم وقد سألوكم أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال : ﷺ - ( يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟ قال - ﷺ - ) ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم ) فقال أبو جهل : لعنه الله من بين القوم ما هى وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها قال - ﷺ - ( تقولون لا إله إلا الله ) فنفروا وقالوا : سلنا غيرها قال - ﷺ - ( لو بجمتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها )<sup>(١)</sup> فقاموا من عنده غضابا وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا ﴿ وانطلق الملائمة منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ﴾ .

ورواه ابن ابي حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله - ﷺ - عنه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾<sup>(٢)</sup> . وقولهم ﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ أى : ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة يعنى النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقا لأخبرتنا به النصارى ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴾ قال مجاهد : وقتادة كذب وقولهم ﴿ أنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ يعنى : أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال : في الآية الأخرى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أ هم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾<sup>(٤)</sup> ولهذا لما

(٩) انظر تفسير ابن كثير في تفسير ( ص ) ج ٧ ص ٤٦ وتفسير الطبرى ج ٢٣ ص ٧٢ .

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٣) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام .

قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى : ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أى : انما يقولون هذا لانهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون غب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، ثم قال تعالى مبينا أنه المتصرف فى ملكه الفعال لما يشاء الذى يعطى من يشاء ما يشاء ويضر من يشاء ويدل من يشاء ويهدى من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير ، ولهذا قال تعالى : منكرا عليهم ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ أى : العزيز الذى لا يرام جنباه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الانفاق ، وكان الإنسان قتورا ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى ﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقوله تعالى ﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرثقوا فى الأسباب ﴾ <sup>(٤)</sup> أى : ان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسناب ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما - ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم يعنى طرق السماء . وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة . وقد قال تعالى : فى موضع آخر ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نترصد به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المترصدين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ثم قال عز وجل : ﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكتبون كما كتب الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين وهذه الآية كقوله جلت عظمتة ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ <sup>(٦)</sup> وقوله ﴿ قل للذين

(١) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٠٠ من سورة الأبراء .

(٣) الآية ٣٧ من سورة الصور .

(٤) الآية ١٠ من سورة الصافات .

(٥) الآيات ٢٩ - ٤٣ من سورة الطور .

(٦) الآيتان ٤٤ - ٤٥ من سورة القمر .

كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ماها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب إصبر على ما يقولون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقوله تعالى ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شئ لما جاء أمر ربك ولهذا قال عز وجل : ﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾

وقوله تعالى ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ماها من فواق ﴾ قال ملك : عن زيد بن أسلم : أى : ليس لها مشنوية أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله — عز وجل — وقوله جل جلاله : ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب فإن القط هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب قال ابن عباس : رضى الله عنهما ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد سألوا تعجيل العذاب زاد قتادة كما قالوا : واذ قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ (٢) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم مهيطة بالكافرين ، يرم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ (٣) .

وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا ، وقال ابن كثير وهذا الذى قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبى خالد والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله — ﷺ — آمرا له بالصبر على أذاهم ومبشرا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر — كما قال له سبحانه فى مواقع أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما

(١) الآية ١٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴿١﴾ وكقوله تعالى ﴿فاصبر﴾ إن العاقبة للمتقين ﴿٢﴾ وقوله ﴿وأصبر وما صبرك إلا بالله﴾ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴿٣﴾ وقوله سبحانه ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ ﴿٤﴾ وقوله ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ ﴿٥﴾ .

قصص داود عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِذْ كَرَّعَبْدُنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ  
وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ  
وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾ \* وَهَلْ أَتَاكَ نَبْوُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى  
دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ  
وَلَا تَسْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعِجَةً وَلِيَ نَعِجَةٌ  
وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ  
وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ

(١) الآية ٣٥ من سورة الاحقاف .

(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .

(٣) الآيتان ١٢٧ - ١٢٨ من سورة النحل .

(٤) الآية ١١٥ من سورة هود .

(٥) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّثَابٍ ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ  
النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ  
عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَٰلِكَ  
ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَوَلَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ  
لِّيَذَّبُرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرُوا أَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عِلْدٌ بِغَيْرِ كِتَابٍ ﴿٢٩﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ الأيد ﴾ والآد : القوة في العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ﴿ أواب ﴾ : أى : رجاء إلى الله  
وإلى طاعته من قولهم أب الرجل إذا رجع - ﴿ والاشراق ﴾ : أى : وقت الأشراق ، يقال : أشرقت  
الشمس : أضاءت ، وشرقت : طلعت . ﴿ محشورة ﴾ : أى : محبوسة في الهواء ، ﴿ أواب ﴾ : أى :  
نقاد يسبح تبعاً له ، ﴿ شددنا ملكه ﴾ : أى : قويناه بالهيبة والنصر ، ﴿ والحكمة ﴾ : هى إصابة الصواب  
في القول والعمل ، ﴿ الفصل ﴾ : الحاجز بين الشيئين ، ﴿ وفصل الخطاب ﴾ : الكلام الذى يفصل بين  
الحق والباطل ، ﴿ هل ﴾ هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما يربعدها ، ﴿ والخصم ﴾ :  
جماعة المخاضمين ويستعمل للمفرد والجمع مذكراً ومؤنثاً . ﴿ تسوروا ﴾ : أى : أتوه من أعلى السور ودخلوا  
إلى المنزل ، ﴿ والمخراب ﴾ : الغرفة التى كان يتعبد فيها ويشغل بطاعة ربه ، ﴿ والفرع ﴾ : انقباض  
ونفار يعترى الانسان من شىء مخيف ، ﴿ بغى ﴾ : أى : جار وظلم ، ﴿ لا تشطط ﴾ : أى : لا تبعد عن  
الحق ولا تجر في الحكمة ، ﴿ سواء الصراط ﴾ : أى : وسط الطريق ، ﴿ النعجة ﴾ : أنثى الضأن ،  
﴿ أكفلينها ﴾ : أى : ملكينها ، ﴿ وعزنى ﴾ : غلبنى ، ﴿ فى الخطاب ﴾ : أى : فى مخاطبته إياى  
ومحاجته ، إذ أتى بحجاج لم استطع رده ، ﴿ والمخلطاء ﴾ : هم المعارف أو الأعوان من بينهم ملابسه شديدة  
وأمتزاج : واحداهم خليط ، ﴿ فستاه ﴾ : أى : أبتليناه ، ﴿ خر ﴾ : أى : سقط ، ﴿ راکعاً ﴾ : ساجداً ،  
وقد يعبر بالركوع عن السجود . ﴿ أناب ﴾ : أى : رجع إلى ربه ، ﴿ الزلفى ﴾ : القرب من الله ،  
﴿ والمآب ﴾ : المرجع ، ﴿ باطلا ﴾ : أى : عبثاً ولعباً ، ﴿ ويل ﴾ : أى : هلاك ، ﴿ مبارك ﴾ : أى : كثير



المنافع الدينية والدنيوية ، ﴿ ليدبروا ﴾ أى : ليتفكروا ، ﴿ ليتذكر ﴾ أى : ليتعظ ، ﴿ الأبواب ﴾ واحدها لب ، وهو العقل .

### « المناسبة والمعنى الإجمالى »

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على أذى المشركين - أردف ذلك ذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم ترغيباً له فى الصبر ، وإيذاناً ببلوغه ما يريد كما كان ذلك عاقبة من قبله .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ . يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود - عليه السلام - أنه كان ذا أيد والأيد : القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس : رضى الله عنهما - الأيد : القوة وقال قتادة : أعطى داود عليه - الصلاة والسلام - قوة فى العبادة وفقها فى الاسلام ، وثبت فى الصحيحين عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : ( أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أواباً )<sup>(١)</sup> وهو الرجاء إلى الله - عز وجل - فى جميع أموره وشئونه .

وقوله تعالى : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه إذ مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتحييه الجبال الشاخات ترجع معه وتسبح تبعاً له بالعشى والإشراق .

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس - رضى الله عنهما - كان لا يصلى الضحى قال : فأدخلته على أم هانئ - رضى الله عنها - فقلت : أخبرنى هذا ما أخبرتنى فقالت : ( دخل على رسول الله - ﷺ - يوم الفتح فى بيتى ثم أمر بماء صب فى قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بينى وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلسهن سواء قريب بعضهن من بعض فخرج ابن عباس - رضى الله عنهما - وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الصيام - ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .

وأنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣ باب صوم داود عليه السلام .

صلاة الضحى (إلا الآن) (١). ﴿يسبحن بالعشى والإشراق﴾ وكنت أقول اين صلاة الإشراق وكان بعد يقول : صلاة الإشراق . ولهذا قال عز وجل : ﴿والطير محشورة﴾ أى : محبوسة فى الهواء ﴿كل له أواب﴾ أى : مطيع ، يسبح تبعاً له ، قال سعيد بن جبير ، وقتادة : ومالك ، وعن زيد ، بن أسلم وابن زيد ، ﴿كل له أواب﴾ أى : مطيع .

وقوله تعالى : ﴿وشددنا ملكه﴾ أى : جعلنا له ملكاً عظيماً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملك ، قال ابن ابى نجيح : قال مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطاناً ، وقال السدى : كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف ، فمعنى شددنا ملكه أى : قوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿وآتيناه الحكمة﴾ قال مجاهد : يعنى : الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه ، وقال السدى : الحكمة والنبوة .  
وقوله تعالى : ﴿وفصل الخطاب﴾ قال شريح القاضى والشعبى : فصل الخطاب : الشهود والأيمان ، وقال قتادة : شهادات على المدعى أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : والسدى : هو : اصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضاً : هو العقل فى الكلام وفى الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد : واختاره ابن جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : أول من قال أما بعد داود عليه السلام وهو فصل الخطاب وكذا قال الشعبى فصل الخطاب أما بعد .

وقوله تعالى : ﴿وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا الخراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بسى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلينها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾ .

قال العلامة ابن كثير : ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن ابى حاتم حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس رضى الله عنه ، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى : أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ففزع منهم﴾ إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه وهو أشرف مكان فى داره وكان قد أمر أن لا

يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أى : احتاطابه ، يسألونه عن شأنهما .

وقوله عز وجل : ﴿ وعزنى فى الخطاب ﴾ أى : غلبنى يقال عز يعز إذا قهر وغلب ، وقوله تعالى ﴿ وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناًب ﴾ قال ابن عباس : أى : اختبرناه وقوله تعالى ﴿ وخر راكعاً ﴾ أى : ساجداً ﴿ وأناًب ﴾ وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين صباحاً ﴿ ففغفرنا له ذلك ﴾ أى : ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الأبرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة فى سجدة ﴿ ص ﴾ هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعى - رضى الله عنه - أنها ليست من عزائم السجود هى سجدة شكر والدليل على ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : فى السجدة فى ص ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ - يسجد فيها ورواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى فى تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذى : حسن صحيح . وقال النسائى : أيضاً عند تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن النبى - ﷺ - سجد فى ص وقال : ( سجدتها داود عليه الصلاة والسلام توبة ونسجدتها شكراً )<sup>(١)</sup> تفرد بروايته النسائى ورجال اسناده كلهم ثقات .

وعن ابن عباس : رضى الله عنهما - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله ( إني رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وضع بها عني وزراً ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما - فرأيت النبى - ﷺ - قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتة يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل من كلام الشجرة )<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال البخارى : عند تفسيرها أيضاً عن العوام قال : سألت مجاهداً عن سجدة ص فقال : سألت ابن عباس - رضى الله عنهما من أين سجدت فقال : أو ما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ ﴿ أولئك الذين هدى الله فبها هم اقتده ﴾ فكان داود عليه - الصلاة والسلام - من أمر نبيكم - ﷺ - أن يقتدى به فسجدها داود - عليه الصلاة والسلام - فسجدها رسول الله - ﷺ - .

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى على بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

والحديث فى صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٠ باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها .

وانظر ابو داود فى سنة كتاب الصلاة باب السجود فى ( ص ) ج ٢ ص ١٢٣ رقم ١٤٠٩ وقال أبو داود : انظر النسائى فى الافتتاح باب السجود

فى صورة ( ص ) حديث ٩٥٨ .

وفى النسائى فى سننه ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح باب سجود القرآن السجود فى ( ص ) .

(٢) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٩ ص ٢٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب - ما جاء ما يقول فى سجود القرآن .

وفى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٥٥ فى تفسير سورة ( ص ) .

وقال الإمام أحمد : عن بكر هو ابن عبد الله المزني أنه أخبره أن أبا سعيد الحذري — رضى الله عنه — رأى رؤيا أنه يكتب — ص — فلما بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصصها على النبي — ﷺ — فلم يزل يسجد بها بعد <sup>(١)</sup> ، تفرد به أحمد .

وقال أبو داود : عن أبي سعيد الحذري — رضى الله عنه — قال : ( قرأ رسول الله — ﷺ — وهو على المنبر ( ص ) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال — ﷺ — ( إنما هي توبة نبي ولكنى رأيتمكم تشرفتم ) <sup>(٢)</sup> فنزل وسجد وتفرد به أبو داود واسناده على شرط الصحيح .

وقوله تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أى : وإن له يوم القيامة لقربه يقربه الله — عز وجل — بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لتوبته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهلهم وما ولوا ) .

قوله تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ هذه وصية من الله — عز وجل — لولاء الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده — تبارك وتعالى — ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد تواعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبي حاتم : بسنده عن إبراهيم أبو زرعة كان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيجاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهه ، فقلت يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : أنت أكرم على الله أو داود — عليه الصلاة والسلام — إن الله تعالى : جمع له النبوة والخلافة ثم توعده في كتابه فقال تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ الآية . لقد أمر الله نبيه بما أمر به المرسلين من قبل فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... الآية ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) انظر سنن أبو داود كتاب الصلاة باب السجود في ( ص ) ج ٢ ص ١٢٤ رقم ١٤١٠ وذكر أبو داود في قوله تشرف الناس معناه : قلنا الناس وفي تفسير ابن كثير معناه : التأهب والتهيؤ للشيء والاستعداد له .

(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٤) الآيتان ٤٩ — ٥٠ من سورة المائدة .

(٥) من الآية ٤٢ من سورة المائدة .

تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ (١)

وعن أنى هريرة : رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتماعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعتة امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ) (٢) متفق عليه ، وفى الصحيحين ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهلهم وحكمهم وما ولوا ) (٣) .

وأخرج الترمذى عن أنى هريرة : رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزنى لأنصرنك ولو بعد حين ) قال الترمذى حديث حسن وحذر - ﷺ - من الظلم والحكم باهوى فقال - ﷺ - كما أخرج الطبرانى عن أنى أمانة عن رسول الله - ﷺ - ( صنفان من أمتى لن تناههما شفاعتى إمام ظلم ، وكل غال مارق ) ( وأخرجه الهيثمى وقال رواه الطبرانى فى الكثير والأوسط ورجال الكبير ثقات ) وأخرج الترمذى ، وأحمد والبيهقى ، من أن سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله - ﷺ - ( ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرة ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لوائه عند إسته ) (٤) قال الترمذى : حسن صحيح .

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : ( ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة ) (٥) وعن أنى سعيد الخدرى : أنه - ﷺ - قال : أشد الناس عذابا يوم القيامة إمام جائر ) (٦) رواه أبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم ( فى الحلية وهو حديث حسن لغيره وقوله تعالى ﴿ إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ أى : ان الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معاملة لهم من الله العذاب الشديد يوم الحساب لنسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فمن دس نفسه وسلك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العاصين جزاء

(١) الآيتان ١٨ - ١٩ من سورة الجاثية .

(٢) انظر قبض القدير بشرح جامع الضعير ج ٤ ص ٨٨ رقم ٤٥ - ٤٦ .

وانظر الامام احمد فى سننه ج ٢ ص ٤٣١ عن أنى هريرة .

(٣) وانظر سند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .

وفى صحيح مسلم كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨ - ١٨٢٧ بلفظ حديث زهير .

(٤) وانظر الطبرانى ج ٨ ص ٣٣٧ رقم ٨٠٧٩ .

(٥) انظر صحيح مسلم باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ج ٣ ص ١٤٦٠ رقم .

(٦) انظر الحلية ج ١ ص ١١٤ رقم ٢٢ .

وفاقا على أعمالهم التي كسبوها بأيديهم . قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ . يخبر تعالى أنه ما خلق عبثا وإنما خلقهم ليعملوه ويوحده ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أى : الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أى : ويل لهم يوم القيامة ، يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم . ثم بين سبحانه وتعالى أنه - عز وجل - من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أى : لا نفعل ذلك ولا يستترون عند الله وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفتوة المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء فإننا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت . كذلك ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلا بد في حكمه الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك دارا أخرى لهذا الجزاء والمواساة ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بل وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليعين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمأخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب ﴾ أى : أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس ، المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، في دينهم ودنياهم ، الجامع لوجوه المصالح ، ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم ، فاهتدوا بهديه ، وسلكوا في أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا بمن قبلهم فارغوا عن مخالفته ، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين ويستأصلهم كما استأصل السابقين ، ممن بغوا في الأرض فسادا وما تدبره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى : قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضعوا

(١) الآيات ٢١ - ٢٢ من سورة الجاثية .

(٢) الآيات ٢٨ - ٢٩ من سورة النحل .

(٣) للآيات ١١٥ - ١١٨ من سورة المؤمنون .

حدوده حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه واضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، لا أكثر الله في الناس من مثل هؤلاء .

يقول العلامة ابن كثير في كتابه : ( قصص الأنبياء ) عن النبي داود : هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن فحشون بن عويناذب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل عبد الله ونيه وخليفته في أرض بيت المقدس .

قال محمد بن اسحق : عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام — قصيرا أزرق العينين ، قليل الشعر طاهر القلب ونقيه ، تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصد أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود — عليه السلام — وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر فأجتمع في داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ وقيل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ <sup>(١)</sup> أى : لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء في بعض الآثار ( السلطان ظل الله في أرضه ) . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : ( إن الله ليزغ بالسلطان مالا يزغ بالقرآن ) وقد ذكر ابن جرير في تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : أخرج إلى وأخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود .

وقال تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحفظنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ <sup>(٣)</sup> أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ فقدر في السرد ﴾ أى : لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد : وقتادة والحكم ، وعكرمة . قال الحسن البصري : وقتادة ، والأعشى ، كان الله قد آلان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت في الحديث ( إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده ) .

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ١٠ - ١١ من سورة سبأ .

(٣) سورة الأنبياء من الآية ٧٩ - ٨٠ .

وقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد الأيد القوة في الطاعة يعنى : ذا قوة في العبادة والعمل الصالح ، قال قتادة : أعطى قوة في العبادة وفقها في الاسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ — قال : ( أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفتر إذ لاقى )<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب ﴾ كما قال : ﴿ يا جبال أوى معه والطير ﴾ أى : سبى معه قاله ابن عباس : ومجاهد وغير واحد في تفسير هذه الآية ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ أى : عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تحييه وتسبح معه كلما سبى بكرة وعشيا - صلوات الله وسلامه عليه - وقال الأوزاعي : حدثني ، عبد الله بن عامر : قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى إن كان الطير والوحش ينكف حوله حتى يموت عطشا وجوعا وحتى أن الانهار لتقف .

وقال الامام أحمد : عن عائشة رضی الله عنها قالت : سمع رسول الله ﷺ — صوت أنى موسى الأشعري وهو يقرأ فقال : لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود<sup>(٢)</sup> وهذا من شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وقد كان مع هذا الصوت الرحيم سريع القراءة لكتابة الزبور كما قال الامام أحمد : عن أنى هريزة قال قال رسول الله ﷺ — ( خفف على داود القراءة فكان يأمر بدوايه فتسرج فكان يقرأ الزبور من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه )<sup>(٣)</sup> وكذلك رواه البخارى : منفردا به عن عبد الله بن محمد عن عبد الله الرزاق به ولفظه ( خففه على داود القرآن فكان يأمر بدوايه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوايه ولا يأكل إلا من عمل يديه )<sup>(٤)</sup> .

والمراد بالقرآن هنا : الزبور الذى أنزله عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظا فإنه كان ملكا له اتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع - صلوات الله وسلامه عليه - وقد قال الله تعالى : ﴿ وآتيناه داود زبوراً ﴾ والزبور : كتاب مشهور وذكرنا في التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل في شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه . وقوله ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ أى : أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا .

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب الصيام ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .

وانظر البخارى ج ٢ ص ٥٢ - ٥٣ ( باب ) صوم داود عليه السلام .

(٢) الحديث في سند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٧ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٤ والبخارى ج ٤ ص ١٩٤ .

(٤) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ - ١٩٥ كتاب بدء الخلق .



روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رجلين تداعيا إلى داود - عليه السلام - في بقر أدعى أحدهما على الآخر أنه أغتصبهما منه فانكر المدعى عليه فأرجأ أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن أقتل المدعى فلما أصبح قال له داود : إن الله أوحى إلى أن أقتلك فأبى فأتاك لا محالة فما خبرك فيما ادعيتك على هذا قال : والله يا نبي الله إني لحق فيما ادعيت عليه ولكنني كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود في بني إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما ، قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ وشددنا ملكه ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ﴿ الحكمة ﴾ النبوة ، ﴿ فصل الخطاب ﴾ قال شريح والشعبي ، وقتادة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وغيرهم ، ﴿ فصل الخطاب ﴾ الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد ، والسدي ، هو إصابة القضاء ورتبته ، وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحكم واختاره ابن جرير ، وهذا لا ينافي ما روى عن أبي موسى أنه قال ( أما بعد ) وقال وهب بن منبه : لما كثرت الشر وشهادات الزور في بني إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء فكانت مدورة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكأنت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان في حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل إليها فلم تنزل كذلك حتى أودع رجلا للؤلؤة فجعلها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند الصخرة تناولا المدعى فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أني دفعتها إليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشعل أمرها على بني إسرائيل . ثم رفعت سريعا من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من العشرين وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه ﴿ وهل أذاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتاه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا أكثرها إسرائيلية ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا إيرادها في كتابنا قصدا اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وقد اختلف الأئمة في سجدة ص هل هي من عزائم السجود أو إنما هي سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين . قال البخاري : عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة ( ص ) فقال : سألت ابن عباس عن أين سجدت قال : أو ما تقرأ ﴿ ومن ذريته داود وسليمان ﴾ ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم - ﷺ - أن يقتدى به فسجد لها داود عليه السلام فسجدها رسول الله - ﷺ - وقال الإمام أحمد : عن عكرمة : عن ابن عباس أنه قال : في السجود في ( ص ) ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله - ﷺ -

يسجد فيها<sup>(١)</sup> وقال النسائي : عن ابن عباس أن النبي ﷺ - سجد في ( ص ) وقال : سجدتها داود توبه ونسجدها شكرا تفرد به أحمد وزجاله ثقات .

وروى الترمذى وابن ماجه : عن ابن عباس . قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ - فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول : وهى ساحدة ( اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخرا وضع عني بها وزرا واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود وقال ابن عباس : فرأيت النبي ﷺ - قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعتة يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل عن الكلام الشجرة<sup>(٢)</sup> ثم قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد ذكر بعض المفسرين أنه - عليه السلام - مكث ساجدا أربعين يوما وقاله مجاهد : والحسن ، وغيرهما ، وورد فى ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية .

قال الله تعالى : ﴿ ففقرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أى : إن له يوم القيامة لزلفى . وهى : القرية التى يقربها الله بها ويدينه من حظيرة قدسه يسيعها كما ثبت فى حديث ( المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهلهم وحكمهم وماولوا )<sup>(٣)</sup> وقال الإمام أحمد : عن أبى سعيد الخدرى . قال : قال رسول الله ﷺ - ( إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منى مجلسا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر )<sup>(٤)</sup> .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مالك بن دينار فى قوله ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ قال : يقوم داود عليه السلام - يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا فيقول : وكيف وقد سلبته فيقول : إني أردته عليك اليوم قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان . ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد : ولاية الأمور وحطام الناس وأمرهم بالعدل وإيقاع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء الأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود - عليه السلام - هو المقتدى به فى ذلك الوقت فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربان حتى إنه كان لا يمضى ساعة من أناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهارا كما قال تعالى : ﴿ اعملوا آل

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وانظر سنن النسائي ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح - باب سجود القرآن - السجود فى سورة ( ص ) .

(٢) الحديث فى تحفة الأحوذى جامع الترمذى ج ٩ ص ٣٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب - ما جاء - ما يقول فى سجود القرآن .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الامارة - باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ... الخ ج ٢ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ - ١٨ بلفظ حديث زهير .

وسند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .

(٤) انظر سند الامام أحمد ج ٣ ص ٢٢ عن أبى سعيد الخدرى .

داود شكراً وقليل من عبادى الشكور ﴿١﴾ قال أبو بكر بن أبى الدنيا عن ، أبى الجلود قال : قرأت في مسألة داود - عليه السلام - أنه قال : يارب كيف لى أن اشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك قال : فأتاه الوحي ( أن يا داود أألت تعلم أن الذى بك من النعم منى قال : بلى يارب قال : فإني أرضى بذلك منك ) .

وقال البيهقي : عن ابن شهاب قال : قال : داود ( الحمد لله كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة يا داود ) .

وقال عبد الله بن المبارك : عن وهب بن منبه : قال : إن في حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بينه وبين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، واحمام القلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث زاد لمعاده ، ومرة لمعاشه ، ولذة في غير محرم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود - عليه السلام - أشياء كثيرة مليحة منها قوله : ( كن لتيتم كالأب الرحيم ، وأعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد ، وروى بسند غريب مضوعاً قال داود : يا زراع السيئات أنت تحصد شوكتها وحسكها ، وعن داود - عليه السلام - أنه قال : مثل الخطيب الأحق في نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت ، وقال أيضاً ، ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى ، وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر ، الواقدي حدثني ، هشام بن سعد ، عن عمر مولى عقرة ، قال : قالت : يهود لما رأيت رسول الله - ﷺ - يتزوج النساء انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا في النساء ، حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيا مارغب في النساء ، وكان أشدهم في ذلك حى بن أخطب فأكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه - صلوات الله عليه - وسلامه - فقال : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ (٢) يعنى : بالناس رسول الله - ﷺ - ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما ﴾ (٣) يعنى : ما أتى الله سبحانه ابن داود كانت له ألف امرأة سبعمئة مهريه وثلاثائة سرية وكانت لداود - عليه السلام - مائة امرأة منهن امرأة ، أوريا أم سليمان ابن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا أكثر مما لمحمد - ﷺ - .

(١) سورة سبأ من الآية ١٣ .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٤ وانظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٨٧ - ٨٨ .

(٣) سورة النساء من الآية ٥٤ .

كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام :

قد تقدم في ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام - فرأى فيهم رجلاً يزترق فقال : أى رب من هذا قال : هذا ابنك داود قال : أى : رب كم عمره قال : ستون عاماً قال : أى ربي زد في عمره قال : لا : إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاماً فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقي من عمري أربعون سنة ونسي آدم ما كان وهبه لولده داود فاتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة (١) رواه أحمد عن ابن عباس والترمذي وصححه عن أنس هريقة وابن خزيمة وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم .

وأما وفاته - عليه السلام - فقال الإمام أحمد في سننه : عن أنس هريقة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : ( كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فاقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت : لمن في البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتنفضحن بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم في وسط الدار فقال له . داود : من أنت فقال : أنا الذى لا أهاب للملوك ولا أمتع الحجاب فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت مرحباً بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه ، فما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال : سليمان للطير أظلي على داود فاضلته الطير حتى اظلمت عليه الأرض فقال : سليمان للطير اقبض جناحا قال : قال : أبو هريقة فطفق رسول الله ﷺ - يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله ﷺ - بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية (٢) انفرد باخراجه أحمد وأسناده جيد قوى رجاله ثقات . ومعنى قوله وغلبت عليهن يومئذ المضرحية ، أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحة . قال الجوهري وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدى : عن ابن مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله .

وقال أبو السكنى الهجرى مات إبراهيم - عليه السلام - فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة - صلوات الله وسلامه عليهم - أجمعين رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعنى أنزل أو أصعد فقال : يا نبي الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والارزاق . قال فخر ساجدا على مراقبة من تلك المراقى قبضه وهو ساجد .

وإتماماً للفائدة نذكر مقالا هاما ذكره الشيخ محمد مصطفى الشاطر في كتابه ( القول السديد في حكم ترجمة القرآن المجيد ) عن قصة داود ورد فيها من إسرائيليّات .

(١) الحديث في سند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥١ - ١٥٢ عن رواية ابن عباس .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤١٩ عن أنس هريقة .

قال ما نصه : نسب الكاذبون من اليهود والنصارى في كتبهم إلى سيدنا داود - عليه السلام - ما تتألم له النفس وينضر منه السمع فتارة يرمونه بالزنا ، وطورا يرمونه بالغدر والمكر والاحتيال ليستولى على امرأة قائده لانه رآها في محرابه فأعجبته وشغف بها إلى آخر ما دنسوا به الكتب ، تلقف بعض القصاص هذا الروايات ولم يفحصوا مصدرها وأخذوا يلقيونها للعامة فلما علم الامام على - كرم الله وجهه - بذلك أعلن بأن من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلده مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء فأخذ بعضهم يعدل فيها ، ويلطفوا منها ويقولوا إن شريعة داود كانت تجيز لرجل أن يسأل الآخر عن النزول عن امرأته ليتزوجها إذا أعجبته ، وأن داود فعل ذلك وإنه خطبها منه أو من أبيها ولا أدري من أين جاء هؤلاء إن هذا كان جائزا في شريعة داود عليه السلام .

وقد اندفع مدير مجلة الأزهر في ملحقة ص ٣٧ وراء هؤلاء فقال : إن داود كان يريد أن يضيف امرأة أحد أتباعه إلى نسائه التسع والتسعين فطلب إلى زوجها أن يتنازل له عنها . وإني أنصح كل مسلم أن لا يهجم على مقام الأنبياء فينسب إليهم ما يعد ذنبا ، أو هفوة فإنه من أكبر البهتان بل يجب عليه أن ينفيه نفيا باتا إلا إذا كان متصوفا عليه بنص صريح لا يحتمل التأويل ، إنه لا يوجد نص صريح لا من كتاب ولا سنة على أن سيدنا داود - عليه السلام - كان متزوجا بتسع وتسعين امرأة بل روى عن الحسن - رضى الله عنه - أنه نفى ذلك بتاتا ( انظر ينسابورى ) .

وإذا علمت أنه لا يوجد نص من كتاب ولا حديث في تفسير هذه الآيات وليست غامضة المعنى حتى يقال إنها من التشابهات ، كان لنا أن نفسرها بما ينطبق على اللغة العربية وعادة العرب وما يسيغه لعقل ويشير إليه القرآن الكريم ، هذه الآيات لم تكن مسوقة لبيان ذنب وإنما هي مسوقة للعظة والاعتبار وليان ما فيها من قواعد عمرانية واجتماعية ونظامية فاسمع أيها الأخ ما أفهمه إن هذه القصة ، ان هذه القصة مبنية على أمور ثلاث .

الأول : هل العزلة أفضل أم الاجتماع .

الثاني : هل للمالك أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ولو مكان مضر بملكه فلا يملك أحد أن يشاركه في هذا التصرف ولو كان فيه المنفعة .

الثالث : ما هي الصفات التي يجب أن يتصف بها الحاكم والخليفة لينتظم الملك ويتم العدل . مقدمة .

إذا قرأت سورة ( ص ) وجدت أن الله تعالى قد ذكر قبل القصة المذكورة بعضا من صفات داود - عليه السلام - وشيئا من النعم التي أنعم بها عليه فقال تعالى : ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنَا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أبواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ .

وصفه بالعبودية بقوله تعالى : ﴿ عبدنا ﴾ والاضافة هنا للتشريف وهي أشرف أوصاف المخلوقين

ولذلك وصف بها سيدنا محمد ﷺ - بقوله ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾<sup>(١)</sup> وعن أنى الدرداء - رضى الله عنه - قال : كان النبی ﷺ - إذا ذكر داود تحدث عنه بقوله : كان اعبد البشر ( تيسير الوصول ص ٨٦ ج ٢ ) لقد كان يعبد الله تعالى أحب العباداة إليه يدل على ذلك ما جاء عن نبينا محمد ﷺ - فى البخارى ( أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة دلود ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوماً ويفطر يوماً )<sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ذا الأيد﴾ وصف ثان أى : القوة فى العباداة والصلابة فى الحق والدين والشدة على الباغين ، والغلبة على المفسدين أقرأ قصته فى سورة البقرة ، والنمل وسبأ أيضاً وانظر تفسير الطبرى .

وقوله ﴿إنه أواب﴾ وصف ثالث أى : رجاء فى الأمور كلها إلى مرضاة الله تعالى ، لاجئ إليه فى جميع أحواله مستعين به فى جميع شئونه لا يرى لنفسه ولا غيره حولاً ولا قوة ولا نصراً ولا نجاة إلا بالله تعالى وهذا أعلى مقام المتوكلين .

وفى المفردات للأصفهاني ، الأواب : هو الرجاء إلى الله تعالى بترك المعاصي وفعل الطاعات - وقال بعضهم : الأواب : المسيح وهو تفسير له ببعض أنواعه فإن التسييح من ضمن أنواع الرجوع إلى ما يرضى الله تعالى ويحبه ، وقال قتادة : كان داود مطيعاً لله تعالى ، كثير الصلاة ، ( انظر تفسير الطبرى ) .

هذه الأوصاف الثلاثة منتهى ما يطلب من العبد للرب ، فإذا أفاض الله عليه بعد ذلك بالوصفين الآخرين وهما الحكمة والعلم فقد بلغ المرتبة العليا والمكان الأسمى ، والدرجة التى لا مطمع للبشر إليها ، ولقد أوتى داود عليه السلام العلم والحكمة أما الحكمة فثابته فى هذه الآية وهو النبوة وأما العلم : ففى قوله تعالى : ﴿ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾<sup>(٣)</sup> فهل من كان متصفا بهذه الصفات كثير الصلاة والصيام ، يقوم أكثر الليل ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ويسبح الله يوم صباح ومساء قد استغرق أوقاته بعبادة الله تعالى يتفرغ لتسع وتسعين امرأة ثم لم يكفه ذلك فيمد عينه إلى زوجة غيره فيحبها ويحتل على زوجها ليستولى عليها أو يطلبها منه ليكمل زوجاته مائة ، حاشا وكلا وألف كلا . أخبرنا الله - سبحانه وتعالى - أن أنعم عليه بتسخير الجبال له والطير وحشرها إليه وبقتوية ملكه بقوله ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه﴾ ( الآية ) أما كيفية تسخير الجبال والطير له فلم يعرف للآن ، ولكن الآية الكريمة تدلنا على نوع من أنواع هذا التسخير وهو تسييحها معه بالعشى ( من وقت العصر إلى الليل ) والإشراق : ( وهو الغداة أو وقت الضحى ) .

كان داود - عليه السلام - يسبح الله فى هذين الوقتين وكان إذا سبح سبحت معه الجبال واجتمعت إليه

(١) الآية ١ من سورة الاسراء .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٥ باب احب الصلاة الى الله صلاة داود .

(٣) الآية ١٥ سورة النمل .

الطير فسبحن معه ولذلك قال اكثر المفسرين في قوله تعالى : ﴿ ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوى معه والطير ﴾<sup>(١)</sup> إن معنى . أوى : رجعى معه التسييح ، ولا غرابة في ذلك فإن الله يقول : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ... الآية ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول حكاية عن سليمان وداود - عليهما السلام - أو عن الأول فقط على اختلاف بين المفسرين في ذلك ﴿ علمنا منطق الطير ﴾<sup>(٣)</sup> وإن من معجزات نبينا محمد - ﷺ - تسبيح الحصى في كفه الشريفة ( انظر حديث انس في الشفاء للقاضي عياض ) .

وقوله تعالى : ﴿ كل له اواب ﴾ يدل على أن الجميع رجاع إلى طاعاته واوامره ، وقال بعضهم : إن المراد بأواب : هنا هو : المسيح كقوله تعالى : ﴿ أوى معه ﴾ أقول إن التسييح نوع من أنواع الطاعة ثم أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنعم عليه بنعمة ( اجتماعية ) جليلة وهي فصل الخطاب بقوله تعالى ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ أى : فصل الخصامات وعلم القضاء . وإن من مقتضى هذه النعمة العظيمة أن يبرز للناس ليفصل في منازعتهم وليفرض خصوماتهم . إلا لجه عبادة ربه حبا شديدا ( كما تقدم ) جعلت نفسه تميل إلى الخلوة ( بره ) في المحراب ليقضى فيه بعضا من الأيام بعيدا عما يشغله عن العبادة - أن العبادة إذا تمكنت من القلب فإنه لا يعد لها في الدنيا لذة ولا حلاوة ولا سرور ولا ملك . قال : عليه الصلاة والسلام - ( جعلت قرة عيني في الصلاة )<sup>(٤)</sup> وقال بعض العباد لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة لقاتلونا عليه بالسيوف ( انظر الاحياء للغزالي ) - ولذلك ترى كثيرا من العباد المخلصين يفرحون بدخول الليل وبالخلوة وبالبعد عن الناس ليتفرغوا للعبادة وليحفظوا بلذة المناجاة ولتنشرح صدورهم وتقر عيونهم فيما يتجلى عليهم من الأنوار - والاطمئنان والتجليات . كذلك كان سيدنا داود - عليه السلام - مالت نفسه إلى الخلوة لعبادة ربه فدخل محرابه وأغلق عليه بابه وانشغل بعبادة الخالق عن النظر في مصالح الخلق فبينما هو في محرابه اذ تسوره الخصوم .

### « شرح الآيات »

قال تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ﴾ الخصم : يطلق على الواحد والاثنين والجمع والتعبير بواو الجمع يدل على أنهم كانوا أكثر من اثنين . قال بعض المفسرين : إن المراد بالخصمين ملكان ويرد عليهم بأنها لو كانا ملكين فما الداعى الى تسورهما المحراب ولو كانا ملكين لكانا كاذبين في أخبارهما بقولهما ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ والملائكة لا يكذبون ، ولو قيل : بأن القصة تمثلية فلا يكون فيها كذب قلنا : هذا غير مسلم به وإذا كان الغرض تفهيمه الصواب فإنه يكفى نزول ملك واحد لتفهيمه ، فالخصمان من الرجال بلا شك . أما كونهم أكثر من اثنين فلانه من المحتمل أن يكون معهما

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

(٣) سورة النمل من الآية ١٦

(٤) الحديث في كثر العمال ج ٧ ص ٢٨٧ رقم ١٨٩١٤ .

شهودهما ليكون القضاء أمامهم فلا يحصل نزاع في المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ تسوروا المحراب ﴾ إشارة إلى أن داود - عليه السلام - قد ملكه حب التفرغ لعبادة ربه حتى أغلق عليه محرابه وترك الناس بلا قضاء مدة طويلة حتى اضطروا إلى التسور ليقضى بينهم في خصوماتهم . ﴿ إذ دخلوا على داود ففزع منهم ﴾ فزع داود كما يفزع الشخص المقيم في بيته ممن يقتحمون منزله بغير علمه فلما رأوا فزعه ، طمأنوه وقالوا : ﴿ لا تخف ﴾ أى : نحن لا نريد شيئا يخيفك ولكننا نريد أن تحكم بيننا وتفصل في خصومتنا بما من الله عليك من فصل الخطاب ثم شرعوا يقصون عليه خصومتهم فقالوا : ﴿ خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ﴾ أى : بما أوحاه الله إليك لأنه هو الحق الذى لا شك فيه ﴿ ولا تشطط ﴾ أى : فإن لم يوجد نص من وحى فاحكم بيننا بما لا يبعد عما في كتاب الله وهو ما يؤدبك إليه اجتهادك واقتباسك من وحى الله . واهدنا إلى سواء السبيل . أى : إن لم يوجد نص في الحكم أو ما تستنبط منه الحكم فاهدنا إلى الصواب . إما بالصلح أو بالأرشاد إلى ما تراه صوابا وهذا هو الواجب على الحاكم الذى نصب للفصل بين الناس ، عليه أولا أن ينظر إلى نص الشارع ويحكم به ، فإن لم يوجد نص نظر إلى أقرب المقاصد للشارع فلا يتجاوز في حكمه . فإن لم يوجد ولم يتوصل إلى أقرب المقاصد لا يقطع بالحكم بل يرشد الخصمين إلى ما يراه صوابا ويصلح بينهما إصلاحا .

ثم أخذوا يشرحون قضيتهم فقال أحدهما : ﴿ إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : اكفلينها وعزنى في الخطاب ﴾ النعمة : واحدة النعاج وهى معروفة ، والكفالة : الضم مع بقاء الملكية أما لو زالت الملكية عن الشيء فلا يكون الضم كفالة بل يكون تملكا . والتعبير بلفظ الكفالة : ينافى زعمهم من أن هذه القصة ضرب مثل لسيدنا داود لأنه تزوج امرأة الغير يزول ما كان لذلك الغير فيها من حق . والكفالة ليست كذلك الخطاب هنا المخاطبة والحجة وما يدل على هذا - أن ذلك اللفظ ذكر قبل نفس السورة دالا على هذا المعنى ﴾ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ فقول من قال : إن المراد به : الخطبة قول بعيد ومعنى عزنى في الخطاب اغلبنى في الحجة . فالمدعى يعترف بأن حجة المدعى عليه غلبت حجته ولكنه غير مسلم له بأن يضم نعجته إلى نعاجه لأنه مال كها وهو حر في التصرف فيها فعرضا أمرها على داود ليفصل بينهما - لم يبين الله تعالى لنا تلك الحجة نصا وترك بيانها لافهام القارئ ، يفهمونها حسب ما تصل إليه عقولهم وعلومهم فيصح أن نفهم أن من ضمن الحجة أن وجودها مع النعاج الكثيرة خير له ولنعجته فإنها إذا كانت مع نعاج كثيرة فإنها تأتس بها ويكثر درها وتأتى بنتاج كثير ، أما إذا كانت وحدها فإنها تسأم ويقل خيرها وتعدم نتاجها . فلما شرحا له دعواهما قضى لمن له النعجة الواحدة بقوله ﴿ لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ باينا هذا الحكم على ما هو معروف من إحدى النظريات التشريعية من أن مالك الشيء له أن يتصرف في ملكه كيف شاء ولا يجوز على إعطائه لغيره ولو كان في ذلك الإعطاء إثم للملك أو رفع ضرر عنه ، وإنما اختار هذه النظرية دون النظرية الأخرى القاضية بأن المصلحة العامة تقضى بتقييد حرية المالك في التصرف في ملكه - لكثرة الباغين من الشركاء بعضهم على بعض إلا القليل إذ لا يصح بناء قواعد الأحكام على ذلك القليل بل ينظر فيها إلى الكثير - وأن التعبير بلفظ ( الخلطاء ) يدل



على أن موضوع النزاع بينهما هو طلب الشركة في النعاج ولو كان المراد بالقصة : ضرب مثل لسيدنا داود لما كان للفظ ( الخلاء ) هنا موضع لأن ضم امرأة الغير إلى نفسه لا يسمى شركة بينه وبين ذلك الغير ، وأيضا فإن البقرة التي كان فيها سيدنا داود كانت مشهورة بكثرة الغنم ورعيها والشركة فيها ولا زالت كذلك للآن .

ثم قال تعالى : ﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ الفتنة : التمهيص أو الابتلاء - لم يبين الله لنا ما هي الفتنة التي ظن داود - عليه السلام - أن الله فتنه بها . ولكن التأمل في القصة يتبين له أن هذه الفتنة هو حبه الخلوة للعبادة والعزلة عن الخلق حتى انصرف عنهم فدخل محرابه وأغلقه عليه طويلا حتى اضطروا إلى تسورة ليفض نزاعهم ويحل مشاكلهم أو أنه استلذ بالعبادة حتى انشغل بها عن العباد وهم في حاجة إليه لما أوتي من فصل الخطاب - إن الأنبياء - عليهم السلام - ليعتبرون بالحوادث أكثر من غيرهم .

وهذه القضية وإن كانت حقيقة ( لا ضرب مثل ) إلا أن ذهنه الثابت استنبط منها مالا يستنبطه غيره فاستنتج منها أن اختلاط الشخص بالناس مستوجب للمنفعة العامة والخير الكثير بخلاف العزلة واستنتج منها أن المنفعة العامة راجحة على المنفعة الخاصة وأكثر منها ثوبا ، وأن شفعة بالعبادة ﴿ مع ما آتاه الله من فصل الخطاب ﴾ كان ابتلاء ومقوتا لهذه الفوائد التي يجنيها المجتمع منه ، واستنتج أيضا من تسور الخصوم للمحارب اضطراب الناس إلى التقاضي وفق الخصومات الكثيرة بينهم وأنه كان الأولى به أن يكون بابه مفتوحا لهم غير محتجب عنهم حتى لا تلجئهم المنازعات إلى تسور الحيطان أو التهادى في الشقاق والنزاع . واستنتج أيضا أن كثرة الخصومات تستدعى الجلوس طويلا من الزمان ظاهرا بين الناس .

كل هذا يصحح أن يكون سببا لظن داود أن الله ابتلاه بحب العزلة للعبادة وأن هذه الحادثة كانت وسيلة لتحميميص حالته وبيان ما هو الأولى والأليق بمن جعله الله خليفة في الأرض . ﴿ فاستغفر ربه ﴾ مما ظنه فتنه وهو فعله ما يخالف الأولى به ، ﴿ وخر راکعا ﴾ تقربا إلى الله تعالى وشكرا إذا أرشده ونهيه بهذه الحادثة إلى ما هو الأولى به وإنما قلنا شكرا لأن العادة أن الإنسان إنما يسجد للشكر والتقرب - وأناب - أى : رجع إلى ما هو الأجدر بمقامه فجازاه الله على الاستغفار بالغفران وعلى الشكر بالزلفى وعلى الرجوع إلى الأولى بمقامه بحسن العاقبة والمآب بقوله تعالى : ﴿ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾ أى : ومن شأن الخليفة أن يباشر مصالح الناس وحوائجهم وأقضيته لا أن يتركهم ويدخل المحراب .

ثم وصاه بأن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى إتباع الهوى مضل عن سبيل الله بقوله تعالى : ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ وهذه الوصية تشابه وصية الله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ﷺ - بقوله ﴿ وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم ﴾ <sup>(١)</sup> فهي توصية تثبيت وإرشاد وتهييج وتنبية

( ليس غير ) . إلى بيان أن يكون عليه الحاكم مطلقا وهو ما يأتي :

أولا : أن يحكم بالحق وهو ما شرعه الله .

ثانيا : والا يتبع الهوى سواء كان هواه أو هوى الناس بل يتبع الصواب وما يقتضيه روح الدين عند تطبيق الحوادث على النص أو معاملة الخصوم .

ثالثا : أن يعلم الحاكم أن هناك يوما للحساب وأن يتذكر دائما وهو يحكم أن الله سيحاسبه على حكمه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا صاحب ولا شفيع .

بهذا ينتظم الملك ويستتب الأمن وتعمر البلدان ، فإنه العدل أساس الملك فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لوقوع ذنب من نبي ( حاشا ) وإنما سيقى ليان هذه الحكم الجليلة والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

### « قصص سليمان - عليه السلام »

قال تعالى :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَبَطِئَ عَلَيْهِ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ ﴿٤٠﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ الصافنات ﴾ : الصافن من الخيل : الذي يرفع إحدى يديه أو رجله ويقف على مقدم حافرها ،

﴿ والجياذ ﴾ : واحدها جواد ، وهو : السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد :  
 ﴿ والخير ﴾ هنا : الخيل ﴿ توارت ﴾ أى : غيبت عن البصر ، ﴿ طفق ﴾ : شرع : ﴿ المسح ﴾ :  
 امرار اليد على الجسم . ﴿ لا ينبغي لأحد من بعدى ﴾ أى : لا ينتقل منى إلى غيرى ، ﴿ رخاء ﴾ :  
 أى : لينة ، ﴿ أصاب ﴾ أى : قصد وأراء ، ﴿ مقرنين ﴾ أى : مربوطين ، ﴿ الأصفاد ﴾ واحدها :  
 صفد ﴿ بالتمريك ﴾ وهو : الغل الذى يجمع اليدين إلى العنق ، ﴿ والزلقى ﴾ الكرامة ، ﴿ المآب ﴾ :  
 المرجع .

### « المعنى الاجمالى »

قوله تعالى : ﴿ ووهبنا لداود سليمان ﴾ أى : وآتيناه داود ابنا يسمى سليمان ونحو الآية  
 قوله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ﴾ . ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال : ﴿ نعم العبد  
 إنه أواب ﴾ أى : ما أحقه بالمدح والثناء لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والانابة إلى ربه فى أكثر  
 الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، أعتقدا منه بأن كل شئ من الخير لا يتم إلا باعانته وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله تستحق الاطراء والثناء فقال : ﴿ إذ عرض عليه بالعشى الصافنات  
 الجياذ ﴾ أى : امدحه حين عرضت عليه الجياذ الصافنات من العصر حتى آخر النهار لينظر  
 إليها ويتعرف أحوالها ، ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره . وقد  
 وصفها بالصفوف والجودة ليجمع لها بين وصفين مملوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت  
 ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً فى جريها ، وقيل وصفها : بالصفون  
 لأنه لا يكون فى الهجن ، بل يكون فى العراب الخالص .

قوله تعالى : ﴿ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾ قد يحب الإنسان شيئاً وهو  
 يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذى يشتهى ما يزيل مرضه ، الوالد الذى يحب ولده السىء والسيئة  
 والخلق ، وقد يحب شيئاً وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ،  
 وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان - عليه السلام - يقول : إني أحب حبي لهذه الخيل وتلك المحبة  
 إنما حصلت عن ذكر ربي وأمره لا عن الشهوة والهوى . وقوله تعالى : ﴿ حتى توارت  
 بالحجاب ﴾ أى : حتى غابت عني بسبب العثير المتطاير من سناكبها . فالمراد : أنه حين وقع  
 بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة ﴿ إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي ﴾  
 ومازال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهه ، ولبعد المسافة من جهة أخرى .  
 وبعد أن اطمأن الى حالها ، وحمد جميل أمرها قال : ﴿ ردوها علي ﴾ فقد كفى ما قامت به  
 من حضر دلت به على نجابتها وفراصتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات ، وفيها

الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات من غزو وغيره .

ولما أرتاح إليها وسر بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد - أظهر استحسنانه لها ولفرسانها . ﴿ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ أى : فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهاراً لكرامتها لديه ، إذ هى أعظم الأعوان ، فى دفع العلوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها ، وأنها خلو من الأمراض التى قد تعوقها من عملها حين البأساء .

والخلاصة : أن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر باحضارها واجرائها أمامه ، وقال : إنى ما احببتها للعنقا ، وإنما احببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره أمر راكضيه بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها ، سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغي لأحد من بعدى انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

يراعى الشيخ المراعى - رحمه الله تعالى - فى هذه القصة أن الفتنة كانت بسبب مرض عضال فى جسده صار ملقى على كرسيه ، لشدة وطأته عليه ( والعرب تقول فى الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح ) ثم رجع بعد ، إلى حالة الأولى ، واستقامت له الأمور كما كان .

﴿ قال رب اغفر لى ﴾ طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن هذا فى مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام ( إنى لأستغفر الله فى اليوم واللييلة سبعين مرة )<sup>(١)</sup> .

وما روى من قصص الخاتم والشیطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب أ هـ .

ويقول صاحب التفسير الواضح رحمه الله تعالى - فى هذه القصة ﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ فتنة الله أعلم بها ، وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، وهذه الفتنة تكلم فيها القصاص والاسرائيليون كثيرا ، والذى نختاره

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٧ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ - ٢٧٠٢

ما ذكره أئمة التفسير المحققون من أمثال أئى السعود والفخر والألوسى وغيرهم من أفاضل العلماء ، وكان مرجع آرائهم إلى القول بعصمة الأنبياء ، ومنع تمثل الشيطان بهم ، وغلق باب زعزعة الناس في معتقداتهم ، وأظهر ما قيل في فتنة سليمان عليه السلام ماروى مرفوعا إلى النبى - ﷺ - أنه قال ( لأطرفن الليلة على سبعين امرأة تأقى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل ( إن شاء الله ) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذي نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين (١) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين البخارى ومسلم ، تلك هى فتنة سليمان كما وردت فى الحديث ، وأما إلقاؤه على كرسيه جسدا فلأنه حين الفتنة كان يجلس على كرسي الحكم جسدا لاروح فيه لأنه لما لم يقل : إن شاء الله ، كأنه ارتكب ذنبا فصار جسدا ثم تاب وأتاب .

وأما قوله سليمان ﴿ رب اغفر لى ﴾ فليس يصح أن يكون هذا دليلا على صلور الزلة منه كما قال القصاص مستنديين إلى أن طلب المغفرة يدل على سبق الذنب .

فالإنسان ولو كان نبيا لاينفك عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ألم تر إلى قول النبى - ﷺ - ( إني لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة ) (٢) .

وانظر إلى سليمان ، وقد طلب المغفرة من الله قبل طلبه الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده فهذا دليل على أن طلب المغفرة والرجوع إلى الله سبيل وطريق إلى السعادة فى الدنيا والآخرة ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ (٣) .

ولقد طلب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فسخر له ربه الريح حالة كونها جارية بأمره ، لينة لا تعب معها ، وإن كانت فى الأصل عاصفة قوية فهى رخاء لينة تجرى بأمره حيث أراد . وسخر الشياطين له تعمل تحت أمره من كل بناء وغواص تغوص فى البحار لاستخراج الدر منها والأصداف ، وآخرين منهم مقرنين فى الأصفاد والقيود خاضعين لأمره ، عاملين تحت إذنه .

هذا - والأشارة إلى ما تقدم من إعطاء الملك الواسع ، والتسليط على الرياح والجن والشياطين - عطاؤنا الخاص بك فاعط من تشاء ، وامنع ممن تشاء غير محاسب على ذلك يوم القيامة .

وإن لسليمان عند ربه لزلفى وقرية وكرامة وحسنى ، وله حسن مآب ومرجع فى الجنة ، وأن ختام القصة

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ - ٢٧٠٢ .

(٣) سورة نوح الآيات ١٠ - ١١ - ١٢ .

بهذا الدليل على أن كل ما قيل عن سليمان مما هو ثابت في كتب أهل الكتاب أو عند قصاص الأخبار من المسلمين خرافة و أكاذيب لا تليق بمركز النبوة والله أعلم .

### « تعقيب على دعوة سليمان »

دعا سليمان ربه فقال ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ أى لا ينبغي لأحد من البشر يأتى من بعدي ، وقد جاءت الأحاديث مصرحة بذلك .

روى البخارى - رضى الله عنه - لسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال ( إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع على الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ <sup>(١)</sup> قال روح فرده خاسئاً وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبه به .

وقال مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الرداء - رضى الله عنه - قال قام رسول الله - ﷺ - يصلى فسمعناه يقول ( أعوذ بالله منك - ثم قال - ألعنك بلعنة الله ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال - ﷺ - إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليضعه فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن أخذه والله لولا دعوة أخي سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة ) <sup>(٢)</sup> .

وقال أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال ( لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى ، وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين الإبهام والتى تليها - ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل ) <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ أى سهلة الانقياد ، حيث أراد من البلاد ، ﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ أى منهم ما هو مستعمل فى الأنبياء الهائلة من محارِب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللؤلؤ والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : ووهبنا لداود سليمان .

الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة رقم ٣٩ - ٥٤١ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة . رقم ٤٠ - ٥٤٢ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٨١ ، ٨٢ مسند أبى سعيد الخدرى

﴿ وأخبرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أى موثقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في ضيق واعتدى .

وقوله عز وجل ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ .

أى هذا الذى أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك . أى مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ — لما خير بين أن يكون عبدا رسولا — وهو الذى يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم بين الناس كما أمره الله — تعالى به — وبين أن يكون نبيا ملكا يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح أختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل — عليه الصلاة والسلام — فقال له تواضع فاختر المنزلة الأولى لأنها أرفع قدرا عند الله عز وجل وأعلى منزلة في المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان — عليه الصلاة والسلام — في الدنيا نبيه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا فقال تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أى فى الدار الآخرة .

### اضواء كاشفة

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه ( قصص الأنبياء ) عن النبى سليمان :

قال الحافظ بن عساكر : هو سليمان بن داود ، بن ايشا بن عويد ، بن عابر ، ابن سلمون ، بن نحشون ، بن عمليا بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم أبى الربيع نبي الله من نبي الله .

قال الله تعالى : ﴿ وورث سليمان داود ، وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين ﴾ <sup>(١)</sup> .

أى ورثة فى النبوة والملك وليس المراد ورثة فى المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم ولأنه قد ثبت فى الصحيح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ — قال ( لا تورث ما تركناه فهو صدقة ) <sup>(٢)</sup> فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصصون بها أقربائهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم .

(١) سورة النمل آية ١٦ .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٥ باب فضائل الصحابة باب مناقب قرابة الرسول .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٧٧ - ١٣٧٨ كتاب الجهاد والسير .

باب حكم الفسء . رقم ٤٩ - ١٧٥٧ .

وقال ﴿يأأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها واراقتها .

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أى من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال ﴿إن هذا هو الفضل المبين﴾ أى من باري البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى ﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى التمل قالت غملة يأأيها التمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾<sup>(١)</sup> .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما السلام أنه ركب يوما فى جيشه جمعية من الجن والإنس والطير يسيرون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أى نقباء يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد من موضعه الذى يسير فيه ، ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : ﴿حتى إذا أتوا على وادى التمل قالت غملة يأأيها التمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ .

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك الغملة لأمتها بالرأى السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار ، والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان فى فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن فى هذا أيضا فائدة يعول عليها ، ولهذا قال ﴿رب أوزعنى﴾ أى ألهمنى وأرشدنى ﴿أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين﴾<sup>(٢)</sup> .

فطلب من الله أن يقضيه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن يسر له العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود - عليه السلام - وأمه وكانت من العابدات الصالحات . كما قال سنيد بن داود عن

(١) سورة التمل الآيات ١٧ - ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة التمل آية ١٩ .



يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبي ﷺ — قال ( قالت أم سليمان بن داود يا بنى لا تكثروا النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيراً يوم القيامة )<sup>(١)</sup>.

رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهedy أن سليمان بن داود — عليه السلام — خرج وهو وأصحابه يستسقون فرأى غمة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم إن هذه الغمة استسقت فاستجيب لها )<sup>(٢)</sup>.

وقال السدى أصاب الناس قحط على عهد سليمان — عليه السلام — فأمر الناس فخرجوا فإذا غمة قائمة على رجلها باسطة يديها وهى تقول ( اللهم إنا خلق من خلقك ولاغنا بنا عن فضلك ) قال فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ وتفقذ الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائين . لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعد بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتانى هذا فألفه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملأ افقوني فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ؟ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسله إليهم بهدية فانظروا بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما أتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾<sup>(٣)</sup>.

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالتوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجيء فينظر لهم هل هذه البقاع من ماء وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تحوم الأرض فإذا دهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان — عليه السلام — ذات يوم فقداه ولم يجده فى

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٢٢ كتاب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٢ . باب ما جاء فى قيام الليل .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٥٩ تفسير سورة النمل . ( تفسير قوله تعالى : حتى إذا أتوا على وادى النما.... ) الآية .

(٣) سورة النمل الآيات ٢١ - ٣٧

موضعه من محل خدمته ﴿ فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائين ﴾ أى ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ﴿ لأعذبه عذابا شديدا ﴾ توعده بنوع من العذاب ﴿ أو لأذبحه ، أو ليأتينى بسلطان مبین ﴾ أى بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أى فغاب الهدهد غيبه .. ليست بطويلة ثم قدم منها ( فقال ) سليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أى اطلعت على ما لم تطلع عليه ﴿ وجئتك من سبأ نبأ يقين ﴾ أى بخبر صادق ﴿ إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين . وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكره أن رسول الله ﷺ — لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال ( لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة )<sup>(١)</sup> رواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ، ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ يعنى سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر والآلى والذهب والحلى الباهر ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله ، واضلال الشيطان لهم وصدده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾<sup>(٢)</sup> أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات .

فعند ذلك أرسل معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة رسلوله والانابة والاذعان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم ﴿ ألا تعلوا على ﴾ أى لا تستكبروا عن طاعتي وامثال أوامرى ﴿ وأتوفى مسلمين ﴾ أى وأقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تلك كانت مع طائر سامع مطيع ، فاهم ، عالم بما يقول له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ قالت يا أيها الملأ إني ألقى إلى كتاب كريم ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولا : ﴿ إنه من سليمان ﴾ ثم قرأته ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوفى مسلمين ﴾ نعم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأديت معهم وخاطبتهم وهم يستمعون ﴿ قالت يا أيها الملأ أفنوفى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾ تعنى ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون ﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاء والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإننا عليه من القادرين ومع هذا ﴿ الأمر إليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٠ باب كتاب النبى ﷺ — فى كسرى وقصر .

(٢) سورة النمل الآية ٢٦

عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف ، ولا يخادع . ﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ تقول رأيها السديد أن هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا على . ﴿ وإني مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان — عليه السلام — لا يقبل منهم ، والحالة هذه ، صرفا ولا عدلا — ﷺ — لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون ، ولهذا ﴿ لما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون ، ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذي قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ يقول ارجع بهديتك التي قدمت بها إلى من قدمن بها فإن عندى مما قد أنعم الله على واسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة . ﴿ وهم صاغرون ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار فلما بلغهم ذلك عن نبي الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته في تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدمهم إليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر من الجان ما قصه الله عنه في القرآن ﴿ قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين . وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلون أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتها لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ (١) .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ يعنى قبل أن ينقض مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب من الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ وإني عليه لقوى أمين ﴾ أى وإنى لنو قدرة على احضارى إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسة لديك ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾ المشهور أنه أصف بن برخيا وهو ابن خالة

سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بنى إسرائيل ، من علمائهم ، وقيل إنه سليمان - وهذا غريب جدا - وضعفه السهيلي بأنه لا يصح في سياق الكلام ، قال . وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما يتبى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقيل معناه قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس ، وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك ، وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل . ﴿ فلما رآه مستقرا عنده ﴾ أى فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ﴿ قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ﴾ أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أى أما يعود نفع ذلك عليه ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أى غنى عن شكر الشاكر ، وتضرر بكفر الكافرين ، ثم أمر سليمان - عليه السلام - أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال ﴿ ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها .

لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى اخبارا عن سليمان وقومه ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ أى ومنعها عبادة الشمس التي كانت تسجد لها هي وقومها من دون الله اتباعا للدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداثهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ فلما رآته حسبه لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وقد قال تعالى في سورة ( ص ) ﴿ ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . ردها على فطفق مسح بالسوق والأعناق ، ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص : وآخرين مقرنين في الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان - عليهما السلام - ثم أثنى الله عليه تعالى فقال ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أى رجاع مطيع لله .

ثم ذكر ما كان من أمره في الخيل الصافيات وهي التي تقف على ثلاث وطرף حافر الرابعة . والجنياد : وهي المعتمرة السراع ﴿ فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس . وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين .

﴿ ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق ﴾ قيل مسح عراقيها وأعناقها بالسيوف ، وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الآخر . وهذا القول اختاره ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعربة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذي قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغا في ملتهم .

وقوله تعالى ﴿ ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ﴾ ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا أثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متعلقة من الاسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة وقد نهينا على ذلك في كتابنا التفسير ، واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة .

وقوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما ﴾ .

وقد ذكر القاضي وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم ( كرم ) فنفتت فيه غنم قوم آخرين . أي رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم - العنب - بقيمته فلما خرجوا على سليمان . قال : بما حكم لكم نبي الله ؟ فقالوا بكذا وكذا : فقال أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه إلى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود - عليه السلام - ذلك فحكم به وقريب من هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :

قال رسول الله - ﷺ - ( بينا امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا في الأمر . فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان قال أتتوني بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها <sup>(١)</sup> ولعل كلا من الحكيمين كان سائغا في شريعتهم . ولكن ما قاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه آياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال ﴿ وكلا آتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لنحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ﴾ .

ثم قال لسليمان ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ تجري بأمره إلى

الحديث في صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٩ كتاب بدء الخلق باب ووهنا لداود سليمان .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٤٤ - ١٣٤٥ كتاب الأقضية باب اختلاف المجتهدين رقم ٣٠ - ١٧٢٠ .

الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين . ومن الشياطين من يفوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴿١﴾ .

وقال فى سورة ( ص ) ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد هذا عطاؤنا فأمّن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيرا ، وأقول وأعظم ، ولا كلفة عليه لها ، تجرى بأمره رخاء ﴿ حيث أصاب ﴾ أى حيث أراد من أى البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب بحيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة ، والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات ، والطيور ، فإذا أراد سفرا أو مستورها أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله مشاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعت فى أى مكان شاء ، بحيث أنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغلو به الريح فتضعه باصطخر ، مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثم يروح من آخره فترذه إلى بيت المقدس . كما قال تعالى : ﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . أعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ (٢) .

قال الحسن البصرى كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغذى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر ، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، قلت تذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر ، وبيت المقدس ، وباب جبرون ، وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال .

وأما ( يقطر ) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد هو النحاس قال قتادة وكان باليمن انبعها الله له ، قال السدى ثلاث أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبناءات وغيرها .

وقوله ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾ أى وسخر الله له من الجن عما لا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به .

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٨١ - ٨٢ .

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٢ - ١٣ .

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب ﴾ وهي الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ وثماثيل ﴾ وهي الصور في الجدران وكان هذا سائغا في شريعتهم وملتهم . ﴿ وجفان كالجواب ﴾ قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ، وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهي الخوض الذي يجبي فيه الماء كما قال الأعشى :

تروح على آل المخلوق جفنة كجاية الشيخ العراقي يفهق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافها منها يعنى أنهم ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لا يستخرج ما هنالك من الجواهر واللآلى وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله ﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ أى قد قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود .

هذا كله من جملة ما هياه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، ولم يكن أيضا لمن كان قبله .

وقد قال البخارى عن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال ( إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ <sup>(١)</sup> فردته خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائى عن أنى الدرداء قال قام رسول الله - ﷺ - فصلى فسمعناه يقول ( أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثا وسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله إبليس جاء يشهاب من نار ليجمعه فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة ) <sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ، سبعمائة بمجهر ، وثلاثمائة سرارى . وقيل بالعكس ثلاثمائة حرائر وسبعمائة من الاماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا ، عظيما جدا قال البخارى عن أنى هريرة عن النبى - ﷺ - قال ( قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى الصلاة . رقم ٣٩ - ٥٤١ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٢٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن شيطان . رقم ٤٠ - ٥٤٢ .

سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه ، إن شاء الله ، فلم يقل فلم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي ﷺ — لو قالها لجاهدوا في سبيل الله ( تفرد به البخارى من هذا الوجه<sup>(١)</sup> .

وقال أحمد عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل في سبيل الله ولم يستثن فيما ولدت الا واحدة منهن بشق انسان . قال — قال : رسول الله ﷺ — لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل في سبيل الله — عز وجل — تفرد به أحمد أيضا<sup>(٢)</sup> .

وقد كان له — عليه السلام — من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها ما لم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحدا بعده كما قال ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقال ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسده من النعم الكاملة العظيمة إليه قال ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك ، أى تصرف فى المال كيف شئت فإن الله قد سوع لك كل ما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يعطى أحدا ولا يمنع أحدا إلا بإذن الله له فى ذلك ، وقد خير نبينا محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدا رسولا .

وفى بعض الروايات إنه أئستشار جبريل فى ذلك فأشار عليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبدا رسولا صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمتة إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمتة ظاهرين حتى تقوم الساعة فآله الحمد والمنة .

ولما تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نيه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، والقرية التى تقربه إليه والفوز العظيم ، والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول الله ﴿ وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَآبٍ ﴾ .

### « وفاته ومدة ملكه وحياته »

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال أبو داود فى كتاب القدر عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود — عليهما السلام — لملك الموت إذا

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٢٩ مسند أنى هريرة .

(٣) سورة سبأ آية ١٤



أردت أن تقبض روحي فأعلمني . قال : ما أنا أعلم بذلك منك إنما هي كتب يلقي إلى فيها تسمية من يموت وقال اصبع بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قال سليمان للملك الموت إذا أمرت بي فأعلمني فأتاه فقال يا سليمان قد أمرت بك قد بقيت لك سوية فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلي فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حي ، قال فبعث الله دابة الأرض يعني إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك إنفضوا وذهبوا فذلك قوله ﴿ مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا في العذاب المهين ﴾ <sup>(١)</sup> قال اصبع وبلغني من غيره أنها مكثت سنة تأكل في منسأته حتى خر ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم .

قال اسحق بن بشر عن محمد ابن اسحق عن الزهري وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقال اسحق أنبأنا أبو ورق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم . وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفا وخمسين سنة وفي سنة أربع من ملكه ابتداء ببناء بيت المقدس فيما ذكر ملك بعده ابنه مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل . أ . ه .

### « قصص أيوب عليه السلام »

قال تعالى :

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۖ <sup>(٤١)</sup> أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۖ <sup>(٤٢)</sup> وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَ لِلْأُولَى الْأَلْبَبَ <sup>(٤٣)</sup> وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ ۚ إِنَّهُ أَوَّابٌ <sup>(٤٤)</sup>

## النصب

## « تفسير المفردات »

( أيوب ) : هو أيوب بن أموص بن أردم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قال بن جرير . ( النقب ) ( بضم فسكون ) والنقب ( بفتحين ) : كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، ( عذاب ) : أى ألم مضر كما جاء فى قوله : ﴿ **أنى مسنى الضر** ﴾ ، ﴿ **أركض برجلك** ﴾ : أى أضرب بها على الأرض ، ﴿ **مغتسل** ﴾ : أى ماء تغتسل به وتشرب منه ، ﴿ **الضغث** ﴾ : الحزمة الصغيرة من الكأ والرمان ، ( ويقال حنث فى يمينه ) إذا لم يفعل مات حلف به .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ .

قال الشيخ المراكى فى تفسير هذه القصة : أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إني أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضاع الولد . ومن حديث مس الشيطان له ماروى - إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فابتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ، فصبر على ما أصابه من أذى وما ناله من ألم ممضى ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ، ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكننا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه لأن ذلك شرط من شروط النبوة ، كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفىها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء .

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴿ أى حرك الأرض برجلك واضربها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب ، فبئراً مما أنت فيه من المرض . وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالأكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد ، كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد بالشرب أيضاً كما ترى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوروبا ومصر وغيرها واستعملت مشاق ومصححات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى ، وسويسرا ، وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب - ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وكا دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجاب دعاءه في أهله وولده فقال :

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ أى وجمعنا له أهله بعد التفرق والتشتت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة لتعتبر وتعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة . ثم ذكر أنه رخص له سبحانه في تحلة يمينه فقال :

﴿ وخذ بيدك ضعفا فاضرب به ولا تحنث ﴾ أى وخذ حزمة من ربحان أو كلاً فاضرب بها - فيكون ذلك تحلة ليمينك التى حلفتها والكتاب لم يبين لما علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواه أنه حلف على زوجه ( رحمه بنت إفرايم ) وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربها إن برىء مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر في يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفي هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأتاب إليه ، ولهذا قال عز اسمه :

﴿ إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب ﴾ أى أنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه في النفس والأهل والمال من أذى ، فجازيناه بما فرج كربه ، وأذهب لوعته ، وليس في الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، وليس فيه شيء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ، وكان يقول في مناجاته : إلهي قد علمت أنه لم يخالف لساني قلبي ، ولم يتبع قلبي بصرى ولم يلهنى ما ملكت يميني ، ولم أكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شعبان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان .

ويقول العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآيات :

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب - عليه الصلاة والسلام - وما كان ابتلاه به من الضر في جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليم سوى قلبه ، ولم يبق من الدنيا شيء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله . فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نجوا من ثمانى عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك فقال كما حكى ربنا تبارك اسمه : ﴿ إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

وفي هذه الآية الكريمة قال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ قيل بنصب في بدنى وعذاب في مالى وولدى فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ، فأنبع الله تعالى عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ، ولهذا قال تبارك وتعالى :

﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ .

وقال الامام أحمد عن أنى هريوة - رضى الله عنه - قال رسول الله - ﷺ - بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب - عليه الصلاة والسلام - يحثو في ثوبه فناداه ربه عز وجل يا أيوب ألم اكن غنيبتك عما ترى قال - عليه الصلاة والسلام - بلى ، يارب ولكن لاغنى لى عن بركتك <sup>(١)</sup> إنفرد باخراجه البخارى من حديث عبد الرازق به ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الأبواب ﴾ قال حسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم وقوله عز وجل ﴿ رحمة منا ﴾ أى به على صبره وثباته وتواضعه ، واستكانته . ﴿ وذكرى لأولى الأبواب ﴾ أى لنزوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والخروج والراحة .

وقوله جلّت عظمتة ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ وذلك أن أيوب - عليه الصلاة والسلام - كان قد غضب على زوجته ووجد عليها فى أمر فعلته ، قبل باعت ضفيريها بخبز فأطعمته إياه قلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربها مائة جلدة وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤهما مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والخروج لمن اتقى الله تعالى وأتاب إليه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولهذا قال جل جلاله ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ أى رجاع منيب . واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ . على سائل فى الأيمان وغيرها ، وقد أخذوها بمقتضاها والله أعلم بالصواب .

### أضواء كاشفة

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه ( قصص الأنبياء ) عن النبى أيوب :

قال ابن اسحق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موسى بن زراح بن العيص ابن اسحق بن ابراهيم الخليل . وقال غيره هو أيوب بن موسى بن رعويل ابن العيص بن اسحق بن يعقوب وقيل غير ذلك فى نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط - عليه السلام - وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم - عليه السلام - يوم ألقى فى النار فلم تحرقه والمشهور لأنه من ذرية ابراهيم كما قررنا عند قوله تعالى ﴿ ومن ذريته داود

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : وأيوب إذ نادى ربه أى مسن الضر .

(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢ - ٣ .

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ﴿ الآيات من الصحيح الضمير عائداً إلى إبراهيم دون نوح عليه السلام وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ﴾ (١) الآية فهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء اليهم .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن اسحق وامراته قبل اسمها ليا بنت يعقوب ، وقيل رحمة بنت أفرائيم وقيل منشأ بن يوسف ابن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا ثم نعطف بذكر أنبياء بنى اسرائيل بعد قصته إن شاء الله . قال الله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ (٢) . وقال تعالى فى سورة ( ص ) :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض البشينة من أرض حدران .

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه . يذكر الله تعالى عز وجل بها وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليلة ونهاره وصباحه ومساءه .. ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته وضعف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأموره - رضى الله عنها وأرضاها - وهى صابرة على ما حل بها من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة ، فإننا لله وإننا إليه راجعون . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله - ﷺ - قال : ( أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون ، ثم الأمل فالأمل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ) (٣) ولم يزد هذا كله أيوب - عليه السلام - إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره - عليه السلام - ويضرب المثل بما حصل له من أنواع البلايا .

وقال ابن ابى حاتم وابن جرير عن أنس بن مالك أن النبى - ﷺ - قال ( إن نبى الله أيوب لبث به

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣

(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٣ - ٨٤

(٣) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ١١١ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمل فالأمل .

بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من أخوانه كانا من أخص أخواته له كان يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وماذا قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا إليه فلم يصبر الرجل حتى ذكر له ، قال أيوب لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق . قال وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاهما أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم ابطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه ﴿ أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء .

وهو على أحسن ما كان فلما رآته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى فو الله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك اذ كان صحيحا قال فإنى أنا هو قال وكان له اندران ، اندر للقمح واندر للشعير ، فبعث الله سبحانه فلما كانت احدهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وافرغت الأخرى فى اندر الشعير الورق حتى فاض <sup>(١)</sup> هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامه ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبة عن حملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جدا . والأشبه أن يكون موقوفا .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه . أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصوني فيك رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن أبي حاتم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ - لما عافى الله أيوب - عليه السلام - أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع . قال يارب ومن يشبع من رحمتك .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ - ( بينا أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل ﴿ يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى . قال بلى يارب ولكن لاغنى لى عن بركتك ﴾ .

رواه البخارى من حديث عبد الرزاق به <sup>(٢)</sup> .

وقوله ﴿ أركض برجلك ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان يجسده من الألم والآذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهرا وباطنا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى ﴿ وأتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾

(١) أنظر تفسير ابن جرير الطبرى ج ٢٣ ص ٩٦ تفسير سورة ص .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذا نادى ربه .

الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٣١٤ مسند أبى هريرة .

فقيل أحياهم الله بأعيانهم . وقيل أجره فيمن سلف وعوضه عنهم في الدنيا بذهبهم ورحمه له شمله بكلهم في الدار الآخرة . وقوله تعالى ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أى رفعا عنه شدته ﴿ وكشفنا ما به من ضر ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانا ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى في جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبي الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

وقوله ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحثب إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب - عليه السلام - فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عرضها الشيطان في صورة طيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فآخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفاته أن يأخذ ضغثا وهو كالعنكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحثب . وهذا من الفرج والخروج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة - رضى الله عنها - ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ وقد أستعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل في الخلاص من الأيمان وصلوره بهذه الآية الكريمة . وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكر طرفا من ذلك في كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة . وقيل إنه عاش أكثر من ذلك .

وقد روى لبث عن مجاهد مامعناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان - عليه السلام - على الأغنياء ، ويوسف - عليه السلام - على الأرقاء ، وبأيوب - عليه السلام - على أهل البلاء . رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات ابنه هذا وكان نبيا فيما يزعمون وكان عمره من الستين خمسا وسبعين . انتهى .

ولتماما للفائدة نذكر ما قاله صاحب كتاب ( روائع البيان ) .

بشأن هذه القصة تحت عنوان « موقف الشريعة من الجبل » .

قال الله تعالى :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برحلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله . ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحثب إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

« التحليل اللفظي »

( نصب ) : يضم النون وسكون العباد بمعنى التعب كالنصب .

قال الفراء : هما كالرشد والرشد . والحزن والحزن معناها واحد .

وقال في اللسان : والنصب ، والنصب والنصب : الداء والبلاء والشر ، والنصب : الإعياء من العناء ، وفي التنزيل ( لا يمسهم فيها نصب ) أى تعب .

وقال أبو عبيدة : النصب : الشر والبلاء ، والنصب : التعب والإعياء . والمراد في الآية : مرض أيوب وما كان يقاسيه من أنواع البلاء في جسده ( الركض ) الركض : الدفع بالرجل : يقال ركض الدابة إذا ضربها برجله لتعدو ، وقال المبرد : الركض التحريك والضرب ، ولهذا قال الأصمعي : يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هي ، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجله ولا فعل لها في ذلك .

والمراد في الآية : أضرب الأرض برجلك ينبع الماء فتغتسل وتغسل منه .

( مغتسل ) المغتسل الماء الذى يغتسل به ، وقيل : الموضع الذى يغتسل فيه ، والصحيح الأول .

( ضغثا ) الضغث في أصل اللغة : الشيء المختلط ومنه ( أضغاث أحلام ) للرؤيا المختلطة .

قال في اللسان : الضغث : قبضة من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد مثل الأسل والكراث .

وقيل : هي الحزمة من الحشيش ، مختلطة الرطب باليأس .

وقال ابن عباس : هو عثكال النخل الجامع بشماريخه . أى عنقود النخل المتفرع الأغصان .

والمعنى : أمره الله أن يأخذ حزمة من العيدان فيها مائة عود ، ويضربها ضربة ، ليبر في يمينه ولا يحث فيها .

( تحنث ) : الحنث : الخلف في اليمين ، يقال حنث في يمينه ، يحنث إذا لم يبر بها .

قال في اللسان : الحنث في اليمين : نقضها والنكث فيها ، وهو من الحنث بمعنى الاثم وفي الحديث

( اليمين حنث أو منادمة )<sup>(١)</sup> .

ومعناه : إما أن يندم على ما حلف عليه ، أو يحنث فتلزمه الكفارة .

والحنث : الذنب العظيم ، وفي التنزيل ﴿ وَكَانُوا يَصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ أبواب ﴾ : الأبواب : الرجوع ، والأبواب : التواب . الرجاء ، الذى يرجع إلى التوبة والطاعة ، ويرجع إلى

الله في جميع أموره وهى صيغ المبالغة مثل ( ظلام ) ( قتال ) .

### « المعنى الجملى »

اذكر يا محمد لقومك قصة عبدنا ( أيوب ) إذ نادى ربه مستغيثا به ، ضارعا إليه . فيما نزل به من

(١) الحديث في سنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٨٠ باب اليمين حنث أو ندم رقم ٢١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة آية ٤٦ .



البلاء . راجيا أن يكشف الله عنه الضر حيث قال : رب إني أصبت ببلاء وشدة تعب وضنى وأنت أرحم الراحمين ، ورب المستضعفين ... فاستجاب الله الخليم الكريم دعاءه - وكشف عنه شدته . فأذهب عنه الآلام والأسقام . وأمره أن يضرب برجله الأرض ، حتى تنبع له عين ماء يكون فيها شفاؤه . وقلنا له : هذا مغتسل بارد وشراب تغتسل منه وتشرب فتشفى بإذن الله ، فلما ضرب الأرض نبعث له عين ماء ، فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منها فذهب الداء من باطنه ، فعادت إليه الحياة الطبيعية التي كان يعيشها وشعر بأهله وأولاده ، ونعم بأسرته التي كانت بالنسبة إليه كالمفقودة ومتعه الله بصحته وقواه حتى كثر نسله وتضاعف عدد أولاده ورزقه من الأموال فضلا منه ونعمة ، وأكراما لعبده الصالح الطائع وتذكيرا لعباد الله بفضل الله وإكرامه لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وهو أفضل أهل زمانه - وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها ، واللجوء إلى الله عز وجل فيما يحق بهم كما لجأ أيوب ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العاقبة وعظيم الإكرام .

وما كان الله - جلت حكمته - ليكرمه ويدع زوجته التي أحسنت إليه وأعانته في بلائه ومحنته . وكان قد حلف لأمر فعلته ليضربها مائة جلدة ، فجزاها الله بحسن صبرها أن أفتاه في ضربها تسهيلا عليه وعليها فأمره أن يجمع لها ( مائة عود ) ويضربها ضربة واحدة ولا يحنث في يمينه .

ثم شهد الله تعالى لأيوب عليه السلام شهادة تبقى على مر الأزمان مظهرة أنه كان في بلائه صابرا ، لا تحمله الشدة على الخروج عن طاعة ربه ، والدخول في معصيته ، فكان من خيرة خلق الله وعباده ، مقبلا على طاعته ، رجاعا إلى رضاه ، فلم يكن دعاؤه عن تذمر وشكوى ، وإنما كان لجوء إلى الله العلي القدير الذى بيده مقاليد السموات والأرض .

### « الغرض من القصة »

المقصود من ذكر قصة ( أيوب ) عليه السلام ، وما قبلها من قصص الأنبياء الاعتبار بما يقع في هذه الحياة . كأن الله تعالى يقول : يا محمد ، اصبر على سفاهة قومك ، وشدتهم في معاملتك ، ومقابلة دعوتك بالصلود والإعراض ، فإنه ما كان في الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من ( داود ) و ( سليمان ) - عليهما السلام - وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب - عليه السلام - فتأمل في أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد . وأن العاقل لا بد له من الصبر على المكروه .

### « لطائف التفسير »

#### اللطيفة الأولى :

في قصة أيوب - عليه السلام - كان قد حصل له نوعان من البلاء ( المشقة الشديدة ) بسبب زوال النعم والخيرات ، وحصول المكروه ( والألم الشديد ) في الجسم . ولما كان كل منهما قد لحق به وأصابه الضر بسببه . أحدهما مادي . والآخر جسدى . ذكر الله تعالى في الآية الكريمة لفظين ( النصب ) و

( العذاب ) ليقابل بذلك الضر الذى أصابه . فالنصب الضر فى الجسد ، والعذاب البلاء فى الأهل والمال .

#### اللطيفة الثانية :

وصف الله تعالى نبيه أيوب - عليه السلام - بالصبر . وأثنى عليه بقوله ﴿ إنا وجدناه صابراً ﴾ مع أن أيوب كان قد اشتكى إلى ربه من الضر الذى أصابه فقال ﴿ مسنى الضر ﴾ فى سورة الأنبياء ، وقال هنا ﴿ مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فدل ذلك على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ، وقد قال يعقوب - عليه السلام - ﴿ إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> ولهذا مدحه الله بقوله ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ولو كانت الشكوى إلى الله تنافى الصبر لما استحق هذا الثناء .

#### اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ أئى مسنى الشيطان ﴾ أسند الضر الذى أصابه فى جسمه وأهله ، وماله إلى الشيطان أدبا مع الله تعالى ، مع أن الفاعل الحقيقى هو الله رب العالمين ، فالخير والشر ، والنفع والضر ، بيد الله جل وعلا ، ولكن لا ينسب الشر إلى الله وإنما ينسب إلى النفس أو الشيطان ، ولهذا راعى - عليه السلام - الأدب فى ذلك فنسبه إلى الشيطان ، وهو على حد قول إبراهيم - عليه السلام - ﴿ الذى هو يطعمنى ويسقئ ، وإذا مرضت فهو يشفئ ﴾<sup>(٢)</sup> حيث نسب الأحكام إلى الله ونسب المرض إلى نفسه أدبا .

قال الزمخشري : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبته إليه ، وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم يلسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو .

#### اللطيفة الرابعة :

سئل سفيان عن عبيد بن ابتلى أحدهما فصير ، وأنعم على الآخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبيد أحدهما صابر ، والآخر شاكر ثناء واحدا فقال فى وصف أيوب ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ، وقال فى وصف سليمان ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ وفضل بعض العلماء : الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر ، لأن الغنى ابتلاء وفتنة ، والشاكر من عباد الله قليل ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ بخلاف الصابر فإنه كثير والمسألة فيها نظر .

( قال الامام ابن تيميه أفضلهما أتقاهما ) .

(١) سورة يوسف آية ٨٦

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٧٩ - ٨٠

## اللطيفة الخامسة :

يضرب المثل بصبر أيوب - عليه السلام - فيقال : ( صبر كصبر أيوب ) وقد صبر على البلاء في جسمه وأهله ، وولده مدة ثمان عشرة سنة على المرجح من الأقوال ، ويروى أن زوجه لما طلبت منه ان يدعو الله أن يشفيه سألها :

كم مكثنا في الرخاء ؟ قالت سبعين عاما ، فقال لها : ويحك كنا في النعم سبعين عاما ، فاصبري حتى نكون في الضر سبعين عاما .

ويروى أنه قال لها : إني لأستحيى من الله أن أسأله أن يشفيني وما قضيت في بلائي ما قضيته في رخائي .

ولهذا يضرب به المثل في الصبر .

## اللطيفة السادسة :

روى البخاري والنسائي عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : ( بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحنى في ثوبه ، فناداه ربه ياأيوب : ألم أكن أغنيك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لاغنى لى عن بركتك )<sup>(١)</sup> ( رجل جراد : قال في اللسان الرجل الطائفة من الشيء ) .

قال بعض العلماء : حين صبر أيوب أكرمه الله بالمال الوفير ، والأجر الجزيل ، وعوضه عن الأهل والولد ، بضعفهم وبارك فيهم ، كما قال تعالى ﴿ فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

## « الأحكام الشرعية »

الحكم الأول : ماهو سبب حلف أيوب - عليه السلام - بضرب أهله ؟ دل ظاهر قوله تعالى ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ على أن أيوب عليه السلام كان قد صدر منه يمين على ضرب أهله ، ويقول المفسرون إنه حلف لئن شفاه الله ليجلدن زوجته مائة جلدة ، فأمره الله أن يأخذ قبضة من حشيش أو حزمة من الخلال والعيذان ، فيضرب بها لير يمينه ولا يحنث ، ولم تذكر الآية سبب هذا الحلف ، وقد ذكر بعض المفسرين كلاما طويلا في سبب هذا اليمين ، فقيل : إن امرأة أيوب كانت تخدمه وضجرت من طول مرضه ، فتمثل لها الشيطان بصورة طبيب وجلس في طريقها فقالت له : يا عبد الله ههنا إنسان مبتلى ، فهل لك أن تدأويه ؟ قال : نعم إن شاء شفيته ، على أن يقول إذا برأ : أنت شفيتي فجاءت إلى أيوب فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله على إن شفاى الله أن أجلك مائة جلدة .

(١) الحديث في صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذ نادى ربه .

وزعم بعضهم أن إبليس لقي زوجة أيوب فقال لها : أنا الذى فعلت بأيوب ما فعلت ، وأنا إله الأرض ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله ، فجاءت فأخبرت أيوب فأقسم أن يضربها إن عافاه الله .

وكتاب الله تعالى لم يأت فيه تفصيل للقصة ، ولهذا انطلقت الخيالات تنسج قصصا في سبب بلائه وفي سبب حلفه على زوجه منها قما هو ، باطل لا يصح اعتقاده ومنها ما هو ضعيف واهن .

يقول أبو بكر ابن العرى : ( ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان في السماء السابعة ، وأنه طلب من ربه أن يسلمه على أيوب فقال له : قد سلطتك على أهله وماله .. اغل إن هذا قول باطل لأن إبليس أهبط منها بلعنة الله وسخطه ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول في مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى !! إن هذا لخطب من الجهالة عظيم .

وأما قولهم : إن الله تعالى قاله له : هل قدرت من عبدى أيوب على شيء ؟ فباطل قطعاً ، لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس اللعين ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟  
وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده ، فذلك ممكن في القدرة ، ولكنه بعيد في هذه القصة ، وكذلك قولهم :

إنه نفخ في جسده حين سلطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان كسب فيه حتى تقرر له - لعنة الله عليه - عين بالتمكن من الأنبياء في أموالهم وأهلهم وأنفسهم .

وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركت ذكر الله وسجدت لي لعافيت .. فاعلموا أنه لو عرض لأحدم وبه ألم وقال هذا الكلام ، ما جاز عنده أن يكون إلهاً في الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعانى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبي ؟ ولو كانت زوجة سوارى أو قدم بدبرى ما ساغ ذلك عندها .

ثم قال : ( ولم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين : الأولى قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ﴾ والثانية ﴿ فرص ﴾ أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ وأما النبى - ﷺ - فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله ( بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب - الحديث ) وقد تقدم .

وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على لسان سمعه ؟ ، والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على الثبات . فأعرض عن سطورها بصرك .

وأصم عن سمعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خيالا . أه أقول :

( ليس بلام ثبوت صبر أيوب اعتقاد أمثال هذه القصص الاسرائيلية التى حشأها بعض المفسرين كتبهم ، ولا أمثال هذه الغرائب التى لا يصح سندها ولا نسبتها إلى الأنبياء الكرام لأنها تنافى « العصمة »

ولا تتفق مع المناصب الرفيعة للأنبياء الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم - ويكفى أن تقتصر على مذكرو الله تعالى في كتابه ، ونعرض عن مثل هذه الخرافات والأباطيل ، كزعم بعضهم أن أيوب تساقط لحمه من شدة المرض ، وأصبح اللود يخرج من جسمه حتى استقذره القريب والبعيد ، ومله الصديق والغريب ولم يصبر عليه إلا امرأته ، وأنه عظم بلاؤه حتى أخرج من بيته وألقى على كناسه ( مزيله ) .. إلى آخر ما هنالك من حكايات مكنوبة وقصص إسرائيلية تلقفها بعض القصاص ، ودخلت إلى بعض كتب التفسير وهي مماتنا في عصمة الأنبياء .

والذى ينبغى أن يقتصر عليه المسلم أن ما أصاب ( أيوب ) من ضر إنما كان مرضا من الأمراض المستعصية ، التى ينوء بحملها الناس عادة ، ويضجرون من ثقلها ، وخصوصا إذا امتد الزمن بها ، وأن هذا المرض لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة ، وأنه غضب على زوجه لأمر من الأمور فحلف أن يضربها مائة جلدة ، فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ، وسهل عليه الأمر ، فجمع لها ( مائة عود ) فضربها بها ضربة واحدة ولم يحث في يمينه ، وكشف الله عنه ضره وبلاءه ) .

الحكم الثانى : هل يباح للرجل ضرب امرأته تأديبا ؟

أستدل بعض العلماء بالآية الكريمة على جواز ضرب الرجل امرأته تأديبا . وذلك لأن امرأة أيوب أخطأت في حق زوجها فحلف ليضربها مائة جلدة ، فأمر الله تعالى أن يضربها بعشكول من عشاكيل النخل أو بحزمة من العيدان وذلك ليبر في يمينه ولا يحث ولو كان الضرب غير جائز لما أقره القرآن عليه ودله على ما هو أرحم .

وفى الآية إشارة إلى أنه لا يجوز ضرب المرأة فوق حدود الأدب ، ولهذا قال - عليه السلام - فى حجة الوداع ( واضربوهن ضربا غير مبرح ) والجواز لا ينافى الكراهة فقد ورد عن النبى - ﷺ - أنه قال ( لا تضربوا إماء الله ) فجاء عمر إلى رسول الله - ﷺ - فقال : ذأرن - اجترأن - النساء على أزواجهن ، فرخص فى ضربهن ، فأطاف بآل النبى - ﷺ - نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال - ﷺ - لقد طاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم ( رواه أبو داود والنسائى والبخارى فى التاريخ )

قال الجصاص ( والذى ذكره الله فى القرآن وأباحه من ضرب النساء إذا كانت ناشرا بقوله ﴿ واللاقي تخافون نشوزهن ﴾ إلى قوله ﴿ واضربوهن ﴾<sup>(١)</sup> . وقد دلت قصة أيوب على أن له ضربها تأديبا لغير نشوز وقوله تعالى ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ فما روى من القصة فيه يدل على مثل دلالة قصة أيوب ، لأنه روى أن رجلا لطم امرأته على عهد رسول الله - ﷺ - فأراد أهلها القصاص فأنزل الله ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ .

الحكم الثالث : هل الحكم خاص بأيوب أم هو عام لجميع الناس ؟ .

أختلف العلماء في هذا الحكم الذى أرشد الله تعالى إليه نبيه ( أيوب ) عليه السلام هل هو خاص أم عام لجميع الناس ؟

فذهب ( مجاهد ) إلى أنه خاص بأيوب عليه السلام ، وهو منقول عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وهو مذهب ( مالك ، وأحمد بن حنبل ) . رحمهما الله .

وذهب عطاء بن أبى رباح ، وابن أبى لعل إلى أن الحكم عام ، وأن هذه الرخصة لجميع الناس فضلا من الله تعالى وكرما ، وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة رحمهما الله تعالى .

الحكم الرابع : هل يشترط فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

وبناء على ما سبق فقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط ، فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة ، هل يكفى ذلك أم لابد فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

فقال مالك وأحمد : لا يبر يمينه حتى يفرق الضرب .

وقال أبو حنيفة والشافعى : إذا أصابه واحد منها فقد بر فى يمينه ولا يشترط التفريق .

### « حجة المذهب الأول »

١ - إن هذا الأمر خاص بأيوب وزوجه لأن الله تعالى قال ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ <sup>(١)</sup> ولأن زوجة أيوب لم تفعل أمرا تستحق معه مائة جلدة . فجعل الله سبحانه لأيوب فرجا ومخرجا بذلك .

٢ - ولأنه إذا أقسم بالضرب إنما أراد الإيلام ، وليس فى الضرب بالجميع إيلام .

٣ - الأيمان مبناها على النية ، فإن لم توجد فعلى اللغة والعرف ، واللغة لا تجعل الضارب مرة بسوط ذى شعب ضاربا مرات بعدد الشعب ، وكذا العرف فوجب أن تجرى على ما هو الحكم عندنا بموجب العرف واللغة .

### « حجة المذهب الثانى »

١ - عموم قصة أيوب - عليه السلام - وشرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت ناسخ ، وقد جاء فى الشرع ما يؤيدها ، ولم يثبت الناسخ .

٢ - واستدلوا بحديث أبى أمامة عن بعض الصحابة من الأنصار : أنه اشتكى رجل منهم فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهى لها ، فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال من قومه يعودونه أخبرهم بذلك ، وقال استفتوا لى رسول الله ﷺ - فذكروا له ذلك ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الضر

مثل مابه ، ولو حملناه لك لتفخست عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم فأمر — ﷺ — أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة ( الحديث رواه أبو داود وسكت عنه المنذرى ، وقال القرطبى وقد تكلم فى اسناده ) (١)

ودلالة الآية ظاهرة على صحة هذا القول :

وذلك لأن فاعل ذلك يسمى ضاربا لما شرط من العدد ، وذلك يقتضى البر فى يمينه .

٣ - وقالوا : أن القرآن حكم بأنه لا يحنت بفعله لقوله تعالى ﴿ فاضرب به ولا تحنت ﴾ ولكن يجب أن لا يطبق ذلك فى الحدود إلا مقيدا بما ورد الحديث به فتكون ذلك حد المريض الذى وصل من المرض إلى الحد الذى وصف فى الحديث الشريف .

**الحكم الخامس : هل تجوز الحيلة فى الشريعة الاسلامية ؟**

قال الحصاص فى تفسيره أحكام القرآن : ( وفى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى ما يجوز فعله ، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره ، لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به عن اليمين ولا يصل إليها كثير حذر ) .

أقول : هذا هو الحد المقبول من الحيل الشرعية التى توصل إلى ما يجوز فعله وتدفع المكروه عن نفسه وغيره ، أما الحيل التى يتوصل بها إلى الهرب من فرائض الله ، والتخلص مما أوجبه الله على الإنسان ، فهذه لا يقبلها ذو قلب سليم ، ولا يقرها مسلم عاقل لأن فرائض الله إنما فرضت لتؤدى ، والواجبات إنما شرعت لتقام على وجه الأرض لا لتكون طريقا للتلاعب فى أحكام الله .

وقد استدلل بعض العلماء على جواز الحيلة مطلقا بهذه الآية ويقول الله تعالى فى قصة يوسف ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ﴾ (٢) وليس الأمر كما زعموا فإن ذلك كان بإذن الله ليظهر فضله على سائر إخوانه بدليل قوله تعالى ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾ (٣) .

قال الألوسى : وعندى أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط فى المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقا ، ومنهم من لا يجوزها مطلقا .

**الحكم السادس :**

**هل أفعال الاله جل وعلا ، تابعة للمصالح ؟**

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٤ ص ٦١٥ كتاب الحدود باب إقامة الحد على المريض . رقم ٤٤٧٢ .

(٢) سورة يوسف آية ٧٠ .

(٣) سورة يوسف جزء من الآية : ٧٦ .

قال الامام الفخر - رحمه الله - وفي قصة أيوب - عليه السلام - دلالة على أن أفعال ذى الجلال والاکرام منزهة عن التعليل للمصالح والمفاسد ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾<sup>(١)</sup>. وذلك لأن أيوب لم يقترف ذنبا حتى يكون ابتلائه في مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان البلاء ليجزل له الثواب فإن الله تعالى قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الآلام والأسقام ، وحينئذ في تلك الأمراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جليلة والحق الصريح أنه لا يسئل عما يفعل .

الحكم السابع :

### هل البر في الإيمان أفضل أم الكفارة عن الإيمان ؟

في الآية الكريمة دليل على أن البر بالإيمان مالم يكن في إثم أفضل من الكفارة وقد قال ابن تيمية « رحمه الله » إن الكفارة لم تكن مشروعة في زمنه ، وإلا أمره الله تعالى بها ، وذكره ابن العربي قبله .

قال القرطبي : قوله إنه لم يكن في شرعهم كفارة ليس بصحيح فإن أيوب - عليه السلام - لما بقى في البلاء ثمان عشرة سنة كما في حديث ابن شهاب قال له صاحبه لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه فقال أيوب - عليه السلام - ما أدري ما تقولان غير أن ربي عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلي فأكفر عن أيمانهم ارادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق ﴿ فنادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وذكر الحديث .

فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب وأن من كفر عن غيره بغير إذنه قام بالواجب عنه ، وسقطت عنه الكفارة .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة .

أولا : ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب - عليه السلام - كان امتحانا لإيمانه ورفعاً لمقامه .

ثانيا : الانسان يبتلى في هذه الحياة على قدر إيمانه ولهذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء .

ثالثا : التضرع إلى الله والشكوى إليه سبحانه لا ينافي مقام الصبر المملوح .

رابعا : كما يبتلى الله سبحانه وتعالى بالفقر فيبتلى بالغنى والمؤمن من يشكر الله في السراء والضراء .

خامسا : إذا اتقى الإنسان ربه جعل الله له من أمره فرجا ومخرجا كما صنع بأيوب عليه السلام .

سادسا : زوجة أيوب جازاها الله بحسن صبرها فأفتاه في ضربها بمائة عود جملة واحدة .

سابعا : إتخاذ الحيلة جائزة إذا لم يكن فيها إبطال حق أو هدم أمر من أمور الشرع الحنيف .

ثامنا : على الإنسان أن يبر في يمينه أو يكفر عنها إذا كان ثمة وكان الحنث أفضل من البر .

### « حكمة التشريع »

لقد نزل الاسلام بتشريعاته وتعاليمه ليحكم المجتمع البشري في كل ظروفه وأحواله ، فلهذا أعطى لكل أمر



حكماً وراعى المصالح فى أحكامه وتشريعاته ، كما راعى اختلاف أطباع الأنسانية فعندما جاز الشارع ضرب المرء زوجه إنما أجازة أولاً وقبل كل شئ فى حدود . وألا يكون الضرب مبرحاً ولا يتعدى حدود التأديب والتهديب ومع ذلك فقد اعتبر ضرب الأزواج غير ممدوح فاعله ، وتبعو حكمة الترخيص بالقرب جلية فى نساء مخصوصات تعودن عليه ، ونشأن فى ظلاله فلم يعد من الممكن تأديبهن إلا بهذه الطريق فأجازها الشارع لذلك .

يقول شهيد الاسلام سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن » مانصه : وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة ومشهورة وهى تضرب مثلاً للابتلاء والصبر ولكنها مشوبة باسرائيليات تطفى عليها ، والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب - عليه السلام - كان كما جاء فى القرآن عبداً صالحاً أواباً ، وقد ابتلاه الله فصبر صبر جميلاً ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له ، وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفس أشد ما يؤذيه الضر والبلاء . .

فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عينه ، قيل مائة ، وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقي من إيذاء الشيطان ومداخله إلى نفوس خلصائه ووقع هذا الإيذاء فى نفسه ﴿ أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ونفوره من محاولات الشيطان وتأذيه بها أدركه برحمته وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته ، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ .

ويقول القرآن الكريم ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

وتقول بعض الروايات : أن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات وقد يكون معناه أنه بعدوته إلى الصحة والعافية قد أسترده أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية مما يصلح ذكرى للنوى العقول والإدراك .

والمهم فى معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يتلهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه فرحمة من الله وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرته على بلائه وبلا نهاية . أمره الله أن يأخذ مجموعة من العبدان بالعدد التى حدده فيضربها به ضربة واحدة تجزئ عن يمينه فلا يحث فيها ﴿ وخذ بيدك ضعفاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ هذا التيسر وذلك الإنعام كان جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ .

## « نور الوعد »

قال تعالى :

وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآثٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتَحَةٍ لَهُمْ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَكِعِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ \* وَعِنْدَهُمْ قَصِرَاتُ الطَّرَفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٤﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ الأيدي ﴾ : أى القوى فى طاعة الله ، ﴿ والأبصار ﴾ : واحدها بصيرها ويراد به هنا البصيرة والفقه فى الدين ومعرفة أسرارہ ، ﴿ أخلصناهم ﴾ : أى جعلناهم خالصين لنا ، ﴿ بخالصة ﴾ : أى بخلصنة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكرة الدار الآخرة والعمل لها ، ﴿ المصطفين ﴾ : أى المختارين من أبناء جنسهم ، ﴿ والأخيار ﴾ : واحدهم خير هو المطبوع على فعل الخير ، ﴿ هذا ذكر ﴾ : أى هذا المذكور من الآيات فضل من الذكر وهو القرآن . الطاغى : المتجاوز للحد فى ترك الأوامر الغل النواهى ، ﴿ جنات عدن ﴾ : أى جنات استقرار وثبات من قولهم ، عدن بالمكان أى أقام به ، ﴿ متكئين فيها ﴾ : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء فى الآية الأخرى ، ﴿ أتراب ﴾ : أى لذات متساوون فى السن حتى لا تحصل الغيرة بينهم ، ﴿ نفاذ ﴾ : أى انقطاع .

## « المعنى الجملى »

لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى — ﷺ — فوصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب — أمره بالصبر على أذاهم لوجهين :

- ١ - إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .
- ٢ - ما ذكره فى هذه الآيات التى بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقه من المكاره .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسماعيل ، واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين . ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة في العبادة والبصيرة النافذة . قال علي بن طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿ أولى الأيدي ﴾ يقول أولى القوة ( والأبصار ) يقول الفقه في الدين . وقال مجاهد ﴿ أولى الأيدي ﴾ يعني القوة في طاعة الله تعالى ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ قال مجاهد أى جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها . وهناك أقوال أخرى في هذه الآية نذكرها فيما يلي : قال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

وقال سعيد بن جبير يعني بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها ، وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شيء في الدار الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أى لمن المختارين المجتبيين الأخيار منهم أخيار مختارون قال تعالى ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ أى وأذكر لقومك من هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا الشدائد في دين الله وعبدوا زهيم حتى أتاهم اليقين . ﴿ وكل من الأخيار ﴾ أى وكل منهم ممن أختاره الله للنبوة ، واصطفاه من خلقه . ﴿ هذا ذكر ﴾ قال السدى يعني القرآن العظيم ، فيه ذكر لمن يتذكر . وقال ابن كثير : أى هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر .

وقال المراغى : ( هذا ذكر ) أى هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا اسلوب يذكر للأنفال من كلام إلى آخر ، وعلى هذا جاء قوله ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ كما سيأتى بعد .

## « اضاء كاشفة »

قال العلامة ابن كثير في كتابه « قصص الأنبياء » عن النبي ( اليسع ) .

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣ - ٣٤

(٢) سورة النمل آية ٥٩ .

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء في سورة الأنعام في قوله :

﴿ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ﴾ .

وقال تعالى في سورة ص ، ﴿ واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

قال ابن اسحق بسنده عن الحسن ، قال كان بعد الياس - عليهما السلام - فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجباية وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك طاغ ويقال إنه الذي تكفل له ذو الكفل إذ هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن اسحق هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في حرف الياء من تاريخه :

اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوقلم بن أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبي - عليهما السلام - ويقال كان مستخف معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليهما فلما رفع الياس خلفه اليسع في قومه ونبأه الله بعده .

« أضواء كاشفة : على النبي ذى الكفل »

قال ابن كثير :

قال الله تعالى بعد قصة أيوب في سورة الأنبياء : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم في رحمته إنهم من الصالحين ﴾ .

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا في سورة ( ص ) ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنيهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار ﴾ .

فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبي ، - عليه من ربه الصلاة والسلام - وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيا ، وإنما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير فإله أعلم .

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صالحا .

وكان قد تكفل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل .

قوله تعالى : ﴿ هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم

الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاق ﴿١﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب كما قال تعالى ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾ ﴿١﴾ وقال تعالى ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أونيئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين ، والصادقين والقانتين والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار﴾ ﴿٢﴾ .

ثم بين سبحانه — هنا — المآب الحسن بقوله ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وغندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ما توعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ماله من نفاق﴾ .

قوله تعالى ﴿جنات عدن مفتحة لهم الأبواب﴾ أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فتحت إكراماً لهم ، وفي هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقرّة العيون فيها ، ومشاهدة أحوالها التى تسر الناظرين ففيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى ﴿وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طيبم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ ﴿٣﴾ .

وقال الامام ابن القيم فى هذه الآية :

تأمل قوله ، كيف تجد تحته معنى بديعاً ؟ وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم ، بل تبقى مفتحة كما هى . وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليها أبوابها . كما قال تعالى : ﴿إنها عليهم مؤصلة﴾ ﴿٤﴾ أى مطبقة مغلقة ومنه سمي الباب وصيدا .

وهى مؤصلة فى عمد ممددة قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذى يجعل خلف الباب .

قال مقاتل : يعنى أبوابها عليهم مطبقة . فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم . ولا يدخل فيها روح

(١) سورة الرعد آية ٢٩

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٤ - ١٥ - ١٦ - ١٧

(٣) سورة الزمر الآيات ٧١ - ٧٥

(٤) سورة الهمزة آية ٨

آخر الأبد .

وأيضاً فإن تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوءهم في الجنة حيث شاءوا ، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطف من ربهم ، ودخول ما يترهم عليهم كل وقت .  
وأيضاً فيه إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا .  
وقد اختلف أهل العربية في الضمير العائد من الصفة على الموصوف في هذه الجملة . فقال الكوفيون :  
التقدير مفتحة لهم أبوابها .

والعرب تعاقب بين الألف واللام والاضافة فيقولون : مررت برجل حسن العين ، أى عينه . ومنه قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ أى مأواه . وقال بعض البصريين : التقدير مفتحة لهم الأبواب منها .  
مختلف الضمير وما اتصل به . قال : وهذا التقدير في العربية أجود من أن أجعل الألف واللام بدلا من الهاء والألف لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف في شيء لأن الهاء والألف اسم ؟ والألف واللام دخلتا للتعريف فلا يبدل حرف من اسم ، ولا ينوب عنه .

قالوا : وأيضاً لو كانت الألف واللام بدلا من الضمير لوجب أن يكون في « مفتحة » ضمير الجنات ، ويكون المعنى : مفتحة هي ، ثم أبدل منها الأبواب وكان كذلك لوجب نصب الأبواب ، لكون « مفتحة » قد ضمير الفاعل فلا يجوز أن يرفع به اسم آخر ، لا متناع ارتفاع فاعلين بفعل واحد . فلما ارتفع « الأبواب » دل على أن « مفتحة » حال من ضمير و « الأبواب » مرتفعة به .

وإذا كان في الصفة ضمير تعين نصب الثاني ، كما تقول مررت برجل حسن الوجه . ولو رفعت الوجه ونونت « حسنا » لم يجز فالألف واللام إذا : للتعريف ليس إلا ، فلا بد من ضمير يعود على الموصوف الذي هو « جنات عدن » ولا ضمير في اللفظ ، فهو محذوف ، تقديره : الأبواب منها .

وعندى أن هذا غير مبطل لقول الكوفيين ، فإنهم لم يريدوا بالبدل إلا أن الألف واللام خلف وعوض عن الضمير تغني عنه . وإجماع العرب على قولهم : حسن الوجه ، وحسن وجهه : شاهد بذلك . وقد قالوا : إن التنوين بدل من الألف واللام بمعنى أنهما لا يجتمعان ، وكذلك المضاف إليه يكون بدلا من التنوين والتنوين بدلا من الاضافة بمعنى الثعامة والتوارد ولا يريدون بقولهم : هذا بدل عن هذا : أن معنى البدل معنى المبدل منه : بل قد يكون في كل منهما معنى لا يكون في الآخر .

فالكوفيون أرادوا أن الألف واللام في « الأبواب » أغنت عن الضمير لو قيل : أبوابها ، وهذا صحيح .  
فإن المقصود الربط بين الصفة والموصوف بأمر يجعلها له ، لا مستقلة . فلما كان الضمير عائدا على الموصوف ففي توهم الاستقلال . وكذلك لام التعريف فإن كلا من الضمير واللام يعين صاحبه ، هذا يعين مفسره وهذا يعين ما دخل عليه ، وقد قالوا في زيد نعم الرجل : أن الألف واللام أغنت عن الضمير . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴾ أى يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك . وإنما خص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها ، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والاشربة ، فالنفس اليها أشوق ، وفى ذكرها أرغب وهذا كقوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عین . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (١) .

وهذا سبحانه بعد أن وصف المسكن والمشرب وصف الأزواج فقال : ﴿ وعندهم قاصرات الطرف أتراب ﴾ أى من غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أتراب ﴾ أى متساويات فى السن والعمر . وهنا كقوله تعالى ﴿ فهين قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدها لعباده المتقين التى يصيرون اليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك اسمه عن الجنة لأنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء .

ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ أى إن هذا النعيم وتلك الكرامة لعطاء دائم غير محذوذ ولا منقطع كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدین فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ (٣)

أى غير مقطوع وكقوله تعالى ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا ﴾ (٤) والآيات فى هذا النص كثيرا جدا .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم ﴾ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٥)

(١) سورة الواقعة الآيات ١٠ - ٢٤

(٢) سورة الرحمن الآيات ٥٦ - ٦١

(٣) سورة هود آية ١٠٨

(٤) سورة ق الآيات ٣١ - ٣٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٣ كتاب بدء الخلق باصفة الحبشة .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٣١٧٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ٢ / ٢٨٢٤ .

متفق عليه وعنه أن رسول الله ﷺ — قال : ( لقاب قوس في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب ) متفق عليه <sup>(١)</sup> .

وعن أبي سعيد وأبي هريرة — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ — قال : ( إذا دخل أهل الجنة ينادى مناد أن لكم أن تحبوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تياسوا أبدا ) <sup>(٢)</sup> . رواه مسلم .

### « نار الوعيد »

قال تعالى :

هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٥٧﴾ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ  
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٨﴾ وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿٥٩﴾ هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا  
بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦١﴾  
قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ ﴿٦٢﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا  
كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنْ الْأَشْرَارِ ﴿٦٣﴾ أَخَذَتْهُمْ سَخِرِيَاءٌ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ﴿٦٤﴾ إِنْ  
ذَلِكَ لِحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ  
الْقَهَّارُ ﴿٦٦﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٧﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ  
﴿٦٨﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٧٠﴾ إِنْ يُوحَىٰ  
إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٧١﴾

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب صفة الجنة .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ . كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب دوام تعليم أهل الجنة رقم ٢٢ / ٢٨٢٧



## « تفسير المفردات »

﴿ الطاغين ﴾ : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ﴿ يصلونها ﴾ أى يدخلونها ويقاسون حرها ﴿ المهاد ﴾ كالفرش لفظا ومعنى ، ﴿ الحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ انفساق ﴾ شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين : أى سأل دمعها ﴿ من شكله ﴾ أى من مثل المنقوش في شدة والفضاعة ، ﴿ أزواج ﴾ أى أجناس ، ﴿ فوج ﴾ أى جمع الكثير من أتباعكم في الضلال ، ﴿ والافتحام ﴾ ركوب الشدة والدخول فيها . ﴿ لا مرحبا بهم ﴾ قال ابو عبيدة : العرب تقول لا مرحبا بك : أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت ، ﴿ من الأشرار ﴾ أى الأرازل الذى لا خير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين ﴿ زاغت عنهم ﴾ أى مالت عنهم ، ﴿ التخاصم ﴾ مخاصمة بعضهم بعضا ومدافعة كل منهم الآخر .

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين - أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون ذلك متمما له ، فيأتى الوعيد عقب الوعد والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين رجاء في الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد في الطاعة وينأى عن المعصية ، وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التى ترقى بها النفوس إلى سبيل الكمال فى دنياها وأخرتها . ثم تحدث سبحانه عن المطالب التى ذكرها أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ هذا ، وأن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم عن دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسول الله ﷺ —

﴿ لشر مآب ﴾ أى لسوء منقلب ومرجع ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أى يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أما الحميم فهو الحار الذى قد أنتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطيع من شدة برده المؤلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أى وأشياء من هذا القبيل : الشئ وضده يعاقبون فيها .

وعن ابن سعد — رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ — ( يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجعلونها<sup>(١)</sup> . أخرجه مسلم .

وعن مجاهد عن ابن عباس قال : ( أتدري ما يعة جهنم ؟ قلت لا ، قال أجل والله ما تدري ، إن بين شحمة أذنى أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا تجري فيها أودية القبح والدم . قلت لها : أنهار ؟ قال : لا بل أودية ، ثم قال : أتدري ما سعة جهنم ؟ قلت : لا أدري ، قال : أجل والله ما تدري ، حدثني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ — عن قوله ( الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ) قالت : قلت : فأين الناس يومئذ ؟ قال على جسر جهنم<sup>(٢)</sup> أخرجه بن المبارك والترمذى وصححه . ورواه أحمد ورجال رجال الصحيح .

وعن أنى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : ( نار ابن آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم فقالوا : يا رسول الله وإن كانت لكافية قال فإنها فضلت بتسعة وستين جزءا )<sup>(٣)</sup> أخرجه مالك ومسلم .

وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أنى الدرداء قال :

قال رسول الله ﷺ — ( يلقي على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت مافى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون :

( أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا بلى ! قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ) قال : فيقولون : ادعوا مالكا ، فيقولون : ( يا مالكا ليقتضى علينا ربك ؟ ) قال فيجيهم ( إنكم ماكثون ) قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالكا إياهم ألف عام قال فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون : ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال فيجيهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال فعند ذلك يتسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل<sup>(٤)</sup> أخرجه الترمذى .

قوله تعالى : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٣ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة النار رقم ٢٦٩٨ وقال الترمذى : قال عبد الله بن عبد الرحمن والثورى لا يرفعه .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٥١ أبواب التفسير — تفسير سورة الزمر — رقم ٣٢٩٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى شدة حر جهنم . رقم ٣٠ / ٢٨٤٣ أنظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١١٠ رقم ٢٧١٥ . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٨ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار رقم ٢٧١٢ .

أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجلا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرى أم زاغتم عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴿١﴾ .

هذا إخبار حق من المولى سبحانه وتعالى عن تخاصم أهل النار يوم القيامة ، فبعد أن وصف سبحانه مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقول به بعضهم لبعض .

﴿ هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم ﴾ أى هم يتلاعنون ويتكاذبون فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى حين تقبل التى بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثيف داخل معكم ، فلا مرحبا بهم . قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع تقول الخزنة للقادة : هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم . ﴿ إنهم صالوا النار ﴾ أى إنهم ذائقو حر النار مثلكم . وهذا كلام من المبتوعين والرؤساء الذين أغووههم وأدخلوهم فى الكفر ، وحينئذ يرد عليهم الداخلون من الأتباع ويقولون لهم . ﴿ بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ﴾ أى قال الأتباع وهم الفوج المقتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أنتم أحق منا بما قلتم ( لا مرحبا بكم ) فإنكم أغويتمونا ودعوتونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفى ، لأنه مشترك بينهم ، يذكر سبحانه مقالة أخرى للأتباع ذما لهم أيضا فقال : ﴿ ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ﴾ .

أى قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال . ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب عذابا مضاعفا فى النار ، عذابا للضلال وعذابا للاضلال .

ونحو هذا الآيات قوله تعالى ﴿ قال ادخلوا فى أُمّ قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعا قالت أختهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأختهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب ﴾ مما كنتم تكسبون ﴿<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا أولم تلك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول

(١) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ - ٣٩

(٢) سورة غافر الآيات ٤٧ - ٥٠

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخرى أم زاغت عنهم الأبصار إن ذلك لحق تحاصم أهل النار ﴾ .

ثم قال المشركون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم في النار : ما بالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم في الدنيا أشرار لا خير فيهم ؟

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد ﷺ — يقول أبو جهل : أين بلال ؟ وأين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك في الفردوس ، واعجبا لأبي جهل : مسكين أسلم ابنه عكرمة وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه وكفر هو .

ثم سألوا عن السبب في عدم رؤيتهم فقالوا : ﴿ أتخذناهم سخرى أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ أى الأجل أنا قد اتخذناهم سخرى ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟ . وفى هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسغارهم منهم في الدنيا .

والخلاصة — أن الكفار حين دخلوا ونظروا في جوانبها ولم يروا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم في الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لا نرى الذين كنا نتخذهم في الدنيا سخرى ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم الأبصار ؟ .

ثم بين أن هذا التناجى يوم القيامة حق لا مزية فيه فقال سبحانه : ﴿ إن ذلك لحق تحاصم أهل النار ﴾ أى أن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول من تحاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا حق لا مزية فيه .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا نذير وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبي أعظم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنا نذير مبين ﴾ .

يقول تعالى أمرا رسوله ﷺ — أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ إنما أنا نذير ﴾ لست كما تزعمون بأنى ساحر أو شاعر ! إنما أنا نذير مرسل من ربى لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يحل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود .

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال :

﴿ وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾ أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهو الذى قهر كل شىء وغلبه بعزته وجبروته ، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يغلب ولا يغلب ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب ، جلت أو حقرت ثم تودهم على مخالفته وترك العمل به وأمر رسوله أن يجلى لهم حقيقة وظيفته ليرعوا عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

﴿ قل هو نأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ﴾ أى قل لهم : إن ما أنبأكم به من كوفى رسولا منذر ، ومن أن الله واحد لا شريك له - خبر عظيم الفائدة لكم فهو ينقلكم مما أنتم فيه من الضلال ، لكنكم معرضون عنه ، لا تفكرون فيه لتماديكم فى الغفلة ، وفى هذا تنبيه إلى ما هم فيه من الخطأ ، علمهم يرجعون عن غيهم .

قال مجاهد وشريح القاضى والسدى فى قوله عز وجل ﴿ قل هو نأ عظيم ﴾ يعنى القرآن وقوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون ﴾ .

أى لولا الوحي من أين كنت أدرى باختلاف الملا الأعلى ؟ يعنى فى شأن آدم - عليه الصلاة والسلام - وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه وهو ما ذكره بعد . ثم أكد نبوته بقوله تعالى :

إن يوحى إلى إلا أنا نذير مبين ﴿ أى ما يوحى إلى إلا للأنداز لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا .

« قصص آدم عليه السلام »

قال تعالى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّى خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَبَا بَلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِى اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

### تفسير المفردات

﴿ فقعدوا له ﴾ أى سجدوا له ، ﴿ مامنعك ﴾ أى ما صرفك وصدك ، ﴿ من العالمين ﴾ أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالمين عن ذلك ﴿ رجم ﴾ أى مرجوم ومطرود من كل خير ﴿ لعنتى ﴾ أى طردى ، ﴿ أنظرنى ﴾ أى أمهلنى ، ﴿ من المنظرين ﴾ أى الممهلين ، ﴿ لأغوينهم ﴾ أى لأضلنهم ، ﴿ المخلصين ﴾ أى الذين أخلصتهم للعبادة ﴿ من المتكلفين ﴾ أى المدعين معرفة ما ليس عندهم ﴿ نبأ ﴾ أى ما أنبأ به من وعد ووعد ، ﴿ بعد حين ﴾ أى بعد الموت .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، كما ذكرت هنا ، والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن ابليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمد - ﷺ - بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زجرا لهم عنهما ، والمواعظ والنصائح من أبواب التكرير للمبالغة فى النصيح والارشاد .

### « التفسير »

قال ابن كثير :

خلاصة هذه القصة : أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم - عليه السلام - بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر : حتى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامثالاً لأمر الله عز وجل ، فامثل الملائكة كلهم سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا ، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه فاستكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى

أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه وطرده من باب رحمته ، وحمل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ﴿ قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ فانظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه ﴿ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾

فلما آمن الهلال إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ كما قال عز وجل .

﴿ أرايتك هذا الذي كرمت على لمن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتسكن ذريته إلا قليلا ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى في قوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا ﴾ . وقوله تبارك وتعالى ﴿ قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ قال السدى هو قسم أقسم الله به .

وهذا كقوله تعالى ﴿ قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين . لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله عز وجل ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فائدة لابن القيم في قول الله عز وجل ﴿ خلقت يدي ﴾ .

قال ما نصه : إن لفظ اليد جاء في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع :

مفردا ، ومشئى ، ومجموعا . كقوله ﴿ بيده الملك ﴾ والمشئى كقوله ﴿ خلقت يدي ﴾ والمجموع كقوله ﴿ عملت أيدينا ﴾ فحيث ذكر اليد مثناة . أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الأفراد ، وعدل بالفعل بالياء إليهما . وقال ﴿ خلقت يدي ﴾ .

وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها ، ولم يعد الفعل بالياء فهذه ثلاثة فروق . فلا يحتمل ﴿ خلقت يدي ﴾ من الحجاز ما يحتمله ﴿ عملت أيدينا ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله ﴿ عملت أيدينا ﴾ ما يفهمه من قوله عملنا ، وخلقنا ، كما يفهم من قوله ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وأما قوله ﴿ خلقت يدي ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ فكيف إذا ثنيت ؟

وسر الفرق : أن الفعل قد يضاف إلى يد ذى اليد ، والمراد الإضافة إليه ، كقوله ﴿ بما قدمت يداك ﴾

(١) سورة الحجر الآيات ٤١ - ٤٤

(٢) سورة السجدة آية ١٣

﴿ وبما كسبت أيديكم ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل ، ثم عدى بالياء إلى اليد مفردة أو مثناه فهو مما باشرته يده ، ولهذا قال عبد الله بن عمر وإن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده ، وغرس جنة الفردوس بيده ، وكتب التوراة بيده ( فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة . وقد أخبر النبي ﷺ - أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده وكذلك قال آدم لموسى في محاجته له ( اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك الألواح بيده )<sup>(١)</sup> .

وفي لفظ آخر ( كتب لك التوراة بيده ، وهو من أصح الأحاديث وكذلك الحديث المشهور ( أن الملائكة قالوا : يارب خلقت بنى آدم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة ، فقال الله تعالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت يدي ونفخت فيه من روحي ، كمن قلت له : كن فكان )<sup>(٢)</sup> .

وهذا التخصيص إنما منهم من قوله ﴿ خلقت يدي ﴾ فلو كان مثل قوله ﴿ ما عملت أيدينا ﴾ لكان هو والأنعام في ذلك سواء . فلما فهم المسلمون أن قوله ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ﴾ يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين على من أمر أن يسجد له ، وفيهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه : كانت التسوية بينه وبين قوله ﴿ أو لم يروا أنا خلقناهم مما عملت أيدينا أنعاماً ﴾ خطأ محضاً . هـ ( من كتاب الصواعق المرسلة ج ١١ ص ٣٨ ) .

قوله تعالى ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونه من عرض الحياة الدنيا كقوله عز وجل ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله عز وجل ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أى وما أريد على ما أرسلنى الله تعالى به ولا أبتغى زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ، ولا أنقص منه ، وإنما ابتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

قال سفيان الثوري عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال يأبىها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنيكم ﷺ - ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ أخرجاه من حديث الأعمش به .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب جماع آدم وموسى رقم ١٥ / ٢٦٥٢

(٢) الحديث في مجمع الزوائد ج ١٢ ص ١٩١ - ١٩٢ رقم ٣٤٦١٨ - ١٩

(٣) سورة سبأ آية ٤٧



وقوله تعالى : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذَكَرُ الْعَالَمِينَ ﴾ يعنى القرآن الكريم ذكر لجميع  
 لجميع . كقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) .  
 وكقوله جل في علاه : ﴿ إِن هُوَ إِلَّا ذَكَرُ الْعَالَمِينَ . لَمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَعْمَلُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أى خبره وصدقه ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أى عن قريب قال قتادة  
 بعد الموت ، وقال عكرمة يعنى يوم القيامة ، منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة ،  
 وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ وَلَتَعْمَلُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ قال الحسن يابن آدم عند الموت يأتيك الخبر  
 اليقين .

### أضواء كاشفة

### على قصة آدم

قال العلامة ابن كثير فى كتابه ( البداية والنهاية ) ( باب خلق آدم عليه السلام ) قال الله تعالى :  
 ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ  
 وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ : وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى  
 الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ  
 الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّ أَعْلَمُ غَيْبِ  
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا  
 إِبْلِيسَ أُمِّي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ . وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا  
 حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ  
 وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ  
 فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا  
 خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴿ (٣) .

وقال تعالى :

﴿ إِن مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (٤) .

(١) سورة الفرقان آية رقم ١

(٢) سورة التكوين آية ٢٧ - ٢٨

(٣) سورة البقرة الآيات من ٣٠ - ٣٩

(٤) سورة آل عمران آية ٥٩

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (٣) الآية .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَنْ لَا تُسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ . قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ . قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَا تَنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ . قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ . وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِمِهِمَا وَقَالَ مَانِهَآ كَمَا رَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنْ كُنَا مِنْ النَّاصِحِينَ . فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ . فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِمُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ، وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ . قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (٤) كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (٥) .

وقال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلِ مِنْ نَارِ السَّمُومِ . وَإِذَا قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ

(١) سورة النساء آية ١

(٢) سورة الحجر آية ١٣

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩

(٤) سورة الأعراف الآيات ١١ - ٢٥

(٥) سورة طه آية ٥٥

روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنتظرني إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتني لأزين لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا . قال أرايتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتسبن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاءكم موفورا . واستغفر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا <sup>(٢)</sup> . ﴾

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا <sup>(٣)</sup> . ﴾

وقال تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى <sup>(٤)</sup> . ﴾

(١) سورة الحجر الآيات من ٢٦ - ٤٤

(٢) سورة الاسراء الآيات ٦١ - ٦٥

(٣) سورة الكهف آية ٥٠

(٤) سورة طه الآيات ١١٥ - ١٢٦ .

وقال تعالى : ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنا أنذر مبين . إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين <sup>(١)</sup> .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن . وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير . ولنذكر ههنا مضمون مادلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ﷺ — والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلاً لهم ﴿ إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضاً كما قال ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين .

﴿ قالوا أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا من كان قبل آدم من الجن قال قتادة . وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه ، وعن الحسن أنهم علموا ذلك ، وقيل لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالباً .

﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ أى نعبدك دائماً لا يعصيك منا أحد .

فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر ليلاً ولا نهاراً ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء ما لا تعلمون ، أى سيوجد فيهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ، ثم بين شرف آدم عليهم فى العلم فقال ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾ قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ، إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ — قال : ( يجمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء )<sup>(١)</sup> وذكر تمام الحديث . ﴿ ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ قال الحسن البصرى ( لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله ﴾ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقيل غير ذلك كما بسطناه في التفسير ، ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أى سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله وأعلم ما تبدون ، ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله وما كنتم تكتمون : المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم — عليه السلام — قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثوري واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿ وما كنتم تكتمون ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

### « امتناع إبليس عن السجود لآدم »

قوله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر ﴾ هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ فهذه أربع تشریفات خلقه له بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه . وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء ، وقال في الآية الأخرى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ قال الحسن البصرى قاس إبليس وهو أول من قاس — يريد أنه استخدم القياس الخاطيء — وقال محمد بن سيرين أول من قاس إبليس وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسدا الاعتبار . ثم هو فاسد في نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والاحراق . ثم آدم شرفه الله بخلق له بيده ، ونفخه من روحه . ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال سبحانه ﴿ إذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا

الحديث في صحيح البخارى ج ٩ ص ١٤٩ كتاب التوحيد باب ما يذكر في الذات والنوع انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٠ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة رقم ٣٢٢ - ١٩٣ .

إبليس أى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون . قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴿ استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به ، ترفعه عليه ، مخالفة الأمر الآلهى ومعادنة الحق فى النص على آدم على التعيين ، وشرع فى الاعتذار بما لا يجدى عنه شيئا - وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستغفر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا ﴾ .

وقال فى سورة الكهف ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق من أمر ربه ﴾ .

أى خرج عن طاعة الله عمدا وعنادا واستكبار عن امتثال أمره ، وماذا إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال قدمنا . فى صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ - ( خلق الملائكة من نور ، وخلقت الجن من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم ) (١) .

قال الحسن البصرى . لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود سجدوا وامتنع إبليس .

وقال فى سورة ( ص ) ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس مامنك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك ومن تبعك منهم أجمعين ﴾ .

وقال فى سورة الأعراف :

﴿ قال فما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل

جهة منهم . فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه .

قال الأمام أحمد عن أبي الفاكه . قال سمعت رسول الله ﷺ — يقول ( إن الشيطان يقعد لأبن آدم بأطرقه الحديث )<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى لإبليس ﴿ اهبط منها ﴾ ﴿ واخلج منها ﴾ دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها واخرج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذموماً مدحوراً . وأمر الله آدم — عليه السلام — أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ وقال فى الأعراف ﴿ قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق آدم كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وهذا قد صرح به اسحق ابن بشار وهو ظاهر هذه الآيات . ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يتمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة . خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت قالت امرأة ، قال ولما خلقت قالت لتسكن إلى فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه ( ما أسمها يا آدم ) قال حواء . قالوا ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شىء حى .

وذكر محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم . ولأم مكانه لحما ومصداق هذا فى قوله تعالى :

﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ الآية . وفى قوله تعالى ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به ﴾ الآية وستتكلّم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

وفى الصحيحين عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال : ( استوصوا بالنساء خيرا — فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا )<sup>(٢)</sup> لفظ البخارى .

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ٣ ص ٣٨٤ مسند سيرة بن أبى فاكهة .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦٠ - ١٤٦٨

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ .. وهذا الخلاف قريب . وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان في ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما في غيرها من المحال التي تبهم في القرآن . وإنما الخلاف الذي ذكره في أن الجنة التي دخلها آدم هل في السماء أو في الأرض ؟! هو الخلاف الذي ينبغي فصله والخروج منه ، والجمهور على أنها هي التي في السماء وهي جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظي ، وإنما تعود على معهود ذهني ، وهو المستقر شرعا من جنة المأوى . وكقول موسى - عليه السلام - لآدم - عليه السلام - ( علام أخرجتنا ونفسك من الجنة ) الحديث كما سيأتي الكلام عليه . وروى مسلم عن رجفي عن حذيفة قال . قال رسول الله ﷺ - ( يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم )<sup>(١)</sup> وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة في الدلالة على أنها جنة المأوى وليس تخلو عن نظر . وقال آخرون بل الجنة التي أسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما يناق أن تكون جنة المأوى . وهذا القول محكى عن أبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينه ، ابن قتيبة في المعارف ، والقاضي منذر بن سعيد البلوطي في تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة . وحكاه عن أبي حنيفة الامام وأصحابه رحمهم الله .

ونقله القرطبي عن المعتزلة والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التي بأيدي أهل الكتاب . ومن حكى الخلاف في هذه المسألة أبو محمد بن حزم في الملل والنحل ، وأبو محمد بن عطية في تفسيره . وأبو عيسى الرومان في تفسيره . وحكى عن الجمهور الأول . وأبو القاسم الراغب والقاضي الماوردي في تفسيره فقال واختلف في الجنة التي أسكنها يعني آدم وحواء على قولين . أحدهما أنها جنة الخلد ، والثاني جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين . أحدهما أنها في السماء لأنه اهبطهما منها وهذا قول الحسن .

والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف في مسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازي في تفسيره في هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التي أوردتها الماوردي . ورابعها الوقف .

وقوله تعالى : ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي عن الجنة ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ أي من النعيم



والنصرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه في صدورهما كما قال تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ يقول مانها كما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ، ﴿ وقاسمهما ﴾ أى حلف لهما على ذلك ﴿ إلى لكما لمن الناصحين ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم وأستمرت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التى إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هى الشجرة الذى قال الامام أحمد عن أنى الضحك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ ( إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، شجرة الخلد .- تفرد به أحمد ) (١)

وقوله ﴿ فذلاهما بغرور فلماذا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ كما قال فى ( طه ) ﴿ فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهى التى حدثه على أكلها والله أعلم .

﴿ وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٣)

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة واقتدار إليه تعالى فى الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خيره فى دنياه وأخراه ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ (٤) .

وهذا خطاب لآدم وحواء وإبليس ، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين وقوله فى سورة طه .

﴿ قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ﴾ (٥) هو أمر لآدم وإبليس واستنبح آدم وحواء وإبليس ، وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ (٦) .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة .

الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٤٣٨ مسند أبى هريرة .

(٢) سورة طه آية ١٢١

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٢٢ - ٢٣

(٤) سورة الأعراف آية ٢٤

(٥) سورة طه آية ١٢٣

(٦) سورة الانبياء آية ٧٨

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم الا بين اثنين مدع ، ومدعى عليه قال ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ وأمر تكريره الابطاط في سورة البقرة ﴿ وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضهم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (١).

فقال بعض المفسرين المراد بالاهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالتالي من السماء الدنيا إلى الأرض ، وهذا ضعيف لقوله في الأول ﴿ وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضهم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فدل على أنهم اهبطوا إلى الأرض بالأهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أن كرره لفظا وإن كان واحدا وناط مع كل مرة حكما فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالتالي الاشتراط عليهم ان من تبع هذه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وهذا الأسلوب في الكلام له نظائر في القرآن الكريم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال أمر الله ملكين أن يخرجوا آدم وحواء من جواره فزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الأكليل عن جبينه وتعلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو ، فقال الله فرارا منى جل حياء منك يا سيدى .

وقوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ قيل هى قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (٢) روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وإبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن الحسن بن أبى كعب قال . قال رسول الله ﷺ — ( قال آدم عليه السلام أرايت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة قال نعم ) (٣) فذلك قوله ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال الكلمات ( اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إني ظلمت نفسى فتاب على إنك أنت التواب الرحيم ) .

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ (٤).

(١) سورة البقرة الآيات ٣٦ - ٣٩

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣

(٣) الحديث في تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨١ تفسير سورة البقرة ( فتلقى آدم من ربه كلمات ) وقال هذا حديث غريب وفيه انقطاع .

(٤) سورة طه آية ١٢١

## « احتجاج آدم وموسى عليهما السلام »

قال البخارى عن أنى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : ( حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى أو قدره على قبل أن يخلصنى ، قال رسول الله - ﷺ - فحج آدم موسى )<sup>(١)</sup> .

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به . وقال الأمام أحمد عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال قال رسول الله - ﷺ - ( احتجاج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال آدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومنى على ما أمر قدر على من قبل أن أخلق قال رسول الله - ﷺ - ( فحج آدم موسى فحج آدم موسى )<sup>(٢)</sup> مرتين . قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أنى هريرة عن النبى - ﷺ - نحوه .

وقال أحمد عن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - ( لقي آدم موسى فقال أنت آدم الذى خلقك الله بيده واسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت . قال آدم يا موسى أنت الذى كلمه الله وأنزل عليه التوراة . قال نعم : قال فهل تجده مكتوبا على قبل أن أخلق . قال نعم . قال ( فحج آدم موسى فحج آدم موسى )<sup>(٣)</sup> .

وقد اختلف مسالك الناس فى هذا الحديث فزده قوم من القدرية كما تضمن من إثبات القدر السابق . واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادىء الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا ، وقال آخرون إنما حجه لأنه لأمه على ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين .. والتحقيق أن هذا الحديث روى بالفاظ كثيرة بعضها مروي بالمعنى وفيه نظر .. ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لأمه على إخراجها نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الإخراج على أكل من الشجرة والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل ، فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلى أكثر ما أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الإخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلى فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه وله الحكمة فى ذلك فلهذا حج آدم موسى .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٢١ تفسير سورة طه .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٥ - ٢٦٥٢

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٢ - ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٣ - ٢٦٥٢ انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٢٦٤ مسند أنى هريرة .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٩٢ مسند أنى هريرة .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أنى هريرة - رضى الله عنه - وناهيك به عدالة وحفظا وإتقاناً . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى أقوى مسلكا من الجبرية ، وفيما قالوه نظر من وجوه ( أحدها ) أن موسى - عليه السلام - لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله ( الثانى ) أنه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله من ذلك بقوله ﴿ رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ﴾ الآية<sup>(١)</sup> ( الثالث ) أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لافتتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسند باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لا حتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار وهذا يفضى إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء باب جواب آدم إنما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم .

### « الأحاديث الواردة فى خلق آدم »

قال الامام أحمد عن أنى موسى عن النبى - ﷺ - ( إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك )<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر السدى عن ابن عباس وعن مرة عن ابن سعود وعن ناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - قالوا : ( فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتية بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك ان تنقصى منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال رب أنها عاذت بك أعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذاها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازب ) .

واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة ﴿ إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾<sup>(٣)</sup> فخلق الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففرغوا منه لما رأوا وكان أشدهم منه فرعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول ﴿ من صلصال كالفخار ﴾ ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكته فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه

(١) سورة القصص آية ١٦ .

(٢) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أنى موسى .

(٣) سورة ص آية ٧١ - ٧٢ .

فقال الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجله عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أرى أن يكون مع الساجدين﴾<sup>(١)</sup> وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وأن كان كثير منه متلقى من الاسرائيليات . وقال ابن حيان في صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال ( لما نفخ في آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله )<sup>(٢)</sup>.

وقال الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ ( لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه فقال أى رب من هذا قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقض عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود . قال فجحد ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطيء آدم فخطئت ذريته )<sup>(٣)</sup> ثم قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ — ورواه الحاكم في متبركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال : ( خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا . ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك . فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن )<sup>(٤)</sup>.

وقال الامام مالك بن أنس في موطئه عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الآية ﴾ فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ — يسأل عنها فقال ( إن الله خلق آدم — عليه السلام — ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله فقيم العمل قال رسول الله ﷺ — اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى

(١) سورة ص آية ٧٣ - ٧٤

(٢) الحديث في صحيح ابن حبان ج ٨ ص ١٤ - ١٥ رقم ٦١٣٤

(٣) الحديث في المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٥٨٦ كتاب التاريخ باب ذكر نبى الله داود :

(٤) الحديث في صحيح البخارى ج ٤ ص ١٥٩ كتاب بدء الخلق باب وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة .

يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار<sup>(١)</sup> وهكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو حاتم بن حبان في صحيحه من طرق عن الإمام مالك به . وقال الترمذي هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة . وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جثعم عن زيد ابن أبي أنيسة عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عن سلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث . قال الحافظ الدارقطني وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دلة على إستخراجه تعالى ذرية آدم من ظهرو كالنر وقسمتهم أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالي ، هؤلاء للنار ولا أبالي . فأما الأشهاد عليهم واستنطاقهم بالأقرار بالوحدانية فلم يجبيء في الأحاديث التالية وتفسير الآية في سورة الأعراف ، وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والأثار مستقصاه بأسانيدھا وألفاظ متونها فمن أراد تحريره فليراجعه . ثم والله أعلم .

فأما الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ — قال : ( إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم — عليه السلام — بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه . ثم كلمهم قبلا قال ﴿ أأست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا ﴾ إلى قوله ﴿ المبطلون ﴾<sup>(٢)</sup> فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم .

وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح ، واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية ، وهم الجمهور بما قاله الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ — قال : ( يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم ، فيقول قد أردت منك ما هو أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئا فأبيت إلا أن تشرك بي )<sup>(٣)</sup> أخرجاه من حديث شعبه به .

ورواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه في تفاسيرهم من طريق أبي جعفر . وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبيرة والحسن البصري وقتادة والسدي وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لأدم امتثلوا كلهم الأمر الألهي

(١) الحديث في مسند أحمد ج ١ ص ٤٤ - ٤٥ مسند عمر بن الخطاب .

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٧٢ مسند ابن عباس .

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ مسند أنس .

وامتنع ابليس من السجود له حسدا وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الألهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريدا ملعونا شيطانا رجيمًا .

وقد قال الامام أحمد عن أنى هريرة قال قال رسول الله ﷺ — ( إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكي . يقول : ياويله . أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار )<sup>(١)</sup> . ورواه مسلم .

ثم لما اسكن آدم الجنة التى اسكنها حواء — عليهما السلام — يأكلان منها رغدا حيث شأ فلما أكلتا من الشجرة التى نهاى عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها . واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقليل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا ما رواه مسلم عن أنى هريرة مرفوعا وخلق آدم فى آخر ساعة من ساعات الجمعة وتقدم أيضا حديثه عنه وفيه يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها فإن كان اليوم الذى خلق فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه .

وفى هذا نظر وإن كان أخرجه فى غير اليوم الذى خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف منه كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق فى آخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يميت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم .

### « الحكمة فى إهباط آدم من الجنة إلى الأرض »

( قال ابن القيم ) فإن الله سبحانه لما أهبط آدم أبى البشر من الجنة لما له فى ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وعمومها ولوصا بها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها فى الدار الآخرة فإن الضنن يظهر حسنه ولو تربوا فى دار النعيم لم يعرفوا قدرها . وإيضاً فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختيارهم وليست الجنة دار تكليف فأهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذى لم يكن لينال بدون الأمر والنهى .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٨٧ كتاب الإيمان باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة رقم ١٣٣ - ٨١ انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٤٣ مسند أنى هريرة .

انظر صحيح ابن حبان ج ٤ ص ١٨٧ باب سجود الثلاثة رقم ٢٧٤٨ .

وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يتخذ أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلق بينهم وبين أعدائهم وامتحنهم بهم فلما آثروه و بذلوا نفوسهم وأمواهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلاً فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاته وأوليائه ومعاداة أعدائه عنده أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذى قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها . وأيضاً فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن اسمائه الغفور الرحيم العفو الخليم الخافض الرفع المعز المذل المحي المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته داراً يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفف من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويدل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطى ويمنع ويسقط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته . وأيضاً : فإنه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويدل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته داراً تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك . وأيضاً : فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا .

فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بلونه بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه . وأيضاً فإن الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، والأرض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللقيم فعلم سبحانه أن في ظهوه من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء . قال الله تعالى : ﴿ لِيُمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم داراً استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل ، حكمة بالغة ، ومشية نافذة ذلك تقدير العزيز العليم . وأيضاً فإنه سبحانه لما قال للملائكة ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ ، قالوا أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴿ أجابهم بقوله ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (٢) ثم أظهر سبحانه علمه لعباده وللملائكة بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبدل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيتترك محبوباته تقرباً إلى ويتترك شهواته ابتغاء مرضاتى ويبدل دمه ونفسه في محبتي واخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي آناء الليل وأطراف النهار ويعبدونى مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعد إذ تعبدونى أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعترىكم ولا عدو أسلطه عليكم بل عبادتكم لى بمنزلة النفس لأحدهم . وتم أيده فيدا للملائكة من علمه ما لم يكونوا يعلمون . وأيضاً فإنه

(١) سورة الأنفال آية ٣٧

(٢) سورة البقرة آية ٣٠



سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوايين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم ﴿والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١).

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبته له هي غاية كمالهم ونهاية شرفهم ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك أرادات النفس وشهواتها التي يكرهها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وتمام رحمته وهو البر الرحيم .

وأیضا : فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرا . وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي ﷺ — يخبره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكرو سبحانه باسم عبوديته في اشرف مقاماته في مقام الاسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى فقال في مقام الاسراء ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلا﴾ وقال في مقام الدعوة ﴿وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا﴾ وقال في مقام التحدى ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله﴾ وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم .

وأیضا : فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التذاذا بما أعطاهم من النعيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحتهم وتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم .

رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوه الذى هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورا وعظمت لذته وكملت نعمته قال تعالى :

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (٢) ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل

(١) سورة البقرة آية ١٠٥ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ .

في دار النعيم والبقاء إنما يحصل في دار المحنة والابتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف .

وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعبادة عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكه فاقترضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه ما يجنى عواقب اجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذرا فيها ، وأشد هروبا وهذا كحال رجل سائر على طريق كمنت الأعداء في جنباته وخلقه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد في سيئه وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم إغارة عدوه عليه وتبييته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا اهبتهم .

فإن قيل كان من الممكن أن لا يسלט عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنيه وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذى هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقا آخر غير بنى آدم فإن بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة .

وأيضا لما كانت محبة الله وحده هى غاية كمال العبد وسعادته التى لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما يتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته فهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها في القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التى بإيثار الحق عليها والاعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك بتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغنى والضلال ومجاهدتها يقوى سلطان المحبة وتثبت شجرتها في القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فإن المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هى المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبة فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع فإن المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ذلك لأمر ولى عند انقضائه ، وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبد على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء .

وأيضا فإن الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لا نهاية بعده وكان ظهور الأسباب التى يحمد عليها من مقتضى كونه محمودا وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان ، فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فكما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا فيه سبحانه على هذا كثيرا كما في سورة الشعراء حيث يذكر في آخر كل

قصة من قصص الرسل وأممهم ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولأتباعهم ، ونقمته واهلاكه لأعدائهم إلا في محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة :

ومصير كل منهم إلى ديارهم التي لا يليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها ﴿ وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ (٢) .

وايضا : فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحمله أن فادت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبي بالأنعام وخص دون غيره بالإكرام ولو تساوا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحدا إلا في مثل حالة ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره في ضد حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح وفي الأثر المشهور أن الله سبحانه لما رأى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إني أحب أن أشكر فاقترضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التي يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد . وأيضا فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلل بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه ، ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يتمتع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين وأيضا فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هي دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأسره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنی وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى ﴿ أيجتب الإنسان أن يترك سدى ﴾ (٣) أى مهلا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وأن ربوبيته وعزته وحكمته تأتى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سدا معطلا أيضا مستقر في الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما قبحه مستقر في فطرهم وعقولهم ، وقال

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة الزمر آية ٧٥

(٣) سورة القيامة آية ٣٦

تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾<sup>(١)</sup>.

نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة .

وأیضا فإنه سبحانه يحب من عبادة أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا في دار الابتلاء والامتحان فإنه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا ويحب التوايين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمة والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة اذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ — أنه قال : ( لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى ادركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فوجد راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فأنشأ أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته )<sup>(٢)</sup> .

والمقصود أن هذا الفرع المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لا زمان لهذا الفرع ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرع المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مختلفة ممتنع ولما كان هذا الفرع أحب إلى الرب — سبحانه — من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية إليه ليرتب عليها المسبب الذي هو محبوب له وأيضا فإن الله — سبحانه — جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسمائه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في صحيح عن النبي ﷺ أنه قال : ( إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض )<sup>(٣)</sup> وحكمة الرب — سبحانه — مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضلهم ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى : ﴿ وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٥)</sup> قالوا : وأما نفى دخولها بالأعمال كما في قوله ﷺ ( لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ - ١١٦

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٣ كتابة التوبة باب الحصن على التوبة والفرح بها - رقم ٣ - ٢٧٤٤

(٣) سنن الترمذی - كتاب صفة الجن - باب ما جاء في صفات الجن ٤ / ٦٧٥ رقم ٢٥٣٠ .

١ (٤) سورة الزخرف الآية : ٧٢ .

١ (٥) سورة النحل الآية : ٣٢ .

يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته<sup>(١)</sup> فالمراد نفى أصل الدخول ، وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفى معها الدخول فالمقتضية هي باء السببية الدالة على الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقضاء سائر الأسباب لمسيباتها ، والباء التي نفى بها الدخول هي باء المعارضة والمقابلة التي في نحو قولهم : اشتريت هذا بهذا فأخبر النبي — ﷺ — أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله — سبحانه — لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تناهى موجبا بمجردة لدخول الجنة ولا عوضا له فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه فهي لا تقاوم نعمة الله التي أنعم بها عليه في دار الدنيا ، ولا تعادها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها في مقابلة اليسير من نعمة وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه في هذه الحالة لعذبه هو غير ظالم له ، ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله . والمقصود أن حكمته — سبحانه — لقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإبراهيم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة .

وأیضا فإنه — سبحانه — خلق آدم وذريته ليستخلفهم في الأرض كما أخبر — سبحانه — في كتابه بقوله : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾<sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾<sup>(٣)</sup> وقول : ﴿ويستخلفكم﴾<sup>(٤)</sup> فأراد — سبحانه — أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى ثورته جنة الخلد وعلم — سبحانه — بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس ، فإن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولا فعلم — سبحانه — ما في طبيعته من الضعف والخور فافقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذي أعد له عيانا فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلبا فإن محبة الشيء وطلبه والشوهد إليه من لوازم تصويره فمن باشر طبيه ولذته وتذوق به لم يكدر يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقه تواقه فإذا ذاقته تافت . ولهذا ذاق العبد لهم حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئا أبدا .

وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - المرفوع ( إن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألني عبادي فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رأوها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد طلبا لها طلبا )<sup>(٥)</sup> فافتضت حكمته أن أراها أيهم وأسكنه إياهم ثم قص على نبيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع إليها فلم يشته عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم

(١) البخاري - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ٨ / ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٢٩

(٥) مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب فضل مجالس الذكر ٤ - ٢٦٩ رقم ٣٦٨٩

الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى      وما الحب إلا للحبيب الأول  
كم منزل في الأرض يألوه الفتى      وحنينه أبدا لأول منزل

ولي من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحى على جنات عدن فإنها      من ————— ازلك الأولى وفيها الخيم  
ولكننا سبى العدو فهل ترى      نعود إلى أوطاننا ونسلم

فكان إسكان آدم وذريته هذه الدار ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام إنعامه عليهم وسرها .

وأيضاً : فإنه - سبحانه - جعل الرسالة والنبوة والخلقة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كما لهم فأنزل لهم داراً ، أخرج منهم الأنبياء وبعث فيهم الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلاً ، وكلم موسى تكليماً ، واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيدا وخاصة يحبهم ويحبونه ، وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الإنعام والإحسان ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها علم تمام حكمته في إسكان آدم وذريته في هذه الدار إلى أجل معلوم فالله - سبحانه - إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدماً لهم ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها إلى الدار التي خلقت لهم وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى في هذه الدار : ﴿ وتحمّل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ <sup>(١)</sup> فهذا شأن الانتقال في الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ <sup>(٢)</sup> فباع المغبونون منازلهم منها بأنجس الحظ وانقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمناً للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ <sup>(٣)</sup> . فهو - سبحانه - ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة كما قيل على لسان القدر : يا آدم لا تجزع من قولي لك إخراج منها فلنك خلقتها فإني أنا الغنى عنها وعن كل شيء وأنا الجواد الكريم وأنا لا اتمتع فيها فإني أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن أنزل إلى دار البذر فإذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيذاً فحيثما فتعالي فاستوفه أحوج ما أنت إليه الحبة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإني أعلم بمصلحتك منك وأنا العلي الحكيم ( فإن قيل : ماذا ذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل إن الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التي أعدت للمتقين والمؤمنين يوم القيامة وحيثما يظهر سر إهباطه وإخراجه منها ) ولكن قالت طائفة منهم أبو سلم . منذر بن سعيد البلوطي . وغيرهما إنها إما كانت

(١) سورة النمل الآية : ٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٩٧ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١١١ .

جنة في الأرض في موضع عال منها إنها جنة المأوى التي اعدّها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة ، وذكر منذر بن سعيد هذا القول في تفسيره عن جماعة فقال : وأما قوله لآدم : ﴿ أَسْكَنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ <sup>(١)</sup> فقالت طائفة : أَسْكَنْ الله تعالى آدم ﷺ جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، وقال آخرون : هي جنة غيرها جعلها له الله وأسكنه إياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر عليه الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من خير الآخرة وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقت وصفها الله تعالى لنا في كتابه بصفات ومحال أن يصف الله شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به . قالوا : وجدنا الله - تبارك وتعالى - وصف الجنة التي أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ، ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ، ووصفها دار جزاء ولم يقل إنها دار ابتلاء ، وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين إليها يقولون : ( الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ) وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم ، وقال فيمن يدخلها ( وما هم منها بمخرجين ) وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال : ( لا يمسمهم فيها نص ) وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند إصابته المعصية وطلق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب يعينه الذي نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمع فيها إبليس الكذب وغره وقاسمه عليه أيضا بعد أن أسمعهم إياه وقد شرب آدم من شرابها الذي سماه في كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يظهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى - مقعد صدق وقد كذب إبليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون ولم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة في أعلى عليين والله تعالى إنما قال : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ <sup>(٢)</sup> ولم يقل إِنِّي جَاعِلٌ فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى ، فقالت الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ <sup>(٣)</sup> والملائكة اتقى الله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ <sup>(٤)</sup> وفي هذا دلالة على أن الله قد أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون في الأرض .

وإلا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال تعالى ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ <sup>(٦)</sup> والله تعالى - أخبرنا أن إبليس قال لآدم : ﴿ هَلْ أَدْرَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمَلِكٌ لَا يَبُلَى ﴾ <sup>(٧)</sup> فإن كان قد

(١) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٣٠

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٢٧

(٦) سورة النحل الآية : ٥٠

(٧) سورة طه الآية : ١٢٠

أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول : وكيف تدلنى على شيء أنا فيه قد أعطيته واخترتة بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبه لأن إبليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له إنما كان يكون زاريا عليه لأنه إنما وعده على معصية ربه كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا المجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول إبليس ولا قبل نصيحته ولكنه لما كان فى غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا ، لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمر الله به وهو معتقد لله لتصديق بخبر ربه فهو عاص . وإنما سمي الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا : فإن كان آدم أسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فكيف توصل إليها إبليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة إنما هى دار المتقين ، وإبليس غير تقى فبعد أن قيل له : ﴿ إهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾ له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والأبعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى ﴿ فإهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾<sup>(١)</sup> فإن كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبر ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول إن إبليس لم يصل إليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده وقول الله تعالى - حكم بيننا وبينه وقوله تعالى : ﴿ وقاسمهما ﴾ يرد ما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما وما يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾<sup>(٢)</sup> فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه إنما وسوس إليه مخاطبا لا أنه أوقع ذلك فى نفسه بلا مقاومة ، فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤية : وسوس يدعو مخلصا رب الفلق .

وقال الأعشى : تسمع للحلى وسواسا إذا أنصرفت .

كما استعان بريح عشرق زجل .

قالوا : وفى قول إبليس لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ، ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله : ﴿ ألم انهكما عن تلكما الشجرة ﴾<sup>(٣)</sup> ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال إبليس لأن آدم لم يكن حينئذ فى الجنة ولا مشاهدا للشجرة مع قوله عز وجل : ﴿ إليه

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣

(٢) سورة طه الآية : ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٢



يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴿١﴾ فقد أخبر سبحانه خيرا محكما غير مشتببه إنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا ذكره أنه لا يلج لمقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة إبليس مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هي شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة إبليس ولا ولجت القدس . قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ ﴿٢﴾ وقد روى عن النبي ﷺ أن آدم نام في جنته وجنة الخلد لا نوم فيها بإجماع من المسلمين لان النوم وفاة . وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار والسلام مسلمة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كالميت قالوا : وقد روى عنه — ﷺ — أنه قال لأُم حارثة لما قالت له : يا رسول الله إن حارثة قتل معك فإن كان صار إلى الجنة صبرت واحتسبت وإن كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله — ﷺ — (أو جنة واحدة إنما هي جنات كثيرة) ﴿٣﴾ فأخبر ﷺ أن لله جنات كثيرة فلعل آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد قالوا : وقد جاء في بعض الأخبار إن جنة آدم كانت بأرض الهند وهذا وإن كان لا يصممه رواة الأخبار ونقله الآثار فالذى تقبله الأبواب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ، ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التي تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فإذا قيل للجنة دار الخلد لم يجوز أن ينقص مسمى هذا الأسم بمال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلم هذا فإسكان آدم وذريته في هذه الجنة لا ينافي كونهم في دار الابتلاء والأثمان وحيث كانت تلك الوجوه والفوائد التي ذكرتموها ممكنة الحصول في الجنة ( فالجواب ) أن يقال : هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التي ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولا قول من قال : إنها جنة الخلد التي وعدها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال : إنها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وإبطال الآخر إذ ليس عرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لإخراج آدم من الجنة وإسكانه في الأرض في دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله — سبحانه — تأتى إدخال آدم الجنة وتعريضه للذنوب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة في ذلك والرد على من أبطل أن يكون له في ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التي لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلًا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق — كنى به عن اللسان — لا يحصل غرضًا ولا يزيل مرضًا فسلطنا هذا السبيل ليكون قولهم

(١) سورة فاطر الآية : ١٠

(٢) سورة المطففين الآية : ٧

(٣) البخارى — كتاب الرقاق — باب صفة الجنة ٨ / ١٤١

مردودا على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله فنقول : أما ما ذكرتموه من كون الجنة التي أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هي جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والأشهر عند الخاصة والعامة لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التي أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الأشجعي عن أبي حازم عن أبي هريرة وابو مالك عن ربيع بن خراش عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ — ( يجمع الله — عز وجل — الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم — عليه السلام — فيقولون يا أبانا ستفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث )<sup>(١)</sup> قالوا : فهذا يدل على ان الجنة التي أخرج منها آدم هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها لهم قالوا : ويدل عليه أن الله سبحانه ﴿ قال يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ إلى قوله : ﴿ أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾<sup>(٢)</sup> عقيب قوله : أهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولا في الأرض ، وأيضا فإنه سبحانه وصف الجنة التي أسكنها آدم بصفات لا تكون في الجنة الدنيوية فقال تعالى : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا لا يكون في الدنيا أصلا ولو كان الرجل في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له الجوع والظمأ والعر والضحي والشمس وأيضا : فإنها لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبدل ، وأيضا فإن قصة آدم في سورة البقرة ظاهرة جدا في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾<sup>(٤)</sup> فهذا إهباط آدم وحواء ، وإبليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل : إنه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم وإبليس . وقيل : خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله : ﴿ وكنا لحكمهم شاهدين ﴾<sup>(٥)</sup> قيل : لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول لأنها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة ثم قال : ﴿ قلنا أهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾<sup>(٦)</sup>

وهذا الإهباط الثاني لابد أن يكون غير الأول وهو إهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التي

(١) مسلم — كتاب الايمان — باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١ / ١٨٧ رقم ٣٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة طه الآية : ١١٨

(٤) سورة البقرة الآيات : ٣٤ — ٣٧

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٧٨

(٦) سورة البقرة الآية : ٣٨

أهبطوا منها أولا فوق السماء وهي جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الرخشى إلى أن قوله : أهبطوا منها جميعا خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستبعاهما ذريتهما . وقال : الدليل عليه قوله تعالى : ﴿ قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فأما يأتينكم منى هدى ﴾<sup>(١)</sup> وقال : يدل على ذلك قوله ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ويعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية ، فإن العداوة التى ذكرها الله إنما هى بين آدم وإبليس وذريتهما كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾<sup>(٢)</sup> وأما آدم وزوجه فإن الله — سبحانه — أخبر فى كتابه أنه خلقها منه ليسكن إليها وقال سبحانه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾<sup>(٣)</sup> فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وإبليس وذريتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير إليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجة وإبليس فى قولهم : فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ، فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وإبليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرتهم لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فإن قيل : فما تصنعون بقوله فى سورة طه : ﴿ قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ﴾<sup>(٤)</sup> وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل : إما أن يكون الضمير فى قوله : إهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وإبليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له ، وعلى الثانى فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وإبليس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على امرين . أحدهما مرة لآدم وزوجه بالهبط . والثانى جعله العداوة بين آدم وزوجه وإبليس ولا بد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى : ﴿ إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾<sup>(٥)</sup> وقال لذريته : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾<sup>(٦)</sup> وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية وإما ذكر الإهباط ، فتارة يأتى بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الأفراد لإبليس وحده كقوله تعالى : ﴿ قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾<sup>(٧)</sup> فهذا الإهباط لإبليس وحده والضمير فى قوله منها قيل : إنه عائد إلى الجنة ، وقيل : عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغه الجمع كان لآدم وزوجه وإبليس إذ مدار القصة عليهم ، وحيث أتى بلفظ التثنية فأما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدا على

(١) سورة طه الآية : ١٢٣

(٢) سورة فاطر الآية : ٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٣

(٥) سورة طه الآية : ١١٧

(٦) سورة فاطر الآية : ٦

(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١٢ - ١٣

المعصية وإما أن يكون لآدم وإبليس إذهما أبو الثقلين فذكر حالهما وما آل إليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما . والقولان محكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده . وأيضا فالذى يوضح أن الضمير في قوله : اهبطا منها جميعا لآدم وإبليس أن الله — سبحانه — لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا ﴾ <sup>(١)</sup> وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا وهذا لأن المقصود إخبار الله — تعالى — لعبادة المكلفين من الجن والانس بما جرى على ابويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتلوا بهما في ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر ابوى الانس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأنخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكله فعلم أن هذا اقتضاء حكم الزوجية أنها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبى الانس وأمهم والله أعلم وبالجمله فقوله : ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ <sup>(٢)</sup> ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا .

قالوا : وأما قولكم إنه كيف وسوس له بعد إهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى : اهبط . فجوابه من وجوه : احدها : أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها دارا فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل الشرط دار من أمروا بابتلائه ومحنته وإن لم يكونوا إلا لسكنى تلك الدار . الثاني : أنه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما . الثالث : أنه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنة . الرابع : أنه قد روى أنه قد أراد الدخول عليهما فمنعته الخزنة فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا : وما يدل على أنها جنة الخلد بعينها أنها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ <sup>(٣)</sup> ولا جنة يعهدا المخاطبون ويعرفونها .

إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عبادة بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة وإن كان في أصل الوضع عبادة عن البستان ذى الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معروفا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين . وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكورة كقوله : ﴿ جنتين من أعناب ﴾ <sup>(٤)</sup> أو مقيدة بالاضافة كقوله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك ﴾ <sup>(٥)</sup> أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض كقوله : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذا أقسموا ليعصر منها مصباحين ﴾ <sup>(٦)</sup> الآيات فهذه السياق والتقييد يدل على أنها بستان في

(١) سورة طه الآيتان : ١٢١ - ١٢٢

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣٢

(٥) سورة الكهف الآية : ٣٩

(٦) سورة القلم الآية : ١٧

الأرض . قالوا : وأيضا فإنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ — بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ — أنه قال : ( إن أحدم إذا مات عرض عليه مقعدة بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ) <sup>(١)</sup> وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ — قال : ( اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رجمتي أرحم بك من أشياء وقال للنار عذابي أعذب بك من أشياء ) <sup>(٢)</sup> الحديث وفي السنن عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : ( لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال أذهب فانظر إليها وإلى ما أعدت لأهلها قال فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها — الحديث ) <sup>(٣)</sup> وفي حديث الاسراء ( ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا ورقها مثل أذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال : أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران فى الجنة — وفيه ايضا ( ثم أدخلت الجنة فإذا جنايد اللؤلؤ وإذا ترابها المسك ) <sup>(٤)</sup> وفي صحيح البخارى عن أنس عن النبي ﷺ — قال : ( بينا أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافته قباب الدر المجوف قال : فإذا طينه مسك أذخر ) <sup>(٥)</sup> وفي صحيح مسلم فى حديث الكسوف أن النبي ﷺ — ( جعل يتقدم ويتأخر فى الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال إنه عرضت لى الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا ) <sup>(٦)</sup> وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ <sup>(٧)</sup> أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك أطلاعة فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث .... والآثار فى هذا الباب أكثر من أن تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون : إن الجنة التى اهبط منها آدم إنما

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجنة ونعيمها — باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه صفحة ٨٠٤ رقم ١٨٢٢ طبعة الكويت .

(٢) اللؤلؤ والمرجان — كتاب الجنة ونعيمها — باب النار يدخلها الجبارون يدخلها الضعفاء ص ٧٩٨ رقم ١٨٠٩ . طبعة الكويت .

(٣) سنن أبى داود — كتاب السنة — باب خلق الجنة والنار ٥ / ١٠٨ رقم ٤٧٤

وسنن الترمذى — كتاب صفة الجنة — باب جفت الجنة بالمكارة ٤ / ٦٩٣ رقم ٢٥٦٠ وسنن النسائى — كتاب الايمان والنور — باب الحلف بعة الله ٧ / ٣

(٤) البخارى — كتاب بدء الخلق — باب ذكر الملائكة ٤ / ١٣٣ ومسلم — كتاب الايمان — باب الأسراء بالرسول إلى السموات وفرض الصلوات ١ / ١٤٥ رقم ٢٥٩

(٥) صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب فى الحوض ٨ / ١٤٩

(٦) مسلم — كتاب الكسوف — باب ما عرض على النبي ﷺ — فى صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢ / ٦٢٢ رقم ٩٠٤

(٧) سورة آل عمران الآية : ١١٩

كانت جنة بشر في الأرض وهذه الأحداث وأمثالها ترد قولهم . قالوا : وأما احتجاجكم سائر الوجوه ذكرتموها في الجنة وأنها منتفية في الجنة التي أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعرق وغير ذلك فهذا كله حق لا ننكوه نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمن يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام ، وهذا لا يتهض أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل — من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله به — عز وجل — فلا تنافي بين الأمرين . قالوا : وأما قولكم إن الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله — سبحانه — آدم فيها بالنهاى عن الشجرة فجوابه من وجهين احدهما : أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمن يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكليف ، وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه . الثاني : ان التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجرا عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فإن اردتم بأن الجنة ليست دار تكليف إمتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أغلب التكليف التي تكون في الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبيكم قالوا : وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يعرج عليه ولا يلتفت إليه . قال الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل . أما المجمل فإنكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير اليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ — ولا التابعين لا سندا ولا مقطوعا ونحن نواجهكم بمن قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان ابن عيينة قال في قوله عز وجل : ﴿ إِنْ لَكَ إِلَّا تَجْوَعُ فِيهَا وَلَا تَعْرِى ﴾ (١) .

قال : معين في الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد أن ذكر خلق الله ﷻ لآدم وزوجه ، إن الله سبحانه — اخرجهم من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ وهذا أئى قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون يا ابن آدم قالوا : إن أبانا اشتى قطفا من قطف الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه فأتوها إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا : هذه سنتكم في موتاكم .

وهذا ابو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله : اهبطوا منها قال : هو كما يقال : هبط فلان في أرض كذا وكذا . وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق في الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وأنه كان بعدن وأن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذى وسط الجنة وهو الذى كان يسقيها وهذا منكر بن سعيد البطي اختاره في تفسيره ونصرو بما حكيناه عنه وحكاه في غير التفسير عن أئى حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه المسئلة . وهذا أبو مسلم الأصبهاني صاحب التفسير وغيره احد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه فيما هو معروف في كتابه ، وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية

ذكر القولين في تفسير قصة آدم في البقرة ، وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين في كتاب الملل والنحل له .. ومن ذكر الخلاف في المسألة أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثا وهو التوقف قال : لا مكان الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتي حكاية كلامه ، ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو انها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض ، وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان إبليس فيها ثم اخرج قال : ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . ومن ذكر القولين ايضا أبو الحسن الماوردي فقال في تفسيره : واختلف في الجنة التي أسكنها على قولين أحدهما : إنها جنة الخلد . الثاني أنها جنة أعداء الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين : أحدهما في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن ، والثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنبي عن الشجرة التي نها عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره : اختلفوا في أن الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في الأرض أو في السماء ويتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخي ، وأبو مسلم الأصبهاني في هذه الجنة في الأرض وحملوا الإهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى : ( اهبطوا مصرا ) ، القول الثاني وهو قول الجبائي أن تلك كانت في السماء السابعة قال : والدليل عليه قوله : ﴿ اهبطوا ﴾ ثم إن الإهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، والإهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض والقول الثالث وهو قول الجمهور أصحابنا ان هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه هو أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المعهود السابق والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ إليها قال : والقول الرابع : أن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع . قالوا : ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نقلد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا : وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه الكفاية .

وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فتقول وبالله التوفيق :

أما استدلالكم بحديث أبي هريرة وخديفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أيكم . فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرج منها بعينها فإن الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(٢) سورة القلم الآية : ١٧

(٣) سورة الاسراء الآيتان : ٩٠ - ٩١

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ﴾ إلى قوله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التي أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث . وأما كون الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدق - صلوات الله وسلامه عليه - قالوا : أما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفلى .. فجوابه من وجهين : أحدهما أن الهبوط قد استعمل في النقلة من أرض إلى أرض كما يقال : هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى : ﴿ اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم ﴾ <sup>(٣)</sup> وهذا كثير في نظم العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح .

الثاني أننا لا ننازعكم في أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التي منها الهبوط فوق السموات فإذا كانت في أعلى الأرض أما يصح أن يقال : هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه وأما قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ <sup>(٤)</sup> فهذا يدل على أن الأرض التي أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا في جنة عالية أعلى من الأرض التي أهبطوا إليها تخالف الأرض في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله - سبحانه - فأت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت وهذا مشهور بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكون إلا فيها ثم أهبطوا منها إلى الأرض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو جواب عن استدلالكم بقوله تعالى : ﴿ إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ <sup>(٥)</sup> إلى آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فإنه - سبحانه - إنما قال ذلك عقيب قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وقوله ﴿ إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ وهو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها ، والمعنى ان اجتنبت الشجرة التي نهيته عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد .

قال : وأما قولكم : إنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله : ﴿ هل أدلك على

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٥

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٣٩

(٣) سورة البقرة الآية : ٦١

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٥) سورة طه الآية : ١١٨



شجرة الخلد وملك لا يبلى<sup>(١)</sup> إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله سبحانه وتعالى - كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك نقول لإبليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فإن الخلد في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم : قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى لشمود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَمَلِكٌ لَا يَبْلَى ﴾ يراد به الملك الطويل الثابت : وأيضا فلا وجه للاعتذار عن قول إبليس مع تحقيق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد أخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بأن اطمعهما في خلد الأبد والملك الذى لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التى سكنها آدم هى جنة الخلد التى وعداها المتقون غير بين ، ثم نقول : لو كانت الجنة هى جنة الخلد التى لا يزول ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلا يكن للشجرة اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من إبليس إذ قد علم أن الجنة دار الخلد فإن قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بان هذه الشجرة وحدها هى الشجرة الخلد . قلنا : فاقنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضاً على كل تقدير ما نقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق ، ( قالوا : وأما قولكم : إن قصة آدم فى البقرة ظاهرة جدا فى أن جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إبتائه ، قولكم : إنه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولابد أن يفيد الثانى غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثانى من السماء والهبوط الأول إلى الأرض وهو آخر الهبوطين فى الوقوع وإن كان أولهما فى الذكر وقالت طائفة أتى به على وجهه التغليب والتأكيد كما تقول للرجل أخرج أخرج وهذه الأقوال ضعيفة فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه احدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ، ولا من خبر يجب المصير إليه وما كان من هذا لا يحمل القرآن عليه . الثانى : أن الله - سبحانه - قد اهبط لإبليس لما امتنع من السجود لآدم إهباطا كونيا قدريا لا سبيل له إلى التخلف عنه فقال تعالى : ﴿ اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وسواء كان الضمير فى قوله ( منها ) راجعا إلى السماء أو إلى الجنة فهذا صريح فى إهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد إليها بعد إهباط الله له . وأما الوجوه الأربعة التى ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهى مع أمر الله تعالى - بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذى يجب المصير إليه وما هى إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث : أن سياق إهباط الله تعالى - لإبليس ظاهرة فى أنه إهباط إلى الأرض من وجوه .

(١) سورة طه الآية : ١٢٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٢٨

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

أحدها : أنه سبحانه فيه على حكمة إهباطه بما قام به من التكبر المقتضى غاية طله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو إهباطه من فوق السموات إلى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثانى : أنه قال : ﴿ فَاخْرَجْ مِنْهَا فَايْنِكَ رَجِيمٌ وَأَنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ <sup>(١)</sup> وكونه رحيما ملعونا ينفى أن يكون فى السماء بين المقربين المطهرين . وأما القول الثانى : فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر فى الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذى قبله .

وأما القول الثالث : وهو أنه للتأكيد فإن أريد التأكيد اللفظى المجرد فهذا لا يقع فى القرآن ، وإن أريد أنه استلزم للتغليظ والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال أعيد الإهباط مرة ثانية لأنه علق الأول عداوة بعضهم بعضا فقال : ﴿ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ <sup>(٢)</sup> وهذه جملة حالية وهى اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثانى حكيمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعا والثانى قوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مَنِى هَدًى فَمَنْ تَبَعَ هَذَاى فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> فكأنه قيل : اهبطوا بهذا الشرط مأخوذا عليكم والعهد . ففى الإهباط الأول إيدان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة ، وفى الإهباط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالأحباط الأول وجبر .

وجبر من اتبع هداى بالإهباط الثانى على عادته - سبحانه - ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالاخراج من الجنة وجبرو بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداى ومن تدبر حكمته - سبحانه - ولطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبرو بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويدله به ثم يجبرو بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسرو بأنواع المصائب والحن ثم يجبرو بالعاقبة والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته .

قالوا : وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت أن وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم .

قالوا : وأما قولكم : إن الجنة إنما جاءت معصرة بلالام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلا ريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى - آدم اسكنها بقوله : ﴿ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ <sup>(٤)</sup> فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه - عنها معرفا لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا

(١) سورة ص الآيتان : ٧٧ - ٧٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٥

ما يدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلأنها الجنة التى أخبرت بها الرسل لأمرهم ووعدوا الرحمن عبادة بالغيب فحيث ذكرت الذهن إليها دون غيرها ، وقد جاءت الجنة فى القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان فى بقعة من الأرض كقوله : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّ مِنْهَا مُصْبِحِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال .

قال : وأما قولكم إنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم ينزاع فى ذلك إلا أهل البدع والضلال واستدلوا لكم على وجود الجنة الآن فحق لاننا نزعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أى تلازم يبين أن تكون هى جنة آدم بعينها فكأنكم تزعمون أن كل من قال إن جنة آدم هى جنة فى الأرض فلا بد أن يقول : إن الجنة والنار لم يخلق بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول : إن جنة آدم هى فى الأرض وكذلك بالعكس أن كل من قال : إن جنة آدم فى الأرض فيقول : إن الجنة لم تخلق فأما الأول فلا ريب فيه ، وأما الثانى . فوهم لا تلازم بينهما لا فى المذهب ولا فى الدليل فأنتم نصبت دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على إنكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح قالوا : وأما قولكم : إن جميع ما نفاه الله سبحانه - عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التى وجد بعضها من إبليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين أحدهما : أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> ولقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴾ <sup>(٣)</sup> فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصص بين ، والله سبحانه - قد حكم دار الخلد حكما مطلقا فلا يدخلها إلا خالدا فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثانى : أن ما ذكرتم إنما يصرار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض القادم أنها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فأما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة مادلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم .

قالوا وما يدل على أنها ليست جنة الخلد التى وعدا الله المتقون أن الله سبحانه - لما خلق آدم أعلمه أن لعمره اجلا ينتهى إليه وأنه لم يخلق للبقاء . . فإن قيل : فإذا آدم كان قد علم أن له عمرا ينتهى إليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب إبليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبُلَى ﴾ <sup>(٤)</sup> بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعا فى الخلد فالجواب ما تقدم من الوجهين أما أن يكون المراد بالخلد المكث الطويل لأبد أن يكون عدوه إبليس لما قسمه وزوجه وعرها واطمعهما ببلوهم فى الجنة نسي ما قدر له من عمره قالوا والمعول عليه فى ذلك قوله تعالى للملائكة : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

(١) سورة القلم الآية : ١٧

(٢) سورة الطور الآية : ٢٣

(٣) سورة الفاشية الآية : ١١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٠

خليفة ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وهذا الخليفة هو آدم بإتقان الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذى هو جاعله فى الأرض ليس حاله كما توهمت من الفساد بل أعلمه من علمى مالا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها ﴿قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وهذا يدل على أن الخليفة الذى سبق به اخبار الرب - تبارك وتعالى - فضله وشرفه وأعلمه بما لا تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول فى الأرض لا فوق السماء فإن قيل قوله تعالى : ﴿إني جاعل فى الأرض خليفة﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ إنما هو بمعنى سأجعله فى الأرض فهى مآله ومصيره وهذا لا ينافى أن يكون فى جنة الخلد فوق السماء أولا ثم يصير إلى الأرض للخلافة التى جعلها الله له ، واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال . ولهذا انتصب عنه المفعول ، فالجواب أن الله سبحانه - أعلم ملائكته بأن يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلد وخبره الصدق وقوله الحق ، وقد علمت الملائكة أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلد فوق السماء لم يظهر الملائكة وقوع الخير ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قوله لهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ فإنهم إنما سألوا هذا السؤال فى حق الخليفة المجعول فى الأرض فأما من هو فى دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد فى الأرض ولا كان إظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم . بل الذى يحصل به جوابهم - ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو هناك الا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله ، وأما اسم الفاعل هو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى - فى المستقبل من جعله الخليفة فى الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر فى أنه من أول الأمر جعله خليفة فى الأرض ، وأما جعله فى السماء أولا ثم جعله خليفة فى الأرض ثانيا وإن كان مما لا ينافى الإستخلاف المذكور مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله .

وأيا من المعلوم الذى لا يخالف فيه مسلم أن الله سبحانه - خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب .. ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما أخبر عن إسجاد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه .. قالوا وقد قال تعالى : ﴿وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجدوذ﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٢ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٣٠ .

(٦) سورة هود الآية : ١٠٨ .

فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك الجنة جنة الخلد ...

قالوا : وأيضا فإنه — سبحانه — قد أخبر في كتابه أنه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وانكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانت جنة آدم هي جنة الخلد لكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا ينهاون وهذا باطل بقول : ﴿ أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى ﴾ <sup>(١)</sup> قال الشافعي وغيره : معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ <sup>(٢)</sup> فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها .

قالوا : وأيضا فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى : ﴿ نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴾ فلم يكن ليسكنها من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان وبالجملة فحكمته — تعالى — اقتضت أنها لا تنال إلا بعد الابتلاء والإمتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه — سبحانه — لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا : فإذا جمع ما أخبر الله — عز وجل — به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة في الأرض وأن إبليس وسوس له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليس من السماء ، وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة ، وأن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، وأن من دخلها لا يخرج منها أبدا ، وأن من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن ، فمحال أن يدخلها أصلا لا دول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعيم لاداء ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التي أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصره المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان .

قال الآخرون : بل الجنة التي أسكنها آدم عند حلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال إنها كانت جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جده أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحددين والمنتزلة أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين فإن هذا يقوله من المتفلسفة والمنتزلة والكتاب يرد هذا القول وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ <sup>(٣)</sup> فقد أخبر — سبحانه — أنه أمرهم بالهبوط وأن بعضهم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين <sup>(٤)</sup> وهذا بين أنهم لم يكونوا في الأرض وإنما أهبطوا منها إلى الأرض فإنهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها إلى أرض أخرى كما

(١) سورة القيامة الآية : ٣٦

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١١٥

(٣) سورة البقرة الآيات : ٣٤ - ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦

انتقل قوم موسى من أرض كان مستقرهم إلى حين في الأرض قبل الهبوط كما بعده وهذا باطل .

قالوا : وقد قال تعالى في سورة الاعراف لما قال إبليس : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إناك من الصاغرين ﴾<sup>(١)</sup> بين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فإن إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير في قوله : ( فيها ) عائد إلى معلوم وإن كان غير مذكور في اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا هذا بخلاف قوله : ﴿ إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم ﴾<sup>(٢)</sup> فإنه ذكر مدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو إلى سفلى وبنو إسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذي يهبطون إليه ومن هبط من جبل إلى واد قيل له اهبط . وقال تعالى عقب قوله : ﴿ إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾<sup>(٣)</sup> فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح في أنهم إنما صاروا إليه بعد الإهباط . قالوا : ولو لم يكن في هذه الا قصة آدم وموسى لكانت كافية فإن موسى — ﷺ — إنما لام آدم — عليه السلام — لما حصل له وذريته من الخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستانا في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان في الأرض قالوا : وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب إليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أياكم فإن ظهور هذا في كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتح وقد أخرج منها بخطيئتهم من أظهر الأدلة .

قال الأولون : أما قولكم أن من قال إنها جنة في الأرض فهو من المتفلسفة والملحددين والمعتزلة أو من إخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء ومشاركة أهل الباطل للمحق في المسألة لا يدل على بطلانها ولا تكون إضافتها لهم موجبة لبطلانها مالم يختص بها فإن أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك ، وإن أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يقدم شيئا . قالوا : وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها . متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا : ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع خير يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبي — ﷺ — قال : إن الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التي هي دار المتقين يوم المعاد قالوا : وهذا القاضي منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف انها ليست جنة الخلد قالوا : ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا : إن جنة آدم التي خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذلين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم وقد ذكرنا قول ابن عبينه وقد ذكر ابن مزين في تفسيره قال : سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة قال :

(١) سورة الاعراف الآيات : ١٢ - ١٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٦١

(٣) سورة الاعراف الآية : ٢٤

السكوت عن هذا أفضل . قالوا : فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد لم يشك أنها مخلوقة ولم يتوقف في ذلك وقال ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن في قوله تعالى : ﴿ قلنا اهبطوا منها ﴾<sup>(١)</sup> قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في رواية أبي صالح : هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر في كتابه غيره فأين إجماع سلف الأمة وأئمتها .

قالوا : وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾<sup>(٢)</sup> عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا في جنة الخلد فإن أحد الأقوال في المسألة أنها كانت جنة في السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردي في تفسيره وقد تقدم .

وأما قوله تعالى لابليس : ﴿ اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾<sup>(٣)</sup> وقولكم : إن هذا إنما هو الجنة التي في السماء وإلا فجنة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا في المسألة فإن جنة الخلد لا سبيل لابليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلاً ....

قالوا : وأما قولكم أن بني إسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التي يهبطوا وهم كانوا يسرون ويرحلون فلذلك قيل لهم : اهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فإن الهبوط يدل على أن تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التي إهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا : والفرق بين قوله : ﴿ اهبطوا مصر ﴾ وقوله ﴿ اهبطوا منها ﴾ لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لابتداء الغاية ونهايتها في تعيين محل الهبوط بأنه جنة الخلد . وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراج نفسه وذريته من بستان في الأرض تشنيع لا يفيد شيئاً أفترى كان ذلك بستاناً مثل آدم هذه البساتين المقطوعة التي هي عرضة للآفات والتعب والنصب والظلم والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذي يلحق هذه البساتين ولا ريب أن موسى - عليه الصلاة والسلام - أعلم وأجل من أن يلوم آدم على خروجه وإخراج بنييه من بستان هذا شأنه ، ولكن من قال بهذا ، وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع سكانها ولا يظلم للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشفاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب في خروجه منها .

قالوا : وأما اعتذار آدم - عليه الصلاة والسلام - يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هي التي أخرجه من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هي بعينها التي أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ في الإعتذار فإنه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة . فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية أقسام

(١) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

الطائفين فمن كان له فضل علم في هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة إليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلؤل الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال في حلبة هذا الميدان .

هذه معاهد حجج الطائفين مجتازة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها في سوق وسعة وبذل جهده منه التصويت والمنذرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين وأنجس الحظين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارجل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم إبراهيم فقد ذكرنا في هذه المسألة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله — سبحانه — الاستمداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره إليه وهو حسبنا ونعم الوكيل . هـ .

بهذه الكلمات ينتهى البحث الجليل الذى قدمه لنا العالم الجليل ابن القيم فى كتابه ( مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والآرادة ) .

### تفسير سورة الزمر بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : ( السورة مكية إلا ثلاث آيات : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنتم تشعرون ﴾ عدد آياتها : خمس وسبعون فى عد الكوفى وثلاث فى عد الشامى ، والباقيـن .

كلماتها : ألف ومائة وسبعون .

وحروفها : أربعة آلاف وسبعمائة وثمان .

وللسورة اسمان : سورة الزمر ، لقوله تعالى : ﴿ إلى الجنة زمرا ﴾ وسورة الغرف ، لقوله : ﴿ هم غرف من فوقها غرف ﴾ قال وهب : من أراد أن يعرف قضاء الله فى خلقه فليقرأ سورة الغرف .

مقصود السورة :

بيان تنزيل القرآن ، والاحلاص فى الدين ، والإيمان ، وباطل عذر الكفار فى عبادة الأوثان ، وتنزيه الحق تعالى عن الولم بكلمة . ( سبحانه ) وعجائب صنع الله فى الكواكب والأفلاك بلا عمد وأركان ، والمنة على العباد بإنزال الإنعام من السماء فى كل آوان ، وحفظ الأولاد فى أرحام الأمهات بلا أنصار وأعوان ، وجزاء الخلق على الشكر والكفران ، وذكر شرف المتجهدين فى الدياجر بعبادة الرحمن ، وبيان أجر الصابرين وذل



أصحاب الخسران ، وبشارة المؤمنين في استماع القرآن بإحسان ، وإضافة غرف الجنان لأهل الاخلاص والعرفان ، وشرح صدر المؤمنين بنور التوحيد والإيمان ، وبيان أحوال آيات الفرقان ، وعجائب القرآن ، وتمثيل أحوال أهل الكفر وأهل الإيمان ، والخطاب مع المصطفى بالموت والفناء ، وتحلل الأبدان ، وبشارة أهل الصدق بحسن الجزاء والغفران والوعد بالكفاية والكلاءة للعبدان ، وبيان العجز من العون والنصرة للأصنام والأوثان ، وعجائب الصنع في الرؤيا ، والنوم وما له من غريب الشأن ، ونصرة الكفار من سماع ذكر الواحد الفرد الديان ، والبشارة بالرحمة لأهل الإيمان ، وإظهار الحسرة والندامة يوم القيامة من أهل العصيان ، تأسفهم في تقصيرهم في طاعة زمان الإمكان ، وإضافة الملك إلى قبضة قدرة الرحمن ، ونفخ الصور على سبيل الهيبة ، والسياسة ، وإشراف بنور العدل ، وعظمة السلطان ، وسوق الكفار بالذل والخزي إلى دار العقوبة والهوان ، وتفريج المؤمنين بالسلام عليهم في دار الكرامة ، وغرف الجنان ، وحكم الحق بين الخلق بالعدل وختمه بالفضل والإحسان في قوله : ﴿ وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

#### المتشابهات :

قوله ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ وفي هذه السورة أيضا ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ﴾ الفرق بين ﴿ أنزلنا إليك الكتاب ﴾ و ﴿ أنزلنا عليك ﴾ قد سبق في البقرة . ويزيده وضوحا أن كل موضع خاطب ( فيه ) النبي ﷺ — بقوله : إنا أنزلنا إليك الكتاب ففيه تكليف ، وإذا خاطبه بقوله : إنا أنزلنا عليك ففيه تخفيف : اعتبر بما في هذه السورة . فالذي في أول السورة ( إليك ) فكلفه الاخلاص في العبادة ، والذي في آخرها ﴿ عليك ﴾ فختم الآية بقوله ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أى لست بمسئول عنهم ، فخفف عنه ذلك .

قوله : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ زاد مع الثاني لاما ، لأن المفعول مع الثاني مخذوف ، تقديره : وأمرت أن أعبد الله لأن أكون ، فاكتمى بالأول ﴿ مخلصا له الدين ﴾ لأن قوله : ﴿ الله أعبد ﴾ إخبار عن المتكلم ، فاقضى الاضافة إلى المتكلم ، وقوله ﴿ أمرت أن أعبد الله ﴾ ليس بإخبار عن المتكلم ، وإنما الإخبار ﴿ أمرت ﴾ ، وما بعده فضلة ومفعول .

وقوله : ﴿ ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ وفي سورة النحل ﴿ وليجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ .

وكان حقه أن يذكر هناك . خصت هذه السورة بـ ( الذى ) ليوافق ما قبله . وهو ﴿ أسوأ الذى ﴾ ، وقبله ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾ وخصت النحل بـ ( ما ) للموافقة أيضا وهو ﴿ إنما عند الله هو خير لكم ﴾ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴿ فتلاءم اللفظان في السورتين قوله : ﴿ وبداهم سيئات ما كسبوا ﴾ وفي سورة الجاثية ﴿ وبداهم سيئات ما عملوا ﴾ علته مثل علة الأولى ؟ لأن ﴿ ما كسبوا ﴾ في هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب ، وهو قوله : ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ وفي الجاثية وقع بين ألفاظه العمل وهو : ﴿ ما كنتم تعملون ﴾ ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وبعده ﴿ سيئات ما عملوا ﴾

فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه .

قوله : ﴿ ثم يبيح فتراه مصفرا ﴾ ، ثم يجعله حطاما ﴾ وفي سورة الحديد ﴿ ثم يكون حطاما ﴾ ، لأن الفعل الواقع قبل قوله ﴿ ثم يبيح ﴾ في هذه السورة مسند إلى الله تعالى ، وهو قوله : ﴿ ثم يخرج به زرعاً ﴾ فكذلك الفعل بعده : ﴿ ثم يجعله ﴾ وأما الفعل قبله في الحديد فمسند إلى الثبات وهو ﴿ أعجب الكفار بناته ﴾ فكذلك ما بعده وهو ﴿ ثم يكون ﴾ ليوافق في السورتين ما قبل وما بعد .

قوله : ﴿ فتحت أبوابها ﴾ وبعده ﴿ وفتحت ﴾ بالواو للحال ، أى جاءوها وقد فتحت أبوابها . وقيل الواو في ﴿ وقال لهم خزنتها ﴾ زيادة ، وهو الجواب . وقيل : الواو واو الثمانية . وقد سبق في الكهف . قوله : ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ وفي غيرها : ﴿ فإنما يهتدى لنفسه لأن هذه السورة متأخرة عن تلك السورة ، فاكفى بذكره فيها .

### فضل السورة

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل - سورة الاسراء - والزمر ، ( رواه والنسائي ) .

وجه اتصالها بما قبلها :

١ - إنه وصف القرآن في آخر سورة ص بقوله : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ ووصفه هنا بقوله : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

٢ - إنه ذكر في ( ص ) أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله - إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ

هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿١﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ  
هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢﴾

### « تفسير المفردات »

مخلصا له الدين : أى : فاعبد الله وحده لا شريك له .

زلفى : قريبة ، سبحانه : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

### « التفسير »

قوله تعالى : تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿١﴾ يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده - تبارك وتعالى - فهو الحق الذى لا مويه فيه ولا شك كما قال تبارك وتعالى : ﴿ أ . ل . م . تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ وقال عز وجل : ﴿ وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقال سبحانه : ﴿ حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال جل وعلا : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ وقال تبارك اسمه ﴿ تنزيل العزيز الحكيم ﴾ وقال جل وعلا ههنا : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز ﴾ أى المنيع الجنايب ﴿ الحكيم ﴾ أى : أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وبعد أن بين سبحانه شأن المنزل وأنه من عند الله العزيز الحكيم - ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل والتوحيد الخالص .

فقال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾ أى : فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عدیل ولا نديد ولهذا قال تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ قال قتادة فى قوله - تبارك وتعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله . أى : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد فإياى فارهبون ، وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا أفعير الله تتقون ﴾ <sup>(١)</sup> ومعنى له الدين واصبا كما قال مجاهد أى خالصا . أى له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض وكقوله ﴿ أفعير دين الله ييغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ قل إني أمرت أن

(١) سورة النحل الآية : ٥١

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨٣

أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ وكقوله تبارك اسمه : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال الفضيل ابن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً . لم يقبل . وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ الآية فإسلام الوجه : إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان فيه : متابعة رسوله — ﷺ — وسنته . وقال — ﷺ — في الحديث المتفق عليه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ( إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكا امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ) ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ وسئل — ﷺ — عن الرجل : يقاتل رياءً ، ويقاتل شجاعةً ويقاتل حمية : أى ذلك في سبيل الله ؟ فقال : ( من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ) ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ متفق عليه ) واخير — ﷺ — عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارئ القرآن والمجاهد والمتصدق بماله ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى ( أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به . وأنا منه بريء ) ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ وفي أثر آخر : يقول له يوم القيامة : ﴿ اذهب فخذ أجرك ممن عملت له . لا أجر لك عندنا ﴾ .

ولقد ذكر ابن القيم أقوال العلماء في تعريف الإخلاص فقال : قيل : الإخلاص : هي إفراة الحق — سبحانه — بالقصد في الطاعة .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقيل : من شهد في إخلاصه الإخلاص ، احتاج إخلاصه إلى إخلاص . فنقصان كل مخلص في

(١) سورة الزمر الآيتان : ١١ - ١٢

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٦٢ - ١٦٣

(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠

(٤) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الامارة - باب إنما الأعمال بالبر ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٥ طبعة الكويت .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الامارة - باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٣ طبعة الكويت .

(٧) صحيح مسلم - كتاب بالزهد والرقائق - باب من أشرك في عمله غير الله ٤ / ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥ وسنن ابن ماجه - كتاب الزهد - باب الرياء والسمعة ٢ / ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢ .

إخلاصه : بقدر رؤية إخلاصه ، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص ، صار مخلصا مخلصا .

وقيل : الاخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهرة خيرا من باطنه . والصدق في الاخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهرة .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء . والعمل من أجل الناس : شرك . والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده . ولا هوى فيميله .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ، ولا مجازيا سواه . ويعد أن أبان سبحانه أو رأس العبادة الإخلاص لله - اعقب ذلك بدم طريق المشركين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أى : والذين اتخذوا من دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله متزلة ويشفعوا لنا عنده في حاجتنا ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز اليها ، وقالوا : إن الإله الأعظم أجل من أن يعبد به البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهى تعبد الإله الأعظم .

قال قتادة والسدى ومالك : عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربوا إلى الله زلفى أن : ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون في تلبيتهم إذا حجوا في جاهليتهم لييك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون .

في قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - أجمعين بردها والنهى عنها والدعوة إلى إفراة العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شئ اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ، ولا رضى به ، بل أبغضه ونهى عنه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّاعُوتِ ﴾ (١) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنه فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فِيمَا هُمْ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّامَ كَانُوا

(١) سورة النحل الآية : ٣٦

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٥

يعبدون ؟ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فالיום لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا وتقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿١﴾ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم ندقه عذابا كبيرا ﴿٢﴾

وقوله عز وجل : ﴿٣﴾ إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴿٤﴾ أى لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله - تعالى - وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه قال تعالى : ﴿٥﴾ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله وهم عذاب أليم . إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿٦﴾

ثم فصل سبحانه ما كذبوا فيه فقال : ﴿٧﴾ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿٨﴾ .

بين تعالى أنه لا ولد له له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعادنون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى فقال تبارك وتعالى : ﴿٩﴾ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿١٠﴾ .

أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال سبحانه : ﴿١١﴾ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴿١٢﴾ وقال سبحانه : ﴿١٣﴾ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آيته يوم القيامة فردا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿١٥﴾ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿١٦﴾ أى : تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه

(١) سورة سبأ الآيات : ٤٠ - ٤٢

(٢) سورة الفرقان الآيات : ١٧ - ١٩

(٣) سورة النحل الآيات : ١٠٤ - ١٠٥

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٨١ - ٨٥

(٥) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥

الواحد الأحد الفرد الصمد الذى كل شئ لديه فقير إليه . وهو الغنى عما سواه ، الذى قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . قال عز من قائل : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شئ قدير ﴾ (١) . فسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدن وكبره تكبرا ﴾ (٢)

« من الآيات الدالة على وحدانية الله »

قوله تعالى :

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّورُ ﴿١﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ۖ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْهَا أَنْعَامَ ثَمَنِيةً ۚ أَزْوَاجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ۖ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۚ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٢﴾

« تفسير المفردات »

التكوير : فى الأصل اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكورها : والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة والظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، تصرفون : أى معدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

(١) سورة المائدة الآية : ١٧

(٢) سورة الاسراء الآية : ١١١

## « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان سبحانه أنه متزنه عن الولد بكونه إلهاً قادراً قهاراً وأن كل المخلوقات فى قبضته وسلطانه - أردف ذلك ما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها فى الأكوان ، وفى خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهمما ، وجعلهمما يجران فى ذلك الملكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجاً من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وأنثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل معذراً عن الاعتراف ببروبيته ، وعظيم قدرته .

## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى : خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شمس وأقمار ، تكون الليل والنهار العالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من حيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهراً وباطناً لانتفاع الإنسان فى سبل معاشته إذا استعمل عقله ، واستخدم فكره فى استنباط مرافقة - خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ، والحكم والصالح . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ <sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ <sup>(٤)</sup>

وبعد أن أبان سبحانه أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

﴿ يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ﴾ أى : يغشى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللباس ، أو يجعلها فى تتابعا أشبه بتتابع أكوام العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاوياً الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاوياً النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان بتتابع أكوام كروية الأرض أولاً ، وإلى دوراتها حول نفسها ثانياً ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .. يقول صاحب الملك : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك

(١) سورة الحجر الآيتان : ٨٥ - ٨٦ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٦ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٧٣ .



من تشاء ونزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ،  
تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء  
بغير حساب ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك  
تقدير العزيز العليم ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية  
النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾ ﴿٣﴾  
وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ ﴿٤﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم  
إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم  
إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ،  
ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ .

أى : وجعل الشمس والقمر وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له - وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما -  
يجريان لمتى دورتهما ، ومنقطع حركتهما ، وهو يوم القيامة ، ﴿ يوم نظوى السماء كطى السجل  
للكتب ﴾ ﴿١﴾ ومن آياته التشجير قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء  
فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ،  
وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا  
نعمت الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ﴿٢﴾ وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار  
والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ﴿٣﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولئن  
سألتم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ ﴿٤﴾ وقوله تعالى :  
﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله  
ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾ ﴿٥﴾ وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج  
الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ - ٢٧

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٦

(٣) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٤) سورة النور الآية : ٤٤

(٥) سورة القصص الآيتان : ٧٢ - ٧٣

(٦) سورة الأنبياء الآية : ١٠٤

(٧) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ - ٣٤

(٨) سورة النحل الآية : ١٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٦١

(١٠) سورة فاطر الآية : ١٣

تعلمون خير ﴿١﴾ وقوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (٢).

ثم ذيل - سبحانه - الكلام بقوله تعالى : ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ ترغيبا في طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له ، والتحذير من الكفر والمعاصي ، فقوله سبحانه : ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ أى : ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال ، وأنعم على خلقه بهذه النعم - هو القادر على الانتقام ممن عاداه الغفار لذنوب عباده التائبين ، ولا يخفى مافى هذا من الدلالة على كمال قدرته ، وكال رحمته ، فهو إقهار ذو القوة المتين ، الغفار لذنوب التائبين ومثله قوله تعالى - فى قصة نوح - وهو يدعو قومه : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبئكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ (٣).

وبعد أن ذكر الدلائل التى بثها فى العالم العلوى - أردفها ذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى ، وبدأها بخلق الإنسان لأنه أعجب ما فيه ، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الالهية والله در من قال :

وداؤك منك وما تشعـر	وداؤك فيك وما تبصر
بأجرفه يظهر المضمـر	وأنت الكتاب المبين الذى
وفيك انطوى العالم الأكبر	وتزعم أنك جرم صغير

قال تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ﴾ أى : خلقكم على اختلاف ألسنتكم وألوانكم - من نفس واحدة وهى آدم ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ (٦). وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة يس الآيات : ٣٧ - ٤٠

(٣) سورة نوح الآيات : ١٠ - ٢٠

(٤) سورة النساء الآية : ١

(٥) سورة الأعراف الآية : ١٨٩

(٦) سورة النحل الآية : ٧٢

أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون ﴿١﴾ .  
وقوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع  
إلا بعلمه ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ (٣) .

ثم شئ بخلق الحيوان فقال تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أى : وخلق لكم من  
ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام ( ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين  
ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ) .. أى : ذكر وأنثى لكل منهما .

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناس والأنعام فقال : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد  
خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ أى يتبدى خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فيكون  
أحدم أولا نطفة ثم يكون علقه ، ثم يكون مضغة ثم يكون لحما وعظما وعصبا وينفخ فيه الروح فيصير  
خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا  
خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما  
نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر  
لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل  
زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب  
فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم  
جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما  
فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾ أى : فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد  
وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل فى كتابه ( الاسلام والطب الحديث ) :  
يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائفى  
وهى لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة أهـ . قال الدكتور محمد على  
الباز فى كتابه ( خلق الانسان بين الطب والقرآن ) تحت عنوان وقفة مع الآية الكريمة .

(١) سورة الروم الآية : ٢١

(٢) سورة فاطر الآية : ١١

(٣) سورة النجم الآية : ٤٥ - ٤٦

(٤) سورة الحج الآيات : ٥ - ٧

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤

## « الظلمات الثلاث »

قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظِلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ صدق الله العظيم .

قال بعض المفسرين رحمهم الله :

أن الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . فلجدار البطن ظلمة ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم . ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، وإذا دققنا النظر في الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة .

١ - غشاء السلى أو الأمنيون ويحيط بالجنين نفسه .

٢ - غشاء الكوريون ( الغشاء المشيمي ) .

٣ - الغشاء الساقط .

ولنتحدث عن كل واحد من هذه الأغشية بشيء من التفصيل :

غشاء السلى أو الأمنيون :

ويدعى أيضا الرهل كما يعرف بالغشاء الباطن لأنه يحيط بالجنين من كل جانب . وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق . ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين حتى يبلغ أوجه في الشهر السابع حيث يبلغ حجمه لترًا ونصف لتر ووزنه كذلك كيلو جرام ونصف ولكنه يقل بعد ذلك تدريجياً حتى يبلغ حجمه لترًا واحدًا فقط قبل الولادة إلا في بعض الحالات الخاصة التي يزداد فيها السائل الأمنيوني زيادة مفرطة كالتوائم والبول السكري وغيره من الحالات المرضية وللسائل الأمنيوني فوائد جمه لا يمكن الاستفادة منها في تكوين الجنين ونموه في الرحم ونجملها فيما يلي :

١ - تغذية الجنين : يحتوى السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية يمتصها الجنين مما يساعد على تغذيته ونموه .

٢ - حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات العنيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم .

٣ - يسمح للجنين بالحركة الكاملة داخل الرحم .

٤ - يحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريباً فهو مكيف جيداً بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود

ضئيلة جداً .

٥ - يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية . فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية .

وهذه وظائفه أثناء الحمل أما وظائفه أثناء الولادة فلا تقل أهمية عن ذلك . إذ أن السائل الأمنيوني يكون

جيب المياه الذى يوسع عنق الرحم الذى لا يتسع حتى للخصر ، فإذا به يتسع للوليد بكامله . ( أكثر من خمسة أصابع ) وفى نفس الوقت يقى الجنين من أن ينحشر وينضغط بين جدران عنق الرحم أثناء الولادة وما يكون فيها من ضغط عالى جدا .

ولولا لطف الله - سبحانه وتعالى - ثم جيب المياه هذا لتشم رأس الجنين أثناء الولادة . ولا يكتفى السائل الأمنيوى بكل هذا ولكنه يكون يتمهيد وتعقيم الطريق للجنين عندما ينفجر جيب المياه فيقتل الميكروبات الموجودة فى المهبل قبيل الولادة مباشرة حتى يضمن للجنين طريقا ممهدا ومعقما فى نفس الوقت .

٢ - الغشاء المشيمى ( غشاء الكربون ) :

وهو الثانى من الأغشية التى تحيط بالجنين ويتوسط بين غشاء الساقط من الخارج والغشاء الأمنيوى من الداخل .

ويتركب هذا الغشاء من ورقتين هما :

١ - خارجيه : وبها زغابات وخمالات كثيرة تنتقل بواسطتها الأغذية والاكسجين من الأم إلى الجنين كما ينتقل غاز ثانى أكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم .

٢ - داخلية : تغطى كيس المح أو السفار وتشمل فيما تشمل مبدأ ظهور الأوعية الجنينية الخارجية .

وغشاء الكربون يتكون بادىء ذى بدء عند تكون النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو ثمرة القوت وتسمى التوتة ، وتتكون هذه الكرة من طبقات من الخلايا ، فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فتتميز إلى مجموعة من الخلايا الآكلة التى تشب وتعلق بجدار الرحم . هذه الطبقة الخارجية التى تعلق وتنغرز فى الرحم هى التى تتحول إلى غشاء الكربون الذى نتحدث عنه .

وتكون هذه العلة العالقة بجدار الرحم محاطة بالدم الغليظ وتفرع من الطبقة الخارجية خمالات وزغابات عديدة وخلاياها تقضم فى جدار الرحم حتى تتمكن البويضة الملقحة من الانغراز فى جدار الرحم . وتقوم بتغذية اللوح الجنينى الذى يخلق الله سبحانه وتعالى منه الجنين بما تمتصه مباشرة من البرك الدموية المحيطة بها .

وهذه الطبقة من البويضة الملقحة أو القوته هى الجزء الغير مخلق من الجنين أما الجزء الداخلى فمعه يخلق الجنين . وهو الذى نتحدث عنه الآية الكريمة فى سورة الحج حيث يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنْ لَكُمْ وَنَقَرٍ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ ۖ ﴾ <sup>(١)</sup> كما أن الجنين قد يدخل فى دور التخليق أو تقذفه الأرحام دما وهو

السقط أو الإجهاض وخاصة في المراحل الأولى لتكون الجنين .

وينمو غشاء الكوريون والخملات مع نمو الجنين ولا يكتفى بامتصاص الغذاء من البرك الدموية المحيطة به وإنما تبدأ دورة دموية في غشاء الرحم وتقابلها دورة دموية في غشاء الجنين المشيمي . وعن طريق الخملات التي يمرق جدارها يوما بعد يوم مع تقدم الحمل ينتقل الغذاء والهواء ( الأكسجين وثنائي أكسيد الكربون ) كما تنتقل المضادات للأجسام الغريبة من الأم إلى الجنين لتكون للجنين جهاز مناعته وفي نفس الوقت تمنع عنه أنتقال السموم والميكروبات .

ومع ذلك تقبل الأم ما يخرجها الجنين من إفرازات وسموم ناتجة عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وثنائي أكسيد الكربون فتقبلها وتأخذها في دورتها الدموية الرحمية أولا ثم إلى دورتها الدموية حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول . وهكذا ترى أن ثخانة الخملات تختلف من يوم إلى آخر وتتغير بحسب نمو الجنين ومتطلباته .

وكلما كبر الجنين رقد الجدار الفاصل بين دورة الدم الرحمية ودورة الدم في الجنين حتى يسهل عبور المواد الهامة النافعة من الأم إلى الجنين ويتم أخراج المواد الضارة من الجنين إلى الأم ( البولينا وثنائي أكسيد الكربون ) .

٣ - الغشاء الساقط : وهو ثالث الأغشية التي تحيط بالجنين من جميع جوانبه . وهو مكون من الغشاء المخاطي المبطن للرحم ؟ وهو رقيق ، وينمو نموا هائلا بتأثير هرمون الحمل ( البروجستون ) فتزيد ثخانته من نصف مليمتر عند بدء الطهر من الحيض إلى ثمانية ملليمترات آخر الدورة الشهرية وقيل الحيض . فإذا ما تم الحمل زادت ثخانته أضعافا مضاعفة وتزداد فيه الغدد والأوعية الدموية زيادة عظيمة ويتغير تركيبه حتى يصبح اسفنجي القوام . وقد سمي بالغشاء الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم الحيض أو مع دم النفاس إذا كان هناك حمل .

المشيمة :

يساهم في تكوين المشيمة كل من الجنين والأم . والمشيمة تتكون من قرصين متلاصقين ، فأما الجزء الرحمي ( الأم ) فهو الغشاء الساقط القاعدي ، وأما الجزء الجنيني فهو ( الكوريون ) الجنيني الذي سبق أن وصفناه .

وتتخذ المشيمة شكل قرصى يتفاوت قطره ما بين ١٦ ، إلى ٢٠ سنتيمتى وثخانته سنتيمترات تقريبا ووزنه خمسمائة جرام ( نصف كيلو جرام ) وسطح المشيمة المتصل بأغشية الجنين في وسطها في العادة وقد يتصل بأحد جوانبها . ويغطي هذا السطح الغشاء الأمنيوسي ( الغشاء السلى أو الرهلى ) .

أما الجزء الرحمي فخشن ومكون من خمسة عشر إلى عشرين فصا ويتوسط بين جزئى المشيمة الجنيني والرحمى غشام هام يسمى الغشاء المشيمي ويفصل هذا الغشاء بين الدورة الدموية الرحمية والدورة الدموية

الجنينية . وقد وهب الله لهذا الغشاء القدرة على تنظيم تغذية الجنين ووقايته من كل ما قد يضره ، ولا يوصل إليه من الغذاء إلا ما ينفعه . ويسميه البعض « الغشاء الحيوى المشيمى » .

### الدورة الدموية فى المشيمة :

فى المشيمة دورتان دمويتان . يفصل بينهما الغشاء المشيمى الحيوى ، ورغم قربهما قريبا شديدا من بعضهما حتى أنه لا يفصل بينهما الا جدار رقيق من خلايا الحملات ، إلا أنهما لا يتصلان بحيث يندفع الدم من واحدة إلى أخرى . ومع ذلك فاتصالهما وثيق : ينتقل الغذاء المنتقى والمختار بعناية فائقة من دم الأم فى الرحم إلى أوعية الجنين الدموية . وينتقل معه الأوكسجين ومواد المناعة للأمراض والأوبئة . وينتقل من الجنين إلى الأم كل المواد السامة التى نتجت عن عمليات البناء والهدم المستمرة فى خلايا الجنين مثل ثانى أكسيد الكربون والبولىنا وتنتقل إلى الأم لتحملها راضية إلى أجهزة إفرازها كما يمنع الغشاء الحيوى المشيمى أنتقال ما قد يكون ضارا بالجنين من مواد موجودة فى دم الأم ، كما يمنع عن الجنين الميكروبات والأمراض الا فيما ندر .

إن المقدر الهائل الذى وهبها الله — عز وجل — لهذا الغشاء معجزة كاملة ، غشاء رقيق يفصل بين دم الأم ودماء الجنين ومع هذا فهو يختار للجنين ما يصلحه ويقيه وينميه ، ويدفع عنه كل ما يؤذيه ، ويسمح لهذه المادة أن تمر ، ويقف حجر عثرة لتلك المادة المشابهة ويقول لها : قفى هنا لا حاجة بنا إليك ، ويختار المواد النافعة من دم الأم فيقول لها : أدخلى بسلام ويمنع المواد الضارة ويختار المواد الضارة الموجودة فى الجنين ويقول لها : اخرجى من هنا إلى دم الأم .

بواب عجيب حكيم ، يقف وقفة صارمة حازمة طوال الليل والنهار لا يكل ولا ينى ، يختار للجنين ما يصلحه ويطرده عنه ما يضره وهو بعد ذلك غشاء مكون من مجموعة من الخلايا البسيطة التركيب فسبحان من أودع فيه هذه القدرة الهائلة على التمييز وجعله فى صف الجنين دائما وابدا .

### وتقوم المشيمة بوظائف عدة أجهزة فى الجسم هى :

- ١ - الجهاز التنفسى : إذ تقوم بإعطاء الجنين الأكسجين وتأخذ عنه ثانى أكسيد الكربون .
- ٢ - الجهاز الهضمى : تعطى الجنين الغذاء المهضوم بالقدر المعلوم وتنوع غذائه حسب حاجاته يوما بعد يوم فيختلف غذاء الجنين فى شهرة الأول أو الثانى عن غذائه فى الشهر الثامن أو التاسع يختلف نوعا وكما .
- ٣ - الجهاز البولى : تقوم المشيمة بإخراج المواد الضارة بالجنين والتى تخلفت عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولىنا وتدفعها إلى دم الأم ، ولا تكتفى المشيمة بهذه العجائب كلها ، ولكنها ترسل هرمونات يثبت الجنين فى الرحم وينمى الثديين استعدادا لإفراز اللبن منهما عندما يخرج الجنين إلى الدنيا ليجد غذاءه جاهزا ، ومن المقرر علميا وطبيا أن سلامة الحمل متوقفة على سلامة المشيمة ، وإن أكثر حالات الاجهاض إنما ترجع إلى خلل فى المشيمة .

فسبحان من خلق فسوى ، وسبحان من قدر فهدى خلق الجنين وسواه ، وقدر ظهور أعضائه ،  
وهذاه إلى وظائفهما وخلق المشيمة وسواها وقدر محتوياتها وتركيبها وأوجد غشاءها العجيب وهذاه إلى وظائفه  
العديدة المعجزة . أ هـ .

### « وعيد وتهديد »

قال تعالى :

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ  
وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ  
الْصُّدُورِ ﴿٧٧﴾ \* وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ  
مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّبِضْلٍ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا  
إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٧٨﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ منيبا ﴾ أى : راجعا إليه مطيعا ، ( خوله ) : ملكه .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام لا دليل لهم على عبادتها -  
أعقب ذلك ببيان أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات . فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ، ولا دفع مضرة ،  
ولكنه لا يرضى الكفر لعباده ، بل يرضى الشكر ، وأن كل نفس مطالبة بما عملت وبعدئذ ترد إلى عالم  
الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون فإذا أصابهم الضر رجعوا  
في طلب دفعه إلى الله ، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا  
أنه لا يدفع للضرر سواه . أن يعبدوه في جميع الحالات ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهمكما مونجا : تمتعوا بكفركم  
قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .



## « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ يقول تبارك وتعالى مخبرا عن ذاته المقدسة - تبارك وتعالى : أنه الغنى عما سواه من المخلوقات كما أخبر سبحانه في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ ، إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾<sup>(١)</sup> وكما قال موسى - عليه الصلاة والسلام - لقوله : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنَىٰ حَمِيدٌ ﴾<sup>(٢)</sup> فإنه - سبحانه - لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ، ولكنه - سبحانه - خلقنا بمحض جوده وكرمه ، بمحض فضله ومنته قال تعالى في الحديث القدسي الذي رواه الحبيب المصطفى - ﷺ - والذي فيه « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ﴾<sup>(٣)</sup> فسبحان من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . فالطاعة تنفعنا نحن والمعصية تضرنا نحن قال تعالى : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلِنَفْسِهِ ، وَمِنْ أَسَاءَ فَعَلِيَهَا وَمَا يَرْكُ بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى : لا يحبه ولا يأمر به ، ﴿ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى : يحبه لكم ويزدكم من فضله ، كما قال تعالى : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾<sup>(٥)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأْذِنُ رِبْكَمَ لِئِنَّ شُكْرَكُمْ ، لِأُزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾<sup>(٦)</sup> .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ، ولا يضيره عمل سواه فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : ولا تحمل أى نفس أوزار نفس أخرى بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كان أو شرا . .

ثم بين أن جزاء المؤمن في الآخرة وفق ما عمل في الدنيا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى : ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم ، العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون في الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، ثم يجازى المحسن منكم بإحسانه

(١) سورة فاطر الآيات : ١٥ - ١٧

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٨

(٣) مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧

(٤) سورة فصلت الآية : ٤٦

(٥) سورة النساء الآية : ١٤٧

(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧

والمسيء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم في الدنيا مالا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه - سبحانه - فقال : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أى : إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمروه صلوركم مما لا تدركه أعينكم فيكيف بما رأته العيون وأدركته الأبصار ؟ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تترز وازرة وذر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ﴾ (١) .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴾ أى : وإذا أصاب الكافر بلاء في جسده أو شدة في معيشته ، أو خوف على حياته - استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه في كشف ما نزل به ، تائباً إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الألهة والأوثان في عبادته ، ثم إذا منحه منه فأزال ما به من ضر ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء - ترك دعاءه الذى كان يدعو من قبل أن يكشف ما كان به من ضر ، فجعل لله شركاء ما ضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول فى الاسلام له . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال تعالى : ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أى قل يأياها الرسول لمن فعل ذلك . تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها ، منصرفاً عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمناً قليلاً إلى أن تستوفى أجلك وتأتيتك منيبتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار وبئس القرار : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (٤) .

(١) سورة النجم الآيات : ٣٦ - ٤٢

(٢) سورة الاسراء الآية : ٦٧

(٣) سورة يونس الآية : ١٢

(٤) سورة غافر الآيات : ٧١ - ٧٦

## « الوعد الحق »

قال تعالى :

أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَٰؤِ الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾ قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۚ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مَخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ ﴿١٣﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٦﴾ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ۚ قُلْ إِنْ أَخْسِرَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَاهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٧﴾ لَهُمْ مَنْ فَوْقَهُمْ ظُلُلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلُلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ ۚ عِبَادُهُ يَعْبُدُونَ فَاَتَقُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أُولَٰؤِ الْأَلْبَابِ ﴿٢٠﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿٢١﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا ۚ أَلَّا تَنْهَرُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٢﴾

## « تفسير المفردات »

﴿ قَانَتْ ﴾ القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ﴿ آناء الليل ﴾ : ساعاته واحداها آن  
 ﴿ يحذر الآخرة ﴾ أى : يخشى عذابها . ﴿ بغير حساب ﴾ بلا نهاية لما يعطى أو يتوسعه ، ﴿ ظلل من

النار ﴿ أطباق منها ، كثيرة متراكمة ﴾ اجتنبوا الطاغوت ﴿ الأوثان والمعبودات الباطلة : ﴿ أنابوا إلى الله ﴾ رجعوا إلى عبادته وحده ، ﴿ لهم غرف ﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان - سبحانه - صفات المشركين الضالين ، وذكر تقلقهم واضطرابهم في العبادة إذ يرجعون إليه في وقت الشدة ويعودون إلى الأوثان حين الرخاء - ردة ذكر صفات المؤمنين القانتين الأتقياء الذى لا يعتمدون إلا على ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه . وبعد ذلك أمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح .

١ - تقوى الله وطاعته .

٢ - عبادة الله وحده مخلصا له الدين .

٣ - إنه أمره أن يقول : إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصي .

٤ - إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .  
٥ - وصف النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده وهذا وعيده لعبده الأصنام ثم ذكر وعد من اجتنبوا عبادتها وبعثوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال التهيب والترغيب .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

يقول الله عز وجل : أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستون عند الله كما قال

تعالى : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ (١) وقال تبارك وتعالى ، ههنا : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما ﴾ أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة وقال ابن مسعود ( القانت المطيع لله - عز وجل - ولرسوله - ﷺ - وقال ابن عباس - رضى الله عنهما : ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل

وقال الحسن وقتادة : ﴿ آناء الليل ﴾ أوله وأوسطه وآخوه . وقوله تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أى : فى حال عبادته خائف راج ولا بد فى العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى : ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . ومثل ذلك قوله تعالى وهو يصف حال الأنبياء : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن معاذ بن جبل والذى فيه يقول — ﷺ — ( ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ يعلمون ﴾ (٣) الحديث . يعنى أن النبى — ﷺ — تلا هاتين الآيتين من سورة السجدة عند ذكره فضل صلاة الليل ليعين بذلك فضل صلاة الليل . وأخرج الترمذى من حديث عمرو بن عبسة قال : سمعت النبى — ﷺ — يقول : ( أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر . فإن استطعت أن تكون مما يذكر الله تلك الساعة فكن ) (٤) .

وقال الامام أحمد عن تميم الدارى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — ( من قرأ بمائة آية فى ليلة كتب له قنوت ليلة ) (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أى هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل الله أندادا ليضل عن سبيله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أى : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل والله أعلم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، أن الله يسمع من يشاء وما أنت

(١) سورة الأنبياء الآية : ٩٠

(٢) سورة السجدة الآيتان : ١٦ - ١٧

(٣) سنن الترمذى — كتاب الإيثار — باب ما جاء فى حرمة الصلاة ٤ / ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ وابن ماجه — كتاب الفتن — باب كيف اللسان فى الفتنة ٢ / ٢٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٤) سنن الترمذى — كتاب الدعوات — باب دعاء الضيف ٥ / ٥٧٠ رقم ٣٥٧٩

(٥) مسند أحمد ٤ / ١٠٣

بمسمع من في القبور ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾ ﴿٢﴾ وكقوله : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويان ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ﴿٣﴾ .

### « فضل قيام الليل »

قال الإمام العالم العلامة الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي رحمه الله في كتابه ( لطائف المعارف ) في فضل قيام الليل ما نصه : وقد دل حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه أفضل الصلاة بعد المكتوبة وقال ابن مسعود : فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية . وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص كان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم قال الحسن : كان الرجل يكون عنده زواره فيقوم من الليل يصلي لا يعلم به زواره ، وكانوا يجتهدون في الدعاء ولا يسمع لهم صوت . وكان الرجل ينام مع امرأته على وسادة فيبكي طول ليلته وهي لا تشعر ولأن صلاة الليل أشق على النفوس ، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار ، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة . قال بعضهم : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر فإنه تنقطع الشواغل بالليل ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم . كما قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ ﴿٤﴾ ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن في قيام الليل ترتيلاً ، ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو وقت فتح أبواب السماء واستجابته الدعاء واستعراض حوائج السائلين وقد مدح الله المستيقظين بالليل . لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته فقال الله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ولما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ﴿٥﴾ قال الحسن : أخفوا العمل فأخفى الله لهم الجزاء . وقال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ﴿٦﴾ وقال تعالى : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ ﴿٧﴾ وقال الله تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً

(١) سورة فاطر الآيات : ١٨ - ٢٢

(٢) سورة هود الآية : ٢٤

(٣) سورة السجدة الآيات : ١٨ - ٢٠

(٤) سورة المزمل الآية : ٦

(٥) سورة السجدة - الآيتان : ١٥ - ١٦

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٧

(٧) سورة الذاريات الآيتان : ١٧ - ١٨

يُحَذِّرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هُوَ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ (١) وَقَالَ لِنَبِيِّهِ - ﷺ - ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نَفْصُهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (٣) .

قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - لرجل لا تدع قيام الليل فإن رسول الله - ﷺ - كان لا يدعه وكان إذا مرض أو قالت كسل صلى قاعدا ، وفي رواية أخرى عنها قالت : بلغني عن قوم يقولون إن أدبنا الفرائض لم ينال أن لا تزداد ولعمري لا يسألهم الله إلا عما اقترض عليهم ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار ، وما أنتم إلا من نبيكم ، وما نبيكم إلا منكم والله ما ترك رسول الله - ﷺ - قيام الليل . فأشارت السيدة عائشة رضي الله عنها إلى أن قيام الليل فيه ( فائدتان عظيمتان ) الاقتداء بسنة رسول الله - ﷺ - والتأسي به وقد قال الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٤) وتكفير الذنوب والخطايا ، فإن بنى آدم يخطئون بالليل والنهار فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفريات الخطايا وقيام الليل من أعظم مكفريات الذنوب كما قال النبي - ﷺ - لمعاذ بن جبل ( قيام العبد في جوف الليل يكفر الخطيئة ثم تلا ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) (٥) أخرجه الإمام أحمد .

وقد روى أن المتبهجين يدخلون الجنة بغير حساب وروى عن شهر بن جوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبي - ﷺ - قال : ( إذا جمع الأولين والآخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمعه الخلائق سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الناس ) (٦) .

قال بعض السلف : قيام الليل يهون طول القيامة يوم القيامة وفي حديث أبي أمامه وبلال المرفوع ( عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى وتكفير للميئات ومنهاة عن الاثم ومطرودة للداء عن الجسد ) (٧) أخرجه الترمذي . ففى هذا الحديث : أن قيام الليل يوجب صحة الجسد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٣

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩

(٣) سورة الانسان الآية : ٢٦

(٤) سورة المزمل الآيات : ١ - ٤

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٢١

(٦) مسند أحمد ٢٣٧ / ٥

(٧) أخرجه السيوطي في الدر المنثور ، والبيهقي في شعب الایمان ٢٥ / ٥

(٨) سنن الترمذي - كتاب الدعوات - باب دعاء النبي ﷺ ٥٥٢ / ٥ رقم ٣٥٤٩

ويطرد عنه الداء .. وكما أن قيام الليل يكفر السيئات فهو يرفع الدرجات وقد ذكرنا أن أهله من السابقين إلى الجنة بغير حساب وفي حديث المنام المشهور الذى أخرجه الامام أحمد والترمذى ( أن الملائة الأعلى يختصمون فى الدرجات والكفارات وفيه أن الدرجات أطعم الطعام ، وإفشاء السلام . والصلاة بالليل والناس نيام )<sup>(١)</sup>.

وفي المسند والترمذى من وجوه عن النبى - ﷺ - أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، وأنها لأهل هذه الخصال الثلاثة ( أطعم ) الطعام وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام )<sup>(٢)</sup>.

ومن فضائل التهجد أن الله تعالى - يجب أهله ويباهى بهم الملائكة ويستجيب دعاءهم .

وفي المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبى - ﷺ - قال : ( رجلان من أمتى يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه أنحلت عقدة وإذا وضأ وجهه أنحلت عقدة وإذا مسح رأسه أنحلت عقدة وإذا وضأ رجلين أنحلت عقدة فيقول الرب - عز وجل للذين وراء الحجاب أنظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه ما سألتى عبدى هذا فهو له )<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيحين أن النبى - ﷺ - قال : ( نعم الرجل عبد الله - يعنى ابن عمر - لو كان يصلى من الليل فكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا )<sup>(٤)</sup>.

كان أبو ذر - رضى الله عنه - يقول للناس : رأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه قالوا : بلى قال : فسفر طريق القيامة أبعد فخذوا له ما يصلحكم ، حجوا حجة لعظام الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور ، صلوا ركعتين فى ظلمة الليل ، لظلمة القبور ، تصدقوا بصدقة بشر يوم عسير ، أين رجال الليل أين الحسن وسفيان وفضيل .

يارجـال جـلدوا رب داع لا يـرد  
ما يقوم الليل إلا من لد عزم وجد

أخرج النسائى عن أبى ذر قال : سألت رسول الله - ﷺ - أى الليل خير قال : ( جوفه )<sup>(٥)</sup> وفى رواية لأحمد قال - ﷺ - جوف الليل الغابر أو نصف الليل وقليل فاعله )<sup>(٦)</sup> كان أبو سليمان يقول : أهل الليل فى ليلهم الذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أجبيت البقاء فى الدنيا وسط الليل للمحيين وللخلة بمناجاة حبيبهم ، والسحر للمذنبين للاستغفار من ذنوبهم فوسط الليل خاص لخلوة الخواص ،

(١) سنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن - باب سورة ص ٥ / ٣٣٦ ومسند أحمد ٥ / ٢٤٣

(٢) سنن الترمذى - كتاب صفة الجنة - باب صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧ رقم ٢٥٢٧ ومسند أحمد ١ / ١٥٥

(٣) مسند أحمد ٤ / ٢٠١ وابن حبان - كتاب الصلاة - باب قيام الليل ٤ / ١١٣ رقم ٢٥٤٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل عبد الله بن عمر ص ٦٧٠ رقم ١٦١١ طبعة الكويت .

(٥) سنن النسائى - كتاب المواقيت - باب إباحة الصلاة إلى أن يصلى الصبح ١ / ٢٨٣ وابن ماجه - كتاب الفتن - باب كف اللسان فى

الفتنة ٢ / ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٦) مسند أحمد ٥ / ١٧٩



والسحر عام لرفع قصص الجميع وبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج فمن عجز عن مسابقة المحبين في ميدان مضمارهم فلا يعجز عن مشاركة المذنبين في استغفارهم واعتذارهم ، صحائف التائبين خلدودهم ومدادهم دموعهم . لا تزال القصص تستعرض ويوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر ؟ ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : ( هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من داع فأجيب دعوته إلى أن ينفجر الفجر )<sup>(١)</sup> فلذلك كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله .

كان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته يأيتها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ، ألا تقومون فترحلون فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فراشهم فيسمع من هنا باك ومن هنا داع ، ومن هنا تال ، ومن هنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى .

يانفس قومي فقد نام الورى      أن تصنعى الخير فلو العرش يرى  
وأنت ياعين دعى عنك الكورى      عند الصباح يحمد القوم السرى

ياقوم الليل اشفعوا في النوم ، ياأحياء القلوب ترجموا على الأموات قيل لابن مسعود - رضي الله عنه - ما نستطيع قيام الليل قال أعددتكم ذنوبكم ، وقيل للحسن : قد أعجز قيام الليل قال قيدكم خطاياكم وقال الفضى بن عياش : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محرم كبتك خطيئتك . قال الحسن : إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، قال بعض السلف : أذنبت ذنبا فحرمت به قيام الليل ستة أشهر . ما يؤهل الملوك للخلوة بهم إلا من أخلص في ودهم ومعاملتهم فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه .

ياحسنهم والليلىل قد جنهم      ونورهم يفوق نور الأنجم  
ترغوا بالذكر في ليلهم      فعيشهم قد طاب في الترم  
قلوبهم للذكر قد تفرغت      دموعهم كالؤلؤ منظم  
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت      وخلع الغفران خير القسم

قيل للنبي - ﷺ - إن فلانا نلم حتى أصبح فقال : ( بال الشيطان في أذنه )<sup>(٢)</sup> كان سرى يقول : رأيت الفوائد ترد في ظلمه الليل ، ماذا فات من فاته خير الليل حصل أهل الغفلة والنوم على الحرمان والويل ، كان بعض السلف يقوم الليل فقام ليله فأتاه آت في منامه فقال له : قم فصل ثم قال له أما علمت أن مفاتيح الجنة مع أصحاب الليل هم خزانها ، هم خزائنها .

كان النبي - ﷺ - يطرق باب فاطمة وعلى ويقول : ( ألا تصلون )<sup>(٣)</sup> وفي الحديث : ( إذا استيقظ

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل ١ / ٥٢١ رقم ٧٥٨

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٦٠

(٣) مسند أحمد ١ / ٧٧

الرجل وابقظ أهله فصليا ركعتين كتبنا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات (١) كانت امرأة صهيبي توقظه بالليل وتقول ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا .

ياراقـد الليل كم ترقـد	قم يا حبيبي قد دنا الموعد
وخـذ من الليل وأوقاتهـ	وردا إذا ما هج الرقـد
من نام حتى ينقضى ليلـه	لم يبلغ المنزل أو يجهـد
قل لأولى الأبـاب أهل التقى	قنطرة العـرض لكم موعـد

قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون من المسلمين ﴾ يقول تعالى : أمرا عبادة المؤمنين بالاستمرار على طاعة الله وتقواه وهذه وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾ (٢) وأمرنا - سبحانه - بالاستمرار على طاعته وتقواه حتى الموت فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٣) ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ (٥) كقوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٧) وقوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم ولنمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ﴾ الآية (٨) ولقد أحسن أصحاب رسول الله ﷺ - فأحسن الله إليهم في الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ (٩) وقال سبحانه : ﴿ والسابقون

(١) أبو داود - كتاب الصلاة - باب الحث على قيام الليل ٢ / ١٤٧ رقم ١٤٥١ وابن ماجه كتاب الصلاة - باب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٥

(٢) سورة النساء الآية : ١٣١

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢

(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٢

(٥) سورة النحل الآية : ٣٠

(٦) سورة الرحمن الآية : ٦٠

(٧) سورة النحل الآية : ٩٧

(٨) سورة النور الآية : ٥٥

(٩) سورة الحج الآية : ٤١

الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان ، وقال عطاء في قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ وقال : إذا دعيت إلى معصية فاهربوا ثم قرأ : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ﴾ .

وقال الشيخ المراغى في قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أى : إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفى على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة في البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين . فلقد هاجر النبى - ﷺ - وأصحابه وفارقوا الأهل والأوطان كل هذا في سبيل الله فكانت العقابة لهم ، والعاقبة للمتقين .

ثم ذكر سبحانه ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ أى : ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٢) قال ابن القيم : الصبر . حبس النفس عن التسخط بالمقلود ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونحوه . فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام بالعبد كما ينبغي أنقلبت المحنة في حقه منجاة ، واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوبا فإن الله - سبحانه وتعالى - لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته . فإن لله تعالى - على العبد عبودية في الضراء ، كما له عبودية في السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون . والشأن في إعطاء العبودية في المكروه ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى . قال رسول الله - ﷺ - ( عجا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ) (٣) رواه مسلم .

وقال - ﷺ - ( إن عظم الجزاء مع عظم البلاء - الحديث ) وخطب عمر بن عبد العزيز في الناس قائلا : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه الله أفضل مما

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٠

(٢) سورة يوسف الآية : ٩٠

(٣) مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب المؤمن أمره كله خير ٤ / ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩

(٤) الترمذى - كتاب الزهد - باب في الصبر على البلاء ٤ / ٢٧ رقم ٢٥٠٧ وشرح السنة الأمام البقرى كتاب الجنائز - باب شدة المرض ٥ /

أنتزع منه ثم قرأ ﴿ إِنَّمَا يَوْفِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ، وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى قل أيها الرسول لمشركى قومك : إن الله أمرنى أن أعبدَه مفردا له الطاعة دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد . ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى وأمرت أن أكون أول المسلمين ومسابقهم فى إخلاص التوحيد لله ، وإخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : قل لهم : أنى أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو أفرادَه بالربوبية عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفى هذا من التعريض بهم مالا يخفى .

ثم كرر الأمر مرة أخرى بالإخلاص فى الطاعة للتهديد والوعيد فقال : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِى ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى قل لهم : الله أعبد لا غيره لا استقلالاً ولا اشتراكاً ، مُخْلِصًا لَهُ عِبَادَتِى مُبْتَعِدًا مِنَ الشَّرْكِ وَالرِّيَاءِ ، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ ، وَاسْتَعْلَمُونَ وَبِالْعَاقِبَتِكُمْ حِينَمَا تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ .

ثم أمر رسوله أن يذكر للمشركين حالهم يوم القيامة فقال - جل فى علاه - ﴿ قُلْ إِنْ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخسران الذى لا خسران بعده - هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلوهم وأوقعوهم فى العذاب الأبدي يوم القيامة إذا أوقعوهم فى هلكة ما بعدها هلكة . ﴿ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانُ الْمَبِينُ ﴾ أى : هذا هو الخسران المبين الظاهر لكمال هوله وفظاعة شأنه ثم فصل - سبحانه - ذلك الخسران وبين بعد إيهامه تهويلاً وتعظيماً لأمره فقال - عز وجل : ﴿ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ﴾ أى : لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَخْوَفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ ، يَاعِبَادُ فَاتَّقُونِ ﴾ أى : إنما نقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . ﴿ يَاعِبَادُ فَاتَّقُونِ ﴾ أى : أخشوا بأسى وسطوتى وعذابى . ونقمتى وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَبْنَاهَا عَذَابًا نَكِرًا فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَسْرًا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ٤١

(٣) سورة الحمزة الآيات : ٦ - ٩

يأولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ، رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأتوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر ، وسلمان الفارس - رضي الله تعالى عنهم - والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأتوا إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ثم قال - عز وجل - ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله - تبارك وتعالى - لموسى - عليه السلام - حين آتاه التوراة ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات ، عبادة الله وحده لا شريك له والبراءة مما يخالف دين الاسلام ، والانابة والاحبات والخضوع له سبحانه ، والسمع والطاعة أولئك الذين هداهم الله ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ أى : ذرو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

وقوله تعالى : ﴿ أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من في النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾ .

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقى أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر - سبحانه - عن عباده السعداء أن لهم غرفا في الجنة وهى القصور أى : الشاهقة ( من فوقها غرف ) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات ( مبنية تجري من تحتها الأنهار ) .

قال الأمام أحمد : عن النعمان بن سعد عن علي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - ( إن في الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها فقال أعرابى : لمن هى يارسول الله ؟ قال - ﷺ - ) ( لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام ) <sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال حسن غريب .

وقال الأمام أحمد : عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : ( إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في أفق السماء ) <sup>(٣)</sup> . أخرجه في الصحيحين . وفي رواية له

(١) سورة الطلاق الآيات : ٨ - ١١

(٢) سنن الترمذى - كتاب صفة الجنة - باب ما جاء في صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧٣ رقم ٣٢٥٢٧ ومسند أحمد ٥ / ٣٤٣

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الجنة ونعيمها - باب ترائى أهل الجنة الغرف ص ٧٩٦ رقم ١٨٠٤ طبعة الكويت .

عن ابى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب النذرى العارب فى الأفق الطالع فى تفاضل أهل الدرجات فقالوا : يا رسول الله أولئك النبين ؟ فقال - ﷺ - ( بلى والذى نفسى بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل ) <sup>(١)</sup> رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد بسنده : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - يقول : قلنا يا رسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقتك أعجبنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال - ﷺ - ( لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة ولو لم تذنبوا لجاء الله - عز وجل - بقوم يذنبون كى يغفر لهم - قلنا يا رسول الله حدثنا عن الجنة ، ما أنبأها ؟ قال - ﷺ - لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأزفر ، وحصاؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يأس ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفتى شبابه الحديث .. ) <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ وعد الله ﴾ أى هذا الذى ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

من دلائل التوحيد :

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فِتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ج وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهَهُ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ

(١) سنن الترمذى - كتاب صفة الجنة - ما جاء فى خلود أهل الجنة وأهل النار ٤ / ٦٩٠ رقم ٢٥٥٦ وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) مسند أحمد ٢ / ٣٤٤

لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

### « تفسير المفردات »

﴿ فسلكه ﴾ أى : فأدخله ، ﴿ يبايع ﴾ أى : عيونا ومجارى ، ﴿ ألوانه ﴾ أى : أنواعه وأصنافه ، ﴿ يهيج ﴾ أى : يجف ﴿ حطاما ﴾ أى : فتاتا منكسرا ﴿ شرح الله صدره للإسلام ﴾ شرح الصدر للإسلام الفرح به والطمينة إليه ﴿ النور ﴾ البصيرة والهدى ، ﴿ القسوة ﴾ جمود وصلابة فى القلب ، يقال قلب قاس : أى : لا يرق ولا يلين ﴿ أحسن الحديث ﴾ هو القرآن ﴿ متشابها ﴾ أى : يشبه بعضه بعضا فى الحسن والأحكام ﴿ مثالى ﴾ واحدها مثنى من الشئبة أى : التكرير ، ﴿ تقشعر ﴾ أى : تضطرب وتحرك ﴿ قلين ﴾ تسكن وتطمئن ﴿ الخزي ﴾ الذل والهوان .

### « المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أو وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها - أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضيها وشيكا ، تحذيرا من الاغترار بزهرتها والركون إلى لذتها ، فمثل حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا منكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه ! ثم أردف ذلك ببيان أنه لا ينتفع بمواظعة إلا من شرح الله صدره ونور قلبه وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن من يتقى يديه المخاوف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لا يفكر فى مآل أمره وعاقبة عمله ، وبعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم ، فأتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والقتل والخسف ولعذاب الآخرة أشد نكالاً ووبالا .

### « التفسير »

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ، إن فى ذلك للذكرى لأولى الأبواب ﴾ يخبر سبحانه أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال سبحانه : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض ﴾ <sup>(١)</sup> وهنا

يقول جلّت قدرته : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ أى : يصرفه سبحانه في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوننا ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها . وقوله تعالى : ﴿ ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه أى : أشكاله وطعمومه وروائحهم ومنافعهم ﴿ ثم يبيح ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أى : ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء . والشاب يعود شيخاً هرمًا كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك كله الموت .

و نحن في غفلة عما يداوينا	الموت في كل جبين ينشر الكفنا
وإن توشحت من أثوابها الحسنات	لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها
أين الذين هموا كانوا لنا سكناً	أين الأجنة والجيران ما فعلوا
فصيرهم لأطباق الثرى رهناً	سقاهم الموت كأساً غير صافية
سحابة صيف عن قريب تقشع	فإن كانت الدنيا تحب فإنها
فما فاته منها فليس بضائر	إذا أبقت الدنيا على المرء دينه
ولا وزن زف من جناح لطائر	فلن تعدل الدنيا جناح بعوضة

فالسعيد من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وآثر ما يبقى على ما يفنى ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد عن الحق كقوله عز وجل : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ <sup>(١)</sup> ولهذا قال تعالى : ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة لا خير فيها .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ — ( لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى ) <sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ أى : أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم في غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء في تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٢

(٢) سنن الترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء في حفظ اللسان ٤ / ٦٠٧ رقم ٢٤١١ وقال : حديث حسن غريب .



قال الأمام ابن القيم في كتابه ( زاد المعاد ) :

( فصل في أسباب شرح الصدر وحصولها على الكمال له — ﷺ — ) فأعظم أسباب شرح الصدر التوحيد على حسب كماله وقوته وزيادته يكون بإنشراح صدر صاحبه قال الله تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ وقال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ﴾ <sup>(١)</sup> فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وانحرافه .

ومنها النور الذي يقذفه الله في قلب العبد ، وهو نور الإيمان فإنه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب ، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحر ج وضار في أضيق سجن وأصعبه .

وقد روى الحاكم في المستدرک عن النبي — ﷺ — أنه قال : ( إذا دخل النور القلب انفسح ، قالوا وما علامة ذلك يارسول الله قال الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله ) <sup>(٢)</sup> فنصيب العبد من أنشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور الحسى ، والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر ، وهذه تضيقه .

ومنها العلم فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق والحصص والحسب ، فكلما اتسع علم العبد أنشراح صدره واتسع وليس هذا لكل علم بل العلم المورث عن الرسول — ﷺ — وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا ، وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا ، ومنها الانابة إلى الله — سبحانه وتعالى — ومحبة بكل القلب ، والتنعيم بعبادته فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك حتى أنه ليقول أحيانا : إني إذا كنت في الجنة في مثل هذه الحالة فأني إذا في عيش طيب ، وللمحبة تأثير عجيب في إنشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب لا يعرفه إلا من أحس به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية الباطلين الفارغين من هذا الشأن فرؤيتهم قذى عينة ومخالطتهم حمى روحه . ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى وتعلق القلب بغيره والغفلة عن ذكره ومحبة سواه ، فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ، وسجن قلبه في محبة ذلك الغير فما في الأرض أشقى منه ، ولا أكثف بالآ ، ولا أنكس عيشا ولا أتعب قلبا ، فهما محبتان ، محبة هي جنة الدنيا وسرور النفس ولذه القلب ونعيم الروح وغداؤها ودأؤها بل حياتها وقره عينها وهي محبة الله وحده بكل القلب وانجذاب قوى الميل والإرادة والمحبة كلها إليه ، ومحبة هي عذاب الروح رغم النفس وسجن القلب ، وضيق الصدر وهي سبب الألم والنكد والعناء وهي محبة ما سواه سبحانه .

ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفي كل موطن فللذكر تأثير عجيب في انشراح .

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٢) الحاكم في المستدرک — كتاب الرقاق ٤ / ٣١١

الصدر ونعيم القلب وللغفلة تأثير عجيب في ضيقه وحبسه وعذابه .

ومنها الاحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الاحسان ، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا وأطيبهم نفسا وأنعمهم قلبا ، والبخيل الذي ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرا ، وأنكدهم عيشا وأعظمهم هما وغما وقد ضرب رسول الله ﷺ — مثلا للبخيل والمتصدق كمثلي رجلين عليهما جنتان من حديد كلما هم المتصدق بصدقه اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفى أثره ، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه ، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه .

ومنها الشجاعة فإن الشجاع منشراح الصدر ، واسع البطن متسع القلب ، والجبان أضيق الناس صدرا وأحصرهم قلبا لا فرحه له ولا سرور ولا لذه له ولا نعيم الا من جنس ما للحيوان البهيمة ، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرم على كل جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل معرض عن الله — سبحانه — غافل عن ذكره جاهل به وبأسماؤه — تعالى — وصفاته ودينه متعلق القلب بغيره وأن هذا النعيم والسرور يصير في القبر رياضا وجنة وذلك الضيق والحصر ينقلب في القبر عذابا وسجنا فحال العبد في القبر كحال القلب في الصدر نعيما وعذابا وسجنا وإطلاقا ولا عبء بانشراح صدر هذا العارض ولا يضيق صدر هذا العارض فإن العوارض تزول بزوال أسبابها وإنما المعلوم على الصفة التي قامت بالقلب توجب أنشراحه وحبسه فهي الميزان والله المستعان .

ومنها بل من أعظمها إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التي توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البر فإن الانسان إذا أتى الأسباب التي تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من أنشراح صدره بطائل ، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه وهو للمادة الغالبة عليه منها ، ومنها ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما وهوما في القلب تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب في كل آفة من هذه الآفات بسهم ، وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب في كل خصله من تلك الخصال المحمودة بسهم وكانت همته دائرة عليها حائمة حولها فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ <sup>(١)</sup> ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> وبينهما مراتب متفاوتة لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى . والمقصود أن رسول الله ﷺ — أكمل الخلق في كل صفة يحصل بها أنشراح الصدر واتساع القلب وقرة العين وحياة الروح فهو أكمل الخلق في هذا الشرح والحياة وقرة العين مع ما خص به من الشرح الحسى وأكمل الخلق متابعة له أكملهم أنشراحا

(١) سورة الأنفطار الآية : ١٣

(٢) سورة الانفطار الآية : ١٤

ولذة وقوة عين على حسب متابعتة ينال العبد من أنشراح صدره وقوة عينه ولذة روحه ما ينال . فهو في ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من أتباعه والله المستعان وهكذا فمستقل ومستكثر فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ الله الذي نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية :

هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن الكريم العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴾ قال قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف ، وقال الضحاك : مثاني ترديد القول ليفهموا عن ربهم - تبارك وتعالى - وقال عكرمة والحسن : ثنى الله فيه القضاء . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما ﴿ مثاني ﴾ قال القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه على بعض .

وقال بعض العلماء : ويروى عن سفيان بن عيينه : معنى قوله تعالى : ﴿ متشابها مثاني ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابهة ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا من المثاني كقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله تعالى - عز وجل - ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ إلى أن قال : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ إلى أن قال : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثاني أى : في معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضا فهو المتشابهة ، وليس هذا من المتشابهة المذكور في قوله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ﴾ <sup>(٣)</sup> ذاك معنى آخر . وقوله تعالى : ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أى : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز ، الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف ، والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ <sup>(٤)</sup> فهم يخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه ( أحدها ) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الآيات من أصوات

(١) سورة الانقطار الآيات : ١٣ - ١٤

(٢) سورة المطففين الآيات : ٧ - ١٨

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧

(٤) سورة الرعد الآية : ٢٨

القينات ( الثاني ) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ <sup>(٢)</sup> أى : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجلون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم . ( الثالث ) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة - رضى الله عنهم - عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله - ﷺ - تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة .

قال عبد الرزاق : حدثنا معمر قال تلا قتادة - رحمه الله - ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله : عز وجل - بأن تقشعر جلودهم وتبكي وأعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا في أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدى : ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ أى : إلى وعد الله ، وقوله : ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ أى : هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله لذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الحزى في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ أى : فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد ، وخير مخوف كمن هو آمن من العذاب ؟ كما قال عز وجل : ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال - جلا وعلا - ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سفر ﴾ <sup>(٤)</sup> قال المفسرون : الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان في شيء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه ، وأيدى الكفار مغולה يوم القيامة فإذا ألقوا في النار لم يجدوا شيئا يتقونها به إلا وجوههم .

(١) سورة الأنفال الآيات : ٢ - ٤

(٢) سورة الفرقان الآية : ٧٣

(٣) سورة فصلت الآية : ٤٠

(٤) سورة القمر الآية : ٤٨

وقوله جلت عظمته : ﴿ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ أى : وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي - ذوقوا وبال ما كسبتم في الدنيا ، ودستم به أنفسكم حتى أوقعتموها في الهاوية النار الحامية .

ثم ذكر سبحانه ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الآخروى فقال تعالى : ﴿ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ فَاذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ، لَوْ كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إن بعض الأمم الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فلحقها الذل والصغار في الحياة الدنيا ، وأن عذاب الآخرة لأنكى عاقبة وأشد أثرا لو علموا ذلك واعتبروا به . كقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلِلْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَابْقَى ﴾ (١) .

« الأمثال في القرآن »

قال تعالى :

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

« تفسير المفردات »

﴿ يتذكرون ﴾ أى : يتعظون ، ﴿ غير ذى عوج ﴾ أى : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ﴿ ضرب المثل ﴾ تشبيه حال عجيبه بأخرى وجعلها مثالا لها ، ﴿ متشاكسون ﴾ أى : يختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة اخلاقهم ، ﴿ سلما لرجل ﴾ أى : خالصا لسيد واحد ، ﴿ تختصمون ﴾ تحكمون للقضاء .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا في الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم فأتاهم العذاب

من حيث لا يشعرون فأصيبوا في الدنيا بالذل والصغار والخسف والفرق ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ذكر سبحانه أن القرآن الكريم قد ضرب الأمثال للناس بلسان عربى مبين لعلهم يرفعون ويزدجرون تيسيرا مه سبحانه ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾<sup>(١)</sup> وضرب الأمثال للناس للعة والذكرى ثم أردف ذلك ذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ثم أعقبه بيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم وهناك يستبين الحق ، والضال والمهتدى فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم .

### « التفسير »

يقول تعالى : ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾<sup>(٢)</sup> أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال عز وجل : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾<sup>(٣)</sup> وقال عز وجل : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله جل وعلا : ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾ .

أى : هو قرآن بلسان عربى مبين لا أعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان كقوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويشير المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله تعالى : ﴿ لعلهم يتقون ﴾ كقوله جل في علاه : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾<sup>(٦)</sup> أى : لعلهم يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد .

قوله تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا ﴾ أى : ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم : ماذا تقولون في عبد مملوك قد أملكه شركاء ، بينهم اختلاف وتنازع ، فهم يتجاذبون في حاجاتهم وهو حائر في أمره إذا هو أراضى أحدهم أغضب الباقين ، وإذا احتاج في مهم رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو في عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته ، ويقضى له سائر حاجاته ، فأى العبدین أحسن حالا وأحمد شأنا ؟ - الجواب لا يحتاج إلى بيان - هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالا حائرا لا يدرى أى تلك الألهة يعبد ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ ومن يطلب رزقه ؟ ومن يلتمس رفده ؟ أما من لم يثبت إلا إنها واحدا

(١) سورة القمر الآية : ١٧

(٢) سورة الروم الآية : ٢٨

(٣) سورة الصنكوت الآية : ٤٣

(٤) سورة الحج الآية : ٧٣

(٥) سورة الكهف الآيتان : ١ - ٢

(٦) سورة طه الآية : ١١٣

## محتويات المجلد الخامس

### الجزء الحادى والعشرون

سورة العنكبوت ( ٥٠ - ٦٩ ) ، سورة الروم ( ١ - ٦٠ )

سورة لقمان ( ١ - ٣٤ ) ، سورة السجدة ( ١ - ٣٠ )

وسورة الأحزاب ( ١ - ٣٠ )

### \* سورة العنكبوت

#### الصفحة

٣٨١٢	.....	ذكر بعض الشبه والرد عليها	الآيات ٥٠ - ٥٥
٣٨١٧	.....	من سورة العنكبوت	الآيات ٥٦ - ٦٤
٣٨٣١	.....	بيان حال الكفار في الشدة والرخاء	الآيات ٦٥ - ٦٩

### \* سورة الروم

٣٨٤٣	.....	مقدمة سورة الروم	
٣٨٤٥	.....	أول سورة الروم	الآيات ١ - ٧
٣٨٤٩	.....	لفت أنظار المشركين وتهديد لهم	الآيات ٨ - ١٦
٣٩٠٦	.....	أوقات التسييح والعبادة	الآيات ١٧ - ١٩
٣٩١٣	.....	بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته	الآيات ٢٠ - ٢٧
٣٩٢٦	.....	مثل فى التوحيد	الآيات ٢٨ - ٢٩
٣٩٢٨	.....	الإسلام دين الفطرة	الآيات ٣٠ - ٣٢
٣٩٣١	.....	بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم	الآيات ٣٣ - ٣٩
٣٩٣٥	.....	من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال	الآيات ٤٠ - ٤٥
٣٩٣٩	.....	من آياته فى الرياح والمطر	الآيات ٤٦ - ٥٣
٣٩٥٠	.....	الآيات التى فى الإنسان وختام السورة	الآيات ٥٤ - ٦٠

### \* سورة لقمان

٣٩٥٤	.....	مقدمة السورة	
٣٩٥٧	.....	أول سورة لقمان	الآيات ١ - ٥
٣٩٦٢	.....	الكافرون بالقرآن والمؤمنون به	الآيات ٦ - ٩
٣٩٦٥	.....	هذا خلق الله	الآيات ١٠ - ١١
٣٩٧١	.....	وصية لقمان	الآيات ١٢ - ١٩
٤٠١٨	.....	نعم الله وآياته	الآيات ٢٠ - ٣٢
٤٠٤٢	.....	ختام السورة	الآيات ٣٣ - ٣٤

### \* سورة السجدة

٤٠٥٠	.....	مقدمة السورة	
٤٠٥٢	.....	أول سورة السجدة	الآيات ١ - ٩
٤٠٦٥	.....	إنكارهم للبعث	الآيات ١٠ - ١٤
٤٠٦٧	.....	المؤمنون وجزاؤهم	الآيات ١٥ - ٢٢
٤٠٧٤	.....	مواعظ وعبر	الآيات ٢٣ - ٣٠

## \* سورة الأحزاب

### الصفحة

٤٠٧٦	.....	مقدمة السورة	
٤٠٧٨	.....	أول السورة	٨ - ١ الآيات
٤٠٨٩	.....	غزوة الأحزاب وبنى قريظة	٢٧ - ٩ الآيات
٤١٢٩	.....	قصة التخيير	٣٠ - ٢٨ الآيات

## الجزء الثاني والعشرون

سورة الأحزاب (٣١ - ٧٣) ، سورة سبأ (١ - ٥٤) ،

سورة فاطر (١ - ٤٥) ، وسورة يس (١ - ٨٣)

٤١٨٤	.....	توجيهات وآداب ربانية	٣٥ - ٣١ الآيات
٤١٩٤	.....	قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة	٤٠ - ٣٦ الآيات
٤٢٠٨	.....	الأمر بذكر الله وفوائده	٤٨ - ٤١ الآيات
٤٢٥٢	.....	لا عدة للمطلقة قبل الدخول بها	٤٩ الآيات
٤٢٥٩	.....	أحكام زواج النبی صلى الله عليه وسلم	٥٢ - ٥٠ الآيات
٤٢٦٨	.....	آداب الاستئذان والوليمة والحجاب	٥٤ - ٥٣ الآيات
٤٢٧٨	.....	من سورة الأحزاب	٥٥ الآيات
٤٢٧٨	.....	الصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم	٥٨ - ٥٦ الآيات
٤٢٨٨	.....	حجاب المرأة المسلمة	٥٩ الآيات
٤٢٩٨	.....	جزاء المنافقين وأحكام أخرى	٧٣ - ٦٠ الآيات

## \* سورة سبأ

٤٣٠٧	.....	مقدمة السورة	
٤٣٠٨	.....	أول سورة سبأ	٩ - ١ الآيات
٤٣٥٥	.....	فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام	١٤ - ١٠ الآيات
٤٣٧٢	.....	قصة سبأ	٢١ - ١٥ الآيات
٤٣٩٧	.....	مناقشة المشركين وإفحامهم	٣٠ - ٢٢ الآيات
٤٤٢٢	.....	الظالمون في ساحة الحساب	٣٣ - ٣١ الآيات
٤٤٢٤	.....	الرد على أهل الباطل	٣٩ - ٣٥ الآيات
٤٤٢٨	.....	بعض مواقف الكفار في الدنيا والآخرة	٥٤ - ٤٠ الآيات



## \* سورة فاطر

الصفحة

٤٤٣٦	- مقدمة السورة	
٤٤٣٨	- أول سورة فاطر	الآيات ٨ - ١
٤٤٧٨	- من سورة فاطر	الآيات ١٤ - ٩
٤٤٨٧	- الله هو الغنى الحميد	الآيات ٢٦ - ١٥
٤٥٠٨	- من دلائل التوحيد	الآيات ٣٠ - ٢٧
٤٥٤٤	- وعد ووعيد	الآيات ٣٨ - ٣١
٤٥٥٤	- مواقف وعبر	الآيات ٤٥ - ٣٩

## \* سورة يس

٤٥٦٢	- مقدمة السورة	
٤٥٦٣	- أول سورة يس	الآيات ١٢ - ١
٤٥٦٨	- أصحاب القرية مع رسلهم	الآيات ٢٧ - ١٣

## الجزء الثالث والعشرون

سورة يس (٢٨ - ٨٣) ، سورة الصافات (١ - ١٨٢) ،  
سورة ص (١ - ٨٨) ، سورة الزمر (١ - ٣١)

٤٥٧٥	- من سورة يس	الآيات ٣٢ - ٢٨
٤٥٧٧	- من دلائل التوحيد والقدرة	الآيات ٤٤ - ٣٣
٤٥٩٤	- من مواقفهم العنادية	الآيات ٥٨ - ٤٥
٤٦٠٤	- الوعيد	الآيات ٧٦ - ٥٩
٤٦٢٩	- البعث حق	الآيات ٨٣ - ٧٧

## \* سورة الصافات

٤٦٤٥	- مقدمة السورة	
٤٦٤٨	- من أول سورة الصافات	الآيات ٤٠ - ١
٤٦٦٠	- مع أصحاب الجنة	الآيات ٧٤ - ٤٠
٤٦٧٦	- قصة نوح عليه السلام	الآيات ٨٢ - ٧٥
٤٧٠٢	- قصة إبراهيم خليل الرحمن	الآيات ٨٣ - ١١٣
٤٧٥١	- قصص موسى وهارون عليهما السلام	الآيات ١٢٢ - ١١٤
٤٧٥٢	- قصص إلياس عليه السلام	الآيات ١٣٢ - ١٢٣
٤٧٥٤	- قصص لوط عليه السلام	الآيات ١٣٨ - ١٣٣
٤٧٦٢	- قصص يونس عليه السلام	الآيات ١٤٨ - ١٣٩
٤٧٦٩	- افتراء على الله	الآيات ١٨٢ - ١٤٩

٤٧٧٥	..... مقدمة السورة	
٤٧٧٧	..... أول السورة	الآيات ١ - ١٦
٤٧٨٣	..... قصص داود عليه السلام	الآيات ١٧ - ٢٩
٤٨٠٢	..... قصص سليمان عليه السلام	الآيات ٣٠ - ٤٠
٤٨١٧	..... قصص أيوب عليه السلام	الآيات ٤١ - ٤٤
٤٨٣٤	..... نور الوعد	الآيات ٤٥ - ٥٤
٤٨٤٠	..... نار الوعيد	الآيات ٥٥ - ٧٠
٤٨٤٥	..... قصص آدم عليه السلام	الآيات ٧١ - ٨٨

## \* سورة الزمر

٤٨٨٨	..... مقدمة السورة	
٤٨٩٠	..... أول سورة الزمر	الآيات ١ - ٤
٤٨٩٥	..... من الآيات الدالة على وحدانية الله	الآيات ٥ - ٦
٤٩٠٤	..... وعيد وتهديد	الآيات ٧ - ٨
٤٩٠٧	..... الوعد الحق	الآيات ٩ - ٢٠
٤٩١٨	..... من دلائل التوحيد	الآيات ٢١ - ٢٦
٤٩٢٥	..... الأمثال في القرآن	الآيات ٢٧ - ٣١

انتهى المجلد الخامس ويليه المجلد السادس  
بإذن الله تعالى

فهو قائم بما كلفه ، عارف ما يرضيه وما يسخطه - لا شك أن البون بين حالهما شاسع . وقوله تعالى : ﴿ هل يستويان مثلا ﴾ أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ؟

﴿ الحمد لله ﴾ أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن لا إله إلا هو .. ثبت أن الحمد لله لا لغيره .

﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى : بل أكثر الناس لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره فيشركون به سواه . وكقوله تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ (١) الله خيرا . ولما لم يلتفت المشركون إلى الحق ، ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخير سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز الحق من المبطل فقال سبحانه .

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ أى : أنك ستموت وهم سيموتون ، ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتاج أنت عليهم بأهلك قد بلغت فكذبوا ، ويعتدرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقريرا ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضللتونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآبأنا الأولون . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ﴾ يقول يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدى الضال ، والضعيف المستكبر . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾ (٣) .

### « الأمثال القرآنية »

دراسة تحليلية :

قال الدكتور محمد بكر اسماعيل فى كتابه الأمثال القرآنية دراسة تحليلية ما نصه :

( مفهوم المثل فى أصل اللغة ، ومفهومة فى القرآن الكريم : قال ابن فارس ( الميم ، والتاء ، واللام ، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء ، وهذا مثل هذا أى نظيره .

والمثل والمثال فى معنى واحد ، وربما قالوا مثيل كشيء .

قال الفيروز أبادى فى البصائر ( المثل ، والمثل ، والمثيل كالشبه ، والشبه والسببه لفظا ومعنى والجمع أمثال .

(١) سورة النحل الآية : ٥٩

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٠

(٣) سورة النساء الآيتان : ٤١ - ٤٢

وقد يستعمل المثل - بكسر الميم - عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني ، أى معنى كان .

وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشاركه في الجوهرية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه في الكيفية فقط ، والمادى يقال فيما يشاركه في الكمية فقط ، والمثل عام في جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال تعالى : ﴿ لَبَسَ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

أى ليس مثل صفته شيء من أوصاف الخلق ، فالكاف بمعنى مثل ، والمثل بمعنى الصفة ، وفي الآية تأويلات أخرى أهمها هذا التأويل والله أعلم .

والمثل - بفتح الميم والتاء - يستعمل غالبا في الأمور المعنوية ، لهذا قال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ( النحل ٦٠ ) .

وقال جل شأنه : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ( الروم ٢٧ ) .

هذا وقد فرق الامام الفخر الرازى - من جهة أخرى - بين المثل والمثل فقال ( المثل بالكسر هو الذى يكون مساويا للشيء في تمام الماهية ، والمثل بالفتح هو الذى يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية .

( وقيل المكسور بمعنى شبه ، والمفتوح بمعنى الوصف ) .

وابن منظور في لسان العرب لا يفرق بين المثل بالكسر ، والمثل بالفتح بل يجعلهما بمعنى واحد فيقول ( مثل كلمة تسوية ) يقال هذا مثله ، ومثله كما يقال : شبهه وشبهة بمعنى ) .

قال الراغب في مفرداته : ( أصل المثل : الانتصاب والمثل المصور على مقال غيره ، يقال : مثل الشيء أى أنتصب وتصور ومنه قوله - ﷺ - ( من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار ) (١) )  
والمثال الشيء المصور ، وتمثل كذا تصور ، قال تعالى ﴿ فتمثل لها بشرا سويا ﴾ ( مريم ١٧ ) .

والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابة لبيان أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم : الصيف ضيعت اللبن فإن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الا مكان أملك وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال : ﴿ وتلك الأمثال نضربها ﴾ وفي أخرى : ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

والمثال مقابلة شيء بشيء هو نظيره ، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل .

والمثله : نعمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره وذلك كالنكال ، وجمعه : مثالات . قال

(١) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب الرجل يقول : فلان يقرئك السلام / ٣٩٧ رقم ٥٢٢٩ .

وسنن الترمذى - كتاب الأدب - باب كرامة قيام للرجل / ٩ رقم ٢٧٥٥ وقال : حديث حسن .

تعالى : فى سورة الرعد : ﴿ وقد خلّت من قبلهم المثلثات ﴾ <sup>(١)</sup> .

قال : وقد أمثل السلطات فلانا إذا نكل به ، والأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفضل ، والأقرب للخير ، وأمائل القوم كناية عن خيارهم . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
وقال ﴿ ويذهب بطريقكم المثل ﴾ ( طه ٦٣ ) أى : الأشبه بالفضيلة وهى تأنيث الأمثل . أ هـ .  
هذا ويأتى لفظ المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ ( الرعد ٣٥ ) .  
ويأتى بمعنى الحال كقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ﴾ <sup>(٣)</sup> والفرق بين الحال والصفة أن الأول متغير ، والثانى ثابت أو شبه ثابت ، ويأتى لفظ المثل بمعنى القصة والحكاية .

وقال صاحب المصباح المنير : والمثل يستعمل على ثلاثة أوجه :  
الأول : بمعنى الشبيه .

الثانى : بمعنى نفس الشئ وذاته .

الثالث : يكون زائد المعنى بلاغى .

ويوصف به المذكر والمؤنث ، والجمع . فيقال : هو ، وهى ، وهما وهم ، وهن مثله . وفى التنزيل :  
﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ ( المؤمنون ٤٧ ) .

ومثال استعماله زائدا قولهم : ( مثلك لا يعرف كذا ) أى : أنت لا تعرف كذا ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ ( الأنعام ١٢٢ ) أى كمن هو فى الظلمات وقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾ أى : فإن آمنوا بما آمنتم به .

قال ابن جنى فى الخصائص : قولهم ( مثلك ) لا يفعل كذا قالوا مثل زائدة ، والمعنى أنت لا تفعل كذا قال : وإن كان المعنى كذلك إلا أنه على غير هذا التأويل الذى رأوه من زيادة ( مثل ) وإنما تأويله : أنت من جماعة شأنهم كذا ، ليكون أثبت للأمر إذا كان له فيه أشباه وأضراب ، ولو انفرد هو به لكان انتقاله عنه غير مأمون وإذا كان له فيه أشباه كان أحرى بالثبوت والدوام وعليه قوله : ومثلى لا تنبو عليك مضاربه . أ هـ .

هذا وقد يطلق المثل فى اللغة على معان أخر غير التى ذكرناها ، فقد – سمي الفراش مثالا ، والقصاص مثالا ، والحجة مثالا ، كما جاء فى بعض المعاجم كلسان العرب ومقاييس اللغة .

ويأتى المثل بمعنى المقدار ، ويكون بمعنى العبرة .

(١) سورة الرعد الآية : ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٤

(٣) سورة البقرة الآية : ١٧

ومنه قوله عز وجل : ﴿ فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ ( الزخرف ٥٦ ) . ويكون المثل بمعنى الآية .

قال الله - عز وجل - في صفة عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - ﴿ وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ أى آية تدل على نبوته . ( الزخرف ٥٩ ) وجميع المعاني التي ذكرناها للمثل تصاريفه المختلفة ترد إلى معنى المشابهة على نحو ما .

وضرب المثل في الكلام أن يذكر حال ما يناسبها فيظهر من حسنها ، أو قبحها ما كان خفيا ، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم ، وهو إحداث أثر خاص فيها ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، ولا يظهر التأثير في النفس بتحقيق شيء وتقيحه الا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيقه ونفور النفوس منه ( تفسير المراغي ج ١ ص ٧٠ ط الحلبي ) .

وقد يكون ضرب المثل مشتقا من قولك : ( ضرب في الأرض ) أى : سار فيها ، فمعنى ضرب المثل جعله ينتشر وينبع ويسير في البلاد . وإلى هذا ما ذهب إليه أبو هلال في مقدمة كتابه .

وقد يكون معنى ( ضرب المثل ) نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة . واشتقاقه حينئذ من قولهم : ( ضربت الخباء ) إذا نصبته وأثبت طنبه .

فمثلا قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ ( الرعد ١٧ ) .

معناه : ينصب منارهما ويوضح أعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصده . ويعرفوا الباطل فيجتنبوه ، كمال قال الشريف الرضي في كتابه ( تلخيص البيان في مجازات القرآن ) .

وقد يكون معنى الضرب : إبقاء شيء على شيء ، فكأن المثل مطابق للحالة أى للصفة التي جاء لايضاحتها .

وأما المثل عند علماء البيان فمفهومه أخص من مفهومه في أصل اللغة فهو عندهم : استعارة تمثيلية شاع استعمالها مذكرا أو مؤثرا من غير تغيير في العبارة الواردة .

فإذا فشت الاستعارة التمثيلية ، وشاع استعمالها وظلت باقية على هيئتها ، واستساغها العقلاء لما فيها من دقة التصوير ، أضحت مثلا يضرب .

كقوله : الصيف ضيعت اللبن بكسر تاء الفاعل فقد ورد في امرأة فرطت في أمر ، ثم طلبته بعد فوات فرصته ، ثم شاع استعماله وذاع ، حتى صار مثلا لكل من طلب أمرا ، بعد التفريط فيه ، وبعد فوات الأوان .

وكقولهم : ( تأتى الرياح بما لا تشتهي السفن ) لمن يعرض له أمر لا يشتهي ، تشبيها له برنان السفينة ترجيحها الرياح إلى غير الوجهة التي يريدتها .

وهكذا يقال في جميع الأمثال السائرة نثرا ونظما .

والاستعارة التمثيلية : هى اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة ما من إرادة المعنى الأصل . ( وتشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من عدة أمور اثنين فما فوق - حسيا كان ذلك الوجه أو غير حسى ) .

وإذا أطلق لفظ التمثيل انصرف إلى الاستعارة التمثيلية فإذا أريد التشبيه ذو الوجه المركب قيل تشبيه التمثيل ، أو تشبيه تمثيلي .

قال الجرجاني : التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

هذا هو مفهوم المثل عند علماء البلاغة ، وهو موافق للمفهوم اللغوى في أكثر استعمالاته ، بل هو المعول عليه في مفهوم اللفظ عندهم .

فإن قيل : ( محمد مثل الأسد ) فمعناه أنه يشبهه في صفة من صفاته وهى الشجاعة ، ولكن لا يكون هذا التشبيه تمثيلا إلا إذا كان هيئة مركبة منتزعة من عدة أوصاف ، أو أحوال يحتاج الذهن في إدراكها ، ومنهم جوانبها المختلفة ، وتذوق بلاغتها إلى تأمل وأنعام نظر .

فالتشبيه الذى يعد من قبيل المثل ، أو يقال إنه تشبيه تمثيل هو مالا يقدر على صياغته إلا البليغ . ولهذا وجدنا الجرجاني قسم التشبيه في كتابه ( أسرار البلاغة ) إلى نوعين فيقول :

اعلم أن الشئيين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدهما : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل .

والآخر : أن يكون المشبه محصلا بضرب من التأول والمراد بالتأول إرجاع وجه الشبه إلى معنى يكون متحققا في الطرفين بوجه من التلطف والحيلة والدكاء .

وأكثر أمثال القرآن الكريم نجد وجه الشبه فيها منتزعا من هيئة مركبة فيها الصوت واللون والحركة ويحتاج البليغ في إدراكه إلى إعمال فكر وإمعان نظر فإذا استطاع أن يدرك وجه الشبه بين الطرفين نوع إدراك ملك عليه التمثيل مشاعره ، وبهره ما فيه من جمال التعبير ، ودقة التصوير ، وروعة البيان .

والحق عندى أن المثل في اللغة أعم مما ذكره علماء البيان فليس هو محصورا في الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيل ، والكناية ، وإنما هو قول محكى بليغ يصور المعنى المراد تصويرا دقيقا ، لا يتأتى في غيره من الأساليب .

وما سمي المثل مثلا إلا أنه مائل في الذهن ، منطبع في الخيال .

قال الآلوسى في تفسيره : ( والأمثال تضرب للكشف والبيان والمثل - بفتحتين - كالمثل بكسر فسكون - والمثيل في الأصل النظر والشبيه ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن ، المشتمل أما على تشبيه بلا تشبيه أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها . أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة ، أو نظم من جوامع

الكلم الموجز ولا يشترط فيه أن يكون استعارة مركبة خلافا لمن وهم ، بل لا يشترط أن يكون مجازا إلى آخر ما قال ( أ . هـ .

ولهذا نستطيع أن نقرر أن أصدق تعريف للمثل وأشمّل أن يقال هو ( إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالا ، وتجعله أكثر إمتاعا للعقل وإمتاعا للأذن . بغض النظر عن مضربه ومورده بل لا يشترط أن يكون له مورد ، وإنما يجرى مجرى الحكم التي يتناقلها الناس فيما بينهم على سبيل الاحتجاج أو النصح ، أو الاتعاظ ، أو التفكه والتندر وما إلى ذلك من أغراض المثل التي سيأتى ذكرها .

وبهذا التعريف تدخل أمثال القرآن الكريم فهى تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء ورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه ، أم بطريق الكناية فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها ما يذكر فى كتب الأدب من تشبيه المضرب بالمورد ولا يشترط أن يكون فيه غرابة أو طرافة ولكنها صور مختلفة لمعانى ترد للعبرة والاتعاظ ، وتقريب ما يستعصى على العقول فهمه من الأمور الغيبية ، كصفة الجنة ، وكيفية زوال الدنيا ، وغير ذلك ، سواء صرح فيه بلفظ المثل أم لم يصرح به بأن أرسل إرسالاً فاتخذة الناس مثلاً يحتجون به ويعتبرون بما فيه . فالأمثال القرآنية مقاييس عقلية تخلو من التكلف والاعتاف ، وقواعد كلية للمبادئ الخلقية الصالحة لكل زمان ومكان .

والأصل فى المثل كما عرفنا أنه يقوم على تشبيه شىء بشىء لوجود عنصر تشابه بينهما أو أكثر .

وفى هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر لا يحصىها إلا الله تعالى : إن الملاحظة الذكية تستطيع أن تتصيد للشيء الواحد عدة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير .

ولا يشترط فى التشبيه أن يكون مطابقا من كل الوجوه ، بل يكفى فيه أن يلمح منه جانب فيه شبه ما صالح لتحقيق غرض من أغراض التشبيه أو التمثيل .

وامثال القرآن أسلوب يبانى يجمع فى طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة ، أو الأعمال المجربة ، أو الأمور التى لا تقع تحت الحس والادراك فى الدنيا والتى يترتب عليها أحكام شمولية ، ويبنى عليها صلاح أمر الناس فى الدنيا والآخرة وبهذا الإطلاق العام لمعنى المثل فى القرآن الكريم نفهم معنى قوله تعالى فى سورة الاسراء ( ٨٩ ) .

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ وقوله تعالى فى سورة الزمر ( ٢٧ )

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون ﴾ وقوله تعالى فى سورة الروم ( ٥٨ )

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جثتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ .



فهذا التعميم الموجود في هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكل نوع ليقاس عليها الأفراد المشابهة بغية الوصول إلى فهم أمور الدين والدنيا جميعا وما جاء في القرآن من بيان قصص الأولين ، وما جرى لهم من أحداث ، وما أجرى الله عليهم من عقاب أو ثواب يعد من قبيل الأمثال ، فالقصة مهما طالبت يصح أن نطلق عليها لفظ المثل لما فيها من العظات والعبر ، والمقاييس التي يعرف بها الخير والشر ، ويدرك بواسطتها ما هو طيب وما هو خبيث قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾ ( النور ٣٤ ) .

وقد سماها الله أمثالا ، لأنها نماذج من حكمته في إقامة عدله ، وقطع دابر الفساد المنتشر في الأرض . ولقد أشارت هذه الآية إلى ثلاثة أمور أنزلها الله تعالى لصالح أمر عباده في الدنيا والآخرة .  
الأول : آيات مبينات لقواعد العقيدة ، وأحكام الشريعة وبعض الحقائق الكونية .  
الثاني : قصص الذين خلوا من قبلنا ، وسماها الله مثالا ، لأن الغرض من ذكرها التنبيه على سنة الله وحكمته في مجازاة عباده . وأبان الله هذا المعنى بقوله في سورة الفتح : ( ٢٣ )

﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ويقول في سورة الأحزاب  
﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ( ٦٢ ) .

ونظير ذلك قول الله تعالى في سورة فاطر ( ٤٣ ، ٤٤ ) .

﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾ .

وقوله الله تعالى في سورة ( الأنفال ٣٨ ) .

﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ أى : فإنه يأتيهم ما أتى للأولين من عذاب وهلاك لأن ذلك من سنة الله في عباده فليقيسوا أحوالهم وأعمالهم على أحوال وأعمال من سبقوهم من الكافرين ، وليعلموا أن سنة الله لها صفة الثبات وأن عقاب الله سينزل بهم كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمروا على ما هم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحق .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى - في سورة ( غافر ) :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كان يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم

ما كانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ، ﴿ ( ٨٢ - ٨٥ .  
وقوله تعالى في سورة ( محمد ١٠ ) .

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ .

الأمر الثالث الذي تضمنته سورة ( النور ) في الآية : ٣٤ هي :  
المواعظ التي يرتقى بها المتقون إلى مراتب الأبرار والمقربين والمواعظ نوعان :  
منها ما كان من قبيل الأمثال وهي أبلغ في تقويم الأخلاق والسلوك ، وأعظم تأثيرا في تخليص القلوب من  
شوائب الشرك ونزعات الشيطان ، ونزوات الهوى .

ومنها ما هو من قبيل النصح المجرد عن المشابهة ، والمماثلة ، وهي ما يسمى بالوعظ المباشر .  
كما في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ( ١٩٩ - الأعراف )

### « أنواع المثل في القرآن الكريم »

يرى بعض الباحثين أن الأمثال القرآنية تنقسم من حيث هي إلى ثلاثة أقسام :  
الأول : الأمثال المصرحة أو القياسية .

وهي التي صرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ﴾ ( البقرة ١٧ ) .

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ ( الرعد ٣٥ ) .

﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾ ( النور ٣٥ )

﴿ والذين كفروا أعماهم كسراب بقيعة ﴾ ( النور ج ٣ )

﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ ( النور ٤٠ ) .

والثاني - ما يسمى بالأمثلة المرسلة ، وهي جمل قد أرسلت لإرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثير  
التمثيل بها لما فيها من العظة والعبرة والافتاع .

وقد اكتسبت صفة المغلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها في المسلمين ، ولم تكن في وقت نزوله ، وهي  
في جملتها مبادئ خلقية ودينية مركزة مثل قوله تعالى :

﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ( آل عمران ٩٢ ) .

﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ ( النجم ٥٨ ) .

- ﴿الآن حصحص الحق﴾ (يوسف ٥١) .
- ﴿وضرب لنا مثلا ونسي خلقه﴾ (يس ٧٨) .
- ﴿قضى الأمر الذى فيه تستفتيان﴾ (يوسف ٤١) .
- ﴿أليس الصبح بقريب﴾ (هود ٨١) .
- ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ (سبا ٥٤) .
- ﴿لكل نبا مستقر﴾ (الانعام ٦١) .
- ﴿ولا يحق المكر السىء إلا بأهله﴾ (فاطر ٤٣) .
- ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ (الاسراء ٨٤) .
- ﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم﴾ (البقرة ٢١٦) .
- ﴿كل نفس بما كسبت وهينة﴾ (المدثر ٣٨) .
- ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ (المائدة ٩١) .
- ﴿ما على المحسنين من سيل﴾ (التوبة ٩١) .
- ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن ٦٠) .
- ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة﴾ (البقرة ٢٤٩) .
- ﴿الآن وقد عصيت قبل﴾ (يونس ٩١) .
- ﴿تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾ (الحشر ١٤) .
- ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ (فاطر ١٤) .
- ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾ (الروم ٣٢) .
- ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ (سبا ١٣) .
- ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾ (سبا ٢٣) .
- ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ (البقرة ٢٨٦) .
- ﴿قل لا يستوى الخبيث والطيب﴾ (المائدة ١٠٠) .
- ﴿ظهر الفساد فى البر والبحر﴾ (الروم ٤١) .
- ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ (الحج ٧٣) .
- ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ (الصافات ٦١) .
- ﴿وقليل ما هم﴾ (ص ٢٤) .
- ﴿فاعتبروا ياأولى الأبصار﴾ (الحشر ٢) .

الثالث : ما يسمى بالأمثال الكامنة ، وهى لم تضرب لبيان حال خاصة ، ولا لصفة معينة ، ولا لتخليص حادثة وقعت فى زمن من الأزمان ، ولم يصرح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد ، ولكن يدل

مضمونها على معنى يشبه مثلاً من أمثال العرب المعروفة أى أنها أمثال بمعانيها لا بألفاظها ، فالتشثيل فيها كامن غير ظاهر ، لهذا اسموها بالأمثال الكامنة .

قال الماوردى : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول : سمعت أبا يقول : سألت الحسين بن الفضل فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد في كتاب الله : ﴿ خير الأمور أوساطها ﴾ ؟ .

قال : نعم في أربعة مواضع : قوله تعالى :

- ١ - ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ ( البقرة ٦٨ ) .
  - ٢ - ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ ( الفرقان ٦٧ ) .
  - ٣ - ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾ ( الاسراء ٢٩ ) .
  - ٤ - ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾ ( الاسراء ١١٠ ) .
- قلت : فهل تجد في كتاب الله ، ( من جهل شيئا عاداه ) .
- قال : نعم ، في موضعين : قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ ( يونس ٣٩ ) .
- وقوله : ﴿ وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ ( الأحقاف ١١ ) .
- قلت : فهل تجد في كتاب الله ( احذر شر من أحسنت إليه ) .
- قال : نعم قوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ ( التوبة ٧٤ ) .
- قلت : فهل تجد في كتاب الله ( ليس الخبر كالبيان ) .
- قال : في قوله تعالى : ﴿ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ( البقرة ٢٦٠ ) .
- قلت : فهل تجد ( في الحركات البركات ) .
- قال : في قوله تعالى : ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ﴾ ( النساء ١٠٠ ) .

قلت : فهل تجد ( كما تدين تدان ) .

- قال : في قوله تعالى : ﴿ من يعمل سوءا يجزيه ﴾ ( النساء ١٢٣ ) .
- قلت : فهل تجد فيه قولهم : ( حين تقلى تدرى ) .
- قال : في قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ ( الفرقان ٤٢ ) .
- قلت : فهل تجد فيه ( لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين ) .
- قال : ﴿ هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل ﴾ ( يوسف ٦٤ ) .
- قلت : فهل تجد فيه ( من أعان ظالما سلط عليه ) .

قال : في قوله تعالى : ﴿ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾ ( الحج ٤ ) .

قلت : فهل تجدد فيه ( لا تلد الحية إلا حية ) .

قال : في قوله تعالى : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ ( نوح ٢٧ ) .

قلت : فهل تجدد فيه ( للشيطان آذان ) .

قال : في قوله تعالى : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ ( التوبة ٤٧ ) .

إلى غير ذلك مما نقله السيوطي في الاتقان ( الجزء الرابع ) .

وأرى أن النوع الثالث ليس داخلا في الأمثال على أى صورة من الصور ، لخلوه من وجه المشابهة بين الممثل والممثل له .

وهو مخالف في حقيقته المثل ومفهومه في اللغة ، وما ذكره السيوطي وغيره عن الحسين بن الفضل ضرب من تدريب القرينة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تمثل به العرب في عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التي أوجزت حادثة من الحوادث ، أو دلت على معنى من المعاني المعقولة .

## أحكام صادقة لا مرية فيها

قال تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾  
وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ  
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾  
وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۚ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَٰكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ  
هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرَّهُ ۚ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۚ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ  
الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَفْعَلُوا أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِ بِهِ عَذَابٌ  
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۚ فَمَنِ  
أَهْنَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّا نَجَا ۚ يُضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ  
حِينَ مَوْتِهَا ۖ وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فِيم\_Sكِ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ  
إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ آتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ  
قُلْ أُولَٰئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلِ اللَّهُ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ ۚ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

### معاني المفردات

(مثنوى) : مُقَاماً مَنْ ثَوَى بِالْمَكَانِ يَثْوَى ثَوًى وَثَوَاءً : إِذَا أَقَامَ بِهِ . (والذى جاء بالصدق) : هو الرسول ﷺ (وصديق به) : هم أتباعه . (أسوأ الذى عملوا) أى : ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، (ويجزئهم أجرهم) أى : يشيهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا (بكاف عبده) أى : يكفيه وعيد المشركين وكيدهم ، (الذين من دونه) : هم الأصنام . (ذى انتقام) أى : مما عاداه وعادى رسوله . (يحل عليه) : يجب عليه (يتوفى الأنفس) : يقبضها عن الأبدان . (لله الشفاعة جميعاً) : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه (اشمأزت) : نفرت وانقبضت عن التوحيد (فاطر) : مبدع : أى : خلقهما سبحانه على غير مثال سبق .

### المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن ذكر - سبحانه - فيما سلف بعض هنات المشركين ، وبعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم - أردف ذلك نوعاً آخر منها وهو أنهم يَكْذِبُونَ فيثبتون لله ولذا ويثبتون له شركاء . ويكذبون القائل المحق ، فيكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، وبعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ووعد المصدقين له فبشرهم بالجنة والرضوان والغفران هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا بالنصر فيكفيهم فى الدنيا ما أهمهم ، ولا يضيرهم ما يخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام ، فإن الأمور كلها بيده - تعالى - فمن يضلله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ، وهو ذو العزة المنتقم الجبار .

ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم : فحين تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ يقولون : الله : وهم مع ذلك يعبدون غيره ، ثم سألهم سؤال تعجيز : هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضراً أراده الله بأحد ، أو يمنع خيراً قدره الله لأحد ؟ إذاً فالله حسبى وعليه أتوكل .

ثم أمره - سبحانه - أن يقول لهم : اعملوا كما تشاءون وسوف تعلمون من يحل عليه عذاب مقيم يوم القيامة .

ثم أخبر - سبحانه - أنه أنزل علمه ، رسوله الكريم القرآن الكريم بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه ،

فمن امتدى فنفذ ذلك عائد إليه ومن ضل ضلاله عليه ، وما وُكل عليهم ليُجبرهم على الهدى .  
ثم ذكر أنه - تعالى - يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهراً وباطناً ، وظاهراً فقط حين النوم ، فيمسك الأولى ولا يردّها إلى البدن ، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة ، وفي ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر . ثم أبان - سبحانه - أن هذه الأصنام التي اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئاً ولا تعقل شيئاً ، فكيف تشفع ؟ وبعدئذ ذكر مقابحهم ومعائبهم وأنه إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة في وجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد .

وبعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد - أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه في أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم تسلياً له ، وبياناً لأن سعيه مشكور ، وتعليماً لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى . ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون ﴾ (١) .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون \* لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين \* ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول - عز وجل - مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً - تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ولهذا قال عز وجل : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفي الباطل ، كذب على الله وكذب رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق ، ولهذا قال جلّت عظمتهم متوعداً لهم : ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ وهم الجاحدون المكذبون ثم قال جل وعلا : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذي جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ وقال السدى : هو جبريل - عليه السلام - ( وصدق به ) يعنى محمداً ﷺ وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد : ( والذي جاء بالصدق وصدق به ) قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة



فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ( والذي جاء بالصدق ) هو رسول الله ﷺ ( وصدق به ) قال : المسلمون . وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : اتقوا الشرك . ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ يعنى : الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴿ كما قال - عز وجل - فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ (١) .

وفى ذكر تكفير الأسوأ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله ، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه .

قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون ﴾ من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ يعنى : أنه تعالى يكفى من عبده وتوكل عليه ، فهو وحده - سبحانه - الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصائب والويلات ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم : وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته - تعالى - على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لا يتيسر لأحد أن ينكرها ، فمن كان عبداً لله ، قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان ، قال تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ (٢) فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين ، فإنهم فى حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه .

وقوله تعالى : ( ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يعنى : المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً ، ولهذا قال - عز وجل - : ﴿ ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ ؟ أى : ومن يضلله الله لتدنيسه نفسه وجبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال . ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ أى : ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتركية نفسه وتحبيبها إلى العمل الصالح ، فلا مضل له يصرفه عن مقصده أو يصيبه سوء يغير سلوكه ، إذ لا أراد

(١) سورة الأحقاف آية : ١٦

(٢) سورة الحجر من الآية : ٤٧

وانظر الحلية ج ٣ ص ٢١٨ فقد ورد الحدث من رواية ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أى : على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ إني عامل ﴾ أى : على طريقتى ومنهجى ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى : ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿ من يأتي عذاب يخزيه ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أى : دائم مستمر لا محيد عنه ، وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ﴾ \* الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ يعنى : القرآن الكريم ﴿ للناس بالحق ﴾ أى : لجميع الخلق من الإنس والجن لتذرهم به ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أى : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أى : بموكل أن يهتدوا . كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون .

ذكر سبحانه بعد ذلك نوعاً من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال - جل فى علاه - : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ أى : هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء آجالها بالموت ، ويقطع تعلقها بالأجساد تعلق المتصرف فيه . ﴿ والتي لم تمت فى منامها ﴾ أى : ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الأجساد مع بقاء الأرواح متصلة بها ﴿ فيمسك التى قضى عليها الموت ﴾ أى : فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الأجساد ، ﴿ ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ أى : ويرسل النائمة إلى الأجساد حين اليقظة إلى أجل مسمى وهو وقت الموت . لذا كان الحبيب المصطفى ﷺ حينما يتيقظ من نومه يقول : « الحمد لله الذى رد على روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره » (٤) (رواه ابن السنى بإسناد صحيح عن أبى هريرة) .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره ( طرفه الذى يلي الجسد ويلي الجانب الأيمن ) فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » (٥) وهذا الحديث شرح للآية الكريمة ، والمؤمن فى تدبره للآية

(١) سورة يونس الآية : ١٠٨ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٤ . (٣) سورة الأسراء ، الآية : ١٠٥ .

(٤) انظر ابن السنى « باب ما يقول إذا استيقظ من منامه » ج ٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » ج ٨ ص ٨٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

والحديث معاً يشعر أن روحه في يد الله ، وأنه يستمد معيائه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين ، قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور ، فإن كان ذلك فهو يرجو الرحمة . وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا في ضمان الله وحفظه .

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيتك الذي أرسلت : فإن مت مت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول »<sup>(١)</sup> (رواه البخاري) ، وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى : إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها منها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم . ثم إرسالها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ \* وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ \* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ \* قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴾ \* وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ \* قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

يقول - تعالى - ذاماً للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان وهى لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به ، بل هى جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير ، ثم قال : قل ، أى : يا محمد لهؤلاء الزاعمين إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع ذلك ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أى : يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزى كلا بعمله . كقوله تعالى : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون ﴾ \* ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾<sup>(٤)</sup> . ثم قال - تعالى - ذاماً للمشركين أيضاً : ﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أى : إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ قال مجاهد : اشمأزت :

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب إذا بات طاهراً جـ ٨٤ - ٨٥ فقد ورد الحديث عن البراء بن عازب .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع جـ ٤ ص ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢ حديث رقم ٢٧١٠/٥٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن البراء بن عازب .

(٢) سورة الانعام الآيات : ٦٠ - ٦٢ (٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ (٤) سورة الزخرف الآيتان : ٨٥ - ٨٦ .

انقبضت ، وقال السدى : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> أى : عن المتابعة والانقياد فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل على الخير يقبل على الشر ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ . أى : من الأصنام والأنداد ﴿ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ أى : يفرحون ويسرون .

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ . أى : ادع - أنت يا محمد - الله وحده لا شريك له الذى خلق السموات والأرض وفطرهما أى : جعلها على غير مثال سابق ﴿ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أى : السر والعلانية ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : فى دنياهم ، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم .

قال مسلم فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يفتتح صلاته ؟ قالت - رضى الله عنها - : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »<sup>(٢)</sup> .

وقال الإمام أحمد بسنده : عن أبى عبد الرحمن قال : أخرج لنا عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قرطاساً وقال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شىء وإله كل شىء . أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثماً أو أجره إلى مسلم »<sup>(٣)</sup> قال أبو عبد الرحمن - رضى الله عنه - : كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن يقول ذلك حين يريد أن ينام . تفرد به أحمد .

## عاقبة الظالمين

قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ

(١) سورة الصافات الآية : ٣٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » ج ١ ص ٥٣٤ حديث ٧٧/٢٠٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الرحمن ابن عوف .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧١ فقد ورد الحديث فى رواية لعبد الله ابن عمرو .

الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَالٌ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ  
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ  
 عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ  
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ  
 سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ  
 إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

### معاني المفردات

(يحتسبون) : يظنونه ويتوقعونه ، (حاق بهم) : نزل أو أحاط بهم . (خولناه نعمة) : أعطيناه  
 إياها . (هي فتنة) : تلك النعمة امتحان وابتلاء . (بمعجزين) : بفائتين من العذاب بالهرب .  
 (يقدر) يضيقه على من يشاء بحكمته .

### المناسبة والمعنى الإجمالي

بعد ما ذكر - سبحانه - عن المشركين جبههم للشرك ونفرتهم من التوحيد وأمر رسوله بالالتجاء إليه  
 وحده وتفويض الأمر إليه فهو - سبحانه - الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون ، ذكر أحوال هؤلاء  
 المشركين يوم القيامة حين يرون الشدائد والأحوال وما ينتظرهم من العذاب ، ثم حكى عنهم أنهم حين  
 الوقوع في الضر من فقر ومرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا  
 نالهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة  
 أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون  
 وما هذه المقالة بيدع منهم ، بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر سبحانه أن بسط الرزق  
 وتقديره بيد الله يبسطه تارة ، ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإننا نرى  
 كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير للمال وحسن تصرفه في ضيق شديد ، وكثيرا من الجهلاء والحمقى في  
 بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ ﴾  
 يرم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون \* وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به  
 يستهزئون \*  
 أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار

فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعتك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدى بقراب الأرض ذهباً ؟ قال : فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : ( كذبت لقد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل ، فيؤمر به إلى النار )<sup>(١)</sup> .

فقوله - عز وجل - ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ﴾ أى : ولو أن جميع ما فى الأرض وضعفه معه لهم ﴿ لا فتدوا به من سوء العذاب ﴾ أى : الذى أوجهه الله تعالى عليهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ .. والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لا فتدوا به أولئك لهم سوء الحساب وماوهم جهنم وبئس المهاد ﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴿<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أى : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم . ﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أى : وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم . ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا كقوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين \* يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿<sup>(٥)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعائاً ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون \* فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين \* أو لم يعلموا أن الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

يقول - تبارك وتعالى - مخبراً عن الإنسان أنه فى حالة الضراء يتضرع إلى الله - عز وجل - وينيب إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ أى : لما يعلم الله تعالى من استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله خصيص لما خولنى هذا قال الله عز وجل : ﴿ بل هى فتنة ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى مع علمنا المتقدم بذلك فهى فتنة أى : اختبار ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أى : قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى : فما صح قولهم ولا نفعهم

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ فقد ورد الحديث من رواية أنس بلفظ « منزلك » بدلا من « مضجعتك » .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩١ .

(٣) سورة المائدة الآيات : ٣٦ - ٣٧ .

(٤) سورة العنكبوت الآيات : ٥٣ - ٥٥ .

(٥) سورة الرعد من الآية : ١٨ .

جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أى : من المخاطبين ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أى : كما أصاب أولئك ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ قال إنما أوتيته على علم عندى أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ فحسبنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴿<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ أولم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ ﴾ أى : أولم ير هؤلاء أن الله هو الذى ييسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى الكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال ، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة لذا يعطى الكافر ، كما يعطى المؤمن قال تعالى : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴿<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أى : إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقولون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله ولا سواه وأنه سبحانه يفعل ما يريد .

### رحمة وتوجيه

قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٦﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِغَتَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تُشْعُرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٩﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٠﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦١﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءٍ إِلَيْنَا فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٢﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٣﴾ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٤﴾



## معاني المفردات

﴿أسرفوا﴾ الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى .

﴿لا تقنطوا﴾ أى : لا تيأسوا ﴿وأنبيوا﴾ الإنابة : الرجوع ﴿وأسلموا له﴾ الإسلام لله : الاخلاص له ﴿أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ : هو القرآن ، ﴿بغته﴾ : فجأة ﴿يا حسرتا﴾ أى : يا حسرتى وندمى ﴿فرطت﴾ أى : قصرت ، ﴿فى جنب الله﴾ أى : فى عبادته وطاعته ﴿لمن الساعرين﴾ أى : المستهزئين ، ﴿كرة﴾ أى : رجعة ﴿وجوههم مسودة﴾ أى : لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ﴿مشوى﴾ : مقام الظفر بالبغية على أتم وجه .

## المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أوعد الكافرين - فيما سلف - أردفه - سبحانه - ذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنبه لهم من ضلالهم . أخرج البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فتلز ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ ونزل ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾<sup>(١)</sup> . ثم ذكر سبحانه ما سيكون للمشركين من أهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ الآيات . قال البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فتلز ﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون﴾ ونزل ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ .

وهذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد

(١) انظر صحيح البخارى «كتاب التفسير» تفسير «سورة الزمر» ج ٦ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس . وانظر فتح البارى شرح البخارى فى «كتاب التفسير» تفسير «سورة الزمر» ج ٨ ص ٥٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن عباس . وانظر صحيح مسلم «كتاب الإيمان» باب كون الإسلام يهدم ما قبله ج ١ ص ١١٣ حديث رقم ١٢٢/١٩٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن يتب منه ، ومثل هذه الآية قول المولى عز وجل في سورة النساء : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ﴾ \* والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ (١)﴾

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللاً بعيداً ﴾ (٧) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ (٨) .

وقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون : ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ \* يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾ \* إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ \* ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ (٩) .

وقوله تعالى : ﴿ حم ﴾ \* تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ \* غافر الذنب وقابل التوب ﴾ (١٠) وقوله جل شأنه : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ (١١) وقوله جل شأنه : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ (١٢) وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ (١٣) .

## حديث قدسى جليل

أخرج الإمام مسلم :

عن أبى ذر الغفارى - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - أنه قال : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادى كلکم ضال

(١١) سورة القصص الآية : ٦٧ .

(١٢) سورة النور من الآية : ٣١ .

(١٣) سورة التحريم الآية : ٨ .

(٦) سورة النساء الآية : ١١٠ .

(٧) سورة النساء الآية : ١١٦ .

(٨) سورة الحجر الآية : ٤٩ .

(٩) سورة الفرقان الآيات : ٦٨ - ٧١ .

(١٠) سورة غافر الآيات : ١ - ٣ .

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ - ٢٨ .

(٢) سورة النساء الآية : ٤٠ .

(٣) سورة النساء الآية : ٣١ .

(٤) سورة النساء الآية : ٤٨ .

(٥) سورة النساء من الآية : ٦٤ .

إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادى كلكم غار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد فأنه في ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بإياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (١) .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بنى إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا : فقتله وأكمل به مائة ثم سأل عالماً من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فاتاه الموت فى أثناء الطريق فاخصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة (٢) .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ قال : قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن عزيراً ابن الله ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء : ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ . ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء ، من قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ قال ابن عباس - رضى الله تعالى عنهما - : من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ (٣) وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (٤) وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضاً ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ (٥) فقال له مسروق : صدقت .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ج ٤ ص ٢١١٨ - ٢١١٩ حديث رقم ٤٦ ، ٢٧٦٦/٤٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ (٤) سورة النحل من الآية : ٩٠ (٥) سورة الزمر من الآية : ٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل سورة الكهف وآية الكرسي » ج ١ ص ٥٥٦ حديث رقم ٨١٠/٢٥٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى بن كعب فى فضل آية الكرسي .

وانظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٠ تفسير « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى بن كعب .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذي نفس بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذي نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » تفرد به أحمد<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ .  
بعد أن وعد سبحانه بالمغفرة ، أمر بشيئين :

١ - الإنابة إليه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾ أى : أيها الناس ، أنيبوا إلى ربكم بالتوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة ، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية قبل أن يأتيتكم العذاب ثم لا تجدوا نصيراً ولا معيناً من عذابه النازل بكم .

٢ - اتباع الأحسن بقوله : ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أى : واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيهه ، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ، فإن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يَفُوجُ فَيُفُوجُ ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً . فاتبعوه ﴿ من قبل أن يأتيتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ من قبل أن يأتيتكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم . ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد .

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينها وبينه إما بمرض أو موت أو ظهور علامات الساعة الكبرى التى لا يقبل معها عمل ، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه ، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمانة لذا يقول سبحانه : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أى يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين لله عز وجل ، وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل سائر مستهزئ غير موقن مصدق ﴿ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ أى تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه . وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ \* أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ﴾ . فأخبر سبحانه أن لوردوا لما قدروا

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٢٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك .

على الهدى فقال تعالى : ﴿ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾<sup>(١)</sup> وقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني ، فتكون عليه حسرة ، قال : وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هداني . قال فيكون له الشكر »<sup>(٢)</sup> ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ أى : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها . . .  
وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة : أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة كما قال تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ﴾ ترهقها قتره ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقال تعالى ههنا : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ﴾ . وجوههم مسودة بسبب كذبهم وافترائهم . ﴿ أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ أليست جهنم كافية لهم سجننا وموئلا ، لهم فيها الخزي والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

قال ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس ، يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجننا من النار فى واد يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال »<sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتبهت أنفسهم خالدون ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾<sup>(٧)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ﴾ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٨ .

(٢) انظر مستند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٥١٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٣) سورة آل عمران الآيات : ١٠٦ ، ١٠٧ . (٤) سورة عبس الآيات : ٣٩ ، ٤٣ . (٥) سورة يونس الآيات : ٢٦ ، ٢٧ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ١٠٢ تفسير قوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » فقد ورد الحديث بلفظه .

(٧) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣ . (٨) سورة مريم الآيات : ٧١ ، ٧٢ .

## أحكام عصاة المؤمنين

هذا البحث عبارة عن مجموعة من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية قام بجمعها وتقديمها في كتاب الأستاذ/ مروان كجك ، ويحدثنا الأستاذ مروان كجك عن أهمية هذه الفتاوى فيقول ما نصه :

اقتضى الواقع الإسلامى اليوم ضرورة الرجوع إلى منهاج سلفنا الصالح والتحصن فى قلاع الحق ، فلا ندع مكاناً لرأى خارج عن الشريعة يعمل فى صفوف المسلمين ليصرفهم عن الغاية التى أرسل المرسل من أجلها .

ومع ابن تيمية نسير فى صراط مستقيم - إن شاء الله - واضعين التصور الإسلامى منهاجاً ينظر من خلاله إلى الأشخاص والأوضاع والأحوال غير آبهين بمسميات يستغل بريقها على ساحة العمل الإسلامى اليوم ، ولا يخفى المراد منها إلا على النعم أو الأطفال .

ويجدر بنا فى وقت كثر فيه الكلام عن التفسيق ، والتكفير ، واللعن والتخليد فى النار ، أن نصغى إلى كلمة الحق ، فننزل الناس منازلهم التى أنزلهم إياها الشرع . فلا نبارك الاستهانة بأمر الدين ، ولا نغلو فى الأحكام غلواً يفوتنا فيه الحق ، فلا نربى فينا مستخفاً متهاوناً ، ولا ندفع أحداً إلى قنوط أو يأس ، ولا نساهم فى بناء إنسان لا يرى الآخرين إلا كفاراً ، أو فساقاً ، أو آبقيين ، كذلك ولا ننشئ فى أحد تصوراً يرى من خلاله الناس كلهم صالحين وأمرهم موكول إلى ربهم . .

وتأتى مسألة التكفير فى طبيعة ما يعانى منه الشباب اليوم من عدم وضوح الرؤية وسلامة النظرة . وهنا لابد من وضع الأمر فى نصابه وتجليته تماماً أمام الباحثين عن الحقيقة . وفى هذا يقول ابن تيمية - رحمه الله - فيما يكفر به الشخص عند أهل السنة والجماعة :

« إنه تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنوب ، ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كان فعلاً منهياً عنه ، مثل الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، ما لم يتضمن ترك الإيمان ، وأما إن تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، فإنه يكفر به ، وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة » . ويقول فى موضع آخر : « من جحد مباني الإسلام فهو كافر بالاتفاق » . حتى ولو اقتصرت أشربة تسجيل القرآن المرتل والمجود ، أو زين خطبه وكلماته بآيات الله البينات أو ادعى كذباً وبهتاناً أنه لا يريد إلا خير الإسلام والمسلمين .

أما فساق أهل الملة فيقول رحمه الله فى حقهم : « يؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة ، وأنهم لا يخلدون فى النار ، بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان ، وأن النبى ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته .

وفى موضع آخر ينبه إلى صنف آخر من الذين يكفرون ولو قالوا : ( لا إله إلا الله ) وهم مما لا يخلو منهم عصر ممن لم يحتمل العيش فى الظل ، فأطل برأسه غروراً وتيهاً لما لم يجد من لم

يسفع ناصيته الخاطئة الكاذبة أولئك الذين يكذبون الرسول ﷺ وهل رفض السنة إلا التكذيب الفاضح للرسول ﷺ الموصوف من ربه :

﴿ وما ينطق عن الهوى \* إن هو إلا وحي يوحى ﴾<sup>(١)</sup> يقول رحمه الله : « من قال بلسانه : لا إله إلا الله ، وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين » .

ومع ذلك فلا يجوز الإسراع فى إصدار الأحكام على الناس بغير علم ، أو تكفير المسلمين تبعاً لهوى فى أنفسنا أو تبعاً لتفسير لا يحتمل معه كفر محض ، بل لابد من الرجوع فى ذلك إلى أهل الذكر ، ومعرفة ما تنازع فيه المسلمون حتى لا نطلق الأحكام جزافاً ، فنضع فى اللوحة المضئة من نضع ، ونخص بالقائمة السوداء من نخص . وفى هذا المعنى يقول رحمه الله : « لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة » .

وليس الكفر ضرورة لازمة للكافر لا يمكنه الانعتاق منه ، بل باستطاعته أن يؤمن بالله ورسوله ويتبع سبيل المؤمنين . وقد أمر الله نبيه أن يبلغ الكافرين بأنهم إن انتهوا من كفرهم يغفر الله لهم ما قد سلف قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾<sup>(٢)</sup> . وفى ذلك يقول ﷺ لعمر بن العاص - رضى الله عنه - :

« يا عمرو إن الاسلام يجب ما قبله »<sup>(٣)</sup> وهذا ما أشار إليه ابن تيمية فى قوله : « تقبل توبة الداعى إلى الكفر وتوبة من فتن الناس عن دينهم » .

والتوبة باب واسع من أبواب رحمة الله بعباده ، وهى واجبة على كل عبد ، يقول : « إن التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال ، لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه أن يتوب دائماً » .

وليس هناك ذنب لا يغفر للمستغفرين الصادقين فى استغفارهم المشفقين من عذاب الله « إن الله يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص » فرحمة الله وسعت كل شئ ولا غرابة فى ذلك أليس الله سبحانه هو القائل فى كتابه المجيد : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . أى : لمن تاب رغم أنف الذين يحتكرون حق توزيع المغفرة على من يشاءون ، وحجزها عمن يشاءون ...

ولا يخلد فى النار موحد مات على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال ابن تيمية : « من مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار » .

« وإن كان من أهل الكبائر فأمره موكل إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر له » « فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان فى النار » . « فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة » .

(١) سورة النجم الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٩٨ - ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمر بن العاص . وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من روايات لعمر بن العاص .

« ومن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة » « ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ولابد قبل ذلك كله من معرفة الحق والفقہ في دين الله لتتطابق الأحكام الأحوال ، فلا نطمح أحداً . ولا نفرط في حق أحد فحكم أئمة الناس غير حكم عامتهم ، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : « فالمأول والجاهل والمعدور ليس حكمه حكم المعاند والفاخر ، بل قد جعل الله لكل شيء قدراً » معتمداً في ذلك الرأي على قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ (١) .

وقول النبي ﷺ في الصحيحين : « ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » (٢) ويعلن ابن تيمية رأيه صراحة في أمور التكفير ، والتفسيق ، والعصيان ، فيقول : « إنني من أعظم الناس نهياً عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ، ومعصية إلا إذا قد علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافراً تارة ، وفاسقاً تارة وعاصياً تارة ، وإنني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ في المسائل الخيرية القولية والمسائل » .

فعلى دعاة الإسلام وشبابه أن يعوا هذه الحقائق والأحكام ، وهم أكثر الناس حاجة لمعرفة والإحاطة بمراميها والأخذ بها بكل حكمة وروية ، وأن ينظروا إليها مجتمعة غير مجزأة فمن اجتزأ من الإسلام أحكاماً وأضرب عن أحكام لم يسر إلا في طريق ملتوية تقود إلى تجارب مخففة كتلك التجارب التي تبرز بين الحين والآخر على الساحة الإسلامية ، فيتخذها المعاندون في الأرض ذريعة لضرب الحركة الإسلامية والتنكيل بأهلها تشريداً وتعذيباً وقتلاً .

ولا يذهبن بنا الغرور إن عرفنا طرفاً من العلم أن ذلك يكفي ، وينير لنا السبيل ولكن لنعلم أنه لابد من الأخذ عن أهل العلم والمعرفة المخلصين الواعين الذين ينظرون بمنظار الشريعة ، ويبصرون ببصائر الحق ، ولا نحكم بغير علم وروية . فللعلم عدته ، وللتعلم مدته ، ولا تستساغ الثمار إلا ناضجة ، ولا يجتنى الزرع إلا إذا استحصد ، ولنعد تلامذة في مدرسة الإسلام فتلقى للعمل ، ونعد للحركة ، ولا تنحرف بنا الآمال والأحلام عن نسيان الواقع ، لنحسن التعامل معه على الوجه الأمثل الذي رسمه الإسلام ، وخطته الشريفة وفهمه الأوائل وطبقه السلف الصالح رضوان الله عليهم « وإنني لأرجو الله سبحانه وتعالى أن تؤدي هذه الرسالة المجموعة من خلال كتب ابن تيمية الغرض المبتغى منها ، فيسترشد بها الشباب ، وتكون تبصرة لأولى الألباب ممن يريد أن يعمل على تبليغ الدعوة ويود لو استطاع حمل الأمانة بجدارة تساوى ثقل المهمة الملقة على عاتق هذا الجيل من المسلمين . والله أسأل أن ينفعني بها والمسلمين والمثوبة لا ترجى إلا من الله الذي أطمع أن يجعلها لي مغفرة لخطيئتي يوم الدين . اللهم آمين .

(١) سورة الإسراء من الآية ١٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « غير الله - تعالى - وتحريم الفواحش » ج ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٢٧٦٠/٣٥ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن مسعود « وليس أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل »



## الوعد والوعيد

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :

وأما قول القائل : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، واحتججه بالحديث المذكور .

فيقال له : لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعد وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ (١) وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ \* ومين يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (٢) .

ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة ، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا ، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهو لاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد .

« والحرورية والمعتزلة » أرادوا أن يصدقوا بالوعد دون الوعد ، وكلاهما أخطأ ، والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب . قد بين سبحانه أنه بشروط : بأن لا يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وبأن لا يكون له حسنات تهوذنوبه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٣) فهكذا الوعد له تفسير وبيان . فمن قال بلسانه : لا إله إلا الله وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله .

فلا بد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان في النار ، فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد في النار . فالزاني والسارق لا يخلد في النار ، بل لابد أن يدخل الجنة . فإن النار يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المستول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين . وقد جاء في ذمهم من الآثار ما يضيّق عنه هذا المكان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٢٧٠)

(١) سورة النساء آية : ١٠ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

(٣) سورة النساء من الآية : ٤٨ .

## النار الكبرى

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وقوله تعالى : ﴿ وَتَجْنِبُهَا الْأَشْقَى \* الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى \* ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ (١) .  
وقد ذكر في سورة الليل : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى \* لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى \* الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ (٢) .

وهذا الصلّى قد فسره النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجاء بهم ضبائر ضبائر فبشوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » (٣) فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

وفى رواية ذكرها ابن أبي حاتم فقال : « ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا أبي ثنا سليمان التميمي عند أبي هريرة عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه : ﴿ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ فقال النبي ﷺ : « أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيأتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة الغناء في حميل السيل »

وهذا المعنى مستفيض عن النبي ﷺ - بل متواتر - في أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين : على الخوارج ، والمعتزلة الذين يقولون « إن أهل التوحيد يخلدون فيها » وهذه الآية حجة عليهم . وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » .

فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وهؤلاء .

والقول بـ « أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه . لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية .

وقد أجيبوا بجوابين :

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج ، قالوا : هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها : ﴿ وَسَيَجْنِبُهَا الْأَتَقَى ﴾ لا يبقى فيه كبير وعد ، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

(١) سورة الأعلى الآيات : ١١ - ١٣ .

(٢) سورة الليل الآيات : ١٤ - ١٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار » ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ حديث رقم ١٨٥/٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدري .

وجواب آخريـن قالوا : لا يصلونها صلى خلود . وهذا أقرب . وتحقيقه أن الصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما .

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلى ، ليس هو الصلى المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله ، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود . والله أعلم .  
(مجموع الفتاوى ج ١٦ ص ١٩٤)

الرد على الوعيدية والواقفية .

قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني قدس الله روحه .

فصل : فى قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له . . . ﴿

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه الآية فى حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

فلا يجوز أن تكون فى حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين . وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق عنده تخص فيها الشرك بأنه لا يغفر ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال سبحانه : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ .

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ، فهى ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون « يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : ( ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ) فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : ( لمن يشاء ) فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هى لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ، لكنها لبعض الناس .

وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضه يغفر له ، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمتسيين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل . وأيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ فيه نهى عن القنوط من رحمة الله وإن عظمت الذنوب وكثرت ، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله . قال بعض السلف : إن الفقيه كل الفقيه الذى لا يئس الناس من رحمة الله ، ولا يجرئهم على معاصي الله . والقنوط يكون بأن

يعتقد أن الله لا يغفر له . إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه . وإما بأن يقول : نفسه لا تطاوعه على التوبة ، بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه ، فهو يأس من توبة نفسه : وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعترى كثيراً من الناس . والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول : كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به المائة . ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته والحديث في الصحيحين .

والثاني : كالذي يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس في العبد هل يصير في حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها ؟ والصواب الذي عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة من كل ذنب . ويمكن أن الله يغفره . .

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد ، ولا يقنط أحداً من رحمة الله فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً . فإن قيل : ( إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) معه عموم على وجه الإخبار ، فدل على أن الله يغفر كل ذنب ؟ ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع . إذ كان الله أهلك أمماً كثيرة بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب إما قدراً وإما شرعاً في الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال الله تعالى : ( من يعمل سوءاً يجز به )<sup>(١)</sup> وقال : ( فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره )<sup>(٢)</sup> فهذا يقتضى أن هذه الآية ليست على ظاهرها ، بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعاً ، أى : ذلك مما قد يفعله ، أو أنه يغفره لكل تائب . لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق ، موضع التردد والتقييد ؟ قيل : بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، فقال : ( إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم )<sup>(٣)</sup> .

وقال في حق المنافقين : ( سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم )<sup>(٤)</sup> . لكن هذا اللفظ العام في الذنوب هو مطلق في المذنبين . فالمذنب لم يتعرض له بنفى ولا إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفوراً له ، ويجوز أن لا يكون مغفوراً له . إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره في الجملة : الكفر والشرك وغيرهما ، يغفرها لمن تاب منها ، ليس في الوجود ذنب لا يغفره الله تعالى بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره في الجملة .

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً ، وفيها رد على طوائف ، رد على من يقول : إن الداعي إلى البدعة لا تقبل توبته ويحتجون بحديث إسرائيلى ، فيه : « أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ » وهذا يقول طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليس من العلماء بذلك ، كأبى على

(٣) سورة محمد الآية : ٣٤ .

(٤) سورة المنافقون من الآية : ٦ .

(١) سورة النساء من الآية : ١٢٣ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .

الأهوازي وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، وما يحتج به وما لا يحتج به . بل يروون كلاً في الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولاً في مذهب أحمد وأرواية عنه ، وظاهر مذهبه مع سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبة الداعي إلى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم .

وقد تاب قادة الأحزاب : مثل أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس إسلاماً ، وغفر الله لهم . قال تعالى : ( قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف )<sup>(١)</sup> وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين ، وقد قال النبي ﷺ لما أسلم : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله ؟ »<sup>(٢)</sup> ( أخرجه مسلم ) وفي صحيح البخاري عن ابن مسعود في قوله : ( أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب )<sup>(٣)</sup> قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم<sup>(٤)</sup> . ففي هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضاً فالداعي إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه ؟ لكونه قبل من هذا واتبعه ، هذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ، ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم ، وأما هم فسواء تاب أم لم يتب حالهم واحد ، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الاسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة في الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

### توبة قاتل النفس

ومن ذلك توبة قاتل النفس . والجمهور على أنها مقبولة ، وقال ابن عباس : لا تقبل ، وعن أحمد روايتان . وحديث قاتل التسعة والتسعين في الصحيحين دليل على قبول توبته . وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد في القرآن كقوله : ( إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً )<sup>(٥)</sup> ومع هذا فهذا إذا لم يتب . وكل وعيد في القرآن فهو

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمر بن العاص . وانظر أيضاً ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمر بن العاص أيضاً . (٣) سورة الإسراء من الآية : ٥٧ .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » تفسير سورة بني إسرائيل ج ٦ ص ١٠٧ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود بلفظ « قال كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم » وفي رواية أخرى لعبد الله بن مسعود في قوله تعالى : ( .. الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ) قال : ناس من الجن يعبدون فأسلموا .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب في قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . ج ٤ ص ٢٣٢١ فقد وردت الأحاديث ٢٨/٣٠٣ ، ٢٩ ، ٣٠ من روايات مختلفة لعبد الله بن مسعود تدور في إطار هذا المعنى . (٥) سورة النساء آية : ١٠ .

مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس ، فبأى وجه يكون القاتل لاحقاً به وإن تاب ؟ هذا فى غاية الضعف ، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تسقط حق الله ، والمقتول مطالبه بحقه ، وهذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدين ، فإنه فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « الشهيد يغفر له كل شىء إلا الدين »<sup>(١)</sup> ولكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل . فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول ، فلا بد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس .

فيبقى الكلام : من تاب وأخلص ، وعُجز عن حسنات تعادل حق المظلوم ، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به ؟

وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية ، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص .

ومثل هذا قوله : ( فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم )<sup>(٢)</sup> عام فى الأشخاص مطلق فى أحوال الأرجل ، إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله تعالى : ( يوصيكم الله فى أولادكم )<sup>(٣)</sup> عام فى الأولاد عام فى الأحوال ، إذ قد يكون الولد موافقاً فى الدين ومخالفاً وحراً وعبداً . واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله ( يغفر الذنوب ) عام فى الذنوب مطلق فى أحوالها فإن الذنب قد يكون صاحبه تائباً منه ، وقد يكون مصراً واللفظ لم يتعرض لذلك ، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر فى حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة فقال :

﴿ وأنبؤوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتىكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتىكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿ . فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتى كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإمارة » باب من قتل فى سبيل الله كفر خطايه إلا الدين :

ج ٣ ص ١٥٠٢ حديث ١٨٨٦/١١٩ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٠ .

(٣) سورة التوبة من الآية : ٥ .

(٤) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

(٥) سورة النساء من الآية : ١١ .

قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين \* خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون \* إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴿١﴾ .

وقوله : ( كيف يهدي الله ؟ ) أى : أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : ( والله لا يهدي القوم الظالمين ) فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً ، لا يحصل له الهدى إلى أى دين ارتد .

وكذلك قال فى قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ﴾ (٢) ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد ، قال : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ (٣) .

وهو سبحانه فى آل عمران ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافراً : فقال : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ \* إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴿٤﴾ وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً :

قيل : لنفاقهم ، وقيل : لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ، وقيل : لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدى : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون كقوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ (٥) .

وكذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ (٦) قال مجاهد وغيره من المفسرين : ( ازدادوا كفراً ) ثبتوا عليه حتى ماتوا .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقوله : ( ثم ازدادوا ) بمنزلة قول القائل : ثم أصروا على الكفر ، واستمروا على الكفر ، وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهى التوبة عند حضور الموت ، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزد بل نقص ، بخلاف المصر إلى حين المعينة ، فما بقى له زمان يتسع لنقص كفره فضلاً عن هدمه .

(١) سورة آل عمران الآيات : ٨٦ - ٨٩ .

(٢) سورة النحل من الآية : ١٠٦ .

(٣) سورة النحل الآية : ١١٠ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

(٥) سورة النساء الآية : ١٨ .

(٦) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

وفى الآية الأخرى قال : ( لم يكن الله ليغفر لهم ) وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ، قيل : لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافراً حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثاني ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »<sup>(١)</sup> ( متفق عليه ) . فلو قال : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم » كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال : ( إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقب توبتهم ) بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك وهو المرتد التائب فهذا إذا كفر وازداد كفراً لم يغفر له كفره السابق أيضاً ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم يكونوا قد ازدادوا كفراً فلا يدخلون فى الآية . والفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت رده أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر ، لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

ونحن حقيقة قولنا : إن التائب لا يعذب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لا شرعاً ولا قدراً ، والعقوبات التى تقام من حدٍّ أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأن زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ولو درى من الحد بإظهار هذا لم يقم حد ، فإن كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت ، وإن كان تائباً فى الباطن كان الحد مكفراً وكان مأجوراً على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائباً ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه فى غير موضع ، وهى من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضى بعدة أحاديث ، وحديث الذى قال : « أصبت حداً فأقمه على فأقيمت الصلاة » يدخل فى هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ما عز والغامدية ، واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما فى حديث معاذ « فهلا تركتموه ؟ » والغامدية ردها مرة بعد مرة .

فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا ، وليس على أحد أن يقيم عليه حداً ، لكن اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائباً ، وهذا قتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته ، كما قال النبى ﷺ : « لقد تابت توبة لوتائبها صاحب مكس لغفر له »<sup>(٢)</sup> ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟ ! . ( مجموع الفتاوى ص ١٨ ج ١٦ )

(١) انظر صحيح البخارى كتاب « استتابة المرتدين » .. الخ ج ٨ ص ١٧ ، ١٨ فقد ورد الحديث بلفظه رواية ابن مسعود .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » ج ١ ص ١١١ حديث رقم ١٢٠/١٩٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الحدود » باب من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢٣ - ١٣٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٦٩٥/٣٣ من رواية لابن بريدة .



## النهى عن لعن من يحب الله ورسوله

كثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب الله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه من فعله من بعض الفواحش ، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقاً أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله ، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح « أنه كان على عهد النبى ﷺ رجل يدعى حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتى به إلى النبى ﷺ جلده الحد ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعله رجل فقال النبى ﷺ : « لا تلعه فإنه يحب الله ورسوله »<sup>(١)</sup> (رواه البخارى) .

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن فى الخمر عشرة « لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها »<sup>(٢)</sup> (أبو داود) .

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذى قام به ما يمنع لحوق اللعنة له . (مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩) .

## لا يجوز لعن المعين

وبعد حديث عن معاوية رضى الله عنه وأنه جاهد مع النبى ﷺ وكان أميناً عنده يكتب له الوحي قال :

بل « يزيد » ابنه مع ما أحدث من الأحداث ، من قال فيه : إنه كافر مرتد ، فقد افترى عليه . بل كان ملكاً من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين ، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة ، وسيئاتهم عظيمة ، فالطاعن فى واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم . وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفر الله عنه ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته ، ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعته نبي أو غيره من الشفعاء ، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال .

كما أنا نقول ما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾<sup>(٣)</sup> فلا ينبغي لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه من أهل النار ، لإمكان أن يتوب أو يغفر له الله بحسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعاة مقبولة ، أو يعفو الله عنه ، أو غير ذلك . فهكذا الواحد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحدود وما يحذر من الحدود » باب « ما يكره من لعن شارب الخمر » ج ٨ ص ٦٩٧ فقد ورد الحديث من رواية عن عمر بن الخطاب مع اختلاف فى ترتيب جملة والفاظه .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الأشربة » باب العنب يعصر للخمر . ج ٤ ص ٨١/٨٢ حديث رقم ٣٦٧٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٠ .

من الملوك أو غير الملوك . وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل في ذلك كان من أهل البدع والضلال ، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه ! كما ثبت في صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « أول جيش يغزو قسطنطينية مغفور له »<sup>(١)</sup> وأول جيش غزاها كان أميرهم « يزيد بن معاوية » . وكان معه في الغزاة أبو أيوب الأنصارى وتوفى هناك ، وقبره إلى الآن . ولهذا كان المقتصدون من أئمة السلف يقولون في يزيد وأمثاله : إنا لا نسبهم ولا نحبه ، أى : لا نحب ما صدر منهم من ظلم ، والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاص ، وبر وجور وشر فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ، ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعله من الشر . ( مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩ ) .

### تعزير من لعن أحداً من المسلمين

قال رحمه الله : رأيت في فتاوى الفقيه أبى محمد فتوى طويلة فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها : « ومن لعن أحداً من المسلمين عزز على ذلك تعزيراً بليغاً . والمؤمن لا يكون لعناً ، وما أقربه من عود اللعنة عليه ، قال : وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزز وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلاً لللعنة ، وقعت اللعنة عليه .. »

فالفقيه أبو محمد أيضاً إنما منع اللعن ، وأمر بتعزير اللاعن ، وهو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث ، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث . ( مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١٥ - ١٧ ) .

### التكفير والتفسيق

قال رحمه الله : ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ومع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي ، كما قال سبحانه وتعالى في آية القصاص : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغى حتى تفتى إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين \* إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) انظر صحيح البخارى .. « كتاب الجهاد والسير » باب ما قيل في قتال الروم ج ٤ ص ٥١ فقد ورد الحديث عن عمير بن الأسود العنسى عن أم حرام بلفظ : « أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا ، قالت أم حرام : قلت يا رسول الله : أنا فيهم ، قال : أنت فيهم ثم قال النبي ﷺ - وأول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم . قلت : أنا فيهم يا رسول الله ، قال : لا . »

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٨ . (٣) سورة الحجرات الآية : ٩ ومن الآية : ١٠ .

ولا يسلبون الفاسق المَلَى اسم الإيمان بالكلية ، ولا يخلدونه في النار كما تقوله المعتزلة ، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان في مثل قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ <sup>(١)</sup> وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » <sup>(٣)</sup> (متفق عليه) .

ويقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أو مؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ؟ فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم . (مجموع الفتاوى ج ٣ ص ١٥١) .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه :  
عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا ؟

فأجاب :

لا يكفر بمجرد الذنب ، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزانى غير المحصن يجلد ولا يقتل ، والشارب يجلد ، والقاذف يجلد ، والسارق يقطع .

ولو كانوا كفارا لكانوا مرتدين ووجب قتلهم . وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف .

لا يكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة :

وحقيقة الأمر في ذلك : أن القول قد يكون كفرا ، فيطلق الأمر بتكفير صاحبه ، ويقال : من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره ، حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها . وهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط ، أو ثبوت مانع فقد لا يكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له صفات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم ، وقد يتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذر الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان فى المسائل النظرية ، أو العملية ، هذا الذى عليه أصحاب النبى ﷺ ، وجماهير أئمة الإسلام (مجموع الفتاوى ج ٢٣ ص ٣٤٥) .

(١) سورة النساء من الآية : ٩٢ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٢ .

(٣) أنظر صحيح البخارى « كتاب الحدود » باب « لا يشرب الخمر » ج ٨ ص ١٩٥ - ١٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن أبى هريرة .

(٤) سورة النساء الآية : ١٠ .

## لا أساس لتقسيم المسائل إلى أصول وفروع

وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها :

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع وتسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ، ولا عن التابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع . . . وعندهم تلقاه من ذكره من الفقهاء في كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التي يكفر بها المخطئ ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ، فإن قال : مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد ومسائل الفروع هي مسائل العمل . قيل له : فتنازع الناس في محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا ؟ وفي أن عثمان أفضل من علي ، أو علي أفضل ؟ وفي كثير من معاني القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هي من المسائل الاعتقادية العلمية ، ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وتحريم الفواحش والخمر هي مسائل عملية ، والمنكر لها يكفر بالاتفاق .

وإن قال : الأصول هي المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن سمع النص من رسول الله ﷺ وتيقن مراده منه . وعند رجل لا تكون ظنية ، فضلا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ حديث الذي قال لأهله : « إذا أنا مت فأحرقوني ، ثم اسحقوني ، ثم ذروني في اليم ، فوالله لئن قدر الله عليّ ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا من العالمين . فأمر الله البربر ما أخذ منه ، والبحر برد ما أخذ منه ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ! فغفر له <sup>(١)</sup> (متفق عليه) فهذا شك في قدرة الله وفي المعاد ، بل ظن أنه لن يعود ، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وغفر الله له .

ولكن المقصود هنا أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين . ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف في ذلك ، ولم يفهموا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد في تكفير أهل البدع روايتين مطلقا ، حتى تجعل الخلاف في تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلي ، وربما رجحت التكفير والتخليد في النار ، وليس هذا مذهب أحمد ، ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل لا يختلف قوله إنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم وإنما يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ،

(١) وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « في سعة رحمة الله » ج ٤ ص ٢١٠٩ - ٢١١٠ حديث رقم ٢٤ ، ٢٥ / ٢٧٥٦ فقد ورد حديثان لا يحرران مع اختلاف في بعض اللفاظ .

وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فإن الذي يدعو إلى القول أعظم من الذي يقول به ، والذي يعاقب مخالفه أعظم من الذي يدعو فقط ، والذي يكفر مخالفه أعظم من الذي يعاقبه ، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يرى في الآخرة وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجيبهم ، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد - رحمه الله - ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك .

وكذلك قال مالك رحمه الله ، والشافعي ، وأحمد ، في القدرى : إن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا . وسئل أحمد عن القدرى : هل يكفر ؟ فقال : إن جحد العلم كفر . وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية . وأما قتل الداعية إلى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس ، كما يقتل المحارب ، وإن لم يكن في نفس الأمر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدرى وغيره قد يكون على هذا الوجه . ( ج ٢٣ ص ٣٤٦ ) .

لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله :

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التي تنازع فيها أهل القبلة ، فإن الله تعالى قال :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ (١) .

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم .

والخوارج المارقون الذين أمر النبي ﷺ بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين . واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين من بعدهم . ولم يكفرهم على ابن أبي طالب ، وسعد بن أبي وقاص ، وغيرهما من الصحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ، ولم يقاتلهم على حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار .

ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم .

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ، ولا تستحل دمه وماله ، وإن كانت فيها بدعة محققة ،

فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا ؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله . قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » (١) (متفق عليه) .  
وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » (٢) (رواه مسلم) .  
وقال ﷺ : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله » (٣) (رواه البخاري) .

وقال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار » قيل : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه » (٤) . (متفق عليه) .  
وقال ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » (٥) (متفق عليه) .  
وقال : « إذا قال المسلم لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما » (٦) البخاري .  
وهذه الأحاديث كلها في الصحاح .

وإذا كان المسلم متأولا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب ابن أبي بلتعة : يا رسول الله دعني : أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » (٧) (رواه مسلم) .  
وهذا في الصحيحين . وفيهما أيضا : من حديث الإفك : أن أسيد بن الحضير قال لسعد ابن عباد : إنك منافق تجادل عن المنافقين ، واختصم الفريقان فأصلح النبي ﷺ بينهم . فهؤلاء

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الحج » باب « الخطبة أيام منى » ج ٢ ص ٢١٥ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس من حديث طويل « خطبة يوم النحر » ومن رواية لأبي بكر أيضا .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم ... الخ » ج ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٥٦٤/٣٢ فقد ورد الحديث ضمن طويل من رواية لأبي هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » ج ٢ ص ١٢٩٨ حديث رقم ٣٩٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه لأبي هريرة .  
(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الصلاة » باب « استقبال القبلة » ج ١ ص ١٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب الفتن » باب « إذا التقى المسلمان بسيفيهما » ج ٨ ص ٦٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبي بكر . وانظر مسند أحمد ج ٥ ص ٥١ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الفتن » باب قول النبي ﷺ لا ترجعوا بعدي كفارا ج ٨ ص ٦٣ فقد ورد الحديث من رواية عن ابن عمر .  
وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٨١ - ٨٢ « كتاب الإيمان » باب معنى قول النبي لا ترجعوا بعدي كفارا ... الخ حديث ٦٥/١١٨ ، ٦٦/١١٨ فقد ورد الأول عن جرير والثاني عن ابن عمر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر ج ١ ص ٧٩ حديث ١٠٠/١١١ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن دينار بلفظ « أيما امرئ قال لأخيه يا كافر فقد باء بأحدهما » .

(٧) انظر صحيح البخاري « كتاب استنابة المرتدين ... الخ » ج ٩ ص ٢٣ - ٢٤ فقد ورد الحديث عن حصين عن فلان .

البديرون فيهم من قال لآخر منهم : إنك منافق ، ولم يكفر النبي ﷺ لا هذا ولا هذا ، بل شهد للجميع بالجنة .

وكذلك ثبت في الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلاً بعدما قال : لا إله إلا الله وعظم النبي ﷺ لما أخبره وقال : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ »<sup>(١)</sup> وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة : تتميت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ومع هذا لم يوجب عليه قوداً ، ولا دية ، ولا كفارة ، لأنه كان متأولاً ظن جواز قتل ذلك القاتل لظنه أنه قالها تعوداً . فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضاً من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾<sup>(٢)</sup> فقد بين سبحانه أنهم مع اقتتالهم وبغى بعضهم على بعض إخوة مؤمنون ، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضاً موالاة الدين ، لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

وقد ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ سأل ربه : « أن لا يهلك أمتي بسنة عامة فأعطاه ذلك ، وسأله : ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك ، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك »<sup>(٣)</sup> ( أخرجه مسلم ) . وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضاً وبعضهم يسبى بعضاً .

وثبت في الصحيحين لما نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ﴾<sup>(٤)</sup> . قال : « هاتان أهون »<sup>(٥)</sup> . ( رواه البخارى في تفسير سورة الأنعام ) .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم قتل الكافر ... الخ » ٩٦ - ٩٧ فقد ورد الحديث ٩٦/١٥٨ من حديث ابن أبي شيبة ، ٩٦/١٥٩ من حديث أبي ظبيان .

(٢) سورة الحجرات آية : ٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ « كتاب الفتن وأشراط الساعة » باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض فقد ورد الحديث ٢٨٨٩/١٩ من حديث طويل عن ثوبان .

وانظر فتح البارى بشرح البخارى ج ٨ ص ٢٩١/٢٩٢/٢٩٣ « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » فقد ورد الحديث عن ثوبان .

(٤) سورة الأنعام من الآية : ٦٥ .

(٥) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم » ج ٨ ص ٢٩١ - ٢٩٢ فقد ورد الحديث من رواية عن جابر بلفظ « هذا أهون أو أيسر » .. ووقع في الاعتصام « هاتان أهون أو أيسر » .

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف ، ونهى عن البدعة والاختلاف وقال : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء ﴾<sup>(١)</sup> وقال النبى ﷺ : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة »<sup>(٢)</sup> ( أخرجه أحمد ) . وقال : « الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم »<sup>(٣)</sup> ( رواه مسلم ) ، فالواجب على المسلم إذا صار فى مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم وإن رأى بعضهم ضالاً أو غاوياً وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان قادراً على أن يولى فى إمامة المسلمين الأفضل ولاه ، وإن قدر أن يمنع من يظهر البدع والفجور منعه . وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعمى بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القرآن سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سنناً »<sup>(٤)</sup> ( رواه مسلم ) . وإن كان فى هجره لمُظهر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره ، كما هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم ، وأما إذا ولى غيره بغير إذنه وليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً ، وكان قد ردّ بدعة ببدعة .

حتى إن المصلى الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس فى إعادته الصلاة وكرهها أكثرهم ، حتى قال أحمد بن حنبل فى رواية عبدوس : من أعادها فهو مبتدع . وهذا أظهر القولين ، لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحداً إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة . . ولهذا كان أصح قول العلماء أن من صلى بحسب استطاعته أن لا يعيد حتى يتميم لخشية البرد ، ومن عدم الماء والتراب ، إذا صلى بحسب حاله ، والمحبوس وذوو الأعداء النادرة والمعتادة والمتصلة ، والمنقطعة ، لا يجب على أحد منهم أن يعيد الصلاة إذا صلى الأولى بحسب استطاعته .

وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة صلوا بغير ماء ولا تيمم لما فقدت عائشة عقدها ولم يأمرهم النبى ﷺ بالإعادة بل أبلغ من ذلك أن من كان يترك الصلاة جهلاً بوجوبها لم يأمره بالقضاء ، فعمرو ، وعمار لما أجنبوا وعمرو لم يصل وعمار تمرغ كما تتمرغ الدابة لم يأمرهما بالقضاء ، وأبوذر لما كان يجنب ولا يصلى لم يأمره بالقضاء ، والمستحاضة لما استحاضت حيضة شديدة منكراً منعها الصلاة والصوم لم يأمرها بالقضاء . .

فالتأول والجاهل والمعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر ، بل جعل الله لكل شىء قدراً . ( مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٨٢ ) .

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥٩ .

(٢) انظر تاريخ ابن عساکر ج ٦ ص ٦٢ باب « ذكر من اسمه السائب » فقد ورد الحديث من حديث طويل فى خطبة عمر لما دخل الشام بلفظ « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة »

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ فقد ورد الحديث عن معاذ بن جبل بلفظ « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فلْيَاكُم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامّة والمسجد » .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد » باب من أحق بالإمامة ج ١ ص ٤٦٥ فقد ورد الحديث ٦٧٣/٢٩٠ من رواية لابن مسعود .



## الكبر المباین للإیمان لا یدخل صاحبه الجنة

سئل رحمه الله عن معنى قوله ﷺ : « لا یدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » (١) هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنین أم بالكفار ؟ فإن قلنا مخصوص بالمؤمنین فقولنا لیس بشىء ؛ لأن المؤمنین یدخلون الجنة بالإیمان . وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث . فأجاب :

لفظ الحديث فى الصحيح : « لا یدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا یدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إیمان » فالكبر المباین للإیمان لا یدخل صاحبه الجنة كما فى قوله : ﴿ إن الذين يستكبرون من عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإیمان ، وكذلك كبر اليهود ، والذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ﴾ (٢)

والكبر كله مباین للإیمان الواجب فمن فى قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه ، بل كبره یوجب له جحد الحق ، واحتقار الخلق ، وهذا هو الكبر الذى فسرہ النبى ﷺ : حيث سئل فى تمام الحديث ، فقيل : یا رسول الله ! الرجل یحب أن یكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا إن الله جمیل یحب الجمال ، الكبر بظر الحق ، وغمط الناس (٣) ( أخرجه مسلم ) . وبظر الحق : جحده ودفعه ، وغمط الناس : ازدراؤهم واحتقارهم ؛ فمن فى قلبه مثقال ذرة من هذا یوجب له أن یجحد الحق الذى یجب علیه أن یقر به ، وأن یحتقر الناس فىكون ظالماً معتدياً علیهم ، فمن كان مضیعاً الواجب ؛ ظالماً للخلق لم یکن من أهل الجنة ، ولا مستحقاً لها ، بل یكون من أهل الوعيد .

فقوله : « لا یدخل الجنة » متضمن لكونه لیس من أهلها ، ولا مستحقاً لها ، لكن إذا تاب ، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطایاه ، ونحو ذلك ، زال ثمره هذا الكبر المانع له من الجنة ، فیدخلها ، أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر نفسه ، فلا یدخلها ومعه شىء من الكبر ، ولهذا قال : من قال فى هذا الحديث وغيره : إن المنفى هو الدخول المطلق الذى لا یكون معه عذاب ، لا الدخول المقيد الذى یحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ، فإنه إذا أطلق فى الحديث : فلان فى الجنة ، أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه یدخل الجنة ولا یدخل النار .

فیذا تبین هذا كان معناه أن من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر لیس هو من أهل الجنة ، ولا یدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحق للعذاب لكبره ، كما یدخلها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد یعذب فى النار ما شاء الله ، فإنه لا یخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإیمان » باب « تحريم الكبر وبيانہ » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٩ من رواية لابن مسعود .

(٢) سورة البقرة آية : ٨٧ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإیمان » باب « تحريم الكبر وبيانہ » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٧ من رواية لابن مسعود .

وهنا كقوله ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع رحم »<sup>(١)</sup> (رواه البخارى).

وقوله : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »<sup>(٢)</sup> (رواه مسلم) . وأمثال هذا من أحاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام فى الكفار وفى المسلمين .

وقول القائل : إن المسلمين يدخلون الجنة بإسلامهم ، فيقال له : ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب ، بل أهل الوعيد يدخلون النار ، ويمكنون فيها ما شاء الله ، مع كونهم ليسوا كفاراً ، فالرجل الذى معه شيء من الإيمان ، وله كبائر قد يدخل النار ، ثم يخرج منها : إما بشفاعه النبى ﷺ ، وإما بغير ذلك ، كما قال ﷺ : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »<sup>(٣)</sup> (رواه أبوداود) .

وكما فى الصحيح أنه قال : « أخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان »<sup>(٤)</sup> . وهكذا الوعيد فى قاتل النفس والزانى وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور ، وغير هؤلاء من أهل الكبائر ، فإن هؤلاء - وإن لم يكونوا كفاراً - لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أن فساق أهل الملة ليسوا مخلصين فى النار كما قالت الخوارج والمعتزلة ، وليسوا كاملين فى الدين والإيمان والطاعة ، بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب ، وبهذا الثواب . (مجموع الفتاوى ج ٧ ص ٦٧٧) .

### الحسنات يذهبن السيئات

إن الحسنات التى هى فعل المأمور به تذهب بعقوبة الذنوب ، والسيئات التى هى فعل المنهى عنه ، فإن فاعل المنهى يذهب إثمه بالتوبة ، وهى حسنة مأمور بها ، وبالأعمال الصالحة المقاومة وهى حسنات مأمور بها ، بدعاء النبى ﷺ وشفاعته ، ودعاء المؤمنين وشفاعتهم ، وبالأعمال الصالحة التى تهدى إليه ، وكل ذلك من الحسنات المأمور بها .

فما من سيئة هى فعل منهى عنه إلا لها حسنة تذهبها هى فعل مأمور به حتى الكفر ، سواء كان وجودياً أو عديمياً ، فإن حسنة الإيمان تذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ﴾

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « أثم القاطع » ج ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث عن رواية لجبير بن مطعم بلفظ « لا يدخل الجنة قاطع » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطعها » ج ٤ ص ١٩٨١ حديث رقم ٢٥٥٦/١٩ عن رواية لجبير بن مطعم فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » ... الخ ج ١ ص ٧٤ حديث رقم ٥٤/٩٣ من رواية لأبى هريرة .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب السنة » باب فى الشفاعة ج ٥ ص ١٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لانس بن مالك .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ج ٩ ص ١٦٠ فقد ورد هذا من حديث طويل من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظ « ... فيقول أذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا » .

ماقد سلف (١) وقال النبي ﷺ : « الإسلام يجب ما قبله » (٢) وفي رواية « يهدم ما كان قبله » (٣) (رواه مسلم).

وأما الحسنات فلا تذهب ثوابها السيئات مطلقاً ، فإن حسنة الإيمان لا تذهب إلا بنقيضها وهو الكفر ، لأن الكفر ينافي الإيمان فلا يصير الكافر مؤمناً ، فلو زال الإيمان زال ثوابه . لا لوجود السيئة ، ولهذا كان كل سيئة لا تذهب بعمل لا يزول ثوابه ، وهذا متفق عليه بين المسلمين حتى المبتدعة من الخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يرون الكبيرة موجبة للكفر المنافي للإيمان ، والمعتزلة يرونها مخرجة له من الإيمان وإن لم يدخل بها في الكفر ، وأهل السنة والجماعة يرون أصل إيمانه باقياً ، فقد اتفقت الطوائف على أنه مع وجود إيمانه لا يزول ثوابه بشيء من السيئات والكفر ، وإن كانوا متفقين على أنه مع وجوده لا يزول عقابه بشيء من الحسنات ، فذلك لأن الكفر يكفى فيه عدم الإيمان ولا يجب أن يكون أمراً موجوداً كما تقدم ، فعقوبة الكفر هي ترك الإيمان ، وإن انضم إليها عقوبات على ما فعله من الكفر الوجودي أيضاً .

وكذلك فقد روى في بعض ثواب الطاعات المأمور بها ما يدفع ويرفع عقوبة المعاصي المنهى عنها ، فإذا كان جنس ثواب الحسنات المأمور بها يدفع عقوبة كل معصية ، وليس جنس عقوبات السيئات المنهى عنها يدفع ثواب كل حسنة : ثبت رجحان الحسنات المأمور بها على ترك السيئات المنهى عنها . وفي هذا المعنى ما ورد في فضل لا إله إلا الله ، وأنها تطفىء نار السيئات ؛ مثل حديث البطاقة وغيره (٤) (مجموع الفتاوى ج ٢٠)

### حكم تارك مباني الإسلام

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - إن مباني الإسلام الخمسة المأمور بها وإن كان ضرر تركها لا يتعدى صاحبها فإنه يقتل بتركها في الجملة عند جماهير العلماء ، ويكفر أيضاً عند كثير منهم أو أكثر السلف ، وأما فعل المنهى عنه الذي لا يتعدى ضرره صاحبه فإنه لا يقتل به عند أحد من الأئمة ، ولا يكفر به إلا إذا ناقض الإيمان ، لفوات الإيمان وكونه مرتدّاً أو زنديقاً .

وذلك أن من الأئمة من يقتله ويكفره بترك كل واحدة من الخمس لأن الإسلام بني عليها ، وهو قول طائفة من السلف ورواية عن أحمد اختارها بعض أصحابه .

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٩٨ - ١٩٩ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمر بن العاص ، وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث - أيضاً - من حديث طويل من روايات لعمر بن العاص .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « كون الإسلام يهدم ما قبله » ج ١ ص ١١٢ حديث رقم ١٢١/١٩٢ من حديث طويل لابن شماس المهري تضمن الحديث الذي معنا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤١٦ الترغيب في قول : لا إله إلا الله وما جاء في فضلها ، فعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله في ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما في الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » رواه أبو يعلى .

ومنهم من لا يقتله ولا يكفره إلا بترك الصلاة والزكاة ، وهي رواية أخرى عن أحمد ، كما دل عليه ظاهر القرآن في ( براءة ) وحديث ابن عمر وغيره ، ولأنهما منتظمان لحق الحق وحق الخلق ، كانتظام الشهادتين للربوبية والرسالة ولا بد لهما من غير جنسهما ، بخلاف الصيام والحج .

ومنهم من يقتله بهما ويكفره بالصلاة والزكاة إذا قاتل الإمام عليها كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره إلا بالصلاة ، كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره ، كرواية عن أحمد ، ومنهم من لا يقتله إلا بالصلاة ولا يكفره ، كالمشهور من مذهب الشافعي ، لإمكان الاستيفاء منه .

وتكفير تارك الصلاة هو المشهور المأثور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين .

ومورد النزاع هو فيمن أقر بوجوبها والتزام فعلها ولم يفعلها ، وأما من لم يقر بوجوبها فهو كافر باتفاقهم ، وليس الأمر كما يفهم من إطلاق بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : أنه إن جحد وجوبها كفر ، وإن لم يجحد وجوبها فهو مورد النزاع ، بل هنا ثلاثة أقسام :

أحدها : إن جحد وجوبها فهو كافر بالاتفاق .

والثاني : أن لا يجحد وجوبها ، لكنه ممتنع من التزام فعلها كبراً أو حسداً ، أو بغضاً لله ورسوله ، فيقول : أعلم أن الله أوجبها على المسلمين ، والرسول صادق في تبليغ القرآن ، ولكنه ممتنع عن التزام الفعل استكباراً أو حسداً للرسول ، أو عصبية لدينه ، أو بغضاً لما جاء به الرسول ، فهذا أيضاً كافر بالاتفاق ، فإن إبليس لما ترك السجود المأمور به لم يكن جاحداً للإيجاب فإن الله تعالى باشره بالخطاب ، وإنما أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكذلك أبو طالب كان مصداقاً للرسول فيما بلغه لكنه ترك اتباعه حمية لدينه ، وخوفاً من عار الانقياد ، واستكباراً عن أن تعلو أمته رأسه فهذا ينبغي أن يتفطن له .

ومن أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناولاً للتكذيب بالإيجاب ، متناولاً للامتناع عن الإقرار والالتزام كما قال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ <sup>(٢)</sup>

وإلا فمتى لم يقر ويلتزم فعلها قتل وكفر بالاتفاق .

والثالث : أن يكون مقرأً ملتزماً ، لكن تركها كسلاً وتهاوناً ، أو اشتغلاً بأغراض له عنها ، فهذا مورد النزاع ، كمن عليه دين وهو مقر بوجوبه ملتزم لأدائه ، لكنه يمتلئ بخلاً أو تهاوناً .

وهنا قسم رابع : وهو أن يتركها ولا يقر بوجوبها ، ولا يجحد بوجوبها لكنه مقر بالإسلام من حيث الجملة . فهل هذا من موارد النزاع ، أو من موارد الإجماع ؟ ولعل كلام كثير من السلف متناول لهذا ،

وهو المعرض عنها لا مقرا ولا منكرا ، وإنما هو متكلم بالإسلام فهذا فيه نظر ، فإن قلنا يكفر بالاتفاق ، فيكون اعتقاد بوجوب هذه الواجبات على التعيين من الإيمان لا يكفي فيها الاعتقاد العام ، كما في الخبريات من أحوال الجنة والنار ، والفرق بينهما : أن الأفعال المأمور بها المطلوب فيها الفعل لا يكفي فيها الاعتقاد العام ، بل لابد من اعتقاد خاص ، بخلاف الأمور الخيرية ، فإن الإيمان المجمل بما جاء به الرسول من صفات الرب ، وأمر المعاد يكفي فيه ما لم ينقض الجملة بالتفصيل ، ولهذا اكتفوا في هذه العقائد بالجمال وكرهوا فيها التفصيل المفضى إلى القتال والفتنة بخلاف الشرائع المأمور بها ، فإنه لا يكفي فيها بالجمال ، بل لابد من تفصيلها علما وعملا .

وأما القاتل والزاني والمحارب فهؤلاء إنما يقتلون لعدوانهم على الخلق لما في ذلك من الفساد المعنوي ، ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر أحد منهم .  
وأياها فالمرتد يقتل لكفره بعد إيمانه ، وإن لم يكن محاربا .

فثبت أن الكفر والقتل لترك المأمور به أعظم منه لفعل المنهى عنه وهذا الوجه قوى على مذهب الثلاثة : مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجمهور السلف ، ودلائله من الكتاب والسنة متنوعة ، وأما على مذهب أبي حنيفة فقد يعارض بما قد يقال : إنه لا يوجب قتل أحد على ترك واجب أصلا حتى الإيمان ، فإنه لا يقتل إلا المحارب لوجود الحراب منه وهو فعل المنهى عنه ويسوى بين الكفر الأصلي والطارئ فلا يقتل المرتد لعدم الحراب منه ، ولا يقتل من ترك الصلاة أو الزكاة إلا إذا كان في طائفة ممتنعة ، فيقاتلهم لوجود الحراب كما يقاتل البغاة ، وأما المنهى عنه فيقتل القاتل والزاني المحصن والمحارب إذا قتل ، فيكون الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الاعتبار عند النزاع بالرد إلى الله وإلى الرسول ، والكتاب والسنة دال على ما ذكرناه ، من أن المرتد يقتل بالاتفاق وإن لم يكن من أهل القتال : إذا كان أعمى أو زمنا أو راهبا ، والأسير يجوز قتله بعد أسره وإن كان حرا به قد انقضى .

الثاني : إن ما وجب فيه القتل إنما وجب على سبيل القصاص الذي يعتبر فيه المماثلة ، فإن النفس بالنفس ، كما تجب المقاصة في الأموال ، فجزاء سيئة سيئة مثلها في النفوس والأموال والأعراض والأبشار ، لكن إن لم يضر إلا المقتول كان قتله صائرا إلى أولياء المقتول ، لأن الحق لهم كحق المظلوم في المال . وإن قتله لأخذ المال كان قتله واجبا ، لأن المصلحة العامة التي هي حد الله ، كما يجب قطع يد السارق لأجل حفظ الأموال ، ورد المال المسروق لحق صاحبه ، إن شاء أخذه وإن شاء تركه ، فخرجت هذه الصور عن النقص ، لم يبق ما يوجب القتل عنده بلا مماثلة إلا الزنا ، وهو نوع من العدوان أيضا ووقوع القتل به نادر لخفائه وصعوبة الحجة عليه .

الثالث : أن العقوبة في الدنيا لا تدل على كبر الذنب وصغره ، فإن الدنيا ليست دار الجزاء ، وإنما دار الجزاء هي الآخرة ، ولكن شرع من العقوبات في الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان ، كما قال تعالى : ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فسادا في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾ (١) وقالت الملائكة :

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾<sup>(١)</sup> فهذان السببان اللذان ذكرتهما الملائكة هما اللذان كتب الله على بنى إسرائيل القتل بهما ، ولهذا يقر كفار أهل الذمة بالجزية ، مع أن ذنبهم فى ترك الإيمان أعظم باتفاق المسلمين من ذنب من نقتله من زان وقاتل .

وقد وافقه على ذلك مالك وأحمد فى أحد قوليه ، ومع هذا يجوز القتل تعزيراً وسياسة فى مواضع .

وأما الشافعى فعنده نفس الكفر هو المبيح للدم ، إلا أن النساء والصبيان تركوا لكونهم مالأً للمسلمين ، فيقتل المرتد لوجود الكفر ، وامتناع سببها عنده من الكفر فلا منفعة .

وأما أحمد فالمبيح عنده أنواع ، أما الكافر الأصلي فالمبيح عنده هو وجود الضرر منه ، أو عدم النفع فيه ، أما الأول فالمحاربة بيد أو لسان ، فلا يقتل من لا محاربة فيه بحال من النساء والصبيان ، والرهبان والعميان ، والزمنى ونحوهم ، كما هو مذهب الجمهور . وأما المرتد فالمبيح عنده هو الكفر بعد الإيمان ، وهو نوع خاص من الكفر ، فإنه لو لم يقتل ذلك لكان الداخل فى الدين يخرج منه ، فقتله حفظ لأهل الدين وللدين ، فإن ذلك يمنع من النقص ويمنعهم الخروج عنه .

بخلاف من لم يدخل فيه ، فإنه إن كان كتابياً أو شبيهاً له فقد وجب إحدى غايتى القتال فى حقه ، ومتى لم يكن استرقاقه ولا أخذ الجزية منه بقى كافراً لا منفعة فى حياته لنفسه لأنه يزداد إثماً - ولا للمؤمنين ، فيكون قتله خيراً من إبقائه . وأما تارك الصلاة والزكاة ، فإذا قتل كان عنده من قسم المرتدين لأنه بالإسلام ملتزم لهذه الأفعال ، فإذا لم يفعلها فقد ترك ما التزمه ، أو لأنها عنده من الغاية التى يمتد القتال إليها كالشهادتين فإنه لو تكلم بإحدهما وترك الأخرى لقتل ،

ويفرق فى المرتد بين الردة المجردة فيقتل إلا أن يتوب ، وبين الردة المغلظة فيقتل بلا استتابة .

فهذه مآخذ فقهية نبهنا بها على بعض أسباب القتل ، وقد تبين أنهم لا يتنازعون أن ترك المأمور به فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فقد ذكرنا ما تقدم . ( مجموع الفتاوى جزء ٢٠ )

### هجر أهل البدع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن داعية أهل البدع يهجر فلا يستشهد ولا يروى عنه ، ولا يستفتى ولا يصلى خلفه ، قد يكون من هذا الباب ، فإن هجره تعزير له وعقوبة له جزاء لمنع الناس من ذلك الذنب الذى هو بدعة أو غيرها ، وإن كان فى نفس الأمر تاباً أو معذوراً ، إذ الهجرة مقصودها أحد شيئين :

إما ترك الذنوب المهجورة وأصحابها ، وإما عقوبة فاعلها ونكاله .

ومن هذا الباب هجر الإمام أحمد للذين أجابوا فى المحنة قبل القيد ولمن تاب بعد الإجابة ، ولمن فعل بدعة ما ، مع أن فيهم أئمة فى الحديث والفقه والتصوف والعبادة ، فإن هجره لهم

والمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا لما أمر النبي ﷺ بهجرهم لم يمنع ذلك ما كان لهم من السوابق . حتى قيل إن اثنين منهما شهدا بدرًا ، وقد قال الله لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأحدهم كعب بن مالك شاعر النبي ﷺ وأحد أهل العقبة ، فهذا « أصل عظيم » أن عقوبة الدنيا المشروعة من الهجران إلى القتل لا يمنع أن يكون المعاقب عدلاً أو رجلاً صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة ، وبين عقوبة الآخرة والله سبحانه أعلم .

( ص ٣٧٦ ج ١٠ مجموع الفتاوى )

### التوبة من الذنوب

ذهب طائفة من أهل الكلام كأبى هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر - قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها ، وحكى القاضى أبويعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد ، لأن المروزي نقل عنه أنه سئل عن من تاب من الفاحشة وقال : لومرؤست لم أعد لكن لا يدع النظر ، فقال أحمد : أى توبة ذه ؟! قال جرير بن عبد الله : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك »<sup>(١)</sup> ( رواه مسلم ) . .

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة ، وأحمد فى هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقاً لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافى ذلك . وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضاً أولى من حمله على التناقض ، لا سيما إذا كان القول الآخر مبتدعاً لم يعرف عن أحد من السلف ، وأحمد يقول : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها فهم ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول ما لم يقل . واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وما ذكره من أن الخشية توجب العموم .

فجوابه : أنه قد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه فى أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض ، فإن ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم وإن خالفوهم فى الاسم ، فقالوا : إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يشبهه ، ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

(١) أنظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب تحريم النظر فى بيت غيره جـ ٣ ص ١٦٩٩ « باب نظر الفجأة » حديث ٢١٥٩/٤٥ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله ﷺ - عن نظر الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى ،

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ولكن قد تحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة . ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر . كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يتغنى بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وإن كان مستحقاً للعقوبة على كبريته .

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضاً وبين حكم الكفار في « الأسماء والأحكام » والسنة المتواترة عن النبي ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك . كما هو مبسوط في غير هذا الموضع .

### التوبة من بعض الذنوب

وعلى هذا تنازع الناس في قوله : ( إنما يتقبل الله من المتقين )<sup>(١)</sup> فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقاً فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك . فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم « المتقين » وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعله خالصاً لله موافقاً لأمر الله فمن اتقاه في عمله تقبله منه ، وإن كان عاصياً في غيره . ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً في غيره .

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطاً في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(٤)</sup> إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه ، أما ما لم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب ، لا على حكم من تاب ، وما علمت في هذا نزاعاً إلا في الكافر إذا أسلم ، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه ، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولم يتب منها في الإسلام؟ هذا فيه قولان معروفان :

أحدهما : يغفر له الجميع ؛ لإطلاق قوله ﷺ : « الإسلام يهدم ما كان قبله »<sup>(٥)</sup> رواه مسلم مع قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) سورة المائدة من الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٩ .

(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢١٧ .

(٥) أنظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله .. الخ ج ١ ص ١١٢ فقد ورد الحديث رقم ١٢١/١٩٢ وهو حديث طويل من رواية لابن شماسه المهرى وقد تضمن هذا الحديث .

(٦) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .



## القول الثاني :

أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه ، فإذا أسلم وهو مصرّ على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر ، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص ؛ فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ : « قال له حكيم بن حزام : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية ؟ فقال : من أحسن منكم في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر »<sup>(١)</sup> فقد دل هذا النص على أنه إنما ترتفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن يحسن ، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن . وقوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾<sup>(٢)</sup> .

يدل على أن المنتهى عن شيء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على أن المنتهى عن شيء يغفر له ما سلف من غيره ، وذلك لأن قول القائل لغيره : إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شيء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك في قوله : « إن تبت » لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره .

وأما قول النبي ﷺ : « الإسلام يهدم ما قبله » وفي رواية « يجب ما كان قبله » فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم قبله ، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها »<sup>(٣)</sup> ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

إن الإنسان قد يستحضر ذنوباً فيتوب منها ، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنباً ، لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا بفعل المأمور وترك المحذور وكذلك تتضمن ندمًا عامًا على كل محذور . ( ص ٣٢٠ ج ١٠ مجموع الفتاوى ) . اهـ .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب إстابة المرتدين » . الخ ج ٨ ص ١٧-١٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن مسعود . وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » ج ١ ص ١١١ حديث رقم ١٩٠/١٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٠٥ فقد ورد الحديث في رواية عن ابن شماسه المهري . وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله ج ١ ص ١١٢ حديث ١٩٢/١٢١ وهو حديث طويل من رواية ابن شماسه المهري وقد تضمن الحديث الذي معنا .

## من مشاهد القيامة في القرآن الكريم

قال تعالى :

اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٧﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا  
 بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ  
 أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾  
 بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢١﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ  
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٢﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ  
 فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ  
 يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءُ وَقُضِيَ  
 بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾  
 وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا  
 أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا  
 قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ  
 خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ  
 إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴿٢٨﴾  
 وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ

أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ  
وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

### معاني المفردات

(وكيل) : أى : قيم بالحفظ والرعاية فيتولى التصرف بحسب الحكمة والمصلحة .  
(مقاليد) أى : مفاتيح (ليحطن عملك) أى : ليزهبن هباء ولا يكون له أثر .  
(وما قدروا الله حق قدره) أى : ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به .  
(الصور) : القرن الذى ينفخ فيه ، (صعق) أى : غشى عليه ، (ينظرون) أى : ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ (أشرقت) أى : أشرقت الشمس : أضاءت وشرقت : طلعت (ووضع الكتاب) أى : ووضعت صحائف الأعمال بأيدي العاملين ، (بالحق) أى : بالعدل ، (ما عملت) أى : جزاء ما عملت (وسيق) السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علاوة على الإهانة والاحتقار . وهذا فى حق الكافرين . (زمر) الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض . (خزنتها) الخزنة : واحدتهم خازن .  
(ينذرونكم) أى : يخوفونكم . (حققت) : وجبت .

### المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن بسط سبحانه الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك - عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئا ، وأنهم إن فعلوا ذلك حبطت أعمالهم ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية . ثم أردف ذلك ذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه . فيذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا ، ثم فصل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التائب والتوبيخ ، وذكر سبحانه بعد ذلك أحوال السعداء ، وما يلاقونه من النعيم ، وما يقال لهم وما يقولون (وقيل الحمد لله رب العالمين) .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾ \* له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ \* قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ \* ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ \* بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ \* يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلايته . كقوله عز وجل : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ \* ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾ \* لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ \* قال مجاهد : المقاليد : المفاتيح وقال السدى : ( له مقاليد السموات والأرض ) أى : خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير ﴾ \* له مقاليد السموات والأرض ، ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله عز وجل : ﴿ والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ﴾ \* أى : والذين كفروا بحججه وبراهينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون .

وقوله تعالى : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ؟ ﴾

ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدون معه إلهه فترلت ( قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ \* ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ) وهذه كقوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ \* .

وقوله عز وجل : ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ \* أى : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك .

قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ \* .

يقول ابن كثير :

يقول تبارك وتعالى : ( وما قدروا الله حق قدره ) أى : ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته .

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٣ ..

(٢) سورة الشورى الآيتان : ١١ - ١٢ ..

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ( وما قدروا الله حق قدره ) : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قال البخارى : قوله تعالى : ( وما قدروا الله حق قدره ) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء خبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله - عز وجل - يجعل السموات والأرض على أصبع والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الخبر ثم قرأ رسول الله ﷺ : ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ) الآية ورواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى التفسير عن ابن مسعود رضى الله عنه بنحوه .<sup>(١)</sup>

وقال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء يمينه ثم يقول : أنا الملك ، أبى ملوك الأرض » تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر<sup>(٢)</sup>

وقال البخارى : عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضا من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر<sup>(٣)</sup>

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعة آخرين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ( وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ) وهو يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرن<sup>(٤)</sup> .

قوله جل فى علاه : ( سبحانه وتعالى عما يشركون ) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة والحكمة الباهرة . ( وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الدل وكبره تكبيرا ) .

﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » ص ١٥١ فقد ورد الحديث من رواية عن عبد الله .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى مالك الناس » ج ٩ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث من رواية عن أبى هريرة . وانظر ج ٨ ص ١٣٥ باب يقبض الله الأرض .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » ص ١٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٤) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٦٢ ، ٦٣ ط/دار الفكر فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠) ﴿

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ﴾ هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من شاء الله - كما جاء به مفسراً في حديث الصور المشهور - ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخراً وهو الأول والآخر ، الحي الذي لا يموت ، يقول سبحانه : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ <sup>(١)</sup> ثلاث مرات ثم يجيب نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ <sup>(٢)</sup> ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ <sup>(٣)</sup> ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثالثة ، نفخة البعث قال الله عز وجل : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي : أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ <sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ فإذا هم بالساهرة ﴾ <sup>(٥)</sup> . وكقوله عز وجل : ﴿ ويوم ينفخ في الصور ففرع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ <sup>(٦)</sup> . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر فينفخ ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على

(١) غافر آية : ١٦

(٢) غافر آية : ١٦

(٣) الأنعام الآية : ٧٣

(٤) يس آية : ٥١

(٥) النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٦) النمل الآيات : ٨٧ - ٩٠

الله توكلنا»<sup>(١)</sup>. (صحيح الجامع الصغير) والمعنى : كيف أطيب عيشاً وقد قرب أمر الساعة ؟ وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث فيهم أربعين لا أدرى أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين عاماً أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفى فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى أن لو كان أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا . قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول ، ألا تستجيبيون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم فى ذلك دائرة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليता ، ورفع ليता ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ثم يرسل الله تعالى أوينزل الله عز وجل مطراً كأنه الظل - أو الطل شك الراوى - فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوههم إنهم مسئولون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال البخارى بسنده عن أبى صالح قال : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : « بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوماً ؟ قال رضى الله عنه : آبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : آبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : آبيت ، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجب الذنب فيه يركب الخلق »<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أى : أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء . ( ووضع الكتاب ) قال قتادة : كتاب الأعمال ( وجىء بالنبين ) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يشهدون على الأمم بأثهم بلغوهم رسالات الله إليهم ( والشهداء ) أى : الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وقضى بينهم بالحق ﴾ أى : بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال جل وعلا : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾<sup>(٥)</sup> ولهذا قال عز وجل : ﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أى : من خير أو شر ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب ، فلا يفوته من أعمالهم شيء ، ومن ثم يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن

(١) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٢ أبواب صفة القيامة برقم ٢٥٤٨ وقال : هذا حديث حسن .

(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٦٦ / والحاكم جـ ٤ ص ٥٥٠ ، ص ٥٥١ وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) أخرجه البخارى جـ ٦ ص ١٥٨

(٤) الأنبياء آية : ٤٧

(٥) النساء آية : ٤٠

حققت كلمة العذاب على الكافرين \* قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿١﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار ، كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴾ (١) أى : يدفعون إليها دفعاً ، وكما قال عز وجل : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴿٢﴾ وهم فى تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشى على وجهه قال تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمياً وَبُكْماً وَصَمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا ﴾ أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة .

﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى على وجه التقرير والتوبيخ والتنكيل : ﴿ ألم يأتكم رسل منكم ؟ ﴾ أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم : ( بلى ) أى : قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التى كنا نستحقها ، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال عز وجل مخبراً عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿ (٤) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أى : كل من رآهم وعلم حالهم ، يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم ، بأنهم يستحقون ما هم فيه ، بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أى : ماكنين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى : فبئس المصير ، وبئس المقيّل لكم ، بسبب تكبركم فى الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ﴾ ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض



نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين \* وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿١﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء ، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة ( زمراً ) جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع الصديقين ، والشهداء مع أضربهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضاً ﴿٢﴾ حتى إذا جاءوها ﴿٣﴾ أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتصر لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة ، تشاوروا فيمن يستأذن لهم فى الدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمداً ﷺ وعليهم أجمعين ، كما فعلوا فى العرصات ، عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتى لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ مسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة » (١) .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتى باب الجنة يوم القيامة أستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد - قال - فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك » (٢) .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا ييصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها ، أنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض . قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشيا » (٣) ورواه البخارى ولمسلم بنحوه . وقال الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » (٤) وأخرجاه أيضاً من حديث جرير .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم

(١) أخرجه الإمام مسلم ج ١ ص ١٨٨ برقم ٣٣٠ ، ١٩٦/٣٣١ كتاب الإيمان

(٢) أخرجه الإمام أحمد ج ٣ ص ١٣٦ ومسلم ج ١ ص ١٨٨ برقم ١٩٧/٣٣٣ كتاب الإيمان

(٣) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق / أحمد ج ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ والتزمى ج ٤ ص ٨٥ برقم ٢٦٦٠ أبواب صفة الجنة ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٠ برقم ٢٨٣٤/١٧ .

(٤) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق / أحمد ج ٢ ص ٢٥٣ مسلم ج ٤ ص ٢١٧٩ برقم ١٥ ، ٢٨٣٤/١٦ كتاب الجنة وصفة نعيمها

إكراماً وتعظيماً ، وتلقّتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء ، فتقديره إذا كان هذا : سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ، ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل .

ويقول الإمام ابن القيم : ما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة ، وذكره في آية أهل النار ؟

فيقال : هذا أبلغ في الموضعين ، فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها ، وأبوابها مغلقة ، حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت في وجوهمهم ، فيفجؤهم العذاب بغتة ، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط : أن يكون عقبيه ، والنار دار الإهانة والخزي ، فلم يستأذن لهم في دخولها ، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة فإنها دار الله ، ودار كرامته ، ومحل خواصه وأوليائه ، فإذا انتهوا إليها ، صادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها ، ويستشفعون إليه بأولى العزم من رسله ، وكلهم يتأخر عن ذلك ، حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم ، فيقول : ﴿ أنا ﴾ فيأتي إلى تحت العرش ، ويخر ساجدا لربه ، فيدعه ربه ساجداً ما شاء أن يدعه ، ثم يأذن له في رفع رأسه ، وأن يسأل حاجته ، فيشفع إليه سبحانه في فتح أبوابها ، فيشفعه ، ويفتحها تعظيماً لخطره ، وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه ، وأن مثل هذه الدار ، التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين ، إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة ، التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها ، وما ركب من الأطباق طبقاً بعد طبق ، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة ، حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله ، وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم . وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة ، وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك ، لثلاث يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء ، فجنة الله غالية ، وبين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار ما لا تنال إلا به . فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ولهذه الدار ؟ فليبعد عنها إلى ما هو أولى به . وقد خلق له وهيء له .

وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً : من فرحة هؤلاء بإخوانهم ، وسيرهم معهم كل زمرة على حدة ، كمشاركين في عمل متصاحبين فيه على زمرة وجماعتهم ، مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير ، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ، ويفرح بعضهم ببعض ، وكذلك أصحاب الدار الأخرى ، النار يساقون إليها زمراً ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويتأذى بعضهم ببعض ، وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة من أن يساقوا واحداً واحداً .

فلا تهمل ، وتدبر قوله : ﴿ زمراً ﴾ ، وقول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ سلام عليكم ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه ، أي : سلمتم ، فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ، ثم قالوا لهم : ﴿ طبتُم فادخلوها خالدين ﴾ أي : سلامتكم ودخولكم الجنة يطيبكم ، فإن الله حرّمها إلا على الطيبين ، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود .

أما أهل النار فإنهم حين انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن ، فتحت لهم أبوابها ، فوقفوا عليها ، وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم : ﴿ ألم يأتكم رسل

منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴿ فاعترفوا وقالوا : ﴿ بلى ﴾ فبشروهم بدخول النار ، والخلود فيها ، وأنها بشئ المشوى والمأب لهم .

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ ادخلوها ﴾ وقول خزنة النار لأهلها : ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ تجد تحتها سرّاً لطيفاً ، ومعنى بديعاً ، لا يخفي على المتأمل ، وهو أنه لما كانت النار دار العقوبة وأبوابها أفطع شيء ، وأشدّه حرّاً ، وأعظمه غمّاً ، يستقبل الداخل فيها من العذاب ما هو أشد منها ، ويدتنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب . فقل : ادخلوا أبواب جهنم صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً ، ثم قيل لهم : لا يقتصر بكم العذاب على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ، ولكن وراءها الخلود في النار .

وأما الجنة : فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه ، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى الأرائك والمنازل والخلود فيها .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ .

أى : وقال المؤمنون إذ عاينوا ذلك النعيم المقيم ، والعطاء العظيم في الجنة : الحمد لله الذي صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا بذلك في الدنيا وقالوا : ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ (١) وقال الحق تبارك اسمه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ (٢) .

وهم كذلك يحمدون الله على نعمة الإيمان والهداية فيقولون : ﴿ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثنا الأرض ننبؤاً من الجنة حيث نشاء ﴾ أى : وجعلنا نتصرف في أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث ، فنتخذ منها مباءة وسكناً حيث شئنا ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ أى : فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، وثوابنا الذي أعطيتنا . وقوله تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

لما ذكر تعالى الحكمة في أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا في المحل الذي يليق به ، ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ، ويعظمونه ، ويقدسونه ، وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وقضى بينهم ﴾ أى : بين الخلائق ( بالحق ) ثم قال : ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : نطق الكون أجمعه لله رب

العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾ <sup>(١)</sup> .

واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ لذا يقول سبحانه : ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال سبحانه فى فاتحة الكتاب : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً ، طيباً ، مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد .

(١) الأنعام آية : ١  
(٢) القصص آية : ٧٠

## تفسير سورة غافر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها خمس وثمانون في عدد الكوفة والشام . . . .  
 وكلماتها ، ألف ومائة وتسع وتسعون .  
 وحروفها : أربعة آلاف وتسعمائة وستون .

ولها ثلاثة أسماء : سورة المؤمن ، لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون في قوله تعالى :  
 ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه .. الآية ﴾ وسورة الطول لقوله تعالى : ﴿ ذى الطول ﴾  
 والثالث : حم الأولى ؛ لأنها أولى ذوات حم .

## معظم مقصود السورة

المنة على الخلق بالغفران ، وقبول التوبة ، وخطبة التوحيد على جلال الحق ، وتقلب الكفار  
 بالكسب والتجارة ، وبيان وظيفة حملة العرش ، وتضرع الكفار في قعر الجحيم ، وإظهار أنوار العدل  
 في القيامة ، وذكر إهلاك القرون الماضية ، وإنكار فرعون على موسى وهارون ، ومناظرة مؤمن  
 آل فرعون لقوم فرعون ناثباً عن موسى ، وعرض أرواح الكفار على العقوبة ، ووعد النصر للرسول ،  
 وإقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضلال ، والوعد بإجابة دعاء المؤمنين ، وإظهار أنواع  
 العجائب من صنع الله ، وعجز المشركين في العذاب ، وأن الإيمان عند اليأس غير نافع ، والحكم  
 بخسران الكافرين والمبطلين في قوله تعالى : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾<sup>(١)</sup> .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ وبعده ﴿ أفلم يسيروا ﴾ ما يتعلق بذكرهما سبق .  
 قوله : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم ﴾ وفي التغابن : ﴿ بأنه كانت ﴾ لأن هاء الكناية إنما  
 زيدت لامتناع ( أن ) عن الدخول على ( كان ) فخصت هذه السورة بكناية المتقدم ذكرهم ، موافقة  
 لقوله : ﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾ وخصت سورة التغابن بضمير الأمر والشأن توصلاً إلى ( كان ) .  
 قوله : ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ في هذه السورة فحسب ، لأن الفعل لموسى وفي سائر القرآن  
 الفعل للحق .

قوله : ﴿ إن الساعة لآتية ﴾ وفي طه ﴿ آتية ﴾ لأن اللام ، إنما تزداد لتأكيد الخبر ، وتأکید الخبر ،  
 إنما يحتاج إليه إذا كان المخبر به شاكاً في الخبر ، والمخاطبون في هذه السورة هم الكفار ، فأكد ،  
 وكذلك أكد ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ ( وافق ما قبله ) في هذه السورة باللام .

قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ وفي سورة يونس ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ - وقد سبق - لأنه وافق ما قبله في هذه السورة : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ثم قال : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قوله في الآية الأولى : ﴿ لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون أن خلق الأصغر أسهل من خلق الأكبر ، ثم قال : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أى : لا يؤمنون بالبعث . ثم قال : ﴿ لا يشكرون ﴾ أى : لا يشكرون الله على فضله ، فختم كل آية بما اقتضاه . قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ مدح نفسه سبحانه ، وختم ثلاث آيات على التوالى بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ وليس له فى القرآن نظير .

قوله : ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ وختم السورة بقوله : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ لأن الأول متصل بقوله ﴿ قضى بالحق ﴾ ونقيض الحق الباطل ، والثانى متصل بإيمان غير مُجدد ، ونقيض الإيمان الكفر .

#### مناسبتها لما قبلها

- ١ - إنه ذكر فى سابقتها ما يثول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .
- ٢ - إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال تعالى :

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٢﴾ مَا يُجَدَلُ فِيْ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٤﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٥﴾

## معانى المفردات

(الجدل) : شدة اللّد في الخصومة . (تقلبهم) أى : تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، (الأحزاب) : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، (وهمت) أى : عزمت ، (ليأخذوه) أى : ليقتلوه ويعذبوه ، (ليدحضوا) أى : ليزيلوا ، (حقّت) أى : وجبت ، (كلمة ربك) أى : حكمه بالإهلاك .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ حَمَّ ﴾ قال عامر الشعبي وسفيان الثوري ، وجماعة من المحدثين في الحروف التى فى أوائل السور : هى سر الله فى القرآن ، والله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه . ولا يجوز أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت ، وقد ورد هذا القول عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، حكاه القرطبي فى تفسيره ، وقال بعض السلف : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى - أ ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ي ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن - يجمعها هذا القول : نص حكيم قاطع له سر .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أى : تنزيل هذا الكتاب ، وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنبه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابيه .

وقوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أى : يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة فى المستقبل ، لمن تاب إليه ، وخضع لديه ، كقوله تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ <sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنات

(١) طه آية : ٨٢

(٢) التوبة آية : ١٠٤

(٣) النساء آية : ١١٠

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴿١﴾ ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ﴿٢﴾ رواه مسلم . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » ﴿٣﴾ . رواه الترمذى وقال : حديث حسن (والغرغرة : المراد سكرات الموت) .

وقوله جل وعلا : ﴿ شديد العقاب ﴾ أى : لمن تمرد ، وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغى ، وقد ذكر سبحانه أنه : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ لترغيب عباده العاصين ، وذكر ﴿ شديد العقاب ﴾ لترهيبهم ، وفى مجموع هذا : الحث على فعل المراد من تنزيل الكتاب ، وهو التوحيد ، والإيمان ، والبعث ، والإخلاص لله فى العمل ، والإقبال عليه ، وقد جمع القرآن هذين الوصفين ، فى مواضع كثيرة منه كقوله تعالى : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ \* وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴿٤﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ ﴿٥﴾ ، وكقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ ﴿٦﴾ وكقوله جل فى علاه : ﴿ ففروا إلى الله إني لكم نذير مبين ﴾ ﴿٧﴾ فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ، ففروا إلى الله ، الغفور الرحيم ، التواب الرحيم ، الكريم الحنان ، واحذروا غضبه وعقابه ، وكان الحبيب المصطفى ﷺ يدعو ربه : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » ﴿٨﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ذى الطول ﴾ يعنى السعة والغنى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال عكرمة : ( ذى الطول ) ذى المن ، والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون بشكر واحدة منها ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ ﴿٩﴾ الآية .

وقوله جلّت عظمتة ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى : لا معبود بحق إلا الله .

﴿ إليه المصير ﴾ أى : المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله ( وهو سريع الحساب ) وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا إسحاق السبيعي يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فقال يا أمير المؤمنين : إني قتلت ، فهل لى من توبة ؟ فقرأ عمر رضى الله عنه : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ \* غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴿ وقال : اعمل ولا تيأس . رواه ابن أبى حاتم .

(١) آل عمران الآيات : ١٣٥ ، ١٣٦ . (٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١١٣ برقم ٢٧٥٩/٣١ كتاب التوبة

(٣) أخرجه الترمذى فى باب الدعوات ج ٥ ص ٢٥٧ برقم ٣٦٠٣

(٤) الحجر الآيات : ٤٩ ، ٥٠

(٥) الرعد آية : ٦

(٦) المائدة آية : ٩٨

(٧) الذاريات آية : ٥٠

(٨) أخرجه الإمام أحمد ج ١ ص ٩٦/ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٦٣ برقم ٣٨٤١

(٩) إبراهيم الآية : ٣٤ والنحل الآية : ١٨



قوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغفر لك تقلبهم في البلاد ﴾ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار .  
يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان ، وظهور البرهان ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه .

﴿ فلا يغفر لك تقلبهم في البلاد ﴾ أي : فلا يغفر لك ما يفعلونه من التجارة النافعة في البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم إن أمهلوا فإنهم لا يهملون ، قال الزجاج : لا يغفر لك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يغفر لك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴿ (١) ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين ﴾ ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ﴾ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴿ (٢) ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ (٣) ثم قال تعالى مسلياً نبيه محمداً ﷺ ، في تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم قد كذبهم أمهم وخالفوهم ، وما آمن بهم إلا قليل فقال سبحانه : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ، ينهى عن عبادة الأوثان ( والأحزاب من بعدهم ) أي : من كل أمة ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أي : حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي : ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . كقولهم : ( ما أنتم إلا بشر مثلنا ) ليطلوا به الحق الذي جاء به من عند الله ، وليطفثوا النور الذي أوتيه ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليطلوا الإيمان . ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ أي : أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ، ونكالي بهم ، قد كان شديداً موجعاً مؤلماً ، قال قتادة : كان شديداً والله . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ وقوم إبراهيم وقوم لوط ﴾ وأصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ فكأن من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴿ (٤) ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٥) .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ قال ابن كثير : أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء ، الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأخرى ، لأن من كذبك ، فلا وثوق له بتصديق غيرك . والله أعلم .

(١) آل عمران الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) الشعراء الآيات : ٢٠٥ - ٢٠٧

(٣) لقمان آية : ٢٤

(٤) الحج الآيات : ٤٢ - ٤٥

(٥) العنكبوت آية : ٤٠

## منزلة المؤمنين عند الله تعالى

الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ  
ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ  
عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ  
وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ  
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٩﴾

## معاني المفردات

(العرش) : مركز تدبير العالم ، وندع أمر وصفه إلى عالم الغيب ، فهو العليم بعرشه .  
(سبيلك) : طريق الهدى (دين الإسلام) . (وقهم) : أى : احفظهم ، من وقية كذا ، أى : حفظته ،  
(السيئات) : أى الجزاء المرتب عليها .

## المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أبان - سبحانه - ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسول بالباطل ،  
لإطفاء نور دعوتهم ، أردف ذلك بيان أن أشرف المخلوقات ، وهم الملائكة ، الذين يحملون العرش  
والحافون حول العرش - يحبون المؤمنين ، ويطلبون لهم ولآبائهم وأزواجهم وذرياتهم المغفرة من  
ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزناً ، وكفأك نصرة حملة العرش والحافين  
حوله .

## (التفسير)

هذا المشهد القرآنى العظيم ، فيه إخبار منه سبحانه وتعالى عن الذين يحملون العرش العظيم ،  
والذين حوله ، ما شأنهم ؛ إنهم ينزهون الله تبارك اسمه ، تنزيها مقترنا بالحمد ، فيقولون : سبحان الله  
وبحمده ، والملائكة أجسام نورانية ، تتشكل بالأشكال الحسنة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ،  
ولا يتزوجون ، ولا يتناسلون ﴿١﴾ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴿٢﴾ لا يستكبرون عن عبادته  
ولا يستحسرون ﴿٣﴾ ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، فإنهم لا يسأمون ، وهم عباد مكرمون ،  
لا يسبقون بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ،  
وهم من خشيته مشفقون ، ما من موضع قدم فى السماء ، إلا وفيه ملك قائم ، أو راع ، أو ساجد لله ،  
﴿٤﴾ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ،  
ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴿٥﴾ فاللهم لك الحمد ، فأنت فاطر السموات والأرض ، ولك الحمد ،  
أنت جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع ، تزيد فى الخلق ما تشاء ، إنك على كل  
شئ قدير ، إنهم لا يقتصرون على التسبيح والتحميد ، بل يجمعون بين ذلك ، وبين الاستغفار

للمؤمنين إنهم يقولون : كما روى شهر بن حوشب رضى الله عنه : ( حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك )<sup>(١)</sup> ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ﴾ أى : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ أى : يا ربنا ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الحول والطول ، يا ذا الجاه والغنى ، يا صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، يا صاحب العزة القائمة ، والحكمة الدائمة ، اصفح عن عبادك المؤمنين ، واعف عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإنهم تابوا واتبعوا سبيل الهدى ، وقهم عذاب الجحيم يوم لقائك .

ما هذه الروعة ، وما هذا الإكرام للمؤمنين ، حملة العرش يدعون لهم بظهر الغيب ، جل جلالك ربنا إذ تقول : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾ وبعد التخلية من العذاب ، تأتي التخلية بدخول الجنة ، إنهم يضيفون إلى تلك الدعوات المباركة ، دعوة طيبة أخرى ، يضيفون فيها إلى المؤمنين من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنهم يدعون بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين قائلين : ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وسبحان من عمت رحمته ، وبلغت حكمته وجلت قدرته ، وتعال عظمته ، إذ يقول : ﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم \* فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين \* والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين \* وأمدهمناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم \* ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون \* وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون \* قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين \* فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم \* إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾<sup>(٢)</sup> . وإذ يقول : ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب \* الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق \* والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب \* والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدبرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار \* جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب \* سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾<sup>(٣)</sup> .

وإذ يقول : ( إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون \* هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون \* لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون \* سلام قولاً من رب رحيم )<sup>(٤)</sup> . قال سعيد بن جبیر : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إني إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبیر هذه الآية : ﴿ ربنا

وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴿ الآية ﴾ . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : ( ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ) الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فإنه تذييل حكيم ، فالذي يملك المغفرة والرحمة ، والعفو والصفح الجميل ، هو العزيز الذي لا يغلب - القاهر فوق عباده ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه الحكيم . هو المنزه عن العبث الذي يضع الأمور في نصابها ، فيرحم من يستحق الرحمة ، ﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ، ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ (١) ثم تضيف الملائكة إلى دعواتها دعوة أخرى ، فتقول : ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . أي : اجعل بينهم وبين فعل السيئات حجاباً مستوراً ، وحصناً حصيناً ، وحجاباً مكيناً ( ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ) أي : يوم القيامة ، لأنه أذاك بقلب سليم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴿ (٣) وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أو رثموها بما كنتم تعملون ﴾ (٤) وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴿ (٥) لا فوز أعظم من هذا ، فكل بلاء دون النار عافية ، وكل نعيم دون الجنة حقير ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (٦) لذا عبر القرآن الكريم عن هذا الفوز بأسلوب الحصر والقصر ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فتعريف الطرفين المسند والمسند إليه ﴿ ذلك ﴾ ﴿ الفوز ﴾ والإتيان بضمير الفصل بينهما ( هو ) طريقان من طرق القصر .

(٤) الأعراف آيات : ٤٢ - ٤٣

(٥) الفتح آيات : ٤ ، ٥

(٦) آل عمران الآية : ١٨٥

(١) الأعراف الآيات : ١٥٦ - ١٥٨

(٢) النحل آية : ٩٧

(٣) التوبة الآيات : ٧١ ، ٧٢

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
 وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يا رب إن العيش عيش الآخرة  
 أرف الرحيل إلى ديار الآخرة      فاجعل إلهي خير عمري آخره  
 فلئن رحمت لأنت أكرم راحم      وبحار جودك يا إلهي زاخرة  
 آنس مبيتى فى القبور ووحشتى      وارحم عظامى حين تمسى ناخرة

\* \* \*

### أحكام تخشع لها القلوب

قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١﴾  
 قَالُوا رَبَّنَا أُمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٢﴾  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَلَّيْتُمْ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿٣﴾  
 هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿٤﴾  
 فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٥﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي  
 الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿٦﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ  
 مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٧﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ  
 الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٨﴾ وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ  
 مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿٩﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ

يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْءٌ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ \*  
 أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ  
 قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

### معاني المفردات

(المقت) أشد البغض ، (الروح) : الوحي ، (يوم التلاق) يوم القيامة وسمى بذلك لالتقاء  
 الخالق بالمخلوق ، (بارزون) أى ظاهرون لا يستترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما . (يوم الآفة) يوم  
 القيامة وسميت بذلك لقربها ، يقال أزف السفر : أى قرب . (الحناجر) واحدها حنجرة أو حنجور  
 كحلقوم لفظا ومعنى وهى لحمة بين الرأس والعنق (كاظمين) أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا  
 تخرج (الحميم) : القريب (خائنة الأعين) يراد بها النظر إلى ما لا يحل ، (ما تخفى الصدور) أى  
 ما تكتمه الضمائر .

### المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله ، أردف ذلك بيان أنهم  
 يوم القيامة ، يعترفون بذنوبهم ، وباستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، ويسألون الرجوع إلى  
 الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم .

وبعد أن هددهم ، أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته ، بإظهاره للآيات ، وإنزاله  
 للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ما سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه ، وأنه ينزل  
 الوحي على من يشاء من عباده ، لينذر بالعذاب يوم الحساب والجزاء ، ثم ذكر جل فى علاه أوصاف  
 هائلة تصطبك منها المسامع ، وتشيب من هولها الولدان ، لهذا اليوم المهيبة ، وبعد أن بالغ سبحانه فى  
 تخويف الكفار بعذاب الآخرة ، أردفه تخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم  
 ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ، ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ، هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة ، وهم فى غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا مر عذاب الله تعالى ما لا قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوه من الأعمال السيئة ، التى كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخباراً عالياً ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم فى الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة .

قال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة ، حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا ، فتركوه وأبوا أن يقبلوه ، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصرى ومجاهد والسدى وغيرهم . وقوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال ابن مسعود - رضى الله عنه - هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ (١) وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود أن الكفار يسألون الرجعة ، وهم وقوف بين يدى الله ، عز وجل فى عرصات القيامة ، كما قال عز وجل : ﴿ ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ (٢) فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعابنوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة ، فلا يجابون قال الله تعالى : ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (٣) فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسبها ومقامها وأغلأها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (٤) ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخشوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٥)

(١) البقرة آية : ٢٨

(٢) السجدة آية : ١٢

(٣) الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٤) فاطر الآية : ٣٧

(٥) المؤمنون الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨

وفى هذه الآية الكريمة تلطفوا فى السؤال ، وقدموا بين يدي كلامهم مقدمة وهى قولهم : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ أى قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ، ثم أمتنا ، ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد اعترفنا بذنوبنا ، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا ( فهل إلى خروج من سبيل ) أى فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه ، فإننا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أى أنتم هكذا تكونون . وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل : ﴿ ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ (١) .

وقوله جل وعلا : ﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾ أى هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجوز ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو ، وقوله جل جلاله : ( هو الذى يريك آياته ) أى يظهر قدرته لخلقها بما يشاهدونه ، فى خلقه العلوى والسفلى ، من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ( وينزل لكم من السماء رزقا ) وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه ، وطعومه ، وروائحه ، وأشكاله ، وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة ، فأتت بين هذه الأشياء .

( وما يتذكر إلا من ينيب ) كقوله تعالى :

﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (٣) فلا يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ . أى فأخلصوا الله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم روى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال : « كان رسول الله ﷺ يقول دبر كل صلاة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » (٤) .

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب غافل لاه » (٥) .

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شئ ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ (٦) .

(١) الأنعام آية : ٢٨

(٢) ق آية : ٣٧

(٤) أخرجه مسلم جـ ١ ص ٤١٥ ، ص ٤١٦ برقم ٥٩٤/١٣٩ كتاب المساجد

(٥) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠ برقم ٣٥٤٥ أبواب الدعوات

(٦) غافر : آية : ١٦ ، ١٧



يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها  
كما قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ (١) .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد  
الأحد ، الذى ليس له شبيه من خلقه ، ولا يُدَّ له ، ولا مثيل له ، ولا كفاء له ، سبحانه وتعالى ،  
فمنزلته وعظمته وجلاله ، لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا ، بل جميع الخلق عبده ، وفى قبضته ،  
وقهره ، وتحت سلطانه ، لا خروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً ، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء ،  
ولا رحمة إلا ما يرسلها ، ولا يمسك لرحمته عن من يشاء ، بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ،  
خضعت له الرقاب وتطأطأت له الرؤوس ، وسجدت لهيبته الجباه ، واطمأنت بذكره القلوب ، وسبحت  
بحمده الأفواه : ( فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات  
والأرض وهو العزيز الحكيم ) (٢) .

وهو سبحانه وتعالى فوق خلقه ، مستو على عرشه ، إليه يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة  
والروح إليه ، ويتنزل الأمر من عنده ، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى نفسه فى سبع آيات من كتابه ،  
باستوائه على العرش ، والعرش كما قال السلف الصالح : مخلوق حسى ، وأنه أعظم من السماوات  
والأرض ، كما قال ﷺ : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل » (٣) . وأن هذا العرش الذى وصفه  
الله بأنه عرش كريم ، كما قال تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ (٤)  
وقال تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش  
المجيد ﴾ (٥) فعلى جر « المجيد » يكون صفة للعرش وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك  
وتعالى .

والله سبحانه فوق عرشه سبحانه وتعالى على الوجه الذى يليق به ، دون تشبيه له بخلق ، بل هو  
الذى ليس كمثل شئ سبحانه وتعالى ، فعلوه وارتفاعه واستواؤه ، كل ذلك ثابت له على الوجه الذى  
يليق بجلاله ، وكماله سبحانه وتعالى ، واعلم أيها المؤمن أنه سبحانه مع علوه هذا سبحانه وتعالى ،  
فإنه معك دائماً بعلمه ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، بل ما يكون من نجوى  
ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ،  
فهو سبحانه مع كل أحد بعلمه سبحانه ، وأما هو بذاته فوق عرشه وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ولقد  
خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٦) وإذ يقول سبحانه : ﴿ وما تكون فى شأن  
وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من  
مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ (٨) .

(٥) التوبة آية : ١٢٩

(٦) البروج الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٧) المؤمنون آية : ١٧

(٨) يونس آية : ٦١

(١) المعارج الآيتان : ٣ ، ٤

(٢) الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٢١ ط . النهضة الحديثة

(٤) المؤمنون آية : ١١٦

وقوله تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمتة : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولهذا قال عز وجل ( لينذر يوم التلاق ) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يوم التلاق ، اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده ، وسمى بذلك ، لالتقاء الخالق بالمخلوق ، قال ﷺ في الحديث الصحيح « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يجد إلا ما قدم وينظر أشأم منه فلا يجد إلا ما قدم ، وينظر قدماه فلا يجد إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة »<sup>(٣)</sup> .

وقوله جل جلاله : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أى ظاهرون بادون كلهم ، لا شيء يكنهم ، ولا يظلمهم ، ولا يسترهم ، كما قال جل في علاه : ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ، يُنبئ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿ وسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيزورها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾<sup>(٥)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾<sup>(٦)</sup> .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول ، أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ »<sup>(٧)</sup> والمقصود إظهار إنفراده تعالى بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعوايهم ، وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ثم يقول : أنا الملك أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟<sup>(٨)</sup> وفى حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلاً : ( لله الواحد القهار )<sup>(٩)</sup> أى الذى هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾<sup>(١٠)</sup> .

(٢) الشعراء الآيات : ١٩٢ - ١٩٥

(١) النحل آية : ٢  
(٣) أخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٠٣ ، ٧٠٤ برقم ١٠١٦/٦٧ كتاب الزكاة

(٥) طه الآيات : ١٠٥ - ١٠٨

(٤) القيامة الآيات : ٧ - ١٣

(٦) الحاقة آية : ١٨ (٧) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧/٢٣ البخارى جـ ٩ ص ١٤٢ كتاب التوحيد

(٨) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٨/٢٤

(١٠) الأنعام آية : ٧٣

(٩) تفسير ابن كثير حديث الصور ص ٢٧٦ الى ص ٢٨٢ ط . الشعب

وقوله سبحانه في فاتحة الكتاب : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ف سبحانه الملك الحق المبين ، صاحب العزة والملكوت .

وقوله جلت عظمتة : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيرة واحدة ، كقوله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) وثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال فى آخر الحديث القدسى - يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (٢).

وقوله عز وجل : ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ أى يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة ، كما قال سبحانه : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ (٣) وقال جل جلاله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ (٤).

قوله تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشئ إن الله هو السميع البصير ﴾ .

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال سبحانه : ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ (٥) وكقوله سبحانه : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ (٦) . أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذمهم معتقداتهم ، التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف ، حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ، ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا . ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ، ولا تعود إلى أماكنها .

ومعنى كاظمين أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ (٧) . ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ (٨) .

وقوله سبحانه : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . كقوله

(١) الأنبياء آية : ٤٧

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ برقم ٢٥٧٧/٥٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم

(٣) لقمان آية : ٢٨

(٤) القمر آية : ١

(٥) النبأ آية : ٣٨

(٦) القمر آية : ٥٠

(٧) النجم الآيتان : ٥٧ ، ٥٨

(٨) طه آية : ١٠٨

جل وعلا : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي من بعده ، وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسنة أو تمر به وبهم المرأة الحسنة ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله على قلبه أنه ود أن لو اطلع على فرجها ، وكذا قال مجاهد وقتادة : يعلم الله تعالى من العين فى نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ وما تخفى الصدور ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها ، هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى ﴿ وما تخفى الصدور ﴾ أى من الوسوسة .

وقوله عز وجل : ﴿ والله يقضى بالحق ﴾ أى يحكم بالعدل ، وقال ابن عباس قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، والسيئة السيئة ، وهذا الذى فسره ابن عباس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ (٢) .

وقوله جل وعلا : ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لا يقضون بشئ ﴾ أى لا يملكون شيئاً ولا يحكمون بشئ . ﴿ ان الله هو السميع البصير ﴾ أى سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾ .

حذر الله سبحانه هؤلاء المشركين ، مما حل بمن قبلهم من الأمم ، التى كانت أقوى منهم وأعظم آثارا ، كعاد وثمود ، فقال واعظاً ومذكراً : أولم يسر هؤلاء المشركون فى البلاد ، فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ، ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشاً ، وأبقى فى الأرض آثارا ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى ، واكتسبوا من الآثام فأبيدوا جميعا ، وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم

بغلاقتهم وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ، ألم يأتهم نبا الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿١﴾ .

وكقوله سبحانه : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ﴿٢﴾ .

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقُرُونَفَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٧﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٩﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٦٦﴾ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٦٧﴾  
يَوْمَ تُولُونُ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ  
يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ  
بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ  
سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرُ مَقْتِنَا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُنْكَبِرٍ  
جَبَّارٍ ﴿٧٠﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمُنْ آبَنِي صِرْحَالَعَلَى أَبْلَغُ الْأَسْبَابِ ﴿٧١﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطْلَعَ  
إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ فِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ  
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٧٢﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومُ آتِبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٧٣﴾  
يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتْنٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٧٤﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى  
إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ  
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٧٥﴾ \* وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٧٦﴾ تَدْعُونَنِي  
لَا أَكْفُرُ بِاللَّهِ وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفُورِ ﴿٧٧﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا  
تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ  
أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٧٨﴾ فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٧٩﴾  
فَوَقَدَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَآكِرًا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٨٠﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا  
وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٨١﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ  
فَيَقُولُ الضَّعْفَتَا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ  
﴿٨٢﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ  
لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٨٤﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ  
رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتٍ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٨٥﴾

## معانى المفردات

﴿ السلطان ﴾ : الحجة والبرهان ، ﴿ فرعون ﴾ : ملك القبط بالديار المصرية ، ﴿ وهامان ﴾ : وزيره ، ﴿ وقارون ﴾ : كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالاً ، ﴿ عدت ﴾ : التجأت وتحصنت ، ﴿ متكبر ﴾ : أى مستكبر عن اتباع الحق . ﴿ البيئات ﴾ : هى الشواهد الدالة على صدقه ، ﴿ المسرف ﴾ : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، ﴿ الكذاب ﴾ : المفترى ، ﴿ ظاهرين ﴾ : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب . ﴿ الأحزاب ﴾ : أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، ﴿ والدأب ﴾ : العادة ، ﴿ يوم التناد ﴾ : يوم القيامة ، سمي بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضاً للاستغاثة . ﴿ عاصم ﴾ : أى مانع ، ﴿ مراتب ﴾ : أى شاك فى دينه ، ﴿ يوسف ﴾ : هو النبى يوسف بن يعقوب عليه السلام . ﴿ السلطان ﴾ : الحجة ، ﴿ المقت ﴾ : أشد الغضب ﴿ الصرح ﴾ : القصر الشامخ المنيف ، ﴿ الأسباب ﴾ : واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى شىء من حبل أو سلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب . ﴿ التباب ﴾ : الخسران والهلاك . ﴿ الرشاد ﴾ : ضد الغى والضلال ، ﴿ متاع ﴾ : أى يستمتع به أياماً قليلة ثم ينقطع ويزول ، ﴿ دار القرار ﴾ : أى دار البقاء والدوام ، ﴿ إلى النجاة ﴾ : أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، ﴿ إلى النار ﴾ : أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ﴿ ما ليس به علم ﴾ : أى مالا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان . ﴿ لا جرم ﴾ : أى حقاً ، ﴿ دعوة ﴾ : أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، ﴿ مردنا ﴾ : أى مرجعنا ﴿ وأن المسرفين ﴾ : أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، ﴿ فستذكرون ﴾ : أى فسيذكر بعضكم بعضاً حين معاينة العذاب ﴿ وقاه ﴾ : حفظه ، ﴿ يعرضون عليها ﴾ : أى تعرض أرواحهم عليها .

﴿ المحاجة ﴾ : المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، ﴿ الضعفاء ﴾ : الأتباع والمرءوسون والمستكبرون : السادة أولو الرأى فيهم ، ﴿ التبع ﴾ : واحدهم تابع ، ﴿ مغنون ﴾ : أى دافعون ، ﴿ نصيبا ﴾ : أى قسطاً وجزءاً . ﴿ حكم ﴾ : قضى ، ﴿ الخزنة ﴾ : واحدهم خازن وهم القوام بتعذيب أهل النار ، ﴿ ضلال ﴾ : أى فى ضياع وخسار .

## المناسبة والمعنى الإجمالى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار ، الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر قصص موسى مع فرعون ، مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمرؤا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى ، خوفاً أن يبدل دينهم ، أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوز موسى بربه ورب بنى إسرائيل ، من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب ، ثم أردف ذلك بيان أن الله قيض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ، ويذب عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبلغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر ، وبعد أن سمع ذلك المؤمن ، رأى فرعون فى موسى وتصميمه على قتله ، وإقامة البراهين على صحة رأيه ، وأنه لا سبيل إلى العدول عن ذلك - أعاد النصيح مرة أخرى

لقومه ، فذكرهم بأس الله وسنته في المكذبين للرسول ، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة من بعده ، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلاً في الآخرين ، وكان لسان حاله يقول : هأنذا قد أسمعت ، ونصحت فما قصرت ، والأمر إليكم فيما تفعلون ثم بين سبحانه أن فرعون ، بلغ من عتوه وتمرده وافتراءه في تكذيب موسى ، أن أمر وزيره هامان ، أن يبني له قصرًا شامخًا من الآجر ، ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ومقصده من ذلك الاستهزاء به ، ونفى رسالته ثم أرشد سبحانه إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران ، ثم أعاد الرجل المؤمن إليهم النصيحة مرة أخرى ، فدعاهم أولاً إلى قبول هذا الدين ، الذي هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين لهم حقارة الدنيا وعظيم شأن الآخرة ، وأنها هي الدار التي لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الإيمان بالله الذي يوجب النجاة والدخول في الجنات ، وهم يدعوونه إلى الكفر الذي يوجب الدخول في النار ، ثم أردف هذا بيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة ، فلا فائدة في عبادتها ، ومرد الناس جميعاً إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذي يجازي كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين في المعاصي هم أصحاب النار ، ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله ، وتفويض أمره إلى الله ، الذي يدفع عنه كل سوء يراد به ، ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه ، فوفاه السوء الذي دبوه له ، وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط آل فرعون سوء العذاب ، فغرقوا في البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب في النار .

### التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ، وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر في الأرض الفساد ، وقال موسى إني عدت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ( غافر ٢٣ : ٢٧ ) قال العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآيات .

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وهامان ﴾ وهو وزيره في مملكته ، ﴿ وقارون ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾ أى كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ، مموها كذاباً في أن الله أرسله وهذه كقولته تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ أى بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من



وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب ، وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثانى ، فللعلة الثانية ، ولإهانة هذا الشعب ، ولكى يتشاءموا بموسى عليه السلام ، ولهذا : ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ <sup>(١)</sup> قال قتادة : هذا أمر بعد أمر ، قال الله عز وجل ﴿ وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾ أى وما مكرهم وقصدهم ، الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله على قتل موسى عليه الصلاة والسلام ، أى قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه ﴾ أى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد وقوله قبحه الله : ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ يعنى موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما فى المثل : صار فرعون مذكراً ، يعنى واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقوله تعالى ﴿ وقال موسى إني عدت برى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أى لما بلغه قول فرعون ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعدت به من شره وشر أمثاله ، ولهذا قال : ﴿ إني عدت برى وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أى عن الحق مجرم ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندراً بك فى نحورهم » <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم أن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . ( غافر ٢٨ : ٢٩ )

المشهور أن هذا الرجل ، كان قبطياً من آل فرعون ، قال السدى : كان ابن عم فرعون ، وقال ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون ، والذى قال : ( ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ) <sup>(١)</sup> رواه ابن أبى حاتم .

وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ( ذرونى أقتل موسى ) فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، كما ثبت بذلك فى الصحيح . ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهى قوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنها قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنها أخبرنى بأشد شيء صنعته المشركون برسول الله ﷺ قال بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبوبكر الصديق فأخذ بمنكبته ودفعه عن النبى ﷺ ثم قال : ( أتقتلون رجلاً أن

يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم (١) وقوله تعالى ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول : ربى الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال : ( وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم ) يعنى إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه ، فلا تؤذوه فإن يك كاذباً ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقاً وقد آذيتموه ، يصيبكم بعض الذى يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندهم أن يكون صادقاً فينبغى على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه المواجهة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون . وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين . وأن لا تعلقوا على الله إني آتيتكم بسلطان مبين ، وإنى عدت بربى وربكم أن ترجون ، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾ (٢) .

وقوله عز وجل : ﴿ ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ أى لو كان هذا الذى يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذباً ، كما تزعمون لكان أمره بيناً ، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ، فكانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين ، لما هداه الله وأرشدته إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ أى قد أنعم الله عليكم بهذا الملك ، والظهور فى الأرض ، بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة ، بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتُم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أى لا تغنى عنكم هذه الجنود ، وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله ، إن أردنا بسوء . ( قال فرعون ) لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح ، البار الراشد ، الذى كان أحق بالملك من فرعون ، ( ما أرىكم إلا ما أرى ) أى ما أقول لكم وأشير عليكم ، إلا ما أراه لنفسى ، وقد كذب فرعون - لعنه الله - فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام ، فيما جاء به من الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مشبوراً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ (٤) فقله ﴿ ما أرىكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله ورسوله ورعيته ، فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله ﴿ وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد ﴾ أى وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضاً فى ذلك ، وإن كان قومه أطاعوه واتبعوه ، قال تبارك وتعالى ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ﴾ (٥) وقال جلت عظمتة ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ (٦) وفى الحديث الصحيح : « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » (٧) والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

(١) أخرجه البخارى فى جـ ٦ ص ١٥٩ تفسير سورة المؤمنون

(٢) الدخان الآيات : ١٧ - ٢١

(٣) الأسراء آية : ١٠٢

(٤) النمل آية : ١٤

(٥) هود آية : ٩٧

(٦) طه آية : ٧٩

(٧) أخرجه الإمام مسلم جـ ٣ ص ١٤٦٠ جـ ١ ص ١٢٦ برقم ١٤٢/٢١ كتاب الإيمان

قوله تعالى :

﴿ وقال الذى آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم كبير مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

• هذا إخبار من الله عز وجل عن الرجل الصالح مؤمن آل فرعون ، أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أى الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ والذين من بعدهم ﴾ من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أى إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ، فإنفذ فيهم قدره ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ (١) .

ثم قال لهم : ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ بعد أن خوفهم العذاب الدنيوى ، خوفهم العذاب الآخروى ، فقال : ﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعنى يوم القيامة ، وسمى بذلك ، قال بعضهم : لما جاء في حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هارين ، ينادى بعضهم بعضا ، وقال آخرون : ينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة ، أهل الجنة ، وأهل النار ، أهل النار ، وقيل سمي بذلك : لمناداة أهل الجنة ، أهل النار : ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ﴾ (٢) ومناداة أهل النار ، أهل الجنة : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ (٣) ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار ، كما هو مذكور في سورة الأعراف ، واختار البغوى وغيره : أنه سمي بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أى ذاهبين هارين ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أى ما لكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أى من أضله الله فلا هادى له غيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعنى أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة ، إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى ، ولهذا

قال تعالى : ﴿ فمأزلم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أى يستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى كحالكهم هذا ، يكون حال من يضل الله لإسرافه في أفعاله وارتياح قلبه ، ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أى الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أى والمؤمنون أيضا ، يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته ، يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أى على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ روى ابن أبى حاتم عن عكرمة والشعبي أنها قالا : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين<sup>(١)</sup> ، وقال قتادة : آية الجبابة القتل بغير حق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا عن فرعون وعتوه وتمرده وافتراءه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام : أنه أمر وزيره هامان ، أن يبنى له صرحا ، وهو القصر العالى المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال تعالى ﴿ فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا ﴾<sup>(٢)</sup> . . . ﴿ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ قال سعيد بن جبير : أى طرق السموات ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله عز وجل أرسله إليه ، وقد قال هذا تمويهات وتلييسات على قومه ، توصلا بذلك إلى بقائهم على الكفر ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم بين سبحانه السبب الذى دعاه إلى ما صنع ، فقال جل في علاه :

﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيء الماكر ، فانهمك في غيه ، واستمر في طغيانه ، وصد عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وقديسيته نفسه ، والسير بها قُدما في شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدّها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدّها .

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه ، وأنه ذاهب سدى ، وأن الله ناصر أوليائه ومهلك أعداءه ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ أى وما احتياله الذى يحتال به ، ليطلع على إله موسى إلا في خسارة وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شىء مما أراد من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر في العاقبة له « والعاقبة للمتقين »<sup>(٤)</sup> .

(٣) الزخرف آية : ٥٤

(٤) القصص آية : ٨٣ والأعراف آية : ١٢٨

(١) تفسير ابن كثير ص ١٣٣ ط الشعب

(٢) القصص آية : ٣٨

قوله تعالى :

﴿ وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثله ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

يقول المؤمن لقومه ممن تورد وطني وأثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون في قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال : ﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أى يا قوم ما هذا النعيم الذي يُعَجِّل لكم في هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى ، تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هي دار الاستقرار التي لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة في الآخرة ، وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب فقال : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثله ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى من عمل في دار الدنيا معصية من المعاصي كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله واثمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو مؤمن بربه ، مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويمتعون فيها بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله ، وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة ، من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم ، كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهلكة فقال تعالى حاكيا عنه :

﴿ وباقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

يقول لهم المؤمن : ما بالى أدعوكم إلى النجاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله ﷺ الذى بعثه ﴿ وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ﴾ أى على جهل بلا دليل ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أى هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه كما قال سبحانه : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا جرم أنما تدعوننى إليه ﴾ قال السدى وابن جريج معنى قوله ، ﴿ لا جرم ﴾ :

أى حقا ، وقال ابن عباس : يقول بلى إن الذى تدعونى إليه من الأصنام والأنداد ﴿ ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴾ قال قتادة : يعنى الوثن لا ينفع ولا يضر ، وقال السدى : لا يجيب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أى فى الدار الآخرة فيجازى كل بعمله ، ولهذا قال : ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أى خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عز وجل ﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم ، وتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وأفوض أمري إلى الله ﴾ أى وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أى هو بصير بهم تعالى وتقدس ، فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فوқаه الله سيئات ما مكروا ﴾ أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿ وحق بال فرعون سوء العذاب ﴾ وهو الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ولهذا قال عز وجل : ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أى أشده ألما وأعظمه نكالا ، وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله تعالى : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها . فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا نعوذ من عذاب القبر (٢) وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ غدوا وعشيا ﴾ صباحا ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم تويخاً ونقمة وصغاراً لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال فيه « ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ﴾ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴿ (٣) .

قال الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال . قال رسول الله ﷺ « أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة » (٤) فاللهم نعوذ بك من عذاب جهنم

(١) الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦

(٢) أخرجه البخارى جـ ٢ ص ١٢٣ ط الشعب كتاب عذاب القبر وأحمد جـ ٦ ص ١٧٤

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٤١ وما بعدها ط النهضة الحديثة

(٤) أخرجه أحمد جـ ٢ ص ٥١ ومسلم جـ ٤ ص ٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦/٦٥

ونعوذ بك من عذاب القبر ، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات .

قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين في النار لخنزيرة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء ، وهم الأتباع للذين استكبروا ، وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أى أطعناكم فيما دعوتونا إليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أى قسطاً تتحملونه عنا ﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أى لا نتحمل عنكم شيئاً كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أى قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، كما قال تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين في النار لخنزيرة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم ، بل قد قال سبحانه : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ (٢) . سألو الخنزيرة ، وهم كالسجانين لأهل النار ، أن يدعوا لهم الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحداً من العذاب ، فقالت لهم الخنزيرة رادين عليهم « أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ » أى أوما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ( قالوا بلى قالوا فادعوا ) أى أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعولكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتهم أولم تدعوا ، لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ أى إلا في ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

### أضواء كاشفة

#### على قصة النبي موسى

قال العلامة ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » : قصة موسى الكليم وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام .

قال تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ (٣) وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة ، متفرقة من القرآن ، وذكر قصته في مواضع متعددة ، مبسطة ، ومطولة وغير مطولة ، وقد تكلمنا على ذلك كله في مواضعه من التفسير وسنورد مسيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة ، وما ورد في الآثار المنقولة من الإسرائيليات ، التي ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسم تلك آيات الكتاب المبين تنزل عليك من نبأ

موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿١﴾ .

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أى بالصدق . الذى كان سامعه شاهد للأمر معين له ﴿٢﴾ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً ﴿٣﴾ أى تجبر وعثا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعاً أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبي الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر ، يستعبدهم ويستخدمهم في أخسر الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿٤﴾ يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين ﴿٥﴾ وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام ، يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إيها على السوء وعصمة الله لها ، وكانت هذه البشارة مشهورة في بنى إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل ، حذرا من وجود هذا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن ابن عباس وغيره من الصحابة : أن فرعون رأى في منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك ، فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال تعالى : ﴿٦﴾ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿٧﴾ أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادراً والذليل عزيزاً ، وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿٨﴾ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . . . ﴿٩﴾ وقال تعالى : ﴿١٠﴾ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴿١١﴾ وسيأتى تفصيل ذلك في موضعه إن شاء الله ، والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ، أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الجبال ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً ، إلا ذبحه ، أولئك الذباحون من ساعته .

(١) القصص الآيات : ١ - ٦

(٢) القصص آية : ٤

(٣) القصص الآيات : ٥ - ٦

(٤) الأعراف آية : ١٣٧

(٥) الشعراء الآيات : ٥٧ - ٥٩



هذا والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه ، واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم ، الذي لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف أقداره ، أن هذا المولود الذي تحتزم منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك ، وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيته وتتعداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض ، هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشئنة التي لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين ، أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما ، وأن يتركوا عاما ، فذكروا أن هارون عليه السلام ، ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ، ولد في عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً ، واحتترزت من أول ما حبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخاتيل الحبل ، فلما وضعت ، ألهمت أن اتخذت له تابوتا ، فربطته في حبل البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾ (١) هذا الوحي إلهام وإرشاد ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر وما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً - الآية ﴾ (٢) وليس هو بوحى نبوة ، كما زعمه ابن حزم ، بل والصحيح الأول ، كما حكاه الحسن الأشعري من أهل السنة والجماعة .

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه ، وألقى في خلدتها وروعها ألا تخافى ولا تحزنى ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبيا مرسلا ، يعلى كلمته في الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به ، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها ، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون ( فالتقطه آل فرعون ) (٣) قال الله تعالى : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾ (٤) قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله فالتقطه ، وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قبضوا لا لتقاطه ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم ويقوى هذا التقدير الثانى قوله : ﴿ إن فرعون وهامان ﴾ (٥) وهو الوزير السوء ، ﴿ وجنودهما ﴾ (٦) المتابعين لهما ، ﴿ كانوا خاطئين ﴾ (٧) أى كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

(١) القصص الآيات : ٧ - ١١

(٢) النحل الآيتان : ٦٨ - ٦٩

(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) القصص آية : ٨

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر في تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعته بين يدي امرأة فرعون - آسية بنت مزاحم - وسأق مدحها والثناء عليها في قصة مريم بنت عمران ، وأنها يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ في الجنة .

فلما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلأأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رآته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبا شديدا .

فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿ وقال قرة عين لي ولك ﴾<sup>(١)</sup> فقال لها فرعون أمالك فنعم ، وأما لي فلا ، أى لا حاجة لي به . « والبلاء موكل بالمنطق » وقولها ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾<sup>(٢)</sup> وقد أنا لها الله ما رجت من النفع ، أما في الدنيا فهداها الله به ، وأما في الآخرة ، فأسكنها جنته بسببه ﴿ أو نتخذة ولدا ﴾<sup>(٣)</sup> وذلك أنها تبناه ، لأنه لم يكن يولد لها ولد . قال الله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾<sup>(٤)</sup> أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن يقضهم لالتقاطه من النعمة العظيمة بفرعون وجنوده ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(٥)</sup> قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ أى من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ أى صبرناها وثبتناها ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ . ﴿ وقالت لأخته ﴾ وهى ابنتها الكبيرة ﴿ قصيه ﴾ أى اتبعى أثره ، واطلبي له خبره ، ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال مجاهد عن بعد ، وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون ، أرادوا أن يغذوه برضاعة ، فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما ، فحاروا في أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل كما قال تعالى : ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعل يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ، إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ، فقالت رغبة في صهر الملك ورجاء منفعة ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها ، وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى آسية ، يعلمها بذلك ، فاسدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها فأبت عليها ، وقالت إن لي بعلا وأولادا ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسلني معي ، فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها ، قال الله تعالى : ﴿ فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أى كما وعدناها برده ، ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة

(١ ، ٢) القصص آية : ٩

(٣ ، ٤) القصص آية : ٩

(٥) القصص الآيات : ١٣ - ١٤

برسالته ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال له : ﴿ ولقد متنا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفه في التابوت فاقدفيه في اليم فليلقيه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ، وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني ﴾ <sup>(١)</sup> قال قتادة وغير واحد من السلف أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المأكول ، وتلبس أحسن الملابس ، بمراى منى ، وذلك كله بحفظي وكلائتى لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾ <sup>(٣)</sup> لما ذكر سبحانه وتعالى أنه أنعم على أمه برده لها ، وإحسانه بذلك ، وامتنانه عليها ، شرع في ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين في قول الأكثرين ، آتاه الله حكما وعلما ، وهو النبوة والرسالة ، التى كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ <sup>(٤)</sup> ثم شرع في ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين ، وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل ، وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى . قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ <sup>(٥)</sup> قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والسدى : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس بين العشائيه ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ <sup>(٦)</sup> أى يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هذا من شيعته ﴾ <sup>(٧)</sup> أى إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾ <sup>(٨)</sup> أى قبطى ، قاله ابن عباس وقتادة والسدى ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته في بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه . وهم أخواله أى من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلي بموسى عليه السلام على ذلك القبطى ، أقبل إليه موسى ( فوكزه ) قال مجاهد : أى طعنه بجمع كفه ، وقال قتادة : بعضا كانت معه ( فقضى عليه ) أى فمات منها ، وقد كان ذلك القبطى كافرا مشركا بالله العظيم ، ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وانما أراد زجره وردعه ، ومع هذا ( قال ) موسى ( هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ) قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على ( أى من العز والجاه ، ( فلن أكون ظهيرا للمجرمين . فأصبح في المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين . فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لها قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملا

(٤) القصص آية : ٧

(٥ - ٨) القصص آية : ١٥

(١) طه الآيتان : ٣٧ - ٣٩

(٢) طه آية : ٤٠

(٣) القصص الآيات : ١٤ - ١٧

يأترون بك ليقتلوك فاخرج إلى لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين<sup>(١)</sup>. يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفاً ، أى من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتل الذى رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى في نصره رجل من بنى إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم ، فصار يسير في المدينة في صبيحة ذلك اليوم ﴿ خائفاً يترقب ﴾ أى يلتفت ، فينما هو كذلك ، إذ بذلك الرجل الإسرائيلي الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ، ومخاصمته ، قال له إنك لغوى مبين ، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيل ، فيردعه عنه ، ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك ، وأقبل على القبطى ﴿ قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾ قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلي الذى اطلع على ما كان منع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلاً إلى القبطى ، اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذى وقع بالأمس ، فذهب القبطى فاستعدى موسى إلى فرعون ، وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه ، ويحتمل أن قاتل هذا هو القبطى ، وأنه لما رآه مقبلاً إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصاراً جيداً للإسرائيل ، فقال ما قال ، من باب الظن والفراسة ، إن هذا لعله قاتل ذاك القتل بالأمس ، أولعله فهم من كلام الإسرائيل حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل في طلبه ، وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ ساعياً إليه مشفقاً عليه فقال ﴿ يا موسى إن الملأ يأترون بك ليقتلوك فاخرج ﴾ أى من هذه البلدة ، ﴿ إلى لك من الناصحين ﴾ أى فيما أقوله لك . قال الله تعالى ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه ، لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه قائلاً : ﴿ رب نجني من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إني من خير فقير ﴾<sup>(٢)</sup> . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكرامته من مصر خائفاً يترقب أى يتلفت ، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدري أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها ( ولما توجه تلقاء مدين ) أى اتجه له طريق يذهب فيه ( قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ) أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع . وأوصلته إلى مقصود وأى مقصود ( ولما ورد ماء مدين ) وكانت بشراً يستقون منها . ومدين هى المدينة ، التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام في أحد قولى العلماء ﴿ لما ورد ماء مدين ﴾ المذكور ﴿ وجد عليها أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ﴾ أى تكفكان غنمهما أن تختلط بغنم الناس . ( قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ) أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ، ضعف أبينا وكبره قال تعالى : ﴿ فسقى لهما ﴾ .

ذكر المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى ، ورفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ، ثم تولى إلى الظل قالوا ، وكان ظل شجرة من السمر . ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير ﴾ ﴿ فجاءته إحداها تمشى على استحياء ، قالت إن أبی يدعوك لیجزیک أجر ما سقیت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمین ﴾ (١) .

لما جلس موسى عليه السلام في الظل ﴿ فقال رب إني لما أنزلت إلی من خير فقير ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتهما ما كان ، من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداها أن تذهب إليه فتدعه ، فجاءته إحداها تمشى على استحياء ، أى مشى الخراير ، قالت إن أبی يدعوك لیجزیک أجر ما سقیت لنا ، صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حياثها وصيانتها ، فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره ، وما كان من أمره في خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها (قال له) ذلك الشيخ : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمین ﴾ أى خرجت من سلطانهم فلست في دولتهم .

وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو؟ فقليل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، ومن نص عليه الحسن البصري ومالك بن أنس ، وجاء مصرحا به في حديث ولكن في إسناده نظر ، وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام ، عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام ، وتزوج بابنته ، وروى ابن أبي حاتم وغيره عن الحسن البصري أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبي صاحب مدين ، وقيل إنه ابن أخى شعيب ، وقيل ابن عمه . وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل رجل اسمه يثرون هكذا ، هو في كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها ، قال ابن عباس وأبو عبيدة بن عبد الله : اسمه يثرون ، زاد أبو عبيدة وهو ابن أخى شعيب زاد ابن عباس صاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : يا أبت استأجره ، أى لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين ، قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ، فقالت : إنه رفع صخرة لا يطبق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق ، فاحذقي لى بحصاه ، أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة ، صاحب يوسف حين قال لامرأته : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر ابن الخطاب ﴿ قالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إني أريد أن

أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بنى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل ﴿١﴾ . يقول تعالى إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوانم على ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخارى عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ، فقلت لا أدري حتى أقدم على خبر العرب : فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل ، وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، قال : سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال : أتمهما وأكملهما ﴿٢﴾ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله أنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطيء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم إليك جناحك من الرهب فذئلك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴿٣﴾ .

تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿٤﴾ فلما قضى موسى الأجل ﴿٥﴾ وقوله : ﴿٦﴾ وسار بأهله ﴿٧﴾ أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم ، أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختلف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه ، قالوا : واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة ، وناهوا فى طريقهم ، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف ، وجعل يورى زناده ، فلا يورى شيئا ، واشتد الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك ، إذ أبصر عن بعد نارا تأجج فى جانب الطور ، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه ، فقال لأهله : امكثوا إني آنست نارا ، وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿٨﴾ لعل آتيكم منها بخير ﴿٩﴾ أى لعل أستعلم من عندها عن الطريق . ﴿١٠﴾ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴿١١﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة ، وقوله فى الآية الأخرى : ﴿١٢﴾ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴿١٣﴾ فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ، وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله : ﴿١٤﴾ إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴿١٥﴾ وقد أتاها منها بخبر ، وأى خبر ، ووجد عندها هدى ، وأى هدى ، واقتبس منها نورا ، وأى نور ، قال الله تعالى : ﴿١٦﴾ فلما أتاها نودى من شاطيء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إني أنا الله رب العالمين ﴿١٧﴾ فقال فى سورة النمل : ﴿١٨﴾ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴿١٩﴾ أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد . ﴿٢٠﴾ ياموسى إنه أنا الله العزيز

(٥) النمل آية : ٨ .

(٣) طه الايتان : ٩ ، ١٠ .

(٤) النمل آية : ٧ .

(١) القصص الآيات ٢٦ - ٢٨ .

(٢) القصص الآيات : ٢٩ - ٣٢ .

الحكيم ﴿١﴾ وقال في سورة طه : ﴿ فلما أتاها نودى ياموسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنيك بالوادي المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ (٢) قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار ، التي رآها ، فانتهى إليها ، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج ، وكل ما لتلك النار في اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد ، فوقف متعجبا ، وكانت تلك الشجرة في كحف جبل غربي منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ (٣) وكان موسى في واد اسمه طوى ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه ، تعظيما وتكريما وتوقيرا ، لتلك البقعة المباركة ، ولاسيما في تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب ، أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ، مهابة له ، وخوفا على بصره . ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : ﴿ إني أنا الله رب العالمين ﴾ ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾ أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له ، ثم أخبره أن هذه الدنيا ، ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التى لا بد من كونها ووجودها . ( لتجزى كل نفس بما تسعى ) أى من خير وشر ، وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها . ممن عصى مولاه ، واتبع هواه ، ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبيناً له إنه القادر على كل شئ الذى يقول للشئ كن فيكون : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ (٤) أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها ﴿ قال هى عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾ (٥) أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ﴿ قال ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ (٦) . وهذا خارق عظيم ، وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه ، يقول للشئ كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب ، أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التى فى يدك ، قال : عصاى ، قال : ألقها إلى الأرض ﴿ فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ فهرب موسى من قدامها ، فأمره الرب عز وجل ، أن ييسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ، ارتدت عصا فى يده ، وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ وأن ألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾ أى قد صارت حية عظيمة ، لها ضخامة هائلة ، وأنياب تصك ، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات ، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ ولى مدبرا ﴾ أى هاربا منها ، لأن طبيعة البشر ، تقتضى ذلك ( ولم يعقب ) أى ولم يلتفت فداده ربه قائلا له ﴿ ياموسى أقبل ولا تحف إنيك من الآمنين ﴾ فلما رجع ، أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قال خذها ولا تحف سنعيدها سيرتها

(٤) طه آية : ١٧

(٥) طه آية : ١٨

(٦) طه الآيتان : ١٩ ، ٢٠

(١) النمل آية : ٩

(٢) طه الآيات : ١١ - ١٦

(٣) القصص آية : ٤٤

الأولى ﴿١﴾ . فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده في كم مدرعته ، ثم وضع يده في وسط فمها ، وعند أهل الكتاب بذنبها ، فلما استمكن منها ، إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين ، ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ، ثم أمره بنزعها ، فإذا هي تتلأل كالقمر بياضا من غير سوء ، أى من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذائك برهانا من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال في سورة النمل : ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ (٢) أى هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانا المشار إليهما في قوله تعالى : ﴿ فذائك برهانا من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ مضافا إليها سبع آيات بينات كما جاء في آخر سورة الإسراء ، حيث يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إن لأظنك ياموسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثيرا ﴾ (٣) وهى المبسوطة في سورة الأعراف في قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (٤) كما سيأتى الكلام على ذلك في موضعه ، وهذه التسع غير العشر الكلمات ، فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا على هذا ، لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هى هذه ، كما قررنا ذلك في تفسير آخر سورة سبحان ، والمقصود أن الله سبحانه ، لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ (٥) .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، فى جوابه لربه عز وجل ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه ، الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ، ولهذا ( قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ) . أى اجعله معى معيناً وردءاً ووزيراً ، يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم ، فإنه أفصح منى لساناً ، وأبلغ بياناً ، قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أى برهانا ( فلا يصلون إليكما ) أى فلا ينالون مكروها بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا ( أنتما ومن اتبعكما الغالبون ) وقال فى سورة طه : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى

(١) طه آية : ٢١ .

(٢) النمل آية : ١٢ .

(٣) الإسراء الآيات : ١٠١ - ١٠٢ .

(٤) الأعراف الآيات : ١٣٠ - ١٣٣ .

(٥) القصص الآيات : ٣٣ - ٣٥ .



واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخى اشد به أزرى وأشركه في أمرى كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴿١﴾ .

أى قد أجبتك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذى طلبت ، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه ، فأوحى إليه ، وهذا جاه عظيم قال تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ (٣) وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلاً يقول : ( أى أخ أمى على أخيه ) فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع فيه أخيه هارون .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ، قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسلنا إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، قال ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ (٤) تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلغاه ما أرسلنا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل ، من قبضته ، وقهره وسطوته ، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ، لتوحيدهم ودعائه ، والتضرع لديه ، فتكبر فرعون فى نفسه وعنى وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتقصص ، قائلاً له : ( ألم نريك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ) أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا ، وأحسننا إليه ، وأنعمنا عليه مدة من الدهر ، وهذا يدل على أن فرعون ، الذى بعث إليه ، هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه ، مات فى مدة مقامه بمدين ، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر ، وقوله : ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ أى وقتلت الرجل القبطى ، وفرت منا ومجدت نعمتنا ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ (٥) أى قبل أن يوحى إلى وينزل على ﴿ ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربي حكماً وجعلنى من المرسلين ﴾ (٦) ثم قال مجيباً لفرعون عما امتن به من التربية ، والإحسان إليه : ﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ﴾ (٧) أى وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل ، تقابل ما استخدمت هذا الشعب بكماله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك . ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ (٨) .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى ، من المفاولة والمحااجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللثيم ، من الحجة العقلية المعنوية ، ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله ، أظهر جحد

(٥) الشعراء آية : ٢٠ .

(٦) الشعراء آية : ٢١ .

(٧) الشعراء آية : ٢٢ .

(٨) الشعراء الآيات : ٢٣ - ٢٨ .

(١) طه الآيات : ٢٤ - ٣٦ .

(٢) الأحزاب آية : ٦٩ .

(٣) مريم آية : ٥٣ .

(٤) الشعراء الآيات : ١٠ - ١٩ .

الصانع ، تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله : ﴿ فحشر فنأدى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ <sup>(١)</sup> وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ <sup>(٢)</sup> وهو في هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور ، الإله الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ <sup>(٣)</sup> ولهذا قال لموسى عليه السلام ، على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ لأنها قالا له : ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ، الذى تزعمان أنه أرسلكما وأبعثكما ، فأجابه موسى قائلاً : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ يعنى رب العالمين ، خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب ، والرياح ، والمطر ، والنبات ، والحيوانات ، التى يعلم كل مؤمن ، أنها لم تحدث بأنفسها ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق ، وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين .

( قال ) أى فرعون : ( لمن حوله ) من امرأته ومرازتيه ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ﴿ ألا تستمعون ﴾ يعنى كلامه هذا ، قال موسى مخاطباً له وهم : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء ، والأجداد ، والقرون السالفة فى الآباء ، فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبواه ولا أمه ، ولم يحدث غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ <sup>(٤)</sup> ومع هذا كله لم يستف فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالتة ، بل استمر فى طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضياءه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فلما قامت الحجج على فرعون ، وإنقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته ( قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أولو جئتكم بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ) <sup>(٥)</sup> وهذان هما البرهانان ، اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر الله فيه الحارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، أى عظيم الشكل بديع فى الفخامة والهور ، والمنظر العظيم الفظيع ، الباهر ، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعايته ، أخذه رعب شديد ، وخوف عظيم ، بحيث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوماً إلا مرة واحدة فانعكس الحال عليه ، وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه ، واستخرجها ، أخرجها وهى كفلقة القمر تتلأل نوراً يبهى الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صنعتها الأولى ، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك ، بل استمر على

(٤) فصلت آية : ٥٣

(٥) الشعراء الآيات : ٢٩ - ٣٣

(١) النازعات آية : ٢٤

(٢) القصص آية : ٣٨

(٣) النمل آية : ١٤

ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن في رعيته وتمت قهره ودولته ، كما سيأتى بسطه وبيانه في موضعه ، من إظهار الله الحق المبين ، والحجة الباهرة القاطعة ، على فرعون وملائه ، وأهل دولته وملته ، والله الحمد والمنة ، وقال تعالى في سورة طه : ﴿ فلبث سنين في أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾ (١) .

يقول تعالى مخاطباً لموسى فيما كلمه به ، ليلة أوحى إليه ، وأنعم عليه وكلمه منه إليه ، قد كنت شاهداً لك وأنت في دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين ، بمشيئى وقدرى وتديبرى ، فلبث فيها سنين . ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ أى منى لذلك فوافق ذلك تقديرى وتسييرى . ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ أى اصطنعتك لنفسى برسالتى وبكلامى ﴿ إذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكرى ﴾ يعنى ولا تفترأ في ذكرى إذ قدمتهما عليه ، ووفدنا إليه ، فان ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه ، وإقامة الحجة عليه : وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً . . الآية ﴾ (٢) ثم قال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ (٣) وهذا من حلمه تعالى وكرمه ، ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه في ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما ، أن يدعوا إليه بالتي هي أحسن برفق ولين ، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى ، كما قال لرسوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم - الآية ﴾ (٥) قال الحسن البصرى ( فقولا له قولاً لينا ) أعذر إليه قولاً إن لك رباً ولك معاداً ، وأن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولاً له : إني إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ، قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية : يا من يتحجب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه . ﴿ قالا ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً ، وشيطاناً مريداً ، له سلطان في بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما في بادئ الأمر ، فثبتهما تعالى ، وهو العلى الأعلى فقال : ﴿ لا تخافا إني معكما أسمع وأرى ﴾ قال في الآية الأخرى : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ (٦) وكما قال : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ (٧) .

(٥) العنكبوت آية : ٤٦

(٦) الشعراء آية : ١٥

(٧) طه الآيتان : ٤٧ ، ٤٨

(١) طه الآيات : ٤٠ - ٤٦

(٢) الأنفال آية : ٤٥

(٣) طه الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

(٤) النحل آية : ١٢٥

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ، فيدعوا إلى الله تعالى أن يعبد وحده ، لا شريك له ، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ، ويطلقهم من أسرهم وقهره ، ولا يعذبهم ﴿ قد جئتكم بآية من ربك ﴾ وهو البرهان العظيم في العصا واليد ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ تقيد مفيد بليغ عظيم . ثم تهددها وتوعداه على التكذيب فقلا : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أى كذب بالحق بقلبه ، وتولى من العمل بقلبه .

وقال تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (١) .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون ، إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : ﴿ فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ أى هو الذى خلق الخلق ، وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا ، وكتب ذلك عنده فى كتابه ، اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره ، وعلمه لكمال علمه وقدرته ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾ (٢) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه ﴿ قال فما بال القرون الأولى ﴾ يقول فرعون لموسى ، فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره ، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ أى هم وإن عبدوا غيره ، فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول ، لأنهم جهلة مثلك ، كل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزئهم على ذلك ربى عز وجل ، ولا يظلم أحدا مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده ، فى كتاب لا يضل عنه شىء ، ولا ينس ربى شيئا ، ثم ذكر له عظمة الرب ، وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهادا ، والسماء سقفا محفوظا ، وتسخير السحاب والأمطار ، لرزق العباد ، ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرازق ، وكما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٣) ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : ( منها ) أى من الأرض ( خلقناكم ) ( وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ) كما قال تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (٥) ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى ﴾ (٦) .

(٥) الروم آية : ٢٧

(٣) البقرة الآيات : ٢١ ، ٢٢

(١) طه الآيات : ٤٩ - ٥٥

(٦) طه الآيات : ٥٦ - ٥٩

(٤) الأعراف آية : ٢٩

(٢) الأعلى الآيات : ١ - ٣

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله في تكذيبه بايات الله ، واستكباره عن اتباعها . وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يوعده إلى وقت معلوم ، ومكان معلوم ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام ، أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه ، جهرة بحضرة الناس ، ولهذا قال : ﴿ موعدهم يوم الزينة ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ، ومجتمع لهم ﴿ وأن يحشر الناس ضحى ﴾ أى من أول النهار في وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً في ظلام ، كما يروج عليهم محالاً وباطلاً ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفواً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (١) .

يخبر تعالى عن فرعون ، أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر في ذلك الزمان مملوءة سحرة ، فضلاء في فئهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير ، وجم غفير ، وحضر فرعون وأمرأؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بكرة أبيهم ، وذلك أن فرعون نادى فيهم ، أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، وتقدم موسى عليه السلام فوعظهم وزجرهم عن تعاطي السحر الباطل ، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه ، فقال : ﴿ ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم ﴾ قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقاتل يقول : هذا كلام نبي وليس بساحر ، وقاتل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما » يقولون : أن هذا وأخاه هارون ، ساحران عظيمان مطبقان متقنان لهذه الصنعة ، ومرادهم أن يجتمع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان ، وهيهات كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان والسحر والبهتان ، خوارق العادات ، التى أجراها الديان ، على يدى عبده الكلیم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذى يبهر الأبصار ، وتحار فيه العقول والأذهان . وقولهم ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أى جميع ما عندكم ﴿ ثم اتوا صفوا ﴾ أى جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضاً على التقدم فى هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً . ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبابهم وعصبيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٢) .

لما اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم ، قالوا له : إما أن تلقى وإما أن نلقى قبلك ( قال بل ألقوا ) أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره من

الآلات التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطراباً ، يخيل للرأى أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . قال الله تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحريهم ومعا لهم ، قبل أن يلقى ما فى يده ، فإنه لا يضع شيئاً قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ، وألقى ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه ، وقال ما جئتم به من السحر ، إن الله سيبيطه إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون .

وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم ، ( فيما ذكره غير واحد من علماء السلف ) وعنق عظيم ، وشكل هائل مزعج ، بحيث أن الناس انحازوا منها ، وهربوا سراعاً ، وتآخروا عن مكانها ، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ، ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ماهاهم ، وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدتهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعتهم واحتفالهم ، فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم ، إن هذا ليس بسحر ولا بشعوذة ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم ، وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿ آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال أمتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذى عنكم السحر فلا قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولا صلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعي وغيرهم :

لما سجد السحرة ، رأوا منازلهم ، وقصورهم فى الجنة ، تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، وذلك لأن فرعون لما رأى السحرة ، قد أسلموا وأشهبوا ذكروا موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأسمى

بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة في الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطباً بحضرة الناس : ﴿ آمستم له قبل أن أذن لكم ﴾ أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ، ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلاً : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ (١) . وهذا الذى قاله من البهتان ، يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والبهتان ، بل لا يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم ، يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يوماً من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ، ثم هو لم يجمعهم ولا علم اجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون قال فرعون آمستم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ (٢) .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملأه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ، قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون اثنوني بكل ساحر عليم ، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيضلّه إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ (٣) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتكم بشئ مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وأبعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليهم ، فجمع السحرة

لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن أذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴿١﴾ .

والمقصود أن فرعون كذب وافتري ، وكفر غاية الكفر في قوله : إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، وأتى ببهتان يعلمه العالمون ، بل العالمون في قوله : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكسه ﴿ ولأصلبنكم أجمعين ﴾ أى ليجعلهم مثله ونكالا ، لثلا ليقنطدى بهم أحد من رعيته ، وأهل ملته ، ولهذا قال : ﴿ ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ ولتعلمن أننا أشد عذاباً وأبقى ﴾ يعني في الدنيا ، ﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البيئات والدلائل القاطعات ﴿ والذي فطرنا ﴾ قيل معطوف وقيل قسم ، ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أى افعل ما قدرت عليه ﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ أى إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ، صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ أى وثوابه خير بما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ وأبقى ﴾ أى وأدوم من هذه الدار الفانية ، وفى الآية الأخرى ﴿ قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم إن كنا أول المؤمنين . أى من القبط بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا أيضاً : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴾ أى ليس لنا عندك ذنب ، إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ ربنا افرغ علينا صبراً ﴾ أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ وقالوا أيضاً يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ يقولون له : فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿ ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أى المنازل العالية ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمنع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ، لياشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح ، والذميم اللئيم ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ﴿٢﴾ . والظاهر من هذه السياقات ، أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ، رضى الله



عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء برة ، ويؤيد هذا قولهم ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

ولما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذي غلبته القبط في ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم ، لم يزدتهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم في سورة الأعراف : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ (١) .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرضوا ملكهم فرعون ، على أذية نبي الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا : ﴿ أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والنهي عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط . ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ أى غالبون ﴿ وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أى إذا هموا هم بأذيتكم ، والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم ، واصبروا على بليتكم ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ أى فكونوا أنتم المتقين ، لتكون لكم العاقبة ، كما قال قال في الآية الأخرى : ﴿ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمستم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ (٢) .

وقولهم : ﴿ قالوا أؤذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ أى قد كانت الأبناء ، تقتل قبل مجيئك ، وبعد مجيئك إلينا ﴿ قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وقال الله تعالى في سورة حم المؤمن : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ (٣) وكان فرعون الملك وهامان الوزير من فراعنة مصر ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال ﴾ (٤) وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى ، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملا بني إسرائيل ، لئلا يكون لهم شوكة ، يمتنعون بها ، ويصولون على القبط فهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشئء كن فيكون . ﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ (٥) ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم « صار فرعون مذكراً » وهذا منه ، فإن فرعون في زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . ﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ (٦) إني عذت بالله ، ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره على

(١) الأعراف الآيات : ١٢٧ - ١٢٩

(٢) غافر آية : ٢٦

(٣) غافر الآيات : ٢٣ ، ٢٤

(٤) غافر آية : ٢٥

(٥) يونس الآيات : ٨٤ - ٨٦

بسوء . وقوله : ﴿ من كل متكبر ﴾ أى جبار عنيد لا يعزى ، ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معاداً ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتنم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ (١) وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتنم إيمانه من قومه ، خوفاً منهم على نفسه ، فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك ، وشاور ملاءه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلفظ فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى ، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ :

« إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (٢) ، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لأشد جوراً منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبي ، قال : ( أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ) أى من أجل أنه قال ربي الله ، فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام ، والمواذعة وترك الانتقام ، يعنى لأنه ﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى بالخوارق ، التى دلت على صدقه فيما جاء به عن أمره ، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة ، لأنه ( إن يك كاذباً فعليه كذبه ) ولا يضرركم ذلك ( وإن يك صادقاً ) وقد تعرضتم له ( يصيبكم بعض الذى يعدكم ) أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام فى هذا المقام أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : ( يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ) يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به ، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأمل والدور والقصور والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السفالين ، ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق ، الناصح لقوم الكامل العقل ( يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ) أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة ، لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الملك ( قال فرعون ) أى فى جواب هذا كله : ( ما أريكم إلا ما أرى ) أى ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

وكذب فى كل من هذين القولين ، وهاتين الحقتين ، فإنه كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً ، قال الله تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا زب السموات والأرض بصائر

(١) غافر الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٢) أخرجه ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٢٩ برقم ٤٠١١

وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٢﴾ .

وأما قوله : ﴿ وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد ﴾ . فقد كذب أيضاً ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال ، وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه ، فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال . قال الله تعالى : ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ﴿٣﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائه . فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة فأوردتهم النار وبشئ الورد المورود . واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بشئ الرعد المرفود ﴾ ﴿٥﴾ .

والمقصود بيان كذبه فى قوله : ﴿ ما أريكُم إلا ما أرى ﴾ وفى قوله : ﴿ وما أهديكُم إلا سبيل الرشاد ﴾ ، ﴿ وقال الذى آمن يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلماً للعباد ، ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبير مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

يحذره ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى ، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثالات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة فى صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النعمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التناد أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ﴿٦﴾ وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ ﴿٧﴾ .

(١) الاسراء الآيات : ١٠٢ - ١٠٣

(٢) النمل الآيات : ١٣ - ١٤

(٣) الزخرف الآيات : ٥١ - ٥٦

(٤) التازعات الآيات : ٢٠ - ٢٦

(٥) هود الآيات : ٩٦ - ٩٩

(٦) القيامة الآيات : ١٠ - ١٢

(٧) الرحمن الآيات : ٣٣ - ٣٦

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم ، وهذا من سلالاته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان ، أى من سجيّتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ فما زلتُم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعد رسولاً ﴾ أى وكذبتم فى هذا ، ولهذا قال : ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أى يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقتة الله غاية المقت ، أى ييغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق ، ولا تخالفه بلا برهان ، فإن الله يطبع عليها أى يختم عليها .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه ، أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ (١) وقال ههنا ﴿ لعلى أبلغ الأسباب . أسباب السموات ﴾ أى طرقها ومسالكها ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذباً ﴾ ويحتمل هذا معنيين ، أحدهما وإنى لأظنه كاذباً فى قوله : إن للعالم رباً غيرى ، والثانى فى دعواه ان الله أرسله .

وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه ، قال الله تعالى : ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول : إلا فى خسار ، أى باطل ، لا يحصل له شىء من مقصوده ، الذى رامه ، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً ، أعنى السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السموات العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل .

قال الله تعالى : ﴿ وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنى هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ يدعوهم - رضى الله عنه - إلى طريق الرشاد والحق ، وهى متابعة نبى الله موسى ، وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية ، المنقضية لا محالة ، ورغبتهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه ، الذى يعطى على القليل كثيراً ، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار ، التى من وافاها مؤمناً قد عمل الصالحات ، فلهم الجنات العاليات ، والغرف الآمات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد ، والخير الذى كل ما لهم منه فى مزيد .

ثم شرع في إبطال ما هم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : ﴿ ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وإن مردنا إلى الله وإن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ، فوفاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ . وقد تكلمنا على دلالة هذه الآيات في التفسير والله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، فبالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ (١) .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون ، وهم قومه من القبط بالسنين ، وهي أعوام الجذب ، التي لا يستغل فيها زرع ، ولا ينتفع بضرع ، وقوله : ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ وهي قلة الثمار من الأشجار ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ أي فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل توردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم . ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ والخصب ونحوه ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا الذي نستحقه ، وهذا الذي يليق بنا ﴿ وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون في الأول أنه بركتهم ، وحسن مجاورتهم ، ولكن قلوبهم مستنكرة نافرة عن الحق ، إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ أي الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾ أي مهما جئنا من الآيات ، وهي الخوارق للعادات ، فلسنا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية ، وهكذا أخبر الله عنهم في قوله : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ (٢) قال الله تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزرع والثمار ، وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن سلمان الفارسي قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : ﴿ أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه ﴾ (٣) . والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعاً ولا ثماراً ، ولا سبداً ولا لبداً ، وأما القمل ، فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أن الجراد الصغار ، الذي لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد ابن جبير : هو دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هي البراغيث . فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش ، وأما الضفادع ، فمعروفة ،

(١) الأعراف الآيات : ١٣٠ - ١٣٣

(٢) يونس الآيات : ٩٦ - ٩٧

(٣) أخرجه أبو داود ج ٤ ص ١٦٥ برقم ٣٨١٣

لبستهم حتى كانت تسقط في طعامهم وأوانيهم ، وأما الدم ، فكان قد خرج مأوهم كله به ، فلا يستقون من النيل إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ، ولا بئر ولا شيء إلا كان دما في الساعة الراهنة ، هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية ، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن آخرهم ، ولا يحصل هذا لاحد من بنى إسرائيل ، وفي هذا دليل . قال محمد بن إسحق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولاً ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى في الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ، وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركذ ، لا يقدر على أن يخرجوا ، ولا أن يعملوا شيئاً ، حتى جهدوا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾<sup>(١)</sup> فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلما لم يفوا بشيء ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان لياكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كتيب ، حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كتيب أهيل عظيم ، فضربه بها فانثال عليهم قملاً ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم ، قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا ، أرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية ، فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه ، فلما جهدهم ذلك ، قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطاً ، قال الله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون \* فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴿<sup>(٢)</sup> .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم ، واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار ، عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة ، التي أراهم الله إياها عياناً ، وجعلها عليهم دليلاً وبرهاناً ، وكلما شاهدوا آية وعاینوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه من هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية ، تمادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ، ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هي أشد مما كانت قبلها ، وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الويل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل ، هذا والعظيم الحليم التقدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفاً لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلاً لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى وهو

(١) الاعراف آية : ١٣٤

(٢) الاعراف الآيتان : ١٣٤ - ١٣٥

أصدق القائلين في سورة حم والكتاب المبين ( الزخرف ) : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ﴾ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴾ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ فلما أسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴿ (١) .

يذكر تعالى : رسالة عبده الكريم إلى فرعون الخسيس اللثيم ، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم يضحكون ، وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يعرضون ، وعن الحق يصدون ، فأرسل الله عليهم الآيات تترى ، يتبع بعضها بعضاً ، وكل آية أكبر من أختها ﴿ وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾ وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون ﴿ لم يكن لفظ الساحر في زمنهم نقصاً ولا عيباً ، لأن علماءهم في ذلك الوقت هم السحرة ، ولهذا خاطبوه به في حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها وتحرق الأنهار فيها ، وهي الخلجان التي يكسرونها أمام زيادة النيل ، ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ ينتقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه ( لا يكاد يبين ) يعنى كلامه بسبب ما كان في لسانه من بقية تلك اللثغة التي هي شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور في بدنه ، ولا زينة عليه ، وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسول ، الذين هم أكمل عقلاً ، وأتم معرفة ، وأعلى همة ، وأزهد في الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه في الآخرة . وقوله : ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة ، فالملائكة يعظمونه ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء في الحديث « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع » (٢) فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكريم عليه الصلاة والسلام والتسليم والتكريم ، وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة ، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعاً لذوى الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، ويعمى عما جاء به من البينات ، والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب قال الله تعالى : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أى : استخف عقولهم ، ودرجهم من حال إلى حال ، إلى أن صدقوه في دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ . ﴿ فلما أسفونا ﴾ أى : أغضبونا ( انتقمنا منهم ) أى : بالغرق والإهانة ، وسلب العز والتبذل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب

(١) الزخرف الآيات : ٤٦ - ٥٦

(٢) أخرجه الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٣٩

العيش ، عيادا بالله العظيم ، وسلطاناه القديم عن ذلك - ( فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا ) أى : لمن اتبعهم فى الصفات ( ومثلا ) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وييل مصرعهم ، ممن بلغه حلية خيرهم ، وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ﴾ \* وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون \* وقال فرعون يأيها الملاء ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين \* واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون \* فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين \* وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون \* وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿ <sup>(١)</sup> يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى ملكهم الباطل ، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كل قد غرق فدخل النار ، واتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بشس الرفد المرفود ، يوم القيامة هم من المقبوحين .

### هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة للمكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج الباهرة العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار ، وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرجعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل : ثلاثة ، وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون ، الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة ، فقال يا موسى إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين قال ابن عباس ، فيما رواه ابن حاتم عنه <sup>(٢)</sup> ، ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم ، وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملأئهم أن يقتلهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾ <sup>(٣)</sup> فالضمير فى قوله ( إلا ذرية من قومه ) عائد على فرعون ، لأن السياق يدل عليه . وقيل على موسى ، لقربه ، والأول أظهر ، كما هو مقرر فى التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملأئهم أن ينموا عليهم إليه ، فيفتنهم عن دينهم ، قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيدا : ( وإن فرعون لعال فى الأرض ) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق ( وإنه لمن المسرفين ) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله ، ولكنه جرثومة قد حان انجعامها ، وثمره خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها ، وعند ذلك قال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين \* ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴿ <sup>(٤)</sup>

(٣) يونس آية : ٨٣

(٤) يونس الآيات : ٨٤ - ٨٦

(١) الفصص الآيات : ٣٦ - ٤٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٤٥٨ ط النهضة الحديثة .



يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجاً ومخرجاً ﴿١﴾ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا وإجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴿٢﴾ أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، أن يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، متميزه فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض ، وقوله : ( وأجعلوا بيوتكم قبله ) قيل مساجد ، وقيل : معناه كثرة الصلاة ، ومعناه على هذا الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : ( واستعينوا بالصبر والصلاة ) ﴿٣﴾ . وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ﴿٣﴾ .

وقيل : معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم فامروا أن يصلُّوا في بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق في ذلك الزمان الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملأته . والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وإن كان لا ينافي الثاني والله أعلم .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ • قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴿٤﴾ قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعبروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون ﴾ فأرسل فرعون في المدائن حاشرين \* إن هؤلاء لشردمة قليلون \* وإنهم لنا لغائظون \* وإنا لجمع حاذرون \* فأخرجناهم من جنات وعبود \* وكنوز ومقام كريم \* كذلك وأورثناها بني إسرائيل \* فاتبعوهم مشرقين \* فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون \* قال كلا إن معي ربي سيهدين \* فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم \* وأزلفنا ثم الآخرين \* وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿٥﴾ .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون في جنوده طالباً بني إسرائيل أن يقفوا أثرهم كان في جيش كثيف عرمرم حتى قيل : كان في خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف وستمائة ألف والله أعلم . وقيل : إن بني إسرائيل كانوا نحواً من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى - عليه السلام - ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

(٤) سورة يونس الآيات : ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ : ٦٨ .

(١) يونس آية : ٨٧

(٢) البقرة آية : ٤٥ والآية رقم : ١٥٣

(٣) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨٩ ط النهضة الحديثة .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراء الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعان كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاربة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : إنا لمدركون ، وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه . وهذا مالا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعانوه في جنوده وجيوشه وعدده وعدده وهم منه في غاية الخوف والذعر لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبي الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعانوه فقال لهم الرسول الصادق المصدق : ( كلا إن معي ربي سيهدين ) وكان في الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون - عليهما السلام - كما سنذكره فيما بعد - إن شاء الله - ومعهم أيضاً رجل آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكماظم عليهم عكوف . ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مراراً في البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى - عليه السلام - يانبي الله أهنا أمرت . فيقول : نعم . فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحقنهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم : ( أن اضرب بعصاك ) فلما ضربه يقال : إنه قال له : انفلق بإذن الله ﴿ فأنفلق البحر إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ (١) ويقال : إنه انفلق اثنتي عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسرون فيه ، وهكذا كان ماء البحر قائماً مثل الجبال مكنوفاً بالقدر العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون ، وأمر الله الريح فلحقحت حال البحر فأذهبت حتى صار يابساً لا يعلق في سناكب الخيول والدواب قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿ (٢)

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى - عليه السلام - أن يجوزه ببني إسرائيل فأنحدروا فيه مسرعين مستبشرين بمبارين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدي قلوب المؤمنين ، فلما جاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه . ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق في المقال : ﴿ ولقد فتننا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم \* أن أدوا إلى عباد الله إني لكم رسول أمين ، وأن لا تعلقوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين . وإني عذت بربي وربكم أن ترجعوا ﴾ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ﴾ واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون \* كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم \* ونعمة كانوا فيها فاكهين \* كذلك وأورثناها قوماً آخرين \* فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا

(١) سورة الشعراء الآية : ٦٣ .

(٢) سورة طه الآيات : ٧٧ - ٧٩ .

منظرين \* ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين \* من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين \* ولقد اخترناهم على علم على العالمين \* وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴿١﴾ . فقله تعالى : ﴿ واترك البحر رهوا ﴾ أى ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة . فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعان ما عان هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجديداً وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه أنظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدي الخارجين عن طاعتي وبلدى وجعل يورى في نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيئات ويقدم تارة ويحجم تارات ، فلما رآته الجنود قد سلك البحر افتحموه ورائه مسرعين فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كلمه فيها أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانطم عليهم البحر فلم ينج منهم إنسان . قال الله تعالى : ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين \* ثم أغرقنا الآخرين \* إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ ﴿٢﴾ أى في إنجائه أوليائه ، فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة وقال تعالى : ﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين \* الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين \* فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ ﴿٣﴾ يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تحفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل وأشقى لنفوسهم ، فلما عان فرعون الهلكة وأحيط به وبأشر سكرات الموت أناب حيثن وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون \* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين \* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ﴿٥﴾ .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، أى حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى أى لموسى وهارون حين دعا بهذا : ( قد أجيبت دعوتكما ) فهذا من إجابة الله دعوة كلمه وأخيه هارون - عليهما السلام - .

وقوله تعالى : ﴿ والآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ ﴿٦﴾ استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عابنوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ ياليتنا فرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ ﴿٧﴾

(٥) سورة غافر الآيتان : ٨٤ - ٨٥ .

(٦) سورة يونس الآية : ٩١ .

(٧) سورة الأنعام الآية : ٢٧ .

(١) سورة الدخان الآيات : ١٧ - ٢٣ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٥ - ٦٨ .

(٣) سورة يونس الآيات : ٩٠ - ٩٢ .

(٤) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .

قال الله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾<sup>(٢)</sup> قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل في موت فرعون حتى قال بعضهم : إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل : على وجه الماء وقيل : على فجوة من الأرض وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : ( فاليوم ننجيكَ بيدنك لتكون لمن خلفك آية ) أى : مصاحباً درعك المعروفة بك ( لتكون ) أى أنت آية ( لمن خلفك ) أى من بنى إسرائيل دليلاً على قدرة الله الذى أهلكه . وقد كان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء كما قال الإمام البخارى في صحيحه عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبى ﷺ : ﴿ أنتم أحق بموسى منهم فصوموا ﴾<sup>(٣)</sup> . وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

#### أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ \* وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون \* وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون \* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون \* قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين \* وإذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده في غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالههم وأنفسهم وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم : ( وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ) أى أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمرؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا ..

﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ \* إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴿ قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما . قيل : كانت على صور البقر فكأنهم سألوه لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم في ذلك فسألوا

(١) سورة الأنعام الآية : ٢٨ .

(٢) سورة يونس الآية : ٩٢ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الصيام - باب صوم عاشوراء ص ٢٥١ رقم ٦٩٢ .

(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٣٦ - ١٤١ .

نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ما هم فيه باطل ما كانوا يعملون . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم في تفضيله إياهم على عالمي زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذي بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون \* وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس في قوله : ﴿ وجاوزنا بنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة ﴾ أى : قال بعضهم والذين زعموا هذا ، بعض الناس لا كلهم وقد قال الإمام أحمد عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حين فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبي ﷺ الله أكبر قلت كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهة كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم <sup>(١)</sup> والمقصود أن موسى - عليه السلام - لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى - عليه السلام - بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلالهم إياهم من بيت المقدس فإن الله كتب لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم في التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويحيثون في مدة من السنين طويلة هي من العدد أربعون كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ \* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين \* قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون \* قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين \* قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون \* قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين \* قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين <sup>(٢)</sup> . يذكرهم نبي الله ، نعمة الله عليهم وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد في سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : ( يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم ) أى لا تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم ( فتنقلبوا خاسرين ) أى : فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال ( قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ) أى : عتاة كفر متمردين و ( إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأساً وأكثر جمعا وأعظم جنداً وهذا يدل على أنهم ملومون في هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

(١) مسند أحمد ٥/٢١٨ .

(٢) سورة المائدة الآيات : ٢٠ - ٢٦ .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكلاً هائلة ضخاما جداً ..

( قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ) أى : يخافون الله ، أنعم الله عليهما بالإسلام والإيمان ، والطاعة والشجاعة . ( ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ) أى : إذا توكلتم على الله واستعنتم به وجأتكم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم ( قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ) فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير . ويقال : إن موسى وهارون سجدا إعظاماً لهذا الكلام وغضباً لله - عز وجل - وشفقة عليهم من وييل هذه المقالة . ( قال رب إني لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ) قال ابن عباس : أى « اقض بينى وبينهم » . ( قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة تتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ) عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلاً ونهاراً وصباحاً ومساءً ويقال : إنه لم يخرج واحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع بن نون وكالب - عليهما السلام - لكن أصحاب محمد ﷺ لم يقولوا كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم ﷺ فى الذهاب إلى النضير تكلم الصديق فأحسن ، وغيره من المهاجرين ، ثم جعل يقول : أشيروا علىّ حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله فسر رسول الله ﷺ - بقول سعد وبسطه ذلك <sup>(١)</sup> وقال الإمام أحمد عن طارق هو ابن شهاب إن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ( اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . ( وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى ) <sup>(٢)</sup> وفى رواية أخرى له « لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ( اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ) ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ - يشرق لذلك وسر بذلك » <sup>(٣)</sup> .

#### دخول بنى إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة

قال الله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى \* وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) البداية والنهاية لابن كثير - فى غزوة بدر ٢٦٢/٣ وقال : هكذا رواه ابن إسحاق وله شواهد من وجوه كثيرة .

(٢) البخارى - كتاب الغزى - باب قصة غزوة بدر ٩٣/٥ (ومسند أحمد ٣٩٠/١) .

(٣) مسند أحمد ٤٢٨/١ .

(٤) سورة طه الآيات : ٨٠ - ٨٢ .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والخرج وإنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم في سفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع من ماء من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم في ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو في غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر كما قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوفى بعهديكم وإياى فارهبون \* وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافرين ولا تشتموا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾ (١) إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم \* وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون \* وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون \* ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون \* وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون \* وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم \* وإذ قلت يا موسى لئن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون \* ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون \* وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ (٢) إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم \* كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين \* وإذ قلت يا موسى لئن نصير على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ (٣) .

فذكر سبحانه وتعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه بل ينزل الله المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى - عليه السلام - حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين منه تنبجس . ثم تتفجر ماء زلالاً فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبههم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم ﴾ (٤) أى : هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى

(٣) سورة البقرة الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٦١ .

(١) سورة البقرة الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

(٢) سورة البقرة الآيات : ٤٩ - ٥٧ .

أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجددوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ولا أبلغكم ما تعتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ (١) أى : فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المرید فقال سبحانه : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٢) .

### سؤال الرؤية

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ \* ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجل ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين \* قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين \* وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين \* سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشـد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين \* والذين كذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ (٣) .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله - عز وجل - لمحمد - ﷺ - دينه وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى - عليه السلام - لما استكمل الميقات وكان فيه صائماً يقال : إنه لم يستطع الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحاً شجرة فمضغه ليطيب ريح فأمـر الله أن يمـسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة ولهذا ثبت فى الحديث « أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » (٤) فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بن إسرائيل أخاه هارون المحب المبجل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره فى الدعوة إلى مصطفىه فوصاه وأمره وليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة . قال الله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾ \* أى : فى الوقت الذى أمر بالمجيء فيه ( وكلمه ربه ) أى كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمع الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأذناه وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه ترى سلامه عليه فى الدنيا والآخرة . ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان : ﴿ ربى أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ﴾ \* ثم يبين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن

(٢) سورة طه الآية : ٨٢ .

(١) سورة طه من الآية : ٨١ .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٤٢ - ١٤٧ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيها اتفق عليه الشيخان - كتاب الصيام - باب فضل الصيام ص ٢٥٥ رقم ٧٠٧ .



الجليل الذي هو أقوى وأكبر ذاتاً وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلي من الرحمان ولهذا قال : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراه ﴾ وفي الصحيح عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ - أنه قال : حجاب النور وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه <sup>(١)</sup> وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ذاك نوره الذي هو نوره إذا تجلى لشيء لا يقوم له شيء ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ قال مجاهد : ﴿ ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراه ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقاً فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا . ﴿ فلما أفاق ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى ﴿ قال سبحانك ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿ تبت إليك ﴾ أى : فلست أسأل بعد هذه الرؤية ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ أنه لا يراك حتى إلا مات ولا يابس إلا تدهده . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ - « لا تخبروني من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أو جوزى بصعقة الطور » وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف .

ولا شك أن صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليفة قال الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وماكملوا إلا يشرف نبهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه إنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » <sup>(٢)</sup> ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون والذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله - ﷺ - « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش » أى أخذاً بها ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور <sup>(٣)</sup> دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق في عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشاً بقائمة العرش قال الصادق المصدوق : « لا أدري أصعق قبلي فأفاق قبلي » أى : كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب في الدنيا صعق أو جوزى بصعقة الطور يعنى فلم يصعق بالكلية ولهذا نبه رسول الله ﷺ - على شرفه وفضليته بهذه الصفة بقوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ <sup>(٤)</sup> أى : في ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك في قصة إبراهيم ولا ما بعده لأن محمداً - ﷺ - أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء . وقوله

(١) مسند أحمد ٤/٤٠١

ومسلم - كتاب الإيمان - باب قوله عليه السلام إن الله لا ينال ١٦٢/١ رقم ١٧٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .

(٣) سنن الترمذى - كتاب المناقب - باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ٢٤٧/٥ رقم ٣٦٩٣ وسنن ابن ماجه - كتاب الزهد - باب ذكر الشفاعة

١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٨ .

(٤) سورة الاعراف من الآية : ١٤٤ .

تعالى : ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ <sup>(١)</sup> أى : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك . قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء ﴾ <sup>(٢)</sup> وكانت الألواح من جوهر نفيس ففى الصحيح « أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام » ﴿ فخذها بقوة ﴾ أى : بعزم ونية صادقة قوية : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجل مجاملها . ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أى : سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى المكذبين لرسلى . ﴿ سأصرف عن آياتى ﴾ عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها : ﴿ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ <sup>(٣)</sup> أى : ولو شاهدوا ، مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينفقوا ولا يتابعوها ﴿ وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً ﴾ <sup>(٤)</sup> أى لا يسلكوه ولا يتبعوه . ﴿ وإن يروا سبيل الفى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ <sup>(٥)</sup> أى : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها . والتفكير فى معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

### قصة عبادتهم العجل فى غيبة موسى

قال الله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى أيديهم وراوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين \* ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بشيا خلفتمون من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفون وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين \* قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين \* إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين \* والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم \* ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ <sup>(٧)</sup> وقال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى \* قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى \* قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامرى \* فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى \* قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى \* فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى \* أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً \* ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعون وأطيعوا أمرى \* قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى \* قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا \*

(١) سورة الاعراف الآيات : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) سورة الاعراف الآيات : ١٤٦ - ١٤٧ .

(٣) سورة الاعراف الآيات : ١٤٨ - ١٥٤ .

أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي \* قَالَ يَبْتَغِي لِي تَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي \* قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ \* قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي \* قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا \* إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١﴾ .

يذكر تعالى ما كان من أمر بني إسرائيل حين ذهب موسى - عليه السلام - إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى - عليه السلام - عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هارون السامري فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلاً وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقي . ويقال إنه استحال عجلاً جسداً أى للحما ودماً حياً يخور . قاله قتادة وغيره وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون ﴿١﴾ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴿٢﴾ أى : فنسى موسى ربه عندما ذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى عما يقولون علواً كبيراً وتقدس أسمائه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته . قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من آلهية هذا الذى قصاره أن يكون حيواناً بهيماً وشيطاناً رجيماً : ﴿٣﴾ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴿٤﴾ وقال : ﴿٥﴾ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴿٦﴾ . فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جواباً ولا يملك ضرراً ولا نفعاً ولا يهدى إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون في أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال ﴿٧﴾ ولما سقط في أيديهم ﴿٨﴾ أى ندموا على ما صنعوا ﴿٩﴾ ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴿١٠﴾ ولما رجع موسى - عليه السلام - إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها حين عاين ما عاين ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء في الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - . « ليس الخبر كالمعاينة » ﴿١١﴾ ! ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم في صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا ﴿١٢﴾ حملنا أوزاراً من زينة القوم فقد فتنناها فبذلك ألقى السامري ﴿١٣﴾ تخرجوا من تملك حلى آل فرعون وهو أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتخرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هارون - عليهما السلام - قائلاً له : ﴿١٤﴾ يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا \* ألا تتبعني ﴿١٥﴾ أى : هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتني فأعلمتني بما فعلوا فقال : ﴿١٦﴾ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي وَأَنْتَ قَدْ اسْتَخْلَفْتَنِي فِيهِمْ وَقَدْ كَانَ هَارُونُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - نَهَاةً عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الْفَظِيعِ أَشَدَّ النَّهْيِ وَزَجَرَهُمْ عَنْهُ أَمَّ الزَّجَرَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٨﴾ أى : إِنَّمَا قَدَّرَ اللَّهُ أَمْرَ هَذَا الْعَجَلِ وَجَعَلَهُ يَخُورُ فِتْنَةً وَابْتِحَارًا لَكُمْ ،

(١) سورة طه الآيات : ٨٣ - ٩٨ .

(٢) مسند أحمد ١/٢١٥ .

﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ أى لا هذا ﴿ فاتبعوني ﴾ أى فيما أقول لكم ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ يشهد الله لهارون - عليه السلام - وكفى بالله شهيدا . أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوا ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامرى : ﴿ قال فما خطبك يا سامرى ﴾ أى : ما حملك على ما صنعت ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أى رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أى : من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاها فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال : ﴿ فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى ﴾ قال فذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴿ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له فى الدنيا ثم توعد فى الآخرة فقال : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ ﴿ وانظر إلى إهلك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ قال فعمد موسى - عليه السلام - إلى هذا العجل فحرقه بالنار ثم ذراه فى البحر وأمر بنى إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل : بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علماً ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزي المفترين ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ <sup>(١)</sup> . فيقال : إنهم أصبحوا يوماً وقد أخذ من لم يعبد العجل فى أيديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال : إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفاً ثم قال تعالى : ﴿ ولما سكنت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمى وسعت كل شئ فساكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) سورة البقرة الآية : ٥٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٤ .

(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ .

قال محمد بن اسحق : اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقالوا : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتهم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وظهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعَل فلما دنا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعَل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهره فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ أى : لا تؤخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإننا براء مما عملوا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : ﴿ إن هى إلا فتنتك ﴾ أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . ﴿ تفضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴾ أى من شئت أضللتها باختبارك إياه ومن شئت هديته . لك الحكم والمشئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ﴾ أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا .

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ أى : أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتاباً فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى »<sup>(١)</sup> ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أى فسأوجبها حتماً لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ﴾ الآية : وهذا تنويه بذكر محمد - ﷺ - وأمنه من الله لموسى - عليه السلام - فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلععه عليه . وقد تكلمنا عن هذه الآية وما بعدها فى التفسير والله الحمد والمنة .

### قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أنتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكهم آياته لعلكم تعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب التوبة - باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ص ٧٤٧ رقم ١٧٤٩ .

(٢) سورة البقرة الآيات : ٦٧ - ٧٣ .

قال ابن عباس وعبيدة السلماني وأبو العالية ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف : كان رجل في بني إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله من الليل وطرحه في مجمع الطرق . ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبي الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى - ﷺ - فقال موسى - عليه السلام : أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه - عز وجل - فسأل ربه - عز وجل - في ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتل وأنت تقول هذا قال : ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى لى . وهذا هو الذى أجابني حين سألته عما سألتهموني عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدي وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم . فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سننها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا في تفسير ذلك كله في التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة والبكر وهى الصغيرة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى مشرب بحمرة تسر الناظرين . وهذا اللون عزيز ثم شددوا أيضاً : ﴿ قَالُوا ادْعْ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ . قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ مُسْلِمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى المذللة بالحرارة وسقى الأرض بالسانية مسلمة وهى الصحيحة التى لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة وقوله : ﴿ لَا شَيْءَ فِيهَا ﴾ أى : ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف . ﴿ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ ﴾ ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم ، فرغبوه في ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدي بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها لهم فأمرهم نبي الله موسى بذبحها : ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ أى : وهم يترددون في أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتل ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أدراجه فسأله نبي الله من قتلها قال قتلنى ابن أخى . ثم عاد ميتاً كما كان ، قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى : كما شاهدتم إحياء هذا القتل عن أمر الله له كذلك أمره في سائر الموتى إذا شاء أحياهم في ساعة واحدة كما قال عز وجل : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً إِنْ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

## قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفته لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً ﴾ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ فلما جاوزا قال لفته آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ قال أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أخرجتها لتغرق أهلكها لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴾ قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقنلت نفسك زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴿<sup>(١)</sup>..

قال البخاري : عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوحا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبي بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيباً في بنى اسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه بأن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يا رب وكيف لى به . قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر واتخذ سبيله في البحر سرباً . وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان من الغد ﴿ قال موسى لفته آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ( قال ) له فتاه ﴿ أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً ﴾ قال فكان للحوت سرباً ولموسى ولفته عجباً ( قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ) قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى

قال : موسى بنى إسرائيل قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿ قال إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال : ﴿ ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ قال له الخضر : ( فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شئ حتى أحدث لك منه ذكراً ) ( فانطلقا ) يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدم فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتفرق أهلها لقد جئت شيئا إمرأ ﴾ ( قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً \* قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً ) قال . وقال رسول الله - ﷺ - وكانت الأولى من موسى نسيانا قال : وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : ﴿ أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً \* قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ، قال : ( إن سألتك عن شئ بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا \* فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ) قال : مائل فقال الخضر بيده : ( فأقامه ) فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ( لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : ( هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ) قال رسول الله - ﷺ - وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جببر فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين «<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة ﴾ قال السهيلي : وهما أصبرم وصريم ابنا كاشع ﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾ قيل : كان ذهباً ، قاله عكرمة وقوله : ﴿ وكان أبوهما صالحا ﴾ وقد قيل : إنه كان الأب السابع وقيل : العاشر وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته والله المستعان . وقوله : ﴿ رحمة من ربك ﴾ دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر به فهو نبي وقيل : رسول وقيل : ولى . والذي عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ، ويقال : إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل ، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم ﴾ الآية<sup>(٢)</sup> فأخذ الله ميثاق كل نبي على أن يؤمن بمن يبعث بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة ، وقصارى الخضر - عليه السلام - أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملها فيها ذكر وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب حديث الخضر مع موسى ١٨٨/٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .



الإيمان بمحمد - ﷺ - ونصرته فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل في عموم البعثة وأحرى ، ولم ينقل في حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوماً واحداً إلى رسول الله - ﷺ - ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم .

### قصة قارون مع موسى - عليه السلام -

قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ \* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ \* قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ \* فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ \* وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ \* فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ \* وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ \* تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ <sup>(١)</sup> قال الأعمش يسنده عن ابن عباس قال كان قارون ابن عم موسى ، قال ابن جريج وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد وقد قيل : إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا ، والله أعلم ، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين لا تفرح . أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ \* وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴿ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله في الدار الآخرة فإنه خير وأبقى ومع هذا ﴾ لا تنس نصيبك من الدنيا ﴿ أى : وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴾ \* وأحسن كما أحسن الله إليك ﴿ أى : وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴾ \* ولا تبغ الفساد في الأرض ﴿ فما كان جواب قومه . لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن : ﴾ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴿ يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرت ولا إلى ما إليه أشرت فإن الله إنما أعطاني هذا لعلمه أنى أستحقه وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطاني ما أعطاني ، قال الله تعالى رداً على ما ذهب إليه : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ \* أى : قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالا منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى :

﴿أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبينين \* نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾<sup>(١)</sup> وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال فليس بصحيح .

قال الله تعالى : ﴿فخرج على قومه فى زينته﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذووا الفهم الصحيح ، الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ أى : وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده وما أحسن ما قال بعض السلف إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات . قال الله تعالى : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال جل فى علاه : ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾ كما روى البخارى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال : ( بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة )<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغياً مალأ على أن تقول لموسى - عليه السلام - وهو فى ملأ من الناس إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال إنها قالت له : ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك وما حملك عليه فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون فأوحى الله إليه إنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلع داره فكان ذلك فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾<sup>(٣)</sup> لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿فما له من قوة ولا ناصر﴾<sup>(٤)</sup> ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتى وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قال : ﴿لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ ثم أخبر سبحانه : ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً﴾ الدار الآخرة وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرماها إنما هى مسعدة للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً . فالعلو هو التكبر ، والفخر والأشر

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٥ .

(٢) البخارى - كتاب الياس - باب من جر ثوبه من الخلاء ١٨٣/٧ .

(٣) سورة القصص الآية : ٨١ .

(٤) سورة الطارق الآية : ١٠ .

والبطر ، والفساد هو عمل المعاصي اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معاشهم والإساءة إليهم وعدم النصيح لهم ثم قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ . وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله : ﴿ فحسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، فإن الدار طاهرة في البنيان ، وقد تكون بعد ذلك في التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التي تضرب فيها الخيام . والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون في غير ما آية من القرآن . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين \* إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى في سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين \* فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> فالذي خسف به الأرض قارون كما تقدم والذي أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين .

### باب فضائل موسى - عليه السلام - وشمائله ووفائه

قال الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً \* وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً \* وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وتقدم في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلوني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري أصعق فأفاق قبلي أم جوزى بصعقة الطور » <sup>(٥)</sup> . وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ إلى أن قال : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ <sup>(٧)</sup> قال الإمام أبو عبد الله البخاري <sup>(٨)</sup> : عن أبي هريرة

(١) سورة غافر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٤٤ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .

(٦) سورة النساء الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٧) سورة الأحزاب الآية : ٦٩ .

(٨) البخاري - كتاب بدء الخلق ٤/١٩٠ واللؤلؤ والمرجان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٥ رقم ١٥٣٢ ومسلم - كتاب

الفضائل - باب فضائل موسى ٤/١٨٤٢ رقم ١٥٦ وأحمد ٢/٥١٥ .

قال : قال رسول الله ﷺ « إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أذرة وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر . ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملاء من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال فذلك قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ وقد رواه الإمام أحمد ، ورواه مسلم .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع في أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ ثم قال البخارى بسنده عن الأعمش قال : سألت أبا وائل قال : سمعت عبد الله قال : « قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبي ﷺ فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال يرحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر »<sup>(١)</sup> .

وقد ثبت في الصحيح في أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى في قبره<sup>(٢)</sup> . وفي الصحيحين من رواية قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ أنه مر ليلة أسري به بموسى في السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال : فسلمت عليه فقال : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل ما يبكيك ؟ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي . وذكر إبراهيم في السماء السابعة<sup>(٣)</sup> . . الحديث .

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ خمسين صلاة في اليوم والليلة فمر بموسى قال ارجع إلي ربك فسله التخفيف لأمتك فإني قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة وأن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه في كل مرة حتى صارت خمس صلوات في اليوم والليلة وقال الله تعالى : هي خمس وهي خمسون أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخارى عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت على الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هذا موسى في قومه »<sup>(٤)</sup> ، رواه البخارى مختصراً ، ورواه الإمام أحمد مطولاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد إذ رُفِعَ لى سواد عظيم فقلت هذه أمتي فقيل هذا موسى

(١) البخارى - كتاب الأدب - باب الصبر على الأذى ٣١/٨ و ١٩١/٤ .

(٢) مسلم - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ٤ - ١٨٤٥ رقم ٢٣٧٥ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الإيمان - باب حديث الإسراء ص ٣٦ رقم ١٠٣ .

(٤) البخارى فتح البارى - كتاب الأنبياء باب وفاة موسى وذكره بعد ٤٤١/٦ .

وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقل هذه أمثك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب<sup>(١)</sup> - الحديث .

وقد ذكر الله تعالى موسى - عليه السلام - في القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته في كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصر وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ كما قال في سورة البقرة : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ألم \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل \* من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾<sup>(٤)</sup> . فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً . وقال تعالى في آخرها : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذي أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾<sup>(٥)</sup> . وقال في سورة المائدة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ إلى أن قال : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه . . الآية<sup>(٦)</sup> ، فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء مفهومهم وقصورهم في علومهم ورداءة تصورهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله مالا يحد ولا يوصف ومالا مثله ولا يعرف . وقال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرًا للمتقين ﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقال تعالى في سورة القصص : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ، قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٨)</sup> ، فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقال الجن لقومهم : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾<sup>(٩)</sup> .

(١) مسند أحمد ٢٧١/١ . (٤) سورة الأنعام الآيات : ٩١ ، ٩٢ . (٧) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ - ٥٠ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠١ . (٥) سورة الأنعام الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥ . (٨) سورة القصص الآيات : ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) سورة آل عمران الآيات : ١ - ٤ . (٦) سورة المائدة الآيات : ٤٤ - ٤٨ . (٩) سورة الأحقاف الآية : ٣٠ .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من الوحي وتلا عليه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴾ اقرأ وربك الأكرم ﴾ الذى علم بالقلم ﴾ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ قال : سبوح سبوح هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران (١) .

وبالجملة فشرية موسى - عليه السلام - كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وأولياء وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

### حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جوار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة . قال هشيم . يعنى ليفاً وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند به .

### ذكر وفاته عليه السلام

قال البخارى فى صحيحه ( وفاة موسى عليه السلام ) عن أبى هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى - عليه السلام - فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أى رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن . قال فسأل الله عز وجل أن يدينه من الأرض المقدسة . رمية بحجر . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر » (٢) .

وكانه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يجب وقوعها فى حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى وقد زعم بعضهم أن موسى هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتية وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر ورسول الله ﷺ إلى أهل الوبر والمدر ، فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر . وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر » (٣) رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الإيمان - باب بدء الوحي ص ٣٣ رقم ٩٩ .

مسند أحمد ٢١٥/١ ومسلم - كتاب الإيمان - باب الإسراء برسول الله ﷺ ١٥٢/١ رقم ١٦٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ص ٦٢٥ رقم ١٥٣٣ .

(٣) مسلم - كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ١٨٤٥/١ رقم ٢٣٧٥ ومسند أحمد ١٢٠/٣ .

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .  
وقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ قال : كان ملك الموت يأتي الناس عيانا قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقا عينه فأتى ربه فقال يا رب عبدك موسى فقا عيني ولولا كرامته عليك لعنت عليه قال يونس لشفت عليه . قال له اذهب إلى عبدى . فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة دارت يده سنة فأتاه فقال له : فقال : ما بعد هذا قال : الموت قال : فالآن قال : فشمه شمة فقبض روحه ، قال يونس : فرد الله عليه عينه وكان يأتي الناس خفية (١) . أ. هـ .

### الوعد الحق

إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدًى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَنْذَرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

### معاني المفردات

(يوم يقوم الأشهاد) : هو يوم القيامة ، (والأشهاد) : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، (والهدى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، (والإبكار) : أول النهار إلى نصفه ، (العشى) : النصف إلى آخر النهار . (السلطان) : الحجة ، (داخرين) أى : صاغرين أذلاء .

### المناسبة والمعنى الاجمالي

بعد أن ذكر - سبحانه - في أول السورة أنه لا يجادل في آيات الله إلا القوم الكافرون ، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلياً لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه - أردف ذلك وعده له بالنصرة على أعدائه في الدنيا والآخرة وتلك سنة الله ، فهو ينصر الأنبياء والرسل ، ويقض لهم من ينصرهم على أعدائهم ؛ ويملاً قلوبهم بنور اليقين ويلهمهم أن النصر لهم آخراً مهما تقلبت بهم الأمور . وبعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون في آيات بغير سلطان ، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ذكر برهاناً يؤيد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته ، وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتك كما جاء في الآية الأخرى : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ <sup>(١)</sup> وبعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لا جرم أمر الله تعالى بها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ \* يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير في شرح هاتين الآيتين :  
قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾ سؤالا ، فقال : قد علم أن بعض الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيبا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصر في الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين ( أحدهما ) أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ في اللغة ( الثاني ) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتله يحيى وزكريا وشعيبا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمرود أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح - عليه السلام - من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - إماماً عادلاً وحكماً مقسطاً فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم .

ولقد قال جل في علاه لنبيه محمد ﷺ مبيناً له أنه سبحانه لا بد أن ينتقم من المشركين إما حال حياته أو بعد موته ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ \* أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون \* فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة ياسين الآية : ٨١ .

(٢) سورة الزخرف الآيات : ٤١ - ٤٣ .



وفي صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله - تبارك وتعالى - من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب »<sup>(١)</sup> وفي الحديث الآخر « إني لأتأثر لأوليائى كما يتأثر الليث الحرب » ولهذا أهلك الله - عز وجل - قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط ، وأهل مدين وأشباهم وأحزابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق وأنجى الله تعالى - من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً .

وقال السدى لم يبعث الله - عز وجل - رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله - تبارك وتعالى - لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك به في الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها وهكذا نصر الله نبيه محمداً - ﷺ - وأصحابه على من خالفه وناواه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرائى قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصاراً وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم ، مقرنين في الأصفاد ، ثم من عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه بببلده وهو البلد الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله - تعالى - به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ، ودانت له الجزيرة العربية ، بكما لها ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ثم قبضه الله تعالى إليه لماله عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله - تبارك وتعالى - أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله - عز وجل - ودعوا عباد الله - تعالى - إلى الله - جل وعلا - وفتحوا البلاد والأقاليم ، والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لا يزال هذا الدين قائماً منصوراً ظاهراً إلى يوم القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصره أعظم وأكبر وأجل قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾ وهم المشركون لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ ولهم اللعنة ﴾ أى : الإبعاد والطرود من الرحمة ، (ولهم سوء الدار) وهى النار قاله السدى : بئس المنزل والمقيل .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب ﴾ هدى وذكرى لأولى الألباب ﴿ .

أى : ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدى به الناس في الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه ، فتوارثوها خلفاً عن سلف وصارت هداية لهم وتذكراً لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

وقوله تعالى : ﴿ فاصبروا إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ﴾ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو

السميع البصير ﴿ بعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلاً بحال موسى خاطب نبيه محمداً - ﷺ - بقوله : ( فاصبر ان وعد الله حق ) أى : فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجزه وعده ، وناصرك وناصر من صدقت وأمن بك ، على من كذبك وأنكر ما جئت به من عند ربك . ( واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار ) وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنك وصل شكراً له طرفي النهار . وهذا كقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب \* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ (٢) .

ولما ابتدأ - عز اسمه - بالرد على الذين يجادلون في آيات الله واتصل الكلام ببعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذي يحملهم على تلك المجادلة فقال : ﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ أى : إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة - ما يحملهم على هذا الجدل الإكبر في صدورهم يمنعهم عن اتباعك وعن قبول الحق الذي جئتهم به ، إذ لو سلموا بنيتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة وهم في صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا في خدمتك ، وما هم ببالغي موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذي يدرك بالأمان . ثم أمر رسوله أن يستعذ من هؤلاء المجادلين المتكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال : ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ أى : فالتجئ إلى الله - تعالى - في دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شيء منها .

قوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تذكرون ﴾ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ أى : لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة - أعظم في النفوس وأجل في الصدور ، من خلق الناس لكبر أجرامهما ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة في مزاولة الأفعال أن علاج الشيء الكبير العظيم أشق من علاج الشيء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال - عز وجل - ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحى الموتى بل إنه على كل شيء قدير ﴾ (٣) ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ رفع سمكها فسواها ﴾ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ والجبال أرساها ﴾ متاعاً

(١) سورة ق الآيةان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) سورة طه الآية : ١٣٠ .

(٣) سورة الأحقاف الآية : ٣٣ .

لكم ولأنعامكم ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ \* والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج \* تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا وقد اعترفوا بما هو أولى بما أنكروا . ثم قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تذكرون ﴾ أي : كما لا يستوى الأعمى الذي لا يبصر شيئا والبصير الذي يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار . ( قليلا ماتذكرون ) أي : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ﴾ \* ولا الظلمات ولا النور \* ولا الظل ولا الحرور \* وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور ﴿٣﴾ وكقوله تعالى في سورة هود بعد ما تحدث عن الكافرين والمؤمنين ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾ ﴿٤﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ \* أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار \* كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴿٥﴾ وكقوله جل في علاه : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ﴿٦﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون ﴾ \* أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون \* وأما الذين كفروا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿٧﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ﴿٨﴾ أي : أن يوم القيامة الذي يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لا شك فيه ، فأيقنوا بمجيئه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ، ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه ، ليدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي : ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا في الأرض فسادا ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ ﴿٩﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ﴿١٠﴾

(١) سورة النازعات الآيات : ٢٧ - ٣٣ .

(٢) سورة ق الآيات : ٦ - ٨ .

(٣) سورة فاطر الآيات : ١٩ - ٢٢ .

(٤) سورة هود الآية : ٢٤ .

(٥) سورة ص الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

(٦) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

(٧) سورة السجدة الآيات : ٨١ - ٢٠ .

(٨) سورة غافر الآية : ٥٩ .

(٩) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .

(١٠) سورة غافر الآية : ٦٠ .

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة . قال الإمام أحمد عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ( ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين )<sup>(١)</sup> وهكذا رواه أصحاب السنن وقال الترمذى . حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه »<sup>(٢)</sup> .

وقال : الحافظ أبو الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي بسنده عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد ابن سلمة الأنصارى وجدنا في فؤابة سيفه كتابا بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ - يقول : « إن لربكم في بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها »<sup>(٣)</sup> لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾<sup>(٤)</sup> وقال بعض السلف : ان الله تعالى يجيب كل الدعاء ، فإما أن يعجل الإجابة في الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعى وإما أن يدخر له في الآخرة ، لما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ - : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثاً : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها »<sup>(٥)</sup> .

واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط ، فشرط الداعى أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله ، وأن الوسائط في قبضته ومسخره بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، ولا يمل من الدعاء .

ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام « ما لم يدع بإثم ، أو قطعية رحم »<sup>(٦)</sup> فيدخل في الإثم كل ما يأتى به من الذنوب ، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم .

قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركاناً ، وأجنحة ، وأسباباً ، وأوقاتاً ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه حضور القلب والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على النبى ﷺ .

(١) مسند أحمد ٢٧١/٤ والترمذى - كتاب تفسير القرآن - باب سورة البقرة ٢١١/٥ رقم ٢٩٦٩ وابن ماجه كتاب الدعاء - باب فضل الدعاء رقم ٣٨٢٨ وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) مسند أحمد ٤٤٢/٢ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى في نوادر الأصول والطبرانى في الأوسط من حديث محمد بن مسلمة وابن أبى الدنيا في كتاب الفرج من حديث أبى هريرة واختلف في إسناده .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٥) مسند أحمد : ١٨/٣ .

(٦) مسند أحمد : ٣٢٩/٥ والترمذى - كتاب الدعاء - باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ١٣٠/٥ رقم ٣٤٤١ .

ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبلاً القبلة ، ويرفع يديه لما روى عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله ربكم حي كريم ليستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً »<sup>(١)</sup> وأن يخفض صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال : صليت مع أبي إسحاق الفداء فسمع رجلاً يجهر في الدعاء فقال : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفياً . وينبغي للداعي أن لا يتكلف ، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع . وقيل : ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق . ويبدأ الدعاء بالثناء على المولى سبحانه وتعالى - ﴿ والله الأساء الحسنى فادعوه بها ﴾ ويشئ بالصلاة على النبي محمد - ﷺ - وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً عظيماً قديراً ، وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر ، وما بين الأذان والإقامة ، وما بعد عصر الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله ، وفي الثلث الأخير من الليل ، وفي حالة السجود ، وأوقات الاضطراب وحالة السفر والمرضى هذا كله جاءت به الآثار والأخبار عن الحبيب المختار ، ﷺ .

## إلهي

يا من يرى مافي الضمير ويسمع  
يا من يرجي للشدائد كلها  
يا من خزائن رزقه في قول كن  
مالي سوى فقري إليك وسيلة  
مالي سوى قرعى لبابك حيلة  
ومن ذا الذي أدعو وأهتف باسمه  
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا  
ثم الصلاة على النبي وآله

أنت المعد لكل ما يتوقع  
يا من إليه المشتكى والمفزع  
امنن فإن الخير عندك أجمع  
فبالافتقار إليك فقري أذفع  
فلئن رددت فأى باب أقرع  
إن كان فضلك عن فقيرك يمنع  
الفضل أجزل والمواهب أوسع  
خير الأنام ومن به يتشفع

## إلهي

يا خالق الخلق يارب العباد ومن  
إني دعوتك مضطراً فخذ بيدي  
نجيت أيوب من بلواه حين دعا  
واطلق سراحي وامنن بالخلاص كما

قد قال في محكم التنزيل ادعوني  
يا جاعل الأمر بين الكاف والنون  
بصبر أيوب يا ذا اللطف نجيني  
نجيت من ظلمات البحر ذا النون

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾<sup>(٢)</sup> أى : إن الذين يستكبرون عن دعائي وتوحيدي سيدخلون جهنم داخرين أى : صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصاره أهل النار »<sup>(٣)</sup> .

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب الدعاء ١٦٥/٢ رقم ١٤٨٨ وسنن الترمذي - كتاب الدعاء - باب في كرم الله تعالى ٥٥٦/٥ رقم ٣٥٥٦

وابن ماجه - كتاب الدعاء - باب رفع اليدين في الدعاء رقم ٣٨٦٥ .

(٢) سورة غافر الآية : ٦٠ . (٣) مسند أحمد ١٧٩/٢ .

بحث في الدعاء  
للإمام ابن القيم

يحدثنا الإمام ابن القيم في كتابه الفوائد [ الجزء الثالث ] عن الدعاء وأنواعه فيقول رحمه الله ما نصه : قوله عز وجل : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعها وهما متلازمان ، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا ، والمعبود لا بد وأن يكون مالكا للنفع والضر ، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله تعالى : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿ قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴿ أو ينفعونكم أو يضرون ﴾<sup>(٦)</sup> وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿<sup>(٧)</sup> وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾<sup>(٨)</sup> .

فنفي سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدى فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم . وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعى خوفا ورجاء دعاء عبادة . فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة . وعلى هذا فقول تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾<sup>(٩)</sup> يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألتني ، وقيل : أثيبه إذا عبدني ، والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً ، فتأمل أنه موضع عظيم النفع قل من يظن له وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً هي من هذا القبيل .

(٥) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .

(٦) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٣ .

(٧) سورة الفرقان الآية : ٣ .

(٨) سورة الفرقان الآية : ٥٥ . (٩) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٨ .

(٣) سورة يونس الآية : ١٠٦ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٧٦ .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ قُلْ مَا يَعْبادُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ ﴾ قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول وعلى الأول مضافا إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين . وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء ، وهو في دعاء العبادَة أظهر ، أى : ما يَعْبادُ بكم ربِّي لولا أنكم تعبدونه ، وعبادته تستلزم مسألته . فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو في دعاء العبادَة أظهر ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (٢) فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا .

وقد روى سفيان عن منصور عن ذر عن فسيح الكندى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « على المنبر » إن الدعاء هو العبادَة ثم قرأ ( ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح (٣) وأما قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلَ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴾ (٥) وقوله : ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٦) وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وأهوتهم فالمراد به دعاء العبادَة المتضمن دعاء المسألة فهو في دعاء العبادَة أظهر لوجوه ثلاثة :

أحدها : أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (٧) فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

الثانى : أن الله تعالى فسر هذا الدعاء في مواضع آخر بأنه العبادَة كقوله : ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴿ (٨) وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (٩) وقوله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ لا أعبد ما تعبدون ﴿ (١٠) وهو كثير في القرآن ، فدعاؤهم لأهوتهم هو عبادتهم لها .

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله ، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادَة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١١) هو دعاء العبادَة والمعنى اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٧ . (٢) سورة غافر الآية : ٦٠ .

(٣) سنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن - باب سورة البقرة ٢١١/٥ رقم ٢٩٦٩ .

(٤) سورة الحج الآية : ٧٣ . (٥) سورة الشعراء الآية : ٩٢ .

(٦) سورة النساء الآية : ١١٧ . (٧) سورة الأنبياء الآية : ٩٨ .

(٨) سورة الكافرون الآية : ١ ، ٢ . (٩) سورة فصلت الآية : ٤٨ .

(١٠) سورة الزمر الآية : ٣ . (١١) سورة غافر الآية : ١٤ .

وأما قول إبراهيم الخليل - ﷺ - : ﴿ إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾<sup>(١)</sup> فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام ، لأنه سميع لكل مسموع . وإن كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب ، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا : ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾<sup>(٢)</sup> فقد قيل إنه دعاء المسألة والمعنى : إنك عودتني إجابتك وإسعافك ، ولم تشقني بالرد والحرمان . فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه . كما حكى أن رجلاً سأل رجلاً وقال أنا الذي أحسنت إلى وقت كذا وكذا ، فقال : مرحباً بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته . وهذا ظاهر هنا .

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأل .

وأما قوله تعالى : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾<sup>(٣)</sup> فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول .

قالوا كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : يا الله ، ومرة يا رحمن ، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال ابن عباس : سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده يا رحيم فقالوا هذا يزعم أنه يدعو واحداً وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، كقولهم دعوت ولدي سعيداً وأدعه بعبد الله ونحوه . والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن . فالدعاء ههنا بمعنى التسمية ، وهذا قول الزمخشري . والذي حمله على هذا قوله تعالى : ﴿ أَيَّامًا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ فإن المراد بتعددته معنى أى وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا . والمعنى أى اسم سميتوه به من أسماء الله تعالى ، إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أى فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى ، والضمير في ( له ) يعود إلى المسمى فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية . وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب ، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب . فعلى هذا يصح أن يكون في تدعو معنى تسمو فتأمله . والمعنى أيا ماتسمو في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾<sup>(٥)</sup> فهذا دعاء العبادة المتضمن

(١) تفسير الطبري ١٥/١٢١ .

(٢) سورة الطور الآية : ٢٨ .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٣٩ .

(٤) سورة مريم الآية : ٤ .

(٥) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .



للسؤال رغبة ورهبة . والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره . فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض ، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب .

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾ (١) أى لن نعبد غيره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ (٢) .

وأما قوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ (٣) فهذا من دعاء المسألة بياكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإرادتهم ، أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم ، وليس المراد عبدوهم . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ (٤) .

وهذا التقرير نافع فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسماها فى اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة أو استعملت فى هذه العبارة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، أو هى باقية على الوضع اللغوى وضم إليها أركان وشرائط . وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء ، إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . فمما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله . إذا عرف هذا فقولته تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ (٥) يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه وإسارته قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وأن الله ذكر عبداً صالحاً ورضى بفعله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ (٦) .

وفى إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

أحدها : أنه أعظم إيماناً ، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفى وليس كالذى قال إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .

وثانيها : أنه أعظم فى الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعون . ومن رفع صوته لديهم مقتوه . والله المثل الأعلى فإذا كان يسمع الدعاء الخفى فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

وثالثها : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذى هو روح الدعاء ولبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الصارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى أنه ليكاد

(٤) سورة الكهف الآية : ٥٢ .

(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .

(٦) سورة مريم الآية : ٣ .

(١) سورة الكهف الآية : ١٤ .

(٢) سورة الصافات الآية : ١٢٥ .

(٣) سورة القصص الآية : ٦٤ .

تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعتة إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق ، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعتة ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلاً .

ورابعها : أنه أبلغ في الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ في جمعية القلب على الله في الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ في حمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى :

وسادسها : وهو من النكت السرية البديعة جداً ، أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لا قترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثني سبحانه على عبده زكريا بقوله : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ .

فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك ، أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به ، بل يراه غير مستحسن ، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفى كلامه فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه ، والله المثل الأعلى .

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال : « أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً قريباً ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ <sup>(١)</sup> وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، ربنا قريب فتناجيه أم بعيد فتناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : ( وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ) <sup>(٢)</sup> .

وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء لا للنداء الذي هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألو فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى لا مسألة البعيد المنادى ، وهذا القرب من الداعى هو قرب خاص ليس قرباً عاماً من كل أحد ، فهو قريب من داعيه ، وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعى والعابد كما قال النبي ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً » فهذا قربه من عابده .

وأما قربه من داعيه وسأله فكما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ وقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب .

وأما قربه تبارك وتعالى من محبة فنوع آخر ، وبناء آخر ، وشأن آخر كما ذكرناه في كتاب التحفة المكية ، على أن العبارة تنبوعه ، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبداً ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٢) أنظر ابن كثير طبعة الشعب ١/٣١٣ .

يكون تصديق العبد بهذا القرب . وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية ، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها . فتزل قدم بعد ثبوتها .

وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم ، فوقعوا في أنواع من الطامات والسطح ، وقابلهم من غلظ حجابهم فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه ، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف ، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا .

وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء ، في كتاب التحفة أكثر من مائة طريق والمقصود هنا الكلام على هذه الآية .

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه . وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعاً صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به تفتنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والانس فشوشت عليه ولا بد ، وما نعته وعارضته . ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى . ومن له تجربة يعرف هذا . فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة .

وتاسعها : أن أعظم النعم الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه ، والتبتل إليه ، ولكل نعمة حاسد على قدرها ، دقت أو جلّت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة . فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وأن لا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف : ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ (١) وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه . ولهذا يوصى العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله ، وأن لا يطلعوا عليه أحداً ، ويتكتمون غاية التكتّم . كما أشد بعضهم في ذلك :

من سارروه . فأبدى السر مجتهدا      لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا  
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم      وأبدلوه مكان الأنس إحاشا  
لا يأمنون مديعاً بعض سرهم      حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شيء كتماناً لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه ، ولا سيما للمبتدى والسالك فإذا تمكن أحدهم وقوى وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه ، بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقبض به ويؤتم به لم يبال ، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء ، لتضمنه الطلب ، كما قال النبي ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد لله »<sup>(١)</sup> فسمى « الحمد لله » دعاء وهو ثناء محض ، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه ، فهو أحق أن يسمى داعياً من السائل الطالب من ربه حاجة ما . فتأمل هذا الموضع ولا تحتاح إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال ، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال فهو داعٍ مما تضمنه ثناؤه من التعرض ، كما قال أمية بن أبي الصلت :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك أن شيمتك الحياء  
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب ، فهو دعاء حقيقة ، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه .

والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه . وقد قال الله تعالى : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ﴾<sup>(٢)</sup> فأمر تعالى نبيه أن يذكره في نفسه . قال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكره في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح .

وتأمل كيف قال في آية الذكر : ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ﴾ وفي آية الدعاء : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخيفة ﴾ فذكر التضرع فيها معاً وهو التذلل والتمسك والانكسار وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرناه من الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف . فإن الذكر يستلزم المحبة ويشمرها ولا بد فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته . والمحبة ما لم تقرب بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره ، لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فلا اشتغال بالوسيلة باطل . ولقد حدثني رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوه له ترك فيها حضور الجمعة ، فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال ، وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه ، فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله . فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعى حفظ قلبه أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة . فان من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة . وسبب

(١) سنن الترمذي - أبواب الدعوات - باب ماجاء أن دعوة المسلم مستجابة ١٣٠/٥ رقم ٣٤٤٣ وابن ماجه - كتاب الأدب - باب فضل

الحامدين ١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠٠ .

(٢) سورة الاعراف الآية : ٢٠٥ .

هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجى ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن ، وهذه المقامات الثلاث في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ (١) . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ، فهذه طريقة عباده وأوليائه . وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ويقول المحب لا يضره ذنب . . والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد ، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب . والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها . فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردّها إذا حادت عن الطريق وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها . فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرضى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شئ من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخفية بالذكر والخفية في الدعاء مع دلالة على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضا . فإنه قال ﴿ واذكر ربك في نفسك ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول خفية ، وقال في الدعاء ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ (٢) فلم يحتج أن يقول في الأول ادعوا ربكم تضرعا وخفية . فانتمت كل واحدة من الآيتين للخفية والخفية والتضرع أحسن إنتظام ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذى هو الرجاء في آية الدعاء لأن الدعاء مبنى عليه ، فإن الداعى ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع . وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم ، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ قيل المراد : أنه لا يحب المعتدين في الدعاء كالذى يطلب ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك .

وقد روى أبوداود في سننه أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : « اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار . فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء » (٣) .

وعلى هذا فالاعتداء في الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات وتارة بأن يسأله ما لا يفعله الا الله ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلع على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ونحو ذلك

(١) سورة الإسراء الآية : ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

(٣) سنن أبى داود - كتاب الطهارة - باب الإسراف في الماء ١/٧٣ رقم ٩٦ .

مما سؤاله اعتداء ، فكل سؤال يناقض حكمة الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به ، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا في الدعاء ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء والنداء في الدعاء والصياح .

وبعد ، فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء في الدعاء مراراً بها فهو من جملة المراد . والله لا يحب المعتدين في كل شيء دعاء كان أو غيره كما قال : ﴿ ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين ﴾<sup>(١)</sup> وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته ، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم الذين يدعون معه غيره فهو لأعظم المعتدين عدواناً ، فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة في غير موضعها . فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلاً في قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ .

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع - بل دعاء مُدَل كالمستغنى بما عنده ، المدل على ربه به ، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارح الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن تعبد به بما لم يشرعه ، وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه ، فإن هذا الاعتداء في دعاء الثناء والعبادة ، وهو نظير إعتداء في دعاء المسألة والطلب . وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين : أحدهما محبوب للرب تبارك وتعالى مرضى له وهو الدعاء تضرعاً وخفية . والثاني مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء . فأمر بما يحبه وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير . وهو أنه لا يحب فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير ناله . وفي قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ عقب قوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم . فقسمت الآية الناس قسمين : داع لله متضرعاً وخفية ومعتد بترك ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾<sup>(٢)</sup> قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله ، والدعوة إلى غيره ، والشرك به هو أعظم فساد في الأرض ، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك به ومخالفة أمره قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴾<sup>(٣)</sup> .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر في العالم وقتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله ومن تدبر هذا حق القدير ، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموماً وخصوصاً . ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٣) سورة الروم الآية : ٤١ .

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

وقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع . فأمراً أولاً بدعائه تضرعاً وخفية ، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً ، وفصل بين الجملتين بجملتين ، إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي وهي قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ والثانية طلبية وهي قوله : ﴿ ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجمله الأولى ، مؤكدتان لمضمونها . ثم لما تم تقريرها . وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفاً وطمعاً . ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجمله خبرية وهي قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾<sup>(١)</sup> فتعلق هذه الجملة بقوله ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ كتعلق قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ بقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهي الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أى إنما ينال من دعاه خوفاً وطمعاً فهو المحسن والرحمة قريب منه ، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ فيه تنبيه ظاهر على فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ، ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً ، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم ، فإن الله هو الغنى الحميد ، وإن أحسنتم أنفسكم . وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ له دلالة بمنطوقه ، ودلالة بإيمائه وتعليله ، ودلالة بمفهومه . فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب في قرب الرحمة منهم ، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين . فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة . وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً بعيداً وقرباً بقرب ، والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه ، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه .

والإحسان ههنا هو فعل المأمور به ، سواء كان إحساناً إلى الناس أو إلى نفسه ، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتوكل عليه ، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية ، فهذا هو مقام الإحسان ، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه ، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به ، وإنما كتب رحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون والذين يتبعون الرسول ، فهؤلاء هم أهل الرحمة ، كما أنهم هم المحسنون ، وكما أحسنوا جوزوا

بالإحسان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعنى هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أنه يحسن ربه إليه . قال ابن عباس : هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة . وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدى عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ - : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ثم قال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » (١) .

(أ. هـ .)

قال تعالى :

اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٦﴾ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٧﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾ هُوَ الْحَىُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ \* قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٣﴾

### معاني المفردات

( لتسكنوا فيه ) : أى لتستريحوا فيه ، ( مبصراً ) : أى يُبصر فيه ، ( تؤفكون ) تصرفون ، ( قراراً ) أى استقرار ، ( بناء ) : أى قبة ( فتبارك ) أى تقدس وتتنزه ، ( الدين ) الطاعة .



## المناسبة والمعنى الإجمالي

بعد أن أثبت سبحانه أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع إليه وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات ، وبعد ذلك أمر رسوله ﷺ أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البنات التى جاءت ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة والخشب المصورة ، ثم ذكر أنه بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نقطة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون \* كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون \* الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين \* هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين .

يقول تعالى : ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعاش بالنهار وجعل النهار مبصراً أى مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات كقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً ﴾ (٤) وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ (٥) .

ويقول جل فى علاه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير

(٤) سورة الفرقان الآية : ٤٧ .

(٥) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .

(١) سورة يونس الآية : ٦٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٢ .

(٣) سورة النمل الآية : ٨٦ .

الله يأتىكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون \* ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿١﴾ .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، ثم قال عز وجل : ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ (٣) أى الذى فعل هذه الأشياء ، الذى قلب الليل والنهار هو الواحد القهار ، خالق كل شيء الذى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى فكيف تعبدون غيره من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئاً بل هى مخلوقة منحوتة .

وقوله عز وجل : ﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء ﴾ أى : جعل الأرض مستقرا بساطا مهادا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون فى مناكبها وأرساها بالجبال لثلا تميد بكم ﴾ والسماء بناء ﴾ أى سقفا للعالم محفوظا كقوله جل فى علاه : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ﴾ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين \* ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين \* فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) وكقوله سبحانه : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون \* أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم ﴾ ورزقكم من الطيبات ﴾ أى : من المأكّل والمشرب فى الدنيا فذكر أنه خلق الدار والمكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٤) وقال ههنا بعد خلق هذه الأشياء : ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أى فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم ، ثم قال سبحانه : ﴿ هو الحى لا إله إلا هو ﴾ أى : هو الحى أزلا وأبداً ، لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخِر والظاهر والباطن ﴿ لا إله إلا هو ﴾ لا معبود بحق إلا هو

(٢) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .

(١) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣ .

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة النمل الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .

﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أى : موحدين له مقرين بأنه لا إله إلا هو ، ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، أى : احمده سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملك وإنس وجن ، لا الآلهة التى تعبدونها ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً فضلاً عن نفع غيرها وضره ، وعن ابن عباس أنه قال « من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها : الحمد لله رب العالمين » وذلك قوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ . وكان الحبيب المصطفى - ﷺ - حين يصبح يقول : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر » (١) ، ويقول ذلك أيضاً فى المساء .

قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه .

أخرج الإمام أحمد بسنده كان عبد الله بن الزبير يقول دبر كل صلاة حين يسلم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء والحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » قال وكان رسول الله - ﷺ - يهل بهن دبر كل صلاة » (٢) . ورواه مسلم وابن داود والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه لذا يقول سبحانه : ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ . أى : وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له دينى ، لا إله إلا هو رب السموات ورب الأرض رب العالمين .

ثم ذكر سبحانه الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال سبحانه :

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ .

أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل انسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء - ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقه إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب :

(١) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ٣١٤/٥ رقم ٥٠٧٣ .

(٢) مسند أحمد ٥/٤ ومسلم - كتاب المسلم ومواضع الصلاة ٤١٥/١ رقم ٥٩٤ وأبو داود - كتاب الصلاة ١٧٣/٢ رقم ١٥٠٦ والنسائي - كتاب الافتتاح - باب التهليل بعد التسليم ٦٩/٣ .

الطفولة - بلوغ الأشد - الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة ، وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ولتعلقوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم .

وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر - استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة فقال سبحانه : ﴿ هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء ، وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له ﴿ كن فيكون ﴾ بلا معاناة ولا كلفة كقوله تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فالحمد لله الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ؟ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون .

### حال أهل النار

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْ يُضَرَّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ  
وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذَا الْأَغْصَانُ فِي أَعْنَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾  
فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا  
ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ  
تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا  
فَإِنَّ مَشْوَى الْمُنْكَرِينَ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ  
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ  
وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ

اللَّهُ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَمَ لَتَرَكِبُوا مِنْهَا  
 وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ  
 تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ  
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ  
 مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ  
 مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ  
 مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ  
 هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

### معاني المفردات

(الكتاب) القرآن ، (يسحبون) أى يجزؤون ، (الحميم) . الماء الحار ، (يسجرون) أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، (ضلوا عنا) أى غابوا ، (تفرحون) أى تبطرون (تمرحون) تختالون أشراً وبطراً .  
 (مشوى الكافرين) مأواهم ومقامهم ، (حاجة فى صدوركم) أمراً ذا بال تهتمون به ، (حاق بهم) أحاط بهم ، (رأوا بأسنا) عاينوا شدة عذابنا فى الدنيا .  
 (خلت) مضت .

### المناسبة والمعنى الإجمالى

عود على بدء بالتعجب من أحوال المجادلين الشيعة وآرائهم الفاسدة والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك . ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين فى الدنيا والآخرة ثم عاد سبحانه إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لا تحصى ، ثم لفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من أدلة هم عنها معرضون ، ثم ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته ، طلباً للرياسة والجاه والحصول على المال ، وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل ، لا يغنى عنهم من الله شيئاً وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عدداً وأشد قوة وآثارا فى الأرض فلم ينفعهم

شئ من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأتى لهم ذلك ؟ وهيهات وهيهات .

فذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً ، سنة الله في عباده ، ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون ﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ﴾ من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ أى من الهدى والبيان ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ووعد أكيد ، من الرب جل جلاله هؤلاء كما قال سبحانه ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير ﴿ وكفوله سبحانه ﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿ ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ (١) .

وهنا يقول عز وجل : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ أى متصلة الأغلال بأيدي الزبانية يسحبون على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى ﴿ يسحبون ﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴿ (٢) وقال تعالى : بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ في سموم وحميم ﴿ وظل من يحموم ﴾ لا بارد ولا كريم ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ وكانوا يصرون على الحنث العظيم ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إئنا لمبعوثون ﴾ أوأبأؤنا الأولون ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ﴿ لآكلون من شجر من زقوم ﴾ فمالتون منها البطون ﴿ فشاربون عليه من الحميم ﴾ فشاربون شرب الهيم ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ (٣) . وقال عز وجل : ﴿ إن شجرة الزقوم ﴾ طعام الأثيم ﴿ كالمهل يغلي في البطون ﴾ كغلي الحميم ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ ثم

(٣) سورة الواقعة الآيات : ٤١ - ٥٦ .

(١) سورة الحج الآيات : ٨ - ١٠ .

(٢) سورة الرحمن الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم \* ذق إنك أنت العزيز الكريم \* إن هذا ما كنتم به تمترون ﴿١﴾ . أى يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم . وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن رُضاضة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة - أرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها » ﴿٢﴾ . أخرجه الترمذى وقال حديث إسناده صحيح .

وقال ابن زيد : ويقال : إن حلقة من غل أهل جهنم لو ألقيت على أعظم جبل فى الدنيا لهدته . قال ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ يقيمون بها هؤلاء ، فإذا قال : خذوه فيأخذوه كذا وكذا ألف ملك ، فلا يضعون أيديهم على شيء من عظامه ، إلا صارت تحت أيديهم رفاتا ، قال : فتجمع أيديهم وأرجلهم ورقابهم فى الأغلال ، قال : فيلقون فى النار مصفودين ، قال : فليس لهم شيء يتقون به إلا الوجوه ، وهم مصفودين ، قد ذهبت الأبصار فهم عمى ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ﴾ أى قيل لهم : أين الأصنام والأنداد التى كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصروكم اليوم ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أى ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً ﴾ أى جحدوا عبادتهم كقوله جلّت عظمتهم : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ولهذا قال عز وجل : ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ .

وقوله : ﴿ ذالكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون ﴾ أى تقول لهم الملائكة هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم . ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴿ .

يقول تعالى : أمراً رسوله - ﷺ - بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ويجعل العقابة لك ولن اتبعك فى الدنيا والآخرة ﴿ فإما نرينك بعض الذى نعدهم ﴾ أى فى الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم : أبعدوا يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته ﷺ وقوله عز وجل ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أى فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة ، وهذه الآية مثل قوله تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴿ ﴿٤﴾ .

(١) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٥٠ .

(٢) سنن الترمذى - أبواب صفة جهنم - باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار ١٠٩/٤ رقم ٢٧١٤ .

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٤١ - ٤٣ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٢٤ .

ثم قال تعالى مسلماً رسوله ﷺ : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ كما قال جل في علاه : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ (١) الآية . أى منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسول العاقبة والنصرة : ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف وقد اختلف في عدد الأنبياء والمرسلين والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل والذي فيه أنهم « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » والله أعلم قاله ابن كثير .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أى ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قضى بالحق ﴾ فينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ ويرىكم آياته فآى آيات الله تنكرون ﴾ . يقول تعالى : ممتناً على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحدر عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل ويبن سبكانه في أماكن أخرى من القرآن الكريم قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ومن الأنعام حولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله . . ﴾ الآية (٢) وقال سبكانه في سورة النحل : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ﴾ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾ (٣) . وقال جل في علاه : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾ (٤) وقال سبكانه : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ (٥) . وقال سبكانه في سورة المؤمنون : ﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ (٦) .

وقال سبكانه في سورة الزخرف : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ لتستروا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ (٧) وههنا يقول سبكانه : ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

(٥) سورة النحل الآية : ٦٦ .  
(٦) سورة المؤمنون الآيات : ٢١ ، ٢٢ .  
(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤ .

(١) سورة النساء الآية : ١٦٤ .  
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٢ .  
(٣) سورة النحل الآيات : ٥ - ٨ .  
(٤) سورة النحل الآية : ٨٠ .



وقوله جل وعلا : ﴿ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ ﴾ اى حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ اى لا تقدرون على إنكار شىء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا كما قال سبحانه بعد أن عدد النعم على العباد فى سورة النحل قال بعد ذلك : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يَنْكُرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون \* فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون \* فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين \* فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴿ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة فى قديم الدهر وماذا أحل بهم من العذاب مع شدة قواهم وما آثروه فى الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ولا رد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدافعات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

قال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدى : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ وحاق بهم ﴾ اى أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزئون ﴾ اى يكذبون ويستبعدون وقوعه . ﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ اى عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ . اى وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المexcuse وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ (٢) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٣) فلم يقبل الله منه ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾ اى هذا حكم الله فى جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء فى الحديث الصحيح « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أى فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاین الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ . أ . هـ

(١) سورة النحل الآية : ٨٣ .

(٢ ، ٣) سورة يونس الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

## تفسير سورة فصلت

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها أربع وخمسون في عدد الكوفة ، وكلماتها سبعمائة وست وتسعون وحروفها : ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون . مجموع فواصل آياتها : ﴿ ظن طب حرم صد ﴾ وللسورة اسمان : حم السجدة ، لاشتغالها على السجدة ، وسورة المصابيح ، لقوله تعالى ﴿ زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾ مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف القرآن ، وإعراض الكفار من قبوله ، وكيفية تخليق الأرض والسماء ، والإشارة إلى إهلاك عاد وثمود ، وشهادة الجوارح على العاصين في القيامة ، وعجز الكفار في سجن جهنم ، وبشارة المؤمنين بالخلود في الجنان ، وشرف المؤذنين بالأذان ، والاحتراز من نزغات الشيطان ، والحجة والبرهان على وحدانية الرحمن ، وبيان شرف القرآن ، والنفع والضرر ، والإساءة والإحسان ، وجزع الكفار عند الابتلاء والامتحان ، وإظهار الآيات الدالة على الذات والصفات الحسان ، وإحاطة علم الله بكل شيء من الأسرار والإعلان بقوله ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى ﴿ في أربعة أيام ﴾ أى مع اليومين اللذين تقدما في قوله : ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ كيلا يزيد العدد على ستة أيام ، فيتطرق إليه كلام المعترض ، وإنما جمع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما : لدقيقة لا يهتدى إليها إلا كل فطن خريّت - الحاذق - وهى أن قوله ﴿ خلق الأرض في يومين ﴾ صلة ﴿ الذى ﴾ و ﴿ وتعملون له أندادا ﴾ عطف على ﴿ لتكفرون ﴾ ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ عطف على قوله ﴿ خلق الأرض ﴾ وهذا ممتنع في الإعراب لا يجوز في الكلام ، وهو في الشعر من أقبح الضرورات ، لا يجوز أن يقال : جاءنى الذى يكتب وجلس ، ويقراً : لأنه لا يحال بين صلة الموصول وما يعطف عليه بأجنبى من الصلة ، فإذا امتنع هذا لم يكن بد من إضمار فعل يصح الكلام به ومعه ، فيضمّر ﴿ خلق الأرض ﴾ بعد قوله ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ فيصير التقدير ذلك رب العالمين ، خلق الأرض ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام ، ليقع هذا كله في أربعة أيام فسقط الاعتراض والسؤال ، وفيه معجزة وبرهان .

قوله ( حتى إذا جاءوها شهد عليهم ) وفي الزخرف وغيره ( حتى إذا جاءوها ) بغير ( ما ) ، لأن ( حتى ) ههنا التى تجرى مجرى واو العطف في نحو قولك ، أكلت السمكة حتى رأسها أى ورأسها . وتقدير الآية منهم يوزعون ، وإذا ما جاءوها و ( ما ) هى التى تزد مع الشرط ، نحو أينما وحيثما . وحتى في غيرها من السورة للغاية .

قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ومثله في الأعراف ، لكنه ختم بقوله ( سميع عليم ) : الآية في هذه السورة متصلة بقوله ( وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ) وكان مؤكداً بالتكرار ، وبالنفي والإثبات ، فبالغ في قوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ بزيادة ( هو ) وبالألف

واللام ، ولم يكن في الأعراف هذا النوع من الاتصال ، فأق على القياس : المخبر عنه معرفة ، والخبر نكرة .

قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ وفي عسق (الشورى) بزيادة قوله ( إلى أجل مسمى ) وزاد فيها أيضا : ( بغيا بينهم ) : لأن المعنى تفرق قول اليهود في التوراة ، وتفرق قول الكافرين في القرآن ، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب إلى يوم الجزاء ، لقضى بينهم بإنزال العذاب عليهم . وخصت عسق بزيادة قوله تعالى ( إلى أجل مسمى ) لأنه ذكر البداية في أول الآية وهو ( وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ) وهو مبدأ كفرهم ، فحسن ذكر النهاية التي أمهلوا إليها ، ليكون محدودا من الطرفين . قوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ بزيادة من ، وفي هود ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ ، لأن في هذه السورة بين جهة الرحمة ، وبالكلام حاجة إلى ذكرها ، وحذف في هود ، اكتفاء بما قبله ، وهو قوله ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ ، وزاد في هذه السورة ( من ) لأنه لما حد الرحمة والجهة الواقعة منها ، حد الطرف الذي بعدها فتشاكلا في التحقيق ، وفي هود لما أهمل الأول أهمل الثاني . قوله ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ وفي الأحقاف ﴿ وكفرتم به ﴾ بالواو ، لأن معناه في هذه السورة كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتدبر والكفر ، فحسن دخول ثم ، وفي الأحقاف عطف عليه ( وشهد شاهد ) فلم يكن عاقبة أمرهم فكان من مواضع الواو .

#### مناسبة السورة لما قبلها

- (١) إنها اشتركتا في تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم في السورة السابقة بقوله ( أفلم يسيروا في الأرض - الآية ) وهددهم هنا بقوله ( فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ) .  
(٢) إن كليهما بدأت بوصف الكتاب الكريم .

قال تعالى :

حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا أَأُفْلِحُ فِي أِكْنَةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءَ إِذْ أَنْشَأُوا قَوْمًا وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلُوا مَا نَعْمَلُونَ ﴿٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴿٥﴾ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ \*

## تفسير المفردات

﴿ لا يسمعون ﴾ أى لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى . أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، ﴿ والأكنة ﴾ واحدها كنان : وهى خريطة السهام ، والمراد إنها فى أغطية متكائة . ﴿ والوقر ﴾ الثقل فى السمع . ﴿ فاستقيموا إليه ﴾ أى فأخلصوا له العبادة ، ﴿ ويل ﴾ أى هلاك ، ﴿ لا يؤتون الزكاة ﴾ أى لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم ، ﴿ ممنون ﴾ : أى مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ حم ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم \* كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون \* بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون \* .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوماً وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده ، يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ، وذلك حين أسلم حمزة - رضى الله عنه - ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا بلى يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال فقال له رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد أسمع » قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتىك رؤيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبترئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال « أفرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال « فاستمع منى » قال : افعل . قال ( بسم الله الرحمن الرحيم حم \* تنزيل من الرحمن الرحيم \* كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون \* بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرأها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ؟ قال هذا رأى فيه فاصنعوا ما بدا لكم » (١) .

يقول تعالى ﴿حَمَّ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿يعنى القرآن الكريم منزل من الرحمن الرحيم كقوله تعالى ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين ﴿على قلبك لتكون من المنذرين﴾ بلسان عربى مبين ﴿وقوله تعالى ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ وكقوله سبحانه ﴿تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم﴾ وكقول جل فى علاه ﴿تنزيل من حكيم حميد﴾ وكقوله ﴿تنزيل العزيز الرحيم﴾ . وقوله تبارك اسمه : ( كتاب فصلت آياته ) أى بينت معانيه وأحكامه ( قرآنا عربيا ) أى فى حال كونه عربيا بينا واضحا فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشككة كقوله تعالى : ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾<sup>(١)</sup> أى هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿لقوم يعلمون﴾ أى إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الرساخون ، أصحاب العقول النيرة والقلوب السليمة .

وقوله (بشيرا ونذيرا) كقوله تعالى : ﴿وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشري للمحسنين﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله سبحانه ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴿وكقوله ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله جل وعلا ﴿الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ قيبا لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴿ماكثين فيه أبداً﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون﴾ أى : فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق . ثم صرحوا بنصرتهم منه ، وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب ، تعللاً واحتقارا لدعوته .

(١) ( وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده ، وترك ما ألفينا عليه آبائنا ، فهى لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل إليها قولك .

(٢) ( وفى آذاننا وقر ) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) ( ومن بيننا وبينك حجاب ) أى ومن بيننا وبينك ستر يمنعنا عن إجابتك . روى أن أباجهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يا محمد بيننا وبينك حجاب ، وقصارى ما يقولون . إن قلوبهم نابية عن إدراك ما جئت به من الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها فى غُلف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لا يدخل إليها شئ منه ، كأن بها حمما ، ولتباعد الدينين وتباعد الطريقتين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب كثيف ، وحاجز منيع .

(٤) سورة هود الآيات : ١ ، ٢ .

(٥) سورة يونس الآية : ٢ .

(٦) سورة الكهف الآيات : ١ - ٣ .

(١) سورة هود الآية : ١ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٤٢ .

(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٢ .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده - مجال للوفاق فقالوا : ( فاعمل إننا عاملون ) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون \* إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد هؤلاء المكذبين المشركين : ( إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ لا كما تعبدون من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ، ( فاستقيموا إليه ) أى : أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل ( واستغفروه ) أى : لسالف الذنوب ( وويل للمشركين ) أى : دمار لهم وهلاك عليهم ( الذين لا يؤتون الزكاة ) قال ابن عباس يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة وهذا كقوله تعالى : ( قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ) وكقوله جلّت عظمتة ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ وذكر اسم ربه فصلّى ﴿ وقوله عز وجل : ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ فالمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقا إلى استعمال الطاعات . وقال السدى ( وويل للمشركين \* الذين لا يؤتون الزكاة ) أى لا يدينون بالزكاة ، وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، يقول العلامة ابن كثير : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أهل الصدقة والزكاة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة كقوله تعالى ؛ ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعا بين القولين . كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا ، وقصارى ذلك - دمار وهلاك لمن أشرك بربه ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التى من أهمها البخل بالمال ، وأنكر البعث والجزاء .

ثم قال جل جلاله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ قال مجاهد وغيره : غير مقطوع كقوله تعالى ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً ﴾ ما كثر فيه أبداً ﴿ <sup>(١)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة الكهف الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٨ .

## من آيات التوحيد

قال تعالى

قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٠٣﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٠٤﴾

## معاني المفردات

﴿ في يومين ﴾ أى فى نوبتين ﴿ الرواسى ﴾ : الجبال الثوابت ، ﴿ أقواتها ﴾ أى : أقوات أهلها ﴿ سواء ﴾ أى كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، ﴿ للسائلين ﴾ أى لطالبي الأقوات المحتاجين إليها ، ﴿ استوى ﴾ الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، فهو استواء يليق بعظمة ربنا سبحانه وتعالى ﴿ دخان ﴾ أى مادة غازية أشبه بالدخان ﴿ فقضاهن ﴾ أى : فرغ من تسويتهن ، ﴿ أمرها ﴾ أى : شأنها ﴿ بمصايح ﴾ أى : بكواكب ونجوم . ﴿ وحفظا ﴾ حرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملائ الأعلى .

## المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحي أن إلهكم إله واحد ، فأخلصوا له العبادة - أردف هذا ما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثابت والسيارات ولا محجب فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما ، لا يخفى عليه شىء منها ، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقها وتقديرهما ، تعالى الله عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب

العالمين ﴿١﴾ . أى : قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخاً وتقريعاً . كيف تكفرون بالذى خلق الأرض التى تقلّكم فى يومين ؟ فتقولون إنه لا يقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبون إليه الأولاد وتقولون إنه لم يبعث أنبياء - أى : كيف تقولون هذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

﴿ وتجعلون له أنداداً ﴾ أى : وتجعلون له أنداداً وأمثالاً من الملائكة والجن والأصنام والأوثان . ثم شدد عليهم فى الإنكار وبين أن مثل هذا لا ينبغى أن يكون فقال سبحانه : ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أى : ذلك الذى خلق الأرض فى نوبتين ، نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستاً وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض - هو رب العالمين لا ربها وحدها ، فهو مربى المخلوقات جميعاً ، فإن ربها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبات يعلم سبحانه عددها فكيف يكون شيء منها ندأ له وضرباً ؟

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال جل فى علاه :

﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها ﴾ أى : وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسسها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة : هى التى برزت فيها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ، ضاربة فى جميع الطبقات ، واصله إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضاً ولم نستقر عليها ؟ فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صَوَّانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة ، وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلومترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب ، ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وبارك فيها ﴾ أى : وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار ، ومخزناً للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك . ﴿ وقدر فيها أوقاتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ أى : قدر لأهلها من الأقوات ما يناسب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجاً إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر . وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر سبحانه فذلّة لما تقدم فقال : ﴿ فى أربعة أيام ﴾ أى : إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أوقاتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات ، كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً : أى : فى تمّة خمسة عشر يوماً . وقصارى ذلك - إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .



﴿ سواء للسائلين ﴾ أى : فى أربعة أيام كاملة وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال سبحانه : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض ﴾ (١) فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء - سؤالاً طبيعياً مغروساً فى جبلتهم . ولما كان الإنسان يهتم بحال ما حوله من الأرض قدام ذكرها ، وبين أنها هى وما عليها قد كونها سبحانه فى أربعة نويات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازاً ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ، ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى سبحانه من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر فحسب فقال تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ أى : ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ، وتسمى فى العلم الحديث ( عالم السديم ) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا ، وسياراتها ، وأرضها ، وكانت فى الأصل دخاناً . وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة - وهو قادر سبحانه على ذلك وهو على كل شىء قدير - بل كان وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، ثم ذكر سبحانه ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال سبحانه :

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

أى : فقال لتلك العوالم السماوية وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين ، فأجابتا ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعي شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجري رياحك وسحابك ، وقال للأرض شقى أنهارك ، وأخرجى شجرى وثمارك ، طائعتين أو كارهتين ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ (٢) .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لا جرى قسر ، فإننا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسراً فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعاً لا قسراً ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة مادام المطيع متخلفاً بخلقه الذى هو فيه .

﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ أى : فاتم خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام كما قال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ على ما اقتضته الحكمة وحسن النظام سبحانه وتعالى :

(١) سورة الرحمن من الآية ٢٩

(٢) سورة فصلت من الآية ١١

وقوله تعالى : ﴿ وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ أى : وخلق فى كل منها ما استعدت له ، واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحرار وبرد وثلج إلى نحو أولئك مما لا يعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة :

﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أى : بكواكب مضيئة متألثة عليها كتألؤ المصابيح ، وهى وإن تفاوتت ارتفاعاً وانخفاضاً فكلها ترى متألثة . ﴿ وحفظاً ﴾ أى : وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملا الأعلى . كقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ (١) والضمير فى قوله ﴿ وجعلناها ﴾ عاد على جنس المصابيح لأعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم قاله ابن كثير .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أى : إن ذلك الذى تقدم هو تقدير العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها سرها ونجواها ، ظاهرها وباطنها ، كقوله تعالى : ﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) .

### قصص عاد وثمود

قال تعالى :

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَ نَهُمُ الرُّسُلَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةٍ أَوْلَمْ يَبْرُوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بِنَايَتِهِمْ لَقِينًا ﴿١٨﴾

(١) سورة الملك من الآية ٥

(٢) سورة الانعام آية ٩٦

## معاني المفردات

﴿ صاعقة ﴾ أى : عذاباً شديداً الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة : المرة المهلكة لأى شىء كان ، وهى فى الأصل : الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، ﴿ من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أى : من كل ناحية ﴿ صرصراً ﴾ أى : باردة تهلك بشدة بردها . ﴿ نحسات ﴾ وأحدها نحسه ( بكسر الحاء ) أى : نكدات مشنومات . ﴿ الهون ﴾ الذل .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنكر سبحانه عليهم عبادة الأوثان والأنداد ، وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك لم يبق حينئذ طريق للعلاج . ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

## التفسير

يقول تعالى : قل : يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئكم به من عند الله تعالى فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أى : فى القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أوليائه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ أى : لو أرسل الله رسلا لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فإنما بما أرسلتم به ﴾ أى : أيها البشر ﴿ كافرون ﴾ أى : لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا ، قال الله تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض ﴾ أى : بغوا وعقوا وعصوا ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ﴾ ؟ حتى يستطيع قهرنا وإذلالنا وقد كانوا قوماً طوال القامة شديدي الأسر ، كما قال تعالى : حاكيا عن نبيه هود وهو يعظهم ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (١) .

فرد الله عليهم موبخاً ، بقوله تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ ؟ أى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد ، كما قال عز وجل : ﴿ والسماء بآياتها بأيدى وإنا لموسعون ﴾ (٢) فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته ، وعصوا رسله ، فحاسبها الله حساباً شديداً وعذبها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرهما ، يقول تعالى : ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ ريحاً شديدة قوية

لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ فهل ترى لهم من باقية ﴾ (١) . وهنا يقول سبحانه : ﴿ فى أيام نحسات ﴾ أى : متتابعات كقوله ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ وكقوله : ﴿ فى يوم نحس مستمر ﴾ (٢) . أى : ابتدأوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أى : أشد خزياً لهم ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أى : فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا وما كان لهم من الله من واحد يقيهم العذاب ويدراً عنهم النكال .

وقوله عز وجل : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أى : بصرناهم وبيننا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح - عليه الصلاة والسلام - فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أى : بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أى : من التكذيب والجحود . ﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ أى : من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح - عليه الصلاة والسلام - بإيمانهم وتقواهم لله - عز وجل - والعاقبة للمتقين .

### أضواء كاشفة على قصة عاد

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ما نصه : ( قصة هود - عليه السلام - ) وهو هود ابن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح - عليه السلام - . وكان من قبيلة يقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح ، كانوا غرباً يسكنون الأحقاف : وهى جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد ﴿ (٣) ﴾ أى عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة - كما سيأتى - بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وأما عاد الأولى منهم عاد ﴿ إرم ذات العماد ﴾ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴿ أى : مثل القبيلة . وقيل : مثل العمدة والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير . ومن زعم أن إرم مدينة تدور فى الأرض ، فتارة فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز وتارة فى غيرها فقد أبعد النجعة وقال : ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه . وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبك يا أبا ذر .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل - عليه السلام - العرب العاربة وهم : قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس . وأميم . ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان . وأما العرب المستعربة منهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن

إبراهيم - عليهما السلام - أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة ، والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والمقصود : أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكان أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، ونقرا . فبعث الله فيهم أخاهم هوداً - عليه السلام - فدعاهم إلى الله تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ أوعجبتكم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إننى معكم من المنتظرين ﴾ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ (١) وقال تعالى : بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على لذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾ قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون ﴾ من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ إنى توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربي على كل شىء حفيظ ﴾ ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾ (٢)

وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون - بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم. إذا لخاسرون ﴾ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ﴾ هيهات هيهات لما توعدون ﴾ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ﴾ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾ (٣) وقال تعالى فى سورة الشعراء : بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ إذ قال لهم أخوهم

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٥ - ٧٢

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٣١ - ٤١

(٣) سورة هود الآيات ٥٠ - ٦٠

هود ألا تتقون \* إني لكم رسول أمين \* فاتقوا الله وأطيعون \* وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين \* أتبنون بكل ريع آية تعبثون \* وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون \* وإذا بطشتم بطشتم جبارين \* فاتقوا الله وأطيعون \* واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون \* أمدكم بأنعام وبنين \* وجنات وعيون \* إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم \* قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين \* إن هذا إلا خلق الأولين \* وما نحن بمعذبين \* فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين \* وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿١﴾ . وقال تعالى : في سورة حم فصلت ﴿٢﴾ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة \* أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون \* فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴿٣﴾ وقال تعالى في سورة الأحقاف : ﴿٤﴾ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم \* قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين \* قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون \* فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم \* تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴿٥﴾ .

وقال تعالى في الذاريات : ﴿٦﴾ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم \* ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴿٧﴾ وقال تعالى في النجم : ﴿٨﴾ وأنه أهلك عاداً الأولى \* وثمود فما أبقى \* وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى \* والمؤتفة أهوى \* فغشاها ما غشى \* فبأى آلاء ربك تتماهى ﴿٩﴾ وقال تعالى في سورة اقتربت : ﴿١٠﴾ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر \* تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر \* فكيف كان عذابي ونذر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿١١﴾ وقال في الحاقة : ﴿١٢﴾ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية \* سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية \* فهل ترى لهم من باقية ﴿١٣﴾ وقال في سورة الفجر : ﴿١٤﴾ ألم تر كيف فعل ربك بعاد \* إرم ذات العماد \* التي لم يخلق مثلها في البلاد \* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد \* وفرعون ذى الأوتاد \* الذين طغوا في البلاد \* فأكثروا فيها الفساد \* فصوب عليهم ربك سوط عذاب \* إن ربك لبالمرصاد ﴿١٥﴾ وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير والله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، والعنكبوت ، وفي سورة ( ص ) وفي سورة ( ق ) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه البيانات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان ، وذلك تبين في قوله لهم ﴿١٦﴾ واذكروا إذ جعلكم خلفاء

(٥) سورة النجم الآيات ٥٠ - ٥٥

(٦) سورة القمر الآيات ١٨ - ٢٢

(٧) سورة الحاقة الآيات ٦ - ٨

(٨) سورة الفجر الآيات ٦ - ١٤

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ - ١٤٠

(٢) سورة فصلت الآيات ١٥ - ١٦

(٣) سورة الاحقاف الآيات ٢١ - ٢٥

(٤) سورة الذاريات الآيات ٤١ - ٤٢

من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ﴿١﴾ أى : جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون ﴿٢﴾ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴿٣﴾ وهم قوم هود على الصحيح .

والمقصود : أن عاداً كانوا عرباً جفاة كافرين عتاه متمردين فى عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿٤﴾ قال السلا الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ﴿٥﴾ أى : هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نطن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك ﴿٦﴾ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴿٧﴾ أى : ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿٨﴾ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴿٩﴾ والبلاغ : يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلاً بل هو مخلص لله - عز وجل - فى الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه ولهذا ﴿٩﴾ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون ﴿١٠﴾ أى : مالكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشهد به فطرتكم التى خلقتكم عليها وهودين الحق الذى بعث الله به نوحاً وأهلك من خالفه من الخلق ، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجراً عليه بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال : مؤمن ( يس ) .

﴿١١﴾ قال يا قوم اتبعوا المرسلين \* اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون \* وما لى لا أعبد الذى فطرني وإليه ترجعون ﴿١٢﴾ وقال : قوم هود له فيما قالوا :

﴿١٣﴾ قالوا يا هود ما جئنا ببينة وما نحن بتاركى آهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين \* إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء ﴿١٤﴾ يقولون : ما جئنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته \* وما نطن إلا أنك مجنون فيما نزعمه ، وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم : ﴿١٥﴾ إن نقول إلا اعتراك بعض آهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون \* من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ﴿١٦﴾ وهذا تحد منه لهم وتبر من آهتهم ، وتنقص منه لها ، وبيان أنها لا تنفع شيئاً ولا تضر ، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت كما تزعمون من أنها تضر وتنفع فهأنا برىء منها لا عن لها ( فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ) أنتم جميعاً بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقنروا عليه ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم ( إني توكلت على الله

(٥) سورة هود الآية ٥١

(٦) سورة يس الآيات ٢٠ - ٢٢

(٧) سورة هود الآية ٥٣ ومن الآية ٥٤

(١) سورة الأعراف من الآية ٦٩

(٢) سورة الأعراف من الآية ٦٦

(٣) سورة الأعراف من الآية ٦٧

(٤) سورة الأعراف من الآية ٦٨

ربى وربكم ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴿١﴾ أى : أنا متوكل على الله ومتأيد به ، وواثق بجناحه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالى مخلوقا سواء ولست أتوكل إلا عليه ، ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبدالله ورسوله وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله ، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه . وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح - عليه السلام - ﴿٢﴾ ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴿٣﴾ . وهكذا قال الخليل عليه السلام ﴿٤﴾ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون \* وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فإى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون \* الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون \* وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴿٥﴾ .

وقوله تعالى : ﴿٦﴾ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون \* ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا تخاسروا \* أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴿٧﴾ استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى : ﴿٨﴾ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا \* قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴿٩﴾ ولهذا قال لهم هود : عليه السلام - ﴿١٠﴾ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴿١١﴾ أى : ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله : ﴿١٢﴾ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون \* هيهات هيهات لما توعدون \* إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين \* إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين \* قال ربي انصرنى ﴿١٣﴾ استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما ، وقالوا : هيهات هيهات ، أى : بعيد بعيد هذا الوعد إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

أى : يموت قوم ويحىي آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول : بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تلبع . وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى : ﴿١٤﴾ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ولىرضوه وليقتروا ما هم مقترفون ﴿١٥﴾ وقال لهم فيما وعظهم به ﴿١٦﴾ أتبنون بكل ريع آية تعبثون \* وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴿١٧﴾ يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء

(٥) سورة الأعراف من الآية ٦٩

(٦) سورة المؤمنون ٣٥ - ٣٩

(٧) سورة الأنعام ١١٣

(٨) سورة الشعراء ١٢٨ ، ١٢٩

(١) سورة يونس من الآية ٧١

(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠ - ٨٣

(٣) سورة المؤمنون ٣٣ - ٣٤

(٤) سورة الإسراء الآيات ٩٤ - ٩٥



عظيماً هائلاً كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وماذا إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ .

فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام . وقوله ﴿ وتتخذون مصانع ﴾ قيل هي : القصور . وقيل : بروج الحمام ، وقيل : مأخذ الماء ﴿ لعلكم تخذلون ﴾ أى : رجاء منكم أن تعمروا في هذه الدار أعماراً طويلة ﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿ واتقوا الذى أمدكن بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين ﴾ وجنات وعيون ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقالوا له : بما قالوا : ﴿ أجبثنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ أى : أجبثنا لنعبد الله وحده ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه . فإن كنت صادقاً فيما جئت به فأنتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإننا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا : ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ إن هذا - إلا خلق الأولين ﴾ وما نحن بمعذبين ﴾ .

قال : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتها وأنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ (١) أى : قد استحققتهم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتها أمة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم ﴿ ما نزل الله بها من سلطان ﴾ أى : لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلاً ولا برهاناً ، وإذا أبيتم قبول الحق وتماذيتم في الباطل وسواء عليكم أنهيتم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد وقال تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ قالوا أجبثنا لتأفكنا عن آلهتنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ (٣) وقد ذكر الله تعالى : خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلاً كقوله تعالى : ﴿ فأنجينا والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ (٤) وكقوله : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴿ واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم إلا بعدا لعاد قوم هود ﴾ (٥) وكقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٧) .

وأما تفصيل إهلاكهم فلما قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ (٨) .

(٥) سورة هود الآيات ٥٨ - ٦٠

(٦) سورة المؤمنون الآية ٤١

(٧) سورة الشعراء الآيات ١٣٩ - ١٤٠

(٨) سورة الأحقاف الآية ٢٤

(١) سورة الأعراف الآية ٧١

(٢) سورة المؤمنون الآيات ٣٩ - ٤١

(٣) سورة الأحقاف الآيات ٢١ - ٢٥

(٤) سورة الأعراف الآية ٧٢

كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا محلين مستئين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا في السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ﴾ أى : من وقوع العذاب وهو قولهم ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ ومثلها فى الأعراف : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ربح فيها عذاب أليم ﴾ تدمر كل شىء بأمر ربها ﴿ فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ؟ والحسوم : الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال الإمام محمد بن اسحق : واعتزل هود - عليه السلام - فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة . وقد قال ابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من أئمة التابعين : فى قوله تعالى : ﴿ ربح فيها عذاب أليم ﴾ تدمر كل شىء بأمر ربها ﴿ قالوا : هى الباردة ، والعاتية الشديدة الهبوب . ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾<sup>(١)</sup> أى : كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ شبههم بأعجاز النخل ، التى لا رؤس لها وذلك لأن الربح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ﴾ أى : فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ ومن قال : إن اليوم النحس المستمر هو : يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال فى الآية الأخرى . ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ﴾ ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها شؤمة وهذا لا يقوله أحد ، وإنما المراد فى أيام نحسات أى : عليهم . وقال تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾<sup>(٢)</sup> أى : التى لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تنثر سحابا ، ولا تلعق شجرا بل هى عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالريم ﴾ أى : كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور »<sup>(٣)</sup> وأما قوله تعالى : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ فالظاهر : أن عاداً هذه هى : عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم : عاد الثانية ، ويدل عليه ما ذكرنا وما سياتى من الحديث عن عائشة - رضى الله عنها - . وأما قوله : ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ﴾ فإن عاداً لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب ، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ربح فيها عذاب أليم ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت سبع ليال بأيامها

(٢) سورة الذاريات الآية ٤١

(١) سورة الحاقة من الآية ٧

(٣) انظر صحيح مسلم فى كتاب - صلاة الاستسقاء - باب ربح الصبا والدبور ج ٢ ص ٦١٧ رقم ٩٠٠/١٧ .

وفى صحيح البخارى : ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١ كتاب الاستسقاء - باب - قول النبى ﷺ ( نصرت بالصبا ) عن ابن عباس .

الثمانية فلم تبق منهم أحدا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيان فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة ، سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو : الريح العقيم . ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم فأرسلها الله عليهم شررا ونارا كما ذكره غير واحد ، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم .

روى مسلم في صحيحه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - ﷺ - إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرا وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت : وإذا تحيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرى عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : لعله يا عائشة كما قال : قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرا » (١) رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن جريج .

طريق أخرى . قال الإمام أحمد : عن عائشة : - رضى الله عنها - قالت : ما رأيت رسول الله - ﷺ - مستجمعا ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يتسم . وقالت : كان إذا رأى غيما - أوريا - عُرف ذلك في وجهه ، قالت : يا رسول الله ، ( الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف من وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم نوح بالريح . وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرا ) (٢) فهذا الحديث كالصريح في تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة في سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية السياقات في القرآن خبراً عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب . هـ .

### أضواء كاشفة على قصة ثمود

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ( قصة صالح نبي ثمود - عليه السلام ) وهم : قبيلة مشهورة يقال : ثمود باسم جدهم ثمود أخى جريس وهما أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو : عبد الله ورسوله صالح بن عبد الله ماشخ ، بن عبيد ، بن حاجر ، بن ثمود ، ابن عابر ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا ، فأمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٦١٦ كتاب صلاة الاستسقاء رقم ٨٩٩/١٥ عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم - صلاة الاستسقاء ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ رقم ٨٩٩/١٦ وانظر سند الإمام أحمد ج ٦ ص ٦٦ عن عائشة . وفى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٦٧ فى تفسير سورة الأحقاف .

بقتله وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ﴾ قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ (١) ، وقال تعالى في سورة هود : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتهاننا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنا لنفى شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ قال يا قوم رأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير ﴾ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوى العزيز ﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾ (٢) . وقال تعالى في سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمين ﴾ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٣) وقال سبحانه وتعالى في سورة الإسراء : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ (٤) . وقال تعالى في سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾ أتركون في ما هاهنا آمين ﴿ في جنات وعيون ﴾ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ ما أنت إلا بشر مثلاً فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ (٥) وقال تعالى في سورة النمل : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ قالوا اطيرونا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم

(٤) سورة الإسراء آية ٥٩

(٥) سورة الشعراء الآيات ١٤١ - ١٥٩

(١) سورة الأعراف الآيات ٧٣ - ٧٩

(٢) سورة هود الآيات ٦١ - ٦٨

(٣) سورة الحجر الآيات ٨٠ - ٨٤

تفتنون \* وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون \* قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون \* ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون \* فانظر كيف كان عاقبة مكركم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين \* فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون \* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون \* (١)

وقال تعالى في سورة فصلت \* وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون \* ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون \* (٢) وقال تعالى في سورة القمر : \* كذبت ثمود بالنذر \* فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر \* ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر \* سيعلمون غداً من الكذاب الأشر \* إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر \* ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر \* فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر \* فكيف كان عذابي ونذر \* إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر \* ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر \* (٣) وقال تعالى : \* كذبت ثمود بطغواها \* إذ انبعث أشقاها \* فقال لهم رسول الله ناقة الله وستياها \* فكذبوه فعقروها \* فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها \* ولا يخاف عقباها \* (٤) . وكثيرا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود كما في سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، وسورة ، ( ص ) ، وسورة ( ق ) ، والذاريات ، والنجم ، والفجر ، . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى : في سورة إبراهيم : \* وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغني حميد \* ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات \* (٥) الآية . الظاهر : أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً في زمان موسى - عليه السلام - وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير متقصيا والله الحمد والمنة .

والمقصود : الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً - عليه السلام - ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم - عليه السلام - قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم - عليه السلام - \* اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم \* واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين \* (٦) أي : إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبون في سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أي : حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها ، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له

(٤) سورة الشمس الآيات ١١ - ١٥

(٥) سورة إبراهيم الآيات ٨ - ٩

(٦) سورة الأعراف من الآية ٧٢ - ٧٤

(١) سورة النمل الآيات ٤٥ - ٥٣

(٢) سورة فصلت الآيتان ١٧ - ١٨

(٣) سورة القمر الآيات ٢٣ - ٣٢

وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أتركون في ما هاهنا آمنين ﴾ في جنات وعيون \* وزروع ونخل طلعتها هضيمٌ ﴿<sup>(١)</sup>﴾ أى : متراكم كثير حسن بهى ناضج ﴿ وتحتون من الجبال بيوتاً فارمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعون \* ولا تطيعوا أمر المسرفين \* الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ وقال لهم أيضاً ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ أى : هو الذى خلقكم فأنشاكم من الأرض وجعلكم عمارها ، أى : أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو المخلق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أى : أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴿ أى : قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملاً قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراة العبادة وترك ما كنا نعبد من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ أأنتهانا أن نترك ما يعبد أبائنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ . وهذا تلىظ منه لهم فى العبادة ولين الجانب وحسن تأت فى الدعوة لهم إلى الخير أى : فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذرکم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ولوتركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى فأننا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بينى وبينكم . وقالوا له أيضاً : ﴿ إنما أنت من المسحورين ﴾ أى : من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدري ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراة العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور . إن المراد بالمسحورين ! المسحورين وقولهم : ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقال : ﴿ قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فإخذكم عذاب أليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ .

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً فى ناديتهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ، ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافاً سموها ونعتوها وتعتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم : النبى صالح - عليه السلام - أرأيتم أن أجبتكم إلى ما سألتكم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ، قالوا نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى - صلاة الله - عز وجل - ما قدر له ثم دعا ربه - عز وجل - أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله - عز وجل - تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلاً وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، فأمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ أى : جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى : أكثرهم .

ولهذا قال لهم صالح - عليه السلام - ( هذه ناقة الله لكم آية ) أضافها الله سبحانه وتعالى : إضافة تشريف وتعظيم كقوله : بيت الله وعبد الله ، ﴿ لكم آية ﴾ أى : دليلاً على صدق ما جئكم به ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ﴾ فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا ، قال : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ أى : اختباراً لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ، والله أعلم بما يفعلون ﴿ فارتقبهم ﴾ أى : انتظر ما يكون من أمرهم ، ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم مأؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اثنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قمار بن سالف بن جندع ، وكان يقال : إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو : ابن رجل يقال له : صبيان ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم ، قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ فكيف كان عذابى ونذر ﴿ وقال تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ أى : احذروها ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ﴾ ولا يخاف عقباها ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح اثنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه . منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية : وفيها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين ، أحدهما : الشرط عليهم فى قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فىأخذكم عذاب قريب ﴾ . وفى آية عظيم ، وفى الأخرى أليم والكل حق . والثانى : استعجالهم على ذلك ، وفيها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علماً جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى : ﴿ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف - لعنه الله - فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيا فهم يقطعونها ، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ أى : غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضاً فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه . بالناقة ( قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ) أى : لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه . ولهذا قالوا : ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين \* فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون \* وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون \* وذلك أن الله تعالى : أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رخصتهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ، ووجههم مصفرة كما أنذرهم صالح - عليه السلام - ، فلما أمسوا نادوا

بأجمعهم ، ألا قد مضى يوم من الأجل ، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل . وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا إلا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحفظوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق ﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾ لا أرواح فيها ولا حراك بها ، قال تعالى : ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أى : لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء ﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ﴾ أى : نادى عليهم لسان القدر بهذا .

وقوله تعالى : ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ إخبار عن صالح أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم : ( يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ) أى : جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى ( ولكن لا تحبون الناصحين ) أى : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذى وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد ، وهكذا خاطب النبى ﷺ - أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، وقال لهم : فيما قال : بشئ عشيرة النبى كتمت لنبىكم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبشئ عشيرة النبى كتمت لنبىكم فقال له عمر : يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال : ( والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يجيبون ) (١) . وسأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحاً - عليه السلام - انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : لما مر النبى ﷺ - بوادى عسفان حين حج قال : يا أبا بكر ( أى واد هذا قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح - عليهما السلام - على بكرات خطمها الليف ، أزهرهم العباء وأرديتهم النمار ، يلبنون ، يحجون البيت العتيق (٢) . إسناده حسن . وقد تقدم فى قصة نوح - عليه السلام - من رواية الطبرانى ، وفيه نوح ، وهود ، وإبراهيم .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٠٣ رقم ٢٨٧٤/٧٧ - كتاب صفات الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه عن أنس بن مالك .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٣٢ مسند ابن عباس



## مرور النبي بوادي الحجر من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد : عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ - بالناس على تبوك نزل بهم الحجر ، عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله ﷺ - فأهراقوا القدور وعلفوا العجيين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا (إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم) <sup>(١)</sup> . وقال أحمد أيضا : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم » <sup>(٢)</sup> وفي بعض الروايات إنه - عليه السلام - لما مر بمنزلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفي رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم - صلوات الله وسلامه عليه - (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) . أ . هـ

## أحوال أعداء الله وتوجيهات إلى أولياء الله

قال تعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١١﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ  
وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْ ثُمَّ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا  
اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ  
نَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعَكُمْ وَلَا أَبْصَارَكُمْ وَلَا جُلُودَكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا  
تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا

(١) انظر مسند الإمام جـ ٢ ص ١١٧ عن ابن عمر

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٩ عن عبد الله بن عمر

فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ \* وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْخَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

### معاني المفردات

(يوزعون) أى : يجبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم . (جلودهم) أى : جوارحهم (أرداكم) أى : أهلكهم ، (مَثْوًى) أى : مُقام ، (وأن يستعتبوا) أى : يطلبوا العتبي والرضا (من المعتبين) أى : المجابين إلى ما يطلبون . (وقيضنا) أى : ويسرنا وهيأنا (قرناء) واحداهم قرين : أى : أخذانا وأصحابا من غواة الجن والإنس (والغوا فيه) أى : عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوشوا عليه (دار الخلد) أى : دار الإقامة المستمرة ، (تحت أقدامنا) أى : ندوسهما بهما انتقاما منهما ، (استقاموا) أى : ثبتوا على الإيمان والصراط المستقيم (أولياؤكم) أى : أعوانكم فى شئونكم ، (تدعون) أى : تتمنون وتطلبون ، (النزل) ما يهيا للضيف ليأكله حين نزوله .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه كيف عاقب أولئك الجاحدين في الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون - أردف ذلك ذكر عقابهم في الآخرة ، ليكون ذلك أتم للزجر ، وأكثر في الاعتبار لمن اعتبر ، ولما ذكر سبحانه الوعيد الشديد في الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصي أردف ذلك ذكر السبب الذي من أجله وقعوا في الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن أعملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لا يتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته ، ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد ، يطلبون أن يروا من كان السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والانس ليدوسهم تحت أقدامهم انتقاماً منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية . ثم أعقب هذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من اتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ \* وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴿ (١) ﴾ ، فبعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصي - أردف ذلك ذكر حال أضدادهم ، السعداء الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته باللين والرفق والموعظة الحسنى .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ \* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ \* أى : اذكر هؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار ﴿ يوزعون ﴾ \* أى : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾ ﴿ (٢) ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ ﴿ (٣) ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾ ﴿ (٤) ﴾ أى : وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ \* أى : بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتف منه حرف . كقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ \* يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴿ (٥) ﴾ .

(٤) سورة النمل من الآية ٨٤

(٥) سورة النور الآيتان ٢٤ - ٢٥

(١) سورة الحجر الآيتان ٤٩ - ٥٠

(٢) سورة مريم الآية ٨٦

(٣) سورة النمل الآية ٨٣

وقوله : ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ ؟ أى : لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾ قال الحافظ أبو بكر البزار : عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : ضحك رسول الله - ﷺ - ذات يوم أو تبسم فقال : ﷺ - « ألا تسألون عن أى شيء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله : من أى شيء ضحكت ؟ قال - ﷺ - « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول أى رب أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال بلى فيقول فإنى لا أقبل على شاهد إلا من نفسى فيقول الله تبارك وتعالى : أوليس كفى بى شهيدا والملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه وتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعدا لكنّ وسحقاً ، عنك كنت أجادل » (١) وقد أخرجه أيضا مسلم والنسائي .

وقال ابن أبي حاتم : عن أبي موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه - عز وجل - عمله فيجحد ويقول : أى رب وعزتك لقد كتب علىّ هنا الملك ما لم أعمل . فيقول له الملك أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول لا . وعزتك أى رب ما عملته . قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه .

قال أبو موسى الأشعري : - رضى الله عنه - فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذة اليمنى .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتُمون منا الذى كنتم تفعلونه بل وكنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ولا تبالون منه فى زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم ﴿ أى : هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهلكم .

قال الإمام أحمد : عن عمار ، عن عبد الرحمن ، بن يزيد ، عن عبد الله - رضى الله عنه - قال : كنت مستترا بأستار الكعبة : ( فجاء ثلاثة نفر قرشى وختناه ثقفيان - أو ثقفى وختناه قرشيان - كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهما : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله - قال - فذكرت ذلك للنبي - ﷺ - (٢) فأنزل الله - عز وجل - ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ إلى قوله : ﴿ من الخاسرين ﴾ وكذلك رواه البخارى ومسلم والترمذى .

قال معمر : تلا الحسن ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ ثم قال : قال رسول الله - ﷺ - : قال الله تعالى : ( أنا مع عبدى عند ظنه بى ، وأنا معه إذا دعانى ) (٣) ثم

(١) انظر صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٨٠ ، ٢٢٨١ رقم ٢٩٦٩/١٧ وانظر المستدرک على الصحيحين ج ٤ ص ٦٠١ .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - ج ٤ ص ٢١٤١ رقم ٢٧٧٥/٥

- وفى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٦١ فى تفسير سورة حم السجدة .

- وفى تحفة الاحودى يشرح جامع الترمذى فى تفسير سورة حم السجدة ج ٩ رقم ٣٣٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٢ رقم ٢٦٧٥/١ كتاب التوبة - باب فى الحظ على التوبة والفرح بها عن ابى هريرة .

افتخر الحسن ينظر في هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظن بالله ، فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساء الظن بالله فأساء العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ﴾ إلى قوله : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ . الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أى : سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم في النار لا يحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات كما قال سبحانه : ﴿ وقيل اليوم نساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون <sup>(١)</sup> . وكقوله تعالى : إخباراً عنهم ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخشوا فيها ولا تكلمون <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ يذكر تعالى : أنه هو الذى أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم فى أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أى : حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أى : كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أى : استواهم وإياهم فى الخسار والدمار .

كقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ فلندين الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون ﴾ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .  
أى : وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لا تنصتوا لسمع هذا القرآن وعارضوه باللغو والباطل بإنشاء الشعر والأراجيز والمكاء والصفير حتى تهوشوا على القارئ لعلكم تغلبون على قراءته وتميتون ذكره . قال

(٤) سورة مريم من الآية ٧٥

(٥) سورة الأعراف الآية ١٧٩

(١) سورة الجاثية الآيتان ٣٤ - ٣٥

(٢) سورة المؤمنون الآيات ١٠٦ - ١٠٨ .

(٣) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧

ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا في وجهه حتى لا يدرى ما يقول : وهذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن الكريم وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) .

ثم قال سبحانه : منتصرا للقرآن منتقياً من عاداه من أهل الكفر ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كان يعملون ﴾ أى : فلنذيقن الكافرين عذاباً لا يحاط بوصفه ، ولنجزينهم بأسوأ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام وإكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ومن ثم لما يجازوا إلا على السيئات . ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجرحون ﴾ أى : ذلك الجزاء المعد لأعداء الله هو النار مخلدون فيها أبداً ، لا انقطاع لعذابها ، ولا انتقال منها جزاء لهم على جحودهم بآياتنا واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين سبحانه أنهم حين وقوعهم في العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوه من شياطين الإنس والجن فقال :

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ قال سفيان الثوري : عن علي - رضى الله عنه - في قوله تعالى : ﴿ اللذين أضلانا ﴾ قال إبليس : وابن آدم الذى قتل أخاه ، وفي الحديث ( ما قتلت نفس ظمأً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ) (٢) لأنه أول من سن القتل . وقولهم : ( نجعلهما تحت أقدامنا ) أى : أسفل منا في العذاب ليكونا أشد عذاباً منا ولهذا قالوا ( ليكونا من الأسفلين ) أى : في الدرك الأسفل من النار وهذا كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أخرجهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقالت أولاهم لأجراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون (٣) أى : أنه سبحانه قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده . كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ (٤) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ نزلاً من غفور رحيم .

قال ابن جرير : عن سعيد ، بن عمران قال : قرأت عند أبي بكر الصديق - رضى الله عنه - هذه الآية ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، وكذا قال ابن عباس : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهري :

(١) سورة الأعراف ٢٠٤

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٨٣ عن عبدالله بن مسعود .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ - ٣٩

(٤) سورة النحل الآية ٨٨

تلا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعلب وقال على بن أبي طلحة : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿ قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على أداء فرائضه ، وكان الحسن البصرى يقول : « اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة وقال أبو العالية : ﴿ ثم استقاموا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل ، وقال ابن تيمية : استقاموا على محبته فلم يلتفتوا يمنة ولا يسرة ، وقال الإمام أحمد : عن عبد الله بن سفيان الثقفى ، عن أبيه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك قال - ﷺ - ( قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه )<sup>(١)</sup> وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ تنزل عليهم الملائكة ﴾ أى : عند الموت ﴿ أن لا تخافوا ﴾ أى : مما تقدمون عليه من عمل الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ، أودين ، فإننا نخلفكم فيه ﴿ وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ فيشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، وهذا كما جاء فى حديث البراء - رضى الله عنه - قال : ( إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمريه ، اخرجى إلى روح ، وريحان ، ورب غير غضبان )<sup>(٢)</sup> وقيل : إن الملائكة تنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم )<sup>(٣)</sup> حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدى .

وقال ابن أبى حاتم : بسنده حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : سمعت ثابتاً قرأ سورة حم السجدة حتى بلغ ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ﴾ فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا فيقولان له لا تخف ، ولا تحزن ﴿ وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ قال فيؤمن الله تعالى خوفه ، ويقر عينه ، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرّة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ، ولما كان يعمل له فى الدنيا ، وقال زيد ابن أسلم : يشرونه عند موته ، وفى قبره حين يبعث رواه ابن أبى حاتم ، قال العلامة ابن كثير : وهذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جدا ، وهو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ أى : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياؤكم أى : قرناؤكم فى الحياة الدنيا نسدّدكم ، ونوفّقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذذ

(١) أخرجه الإمام أحمد فى سننه ج ٤ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ عن عبد الله بن سفيان .

- وأخرجه مسلم فى صحيحه - كتاب الايمان - باب جامع أوصاف الإسلام ج ١ ص ٦٥ رقم ٣٨/٦٢ وفى تحفة الأحوذى ج ٧ ص ٩١ فى كتاب الزهد - باب ما جاء فى حفظ اللسان رقم ٢٥٢٢ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الأنعام من أول قوله وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ج ٣ ص ٢٦٢ عن حديث أبى هريرة . - وآخر ابن ماجة فى سننه ج ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ - رقم ٤٢٦٢ - كتاب الزهد - باب ذكر الموت والاستعداد له وأخرجه الإمام أحمد فى

سننه ج ٢ ص ٣٦٤ ٣٦٥ (٣) انظر تفسير الطبرى ج ٢٤ ص ٧٤ فى تفسير سورة فصلت . (٤) سورة الرعد من الآية ٢٣ ، ٢٤ .

الأعين وأنتم فيها خالدون \* وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون \* لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴿١﴾ وكقوله عز وجل : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون \* هم وأزواجهم في ظلال على الآرائك متكئون \* لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون \* سلام قولاً من رب رحيم ﴾ ﴿٢﴾ .

وكقوله سبحانه : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب \* متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب \* وعندهم قاصرات الطرف أتراب \* هذا ما توعدون ليوم الحساب \* إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ ﴾ ﴿٣﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون \* أولئك المقربون \* في جنات النعيم \* ثلث من الأولين \* وقليل من الآخرين \* على سرر موضونة \* متكئين عليها متقابلين \* يطوف عليهم ولدان مخلدون \* بأكواب وأباريق وكأس من معين \* لا يصدعون عنها ولا ينزفون \* وفاكهة مما يتخيرون \* ولحم طير مما يشتهون \* وحور عِين \* كأمثال اللؤلؤ المكنون \* جزاء بما كانوا يعملون \* لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيلاً \* إلا قليلاً سلاماً سلاماً \* وأصحاب اليمين \* ما أصحاب اليمين \* في سدر مخضود \* وطلح منضود \* وظل ممدود \* وماء مسكوب \* وفاكهة كثيرة \* لا مقطوعة ولا ممنوعة \* وفرش مرفوعة \* إنا أنشأنها من إنشاء \* فجعلناهم أبقار \* عرباً أتراباً \* لأصحاب اليمين \* ثلث من الأولين \* وثلث من الآخرين ﴾ ﴿٤﴾ . وقال الحبيب المصطفى - ﷺ - « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ﴿٥﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي : ضيافة ، وعطاء ، وإنعاماً من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رؤوف ، حيث غفر ، وستر ، ورحم ، ولطف .

قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم \* وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي : لا أحد أحسن قولاً ممن جمع بين خصال ثلاث :

١ - الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين ، والسدي ، وابن زيد ، والحسن : والداعي : هو : رسول الله - ﷺ - ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

٣ - أن يتخذ الإسلام ديناً ، ويخلص إلى ربه ، ويعلم أن العز كل العز في طاعة الله وفي إسلام الوجه والقلب له سبحانه وتعالى .

(٣) سورة (ص) الآيات ٥٠ - ٥٤

(١) سورة الزخرف الآيات ٧٠ - ٧٣

(٤) سورة الواقعة الآيات ١٠ - ٤٠

(٢) سورة (يس) الآيات ٥٥ - ٥٨

(٥) انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٧٤ رقم ٣٣٤٦ في تفسير سورة الواقعة عن أبي هريرة وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢ ، ٢٨٢٤/٣ .  
عن أبي هريرة كتاب الجنة وصفة نعيمها .



وقيل المراد بها : المؤذنون الصالحاء كما ثبت في صحيح مسلم ﴿ المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ﴾ (١) .

وقالت السيدة عائشة في قوله تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ قالت : فهو المؤذن إذا قال : حى على الصلاة فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر - رضى الله عنهما - وعكرمة : أنها نزلت في المؤذنين ، قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم ، فأما حال نزول الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعاً بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة كما في الصحيح . إذن : إنها عامة .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وتلك ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر - رضى الله عنه - : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله عز وجل : ﴿ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قاذته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك وعبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولى حميم أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ثم قال عز وجل : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس كقوله تعالى : ﴿ ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (٢) وقوله : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ (٣) وقوله : ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة . قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم . وقوله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الحق فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا للاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده كما قال تعالى : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين \* وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ (٤) وقد كان - ﷺ - إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (٥) وهذه الآيات كقوله تعالى فى آخر سورة الأعراف : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين \* وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم ﴾ (٦) وفى سورة المؤمنون عند قوله : ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون \* وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين \* وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ (٧) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٢٩٠ رقم ٣٨٧/١٤ عن طلحة بن يحيى كتاب الصلاة باب - الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(٢) سورة الشورى الآية ٤٣

(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ، ٩٨

(٥) الحديث فى سند الإمام أحمد ج ٣ ص ٥٠ عن أبى سعيد الخدرى

(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٩٩ - ٢٠٠

(٧) سورة المؤمنون الآيات ٩٦ - ٩٨

رسالة ( الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر )

## إلى دعاة الإسلام

فإن بين يديك - أيها القارئ الكريم - رسالة « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - ولا ريب أنها رسالة قيمة يحتاج إليها كل مسلم يدعو إلى الله على هدى وبصيرة . يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : هو الذي أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله وهو من الدين . فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهي والإباحة . وهذا كما ذكر في الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن »<sup>(١)</sup> لتضمنها الثلث الذي هو : التوحيد . إذ القرآن ، قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه وتعالى في صفة نبينا - ﷺ - « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث »<sup>(٢)</sup> هو بيان لكمال رسالته . فإنه - ﷺ - هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث . ولهذا روى عنه - ﷺ - أنه قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »<sup>(٣)</sup> وقال في الحديث المتفق عليه : « إنما مثل ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فكان الناس يطوفون بها ، ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة »<sup>(٤)</sup> .

فيه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وتحريم الخبائث : يندرج في معنى النهي عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات : يندرج في الأمر بالمعروف ، لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه ، وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهي عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذي تم الله به مكارم الأخلاق المندرجة في المعروف . وقد قال الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »<sup>(٥)</sup> . فقد أكمل الله لنا الدين ، وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام ديناً .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٢ عن أبي مسعود .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٥٧

(٣) انظر سنن البيهقي (كتاب الشهادات) بيان مكارم الأخلاق - الخ ص ١٠ ص ١٩٢ من حديث أبي هريرة .

(٤) الحديث في سنن الترمذي ج ٤ ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٢ عن جابر بن عبد الله - أبواب الأمثال - باب ما جاء مثل النبي والأنبياء وفي الباب عن أبي هريرة وأبي كعب . هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه .

(٥) سورة المائدة من الآية ٣

بالمعروف وتنبهون عن المنكر وتؤمنون بالله»<sup>(١)</sup> . وقال تعالى : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْسِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾<sup>(٢)</sup> ولهذا قال أبو هريرة : - رضى الله عنه - « كُتِمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي الْقِيُودِ وَالسَّلَاسِلِ حَتَّى تَدْخُلُوهُمْ الْجَنَّةَ »<sup>(٣)</sup> ( رواه البخارى موقوفا على أبي هريرة ) .

فبين الله سبحانه : أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحسانا إليهم . لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى قد أخبر : أنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال ، أو إخبار عن الله تعالى ، أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضى : أن ما لم تأمر به الأمة : فليس من المعروف وما لم تنه عنه : فليس من المنكر . إذ كانت أمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى : كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر - فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(٤)</sup> .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الأمر ، ونهى الناهى منها إلى كل مكلف في العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيها هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم - مع قيام فاعله بما يجب عليه - كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يجب على كل أحد بعينه ، بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضا كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه : أتم كل قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته كما قال النبي - ﷺ - « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . . . وذلك أضعف الإيمان » رواه ( م )<sup>(٥)</sup> وإذا كان كذلك فمعلوم : أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد . هو من أعظم الذى أمرنا به . ولهذا قيل : وليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩ رقم ٤٩/٧٨ - كتاب الايمان .

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠

(٢) سورة التوبة من الآية ٧١

(٣) انظر البخارى كتاب التفسير ج ٦ ص ٤٧ عن أبي هريرة .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤

### الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف

وإذا كان : هو من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لا بد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بعثت الرسل ، ونزلت والله لا يحب الفساد ، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين في غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله في عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾<sup>(١)</sup> والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب .

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - كما قام بغيره من الواجبات - لم يضره ضلال الضال .

وذلك يكون تارة بالقلب ، وتارة باللسان ، وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب على كل حال ، إذ لا ضرر في فعله . ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال : النبي - ﷺ - « وذلك أدنى - أو أضعف الإيمان »<sup>(٢)</sup> وقال : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »<sup>(٣)</sup> ( م ) وقيل لابن مسعود : - رضى الله عنه - « من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لا يعرف معروفًا ، ولا ينكر منكراً » وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه « كالكوز مجخيا » ( والكوز المجخى - بفتح الجيم وكسر الخاء مشددا - المائل عن الاستقامة والاعتدال شبه القلب الذى لا يعى الخير بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شيء ) - فى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنها - فى الصحيحين « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير . . » الحديث<sup>(٤)</sup>

### من هم الأمرون بالمعروف ؟

وهنا يغلط فريقان من الناس . .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهي ، تأويلا لهذه الآية كما قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - فى خطبته : ( يا أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ( عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم )<sup>(٥)</sup> وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت النبي - ﷺ - يقول : إن الناس إذا رأوا

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٦٩ رقم ٤٩/٧٨ كتاب الإيمان وفى النسائي جـ ٨ ص ١٠١ - ١٠٢ كتاب تفاضل الإيمان .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٧٠ رقم ٥٠/٨٠ كتاب الإيمان .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٢٨ رقم ١٤٤/٢٣١ كتاب الإيمان عن حذيفة .

(٥) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .

المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه (١) رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح .  
والفريق الثاني : من يريد أن يأمر وينهى - إما بلسانه ، وإما بيده - مطلقاً من غير فقه ، ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يقدر عليه وما لا يقدر ، كما في حديث إلى ثعلبة الخشني سألت عنها - يعنى الآية - رسول الله ﷺ فقال : « بل اتتمروا بالمعروف ، وانها عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، ورأيت أمراً لا يدان لك به ، فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائك أيام الصبر . الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » (٢) (رواه أبوداود والترمذي وأخرجه ابن كثير في تفسيره (٢٠٨/٣) ط الشعب) .

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله . وهو معتد في حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلظ فيما أتاه من الأمر والفحص والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبي - ﷺ - بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال ( أدوا إليهم حقوقهم ، وسلوا الله حقوقكم ) (٣) (رواه البخاري ومسلم) وقد بسطنا القول في ذلك في غير هذا الموضع .

### لزوم السنة والجماعة

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك القتال في الفتنة .

وأما أهل الأهواء - كالمعتزلة - فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الوضع .

وجماع ذلك : داخل في القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تزامنت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعاضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهي - وإن كان متضمناً لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة - فينظر في المعارض له . فإن كان الذي يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد أكثر . لم يكن مأموراً به . بل يكون محرمًا ، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته . الاعتبار بالمصالح والمفاسد .

لكن اعتبار المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة .

(١) انظر مسند أحمد في ج ١ ص ٩ مسند أبي بكر - رضى الله عنه .  
(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ج ٨ ص ٤٢٤ في تفسير سورة المائدة وقال الترمذي ، هذا حديث حسن غريب صحيح وفي سنن الترمذي ج ٤ ص ٣٣٢ رقم ٥٠٥١ باب تفسير سورة المائدة - وفي سنن أبي داود ج ٤ ص ٥١٢ ، رقم ٤٣٤١ كتاب الملاحم باب الأمر والنهي .  
(٣) انظر صحيح البخاري ج ٩ ص ٥٩ كتاب الفتن عن عبد الله  
وانظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٧٢ رقم ١٨٤٣/٤٥ - كتاب الامارة .

فمقي قدر الإنسان على اتباع النصوص . لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر .  
وقل أن تعوّر النصوص من يكون خبيراً بها وبدلالاتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما يفعلوهما جميعاً ، أو يتركوها جميعاً لم يجز أن يؤمروا بمعروف . ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر أسره ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهي حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى في زوال طاعته وطاعة رسوله ، - ﷺ - وزوال فعل الحسنات . وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمراً بمنكر ، وسعيّاً في معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما ، ولم ينه عنهما ، فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهي ، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ، وذلك في الأمور المعنية الواقعة . وأما من جهة النوع . فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، وينهى عن المنكر مطلقاً . وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية . وإذا تركها كان عاصياً . فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية ، وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

### هدى رسول الله ﷺ

في

#### الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن هذا الباب : ترك النبي - ﷺ - لعبد الله بن أبي سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وينفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله - ﷺ - يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس في قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه ، حمى له سعد بن عباد - مع حسن إيمانه وصدقه - وتعصب لكل منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه ، وإرادته لهذا وكرهته لهذا : موافقا لحب الله وبغضه ، وإرادته وكرهته الشرعيين . وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقد قال : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ (١) .

## الموالة والمعادة القلبية

فأما حب القلب وبغضه ، وإرادته وكرهته : فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته . ومتى كانت إرادة القلب وكرهته كاملة تامة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته ، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه في غير هذا الموضع . فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكرهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ﴾ (١) فإن أصل الهوى : هو محبة النفس ويتبع ذلك بعضها .

## حقيقة الهوى

وأصل الهوى : وهو الحب والبغض الذى فى النفس - لا يلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وقال النبى : - ﷺ - « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، وكلمة الحق فى الغضب والرضى ، وثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » (٢) (رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس وإسناده حسن) .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، ووجد وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى المشتبهات . فإن الأول : حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾ (٦) وقال فى الآية الأخرى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ (٧) وقال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (٨) .

(١) سورة القصص من الآية : ٥٠ .

(٢) انظر حلية الأولياء ج ٢ ص ٣٤٣ وقد ورد الحديث بلفظه عن أنس ثم قال : هذا حديث غريب من حديث قتادة . ورواه عكرمة بن إبراهيم عن هشام بن يحيى بن أبى كثير عن قتادة عن أنس - رضى الله عنه -

- وانظر كنز العمال ج ١٦ ص ٤٤ رقم ٤٣٨٦٧ .

(٣) سورة القصص الآية : ٥٠ .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٢٠ .

(٥) سورة البقرة من الآية : ١٤٥ .

(٦) سورة الأنعام : ١١٩ .

(٧) سورة المائدة من آية : ٤٩ .

(٨) سورة المائدة الآية : ٧٧ .

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة - من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف - رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » وذلك : أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله - ﷺ . - ولهذا قال تعالى : فى موضع ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾ (١) وقال فى موضع آخر ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ؟ .

فالواجب على العبد : أن ينظر إلى نفسه إلى حبه وبغضه ، ومقدار حبه وبغضه هل موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله - ﷺ . - بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدما فيه بين يدى الله ورسوله فإن الله تعالى قد قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ (٢) .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هوى . لكن المحرم منه : اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال لنبى داود ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾ (٣) . فأخبر : أن من اتبع هواه . . أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذى بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل . ( وهو شرط فى الأمر الناهى ) وتحقيق ذلك : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملا ﴾ (٤) . وهو كما قال : الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً ، لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة . فالعمل الصالح : لا بد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده . كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة : عن النبى - ﷺ - قال : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك » (٥) ( رواه مسلم ) .

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام : وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . ولا بد - مع ذلك - أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله ، وهو الطاعة ، فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب ، وهو العمل الصالح

(٣) سورة (ص) من الآية : ٢٦ .

(٤) سورة الملك من الآية : ٢ .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٨٩ رقم ٢٨٨٥/٤٦ - كتاب الزهد .

(١) سورة الانعام من الآية : ١١٩ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١ .



وهو الحسن وهو البر . وهو الخير . وضده : المعصية والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .  
والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه -  
يقول فى دعائه « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، ولوجهك الكريم خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .  
وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يكون كذلك هذا  
فى حق الأمر الناهى نفسه .

### العلم والفقه شرط فى الأمر الناهى

ولا يكون عمله صالحا إن لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه : - « من  
عبد الله بغير علم . كان ما يفسد أكثر مما يصلح » كما فى حديث معاذ بن جبل - رضى الله عنه - « العلم  
أمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا .  
واتباعا للهوى ، كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام . فلا بد من العلم بالمعروف  
والمنكر ، والتمييز بينهما . ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهى .

### الرفق والحلم والصبر (شروط فى الأمر الناهى)

ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الصراط المستقيم . والصراط  
المستقيم : أقرب الطرق الموصلة الى حصول المقصود .

ولا بد فى ذلك من الرفق كما قال النبى - ﷺ - : ( ما كان الرفق فى شىء إلا زانه . ولا كان العنف  
فى شىء إلا شانه )<sup>(١)</sup> (رواه مسلم ) ولا بد أيضا أن يكون حليما ، صبورا على الأذى ، فإنه لا بد أن يحصل  
له أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يا بنى أقم الصلاة  
وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولهذا أمر الله الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - بالصبر كقوله لخاتم الرسل -  
ﷺ - بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة ( يأيها المدثر ) بعد أن أنزلت  
عليه سورة ﴿ اقرأ ﴾ القى بها نبيّ فقال الله تعالى : ﴿ يأيها المدثر ﴾ قم فأنذر ﴾ وريك فكبر ﴾ وثيابك  
فطهر ﴾ والرجز فاهجر ﴾ ولا تمنن تستكثر ﴾ ولريك فاصبر ﴾<sup>(٣)</sup> فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر  
بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فعلم أنه يجب بعد ذلك  
الصبر . وقال تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون  
واهجرهم هجرا جميلا ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ فاصبر لحكم  
ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾<sup>(٧)</sup> وقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾<sup>(٨)</sup> وقال : ﴿ واصبر فإن الله

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٤ رقم ٢٥٩٤/٧٨ - كتاب البر والصلة . (٥) سورة المزمل الآية : ١٠ .

(٢) سورة لقمان الآية : ١٧ . (٦) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .

(٣) سورة المدثر الآيات : ١ - ٧ .

(٧) سورة القلم من الآية : ٤٨ .

(٤) سورة الطور من الآية : ٤٨ .

(٨) سورة النحل من الآية : ١٢٧ .

لا يضيع أجر المحسنين ﴿١﴾ فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ، الرفق ، الصبر . العلم قبل الأمر والنهي ، والرفق معه ، والصبر بعده .

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف - ورووه مرفوعاً - ذكره القاضي أبو يعلى في المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيها فيما يأمر . فقيها فيما ينهى . رفيقاً فيما يأمر رفيقاً فيما ينهى عنه . حليماً فيما يأمر . حليماً فيما ينهى عنه » .

### لا ينبغي ترك الأمر بالمعروف لصعوبته

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر : مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه . وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى الله عنه في الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار . والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل . قد يكون الثاني شراً من الأول . وقد يكون دونه وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصر في الأمر والنهي ، والمعتدى فيه ، قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

### سبب المصائب : السيئات ، وسبب النعم : الطاعة

ومن المعلوم - بما أَرانا الله من آياته في الآفاق ، وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه : أن المعاصي سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . لإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ (٤) .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم - كقوم نوح وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون - في الدنيا وأخبر بما سيعاقبهم به في الآخرة . قال تعالى : ﴿ كذلك العذاب وللعذاب الآخرة أكبر ﴾ (٥) وقال : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ (٦) .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي . فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً .

(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٦٥ .

(٥) سورة القلم من الآية : ٣٣ .

(٦) سورة التوبة من الآية : ١٠١ .

(١) سورة هود الآية : ١١٥ .

(٢) سورة الشورى الآية : ٣٠ .

(٣) سورة النساء من الآية : ٧٩ .

إذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع وظلم كل من الثاني والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

### أسباب الفتن

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها . ويدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينية والشهوانية . والبدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا . وذلك أن أسباب الضلال والغى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى الدنيا مشتركة تعم بنى آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره - بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب خمر ، أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى - وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين - فهى مشتهاة فى الطباع أيضا . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غير ما بشىء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما خصل له . وهذا هو الغبطة التى هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك : الذى يحب الاشتراك والتساوى وأما الآخر : فظلوم حسود .

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحا : من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال - إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما فى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » (١) (رواه مسلم) ولهذا قال تعالى فى وصف الأنصار : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ (٢) أى : من قبل المهاجرين ﴿ يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أى : لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ . ثم قال : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

وسُمع عبد الرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول : « رب قنى شح نفسى ، رب قنى شح نفسى » فقيل له فى ذلك . فقال « إذا وقيت شح نفسى فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال :

(١) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٢٥٧٨/٥٦ كتاب البر والصلة ولفظه : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال ( اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم ) . (٢ ، ٣) سورة الحشر الآية : ٩ .

فهذا الشح - الذى هو شدة حرص النفس - يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغير ، ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمنى زواله ، والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه . فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرمة ، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ؟ وإذا وقع فيها اختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان :

أحدهما : بغضها لما فى ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس .  
والثانى : بغضها لما فى ذلك من حق الله .

### الذنوب ثلاثة أقسام

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك .

والثانى : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزنى بها ويشرب بها الخمر .

إنما تستقيم أمور الناس بالعدل .

وأمر الناس إنما تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ، وإن لم تشترك فى إثم . ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة ، وإن كانت مسلمة .

وقد قال النبى - ﷺ - ( ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم )<sup>(١)</sup> (رواه أبو داود وإسناده حسن وقال الترمذى حديث صحيح ) فالباغى يضرع فى الدنيا ، وإن كان مغفورا له مرحوماً فى الآخرة .

وذلك : أن العدل نظام كل شىء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة .

### طبيعة النفس حب العلو

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه فى حقه ، وفيها داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة - كالزنا وأكل الخبائث فهى قد لا تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه

(١) انظر سنن أبوداود ج ٥ ص ٢٠٨ رقم ٤٩٠٢ - كتاب الأدب  
وانظر الترمذى ج ٤ ص ٧٤ رقم ٢٦٢٩ - باب صفة القيامة .

الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها فإذا رأت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعي هذه الشهوات والظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك ، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه . ولا يغضبون إلا لما يحرّمونه ، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهي من الشهوات الحلال ، أو الحرام : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذي كان عنده منكراً - ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويدم صاحبه ، ويغضب عليه - صار فاعلاً له وشريكاً فيه ، ومعاوناً ومعادياً لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب في بنى آدم : ترى الإنسان يسمع من ذلك ما لا يحصىه إلا الله . وسببه : أن الإنسان ظلم جهول ، فلذلك لا يعدل ، بل ربما كان ظالماً في الحالين . يرى قوماً ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته ، واعتدائه عليهم . فيُرضى أولئك المنكرين ببعض الشيء ، فينقلبون أعواناً له . وأحسن أحوالهم : أن يسكتوا عن الإنكار عليه وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويزنى ، ويسمع الملاحى ، حتى يدخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم . وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها . وقد يعودون إلى ما هودون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أودوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين .

فمن فيه دين وله شهوة يجتمع فى قلبه إرادة الطاعة ، وإرادة المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة .

فالأولون : هم أهل النفس الأمارة التى تأمر بالسوء .

والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التى يقال لها : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة ﴾ أرجعى إلى ربك راضية مرضية \* فادخلى فى عبادى \* وادخلى جنتى ﴿ (١) .

( القسم الثالث ) وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون تارة كذا وتارة كذا . وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - وهما اللذين أمر المسلمون بالاعتداء بهما - كما قال النبى - ﷺ - ( اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر )<sup>(١)</sup> ( رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ) لما كان الناس أقرب عهدا بالرسالة ، وأعظم إيمانا وصلاحا ، وأتمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت فى الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا فى حكم القسم الوسيط .

ولما كان فى آخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على - رضى الله عنهما - كثر القسم الثالث فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر بعد ذلك . فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم - من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين - وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهدى ، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن : أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه فى أن يعمر قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبت على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهذا أيضا حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت فى المقالات والعبادات وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شيئين : إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم - من فتنة الدين والدنيا - عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوسا وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم . كما هو الواقع . فيبقى الداعى فى نفس الشيطان وشيطانه ، ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيرا ولا شرا ، حتى رأى غيره - لا سيما إن كان نظيره - يفعل ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ، كما قال النبى - ﷺ - : ( من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا )<sup>(٣)</sup> ( رواه مسلم ) وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشيء حكم نظيره . وشبيه الشيء منجذب إليه .

(١) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٧١ رقم ٣٧٤٢ - أبواب المناقب وقال : حديث حسن .

(٢) سورة الشورى من الآية : ١٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٤ - ٧٠٥ رقم ١٠٠٧/٦٩ كتاب الزكاة وأيضاً ج ٤ ص ٢٠٥٩ رقم ١٠١٧/١٥ كتاب العلم .

## دواعى الخير والشر

فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انضم إليهما داعيان آخران . وذلك : أن كثيرا من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويبغضون من لا يوافقهم ، وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة : من موالاة كل قوم لموافقهم ومعاداتهم لمخالفيهم . وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات : كثيرا ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطرق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب الخمر - مثلاً - فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسدا له على ذلك ، وإما لثلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم . وإما لثلا يكون له عليهم حجة وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لثلا يكونوا تحت منته وخطره ونحو ذلك من الأسباب قال الله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (١) وقال تعالى فى المنافقين : ﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ﴾ (٢) وقال عثمان بن عفان - رضى الله عنه - « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » والمشاركة ، قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب ، والكذب والاعتقاد الفاسد ، وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزنى غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضا ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرهم الشخص بشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الإكراه أولا ينتهى إلى حد الإكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفوا به ، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى .

وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين . وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ (٣) فإن داعى الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعو إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر - لاسيما - إذا كان نظيره . لاسيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمره بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

(١) سورة البقرة من الآية : ١٠٩ .

(٢) سورة النساء من الآية : ٨٩ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٦٥ .

## مقابلة السيئات والحسنات

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرضى بضده فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه وذلك بشيئين : بفعل الحسنات ، وترك السيئات مع وجود ما ينفي الحسنات ، ويقتضى السيئات ، وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه .  
قال تعالى : ﴿ والعصر ﴾ \* إن الإنسان لفي خسر \* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴿ (١) روى عن الشافعي - رضى الله عنه - أنه قال : « لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكففتهم » وهو كما قال : فإن الله تعالى أخبر فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان في نفسه : مؤمنا صالحا ، ومع غيره موصيا بالحق ، موصيا بالصبر .

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر . كما سئل النبي - ﷺ - ( أى الناس أشد بلاء ؟ ) قال : الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأئمة فالأئمة . يتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة . زيد في بلائه . وإن كان في دينه رقة خفف ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة (٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (٣) فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السيئ المحذور المنهى عنه .

## الصبر على الأذى

ويدخل فى ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على ما يصيبه من المكروه ، والصبر عن البطر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ، ويتنعم به ، ويتغذى به وهو اليقين كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية ، فإنه لم يعط أحد - بعد اليقين - خيرا من العافية . فسلوهما الله » (٤) .

(رواه أحمد فى مسنده وقال الشيخ أحمد شاکر إسناده صحيح) .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيئ : فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده من حصول المحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس

(١) سورة العصر الآيات : ١ - ٣ .

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ - باب الزهد .

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٤ .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٨ .



لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلول لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله - تعالى - بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الصدقات وقال تعالى لنبه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ (٢) فلا بد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهى الإحسان إلى الخلق ، وبينها وبين الصبر تارة . ولا بد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم ، وإصلاح غيرهم - لا سيما - كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

### الصبر صبران

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة ، كما قال الحسن رحمه الله : « ماتجرع عبداً جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة » وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم : إن كان مما يمكن دفعه : أثار الغضب ، وإن كان مما لا يمكن دفعه : أثار الحزن ، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن ، لفور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع بينهما النبى ﷺ - فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال النبى ﷺ - : « ما تعدون الرقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرّقوب ولكن الرقوب الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئاً ، ثم قال : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب » (٣) .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين \* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ الآية (٤) .

وقال تعالى فى الغضب : ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب ، نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليثوس كفور ﴾ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (٥) وقال : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (٦) .

(٤) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ ، والآية ١٥٦

(٥) سورة هود الآيات : ٩ - ١١ .

(٦) سورة الحديد من الآية : ٢٢ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة البلد من الآية : ١٧ .

(٣) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠١٤ - كتاب البر والصلة - رقم ٢٦٠٨/١٠٦ (٦) سورة الحديد من الآية : ٢٢ .

## ما يدعو إلى تعدى الحدود

ولما كان الشيطان يدعو الناس - عند هذين النوعين - إلى تعدى الحدود بقلوبهم وأصواتهم ، وأيديهم . نهى النبي - ﷺ - عن ذلك . فقال لما قيل له - وقد بكى لما رأى إبراهيم عند النزاع - « أتبكي ، وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : إنما نهيت عن صوتين أحققين فاجرين - صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : لطم خدود ، وشق جيوب ، ودعاء بدعوى الجاهلية »<sup>(١)</sup> فجمع بين الصوتين [ الحديث إسناده حسن قال الهيثمي في مجمع الزوائد ] .  
وأما نهيه عن ذلك في المصائب فمثل قوله - ﷺ - « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية »<sup>(٢)</sup>

وقال « أنا برىء من الحالقة والصالقة والشاقة »<sup>(٣)</sup> ( خ ) .

وقال في القِتلة والمصائب والفرح : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليُحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »<sup>(٤)</sup> ( رواه م ) .  
وقال : « لا تمثلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليدا »<sup>(٥)</sup> ( رواه م ) .

إلى غير ذلك مما أمر - ﷺ - به في الجهاد : من العدل ، وترك العدوان ، اتباعاً لقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾<sup>(٦)</sup> .  
ولقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾<sup>(٧)</sup> .

ونهى عن لباس الحرير ، والتختم بالذهب ، والشرب في آنية الذهب والفضة ، وإطالة الثياب إلى غير ذلك من أنواع السرف ، والخيلاء في النعم .

وذم الذين يستحلون الخبز [ ثوب من حرير ] والجر [ الزنا ] ، والحرير ، والخمر ، والمعازف وجعل فيهم الخسف والمسخ ، إن هم ارتكبوا ذلك .

وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾<sup>(٨)</sup> وقال عن قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾<sup>(٩)</sup> .

(١) انظر مجمع الزوائد ج ٣ ص ١٧ - باب ما جاء في البكاء وانظر شرح السنه للبخاري ج ٥ ص ٤٣١ - وانظر الجامع الصحيح ج ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ وقال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

(٢) انظر صحيح البخاري ج ٢ ص ١٠٤ - باب ليس منا من ضرب الحدود - كتاب الجنائز .

(٣) انظر البخاري ج ٢ ص ١٠٣ - باب ما ينهى من الخلق عند المصيبة - كتاب الجنائز .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٤٨ رقم ١٩٥٥/٥٧ كتاب الصيد والذبائح - باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧ رقم ١٧٣١/٣ - باب الجهاد وباب - تأمير الإمام لامراء على البعث ووصيته إياهم بأداب العزو وغيرها .

(٨) سورة النساء من الآية : ٣٦ .

(٦) سورة المائدة من الآية : ٨٠ .

(٩) سورة البقرة من الآية : ٧٦ .

(٧) سورة البقرة الآية : ١٩٠ .

وهذه الأمور الثلاثة - مع الصبر عن الاعتداء في الشهوة - هي أجوامع هذا الباب وذلك : إن الإنسان بين ما يحبه ويشتهي ، وبين ما يبغضه ويكرهه ، فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته ، ويدفع الثاني يبغضه ونفرته ، وإذا حصل الأول أو اندفع الثاني : أوجب له فرحا وسرورا . وإن حصل الثاني أو اندفع الأول حصل له حزن - فهو محتاج - عند المحبة والشهوة - أن يصبر على عدوانها ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبي - ﷺ - ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذي يوجب الاعتداء في الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحا فخورا . والصوت الذي يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الإنسان هلوعا جزوعا .

وأما الصوت الذي يشير الغضب لله : فكالأصوات التي تقال في الجهاد من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهوة في الفرح . فرخص منها فيما وردت به السنة . من الضرب بالدف في العرس ، والأفراح للنساء والصبيان وعامة الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس . هي من هذه الأقسام الأربعة وهي التشبيب وأشعار الغضب والحمية وهي الحماسة والهجاء . وأشعار المصائب كالمراثي ، وأشعار النعم والفرح وهي المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ﴾ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿ ولهذا أخبر : أنهم يتبعهم الغاؤون ، والغاوى : هو الذي يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغنى . وهو خلاف الراشد ، كما أن الضال هو الذي لا يعلم مصلحته . هو خلاف المهتدى قال سبحانه : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ماضل صاحبكم وما غوى ﴿ <sup>(١)</sup> ولهذا قال : رسول الله - ﷺ - « عليكم بستی وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى » <sup>(٢)</sup> .

### ما يحتاج إليه المؤمن

فهذه الأخلاق والأعمال يحتاج إليها المؤمن عموما . وخصوصا في أوقات المحن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع الذنوب والمصائب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح . وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح . ولكنهم كما قال تعالى : ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة

(١) سورة النجم الآيتان : ١ - ٢ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٧ (حديث العرباض بن سارية عن النبي ﷺ) .

الأمور ﴿١﴾ وكما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ ﴿٢﴾ وكما قال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ ﴿٣﴾ وكما قال : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ ﴿٤﴾ .

ولما كان في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال تعالى : عن المنافقين ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ﴿٥﴾ .

وقد ذكروا في التفسير : أنها نزلت في الجد بن قيس لما أمره النبي - ﷺ - بالتجهيز لغزو الروم ، وأظن رسول الله - ﷺ - قال له : « هل لك في نساء بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إني رجل لا أصبر على النساء . وإني أخاف الفتنة بنساء بني الأصفر فأئذن لي ، ولا تفتني » ﴿٦﴾ .

وهذا الجد : هو الذي تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة : واستتر بجمل أحمر . وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر » ﴿٧﴾ فأنزل الله فيه « ومنهم من يقول : ائذن لي ولا تفتني ، ألا في الفتنة سقطوا » .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحذور ، ومجاهدة نفسه عنه ، فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم . فإن رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع وإما للعجز عنها - يعذب قلبه . وإن قدر عليها وفعل المحذور : هلك . وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله : ( ولا تفتني ) قال الله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها .

فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ ﴿٨﴾ فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو في الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرضى فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد . فتدبر هذا . فإن هذا مقام خطر . فإن الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمررون ، وينهون ، ويقاتلون ، طلبا لإزالة الفتنة - زعموا - ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة . مثل الخوارج .

(١) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ . (٢) سورة غافر الآية : ٥١ . (٣) سورة المجادلة الآية : ٢١ .

(٤) سورة الصافات الآية ١٧٣ . (٥) سورة التوبة : ٤٩ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني . . . » الخ ج ٤ ص ١٠١ .

(٧) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين - باب صفات المنافقين واحكامهم ج ٤ ص ٢١٤٥ رقم ٢٨٨٠/١٢ .

(٨) سورة الأنفال من الآية : ٣٩ .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كله لله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لثلاثا يفتنوا ، وهم قد سقطوا فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد ، يكون به الدين كله لله . وتكون به كلمة الله هى العليا ، لثلاثا يفتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منها .

وإنما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور ، والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا ، أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال أو شهوات الغى ، فإذا فعل ما وجب عليه : من أمر ، ونهى وجهاد ، وإمارة ونحو ذلك ، فلا بد أن يفعل معها شيئا من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين ، فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور . لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقتتر به ما هو دونه من المفسدة وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً . لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

### الأمر والنهى فى كل شىء

كل بشر على وجه الأرض : فلا بد له من أمر ونهى ، ولا بد أن يؤمر وينهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها . إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأماره بالسوء ﴾ (١) .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . ولا بد لكل حى من إرادة وطلب فى نفسه ، فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته . وبنو آدم لا يعيشون إلا بإجتماع بعضهم مع بعض . وإذا اجتمع اثنان فصاعدا ، فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنان كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة : حصل باثنين ، أحدهما : إمام والآخر مأموم وأما فى الأمور العادية ، ففى السنن ، أن رسول الله - ﷺ - قال : ( لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم ) (٢) [ رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ] .

(١) سورة يوسف من الآية : ٥٣ .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد كتاب الخلافة - باب الأمير فى السفر جـ ٥ ص ٢٤٩ رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

## الأمر بالمعروف من لوازم بنى آدم

وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله . ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله ، وينهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى . إما بما يضاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله ، بالباطل الذى لم ينزله الله . وإذا اتخذ ذلك ديناً : كان ديناً مبتدعاً ضالاً باطلاً . وهذا كما أن كل بشر فإنه حتى متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملاً صالحاً لوجه الله . وإلا كان عمله عملاً فاسداً ، أولغير وجه الله . وهو الباطل كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ (١) .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ (٢) وقال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ (٣) . وقد أمر الله تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (٤) .

﴿ وأولو الأمر ﴾ أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان ﴿ أولو الأمر ﴾ صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح الناس ، وإذا فسدوا . فسد الناس : كما قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - للأحمسية لما سألته : « ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم » .

ويدخل فيهم : الملوك ، والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً : فهو من أولى الأمر . وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته . أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته : « أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى ، حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى ، حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

(رواه ابن كثير فى البداية والنهاية وقال هذا إسناد صحيح)

(١) سورة الليل الآية : ٤ .

(٢) سورة محمد الآية : ١ .

(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣ .

(٤) سورة النساء الآية : ٥٩ .

## من آيات التوحيد

قال تعالى :

وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا  
لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ  
بِالْبَيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا  
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي ءَايَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن  
يَأْتِيهِ ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ  
لَمَآجَاءٌ لَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٣١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّن  
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٣٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ  
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَا عَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ  
قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ  
يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ  
مِّن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٣٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ  
فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٣٦﴾

## معاني المفردات

﴿ يلحدون ﴾ يقال : ألحد الحافر في الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر شق منها ، والمراد

بالملاحدين : ، المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ﴿ الذكر ﴾ القرآن ﴿ من بين يديه ومن خلفه ﴾ أى : من جميع جهاته ﴿ حكيم ﴾ أى : فى جميع أفعاله ﴿ حميد ﴾ أى : محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

﴿ الساعة ﴾ يوم القيامة : ﴿ الأكمام ﴾ واحدا كَم ( بكسر الكاف ) وعاء الثمرة ، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، ﴿ آذناك ﴾ أى : أعلمناك .

﴿ ضل عنهم ﴾ أى غاب وزال ، ﴿ ظنوا ﴾ أى : أيقنوا وعلموا ﴿ محيص ﴾ أى مهرب : يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة - أعقب هذا بتهديد من ينازع فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد فهددهم بقوله : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ وبقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ وبقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر . ﴾ الآية وبعد ذلك سلى رسوله على ما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه ، وحثه على الصبر ، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴾ فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لا يعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة ، ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم - بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا ما لنا ولهذا ؟ ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين ، والذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه ، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، فقومك ليسوا ببدع بين الأمم ، ثم أبان أن المرء وما عمل ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولا يظلم ربك أحدا . ثم ذكر - سبحانه - يوم القيامة وأن هذا اليوم لا سبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة فى أوقاتها المعنية بأوصافها المعنية استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر سبحانه أن يوم ينادى المشركين تهكما وتقريعا لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنا فلا يرجون منهم نفعاً ، ولا يفيدونهم خيراً ، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون \* ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير .



يقول تعالى : منبهاً على قدرته العظيمة وأنه الذى لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ أى : أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضياءه وهما متعقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها وثمر وضياؤه وتقدير منازلها فى فلكه واختلاف سيره فى سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) وكقوله سبحانه : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٣) وكقوله جلت قدرته : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم \* والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم \* لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ (٤) .

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أى : ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به وكيف يسجدون للشمس والقمر ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس يسجدون للكبير المتعالى : كما قال - عز وجل - ﴿ ألم تَرَ أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ - الآية (٥) - فحق العذاب على الذين يستكبرون عن عبادة الله ، وهنا يقول سبحانه : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ أى : فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله - فالله لا يعاب بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلاً ونهاراً ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملون ، كقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ (٦) وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

لما ذكر - سبحانه - الدلائل الفلكية أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، أى : ومن الدلائل على قدرته - تعالى - على البعث ، وإحياء الموتى بعد بلاها ، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها - أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ، فإذا نزل عليها الغيث من السماء تحركت بالنبات ،

(١) سورة الإسراء الآية : ١٢ .

(٢) سورة يونس الآية : ٥ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢ .

(٤) سورة يس الآيات : ٣٧ - ٤٠ .

(٥) سورة الحج الآية : ١٨ .

(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

وانتفخت ، وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ، ثم تصدعها وتشققها إذا جان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو في الجو ويغطي قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقة ﴿ إن الذي أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ أى : إن الذي أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع - قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم وهو القدير على كل شيء ، لا يعجزه شيء كائناً ما كان كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير \* وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (١) .

وكقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ \* وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ (٢) وكقوله جلّت قدرته : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرًا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل ثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ \* إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز \* لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد \* ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ إن الذين يلحدون فى آيتنا ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد : وضع الكلام على غير مواضعه ، وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾ (٤) . وقوله عز وجل : ﴿ لا يخفون علينا ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أى : أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة ، والنكال ولهذا قال تعالى : ﴿ أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ أى : أيستوى هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل : تهديداً للكفرة ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال : ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ .

ثم قال جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ قال الضحاك وقتادة : وهو القرآن . ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ أى : منيع الجنب لا يرام أن يأتي أحد بمثله ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أى : ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين كما قال سبحانه وتعالى :

(١) سورة الحج من الآية : ٥ - ٧ .

(٢) سورة الروم الآيتان : ٤٨ - ٥٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾<sup>(١)</sup> ولهذا قال سبحانه : ههنا ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ أى : حكيم فى أقواله وأفعاله حميد : بمعنى محمود أى : فى جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

وروى الحاكم عن ابن مسعود - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( إن هذا القرآن مآدبة الله ، فأقبلوا مآدبته ما استطعتم ، إن القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزىغ فَيُسْتَعْتَب ، ولا يَعوْجُ فَيَتَقَوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يَخْلُقُ من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأمركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول ألم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف )<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ فكما كذبت كُذِّبُوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك كقوله تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ أى : لمن تاب إليه ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ أى : لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

قوله تعالى : ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجباً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ لما ذكر سبحانه وتعالى : القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه فى لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال سبحانه : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين \* فقرأ عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ لولا فصلت آياته أعجمى وعربى ﴾ أى : لقالوا هلا أنزل مفصلاً بلغة العرب ، ولا نكروا ذلك فقالوا أعجمى وعربى أى : كيف ينزل كلام أعجمى على مخاطب عربى لا يفهمه ؟ هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أى : قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما فى الصدور من الشكوك والريب ﴿ والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ﴾ أى لا يفهمون ما فيه ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أى : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة النساء الآية : ٨٢ .

(٢) الحديث فى كنز العمال جـ ١ ص ٥٥٦ رقم ٢٣٥٦ - باب فى تلاوة القرآن وفضائله وفى مجمع الزوائد جـ ٧ ص ١٦٤ عن ابن مسعود قال الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن إبراهيم الهجرى وهو متروك .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٣٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٨٢ .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ قال مجاهد : يعنى بعيد عن قلوبهم . وقال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول قال ابن كثير : وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد ﴾ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ أى : ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة ، فاختلفوا فيها ، فمن مصدق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك ، واسلك سبيل أولى العزم من الرسل - صلوات الله عليهم أجمعين . ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ أى : ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى القيامة لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبي الأمم السالفة .

ثم بين سبحانه ما يقتضى إهلاكهم فقال سبحانه : ﴿ وإنهم لفى شك منه مريب ﴾ أى : وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا : ما قالوا : بل كانوا شاكين غير محققين لشيء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك . ثم بين سبحانه : أن الجزء من جنس العمل وأنه لا يظلم ربك أحداً فقال سبحانه : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (٢) وكان النبى - ﷺ - يقول فى خطبته : « ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ أى : لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه .

وقوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أى : إذا سئل عنها أحد رد علمها إليه تعالى ، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه ، وقد جاء فى الحديث الصحيح ( أن جبريل - عليه السلام - سأل رسول الله - ﷺ - عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . . الحديث » (٤) .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(١) سورة البقرة الآية : ١٧١ .

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٧٥ وأنظر سنن أبى داود وكتاب النكاح - باب خطبة النكاح ج ٢ ص ٥٩٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب التفسير - تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ١٤٤ ، وفى صحيح مسلم كتاب الإيمان ج ١ ص ٣٩ رقم ٩/٥ ، وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٧ ص ٣٤٧ رقم ٢٧٣٨ وفى النسائى كتاب الإيمان باب نعت الإسلام ج ٨ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

وبعد أن ذكر سبحانه أنه استأثر بعلم الساعة مبين أنه اختص أيضاً بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث من مستأنف الأزمنة فقال سبحانه : ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أى : وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى مغلقه به ، وما تحمل أنثى ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿ (١) وقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ (٣)

ثم ذكر سبحانه : بعض ما يحدث فى هذا اليوم فقال تعالى : ﴿ ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذنك ما منا من شهيد ﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رؤوس الأشهاد تهكما بهم ، واستهزاء بأمرهم - أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ فيقولون : أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم : لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ .  
وقوله تعالى : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أى : وغابت عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فأخذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذى حل بهم . ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أى : وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

(١) سورة الرعد الآية : ٨ ، ٩ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٣) سورة لقمان الآية : ٣٤ .

عبد الحميد كشك

في

# رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الخامس والعشرون

آخر سورة فصلت

وسورة الشورى

المكتبة المصرية الحديث

## من أحوال الإنسان

قوله تعالى : ﴿ \* إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْثَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَعِزَّتْ لَكَ مَا مَنَّا مِنْ شَيْءٍ ۚ ﴾ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿ ٤٨ ﴾ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْوُسْ قَنُوطٌ ﴿ ٤٩ ﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّسَّةٍ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿ ٥٠ ﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿ ٥١ ﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ؕ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿ ٥٢ ﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ ٥٣ ﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿ ٥٤ ﴾

## معاني المفردات

( لا يسأم ) أى : لا يمل ، ( والخير ) المال والصحة والعزة والسلطان ونحو ذلك ( والشر ) الفقر ، والمرض ، ونحوهما ، ( واليأس ) انقطاع الرجاء من حصول الخير ، ( والقنوط ) بفتح القاف من اتصف بالقنوط ( وبالضم ) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار . ( والرحمة ) هنا : الصحة وسعة العيش ( والضراء ) المرض وضيق العيش ونحوهما ( هذا لى ) أى : هذا ما استحقه لمالى من الفضل والعمل ( والحسنى ) الكرامة ( الغليظ ) هنا الكثير ( نأى بجانبه ) أى : تكبر واختال

(عريض) أى : كثير مستمر ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر . (أرايتم) أى : أخبرونى (أضل) أى : أكثر ضللاً وبعداً عن الحق (الشقاق) الخلاف ، (والآفاق) النواحي من المشارق والمغارب ، واحدها (أفق) . (شهيد) أى : شاهد على كل ما يفعله خلقه ، (مرية) أى شك ، (من لقاء ربهم) أى : من البعث بعد الممات ، (محيط) أى : عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا - أردف ذلك بيان أن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحسن بخير وقدرة انتفخت أو داجة وصغر خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويش من الفرج ، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى ماضيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالهما ، وذلك مما يومىء بشغله بالنعمة عن المنعم فى حالى وجودها وفقدها أما فى حال وجودها فواضح ، وأما فى حال فقدانها فلأن التفرع جزعاً إنما كان على الفقد الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة . ثم أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين فى بنوة محمد ﷺ إلى التأمل والتفكر فيما بين أيديهم من الدلائل ، ليدعوا عما هم فيه من الغى والضلال ، ويقرؤا بها لتظاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقاً ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأنه سبحانه هو العلى الكبير .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْوِضْ قَنُوطٌ ﴾ (٥٠) وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (٥١) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ (٥٢)

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ أى : لا يمل من دعائه بالخير . والخير : هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . ﴿ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ ﴾ الفقر والمرض (فيؤوس) من روح الله (قنوط) من رحمته . وقيل (يؤوس) من إجابة الدعاء ، (قنوط) بسوء الظن بربه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ عافية ورضاء وغنى (من بعد ضراء مسته) ضر وسقم وشدة وفقر (ليقولن هذا لى) أى : هذا شيء استحقه على الله لرضاه بعملى ، فيرى النعمة حتماً واجبا



على الله - تعالى - ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ، ليتبين شكره وصبره ( وما أظن الساعة قائمة )  
 أى : يكفر بقيام الساعة أى : لأجل أنه خول نعمة يبطر ويكفر كما قال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾  
 أن رآه استغنى ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴿ أى : ولئن كان ثم معاد فليحسنن  
 إلى كما أحسن إلى في هذا الدار ، يتمنى على الله - عز وجل - مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال الله  
 تعالى : ﴿ فَلَنَنْبِتَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله ،  
 واعتقاده بالعقاب ، والنكال . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾ أى :  
 أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله - عز وجل - ( وإذا مسه الشر ) أى : الشدة ( فذودعاء  
 عريض ) أى : كثير .

ونحو هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لَجْنِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا  
 عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ ، كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى :  
 ﴿ وَلَئِن أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِن أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَةٍ  
 لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ  
 كَبِيرٌ ﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضَرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِنْهُ نَسَى مَا كَانَ  
 يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ اللَّهُ أَتَدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾<sup>(٤)</sup>  
 وكقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يُعْبِدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ  
 عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ . يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ  
 الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ، يَدْعُوا لِمَنْ ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَشَرٍ الْمَوْلَى وَلِبَشَرٍ الْعَشِيرِ ﴾<sup>(٥)</sup> .

فالكافر يعرف ربه في البلاء ، ولا يعرفه في الرخاء ، أما المؤمن فهو عابد لله سبحانه على  
 الحالين ، لهذا جاء في وصية النبي ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - ( تعرّف إلى  
 الله في الرخاء يعرفك في الشدة )<sup>(٦)</sup> ، قال رجل لأبي الدرداء : - رضى الله عنه - أوصني : فقال : أذكر  
 الله في السراء يذكرك في الضراء ، فإن العبد إذا ذكر الله في السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله -  
 عز وجل - ، قالت الملائكة : صوت معروف ، فشفعوا له ، وإذا كان ليس بدعاء في السراء ، فنزلت به  
 ضراء فدعا الله - عز وجل - ، قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ،  
 سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 شَهِيدٌ ، أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴾ .

(٣) سورة هود من ٨ - ١١

(٢) سورة يونس الآية ١٢

(١) سورة العلق الآيات ٦ - ٧

(٥) سورة الحج الآيات ١١ - ١٣

(٤) سورة الزمر الآية ٨

(٦) أنظر كنز العمال ج ٢ رقم ٣٢٢١ - في آداب الدعاء - وانظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٠٧ عن ابن عباس وانظر كشف الخفاء ج ١

ص ٣٦٦ رقم ٩٩٣ (عن ابن عباس)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ، أرايتم إن كان هذا القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ؟ أى : كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال - عز وجل - : ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى : فى كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ﴾ أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا ( فى الآفاق ) قال ابن زيد : ( فى الآفاق ) آيات السماء ( وفى أنفسهم ) حوادث الأرض . وقال مجاهد : ( فى الآفاق ) فى آفاق الدنيا خصوصاً من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبارة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وفى أنفسهم فتح مكة وهذا اختيار الطبرى . وقال عطاء وابن زيد أيضاً : ( سنريهم آياتنا فى الآفاق ) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق ، والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها ( وفى أنفسهم ) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع : صنعه وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . ( ذكره القرطبي ) .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ قيل الإسلام الذى جاء به الرسول - ﷺ - وقيل : القرآن ، وقيل : إن محمداً - ﷺ - هو : الرسول الحق . والأقوال كلها صحيحة . فسيبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثم نصر حامليه ، وأظهرهم على أعدائهم فى قليل من الزمان ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (١) .

وقوله تعالى :

﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ﴾ أن : كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد بأن محمداً صادق فيما أنخبر به عنه كما قال سبحانه : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾ (٢) .

وقصارى القول ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها سبحانه فى هذه السورة وفى كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافى لإثبات وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث . وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج - حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولا جاحد - بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال سبحانه :

﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ﴾ أى : إنهم فى شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقاءه كال تفكر فى صديق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن حق لا شك فيه .

(١) سورة الصف الآية ٩ ، سورة التوبة الآية ٣٣

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴾ أى : إنه تعالى عليم بمجمل الأشياء وتفصيلها مقتدر عليها لا يفوته شيء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ويقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل . كقوله تعالى : ﴿ وَلِلّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ﴾ (١) ﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ (٢) .

## تفسير سورة الشورى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً ، عدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى .  
كلماتها : ثمانمائة وست وستون وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون . ومجموع فواصل آياتها ( زر لصب قدم ) .  
ولها اسمان : عسق ، لافتتاحها بها ، وسورة الشورى لقوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ .

معظم مقصود السور ..

بيان حجة التوحيد ، وتقرير نبوة الرسول ، وتأکید شريعة الإسلام ، والتهديد بظهور آثار القيامة ، وبيان ثواب العاملين دنيا وأخرى ، وذل الظالمين فى عرضات القيامة ، واستدعاء الرسول ﷺ من الأمة محبة أهل البيت العترة الطاهرة ، ووعد التائبين بالقبول وبيان الحكمة فى تقدير الأرزاق ، وقسمتها ، والإخبار عن شؤم الآثام والذنوب ، والمدح والثناء على العافين من الناس ذنوب المجرمين . وذل الكفار فى مقام الحساب ، والمنة على الخلق بما منّوا : من الأولاد وبيان كيفية نزول الوحي على الأنبياء ، والمنة على الرسول بعطية الإيمان والقرآن ، وبيان أن مرجع الأمور إلى الله الديان فى قوله تعالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وفى لقمان ( من عزم الأمور ) ؛ لأن الصبر على وجهين : صبر على مكروه ينال الإنسان ظملاً كمن قُتل بعض أعزته ، وصبر على مكروه ليس يظلم ؛ كمن مات بعض أعزته . فالصبر على الأول أشد ، والعزم عليه أوكد ، وكان ما فى هذه السورة من الجنس الأول لقوله ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ فأكد الخبر باللام وما فى لقمان من الجنس الثانى فلم يؤكد .

قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولي ﴾ وبعده ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى ، ليس له من هاد ولا ملجأ .

قوله ﴿ عَلَىٰ حَكِيم ﴾ ليس له نظير . والمعنى : تعالى عن أن يكلم شفاها حكيم فى تقسيم وجوه التكليم -

قوله : ﴿ لعل الساعة قريب ﴾ وفى الأحزاب ( تكون قريباً ) زيد معه ( تكون ) مراعاة للفواصل . وقد سبق .

ومناسبتها لما قبلها :

اشتمال كل منها على ذكر القرآن ، ودفع مطاعن الكفار ، فيه تسلية النبى ﷺ على ذلك .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم ﴿١﴾ عسق ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ بَيْنِهِمْ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَخُذْهُ ۖ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا  
يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

### معاني المفردات

(يتفطرون) يتشققن ، (يسبحون) أى : يتزهون الله عما لا يليق به ، (والأولياء) الشركاء  
والأنداد (حفيظ) أى : رقيب على أحوالهم وأعمالهم (بوكيل) أى : بموكل إليك أمورهم حتى  
تؤاخذهم بها ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ فحسب . (الإنذار) التخويف (وأم القرى)  
مكة ويوم الجمع يوم القيامة : سمي بذلك لاجتماع الخلائق فيه كما قال تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم  
الجمع ﴾ <sup>(١)</sup> (الفريق) الجماعة ، (السعير) النار المستعرة الموقدة . (الولى) الناصر والمعين ،  
(أنيب) أى : أرجع ، ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : مبدعهما لأعلى مثال سابق ، (من أنفسكم)  
أى : من جنسكم (يذروكم) أى : يترككم يقال ذرأ الله الخلق ، بثهم وكثرهم ، (مقاليد) وأحداها  
مقلاد ، أو مقليد ، أو إقليد ، وهو : المفتاح (يسط) أى : يوسع (يقدر) أى : يقرر ويضيق .

### المناسبة وإجمال المعنى

بين سبحانه : أن ما جاء فى هذه السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر  
الرسول ، من الدعوة إلى التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والتزهيد فى جمع حطام الدنيا ، والترغيب  
فيما عند الله ، ثم ذكر أن ما فى السموات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته ، وله التصرف فيه إيجاداً  
وإعداماً وتكويناً وإبطالاً ، وأن السموات والأرض على عظمها تكاد تتشقق فرقا من هيئته وجلاله  
سبحانه ، وأن الملائكة ينزهونه عما لا يليق به من صفات النقص ، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين ،  
ثم أردف هذا تسليية رسوله ﷺ بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان يستطيع أن يردهم إلى  
سواء السبيل ، بل ليس عليه إلا البلاغ وعلينا حسابهم ، فلا يخنع نفسه عليهم حسرات ، إن الله عليم  
بما يصنعون ، ثم بين سبحانه أنه أنزل كتابه بلغة العرب ليفهمه قومه من أهل مكة وما حولها كما قال :  
﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ <sup>(٢)</sup> وينذرهم بأن يوم القيامة آت لا شك فيه ، وأن  
الناس إذ ذاك فريقان : فريق يدخل الجنة بما قدم من صالح الأعمال وفريق يدخل النار بما دُئس به نفسه  
من سيئ والفعال ، ثم ذكر أن حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً ولم يشأ أن يكون قسراً  
وجبراً ، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل ، فمن أحببت الله وأتاب وعمل صالحاً أفلح وفاز بالسعادة ، ومن

عاث في الأرض فساداً ، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المهاد ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ثم طلب إليه أن يدع الاهتمام بأمرهم ، ويقطع الطمع في إيمانهم ، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، وهو سبحانه الولي حقاً ، القادر على كل شيء ، فقد عدلوا عنه إلى ما لا نسبة بينه وبينهم بحال .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ حم . عسق ﴾ مثلها مثل أخواتها من فواتح السور وهي : دالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز بما تحمله من تحدى المعاندين والمكابرين .  
قال تعالى : ﴿ وإن كنتم صادقين ﴾<sup>(١)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراء ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾<sup>(٣)</sup> ثم أفحمهم وألجمهم بالحجة عندما يبين لهم نهاية التحدى في قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ، فابى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ .  
أى : مثل ما أوحينا إليك من الآيات والذكر الحكيم ، أوحينا إلى الأنبياء من قبلك فأنزلنا عليهم كتباً اشتملت على الأمر بالتوحيد والإيمان بالمعاد ، والأمر بمكارم الأخلاق ، وقد جمع الله ذلك كله في الوصايا العشر التي جاءت في قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشرکوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلکم وصاکم به لعلکم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلکم وصاکم به لعلکم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلکم وصاکم به لعلکم تتقون ﴾<sup>(٥)</sup> .

الموحى إليك وإلى الذين من قبلك هو ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾<sup>(٦)</sup> .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فهو الغالب الذى يجبر ولا يجار عليه فإذا ما أنزل الوحي على أنبيائه فإن أحداً لا يقوى على منع ذلك الوحي من النزول ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره

(٣) سورة يونس من الآية ٣٩

(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٢) سورة هود الآية ١٣

(٥) سورة الأنعام الآيات ١٥١ - ١٥٣

(١) سورة البقرة الآية ٢٣

(٤) سورة الاسراء الآيتان ٨٨ - ٨٩

على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴿١﴾ فانظر كيف سمي الوحي روحاً لأن فيه حياة الموات وانظر كيف سماه نوراً في قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (٢) فقد سماه نوراً لأنه يبدد غياهب الظلمات ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (٣)

وهو الحكيم الذي تنزهت ذاته عن العبث ، وتنزه فعله عن اللغو ، وتنزهت صفاته عن المشابهة ، يضع الأمور في نصابها والنقاط على حروفها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

وهو الذي أوحى إلى الأنبياء كما أوحى إلى نبيه وخاتم أنبيائه ورسله ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيناه داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، ورسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً ، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ (٤) وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ (٥) وقال جل شأنه : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (٦) وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ (٧) وقال تبارك اسمه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ (٨) وقال عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وجل جلال الله إذ يخبر أنه حفظ الوحي من اختراق الشياطين فيقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾

فكل الأنبياء قد أوحى الله - تعالى - إليهم فلا نبوة بلا وحي وكل الرسل قد أمرهم الله بالتبليغ فكما أنه لا نبوة بلا وحي كذلك لا رسالة بلا نبوة وسبحان من أكمل دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام ديناً ، فجعل خاتم النبيين خاتماً للمرسلين فلا نبوة بعد رسول الله ﷺ ، وحيث لا نبوة بعده فلا رسالة بعد رسالته ، وإنما العلماء ورثة الأنبياء في تبليغ ما أمر الله به الأنبياء وسبحان من قال : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ (٩) فختم النبوة ختم للرسالة إذ النبوة أعم من الرسالة فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص من باب أولى وقد كذب كل من قال : إنه رسول بعد رسول الله فقد رضى الله لنا الإسلام ديناً ، ولا إسلام بعد إسلام رسول الله الذي أمرنا الله - تعالى - باتباعه .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالم عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

(١) سورة النحل الآية ٢

(٢) سورة الشورى الآيات ٥٢ ، ٥٣

(٣) سورة إبراهيم الآية ١

(٤) سورة هود الآية ٤٩

(٥) سورة آل عمران الآية ٤٤

(٦) سورة النساء ١٦٣ - ١٦٦

(٧) سورة الأحزاب آية : ٤٠

(٨) سورة الجن الآيات : ٢٦ - ٢٨

(٩) سورة الانبياء الآية ٢٥

## أحاديث نبوية في الوحي

قال الإمام مالك — رحمه الله — عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيث عنه ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعني ما يقول » قالت عائشة — رضى الله عنها — فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً . أخرجاه في الصحيحين ولفظه للبخارى (١).

وقد رواه الطبراني عن عائشة — رضى الله عنها — عن الحارث بن هشام ، أنه سأل رسول الله ﷺ كيف ينزل الوحي ؟ فقال ﷺ : « في مثل صلصلة الجرس فيفصم عني وقد وعيت ما قال : — وقال — وهو أشده عليّ — قال : وأحياناً يأتيني الملك فيتمثل لي فيكلمني فأعني ما يقول » (٢).

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أسمع صلاصلاً ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد (٣).

## مبحث في الوحي

ما هو ؟ .

الوحي بمعناه الشرعى حقيقة يشترك فيها الأنبياء جميعاً ، وهو إعلام الله تعالى لنبيه من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه .

وقد يطلق أيضاً على كلام الله المنزل على النبي ﷺ .

وجاء في تعريف الوحي أيضاً عند بعض العلماء أنه عرفان يجده الشخص في نفسه مع اليقين بأنه من عند الله بواسطة وبغير واسطة .

(١) الحديث في صحيحه البخارى في ( كتاب بدء الوحي ) باب : كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ج ١ ص ٢ ، ٣ وأخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب الفضائل ) باب : عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي ج ٤ ص ١٨١٦ ، ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣/٨٧

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير فيما رواه الحارث بن هشام الخزومى ج ٣ ص ٢٩٣ رقم ٣٣٤٣ ، ٣٣٤٤ ، ٣٣٤٥

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده — مسند عبد الله بن عمرو ج ٢ ص ٢٢٢



قال الله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾<sup>(١)</sup> .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن انسان أن يكلمه الله إلا وحياً وإنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث :

- ١ — إما أن يكون وحياً ، بمعنى أنه يلقى الله فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله .
- ٢ — وإما أن يكون من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى — عليه السلام — حين طلب الرؤية ولم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل ﴿ وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup> .
- ٣ — وإما أن يرسل رسلاً ، وهو الملك ﴿ فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ .

## صور الوحى التى وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : « أن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب »<sup>(٣)</sup> .

والثانية : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها . ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت تردها .

(١) سورة الشورى الآيات : ٥١ — ٥٣

(٢) من الآية : ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٣) الحديث فى كشف الخفاء ج ١ ص ٢٦٨ رقم ٧٠٧ وقال : رواه فى مسند الفردوس عن جابر ، ورواه أبو نعيم والطبرانى

عن أنى أمانة واليزار عن حذيفة ، وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود كذا فى فتح البارى .

وفى تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الشورى ج ١ ص ٢٠٤ كما جاء فى صحيح ابن حبان .

وفى الحلية لأنى نعيم فى ترجمة أحمد بن أنى الحوارى ج ١٠ ص ٢٧

والرابعة : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحىه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك في سورة النجم ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفهموه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى ﴾ (١).

هذه صور الوحي وطرق الاتصال ﴿ إنه عليم حكيم ﴾ يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار .

قال بعض المحققين : إنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحي ، أو حديث يتكلم عنه ، لأتأمل هذا الاتصال ، إلا أحسست له رجفة في أوصالي . كيف .. كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله الأولى الأبدى الذى ليس له حيز في المكان ، ولا حيز في الزمان المحيط بكل شيء والذى ليس كمثله شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله العلى ، وذات الإنسان المتحيزة في المكان والزمان ، المحدودة بمحدود المخلوقات من أبناء الفناء ؟

ثم كيف يمثل هذا الاتصال معاني وكلمات وعبارات ؟ وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأولى الأبدى ، الذى لا حيز له ولا حدود ، ولا شكل له معهود ، وكيف ؟ وكيف ؟ ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا في حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟

لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت في صورة وصار لها وجود . هو الذى تكلم أن تدركه من وجود . ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزال ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة التلقى هذه لعظيمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات .. أنت معى في هذا التصور ؟! أنت معى تحاول أن تتصور ؟! هذا الوحي الصادر من هناك . أأقول ( هناك ) ؟! كلا . إنه ليس هناك ( هناك ) الصادر من غير مكان ولا زمان ولا حيز ولا حد ولا وجهة ولا ظرف . الصادر من النهاى الأزلى الأبدى ... الصاهر عن الله ذى الجلال ... إلى انسان ... انسان .. مهما يكن نبيا رسولا . فإنه هو هذا الانسان ذو الحدود

والقيود هذا الوحي . هذا الاتصال العجيب المعجز الذى لا يملك إلا الله أن يجعله وقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات ، هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله ؟ إني لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة ، وأنا أحاول لأن أتصور ذلك الحديث العظيم العجيب الخارج فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات ، وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله ﷺ .

وهذه عائشة — رضى الله عنها — تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية ، فتروى عن واحدة منها فتقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام . قلت : وعليه السلام ورحمة الله قالت : وهو يرى ما لا نرى » أخرجه البخارى (١).

وهذا زيد بن ثابت — رضى الله عنه — يشهد مثل هذه اللحظة ، وفخذ رسول الله ﷺ على فخذيه ، وقد جاءه الوحي ، فثقلت حتى كادت ترض فخذيه .

وهؤلاء هم الصحابة — رضوان الله عليهم — فى مرات كثيرة يشهدون فيدعونه للوحي ، حتى يسر عنه فيعود إليهم ويعودون إليه . ثم .. أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟ .

أى : جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحي — ويختلط بذلك العنصر ويتصل مع طبيعته وفحواه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تترأى هنالك بعيدا عن أفق عال ومرتقى صاعد ، لا تكاد المدارك تتملأه ! روح هذا النبى ﷺ روح هذا الإنسان ، كيف يا ترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى ؟

(١) أخرجه البخارى — باب : فضائل أصحاب النبى ﷺ باب : فضل عائشة — — رضى الله عنها — ج ٥ ص ٣٦ ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب : فضل عائشة ج ٤ ص ١٨٩٥ رقم ٢٤٤٧/٩٠

كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجسد الوجود في هذه اللحظات العجيبة التي يتجلى فيها الله على الوجود ، والتي تتجاوب جنباته بكلمات الله ؟

ثم : أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة الإنسان ، فيوحى إليها لإصلاح أمرها وإنارة طريقها ، ورد شاردتها ، وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض !؟

إنها حقيقة ، ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا مطلعاً إلى الأفق السامى الوضاء .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ <sup>(١)</sup> .

يريد الله — تبارك وتعالى — أن يقول لصفوة خلقه : ومثل الوحي الذى أوحيناه إلى الأنبياء السابقين عليك ، أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، فيه حياة يث الحياة ويدفعها ، ويحركها وينميها فى القلوب ، وفى الواقع العملى المشهود ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ والمقصود بهذا النص هو اشتغال قلب الحبيب محمد ﷺ على هذه الحقيقة ، حقيقة الكتاب والإيمان ، والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الذى لابس قلب محمد ﷺ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا .

وهذه طبيعته الخالصة ، طبيعة هذا الوحي هذا الروح ، هذا الكتاب إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

هذا تأكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى بمشيئة الله — جل شأنه — وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقاً بالله وحده ، يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لا يعرفه سواه ، والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله ، فهو لا ينشئ الهدى فى القلوب ، ولكنه يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ فهى

الهداية إلى طريق الله الذى تلتقى عنده المسالك ، لأن الطريق إلى المالك ﴿الذى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السموات والأرض ، وقوى السموات والأرض ، إلى مالكةا العظيم ، الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾

فكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره ، وهذا النور يهتدى إلى طريقه ، الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين .

ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة التى ختمت بآيات الوحي قد بدأت بالحديث عن الوحي ، إنها سورة الشورى ، التى بدأها الله تعالى بقوله : ﴿حم عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم﴾ لقد كان الوحي محورها الرئيسى ، وقد عاجلت قصة الوحي منذ النبىات الأولى لتقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، وتعلن القيادة الجديدة للبشرية : بمثلة فى رسالة سيدنا محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ، وتلقى على عاتق هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز الذى تصلح به القيادة ، وتحمل به هذه الأمانة ، الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض ، عن ذلك الطريق العجيب العظيم .

## بشائر النبوة

بعد الفراغ من تعريف الوحي ، وأنه حقيقة واقعة ، يشترك فيها جميع الأنبياء فإن للوحي بشائر قبل نزوله ، تبعث الأمن والطمأنينة فى قلب النبى الذى يوحى إليه ألا وهى الرؤيا الصالحة .

عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحي بعد فى اليقظة .

قد روت عائشة — رضى الله عنها — فى حديث بدء الوحي أنه أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .<sup>(١)</sup>

(١) أخرجه البخارى فى كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ج ١ ص ٣

## شبهات باطلة

ركز المستشرقون جهودهم حول قضية الوحي ، لأنها الأساس الأول في الإسلام فأخذوا ينفثون سمومهم ، ويشيرون غبار الشبهات حول إثبات الوحي لكي يسلم ما تهواه نفوسهم الرخيصة ، وقلوبهم السقيمة ، ولكن الحق أقوى مما يتصورون وأكبر مما يظنون ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه الشبهة والرد عليها ، فإننا نضع بين يدي القارئ الكريم صورة مفصلة عن بدء الوحي ، كما جاء في كتب السنة الصحيحة ، حتى يكون للقارئ علم يبدأ به هذه القضية التي تعتبر الدعامة الأولى في صرح العقيدة .

روى الإمام البخارى بصحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته أنها قالت : « كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حجب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد ، الليالي ذوات العدد - قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ( اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ) فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملوني ، زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : أى خديجة مالى ؟ فأخبرها الخبر ، قال لقد خشيت على نفسي . قالت له خديجة : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ( وهو ابن عم خديجة ) وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : أى ابن عم : اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ،

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٩

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى — عليه السلام — يا ليتنى فيها جزعاً . يا ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك . قال رسول الله ﷺ : أخرجنى هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً » .<sup>(١)</sup>

وهذا الحديث اشتمل على الخطوات التى مر بها رسول الله ﷺ عندما أراد الله — تبارك وتعالى — أن يبعثه إلى العالمين بشيراً ونذيراً ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأُمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يتغنون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾<sup>(٥)</sup>

نعم لقد اتصل نور السماء بأرض الصحراء .. وكانت أول خطوة فى الطريق ( الرؤيا الصادقة فى المنام ) ، فكان — صلوات الله وسلامه عليه — لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح جلية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا مرأ ولا خفاء ، وظلت هذه الحالة ستة أشهر ، ولذلك فإن الرؤيا الصادقة مع رسول الله ﷺ تعدل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى كتاب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ج ١ ص ٣ ، ٤

(٢) سورة الفرقان الآيات : ١ ، ٢

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٤) سورة سبأ الآية : ٢٨

(٥) سورة الفتح الآيات : ٢٨ ، ٢٩

بيان ذلك أن الرسول ﷺ استمر ثلاثاً وعشرين سنة يوحى إليه ، فتكون الأشهر الستة تساوى بالنسبة لهذه المدة جزءاً من ستة وأربعين ، ثم انتقل الوحي إلى اللقاء المباشر بين الملك الموكل به وهو الأمين جبريل الذى بين الله وصفه فى قوله : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴾<sup>(١)</sup> وفى قوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفى قوله تعالى : ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزل على قلبك بإذن الله مصداقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكان اللقاء الأول بين سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، وبين المبعوث رحمة للعالمين فى غار حراء ، الذى كان الرسول يخلو فيه متأملاً فى رحاب الكون ، مقلباً طرفه فى أرجاء العالم بكواكبه ونجومه ، وأرضه وجباله ونباته وجماده ، وشمس وقمره ، وليله ونهاره ، هاتفاً بخالقه ، مردداً آيات الحمد والثناء لرافع السماء بلا عمد ، سبحة الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون .

وكان الأمر بالقراءة ، وكان الرسول يقول : ما أنا بقارىء ، وقال له : أمين الوحي ( اقرأ باسم ربك الذى خلق )<sup>(٤)</sup> وانطلق الرسول بهذه الآيات يرجف فؤاده من هول ما رأى .

إن هناك طائفة ملائكية شديدة الجذب ، كان جبريل يضمه إليه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله ويأمره بالقراءة ، وهكذا ، دخل الأمين محمد ﷺ على زوجته الوفية خديجة بنت خويلد يقول لها : زملونى زملونى ، فتبعث إلى قلبه ما يشرح الصدر ، وتريش بجناحها جناحه ، وتقسم له بالله أن الله لا يخزيه أبداً ، وتنطلق به إلى ابن عمها ورقة الرجل الذى قرأ الكتاب الذى أنزل على عيسى ، ورأى فيه البشارات الصادقات ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ فيخبر رسول الله أن هذا الملك الذى أنزل عليه هو الذى نزل على موسى قبل ذلك ، وينبئه بأمر ستقع ، فيقول له : ليتنى أكون حياً ! إذ يخرجك قومك ، يقصد هجرته من مكة إلى المدينة ، يسأل الرسول متعجباً « أومخرجى هم ؟ » فيقول له ورقة :

(١) سورة التكويد الآيات : ١٩ - ٢١

(٢) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ - ١٩٥

(٣) سورة البقرة الآية : ٩٧

(٤) سورة العلق الآية : ١



نعم ، ثم يبين له السبب وهو أنه ما من أحد يأتي قومه بمثل ما أتى به محمد ﷺ إلا عاداه الناس ، إنه يحمل لواء الحق فلا بد أن يصطدم بأصحاب الباطل ، ويتمنى ورقة بن نوفل أن يكون حياً وقت أن يخرج قومه حتى ينصر النبي ﷺ نصراً عزيزاً مؤزراً .

وهكذا يثبت لنا هذا الحديث الشريف الخطوات الكاملة التي خطاها رسول الله ﷺ على طريق

الوحي .

ونستنتج من هذا قاعدة في العقيدة لابد لكل مسلم أن يعلمها . هذه القاعدة تثبت أنه لا نبوة بلا وحي ، ولا رسالة بدون نبوة ، بهذا نطق القرآن العظيم في قوله جل شأنه : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ (١) .

ففي هذه الآيات أثبت الله أنه قد أوحى إلى نبيه محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وبناء عليه فليس هناك نبوة بدون وحي ، ثم أثبت القرآن أن هناك رسلاً من هؤلاء الأنبياء جاءوا مبشرين ومنذرين ، ليقطع المعاذير والحجج ، فإذا كان ذلك كذلك فإن النبوة أوسع من دائرة الرسالة ، فكل رسول لابد أن يكون نبياً ، وإذا كان الحبيب محمد قد ختم النبوة ، وهي الأعم فإنه يلزم على ذلك لزوماً حتمياً أن يختم الرسالة وهي الأخص ، ولذا فإنه لا أساس من الصحة لقول من قال : إن هناك رسالة بعد رسول الله ﷺ ، لأن الوحي لم ينزل على أحد بعده ، وحيث لا وحي فلا نبوة وحيث لا نبوة فلا رسالة .

وإذا كان رسول الله ﷺ وخاتم النبيين ، فهو رسول الله وخاتم المرسلين أيضاً ، لأن دائرة المرسلين مندرجة تحت دائرة النبيين فلا نبوة بلا وحي ، ولا رسالة بلا نبوة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شيء عليم ﴾ (٢)

(١) سورة النساء الآيات : ١٦٣ - ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠ .

## ماذا قالوا عن الوحي ؟

والآن نبدأ في عرض شبه المبطلين الذين هاجت صدورهم بعقارب البغضاء فنقول لهم : إن الرسول ﷺ نبي ثبتت نبوته ثبوتاً قطعياً ، وتضافرت على ذلك الأدلة التي لا مرأى فيها ، وعلى رأسها الكتاب الخالد الذي تعهد الله بحفظه في قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ <sup>(١)</sup> .

فهو الأُمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يذهب إلى أستاذ ، ولم يجلس أمام فيلسوف ، فنزول هذا الكتاب عليه بما اشتمله من قصص السابقين في القرون الأولى ، ومن الوعد والوعيد والأنباء بالغيب ، والنظم الفريدة التى اشتملت الحياة كلها من شتى نواحيها ، والدعوة الخالصة لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو الأُمى ، دليل قاطع على أنه الصادق الأمين قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يحسد باياتنا إلا الظالمون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

لما لم يجد أعداء الرسول فى حياته ، ولا فى أخلاقه ، ما يمكنهم من الطعن فيه ، جندوا أقلامهم ، وجمعوا صحفهم ، ليفتروا على الله ورسوله الكذب ، فيقولون : كان قساً رومانياً غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية ، وأنه وهو الفيلسوف الحكيم ، عز عليه ذلك ، ولم يشأ أن يصبح شيخاً لقييلته ، أو رئيساً لأمته ، إنما أراد أن يكون إلهاً أو فى مضاف الآلهة !!!

ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمداً جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينية ، وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسائل الدينية السابقة بالتحريف والتغيير ، وبلغ الأمر إلى الارتفاع بالأنبياء إلى مقام الألوهية ، فلو كان محمداً يرجو مجداً دنيوياً لوجد البيئة الصالحة لذلك ، ولكنه كان يتلوا عليهم قرآن الله الذى يقول :

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠

(٤) سورة فصلت الآية : ٨

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة العنكبوت الآيات : ٤٨ ، ٤٩

ويجسم الرسول الأمين الأمر حسماً فيقول في حديثه الشريف : « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فإنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله » (١) .

فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل : إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلهاً ؟

### تهمة باطلة

ويتنادى أعداء الله في غيهم وبهتانهم فيزعمون أن رسول الله ﷺ كان مريضاً بالصرع ، وأن ظواهر الوحي التي كانت تعتريه ما هي إلا نوبات الصرع ، ثم يزدون افتراءهم بهتاناً وإثماً مبيناً ، فيقولون : إنه كان يسمع كلاماً أثناء نوبات الصرع ، سمى بعد ذلك قرآناً .

هذه فرية فيها ما فيها :

إن ما قالوه : كلام سخيف لا أساس له من الصحة ، وهراء باطل لا نصيب له من الحقيقة العلمية ، ولذلك فإننا عندما نوجه شمس الحقيقة على هذه الخرافات ، فإنها ستبدد ظلماءها الداكنة ، لتبدو الحقيقة جليلة واضحة لا يعترينا لبس ، ولا يعترينا غموض ولا شك .

يرد الدكتور ( يحيى طاهر ) أخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب ومستشفى قصر العيني بجامعة القاهرة على الفرية فيقول :

« لقد أراد بعض الناس أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول ﷺ فقالوا : إن النبى محمداً كان مريضاً بالصرع ، وإن الوحي الذى كان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات صرعية كان يسمع أثناءها كلاماً رده ليصبح قرآناً .

والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية ، أو العلمية ، أو الفسيولوجية يتبين له جسامه هذا الافتراء ، إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر إلى الذهن ، ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ بدليل أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ أثناء تلك النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجى .

ومن المعروف أن هناك مظاهر خارجية عديدة ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعاً لمراكز المخ التي تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وطريقة وسرعة انتشارها ، فإذا بدأت في مراكز الحركة كانت النوبة على شكل تقلصات أو تشنجات عضلية ، وإذا بدأت في مراكز الإحساس كانت النوبة على شكل إحساسات مختلفة ، وإذا بدأت في مراكز الإبصار كانت النوبة على شكل ذكريات أو أحلام وهكذا . ويكفي أن نشرح نوعاً واحداً من النوبات الصرعية الذي يشبه أن يكون هو النوع الذي قيل عنه أن النبي ﷺ كان مصاباً به ، ألا وهو النوبات الصرعية النفسية .

ففي هذه النوبات الصرعية يكون التغير العقلي هو المظهر الأساسي للنوبة ولا يفقد المريض شعوره تماماً ، كما في الأنواع الأخرى من النوبات ، ويمكنه إلى حد ما تذكر التجارب النفسية التي حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها ، وتكون هذه التجارب النفسية التي تمر بالمريض أثناء النوبة إما على شكل انفعالات مثل الخوف ، أو على شكل تفكير في اتجاه معين كأن يردد المريض في ذهنه « يجب أن أقول لفلان كذا وكذا » ، أو على شكل خيالات أو هلاوس ، وفي هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرتبة ، أو سمعية ، أو الالتهام معاً ، ومن أمثلة الهلاوس المرئية ما قالت مريضة : أنها ترى أثناء النوبة شبحاً أسود يهددها ، ولا يمكنها أن تبين ملامحه وصورته ، وتكرر بنفس الشكل في جميع النوبات .

ومن أمثلة الهلاوس السمعية ما قالت مريضة : إنها تسمع أصواتاً قادمة من الجهة اليمنى ، ولكنها ليست أصوات أطفالها ، كما أنها تسمع في نوبات أخرى : قطعة موسيقية تظن أنها قادمة من المذيع الموضوع في حجرة الجلوس ... من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التي تمر بذهن المريض في أثناء النوبة الصرعية ما هي إلا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان ، أو فكر فيها ، ثم حفظت في ثنايا المخ ، وقد ثبت ذلك علمياً بأن نبهت مراكز المخ المصابة بتيار كهربائي من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التي تتابعه أثناء النوبة الصرعية ، كما نرى من الأمثلة التي ذكرت أن الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرار النوبات ، وقد يكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس في المريض الواحد ، ولكنها تتكرر وكلها أو بعضها بالشكل نفسه ، كذلك نرى : أن المريض يتذكر التجارب النفسية التي مرت به أثناء النوبة عامة ، ولا يمكنه أن يتذكر التفاصيل ، أو أن يصف ما مر به في أثناء النوبة وصفاً دقيقاً .

ثم يستطرد الدكتور يحيى طاهر قائلاً : « إنه بتطبيق ما وصلنا إليه من هذا العرض السريع للصرع على الافتراء الذي يفتره خصوم الإسلام على الوحي الذي أنزل على سيدنا محمد ﷺ نجد أن الهلاوس والأحلام التي تمر بذهن المريض بالصرع ما هي إلا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولا يمكن

للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئاً ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص ، والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ؟

كذلك لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعدها ، لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعليم ، أما الصرع فهو ارتباك مفاجيء في كهرباء المخ ووظيفته ، وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحي لم يتعلمها النبي ﷺ قبل الرسالة .

فهل يمكن أن يقال ، بعد هذا العرض العلمى البحت : أن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع !!؟ سبحانه هذا بهتان عظيم ، وقد كذبوا ورب الكعبة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾ (١) .

أما بعد .. فقد تبين لنا بالعلم الصحيح ، والحقائق الثابتة أن هذه الشبهة التى وجهوها إلى الوحي قد اجتثت من أصلها ، كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ (٢) .

ويا من قلت لحبيبك محمد ﴿ وإنه لتزِيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾ (٣) .

ويا من قلت له : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ (٤) .

ويا من تحدثت العالم أجمع فقلت : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ (٥) .

وقلت للمعاندین : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ (٦) .

(١) سورة الكهف من الآية : ٥

(٢) سورة الإسراء الآيات : ٨٨ ، ٨٩

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ — ١٩٥

(٤) سورة النمل الآية : ٦

(٥) سورة الطور الآية : ٣٤

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٣

كيف يتفق هذا التحدى مع الفرية القائلة إنه هلوسة مصروع ؟ وهل تقوى الهلاوس والخرافات أن تنزل ميدان التحدى الصارخ ؟ والله إنها الأباطيل والأكاذيب ، لا حياة لها ولا قرار ، أمام صولة الحق ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾<sup>(١)</sup> .

وينتقل بنا الحديث بعد ذلك في هذا الضدد إلى أستاذ أوروپى هو ر . ر . ف بودلى فى كتابه : حياة الرسول محمد : يقول فى هذا الشأن : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه ، وقد زخر عقله بأفكار لامعة ، وإنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد ، حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، وكان من تتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً ، أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ونخلص مما تقدم : إلى ما قاله الدكتور يحيى طاهر : من حقائق عن الصرع على ما كان يعترى سيدنا رسول الله ﷺ نجده يختلف أصلاً وظاهراً عنه ، ويقرر بشكل قاطع أن ما كان يعترى الرسول إنما هو وحى الله — جل شأنه — ، فإن الحقائق العلمية الطبية تثبت أن الهلاوس التى يراها أو يسمعها المريض أثناء نوبته ، لا بد أن يكون قد رآها أو سمعها فى طفولته أو شبابه ، أو قبل مرضه ، فهل كان الرسول ﷺ قد رأى الأقوام قبل عصر الإسلام ، وعاش بينهم واستمع إلى أحاديث الرسل والأنبياء السابقين ، فردد مثل آيات القرآن الكريم التى بلغت قمة السمو ، وعلو الطبقة فى الإعجاز المطلق ، مثل قوله تعالى حاكياً عن نبي الله نوح : ﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾<sup>(٢)</sup> إلى أن تنتهى هذه المشاهد بشأن نوح فى قوله تعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

هل كان رسول الله ﷺ مع نبي الله نوح وعاصره وخالطه ، ثم ردد هذه الوقائع والذكرات فى نوبات الصرع ! كلا .. وألف لا ، إنه الوحى كما قال تعالى فى نهاية قصة نوح : ﴿ تلك من أنباء

(١) سورة سبأ الآية : ٤٩

(٢) سورة هود الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة هود الآية : ٤٨

الغيب نوحيا إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴿١﴾ .

وهل كان صلوات الله وسلامه عليه مع يوسف وإخوته ، وما دار في هذه القصة من أحداث ووقائع من أول قوله تعالى : ﴿٢﴾ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴿٣﴾ إلى أن تنتهى القصة بقوله جل شأنه على لسان يوسف ﴿٤﴾ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى في الدنيا والآخرة ، توفي مسلماً وألحقني بالصالحين ﴿٥﴾ .

هل كان رسول الله ﷺ مع يوسف وإخوته حتى ردد هذه الذكريات في نوبة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحي الذى قال فيه مولانا تعقيباً على قصة يوسف — عليه السلام — موجهاً الخطاب للرسول الكريم : ﴿٦﴾ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴿٧﴾ .

وهل كان ﷺ مع آل عمران وما جرى في هذه القصة من أحداث ووقائع ، بدأت بقوله تعالى : ﴿٨﴾ إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم ﴿٩﴾ إلى أن انتهت القصة بقوله تعالى : ﴿١٠﴾ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴿١١﴾ .

هل كان الرسول الكريم معاصراً لتلك الأحداث ، حتى ظهرت هذه الذكريات عليه في حالة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحي كما قال تعالى تعقيباً على قصة آل عمران : ﴿١٢﴾ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴿١٣﴾ من الذى علم هذا الأُمى أخبار السابقين وقصص الأنبياء المكرمين وهو الذى لم يختلف إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى جامعة ؟ وإذا كان الصرع ترديداً لذكريات مضت تتاب المريض

(١) سورة هود الآية : ٤٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٤

(٣) سورة يوسف الآية : ١٠١ والآية : ١٠٢

(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٥

(٥) سورة آل عمران الآية : ٤٣

(٦) سورة آل عمران الآية : ٤٤

في نوبة من نوباته ، فهل يتفق هذا مع الإنباء بما سيحدث في المستقبل في مثل قوله جل شأنه : ﴿ آلم غلبت الروم ، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ (١) .

وهل يتفق هذا مع الإخبار بما سيقع من مشاهد القيامة من بعث وجزاء وحساب ونعيم وعذاب ؟ أين نوبات الصرع من هذا الوحي الذي نزل به الروح الأمين جبريل ؟ صدقت يا رب العزة إذ تقول وقولك الحق : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفئارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ (٢) .

هذا المشهد القرآني الرائع البديع ، يثبت حقيقة الوحي ثبوتاً لا مرء فيه ، ولا لبس ولا جدال ولا غموض ، وينفى أى ضلال ، أو غواية ، أو زيف أو بهتان . عن المعصوم صاحب الرسالة الطاهرة ، ويثبت أنه قد رأى الأمين جبريل مرتين ، وهو على صورته الملائكية ، يقول في المرة الأولى : ( علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ) .

فهذه أوصاف لأمين الوحي ، وسفير الأنبياء جبريل ، فهو شديد القوى ، شديد البأس ، ينتقم الله به من أعدائه ، فيزلزل الأرض تحت أقدامهم ، فتأخذهم الرجفة ، وإذا هم أعجاز نخل خاوية ، وجبريل ذو مرة أى ذو هيئة جميلة ، وذو قوة متينة ، استوى في الأفق الأعلى بهيئته الملائكية الجليلة ، ولما استقر في الآفاق ، دنا وقرب وتدل هابطاً ، حتى ازداد قرباً من رسول الله ﷺ ، وصارت المسافة بينه وبين الحبيب المصطفى ﷺ أقل من مقدار قوسين ، وأوحى إلى رسول الله ﷺ ما أوحاه الله ، وأمر بتبليغه إياه . هذه كانت المرة الأولى من المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل بهيئته الملائكية .

وكانت المرة الثانية : ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ، وفيها يقول تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ أى : مرة أخرى ﴿ عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ﴾ وذلك في العالم العلوى ،

(١) سورة الروم الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة سورة النجم الآيات : ١ - ١٨



والملائكة ﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ من النور والبهاء والجلال ، كان الرسول ثابت البصر ، ملتزماً بالحدود التي رسمها الله له ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴿إنها آيات الجلال والكمال والعظمة والقدره الباهرة .

وهكذا أثبتت هذه الآيات الكريمة المشهدين اللذين ظهر فيهما كبير أمناء وحى السماء ، وسفير الأنبياء ، فى صورته الملائكية الجليلة .

## لقاء آخر مع جبريل

ونرى من تمام الفائدة أن نسجل هذا المشهد الذى يتم فيه لقاء كريم بين جبريل الأمين ، والسيد الجليل محمد ﷺ وكان ذلك على مرأى ومسمع من عدد من صحابة رسول الله ﷺ وقد دخل جبريل فى صورة بشر ، جميل الهيئة ، بديع الرؤية ، والصحابة حول رسول الله ﷺ يحيطون به إحاطة الكواكب الدرية بصاحب الرسالة ، ومبعوث العناية الإلهية . وها نحن أولاء نستمع إلى الإمام مسلم رضى الله عنه وهو يروى لنا هذا الحديث الجليل القدر ، العظيم الأثر ، الذى وقف الأمين جبريل فيه موقف السائل ، ووقف سيدنا محمد ﷺ موقف الأستاذ الجيب :

عن عبد الله بن عمر قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب ، قال : بينا نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال يا محمد : أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت ملياً ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم .. قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» (١) .

(١) أخرجه مسلم فى ( كتاب الإيمان ) باب : بين الإيمان والإسلام والاحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى ..

هذا نص صريح وحديث صحيح ، يدل دلالة قاطعة على أن الوحي حقيقة ، شهد بها الجمع الغفير الذى رأى الأمين جبريل رؤية لا يعتريها شك ، ولا يطرأ عليها لبس ، رأوه فى أى صورة ؟ فى صورة بشرية جميلة ، عبر عنها عملاق الإسلام عمر بن الخطاب يقول : « طلع علينا » وفى التعبير « بطلع » إشارة إلى أن ذلك الذى رأوه يشبه فى جماله الكواكب النيرة ، كالشمس والقمر ، ثم بعد ذلك وصفه بقوله : « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر » فهذه المواصفات تدل على ثقة الرأى للمرئى رؤية واضحة ، وضوح الشمس فى كبد السماء ، إنها الحقائق الثابتة التى لا يجادل فيها إلا مكابر لم يصل نور الإيمان إلى قلبه ، ولم يشرح للإسلام صدره .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يوحى إليك النور فى ظلماته      متابعا تجلى به الظلماء  
والآى تترى والخوارق حمة      جبريل رواح بها غداء  
دين يشيد آية فى آية      لبناته السورات والأضواء  
الحق هو الأساس وكيف لا      والله جل جلاله البناء

## رؤيا الأنبياء وحى

من الأشياء التى يجب على المؤمن أن يعتقدوها أن رؤيا الأنبياء فى منامهم وحى من الله إليهم ، ولقد ذكر القرآن العظيم نماذج من هذه الرؤيا فيها هو خليل الرحمن إبراهيم يشر بغلام حليم ، ثم يرى فى المنام أنه يذبحه بعد ما بلغ معه السعى ، فيصحه لينفذ أمر الله فيه ، فلو لم تكن الرؤيا وحيا ما عزم إبراهيم على تنفيذ الأمر .

وهذا هو المشهد القرآنى ينطق بالجلال ويفيض بالرحمة .

﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إني أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾ (١) .

نموذج آخر :

ويحدثنا القرآن عن رؤيا رآها سيدنا محمد ﷺ ونفذها ، رأى في المنام أنه يزور بيت الله الحرام معتمراً ، وأعلن ذلك في صفوف أصحابه فخرجوا معه ولبوا ندائه ؟ وطافوا بالبيت الحرام ، وفي هذا يقول تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ . أ . هـ<sup>(١)</sup>  
( من كتابنا : صور من عظمة الاسلام ) .

## بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إحياء ذاتياً من نفس محمد ﷺ

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : في كتابه القيم ( النبأ العظيم ) .

إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب ، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البريء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه .

على أن الأمر أماناً أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولي منه أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه .

أليس يكفي للتحكم ببراءة الإنسان من تحمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادى عن انتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبي الأمي — صلوات الله وسلامه عليه — أهلاً بمقتضى وسائل العلمية لأن يجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية ؟

سيقول الجهلاء من الملحددين : نعم ، فقد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء ، والحسن والقيبح من الأخلاق ، والخير والشر من الأفعال ، حتى لو أن شيئاً في السماء تناله الفراسة أو تلهمه الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة .

طبيعة المعاني القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة .

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله . ولكننا نسأل هل كان ما في القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور ؟ اللهم كلا ، ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقى والعلم . ماذا يقولون فيما قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق ، وما فصله من تلك الأنباء على وجهه الصحيح كما وقع ؟ أيقولن إن التاريخ يمكن وضعه أيضاً بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون : إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الحالية ، وتنقل فيها قروناً فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان ، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها ؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه عليه السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ <sup>(١)</sup> سورة آل عمران ﴿ وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ <sup>(٢)</sup> سورة يوسف ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ <sup>(٣)</sup> الآيات من سورة القصص ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذ لا تارتاب المبطلون ﴾ <sup>(٤)</sup> سورة العنكبوت ، ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ <sup>(٥)</sup> سورة هود ، ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ <sup>(٦)</sup> سورة يوسف . لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجممل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود ، وطوفان نوح ، وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ، فإن هذه التتف اليسيرة قلما تغرب عن أحد من أهل البدو أو الحضار ، لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأفعال ، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة ، والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين . وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً في القرآن . حتى الأرقام طبق الأرقام ، فترى مثلاً في قصة نوح — عليه السلام — في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) سورة آل عمران من الآية : ٤٤

(٢) سورة يوسف من الآية : ١٠٢

(٣) سورة القصص من الآية : ٤٤

(٤) سورة العنكبوت من الآية : ٤٨

(٥) سورة هود من الآية : ٤٩

(٦) سورة يوسف من الآية : ٣

وترى فى قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب إنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية ، وفى القرآن أنهم لبثوا فى كهفهم ﴿ ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا ﴾ وهذه السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . قاله الزجاج يعنى بتكميل الكسر . فانظر إلى هذا الحساب الدقيق فى أمة أمية لا تكتب ولا تحسب

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأديب فى اليتيم

نعم إنها لعجبية حقاً : رجل أمى بين أظهر قوم أميين . يحضر مشاهدهم فى غير الباطل والفجور — ويعيش معيشتهم مشغولاً برزق نفسه وزوجه وأولاده راعياً بالأجر ، أو تاجراً بالأجر ، لا صلة له بالعلم والعلماء ، يقضى فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها ، فيكلمنا بما لا عهد له به فى سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه من قبل ذلك ، ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم فى دفاترهم وقمطرهم . أفى مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أى منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمى نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص فى قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفرى سر آخر يُلمس خارجاً عن حدود النفس ، وعن دائرة المعلومات القديمة ، وأن ملاحظة الجاهلية وهم أحلاف الأعراب فى البادية كانوا فى الجملة أصدق تعليلاً لهذه الظاهرة ، وأقرب فهماً لهذا السر من ملاحظة هذا العصر . إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه استقى هذه الأخبار من وحى نفسه ، بل قالوا : إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ، فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلم ما لم يكن يعلم . ﴿ وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ﴾ <sup>(١)</sup> سورة الأنعام ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تلى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> سورة الفرقان .

ولقد صدقوا ، فإنه درسها ، ولكن على أستاذه الروح الأمين . واكتتبها ، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة كرام برة ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ <sup>(٣)</sup> سورة يونس .

ذلك شأن ما فى القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال فى أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها .

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٥

(٢) سورة الفرقان الآية : ٥

(٣) سورة يونس الآية : ١٦

فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال : إنها من نوع ما يدرك بالعقل ، فيمكن أن ينالها الذكي بالفِرَاسَةِ ، أو بالرؤية . وهذا كلام قد يلوح حقاً في بادئ الأمر ، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختيار .

ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه ، وحدٌ محدود تقف عنده ، ولا تتجاوزه ، فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ولم يكن مركزاً في غريزة النفس إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما في الحدس وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايضة ، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات ، لا يمكن أن تناله يد العاقل بحال ، وإنما سبيله الإلهام أو النقل عنمن جاءه ذلك الإلهام .

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل ؟ ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين . ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد :

« أحدهما » : قسم العقائد الدينية . « والثاني » قسم النبوءات الغيبية .

## الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من عمرات بحثه المستقل فيه ، بعد معاونة الفطرة السليمة له ، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهاً قاهراً دبره ، وأنه لم يخلقه باطلاً ، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة . فلا بد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً . هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين ، ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة ، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته ، ويصف الجنة وأنواع نعيمها ، والنار وألوان عذابها ، كأنهما رأى عين ، حتى أنه ليحصى عدة الأبواب ، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب ، فعلى أى نظرية عقلية بينت تلك المعلومات الحسائية ، وتلك الأوصاف التحديدية ؟ إن ذلك ما لا يوحى به العقل البتة ، بل هو إما باطل فيكون من وحي الخيال والتخمين ، وإما حق ، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين ، لكنه الحق الذى شهدت به الكتب واستيقنه أهلها ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ (١) وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ (٢)

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

(٢) سورة الشورى من الآية : ٥٢

﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾<sup>(٢)</sup>

## أنباء المستقبل لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحي الصادق

### وأما النبوءات الغيبية :

فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل ؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطاً بكل تحفظ وحذر ، قائلاً : « ذلك ما تقضى به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ، ولا يقع ما ليس فى الحساب » .

أما أن بيت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ولا تلوح منه أمانة من الأمارات الظنية العادية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجل مجازف لا يبالي أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو رأى جهلاء المتنبيين من العرافين والمنجمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده ، وتلك هى سنة الأنبياء والمرسلين ، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهما . فأى الرجلين تراه فى صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع فى أعوام ، وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكون أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتفحم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطاً من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ ، بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته فى الأحقاب المتطاولة أن تنقص حرفاً واحداً مما ينبئ به ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) سورة ص الآية : ٦٩

(٢) سورة يونس الآية : ٣٧

(٣) سورة فصلت الآية : ٤١ والآية : ٤٢

## أمثلة من النبوءة القرآنية

ولنسرد لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابستها التاريخية ، لترى هل كانت مقدماتها القرية أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية ؟ وسنحصر الكلام في ثلاثة أنواع :

١ — ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو في شخص كتابه ونبيه .

٢ ، ٣ — ما يتعلق بمستقبل الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان .

( مثال النوع الأول ) ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانه .

﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾<sup>(١)</sup> ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾<sup>(٣)</sup> تعلم متى وأن صدرت هذه البشارات المؤكدة ، بل العهود الوثيقة ؟ .

إنها آيات مكية من سور مكية ، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة ثلاث عشرة سنة كلها إغراض من قومه عن الاستماع لقرآنه ، وصد لغزوهم عن الإصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ، ومحاصرته مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية ، أو علنية على قتله أو نفيه .

فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك الذي طوله ثلاث عشرة سنة ، شعاعاً ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين ، برفع صوتهم وإعلان دعوتهم ؟ ولو شاء المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا في أفق الحوادث ، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو في نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ وهبه امتلاً رجاء بظهور دعوته في

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٤

(٣) سورة الحجر الآية : ٩



حياته مادام يتعهدا بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية ؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين ؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح . وكم من مدينة قامت في التاريخ ثم عفت ودرست آثارها ، وكم من نبي قتل . وكم من كتاب فقد ، أو انتقص أو بدل .

وهل كان محمد ﷺ ممن تستخفه الآمال فيجربى مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيا يوحى إليه ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾<sup>(١)</sup> . ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحي محفوظاً لديه ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك . إن فضله كان عليك كبيراً ﴾<sup>(٢)</sup> . فلا بد إذاً من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه . ومن ذا الذى يملك هذا الضمان على الدهر المنقلب المملوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهر الذى بيده زمام الحوادث كلها ، والذى قدر مبدأها ومنتهائها ، وأحاط علماً بمجرها ومرساها فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما فى الآية الآنفه لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التى أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

### سل التاريخ ؟

كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام ، وتسלט الفجار على المسلمين ، فأثخنوا فيهم القتل ، وأكروهوا أمماً على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياح هذا القرآن كلاً أو بعضاً ، كما فعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه فبقى فى وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه . حافظاً آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام نحو هذا القرآن ، وصدد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان ، والخذاع والإغراء ، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فيسيفقونها ثم تكون حسرة عليهم ثم يغلبون ﴾<sup>(٣)</sup> .

ذلك بأن الذى يمسكه أن يزول هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ذلك بأن الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(٣) سورة سورة الأنفال من الآية : ٣٦

(٤) سورة سورة الصف الآية : ٩

(١) سورة القصص من الآية : ٨٦

(٢) سورة الإسراء الآيتان : ٨٦ ، ٨٧

والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله .

( مثال آخر ) ما جاء في التحدى بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله . ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) . ﴿ فإن لم تفعلوا ﴾ سورة البقرة . فانظر هذا النفي المؤكد ، بل الحكم المؤبد هل يستطيع عربى يدرى ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه ؟ وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية في تعقب قول القائل المتقدم لا يُعيبه أن يجد فيه فائتاً ليستدرك ؟ أو ناقصاً ليكمل ؟ أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدى أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمناقشته وهم جميع حذرون ؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح . والتهديب ، كما كانوا يصنعون في نقد الشعر فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره ، فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، بل على الإنس والجن ؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالىء يديه من تصاريق القضاء ، وخبر السماء ، وهكذا رماها بين أظهر العالم ، فكانت هى القضاء المبرم سلط على العقول والأفواه ، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح ، والفشل الفاضح ، على مر العصور والدهور .

### ( ومثال ثالث )

تلك الآية التى يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ (٢) . إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه . فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ، ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق . روى الترمذى والحاكم عن عائشة ، وروى الطبرانى عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان النبي يُحرس بالليل . فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » (٣) .

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة المائدة من الآية : ٦٧

(٣) أخرجه الترمذى فى ( كتاب أبواب التفسير ) تفسير سورة المائدة . وانظر تحفة الأحوذى : ٨ / ٤١٠ ، ٤١١ .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك : فى ( كتاب التفسير ) ٢٠ / ٣١٣ وانظر تفسير الطبرى الأثر ١٢٢٧٤ : ١٠ / ٤٦٩ وانظر الحديث الذى أخرجه الطبرانى وابن مروان عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كان النبي يُحرس بالليل . فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » (٣) .

وحقاً لقد عصمه الله في مواطن كثيرة ، كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

من ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة ، ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال : « كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها . فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ﷺ : أتخافني ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك مني ؟ قال : الله يمنعني منك . ضع السيف « فوضعه » . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف<sup>(١)</sup> .

ومن أعظم الوقائع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي في غزوة حنين ، منفردا بين الأعداء ، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين ، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب أخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه ، وجعل يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه ، فوالله ما نالوا منه نيلاً ، بل أيده الله بجنده ، وكف عنه أيديهم بيده . الحديث رواه الشيخان عن البراء بن عازب ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع ، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم هم أيضاً<sup>(٢)</sup> .

وهكذا أمتع الله به أمته ، فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾<sup>(٣)</sup> .

( وإليك مثلاً من النوع الثاني ) .

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ويعددهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم

(١) انظر مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٧٨٦ رقم ١٣ / ٨٤٣ فضائل الرسول ﷺ وأخرجه في الدر المنثور في تفسير المأثور تفسير سورة المائدة ج ٣ ص ١١٩ وقال : وأخرجه ابن حبان وابن مروان عن أبي هريرة وذكر الحديث .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ( في كتاب الجهاد والسير ) باب : في غزوة حنين ج ٣ ص ١٣٩٨ - ١٤٠٢ رقم ١٧٧٦ / ٧٨

وأخرجه البخاري ( في غزوات النبي ﷺ ) باب : قول الله تعالى : ويم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ج ٥ ص ١٩٥

(٤) سورة سورة المائدة من الآية : ٣

الغالبون ﴿١﴾ . ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿٢﴾  
فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتنة ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم  
في مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف إلى  
خوف أشد ، وأصبحت كل أمنيته أن ينجى يوم يضعون فيه أسلحتهم ، وفي هذه الأوقات العصيبة  
ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والطمأنينة ، فما هذا ؟ أحلام  
وأمانى ؟ لا ، بل وعد مؤكد بالقسم ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم  
في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ويمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلهم من بعد  
خوفهم أماناً﴾ ﴿٣﴾ .

روى الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم  
الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا :  
أترون أنا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية ﴿٤﴾ .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب  
المشافهة في قوله : ﴿منكم﴾ فبدلوا من بعد خوفهم أماناً لا خوف فيه واستخلفوا في أقطار الأرض  
فورثوا مشارقتها ومغاربها .

وتأمل قوله : في هذه الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ وقوله : في الآية الأخرى ﴿ولينصرن الله  
من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف  
ونهاوا عن المنكر﴾ ﴿٥﴾ تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يتلى به المؤمنون أحياناً من انتقاص  
أرضهم وتسلط أعدائهم عليهم ﴿أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من  
عند أنفسكم﴾ ﴿٦﴾

﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ ﴿٧﴾ .

(١) سورة الصافات الآيات : ١٧١ - ١٧٣ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥١ .

(٣) سورة النور من الآية : ٥٥ .

(٤) الحديث أخرجه الدر المنثور في التفسير المأثور - تفسير سورة النور ج ٧ ص ١١٦ وقال : وأخرجه ابن المنذر والطبراني  
في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة .

(٥) سورة الحج من الآية : ٤٠ ، ٤١ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٦٥ .

(٧) سورة الأنفال من الآية : ٥٣ .

## ومثالاً آخر

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية ، واشترطت عليهم قریش إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها غزلاً من كل سلاح إلا السيوف في القرب . فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القرب ، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ، وينالهم في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة ، الدخول والأمن ، وقضاء الشعيرة ، ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾ (١) . فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشيخان (٢) .

## ( ومثالاً ثالثاً )

كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة يقولون لهم : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية : ﴿ ألم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين ﴾ أول سورة الروم .

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفى من دلائله أنها غزيت في عُقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى : ﴿ في أدنى الأرض ﴾ ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم بعد ذلك قائمة ، فضلاً عن أن يحدد الوقت الذي سيكون لها فيه النصر . ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول : ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ إشارة إلى أن اليوم الذي يكونه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين وإن كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مستبعداً عند الناس

(١) سورة الفتح من الآية : ٢٧

(٢) الحديث أخرجه البخارى ( في كتاب الحج ) باب : الخلق والتقصير ٢١٣/٢ ومسلم باب : تفضيل الخلق على التقصير ،

أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم ؟ لذلك أكد أعظم التأكيد بقوله : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup>.

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، بإجماع المؤرخين في أقل من تسع سنين وكان يوم نصرها هو اليوم الذي وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين في غزوة بدر ، كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وغيره<sup>(٢)</sup>.

وهذه أمثلة من النوع الثالث ( ما يتعلق بحزب الله وحزب الشيطان ) .

استعصى أهل مكة على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فانظر ما قاله القرآن في جوانب هذا الدعاء ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾<sup>(٣)</sup> فماذا جرى ؟ أصابهم القحط حتى أكلوا العظام وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . رواه البخارى عن ابن مسعود<sup>(٤)</sup> ثم انظر قوله : بعد ذلك ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً ، إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾<sup>(٥)</sup> تر فيها ثلاث نبوءات أخرى : كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم الشئ ، ثم الإنتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يستسقون وتضرعوا إلى الله ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾<sup>(٦)</sup> سقامهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وقد تكرر في القرآن المكى إنبأؤهم بهذا الانتقام على صور شتى : فتارة يأتى مجملًا كما في قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد

(١) سورة الروم الآية : ٦

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه وقال صحيح غريب : انظر تحفة الأحوذى تفسير سورة الروم الحديث ٣٢٤٥ : ج ٩ ص ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة الدخان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٤) أخرجه البخارى في تفسير سورة الدخان ج ٦ ص ١٦٤ في قوله : يغشى الناس هذا عذاب أليم .

(٥) سورة الدخان من الآية : ١٥ — ١٦

(٦) سورة الدخان الآية : ١٢

الله ﴿١﴾ سورة الرعد . وقوله : ﴿ فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم ، فسوف يصررون ﴾ (٢)  
وتارة يعين نوعاً من العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما في قوله تعالى : ﴿ سيهزم الجمع ويولون  
الدبر ﴾ (٣) . وهذا كما ترى من عجب الأنبياء في مكة . حيث لا مجال لأصل فكرة  
الحرب والتقاء الجموع ، فضلاً عن توقع قرارها وهزيمتها ، حتى أن عمر — رضى الله عنه — لما نزلت  
هذه الآية جعل يقول : « أى جمع هذا ؟ » قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها .  
رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه . والجزء الأخير في الصحيحين (٤) وتارة ينص على حوادث جزئية محددة  
منه — وهذا أعجب وأعزب — كما في قوله تعالى : في شأن الرجل الزنيم ( والمشهور بأنه هو الوليد  
بن المغيرة ) الذى كان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين ﴿ سنسمه على الخراطوم ﴾ (٥) .  
فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر ، وكان ذلك علامة له يعبر بها ما عاش . رواه الطبرى وغيره (٦)  
وتطير هذه الأنبياء في كفار قريش ما ورد في كفار اليهود . انظر كيف يقول فيهم : ﴿ لن يضرركم  
إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ (٧) . وقد فعل ، ثم يقول :  
﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ (٨) ويقول : ﴿ وإذ تأذن ربك  
ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ (٩)

فيا عجبا لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ؟ أم كانت أغلالاً وضعت في  
أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شدت بها أيديهم فلا فكاك ؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام  
أشتاتاً في كل واد ، أذلاء في كل ناد ، لم تقم لهم في عصر من العصور دولة ، ولم تجمعهم قط بلدة .  
وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية لا يزالون مشردين  
ممرقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دولة كأصغر الدويلات ، بل تراهم في بلاد الغرب المسيحية  
يسامون أنواع الخسف والنكال ، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين . وبلاد الإسلام التي هى أرحب  
أرض الله صدرأ — إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين .

(١) من الآية : ٣١ من سورة الرعد

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧٤ ، ١٧٥

(٣) سورة القمر الآية : ٤٥

(٤) انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة القمر

(٥) سورة ن الآية : ١٦ ج ٧ ص ٤٥٧ وقال : رواه ابن أبى حاتم

(٦) انظر تفسير الطبرى : ج ٢٩ ص ١٨ ، ١٩

(٧) سورة آل عمران الآية : ١١١

(٨) سورة آل عمران من الآية : ١١٢

(٩) سورة الأعراف الآية : ٦٧

وهل أذاك آخر أخبارهم ؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من « الأرض المقدسة » وطناً قومياً تأوى إليه جالياتهم من أقطار الأرض ، حتى إذا ما تألف منهم هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد ، سعوا إلى دفع هذا العار التاريخي عنهم بإعادة ملكهم القديم في تلك البلاد ، وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواج منهم يهاجرون إليها ، وينزلون بها خفافاً أو أثقالاً — فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى — أو لعلها الأولى والأخيرة — مستندين إلى قوتهم الذاتية ؟ كلا . ولكن مستندين إلى ( حبل من الناس !! ) فماذا تقول ؟ قل صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثاً .

أما ظنهم الذى يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان في أرضهم وديارهم يمهدون لما يحملون به من مزاحمتهم بعد في ملكهم وسلطانهم ، فذلك ما دونه خرط القتاد . يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ولا مبدل لكلماته ﴿ أم لهم نصيب من الملك ، فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ <sup>(١)</sup> . والله من ورائهم محيط .

انظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً ، وتتحكم في طبيعة الحوادث توقئاً وتأيداً ، وكيف يكون الدهر مصداقاً لها فيما قل وكثر ، وفيما قرب وبعد ؟

ثم اسأل نفسك بعد ذلك « أترين هذا الرجل الأُمى ( ﷺ ) جاء بهذا الحديث من عند نفسه ؟ » .

تسمع منها جواب البديهة الذى لا تردد فيه « إنه لا بد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق ، ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمره ذكائه وعبقريته ، وإلا فأين هذا الذكى أو العبرى الذى أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضى مهما قَدُم وأنباء المستقبل مهما بعد ؟ .. ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة النساء الآية : ٥٣

(٢) سورة النساء من الآية : ٨٢



## بيان أن محمداً لا بد أن يكون أخذ القرآن عن معلم

لا مناص إذاً للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه فإذا لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن في ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتمسه — وأن يظفر به حتماً — في ناحية تعليمه ودراسته ، لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلاً له أو ناقلاً . ولا ثالث لهما .

نعم إن صاحب القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشأ أمياً وعاش أمياً فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً في قرطاس ولا يخطه يمينه ، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين ، بل بطريق الإملاء والتلقين هذا هو حكم المنطق .

ستقول : فمن هو ذلك المعلم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن .

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشرط الثاني ، وعرفت من هو ذلك المعلم غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، مبلغ عن رب العالمين .

أما أن محمداً ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم « الأمية » الذى يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً ، وكذلك اسم « الجاهلية » الذى كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام . فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم فى أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام هذا التعليم فيه لغيرهم ، بل التعليم لمعلمهم الذى وسمهم بالجهل غير مرة فى كتابه ، وسرد جهالاتهم فى غير سورة من هذا الكتاب ، حتى قيل : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام .

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نخيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث والإسلامى منه والعلمى ، ثم نسأله هل قرأ فيه سطرأ واحداً يقول : إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب لقى قبل إعلان نبوته فلاناً من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين من قصصه عن الأولين والآخرين .

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكثر من هذا التحدى لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان ، فإن كان عندهم علم فليخرجوه إن كانوا صادقين .

لا نقول أنه عليه السلام لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها . فنحن قد نعرف أنه رأى في طفولته راهباً اسمه بحيرا في قسرى بصرى بالشام ، وأنه رأى في مكة نفسها عالماً اسمه ورقة بن نوفل ، وكان هذا على أثر مجيء الوحي العلنى ، وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً . كما نعرف أنه لقي بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى في المدينة ، ولكننا ندعى دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئاً من هذه الأحاديث البتة .

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنذراً ومبشراً . وأما الذين رأهم قبل ، فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سرّاً مستوراً ، بل كان معه في كل مرة شاهد : فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجته خديجة رفيقة له حين رأى ورقة ، فماذا سمعه هذا الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب الذى جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته !! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم في هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى في إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده ، لأنه ليس من الهيئات التى يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد . على أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين : فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما شاهد هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيرة ، وحليتها في الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم . وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبى من صفة الوحي وجد فيها من خصائص الناموس الذى نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ، ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره .

على أننا نعود فنسأل : هل كان من العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك

اليد العلمية ؟

يقول الملحدون أنفسهم : « إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل » وهذه كلمة حق فى حدود معناها الصحيح فنحن نأخذهم باعترافهم ندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التى حفظها القرآن فى مرآته الناصعة مثلاً واضحاً لعلماء عصره . فليقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى فى العقائد والتواريخ والأحكام ، أو ليقرءوا ما شاعوا من السور المدنية أو المكية التى فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأى لسان يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لهم علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات ، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات .

انظر إلى هذه الآيات من سورتي النحل والنمل المكيّتين : كيف جعلتنا من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب ، بل جعلته أول تلك المقاصد حيث بدأت به ، وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين . ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزین لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾<sup>(٢)</sup> .

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر : قل ما اسم هذا المعلم ! ومن ذا الذى رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة « البشرية » تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ، ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا فى الخيال والوهم ، فيقال له : كما قيل لهم : ﴿ قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاھر من القول ﴾<sup>(٣)</sup> .

بل نقول : هل ولد هذا النبى فى المریخ ؟ أو نشأ فى مكان قصى عن العالم فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماماً ؟ ألم يولد فى جحورهم ؟ ألم يكن يمشى بين أظهرهم يصحبهم ويمسيهم ؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم فى حله ورحيله ؟ ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة النمل الآية : ٧٦

(٢) سورة النحل الآيتان : ٦٣ ، ٦٤

(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٣

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦٩

نعم إن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ﴿ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ﴾ سورة النحل ، ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين ، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقى عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا انهم ما كان يعنيتهم أن يكونوا جادين محقين . وإنما كان همهم أن يدرءوا عن أنفسهم سعة السكوت والإفحام بأى صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو باللعب . وما أدراك من هو ذلك البشر الذى قالوا إنه يعلمه ؟

أتحسب أنهم اجتروا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم .

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء في المدينة ، أو في الشام ، أو غيرها فنسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً .  
فمن ذا ، إما لا ... ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان :  
أحدهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا .

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ، ليتمكن أن يقال : إن عنده علم ما لم يعلموا ، وقد التمسوا هذه الأوصاف ، أتدرى أين وجدوها ؟ في حدّاد رومى !! نعم وجدوا في مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير . غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنيّاً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقاً في زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد ، وبالتالي أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً لدراسة الكتب وتمحيص أصلها ... لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً في مطرقته وسندانه ، وأنه كان عامي الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانتى ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته ، أو تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه ، لكن ذلك كله لم يكن يحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين .

وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثّل من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الانسان يتعلم كلامه من البيغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين ﴾ (١) .

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره .

فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انقضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة من قمامات التاريخ ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينشوها ؟ ألا فليربحوا أنفسهم من عناء البحث ، فقد كففتهم قريش مؤونته ، وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل . فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبياناته .

## حيرة المعاندين واضطرابهم في الجدل قديماً وحديثاً

ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم ، وأن أكثرها وروداً في جدلهم هي نسبتهم إلى نفس صاحبه على اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية التي صدر عنها القرآن : أشعر هي ؟ أم جنون ؟ أو أضغاث أحلام ؟ فانظر : كم قلبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن « وفي عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقارير مغمضين على ما فيها من محال ونابٍ ونافر ، ليشيروا بها غباراً من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليلقوا بها أشواكاً من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين .

فإن شئت أن تطلع على هذه الصور المضحكة من البلبلة الجدلية فاقراً وصفها في القرآن ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ﴾ <sup>(١)</sup> سورة الأنبياء فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم ، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بخرج موقفه . كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ؟ وكيف تتفرق به السبل في تصحيح ما يحاوله من محال ؟ ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سيلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> سورة الإسراء وسورة الفرقان .

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٨ والفرقان الآية : ٩

## ظاهرة الوحي وتحليل عوارضها

لا تحسبن أننا في هذه المرحلة الثالثة سنضرب في بيداء تيهاء ، أو أناسيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد . كلا ، فلن نخرج يبحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسير الذى نطلبه ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التى كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى آله .

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التى كانت تبدو على وجهه الكريم فى كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد من ينظر إليه ، فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة ، وأخذته البرحاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، وثقل جسمه حتى يكاد يُرَضُّ فخذه وفخذ الجالس إلى جانبه ، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوى النحل .. ثم لا يلبث أن تُسرَّى عنه تلك الشدة ، فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكرأً مُحدثاً . ( هذه الأوصاف كلها ثابتة فى الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذى وغيرهم ) .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهانأ أقرب مظانه ، ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشد طلاب الحق ضالتهم ، وأين تُلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما إن تُلتمس حيث يظهر ذلك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

فلننظر الآن فى هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية ؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ وإذا كانت أمراً غير اختيارى فهل كان لها فى داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباغته النوم ، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة ، كاختلال القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجى منفصل عن قوى النفس ؟

وإن نظرة واحدة نلقيا على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التى كانت تسمع عن الوجه النبوى الشريف ، وأيضاً لو كانت صناعة وتكلفاً لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتى بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذى اعتاده فى تحضيره ، وقد علمت أنه كثيراً ما التمس فى أشد أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله . ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾ <sup>(١)</sup> فهى إذن حال غير اختيارية .

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الطبيعي الذى يعترى المرء فى وقت حاجته إلى النوم ، فإنها كانت تعروه قائماً أو قاعداً ، وسائراً أو راكباً ، وبكرة أو عشيماً ، وفى أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضى فى لحظات يسيرة ، لا بالتدريج الذى يعرض للوسنان وكانت تصاحبها الأصوات الغريبة التى لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم ، وبالإجمال كانت حالاً تباين حال النائم فى أوضاعها ، وأوقاتها ، وأشكالها ، وجملة مظاهرها . فهى إذاً عارض غير عادى .

ثم نرى المبينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التى تصفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويغيم ظلال الجهل ، لأنها كما علمت مبعث نمو فى قوة البدن ، وإشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجيء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته وتتضاءل الأنوار عند طلعه .

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتقف بنا وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذى كان يبدو حيناً ، ويختفى أحياناً من حيث لا يد لصاحبه فى ظهوره ولا فى اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ إذاً والله لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ، ولكان أحق بأن ينبعث منها فى حال اليقظة العادية ، والروية الفكرية أكثر مما ينبعث منها فى تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشينا هذه السحابة الرقيقة التى قد تشبه السنة أو الإغماء .. فلا بد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نورانى يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن ، فيسمنو بها عن أفق شعرها المحدود ، ويزودها بما شاء الله من العلوم ، ثم يرسلها إلينا محملة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستضاء من ذاته ، وإنما مستضاء من ضياء الشمس ، لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعاً أبداً لاختلاف مواقعها منها قريباً وبعداً ، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوى إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التى يرون آثارها ، وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعة فى رابعة النهار ، ولم يسمعوا أصواتها بآذانهم جرساً مفهوماً ، وكلاماً يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرونه قسماً منها فى الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم ، وإن فى ذلك هدى للمهتدين .

هى إذاً قوة خارجية ، لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حيناً بعد حين ، وهى لا محالة قوة عالمة ، لأنها توحى إليه علماً .

وهى قوة أعلى من قوته ، لأنها تحدث فى نفسه وفى بدنه تلك الآثار العظيمة ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة ﴾<sup>(١)</sup> .

وهى قوة خيرة معصومة ، لأنها لا توحى إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين ، إذ ما للجن وعلم الغيب ، ولقد ﴿ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾<sup>(٢)</sup> ، وما للشياطين وخبر السماء وهى محفوظة من كل شيطان رجيم ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾<sup>(٣)</sup> .

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم ؟

ذلك هو مبلغ العلم فى وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهذى إليه البحث العقلى المستقيم .

فأما الذى يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه ، وإن لم يره ، لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شئ علماً ، فإنهم سيكذبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعله اضطراب فى أعصاب البصر خُيل إليه أنه يرى شيئاً من لا شئ ! وأنت فاستعد بالله من عمى القلوب والعيون وقل : كلا ، ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾<sup>(٤)</sup> . أو يقولون : لعله اضطراب فى قوى الفكر صوّر له المعانى أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ! فابراً إلى الله من هذا الجنون ، وقل : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ .

## استثناس بما كشفه العلم فى العصور الحاضرة

ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله فى عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم ، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التى تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

(١) سورة النجم الآية : ٥ . ومن الآية : ٦

(٢) سورة سبأ من الآية : ١٤

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢١٠ — ٢١٢

(٤) سورة النجم الآية : ١٧ .



وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف « التليفون » فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق ، والآخر في أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءان ، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئاً ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوى النحل الذى فى صفة الوحي .  
فإن كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحي تمثيلاً ، وتريهم عن طريق التجارب — التى لا يؤمنون إلا بها — إن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة ، وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة فى العقل ولا فى الحس قبل ذلك ، فهذا قد أراهم الله تلك الآية العجيبة فى « أعجوبة التنويم المغناطيسى » فقد أصبح الرجل القوى الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر .

وهناك يكون رهين إشارته ، وتنمحي إرادته من إرادته فلو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقى نسياً منسياً ، ولبقى هذا الاسم المصنوع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله . فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مثل حامل الوحي ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشر مطواع ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرأها إياه ، فلا ينس إلا ما شاء يئد أن بُعداً شاسعاً بين هذا الوحي النبوى ، ووحى الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم فى نفس متلقية أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فأين هذا من الوحي بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ، ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملائكى فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير ، وأما الرسول البشرى فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد ، كامل العقل ، قوى النفس والبدن ، ﴿ الله يعلم حيث يجعل رسالته ﴾<sup>(١)</sup> . أهـ .

قوله تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم ﴾<sup>(٢)</sup> أى : الجميع عبيد له ، وملك له ، تحت قهره وسلطانه وتصريفه ، ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الكبير المتعال ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ وهو العلى الكبير ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله جل فى علاه : ﴿ قلله الحمد رب السموات ورب

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٤

(٢) سورة الشورى الآية : ٤

(٣) سورة الزعد الآية : ٩

(٤) سورة سبأ الآية : ٢٣

الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿١﴾ وكقوله سبحانه : ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ (٢).

وقوله : — عز وجل — ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ (٣) قال ابن عباس — رضى الله عنهما — وقتادة والسدى : أى فرقاً من العظمة .

وعن أبى ذر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « إني أرى ما لا ترون ، أطلت السماء وحق لها أن تظط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذثتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » رواه الترمذى (٤) .

قوله تعالى : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ (٥) هو كقوله تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٦) .

قوله تعالى : ﴿ ألا ان الله هو الغفور الرحيم ﴾ ألا هنا أداة استفتاح وما بعدها تقرير وتثبيت لمغفرته ورحمته فهو عظيم المغفرة ، كثير الرحمة قال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٧) ، وقال عز من قائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ (٨) كان أحد الصالحين يقول فى دعائه ومناجاته لربه : « يارب ان لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾ وأنا شيء فلتسعنى رحمتك » .

(١) سورة الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة سبأ الآية : ١

(٣) سورة الشورى من الآية : ٥

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ( فى كتاب الزهد ) باب : لو تعلمون ما أعلم ج ٤ ص ٥٥٦ رقم ٢٣١٢ وقال : حديث حسن

غريب .

(٧) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٩) من الآية : ٥ من سورة الشورى

(٨) سورة الأعراف من الآية : ١٥٦

(٦) سورة غافر الآيات : ٧ — ٩

سبحانك ربى :

والبر والبحر فيض من عطاياه  
والطير سبحه والوحش مجده  
والنمل تحت الصخور الصم قدسه  
والناس يعصونه جهراً فيسترهم  
والعبد ينسى وربى ليس ينساه

يا إلهى :

فعلنا خطايانا وسترنا سابل  
إذا نحن لم نخطيء وتعفو تكرما  
وليس لشيء أنت ساتره كشف  
فمن غيرنا يهفو ومن غيرك يعفو

إلهى :

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا  
تغفو الملوكة عن النزىل بساحتهم  
يا من إذا وقف المسىء ببابه  
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى  
يا من يجب العبد قبل سؤاله  
وإذا أتاه الطالبون لعفوه  
وعلى الكرىم كرامة الضيفان  
كيف النزول بساحة الرحمن  
ستر القبيح وجاد بالإحسان  
تغفو وتصفح للعبىد الجانى  
ويجود للعاصىن بالغفران  
ستر القبيح وجاد بالإحسان

يا أخوا الإسلام

قف بالخشوع وناجى ربك يا أئخى  
أطلب بطاعته رضاه فإنه  
هو أول ، هو آخر هو ظاهر  
فهو القربى يجب من ناداه  
بالجود يعطى السائلين رضاه  
هو باطن ليس العيون تراه

قال ﷺ :

« يا أيها الناس توبوا إلى الله وأستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم الواحد مائة مرة » رواه مسلم<sup>(١)</sup> .

وقال ﷺ :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك اخطأ من شدة الفرح » رواه مسلم<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب : استحباب الاستغفار والاستكثار فيه ج

٤ ص ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ رقم ٢٧٠٢/٤٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب التوبة ) باب : فى الحظ على التوبة والفرح بها ج ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٢٧٤٧/٧

وعن أنى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها <sup>(١)</sup> رواه مسلم .

« وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : « إن الله — عز وجل — يقبل توبة العبد ما لم يغفر » <sup>(٢)</sup> « ما لم يغفر : أى تصل روحه حلقومه ، من الغرغرة » وهى فعل الشرب في الفم ، ثم يديره إلى أصل حلقومه فلا يبلعه ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ <sup>(٣)</sup> وفسر ابن عباس حضوره بمعاينة ملك الموت . <sup>(٤)</sup> »

وعن أنى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن نبي الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا » فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله — تعالى — فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله — تعالى — ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمى فجعلوه بينهم : أى : حكماً فقال : قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيتها كان أدنى فهو له ، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبطته ملائكة الرحمة « متفق عليه . »

وفى رواية فى الصحيح : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى . وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشير فغفر له . »

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب التوبة ) باب : قبول التوبة من الذنب .. ج ٤ ص ٢١١٣ رقم ٢٧٥٩/٣١  
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده — مسند ابن عمر ج ٢ ص ١٥٣ وأخرجه الترمذى فى الدعوات وابن ماجه الزهد والحاكم فى المستدرک وقال الترمذى حسن غريب  
(٣) سورة النساء من الآية : ١٨  
(٤) الحديث أخرجه مسلم ( فى كتاب التوبة ) باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله وأخرجه البخارى فى ( كتاب الأنبياء ) باب : حدثنا أبو إيمان فى كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٦٠ ص ٧٥٢

وعن عمر بن الحصين — رضى الله عنهما — إن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حُبلى من الزنى فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علىّ ، فدعا نبي الله ﷺ ولها فقال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فأنتى بها ، ففعل ، فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ فقال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جاهدت بنفسها الله عز وجل «<sup>(١)</sup>» رواه مسلم .

وعن ابن عباس وأنس بن مالك — رضى الله عنهم — أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ جوفه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »<sup>(٢)</sup> متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾<sup>(٣)</sup> أى : والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأوثان يعبدونها — الله هو المراقب لأعمالهم ، المحصى لأفعالهم وأقوالهم ، المجازى لهم يوم القيامة على ما كانوا يعملون ، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم ، إنما أنت نذير تبليغهم ما أرسلت به إليهم ، ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾<sup>(٤)</sup> فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك لست بمدرِك ما تريد من هدايتهم إلا إذا شاء ربك .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، ولو شاء الله لجمعهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير ﴾<sup>(٥)</sup> .

يقول تعالى : ﴿ وأوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴾ ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أى : واضحاً جلياً بيناً ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ وهى مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ﴾<sup>(٦)</sup>

(٢) أخرجه مسلم فى ( كتاب الحدود ) باب : من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢٤ رقم ١٦٩٦/٢٤  
 (٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٢ وقال : أخرجه مسلم فى ( كتاب الزكاة ) باب : لو أن لابن آدم واديين لا يتغنى ثالثاً . وأخرجه البخارى ( فى كتاب الرقاق ) باب : ما يتقى من فتنه المال .  
 (٤) سورة الشورى الآية : ٦  
 (٥) سورة الشورى الآيات : ٧ ، ٨  
 (٦) سورة الأنعام الآية : ٩٢  
 (١) سورة الشورى من الآية : ٤٨

الآية . وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إليّ ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » وهكذا رواه الترمذى وقال الترمذى حسن صحيح <sup>(١)</sup> .

وقوله عز وجل : ﴿ وتنبذ يوم الجمع لا ريب فيه ﴾ أى : لا شك في وقوعه وأنه كائن لا محالة كقوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله — جل وعلا — : ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ <sup>(٣)</sup> أى : إنهم بعد جمعهم وعرضهم للحساب يفرقون ، فريق منهم يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وبما أحسن من عمل في دنياه استحق به الكرامة عند ربه ، والنعيم المقيم في جنته ، وفريق منهم في نار الله الموقدة المسفورة على أهلها ، وهم الذين كفروا بالله ورسله واتخذوا من دونه أولياء .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما تؤخروه إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها شهيق وزفير خالدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدون فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ <sup>(٤)</sup>

وكقوله تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون ﴾ <sup>(٥)</sup>

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما كان يناله من الغم والهـم بتولى قومه عنه وعدم استجابة دعوته ، وأعلمه أن أمور عباده بيده ، وأنه الهادى إلى الحق من يشاء ، والمفضل من أراد فقال تعالى :

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير ﴾ <sup>(٦)</sup> أى : لو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكن حكمته اقتضت

(١) أخرجه أحمد في مسنده — عن حديث عبد الله بن عدى .. ج ٤ ص ٣٠٥ وأخرجه الترمذى في ( أبواب المناخب ) باب : فضل مكة ج ٥ ص ٣٨٠ رقم ٤٠١٧  
(٢) سورة هود الآيات : ١٠٣ — ١٠٨  
(٣) سورة سبأ الآية : ٤٦  
(٤) سورة الروم الآيات : ١٤ — ١٦  
(٥) سورة الشورى الآية : ٧  
(٦) سورة الشورى الآية : ٨

أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب ، وبعضهم كفاراً وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار ، يدخل فيه المرء بمحض الرضا والتأمل في الأدلة الموصلة إلى الهدى ، وبذلك يتم الفوز والسعادة في الدارين ، وينفلت منه من دس نفسه بأدران الشرك ، وركب رأسه وأطاع هواه فكان من الخاسرين ، ولو شاء سبحانه لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء ، فكان الناس جميعاً أمة واحدة ، ولكن له الحجة البالغة ، والمثل الأعلى ، لم يشأ ذلك ، فلا تأس على عدم إيمان قومك ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وقد جاء هذا المعنى في غير آية سلف كثير منها كقوله تعالى : ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ (١) وكقوله : ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ (٣) .

وكقوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء في رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيى الموتى وهو على كل شيء قدير ، وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ﴾ (٥) .

يقول تعالى : منكرأ على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ونخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شيء قدير كقوله تعالى : ﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ (٦) .

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٥

(٢) سورة السجدة من الآية : ١٣

(٣) سورة هود الآيات : ١١٨ ، ١١٩

(٤) سورة الإنسان الآيات : ٣٠ ، ٣١

(٥) سورة الشورى الآيات : ٩ — ١٢

(٦) سورة السجدة الآيات : ٤ — ٩

ثم قال عز وجل : ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ <sup>(١)</sup> أى مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام في جميع الأشياء ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أى : هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ <sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية وكقوله سبحانه : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ <sup>(٤)</sup> الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ <sup>(٥)</sup> أى : ذلكم الموصوف بهذه الكلمات الصفات ، من الإحياء والإماتة ، والحكم بين المختلفين هو ربي وحده ، لا آهتكم التي تدعون من دونه ، ﴿ عليه توكلت ﴾ في دفع كيد الأعداء وفي جميع شئونى ﴿ وإليه أنيب ﴾ وإليه أرجع في كل شيء .

وكان ﷺ حينما يستفتح الصلاة يقول أحياناً هذا الدعاء : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله » ( البخارى ومسلم وأبو داود وأبو عوانه ) <sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يدرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ <sup>(٧)</sup> ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أى : خالقهما

(١) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٢) سورة النساء الآية : ٥٩

(٣) سورة المائدة الآية : ٤٨

(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩

(٥) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٦) أخرجه البخارى في ( كتاب التوحيد ) باب : قول الله أنا الرازق ج ٩ ص ١٤٣ .

وأخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب صلاة المسافرين ) باب : الدعاء في صلاة الليل وقيامه ج ١ ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ رقم ٧٦٩/١١٩

(٧) سورة الشورى آية ١١ .



ومبدعهما لا على مثال سابق ، فهو الجدير بأن يعتمد عليه ، ويستعان به ، لأنه خالق العوالم جميعها ، علويها وسفليها ، على عظمتها التي ترونها ، لا آهتكم التي لا تستطيع أن تخلق شيئاً .

ثم يبين سبحانه بعض ما خلقه وأنعم به فقال جل وعلا : ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ﴾ أى : ومن حكمته لبقاء العمران في هذه الحياة إلى الأجل الذى حدده فى علمه — أن خلق لكم من جنسكم زوجات ، لتتوالدا ، ويكثر النسل ويستمر بقاء هذا النوع كقوله سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أى : وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج وقوله تعالى : ﴿ يذروكم فيه ﴾ أى : يخلقكم فيه أى : فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذروكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ونسلأ بعد نسل من الناس والأنعام .

وقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أى : ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له ﴿ وهو السميع البصير ﴾ لا كسمع ولا بصر أحد من الورى ، القائل لموسى وهارون ﴿ إنى معكما أسمع وأرى ﴾<sup>(٣)</sup> فمن نفى عن الله ما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذباً وقد خاب من افترى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ أى : له تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض ، فبيده مقاليد الخير والشر ، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك منها فلا مرسل له من بعده وقد بين هذا بقوله تعالى : ﴿ يسط الرزق لمن يشاء ﴾<sup>(٥)</sup> أى : يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويقرر على من يريد ، ثم ذكر سبب هذا فقال سبحانه : ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن ربك يسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾<sup>(٦)</sup> .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٠٣

(٥) سورة سبأ من الآية : ٣٦

(٦) سورة الإسراء الآية : ٣٠

(١) سورة الروم الآية : ١١

(٢) سورة النحل من الآية : ٧٢

(٣) سورة طه من الآية : ٤٦

## الأنبياء دعوتهم واحدة

قال تعالى :

\* شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لَهُمْ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَنَنْشِكُ مِنْهُ مِرْيَبَ ﴿١٤﴾ فَلَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا جُحَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ جَحْتُهُمْ دَاخِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ

الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ  
الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن  
يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى  
اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَبِمَحْ أَلَّهِ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ يَكَلِّمُنِي بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ  
بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ  
﴿٢٦﴾ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ  
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٧﴾

### معاني المفردات

﴿ أقيموا الدين ﴾ : أى : حافظوا عليه والمراد بالدين : دين الإسلام ، وهو توحيد الله وطاعته  
والإيمان برسله واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً .

﴿ ولا تفرقوا فيه ﴾ : أى : لا تختلفوا فيه ، ﴿ كبر ﴾ : أى عظم وشق عليهم ، ﴿ يجيب ﴾ :  
أى يصطفى ، ﴿ ينيب ﴾ : أى يرجع ﴿ البغي ﴾ : الظلم ومجاوزة الحد فى كل شيء ﴿ لقضى  
بينهم ﴾ : أى باستئصال المبطلين حين تفرقوا ، ﴿ ادع ﴾ : أى إلى الائتلاف والاتفاق ،  
﴿ واستقم ﴾ : أى اثبت على الدعاء كما أوحى إليك ، ﴿ آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ : أى صدقت  
بجميع الكتب المنزلة ، ﴿ لا حجة ﴾ : أى لا احتجاج ولا خصومة ، ﴿ يحاجون فى الله ﴾ : أى  
يخاصمون فى دينه ، ﴿ استجيب له ﴾ : أى استجاب الناس لدينه ودخلوا فيه لوضوح حجته ،  
﴿ داحضة ﴾ : أى زائفة باطلة ، ﴿ الميزان ﴾ : أى العدل بين الناس ، ﴿ يدريك ﴾ : يعلمك  
﴿ الساعة ﴾ : القيامة ، ﴿ مشفقون ﴾ : خائفون منها حذرون من مجيئها ، ﴿ الحق ﴾ : أى الأمر  
الحق الكائن لا محالة ، ﴿ يمارون ﴾ : أى يجادلون ، ﴿ لطيف بعباده ﴾ : أى هو يرهم فيفيض عليهم  
من جوده وإحسانه ، ﴿ حرث الآخرة ﴾ : ثمرات أعمالها تشبيهاً لها بالغلة الحاصلة من البذور ،

﴿ حرث الدنيا ﴾ : لذاتها وطياتها ، ﴿ شركاء ﴾ : أى فى الكفر وهم الشياطين ، ﴿ شرعوا لهم ﴾ : أى زينوا لهم ، ﴿ ما لم يأذن به الله ﴾ : أى كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب ، ﴿ كلمة الفصل ﴾ : هى القضاء والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة ، ﴿ روضات الجنات ﴾ : الروضة : مستنقع الماء والخضرة ، وروضات الجنات : أطيب بقاعها وأنزهها ، ﴿ القرى ﴾ : التقرب ، ﴿ يقترب ﴾ : أى يكتسب ، ﴿ يختم على قلبك ﴾ : أى يجعل قلبك من المختوم عليهم حتى تجترى على الاقتراء ، ﴿ يحو ﴾ : أى يزيل ، ﴿ يحق ﴾ : يثبت ، ﴿ كلماته ﴾ : هى حججه وأدلته ، ﴿ يستجيب الذين آمنوا ﴾ : أى يقبل دعاءهم .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عظم وحيه إلى رسوله ﷺ وأبان ماله من كبير الخطر حين نسبه إليه تعالى ، وأنه صادر من عزيز حكيم لا يوحى إلا بما فيه مصلحة البشر ومنفعتهم فى دينهم ودنياهم — ذكر هنا تفصيل هذا الوحي ، وأرشد إلى أنه هو الدين الذى وصى به أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، وأردف ذلك أن المشركين يشق عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان ، وأن الله يهدى من يشاء من عباده هدى دينه ، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغى والعدوان والحسد ، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله بإنذار المشركين باقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد ، ثم أمر رسوله بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها ، والدعوة إليها ، وألا يتبع أهواءهم الباطلة ، ثم أمر بالإيمان بجميع الكتب السماوية ، وبالعديل بين الناس ، ثم أردف ذلك ببيان أن إلههم جميعاً واحد ، وأن كل امرئ مسئول عن عمله ، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم ، ثم بين سبحانه : أن الذين يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا فيه أفواجا ، حجتهم فى الصرف عنه زائفة لا ينبغى النظر إليها ، وعليهم غضب من ربهم لمكابرتهم للحق بعد ظهوره ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة ، ثم أردف ذلك تخويفهم بيوم القيامة حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل ، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء وإنكاراً لوجوده ، والمؤمنون خائفون منه ، لعلمهم بالجزاء حيثئذ ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة فى الساعة ضلال بين لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة .

ثم بين سبحانه : أن من يعمل للآخرة ويرجو ثوابها يضاعف له فيها الجزاء ، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها يؤته ما يريد ، وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها ، ثم أعقب هذا بذكر ما وسوست

به الشياطين للمشركين ، وزينت لهم به من الشرك بالله وإنكار البعث إلى نحو ذلك ، ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك ، لكنه أجله لما سبق من علمه من أنظارهم إلى يوم معلوم ، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة .

ثم أعقب هذا بأن أمر رسوله أن يقول لهم : إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصر أمراً ، وإنما يطلب منهم التقرب إلى الله بحسن طاعته ، ثم رد عليهم قولهم « إن القرآن مفترى » بأنه لا يفترى الكذب على الله إلا من كان غتوماً على قلبه ، ومن سنن الله إبطال الباطل ، ونصرة الحق ، فلو كان محمد كذاباً مفترياً لفضحه وكشف باطله ، ولكن أبده بالنصر والقوة ، ثم ندبهم إلى التوبة ووعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا دعوه ، ويزيدهم من نعمه ، وأوعد الكافرين بشديد العقاب جزاء وفا .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ : أى شرع لكم من الدين ما شرع لنوح ومن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل ، وأمرهم به أمراً مؤكداً ، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لعلو شأنهم وعظيم شهرتهم ، ولاستالة الكفار إلى اتباعهم لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم ، واختصاص اليهود بموسى — عليه السلام — ، والنصارى بعيسى — عليه السلام — وإلا فكل نبي مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد ، وأصول الشرائع والأحكام ، مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات .

والإسلام دين المرسلين والنبیین معاً ، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله الرسالات .

فذكر سبحانه على لسان نوح قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾<sup>(١)</sup> وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾<sup>(٢)</sup> إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾<sup>(٣)</sup> وفي وصية يعقوب لأولاده ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾<sup>(٤)</sup> وذكر سبحانه عن موسى أنه قال لقومه : ﴿ فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾<sup>(٥)</sup> وعن سحرة فرعون الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة موسى قالوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾<sup>(٦)</sup> وفي معرض الحديث عن التوراة يقول سبحانه : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾<sup>(٧)</sup> وعن حوارى عيسى ابن مريم أنهم قالوا : ﴿ آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾<sup>(٨)</sup> وقد ورد في الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان البخارى ومسلم « الأنبياء أخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد »<sup>(٩)</sup> . وقال الله تعالى يجمل هذا كله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه ﴾ .

يقول الشيخ محمد الغزالي : فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محلية محدودة الزمان والمكان تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من المكان لا تتعدها يستوى في ذلك المرسلون كلهم بدءاً من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام كلا منهم كان موضوعياً محدود الزمان والمكان .

يقول الله في رسالة نوح : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه إن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ﴾<sup>(١٠)</sup> ويقول في شأن عيسى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل أنى رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد ﴾<sup>(١١)</sup> الآية .

(١) سورة يونس من الآية : ٧٢

وفي سورة النمل من الآية : ٩١

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٢٨

(٣) سورة البقرة الآيات : ١٣١ ، ١٣٢

(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٣

(٥) سورة يونس من الآية : ٨٤

(٦) سورة الأعراف الآية : ١٢٦

(٧) سورة المائدة من الآية : ٤٤

(٨) سورة آل عمران من الآية : ٥٢

(٩) أخرجه البخارى ( في كتاب بدء الوحي ) باب : وأذكر في الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٣

وأخرجه مسلم في صحيحه في ( كتاب الفضائل ) باب : فضائل عيسى عليه السلام — ج ٤ ص ١٨٣٧ رقم ٢٣٦٥/١٤٥

(١٠) سورة نوح الآية : ١

(١١) سورة الصف من الآية : ٦

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسائل السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة طولاً ، استغرقت الزمن كله ، عرضاً ، استغرقت البشر جميعاً على كل شبر من القارات الخمس ، عمقاً تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادئ المنيرة التي توجه الناس إلى الصالح في معاشهم ومعادهم على السواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة ، لا معقب عليها ، وأصبح نبيا مسك الختام ، فلا وحى بعد ذلك ، ولن يجيء من عند الله هدى جديد يحمله بشر آخر .

اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم مع النبي الخاتم — عليه الصلاة والسلام — ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت بمعنى : أن العقائد الركنية فيه هو ما بُعث به المرسلون السابقون ، أما الشرائع المنظمة فلها أطوار أخرى شرحها القرآن وفصيلتها السنن ، فإن الإسلام بوضعه الجديد يعتبر دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شيء له قيمة ﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تصرفون ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ، قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأنبياء وما أتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ : أى اجعلوا هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص لله قائماً دائماً مستمراً ، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب ، ولا تتفرقوا فيه ، بأن تأتوا ببعض وتتركوا بعضاً والنهى إنما هو عن التفرق في أصول الشرائع ، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ : أى شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، ثم قال جل جلاله : ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾<sup>(٥)</sup> : أى هو سبحانه الذى يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على

(١) سورة يونس الآية : ٣٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٩

(٣) سورة آل عمران الآيات : ٨٣ — ٨٥

(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٨

(٥) سورة الشورى الآية : ١٣

طريق الرشd ولهذا قال تعالى : ﴿ وما تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ أى إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة ثم قال عز وجل : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ : أى لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة فى الدنيا سريعاً . ثم ذكر سبحانه أن تفرقهم فى الدين باق فى أعقابهم مضافاً إليه الشك من كتابهم مع انتسابهم إليه فقال تعالى : ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ﴾ : أى وإن أهل الكتاب الذين كانوا على عهده ﷺ ورثوا التوراة والإنجيل من السابقين لهم فى شك من كتابهم إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان ، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك أقض مضاجعهم ، وأوقعهم فى اضطراب وقلق .

وقصارى القول — أنهم تفرقوا بعد العلم الذى حصل من النبى المبعوث إليهم المصدق لكتابهم ، لأنهم شكوا فى كتابكم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهى .

قوله تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير :

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلة كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي فإنها أيضا عشر فصول كهذه الآية الكريمة .

وقوله عز وجل : ﴿ فلذلك فادع ﴾ : أى فالذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم فادع الناس إليه .

وقوله عز وجل : ﴿ واستقم كما أمرت ﴾ : أى واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله — تعالى — كما أمركم الله — عز وجل — ومثل الآية قوله سبحانه : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير ﴾ <sup>(١)</sup> .



وقوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ كقوله — عز وجل — : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَلَاحِقَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ هَادٍ لِّلْبَشَرِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله — عز وجل — ﴿ وَقُلْ آمَنَّا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ ﴾ : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء كما فى الآية الأخرى ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُم ﴾ : أى فى الحكم كما أمرنى الله — عز وجل — ﴿ وَأَنْ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ : أى هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً أو أنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من فى العالمين طوعاً وإجباراً .

وقوله تعالى : ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ : أى نحن براء منكم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(٦)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ : قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى وذلك قبل نزول آية السيف ، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة وقال الشيخ المراعى : أى لا خصومة بيننا ولا احتجاج ، فإن الحق قد وضح ، وليس للمحاجة مجال ، فما المخالف إلا معاند أو مكابر ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح سبيل الرشاد ، وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾ : أى يوم القيامة كقوله سبحانه : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ <sup>(٧)</sup> .

(٥) سورة المائدة من الآية : ٤٢

(٦) سورة يونس الآية : ٤١

(٧) سورة سبأ الآية : ٢٦

(١) سورة الحانية آية ١٨ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(٣) سورة آل عمران الآية : ٨٤

(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩

وقوله عز وجل ﴿ وإليه المصير ﴾ : أى المرجع والمآب يوم الحساب .

وقوله عز وجل : ﴿ والذين يحتاجون فى الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾ .

يقول تعالى : متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ والذين يحتاجون فى الله من بعد ما استجيب له ﴾ : أى يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿ حاجتهم داحضة عند ربهم ﴾ : أى باطلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ : أى منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ : أى يوم القيامة .

قال ابن عباس — رضى الله عنه — ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى ، وطمعوا أن تعود الجاهلية ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل كيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا فى ذلك . يقول الله — عز وجل — : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بل من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٢) وكقوله سبحانه : ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطفوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ (٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها وترهيد فى الدنيا . وقوله — عز وجل — ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ : أى يقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكديماً واستبعاداً وكفراً وعناداً . ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ : أى خائفون وجلون من وقوعها ، كما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ أمن هو

(١) سورة البقرة الآيات : ١١١ ، ١١٢

(٢) سورة الحديد من الآية : ٢٥

(٣) سورة الرحمن الآيات : ٧ — ٩

قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴿٤﴾ .

وقوله — عز وجل — : ﴿٤﴾ ويعلمون أنها الحق ﴿٥﴾ : أى كائنة لا محالة منهم مستعدون لها عاملون من أجلها كما أخبر سبحانه عنهم ﴿٦﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴿٧﴾ . وبين حالهم أيضاً في قوله تعالى : ﴿٨﴾ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ، إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿٩﴾ وفى قوله تعالى ﴿١٠﴾ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴿١١﴾ وفى قوله تعالى : ﴿١٢﴾ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴿١٣﴾ .

وفى سنن أبى داود عن حفصة — رضى الله عنها — أن النبى ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات ، قال الترمذى حديث حسن (٥) .

وقوله تعالى : ﴿١٤﴾ ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال مبين ﴿١٥﴾ : أى يجادلون فى وجودها ويدفعون وقوعها ﴿١٦﴾ لفى ضلال مبين ﴿١٧﴾ : أى فى جهل بين لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأخرى كما قال تعالى : ﴿١٨﴾ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴿١٩﴾ وكقوله تعالى : ﴿٢٠﴾ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٢١﴾ .

(١) - سورة آل عمران الآيات : ١٩١ — ١٩٣

(٢) - سورة الفرقان الآيات : ٦٤ — ٦٦

(٣) - سورة السجدة الآية : ١٦

(٤) - سورة المؤمنون الآية : ٦٠

(٥) - أخرجه الترمذى فى ( كتاب الدعوات ) باب : ما جاء فى الدعاء إذا أوى إلى الفراش ج ٥ ص ٤٧١ رقم ٣٣٩٨ ، ٣٣٩٩ .

(٦) - سورة القيامة الآيات : ٣٦ — ٤٠

(٧) - سورة الروم الآية : ٢٧

قوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم سواء في رزقه البر والفاجر ، كقوله — عز وجل — : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقوله — عز وجل — : ﴿ يرزق من يشاء ﴾ : أى يوسع على من يشاء . ﴿ وهو القوى العزيز ﴾ : أى لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده .

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ : أى عمل الآخرة . ﴿ نزد له في حرثه ﴾ : أى تقويه ونعينه على ما هو بصدد ، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله . ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ : أى ومن كان سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له في الآخرة هم البتة بالكلية ، حرمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا : مقيدة بالآية التي في « الإسراء » وهى قوله تبارك اسمه ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة هود الآية : ٦

(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٠

(٣) سورة فاطر الآية : ٣

(٤) سورة الإسراء الآيات : ١٨ — ٢١

عن أبى كبشة الأثمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله ينفق في حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً وهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه بمثل الذى يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما في الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخط في ماله ينفق في غير حقه ، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله ﷺ : فهما في الوزر سواء »<sup>(١)</sup> أخرجه الترمذى في أثناء حديث وصححه وأحمد وابن ماجة واللفظ له .

وقال الثورى عن معمر عن أبى العالية عن أبى بن كعب — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب » ( ذكره ابن كثير في التفسير )<sup>(٢)</sup> .

وقوله — عز وجل — : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴾ : أى هم ما ابتغوا ما شرع الله من الدين القويم ، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة والسائبة والوصيلة ، وحلّلوا لهم أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو أولئك من الضلالات والجهالات التى كانوا قد اخترعوها في الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ هُمْ شُهَدَاءُ كَمُ الَّذِينَ يُشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا ، فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

قصارى ذلك — أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصى والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا .

ثم بين أنه رحمة بعباده أخر عذاب المشركين ليوم معلوم ، ولم يعجله لهم فقال سبحانه : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ : أى ولولا القضاء السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لعوجلوا بالعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : أى وإن الظالمين أنفسهم بشرع ما لم يأذن به الله مما ابتدعوه من التحليل والتحريم — لهم عذاب شديد الإيلام في جهنم وبئس المصير .

(١) انظر سنن الترمذى : ( كتاب الزهد ) باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر رقم ٢٣٢٥ ج ٤ ص ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد — حديث أبى بن كعب ج ٥ ص ١٣٤ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٠ .

ثم ذكر سبحانه : أحوال أهل العقاب وأهل الثواب يوم القيامة مبتدئاً بالأولين فقال سبحانه : ﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ﴾ : أى ترى الظالمين خائفين أشد الخوف مما كسبوا من السيئات ، وهو واقع بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ، كقوله تعالى : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .. هذا حالهم يوم القيامة وهم فى هذا الخوف والوجل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ : فأين هذا من هذا ؟ أى : أين من هو فى العرصات من الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو فى روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشرب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟

عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله — عز وجل — يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً <sup>(٢)</sup> متفق عليه .

وعن صهيب — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله — تبارك وتعالى — : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم <sup>(٣)</sup> » وإياه مسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك هو الفوز الكبير ﴾ : أى الفوز العظيم والنعمة التامة السابقة الشاملة العامة ..

قوله تعالى : ﴿ ذلك الذى ييشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، أم يقولون

(١) سورة الشورى من الآية : ٤٥ .

(٢) أخرجه صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ١٨٠٢ وقال : أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق — باب : صفة الجنة والنار .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الإيمان ) باب : اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه ج ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١/٢٩٧ .

اخرى على الله كذباً ، فإن يشأ الله يعلم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور .

يقول تعالى : لما ذكر روضات الجنات ، لعياده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذى ييشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ : أى هذا حاصل لهم كائن لا محالة بيشارة الله — تعالى — لهم به .

وقوله — عزل وجل — : ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾ : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شرككم عفى ، وتذرونى أبلغ رسالات ربى إن لم تنصرونى ، فلا تؤذون بما بينى وبينكم من القرابة .

قال البخارى : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه سئل عن قوله تعالى : ﴿ إلا المودة فى القربى ﴾ ؟ فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد فقال ابن عباس : / علمت إن النبى — صلى الله وآله وسلم — لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى : وأن تقرّبوا إليه بطاعته »<sup>(١)</sup> وهكذا روى قتادة : عن الحسن البصرى مثله ، قال ابن كثير : وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول : إلا المودة فى القربى : أى إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقرّبكم عند الله زلفى .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يقترب حسنة نزد له فيها حسناً ﴾ : أى ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسناً : أى أجراً وثواباً كقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ : أى يغفر الكثير من السيئات ويكثر القليل من الحسنات فيستر ويغفر ويضاعف فيشكر .

(١) انظر مسند أحمد — مسند ابن عباس ج ١ ص ٢٨٦

(٢) سورة النساء من الآية : ٤٠

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٦٠

وقوله — عز وجل — ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افترى على الله كذباً فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ :  
أى فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ خذلانك يختم على قلبك لتجتريء بالإفتراء عليه ، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان  
في مثل حالهم قد ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته .

وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون ، وأنهم في نسبة الإفتراء إليه مفترون أيضاً ، ثم أكد استبعاد  
الإفتراء منه ، وزاده إيضاحاً فقال : ﴿ وَيَمْحُوا اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ﴾ : أى كيف يكون  
من الإفتراء على الله ، وقد جرت سنته تعالى أن يمحو الباطل ويمحقه ، ويثبت الحق وينشره بين الناس ،  
وها هو إذ يزداد ما أوتيته من وحي كل يوم قوة وانتشاراً ، فلو كان مفترياً كما تدعون لكشف افترائه  
ومحقه ، وقذف بالحق على باطله قدمغه .

وقد يكون المعنى : — إن هذه عدة من الله لرسوله بالنصر ويكون المراد : — يمحو الله باطلهم  
وما بهتوك به ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بقضائه الذى لا مرد له ، فيكون هذا كلاماً معترضاً بين  
ما قبله وما بعده مؤكداً لما سبق من الكلام من كونهم مبطلين في نسبة الإفتراء إلى من هو أصدق من  
الناس حديثاً .

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ : فيعلم ما تكنه الضمائر ، وتنطوى عليه السرائر ، وتجرى الأمور  
بحسب علمه الواسع المحيط بكل شيء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ،  
وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ .

يقول تعالى : ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه إنه من كرمه وحلمه أنه  
يعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ : أى يقبل التوبة في المستقبل ويعفو عن  
السيئات في الماضى ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ : أى هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب  
على من تاب .



(١) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ (٣) وقوله تعالى : في قصة كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ (٤) .

وتأمل معنى قول الغفور الرحيم : ﴿ فلتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ (٥) . وبعد ذلك تأمل وتدبر قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ (٦) .

وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقد تضمن هذا الحديث أن هذه الأسباب الثلاثة يحصل بها المغفرة : أحدهما : الدعاء مع الرجاء ، والسبب الثاني : للمغفرة الاستغفار ، والسبب الثالث : من أسباب المغفرة التوحيد ، وهو السبب الأعظم ، فمن فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ولقد تاب النبي يونس لربه بهذا الدعاء العظيم ( لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ) .

(١) سورة غافر الآيات : ١ — ٣

(٢) سورة النساء الآية : ١١٠

(٣) سورة آل عمران الآيات : ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) سورة التوبة الآيات : ١١٨ ، ١١٩

(٥) سورة البقرة الآية : ٣٧

(٦) سورة النساء الآيات : ٢٦ ، ٢٧

## في أحكام التوبة

التوبة هي الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب .

وقال عبد الله بن المبارك : « التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب والعزم على ألا يعود ، وأن يؤدي التائب كل فرض ضيعه ، ويؤدي إلى كل ذى حق حقه من المظالم ، ويذيب البدن الذى زينه بالسحت والحرام بالهموم والأحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم ينشأ بينهما لحم طيب ، ويذيب البدن ألم الطاعة ، كما أذاقه لذة المعصية » .

فهذا التعريف للعالم الربانى عبد الله بن المبارك : جامع لكل خصال التوبة المنصوص عليها في الكتاب والسنة ، والتي هي التوبة النصوح .

ومن شروط التوبة الصحيحة : أن يهجر التائب الذنوب لأنها معاصي يغضب منها الله ورسوله ، لا لسبب آخر ، فإن أقلع عن الذنب لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، وإنما هو عمل يهوى النفس لا لوجه الله ، قال الله تعالى ﴿ توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ (١) . ولم يقل : توبوا حفظاً لصحتكم ولا لأموالكم ، فمراعاة الصحة والمال ليس هدفاً رئيسياً للتوبة ، وإنما هو أمر ثانوى لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة .

وعلى كل عضو من أعضاء الانسان توبة ، فتوبة العين : كفها عن النظر إلى المحارم ، وتوبة السمع : كفه عن سماع المحرم ، وتوبة اليد : كفها عن تناول المحرم ، وتوبة القدمين : كفهما عن السعى إلى المحرم ، وتوبة الفرج : كفه عن الزنا ، وهكذا جميع الجوارح ، حتى العقل له توبة ، وهي كفه عن التفكير في المحرم ، واللسان يتوب فلا يدعو إلى مكروه عند الله ورسوله .

(١) أخرجه الترمذى في سننه في ( كتاب الدعوات ) باب : في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده ج ٥ ص

٥٣٨ رقم ٣٥٤٠ .

وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) سورة التحريم من الآية : ٨

## التوبة والعمل الصالح

كثير من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الانسان عند الله ويقولون : إن هذا في جانب السيئات ، وهذا في جانب الحسنات ، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غداً عند الله .

وقد عنى الحارث المحاسبى بهذه القضية أشد العناية ، وفصل القول فيها في كتابه المخطوط ، « آداب النفوس » و خلاصة ما قاله :

إن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى ، وهو يقيم على المعاصي للأسباب الآتية :

١ — أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير محقق ، لأن النفس المشغولة بلذة المعاصي قلما تخلص عمل الخير ، فضلاً عن أن محل النية وهو القلب ملوث بالشهوات ، فيستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثرت عليه الران من تتابع الذنوب وتشبع بها .

٢ — إن الإنسان مطالب بترك الشر كله . وليس مطالباً بفعل الخير كله ، وعلى هذا أصبح ترك الشر في المنزلة الأولى الواجبة على الانسان .

٣ — إن ترك الشر يوقع الإنسان في الخير من تلقاء نفسه ، فالتائب عن الزنا : يصبح عفيفاً ، والتائب عن الكبر : يصبح متواضعاً ، والتائب عن البخل : يصبح كريماً ، والتائب عن الكذب : يصبح صادقاً وهكذا جميع السيئات ، يتوب منها فاعلمها ، فيقع في أضدادها وهي فضائل صالحة .

٤ — لا خير في عمل من أعمال البر خالطه الشر في قلب واحد ، فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شراً ، والشر شر كله .

وعلى هذا فهو يرى أن إقامة العبد على خصلة واحدة من الشر يفرغ نفسه للتوبة منها ، ويتقن هذه التوبة ، ويجهاد لاقتلاع جذورها من القلب ويشغل نفسه بها ليل نهار ، مع القيام بالفرائض وحدها ، خير ألف مرة من عمل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر ، فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها ، وهكذا حتى يقتلع جميع الجذور الشريرة من قلبه ، فيصبح قلبه خالصاً صافياً ، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله ، وهذا هو معنى الآية الكريمة ﴿إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات﴾<sup>(١)</sup> . فقدم الله تعالى التوبة ، وهي اقتلاع جذور

الشر والمعصية من القلب أولاً . ثم أتبعها بالآيمان ، وكأن العاصي يحتاج إلى تحقيق أمنه إلى جوار الله بدلا من أمنه في جوار الشهوات التي أفسدت عقيدته في الله ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، وهو آخر ما يجب على التائب ، فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن ، وحينئذ تحل الصفات المضادة لخصال الشر محل خصال الشر كما قلنا ، وتلك هي الحسنات مكان السيئات كما جاء في الآية الكريمة .

## الإصرار على الذنب ، توبة الكذابين

معنى الإصرار : أن تبقى في القلب حلاوة المعصية ، وتمنى مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، فالشعور بالرغبة النفسية في المعصية ، وعقد القلب على حبها إصرار عليها ، وعلى هذا فالتوبة منها مع بقاء هذه اللذة في القلب ، وتمنى ارتكابها إن وجد إليها السبيل ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمى توبة الكذابين ، وهي التي وصف أبو هريرة — رضى الله عنه — صاحبها بأنه كالمستهزئ بربه . فهي توبة غير مقبولة ، فضلاً عن إثم الخادعة لله الذي يرتكبه هذا التائب .

ولكن ، ماذا يصنع الذي انعقد قلبه على حب المعاصي ، فانغمس فيها ؟ لا طريق له إلا طريق الجهاد الشاق للنفس .. ، وعليه قبل ذلك أن يهجر أماكن السوء ، وأصدقاء المعصية ، وأن يحافظ على ورد من القرآن كل يوم ، وأن يقرأ تواريخ الصحابة والتابعين والصالحين ، وأن يدمن الدعاء في أوقات الاجابة ، ولا سيما في جوف الليل : أن يرزقه الله التوبة النصوح ، فإن الله تعالى : يجيب من دعاه ويغيث من اضطر إليه ، غافر الذنب ، قابل التوب ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ .

( من كتاب التوبة للحارث المحاسبى تحقيق الشيخ / عبد القادر أحمد عطاء ) .

قوله تعالى : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ﴾ . ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد ﴿ .

قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم فهو سبحانه يجيب الذين آمنوا إذا دعوه ، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء ، وقال قتادة : عن ابراهيم النخعي في قوله عز وجل : ﴿ ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ﴾ قال يشفعون في إخوانهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ : قال : يشفعون في إخوان إخوانهم .

وقوله عز وجل : ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ : لما ذكر سبحانه المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجه المؤلم يوم معادهم وحسابهم :

## أحكام وعبر

\* وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ يُعْبَادُهُ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۚ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِنَّ مِنْ دَابَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾

## معاني المفردات

( البسط ) : السعة ، ( البغى ) : الظلم ومجاوزة الحد ، ( بقدر ) : أى بتقدير ( الغيث ) : المطر ( قنط ) : يئس ، ( ورحمته ) : هى منافع الغيث وآثاره التى تعم الحيوان والنبات والسهل والجبل . ( الولي ) : هو الذى يتولى عباده بالإحسان ، ( الحميد ) : أى المستحق للحمد على نعمه ، ( بث ) : نشر وفرق ، ( والدابة ) : كل ماله ديب وحركة ، ( على جمعهم ) : أى حين الحشر والحساب . ( بمعجزين ) : أى مجاعلين الله — تعالى — عاجزاً بالهرب منه ، ( الجوارى ) : أى السفن الجارية ، ( الأعلام ) : واحد علم : وهو الجبل . ( يسكن الريح ) : أى يجعلها ساكنة لا تموج ، ( رواكد ) : أى ثوابت ، ( الصبار ) : كثير الصبر ، ( الشكور ) : أى كثير الشكر للنعم ، ( يوقفهن ) : أى يهلكهن . ( محيص ) : أى مهرب ومخلص .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف أن يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا ، ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق ، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم ، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون ، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى ، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق لا يمنعه منهم وهو للتولى أمورهم بإحسانه المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة ، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسموات والأرض وما فيهما من الحيوان ، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة ، ثم ذكر أن ما يصيب الانسان من نكبات الدنيا من الأمراض والأسقام والفقر والغنى فبكسب الانسان واختياره ، كما دلت على صدق ذلك التجارب ، ثم أعقب ذلك بآية أخرى على ألوهيته وهى جريان السفن فى البحار ، فتارة : يجعل الريح ساكنة فتظل السفن على سطحها ، وأخرى تعصف الرياح ففرقها ، أو تنجو بحسب تقديره تعالى : —

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ :

أى أنه تعالى خبير بما يصلح عباده من توسيع الرزق وتضييقه ، فيقدر لكل منهم ما يصلحه ، فيسبب ويقبض ، ويعطى ويمنع . ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم جميعاً هلكوا . قال قتادة : يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك . وفى الأثر : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه »<sup>(١)</sup> ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شئ عليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾ :  
أى وهو الذى ينزل المطر من السماء فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه ، وينشر بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ويحمد على ما يوصله

(١) انظر تفسير ابن كثير ( تفسير سورة الشورى ) آية : ٢٧ ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٠ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦٢ .

إليهم من رحمته . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — مخط المطر وقنط الناس يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : مُطِرتُم ثم قرأ : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾ .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون ﴾ <sup>(١)</sup> . وكقوله تعالى : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناستى كثيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية وكقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفرة لظلوا من بعده يكفرون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴾ : أى ذرأً فيهما أى فى السموات والأرض ﴿ من دابة ﴾ : وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم فى أرجاء أقطار السموات والأرض ، ﴿ وهو ﴾ سبحانه : مع هذا كله ﴿ على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ : أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق ، ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمتثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ <sup>(٥)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير ﴾ <sup>(٦)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ <sup>(٧)</sup>

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٢) سورة الفرقان الآيات ٤٨ ، ٤٩

(٣) سورة الروم الآية : ٤٦

(٤) سورة الروم من الآية : ٤٨ — ٥١

(٥) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٨

(٧) سورة ( يس ) الآية ٥٣

وكقوله جلت قدرته : ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ <sup>(١)</sup> . وكقوله عز وجل : ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله عز وجل : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ : أى مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما من سيئات تقدمت لكم ، ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ : أى من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ <sup>(٤)</sup> وفى الحديث الصحيح « والذى نفسى بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا وكفر الله عنه بها من خطاياها حتى الشوكة يشاكها » <sup>(٥)</sup> .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن على — رضى الله عنه — قال : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله — عز وجل — وحدثننا به رسول الله ﷺ ؟ قال « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » <sup>(٦)</sup> وسأفسرها لك يا على . ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يشئى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا ، فالله — تعالى — أكرم من أن يعود بعد عفوه » ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى بردة عن معاوية : هو ابن أبى سفيان — رضى الله عنهما — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من شئ يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه ، إلا كفر الله — تعالى — عنه به من سيئاته <sup>(٧)</sup> وقال الإمام أحمد أيضاً : عن مجاهد عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها » <sup>(٨)</sup> .

وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : فى قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ قال : لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر » <sup>(٩)</sup>

(٣) سورة النحل من الآية : ٦١

(١) سورة ( ق ) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

(٤) سورة فاطر من الآية : ٤٥

(٢) سورة الحجر الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

(٥) أخرجه البخارى فى ( كتاب المرضى ) باب : ما جاء فى كفارة المرض ج ٦ ص ١٤٨ ، ١٤٩ ، ومسلم فى ( كتاب البر )

باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ج ٨ ص ١٥

(٦) انظر تفسير سورة الشورى آية ٣٠ ج ٧ ص ١٩٥ وقال : رواه ابن أبى حاتم عن على .

(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده — من رواية أبى سفيان ج ٤ ص ٩٨

(٨) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده — مسند عائشة — رضى الله عنها — ج ٦ ص ١٥٧

(٩) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٩٥ ، ١٩٦ تفسير سورة الشورى وقال : أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى .



وقال أيضا : بسنده عن الضحاك قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب . ثم قرأ الضحاك : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ ، ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن . وقوله تعالى : ﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ : أى إن ما قضاه الله عليكم واقع بكم لا محالة ولا مفر منه وما لكم من دون الله ولى يليكم بالدفاع عنكم ، ولا لكم نصير ينصركم إذا هو عاقبكم فينتصر لكم .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ .

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه وتسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام : أى كالجبال ﴿ إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ﴾ : أى التى تسير فى البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تحيى ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره : أى على وجه الماء .

﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ : أى ( هباء ) فى الشدائد ﴿ شكور ﴾ : أى فى الرخاء .

قال الإمام ابن القيم فى شكر النعمة والصبر على المحنة : الشكر : مبنى على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها فى مرضاة وليها ومسديها ومعطيها ، فإذا فعل ذلك فقد شكرها — أى النعمة — مع تقصيره فى شكرها . والصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية . كاللطم ، وشق الثياب ، ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة فى حقه منحة ، وتحولت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله — سبحانه وتعالى — لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن الله — تعالى — على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى .

وقوله عز وجل : ﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾ : أى لو شاء سبحانه لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفت ذات اليمين أو ذات الشمال ،

آبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد ، وأغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها . ﴿ ويحف عن كثير ﴾ : أى من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا ، أفأنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم خاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ (١) وكقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بتعمت الله ليريكمن آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ (٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريج عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه ل نكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم ييغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما لهم من محيص ﴾ : أى وليعلم الذين ينازعون فى آياتنا على جهة التكذيب لها أنه لا مخلص لهم إذا وقتت السفن ، أو إذا عصفت الريح ، فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن النافع الضار ليس إلا الله — تعالى — ، ولا محيد لهم عن بأس الله ونقمته ، فإنهم مقهورون بقدرته سبحانه وتعالى .

(١) سورة الإسراء الآيات : ٦٦ — ٦٩

(٢) سورة لقمان الآيات : ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة سونس من الآية : ٢٣

## الزهد والشورى والعفو

قال تعالى :

مَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٤٠﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَمَنْ آتَنَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٣﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٤﴾

## معاني المفردات

( آتاه الشيء ) : أعطاه إياه ، ( والمتاع ) : ما ينتفع ويتمتع به من ريش وأثاث ونحوهما .  
 ( يتوكلون ) : يفوضون إليه أمورهم ، ( كبائر الإثم ) : هي كل ما يوجب حداً ، ( الفواحش ) : هي ما فحش وعظم قبحه كالزنا والقتل ونحوهما ، ( استجابوا ) : أى أجابوا داعى الله ، فأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ، ( الشورى ) : الشورى والمشاورة : المراجعة فى الآراء ليتبين الصواب منها ، ( البغى ) : الظلم ، ( ينتصرون ) : أى ينتقمون ، ( السيئة ) : مأخوذة من السوء ، وهو القبيح ، ( انتصر ) : أى سعى فى نصر نفسه بجده : ( من سبيل ) : أى من عقاب ولا عقاب ، ( لمن عزم الأمور ) : أى : لمن الأمور المشكورة والأفعال التى ندب إليها عباده ، ولم يرخص بالتهاون فيها .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل توحيده ، وعظيم قدرته وسلطانه — أردف التنفير من الدنيا وزخرفها ، لأن المانع من النظر فى الأدلة إنما هو الرغبة فيها طلباً للرياسة والجاه ، ثم أبان أن ما عند الله خير وأبقى لمن

آمن به ، وتوكل عليه ، واجتنب كبائر الذنوب والفواحش ، وكان متقاداً له مطيعاً لأوامره تاركاً لنواهيه ، وأقام الصلاة وأتى الزكاة ، ولم يرم أمراً إلا بعد مشورة وانتصر لنفسه من ظلمه ، وذكر سبحانه أن ذلك الانتصار مقيد بالمثل ، لأن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل ، ثم ندب إلى العفو ، ثم ذكر أنه لا مؤاخذه على من ينتصر لنفسه ، وإنما المؤاخذه على من يظلم الناس ، ويغنى في الأرض بغير الحق ، وأن العفو وغفران السيئة مما حث عليه الدين ، وأجزل ثواب فاعله .

### التفسير

قوله تعالى ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله تعالى ﴿فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهي دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾ أي ثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدي فلا تقدموا الفاني على الباقي ولهذا قال سبحانه ﴿للذين آمنوا﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات وترك المحرمات . ومثل الآية قوله تعالى : ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون﴾<sup>(١)</sup> فالدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له .

وقد قال الإمام النووي في مقدمة كتابه رياض الصالحين : قال الله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾<sup>(٢)</sup> وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له ، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فإنها دار نفاق لا محل لإخلاد ، ومركب عبور لا منزل حُبور ، ومشرع انفصام لا موطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العبادة ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد ، قال تعالى ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا

(١) سورة القصص آية ٦٠

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ ، ٥٧

ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿١﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة ولقد أحسن القائل :

إن لله عباداً فطنوا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنة  
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطننا  
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً

فإذا كان حالها ما وصفته ، وحالتها وما خلقنا له ما قدمته ، فحق على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار ، ويسلك سلك أولى النبی والأبصار ، ويتأهب لما أشرت إليه ، ويهتم بما نهت عليه . وأصوب طريق له في ذلك وأرشد ما يسلكه من المسالك : التأديب بما صحح عن نبينا سيد الأولين والآخرين ، وأكرم السابقين واللاحقين ، — صلوات الله عليه وعلى سائر النبيين — أ هـ

## فضل الزهد في الدنيا والحث على التقليل منها وفضل الفقر

عن أبي سعيد الخدري — رضى الله عنه — قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال . « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يُنتج عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » (١) متفق عليه . وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها . فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » (٢) رواه مسلم . عن أنس — رضى الله عنه — أن النبي ﷺ قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » (٣) متفق عليه .

(١) سورة يونس آية ٢٤  
(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٢٨ ، ٧٢٩ كتاب الزكاة باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا رقم ١٢٣ / ١٠٥٢ .  
(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٨ كتاب الذكر والدعاء . باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء . رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ .  
(٤) الحديث في صحيح البخارى ج ٥ ص ٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب دعاء النبي ﷺ أصلح الأنصار والمهاجرة الحديث صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٣١ كتاب الجهاد والسير . باب غزوة الأحزاب

وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله : فيرجع اثنان ، ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله »<sup>(١)</sup> متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ في النار صبغة ، ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا ، من أهل الجنة ، فيصبغ في الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ ولا رأيت شدة قط فيقول : لا والله يارب : ما مر بي بؤس قط . ولا رأيت شدة قط »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم ، فينظر يم يرجع ؟ »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم .

وعن جابر — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ، والناس كنفته ، فمر بجدي أسك ميت ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثم قال « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال « أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً ، لأنه أسك . فكيف وهو ميت ؟ فقال « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »<sup>(٤)</sup> رواه مسلم . ( كنفته : جاثيته ، الأُسك : الصغير الأذن )

وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن في الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل »<sup>(٥)</sup>

وكان ابن عمر — رضى الله عنهما — يقول : إذا أمسيت ، فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »<sup>(٦)</sup> رواه البخارى

قالوا في شرح هذا الحديث معناه : لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً ولا تُحدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه — ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . وبالله التوفيق .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرفائق رقم ٢٩٦٠/٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٦٢ . كتاب صفات المنافقين وأحكامهم . باب منع نعم أهل الدنيا في النار رقم ٢٨٠٧/٥٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا رقم ٢٨٥٨/٥٥ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٧٢ كتاب الزهد والرفائق رقم ٢٩٥٦/٢ .

(٥) الحديث في صحيح البخارى ج ٨ ص ١١٠ كتاب الرقاق باب كن في الدنيا كأنك غريب .

الحديث في كشف الخفاء ج ٢ ص ١٩٤٢ رقم ٢٠٢٣ .

(٦) الحديث في صحيح البخارى . ج ٨ ص ١١٠ كتاب الرقاق . باب كن في الدنيا كأنك غريب .

وعن النعمان بن بشير — رضى الله عنهما — قال : ذكر عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه <sup>(١)</sup> رواه مسلم ( الدقل : بفتح الدال المهملة والقاف : ردىء التمر )

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : ثوفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لي ، فأكلت منه ، حتى طال على ، فكلته ففنى <sup>(٢)</sup> متفق عليه . ( شطير شعير : أى شئ من شعير ، كذا فسرہ الترمذى )

وعن سهل بن سعد الساعدى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء » <sup>(٣)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والآه ، وعالمًا ومتعلمًا » <sup>(٤)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن عبد الله بن الشَّخِير « بكسر الشين والحاء المشددة المعجمتين » — رضى الله عنه — أنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ ﴿ أَلْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : « يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك يابن آدم من مالك ، إلا ما أكلت ، فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » <sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال « مالى وللدنيا ؟ ماأنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » <sup>(٦)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٨٤ كتاب الزهد والرفائق رقم ٣٤ / ٢٩٧٧ ، ٣٦ / ٢٩٧٨ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ كتاب الزهد والرفائق رقم ٢٧ / ٢٩٧٣ .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ح ٣ ص ٣٨٣ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٢ وقال : هذا حديث

صحيح غريب .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ح ٣ ص ٣٨٤ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٤ . وقال : هذا

حديث حسن غريب .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرفائق رقم ٣ / ٢٩٨ .

— انظر سنن الترمذى ح ٤ أبواب الزهد . رقم ٢٤٤٥ .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى ح ٤ ص ١٧ أبواب الزهد . رقم ٢٤٨٣ .

وعن ابن عباس وعوان بن الحصين — رضى الله عنهم — عن النبي ﷺ قال : « اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء » (١) متفق عليه .

[ النووى : رياض الصالحين ]

وقال بعض السلف « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها »

وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال على : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها . مهبط وحي الله ، ومصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيبا وترهيبا .

قال المأمون : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصف نفسها صفة أبى نواس في هذا البيت :  
إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق .

قوله تعالى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾

أى وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال السدى ( الفواحش ) يعنى الزنا . قال الحافظ الذهبى : الكبائر ما نهى الله ورسوله عنه في الكتاب والسنة والأثر عن السلف الصالحين ، وقد ضمن الله تعالى في كتابه العزيز لمن اجتنب الكبائر والمحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات لقوله تعالى ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾ (٢) فقد تكفل الله تعالى بهذا النص لمن اجتنب الكبائر أن يدخله الجنة ، وقال تعالى ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾

وقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللم إن ربك واسع المغفرة ﴾ (٣) .

وقال رسول الله ﷺ « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان

(١) الحديث في صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٩٦ كتاب الذكر والدعاء رقم ٩٤ / ٢٧٣٧

(٢) سورة النساء آية ٣١

(٣) سورة النجم آية ٣٢



مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر ﴿١﴾ . فتعين علينا الفحص عن الكبائر ، ما هي ؟ لكى يجتنبها المسلمون ، فوجدنا العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا فيها ، فقل هي سبع واحتجوا بقول النبي ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات » ﴿٢﴾ فذكر منها : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ( هي إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ، وصدق والله ابن عباس . وأما الحديث فما فيه حصر الكبائر ، والذي يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم مما فيه حد في الدنيا كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد في الآخرة من عذاب أو غضب أو تهديد ، أو لعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة ولا بد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض . ألا ترى أنه ﷺ عدَّ الشرك بالله من الكبائر ، مع أن مرتكبه مخلد في النار ولا يغفر له أبداً قال الله تعالى ﴿٣﴾ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴿٣﴾ أهـ

هذا وقد ذكر الامام الذهبى فى كتابه سبعين كبيرة :

(١) الشرك بالله ، (٢) قتل النفس (٣) السحر (٤) ترك الصلاة (٥) منع الزكاة (٦) إفطار يوم من رمضان بلا عذر (٧) ترك الحج مع القدرة عليه (٨) عقوق الوالدين (٩) هجر الأقارب (١٠) الزنى (١١) اللواط (١٢) الربا (١٣) أكل مال اليتيم وظلمه (١٤) الكذب على الله وعلى رسوله (١٥) الفرار من الزحف (١٦) غش الامام الرعية وظلمه لهم (١٧) الكبر (١٨) شهادة الزور (١٩) شرب الخمر (٢٠) القمار (٢١) قذف المحصنات الغافلات المؤمنات (٢٢) الغلول من الغنيمة (٢٣) السرقة (٢٤) قطع الطريق (٢٥) اليمين الغموس (٢٦) الظلم (٢٧) المكاس (٢٨) أكل الحرام (٢٩) الانتحار (٣٠) الكذب فى غالب أقواله (٣١) القاضى بالسوء (٣٢) أخذ الرشوة على الحكم (٣٣) تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء (٣٤) الديوث المستحسن على أهله والقواد الساعى بين الاثنين بالفساد (٣٥) المحلل والمحلل له (٣٦) عدم التنزه من البول (٣٧) الرياء (٣٨) التعلم للدنيا وكتمان العلم (٣٩) الحيانة (٤٠) المئان (٤١) التكذيب بالقدر (٤٢) التسمع على الناس (٤٣) التمام (٤٤) اللعان (٤٥) الغدر وعدم الوفاء بالعهد (٤٦) تصديق الكاهن والمنجم (٤٧) نشوز المرأة على زوجها (٤٨) التصوير (٤٩) اللطم والنياحة وشق الثوب وحلق الرأس وتنفه والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة (٥٠) البغى (٥١) الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة (٥٢) أذى الجار (٥٣) أذى المسلمين وشتيمهم (٥٤) أذية عباد الله والتطول عليهم (٥٥) إسبال الإزار والثوب واللباس والسراويل تعزراً وعجباً وفخراً وخيلاء (٥٦) لبس الحرير والذهب للرجال (٥٧) إباق

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٠٠ مسند أبى هريرة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٩٢ كتاب الإيمان . باب بيان الكبائر وأكبرها رقم ٨٩/١٤٥ .

(٣) سورة النساء آية ١١٦

العبد (٥٨) الذبح لغير الله عز وجل — (٥٩) فيمن ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم (٦٠) الجدال والمرء واللد (٦١) منع فضل الماء (٦٢) نقص المكيال والميزان (٦٣) الأمن من مكر الله (٦٤) الإيأس من روح الله (٦٥) تارك الجماعة فيصلى وحده من غير عذر (٦٦) الإصرار على ترك الجمعة والجماعة من غير عذر (٦٧) الإضرار في الوصية (٦٨) المكر والخديعة (٦٩) من حبس على المسلمين ودل على عورتهم (٧٠) سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم .

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ مازال الحديث عن صفات أبناء الآخرة الذين يخشون ربهم ويخافون سوء العذاب ، فمن محاسن أخلاقهم أنهم يشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ، لقوله تعالى ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله (٢) .

## صور من أخلاق الرسول الكريم

وروى أن النبي ﷺ لما كسرت رباعيته وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا لو دعوت عليهم فقال « إني لم أبعث لعناً ، ولكني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » (٣) قال القاضي أبو الفضل رحمه الله : انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال اغفر أو اهد ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومي ، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون ، ولما قال له الرجل أعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزد في جوابه أن بين له ما جهله ووعظ نفسه وذكرها بما قال له : [ فقال : ويحك ! !

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤

(٢) الحديث في صحيح البخارى ح ٤ ص ٢٣٠ كتاب المناقب باب صفحة النبي ﷺ انظر صحيح مسلم ح ٤ ص ١٨١٣ كتاب الفضائل . باب مبادئه ﷺ من الآثام . رقم ٧٧ / ٢٣٢٧ .

— وانظر سنن أبى داود ح ٥ ص ١٤٢ كتاب الأدب . باب التجاوز في الأمر رقم ٤٧٨٥ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٠٧ كتاب البر والصلة . باب النهي عن لعن الدواب . رقم ٨٧ / ٢٥٩٩ .

فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل [ (١) . ونهى من أراد من أصحابه قتله ، ولما تصدى له غورت بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ جالس تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون في غزاة فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مسلول في يده فقال من يمنعك مني ؟ فقال : [ الله ، فسقط السياف من يده ، فأخذه النبي ﷺ وقال من يمنعك مني ؟ قال كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس ] (٢)

وعن أنس — رضى الله عنه — كنت مع النبي ﷺ وعليه بُرد غليظ الحاشية فجبذة أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه ثم قال يا محمد أحمل لي على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت النبي ﷺ ثم قال : « المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي ، قال ، لا ، قال « لم » ؟ قال لأنك لا تكافىء بالسبئية السيئة فضحك النبي ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر » (٣) قالت عائشة — رضى الله عنها — ( ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حُرمة من محارم الله وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله وما ضرب خادما ولا امرأة ) (٤) والحديث عن حلمه ﷺ وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر أمن أن نأتى عليه وحسبك صبرة على قسوة قريش ! وأذى أهل الجاهلية ، فلما نصره الله عليهم وحكمه فيهم قال : ( يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف ( لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين ) (٥)

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا      منها ، وما يتعشق الكبراء  
زانتك في الخلق العظيم شمائل      يُغفَى بهن ويولع الكرماء

(١) الحديث في صحيح البخارى ح ٤ ص ٢٤٣ كتاب علامات النبوة في الإسلام بلفظ ويلك ..... الخ

— انظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٧٤٤ كتاب الزكاة . باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ١٤٢ — ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ بلفظ ويلك ..... الخ .

(٢) الحديث في الدار المنشور في تفسير المأثور ( تفسير سورة المائدة ) ح ٣ ص ١١٩ انظر مسند الإمام أحمد ح ٣ ص ٣٩٠ مسند جابر

(٣) الحديث في سنن النسائى ح ٨ ص ٣٣ ، ٣٤ كتاب القسامة . باب القود من الحبذة .

— انظر صحيح البخارى ح ٧ ص ١٨٩ كتاب اللباس . وكذلك ح ٨ ص ٢٩ كتاب الأدب .

— وانظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٧٣٠ ، ٧٣١ كتاب الزكاة . باب إعطاء من سأل بفحش . رقم ١٢٨ / ١٠٥٧ .

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد ح ٦ ص ٣١ ، ٣٢ مسند عائشة

(٥) الحديث في فتح البارى بشرح صحيح البخارى ح ٨ ص ١٨ باب دخول النبي من أعلى مكة وانظر تحاف السادة المتقين ح ٨ ص ٤١ .

قوله تعالى ﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون﴾ .

والاستجابة لله معناها إجابة أمره ، وامثال ما أوجب ، واجتناب ما نهى ، فإن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها كما أنه تعالى حد حدودا فلا تعتدوها وحرم حرمت فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . وقد قيل لأعرابي لم أمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين ، لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ولم ينه عن شيء وقال العقل ليته ما نهى .

نعم إنه النبي الذي بعث لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد وتجاه يشرع كان للشعوب البدائية كالآب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ،

﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحكيكم﴾<sup>(١)</sup>

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾<sup>(٢)</sup>

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾<sup>(٣)</sup>

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فاما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق والله يريد ظلما للعالمين ، والله مافي السموات ومافي الأرض وإلى الله ترجع الأمور ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

(٢) سورة الأنفال آية ٢٧

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة آل عمران الآيات من ١٠٢ — ١١٠

(٥) سورة الأحزاب الآيات ٧٠ ، ٧١

ما أعظم هذا الدين ، وما أحل قواعده

دين يشيد آية في آية لبناته السورات والأضواء  
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البناء

ما أعظمك يا رسول الله عندما تشخص الداء وما أروعك عندما تصف الدواء . لقد كانت المعرفة رأس مالك ، والعقل أصل دينك ، والحب أساسك ، والشوق مركبك ، وذكر الله أنيسك ، والثقة كنزك ، والحزن رفيقك ، والعلم سلاحك ، والصبر رداءك ، والرضا غنيتك ، والفقر إلى الله فخرك ، والزهد حرفتك ، واليقين قوتك ، والصدق شفيحك ، والطاعة حسبك ، والجهاد خلقك وجعلت قرعة عينك في الصلاة .

أشرق النور في العوالم لما بشرتها بأحمد الأنبياء  
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء  
وحمى الله مستباح وشرعه والحق والصواب وراء  
تلك آيى الفرقان أرسلها الله يهدى بها من يشاء  
ولجبريل جيئة وذهاب وهبوط إلى الثرى وارتقاء  
نسخت سنة النبيين والرسل كما ينسخ الضياء الضياء

ومن وجوه الاستجابة لله أنهم أقاموا الصلاة ، والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين لو لم تكن رأس العبادات ، لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها في المجتمع ، وكيف ساوت العلية بالزعم مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة سواء في عتبة الله ، خر الجمع للمناخر ، فالصف الأول كالأخر ، لم يرفع المتقدم تقدمه ، ولم يضع المتأخر تأخره فالكل عند الله من آدم وآدم من تراب .

كانت أمنا عائشة — رضى الله عنه — تقول : ( كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ) وكان الحسن — رضى الله عنه — يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » .

وقبل لحاتم الأصم — رضى الله عنه — كيف أنت إذ دخلت الصلاة فقال إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامي ، والموت ورائي ، والجنة عن يميني والنار عن شمالي والصرائط تحت قدمي معتقدا أن الله مطلع علي ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدري أقبلها الله أم ردّها علي .

وبلغ من أهمية الصلاة وعلو مكانها ومكانتها أن جعلها العلامة ابن القيم من أسباب تفرج الهم والكرب والحزن فقد عقد رحمه الله فصلاً تحت عنوان ( في هدية عليّ ﷺ في علاج الكرب والهم والحزن ) قال فيه :

أخرج في الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب :  
( لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم )<sup>(١)</sup>

. وفي جامع الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قال : « يا حي يا قيوم برحمتك استغيث »<sup>(٢)</sup>

وفي سنن أبي داود عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال دعوات المكروب ، اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت »<sup>(٣)</sup>

وفي مسند الإمام أحمد « عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ، ابن عبدك ابن أمتك ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً »<sup>(٤)</sup>

وفي الترمذى عن سعد بن أبي وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ « دعوة ذي النون ، إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجيب له »<sup>(٥)</sup> .

(١) الحديث في صحيح البخارى ح ٨ ص ٩٣ كتاب الدعوات . باب الدعاء عند الكرب

— انظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء . باب دعاء الكرب . رقم ٢٧٣٠ .

(٢) الحديث في سنن الترمذى ح ٥ ص ٢٠١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٣ . وقال : هذا حديث غريب .

(٣) الحديث في سنن أبي داود ح ٥ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح . رقم ٥٠٩٠ وقال محققه ، ونسبه

المنذرى للنسائي .

(٤) الحديث في مسند الإمام أحمد ح ١ ص ٣٩١ مسند عبد الله

(٥) الحديث في سنن الترمذى ح ٥ ص ١٩١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٧٢ .

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب» (١).

وفي المسند أن النبي ﷺ كان إذا خَزَبَهُ أمر، فزع إلى الصلاة وقد قال تعالى ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (٢) .. ويقول: «وأما الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ودفع مفسدات الدنيا والآخرة، وهى منة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب ومطرقة للداء عن الجسد، ومنورة للقلب ومبيضة للوجه، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاق الشهوات وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومنزلة للرحمة، وكاشفة للغمة، ونافعة من كثير من أوجاع البطن.

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج، فيخاطب بصناعة الطب، ويقال له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعا، إذا كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب، والركوع، والسجود، والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع التى يتحرك معها أكثر المفاصل، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة كالعدة، والأمعاء، وسائر آلات النفس، والغذاء، فما ينكر أن يكون فى هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد، ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها فى الصلاة، فتقوى الطبيعة، فيندفع الألم، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل، والتعوض عنه بلإلحاد داء ليس له دواء إلا نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى.

## مبحث فى الشورى

وصف الله المؤمنين الصادقين بصفات كريمة، وشمائل رفيعة، فهم ينسابون فى أخلاق أرق من النسيم، وأنضر من صفحة الروض الوسيم، إنهم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون. وهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وما رزقناهم ينفقون، وهم الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون.

إنهم تلك الكواكب الدرية، والنجوم الزاهرة العلوية.

(١) الحديث فى سنن أبى داود ح ٢ ص ١٧٨، ١٧٩ كتاب الصلاة رقم ١٥١٨. وقال محققه أخرجه النسائى. وابن ماجه فى الأدب. باب الاستغفار رقم ٣٨١٩. وأحمد فى مسند وإسناده صحيح والحكم بن مصعب ذكره ابن حبان فى الثقات وترجمه البخارى فى الكبير ١ - ٢ - ٣٣٦ فلم يذكر فيه جرحا.

— انظر جلية الأولياء ح ٣ ص ٢١١ ترجمة على بن عبد الله بن العباس. وقال محققه: هذا حديث غريب من حديث محمد بن على عن أبيه عن جده تفرد به عنه الحكم بن مصعب.

(٢) الحديث فى مسند أحمد ح ٥ ص ٣٨٨ مسند حذيفة

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب \* والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلاية ويدربون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار \* جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار<sup>(١)</sup>. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴿<sup>(٢)</sup> .

ولما وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وجدنا لزاما علينا أن نفصل القول في الشورى إذ هى مبدأ أصيل وركن ركين وحصن مكين وسياس منيع لحماية الأمة ، وهى أيضا حجر الزاوية ومحور الارتكاز والعنصر الفعال فى نظام الحكم فى الاسلام ، وقد جاء فى كتاب ( فى النظام السياسى للدولة الاسلامية للدكتور محمد سليم العوا ) تحت عنوان

## فى أهم المبادئ الدستورية الإسلامية

جاء ما نصه :

نناقش فى هذا المبحث أهم المبادئ السياسية ( أو الدستورية ) الإسلامية وهى — فى نظرنا — الشورى والعدل والحرية والمساواة ومدى جواز مساءلة الحاكم .

### أولاً : الشورى

يعد مبدأ الشورى من أهم المبادئ الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادئ الاسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ، ونطاقها ، ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى ( وهو البحث المعروف بعنوان هل الشورى ملزمة أم معلمة ) .

### أدلة محجيه الشورى فى القرآن الكريم .

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب فى إحداها ، وكوصف يمدح فاعله المتصفون به فى الثانية . ففى الآية الأولى

(١) سورة الرعد الآيات من ١٩ — ٢٤

(٢) سورة الرعد آية ٢٨ ، ٢٩



يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ فَمَا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ لَنتْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۚ ﴾ (١) وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التي خرج إليها الرسول ﷺ وكان رأيُه أن يبقوا في المدينة ويدافعوا عنها من داخلها — وبينت الأحداث التي مرت بالمسلمين في أثناء هذه الغزوة أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح — ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه . وبأن يشاورهم في كل ما يحتاج إلى مشاورة . والنص بهذه الصورة وفي هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالاً للشك في أن الشورى مبدأً أساسى من مبادئ النظام السياسى الإسلامى ، وقيمتُه غلياً يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائماً وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية : فهى قول الله تعالى في سورة الشورى ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۚ ﴾ (٢) وهذه الآية مكية ( نزلت في مكة ) ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن ( أمرهم شورى ) يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التي يجب أن يتحلى بها المؤمنون سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد ( وذلك كان هو حال المسلمين في مكة ) أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين في المدينة .

### الشورى في السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها زاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة — رضى الله عنه — « مارأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج يوم بدر ، وفي المنزل الذى ينزله عندها وفي الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد ، وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير . ( انظر سيرة ابن هشام ) . ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة مؤداها أن الحاكم أو الأمام يستشير الأمة — أو أولى رأى فيها — فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء . وذلك في شأن الرسول ﷺ قاصر على الأمور التي لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن ما كان محلاً لوحى فلا مجال للمشاورة فيه ، أما بعد عصر الرسالة فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها إذا كانت المناقشة خلال الشورى ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم — لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان — لتطبيق النصوص بالإضافة إلى شمول الشورى — بطبيعة الحال — لتلك الأمور التي لم يرد فيها نص معين ، أى : الأمور التي تركت للاجتهاد .

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

## وجوب الشورى :

والرأى الراجح بين الفقهاء هو أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة في الأمور العامة بحيث اذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيها — ولو لم يطلب منها فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريميتين اللتين قدمنا ذكرهما في أدلة حجية الشورى ففي الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ بأن يشاور أصحابه ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ وهو يحكم دولة الإسلام — فإنها تجب كذلك — من باب أولى — على كل حاكم لدولة إسلامية بعده .

ويبدو ذلك واضحا إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان في واقع الأمر — مستغنياً عن المشاورة ، إذ يأتيه الوحي بكل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور . بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الرأى في الأمة .

وأما الآية الثانية فقد جعلت الشورى وصفا لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها في النص القرآني — وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وأقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالانفاق مما رزقهم الله تعالى . وذلك كله من فرائض الاسلام وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هي الشورى التي مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب — في شأن الشورى — هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب . وأن المقصود بهذا « الندب » هو « تطيب قلوب الصحابة » والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً في معنى الآية الكريمة وسبب نزولها ، وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطيب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ولكنه ليس هو السبب الوحيد وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه في كثرة مشاورته لأصحابه . وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعاني كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التي لا بد من نفاذها ( والعزائم : الواجبات التي لا يجوز تركها ) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف ( انظر تفسير القرطبي — والتفسير الكبير للفخر الرازي ) .

## نطاق الشورى

أما نطاق الشورى ، أى المسائل التي يمكن أن تكون محلها ، فبذلك ما لا نجد له في النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً . فقد ورد الأمر بالشورى في القرآن الكريم واصفا إياها بأنها الشورى في ( الأمر ) . وفي هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة في كل نواحي

حياتها غير أن مثل هذا الإطلاق — في الواقع — لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التي تأمر بالشورى . ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما في هذا الخصوص .

أولهما أن الشورى لا تكون في أى مسألة ورد فيها نص في القرآن الكريم أو السنة التي تعد تشريعاً عاماً . فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ، ولا يمكن — بعد ورود النص — أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك — بداهة — إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثاني هو أنه حين تعرض مسألة ما على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين ، أو المستشارين ، إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة في القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إن مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، وتجعلها من ثم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين ( للذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد ، هو التزام النصوص في الموضوعات التي تعرض للشورى وفي النتيجة التي تنتهى إليها ) فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلاً للشورى ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشؤون العامة للأمة .

## المرونة في تحديد نطاق الشورى

، والواقع أن عدم تحديد وتعيين الموضوعات التي تعرض للشورى تحديداً قاطعاً هو الأليق بمنهج الإسلام في التشريع ، من تقرير الكليات والقواعد العامة ، وترك الجزئيات والتفصيلات ليوائم المسلمون بصدها بين النصوص وبين متطلبات الأزمات والأمكنة التي تطبق فيها شريعة الإسلام .

وبدبى أن الأمور التي سوف تعرض للشورى سوف تكون دائماً من الأمور ذات الدقة والخطر مما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى روية وإعمال نظر . أما أمور « الإدارة اليومية » التي تشغل الأجهزة التنفيذية والإدارية للدولة فإنها — بطبيعتها وبحكم حاجتها إلى حسم يقتصر بالسرعة — لا تتحمل العرض على الشورى اللهم إلا إذا تعلق بعضها ببعض الخطير من الأمور أو المشاكل التي تمس مجموع الأفراد المتعاملين مع هذه الأجهزة .

ويستوى بعد ذلك — في تقديرنا — أن تكون تلك الأمور ذات الدقة والخطر من الأمور التنفيذية أو من الأمور التشريعية ( مما ليس فيه نص قطعي ) فقد عرض عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عدة مسائل تشريعية على أهل شوزاه من بينها مسألة عقوبة شارب الخمر ، ومسألة سواد العراق ( أى أرضه التي فتحت في عهده ) على أنه إذا كانت المسألة المعروضة للشورى من المسائل التشريعية ( أى التي يحتمل أن يصدر بشأنها قرار يكون أثره عاماً مجرداً ) فإنه يتعين أن يكون من بين من تعرض عليهم للشورى من يعدون

من المجتهدين ، إذ أن رأى فى مثل هذه المسائل لا يكون متكاملاً إلا إذا ضمت هيئة الشورى المجتهدين — أو بعضهم — للأسباب المفصلة فى موضعها من كتب أصول الفقه وفلسفة التشريع .

## مدى الزام الشورى :

وإذا كانت الشورى مقررة بنصوص القرآن والسنة ، وكان اتباع هذه النصوص واجبا على الحكام ، وكان نطاق الشورى يشمل ما أشرنا إليه فى الفقرات السابقة من مسائل ، فإنه يبقى علينا أن نبحث مدى إلزام رأى الذى تنتهى إليه الشورى أو ما يعرف بمسألة هل الشورى ملزمة أم معلمة ؟

وفى هذا الخصوص نجد أننا أمام رأيين متعارضين ،

أحدهما : يقول أصحابه أن الشورى ملزمة للحاكم بحيث إذا استقر رأى أهلها — أو غالبيتهم — على شئ وجب عليه اتباعه .

أما الرأى الثانى ، فىرى أصحابه أنه لا يجب على الحاكم أن يفعل ما انتهى إليه أكثرية المشيرين ، وإنما يكفى أن يشاورهم ثم يمضى بعد ذلك فىنفذ ما يراه راجحاً عنده خالف ذلك رأى أهل الشورى أو وافقه . ويستدل أصحاب هذا الرأى الأخير بتفسير بعض المفسرين لقول الله تعالى ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (١) إذ يذهب هؤلاء إلى أن معنى هذا النص أن للرسول أن يأخذ بما انتهت إليه الشورى أو يدعه .

كما يستدلون ببعض مواقف للرسول ﷺ ولصاحبه أبى بكر وعمر يرون فيها أن الشورى لم تكن ملزمة فيما انتهت إليه . ومن أهم هذه المواقف موقف الرسول ﷺ فى قضية صلح الحديبية حيث أمضاه ﷺ رغم معارضة بعض أصحابه فى ذلك . وموقف أبى بكر الصديق فى انقاذ جيش أسامة رغم عدم موافقة بقية الصحابة على ذلك . وموقفه من حروب الردة التى خالفه فيها أصحابه ، وكذلك موقف عمر فى تقسيم أرض العراق .

ويذهب أصحاب الرأى الأول من القائلين بأن الشورى ملزمة إلى أن الآية المشار إليها إنما تدل على

لزوم نتيجة الشورى ، إذ لا يكون العزم إلا بعد الشورى . ولذلك قال في تفسيرها القرطبي نقلا عن قتادة : إن العزم هو الأمر المروى المنقح ، وليس ركوب رأى دون روية عزما . ولا ينقض ذلك ما يقال من أن معنى ( وتوكل على الله ) أن لا يتوكل على مشاورتهم ، ذلك أن التوكل هو طلب التأيد والتسديد ، وذلك لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى الذى بيده مقاليد كل شئ . أما دور المشاورة فمحصور فى بيان أقرب الآراء إلى الصواب وأحراها بالاتباع .

ويمكننا تأييد هذا رأى أيضا بما ذكره الطبرى فى تفسيره من أن العزم والتوكل على الله إنما يكون فى الأمر الذى يصدر فيه الرسول عن وحى الله تعالى إليه ، وأمره إياه بفعل شئ معين . فعند ذلك لا يجوز للرسول ﷺ أن ينظر إلى رأى أهل شوره ، وعليه أن ينفذ ما أمر به ، وافق ذلك رأيهم أو لم يوافقه . وفى ذلك يقول الطبرى « فإذا صح عزمك بتبثيتنا إياك ، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك ، فامضى لما أمرناك به على ما أمرناك به وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفه » انظر تفسير الطبرى .

وواضح من هذا النص أنه ينبغى العزم على كل ما جاء به الوحي دون نظر — فيه — إلى الشورى ونتيجتها ، أما ما لم يكن فيه وحى فلا دلالة لهذا النص عليه ويبقى على الأصل من التزام الشورى فيه .

### أدلة القائلين بعدم إلزام الشورى : ( ومناقشتها )

أما المواقف التى استند إليها النافون لكون الشورى ملزمة فيبدو أنهم قد جانبهم التوفيق فى تفسيرها وتأويلها . بل وأحيانا فى روايتها أيضا ، وبيان ذلك كما يلي :

#### صلح الحديبية :

إن موضوع صلح الحديبية لم يكن — فى أى مرحلة من مراحله — محلا للشورى . وإنما صدر فيه الرسول ﷺ عن الوحي من أوله إلى آخره . وكل ما حدث أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قد سأل الرسول ﷺ : لم يقبل المسلمون الصلح ؟ فكان جواب الرسول له : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ، بل إن رسول الله ﷺ قد بين قبل ذلك أى قبل المناقشة مع عمر — أن الأمر مرجعه إلى الوحي — فحين توقفت ناقة رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « حبسها حابس

الفيل عن مكة ، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»<sup>(١)</sup> ومن ثم فإنه لا علاقة لما حدث في صلح الحديبية بموضوع الشورى من قريب أو بعيد ، ولا دليل فيه على لزومها أو عدمه .

وإذا تبين أن صلح الحديبية كان مرجع عقده بين رسول ﷺ وبين مشركي قريش هو الوحي ، فإنه يتبين أيضا ، بالإضافة إلى ما تقدم من عدم صحة الاستدلال به في موضوع الزام الشورى ، خطأ استدلال بعض العلماء الرسميين من المعاصرين بموقف النبي ﷺ في عقده هذا الصلح على صحة عقد المعاهدات . مع أعداء الدولة الإسلامية . وخطأ هذا الاستدلال يبدو أكثر وضوحاً إذا استصحبنا الحقائق التالية :

١ — أن الله سبحانه وتعالى قد نسب صلح الحديبية إلى نفسه وسماه في محكم كتابه فتحاً مبيناً ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويعم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾<sup>(٢)</sup> فأنى لأى حاكم في أية دولة إسلامية ، بعد الرسول ﷺ أن يضمن أن ما يعقده من معاهدات يؤيده فيه من الله عز وجل نصره وهدايته وتام نعمته ؟ ومن هنا فإننا لا نرى القياس على صلح الحديبية أصلاً . ذلك أن صلح الحديبية لم يكن ليم لولا وحى الله إلى نبيه بقبول ما قبله فيه . وما كان كذلك لا يعد قاعدة عامة يجوز القياس عليها . بل هو مما صح فيه قول الفقهاء عن الوقائع النبوية التى لا يقاس عليها : « قضية عين لا محمول لها » .

٢ — إن صحة المعاهدة وجواز عقدها لا يتوقف على قياس أو استدلال بسابقة لأن الأصل في عقد المعاهدات هو تحقيق مصلحة الأمة المسلمة والدولة المسلمة . والمرجع في ذلك هو القواعد المقررة في أصول الفقه تحت عنوان « المصالح المرسلة » وفي أبواب الضرورة وما إليها .

فما حقق مصلحة الأمة الإسلامية من المعاهدات فإمضاؤه جائز بلا خلاف ، ولا يحتاج إلى فتيا بصحة الإقدام عليه . وما كان مهدراً لمصلحة الأمة أو مضيعاً لها فإمضاؤه غير جائز بلا خلاف — كذلك — وإذا وافق عليه بعض المسلمين فهو لا يلزم غيرهم ممن لم يوافق عليه . لأن أحدا لا يملك إهدار حقوق المسلمين أو التنازل عنها . فإن فعل ففعله مردود عليه ولا يحتاج به على غيره .

٣ — إن حقن دماء المسلمين ، وحفظ حياة الشباب ، وتجنب الدولة الإسلامية ويلات الحرب ، كل ذلك لا يجوز أن يكون سبباً لتبرير عقد دولة إسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية . فالمسلمون لا يعتبرون حياة أبنائهم ودماءهم أغلى من أن تراق في سبيل الله أو في سبيل الوطن

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى ح ٩ ص ٢١٨ ، ٢١٩ باب المهادة على النظر للمسلمين .

(٢) سورة الفتح الآيات ١ ، ٢ ، ٣

الإسلامى . لأن ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعِدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَارَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١)

٤ — إن الإسلام يجيز أن تعقد الدولة الإسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية بشرط أن يجنح الأعداء للسلم ، ومعنى الجنوح للسلم — على ما قرر أئمة التفسير — هو أن يتخلى أعداء الدولة الإسلامية عن عدوانهم ، وأن يردوا إلى المسلمين ما يكونوا قد اغتصبوه منهم من أموالهم وأرضهم وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ (٢)

وتحقق شروط مثل هذه المعاهدة . أو توافر مبررات عقدها أمر تقديرى متروك تقريره لأولى الأمر فى الدولة الإسلامية . وهو يخضع لظروف وأمر لا يحصرها عد ، ولا يتوفر الإمام بها على كثرتها وتشعبها للأفراد العاديين ...

ونعود بعد ذلك إلى ما بدأنا بتقريره ، فنكرر أن الاستدلال بقضية صلح الحديبية على عدم إلزام الشورى ، أو على إلزامها ، استدلال غير صحيح . وأن الاستدلال بالقضية ذاتها على جواز عقد المعاهدات بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، استدلال فى غير محلة . فلا صلح الحديبية كان محلاً للشورى . ولا الأحكام بعد النبى ﷺ يجدون مثل ما كان يجد من تأييد الوحى وتسديده . فليس أمام هؤلاء إلا الأمة يستشيرونها وينزلون عنه رأى أولى الرأى فيها . وقد أغنى الله نبيه عن ذلك . فكما أنزل عليه فى حروبه ملائكته ، أيدته بروح منه ، وسدد الوحى قوله وفعله .

## بعث جيش أسامة

أما موقف أبى بكر من بعث جيش أسامة فالواقع أن أبى بكر إنما كان ينفذ فى ذلك وصية رسول الله ﷺ وقد كان — عليه الصلاة والسلام — هو الذى جهز جيش أسامة وأشرف على ذلك بنفسه ثم منعه من الخروج مرض رسول الله ﷺ فكل ما فعله أبو بكر فى هذا الشأن إنما هو تنفيذ أمر رسول الله ﷺ الذى خرج الجيش قبل موته من المدينة فعلاً ، ثم رأى قائده أن يقيم — حين اشتد مرض رسول الله ﷺ — على مقربة منها ليرى ما يكون من أمر هذا المرض . فلما تولى أبو بكر الخلافة أمر أسامة أن يخرج لما كلفه به الرسول ﷺ وقد كان جواب أبى بكر فى ذلك لمعارض خروج الجيش حاسماً فى تقرير ما قدمنا ، إذ قال لهم ، « ما كنت لأمنع بعثاً أنفذه رسول الله ﷺ أو يوافقها وإنما كان أمراً نبوياً ينفذه فحسب .

(١) سورة التوبة آية ١١١

(٢) سورة الأنفال آية ٦١

## حروب الردة

ومن المعروف أن أبا بكر — رضى الله عنه — قد رأى — قبل غيره من الصحابة — وجوب قتال من ارتد من العرب بعد وفاة الرسول ومن منع الزكاة منهم — غير أن هذا رأى لم يعد في النهاية رأى أبى بكر وحده . وإنما وافقه عليه المعارضون لذلك من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد روى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — في هذا الشأن « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » وليس من شك في أن للإمام أو الحاكم أن يبدى رأيه في الشورى ، وأن يقدم الأدلة التى تقنع الناس به وذلك ما فعله أبو بكر إذ استدل بحديث الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »<sup>(١)</sup> وبين وجه الاستدلال بهذا الحديث بقوله : « فإن الزكاة حق المال » ومن ثم فقد وافقه على الدليل والاستدلال به مخالفوه أول الأمر وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — . وإذا صح ذلك — وهو صحيح لا ريب فيه — فإن أبا بكر لم يخالف أهل الشورى فيما انتهوا إليه ، وإنما هم الذين وافقوه فيما بدأ به .. ولم يكن — كما يقول بعض الباحثين — « يخالف رأى الذى أشار به المسلمون بما يقرب من الإجماع » .

## تقسيم أرض العراق

وأما موقف عمر بن الخطاب من تقسيم أرض العراق بعد فتحها ، فإنه أيضا دليل على أخذه بما تنتهى إليه الشورى وليس دليلا على إهداره إياها . ذلك أن المروى بأسانيد صحيحة أن عمر قد استشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشار عليه عامتهم بقسمتها كما قسمت خيبر حين فتحها رسول الله ﷺ وأشار عليه على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل بعدم قسمتها حتى تبقى موردا للمسلمين في أجيالهم المتعاقبة . فاقتنع عمر برأيهما وبدأ يشاور في المسألة المسلمين حتى أقنعهم برأيه واستجابوا له فلم يقسم أرض العراق .

## الصحيح هو التزام الحاكم بتنفيذ ما تنهى إليه الشورى :

وإذا تبين هذا فإنه يصبح ، بيننا أن الحاكم — وقد وجبت عليه الشورى — يجب عليه أن يلتزم نتيجةها التى ينتهى إليها رأى أكثر المشيرين وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه في تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة .

(١) الحديث في صحيح البخارى ح ٩ ص ١٣٨ باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء .

وانظر صحيح مسلم ح ١ ص ٥١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ / ٣٣ / ٢١ .



وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعاً — من فعل الرسول وصاحبيه — أن الشورى متى انتهت إلى رأى وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه . ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ في الخروج في غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية .. على الأقلية التى لم يؤخذ برأيها أن تكون أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ولا يصح اتباع غيره .. وليس للأقلية أن تناقش من جديد رأياً اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ . وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنّها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إنجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر . والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشدّ وأكبر .. فكان ﷺ وهو المعصوم عن الخطأ — يستشير أصحابه .. ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » وقال الأستاذ محمد رشيد رضا « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله يتبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى — أو مجال الشؤون الدستورية — ثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم ، وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية وأن تشريع الإسلام فى معالجته إياها قد جاء من العموم والمرونة بحيث يسمح للأمة الإسلامية أن تختار للقيام بواجب الشورى الشكل الذى يلائم الأوضاع المختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة . وخارج نطاق الأمور الأساسية التى سبق لنا بيانها فإن بقية المسائل بمشورة المختصين فيها ، بحيث يحققون المصالح والغايات التى يجب على هذه الدولة تحقيقها .

## ثانياً : العدل

لعل المكانة التى جعلها الإسلام فى تشريعه للعدل لم تجعلها له أية شريعة سابقة ، ولم يبلغ مثلها مكان العدل فى أى نظام قانونى قديم أو حديث . وليس أدل على ذلك من آيات القرآن الكثيرة التى تحض على العدل وتأمّر به : أمراً مجملًا شاملاً للشئون كلها — فى العديد من الآيات — وأمراً مفصلاً خاصاً ببعض الأمور التى يتوقع فيها الحيف والظلم — فى بعض الآيات الأخرى — فمن آيات القرآن التى جاء فيها الأمر بالعدل على وجه العموم والإطلاق — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿٢﴾ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به ﴿٣﴾ وقد يبدو للبعض أن هذه الآية الكريمة يقتصر نطاقها على التطبيق في مجال القضاء ، والحكم في المنازعات ، وبناء عليها — وفق قواعد العدالة . غير أن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب إليه جماهير المفسرين لكتاب الله إذ يقررون أن « المراد من الحكم في هذه الآية هو ما كان عن ولاية عامة أو خاصة » .

وكما فرض القرآن فيما بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، فرضه أيضاً فيما بينهم وبين أعدائهم ﴿٤﴾ ولا يجرمكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴿٥﴾ وقد يحمل الحب — كما يحمل الكره — بعض القلوب على الحيف والجور تحقيقاً لما يظنونه مصلحة لمن يحبون . ولذلك يحذر القرآن من مثل هذا الحيف فيخاطب المؤمنين ﴿٦﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴿٧﴾ والقسط هو العدل .

وليس المفروض بنصوص القرآن الكريم هو العدل في الحكم والفعل فحسب ، بل كذلك حتى في القول ﴿٨﴾ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴿٩﴾ .

وقد نص القرآن الكريم على وجوب فرض العدل على الناس ولو بالقوة . قال تعالى ﴿١٠﴾ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴿١١﴾ .

وفي فهم هذه الآية الكريمة قال ابن تيمية « فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه .. فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد » .

## تحريم الظلم

وكما أمر القرآن الكريم بالعدل وحض عليه ورغب فيه ، نهى عن الظلم وكره فيه وحذر منه ، وبين عاقبة الظالمين فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿١٢﴾ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴿١٣﴾ وجعل من وظائف الرسول ، وأسباب نزول القرآن الكريم التحذير من الظلم فقال تعالى : ﴿١٤﴾ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴿١٥﴾ ولم يبح القرآن للمسلم أن يجهر بالسوء

(٥) سورة الأنعام آية ١٥٢

(٦) سورة الحديد آية ٢٥

(٧) سورة الشورى آية ٤٢

(٨) سورة الأحقاف آية ١٢

(١) سورة النحل آية ٩٠

(٢) سورة النساء آية ٥٨

(٣) سورة المائدة آية ٨

(٤) سورة النساء آية ١٣٥

من القول إلا في حالة ظلمه قال تعالى ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ﴾<sup>(١)</sup> بل لقد جعل القتال مباحا في حالة الظلم ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾<sup>(٢)</sup> وبين سبحانه عاقبة الظلم والظالمين في آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾<sup>(٤)</sup>

وقد عنى الرسول ﷺ .. في أحاديث كثيرة بالأمر بالعدل والنهي عن الظلم . وبين عاقبة العدل في حق الحكام فجعل أول السبعة الذى يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله « الإمام العادل » وحذر ﷺ من الظلم في أى شأن كان فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »<sup>(٥)</sup> .

ومن مجموع هذه الآيات والأحاديث استخرج الفقهاء قواعد إيجاب العدل وتحريم الظلم حتى قال ابن تيمية إن « الظالم يستحق العقوبة والتعزير وهو أصل متفق عليه .. وقد نص على ذلك الفقهاء .. ولا أعلم فيه خلافا » وقرر تلميذه ابن قيم الجوزية أن العدل هو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وإن السياسة العادلة جزء من الدين ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان : فثم شرع الله ودينه ...

## ثالثاً : الحرية

### السلطة والحرية .

تعد مشكلة الصراع بين السلطة والحرية من أعقد المشكلات التى تواجه الباحثين فى تاريخ وأصول الأنظمة السياسية والدستورية . وعلى الرغم من اتفاق المفكرين من رجال القانون والسياسة ومن علماء الاجتماع فى مختلف لأمم ، وفى كافة العصور على أن الحرية هى الغاية السامية التى تتطلع إليها الأنظمة الحاكمة ، والنظريات السياسية ، والقوانين الموضوعة لتنظيم العلاقات الاجتماعية — على الرغم من ذلك — فإن الحرية كانت ، ولا تزال ، بعيدة عن أن يحدد لها معنى معين يقبله الجميع أو أن يتفق بصدد ممارستها على طريقة معينة . وحتى فى المجال السياسى حيث يبدو أن للحرية معناها الواضح وهو « عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين » فإنه يندر أن يبقى هذا المعنى على هذه الدرجة من الوضوح وخاصة حين تتفاوت الأطراف

(١) سورة النساء آية ١٤٨

(٢) سورة الحج آية ٣٩

(٣) سورة الكهف آية ٥٩

(٤) سورة الشعراء آية ٢٢٧

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ح ٣ ص ١٦٩ بلفظ ( الظلم ظلمات يوم القيامة ) كتاب المظالم . باب الظلم ظلمات يوم القيامة . وانظر الحديث بلفظه فى صحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٩٦ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم . رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ .

المتصارعة في تحديد معنى الحرية . ويقسم الباحثون في الفقه الدستوري الحديث ، الحرية إلى شعب عديدة ، فهناك حرية الرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية التعليم ، وحرية الملكية ، والحرية الشخصية .. ولعل حرية الرأى هى الأصل فى هذه الشعب والأقسام جميعا وهى على أى حال ألصق هذه الحريات بالنظام السياسى للدولة . ولذلك فسوف نكتفى هنا ببيان مدى كفالة الإسلام لحرية الرأى — بل أمره بها — واعتباره إياها حقا أساسياً للإنسان لا يجوز الاختلال به .

## كفالة الاسلام لحرية الرأى .

وليس من شك — عندى — فى أن التشريع الإسلامى يذهب فى اعتباره لهذه الحرية واحتفائه بها إلى مدى ندر أن تصل إليه المذاهب السياسية أو النظم الدستورية الوضعية ومرد ذلك فيما أرى إلى اعتبار الإسلام ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، تتضمن « حقهم فى الاختيار » فى اختيار الرأى ، واختيار الفعل أو الموقف الذى يترتب على هذا الرأى . وليس أوضح فى الدلالة على هذا المعنى مما يقرره القرآن الكريم فى قصة آدم وزوجه . فقد بين القرآن كيف نهاهما الله عن الأكل من إحدى شجرات الجنة . ثم كيف خالفا هذا النهى ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا ﴾ ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ (١) وترتب على هذه المعصية خروجهما من الجنة مع قول الله تعالى لهما ﴿ فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكَ مِنِّي هُدًى فَمِن تَبِعِ هَدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى . وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ (٢)

فتعبير هذه الآيات عن فعل آدم وزوجه بالأكل والمعصية ثم التعبير باتباع الهدى أو الإعراض عنه ، هذه التعبيرات مجتمعة تبين بوضوح دلالة هذه الحادثة من تاريخ البشرية على أن « الحق فى الاختيار » قدرة فطر الإنسان عليها ، ومارسها منذ كان .

وقد مضى الإنسان يمارس حقه فى هذا الاختيار منذ أن وجد على الأرض حتى قال القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْعَذَابُ ﴾ (٣) فمخلوقات الله جميعا تسجد له إلا بنى الإنسان ، فإن منهم الساجدين ومنهم الكافرين أو منهم المطيع ومنهم العاصى . وهذا اختيار محض .

وإذا كان ما قدمنا صحيحا — وهو عندى صحيح لا ريب فيه — فإنه يكون صحيحا من وجهة نظر إسلامية ، ذلك التصور الذى يقول أنه من حق الإنسان أن يمارس دائما حريته أو حقه أو الاختيار وأن الحرية فى هذا التصور قدرة لدى الإنسان ، أو فطرة فطر عليها ، ليس لأحد — كائنا من كان — أن يمنعه إياها أو يحرمه ممارستها ...

(١) سورة طه آية ١٢١

(٢) سورة طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) سورة الحج الآية ١٨ .

## سيرة الرسل جميعا تؤكد حرية الرأى

وحياة رسل الله جميعا — يحكيها القرآن — كانت كلها بيانات بالحجة ، وجدالا بالبرهان الذى يقبله العقل ، ويخضع له الفكر ، قبل أن يسلم به القلب ، وتستجيب له عاطفة الإيمان . فها هو نوح بعد أن لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يقول له قومه : ﴿ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ (١) وها هو هود يقول لقومه ﴿ أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ (٢) وليس أدل من هذه المجادلات التى يحكيها القرآن بين رسل الله وأقوامهم على مدى إقرار الإسلام — دين الله منذ كان الإنسان — بحق الناس فى حرية التفكير وحرية الرأى . فمن البين أن الجدل يقتضى الأخذ والرد ، أى : يقتضى إلقاء الأنبياء بحججهم إلى الناس وسماع ردود الناس على هذه الحجج ، وليس أبعد مدى من تلك الحرية .

## القرآن والسنة يقرران حرية الرأى .

ولقد بين القرآن لرسول الله ﷺ كيف تكون دعوته إلى ربه ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ (٣) بل إن القرآن ليبين لرسول الله أنه لا سبيل إلى الحجر على حرية الناس فى التفكير أو الاعتقاد وأن الأمر فى ذلك إليهم يختار كل منهم لنفسه ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٤) بل إن القرآن ليقرر فى ذلك تقرير الحقيقة الواقعة ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٥) وسبيل التعامل مع هؤلاء الذين لا يؤمنون هو ما أمر القرآن به الرسول ﷺ ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ (٦) .

وليس أعظم كفالة لحرية الرأى ، حتى للمخالفين فيه ، من هذه السبيل ... وإذا كانت هذه هى أحكام القرآن الكريم — مصدر تشريع الاسلام الأول — فى شأن مسألة العقيدة والإيمان — وهى أعظم مسائل الدين على إطلاق ، فهل يجوز بعد ذلك أن يقال أن تعاليم هذا الدين تحجر على الناس آراءهم فى النواحي الأخرى لحياتهم الاجتماعية أو السياسية ؟ لا شك أن ذلك مما تأباه نصوص القرآن وروحه ومنهم المسلمون وعملهم فى مختلف العصور . ولن يستطيع أحد أن يأتى على مثل هذا القول بدليل من تشريع الإسلام أو

(١) سورة هود آية ٣٢

(٢) سورة الأعراف آية ٧١

(٣) سورة النحل آية ١٢٥

(٤) سورة يونس آية ٩٩

(٥) سورة يوسف آية ١٠٣

(٦) سورة الأنبياء آية ٢٤

تاريخ رسوله ، أو تاريخ الراشدين ممن حكموا به . ويكفينا تدليلاً على ذلك أن نذكر حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه لأصحابه : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت » (١) ... رواه الترمذى .

## الجهر بالرأى واجب وليس مجرد حق أو رخصة

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ما سبق أن أشرنا إليه من إيجاب شريعة الإسلام على المسلمين أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر . والواقع أن تقرير واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعتبر سبقاً تميزت به شريعة الاسلام في مجال الحرية . ولم تصل إلى مثله بعد أية شريعة من الشرائع الوضعية ..

## العلماء المسلمون وحرية الرأى السياسى .

ولم يكن المسلمون في ذلك إلا متبعين لسنة رسول الله ﷺ مهتدين بمثل قوله — عليه الصلاة والسلام — : « الدين النصيحة » قلنا لمن ؟ قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٢) وقوله ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » (٣) . وقد توالى عصور الإسلام وعلماؤه العاملون لا يكتفون حقاً ولا ينصرون باطلاً ولا يهابون ذا سلطان بل يجهرون بأرائهم في شئون السياسة والحكم ذاكرين قول جابر — رضى الله عنه — : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا — يعنى السيف — من عدل عن هذا — يعنى المصحف » ( ذكره ابن تيمية في السياسة الشرعية ) ولا يعنى ذلك أن علماء الإسلام فهموا من شريعته أن يخرجوا محاررين لكل حاكم يميل أدنى ميل من أحكام شريعة الله ولو كان متأولاً وآخذاً بقول ظاهر الضعف لمصلحة يراها وإنما كانوا في هذه الحالات يكتفون بالقول والنصح والإرشاد والبيان . وادخروا الأخرى للحالات التى لا يجدى علاجها سواها . عاملين بحديث رسول الله ﷺ : « فى النهى عن الخروج عن الحاكم المسلم » إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان » (٤) ( رواه البخارى ) .

وفيما دون ذلك اكتفوا كما قلنا بالجهر بالحق والأمر بالمعروف بلا خوف من حاكم أو غيره ، إذ كانت قلوبهم خالصة للعبودية لله متحررة من سلطان كل سلطان سواه ، حتى قال قائلهم « الحرية حرية القلب ،

(١) الحديث في سنن الترمذى ح ٣ ص ٢٤٦ أبواب البر . رقم ٢٠٧٥

(٢) الحديث في صحيح مسلم ح ١ ص ٧٤ كتاب الإيمان . باب بيان أن الدين النصيحة . رقم ٩٥ / ٥٥

(٣) الحديث في سنن الترمذى ح ٣ ص ٣١٨ أبواب الفتن . باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر رقم ٢٢٦٥ .

— انظر مجمع الزوائد ح ٣ ص ٦٧ رقم ٥٥١٤ .

(٤) الحديث في صحيح البخارى ح ٩ ص ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أموراً تستكرونها .

— انظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٧٠ كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأفراد في غير معصية . رقم ١٧٠٩ / ٤٢

والعبودية عبودية القلب . أى من كان موصول القلب بالله تعالى ، كامل الطاعة له ، مستيقنا من قدرته وقهره ونفاذ إرادته وأمره . هو الحر حقا أما غير هؤلاء ممن تعلقت قلوبهم بالدنيا وأصحابها وطمعوا فيما عند الناس ونسوا ما عند الله فهم غير أحرار ولو كانوا بين الناس من ذوى المكانة والجاه أو كانوا عند ذوى السلطان من المقربين المكرمين .

بمثل هذا الفهم عاش علماء الإسلام حياتهم ، يعلمون الناس دينهم ، ويبنون لهم أحكام شريعتهم ، ويقولون رأيهم فى سلوك حكامهم . رأيهم المعير عما فهموه من أصول الإسلام وقواعده ، وما استنبطوه من شريعته التى أمرهم مبلغها عن الله — عز وجل — ألا يخافوا فى الحق لومة لائم ....

ويروى التاريخ من مواقفهم فى ذلك ما لا يحيط به الحصر ، فمن ذلك ما يرون مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى ، من أن عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، بعث إلى عامله بالمدينة ليأخذ العهد على الناس بأن يبايعوا من بعده بالخلافة ولديه الوليد وسليمان . فامتنع من ذلك سعيد بن المسيب — رضى الله عنه — وخوطف كثيرا ليعدل عن امتناعه فلم يقبل وصمم عليه حتى ضرب فى ذلك ستين سوطا وما بايع . ودعى سعيد بن المسيب إلى ثلاثين ألفاً ليأخذها — هدية من الوالى — فقال « لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم » ..

وهذا أبو جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس ، يدعو سفيان الثورى فيقول له عظمى أبا عبد الله ، فيجيبه سفيان . وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت ؟ فيقول المنصور : ما يمنحك أن تأتينا ؟ فيقول سفيان . قال الله تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ (١) . فهو يقول له رأيته فيه بجرأة لا يعرفها إلا من وصل بالله قلبه ، ويعلن له أنه من الذين ظلموا ، ومن الذين لا يعملون بما علموا ، ولذلك يأتى أن يأتى إليه أو يخاطبه . حتى يقول المنصور فيه « ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا مرارا » .

ولقى هارون الرشيد ، فضيل بن عياض — وكان من العباد الزاهدين — فسلم عليه وقال له — يالها من كف — ما أليها إن نجت من عذاب الله — عز وجل — ووعظه وعظاً شديدا فكان من قوله له « إياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن رسول الله ﷺ قال « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة » (٢)

ولم يكن ذلك مسلك العلماء المسلمين فى العصور الأولى للإسلام فحسب حين كان العهد قريبا بزمان النبوة ، والاستشراف قويا إلى سيرة الصحابة — رضوان الله عليهم — بل ظلت تلك سيرة العلماء فى كل

(١) سورة هود آية ١١٣

(٢) انظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٦ كتاب الإمارة .

عصور الإسلام على امتدادها الطويل ، فالتاريخ يحكى لنا عن النووى ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وكثيرين غيرهم من المتأخرين مثل هذه المواقف التى قدمناها وأشد مع غلبة الظلم فى عصور هؤلاء وتفشى الجور والبعد عن الحق ، وقد كانوا يلاقون فى سبيل الحق الذى يصدعون به التعذيب والسجن والقتل أحيانا . وهم ثابتون على الحق لا يدهنون ، ولا يشترتون رضاء المخلوقين بسخط الخالق ولعل ذلك كله ليس إلا مصداق قول رسول الله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى قائمون بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأمر الله بهم ظاهرون » (١) .

وبعد . فآين مما قدمنا قول القائلين « لا علاقة بين الاسلام والسياسة » ؟ ولم كانت هذه المواقف من علماء الإسلام إذن ؟ أكانت طلبا للدنيا وسعيا وراء الجاه ؟ .. كلا فالذى لا مرأ فيه أن الدنيا كانت تسعى إليهم ويفرون منها ، والمناصب تعرض عليهم فيرفضونها ..

فلم تكن مواقفهم تلك إلا صادرة عن علمهم بهذه الشريعة التى أخلصوا لها وحدة واحدة . وأنه لا يجزى عن العالم فيها علمه ما لم يكن مقرونا بالعمل . وأن خير العمل ما كان نصحا للأمة ، وأمر بالمعروف وصدعا بالحق . فآين من ذلك كله علماؤنا اليوم ؟

وبقدر ما تعتبر هذه المواقف تطبيقا صحيحا لتعاليم الإسلام ، وتاريخا مجيدا لعلمائه ، فإنها تعتبر شهادة عدل وخير للحكام المسلمين الذين لم تغرهم الدنيا بجاهها ، ولا الحكم بسلطانه كى يقهروا الرأى الحر والنصيحة المخلصة . وإن التاريخ لينبئ بصدق أن الحاكم العادل هو الذى تزدهر الحرية فى عهده . حتى أنه لا يخطئ من يقول أن عدل الحاكم وحرية الرعية يتلازمان دائما . وأن ظلم الحاكم وجوره يقترن أبدا باختفاء الرأى الحر والكلمة الصادقة فى المجتمع الذى يسوده الظلم والقهر .

## رابعا : المساواة

### معنى المساواة

يعد مبدأ المساواة من أهم المبادئ الدستورية التى تستند إليها الأنظمة السياسية الحديثة والمعاصرة . وقد بدأ تقرير هذا المبدأ فى العصر الحديث فى « إعلان الحقوق الفرنسى » الصادر فى سنة ١٧٨٩ والذى يعد أكثر إعلانات الحقوق شهرة لأنه أحرز قيمة عالمية بتبنى معظم دساتير العالم لمبادئه وتضمنها نصوصا تدل بوضوح على التأثير به .

والمقصود بمبدأ المساواة هو أن يكون الأفراد المكونين لمجتمع ما متساوين فى الحقوق والحرىات والتكاليف

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٠١ مسند معاوية بن أبى سفيان .



والواجبات العامة . وألا يكون هناك تمييز في التمتع فيما بينهم بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو العقيدة . غير أن هذه المساواة هي مساواة قانونية وليست مساواة فعلية . مساواة قانونية بحيث يخضع الأفراد الذين تتماثل ظروفهم لذات القواعد التي تحدد الحريات والحقوق العامة . وليست مساواة فعلية بحيث تطبق القواعد ذاتها على جميع الأفراد مهما تباينت الظروف التي يخضع لها كل منهم أو دون نظر إلى مدى اختلاف هذه الظروف ، إذ كما تخل التفرقة بين المتماثلين بمبدأ المساواة فإن التسوية بين غير المتماثلين تتضمن إخلالا أكبر وأخطر بهذا المبدأ ، ولذلك يسمى هذا المبدأ بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد ترتب على الأخذ بمبدأ المساواة أمام القانون زوال امتيازات النبلاء والأشراف في فرنسا عقب الثورة الفرنسية . وكذلك ترتب على تقرير هذا المبدأ القضاء على تبعية الإنسان للأرض وخضوعه لأصحابها من الإقطاعيين ، كما كان الحال في العصور الوسطى . ويعتبر مبدأ المساواة أمام القانون حجر الزاوية في تنظيم وتقرير الحريات العامة التي لا يقوم تقريرها ويستمر إلا باحترام مبدأ المساواة أمام القانون فإذا أهمل هذا المبدأ انهار تنظيم الحريات العامة ، أو أصبح غير ذي قيمة في الواقع العملي .

ويعالج فقهاء القانون الدستوري الوضعي ، والباحثون في النظم السياسية ، عدة مظاهر لتطبيق هذا المبدأ يجعلون لها أهمية خاصة ، من بينها المساواة أمام القضاء ، والمساواة في تولي الوظائف العامة والمساواة أمام المصالح العامة وغيرها . إلا أنهم مع ذلك يتفقون على أن المساواة أمام القانون تتضمن في جوهرها كل مظاهر المساواة الأخرى التي تمثل بدورها مضمون هذا المبدأ في صورته الكاملة . ومن ثم فإنه يكفي تقرير المبدأ ذاته لتقرير هذه المظاهر كلها أى لتقرير مضمونه .

ومع وجود هذا الاتفاق على تقرير مبدأ المساواة أمام القانون ، فإن الباحثين يختلفون حول الأصل الذي يمكن إرجاع هذا المبدأ إليه . فيرى بعضهم ذلك الأصل في فكرة العقد الاجتماعي التي يفسرون بها أصل في نشأة الدولة بينما يرى آخرون أن نظرية القانون الطبيعي — الذي يعتبرونه اسمى وأولى بالاحترام من القانون الوضعي — هي التي يمكن أن يرد إليها هذا المبدأ .

## المساواة في شريعة الإسلام

فإذا انتقلنا إلى الشريعة الإسلامية فإننا نجد فيها لمبدأ المساواة مكانا مرموقا بين قيمها الأساسية التي تقررها مصادر هذه الشريعة والتي طبقها رسول الله ﷺ . وأصحابه . وقد كان تقرير هذا المبدأ في القرآن الكريم وفي سنة الرسول ﷺ ، عند ظهور الإسلام وانتشاره ، سبقا لشريعته في زمانها ومكانها يشكل في واقع العرب انقلابا أساسيا في مفاهيمهم عن أسس التفاضل بين الناس وأسباب الفخر التي تحوزها بعض القبائل أو البيوت دون بعض ..

وبينما كان العرب تسيطر على حياتهم هذه المفاهيم نزل القرآن الكريم يقرر : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) . ووقف في المسلمين رسول الله ﷺ . يقول : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى ، أو فاجر شقى . أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب » (٢) . (رواه أبو داود بسند صحيح) .

وخطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فكان مما قال للمسلمين بل للناس أجمعين : « يا أيها الناس : ألا إن ربكم عز وجل واحد . إلا وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربى على أعجمى ألا لا فضل لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا قد بلغت ؟ قالوا : نعم قال : ليلغ الشاهد الغائب » (٣) . (رواه الأمام أحمد في مسنده)

## لا استثناء على مبدأ المساواة في الإسلام

وإذا كانت نظرية المساواة أو أحكامها في التشريعات الوضعية تعرف بعض الاستثناءات التي يتمتع بها بعض الأفراد كالحكام وأعضاء الهيئات التشريعية فإن مبدأ المساواة الذي تقرره الشريعة الإسلامية لا تنطبق في ظله مثل تلك الاستثناءات . ذلك أن أساس هذا المبدأ (أو علقته) هي وحدة الأصل الإنساني ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ و ﴿ كلكم لآدم وآدم من تراب ﴾ أما التقوى التي تشير النصوص السابقة إلى تفاضل الناس بها فلا تأثير لها على تطبيق مبدأ المساواة في حياة الناس . ذلك أن محل التفاضل بالتقوى في الآخرة لا في الدنيا ، أمام الله لا بين الناس .. وليس أدل على ذلك من حادثة المرأة التي اتهمت بالسرقة ، فحاول بعض الصحابة أن يشفع لها ، فغضب لذلك رسول الله ﷺ . وخطب الناس فقال : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٤) وعلى أساس من هذا الفهم كانت أول خطبة خطبها أبو بكر — رضى الله عنه — بعد توليه الخلافة تتضمن إقراراً صريحاً بعزمه على تطبيق مبدأ المساواة أمام القانون فقال « والضعيف فيكم قوى عندي حتى أخذ له حقه ، والقوى ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه » . ومن هذا أيضاً ، كان رسول الله ﷺ . وأبو بكر وعمر يقيدون عامة الناس من أنفسهم .

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) الحديث في سنن أبي داود ح ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ كتاب الأدب . باب في التفاخر بالأحساب . رقم ٥١١٦ .

(٣) الحديث في مسند الإمام ح ٥ ص ٤١١ مسند ( حديث رجل من أصحاب النبي — ﷺ — ) .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ح ٣ ص ١٣١٥ كتاب الحدود . باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهي عن الشفاعة في الحدود

وكما تسوى بينهم في القضاء الذى يمثلون أمامه . فالقضاء في الشريعة الإسلامية واحد للناس جميعا . ولا تعرف مبادئ هذه الشريعة ، كما لم يعرف تطبيقها على امتداد القرون — نظام المحاكم الخاصة في تشكيلها ، أو الخاصة في إجراءاتها كما تعرفه القوانين الوضعية .. ولذلك كان الخلفاء ورعاياهم من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون أمام القاضى الذى يمثل أمامه عامة الناس . ويتبع في إجراءات التقاضى ما ينطبق على هؤلاء كما ينطبق على غيرهم . وليس من شك أن هذا يعد أحد نتائج الأخذ بمبدأ المساواة الذى قرره النصوص سالفه الذكر . فإن تقرير هذا المبدأ في الشريعة الإسلامية كان جزءا من أحكام هذه الشريعة ذاتها . ومن ثم فإنه ينبغي أن يفهم ويحكم هذا المبدأ — وغيره من مبادئها — في إطار التشريع الإسلامى لا في إطار غيره من التشريعات . وفي المجتمع الإسلامى وليس في سواه من المجتمعات .

### خامساً : جواز مساءلة رئيس الدولة

#### ومدى وجوب الطاعة

تختلف الأحكام الخاصة بجواز مساءلة رئيس الدولة في أنظمة الحكم الحديثة والمعاصرة من دولة إلى أخرى . فبعض الدول تقرر دساتيرها أن رئيس الدولة ليس محلاً للمواخظة عن تصرفاته وأعماله . ولو بلغت التصرفات حد خرق القوانين أو الاعتداء عليها . كما كان يقرر دستور سنة ١٩٢٣ م في مصر ( م / ٣٣ ) والذى كان يتضمن نصاً على أن ذات الملك مصونة لا تمس . وتقرر بعض الدساتير جواز مساءلة رئيس الدولة عن بعض الأعمال التى يأتيتها في حالات خاصة ، أو إذا شكلت هذه الأعمال خطورة معينة . وإلى ذلك ذهب الدستور الفرنسى ، والدستور المصرى الصادر سنة ١٩٦٤ ( م / ١١٢ ) الذى تضمن النص على جواز مساءلة رئيس الدولة عن الأفعال التى تعد خيانة عظمى ، أو التى تمثل عدم ولاء للنظام الجمهورى . وقد تقرر في نصوص بعض الدساتير الأخرى جواز مساءلة رئيس الدولة في نطاق أوسع من هذا النطاق ، حيث يسأل رئيس الدولة عن جرائم الخيانة العظمى والجرائم العادية أيضاً . وتشترط هذه الدساتير — عادة — أغلبية برلمانية معينة لإصدار قرار اتهام رئيس الدولة بإحدى هذه الجرائم . وقد أخذ بهذا المذهب الدستور اللبنانى ( م / ٦٠ ) والدستور المصرى الصادر في سبتمبر ١٩٧١ ( م / ٨٥ ) وما تقدم يتضح أن الاتجاه الذى تسير نحوه الدساتير الحديثة هو توسيع نطاق جواز مساءلة رئيس الدولة بشموله للجرائم العادية ( أى المنصوص عليها في القوانين الجزائية للدولة ) بالإضافة إلى جرائم الخيانة العظمى وما في حكمها . وهذا المبدأ هو المبدأ المقرر أصلاً في الشريعة الإسلامية . فوفقاً لأحكامها ليس ثمة تمييز بين رئيس الدولة وغيره من الأفراد في خصوص مساءلته عن مخالفة القوانين . فضلاً عن تقرير مبادئ الشريعة الإسلامية جواز مساءلة رئيس الدولة عن تصرفاته في شئون الحكم . فكما قررت الشريعة الإسلامية لرئيس الدولة — متى قام بواجباته — حق الطاعة والنصرة على المحكومين ، واعتبرت الخروج عليه من هذه الحالة « بغياً » يجب أن يكف — ولو بالقوة — فاعله . فإنها جعلت للأمة حق مساءلته حين يقصر في أداء واجباته أو ينحرف بسلطاته .

## حق الأمة في محاسبة الحاكم

ويستدل على حق الأمة في مساءلة رئيس الدولة بما يجب على أفرادها من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبما لها من حق الشورى ، فلولا أن الأمة رقية على رئيس الدولة لما لزمه أن يستشيرها ، وقد قدمنا الكلام عن هذين الأصلين من أصول الأحكام الإسلامية المتعلقة بالحياة السياسية . وكذلك يستدل على حق الأمة في مساءلة الدولة بالنصوص القرآنية التي تصف بأوصاف الذم بعض أفعال بعض الحكام ، ومن هذه النصوص قول الله تعالى ﴿ فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ﴾ <sup>(٢)</sup> فمن يأتي من الحكام فعلاً يعتبر إفساداً في الأرض ، أو اتباعاً للهوى ، يجب على الأمة أن تأمره بالكف عن مثل هذه الأفعال وإلا كانت مقصرة في واجبها في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وإن لم يستجيب وجب عليها أن تحاسبه على ذلك وتساؤه عنه .

وكذلك ورد في السنة النبوية العديد من الأحاديث التي تقرر جواز مساءلة رئيس الدولة عما يأتيه في مباشرته لعمله من مخالفة لأحكام الشريعة . فقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » <sup>(٣)</sup> وقال — عليه الصلاة والسلام — : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة » <sup>(٤)</sup> (مسلم) وكذلك أمر الرسول ﷺ بالطاعة للحاكم في غير معصية فقال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » <sup>(٥)</sup> (رواه مسلم) . وقال ﷺ : « إنما الطاعة في المعروف » <sup>(٦)</sup> (رواه مسلم) . فهذه الأحاديث تقرر قاعدة الطاعة للحكام في المعروف ، وتدل بذلك على وجوب عدم الطاعة في غير المعروف أو في المعصية . وهي تقرر كذلك مبدأ جواز مساءلة الحكام عن أفعالهم ، وبديهي أن المساءلة واردة على نفس الأفعال التي أبيح فيها — أو في مثلها من أوامر الحكام — عدم الطاعة باعتبارها معاصي لا يجوز إتيانها . وبناء على فهم هذه النصوص من القرآن والسنة ، كان مما قاله أبو بكر — رضي الله عنه — في أول خطبه خطبها بعد توليه الخلافة « إني قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنتم فأعينوني . وإن أسأت

(١) سورة ص آية ٢٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤

فقومونى » وقال عمر بن الخطاب « أنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله » وكذلك كان هذا الفهم هو الدافع الذى حدا بعدد غير قليل من الفقهاء فى مختلف المذاهب إلى تقرير جواز عزل رئيس الدولة عن ولايته إذا أتى ما يعتبر إخلالاً بواجباته أو وظيفته . أو إذا ظهر منه ما يعد فسقاً أو جوراً أو مخالفة لكتاب الله وسنة الرسول ﷺ . وليس أدل من مثل هذا الفهم على مدى أخذ شريعة الإسلام وفقهه بقاعدة جواز مساءلة رئيس الدولة بكل ما تستتبعه هذه المسألة من نتائج — أهـ .

ويقول الدكتور : محمد عزة دروزه فى كتابه ( الدستور القرآنى والسنة النبوية فى شئون الحياة ) تحت عنوان : الشورى فى الدولة :

لقد جاء أولاً فى سورة الشورى المكية هذه الآية : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (١) حيث تقرر أن الشورى بين المسلمين صفة لازمة من صفاتهم . بحيث أنهم لا يقدمون على أمر ولا يعملون عملاً إلا بعد التشاور ، ونتيجة لما يتقرر بينهم به . وهذا التقرير يتضمن تلقيناً مطلقاً بحيث يتناول المسلمين أفراداً وجماعات . ويدخل ضمن ذلك الأمور العامة المشتركة ولا سيما ما هو متصل بشئون الدولة بطبيعة الحال . بل إن صيغة الآية وروحها تلهمان أن الشئون المشتركة العامة هى المقصودة فيها . ثم نزلت آية آل عمران المدنية هذه :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ (٢) فكانت حاسمة وتشريعية فى وجوب مشاورة أولى الأمر المسلمين فى الشئون العامة . وليس فى القرآن تحديد لكيفية المشاورة وظروفها . شأنه فى كثير من الأمور ، ولم يثبت عن النبى ﷺ تحديد تشريعى لذلك أيضاً وكل ما أثر أنه كان يستشير خاصة أصحابه أو بعض فئات وزعماء بأعيانهم فى الأمور الملحة والعزائم الهامة . فليس من التجوز أن يقال : أن لرئيس الدولة فى الإسلام وأولى الأمر والحل والعقد والعلم فيها أن يعينوا الكيفية التى يرونها صالحة وكافلة للغرض من الشورى ، وإن من الجائز أن تتعدل هذه الكيفية وتبديل من حين لآخر وفقاً لمقتضيات الظروف والأحوال وتطورها . ولقد قيل : أن المقصود بأولى الأمر فى آيتى النساء ٥٩ / ٨٣ اللتين نقلناهما قبل قليل ، وورد فيهما إيجاب طاعتهم ورد الأمور إليهم بالإضافة إلى طاعة الله ورسوله ، وإن أهل الحل والعقد المأمور بمشاورتهم فى آية آل عمران — هم العلماء . وهذه الكلمة تنصرف منذ ألف سنة ، حينما تطلق إلى علماء الدين .

ومع أنه ليس من محل للجدل فى أن علماء الشريعة ممن يجب أن يكونوا فى عداد أهل رأى والحل والعقد والمشورة ، فإنهم ليسوا جميع من تجب مشاورتهم ، ولا جميع من يجب اعتبارهم أهل رأى والحل والعقد والشأن أيضاً ، كما أنه من التجوز الكبير أن يصرف تعبير ﴿ أولى الأمر ﴾ الوارد فى آيتى النساء إليهم ، لأنه

(١) سورة الشورى آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

لم يكن في عهد النبي ﷺ . وفي ظروف نزول هذه الآيات ، طبقة علماء الشريعة الاسلامية بالمعنى الذى عرف فيما بعد . ولأن من الثابت أن النبي ﷺ كان يولى بعض أصحابه بعض مهام الدولة كالقيادة وأمانه المال والصدقات ورأسه البعوث السياسية والتبشيرية وقد ولى شابا حديث السن ولاية مكة عقب الفتح . فمن الطبيعى أن يصرف هذا التعبير إلى هؤلاء وأفعالهم في عهد النبي ﷺ وبعده ، أى العلماء والناهبين والزعماء والخبراء في مختلف الشؤون بصورة عامة ..

ومشاورة ولى أمر المؤمنين للمؤمنين وتشاور المؤمنين فيما بينهم إنما يكون فيما ليس فيه نص صريح محكم لم ينسخ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . أما ما كان فيه نص مثل ذلك فلا تصح المشاورة والتشاور والاجتهاد فيه ..

ويتبادر لنا أن آية النساء هذه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ (١) صلة ما بهذا البحث فاتباع غير سبيل المؤمنين جملة عامة مستمرة المدى بل وجملة ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ يمكن أن يكون لها قوة الاستمرار بعد النبي ﷺ بمخالفة كتاب الله وسنة رسوله أو مناوأتها . ومعنى اتباع غير سبيل المؤمنين ، الشذوذ عما عليه جمهور المسلمين .

وسبيل المؤمنين التى توجب الآية اتباعها وتندرج الذين يشذون عنها إما أن تكون من مقتضيات ما في كتاب الله وسنة رسوله من نصوص وأحكام صريحة أو ما فيهما من توجيهات وتلقينات ومبادئ وخطوط عامة . والثانية تقرر بتدبر العلماء وأولى الحل والعقد والخبرة من المؤمنين بطريق الشورى وما يتقرر في ذلك يكون سبيل المؤمنين الواجب اتباعه ويكون الانحراف عن الأولى أو الثانية أو كليهما اتباعا لغير سبيل المؤمنين ومخلا لإلذار الله تعالى . وإذا خرج الانحراف عن نطاق الفكر إلى حيز العمل والإفساد والإرجاف والتأليب فيكون محل عقوبة السلطان أيضا إذا لم يرتدع ويتب لأنه يدخل في نطاق آيات سورة المائدة هذه : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ (٢)

(١) سورة النساء آية ١١٥

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٣ ، ٣٤

وآيات سورة الأحزاب هذه

﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلاً . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً . سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ (١)

وهناك أحاديث نبوية عديدة وردت في الكتب الصحيحة قد تدعم ذلك ، منها حديث رواه أبو داود عن أبي ذر عن النبي ﷺ قال : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربة الإسلام » (٢) وحديث رواه مسلم عن عرفة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان » (٣) وعن أسامة بن شريك عن رسول الله ﷺ قال « يد الله — عز وجل — على الجماعة فإذا شذ الشاذ منهم اختطفه الشيطان كما يختطف الذئب الشاة من الغنم » (٤) ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن أية جماعة أو مجتمع من المسلمين خرجوا عن أحكام كتاب الله وسنة رسوله نصاً وتوجيهاً لا يكونون على سبيل المؤمنين الحق الذي تنذر الآية من يتبع غيره .. والله تعالى أعلم . أ . هـ

ونرى تنمة للفائدة أن نسجل هذا البحث الذي كتبه الاستاذ / محمد السعدى في مجلة الفكر الإسلامى . حتى يكون القارئ على بينة من الأمر . كتب تحت عنوان : العنف السياسى في الحركات الاسلامية المعاصرة . « موضوع العنف السياسى من أدق المواضيع وأكثرها إشكالية وإثارة للجدل في عالمنا المعاصر لأنه يمس أهم المؤسسات في المجتمع وهي مؤسسة الحكم والدولة ويتناول العلاقة بين المجتمع والنظام الحاكم والموقف الذى يجب على المجتمع أن يتخذه تجاه السلطة .

والحق أن سبيل هذه الدراسة شائك وعراً لأنها تتصدى لموضوع حساس اختلفت فيه الآراء ، وتشعبت فيه الاجتهادات ، والتبس فيه فهم النصوص القرآنية والحديثية ، المتغيرة . وهذا كله يفرض على الدارس الحيطة والحذر ، والرؤية والاستقصاء وهو يعالج النصوص وأقوال الفقهاء المفسرين ، ويحاول التصحيح والترجيح ، ويطلق الأحكام ويستخلص الأسباب والنتائج .

(١) سورة الأحزاب الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

(٢) الحديث في سنن أبي داود ح ٥ ص ١١٨ كتاب السنة . باب في قتل الخوارج . رقم ٤٧٥٨ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٧٩ . كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين . رقم ١٨٥٢ / ٥٩ .

(٤) الحديث في المعجم الكبير للطبراني ح ١ ص ١٥٣ رقم ٤٨٩ . وقال محققه . وفي سنده ابن أبى المساور . قال في المجموع ( ٢١٨ / ٥ )

وهو ضعيف . قلت بل متروك وكذبه ابن معين كما في التقريب .

وما دام الأمر يتعلق بموقف الدين من مسألة العنف السياسى ، والحركات الإسلامية فعلى الباحث أن يلتزم الصدق ويجتهد فى طلب الحق ويستبعد نوازع العصبية والهوى ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خير بما تعملون ﴾ (١)

وهذه الدراسة لا تتعرض لموضوع العنف السياسى ضد المستعمرين والمعتدين المحاربين فهذا أمر لا خلاف على جوازه — بل وجوبه عند مختلف المذاهب والمدارس الإسلامية ، وإنما تعالج مسألة اللجوء إلى العنف ضد السلطة الحاكمة الظالمة التى تخرج على تعاليم الإسلام .

## أولاً : الجذور التاريخية للعنف السياسى .

كان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ( ٤٧ ق . هـ — ٣٥ هـ ) — رضى الله عنه — أول حادث عنف سياسى فى تاريخ الدولة الإسلامية بحيث قتله البغاة بحجة ضعفه ولينه فى سياسة الناس ، وإيثاره أقرباءه بالمناصب والمغانم ، ولقد فتح هذا الحادث باب فتنة دموية عانت منها الدولة الإسلامية أشد العناء وما زالت تعانى إلى يومنا هذا ، ومهد الطريق لظهور الأحزاب السياسية والفرق والمذاهب المختلفة وزرع الفرقة والانقسام فى صفوف الأمة الإسلامية . وكان ذلك الحادث سابقة جعلت الخروج على الدولة والسلطة الحاكمة أمراً شائعاً خلال مختلف العهود الإسلامية .

وما أن تولى الخلافة على بن أبى طالب ( ٢٣ ق . هـ — ٤٠ هـ ) — رضى الله عنه — حتى ثار عليه جند الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان ( ٢٠ ق . هـ — ٦٠ هـ ) ورفضوا مبايعته بحجة أنه فرط فى دم عثمان ولم يعاقب قتلته . كما ثارت عليه السيدة عائشة وظلمه الزبير واصطدموا معه فى موقعة الجمل ، للسبب ذاته . وسرعان ما ثار ضده فريق ثالث هم الخوارج الذين خرجوا عن على — رضى الله عنه — ( ٣٧ هـ ) وحاربوه بسبب قبوله للتحكيم فى النزاع بينه وبين معاوية وكفروه لذلك ، كما كفروا الأمويين وحاربوهم قرابة قرن من الزمان بسبب اغتصابهم للحكم ، واستئثارهم بالسلطة ، وأموال الأمة مما أدى إلى انهك الدولة الأموية والمصارعة فى انهيارها تحت ضربات الثورة العباسية عام ( ١٣٢ هـ ) .

وفى عام ( ٦١ هـ ) ثار الإمام الحسين — رضى الله عنه — ( ٤ — ٦١ هـ ) على الأمويين فى خلافة يزيد بن معاوية بسبب جور بنى أمية واستئثارهم بالحكم وانتهت ثورته بمأساة كربلاء التى راح ضحيتها الحسين وجميع أنصاره .



وفي عام ( ٦٣٠ هـ ) ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية بسبب ظلمه وانتهت ثورتهم باستباحة الأمويين للمدينة ثلاثة أيام وقتل العديد من صحابة رسول الله ﷺ .  
وفي العام ذاته ثار عبد الله ضد الأمويين في عهد يزيد أخذ البيعة لنفسه في مكة ولكنه قتل وهزم اتباعه وآلت ثورته إلى الفشل عام ( ٧٢ هـ ) في عهد عبد الملك بن مروان .  
وفي عام ( ٦٥ هـ ) قامت ثورة التوابين الشيعية بقيادة سليمان بن صرد ضد الأمويين انتقاماً لمقتل الحسين ، وانتهت الثورة بمقتل سليمان وهزيمة اتباعه .  
وشهد عام ( ٦٦ هـ ) ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي على الأمويين ثاراً لآل البيت وفشلت كسابقتها .  
وفي عام ( ٨٣ هـ ) ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الدولة الأموية وشاركه في هذه الثورة أكابر التابعين كسعيد بن جبير والشعبي ومجاهد وعطاء وغيرهم بسبب جور الأمويين في الحكم وتجبرهم في الدين واستذلالهم للضعفاء وإماتتهم الصلاة كما قال سعيد بن جبير رحمه الله . ولم يكتب لتلك الثورة النجاح وانتهت بمقتل ابن الأشعث وسعيد بن جبير .

وشهد عام ( ١٢٢ هـ ) ثورة فاشلة ضد الحكم الأموي بقيادة زيد بن علي بن الحسين ( ٧٩ — ١٢٢ هـ ) الذي كان يرى أنه أحق بالخلافة من البيت الأموي . وفي العهد العباسي قامت ثورات كثيرة نذكر منها ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن الذي ثار بالمدينة ضد المنصور سنة ١٤٥ هـ وثورة أخيه إبراهيم في البصرة في نفس العام بحجة أحقية آل البيت بالحكم وبسبب فساد الحكم العباسي . وكان الفشل مصيراً للثورتين . وفي عام ( ٢٤٩ هـ ) قاد علي بن محمد ثورة الزنج ضد الدولة العباسية وقد قامت تلك الثورة بسبب الظلم الاجتماعي الذي مورس ضد الزوج وفقراء العرب حيث أساء السادة الأغنياء والإقطاعيون معاملتهم واستغلوهم أبشع استغلال ، وحرموهم أبسط الحقوق الإنسانية . وظلت هذه الثورة تهدد الدولة العباسية قرابة عشرين سنة .

وفي العصر الحديث يمكن أن نشير إلى بعض الثورات والحركات التي لجأت إلى العنف كالحركة الوهابية التي ظهرت عام ١٧٤٥م في نجد بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ( ١٧٠٣ — ١٧٩٢ ) الذي دعا إلى تطهير الدين مما شابه من البدع والخرافات والشركيات ، ولجأ إلى القوة لتغيير الواقع المخالف للإسلام وقال « من لم يجب بالحجة والبرهان قتلناه بالسيف والسنان » وانطلق من قوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (١) .

وفي عام ١٩١٦ قامت الثورة العربية ضد الأتراك بسبب سياسة التتريك وفساد الحكم العثماني واستبداده وفي عام ١٩٤٨م شهدت مصر اغتيال رئيس الوزراء المصري محمود فهمي النقراشي من قبل جماعة

الأخوان المسلمين رداً على حظر الجماعة . وفي ٢٦ أكتوبر ( تشرين الأول ) عام ١٩٥٤م وقعت محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر في الاسكندرية من قبل تنظيم الإخوان الذى تعرض لضربة انتقامية قاصمة من الرئيس جمال عبد الناصر ، لم يستطع الإخوان بعدها أن يستردوا قوتهم ونفوذهم إلى يومنا هذا . وفي عام ١٩٦٥م تعرض بقايا الإخوان في مصر لضربة عنيفة أخرى من قبل عبد الناصر بعد اتهامهم بالإعداد لانقلاب عسكري ضد ثورة يوليو / تموز . وأعدم سيد قطب الذى كان يرأس جماعة الإخوان آنذاك .

وفي عام ١٩٧٤ قامت جماعة إسلامية يقودها الدكتور الفلسطيني صالح سرية بالهجوم على الكلية الفنية العسكرية في مصر ضمن خطة لقلب نظام حكم أنور السادات والاستيلاء على السلطة .

وشهد عام ١٩٧٦ حادث قتل الدكتور محمد حسين الذهبي وزير الأوقاف المصرى على يد جماعة التكفير والهجرة .

وفي عام ١٩٧٩ قامت الثورة الإسلامية في إيران وأطاحت بغرش الشاة المستبد رغم الحماية الإستعمارية ورغم الجيش الذى قالوا عنه أنه خامس قوة عسكرية في العالم . وفي السادس من أكتوبر تشرين الأول ١٩٨١م أنهت رصاصات خالد الإسلامبولي حياة الرئيس أنور السادات بسبب اعترافه بالعدوان الصهيوني وعدم العمل بأحكام الشريعة الإسلامية .

ومن السرد التاريخي الموجز السابق نستخلص أن العنف السياسى ضد السلطة في العالم الاسلامى قديم يعود إلى القرن الهجرى الأول ولم ينقطع في عهد من العهود .

والحركات الإسلامية التى استخدمت العنف قادها رجال يتمتعون بمكانة دينية مرموقة فقد كان بينهم صحابة مثل طلحة والزبير ومعاوية والحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وكان بينهم رجال من كبار التابعين كسعيد بن جبير والشعبى وزيد بن على بن الحسين . وفي العصر الحديث يمكن أن نذكر حسن البنا ، وسيد قطب في مصر ، ومحمد بن عبد الوهاب في الحجاز ، ومحمد باقر الصدر في العراق ، ومصطفى السباعي في سوريا .

والحركات التى انتهجت العنف والثورة منها ما كان سليم المنطلقات كحركة الحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، ومنها ما ضل السبيل كحركة الخوارج والقرامطة وإخوان الصفا وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما حظى بقاعدة جماهيرية واسعة كمعركة معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن الزبير ، وعلى بن محمد قائد الزنج ، ومنها ما فشل في استقطاب التأيد الشعبى كالخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما تمتع باحترام وعطف جماهير المسلمين كحركاتى الحسين وعبد الله بن الزبير ومنها ما نال الاستنكار والإدانة كحركة الزنج والقرامطة والتكفير والهجرة . وهذه الحركات منها ما حارب السلطة بدعوى كفرها كالخوارج والتكفير والهجرة ، ومنها — وهو الغالبية — ما حارب السلطة بدعوى ظلمها وجورها .

## ثانيا : أسباب العنف السياسى

لا شك أن السبب الرئيسى للعنف السياسى هو ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وسياسات السلطة السياسية التى تفرضها على جماهير المسلمين بالقهر والإكراه . إنه التناقض بين القول والعمل ، بين النظرية والممارسة بين الأمانى والواقع .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه ( الصوحة الإسلامية بين الجحود والتطرف ) . يجب أن نكون شجعاناً ونعترف بأن كثيراً من تصرفاتنا هى التى دفعت هذا الشباب دفعا إلى ما نسميه التطرف ، فنحن ندعى الإسلام ولا نعمل به ونقرأ القرآن ولا نطبق أحكامه . ونزعم حب الرسول ﷺ ولا نتبع سنته ، ونسجل فى دساتيرنا أن دين الدولة هو الإسلام ولكننا لا نعطيه حقه فى الحكم والتشريع والتوجيه .

ولا ريب أن الاستبداد السياسى ومصادرة الحريات وحرمان المواطن من حرية التعبير والمعارضة والنقد ضمن سلطة القانون يدفع الراغبين بالتغيير والإصلاح إلى العمل السرى واللجوء إلى العنف والقوة للوصول إلى الأهداف المطلوبة حيث لا يبدو أمامهم أى سبيل آخر .

والظلم الاجتماعى ، وعدم تكافؤ الفرص ، والتفاوت الطبقي واستئثار القلة المترفة بثروات المجتمع ، وحالة الفقر والضعف التى تعيشها الغالبية المسحوقة دوافع قوية للعنف .

وهذا ما بدا واضحا من خلال ثورة الزنج فى العصر العباسى ، وانتفاضة ١٨ — ١٩ / كانون الثانى ١٩٧٧م ، وحركة قوى الأمن عام ١٩٨٦م فى مصر وثورة الخبز فى تونس ١٩٨٤م .

والتفريط فى الحقوق القومية ، وموالة أعداء الدين ، وخيانة الحكام ، من أشد حوافز العنف . فالأمة لا تتسامح مع الخونة والعملاء أبداً ، ولا تغفر لهم مطلقا . وقد يختلف الناس فى مشروعية الثورة على الحاكم المستبد الظالم ولكنهم قلما يختلفون فى مشروعيتها ضد الحاكم الخائن . ومن هنا فقد رأينا العالم الإسلامى كله يتعاطف مع تنظيم الجهاد الذى تولى تصنيعه السادات ويرفع الرجال الذين تولوا هذا العمل إلى مصاف الأبطال . ولا ننس أيضاً أن الملك عبد الله قد اغتيل عام ١٩٥١م لنفس السبب .

ولجوء السلطة إلى البطش واستخدام العنف والتعذيب البدني والنفسي ضد المصلحين والمعارضين يرى الحقد والمرارة في نفوسهم ، ويدفعهم إلى التطرف الفكري والنزوع إلى العنف ، والقسوة تولد القسوة والعنف يستدعي العنف وشدة الضغط تؤدي إلى الانفجار . ومن المعروف أن الجماعات المتطرفة كجماعة التكفير والهجرة نبتت أفكارها في السجون ، ونمت أشواكها وراء القضبان . وشعور الشباب بالإحباط ويأسهم من حصول التغيير عن طريق النصيح والارشاد ومسألة الحكام خاصة بعد دراستهم لتاريخ الحركات الإسلامية مع الحكام ، وحماسهم وتعجلهم ورغبتهم في التغيير السريع ، كل ذلك يوجههم نحو ميدان العنف .

وهناك نوع من العنف السياسي ينشأ بسبب الجهل بأحكام الدين والتطرف العقيدى كذلك الذى وجدناه عند الخوارج والقرامطة والتكفير والهجرة . ومن الملاحظ أن العنف السياسي يزداد حين يتصاعد البطش والإرهاب والاستبداد ، وتتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية . والذين يظنون أن قسوة الانتقام وجحيم التنكيل والتعذيب كفيل بإنهاء المعارضة وكم الأفواه وشل حركة التغيير واهمون ، فقد تهدأ الحركة حيناً ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ومن الملاحظ كذلك أن العنف السياسي يكون محدوداً في المجتمعات المرفهة اجتماعياً واقتصادياً والتي تتمتع بالاستقرار السياسي . كما أن ظاهرة العنف محدودة في البيئات المتخلفة ثقافياً .

### ثالثاً : فلسفة العنف السياسي .

تختلف فلسفة العنف السياسي باختلاف المبادئ والمنطلقات التي تحكم الفرق الإسلامية والحركات التي اتخذت العنف والقوة المسلحة سبيلاً لتغيير النظام الحاكم الجائر . وسنعرض هنا مواقف بعض الجماعات والفرق الإسلامية في هذه المسألة :

#### ١ - موقف فقهاء أهل السنة :

معظم فقهاء أهل السنة يمتنعون الثورة المسلحة ضد الحاكم الظالم ولا يجيزونها إلا في حلة الكفر البواح أى الصريح الواضح الظاهر الذى لا يحتمل التأويل . ويعنى هذا بلغة الفقهاء إنكار معلوم من الدين بالضرورة كإنكار اليوم الآخر أو ربانية القرآن أو فرضية الزكاة أو حرمة الزنا والربا . ويرى هؤلاء الفقهاء أن الأمة يجب أن تصبر على الحكام الجائرين مهما اشتد جورهم ، وتبذل لهم النصيحة ، ولا تطيعهم ! إن أمروا بمعصية ويحتجون لموقفهم هذا بأحاديث منها :

« من رأى من أميره شيئاً فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شيراً فمات مات ميتة جاهلية »  
( البخارى ) (١) .

« من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » ( رواه مسلم ) (٢)

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا يا رسول الله أفلا ننبأهم عند ذلك ؟ قال لا . ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا محمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة » ( رواه مسلم ) (٣) .

عن عبادة بن الصامت قال : دعانا النبي ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان (٤)  
( البخارى ومسلم ) . « السمع والطاعة على المرء المسلم في ما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ( الشيخان ) (٥)

عن حذيفة قال « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت يا رسول الله ، أنا كنا في جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم قلت وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه يا رسول الله ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجايبهم قدفوه فيها . قلت : يا رسول الله ، فما ترى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك (٦) ( متفق عليه ) . يكون من بعدى

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٩ ص ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أموراً تنكرونها .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٨٠ كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع . رقم ١٨٥٢ / ٦٠ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٨١ كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم . رقم ١٨٥٥ / ٦٥ .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ح ٨ ص ٦٩ ، ٦٠ كتاب الفتن باب قول النبى سترون بعدى أمور تنكرونها .

— انظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٧٠ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية . رقم ١٧٠٩ / ٤٢ .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ح ٩ ص ٧٨ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية .

— انظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٦٩ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء إلا فى المعصية . رقم ١٨٣٩ / ٣٨ .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى ح ٩ ص ٦٥ كتاب الفتن باب الأمر إذا لم تكن جماعة .

— انظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ كتاب الإمارة . باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . رقم ٥١ /

أئمة لا يهتدون بهدائتي ، ولا يستنون بستتي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس قال قلت يا رسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال تسمع وتطيع للأمر وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك تسمع وتطيع<sup>(١)</sup> ( مسلم ) .

واعتمد هؤلاء الفقهاء في وجهة نظرهم على المنطق والواقع وعلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتفويت أدنى المصلحتين ، فقالوا : أن الخروج على الإمام الفاسق الفاجر يؤدي إلى الفتن وسفك الدماء وبث الفساد واضطراب البلاد وتوهين الأمر ، ويؤدي إلى فساد أكبر من فساد الصبر على ظلمه وجوره .

والجدير بالذكر أن الفقهاء يرون أن الإمامة تنعقد بالتغلب والقهر . فمن استولى على السلطة بالقوة وسيطر على البلاد ، وجبت طاعته برأ كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين .

يقول الامام أحمد بن حنبل : « ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة سمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه برأ كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين » .

يقول الأشعري في ( مقالات الإسلاميين ) . إن أهل الحديث اتفقوا على أن السيف باطل ولو قتل الرجال وسبيت الذرية ، وإن الإمام قد يكون عادلا ويكون غير عادل وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه » .

ويقول ابن تيمية ( ٦٦١ — ٧٢٨ هـ ) في منهاج السنة : إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم لأنه فساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ويكتب ابن القيم ( ٦٩١ — ٧٥١ هـ ) في « إعلام الموقعين » أن الواجب شيء والواقع شيء . والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب ، وينفذ الواجب بحسب استطاعته لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع .

فلكل زمان حكم والناس بزمانهم أشبه منه بأبائهم وإذا عم الفسوق وغلب أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولايتهم لعطلت الأحكام وفسد نظام الخلق وبطلت أكثر الحقوق . فأمام الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاضطراب والقيام بأضعف مراتب الإنكار ويكتب النووي في شرح مسلم ( ٢ / ٢٢٩ ) : وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقه ظالمين . وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة أنه لا ينزع السلطان بالفسق . وسبب عدم انزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين . فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه » .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٧٦ كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن — رقم ٥٢ /

ويكتب شارح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣٠ ما يلي :

« وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلا أنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفساد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا . والجزاء من جنس العمل ، فعلياً الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل .

وهناك قلة من فقهاء السنة أجازت وأوجبت الخروج على الحاكم الفاسق المتأدي في الجور والظلم بشرط امتلاك القدرة على ذلك . ومن هؤلاء ابن حزم الذي أفتى بجواز الخروج على الحاكم الظالم لأن الأحاديث المجيزة للخروج على الفاسق الظالم ناسخة في رؤية للأحاديث الآمرة بالصبر التي وردت في مبدأ الإسلام ، ولقوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلُوا فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي . حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ (١)

ولأنه يجب على المسلم إزالة المنكر ، ولا طاعة في معصية . ومن قتل دون ماله أو دينه أو مظلّمته فهو شهيد ( الفقه الاسلامي وأدلته ، ج ٦ ص ٧٠٩ ) . ومن هؤلاء أيضاً الإمام الغزالي الذي يقول في كتابه ( الاقتصاد في الاعتقاد ) والذي نراه ونقطع به أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط من غير فتنة ولا تهيج قتال ، وإن لم يكن ذلك إلا بتحريك قتال وجبت طاعته ، وحكم بإمامته ، فإن السلطان الظالم الجاهل متى ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان في الاستبدال به فتنة نائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له . ومن هذا الفريق أيضاً إمام الحرمين الجويني ( ٢١٩ — ٤٧٨ هـ ) صاحب كتاب ( غيات الأُمم في النيات الظلم ) الذي يطرح رأياً يبدو من أسلم الآراء وأكثرها منطقية وواقعية وانسجاماً مع روح الشريعة الإسلامية إذ يقول « إن المتصدي للإمامة إذا عظمت جنايته ، وكثرت عاديته ، وفشى احتكامه واهتضامه ، وبدت فصاحته ، وتتابع عثراته وخيف بسبب ضياع البيضة وتبدد دعائم الإسلام ، ولم يجد من ينصب للإمامة حتى ينهض لدفعه حسب ما يدفع البغاة فلا يطلق للآحاد في أطراف البلاد أن يثوروا فإنهم لو فعلوا ذلك لأبيدوا وكان ذلك سبباً في ازدياد الحزن وإثارة الفتن ولكن إن اتفق رجل مطاع ذو اتباع وأشياء ويقوم محتسباً أمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر وانتصب بكفاية المسلمين فليعض في ذلك قدماً والله نصيره » ص ٨٨ — ٨٩ .

ومن آراء العلماء المحدثين ثبت هنا رأى الدكتور عبد الكريم زيدان الذي ورد في كتابه ( الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ) ص ٥٠ — ٥٢ حيث يقول : أن المركز القانوني لرئيس الدولة هو مركز الوكيل بالنسبة للأمة فمن البديهي أن يكون من حقها عزله إذا خرج عن حدود وكرالته أو لم يقم بمهام الوكالة عنجزاً أو تقصيراً ولأن من يملك التعيين يملك العزل . يقول ابن حزم « فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ » فإذا زاغ عن شيء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق فإن لم يؤمن

أذاه ألا يخلعه خلع وولى غيره »

وإذا كان للأمة عزل رئيس الدولة فلها أن تباشره بواسطة ممثليها وهم أهل الحل والعقد بأن يسحبوا ثقتهم منه ويقرروا عزله ولكن قد لا يستجيب رئيس الدولة لهذا القرار وفي هذه الحالة يجوز للأمة استعمال القوة لتنجيته من منصبه إذا وجد المبرر الشرعى لذلك مثل خروجه السافر على نهج الإسلام وأحكامه . ولكن اللجوء إلى القوة مشروط بتوافر قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يكون العمل على إزالة المنكر مستلزما منكرا أعظم .

## ٢ — موقف المعتزلة

قال المعتزلة بجواز الثورة على الحاكم الظالم والخروج عليه ، واشترطوا لذلك أن يكون الثوار جماعة وأن يكون لهم إمام ، وأن يكون النصر محتملا لهم . واستدلوا لذلك بقوله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله عز وجل : ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ <sup>(٢)</sup> ( الحجرات : ٩ ) ، وقوله سبحانه ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ﴾ <sup>(٣)</sup> يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمزاني في كتابه ( تثبيت دلائل النبوة ) : « لا يحل لمسلم أن يخلى أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد أعوانا وغلب على ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور كما فعل الحسن والحسين وكما فعل القراء حين أعانوا ابن الأشعث في الخروج على عبد الملك بن مروان وكما فعل أهل المدينة في وقعة الحرة ، وكما فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية ، وكما فعل عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد في ما أنكروه من المنكر » .

## ٣ — موقف الخوارج

يعتقد الخوارج أنهم الفئة المؤمنة الناجية وأن من عداهم كفار خارجون عن الدين ، ويعتقدون كفر مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب . وقال الخوارج ببطلان الأحاديث التي تحصر ولاية أمور المسلمين في قریش وقرروا أن منصب رئاسة الدولة من حق كل مسلم تتوافر فيه شروط الإمامة بغض النظر عن نسبه وجنسه ولونه . وقالوا إن الإمام يختار بالبيعة لا بالتعيين وأوجب الخوارج الثورة على الإمام الفاسق الجائر ، وسلكوا سبيل الثورة المسلمة لنشر أفكارهم وإسقاط السلطة الحاكمة . ومن هذه المنطلقات جميعا حاربوا الإمام عليا — رضى الله عنه — لأنه قبل التحكيم وخالف القرآن في رأيهم ، وهذا ذنب مكفر عندهم ، وحاربوا الأمويين لأنهم بغاة كفر من جهة ومغتصبون للسلطة من جهة أخرى .

(١) سورة المائدة آية ٢

(٢) سورة الحجرات آية ٩

(٣) سورة البقرة آية ١٣٤



## ٤ - موقف الشيعة .

يرى الشيعة الأثنا عشرية أن الإمامة أصل من أصول الدين وهى واجبة وجوبا عقليا لأنها من دواعى العدل الإلهي ورعاية الخالق للمخلوقين . ويعتقدون أن الأئمة معينون من قبل الله وأنهم معصومون لا يخطئون ولذلك فهم يعتبرون الخروج على الإمام كالشرك بالله ، وكذلك الخروج على نائب الإمام الفقيه المجتهد . وما عدا هؤلاء من الحكام فهم بغاة مغتصبون للسلطة ، ولهذا رأينا الشيعة يحاربون الأمويين والعباسيين ويبدو أنهم توقفوا عن استعمال القوة ضد الحكومات المختلفة في فترة من الزمان بسبب المآسى التي تعرضوا لها والفشل الذريع الى آلت إليه ثوراتهم وانتفاضاتهم . وقصروا ولاية الفقيه على أمور الدين وأوكلوا أمور الجهاد والسياسة إلى الإمام الثاني عشر الغائب محمد بن الحسن المهدي ( ٢٥٦ هـ ) ولكن نظرا لطول غيبته ، وتعرض المسلمون لجور الحكام ، وعدوان الاستعمار رأى فقهاء الشيعة أنه لا بد أن تكون ولاية الفقيه عامة تشمل أمور السياسة والجهاد من أجل مصلحة المسلمين ، وبدأوا يعلنون ذلك منذ القرن الثاني عشر الهجرى . وقد قامت الثورة الإيرانية نتيجة لهذا التغيير في فكر الشيعة . كما ظهر نتيجة للفكر الجديد حزب الدعوة الإسلامية الذى أنشأه آية الله محمد باقر الصدر في العراق ، في أواخر ١٩٥٨ منتهجا السرية في نشاطاته وتحركاته . وبعد مدة لجأ الحزب إلى العنف والقوة ضد الحكم العراقي في السبعينات وأصدر فتوى أباح فيها دم رجال السلطة وكل المتعاونين معهم ودعا الشعب العراقي للثورة ، مما حدا بالحكم العراقي إلى إصدار قرار بإعدام الصدر يوم ١٩٨٠/٤/٨ م .

## ٥ - موقف الإخوان المسلمين :

يرى الإخوان المسلمون أن إقامة الدولة الإسلامية التي تحكم طبقا للشرعية الإسلامية واجب على كافة المسلمين ، وهم آثمون إن لم يعملوا على إقامتها وحجتهم في ذلك أن إقامة الحدود ، وإعلان الجهاد الإسلامى ، وتنفيذ أحكام الإسلام في شتى مجالات الحياة واجب ، وهذا كله لا يتم إلا بوجود الدولة الإسلامية . فإقامتها إذاً واجبة لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويرى الإخوان كذلك أن إقامة الدولة تستدعى وجود جماعة منظمة ترسم الطريق وتنظم الجهود وتحدد المراحل والوسائل ويرون كذلك أن إقامة الدولة تكون بإيجاد المجتمع المسلم وتأمين القاعدة الجماهيرية الواسعة ولا يعتبر الإخوان أنفسهم جماعة المسلمين الوحيدة بل يعدون أنفسهم فصيلا من فصائل الحركة الإسلامية الشاملة .

ويرى حسن البنا ( ١٩٠٦ - ١٩٤٩ ) مؤسس الجماعة أن دولة الإسلام لا تقوم بالوعظ والإرشاد فقط بل بالسيطرة على السلطة التنفيذية حيث يقول في رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٣٩ : « قد يكون مفهومنا أن يقنع المصلحون الاسلاميون برتبة الواعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذا لأحكامه .. وأما والحال كما نرى : التشريع الإسلامى في واد والتشريع الفعلى والتنفيذى في واد آخر فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض بأحكام الإسلام الخفيف

وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم . فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامي قرآني فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدي كل حكومة لا تنفذ أمر الله » .

ولكن الإخوان يرون أن استلام الحكم يجب أن يسبقه نشر الوعي والفكر الإسلامي بين الناس . يقول حسن البنا : « وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم . ونفوس الأمة على هذا الحال فلا بد من فترة تنتشر فيها مبادئ الإخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ( رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٤٠ ) والأخوان يرون أن استعمال القوة في سبيل إسقاط النظام لا يكون إلا بعد استنفاد جميع الوسائل السلمية ، يقول البنا في رسالة المؤتمر الخامس ص ٣٨ « إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدي غيرها وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة .

وقد عبر فقيه الإخوان الدكتور يوسف القرضاوي عن موقفهم من استخدام القوة فقال في كتابه « الحل الإسلامي فريضة وضرورة » ص ١٥٩ :

« اتفق فقهاء المسلمين على أن إزالة المنكر باليد تشريع لمن يملك القدرة على التغيير ، ويشترط ألا يترتب على إزالة المنكر منكر أكبر منه ، فالواجب هو التغيير باللسان والقلب حسب الاستطاعة حين تحين الفرصة » .

وبناء على ما سبق فإن التيار التقليدي المحافظ في جماعة الإخوان المسلمين يعارض عمليات الإغتيال والأعمال الفردية المشهورة ، ويعتبرها توريطا للجماعة ، ومبررا لمحاربتها والقضاء عليها من قبل الحكام المعادين لحكم الشريعة الإسلامية وينكر الإخوان صلتهم بأعمال الإغتيال والإرهاب التي نسبت إليهم ويدعون أن كل ما نسب إليهم من هذا القبيل دبرته السلطة للقضاء عليهم .

والتيار التقليدي الذي تمثله قيادات الإخوان التاريخية لا يكفر الحكام ولا الناس إلا في حالة الكفر البواح . أي : إنكار المعلوم من الدين بالضرورة . ومن هنا فإن هذا التيار لا ينطلق في محاربة الحكام ، واستعمال العنف ضد الأنظمة التي لا تطبق الشريعة من منطلق الاعتقاد بكفرها ، بل من منطلق الاعتقاد بظلمها وجورها ! يرى سيد قطب أن الحكام الذين لا يضعون أحكام الشريعة موضع التطبيق كفار خارجون عن الإسلام وأن كل من يطيعهم ويعترف بحقهم في التشريع والحكم بغير ما أنزل الله كافر أيضا .

يقول سيد قطب في كتابه ( في ظلال القرآن ) ( المجلد الرابع ، ص ١٩٩١ ) : « إن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله حكما معلوما من الدين بالضرورة ، لأنها تخرجه من عبادة الله وحده . وهذا هو الشرك الذي يخرج من دين الله قطعا وكذلك الذين يقرون المنازع على إدعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله ، فكلهم سواء في ميزان الله » .

ويقول في نفس المجلد ص ١٩٩٠ وهو يفسر قوله تعالى ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِن أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup> « أن الحكم من خصائص الألوهية .. من ادعى الحق فيها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته .. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى يحكم هذا النص وحده . وإدعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هي التي تخرج المدعى من دائرة الدين القيم . . فليس من الضروري أن يقول : ما علمت لكم من إله غيري ، أو يقول أنا ربكم الأعلى كما قالها فرعون جهرة ، ولكنه يدعى هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر » .

وكلام سيد قطب هنا يعنى بكل وضوح كفر كل الحكام الذين لا يحكمون بشريعة الإسلام سواء أنكروا وجوب الحكم بها أو لم ينكروا . وهو بذلك يرفض بحزم الفكر التقليدى الذى يفرق بين الكفر العملى والكفر العقيدى ، ويزداد الأمر وضوحا فيما نطالع تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup> حيث يقول « وإنه إما أن يكون الحكام قائلين على شريعة الله كاملة ، فهم فى نطاق الإيمان ، وإما أن يكونوا قائلين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون » ( فى ظلال القرآن ، ج ٢ ، ص ٨٨٨ ) .

ويطلق سيد قطب على المجتمعات الإسلامية اسم المجتمعات الجاهلية لأنها لا تدين بحاكمية الله ولا تلتزم بأحكام الدين ، ويبين أنه لا تفاهم ولا مصالح ولا تعايش مع المجتمع الجاهلى بل لابد من الحسم والمفاصلة ولابد من الثورة على النظام الجاهلى واستبداله بالنظام الإسلامى يقول فى كتابه ( معالم فى الطريق ) لا إله إلا الله ثورة على سلطان الأرض الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله » ص ٢٦ . ويقول فى نفس الكتاب « مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه ، هذا الواقع الذى يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامى والتصور الإسلامى ، والذى يجرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش » ( ص ٢٢ ) .

## ٦ — موقف جماعة الجهاد :

إن فكر جماعة الجهاد قريب جدا من فكر الإخوان المسلمين ، ومن فكر سيد قطب على وجه الخصوص . وتبدو هذه الجماعة وكأنها فضيل متحمس مستعجل متوثب من فصائل الإخوان المسلمين . فالجماعة ترى أن إقامة الدولة فرض دينى لأن الأحكام والفرائض لا تتم إلا بإقامتها ، وهذه الدولة تكون

(١) سورة يوسف آية ٤٠

(٢) سورة المائدة آية ٤٤

نواة للخلافة الإسلامية ، ولا سبيل إلى إقامة هذه الدولة إلا قتال الحكام الظالمين والطواغيت المستبدين .  
والحكام — في رأى الجهاد — كفار مرتدون بدأت ردتهم منذ سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وسبب  
ردتهم أنهم لا يحكمون بما أنزل الله . وهؤلاء الحكام لا يمكن التخلص منهم إلا بالسيف . وليس لهم حق  
السمع والطاعة لأنهم عطلوا أحكام الإسلام . وقاتل الطواغيت الكفرة فرض كالصوم والصلاة » ﴿ كتب  
عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ (١)

ولا تكفر هذه الجماعة جماهير المسلمين بل الحكام فقط . ولكنها توجب على المسلمين أن يغيروا الواقع  
المخالف لتعاليم الإسلام بالجهاد ، وترى أن ترك الجهاد هو السبب في ما يعيش فيه المسلمون اليوم من ذل  
ومهانة . وترفض جماعة الجهاد فكرة العمل وفق الشريعة التي حددها الحكام الكفرة بتكوين حزب إسلامي  
علني يشارك في البرلمان لأنها غير مجدية ولا تؤدي إلى إقامة الدولة المنشودة . فالنظام الحاكم لا يمكن أن يسمح  
للحزب الإسلامي أن يتجاوز حدوده ويستولى على السلطة . وترى الجماعة أن إقامة حزب إسلامي وفقا  
للقوانين السائدة أو المشاركة في البرلمان نوع من المساهمة في بناء دولة الكفر ، ونوع من الاعتراف بشرعية  
هذه الدولة . وهذا هو رأى سيد قطب الذي يرى أن الجماعة المسلمة يجب أن تهدم النظام الجاهلي لا أن  
تقويه وتدعمه بالمشاركة في مؤسساته ، وتعارض الجماعة أيضا فكرة جماعة التكفير والهجرة التي ترى اعتزال  
المجتمع والهجرة منه على أمل تحصيل القوة ثم العودة لتدمير النظام الكافر ، وتقول أن هؤلاء يجب عليهم توفير  
الجهد على أنفسهم وإقامة دولة الإسلام ببلدهم ، ثم الإنطلاق إلى الخارج .

وتعارض الجماعة أيضا الفصائل الإسلامية الأخرى التي تقعد عن الجهاد خوفا من الفشل لأنها لا تنفذ  
أمر الله بإقامة الدولة ولا تدرك أن الإسلام حين يحكم سيجد الترحاب حتى ممن لا يعرف الإسلام . ومن  
جبه أخرى فالجماعة ليست مسؤولة عن النتائج وهم بهذا يقصدون التيار التقليدي في جماعة الإخوان المسلمين .

وترفض جماعة الجهاد وجهة النظر القائلة : أين الطاقات والجهود ؟ يجب أن تتوجه لتحرير المقدسات  
والأراضي المحتلة من الصهيونية والإستعمار وترى أن الطريق السليم هو تحرير البلاد من الحكم الكافر ، لأن  
الحكام الكفرة هم أساس وجود الإستعمار في بلاد الإسلام ثم بعد ذلك يتم الإنطلاق تحت قيادة إسلامية  
لتحرير المقدسات وهم بهذا يتفقون مع وجهة نظر حزب التحرير الإسلامي .

والخلاصة أن جماعة الجهاد تبدأ من حيث ينتهى الإخوان المسلمون . فإذا كان الإخوان يقولون :  
إن آخر الدواء الكى ، فإن جماعة الجهاد تقول ليس هناك إلا دواء واحد أولاً وأخيراً ألا وهو الكى — ويبدو  
أيضا أن جماعة الجهاد لا تؤمن بهذا النفس الطويل في التربية والإعداد الذى يعتمد عليه الإخوان المسلمون لأنها

رأت من خلال التجارب والحن التى تعرضت لها الحركة الإسلامية أن هذا الطريق كان ينتهى بالفشل والإخفاق المرير حيث كانت الحركات الإسلامية تقمع بعنف كلما اقتربت من قطف ثمار الصبر والإعداد .

ويظهر واضحاً أن هذه الجماعة كانت متأثرة جداً بالتجارب التاريخية للحركات الإسلامية .

ولقد وضعت هذه الحركة فكرها موضع التطبيق حين قامت باغتيال السادات عام ١٩٨١م بعد أن أهدرت دمه وكفرته خاصة بعد أن أعلن أنه لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين . وخططت لإشعال ثورة شعبية تغير النظام ، كانت تأمل الحركة قيامها ونجاحها ، ولكن نجاح الجزء الأول من الخطة وهو الإغتيال لتوفر الإمكانيات والظروف ودقة التخطيط وجراًة المنفذين . وفشل الجزء الآخر لأن الحركة لم تكن تتمتع بالقاعدة الجماهيرية الواسعة .

## ٧ - موقف جماعة التكفير والهجرة :

تعتبر هذه الجماعة أكثر الجماعات الإسلامية تطرفاً ولغلاً فى العصر الحاضر . فهى تعتقد أن كل المسلمين كفرة مرتدون منذ القرن الرابع الهجرى لأنهم عصاة . وتعتقد أن كل عاص كافر . وهى تنحو نحو الخوارج فى هذا الاعتقاد . وتعتبر جميع الحكام كفرة مرتدين . وتعتبر كل من لا ينضم إليها كافراً . وكل من ينشق عنها بعد الانضمام كافراً مرتداً يستحق القتل ولا تعتد هذه الجماعة بالتاريخ الإسلامى لأنها تعتقد أن وقائعه غير ثابتة ، وترفض هذه الجماعة أقوال الأئمة والإجماع والقياس ، وتركز على الإحتجاج بالقرآن فقط . ويستطيع المرء أن يقول أن هذه الجماعة هى فئة قليلة من الناس تعيش فى محيط بشرى متلاطم يعجب بالكفر والردة .

وفكر هذه الجماعة كان إفرازاً للمعاناة الجسدية والنفسية التى تعرض لها قياديوها فى سجون مصر فى الستينيات ! فقد كان شكرى أحمد مصطفى زعيم ومؤسس الحركة أحد عناصر الإخوان المسلمين وقد تعرض للسجن والتعذيب . لقد نبت فكر الجماعة وراء القضبان وشب وترعرع تحت لسع الشياطين .

وبيين لنا عبد الرحمن أبو الخير أحد قيادى الجماعة فى كتابته : ( ذكرياتى مع الإخوان المسلمين ) أن نظام السادات استطاع اختراق هذه الحركة ودفعها إلى ممارسة العنف ضد فصائل إسلامية أخرى ، لم تقبل التعاون مع أجهزة النظام كى يحقق هدفه فى ضرب فصائل الحركة الإسلامية بعضها ببعض . وهذا ما أسموه فى حركة التكفير والهجرة : « العمل من خلال خطة العدو » الذى يقوم على تكتيك يتم من خلال التعاون بينهم وبين السلطة لتحقيق أهداف مشتركة .

يقول عبد الرحمن أبو الخير ، ص ٢٠ : « إنه بقولنا إن الأخ شكرى هو صائغ أكبر مأساة فى تاريخ الحركة الإسلامية ، لا نغنى سوى أنه قد بنى حركته على مبدأ حركى فاسد ، هو العمل من خلال خطة

العدو وهو مبدأ أساسى قد وظف الجماعة المسلمة لمصلحة الطاغوت بحيث لا يدري إمامها ولا أفرادها فلقى الجميع الضربة القاصمة .

ويبين عبد الرحمن أبو الخير أيضاً أن الحركة كانت مبنية على الطاعة العمياء والفردية المطلقة ، وكان الأفراد ينفذون الأوامر دون نقاش . وكان شكرى أحمد مصطفى ينفذ بعد مشاورة أفراد قليلين ما يريده هو . كما يبين أن عنف التعامل والشدة والغلظة كانت ميزة من ميزات تلك الجماعة .

لقد أقدمت الجماعة على ارتكاب خطأ قاتل حين قام بعض أفرادها بالاعتداء على بعض زملائهم المنشقين ، وحين قاموا باختطاف واغتيال الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف المصرية عام ١٩٧٦ م بسبب إدانته لأفكارهم ، مما أدى إلى تصفية الجماعة وإعدام مؤسسها شكرى أحمد مصطفى عام ١٩٧٧ م . قوله تعالى ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ ومن صفات المؤمنين الكريمة أنهم ينفقون مما آتاهم ربهم فى سبل الخير ، والبذل فيما فيه منفعة للفرد والمجتمع ، ورفعة الأمة وعلو شأنها وعزها .

وهناك أحاديث نبوية عديدة فيها حث على الإنفاق فى سبيل الله .  
عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى يا ابن آدم أنفق أنفق عليك » (١) (رواه الشيخان)

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال ، قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل : قال : « جهد المقل وأبدأ بمن تعول » (٢) (رواه أبو داود والحاكم وصححه)

وعن أنس — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع الفتنة السوء » (٣) (رواه الترمذى)

وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة . وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله عز وجل من رحيق الجنة » (٤) (رواه أبو داود)

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « سبق درهم مائة ألف درهم قالوا يا رسول الله وكيف ؟ قال رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ورجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها » (٥) (رواه النسائى)

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٢ ص ٦٩٠ ز ٦٩١ كتاب الزكاة . باب الحث على الصدقة وتبشير المنفق بالخلف . رقم ٩٩٣ / ٣٦ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ح ٢ ص ٣١٢ كتاب الزكاة رقم ١٦٧٧ .

— انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ح ١ ص ٤١٤ كتاب الزكاة . باب أفضل الصدقة جهد المقل .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ح ٢ ص ٨٦ أبواب الزكاة . رقم ٦٥٨ .

(٤) الحديث فى سنن أبى داود ح ٢ ص ٣١٤ كتاب الزكاة . باب فى فضل سقى الماء . رقم ١٦٨٢ .

(٥) الحديث فى سنن النسائى ح ٥ ص ٥٩ .

— انظر كنز العمال ح ٦ ص ٥٨٢ رقم ١٧٠١١ .

— كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ح ١ ص ٤١٦ .

وكان صلى الله عليه وسلم كثير النفقات والصدقات ، لا يدخر مالا ولا متاعا ، وكثير ما يستدين لينفق على بعض ذوى الحاجات وهو يعطى عطاء من لا يخشى الفقر أبدا ، وقد توفي ﷺ وليس عنده درهم ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم ، وفى ذلك يقول الحديث المشهور الذى خفى على بعض الطوائف روعته ، ودلالته على صدق نبوته وإخلاصه فى رسالته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه » (١).

جاءه مرة مال كثير فأنفقه ، إلا بضع دريهمات استبقاها ، إذ لم يجد لها طالبا ، فما عرف تلك الليلة النوم ، قلقا مما بقى عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتى سارع إلى انفاقها . وهكذا صح فيه قول صحابته الكرام « كان أجود من الرياح المرسلة » .

فالرسول ﷺ كان أسخى من السحاب المثلث بالمطر ، وأجرب بالخير من الريح المرسلة . ما سئل عن شيء فقال لا ، ولا أعرض عن طالب . وقد قال له ورقة بن نوفل : إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم .

وصدق القائل :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى	وفعلت ما لاتفعل الأنواء .
والبر عندك ذمة وفريضة	لامنة ممنونة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله .	حتى التقى الكرماء والبخلاء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء .

قوله تعالى ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرّون على الانتقام من بغي عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدرّوا عفوا كما قال يوسف — عليه الصلاة والسلام — لأخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله — ﷺ — عن أولئك البفر الثائنين الذين قصدوه عام الحديبية ونزولوا جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم منّ عليهم مع قدرته على الانتقام والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً .

قوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ .

قال ابن كثير : قوله تبارك وتعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ كقوله تعالى ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾<sup>(٢)</sup> الآية فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله تعالى ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أى لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك في الحديث ، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزاً وقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أى المعتدين وهو المبتدئ بالسيئة .

وقوله تعالى ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ أى ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم . ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه ولم يتعد — لم يظلم — فلا سبيل لأحد عليه . ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيغون في الأرض بغير الحق ﴾ أى : إنما الحرج والإثم على الذين يبدعون الناس بالظلم ، أو يزيدون في الانتقام ويتجاوزون ماؤد لهم ، أو يتكبرون في الأرض تجبراً وفساداً . ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أى هؤلاء لهم عذاب مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم ثم رغب سبحانه في الصبر والعفو فقال تعالى : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ . أى : صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ فإن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ . قال سعيد بن جبير يعنى لمن حق الأمور التي أمر الله تعالى بها أى لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن عبد الصمد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال سمعت الفضيل بن عياض يقول إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً فقل يأخى اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال لا يحتمل قلبي العفو ، ولكن انتصر كما أمرني الله عز وجل ، فقل له إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسع فإن من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال إن رجلاً شتم أبا بكر - رضى الله عنه - والنبي ﷺ جالس فجعل النبي ﷺ يعجب ويتسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبي ﷺ وقام فلحقه أبو بكر - رضى الله عنه - فقال يا رسول الله إنه كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان - ثم قال - يا أبا بكر ثلاث كلهن حق ، مامن عبد ظلم بمظلمة فيقضى عنها الله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، ومافتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده بها كثرة ، ومافتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة<sup>(٣)</sup> . قال ابن كثير هذا الحديث في غاية الحسن في المعنى وهو مناسب للصديق - رضى الله عنه - .

(١) سورة البقرة آية ١٩٤

(٢) سورة النحل الآية ١٢٦

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ح ٢ ص ٤٣٦ مسند أبي هريرة .



## « من مشاهد القيامة »

قال تعالى :

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۖ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ  
إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْذَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ  
خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ أَلَا إِنَّ  
الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۚ وَمَنْ  
يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ ۚ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم  
مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۖ إِنْ  
عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا ۖ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا  
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَزْوَجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ۚ وَيَجْعَلُ  
لِمَنْ يَشَاءُ عَاقِبًا ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

## تفسير المفردات

( خاشعين ) : خاضعين متضائلين ، ( ينظرون من طرف خفى ) : يُسارقون النظر من شدة الخوف .  
( نكير ) : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم . ( فرح بها ) : بطر لأجلها . ( رحمة ) أى : نعمة من صحة  
وغنى ، ( سيئة ) أى : بلاء من فقر ومرض وخوف . ( كفور ) : نساء للنعمة ذكَّار للبلية . ( يزوجهم ) .  
أى : يجعلهم جامعين بين البنين والبنات . ( عقيما ) أى : لا يولد له .

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الذين يظلمون الناس ويغيون في الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم على ما اجترحوا من البغى والعدوان بغير الحق — أردف ذلك بيان أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا ، وأنهم يعرضون على النار وهم خاشعون ، أذلاء ، ينظرون من طرف خفى ، وأن الذين آمنوا يقولون ، إن الكافرين لفي خسرة فقد أضاعوا النفس والأهل ، ولا يجدون لهم ناصراً يخلصهم مما هم فيه من العذاب فلا ملجأ يقيمهم من عذاب الله ولا ينكرون ما اقترفوه ، لأنه مكتوب في صحائف أعمالهم ، ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك ، فلا تأبه بهم ، ولا تهتم بشأنهم ، ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان ، وإنه يفرح حين النعمة ، ويحسد نعم ربه حين الشدة ، ثم قسم هيبته لعباده في النسل أربعة أقسام ، فمنهم من وهب للإناث ، ومنهم من وهب الذكران ، ومنهم من أعطى الصنفين ، ومنهم العقيم الذى لا نسل له . ولا معقب لحكمه فهو مالك الملك . يفعل ما يشاء ولا يكون إلا ما يريد .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ ومن يضل الله فماله من ولى من بعده ، وترى الظالمين لمارأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة إنه ما شاء كان ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضل فلا هادى له كما قال تعالى ﴿ من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضل فلن تجد له ولية مرشدا ﴾ ثم قال عز وجل مخبراً عن الظالمين وهم المشركون بالله . ﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب ﴾ أى يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ يقولون هل إلى مرد من سبيل ؟ ﴾ كما قال جل وعلا ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾

وكقوله تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتبّع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال — فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾ (١)

وقوله تعالى ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ أى وتراهم أيضا فى ذلك اليوم يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء — لأنهم عرفوا ذنوبهم وتكشفت لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفا منها ، وحذرا من الوقوع فيها ، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف ، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه ، وإنما ينظر ببعضها . ولما وصف حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال ﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أى ويقول المؤمنون يوم القيامة : إن المغبونين غبنا لاغبين بعده — هم الذين خسروا أنفسهم ، فدخلوا فى النار ، وحرموا نعيم الأبد ، وفرق بينهم وبين أحبائهم وأصحابهم وذوى قراباتهم . ثم صدقهم ربهم فيما قالوا فقال :

﴿ ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم ﴾ أى ألا إن الكافرين لفى عذاب سرمدى لا مهرب لهم منه ولا خلاص ، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأى سبيل فقال سبحانه :

﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ﴾ أى ولا يجدون لهم أعوانا وأنصارا ينقذونهم مما حل بهم من العذاب ، فأصنامهم التى كانوا يعبدونها لا تشفع لهم لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعه ﴿ ومن يضل الله فماله من سبيل ﴾ أى ومن يضلله الله لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق فى الدنيا ولا إلى الجنة فى الآخرة .

قوله تعالى ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ ، وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال جل فى علاه ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ﴾ أى أجبوا داعى الله وهو رسوله — ﷺ — وآمنوا به ، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله ، من قبل أن يأتى يوم لا يستطيع أحد أن يردّه إذا جاء به الله . ﴿ مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم نكير ﴾ أى ليس لكم حصن تحصنون فيه ، ولا تستطيعون إنكار ما اجترحموه من السيئات ، لأنه قد كتب فى صحفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله

يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يهودون ﴿١﴾ وكقوله تعالى ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾ ﴿٢﴾

وقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ كقوله تعالى ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾ ﴿٣﴾ وكقوله تعالى ﴿ ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ ﴿٤﴾ وكقوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ﴿٥﴾ أى فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق ، ولم يستجيبوا لك فدعهم وشأنهم ، فإننا لم نرسلك رقيباً عليهم تحفظ أعمالهم وتحصيها ، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم ، فإذا أنت بلغته فقد أديت ما كلفت به .

وبعد ذكر طبيعة الإنسان وخصائصه في هذه الحياة فقال سبحانه :

﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾ أى : وإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من لدنا سعة في الرزق أو في الصحة أو في الأمن سر بما آتيناه ، وإن أصابته فاقة أو مرض بما أسلف من معصية ربه جحد نعمتنا وأيس من الخير ، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة .

فهذه طبيعته إن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن ابتلى بمحنة يئس وقنط كقوله تعالى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴾ ﴿٦﴾ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كريم ﴿٧﴾ إلا المؤمن الشاكر الصابر كما قال صلى الله عليه وسلم « إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ﴾ ﴿٨﴾

قوله تعالى ﴿ لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لما يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثاً ، ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾ .

(١) سورة الروم الآيتان ٤٣ ، ٤٤

(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٤) سورة البقرة آية ٢٧٢

(٥) سورة الرعد آية ٤٠

(٦) سورة هود آية ٩ ، ١٠

(٧) سورة هود آية ١١

(٨) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير . ٦٤ / ٢٩٩٩

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكها والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، ﴿ ويب لم يشاء إناثا ﴾ أى يرزقه البنات فقط قال البغوى ومنهم لوط — عليه السلام — ، ﴿ ويب لمن يشاء الذكور ﴾ أى يرزقه البنين فقط قال البغوى كإبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — لم يولد له أنثى ، ﴿ أو يزوجهم ذكرا وإناثا ﴾ أى ويعطى لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أى من هذا وهذا ، قال البغوى كمحمد ﷺ . ﴿ ويجعل من يشاء عقيما ﴾ أى لا يولد له قال البغوى كيحيى وعيسى — عليهما السلام — فجعل سبحانه الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له . ﴿ إنه عليم قدير ﴾ أى إنه عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع ، قدير على ما يريد أن يخلق ، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم .

قال العلامة ابن كثير وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى — عليه الصلاة والسلام — ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ <sup>(١)</sup> أى دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام قادم — عليه الصلاة والسلام — مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء — عليها السلام — مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى — عليه السلام — من ذكر وأنثى ، وعيسى — عليه السلام — من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم — عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ فهذا المقام فى الآباء والمقام الأول فى الأبناء وكل منهما أربعة أقسام فسيحان العليم القدير .

## من صور الوحي

قال تعالى

\* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذُنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ عَسِيٍّ ۝٥١ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ

تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣

## معاني المفردات

( روحا ) : قرآنا ، ( الإيمان ) : الشرائع التفصيلية التي لا تعلم إلا بالوحي ، ( صراط مستقيم ) : دين قويم ( دين الإسلام ) .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه تقسيم النعم الجسمانية التي يهبها لعباده — أردفها تقسيم النعم الروحية ، وأبان أن الناس محبوبون عن ربهم ، لأنهم في عالم المادة وهو منزّه عنها ولكن من رق حجابها ، وخلصت نفسه ، وأصبح في مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة :

(١) أن يحس بمعان تلقى في قلبه ، أو يرى رؤيا منامية كرويا الخليل إبراهيم — عليه السلام — ذبح ولده .

(٢) أن يسمع كلاما من وراء الحجاب كما سمع موسى — عليه السلام — من غير أن يبصر من يكلمه ، فهو قد سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أن يرسل إليه ملك فيوحي ذلك الملك ما يشاء إلى النبي ﷺ ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله أوحى إليه القرآن ، وما كان قبله يعلم ما في القرآن وما الشرائع التي بها هداية البشر وصلاحهم في الدارين .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جنب الله عز وجل . وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئا لا يتأري فيه أنه من الله عز وجل كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن روح القدس نفث في روعي أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب »<sup>(١)</sup>

(١) الحديث في حليه الأولياء ح ١٠ ص ٢٧

— انظر كشف الخفاء ح ١ ص ٢٦٨ . وقال محققه . رواه أبو نعيم والطبراني وصححه الحاكم عن ابن مسعود وكذا في فتح الباري

وقوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى — عليه الصلاة والسلام — فإنه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها .

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحاً » (١) أى مواجهة ، وكان قد قتل يوم أحد ولكن هذا في عالم البرزخ . والآية إنما هى فى الدار الدنيا .

وقوله عز وجل ﴿أَوْ يَرْسَلْ رَسُولًا فِيْهِ وَحْيٌ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل أمين الوحي جبريل — عليه الصلاة والسلام — على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — ﴿إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ فهو على علم ، خبير حكيم .

وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

وقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أى وكما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك هذا القرآن رحمة من عندنا .

ثم بين حال نبيه قبل نزول الوحي بقوله تعالى

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أى ما كنت قبل الأربعين وأنت بين ظهرائى قومك تعرف ما القرآن ولا تفاصيل الشرائع ومعالمها على النهج الذى أوحينا به إليك . كقوله تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (٢)

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ح ١ ص ٦٨ رقم ١٩٠ . وقال السندى : هذا الحديث ليس من أفراد ابن ماجه ، لامتنا ولا سندنا وأخرجه الترمذى فى التفسير .

— انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٢٩٨ كتاب التفسير ( سورة آل عمران ) رقم ٤٠٩٧ . وقال . هذا حديث حسن غريب .

— انظر تفسير ابن كثير ح ٢ ص ١٤١ . تفسير سورة آل عمران ( طبعة الشعب )

وقوله تعالى ﴿ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ أى : ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيما نهدي به من نشاء هدايته من عبادنا ، ونرشده إلى الدين الحق . فهذا القرآن العظيم سماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الإشراف والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل قال تعالى ﴿أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ (١) فإن القرآن نور للمؤمن في الدنيا ، ونور له في قبره ، ونور له في معاده يسعى بين يديه على الصراط فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى .

وقوله تعالى ﴿وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم﴾ أى وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته إلى الحق القويم . ثم فسر هذا الصراط بقوله تعالى .

﴿صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض﴾ والمتصرف فيها ، والحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ﴿ألا إلى الله تصير الأمور﴾ أى ألا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله لا إلى غيره ، فيضع كلا منهم فى موضعه الذى يستحقه من نعيم أو جحيم . وفى هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ، ووعد للظالمين .



## القرآن والوحي

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه الوحي المحمدى ما نصه : ( ملخصاً )

### تعريف الوحي لغة وشرعاً :

قال في الأسناس : أوحى إليه وأومن إليه بمعنى ، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره .  
وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال الراغب : أصل الوحي الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قبل « أمروحي » وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿ فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ الخ . أى أشار إليهم ولم يتكلم . والوحي بتشديد الياء السريع .. فالقول الجامع في معنى الوحي اللغوي أنه الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ومنه الإلهام الغريزي كالوحي إلى النحل ، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى ، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحي اسم المفعول ، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتاباً أى تشريعاً يكتب ومنهم من لم يعطه . والله تعالى يوحي إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله : ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾<sup>(٤)</sup> ويوحى إلى ملك الوحي ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾<sup>(٥)</sup> أى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ .

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل

(٢) الآية ١٢١ من سورة الأنعام

(٣) الآية ١١٢ من سورة الأنعام

(٤) الآية ١٢ من سورة الأنفال

(٥) الآية ١٠ من سورة النجم

وقال شيخنا الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد بعد تعريف الوحي لغة « وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » .

هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قول الله — عز وجل — ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾<sup>(١)</sup> .

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث في الرُوع — وهو بالضم ، القلب والخلد والخاطر — والكلام من وراء الحجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه .

وتعبيره يشمل ( قبل التفرقة بينه وبين الإلهام ) ما يسميه بعضهم بالوحي النفسى وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبتته بعض علماء الأفرنج لنبينا ﷺ ، فقالوا إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامى ، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به ، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على مخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له ، وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعى من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد ، لا من داخلها فائضاً منها كما تظنون ، وفي وجود ملك روحانى مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال سبحانه ﴿ وإنه لتزِيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، يلساني عري مبین ﴾<sup>(٢)</sup> وفي تحيل الملك بزعمهم ؛ وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها ، ونثبت أن هذا القرآن وحى من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى ، لا يمكن أن يكون فائضاً في هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا .

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى

(٢) الآيات من ١٩٢ : ١٩٥ من سورة الشعراء

## فى إقامة الحجة على مثبتى الوحى المطلق فى إثبات نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — )

إن من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين القديم والجديد ، وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية ، من أحرار الفكر ومستقلى العقل — علم علماً عقلياً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك الكتب وحى من الله ، وإن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحى من الله ، وأن محمداً نبى معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أى حنيفة والشافعى ، ولا نحوى أن يجحد نحو سيبويه وابن جنى ، ولا شاعر أن ينفى شاعرية الرخى والبحترى وقل مثل ذلك فى الطبيب والفيلسوف والرياضى والفلكى — كل منهم مع أئمة علمه ، وفى كل انسان صحيح الحواس فى المدركات الحسية ، فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، والله در البوصيرى حيث قال :

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشأوا فى النصرانية ، وأحاطوا بها علماً وخبراً ، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة ، كتب الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية فى مدرسة جنيف الجامعة فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بنى اسرائيل فى القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين فى أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسى ، وهذا التضاعف فى الشخصية ، اللذين يحدثان فى العقل البشرى المرتئ والتجليات والوحى والأحوال الروحية التى من بابها « أه » فهذا العالم الأورنى المستقل الفكر يقول : إن كل ما كان به أنبياء بنى اسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد . ونحن نقول : إن جميع خصائص النبوة التى كانت فيه هى أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذى يعلل به الماديون الوحى المطلق وستكلم عليه فى الفصل الثالث .

ولخص هذا العالم خصائص نزول الوحى على محمد ﷺ من كتب إسلامية هذعنا لصحة روايتها .  
وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسى إميل درمنغام فى كتابه ( حياة محمد ) هذعنا لصحة الرواية

ولموضوعها . شارحاً لتأثير نبوة في إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى ، أسفاً للشقاق بينهم ...

## آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمد ﷺ هي أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل ، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقيها للناس ، ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون ، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلي مع هذا الخضوع ، بل هو من موانعه ، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته ، وهو كتابه المعجز بهدايته وبعلمومه وبإعجازه اللفظي والمعنوي وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآية فيه ليرى البشر على الترقى من هذا الاستقلال ، إلى ما هم مستعدون له من الكمال .

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله : « ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »<sup>(١)</sup> متفق عليه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقص الله تعالى علينا في كتابه إن المشركين اقترحوا الآيات الكونية ( العجائب ) على رسوله ، فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه ، وبهدايته وبعلمومه وبإعجازه ، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله . ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(٢)</sup> وسيأتي تفصيله .

وأما ما أكرمه الله به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد ، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً

(١) الحديث في صحيح البخارى — كتاب الاعتصام بالكتب والسنة ج ٩ ص ١١٣ ط الشعب .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

وعددا واستعدادا بالسلاح والطعام ، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها ، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدبنتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

من تلك الآيات شفاء المرضى ، وإبصار الأعمى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في غزوة الأحزاب وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنها تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل بيدر ، ولم يصب المشركين من غيظها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفذ ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم ، على قلة الرواجل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الرّوايا ولم تتجاوز عسكرهم .

### ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها

وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أى بالبرهان العلمى والعقلى الذى لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس في كل زمان ، وأنه لا يمكن إثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذى جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمى الاستقلالى من أطوار النوع البشرى هو شهادته لها . فإن الكتب التى نقلها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التى كتبوها بها لا تواترا ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه ، وتناقضه ، وتعارضه ، ولا إثبات صحة التراجم التى نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً .

إن الكتاب الإلهى الوحيد الذى نقل بنصه الحرفى تواتراً عمن جاء به بطريقتى الحفظ والكتابة معاً هو القرآن الكريم وإن النبى الوحيد الذى نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ . فالدين الوحيد الذى يمكن أن يعقله العلماء المستقلون في الفهم والرأى وبينوا عليه حكمهم هو الإسلام . وأما خلاصة ما يمكن الإعراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوى فهو إنه وجد في جميع أُم الحضارة القديمة دعاء إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى العمل الصالح ، وإلى ترك الشرور والذائل منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما أنه وجد فيهم حكماء يبينون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة — ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأقوالهم وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقصها العلم .

## بسط ما يصورون به الوحي النفسى محمد صلى الله عليه وسلم

وأين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره ، بتأثير ذلك كله فى وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله فى تقريبه إلى العقل ، ثم أقضى عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول :

يقولون ( أولاً ) إن عقل محمد الهولانى — أو ما يسمونه فى عصرنا بالعقل الباطن — قد أدرك بنوره الذاتى بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام ، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام ، ونقول آمنا وصدقنا .

( ثانياً ) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار ، ونقول : آمنا وصدقنا .

( ثالثاً ) إن فقره وفقر عمه ( أى طالب ) الذى كفله صغيراً قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات من السكر والتسرى وعزف القيان ، ونقول : الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه .

( رابعاً ) إنه طال تفكره فى انقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات . ونقول : لا مانع من ذلك .

( خامساً ) إنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفى مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله من بنى إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور . نقول : إن هذا لم يصح عندنا ولا يضربنا .

( سادساً ) إن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة فى عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيه من البدع . ونقول : هذا مبنى على ما قبله فهو معقول غير منقول .

( سابعاً ) إنه قد سمع أن الله سيبعث نبيا مثل أولئك الأنبياء من العرب فى الحجاز قد بشر به عيسى

المسيح وغيره من الأنبياء ، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاءه بأن يكون هو ذلك النبي الذى آن أوانه ونقول : إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح وسيأتى ما فيه .

( ثامناً ) وهو نتيجة ما تقدم : إنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه في خلوته بغار حراء فقوى هنالك إيمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات في ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام السارى في كل موجود ، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومازال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر الذى يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد فى الرؤى المناسبة ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي فى اليقظة .

وأما المعلومات التى جاءت فى هذا الوحي فهى مستمدة الأصل من تلك النبایع التى ذكرناها ، ومما هداه إليه عقله وتفكره فى التميز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها لا تتجلى له نازلة من السماء ، وإنما خطاب الخالق — عز وجل — بوساطة الناموس الأكبر ملك الوحي جبريل روح القدس عليه السلام الذى كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام .

وقال أحد ملاحدة المصرين : إن سولون الحكيم اليونانى وضع قانوناً وشريعة لقومه فليس بدعاً من العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً وسأبين فساد هذا الرأى أيضاً .

## تفنيد تصويرهم للوحي النفسى ( وإبطاله من وجوه )

( الوجه الأول ) أن أكثر المقدمات التى أخذوا منها هذه النتيجة هى آراء متخيلة ، أو دعاوى باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها . مثال ذلك زعمه أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهرهم على الروم — ليوهمو الناس أن ما جاء فى أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فإنه يحدثننا بأن ظهور الفرس على الروم كان فى سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة فى ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس حتى إن أهل مكة أنفسهم هزعو بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان .

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين — لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسى المستمد من الأخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم وقع في سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ م فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين ، وإن كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير . والبضع يطلق ما بين الثلاث إلى التسع .

والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلبون في بضع سنين ﴾ الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴿١﴾ ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً وهي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذى يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها .

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها ، الذى أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء في القرآن من أخبارها ، والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه في الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحي الذى جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام .

### ( الوجه الثانى )

لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئاً أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكّلوا أمر صحته أو خدمها إلى إسناده وما علم من سيرة رواته .

### ( الوجه الثالث )

لو وقع ما ذكر لاتخذ أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة ، وهو أنه



كان في مكة مَينَ ( جَداد ) رومى يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه تعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ <sup>(١)</sup> .

#### ( الوجه الرابع )

نصوص القرآن صريحة في أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفوقون على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلاً عن الكذب على الله — عز وجل — كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفوقون معنا على قوة إيمانه بالله — عز وجل — ويقينه بكل ما أوحاه إليه .

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى عقب قصة نوح من سورة هود ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ <sup>(٣)</sup> ونحوه في أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ومن الشواهد التي لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالاتها لها ، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

الأقلام جمع قلم تطلق على الأزمات والأقداح التي كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه ، وعلى أقلام الكتابة ، وتكون القرعة بأقلام تخط بها كما هو المعهود في عصرنا والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا في كفالة مريم وتربيته عناية بأمرها فأصاب القرعة زكريا عليه السلام ، كما قال تعالى في أول قصتهما في سورة آل عمران الآية ٣٧ .

(١) الآية ١٠٣ من سورة النحل

(٢) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القصص

(٣) الآية ٤٩ من سورة هود

(٤) الآية ١٢٠ من سورة يوسف

(٥) الآية ٤٤ من سورة آل عمران

## ( الوجه الخامس )

إنه لم يرد في الأخبار الصحيحة والمرفوعة أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روى عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون ، لأنهم ما تركوا شيئاً بلغهم عنه ﷺ إلا ودونوه ، كما رووا مثله عن أمية بن أبى الصلت ، بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ (١) أى لكن ألقى إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم ، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل ، ولا رجاء ولا أمل فهذا تأكيد وتكميل للشاهد الأول من الوجه الرابع .

## ( الوجه السادس )

إن حديث بدء الوحي الذى أثبتته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هى عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى .

## ( الوجه السابع )

لو كان النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداد له باختلائه وتعبد في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداد ، تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الإيمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الأوثان وتشريع الأحبار والرهبان ، واتخاذ الولد للرحمن ، وإنذار رعويس الكفر والطغيان ، ما سيلقون في الدنيا من الحزى والنكال وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور المفصل ولاسيما ( ق والقرآن المجيد ) والذاريات والطور والنجم والقمر ثم الحاقة والنبأ ، أو في سورة أو أكثر من السور الوسطى التى تقرعهم بالجهنم ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون .

(١) الآية ٨٦ من سورة القصص

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم إلى شيء ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الدينى الذى توجهت إليه بزعمهم نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذى ضاق به ذرعه ، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، لو ناهيك بألصق الناس به : خديجة وعلى وزيد ابن حارثة فى بيته ، وأبى بكر الصديق الذى عاشه طول عمره . فهذا السكوت وحده فى فترة الوحي برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعدادة للوحي الذاقى الذى زعموه ، واستمداده لعلومه من التلقى الذى اختلقوه ، والاختبار الذى توهموه .

### ( الوجه الثامن )

إن ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة دون ما زعموا من الأمور السابقة ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر رداً على قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذى قاله فى القرآن .. قال هذا سحر يؤثر بأثره على غيره فنزلت الآيات ﴿ ذرى ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخارى .

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر ، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تبقاه أو شاهده فى الأسفار ، ولا مما وصفوا من أفكاره فى الغار ، فليراجع ترتيب نزول السور فى كتاب الاتقان من شاء .

### ( الوجه التاسع )

إن هذه المعلومات المحمدية التى تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن .

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها ، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبى ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم .

وإن القرآن نزل مصداقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها فى الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً مهيمناً عليه ، أى رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية ( ٤٨ ) من سورة المائدة ( الخامسة ) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم ﴿ أوتوا نصيباً من

الكتاب<sup>(١)</sup> «أى لا كله ، « ونسوا حظاً مما ذكروا به »<sup>(٢)</sup> وأنهم حرفوا كلمه عن مواضعه<sup>(٣)</sup> وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية إلى الشام سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوى والعيسوى الذى كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا ؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأنجيل التى حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها ( أبو كريف ) كأنجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا أم لا ؟ فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعا مسيحيا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأنجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض .

إن وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأنجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الجلسة التجارية للنظر فيها ويأمن حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم »<sup>(٤)</sup> يعنى فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا .

### ( الوجه العاشر )

إن في القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون ، وفي القرآن أنها امرأته وفيما فيه من عزو صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامرى وإثباته لانكارها هارون عليهم فيه ، وغير ذلك .

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه .

رويدكم أيها المفتاتون الذين يقولون ما لا يعلمون ، إن وحى القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون ، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون وأكمل استعداداً لتلقى كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون .

(١) الآية ٤٤ ، ٥١ من سورة النساء

(٢) الآية ١٣ من سورة المائدة

(٣) ارجع إلى الآية ٧٥ من سورة البقرة ، ٤٦ من سورة النساء ، ١٣ ، ١٤ من سورة المائدة

(٤) الحديث في صحيح البخارى — كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ج ٩ ص ١٣٦ ط الشعب

وإذا كان وحى القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله ، لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليونانى الذى شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا من مصرنا ، مع بعد الشبه بين أمى نشأ بين الأميين ، وفيلسوف نشأ فى أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة ، ودخل فى كل أمور الأمة والدولة كسولون هذا .

## الأمثال النورانية

### لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه ، وكتاب الله ودينه

لقد كان محمد ﷺ فى فطرته السليمة ، وروحه الشريفة ، وما نزل عليها من المعارف العالية وما أشرق فيها من نور الله — عز وجل — الذى تلوته عليك آنفاً من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل فى قوله تعالى من سورة النور ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ .

فمصباح الروح المحمدية ، فى زجاجة فطرته الزكية ، المتألثة كالكواكب الدرية ، يوقد من شجرة مباركة قدوسية زيتونة لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، بل هى إلهية علوية ، أشبه بما عرف الناس فى عصرنا بالكهربائية ، يكاد زيت كمالها الفطرى يضىء بذاته ولو لم تمسسه نار ، فمسه نور الله بما أوحاه إليه فاشتعل بما عم العالم من الأنوار ، ولا غرو فقد جعل الله محمداً نوراً ، وجعل كتابه الذى أنزل عليه نوراً ، وجعل دينه نوراً .

قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال فى خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد ﷺ من أهل الكتاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾ <sup>(٥)</sup> وقال فىمن استجاب لهذه الدعوة ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة

(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء

(٣) الآية ٢٢ من سورة الزمر

(٤) الآية ٨ من سورة التغابن

(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد

(٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف

ومما كان يدعو به محمد ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه « اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي لساني نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وعن يميني نوراً ، وعن يساري نوراً ، ومن فوق نوراً ومن تحت نوراً ، ومن أمامي نوراً ، ومن خلفي نوراً ، واجعل لي في نفسي نوراً ، وأعظم لي نوراً » (١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن ابن عباس .

فيا مسيو درمنغام ! إنك قد أبصرت قيساً من هذا النور الوهاج ، فلا تحسبن أن محمداً اقتبسه من أعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام ، استخلصه من تفكره في أمور الكون والناس ، فالأمر أعظم من ذلك ، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية ، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية ، أو من نور ما بقي عندهم من كتب أنبيائهم الأصلية إنما هو فائض من نور الله الأعظم على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، هو كما قال البوصيري :

الله أكبر إن دين محمد أقوى وأقوم قِيلاً  
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئ القنديلاً

وكما قال في أول همزيته :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء  
لم يساووك في علاك وقد حا ل سنّي منك دونهم وسناء  
إنما مثلوا صفاتك لنا س كما مثل النجوم الماء  
أنت مصباح كل فضل فما تصد بدر إلا عن ضوئك الأضواء

أفرايت من أنزل الله عليه تلك الآيات ، التي أشرقت بنورها الأرض والسموات ، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله ، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون في ظلمة الوثنية الهالكة ، وفي ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة الذين ضرب لهم الله المثل بعد مثل النور الذي اقتبسناه من سورة النور بقوله : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعه يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٢)

(١) الحديث في صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين — ج ١ ص ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠

وفي مسند أحمد ج ١ ص ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣

وفي صحيح البخاري — كتاب الدعوات — ج ٨ ص ٨٦ ط الشعب

(٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور

فارجع أيها الناظر المنصف إلى وجدانك ، وتأمل هذه الأمثال الإلهية ، وما تراه في سائر هذا الكتاب ، لعل الله يتم نور إنصافك ، فتكتب كتاباً آخر تثبت به الوحي الإلهي المعصوم ، لمحمد خاتم النبيين ، ببلاغتك الفرنسية وتدعو قومك إلى الإهتمام بكتابه القويم ، ومعالجة مفسد إحداهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم .

## في مقاصد القرآن ، في تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التكرار في الهداية وإعجازه بالبيان

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم ، وإدخالهم في طور الرشد ، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم ، وترقية عقولهم ، وتزكية أنفسهم ، منها ما يكفى بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة ، لأجل أن يبحث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس في مكانها أضدادها ، ويتعاهد هذا الغرس بما ينمي حتى يؤتى أكله ، ويبدو صلاحه ، وينبع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدرج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل ، فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفى فيه الفحوى والكناية .

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، فلا يكفى أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهد في متون الفنون وكتب القوانين وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذي بعث في الأميين رسلاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ <sup>(١)</sup> فأياته المتلوة هي سور القرآن ، المرشدة إلى سنته في الأكوان ، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الأسوة ، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم ، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة ، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة ، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة .

وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ أعلى وأكمل مما جاء به من قبله من جميع الأنبياء والحكماء والحكام . فهو برهان علمي على أنه من عند الله تعالى ، لا من فيض

استعداداه الشخصى ، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به في كل نوع منهما بالإجمال ، لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا انجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب فيين في كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد ، وكون القرآن وفقى بهذه الحاجة بما نأى من جملة آياته فيه ، وإنما هذا الفصل نموذج منه .

## المقصد الأول من مقاصد القرآن الكريم في بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة التي دعا إليها الرسل وضل فيها أتباعهم

إن أركان الدين الأساسية التي بعث الله تعالى بها جميع رسله ، وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليه ولا هم يحزنون ﴾<sup>(١)</sup> . وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز ، لأن المراد هنا أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف في سائر الأديان ، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء ، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف ، وما ابتدعوا فيه من الأهواء والتقاليد ، وليس المراد بيانها في ذاتها بالتفصيل الذي يتوقف عليه العمل ، حتى إذا ثبت ما نقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله — عز وجل — أوحاه إليه ، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه .

وهذه الأركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين ، وبقايا كتب أممها الباقية كالفنود والمجوس والصينيين ، وغرضنا من هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة أن ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله إلى رسله الذين ظهروا في أسلافهم ، ولا هو بالمصلح لهم في أنفسهم وأعمالهم وأن الإسلام هو الدين الحق الثابت عقلاً ونقلاً ، المبين لكل ما يحتاجون إليه من الهداية . وبهذا الاعتبار جعلناها مقصداً واحداً لا ثلاثة ، وجمالنا المقصد التالى له في موضوع الرسل والرسالة .

## الركن الأول للدين الإيمان بالله تعالى

إن الركن الأول والأعظم من هذه الأركان — وهو الإيمان بالله تعالى — قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد ، قد غلب عليهم التشبيه



وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة في صفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الإنسان ، لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة وزعموا أنه كان يظهر على شكل الإنسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام .

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، واتخذوا المسيح رباً وإلهاً وعبدوا القديسين وصورهم ، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التي جعلوها أساس الدين ، بل الدين كله — هي عقيدة الهنود في كرشنه وثالثوته في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة ، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقيصرة ، وتبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها .

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الأفكار والقلوب ، وما كان ليم هذا بإقامة برهان عقلى أو عدة براهين على توحيد الله — عز وجل — ، بل لابد فيه من دحض الشبهات ، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله — عز وجل — في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملكاً وعبداً له ، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق .

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الدنيى ، فليس لاقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأوغله في افساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول ، وحملهم على التدنيس بالأوهام والخرافات المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله في المخلوقات إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضرر وجلب نفع من غير طريق الأسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ونهجها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ... وثم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذى التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتولية في حبه ، من التنزيه والتقديس والتسبيح له ، وذكر أسمائه الحسنی مزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال ، وبحكمه في الخلق والتدبير لأموال العالم ، وسننه في طباع البشر وفي شئونهم الاجتماعية ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من علم

وحكمة وقدرة ومشيقة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لإجلاله أو لعدله ، والرجاء من رحمته وفضله وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها في شهوده عن شهودها ، بله أهواءها وشهواتها ، كما تراه في فاتحة سورة الحديد .

﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ <sup>(١)</sup> وفي آخر سورة الحشر ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فهذه الأسماء الإلهية هى ينابيع الحياة الروحية في القلوب ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول ، ومنها استمر الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية ، والكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه ، والأدعية والقصائد في حبه ومناجاته ، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه .

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ليكون الله تعالى غالباً على أمرهم ، كما قال في وصف يوسف عليه السلام ﴿ والله غالب على أمره ﴾ <sup>(٣)</sup> فيمقتون الباطل والشر ، ويكون كل حظهم من الحياة الحب والخير ، لما يشره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

بهذا التكرار الذى جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول ، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من كل رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن

(١) الآيات من ١ : ٦ من سورة الحديد

(٢) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة الحشر

(٣) الآية ٢١ من سورة يوسف .

(٤) الآيات ٤١ : ٤٣ من سورة الأحزاب

آمن بالله وأتقن لغة كتابه ، وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب في الشعوب الإسلامية ديب الجهل بلغة القرآن ، وقل تدبره فرضه الله عليهم ، واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ، وفي أعمال عبادتهم على كتب الفقه الجافة ، وفي تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة ، ضعف التوحيد في قلوب الكثيرين ، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، اعتقادا وعملا ، وتأولوا وجدلاً . فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة في التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة وهجروا القرآن هجراً غير جميل ، وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو شاهد ومعلوم ..

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذى أركى أنفسهم ، وأعلى همهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم وإعتاقها من رق الكهنة والأخبار والرهبان والبوذات والمبازانات الروحية والعقلية وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمة الأرض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير في كتابه ( تطور الأمم ) « إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال : أولها : جيل التقليد ، وثانيها : جيل الخضرمة ، وثالثها : جيل الاستقلال والاختصاص . قال : إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول الذى بدعوا فيه بمزاولتها .

وأقول : إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى ، وتوطين أنفسهم على إقامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفى كل هذا على سلاسلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية ، وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن .

## الركن الثاني للدين عقيدة البعث والجزاء

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال هو الركن الثاني للدين الذى بعث الله به الرسل عليهم السلام ، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثاً على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغى والعدوان ، وكان جل مشركى العرب ينكرونه أشد الإنكار ، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل — التى كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليها الوثنية — فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون في صفتها لا في أصلها ، ولكن إيمانهم هذا قد

شابه الفساد بينائه على بدع ذهبت بجمل فائدته في إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين ، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين ، هو وجود المخلص الفادى الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر ، وكل ما تقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنه وبودا في اللفظ والفحوى كأتقدم ، فلما يختلفان إلا في الاسمين كرشنه ويسوغ .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ، وادعاء محابه الله تعالى لهم على سائر الشعوب في الدنيا والأخرة ، ويسمونه إله إسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعا لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الإصلاح مثله .

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعتدل وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه ، لا من إيمان غيره وعمله ، وإن الجزاء على الكفر والظلم والنسأد في الارض ، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محابة شعب على شعب ، والجزاء على الإيمان والأعمال انصالحه يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة .

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من هذا الإصلاح هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبى الأنبياء الذين كانوا من بعده على شرعه فقال ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ (١) أى أن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة أى خاطئة خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره ، وأنه ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، وقد يدخل في عموم عمله ما يكون سببا له كالذى يعمل له ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه ، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعد .

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركى العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى ، وأن تذكرها هو الذى يقوى الوازع النفسى

الذى يصد الإنسان عن الباطل والشر والظلم والبغى ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر — علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل في شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها في القرآن بالأساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الازدهان تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الأمثال ، وقد تكرر في آيات بينات لعلها تبلغ المثات ، ومن إعجازه أنها لاتمل وتسأم ، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها ، وإن تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها . فتأمل ذلك في سور المفصل ترى تكرار الكلام على البعث والنشور والجزاء بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب في النظم والفواصل ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ ، والنازعات مع عبس ، والتكوير مع الانفطار ، والمطففين مع الانشقاق وغيرهن .

قلنا الإيمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الأديان ، من لوازم الركن الأول وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العيب في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله تعالى بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين في آخر سورة المؤمنون ﴿ أفحسبم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فعلى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ <sup>(١)</sup> . وقوله تعالى في آخر سورة القيامة ﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ﴾ فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلق في أحسن تقويم ...

### الركن الثالث للدين العمل الصالح

الركن الثالث من مقاصد الرسل — هو العمل الصالح — أثر لازم للإيمان بالله والحساب والجزاء في الآخرة وثمرة له ، وهو يمدد ويستمد منه ، فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر ، فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقاً وتقليداً صورياً ، فلا يكون العمل صالحاً مصلحاً لعامله إلا يجعله على الوجه الذى شرعه الله لأجله وهذا مكرر في القرآن في سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليدياً غير مزك للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذى هو الأصل الذى يتبعه غيره ، على أنه يقرنه به ولولا الحاجة إلى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية في الإصلاح العلمى العملى على قصرها ، كسورة الإخلاص في الركن الأول الاعتقادى ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته ، وكسورة الزلزلة في الركن الثانى وهى تكتب في ثلاثة أسطر .

(١) الآيات ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون

(٢) الآية ٣٦ من سورة القيامة

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله في الدرجة الأولى ، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضاً بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للنظرة الإنسانية دون تقليد الوثنية التي لا شأن فيها لعلم الانسان ولا عمله في سعادته ، لأن مدارها على إيمانه بوجود الفادي الشفيع ، أو على إقراره به وإن كان لا يعقله ، بل ينكره عقله وتأباه فطرته ، وقد أبطل القرآن عقيدة النداء والشفاعة الوثنية في آيات عديدة .

ويدخل في الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التي يتقرب بها إلى الله تعالى وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين .. وتأمل آيات الوصايا في سورة الأنعام ، وآية البر في سورة البقرة وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي ...

## المقصد الثاني من مقاصد القرآن

### بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ، ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله — تعالى — بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته ، وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد ، وعبدوهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه وأنه لعن أكبرهم وسماه شيطانا ، وأنه قال لهم : « كلكم تشكون في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقساوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن نخلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم ، وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله وعموم رحمته وفضله ، ومن مفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ﷺ .

## ( ١ ) بعثة الرسل في جميع الأمم ووظائفهم

قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ <sup>(٢)</sup> وكرم الله الإنسان بجعل التشريع الدينى من حقوقه وحده ، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته ، فقد أبطل ما نخلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحى والعقل الذى منيت به الأمم المتدنية ولا سيما البوذيين والنصارى ، ولضلال جميع أهل الملل والنحل فى ذلك كرر هذا الموضوع فى كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم ، وأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم . قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم فى خاتمة سورة الكهف ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ إنما إلهم إله واحد ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال فى جملتهم من وسطها ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ <sup>(٤)</sup> ومثلهما فى سورة الأنعام ( ٦ : ٤٨ ) وفى معناها آيات أخر .

بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل ، لا متصرفين فى الكون بالنفع والضرر بأنفسهم ولا بتأثيرهم فى إرادته تعالى .

## ( ٢ ) أطوار النصارى وما انتهوا إليه فى الدين

ومن عجيب أمر النصارى أن وثنى أوربا غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذى كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين ، وأسس لهم كنائس كهياكل قومه الوثنيين ، ورياسة دينية رومانية تناوى اليهود أو الساميين ، إلا فلسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين ، ثم وضع لهم الأحبار والأساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة ، لم يبق منها على أساس التوراة التى هى ناموس موسى عليه السلام ونقلوا عن المسيح أنه قال وقوله الحق أنه ما جاء لينقض الناموس وإنما جاء ليتممه ، ولكن هؤلاء الأوربيين نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تم به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغى والعدوان وعادوا أتباعه اليهود فى كل شىء .

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل

(٢) الآية ٢٤ من سورة فاطر

(٣) الآية ١١٠ من سورة الكهف

(٤) الآية ٥٦ من سورة الكهف

ولما بعث خاتم النبيين الذى بشر به موسى وعيسى والنبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وبين للفريقين — اليهود والنصارى — ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم ، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كبير في دينهم قاتل عليه بعضهم بعضا حتى صارت أوربا فريقين متكافئين في القوة ، وكل ذلك معروف بالتفصيل في العالم كله .

ثم حدث بعد ذلك أن حزب دين الإصلاح ( البروتستنت ) مازال يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث في الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد ، ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح .

ثم حدث في هذا العام أن جاهر الجمهور الأعظم في الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الأمة على قواعد جنسها الآرى وهدم قواعد الجنس السامى الدينية وأنبيائه من بنى اسرائيل ، فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون إلى الوثنية القديمة ، فعلم من هذا الحدث الجديد أن الديانة النصرانية التى هدمها الشيوعيون في شرق أوربا وآسيا ( الروسية ) وطفقوا يثنون الدعوة بهدمها هى وسائر الأديان ، والتى تلاهم الفاشيون من الجرمان بهدمها في قلب أوربا ليست بالديانة التى تثبت في عواصف هذه الفتن الجديدة ، وإنما الذى يقوى على ذلك دين الإسلام وحده ، فلا سبيل إلى إنقاذ أوربا وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والإباحة إلا به .

### ( ٣ ) مسألة الشفاعة

وأما مسألة الشفاعة التى كان مشركو العرب يشبتونها لمعبوداتهم في الدنيا ، وأهل الكتاب يشبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة ، فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إلى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ (١) .. وقد قرر هذه المسألة في بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية فأتت ترى أن القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التى ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم ؟ أم هو نابع من نفسه وهو يقتضى أن ما ينبع منها أعلى من وحى الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هى من وحى الله تعالى له .



## ( ٤ ) الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الأنبياء والرسل أنه يجب الإيمان بجميع رسل الله — تعالى — وعدم التفرقة بينهم في الإيمان ، وأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم ، لأن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة ، ووظيفتهم في إرشاد المكلفين وتبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ .

وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الإيمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان .. ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما ﴾ (١) .

وهذا مبني على الإيمان بأن دين الله تعالى الذي أرسل به جميع رسله واحد في أصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقسام ، ومقتضيات الزمان والمكان ، حتى بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان ، مع الإذن بالاجتهاد في المصالح التي تختلف باختلاف الأطوار والأحوال ، فالإيمان ببعضهم دون بعض في رسالتهم الإلهية ، اتباع للهوى في الإيمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به ، لأنه عين الكفر ..

## المقصد الثالث من مقاصد القرآن

إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقسام

بجعل الإسلام دين الفطرة السليم ، والعقل والفكر ، والعلم

والحكمة والبرهان ، والحجة ، والضمير ، والحرية ، والاستقلال

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كُلف البشر مقاومة فطرتهم بها ، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سرا أو جهرا كانوا من الهالكين ، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين ، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن إنتشالهم

من مهاوى التهلكة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد ، إلى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال . حتى إذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — كان هو الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال . وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه فى المقصد الذى قبل هذا . وبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

### ( ١ ) الإسلام دين الفطرة

قال الله تعالى : ﴿ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

الحنيف صفة من الحنف ( بالتحريك ) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل إنح ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها هى الجبلية الإنسانية الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما وما أروع فيها ( أى الحيلة ) من غريزة الدين المطلق الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق قوى الكون والسنن والأسباب التى قام بها نظام كل شئ فى العالم . فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والمصدر الدائق للنفع والضرر المحركين لشعور العبادة الفطرى الوجدانى ، إلى هذا الرب الغيبى ، فى كل ما يعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضرر يمس أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفى كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته ، والوصول إليه مما لا نهاية له ، وأعنى بالإنسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له عليه من جنس كسبه ، فقبله للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التبعيد عند أحد من البشر : فتعظيم الفقير للغنى بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوى لاستنجاهه واستعداداته على أعدائه لا يسمى شئ من ذلك عبادة فى عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل وإنما روح العبادة الفطرية ونحها هو دعاء ذى السلطان العلوى والقدرة الغيبية التى هى فوق ما يعرفه الإنسان ويعقله فى عالم الأسباب ولا سيما

الدعاء عند العجز وفي الشدائد قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »<sup>(١)</sup> وكل تعظيم وتقرب قولى أو عملى لصاحب هذه القدرة والسلطان الغيبي فهو عبادة له ..

## ( ٢ ) الإسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة ( العقل ) ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب والنهى ، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقا ، بل لأنها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلائله والأعتبار به ، ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه ، وقائم به وعليه ، وكذلك أسماء التفكير والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل ، أما ذكر العقل باسمه وأفعاله فى القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة . وأما ذكر أولى الأبواب أى العقول ففى بضع عشرة مرة ، وأما كلمة النهى ( جمع نهي بالضم كغرفة ) أى العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه .

أكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن قد جاء فى الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وبلى ذلك فى الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله فى تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾<sup>(٣)</sup> وكرر قوله ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أكثر من عشر مرات كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾<sup>(٤)</sup> وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله فى أهل النار من سورة الملك

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب وأبى داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم فى المستدرک والبيهقى فى شعب الإيمان عن النعمان بن بشير ( الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٤١٢ )

وفى الترمذى — كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٢٥

(٢) الآية ١٦٤ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٤) الآية ١٦ من سورة يونس

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾<sup>(١)</sup> وفي معناه قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله في سورة الحج : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾<sup>(٣)</sup>.

كذلك آيات النظر العقلي والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز ، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكير والعقل والتدبر وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الأنفس ولا تثقف العقول ، ولا تصعد بها في معارج الكمال بعرفان ذى الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾<sup>(٥)</sup> . وقوله في صفات العقلاء أولى الأبواب ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾<sup>(٦)</sup> وقوله بعد نفى علم الغيب والتصرف في خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي ﴿ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقد صرح بعض حكماء الغرب بما لا يختلف فيه عاقلان في الأرض من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر ، حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين ، ثم نكس هؤلاء المسلمين على رءوسهم فحرموها على أنفسهم إلا قليلا منهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم فيها وفي ثمراتها ، ونقل شيخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم في كتاب الإسلام والنصرانية .

(١) الآية ١٠ من سورة الملك

(٢) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف

(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج

(٤) الآية ٤٦ من سورة سبأ

(٥) الآية ٨ من سورة الروم

(٦) الآية ١٩١ من سورة آل عمران

(٧) الآية ٥٠ من سورة الأنعام

## ( ٣ ) الإسلام دين العلم والحكمة والفقه

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم يناهز المئة ، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك ، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها ، فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الإسراء ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾<sup>(١)</sup> .

أى لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية أو بالروايات السمعية أو بالبراهين القطعية ، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث . قال الراغب في تفسير « لا تقف » أى لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوى ما ملخصه : ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليداً أو رجماً بالغيب ومنه قوله تعالى في العلم المأثور في التاريخ ﴿ اتقوا بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٢)</sup> ومنه قوله تعالى في علوم البشر المادية ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى في العلم الروحى ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾<sup>(٤)</sup>

وهاتان الآيتان في بيان ضعف علم البشر وقتله حتى الدينوى منه لا يزال يعترف العلماء أيهم أوسع علماً بمضمونهما ، وأن علمهم لا يتجاوز الظواهر ، وقد صرح بعض فحول الغرب بأنهم كلما ازدادوا علماً علموا من حاجتهم إلى تحقيق ما سبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون . كما قال الإمام الشافعى :

كلما أدبني الدهر — ر — أراني نقص عقلي  
وإذا ما ازددت علماً — زادني علماً — بجهلي

وقوله تعالى في العلم العقلى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾<sup>(٥)</sup> الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظرى بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحى . وقوله في العلم الطبيعى ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾<sup>(٦)</sup> بكسر اللام أى علماء الكون .

(٤) الآية ٨٥ من سورة الإسراء

(٥) الآية ٨ من سورة الحج

(٦) الآية ٢٢ من سورة الروم

(١) الآية ٣٦ من سورة الإسراء

(٢) الآية ٤ من سورة الأحقاف

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الروم

ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(٤)</sup> الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها هو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها ، وفي معناها آيات في سور أخرى .

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تملوه عظمة أخرى بقوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولى العلم في المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾<sup>(٣)</sup> وأمر أكبر رسله وأعلمهم بأن يدعوهم بقوله ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾<sup>(٤)</sup> .

ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ما ورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَغْنَى مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله في قول النصارى بصلب المسيح ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾<sup>(٦)</sup> .

### الحكمة الفقه

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾<sup>(٧)</sup> . وقال تعالى في بيان مراده من بعثه محمد خاتم النبيين ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) الآية ٢٨ من سورة فاطر

(٢) الآية ١٨ من سورة آل عمران

(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة

(٤) الآية ١١٤ من سورة طه

(٥) الآية ٣٦ من سورة يونس

(٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء

(٧) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة

(٨) الآية ٢ من سورة الجمعة

وقال لرسوله ممثنا عليه : ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ (١).

وقال له : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٢). وقال له في خاتمة الرصايا بأهميات الفضائل والنهي عن كبار الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ (٣) وقال لنساء النبي رضى الله عنهن ﴿ واذكرون ما بطل في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ (٤) .. فالحكمة أخص من العلم ، هي العلم بالشئ على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق وسنن الاجتماع ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الإسراء التي نقلناها آنفاً ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾ (٥).

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذى يكون به العالم حكيماً عاملاً مثقفاً ، فراجع منها في سورة الأنعام ٦ : ٢٥ ، ٦٥ ، ٩٨ ، وفي سورة الأعراف ٧ : ١٧٨ ، وفي سورة الأنفال ٨ : ٦٥ ، وفي سورة التوبة ٩ : ٨٢ ، ٨٨ : ١٢٣ ، وحسبك ما في هذه السور الأربع تعريفاً بالفقه وإنه هو الحكمة لا علم ظواهر الأحكام من الطهارة والبيع والإعارة الخ . فإن تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية ، ومنه ما هو ضد فقه القرآن كالحيل التي تعلم الناس التقصى من حكمة القرآن .

( ٤ ) الإسلام دين الحجة والبرهان :

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ (٦) وقال : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ (٧) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتاج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بخضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال تعالى : ﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فاعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ (٨).

وأقام البرهان العقلى على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ (٩) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ﴾ (١٠) الآية ..

(٦) الآية ١٧٤ من سورة النساء

(٧) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون

(٨) الآية ٧٥ من سورة القصص

(٩) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

(١٠) الآية ٢٤ من سورة الأنبياء

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء

(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل

(٣) الآية ٣٩ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٤ من سورة الأحزاب

(٥) الآية ٣٩ من سورة الإسراء

وقال في سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> ثم قال في آخره : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ﴾<sup>(٢)</sup> فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي في العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه ..

### ٥ - الإسلام دين القلب والوجدان والضمير :

قال الفيومي في المصباح : ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر . وقال والقلب من الفؤاد معروف — يعنى أنه ضميره ووجدانه الباطن ( قال ) ويطلق على العقل أ ه .

وقد ذكر القلب في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية . منها قوله تعالى في سورة ق ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله تعالى في سورة الشعراء ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾<sup>(٤)</sup> . ومنها مدحه لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾<sup>(٥)</sup> وقوله حكاية عنه ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾<sup>(٦)</sup> . وقوله في صفة المؤمنين ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾<sup>(٧)</sup>

ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والريغ ، وعبر عن فقدتها للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها . أى إنها كالختوم عليها فلا يدخله شيء جديد أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصدأ والجلاء .

### ( ٦ ) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والأجداد .

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والحرص فيما يطلب فيه الإيمان والعلم — يدل على ذم التقليد ، وقد

(١) الآية ٨١ من سورة الأنعام

(٢) الآية ٨٣ من سورة الأنعام

(٣) الآية ٣٧ من سورة ق

(٤) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء

(٥) الآية ٨٤ من سورة الصافات

(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة

(٧) الآية ٢٨ من سورة الرعد .



ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (١) . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (٢) . ذمهم من ناحيتين ( إحداهما ) : الجمود على ما كان عليه آبائهم والاكتفاء به عن الترقى في العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الإنسان الحى العاقل ، فإن الحياة تقتضى النمو والتوليد ، ( والثانية ) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ، والحسن والقيح ، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ كَانَ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ، مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ، وكذلك ما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾ (٤) وتراجع الشهود على هذا في قصة إبراهيم مع قومه في سور الأنبياء والشعراء والصفاء .

فالقرآن قد جاء يهdy جميع متبعى الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى والاطمئنان في الدين ، وألا يكتفوا بما كان عليه آبائهم وأجدادهم من ذلك ، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التى امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رغوسهم إلا قليلاً منهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوين إلى بعض أئمة علمائهم الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمرهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم التى وكل دعوتها إليهم وصاروا حجة على دينهم ، فكيف يدعون إليها وحجته القرآن وهم يحرمون الإهتداء به . حتى أن أدعياء العلم الرسمى فيهم ينكرون أشد الإنكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم فى بلاء وعناء ، نقاسى منهم ما شاء الجهل والجمود من استهزاء وطعن وبذاء وتهكم .. ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام فى صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون فى العقل والعلم فى أفواجا حتى يعم الدنيا ، لأن التعليم العصرى فى جميع مدارس الأرض يجرى على طريقة الاستقلال فى الفهم واتباع الدليل فى جميع بلاد الأفرنج والبلاد المقلدة لهم ، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية ، ويعتدونها نظماً أدبية واجتماعية للأمم ، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدى ،

(١) الآية ١٧٠ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٠٤ من سورة المائدة

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأعراف

(٤) الآيات ٢٠ : ٢٣ من سورة الزخرف

وبهذا يعسر علينا أم نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم ، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

## ٧ — الحرية الشخصية في الدين بمنع الإكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الإسلام هي نتيجة المزايا التي بينها بها كونه دين الفطرة . فأما منع الإكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، قل انظروا ماذا في السموات والأرض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (١) .

علم الله رسوله بهذه الآيات أن من سنته في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين ، وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر . ثم قال تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بنى النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٢) الآية . فأمرهم ﷺ أن يغيروهم فمن اختار اليهودية أجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام ، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين .

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الأول لشريعة القتال في الإسلام وسيأتى بيانه في المقصد الثامن من هذا الكتاب .

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن ، وأحاديث صريحة في السنة وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وحسبك منها قوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ (٣) .

(١) الآيات ٩٩ : ١٠١ من سورة يونس

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة

(٣) الآية ٢١ من سورة الغاشية

## المقصد الرابع من مقاصد القرآن الإصلاح الإنساني الاجتماعي السياسي الوطني بالوحدات الثمان

وحدة الأمة — وحدة الجنس البشرى — وحدة الدين — وحدة التشريع بالمساواة في العدل — وحدة الأخوة الروحية والمساواة في التعبد — وحدة الجنسية انسياسية الدولية — وحدة القضاء — وحدة اللغة .

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون في الأنساب والألوان ، واللغات والأوطان والأديان ، والمذاهب والمشارب والشعوب والقبائل ، والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفة في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر . فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرقة والتعادي وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول الكتاب الإلهي وسنة خاتم النبيين في الجامعة الانسانية لا يمكن بسطهما إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذا المقصد من إثبات الوحي المحمدي بسرد الأصول الجامعة في هذا الإصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس على ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما أن جنسهم واحد ، وربهم واحد .

### الأصل الأول للجامعة الإسلامية الانسانية وحدة الأمة

قال الله تعالى في سورة الأنبياء مخاطباً أمة الإسلام بعد ذكر خلاصة قصصهم ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾ (١) .

ثم بين لها في سورة « المؤمنون » أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ، وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُون ﴾ (٢) .

ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه : وأما خاتم النبيين فأتمته جميع الناس وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم .. قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (٣) .

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء

(٢) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون

(٣) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

## الأصل الثاني

الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (٣) .

وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف وإلى ترك التعادى بالتحالف .

## الأصل الثالث

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر وشاهده الأعم قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ الآية .

ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (٣) .

## الأصل الرابع

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والملك ، والغنى والفقر ، والقوى والضعيف ، وسندكر بعض شواهد إصلاح التشريع من المقصد السادس .

## الأصل الخامس

الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية وعباداته وفى الاجتماع للاجتماع منها كالصلاة ( والصيام ) ومناسك الحج فملوك المسلمين وأمرأؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام فى صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفة ، وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٢) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

(٣) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة

للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم ، قال تعالى : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

## الأصل السادس

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة فى الجزيرة العربية ولاسيما الحجاز خاص بالمسلمين ، لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم فى هذا سواء .

## الأصل السابع

وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة ، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية ، فإن الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه فى ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين فى أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم ، وهذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب ، لأنه إشراك فى الحكم والتشريع وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بالعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم ، والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرُضْ عَنْهُمْ ، وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا ، وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله بعد آيات ﴿ وَأَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ ﴾<sup>(٤)</sup> الآية .

## الأصل الثامن

وحدة اللغة ، ووجهها أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة ومازال الحكماء الباحثون فى مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة مشتركة ، يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، ومناهج التعليم والآداب ، والاشتراك فى العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية . وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما

(١) الآية ١١ من سورة التوبة

(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٤٢ من سورة المائدة

(٤) الآية ٤٩ من سورة المائدة

والتعبد بهما ، والاتحاد بإخوانهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن الكريم بيان كونه كتاباً عربياً ، وحكماً عربياً ، وكرر الأمر بتدبيره والتفقه فيه والاعتناء بالتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك وكذلك كان الأمر في الفتوحات الإسلامية العربية كلها .

وقد فصلت في المنار والتفسير مسألة وجوب تعليم اللغة العربية في دين الإسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعي في رسالته ، وهو الذي جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين ، إلى أن كثرت الأعاجم ، وقل العلم ، وغلب الجهل ، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله في العبادات من القرآن والأذكار .

## المقصد الخامس من مقاصد القرآن

« تقرير مزايا الإسلام العامة في التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات »  
( ونلخص أهمها بالإجمال في عشر جمل أو قواعد )

( الأولى )

كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة . وهو نص قوله تعالى : ﴿ وجعلناكم أمة وسطاً ﴾<sup>(١)</sup> إن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى ، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم .

( الثانية )

كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتركية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات .

( الثالثة )

كون الغرض منه التعارف والتآلف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان وتقدمت شواهد في كونه عاماً مكملاً ومتمماً لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ .

( الرابعة )

كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا ارهاق ولا اعتناء ، قال الله عز وجل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ <sup>(١)</sup> وقال جلت حكمته ﴿ ولو شاء الله لأعتكم ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال عظمت رأفته ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال جلت منته ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال عمت رحمته ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ <sup>(٥)</sup> .

( الخامسة )

منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون اسراف ولا كبرياء قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ <sup>(١)</sup> وهو في ( ١٥ : ١٧ ) و ( ٦ : ٧٧ ) وفي هذا النهي اعتبار للمسلمين ، لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر والأحاديث الصحيحة في نهى المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء ، مينة لهذه الآيات وهي مصادق تسمية النبي ﷺ ملته بالحنيفية السمحة .

( السادسة )

قلة تكاليف وسهولة فهمها ، وقد كان الأعراى يحىء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الأعراى إن صدق » <sup>(٢)</sup> وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له .

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة

(٢) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٧٥ من سورة البقرة

(٤) الآية ٧٨ من سورة المؤمنون

(٥) الآية ٦ من سورة المائدة

(٦) الآية ١٧١ من سورة النساء

(٧) الحديث في صحيح البخارى — كتاب الصوم ج ٣ ص ٣١ ط الشعب

ولكن الفقهاء أكثرها التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسرا ، والعمل بها كلها متعذراً ، ولا يعترض على هذه المنزلة بالصلوات الخمس في كل يوم وليلة فإن أقل ما تجزئ به كل صلاة منها يمكن أن يؤدي في خمس دقائق ، ومنها صلاة عقب القيام من النوم في الصباح وصلاة قبل النوم في الليل ، فهل يشق على المرء أن يؤدي في سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة في ربع ساعة منه ؟ ..

## ( السابعة )

انقسام التكاليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص ، وابن عمر يرجح العزائم ، والناس درجات في التقصير والتشمير والاعتدال ، فهو يوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ﴾ (١).

## ( الثامنة )

نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الأفهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعلت عندما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده إلى أن نزلت آية المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (٢) . وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه ، والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والأول مذهب الحنفية ، وأما الثاني وهو التحرير فهو مذهب جمهور السلف أيضا ، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة ، فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والأعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولى الأمر في الأحكام القضائية والأمور السياسية ..

## ( التاسعة )

معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله — تعالى — فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا ل خليفة المسلمين أن يعاقب أحداً على ما يعتقد أو يضم في قلبه ، وأما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ..

(١) الآية ٣٢ من سورة فاطر

(٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت



( العاشرة )

مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لأحد فيها رأى شخصى ولا رئاسة ، ومدارها في الباطن على الإخلاص لله — تعالى — وصحة النية والآيات والأحاديث في الأمرين كثيرة .

## المقصد السادس من مقاصد القرآن

### بيان حكم الإسلام السياسى الدولى

#### نوعه وأساسه وأصوله العامة

الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم ، لأن ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شئونهم الدينية ، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية ، يتوقف على السيادة والقوة ، والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد .

## القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامى

الحكم في الإسلام للأمة ، وشكله شورى ، ورئيسه الإمام أو ( الخليفة ) منفذ لشرعه ، والأمة هي التي تملك نصبه وعزله ، فإن الله تعالى في المؤمنين قال : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال لرسوله ﷺ ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ <sup>(٢)</sup> وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه من كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وأولو الأمر أهل الحل والعقد والرأى الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٣٨ من سورة الشورى

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٨٣ من سورة النساء

فأولو الأمر الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وكان الأمر يرد إليه وإليه في الأمور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به من علاقة عامة ويعمل برأى الأكثر وإن خالف رأيه ، كاستشارتهم في غزوة أحد ، وفي أسرى بدر ... وقد بينت في تفسير الآية الأولى ( ٥ : ٥٨ ) ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر . ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع الفضائي والسياسي هو حق الأمة المعبر عنها في الحديث بالجماعة إن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة في سائر الأحكام العامة كقوله : ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ (١) الآية . وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سور الأنفال والبقرة وآل عمران ..

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة في الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم .

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها القرآن في عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منقذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الأمة ، ليكون قدوة لمن بعده .. وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أم أخرى ، وامتاز الإسلام بجعله ديناً ثابتاً بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة ، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لإرضاء الملوك والأمراء .

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا عن الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرسوم المنافقون وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم وكان من حسن حظ الإفرنج في حريم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفى في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه — وهو صلاح الدين الأيوبي — رحمه الله — الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعده على رجل غشه « ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضى

لك أو عليك » ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع — كالشحنة وهو صاحب الشرطة — وأن القضاة مستقلون بالحكم ، لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوى بين الناس . وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ، ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين ، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التى جاء بها الإسلام ، وصاروا يدعونها لأنفسهم ويعيرون الحكومات الإسلامية باستبدالها ، ثم يجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبدال والحكم الشخصى وصار المسلمون الجاهلون المتأخرون بدينهم يصدقونهم ، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم ، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه ..

## المقصد السابع من مقاصد القرآن « الإرشاد إلى الإصلاح المالى »

بيننا مقاصد القرآن أو أصول فقهه فى إصلاح البشر من طريق التدين والإيمان والعمل والإذعان ، ومن طريق العقل والبرهان ، والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، ومن طريق إكمال نوع الإنسان ما يتعلق منه بالأفراد وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والأجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه فى إصلاح المفاصد الاجتماعية الكبرى التى يتوقف عليها كماله على ما تقدم كله وهى :

- ١ — طغيان الثروة ودولتها
- ٢ — عدوان الحرب وقسوتها
- ٣ — ظلم المرأة واستباحتها
- ٤ — ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما ، وهو الرق المطلق — ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بذلك ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالإجمال ، مبتدئين بإشادة فى مسألة المال ، والآيات فيها تدور على سبعة أقطاب ، وهاك البيان .

## القطب الأول

### القاعدة العامة فى المال كونه فتنه واختبار فى الخير والشر

القاعدة الأساسية للقرآن فى المال أنه فتنه ، أى : اختبار وامتحان للبشر فى حياتهم الدنيوية من معاش ومصالح ، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد ، والخير والشر ، وهو مثار التنازع والتنافر فى كسبه وانفاقه ، وكنزه واحتقاره ، وجعله دُلة بين الأغنياء وتداوله فى المصالح والمنافع بين الناس .

وقد كان ومازال مثيراً للعداوات بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول ، وحلّال المشكلات وشفاء المعضلات فيها ، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع إلى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية ، وكذا الدينية حتى الإسلامية ...

وقد قصر علماء الفقه والأدب والتربية من أمتنا في إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحى والمقاصد التى دونت فى هذا العصر فى عدة علوم ، ولكن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فساداً ولا يجدون علاجاً لهذا الفساد إلا فى القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى حكاية عن نبيه سليمان حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية .

وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ، فزّلّك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية .

وقال تعالى : ﴿ وما آتيم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ <sup>(٥)</sup> الآية وقال تعالى : ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾ <sup>(٦)</sup> ومثلها فى سورة التغابن ( ٦٤ : ١٥ ) ويلها الترغيب فى الانفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس .

وقال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾ <sup>(٧)</sup> انظر هذا مع قوله تعالى فى أول السورة وهى الكهف ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ <sup>(٨)</sup> ، والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران ، وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه له بشكره ، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبى الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض ..

وقال تعالى فى تقسيمه للنفى بين مستحقه ﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ <sup>(٩)</sup> والدولة بضم الدال ، المال المتداول أى لئلا يكون المال محصورا فى الأغنياء متداولاً بينهم وحدهم ( وهذا ما يسمونه اليوم بالرأسمالية ) .

(١) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل

(٣) الآية ٣٧ من سورة سبأ

(٤) الآية ٣٩ من سورة الروم

(٥) الآية ١٤ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٢٨ من سورة الأنفال

(٧) الآية ٤٦ من سورة الكهف

(٨) الآية ٧ من سورة الكهف

(٩) الآية ٧ من سورة الحشر

والشواهد في فتنه المال في القرآن كثيرة ...

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال ، والشقاوة بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله : ﴿ وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .  
أى أن منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> وكذا قوله تعالى من سورة الليل ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنِيسِرْهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ <sup>(٣)</sup> .

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله ﴿ إِنْ سَعَيْكُمْ لَسْتُمْ ﴾ ومعناه بالإجمال والإيجاز أن سعيكم في الكسب والانفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وثمره ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ ﴾ ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة ﴿ وَاتَّقَى ﴾ سوء عاقبة منعها وضرره في الأفراد في الأمة ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ وهى ما وعد الله من جزاء على الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب وهو شامل لجزء الدنيا والآخرة ﴿ فَسَنِيسِرْهُ ﴾ بمقتضى سنتنا في تأثير صفات النفس في الأعمال ، وتأثير الأعمال في الأحوال الخاصة والعامة ﴿ لِلْيُسْرَى ﴾ أى : الطريقة الفضلى في اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الله ويحببه الناس . ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بما عليه من هذه الحقوق ، ﴿ وَاسْتَغْنَى ﴾ بما له عن حب الناس وحمدهم ، وعن حب الله ومثوبته ﴿ وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى ﴾ التى بينها أنفا بعدم طلبها وتحريمها بالإعطاء والإنفاق وإن اعترف بها باللسان ﴿ فَسَنِيسِرْهُ ﴾ بمقتضى سنتنا المبينة أنفا ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ فيكون سببا لعسر البشر وعدوا لهم ولربهم ، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل في الدارين .

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثانى من آيات المال وهى :

## القطب الثانى

### ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير

قال تعالى في سورة العلق ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَافٍ ﴾ <sup>(١)</sup> أى :  
حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال مستغنياً بعينه وكنزه أو قصره

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة

(٣) الآيات ٥ : ١١ من سورة الليل

(٤) الآيات ٦ : ٨ من سورة العلق

على شهواته عما في إنفاقه من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه في الآخرة ، وقد نزلت هذه الآية وما بعدها في أبى جهل أشد أعداء النبي ﷺ والإسلام من أول ظهوره وهى أول ما أنزل في ذلك . ومثلها في سورة المسد ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ <sup>(١)</sup> الآيات .. ومثلها في سورة الهمة ﴿ ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده ﴾ <sup>(٢)</sup> نزلت في الوليد وأميه بن خلف وكذا قوله تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا ﴾ <sup>(٣)</sup> الآيات . وقد نزلت في الوليد بن المغيرة ... وكذا آيات سورة ( ن ٦٨ ) من قوله : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين . همار شاء بنميم منع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من أول عهده بتبليغ الدعوة ثم قال الله تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون حصرة عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ومن الآيات العامة في غريزة البشر قوله تعالى : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ <sup>(٦)</sup> وقوله من سورة المعارج ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا ﴾ <sup>(٧)</sup> الخير : المال الكثير وأكثر الأغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين في أموالهم حق معلوم ﴾ <sup>(٨)</sup> الآيات .

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم في المال والدنيا فيبالغون وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتنانا بالمال ، ولذلك قرنه في بعض الآيات بالأولاد ، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت ، وشواهد في آيات القطب الثالث وهى :

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المسد

(٢) الآيات ١ : ٣ من سورة الهمة

(٣) الآيات ١١ : ١٧ من سورة المذثر

(٤) الآيات ١٠ : ١٥ من سورة ن

(٥) الآية ٣٦ من سورة الأنفال

(٦) الآية ١٢٨ من سورة النساء

(٧) الآيات ١٩ : ٢١ من سورة المعارج

(٨) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة المعارج

## القطب الثالث

## ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء فى انفاقه

قال تعالى : ﴿ ولا يحسن الذين يخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ <sup>(١)</sup> وقال فى سياق الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله من طيبات الكسب والاحلاص فيه والنهى عن الرياء والمن والأذى فيه ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية وفسروا بالبخل أى الشيطان يصدكم عن الإنفاق فى سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذى فحش شره وحذرته ، وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذى القرى واليتامى والمساكين والجيران ﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يخل ومن يخل فإنما يخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

## القطب الرابع

مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه  
على الإيمان والعمل الصالح

قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام حكاية عنه ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وفى معناه ما حكاه عن هود عليه السلام فى سورة هود ( ١١ : ٥٢ ) بل قال تعالى فى بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين فى آخر قصته من سورة طه ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ <sup>(٦)</sup> الآيات .

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة

(٣) الآيات ٣٦ ، ٣٧ من سورة النساء

(٤) الآية ٣٨ من سورة محمد

(٥) الآيات ١٠ : ١٢ من سورة نوح

(٦) الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه

فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفًا على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسُوفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ﴾<sup>(١)</sup> أى : وإن خفتم فقرًا يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحاته وغنائمه . وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿ إِنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنى الأمم والأقوام ..

والمؤمنون والكافرون يشتركون في أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال تعالى ﴿ كَلَّا تُمْدَّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾<sup>(٣)</sup> أى ما كان ممنوعًا عما يريد به لذات العاجلة ، ولا عما يريد به سعادة الآخرة ، وإنما يفضل بعضهم بعضًا في استعمال المال ، فاستعماله في الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحق بركتها ، واستعماله في البر والخير سبب للمزيد فيها . ومنه قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق ﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾<sup>(٤)</sup> أى : هى لهم في الدنيا بالاستحقاق ، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب ، ولكنها تكون في الآخرة خالصة لهم ، لأنهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابُا وَسُرَرٌ عَلَيْهَا يَتَكُونَ ، وَزَخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾<sup>(٥)</sup> . أى ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفارًا يجعل نعيم الدنيا وزيتها للكافرين وحدهم لجعلنا لببوتهم سقفا وأبوابا من فضة وسلام من فضة يصعدون عليه إلى غرفات قصورهم ، وجعلنا لهم فيها سررا كذلك وزخرفا أى : ذهبا ، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل ، بالنسبة إلى نعيم الآخرة الدائم . ولكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد ، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزيتها بالأسباب الكسبية المشتركة ، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعا لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد في أنفسهم ، والتوسعة على غيرهم .. ويؤيده ما في القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه .

(١) الآية ٢٨ من سورة التوبة

(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنفال

(٣) الآية ٢٠ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ٣٣ : ٣٥ من سورة الزخرف



## القطب الخامس

## ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع بالإسراف والاقتصاد فيه

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ <sup>(١)</sup> قيام الشيء وقوامه ( بالكسر والفتح ) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت أى جعل قوام معاشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المترفون المبدرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم . ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> الآية : الابتلاء التجربة والاختبار ، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد في أفعالهم ، وهو الصلاح والاستقامة في معاملاتهم ، لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع .

وقال تعالى في صفات المؤمنين ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يَسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ <sup>(٣)</sup> الإسراف التبذير ، والاقتار ، الإقلال والتضييق في النفقة ، وقال تعالى : ﴿ لَيَنْفَقَ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلَيَنْفَقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ﴾ <sup>(٤)</sup> وهذا نزل على النفقة في المرأة المطلقة في العدة ، وهو إرشاد عام والقاعدة في الأصول أن العبرة بدلالة العموم ، لا يقيد بخصوص سبب النزول ، وقال في النفقات العامة ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> و « من » للتبغيز فكل من الغنى ذى السعة والفقير ذى العسرة ، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله ، وهذا أعظم أصول الاقتصاد . فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر .

وفي وصايا سورة الإسراء الحكيمة . ذكر آيات النهى عن التبذير والمبالغة في بسط اليد والمبالغة في قبضها ، وما لكل منهما من سوء العاقبة ﴿ وَأَتَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴾ <sup>(٦)</sup> .

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة ، ألا ترى أنه عقب النهى عن التبذير ﴿ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ <sup>(٧)</sup> لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ <sup>(٨)</sup> ثم قال تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا

(١) الآية ٥ من سورة النساء

(٢) الآية ٦ من سورة النساء

(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان

(٤) الآية ٧ من سورة الطلاق

(٥) الآية ٣ من سورة البقرة

(٦) الآية ٢٦ من سورة الإسراء

(٧) الآية ٢٧ من سورة الإسراء

(٨) الآية ٢٧ من سورة الإسراء

محسورا ﴿١﴾ فعلل الإسراف في الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ، ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ، ويطلق على من انحسرت قوته ، وانكشف عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً ، وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة ، ولو أن المسلمون تدبروا هذه الآيات الحكيمة في الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بارشادها عن جميع الكتب والوصايا في حفظ ثروتهم ، ولندر أن يوجد فيهم فقير .

## القطب السادس

### انفاق المال في سبيل الله آية الايمان

### والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة وسعادة الانسان

هذا هو القطب التهذيبي الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه ، وما ذكر قبله فهو وسائل ، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان ، المبني على أساس الإيمان وجعل دعوى الإيمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الإسلام تقبل مطلقاً ، لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر .

والأصل في هذه المسألة قوله تعالى ﴿٢﴾ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴿٣﴾ ، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الإيمان وصدق مدعيه ..

وتجد الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا قوله تعالى : ﴿٤﴾ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأق الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿٥﴾ .

(١) الآية ٢٩ من سورة الإسراء

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة

ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ (٣) ..

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه وبيان آدابه : عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ — ٢٨١ .. ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الإسلامية في هذه القرون الأخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب القوية في بذل المال للجهاد في سبيل الله الذي يحفظ استقلالهم ، ويعتز به ملكهم ، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ، ثم في غيرهم ، وفي طرق البر التي ترتقى بها أمتهم وتكون حجة على سائر الأمم في تفضيل دينهم على سائر الأديان وحاجة الأمم إليه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به ، وما أفضى إليه من فوضى الشيوعية الدينية والأدبية المشار إليها فيما يلي :

### المقصد السابع

## في الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والإصلاح المالي في الإسلام

قد عقد لتفسير قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها ﴾ (٢) فصلاً في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالي للبشر وامتنياز الإسلام بذلك على جميع الأديان . بينت فيه مكانة المال من حياة الناس ، وما له من التأثيرات في الثروات والحروب والسياسة والعمران ، وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره وأنظمتها واستغلاله ، واستعباد الألوفا وألوف الألوف من البشر به ، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسماليين ، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في المال ، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين والشيوعيين وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادي والخصام .

ثم بينت أن هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لا علاج لها إلا اتباع هداية الإسلام في الإصلاح المالي ، ولخصت هذا الإصلاح في أربعة عشر أصلاً هي :

( ١ ) إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل .

( ٢ ) تحريم الربا والقمار .

(١) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة

- ( ٣ ) منع جعل المال دولة بين الأغنياء .
- ( ٤ ) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم .
- ( ٥ ) فرض الزكاة في أول الإسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام ، وإنما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للإسلام .
- ( ٦ ) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام ما دام النصاب تاماً ، وبالعشر ونصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الأقوات أو مطلقاً . وزكاة الأنعام المعروفة ، وفاتني هنالك — أى في تفسير المنار — ذكر الخمس في الركاز وهو ما ينبش من المال المكتنوز القديم والمعدن .
- ( ٧ ) فرض نفقة الزوجين والقرابة .
- ( ٨ ) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وضيافة الغرباء .
- ( ٩ ) بذل المال في كفارات بعض الذنوب .
- ( ١٠ ) ندب صدقات التطوع للمحتاجين .
- ( ١١ ) ذم الإسراف والتبذير والبخل والتقتير .
- ( ١٢ ) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما لتوقف ترقى الصناعة والحضارة عليها .
- ( ١٣ ) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه .
- ( ١٤ ) تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر اهـ . باختصار ، وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة في تفسير آيتها ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ (١) .
- ثم عقدت فصلاً آخر في خلاصة السورة ، وهى سورة التوبة ، والمشتملة على هذه الآيات في أحكام الأموال في الإسلام يدخل في ثلاثة أقسام :
- ( ١ ) المسائل الدينية والاجتماعية في الأموال .
- ( ٢ ) أنواع الأموال ومصارفها .
- ( ٣ ) فوائد إصلاح الإسلام المالى للبشر فالرجوع إلى هذه المباحث في ذلك الجزء من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا .

وخلاصة القول في هذه القواعد العلمية في إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عاماً كما سماها الله تعالى في كتابه ، واتقاء شرور التنازع عليها . بالوازع الدينى ، والتشريع الدولى ، إنها هى التى يصلح بها أمر البشر

على اختلاف أحوالهم واستعدادهم ، فيكونون سعداء في دنياهم وفي دينهم ، ولن تجد مثلها في دين من الأديان ، ولا شيء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وإن البشر لعل خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادى على المال حتى أعييتهم الحيل ، وسيل النجاة ممهدة ممهدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهى الإسلام وهداية القرآن ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ (١).

### المقصد الثامن من مقاصد القرآن

**إصلاح نظام الحرب ودفع مفسادها وقصرها على ما فيه الخير للبشر**  
**أهم قواعد الحرب والسلام في دين الإسلام ، وشواهد من القرآن**  
**( القاعدة الأولى )**

#### في الحرب المفروضة على الأعيان

ورد الأمر بقتال المعتدين لكف عدوانهم ، ولما سياتى من درء المفسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهى عن قتال الاعتداء والبنى والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) . وتعليل النهى عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقاً ..

وقد أشبهه على الغافلين الأمر بما كان في بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره ، فالدفاع لا يشترط أن يكون في كل معركة وكل حركة .

وهذا الذى كان في آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل في أول الإذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى في سورة الحج ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير \* الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ (٣) .

ولما نقضوا العهد الذى عقده النبي ﷺ معهم في الحديبية في أواخر سنة ست للهجرة وعزم على

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة

(٣) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج

فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة المتحنة ( ٦٠ ) في النهي عن ولاية المشركين ، وفيها التصريح بأن النهي خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم ، فهو نهى عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك . فتأمل الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ منها .

### ( القاعدة الثانية )

في الغرض من الحرب ونتيجتها .

هى أن تكون الغاية الإيجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن — حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها ، وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاءهم كلمته ، وتأمين دعوته ، وتنفيذ شريعته ، وهى فى مصلحة البشر كلهم ، وإسداء الخير إليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم . والشاهد الأول قوله تعالى بعد ذلك الإذن لهم بالقتال الذى تلوناه أنفا ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز \* الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (١) ذكر — تعالى — إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور ( أولها ) كونهم مظلومين معتدى عليهم فى أنفسهم ، ومخرجين نفيًا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم وهذا سبب خاص بهم .

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لإرجاعه عن دينه » واستدللنا عليها بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ (٢) .

وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الإيذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم ، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك فى الصدر الأول ومن عساه شذ عن ذلك قليلا بعده فقد خالف حكم الإسلام الذى حرم الفتنة والاضطهاد والإكراه فى الدين وشرع فيه الاختيار بل جعله شرطًا لصحته .

( ثانيا ) إنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء وكصوامع العباد وبيع النصارى ومساجد المسلمين — بظلم عباد الأصنام ، ومنكرى البعث والجزاء وهذا سبب دينى عام صريح فى جرية الأديان فى الإسلام وحماية المسلمين لها وللمعابد أهلها وكذلك كان .

(١) الآيات ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج

(٢) الآية ٣٩ من سورة الأنفال

( ثالثها ) أن يكون غرضهم من التمكن فى الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيا عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبه — وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع الناس — والنهى عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس .

### ( القاعدة الثالثة )

#### إيثار السلم على الحرب

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفسد ، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها ، ورضى بها ، والشاهد عليه قوله تعالى ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾<sup>(١)</sup> .

### ( القاعدة الرابعة )

#### الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذى يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ... وذلك قوله عز وجل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> .

### ( القاعدة الخامسة )

#### الرحمة فى الحرب

إذا كان الغلب والرجحان فى القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان فى الأعداء ، وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم ، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر ، ثم يخبرهم فى الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم وذلك نص قوله تعالى فى سورة محمد ﷺ ﴿ فَإِذَا

(١) الآية ٦١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال

لقيم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثحتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليلو بعضهم ببعض ﴿١﴾ الآية .

### ( القاعدة السادسة )

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سراً أو جهراً ، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية منها قوله تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ (١) الآية . جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهي عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أرى من أمة ﴾ (٢) والمعنى أن تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث « وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى » حال كونكم تتخذون عهودكم دخلاً بينكم والدخل ( بالتحريك ) الفساد والغش الخفى الذى يدخل في الشيء وما هو منه ، لأجل أن تكون أمة أرى وأزيد رجالاً ، وأكثر ربحاً ومالاً ، وأقوى أسنة ونصلاً ، من أمة أخرى .

والمراد أن معاهدات الصلح والاتفاق بين الأمم يجب أن يقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الإخلاص دون الدخل الذى يقصد به أن تكون أمة هي أرى نفعاً وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى وهو ما عليه الدول في جميع معاهداتها ...

### ( القاعدة السابعة )

#### الجزية وكونها غاية للقتال لا علة

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ (٤) ما نصه : هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا ، أى : قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضى وجوب القتال ، كالاتعاء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم ، كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية في الحالتين اللتين قيدت بهما . فالقيد الأول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أى : قدرة

(١) الآية ٤ من سورة محمد

(٢) الآية ٩١ من سورة النحل

(٣) الآية ٩٢ من سورة النحل

(٤) الآية ٢٩ من سورة التوبة



وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون ، والثانى لكم وهو الصغار والمراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم ..

## حكمة الجزية وسببها وما تسقط بها

هذا وإن الجزية فى الإسلام لم تكن كالضرائب التى يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التى يرهقونهم بها ، وإنما هى جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذى يمنهم ، أى : يحميهم ممن يعتدى عليهم .

والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها فى تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا .

« منها » ما كتبه خالد بن الوليد — رضى الله عنه — لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا ، وكتب سنة اثني عشرة فى صفر » ا هـ . وهو صريح فى أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها وتمتنع بزوالها .

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذرى فى فتوح البلدان والأزدى فى فتوح الشام ، من رد الصحابة — رضى الله عنهم — لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة رضى الله عنه ، وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة ، فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم .

فظهر بما ذكرنا أن الإسلام حرم حرب الاعتداء والظلم ، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاصد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها ، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام ، ووضع قوانين الحرب على قواعده .

## المقصد التاسع من مقاصد القرآن

### إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

١ — كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك فى ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ

من ذكر وأنثى ﴿١﴾ الآية : وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ (٢) .

٢ — كان بعض البشر فى أوربا وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسميا فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بقلب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات والآيات معروفة ..

٣ — كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين فى جنة النعيم فى الآخرة — وهذا الزعم أصل لعدم تدينها — فنزل القرآن يقول : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمالى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾ (٣) ويقول : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ (٤) الآية .

٤ — كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعادونها أهلا للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية ، والمحافل الأدبية ، ولا فى غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (٥) ..

٥ — كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره ، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الإسلام هذا الظلم ، وأثبتت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن فى دائرة الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا ﴾ (٦) .

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب فى عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لاتزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد منحت المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن .

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٢) الآية ١ من سورة النساء

(٣) الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٤) الآية ١٩٥ آل عمران .

(٥) الآية ٧١ من سورة التوبة

(٦) الآية ٧ من سورة النساء

٦ — كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقداً دينياً مديناً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين وإكمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد ، على ما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (١)

٧ — القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رئاسة الشركة الزوجية للرجل ، لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾ (٢) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ (٣) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد ، لا تكلف الزوجة منه شيئاً ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر ، فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضى على حين نرى بقية الأثم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل .

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلون عنها بالمنع منه مطلقاً وإن كان زوجها وطلقها . فحرم الإسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته .

٨ — كان الرجال من العرب وبنى إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشروط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع ، وأن من خاف على نفسه ألا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصاد على واحدة . وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان ، لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال .

٩ — الطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف وكان مشروعاً عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذى لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون وكان الإفراج يجرمونه ويعيبون الإسلام به ، ثم اضطروا إلى إباحتها ، فأسرفوا فيه إسرافاً منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة ومما نقلته الصحف

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

(٢) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة

(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء

من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل في إرساله أو قصه أو حلقه ، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعة الكتب أو الصحف في الدار ، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه ، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة ( التليفون ) ومثله كثير .

جعل الإسلام عقدة النكاح بين الرجال ويتبعه حق الطلاق ، لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدتها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ <sup>(١)</sup> وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل ، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة ، وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يفضيه للتفجير عنه — إلى غير ذلك من الأحكام التي بينها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الإسلام .

١٠ — بالغ الإسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى ، وأكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدماً على بر الأب ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام ، بل جعل لكل امرأة قيماً شرعياً يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها .

وجملة القول أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم ، إلى محمد النبي الأمي المبعوث في الأميين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين والحمد لله رب العالمين .

## المقصد العاشر من مقاصد القرآن الكريم ( تحرير الرقبة )

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضاً كالثمل ، فإذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المثونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك .

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الأعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرق مشروعاً عند الإفرنج إلى أن حررت الولايات المتحدة الأمريكية رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر العامة ، فإن لهم فيها مصالح خاصة ، ولا جنوحاً للمساواة بينهم ، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوربي المتغلب على الجنس الأحمر الوطني الأصل .. ، كما أن انكلترة تحقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ... فلما ظهر الإسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلمهم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار ، ولا بغى ولا استكبار ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين .

فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد ما يحسنه أو يقدر عليه فيرجع إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان . فهذا برهان حي شاهد على أن إبطال الرق — الذى كان عامماً في البشر — بتشريع دين يتعبد الله تعالى به من أول يوم لم يكن من الحكمة ولا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها ، والإسلام تشريع عملي لا هوادة فيه فما شرعه في الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة ، الجامع بين المصلحة العامة والرحمة . وقد شرع الله تعالى لإبطال الرق بطريقتين :

١ — تحديد تجديد الاسترقاق في المستقبل أو تقييده .

٢ — وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه ..

أضف إلى ما تقدم كله وصايا الله ورسوله بالممالك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد « عبدى وأمتى » وأمره أن يقول « فناى وفتاقى وغلأمى » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون ، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم كما في حديث أبى ذر في الصحيحين وغيرهما قال ﷺ : « إخوانكم حولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » (١) ..

(١) الحديث رواه الترمذى في سننه عن أبى ذر ( الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٢٨ ) وفي صحيح البخارى — كتاب الإيمان —

ولهذا كان المسلمون في الصدر الأول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم حتى صاروا يقصرون في الخدمة ونعمهم الحق إن العبد المملوك في حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الإفرنج من غيرهم أو نقوذهم .

### خلاصة البحث

## في تحرير الدلالة على إثبات الوحي ، وحجة الله به على جميع الخلق

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسى ، والكلام في إعجاز القرآن اللغوى والعلمى ، وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الإنسانى من كل وجه ، ثم أضف إليها تلك العشرة الأنواع من مقاصد القرآن .. مع العلم القطعى من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة ، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وأنه لم يعرف عنه أنه كان يبحث فى شىء من العلوم ، ولا أنه نطق بشىء من مسائلهم ، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة ، أو عنى بالشعر أو الرجز أو الخطابة ، والعلم القطعى بأنه إنما جاء بها فى هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين وهى سن لم يعرف فى استعداد نفس البشر ومدركات عقولهم ولا فى تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها اثنتافاً لم يسبق له البدء بشىء منه فى أنف عمره ، وآنفه شبابه وشرخه .

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً إلى الجزم بأن هذا فى جملته وتفصيله فوق استعداد بشر أسمى أو متعلم ، وأنه لا يعقل إلا أن يكون وحياً من الله تعالى اختصه به ..

« رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً »

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . ا هـ .

## بسم الله الرحمن الرحيم

### تفسير سورة الزخرف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعا . عدد آياتها تسع وثمانون .

وكلماتها : ثمانمائة وثلاث وثلاثون .

وحروفها : ثلاثة آلاف وأربعمائة .

### مقصود السورة

بيان إثبات القرآن في اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل ﷺ بإبقاء كلمة التوحيد في عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة المؤمنين مع ابن الزبغرى بحديث عيسى ، وبيان شرف الموحدين في القيامة ، وعجز الكفار في جهنم ، وإثبات إلهية الحق في السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار في قوله : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام ﴾ .

### المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ وفي الجاثية : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ <sup>(١)</sup> لأنه في هذه السورة متصل بقوله ﴿ وجعلوا الملائكة ﴾ الآية . والمعنى : أنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وإن الله قد شاء منا عبادتنا إياهم ، وهذا جهل منهم وكذب . فقال — سبحانه — : ﴿ ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ أى : يكذبون . وفي الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فإن قولهم : ﴿ غوت ونجيا ﴾ <sup>(٢)</sup> صدق ، فإن المعنى ، يموت السلف ويحيا الخلف ، وهو كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وكذبوا في إنكارهم البعث ، وقولهم : ﴿ ما يهلكنا إلا الدهر ﴾ ولهذا قال : ﴿ إن هم إلا يظنون ﴾ أى : هم شاكون فيما يقولون .

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الجاثية

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ وبعده : ( مقتدون ) خص الأول بالاهتداء ، لأنه كلام العرب في حاجتهم رسول الله ﷺ وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، فحنن مهتدون ولهذا قال عقيبه : ﴿ قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ ﴾ . والثاني حكاية عمّن كان قبلهم من الكفار . وأدعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فاقترضت كل آية ما ختمت به .

قوله : ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ وفي الشعراء : ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾<sup>(١)</sup> لأن ما في هذه السورة عام لمن ركب سفينة أو دابة وقيل معناه : ﴿ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴾ على مركب آخر ، وهو الجنازة ، فحسن إدخال اللام على الخبر للعموم . وما في الشعراء كلام السحرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم .  
ووجه مناسبتها لما قبلها أن مفتتح هذه السورة يشاكل ختم تلك السورة .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ۝ أَفَضْرِبُ عَنْكَ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوكَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ۝ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا



يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مَنْ يَنْشُؤْا فِي الْحَلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُهُتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ \* قُلْ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِآهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ لَظَرُّوا إِلَيْنَا أَوْ لَوْ أَرْسَلْنَا بِهِ كُفْرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

### معاني المفردات

﴿ الكتاب ﴾ : هو القرآن . ﴿ المبين ﴾ : أى الموضح لطريق الهدى ، المبعد من الضلالات .  
 ﴿ لعلمكم تعقلون ﴾ : أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه . ﴿ أم الكتاب ﴾ : هو علم الله الأزلى .  
 ﴿ حكيم ﴾ : أى : ذو حكمة بالغة . ﴿ أفنضرب عنكم ﴾ يقال : ضربت عنه ، وأضربت عنه ، أى : تركته .  
 ﴿ الذكر ﴾ : أى : القرآن . ﴿ صفحا ﴾ : أى : إعراضا . ﴿ مسرفين ﴾ : أى : منهمكين فى كفرهم وتوليكم عن الحق .  
 ﴿ بطشاً ﴾ : أى : قوة وجلداً ﴿ مضى ﴾ : أى : سلف . و ﴿ المثل ﴾ : الصفة ، ﴿ مهدياً ﴾ : أى : فراشاً ، وأصله : موضع فراش الصبي . ﴿ سبلاً ﴾ : واحداً سبيل ، وهى الطريق ﴿ بقدر ﴾ : أى : بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة . ﴿ فأنشرونا ﴾ : أى : أحيينا . ﴿ ميتاً ﴾ : أى : خالية من النبات .  
 ﴿ الأزواج ﴾ : أصناف المخلوقات . ﴿ لتستروا على ظهوره ﴾ : أى : لتستقروا عليها .  
 ﴿ سخر ﴾ : ذلل . ﴿ مقرنين ﴾ : أى : مطيقين . ﴿ جزءاً ﴾ : أى : ولداً ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ممن ولد منه . ﴿ مبين ﴾ : أى : ظاهر الكفر . ﴿ أصفاكم ﴾ : أى : اختار لكم ﴿ ضرب ﴾ : أى : جعل . ﴿ مثلاً ﴾ : أى : شبها ، أى : متشابهاً بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد . ﴿ كظيم ﴾ : أى : ممتلئ غيظاً وغماً . ﴿ ينشأ ﴾ : أى : يرى . ﴿ فى الحلية ﴾ : أى : فى الزينة .  
 ﴿ الخصام ﴾ : أى : الجدل . ﴿ غير مبين ﴾ : أى : غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل . ﴿ يخرصون ﴾

أى : يكذبون ﴿ مستمسكون ﴾ أى : متمسكون ومعلون . ﴿ على أمة ﴾ أى : على طريقة خاصة .  
 ﴿ مترفوها ﴾ أى : أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى ما يوصلهم إلى الحق ..  
 ﴿ مقتدون ﴾ أى : سالكون طريقهم .

## المناسبة وإجمال المعنى

أقسم سبحانه — بكتابه المبين لطريق الهدى إنه جعل هذا القرآن بلغة العرب ، لغة قومك ليفقهوا مغناه ، ويحيطوا به خبرا ، وإنه محفوظ فى علمه — تعالى — فليس هو من عند محمد كما تدعون ، وإننا لن نترك تذكيركم به لأجل إعراضكم عنه ، وإنهما ككم فى الكفر به ، رحمة منا ولطفًا بكم ، ثم حذرهم وأنذرهم بأن كثيرا من الأمم قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة كذبوا رسلهم فكان عاقبتهم ما رأيتم وحل بهم ما تشاهدون آثاره ، وبعد أن ذكر — سبحانه — ذلك أبان أن أفعالهم تخالف أقوالهم ، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون من سمائه وأرضه ليقولن : الله ، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأوثان والأصنام ، ثم ذكر — سبحانه — جليل أوصافه ، فأرشد إلى أنه هو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقا ، لتتدوا بها فى سيركم ، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة يكفى زرع النبات وسقى الحيوان ، وخلق أصناف المخلوقات جميعا من حيوان ونبات ، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها ، وتشكروا الله على ما آتاكم ، وتقولوا : لولا لطف الله بنا ما كنا لذلك بمطيعين ، وإننا يوم القيامة إلى ربنا راجعون ، فيجازى كل نفس بما كسبت ، ثم ذكر — سبحانه — أكاذيبهم ، إذ جعلوا الملائكة بنات له ، ولا غرو ، فالإنسان من طبعه الكفران وجحود الحق ، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أحسن صنفى الأولاد عندهم ، وما لو بشر أحدهم به اسود وجهاً وامتلأ غيظا ، ومن يتزى فى الزينة وهو لا يكاد يبين حين الجدل ، واختاروا لأنفسهم الذكران ، ثم أعقبه بالنعى عليهم فى جعلهم الملائكة إناثا ، وزاد فى الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة ، فهل هم شهدوا ذلك ؟ ثم توعدهم على هذه المقالة ، وإنه يوم القيامة يجازيهم بها . ثم حكى عنهم شئها أخرى ، قالوا : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناها ، لكنه شاء عبادتها لأنها هى المتحققة فعلا فتكون حسنة ، ويمتنع النهى عنها ، ثم رد مقالهم بأنهم كاذبون ، لأنه — سبحانه — لا يرضى لعبادة الكفر ، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلى نفى أن يكون لهم دليل نقلى على صحة ما يدعون ، ثم أبان أن ما فعلوه إثمهاو بمحض التقليد عن الآباء دون حجة ولا برهان وهم ككثير من الأمم قبلهم قالوا مثل مقالهم ، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم العذاب كما يشاهدون ويرون من آثارهم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ حم . والكتاب المبين ﴾ أى : البين والواضح والجلى المعانى والألفاظ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أنصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال — تعالى — : ﴿ إنا جعلناه ﴾ أى : أنزلناه ﴿ قرآنا عربيا ﴾ أى : بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى : تفهمونه وتندبرونه ، كما قال — تعالى — : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾ (١) .

قوله — تعالى — : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ عندنا ﴿ لعلى حكيم ﴾ أى : رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، كقوله — تعالى — ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾ (٢) وكقوله — سبحانه — ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾ (٣) فبين — سبحانه — شرف القرآن فى الملأ الأعلى . ليشرفه ويعظمه أهل الأرض .

قوله — عز وجل — : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ معنى ﴿ صفحاً ﴾ : إعراضاً ، وقد ضربت عنه صفحاً : إذا أعرضت عنه وتركته . وللمفسرين فى معنى هذه الآية أقاويل ، قال ابن عباس : المعنى : أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به ؟ وعنه أيضاً أن المعنى : أتكذبون بالقرآن ولا نعاقبكم ؟ . وقال السدى : المعنى : أفنتركم سدى فلا تأمركم ولا ننهاكم ؟ وقال قتادة : والله لو كان هذا القرآن رُفِع حين رددته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته .

قال العلامة ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جداً ، وحاصله : أنه يقول فى معناه إنه — تعالى — من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ليتهدى من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب عليه شقاوته .

قوله — تعالى — : ﴿ وكم أرسلنا من نبي فى الأولين . وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ . أى : وكثيراً ما أرسلنا فى الأمم الغابرة رسلاً قبلك كما أرسلناك إلى قومك من قريش ، وكلما أتى نبي أمتهم يدعوهم إلى الهدى استهزأوا به وسخروا منه ، فأهلكنا المكذبين بالرسول ولم يقدرُوا على رفع بأسنا إذ أتاهم ، ومضت سنتنا فى المكذبين لرسولهم من قبلهم ، ورأيتم ما حل

(١) الآيات : ١٩٢ — ١٩٥ من سورة الشعراء

(٢) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الواقعة .

(٣) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .

بهم ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم . ونحو الآيات قوله — تعالى — : ﴿ ولقد استهزىء برسلا من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ \* قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله — جلت عظمتة — : ﴿ سنة الله التى قد خللت فى عباده ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله — تعالى — ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ \* الذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾ \* والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ﴾ \* والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ﴾ \* لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

يقول — تعالى — : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ يعنى المشركين ﴿ من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ \* العزيز فى سلطانه ، العليم بهن وما فيهن ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء . فأقروا له بالخلق والإيجاد ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم ، كما حكى الله عنهم بقوله — تعالى — ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون ﴾ \* إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ثم دل على نفسه — سبحانه — بذكر مصنوعاته وآلائه قال — تعالى — : ﴿ والذى جعل لكم الأرض مهذا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون ﴾ \* أى : والعزيز العليم هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها لكم وطئة تطئونها بأقدامكم ، وتمشون عليها بأرجلكم ، وجعل لكم فيها طرقاً تتقلون من بلد إلى آخر ، لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم .

﴿ والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشربنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون ﴾ \* أى : وهو الذى ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة فلا يجعله كثيراً ، حتى لا يكون عذاباً كالطوفان الذى أنزل على قوم نوح ، ولا قليلاً لا يكفى النبات والزرع ، لئلا تهلكوا جوعاً ، فتحيا به الأقاليم التى كانت خالية من النبات والشجر ، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحْييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴾ \* ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ٨٥ من سورة غافر .

(٣) من الآية : ٣ من سورة الزمر .

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴿١﴾ .

قوله — تعالى — : ﴿والذي خلق الأزواج كلها﴾ أى : وهو الذى خلق سائر الأصناف مما تنبت الأرض من نبات وأشجار وأزاهير ، ومن الحيوان ، على اختلاف الأزواج كلها ﴿مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ (٢) .

وكقوله — تعالى — : ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (٣) أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ، حتى يقيم قائم بنفسه — سبحانه وتعالى — ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

قوله — تعالى — ﴿وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون﴾ أى : وهو الذى جعل لكم من السفن ما تركبون فى البحار إلى حيث تقصدون لمعيشكم ومتاجركم ، ومن الأنعام ما تركبونه فى البر كالخيل والبغال والحمير ، ومما سيجد من وسائل المواصلات وطرق الثقله براً وبحراً ، كما جاء فى سورة النحل من قوله — تعالى — ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ (٤) .

وقوله — تعالى — : ﴿لستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمه ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ .

أى : لكى تستوا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ثم تذكروا نعمه ربكم الذى أنعم به عليكم ، فتعظمونه وتمجدونه ، وتقولوا — تنزيهاً له عما يصفه المشركون — : سبحان الذى سخر لنا هذا الذى ركناه ، وما كنا — لولا تسخيريه وتذليله — بمطيقين ذلك ، فالأنعام مع قوتها ذللاً للإنسان ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد ، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها .

واعلم أنه — سبحانه — عيّن ذكراً خاصاً حين ركوب السفينة ، وهو قوله : ﴿بسم الله مجريها ومرساها﴾ (٥) وذكر آخر حين ركوب الأنعام وهو قوله : ﴿سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين \* وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾ وذكر ثالثاً حين دخول المنازل وهو قوله : ﴿رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ (٦) .

(١) الآية : ٣٩ من سورة فصلت

(٢) الآية : ٣٦ من سورة يس

(٣) الآية : ٤٩ من سورة الذاريات .

(٤) الآية : ٨ من سورة النحل

(٥) من الآية : ٤١ من سورة هود

(٦) من الآية : ٢٩ من سورة المؤمنون

قال القرطبي : علّمنا — سبحانه وتعالى — ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرفنا في آية أخرى على لسان نوح — عليه السلام — ما نقول إذا ركبنا السفن ، فكم من راكب دابة عثرت به ، أو شتمت ، أو تقحّمت ، أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق . فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور ، واتصالا بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته وأنه هالك لا محالة ، فمنقلب إلى الله — عز وجل — غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعداً للقاء الله ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم الله وهو غافل عنه . ١ هـ .

وقوله — تعالى — : ﴿ وإنا إلى ربنا لمنتقلون ﴾ أى : لصاترون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سيرة الآخرة .

### هديه ﷺ في ركوب الدابة والذكر عنده

قال الإمام أحمد : عن علي بن ربيعة قال : رأيت عليا — رضى الله عنه — أتى بدابة فلما وضع رجله في الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وإنا إلى ربنا لمنتقلون ﴿ ثم حمد الله ثلاثاً ، وكبّر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسي فاغفر لي ، ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال — رضى الله عنه — : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يعجب الرب — تبارك وتعالى — من عبده إذا قال : رب اغفر لي ، ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى (١) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنتقلون ﴾ اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هون علينا سفرنا هذا ، وأطو عنا بعده ، أنت صاحب في السفر ، والخليفة في المال والأهل ، وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيئون تائبون عابدون لربنا حامدون » (٢) .

وفي وجه آخر : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه — رضى الله عنهم — إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبحوا .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند على بن أبى طالب — رضى الله عنه — ) ج ١ ص ٩٧ والترمذى ( أبواب الدعوات ) باب : ما يقول إذا ركب دابة ج ٥ ص ١٦٤ ، ١٦٥ رقم ٣٥١١ وانظر سنن أبى داود ( كتاب الجهاد ) باب : ما يقول الرجل إذا ركب ج ١ ص ٧٧ رقم ٢٦٠٢ (٢) انظر صحيح مسلم ( كتاب الحج ) باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ج ٢ ص ٩٧٨ رقم ١٣٤٢/٤٢٥

## في الذكر على الدابة إذا استصعبت

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول في أذنها : ﴿ أفغير دين الله يعنون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون ﴾ <sup>(١)</sup> إلا وقفت بإذن الله تعالى . قال الإمام ابن القيم . قال شيخنا ابن تيمية — قدس الله روحه — : وقد فعلنا ذلك فكان كذلك . ( من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب ) .

قوله — تعالى — ﴿ وجعلوا له من عبادہ جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم \* أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين \* وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سكتب شهادتهم ويستلون \* وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾ .

بعد ما ذكر — سبحانه وتعالى — الآيات الدالة على توحيدہ ورحمته بعباده ولطفه بهم ، ذكر — جل في علاه — أنهم قابلوا الإحسان بالإساءة وجعلوا له شريكاً أو ولداً ﴿ وجعلوا له من عبادہ جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ومعنى ﴿ من عبادہ جزءاً ﴾ أن قالوا : الملائكة بنات الله ، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له ﴿ إن الإنسان ﴾ أى : الكافر ﴿ لكفور مبين ﴾ قال الحسن : يعد المصائب وينسى النعم ﴿ مبين ﴾ مظهر الكفر .

وهذه الآية كقوله — تعالى — في سورة الأنعام بعد أن تحدث — سبحانه — عن الآيات الدالة على توحيدہ قال بعد ذلك : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ بديع السموات والأرض أئى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم \* ذلکم الله ربکم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل \* لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ <sup>(٢)</sup>

قوله — تعالى — : ﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ، كقوله — تعالى — : ﴿ أفأصفاكم ربکم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنکم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم زاد في التوبيخ والإنكار بقوله — تعالى — : ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ <sup>(٤)</sup> أى : وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنف وتملكته الكآبة والخرن من سوء ما بشر به وتوارى من القوم خجلاً .

(٣) الآية : ٤٠ من سورة الإسراء .

(٤) الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

(١) الآية : ٨٣ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات : ١٠٠ — ١٠٣ من سورة الأنعام .

ثم كرر الإنكار وأكد به بقوله — تعالى — : ﴿ أَوْ مِنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّهِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرَ مُبِينٍ ﴾ أى : أو قد جعلوا لله الأئني التي تتزيى في الزينة ، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى . لنقصان عقلها وضعف رأيها ؟ وما كان ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك .

وقوله — تعالى — : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ أى : سموهم وحكموا لهم بذلك ، وفي هذا كفر من وجوه ثلاثة : أنهم نسبوا إلى الله الولد ، أنهم أعطوه أخس النصيبين ، أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا ، وقد رد الله عليهم مقامهم فقال — سبحانه — : ﴿ أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ أى : أحضروا خلق الله لهم ، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم ؟ ونحو الآية قوله — تعالى — : ﴿ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون \* أصطفى البنات على البنين \* مالكم كيف تحكمون <sup>(١)</sup> .

ثم توعدهم — سبحانه — على مقامهم فقال :

﴿ سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيَسْأَلُونَ ﴾ أى : ستكتب هذه الشهادة التي شهدوا بها في الدنيا في ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ؛ ليأتوا ببرهان على صحتها ، ولن يجدوا لذلك سبيلا .

ثم حكى عنهم فنا آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية فقال : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ أى : وقالوا : لو شاء الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التي هي على صورة الملائكة ، فإنه — تعالى — عالم بذلك ، وهو قد أقرنا عليه ، فرد عليهم مقامهم بقوله — سبحانه — : ﴿ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى : ما لهم على ما قالوا دليل ولا برهان يستندون إليه في تأييد دعواهم ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أى : ما هم إلا كاذبون فيما قالوا ، متقولون على الله ما لم يقله ، فإن الله — سبحانه — أمر العباد بتوحيده ، ونهاهم عن عبادة سواه ، كما قال — سبحانه — : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله — تعالى — : ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون \* وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون \* قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين .

(١) الآيات : ١٥٠ — ١٥٤ من سورة الصافات .

(٢) الآية : ٣٦ من سورة النحل .



بعد أن بين — سبحانه — بطلان قولهم بالفعل أتبعه بطلانه بالنقل فقال — سبحانه — ﴿ أم آتينهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ﴾ وهذا معادل لقوله — تعالى — ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتينهم كتاباً من قبله ، أى : من قبل القرآن بما ادعوه ، فهم به مستمسكون يعملون بما فيه .  
والجواب : إنه لا كتاب لهم بذلك .

ولما بين — سبحانه — أنه لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل — ذكر أن الحامل لهم على ما صاروا إليه إنما هو التقليد فقال — سبحانه — ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أى : ليس لهم مستند على ما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، وقد قالوا : إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاماً ، ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون منهجهم ، ولم نأت بشيء من عند أنفسنا ، ولم نغلط في الاتباع واقتفاء الآثار .

ثم بين — سبحانه — : أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم نظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسول فقال : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ أى : ومثل هذا المقال المتناهى في الشناعة قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء ، فلم نرسل قبلك في قرية رسولا إلا قال رؤساؤها وكبراؤها : إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ، وإنا على منهاجهم سائرون ، نفعل مثل ما فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون : وفي هذا دليل على إبطال التقليد ، لزمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ .

قوله — تعالى — ﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ . أى : قل — يا محمد لقومك — : أوليس قد جئتكم من عند الله ﷻ بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ يعنى بكل ما أرسل به الرسول . فالخطاب للنبي ﷺ ولفظه لفظ الجمع ، لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه .

وحينئذ لم يبق لهم عذر ، ومن ثم قال — تعالى — ﴿ فانقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أى : فانقمنا من هؤلاء المكذبين لرسولهم ، الجاحدين برهم ، فانظر — أيها الرسول — كيف كان عاقبة أمرهم حين كذبوا بآياتنا ؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم ؟! ونحو الآيات قوله — تعالى — ﴿ إنهم ألفوا آباءهم صالحين فهم على آثارهم يرعون ﴾ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين \* ولقد أرسلنا فيهم منذرين \* فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴿ (١) .

## إبراهيم والوحدانية

قال - تعالى - :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾  
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ  
الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا  
نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا  
بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا  
سُخْرًى وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن  
يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا  
عَلَيْهَا يَتَكَفُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ  
﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْمَلْ عِندَ الرَّحْمَنِ نَفِيسًا لَهُ شَبَاطَنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ  
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَّخِذُ  
الْقَرِينَ ﴿٣٨﴾ وَلَكِنْ يَنْفَعُكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ  
الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَىٰ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا نَذَرْنَا مِنْهُمُ مُّتَقِطُونَ ﴿٤١﴾  
أَوْ زُرِينَا الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَلَمَّا عَلَيَهُمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ  
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَعَلَ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ  
مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

## معاني المفردات

﴿لأيه﴾ أى آزر . ﴿براء﴾ : قال علماء اللغة : هذه الكلمة لاتشى ولا تجمع تقول : أنا منك براء ، ونحن منك براء فإن قلت : برىء ثبيت وجمعت ﴿فطرنى﴾ : خلقتنى ، ﴿كلمة﴾ : هى كلمة التوحيد ، ﴿فى عقبه﴾ أى : فى ذريته . ﴿مبين﴾ أى : ظاهر الرسالة بماله من المعجزات الباهرة ، ﴿من القرينين﴾ أى : من إحدى القرينتين : مكة والطائف ، والرجل الذى من مكة : هو الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفى . ﴿رحمة ربك﴾ أى : هى النبوة . ﴿السخرى﴾ : هو الذى يقهر على العمل ، ﴿والسقف﴾ بضمين : واحدها سقف . ﴿والمعارج﴾ : واحدها معراج . ﴿يظهرون﴾ أى : يرتقون . ﴿زخرفا﴾ : ذهباً ﴿يعش عن ذكر الرحمن﴾ : يتعامى عن ذكر الله . ﴿نقيض له﴾ أى : نهىء له ونضم إليه . ﴿قريناً﴾ القرين : الرفيق الذى لا يفارق ﴿المشرقين﴾ أى : المشرق والمغرب ، وكثيراً ما تسمى العرب الشيتين المتقابلين باسم أحدهما .

قال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمرها والنجوم الطوالع

يريد بقوله : قمرها : الشمس والقمر . ﴿بعد المشرقين﴾ أى : بعد أحدهما من الآخر . ﴿فأما نذهبن بك﴾ أى : فإن قبضناك وأمتناك . ﴿لذكر﴾ أى : لشرف عظيم . ﴿تسألون﴾ أى : عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكليف من أمر ونهى .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر — سبحانه — : فى الآية السالفة أن الذى دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليد الآباء والأجداد وبين أنه طريق باطل ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى بالتقليد — أردف هذا أن ذكر لهم أن أشرف آباؤهم وهو إبراهيم — عليه السلام — ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم ، فيجب عليكم إتباعه ، وحين عدل عن طريق آبائه جعل الله دينه باقياً فى عقبه إلى يوم القيامة .

ثم ذكر أن قريشا وآباءهم مدّ لهم فى العمر والنعمة فاغترؤوا بذلك وأعرضوا عن توحيد الله وشكره على آلائه ، حتى جاءهم الرسول مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض ، فكذبوه وقالوا : ساحر كذاب ثم حكى عنهم أنهم قالوا : هلا نزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه كثير المال من إحدى القرينتين مكة والطائف ، فرد عليهم مقالهم بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده فجعل منهم الفقير والغني ، السيد

والمسود ، الأقوياء والضعفاء ، ولم يغير أحد ما حكم به أحوال دنياهم على حقارتها ، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجة ، وأشرف غاية ، وأعظم مرتبة وهو منصب النبوة ؟ ثم ذكر — سبحانه — أن متاع الدنيا قليل زائل والآخرة هي الباقية ، وهى لمن يتقى الله ، ويجتنب الكفر والمعاصي . ثم ذكر — سبحانه — أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون عن السبيل القويم ، ويظن أنه مهتد ، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة تبرأ الكافر من الشيطان قرينه وقال له : يا ليت بينى وبينك بعد ما بين المشرقين .

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم ، وقلما تجديهم المواعظ ، فإذا أسمعهم القرآن كانوا كالصم ، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمى ، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين ، ثم سلى رسوله وبين له أنه لا بد أن ينتقم منهم إما حال حياته أو بعد موته ، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به ، فيعمل بموجبه ، فإنه الصراط المستقيم ، النافع في الدين والدنيا ، وفيه الشرف العظيم له ولقومه ، وسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التي أمرهم بها ، ثم أرشد إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبي فمحمد ﷺ ليس بدعا من بينهم في الإنكار عليها حتى يعارض ويغض .

### التفسير

قوله — تعالى — : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ أى : واذكر لقومك المكين على التقليد : كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام ؟ قال لهم : إني براء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذى خلقنى وخلق الناس جميعا ، وإنه سيهدينى إلى سبيل الرشاد ، ويوقننى إلى اتباع الحق ، وقد جزم بذلك لثقتة بربه ولقوة يقينه .

وقوله — تعالى — : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴾ قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم في قوله — عز وجل — : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴾ يعنى لا إله إلا الله ، لا يزال في ذريته من يقولها . وقال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال ابن العري : إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب ، موصولة بالأحقاب . بدعوتيه المجابتين : إحداهما قوله ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> فقد قال إلا من ظلم منهم فلا عهد له . ثانيتهما قوله : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .

فهذه الكلمة : وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك ما سواه من الأوثان وهى لا إله إلا الله جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله — تعالى — : من ذرية إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — ﴿لعلهم يرجعون﴾ أى : إليها

وقوله — تعالى — : ﴿بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين﴾ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴿ . أى : ولكنى تمتعت هؤلاء المشركين وآباءهم من قبل ، ومددت أعمارهم وأكثرتهم نعمهم فشغلتهم النعم والترف والشهوات ، فأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، فجريت على سنتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم إلى الإيمان ، فاخترت محمداً وأنزلت معه الكتاب ليدعو هؤلاء إلى ما فيه صلاحهم فى دنياهم ودينهم ، ثم وبخهم على إعراضهم عما جاء به من الحق وعدم النظر فيه فقال — تعالى — : ﴿ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ أى : ولما جاءهم القرآن والرسول الصادق بما معه من المعجزات قالوا : إن ما جاءنا به سحر وليس بوحي من عند الله ، وإنا به جاحدون ، فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به .

قوله — تعالى — : ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ يخبر — تعالى — : عن المشركين أنهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال ابن عباس — رضى الله عنهما — أى : هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف وقد ذكر غير واحد من المفسرين منهم قتاده أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة من مكة . وعروة بن مسعود الثقفى — من الطائف — قال ابن كثير : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدين كان ، قال — تعالى — رادا عليهم فى هذا الاعتراض : ﴿أهم يقسمون رحمة ربك ؟﴾ أى : ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا ، وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا .

وقوله — تعالى — : ﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا﴾ : بين — سبحانه — أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والأفهام ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم ؟!

وقوله — تعالى — : ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أى : إننا فى هذه الحياة فضلنا بعض العباد على بعض فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، لأنه لو سَوَّينا بينهم فيها لم يخدم بعضهم بعضا ، ولم يستخر أحد غيره ، وذلك مما يفضى إلى خراب العالم وفساد الدنيا .

وإذا كانوا قد عجزوا عن ذلك في أحوال الدنيا فكيف يعترضون علينا في منصب الرسالة ؟  
وقصارى القول : إنا قسمنا بينهم أرزاقهم ، أفلا يقنعون بقسمتنا في أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء  
من خلقنا ؟

ثم علل ما سلف بقوله — تعالى — : ﴿ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ أى : ورحة ربك وفضله  
بالنبوة وما يتبعها من وحى وكتاب ينزل ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالدنيا على شفا جرف هار ،  
ومظاهرها فانية لا قيمة لها . قال — تعالى — : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا  
فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون <sup>(١)</sup> .

ثم يبين — سبحانه — : حقارة الدنيا وخستها بقوله — تعالى — : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً  
وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سَقْفًا مِنْ فُضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ وليوتهم أبوابا وسررا  
عليها يتكئون وزخرفاً ﴿

قال الحسن : المعنى : لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم  
في الدنيا ما وصفناه ، لهوان الدنيا عند الله — عز وجل — وعلى هذا أكثر المفسرين : ابن عباس والسدى  
وغيرهم . ومعنى ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمن ليوتهم سقفاً من فضة ومعارج ﴾ : لجعلنا ليوتهم سقفاً من  
فضة ، وسلام ودرجاً من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ أى : يصعدون ﴿ وليوتهم أبواباً ﴾ أى : أغلاقاً  
على أبوابهم ﴿ وسررا عليها يتكئون ﴾ أى : جميع ذلك يكون فضة ﴿ وزخرفاً ﴾ أى : وذهباً . قاله ابن  
عباس قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها ، وما فعل ذلك ، فكيف لو فعل !؟

قوله — تعالى — : ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أى :  
وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل ، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التى لا يحيط بها عد ولا إحصاء ،  
أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصى ، وعمل بطاعته ، وآثر الآخرة على الدنيا ، آثر النفيس الآجل على الخسيس  
العاجل .

ونحو الآية قوله — تعالى — : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ

الدنيا في الآخر إلا متاع ﴿١﴾ وقوله — تعالى — : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فيها ﴾ ﴿٢﴾ وقوله — تعالى — : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ ﴿٣﴾ .

وفي مسلم وصحيح الترمذى عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » ﴿٤﴾ وعن سهيل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء » ﴿٥﴾ رواه الترمذى وقال : حديث حسن الصحيح .

وعن أنى هريرة أيضاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله — تعالى — وما وآله ، وعالمًا ومتعلمًا » ﴿٦﴾ رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أنى هريرة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ﴿٧﴾ — متفق عليه —

قال الشاعر :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً	فإنك فيها بين ناه وأمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه	فما فاته فيها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة	ولا وزن رَقٍّ من جناح لطائر
فلم يرضى بالدنيا ثواباً لحسن	ولا رضى الدنيا عقاباً لكافر

وقال آخر :

فلو كانت الدنيا جزاءً لحسن	إذا لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة	وقد شبعت فيها بطون البهائم

(١) الآية : ٢٦ من سورة الرعد .

(٢) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .

(٣) الآية : ٨٣ من سورة القصص .

(٤) صحيح مسلم ( كتاب الزهد والرقائق ) ح ٤ ص ٢٢٧٢ رقم ٢٩٥٦/١

وانظر سنن الترمذى ( كتاب الزهد ) باب : الدنيا سجن المؤمن .. الخ ح ٣ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ رقم ٢٤٢٦ وقال الترمذى : هذا حديث

حسن صحيح .

(٥) انظر سنن الترمذى ( كتاب الزهد ) باب ما جاء في هوان الدنيا على الله ح ٣ ص ٣٨٣ رقم ٢٤٢٢

(٦) الترمذى ( كتاب الزهد ) باب : هوان الدنيا على الله ح ٣ ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٤ نلفظ : « إن الدنيا ملعونة .. » .

(٧) انظر صحيح البخارى ( كتاب الرقاق ) ح ٨ ص ١٢٧ باب : الجنة أقرب إلى أحدكم من شرك .

وانظر صحيح مسلم ( كتاب الشعر ) ح ٤ رقم ٢٢٥٦/٢ ص ١٧٦٨ وانظر أرقام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ،

قوله — تعالى — : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم إنكم في العذاب مشتركون ﴾ .

أخبر — سبحانه وتعالى — : أن من عشا عن ذكره ، أى : تعامى عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعَمِيَ عنه ، وعشت بصريته عن فهمه وتدبره ومعرفته مراد الله منه ، قىض الله له شيطاناً ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيرته الذى هو بئس المولى وبئس العشير ، يمنعه من الحلال ، ويبعته على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية .

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ .

ثم أخبر — سبحانه — أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى . كما قال — تعالى — : ﴿ وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ <sup>(١)</sup> . وكما قال — سبحانه — : ﴿ قل هل نبشكم بالآخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله - تعالى - : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ . أى : حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين إنت لى اليوم ، قال — تعالى — : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله — سبحانه — أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشركين فى العذاب وإن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه . وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مسلاة فمنع الله — سبحانه —

(١) الآية : ٣٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات : ١٠٣ — ١٠٦ من سورة الكهف .

(٣) الآيات : ٢٧ — ٢٩ من سورة الفرقان .



هذا القدر من الراحة على أهل النار ، فقال — تعالى — : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ . فلا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ، إذ كل منهم الحظ الأوفر منه .

قوله — تعالى — : ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين . فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ .

وقد وصفهم الله — سبحانه — فيما سلف بالعشا ووصفهم بالعمى والصمم فقال — تعالى — : مسليا رسوله ﷺ : ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ومن كان في ضلال مبين ﴾ أى : ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقوله — تعالى — : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أى : فإن نذهب بك — أيها الرسول — بين أظهر المشركين بموت أو غيره فإنا منهم منتقمون ، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة لرسولها ، أو نرينك الذي وعدناك من الظفر بهم وإعلائك عليهم فإنا عليهم مقتدرون ، فنظهرك عليهم ونخزيهم بيديك وأيدي المؤمنين .

قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين وقوله — تعالى — : ﴿ فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المفض إلى صراط مستقيم ، والموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم ، قال — تعالى — : ﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ <sup>(١)</sup> وقال ﷺ في حجة الوداع : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده أبدا : كتاب الله وسنتي » <sup>(٢)</sup> .

قوله — تعالى — : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : فإنه أى : القرآن لشرف لك ولقومك وقيل : معناه ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أى : لتذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله — تعالى — : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) الآية : ١٧٠ من سورة الأعراف .

(٢) انظر المستدرک للحاکم ( کتاب العلم ) باب خطبته ﷺ وآله وسلم ح ١ ص ٩٣

(٣) الآية : ١٠ من سورة الأنبياء .

قال القرطبي : والصحيح أنه شرف لمن يحمل به كان من قريش أو من غيرهم وقوله — تعالى — : ﴿ وسوف تسألون ﴾ أى : عن الشكر عليه ، قاله مقاتل وقال ابن جريج : أى : تسألون أنت ومن معك على ما آتاك وتسألون عما عملتم فيه .

وقوله — تعالى — : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . أى : واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل : هل حكمنا بعبادة غير الله ؟ وهل جاء ذلك فى ملة من الملل ؟ والمراد بهذا الاستشهاد ببيان إجماع المرسلين على التوحيد ، والتنبيه إلى أن محمداً ﷺ ليس ببدع من بين الرسل فى الأمر به ، حتى يكذب ويعدى له ، قال — تعالى — : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ <sup>(١)</sup> .

### طرف من قصة موسى عليه السلام

قال — تعالى — :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٢﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهَنْدُونَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْفِرْ مَعْ آلِي الْمَلِكِ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٦﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مَضَرٍ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مِثْلُ مَضَرٍ وَلَا يَكَادُ يَبِينُ ﴿٨﴾ فَلَوْلَا الَّذِي عَلَيْهِ أَسْوَرةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٠﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١١﴾ فجعلناهم سلفاً ومثلاً لِلْآخِرِينَ ﴿١٢﴾

## معاني المفردات

﴿ الآيات ﴾ : هي المعجزات ، ﴿ وملكه ﴾ أى : أشرف قومه ، ﴿ أخذناهم ﴾ أى : أخذ قهر بالعذاب ، فأرسلنا عليهم الجراد والقمل والضفادع ، ﴿ الساحر ﴾ أى : العالم الماهر ، ﴿ بما عهد عندك ﴾ أى : بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمننا كشف عنا العذاب الذى أنزل بنا .. ﴿ ينكثون ﴾ أى : ينقضون العهد . ﴿ من تحتى ﴾ أى : من تحت قصرى وبين يدي فى جناتى . ﴿ مهين ﴾ أى : ضعيف حقير . ﴿ بين ﴾ أى : يفصح عن كلامه . ﴿ والاسورة ﴾ واحداها : سوار ، كأخمرة وخمار . قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلاً سَوَّروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته . ﴿ مقتننين ﴾ أى : مقرونين به يعينونه على من خالفه . ﴿ فاستخف قومه ﴾ أى : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له . ﴿ آسفونا ﴾ : أغضبونا . ﴿ سلفا ﴾ أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار . ﴿ مثلاً ﴾ أى : حديثاً عجيب الشأن يسير سير المثل ، فيقول الناس : مثلكم مثل قوم فرعون .

## المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الكفار طعنوا فى نبوة محمد ﷺ لكونه فقيراً عديم المال والجاه — بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة أورد فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إني غنى كثير المال ، عظيم الجاه ، فلى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي ، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان ، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش .

وأيضاً فإنه لما قال : واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ذكر هنا قصة موسى وعيسى — عليهما السلام — وهما أكثر الأنبياء أتباعاً وقد جاءا بالتوحيد ولم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله .

ثم ذكر — سبحانه — أن فرعون قال : هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً ؟ زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة ، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه ، وأعقب هذا بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى فى دعواه الرسالة أطاعوه لضلالهم وغوايتهم ، ولما لم تجد فيه المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم ، وجعلناهم قدوة للكافرين وضربنا به الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (١) .

## التفسير

قوله — تعالى — : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين ﴾  
 أى : ولقد بعثنا موسى ومعه حججه الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه ، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك ، فقال لهم : إني رسول من قبل الله إليكم .

فطالبوه بإحضار البينة على صدق دعواه كما يدل على ذلك قوله — تعالى — : ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون ﴾ أى : فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة ، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات استهزاء وسخرية ، يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل وأنهم قادرون عليها .

وقوله — تعالى — : ﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ أى : وما أرينا فرعون وملأه حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا في دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها في الحجية عليهم .  
 وقوله — تعالى — : ﴿ وأخذناهم بالعذاب ﴾ أى : على تكذيبهم بتلك الآيات ، وهو كقوله — تعالى — : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ (١) .

وقوله — تعالى — : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أى : لكي يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته ، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصي . ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر .

﴿ وقالوا يا أيها الساحر ﴾ أى : وقالوا : يا أيها العالم الماهر ، وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقروهم ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم . وقد يكونوا نادوه بذلك في تلك الحال لشدة شكيتهم ، وفرط حماقتهم .

وقوله — تعالى — : ﴿ ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾ أى : ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما

أخبرتنا من عهده إليك إن آمانا به كشفه عنا . ﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ أى : . أنا لمؤمنون بما جئت به إن حدث ذلك كما جاء فى سورة الأعراف من قولهم : ﴿ لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ﴾ (١) .

ثم يبين — سبحانه — ما حدث منهم بعد دعوة موسى وكشف العذاب فقال — تعالى — : ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ أى : ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

ثم أخبر — سبحانه — عن مرد فرعون وعتوه وعناده فقال — تعالى — : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين . ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى فجمع قومه فقال : ﴿ يا قوم أليس لى ملك مصر ﴾ أى : لا ينازعنى فيه أحد ، ﴿ وهذه الأنهار تجرى من تحتى ﴾ يعنى أنهار النيل ، قال قتادة : كانت جناتاً وأنهاراً تجرى من تح قصورة .

﴿ أفلا تبصرون ﴾ عظمتى وقوتى وضعف موسى عن مقاومتى لما فيه من فقر وعنى وحصر ؟ .  
﴿ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أى : بل أنا — ولا شك — خير بمالى من السعة فى المال والجاه والملك العريض من هذا المهين الحقير الذى لا يكاد يفصح عما يريد ، إذ كان فى لسانه حُبسة فى صغره ، فعابه بها ، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤاله حين قال : ﴿ وأحل عقدة من لساني . يفقهوا قولى ﴾ (٢) فحل عقدة لسانه كما جاء فى قوله ﴿ قد أوتيت سؤالك يا موسى ﴾ (٣) .

والأشياء الخلقية لا يعاب المرء بها ولا يذم ، لكنه أراد الترويج على رعيته وصدهم عن الإيمان به . ونحو الآية قوله : ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذ الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (٤) .

(١) من الآية : ١٣٤ من سورة الأعراف .

(٢) الأيتان : ٢٧ ، ٢٨ من سورة طه .

(٣) من الآية : ٣٦ من سورة طه .

الآيات : ٢٣ — ٢٦ من سورة النازعات .

ثم ذكر شبهة مانعة له من الرياسة ، وهى أنه لا يلبس لبس الملوك فلا يكون رئيساً ولا رسولا لتلازمهما - فى زعمه - فقال : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أى : هلا ألقى عليه أسورة من ذهب ، وأما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف . قال مجاهد : كانوا إذا سؤروا رجلاً سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته . فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساوره من ذهب إذ كان صادقاً ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ يعنى : فيمشون معه : قاله مجاهد ، وقال ابن عباس : يعاونونه على من خالفه ، والمعنى : هلا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربّه حتى يتكثروا بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى — مع تفرده ووحدته — من فرعون — مع كثرة أتباعه — وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً .

قوله — تعالى — : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين .

قال ابن الأعرابى : المعنى : فاستجهل قومه ﴿ فأطاعوه ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم . وقيل : استخف قومه ، أى : وجدهم خفاف العقول . قال القرطبى : وهذا لا يدل على أنهم يجب أن يطيعوه ، فلا بد من إضمار بعيد تقديره : وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوى .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجتروا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق ، فقال — تعالى — : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ أى : فلما أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم وبغيهم فى الأرض انتقمنا منهم بعاجل عذابنا ، فأغرقناهم جميعاً .

وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعزوا به — وهو الماء — فى قوله : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ وفى هذا إشارة إلى أن من تعزز بشيء دون الله أهلكه الله به .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له » <sup>(١)</sup> وقرأ : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ .

وقال عمر بن دَرّ : يا أهل المعاصى : لا تغتروا بطول حلم الله عنكم واحذروا أسفه ، فإنه قال : ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ .

وقوله — تعالى — ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَافًا وَمِثْلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ قال مجاهد ﴿ سُلَافًا ﴾ : إخباراً لأمة محمد ﷺ ﴿ وَمِثْلًا ﴾ أى : عبرة لهم . وقال قتادة ﴿ سُلَافًا ﴾ إلى النار ، ﴿ وَمِثْلًا ﴾ عظة لمن يأتى بعدهم . أى : فجعَلْنَاهُمْ قدوة لم يعمل عملهم من أهل الضلال ككفار قومك ﴿ وَمِثْلًا لِّلْآخِرِينَ ﴾ أى : وعبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم من الكافرين ، كما قال — تعالى — بعد إهلاك فرعون في سورة النازعات : ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ <sup>(١)</sup> .

### طرف من قصة المسيح عليه السلام

\* وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ لَكِهُنَّ فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُودٌ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْيَمِّ ﴿٦٥﴾

### معانى المفردات

﴿ مِثْلًا ﴾ أى : حجة وبرهاناً . ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ — بكسر الصاد — أى : يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح ﴿ جَدَلًا ﴾ أى : خصومة بالباطل . ﴿ خَصِمُونَ ﴾ أى : شديدا الخصومة مجبولون على اللجاج وسوء الخلق . ﴿ مِثْلًا ﴾ أى : أمراً عجيباً ﴿ مِنْكُمْ ﴾ أى : من بعضكم . ﴿ يَخْلُفُونَ ﴾ أى : يخلفونكم في الأرض . ﴿ عِلْمٌ ﴾ أى علامة وشرط من أشراتها . ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ ﴾ أى : فلا تشكن . ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ : المعجزات ، ﴿ الْحِكْمَةِ ﴾ : الشرائع المحكمة التى لا يستطيع نقضها ولا إبطالها .

## المناسبة وإجمال المعنى

روى محمد بن إسحاق في السيرة « أن رسول الله ﷺ جلس يوماً في المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم — وفي المسجد غير واحد من رجال قريش — فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم □ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴿<sup>(١)</sup>﴾ الآيات ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزبعرى التميمي وجلس ، فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال ابن الزبعرى : أما — والله — لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداً : أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيزاً ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه في المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته ، وأنزل الله — عز وجل — ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ إن الذين سبقوا هم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ أى : عيسى وعزير ومن عبد معهما ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أرباباً من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى — عليه السلام — وأنه يعبد من دون الله ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ ولما ضرب ابن مريم مثلاً ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ الآية ..

## التفسير

قوله — تعالى — : ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه تصدون . وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ . ورد في سبب نزول هذه الآيات أقاويل للمفسرين : قال قتادة : لما قال الله — تعالى — ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلهاً كما اتخذ النصارى عيسى بن مريم إلهاً . وقال مجاهد : إن قريشا قالت : إن محمداً يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى - عيسى - ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال ابن عباس : أراد به مفاخرة عبد الله بن الزبعرى مع النبي ﷺ في شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد الله بن الزبعرى السهمي حالة كفره لما قالت له قريش : إن محمداً يتلو ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ إنكم وما تعبدون

(١) الآية : ٩٨ وما بعدها من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ١٠١ من سورة الأنبياء .



من دون الله حصب جهنم ﴿ الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ، قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبد النصارى ، واليهود تعبد عزيزاً أفهماً من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ، وذلك معنى قوله : ﴿ يصدون ﴾ فأنزل الله — تعالى — : ﴿ إن الذين سبق لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾ .

قال القرطبي : لو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ، لأنه قال : ﴿ وما تعبدون ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين ..

وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش : « يامعشر قريش لا خير في أحد يعبد من دون الله » قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبياً وعبداً صالحاً ، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله ! فأنزل الله — تعالى — : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ أى : يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قال الجوهري : صدَّ يصدُّ صديداً ، أى : ضجَّ . فارتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً ، كما يرتفع لغط القوم وجلبهم إذا أعيوا في حجة ، ثم فتحت عليهم . ﴿ وقالوا آهتنا خير أم هو ﴾ أى : إن آهتنا ليست خيراً من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم ، كان أمر آهتنا أهون .

وقوله — تعالى — : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ أى : ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول ، لا لإظهار الحق ، فإن قوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ وإنما ينطلق على الأصنام والأوثان ، ولا يتناول عيسى والملائكة ، ولكنهم قوم ذوو لد في الخصومة .

وفي سنن الترمذى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » (١) ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ .

قوله — تعالى — : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

بين — سبحانه — أن عيسى بن مريم عبد من عبيده الذى أنعم عليهم بالنبوة والرسالة فقال — تعالى — : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾ أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها ، فهو رفيع المنزلة ، علئى القدر ، وقد جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب ، وشرفناه بالنبوة ، وصيرناه عبرة صائرة ، تفتح للناس باب التذكر والفهم ، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته — كما يزعم النصارى — بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم .

(١) انظر سنن الترمذى ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الزخرف ج ٥ ص ٥٥ رقم ٣٣٠٦ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله — تعالى — : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلَفُونَ ﴾ قال السدى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ أى : بدلا منكم ﴿ مَلَائِكَةً ﴾ يكونون خلفا عنكم . وقال مجاهد : ﴿ مَلَائِكَةً يَعْمُرُونَ الْأَرْضَ بَدَلًا مِنْكُمْ ﴾ . قال القرطبي : والمعنى : لو نشاء لأسكننا الأرض الملائكة ، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدون ، أو يقال لهم بنات الله ، ومعنى ﴿ يَخْلَفُونَ ﴾ : يخلف بعضهم بعضا ، قاله ابن عباس .  
قوله — تعالى — : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

قوله — تعالى — : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهَا ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة : إنه خروج عيسى — عليه السلام — وذلك من أعلام الساعة ، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ السَّاعَةَ » ( بفتح العين واللام ) أى : أماره .

وفى صحيح مسلم « فبينما هو — يعنى المسيح الدجال — إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق بين مهرودين ( أى حُلَتين ) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جُما كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجرد ربح نفسه إلا مات ونفسه حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد ( قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين ) فيقتله »<sup>(١)</sup> . الحديث وروى خالد عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « الأنبياء إخوة لِعَلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، إنه ليس بينى وبينه نبي ، وإنه أول نازل فيكسر الصليب ، وليقتلن الخنزير ، ويقاتل الناس على الإسلام »<sup>(٢)</sup> .

وثبت فى صحيح مسلم : « لينزلن عيسى بن مريم حكماً عادلاً فيكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحشاء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد »<sup>(٣)</sup> وعنه قال : رسول الله ﷺ : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »<sup>(٤)</sup> والأحاديث فى ذلك كثيرة متواترة .

وقوله — تعالى — : ﴿ فَلَا تَمْتَرُنْ بِهَا ﴾ أى : فلا تشكون فيها ، يعنى فى الساعة وقال السدى :

(١) انظر صحيح مسلم ( كتاب الفتن ) باب ذكر الدجال وصفته وما معه ج ٤ ص ٢٢٥٣ رقم ٢١٣٧/١١٠ وهو جزء حديث طويل .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٠٦ فقد رواه عن أبى هريرة ، وهو جزء حديث .

(٣) صحيح مسلم ( كتاب الإيمان ) باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ج ١ ص ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٣ من رواية أبى هريرة — رضى الله عنه —

(٤) صحيح مسلم ( كتاب الإيمان ) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ ج ١ ص ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ من رواية أبى هريرة أيضا .

فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها ، فإنه كائنة لا محالة . وقوله : ﴿ واتبعون ﴾ أى : فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله .

وقوله — تعالى — : ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أى : طريق قويم إلى الله — تعالى — أى : إلى جنته .

وقوله — تعالى — : ﴿ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ أى : لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ، فإن شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة ونار . ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ أى : إنه مظهر لعدوانه لكم .

قوله — تعالى — : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربي وربكم فاعبدون هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ .

قوله — تعالى — : ﴿ ولما جاء عيسى بالبينات ﴾ قال ابن عباس : ويريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير بإذن الله والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات هنا الإنجيل . ﴿ قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أى : النبوة . قاله السدى . وقيل : الإنجيل . ﴿ ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه .

قال القرطبي : وقيل : إن بنى اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء عن أمر دينهم ، وأشياء من أمر دنياهم ، فبين لهم أمر دينهم . قال مقاتل : وهو كقوله : ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم ﴾<sup>(١)</sup> يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرماً فى التوراة : كلحم الإبل والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت .

وقوله — تعالى — : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أى : اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ، وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله ؟ قال — تعالى — ﴿ وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله — تعالى — : ﴿ وأطيعون ﴾ فيما أدعوك إليه من التوحيد وغيره . ﴿ إن الله هو ربي وربكم

(١) من الآية ١٥٥ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٧٢ من سورة المائدة .

فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿١﴾ أى : عبادة الله وحده صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدي بسالكه إلى الحق .

قوله — تعالى — : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ .

قال الكلبي ومقاتل في هذه الآية ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا في عيسى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة : هو الله ، وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله .

ولقد ذكر الله سبحانه هذه الفرق ورد على افتراءهم فقال — تعالى — : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ (١) .

وقال — تعالى — : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

وقال — تعالى — : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ (٣) . وقال ههنا — جل شأنه — : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ أى : فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة كما قال — تعالى — فى سورة مريم ﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ (٤) .

(١) الآيات : ٦٨ — ٧٠ من سورة يونس .

(٢) الآية : ١٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٧٣ من سورة المائدة .

(٤) الآيات : ٣٧ : ٤٠ من سورة مريم .

## مبحث في علامات الساعة

قال فضيلة الشيخ محمد أنور شاه الكشميري الهندي في كتابه « التصريح بما تواتر في نزول المسيح » تحقيق فضيلة الشيخ : عبد الفتاح أبو غدة ما خصه : أربع آيات من كتاب الله في نزول عيسى — عليه السلام —

## الآية الأولى :

﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ من سورة آل عمران ٤٥ — ٤٦

## الآية الثانية :

﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ من سورة المائدة : ١١٠

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن زيد في قوله — تعالى — : ﴿ يكلم الناس في المهد وكهلاً ﴾ من الصالحين ﴿ قال : قد كلمهم عيسى — عليه السلام — في المهد ، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل .

## الآية الثالثة :

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ من سورة النساء : ١٥٧ : ١٥٩ .

ومعنى الآية كما أورد المفسرون : ما من أهل الكتاب أحد من الموجودين منهم عند نزول عيسى — عليه السلام — إلا ليؤمنن عند نزوله بأنه عبد الله ورسوله ، قبل موته — عليه السلام — .

## الآية الرابعة :

﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا آلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدي في قوله — تعالى — : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تترن بها

واتبعون ﴿ : إنه خروج عيسى ابن مريم ، وذلك من أعلام الساعة ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو العالية وأبو مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ وإنه لَعَلَّم للساعة ﴾ — بفتح اللام والعين — أى : إن سيدنا عيسى — عليه السلام — ( والمراد نزوله ) أمانة وعلامة على قرب وقوع الساعة .

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التي أوردها المؤلف للدلالة على هذه العلامات الكبرى من علامات الساعة فهي :

الحديث ١ — عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويقبض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها »<sup>(١)</sup> ثم يقول أبو هريرة : وقرأوا إن شئتم : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ رواه البخارى ومسلم .

## شرح مفردات الحديث

( ليوشكن ) أى : ليقربن ، وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله — عليه السلام — .

( حكماً عادلاً ) أى : حاكماً عادلاً . قال الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٦ : ٣٥٦ : « والمعنى : أنه — عليه السلام — ينزل حكماً بهذه الشريعة فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى — عليه السلام — حاكماً من حكام هذه الأمة .

( فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ) قال الحافظ ابن حجر : أى : يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه . ويأمر بإعدام الخنزير ، مبالغة فى تحريم أكله . وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدعون أنهم على طريقة عيسى — عليه السلام — ثم يستحلون أكل الخنزير ، ويبالغون فى محبته » .

( ويضع الحرب ) قال الحافظ ابن حجر : أى : لشيوع الإسلام وانقراض الكفر ، وفى رواية : ( ويضع الجزية ) أى : عن أهل الكتاب ، ويحملهم على الإسلام ، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل ، فيصير الدين واحداً ، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدى الجزية . قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده أن عند

(١) انظر صحيح مسلم ( كتاب الايمان ) باب نزول عيسى بن مريم .. الخ ج ١ ص ١٣٥ رقم ١٥٥/٢٤٢ فقهه رواه عن أبي هريرة إلى قوله : « حتى لا يقبله أحد » فقط .

ورواه البخارى فى ( كتاب الأنبياء ) من صحيحه ج ٤ ص ٢٠٥ واللفظ له .

الإمام أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة « وتكون الدعوى — أى : الملة — واحدة » . ( فتح البارى ٦ : ٣٥٦ ) .

( ويفيض المال ) أى : يكثر المال جداً ، وسبب كثرتة : نزول البركات ، وتوالى الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم ، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها ، وتقل الرغبات فى اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة .  
( حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ) وذلك أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة ، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله . قال العلامة فضل الله الثوربشيتي — رحمه الله تعالى — : لم تنزل السجدة الواحدة فى الحقيقة كذلك ، أى : خيراً من الدنيا وما فيها ، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون فى أمر الله ، ويזהدون فى الدنيا ، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها .  
قال الحافظ ابن حجر : قال ابن الجوزى : إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله ﷺ : « حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس وشدة إيمانهم ، وإقبالهم على الخير ، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا ، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة .

قال العلماء : والحكمة فى نزول عيسى دون غيره من الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — من وجوه :  
الأول : الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله — تعالى — كذبهم ، وأنه هو الذى يقتلهم .

الثانى : نزوله — عليه السلام — لدنو أجله ، ليدفن فى الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غير التراب .

الثالث : أنه — عليه السلام — دعا الله — تعالى — لما رأى صفة محمد ﷺ وأمته : أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حين ينزل فى آخر الزمان ، ويجدد أمر الإسلام ، فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله — عليه السلام — .

الرابع : تكذيبه النصارى وإظهار زيفهم فى دعواهم الأباطيل ، وقتله — عليه السلام — لهم .

الخامس : أن خصوصيته بالأمور المذكورة إنما كانت لقول النبى ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى

ابن مريم ، ليس بيني وبينه نبي «<sup>(١)</sup> ورسول الله أخص الناس به ، وأقربهم إليه لأن عيسى — عليه السلام — بشر بأن رسول الله ﷺ يأتي من بعده ، ودعا الخلق إلى تصديقه والاتباع له .

الحديث ٢ — عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم .

وقال الحافظ ابن حجر في فتح البارى ٦ : ٣٥٨ : « وعند أحمد من حديث جابر في قصة الدجال ونزول عيسى : « وإذا هم بعيسى ، فيقال : تقدّم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم »<sup>(٣)</sup> ولابن ماجه : في حديث أبى أمامة : « وكلهم — أى : المسلمون — بيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، قد تقدم ليصلى بهم ، إذ نزل عيسى ، فرجع الإمام ينكص ليتقدم عيسى ، فيقف عيسى بين كتفيه ثم يقول : تقدم فإنها لك أقيمت »<sup>(٤)</sup> .

وقيل في معنى : ( وإمامكم منكم ) : وهو منكم ، أى : عيسى ، فوضع الاسم المظهر موضع الاسم المضمر ، تعظيماً له ، وتربية للمهابة في النفوس .

الحديث ٣ — عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة — قال — : فينزل عيسى ابن مريم — عليه السلام — فيقول أميرهم : تعال فصل ، فيقول : لا ، إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمّة الله هذه الأمة »<sup>(٥)</sup> رواه مسلم وأحمد في مسنده .

الحديث ٤ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده : ليهلّل ابن مريم بفجّ الروحاء حاجاً أو معتمراً ، أو ليُثَيَّبَهُما »

وأخرجه أحمد في « مسنده » ولفظه : « ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب ، وتُجمَعُ له الصلاة ، ويعطى المال حتى لا يتبيل ويضع الخراج ، وينزل الروحاء ، فيحج منها أو يعتمر أو

(١) انظر صحيح البخارى ( كتاب الأنبياء ) باب : واذكر في الكتاب مريم ج ٤ ص ٢٠٣ مع اختلاف يسير في اللفظ .

وانظر صحيح مسلم ( كتاب الفضائل ) باب فضائل عيسى — عليه السلام — فقد أورده من رواية أبى هريرة بثلاث روايات ج ٤

ص ١٨٣٧ أرقام ١٤٣/٢٣٦٥ ، ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) انظر صحيح مسلم ( كتاب الايمان ) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ ج ١ ص ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ وانظر صحيح البخارى

( كتاب الأنبياء ) ج ٤ ص ٢٠٥

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند جابر ) ج ٣ ص ٣٦٨

(٤) انظر حديث أبى أمامة في سنن ابن ماجه في ( كتاب الفتن ) ج ٢ ص ١٣٦١ رقم ٤٠٧٧

(٥) صحيح مسلم يشرح النووى ( كتب الايمان ) باب : نزول عيسى بن مريم ... الخ ج ٢ ص ١٩٣ ، ١٩٤

وانظر مسند الإمام أحمد ( مسند جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — ) ج ٣ ص ٣٨٤



يجمعهما<sup>(١)</sup> وتلا أبو هريرة — رضى الله عنه — : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾ .

## شرح مفردات الحديث

معنى ( ليُهلَن ) : ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً : لييك اللهم لييك ، محرماً بحج أو بعمره ومعنى ( ليُتَيْنِيَهُمَا ) : أو ليجمعن بين الحج والعمره ( وفج الروحاء ) : مكان في طريق النبي ﷺ من المدينة إلى بدر . قيل : يبعد عن المدينة ستة أميال .

الحديث ٥ — عن النواس بن سمعان — رضى الله عنه — قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفف فيه ورفع ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فانصرفنا من عند رسول الله ﷺ ثم رحنا إليه ، فعرف ذلك فينا ، فقال : « ما شأنكم ؟ » فقلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخففست فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط ، عينه طائفة كأنى أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، وإنه خارج خلَّة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا » .

قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه في الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ، يوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » .

قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله ، وما إسرعه في الأرض ؟ قال : « كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبث ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبغه ضروباً ، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممجّلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتنبعه كنوزها كيعباس النخل ، ثم يدعو رجلاً شاباً ممتلئاً شباباً ، فيضربه فيقطعه جزلتيْن رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فيبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي في ( كتاب الايمان ) باب إهلاك النبي ﷺ وهلاله ج ٢ ص ٩١٥ رقم ١٢٥٢/٢١٦

وانظر مسند أحمد ( مسند أبى هريرة — رضى الله عنه — ) ج ٢ ص ٢٤٠ ، ص ٢٧٢ ، ص ٥٤٠ ورواه ابن أبى شيبة في مصنفه

في ( كتاب الفتن ) باب فتنه الدجال ج ١٥ ص ١٤٤ رقم ١٩٣٤٢

دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله ، ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويُحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى — عليه السلام — أتى قد أخرجت عباداً إلى لا يحدان لأحد بقتالهم ، فحرز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله بأجوج وماجوج وهم من كل حذب ينسلون ، فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويُحصِرُ نبي الله عيسى — عليه السلام — وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى — عليه السلام — وأصحابه إلى الله — تعالى — فيرسل الله عليهم النّغف في رقابهم ، فيصبحون فرسي كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى — عليه السلام — وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم وتنهم ، فيرغب نبي الله عيسى — عليه السلام — وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزّلفة .

ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك ، وردى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، وبارك في الرّسل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس ، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت أباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهاجرون فيها تهاجرج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة . أ هـ<sup>(١)</sup> .

» رواه مسلم — واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد في سننه ، والحاكم في

المستدرک .

## شرح مفردات الحديث

قوله ﷺ : « فخفض فيه ورفّع » قال النووي في شرح « مسلم » : في معناه قولان :

الأول : أن معنى ( خفض منه ) : حقره ، ومعنى ( رفّع ) فيه عظمه وفخّمه ، فمن تحقيره قوله

ﷺ : إنه أعور العين ، وإنه أهون على الله من ذلك ، وإنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وإنه يضمحل أمره ويُقتل بعد ذلك .

(١) انظر حديث مسلم بشرح النووي ( كتاب الفتن ) باب : ذكر الدجال ج ١٨ ص ٦٣ — ٧٠ ورواه أبو داود في سننه باختصار ،

انظر كتب الفتن والملاحم ج ٤ ص ١١٧ رقم ٤٣٢١ ورواه الترمذي في ( أبواب الفتن ) من سننه ، باب : ما جاء في فتنة الدجال ج ٤

ص ٥١٠ — ٥١٤ رقم ٢٢٤٠ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الفتن ) باب : فتنة الدجال ... الخ ج ٢ ص ١٣٥٦ — ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٥ .

ومن تفخيمه وتعظيم فتنته قوله ﷺ : ليس بين يدي الساعة خلق أعظم من الدجال ، وما من نبي إلا وقد أُنذر أُمته الأعور الكذاب ، وتلك الأمور الخارقة للعادة التي تقع له .

والقول الثاني : في معنى ( خَفَضَ فيه ورفَّع ) : أنه خَفَضَ من صوته لكثرة ما تكلم من شأن الدجال ، فخَفَضَ بعد طول الكلام والتعب ليسترخ ثم رَفَعَ ليلغ صوته كل أحد .

ومعنى ( حتى ظنناه في طائفة النخل ) أى : في ناحية بساتين النخل بقرب المدينة كأنه حضر الآن .

ومعنى ( غير الدجال أخوفنى عليكم ) قال ذلك ﷺ حين شاهد استعظام الصحابة لأمر الدجال ، وشدة خوفهم من الافتتان به ، وقد بين ﷺ في حديث آخر من هذا الذى يخاف علينا منه أكثر من الدجال ، فقال فيما رواه الإمام أحمد في مسنده بسند جيد عن أبى ذر — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « غير الدجال أخوف على أمتى من الدجال : الأئمة المُضِلُّون »<sup>(١)</sup> أى : الدعاة إلى الضلالات ! وما أكثرها وأكثرهم ، وأكثر من يتبعهم في هذه الأيام وما بعدها نسأل الله السلامة والعون .

وقوله ﷺ في وصف الدجال : ( وإنه شاب قطط ، عينه طافئة ) أى : شديد جُعودة الشعر مكروهة ، وعينه طافئة ، أى : ذهب نورها وهى العين اليمنى المسوَّحة ، ويروى طافية — بالياء — أى : مرتفعة ناتئة فتكون العين اليسرى كما حققه النووى في شرح مسلم .

( عبد العزيز بن قطن ) : رجل من خزاعة ، هلك في الجاهلية .

« فمن يدركه منكم فليقرأ فواتح سورة الكهف » قال العلامة الطيبى : المعنى : أن قراءة المؤمن لأحد هذين العشرين من أول السورة أو آخرها — كما ورد في رواية أخرى — أمان من فتنة الدجال ، كما أمنت تلك الفِتْنَةُ من فتنة دقيانوس الجبار .

ومعنى « حَلَّةَ بين الشام والعراق » : طريق بين الشام والعراق .

( فعاث يمينا وعاث شمالا ) أى : أفسد عن يمينه وأفسد عن شماله مسرعاً في إفساده أيما إسراع .

وقوله ﷺ : « يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم .. » قال المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة : إنه — أى : الدجال — يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم ، حتى يخيل إليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة ، إسفار بلا ظلام ، وصباح بلا مساء ، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه ، وأن الشمس لا تطوى عنهم ضياءها فيبقون في حيرة والتباس من امتداد الزمان ، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة في اختلاف الليل والنهار ، فأمرهم ﷺ أن يجتهدوا عند مصادمة تلك الأحوال ،

(١) انظر مسند الإمام أحمد ( حديث أبى ذر — رضى الله عنه — ) ج ٥ ص ١٤٥ .

ويقدرُوا لكل صلاة قدرها ، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة ، هذا الذى اهتدينا إليه من التأويل ، والله الموفق لإصابة الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل » انتهى .

وقوله : ( فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسيفه ضرعاً ، وأمره خواصر ) أى : ترجع عليهم آخر النهار ماشيتهم التى تذهب بالغدوة أوائل النهار إلى مراعيها أعلى ما كانت سناماً وهذا كناية عن كثرة السمن فى السارحة والماشية التى عندهم .

وقوله : « فيصبحون محلين » قد أصابهم الخلل ، وهو انقطاع المطر ويس الأرض من الكلاء والعشب .

وقوله : « كيعاسب النحل ، مفردها : يعسوب ، وهو أمير النحل متى صار تبعته جماعته ، والمراد تتبع كنوز تلك الأرض الدجال كما تتبع النحل يعاسيبها طاعة ومتابعة .

وقوله : « فيقطعه جزلتين رمية الغرض » : جزلتين ، أى : قطعتين ، والغرض : الهدف . ومعنى رمية الغرض : أنه حينما يقطع الدجال بالسيف ذلك الشاب قطعتين تتباعد القطعتان عن بعضهما كبعد رمية السهم عن القوس . « ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك » أى : يقبل ذلك الشاب على الدجال يتلألاً وجهه يضىء ، ضاحكاً ساخراً من الدجال ، يقول : كيف يصلح هذا إلهاً ؟ » .

وقوله : « بين مهروزتين .. » معناه : ينزل عيسى — عليه السلام — فى حُلَّتَيْنِ لابسهما ، وفيهما صفرة خفيفة . فيكون على جمال فى الملبس إلى جماله — عليه السلام — فى الخِلْقَةِ والذات .

وقوله : « فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات » أى : لا يمكن ولا يقع الكافر يجد ريح نفسه عيسى — عليه السلام — إلا مات . قال علامة القرطبي : يعنى أن الله — سبحانه — قوى نفس عيسى — عليه السلام — حتى يصل إلى إدراك بصره ، ومعناه أن الكفار لا يقربونه ، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم ، حفظ من الله — سبحانه — وإظهار لكرامته .

وقوله : « ونفسه حيث ينتهى طرفه » أى : حيث ينتهى امتداد بصره الشريف . « باب لد » : بلدة معروفة الآن فى فلسطين قرية من بيت المقدس . « بحيرة طبرية » : عند جبل الطور .

وقوله : « فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم » أى : فيستجيب الله لهم ويرسل عليهم النغف فى رقابهم ، وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم .

وقوله : « فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة » : يعنى أن القهر الإلهى الغالب على كل شئ يفرسهم دفعة واحدة فيصبحون موتى .

وقوله : « كأعناق البخت » : نوع من الجمال طوال الأعناق ، أى : يرسل الله طيراً كبيرة طويلة الأعناق .

وقوله : « فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة » أى : كالمرآة في صفائها ونظافتها . « العصابة » أى : الجماعة « بقحفها » أى : بقشرها لشدة كبرها . « الرّسل » أى : اللبن الحليب . « الفقام » : الجماعة الكثيرة . « الفخذ » : الجماعة أقل من القبيلة . « تهاجر الحمر » أى : يتسافدون في الأرض تسافد الحمير ، أى : يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير . ( الهرج ) : الجماع وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك .

الحديث ٦ — عن حذيفة بن أسيد الغفارى — رضى الله عنه — قال : اطلع النبي ﷺ علينا ، ونحن نتذاكر فقال : « ما تذاكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »<sup>(١)</sup> .

« أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه » .

## شرح مفردات الحديث

« عشر آيات » أى : عشر علامات . وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفة بالواو ، والواو لمطلق الجمع ، فلا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا ، وهذه الآيات كما قال الطيبى — رحمه الله تعالى — ونقله عنه الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٣٣/١١ : أمارات وعلامات للساعة إما على قربها ، وإما على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال : ونزول عيسى — عليه السلام — ويأجوج ومأجوج ، والخسوف . ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار تحشر الناس .

قوله ﷺ فى علامة : ( الدخان )

قال الصحابى الجليل عبد الله بن عمر — رضى الله عنه — : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيد . أى : كالرأس المشوى على الجمر .

رواه ابن جرير فى تفسيره ، وقد جاء تفسير ( الدخان ) بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة ، رفعه بعضهم إلى النبي ﷺ كأبى سعيد الخدرى وأبى مالك الأشعرى — رضى الله عنهما — .

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الفتنة وأشرار الساعة ) ج ١٨ ص ٢٧ ، ٢٨ وانظر سنن أبى داود ( كتاب الملاحم ) باب أمارات الساعة ج ٤ ص ١١٤ ، ١١٥ رقم ٤٣١١

ورواه الترمذى فى سننه فى ( كتاب الفتن ) باب ما جاء فى الخسوف ج ٤ ص ٤٤٧ رقم ٢١٨٣ وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الفتن ) باب آيات ج ٢ ص ١٣٤٧ رقم ٤٠٥٥ .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره ١٣٩/٤ بعد أن ذكر تفسيره مسنداً إلى ابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس — رضى الله عنه — حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين — رضى الله عنهم أجمعين — مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن — قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ <sup>(١)</sup> أى : بين واضح يراه كل أحد ﴿ يغشى الناس ﴾ أى : فيغشاهم ويعممهم ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى : يقال ذلك لهم تقريراً وتوبيخاً ، أو يقول ذلك بعضهم لبعض . ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أى : يقول الكافرون ذلك عندما إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله — جلت عظمتة — ﴿ ولو ترى إذا وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> : انتهى .

معنى قوله ﷺ : ( الدَّجَال )

ذكر الحافظ ابن حجر في ( فتح البارى ) ٨٦/١٣ ، ٨٩ — ٩٠ مما رواه — خاصة — الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى عنه قال : إن النبى ﷺ قال : « إنه يهودى ، وإنه لا يولد له ولد ، وإنه لا يدخل المدينة ولا مكة » <sup>(٣)</sup> رواه مسلم . وإن عينه اليمنى عوراء ، جاحظة ، لا تخفى ، كأنها تُخاعة — أى : تُخامة — فى حائط محصّص ، وعينه اليسرى كأنه كوكب درى — يعنى من شدة اتقادها — معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء . رواه أحمد فى مسنده ٧٩/٣ . « وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى كلما خرجا من قرية دخل أوائله » رواه أبو يعلى والبزار .

وذكر الحافظ موطن خروجه فقال : وسيكون خروجه من قبل المشرق جزماً ، ثم جاء فى رواية أنه يخرج من خراسان ، أخرج ذلك أحمد والحاكم ، وفى رواية : أنه يخرج من أصبهان ، أخرجها مسلم . « ويخرج أولاً فيدعى الإيمان والصلاح ، ثم يدعى النبوة ، ثم يدعى الألوهية » .

ثم قال الحافظ — رحمه الله — : قال الخطاى : فإن قيل : كيف يجوز أن يجرى الله الآية على يد الكافر فإن إحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف ينالها الدجال ، وهو كذاب مفتر يدعى الربوبية ؟ فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق فى دعواه ، وهو أنه أعور ، مكتوب على جبهته : كافر ، يقرؤه كل مسلم . فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة ، فلا يشتبهان .

(١) الآية : ١٠ من سورة الدخان .

(٢) الآية : ٢٧ من سورة الأنعام .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى ( كتاب الفتن وأشراط الساعة ) باب : ذكر ابن صياد ج ١٨ ص ٥٠ — ٥١ .

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد كلام الخطابي هذا : « وفي الدجال دلالة بينة — لمن عقل — على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه — أى : عيبهما — فإذا دعا الناس إلى آية ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوى العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوى خلق غيره ويعدّله ويحسّنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك وعدّها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئاً فأزل ما هو مكتوب بين عينيك ! » .

ثم قال الحافظ — رحمه الله — : « وقال القاضى عياض : في هذه الأحاديث حُجة لأهل السنة في صحة وجود الدجال ، وأنه شخص معين ، يتلى الله به العباد ، ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذى يقتله ، وظهور الخصب ، والأنهار والجنة والنار واتباع كنوز الأرض له فتنبت ، وكل ذلك بمشيئة الله — تعالى — ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ، ويقتله عيسى ابن مريم — عليه السلام — . »

وقال الشيخ أبو بكر ابن العرى : الذى يظهر على يد الدجال من الآيات : من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجذب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ، ومياه تجري ، كل ذلك بحنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب ، وينجو المتقين ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : « لا فتنة أعظم من فتنة الدجال »<sup>(١)</sup> . وكان ﷺ يستعيز منها في صلاته تشريعاً لأئمة عليّهم : انتهى .

وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصّدّقى : قلت للشافعى : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . فقال الشافعى : قصر الليث — رحمه الله — بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، ويطير في الهواء فلا تغتروا به ، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة » انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد أخبر الله — تبارك وتعالى — في كتابه ، ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه : أنه لا نبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك ، دجال ضال مضل ، ولو تحرق — أى : أتى بالخوارق الظاهرة — وشعبذ — أى : عمل عملاً فيه خداع للعين والفكر — وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجات — الحيل — فكلها محال وضلال عند أولى الألباب . كما أجرى الله — سبحانه وتعالى — على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة ، والأقوال

(١) هذا جزء حديث رواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الفتن ) باب فتنة الدجال ... الخ ج ٢ ص ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧ وهو حديث أى أمانة الطويل .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحجى : أنهما كاذبان ضالآن — لعنهما الله تعالى — وكذلك كل مدّع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيخ الدجال .

فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله — تعالى — معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون يكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله — تعالى — بخلقه ، فإنهم — أى : أولئك المدّعين الكذابين — بضرورة الواقع : لا يأمرّون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل ارتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون هؤلاء فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال — تعالى — : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم ﴾<sup>(١)</sup> وهذا بخلاف حال الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرّون به وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات — فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات — .

معنى قوله : ( والدابة )

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٣/٣٧٤ : « هذه الدابة تخرج من آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يُخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك . قال — تعالى — فى سورة النمل : ﴿ وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ﴾<sup>(٢)</sup> . قال الآروسى فى « روح المعانى » ٦/٣١٤ : « أى : تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله — تعالى — الناطقة بمجىء الساعة ومباديها ، أو بجميع آياته التى من جملها تلك الآيات . وقصارى — أى : غاية — ما أقول فى هذه الدابة أنها دابة عيمة ذات قوائم ، ليست من نوع الإنسان أصلاً ، يخرجها الله — تعالى — آخر الزمان من الأرض وتخرجُ وفى الناس مؤمن وكافر .

قوله : ( وطلوع الشمس من مغربها ) .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين ﴿ لا ينفع نفساً

(١) الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٢ من سورة الشعراء .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة النمل .



إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ﴿١﴾ ولتقومن الساعة وقد نشر الرجLAN ثوبهما بينهما فلا يتابعانه ولا يطويانه ! ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته — أى : ناقتة — فلا يطعمه ! ولتقومن الساعة وهو يليب حوضه — أى : يطينه ويصلحه — فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه — أى : إلى فمه — فلا يطعمها ﴿٢﴾ انتهى . وصدق سيدنا رسول الله ﷺ فإن الله — تعالى — يقول : ﴿ لا تأتاكم إلا بفتة ﴾ ﴿٣﴾ .

أما قوله : ﴿ ونزول عيسى ابن مريم ﴾ أى : ينزله الله من السماء حاكماً بالإسلام كما سبق ذكره . قال شيخنا الكوثري — رحمه الله تعالى — في كتابه « نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة » ص ٤٤ : « والتواتر في حديث نزول عيسى — عليه السلام — تواتر معنوى حيث تشاركت أحاديث كثيرة جداً — بينها الصحاح والحسان بكثرة — في التصريح بنزول عيسى مع اشتغال كل حديث منها على معاني أخرى ، وهذا مالا يستطيع إنكاره أحد ممن شم رائحة علم الحديث .

وقال العلامة الآلوسى في تفسيره بعد هذا : « ثم إن عيسى — عليه السلام — حين ينزل باقٍ على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال ، لكنه لا يتعبد بها لنسخها في حقه وحق غيره ، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً ، فلا يكون إليه — عليه السلام — وحى ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة لرسول الله ﷺ وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه في السماء قبل نزوله من شريعته — عليه الصلاة والسلام — كما في بعض الآثار » .

وقوله : ﷺ : ( وبأجوج ومأجوج )

كل واحد من هذين اللفظين : اسم لقبيل وأمة من الناس ، مسكنهم في أقصى الشرق ، وما يقال في خلقتهم وصفاتهم مما يخيل إلى سامعه أنهم ليسوا من طبيعة البشر ولا على خلقة الناس فكذب لا أصل له . قال الحافظ ابن كثير في « تفسيره » سورة الكهف : « هم من سلالة آدم — عليه السلام — كما ثبت في « الصحيحين » : أن الله — تعالى — يقول : — أى : يوم القيامة — يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعد بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ — أى : وما مقدارهم ؟ — فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها !

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .

والحديث رواه البخارى في صحيحه في ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الأنعام ج ٣ ص ٨٥ من صحيح البخارى بحاشية السندى . وانظر ( كتاب الفتن ) من نفس المصدر ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) من الآية : ١٨٧ من سورة الأعراف .

فقال : — أى : رسول الله ﷺ — : إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج «<sup>(١)</sup>» . انتهى .

وقد اتفقت كلمة القرآن الكريم والحديث الشريف على كثرة يأجوج ومأجوج وشدة إفسادهم .  
وقوله ﷺ : « وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » .

أى : تسوقهم إلى مكان حشرهم وهو أرض بلاد الشام . وقد ثبت ذلك في عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر في فتح الباري منها : عن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « أول أشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « تُبْعَثُ نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا — من القيلولة »<sup>(٣)</sup> .

والمراد أن النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا في الليل والنهار — ويكون لها ما سقط منهم وتخلّف ، وتسوقهم سوق الجمل الكبير ، أى : تسوقهم ببطء . قال الهيثمى في « مجمع الزوائد » ١٢/٨ رواه الطبرانى ورجاله ثقات ، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى مستدرک الحاكم ٥٤٨/٤ .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « ووجه الجمع بين هذه الأخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن ، لا ينافي حشرها من المشرق إلى المغرب ، وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن ، فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها . والمقصود بقوله ﷺ : « تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب ، وأما جعل الغاية إلى المغرب فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق : مغرب « انتهى بزيادة وتصرف .  
وقد تضمنت هذه الأحاديث بيان مكان خروج النار ، وبيان وقت خروجها وكيفية سوقها للناس ، ومنتهاها بهم . وجاء في حديث آخر بيان هال الناس حين يساقون إلى المحشر في الشام .

روى البخارى في صحيحه ومسلم في صحيحه أيضاً عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : « يحشر الناس — أى : إلى الشام — قبل قيام الساعة ، وهم أحياء على ثلاث طرائق — أى : على ثلاث أحوال — راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، هذا معطوف على محذوف تقديره : واحد على بعير ،

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإيمان ) باب : قوله لآدم : أخرج .. الخ ج ١ ص ٥٥ رقم ١٣٣ من رواية أبى سعيد الخدرى —

ضى الله عنه — .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ( كتاب الفتن ) باب : خروج النار ج ٤ ص ١٥٦

(٣) انظر مجمع الزوائد ( باب خروج النار ) ج ٨ ص ١٢ .

واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، أى : أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد فيركب بعضهم ويمشى بعضهم ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا ، أى : تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر ، نسأل الله السلامة والعون .

الحديث ٧ — عن أنى هريرة — رضى الله عنه — أن النبي ﷺ قال : « ليس بينى وبينه نبى — يعنى عيسى بن مريم — وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، بين مصرتين ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيح الدجال ، فيمكث في الأرض أربعين سنة ، ثم يتوفى ، فيصلى عليه المسلمون »<sup>(١)</sup> . رواه أبو داود واللفظ له ، وابن أبى شيبة ، وأحمد في مسنده ، وابن حبان في صحيحه ، وابن جرير كما في « الدر المنثور » وصححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري من نزول عيسى — عليه السلام — ٣٥٧/٦ .

الحديث ٨ — عن مجمع بن جارية الأنصارى — رضى الله عنه — يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقتل ابن مريم الدجال بباب لُد »<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد في مسنده بأربعة طرق ، وفي بعض طرقه « إلى جانب باب لُد » .

الحديث ٩ — عن أنى هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً وإماماً عادلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »<sup>(٣)</sup> رواه ابن ماجه واللفظ له ، وأحمد في « مسنده » .

الحديث ١٠ — عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « لقيت ليلة أسرى نى إبراهيم وموسى وعيسى قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لى بها ،

(١) انظر سنن أبى داود ( كتب الملاحم ) باب خروج الدجال ج ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ رقم ٤٣٢٤ ورواه ابن أبى شيبة بأطول من هذا في مصنفه في ( كتاب الفتن ) باب : ما ذكر في فتنه الدجال ج ١٥ ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

وانظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ( ذكر البيان بأن عيسى بن مريم إذا نزل يقاتل الناس على الإسلام ج ٨ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ رقم ٦٧٨٢

مسند أحمد ( مسند أبى هريرة ) ج ٢ ص ٤٠٦

(٢) سنن الترمذى ( كتاب الفتن ) باب : ما جاء في قتل عيسى بن مريم الدجال ج ٤ ص ٥١٥ رقم ٢٢٤٤ وانظر مسند أحمد ١٣ — ٢٢٦/٤ ، ٤٢ .

(٣) سنن ابن ماجه ( كتب الفتن ) باب : فتنه الدجال ... الخ ج ٢ ص ١٣٦٣ رقم ٤٠٧٨ وانظر صحيح البخارى ( كتاب المظالم والفضب ... الخ ) ج ٣ ص ١٧٨ با ( كسر الصليب وقتل الخنزير ) .  
وانظر مصنف ابن أبى شيبة ( كتب الفتن ) باب : ما ذكر في فتنه الدجال ج ٥ ص ١٤٤ رقم ١٩٣٤١ .

فردوا الأمر إلى موسى ، فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أمّا وجبتها ( أى : ساعة قيامها ) فلا يعلمها أحد إلا الله — تعالى — ذلك وفيما عهد إلّى ربي — عز وجل — أن الدجال خارج ، قال : ومعى قضيبان ( أى : سيفان لطيفان دقيقان ) فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله ، حتى أن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله . قال : فيهلكهم الله — تعالى — ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطأون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم يرجع الناس إلّى فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله — تعالى — ويميتهم ، حتى تجوى الأرض ، ( أى : تبتنن ) من نتن ريحهم ، قال : فيُنزل الله — عز وجل — المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر .

قال عبد الله بن أحمد : قال أبى : ذهب علّى هاهنا شيء لم أفهمه ، كأديم . وقال يزيد — يعنى ابن هارون — : « يُنسفُ الجبال وتمد الأرض من الأديم » . ثم رجع إلى حديث هُشَيْم قال : « فقيما عهد إلّى ربي — عز وجل — أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل الميمّ التي لا يدرى أهلها متى تفجئهم بولادتها ليلاً أو نهاراً »<sup>(١)</sup> .

رواه أحمد في « مسنده » واللفظ له ، والحاكم في المستدرک وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي على ذلك ، وأقره الحافظ ابن حجر في فتح الباري من نزول عيسى — عليه السلام — وأخرجه ابن ماجه ، وابن أبى شيبة وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه والبيهقي كما في الدر المنثور .

قال الحافظ ابن كثير « في تفسيره » ٢/٢٧٣ : « إنما ردوا الأمر إلى عيسى — عليه السلام — فتكلم على أشرائها ، لأنه ينزل في آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ، ويقتل المسيح الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر — عليه السلام — بما أعلمه الله — تعالى — به » .

الحديث ١١ — عن سمرة بن جُندب — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ في حديث طويل سرده سمرة في خطبة خطبها ، قال : ثم سلم — يعنى ﷺ بعد فراغه من صلاة كسوف كان للشمس — فحمد الله وأثنى عليه ، وشهدا أن لا إله إلا الله ، وشهد أنه عبده ورسوله ، ثم قال :

(١) سنن ابن ماجه ( كتاب الفتن ) باب : فتنة الدجال وخروج عيسى ... الخ ج ٢ ص ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ رقم ٤٠٨١ . قال في الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، ورواه الحاكم وقال : هذا صحيح الإسناد . ورواه الإمام أحمد في مسنده ( مسند عبدالله بن مسعود — رضى الله عنه — ) ج ١ ص ٣٧٥ . وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الأنبياء ج ٢ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ وصححه الحاكم والذهبي . وأخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه في ( كتاب الفتن ) باب فتنة المسيح الدجال ج ١٥ ص ١٥٨ رقم ١٩٣٧١ . وانظر مجمع الزوائد ( كتاب الفتن ) باب : ما جاء في الدجال ج ٧ ص ٣٤١ .

« يا أيها الناس إنما أنا بشر ورسول الله ، فأذكركم الله — تعالى — إن كنتم تعلمون أني قصرت عن شيء من تبليغ رسالات ربي لما أخبرتموني حتى أبلغ رسالات ربي كما ينبغي لها أن تبلغ ، وإن كنتم تعلمون أني قد بلغت رسالات ربي لما أخبرتموني » فقام الناس ، فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ، ونصحت لأمتك ، وقضيت الذي عليك ، ثم سكتوا .

فقال رسول الله ﷺ : أما بعد : فإن رجالاً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنهم كذبوا ، ولكن آيات من آيات الله يفتن بها عباده لينظر من يحدث من توبة ، والله لقد رأيت منذ قمت أصلي ما أنتم لاقون في دنياكم وآخرتكم . وإنه — والله — لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال ، ممسوح العين اليسرى ، كأنه عين أبي يحيى — لشيخ من الأنصار — وإنه متى خرج فإنه يزعم أنه الله ، فمن آمن به وصدقه واتبعه فليس ينفعه صالح من عمل سلف ، ومن كفر به وكذبه فليس يعاقب بشيء من عمل سلف .

وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس ، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس ، فيتزلزلون زلزالاً شديداً فيصبح فيهم عيسى ابن مريم — عليه السلام — فيزعمه الله وجنوده ، حتى إن جذم الحائط ( أى : أصل الحائط ) وأصل الشجرة لينادى : يا مؤمن هذا كافر يستتر بي فتعال فاقتله . ولن يكون ذلك حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها في أنفسكم تساءلون بينكم هل كان بينكم ذكر لكم منها ذكراً ؟ وحتى تزول جبال عن مراسيها ، ثم على أثر ذلك القبض ( يعني الموت وقيام الساعة ) وأشار بيده « قال : أى : راوى الحديث عن سمرة : ثم شهدت خطبة أخرى . فذكر هذا الحديث ما قدمها ولا أخرها : ( أى : شهدت خطبة أخرى لسمرة فذكر هذا الحديث أيضاً كما سمعته منه أول مرة ما قدم فيه كلمة ولا أخرها )<sup>(١)</sup> .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي على تصحيحه . وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأخرجه الطبراني بلفظ المسند ، وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما والطحاوي في « معاني الآثار » والبيهقي في « السنن الكبرى » وابن جرير في « تهذيب السنن والآثار » وسعيد ابن منصور في « سننه » وأبو يعلى في « مسنده » وأخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه في سننهم ،

(١) انظر المستدرک للحاكم ( كتاب الكسوف ) باب : صلاة الكسوف ركعتان .. الخ . ج ١ ص ٣٣٠ فقد أورده الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

وانظر مسند أحمد ( حديث سمرة بن جندب ) ج ٥ ص ١٦ ورواه ابن خزيمة في صحيحه في ( كتاب الصلاة ) باب : استحباب استحداث التوبة عند كسوف الشمس .. الخ ج ٢ ص ٣٢٥ — ٣٢٧ .

ورواه ابن حبان في صحيحه ( الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ) باب : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن الكسوف يكون لموت العظماء من أهل الأرض ج ٤ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وانظر تفسير الطبري ج ٣ ص ٢٠٣ وكنز العمال ٣٨٨٥٨ .

والبزار في مسنده ، والبخارى في « خلق أفعال العباد » مختصراً ، وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة .

الحديث ١٢ — عن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم آخرها ؟ » رواه الحاكم كما في « كنز العمال » وصححه السيوطي في « الدر المنثور » وقال المناوي في « التيسير » : رواه النسائي وغيره .

الحديث ١٣ — عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي ، عن أبيه التابعي الجليل جبير بن نفير قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يُجزى الله أمة أنا في أولها ، وعيسى في آخرها »<sup>(١)</sup> أخرجه ابن أبي شيبة والحكيم الترمذي والحاكم — وصحح — وحسنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري .

الحديث ١٤ — عن حذيفة بن أسيد — رضى الله عنه — قال أبو الطفيل الليثي : كنت بالكوفة ، فقيل : قد خرج الدجال ! فأتينا حذيفة بن أسيد ، فقلت : هذا الدجال قد خرج ! فقال : اجلس ، فجلست ، فنودي : إنها كذبة صباغ ( أى : كذبة كذاب ) فقال حذيفة : إن الدجال لو خرج في زمانكم لرمته الصبيان بالحدف ( صغار الحصى ) ولكنه يخرج في نقص من الناس ، وخفة من الدين ، وسوء ذات بين ، فيرد كل منهل ، وتطوى له الأرض طي فروة الكيش حتى يأتي المدينة فيغلب على خارجها ، ويمنع داخلها ، ثم جبل إيلياء ( مدينة بيت المقدس ) فيحاصر عصابة من المسلمين .

فيقول لهم الذى عليهم : ما تنظرون بهذه الطاغية أن تقاتلوه حتى تلتحقوا بالله أو يفتح لكم ؟ فيأثمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، ويهزم أصحابه . حتى إن الشجر والحجر والمدر يقول : يا مؤمن هذا يهودى عندى فاقتله .

قال : وفيه ثلاث علامات : هو أعور ، وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه : ( كافر ) يقرؤه كل مؤمن أُمى وكاتب . ولا يُسحر له من المطايا إلا الحمار ، فهو رجس على رجس ، ثم قال : أنا لغير الدجال أخوف علىّ وعليكم ! فقلنا : ما هو ؟ قال : فتن كأنها قطع الليل المظلم . قال : فقلنا : أى الناس فيها شر ؟ قال : كل خطيب مصقع ( أى : بليغ اللسان يخدع ببلاغته العقول والألباب ، فيريها الباطل حقاً والحق باطلاً ) . وكل راكب موضع ( أى : مسرع ، ويريد من يسرع للفتنة ) قال : فقلنا : أى الناس

(١) الحديث أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول في ( الأصل الثاني والعشرين والمائة في أن خير هذه الأمة أولها وآخرها ) ص ١٥٦ .

فيها خير ؟ قال : كل غنى خفتي ( أى : غنى النفس معتزل عن الناس ) قال : فقلت : ما أنا بالغنى ولا بالخفتي ، قال : فكن كابن اللبون : لا ظهر فيركب ، ولا ضرع فيحلب <sup>(١)</sup> .

أخرجه الحاكم وصححه — كما في الدر المنثور — وأقره الذهبي في « تلخيص المستدرک » واللبون : الناقة ذات اللبن ترضعه ولدها . وابن اللبون ولدها الصغير ، فهو لصغره لا يمكن أن يركب عليه لقتال ونحوه . ولا أن يكون فيه لبن ليحلب فيتغذى بلبنه . فيبقى بعيداً عن أن يستعان به في أمر من أمور الفتنة . والحديث موقوف لفظاً على حذيفة بن أسيد — رضى الله عنه — لم يسند إلى النبي ﷺ ولكنه مرفوع حكماً ، إذ لا يعلم ما فيه إلا من جانب وحى النبوة .

الحديث ١٥ — عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه منى السلام » <sup>(٢)</sup> أخرجه الحاكم وصححه كما في « الدر المنثور » .

الحديث ١٦ — عن واثلة بن الأسقع — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدجال ، والدخان ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تحشر الذرّ والنمل <sup>(٣)</sup> ( هذا كناية عن حشرها الناس جميعاً ضعيفهم وقويهم ) .

والحديث رواه الطبراني والحاكم وصححه ووافقه الذهبي في تلخيص المستدرک ، ورواه ابن مردويه كما في « كنز العمال » .

الحديث ١٧ — عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تهلك أمة أنا في أولها ، وعيسى ابن مريم في آخرها ، والمهدى في وسطها » <sup>(٤)</sup> .

رواه النسائي ، وأبو نعيم في « أخبار المهدي » والحاكم وابن عساكر في تاريخيهما وهو حديث حسن كما في « السراج المنير » للعزيزي .

والمراد بالوسط : ما قبل الآخر ، لأن نزول عيسى — عليه السلام — لقتل الدجال يكون في زمن المهدي ، ويصلى سيدنا عيسى — عليه السلام — خلفه كما جاءت به الأخبار .

(١) انظر فتح الباري ج ١٣ ص ٩٢ ( كتاب الفتن ) .

(٢) المستدرک للحاكم ( كتاب الفتن والملاحم ) ج ٤ ص ٥٤٥

(٣) المستدرک للحاكم ( كتاب الفتن والملاحم ) ج ٤ ص ٤٢٨ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي

في التلخيص .

(٤) انظر كنز العمال ج ١٤ ص ٢٦٦ رقم ٣٨٦٧١ .

الحديث ١٨ — عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال في خفة من الدين ، وإدبار من العلم ، وله أربعون يوماً ، يسيحها في الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ثم سائر أيامه كأيامكم هذه .

وله حمار يركبه ، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، فيقول للناس : أنا ربكم ، وهو أعور . وإن ربكم ليس بأعور . مكتوب بين عينيه : ( كافر ) كافر — مهجاة — يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب .  
يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله — تعالى — عليه وقامت الملائكة بأبوابها . ومعه جبال من خبز والناس في جهد إلا من تبعه . ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول : الجنة ، ونهر يقول : النار ، فمن أدخل الذي يسميه الجنة فهو النار ، ومن أدخل الذي يسميه النار فهو الجنة ، ويعت الله معه شياطين تكلم الناس ، ومعه فتنة عظيمة : يأمر السماء فتُمْطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفساً ثم يجيئها فيما يرى الناس ولا يسلط على غيرها من الناس ويقول : يا أيها الناس : هل يفعل هذا إلا الرب — عز وجل — ؟ فيفر المسلمون إلى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحاصروهم ، فيشتد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً .

ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَّحَر ، فيقول : يا أيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جنِّي فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم — عليه السلام — فتقام الصلاة فيُقال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب ينمات كما ينمات الملح في الماء ( أى يختفى ويتوارى كما يذوب الملح في الماء ) فيمشى إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادى : ياروح الله هذا اليهودى ، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله<sup>(١)</sup> . رواه أحمد في مسنده وصححه الحاكم في المستدرك وقال الذهبي في « تلخيص المستدرك » : هو على شرط مسلم ورجاله ثقات .

الحديث ١٩ — عن عمران بن حصين — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم [ أى : عاداهم ] حتى يأتي أمر الله — تبارك وتعالى — وينزل عيسى عليه السلام رواه أحمد في مسنده ورجاله ثقات .

الحديث ٢٠ — عن حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — قال : إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يسألون عن الخير ، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أدركه ، وإني بينا أنا مع رسول الله ﷺ ذات

(١) انظر مسند أحمد ج ٣ ص ٣٦٧ وانظر المستدرك للحاكم ( كتاب الفتن والملاحم ) ج ٤ ص ٥٣٠ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص فقال : على شرط مسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ( مسند عمران بن حصين ) ج ٤ ص ٤٢٩

وانظر المستدرك للحاكم ( الفتن والملاحم ) ج ٤ ص ٤٥٠



يوم قلت : يا رسول الله أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله ، هل بعده من شر كما كان قبل شر ؟ قال : نعم . قلت : فما العصمة منه ؟ قال : السيف . قلت : وهل للسيف من بقية ؟ قال : هدنة على دخن . قلت : يا رسول الله ما بعد الهدنة ؟ قال : دعاة للضلالة . فإن لقيت الله يومئذ خليفة فى الأرض فالزمه وإن أخذ مالك وضرب ظهرك ، فإن لم يكن خليفة فاهربن فى الأرض حدَّ هربك حتى يدركك الموت وأنت غاضٌّ على أصل شجرة ، قلت : يا رسول الله فما بعد دعاة الضلالة ؟ قال : خروج الدجال : قلت : يا رسول الله وما يجيء الدجال ؟ قال : يجيء بنار ونهر ، فمن وقع فى ناره وجب أجره ، وحُط وزره ، ومن وقع فى نهره وجب وزره وحط أجره .

قلت يا رسول الله فما بعد الدجال ؟ قال عيسى ابن مريم قلت : فما بعد عيسى ابن مريم ؟ قال : لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة<sup>(١)</sup> رواه ابن أبى شيبة وابن عساكر كما فى « كنز العمال » وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند البخارى ؛ فهو قوى إن شاء الله — تعالى — واستشهد الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بجمل من حديث ابن أبى شيبة ، فهو حديث صحيح أو حسن عنده .

## شرح مفردات الحديث

قوله : ﴿ وهل للسيف من بقية ؟ ﴾ أى : هل يبقى استعمال السيف بقية من الناس ؟

وقوله : ﴿ وهدنة على دخن ﴾ أى : يبقى الناس على فساد فى قلوبهم وعلى اجتماع فى ظاهريهم ، ولكن لأهواء مختلفة وعيوب مؤتلفة ، وعلى هدنة على دخن ، أى : صلح على فساد ونفاق فى القلوب وحقد فى النفوس .

وقوله : ﴿ دعاة للضلالة ﴾ وفى رواية البخارى : « دعاة على أبواب جهنم » أى : يدعون الناس إلى الكفر الذى يؤول بهم وبمن تبعهم إلى جهنم .

وقوله : ﴿ فاهربن فى الأرض حد هربك ﴾ حد هربك ، أى : متبى هربك ، وأقصى ما تستطيع من البعد عن الفتنة وأهلها .

وقوله : ﴿ وأنت عاض على أصل شجرة ﴾ أى : حتى تموت وأنت على انقطاعك عن الناس وبعدهم منهم صابراً على شدة الزمان ومكابدة المشقة التى تنالك فى ذلك .

(١) أنظر مصنف ابن أبى شيبة ( كتاب الفتن ) باب من كره الخروج فى الفتنة وتعوذ عنها ج ١٥ ص ٩٨ رقم ١٨٩٦٠ وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٥ ص ١٦٥ فى ترجمة الخضر بن زكريا بن إسماعيل

وقوله : ﴿ ومن رفع في نهره وجب وزره وخطأ أجره ﴾ يعنى : من خالف أمر الدجال ولم يطعه في دعوته وأوزاره فألقاه في ناره وجب أجره ، وعفى له من ذنوبه السالفة . ومن وافقه في دعوته وأطاع أمره ثبت عقابه وبطل ثوابه .

وقوله : ﴿ لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة ﴾ أى : لو أن رجلاً ولد فرساً عنده ولداً ، فما يحين ركوب ذلك المهر الذى ولدته الفرس إلا وتقوم الساعة ، وهذا كناية عن شدة قرب قيامها . انتهى .

### من مشاهد القيامة

قال — تعالى —

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَلْعَبَادٍ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِبَايَعَتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴿٧١﴾ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٢﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٦﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٧﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٨٠﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨١﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ ﴿٨٢﴾ سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٣﴾ فَذَرَهُمْ يَخْضَوْنَ وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يَلْفُحُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٤﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ  
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ يَرْبِّ إِنَّا  
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

### معاني المفردات

(الأخلاء) واحداهم : خليل ، وهو الصديق الحميم . (مسلمين) أى : مخلصين منقادين لربهم .  
(تخبرون) أى : تسرون سروراً يظهر حباره (بفتح الحاء) أى : أثره من النظرة والحسن على وجوهكم .  
(والصحاف) واحداهم : صحيفة وهى كالقصعة ، قال الكسائى : أكبر أوانى الأكل : الجفنة ، ثم القصعة ،  
ثم الصحيفة ، ثم المثكلة (والأكواب) واحداهم : كوب ، وهو كوز لا أذن له (المجرمين) المراد بالمجرمين  
هنا : الراسخون فى الإجرام ، وهم الكفار . (لا يفتر) أى : لا يخفف . (مبلسون) : من الإبلاس :  
وهو الحزن المعترض من شدة اليأس . (مالك) خازن جهنم . (ليقض علينا ربك) أى : يمتنا . (وأبرم  
الأمر) : أحكم تدبيره ، (أمراً) : هو التحيل فى تكذيب الحق (والسر) : هو ما يحدث به المرء نفسه  
أو غيره فى مكان خال . (والنجوى) : التناجى فيما بينهم . (سبحان رب السموات) أى : تنزيهاً له  
عن كل نقص (يصفون) : أى : يقولون كذباً بأن له ولداً . (فذرهم) أى : فاطرهم (يخوضوا) : أى :  
يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء . (ويلعبوا) : يفعلوا فى أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل  
عن عاقبة ما يعمل (يومهم) هو يوم القيامة . (إله) أى : معبود بحق لا شريك له ، (يدعون) : أى :  
يعبدون (من شهد بالحق) : أى : نطق بكلمة التوحيد . (يؤفكون) : أى : يصرفون . (وقيله) : أى : قوله .  
قال أبو عبيدة : يقال : قلت قولاً وقالوا وقيلوا . (فاصفح عنهم) : أى : اعف عنهم عفو المعرض ، ولا تقف  
عن التبليغ . (سلام) : أى : سلام متاركة بسلامتكم منى وسلامتى منكم .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، بين أن هذا اليوم يأتى بغتة وهم  
لا يشعرون روى ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقوم الساعة والرجلان  
يحملان النعجة ، والرجلان يطويان الثوب ، ثم قرأ ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم

لا يشعرون ﴿١﴾ ثم أردف ذلك بيان أحوال ذلك اليوم ، فمنها أن الأخلاء يتعادون فيه إلا من تخالوا على الإيمان والتقوى ، ومنها أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة يتفجعون بها ، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم ، ومنها أنهم يتمتعون بفنون الترف والنعيم فيطاف عليهم بصحاف من ذهب فيها ما لذ وطاب من المأكول ، وبأكواب وأباريق فيها شهى المشارب ، ويقال لهم : هذا النعيم كفاء ما قدمتم من عمل بأوامر الشرع ونواهيه ، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له . ثم أعقب ذلك بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم الدائم ، وذكر أن هذا ليس إلا جزاء وفاقا لما دسوا به أنفسهم من سىء الأعمال ، ثم أردف ذلك بمقال أهل النار لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب ، ثم إجابتهم لهم عن ذلك ، ثم وبخهم على ما عملوا في الدنيا واستحقوا به العذاب . ثم ذكر ما أحكموا تدبيره من رد الحق وإعلاء شأن الباطل ظلًا منهم أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، وقد هموا فيما ظنوا ؛ فإن الله عليم بذلك ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول أو فعل ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقا للحق ! إن مخالفتهم لهم في عبادة ما يعبدون لم يكن بغضا منه لهم ولا عداوة لمعبودهم بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليه وبنوا عليه عبادتهم لهم من كونهم بنات الله ، تنزه ربنا عما يقولون ، ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتي اليوم الذى يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم ثم أخبر — سبحانه — بأن لا معبود فى السماء ولا فى الأرض سواه ، وهو الحكيم العليم ، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب ، ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم ، فهم يعبدون غير الله ويقولون : إن الخالق للكون : سمائه وأرضه هو الله ، ثم أردف هذا ببيان أنه لا يعلم الساعة إلا هو ، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك ، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم ، وسيأتى اليوم الذى يلحقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم .

### التفسير

قوله — تعالى — ﴿ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ يقول الله — تعالى — هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسول إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ أى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون عليها كل الندم حيث لا يتفعمهم ولا يدفع عنهم ، ونحو الآية قوله — تعالى — ﴿ هل ينظرون إلا

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي : تفسير سورة الزخرف ج ٧ ص ٣٨٧ وقال : « اللقحة » بدل ( نعمة ) . وعزاه إلى ابن مردويه .

أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴿١﴾ ﴿٢﴾ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً . ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴿٣﴾ وههنا يقول — جل في علاه — : ﴿٤﴾ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴿٥﴾ أى : كل صداقة وخلة فإنها تنقلب في ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت في الله وفي سبيله ، فإنها تبقى في الدنيا والآخرة . وهذا كما قال إبراهيم الخليل — عليه الصلاة والسلام — لقومه ﴿٦﴾ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴿٧﴾ وكما حكى الله عنهم وهم في النار يقولون : ﴿٨﴾ وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فנקون من المؤمنين : إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿٩﴾

وقوله — تعالى — ( إلا المتقين ) فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة ، يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « إن الله — تعالى — يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي » (١٠) رواه مسلم

وعن معاذ — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله — عز وجل — : المتحابون في جلالي ، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء » (١١) رواه الترمذى : وقال حديث حسن صحيح لذارغب النبى ﷺ في مصاحبة المؤمنين ، ومجالسة الأخيار ، ورهب من مصاحبة الكافرين ومجالسة الأشرار ، فقال ﷺ في الحديث المتفق عليه : « إنما مثل المجلس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافع الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافع الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة » (١٢)

فقد شبه الرسول الكريم ﷺ المجلس الصالح ببائع الطيب الذى ينفحك بعطره ، ويغمرك بنشره ، فإما أن يهديك ، وإما أن تجد عنده ريحاً طيبة ، فأنت معه في ربح دائم ونشوة غامرة ، أما مجلس

(١) الآية : ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٥ — ٢٩ من سورة الفرقان .

(٣) من الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآيات : ٩٩ — ١٠٤ من سورة الشعراء .

(٥) صحيح مسلم ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب في فضل الحب في الله ج ٤ ص ١٩٨٨ رقم ٣٧ / ٢٥٦٦

(٦) سنن الترمذى ( أبواب الزهد ) باب : ما جاء في الحب في الله ح ٤ ص ٢٤

(٧) انظر صحيح البخارى ( كتاب الذبائح ) باب المسك ح ٧ ص ١٢٥ وذكره بمعناه في كتاب البيوع من نفس المصدر ج ٣ ص ٨٢

ورواه الإمام مسلم في صحيحه في ( كتاب البر والصلة والآداب ) ج ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ١٤٦ / ٢٦٢٨

السوء فليس هناك أبلغ من تشبيهه بالحداد الذى يتفخ بكيره — مادة حارقة — فأنت معه فى خسارة دائمة ، فإن لم يحرقك بناره ، أحرقك بشرارة ، فصحبته هم دائما ، وحزن لازم ، ونار تلظى .

وقال عليه السلام : « المرء على دين خليله فلينظر أحداكم من يخالل »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى سننه ، وصححه النووى .

وقال عليه السلام : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي »<sup>(٢)</sup> أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن .

وقال بعض الحكماء : اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب ، والرأى والأدب ، فإنه ردة لك عند حاجتك ، ويدفع نائيتك ، وأنس عند وحشتك ، وزين عند عافيتك .  
وقال حسان بن ثابت — رضى الله عنه — :

أخلاء الرخاء هم كثير	ولكن فى البلاء هم قليل
فلا يفرك خلة من تواخى	فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفى	ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خل له حسب ودين	فذاك لما يقول هو الفعول

وقال عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم	ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قوله — تعالى — : ﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنهم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

(١) سنن الترمذى ( كتاب الزهد ) باب ٤٥ رقم الحديث ٢٣٧٨ من رواية أبى هريرة وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

إلا أنه قال : « الرجل » مكان ( المرء ) ج ٤٠ ص ٥٨٩

وانظر سنن أبى داود ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ بنفس لفظ الترمذى .

(٢) انظر سنن الترمذى ( أبواب الزهد ) باب ما جاء فى صحبة المؤمن ج ٤ ص ٢٧ رقم ٢٥٠٦ ورواه الإمام أحمد فى مسنده ( ومسنده أبى سعيد الخدرى ) ج ٣ ص ٣٨ إلا أنه قال : « تصح » . ورواه أيضا أبو داود فى سننه فى ( كتاب الأدب ) باب : من يؤمر أن يجالس ح ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

روى المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى مناد في العرصات : « يا عبادى لا خوف عليكم » فيرفع أهل العرصة رءوسهم ؛ فيقول المنادى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليه ولا يسلمه عند الهلكة .

قال — عز وجل — ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ توعَدُونَ ﴾ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴿ نَزَلَ مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴾ (١) وقال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴿ (٢)

وهنا يقول — سبحانه : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ ﴾ المسلمات في الدنيا المؤمنات بالله ورسوله . كما قال — سبحانه — : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (٣) وكما قال — جل في علاه — : ﴿ جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار ﴿ (٤)

وقوله — تعالى — : ( تحبرون ) قال ابن عباس : تكرمون . وقال الحسن : تفرحون ، وقال قتادة : تنعمون ، وقال مجاهد : تسرون .

قال القرطبي : الكرامة في المنزلة ، والفرح في القلب ، والنعم في البدن ، والسرور في العين .

وبعد أن ذكر — سبحانه — طرفاً مما يتمتعون به من النعم ، فقال — تعالى — : ﴿ يَطَافُ عَلَيْهِمْ بِصُحُفٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ أى : وبعد أن يستقروا في الجنة ويهدأ روعهم يطاف عليهم بحفان من الذهب مترعة بألوان الأطعمة والحلوى وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب .

وفي الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبي ﷺ يقول : ﴿ لَا تَلْبِسُوا الْحَرِيرَ وَلَا الدِّيَّاجَ ، وَلَا تَشْرَبُوا فِي آتِيَةِ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ وَلَا تَأْكُلُوا فِي صَحَافِهَا ؛ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ فِي الدُّنْيَا — أى : للكافرين —

(١) الآيات : ٣٠ — ٣٢ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ٢١ من سورة الطور .

(٤) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

ولكم في الآخرة ﴿١﴾ قال القرطبي : فمن أكل فيهما في الدنيا أو لبس الحرير في الدنيا ولم يتب حُرْم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبداً . والله أعلم .

وقوله — تعالى — ﴿ وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ أى : وفي الجنة ما تشتهي أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه كائنات ما كان ، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات ، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته ، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وأنتم لا تخرجون منها ، ولا تبغون عنها حولا .

أخرج ابن أبي شيبة والترمذى عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل : يا رسول الله هل في الجنة خيل ؟ فأبى أحب الخيل ؟ قال : « إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تتركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك في أى الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يا رسول الله هل في الجنة من إبل فأبى أحب الإبل ؟ فقال : إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتيت نفسك ولذت عينك » (٢)

ثم ذكر — سبحانه — أن هذا كان فضلاً من ربكم آتاكموه كفاء أعمالكم التى أسلفتموها ، فقال — تعالى — : ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أى : وهذه الجنة جعلها الله لكم باقية كالميراث الذى يبقى عن المورث ، جزاء ما قدمتم من عمل صالح .

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر — سبحانه — الفاكهة فقال — تعالى — : ﴿ لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ أى : لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها ، تأكلون منها حينئذ شتم ، وكيفما اخترتم .

قال الإمام ابن القيم :

إن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال

وإن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها .

(١) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب اللباس والزينة ) باب : تحريم استعمال إناء الذهب والفضة . الخ ص ٥٤٠ رقم ١٣٣٩

(٢) روى الترمذى في سننه حديث المسعودى عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن يزيد ، عن أبيه هذا الحديث مع اختلاف في بعض الألفاظ ، ثم قال :

حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الملك بن المبارك ، عن سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن عبد الرحمن بن سابط عن النبي ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودى .

انظر سنن الترمذى ( كتاب صفة الجنة ) باب ما جاء في صفة خيل الجنة ج ٤ ص ٦٨١ رقم ٢٥٤٣ ورواية ابن سابط ص ٦٨٢ ذكر سندها فقط ولم يذكر لفظها .



قال — تعالى — ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا وما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾<sup>(١)</sup> وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذى أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم ، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرّة الأعين فى الجنة .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله — عز وجل — : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »<sup>(٢)</sup> مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وفى صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت مع النبى ﷺ مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾<sup>(٣)</sup>

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب »<sup>(٤)</sup>

وقد تقدم حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ : « ألا مشمرأ للجنة ؛ فإن للجنة خطراً لها ، هى — ورب الكعبة — نور يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمره نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة . ومحلة عالية بهية »<sup>(٥)</sup> ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيرها ، لكفاها شرفاً وفضلاً كما فى سنن أبى داود من حديث سليمان بن معاذ عن ابن المنكدر عن جابر — رضى الله عنه — قال قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة »<sup>(٦)</sup> .

(١) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) ص ٧٩٤ رقم ١٧٩٨

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) ج ١٧ ص ١٦٧

(٤) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب الجهاد ) باب الغدوة والروحة فى سبيل الله ... الخ ج ٦ ص ١٥ ولم يرد فى صحيح مسلم .

(٥) الحديث مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ . رواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الزهد ) باب صفة الجنة ج ٢ ص ١٤٤٨ رقم ٤٣٣٢ ولكن من رواية أسامة بن زيد وليس من رواية أبى أمامة . فى الزوائد : فى إسناده مقال . والضحاك المعافى الدمشقى ذكره ابن حبان فى الثقات ... ثم قال : ورواه ابن حبان فى صحيحه .

(٦) انظر سنن أبى داود ( كتاب الزكاة ) باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى ج ٢ ص ١٢٧ رقم ١٦٧١

وفي معجم الطبراني من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله جنة عدن ، خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمي . فقالت : قد أفلح المؤمنون »<sup>(١)</sup>

وفي صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها »<sup>(٢)</sup>

وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده ، وجعلها مقراً لأحبابه ، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها جميع الخير بخدافيره ، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص ، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهي المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن ، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصبتها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب . وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة ، لا من الخطب والخشب ، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ، ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق اللؤلؤ . وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى .

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وإن سألت عن شرابهم فالتسليم والزنجبيل والكافور ، وإن سألت عن آنية الذهب والفضة في صفاء القوارير .

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستقر بالطرب لمن يسمعها ، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها . وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفى عام .

وإن سألت عن خيامها وقبابها ، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلاً من تلك الخيام ، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهي غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار ، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار .

(١) انظر مجمع الزوائد ( كتاب أهل الجنة ) باب في بناء الجنة وصفها ج ١٠ ص ٣٩٧ ثم ذكر الهيثمي بعد روايتنا هذه رواية أخرى ، وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير وأحد إسناده [الطبراني في الأوسط جيد .

(٢) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق ( كتاب بدء الخلق ) باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٦ ص ٢٩٤ رقم ٦١

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب ، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة في أعلى الرتب ، وإن سألت عن أرائكها فهي الأسرة عليها البشخانات وهي الحجال مزررة بأزرار الذهب ، فما لها من فروج ولا ظلال . وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر . وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم — عليه السلام — أوى البشر ، وإن سألت عن سمعهم فغناء أزواجهم من الحور العين ، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيين ، وأعلى منها خطاب رب العالمين .

وإن سألت عن مطاياهم التي يتزاورون عليها ، فنجائب — إن شاء الله — وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ ، على الرعوس ملابس التيجان ، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم اللؤلؤ مكنون .

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم ، فهي الكواكب الأتراب ، اللاتي جرى في أعضائهن ماء الشباب ، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود ، وللرمان ما تضمته النهود ، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور ، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور ، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت ، ويضئ البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت ، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء في تقابل النيرين وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين . وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين ، ويرى وجهه في صحن صدرها ، كما يرى في المرأة التي جلاها صقلها ، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها . لو اطلعت على الدنيا ملأت ما بين الأرض والسماء ريحا . وأفواه الخلائق تهللا وتكبرا وتسيبحا ، ولتخرق لها ما بين الخافقين ، ولغمضت عن غيرها كل عين ، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم ، ولآمن على ظهورها بالله الحي القيوم . ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، ووصالنا أشهى إليه من جميع أمانها ، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حسنا وجمالا ، ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالا ، مبرأة من الحمل والولادة ، والحيض والنفاس ، مطهرة من المخاط والبصاق ، والبول والغائط وسائر الأدناس ، لا يفنى شبابها ، ولا تبلى ثيابها ، ولا يخلق ثوب جمالها ، ولا يمل طيب وصالها ، قد قصرت طرفها على زوجها ، فلا تطمع لأحد سواه ، وقصر طرفه عليها فهو غاية أمنيته وهواه . وإن نظر إليها سرتة ، وإن أمرها بطاعته أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته ، فهو منها في غاية الأماني . هذا لم يطمثها قبله إنس ولا جان ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورا ، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤا منظوما ومنثورا ، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورا . وإن سألت عن السن فأترباب في أعدل سن الشباب ، وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر ، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد في أصفى بياض في أحسن حور ، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن من الأغصان ، وإن سألت عن النهود فهن الكواكب ، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان ، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان ، اللاتي جمع لهن بين الحسن والإحسان ، فأعطين جمال الباطن والظاهر ، فهن أفراح النفوس وقرّة النواظر .

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنا لك فهن العرب المتحبات إلى الأزواج بلطافة التبعل التي تمتاز بالروح أى امتزاج .

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت في وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها . وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة في بروج فلکها ، وإذا حاضرت زوجها فياحسن تلك المحاضرة ، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخالصة . وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع ، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك الموانسة والإمتاع . وإن قبلت فلا شيء أشهى إليه من التقبيل ، وإن نولت فلا أذ ولا أطيب من ذلك التنويل .

هذا ، وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس في الظهيرة ، والقمر ليلة البدر ، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه ، وذلك موجود في الصحاح والسنن والمسانيد . من رواية جرير وصهيب وأنس وأبي هريرة وأبي موسى وأبي سعيد ، فاستمع يوم ينادى المنادى : يا أهل الجنة ، إن ربكم — تبارك وتعالى — يستزيركم فحشئ على زيارته ، فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستنون على ظهورها مسرعين ، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جعل لهم موعداً . وجمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحداً ، أمر الرب — تبارك وتعالى — بكرسيه فنصب هناك ، ثم نصبت لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ومنابر من فضة . وجلس أدناهم — وحاشاهم أن يكون فيهم دنى — على كئيبان المسك ، ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم في العطايا ، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم . نادى المنادى : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟! فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرفت له الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار — جل جلاله ، وتقديست أسماؤه — وقد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب — تبارك وتعالى — ويضحك إليهم ، ويقول : يا أهل الجنة — فيكون أول ما يسمعون منه تعالى — أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب ، ولم يرونى ، فهذا يوم المزيد فيجتمعون على كلمة واحدة : قد رضينا فارض عنا ، فيقول : يا أهل الجنة ، إني لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتى . هذا يوم المزيد فاسألونى فيجتمعون على كلمة واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه . فيكشف لهم الرب — جل جلاله — الحجب ، ويتجلى لهم ، فيغشاهم من نوره ما لولا أنه — تعالى — قضى أن لا يحترقوا لا حترقوا . ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه — تعالى — محاضرة حتى إنه يقول : يا فلان ، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا — يذكره ببعض غدراته في الدنيا ؟ فيقول : يارب ألم تغفر لى ؟ بمغفرك بلغت منزلتك هذه .

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ، ويا قوة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم في الدار الآخرة ، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أنه يفعل بها فاقرة ﴾<sup>(١)</sup>

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يقتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى السعداء في الآخرة ، ثنى بذكر حال الأشقياء ، فقال تعالى : ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يقتر عنهم ﴾ أى لا يخفف عنهم ساعة واحدة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ ايسون من كل خير ، كما حكى عنهم سبحانه وتعالى فقال : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعلم كما ما يذكر فيه من تذكروا وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ وقال جل في علاه : ﴿ فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، ويصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ فأما الذين شقوا ففى النار لهم زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال عز من قائل : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾<sup>(٤)</sup> . وقال سبحانه : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يمدون ولها ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا ، ربنا آثم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾<sup>(٥)</sup> ، قال جل في علاه : ﴿ وقال الذين في النار لحزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) الآيات : ٢٢ — ٢٥ من سورة القيامة .

(٢) الآيتان ٣٦ — ٣٧ من سورة فاطر .

(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من سورة الحج .

(٤) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة هود .

(٥) الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة المؤمنون .

(٦) الآيات ٦٣ — ٦٨ من سورة الأحزاب .

(٧) الآية ٤٩ من سورة غافر .

وقال سبحانه : ﴿ إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿<sup>(١)</sup>﴾

ويصور القرآن شدة هيب هذه النيران ، بضخامة ما يتطاير منها من الشرر ، فهو ليس بذرات صغيرة ، كهذه الذرات ، التي تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا ، ولكنه شرر كجذوع الشجر الضخم ، أو الجمال الصفر ، قال تعالى : ﴿ إِنِّهَا تَرْمَى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴾ كأنه جمالة صفر\* ويل يومئذ للمكذبين ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

هذه النيران الملتبته يسمع لظاها من مدى بعيد ، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة ، واستمع إليه يصور ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ . وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهي تفور\* تكاد تميز من الغيظ ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ ، وفي هذه النيران ذات اللظى يتنفسون لها ﴿ لَمْ يَكُنْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ وليصور خيالك هذا اللهب يتنفسون منه ويزفرون ، وليصور خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ . وليصور الخيال هذه الوجوه تتقلب في النيران ، والرءوس تنزع منها شواها ، وهذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَمْ يَبْقَ مِنْ نَارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ . وهذه الجلود كلها احترقت وصهرت ، استبدلت بجلود أخرى ، ليبدأ عذابهم من جديد ﴿ إِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِحُهُمْ نَارًا كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ .

وهكذا لا يجدون في وسط هذه النيران ظلاً يحسون عنده يبرد الراحة ، اللهم إلا ظل دخان قد تفرق وانتشر شعباً فصار ظلاً ﴿ لَا ظَلِيلٌ وَلَا يَغْنَى مِنَ اللَّهَبِ ﴾ ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم\* وظل من يحموم\* لا بارد ولا كريم ﴿<sup>(٩)</sup>﴾ ، ويظلمون في هذا العذاب خالدين ﴿ لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَبْسُوتُونَ ﴾ وعليهم حرس ﴿ مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿<sup>(١٠)</sup>﴾

(٦) الآية ١٩ من سورة الحج

(٧) الآية ٥٦ من سورة النساء

(٨) الآية ٣١ من سورة المرسلات

(٩) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة الواقعة

(١٠) جزء من الآية ٦ من سورة التحريم

(١) الآيات ٧١ ، ٧٢ من سورة غافر

(٢) الآيات ٣٢ ، ٣٣ من سورة المرسلات

(٣) الآيات : ٦ ، ٧ والآية رقم ٨ من سورة الملك

(٤) الآية ١٠٦ من سورة هود

(٥) جزء من الآية ٥٤ ، الآية ٥٥ من سورة العنكبوت

وأما طعامهم فمن شجرة الزقوم ، وهى ﴿ شجرة تخرج فى أصل الجحيم ﴾ طلعتها كأنه رءوس الشياطين ﴿ فإنهم لا ياكلون منها فمالئون منها البطون ﴾ (١) ... فإذا أرادوا الشراب سقوا من عين آنية — أى متناهية فى الحر — وشربوا حميماً — ماء خارا — وغساقاً — صديد أهل النار — ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾ بش الشراب وساءت مرتفقاً ﴿ (٢) .

لا عجب إذا إن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم ، ولكن أنى لهم الفرار وقد أعدت لهم ، ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴿ (٣) . أو تمنوا أن لو كانوا تراباً ، أو دعوا الله أن ينالهم بالهلاك المبيد ﴿ لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ (٤) ، ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه وصاحبه وأخيه ﴾ وفصليته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ﴿ ثم ينجيهِ ﴾ كلا ﴿ (٥) أرأيت كيف يشدد العذاب بأصحاب النار حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابه ، الذى يتمنى المرء أن يفديه بنفسه ، بل يتمنى أن لوهلك الناس جميعاً ونجا وحده ، فى هذا اللهب المشتعل الذى لا يموت من فيه مودة تريحه ، ولا يحيا حياة يرضاهها — يلعن أهل النار بعضهم بعضاً ، فإذا خوتهم جهنم جميعاً ، قال الرعاع عن سادتهم : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ﴾ (٦) ، فيجيبهم الله بأن لكل منهم ضعفا ، ويقول السادة للرَّعاع ، أنتم مثلنا فى العذاب ، ولن يخفف عنكم ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ (٧) ، وينادى على السيد منهم فيقال لمعذبيه : ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾ إلى سواء الجحيم ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴿ (٨) ، ويتجه هؤلاء العصاة إلى الله ، ويصور القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴿ إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آسفنا فاغفر لنا ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ فاتخذوهم سخريا حتى أنسوكم ذكرا وكنتم منهم تضحكون . إلى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ﴾ قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم . فاسأل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ﴿ (٩) وحينئذ يصطرخون فيها قائلين : ﴿ ربنا أخرجنا

(١) الآيات ٦٤ — ٦٦ من سورة الصافات

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة الكهف

(٣) الحج الآيات ٢١ ، ٢٢

(٤) الآية ١٤ من سورة الفرقان

(٥) جزء من الآية ١١ ، والآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ وجزء من الآية ١٥ من سورة المعارج .

(٦) جزء من الآية ٣٨ من سورة الأعراف

(٧) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأعراف

(٨) الآيات ٤٧ — ٤٩ من سورة الدخان

(٩) الآيات ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة المؤمنون

نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ﴿١﴾ فيسألون : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ (٢).

وفى النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم ، فها هم أولاء الخزنة يسألونهم ، كلما أقبل فوج منهم ﴿ ألم يأتكم نذير ﴾ قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴿ (٣).

ويتجه أصحاب النار حيناً إلى خازنها ، ويتضرعون أن يقضى ربهم عليهم ، فتكون الإجابة قاضية على آمالهم ، بأنهم مخلصون ، لا يفتر عنهم العذاب ﴿ ونادوا : يا مالک ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ .

وحيناً يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار ، فإذا اتجهت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة نادوا ﴿ أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ الذى اتخذوا دينهم هواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون ﴿ (٤).

وأكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء ، فيشفعوا لهم فيقولون ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴿ (٥) ذلك وصف حافل للعذاب الجسمي فى جهنم ، أما العذاب الروحى فشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محبوبون عن رضوان الله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم بما قل من النعم أو أكثر ، ثم قابلوا نعمه بالجحود والنكران فلا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ (٦) وفى كفران النعمة شقاء نفسى ، يتعذب له الضمير ، ويشقى من أجله الوجدان ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ (٧) ، ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾ (٨) . ( من كتاب بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى ) .

(١) الآية ٣٧ فاطر

(٢) الآية ٣٧ فاطر

(٣) جزء من الآية ٨ ، الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة الملك

(٤) من الآية ٥٠ ، والآية ٥١ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ١٠٠ — ١٠٢ من سورة الشعراء

(٦) الآية ١٥ المطففين

(٧) الآية ٢٧ من سورة الفرقان

(٨) الآية ٥٦ من سورة الزمر



قوله تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم ، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم فكذبوا الرسل وعصوهم بعد أن أقاموا الحجة عليهم ، فأتوهم ببياهر المعجزات ، قال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ <sup>(١)</sup> وبعد أن قص سبحانه علينا قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وفرعون ، قال سبحانه : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد \* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .. الآية <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالک ليقض علينا ربك قال إنکم ما کنون ﴾ أى ونادى المجرمون من شدة العذاب فقالوا : يا مالک ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليربحنا مما نحن فيه ، فأجابهم بعد مائة سنة — كما قال مجاهد — أو بعد ألف سنة — كما قال الأعمش : بقوله ﴿ إنکم ما کنون ﴾ لا خروج لكم منها ، ولا محيص لكم عنها ، ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله : ﴿ لقد جنناکم بالحق ولكن أكثرکم للحق کارهون ﴾ أى لقد بينا لكم الحق على السنة رسلنا وأنزلنا إليکم الكتب مرشدة إليه ، ولكن سجايأکم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصعد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسکم باللائمة ، واندموا حيث لا تنفعکم الندامة .

قوله تعالى : ﴿ أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون \* أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ .

قال القرطبي : قال مقاتل : نزلت في تديبرهم بالمكر بالنبي صلى الله عليه وسلم في دار الندوة ، حين استقر أمرهم ، على ما أشار به أبو جهل عليهم ، أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا في قتله ، فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية وقتل الله جميعهم بيد ، ومعنى أبرموا : أحكموا .

فالمعنى : أم أحكموا كيداً فإنا محكمون لهم كيداً ، كما قال سبحانه ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وكقوله سبحانه ﴿ إنهم يكيدون كيداً \* وأكيد كيداً \* فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف

(٢) الآيات ١٠٠ ، ١٠١ من سورة هود

(٣) الآية ٥٠ من سورة النمل

(٤) الآيات ١٥ — ١٧ من سورة الطارق

وقوله تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ . أى بل يظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ، ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التجاسى . ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أى بل نسمعهما ونطلع عليهما ، والحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم ، من قول وفعل ، قال تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴿ (١) ﴾ . وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفي ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث : إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، فنزلت الآية . قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنأ أول العابدين ﴾ . سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنأ أول العابدين ﴾ قال ابن عباس ، والحسن والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، ف « إن » بمعنى ما ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدىء « فأنأ أول العابدين » أى الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنأ أول من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . فهنا ( إن ) شرطية : أى إن قلتم ذلك ، فأنأ أول من وحده ، قال القرطبى : وهو الأجود ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، قوله تعالى : ﴿ سبحانه رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أى تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، ورب العرش المحيط بذلك كله — عما يصفه به المشركون كذبا ، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له ويكون شىء منها جزءا منه . تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا ، ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . مناع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿ (٢) ﴾ . ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء . والله على كل شىء قدير ﴾ (٣) . ﴿ وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴿ (٤) ﴾ ، ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴾ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾

(١) الآيات ٧ ، ٨ من سورة طه

(٢) الآيات ٦٨ — ٧٠ من سورة يونس

(٣) الآية : ١٧ من سورة المائدة

(٤) الآيات ١١٦ ، ١١٧ من سورة البقرة

سيقولون لله قل فأني تسحرون \* بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون . ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون \* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴿١﴾ .

ويصور القرآن — في أقوى صور التعبير — موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله ، فتكاذب — لشدة غضبها — أن تنفجر غيظاً ، وتنشق ثورة ، وتختر الراسيات لهول هذا الافتراء ، وضخامة هذا الكذب ، وأصغ إلى تصوير هذا الغضب في قوله تعالى : ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ﴾ لقد جثم شيئاً إذا \* تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتختر الجبال هذا \* أن دعواً للرحمن ولدا \* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا \* إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً \* لقد أحصاهم وعدهم عداً \* وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ أى فذرهم يخوضوا في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة أى فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم ، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعى كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو العزيز الحكيم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ، ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يقلحون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو العزيز الحكيم ﴾ . أى هو إله فى السماء وإله فى الأرض يعبداه أهلها ، وكلهك خاضعون له ، طوع وإرادته ، أذلاء بين يديه ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ، وتسخيرهم لما يشاء ، أعلمهم بكل شئ ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ ﴿٤﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد . وتبارك أى استقر . تام السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلى العظيم المالك للأشياء ، الذى بيده أزمة الأمور ، نقضا وإبراما ، قال

(١) الآيات ٨٤ — ٩٢ من سورة المؤمنون

(٢) الآيات ٨٨ — ٩٥ مريم

(٣) الآيات ٤٢ — ٤٤ المعارج

(٤) الآية ٣ من سورة الأنعام

تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرضى ، ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديراً ﴾ <sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أى وقت قيامها . قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة آياتاً مهجوراً فم أنت من ذكرها إلى ربك متبها ﴾ <sup>(٢)</sup> فلا يجلبها لوقتها إلا هو . وقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أى لا يقدر على الشفاعة لهم ، ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع أى لكن من شهد بالحق على بصيرة . وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له .

قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ أى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أى لأقرؤا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئاً . ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها ، حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له .

قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال قتادة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى ربه عز وجل .

كما أخبر تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ <sup>(٥)</sup> فالتقدير : قيل يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ أى فاصفح عنهم ولا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً ، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(٤) من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء

(٥) الآية ٣٠ من سورة الفرقان

(٦) الآية ١١٥ من سورة الأنعام

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفرقان

(٢) الآيات ٤٢ — ٤٤ من سورة الزمرات

(٣) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة

## تفسير سورة الدخان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً

عدد آياتها : تسع وخمسون

عدد كلماتها : ثلاثمائة وست وأربعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون

وفواصل آياتها كلها ( من ) :

وسميت سورة الدخان لقوله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ .

معظم مقصود السورة :

نزول القرآن في ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكري البعث ، وذل الكفار في العقوبة ، وعز المؤمنين في الجنة ، والمنة على الرسول بتفسير القرآن على لسانه في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا يَسْرُناه بلسانك ﴾ <sup>(١)</sup> .

المشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى ﴾ <sup>(٢)</sup> مرفوع . وفي الصفات منصوب ذكر في المتشابه ، وليس منه ، لأن ما في هذه السورة مبتدأ وخبر ، وما في الصفات استثناء .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> أى على علم منا ، ولم يقل في الجائية : فضلناهم على علم ، لأنه ذكر فيه ﴿ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ <sup>(٤)</sup> قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ <sup>(٥)</sup> بالجمع بالموافقة أول السورة ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ <sup>(٦)</sup> . ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

( ١ ) إنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد ، واقتتح هذه بالإندار الشديد ( فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ) يغشى الناس هذا عذاب أليم <sup>(٧)</sup> .

( ٢ ) إنه تعالى : حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ : ﴿ يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ يارب هنا عن أخيه موسى ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ <sup>(٨)</sup> .

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الدخان  
(٦) من الآية ٧ من سورة الدخان  
(٧) الآيات : ١٠ ، ١١ من سورة الدخان  
(٨) الآية ٢٢ من سورة الدخان

(١) من الآية ٥٨ من سورة الدخان  
(٢) من الآية ٣٥ من سورة الدخان  
(٣) من الآية ٢٢ من سورة الدخان  
(٤) من الآية ٢٢ من سورة الجاثية

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ❶ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ❷ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ❸ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ❹ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ❺ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ❻ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ❼ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ❽ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ❾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ❿ فَأَرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ⓫ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ⓬ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ⓭ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ⓮ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ⓯ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا ❷ إِنَّكُمْ عَاثِدُونَ ❸ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ❹

### معاني المفردات

( ليلة مباركة ) هى ليلة القدر ، ( منذرین ) أى مخوفين ، ( يفرق ) أى يفصل ويبين ، ( حكيم ) أى محكم لا يستطيع أن يطعن فيه بحال ، ( موقنين ) أى ، تطلبون اليقين وتريدونه ، ( فارتقب ) أى انتظر ( يغشى الناس ) أى يحيط بهم ، ( اكشف عنا ) أى ارفع . ( أتى ) أى كيف يكون ومن أين ، ( معلم ) أى يعلمه بشر ، ( والبطش ) الأخذ بالقوة والعنف .

### المناسبة وإجمال المعنى

بدأ سبحانه وتعالى : بالإخبار عن كتابه الكريم المبين لما فيه صلاح البشر ، أنه أنزل القرآن في ليلة القدر ، لإنذار العباد ، تخويفهم من عقابه . وإن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم ، فيبين فيها التشريع النافع للعباد في دنياهم وآخرتهم ، وهو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى بيده إحيائهم ، وإما تهم وهو ربهم ورب الأولين ، ولكنهم يمترون بعد أن وضع الحق ، وأفصح الصبح لذى عينين وبعد أن

ذكر حال كفار قريش ، إذ قابلوا الرحمة بالكفران ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه — أردف هذا أن أمر نبيه بالانتظار حتى يحل بهم بأسه ، لأنهم أهل الخذلان والعذاب ، لا أهل الإكرام والغفران ، وفي هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ حَمَّ ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التي يقصد بذكرها تحدى هؤلاء الجاحدين المنكرين لرسالة سيد الأولين والآخرين ، فقد أيد الله تعالى : بإنزال الكتاب العزيز عليه . وهو كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فإن كنتم تكذبون هذا النبي ، الذي أنزل الله عليه ذلك الكتاب فأتوا بحديث مثله إن كنتم صادقين ، أو فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين وإلا ﴿ فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والكتاب المبين ﴾ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴿ .

هذا قسم منه عز وجل : بالكتاب على إنزال الكتاب ، وكل قسم يشتمل على أداة ومقسم به ، ومقسم عليه ، ومقسم ، المقسم هنا هو الله عز وجل ، والله جل جلاله أن يقسم بما شاء وبمن شاء من مخلوقاته ، فهو المالك المتصرف المحيى المميت ، المعز ، المذل ، الخافض ، الرافع ، الضار ، النافع ، المبدئ ، المعيد ، ذو العرش المجيد ، أما غير الله فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك . وأداة القسم هنا هي ( الواو ) وحروف القسم ثلاثة الواو ، والباء ، والتاء ، وقد اختصت التاء بدخولها على لفظ الجلالة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وثالله لا أكيدن أصنامكم ﴾<sup>(٢)</sup> . والمقسم به ، وهو الكتاب المبين ، والمقسم عليه وهو جواب القسم قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ .

فقد أنزل الله تعالى : أعظم كتبه وهو القرآن العظيم ، ﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ بأعظم لغة هي العربية الفصحى . ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ﴾ على يدى أعظم ملك هو الأمين جبريل ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴿ مطاع ثم أمين ﴾<sup>(٣)</sup> في أعظم بلد هي مكة المكرمة ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شيء ﴾<sup>(٤)</sup> وهذا هو البلد

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ البقرة

(٢) من الآية ٥٧ من سورة الأنبياء

(٣) الآيات ١٩ — ٢١ من سورة التكوين

(٤) الآية ٩١ من سورة النمل

الأمين، في أعظم غار هو غار حراء ، في أعظم ليلة ، هي ليلة القدر ﴿﴾ إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴿﴾ في أعظم شهر هو ﴿﴾ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴿﴾<sup>(١)</sup> على أعظم فتى . هو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ﴿﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿﴾<sup>(٢)</sup> لأعظم أمة ﴿﴾ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴿﴾<sup>(٣)</sup> بأعظم هدف ﴿﴾ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴿﴾<sup>(٤)</sup> ، ﴿﴾ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴿﴾<sup>(٥)</sup> .

ووصف هذه الليلة الكريمة بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .  
قوله تعالى : ﴿﴾ إنا كنا منذرين ﴿﴾ أى معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله تعالى : ﴿﴾ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿﴾ أى في ليلة القدر ، يفصل من اللوح المحفوظ ، إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها ، وهكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك وغير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿﴾ حكيم ﴿﴾ أى محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿﴾ أمراً من عندنا ﴿﴾ أى جميع ما يكون ويقدره الله تعالى : وما يوجهه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿﴾ إنا كنا مرسلين ﴿﴾ أى إلى الناس رسولاً ، يتلو عليهم آيات الله بينات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ولهذا قال تعالى : ﴿﴾ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴿﴾ أى إنا أرسلنا الرسول به رحمة منا لعبادنا ، حتى يستبين لهم ما يضرهم ، وما ينفعهم وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به ، كقوله تعالى : ﴿﴾ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴿﴾<sup>(٦)</sup> وكقوله تعالى : ﴿﴾ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿﴾<sup>(٧)</sup> . وكقوله تعالى : ﴿﴾ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

(٣) الآية ١١٠ من سورة آل عمران

(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء

(٥) الآية ١ من سورة إبراهيم

(٦) الآية ٩ من سورة الحديد

(٧) الآية ٥١ من سورة العنكبوت

(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء



وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ أى السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم ، وقوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُومَ مَوْتِينَ ﴾ أى الذى أنزل القرآن . هو رب السموات والأرض ، وخالقهما ومالكهما ومن فيهما ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيت ﴾ لا معبود بحق إلا هو ، ولا تصلح العبادة إلا له ، وهو المحيى المميت ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون ، ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى هو مالكم والمتصرف فيكم ، ومالك آبائكم الأولين ومدير شئونهم ، فاعبدوه دون آلهتكم ، التى لا تقدر على ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت .. الآية (١) .

## ليلة القدر الليلة المباركة

فضلها : قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ ﴾  
وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وما أدراك ما ليلة القدر \* ليلة القدر خير من ألف شهر \* تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر \* سلام هى حتى مطلع الفجر ﴿ (٢)  
بين سبحانه أنها ليلة مباركة ، وعظم شأنها بقوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ يعنى به القرآن . وسميت بذلك إما لأن قدرها عند الله عظيم أو لأن القدر فيها يمضى أى يقدر الله فيها ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله .  
وبين سبحانه أن العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر والدعاء خير من العمل فى ألف شهر ، ليس فيها ليلة القدر ، فقال تعالى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .  
وهى سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر ، تسلم فيها الملائكة على المؤمنين ، الذين صاموا وصلوا وقاموا لله فى هذه الليلة .  
قال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ \* سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف  
(٢) سورة القدر الآيات ١ إلى ٥ أى السورة كلها

- (١) وقال الحبيب المصطفى ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »<sup>(١)</sup>  
 (أخرجه البخارى — باب فضل ليلة القدر) استحباب طلبها .  
 ويستحب طلبها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبي ﷺ يجتهد في طلبها  
 في العشر الأواخر من رمضان .  
 (٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان  
 ويقول : « تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان » (متفق عليه) <sup>(٢)</sup>  
 (٣) وعن عائشة أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « تحروا ليلة القدر في الوتر من عشر الأواخر من  
 شهر رمضان » <sup>(٣)</sup>

### قيامها والدعاء فيها :

- (٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له  
 ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه) <sup>(٤)</sup>  
 (٥) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : أ رأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ،  
 ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » (رواه أحمد والترمذى  
 وصححه) <sup>(٥)</sup>

يا ليلة القدر للعابدين اشهدى، يا أقدام القانتين اركعى لربك واسجدى، يا ألسنة السائلين جدى فى  
 المسألة واجتهدى .

يا نائم الليل كم ترقد	قم يا حبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته	ورداً إذا ما هجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليله	لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوى الألباب أهل التقى	قنطرة العرض لكم موعد

(١) الحديث أخرجه البخارى فى باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠  
 (٢) الحديث فى البخارى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب القيام باب  
 فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .  
 (٣) الحديث فى البخارى كتاب الصوم باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب  
 الصيام — باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .  
 (٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٥٩ الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الصيام  
 باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .  
 (٥) الحديث أخرجه الترمذى فى صحيحه فى كتاب الدعوات حديث ٣٥٨٠ ج ٥ ، ص ١٩٥ والإمام أحمد فى مسنده ص ٦ / ١٧١ .

يقول تعالى : ﴿ بَلْ مُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ ﴾ بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أى قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون كما قال تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ، وهم في غفلة معرضون ﴾ أما يأتيتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون \* لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أنفأ تون السحر وأنتم لا تبصرون ﴿<sup>(١)</sup>

ثم قال عز وجل : متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد هؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين وفي الدخان قولان : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجرى بعد ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً مائلاً ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصبيه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقب مشامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة ، ومن قال إن الدخان لم يأت بعد : على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن علي والحسن وغيرهم . وفي صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : « ما تذكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة ؟ قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات — فذكر — الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »<sup>(٢)</sup> .

وفي رواية أخرى قلت : يا نبي الله ، وما الدخان ؟ قال هذه الآية : ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ﴾ مائلاً ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصبيه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينه وأذنيه ودبره ، فهذا قول ، والقول الثاني — أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبي ﷺ ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا ، قاله ابن مسعود . قال : وقد كشفه الله عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم<sup>(٣)</sup> . والحديث عنه بهذا في صحيح البخارى ومسلم والترمذى قال البخارى — بسنده — قال عبد الله — إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف ، فأصابهم قحط وجهد

(١) الآيات ١ — ٣ من سورة الأنبياء

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في الآيات التي تكون قبل الساعة حديث ٣٩ / ٢٩٠١ ص ٢٢٥ ج ٤ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخارى في صحيحه في كتاب الجنائز باب « إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلى عليه » ١ / ١١٧ ، وكتاب الجهاد باب « كيف يعرض الإسلام على الصبي » ٤ / ٨٥ — ٨٦ ، وكتاب الأدب باب قول الرجل : أخساً : ٨ / ٤٩ — ٥٠ ، وكتاب القدر باب ما يحول بين المرء وقلبه ٨ / ١٥٧ .

وأخرجه الامام مسلم في صحيحه في كتاب الفتن باب « ذكر ابن صياد » ٨ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

وفي تفسير الطبرى ٢٥ / ٦٨

وأخرجه الترمذى في أبواب القدر باب ما جاء في الخسف حديث ٢٢٧٤ ، ج ٣ ، ص ٣٢٣

حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيفة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴿ ولقد رجع ابن كثير القول الأول .

فقال بعد أن أورد الروايات المسندة لابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين : مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان ، وغيرها التى أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ أى بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ يغشى الناس ﴾ أى يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ يغشى الناس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريراً وتوبيخاً .  
وقوله سبحانه : ﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان .

قوله تعالى : ﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ﴾ أى من أين يكون لهم التذكر والاعتاظ عند حلول العذاب وقد جاءهم رسول بين لهم الحق وقوله تعالى : ﴿ ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتعظون والله أبعدهم من الاعتاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه . وقيل أى أنى ينفعهم قولهم « إنا مؤمنون » بعد ظهور اعلام الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ (١) ، وقالوا معلم مجنون ) ، أى علمه بشر أو علمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

وقوله تعالى : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ وعد سبحانه أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً ، أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفُونَ بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ، قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي ﷺ لهم عادوا إلى تكذيبه ، ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . وقيل معنى ( إنكم عائدون ) إلينا ، أى مبعوثون بعد الموت .  
وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ ، والبطشة الكبرى في قول ابن مسعود : يوم بدر ، وقيل عذاب جهنم يوم القيامة قاله الحسن وعكرمة وابن عباس واختاره الزجاج . قال القرطبي : ويحتمل أنها قيام الساعة ، لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا ، قال ابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هي يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة في أصح الروايتين عنه والله أعلم . والمعنى : إننا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا ونتقم منهم أشد الانتقام ولا يجدون شفيعاً ولا ولياً ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنا .

## طرف من قصة موسى

قال تعالى :

\* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَنِ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فِدَاعِي بِهِ وَأَنْ هَتُّوْا قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَمْرٌ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَتَيْنَاهُم مِّنَ الْأَيْتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

## معانى المفردات

( فتنا ) أى بلونا وامتنحنا ، ( كريم ) أى جامع لخصال الخير والأفعال المحمودة قاله الراغب ، ( أذوا إلى عباد الله ) أى أطلقوا وسلموا ، ( أمين ) أى ائتمنه الله على وحيه ورسالته ، ( وأن لا تعلوا على الله ) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ، ( بسلطان مبين ) أى بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ،

( عذت برى وربكم ) أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، ( أن ترجمون ) أى تؤذونى ، ( فاعتزلون ) أى كونوا بمعزل منى لا على ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء ، ( مجرمون ) أى كافرون ، ( أسر بعبادى ) أى سر بهم ليلاً ، ( متبعون ) أى يتبعكم فرعون وقومه ، ( رهواً ) أى ساكناً ، ( مقام كريم ) أى مجالس ومنازل حسنة ، ( نعمة ) أى حسن ونضرة . قال الزمخشري : النعمة ( بالفتح ) من التنعيم ( وبالكسر ) من الإنعام ، ( فاكهين ) أى طيبى الأنفس ناعمين ، ( فما بكت عليهم السماء والأرض ) أى لم تكثرث لهلاكهم ولا اعتدت بوجودهم ، ( منظرين ) أى مهملين ومؤخرين ، ( العذاب المهين ) أى الشديد الإهانة والإذلال ، ( غالياً ) أى جباراً متكبراً ، ( من المسرفين ) أى فى الشر والفساد ، ( اخترناهم ) أى اصطفيناهم ، ( على علم ) أى عالين باستحقاقهم ذلك ( على العالمين ) أى عالمى زمانهم ( الآيات ) أى المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ، ( بلاء مبین ) أى اختبار ظاهر .

### « المناسبة واجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه أن مشركى مكة أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسولهم ، أردف هذا بيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فكثير قبلهم كذبوا الرسل ، فها هم أولاء قوم فرعون قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك ، بعد أن أتاهم بالبينات التى كانت تدعو إلى تصديقه ، فكذبوه فنصره الله عليهم وأغرق فرعون وقومه وجعلهم مثلاً للآخرين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إلى لكم رسول آمين ﴾ .

أى : ولقد اخترنا قبل مشركى قومك ، قوم فرعون وهم مثال قومك فى جبروتهم وطغيانهم ، وعتوهم واستكبارهم ، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام فقال لهم : أيها القوم ارسلوا معى بنى إسرائيل وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إني رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه . كقوله تعالى : ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم بينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وأن لا تعلموا على الله إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أى : وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم فتكفروا به وتعصوه فتخالفوا أمره — لأنى آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه ، لمن تأملها وتدبر فيها ، وقوله تعالى : ﴿ وإني عذت برى وربكم أن ترجمون ﴾ أى وإني ألتجئ إلى الله الذى خلقني

وخلقكم ، أن لا تصلوا إلّى بسوء من قول أو فعل ، كقوله تعالى : ﴿ وقال موسى إني عدت برى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لم تؤمنوا لى فاعترزلون ﴾ أى وإن لم تصدقونى ولم تؤمنوا بالله لأجل برهانى ، ( فاعترزلون ) أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا ، وقيل : فخلوا سبيلى وكفوا عن أذى ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ ، ( فدعا ربه ) فيه حذف تقديره فكفروا فدعا ربه ، ( أن هؤلاء قوم مجرمون ) أى مشركون قد امتنعوا من إطلاق بنى اسرائيل ، ومن الإيمان بالله الواحد القهار ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وحينئذ أمره الله أن يخرج بنى إسرائيل من بين أظهرهم بلا أمر فرعون ولا مشورته ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : — ﴿ فأسر بعبادى ليلاً ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى ، أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل ( ليلاً ) قبل الصباح .

وقوله تعالى : ﴿ إنكم متبعون ﴾ أى أن فرعون وقومه سيتبعونكم إذا علموا بخروجكم ، ومسيركم ليلاً يؤخر علمهم بذلك ، فلا يدركونكم .

وقوله تعالى : ﴿ واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون ﴾ أى وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكنا على حاله ، التى كان عليها حين دخلته حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه .

روى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه حتى يلتئم خوفاً من فرعون وجنوده أن يتبعوه ، فأمر أن يتركه كما هو حتى يدخلوه ، وإنما أخبر سبحانه موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فيترك البحر كما هو .

وقوله تعالى : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ .

أى كم ترك فرعون وقومه بعد مهلكهم من بساتين فيحاء ، وحدائق غناء ، وزروع ناضرة ، وقصور شاهقة ، ( كذلك ) أى هكذا فعلنا هؤلاء الذين كذبوا رسلنا وهكذا نفعل بكل من عصانا وخالف أمرنا ، كما قال سبحانه : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب ﴾ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

(١) الآية ٢٧ من سورة غافر

(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس

وأن الله سميع عليم ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿١﴾

وقوله تعالى : ﴿ وأورثناها قوماً آخرين ﴾ أى وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عظيم ، ونعيم عظيم ، قوماً غير أهلها ، فسلموا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية ، وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو اسرائيل كما قال تبارك اسمه : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ (١) .  
وقوله تعالى : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ (٢) .

قال ابن كثير : أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فيبكى على فقدهم ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقدها وبكى عليه » (٣)

وتلا هذه الآية ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض ﴾ — وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملاً صالحاً يبكى عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم .

قال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً قال فقلت له أتبكى الأرض ؟ فقال أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسيحه فيها دوى كدوى النحل ؟ وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ (٤) كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكى عليهم السماء والأرض .  
وقوله تعالى : ﴿ ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عادياً من المسرفين ﴾ .

أى ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك من وسائل الخسف والضميم إذ كان جباراً متكبراً مسرفاً فى الشر والفساد ،

(١) الآيات : ٥٢ — ٥٤ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف

(٣) الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلى عن أنس فى ...

(٤) الآية ٢٩ من سورة الدخان



ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال أنا ربكم الأعلى ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ أى ولقد اصطفيناهم على عالمي زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا فيهم من الرسل ، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكربة وفضل لصبرهم وجهادهم مع النبي موسى ( عليه السلام ) . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ أى وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ ﴾ أى اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

## منكرو البعث وجزاؤهم

قال تعالى :

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٤١﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ ﴿٤٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْنِ ﴿٤٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَنِ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٢﴾ إِنْ شَجَرَتُ الزُّقُومِ ﴿٥٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٥٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٥٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٥٦﴾ خَذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِنَّ سَوَاءَ الْجَحِيمِ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ صُبُوءًا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٥٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٦٠﴾

## معاني المفردات

( بمنشرين ) أى بمبعوثين ، يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم ، ( وتبع ) واحد التبابعة ، وهم ملوك اليمن .

( لاعبين ) أى عابثين ، ( بالحق ) أى بسبب الحق وهو الإيمان بالله والطاعة له ، ( يوم الفصل ) هو

(١) الآيتان : ٤ ، ٥ القصص

(٢) الآية : ٢٠ من سورة المائدة

يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يفصل فيه الحق والباطل ( ميقاتهم ) أى وقت موعدهم ، ( يغنى ) أى ينفع ، ( مولى ) أى حليف . ( شجرة الزقوم ) هى شجرة ذات ثمر مرّ تنبت بتهامة ، شبهت بها الشجرة التى تنبت فى الجحيم ، ( الأثيم ) أى الكثير الآثام والذنوب وهو الكافر ، ( المهل ) دردىّ الزيت أو المعدن المذاب ، ( والحميم ) الماء الذى تناهى حره ، ( والعئل ) أن تأخذ بمنكبى الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ، قال ابن السكيت : عئلته إلى السجن وأعئلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً ، ( سواء الجحيم ) وسطها .

### المناسبة واجمال المعنى

عود على بدء — كان الكلام أولاً فى كفار قريش ، إذ قال فيهم : بل هم فى شك يلعبون ، أى أنهم فى شك من البعث والقيامة ، ثم بين كيف أصرّوا على كفرهم ، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا فى إصرارهم على الكفر كهؤلاء ، وقد أهلكهم الله وأنجى بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو إنكارهم للبعث ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين ، فقد أهلك من هم أقوى منهم بطشاً وأكثر جنداً ، هذا لانه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ثم ذكر سبحانه يوم البعث ، يوم القيامة ، يوم الجزاء على الأعمال ف ﴿ الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ (١) .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أ هم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ .  
( إن هؤلاء ليقولون ) يعنى كفار قريش ( إن هى إلا موتتنا الأولى ) أى : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، ( وما نحن بمنشرين ) أى بمبعوثين . قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقاً فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا ، أحدهما — قصى بن كلاب فإنه كان رجلاً صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت ، وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات ، لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف ، فكأنه قال : إن كنت صادقاً فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف .. حكاه الماوردى .

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور ، وهم النبى وأصحابه وقالوا لهم : ( فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ) أى إن كان البعث حقاً كما تقولون فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا إن كنتم صادقين فيما تدّعون .

وهذه حجة داحضة ، فإن المعاد يوم القيامة بعد انقضاء الدار الدنيا حين يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لردّ ما قالوا بل قال لهم مهتداً متوعداً منذراً بأسه الذي لا يرد : ﴿أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾ أى إن نظراءهم المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع أهلكهم الله وخرّب ديارهم وشردهم في البلاد شذّر مذرّ ، وقد كانوا أقوى منهم جنداً وأكثر عدداً ، وكانت لهم دولة وصوله ، وهؤلاء ليسوا فى شيء من ذلك — وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد وثمود إذ كانوا فى خسران بين بكفرهم وإنكارهم للبعث والنشور ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم﴾ .

( وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ) أى وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدتهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا ، واتباع أمرنا ونهينا وبغير مجازاة للمطيع على طاعته ، والعاصى على معصيته ، بل خلقناهم لنبتلى من أردنا امتحانه منهم بما شئنا ولنجزى الذين أساءوا بما عملوا ونجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

( ما خلقناهما إلا بالحق ) أى إلا بالأمر الحق وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته .

( ولكن أكثرهم لا يعلمون ) أى ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك ، منهم لا يخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجتروحوا من السيئات ، ولا يرجون ثراباً على خير ما فعلوه لتكذيبهم بالميعاد والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لها لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون﴾<sup>(٢)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾<sup>(٣)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿أم حسب الذين اجتروحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون﴾<sup>(٤)</sup> . وكقوله جل فى علاه : ﴿افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ،

(٣) : الآيات ٢٧ — ٢٩ من سورة ( ص )

(٤) : الآيات ٢١ ، ٢٢ من سورة الجاثية

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب

(٢) : الآيات ١٦ — ١٨ من الأنبياء

فعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم \* ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴿١﴾ .

فذلك ظن الذين كفروا ، أما الذين آمنوا فقد وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه ففنا عذاب النار \* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار \* ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمننا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار \* ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد \* فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنان تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴿٢﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ﴾ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴿٣﴾ .

أى إن هذا اليوم الذى يفصل الله فيه بين خلقه فيحق الحق ، ويبطل الباطل ، لآت لا محالة وهو وقت حسابهم ، وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير أو شر ، ﴿ يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ﴾ ، أى إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بآبى آدم فلا تنفع الناس إلا أعمالهم ، فمن أصاب خيراً في دنياه سعد به ، ومن أصاب شراً شقى به ، ولا يغنى القريب عن القريب ولا يدفع عنه شيئاً من عذاب الله ، ولا يجد الناصر الذى يقيه ذلك العذاب . كقوله تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ ﴿٤﴾ ، وكقوله عز وجل : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ ﴿٥﴾ وكقوله جل جلالته ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ ينصرونهم ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ .

أى ولكن من رحمه الله فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه ولا إلى ناصر ينصره قاله الكسائى ، وقال القرطبى : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم في شفاعة بعضهم لبعض ( إنه هو العزيز الرحيم ) العزيز المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه فقرن سبحانه الوعد بالوعيد .

(١) الآيات ١١٥ - ١١٧ من سورة المؤمنون

(٢) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٥ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٢ من سورة الممتحنة

(٤) الآية ١٠١ المؤمنون

(٥) الآيات ١٠ ، ١١ من المارج

قوله تعالى : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ .

( إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ) أى إن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التى فى الجحيم طعام الكافر كثير الذنوب والآثام .

وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، غلت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار لذا قال سبحانه : ﴿ كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ﴾ . وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ويكون كالماء الحار إذا اشتد غليانه .

قوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ﴾ أى ويقال للزبانية « ملائكة جهنم » خذوا هذا المجرم فادفعوه دفعا إلى وسط جهنم ، لينال قسطه من عذابها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ أى وبعد أن تدخلوه فيها صبوا فوق رأسه من الماء الساخن الذى ذكرنا صفته . كقوله تعالى : ﴿ يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (١) ؟

قوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ قال قتادة : نزلت فى أبى جهل وكان قد قال : ما فيها — مكة — أعز منى ولا أكرم ، فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم ، ومعنى الآية أى ذق هذا الذل والهوان اليوم ، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ، وها هو ذا قد تبين لك أنك أنت الدليل المهين .

( إن هذا ما كنتم به تمترون ) أى إن هذا العذاب الذى تعذبون به هو العذاب الذى كنتم تشكون فيه فى الدنيا ، فتختصمون فيه ، ولا توقنون به ، فقد لقيتموه فذوقوه كقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

(١) الآيات ١٩ — ٢٢ من سورة الحج

(٢) الآيات ١٣ — ١٦ من سورة الطور

## جزاء المتقين

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٨﴾  
كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٩﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٦٠﴾ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ  
إِلَّا الْمَوْتَ الْأَوَّلَ وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦١﴾ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾  
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٦٣﴾ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٦٤﴾

## معاني المفردات

( في مقام أمين ) أى فى مجلس آمنوا فيه من كل هم وحزن ، ( سندس ) أى ديباج رقيق ( إستبرق )  
أى حرير فيه بريق ولمعان ، ( زوجناهم ) أى قرناهم ( بحور عين ) أى بجوار بيض حسان واسعات العيون  
( يدعون ) أى يطلبون ( وقاهم ) أى حفظهم ( ارتقب ) أى انتظر .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين ، وما يروونه من الأهوال فى ذلك اليوم — أعقب هذا بوعد المتقين  
بما يلاقونه فى جنات النعيم من ضروب التكريم فى الملبس والزوجات والمآكل ثم ، ببيان أن هذا النعيم أبدى  
خالدا لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال ، ثم ختم السورة بالنمّة على العرب فى نزول القرآن بلغتهم لعلهم  
يعتبرون ويتعظون به ، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمّة بهم ، والنصر له عليهم .

## التفسير

قول تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ،  
كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمين ﴾ .

قال ابن القيم : « المقام » موضع الإقامة « والأمين » الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذى قد  
جمع صفات الأمن كلها . فهو آمن من الزوال والخراب ، وأنواع النقص ، وأهله آمنون فيه من الخروج  
والنقص والنكد ، والبلد الأمين الذى قد آمن أهله ، فيه مما يخاف منه سواهم ، وقال ابن كثير : قد آمنوا  
فيها من الموت والخروج ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيدته ، وسائر الآفات  
والمصائب ، ( فى جنات وعيون ) وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم وشرب الحميم ، فالمتقون

في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر . ( يلبسون من سندس ) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها ( واستبرق ) وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالى القماش ، ( متقابلين ) أى على السرر لا يجلس أحد منهم وظهروه إلى غيره فهم متواجهون يدور بهم مجلسهم حيث داروا .

وقوله تعالى : ﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾ أى هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتي ﴿ لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ <sup>(٣)</sup> « والحور » جمع حوراء . وهى المرأة الشابة الحسنة ، الجميلة ، البيضاء شديدة سواد العين ، والعين هن اللاتي جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة .

ذكر ابن المبارك : عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حلة ، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء ، وقال القرطبي : وعن أبى قرصافة سمعت النبى ﷺ يقول : « إخراج القمامة من المسجد مهوور الحور العين » <sup>(٤)</sup> وعن أنس أن النبى ﷺ قال « كنس المساجد مهوور الحور العين » ذكره الثعلبى رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ قال قتادة : آمنين من الموت والوصب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه . قال الامام ابن القيم : « وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وفي قوله تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ، ولا سوء عاقبتها ومضرتها ، وأمن الخروج منها ، فلا يخافون ذلك ، وأمن الموت ، فلا يخافون فيها موتاً » .

(١) الآية ٥٦ من سورة الرحمن

(٢) الآية : ٤٩ من سورة الصافات

(٣) الآية ٥٨ من سورة الرحمن

(٤) الحديث في الدر المنثور في تفسير قوله تعالى « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » ج ٤ ، ص ١٤٤ عن أبى قرصافة .

(٥) الآية ٥١ من سورة الدخان

## الأمن في ظل الإسلام

مقدمة ..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ . أما بعد :

فإن الأمن هو النعمة العظمى بعد الإيمان بالله لذا فإن الله تعالى سمى نفسه المؤمن أى الذى يؤمن عباده ، ويكفى الأمن شرفاً وقدرًا أنه من أسماء الله تعالى الحسنى ، ولقد قدمه الله تعالى على نعمة الرزق فقال سبحانه : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾ <sup>(١)</sup> وجعل الله الأمن كلمة جامعة وافية كافية شافية جزاء للمؤمنين فبعد ما سأل القرآن هذا السؤال ﴿ فأى الفريقين أحق بالأمن ﴾ <sup>(٢)</sup> أجاب فى صراحة ووضوح وشموخ ورسوخ وبزوخ قائلا : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ <sup>(٣)</sup> وقد وصف الله تعالى دار الخلد بأنها مقام أمين فقال عز من قائل ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون ﴾ . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين \* يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ولقد امتن الله تعالى على قريش بالأمن من الخوف فقال : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وقال : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وقال : ﴿ أو لم تكن لهم حرماً آمناً ﴾ <sup>(٧)</sup> .

والحقيقة أنه لا حياة مع الخوف إذ تتحول الدنيا بلا أمن إلى أرض مسبعة يفترس القوى فيها الضعيف وتصبح الحياة ظلمات بعضها فوق بعض كأنها بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، والحياة مع الأمن تصير جنات ظلالتها وارفة يتبوأ الإنسان فيها حياة طيبة مباركة ويعيش عيشة راضية يثمر وينتج يصون ولا يبدد ، ويحمى ولا يهدد ، يتقياً ظلال الحرية ، ويأخذ مكانه تحت الشمس ، لذلك فإن الإسلام هو دين الأمن والأمان ، والعزة والكرامة ، والإخاء والمساواة ، والحرية والرفعة ، فلنعمل جميعاً على تحقيق هذه النعمة العظيمة نعمة الأمن ومثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون وطوبى للمخلصين ، أولئك مصايح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

(١) من الآية ١١٢ من سورة النحل

(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنعام

(٣) من الآية ٨٢ من سورة الأنعام

(٤) الآيات ٥١ - ٥٥ من سورة الدخان

(٥) الآية رقم ٤ من سورة قريش

(٦) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٥٧ من سورة القصص



## أهمية الأمن :

حقاً إن الأمن كلمة خفيفة على اللسان عميقة الوجدان ، مطمئنة للجنان ، إنه فعلاً نعمة عظيمة ، وغاية يسعى إليها كل إنسان ، بل هي مطلب أساسي ، لا تستقيم الحياة بدونه ، وضعه الحق سبحانه وتعالى جنباً لجنب مع المطلب الأول الذي يسعى إليه كل كائن حي وهو الطعام ، بل إنه سبحانه جل شأنه قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق فقال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾<sup>(١)</sup> ولم يمن الحكيم الخبير على قريش بنعمة كما من عليها بآية أضعفها من جوع وآمنها من خوف فقال جل شأنه : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجئ إليه ثمرات كل شيء ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً ﴾<sup>(٤)</sup> .

بل إن العلي القدير جعل الأمن هو غاية المني ، والجزاء الأوفى ، لمن جاهدوا واستمسكوا بالعروة الوثقى ، واتبعوا طريق من سبقونا بالإيمان لم يبالوا بما فيه من صعوبات ومشقات ، فقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾<sup>(٥)</sup> .

لماذا ؟ لأنهم خافوا مقام ربهم فجعل الأمن عاقبة أمرهم لأنه قال وقوله الحق في حديثه القدسي : « لا أجمع لعبدي أمنين ، ولا خوفين أبداً ، إن هو أمننى في الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن هو خافنى في الدنيا أمنت يوم القيامة »<sup>(٦)</sup> .

فما هو الأمن الذى نال هذه المكانة العظيمة ، وجعله الله أسمى الغايات للمؤمنين يتجاوب معه كيانهم وتشوق إليه أرواحهم وتتطلع إليه أفئدتهم ؟ هل هو الطمأنينة ؟ هل هو السعادة ؟ أهو الاستقرار العائلي والوظيفي ؟ أهو ضمان الرزق والعيش في رغد من الحياة ؟ أهو أمن الدولة بالمحافظة على حدودها الخارجية وعدم القلقلة والاضطرابات داخلياً ؟ أم هو أمن النفس البشرية وحمايتها من تيارات العواصف التي تطيح بها وتجعلها تن تحت الضغوط الدنيوية وتسبب لها القلق والضياع .

أسئلة كثيرة تدور في أعماق كل إنسان تجعله يتحير في اختيار إجابة محدودة واضحة المعالم عن الأمن ، ليس هذا فقط بل إنها تصبغ حياة الناس بصبغة معينة تجعل كلا منهم يتحرك في كل اتجاه ويجرى وراء

(١) الآية : ١١٢ من سورة النحل

(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة قريش

(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص

(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة

(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام

(٦) الحديث في إحياء علوم الدين ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ج ٤ ، ص ١٦٢

كل ما يتصور أنه يحقق له الأمن . ومن مجموع هذا الإنسان تتكون المجتمعات فالشعوب فالدول ، وتتحدد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وبالتالى فلنا أن نتصور خطورة الموقف فى تحديد مفهوم الأمن لأنه بناء على هذا المفهوم ستدور عجلة الحياة ، إن خيراً أو شراً وسوف تتشكل العلاقات الداخلية والخارجية لكل دولة على حدة ثم تتشكل العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

ولذلك سنحاول بإذن الله أن نوضح ما وسعنا الجهد مفهوم الأمن ، ثم نوضح المنهج الإسلامى فى الأخذ بالنفس الإنسانية ، نحو أمن الدنيا ، وأمن الآخرة ، حتى إذا جاء أجلها سعت إلى ربها فرحة مستبشرة ، بقوله الحق : ﴿ يا أيها النفس المطمئنة \* ارجعى إلى ربك راضية مرضية \* فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ (١) .

## مفهوم الأمن عند الناس

نظراً لأن الأمن هو إحساس داخلى فى النفس البشرية يدعمه الواقع العملى ، فإنه من الصعب بمكان على الإنسان أن يحدد مفهومهما واضح المعالم للأمن ، لأن هذا المفهوم يختلف من إنسان لآخر حسب قدراته النفسية ، والعقلية ، وظروفه الاجتماعية والاقتصادية ، كما أن هذا المفهوم أيضاً يتغير من دولة لأخرى حسب وضعها الجغرافى ، وظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فاذا سألنا كل واحد منا هذا السؤال : كيف يتحقق لك الأمن ؟ نجد أن الإجابات قد تنوعت تنوعاً لا حد له : فالبعض يرى أن الأمن من وجهة نظره هو ألا يخاف على نفسه وولده من التعرض للسرقة أو الخطف أو القتل سواء فى منزله أو الطرق التى يسير فيها ، أو وسائل النقل العامة ، أو فى أى مكان حل فيه أو ارتحل عنه بمفرده ، أو مع أهله وأحبابه وأصدقائه .

والبعض الآخر : يرى أن الأمن هو ألا يتعرض لإهمال جسم يودى بحياته هباء إذا مرض ، أو أصيب فى حادث ، هو أو أى فرد من أفراد أسرته ، فيجد الدواء متوفراً فى متناول يده ، ويجد المستشفى الذى ينتقل إليه بسهولة ويسر ، ويجد القلب الرحيم والرعاية اللازمة التى تنقذ حياته ، أو حياة أحبائه فيشعر أنه إنسان ينتمى لوطن غال يقدر قطرات العرق والجهد الذى يبذله فى إدارة عجلة الحياة والإنتاج .

— وهناك بعض ثالث : يرى أن الأمن هو ألا يشعر أنه مهدد في رزقه ومستقبله ، وأن هناك من القوانين الاجتماعية ما يحميه ، في حالة الشيخوخة والمرض ، أو في حالة أن يطرده صاحب العمل في أى وقت يشاء . بدون أى ذنب يجنيه سوى أنه يقول الحق ولا شيء غير الحق .

— وهناك من يرى : أن الأمن جمع المال فيجرب وراء جمعه بشتى الطرق لا يهمه في ذلك من أى الطرق جمعه حلالا كانت أم حراما ؟ ولا يهمه في أى الطرق أنفقه ، أكانت في مرضاة الله أم في مرضاة نفسه وشهوته وأطماعه .

— وهناك النساء : وهن نسبة كبيرة في المجتمع لها وزنها وثقلها الذى لا ينكره أحد ، فهن المدرسة التى تخرج الأجيال التى تحمل على سواعدهن بناء المجتمع وفى رعايتهن الرعاية الطيبة ، إعداد شعب طيب الأعراق ، هؤلاء النساء يرون أن الأمن هو ألا تعيش الواحدة منهن مهددة في مستقبلها يعترضها الخوف من أن تجد نفسها فجأة مطلقة . ومحرومة من أعز ما لديها وهو فلذات أكبادها ، أو تجد نفسها شريفة وحيدة لا تجد القوت الذى يكفيها ، وبالتالي عليها أن تخوض غمار الحياة تصارع أمواجهها لتحافظ على كيائها كإنسانة وعلى عقيدتها ومبادئها التى تمنعها من الانحراف .

— وهناك من يرى أن الأمن في ألا تضيع حقوقه ، بين المحاكم إذا اقتضاه الأمر للتقاضى ويجد القاضى العادل المنصف الذى يحكم بالحق ، فلا تميل يديه إحدى كفتى الميزان ، فيشيع الظلم وهو المعول الأساسى فى انهيار المجتمعات .

— وهناك : من يرى الأمن في العدالة الاجتماعية حيث لا محسوبية ولا رشوة ، ولا نفاق ولا تفاوت رهيب في توزيع الدخول يؤدى إلى سيطرة طبقة على أخرى بحيث يصبح حينذاك فئة طاغية من كثرة المال الذى يزيد عن الحد وفئة مطحونة من شدة الفقر وهى تمثل الغالبية العظمى من الشعب وبالتالي تفقد الحافز على الإنتاج لأنها مهما تعبت فإن الهوة ستظل كبيرة ، حيث الفقر حركة تراكمية لأسفل والغنى حركة تراكمية لأعلى ، وهذا يؤدى إلى تدهور البنيان الاجتماعى في الدولة ، فيفقد الجميع الإحساس بأى نوع من أنواع الأمن .

— كثيرون كثيرون في المجتمع كل منهم تدور في أعماقه مفاهيم معينة عن الأمن ، ولو أن الغالبية العظمى منهم تصور أن هذا الأمن لا بد وأن يتحقق مع التقدم والرفاهية وتطبيق الديمقراطية الغربية ، فإذا كان الأمر كذلك كما يتصورون ، فلم تعاني معظم الشعوب الأوروبية وشعوب الولايات المتحدة الأمريكية ، الإحساس بفقدان الأمن ؟ رغم أن تقدمها يمثل حلما لكل الدول المتخلفة وتمثل ديمقراطيتها قمة مشاركة الشعوب في صنع قراراتها المصيرية بنفسها وأعلى درجة من الرقابة الشعبية على الحكام بما تتباهى به تلك الدول نفسها على شعوب الكرة الأرضية بأسرها !!

ومع ذلك نجد أن العذاب النفسى ، والشقاء الروحى ، والشذوذ الجنسى ، والانحلال الخلقي ، الذى تقاسى منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطى على الإنتاج والرخاء والمتاع ، ويكاد يصبغ الحياة كلها بالكفر والقلق والشقاء وفقدان الأمن بكل معانيه .

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية ، والبشرية تذوق منها الكثير ، إذا بعدت عن منهج الله ، لأن سنة الله فى الكون هى مصداق قوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (١).

إذن فالأمن الحقيقى هو فى منهج الله العظيم الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد الخلق وإمام المرسلين ليكون رحمة للعالمين ، وهذا ما خاطبه به أصدق القائلين حيث قال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (٢)

﴿ فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ (٣)

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (٤)

﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ (٥)

﴿ وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ (٦)

﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ (٧)

ذلك الرسول الذى اجتمعت حوله القلوب ، فأشاع فيها الأمن حتى وصف بأنه نبي الرحمة وقال فى مدحه أمير الشعراء :

فلإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء

ولنا أن نتخيل مجتمعاً ودستوره الرحمة وملجؤه الرحمن الرحيم

أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه ، حقاً إن الإسلام وضع مفهومهما للأمن تتطلع إليه القلوب ، وتشرب إليه الأرواح ، لأنه من عند حكيم خبير ، حدده فى آيات قرآنية تشع نوراً وبهاء فقال جل شأنه : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعراض عن ذكرى فإن له معيشة ، ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ (٨).

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام

(٢) الآية ١٠٧ الأنبياء

(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام

(٤) الآية ٨٩ من سورة النحل

(٥) الآية ١٥٧ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٥٧ من سورة يونس

(٧) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

(٨) الآيات ١٣٣ إلى ١٣٧ من سورة طه

## مفهوم الأمن الاسلامى

إن مفهوم الأمن الإسلامى عميق كل العمق ، شامل كل الشمول ، فيتناول الإنسان نفسا وروحا وجسدا ، يتناول واقعه العملى ، وهو الدنيا التى يعيش فيها ومعه الأزل ، وهى آخرته التى سيرجع إليها .

## المنهج الاسلامى لتحقيق الأمن

إن الاسلام حقق الأمن للإنسان فى صورة مضيئة مشرقة حيث أفاض على القلوب الطمأنينة وعلى العقول النضج والوعى . ونقل البشرية إلى تلك القمة الساحقة وفتح لها آفاقا واسعة ، سواء فى ذلك الآفاق المكانية ، أو الزمانية لتجول فيها وتعرف أن وعد الله حق وأن لا ملجأ من الله إلا إليه بالاعتصام به واتباع منهجه .

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ﴾<sup>(٣)</sup>

وهكذا فإن تلك الآفاق تحرر الإنسان من وطأة بشريته التى تسجنه داخل جدران جسده ، وعقله وأهوائه وشهواته ، وتسبب له القلق والضياح .

ثم لم يقتصر الإسلام على ذلك بل إنه وضع منهجا متكاملا لذلك الإنسان ، يحقق له الأمان المطلق الذى تنشده كل نفس بشرية ، يشمل هذا المنهج خمسة دعائم أساسية تشكل فى مجموعها دين الإنسان ودنياه ، واقعه وأخراه ، احتياجاته العاجلة واحتياجاته الأخروية ، تلك الدعائم هى : —

١ — الأمن للعقيدة : حيث تشدد فى توحيد العقيدة ، وبين أن الإسلام هو رسالة الرسل أجمعين . ووضع دعائم الإيمان بالغيب كأساس لتقوية العقيدة . وصحح عقائد أهل الكتاب وحرّم الردة .

٢ — الأمن للنفس : حيث عالج مخاوف النفس البشرية بشتى صورها سواء الخوف من الموت ، أو فوات الرزق ، أو المصاعب والمخاطر ، وحارب المذموم من الأخلاق كالغيرة والحسد والنفاق ، والغش ، والكذب ، والخديعة ، والغيبة والتميمة ، وعالج اليأس ، أخطر أعداء النفس البشرية .

٣ — الأمن للعقل : حيث أعد البشرية للرشد العقلى ، وحمايتها من استنفاد العقل فى تيه الفلسفات المذهبية وأهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة فى أدراك الحق وأسرار الخلق ، ولذلك كان هناك من القوانين الإلهية ، الكثير لحماية ذلك العقل أهمها تحريم المسكرات ، وكل ما يضر بالعقل بزجه فى متاهات الجاهلية العمياء .

(١) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٣٧ من سورة ق

(٣) الآية ١٠٥ يوسف

٤ — الأمن للعرض : حيث حدد منهجه في الحفاظ على العرض بتحريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ؛ ليعين الناس على التسامى ويظهر المجتمع مما يشوبه من أدران تسبب له القلق والضياح .

٥ — الأمن للمال : فالمال عصب الحياة وأى اختلال في تداوله يعرض المجتمعات الإنسانية إلى هزات اقتصادية عنيفة ، فحرم كل طريقة لتداول الأموال بالباطل ، مثل السرقة أو الغش أو الرشوة ، أو القمار أو احتكار الضروريات لإغلائها ، أو جميع أنواع البيوع المحرمة .

وستتناول بالتفصيل إن شاء الله تلك النقاط الخمس لنوضح كيف يحقق الإسلام الأمن للبشرية وكيف يعصمها من السقوط في مهاوى القلق ، وكيف يأخذ بيدها إلى الطمأنينة والرضا والسعادة ، التي هي مطمع كل إنسان وغاية مسعاه .

فالله يقول الحق وهو أصدق القائلين :

﴿ ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٣)</sup>

ولنا أن تتخيل مجتمعاً دستوره الرحمة ، وملجؤه الرحمن الرحيم ، ونبيه هو نبي الرحمة : أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه . فلنرهدف السمع ، ونوقظ الحواس ، ونحن ننصت إلى ما جاءت به الشريعة الغراء لترسى بكل الوضوح وبكل معاني العظمة دعائم الأمن ليكون هو البشرى وهو الغاية وهو الجزاء الأوفى ﴿ الذين

آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿ إن المتقين في مقام أمين ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء

(٢) الآية ٥٧ من سورة يونس

(٣) الآية ٥٢ من سورة الأعراف

(٤) الآية ٨٢ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٣٧ من سورة سبأ

(٦) الدخان ٥١

## أولاً : تحقيق الأمن للعقيدة :

إن المنهج القرآني في دعم العقيدة الإسلامية غنى وزاخر ، ويجل عن الوصف ، وكيف لا والتشريعات والتوجيهات الإسلامية كلها تنبع من أصل واحد ، وترتكز على ركيزة واحدة ، وهي عقيدة التوحيد المطلق ، ومن تلك العقيدة في الله تنبع كل التصورات الأساسية التي تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والأخلاقية ، والتي تؤثر على علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفي العلاقات الدولية ، كما أنها تجعل العبادات قاعدة للمعاملات بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ، وبالتالي فإن أى خلل في دعم تلك العقيدة معناه إشاعة القلقة والاضطرابات في المجتمع الإنساني حيث يتبع كل فرد هواه مما يترتب عليه الفوضى الشاملة في المجتمع ككل : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾<sup>(١)</sup>

فما هي تلك الخطوات التي اتخذها المنهج الإلهي لدعم العقيدة الإسلامية ؟ إن تلك الخطوات تتمثل في نواحي شتى نوجزها فيما يلي : —

### ١ — التشدد في توحيد العقيدة : —

إن الإسلام يتشدد في توحيد العقيدة في الله ورسله حماية للمؤمن من تشتته بين أهواء ونوازع شتى تبدد طاقاته الروحية ، وتضيع معالم الهدف والطريق ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾<sup>(٢)</sup> وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً \* أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾<sup>(٣)</sup> .

فكل الأنبياء عملوا في معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » أما اختلاف المناهج في الشريعة ، فقد جاء حسب تطور البشرية من طفولتها المادية ، إلى شبابها الجارف إلى رجولتها الكاملة ، على يد خاتم الأنبياء ﷺ ، وما من شك في أن البشرية في فجرها أيام آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ، غير البشرية أيام موسى وعيسى ، غير البشرية أيام سيدنا محمد ﷺ ، فعقيدة الأنبياء جميعاً واحدة وهي التوحيد ، أما الشرائع فإنها جاءت مطابقة لمقتضى أحوال الأمم فيما يصلحهم ديناً ودنيا .

(١) القصص من الآية ٥٠

(٢) من الآية ١٩ من سورة آل عمران

(٣) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء

قال تعالى :

﴿ لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ﴾<sup>(١)</sup>

وقال جل شأنه :

﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن هذا التوحيد هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في هذا الوجود أينما امتد بصره ، ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً في موكب واحد ، هو موكب النور في مواجهة صفوف الكفر وأحزاب الشيطان ، ومن ثم كان الإسلام هو الدين وكان المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، لم يدخلها أى نوع من أنواع الشرك هم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقد غنى الإسلام عناية بالغة بتقدير حقيقة وحدانية الله سبحانه ، وحدانية لا تلبس ، بشبهة شرك ، أو مشابهة في أية صورة من الصور ، وذلك لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليعرفوا من صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض فلا يخضعون إلا له ولمنجه وشريعته في الحياة ، وهنا يتحقق الأمن والطمأنينة للمجتمع المسلم .

قال تعالى في حديث قدسى جليل يعتبر دستوراً تطبيقياً يؤكد على أن الإيمان بوحداية الله والتسليم له وحده ، كفيل بتحقيق كل دواعى الأمن للإنسان المؤمن :

« يا موسى ما أجبني من أحب المال ، وما أجبني من أحب الدنيا ، فإنه لا يسع قلب واحد حبي وحبا أبدا ، يا موسى ما خافنى من خاف الخلق ، وما توكل على من خاف فوات الرزق ، وعزنى وجلالى ما توكل على عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتيح الملك والملكوت ، وما اعتصم بى عبد الا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة ، ومن اعتصم بغيرى أسخت الأرض تحته . وقطعت الأسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته ، يا موسى خمس كلمات ختمت لك بهن التوارة ، إن عملت بهن نفعتك العلم كله وإلا لا ينفعك شئ منه : الأولى : لا تحف ذا سلطان ما دام سلطانى باقيا وسلطانى دائم لا يزول أبدا .

الثانية : كن واثقا من رزق مضمون لك مادامت خزائنى مملوءة وخزائنى مملوءة لا تنفد أبدا .

الثالثة : لا ترعب غيرك مادام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبدا .

الرابعة : لا تدع محاربة الشيطان مادامت روحك في بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبدا .

الخامسة : لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك في الجنة ، وفي الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبدا .

(١) الحج الآية ٦٧

(٢) من الآية ٤٨ من سورة المائدة

(٣) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران



أهمية التوحيد في المنهج الإسلامى :

( ١ ) قال المصطفى ﷺ : أحب أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة ؟ فتقل ذلك على المسلمين وقالوا : أينا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فقال لهم : أقرأوا : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »<sup>(١)</sup>

فلماذا احتلت سورة الإخلاص هذه المكانة ؟

يتضح هذا من اسمها فهي إخلاص الوجه لله وحده لا نشرك به سلطاناً .

﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾<sup>(٢)</sup> . إنه الله الذى يجب أن يقاتل المؤمنون فى سبيله لإعلاء كلمة ، الحق ولا يخشون إلا إياه سبحانه وتعالى : ﴿ ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه أن كنتم مؤمنين ﴾<sup>(٣)</sup>

— إنه الله الواحد الذى يهدى إلى الحق من اتبع سبيله ويضل من اتبع الشهوات .

﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم ﴾<sup>(٥)</sup>

— هو الواحد الأحد له ملكوت السموات والأرض .

وتلك الأحدية فى حد ذاتها لها عظمتها فى إشاعة الأمن فى الوجود كله لأنه كما قال جل وعلا : ﴿ لو

كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾<sup>(٦)</sup>

— وتلك الوجدانية تحرر النفس من كل خوف من آلهة عاجزة تظهر فى صورة ملوك جبارين فى الأرض

وهم لا يملكون حولاً ولا قوة أمام قوة الله سبحانه وتعالى .

﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأى الفريقين

أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ﴾<sup>(٧)</sup> .

— إنه الفرد الصمد الذى يقصده الناس فى قضاء حوائجهم ، ويغيث الملهوف ويفرج كرب المكروبين

ويرفع راية المتضررين ويهدى الحيارى واليائسين .

(١) الحديث : أورده القرطبى فى تفسير سورة الإخلاص ج ١٠ ، ص ٢٤٧ وقال : أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أنى الدرداء بمعناه هـ . قرطبى

(٢) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون

(٣) الآية ١٣ من سورة التوبة

(٤) الآية ٣٥ من سورة يونس

(٥) الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٦) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

(٧) الآية ٨١ من سورة الأنعام

﴿ أمن يحيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾<sup>(١)</sup> .

• إنه الله الذى لم يلد ولم يولد لأنه غنى عن العالمين :  
﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى ﴾<sup>(٢)</sup>

• إنه الله الذى ليس له كفوا أحد سبحانه وتعالى جل شأنه . ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾<sup>(٣)</sup>  
﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم . النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾<sup>(٥)</sup>

سبحانك ربى لا إله إلا أنت . يا من يقف القلم عاجزا خاشعا أمام عظمة منهجك فى توحيد عقيدتنا بما يحقق للنفس اطمئنانها ، وسكونها إلى من بيده أمرها :

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

٢ — التأكيد على أن الإسلام هو عقيدة الرسل أجمعين لا شك أن التأكيد على هذا المفهوم يجعل المسلم يزداد يقينا واعتزازا بدينه ، ويجعل نفسه تطمئن إلى ان هذا الدين هو الحق المبين حيث دعا إليه رسل الله أجمعون من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

(١) الآيات ٦٢ — ٦٤ من سورة النمل

(٢) الآية ٦٨ من سورة يونس

(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف

(٤) الآية ٥٤ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ٦٨ — ٧٢ من سورة القصص

﴿ ومن يتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾<sup>(١)</sup>

لماذا ؟ لأن الإسلام هو الرسالة التي بعث بها الأنبياء عبر تاريخ البشرية .

فها هو سيدنا نوح يخاطب قومه فيقول لهم :

﴿ فإن توليتكم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾<sup>(٢)</sup>

ويحدثنا الله سبحانه وتعالى عن عقيدة سيدنا إبراهيم أبن الأنبياء فيقول جل شأنه : ﴿ ما كان إبراهيم

يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾<sup>(٣)</sup>

وغرس سيدنا إبراهيم في نفوس أولاده الإسلام وأنشأهم عليه ووصاهم به .

﴿ ووصى بها إبراهيم بنه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم

مسلمون ﴾<sup>(٤)</sup>

وكان أهم ما يشغل أحد أحفاده ، وهو نبي الله يعقوب ، ساعة الموت ، حين لقاء الواحد القهار هو

الوصية بدين الحق دين التوحيد ألا وهو الإسلام .

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا : نعبد إلهك

وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾<sup>(٥)</sup>

وقالت الملائكة عندما كلفها الله بإخراج الذين آمنوا من قوم لوط ، وإهلاك الباقين الذين كذبوا به

وجحدوا نعمة ربهم : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾<sup>(٦)</sup>

وما هو سيدنا موسى يبلغ المنهج الإلهي فيخاطب قومه قائلاً : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا

إن كنتم مسلمين ﴾<sup>(٧)</sup> وعندما آمن السحرة برسالة موسى وهددهم فرعون بأبشع أنواع العقاب ، قالوا

له في يقين لا يتزعزع وقلب مطمئن بحلاوة التوحيد .

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾<sup>(٨)</sup> .

حتى فرعون عندما أدركه الغرق وعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا

الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾<sup>(٩)</sup> .

وعلى لسان سليمان يقول الحق جل وعلا :

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾<sup>(١٠)</sup>

(٦) الآية ٣٦ من سورة الذاريات

(٧) الآية ٨٤ من سورة يونس

(٨) الآية ١٢٦ من سورة الأعراف

(٩) الآية ٩٠ من سورة يونس

(١٠) الآية ٤٢ من سورة النمل

(١) الآية ٨٥ من آل عمران

(٢) الآية ٧٢ من سورة يونس

(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران

(٤) الآية ١٢٢ من سورة البقرة

(٥) الآية ١٢٣ من سورة البقرة

وتقول ملكة سبأ بعد أن هداها الله على يد نبيه سليمان :

﴿ وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾<sup>(١)</sup>

ويحكى لنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك الحوار الرباني بينه وبين رسوله الكريم عيسى فيقول جل شأنه :

﴿ وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال تعالى لصفيه وحبيبه محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين : ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ وأمرت لأن أكون أول المسلمين<sup>(٣)</sup>.

وهكذا فلا حجة للناس على الله بعد الرسل ، ولا عدوان إلا على الظالمين ولا عذر لعقيدة متميعة تتأرجح بين الشك واليقين ، فالإسلام رسالة شامخة وارفة الظلال ، مغدقة الثمار ترفع رؤوس معتنقيه عالية وتملأ نفوسهم عزة وأمناً ، وتضفي على خطواتهم ثباتاً وإرادة ، وكيف لا وهو عقيدة رسل الله أجمعين : صفوة البشرية وساداتها جاء بها خاتمهم وإمامهم صلوات ربي وسلامه عليه فأغدق على النفس المؤمنة الطمأنينة والسكينة ، وسد عليها كل منافذ الشك والقلق .

( ٣ ) الإيمان بالغيب كأساس لدعم العقيدة :

إن أعظم ما يدعو لدعم العقيدة وجعلها راسخة متينة لا تتزعزع ، هو مدى الإيمان بالغيب ، فالمؤمن يتحمل ما يلاقه من عنت ومشقة في الحياة راضياً ، لأنه محتسب أجره عند الله ، يطلب عفوه وغفرانه ، ودخول جناته ، كما أنه يتجاوز عن الزلات ويعفو عن المسيء ويكظم غيظه ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ابتغاء مرضاة الله إيماناً بالغيب الذى نبأنا عنه الصادق المعصوم .

إن الإيمان بالغيب هو الاختبار الحقيقى للإنسان لأنه يجاهد وجوده المادى ، فى سبيل وجوده المعنوى ، دون أن يرى الله صاحب الوجود الحقيقى ودون أن يرى الجنة أو النار ، فلو تكشف له كل هذا لخفض لله جبراً وقسراً ، واختار الجنة وخشى النار لعظمة الأولى وجمالها وهول الثانية وجحيمها . وبالتالي لا يصبح هناك مجال لتفاوت أقدار الناس ومكانتهم ولا ينصهر الإنسان وينصقل بخوض تجربة الحياة الدنيا التى أرادها الله له ، ولننصت إلى حديث رسول الله ﷺ لنعرف فضل الله على من عبده بظهر الغيب .

عن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «(٤)» إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، ما يقول عبادى ؟ قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك قال فيقول : هل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول كيف لو رأونى ؟ ،

(١) من الآية ٤٤ من سورة النمل

(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الزمر

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ج ١٠٨ ، ٨ طبعه الشعب

قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسييحاً ، قال : فيقول : ما يسألوني ؟ قال : يقولون يسألونك الجنة ! قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : مم يتعوذون ؟ قال : يقولون : يتعوذون من النار . قال فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها قال فيقول : فكيف لو رأوها قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافة . قال فيقول : أشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم — رواه البخارى .

حقاً إن الإيمان بالغيب هو المحك الحقيقي للإيمان ، وهو الاختبار الشاق للإنسان ، اختبار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب . ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ (١) .

وهذا الابتلاء يعرضه الله علينا في كل شيء وبعد فرض أوامره وعرض عاقبة المتقين . ومن أمثلة ذلك : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ (٢) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ (٣) .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾ (٤) .

إن الإيمان بالغيب هو أمن وحماية وقوة للعقيدة ، لأنه سيوظف الضمير فيقف حارساً على الحواس ، لأنه يخاف الله ويخشى عاقبة أمره .

﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾ (٥) .

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ (٦) .

(١) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران

(٢) الآيات ١٥٥ — ١٥٧ من سورة البقرة

(٣) الآية ٩٤ من سورة المائدة

(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد

(٥) الآية ١٨ من سورة فاطر

(٦) الآية ١١ من سورة يس

﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾<sup>(١)</sup> .  
والإيمان بالغيب يحمي الإنسان من عوامل القلق في البحث عما وراء الطبيعة وعن نشأة الكون ونهايته  
وعما ينتظره ساعة الموت وفيما بعد الموت ، لأنه آمن بالله ثم استقام . والله يقول وقوله الحق : —  
﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله  
وما يشعرون أيا ن يعثون ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ والله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وجعله أهم صفات المؤمنين المتقين وهو أول ما يطالعنا في كتاب الله عز وجل في أول سورة البقرة  
حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ الذين يؤمنون بالغيب  
ويقومون الصلاة ، وما رزقناهم يتفقون ﴾<sup>(٥)</sup> .

#### ٤ — تصحيح عقيدة أهل الكتاب :

إن تصحيح عقيدة أهل الكتاب من يهود ونصارى هو في حد ذاته دعم للعقيدة الإسلامية ، لأنه اعتناء  
ببيان الحق وإظهاره ، وبيان الباطل وكشفه ، حتى يكون المؤمن على هدى من ربه ، فيطمئن قلبه ويسير  
في الحياة ثابت الخطى لأنه رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ﷺ .  
يتولى القرآن تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير مما  
يبعدها عن العقيدة الصحيحة في الله وهذا يسبب قصوراً في العقل للبشر أجمعين يؤدي إلى الغلو والتفريط  
في تفكير البشرية جمعاء يبعدها عن منهج الحياة وهو منهج الله ، فيخاطب الله أهل الكتاب خطاباً زاجراً  
يردهم به إلى طريق الحق والجادة والصواب فيقول جل شأنه : —  
﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا  
كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾<sup>(٦)</sup>

إن ذلك الخطاب لأهل الكتاب احتل أهمية كبرى في القرآن الكريم ، نظراً لأنه خاتم الرسالات إلى  
العالمين ، فكان لابد من تخليص عقيدة التوحيد ، من كل ما يشوبها من أساطير البشر وتخبطهم في جاهليتهم  
العمياء ، فنجد الحق سبحانه وتعالى : يصحح لليهود اختلالات تصور التوحيد ويزيح ما تراكم عليه من  
غبار الباطل فيقول جل شأنه : —

(١) الآية ٩٤ من سورة التوبة

(٢) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٦٥ من سورة النمل

(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود

(٥) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة البقرة

(٦) الآية ٧٧ من سورة المائدة

﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ . وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون ﴾ . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون ﴾ . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ <sup>(١)</sup> .

ويتجه الله سبحانه وتعالى : إلى المسيحيين بتصحيح ما اعترى ديانتهم من قصور بُعد بهم عن معنى الدين الحقيقي وأصاب عقيدتهم بانحراف بعدهم عن الحق المبين فيقول جل شأنه : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ . لن يستكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن الآيات التي يخاطب فيها الله اليهود والنصارى ليبين لهم العقيدة الصحيحة لا تعد ولا تحصى ، بحيث لا يسمح المجال هنا بسردها ، وما يهمنا الاستدلال به ، هو حرص المنهج الإسلامي على دعم عقيدة المسلم لأنها هي العقيدة الحقّة التي ارتضاها الله لنا وبها نحقق الأمن في أرواح معانيه لأن التلقّي في شئون الحياة كلها من الله وحده وبها لها من نعمة عظيمة .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

## ٥ — تحريم الردّة :

إن الإسلام عقيدة التسامح ولكنه ليس عقيدة التميع . إنه تصور جاد ونظام جاد ، والجد لا ينافي التسامح ، ولكنه ينافي التميع ، فهو يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ، فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته ، ولهم — حتى وهم يعيشون في ظل نظامه ودولته — أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام ، في غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن في الدين . وهو يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ويمتنعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ، ويدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بمسائل النظام العام . إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفه في العقيدة ، ولكنه لا يتسامح أبداً مع من يوحّدون الله ، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يرتدون بعد ذلك لأن هذا أخطر ما يمكن ، أن يطعن به الأعداء الإسلام وهذا ما فعله الكفار فعلاً في أول الدعوة لمحاربة الإسلام ورسول الإسلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، حيث زين لهم الشيطان أن يعلنوا إسلامهم ثم يرتدوا بعد ذلك معلنين أن هذا الإسلام

(١) الآيات ٤٠ — ٤٣ من سورة البقرة

(٢) الآيات ١٧١ ، ١٧٢ من سورة النساء

(٣) من الآية ٣ من سورة المائدة

ليس أهلاً لهم ، وفيه من المبررات ما يجعلهم يرجعون عنه وهذا ما أخبر به الله العليم رسوله الكريم حتى يحذره منهم .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾<sup>(١)</sup> .

ومن هنا وحماية للعقيدة الإسلامية وتدعيماً لها حرمت الردة في الإسلام تحريماً قطعياً ، ووصلت عقوبة تلك الجريمة إلى حد القتل ، وذلك حتى لا يستباح دين الله لضعاف النفوس أن يجعلوه مطمعا لتحقيق أغراضهم ثم ينفضوا منه بعد ذلك تاركين وراءهم البلبلة ، والتزعزع في عقيدة الباقين ، ولذلك قال الصادق المعصوم صلوات ربي وسلامه عليه « من خالف دينه دين الإسلام فاضربوا عنقه »<sup>(٢)</sup> ، وقال أيضا عليه السلام « من بدل دينه فاقتلوه »<sup>(٣)</sup> .

وهذا الحكم مستمد من القانون الأساسى وهو القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل :  
﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يردكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(٤)</sup> .  
﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾<sup>(٥)</sup> .

وهكذا لم يترك الإسلام ثغرة واحدة يمكن أن ينفذ فيها الشك في العقيدة إلا وأحكم مغاليقها لتظل عقيدة المسلم قوية البنيان . عميقة الأساس لا تتزلزل ولا تهتز ، لا تستطيع جيوش الباطل مهما أوتيت من قوة أن تغلبها أو تنتصر عليها وهكذا يعيش المؤمن في أمن عقائدى ، لا يشعر بعظمة هذا الأمن إلا من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان وكفى بها من نعمة .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وننتقل الآن إلى مجال آخر من المجالات التى اهتم الإسلام بتحقيق الأمن فيها بل إنه مجال لا يقل أهمية عن مجال العقيدة لأنهما متلازمان متلاصقان لا غنى لأحدهما عن الآخر وهو مجال النفس البشرية . فإن كانت العقيدة كالغيث فإن النفس كالأرض ، وكلما كان الغيث غزيراً والأرض خصبة فإنها تؤتى ثمارها . كأروع ما يكون الجنى ، فلنتجول في رياض الإسلام ونرى كيف أسبغ على النفس المؤمنة كل أمن وطمأنينة وأحاطها بسياج منيعة تحميها من عواصف القلق المدمرة .

(١) الآية ٧٢ من سورة آل عمران

(٢) الحديث أخرجه البخارى في دعاء النبي صلوات الله عليه

(٣) الحديث أخرجه البخارى في استتابة المرتدين

(٤) من الآية ٢١٧ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٢٨ من سورة الرعد



## ثانياً : تحقيق الأمن للنفس :

ما أعظم المنهج الإسلامى فى علاج النفس البشرية من كل المخاطر والصعاب التى تعترض طريقها فى الحياة الدنيا . ذلك المنهج الذى تتضاءل أمامه كل علوم النفس التى تحاول دراسة وعلاج الصراعات النفسية ، وكيف لا ، وواضع المنهج هو الحكيم الخبير خالق النفس البشرية الذى يعلم مستقرها ومستودعها . يقول الحق تبارك وتعالى تأكيداً عن هذا العلم :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾<sup>(٤)</sup>

وانطلاقاً من هذا العلم فإن المنهج الربانى أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة ، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله سبحانه فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان ، أخذها جملة لا تفارق ، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة : لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً ، فنقل البشرية من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الناس إلى عدالة الإسلام ، وهكذا امتلأت النفوس المؤمنة بالإيمان ذلك الإحساس الندى الرضى البهيج ، فلم تعد بحاجة إلى نشوة الخمر أو إرضاء الرغبات والشهوات الكاذبة لأنها ترف بالإيمان المشع إلى الملاء الأعلى الوضىء وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله ، وتذوق طعم هذا القرب . فتمج كل نشوة عداها :

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية . وفتحها بمفتاحها الذى لا تفتح بغيره ، وتمشى فى حناياها وأوصالها وفى مسالكها ودروبها ، ينشر النور والحياة والنظافة والطهر واليقظة والهمة والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخلافة فى الأرض على أصولها التى قررها العليم الخبير وعلى عهد الله وشرطه وعلى هديه ونوره . وبالتالي فإن هذا المنهج الإسلامى لم يحاول زرع اليأس فى النفس البشرية بل استجاشة تلك النفس وتشجيعها وتحذيرها وطمأنتها فى آن واحد ، وشمل العلاج نواحي عدة يعجز الإنسان عن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى عدة نقاط رئيسية تضم كل منها العديد من اتجاهات المنهج الربانى لتحقيق الأمن للنفوس :

١ — علاج الخوف بكل أنواعه : سواء الخوف من الموت . أو من فوات الرزق ، أو أى نوع من أنواع المخاطر والصعاب .

(١) من الآية ١٦ من سورة ق

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الإسراء

(٣) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة

(٤) من الآية ١٤ من سورة الملك

- ٢ — علاج اليأس : هذا اليأس الذى قد يهدد حياة الإنسان بالشلل التام وبالتالي يؤدى إلى تدميرها .
- ٣ — علاج مساوىء الأخلاق والدعوة إلى مكارمها : وذلك لتهديب النفوس البشرية ومحاربة كل ما يعكس صفو المجتمعات من شيوع رذائل الأخلاق التى تنزل كيانها وتنتشر الحقد والكراهية والقلق بين الناس .

## ١ — علاج الخوف بكل أنواعه :

إن المنهج الإسلامى وضع العلاج بطريقته الخاصة وهى رد تلك النفس إلى خالقها فى كل ما يعتريها من خوف وإرجاعها إلى الواحد الحق الذى إليه المنتهى وإليه المصير :

— فالنفس التى تخاف من الموت : إذا رجعت إلى خالقها وأرهفت السمع إلى آياته المحكمات عرفت أن الموت علينا حق مهما فررنا منه أو أحجمنا عن ملاقاته فى أى صورة من صور الجهاد لإعلاء كلمة الحق فى مواجهة الباطل .

﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾<sup>(٤)</sup>

حقاً إن الموت حتم فى موعده المقدر ولا علاقة له بالحرب والسلام ولا علاقة له بحصانة المكان الذى يحتذى به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عن الناس تكليف القتال ، ولا التكاليف الجهادية تعجله عن موعده وبالتالي فلا داعى لخوف النفس وجزعها وخشيتها من خوض المكاره والحروب .

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿ قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾<sup>(٦)</sup>

﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾<sup>(٧)</sup>

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران

(٢) الآية ٦٠ من سورة الواقعة

(٣) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء

(٤) الآية ٣٤ من سورة الأعراف

(٥) الآية ٧٨ من سورة النساء

(٦) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران

(٧) الآية ٣٤ سورة لقمان

(٨) الآية ١٤٥ سورة آل عمران

ومتى أيقنت النفس ذلك اندفعت آمنة مطمئنة في خضم الحياة ترسى دعائم الحق والعدل والخير ، غير هيابة ولا وجلّة لأن كلمات الحق جل وعلا كشفت لها حقائق الوجود في سهولة ويسر وأصبح عندها رؤية واضحة محددة للأمور ، فالموت معناه لقاء الله ولقاء محمد وصحبه الأخيار الأبرار ومعناه انتهاء ما فيه الإنسان من مكابدة ومشاق ، والانتقال إلى سعادة لا شقاء بعدها أبداً ، ونعيم لا يزول لأنه نال ذلك بحسن عمله في الحياة الدنيا .

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾<sup>(٢)</sup>

### حماية الإسلام للنفس :

رغم أن الاسلام وضع ذلك المفهوم الواضح للموت ، إلا أنه يأبى أن يلقي الإنسان بنفسه إلى التهلكة ، فالنفس أمانة ، حرص الإسلام على حمايتها ، بكل القوانين التشريعية ، وذلك لإسباغ صفة الأمن . على المجتمعات البشرية ، بحيث لا تذهب الأرواح سدى ، بل إذا كان لابد من ذلك ، فليكن فيما يعود بالخير العميم ، والنفع الأكيد على المجتمع بأسره ، ولذلك حرم الإسلام القتل في غير قصاص ، وفي غير دفع فساد في الأرض ، تحريماً قاطعاً :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾<sup>(٣)</sup>

إن قتل نفس واحدة بدون سبب شرعى ، يعدل قتل الناس جميعاً ، لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس ، وقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على هذا الحق ، الذى تشترك فيه كل النفوس ، وبالتالي فإن الحفاظ على الأرواح يجعل الناس تستمتع بالأمن ، وتزاول نشاطها في طمأنينة ، وهذا يدعو إلى رقى الحياة الإنسانية ، وزيادة الخير والفضيلة ، والإنتاج والنمو ، وبخاصة أن هذا كله يوفر للناس جميعاً ضمانات الحياة كلها ، وينشر من حولهم جواً ، تنمو فيه بذور الخير ، وتذوى بذور الغدر والشر . — هذا حكم الإسلام بالنسبة لقتل أى نفس عموماً ، فما هو حكمه بالنسبة لقتل النفس المؤمنة ؟ لا يوجد سبب في منطق الإسلام ، يمكن أن يفرق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة ، ومن ثم لا يقتل المسلم مسلماً أبداً ، وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ ، وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . أما القتل العمد فلا كفارة له لأنه وراء الحسين ، ووراء حدود الإسلام :

(١) الآية ٢ من سورة الملك

(٢) الآية ١٠٠ من سورة النساء

(٣) الآية ٣٢ من سورة المائدة

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ﴾<sup>(١)</sup> .

فهذا هو الاحتمال الوحيد في الحس الإسلامي، وهو الاحتمال الحقيقي في الواقع، فإن وجود المسلم إلى جوار المسلم مسألة كبيرة، جداً ونعمة عظيمة جداً حيث تجمع المسلمين العقيدة والقراة في رسول الله ﷺ . ثم ترتقى فتجمعهم في الله سبحانه : الذي ألف بين قلوبهم ذلك التأليف الرباني العجيب :  
﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾<sup>(٢)</sup>

إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق، ولكنها كذلك جريمة قتل للشريحة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها وبالتالي فمن العسير أن يقدم مسلم على ذلك بسهولة، وهو أكبر أمن النفس في المجتمع الإسلامي .  
ولم يقتصر الأمن في الإسلام على النفوس البشرية،<sup>(٣)</sup> إنما تجاوزه إلى مخلوقات الله المتنوعة، فقد حدث أن صحابياً أخذ بعض أفراخ طير من تحت أمه، فغضب الرسول ﷺ لذلك وأمره أن يرد الأفراخ إلى أمها وذلك حتى لا يفزع تلك الأم .

ولقد أعلنها عمر رضى الله عنه : صريحة مدوية عبر التاريخ : لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله عنها لم . لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟  
وقال ﷺ :<sup>(٤)</sup> « إن الفاجر إذا مات استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب » وهل يستريح العباد والشجر والدواب إلا من اعتداء الفاجر عليه بالقتل أو الهدم أو التعذيب ؟

ويرد لنا التاريخ حرص الإسلام على النفس بصفة عامة في تلك الوصية التي كان يوصي بها الخليفة الأول — سيدنا أبو بكر الصديق — الجيوش الإسلامية وهي ذاهبة لقتال العدو في الميدان فيقول لهم : لا تقتلوا شيخاً ولا امرأة ولا صبياً، ولا تقطعوا شجراً ولا تذبحوا من الأنعام إلا للطعام وستجدون قوماً في الصوامع فدعوهم وما يدينون . فأى خوف من الموت إذن يمكن أن ينتاب الإنسان في مجتمع مسلم وأى أمان تشعر به النفوس في ذلك المجتمع .

فالموت على كل الوجوه هو لقاء الله عز وجل فما أعظمه من لقاء وخاصة إذا كان هذا الموت في سبيل الله وعلى سنة رسوله الكريم ﷺ .

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أى جنب كان الله مصرعى  
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوه ممزق

(١) الآية ٩٢ من سورة النساء

(٢) الآية ٩٣ من سورة النساء

(٣) الحديث أخرجه البخارى في الأدب المفرد

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجنائز باب ما جاء في مستريح ومستراح منه باب ٢١ حديث ٦١ / ٩٥٠ ج

— الخوف من فوات الرزق لا معنى له في الإسلام :  
لأنه من بديهيات العقيدة الإسلامية أن الرزق بيد الله يوزعه بحكمة وعدل على عباده : قال تعالى في كتابه الكريم :

﴿ له مقاليد السموات والأرض يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾<sup>(١)</sup>  
﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾<sup>(٢)</sup>  
﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾<sup>(٣)</sup>

وهكذا يحدد المنهج الرباني بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد في الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم هو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ﴾<sup>(٤)</sup>  
﴿ أمن يدور الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾<sup>(٥)</sup>  
﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾<sup>(٦)</sup>  
﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور ﴾<sup>(٧)</sup>  
والمؤمن على يقين أن هذا الرزق يتفاوت فيه الخلق لحكم كثيرة ، أرادها الحق سبحانه وتعالى تختص بعلمه وحده :

﴿ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق ﴾<sup>(٨)</sup>  
﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾<sup>(٩)</sup>  
﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾<sup>(١٠)</sup>

(١) الآية ١٢ من سورة الشورى

(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر

(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات

(٤) الآية ٣١ من سورة يونس

(٥) الآية ٦٤ من سورة النمل

(٦) الآية ٣ من سورة فاطر

(٧) الآية ٢١ من سورة الملك

(٨) الآية ٧١ من سورة النحل

(٩) الآية ١٩ من سورة الشورى

(١٠) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام

﴿أورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾<sup>(١)</sup>

وهكذا يعالج الإسلام ضعف النفس وحرصها وشحها وقصورها الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة ، فيقرر الله تلك الحقيقة الأزلية وهي أن الرزق بيد الله ليث عوامل الطمأنينة في نفس المؤمن فيسعى لطلب الرزق مدون أن يشغله ذلك عن إقامة دعائم الحق .

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾<sup>(٤)</sup>

﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾<sup>(٥)</sup>

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعي للخوف ولا داعي للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء ، بل عليه السعى لذكر الله ، والمشي في مناكب الأرض والتوكل على الله ، قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »<sup>(٦)</sup> .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل دائما :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل

وها هو الحى القيوم يزيل ما بقى عالقا بالنفوس من مخاوف بصدد الرزق ، فيقول جل شأنه في حديث قدسى قريب من نفس المؤمن :<sup>(٧)</sup> « ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أغنى بخلقهن . أفيعينى رغيف أسوقه إليك كل حين ، ابن آدم لى عليك فريضة ، ولك على رزق ، فإن خالفتنى فى فريضتى لم أخالفك فى رزقى ، وعزقى وجلالى إن لم ترض بما قسمت لك فلاسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، لا ينالك منها إلا ما قسمت لك ولا أبالى » .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزخرف

(٢) من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) الآية ٣١ من سورة الإسراء

(٤) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٥) من الآية ١٥ من سورة الملك

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ١٤ حديث ٤١٦٤ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٧) حديث قدسى : أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق

إذن على المؤمن إقامة دعائم الحق ، وعلى الله الرزق ، فإذا تعرض للفتنة في الدنيا فأمامه الهجرة في سبيل الله ، حيث يجد في الأرض متسعا للرزق ومنطلقا للنجاة والحياة .

﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ (١)

فالهجرة في سبيل الله هي الشرط والأساس لوجود الخير ، والأمن في الأرض ، أما الهجرة للثراء أو الفرار من الحق أو لأجل الحصول على الملذات والشهوات فلا تدخل ضمن الوعد الإلهي .

— أما الخوف من أنواع المخاطر والصعاب فله العلاج في الصيدلية الإسلامية .

لأن الله — سبحانه وتعالى — يعلم حقيقة النفس البشرية وأنها قد تحجم أمام الصعاب والمخاطر ، وقد تيأس ، فيعالجها الله سبحانه باستجاشتها . وطمأننتها . في آن واحد ، ويأخذ بيدها في كل موقف من مواقف الحياة .. لتجتازه بعقيدة إيمانية ثابتة ويقين لا يتزعزع بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

فعند لقاء العدو عندما تأتي تلك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة ويربو الألم على الاحتمال ، يحتاج القلب البشري إلى مدد يعلو على كل مدد بشري وإلى زاد سماوى علوى . هنا لك يأتي المدد من هذا المعين ويأتي الزاد من رب العالمين الرحمن الرحيم فيقول جل شأنه :

﴿ ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴾ (٢)

هكذا يطمئنهم الحق جل وعلا « إنهم إن كانوا يحتملون آلام المعركة بجميع أنواعها فليسوا وحدهم الذين يتحملونها بل إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والألم » ولكن شتان بين الفريقين فالمؤمنون يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم وهذا يسبغ عليهم الأمن والطمأنينة في المعركة لأن عاقبتهم كلها خير فإما النصر وإما الشهادة ، أما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئاً في الحياة ولا بعد الحياة .

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً ﴾ (٣)

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ (٤)

﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ (٥)

(١) من الآية ١٠٠ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٤ من سورة النساء

(٣) الآية ٢٤ من سورة هود

(٤) الآية ١٠٠ من سورة المائدة

(٥) الآية ٧٤ من سورة النساء

ولربما أتت على العصابة المؤمنة فترة تكون فيها في معركة مكشوفة غير متكافئة ، ولكن القاعدة لا تتغير ، فالمؤمن دائماً بخير ، لأنه يتلقى مدداً إيمانياً يختلف في طبيعته وقوته عن مدد الأعداء ، ذلك المدد يصل إليه في إشعاعات نورانية ، تلقى في صدره الأمن والجرأة ، لأن الحق يحاطبه بها فيقول عز من قائل :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ ولننصرن الله من يتصره إن الله لقوى عزيز ﴾<sup>(٥)</sup>

ولما كانت المخاطرة والصعاب التي يواجهها المؤمن : لا تتعلق بالحرب فقط بل هناك الكثير من الاختبارات الإيمانية التي يتعرض لها المؤمن بالابتلاءات الإلهية ، فمازال هناك الكثير في منهج العلاج من الصيدلية الإسلامية ، يقول الصادق المعصوم في حديث جامع شامل لمواجهة تلك المخاطر والصعاب :

« حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء »<sup>(٦)</sup>

« ويقول أيضاً صلوات ربي وسلامه عليه : « الصدقة تطفى غضب الرب كما يطفى الماء النار »<sup>(٧)</sup>

وهكذا فلا خوف من البلاء بل صبر وطمأنينة وسكينة من عند الله

﴿ وبشر الصابرين \* الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾<sup>(٨)</sup>

يقول الإمام ابن القيم « الصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب وتنف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله سبحانه وتعالى ، لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن الله تعالى على العبد عبودية في الضراء ، كما له عبودية في السراء وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون .. فمن كان عبداً لله في الحالتين قائماً بحقه في المكروه والمحبوب

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة

(٢) الآية ٧ من سورة محمد

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر

(٤) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران

(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج

(٦) الحديث في حلية الأولياء في ترجمة إبراهيم بن يزيد النخعي ج ٤ ، ص ٢٣٧

(٧) الحديث أخرجه الترمذي في سننه في كتاب : الزكاة باب ما جاء في فضل الصدقة ج ٢ ، ص ٨٦ حديث ٦٥٨

(٨) الآية ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة



فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ <sup>(١)</sup> ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
وننتقل الآن إلى النوع الثانى من المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للنفس وهو علاج اليأس .

## ٢ - علاج اليأس :

إن اليأس : لا مكان له إطلاقاً فى أساسيات العقيدة للمسلم ، لأن المنهج الإسلامى اهتم بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة حية له ، فى شعورها وسلوكها ، فىرى الناس صورة الإيمان فى هذه النفس فتكون شهادة . لهذا الدين بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته حيث صاغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال .

فاليأس يشتت قوى الإنسان ويذهب نفسه حشرات ويجعله : عضواً غير نافع فى المجتمع الإنسانى ، بل إنه عضو ضار ينقل عدوى اليأس والإحباط إلى غيره ، وينشر القلق والفشل بين الناس وهو أخطر ما يهدد المجتمعات بصفة عامة ، ولذلك فهناك قاعدة أساسية فى بناء المجتمع الإسلامى مكتوب على بابها ، ﴿ ولا تيأسوا من روح الله إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فاليأس معناه الشك فى قدرة الله ، ولذلك فهو يعادل الكفر ، أما المؤمن فهو يعلم علم اليقين أن بيده مقاليد الأمور :

﴿ وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٤)</sup> .  
﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ <sup>(٥)</sup>

وبالتالى فعليه أن يسعى لتذليل كل ما يقابله من صعوبات فى الحياة لأن الله لم يخلق داء إلا وجعل له دواء <sup>(٦)</sup> كما قال لنا الصادق المصدوق فيجب أن يعمل ذهنه فى البحث عن هذا الدواء مهما عز أو ندر ، فما خلقنا فى هذه الدنيا إلا لنكد ونتعب فيها ، ونتنصر على كل ما يواجها . من متاعب الحياة ، وهذا الانتصار فى حد ذاته هو ما يؤهل المؤمن لدخول الجنة حيث لا يشقى بعدها أبداً .

(١) من الآية ٢٦ من سورة الزمر

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر

(٣) من الآية ٨٧ من يوسف

(٤) من الآية ١٧ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٥١ من سورة التوبة

(٦) الحديث . أخرجه البخارى فى الطب فى باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء وهذا الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ أم حسبم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾<sup>(١)</sup> .  
 ﴿ أم حسبم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن الخالق العليم بخبايا النفس البشرية ، يعلم أن الإنسان يميل إلى التراخي ، وحب النعيم الدائم ، أما الابتلاءات الإلهية التي تضطره إلى الكفاح والمجاهدة فإنها قد تدفع به إلى اليأس ، فيحدثنا عن ذلك في قرآنه الحكيم ، فيقول عز من قائل :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾<sup>(٥)</sup> .

ولكن هذا يتعارض مع البناء الأساسي للعقيدة الإسلامية التي تركز على التوحيد المطلق ، سمة هذه العقيدة ، والتي ترد الأمر كله لله ، فليعلم المسلم أنه مهما أحاطت به الحن ، فإنه بإيمانه بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه والاستمسك بمنهجه سيجتاز تلك الحن بمشيئة الله تعالى ، ويشعر بعدها بقرب أكثر من الله وبسعة رحمته .

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم ﴾<sup>(٦)</sup> .

فالإسلام دين العمل والجهاد ، والصبر والثبات والبذل والتضحية ، أما اليأس فمعدن انحراف عن ذلك الدين القيم واتجاه في طريق الضلال والعياذ بالله .

﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾<sup>(٧)</sup> .

فليتمسك المؤمن بدينه الذي ارتضاه وينفذ كلام ربه العظيم ، وسنة رسوله الذي أرسله الله رحمة للعالمين ، وحينذاك سيكون بينه وبين اليأس بعد المشرقين ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران

(٢) الآية ١٦ من سورة التوبة

(٣) الآية ٩ من سورة هود

(٤) الآية ٤٩ من سورة فصلت

(٥) الآية ٨٣ من سورة الإسراء

(٦) من الآية ١١٨ من سورة التوبة

(٧) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام

(٨) الآية ٥٦ من سورة الحجر

وهكذا فلا يأس مع الإيمان ولا إيمان مع اليأس بل رجاء في رحمة الله وعفوه ورضاه وامثال لأوامره ، واجتناب نواهيه ، فالبشرى تتردد مع آيات الله البينات :

﴿ لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾<sup>(٣)</sup>

تلك الرحمة هي التي تشفى صدور قوم مؤمنين ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور وتبعدهم عن مهاوى اليأس والهلاك وتنجي كل من دعا ربه في أحلك لحظات حياته .

يحدثنا المولى سبحانه وتعالى عن آثار رحمته التي تنجي عباده المؤمنين من كل كرب فيقول عز من قائل :  
﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾<sup>(٦)</sup>

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾<sup>(٧)</sup>

﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾<sup>(٨)</sup>

﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾<sup>(٩)</sup>

﴿ وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾<sup>(١٠)</sup>

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحى الأرض بعد موتها ﴾<sup>(١١)</sup>

﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ﴾<sup>(١٢)</sup>

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾<sup>(١٣)</sup>

فكيف يكون هناك يأس مع دين ربه هو الرحمن الرحيم ، ورسوله هو نبي الرحمة ، ومن مواد دستوره .

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾<sup>(١٤)</sup>

(٨) الآية ٨٢ من سورة الكهف

(٩) الآية ٢ من سورة مريم

(١٠) الآية ٨٤ من سورة الأنبياء

(١١) الآية ٥٠ من سورة الروم

(١٢) الآية ١٧ من سورة الأحزاب

(١٣) الآية ٢ من سورة فاطر

(١٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر

(٢) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٥٦ من سورة الأعراف

(٤) الآية ٧٢ من سورة الأعراف

(٥) من الآية ٥٨ من سورة هود

(٦) من الآية ٦٦ من سورة هود

(٧) من الآية ٩٤ من سورة هود

فإذا عرفنا أيضا أن عدد الآيات التي ذكرت فيها كلمة الرحمة تبلغ ٣٣٩ آية لأيقنا عظمة هذا الدين في علاج النفس البشرية من أكبر آفاتنا التي تحرمها من أعظم نعمة في الوجود ألا وهي الأمن . فكيف إذن يشعر إنسان مؤمن باليأس ، وهو يعلم علم اليقين أنه يعيش في كنف الرحمن الرحيم ؟

### ٣ — علاج مساوئ الأخلاق والدعوة إلى مكارمها :

لا يدرك حقيقة نعمة الأمن في هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ، ومن لم يذق ويلاتها ، والجاهلية في كل زمان ومكان هي تلك النفوس التي لم تتأدب بأدب الله ، ولم ترتو من معين العلم الإلهي ، ولذلك فقد اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالجانب الأخلاق ، لأن تلك الأخلاق هي المرآة الحقيقية لقياس حضارة الشعوب ، وتقدمها الروحي ، فحين تشرب النفوس حلاوة الإيمان ، فإنها تشيع بهجة ، وصفاء ، وتنشر الأمن ، والطمأنينة ، على كل من حولها .  
وها هو المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه يحدد بوضوح لا ريب فيه اهتمام المنهج الإسلامي بالأخلاق لأنها المعول في بناء المجتمعات الآمنة الراقية إلى السموات العلى فيقول :

﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾<sup>(١)</sup>

بل إنه لا يكتفى بذلك بل يحدد بوضوح أكثر أن التعامل بين الناس هو المقياس الحقيقي لدرجة الإيمان ، لأنه انعكاس لنفوس تأدبت بأدب الإسلام ، فيقول الحبيب المصطفى ﷺ « الدين المعاملة »<sup>(٢)</sup> ، ويقول أيضا معلم البشرية وهاديا إلى الرشd والخير : « الإيمان هو ما وقر في القلب وصدقه العمل » .  
والمنهج الإسلامي لتهديب النفوس وإزالة كل ما يكدر صفوها ويحرمها من متعة الأمن ، الذي يمكن أن تتمتع به النفس المؤمنة ، غنى وزاخر ويجل عن الوصف ، فضلا عن الحصر ، ولذلك سنجتهد — بعون الله — في اقتطاف بعض رياحين ذلك المنهج كنماذج للاستشهاد على كلامنا ، أما المنهج ككل فلا يدرك خباياه إلا من صدق الله ورسوله في السر والعلن وتذوق حلاوة الإيمان وبهجتها لأن الحبيب محمدا ﷺ قال : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »<sup>(٣)</sup>

من معالم ذلك المنهج الرباني لتهديب النفوس :

١ — الوفاء بالعهود :

قال تعالى في التأكيد على الوفاء بالعهود في كل صورها طالما أنها في حدود ما أمر به الله ورسوله .:

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢ ، ص ٢٨١

(٢) الحديث أخرجه البيهقي ج ١٠ ، ص ٢٩٢ في أخلاق الرسول ﷺ

(٣) في إتحاف السادة المتقين ٧ / ٢٣٢ ، ٣ / ٤٤٩ ، حلية الأولياء ١٠ / ١٥ ، القرطبي ١٣ / ٣٦٤ ، الدر المنثور ١ / ٣٧٢

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾<sup>(٢)</sup>  
 ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾<sup>(٣)</sup>  
 وقال رسول الله ﷺ : « لا دين لمن لا عهد له ولا إيمان لمن لا أمانة له »<sup>(٤)</sup>.

وهكذا فلا يحل لمسلم أن يخون الله ورسوله ، وبالتالي لا يخون أخاه المسلم الذى ارتبط معه بوشيجة القرابة فى الله ورسوله ، إنه مجتمع يسوده الأمن على الوفاء بالعهد لأن نفوس أفرادها انتقلت من معين سماوى علوى فاطمأنت بنور الله .

## ٢ — رعاية الحقوق :

حرص الإسلام حرصاً شديداً على تربية النفوس على رعاية حقوق الغير وهذا فى حد ذاته حفظ لحقوق المسلم نفسه : لأن القوانين الإلهية شملت تحديد حقوق المجتمع بأسره سواء كانت حقوق الأبوين أو الزوجين أو الأبناء أو الأهل والجيران والأحباب ، حتى أهل الديانات الأخرى لهم أيضاً حقوق ، وبالتالي فإن مراعاة تلك الحقوق جميعها تنشر الأمن بين أفراد المجتمع المسلم ، فيسعى كل فرد لبناء المجتمع وهو قرير العين مطمئناً على نفسه وماله وعرضه لأنه يعيش فى ظل دستور الحكيم الخبير ، ويسير على سنة رسوله الكريم الذى قال فى حديث جامع شامل :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »<sup>(٥)</sup>

بل وصل التشدد الإسلامى فى رعاية حقوق الغير إلى أقصى مداه فحرم الاعتداء على تلك الحقوق التى تؤدى إلى فزع أصحابها ، حتى ولو كان ذلك على سبيل المزاح ، فقد حدث أن صحابياً أراد أن يمزح فأخفى نعل أخيه . فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب وقال : « من فزع مؤمناً فليس منا » -

## ٣ — محاربة النفاق :

إن النفاق فى حقيقته هو الضعف عن الإصرار على الحق فى مواجهة الباطل ، وهذا الضغط هو ثمرة الخوف والطمع . وتعليقها بغير الله ، ولا يخفى على أى عاقل ما للنفاق من آثار هدامة على المجتمعات البشرية لأنها تنشر القلق بين الناس على حقوقهم التى تضع بسبب تمسكهم بالحق ، فى نفس الوقت الذى يرون

(١) الآية ٩١ من سورة النحل

(٢) الآية ١٠ من سورة الفتح

(٣) الآية ٧٧ من سورة آل عمران

(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم

ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه حديث ٣٢ / ٢٥٦٤ ج ٤ ، ص ١٩٨٦

فيه فئات تنمو وتحقق السيادة لأنها تتملق بالباطل وهذا بدوره يؤدي إلى الإحباط لدى النفوس التي تكذب وتشقى ولا تجد ثمار عملها ، علاوة على انتشار جميع الأمراض الأخلاقية التي تفتك بالمجتمع نتيجة انتشار النفاق مثل الغش والمحسوبية والرشوة والتهاون في الانتاج وتدهوره ، وظهور قوى الشر على قوى الخير لأنها تجد من يدعم سلطتها بالنفاق .

ولذلك وضع الحق — سبحانه وتعالى — أبشع أنواع الجزاء للنافقين حتى يكون العقاب رادعا عن التمسك بهذه الخصلة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فقال تعالى :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ نسوا الله فانساهم ان المنافقين هم الفاسقون ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾<sup>(٤)</sup>

#### ٤ — تطهير ضمائر المجتمع المسلم

ركز المنهج الاسلامي على رفع المستوى الخلقي والنفسي للمجتمع المسلم حتى تشيع الثقة المتبادلة بين المؤمنين ويعيش الجميع في أمن من انقطاع روابط المودة والألفة بينهم الناتجة عن : سخرية الناس بعضهم من بعض ، أو الجهر بالسوء ، أو التنايز بالألقاب أو سوء الظن الذي يحبط كثيرا من أعمال الخير ويؤدي إلى إلصاق التهم بالأبرياء أو التجسس الذي يحرم الناس من حق الأمن على أسرارهم ، أو الغيبة والتميمة التي تجعل الإنسان غير آمن على ما يقال في غيابه من كشف عوراته أو الحاق الضرر والأذى به . وكل هذه مساوئ أخلاقية إذا انتشرت في أى مجتمع ، انتشر معها كل عوامل القلق النفسي ، وهضم الحقوق ، وتدمير كيان الإنسان ببعثرة ما تحتويه سريره على ألسنة الخلق .

والويل كل الويل لمجتمع يعاني من هذه الأمراض ، انه يحرم من كل أمن ومن كل سعادة ومن كل طمأنينة ، ولذلك فقد كان التركيز الاسلامي على تلك الناحية عميقا كل العمق ، حازما كل الحزم ، نكتفى هنا بالاشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي تنهى عن ذلك ويكفى أن النهى من رب العالمين ملك الملوك الأعظم . قال رب العزة جل شأنه في إرساء المنهج الرباني لتطهير ضمائر عبادة المؤمنين .

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء

(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة

(٤) الآية ٦٨ من سورة التوبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمَاءُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا ، أَيْحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا . إِنْ تَبَدَّوْا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا ﴾<sup>(٣)</sup>

وهكذا فإن الحكيم الخبير يعلم شدة حساسية المجتمعات وإنها في حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية ، ورب كلمة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس ، ولكن هذه وتلك تترك في نفسية المجتمع وفي أخلاقه وفي تقاليده وفي جوه آثاراً مدمرة تشيع القلق والفساد وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

ومن هنا كانت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن مذموماتها من أعظم نعم الله لتحقيق الأمن للنفس المؤمنة .

## ٥ - ضبط النفس وسماحة القلب

إن هذا الخلق هو من أهم العوامل التي تحقق الأمن في المجتمعات الإسلامية لأنه ليس من حق المسلم في فورة الغضب التي ودفعه الشنآن ان يعتدى على الغير ، بل إنه بالاستعانة بالله يمكنه كبت مشاعر الغضب التي قد تمتد إلى مدى لا يحمد عقباه ، بل انه يمكنه التسامى والتسامح بتقوى الله وطلب مرضاته .

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ وَالْكَافِرِينَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(٥)</sup>

ويقول الله في حديثه القدسي « عبدي اذكرني حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أعفك فيمن

أحق » .

إنها القمة في ضبط النفس وسماحة القلب تليق مع أمة مكلفة من ربها جاءت لتكون خير أمة أخرجت للناس ، تنشر الأمن والعدل حتى مع الغضب والكره ، فأى أمن أعظم من أن يأمن الإنسان شر من يكرهه ؟ !

(١) الآية ١١ من سورة الحجرات

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات

(٣) الآيتان : ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٢ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

## ٦ — تجنيد النفس في وجه ذاتها وفي وجه عواطفها :

لما كانت النفس أمارة بالسوء — إلا من رحم ربي — لذا كان هناك الكثير من التوجيهات الإلهية لحماية تلك النفس من الذهاب حسرات في الدنيا والآخرة . من تلك التوجيهات :

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾<sup>(١)</sup>

إنه نهى عام عن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض ، سواء أى نوع من أنواع التفضيل ، في الوظيفة والمكانة ، وفي الاستعدادات والمواهب ، وفي المال والمتاع ، لأن هذا فيه إضاعة النفس في التطلع والحسد وما يصاحبه من حقد وحنق وشعور بالضيق والحرمان ، والتهاوى والتهافت ، أمام هذا الشعور ، مما يذهب بطمأنينة النفس ، ويورث القلق والفكر ، ولذلك كان النهى في صالح المؤمن لتحقيق الأمن له . فعليه ان يتوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، موئل الطمأنينة والرجاء ، ومبعث الإيجابية في تلمس الأسباب إلى الله الخالق الرازق .

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾<sup>(٢)</sup>

إنه تجنيد للنفس المؤمنة في مواجهة عواطفها لإقامة العدل حتى ولو كان هذا ضد أقرب الناس إلى تلك النفس ، ولكنه المنهج الإسلامي لإرساء دعائم العدل والحق لأنها الأساس في إشاعة الأمن والطمأنينة في المجتمعات بأسرها .

## ٧ — المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى

إن توثيق تلك العلاقات بين الناس نابع من أهمية ترابط أفراد المجتمع بحيث يصبحون جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الصادق المعصوم ، وقد سئل الرسول صلوات ربي وسلامه عليه أى العمل خير ؟ قال « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »<sup>(٣)</sup>

هذا في إفشاء السلام ابتداءً وهو سنة ، أما الرد عليه فهو فريضة يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا جئتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الآية ٣٢ من سورة النساء

(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء

(٣) الحديث

(٤) الآية : ٨٦ من سورة النساء



إن المجتمع الإسلامي بنى على السلام والأمن والحب وصلة الرحم . قال ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعطف على صغيرنا » <sup>(١)</sup>

وقال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » <sup>(٢)</sup>

وقال أيضاً : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » <sup>(٣)</sup>

إنه مجتمع قام منهم على الإحسان للوالدين ولذى القربى .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ <sup>(٤)</sup>

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾ <sup>(٥)</sup>

ومن منهجه الإحسان للجار : قال ﷺ :

« ظل جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » <sup>(٦)</sup>

● والإحسان إلى اليتيم ورعايته

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ <sup>(٧)</sup>

● والإحسان فى القول :

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾ <sup>(٨)</sup>

● والإحسان فى الميزان :

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ <sup>(٩)</sup>

● والإحسان فى الرد على الإساءة :

﴿ ادفع بالتي هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾ <sup>(١٠)</sup>

● والإحسان فى أداء الحقوق لأصحابها :

﴿ فمن عفى له من أخيه شيئاً فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾ <sup>(١١)</sup>

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ١ ، ص ٢٥٧

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الايمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده باب ٣ ص ١ ، ص ٩

(٣) الحديث أخرجه الامام احمد فى مسنده ص ٣ ، ص ١٧٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨

(٤) الآية ٢٣ من سورة الاسراء

(٥) الآية ٩٠ من سورة النحل

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٢٨ ص ٧ ، ص ٧٣

(٧) الآية ٣٤ من سورة الاسراء

(٨) الآية ٥٣ من سورة الاسراء

(٩) الآية ٣٥ من سورة الاسراء

(١٠) الآية ٩٦ من سورة المؤمنون

(١١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة

فأى أمن بعد ذلك لنفوس تهذبت بتلك التعاليم الربانية ؟ وأى أمن لمجتمع تشربت نفوس أفرادها تلك النفحات الإلهية ؟ وأى منفذ تركه الخبير الحكيم لأطباء علم النفس كي يلجوا منه لمعالجة ما لم يعالجه الرحمن الرحيم ؟

إنها تلك النفوس المطمئنة التي استجابت لله والرسول فكان عاقبة أمرها رشداً ورجعت إلى ربها راضية مرضية .

﴿ يا أيها النفس المطمئنة \* ارجعي إلى ربك راضية مرضية \* فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (١)

### ثالثاً : تحقيق الأمن للعقل

جاء الإسلام في ختام الرسالات السماوية ليعد البشرية للرشد العقلي ويؤهلها لاستخدام أعظم نعمة وهبها الله للإنسان — وهي العقل — استخداماً كاملاً في إدراك الحق الذي تنبث آياته في صفحات الوجود وفي أسرار الكون الذي جاء القرآن لكشفه وتجليته .. ولذلك فقد اهتم المنهج الرباني بتكريم العقل الإنساني لأنه أداة الإدراك البشري ووسيلته في تلقي الوحي الإلهي وإدراك مدلولاته فكان أعظم تكريم لذلك العقل هو تحقيق الأمن له حتى لا يتخبط تحت ضغط النزعات والشهوات والأهواء ويتيه في خضم الحياة ، وحتى لا يكون لله على الناس حجة بعد ذلك كما أنبأنا بذلك في دستوره الحكيم : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ (٢)

وقد شمل هذا المنهج الرباني لتحقيق الأمن للعقل عدة نقاط نعرضها فيما يلي :

### ١ — حماية العقل بالوحي الإلهي :

إن الله العظيم الرحيم الحكيم لا يدع هذا الكائن الإنساني وحده فهو الذي خلقه وهو يعلم سره وجهه وطاقاته وقواه ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التي يرجع إليها بتصوراته وأفكاره وأقواله وأعماله وأوضاعه ونظامه ليرى إن كانت صواباً وصالحاً أو كانت خطأ وفساداً .

ويعلم سبحانه وتعالى : أن العقل الذي أعطاه له يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ، ومطامعه ورغباته ، فضلاً على أنه موكل بطاقات الأرض التي له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلاً بتصور الوجود تصوراً مطلقاً ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة فهذا مجال العقيدة التي تأتي له من الله فتشبع له تصوراً سليماً للوجود والحياة ، ومن ثم وحماية لهذا العقل ورده إلى صحته وسلامته

(١) الآيات ٢٧ ، ٣٠ من سورة الفجر

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء

فإن الله يكل الناس إلى وحيه ورسله وهدايه وكتبه ، وهذا هو الذى يليق بكرم الله وفضله ورحمته وعدله ،  
فما كان ليخلق البشر ثم يتركهم سدى ، ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا  
﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾<sup>(١)</sup>

تقدير الله حق قدره يقتضى الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ويساعدون  
عقولهم على الخلاص من الضغوط والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل  
منهج الدعوة إلى الله وأنزل على بعضهم كتاباً تبقى بعدهم في قومهم إلى حين — ككتب موسى وداود  
وعيسى — أو تبقى إلى آخر الزمان كالقرآن العظيم الذى جاء به محمد ﷺ وهكذا فإن الله قد جعل  
حجته على الناس هى الوحي والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هى عقلهم البشرى ، ولا حتى فطرتهم التى  
فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به ، لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن  
الفطرة وحدها تنحرف وأن لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحي هو الرائد الهادى وهو النور  
والبصيرة ، والواقع يشهد أن الحياة الإنسانية التى قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو العلم هى أبأس  
حياة يشقى فيها الإنسان مهما فتحت عليه أبواب كل شئ ، ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ، ومهما  
تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق ، ومن هنا كان الوحي حماية للعقل وأمنا له  
بدل التيه في الفلسفات المادية ، ( مستفاد من كتاب « في ظلال القرآن » ) للشيخ سيد قطب .

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم \* الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾<sup>(٤)</sup>

## ٢ — تحريم المسكرات التى تذهب بالعقل :

قال تعالى في كتابه الكريم محرماً الخمر على عباده المؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم

تفلحون ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٢) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الانقطار

(٣) الآية ١٦٢ من سورة آل عمران

(٤) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(٥) الآية ٩٠ من سورة المائدة

ثم بين جل شأنه حكمة هذا التحريم بأنها السبيل إلى وقوع العداوة ، والبغضاء والتشاحن بين الناس ، وأنها تمنع عن ذكر الله وإقامة الصلاة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وإذا عرفنا أن ذكر الله يشمل كل عمل يقوم به المسلم وقلبه متصل بالحق لتبين لنا مدى الخسارة التي تتحقق من المسكرات لأنها تحرم المجتمع من ثمار عقل واع اتصل بقلب مطمئن بالحق ، فأنتج روائع العقل البشري . هذا فضلا عما تشيعه المسكرات من بقية المساوئ الأخرى التي تشيع القلق في المجتمعات البشرية وتحرمها من الأمن والطمأنينة .

### ٣ — دعوة العقل إلى جولة في الآفاق :

إن هذه الدعوة في حد ذاتها هي تحرير للعقل من القيود التي تكبله وتجعله يتعثر تحت ضغط الحاجات والمطالب ، حيث إنه بتجوله في الآفاق سيشعر بعظمة الخالق وقوته ، فيستمد منه مددا وقوة لينهض بالأعباء التكليفية التي خلق من أجلها ، كما أن هذه الجولة ستوقظه من سبات الغفلة وتفتح كل ما فيه من أذن واعية ومن طاقة فكرية :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾

( آل عمران — ١٩٠ )

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ . ( الحج ٤٦ )

إن هذه الدعوة بلا شك موعظة وعبرة من كل الوجوه :

فمن تشبع في العقل البشري حبه إلى المعرفة والإذعان أمام القوى المادية . ولهذا وجه المنهج الرباني الإدراك البشري لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية في الوجود كله وهي في ذاتها خوارق معجزة ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ويتألف منها قوامه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ . ( الإسراء ٩٩ )

﴿ وَقَدْ خَلَقْتِكُمْ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ ( مريم ٩ )

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ( الأعراف ١٨٥ )

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ فُرُجٍ \* وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ . ( ق ٦ ، ٧ )

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ وإلى السماء كيف رفعت ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾  
﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ ( الفاشية ١٧ — ٢٠ )

— وهذه الدعوة فيها شحذ للغزائم فيعرف الإنسان أن حل مشاكله ليس بالتراخي وندب الحظه إنما بالعمل والتفكير والإدارة .

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ ( العنكبوت ٢٠ )  
﴿ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون ﴾ ( الأنبياء ٣٧ )  
إن هذه الدعوة فيها تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ﴾ ( الروم ٤١ )  
﴿ وإنكم همرون عليهم مصبحين ﴾ وبالليل أفلا تعقلون ﴿ ( الصافات ١٣٧ ، ١٣٨ )

#### ٤ — مخاطبة العقل بما هو أهل له .

لا يوجد منهج يكرم العقل الإنساني مثلما يكرمه الإسلام ، ولا يوجد دين يشبع التطلعات العقلية ويحيب على تساؤلاتها مثلما يحيب الإسلام . ولا عجب فإنه خاتم الأديان والرسالات جاء ليتلاءم مع النضج البشري والقدرات العقلية المتطورة إلى آخر الزمان والأجيال .  
وقد نطق بهذه الحقيقة أعرأى على فطرة الله لم يتلون بأجهزة التوجيه والتأثير من شياطين الجن والإنس عندما سأله الناس : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأن دينه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليت ما أمر . وما نهى دينه عن شيء وقال العقل : ليت ما نهى .  
— ولذلك فقد قام القرآن أساسا على مخاطبة العقول البشرية لتدرك الحقيقة الأولى وهي أن هذا الدين من عند الله .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ . ( النساء ٨٢ )  
﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ ( محمد ٢٤ )  
﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ ( المؤمنون ٦٨ )  
﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ ( ص ٢٩ )  
— وقام القرآن ثانيا على وجود أحكام أساسية الحكم فيها لله ، وذلك حماية للعقل لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في المدى المحدود ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا ، وإلى جميع المصالح لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله ، بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة فلا يبنى أن يكون الحكم فيها أو في حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري . قال تعالى :  
﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ ( الأنعام ٥٧ )  
﴿ أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ ( المائدة ٥٠ )

﴿ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ ( الأنعام ٦٢ )

﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكَمًا عَرَبِيًّا ﴾ ( الرعد ٣٧ ) .

وقام القرآن ثالثاً على فتح المجال للعقول البشرية فيما لا نص فيه مما يجد من الأقضية في حدود ما أمر به الله ورسوله . وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي بالقدر الذى أراده الله له من التكريم في مجاله الذى يحسنه وهو معرفة نواميس الكون والإبداع في عالم المادة وهو ملك عريض . وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة وتوجهاً كبيراً حتى يألف الإدراك البشرى هذا اللون من النقلة وهذا المدى من الرق وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشرى في ظل التوجيه الربانى والضبط القرآنى والتربية النبوية قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية في آن واحد وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلى الذى يتلاءم مع تطوير الأجيال

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ( يونس ١٠ )

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۖ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾ ( الطارق ٥ ، ٦ )

﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ( الأنعام ٩٩ ) .

إن رسول الله ﷺ كان بحق خير من بلغ الرسالة وأدى الأمانة حيث كان في كل خطوة من خطواته سلوكاً تطبيقياً للمنهج الربانى فاستنهض المهم ، ووضع العقل البشرى في مكانته اللائقة به فكان يستشير أصحابه في كل الأمور التى لم ينزل بها الوحي وفتح مجال الاجتهاد على مصراعيه حيث قال : إنه للمجتهد إذا أصاب أجران ، وإذا أخطأ أجر — فأى تقدير للعقل أعظم من هذا التقدير وأى أمن له من التيه تحت ضغط التيارات الدنيوية أحكم من هذا الأمن . فهناك كتاب الله وسنة رسوله الكريم وسنة الخلفاء الراشدين ، لا يمكن أن يضل عقل أبداً استضاء بنورهم وسار في هديهم ، واجتهد ما وسعه الجهد تحت ظلهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مَنِىْ هَدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هَدَاىْ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى ﴾ ( طه ١٢٣ )

﴿ فَمَنِ أَظْلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ ( الأنعام ١٤٤ )

حقاً إن هدى الله هو الأمان للعقل وهو نور للفؤاد ، وماذا بعد الهدى إلا الضلال !! ؟

## رابعاً : تحقيق الأمن للعرض :

إن الإسلام عندما حدد منهجه في الحفاظ على العرض كان هدفه هداية الناس وحمايتهم من عوامل القلق ومن الانحراف في الهاوية ، وإعانتهم على التسامى في المرتقى الصاعد إلى السموات العلى . ولذلك فقد أهتم اهتماماً بالغاً بميدان الحفاظ على الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة التى يحب الله أن يلتقى عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور وتبشيعها وتقييحها في القلوب والعيون لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال تعالى موضعا نعمته الكبرى ومنتته العظمى علينا :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ( الروم ٢١ )

وقال جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾ ( النحل : ٧٢ )

إنها القاعدة الأولى في نظام المجتمع الإسلامي، هي الأسرة : جعلها الإسلام وحدة المجتمع وأصدر من القوانين والتشريعات الإلهية ما يحقق صيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط في الأنساب ينشأ من شيوعية الاتصال الجنسي أو ينشأ من انتشار الفاحشة وتلوث المجتمع بها . ومن أهم تلك القوانين فرض عقوبات صارمة على الزاني والزانية :

فإن لم يكونا متزوجين : قال تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ ( النور ٢ )

وإن كانا متزوجين : ما ورد في الحديث الشريف : كان مما يتلى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ورسوله<sup>(١)</sup> »

إن الأسرة القائمة على الزواج العلني الذي تخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان — وهو الحفظ والصيانة — هي أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية الناشئة من كونه إنسانا ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية — وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثناياها وتحقق أهداف المجتمع الإنساني كما يضمن لهذا المجتمع الأمان المطلق : أمن الضمير ، وأمن البيت ، وأمن المجتمع في نهاية المطاف ...

إن حماية الإسلام للعرض هو حماية لعرض كل المؤمنين من العدوان عليه : قال جل شأنه محذرا من هذا الانتهاك :

﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ ( الشعراء : ٦٦ )  
ولنعرف عظمة الوصف الإلهي بأن ترك ما أحل من الأزواج إلى غير ما أحل بأنه عدوان يشمل المجتمع بأسره يمكن النظر إلى حياة المجتمعات التي تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء في هذه العلاقة :

« لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هي المول الأول الذي حطم الحضارات القديمة : حطم الحضارة

(١) مسند أحمد ٥ / ١٨٣ والسنن الكبرى للبيهقي — كتاب الحدود — باب ما يستدل به على أن السبيل هو جلد الزانين ورجم الثيب ٢١١ / ٨ والحاكم في المستدرک — كتاب الحدود ٤ / ٣٦٠ وضع الباری کتاب الحدود — باب الاعتراف بالزنا ١٢ / ١٤٣

- الإغريقية ، وحطم الحضارة الرومانية ، وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هي التي أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة . وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة ، فيما يلي :
- في الأدب الفاحش الخليع الذي يدعو إلى انهيار المثل والمبادئ .
  - في الأفلام السينمائية التي تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني المدمرة .
  - في انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في عريهن وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .
  - انتشار موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات والإدمان على المخدرات وجرائم الاعتداء على النساء والفتيات الصغيرات وانتشار الأمراض السرية الفتاكة .
  - انتشار الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية وهو من أكثر العناصر في جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر . وهو أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن .
  - وجد أن الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم لا لأنهم في حاجة إلى المال ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة في المجتمع .
  - هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات المهربات والبحث عن الأزواج المهربين وذلك في مجتمع لا يدرى فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته في الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ، ولا تدرى الزوجة إن كان زوجها الذي خرج في الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش فيه البيوت في مثل هذا القلق كفيل بأن يحطم كل سعادة مادية يحصل عليها المرء .
  - هناك انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين . وهكذا تزيد نسبة الحياة القلقة الشريفة التي يعيشها هؤلاء الأطفال مما ينعكس على المجتمع بأسره .
  - إن سهولة تلبية الميل الجنسي ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد ، لا تدع مجالاً لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها ، مما يؤدي إلى الاتجاه نحو انقراض النسل . هذا مآله زوال الحضارة والاجتماع والفتاء آخر الأمر » ( مستفاد من ظلال القرآن الجزء : ٥ )

صدقت يارب العزة يا من قلت وقولك الحق :

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ ( الأنعام ١٥١ )

ثم خصصت الزنى بمزيد من التخصص ومزيد من النهي فقلت :

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة ومساء سيلا ﴾ . ( الإسراء ٣٢ ) .

وقال رسولك الكريم — صلوات ربي وسلامه عليه — :



« لا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولا يزني الزاني وهو مؤمن »<sup>(١)</sup>  
الإيمان أكرم على الله من ذلك .

« لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ،  
والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »<sup>(٢)</sup> .  
« إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً »<sup>(٣)</sup>  
« الزنا يورث الفقر »<sup>(٤)</sup> .

وهكذا فإن الذين يحسبون أن التقيد بمنهج الله وبخاصة في علاقات الجنس أمر شاق ومجهد يعيشون  
في وهم كبير ، فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحريم اللذة في كل تصرف ، والتجرد في علاقات الجنس  
من كل قيد أخلاق ومن كل التزام اجتماعي هذا كله يبدو يسرا وراحة وانطلاقا ولكنه في حقيقته مشقة  
وجهد . ونتائجها في حياة المجتمع بل وفي حياة كل فرد هو القلق وفقدان الأمن والانهيار في النهاية .  
وإنه لمفخرة للإسلام ذلك المنهج الذى وضعه الحكيم الخبير في المحافظة على العرض وتحقيق كل دواعى  
الأمان له ، لأنه علامة مضيئة وحجر راسخ في حياة المجتمعات الإسلامية يجعلها تعيش آمنة مطمئنة في  
كنف الإسلام الذى جاء من رب رحيم على يد رسول الرحمة الذى أعلنها بكل يقين الإيمان : وبكل  
نقاء الرسالة وصفائها وأمنها « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه »<sup>(٥)</sup>

### خامسا : تحقيق الأمن للمال :

إن المال هو عصب الحياة وقوام حياتها وعليه يتوقف تقدم المجتمعات ونهضتها ورخاؤها وعليه أيضا  
يتوقف أمن تلك المجتمعات وطمانيتها إذا آمنت بالطريقة المثلى لتداول المال بين الأفراد .  
ولأهمية المال القصوى في إدارة عجلة الحياة فإن المنهج الإسلامى اهتم اهتماما بالغاً بكل منفذ وكل  
طريقة يتم بها تداول المال سواء في الاستهلاك أو الادخار أو الاستثمار أو كيفية توزيع الدخول . ليس

(١) البخارى — كتاب الأدب — باب ما جاء في قول الرجل ويملك ٨ / ٤٨ ، ومسلم — كتاب الإيمان — باب قول النبي ﷺ :  
لا ترجعوا بعدى كفارا ، والنساء في تحريم الدم — باب تحريم القتل ، وابن ماجه في الفتن — باب لا ترجعوا بعدى كفارا حديث رقم  
٣٩٤٣ وأبو داود — كتاب السنة — باب زيادة الإيمان ونقصه ٥ / ٦٤ حديث ٤٦٨٩  
(٢) البخارى — كتاب الديات — باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ٩ / ٦ / ومسلم — كتاب القسامة — باب ما يباح به دم المسلم  
رقم ١٦٧٦ وأبو داود — كتاب الحدود — باب الحكم فيمن ارتد ٤ / ٥٢٢ رقم ٤٣٥٢ والترمذى — كتاب الحدود — باب في المرتد  
رقم ١٤٥٨ وقال : حسن صحيح والنسائي — كتاب تحريم الدم — باب الحكم في المرتد وابن ماجه — كتاب الحدود — باب المرتد  
عن-دينه رقم ٢٥٣٥

(٣) رواه الطبراني . مجمع الزوائد — كتاب الحدود والديات — باب ذم الزنا ٦ / ٢٥٥

(٤) الترغيب والترهيب — كتاب الحدود — باب الترهيب من الزنا ٣ / ٢٧١

(٥) أبو داود — كتاب الأدب — باب في الغيبة ٥ / ١٩٥ رقم ٤٨٨٢ والترمذى — كتاب البر — باب في شفقة المسلم على المسلم  
رقم ١٩٢٨ وقال : حسن صحيح ، وابن ماجه — كتاب الفتن — باب حرمة دم المؤمن وماله ٢ / ١٢٩٨ رقم ٣٩٣٣

هذا فقط بل أنه اهتم بالمال بعد وفاة المسلم عن طريق قوانين الميراث واهتم بالمحرومين من المال ففرض لهم الزكاة كركن أساسي من أركان الإسلام الخمسة وأضاف لهم الصدقات في حدود الثلث مما أفاض الله به على خلقه ووسع عليهم في رزقهم .

هناك قاعدة أساسية في التشريع الإسلامي يتفرع عنها مواد فرعية كثيرة كلها تهدف إلى تحقيق الأمن للمال . هذه القاعدة مكتوب على بابها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ . ( النساء ٢٩ )

إنه نهي عام عن كل طريقة يتم بها تداول الأموال لم يأذن بها الله أو نهى عنها ، ومنها السرقة والغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها وجميع أنواع البيوع المحرمة والربا في مقدمتها . وعقب ذلك النهي بما يوحى بالآثار المدمرة التي ينشئها أكل الأموال بالباطل في حياة الجماعة إنها عملية قتل للمجتمعات حيث يباع فيها ما ليس يباع كالعرض والذمة والضمير والخلق والدين .

فما هي الخطوات التفصيلية التي انتهجها الإسلام لتحقيق الأمن للمال ؟

١ — تشديد عقوبة السرقة والاعتداء على الملكية الفردية والاعتداء على أمن الجماعة .

قال تعالى وهو أحكم الحاكمين : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم ﴾ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . إن الله غفور رحيم ﴿ ( المائدة ٣٨ — ٣٩ ) .

إن قطع اليد تنكيل من الله رادع لكل من تحدته نفسه بالسرقة . وهو رحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة والأمن .

٢ — تحريم الاكتناز

إن اكتناز الأموال وحبسها عن التداول هو تعطيل لوظائفها الأساسية وحرمان المجتمع المسلم من الخير الذي سيعود عليها باستثمار تلك الأموال ومواجهة مطالبه واحتياجاته الأساسية وتحقيق الأمن لحياة الفقراء بعيداً عن شظف العيش قال تعالى في كتابه الكريم محذراً أشد التحذير لكل من تسول له نفسه اكتناز النقود وحبسها عن الاستثمار في الأغراض التي حددها الله لنا لتحقيق الرفاهية والتقدم للمجتمع المسلم :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ﴾ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ . ( التوبة ٣٤ — ٣٥ )

ويضرب لنا الله في القرآن الكريم أمثلة لقوم كنزوا المال فعوقبوا بالدمار فها هو ذا قارون يؤتى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . ويأمره قومه بالإحسان كما أحسن الله إليه فيقول : ﴿ إنما

أوتيته على علم عندي ﴿ فيكون المآل ﴾ ﴿ فخشفنا به وبداره الأرض ﴾ ( القصص ٨١ )  
 وها هو ذا ثعلبة يعاهد الله إن آتاه مالا ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فيؤتى المال ويىخل به ويكنزه  
 فتكون العاقبة : ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ ( التوبة ٧٧ ) .

### ٣ - تحريم الربا

إن تحريم الربا من أعظم الإجراءات فى المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للمال . فالربا هو توجيه المال  
 أى وجهة ، الهدف منها زيادة الربح بصرف النظر عن نوعية الاستثمار الموجه إليه ، هذا المال ، حتى  
 ولو كان فى أخط المشروعات وإن كان فى ظاهره يحقق عائداً مجزياً إلا أنه فى باطنه يحقق عائداً سلبياً  
 ليس على المجتمع ككل فقط ، وإنما على المستثمر نفسه . لأن الربا يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التى  
 تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التى يفرضها على الصناعة . وهذا  
 يؤدى إلى ارتفاع الأسعار مما يؤدى إلى ارتفاع تكلفة عوامل الإنتاج على المدى الطويل مما يسبب خسارة  
 المستثمر أو انخفاض نسبة ربحه . فإذا أراد ارتفاع تلك النسبة فإنه سيضطر إلى رفع سعر سلعته وهكذا  
 يدخل المجتمع فيما يسمى بالتضخم الحلزوني ، وهو ما يجر أوحم العواقب التى يعرفها الاقتصاديون جيداً  
 ويلمسها رجل الشارع فى ذلك الارتفاع الرهيب فى الأسعار وعدم قدرته على الوفاء باحتياجاته الأساسية  
 بنفس الدخل الذى كان يحصل عليه فيما مضى .. وهذا يؤدى إلى انتشار الفقر ، وزيادة وطأة أعباء  
 الحياة على الناس وهو ما يرفضه الإسلام أساساً لأنه دين العزة والقوة والرخاء . قال تعالى : ﴿ وما آتيم  
 من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم  
 المضعفون ﴾ ( الروم ٣٩ )

﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا  
 إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره  
 إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* يحق الله الربا ويرى الصدقات والله  
 لا يحب كل كفار أثيم ﴾ ( البقرة ٢٧٥ - ٢٧٦ )  
 ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾ ( آل عمران ١٣٠ )

### ٤ - تحريم الاحتكار

حرم الإسلام تحريماً قاطعاً تخزين كميات كبيرة من الناتج تؤدى إلى نقص المعروض منه فى السوق  
 أو اختفائه فلا يجد المسلم حاجته الضرورية إلا بأسعار مرتفعة ، وهذا يشكل عناء كبيراً على ذوى الدخل  
 المحدودة ويتنافى أساساً مع العدالة الاجتماعية والتكامل الاجتماعى الذى بنى عليهما الإسلام دعائمه .  
 إن الاحتكار معناه تحكم القلة فى الأغلبية . معناه قلق الناس وخوفهم الدائم من ارتفاع الأسعار بحيث  
 لا يقدرّون على مواصلة مسيرتهم فى الحياة .

قال تعالى في بيان عقوبة المحتكر الذى يسبب بتصرفه هذا تضخما اقتصاديا يجر الولايات على المجتمع بأسره :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴾ ( المائدة : ٣٣ )

وقال صلوات الله وسلامه عليه تأكيداً لذلك المنهج الرباني :

« من دخل في شيء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم ، كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة »<sup>(١)</sup> .

« من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس »<sup>(٢)</sup>

« من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله والله برىء منه »<sup>(٣)</sup> .

« بئس العبد المحتكر إن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح »<sup>(٤)</sup> .

فأى أمن يشعر به الإنسان على ماله واحتياجاته وهو يعيش في مجتمع تظلل تلك القوانين السامية حيث ترتقى بالبشرية إلى قمم سامقة ؟ !

٥ - الاهتمام بتوثيق الدين :

لما كان الإسلام دين الحياة فهو يراعى تلك الضرورة التي تلجئ الناس إلى الدين ، فنظمها أروع تنظيم بالمحافظة على حق الدائن والمدين وحماية حقوق كل منهما في تبادل الأموال . فجعل آية الدين أطول آية في القرآن الكريم وأمر فيها بكتابته كما أباح الرهن لتوثيق الدين قال تعالى في دستوره الحكيم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ويملأ الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يخس منه شيئا فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها . وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه

(١) مسند أحمد ٢٧/٥ والحاكم في المستدرک ( کتاب البيوع ) ١٢/٢ والبيهقى في السنن الكبرى ٣٠/٦

(٢) سنن ابن ماجه ( کتاب التجارات ) باب الحكرة والجلب ٧٢٩/٢ رقم ٢١٥٥

(٣) مسند أحمد ٣٣/٢ ومجمع الزوائد ( کتاب البيوع ) باب الاحتكار ١٠٠/٤ والحاكم في المستدرک ١٢/٢

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى - کتاب البيوع - باب الاحتكار ١٠١/٤

فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بل شيء عليم وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴿ ( البقرة ٢٨٢ — ٢٨٣ )

أى أمن وأى روعة أعظم من ذلك التنظيم البديع للدين ؟ ! فلا هضم للحقوق ولا ضياع للأموال بل لإحكام وأمان من لدن حكيم خبير .

## ٦ — الحفاظ على مال الضعيف :

إن تداول المال في المجتمع يستلزم خبرة ودراية عظيمتين . وكنز المال ممنوع في الإسلام . إذن ما هو الحل بالنسبة لمن عنده مال ولكنه ضعيف عن استثمار هذا المال مثل اليتيم والسفيه هنا يتدخل الشرع ليحكم حكمه العادل :

— بالنسبة لليتيم فعلى ولي أمره أن يستثمر ماله بالحكمة . بما يعود على اليتيم بالنفع وليحذر من تسول له نفسه بأن يستحل شيئاً من هذه الأموال قال تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ ( النساء ١٠ )

حتى إذا بلغ اليتيم رشده وأصبح قادراً على استثمار أمواله بنفسه وجدها قد نمت وربت مع الزمن فيستطيع ولي الأمر حينئذ أن يطمئن باله ويرتاح من المهمة التي كلفه الله بها وألقاها على عاتقه فقام بها خير قيام عملاً بقول الله عز وجل :

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ ( النساء ٢ ) .

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً ﴾ ( النساء ٦ )

— بالنسبة للسفيه فليس من الحكمة ترك المال بين يديه يبعثره كيفما يترأى له خياله المريض . بما ينعكس آثاره السيئة على المجتمع الإسلامى ككل . ولذا كان حكم الله — سبحانه وتعالى — بأن يكون هناك من يتولى أمر السفيه ويحرص على ماله لأن المال قوام الحياة وله الدور الإيجابي في إدارة عجلتها قال تعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ ( النساء ٥ ) .

## ٧ — تحريم الغش والرشوة :

إن الغش والرشوة وسيلتان للحصول على حقوق بدون وجه حق وهما وبال على المجتمع عندما يصاب بداء التراخي وحب الكسب السريع إنهما يؤديان إلى أسوأ تداول للمال يعود بأوخم العواقب على

الاقتصاد القومى كله . ولهذا كان هناك من القوانين الإلهية ما يردع تلك الأمراض الفتاكة التى يمكن أن تصيب النفوس البشرية وتحرم المال من أمن التداول فيما خلق الله له .

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ ( البقرة ١٨٨ )

وقال — صلى الله عليه وسلم — :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ »<sup>(١)</sup>

« لعن الله الرشوة والرائش والمرتشى »

أما بشأن الغش الذى يؤدى إلى الحصول على أموال بطرق غير مشروعة فإنه يخس لحقوق الناس وفساد فى الأرض ما بعده فساد ، له عقوبة تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف لأنه سمع قول الحق — تبارك وتعالى — ولم يستجب له . ﴿ يا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ ( هود ٨٥ ) .

ولأنه خرج من تبعية أمة محمد الرسول الأمين الذى قال — صلوات ربي وسلامه عليه — « من غش فليس منا »<sup>(٢)</sup>

إن ما عرضناه من مقتطفات عن كيفية تحقيق المنهج الإسلامى الأمن للمال يعتبر قطرة من محيط لأن ذلك المنهج عظيم كل العظمة ، عميق كل العمق ، فأنى لقلم أن يوفى ذلك المنهج حقه ، ويكفيها أن نردد قول الحق — سبحانه وتعالى — :

﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر عيده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ ( لقمان ٢٧ )

[ صدق الله العظيم ]

قوله تعالى : ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ أى يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة ، وهم آمنون من انقطاعها ، ومن غائلة أذاها ومكرها ، فهى ليست كفاكهة الدنيا التى نأكلها ونخاف مكروه عاقبتها أو نخاف نفادها فى بعض الأحيان قال تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة \* لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) رواه الطبرانى والبيهقى ورجال الطبرانى رجال الصحيح — مجمع الزوائد — كتاب البعث — باب ما جاء فى الحساب . ١٠ / ٣٤٦

(٢) مسلم — كتاب الإيمان — حديث رقم ١٦٤

وابن ماجه — كتاب التجارات — باب النهى عن الغش ٢ / ٧٤٩ رقم ٢٢٢٤ والترمذى — كتاب البيوع — باب فى كراهية الغش

٣ / ٥٩٧ رقم ١٣١٥

(٣) سورة الواقعة الآيات : ٣٢ ، ٣٣

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم ، بين أن حياتهم في هذا النعيم دائمة لا يلحقها موت ولا فناء فقال تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ أى : لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها ثم قال : ﴿ إلا الموتة الأولى ﴾ على الاستثناء المقطع ، أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا . وقيل : « إلا » بمعنى سوى ، أى : سوى الموتة التى ماتوها في الدنيا .

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كرش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت »<sup>(١)</sup> وروى أبو هريرة وأبو سعيد — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أى : وهم مع هذا النعيم قد نجاهم من العذاب الأليم فأعطاهم ما يطلبون ، ونجاهم مما يهربون كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم \* فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم \* كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون \* متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ﴾ ( الطور ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ) .

وقوله تعالى : ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أى : فعل ذلك بهم تفضلاً منه عليهم ، إذ وفقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة ( ذلك هو الفوز العظيم ) أى : السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة .

عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله — عز وجل — يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطينا ما لم نعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فإنا يسرناه بلسانك ﴾ يعنى القرآن العظيم أى : سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أى : يتعظون وينتجعرون . كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ فختم السورة جل في علاه بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً ، كما قال في مفتتح السورة ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ .

(١) التؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجنة ونعيمها — باب النار يدخلها الجبارون والنار يدخلها الضعفاء ص ٨٠٠ رقم الحديث ١٨١١ ومسلم — كتاب الجنة ونعيمها — باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤ / ٢١٨٨ رقم ٢٨٤٩

(٢) صحيح مسلم — كتاب الجنة وصفة نعيمها — باب دوام نعيم أهل الجنة ٤ / ٢١٨٢ رقم ٢٨٣٧

(٣) صحيح مسلم — كتاب الجنة وصفة نعيمها — باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً ٤ / ٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩

وقوله تعالى : ﴿ فارتقب إنهم مرتقبون ﴾ أى : انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ، حكاة النقاش وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة .  
﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿ ١ ﴾ .

## تفسير سورة الجاثية

مقدمة :

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية بالإجماع . عدد آياتها : سبع وثلاثون آية .

وعدد كلماتها : أربعمائة وثمانون . وحروفها ألفان ومائة وتسعون .

ومجموع فواصل آياتها : ( من ) .

ولها اسمان : سورة الجاثية ؟ لقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ ، وسورة الشريعة لقوله تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمتكبرين ، وبيان النفع . والضرب والإساءة والإحسان وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان ، وذم متبعى الهوى ، وذل الناس فى المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأبيد الكفار فى النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ ، وأفصح مقال فى قوله تعالى : ﴿ فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾ وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

المتشابهات : ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ نزلت فى اليهود وقد سبق قوله ﴿ نموت ونحيا ﴾ سبق . وقيل : فيه تقديم وتأخير أى : نحيا ونموت . وقوله تعالى : ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت ﴾ بالباء موافقة لقوله : ﴿ ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ قوله : ﴿ سيئات ماعملوا ﴾ لتقدم : ﴿ كنتم تعملون ﴾ ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ قوله : ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ تعظيماً لإدخال الله المؤمنين فى رحمته .

مناسبتها لما قبلها :

أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها فى الأغراض والمقاصد .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتَلَفِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩﴾ مَنْ وَرَّاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا هُدًى وَالسِّدِّينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴿١١﴾

### معاني المفردات

(لآيات) لعبارة ، (يث) أى : يفرق وينشر (اختلاف الليل والنهار) أى : تعاقبهما ليل بعد نهار ، ونهار بعد ليل (من رزق) أى : من مطر وشمس سمي بذلك لأنه سبب له (وتصريف الرياح) أى : تغييرها من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال . (الأفاك) كثير الإفك والكذب (الأثيم) كثير الإثم والمعاصي . (يصر) الإصرار على الشيء : ملازمته . (من ورائهم) أى : بعد آجالهم (يغنى) يدفع (أولياء) أى : أصناماً (الرجز) أشد العذاب .

### التفسير

قوله تعالى :

(حَمَّ) هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأى القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم .

وقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ أى : إن هذا الكتاب الكريم أنزله العزيز الغالب القاهر لكل شيء ، الحكيم فى تدبيره لكل ما خلق ، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية والروحية ، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الإنسانية ودوران الكواكب وانتظامها

في سيرها ، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ومن ثم أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة فقال تعالى :

﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .

قوله تعالى : ﴿ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾ أى : إن في السموات السبع اللاتي منهن ينزل الغيث ، وفي الأرض التي منها يخرج الخلق — لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم ، فيرتب المقدمات ، ليصل فيها إلى النتائج التي هي لازمة لها بحكم النظام الفكري والترتيب العقلي ، وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التي في الآفاق أتبعها بذكر الأدلة التي في الأنفس فقال تعالى :

﴿ وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ أى : وإن في خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسي ، وفي خلق ما تفرق في الكون من الدواب — لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء فيقررونها بعد العلم بصحتها . وقوله تعالى : ﴿ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ أى : وإن في تعاقب الليل والنهار عليكم ؛ هذا بظلمته وسواده ، وذاك بنوره وضياؤه ، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها ، فتتيز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها ، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم ، وفي تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرة وجنوبية أخرى ، صباً مرة ، ودبوراً أخرى — لأدلة وحججاً لله على خلقه الذين يعقلون عنه حججه ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر ونحو هذه الآيات قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم .

قوله : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى : هذه آيات القرآن بما فيها من حجج وبيّنات ، نتلوها عليك متضمنة للحق . ﴿ فَبَأَىٰ حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴾ أى : فبأى حديث أيها القوم بعد حديث الله الذى يتلوه على رسوله ، وبعد حججه وبراهينه التى دلکم بها على وحدانيته — تصدقون إن کذبتم به .

فإذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات ولا تنقادون لها ، فمى تؤمنون ؟ وإلام تنقادون ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

وبعد أن بین للكفار آياته ، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعدها يؤمنون ؟ أتبعه بالوعيد العظيم لهم فقال تعالى :

﴿ وَيَلْ لَّكُلْ أَفَّاكَ أَتَيْمٌ \* يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أى : فالويل أشد الويل ، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب فى قوله ، أئيم فى فعله . ﴿ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ أى : إذا سمع آيات الله تقرأ عليه ، وهى مشتملة على الوعد والوعيد ، والإنذار والتبشير ، والأمر والنهى ، والحكم والآداب ، أصر على الكفر بها وجعلها عنادا كأنه ما سمعها كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ \* وَإِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَآءَةٌ فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ <sup>(١)</sup> .

ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليماً فى نار جهنم فقال :

﴿ فَبَشْرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أى : فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم الموجه فى جهنم وبئس القرار . وفى تسمية هذا الخبر المحزن بشرى ، وهى لا تكون إلا فى الأمر السار — تهكم بهم ، واحتقار لشأنهم كما قال سبحانه : ﴿ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَن لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ أى : وإذا وصل إليه خبرها وبلغه شىء منها ، جعلها هزواً وسخرية ، فقد روى أن أباً جهل حين سمع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ \* طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ دعا بتمر وزبد وقال لأصحابه : تزقموا من هذا ، ما يعدكم محمد إلا شهداً ، وحين سمع قوله تعالى ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ﴾ أى على النار قال : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى .

(١) سورة لقمان الآيتان : ٦ — ٧

(٢) سورة النساء الآية : ١٣٨

﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى : أولئك الأفاكون المتصفون بتلك الصفات لهم العذاب الذى بينهم ويذهبهم فى نار جهنم بما كانوا فى الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته ، واتخاذهم لها هزو

وقوله تعالى : ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أى : ومن وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر جهنم المراد أنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها كقوله : ﴿ وإن جهنم مخيطة بالكافرين ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ﴾ أى : ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد .

﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أى : ولا تغنى عنهم أصنامهم التى عبدوها من دون الله شيئا ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أى : قوله تعالى : ﴿ هذا هدى ﴾ ، والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴿ هذا هدى ﴾ أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أيها الرسول هاد إلى الحق وإلى طريق مستقيم لمن اتبعه وعمل بما فيه فهو حبل الله المتين ، والنور المبين ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه كما قال تعالى : ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾

﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى : والذين جحدوا بآياته الكونية فى الأنفس فمروا عليها وهم عنها معرضون ، وجحدوا بآياته المنزلة على رسوله الكريم لهم العذاب المؤلم الموجه يوم القيامة .

من نعم الله تعالى على عباده

قال تعالى :

\* الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ فِيهِ فُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾  
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ  
لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مِّنْ عَمَلٍ صَالِحًا

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢

فَلَنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ  
وَالنَّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيْنَتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا  
اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ بِقِصِّ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ  
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ  
لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتِي  
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا  
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ يَتَّخِذُ الْنَهْرُ مَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ  
عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا  
مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾  
وَإِذَا تَنَادَّوْا عَلَيْهِمْ ؕ ائْتَيْنَا بَيْنَتٍ مَّا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِشَايَا بَشَرًا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ  
اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

### معاني المفردات

( سحر ) هياً ، ( الفلك ) السفينة ( الابتغاء ) الطلب ، ( يغفر ) أى : يعفو ويصفح ( لا يرجون )  
أى : لا يتوقعون حصولها ، ( أيام الله ) وقائه بأعداء دينه ، ( الكتاب ) المراد به الكتب التى نزلت  
على أنبياء بنى إسرائيل ، ( الحكم ) الفصل بين الناس فى الخصومات ، لأنهم كانوا ملوكاً ، ( بينات  
من الأمر ) أى : دلائل واضحات فى أمر الدين ، ويندرج فيها معجزات موسى — عليه السلام —  
( بغياً ) أى : حسداً وعناداً ، ( على شريعة من الأمر ) أى : على طريقة ومنهاج فى أمر الدين .  
وأصل الشريعة مورد الماء فى الأنهار ونحوها ، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب  
منه ، ( بصائر للناس ) أى : معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب ، ( الاجترأ ) الاكتساب ، ومنه  
الجارحة للأعضاء التى يكتسب بها كالأيدى والمراد بالسيئات : سيئات الكفر والإشراك بالله .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف الحجج الدالة على — ربوبيته ووحدانيته — أردف ذلك ذكر آثارها ، فمن ذلك تسخير السفن في البحار ، ومنها تسخير باقى السموات والأرض من شمس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها فى مرافقكم وشئونكم المعيشية . ثم أمر المؤمنين بمحاسن الأخلاق ، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين ويحتملوا أذاهم ، وعند الله جزاؤهم فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ويوم القيامة يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر . ثم ذكر بعد ذلك — تسلياً لرسوله — بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، بل طريقهم طريق من تقدمهم . فلقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعم كثيرة وقد حصل بينهم الاختلاف بغيا وحسداً . ثم أمر الرسول بأن يتمسك بالحق ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين ، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية تهتدى بها القلوب الضالة عن طريق الحق ، فتلزم الجادة وتصل إلى طرق النجاة ثم يبين سبحانه أنه لا يسوى بين المحسن والمسيء وذكر الدليل على هذا بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق المقتضى للعدل والانتصاف للمظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسيء فى الجزاء ، وإذا لم يكن هذا فى الحياة كان فى دار الجزاء حتماً ، لتجزى كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب أو بمضاعفة عقاب . ثم عجب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى واضل الله وهو العليم باستعداداته وخبث طويته ، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بعظة ، ولا يفكر فى آية ، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار ، فمن تعبد الله يهديه ؟ أفلا تتذكرون وتفكرون فى هذا ؟ ثم ذكر سبحانه حماقة أخرى من حماقتهم ، تلك أنهم أنكروا البعث وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام لا مستند لها من نقل ولا عقل ، فأمر الله رسوله أن يحبيهم بأنه هو الذى يحبيهم ثم يميتهم ، ثم يجمعهم فى يوم لا شك فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى : إن ذلك الخالق الواحد الذى أقمت لكم الأدلة على وجوده — هو الذى يسر لكم استخدام البحر لتجرى فيه السفن بإذنه وقدرته حاملة أوقاتكم ومتاجركم لتقوم بشئونكم المعيشية ، ولتطلبوا رزق ربكم منه ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم ، فتعبده وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ﴾ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿ أى : وسخر لكم جميع ما خلقه فى سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم وتقوم به معاشكم ، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم والنباتات والمطر والسحاب والرياح ، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والبحار والسفن رحمة منه وفضلاً ﴿ جميعاً منه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ وكل هذه أدلة ناطقة على أنه الله الذى لا إله غيره ، لمن تأمل فيها واعتبر بها وتدبرها حق التدبر ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ فى خلق السموات والأرض ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار .

ألا إننا كننا بئاد	وأئى بنى آدم خالداً
وبدوهم كان من ربهم	وكل إلى ربه عائداً
فيا عجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يحجده الجاحد
وفى كل شئ له آية	تدل على أنه الواحد

## وللعلم فى عالم البحار والأنهار كلمة

قال الدكتور / عزت محمد خيرى فى كتابه « دلائل الحق فى عظمة الخالق » تحت عنوان المياه .. مصادرها وخواصها وأهم منافعها ما نصه :

قال تعالى : ﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ ( ٢٤ - الروم ) .

حقاً إن الماء شريان الحياة فوق الأرض للإنسان والحيوان والنبات ، والعلم يشهد بأنه من أهم ، إن لم يكن أهم المواد الكيميائية على الإطلاق . فالماء يغطى حوالى ثلاثة أرباع سطح الأرض ، ويصل فى أعماقه فيما يتراوح بين الأمطار بالنسبة للأنهار وعشرات الكيلو مترات بالنسبة للبحار ، ويدخل الماء بنسب كبيرة فى تكوين الكائنات فى الدم والخلايا والأنسجة فى النبات والحيوان والإنسان ، فيحتوى جسم الإنسان على حوالى ٦٥ ٪ من وزنه ماء ، ويحتوى اللبن على ٨٥ ٪ ، وثمار البطيخ مثلاً على ٩٢ ٪ والبطاطم على ٩٤ ٪ منه . ومن ناحية أخرى يحتوى جو الأرض على حوالى ١ - ٥ فى المائة بالحجم من بخار الماء تتغير من مكان إلى آخر وإن وجود بخار الماء فى طبقات الجو العليا له من الأهمية العظمى للحياة على الأرض ما يجعلنا نسجد لله شاكرين إذ أنه يمتص الأشعة تحت الحمراء من الشمس فلا يسمح بأن يصل منها إلى الأرض إلا القدر الذى يحفظ الحياة عليها ، وكذلك يعمل بخار الماء فى الجو كحافز لكثير من عمليات الاحتراق والعمليات الطبيعية الأخرى .

وللماء من الخواص الطبيعية المميزة له عن المواد الأخرى ما يؤثر تأثيراً أساسياً فعلاً على الحياة الطبيعية والبيولوجية مما سيأتى ذكره فيما بعد وكان القدماء يعتقدون أن الماء عنصر وليس مركباً ، إلى أن تمكن العالم كافندش من إثبات تكونه عند احتراق الهيدروجين فى الهواء وكان ذلك عام ١٧٨١ ميلادية ، وفى عام ١٧٨٣ أثبت لافوازييه التركيب الجزيئى للماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأكسجين ، ويوجد العنصران فى الماء بنسبة وزنية تبلغ ٢,٠١٦ إلى ١٦,٠٠٠ .

والماء كما نعلم نوعان أساسيان ، ماء عذب ، وماء ملح ، الأول مصدره الأصلى المطر ، والثانى مصدره البحر والمحيط ، والماء ينزل من السماء إلى الأرض ويتبخر من الأرض إلى السماء فى دورة موزونة وبقدر معلوم منظوم تتجمع السحب وترزخ ، وتتحرك وتلقح ، وتتطابق وتتعانق وتتشاحن وتتكهرب ، وتبرق وترعد ، وتفيض وتهطل وتهبط إلى الأرض فتحيى وتبهى يقول العليم القدير :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ ( البقرة - ١٦٤ )

وماء المطر يكاد يكون نقياً خالصاً من الآثار الضئيلة من الغازات المذابة الموجودة فى الهواء وأهمها النتروجين والأكسجين وثانى أكسيد الكربون والقليل جداً من النشادر وحمض النتروز وحمض النتريك ونواتر النشادر ، وفى بعض المناطق الصناعية قد يذيب ماء المطر آثاراً من حمض الكبريتوز والكبريتيك ، كما يحمل ماء المطر معه بعض ذرات التراب . هذا ولا تزيد نسبة الشوائب فى ماء المطر على أجزاء صغيرة فى المليون ( تتراوح بين ٥ - ٧ فى المليون ) . ويمكن أن يستقبل ماء المطر فى خزانات طبيعية أو صناعية أو يتجمع على سطح الأرض فى أنهار أو جداول تسير شرايين للحياة ومنايع للخير والفضل وتصب فائضها فى البحر ، وقد تساب مياه الأمطار تحت سطح الأرض إلى أعماق صغيرة أو كبيرة وتتفجر من هذه الأعماق تحت الظروف المناسبة كينابيع وعيون ، أو تحفر لها الآبار لتفتح أمامها طريق الخروج إلى سطح الأرض .

أما ماء البحر ( والمحيطات ) ، فيكون حوالى ٩٨ ٪ من المحتوى المائى للكون وهو يحتوى على نسبة من المواد المذابة تبلغ فى المتوسط ٣,٥ ٪ من وزنه - وقد تصل هذه النسبة إلى ٢٥ ٪ فى البحار المقفلة كالبحر الميت مثلاً - منها حوالى ٢,٦ ٪ على هيئة كلوريد الصوديوم ( ملح الطعام ) ، والباقي يشتمل على أملاح المغنسيوم والبوتاسيوم والكالسيوم وغيرها من العناصر على هيئة كلوريدات أو كبريتات أو بروميدات أو يوديدات .

وفى الحق يمكن اعتبار المحيطات والبحار على أنها مخازن هائلة ومصادر زاخرة للكيمياويات تشتمل



تقريبا على كل العناصر المعروفة بنسب متفاوتة . ومن الطريف والمفيد أن نعلم أن الحجم الكلى لماء البحر يقدر بحوالى ١٣٥٠ مليون كيلو متر مكعب ، يحتوى كل كيلو متر مكعب منها على حوالى مليار طن من ماء البحر .

ولكل من النهر والبحر فوائده العديدة ومنافعه الكبيرة لا يبغي أحدهما على صنف الآخر بل يبقى كل منهما محتفظا بصنفيته والبرزخ محط الحياة ، يقول تعالى :

﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ ( ١٩ — ٢٠ الرحمن ) ينبع النهر ومصدره مدرار من عذب مياه الأمطار ويسير في طريقه من مستواه العالى إلى مستوى البحر المنخفض فيلتقى به ويصب فيه ما زاد على مستوى مساره وما فاض عن مجال استغلاله . وإذا يلتقى ماء النهر العذب بماء البحر الملح الأجاج يحتفظ كل منهما بصفاته اللهم إلا من جزء صغير قصير يقع في جوار المصب تجد على جانبيه الماء العذب في النهر والماء المالح في البحر . وقد أثبت العلم بنظرياته هذه الحقيقة الملموسة على سطح الأرض كما أثبتنا بالنسبة للمياه الجوفية وأمكن تحديد المستويات التى يوجد عندها الماء العذب والمستويات التى يوجد عندها الماء الملح ، بما يدل على عظمة الخلق وبقاء النعمة والفضل فماذا كان يحدث لو اختلط العذب بالملح ، أكانت هناك حياة لنبات أو حيوان أو إنسان بمثل هذا اليسر والفيض ..... ؟ أما كنا محتاجين لنشرب ونسقى ونروى إلى الطاقات الهائلة والوسائل المعقدة والتكاليف الباهظة لكي نجعل من الملح الأجاج عذبا ؟

يقول تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ( الأنعام ٩٩ ) . قلنا : إن الماء من الخواص الطبيعية والتركيبية مما يؤدي دورا هاما في الحياة بمختلف صورها ، وفيما يلي نقتطف اثنتين من هذه الخواص لأهميتها الخاصة :

١ — الماء مذيب قوى قادر على إذابة الكثير من المواد خاصة ذات التركيب الأيوني ، وذلك يرجع إلى ماله من خاصية القطبية الكهربائية وإلى ثابت العزل الكبير له ، وتعزى هاتان الخاصيتان للتركيب الألكترونى والفراغى لجزيئات الماء إذ إن هذه الجزيئات تتربط مع بعضها البعض عن طريق ما يسمى بروابط الهيدروجين بفعل قوى الجذب بين الشحنة الموجبة حول الهيدروجين والسالبة حول الأكسجين في كل جزء . ومن ثم يصبح الماء وسطا مهما لسائر العمليات والتفاعلات الكيميائية والبيولوجية . ولعل من أبسط الخصائص التى يتميز بها الماء في هذا المجال وأهمها أثرا هو أن الماء قادر على أن يذيب الأكسجين بنسبة أكثر من إذابته النتروجين ( وكلتاها نسبته صغيرة ) وعلى ذلك فإن الهواء المذاب في الماء يحتوى على نسبة أكثر من الأكسجين عنه في الجو ولولا ذلك ما تمكنت الأسماك وسائر الأحياء المائية أن تعيش في الماء ومعلوم أنها لا تستطيع الحياة في الهواء خارج الماء .

٢ — يتميز الماء بأنه المركب الوحيد الذى يكون وزن الحجم المعين منه أكبر فى الحالة السائلة عنه فى الحالة الصلبة ، ولذلك نجد الثلج يطفو فوق سطح الماء السائل . ويعزى ذلك إلى أنه نظراً لتركيب جزيئات الماء السابق بيانه تزداد نسبة الروابط الهيدروجينية وبالتالي يزداد تجمع هذه الجزيئات فى الحالة الصلبة عنه فى الحالة السائلة وبالتالي يكون الحجم فى الحالة الصلبة أكبر منه فى الحالة السائلة أى : أن الكثافة تكون أصغر بالنسبة للثلج عنها بالنسبة للماء عند نفس درجة الحرارة ( درجة الصفر المئوى ) . وقد ثبت أن الماء تكون له كثافة كبرى عند درجة ٤ مئوية وهى الوحدة ولعل هذه الخاصية هى إحدى النعم الكبرى التى خص بها الله عباده فى الأرض فلو أن الماء سلك مسلك غيره من المواد لهبط الثلج فى الشتاء إلى قاع المحيطات والبحار ، بل والأنهار فى بعض البقاع ، ولما تمكنت حرارة الشمس أن تصل إليه فى الربيع والصيف ، ولتراكمت الثلوج وتجمدت الأحياء فى المحيطات والبحار ، ولحدث ما يتضاهى عن ذلك الشيء الكثير .

هذه بعض المعلومات عن الماء ومازال عنه الكثير وهذه إحدى دلائل الحق فى عظمة الخالق .

## الماء كوسط للحياة ووقود للمستقبل

إنه لعجيب مثير ذلك السائل البسيط شكلاً عظيماً فعلاً وأثراً ، المتنوع فضلاً ونفعاً ، إنه الماء نعمة الله الكبرى على مخلوقاته فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات ، إنه ذلك السائل الذى يصفه الخالق جلّت قدرته بقوله :

﴿ وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ ( ٥٤ — الفرقان )  
 ﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ ( ٦٥ — النحل ) .

﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً ﴾ ( ٤٨ ، ٤٩ الفرقان ) .

ولا غرو فإن الجوانب المتعددة للماء فى الحياة تجعله يلعب أدواراً أساسية تجذب اهتمام كل عامل فى المجالات الفيزيائية والكيميائية ، والبيولوجية والجيوفيزيائية ، والجغرافية ، والفيزيائية الجوية والفلكية ، وإن كلا من هذه المجالات الواسعة الغنية تجد فى الماء — كما لا تجد فى أية مادة فى الطبيعة — مزايا وخصائص فريدة وفوائد حيوية .

ولكى ندرك أهمية الماء كوسيط للحياة نشير إلى الحقيقة التى توصل إليها علماء وظائف الأعضاء ( الفسيولوجيا ) وهى أن كل عملية يتبعها تحول فى المواد فى الكائنات الحية — فى الإنسان بصفة خاصة — لا يمكن أن تحدث إلا إذا كانت نواتجها فى حالة ذوبان ، وأهم المذيبات لهذه النواتج الماء ،

وكذلك فإن أهم العمليات الحيوية — الكيميائية والبيولوجية — في الكائنات الحية تتم في وسط مائى مثل عمليات التنفس ، وبناء الأنسجة وتجديدها والتمثيل الغذائى ، والهضم والإخراج .

ويعتبر المشتغلون بالجغرافيا أن الماء يقع بمثابة الأداة الأساسية التى صاغها الله — الخالق الإنشائى للطبيعة — لتدخل في تركيب مكوناتها ، وتتغلغل في ثنايا موجوداتها ، وتسبح في جو كوكبنا الأرضى بخارا إلى تكثيف وتتراكم سحباً زاحرة فتسقط بعد ذلك ماء عذباً طهوراً كل ذلك من صنع الخلاق القادر . وحقاً إن كل دارس متأمل في قصة الماء في الطبيعة يستطيع أن يقرر دون أدنى شك أنه لا يوجد أى جسم صلب في الطبيعة لا يدخل الماء في تركيبه ، يقول بذلك — عن بحث وفحص ومشاهد وتجريب — علماء الطبيعة الأرضية ( الجيوفيزيقياء ) والكيمياء الأرضية ( الجيوكيمياء ) ونبشنا المشتغلون بالأرصاد الجوية على أساس تعرفهم لدورة الماء في الطبيعة أنه ما من عملية أساسية في الطبقة الحية من الأرض — الغلاف الجوى أو البيوسفير — إلا وتدخل فيها الماء . ولعل من أهم هذه العمليات وأظهرها عمليات تغذية النبات التى تتم بفضل خاصيتين غميزتين هامتين أودعهما الخالق الوهاب في هذا السائل العظيم — الماء — ألا وهما الخاصية الشعرية الناشئة عن الارتفاع غير العادى للشد السطحي للماء — الذى يعتبر أكبر شد سطحي للسوائل جميعاً — والقدرة الهائلة للإذابة بهاتين الخاصيتين يذيب الماء الأملاح النافعة في التربة وينقلها بالخاصية الشعرية خلال شعيرات النباتات ( في الجذور والسيقان ) فتسرى فيها بشريان الغذاء والنماء وتنبت من كل الثمرات .

هذا ويقرر كل المشتغلين بالكيمياء الحيوية — شأنهم في ذلك شأن المشتغلين بالفيزيكا الفلكية — أن الحياة بصورها المتعددة تعتمد في وجودها أكثر ما تعتمد على المياه التى ثبت أنها تعمل كوسط أساسى لتكوين المركبات العضوية المتراكبة الداخلة في بناء الأجسام والكائنات الحية . حقا إنها لصنعة عزيز متعال قوى قادر — يحاجى بها الكفار ويحكى قصة الخلق وإرادة أن كن فيكون في قوله تعالى :

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون ﴾ ( ٣٠ — الأنبياء ) .

وتبين أهمية الماء للحياة على الأرض وللکائنات الحية في المحيطات والبحار من نبات وحيوان في عبور سريع على دورة الماء في الطبيعة خاصة فيما بين الأنهار والبحار ، فتحمل الأنهار يومياً ٣٥ ألف كيلو متر مكعب من الماء من اليابسة لتصبها في المحيطات ( أو البحار ) وتحمل هذه المياه معها ما يعادل حوالى ٣,٥ مليارات من الأطنان من المواد المذابة والعالقة سنوياً نظراً للقدرة الفائقة للماء على الإذابة مما تجعل تيارها قادراً على نحت أعنى الصخور الجرانيتية ، ومن ثم فإن مياه البحار والمحيطات تصبح غنية بالأملاح والمعادن — ويقدر عدد العناصر التى أمكن التعرف عليها في مياه المحيطات بحوالى الخمسين عنصراً . وأن وجود هذه الأملاح والمعادن يعتبر أساساً لتغذية الكائنات الحية التى تعيش أو تنبت في هذه المياه أو في قيعان المحيطات كما تسهم في إذابة نسبة كافية من الأكسجين أكبر منها في الهواء تحفظ التنفس

على الأسماك والحيوانات المائية . وتتبخر مياه المحيطات تدريجياً فتكون السحب وتسقط هذه الماء العذب على الأرض فيقيم الحياة فوقها وتسرى الأنهار محملة بالمزيد من الأملاح والمعادن فتصب في المحيطات ( أو البحار ) وهكذا تسير الدورة مؤكدة قانونا طبيعيا حافظا ومنظما للحياة . ويقول العلم كما ينطق الواقع بأنه بدون هذه العلاقة الموزونة بين الماء العذب الفرات في الأنهار والماء المالح الأجاج في المحيطات ( والبحار ) فإنه لا حياة على كوكب الأرض . يقول تعالى :

﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ( ١٢ - فاطر ) .

وتجلى أهمية المياه في حياتنا على كوكب الأرض إلى جانب كونها وسطاً أساسياً لتكوين المادة الحية وتطورها ، في أن المحيطات تستطيع أن تحمي الكثير من المواد العضوية من التأكسد إذ أن المحيطات تحوى في قيعانها الكثير من المواد العضوية من النباتات والمخلفات الحيوانية فتحفظها بعيدة عن تأثير أكسجين الجو المؤكسد ومن ثم تقيها من التلف ويمثل ما تحمي طبقة الأوزون في الطبقات العليا من جو الأرض ، تحمي الأرض من تسرب المقادير الزائدة من الأشعة فوق البنفسجية التي ترسلها أشعة الشمس وفقاً لما تقتضيه ظروف الحياة على الأرض ، فإن الماء يمتص كذلك قدرأ من هذه الأشعة مما يولد حماية إضافية للكائنات والمواد الحية الموجودة في أعماق المحيطات والبحار وتبقيها خزناً للرزق والغذاء تغترف منه البشرية عند الحاجة التي تتزايد مع الانفجار السكاني والتقدم العمراني في عصر ثورة العلوم والتكنولوجيا .

ولعله من المفيد في صدد الحديث عن مياه المحيطات ( والبحار ) أن نشير إلى ما دلت عليه الحسابات والتقديرات عن مقاديرها الهائلة ، وما يحاول العلم أن يفسر به هذه المقادير العظيمة التي تتزايد مع الزمن . فقد تبين أن المحيطات تحتوى على ما يقرب من مليار ونصف مليار كيلو متر مكعب من المياه ، أى : ما يعادل تقريباً جزءاً من ثمانمائة جزء من حجم الكرة الأرضية ولما كانت هذه الكميات تعادل ما يمكن أن تصبه الأنهار خلال ثمانية وثلاثين ألف عام ، فإن البحث والعلم كانا وما يزالان وراء هذه الحقيقة الناطقة بمحاولان لها تعليلاً ولحدوثها تفسيراً . وهناك من الشواهد والدلائل العلمية ما يشير إلى أن جزءاً من مياه المحيطات مصدره المياه تحت الأرضية المصاحبة لخروج الغازات متفجرة من باطن الأرض من مختلف الأعماق ، وتعتبر البراكين كذلك مصادر لمقادير محسوسة من المياه سواء في الجو أو في المحيطات تقدر سنوياً بما يعادل عشر كيلو متر مكعب من المياه .

هذا عن المياه ومصادرها وعن دورها العام في الحياة ، أما عن دورها كمصدر مهم للطاقة في المستقبل فإن ذلك يعتبر نتيجة أساسية لتحضير الماء الثقيل بكميات كبيرة وبالتالي الحصول على الهيدروجين الثقيل — الديوتيريوم والقليل من التريتيوم وهو أساس توليد الطاقة الحرارية النووية عن طريق الانصهار

النوى الذى يحول الهيدروجين إلى الهليوم مصاحباً بتصاعد مقادير هائلة من الطاقة .  
ويحضر الماء الثقيل من عمليات التحليل الكهربائى المستمرة لأوقات طويلة للماء العادى والمحاليل  
المائية أثناء تحضير غاز الهيدروجين اللازم لكثير من الصناعات أهمها صناعة النشادر والأسمدة النتروجينية  
( شركة كيما بأسوان مثلاً ) .

وختاماً لهذا الحديث عن الماء — وما أعذب الحديث عنه وأغزره دعنا نرنو بأبصارنا ونجول بنحوطنا  
ونناقش ما يحمله العلم لمستقبل المياه فنحن نعلم أن الأرض تفقد الماء فى الطبقات العليا لجوها الواقعة  
فى مدى ٧٠ إلى ٩٠ كيلو متراً فوق سطح الأرض ، وذلك نتيجة للتفكك الشديد الذى يصيب جزئيات  
الماء بفعل الدفعات الكثيفة المركزة من الأشعة فوق البنفسجية التى تبعث بها الشمس . ويتبع ذلك تصاعد  
غاز الهيدروجين الناتج — وهو أقل الغازات كثافة — إلى الطبقات العليا متجاوزاً جو الأرض إلى الفضاء  
الخارجى ، وهذه تصل فى ارتفاعها إلى ما يقرب من ٦٥٥ كيلو متراً ، ويسبح آنثذ فى أجواء الكواكب  
الأخرى . وقد توصل العلماء إلى التعرف على ما يسمى ( بريح الشمس ) وهى تيارات تسبح فى الفضاء  
بين الكواكب بسرعة تتراوح بين ٣٠٠ كيلو متر فى الثانية فى حالات هدوء الشمس ، وبين ٩٠٠  
كيلو متر فى الثانية عندما تكون الشمس فى أوج نشاطها ومقابل هذا الفقد لجزئيات الماء فى الطبقات  
العليا ، هناك من الدلائل العليا ما يؤكد احتمال تكون جزئيات للماء بطريقة مباشرة فى الطبقات العليا  
من جو الأرض نتيجة لاتحاد الأكسجين الموجود فيها مع الهيدروجين الذى تدفعه رياح الشمس ( أو  
الزوابع الشمسية ) إلى هذه المستويات ، ويطلق بعض العلماء على الماء المتكون عن هذا الطريق تعبير  
« أمطار الشمس » وفى ذلك ما يعوض الفقد الذى أشرنا إليه . سبحانه الله يحفظ على عباده النعمة ويجزل  
العطاء ويهب الحياة إنه رحمن عزيز مفضل :

﴿ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل \* له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا  
بآيات الله أولئك هم الخاسرون \* قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ ( ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ —  
الزمر ) .

## المحيطات مصادر للخير وأمل للمستقبل

﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا  
يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ ( ٥٩ — الأنعام ) .  
— يزداد تعداد السكان فى العالم ازدياداً مضطرباً بمرور الزمن لأسباب عدة أهمها تقدم العلوم والطب  
والتكنولوجيا والثقافة وكذلك نتيجة للتحويلات الاجتماعية . وقد كان عدد سكان الأرض منذ ألف عام  
أقل من ٣٠٠ مليون ، وفى بداية القرن العشرين قفز هذا العدد إلى ١٥٠٠ مليون ، وفى سنة ١٩٦٤  
أصبح ٣٢٠٠ مليون ، ويقدر خبراء الأمم المتحدة أن يصل التعداد إلى ٦٠٠٠ مليون نسمة عند نهاية  
هذا القرن .

وليس هناك صعوبات ضخمة سوف تواجه مشكلة إيواء هؤلاء السكان حيث إنهم منتشرون على مساحات واسعة من العالم ، كما أن تقدم فنون العمارة والإسكان أتاحت الامتداد الرأسى فى المباني وأمكن إنشاء العمائر الضخمة التى تمتد إلى مئات من الطوابق ، ولكن المشكلة الرئيسية هى مشكلة الغذاء التى يعانى منها عالمنا الحاضر إذ أن نصف سكانه تقريباً يعانون نقصاً فى الغذاء ، ويقدر المتخصصون أن مصادر الغذاء يلزم أن تتضاعف ثلاث مرات بينما تزداد المنتجات الحيوانية ست مرات مع نهاية هذا القرن لكى تفى بحاجة سكان الأرض آنئذ .

وقد دعا ذلك — وسوف يزداد هذا الاتجاه امتداداً مع الزمن — إلى الاتجاه نحو المياه والمحيطات بوجه خاص كمصادر للغذاء ومخازن للمعادن وغيرها من الثروات الطبيعية . وقبل أن نعدد هذه الخيرات نشير إلى إحصائية طريفة تبين أن الكوكب الذى خلقنا الله فيه والكون المحتوى له قادر بإذن الله أن يمد أضعاف أضعاف سكان الأرض من الإنسان والنبات والحيوان بالغذاء والكساء والرزق . فإذا أخذنا طاقة الشمس نجد أن النباتات تمتص ٥٥ ٪ من الطاقة الساقطة عليها وتعكس منها حوالى ٢٧,٥ ٪ وينفذ خلالها ١٧,٥ ٪ من هذه الطاقة . ومن كل هذه الطاقة الممتصة الهائلة لا يتحول منها إلى شغل مفيد إلا ٢,٢ ٪ فى المائة تستهلك فى عملية التمثيل الغذائى للنباتات الخضراء بينما يستهلك الجزء الباقى فى تبخير الماء . ومن الحساب السابق يتبين أن حوالى ٣١ ٪ فقط من طاقة الشمس البالغة ٦٣٨ مليار كيلو وات ساعة — التى تصل إلى سطح الأرض هو الذى تمتصه النباتات الخضراء ، منه ٢٠ ٪ فقط تمتصه نباتات اليابس والثمانين فى المائة الباقية تمتصها نباتات الماء فى المحيطات والبحار .

وعلى الأساس السابق يمكن القول بأنه إذا ما كانت كل النباتات الخضراء محتوية على الغذاء أو على المحاصيل الغذائية فإن مقدار طاقة الشمس التى تمتصها السطح اليابس من الأرض يمكن أن يوفر غذاء لحوالى ٥٠ ألف مليون نسمة من البشر ، ويقفز هذا العدد إلى ٢٩٠ ألف مليون إذا ما استخدمت مصادر الغذاء فى المحيطات والبحار . سبحانه الله خلاق منعم وهاب رزاق مانح . هذا والمجال مفتوح أمام البشر لمحاولة زيادة قدرة امتصاص النباتات الخضراء لطاقة الشمس ومن ثم زيادة مصادر الغذاء والكساء للبشر واستيعاب المزيد من سكانها .

ولما كانت النسبة العظمى من هذه الطاقة من نصيب نباتات المحيطات والبحار فإن أمل المستقبل يتركز بصفة خاصة فى حسن الاستفادة من حصيلة هذه الطاقة من غذاء وخيرات لنفع البشرية وقوامه الحياة على الأرض ، خاصة إذا علمنا أن هذا التناج يمكن أن يصل فى مجموعه إلى حوالى ألف ضعف لما تنتجه الأرض اليابسة . حيث إن سمك أكثر طبقات مياه البحر لإنتاجاً للنبات يبلغ حوالى ١٠٠ — ٢٠٠ متر بينما يبلغ سمك تربة اليابسة من أخصب أراضيها مالا يزيد على ثلاثة أمتار . وبالإضافة إلى ذلك فإن أعشاب البحر تحتوى على أربعة أو خمسة أضعاف ما يحتويه نبات التربة اليابسة من المواد البروتينية العضوية ، فضلاً عن أنها تتكاثر بنسبة تفوق كثيراً جداً تكاثر النباتات الأرضية ، ويستهلك

جزء ملحوظ من هذه الأعشاب لتغذية المملكة الحيوانية لحيوانات البحر من أسماك وغيرها وهذه بالتالى مصادر هائلة للغذاء . يقول تعالى :

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . ( ١٤ - النحل ) .

ويعتقد بعض العلماء أنه لن يمر وقت طويل حتى تؤدى أغذية البحر النباتية إلى تغيير جذرى فى عاداتنا الغذائية ، حيث يبلغ نسبة البروتين فى أعشاب البحر ٥٠ ٪ مقارنة بحوالى ٢١ ٪ فى اللحم ، كما أن هذه الأعشاب غنية بالدهون التى تكون من ربع إلى خمس وزنها الكلى ومن مزايا أعشاب البحر فضلاً عن كونها صالحة لغذاء الإنسان والحيوان فإنها مخصبات ممتازة للتربة ، وتعتبر خامات أساسية للعديد من الصناعات الغذائية وصناعات النسيج وغيرها من الصناعات مما يمثل أملاً عظيماً للمستقبل . فيسكن أعماق البحار ٥٥ نوعاً من الحيوانات من بين ٦٣ نوعاً تعيش فى كوكبنا ، ولم يستفد الإنسان حتى الآن إلا من النزر اليسير من هذه الثروة البيولوجية ، حتى بالنسبة للثروة السمكية فلا يستهلك منها سنوياً إلا حوالى ٥٠ مليون طن من حوالى ٥٠٠ أو ألف مليون طن قابلة للاستغلال ، وما بالناس لو زادت العناية بتنمية الثروة السمكية على المستوى العالمى فيما يطلق عليه ( الحقول السمكية ) . هذا ويمكن استئناس بعض حيوانات البحر بإعداد المكان الملائم والغذاء المناسب والحقول المهيأة وبالتالي يمكن تنظيم تكاثرها واستغلالها على نطاق واسع . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن المحيطات والبحار تحتزن مقادير هائلة من المواد المذابة تشتمل تقريباً على جميع العناصر المعروفة للإنسان ، ويمثل ملح الطعام الجزء الأكبر من هذه المواد المذابة إذ تقدر كميته فى مجملتها بحوالى ٤٨ ألف بليون طن ، ونعلم ما لهذا الملح من استخدامات فائقة لا كغذاء فحسب بل فى صناعات كثيرة منها صناعة الصودا الكاوية والكلور وحمض الهيدروكلوريك وكربونات الصودا وكلها من المواد الأولية الهامة .

وما يقال عن المواد المذابة فى الماء من المحيطات والبحار يقال بنفس الدرجة عن الرواسب المعدنية الهائلة فى قاع هذه المحيطات والبحار فقد تم اكتشاف رواسب معدنية تبلغ عدة أضعاف ما يوجد فى باطن الأرض ، ولم يستغل الإنسان منها إلا ما يوجد على قرب من الشواطئ .

وقد تبين وجود كميات ضخمة من خامات الفيررو منجنيز المحتوية على الحديد والمنجنيز فى الطبقات العليا من قاع البحر وما زالت تنتظر الوقت لاستغلالها غير المحدود كما يوجد البترول تحت سطح الماء بمقادير ضخمة ويوجد الفحم والكبريت وغيرهما من العناصر .

هذا ومن المشكلات الهامة التى يواجهها الإنسان النقص فى مصادر المياه العذبة وفقاً لمتطلبات الحياة وخاصة استخدام الأراضي الشاسعة البعيدة عن الأنهار والآبار . ومن ثم برزت أهمية إزالة الملوحة من مياه المحيطات والبحار وسارت شوطاً كبيراً نحو التطبيق على أسس اقتصادية باستخدام الطاقة النووية ، ومن المقدر أن إنشاء محطات قوى من هذا النوع سوف تكون متعددة الأغراض ، بالإضافة إلى إنتاج

المياه العذبة سوف تنتج مقادير كبيرة من الأملاح لاستخدامها كمواد أولية في الصناعة ، ومثل هذه المحطة لو كانت تنتج مليون كيلو وات ساعة تكون قادرة على إنتاج حوالى ٤ مليون طن من الماء العذب يوميا تغذى احتياجات مساحة يقطنها ٤ مليون نسمة بما فى ذلك الاحتياجات الصناعية . وبالإضافة إلى ذلك يمكن إنتاج ١٠٠ ألف طن من ملح الطعام ، ٣٥٠٠ طن من البوتاسيوم ، ٥٠٠ طن من المغنسيوم ، ٣٠٠ طن من البروم وأكثر من عشرة آلاف طن من حمض الكبريتيك يوميا . وبعد فهذه بعض من كل ما تزرخ به المحيطات والبحار من خيرات ومنافع ودليل آخر من جملة أدلة على عظمة الوجود وقدرة الموجد وعزته وفضله سبحانه خالق السموات والأرض المانح الوهاب .

## تركيب وشكل أعماق المحيطات

وقد دخلت جيولوجيا المحيطات فى السنوات الأخيرة عمراً جديداً صاحب التقدم الكبير فى علوم البحار — بفروعها المختلفة الطبيعية والكيميائية والجيولوجية — والتطور العظيم فى الأجهزة والأدوات العلمية . ولقد أضافت الدراسات الجيولوجية إلى مجالات بحثها وفحصها على سطح الأرض — البالغة مساحته حوالى ٦١ مليون ميل مربع — ما يقرب من ١٥٠ مليون ميل مربع من قيعان المحيطات . ولعل من أهم الاكتشافات الجيولوجية الحديثة فى ميدان المحيطات والبحار ذلك الحدث الكبير الذى يتمثل فى اكتشاف الأخدود العجيب بين وسط المحيط الأطلنطى ووسط المحيط الهندى ، الذى يتكون من سلاسل جبلية ضخمة الأبعاد تبدأ شمالاً قرب رايكجان فى جزيرة إيسلنده وتمتد نحو الجنوب موازية لشواطئ أوروبا ، وشمال أمريكا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية ، ثم تلتف بالقرب من رأس الرجاء الصالح فتدخل المحيط الهندى وتستمر حتى تنتهى عند شبه الجزيرة العربية . ويتصل بهذا التكوين الضخم الهائل فروع تتجه شرقاً وغرباً . وقد كان هذا الاكتشاف الذى تم فى أعقاب جهود علمية وتكنولوجية رائعة دوى عظيم فتح الباب للعديد من البحوث والدراسات ووضعت من أجله النظريات والتفسيرات وكلها تنطق بعظمة الخالق ودقة الصنع يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ ( ٣١ — لقمان ) .

وما زالت معلوماتنا عن طبيعة وتكوين السلاسل الجبلية الرئيسية غير كاملة ويحتاج التعرف على تفاصيلها إلى المزيد من البحث والفحص والدرس وما نعلمه عن الفروع المتشعبة منها ما زال أقل بكثير من معرفتنا بالسلسلة الأصلية . وتنقسم هذه السلاسل الضخمة إلى جبال تفصلها وديان يتراوح عددها بين اثنين وسبعة وديان . وتقع أشد المناطق عمقا فى المحيط الأطلنطى — تلك المنطقة الواقعة تحت خط الاستواء تماماً والتي يطلق عليها أعماق رومانشى ويصل عمقها إلى حوالى ٤,٥ ميل بحرى .



وخلافاً لهذا التركيب الجبلى العجيب فى المحيط الأطلنطى ممتدا إلى المحيط الهندى ، لم يستدل على وجود مثل هذا التكوين فى المحيط الهادى ، وإن كان قد أمكن التعرف على وجود بعض المرتفعات الواسعة الممتدة كالدروع فى قاع هذا المحيط مثل سلسلة هاواى وسلسلة وسط المحيط الهادى التى تتركز عليها الجزر الممتدة من هاواى إلى ميداوى وجزر مارشال . وقد دلت الدراسات المختلفة أن هذه السلاسل تختلف تماما فى الشكل والتركيب عن الجبال الموجودة فى قاع الأطلنطى فمثلاً وجد أن سلسلة هاواى شبه السطحية تمتد لمسافة ٢٥٠٠ ميلا ، وهى تختلف ارتفاعا وفى التركيب تماما عن جبال المحيط الأطلنطى .

ومن دلائل الاختلاف بين طبيعة قاع المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى أنه بينما يلاحظ أن أخذود وسط الأطلنطى يمثل من هنا أو هناك مراكز وآثار الزلازل متوسطة القوة ، يلاحظ أن الأغوار العميقة التى توجد فى مواقع مختلفة من المحيط الهادى تعتبر مواقع لأشد الزلازل وأقواها ، إذ تنتقل طاقاتها السيزمية بصفة مستمرة خلال باطن الأرض ومن حول كوكبنا . ولم يستدل على وجود أمثال هذه الفجوات العميقة فى قاع الأطلنطى فيما خلا فجوة رونسون شمالى بورتوريكو ، مما يرجح أن هذا الجزء من المحيط قد يكون تابعاً من حيث طبيعته الأرضية للمحيط الأطلنطى .

— هذا ويوجد اختلاف ثالث هام بين طبوغرافية ( تخطيط ) المحيطين الهادى والأطلنطى وهو تلك التتواءات العديدة المنفردة الموجودة بارزة فى بعض المناطق بالمحيط الهادى والتى تم اكتشافها قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بينما لم تكتشف مثل هذه التتواءات الجبلية فى المحيط الأطلنطى . وهذه التتواءات فى المحيط الهادى ذات طبيعة بركانية شأنها شأن البراكين المعروفة : فيزوف واتنا وفيوجيوما ، وتتميز هذه التتواءات بأنها ترتفع تحت سطح المحيط بأطوال مرتفعة تصل فى بعضها إلى مسافة ٤٥٠٠ قدم وفى البعض الآخر إلى ١٥٠٠ قدم تحت السطح أو أقل من ذلك . ومن الملفت للانتباه أنه أمكن بواسطة كراكات خاصة الحصول على أحافير أصيلة من أمثال هذه التتواءات البحرية مثل نتوء « هيس » — يرجع عمرها إلى ما بين الدهرين الكريتارى الأسفل والأوسط ، وتتألف هذه الأحافير من صدقات وقواقع وأحجار مرجانية من الأنواع التى توجد فى المياه الضحلة مما يدل على أن هذه التتواءات كانت قائمة قريبة من السطح ثم أخذت فى الغوص تحته مع الزمن .. وقد دلت عمليات الحفر على وجود طبقات سمكية من هذه الهياكل مما يثبت عمليات الهبوط المستمرة للتتواءات تحت المائية فى هذا المحيط العظيم . ولعل من الاكتشافات المذهلة التى توصل إليها العلم عن طريق الحفريات الحديثة هو الوصول إلى القاعدة البازلتية للجبل تحت الدهر المبكر الثالث أى من المرجان الأيوسينى ، وترجع أهمية ذلك إلى حقيقة أنه لم يتم التعرف على أى تركيب جيولوجى مماثل لهذا فى أية منطقة من مناطق الأرض يمكن انتاؤه إلى الدهر الكريتارى المبكر ، أى منذ حوالى ١٣٠ مليون سنة ويكون تركيبها مستمرا بنفس التخطيط وذات القانون والنظام البنائى الهندسى .

وبعد فهذه بعض الملامح عن هذا التكوين العجيب لأحواض المحيطات وبعض ما كشف عنه العلم من خفايا عالم الأعماق أو ما يسمونه الفضاء الداخلي ، وناهيك عما تزخر به هذه الأعماق من فضل وخير من نبات وحيوان ورزق عميم يفتح أمام البشرية آفاقاً وآمالاً وينطق بفضل الله ورحمته الواسعة ، ويشهد بعظمته وقدرته ويدفع إلى مزيد من الإيمان واليقين . وإلى سعى صادق وعمل دائب لاستجلاء المزيد من الدلائل على عظمة خالق الوجود . صدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم :

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً ﴾ ( ٥٣ - الفرقان ) .

﴿ أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ( ٦١ - النمل ) .

## الماء وبعض خصائص حياة النبات

تمثل المملكة النباتية — كأصل للحياة — واحدة من أوسع الموجودات تنوعاً وتعدداً وانتشاراً ، بل إنها تتميز بقدرة فائقة على التجدد والتأقلم والاستمرار في دورات متواليات . كلما بذرت أينعت فأخرجت فأثمرت وكلما أخذت أعطت ، وكلما حصدت أربت ، وإذا أعيد الزرع أو البذر عادت فأخرجت ، وهكذا دواليك في حياة متجددة وفي قدرة خالصة مطلقة على البقاء لفترات محدودة في أطوار محدودة تحت الظروف المواتية من حيث الطقس والبيئة . ولعل أهم دور للنبات كأصل للحياة البيولوجية هو قدرته التى بثها فيه الخالق — عز وجل — على تكوين الكربوهيدرات ( السكريات ) اللازمة للحياة من المواد غير العضوية . وتحولها ذاتياً إلى المواد الحية في الخلايا ، وهناك الكثير من النباتات ما تستخلص كذلك نتروجين الهواء الذى يدخل أيضاً في تكوين المواد الحية . ومن ثم فإن النبات يقوم ذاتياً بعمليات البناء اللازمة لنموه مختلفاً في ذلك عن غيره من الكائنات الحية ...

وجدير بالذكر أن خاصية البناء الذاتى في النبات لا تكفى وحدها لعمليات استزراع المناطق الجرداء ، بل يجب الاستعانة في ذلك بالكائنات الحية العضوية التى تمتد حياتها في غالب الأحيان لأزمنة طويلة في ظروف بيئية قد لا تسمح بحياة النبات متمثلة في مختلف صورها من عمليات تحول المواد أو النمو أو الإنبات والإزهار والإثمار . وفي مثل تلك المناطق الجرداء حيث درجة الحرارة والرطوبة النسبية تكونان قاصرتين عن إقامة الحياة النباتية المتطورة ، فإن النبات في مثل تلك الظروف — أو بعض أجزائه — يكون متعرضاً لحالة نقص شديد في الماء يجعله في حالة يمكن أن يطلق عليها حالة « توقف الحياة » حيث تكون بذور النباتات الورقية ، والطحالب « الأشن » ونبات عش الغراب وكذلك البكتريا في حالة من

الجفاف لا تحتوى إلا على نسبة ضئيلة من الماء لا تتعدى ١٠ — ١٥ فى المائة ، ومن ثم لا تظهر عليها أية دلائل من مظاهر الحياة ...

— والماء أساس هام لحياة النبات ومعيار أساسى من المعايير المحدودة لظروف بقاء النبات ، فالماء مكون رئيسى للخلايا الحية ، ووسط هام لمختلف التفاعلات الكيميائية والحيوية التى تتم فيها . ومع هذه الأهمية القصوى للماء فإن النبات — شأنه شأن سائر الكائنات الحية — يحتاجه بقدر وميزان ، فلو زاد الماء فى التربة التى ينمو فيها النبات عن مقنن معلوم تعرض النبات للتلف أو الفساد وربما للموت والانتهاء ، وإذا شح الماء كان الضعف أو الجذب ووهنت مظاهر الحياة أو انقطعت . يقول تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسميون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ ( ١٠ ، ١١ — النحل )

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ ( ١٨ — ١٩ — المؤمنون ) . هذا وقد ثبت أن العامل الرئيسى الذى يتحكم فى تزود النبات بالماء هو ضغط الماء فى التربة ، ويختلف ذلك من نبات إلى آخر ، فالأجزاء الممتدة تحت سطح الماء من النباتات الزهرية لا تستطيع أن تحتفظ بحياتها على أبعاد أكثر من خمسة أمتار تحت السطح رغما عن أنها تستطيع أن تأخذ أكثر من حاجتها من الضوء ، الأمر الذى يعود أثره إلى ضغط الماء . وفى مثل هذه النباتات يكون ضغط الماء هو العامل المتحكم — بعد الضوء — فى حياة النبات . وبالتالي فى صلاحية التربة للإنبات . وقد ثبت علميا أنه إذا زاد ضغط الماء على حوالى نصف جوى اضطربت عمليات التمثيل الغذائى والتحول خاصة عند مرحلة التحضير إلى حد أن النمو يتعرض إلى تعطل واضطراب شديدين . ولكن النباتات الدنيا يمكن أن تتحمل ضغوطا أعلى من ذلك كثيرا ، بينما البكتريا يمكن أن تحتفظ ببقائها الحى تحت ضغوط تصل إلى عدة آلاف مثل الضغط الجوى .

وهناك عامل آخر هام يتحكم فى عمليات الإنبات والنمو ألا وهو ما يسمى بالعامل الكيميائى سواء من حيث تكوين التربة أو من حيث ملوحة المياه ، فإذا ما زادت نسبة الأملاح عن الحد المعين — يختلف من نبات إلى آخر — أصبحت عملية النمو فى النبات غير ممكنة ، وأصبح من المستطاع التعرف على نسبة الملوحة فى أية تربة عن طريق استخدام نباتات تجارب مختلفة يطلق عليها اسم النباتات الكشفية ، ومتابعة نموها ، وذلك دون استخدام أجهزة التحليل الكيميائى المتداولة . وتقع البكتريا والطحالب الزرقاء فى مواقع الجدارة بالنسبة لقدرتها على احتمال ملوحة التربة .. وغنى عن البيان أن موضوع الملوحة أو القلوية ، وعموما التكوين الكيميائى للتربة ، يلقي عناية كبيرة من العلماء لا سترزاع الأراضى البور أو الجرداء واستنباط المحاصيل والنباتات التى يمكن أن تتأقلم تحت مثل هذه الظروف . ونعلم أيضا أن

عمليات الإنبات والنمو تحتاج إلى عناصر رئيسية أهمها التروجين والفسفور والبوتاسيوم يلزم تزويد التربة بها على هيئة أسمدة إذا ما كانت مفتقرة إليها .

والخلاصة أن النباتات على تنوعها وتعددتها وتصنفها تتحكم فيها عدة عوامل بيئية متشابكة ، وإن جهد الإنسان قد امتد إلى إمكانية التحكم في بعض هذه العوامل أو كلها بطرق صناعية حتى يستطيع أن يستغل الأرض أحسن استغلال وأن ينهل من رزق الله الوافر ما وسعه النهل وأن يواجه في النهاية مشاكل الانفجار السكاني ونقص الغذاء .

والحقيقة الخالدة أن الخالق الرازق الوهاب يهيئ للإنسان دائماً مصادر الحياة ويسخر له ما في الأرض جميعاً من نبات وحيوان ومعادن وخيرات لتبهي حياته وتحفظ بقاءه . إنه عزيز مفضل .

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾

( ٦ - يس ) .

تفسير

قوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ \* من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أى : ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلال والجهاد هكذا روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وقادة .

وقوله : ﴿ ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ أى : إذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله — عز وجل — مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أى : تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزىكم بأعمالكم خيرها وشرها .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ﴾ وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعل الملك فيهم ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾ أى : من المآكل والمشارب ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أى : في زمانهم ﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أى : حججا وبراهين وأدلة قاطعات فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة وإنما كان ذلك بغيا منهم بعضهم على بعض ﴿ إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا

فيه يختلفون ﴿١﴾ أى : سيفصل بينهم بحكمه العدل وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ولهذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿٢﴾ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين \* هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴿٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿٢﴾ ثم جعلناك على شريعة من الأمر ﴿٤﴾ الشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ومعنى جعلناك على شريعة من الأمر أى على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق ، وقال ابن عباس : ( على شريعة من الأمر ) أى : على هدى من الأمر وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض .

وقوله تعالى : ﴿٣﴾ فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴿٥﴾ أى : فاتبع ما أوحى إليك ، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله ولا شرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم . قال تعالى : ﴿٦﴾ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئاً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون \* وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون \* افحكم الجاهلية يغنون . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴿٧﴾ .

وقال تعالى : ﴿٨﴾ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالكت من الله من ولى ولا واق ﴿٩﴾ .

وهنا قال تعالى : ﴿٩﴾ إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴿١٠﴾ أى : إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً ، ﴿١١﴾ وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴿١٢﴾ أى : أصدقاء وأنصار وأحباب قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أحباب اليهود

وقوله تعالى : ﴿١٣﴾ والله ولى المتقين ﴿١٤﴾ أى : ناصرهم ومعينهم . كقوله تعالى : ﴿١٥﴾ إن ولى الله الذى

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٨ — ٥٠ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٣٧ .

نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين \* والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ أى : هذا القرآن وحده — وليس غيره — دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، وتعرفهم سبيل الهدى ، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ، وهو تنزيل من رب العالمين ، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى .

### كلمة في الشريعة الإسلامية

قال الدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله :

الشريعة الإسلامية هي كل ما جاء به محمد ﷺ عن الله — عز وجل — سواء ما يتعلق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشري من رق الوثنية والتقليد والخرافات .. وما يتعلق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيف الأهواء ، وفتنة الشهوات .. وما يتعلق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم والفوضى والاستبداد .

ومن أجل هذا كله جاءت الشريعة بنظام مدنى ينظم علائق الناس بعضهم مع بعض ، وعلائقهم بالسلطة الحاكمة ، ويصون لهم حقوقهم ويؤمن للجميع مصالحهم ، ويحقق فى الأرض عزتهم وسيادتهم . وعلى ضوء ما ذكرناه يتضح أن الشريعة تقوم على ثلاث دعائم أساسية عقيدة عقلية ، وعبادة روحية ، ونظام قانونى قضائى وهذا يدل — بما لا يقبل الجدل والشك — على أن الإسلام دين ودولة . ومن هنا ندرك معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ ( المائدة : ٣ )

### خصائص الشريعة ومزاياها

من الأمور المسلم بها ، والمجمع عليها لدى فقهاء الشريعة وعلماء القانون .. أن لكل نظام من الأنظمة سواء كان ربانياً أو وضعياً .. لابد له من مزايا يعرف بها ، وخصائص تكشف عن هويته وتفسح عن حقيقته . فإذا كان الأمر كذلك فما هى المزايا والخصائص التى تتصف بها شريعة الإسلام على غيرها ؟ وبعبارة أدق : ما هى طبيعة نظمها ومبادئها ؟

أرى أن هذه المزايا والخصائص تتركز في المبادئ التالية :

### ١ — الربانية :

نقصد بالربانية أن أحكام هذه الشريعة وأنظمتها ليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز ، والتأثر بمؤثرات المكان والزمان والثقافة ومؤثرات الوراثة والمزاج والهوى .. وإنما شارعها صاحب الخلق والأمر في هذا الكون ورب كل من فيه وما فيه الذى أحسن كل شئ خلقه .

والمؤمن حين يطبق المنهج الربانى على نفسه يندفع إليه بكليته وهو مسرور مرتاح عن رغبة وصدق وإخلاص . لماذا ؟

— لأنه يعلم علماً أكيداً أن الله — سبحانه — هو الخالق المبدع القادر — فله أن يتصرف في شئونه خلقه كما يريد وحيث يشاء . وليس للإنسان المخلوق الضعيف القاصر إلا أن يمتثل ما اختاره الله له دون توقف أو تردد .. قال تعالى : ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ ( القصص : ٦٨ )

— ولأنه يعلم علماً أكيداً أن الله — سبحانه — هو العليم بكل شئ .. فهو أعلم بما يشرع لعباده من أحكام ، وأدرى بما يحقق لهم من مصالح ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟ ﴾ ( الملك : ١٤ )

— ولأنه يعلم علماً أكيداً أن الله — سبحانه — هو العليم الحكيم في كل ما يشرعه ويخلق ، وحكمته جل جلاله معناها أن يضع كل شئ في موضعه المناسب بالشكل الذى يؤدى إلى درء المفسد وتحقيق المصالح ﴿ والله عليم حكيم ﴾ ( الأنفال : ٧١ ) .

— ولأنه يعلم علماً أكيداً أن الإنسان مهما نضج علمه وارتقت ثقافته .. ضعيف في ذاته ، عاجز عن أن يصل إلى مرتبة الكمال .

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الدين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ \* والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً \* يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ( النساء : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ )

عدا عن أن الإنسان — كما أئحنا — يتأثر بالبيئة ، ويتأثر بالهوى ويتأثر بالوراثة ، ويتأثر بالعقيدة التى يعتنقها ويتأثر بالزرعة التى تختلج نفسه بها ..

والواقع الدولى ، والصراع الاجتماعى ، والتناقض الفكرى ، الذى آلت إليه المجتمعات البشرية اليوم أعظم برهان على أن الإنسان يتأثر بهذه المؤثرات جميعاً ، وأن عقله مهما سما قاصر ، وأن علمه مهما اتسع محدود ، وأنه عاجز عن وضع التشريع لنفسه مهما بلغ درجة النضج والكمال ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾ ( يوسف : ٧٦ ) .

لهذا كله نجد المؤمن الواعى المتبصر المتفهم لحقيقة نفسه — يندفع بكليته ، وينطلق من ذاته إلى تطبيق المنهج الربانى ، لاعتقاده أن كمال شخصيته ، وبناء إنسانيته هو اتباع من اختص بالكمال ، والانقياد إلى من تنزه عن النقص ، والاستسلام إلى من تميز بالعظمة والإبداع والإتقان وهو الله وحده ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ؟ ﴾ ( المائدة : ٥٠ ) من أجل هذه الربانية لم يكن للمسلم خيار فى قبول هذه الشريعة أو رفضها لأن قبولها من مقتضيات الإيمان ، ومستلزمات الفطرة ..

وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾ ( الأحزاب : ٣٦ )

## ٢ — العالمية :

هذه الشريعة فى كل أحكامها وأنظمتها ومبادئها ذات صبغة إنسانية ، وخصيصة عالمية .. فهى رحمة للعالمين ، وهى هداية للناس كافة ، وهى منهاج للبشرية عامة .. فليست تشريعاً لجنس خاص من البشر ، أو لإقليم معين من الأرض ، أو لفئة خاصة من الناس ، بل هى للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه — فلا عنصرية فى هذه الدعوة ، ولا عصبية فى هذا التشريع ، ولا طبقية فى هذا الإسلام — وإنما الناس فيه سواء ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وهذه العالمية للتشريع قد بينها الله — عز وجل — فى أكثر من آية .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ ( الأنبياء : ١٠٧ )

وقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ( الأعراف : ١٥٨ ) .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ ( سبأ : ٢٨ ) .

وأكدتها عليه الصلاة والسلام فى أكثر من مناسبة .

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة »<sup>(١)</sup> .

— وثبت فى الصحيح أنه صلوات الله وسلامه عليه أرسل إلى الملوك والرؤساء فى عصره كالنجاشى ، وكسرى ، وقيصر ، والمقوقس — كتباً يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان شعاره فى ذلك : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين »<sup>(٢)</sup> أى : العامة من الفلاحين وغيرهم .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب المساجد — حديث رقم ٢٩٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجهاد — باب كتاب النبى ﷺ — إلى هرقل يدعو إلى الإسلام رقم ١١٦٢



ومن المؤيدات العالمية للتشريع تكليف الله — عز وجل — أمة الإسلام في كل زمان ومكان أمانة الدعوة ورسالة التبليغ حتى يصل الإسلام إلى كل بلد في العالم .

قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ ( آية : ١١١ ) .

وقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ ( آية : ١٤٢ ) .

فانطلاقاً من هذه التوجيهات الربانية في عالمية الدعوة انطلق المسلمون في أرجاء الأرض ، وآفاق الدنيا .. يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ، وشعارهم الذي رفعوه على مسامع الدنيا « ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

— وهذه الميزة العالمية إنما هي أثر من آثار الصبغة الربانية في هذا التشريع ، فلو كان واضعه فرداً ، أو فئة من الناس لتعصبت بوعى أو بلا وعى — لجنسها وطبقتها ومصالحها ولكن المشرع هنا رب الناس ، — ملك الناس — فهم جميعاً عباده ، لا فضل لفرد منهم على فرد ، ولا لفئة على أخرى بحكم الخلق والنشأة إلا بالتقوى .

### ٣ — الشمول :

ونقصد بالشمول أن الشريعة الإسلامية الغراء اشتملت على نظم وأحكام وقوانين .. في كل جانب من جوانب التكوين والبناء والإصلاح .. وفي كل ناحية من نواحي المجتمع والحياة .. سواء ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، أو ما يتعلق بالقوانين العامة من مسائل مدنية وأمور جنائية ، وأحوال شخصية ، ونظم اجتماعية ، وعلاقات دولية . أو ما يتعلق بأسس الحكم وقواعد الاقتصاد ، وركائز المجتمع الفاضل . كل ذلك في مبادئ دقيقة محكمة ، وفي تشريعات ربانية خالدة تعطي ولا تأخذ ، وتجمع ولا تفرق ، وتؤلف ولا تبدد ، وتبنى ولا تهدم ، تنزيل من حكيم حميد . والقرآن قد أفصح عن شمولية الشريعة وذخر مبادئها وأنظمتها أوضح بيان قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ <sup>(١)</sup> وقال أيضاً في سورة النحل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولنستمع إلى ما يقوله أساطين الفقه ، وعباقرة القانون في العالم عن شمولية الشريعة ، ومبادئها الحية الباقية ، نسوقها لمن لا يؤمن بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من ديار الغرب .

يقول الدكتور « إيزكو إنساباتو » : « إن الشريعة الإسلامية تفوق في كثير من بحوثها الشرائع الغربية ، بل هي التي تعطي للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً » .

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٢) سورة النحل الآية : ٨٩

ويقول العلامة الكبير « ساتيلانان : » « إن في الفقه الإسلامي ما يكفي المسلمين في تشريعهم إن لم نقل ما يكفي الإنسانية كلها » .

ويقول الدكتور « هوكنج » أستاذ الفلسفة في جامعة ( هارفارد ) : « إن في نظام الإسلام استعداداً داخلياً للنمو ، وإني أشعر بأني على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادئ اللازمة للنهوض إلى غير ذلك من هذه الأقوال الكثيرة والشهادات العديدة المتنوعة .

#### ٤ - الأصالة والخلود في نصوص الشريعة :

ومن أميز خصائص شريعة الإسلام أنها تتصف بالأصالة الباقية والخلود الأبدى في نصوصها ومصادرها دون أن يتطرق إليها تحريف أو يطرأ عليها أى تعديل أو تغيير .

فالقرآن الكريم الذى هو المصدر الأول من مصادر التشريع قد تكفل الله بحفظه وبقائه إلى يوم البعث والنشور دون أن تناله يد بتحريف أو تعديل ، وها هو ذا قد مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً فالقرآن الكريم هو القرآن الكريم في لفظه ومعناه وتجويده وأدائه .. مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ( الحجر : ٩ ) .

ولقد شهد لأصالة هذا القرآن وخلوده الأبدى على مدى الأجيال منصفون من رجالات الغرب ، فقد قالوا كلمة الحق بنزاهة وتجرد ، ووضحوا الحقيقة بدقة وأمانة من هؤلاء البروفوسور « رينولد نيكسلون » حيث يقول في كتابه « التاريخ الأدبى للعرب » بالحرف الواحد : « إن القرآن الكريم وثيقة إنسانية رائعة توضح بدقة سر تصرفات محمد ﷺ في جميع أحداث حياته ، حتى إننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك ولا الجدل ، نستطيع خلالها أن نتبع سير الإسلام منذ نشأته وظهوره في التاريخ المبكر ، وهذا ما لا تجد له مثيلاً في البوذية ، أو المسيحية أو أى دين من الأديان القديمة » .

• والسنة النبوية التى هى المصدر الثانى من مصادر الشريعة ، بل هى المينة للقرآن الكريم ، والمكملة لأنظمة الإسلام — هذه السنة قد هيا الله لها من يحفظها من عبث العابثين ، ووضع الملقين ودس المغرضين .. هياً لها علماء أثباتاً ، ومحدثين أفذاذاً ورجالات ثقات .. لم يشهد التاريخ الإنسانى أنبه منهم ، ولا أدق في بيان درجة الحديث ، ومعرفة أحوال السند والمتن وأصول الرواية والدراية .. حتى وصلت السنة إلينا نقية خالصة لم يعتورها أية شبهة ، ولم يطرأ عليها أية علة ، وكل إنسان حين يرجع إلى أسفار السنة ، ومراجع الحديث الكبرى ، يعرف درجة أى حديث يريد التحقق منه من حيث الصحة أو الضعف ، ويتحقق من كل سند من حيث التعديل أو الجرح .. وما ذاك إلا بجهود أهل الحديث الثقات الأثبات الأفذاذ على مدى العصور .

وإليكم هذه الحادثة التاريخية التى تؤيد ما نقول : سمع الخليفة العباسى « هارون الرشيد » أن زنديقاً لفق أحاديث مكذوبة ، ونسبها إلى رسول الله ﷺ والرسول لم يقل منها حرفاً واحداً ، فأمر باستدعائه والمثول بين يديه فلما أقر عرضه على السيف ، وقبل أن يقتل قال الزنديق للخليفة : أين أنت من الأحاديث التى وضعتها فيكم ، وقد أحللت فيها الحرام ، وحرمت فيها الحلال ، والرسول لم يقل منها حرفاً واحداً ؟ فقال له الخليفة على الفور : أين أنت يا زنديق من أبى إسحق الغزارى وعبدالله بن المبارك فإنهما سيخرجانها حتماً ، وينخلانها حرفاً حرفاً ؟ ثم أمر بقتله فقتل .

وإذا كان الله — عز وجل — قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين — فمن الطبيعى أن يتكفل بحفظ السنة النبوية إلى قيام الساعة باعتبارها المبنية للقرآن ، والمكملة لأنظمة الإسلام — كما سبق ذكره — فالقرآن والسنة إذن شيان متلازمان لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فحفظ الله للقرآن الكريم معناه ضمناً حفظ للسنة ، وهذا الحفظ قائم لازم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ( الحجر — ٩ ) .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة شيان متلازمان ، بل هما وثيقتان أصليتان ، ومصدران خالدان .. للحفاظ على مبادئ الشريعة وخلود أحكامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

#### ٥ — التيسير ورفع الحرج .

قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ( البقرة : ١٨٥ ) .

وقال سبحانه : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ ( الحج : ٧٨ ) .

وقال جل جلاله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ ( البقرة : ٢٨٦ ) .

فهذه النصوص وغيرها تؤكد تأكيداً جازماً أن الإسلام بمبادئه السمحة لا يكلف الإنسان فوق طاقته ، ولا يحمله من المسؤوليات فوق إمكانه لكى لا يكون لهذا الإنسان أى عذر أو حجة في التخلي عن أمر شرعى ، أو ارتكاب محظور دينى .

#### ٦ — رعاية مصالح البشر

المقصد العام للتشريع الإسلامى — كما هو معلوم — هو رعاية مصالح البشر بكفالة ضرورياتهم ، وتوفير حاجياتهم ، وتأمين تحسيناتهم . فكل حكم شرعى من أحكام الشريعة ما قصد إلا واحداً من هذه الثلاثة التى تتكون منها مصالح الناس .

ولكن والمراد شرعاً بالضرورى وبالحاجى وبالتحسينى ؟

فأما الأمر الضرورى : فهو ما تقوم عليه حياة الناس ، ولا بد منه لاستقامة مصالحهم ، وإذا فقد اختل نظام حياتهم ، ولم تستقم مصالحهم ، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد — والأمور الضرورية للناس بهذا

المعنى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء : الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال . فحفظ كل واحد منها ضرورى للناس .

وأما الأمر الحاجى : فهو ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة ، واحتمال مشاق التكليف ، وأعباء الحياة .. وإذا فقد لا يحتل نظام حياتهم ، ولا تعم فيهم الفوضى ولكن إذا فقد ينالهم الحرج والضيق والأمور الحاجية للناس بهذا المعنى ترجع إلى رفع الحرج عنهم والتخفيف عليهم وأما الأمر التحسينى : فهو ما تقضيه المروءة والآداب وسير الأمور على أقوم منهاج ، وإذا فقد لا يحتل نظام حياة الناس كما إذا فقد الأمر الضرورى ، ولا ينالهم حرج ولا مشقة كما إذا فقد الأمر الحاجى ؟ ولكن عند فقد الأمر التحسينى — تكون حياتهم غير مقبولة وغير سعيدة في تقدير أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة .. والأمور التحسينية للناس بهذا المعنى ترجع إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات وتوفير أسباب السعادة والهناء .. وكل ما يقصد به سير الناس في حياتهم الدنيوية على أحسن منهاج .

#### ٧ — التوازن بين المادة والروح :

ومن عظمة التشريع الإسلامى أنه لا يباعد بين المادة والروح ، ولا يفصل بين الدنيا والآخرة — بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة في أداء الحقوق سواء ما يتعلق بأداء الإنسان حق ربه أو حق نفسه أو حق غيره . والقرآن الكريم قد حض على هذا التوازن بين المادة والروح في كثير من آياته التى تلامس المشاعر والوجدان قبل أن تخاطب عقل الإنسان ففى تذكير القرآن بأداء حق الله في العبادة : في غمرة الانهماك في الأعمال الدنيوية ، والمصالح التجارية يقول في سورة النور : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾ ( آية ٣٧١ )

وفى تذكيره بأداء حق النفس في التكسب وابتغاء الرزق : في غمرة المفاجأة الربانية ، والنفحات المسجدية يقول في سورة الجمعة : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ ( الآية ١٠ )

وفى تذكيره بأداء حق الغير في البر والإحسان والتكافل : يقول في سورة البقرة : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ﴾

( آية : ١٧٧ ) .

#### ٨ — التلازم بين العقيدة والحياة :

والشريعة في مفهومها لا يمكن أن تفصم بين العقيدة والحياة ، ولا يمكن أن تفصل بين العبادة والسلوك ، ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً حتى تنعكس عقيدته الربانية على سائر أعماله الدينية

والدنيوية ، ولا يمكن أن يكون المؤمن مؤمناً حتى تظهر عبادته الخالصة لله على سائر تصرفاته الفردية والاجتماعية .

وبالاختصار نقول :

فإذا كانت الشريعة تمتاز بالربانية والعالمية والشمول . وإذا كانت تختص بالتوازن ، ورفع الحرج ، ورعاية مصالح البشر وإذا كانت تعرف بالربط بين العقيدة والحياة ، والعبادة والسلوك فهي شريعة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتضئ للدنيا أنوار الحق والمدنية والعرفان ، وترفع في سماء الانسانية ألوية العلم والحضارة والنهوض ، وتسطر في ضمير الزمن كلمات المجد والعظمة والخلود وصدق الله العظيم القائل في محكم تنزيله : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ( المائدة ١٥ ، ١٦ ) .

أ . هـ

فرية والرد عليها .

يقول الدكتور أحمد محمد جمال في كتابه « مفتريات على الإسلام » تحت عنوان : فرية اقتباس التشريع الإسلامي من القانون الروماني :

يقول : ومن الغريب المتكرر أن القانوني المصري الأستاذ عبد الرازق السنهوري زعم في « مجلة القانون - لسنة ١٤٨ » أن الفقه الإسلامي كالقانون الروماني من حيث الثمالة والصيانة ، وقابلية التطور ، وهو مثله صالح أن يكون قانوناً عالمياً .. ذلك أن الفقه الإسلامي من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضائهم القانون الروماني وهو زعم باطل مردود من أربعة وجوه :

• ( أولاً ) لأن الفقه الإسلامي لم يكن من صنع الفقهاء ، وإنما هو مستخرج من أحكام القرآن وسنة الرسول ﷺ ، وحتى ما استنبطه الفقهاء من أحكام بالقياس أو الإجماع إنما رده إلى أصل أو نص من القرآن أو السنة النبوية وكل حكم اجتهادي أو قياسي يتعارض مع القرآن أو الحديث النبوي باطل مردود : ( من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد ) .

• ( ثانياً ) لأن الشريعة الإسلامية لم تكتف بتكليف الإنسان بظاهر القانون والقضاء . بل كلفته أن ينصف غيره من نفسه ، ولو حكم له القاضي بمدعاه حسب الظاهر ، وهو يعلم أنه لا حق له عند خصمه ، لأن القضاء لا يحلل حراماً ولا يحرم حلالاً وذلك ما يشير إليه التوجيه النبوي « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فأبما أقضى له بقطعة من النار فلا يأخذها » (١) متفق عليه .

ولذلك يفرق الفقهاء الإسلاميون بين الجانب القضائي والجانب الدياني ، وبهذه ( الديانة ) التي تلزم القاضى والمتقاضين إليه ، أو ما يجوز أن نسميه ( ضمير ) — امتاز التشريع الإسلامى دون تشريعات العالم قديمها والحديث .

• ( ثالثاً ) من مزايا التشريع الإسلامى : النظرة السواء إلى المتقاضين أو المؤاخذين . فلا فرق بين أبيض وأسود ولا امتياز للمالك على مملوك أو المخدم على خادم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها<sup>(١)</sup> . » ( متفق عليه ) .

أما التشريع الرومانى فأساسه التمييز للعنصرى بين المتحاكمين والمذنبين فهو يفرق بين من هو من أصل رومانى وبين من لم يمت إلى الرومان بنسب ، كما يفضل الخاصة على العامة ، إذ يجعل للأوليين الزعامة والقيادة والحماية ويفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة .

جاء فى مدونة ( جوستيان ) القانونية : « من يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته مصادرة أمواله إن كان من عائلة كريمة ، وإن كان من بيعة ذميمة ، فعقوبته الجلد والنفى من الأرض .

• ( رابعاً ) إن التشريع الإسلامى حرم وأد البنات الذى كان متبعاً فى العصر الجاهلى .. فهل حرم التشريع الرومانى قتل الأطفال الضعاف بإغراقهم فى دنان النبيذ ، على مقتفيه من الرومانين ؟

واتفق لى بعد كتابه ما سبق — أن قرأت للدكتور محمد أبى شعبة عميد كلية أصول الدين فى مصر رأياً فى علماء القانون ونظرتهم إلى الشريعة الإسلامية — يقول فيه : « إنه مما يؤسف له أن علماء القانون لا تزيد معارفهم فى الفقه الإسلامى عن طالب العلم المتوسط . ولو أن علماء القانون تضلعوا فى الشريعة الإسلامية ووقفوا على مصادرها وكتبها وشروحها لدافعوا عنها ، وكانوا من الدعاة لها — ثم يخص الدكتور أبو شعبة الدكتور السنهورى بقوله : هل السنهورى هو كل علماء القانون ؟ لو أن الدكتور السنهورى درس كتب الشريعة الإسلامية من صغره ، واستوعبها لبدا له من كنوزها أكثر مما بدا له .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولنجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

يقول تعالى : « لا يستوى المؤمنون والكاغرون » كما قال عز وجل : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾<sup>(١)</sup> وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ أم حسب الذين اجتروحوا السيئات ﴾ أى : عملوها وكسبوها ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟ ﴾ أى : نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعد لنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة وفى هذا الدار .

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الصحن عن مسروق أن تميمأ الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية ﴿ أم حسب الذين اجتروحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ فلم يزل يكررها ويكى حتى أصبح<sup>(٢)</sup> ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟ وقد أثر عن كثير من الناسكين المختبين لربهم أنهم كانوا ييكون عند تلاوة هذه الآية حتى سموها مبكاة العابدين .

قوله تعالى : ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أى : لم يخلق الله السموات والأرض باطلاً ﴿ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ أى : وليثيب كل عامل بما هو له أهل ، فلا ييخس المحسن ثواب إحسانه ، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به أو يجعل للمسيء ثواب إحسان غيره .

ثم يبين سبحانه أحوال الكافرين وذكر جنائياتهم على أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ .

أى : انظر واعجب من حال من ركب رأسه ، وترك الهدى ، وأطاع الهوى فكأنه جعله إلهاً يعبده من دون الله ، فهو لا يهوى شيئاً إلا فعله ، لا يخاف رباً ، ولا يخشى عقاباً ، ولا يفكر فى عاقبة ما يعمل .

وفى هذا إيحاء إلى ذم الهوى ، ومن ثم قال وهب بن منبه : اذا شككت فى خير أمرين فانظرا أبعدهما من هواك فآته . وقال سهل التستري : هواك دؤاك فإن خالفته فدواؤك وقال البوصيرى فى برده :

(١) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ص ٢ ص ٣٧ رقم ١٢٥٠

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصيح فاتهم

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه : قال تعالى : ﴿ وَاتَّبِعْ هَوَاهُ فَمِثْلَهُ كَمِثْلِ الْكَلْبِ ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿ وَاتَّبِعْ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾<sup>(٢)</sup> وقال ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٣)</sup>

يقول الإمام ابن القيم في كتابه « إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان » :  
والفتنة نوعان : فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات ، وفتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سوء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾<sup>(٤)</sup> وقد أخبر الله — سبحانه — أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾<sup>(٥)</sup>

. وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتب بدعهم . فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال . ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه فيتلقي عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ..

وأما النوع الثاني من الفتنة فتنة الشهوات ، وقد جمع الله — سبحانه — بين ذكر الفتنتين في قوله : ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخُلُقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخُلُقِهِمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقِهِمْ وَخُضِعَ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾<sup>(٦)</sup> أى : تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها ، والخلاق هو النصيب المقدر ، ثم قال : ﴿ وَخُضِعَ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فهذا الخوض بالباطل وهو الخشباه .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٦

(٢) سورة الكهف الآية : ٢٨

(٣) سورة ص الآية : ٢٦

(٤) سورة النجم الآية : ٢٣

(٥) سورة ص الآية : ٢٦

(٦) سورة التوبة الآية : ٦٩



فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل ، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .  
فالأول : هو البدع وما والاها ، والثاني : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثاني من جهة الشهوات .  
ولهذا كان السلف يقولون « احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه ..

وكانوا يقولون : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعايد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .  
وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأى على الشرع والهوى على العقل ﴿ ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وأضله الله على علم ﴾ قال ابن كثير : يحتمل قولين ( أحدهما ) وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ( والآخر ) وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثاني يستلزم الأول ولا يتعكس .

وقوله تعالى : ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ أى : فلا يسمع ما ينفعه ولا يرى شيئاً يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضيء بها ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ من يضل الله فلا هادى له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات وما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ أى : وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم : لا حياة بعد هذه الحياة التي نحن نعيش فيها ، فموت نحن ونحيا أبناؤنا من بعد — وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد . ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ أى : وما يفنينا إلا مر الليالي والأيام ، فمرورها هو المؤثر في هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر وأشعارهم ناطقة بذلك ، وقد كان العرب في جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر ، وقد جاء النهى عن سب الدهر ، فجاء الحديث القدسي « يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة آل عمران الآية : ٨

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٦

(٣) صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله ١٧٥/٩

قال الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله ﷺ : « لاتسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله ، كان العرب في الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ثم نعى عليهم مقالهم هذا الذي لا دليل عليه فقال تعالى :

﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ أى : وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل أو نقل ، وقصارى أمرهم الظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة .

ثم ذكر شبهتهم على إنكار البعث فقال :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أى : وإذا تلى على هؤلاء المشركين الذين سبق القول في جرائمهم — آيات الكتاب الدالة على أن البعث حق ، لم يكن لهم من حجة في دحض هذا إلا أن قالوا إن كان ما يقولونه حقا فانشروا لنا آباءنا الأولين وابعثوهم من قبورهم أحياء حتى نعتقد صحة ما تقولون .

وهذا قول وكلام لا يصدر من عاقل ، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشيء في الحال كإعادة آبائهم التى طلبوها في الدنيا — امتناعه فيما بعد إذا قامت القيامة وبعث الله الموتى من قبورهم للعرض والحساب وتسمية كلامهم الزائف حجة — ضرب من التهكم بهم .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم فقال :

﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

أى : قل لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث : الله يحييكم ما شاء أن يحييكم في الدنيا ، ثم يميتكم فيها متى شاء ، ثم يجمعكم جميعا أولكم وآخركم ، صغيركم وكبيركم يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ فهو واقع لا محالة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس ينكرون البعث ويستعبدون عودة الأجساد بعد موتها وحين تكون عظاما نخرة كما قال تعالى : ﴿ إنهم يروونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ أى : يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يروونه قريبا وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم وقصر نظرهم لا لأن فيه شائبة ريب .

## الله وحده مالك الملك

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتُرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنْذِرُ عَلَيْهِمْ فَاستَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَبْقِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَا وَكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنكُم تَأْخُذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

## معاني المفردات

( جاثية ) أى : باركة على الركب مستوفزة ، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكره ( إلى كتابها )  
 أى : إلى صحيفة أعمالها التى كتبها الحفظة لتحاسب على ما قيد فيها ( ينطق ) أى : يشهد ( نستنسخ )  
 أى : نجعل الملائكة تكتب وتنسخ . ( الفوز المبين ) أى : الظاهر أنه لا فوز وراءه ( وعد الله ) أى :  
 بأنه محيى الموتى من قبورهم ( بمستيقنين ) أى : بمتحققين ( وبدا ) أى : ظهر ، ( سيئات ما عملوا )  
 أى : عقوباتها ( وحاق ) أى : حل ( نساكم ) أى : نترككم ( كما نسيت ) أى : كما تركتم آيات الله .  
 ( آيات الله ) حججه ، ( غرتكم ) أى : خدعتكم ( الحياة الدنيا ) أى : زينتها ( يستعتبون ) أى :  
 يطلب منهم العتبي بالتوبة من ذنوبهم ، ( الكبرياء ) العظمة والسلطان .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه فيما سلف أنه تعالى قادر على الإحياء مرة ثانية كما قدر على ذلك في المرة الأولى — ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك ، وهو أنه تعالى مالك الكون كله ، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء في الإعادة كما أحياء في البدء ، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم وأن أعمال كل أمة تعرض عليها ، ويقال لهم : هذا ما كتبه الحفظة في الدنيا فهو شهادة صدق ، لا شك فيها ، ثم أردف ذلك ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ، ويوبخ الكافرين على ما فرط منهم في الدنيا فلا مأوى لهم إلا جهنم ولا مخرج لهم منها ولا عتبي حينئذ فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب ، ويختم هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة بالحمد للكبير المتعال وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين

## التفسير

قوله تعالى :

﴿ والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ﴾ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون : هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴿

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه مالك يوم الدين لذا يقول سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ يخسر المبطلون ﴾ وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

وقوله تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ أى : على ركبها من شدة هذا اليوم كما قال سبحانه : ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً ﴾ <sup>(١)</sup> فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم . ينفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ، قيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه فما ظنك بيوم ينادى فيه آدم ، والخليل إبراهيم والكليم موسى ، والنبي عيسى ، مع كرامتهم على الله عز وجل ، كل ينادى نفسى نفسى ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم في إشفائك في ذلك اليوم واشتغالك بجزئك وخوفك ؟

﴿ وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ فتوهما حين اضطربت وفارت وثارث ، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها ، فشبهت إليهم ، وزفرت نحوهم ، وجذبت خزانها ، متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه فتوهم صوت زفيرها وشهيقها وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فرعاً ورعباً ، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم ، فأرسلوا الدموع من أعينهم ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ يعنى إلى كتاب أعمالها ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى تجازون بأعمالكم ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إني ظننت أنى ملاق حسايه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسايه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ (٢)

وقوله سبحانه : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أى : هذا كتابنا الذى كتبته الحفظة ودونت فيه أعمالكم — يشهد عليكم شهادة حق دون زيادة ولا نقص ، فهو صورة تطابق ما فعلتموه . ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أى : إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم أول فأول ، فهى وفق ما علمتم بالدقة والضبط :

قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾ يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهى الخالصة الموافقة للشرع ( فيدخلهم فى رحمته ﴾ وهى الجنة كما بينت فى الصحيح « أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشياء » (٣) ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أى : البين الواضح فتوهم نفسك إن عفا الله عنك فى تلك الرحمة

(١). سورة الفجر الايات : ٢٣ — ٢٥ .

(٢). سورة الكهف الآيات : ٤٩

(٣). سورة الحاقة الآيات : ١٩ — ٣٧

(٤). صحيح البخارى — كتاب التفسير — تفسير سورة ق ٦ / ١٧٣

مسروراً مع مسرورين ، بأبدان قد طهرت ، ووجوه قد أشرقت وأنارت ، فهي كالبدن ، قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس . ذلك هو الفوز المبين ﴿ إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريباً وتوبيخاً كقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾<sup>(٢)</sup> :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وقيل اليوم ننساكم كما نسيم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغررتم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ﴾ أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ أى : لا نعرفها ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهماً ولهذا قال : ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أى : بمتحققين .

قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم سيئات ما عملوا ﴾ أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : أحاط بهم العذاب والنكال .

وقوله تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيم لقاء يومكم هذا ومآواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾ : أى : اليوم نعاملكم معاملة الناسى لكم في نار جهنم وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذكرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يارب فيقول أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنسأك كما نسيتني ﴿ كما قال تعالى : ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة الدخان الآيات : ٥١ — ٥٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١

(٣) صحيح مسلم — كتاب الزهد والرقائق — ٤ / ٢٢٧٩ رقم ٢٩٦٨

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا ﴾ أى : إنما جازيتكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرى تسخرون وتستهزئون بها ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ أى : خدعتكم فاطمأنتم إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ أى : من النار ، ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبي بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما قال سبحانه : ﴿ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَهُمْ مِنَ الْمُتَعْتَبِينَ ﴾<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ . رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : لله الحمد على أياديه على خلقه ، فإياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل ما بكم من نعمة فهو مصدرها سبحانه وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهن ﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : وله الجلال والعظمة والسلطان فكل شيء يخاضع له فقير إليه وفي الحديث القدسي يقول رب العزة : « الكبرياء ردائي والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى »<sup>(٢)</sup> أخرجه أحمد ومسلم ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : وهو العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله . تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه . فله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك »

(١) سورة فصلت الآية : ٢٤

(٢) مسلم — كتاب البر — باب تحريم الكبر ٢٠٢٣/ ٤ رقم ٢٦٢٠ ، ومسند أحمد ٢/ ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، وسنن داود — كتاب اللباس — باب ما جاء فى الكبر ٣٥٠/ ٤ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر ، ١٣٩٧/ ٢ رقم ٤١٧

(٣) سورة القصص الآية : ٧٠

## تفسير سورة الأحقاف

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، آياتها خمس وثلاثون ، كلماتها : ثلاثمائة وأربع وأربعون . وحروفها : ألفان وخمسمائة وخمسة وتسعون .

فواصل آياتها : ( من )

وسميت بسورة الأحقاف ، لقوله فيها : ﴿ إِذْ أَنْذَرْتُ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والأجفاء عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيده ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشارة بأهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة ، وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة ، واستقلال لبث اللابثين في قوله : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ﴾

المتشابهات :

ما في هذه السورة من المتشابه سبق ذكره

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه اتصالها بما قبلها : أنه — تعالى — ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل الشرك وقوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أُرُونِي مَا ذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنُونِ بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ۝ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانَا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝ إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَلُّوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝

## معاني المفردات

(أجل مسمى) هو يوم القيامة ، (أنذروا) أى : خوفوا ، (معرضون) لاهون ، (تدعون) أى : تعبدون ، (شريك) أى : نصيب ، (أثرة) أى : بقية ، (كافرين) مكذبين ، (للحق) المراد بالحق هنا : آيات القرآن ، (افتراه) كذب عليه عمداً ، (فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى : لا تغنون عنى من الله شيئاً إن أراد عقابى ، (تفيضون فيه) أى : تخوضون فيه من تكذيب القرآن (بدعاً) البدع والبديع من كل شيء : المتبدع المحدث دون سابقة له ، (أرايتم) أخبروني ماذا هالككم ، (إفك قديم) كذب متقدم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ \* يخبر — تعالى — أنه أنزل الكتاب على عبده محمد — ﷺ — ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال ، وبعد ما وصف — سبحانه — ذاته العلية بالعزة والحكمة <sup>(١)</sup> — سبحانه — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فقال تعالى : ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ .. أى : ما خلقناهما إلا خلقاً ملتبساً بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم بين بعد ذلك غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال تعالى : ﴿ والذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴾ أى : مع ما نصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزل الله من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ أى : ( قل ) يا محمد هؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ ؟

كقوله تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ <sup>(٤)</sup> ، ﴿ أم لهم شرك فى السموات ﴾ ؟ أى : ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله — عز وجل — فكيف تعبدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ائتونى بكتاب من قبل هذا ﴾ أى : هاتوا كتاباً

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤

(٢) سورة الفرقان من الآية ٤٤

(٣) سورة لقمان الآيات ١٠ — ١١

من كتب الله المنزلة على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أى : لا دليل لكم لانتقياً ولا عقلياً على ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضل الله فما له من هاد ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

﴿ ومن أضل ﴾ أى : لا أحد أضل وأجهل ، ﴿ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ﴾ وهى الأصنام والأنداد ، ﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾ يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ، ﴿ وإذا حشر الناس ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ كانوا لهم أعداء ﴾ أى : هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . قال القرطبي : فالملائكة أعداء الكفار ، والجن والشياطين يتبرءون غداً من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضاً . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ، على تقدير خلق الحياة لها ، دليلاً قوله تعالى : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ <sup>(٢)</sup> وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، ومجد المعبودون عبادتهم وهو قوله : ﴿ كانوا بعبادتهم كافرين ﴾ ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾ <sup>(٣)</sup> أى سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم . وقال تعالى وهو يحكى قصة الخليل إبراهيم وهو يقول لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين . أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم . قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إليّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

(١) سورة الرعد الآية ٣٣

(٢) سورة القصص من الآية ٢٥

(٣) سورة مريم الآيتان ٨١ — ٨٢

(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٥

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حجبنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ أى : دع هذا وأسمع القول المنكر العجيب ، إنهم يقولون : إن محمداً افتراه على الله عمراً ، واختلقه عليه اختلاقاً ، وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً ﴾ أى : قل لهم : لو كذبت على الله ، وزعمت أنه أرسلنى إليكم ، ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (١) .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله تعالى : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه ﴾ أى : هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه ، من التكذيب بالقرآن ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾ فهو يشهد بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، كقوله تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ (٢) ، وكقوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلنا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ (٣) . وقوله : ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة ، فإن تابوا وأنبأوا إلى ربهم وصح عزمهم على الرجوع عما هم عليه ، تاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم . وقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستكرونى وتستبعدون بعثى إليكم ، فإنه قد أرسل الله — جل وعلا — قبلى جميع الأنبياء إلى أممهم . ﴿ وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾ أى : لا أدرى أخف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ قاله ابن كثير ثم قال وهذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به — ﷺ — فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم انه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ — ٤٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

(٣) سورة الرعد الآية ٤٢

وقوله : ﴿ إِن أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ أى : إنما أنا منذر وما على إلا البلاغ والاتباع ، ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، قال مالك عن أبى النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام — رضى الله عنه — قال وفيه نزلت ( وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله )<sup>(١)</sup> رواه البخارى ومسلم والنسائى . وقال ابن كثير وهذا الشاهد اسم جنس يعمر عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا يَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكقوله : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾<sup>(٣)</sup> ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم وكفراً بآيات ربهم فقال : إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿ أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى الصراط المستقيم عن من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَمْتَدُوا بِهِ فَيَسْقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ ﴾ .

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقونا هؤلاء إليه يعنون بطلاً وعماراً وصهيياً وخباباً — رضى الله عنهم — وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشاً وأخطأوا خطأ بينا كما قال — تبارك وتعالى — ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> . وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَمْتَدُوا بِهِ ﴾ أى : بالقرآن ، ﴿ فَيَسْقُولُونَ هَذَا إِفْكَ قَدِيمٍ ﴾ أى : كذب قديم ، أى : فأنور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى يدخل صاحبه النار ، قال رسول الله — ﴿ « الكبر بظن الحق وغمط الناس » »<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى « باب مناقب الأنصار » باب مناقب عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — ص ٥ ، ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٣

(٣) سورة الرعد من الآية ٤٣

(٤) سورة الأنعام الآية ٥٣

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب تحريم الكبر وبيان « ص ١ ، ص ٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله

بن مسعود برقم ١٤٧ / ٩١

وانظر سنن أبى داود « كتاب اللباس » باب ما جاء فى الكبرى ص ٤ ، ص ٣٥٢ حديث رقم ٤٠٩٢ فقد ورد الحديث من حديث

طويل لأبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ .

أى : وما يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبنى اسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد ﷺ — فلا بد أن يكون محمد صادقاً فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهو مشركو مكة ، وهو بشرى لمن أحسن عملاً كقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ (١) ، وكقوله تعالى ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ . أى : إن الذين قالوا ربنا الله ، لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ، ولم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم كقوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم ﴾ (٣) وهنا يقول - جل وعلا - : ﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى : هؤلاء الذين قالوا هذا القول ، واستقاموا ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ثواباً من عند الله كفء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك قال — ﷺ — : « قل آمنت بالله ثم استقم » (٤) .

(١) سورة الإسراء الآيات : ٩ — ١٠

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ — ٥٠

(٣) سورة فصلت الآيات : ٣٠ — ٣١

(٤) انظر صحيح مسلم — كتاب الايمان — باب جامع أوصاف الاسلام ، ص ١ ، ص ٦٥ فقد ورد الحديث بلفظ من حديث طويل عن سفيان بن عبد الله الثقفى برقم ٦٢ / ٣٨

## الإحسان إلى الوالدين وأحكام أخرى

قال تعالى :

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِيَوْلَدَيْهِ أُفْ لَكُمَا أَنْتُمَا إِنِّي أَنْخَرْتُ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِihanِ اللَّهَ وَيَلْكُ أَمِنْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأُولِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلُهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

## معاني المفردات

﴿ ووصينا ﴾ الإيلاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه . ﴿ إحساناً ﴾ الإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن خلاف القبح ، والمراد أن يفعل معهما فعلاً ذا حسن . ﴿ كُرْهًا ﴾ الكره ( بالضم والفتح ) المشقة ﴿ حملة ﴾ أى : مدة حملة ، ﴿ فصاله ﴾ فطامه ، والمراد به : الرضاع التام المنتهى بالعظام ﴿ أشده ﴾ الأشد : القوة والعقل ﴿ أوزعني ﴾ أى : رغبتى ووفقتى ، ﴿ فى أصحاب الجنة ﴾ أى : منتظمين فى سلوكهم ﴿ أف ﴾ صوت يصدر من الإنسان حين تضجره . ﴿ أخرج ﴾ أى : أبعث من القبر للحساب ، ﴿ خلت القرون من قبلى ﴾ أى : مضت ولم يخرج منها أحد ﴿ يستغيثان الله ﴾ أى : يقولان الغياث بالله منك ، يقال : استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد : أنهما يستغيثان بالله من كفره ، إنكاراً واستعظماً له حتى لجأ إلى الله فى دفعه . ﴿ ويلك ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك ، يراد به الحث

على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيّه ، وترك ما هو فيه ، وأخذ بما ينجيّه ، ﴿ أساطير الأولين ﴾ أى : أباطيلهم التى سطوروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة . ﴿ حق عليهم القول ﴾ أى : وجب عليهم . ﴿ من الخاسرين ﴾ أى : من الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برعوس الأموال باتباعهم هزات الشياطين . ﴿ درجات ﴾ الدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة . ﴿ طياتكم ﴾ أى : شبابكم وقوتكم يقولون : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . ﴿ الهون ﴾ أى : الهوان والذل ﴿ تفسقون ﴾ أى : تخرجون عن طاعة الله .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده — سبحانه — وإخلاص العبادة له ، والاستقامة فى العمل ، أردف هذه الوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾<sup>(١)</sup> ثم ذكر حال السعداء البررة بهما وما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، وأيضاً حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لا شك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين ، ثم بين أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار . ويقال لهم حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق ، وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذرىتى إلى تبت إليك وإلى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾ . لما ذكر — سبحانه — فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن الكريم وقوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما كقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين



احساناً إما يلغن عندك الكبير أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً  
واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴿١﴾ .

وقوله تعالى ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها ﴾ أى : قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعباً من  
وصم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿ ووضعته كرها ﴾ أى :  
بمشقة أيضاً من الطلق والشدة والعسر ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ أى : ومدة حمله وفصاله ثلاثون  
شهراً تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيفه ،  
وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتخزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته ،  
فسبحان من عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ، حتى تكون فى أنها ما  
يكون من شأنها وراحتها ومقيلها ، فإذا أحست منك بأذى صوت أو بكاء قامت إليك وأثرتك على نفسها  
على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان ، تود لو أن كل ما يؤلمك  
بجسمها وأنه لم يطرقك منه شئ ، وأن حياتها تزداد فى حياتك فسبحان الرحمن الرحيم .

وهذه الآية قد استدل على — رضى الله عنه — بها مع اتى فى لقمان ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ وقوله  
تبارك وتعالى : ﴿ والولادات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١) على أن أقل  
مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة — رضى الله  
عنهم أجمعين — .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت  
على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أى : حتى إذا قوى وشب وإرتجل وتناهى عقله وبلغ فهمه  
وحلمه ، وقد قيل لمسردق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين فخذ حذرَكَ . ورد عن ابن  
عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتهجهز إلى النار .

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر  
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جر أسباب الحياة له العمر

﴿ قال رب أوزعنى ﴾ أى : ألهمنى ﴿ أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل  
صالحاً ترضاه ﴾ أى : فى المستقبل أجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَصْلَح لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : واجعل الصلاح سارياً في ذرئتي ، متمكناً من نفوسهم ، راسخاً في قلوبهم كما دعا إبراهيم الخليل : ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذرئتي ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾<sup>(١)</sup>

وكما دعا النبي سليمان : ﴿ وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ أى : إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ مِنْ ذُنُوبِي الَّتِي فَرَطْتُ مِنْهُ فِي أَيَّامِي الْخَوَالِي ، وَإِنِّي مِنَ الْخَاضِعِينَ لَكَ بِالطَّاعَةِ ، الْمُسْتَغْفِرِينَ لِأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، الْمُنْقَادِينَ لِحُكْمِكَ ، وَفِيهِ أَرْشَادٌ لِمَنْ بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ أَنْ يَجِدَّ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ إِلَى اللَّهِ — عَزَّ وَجَلَّ — ثُمَّ ذَكَرَ جَزَاءَ أَصْحَابِ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْجَلِيلَةِ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يوعِدُونَ ﴾ أى : هَؤُلَاءِ الْمُتَصَفُّونَ بِمَا ذَكَرْنَا النَّائِبُونَ إِلَى اللَّهِ ، الْمُنِيْبُونَ إِلَيْهِ ، الْمُسْتَدْرِكُونَ مَا فَاتَ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ هُمُ الَّذِينَ نَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فَيَغْفِرُ لَهُمُ الْكَثِيرَ مِنَ الزَّلَلِ وَنَقْبَلُ مِنْهُمْ الْيَسِيرَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أى : هُمْ فِي جَمْلَةِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ، وَهَذَا حُكْمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ الْغَفُورِ الرَّحِيمِ كَمَا وَعَدَ اللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — مَنْ تَابَ إِلَيْهِ وَأَنَابَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يوعِدُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لُؤْلَدِيهِ أَفْ لَكُمْمَا أْتَعِدَانِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَما يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ .

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الدَّاعِينَ لِلْوَالِدَيْنِ الْبَارِينَ بِهِمَا ، وَمَا لَهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّجَاةِ ، عَطَفَ بِمَجَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْعَاقِينَ لِلْوَالِدَيْنِ فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لُؤْلَدِيهِ أَفْ لَكُمْمَا أْتَعِدَانِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أى : وَالَّذِي قَالَ لُؤْلَدِيهِ أَنْ دَعَاوَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْإِقْرَارِ بَبَيْعَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ مِنْ قُبُورِهِمْ وَمَجَازَاتِهِ إِيَّاهُمْ بِعَمَالِهِمْ : أَفْ لَكُمْمَا ، إِنِّي لَضَئِجٌ مِنْكُمْ ، أَتَقُولَانِ إِنِّي أَبْعَثُ مِنْ قَبْرِي حَيًّا بَعْدَ مَوْتِي ، إِنْ هَذَا لَعَجَبٌ عَاجِبٌ فَهَما هِيَ ذِي قُرُونٍ مَضَتْ ، وَأَمَّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِي كَعَادَ وَثُمُودَ وَلَمْ يَبْعَثْ مِنْهُمُ أَحَدٌ .

وقوله تعالى : ﴿ وَهَما يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أى : وَوَالِدَاهُ يَسْتَصْرِفَانِ اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَغِيثَانِهِ أَنْ يُوَفِّقَهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِالْبَيْعَةِ ، وَيَقُولَانِ لَهُ حَتًّا وَتَحْرِيفًا : هَلَاكَ لَكَ ، صَدَقَ بِوَعْدِ اللَّهِ ، إِنَّكَ

(١) سورة إبراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١

(٢) سورة النمل من الآية ١٩

مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله حق ﴿ فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى : ما هذا الذى تقولان لى ، وتدعوان إليه ، إلا ما سطره الأولون من الأباطيل .

قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ قال الحسن وقتادة فى هذه الآية : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث ، فهؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله ، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعقوا عن أمر ربهم ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أنفسهم وأهلهم يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أى : ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، الأبرار فى عليين ، والفجار فى سجين ، وليوفيهم أجور أعمالهم ، الحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) .

## بر الوالدين ، وتحريم عقوقهما فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة

### ١ — القرآن الكريم يوصى بالوالدين

قال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾ (٢) .

فمن هذه الآية نفهم أن الإسلام جعل للوالدين حق البر واللطف والرعاية والرحمة ، وأكد هذا الحق بأن قرنه بحق الله لما له من الإجلال والوفاء . وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم

(١) سورة الأنبياء من الآية ٤٧

(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ — ٢٥

بما كنتم تعملون ﴿١﴾ أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين وإن حرصا عليك كل الحرص ، على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا تقبل منهما ذلك — لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق — ولا يمنعك ذلك أن تصاحبهما في الدنيا بعمل المعروف والإحسان إليهما .

وقال تعالى : ﴿ يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ (٢) .

ففى هذه الآية يقدم الله — سبحانه وتعالى — الوالدين على الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل فى صدقة التطوع ، ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، وأدناك أدناك » (٣)

## ٢ — بر الوالدين صفة بارزة للأنبياء

يقول الله — تعالى — عن سيدنا عيسى بن مريم — عليه الصلاة والسلام —  
﴿ قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً . وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً . وبراً بالديني ولم يجعلني جباراً شقياً . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً . ذلك عيسى ابن مريم ﴾ (٤) أى : ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والديني فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً .

وقوله على لسان الخليل إبراهيم — عليه الصلاة والسلام — :  
﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾ (٥) .

وقوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام :  
﴿ حتى إذا أتوا على واد الثمل قالت غملة يا أيها الثمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده

(١) سورة لقمان الآيتان ١٤ — ١٥

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٥

(٣) انظر المستدرک عى الصحيحین للحاکم کتاب معرفة الصحابة ص ٣ ، ص ٦١١ باب ذکر صعصعة ابن ناجية المجاشعى فقد ورد الحديث بلفظه عن صعصعة .

(٤) سورة مريم الآيات ٣٠ — ٣٣ ومن الآية ٣٤

(٥) سور إبراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١

وهم لا يشعرون . فبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴿١﴾ .

وقال تعالى عن سيدنا نوح — عليه الصلاة والسلام — :  
﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ (٢) .

وقال تعالى عن سيدنا اسماعيل — عليه الصلاة والسلام — :  
﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . ونادياه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو البلاء المبين . وفدينا بذبح عظيم ﴾ (٣) .

ففي قول اسماعيل : ﴿ يا أبت أفعل ما تؤمر ﴾ أي : امض لما أمرك الله من ذبحي ، تظهر طاعة الابن لأبيه .

وقوله تعالى عن سيدنا يحيى — عليه الصلاة والسلام —  
﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ (٤) .

فبعد أن وصف الله — سبحانه وتعالى — يحيى بالأوصاف السابقة من العلم والفهم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو حدث صغير ، وصفه أيضاً بأنه كان مطيعاً لوالديه وباراً بهما ، ومجانباً عقوقهما قولاً وفعلاً أمراً ، ونهياً .

### ٣ — الإحسان للوالدين وبرهما بعد عبادة الله مباشرة

لقوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ (٥) .  
وقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ﴾ (٦) .  
وقوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾ (٧) .

(٥) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٦) سورة النساء من الآية ٣٦

(٧) سورة البقرة من الآية ٨٣

(١) سورة التمل الآيات ١٨ — ١٩

(٢) سورة نوح الآية ٢٨

(٣) سورة الصافات الآيات ١٠١ — ١٠٧

(٤) سورة مريم الآيات ١٢ — ١٥

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ <sup>(١)</sup> .  
والحديث الذى يرويه عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : « سألت رسول الله — ﷺ —  
أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال  
الجهاد فى سبيل الله » <sup>(٢)</sup> ( متفق عليه ) .  
فقد جعل منزلة بر الوالدين بعد الصلاة مباشرة وقبل الجهاد فى سبيل الله .

#### ٤ — بر الوالدين يدخل الجنة وعقوقهما يدخل النار

— عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه »  
« قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « من أدراك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل  
الجنة » <sup>(٣)</sup> مختصر صحيح مسلم ( ١٧٥٨ ) .  
ومعنى رغم أنفه : أى لصق بالرغام وهو التراب . من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل  
النار .

— وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : ارتقى النبى ﷺ على المنبر درجة فقال : آمين ، ثم  
ارتقى الثانية فقال : آمين ، ثم ارتقى الثالثة فقال : آمين ، ثم استوى فجلس ، فقال أصحابه : على ما أمّنت ؟  
قال : « أتانى جبريل فقال : رغم أنف امرئ ذكّرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فقال :  
رغم أنف امرئ أدرك أبويه فلم يدخل الجنة ، فقلت : آمين ، فقال : رغم أنف امرئ أدرك رمضان  
فلم يغفر له ، فقلت آمين » <sup>(٤)</sup> ( حديث صحيحه الشيخ الألبانى فى رسالة « فضل الصلاة على النبى » .

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان — باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال » ص ١ ، ص ٩٠ فقد ورد الحديث بلفظ  
« أى الأعمال أحب إلى الله .. » من رواية عن الوليد بن العيزار برقم ١٣٩ / ٨٥ .

وأما رواية عبد الله بن مسعود فجاءت بلفظ : ( أى العمل أفضل ... ) حديث رقم ١٣٧ / ٨٥ .

(٣) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب « رغم أنف من أدرك أبويه .. » ص ٢ ، ص ٢٢٩ من رواية لأبى هريرة فقد  
ورد الحديث بلفظه تحت رقم ١٧٥٨ .

وانظر الترغيب والترهيد « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب « الترغيب فى بر الوالدين .. الخ » ص ٣ ، ص ٥٢٨ حديث رقم ٢٢  
من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب « ما جاء فى البر وحق الوالدين » ص ٨ ، ص ١٣٩ ، فقد ورد الحديث عن جابر بن  
أبى سمر بلفظه قال : صدور النبى ﷺ المنبر فقال : آمين آمين آمين ، قال : أتانى جبريل — عليه السلام — فقال : يا محمد ، من أدرك  
أحد والديه فمات فدخل النار فأبعده الله فعل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : يا محمد ، من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل  
النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : ومن ذكّرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت :  
آمين ، رواه الطبرانى بأسانيد وأحداها حسن ، ولهذا الحديث طرق فى الأدعية فى الصلاة على النبى ﷺ .

— وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه والمرأة المترجلة المشبهة بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »<sup>(١)</sup> . ( صحيح الجامع ( ٣٠٦٦ ) والسلسلة الصحيحة للألباني « ٦٧٤ » ) .

والعاق : اسم فاعل من عق . والعقوق : أشد العصيان للوالدين . والديوث : بتشديد الياء ، هو الذى يُقر أهله على الزنا مع علمه بهم . والمنان : الذى يمن على الناس بعطيته لهم .  
وعن أن الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر »<sup>(٢)</sup> . ( السلسلة الصحيحة « ٦٧٥ » ) .  
قال : « لا يدخل حظيرة القدس ، سكير ، ولا عاق ، ولا منان »<sup>(٣)</sup> وحظيرة القدس : الجنة . ( السلسلة الصحيحة « ٦٧٣ » ) .

وعن عمرو بن مرة الجهنى — رضى الله عنه — قال : « جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله ، شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان ، فقال النبى ﷺ : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه »<sup>(٤)</sup> . ( صحيح الترغيب والترهيب ، فبين هذا الحديث أن عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة .

## ٥ — رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاصى — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال « رضى الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد »<sup>(٥)</sup> ( السلسلة الصحيحة « ٥١٦ » ) .  
وفى رواية « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما »<sup>(٦)</sup> ( صحيح الجامع برقم ٣٥٠١ ) .

- 
- (١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ٣ ، ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر حديث ص ٣٥٤٢ .  
(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٦ ، ص ٤٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي الدرداء .  
(٣) انظر صحيح ابن حبان ص ٥ ، ص ١٦٣ فقد ورد الحديث رقم ٣٣٧٥ من رواية لعبد الله بن عمرو ولفظه « لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر » .  
(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب الزهيد من عقوق الوالدين .. ص ٣ ، ص ٥٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن مرة الجهنى .  
وانظر كنز العمال ص ١ ، ص ٨٣ فقد ورد الحديث برواية عن عمرو بن مرة الجهنى حديثه ص ٣٤٢ .  
(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « الفضل فى رضا الوالدين » ص ٣ ، ص ٢٠٧ فقد ورد الحديث رقم ١٩٦٢ برواية عن عبد الله بن عمرو بلفظه .  
(٦) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب « الزهيد عن عقوق الوالدين » ص ٣ ، ص ٥٣٥ حديث ص ٣ ، فقد ورد الحديث فى ص ٥٣٥ بلفظ « رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين وسخط — الله تبارك وتعالى — فى سخط الوالدين » .

## ٦ — تحريم عقوق الوالدين وأنه من الكبائر

عن أبي بكرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراف بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت »<sup>(١)</sup> .

ومعنى « حتى قلنا ليته سكت » : إشفافاً عليه ، لما رأينا أثر أنزعاجه في ذلك . وعن أنسى رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين »<sup>(٢)</sup> ( رواه البخارى ومسلم ) .

## ٧ — ترك الجهاد لبر الوالدين وصحتهما فالجنة تحت أقدامهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فاستأذنه في الجهاد ، فقال : أحى والداك ؟ قال : نعم قال : ففهيما فجاهد »<sup>(٣)</sup> . ( رواه البخارى ومسلم ) . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « جئت أبأبعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبيكان ، فقال : ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما »<sup>(٤)</sup> . ( رواه أبو داود / صحيح الترغيب والترهيب ) .

ومعنى ( فأضحكهما ) أى : أدخل إليهما السرور واجلب لهما الفرح . وعن طلحة بن معاوية السلمى — رضى الله عنه — قال : أتيت النبی ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إني أريد الجهاد في سبيل الله ؟ قال : أملك حية ؟ قلت : نعم ، قال النبی ﷺ : الزم رجلها فثم الجنة »<sup>(٥)</sup> . ( رواه الطبراني وحسنه الألباني / صحيح الترغيب والترهيب ) .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ، ص ٤ ، ٥ « كتاب الأدب » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الرحمن ابن أبى بكرة عن أبيه .  
(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » ج ٨ ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث من رواية أنس بلفظ : « قال ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس ، وعقوق الوالدين .. الخ » .

(٣) وانظر صحيح البخارى من « كتاب الجهاد » ج ٤ ص ٧١ باب الجهاد بإذن الأبوين فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وإنما أحق به ج ٤ ، ص ٧٥ ، ١٩ حديث رقم ٢٥٤٩/ ٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمرو .

(٤) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب البر والصلة » ج ٤ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ حديث رقم ٢٥٢٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو .

(٥) انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٨ ، ص ٣٧٢ باب ما روى عن كلمة بن معاوية السلمى فقد ورد الحديث ٨١٦٢ من رواية طلحة عن أبيه ، ولفظه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرها » باب الترغيب فى بر الوالدين وصلتهما ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ٩ من رواية طلحة بن معاوية السلمى .



ومعنى « الزم رجلها » : اخضع لها واقرب منها وراعها واخدمها ، فهناك الجنة ، وبسبب رضاها تحظى بنعيم الله .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أردت أن أغزو ، وقد جئت استشيرك ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها . ( رواه ابن ماجه والنسائي وحسنه الألباني / صحيح الترغيب والترهيب ) (١) »

وعن أبي سعيد - رضى الله عنه - « أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى ، قال : أذن لك ؟ قال : لا ، قال : ارجع اليها فاستأذنها فإن أذن لك فجاهد ، وإلا فبرهما » (٢) . ( صحيح الجامع ( ٩٠٥ ) ، وإدواء الغليل ( ١١٩٩ ) ، للألباني ) .

## ٨ - بر الوالدين من الأعمال الصالحة التي يدعو الإنسان بها الله :

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « بينا ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر ، فأووا إلى غار في جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا بها لعله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامراتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنى ، وإنى نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمتم عند رؤوسهما ، اكره أن أوقظهما من نومهما ، واکره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله لنا منها فرجة فرأوا منها السماء .

وجهك

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيا بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجلها ، قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمتم عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم فرجة .

(١) انظر سنن النسائي « كتاب الجهاد » الرخصة في التخلف لمن له والده ج ٦ ، ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية عن معاوية بن جاهمة السلمى .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل بغزو وأبواه كارهان ، ج ٣ ، ص ٤٩ حديث رقم ٢٥٣٠ فقد ورد بلفظه من رواية لأبى سعيد الحذرى .

وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله . قال لي ، أعطني حقي ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرع حتى جمعت منه بقرأ ورعاءها ، فجاءني فقال اتق الله ولا تظلمني حقي ، قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا استهزئ بـ بل ، خذ ذلك البقر ورعاءها ، فأخذه وذهب به ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج ما بقى ففرج الله ما بقى <sup>(١)</sup> . ( رواه البخاري ومسلم ) صحيح الترغيب والترهيب .

## ٩ - رضى الوالدين مقدم على رضى الزوجة :

عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : كان تحتى امرأة أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لي : طلقها ، فأبيت ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال لي رسول الله ﷺ : « طلقها » <sup>(٢)</sup> . ( صحيح الترغيب والترهيب تحقيق للألباني ) .

## ١٠ - تقديم بر الوالدة على الوالد :

عن أنى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال أبوك <sup>(٣)</sup> . ( رواه البخاري ومسلم صحيح الترغيب والترهيب ) .  
وهذا الحديث مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب في التربية وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب قصة أصحاب الغر الثلاثة ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ فحديث رقم ١٠٠ / ٢٧٤٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر صحيح البخاري « كتاب بذر الحلق » باب حديث الغار ج ٤ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب في بر الوالدين وصلتهما : الخ ج ٣ ص ٥٢٦ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب في بر الوالدين ج ٥ ، ص ٣٥٠ حديث / ٥١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الادب » باب من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنى هريرة . وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب بر الوالدين وأنها أحق به ج ٤ ، ص ١٩٧٤ حديث رقم ١ / ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنى هريرة .

(٤) سورة لقمان من الآية ١٤

## ١١ — دعوات الوالدين مستجابة :

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات مستجابات » لا شك فيهن : دعوة الوالد لولده ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم »<sup>(١)</sup>. ( صحيح الجامع « ٣٠٢٨ » ) وعن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر »<sup>(٢)</sup> ( صحيح الجامع « ٣٠٢٩ » ) .

## ١٢ — من بر الوالدين الدعاء لهما والحرص على نصحتهما وهمايتهما حتى لو كانا كافرين .

عن أن هريرة — رضى الله عنه — قال : كنت أدعو أُمى إلى الإسلام ، وهى مشركة ، فدعوته يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى قلت : يا رسول الله ، إني كنت أدعو أُمى إلى الإسلام ، فتأبى على ، فدعوته اليوم ، فأسمعتنى فيك ما أكره ، فأدع الله أن يهدى أم أبى هريرة ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم أهد أم أبى هريرة ، فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ ، فلما جئت قصدت إلى الباب ، فإذا هو مجاف ( أى مغلق ) فسمعت أُمى تخشف قدمى ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، قال : قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك ، وهدى أم أبى هريرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال خيراً . قال : قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يحنى أنا وأُمى إلى عبادك المؤمنين ويحببهم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم حبب عبيدك هذا ( يعنى أبا هريرة ) وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين » فما خلق مؤمن يسمع نى ولا يرانى إلا أحبنى »<sup>(٣)</sup> ( رواه مسلم « ١٦٥ / ٧ » ) ( فضائل أبى هريرة ) .

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ، ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة مع تقديم وتأخير فى بعض جملة .  
 (٢) السنة الكبرى للبيهقى « كتاب صلاة الاستسقاء » باب « استحباب الصيام .. الخ » ج ٣ ، ص ٣٤٥ من رواية لأنس بلفظ : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر .  
 (٣) انظر صحيح مسلم « كتاب فضائل الصحابة » باب من فضائل أبى هريرة الدوس ج ٤ ، ص ١٩٣٨ حديث رقم ١٥٨ / ٢٤٩١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

## ١٣ - سب ولعن الوالدين من الكبائر :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل، والديه . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »<sup>(١)</sup> . ( رواه البخارى ومسلم وأبو داود / صحيح الترغيب والترهيب ) .  
وعن عامر بن وائلة قال :

كنت عند علي بن أبى طالب ، فأتاه رجل ، فقال : ما كان النبی ﷺ يُسرُّ إليك ؟ قال : فغضب ، وقال : ما كان النبی ﷺ يسرُّ إلى شيئاً يكرهه الناس ، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع قال : فقال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض »<sup>(٢)</sup> . ( مختصر صحيح مسلم « ١٢٦١ » ) ومعنى « آوى محدثاً » ، أى : مبتدعاً ، وإيوأؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له « غير منار الأرض » أى : نقل حدودها ، وتغيير حدودها أن يدخلها في أرضه فيكون في معنى الغاصب لها .

## ١٤ - الولد من كسب أبيه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - : « أن أعرايا أتى النبی ﷺ فقال : إن لى مالا وولداً ، وإن والدى يريد أن يحتاج مالى ، قال : أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم »<sup>(٣)</sup> . ( ارواء الغليل « ٨٣٨ » للشيخ الألبانى ) .  
وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن رجلاً أتى النبی ﷺ فقال : يا رسول الله ، والدى أكل مالى فقضى رسول الله ﷺ إنك ومالك لأبيك »<sup>(٤)</sup> . ( ارواء الغليل « ٨٣٨ » ) .  
وفى رواية أخرى « الولد من كسب الوالد » . ( ارواء الغليل « ٨٣٨ » ) .

(١) انظر سنن الترمذی « أبواب البر والصلة » باب ما جاء في عقوب الوالدين ج ٣ ، ص ٢٠٨ حديث رقم ١٩٦٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب لا يسب الرجل والديه ج ٨ ، ص ٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٢) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب الأضاحى » باب فيمن ذبح لغير الله ج ٢ ، ص ١٠١ حديث / ١٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن وائلة .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢١٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ( عبد الله بن عمرو بن العاص ) .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢٠٤ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بلفظه « أن رجلاً أتى النبی ﷺ يخاصم أباه فقال : يا رسول الله ، إن هذا قد احتاج إلى مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

## ١٥ — بر الوالدين بعد موتهما :

فبرهما بعد الممات الدعاء لهما والاستغفار قال تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ( أشياء ) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »<sup>(٣)</sup> . ( أخرجه مسلم ) .

وعن أبي بردة قال : قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر : فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده ، وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك »<sup>(٤)</sup> . ( حديث حسن حسنة الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ) .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : « من البر أن تصل صديق أبيك »<sup>(٥)</sup> . ( صحيح الجامع « ٥٧٧٧ » ) .

## قصة للاعتبار

عن العوام بن حوشب - رضى الله عنه - قال : نزلت مرة حياً وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد الإنسان ، فنهق ثلاث نهقات ، ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعراً أو صوفاً ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : ما لها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت ، وما كان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يا بني اتق الله إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تهقين كما ينهق الحمار ، قال : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم ، فينهق ثلاث نهقات ، ثم ينطبق عليه القبر .

(١) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٢) سورة ابراهيم الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » ج ٣ ، ص ٥٣٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٤ من رواية أبي بردة والحديث بلفظه

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب صديق الأب ج ٨ ، ص ١٤٧ فقد ورد الحديث برواية عن أنس ولفظه . وقال رواه الطبراني في الأوسط وفيه عتبة بن عبد الرحمن القرشي وهو متروك وفي رواية عن ابن عمر « احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفيء الله نورك » رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن .

رواه الأصبهاني وغيره ، وقال الأصبهاني : حدث به أبو العباس الأصم اخلاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه<sup>(١)</sup> . ( وقد حسن الشيخ الألباني هذه الرواية / صحيح الترغيب والترهيب ) .  
فسبحان الله ، جعل صورة هذا الرجل صورة حمار له صوت منكر مرتفع لماذا ؟ لأنه خالف نصيحة أمه ، وصد عن قولها ورامها بالوقاحة وقلة الأدب ، وألفاظ البذاءة « أنت تهقين » فلو سمع نصيحها وصغى إلى قولها ، واسترشد بنور إيمانها لنعم وفاز بالجنة لكن عصاها فاستحق كل إهانة وازدراء .  
وأخيراً : على الوالدين أن يحسنوا تربية أولادهم ليكون لهم الولد البار الصالح الذي ينفعهم بعد موتهم .  
عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة ( أشياء ) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »<sup>(٢)</sup> . ( أخرجه مسلم ) .

وعن ابن عباس — رضى الله عنه — أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها ، فقال : يا رسول الله ، إن أمي توفيت ، وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت بشيء عنها ؟ قال : نعم ، ( قال ) : فإني أشهدك أن حائط الخراف صدقة عليها<sup>(٣)</sup> . ( أخرجه البخاري ) .

( والخراف : أى المتمر مسمى بذلك لما يخرف منه أى يجنى من الثمر ) .  
وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — : « أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم »<sup>(٤)</sup> . ( أخرجه مسلم وغيره ) .

أ . هـ ( من كتاب بر الوالدين فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة للشيخ نظام سكجها ) .  
قوله تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ .  
أى : ذكرهم يا محمد ، يوم يعرض ﴿ الذين كفروا على النار ﴾ أى : يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها ﴿ أذهبتم طياتكم ﴾ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴿ يقال لهم — على وجه التقرير — تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعنى المعاصى . ﴾ فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ أى : عذاب الخزي والفضيحة . قال مجاهد : الهون : الهوان .

(١) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب الترهيب عن عقوب الوالدين .. ج ٣ ص ٥٤٧ — ٥٤٨ حديث رقم ١٧ عن العوام بن حوشب — رضى الله عنه — فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب العصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الوصايا » باب الاشهاد فى الوقف والصدقة ج ٤ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب وصول ثواب الصدقات إلى الحديث ج ٣ ص ١٢٥٤ حديث ١١ / ١٦٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

﴿ بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ أى : تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ وبما كنتم تفسقون ﴾ في أفعالكم بغياً وظلماً .

وقيل : ﴿ اذهبتم طيباتكم ﴾ أى : أفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي . قال ابن بحر : الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيابه ، أى : شبابه وقوته . قال القرطبي : والقول الأول أظهر . قال قتادة : ذكر لنا أن عمر — رضى الله عنه — قال : لو شئت كنت أطيبيكم طعاماً وألينكم لباساً ، ولكنى استبقى طيباتي للآخرة .

وفي صحيح مسلم وغيره أن عمر — رضى الله عنه — دخل على النبي ﷺ وهو في مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئاً يرد البصر إلا أهباً جلوداً معطوفة قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر في الديباج والحريز ؟ قال : فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا » فقلت استغفر لى ، فقال : « اللهم اغفر له »<sup>(١)</sup> .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض ( الطرى ) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجئى بخبز متفلع ( مشقق ) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا فجعلنا لا تأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين ، ترجع إلى طعام الين من طعامك هذا ، فقال : يا بن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أنى لو أمرت بعناق سميته فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصلية ( مشوية ) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل ما تنعت العيش ، قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناى يوم القيامة لشاركتكم في العيش ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها .. ﴾ الآية .

وقال جابر : اشتى أهلى لحماً فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتى أحدكم شيئاً جعله في بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : ﴿ اذهبتم طيباتكم .. الآية ﴾ قال ابن العرى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياح اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء ، فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع ، وتستمرؤها العادة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الطلاق » باب في الإيلاء واعتزال النساء وتغييرهن .. الخ ج ٢ ص ١١١١ حديث رقم ١٤٧٩ / ٣٤ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل من رواية لابن عباس .

فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراف الهوى على النفس الأمارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

قال العلاقة القرطبي . والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيباً كان أو قفاراً ( الطعام بلا آدم ) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة ، وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذ تيسر ، ولا يعتمد أصلاً ولا يجعله ديدناً . ومعيشة النبي ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الخطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

. وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر ، لا على تناول الطيبات المحللة وهو حسن ، فإن تناول الطيب الحلال مآذون فيه — بشرط عدم الأسراف — قال تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ <sup>(١)</sup> ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذبه الله أعلم قاله القرطبي .

### طرف من قصة هود

\* وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ الْأَنْدُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفَكِّنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعْبُدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرِيتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَابْصَرًا وَافْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٢٨﴾



## معاني المفردات

﴿أخا عاد﴾ هود عليه السلام ، ﴿الأحقاف﴾ واحدها حقف — بالكسر والسكون — وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمان ومهرة كانت تسكنه عاد ، ﴿النذر﴾ واحدهم نذير أى : منذر ، ﴿من بين يديه﴾ أى : من قبله ، ﴿ومن خلفه﴾ أى : من بعده ، ﴿لتأفكنا﴾ لتصرفنا ، ﴿عن آلهتنا﴾ عن عبادتها ، ﴿بما تعدنا﴾ أى : من معالجة العذاب على الشرك ، ﴿إنما العلم عند الله﴾ أى : العلم بوقت نزوله عند الله ، ﴿عارض﴾ العارض السحاب الذى يعرض فى أفق السماء ، ﴿مستقبل أوديتهم﴾ أى : متجها إليها . ﴿تدمر﴾ تهلك ، ﴿حاق﴾ أى : نزل ، ﴿صرفنا﴾ أى : بينا ونوعنا ، ﴿الآيات﴾ الحجج والصبر ، ﴿فلولا﴾ أى : فهلا ، ﴿نصرهم﴾ أى : منعهم ، ﴿قربانا﴾ أى : متقرباً بهم إلى الله ، ﴿ضلوا عنهم﴾ أى : غابوا عنهم ، ﴿إفكهم﴾ أى : أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، ﴿وما كانوا يفترون﴾ أى : وأثر افتراءهم وكذبهم .

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن أورد — سبحانه — الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تجدهم فتيلًا ، ولا قطميرًا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطليها — أردف هذا ذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود — عليه السلام — وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله فقد كانوا أكثر منهم أموالاً وأقوى منهم جنداً ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم وعنادهم ، ولم يغنى عنهم ما لهم من الله شيئاً .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ . أى وأذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق — هوداً أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئاً فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوا له الألوهية وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحاً : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول . ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾<sup>(١)</sup> .

وحين نصحبهم بذلك أجابوه :

( قالوا أحييتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ) أى : قال قومه له : أحييتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه ، وإلى اتباعك فيما تقول ، هلم فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة إن كنت صادقاً في قولك وعِدَّتِكَ .

فرد هود عليهم مقالهم :

( قال إنما العلم عند الله ) أى : قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندي ، فلا أستطيع تعجيله ، ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال : ( وأبلغكم ما أرسلت به ) من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب فليست عليكم بمسيطر ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربي .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال : ( ولكنى أراكم قوماً تجهلون ) أى : وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجيء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقْبِلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ .

أى : فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحاباً يعرض فى أفق السماء متجهاً إلى أوديتهم ( قالوا هذا عارض ممطرنا ) ظناً منهم أن غيثاً قد أتاهم وقيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له : المعتب ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيراً . قال تعالى : ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ أى : بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر . ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ أى : تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها ، كقوله تعالى : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ <sup>(١)</sup> أى : كالشيء البالى الخلق ، ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أى : كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا فأهلكناهم بذنوبهم ، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متداد فى غيه . ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

اخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عُرف ذلك فى

وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، قال : « يا عائشة ، وما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، غذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا غارض ممطرنا »<sup>(١)</sup> .

لذا كان ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »<sup>(٢)</sup> .. الحديث رواه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾

أى : لقد مكنا عاداً — الذين أهلكتناهم بكفرهم — فيما لم يتمكنكم فيه من الدنيا وأعطيناهم منها ما لم نعظكم مثله من الأموال الكثيرة ، وبسطة الأجسام وقوة الأبدان . كقوله تعالى : ﴿ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة ﴾ أى : إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليروا ما نصباه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكم الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم ويقربهم من جوار رحيم ، بل صرفوها في طلب الدنيا والملذات والمنكرات . ﴿ فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ﴾ لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، ثم بين سبحانه العلة في عدم اغناء ذلك عنهم فقال : ﴿ إذ كانوا يجحدون بآيات الله ﴾ أى : لأنهم كانوا يكذبون رسل الله ، وينكرون معجزاتهم . ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوه من العذاب .

وفي هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه فإن عاداً لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم تغن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئاً — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكتنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ حديث ١٦ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ حديث رقم ١٥ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من عائشة .

(٣) سورة غافر من الآية ٨٢

لما أخبر — سبحانه — بهلاك قوم عاد على ما لهم من المكانة العظيمة ، ليتعظ بهم من سماع أمرهم ، اتبعه بذكر من كان مشاركاً لهم في التكذيب فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ أى : ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريبتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وثمود وسبأ ومدين وقرى لوط ، ﴿ وإنكم تمرّون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله ﴿ وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ أى : وبيننا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيهم فلم يرجعوا .

وقوله : ﴿ فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباباً آلهة ﴾ أى : فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتهم قرباباً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا حيث قالوا : ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى : هلكوا عنهم ، وقيل : ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أى : ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصيبها ما أصابهم . إذ هى جماد . وقيل : ﴿ ضلوا عنهم ﴾ أى : تركوا الأصنام وتبرؤوا منها ﴿ وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾ أى : والآلهة التى ضلت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ أى : يكذبون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيء ﴾ <sup>(٣)</sup> .

### الجن يستمعون القرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٠﴾ قَالُوا يٰقَوْمُنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١﴾ يٰقَوْمُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرَكم مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ يَقْدِرْ عَلَىٰ أَن يُجِىءَ الْمُؤْمِنِينَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

## معانى المفردات

﴿ صرفنا ﴾ أى : وجهنا ، ﴿ نفرا ﴾ والنفر ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، ﴿ أنصتوا ﴾ أى : اسكتوا ، ﴿ قضى ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ ولوا ﴾ أى : رجعوا ، ﴿ منذرين ﴾ أى : مخوفين لهم عواقب الضلال ، ﴿ يجركم ﴾ أجاره من كذا : أنقذه منه ، ﴿ داعى الله ﴾ هو الرسول ﷺ ، ﴿ فليس بمعجز ﴾ أى : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ﴿ لم يعى ﴾ أى : لم يعجز ﴿ أولو العزم ﴾ أى : ذووا الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :  
أولو العزم / نوح والخليل المجد موسى وعيسى والحبيب محمد  
﴿ بلاغ ﴾ أى : كفاية فى الموعظة

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن . وفى هذا البيان توبيخ لمشركى قريش ، لأن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله وأهل مكة معرضون مصرون على الكفر ، ثم ختم السورة بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمتهم فهو قادر على أن يحيى الموتى ، وأعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيقتصرون على مدة بعثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لول ما عاينوا . ثم بين بأن فى هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ولم ينقد لأمره ونهيه .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ .

أى : وأذكر أيها الرسول لقومك — موبخاً لهم على كفرهم — بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرجعون عن غيهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من

تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهdy إلى الرشد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيها على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننم أن لن يبعث الله أحدا . وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا . وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا . وآلو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ (١) .

اخرج الامام أحمد في سنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يتتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامدا إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهdy إلى الرشد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ وإنا أوحى إليه قول الجن (٢) رواه البخارى عن مسدد بنحوه ، واخرجه مسلم عن أبى عوانه به ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث أبى عوانه . وهكذا قال الحسن البصرى إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

(١) سورة الجن الآيات ١ — ١٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر السفر وما يجهرو وما يخافون ج ١ ، ص ١٩٥ « باب الجهر فى قراءة الفجر » فقد ورد الحديث يلفظ عن ابن عباس .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة ج ١ ، ص ٣٣١ حديث ١٤٩ / ٤٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .  
وانظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لابن عباس .

قال الحافظ البيهقي : وهذا الذى حكاه ابن عباس — رضى الله عنهما — إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله وفي ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله — عز وجل — كما رواه عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال الامام أحمد بسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال ما صاحبه منا أحد ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما كان في وجه الصبح أو قال في السحر إذا نحن به يجرى من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم ، قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبي سألوه الزاد . قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بكرة أو روثة علف لدوابكم قال فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد اخوانكم من الجن »<sup>(١)</sup> وهكذا رواه مسلم في صحيحه .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصَتُوا ﴾ أى : استمعوه وهذا أدب منهم ، وقد قال الحافظ البيهقي عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال : قرأ رسول الله ﷺ — سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لى أراكم سكوناً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فَبَأَىٰ آلَاءُ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ إلا قالوا : « ولا بشيء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »<sup>(٢)</sup> ورواه أيضا الترمذى ثم قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ أى : رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذر وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقوله :

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ج ١ ص ٣٣٢ حديث رقم ١٥٠ / ٤٥٠ من رواية لابن مسعود .

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب التفسير » تفسير سورة « الرحمن » ج ٥ ص ٧٣ — ١٤ حديث رقم ٣٣٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٣) سورة يوسف من الآية ١٠٩ .

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾<sup>(١)</sup> .

ثم فسر سبحانه إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم بقوله تعالى : ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ .

أى : قالوا لهم : يا قومنا من الجن ، إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد تواراة موسى يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق وإلى ما فيه الله رضا ، وإلى الطريق الذي لا عوج فيه . وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين .

وقوله تعالى : ﴿ يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم ﴾ .  
أى : يا قومنا أجبوا رسول الله محمداً ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — وهذا يدل على أنه — ﷺ — كان مبعوثاً إلى الجن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحر وأسود ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً مسجداً فأما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة إلى قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس .  
وفي رواية من حديث أبي هريرة « وبعثت إلى الخلق كافة وختم بي النبوة »<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ وآمنوا به ﴾ أى : بالداعي ، وهو محمد ﷺ وقيل : « به » أى : بالله لقوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ، قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً ، فرجعوا إلى النبي ﷺ فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم . وقوله : ﴿ ويحرمكم من عذاب أليم ﴾ أى : ويقيكم من عذابه الأليم قال القرطبي : هذه الآية تدل على أن الجن كالإنس في الأمر والنهي والثواب والعقاب وإليه ذهب مالك والشافعي وابن أبي ليلى .

قوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ أى : ومن لا يجب رسول الله محمداً ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ حديث رقم ٣ / ٥٢١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجابر بن عبد الله الأنصاري .



عنه عذابه ، وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون في ضلال بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضحة وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بمخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ . أى : أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شىء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتم قبل وفاتهم ؟ كقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ <sup>(١)</sup> .

ثم أجاب عن ذلك مقررًا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال تعالى : ﴿ بلى إنه على كل شىء قدير ﴾ ذو قدرة على كل شىء أراد خلقه ، ولا يعجزه شىء أراد فعله .

ولما أثبت البعث — سبحانه — بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأحوال فقال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

أى : يقال لهم يوم القيامة — على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هذا العذاب الذى تعذبون اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا ، بالحق الذى لا شك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا ، انه الحق ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أى : بسبب كفركم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

(١) سورة غافر الآية ٥٧

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٣٠ — ٣١

أى : فاصبر أيها الرسول ﴿ وما صبرك إلا بالله ﴾ على ما أصابك في الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتفاء إلى طاعته . ولما أمره بالصبر ، وهو أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة فقال تعالى : ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أى : لا تعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة كقوله تعالى : ﴿ وذرفى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويداً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ أى : كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم — لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار — لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا في الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار كقوله تعالى : ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ بلاغ ﴾ أى : هذا القرآن بلاغ للناس ، وكفاية إن فكروا واعتبروا كقوله تعالى : ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾ <sup>(٥)</sup> ، وقوله ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ <sup>(٦)</sup> ثم أوعد وأنذر فقال جل في علاه : ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أى : وما يهلك بالعذاب إلا الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لأمره ونهيه .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك شرك ، وهذه الآية أقوى آية في الرجاء ، ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا همماً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) سورة الزمّل الآية ١١

(٢) سورة الطارق الآية ١٧

(٣) سورة المؤمنون الآيات ١١٢ — ١١٣

(٤) سورة النازعات الآية ٤٦

(٥) سورة إبراهيم من الآية ٥٢

(٦) سورة الأنبياء الآية ١٠٦

## تفسير سورة محمد

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وثلاثون .

كلماتها : خمسمائة وتسع وثلاثون

وحروفها : ألفان وثلاثمائة وتسع وأربعون

ولها اسمان : سورة محمد ، لقوله : ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق ﴾

وسورة القتال ، لقوله : ﴿ وذكر فيها القتال ﴾

## مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الكفار في إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان وابتلاء الكفار في العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، وتخصيص الرسول ﷺ بأمره بالخوض في بحر التوحيد والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمة خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخلاء في الانفاق ، وبيان استغناء الحق — تعالى — وفقر الخلق في قوله : ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء ﴾ .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة ﴾ نزل وأنزل كلاهما متعد . وقيل : نزل للتعدى والمبالغة ، وأنزل للتعدى . وقيل : نزل . دفعة مجموعا وأنزل متفرقا ، وخص الأولى بنزلت ، لأنه من كلام المؤمنين ، وذكر بلفظ المبالغة ، وكانوا يأنسون لنزول الوحي ، ويستوحشون لإبطائه . والثاني من كلام الله — تعالى — ولأن في أول السورة ﴿ نزل على محمد ﴾ وبعده ﴿ أنزل الله ﴾ ، وكذلك في هذه الآية قال ﴿ نزلت ﴾ ثم ﴿ أنزلت ﴾ .

قوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم ﴾ نزلت في اليهود ، وبعده : ﴿ من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا ﴾ نزلت في قوم ارتدوا . وليس بتكرار .

## مناسبتها لما قبلها

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلاً اتصالاً واحداً لا تنافر فيه ، كآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض . فالأحقاف فيها الحديث عن إعراض الكافرين في مختلف العصور ، وقد استنفدت السورة وسائل الإقناع العقلي ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِنَبْلُوًا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾

## معاني المفردات

﴿ صدوا عن سبيل الله ﴾ أى : صرفوا الناس عن الدخول في الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه . ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطلها ، ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ أى : وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه . ﴿ بالهم ﴾ أى : حالهم في الدين الدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكثر بها . ﴿ يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أى : يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه في معادهم .

﴿ فإذا لقيتم ﴾ لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، ﴿ فضرب الرقاب ﴾ أى : فالقتل وعبر به عنه تصويراً له بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه الأعضاء ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ،

﴿ أَتَخْتَمُوهُمْ ﴾ أى : أكثرتم القتل فيهم ، ﴿ فَشَدُّوا الْوُثَاقَ ﴾ أى : فأسروهم ، والوثاق ( بالفتح والكسر ) ما يوثق به ، ﴿ مِّنَّا أَى : إطلاقاً من الأسر بالجنان . ﴾ فداء ﴿ أى : إطلاقاً فى مقابلة مال أو غيره ، ﴿ أَوْزَارُهَا ﴾ الأوزار فى الأصل : الأحمال ويراد بها : آلات الحرب وأنفائها من السلاح والكراع .

﴿ لَا تَنْصُرْ ﴾ أى : انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ﴿ لِيَلُو ﴾ أى : ليختبر . ﴿ يَضِلْ ﴾ أى : يضيع ، ﴿ بِالْهَمِّ ﴾ أى شأنهم وحالهم ، ﴿ عَرَفَهَا ﴾ أى : بينها وأعلمها . ﴿ تَنْصُرُوا اللَّهَ ﴾ أى : تنصروا دينه ، ﴿ فَتَعْساً لَهُمْ ﴾ أى : سقوطاً على الوجه وسقوطاً على الرأس ، ﴿ أَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أبطلها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه . وهذا هو الكفر المزدوج أو الضلال المضاعف أو تحول الكفر من حيوان عادى إلى حيوان شرس فاتك قاتل ، هذا الكفر المزدوج المقرون بالصد عن سبيل الله هو ما شكوا المؤمنون منه قديماً وحديثاً هو ما أعلن القرآن عليه حرباً شعواء قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيداً إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ <sup>(١)</sup> وبين سبحانه أنهم ينفقون أموالهم للصد عن الإسلام فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> فقد أخبر — تعالى — أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيغفلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى : ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ؛ فهذا الخزي لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدى والعذاب السرمدى .

وقوله تعالى : ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى : أبطل كيدهم ومكرهم وجعل الدائرة عليهم — وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم أخلاق ، من صلة أرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام ونحو ذلك حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثواباً ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَنَا إِلَى مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولما ذكر — سبحانه — جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ، ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته — ﷺ — قاله ابن كثير ، ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ جملة معترضة حسنة . ﴿ وَلِهَذَا قَالَ — جل جلاله — : ﴾ كُفِرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ أى : فامضى من سيئاتهم وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم في الآخرة ، بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته قال تعالى : ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحاً مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ .

« ذلك » في موضع رفع ، أى : الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا ، فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾ أى : كهذا البيان الذى يُبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير في « أمثالهم » يرجع إلى الذين كفروا ، والذين آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتَمْتَهُمْ فَشَدُّوا الوُثَاقَ فَمَا مِنْكُمْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ .

يقول تعالى : مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ، ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ، ﴿ حَتَّى إِذَا أَثْخَتَمْتَهُمْ ﴾ أى : أهلكتموهم قتلاً ، ﴿ فَشَدُّوا الوُثَاقَ ﴾ الأسارى الذين تأسروهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم إن شئتم مننتهم عليهم فأطلقتم أسرارهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ قال قتادة : حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

قال ابن كثير : وقال بعضهم : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أى : أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله — عز وجل — ، وقيل أوزار أهلها بأن يذلوا الوسع في طاعة الله — تعالى — وقيل معناه : حتى تضع الحرب ، أى : الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو المودة .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ﴾ ، « ذلك » في موضع رفع ، أى : الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت وقيل : هو مقصور على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والمعنى ذلك حكم الكفار وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . قاله القرطبي . ومعنى : ﴿ لا نتصر منهم ﴾ أى : أهلكهم بغير فقال : قال ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة ، ﴿ ولكن ليلو بعضكم ببعض ﴾ أى : أمركم بالحرب ليلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين كما بين — سبحانه — فى آخر السورة نفسها ﴿ ولنبلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾

وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله جل علاه : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون ﴾<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيديهم ويصلح باهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ . لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال — سبحانه — مبيناً — أن الذين قتلوا فى سبيله فلن يذهب أعمالهم بل يكثرها وينميها ويضاعفها : منهم من يجرى عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده عن كثير من مرة عن قيس الجذامى — رجل كانت له صحبة — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يعطى للشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان »<sup>(٤)</sup> تفرد به أحمد رحمه الله . ذكره ابن كثير .

وفى صحيح مسلم عن أبى قتادة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شئ إلا الدين »<sup>(٥)</sup> وذكر ابن كثير فى تفسيره حديثاً لأبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته »<sup>(٦)</sup> وأرواه أبو داود .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٣) سورة التوبة الآية ١٦

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٠٠ حديث قيس الجامى — رضى الله عنه — فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن قيس الجزامى . ( رجل كانت له صحبة ) .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الاماره » باب « من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياهم » ، « إلا الدين » ج ٣ ص ١٥٠٢ حديث رقم ١١٩ / ١٨٨٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٦) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الشهيد يشفع ج ٣ ص ٣٤ حديث رقم ٢٥٢٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي ، وإيماناً بي ، وتصديقاً برسلي فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذي نفس محمد بيده : ما من كَلِمٍ يَكُلِّمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كَلِمَ لونه لون دم ، وريحه مسك والذي نفس محمد بيده ، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده لوددت أني أغزوا في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزوا فأقتل ثم أغزوا فأقتل »<sup>(١)</sup> متفق عليه .

( ومعنى الكَلِم — بفتح الكاف وسكون اللام — هو الجرح ) .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى .

وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قيل : يا رسول الله ، ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول « لا تستطيعونه » ثم قال « مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »<sup>(٣)</sup> متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ سيديهم ويصلح بالهم ﴾ أى : يهديهم إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾<sup>(٤)</sup> . وقوله : ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أى : أمرهم وحالهم ، ﴿ ويدخايم الجنة عرفها لهم ﴾ أى : عرفهم بها وهداهم إليها . وقال محمد بن كعب القرظي : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذي كان وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه في الجنة ويتبعه ابن آدم حتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شيء أعطاه الله — تعالى — في الجنة فإذا انتهى

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب « فضل الجهاد والخروج في سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ حديث رقم ١٠٣ / ١٨٧٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب فضل الشهادة في سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٨ حديث رقم ١١٠ / ١٨٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) سورة يونس الآية ٩



إلى أقصى منزله في الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . ذكره ابن أبي حاتم رحمه الله . قال ابن كثير وقد ورد الحديث الصحيح بذلك — أيضا — رواه البخارى من حديث أبي سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسى بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان في الدنيا » (١) .

ونحن الآن في سبيلنا إلى تفسير هذا النص الكريم : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ .. الْآيَات ﴾ وذلك كما جاء في كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام للشيخ العبابوني . فقد جاء ما نصه .

## الحرب في الإسلام

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴿١﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ وَلِيَدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ ﴿٣﴾

## التحليل اللفظي

﴿ أَثْخَنْتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح . يقال : أثخن العدو : إذا أكثر فيه الجراح . قال في اللسان : والإثخان من كل شيء قوته وشدته ، يقال ، قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قوته عليه ووهنه . وأثخنه الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) معناه : حتى يبالغ في قتل أعدائه ، ﴿ الْوَتَاقَ ﴾ في الأصل مصدر كالأخلاص ، وأريد به هنا : ما يوثق به أى : ما يربط به كالحبل وغيره . قال الجوهرى : وأوثقه في الوثاق ، أى : شده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ﴾ والوثاق بكسر الواو لغة فيه .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب المظالم والغصب » باب « قصاص المظالم » ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨ فقد ورد الحديث من روايه ابى سعيد الخدرى بلفظ : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاضون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فوالذى نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه في الجنة أدل بمنزله كان في الدنيا » .

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٧

﴿ مناً ﴾ مصدر من ، ومعناه : أن يطلق سراح الأسير بدون فداء وبدون مقابل .

﴿ فداء ﴾ مصدر فادى ، والفداء : أن يطلق الأسير مقابل مال يأخذه منه . قال في اللسان : الفداء بالكسر : فكاك الأسير والعرب تقول : فاديت الأسير ، وتقول : فديته بمالي . وفديته بأبى وأمى ، إذا لم يكن أسيراً .

﴿ أوزارها ﴾ الأوزار : جمع وزر . وهو في الأصل : الإثم والذنب ، ويطلق على الحمل الثقيل ، والمراد به : آلات الحرب وأثقالها من السلاح والخيول والعتاد . وسمى السلاح ﴿ أوزارا ﴾ لأنه يحمل لثقله . قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا

وإنما جاء الضمير مؤنثاً ﴿ أوزارها ﴾ لأن الحرب مؤنثة .

ومعنى الآن : حتى تنتهى الحرب ، وتضع سلاحها ، فلا يكون قتال مع المشركين لضعف شوكتهم .

﴿ ذلك ﴾ اسم الإشارة « ذلك » جىء للفصل بين كلامين ، وقد كثر في لغة العرب استعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين والانتقال من الكلام الأول إلى الثانى كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقوله في هذا الشأن ونقول بعده كذا — وكذا .

﴿ لا انتصر منهم ﴾ أى : انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال فالله — سبحانه — قادر على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم . ولكنه ابتلاء من الله — سبحانه — ﴿ ونبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

قال الألوسى : قوله تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أى : لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف : أو رجفة ، أو غرق أو موت جارف . ﴿ ليلو بعضكم بعض ﴾ أى : أمركم — سبحانه — بالحرب ، ﴿ ليلو بعضكم بعض ﴾ فيشيب المؤمن ويكرمه بالشهادة . ويخزي الكافر بالقتل والعذاب .

والابتلاء في اللغة : الامتحان والاختبار .

﴿ يضل أعمالهم ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ، بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى يوم الدين .

﴿ عرّفها لهم ﴾ أى : بينها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرّفها لهم في الدنيا بذكر أوصافها كما قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن .. الآية ﴾ من سورة محمد .

## المعنى الجملى

يأمر سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار فى الحرب ، ألا تأخذهم شفقة عليهم ، بل ينبغى أن يحكموا السلاح فى رقابهم ، ويحصدوهم بسيوفهم حصدا ، حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم . وكسروا شوكتهم عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق وهو كناية عن وقوعهم أسرى فى أيدي المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند ذلك بالخيار : إما أن يمنوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم .

ثم بين الله — سبحانه — الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته — تعالى — أن ينتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين ، وتلك الحكمة هى امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره واحتمالهم للشدائد فى سبيل الله ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (١) .

ثم بين الله — تعالى — بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة فى سبيله . ستحفظ أعمالهم ، وتخلد لهم ، ثم هم بعد ذلك فى روضات الجنات يحبرون ، وفى ذلك حض على الجهاد ، وترغيب للخروج فى سبيل الله ، لينال المؤمن إحدى الحسينين : إما النصر والعزة فى الدنيا ، وإما الشهادة فى سبيل الله .

## لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : عبر القرآن الكريم عن القتل بقوله — تعالى — : ﴿ فضرب الرقاب ﴾ والسر فى ذلك : أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس فى لفظ ( القتل ) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو ملقى على هيئة منكرة — والعياذ بالله — ولو قال : ( فاقتلوهم ) لما كان هذا المعنى الدقيق .

والتعبير — أيضا — يوحى بشجاعة المؤمنين ، وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم ، يعملون فيهم سيوفهم بضرب الأعناق . وهو ( مجاز مرسل ) علاقته السيئية لأن حز الرقبة سبب الموت . اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ كناية عن الأسر أى : اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم ، حتى تروا فيهم رأيكم .

ولما كانت العادة أن يربط الأسير لثلا يهرب جاء التعبير بقوله : ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ وفيه الإشارة إلى الكف عن القتل والاكتفاء بالأسر ، لأن الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح ، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَأِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ ذكر — تعالى — ﴿ الْمَنِّ وَالْفِدَاءِ ﴾ ولم يذكر القتل والاسترقاق . وفي ذلك إرشاد من الله — تعالى — إلى أن الغرض من الحرب كسر ( شوكة المشركين ) . لا إراقة الدماء والتشفى بإزهاق الأرواح ، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل ، وتقديم ( المن ) على ( الفداء ) في الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، فالجهاد في سبيل الله يقاتل لاعلاء كلمة الله ، لا للمغنم المادى والكسب الدنيوى .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ حَتَّى نَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ﴾ في الآية الكريمة إشارة إلى أن الاسلام يكره الحرب ويمقتها ، لأنها مخربة مدمرة ، والتعبير بـ ﴿ أَوْزَارَهَا ﴾ للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار ، المحاربون لله ورسوله ، فلولا كفرهم وإفسادهم في الأرض لما كانت هناك حرب .

قال الإمام الفخر : « والمقصود من وضع الحرب أوزارها ، انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى في الدنيا حزب من أحزاب الكفر ، يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، وإنما قال : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبَ أَوْزَارَهَا ﴾ ولم يقل : حتى لا يبقى حرب ، لأن التفاوت بين العبارتين كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة بنى أمية ، وقولك : لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثاني أبلغ ، فكذا ههنا » .

اللطيفة الخامسة : فإن قيل : لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم ، وأمر المؤمنين بالجهاد ؟ .

فالجواب : أن الله — عز وجل — أراد بذلك أن يختبر عباده ، فابتلى المؤمنين بالكافرين ، ليختبر صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد وابتلى الكافرين بالمؤمنين ، ليظهر الأرض من رجسهم ، وينيل المؤمنين الشهادة في سبيله بسببهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ .

فإن قيل : إن الله يعلم المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، والمطيع من العاصي ، فما هي الفائدة من هذا الابتلاء ؟ فالجواب : أن الابتلاء من الله — تعالى — ليس بقصد العلم والمعرفة ، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر بعد إقامة الحجة عليه ، حتى يقطع العذر على الإنسان ، أو نقول : إن الابتلاء غرضه الكشف للناس أو للملائكة ، ليظهر لهم الصادق من المنافق ، والتقوى من الشقى ، وليس بالنسبة له — تعالى — ، لأنه بكل شيء عليم .

اللطيفة السادسة : أمر الله — تعالى — بالمن أو الفداء ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام . روى أن الحجاج حين أسر أصحاب ( عبد الرحمن بن الأشعث ) وكانوا قريباً من خمسة آلاف رجل قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من ( كيدة ) فقال : يا حجاج ، لا جزاك الله عن السنة والكرم خيراً ! قال : ولم ذاك ؟ قال : لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتَمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَأِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ في حق الذين كفروا .. فو الله ما مننت ، ولا فديت ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق .

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

• فقال الحجاج : أف لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا سبيل من بقى  
فخلى يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين ، يقول ذلك الرجل .

## الأحكام الشرعية

**الحكم الأول :** ما المراد بـ ﴿ الذين كفروا ﴾ في الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا ﴾ على قولين :

(١) **القول الأول :** أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان . وهذا مروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما .

(٢) **القول الثانى :** أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك ، أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية . واختيار جمهور المفسرين . قال ابن العرى : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، والتخصيص لا دليل عليه .

**الحكم الثانى :** ما المراد من قوله — تعالى — : ﴿ فضرِب الرقاب ﴾ في الآية الكريمة ؟ ذهب ( السدى ) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه القتل .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه ( قتل الأسير صبراً ) .  
والراجح هو الأول ، لأن الآية الكريمة وهى قوله — تعالى — : ﴿ فضرِب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾ قد جعلت ﴿ الإِثْخَان ﴾ وهو الإضعاف لشوكة العدو فما اية لضرِب الرقاب ، فأين هو قتل الأسير صبراً ؟ مع العلم بأنه إنما يقع فى الأثر بعد إِثْخَانه وضعفه ، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح ، بل هو الصحيح .

**الحكم الثالث :** ما المراد من الفداء ، وما هى أنواعه ؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من المفادة العتق أى : عتق الأسير . وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير فى مقابل ما يأخذه المسلمون منهم . وقد يكون المقابل ( أسرى ) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل .

وقد يكون المقابل ( مالاً ) أو عتادا يأخذه المسلمون فى نظير إطلاق الأسرى .

وقد يكون العوض ( منفعة ) كما كان فى غزوة بدر ، فقد كان من ليس عنده مال يفدى به نفسه أمره — عليه الصلاة والسلام — أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

فالمراد من الفداء : كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال ، أو عتاد ، أو منفعة ، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك .

الحكم الرابع : ما معنى قوله — تعالى — : ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ ؟ اختلف المفسرون في معنى الآية الكريمة على عدة أقوال :

أ — قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل .

ب — وقال مجاهد : حتى لا يكون دين إلا دين الاسلام .

ج — وقال سعيد بن جبير : حتى ينزل المسيح ابن مريم وحينئذ ينتهى القتال .

والقول الأخير ضعيف — لأن نزول عيسى ابن مريم ليس فى الآية ما يدل عليه . وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة ، فنزوله يدخل الناس فى الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر ، كما دلت عليه السنة المطهرة ، ولكن الآية ليس فيها ما يشير إلى هذا المراد من قريب أو بعيد .

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان ، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ <sup>(١)</sup> .

الحكم الخامس : هل يجوز قتل الأسير ؟

اتفق الفقهاء على جواز قتل الأسير . حتى قال « الجصاص » : لا نعلم فى ذلك خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبى ﷺ فى قتله لبعض الأسرى .

- ١ — ما روى أن النبى ﷺ — قتل ( أبا عزة ) الشاعر يوم أحد .
- ٢ — وقتل ( عُقبة بن أبى مُعيط ) صبراً ، ( والنضر بن الحارث ) بعد الأسر فى بدر .
- ٣ — وقتل ( بنى قريظة ) بعد نزولهم على حكم ( سعد بن معاذ ) الذى حكم فيهم بالقتل ، وسبى الذرية
- ٤ — وفتح — ﷺ — خيبر بعضها صلحا ، وبعضها عنوة وشرط على ( ابن ابى الحقيق ) ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانتة وكتمانه قتله — ﷺ — .
- ٥ — وفتح مكة وأمر بقتل ( هلال بن حظل ) و ( عبد الله بن أبى سرح ) و ( مقيس بن حبابه ) وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة .

فكل هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير ، ولأن فى قتله حسم مادة الفساد فى الأرض . قال الألوسى : « وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فإن فعل كان للإمام أن يعزره . ولكن لا يضمن شيئا ، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم ، لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم . فإن الإسلام لا ينافى الرق جزاء على الكفر الأصلى ، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا . لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم ... » .

وقال القرطبي : « وقيل : ليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج : أنه دفع أسيراً إلى ( عبد الله بن عمر ) ليقتله ، فأبى وقال ليس بهذا أمرنا الله ، وقرأ : ﴿ حتى إذا أنزجهم فشدوا الوثاق ﴾ .

قلنا : قد قاله رسول الله ﷺ وفعله ، وليس في تفسير الله للامن والفداء منع من غيره ، ولعل ابن حمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال وربك أعلم .. قاله القرطبي .

**الحكم السادس :** هل يجوز أخذ الفداء من الأسير ؟

اختلف الفقهاء في أخذ الفداء من الأسير على أقوال :

أولاً : مذهب الحنفية : أن الأسير لا يفادى بالمال ، ولا يباع لأهل الحرب ، لأنه يرجع حرباً علينا ، أما فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصحابين ( أبى يوسف ومحمد ) ، وقال ( أبو حنيفة ) : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضاً .

ثانياً : مذهب الجمهور : ( الشافعي ومالك وأحمد ) جواز أخذ الفداء من الأسرى .

دليل الحنفية : استدلال الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلي :

١ — قالوا : إن الآية الكريمة ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ <sup>(١)</sup> ، ويقول تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ <sup>(٢)</sup> فقل ذلك عن مجاهد وروى عن ( قتادة ) انه قال : نسختها آية الأنفال ﴿ فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ووجه الاستدلال :

أن سورة براءة من آخر ما نزل ، فوجب ان يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء ، والصبيان ، ومن يؤخذ منه الجزية ، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء .

٢ — وقالوا : لا يجوز المن ولا الفداء . لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل الإسلام ، حيث يرجعون حرباً علينا ، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفرومن رجس المشركين .

٣ — وقالوا : إن ما روى في ( أسرى بدر ) منسوخ أيضاً بما تلونا ، سيما وأنه قد نزل العتاب في قوله تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة التوبة من الآية ٥

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٠

(٣) سورة الأنفال من الآية ٥٧

(٤) سورة الأنفال من الآية ٦٧

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء .

٤ — وقالوا : إن ما كان من النبي ﷺ — في صلح الحديبية « أن من جاء منهم رددناه عليهم » إنما كان في بدء الدعوة ، وقد نسخ ذلك ، ونهى النبي ﷺ عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال : « من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة »<sup>(١)</sup> .

## أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة . نوجزها فيما يلي :

١ — قوله تعالى : ﴿ فشدوا الوثاق فإمّاناً بعد وإمّاناً فداء ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقاً بدون قيد ولا شرط ، فلإمام أن يمن أو يفدى ، أو يسترق ، عملاً بالآية الكريمة .

٢ — وقالوا : إن الآية محكمة ولا نسخ فيها ، لأن النسخ إنما يكون لشيء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهى قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء . فإذا وقعوا في الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملاً بقوله تعالى : ﴿ فإمّاناً منا بعد وإمّاناً فداء ﴾ .

٣ — واستدلوا — أيضاً — بأن النبي ﷺ فادى أسرى بدر بالمال . ومن لم يكن عنده مال منهم أمره — عليه السلام — بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وهذا قد ثبت بفعله — عليه الصلاة والسلام — .

٤ — واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : « أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبي ﷺ — وأسر أصحاب النبي ﷺ — رجلاً من بنى عامر بن صعصعة فمر به النبي ﷺ — وهو في الأسر فقال الأسير : علام أحبس ، فقال : بجريرة حلفائك ، فقال إني مسلم ، فقال النبي ﷺ — لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح ، ثم مضى رسول الله ﷺ — فناداه الأسير ، فقال إني جائع فأطعمني ، فقال النبي ﷺ — نعم هذه حاجتك ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما » .

قالوا : فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

٥ — واستدلوا بما رواه مسلم عن عمران بن الحصين أن رسول الله ﷺ — فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين .

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب السير » باب « ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين » ج ٣ ص ٨٠ - حديث رقم ١٦٥٤ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله بلفظ « أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبي ﷺ — فأمر لهم بنصف العقل وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله ، ولم ؟ قال : لا تراءى نارهما » .



٦ — واستدلوا بالمعقول وهو أن تخلص المسلم أدلى من قتل الكافر للانتفاع بالمسلم لأن حرمة عظيمة ، وأما الضرر الذى يعود إلينا بدفعه إلى المشركين ، فيدفعه نفع المسلم الذى يتخلص من فتنهم وعذابهم ، وضرر واحد يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان وتبقى فضيلة تخلص المسلم وتمكينه من عبادة الله — تعالى — ، وفيها زيادة ترجيح .

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة ( للفداء ) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت .  
وأما ( المن ) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز ( عند أى حنيفة ، ومالك ، وأحمد ) وأجاره الامام الشافعى لما ثبت ان النبي ﷺ من على ( ثمامة بن أثال ) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن أسلامه ، وقال — ﷺ — : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى من هؤلاء النتنى — يعنى أسارى بدر — لتركته له <sup>(١)</sup> رواه البخارى ، فقوله ﷺ ذلك دليل على جواز المن على الأسرى .

## الترجيح :

وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح : أن يفوز أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوى الرأى والبصر ، يفعلون ما تقضى به المصلحة العامة ، فإن رأوا قتل الأسرى قتلهم ، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى ، فادوهم ، وإن رأوا إبقاءهم فى الأسر تركوهم تحت أيدى مسلمين ، فيترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التى هم فيها . وهذه من ( السياسة الحكيمة ) التى ينبغى ان تتوفر فى قادة المسلمين .

والرسول ﷺ قد فعل ذلك كله ، فأسر من أسر . وقتل من قتل . وفادى من فادى منهم ، وأطلق سراح من أطلق دون مال ولا فداء . وما نزل من آيات العقاب فى سورة الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهى حكيم — حسب المصلحة أيضاً — حيث نزلت هذه الآيات الكريمة فى ( غزوة بدر ) وهى أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم فكانت المصلحة تقضى بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة . بالقتل والإثخان وإراقة الدماء ، حتى لا يطمع المشركون بالاقدام على حرب المسلمين مرة أخرى ، وحتى تقلّم أظافر الكفر منذ اللحظة الأولى ، فإذا علم المشركون أن لا رحمة فى قلوب المسلمين عليهم ، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم ، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر — رضى الله عنه — على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن موافقاً لرأيه ولما كثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن

(١) انظر صحيح البخارى يشرح الكرماني « كتاب الجهاد والسر » باب « ما من به النبي — ﷺ — على الأمارى من غير أن يخمس » ج ١٣ ص ١١٠ حديث ٢٩٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجبره ، وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية جبير بن مطعم عن أبيه بلفظ « لو كان المطعم ابن عدى حياً فكلمنى فى هؤلاء النتنى أطلقهم » يعنى أسارى بدر .

الكريم بالمن والفداء على الأسرى ، بعد أن توطدت دعائم الدولة الاسلامية ، وأصبح صرح الإسلام شامخاً عتيداً ، فكان المن عن قوة ، لا عن ضعف ، وعن عزة ، لا عن ذلة واستكانة .  
فالمصلحة العامة هي التي ينبغي أن تراعى في مثل هذه الحالات : والحرب مكر وخديعة ، ولا عزة للضعفاء المستكينين .

## ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : المؤمن يقاوم في سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فينبغي أن يكون شجاعاً مقداماً .  
ثانياً : إتيان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح ، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهين قوتهم .  
ثالثاً : الحرب في الإسلام حرب مقدسة ، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين .  
رابعاً : الاكتفاء بالأسر بعد إتيان العدو مظهر من مظاهر رحمة الاسلام بأعدائه .  
خامساً : إطلاق سراح الأسرى بدون عوض ، أو أخذ الفداء منهم ينبغي أن تراعى فيه مصلحة المسلمين .  
سادساً : الجهاد في سبيل الله ماض في هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض شرك .  
سابعاً : الله — جل ثناؤه — قادر على أن ينتقم من المشركين ، ولكنه أراد أن ينيل المؤمنين أجر الاستشهاد في سبيله .  
ثامناً : الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر ، يتلى بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن .

## حكمة التشريع

أقر الاسلام الحرب — مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات — لضرورة وقائية . وعلاج اضطرارى . لا مناص منه لمجاهة الطغيان ، ودفع الظلم والعدوان ، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين ، على حد قول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا فما حيلة المضطر إلا ركوبها

ولكن الإسلام في الوقت الذي يدعو فيه إلى الجهاد ، ويحض على القتال ، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات ، تجده يأمر بالرحمة والشفقة في ( معاملة الأسرى ) الواقعين في أسر العبودية ، فيحرم تعذيبهم أو إيذائهم كما يحرم التمثيل بالقتلى ، أو الإجهاز على الجرحى ، أو تقتيل النساء والصبيان .  
إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء ، وسلب الأموال ، وتخریب الديار ، ولكنه غرض إنسانى نبيل . هو حماية المستضعفين في الأرض . ودفع عدوان الظالمين ، وتأمين الدعوة ، والوقوف في وجه الاستعلاء والطغيان كما قال — جل ثناؤه : ﴿ ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴿١﴾ .  
ولقد كان من وصايا النبي الأكرم — ﷺ — ، للجند والجيش المجاهدين في سبيل الله ، أن يأمرهم بطاعة الله ، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء . فقد روى مسلم في صحيحه أن رسول الله — ﷺ — كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « أغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً » ﴿٢﴾ .

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، ففي وصية أبي بكر الصديق — رضى الله عنه — لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لما كلة وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع — يريد الرهبان — فدعوهن وما فرغوا أنفسهن له » .

وهكذا كانت رحمة الإسلام في الحرب ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة . فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدرة بقدرها فلا يقتل إلا من يقاتل في المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه : ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ ﴿٣﴾ ، ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ ﴿٤﴾ .

لقد حرم الإسلام قتل النساء ، والشيوخ ، والأطفال ، وقتل المرضى والرهبان .  
وحرم ( المثلة ) والإجهاز على الجريح ، وتتبع الفار ، وتحريق البيوت والأشجار ، وذلك تمشياً مع نظريته الإنسانية المثلى في حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان ، ولأن الحرب كعملية جراحية ، يجب ألا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان . فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة في تعاليم القرآن ، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء ، حتى تنتهى المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل ، وصدق الله العظيم : ﴿ فأما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ فله ما أرحم الاسلام ! وما أسمى مبادئه وأحكامه !! أ هـ .

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .. الخ حديث ٣ / ١٧٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٤

(٤) سورة البقرة من الآية ١٩٠

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ أى : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار : كقوله تعالى : ﴿ ولننصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور <sup>(١)</sup> ، فأقسم سبحانه أنه سينصر من ينصر دينه ورسوله فهو القادر لا يعجزه شيء ، العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ثم ذكر — سبحانه — عوامل النصر والذين يستمعون نصرة الله وهم الذين أقاموا للصلاة وآتوا الزكاة ، ودعوا إلى الخير ، ونهوا عن الشر ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وقوله تعالى : ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ أى : عند القتال ، وقيل : على الاسلام وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب كقوله تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وبين — ﷺ — أن الله يخذل من خذل دينه وركن إلى الدنيا فعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » قال قائل : يا رسول الله ، ومن قلة يومئذ ؟ قال : « لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ولتعرفن فى قلوبكم الوهن قال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت <sup>(٣)</sup> ذكره النبوى فى شرح السنة ، ورواه ابو داود بلفظ « وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » ، وفى مسند أحمد « ينزع المهابة من قلوبكم ويجعل فى قلوبكم الوهن » .. وسنده قوى .

## عوامل البناء ومعاول الهدم

جاء فى كتابنا « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » ما نصه : الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبينا محمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليك يا علم الهدى . ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمام فى حماة الاسلام وحراس العقيدة .

فإن الدهر مدرسة أساتذته الأيام والليالى ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة قال جل شأنه :

(١) سورة الحج من الآية ٤٠ والآية ٤١

(٢) سورة الأنفال الآية ١٢

(٣) انظر شرح السنة للفيوى ج ١٥ ص ١٦ فقد ورد الحديث رقم ٤٢٢٤ من رواية عن ثوبان فقد روى الحديث بلفظه .

﴿ وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين .  
وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم  
ويلعلم الصابرين ﴿<sup>(١)</sup>

وهذا الكتاب « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » يعرض لدراسة قرنين من الزمان تعرض فيهما العالم  
الاسلامى للهجمات الصليبية الحاقدة إلى أن قيض الله للأمة البطل المسلم ( صلاح الدين الأيوبي ) الذى  
كان يستعين على أعدائه بصلاة الليل ، والذى قال لأصدقائه ذات يوم وقد دارت بينهم طرفة فضحكوا  
ولم ييتسم ، فقيل له : لماذا لا تشاركنا ضحكنا أيها القائد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحى  
من الله أن يرانى مبتسماً والمسجد الأقصى فى أيدي الصليبيين ، إنه البطل الذى جعل من جهوده جوادة  
داراً ومستقراً وقيل له : لما لا تبنى لك داراً فقال بلسان يتفاطر يقينا وجلالاً ومهاباً : وماذا يصنع بالدار  
من ينتظر الشهادة بين عشية أوضحاها ليست هذه دارنا بأن دارنا هناك لها نجم جمع وإليها نرجع .  
لقد أجرى الله النصر على يديه بعد ما قضى على معاول الهدم من تفسخ أخلاقى ، واخلال اجتماعى ،  
وضعف للوازع الدينى ، وشيد عوامل البناء من عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وقوة للوازع الدينى ،  
ونحن إذ نثمد هذه الدراسة بين يدي الأمة الاسلامية نرى أن التاريخ يعيد نفسه ، منها نحن أولاء قد تداعت  
علينا الأمم من الشرق والغرب ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فلنتخذ من أحداث التاريخ عبرة ، ولمثل  
هذا فليعمل العاملون ، وفيما كان عليه ( صلاح الدين ) فليتنافس المتنافسون وعلى الله فليتوكل المؤمنون  
وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون . ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾<sup>(٢)</sup>

## حالة العالم الإسلامى قبل الحروب الصليبية

إن من الواجب على كل من أراد أن يدرس هذه الحقبة من تاريخ العالم الاسلامى التى خاض فيها الشرق  
الاسلامى هذا الصراع الدامى الرهيب مع جيوش أوروبا التى نزحت إليه تحاول أن تحتج جذوره وتقضى  
على مقدساته ، من الواجب على الدارس لهذه الحقبة أن يلقي نظرة على خريطة الشرق الاسلامى والمغرب  
الاسلامى ليرى كيف انتهز هؤلاء الأعداء تلك الفرص السانحة ، واستغلوا مراكز الضعف فى العالم الإسلامى  
حينذاك ، ثم انقضوا على الفريسة انقضاضاً وحشياً لا يعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا يقيم للقيم والمبادئ  
والمثل والعقائد وزناً ، وليعلم الدارس للتاريخ أن النكبة إذا كانت قد حلت بالمسلمين فى تلك الحقبة كان  
ذلك لثلاث أسباب كما قال علماء التاريخ ومؤرخو العلوم ، وهذه الأسباب الثلاثة تنحصر فيما يلى :

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ والآيتان ١٤١ — ١٤٢

(٢) سورة النازعات الآية ٢٦

أولاً : ضعف الوازع الدينى

ثانياً : التفسخ الأخلاقى

ثالثاً : الانحلال الاجتماعى

وكفى بهذه الأسباب من عوامل للتدمير والهدم ، فإذا ضعف وازع الدين فى النفوس انحلت أكبر عروة وثقى يقوم عليها بناء النفس الإنسانية وإذا ما ضعف وازع الدين فمضا الضمير وقست العاطفة وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة تمام النفوس على هدهدة الشهوات ، وتنزوى على الملذات ، ولا تكثرت بعضائم الأمور ، ولذلك كانت الرسالة التى جاء الأنبياء من أجلها بناء العقائد فى النفوس وإقامة النفوس على العقائد ، وتشديد الصروح العالية فى مجال الإصلاح الاجتماعى ، وتزكية النفوس وتطهيرها ، وربط القلوب بخالقها ومبدعها .

ومن ثم فإن التعريف الجامع لكلمة الدين : أنه هو مجموعة العقائد والشرائع التى تنظم علاقة العبد بخالقه ، وعلاقته بمخلوقات الله ، أجل ! تنظيم علاقته بربه . فيعرف واجبه عليه ، ويستشعر هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه ، ولقد أطلق الرسول — ﷺ — على الإحسان هذا المعنى الواسع الرفيع العظيم القدر الجليل الأثر فقال : « إن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »<sup>(١)</sup> . وهذا هو الذى ركز عليه الكتاب الكريم فى قوله : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾<sup>(٢)</sup> .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شئ عليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

مأثرة أدنى شك فى أن قوة الوازع الدينى هى محور الارتكاز ، ومركز الدائرة ، وحجر الزاوية ، والعنصر الفعال ، والركن الركين ، والحصن المتين ، الذى تبنى عليه سعادة الأمة وتشديد فوقه صروحها .

أما خطر التفسخ الأخلاقى على الأمة فشده مستطير ، إذ هو أحد النتائج المترتبة على ضعف الوازع الدينى وإنما تنفسخ الأخلاق إذا ضعفت رقابة العبد لأوامر ربه ، قال الله — جل فى علاه — ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به أنحيْنَا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب « سؤال جبريل عن الايمان والاسلام » ج ١ ص ١٩ — ٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) سورة الحديد الآية ٤

(٣) سورة المجالة الآية ٧

(٤) سورة الأعراف الآية ١٦٥

ولعل الشهادة العليا والحقيقة الكبرى التي نطق بها القرآن الكريم لنبي الرحمة وباعث النهضة الأخلاقية هي قول الله تعالى : ﴿ وإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

سئلت عائشة — رضى الله عنها — عن خلقه — ﷺ — فقالت « كان خلقه القرآن » (٢) ، وما أجل قول الرسول ﷺ وهو يلخص رسالته في قوله « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » (٣) .  
وان من أهم الأسباب التي تباد بها الأمم ويرسل الله بسببها الجوائح هو كثرة ذنوبها ومخالفتها ربها وتلك كلها صور من صور التفسخ الأخلاقي .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَلَيْهِمْ مَدْرَارٌ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٤) .  
هذه الآية الكريمة بجلاها وقوتها تلخص إهلاك الله للقرن على قدر قوتها وعتوها وسلطانها وجبروتها ، تلخص كل هذا في قوله « بِذُنُوبِهِمْ » وليست كلمة الذنوب الكلمة الرسالة بل إنها صواعق ورعود ، إنها العاصفة بكل بروقها ورياحها الهوجاء .

ومن هنا يتضح لنا قيمة التمسك بالقيم والمبادئ والمثل .

يا رسول الله

بنيت من الأخلاق ركننا فخافوا الركن فانهدم اضطرابا  
ولو حفظوا سبيلك كان نورا وكان من النحوس لهم حجابا

فإذا ما تفسخت الأخلاق تربت على ذلك إنحلال المجتمع وهذه ثلاثة الأثافي وداهية الدواهي إذ إنحلال المجتمع مرضى من أخطر الأمراض فما انحلت أمة إلا كان الذل رائدها والخذلان حليفها وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

والقرآن العظيم يضرب الأمثلة بأقوام انحلت مجتمعاتهم بعد ما ضعف وازع الدين فيهم ، وتفسخت الأخلاق بينهم فكان مصيرهم الهلاك والدمار والوبال والعار .. إليك ما قاله الله — جل شأنه — في مجتمع كان كل همه كسب المال من الحرام ، ولو أدى ذلك إلى أن يخس الناس أشياءهم ، ويتقص المكيال ، والميزان قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مَحِيطٌ . وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ

(١) سورة القلم الآية ٤

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لسعد بن هشام بن عامر .

(٣) انظر السنن الكبرى للبيهقي « كتاب الشهادات » باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ١٩١ ، ١٩٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦

بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . ﴿١﴾

ولكنهم وقفوا من هذه التعاليم السامية والتوجيهات الربانية العالية الرفيعة العالية موقف الجحود والنهم والاستهزاء ، ﴿٢﴾ قالوا يا شعيب أصلو تك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنك الحليم الرشيد ﴿٣﴾ . قالوا ذلك على سبيل السخرية لأن لغة المادة إذا سيطرت على النفس أعمتها عن كل الحقائق وسدت أمامها أبواب الرشد والهدى .

فماذا كانت عافية هؤلاء الذين انحلت مجتمعاتهم وفسدت أخلاقهم ؟ قال تعالى : ﴿٤﴾ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً للمدين كما بعدت ثمود ﴿٥﴾ .

وهذا نموذج من نماذج عديدة لمجتمعات عديدة وصورة لقوم لم يكن عندهم وازع من الدين ولا بقية من خلق ولا أثارة من إصلاح اجتماعي وهكذا نتبين أن أوروبا انتهزت تفكك المجتمع الاسلامي واستبعاد الفرقة فيه فأرسلت جيوشها لتضرب ضربتها وليلق القارىء نظرة على هذا المجتمع قبل أن تنزح إليه جيوش أوروبا . فقد كان المجتمع الاسلامي قبيل الحروب الصليبية على حالة من الاضطراب والتفكك تسمح لأعدائه بمهاجمته والنيل منه .

فمصر كانت نهياً للمجاعة والثورات والانقلابات وعدم الاستقرار ، وبلاد العراق والخلافة العباسية ما ان شملها نفوذ السلاجقة حتى عادا إلى ما كانا عليه زمان بنى أمية من الخلافات والحوادث والبلاد الشامية كانت مسرحاً لحروب بين الفاطميين والسلاجقة وبين السلاجقة أنفسهم .

ولم تكن حالة المغرب الاسلامي أحسن حظاً من المشرق ، فتونس عمتها الفوضى والاضطرابات ونالها التقسيم وفقدان الوحدة السياسية ، وصقلية انتهت منها آخر مقاومة إسلامية واستولى عليها الرومان سنة ٤٨٤ هـ ، أما الأندلس فقد بدأ فيها عهد التراجع ورجحان كفة الصليبيين ، وبدأوا يحتلون المدن الاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

ولم تكن نجدة ابن تاشفين إلا إيقافاً وقتياً لعهد التفوق الصليبي بالأندلس . وهكذا كان العالم الاسلامي قبيل الحروب الصليبيين في حالة مهينة على مهاجمته واكتساحه .

ما هي الحروب الصليبية ؟

— حروب الصليبيين عبارة عن الحملات العسكرية التي قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من

(١) سورة هود الآيات ٨٤ — ٨٦

(٢) سورة هود الآية ٨٧

(٣) سورة هود الآيتان ٩٤ — ٩٥



الزمن ( ٤٩٠ هـ — ٦٩٠ هـ ) بقصد استخلاص بيت المقدس من يد المسلمين أو للمحافظة على امارات الصليبيين التى تكونت فى البلاد الشامية .

والحروب الصليبية تمثل دوراً هاماً من أدوار الصراع المستمر من الزمن القديم ما بين الشرق والغرب .  
فما هى الأسباب التى أدت إلى هذه الحروب ؟

يكاد المؤرخون يجمعون على أن أهم الأسباب التى دعت إلى هذا الصراع الدموى العنيف تنحصر فيما يلى :

- ١ — ما يحمله الأوروبيون من الأحقاد للمسلمين نتيجة وجود بيت المقدس فى يد المسلمين .
- ٢ — لما كانت القسطنطينية على وشك ان يستولى عليها المسلمون استنجد الامبراطور الكسيس كومنين بالعالم الأوروبى ضد المسلمين .
- ٣ — وكان من الأسباب التى دعت إلى ذلك تلك الحالة الاجتماعية بأوروبا وسوء نظام الطبقات والظلم والاضطهاد المسلط على عامة الشعب كان يدفع به إلى الانعتاق والحرية كما كانت طبقات الأمراء والإقطاعيين يدفعها حب تكوين الممالك والإمارات .
- ٤ — وكان من أهم الأسباب وأقواها فى نفوس الصليبيين هو انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين .  
كيف بدأت .. ؟

وكان فى الأسباب السابقة ما يحفز أهل أوروبا ويدفعهم بقوة إلى أن ينسابوا على الشرق كما تنساب الثلوج من قمم الجبال وأن يتحركوا بسرعة ليحققوا بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتشريد الآباء والأبناء دون أن تأخذهم فى ذلك دوافع من رحمة أو بقية من إنسانية ، وليحولوا منطقة الشرق ومهبط الوحي وأرض الرسالات وجنة الأرض وربوع السلام — تحركوا — ليحولوها إلى دماء تجرى وأرض تضطرم نارا وتضطلى سعيراً ، — تحركوا — ليحولوها إلى جحيم يستعرد نارا تلظى .

واعتمدوا أولاً بجمع بليزانس بشمال إيطاليا ، ثم مؤتمر كليرمون بفرنسا وهو الذى قررت فيه الحرب ، واتفقوا فيما بينهم على أن يكون لقاءهم بمدينة القسطنطينية ، وكانت الحملة الأولى فى غاية الفوضى والاضطراب استطاع قليج أرسلان السلجوقي أن يقضى عليها قرب مدينة نيقية ثم تبعها جيوش أخرى نظمها الإقطاعيون والاسراء جاءت من جنوبى فرنسا وشمالها ومن بلجيكا ومن جنوب إيطاليا واجتمعوا كلهم فى القسطنطينية ولما عبروا إلى آسيا الصغرى اعترضهم قليج أرسلان فدارت بينهما معارك كبرى ثم تقدموا إلى انطاكية وفرضوا عليها حصارا استمر ثمانية أشهر سقطت بعدها فى أيديهم وبعد سقوطها توجهوا بجيوشهم يقصدون بيت المقدس المدينة المقدسة التى فتحتها المسلمون أيام الفاروق عمر — رضى الله عنه — .

أرادت جيوش أوروبا بحجروتها وطغيانها أن تنتزع هذه الأرض المقدسة من يد المسلمين بعد ما رأت فيهم عوامل الفرقة والضعف وقد كانت المأساة بل الملهاة وكانت الكارثة بل الطامة الكبرى أن حاصروا

بيت المقدس شهرا وقع بعده في أيديهم وكان ذلك في عام ٤٩٢ هـ — ١٠٩٩ م . وناهيك بما جرى في هذه المدينة من جرائم تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان . سقطت مدينة القدس في شهر شعبان بعد سفك للدماء بصورة وحشية قدرها المؤرخون بسبعين ألفاً من المسلمين .

وإليك ما قاله ابن الأثير عن ابتلاء المجتمع الإسلامي بهذه الكارثة :

« وورد المستنفرون من الشام في رمضان إلى بغداد صحبة القاضي أبى سعد الهروى فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال وسبى الحرير والأولاد ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم أفطروا .. ولم يكن الخليفة العباسي في هذا الوقت يملك من الأمر شيئاً فالضعف والفرقة عاملان خطيران دبا في صفوف المسلمين ، فتعدد ما كان الصليبيون في نشوة وفرح بالغلبة والنصر كان ملوك المسلمين وأمرأؤهم في شغل شاغل عما يدور على أرضهم من أخطار جسام ، وأهوال عظام ، شغلتهم الدنيا ، وبددتهم الفرقة . وأضعفتهم الخلافات ، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

أما الصليبيون فقد استمر رأيهم على أن يقيموا مملكة لاثنين بيت المقدس واختير لرئاستها قواد فروا ، وهكذا حققت أوروبا حلمها الذي كان يراودها عبر السنين الماضية فمنذ أن استقر لها الأمر أخذت الأمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ولكي يتم لها احتلال بقية السواحل الشامية .

ولقد قام لها بعد ذلك إمارات عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصليبية وهى :

١ — إمارة الرها : وتم الاستيلاء عليها سنة ٤٩٢ هـ

٢ — إمارة انطاكية : وظلت في أيديهم إلى سنة ٦٦٧ هـ .

٣ — مملكة بيت المقدس : وكانت من أعظم الإمارات الصليبية ولهذا متولياها يلقب بملك وكانت هذه المملكة أعظمها شأنًا وأوسعها رقعة ، إذ امتدت حدودها إلى أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان . وكذلك كانت تشمل الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة تشمل الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة .

٤ — إمارة طرابلس : تكونت سنة ٤٩٦ هـ واستمرت إلى سنة ٦٨٨ هـ :

ولا يهولنك أن قامت للصليبيين إمارات فإنها لم تكن مستقرة في أوضاعها ولا هى بالتى يستعصى النصر فيها على المسلمين ، لولا أن الأمراء لمسوا جوانب الضعف والفرقة في صفوف المسلمين وما كان لهذه الإمارات أن تدوم وما كان للحق أن يرى الباطل يزأر في عرضات الدنيا ويعربد في رحابها دون أن يتصدى له بضربة يهوى لها صريعا فقد شاءت حكمة العلى الأعلى والحاكم الأعظم — جل في علاه — أن يقيض لهؤلاء الطغاة بيتين كريمين هما ( آل رنكى ، وآل أيوب ) ومن ثم بدأ رد الفعل الإسلامى يتجلى بقوة وبدأ الذين كانوا

يدخلون الرعب في قلوب المسلمين يرتد كيدهم في نحورهم ويهتزون من أعماقهم بعد ما أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .  
وهذه سنة الله في خلقه عندما يلجأ المسلمون إلى ربهم ويعرفون الطريق إلى رضاه يأخذون في الأسباب إلى طاعته لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقف في سبيلهم هذا قانون الله الذي لا يتغير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١) .

وعندما يتفرون ويختلفون يحل بهم من البلاء ويسلط عليهم من يبعث الرعب في قلوبهم فلا ينزع إلا إذا عادوا إلى الله .

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا . أو من قلة يومئذ يا رسول الله ، قال : لا ، إنكم لكثر ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ويلقى الوهن في قلوبكم . قالوا : وما الوهن يا رسول الله : قال : حب الدنيا وكراهية الموت » (٢) .

وكأنى ألقى فباطرى إلى مملكة بيت المقدس التي قامت على يد الصليبيين في شعبان ٤٩٢ هـ حتى قبض الله للأمة البطل المفوار والمجاهد المسلم ( صلاح الدين الأيوبي الذي استرد المسجد الأقصى في رجب ٥٨٣ هـ كأنى انظر الآن إلى مدينة القدس ومسجدها المبارك وهي تقع أسيرة تحت يد الصهيونيين شذاذ الآفاق وبغاة البشر كأنى بالتاريخ يندى جبينه حياء وخجلا عندما ينظر إلى هذه الراية البيضاء ذات النجمة الزرقاء المسدسة الأضلاع ترفرف على أرض السلام على أرض الاسلام ، على أرض النبوة ، على أرض الوحي ، على أرض مواكب النور والعرفان ، على أرض الهدى ، على أرض الضياء ، على ربوع فلسطين التي صارت وطناً بلا شعب لشعب بلا وطن . عندما دخلتها اسرائيل ، بيت الصهيونية البكر لتجعلها ركيزة تقيم عليها دولة تسمى اسرائيل الكبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، والمسلمون يملأون الدنيا مشرقاً ومغرباً ولكن فرقة وخلاف وشتات فما أشبه الليلة بالبارحة . إنها المأساة ، لقد سقطت صقلية وكانت الشهيدة الأولى ، وجاءت بعدها الأندلس فخرت شهيدة على أرض الإسلام .

وتبعتها فلسطين التي سالت دماؤها الذكية بعد ما ذبحها العدو الفاشيستي ، لأنه سرطان يمتد ويسرى إن لم يهب المسلمون ويجروا عملية استئصال له ، فالله وحده هو الذى يعلم العواقب وهو الذى يجرى عاقبة الأمور وهو الذى إليه تعيد مقتضياتها وإليه يرجع الأمر كله .

(١) سورة محمد الآية ٧

(٢) انظر شرح السنة للبغوي ج ١٥ — ص ١٦ حديث ٤٢٢٤ من رواية الثوبان ( سبق تخريجه في ص ٦٦ ) .

## نهضة مباركة

إذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما مضى من الأحداث رأينا أن سنة الله الواقعة في كونه شاءت للمسلمين بالنصر إذا كان الله غايتهم الكبرى ، وإذا كانت تعاليم رسوله هدفهم الأسمى .

« مازلتم منتصرين على عدوكم مادتم متمسكين بستي » .

والقرآن يؤكد المعنى في أكثر من موضوع حيث يقول الحق :

﴿ ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ﴾<sup>(١)</sup> .

وحيث يقول : ﴿ كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز ﴾<sup>(٢)</sup> .

وحيث يقول : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾<sup>(٣)</sup> .

وطريق النجاة هو الإيمان هذا حكم الله القاطع الذى لا يتخلف ولا يغيب .

﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup> .

فإذا ما تخلف المسلمون عن اتباع كتابهم والسير وراء هدى نبهم كانت النتيجة : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾<sup>(٥)</sup> .

« فإن خرجتم عن ستنى سلط الله عليكم من يبعث الرعب في قلوبكم » .

وهكذا تجلت الأمور وانكشف الحقائق ، فما كان لجيوش أوروبا ان تستولى على بيت المقدس وما وقع في أيديها من الامارات إلا عندما انتهزت فرصة الضعف السياسى والاجتماعى في المشرق الإسلامى ولكن العناية العليا ، والإرادة العظمى لها في هذا حكمة فلعل الشدائد هى التى تمحص الرجال ، ولعل الحن هى البوتقة التى تنصهر فيها النفوس ، لينض خبثها وينصع طيبها .

﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾<sup>(٦)</sup> .

إن العقيدة هى التى تخلق البطولة وإن الشدائد هى التى تمحص النفوس وتركيبها وإن الحن هى التى تلخص معادنها .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس ﴾<sup>(٧)</sup> .

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) سورة المجادلة الآية ٢١

(٣) سورة غافر الآية ٥١

(٤) سورة يونس الآية ١٠٣

(٥) سورة النور من الآية ٦٣

(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٧) سورة آل عمران من الآية ١٤٠

هذه حقائق قرآنية عليها خمس نتائج :

الأولى : وليعلم الله الذين آمنوا .

الثانية : ويتخذ منكم شهداء .

الثالثة : والله لا يحب الظالمين

الرابعة : وليمحص الله الذين آمنوا

الخامسة : ويمحق الكافرين .

في وسط هذا الظلام المدهم والخطوب المحتمة وأعماء الليل الحالكة وقد جلل المشرق الاسلامي عار الاحتلال الأوروبي والضعف السياسي والاجتماعي ضارباً أطنابه أوجد الله من الشدة فرجاً ومن الضيق مخرجاً ومن الليل فجرأ .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج	أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبه	لا تيأسن فإن الكافي الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة	لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد	فحسبك الله في كل لك الله

## بيت آل زنكى

شاء الله ولا راد لمشيئته ، أن يقوم أبطال يحملون عقيدة التوحيد ، يزلزلون الأرض تحت أقدام الصليبية الأولى ، التي استولت على بيت المقدس والإمارات ، فكان هذا الفجر الذي أشرق أمله ، وانتشر جنوده في بيت آل زنكى ، ومن حق هؤلاء الناس علينا ، أن نسلط على بيتهم الأصيل بعض الأضواء الكاشفة ، حتى تكون صورتهم في الأذهان جلية ، قال زنكى هم هؤلاء الأبطال ، الذين وضعوا المسمار الأول في نعش الصليبيين الأوربية ، عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان ( ملكشاه ) السلجوقي وهو قسيم الدولة آقسنقر ، وقد عرفه صاحب كتاب وفيات الأعيان بقوله : هو أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالخالج ، جر البيت الأتابكى أصحاب الموصل ، وقد كان من المماليك وأصحاب « ملكشاه » وترى معه منذ الصغر .

وعندما تولى ملكشاه المملكة اتخذ من قواده ، وذلك لأنه لمح فيه أمارات الاستقامة الخلقية ، والكفاءة النادرة ، والشجاعة والقيادة والحكمة ، وهكذا تكون صفات القائد والأمير ، وبهذا يكون ملكشاه قد وضع الأمور في نصابها ، وأعطى القوس باريتها .

ولقد تولى آقسنقر إمارة حلب من قبل ملكشاه ، وكانت وفاته سنة ٤٨٧ هـ ولم يترك إلا ولداً صغيراً له من العمر عشر سنوات ، وهو عماد الدين زنكى .  
ويطيب لنا الحديث عن هذا البطل ، الذى طبقت شهرته الآفاق وذاع صيته ، فاهتزت له أعواد المنابر ، ووصل رنينه إلى أعماق القلوب المؤمنة ، لقد قام بتربية هذا الطفل الأوصياء من أصدقاء أبيه ، ولما بلغ أشده واستوى عوده ، جاهد مع المجاهدين جند الإمارات الصليبية ، فبدت منه آيات النجاة ودلائل الشجاعة ، وإمارات الصديق مما استرعى أنظار الخليفة العباسى والسلاجقة ، فولوه حكم مدينتى « واسط — والبصرة سنة ٥١٦ هـ » وفى سنة ٥٢١ هـ نال الولاية على الموصل .

وهكذا انفسح المجال أمام هذا الأمير الموفق والزعيم الملهم ، فكرس إهتمامه ، وركز هدفه فى إقامة أمة إسلامية موحدة ، لحمتها العدل ، وسداها الرحمة ، وهدفها الجهاد من أجل تحقيق غزوة الإسلام ، لئمة ترفرف فوقها راية السلام والإسلام ، ويحدد لها العمل الصالح من أجل رضا الواحد الديان ، ويهتف بها قول الحق جل جلاله :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقد تركزت سياسته الداخلية على أمرين فى غاية الأهمية ، هما : بث الأمن ، والعدالة الاجتماعية داخلياً ، وتركزت سياسته الخارجية على تنظيم الأمة الإسلامية ، وجمع شملها ، وتطهير الأرض من أرجاس المحتل الأثيم .

وكأنه يردد قول القائل :

ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذى يلقاه فيها محب .

فذاع صيته ، مما جعل أهل المدن يستنجدون به ضد ظلم حكامهم ، ووجد الاستنجد قلباً مؤمناً ، فلبى نداء أهل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية ، وديار بكر ، وغربى الفرات ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى كان عماد الدين تحت إمرته ، حمص وحماه وحلب وبلبك ومعرة النعمان ، ومن ثم فإن دولته أصبحت تهدد الإمارات الصليبية ، حيث كانت تتآخما ولم يكن خارجاً عن حكمه فى بلاد الشام سوى دمشق وما جاورها من البلاد .

## فجر جديد :

إن التاريخ يشهد ، والوقائع تثبت ، والحقائق تؤكد ، أن العدل والحزم والرحمة ، إذا توافرت في إنسان يحكم ، كانت مفاتيح يضعها الله ليجرى بها الخير على يديه ، وأن الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذا أخذت مكانها في قلبه ، أته الأمور منقادة إليه تجر أذيالها ، وهي طيعة ، فلقد رأيت عماد الدين ، وقد هيا الله له السبيل إلى توحيد الأمة المتفرقة ، فنشر العدل وركز دعائم الأمن ، وأقام صروح الإصلاح الاجتماعي ، حتى أصبح الرجل الذي يستنجد به لدفع الظلم ، وما أجل هذا العمل ، وما أروع في هذا يقول : ربنا في الحديث القدسي : « يا عبادي لقد حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً »<sup>(١)</sup> .

عماد الدين رجل أشرب قلبه بحب الجهاد ، ووجد في ذلك الغاية الكبرى ، وأراد أن يبدأ حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، بفتح مدينة الرها ، وما أدراك ما مدينة الرها ، إنها مدينة ذات قداسة عند الصليبيين ، وفي ذات الوقت لها مكانتها في قلوب المسلمين ، لما احتوته من المعالم الإسلامية ، والآثار التاريخية ، فيوجد بها جامع ينسب للخليل عليه السلام ، ومقام الأيوب الصديق ، واضرحة لجابر الأنصاري وأبي عبيدة بن الجراح — بديع الزمان الهمزاني .

فقد جيش عماد الدين الجيوش ، وعبأهم بالعقيدة ، التي تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والتقى بالصليبيين ، ودارت بينهما رحى الحرب ، وحمى وطيسها وأشدت القتال ، وكان النصر المبين لعماد الدين ، وقد هزم في هذه المعركة قائد الصليبيين جوسلين الثاني ، وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ وكان للانتصار الباهر الذي حققه في هذه الموقعة آثار كبيرة ، وأهداف عليا ، فلقد علمت المدينة الرها في نفوس الصليبيين ، فضلاً عن أنها كانت أول المدن تكويناً وامتداداً في الشرق الإسلامي ، وأكبر من هذا كله أن النصر في هذه المدينة ، جاء عقب ليل شديد الظلمة ، قارس البرودة ، عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس ، جاء النصر ليبدد هذه الخيوط ويقم في القلوب صروح الأمل باذخة عالية ، لا يعرف اليأس إليها سبيلاً ، فكان هذا النصر من أجل ما حققه ذلك الأمير المسلم .

وظل هذا البطل المجاهد يواصل الإصلاح ويقم آيات الجهاد ، ويرفع رايات الشرف في ساحة الحق ، إلى أن وقع ضحية اغتيال أليم ، فلقى ربه راضياً مرضياً واستقر به المطاف في جوار الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وكانت وفاة هذا البطل سنة ٥٤١ هـ .

## ماذا بعد وفاة عماد الدين ؟

لما استشهد عماد الدين ، خلفه من بعده ولده سيف الدين غازي ، ونور الدين محمود ، وكان طبيعياً أن يقتسم الأخوان هذه المملكة ، فكان القسم الشرقي لسيف الدين غازي وعاصمته الموصل ، والقسم

الغنى لنور الدين محمود وعاصمته حلب ، وبهذا كانت مملكة نور الدين محمود ، وهى المتاخمة للممالك الصليبية قائما ، بصفة عنيفة ، مما جعل التاريخ يمد يديه مصافحا ذلك البطل بدخوله من أوسع الأبواب ، مسجلا له آيات من الفخر والرجولة النادرة ، والبطولة الكريمة .

وما هو جدير بالذكر أن بعض النفوس قد يتسرب إليها الضعف ، فيثير فيها روح الشقاق والفرقة والخلاف ، لكن الأيام شهدت ، والوقائع أكدت ، أن هذين الأخوين ، لم يستطع الشيطان أن ينزع بينهما ، ولم تستطع الدنيا أن تثير الخلاف في نفوسهما ، فلقد كانا في غاية الوفاق والمحبة ، ولعل هذا العامل له أثره الكبير ، ومكانته التى لا تسامى في تحقيق الآمال .

ولقد تغيرت الأمور بعد موت عماد الدين زنكى ، وهذه سنة الحياة فليس موت البطل بالأمر العادى ، إنما الأبطال رجال لهم الأثر الكريم في حياتهم ، ولهم ما يلفت الأنظار بعد مماتهم ، لقد إستغل الأعداء موت عماد الدين فانقض الصليبيون على مدينة الرها ، فاستردها الأمير المنهزم جوسلين الثانى ، وعاث فيها فسادا ..

## نور الدين ومدينة الرها :

لما ترامت الأنباء إلى نور الدين ، بما حدث في مدينة الرها ، انتفض انتفاضة القائد الذى اعتدى على كرامته ، فأراد أن يغسل هذا العار ، ويسيل على جوانبه الدم ، وزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها ، وزجر زجرة الضياغم في بطون الغاب ، واستشار المسلمين ، حتى استطاع أن يكون جيشاً ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، توجه بهم إلى مدينة الرها ، وكان النصر حليفه ، فقد هزم أميرها الذى هزمه أبوه من قبل ذلك ، وأسقط كثيرا من الحصون الصليبية ، التى وقعت صريعة تحت ضرباته القاضية القاصمة ، ولقن الذين انتقضوا حكمه في الرها لقنهم درساً لا ينسونه مدى الدهر .

وهكذا تكون الرجولة إذا كانت حازمة صارمة ، لا تعرف التواني أو التخاذل ، ولا ترض عيشة الذل والهوان ، إما أن تعيش عيشة الكرماء ، وإما أن تموت ميتة الشرف والشهادة في سبيل توطيد أركان الحق .

﴿ والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup>

## الحملة الصليبية الثانية :

تحركت الأحداث بسرعة ، لم يكن أهل أوروبا يتوقعونها ، فلقد ظن الصليبيون أنهم سيصفو لهم الجو في المشرق الإسلامى ، ونسوا أو تناسوا أن الله هو صاحب الإرادة العليا ، إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، قوله الحق وله الملك ، خالق الانسان ، ومبدع الأكوان .



لعل المنقب في بطون التاريخ ، اذا عجم عود الأحداث ونخل مخزونها ، وقدح زنادها ، يعلم أن من أهم الأسباب التي دفعت أوروبا إلى تكوين الحملة الصليبية الثانية :

١ — اليقظة الإسلامية ، التي قواها وأخرجها إلى حيز الوجود ، الشهيد البطل عماد الدين زنكى ، فالإسلام ذلك العملاق الكبير ، الذى تتضاءل أمامه كل مظاهر الحياة وزخارفها ، والإسلام يحمل من عوامل القوة الذاتية ، ما يجعله كفيلاً بأن ينشر نفسه بنفسه ، فهو الحقيقة الثابتة التى قال الله فى شأنها :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴾ (١)

أجل أنه الحقيقة ، لأنه وحى الله وإرشاده وتوجيهه .

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ (٢) .

٢ — ويأتى السبب الثانى للحملة الصليبية الثانية ، وهو إنتصار عماد الدين زنكى فى مدينة الرها ، لما لها فى قلب الصليبيين من قداسة ، واسترجاع ابنه نور الدين لها من يد أميرها المنهزم جوسلين الثانى ، الذى فر منها بعد أسبوع واحد ، كل أولئك الأسباب دعت إلى تكوين هذه الحملة ، التى دعا إليها المحرض لها سان برنارد ، وقد عقد مجمع فى مدينة فيزولوى ( مارس ١١٤٦ — ٥٤٠ هـ ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويس السابع ، وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث ، فماذا كان مصير هذه الحملة الثانية ؟

لقد تحركت جيوشها إلى القسطنطينية ، ومنها إلى آسيا الصغرى ، ولقد التقى لويس السابع بأمر انطاكيت « ريموند » وكان من رأى هذا الأجنبى لويس أن تقع محاربة نور الدين محمود ، لأنه يمثل الخطر الحقيقى ضد الإمارات الصليبية ، ولكن لويس السابع امتنع عن ذلك ، مفضلاً زيارة بيت المقدس قبل كل شيء ، واحتدم الخلاف بينهما ، حتى خرج لويس السابع مغاضباً متجهاً إلى بيت المقدس ، ومعهما امبراطور ألمانيا ، واستقر رأى الثلاثة على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق . ويحتلوها ، وأراد الله أن يكون هذا القرار ، الذى استقروا عليه مخيباً لآمالهم ، فلقد تحركت الجيوش فعلاً ، وحاصرت دمشق ، ولكن لم يدم حصارها أكثر من خمسة أيام فقد دب الخلاف بين القادة الصليبيين ، وترامت الانباء بتحريك البطليين نور الدين محمود ، وشقيقه سيف الدين غازى ، ورجعت الحملة التى كانت تريد بالإسلام شراً ، رجعت تجر وراءها أذيال الندامة ، رجعت بخف حنين .

( ١ ) للرعد آية : ١٤

( ٢ ) يونس آية : ٣٢

﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً﴾ (١).

ولا تسأل عن الآثار الطيبة ، التي كان لها الدافع القوى في مواصلة الجهاد ، بالنسبة للمسلمين ، فبعد فشل هذه الحملة ، ورجوع جيوشها خائبة ، ارتفعت معنويات المسلمين ، وازدادت نفوسهم حماساً للجهاد ، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح .

## أهداف لمواصلة الكفاح .

إن الإسلام بعقيده ، يقيم مكلفيه النفوس على مبادئ قوية من الحق والعدل والرحمة والحزم ، تواضع في غير ذل ، ورفعة في غير تكبر ، وهذا هو السر في عظمة الإسلام ، يقيم النفس على حب الخير ، دون أن يكون ذلك أدنى تسرب للأناية ، وقيمها نفساً قوية عزيزة ، دون أن يكون في ذلك عنف أو ظلم ، وقيمها صافية طاهرة زاكية ، دون أن يكون للحقد والبغضاء والحسد والشحناء أى سلطان عليها ، ومن الأبطال الذين صقلهم الإسلام بروحه ، ورباهم على عقيدته سليل بيت البطولة نور الدين زنكى ، الذى ورث عن أبيه علو همته ، وسمو فكرته ، وشرف غايته ، ونبل هدفه ، فلقد جمع كل أغراضه الشريفة في إقامة أمة إسلامية واحدة ، تقوى وحدتها عقيدة الإسلام الصافية ، وتاريخها المشرف وأرضه ، التى تفيض بالخيرات ، وتثمر البركات ، وآماله العريضة ، وآلامه المشتركة ، ولقد علم الله صدق نيته فحقق له هدفه ، فقد استعاد مدينة الرها ، ثم زحف إلى انطاكية وقتل أميرها ريموند سنة ٥٤٤ هـ كما تغلب على جوسلين الثانى ، واحتل الكثير من الحصون والقلاع الواقعة شمالي حلب منها عين تاب — عزاز — حصن البارة — تل خالد — كفر لاثا — كفر سوب — دلوك — مرعشى — نهر الجوز — برج الرصاص .

وهكذا لم يمض إلا وقت قليل ، حتى أصبحت أملاك إمارة الرها وغالب أملاك انطاكية ، خصوصاً ما كان منها شرق نهر العاص ، خاضعة لسيادة نور الدين محمود ، ورأى نور الدين بثاقب فكره ، أن يفتح دمشق حتى يقوى بها الوحدة الإسلامية ، فسار بجيوشه إليها ، وهياً الله له أسباب فتحها ، فاستسلمت له ، وألقت إليها قيادها ، وافتتح دمشق ، يكون قد استولى على البلاد الشامية ، وكانت هذه خطوة مباركة ، خطاها نور الدين على طريق الهداية والنصر .

وبعد أن استولى على البلاد الشامية ، كان لابد أن يلقي بنظرة على مصر ، فإن لمصر مكانتها الخالدة ، وموقعها الممتاز ، فكيف كان حالها في هذه الحقبة ؟

كانت مصر تحت الخلافة الفاطمية ، وقد دبت فيها الفوضى والنزاع ، وفي نفس الوقت كانت مطمعاً

ملك بيت المقدس الرجل الصليبي ، ولذلك قام الصراع بينه وبين نور الدين على مصر ، فالصليبيون يريدون ضمها إلى مملكتهم ، ونور الدين محمود لا يرى بدا من فتح مصر ، ليكون عقدا فريدا ، ويقيم وحدة اسلامية خالدة .

ولقد جرت بين الطرفين معارك على ثلاث دفعات ، كانت الجولة الأخيرة لنور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ بتغلب قائده أسدالدين شيركوه على الصليبيين ، وانتصابه وزيرا للخليفة الفاطمي ، وبذلك أصبحت السيادة على مصر لنور الدين محمود ، بواسطة قائده أسد الدين شيركوه ولكن هذا القائد لم يطل به الأمد فقد توفي بعد شهرين من تولية الوزارة .

لله درك نور الدين — من ملك	بالعزم مفتتح ، بالنصر مختتم .
آثار عزمك في الإسلام واضحة	وسره ذلك باد غير مكتم .
بما من العدل والإحسان تنشره	تخاف ربك خوف المذنب الأثم .
أوردت مصر خيول النصر عازمة	ثنى الأعنة إقداماً على اللجم .
فأقبلت في سحاب من ذوابها	وقضها بدماء الهام منسجم .
تمكن الرعب في قلب العدو بها	تمكن النار بالإحراق في الفحم
لله درك نور الدين من ملك	عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
فملك مصر وملك الشام قد نظما	في عقد عز من الإسلام منتظم .

### صلاح الدين الأيوبي والحملة الصليبية الثالثة

الكلام عن صلاح الدين ، إنما هو عن رجل مسلم ، صفا قلبه ، وزكت نفسه ، وطهر وجدانه ، نعم كان صلاح الدين رجلا ذا عقيدة قوية ، وثقة في الله مطلقة ، كان اذا صلى يطيل الركوع والسجود ، ويطمئن في صلاته بخشوع ، وكان يستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، كان من الذين يقول الله فيهم : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (١) ولقد أثر عنه القول : « إني استحي أن يراني الله ناقضاً للعهد ، كاذبا في القول » وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (٢) .

يقف صلاح الدين الأيوبي على قمة من قمم الإسلام ، وجهاده العربي في سبيل الحرية والكرامة ، ومقاومة الاستعمار ، فإن جانبها خطيرا من تاريخ الأمة الاسلامية ، يرتبط باسمه ارتباطا ضخما ، ذلك هو امتلاك

(١) الذاريات الايتان : ١٧ ، ١٨

(٢) آل عمران آية : ١٢٦

الصليبيين للساحل الشامي ، وانتصار صلاح الدين عليهم في معركة حطين ، ثم دخوله بيت المقدس رافعاً راية الاسلام خفاقة عالية ، معلية كلمة الله ، هاتفا في معسكر التوحيد .

« بأن الله وحده صدق وعده ، ونصره عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

إن هذه العقيدة ، هي التي صنعت تلك البطولة ، فمثل صلاح الدين رجل خاف الله مخافة كل شيء ، ولو لم يخف الله لخاف من كل شيء ، رجل امتلاً قلبه يقينا وثقة فوثق بقوله تعالى :

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾<sup>(١)</sup>

اعتقد أن هذا قانون الله الذي لا يتخلف ، ولا يمكن أن يتخلف ، لأن الذي حكم به هو مالك الملك وملك الملوك ، ولأن الذي جاء به هو كتاب الله الخالد ، والله اذا حكم ، فلا معقب لحكمه ، واذا قضى فلا راد لقضائه .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

أن معزكة « حطين » وما بعدها ، ترسم صورة صادقة للبطل المجاهد ، والعبقري الفذ صلاح الدين ، وتوضح شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور ، فقد كان محارباً شجاعاً ، بالغ الشجاعة ، خبيراً بفنون الحرب وضروبها ، وهو في المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه ، فإذا ما انتهت الحرب ، كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه ، وقد استمد هذه الروح العالية من استاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء سيدنا محمد ﷺ ، فقد كان يأمر بإكرام الأسرى ، ومن أجل صفاته الوفاء بالعهد مع الأعداء ، لأن القرآن الكريم ركز هذا المعنى في قرارات نفوسهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شئنان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خير بما تعملون ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولعل في هذا الحادث الذي سنسوقه بين يدي القارىء ، ما يملأ النفس روعة وجلالة ، ويرفع رأس المسلم إلى ما فوق قبه الفلك ، عزيزاً فخوراً ، يقول لربه كفاً عزاً أن أكون لك عبداً وكفاً أن تكون لي فخراً وكفاً شرفاً أن يكون الإسلام لي ديناً وكفاً عظمة أن يكون محمد لي نبياً ورسولاً .

ومما زادني عزاً وفخراً وكدت بأخص أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبياً

لقد وقع سهيل بن عمرو اسيراً في يد المسلمين في غزوة بدر ، وكان من ألد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، ولما دفع الفداء أطلق سراحه ، فراه عمر بن الخطاب متوجهاً إلى مكة ، ليس عليه أى ضرر

(١) الروم آية : ٤٧

(٢) يوسف آية : ٤٠

(٣) المائدة آية : ٨

ولا سلام ، فقال عملاق الاسلام عمر : « يا رسول الله لا تدع سهيلا يذهب إلى مكة حتى أخلع له ثنيتيه ، حتى إذا قام خطيبا عليك ، اندلع لسانه من فمه فلا يستطيع أن يسبك بعد اليوم » .  
فماذا كان رد المبعوث رحمة للعالمين لقد قال له :

« لا والله يا عمر لا أمثل به فيمثل الله بي ولو كنت نبياً »<sup>(١)</sup> .

هذا حكم شريف نطق به فم شريف ، وكما قال شوقي في هذا المعنى

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء  
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء  
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان في الدنيا هم الرحماء  
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء  
زانتك في الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويلع الكرماء

من هذه الروح العالية ، والرجولة النادرة الكاملة ، والإنسانية السمحة ، ينهل أبطال الاسلام ، وارتشفوا من نهلها العذب المورد فكان صلاح الدين شجاعا في حربه ، قاسيا على عدوه ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها ، كان الوفي بالعهد ، الحريص على صدق الوعد ،

لقد حاز صلاح الدين اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين ، فكتب عنه من مؤرخي العرب ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء ، وأما مؤرخو الإفرنج ، فقد كتبوا عنه في سياق الحديث عن الحروب الصليبية ، وأفرد الكاتب الانجليزي ستانلي لين كتابا خاصا عن صلاح الدين .

ولقد ذهب كثير من مؤرخي الإفرنج ، بأن الله وفق صلاح الدين ، ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ، ثم يقول هؤلاء المؤرخون : « اذا كان الفرنجة عاثوا في الأرض فسادا ، وطغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ، ما أحمرت منه الأرض خجلا ، وفق الله صلاح الدين بروح من عنده ليوقع عقابه بهم على يده ، فكان من أمره ما كان » .

## شهادات من الأعداء :

لما زار الامبراطور غليوم الثاني بلاد الشام قال ما ترجمته :

« مما يزيد سرورى أننى موجود فى بلد ، عاش بها من كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره ، شجاعة وبسالة » وكان يقصد بذلك البطل صلاح الدين ، والحق ما شهدت به الأعداء ..

ويقول « ستيفن » : كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعا فى تقريره ، قوى الشخصية ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه ، كان صبورا على الشدائد ، يثق بنفسه وثوقا عظيماً .

(١) سيرة ابن هشام ص ٢ ، ص ٣٠٤ غزوة بدر الكبرى ص ١ الحلبي

## علمه بفنون الحرب

نشأ صلاح الدين بين الأكراد ، وهؤلاء كانوا أهل فروسية ، يحبون الحرب والقتال والغزو ، وبيئة هذه أمورها ، لا بد أن ينشأ الفرد فيها ، وقد عرفت عنه المقرة الحربية ، والفن العسكري ، والقوة الجبارة ، والروح العسكرية المجيدة ، من إقدام وشدة ، وشجاعة وقوة وجرأة ، وتضحية ، ولا شك أن البيئة لها أثرها الكبير ، الخطير في حياة الفرد الذي يتطبع إلى درجة كبيرة بطباعها وعاداتها وأحوالها .

وقد تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية وذكاءه الحربي ، أنه اضطر الصليبيين إلى أن يحاربوا في وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب . إذ أمسك بيده عنصر المباغتة ، واختار زمن المعركة ومكانها ، وهما من أهم العناصر في الحرب ، وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم ، ليحاربوه في منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ، ليغريهم بالإسراع لنجدتها ، فتركوا مواقعهم الحصينة ، واندفعوا إلى حيث أراد صلاح الدين الهزيمة الساحقة ، إذ أن الحرب رأى وخدعة ومكيدة فقد تقدم الجيش في أرض لا ماء فيها ولا زرع ، فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة اعياء شديدا ، وتحلفوا عن الفرسان في الوقت الذي كانت قوات صلاح الدين ، تمطرهم وابلاً من السهام ، وهجم المسلمون على خيمة الملك لوزينان ، فسقط أسيراً في قبضتهم ، كما أسر أرناط ومقدم الراية وكثيرا من الفرسان ، وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء وفاقاً ، لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان ، وتقدم صلاح الدين ، فأخذ يفضي حصون الصليبيين ، التي لم تعد لها قيمة حربية ، بعد القضاء على الفرسان ، فاستولى على عكا ( ٥٨٣ ) ونابلس وقيساربه وصنورية ، ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس في رجب ٤٨٣ هـ الموافق سبتمبر ١١٨٧ م حصارا دام أربعة عشر يوما ، ثم تمكن المسلمون من أحداث ثغرات في الأسوار فسلمت المدينة . ولقد علم صلاح الدين أيضا ، أن القوات المحاربة ، لا تستطيع الاستغناء عن الماء ، وأن الجنود لا يستطيع العيش دون الاستمرار في حربها وقتالها ، إلا إذا كان معهم كميات كبيرة وافرة ، تسد رمقها ، وتروى ظمأها ، لهذا نجده في موقعة طبرية يرسل جيوشه ، لمنع الماء عن الفرنجة وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج ، وكان الوقت صيفا ، وفي هذا الفصل يشتد احتياج المرء إلى المياه ، ولم يستطع الفرنجة بلوغ الماء ، ولم يجدوا في الصهاريج أى كمية تغنيهم عن عطش ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، وكان من نتيجة محاولتهم الوصول إلى ينابيع المياه ومواردها أن تمكن القائد الذكي المدرب الحذر ، الذي كان يراقب حركاتهم ، ويعرف مقصدهم من حصارهم حصارا تاما وضيق عليهم الخناق ، حتى كان النصر في النهاية له والهزيمة والخزلان نصيب أعدائه .

## الجهاد المقدس :

فما أعظم الحرب ، وما أجل الانتصار ، اذا كان المحارب ذا عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمي ، وتخطيط قائد مجرب ، ولقد كان صلاح الدين من هذا الطراز الرفيع ، الذي خاض الحرب جليلها ودقيقها ، ومحرك الفلك ، من الإله الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، استمد النصر من فائق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم .  
هنا يتجلى دور العقيدة في القائد المحارب .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾<sup>(١)</sup>

إن المؤمن صاحب العقيدة الراسخة ، اذا نزل صومة الوغى وساحات القتال ، يجد ريح الجنة دون المعركة ، فتهفوا نفسه اليها ، وتتوق روحه لرياضها ، لأنه واثق أنه الرابع في كلتا الحالتين ، النصر أو الشهادة ، وكلاهما من أسمى الأهداف عند المؤمن ، وأجل الغايات في قلبه ، بهذا نطق القرآن الكريم :  
﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نترصد بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم مترصدون ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن المؤمن الحق يحس ضربات السيوف ، كأنها قبلات الملائكة ، يسمع صليلها على أنغام قدمية ، ويرى بريقها كأنه سنا من نور السماء ويهتف من أعماقه .  
﴿ إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾<sup>(٣)</sup> .

لا يعرف اليأس ، كما لا يعرف اليأس ، يجعل من الملح الأجاج عذبا فراتا سلسيلا ، ومن الخطوب المدهمة أمنا وطمأنينا وسلامة ، ومن الليل الطويل نهارا مشرقا بنور النصر وضياء بأفراح الظفر .  
الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا .  
لا تذكروا الكتب السوالمف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا .

عرف صلاح الدين أن الحرب علم وتخطيط ، وفن ودراسة ، كما أهتم في معاركة بعامل المباغتة ، واضطر العدو إلى أن يخوض معركة فرض صلاح الدين زمانها ومكانها ، كما أهتم كذلك بعامل الاستطلاع ، أى

(١) آل عمران الآيات : ١٧٣ - ١٧٥

(٢) التوبة آية : ٥٢

(٣) الأعراف الآيتان : ١٩٦ - ١٩٧

معرفة مواطن الضعف عند العدو ، ومعرفة موارده وقوته ، وما يديره في الخفاء وتحركاته وسكناته ، وهذا العامل من أهم العوامل في الحروب إذ على قدر المعلومات يقاس النصر .

فكلما علمت من عدوك الكثير من تمرده وعدده ، ومواقعه ، كلما كانت المعركة أقرب إلى النجاح ، وبهذه المعلومات ، التي تأتي بها سرايا الاستطلاع ، يستطيع القائد أن يضع خطته حسب ما يترأى له ، ويقدر موقفه حسب ماتمليه عليه هذه المعلومات ، ولقد ظهر هذا العامل في الحرب عندما أراد صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس ، فقد عرض على أهلها الصلح على أن يسلموا له المدينة فرفضوا عرضه . وهنا قرر أن يأخذ المدينة عنوة ، فأرسل قوات استطلاعية هنا وهناك ، يلتصقون من أسوارها النقاط الضعيفة ، بعد فحص دقيق دام خمسة أيام ، حتى توصل إلى إيجاد ثغرات كثيرة في الجبهة الشمالية . عند المكان المعروف بـ « باب كنيسة صهيون » فنصب المنجنيقات ، ونظم الرماه ، وحرك الجند إلى الأسوار عند النقاط الضعيفة ، وبدأ هجومه القوي القاسي ، الذي لم يدم أكثر من أسبوع واحد ، رأى بعض المحاصرين أن لا أمل لهم في النجاة ، فأرسلوا إليه يفاضونه ويستسلمون ، كذلك من العوامل التي يبنى عليها نجاح المعارك الحربية ، ثقة القائد بربه ، ثم ثقة قواده وجنوده به ، وهذا العامل أيضا كان متوفرا في شخصية صلاح الدين ، ولقد كان موضع ثقة جنوده ، وموضع ثقة نفسه ، كان مؤمنا بالله ، وبأنه يعمل لغرض شريف ، وهدف نبيل ، وكان واثقا من أن نصر الله سيأتيه ، وسيتحقق على يديه — بمشيئة الله — كل ما يصبوا إليه من آماني وأحلام ، ولقد حدث أن وصلت أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ، ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ القائد العظيم بهذا النبأ ، ولم يجد الفزع إلى قلبه سبيلا ، بل كان ثابتا ثبات الرواسي الشاخات واقفا على أرض صلبة ، لا تعرف الخور ولا الفزع وهذا المعنى يجليه قوله تعالى :

﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ (١)

هذا منطق العقيدة الراسخة ، يعقب عليها القرآن الكريم بقوله :

﴿ فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ (٢) ولقد قال صلاح الدين لجنوده ، عندما ترامت إلى سمعه تلك الأنباء ، التي تنخلع لها القلوب ، وتنفطر لها الأفئدة :

« دعوهم فليعملوا ما يشاءون ، فإنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، في حين أننا نأخذ مدناً وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم ، جئناهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون » . وهذا القول الذي قاله وسط جنوده ، يشهد له المؤرخ الأوربي ستيفن سن في كتابه أنه كان ( صبورا على الشدائد يشق بنفسه وثوقاً عظيماً )

( ١ ) آل عمران الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧

( ٢ ) آل عمران آية : ١٤٨



ومن العوامل القوية ، التى يبنى عليها نجاح المارك ، أن يكون القائد مثلاً لجنده فى الشجاعة والأقدام ، لا يخشى قوة العدو ، ولا يهاب بأسه ، ولقد كان سيد المرسلين ﷺ ذلك المثل ، الذى لقنه لأبطال الاسلام الافذاذ ، عندما وقف فى صومة الوغى يوم حنين ، ينادى بأعلى صوته : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »<sup>(١)</sup> لقد اقتبس صلاح الدين هذا الدرس فى الشجاعة والإقدام من سيرة بطل الأنبياء محمد ، الذى اذا تحدث عنه التاريخ جثا على ركبتيه ، فإذا ما تكلمت عنه الدنيا تمرغت تحت قدميه ، لقد كانت شجاعة صلاح الدين الأيوى من أسباب تنويع جنود المسلمين بانتصارات رائعة ، اذا دلت على شئ فعلى تشبههم بقائدهم العبرى فى شجاعته النادرة .

يشهد بذلك أنه حدث مرة ، أن أسرع بجواده إلى حيث يوجد بعض جنوده قائد الفرجة الملقب الأسد ، فقال لهم بصوت دوى كالرعد فيه زئير الأسود ، وقوة الحق ، كأنه العاصفة يبروقها وعودها ديباجها ورمالها قال لجنود الأفرجة .

( قفوا مكانكم فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم ) وهكذا كان يعرض نفسه للخطر مع جنوده ، رغبة منه فى قهر أعداء الاسلام ، حتى لا يقربوا الأراضى المقدسة .

وكان صلاح الدين كغيره من القادة الممتازين ، يمتاز بشجاعة لا مثيل لها مثل طيب لجنوده ، ومن تحت إمرته يدلنا على ذلك أنه كان لا يخشى سهام عدوه المرسله اليه ، وكان يركب جواده ، وهو مريض ويقود جنوده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يرج نفسه قال :

( إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى ) .

هذه عبارة سجلها التاريخ بحروف من ذهب على صفحات من نور ، لذلك البطل المسلم . ( إنما أشعر بالمرض حيث أترك ظهر جوادى ) وهذا مبعثه العقيدة الراسخة والإيمان الذى اذا باشرت بشاشته شفاف القلوب ، تكاد تجعل المستحيل ممكناً )

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتمسكوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه مسلم فى كتابه الجهاد والسير ح ٣ ص ١٤٠٠ برقم ٧٨ / ١٧٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ / ١٧٧٦ والبخارى ح ٥

ص ١٩٥ غزوات النبى .

(٢) التوبة آية : ٢٤

## صلاح الدين ومبدأ الشورى

من المبادئ التى قام عليها بناء الإسلام ، مبدأ الشورى ، فرأى الإنسان مع الجماعة ، أنفع إلى الناس من رأيه وحده ، وهذا مما يجعل الاسلام يعنى بهذا المبدأ عناية تامة ، ويجعل من أوصاف الجماعة المؤمنة ، أن الأمر شورى بينهم ، فيقول سبحانه في سورة الشورى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> ويقول تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾<sup>(٢)</sup> . وللأمام الرازى موقف جديد بالتسجيل على هذه الصفحة لما فيه من روعة وجلال في قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ قال : هذه الآية نزلت عقب غزوة أحد ، ونزلها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الاسلام على مبدأ الشورى ، وكرهيته للاستبداد بالرأى .

ففى هذه الغزوة بالذات ، بينما كان زأى بعض المسلمين ، خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج ، بينما كان رأيه صلى الله عليه وسلم التحصن بالمدينة ، وكانت محنة . ومثل هذا الحدث ، قد يعطى مبرراً لأى أمير مستبد عبر التاريخ ، لكى يرفض رأى الجماعة ، لأنه خاطيء ... ومنعاً لذلك نزلت آية الشورى ، وفي أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى الأمة ، أو الافتئات على حقوقها .

وما أجمل كلام شوق في همزته ، إذا يقول مخاطباً رسول الله :

وأقمت بعدك للعباد حكومة	لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة	والأمر شورى ، والحقوق قضاء
لو أن إنساناً تغير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً	هى أنت بل أنت اليد البيضاء

ولقد كان صلاح الدين لا يعمل برأيه منفرداً ، بل كان يأخذ على الدوام رأى الجماعة وذوى الخبرة من أصحاب الرأى ، لما كان يراه فى رأى الفرد ، من الاستبداد الأمر ، عملاً بأمر الدين ، وجرياً على سنة الرسول كثيراً ما عدل عن رأيه ، وهو يعلم صحة هذا الرأى ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حدث أمام عكا وصور ، ونحن جميعاً فى عصرنا هذا أن أى قائد يجتمع بضباط أركان حربه ، للتداول فيما بينهم ، وللتشاور فى اتخاذ خطة معينة ، وقد ذكر المؤرخون لهذه الحادثة التى إن دلت على شئ فإنما تدل على مدى اهتمام ذلك القائد برأى الجماعة ...

( ١ ) الشورى آية : ٣٨

( ٢ ) آل عمران : ١٥٩

حدث مرة أن كان صلاح الدين عند حصن ( الشقيف ) فبلغ سمعه نبأ سير الفرنج من صور ناحية عكا ، فأسرع إلى دعوة امرائه ، وجمع مجلساً حربياً ، يعرض عليه الموقف ، ويطلب منه إبداء الآراء ، واختيار ما يراه صالحاً لمعالجة الموقف ومواجهته .

وكانت الطرق مفتوحة أمامه ، أما أن يسير الفرنج على الساحل ، ثم يقاتلهم قبل بلوغهم عكا ، وإما أن يلقاهم هناك بعد أن يسلك طريقاً في الداخل ماراً بطبرية ، وعلى الرغم أنه كان يؤيد الطريق الأول ، إلا أنه عندما رأى أمراؤه يقررون الطريق الآخر ، وافق عليه على الرغم من خطورته ، لأن من نتائجه أن الفرنج يصلون إلى عكا ، ثم يستطيعون بذلك اختيار المكان اللائق للدفاع ووسائل المقاومة للتحصين ، وليس ثمة أدنى شك في أن تقدير القائد للموقف الحرجي ، له أثر كبير في نتيجة هذا الموقف ، فكلما كان القائد ممتازاً كلما استطاع تقدير الموقف تقديراً صائباً ، ويستطيع بناء على هذا التقدير أن يقر خطة تؤدي به إلى النصر بعون الله ، وهذا ما كان يمتاز به صلاح الدين .

فقد حدث في أثناء القتال حول طبرية ، أن كانت همة الإفرنج متجهه إلى قطع الرجعة على صلاح الدين وجيشه ، ليحولوا بينه وبين مركز قواته وينابيع المياه ، إلا أن القوم لم يعرفوا أن صلاح الدين يحتاط في حرية للأمر قبل وقوعه ، وأنه يعلم ما للحيلة من التأثير العظيم ، والغريب أن الإفرنج نسوا أن عليهم أن يدافعوا ، ما دامت قواتهم ليست في مركز منيع يرتدون إليه عند الحاجة ، إذا إنهم حينما هاجموا وحاولوا تنفيذ ما دبروه ، وجدوا أنفسهم في كل خطوة تحت نيران صلاح الدين ، فلم يثبتوا ، بل والأدهى من ذلك أنهم عندما حاولوا التقهقر بل الفرار ، وجدوا فرق المسلمين تحيط بفرقهم ، وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى .

## مع سير الأحداث :

استمرت الخلافة الفاطمية في مصر من سنة ٣٦٢ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ وكان على عهد صلاح الدين خليفة فاطمي يسمى الخليفة العاضد ، فلما مات عم صلاح الدين ( أسد الدين شيريكوه ) اختار الخليفة الفاطمي صلاح الدين وزيراً له ، على الرغم من صغر سنه ، ووجود غيره من القواد ، وكان صلاح الدين بهذا الاختيار أهلاً ، لما ظهر به من الكفاءة والنبوغ ، ورجاحة العقل ، وإحكام الخطط ، والبطولة النادرة . ولما مات الخليفة العاضد انقضت الخلافة الفاطمية في مصر ، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطان مصر ، ثم وسع دائرة نفوذه ، فغزا النوبة واستولى على اليمن والحجاز ، ولما مات نور الدين محمود عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه ، بعد أن دخلها الاضطراب والانقسام ، فامتلك دمشق وحلب ، وبقيّة البلاد الشامية والجزرية ، وتكونت لصلاح الدين مملكة عظيمة ، تمتد من العراق إلى برقة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبيين ، بعد أن وجد مملكته ، وقوى نفوذه ، واستمرت حروبه معهم نحواً من عشر سنوات ، كان فيها منتصراً مظهرأ ، وتوج أعماله بانتصاره على الصليبيين في معركة حطين ، واستيلائه على بيت

المقدس ، وحصر الصليبيين في منطقة ساحلية ضيقة ، انتقلت اليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة عكا عاصمة لها .

## حول بيت المقدس :

أكتب سطور هذا الكتاب والأمة الاسلامية ، تمر بمحنة قاسية الأحداث ، تتحرك بقسوة كالعاصفة العاتية ، بكل رعودها وبروقها ، ورياحها ورمالها ، فبعد الاعتداء الصهيوني في الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م ، احتلت اسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن ، والمرتفعات السورية ، وشبه جزيرة سيناء ، وتوالت التصريحات من قادة اسرائيل العسكريين والمدنيين ، ولا فرق بين هؤلاء وأولئك . فليس في اسرائيل صقور أو حمام بل كل حكام الصهيونية صقور ، وإن ارتدوا ريش الحمام ، وكان آخر ما ادلت به رئيسه وزراء اسرائيل : « جولد مائير » قولها :

« إن اسرائيل سترفض أى حل تقترحه الدول الأربعة الكبرى »

ومن قبل أدلى وزير خارجية اسرائيل بقوله :

( إن اسرائيل ستظل محتفظة بخطوط وقف اطلاق النار ما لم توقع معاهدة صلح بين العرب واسرائيل ، يكون معترفاً بها بحدود آمنة ، ولو لم تفعل اسرائيل ذلك ، فإنها ستكون قد انتحرت انتحاراً سياسياً )  
وآخر ما أدلى به وزير الدفاع الاسرائيلي قوله :

( أن الصيف القادم خطير وعلى شعب اسرائيل أن يعد جميع الامكانيات اللازمة للحرب المحتملة .  
أسجل سطور هذا الكتاب ، والمسجد الأقصى أسير في يد الصهيونية ، والمقدسات الإسلامية تن بدموع اللوعة على ما أصابها من عبث وانتهاك ، وقاذفات القنابل اليهودية تضرب الشيوخ والأطفال ، والنساء الآمنين الوداعين في الضفة الشرقية للأردن ، وجبهه القتال المصرية في الضفة الغربية للقتال بين عشيه أو ضحاها ، تشتبك مع القوات الصهيونية المرباطة . على الضفة الشرقية للقتال ، فالحرب الساخنة والوقود المشتعل ، ينذر بالخطر المدهم ، ومنطقة الشرق الأوسط كما شبهها وزير الدفاع الأمريكي كلارل كليفورد بأنها علبه كبريت ، قابلة للاشتعال في أى وقت ، وكما شبهها رئيس وزراء اسرائيل السابق ، أنها برميل من البترول ، ما يلبث أن يشتعل ، وقع المسجد الأقصى في يد الصهيونية ، فكان ذلك الحادث الأليم ، طعنة مسمومة في قلوب أكثر من ستائة مليون مسلم ، يسكنون أكثر من أربعين دولة اسلامية ، وكأن التاريخ يرجع بنا إلى الحروب الصليبية ، التي وقعت بين المسلمين وجيوش أوروبا ، خلال قرنين كاملين من الزمان ، امتدت من سنة ٤٩٠ هـ إلى ٦٩٠ هـ كأن التاريخ يريد أن ينطلق بحكمه الصادق ؛ أن هذه الحروب لا تزال ممتدة ، فقد كان الشعار الذي يجمع به المال لاسرائيل في دول أوروبا قبل حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م « قاتلوا المسلمين » .

وبفضل هذا الشعار ، تدفقت الأموال كالسيل المنهمر ، ودارت الأيام دورتها أيام الصليبيين ، فقيض الله للمسجد الأقصى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فوجهوا ضربات القاضية القاصمة إلى القلوب

المعتدية الأثيمة ، واستخلصوا بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة ، وأن علماء التاريخ ومؤرخى العلوم ، يكادون يجمعون على أن هزيمة المسلمين أيام الصليبيين فى القرون الخالية ، كان مرجعها ثلاثة أشياء :  
ضعف الوازع الدينى .

الاغلال الاجتماعى .

التنسخ الأخلاقى .

وما أقساها من أسباب ، وما أعظمها من أدواء ، وما نحن فى أولى القرن الرابع عشر الهجرى ، وها هى الصهيونية تنفذ المخطط الرهيب ، وترسم خريطتها الشنيعة التى تقوم على التوسع والاستيلاء ، وفى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ تطأ الصهيونية بأقدامها المدنسة الأرضى المقدسة ، وتبعث بحرمات الاسلام . وإننى اذا أذكر للمسلمين الأسباب ، التى أدت إلى وقوع الكارثة أيام الصليبيين ، فلعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فإن الأرض المقدسة تهتف بهم أن وحدوا صفوفكم ، وكلمتكم ، وتناسوا الخلافات ، وقفوا وقفة رجل واحد لخوض المعركة الفاصلة ، فإنها معركة الاسلام .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾<sup>(١)</sup>

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾<sup>(٢)</sup> .

يا أيها المسلمون فى كل مكان : إن القرآن يناديكم ويهتف بكم قائلاً :

﴿ ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، ولينحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم يبعث فينا أملاً ويقينا فى النصر ، إن نحن اعتصمنا بالله واصطلحنا مع الله ، فيقول سبحانه :

﴿ ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾<sup>(٤)</sup>

ويؤكد أن ما نعهده من قوة ومن رباط الخيل ، إنما هو إرهاب لأعداء الله ، أما الذى يقتل الأعداء حقيقه ، فهو الله فيقول : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين

( ١ ) الأنفال آية : ١٥

( ٢ ) الأنفال الآيات : ٤٥ ، ٤٦

( ٣ ) آل عمران الآيات : ١٣٩ — ١٤١

( ٤ ) الأنفال آية : ٥٩

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴿١﴾ .

ويؤكد هنا المعنى

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ﴿٢﴾

وعلى المسلمين أن يتذكروا ما للمسجد الأقصى من مكانه في القلوب ، وحرمة في الاسلام ، ومنزلة في مقدساتهم ، فقد سأل الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري — رضى الله عنه — رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : أى مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت . كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة — الحديث (٣)

وبلغ من فضل هذا المسجد ومكانته في الاسلام ، أنه أحد المساجد الثلاثة ، التي لا تشد الرحال إلا إليها ، فقد روى عن أبي هريرة رضى الله عنه — أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال ، إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدي هذا والمسجد الأقصى » رواه البخارى ومسلم وأبو داود (٤)

وللصلاة في المسجد الأقصى ، فضل كبير ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه » (٥) .

وقد جاء في الأحاديث ؟ إن فضل الصلاة في مسجد بيت المقدس ، أفضل مما سواه من المساجد — غير المسجد الحرام والمسجد النبوي . بخمسائة صلاة (٦)

ويكفى المسجد الأقصى فخراً ، أنه أولى القبلتين ، فقد استقبله الرسول ﷺ في صلواته ومعه المسلمون ، وظلوا على هذا الحال بعد الهجرة بستة عشر شهراً ، إلى أن أمره الله تعالى باستقبال البيت الحرام . وتلك مفخرة أخرى للمسجد الأقصى ، تتردد في سماع الزمان ما تعاقب الملوان ، واختلف الجديدان ، إلا أنها مسرى رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث التقى بالأنبياء ، وصلى بهم إماماً ، ليعلم أمام الناس أجمعين ، أن شريعة الأنبياء واحدة ، فكلهم يعملون في معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

(١) الأنفال آية : ٦٠

(٢) الأنفال آية : ١٧

(٣) أخرجه الامام مسلم في كتاب المساجد ح ١ ص ٣٧٠ برقم ٥٢٠/١

(٤) أخرجه البخارى ح ٢ ص ٩٧٥ برقم ٤١٥ / ٨٢٧ كتاب الحج ، ص ١٠١٤ برقم ٥١١ / ١٣٩٧ وأبو داود ح ٢ ص ٥٢٩

برقم ٢٠٣٣ والترمذى ح ١ ص ٢٠٥ برقم ٣٢٥ ط دار الفكر

(٥) أخرجه الامام مسلم ح ٢ ص ١٠١٢ برقم ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ / ١٣٩٤

(٦) الترغيب والترهيب ح ٢ ص ٣٦١ ، ص ٣٦٢ برقم ١٠ ط مكتبة الجمهورية .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾<sup>(١)</sup> .  
وهكذا يقف المسجد الأقصى ليأخذ مكانته اللائقة به في تاريخ الاسلام فقد شرف بزيارة الرسول ﷺ  
له ليلة الاسراء والمعراج .  
﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه  
من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾<sup>(٢)</sup> .

## صلاح الدين الأيوبي وبيت المقدس

كانت الشرارة الأولى التى فجرت نار الحرب ، بين البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبي ، وبين قوات  
الفرنجية المعتدية الباغية ، أن رجلاً يدعى « أرناط » كان حاكماً على « الكرك » وهذا الرجل سولت له نفسه  
سوءاً ، فقد اعتدى على قافلة تجارية تابعة لصلاح الدين ، فغنم أموالها ، وأسر رجالها ، وعلى الرغم من  
أن صلاح الدين أنذره ، إلا أن هذا الشقى ركب رأسه ، الذى عشن الشيطان فيه وفرخ ، فأقسم صلاح  
الدين إن ظفر به ليقنتله بيده ، وعزم أن ينتقم منه ، وأن يكيل له الصاع صاعين ، كان ذلك فى سنة  
اثنين وثمانين وخمسمائة هجرية ، وفى سنة ٥٨٣ هـ عزم صلاح الدين عزمًا أكيداً على أن ينفذ وعيده  
فى صاحب حصن « الكرك » أرناط ، وعلى أن يهاجم مملكة بيت المقدس ، التى كانت فى ذلك الوقت  
تحت يد الصليبيين ، فكانت المعركة الفاصلة الخالدة ، التى نسجلها التاريخ ، لذلك البطل بحروف من ذهب ،  
على صفحة من نور ، باقية مدى الدهر ، أعطر من الزهر ، ألا إنها موقعة حطين ، فكيف كان ذلك ؟

## معركة حطين :

خرج صلاح الدين من دمشق فى شهر المحرم ( ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م ) ولما وصل إلى رأس الماء جعله  
مركزاً لاجتماع الجيوش ، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام ، وأعلن حالة التعبئة فى الجماهير المسلمة .  
﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم  
تعلمون ﴾<sup>(٣)</sup>

وقامت العقيدة بدورها الحقيقى ، لتعلن فى صفوف المجاهدين قول الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى من  
المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة  
والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾<sup>(٤)</sup> .

( ١ ) الزخرف آية : ٤٥

( ٢ ) الاسراء آية : ١

( ٣ ) التوبة آية : ٤١

( ٤ ) التوبة آية : ١١١

وهكذا نهض الناس وانتفضوا كالليوث الرئالة ، يزجرون غضباً لانتهاك الحرمات ، ويصبحون صيحة الحق ، ليدمروا الباطل ، الذى أخذ يزأر فى عرضات الدنيا ، فإذا ما توافر للقائد عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمى فى فن القتال ، كان النصر حليفه ، والتوفيق رائده .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين ﴾<sup>(١)</sup>

لما التقى صلاح الدين بولده الأفضل عند « رأس الماء » بقى بولده برأس الماء ، وسار هو إلى بصرى ، وسار مظفر الدين كوكبورى إلى عكا ، وأيقن الصليبيون باتساع الخطة ، التى دبرها صلاح الدين ضدهم ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى طبرية .

وتقابل الفريقان فى حطين ، وجرت معارك قاسية بين الطرفين ، وانتصر فيها صلاح الدين انتصاراً حاسماً ، فقد هزمت قوات التوحيد ، شرادم الشر الباغية ، هزيمة ساحقة ، فسبحان القائل : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد بلغ عدد القتلى من الفرنجة عشرة آلاف ، هذا بالإضافة إلى أن ملك بيت المقدس وأرنط ، قد وقعا أسيرين فى أيدي المسلمين ، ولقد أظهر صلاح الدين شهامته ، ورجولته ، وروحه العالية ، روح البطولة ، فعامل ملك بيت المقدس معاملة كريمة وعطف عليه .

أما « أرنط » صاحب حصن الكرك ، الذى سبق أن صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقتلنه ، فقد بر بقسمه وضرب عنقه جزاء ما قدمت يده ، وبهذا الانتصار الساحق فى موقعة حطين ، بدت شخصية صلاح الدين فى أوروبا ، تحمل أجمل صفات البطولة ، وأنصع معانى النصر ، حتى ذاع صيته فى كل مكان ، فملأ قلوب الفرنجة رعباً ، حتى قيل أن نساء أوروبا ، كن إذا أردن أن يخفن أطفالهن : ذكرت لهم اسم صلاح الدين .

هذا هو الرجل ، الذى كان اذا صلى يطيل ركوعه وسجوده ، ويستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، وهذه معجزة الاسلام فى صنع الرجال ، وما أصعب بناء النفوس ، وما أجل بناء البطولات ولما حقق الله النصر على يدى صلاح الدين فى موقعة حطين .

كان ذلك بشير يمن ، وطالع خير ، وإيدانا بأن فجر الحق ، قد امتدت خيوطه تملأ الآفاق ، فتوالت الانتصارات بعد ذلك ، ففي الفترة الواقعة بين الانتصار فى حطين ، وبين فتح بيت المقدس ، توجه صلاح الدين بقواته إلى عكا فاستسلم من فيها بأمان ، ودخلها غرة جمادى الأولى ( ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م ) وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة صور .

( ١ ) آل عمران الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

( ٢ ) الروم آية : ٤٧



ثم وقع احتلال المدن والحصون، التي حول عكا، مثل ( تبين - صيدا - جبيل - بيروت ) وبعد ذلك سائر الساحل، وحاصر عسقلان، مدة أربعة عشر يوما، وانتهى الأمر باستسلامها في ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ .

وبذلك نصب صلاح الدين حصاراً على بيت المقدس، وحال بين مملكة بيت المقدس، وبين الامدادات الصليبية التي كانت ترد إليها من الساحل .

## صلاح الدين وبيت المقدس :

بعد أن استطاع صلاح الدين، أن يقطع الإمدادات، التي كانت ترد إلى بيت المقدس من الصليبيين، سهل عليه حصار بيت المقدس، وذلك بعد ما استسلمت ( الرملة - الداروم - غزة - بيت لحم - النطرون ) ومن الجدير بالذكر أن حصار بيت المقدس، لم تدم طويلاً، فقد استمر أسبوعاً واحداً، انتهت بعده المقاومة الصليبية، وأعاد الله الحق إلى أهله، وأجرى النصر على يدي عبده المجاهد في سبيله .

وهنا تظهر الروح الكريمة العالية، روح الاسلام التي تتسم بالرحمة، وتمتاز بالسماحة، فلعلنا نذكر أن الفرنجة لما دخلوا بيت المقدس، قتلوا من أهل هذه المدينة المقدسة، سبعين ألفاً من المسلمين، وكان ذلك في سنة ٤٩٢ هـ في شهر شعبان، لكن صلاح الدين أثبت عليه عقيدته، وشهامته، ورجولته، وبطولته، وإنسانيته، أن يجري الدماء أنهاراً، بل لقد عفا وأصلح، وقبل الفداء من الصليبيين ( ١٠ دنائير للرجل، ٥ للمرأة، ٢ للطفل ) وأوسع لهم في أجل هذا الفداء لمدة ٤٠ أربعين يوماً، فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الاسلامية، إلى مدينة صور، متعهدين بعدم الرجوع إلى الحرب .

فتحنا فكان العدل منا سجية	فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحلتم قتل الأسارى وطالما	غدونا على' الأسرى نحن ونصفح
فحبسكم هذا التفاوت بيننا	فكل أناء بالذى فيه ينضح

## رد الفعل :

كان لاحتلال بيت المقدس، واسترجاعها بأيدي المسلمين، هزة عنيفة في أوروبا، فنظمت حملة صليبية ثالثة، شارك فيها أعظم ملوك أوروبا في ذلك الزمان :

(١) امبراطور ألمانيا فردريك بربروس .

(٢) ملك فرنسا فيليب أوغسطس .

(٣) ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد .

ومات امبراطور الألمان أثناء الطريق، فلم يكن لأمره شأن، أما الملكان الفرنسي والانكليزي، فقد

وصلا إلى الشام أثناء حصار عكا الشهير ، وبعد معارك أخرى بين الفريقين ، عقد صلح الرملة بين صلاح الدين وملك الانكليز . نص فيه على حدود الطرفين ، وعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وأنه يسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس .

## وفاة البطل صلاح الدين

بعد صلح الرملة رجع صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإجراء عدة اصلاحات وتنظيمات ، ثم صار قاصداً دمشق ، فوصلها في ٢٥ شوال سنة ٥٨٨ هـ . ولم يعمر صلاح الدين طويلاً بعد صلح الرملة ، فقد وافاه الأجل ، وهو بدمشق ، فأسلم الروح في ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ ( ٤ مارس ١١٩٣ م ) وفارق الحياة ، بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه ، وجاهد في الله حق جهاده ، وصبر على البلاء ، وتحمل الضراء ، ومات ميتة الأبطال ، بعد أن سجل له التاريخ الأجداد الخالدة ، في سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ، وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾<sup>(١)</sup>

فإلى رحمة الله ياصلاح الدين ، جزاء ما قدمت من أياد بيض ، ومواقف شرف في سبيل إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق .

## الحملتان الصليبيتان الرابعة والخامسة .

بعد الحديث عن موقعة حطين ، وفتح بيت المقدس ، رأينا أن نتمم الفائدة العملية والتاريخية ، حتى يكون القارئ على علم تام بالحملات الأوربية ، التي زحفت إلى الشرق الاسلامي ، تريد أن تغوص أرجل خيولها في بحار من دم المسلمين ، وأن تستنفذ قواها ، وتستولى على ما في الأرض من خيرات ، أو على حد قولهم : إنها أرض تفيض باللبن والعسل ، ومن ثم عرضنا للكلام عن بقية الحملات الصليبية ، بعد صلاح الدين رحمه الله .

جاءت الحملة الصليبية الرابعة ، نتيجة للخلاف المحتدم بين الكنيستين ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، تبعة خلاف سياسي وحربي ، كثيرا ما جر إلى الولايات والخطوب ، ولهذا فإن قادة الحملة الصليبية الرابعة ، سرعان ما استجابوا لدعوة دوق البندقية ، فهاجموا الامبراطورية البيزنطية ، واستولوا على القسطنطينية ، وأنشأوا فيها مملكة لاتينية ، استمرت ٥٧ سنة . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة ، أما الحملة الخامسة ، فقد كان الغرض منها ، استنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، فاستجاب لهذه الدعوة ، ملك المجر أندارى الثاني ، ودوق النمسا ليوبول السادس ، وكانت سنة ٦١٢ هـ — ١٢١٦ م ، ولقد تحركت صوب الشرق

الاسلامى ، والهدف الأساسى أمام عينها ، ولكنها لما فشلت بالنسبة لبلاد الشام ، قرر ملك المجر الرجوع إلى بلاده .

لكن بقية الفرنجة ، كانوا قد وضعوا خطة ، تقضى بالزحف على مصر ، التى كانت فى ذلك الوقت ، تحكم بيت المقدس . وكان على حكمها رجل من آل أيوب ، هو الملك العادل ، وكانت الخطة ، تقتضى محاصرة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقى لدلتا النيل ، فإذا ما إحتلوها يتجهون إلى القاهرة ، مسير بين فرع النيل الشرقى .

### حصار دمياط :

وبدأوا ينفذون الخطة ، فتحركت جيوشهم إلى مدينة دمياط ، وحاصروها فى صفر ٦١٥ هـ ، وظلت محاصرة إلى سنة ٦١٦ ، وقد حدث أن الملك العادل مات فى هذه الفترة ، فاضطربت الأمور لموته ، مما أدى إلى سقوط دمياط فى أيديهم ، وبعد سقوط دمياط ، استراحت جيوشهم قليلاً ، ثم قرروا متابعة الزحف إلى القاهرة ، لكن الذى حدث فى هذه الأثناء ، أن الملك الكامل ابن الملك العادل ، استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ، فأرسل إلى أخوته أمراء الشام ، ليوحد الكلمة ضد الصليبيين ، واستعد لملاقاتهم . يقول المؤرخون : استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة ، وصمد لهم هناك ، واستمر القتال محتدماً بين الطرفين ، وخشى الملك الكامل تفوق الصليبيين واحتلالهم القاهرة ، فأجرى معهم مفاوضات فى الصلح ، وعرض عليهم تسليم بيت المقدس ، وعسقلان وطبرية ، وجميلة ، واللاذقية ، فى مقابل تسليمهم دمياط والخروج من مصر .

لكن الصليبيين لم يرضوا بهذا ، بل طلبوا زيادة عن ذلك — بتسليم حصن الكرك ، وثلاثمائة ألف دينار تعويضاً عن تخريب بيت المقدس ، وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوض ، وأغراهم عنادهم ، بمهاجمة القاهرة ، وصادف أن كان الوقت زمن فيضان النيل ، فقطع المصريون الجسور ، واندفعت المياه فى الأرض المنخفضة ، التى كان فيها الصليبيون ، فغمرتهم المياه وحصرتهم من كل جانب ، وأصبحوا فى الماء والوحل ،

وانتصبت قوات إسلامية فى المنفذ الوحيد ، الذى يمكن للصليبيين الخروج منه ، فأسقط فى أيديهم ، وركنوا إلى الاستسلام ، والخروج من مصر ، والانسحاب عن دمياط بدون مقابل ( رجب ٦١٨ هـ — ٢١١ م ) .

فانظر إلى العناية الإلهية ، وتأمل تدبير خالق السماء والأرض ، وكيف أن الأرض ضاقت على المسلمين بما رحبت ، حتى عرضوا على أعداء الله العروض السخية ، فى سبيل أن يوقفوا هذا السرطان ، الذى يسرى فى جسد الأمة ، فيأبى هؤلاء إلا أن يركبوا رؤوسهم ، ولم يكن أحد يعلم المصير الذى ستنتهى إليه .

تلك الحملة إلا الله وحده ، فتكون هزيمة هؤلاء على يد ماء النيل ، بعد ما ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا ، وظن الصليبيون أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فاتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، حيث صدرت أوامره الفعالة إلى ماء النيل ، أن يفيض ، فيغرق الجسور ، ويحاصر الأعداء .

أن موقف المسلمين من الحملة الخامسة ، يجب أن نأخذ منه عبرة في شدة التمسك بحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، فإن أهل الأرض مهما بلغت قوتهم ، وزادت الأسباب المادية في أيديهم ، فإنهم لن يستطيعوا أن يطاولوا مالك الملك ، الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز ويذل من يشاء .

### « الحرب الصليبية السادسة »

إن المنقب فى بطون التاريخ ، إذا ما ألقى نظرة فاحصة على مسيرة الأحداث عبر القرون الخالية ، يجد من الاستعمار الغربى عجباً عجيباً ، فقد تفاقم الصراع بين الغرب الصليبي ، والشرق الإسلامى ، يريد الغرب أن ينتزع بآنيابه الضارية بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ويصر المسلمون على أن يحافظوا على هذا البيت ، وهكذا دارت رحى الحرب ، وحمى وطيسها ، ونحن نقول فى هذا الصدد إن التاريخ أستاذ عظيم ، يلقي الأهم الدروس ، ذات الأثر الفعال ، التى لا تنسى ، والله يقول ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية ﴾<sup>(١)</sup>

وما أعظم الدروس التاريخية ، التى يقدمها لنا القرآن العظيم ، والتى تبدو فيها سنن الله واضحة فى أم خلقه . اقرأ قوله تعالى :

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾<sup>(٣)</sup>

وليستمر الكتاب العزيز فى بيان هذه الدروس ، يلقيها للأمم ، ويبين حيثيات حكم الله القاطع ، الذى حكم به عليها ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ فكأن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾<sup>(٤)</sup>

( ١ ) الحاقة آية : ١٢

( ٢ ) آل عمران الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

( ٣ ) النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣

( ٤ ) الحج آية : ٤٥

ثم استمر في تلاوة هذه الآيات ، لترى القرآن يلقي بلائمة ، وينعى على الذين إذا ساروا في الأرض ، لا يأخذون من سيرهم عبرة ولا يستخلصون من حال أهلها موعظة ، يقول جل شأنه :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ <sup>(١)</sup> فياخير أمة أخرجت للناس .

اقرأ التاريخ ، وكونوا في قراءتكم معتبرين ، واستخلصوا الدروس ، وكونوا في دروسه مستبصرين ، ونقبوا في بطون العبر ، وكونوا في ذلك مسترشدين ، من قبل أن يأتي يوم لا نملك فيه إلا دموع عيوننا ، وعض بناننا ، ولات ساعة مندم .

لقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى الشرق الإسلامي ، تريد أيضا استنقاذ بيت المقدس من أيدي المسلمين ، كما كانت حال الحملات التي سبقتها ، فقد صارت أنياب الغرب شرسة ضارية تأتي على المسلمين أن تكون لهم كلمة في هذه الأرض المقدسة ، وعلى وجه الخصوص بيت المقدس ، وكانت الحال التي عليها المسلمون ، وقت مجيء هذه الحملة ، تملأ النفس ألماً ، والقلب مرارة ، فأمرء المسلمين في مصر والشام في خلاف محتدم .

فالملك الكامل الأيوبي في مصر ، والملك المعظم في الشام صاحب دمشق وبيت المقدس ، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط ، قد دبت بين الجميع ، نار العداوة ، وخطر الفرقة ، هذا من جهة .

ومن جهة أخرى ، فإن الزحف التتري ، أخذ طريقة إلى بلاد المسلمين ، كالسيل الجارف ، فقد تدفق المغول بقيادة جانكيزخان ، كأنهم الفراش المبثوث ، أو الجرأ المنتشر ، يوجهون الضربات إلى الممالك الإسلامية ، كما يصفهم المؤرخ الأوروي توماس أونولد في قوله :

« ولقد انساب التتار على أرض المسلمين ، كما تنساب الثلوج من قمم الجبال »

وسقطت أمام زحفهم مملكة خوارزم شاه ، واستمر زحفهم حتى وصلوا إلى شرق العراق ، فارجع البصر في هذه الأحداث الجسام ، خلاف محتدم بين الأمراء ، وعدو جبار يزحف من أقصى الشرق وهم التتار ، وآخر يأتي من الغرب ، وهم الصليبيون ، والأرض التي تدور عليها المعركة ، أرض المسلمين ، ترى ماذا تكون النتيجة ؟

كانت نتيجة مؤسفة ومحزنة ، كان الامبراطور الألماني « فردريك الثاني » هو الذي قاد الحملة الصليبية السادسة ، وساعدته العوامل السابقة ، خصوصاً الخلاف المحتدم بين الأمراء ، على أن يسلم إليه بيت المقدس بشروط تجعله مشتركاً ، وهذه الشروط هي :

أ — تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ، على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ، ولا يعاد تجديده وبناءه ، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة ( جامع عمرو ) ويكون الحكم في الرساتيق ( القرى ) إلى وإلى المسلمين .

ب — يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق ، من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية .  
 ج — يتعهد فريدريك الثاني بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه ، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ، كما يتعهد الامبراطور بالحيلولة دون الامدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف ، وكان الاتفاق في ربيع سنة ٦٢٦ هـ . ١٢٢٩ م .  
 وما هو جدير بالذكر ، أن هذا الصلح ، لم يكن مرضياً منه ، لا من المسلمين ولا من الصليبيين ، وقد استغل أعداء الملك الكامل ، هذا الصلح للتشهير به ، فعقدت المجالس العامة في دمشق ، وبكى الناس لهذا الحادث واستغله أعداؤه ضده .  
 وبعد توقيع معاهدة الصلح ، ذهب فريدريك إلى بيت المقدس ، وكان يوماً مشثوما وظرفاً عصيباً .

## عودة بيت المقدس إلى أيدي المسلمين

لما مات الملك الكامل ، تولى ابنه الملك الصالح أيوب حكم مصر من بعده وكان ذلك سنة ٦٣٧ هـ — ١٢٣٩ م وكان حسن التدبير ، يعتبر آخر عظماء سلاطين بني أيوب ، وكانت له عداوة مع بقية أمراء بني أيوب ، خصوصاً عمه الملك الصالح اسماعيل ، الذي استولى على دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية .  
 وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة ، قادمة من فرنسا ، من أشهر رجالها كونت شمبانيا ، وكونت بريطانيا ، فلم يكن من الملك الصالح أيوب ( صاحب مصر ) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية ، وجرت بينه وبين عمه اسماعيل والصليبيين معارك شديدة ، انتصر فيها الملك الصالح أيوب عليهم جميعاً سنة ٦٤٢ هـ — ١٢٤٤ م ، واسترجع بيت المقدس إلى حظيرة السيادة الاسلامية ، فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار ، وفزعت أوروبا منه ، مما كان داعياً إلى إثارة حزب صليبية أخرى .

## ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة :

وهكذا كان بيت المقدس ، فطب الرحي الذي تدور حوله الرحب ، وتستعر أوارها ، جاء الغرب لينزعه من أصحابه الحقيقيين ، وهب المسلمون ، ليستعيدوا حقهم فيه ، وهكذا دواليك حتى هب ملك فرنسا لويس التاسع ومعه إخوته الثلاثة ، روبرت دارتو الفونس ، وبواتيه ، شارل دانجو وكثير من الأمراء والأشراف ، وتحركت الحملة إلى قبرص ، حيث حطت الرحال بها ثمانية أشهر ، دارت فيها الاتصالات بين الملك والإمارات الصليبية ، واستقر رأيه أخيراً على أن يتحرك قاصداً مدينة دمياط ، التي سبق أن تحركت إليها الحملة الخامسة سنة ٦١٥ هـ ، وحاصرتها عاما ، ثم كان مصيرها الغرق في ماء النيل .

وكان على ملك فرنسا أن ينظر في عاقبة من سبق ، ولكن أعماه حقه الدفين على الاسلام والمسلمين ، فحجبه عن رؤية الحقيقة المجردة ، ونسجت أمام عينيه البغضاء ستارا كثيفا من الضباب ، فأصبح لا يرى وشاء الله له النهاية المخزية ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

## العقاب .

في سنة ٦٤٧ هـ أقلعت الحملة الصليبية من قبرص في اتجاهها إلى دمياط ، ولكن عاصفة بحرية ، فرقت سفن الأسطول ، وجعلتها تصل إلى سواحل مصر ، في فترات متعاقبة ، وقد كانت مراكب لويس التاسع ، أول السفن التي وصلت إلى دمياط في صفر ٦٤٧ هـ ، وفوجيء سكان دمياط وحاميتها ، بهذا النزول الصليبي ، فاضطربت أحوالهم ودخلهم الرعب ، فأخلوا المدينة ، وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع ، وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء .

ولقد ظل لويس التاسع بمدينة دمياط بعد احتلالها ستة أشهر ، استعدادا للزحف على القاهرة ، وفي هذه الأثناء استعد المسلمون لملاقاته ، وجهزوا جيوشهم لحربه ، يقودهم الملك الصالح ، وتحركوا إلى المنصورة ، حتى يصرفهم عن التوجه إلى القاهرة .

ولكن شاء الله أن توفي الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ . في شهر شعبان ، وكان له جارية تدعى شجرة الدر ، أخفت موته إلا عن خاصته ، حتى لا يدب الفشل في صفوف الجيش ، وأخذت تدبر معهم الأمر ، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح ، ريثما يصل ابنه وولي عهده الملك المعظم تورانشاه ، واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الاسلامي من الفوضى والاضطراب ، أما الفرنسيون فقد تحركوا إلى المنصورة ، واقتحمها إحدى فرقهم ، ولكن أبيدت عن آخرها ، ودارت الحرب بين الفريقين بضراوة وعنف ، خصوصا بعد ما قدم الملك تورانشاه بن الملك الصالح ، وشاء ربك أن يقع الفرنسيون في موقع غاية في الحرج ، اذا كانوا محصورين بين فرع النيل ، وبحيرة المنزلة ، والبحر الصغير ، ورأى الملك توران شاه بثاقب فكره ، أن يقطع الامدادات التي تأتي من الصليبيين من دمياط ، فنقل سفنا مفككة على ظهور الأبل وأنزلها بفرع النيل ، بين دمياط والعساكر الصليبية ، وبذلك سد عن الصليبيين منفذهم الوحيد ، وجرت بين الأسطول المصري ، والأسطول الصليبي معارك كبيرة ، انتهت بانتصار الاسطول المصري والفتك بثلاثين سفينة صليبية ، واشتد الضغط على الصليبيين ، فقل زادهم ، وانقطع مددهم ، فتفشيت فيهم الأمراض ، وناهم الجوع ، وآباد منهم المسلمون نحو ثلاثين ألفاً ، وضاعت الأرض على الصليبيين ، فأخذوا يخابرون في المصالحة ، على أن يتخلوا عن دمياط ، مقابل استرجاعهم لبيت المقدس .

ولكن توران شاه أبى هذا ، وأيقن الصليبيون بصمود القوات الاسلامية ، فدخلهم الاضطراب ، وعمدوا إلى إخراج أخشاهم وخيامهم ، وتشتت جموعهم ، فذهب معظم الجيش تجاه دمياط ، أما لويس التاسع ، فإنه التجأ إلى تل منيه عبد الله قرب المنصورة ، ولما احتوشته القوات الاسلامية ، وأيقن بالهلاك ، طلب

الأمان فأمنه الطواشي محسن الصالحى ، وكان مع لويس التاسع نحو خمسة آلاف جندى ، ثم اقتيد لويس التاسع إلى مدينة المنصورة ، حيث اعتقل فى دار القاضى إبراهيم لقمان ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

## نهاية الحملة الصليبية السابعة .

لما اتجهت بقية الصليبيين إلى دمياط ، سارت إليهم القوات المصرية ، والتقت بهم بفارسكو وهزمتهم ، وانتهت بذلك المقاومة الصليبية ، ثم افتدى الملك لويس التاسع رقبته وبقية من جيشه ، بغرامة مالية مقدارها خمسمائة ألف من العملة الفرنسية اذا ذاك ، وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط ، واتجه لويس التاسع بعد ذلك إلى عكا ، حيث قضى بها أربع سنوات ، كانت له أثناءها اتصالات بقوات التتر ، الذين أخذوا يغيرون على الشرق الاسلامى ، ويكيلون له ضربات قاسمة ، ترى ماذا كان يفعل لويس التاسع أيام أسره ، لقد أخذ يجول ببصره فى أرجاء الشرق ويقلب الأحداث بين يديه ، وينحل مخزون فكره ، ويقدر زناد رأيه ؟ ما هو العامل البديل عن الحملات الصليبية العسكرية ، التى باءت بالفشل الذريع أمام جيوش المسلمين ؟ كلما فشلت حملة تبتها حملة أخرى ، تتجرع نفس الكأس ، وتذوق نفس المصير ، وبعد أعمال فكر ، واستخلاص رأى ، وضع لويس التاسع دستوراً ، لا يزال الاستعمار الغربى يسير على منهجه ، ويطرس خطاه إلى يومنا هذا واقتضت نصوص هذا الدستور ما يلى : —

- ١ — القيام بحملات مستمرة فى الدس والوقية ، وإذكاء نار الفتنة بين أمراء العرب .
  - ٢ — العمل على السيطرة بشتى الطرق وتنشيط حركات التبشير .
  - ٣ — إثارة الحرب الداخلية والغارات الطائفية .
  - ٤ — إقامة قاعدة تمتد من غزة إلى لواء الاسكندرونة .
- وهكذا استطاع ملك فرنسا ، قبل أن يغادر الديار المصرية ، أن يخرج بهذه الخصلة ، التى يتبع خطاها الاستعمار الغربى فى حربه للإسلام والمسلمين ، فهل غير الاستعمار من هذه المخططات شيئاً ؟ إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والأحداث تشهد ، أنه ما تغير من هذه المخططات شيء ، إذاً فأين المفر ؟ وكيف الوصول ؟ ومتى النجاة ؟ لا مفر إلا بالرجوع إلى الله ، والوصول أكيد ، اذا ما استيقظت العقيدة فى القلوب ، والنجاة قريبة ، يوم يفيق المسلمون من غفوتهم ، ويستيقظون من كبوتهم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ <sup>(١)</sup>

﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ <sup>(٢)</sup>



لقد انتهت الحملة الصليبية السابعة ، مخلفة وراءها حملة أخرى ، وهى الثامنة ، ولقد كان من المواقف الجليلة للمماليك ، أن المملوك القائد الظاهر بيبرس ، كرس جهاده دائماً على محاربة الصليبيين ، وتطهير أرض المشرق الاسلامى منهم ، حتى لم يبق لهم بعد موته ، إلا إمارتان هما طرابلس وعكا .

ولقد كان الخطب جسيماً ، والخطر فادحاً ، عندما وقعت الأمة الإسلامية بين خطريين داهمين وطاحنين ، هما الخطر المغولى ، الذى كان يهدد فارس والعراق ، والخطر الصليبي الذى بقى فى طرابلس وعكا ، ولكن حكمة الله بالغة ، وعظمته مطلقة ، فهو منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إليه يرجع الأمر كله ، وله مقاليد السموات والأرض ، ففى الوقت الذى تحالف فيه الصليبيون مع المغول ضد الأمة الإسلامية ، التى لم تفق بعد من ضربات الصليبيين ، واتفق هؤلاء وأولئك عند هدف واحد ، هو القضاء على الاسلام ، نرى فى هذه الظلمات الحالكة ، وفى هذا البحر اللجى ، الذى يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحب ظلمات ، بعضها فوق بعض ، نرى أن الإسلام العظيم بسرره العجيب ، وقوته الذاتية ، يغزو قلوب جماعة من المغول ، عرفوا بتتر القفجاق بزعامة بركة خان ، وفى هذه الأثناء ، نرى الظاهر بيبرس ، يتعاون مع هذه الجماعة المسلمة من التتار ، فتتحد الكلمة كلمة الاسلام ضد التتار ، الذين لم يسلموا ، ويقع الصليبيون فى سوء مادبروا ، بعد ما خيب الله ما كانوا يأملون ، وبعد ما اتحدت الكلمة بين المماليك والتتار المسلمين ، كان فى هذه الوحدة قوة دافعة ، وطاقات كبرى ، جعلت الأحقاد الصليبية ، تنقلب على أعقابها .

وفى عهد السلطان قلاوون فتحت طرابلس ، حتى اذا اعتلى ابنه الأشرف خليل عرش مصر ، سقطت مدينة عكا فى أيدي المسلمين سنة ٦٩٠ هـ — ١٢٩١ م ، وكان سقوطها مسجلاً لنهاية استقرار الصليبية فى البلاد الشامية ، بعد مضى قرنين من الزمان على اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى من سنة ٤٩٠ هـ إلى سنة ٦٩٠ هـ .

وقبل أن ينتهى أمر الصليبيين بالمشرق ، خرجت حملة صليبية من فرنسا ، هى الحملة الثانية « لسان لويز » ملك فرنسا ، وهى الحملة الثامنة من الحملات الصليبية ، التى وجهت نحو البلاد الشامية ، ولكن هذه الحملة بدلاً من أن تتجه إلى المشرق ، حسب القصد الذى دعاها ، فإنها بتوجيهات ملك صقلية ، اتجهت إلى تونس ، ونزلت بمدينة قرطاجنة الأثرية ، وكان على تونس السلطان المنتصر بالله الحفصى ، ولم تجر بين الطرفين معارك ذات بال ، فقد بقى الصليبيون حول قرطاجنة واكتفى الحفصيون بمحاصرتهم ، وصادف أن مات « سان لويز » بإصابته بوباء ، فمال بعد ذلك كل من الصليبيين والحفصيين ، إلى الصلح وعقد اتفاق بين الطرفين ، وأقلع الصليبيون ، ورجعوا من حيث أتوا ... واكتفوا من هذه الحملة بما وقع لهم تحت خرائب مدينة قرطاجنة ، وكانت هذه الحملة الثامنة ، هى خاتمة الحملات الصليبية الغادرة الثمان ، التى اتخذت أرقاما عديدة .

## اللقاء بين الاستعمار والصهيونية :

ترتبط مصالح الاستعمار الغربى بوجود إسرائيل ، فوجود الاستعمار مرتبط بوجود إسرائيل ، ووجود إسرائيل مرتبط بالاستعمار العالمى ، فكلاهما تلتقى مصالحه ، رغم تفاوت درجات كل منهما .

والحديث فى هذا الموضوع وفى تلك الفترة الحاسمة ، حديث الصراع الدموى العنيف ، الذى يفرض نفسه على صوت الخطر ، الذى هبت ناره ، واندلع فى كل البقاع الاسلامية ، خصوصاً بعد الحرب الثالثة ، التى دارت رحاها بين القوى الصهيونية ، والقوى العربية ، وكان من نتائجها أن دخلت إسرائيل بيت المقدس ، واحتلت أجزاء شاسعة من أرض المسلمين والإسلام ، ولعل ذوى الألباب الهاجرة ، وأولى الأئمة المستنيرة ، يرجعون إلى الحملات الغربية التى تحركت صوب الشرق الإسلامى ، يقودها ملوك أوربا وأمراؤها ، ليستنقذوا بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وظل البيت فى حيرة يغتصبه الصليبيون مرة ، ويستعيدة المسلمون أخرى ، وهكذا قامت إسرائيل بنفس الدور الذى قام به أسلافها من جيوش أوربا .

يحدثنا التاريخ أنه بعد أن وصل الاستعمار الغربى إلى قمته فى القرن التاسع عشر ، بدأت تواجهه منذ نهاية هذا القرن ظاهرة محولة اليقظة ، لنفض هذا الكابوس الذى جثم على صدر الأمة ، ونخر فى عظامها ، وفى عضدها ، وفرق كلمتها ، وشتت شملها ، وأوقد نار الفتنة بين أبنائه ، ولا يخشى الغرب إلا يقظة أهل الشرق ، فدعا هذا الأمر أقطاب الاستعمار الغربى ، للنظر فى شأن الشرق ، واجتمع الأقطاب من بريطانيا وفرنسا والبرتغال — أسبانيا — إيطاليا — هولنده .

وقد كشفت توجهات تتكون وتتسع ، وتقوى ، ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويداً ، ثم تزول ، والتاريخ ملئ بمثل هذه التطورات ، وهو يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين ، وقبلها بابل وأشور والفراعنة ، وغيرهم ، فهل لديكم أسباب أو وسائل ، يمكن أن تحول دون السقوط والإنهيار ، وتؤخر مصير الاستعمار الأوروبى ، وقد بلغ الآن الذروة ، وأصبحت أوروبا قارة قديمة ، استنفذت مواردها ، وشاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال فى شبابه ، يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ، هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤها وسيطرتنا .

## اقتراحات لجنة باترمان :

وعلى ضوء هذه التوجهات ، درست اللجنة ، كيفية ووسائل المحافظة على الامبراطوريات الاستعمارية ، وانتهت فى تقريرها ، الذى صدر سنة ١٩٠٧م ، وعرف باسم تقرير باترمان إلى مايلي : —

أولاً : استبعاد أى خطر على الاستعمار من المستعمرات الحرة ، مثل كندا ، وأستراليا ، وجنوب أفريقيا ، والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو ، والهند الصينية ، لأن المشاكل الدينية والعنصرية والطائفية ، ستشغل هذه البلدان فترة طويلة ، بعد الاستقلال ، والتقليل كذلك من خطر المستعمرات فى إفريقيا والمحيطين الأطلسى والهادى ، بسبب انعزالها .

ثانياً : ( وهذا هو الجزء المهم في التقرير ) أن اللجنة ترى أن الخطر على الاستعمار ، يكمن في منطقة الشرق الأوسط ، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ، ويسكنها شعب ، تتوافر له من وحدة تاريخية ، ووحدة لغته وآماله ، كل مقومات التجمع والترابط ، علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر . ولذلك ولمواجهة هذا الخطر ، اقترحت اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يلي :

١ — السيطرة على البحر المتوسط ، لأنه الشريان الحيوى للاستعمار والجسر الذى يربط بين الشرق والغرب .

٢ — استمرار وضع هذه المنطقة الجزأ ، وبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك ، ومحاربة اتحاد هذا الشعب وارتباطه ، بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى .

٣ — فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى ، بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب ، في منطقة الجسر البرى ، الذى يربط آسيا وأفريقيا ، بحيث يشكل في هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعداوة لسكان المنطقة ، ونتيجة لهذا المخطط الاستعمارى ، كان طبعياً أن يحدث اللقاء بين الحركة الصهيونية ، وبين الاستعمار ، فقد وجد الاستعمار أهداف هذه الحركة الصهيونية الحاجز البشرى ، الذى يؤمن له مطامعه ومستقبله في المنطقة ، ووجدت الصهيونية في الاستعمار ممثلاً في بريطانيا السند الذى يمكن أن تعتمد عليه ، لتحقيق مخططاتها .

ولم يجد الاستعمار صعوبة في التفكير في اختيار هذا الحاجز البشرى الغريب ، فقد كانت الصهيونية العالمية في ذلك الوقت ، تبحث لليهود عن وطن ، يقيمون فيه ، ومن هنا كان اللقاء بين الاستعمار والصهيونية ، وخاصة بعد مؤتمر « بال » الذى عقد في مدينة سويسرا سنة ١٨٩٧ م . فما هى الصهيونية ؟ من الناحية اللغوية ، فإن كلمة الصهيونية مشتقة من كلمة صهيون ، وهو جبل يشرف على مدينة القدس في فلسطين ، قدسه اليهود بعد أن بنى الملك سليمان هيكله هناك ، وقد ظلت هذه الكلمة تطلق على حنين اليهود ، وتطلعهم إلى العودة إلى هذا المكان ، بعد تشردهم منه منذ الأسر البابلي ٥٨٦ ق . م ، كما ظلت ترمز إلى تطلع اليهود إلى هذه البقعة ، من أرض فلسطين ، هذا التطلع ، الذى كان يتخذ صورة البكاء على ماضى اليهود ، ومملكتهم القديمة وهيكلهم ، ظلت كذلك كلمة الصهيونية حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث :

- ١ — دعى موريش هتيس ١٨٦٢ إلى اعتبار أو耶شليم مركزاً لليهود في كتابه ( روما وبيت المقدس ) .
- ٢ — وانشئت جمعيات عشاق صهيون في بروسيا ١٨٨٠ ، ثم توحدت هذه الجمعيات سنة ١٨٨٤ .
- ٣ — ودعا ليوبنسكى ١٨٨٢ إلى ضرورة إيجاد وطن قومى لليهود .
- ٤ — ثم جاء تيودور هرتزل فأصدر سنة ١٨٨٥ كتاب ( الدولة اليهودية ) الذى طالب فيه بضرورة قيام دولة يهودية .

ولم يكتف هرتزل بذلك ، بل لقد خطا خطوة أخرى عملية ، لتحقيق هدفه ، وذلك بدعوته إلى مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا فى أغسطس ١٨١٧ م .

## مؤتمر بال :

- يعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر صهيونى عالمى ، وقد اشترك فيه أكثر من ٢٠٠ مندوب ، يمثلون اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وفى هذا المؤتمر صدر تعريف للصهيونية ، بأنها حركة ترمى إلى انشاء وطن للشعب اليهودى شرعى ومعترف به فى أرض فلسطين ، كما حددت أيضا وسائل تحقيق هذا الهدف على النحو التالى :
- ١ — العمل بكل الوسائل على استيطان فلسطين ، بواسطة عمال زراعيين وصناعيين من اليهود .
  - ٢ — تنظيم الشعب اليهودى بواسطة منظمات محلية ودولية ، تلائم الغرض ، وتتفق مع قوانين البلاد ، التى يعيش فيها اليهود .
  - ٣ — تقوية الوعى اليهودى القومى .
  - ٤ — اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضرورى من الدول العظمى .

## الصهيونية حركة سياسية عنصرية :

وقبل ان نستطرد فى شرح خطوات تنفيذ قرارات مؤتمر « بال » وتوضيح كيفية التنسيق بين مخططات كل من الصهيونية والاستعمار فى المنطقة ، فلا بد من وقفة سريعة لتحديد ماهية الحركة الصهيونية ، وذلك لتجريد هذه الحركة من كل الشعارات الزائفة ، التى حاول قادة الصهيونية إلصاقها بها . قالوا : إن الصهيونية تحقيق لحق اليهود التاريخى فى فلسطين ، وهذا الحق تكذبه وقائع التاريخ نفسها . فحكم داود وسليمان الذى بنى عليه الصهيونيون ادعاءهم بحقهم فى فلسطين ، لم يدم أكثر من ٧٣ سنة فقط (من ٩٢٧-١٠٠٠ ق.م) وحكم اليهود فى فلسطين لم يستمر سوى ٤١٤ عاماً فقط ، ولم يكن هذا الحكم مستقلاً كاملاً .. هذا ببيانها :

- ١ — حكم الرومان هذه البلاد نحو ٦٧٧ سنة .
  - ٢ — حكمها مصر نحو ٦١٥ سنة .
  - ٣ — ثم حكمها العرب نحو ٤٤٧ سنة ، وحكمها المسلمون من سلجوقيين ومماليك وعثمانيين حوالى ٦٩٨ عاماً ، تضاف إلى حكم العرب فيكون المجموع ١١٤٥ عاماً .
- وقالوا : ان الصهيونية رد فعل لاضطهاد اليهود :
- وهذا الزعم ترفضه أيضا ، لمبررات كثيرة ، أبرزها أن انبثاق هذه الحركة ، وتبلورها قد جاء فى أعقاب

رياح التحرر والمساواة ، التى كان يمكنها أن تساعد على إذابة اليهود واندماجهم فى المجتمعات ، التى يقيمون فيها ، لو كانت لديهم النية الصادقة لهذا الاندماج ، ولو استطاعوا أن يتخلصوا من خرافة تميزهم عن بقية الشعوب ، وما عرف عنهم من خيانة ، وصفات ذميمة ، ساعدت على نبذهم وعلى تخوف كل الشعوب منهم .

وقالوا أيضا : إن الصهيونية تحقيق لنبوءات اليهودية القديمة فى العودة إلى فلسطين . والأدلة كثيرة لكشف مدى التضليل فى هذا الزعم ، ولكن يكفي فقط أن الزعماء الصهيونيين وعلى رأسهم هرتزل نفسه ، كانوا مستعدين لإقامة الوطن القومى فى أى مكان آخر غير فلسطين .. فى الأرجنتين .. أو غنده — قبرص — استراليا — الإكوادور — بيرو .

ونتيجة لما تقدم ، تظهر لنا حقيقة الصهيونية كحركة سياسية عنصرية رجعية ، قامت لخدمة الاحتكارات الاستعمارية ، واستثارت النعرة العنصرية فى اليهود ، لتضمن ولاءهم الأعمى لها . وإذا كانت هذه الحركة ، قد فضلت أن يكون الوطن القومى لليهود فى فلسطين ، فإن ذلك يرجع إلى دافعين رئيسين :

### الدافع الأول :

استغلال الشحنة العاطفية والدينية عند اليهود المرتبطة بالأرض المقدسة ، لتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، وتنفيذ مخططات الصهيونية .

### الدافع الثانى :

إدراك الزعماء الصهيونيين منذ الوهلة الأولى ، أن اختيار فلسطين بما لها من موقع استراتيجى ، وأهمية تجارية لوقوعها فى الطريق المؤدى إلى الهند ، والذى كان يعد أهم الطرق التجارية فى العالم القديم ، سيلقى تأييد وتشجيع الدول الاستعمارية ، التى كانت تتحكم فى هذه المنطقة ، والتى كان من مصلحتها أن تساهم فى تنفيذ المخطط الصهيونى لحماية مصالحها ، وهذا ما أوضحه ناحوم جولدمان بقوله فى خطاب ألقاه فى مدينة مونتريال بكندا عام ١٩٤٧ :

( كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا ، أو مدغشقر ، أو غيرها ، ليقيموا فى أى منها وطناً يهودياً ، ولكن اليهود لا يريدون سوى فلسطين ، لا لاعتبارات دينية ، أو بسبب إنسالة التوراة إلى فلسطين ، بل لأن فلسطين ، هى ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وأفريقيا ، وأنها هى المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية ، ولأنها المركز العسكرى الاستراتيجى للسيطرة على العالم ) .

وهذا التفسير يوضح لنا السبب فى تلاقى الصهيونية مع مخططات الاستعمار ، التى وضحت فى قرارات لجنة باترمان .

### خطوات تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى :

وبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى المشترك ، لإقامة هذا الحاحز البشرى الغريب فى المنطقة ،

وقد تم تنفيذ هذا المخطط على مرحلتين رئيسيتين ، تولت قيادة الأولى منها بريطانيا ، أما المرحلة الثانية فقد تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية .

## دور بريطانيا :

بدأت معالم هذا الدور ، تنضج خلال الحرب العالمية الأولى ، ففي الوقت الذي كانت وسائل مكماهون إلى الشريف حسين ، تعد العرب بمنحهم الاستقلال بعد انتهاء الحرب ، كانت بريطانيا تتقاسم مع فرنسا باتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ م السيطرة على بلاد المنطقة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد كان هناك مقابلا قدمته بريطانيا للدور الذي قامت به الحركة الصهيونية ، لمساندة قضية الحلفاء ، والمساهمة في تمويل الحرب والضغط على الولايات المتحدة ، لدخولها إلى جانب الحلفاء ، هذا الضغط الذي تزعمه اليهودي لويس اندير رئيس المحكمة الأمريكية العليا ، والذي كان الرئيس الأمريكي ويلسون يقتنع بكل ما يشير به عليه .

وكان هذا المقابل ، هو وعد بلفور ، الذي صدر في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ والذي أعطت به بريطانيا أرضاً لا تملكها لمن لا يستحقها .

ثم استطاع الاثنان بالقوة والخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعي حقه فيما يملكه وفيما يستحق . وتناست بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعودها للعرب ، وبدأت تركز كل اهتمامها في أن تضع وعد بلفور موضع التنفيذ .

ولم يكن غريباً إذاً ، أن تحول بريطانيا مهمة الانتداب على فلسطين ، من تأهيل سكان فلسطين للحكم الذاتي ، إلى التمهيد لقيام الوطن القومي لليهود في فلسطين .

ولم يكن غريباً أيضاً ، أن يكون أول مندوب لها في فلسطين ، هو الصهيوني هربرت صمويل ، ولم تجد بريطانيا من الشذوذ أن تكون حصيلة انتدابها على فلسطين هي :  
بالنسبة لعدد اليهود :

ارتفع من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٩١٨ م إلى ٦٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٤٧ .

بالنسبة للملكية اليهود للأراضي

ارتفعت من ٢,٥ ٪ سنة ١٩١٨ إلى ٦ ٪ سنة ١٩٤٦ بالإضافة إلى ٤٦ ٪ من أراضي الدولة منحتها بريطانيا للوكالة اليهودية ، بعضها بدون مقابل ، وبعضها بثمان رمزي .

بالنسبة لتمكين اليهود في فلسطين :

— جعلت بريطانيا اللغة العبرية في مقدمة اللغات الرسمية في فلسطين .

— عينت كثيراً منهم في دوائر الحكومة .

— اشتركت الوكالة اليهودية في حكم البلاد .

— منحت اليهود كثيراً من الامتيازات للاستيلاء على المراكز الرئيسية للاقتصاد الفلسطيني .  
بالنسبة لتنظيم اليهود عسكرياً :

١ — ساعدت بريطانيا اليهود ، على تهريب الأسلحة ، وتخزينها في المستعمرات .

٢ — كما تولى بعض الاخصائين البريطانيين ، تدريبهم على حرب العصابات .

٣ — وفي ١٩٤٦ بلغ قوات اليهود .

٦٢,٠٠٠ في جيش المهجانة لديهم ١٤,٤٥٠ قطعة سلاح .

٦,٠٠٠ في عصابة الأرجون .

٠,٣٠٠ في عصابة شتريد .

٢,٠٠٠ في قوة البوليس .

دور الولايات المتحدة :

أظهرت الولايات المتحدة تأييدها ، لفكرة الوطن القومي لليهود ، منذ صدور وعد بلفور ، وقد استغلت الحركة الصهيونية ، التنافس بين بريطانيا وواشنطن ، في محاولة كسب ود هذه الحركة ، والتقرب إليها لكي تصل بسهولة إلى تحقيق مطامعها .

وبعد أن استنفدت الصهيونية ، معظم ما كانت تأمل فيه من بريطانيا بدأت تركز نشاطها في الولايات المتحدة ، بعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وساعدها على ذلك أن الولايات المتحدة ، كانت في ذلك الوقت ، قد أخذت تتزعم العالم الرأسمالي ، وتبدي اهتمامها بمنطقة الشرق الأوسط ، كما أخذت احتكاراتها ، تتطلع إلى هذه المنطقة ، وخاصة للمشاركة في عملية نهب البترول العربي ، وقد برز دور الولايات المتحدة واضحاً فيما يلي :

١ — المناورات والضغط التي تمت في الأمم المتحدة ، لإقرار مشروع التقسيم ففى الأمم المتحدة وبين جنيات هذه الهيئة الدولية ، بدأت مرحلة جديدة من المناورات ، لخدمة المخططات الاستعمارية ، فقد كان من المقرر ان يطرح مشروع التقسيم على الأمم المتحدة ، للاقتراع في ٢٦ نوفمبر ، ولكن أجل هذا الاقتراح إلى يوم ٢٩ نوفمبر للخوف من عدم إمكان حصول المشروع على الأغلبية المطلوبة .

وخلال هذه الأيام الثلاثة ، بذلت الصهيونية العالمية كل أساليب الضغط والمناورات ، وركزت كل ثقلها ، لكي تكسب هذه الجولة ، في هذا المجال الدولي ، وكرست الولايات المتحدة كل جهودها ونفوذها ، للهدف نفسه ، وكانت نتيجة ذلك صدور قرار الأمم المتحدة في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بتقسيم فلسطين بأغلبية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً ، وامتناع دول عن التصويت ، وقد كانت المناورات والضغط الأمريكية ، محل انتقاد وهجوم ، حتى من بعض الشخصيات الأمريكية ، ويكفى ما قاله الكاتب الأمريكي ميلر بوروز : من أن اقرار التقسيم في الولايات المتحدة ، يقع على عاتق حكومتنا ، فهي التي فرضت هذه

النتيجة فرضاً ، بعد أن لجأت دون حياء أو خجل إلى اصطناع سياسات القوة ، التي انقضى عهدها ، وكان القرار قاضياً على كل ما للعالم من ثقة بالولايات المتحدة ، والأمم المتحدة نفسها .

٢ — الاسراع في الاعتراف بإسرائيل :

كان طبعياً أن يثور العرب على قرار التقسيم ، الذي قابله اليهود ، وخاصة بعد أن منحهم النقب ، فأعطى لدولتهم مخرجاً على البحر الأحمر ، كما ضمن لهم امكانيات توسيع رقعة دولتهم ، واستيعاب مزيد من المهاجرين ، وقد كانت نتيجة هذه الثورة ، أن ثار النقاش في الأمم المتحدة ، حول كيفية تنفيذ قرار التقسيم ، بل لقد ظهر اقتراح جديد بوضع فلسطين تحت الوصاية ، وأحست الصهيونية بخطورة الموقف ، الذي كان محتملاً أن يهدد بعض مكاسبها ، التي حصلت عليها من قرار التقسيم ، ولذلك تحركت الحركة الصهيونية بسرعة ، وأجبرت بريطانيا على تقديم موعد انسحاب قواتها من أغسطس ١٩٤٨ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

— وفي منتصف ليلة ١٥ مايو ، أعلن انتهاء الانتداب البريطاني ، وبعدها أعلن قيام إسرائيل ، وكانت الولايات المتحدة أولى الدول التي اعترفت بهذا الطغيان ، والكيان البشري الغريب ، ومن المفارقات أن يصدر هذا الاعتراف في الوقت الذي كانت الأمم المتحدة ، تناقش فيه الاقتراح بفرض الوصاية على فلسطين .

٣ — الاشتراك مع بقية القوى الكبرى في مساندة إسرائيل :

وهذه المساندة ، هي التي مكنت إسرائيل من أن تستأنف الحرب بعد الهدنة الأولى التي ( كانت العامل الرئيسي في انقاذ اليهود والحيلولة دون سحقهم على أيدي الجيوش العربية ) كما ذكر الكاتب البريطاني « كينيت بيلبي » رغم كل المعوقات ، التي كانت تحد من حرية هذه الجيوش في الحركة ، ورغم تأمر الرجعية الحاكمة في العالم العربي ، ضد قضية فلسطين ، وكانت هذه المساندة أيضاً ، هي السبب في الضغط على العرب ، لعقد اتفاقيات الهدنة الثانية ، ثم كانت السبب في قبول إسرائيل في الأمم المتحدة في ١١ / ٥ / ١٩٤٩م وفي هذا التاريخ تحقق ما نادى به لجنة كامبل باترمان ، وانضم إلى المجتمع الدولي كيان غريب ، اشتركت في إقامة مخططات صهيونية عنصرية ، ومخططات استعمارية رجعية ، وكان ضحية هذه المخططات شعب فلسطين ، الذي شرد أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ ألف من أبنائه ، واغتصب أرضه وممتلكاتهم ، وحرّم من وطنه ، ورغم مضي من ٤٠ عاماً على هذه الجريمة ، فما زالت الأمم المتحدة عاجزة عن أن تعيد للفلسطينيين حقوقهم ، وأن تجبر إسرائيل على احترام وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة في هذا الشأن .

وقد استمرت الولايات المتحدة إلى تدعيم اقتصاديات إسرائيل ...

فهل تغير الغرب عن الخطوط العريضة ، التي رسمها لويس التاسع ، وهل كف عن اطماعه وعدوانه للشرق ، الواقع أنه لم يتغير ، وإذا كان الأمر كذلك ، فواجبنا نحن أن نغير ما بأنفسنا ، حتى يغير الله ما حل بنا حيث يقول :



﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغِيرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَصَرَّوْا اللَّهَ يَنْصَرِّكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> ... أَهـ  
 تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين في سبيل الله أعقبه بجزاء الكافرين فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأَ لَهُمْ ﴾ قال ابن عباس أى بعداً لهم ، وقال ابن زيد شقاء لهم ، وقيل إن التعس : الانحطاط والعتار ، قال ابن السكيت التعس : أى يخر على وجهه ، والنكس أن يخر على رأسه . قال والتعس أيضاً الهلاك ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « تعس عبد الدينار ، والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى » أخرجه البخارى . وفي رواية أخرى « تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » أخرجه ابن ماجه<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى أبطلها ، لأنها كانت في طاعة الشيطان كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى في آخر السورة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾<sup>(٥)</sup> ثم يبين سبحانه سبب ذلك الاضلال فقال :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ التى عملوها في الدنيا وأصلهاهم سعيراً ، فكل ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال ، فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

( ١ ) الرعد آية : ١١١

( ٢ ) محمد آية : ٧

( ٣ ) أخرجه البخارى ح ٨ ص ١١٥ كتاب الرفاق ط الشعب وابن ماجه ح ٢ ص ١٣٨٥ برقم ٤١٣٥ كتاب الزهد

( ٤ ) الفرقان آية : ٢٣

( ٥ ) محمد آية : ٣٢

## دروس وعبر

قال تعالى :

\* أَقْبَلُمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ ﴿١٧﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيَّتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٩﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿٢٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٢٢﴾ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٣﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿٢٤﴾

## معاني المفردات

﴿ كَانُوا مِنْ قَرِيَةٍ ﴾ كثير من القرى ، ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ أى حنقها ، ﴿ آسِن ﴾ أى متغير الطعم والريح ، لطول مكثه ، ﴿ مصفى ﴾ أى لم يخالطه الشمع ، ولا فضلات النحل ، ولم يمت فيه بعض نخله كعسل الدنيا ، ﴿ حَمِيمًا ﴾ أى حاراً ، ﴿ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ الأمعاء : واحداً معنى ﴿ بالفتح والكسر ﴾ وهو ما فى البطون من الحوايا . ﴿ آنفًا ﴾ أى : قبيل هذا الوقت ، ﴿ آتَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم ﴿ بغتة ﴾ أى فجأة ، ﴿ الإِشْرَاطُ ﴾ العلاقات ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ ﴾ أى كيف لهم ، ﴿ ذَكَرَاهُمْ ﴾ أى تذكروهم ﴿ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ﴿ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ أى ماؤاكم فى الجنة أو النار .

يستهزئون ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ (٢).

ثم يبين سبحانه السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ أى هذا الذى فعلنا بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم ، بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته ، في قوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ لأن المراد به هناك المالك لأموالهم ، المتصرف في شئونهم . قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد والنبي ﷺ في الشعب إذ صاح أبو سفيان صخر بن حرب ، رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبي ﷺ ، وعن أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما فلم يجب ، وقال أما هؤلاء فقد هلكوا ، فأجابه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثله لم آمر بها ، ولم تسؤنى ذهب يرتجز ويقول : اعل هبل اعل هبل . فقال رسول الله قولوا « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ « ألا تحبوه ؟ » قالوا وما نقول يا رسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ .  
كقوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾ (٣) وكقوله سبحانه ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيهاحرير ، وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ (٤).

وقوله تعالى : ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ أى والذين جحدوا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ، وتمتعوا في هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ويأكلون فيها غير مفكرين في عواقبهم ولا معتبرين بنعم الله فمثلهم مثل البهائم ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما في غيرهم . وثبت في الصحيح ﴿ المؤمن يأكل في معى واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء ﴾

(١) الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) غافر الآية : ٨٢

(٣) سورة الحج آية : ١٤

(٤) سورة الحج الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم — أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارهم ، لما للمشاهدات الحسية من آثار في النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول اذا تدبروها واعتبروا بها . ثم يبين سبحانه الفارق بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، في الاهتداء والضلال في الدنيا وفي الآخرة ذكر الفارق بينهما في مرجعهما ومآلهما ، وبعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين ، الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ، فيسمعون كلامه ولا يعونه ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه ، واقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال الذين اهتدوا ، ثم عنف أولئك المكذبين ، وذكر أن عليهم أن يرعوا قبل أن تجيء الساعة ، التي بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ ، والذكرى لا تنفع حينئذ ، ثم أمر الرسول بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله ، والاستغفار والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله بكل شيء عليم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾

أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ ، والمنكرون ما أنزلنا من الكتاب — في الأرض فيروا نعمة الله التي أحلها الله بالأمم الغابرة والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ دمر الله عليهم ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ أى أمثال هذه الفعلة يعنى التدمير ، والهاء في ( أمثالها ) تعود على العاقبة ، أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة الأمم السالفة ، إن لم يؤمنوا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكقوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوء أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها

(١) الأنعام آية : ١١

(٢) الحج آية : ٤٦

ثم قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أى يوم جزائهم ونحو الآية قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تترحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم ﴾ .  
أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأساً وأكثر جمعاً ، من أهل مكة الذين أخرجوك - أهلكتناهم ماذا العذاب ولم يجدوا ناصرأً ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل فالله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم ان لم ينيبوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم .  
أخرج ابن ابى حاتم وابن مردود عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب البلاد الى ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك . فاعدى الأعداء من عدا على الله تعالى على نبيه ﷺ ( وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم ) .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ .  
يقول تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم وبما حيله الله عليه من الفطرة السليمة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ ﴾ أى ليس هذا كهذا كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الخرورج وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾ (٢) .  
قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب الماء الحار الذى يقطع الأمعاء فقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ أى صفة الجنة التى وغدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما ستسمونه بعد .  
ثم فسر هذه الصفة بقوله :

﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح ، لطول مكثها وركودها  
﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أى وفيها أنهار من خمر للذيدة لهم ، اذا لم تدنسها الأرجل ، ولم تكدرها الأيدي كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا ، فلا يتكرهها الشاربون . كما قال سبحانه ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ . ﴿ وأنهار من غسل مصفى ﴾ أى وفيها أنهار من غسل قد صفى من القذى وما يكون فى غسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها . قال ابن كثير وفى حديث مرفوع « ولم يخرج من بطون النحل » وقال الإمام أحمد عن حكيم بم معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » . رواه الترمذى فى صفة الجنة وقال حسن صحيح . وفى الصحيح « اذا سألتكم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها من كل الثمرات ﴾ كقوله تعالى ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ . وكقوله تبارك اسمه ﴿ فيها من كل فاكهة زوجان ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أى مع ذلك كله ، المغفرة والرضوان كقوله تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ أى أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء كقوله تعالى : ﴿ أفمن يلقى فى النار خيراً أم من يأتى آمناً يوم القيامة ﴾ فليس من هو فى الدرجات العلى كمن هو فى الدرجات السفلى . وقوله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾ أى حاراً شديداً الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم وأخرجها من دبورهم .

قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ . روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفا ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل .

ثم يبين سبحانه سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال تعالى : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

وقوله تعالى ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ كقوله تعالى . ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم .. الآية ﴾ قال القرطبى وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها — زادهم علماً والثانى — أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، الثالث — زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقاً

لنبيهم ، والرابع — شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . بقوله ﴿ وَاَتَاهُمُ تَقْوَاهُمْ ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم على تقواه .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبت الكلاً والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلاً ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعا ما بعثنى الله به فلعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » متفق عليه .

قال الأمام الخطائى رحمه الله : فالنبي ﷺ جعل مثل العالم كمثل المطر ، ومثل قلوب الناس فيه ، كمثل الأرض فى قبول الماء فشبه من تحمّل العلم والحديث ، وتفقه فيه الأرض الطيبة ، أصابها المطر فتنبت ، وانتفع بها الناس ، وشبه من تحمّل ولم يتفقه بالأرض الصلبة التى لا تنبت ، ولكنها تمسك الماء ، فيأخذه الناس ، ويتنفعون به ، وشبه من لم يفهم ، ولم يحمل بالقيعان التى لا تنبت ولا تمسك الماء ، فهو الذى لا خير فيه أهـ .

قوله تعالى ﴿ فَمَنْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوة رسوله وأن البعث حق ، وأن الله يهلك من كذب رسله كما شاهدوا ذلك فيمن حوّلهم من الأمم التى أهلكها الله لتكذيبها رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يغوهم كل ذلك شيئاً ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيتهم الساعة بغتة اذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

وقوله تعالى ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أى أمارات اقترابها كقوله تبارك اسمه ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى أَزِفَتِ الْأَافَاقُ ﴾ وكقوله جلّت عظمته ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة . لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله . وقال الحسن البصرى بعثة محمد ﷺ من أشراط الساعة وقال البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

ثم قال تعالى ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ ﴾ أى فكيف للكافرين بالتذكر اذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ انتظروا إِنَّا منتظرون ﴾ وكقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدِمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدٌ ﴾ .

وقوله عز وجل ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ قال الماوردي وفيه — وإن كان رسول الله ﷺ عالماً بالله — ثلاثة أوجه : يعنى أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . والثاني : — ما علمته استدلالاً فاعلمه خبراً يقيناً . الثالث — يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه . أ هـ .  
وعن سفيان بن عيينه أنه سُئل عن فضل العلم فقال « ألم تسمع قوله تعالى بدأ به ﴾ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال ﴿ اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب وهو — إلى قوله — سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ وقال ﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ ثم قال بعد : ﴿ فاحذروهم ﴾

وقوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ قال القرطبي يحتمل وجهين أحدهما — يعنى استغفرا الله أن يقع منك ذنب . الثاني — استغفر الله لعصمك من الذنوب . وقيل الخطاب له والمراد الأمة ، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل أمر بالاستغفار لتفتدى به الأمة .  
وعن أنس بن مالك عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ( رواه البخارى )

وفي رواية لمسلم « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة » .  
وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم »<sup>(١)</sup> ( رواه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح . )  
وعن عائشة رضى الله عنهما قالت « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته « سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب إليه »<sup>(٢)</sup> .

وفي الصحيح إنه كان يقول ﷺ في سجوده « اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله وأوله وآخره وعلانيته وسره » رواه مسلم وقال النووي رحمه الله : قوله ﷺ : ( اللهم اغفر لي ذنبي كله ) مع أنه مغفور له ، فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار لله تعالى .

— وقوله تعالى : ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ أى ولذنوبهم ، وهذا أمر بالشفاعة روى مسلم عن عبد الله بن سرجس الخزرمي قال : أتيت النبي ﷺ وأكلت من طعامه فقلت يا رسول الله : غفر الله لك ، فقال له صاحبي : هل استغفر لك النبي ﷺ ؟ قال : نعم ، ولك ثم تلا هذه الآية : ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه جُمعاً<sup>(٣)</sup> ( وجمع الكف . وهو أن يجمع الأصابع ويصنمها ) .

( ١ ) أخرجه الترمذى كتاب الدعوات ح ٥ ص ١٥٨ برقم ٣٤٩٥ ط دار الفكر وأبو داود ح ٢ ص ١٧٨ برقم ١٥١٦ باب الوتر ط دار الحديث

( ٢ ) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥١ برقم ٢٢٠ / ٤٨٤ كتاب الصلاة وأحمد ح ٦ ص ١٨٤

( ٣ ) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

( ٤ ) أخرجه مسلم ح ١ ص ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .



وقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ يَعْلَمُ مَتَابِعَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما يعلم متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة .

وقال ابن جريج : يعلم تصرفكم في نهاركم ، ومستقركم في ليلكم ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ (١) واختار هذا القول ابن جرير ورجم ابن كثير .

## من أحوال المنافقين

قال تعالى :

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ فَلَوْ صدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ آذَنُوا وَعَدِيبَتَهُمْ لَكُمْ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَانٌ لَهُمْ (٢٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُضَرِّبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ (٢٧) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ (٣١)

## معاني المفردات

﴿ لولا ﴾ كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة في أمر الجهاد ، ﴿ محكمة ﴾ أى بينة واضحة لا احتمال فيها لشيء آخر . ﴿ مرضى ﴾ أى ضعف ونفاق ﴿ نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره جنناً منه وهلعاً ، ﴿ أولى لهم ﴾ أى فويل لهم ،

﴿ عزم الأمر ﴾ أى جد أولو الأمر ، ﴿ عسى ﴾ كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، ﴿ توليم ﴾ أى توليم أمور الناس وتآمرتم عليهم . ﴿ يتدبرون القرآن ﴾ أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر . ﴿ ارتدوا على أدبارهم ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، ﴿ سول لهم ﴾ أى سهل لهم وزين ، ﴿ وأمل لهم ﴾ أى مد لهم فى الأمانى والآمال . ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أى يتوفونهم وهم على أفطع الأحوال . ﴿ أضغانهم ﴾ أحقادهم ، وتضاغن القوم إذا أبطنوا الأحقاد ﴿ لأريناكمهم ﴾ أى لعرفناكمهم ، ﴿ سيماهم ﴾ السيمى : العلامة . ﴿ لحن القول ﴾ أسلوبه بإمالة عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ﴿ ولنبلونكم ﴾ أى لنختبرنكم .

### المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين ، حين استمع آيات التوحيد والحشر والبعث ، وغيرها فيما سلف ﴿ ومنهم من يستمع إليك ﴾ وقوله : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ أردف هذا ، فذكر حالهم فى الآيات العملية ، كآيات القتال والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ، ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشيء من تلك التكاليف ، شق عليهم الأمر ، ثم يبين سبحانه نتيجة لما سلف ، بأنه طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصمهم ، فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم ، فلا يسرون على الصراط المستقيم ، ثم يبين سبحانه أن قلوبهم مقفلة ، فلا يتدبرون ما يتلى عليهم ، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر ، بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك ، وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم يبين سبب ارتدادهم ، وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم ، والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح ، ثم أردف هذا ذكر ما يصادفونه من الأهوال ، إذا جارتهم الملائكة ، لقبض أرواحهم الخبيثة ، ثم ذكر سبحانه أنه سيوضح لنبيه أمرهم ، وسيكشف أستارهم ، ويرز أحقادهم ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال ، سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة .

ثم ذكر سبحانه ، أنه يتلى عباده بالجهاد وغيره ، ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاق التكاليف ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾<sup>(١)</sup>

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المخلصين : أنهم تمنوا نزول آيات الجهاد ، حرصاً على ثوابه ورضاه ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة ﴾ قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة ، وهي أشد القرآن على المنافقين ﴿ وذكر فيها القتال ﴾ أى فرض فيها القتال والجهاد في سبيل الله ﴿ رأيت الذين في قلوبهم مرض ﴾ أى شك ونفاق ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾ أى من فزعهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ولعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب ، كانت تفشى المنافقين ، فكان الأمر بالقتال ، يقع على أسماعهم ، وقع الصواعق ، حتى وصفوا في القرآن ، بأنهم كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ ، كأنهم في غشية الموت ، ثم يحاولون التملص من القتال ، باختلاق الأعذار ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم في أكثر من موضع في كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلاً أشح على إليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد أشح على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ (١) وقال تعالى :

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا لنؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادعوا عن

(١) الأحزاب الآيات : ١٨ ، ١٩ .

(٢) التوبة آية : ٨١ .

(٣) التوبة آية : ٩٤ .

انفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ ﴿٢﴾

وقوله تعالى : ﴿ فأولى لهم ﴾ قال قتادة : لأنه قال العقاب أولى لهم . وقال الأصمعي : معناه قاربه ما يهلكه ؟ أى نزل .

وقوله تعالى : ﴿ طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ أى طاعة لله ، وقول معروف أمثل لهم ، وأحسن مما هم فيه ، من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا ، متاع قليل ، والآخرة خير لمن اتقى . ﴿ فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم ﴾ أى فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه ، خوفاً ورفقاً ، ولو صدقوا في إيمانهم ، وأخلصوا النية في القتال ، لكان خيراً لهم عند ربهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾ ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله ، أن تفسدوا في الأرض ، بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . قال القرطبي وقيل : ﴿ فهل عسيتم ﴾ أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن ، وفارقتم أحكامه ، أن تفسدوا في الأرض ، فتعودوا إلى جاهليتكم ، لذا حذر الرسول

( ١ ) آل عمران الآيات : ١٦٦ — ١٦٨

( ٢ ) الفتح الآيات : ١١ ، ١٢

( ٣ ) النساء الآيات : ٦٦ — ٧٠

ﷺ ، أمته من ذلك ، في حجة الوداع فقال : « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ أى فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة ، مما شاهدوا من الآيات ﴿ يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »<sup>(٢)</sup> .

قال ابن كثير : وفي هذه الآية نهى عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك ، عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة قال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم أخذت بعرش الرحمن عز وجل فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فهو لك ، قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ »<sup>(٣)</sup> وقال الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم »<sup>(٤)</sup> . ورواه الترمذى وقال حديث صحيح وقال أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله إن لى ذوى أرحام : أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيثون ، أفأكافئهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ، إذن تتركون جميعاً ولكن جد بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك<sup>(٥)</sup> .

وقال أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها »<sup>(٦)</sup> رواه البخارى .

( ١ ) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح ١ ص ٨٢ برقم ١٢٠ / ٦٦

( ٢ ) الرعد آية : ٢٥

( ٣ ) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٦ ، ص ٧ ط الشعب

( ٤ ) أخرجه أحمد ح ٥ ص ٣٦ ، ص ٣٨

والترمذى ح ٤ ص ٧٤ برقم ٢٦٢٩ أبواب صفقة القيامة

( ٥ ) أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٨١ ، ص ٢٠٨

( ٦ ) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٧ ط الشعب كتاب الأدب .

أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٦٣ ، ص ١٩٣

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »<sup>(١)</sup> وقد رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

وجن أنس بن مالك رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُسقط له في رزقه ، أو يُسأله في أثره فليصل رحمه »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى . والأحاديث في هذا كثيرة . ولا عجب في أن تكون صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، أو طول العمر ، لأنها صدقة والله تعالى يرى الصدقات ، كما أنها تورث الذكر الجميل بين الناس ، وتورث المنزلة أيضا عند الله لأنها بر ، وما عند الله خير للأبرار . قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴿ .

أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله ، التى وعظ بها فى آى كتابه ويتفكرون فى حججه ، التى بينها فى تنزيله ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم ، فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه ، من الصبر والمواعظ . وقال القرطبي : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الاسلام ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ أى بل على قلوب أقفال ، أقفلها الله عز وجل عليهم ، فهم لا يعقلون ، قال ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال تلا رسول الله ﷺ يوماً : « أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها ، حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فما زال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى فاستعان به<sup>(٣)</sup> . ولما أخبر سبحانه بإقفال القلوب بين فنشأ ذلك فقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ أى أن الذين رجعوا القهقرى ، على أعقابهم كفاراً ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لامر الله — الشيطان زين لهم ذلك ، وخدعهم ، وحسن لهم ما فى الدنيا من لذة ، يتمتعون بها إلى حين ، ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه ، التى لا تدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العد ،

(١) أخرجه أحمد ح ٢ ص ١٦٠ ، ص ٢٩٥

وابو داود ح ٥ ص ٢٣١ رقم ٤٩٤١ كتاب الأدب

والترمذى ح ٣ ص ٢١١ برقم ١٩٧٢

(٢) أخرجه البخارى ح ٨ ص ٦ ط الشعب باب من بسط له فى الرزق بصلته .

(٣) تفسير ابن كثير ح ٤ ص ١٨٢ ط الدار للبتانية المصرية

قال تعالى : ﴿ يَـعْـدُهُمْ وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَـعْـدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ، أُولَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ <sup>(١)</sup>

ثم ذكر سبحانه كيف أنهم ضلوا فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾ أى ذلك الضلال من قبل أنهم ما لؤا اليهود من بنى قريظة والنضير ، وناصحوهم سرّاً على المؤمنين ، كما هو شأن المنافقين فى كل زمان ، والله يعلم ما يسرون وما يخفون . ﴿ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يَشَاءُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup>

ثم ذكر سبحانه أن هذه الحيل إن أجدت فى حياتهم ، فماذا هم فاعلون حين وفاتهم ، فقال تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كيف حالهم اذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح فى أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ اتَّوَفَى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> الآية وكقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ — أَى بالضرب — أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> قال القرطبي قال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه .

ثم بين سبحانه سبب التوفى على تلك الحال الشيعية فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أى ذلك الهول الذى يروونه ، من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى ، وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا ما يرضى الله من الإيمان به ، والعمل على طاعته ، والاخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ما عملوه من البر والخير ، إذ هم فعلوه وهم مشركون ، فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفتخر وحسن الأحداث بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين ، وإظهار خفاياهم ، وإعلان نواياهم فقال : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ أَضْغَانَهُمْ ﴾ أى أيعتقد المنافقون ، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذوا البصائر ، وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة ، فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره ، قال ابن القيم : أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفتلت اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء ، لا يخفون بها على

( ١ ) النساء آية : ١٢٠

( ٢ ) النساء آية : ٨١

( ٣ ) الأنفال آية : ٥٠

( ٤ ) الانعام آية : ٩٣

أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم اذا كتموا كفرهم ، وأظهروا إيمانهم ، راجوا على الصيارف والنقاد . كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرضى أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد ، لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ، ستراً منه على خلقه ، وحملًا للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ أى فيما يبدو من كلامهم ، الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين . هو بمعنى كلامه وفجواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة ، إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلقات لسانه .

قال القرطبي . قال ابن عباس : وقد عرفه إياهم في سورة « براءة » وقال أنس : ما خفى على النبي ﷺ ، بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؟ كان يعرفهم بسيماهم . ﴿ والله يعلم أعمالكم ﴾ أى لا يخفى عليه شيء منها سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ . أى لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم ، فتعرف الصادق منكم في إيمانه من الكاذب ، كقوله تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ (٢) .

## أحكام قاطعة الثبوت

قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرَّوْا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِيطُ أَعْمَلُهُمْ ﴿٤٢﴾ \* يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٤٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٤٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَىٰ

(١) العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣

(٢) العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١



الْسَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٢٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٢٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْ مَوَالَهُمْ فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبُخْلُكُمْ ضَعْفَانِكُمْ ﴿٢٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤَ لَا تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٢٨﴾

## معاني المفردات

﴿ شاقوا الرسول ﴾ أى عادوه وخالفوه ، وأمله صاروا فى شق غير شقه . ﴿ فلا تنهوا ﴾ أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفاً وإظهاراً للعجز ، ﴿ الأعلون ﴾ أى الغالبون ﴿ والله معكم ﴾ أى ناصركم ، ﴿ لن يترك أعمالكم ﴾ أى لن ينقصمكوها ، ﴿ لعب وهو ﴾ كل ما اشتغلت به ، مما ليس فيه ضرر فى الحال ، ولا منفعة فى المآل ، ولم يمنعك عن مهام أمورك ، فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو هو ، ومن ثم يقال آلات الملاهى ، لأنها مشغلة عن غيرها . ﴿ فيحفكم ﴾ أى فيجهدكم بطلبها جميعاً ، والإحاف والإحفاء ، بلوغ الغاية فى كل شىء ﴿ أضغانكم ﴾ أى أحقادكم .

## المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ، أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال ، حين وفاتهم — أردف ذلك ذكر حال جماعة من أهل الكتاب ، وهم بنو قريظة والنضير ، كفروا بالله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعتة فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضروا الله شيئاً بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم ، وسيحبط الله مكائدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره وتواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ ، ثم نهى المؤمنين عن إبطال أعمالهم بالمعاصى ، أو الرياء ، أو العجب ، ثم أعقب هذا ببيان أن العادين عن سبيل الله ، إذا ماتوا على كفرهم ، فلن يغفر الله لهم ، وبعدئذ أردف هذا أن الله خاذلهم فى الدنيا ، فإنها ظل زائل ، وعرض غير باق ، وهى مشغلة عن صالح الأعمال ، فلا يليق أن تعضوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم ، يؤتكم أجوركم ، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النذر ، الذى فيه صلاح المجتمع ، وهو عليم بأن البعض يبخل ، ومن يبخل ، فإنما يبخل عن نفسه ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى ، يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه ، الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول ، وحاربوه ، وآذوه ، من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، أنه مرسل من عنده — ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكائدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقه رسوله ، ولا يصلون إلى ما كانوا ييغون له من الغوائل ، وستكون تمزقها إما قتلهم ، أو جلاءهم عن أوطانهم ، والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياها عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعم متابعة الرسول ﷺ والانضواء تحت لوائه قال تعالى : ﴿ إِن الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْتِيَ اللَّهُ بِالنَّورِ إِلَّا أَنْ يَمُوتَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ، هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فخافوا أن يطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد . فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ ، نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قلنا : ما هذا الذى يطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ <sup>(٣)</sup> فلما نزلت ، كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئا رجونا له . <sup>(٤)</sup>

ولقد نهى سبحانه المؤمنين ، عن إبطال أعمالهم بالربا والعجب والمن ، كما فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

(١) الأنفال آية : ٣٦

(٢) التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

(٣) النساء آية : ٤٨ ، ١١٦

(٤) تفسير ابن كثير ح ٤ ص ١٩٤ طبع النهضة الحديثة .

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴿١﴾

وكما في قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ﴿٢﴾ وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ﴿٣﴾ قال هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ﴿٤﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ﴿٥﴾ قال ابن القيم : وهى الأعمال التى كانت على غير السنة ، أو أريد بها غير وجه الله .

ولقد أخبر ﷺ ، عن أول ثلاثة تُسعر بهم النار : قارئ القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارئ ، فلان شجاع ، فلان متصدق ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، ثم ماتوا وهم على كفرهم ، فلن يغفر الله سبحانه عما صنعوا : بل يعاقبهم ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، كقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ ﴿٦﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾ أى لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أى المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار ، فى حال قوتكم وكثرة عددكم ، وغنادكم ، ولهذا قال : ﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة ، بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الأمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل ﷺ ، حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم الله عليه وسلم إلى ذلك ،

( ١ ) البقرة آية : ٢٦٤

( ٢ ) الكهف آية : ١١٠

( ٣ ) الملك آية : ٢

( ٤ ) الكهف آية : ١١٠

( ٥ ) الفرقان آية : ٢٣

( ٦ ) البقرة الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢

وقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ مَعَكُمْ ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ وَلَنْ يَتْرَكَم أَعْمَالَكُمْ ﴾ أى ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفىكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً ، قاله ابن كثير ، وقال صاحب روائع البيان فى هذه الآيات : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكَم أَعْمَالَكُمْ ﴾ ما نصه :

### التحليل اللفظى :

تَبْطُلُوا : تضيعوا أثوابها من بطل الشيء يبطل بطلاً وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً ، صَدُوا : أَعْرَضُوا من الصد : وهو الإعراض والصدوف ، قال تعالى : ﴿ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُونَ عَنْكَ صُدُوداً ﴾ <sup>(١)</sup> فلا تَهِنُوا : أى لا تفترؤا ، ولا تضعفوا ، ولا تجبنوا عن قتال العدو ، من الوهنى أى الضعف فى النفس والعمل ، قال تعالى : ﴿ فَمَا هِنُوا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
لَنْ يَتْرَكَمْ . أى لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً ، وَلَنْ يَظْلِمَكُمْ من وتره حقه وماله نقصه إياه وفى حديث النبى ﷺ « مَنْ فَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَكَأَنَّمَا وَثَرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ »

## المعنى الاجمالى

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، مخاطباً إياهم بوصف الإيمان ، تذكيراً لهم بأن هذا الوصف ، يدعوهم إلى طاعة أوامر الله تعالى ، الآية بعد هذا النداء ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، فطاعته هى السبيل إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى سبحانه وتعالى ، فعلى المؤمن أن يتبعه فى كل سنة منها .

ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله ، فقد يقدم أعمالاً كثيرة من الطاعة ، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصى ، والرياء ، والغجب ، إلى غير ما هنا لك ، فهناك الله عن ذلك ، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات ، ثم يبين الله تعالى ، أنه لا يغفر الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصى ، فقد هلك ، بل فضل الله باق يغفر له بفضل الله ؟ وإن لم يغفر له بعمله . وإذا كان أمر الكفار فى الآخرة هذا ، فأمرهم فى الدنيا كذلك من الزلة والحقارة ، فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى ملاقاتهم ، ولا تجبنوا عن قتالهم ، فالنصر لكم آجلاً أو عاجلاً ، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خوراً ، وإظهاراً للعجز ، فإن الله معكم يؤيدكم بنصره ، ويؤيدكم بقوته ، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يعطيكم ثوابها كاملاً غير منقوص .

( ١ ) النساء آية : ٦١

( ٢ ) آل عمران آية : ١٤٦

## لطائف التفسير :

**اللطيفة الأولى :** قال الفخر الرازي : قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ ﴾ العطف هنا ، من باب عطف المسبب على السبب ، يقال اجلس واسترح ، وقم وامش ، لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول « وقال الألوسي : « وإعادة الفعل في قوله : ﴿ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام .  
**اللطيفة الثانية :** قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ الآية :

قال الفخر الرازي : يحتمل وجوهاً : أحدها داوموا على ما أنتم عليه ، ولا تشركوا ، فتبطل أعمالكم ، قال تعالى : ﴿ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبُطَ عَمَلُكَ ﴾ (١) .

**الوجه الثاني :** لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول ، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم ، بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٢)

**الثالث :** لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى : ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَا تُمْنُوا عَلَى إِسْلَامِكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٣) .

وقد اختلف فيما يبطل الأعمال على أقوال :

قال الحسن : المعاصي والكبائر ، وقال عطاء : الشك والنفاق ، ونقل عن ابن عباس ، وقال ابن عباس : الرياء والسمعة ، ونقل عن ابن جزيح ، وقال مقاتل : المن ، وقيل : العُجب ، فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب .

وقيل المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى قال القرطبي : وكله يتقارب ، وقول الحسن يجمعه .

**اللطيفة الثالثة :**

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ استعمال العلو في رفعة المنزلة مجاز مشهور ، أى أنتم أعز منهم ، لأنكم مؤمنون ، والحجة لكم ، وإن غلبوكم في بعض الأوقات ، وذلك كقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

( ١ ) الزمر آية : ٦٥

( ٢ ) الحجرات آية : ٢

( ٣ ) الحجرات آية : ١٧

(٤) المنافقون آية : ٨

وقيل وأنتم الأعلون : أى أنتم أعلم بالله منهم .

وقال الحصاص : أى وأنتم أعلم بالله منهم .

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم .

**اللطيفة الرابعة :** قال الفخر الرازى قوله : ﴿ ولن يترك أعمالكم ﴾ وعد لأن الله تعالى لما قال ﴿ والله معكم ﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر منى عمل له اعتبار ، فلا استحق تعظيماً ، فقال هو ينصركم ، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصر جعلت بكم ، ومنكم ، فكأنكم مستقلون فى ذلك ، ويعطيكم أجر المستبد .

**الطيفة الخامسة :** فى الآية الكريمة دعوة إلى العزة والكرامة ، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنضال ، لمجابهة أعدائهم ، دون وهن أو خور ، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان ، وقد أحسن من قال :  
عش عزيزاً أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود .

## الأحكام الشرعية

**الحكم الأول :** قوله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ يدل على أن كل من دخل فى قرية أو نافلة لم يجوز له الخروج منها قبل إتمامها .

واختلف العلماء فى هذا الحكم على مذهبين :

فذهب ( الشافعى وأحمد ) إلى أن للمرء يترك النافلة إذا شرع فيها ، ولا شئ عليه ، ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام . وأما فى الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب .  
وذهب ( أبو حنيفة ومالك ) إلى أنه ليس له ذلك . فإذا أبطله وجب عليه القضاء .

## أدلة المذهب الأول :

قالوا : هو تطوع ، والمتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه فخرج عن وصف التطوع قال تعالى ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ .

وقالوا فى جواب الاستدلال بالآية : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فى الرجل عن إحباط ثوابه . فأما ما كان نفلاً فلا ، لأنه ليس واجباً عليه .

واللفظ فى الآية وإن كان عاماً ، فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن الفعل تطوع والتطوع يقتضى تحييراً .

## أدلة المذهب الثانى :

قوله تعالى ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : كنت أنا وحفصه صائمتين ، فأهدى لنا طعام ، فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصه وبدرتنى ، وكانت بنت أبيها : يا رسول الله ، إني أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا طعام فأفطرنا عليه فقال :

وقال ﷺ « أقضيا مكانه يوماً » <sup>(١)</sup> رواه مالك والترمذى وأبو داود .

وقالوا فى جواب دليل المذهب الأول : المتطوع أمير نفسه . ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل فوجب أن يؤدى ماالتزم ، وأن يوفى بما عقد ، فقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ثم اللفظ عام فى الآية يشمل التطوع وغيره .

الحكم الثانى : قوله تعالى ﴿ فلا تمهنا وتدعوا إلى السلم ﴾ .

فيه دلالة على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين ، فأما إذا كان فى الكفار قوه ، وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين . ورأى الإمام المسلم فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك . كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه إلى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك .

فائدة : دل قوله تعالى : ﴿ فلا تمهنا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون ﴾ على أن النبى ﷺ لم يدخل مكة صلحاً . وإنما فتحها عنوة لأن الله تعالى قد نهاه عن الصلح فى هذه الآية . ١ . هـ .

قوله تعالى ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب وهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ . يقول سبحانه حاصلاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله ، وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة الدنيا إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب وهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبتهم فى العمل للآخرة فقال تعالى :

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ أى : وإن تؤمنوا بربكم وتتقوه حق تقاه ، فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعاً فى الزكاة ، وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

(١) انظر سنن الترمذى ح ٢٠ ص ١١٩ أبواب الصوم . باب ما جاء فى إيجاب القضاء عليه . رقم ٧٣١ .

— انظر سنن أبى داود ح ٢ ص ٨٢٦ كتاب الصوم . باب من رأى عليه القضاء برقم ٢٤٥٧ .

— انظر موطأ مالك . كتاب الصوم قضاء التطوع . ص ٣٠٦ .

(٢) سورة المائدة آية ١

ثم بين سبحانه شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال تعالى :

﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا ﴾ أى : إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتمنعوها أيها ضناً منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان .

ثم أكد سبحانه ما سلف وقرره بقوله تعالى :

﴿ هَٰئِنَّمَا هَٰؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : ها أنتم أيها المؤمنون تدعون الى النفقة في جهاد أعداء الله ونصره دينه ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخِلُّ مِنْ يَخِلُّ فَاِذَا مَا يَخِلُّ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أى : فمنكم من يخيل عن النفقة في هذا السبيل ، ومن يخيل فإثماً ضرر ذلك عائداً الى نفسه ، كما قال سبحانه في الحديث القدسي : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ قال الأمام النووى دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن فى ذاته عن كل شئ ، وأنه تعالى لا يتأثر بشئ من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم بين أنه مستغن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شئ فقد استغنى عن كل موجود . ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾<sup>(٢)</sup> ثم بين سبحانه أنه مستغنى عن المعين والظهير فقال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ ﴾<sup>(٣)</sup> فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعته المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكرر سبحانه وتعالى بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوقيفه وإعانتة ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم عصوه كلهم كمعصية أفجر رجل — إبليس — وخالفوا أمره ونهيه ولم يضره غيرهم ، فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية .

(١) الحديث فى الصحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٩٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ .

(٢) سورة الإسراء الآية ١١١ .



وقوله تعالى ﴿ وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ أى تعرضوا عن طاعة الله وإتباع شرائعه ، ونصرة دينه ، وترتدوا راجعين عنها ، يهلككم الله ثم يجيء بقوم آخرين غيركم وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾<sup>(١)</sup> وصفهم المولى سبحانه وتعالى بصفات خمس : الأتباع — الذلة للمؤمنين — العزة على الكافرين — الجهاد في سبيل الله — عدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى . تلك هى شروط العضوية للإلتحاق بالجماعة المؤمنة إنها لشروط مبنية على الحب المتبادل بين الرحمن وعباده ، يحبهم ويحبونه ، كما أن الرضا متبادل بينه تعالى وبينهم ، قال تعالى في حزب الله : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

كما أن الله تعالى رزقهم التواضع في غير ذل إلا لإخوانهم المؤمنين كما وصفهم بالترفع في غير كبر فهم أعزة على الكافرين ، كما أنه جعل الجهاد خلقهم ، والشجاعة الأدبية ديدنهم وعادتهم منهم لا يخافون في الله لومة لائم ، ولأنهم اعتقدوا أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ، وكأنهم يقولون بألسنة الحال والمقال نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ، إن هذه الجماعة المؤمنة كانت ولايتها كما كان ولاؤها لله ورسوله والمؤمنين ، لقد عرفناهم في المساجد ركعاً وسجوداً ، أدوا ما عليهم من واجبات فكانوا جديرين أن ينالوا ما لهم من حقوق ، ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> لقد عرفوا لمن يكن الولاء ومن يكون البراء ، فتابوا وأخلصوا دينهم لله وأصلحوا كل زمان ومكان فكانوا كالبحر الطهور أنساب في أرجاء الأرض ليفسل أرجاسها وأنجاسها وأدناسها رفعوا راية الإسلام عاليه باذخة الذرى تتأطع الجوزاء وتزاحم الشمس في الجلاء فأخرجوا البشرية من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ومن قلوب الدجى وغياهب الظلمات الى نور القرآن وواسع الرحمت ، ابتعثهم الله تعالى ليخرج بهم من شاء من عبادة الأوثان الى توحيد الملك الديان ، ومن جور الإنسان الى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، فكانوا كما قل مولانا ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات ٥٥ ، ٥٦ .

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم <sup>(١)</sup>  
 وكانوا أهلاً للجزاء الكريم ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ <sup>(٢)</sup>  
 فأين أنتم يا أمة الإسلام ، يا من تفرقت كلمتكم وتمزقت وحدتكم فسهل على العدو أن يلتهمكم إننى وان اكتب هذه السطور يحضرني الآن تلك القصيدة التي اصاغها الشاعر المسلم محمود غنيم وتقول أبياتها :

أنى تذكرت والذكرى مؤرقة	مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
إنى اتجهت الى الإسلام فى بلد	تجده كالطير مقصوفاً جناحه
وربح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها	وبات يملكننا شعب ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن	شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقة عين الله تكلؤها	فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة	يكفيه شعب من الأحداث أحياء
من وخذ العرب حتى كان واثمهم	إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة	من خاضها باع ديناه بأخراه
وكيف ساس رعاه الابل مملكة	ماساسها قيصر من قبل أوشاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة	وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لآعرب ولاعجم	مالامرىء شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم	فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا	أن السلام وأن العدل مغزاه
يا من رأى عمراً تكسوه برده	والزيت آدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كسريه فرقا	من بأسه وملوك الأرض تخشاه
سل المعالى عنا إننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به	فالشرق والعناد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشدته	ونحن كان لنا ماض نسيناه
إننا مشينا وراء الغرب نقبس من	ضياؤه فأصابتنا شظاياها

(١) سورة التوبة آية ٧١

(٢) سورة التوبة آية ٧٢

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب  
أين الرشيد وقد طاف الغمام به  
ملك كملك بنى التاميز ما غربت  
ماض تعيش على أنقاضه أما  
إلى لأعتبر الإسلام جماعة  
أرواحنا تتلاق فيه خافقة  
دستوره الوحي والمختار عاهله  
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً  
راع يعيد الى الإسلام سيرته  
بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهو  
فحين جاوز بغداداً تحداه  
شمس عليه ولا برق تخطاه  
وتستمد القوى من وحي ذكره  
للشرق لا يحض دين سنه الله  
كالنحل إذ يتلاق في خلاياه  
والمسلمون وإن شتوا رعاياه  
فامتلك علينا براع أنت ترضاه  
يرعى بينه وعين الله ترعاه

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، فاهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ،  
وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت إنك سبحانك تقضى بالحق  
ولا يقضى عليك ، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على  
ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب  
إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، أنت الغنى ونحن الفقراء إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، اللهم  
يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تخزنا يوم العرض عليك ، وعاملنا بالإحسان إذ الفضل منك وإليك ،  
نسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .

## تفسير سورة الفتح

### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية إجماعاً ..

آياتها : تسع وعشرون .

وكلماتها : خمسمائة وستون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وثمان وثلاثون .

ونواصل آياتها على الألف .

وسميت سورة الفتح ، لقوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾

## مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : وعد الرسول ﷺ بالفتح والغفران ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإبعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد ، وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذى الطغيان ، وصدق رؤيا سيد المرسلين على حقيقة الرسالة ، وشهادة الملك الديان ، وتمثيل حال النبي ﷺ بالزروع والزراع في البهجة والنضارة وحسن الشأن .

## المتشابهات :

قوله ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليهما حكيماً ﴾<sup>(١)</sup> وبعد : ﴿ عزيزاً حكيماً ﴾ لأن الأول متصل بإنزال السكينة ، وإزدياد إيمان المؤمنين ، فكان الموضع موضع علم وحكمة ، وقد تقدم ما اقتضاه الفتح عند قوله ﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ وأما الثانى والثالث الذى بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم ، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة .

قوله ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرأً ﴾<sup>(٢)</sup> وفى سورة المائدة ﴿ فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ﴾<sup>(٣)</sup> زاد فى هذه السورة ( لكم ) لأن ما فى السورة نزلت فى قوم بأعيانهم وهم المخلفون وما فى المائدة عام لقوله ﴿ أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله ﴿ كذلك قال الله ﴾ بلفظ الجميع ، وليس له نظير وهو خطاب للمضمرين فى قوله ﴿ لن تتبعونا ﴾ .

## فضل السورة :

عن ابن عباس : لما نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ « لقد أنزل على سورة هى أحب إلى من الدنيا وما فيها » .

[ وراه مسلم عن أنس ، كما فى كنز العمال ] .

(١) سورة الفتح آية ٤

(٢) سورة الفتح آية ١١

(٣) سورة المائدة آية ١٧

(٤) سورة المائدة آية ١٧

## مناسبتها لما قبلها :

- ( ١ ) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .  
 ( ٢ ) إن في كل منهما ذكراً للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين .  
 ( ٣ ) إن في السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفي هذه ذكر وقوع المغفرة .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ  
 صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ  
 الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا  
 حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ  
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ  
 وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ  
 وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

## معاني المفردات

( الفتح ) المراد هنا صلح الحديبية وسمى هذا فتحاً ، لأن كان سبباً لفتح مكة قال الزهري : لم يكن  
 فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ،  
 وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاعوا  
 الى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .

( أنزل السكينة ) أى : خلقها وأوجدها . والسكينة : الطمأنينة من السكون ، ( إيماناً مع إيمانهم ) أى :  
 يقيناً مع يقينهم ، ( ويكفر عنهم سيئاتهم ) أى : يغطيها ولا يظهرها ( السوء ) ( بالضم والفتح ) . المساءة :  
 ( وظن السوء ) أى : ظن الأمر السوء . ( عليهم دائرة السوء ) الدائرة في الأصل الحادثة التي تحيط بمن  
 وقعت عليه ، وكثر استعمالها في المكروه ، ( والسوء ) العذاب والهزيمة والشر . ( وهو بالضم والفتح لفنان )

وقال سيويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، ( لعنهم ) أى : طردهم طرداً نزلوا به الى الحضيض ، ( عزيزاً ) أى : ( يتغلب ) ولا يُغلب .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة حين منصرفه ﷺ من الحديبية في ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة — وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فلما نحر هديه ﷺ حيث أحصر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ، فقد روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى « أن رسول الله — ﷺ — كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه . فقال : لقد أنزلت على سورة لى أحب اللى مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ ( إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً )<sup>(١)</sup> .

وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : « لما نزلت ( إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ) — الى قوله ( فوزاً عظيماً ) مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحرخوا الهدى بالحديبية ، قال النبى ﷺ لقد أنزلت على آية هى أحب اللى من الدنيا جميعاً »<sup>(٢)</sup>

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال أنزل على النبى ﷺ ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) مرجعة من الحديبية قال النبى ﷺ « لقد أنزلت على الليلة آية أحب إلى مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبى الله بين الله عز وجل ما يفعل بك

(١) الحديث في صحيح البخارى ح ٦ ص ١٦٨ ، ١٦٩ كتاب التفسير ( سورة الفتح ) وكذلك ح ٥ ص ١٦١ . ١٦١ كتاب المغازى — صلح الحديبية . ط / الشعب .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١٣ كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية رقم ٩٧ / ١٧٨٦ .

فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ ( ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار — حتى بلغ — فوزاً عظيماً ) أخرجاه في الصحيحين من رواية قتادة به .<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها غيره ، غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الإطلاق وسيدهم في الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيته قال حين بركت به الناقة « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ « والذي نفسى بيده لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمت الله إلا أجبتهم إليها »<sup>(٢)</sup> فلما أطاع الله في ذلك وأجاب الى الصلح قال الله تعالى له ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويم نعمته عليك ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ( ويهديك صراطاً مستقيماً ) أى : بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم ( وينصرك الله نصراً عزيزاً ) أى : بسبب خضوعك لأمر الله تعالى يرفعك الله وينصرك على أعدائك . كقوله تعالى ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

قوله تعالى ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ يقول تعالى ﴿ هو الذى أنزل السكينة ﴾ أى : جعل الطمأنينة فى قلوب المؤمنين وهم الصحابة — رضوان الله عليهم — يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾ يقيناً مع يقينهم . قال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . ثم ذكر سبحانه أنه لو شاء لا تنصر من الكافرين فقال تعالى ﴿ والله جنود السموات والأرض ﴾ أى لو أرسل عليكم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدافعة ولهذا قال جلّت عظمته ﴿ وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾ .

قوله تعالى ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾

وفى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس بن مالك : لما قرأ النبى ﷺ على أصحابه ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل ﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات .. الآية ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أى : خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر برحمته سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين قال تعالى ﴿ الذى يصل

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٥ ص ١٦٠ كتاب المغازى — صلح الحديبية — مع حذف فى بعض ألفاظه . ط / الشعب . — انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٩٧ عن قتاده عن أنس . واللفظ له .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بمشاية السندى ج ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً \* تحتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴿١﴾ وقوله تعالى ﴿٢﴾ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴿٣﴾ كقوله تعالى ﴿٤﴾ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴿٥﴾ الآية وقوله تعالى ﴿٦﴾ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ، والله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿٧﴾ .

أى : وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهم والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وربما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين وبتسليط النبى ﷺ عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً ، وفى الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى ﷺ سيُغلب ، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام ، ومما ظنوا ما حكاه الله بقوله ﴿٨﴾ بل ظنتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴿٩﴾ . وقدم ذكر المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار المجاهرين لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخاطب المنافق لظنه إيمانه ، وقوله تعالى ﴿١٠﴾ عليهم دائرة السوء ﴿١١﴾ أى : عليهم تدور الدوائر ، وسيحقيق بهم ما كانوا يتربصون بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم . وقوله تعالى ﴿١٢﴾ وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴿١٣﴾ أى : ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقوله تعالى ﴿١٤﴾ ولله جنود السموات والأرض ﴿١٥﴾ قال ابن عباس : جنود السموات : الملائكة وجنود الأرض : المؤمنون . ﴿١٦﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿١٧﴾ أى : وكان الله غالباً لا يرد بأسه ، حكيماً فيما دبره لخلقه .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبى ﷺ :

(١) مغفرة الذنوب . (٢) إجتاع الملك والنبوة .

(٣) الهداية الى الصراط المستقيم . (٤) العزة والمنعة .

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء :

(١) الطمأنينة والوقار . (٢) ازدياد الإيمان .

(٣) دخول الجنات . (٤) تكفير السيئات .



وجازى الكفار والمنافقين بأربعة أشياء :

- (١) العذاب .  
(٢) الغضب .  
(٣) اللعنة .  
(٤) دخول جهنم .

## بيعة الرضوان

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا أَوْمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لَتَنُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَاِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

## معانى المفردات

﴿ شاهدًا ﴾ أى : على أمتك ، ﴿ ومبشرا ﴾ أى : بالثواب على الطاعة ، ﴿ نذيراً ﴾ أى : بالعذاب على المعصية ﴿ تعزروه ﴾ تنصروه ، ﴿ توقروه ﴾ أى : تعظموه ، ﴿ بكرة ﴾ أول النهار ، ﴿ أصيلاً ﴾ أى : آخر النهار . والمراد جميع النهار . إذ من عادة العرب أن يذكروا طرفى الشيء ويريدوا جميعه . كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا .

﴿ يبايعونك ﴾ أى : يوم الحديية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والجهاد فى سبيل الله . ﴿ إنما يبايعون الله ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامثال أوامره ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم . ﴿ نكث ﴾ أى : نقض ﴿ أوفى ﴾ يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبى ﷺ والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه — بما يعمهما معاً ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً على أمته ، ومبشراً لها بالثواب ومنذراً إياها بالعقاب ، ثم أبان فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه ، غدوة وعشيا ، ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة الحديية ( قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك ) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائداً إليه ولا يضرن إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

## التفسير

قوله تعالى ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿إنا أرسلناك شاهداً﴾ أى : على الخلق ﴿ومبشراً﴾ أى : للمؤمنين ﴿ونذيراً﴾ أى : للكافرين كقوله تعالى ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً <sup>(١)</sup> وكقوله تعالى ﴿الر \* كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير \* ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير \* وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتنعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ <sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ قال ابن عباس — رضى الله عنهما — وغير واحد . تعظموه . ﴿وتوقروه﴾ من التوفير وهو الإحترام والإجلال والإعظام . قال القاضي أبو الفضل عياض فى كتابه «الشفاء» : فى الباب الثالث : ( فى تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره )

قال الله تعالى ﴿إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه﴾ وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾ <sup>(٣)</sup> وقال ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى﴾ <sup>(٤)</sup> الثلاث الآيات وقال تعالى ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ <sup>(٥)</sup> فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره وألزم إكرامه وتعظيمه ، قال ابن عباس : تعزروه ! تُجلوه وقال المبرء : تعزروه ، تبالغوا فى تعظيمه ، وقال الاخفش تنصروه ، وقال الطبرى تعينونه ، وقرئ تعزروه بزاءيين من العز ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس وغيره وهو اختيار ثعلب ، قال سهل بن عبد الله لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهى عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه وأن يفتاتوا بشيء فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمر ولا يسبقوه به ، والى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدى والنووى ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال ﴿واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ قال الماوردى اتقوه يعنى فى التقدم ، وقال

(١) سورة الاحزاب الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة هود الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الحجرات آية ١ .

(٤) سورة النور آية ٦٣ .

السلمين اتقوا الله في أهمال حقه وتضييع حرمة إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ، وقيل كما ينادى بعضهم بعضاً باسمه . قال ابو محمد مكي أى : لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا به بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضهم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشرف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبي الله ، وهذا كقوله في الآية الأخرى ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ .

### ( عادة الصحابة في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله )

قال القاضي عياض نسبة عن عمرو بن العاص قال : وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطق لأني لم أكن أملاً عيني منه . وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويتسمان إليه ويتسم لهما<sup>(١)</sup> ، وروى أسامة بن شريك قال أتيت النبي ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤسهم الطير ، ( وقال عروة بن مسعود حين وجهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بُصاقاً ولا يتنخم نخامه إلا تلقوها بكفهم فدلکوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يجدون إليه النظر تعظيماً له ، فلما رجع إلى قريش قال يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقصر في ملكه والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه )<sup>(٢)</sup> وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً .. وقال البراء ابن عازب لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأوخر سنين من هيئته .

واعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم ، كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه ، وسنته وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعزته ، وتعظيم أهل بيته وصاحبته . قال أبو إبراهيم التيجي وأحب على كل مؤمن متي ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به . وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر عنده حديث النبي ﷺ خشع ، وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمرهم بالسكون وقال ﴿ لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ ويتأول أنه يجب من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله ﷺ :—

(١) الحديث في سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٧٤ أبواب مناقب رسول الله رثم ٣٧٥٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب / ط الحلى .

— وانظر مستند الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

أغر عليه للنبوة خاتم من الله من نور يلوح ويشهد  
 وضم الإله اسم النبي الى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد  
 وشق له من اسمه ليجله فذوا العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى ﴿وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أى : تسبحون الله ﴿بكراً وأصيلاً﴾ أى : أول النهار وآخره  
 كما قال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ وسبحوه بكرة وأصيلاً<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه  
 ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً﴾

أصل البيعة العقد الذى يفقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد والذى التزمه  
 له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وسبب هذه البيعة العظيمة أن النبي ﷺ أعلن في المسلمين  
 أنه يتوجه الى مكة معتمراً — وكان هذا في شهر ذى القعدة ، آخر سنة ست للهجرة — فتبعه جمع كبير  
 من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربعمائة تقريباً . وأحرم ﷺ في الطريق وسافر معه الهدى ليأمن  
 الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائر للبيت ومعظما له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذى الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشير بن سفيان ليأتيه بخير أهل مكة  
 وسار النبي ﷺ حتى وصل الى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذى كان قد أرسله ، فقال له : إن قريشا  
 جمعت لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت وما نعوك ، فقال اشيروا  
 أيها الناس . فقال له أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ،  
 فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه قال : امضوا على اسم الله<sup>(٢)</sup> .

ثم قال : من رحل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال له رجل من بنى أسلم : أنا  
 يا رسول الله فسلك بهم طريقاً وعراً بين الشعاب وسار النبي ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا في ثنية المزار  
 ( وهى طريق في الجبل تشرف على الحديبية ) بركت به راحلته ، فقال الناس : حل ، حل ( اسم صوت  
 كانوا يزجرون به الجمال ) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ما خلأت ، وما ذاك  
 لها بخلق — ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمت  
 الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على صغيرة قليلة الماء ، فلم  
 يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه  
 فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صاروا عنه<sup>(٣)</sup> ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب — رضى

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(٢) أنظر صحيح البخارى بما فيه السندى ح ٣ ص ٤٥ . باب عزة الحديبية .

(٣) أنظر صحيح البخارى بما فيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ . باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

الله عنه — لبيعته إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله أتى أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بنى عدى بنى كعب من يمنعى وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان تبعته إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما لحرمة ، فخرج عثمان — رضى الله عنه — إلى مكة فلقبه أبان بن سعيد بن العاصى حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان — رضى الله عنه — حتى أتى أبى سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان — رضى الله عنه — حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين إن عثمان — رضى الله عنه — قد قتل فقال ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم »<sup>(١)</sup> ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت<sup>(٢)</sup> فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى الموادة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح ومشى بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ في العام القابل ويدخل مكة .. فقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبِيعُونَكَ إِنَّمَا يَبِيعُونَ اللَّهَ ﴾ أى : إن الذين يبيعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ، إنما يبيعون الله ببيعهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك قال تعالى ﴿ مَنْ يَبِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال ﷺ في الحديث الصحيح « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن أبى يا رسول الله ، قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضر إلا نفسه .

وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ ﴾ أى : ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، سيدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

(١) أنظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٨٠ باب بيعة الرضوان

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١١٤ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الإقتدار بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١

## مواقف لبعض الأعراب

قال تعالى :

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنَةِ مِمَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزِينَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُوا هَذَا زِينَتُنَا نَعْبُدُكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

## معانى المفردات

( المخلفون ) واحد مخلف ، وهو المتروك في المكان خلف الخارجين منه ، ( ضراً ) المراد : ما يضر من هلال الأهل والمال وضياعهما ، ( نفعا ) المراد به : ما ينفع من حفظ المال والأهل . ( ينقلب ) أن : يرجع . ( إلى أهلهم ) أى : عشائرتهم وذوى قرباهم ( بوراً ) أى : هالكين ( سعيراً ) أى ناراً مسعورة موقدة ملتهبة . ( إلى مغائم ) المراد بالمغائم هنا مغائم خير ، فإنه ﷺ رجع من الحديبية في ذى الحجة ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة . ( يريدون أن يبدلوا كلام الله ) المراد بتبديل كلام الله الشراكة في المغائم دون أن ينصروا دين الله ويعلموا كلمته ، ( يفقهون ) أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فمنهم لأموال الدنيا دون أمور الدين . ( البأس ) النجدة وشدة المراس في القتال ، ( الحرج ) الإثم والذنب .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم وأعد لهم شعيراً — أردف ذلك قبائل من العرب تخلفوا عن رسول الله ﷺ لما استنزفهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمراً ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حرباً ، وأعتلوا بأن أموالهم وأهلهم قد شغلتهم ففضحهم الله في هذه الآيات وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة تطلع على الأفئدة . ثم أخبر سبحانه أنهم سيقولون دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغنم ولو كانت التلة السالفة حقاً ما طلبوا السير معه بحال فبين سبحانه كذبهم في هذه المعذرة وأنهم لا يخرجون إلا للدنيا فقط . ثم أردف ذلك بيان أن باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم ، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء في ميدان القتال فاستعدوا فستنديون إلى مواجهة قوم أولى بأس شديد ، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوه حتى تبيدوا خضراءهم ، فإن اجبتم داعي الله أنابكم ما فعلتم جزيل الأجر ، وأن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون العذاب الأليم . ثم ذكر سبحانه الأعداء المبيحة للتخلف عن الجهاد . ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يطراً ويزول كالمرض رغم أعقب ذلك بالترغيب في الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة في الدنيا ونار موقدة في الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا وترك ما يقربه من ربه .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ مما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهلهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لاعلى سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ﴾ وهذا هو النفاق المحض ﴿ قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً ﴾ وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع ، ويبين سبحانه أنه العليم بسرائرهم وضمائرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ أى لم يكن تخلفكم تخلف معذوراً ولا عاص بل تخلف نفاق فاعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبتته ، وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين

على أعدائهم ، ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ وقد صرتم بما قلتم قوماً هلكى لا تصلحون لشيء من الخير ، مستوجين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال : ﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا اعتدنا للكافرين سعيراً ﴾ أى : ومن لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر .

ثم بين تعالى أنه الحاكم المتصرف فى أهل السموات والأرض فقال تعالى ﴿ والله ملك السموات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى : وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين منهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله — وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

قوله تعالى : ﴿ سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ . هذا أخبار من الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه — رضى الله عنهم — إلى خيبر يفتحونها — أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغانم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم فى ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشارك فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ قال مجاهد وقتادة وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية . وقال ابن جريج ( يريدون أن يبدلوا كلام الله ) يعنى بتشبيطهم المسلمين عن الجهاد . ( قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ) أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ( فسيقولون بل تحسدوننا ) أى : أن نشرركم فى الغنائم ( بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ) أى ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قوله تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن طيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

أى : قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية ( الذى تقدم ذكرهم إنكم يتفدون إلى قتال قوم أولى بأس شديد ) قال ابن عباس : ومجاهد : هم فارس وقال كعب والحسن : الروم وقال ابن جبير : هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنين أهل اليمامة أصحاب مسلمة والمراد قل لهؤلاء المحلفين الذين تقدم ذكرهم - إنكم ستفدون إلى قتال قوم من أول البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : أما السيف وإما الاسلام ، وهذا حكم عام فى مشركي العرب المرتدين يجب اتباعه .



ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ أى : فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن ، والثواب الجزيل ، فتنالوا المغنم في الدنيا ، وتدخلوا الجنة في الآخرة . ثم أوعد سبحانه من نكص على عقبة بقوله ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : أن تعصوا ربكم وتحالفوا أمره ، فتركوا قتال أولئك القوم إذا دعيتهم إلى قتالهم كما عصيتموه في أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالذلة في الدنيا ، والنار في الآخرة .

ثم ذكر سبحانه الأعذار في ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذى يطرأ أياماً ثم يزول فهو في حال مرضه يلحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ فقال تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ .

قال ابن عباس : لما نزلت ( وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً ) قال أهل الزمالة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت ( ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ) أى : لا إثم عليهم في التخلف عن الجهاد .

ثم قال تعالى : مرغبا في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتُ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وقوله ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أى : ومن ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ( يعذبه عذاباً أليماً ) في الدنيا بالذلة وفي الآخرة بالنار كما قال تعالى ﴿ إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

وأخرج الامام أحمد في سننه عن ابن عمر — رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً حتى ترجعوا إلى دينكم » (٢) .

(١) سورة التوبة آية ٣٩

(٢) الحديث في سنن أبى داود ج ٣ ص ٧٤٠ ، ٧٤١ كتاب البيوع باب فى النهى عن العينة رقم ٣٤٦٤ . واللفظ له .

— انظر مسند أحمد ج ٢ ص ٤٢ ، ٨٤ عن ابن عمر مع اختلاف فى اللفظ وتقديم وتأخير .

## بيعة الرضوان وصلح الحديبية

قال تعالى

\* لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْنَاكُمْ أَلَدَيْنَ كَفَرُوا وَالْوَلَاءُ الْأَدْبَرُ ثُمَّ لَا يُجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سَنَةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَرْفِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّعُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَو تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

## معاني المفردات

( السكينة ) : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، ( فتحاً قريباً ) : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية ، ( مغانم كثيرة ) : هي مغانم خيبر ( عزيزاً ) أى : غالباً ( حكيماً ) أى : يفعل على مقتضى الحكمة في تدبير خلقه . ( فعجل لكم هذه ) أى : مغانم خيبر ( أيدى الناس ) أى : أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها الى الحديبية ( آية ) أى : أمانة للمؤمنين يعرفون بها<sup>(١)</sup> صدق الرسول ﷺ<sup>(٢)</sup> حياة الله لرسوله وللمؤمنين<sup>(٣)</sup> معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كَلَّاهُ تَعَالَى ستعمهم أيضاً ماداموا على الصراط المستقيم . ( وأخرى ) المراد مغانم فارس والروم ، ( أحاط الله بها ) أى : أعدها لكم وهى تحت قبضته يظهر عليها من أراد ( لولوا الأدبار ) أى : لا نهزموا ، ( سنة الله ) أى : سن سبحانه

غلبة أنبيائه كقوله ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ، ﴿أَيَّدِيهِمْ عَنْكُمْ﴾ أى : أيدى كفار مكة ، ﴿وَأَيَّدِيكُمْ عَنْهُمْ بِيْطْنِ مَكَّةَ﴾ يعنى بالحديبية ﴿أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أى : أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ( الهدى ) قرباناً لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ﴿مَعْكُوفًا﴾ أى : محبوساً ، ( محله ) أى : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى . ( الوطاء ) المراد به الإهلاك ، ( والمعرة ) المكروه والمشقة ﴿التَّزِيلُ﴾ التفرق والتميز ، ﴿الحِمْيَةَ﴾ الأنفة ﴿حِمْيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حمية فى غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ( كلمة التقوى ) هى لا إله إلا الله ﴿وَأَمْلَهَا﴾ أى : المستأهلين .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال المخلفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ فأبان رضاه عنهم لأجل تلك البيعة لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم أخرج البخارى عن سلمة قال : « بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت »<sup>(١)</sup> وعن جابر أن النبى ﷺ قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »<sup>(٢)</sup> أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

ثم وعدهم سبحانه بمغانم كثيرة من خير بعد عودتهم من الحديبية وسيؤتيهم سبحانه مغانم أخرى من فارس والروم وغيرهما ما كانوا يقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر سبحانه أنه لو قاتلهم أهل مكة ولم يصالحوهم لانهمزوا ولم يجدوا ولياً ولا نصيراً يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة الكافرين وخذلان الكافرين . ثم أمتن على عباده المؤمنين بأنه كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة . ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والأثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب لأهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها ، ولينعن الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذب الذين كفروا منهم عذاباً أليماً بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٣ ص ٤٤ باب غزوة الحديبية . ط / الحلبى .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة رقم ١٦٣ / ٢٤٩٦ .

— انظر مسند احمد ح ٣ ص ٣٥٠ مسند جابر .

— انظر سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٥٠ ابواب المناقب باب فضل من بايع تحت الشجرة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

للمحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وضجة نبيه ﷺ .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكانوا ألفاً وأربعمائة . قال ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس : قال فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ قال فبايع رسول الله ﷺ لعثمان — رضى الله عنه — بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف بالبيت حتى أطوف »<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ أى : من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة عليهم ﴾ وهى الطمأنينة . ﴿ وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيماً فى تدبير أمر خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

قوله تعالى : ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ .

قال ابن كثير : قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ هى جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعنى فتح خيبر ، وروى العوفى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — ( فعجل لكم هذه ) يعنى صلح الحديبية ( وكف أيدي الناس عنكم ) أى : ينلكنم سوء مما كان أعداؤكم أضمره لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم ، من عيالكم وحريمكم ( ولتكون آية للمؤمنين ) أى يتعبرون بذلك فإن الله تعالى حافظهم ، وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم ، أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخير فيما يختاره لعباده المؤمنين ،

وإن كرهوه في الظاهر ، كما قال تعالى ﴿ وَعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أى بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله — ﷺ — .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحاً آخر ومعينا لم تكونوا قادرون عليها قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون وقد اختلف المفسرون في هذه الغنيمة فما المراد بها فقال العوفي عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى خير ، وقال قتادة هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى هى فارس والروم ، وقال مجاهد هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً وهذه سنة الله وعادته فى خلقه كقوله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً ﴾ .

هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيره للمؤمنين وعافية فى الدنيا والآخرة .

وروى الترمذى عن ثابت بن أنس « أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ﴾ قال الترمذى هذه حرف حسن صحيح<sup>(٤)</sup> .

وقول تعالى ﴿ هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ .

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٢) سورة غافر آية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة آية ٢١ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٥٢ أبواب التفسير سورة الفتح رقم ٣٣١٧ وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالاهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ **﴿ هم الذين كفروا ﴾** أى هم الكفار دون غيرهم **﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾** أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر . **﴿ والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ﴾** وهذا من بغيم وعنادهم ، وكان الهدى سبعين بدنه . روى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فحرق رسول الله ﷺ بدنه وحلق رأسه قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خراش بن أمية الخزاعى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلوا ، ففعلوا بعد توقف كان معهم أغضب رسول الله ﷺ فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحرو ، فحرق رسول الله ﷺ هديه ونحروا بنحره وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة<sup>(١)</sup> وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحروا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، وحضر جابر الحديبية قال : ونحرونا يومئذ سبعين بدنة<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى **﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصييكم منهم معرفة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾** أى : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفه على أنفسهم من قومهم لكننا سلطناكم عليهم فقتلتموهم ، وأيدتم خضراءهم ، ولكن بين أفئاثهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لاتعرفونهم . حالة القتل ، ولهذا قال تعالى **﴿ لم تعلموهم أن تطئوهم فتصييكم منهم معرفة ﴾** أى : إثم وغرامة ( بغير علم ) قال القرطبى فى قوله تعالى **﴿ بغير علم ﴾** تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدى ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد .

وقوله تعالى **﴿ ليدخل الله فى رحمته من يشاء ﴾** اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ، أى : لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ويجوز أن تتعلق بالإيمان وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ، أى : جنته .

وقوله تعالى **﴿ لو تزيلوا لعذبنا الذى يكفروا منهم عذاباً أليماً ﴾** أى : لو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطانكم عليهم فقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

(١) انظر صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٢ كتاب الشروط فى الجهاد والصحيح والصلح مع أهل الحرب

— وانظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج رقم ١٣٠١ / ١٣٠١ .

— وانظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك رقم ٣٠٤٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الحج باب الاستدراك فى الهدى ح ٢ ص ٩٥٥ حديث ١٣١٨ / ٣٥٠ من رواية عن جابر والحديث بلفظه .

— وانظر سنن الترمذى « كتاب الحج » باب الاستدراك فى البدنه والبقرة ح ٢ ص ١٩٤ حديث رقم ٩٠٦ عن رواية لجابر والحديث بلفظه .

وقوله تعالى ﴿ إِذَا جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَةً عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

قال الزهري حميتهم : أنفثهم من الإقرار للنبي ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة ، فحدث الزهري أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا أئت محمداً فصالحه ، ولا تلن في صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث الغرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٢ فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ... ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ « اكتب باسمك اللهم » هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ وهي قول لا إله إلا الله .

قال ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة — رضى الله عنه — أخبره أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل »<sup>(٢)</sup> ، وأنزل الله عز وجل في كتابه وذكر قوماً فقال ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وقال جل ثناؤه ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكانتهم رسول الله ﷺ على قضية المدة ...

( قال ابن كثير هذه الزيادات الظاهر أنها مدرجة من كلام الزهري والله أعلم ) .  
وقوله تعالى ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ أى : كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ أى : هو سبحانه عليم بمن يستحق الخير فمن يستحق الشر .

(١) أنظر صحيح البخارى يماثيه السندى ج ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط والصلح مع أهل الحرب : ط الحلبي .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأبقال الناس حتى يقول لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ : ٣٣ / ٢١ .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبي ﷺ فقلت ألسنت بنبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم تعطى الدنية في ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى ، قلت فلم تعطى الدنية في ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى : أفأخبرك أنه آتية العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتيه وتطوف به »<sup>(١)</sup> ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان ثم أردف هذا بيان حال الرسول وأصحابه الغر الميامين ، فوصفهم كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم ، وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .  
يقول ابن كثير : كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تفسر هذا العام فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع في نفس بعض الصحابة — رضى الله عنهم — من ذلك شيء . حتى سأل عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — في ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال لا ، قال النبي ﷺ « فإنك آتية ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق — رضى الله عنه — أيضا خذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء في شيء .

وقوله عز وجل ﴿ آمنين ﴾ أى : في حال دخولكم . وقوله ﴿ محلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ حال مقدرة لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ « والمقصرين » في الثالثة أو الرابعة<sup>(١)</sup> .

(١) أنظر صحيح البخارى بإشابة السندى ح ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبي .

(١) الحديث في صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج . باب تفصيل الحلق على التقصير رقم ١٣٠١ / ٣١٨ .

— أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك . باب الحلق رقم ٣٠٤٤ .



## الرسول وصحبه

قال تعالى

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

## معاني المفردات

( محلقين رؤوسكم ومقصرين ) أى : يحلق بعضكم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ( ليظهره على الدين كله ) أى : ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها ( أشداء ) واحدهم شديد ( رحماء ) رحيم ( فضلاً ) ثواباً ( سيماهم ) السيماء من السومة ( بالضم ) وهى العلامة . ( مثلهم ) وصفهم ( الشطء ) فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أى : جانبيه وجمعه أشطاء وشطأ الزرع : إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، ( آزره ) أعانه وقواه وأصله من المؤازره وهى المعاونه ، ( استوى على سوقه ) أى : استقام على قصبه وأصوله والسوق واحدها ساق .

## المناسبة وإجمال المعنى

قال قتاده :

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمين ، فاخبر بذلك فقرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا لم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : إين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

وقوله تعالى ﴿ لَا تَخَافُونَ ﴾ حال مؤكدة في المعنى فأثبت لهم الأمان من حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد لا يخافون من أحد وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع ، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي القعدة رجع إلى المدينة فأقام بها ذا الحجة والحرم وخرج في صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهي إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وخدمهم ، ولم يشهدوا أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبي طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعري وأصحابه — رضى الله عنهم — ولم يغيب منهم أحد قال ابن زيد إلا أبا دجاجة سمالك بن خرشة ، كما هو مقرر في موضعه ، ثم رجع إلى المدينة . فلما كان في ذي القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمراً هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة وساق معه الهدى ، قيل كان ستين بدنة ، فلبى وسار أصحابه يلبنون . فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيول والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديداً وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين فذهبوا فأخبروا أهل مكة فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم بعث السلاح من القسي والتبل والرماح إلى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مععدة في قربها كما شارطهم عليه فلما كان في أثناء الطريق بعث قريش مكرز بن صفحى فقال يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ؟ فقال ﷺ « وماذا ؟ » قال دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح ، فقال ﷺ « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ » فقال بهذا عرفناك بالبر والوفاء وخرجت رعوس الكفار من مكة لئلا ينظرون إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه — رضى الله عنهم — غيظاً وحنقاً وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه قد دخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبنون والهدى قد بعثه إلى ذي طوى وهو راكب ناقته القصواء التي كان راكبها يوم الحديبية وعبد الله بن رواحه أخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه      باسم الذى محمد رسولته  
خلوا بنى الكفار عن سبيله      اليوم تضربكم على تأويلته  
كما ضربتكم على تنزيله      ضرباً يزيل الهام عن مقبلته  
ويذهل الخليل عن خليله      قد أنزل الرحمن في تنزيله  
في صحف تتلى على رسوله      بأن خير القتل في سبيله  
يارب إني مؤمن بقبله

وقال ابن إسحاق : وتحدث قريش بنيتا أن محمداً وأصحابه في غسرة وجهه وشدة : قال : فصنف له المشركون عند دار الندوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمين ثم قال : « رحم الله أمرا أراهم اليوم »

من نفسه قوة»<sup>(١)</sup> ثم استلم الركن وخرج يهول ويهول أصحابه معه ، حتى هروا كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرهما قال . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم ( أى ليست سنة عامة ) وذلك أن الرسول إنما صنعها لهذا الحى من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها .

وقوله تعالى ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ أى : فعلم الله عز وجل من الخير والمصلحة في صرفكم عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أى : قبل دخولكم الذى وعدتم به في رؤيا النبي ﷺ فتحاً قريباً وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تبارك اسمه مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض . ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ﴾ أى : هو سبحانه الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليعليه على كل الأديان ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لا محالة .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾<sup>(٢)</sup>

## المستقبل للإسلام

كتب الشيخ نصير الدين الألبانى تحت هذا العنوان ما نصه :  
قال الله عز وجل ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها ، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين ، وليس كذلك ، فالذى تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق ، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنت لا أظن حين أنزل الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ أن ذلك تماماً ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٨٢٧ عمرة القضاء .

(٢) سورة الصف آية ٩ .

قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله .. »<sup>(١)</sup> الحديث رواه مسلم وغيره .

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالاً للشك في أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه ، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سبباً لشحذ هم العاملين للإسلام ، وحجة على اليائسين المتواكلين .

**الحديث الأول :** قال ﷺ « إن الله ذوى ( أى جمع وضم ) لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ... »<sup>(٢)</sup> الحديث رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى .  
**والحديث الثانى :** قوله ﷺ « ليلغنى هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به دين الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر »<sup>(٣)</sup> رواه الجماعة .

**الثالث :** « عن أنى قبيل قال كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص وسئل أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ ( مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى قسطنطينية )<sup>(٤)</sup> رواه أحمد والدرامى وصحح الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قال : ( ورومية ) هى روما كما فى ( معجم البلدان ) وهى عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على محمد الفاتح العثمانى ، كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من أخبار النبى ﷺ بالفتح ، وستحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولا بد ، ( ولتعلمن نبأه بعد حين ) . ولا شك أيضاً أن تحقيق الفتح الثانى يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة وهذا مما يشترنا بقوله ﷺ فى الحديث الرابع :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها ما شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ملكاً جبرياً فتكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »<sup>(٥)</sup> ذكره حذيفة مرفوعاً ، رواه الحافظ العراقى من طريق أحمد وقال هذا حديث صحيح .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٣ كتاب الفتن . باب لا تقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخصلة برقم ٥٢ / ٢٩٠٧ .  
 (٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن وأشراف الساعة . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . رقم ١٩ / ٢٨٨٩ — انظر سنن أبى داود ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الفتن والملاحم . باب ذكر الفتن ودلائلها . رقم ٤٢٥٢ .  
 — انظر سنن الترمذى ح ٣ ص ٣١٩ كتاب الفتن باب سؤال النبى ﷺ ثلاث فى أمته . رقم ٢٢٦٧ . وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٠٣ ابن عامر عن تميم الوارى .

(٤) الحديث فى مسند أحمد ح ٢ ص ١٧٦ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص .

— انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . ح ٤ ص ٥٥٥ كتاب الفتن والملاحم .

(٥) الحديث فى مسند أحمد ح ٤ ص ٢٧٣ مسند حذيفة .

هذا وإن من المبشرات بعودة القوة إلى المسلمين واستثمارهم الأرض استثماراً يساعد على تحقيق الغرض وتنبئ عن أن لهم مستقبلاً باهراً حتى من الناحيتين الاقتصادية والزراعية قوله ﷺ :  
« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

وقد بدأت تبشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء ، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة ، كنا قرأناها في بعض الجرائد العلمية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود ، وإن غداً لناظره قريب . هذا ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ « لا يأتيك زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم »<sup>(٢)</sup> رواه البخاري في باب الفتن .

فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث الهدى ونزول عيسى بن مريم ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومهم فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ( إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) أ . هـ .

قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ محمد رسول الله ﴾ « محمد » مبتدأ « ورسول » خبره وقيل « محمد » ابتداء « ورسول الله » نعتة ﴿ والذين معه ﴾ أصحابه الكرام الغر الميامين ﴿ أشداء على الكفار ﴾ أى : غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿ رحماء بينهم ﴾ أى : يرحم بعضهم بعضاً فهم متعاطفون متوادون .

وقوله تعالى ﴿ تراهم ركعاً سجداً ﴾ أخبار عن كثرة صلاتهم وإرضائهم لربهم ﴿ يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ وهذا إخبار عن إخلاصهم منهم يطلبون بأعمالهم الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ السيمة : العلامة ، أى لاحت علامات التهجيد بالليل وأمارات السهر . وقد روى « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »<sup>(٣)</sup> قال الحسن : هو بياض يكون في الوجه يوم القيامة وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة وفيه « ... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته ممن أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة « باب الترغيب في الصدقة » ح ١ ص ٧٠١ حديث رقم ٦٠ / ١٥٧ فقد ورد الحديث في حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب القيم باب لا يأتيك زمان إلا والذي بعده شر منه » ح ٩ ص ٦١ ؛ ٦٢ فقط ورد الحديث في حديث طويل لأنس .

النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ، فيعرفونهم من النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود » (٢) .  
وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء في الدنيا وهو السميت الحين وعن مجاهد أيضاً : هو الخشوع والتواضع .  
قال منصور : سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ أهو أثر يكون بين عيني الرجل ؟  
قال : لا ربما يكون بين عيني الرجل مثل رُكبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور في وجوههم من الخشوع .

وقوله تعالى ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما في التوراة والآخر في الإنجيل ؟ فيوقف على هذا ، على « التوراة » ويكون تمام الكلام ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ ثم ابتداء فقال ﴿ ومثلهم في الإنجيل ﴾ وقال مجاهد : هو مثل واحد ، يعني ، أن هذه صفتهم في التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ويتبدى ﴿ كزرع أخرج شطأه ﴾ على معنى وهم كزرع .

وقوله تعالى ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي ﷺ يعني أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثر ، فكان النبي ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفاً فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوى أمره ، كالزراع يبدو بعد البذر ضعيفاً فيقوى حالاً بعد الحال حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فكان هذا من أصلح مثل وأقوى بيان . وقال قتاده : مثل أصحاب محمد ﷺ في الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرؤن بالمعروف وينهون عن المنكر .

( فآزره ) أى : قواه وأعانه وشده ، أى : قوى الشطء الزرع وقيل بالعكس ، أى : قوى الزرع الشطء .  
وقوله ﴿ فاستغلظ فاستوى على سوقه ﴾ أى : على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقاً له .  
وقوله تعالى ﴿ يعجب الزراع ﴾ أى : يعجب هذا الزرع زراعته وهو مثل كما بينا ، فالزراع محمد ﷺ والشطء أصحابه ، كانوا قليلاً فكثر ، وضعفاء فقوا ، قاله الضحاك وغيره .  
وقوله تعالى : ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ، أى : فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

وقوله تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ أى : وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ، وهم المؤمنون الذين أهلهم صالحة ﴿ مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ أى : ثواباً لا ينقطع وهو الجنة .

وليس « من » في قوله « منهم » مبيضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة محنسة ، مثل قوله تعالى ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾<sup>(١)</sup> لا يقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى ، والربا ، وشرب الخمر والكذب . فأدخل « من » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » أى : هذا الجنس ، يعنى جنس الصحابة .

## مكانة الصحابة في الإسلام

روى أبو عروة الزبيرى عن ابن الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرا مالك بن أنس هذه الآية ﴿ محمد رسول الله والذين معه ﴾ حتى بلغ ﴿ يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ .

فقال مالك : من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .

قال القرطبي : لقد أحسن مالك في مقالته وأصاب في تأويله . فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه في روايته فقد رد على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ الآية .

وقال ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ﴾ إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾<sup>(٢)</sup> وقال ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾<sup>(٣)</sup> ثم قال تعالى ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ إلى قوله ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾<sup>(٤)</sup> وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله ﷺ « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم »<sup>(٥)</sup> وقال « لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » أخرجه البخارى<sup>(٦)</sup> .

(١) سورة الحج آية ٢٠

(٢) الاحزاب آية : ٢٣

(٣) سورة الحشر آية ٨

(٤) سورة الحشر آية ٩

(٥) الحديث في صحيح البخارى بماتبيه السندى ح ٢ ص ١٠٢ كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور . ط / الجلبى .

(٦) الحديث في صحيح البخارى ح ٥ ص ١٠ كتاب الفضائل باب أبى بكر ط / الشعب

قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ، فالنصف هو النصف هنا .  
وفي البزار عن جابر مرفوعاً صحيحاً : « إن الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبي والمرسلين واختار  
لى من أصحابي أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً — فجعلهم أصحابي »<sup>(١)</sup> .  
وقال « فى أصحابي كلهم خير » .

وروى عويم بن ساعدة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل اختارنى واختار لى أصحابي  
فجعل لى منهم وزراء وأختاناً وأصهاراً فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله  
منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً »<sup>(٢)</sup> ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، فحذار من الوقوع فى أحد منهم . ولقد  
لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه ، فالمكذب لأصغرهم — ولا صغير منهم — داخل فى لعنة الله  
التي شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه .

قال القرطبي : فالصحابه كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفيائه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسوله .  
هذا مذهب أهل السنة والذي عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاه بهم إلى أن  
حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم ، ومنهم من فرق بين حالهم فى بداءة الأمر فقال :  
إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ، ثم تغيرت بهم الأحوال ، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ، فلا بد  
من البحث . وهذا مردود ، فإن خيار الصحابة وفضلاؤهم كعلي وطلحة والزبير وغيرهم — رضى الله  
عنهم — ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى الله عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى ﴿ مغفرة وأجرًا  
عظيمًا ﴾ ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة باقرار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمر  
الجارية عليهم بعد نبينهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور  
مبنية على الإجتهد ، وكل مجتهد مصيب .

## فائدة

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب الفوائد « قول النبي ﷺ لعمر وما يدريك أن الله أطلع  
على أهل بدر فقال آعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »<sup>(٣)</sup> أشكل على كثير من الناس معناه فإن ظاهرة إباحة  
كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة ، منهم ابن الجوزى : ليس المراد  
من قوله ( اعملوا ) الإستقبال وإنما هو للماضى وتقديره ، أى : عمل كان لكم فقد غفرته . قال ويدل  
على ذلك شيثان : ( أحدهما ) أنه كان يكون إطلاقاً فى الذنوب ولا وجه لذلك .

(١) الحديث فى كشف الأستاذ عن زوائد البزار . ح ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ رقم ٢٧٦٣ . باب مناقب أصحاب رسول الله .

(٢) الحديث فى كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم . كتاب معرفة الصحابة باب لعنة الله على من سب أصحاب النبي . ح ٣ ص ٦٣٢ .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٨٥ باب غزوة الفتح . ط / الشعب .



وحقيقة هذا الجواب إني قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، ولكنه ضعيف من وجهين ( أحدهما ) أن لفظ « آعملوا » بأباه ، فإنه للإستقبال دون الماضي .

وقوله ﴿ قد غفرت لكم ﴾ لا يوجب أن يكون أعملوا مثله ، فإن قوله « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة في المستقبل . كقوله ﴿ أقي أمر الله ﴾ ﴿ وجاء ربك ﴾ ونظائره . ( الثاني ) أن نفس الحديث يرده ، فإن سببه قصة حاطب وتجنسه على النبي ﷺ وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها ، وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعاً ، فالذى نظن في ذلك — والله أعلم — أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام . وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكنه لا يتركهم سبحانه وتعالى مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح ، واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة ، فلو كانت قد حصلت بدون الإستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ، وصيام ، وحج ، ولا زكاة ، ولا جهاد ، وهذا محال ، ومن أوجب الواجبات التوبة بعد ذلك . فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ونظير هذا قوله في الحديث الآخر « أذنب عبد ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فأغفره لى فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب آخر ، فقال أى رب أصبت ذنباً فأغفره لى فغفر له . ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال رب أصبت ذنباً فأغفره لى فقال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء »<sup>(١)</sup> فليس في هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له في المحرمات والجرائم وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصبر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب . حكم يعم كل من كانت حاله حاله ، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له ، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصى له ، ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وطوقاً بعد البشارة منهم قبلها ، كالعشرة المشهود لهم بالجنة . وقد كان الصديق شديد الحذر والخافة . وكذلك عمر فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء ، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق : الإذن فيما شاءوا من الأعمال .

(١) صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قوله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله » ح ٩ ص ١٧٨ فقد ورد الحديث عن أنى هريرة مع اختلاف في بعض الفاظ وعباراته واتحاد في المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » « باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب » ح ٤ ص ٢١١٢ حديث رقم ٢٩ ، ٣٠ / ٢٧٥٨ فقد ورد الحديث عن رواية لأنى هريرة مع اختلاف في الألفاظ والعبارات واتحاد في المعنى .

## كانوا رجالاً

حسبك أن تعلم أن هؤلاء الصفوة كانوا رجالاً ، والرجال قليل ، فالرجولة عملة نادرة في عصر يقول فيه القائل يخاطب شباب النيل :

شباب النيل يا زين الشاب	ويا أبناء آساد غضاب
أرى منكم فريقاً حين يمشي	يحك بأفنه طرف السحاب
يحاكى الليث في حلف وتيه	وليس لدى الخطوب بليث غاب
وأرسل شعره المضغوط يحكي	وميض البرق أو لمع السراب
ولا يخشى على شيء ويخشى	إذا ثار التراب على الثياب
برئت من الفتى يبدو فترو	عليه نعومته البيض الكعباب
إذا الذئب استحال بمصر ظيباً	فمن يحمي البلاد من الذئاب

فاعجب معي بعصر اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصارت التفرقة بين الجنسين عسيرة ، إذ صار هناك جنس ثالث لا إلا هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن هنا نعلم أن الرجولة كلمة رفيعة المستوى ، طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، لقد وصف الله تعالى أصحاب رسوله ، صلوات ربي وسلامه عليه ، بأنهم رجال ، وقد كانوا كذلك ، كانوا رجالاً في المساجد ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾<sup>(١)</sup>

وكانوا رجالاً ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾<sup>(٢)</sup> وكانوا رجالاً في ميادين القتال وساحات الوغى ، وعندما تصمت الألسنة ، وتنطلق الألسنة ، وتخطب السيوف على منابر الرقاب ، وتقدم النفوس على الحيط الصعاب ، فلا ترى إلا نفوساً تنثر ودماء تهدر ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾<sup>(٣)</sup>

كانوا شباباً مكتهلين في ثيابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم في جوف الليل فإذا أصلاهم محنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ،

(١) سورة التوبة آية ١٠٨

(٢) سورة النور الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٢٢ ، ٢٣

فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهِقَ شهيقاً كأن زفير جهنم بين أذنيه ، جعلوا من البحر الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان في أرض الإسلام ، كيف تراهم ؟ إلا خاشعين قانتين إنيهم الذين قال الله فيهم ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ (١)

قد يكون من السهل تشييد المصانع وإقامة ناطحات السحاب وبناء البوارج التي تمخر غباب الماء وتغوص في لجج البحار ، وقد يكون من السهل بناء الأساطيل التي تتركب متن الهواء ، وقد يكون من السهل بناء الجوارى في البحر كالأعلام والمصفحات التي تقطع كبد الصحراء ، ولكن ليس من السهل بناء النفوس فهو رسالة تقطع دونها الأنفاس ، عندما تولى الرئيس الأمريكي ( ريتشارد نيكسون ) حاكم الولايات المتحدة الأمريكية قال في خطاب له ، إن الولايات المتحدة لا تعاني أزمة مادية إنما تعاني أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء في السلع ولكننا فقراء في الروح ، تصل في قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط في خلاف حاد على الأرض .

نعم :

يا خادماً الجسم كم تشقى لخدمته	اتطلب الريح بما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها	فأنت بالنفس لا الجسم إنسان
وامدد يدك بحبل الله معتصماً	فإن الركن إن خانتك أركان
دع الفؤاد من الدنيا وزخرفها	فصفوها كدر والوصل هجران

يرحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، وقد دار بينه وبين الصحابة هذا الحوار . قال عمر : ما الذي يتمناه كل واحد منكم ويسأل الله أن يحققه له ؟ قال أخذهم : أتمنى مثل أخذ ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر وأنا أتمنى ملء الأرض خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعنتهم لوجه الله ، ثم قالوا لأمير المؤمنين فما تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال فاروق هذه الأمة ؟ وقد ضرب الله الحق على قلبه ولسانه قال كلمته الفاضلة : أتمنى ملء هذا المسجد ، يعني به المسجد النبوي رجالاً أمثال أبي بكر الصديق .

لقد كان قائدهم محمداً ، فنعمة القائد ، إذ القيادة قدوة ، فأسد يقود ألف نعامة يغلب ألف أسد تقودهم نعامة ، فما بالك إذا كان قائدهم أسداً وهم أسود ، وعمل رجل في ألف رجل أقوى تأثيراً وأشد تثبيتاً من قول ألف رجل في رجل ( كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ) ما أمارتهم ؟ ( سيماهم في وجوههم

من أثر السجود ) أين مثلهم هذا في التوراه ؟ فما مثلهم في الإنجيل ( كزرع أخرج شطأه ) بأى بكر ( فأزره ) بعمر ( فاستغلظ ) بعثمان ( فاستوى على سوقه ) بعلى أين تخرجوا ؟ لم يتخرجوا في جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا في جامعة فيها الحبيب المصطفى ، لا يلحق كانوا مسجدين في جامعة كان سقفها الجريد وأرضها الحصاء ، كان إمامها خير خلق الله وكان مؤذنها بلالاً ، هذا المسجد تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر والحى الكريم كعثمان والعبرى الفذ كعلی ، والزاهد الكريم كأبى ذر ، والفقيه العظيم كأبى عباس ، والمفتى الخبير كأبى عمر ، والمحدث الجليل كأبى هريرة ، والقائد الجبار كخالد بن الوليد ، والفيلسوف البارع كأبى ذر ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾ .

## الحمد لله

فالحمد لله الذى أبان للعباد منهج التربية القويمة في قرآنه المجيد ، وضح للعالمين مبادئ الخير والهدى والإصلاح في أحكام شرعه الخفيف والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله للإنسانية مؤدياً ، وأنزل عليه تشريعاً يحقق للبشرية أسمى آيات عزها ومجدها وأعظم غايات شؤنها ومكانتها ، ورفعها واستقرارها . وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار ، الذين أعطوا الأجيال المتعاقبة نماذج فريدة في تربية الأبناء ، وتكوين الأمم وعلى من نهج نهجهم ، وأتقى أثرهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد : فمن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل قويم في تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات ، وإرساء قواعد المجد والمدنية ... وماذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلال والفوضى إلى نور التوحيد والعلم والهدى والإستقرار وصدق الله العظيم في محكم تنزيله ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ (١)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتصف بالربانية ، وتسم بالشمول ، وتختص بالتجدد والإستمرار ، فهل مبادئها الشاملة ومعطياتها المتجددة .. فكرة مجردة في الأذهان ، ونظريات مدونة في الكتب ، أم هى متحققة في أمة تلمسها الأيدى وتراها العيون ؟ فلنحلّ الجواب إلى شهيد الإسلام سيد قطب — رحمه الله — ولنسمع منه ما يقوله « وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه — عليهم رضوان الله — صوراً حية من إيمانه ،

تأكل الطعام ، وتمشي في الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآناً حياً يدب على الأرض ، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الإسلام .

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً ، وأن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً ، وأن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقي مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطباً ، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي ، وتراهم العيون .

ولقد انتصر محمد ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخصاً ، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفاً ، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، إنما طبعها بالتبر على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطي وتقول بانفعل والعمل ما هو الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله .

ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تربية الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم بإحسان ، فليستقرئ التاريخ لسمع الكثير عن جليل مآثرهم وكريم فضائلهم فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم أو أرفأ ، أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرق أو أعلم ؟!

ويكفيهم شرفاً وفخراً وخبلاً أن يقول القرآن العظيم في حقهم ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾

ويقول ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول ﴿ والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً ﴾<sup>(٣)</sup>

ويقول ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الذاريات الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

(٢) سورة الحشر آية ٩ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٠ .

هذا غيض من فيض مما نزل في كريم مآثرهم ، وجميل مجاملهم وقد تحقق بهم فعلاً إقامة المجتمع الفاضل الذي كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم .. وكيف لا والقاضي يجلس بينهم سنتين ولا يتخاصم إليه أثنان ؟ ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن ؟ ولماذا يختلفون وهم يجون لإخوانهم ما يجون لأنفسهم ؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالحب والإخاء ، ويحضهم على التعاطف والإيثار ؟

واليكم ما قاله الصحابي الجليل ( عبيد الله بن مسعود ) = رضي الله عنه = في تعداد مجاملهم وفضائلهم ، ووجوب التأسي بأفعالهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة ...  
 « من كان متأسياً فليأتني بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، واختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا هم فضلهم ، واتبعوهم في آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

( من كتاب تربية الأولاد في الإسلام )

وقد صدق فيهم = رضي الله عنه = ما قاله العلامة ابن القيم في تلك القصيدة العظيمة :

يا باغي الإحسان يطلب ربه	ليفوز منه بغاية الآمال
أنظر إلى هدى الصحابة والذي	كانوا عليه في الزمان الخالي
واسلك طويق القوم أين تيمموا	خذ تيمنه ما الدرب ذات الشمال
تالله ما اختاروا لأنفسهم سوى	سبل الهدى في القول والأفعال
درجوا على نهج الرسول وهدية	وبه اقتدوا في سائر الأحوال
نعم الرفيق لطالب يبغي الهدى	فماله في الخشوع خير مثال
القائمين الخبيثين لسرهم	الناطقين بأصدق الأمثال
التاركين لكل فعل سيئ	والعاملين بأحسن الأعمال
أهواؤهم تبغ لدين نبيهم	وسواهم بالصناد في ذي الخالي
ما شابههم في دينهم نقص ولا	في قولهم شطط الجهول الغالي
وسواهم بالصد في الأمرين قد	تركوا الهدى ودعوا إلى الاضلال
فهم الادلة للخيارى ، من يستر	بهدهم لم يخشى من اضلال
وهم النجوم هداية وإضاءة	وعلى منزلة ، وبعد مثال
يمشون بين الناس هونا ، تظلمهم	بالحق ، لا بجهالة والجهال
علماً ، وعلماً ، مع تقى وتواضع	ونصيحة ، مع مرتبة الإفضال
يجون ليلهم بطاعة ربهم	بسلامة ، وتضرع ، وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم	مثل انهمال الوابل الهطال

وإذا بدا علم الرّهان رأيتهم يشابقون بصالح الأعمال  
 بوجوههم أثر السجود صفاتهم في سورة الفتح المبين العال  
 وبرايع السبع الطوال صفاتهم قـوم يحبهم ذووا إدلال  
 وبراءة ، والحشر فيها وصفهم وبهل آتى ، وبسورة الأنفال

## صور من السيرة العاطرة التى اشتملت عليها سورة الفتح

اشتملت هذه السورة الكريمة على تلك الصور الرائعة من حياة الرسول ﷺ وجهاده وسوف نتحدث

عنها على الوجه التالى :

أولاً : قصة صلح الحديبية .

ثانياً : غزوة خيبر

ثالثاً : عمرة القضاء

رابعاً : فتح مكة

خامساً : غزوة حنين

سادساً : غزوة الطائف

## أولاً : قصة صلح الحديبية

قال الإمام ابن القيم فى الزاد

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة ، وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتاده ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وكان معه ألف وأربعمائة ، وهو قول البراء بن عازب ، ومقل بن يسار وسلمو بن الأكوخ فى أصح الروايتين ، قال شعبه : عن قتاده ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

فلما كانوا بذى الحليفة ، قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إني تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جمعاً ، وهم مقاتلون وصادوك عن البيت وما نعوك ، واستشار النبي ﷺ وقال : أترون أن نغلب إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيئوا تكن عنقاً قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجى لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : « فروحوا إذا » فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي ﷺ : « إن خالد بن

الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين « فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقتله الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها يركت به راحلته ، فقال الناس : حل حل — كلمة تقال للناقة إذا تركت السير — فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبي ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذالها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : والذي نفسي بيده ، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله ، إلا أعطيتهم إياها <sup>(١)</sup> ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، وإنما يتبرحنه الناس تبرحاً — أى يأخذونه قليلاً قليلاً — فلم يلبثه الناس أن ترحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فأنزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، قال فوالله مازال يجيش لهم بالرؤى ، حتى صدروا عنه <sup>(٢)</sup> .

وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله ﷺ أي يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم فقال : يا رسول الله : ليس لي بمكة أحد من بني كعب يغضب لي إن أوديت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وأدعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويشهرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان ، فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : إين تريد ؟ فقال بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاصي ، فرحب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء بمكة ، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان ؟ خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ؟ فقال رسول الله ﷺ « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟ قال : « ذاك ظني به . ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال « هذه عن عثمان » ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون : أشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ، فقال بئس ما ظنتم بي ، والذي نفسي بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ،

(١) أنظر صحيح البخارى بمأشيه السندى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ باب الشروط في الجهاد والمصالحة .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط في الجهاد والمصالحة ط / الحلبى .

— أنظر القصة من قوله « فلما كانوا بذى الخليفة ... إلى حتى صدروا عنه في مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ . عن المسور بن عزمه ومروان بن الحكم .



ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعنتي قريش إلى الطواف بالبيت ، فأبيت ، فقال المسلمون : رسول الله ﷺ : رسول الله كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً<sup>(١)</sup> وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجذ بن قيس .

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدي . وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، في أول الناس ، وأوسطهم وآخرهم .

« فبينما هم كذلك ، إذا جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة وكانوا عبية نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إني تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، قال رسول الله ﷺ «إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكننا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكهم الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جئوا ، وإن هم أبو إلا القتال ، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتي ، أو ليُنْفِذَنَّ الله أمره » قال بُدَيْل : سأبلغهم ما تقول ، فأنطلق حتى أتى قريشاً ، فقال : إني قد جئكم من عند هذا الرجل ، وقد سمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : هات ما سمعته ، قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بما قال النبي ﷺ فقال : عروة بن مسعود الثقفي : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعوني آتة ، فقالوا : آتته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرايت لو أستأصلت قومك . هل سمعت بأحد من العرب احتاج أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امضْ بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه . قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر قال أما والذي نفسي بيده ، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها ، لأجبتك ، وجعل يكلم النبي ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبه عند رأس النبي ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنصل السيف ، وقال : أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه وقال من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبه . فقال : أى غدر أو لست أسعى في غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه في شيء »<sup>(٢)</sup>

(١) أنظر كنز العمال « مراسل عروه » ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٥٢ / ٣٠ فقد ورد الحديث من قوله : ففرغت قريش ... إلى وأحسننا ظناً .

— وأنظر مسند بن أبي شيبة ح ١٤ ص ٤٢٩ . غزوة الحديبية .

(٢) الحديث في صحيح البخارى بمأشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها جلده ووجهه . وإذا أمرهم ، ابثدروا أمره ، وإذا توضعاً ، كادوا يقتلون على وضوئه وإذا تكلم أخفقوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيماً له ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشي ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما عظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابثدروا أمره ، وإذا توضعاً ، كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيماً له ، وقد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها فقال رجل من بني كنانة : دعوني آته ، فقالوا : آته ، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه . قال رسول الله ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن — فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبنون ، فلما رأى ذلك قال : « سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت » فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قلّدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقام مكرز بن حنص فقال : دعوني آته ، فقالوا آته ، فلما أشرف عليهم ، قال النبي ﷺ « هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم رسول الله ﷺ فبينما هو يكلمه ، إذا جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي ﷺ : « قد سهّل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا الكاتب ، فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل . أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب باسم اللهم ، كما كنت تكتب ، فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبي ﷺ « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ إني لرسول الله وإن كذبتوني ، أكتب : محمد بن عبد الله فقال النبي ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به فقال سهيل ، والله لا تتحدث العرب أنا اخذنا ضغطه ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرصف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ ، فقال النبي ﷺ « إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبداً ، فقال النبي ﷺ « فأجزه لي » قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » قال : « ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً ، قال عمر بن الخطاب : ( والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ ) فأتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : أأنت نبي الله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . فقلت : علام نعطي المدنية في ديننا

إذا ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إني رسول الله ، وهو ناصري ، ولست أعصيه . قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرت أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتية **وتطوف** به . قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ ورد على أبو بكر كما رد على رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . قال عمر : **فعملت** لذلك أعمالاً وفي رواية ابن اسحاق وكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة الذى تكلمت به .

فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ « قوموا فانحروا ، ثم احلقوا » فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقي من الناس . فقالت أم سلمة يا رسول الله . أتحب ذلك أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بذلك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، قاموا فبحروا ، جعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ﴾ حتى بلغ ( بعصم الكوافر ) ( الممتحنة ١٠ ) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا في الشرك فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة وفي مرجعه أنزل الله تعالى ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ . فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال نعم ، فقال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فمالنا ؟

فأنزل الله عز وجل : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ﴾

ولما رجع إلى المدينة ، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا في الخليفة ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : والله إني لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير : أرني أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه به حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعراً » فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال : قتل والله صاحبي وإني لمقتول ، فجاء أبو بصير ، فقال : يا بنى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد ردتني إليهم ، فأنجاني الله منهم ، فقال النبي ﷺ « ويل أمه مسعر حرب ، لو كان له أحد » ، فلما سمع ذلك ، عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينقلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أئاه منهم ، فهو آمن فأنزل الله عز وجل ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ حتى بلغ ( حمية الجاهلية ) .

وكانت حميتهم أنهم لم يقرؤا أنه نبي الله ، ولم يقرؤا بيسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت<sup>(١)</sup> .  
وفي صحيح البخارى عن جابر ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوه  
يتوضأ منها ، إذ جهش الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله : ما عندنا ماء نشرب ،  
ولا نتوضأ إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون ،  
فشربوا ، وتوضؤوا ، وكانوا خمس عشرة مائة<sup>(٢)</sup> .

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر ، فلما صلى النبي ﷺ الصبح قال : « أتدرون ماذا قال ربكم اللية ؟ »  
قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله  
ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا نبوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ،  
مؤمن بالكواكب » (رواه البخارى)

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من  
بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها  
ثلاثاً ، وإن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن ما أتانا من أصحابك لم نرده عليك ،  
ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة ( أى صدوراً سليمة فى المحافظة على  
العهد ) وإنه لا إرسال ولا إغلال ، فقالوا : يا رسول الله أنعطيم هذا ؟ فقال « من أتاهم منا فأبعده الله ،  
ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً »<sup>(٣)</sup> ( أخرجه أحمد ورجاله ثقات ) .

### ما تضمنته هذه القصة من الفوائد الفقهية

وفى قصة الحديبية ، أنزل الله — عز وجل فديه الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك  
فى شأن كعب بن عُجرة . وفيها : دعا رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً ، وللمقصرين مرة .  
وفيها : نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة وفيها : أهدى رسول الله ﷺ فى جملة هدية جملأ  
كاتم لأبى جهل كان فى أنفه بُدة من فضة ليغيط به المشركين .  
وفيها : أنزلت سورة الفتح ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر فى  
عقد قريش وعهدهم ، وكان فى الشرط أن من شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل .

(١) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبي .  
— وكذلك أنظر القصة بأكملها من قوله فيينا هم كذلك . إذ جاء بديل ... إلى قوله . « وحالوا بينهم وبين البيت » فى مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ،  
٣٣٠ ، ٣٣١ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ . كتاب المغازى باب غزوة الحديبية ط / الشعب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٥ . كتاب المغازى باب غزوة الحديبية . ط / الشعب .

أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١١ . كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية رقم ٩٣ / ١٧٨٤ .

— وأنظر مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٥ .

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات ، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذى كان بينهم ، فلم يرجعها إليهم ، ونهاه الله عز وجل عن ذلك ، فقيل هذا نسخ للشرط فى النساء ، وقيل : تخصيص للسنة بالقرآن ، وهو عزيز جداً . وقيل لم يقع الشرط إلا على الرجال خاصة ، وأراد المشركون أن يعموه فى الصنفين ، فأبى الله ذلك .

ومنها : إعتار النبي ﷺ فى أشهر الحج ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة .  
ومنها : إن الإحرام بالعمرة من الميقات أفضل ، كما أن الإحرام بالحج كذلك ، فإنه أحرم بهما من ذى الحليفة ، وبينها وبين المدينة ميل أو نحوه .

ومنها : أن سوق الهدى مسنون فى العمرة المفردة ، كما هو مسنون فى القرآن .

ومنها : أن إشعار الهدى سنة لا مثلة منتهى عنها .

ومنها : استحباب مغايظة أعداء الله ، فإن النبي ﷺ أهدى فى جملة هدية جملاً لأبى جهل فى أنفه برة من فضة يغيب به المشركين ، وقد قال تعالى فى صفة النبي ﷺ وأصحابه ﴿ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ﴾ وقال عز وجل ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (١)

ومنها : أن أمير الجيش ينبغي له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو ومنها : أن الاستعانة بالمشرك المأمون فى الجهاد جائزة عند الحاجة ، لأن عينه الخراعة كان كافراً إذ ذاك ، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذ أخبارهم .

ومنها : استحباب مشورة الإمام رعيته وجيشه ، إستخراجاً لوحه الرأى ، وإستطابة لنفوسهم ، وأما لعبتهم ، وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، وأمثالاً لأمر الرب فى قوله تعالى ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ ( آل عمران : ١٥٩ ) وقد مدح سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (٢) .

ومنها : جواز سبى ذرارى المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال .

ومنها : رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواء ، يعنى حرنت وألحت ، فلم تسر ، والخلاء فى الإبل ( بكسر الخاء والمد ) ، نظير الحران فى الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها ، رده عليهم ، وقال : « ما خلأت وما كان لها بخلق » ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذى حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها ، وما جرى بعده .

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية ٣٨ .

ومنها : جواز الحلف ، بل استحبابه على الخير الديني الذي يريد تأكيده ، وقد حفظ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعاً وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبره به في ثلاثة مواضع : في (سورة يونس) ، (وسبأ) ( والتغابن ) .

ومنها : أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبغاه والظلمة ، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى ، أجيبوا إليه وأعطوه ، وابعثوا عليه ، وإن منعوا غيره ، فيعاونوا على ما فيه تعظيم حرمت الله تعالى . لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له ، وأجيب إلى ذلك كائناً من كان ، ما لم يترتب على إعانتته ، على ذلك المحبوب ، مبعوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها ، وأشقها على النفوس ، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق ، وقال عمر ما قال حتى عمل له أعمالاً بعده ، والصدى تلتقه بالرضى والتسليم ، حتى كان قلبه فيه على قلبي رسول الله ﷺ وأجاب عمر عما سأل عن من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ وذلك يدل على أن الصديق — رضى الله عنه — أفضل الصحابة وأكملهم ، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ وأعلمهم بدينه ، وأقومهم بمحابة ، وأشدهم موافقة خاصة دون سائر أصحابه .

ومنها : أن النبي ﷺ عدل ذات اليمين إلى الحديبية ، قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم وروى الإمام أحمد في هذه القصة أن النبي ﷺ كان يصلى في الحرم وهو مضطرب في الحل ، وفي هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذى هو مكان الطواف وأن قوله « صلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدى » <sup>(١)</sup> كقوله تعالى ﴿ فلا يقربوا المسجد الحرام ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾ <sup>(٣)</sup> وكان الإسراء من بيت أم هانئ .

ومنها : أن من نزل قريباً من مكة ، فإنه ينبغي له أن ينزل في الجَلِّ ، ويصلى في الحرم ، وكذلك كان ابن عمر يصنع .

(١) الحديث في صحيح ابن حبان ح ٣ ص ٧١ ، ٧٢ رقم ١٦١٨ . بلفظ صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، وصلاة في ذاك أفضل من مائة صلاة في هذا — يعنى في مسجد المدينة .

(٢) سورة التوبة آية ٢٨

(٣) سورة الإسراء آية ١

ومنها : جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم وفي قيام المغيرة بن شعبه على رأس رسول الله ﷺ بالسيف ، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه ، وهو قاعد ، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنفوس ، وهذه هي العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من هذا النوع الذي ذمّه النبي ﷺ بقوله « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »<sup>(١)</sup> ( أخرجه أبو داود وإسناده صحيح ) .

كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره ، وفي بعث البدن في وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار .

وفي قول النبي ﷺ للمغيرة : « أمّا الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء »<sup>(٢)</sup> دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم ، وأنه لا يملك ، بل يرد عليه ، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان ، ثم غدر بهم ، وأخذ أموالهم ، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم ، ولا ذبّ عنها ، ولا ضمنها لهم ، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة .

وفي قول الصديق لعروة : امصص بظر اللات ، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال ، كما أذن النبي ﷺ — أن يُصرّح لمن ادعى دعوى الجاهلية بهن أبيه ، ويقال له : اعضضن أير أبيك ، ولا يكنى له ، فلكل مقام مقال .

ومنها : إحتمال قلة أدب رسول الكفار ، وجهلة وجفوته ، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة ، ولم يقابل النبي ﷺ عروة على أخذ بلحيته وقت خطابه ، وإن كانت تلك عادة العرب ، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك .

(١) الحديث في سنن أبي داود ح ٥ ص ٣٩٨ كتاب الأدب رقم ٥٢٢٩ .

— أنظر سنن الترمذى ح ٤ ص ١٨٤ بلفظ من سره ... الخ أبواب الاستئذان والأداب . باب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل رقم ٢٩٠٣ .

(٢) الحديث في صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٤ كتاب الشروط في الإسلام . ط / الشعب .

وكذلك لم يقاتل رسول الله ﷺ رسولاً مسلمة الكذاب حين قالوا : نشهد أنك رسول الله وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما » (١) .

ومنها : طهارة النخامة ، سواء كانت من رأس أو صدر .

ومنها : طهارة الماء المستعمل .

ومنها : استحباب التفاؤل ، وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل : « سَهْلٌ أمرٌكم » .

ومنها : أن المشهور عليه إذا عرف باسمه واسم أبيه ، أغنى ذلك عن ذكر الجد ؛ لأن النبي ﷺ —

لم يزد على محمد بن عبد الله ، وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة واشتراط ذكر الجد لا أصل له ، ولما اشترى العداء بن خالد منه — ﷺ — الغلام فكتب له : « هذا ما اشترى العداء بن خالد بن

هوزة » فذكر جده ، فهو زيادة بيان تدل على أنه جائز لا بأس به ، ولا تدل على اشتراطه ، ولما لم يكن في الشهرة بحيث يكفى باسمه واسم الأب ، وعند عدم الاشتراك اكتفى بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم .

ومنها : أن مصالحه المشركين ببعض ما فيه ضميم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة ، ودفع ما هو شر منه ، ففيه دفع أعلى المفسدين باحتمال أدناهما .

ومنها : أن من حلف على فعل شيء ، أو نذره ، أو وعد غيره به ولم يعين وقتاً ، لا بلفظه ، ولا بنيته ، لم يكن على الفور ، بل على التراخي .

ومنها : أن الخلاقة نسك ، وأنه أفضل من التقصير ، وأنه نسك في العمرة ، كما هو نسك في الحج ، وأنه نسك في عمرة المحصور ، كما هو نسك في عمرة غيره .

ومنها : أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم ، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره في الحرام إذا لم يصل إليه ، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله ، بدليل قوله تعالى . ﴿ والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ﴾ .

ومنها : أن المحصر لا يجب عليه القضاء ، لأنه — ﷺ — أمرهم بالحلوق والنحر ، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء ، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة ، ولا قضاء عن عمرة الإحصار فإنهم كانوا في عمرة الإحصار ألفاً وأربعمائة ، وكانوا في عمرة القضية دون ذلك ، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء ، لأنها العمرة التي قاضاهم عليها ، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله .

ومنها : أن الأمر المطلق على الفور وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر ، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأنهم كانوا يرجون النسخ ، فأخبروا متأولين لذلك ، وهذا الاعتذار أولى أن يعتذر عنه ، وهو باطل ، فإنه — ﷺ — لو فهم منهم ذلك ، لم يشتد غضبه لتأخير أمره ، ويقول « مالى لا أغضب ،

١ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ج ١ ص ٦٧٢ من رواية أحمد والطبراني في الكبير عن نعيم ابن مسعود الأشجعي



وأنا آمر بالأمر فلا أتبع» وإنما كان تأخيرهم من السعى المغفور لا المشكور ، وقد رضى الله عنهم ، وغفر لهم وأوجب لهم الجنة .

ومنها : أن الأصل مشاركة أمته له في الأحكام إلا ما خصّه الدليل ولذلك قالت أم سلمة : « أخرج ولا تكلم أحداً حتى تخلق رأسك وتنحر هديك » وعلمت أن الناس سيتابعونه .

فإن قيل : فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله ، ولم يمتثلوه حين أمرهم به ؟ قيل : هذا هو السبب الذى لأجله ظن من ظن أنهم أخرجوا الامتثال طمعا في النسخ ، فلما فعل النبى — ﷺ — ذلك علموا حينئذ أنه حكم مستقر غير منسوخ ، وقد تقدم فساد هذا الظن ، ولكن لما تغيظ عليهم ، وخرج ولم يكلمهم وأزاهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به ، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم ، وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره .

ومنها : جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلحين وألا يرد من ذهب من المسلحين إليهم ، هذا في غير النساء وأما النساء ، فلا يجوز اشتراط ردهن ، إلى الكفار ، وهذا موضوع النسخ خاصة في هذا العقد بنص القرآن ، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب .

ومنها : أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم ، ولذلك أوجب الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته ، وحيل بينه وبينها ، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم ردّ مهر من هاجر إليهم من أزواجهم ، وأخير أن ذلك حكمه الذى حكم به بينهم ، ثم لم ينسخه شيء ، وفي إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على ما تقوّمه بالمسمى ، لا بمهر المثل .

ومنها : أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام ، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب فإن النبى — ﷺ — لم يرد أبابصر حين جاءه ، ولا أكرهه على الرجوع ، ولكن لما جاؤوا في طلبه ، مكّهم من أخذه ، ولم يكرهه على الرجوع .

ومنها : أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بدية ولا قود ، ولم يضمنه الإمام ، بل يكون حكمه في ذلك حكم قتله لهم في ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم فإن أبابصر قتل أحد الرجلين المعاهدين بذى الحليفة ، وهى من حكم المدينة ، ولكن كان قد تسلموه وفصل عن يد الإمام وحكمه .

ومنها : أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام ، فخرجت منهم طائفة فحاربتهم ، وغنمت أموالهم ، ولم يتحيزوا إلى الإمام ، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم ، ومنعهم منهم ، وسواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه ، أو لم يدخلوا ، والعهد الذى كان بين النبى — ﷺ — وبين المشركين لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم ، وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد جاز الملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم ، ويقنم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد ، كما أفتى به شيخ الإسلام في نصارى ملطية وسبيهم ، مستدلاً بقصة أبى بصير مع المشركين .

## فصل

## في الإشارة إلى بعض الحكم التي تضمنتها هذه الهدنة

يقول ابن القيم — رحمه الله — : وهي أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذي أحكم أسبابها فوقعت الغاية على الوجه الذي اقتضته حكمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدي الفتح الأعظم الذي أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به في دين الله أفواجا ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه في الأمور العظام ، التي يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطئ لها بين يديها مقدمات وتوطئات ، تؤذن بها ، وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس آمن بعضهم بعضاً ، وأختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل فيه في مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيم ، وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية وحقيقة الأمر : أن الفتح — في اللغة — فتح المغلق ، والصلح الذي حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدوداً مغلقاً حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله — ﷺ — وأصحابه عن البيت ، وكان في الصورة الظاهرة خيماً وهضماً للمسلمين ، وفي الباطن عزاً وفتحاً ونصراً ، وكان رسول الله — ﷺ — ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز ، والنصر من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، التي لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم وهو — ﷺ — يعلم ما في ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ <sup>(١)</sup> فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأيده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند الذي أقامة المشترطون ، ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون فذلوا من حيث طلبوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة ، وعز رسول الله — ﷺ — وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله ، واحتملوا الضيم له وفيه ، فدار الدَّاور ، وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التي لا اقتراح للعقول وراءها .

ومنها : ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم في ذلك من الرضى بقضاء الله ، وتصديق عليهم بالسكينة التي أنزلها في قلوبهم ، أحوج

ما كانوا إليها في تلك الحال التي تزعزع لها الجبال ، فأُنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذي حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإتمام نعمته عليه ، ولهدايته الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ، ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراف صدره به مع ما فيه من الغيم ، وإعطاء ما سأله ، كأن من الأسباب التي نال بها الرسول وأصحابه ذلك ، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية ، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى ، وفتح . وتأمل كيف وصف — سبحانه — النصر بأنه عزيز في هذا الموطن ، ثم ذكر إنزال السكينة في قلوب المؤمنين في هذا الموطن ، الذي اضطربت فيه القلوب ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم ، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله — ﷺ — كذلك وهو رسوله ونبيه ، فالتقد معه عقد مع مرسله ، وبيعته بيعته فمن بايعه ، فكأنما بايع الله ، ويد الله فوق يده ثم أخبر سبحانه أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكته على نفسه ، وأن للموفى بها أجراً عظيماً فكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه ، فناكث وموفٍ .

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب ، وظنهم أسوأ الظن بالله : أنه يخذل رسوله وأوليائه ، وجنده ، ويظفر بهم عدوهم ، فلن ينقلبوا إلى أهلهم ، وذلك من جهلهم بالله واسمائه وصفاته ، وما يليق به وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه مولاه .

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله ، وأنه سبحانه علم ما في قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء ، وكمال الانقياد ، والطاعة ، وإيثار الله ورسوله على ما سواه ، فأُنزل الله السكينة والطمأنينة ، والرضى في قلوبهم ، وأثابهم على الرضى بحكمه ، والصبر لأمره فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ، ومغانمها ، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر . ووعدهم الله سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها ، وأخذهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة ، وفيها قولان . أحدهما : أنه الصلح الذي جرى بينهم وبين عدوهم ، والثاني : أنها فتح خيبر وغنائمها ، ثم قال ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ فقيل : أيدي أهل مكة أن يقاتلوهم ، وقيل : أيدي اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله — ﷺ — بمن معه من الصحابة منها ، وقيل : هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وعظفان والصحيح تناول الآية للجميع .

وقوله ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ قيل : الفعلة التي فعلها بكم ، وهي كف أيدي أعدائكم عنكم مع كثرتهم ، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها ، وأهل خيبر ومن حولها ، وأسد وغطفان ، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم ، وهم بينهم كالشامة ، فلم يصلوا إليهم بسوء ، فمن آيات الله سبحانه كف أيدي

أعدائهم عنهم ، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم ، وشدة عداوتهم ، وتولى حراستهم ، وحفظهم في مشاهدهم ومغيبيهم .

وقيل : هي فتح خير ، جعلها الله آية لعباده المؤمنين ، وعلامة على ما بعدها من الفتوح ، فإن الله سبحانه وعدهم مغنم كثيرة وفتوحا عظيمة ، فجعل لهم فتح خير ، وجعلها آية لما بعدها ، وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكرنا ، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية . ثم قال ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ فجمع لهم إلى النصر والظفر والغنائم الهداية ، فجعلهم مهدين منصورين غانمين ، ثم وعدهم مغنم كثيرة وفتوحاً أخرى ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها ، فقيل : هي مكة وقيل : فارس والروم ، وقيل : الفتوح التي بعد خير من مشارق الأرض ومغاربها . ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أوليائه ، لولى الكفار الأدبار غير منصورين ، وأن هذه سنته في عبادته قبلهم ، ولا تبديل لسنته . فإن قيل : فقد قاتلوهم يوم أحد ، وانتصروا عليهم ، ولم يولوا الأدبار ؟ قيل : هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضوع ، وهو الصبر والتقوى ، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر ، وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى ، فصرفهم عن عدوهم ، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه .

ثم ذكر — سبحانه — أنه هو الذي كف أيدي بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم ، لئلا يذبحوا ذلك من الحكم البالغة التي منها : أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا ، وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون ، فلو سلطكم عليهم ، لأصبتم أولئك بمعرة الجيش ، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به ، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم ، لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم ، وأخبر سبحانه أنهم لو زيلوهم وتميزوا منهم ، لعذب أعداءه عذاباً أليماً في الدنيا ، إما بالقتل والأسر ، وإما بغيره ، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم ، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ، ورسوله بين أظهرهم .

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار ، في قلوبهم من حمية الجاهلية التي مصدرها الجهل والظلم ، التي لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته ، ولم يقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقرؤوا الحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه ، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التي شاهدوها وسمعوا بها في مدة عشرين سنة ، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره ، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التي هي بقدرتهم وإرادتهم . ثم أخبر — سبحانه — أنه أنزل في قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما في قلوب أعدائه من حمية الجاهلية ، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه ، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم ، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى ، وهي جنس يعم كل كلمة يتقوى الله بها ، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص ، وقد فسر بن بسم الله الرحمن الرحيم ، وهي الكلمة التي أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أوليائه وحزبه ، وإنما حرمها أعداءه صيانه لها من غير كفتها ، وألزمها من هو أحق بها وأهلها ، فوضعها في موضعها ، ولم يضعها بوضعها في غير أهلها وهو العلم بمحال تخصيصه ومواضعه .

ثم أخبر — سبحانه — أنه صدق رسوله رؤياه في دخولهم المسجد آمنين وأنه سيكون ولا بد ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك في هذا العام ، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيرها إلى وقته ما لم تعلموا أنتم ، فأنتم أحببتم استعجال ذلك ، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه ، فقدم بين يدي ذلك فتحا قريبا ، توطئه له وتمهيدا .

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففى هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبيت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لا بد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ، ولا تخليا عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعد أنه يظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر — سبحانه — رسوله وحزبه الذين اختارهم له ، ومدحهم بأحسن المدح ، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل ، فكأن في هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن وأن هؤلاء هم المذكورون في الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم : إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا ، ولهذا لما رأهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم ، وعدلهم وعلمهم ، ورحمتهم وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الآخرة ، قالوا : ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وكان هؤلاء النصارى بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم والرافضة تصفهم بغير ما وصفهم الله به في هذه الآية وغيرها و ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضل الله فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ (١) .

ثانيا :

### غزوة خيبر

قال الإمام ابن الغيم في الزاد :

« قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة أو قريبا منها ، ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله — عز وجل — وعده إياها ، وهو بالحديبية .

قال ابن إسحاق : حدثني الزهري ، عن عروة ، عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ، أنهما حدثاه جميعا ، قالا : انصرف رسول الله — ﷺ — عام الحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله — عز وجل — فيها خيبر ﴿ وعدم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه ﴾ خيبر ، فقدم رسول الله — ﷺ — المدينة في ذى الحجة : فأقام بها حتى سار إلى خيبر في المحرم ، فنزل

رسول الله ﷺ — بالرجيع : واد بين خيبر وغطفان ، فتخوف أن تدمهم غطفان فبات به حتى أصبح ، فقدوا إليهم .

واستخلف — علي المدينة سباع بن عرفطة ، وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة ، فوافق سباع بن عرفطة في صلاة الصبح ، فسمعه يقرأ في الركعة الأولى ( كهيعص ) ، وفي الثانية ( ويل للمطففين ) فقال في نفسه : ويل لأبي فلان ، له مكيلا ، إذا اكنال اكنال بالوافي ، وإذا كال كال بالناقص ، فلما فرغ من صلاته ، أتى سباعاً ، فزوده حتى قدم على رسول الله ﷺ — وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه في سهماتهم .

ولما قدم رسول الله ﷺ — خيبر ، صلى بها الصبح ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكائلتهم ، ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش ، قالوا : محمد والله ، محمد والحميس ، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم ، فقال النبي ﷺ — « الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين »<sup>(١)</sup>

ولما دنا النبي ﷺ — وأشرف عليها قال « قفوا » فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإننا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله »<sup>(٢)</sup>

ولما كانت ليلة الدخول ، قال : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » . فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله ﷺ — كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقالوا : يارسول الله : هو يشتكي عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتي به ، فبصق رسول الله ﷺ — في عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال : يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم »<sup>(٣)</sup> .

فخرج مَرَحَبٌ وهو يقول :

أنا الذي سمعتني أمي مرحب شاكي السلاح بطل مُجرب

إذا الحروبُ أقبلتْ تلهب

١ — الحديث في صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خيبر — ح ٥ ص ١٦٧ ط الشعب

٢ — الحديث في مجمع الزوائد — كتاب الأدعية — ح ١٠ ص ١٣٥

٣ — الحديث في صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خيبر — ح ٥ ص ١٧١ ط الشعب

فبرز على بن أبى طالب وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدرہ کلیث غابات كریہ المنظرہ

أوفیہم بالصاع کیل السندرہ

فضرب مرحباً ، فقلق هامته ، وكان الفتح .

قال موسى بن عقبة : ثم دخل اليهود حصناً لهم منيعاً يقال له : القموص ، فحاصروهم رسول الله ﷺ — قريبا من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وخمة شديدة الحر ، فجهد المسلمون جهداً شديداً ، فذبحوا الحمر فنهاهم رسول الله ﷺ — عن أكلها ، وجاء عبد أسود حبشى من أهل خيبر ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبي ، فوقع فى نفسه ذكر النبي ﷺ — فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ — فقال : ماذا تقول وما تدعوا إليه ، قال : « أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، وألا تعبد إلا الله »<sup>(١)</sup> . قال العبد ، فما لى إن شهدت وآمنت بالله — عز وجل — ؟ قال : « لك الجنة إن مت على ذلك »<sup>(٢)</sup> ، فأسلم ، ثم قال : يانبي الله ! إن هذه الغنم عندى أمانة ، فقال له رسول الله ﷺ — « أخرجها من عندك وارمها بالخصباء ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ — فى الناس ، فوعظهم وحضهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل فيمن قتل العبد الأسود ، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل فى الفسطاط ، فزعموا أن رسول الله ﷺ — أطلع فى الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه وقال « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط »<sup>(٣)</sup> .

وقال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ — فأمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر . غنم رسول الله ﷺ — شيئا ، فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ما قسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء ، دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمة لك رسول الله ﷺ — فأخذه فجاءه إلى النبي ﷺ — فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « قسم قسمة لك » ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ، وأشار إلى حلقه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تصدق الله يصدقك » ثم نهض إلى قتال العدو ، فأتى به إلى النبي ﷺ — وهو مقتول ، فقال : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم قال : « صدق الله فصدقه » فكفنه النبي ﷺ — فى جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : « اللهم هذا عبدك خرج

مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » ( أخرجه النسائي والحاكم والبيهقي وإسناده صحيح )<sup>(١)</sup>

قال الواقدي : وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير : حصن منيع في رأس قلة ، فأقام رسول الله ﷺ — ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال : يا أبا القاسم إنك لو أقيمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً ، تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعته فيمتمنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فسار رسول الله ﷺ — إلى مائهم ، فقطعه عليهم فلما قطع عليهم ، خرجوا ، فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين نفر ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ﷺ — ثم تحول رسول الله ﷺ — إلى أهل الكتيبة والوطيح والسلام حصن ابن أبي الحقيق ، فتحصن أهله أشد التحصن ، وجاءهم كل فل كان انهزم من النطاة والشق ، فإن خير كانت جانين . الأول الشق والنطاة ، وهو الذي افتتحه أولاً

والجانب الثاني : الكتيبة والوطيح والسلام ، فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ﷺ — أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حاصرهم رسول الله ﷺ — أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول الله ﷺ — الصلح ، وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ — أنزل فأكلمك ؟ فقال رسول الله ﷺ — « نعم » فنزل ابن أبي الحقيق فصالح رسول الله ﷺ — على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خير وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ﷺ — وبين ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ﷺ — « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كنتم توفون شيئاً » فصالحوه على ذلك .

قال حماد بن سلمة : عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ — قاتل أهل خير حتى ألجأهم إلى قصرهم ، فغلب على الزرع والنخل والأرض ، فصالحوه على أن يجلوا منها ولهم ما حملت ركايبهم ولرسول الله ﷺ — الصفراء والبيضاء ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيثوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيثوا مسكاً فيه مال وحلى لحى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خير حين أجلت النضير .

فقال رسول الله ﷺ — لعم حبي بن أخطب : « ما فعل مسك حبي الذي جاء به من النضير ؟ »<sup>(٢)</sup> قال : « أذهبته النفقات والحروب فقال : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك » ، فدفعه رسول الله ﷺ — إلى الزبير ، فمسه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : « قد رأيت حبيباً ، يطوف في خربة ها هنا ، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا المسك في الخربة ، فقتل رسول الله ﷺ —

١ — الحديث في المستدرک للحاکم ح ٣ ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ كتاب معرفة الصحابة ذكر شداد بن الحاد — رضى الله عنه —

وفي سنن النسائي ح ٤ ص ٦٠ ، ٦١ — باب الصلاة على الشهداء



ابنى أبى الحقيق ، وأحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب ، وسبى رسول الله ﷺ — نساءهم وذريتهم ، وقسم أموالهم بالنكت الذى نكتوا ، وأراد أن يجلبهم منها ، فقالوا : يا محمد ! دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ — ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خبير على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ — أن يقرهم ولم يقتل رسول الله ﷺ — بعد الصلح إلا ابنى أبى الحقيق للنكت الذى نكتوا ، فإنهم شرطوا إن غيبوا ، أو كتموا ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، فغيبوا ، فقال لهم : « أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجلبناكم »<sup>(١)</sup> قالوا : ذهب ، فحلفوا على ذلك ، فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ — إلى الزبير يعذبه ، فدفع رسول الله ﷺ — صفية بنت حبي بن أخطب وابنة عمته وكانت صفية تحت كنانة بن أبى الحقيق ، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول ، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله ، فمر بها بلال وسط القتلى ، فكره ذلك رسول الله ﷺ — وقال : « أذهبت الرحمة منك يا بلال »<sup>(٢)</sup> .

وعرض عليها رسول الله ﷺ — الإسلام ، فأسلمت ، فاصطفاها لنفسه ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها فى الطريق ، وأولم عليها ، ورأى بوجهها خضرة ، فقال « ما هذا ؟ »<sup>(٣)</sup> قالت : يا رسول الله ! رأيت قبل قدومك علينا ، كأن القمر زال من مكانه فسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى وقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة . ( رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح )<sup>(٤)</sup> .

وشك الصحابة : هل اتخذها سرية أو زوجة ؟ فقالوا : انظروا إن حجها ، فهى إحدى نسائه ، وإلا فهى مما ملكت يمينه ، فلما ركب ، جعل ثوبه الذى ارتدى به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته ، فتأخروا عنه فى السير ، وعلموا أنها إحدى نسائه ، ولما قدم ليحملها على الرحل أجلته أن تضع قدمها على فخذه ، فوضعت ركبته على فخذه ثم ركبته ( أخرجه البخارى )<sup>(٥)</sup> .

ولما بنى بها ، بات أبو أيوب ليلته قائماً قريباً من قبته ، أخذ بقائم السيف حتى أصبح ، فلما رأى رسول الله ﷺ — ذلك ، كبر أبو أيوب حين رآه قد خرج ، فسأله رسول الله ﷺ — مالك يا أبا أيوب ؟ فقال له : أرقّت ليلتى هذه يا رسول الله لما دخلت بهذه المرأة ، ذكرت أنك قتلت أباه وأخاه ، وزوجها وعامة عشيرتها ، فخفت أن تغتالك ، فضحك رسول الله ﷺ — وقال له معروفاً .

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الايبارى ، عبد الحفيظ شلى ح ٣ ص ٣٥١ بقية أمر خير

(٢) الحديث فى الاصابة فى تمييز الصحابة ح ١٣ ص ١٤

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ح ٢٤ ص ٦٦ — ٧٠

(٤) الحديث رواه الطبرانى ح ٢٤ ص ٦٦ — ٧٠

(٥) الحديث أخرجه البخارى — باب غزوة خير — ح ٥ ص ١٧١ ، ١٧٢

وقسم رسول الله ﷺ — خيبر على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم فكان لرسول الله ﷺ — وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ؟ ولرسول الله ﷺ — سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوابه وما ينزل به من أمور المسلمين<sup>(١)</sup>

وقال ابن القيم : وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ، ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ﷺ — كسهم من حضرها .

قال موسى بن عقبة وغيره : وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ — إلى خيبر تراهن عظيم وتبايع ، فمنهم من يقول : يظهر محمد وأصحابه-، ومنهم يقول : يظهر الحليفان ويهود خيبر ، وكان الحجاج بن علاط السلمي قد أسلم وشهد فتح خيبر ، وكانت تحته أم شيبه أخت بنى عبد الدار بن قصي ، وكان الحجاج مكثراً من المال ، كانت له معادن بأرض بنى سليم ، فلما ظهر النبي ﷺ — على خيبر ، قال الحجاج ابن علاط : إن لي ذهباً عند امرأتي ، وإن تعلم هي وأهلها بإسلامي ، فلا مالي لي ، فأذن لي ، فلأسرع السير وأسبق الخبر ، ولأخبرن أخباراً إذا قدمت أدراً بها عن مالي ونفسي ، فأذن له رسول الله ﷺ — ، فلما قدم مكة ، قال لامرأته : أخفى عليّ واجمعي ما كان لي عندك من مال ، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استباحوا ، وأصبحت أموالهم ، وإن محمداً قد أسر ، وتفرق عنه أصحابه ، وإن اليهود قد أقسموا : لتبعثن به إلى مكة ثم لتقتلنه بقتلاهم بالمدينة ، ونشأ عن ذلك بمكة ، واشتد على المسلمين وبلغ منهم ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، فبلغ العباس عم رسول الله ﷺ — زجلة الناس وجلبتهم وإظهارهم السرور ، فأراد أن يقوم ويخرج ، فانخزل ظهره فلم يقدر على القيام ، فدعا ابناً له يقال له : قثم ، وكان يشبه رسول الله ﷺ — فجعل العباس يرتجز ، ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله :

حببي قثم صبي قثم شيبه ذي الأنف الأشم  
نبي ربي ذي النعم برغم أنف من رغم

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين منهم المظهر للفرح والسرور ، ومنهم الشامت المعزى ، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء ، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلبده ، طابت نفوسهم ، وظن المشركون أنه قد أتاها ما لم يأتهم ، ثم أرسل العباس غلاماً له إلى الحجاج ، وقال له : انحل به ، وقل له : ويلك ما جئت به ، وما تقول ، فالذى وعد الله خير مما جئت به ؟ فلما كلمه

الغلام قال له : اقرأ على أبي الفضل السلام ، وقل له : فليخل بي في بعض بيوته حتى آتيه ، فإن الخبر على ما يسره ، فلما بلغ العبد باب الدار ، قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحاً كأنه لم يصبه بلاء قط ، حتى جاءه وقبل ما بين عينيه ، فأخبره بقول الحجاج ، أخل به في بعض بيوتك حتى يأتيك ظهراً ، فلما جاءه الحجاج ، وخلا به ، أخذ عليه لتكتمن خبري ، فوافقته عباس على ذلك ، فقال له الحجاج : جئت وقد افتتح رسول الله ﷺ — خير ، وغنم أموالهم ، وجرت فيهم سهام الله ، وإن رسول الله ﷺ — قد اصطفى صفية بنت حبي لنفسه ، وأعرس بها ، ولكن جئت لمالي ، أردت أن أجمعه وأذهب به ، وإني استأذنت رسول الله ﷺ — أن أقول ، فأذن لي ، أن أقول ما شئت فاخف عليّ ثلاثاً ، ثم اذكر ما شئت ، قال : فجمعت له امرأته متاعه ، ثم انشمر راجعاً ، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك ، قالت : ذهب ، وقالت : لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذي بلغك ، فقال : أجل ، لا يحزنني الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب ، فتح الله على رسوله خير ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ﷺ — صفية لنفسه فإن كان لك في زوجك حاجة ، فالحق به . قالت : أظنك والله صادقاً . قال : فإني والله صادق ، والأمر على ما أقول لك ، قالت : فمن أخبرك بهذا ؟ قال : الذي أخبرك بما أخبرك ، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش ، فلما رأوه ، قالوا : هذا والله التجلّد يا أبا الفضل ، ولا يصيبك إلا خير ، قال : أجل لم يصبنى إلا خير ، والحمد لله ، أخبرني الحجاج كذا وكذا . وقد سألتني أن اكتم عليه ثلاثاً لحاجة ، فرد الله ما كان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين ، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر ، فأشرقت وجوه المسلمين ( أخرجه عبد الرزاق في المصنف وعنه أحمد وسند صحيح )<sup>(١)</sup>

## فصل

### فيما كان في غزوة خير من الأحكام الفقهية

قال العلامة ابن القيم :

فمنها : محاربة الكفار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم ، فإن رسول الله ﷺ — رجع من الحديبية في ذي الحجة ، فمكث بها أياماً ، ثم سار إلى خير في الحرم ، كذلك قال الزهري عن عروة ، عن مروان والمصور بن مخرمة ، وكذلك قال الواقدي : خرج في أول سنة سبع من الهجرة ، ولكن في الاستدلال بذلك نظر ، فإن خروجه كان في أواخر الحرم لا في أوله ، وفتحها إنما كان في صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبي ﷺ — عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال وألا يفروا ، وكانت في ذي القعدة ،

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الايباري ، عبد الحفيظ شلبي — ح ٣ ص ٣٥٩ — ٣٦١ — في فتح خير

ولكن لا دليل في ذلك ؛ لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحيثذ بايع الصحابة ، ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو ، إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء ، فالجمهور أجوزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله .

وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ ، وكان عطاء يحلف بالله : ما يحل القتال في الشهر الحرام ، ولا نسخ تحريمه شيء . وأقوى من هذين الاستدلالتين الاستدلال بحصار النبي ﷺ — للطائف ، فإنه خرج إليها في أواخر شوال ، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، فبعضها كان في ذى القعدة ، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة ، ففتح الله عليه هوازن ، وقسم غنائمها ، ثم ذهب إلى الطائف ، فحاصرها بضعا وعشرين ليلة ، وهذا يقتضى أن بعضها في ذى القعدة بلا شك . فهذا الحصار وقع في ذى القعدة بلا ريب ، ومع هذا فلا دليل في القضية ؛ لأن غزو الطائف كان من تمام غزو هوازن ، وهم بدؤوا رسول الله ﷺ — فكان غزوهم من تمام الغزوة التي شرع فيها ، والله أعلم . وقال الله تعالى في ( سورة المائدة ) وهي من آخر القرآن نزولاً ، وليس فيها منسوخ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ولا القلائد ﴾ <sup>(١)</sup>

وقال في سورة البقرة : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله ﴾ ( البقرة : ٢١٧ ) ، فهاتان آيتان مدينتان ، بينهما في النزول نحو ثمانية أعوام ، وليس في كتاب الله ولا سنة رسوله فانسوخ لحكمها ، ولا أجمعت الأمة على نسخه ، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ ( التوبة : ٣٦ ) ونحوها من العمومات ، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه ، ومن استدل عليه بأن النبي ﷺ — بعث أبا عامر في سرية إلى أوطاس في ذى القعدة ، فقد استدل بغير دليل ، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التي بدأ فيها المشركون بالقتال ، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم في الشهر الحرام .

ومنها : قسمة الغنائم ، للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم .

ومنها : أنه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمسه كما أخذ عبد الله بن المفضل جراب الشحم الذي دُلِّي يوم خيبر ، واحتص به بمحضر النبي ﷺ —

ومنها : تحريم لحوم الحُمُر الإنسية ، صح عنه تحريمها يوم خيبر ، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس ، وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرّمها ؛ لأنها كانت تظهر القوم وحولتهم ، فلما قيل له : فنى الظهر وأكلت الحمر ، حرّمها ، وعلى قول من قال : إنما حرّمها لأنها لم تُخمس ، وعلى قول من قال : إنما حرّمها لأنها كانت حول القرية ، وكانت تأكل العذرة ، وكل هذا في « الصحيح » .

لكن قول رسول الله ﷺ — «إنها رجس» مقدم على هذا كله، لأنه من ظن الراوى، وقوله بخلاف التعليل بكونها رجس. ولا تعارض بين هذا التحريم وبين قوله تعالى ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحًى إِلَىٰ مُرْسَلٍ عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا، أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رَجَسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأنعام : ١٤٥)

فإن لم يكن قد حرم نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة، والتحريم كان يتجدد شيئاً فشيئاً، فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكنت عنه النص، لا أنه رافع لما أباحه القرآن، ولا مخصص لعمومه، فضلاً عن أن يكون ناسخاً. والله أعلم.

ومنها : جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ — أهل خيبر على ذلك، واستمر ذلك إلى حين وفاته لم ينسخ البتة، واستمر عمل خلفائه الراشدين عليه، وليس هذا من باب المؤاجرة في شيء، بل من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة سواء، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين.

ومنها : فرض الثمار على رؤوس النخل، وقسمها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً. ومنها : الاكتفاء بخارص واحد، وقاسم واحد.

ومنها : جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام نسخه متى شاء.

ومنها : جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ — أن لا يغيبوا ولا يكتموا.

ومنها : جواز تقرير أرباب التهم بالعقوبة، وأن ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة. ومنها : الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات، كما قال النبي ﷺ — لكنانة : «المال كثير، والعهد قريب»<sup>(١)</sup> فاستدل بهذا على كذبه في قوله : أذهبته الحروب والنفقة.

ومنها : أن من كان القول قوله إذا قامت قرينة على كذبه.. لم يلتفت إلى قوله، ونزل منزلة الخائن. ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئاً مما شرط عليهم، لم يبق لهم ذمة، وحلت دماؤهم وأموالهم؛ لأن رسول الله ﷺ — عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا، فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم، فلم لم يفوا بالشرط، استباح دماءهم وأموالهم. وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الشروط التي اشترطها على أهل الذمة، فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئاً منها، فقد حلّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والهداوة.

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه، كما تفاعل النبي ﷺ — بروية المساحي والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر، فإن ذلك فآل في خرابها.

ومنها : أن الإمام مخير في أرض العنوة بين قسمتها وتركها ، وقسم بعضها ، وترك بعضها .  
ومنها : جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم ، كما قال النبي — ﷺ — « نقرم ما أقرم الله »<sup>(١)</sup> وقال لكبيرهم : « كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً » ، وأجلاهم عمر بعد موته — ﷺ — وهذا مذهب محمد بن جرير الطبري ، وهو قول قوى يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة .

ومنها : جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره ، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن ، فمفسدة يسيرة في جنب المصلحة التي حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذي حصل بالخير الصادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سبباً في حصول هذه المصلحة الراجعة .  
ومنها : جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وحل طعامهم .

## فصل

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — من خير إلى وادي القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمي ، وهم على غير تعبئة ، فقتل مدغم عبد رسول الله ﷺ فقال الناس هنيئاً له الجنة فقال النبي ﷺ : « كلا والذي نفسى بيده ، إن الشملة التي أخذها يوم خير من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً »<sup>(٢)</sup> ، فلما سمع بذلك الناس ، جاء رجل إلى النبي ﷺ بشراك أو شركاين ، فقال النبي ﷺ « شراك من نار أو شركان من نار »<sup>(٣)</sup> .

فعبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه للقتال ، وحفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عباد ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم وحققوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام ، فقتله ، ثم برز آخر ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبي طالب — رضى الله عنه — فقتله ، حتى قتلوا منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل ، دعا من بقى إلى الإسلام ، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ،

(١) الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ح ٩ ص ٢٠٧

وفي صحيح البخارى — باب ما يجوز من الشروط في الاسلام — ح ٣ ص ٢٥٢

(٢) الحديث بمعناه في صحيح البخارى — كتاب الشروط — باب إذا اشترط في المزارعة إذا شئت أخرجتك — ح ٣ ص ٢٥٢ ط الشعب

(٣) الحديث في سنن النسائي — كتاب الأيمان والنذور — باب هل تدخل الأرضون في المال إذا نذر ح ٧ ص ٢٢

وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، وأقام رسول الله ﷺ — بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء ماواطاً عليه رسول الله ﷺ — أهل خيبر وفدك ووادى القرى ، صالحوا رسول الله ﷺ — وأقاموا بأموالهم ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى ؛ لأنهما داخلتان فى أرض الشام ، ويرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام . وانصرف رسول الله ﷺ — راجعاً إلى المدينة .

ثالثاً :

### فى عمرة القضية

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

قال نافع : كانت فى ذى القعدة سنة سبع . وقال سليمان التيمى لما رجع رسول الله ﷺ — من خيبر بعث السرايا — وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة ، ثم نادى فى الناس بالخروج . قال موسى بن عقبة : ثم خرج رسول الله ﷺ — من العام المقبل من عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج ( موضع قرب مكة على ثمانية أميال ) وضع الأداة كلها الحجف والمجان ، والنبل ، والرماح ، ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف وبعث رسول الله ﷺ — جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزف العامرية ، فخطبها إليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها العباس رسول الله ﷺ — فلما قدم رسول الله ﷺ — أمر أصحابه فقال : « اكشفوا عن المناكب ، واسعوا فى الطواف »<sup>(١)</sup> ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم . وكان يكايدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ﷺ — وأصحابه يطوفون بالبيت ، وعبد الله بن رواحه بين يدي رسول الله ﷺ — يرتجز متوشحاً بالسيف يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله      قد أنزل الرحمن فى تنزيله  
فى صحف تتلى على رسوله      يارب إنى مؤمن بقبيله  
إنى رأيت الحق فى قبوله      اليوم نضربكم على تأويله  
ضرباً يزيل الهام عن مقله      ويذهل الخليل عن خليله .

وتغيب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله ﷺ — حقناً وعيظاً ، فأقام رسول الله ﷺ — بمكة ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع ، أتاه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ورسول الله ﷺ — في مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباد ، فصاح حويطب الله والعقد لما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث ، فقال سعد بن عباد كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا نخرج ثم نادى رسول الله ﷺ — حويطب وسهيلاً ، فقال : « إني قد نكحت منكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونضع الطعام فنأكل ، وتأكلون معنا »<sup>(١)</sup> فقالوا : أنناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا ، فأمر رسول الله ﷺ — أبا رافع ، فأذن بالرحيل ، وركب رسول الله ﷺ — حتى نزل بطن سرف ، فأقام بها وخلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمسي ، فأقام حتى قدمت ومن معها ، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم ، فبنى بها بسرف ، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها .

وأما قول ابن عباس : إن رسول الله ﷺ — تزوج ميمونة وهو محرم وبني بها وهو حلال « فما استدرك عليه ، وعُد من وهمه ، قال سعيد بن المسيب : ووهم ابن عباس وأن كانت خالته ما تزوجها رسول الله ﷺ — إلا بعد ما حل<sup>(٢)</sup> » وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة : « تزوجني رسول الله ﷺ — ونحن حلالان بسرف »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم .

وقال أبو رافع : « تزوج رسول الله ﷺ — ميمونة ، وهو حلال ، وبني بها وهو حلال ، وكنت الرسول بينهما » صح ذلك عنه ( أخرجه أحمد )<sup>(٤)</sup> . وقد قيل : إنه تزوجها قبل أن يحرم ، وفي هذا نظر إلا أن يكون وكل في العقد عليها قبل إحرامه ، وأظن الشافعي ذكر ذلك قولاً ، فلا أقوال ثلاثة :

أحدها : أنه تزوجها بعد حله من العمرة ، وهو قول ميمونة نفسها وقول السفير بينهما وبين رسول الله ﷺ — وهو أبو رافع ، وقول سعيد بن المسيب وجمهور أهل النقل .

الثاني : أنه تزوجها وهو محرم ، وهو قول ابن عباس ، وأهل الكوفة وجماعة .

الثالث : أنه تزوجها قبل أن يحرم

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي — ح ٤ ص ١٤ باب عمرة القضاء

٢ — الحديث في السنن الكبرى للبيهقي ج ٧ ص ٥٨ — باب ما أبيع له من النكاح في الإحرام

وفي سنن أبي داود — ح ٢ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

٣ — الحديث في سنن الترمذي — كتاب الحج ح ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩

وفي صحيح مسلم بشرح النووي ح ٩ ص ١٩٦

٤ — الحديث في سنن الترمذي — كتاب الحج — ح ٢ ص ١٦٧ ، ١٦٨

وفي مسند أحمد ح ٦ ص ٣٣٢



وقد يُحمل قول ابن عباس أنه تزوجها ، وهو محرم على أنه تزوجها في الشهر الحرام ، لا في حال الإحرام ، قالوا ، ويقال : أحرم الرجل : إذا عقد الإحرام ، وأحرم : إذا دخل في الشهر الحرام وإن كان حلالاً وقد روى مسلم في « صحيحه » من حديث عثمان بن عفان — رضى الله عنه — قال سمعت رسول الله — ﷺ — يقول « لا ينكح المحرم ولا ينكح ، ولا يخطب »<sup>(١)</sup> ولو قدر تعارض القول والفعل ها هنا ، لوجب تقديم القول ؛ لأن الفعل موافق للبراءة الأصلية ، والقول ناقل عنها ، فيكون رافعاً لحكم البراءة الأصلية ، وهذا موافق لقاعدة الأحكام ، ولو قدم الفعل ، لكان رافعاً لموجب القول ، والقول رافع لموجب البراءة الأصلية ، فيلزم تغيير الحكم مرتين ، وهو خلاف قاعدة الأحكام والله أعلم .

ولما أراد النبي — ﷺ — الخروج من مكة ، تبعته ابنة حمزة تنادى ياعم ياعم ، فتناولها على بن أبي طالب — رضى الله عنه — فأخذ بيدها وقال لفاطمة : دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها على يزيد وجعفر ، فقال على : أنا أخذتها ، وهى ابنة عمى ، وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى ، وقال زيد : ابنة أخنى ( يريد الإخاء الذى عقده رسول الله — ﷺ — بينه وبين حمزة لما وصى بين المهاجرين ) فقضى بها رسول الله — ﷺ — لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم »<sup>(٢)</sup> وقال لعلى . « أنت منى وأنا منك »<sup>(٣)</sup> ، وقال لجعفر « أشبهت خَلْقِي وخُلُقِي »<sup>(٤)</sup> وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »<sup>(٥)</sup> متفق على صحته .

وفى هذه القصة من الفقه : أن الخالة مقدمة فى الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين ، وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها ، نفى أحمد فى رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها فى الجارية خاصة ، واحتج بقصة بنت حمزة هذه .

وقد اختلف فى سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال :

أحدها : تسقط به ذكراً كان أو أنثى ، وهو قول مالك ، والشافعى وأبى حنيفة ، وأحمد فى إحدى الروايات عنه .

والثانى : لا تسقط بخال ، وهو قول الحسن ، وابن حزم

والثالث : إن كان الطفل بنتاً ، لم تسقط الحضانة ، وإن كان ذكراً سقطت وهذه رواية عن أحمد — رحمه الله —

والرابع : أنها إذا تزوجت بنسب من الطفل ، لم تسقط حضانتها ، وإن تزوجت بأجنبى ، سقطت ...

١ — أخذت فى صحيح مسلم — كتاب النكاح — ح ٢ ص ١٠٣١

٢ — الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٤٠٩ من رواية البخارى ومسلم والدارمى وابن عوادة

٣ — الحديث فى مسند أحمد ح ١ ص ٩٨ ، ١٦٢

٤ — الحديث فى مسند أحمد ح ١ ص ٩٨ ، ١٠٨

٥ — الحديث فى صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب عمرة القضاء ح ٥ ص ١٧٩ ، ١٨٠

## فصل

واختلف في تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء ، هل هو لكونها قضاء للعمرة التي صدوا عنها ، أو من المقاضاة ؟ على قولين تقدما ، قال الوافدي بسنده عن ابن عمر ، قال : لم تكن هذه العمرة قضاء ، ولكن كان شرطاً على المسلمين أن يعتمروا في الشهر الذي حاصروهم فيه المشركون .

واختلف الفقهاء في ذلك على أربعة أقوال :

**أحدها :** أن من أحصر عن العمرة يلزمه الهدى والقضاء ، وهذا إحدى الروايات عن أحمد ، بل أشهرها عنه .

**والثاني :** لا قضاء عليه ، وعليه الهدى ، وهو قول الشافعي ، ومالك في ظاهر مذهبه ، ورواية أبي طالب عن أحمد .

**والثالث :** يلزمه القضاء ، ولا هدى عليه ، وهو قول أبي حنيفة ،

**والرابع :** لا قضاء عليه ، ولا هدى ، وهو إحدى الروايات عن أحمد .

فمن أوجب عليه القضاء والهدى ، احتج بأن النبي ﷺ — وأصحابه نَحَرُوا الهدى حين صدوا عن البيت ، ثم قضوا من قابل ، قالوا : والعمرة تلزم بالشروع فيها ، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها ، ونَحَر الهدى لأجل التحلل قبل تمامها ، وقالوا : وظاهر الآية يوجب الهدى ، لقوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ <sup>(١)</sup> . ومن لم يوجبها ، قالوا : لم يأمر النبي ﷺ — الذين أحصروا بالقضاء ولا أحداً منهم ، ولا وقف الحل على نحرهم الهدى ، بل أمرهم أن يَحْلِقُوا رؤوسهم ، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه . ومن أوجب الهدى دون القضاء احتج بقوله ﴿ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومن أوجب القضاء دون الهدى ، احتج بأن العمرة تلزم بالشروع ، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار ، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق ، ولا يوجب تحلل التحلل بين الإحرام بها أولاً ، وبين فعلها في وقت الإمكان شيئاً ، وظاهر القرآن يرد هذا القول ، ويوجب الهدى دون القضاء ، لأنه جعل الهدى هو جميع ما على المحصر ، فدل على أنه يكتفى به منه والله أعلم .

وفي نحره — ﷺ — وحله ، دليل على أن المحصر بالعمرة يتحلل ، وهذا قول الجمهور .

وفي ذبحه — ﷺ — بالحديبية وهي من الحل بالاتفاق ، دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم ، وهذا قول الجمهور ، وأحمد ومالك والشافعي . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه ليس

له نحر هديه إلا في الحرم ، فيبعثه إلى الحرم ، ويواطىء رجلاً على أن ينحره في وقت يتحلل فيه ، وهذا يروى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — وجماعة من التابعين . وهو قول أئى حنيفه .  
وهذا إن صح عنهم فينبغى حملة على الحصر الخاص ، وهو أن يتعرض ظالم لجماعة أو لواحد ، وأما الحصر العام ، فالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ — تدل على خلافه ، والحديية من الحل باتفاق الناس ، وقد قال الشافعى : بغضها من الحل ، وبعضها من الحرم ، قلت : ومراده أن أطرافها من الحرم وإلا فهى من الحل باتفاقهم ...

رابعاً :

### في الفتح الأعظم ( فتح مكة )

الذى أعز الله به دينه ، ورسوله ، وجنده ، وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجا ، فرج له رسول الله ﷺ — بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى ، وقال ابن سعد بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم .  
وكان السبب الذى جر إليه ، وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازى والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار ، أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة — وهم على ماء يقال له : الوتير — فبيتوهم وقتلوا منهم ، وكان الذى هاج ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى يقال له : مالك بن عباد خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من بنى خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة على بنى الأسود وهم سلمى ، وكتنوم ، وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، هذا كله قبل المبعث ، فلما بعث رسول الله ﷺ — وجاء الإسلام ، حجز بينهم ، وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كان صلح الحديية بين رسول الله ﷺ — وبين قريش ، وقع الشرط : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ﷺ — وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم ، فعل ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ — وعهده ، فلما استمرت الهدنة ، اغتتمها بنو بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الدبلى فى جماعة من بنى بكر ، فبيت خزاعة وهم على الوتير ، فأصابوا منهم رجلاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفياً ليلاً ، ذكر ابن سعد منهم : صفوان بن أمية ، وحويطب بن عبد العزى ، ومكيز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إهلك إهلك . فقال كلمة عظيمة :

لا إله له اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا تأركم ، فلعمري إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون تأركم فيه ؟ !  
فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم يقال له : رافع ، ويخرج  
عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله — ﷺ — فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين  
ظهراى أصحابه فقال :

يارب إني ناشد محمداً      حلف أيينا وأبيه الاتلدا .  
قد كنتم ولداً وكنا والدا      ثمت أسلمنا ولم تنزع يدا  
فانصر هداك الله نصراً أبداً      وادع عباد الله يأتوا مددا  
إن سيم خسفا وجهه تربداً      فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا  
إن قريشا أخلفوك الموعدا      ونقضوا ميثاقلك المؤكدا  
وجعلوا لى فى كداء رصداً      وزعموا أن لست تدعو أحدا  
وهم أذل وأقل عدداً      هم بيوتا بالوتير هجداً

### وقتلونا ركعاً وسجداً

يقول : قُتلنا وقد أسلمنا ، فقال رسول الله — ﷺ — : « نُصرت يا عمرو بن سالم » ثم عرضت  
سحابة لرسول الله — ﷺ — فقال « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب » ، ثم خرج بديل  
بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله — ﷺ — ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة  
قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة ، فقال رسول الله — ﷺ — للناس « كأنكم بأى سفیان ،  
وقد جاء ليشد العقد ويزيد فى المدة » <sup>(١)</sup> .

ومضى بديل بن ورقاء فى أصحابه حتى لقوا أبا سفیان بن حرب بعُسفان وقد بعثته قريش إلى رسول  
الله — ﷺ — ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا ، فلما لقي أبو سفیان بديل بن  
ورقاء ، قال : من أين أقبلت يا بديل ؟ فظن أنه أتى النبى — ﷺ — فقال : سرت فى خزاعة فى هذا  
الساحل ، وفى بطن هذا الوادى ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة ، قال  
أبو سفیان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففته ، فرأى  
فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفیان حتى قدم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيب ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول  
الله — ﷺ — طوته عنه ، فقال : يا بنية ما أدرى أرغبت لى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت :  
بل هو فراش رسول الله — ﷺ — وأنت مشرك بخمس ، فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ — فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ — فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ — فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يذب بين يديهما ، فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحما ، وإني قد جئت في حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لي إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : « هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ — قال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيا عني شيئا ، قال : لا والله ما أظنه ، ولكني ما أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس ! إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله مارد على شيئا ، ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار على بشيء صنعته فوالله ما أدرى ، هل يغنى عني شيئا ، أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت ، فقالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله ﷺ — الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة — رضى الله عنها — وهى تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ — فقال ، أى بنية ، أمر كن رسول الله ﷺ — بتجهيزه ؟ قالت : نعم ، فأين تريه يريد ، قالت : لا والله ما أدرى ثم إن رسول الله ﷺ — أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، فأمرهم بالجد والتجهيز ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها »<sup>(١)</sup> فتجهز الناس . فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ — إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون في رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله ﷺ — الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها طعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما ، حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالوا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب ، ففتشا رحلها ، فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على — رضى الله عنه — أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ — ولا كذبتنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأته الجدد منه ، قالت : أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ،

فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله — ﷺ — حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل على يارسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ، ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأةً ملصقاً فى قريش لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة ، يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، فقال عمر بن الخطاب : دعنى يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله — ﷺ — : « إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم »<sup>(١)</sup> فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — وهو صائم ، والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد — وهو الذى تسميه الناس اليوم قديداً — أفطر وأفطر الناس معه . ( أخرجه البخارى )

ثم مضى حتى أنزل من الظهران ، وهو بطن مر ، ومعه عشرة آلاف ، وعمى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقى رسول الله — ﷺ — بالجحفة ، وقيل : فوق ذلك ، وكان ممن لقيه فى الطريق ابن عمه سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبى أمية لقياه بالأبواء ، وهما ابن عمه وابن عمته ، فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبى سفيان فيما حكاه أبو عمر : أتت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾<sup>(٢)</sup> فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله — ﷺ — « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »<sup>(٣)</sup>

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إني حين أحمل راية      لتغلب خيل اللات خيل محمد  
لكا لمدج الحيران أظلم ليلة      فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى  
هدانى هادٍ غير نفسى ودلتنى      على الله من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله — ﷺ — صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد »<sup>(٤)</sup> وحسن إسلامه بعد ذلك .

٢ — الآية ٩٢ من سورة يوسف

١ — الآية : ٩١ من سورة يوسف

٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٢٠

وفى المستدرک للحاکم ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤ ، وسنده جيد ، وصححه الحاکم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى

ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ — منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله ﷺ — يحبه وشهد له بالجنة وقال : « أرجو أن يكون خلفاً من حمزة »<sup>(١)</sup> ولما حضرته الوفاة ؛ قال : لا تبكوا علي ، فوالله ما نطقت بخبطة منذ أسلمت .

فلما نزل رسول الله ﷺ — من الظهران ، نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله ﷺ — الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وركب العباسي بغلة رسول الله ﷺ — البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحطابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ — قبل أن يدخلها عنوة ، قال : والله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل بن ورقاء وهما بتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرياً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة فعرف صوتي ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : ما لك فذاك أبى وأمى ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ — فى الناس واصباح قريش والله : ، قال : فما الحيلة فذاك أبى وأمى ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ — فاستأمنه لك ، فركب خلفي ورجع أصحابه ، قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : « من هذا ؟ » فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ — قالوا : عم رسول الله ﷺ — على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلي ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ — ، وركضت البغلة فسبقت ، فافتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ — ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله : هذا أبو سفيان ، فدعنى أضرب عنقه ، قال : قلت : يارسول الله ﷺ — إني قد أجرتة ، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ — فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يتاجيه الليلة أحد دوني ، فلما أكثر عمر فى شأنه ، قلت : مهلاً يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً يا عباس ، « فوالله لأسلامك كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ — من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله ﷺ — « اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » فذهبت فلما أصبحت ، غدوت به إلى رسول الله ﷺ — قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ »<sup>(٢)</sup> قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك ،

١ — الحديث فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة — فى ترجمة أبى سفيان بن الحارث القرظى ح ٦ ص ١٤٦ رقم ٥٩٥٩

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٢٢

وأكرمك ، وأوصلك ، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئاً بعد ، قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمّا هذه ، فإن فى النفس حتى الآن منها شيئاً ، فقال له العباس ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام ، فهو آمن » <sup>(١)</sup> .

وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله ، فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : يا عباس ، من هذه ؟ فأقول : سليم ، قال : فيقول : مالى ولسليم ، ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس ! من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألتنى عنها ، فإذا أخبرت بهم قال : مالى ولبنى فلان حتى مر به رسول الله ﷺ — فى كتيبه الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد قال : سبحان الله يا عباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله ﷺ — فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان : إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قال : قلت : النجاء إلى قومك . وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد ، فلما مر بأبى سفيان ، قال له ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمه ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله ﷺ — أبا سفيان ، قال : يا رسول الله ﷺ — ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ، فقال : كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يا رسول الله ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله ﷺ — « بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ثم أرسل رسول الله ﷺ — إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه ، قال أبو عمر : ورؤى أن النبى ﷺ — لما نزع منه الراية ، دفعها إلى الزبير .

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشاً ، صرخ بأعلى صوته يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت اقتلوا الحميت الدسم ، الأحمش السابقين ، قُبِح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لَكُمْ به ، من دخل دار أبى سفيان ، فهو آمن ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وسار رسول الله ﷺ — فدخل مكة



من أعلاها ، وضربت له هنالك قبة ، وأمر رسول الله ﷺ — خالد بن الوليد أن يدخلها من أسلفها ، وكان على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم ، وسليم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسُر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، وقال لخالد ومن معه : إن عرض لكم أحد من قريش ، فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا ، فما عرض لهم أحد إلا أناموه ، وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخدمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ — فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لحمد وأصحابه ، قالت والله ما يقوم لحمد وأصحابه شيء ، قال : إني والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لي عله هذا سلاح كامل وألّه  
وذو غرارين سريع السّلة

ثم شهد الخدمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون نأوشوهم شيئاً من قتال ، فقتل كُرزين جابر الفهري ، وخنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين ، وكانا في خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وأصيب من المشركين نحو اثني عشر رجلاً ، ثم انهزموا ، وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلّقي عليّ بابي ، فقالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخدمة إذ قرّ صفوان وفرّ عكرمة  
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة يقطعن كل ساعد وجمجمة  
ضرباً فلا نسمع إلا غمغمة لهم نهيت خلفنا وهممة  
لم تنطق في اللوم أدنى كلمة .

وركزت راية رسول الله ﷺ — بالحجون عند مسجد الفتح .  
ثم نهض رسول الله ﷺ — والمهاجرون والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت ، وفي يده قوس ، وحول البيت ، وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعن بالقوس ويقول : ( جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ) ( جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد )<sup>(١)</sup> والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرماً يوماً ، فاقصر على الطواف ، فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال :

« قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط »<sup>(١)</sup> ورأى في الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيث .

ثم أغلق الباب ، وعلى وأسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صنوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضاً وتى الباب ، وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر وعده ، وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال أو دم ، فهو تحت قدمي هاتين الإسدانة وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ »<sup>(٢)</sup> قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه على — رضى الله عنه — ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يا رسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية — ﷺ — فقال رسول الله — ﷺ — « أين عثمان بن طلحة ؟ »<sup>(٣)</sup> فدعى له ، فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء »<sup>(٤)</sup> وأمر رسول الله — ﷺ — بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسير ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغضبه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى — ﷺ — فقال لهم : « قد علمت الذى قلت »<sup>(٥)</sup> ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخيرك ثم دخل رسول الله — ﷺ — دار أم هانئ بنت أبى طالب ، فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكانت ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً ، صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله — ﷺ — وفى القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله عليه ، فإنها قالت : ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٢

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٢

٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محبى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٣

وأجارت أم هانئ حموين لها ، فقال لها رسول الله ﷺ — : « قد أجزنا من أجرت يا أم هانئ »<sup>(١)</sup> .

ولما استقر الفتح ، آمن رسول الله ﷺ — الناس كلهم إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت ستار الكعبة ، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعبد العزى بن خطل ، والحرث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابه ، وهبار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، كانت تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ — ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب .

فأما ابن أبي سرح فأسلم ، فجاء به عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ﷺ — فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك ، وهاجر ، ثم أردت ، ورجع إلى مكة . وأما ابن خطل ، والحرث ، ومقيس ، وإحدى القينتين ، فقتلوا ، وكان مقيس ، قد أسلم ، ثم ارتد وقتل ، ولحق بالمشركين ، وأما هبار بن الأسود ، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ — حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ﷺ — لسارة وإحدى القينتين ، فأمنهما فأسلمتا . فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله ﷺ — في الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بما هو أهله ، ثم قال : « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ — فقولوا : إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » ( أخرجه البخارى )<sup>(٢)</sup> .

ولما فتح الله مكة على رسوله ، وهى بلده ، ووطنه ، ومولده ، قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ — إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ، وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه ؟ فلما فرغ من دعائه ، قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شئء يا رسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ﷺ — : « معاذ الله ، الحيا حياكم والممات مماتكم » ( أخرجه مسلم )<sup>(٣)</sup> .

(١) — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣١

(٢) — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٥ ، ٣٦

وفي صحيح البخارى — باب غزوة الفتح — ح ٥ ص ١٩٤ ط الشعب

(٣) — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٦

وفي صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير ح ٣ ص ١٤٠٦ ، ١٤٠٨

وهم فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ﷺ — وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله ﷺ — أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك »<sup>(٢)</sup> ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله ، فضحك النبي ﷺ — ثم قال : « استغفر الله »<sup>(٣)</sup> ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلم إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا  
يا أبى عليك الله والإسلام  
لو قد رأيت محمداً وقبيله  
بافتح يوم تكسر الأصنام  
لرأيت دين الله أضحى بيناً  
والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفريومث صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فأما صفوان ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ — فأمنه وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فردّه ، فقال اجعلنى فيه بالخيار شهرين ، فقال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر :

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام تحت عكرمة بن أبى جهل فأسلمت ، واستأمنت له رسول الله ﷺ — فأمنه فلحقت به باليمن ، فأمنته فردته ، وأقرهما رسول الله ﷺ — هو وصفوان على نكاحهما الأول .

ثم أمر رسول الله ﷺ — تميم بن أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم ( حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم ) ، وبث رسول الله ﷺ — سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره » .

## فصل

### فى الإشارة إلى ما فى الغزوة من الفقه واللطائف

قال ابن القيم :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدي هذا الفتح العظيم ، آمن الناس به ، وكلم بعضهم بعضاً وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ،

١ — الحديث فى سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٣

٢ — الحديث فى سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٣٧

ودخل بستبيه بشر كثير في الإسلام ، ولهذا سماه الله فتحاً في قوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ نزلت في شأن الحديبية ، فقال عمر : يا رسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : « نعم »<sup>(١)</sup> وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحاً فقال ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ﴾ إلى قوله ﴿ فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ .

وهذا شأنه سبحانه وتعالى أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبهة عليها ، كما قدم بين يدي قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا ، وخلق الولد له مع كونه كبيراً لا يولد مثله ، وكما قدم بين يدي نسخ القبلية قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه ، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ ، وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له ، وهكذا ما قدم بين يدي مبعث رسوله — ﷺ — من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله — ﷺ — كانت مقدمة بين يدي الوحي في اليقظة ، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدي الأمر بالجهاد ، ومن تأمل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر كلمته الأبواب .

وفيهما : أن أهل العهد إذا حاربوا من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده ، صاروا حرباً له بذلك ، ولم يبق بينهم وبينه عهد ، فله أن يبيتهم في ديارهم ، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء ، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة ، فإذا تحققها ، صاروا نابذين لعهده .

وفيهما : انتقاض عهد جميعهم بذلك ، ردئهم ومباشرهم إذا رضوا بذلك ، وأقروا عليه ولم ينكروه ، فإن الذين أعانوا بني بكر من قريش بعضهم ، لم يقاتلوا كلهم معهم ، ومع هذا فغزاهم رسول الله — ﷺ — كلهم ، وهذا كما أنهم دخلوا في عقد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح ، إذ قد رضوا به وأقروا عليه ، فكذلك حكم نقضهم للعهد ، هذا هدى رسول الله — ﷺ — لا شك فيه كما ترى ...

وهذا حكم قطاع الطريق ، حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأن المباشر إنما باشر الإفساد بقوة الباقين ، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ، وهو مذهب أحمد ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وغيرهم .

وفيهما : جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين ، وهل يجوز فوق ذلك ، الصواب : أنه يجوز للحياجه والمصلحة الراجحة كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم ، وفي العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

وفيهما : أن الإمام وغيره إذا سئل ما لا يجوز بذله ، أو لا يجب ، فسكت عن بذله ، لم يكن سكوته بذلاً له ، فإن أبا سفيان سأل رسول الله ﷺ — تجديد العهد ، فسكت رسول الله ﷺ — ولم يجبه بشيء ، ولم يكن بهذا السكوت معاهداً له .

وفيهما : أن رسول الكفار لا يقتل ، فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ، ولم يقتله رسول الله ﷺ — إذ كان رسول قومه إليه .

وفيهما : جواز تبيت الكفار ، ومغافضتهم ( أى أخذهم على غرة ) في ديارهم إذ كانت قد بلغتهم الدعوة ، وقد كانت سرايا رسول الله ﷺ — يبيتون الكفار ، ويغيرون عليهم بإذنه بعد أن بلغتهم دعوته .

وفيهما : جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً ؛ لأن عمر — رضى الله عنه — سأل رسول الله ﷺ — قتل حاطب بن أبى بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ، ولم يقل رسول الله ﷺ — : لا يحل قتله أنه مسلم ، بل قال : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم »<sup>(١)</sup> فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله ، وهو شهوده بداراً ، وفي الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع ، وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين في مذهب أحمد ، وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا يقتل ، وهو ظاهر مذهب أحمد ، والفريقان يحتجون بقصة حاطب ، والصحيح أن قتله راجع إلى الإمام ، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح ، استبقاه ، والله أعلم .

وفيهما : جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة ، فإن علياً والمقداء قالوا للظعينة : لتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

وفيهما : أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإن لا يكفر بذلك ، بل لا يأثم به ، بل يثاب على نيته وقصده ، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويبدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفروه وبدعوه .

وفيهما : أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجسُّ من حاطب بشهوده بداراً ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة ، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرحه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسِّ من المفسدة ، وتضمنته من بغض الله لها ، فغلب الأقوى على الأضعف ، فأزاله ، وأبطل مقتضاه ، وهذه حكمة الله في الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات ، الموجبين لصحة القلب ومرضه ، وهى نظير حكمته تعالى في الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منها يقهر المغلوب ، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف ، فهذه حكمته في خلقه وقضائه ، وتلك حكمته في شرعه وأمره ...

فتأمل قوة إيمان حاطب التي حملته على شهود بدر ، وبذله نفسه مع رسول الله ﷺ — وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرائى العدو ، وفى بلدهم ، ولم يتن ذلك عنان عزمه ، ولا فل من حد إيمانه ومواجهته للقتال من أهله وعشيرته وأقاربه عندهم فلما جاء مرضى الجسى ، برزت إليه هذه القوة ، وكان البحران صالحاً فاندفع المرضى ، وقام المريض ، كأن لم يكن به قلبه ولما رأى الصيب قوة إيمانه قد استعملت على مرض جسده وقهرته ، قال لمن أراد فصده : لا يحتاج هذا العارف إلى فصاد ، « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم »<sup>(١)</sup> وعكس هذا ذو الخويصرة التميمي وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم فى الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يحقر أحد الصحابة عمله معه ، كيف قال فيهم : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »<sup>(٢)</sup> وقال « اقلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم »<sup>(٣)</sup> . وقال « شر قتلى تحت أديم السماء » ( أخرجه مسلم ) . فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة .

وتأمل فى حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة فى نفسه ، لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ، ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به ، وكذلك الذى آتاه الله آياته ، فانسلك منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله ، فالمعول على السرائر والمقاصد والنيات والهمم ، فهى الإكسير الذى يقلب نحاس الأعمال ذهباً ، أو يردّها خبثاً ، وبالله التوفيق .

ومن له لب وعقل ، يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته فى خلقه ، وأمره ، وثوابه ، وعقابه ، وأحكام الموازنة ، وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن فى المعاش والمعاد ، وتفاوت المراتب فى ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

وفىها : جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيبتهم لرسول العدو إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام ، كما أمر النبى ﷺ — بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة ، وأمر العباسي أن يحبس أبا سفيان عند حظيم الجبل ، وهو ما تضايق منه حتى عرضت عليه عساكر الإسلام ، وعصاة التوحيد وجند الله ، وعرضت عليه خاصكية رسول الله ﷺ — ( وهم الجند الخاص بحراسة الأمير ) وهم فى السلاح منهم إلا الحدق ، ثم أرسله ، فأخبر قريشاً بما رأى .

وفىها : جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام ، كما دخل رسول الله ﷺ — والمسلمون ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا خلاف أنه لا يدخلها من أراد الحج أو العمرة إلا بإحرام ، واختلف فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخول لحاجه متكررة ، كالحشاش والخطاب على ثلاثة أقوال :

١ - الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٧

٢ - الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — ح ٢ ص ٧٤٢

٣ - الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — ح ٢ ص ٧٤٧

أحدها : لا يجوز دخولها إلا بإحرام ، وهذا مذهب ابن عباس — رضى الله عنه — وأحمد في ظاهر مذهبه ، والشافعى في أحد قوليهِ .  
والثانى : أنه كالجشاش والخطاب ، فيدخلها بغير إحرام ، وهذا القول الآخر للشافعى ، ورواية عن أحمد .

والثالث : أنه إن كان داخل المواقيت ، جاز دخوله بغير إحرام ، وإن كان خارج المواقيت ، لم يدخل إلا بإحرام ، وهذا مذهب أبى حنيفة ، وهدى رسول الله — ﷺ — معلوم فى المجاهد ، ومريد النسك ، وأما من عداهما فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، أو أجمعت عليه الأمة .  
وفى القصة : أن النبى — ﷺ — دخل البيت ، وصلى فيه ، ولم يدخله حتى محيى الصور منه ، ففيه دليل على كراهية الصلاة فى المكان المصور ، وهذا أحق بالكراهة من الصلاة فى الحمام ؛ لأن كراهة الصلاة فى الحمام ، إما لكونه مظنة النجاسة ، وإما لكونه بيت الشيطان ، وهو الصحيح ، وأما حمل الصور ، فمظنة الشرك ، وغالب شرك الأمم كان من جهة الصور والتبور .

وفى القصة : أنه دخل مكة ، وعليه عمامة سوداء ، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانا ، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعارا لهم ، ولولاتهم ، وقضاتهم ، وخطبائهم والنبى — ﷺ — لم يلبسه لباساً راتياً ، ولا كان شعاره فى الأعياد ، والجمع ، والجامع العظام البتة ، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح . دون سائر الصحابة ، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد ، بل كان لواؤه أبيض . وفى قصة الفتح من انفق : جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبى — ﷺ — أمان أم هانئ لحمويها . وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذى تغلظت رذته من غير اشتباهه ، فإن عبد الله بن مسعود بن أنى سرح كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحى لرسول الله — ﷺ — ثم ارتد ، ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله — ﷺ — ليبيعه فأمسك عنه طويلاً ، ثم بايعه ، وقال : « إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم ، فيضرب عنقه » فقال له رجل : هَلَّا أومأت إلى يارسول الله ؟ فقال : « ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . ( أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبي )<sup>(١)</sup> فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه ، وهجرته ، وكتابة الوحى ، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن فى الإسلام ويعيبه ، وكان رسول الله — ﷺ — يريد قتله ، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبى — ﷺ — بقتله حياء من عثمان ، ولم يبيعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله ، فهابوا رسول الله — ﷺ — أن يقدموا على قتله بغير إذنه ، واستحى رسول الله — ﷺ — من عثمان ، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح ، فبايعه ، وكان ممن



استثنى الله بقوله : ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ (١) .  
وقوله — ﷺ — « ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » (٢) أى : أن النبي — ﷺ — لا يخالف ظاهره باطنه ، ولا سره علانيته ، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يؤم به ، بل صرح به وأعلنه ، وأظهره .

### خامساً : غزوة حنين .

قال العلامة ابن القيم في الزاد :

### في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس .

وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة هوازن ؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله — ﷺ —

قال ابن إسحاق : ولما سمعت هوازن برسول الله — ﷺ — وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصرى واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت إليه مُضَرٌ وجُشَمٌ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدوا من قيس عيلان إلا هؤلاء ، ولم يحضرها من هوازن كعب ، ولا كلاب ، وفي جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رؤية ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرباً ، وفي ثقيف سيدان لهم ، وفي الأحلاف قارب بن الأسود ، وفي بنى مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى ، فلما أجمع السير إلى رسول الله — ﷺ — ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حزن خيرس ، ولا سهل دهنس . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبكاء الصبى ، ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم . قال أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودعى له : قال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ ! قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم فقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شيء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،

١ — الآيات ٨٦ إلى ٨٩ من سورة آل عمران

٢ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ح ٤ ص ٢٩

وإن كانت عليك ، فضحت في أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب و كلاب ؟ قالوا : لم يشهدا أحداً منهم . قال : غاب الحد والجُد ، لو كان يوم علاء ورفعة ، لم تغب عنا كعب ولا كلاب ولوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب و كلاب ، فمن شهدا منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ؟ قال : ذاك الجذعان من عامر ( يريد أنهما ضعيفان في الحرب ) ولا ينفعان ولا يضران . يامالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نخور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمتع بلادهم وعليا قومهم ، ثم الق الصباة على متون الخيل فإن كانت لك ، لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك ألفاك ذلك ، وقد أحرزت أهلك ومالك ، قال : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لتطيعنني يامعشر هوازن ، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فقالوا : أطعنك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني .

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد ، وبعث عيوننا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُليق ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فوالله مارده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد . ولما سمع بهم نبي الله — ﷺ — بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد الأسلحة ، وأمره أن يدخل في الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبي حدرد ، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله — ﷺ — وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله — ﷺ — السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : « ياأبا أمية ! أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً » فقال صفوان : أغضباً ياحمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك »<sup>(١)</sup> ، فقال ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله — ﷺ — سأله أن يكفيهم حملها ، ففعل . ثم خرج رسول الله — ﷺ — معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، وكانوا اثني عشر ألفاً ، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

قال ابن إسحاق : فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في وادي من أودية تهامة أجوف حطوط ( منحدر ) ، إنما تنحدر فيه انحداراً . قال : وفي عماية الصباح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي ، فكمنوا لنا في شعبه وأصنائه ومضايقه قد أجمعوا ، وتهيؤوا ، وأعدوا فوالله ما راعنا — ونحن منحطون — إلا الكتائب ،

قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله ﷺ — ذات اليمين ، ثم قال : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إليّ أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله »<sup>(١)</sup> ، وبقي مع رسول الله ﷺ — نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه ، والفضل بن العباس ، وربيع بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأمين بن أم أيمن ، وقتل يومئذ .

قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رمح طويل أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك ، طعن برمحه ، وإذا فاتته الناس ، رفع رمحه لمن ورائه فاتبعوه ، فبينما هو كذلك إذ أهوى عليه علي بن أبي طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ، قال : فأقى علي بن خلفه ، فضرب عرقوبى الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل ، فضربه ضربة أطعن قدمه بنصف ساقه ، فأنجعف عن رحله ، قال : فاجتلد الناس ، قال : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ — .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المسلمون ، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ — من جفأة أهل مكة الهزيمة فكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزام لمعه في كنانته ، وصرخ جبلة بن الحنبل — وقال ابن هشام : صوايه كَلْدَة — ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يرُبني رجل من قریش أحب إلي من أن يرُبني رجل من هوازن وقال ابن إسحاق : وحدثني الزهري ، عن كثير بن العباس ، عن أبيه العباس بن عبد المطلب ، قال : إني لمع رسول الله ﷺ — آخذ بحكمة بغلته البيضاء ، قد شجرتها بها ، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ، قال : رسول الله ﷺ — يقول حين رأى ما رأى من الناس : « إلى أين أيها الناس ؟ » . قال : فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : « يا عباس اصرخ : يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السَّمرَة » ، فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ﷺ — حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار ، ثم خلصت آخراً : يالللخزرج ، وكان صبراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ — في ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم ، وهم يجتلدون . فقال : « الآن حمى الوطيس »<sup>(١)</sup> وزاد غيره .

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب »<sup>(١)</sup>

وفي « صحيح مسلم » : ثم أخذ رسول الله ﷺ — حصيات ، فرمى بها في وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد »<sup>(٢)</sup> فما هو إلا أن رماهم ، فمازلت أرى أحدهم كليلاً ، وأمرهم مديراً . وفي لفظ له . إنه نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، وقال : « شأته الوجوه »<sup>(٣)</sup> فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين .

وذكر ابن إسحاق عن جبير بن مطعم ، قال : لقد رأيت — قبل هزيمة القوم ، والناس يقتتلون يوم حنين — مثل البجاد الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا مثل أسود مبثوث قد ملأ الوادي ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فلم أشك أنها الملائكة .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وبعث رسول الله ﷺ — في آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعري ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعري ، وهو ابن أخيه ، فقاتلهم ففتح الله عليه ، فهزمهم الله ، وقتل قاتل أبي عامر ، فقال رسول الله ﷺ — : « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر وأهله ، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك واستغفر لأبي موسى »<sup>(٤)</sup> .

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بخصن ثقيف ، وأمر رسول الله ﷺ — بالسبي والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ، ووجهوه إلى الجعرانة ، وكان السبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ — أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة .

ثم بدأ بالأموال فقسّمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ، ومائة من الإبل فقال : ابني يزيد ؟ فقال : « أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل »<sup>(٥)</sup> فقال : ابني معاوية ؟ قال : « أعطوه أربعين أوقية ، ومائة من الإبل »<sup>(٦)</sup> ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ،

١ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ح ١ ص ٥٥٤ من رواية مسلم وأحمد والطبراني في الكبير وفي صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير — ح ٣ ص ١٤٠٢

وفي مسند أحمد ح ١ ص ٣٦٨ ، ص ٢٨٦

٢ — الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ح ١ ص ٣٨٨ عن رواية البخاري ومسلم وفي صحيح البخاري — باب أوطاس ح ٥ ص ١٩٨ ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — ح ٤ ص ١٩٤٣ ، ١٩٤٤

٣ ، ٤ — الحديث بمعناه في أسد الغابة في معرفة الصحابة — في ترجمة أبي سفيان الأموي وهو : صخر بن حرب رقم ٢٤٨٤

ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث بن كلده مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين ، وذكر أصحاب المائة — وأصحاب الخمسين — وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال في ذلك شعرا ، فأكمل له المائة . ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ، ثم فضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة . فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بغيراً وعشرين ومائة شاة قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش ، وفي قبائل العرب ، ولم يكن في الأنصار منها شيء ، ووجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ — قومه ، فدخل عليه سعد بن عباد ، فقال : يا رسول الله ! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفء الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظيماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار منها شيء . هـ .

قال : « فأين أنت من ذلك يا سعد »<sup>(١)</sup> قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي . قال : « فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة ؟ »<sup>(٢)</sup> قال : فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا ، أتى سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ — فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يامعشر الأنصار مقالة بلغتني عنكم ، وجدة وجدتموها في أنفسكم ، ألم أتكم ضللاً فهداكم الله بي ،

وعالة فأغناكم الله بي وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ »<sup>(٣)</sup> قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تحبوني يامعشر الأنصار ؟ »<sup>(٤)</sup> قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ولرسوله المن والفضل . قال : « أما والله لو شئتم ، لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وغدولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أوجدتم عليّ يامعشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تتألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ — إلى رحالكم ، فوالذي نفسي محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة ، لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووادياً ، الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار »<sup>(٥)</sup> قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله ﷺ — وتفرقوا . وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ — من الرضاعة ، فقالت : يا رسول الله ! إني أحتك من

١ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧  
٢ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧  
٣ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٤٧

الرضاعة ، وقال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتها في ظهري ، وأنا متوركتك . قال : فعرف رسول الله ﷺ — العلامة ، فبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه وخيرها ، فقال : « إن أحببت الإقامة فعندي محبة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فترجعي إلى قومك » <sup>(١)</sup> قالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي ، فلم ففعل فرعمت بنو سعد أنه أعطاهم غلاما يقال له : مكحول وجارية ، فزوجت إحداهما من الآخر ، فلم يزل من نسلهما بقية . وقال أبو عمر : فأسلمت فأعطاها رسول الله ﷺ — ثلاثة أعبد وجارية ، ونعماً ، وشاء ، وسماها حذافة . وقال : والشيء لقب .

## في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والتك الحكيمة

كان الله — عز وجل — قد وعد رسوله — وهو صادق الوعد — أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس في دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ — والمسلمين ، ليظهر أمر الله ، وتقام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكرانا لأهل الفتح ، وليظهر الله — سبحانه — رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلاً لها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التي تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين .

واقترضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم ، وعُددهم ، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمة كما دخله رسول الله ﷺ — واضعاً رأسه منحنيّاً على فرسه ، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمة وبلده ولم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : « لن تغلب اليوم عن قلة » أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره ، فلا غالب له ، ومن يخذله ، فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذي تولى نصر رسوله ودينه ، لا كثرتم التي أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت إليها خلج الجبر مع بريد النصر فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وقد اقتضت حكمته أن خلج النصر وجوازئه إنما تفيض على أهل الانكسار ( ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ) <sup>(٢)</sup> .

١ — الحديث في سيرة ابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ج ٤ ص ٩١

٢ — الآيات ٥ ، ٦ من سورة القصص

ومنها : أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ، ولا متاعاً ، ولا سبياً ، ولا أرضاً كما روى أبو داود عن وهب بن منبه ، قال سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوها بايجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، ثم فاتهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف في قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم ، وشأنهم ، وسبيهم معهم نزلاً ، وضيافة ، وكرامة ، لحزبه وجنده ، وثم تقديره سبحانه بأن أطمعهم في الظفر ، وألح لهم مبادئ النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا في دمائكم ، ولا في نسائكم وذرائعكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاءوا مسلمين . فقيل : إن من شكر إسلامكم وأيتانكم ، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم (وإن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم) <sup>(١)</sup> .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدر وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، والنبي ﷺ — رمى في وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين أطفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ — والمسلمين . فالأولى : خوفهم وكسرت من حذهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بداً من الدخول في دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرحهم بم نالوه من النصر والمغنم ، فكانت كاللدواء لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصرؤا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم ، لأكلهم عدؤهم ، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يحيط بها إلا الله تعالى .

وفيهما : من الفقه أن الإمام ينبغي له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدؤه ليأتيه بخبرهم ، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدؤه له ، وفي جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم ، بل يسر إليهم ، كما سار رسول الله ﷺ — إلى هوازن حتى لقيهم بحنين .

ومنها : أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدؤه كما استعار رسول الله ﷺ — أدراع صفوان ، وهو يومئذ مشرك .

ومنها : أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التي نصبها الله لمسياتها قدراً وشرعاً ، فإن رسول الله ﷺ — وأصحابه أكمل الخلق توكلأً ، وإنما كانوا يلقون عدؤهم ، وهم متحصنون بأنواع السلاح ،

ودخل رسول الله ﷺ مكة ، والبيضة على رأسه ، وقد أنزل الله عليه : ( والله يعصمك من الناس )<sup>(١)</sup> وكثير ممن لا تحقيق عنده ، ولا رسوخ في العلم يتشكل هذا ، ويتكايس في الجواب تارة بأن هذا فعله تعليماً للأمة ، وتارة بأن هذا كان قبل نزوله الآية . ووقعت في مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء ، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر في « تاريخه الكبير » أن رسول الله ﷺ — كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاماً قدم له حتى يأكل منه من قدمه .

قالوا : وفي هذا أسوة للملوك في ذلك . فقال قائل : كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى ( والله يعصمك من الناس ) فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة ، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه . وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث ، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية ، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها . ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة ، لا يتنافى تعاطيه لأسبابها ، لأغناهم عن هذا التكلف ، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس ، ولا يتنافى ، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويعليه ، لا يناقض أمره بالقتال وإعداد العدة ، والقوة ، ورباط الخيل ، والأخذ بالجد ، والحذر ، والاحتراس من عدوه ، ومحاربته بأنواع الحرب والتورية ، فكان إذا أراد الغزوة ، ورى غيرها ، وذلك لأن هذا إخبار من الله — سبحانه وتعالى — عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التي جعلها الله مفضية إلى ذلك مقتضية له وهو ﷺ — أعلم بربه وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر ، وإظهار دينه ، وغلبته لعدوه ، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء وزعم أنه لا فائدة فيه ، لأن المسؤول إن كان قد قدر ، ناله ولا بد ، وإن لم يقدر ، لم ينله ، فأى فائدة في الاشتغال بالدعاء ؟ ثم تكايس في الجواب بأن قال — الدعاء عبادة ، فيقال لهذا الغالط ، بقى عليك قسم آخر — وهو الحق — أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن يتعاطاه ، حصل له المطلوب ، وإن عطل السبب ، فإنه المطلوب ، والدعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب ، ومما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لي الشيع ، فأنا أشبع ، أكلت أو لم أكل ، وإن لم يقدر لي الشيع ، لم أشبع أكلت أو لم أكل ، فما فائدة الأكل ؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه ، وبالله التوفيق .

ومنها : عفو رسول الله ﷺ — عن من قتلته ولم يعاجله ، بل دعه له ومسح صدره حتى عاد ، كأنه ولي حميم



ومنها : مآظهر في هذه الغزوة من معجزات النبوة وآيات الرسالة من إخباره لشيبة بما أضمر في نفسه ، وقد تولى عنه الناس ، وهو يقول :

أنا النبي لا كذب — أنا ابن عبد المطلب<sup>(١)</sup>

ومنها : إيصال الله قبضته التي رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه ، وبركته في تلك القبضة ، حتى ملأت أعين القوم ، إلى غير ذلك من معجزات فيها ، كنزول الملائكة للقتال معه ، حتى رآهم جهرة ورأهم بعض المسلمين .

## سادساً : غزوة الطائف :

### في غزوة الطائف

قال العلامة ابن قيم الجوزية في « زاد المعاد » « في شوال سنة ثمان . قال ابن سعد : قالوا ولما أراد رسول الله ﷺ — المسير إلى الطائف ، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين : صنم عمرو بن حممة الدوسي ، يهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ، ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشى النار في وجهه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا .

وانحدر معه من قومه أربعمئة سراعاً ، فوافوا النبي ﷺ — بعد مقدمة بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق قال ابن سعد : ولما خرج رسول الله ﷺ — من حنين يريد الطائف قدم خالد بن الوليد على مقدمته ، وكانت ثقيف قد رموا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس ، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم ، وتهيؤوا للقتال ، وسار رسول الله ﷺ — فنزل قريباً من حصن الطائف ، وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً ، كأنه رجل جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، فارتفع رسول الله ﷺ — إلى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين مدة حصار الطائف ، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً وقال ابن إسحاق : بضعاً وعشرين ليلة .

ونصب عليهم المنجنيق ، وهو أول من رمى به في الإسلام . وقال ابن سعد : حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ثور بن يزيد ، عم مكحول أن النبي ﷺ — نصب على أهل الطائف أربعين يوماً .

(١) الحديث في الجامع الكبير للسيوطي ح ١ ص ٣٣١ من رواية أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وفي مسند أحمد ح ٤ ص ٢٨٠ (٢) وفي صحيح البخاري — باب فضل الجهاد والسير — ح ٤ ص ٣٧ ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير ح ٣ ص ١٤٠٠

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ — تحت دبابه ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله ﷺ — بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

قال ابن سعد : فسألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله ﷺ — « فإني أدعها لله وللرحم »<sup>(١)</sup> فنادى منادى رسول الله ﷺ — : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، منهم أبو بكره — فأعتقهم رسول الله ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين ميمونة ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ — في فتح الطائف ، واستشار رسول الله ﷺ — نوفل بن معاوية الذيلي ، فقال : ما ترى ؟ فقال ثعلب في حجر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول الله ﷺ — عمر بن الخطاب ، فأذن في الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله ﷺ — : « فاغدوا على القتال »<sup>(٢)</sup> فغدوا فأصابته المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ — : « إنا قافلون غداً إن شاء الله »<sup>(٣)</sup> فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله ﷺ — يضحك ، فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : قولوا : « آيونا ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون »<sup>(٤)</sup> ، وقيل يارسول الله ! ادع الله على ثقيف فقال : « اللهم اهد ثقيفاً واث بهم »<sup>(٥)</sup> .

واستشهد مع رسول الله ﷺ — بالطائف جماعة ، ثم خرج رسول الله ﷺ — من الطائف إلى الجعرانة ثم دخل منها محرماً بعمره ، ففضى عمرته ، ثم رجع إلى المدينة .

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله ﷺ — من تبوك في رمضان ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف وكان من حديثهم : أن رسول الله ﷺ — لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله ﷺ — :

١ — انظر سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ج ٤ ص ١٢٩

٢ — الحديث في صحيح البخاري — كتاب المغازي — غزوة الطائف — ج ٥ ص ١٩٨ ط الشعب

٣ — الحديث في صحيح البخاري — كتاب المغازي — غزوة الطائف — ج ٥ ط الشعب

٤ — الحديث في مسند أحمد ج ١ ص ٢٥٦

٥ — الحديث في سنن الترمذي — أبواب الناقب ج ٥ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ رقم ٤٠٣٤

« كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك »<sup>(١)</sup> وعرف رسول الله ﷺ — أن فيهم نخوة الامتناع الذي كان منهم ، فقال عروة : يارسول الله ؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عليّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى في ربك ؟ قال : كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليّ ، فليس فيّ إلا ما في الشهداء الذي قتلوا مع رسول الله ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفوني معهم ، فدفنوه معهم فزعموا أن رسول الله ﷺ — قال فيه : « إن مثله في قومه ، كمثل صاحب يس في قومه »<sup>(٢)</sup> .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ — رجلاً ، كما أرسلوا عروة فكلّموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان في سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به كما صنع بعروة ، فقال : لست بفاعل حتى ترسلوا معي رجالاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، فيكونون ستة ، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب ، وشرحبيل بن غيلان ، ومن بنى مالك عثمان بن أبي العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشة ، فخرج بهم ، فلما دنوا من المدينة ، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة ، فاشتد ليبشر رسول الله ﷺ — بقدمهم عليه ، فلقه أبو بكر فقال : أقسمت عليك بالله لا تتسبقني إلى رسول الله ﷺ — حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروّح الظهر معهم ، وأعلمهم كيف يحبون رسول الله ﷺ — فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ — ضرب عليهم قبة في ناحية مسجده كما يزعمون .

وكان خالد بن سعيد بن العاصي هو الذي يمشي بينهم ، وبين رسول الله ﷺ — حتى اكتتبوا كتبهم ، وكان خالد هو الذي كتبه ، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ﷺ — حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا .

وقد كان فيما سألوا رسول الله ﷺ — أن يدع لهم الطاغية ، وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ — فما برحوا يسألونه سنة ، ويأبى عليهم ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذرايهم ، ويكرهون أن يرّدّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ﷺ — إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانيها ، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وألا لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ —

١ — في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٩٤

٢ — في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد عبي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٩٥

ﷺ — « أما كسر أوثانكم بأيديكم ، فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فلا خير في دين لا صلاة فيه » <sup>(١)</sup> .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله — ﷺ — كتاباً ، أمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه في الإسلام ، وتعلم القرآن فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله — ﷺ — معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية ، فخرجوا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف ، أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك عليه أبو سفيان ، فقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذى الهذم فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضرها بالمعول ، وقام دونه بنو مُعْتَب خشيّة أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حُسراً يبكين عليها ، ويقول أبو سفيان — والمغيرة يضرها بالفأس — : « واهاً لك واهاً لك » فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبي سفيان بمجموع مالها من الذهب والفضة والجزع ...

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها ، سقناها كما هي ، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاة تبوك وغيرها ، لكن آثرنا ألا لا نقطع قصتهم ، وأن ينتظم أولها بآخرها ليقع الكلام على فقه القصة وأحكامها في موضع واحد .

## في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنكت الحكيمة .

فيها من الفقه : جواز القتال في الأشهر الحرم ، ونسخ تحريم ذلك ، فإن رسول الله — ﷺ — خرج من المدينة إلى مكة في أواخر شهر رمضان بعد مضي ثمان عشرة ليلة منه والدليل عليه ما رواه أحمد في « سننه » عن شداد بن أوس ، أنه مر مع رسول الله — ﷺ — زمن الفتح على رجل يحتجم بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وهو آخذ بيدي ، فقال « أفطر الحاجم والمحجوم » <sup>(٢)</sup> وهذا أصح من قول من قال : إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، وهذا الإسناد على شرط مسلم فقد روى به بعينه : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء » <sup>(٣)</sup> . وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة ، ثم خرج إلى هوازن ، فقاتلهم ، وفرغ منهم ، ثم قصد الطائف ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة في قول ابن إسحاق ، وثمان عشرة ليلة في قول ابن سعد ، وأربعين ليلة في قول مكحول . فإذا تأملت ذلك ، علمت أن بعض

١ — الحديث في سيرة النبي لابن هشام — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ح ٤ ص ١٩٧

٢ — الحديث في مسند أحمد ح ٢ ص ٣٦٤

٣ — الحديث في مسند أحمد ح ٤ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مدة الحصار في ذى القعدة ، ولا بد ، ولكن قد يقال : لم يتبدى القتال إلا في شوال ، فلما شرع فيه ؟ لم يقطعه للشهر الحرام ، ولكن من أين لكم أنه — ﷺ — ابتداء قتالا في شهر حرام ، وفرق بين الابتداء والاستدامة .

ومنها : جواز غزو الرجل وأهله معه ، فإن النبي — ﷺ — كان معه في هذه الغزوة أم سلمة وزينب .  
ومنها : جواز نصب المنجنيق على الكفار ، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية .  
ومنها : جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم ، وهو أنكى لهم .  
ومنها : إن العبد إذا أبى من المشركين ولحق بالمسلمين ، صار حراً . قال سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله — ﷺ — يعتق العبيد إذا جاؤوا قبل مواليهم .  
وعن الشعبي ، عن رجل من ثقيف ، قال : سألتنا رسول الله — ﷺ — أن يرّد علينا أبا بكره ، وكان عبداً لنا أتى رسول الله — ﷺ — وهو محاصر ثقيفاً ، فأسلم ، فأبى أن يردّه علينا ، فقال : « هو طليق الله ، ثم طليق رسوله »<sup>(١)</sup> فلم يردّه علينا . ( أخرجه أحمد ) قال ابن المنذر : وهذا قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم .

ومنها : أن الإمام إذا حاصر حصناً ، ولم يفتح عليه ، ورأى مصلحة المسلمين في الرحيل عنه ، لم يلزمه مصابرتة ، وجاز له ترك مصابرتة ، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها .  
ومنها : أنه أحرم من الجعرانة بعمرة ، وكان داخلاً إلى مكة ، وهذه هي السنة لم يدخلها من طريق الطائف وما يليه ، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ، ثم يرجع إليها ، فهذا لم يفعله رسول الله — ﷺ — ولا أحد من أصحابه البتة ، ولا استحبه أحد من أهل العلم ، وإنما يفعله عوام الناس ، زعموا أنه اقتداء بالنبي — ﷺ — وغلطوا ، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة ، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها ، فهذا لون ، وستته لون ، وبالله التوفيق .  
ومنها : استجابة الله لرسوله — ﷺ — دعاءه لثقيف أن يهديهم ، ويأتي بهم ، وقد حاربوه وقتلوه ، وقتلوا جماعة من أصحابه ، وقتلوا رسول الله — ﷺ — وأرسله إليهم يدعوهم إلى الله ، ومع هذا كله فدعاهم ، ولم يدع عليهم ، وهذا من كمال رأفته ، ورحمته ، ونصيحته — صلوات الله وسلامه عليه —  
ومنها : كمال محبة الصديق له ، وقصده التقرب إليه ، والتحبب بكل ما يمكنه ، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبي — ﷺ — بقدوم وفد الطائف ، ليكون هو الذي بشره وفرحه بذلك ، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب ، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه ، وقول من قال من الفقهاء : لا يجوز الايثار بالقرب ، لا يصح ، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه في بيتها جوار النبي — ﷺ — وسألها عمر ذلك ، فلم تكره له السؤال ، ولا لها البذل ، وعلى هذا ، فإذا

سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامه في الصف الأول ، لم يكره له السؤال ، ولا لذلك البذل ، ونظائره . ومن تأمل سيرة الصحابة ، وجدهم غير كارهين لذلك ، ولا ممتنعين منه ، وهل هذا إلا كرم وسخاء ، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفرحاً لأخيه المسلم ، وتعظيماً لقدره ، وإجابة له إلى ما سأله وترغياً له في الخير ، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة ، فيكون المؤثر بها ممن تاجر ، فبذل قربة ، وأخذ أضعافها ، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لا بد من تيمم أحدهما ، فآثر أخاه ، وحاز فضيلة الإيثار ، وفضيلة الطهر بالتراب ، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة ، ولا مكارم أخلاق ، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة وعابنوا التلف ومع بعضهم ماء فآثر على نفسه ، واستسلم للموت ، كان ذلك جائزاً ، ولم يقل : إنه قاتل لنفسه ، ولا أنه فعل محرماً ، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ <sup>(١)</sup> . وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة في فتوح الشام ، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم ، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها ، وهو عين الإيثار بالقرب ، فأى فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها ، وبين أن يعمل ثم يؤثره بثوابها ، وبالله التوفيق . ومنها : أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطائها يوماً واحداً ، فإنها شعائر الكفر والشرك وهى أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك ، والنذر والتقيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها ، والله المستعان .

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحيى ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حدوا القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهورها الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، ونشأ في ذلك الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ومنها : جواز صرف الإمام الأموال التى تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت فى الجهاد ومصالح المسلمين ، فيجوز للإمام ، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التى تساق إليها كلها ، ويصرفها على الجند

والمقاتلة ، ومصالح الإسلام ، كما أخذ النبي ﷺ — أموال اللات ، وأعطاهما لأبي سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا ، وله أن يقطعها للمقاتلة ، أو يبيعها ويستعين بأئمانها على مصالح المسلمين ، وكذلك الحكم في أوقافها ، فإن وقفها ، فالوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فيصرف في مصالح المسلمين ، فإن الوقف لا يصح إلا في قرابة وطاعة لله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ، ولا قبر يسرج عليه ويعظم ، وينذر له ، ويحج إليه ، ويعبد من دون الله ، ويتخذ وثناً من دونه وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ، ومن اتبع سبيلهم . أهـ .

## تفسير سورة الحجرات

### مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية ( وآياتها ) ثمانى عشرة . ( وكلماتها ) ثلاثمائة وثلاث وأربعون . ( وحروفها ) ألف وأربعمائة وأربع وسبعون ( مجموع فواصل آياتها ) ثمانى عشرة ( مقصود السورة )

معظم مقصود السورة محافظة أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة والأكابر والتؤدة في الأمور ، والاجتناب عن التهور ، والكون في إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحذر عن التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأنساب والتحاشى عن المنّة على الله تعالى بالطاعة ، وإحالة علم الغيب إلى الله — تعالى — في قوله ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ﴾ .

( التشابهات )

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ مذكور في السورة خمس مرات والمخاطبون المؤمنون ، والمخاطب به أمر ونهى ، وذكر في السادس ﴿ يا أيها الناس ﴾ فعم المؤمنين والكافرين ، والمخاطب به قوله ﴿ إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ لأن الناس كلهم في ذلك شرع سواء .

( مناسباتها لما قبلها )

لا يخفى تأخى هاتين السورتين ( الفتح والحجرات ) مع ما قبلهما لكونهما مدينتين ، ومشمئتين على أحكام . فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا . وتلك تضمنت تشريفاً له — ﷺ — خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضاً في مطلعها أنواع من التشريف له — ﷺ —

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

### معاني المفردات

( لا تقدموا ) أى : لا تتقدموا ، والمراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ( لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ) أى : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه صوته ( يغضون أصواتهم ) أى : يخفضونها ويلينونها ، ( امتحن الله قلوبهم ) أى : طهرها ونقاها . ( من وراء الحجرات ) أى : من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، والمراد بها حجرات نساءه — عليه الصلاة والسلام — وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل ، على أبوابها الموح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۚ ۞ ﴾ .

هذه آداب أدب الله تعالى بها عبادة المؤمنين فيما يعاملون به الرسول — ﷺ — من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما ( لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم وقال سفيان الثوري ( لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ) بقول ولا فعل .



وقال الإمام ابن القيم : أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أن الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى ، وابتغاء الوسيلة إليه ؟

ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟ والثاني : سؤال عن متابعة الرسول — عليه الصلاة والسلام — في ذلك التعبد ، أى : هل كان العمل مما شرعته لك على لسان رسول ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملاً إلا بهما فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثاني : بتحقيق المتابعة .

وإنما يستقيم له هذا باستقامة قلبه وجوارحه . فاستقامة القلب بشئيين : أحدهما : أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما عداه ، فربت على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل ، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . وما أكثر أن يقدم العبد ما يحبه هو يهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى . فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتغصص ، جزاء له على إثثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى . وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئاً سواه عذب به ولا بد ، وأن من خاف غيره سُلط عليه ، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه ، ومن أثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد .

الأمر الثاني : الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشئ عن تعظيم الأمر الناهى فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونبيه ، قال سبحانه وتعالى ﴿ مالكم لا ترجون الله وقاراً ﴾ <sup>(١)</sup> قالوا فى تفسيرها : مالكم لا تخافون الله تعالى عظمة . أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾

قال السلمى : اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمة إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ .

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألا لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ — فوق صوته .  
وقال البخارى بسنده عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما —  
رفعاً أصواتهما — عند النبي ﷺ — حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس —  
رضى الله عنه — أخى بنى بجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر — قال نافع لا أحفظ اسمه — فقال أبو بكر  
لعمر — رضى الله عنهما — ما أردت إلا خلافي قال ما أردت خلافاً فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل  
الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم  
لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ <sup>(١)</sup> قال ابن الزبير — رضى الله عنه — فما كان عمر —  
رضى الله عنه — يسمع رسول الله ﷺ — بعد هذه الآية حتى يستفهمه ...

وقال الآمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال لما نزلت هذه الآية ﴿ يا أيها الذين  
آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي — الآية ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت  
فقال أنا الذى كنت أرفع صوتى على صوت رسول الله ﷺ — أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس  
في أهله حزناً ففقد رسول الله ﷺ — فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله ﷺ —  
مالك ؟ قال أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبي ﷺ — وأجهر له بالقول حُبط عملى ، أنا من  
أهل النار ، فاتوا النبي ﷺ — فأخبروه بما قال فقال — ﴿ لا » بل هو من أهل الجنة <sup>(٢)</sup>  
قال أنس — رضى الله عنه — فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة  
كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفة فقال بثما قعودون أقرانكم  
فقاتلهم حتى قتل — رضى الله عنه —

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك فقد نهى الله — عز وجل — عن  
رفع الأصوات بحضرة رسول الله ﷺ — وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله  
عنه — أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي ﷺ — قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال أندريان أين  
أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .  
وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره — ﷺ — كما كان يكره في حياته — عليه الصلاة والسلام —  
لأنه محترم حياً وفي قبره — ﷺ — دائماً . وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث النبي ﷺ —  
أمرهم بالسكوت وقال ( لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ) . ثم نهى سيخانه عن الجهر له بالقول

١ — الحديث في صحيح البخارى ح ٦ ص ١٧١ ، ١٧٢ تفسير سورة الحجرات ط الشعب

٢ — الحديث في صحيح البخارى ح ٦ ص ١٧١ — تفسير سورة الحجرات ط الشعب وفي صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب

مخافة المؤمن أن يحبط عمله — ح ١ ص ٧٧

وفي مسند أحمد ح ٣ ص ١٣٧

وفي تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ح ٧ ص ٣٤٧

كما يجهر الرجل لمخاطبه من عده بل يخاطب بسكينة ووقار تعظيم كما قال تعالى ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ﴾ (١).

قوله تعالى ﴿ إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

أى : يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له — ﷺ — أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو بكر — رضى الله عنه — : والله لا أرفع صوتي إلا كأخى السرار ( أى كصاحب الدار ، أو كممثل المساررة لخفض صوته ) . وقال عبد الله بن الزبير لما نزلت ( لا ترفعوا أصواتكم ) ما حدث عمر عند النبي — ﷺ — بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت ﴿ إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ قال الفراء : أى : أخلصها للتقوى . وقال الأخفش أى : اختصها بالتقوى . وقال ابن عباس ( امتحن الله قلوبهم للتقوى ) طهرهم من كل قبيح ، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى . فهؤلاء ( لهم مغفرة وأجر عظيم ) .

وقد قال الإمام أحمد في كتاب الزهد عن مجاهد قال كتب إلى عمر يأمر المؤمنين رجل لا يشتبه المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتبه المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر — رضى الله عنه — إن الذين يشتبهون المعصية ولا يعملون بها ( أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ) . قوله تعالى ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم ﴾

يقول ابن كثير : ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهى نساءه كما يضع أجلاف الأعراب فقال ( أكثرهم لا يعقلون ) ثم أرشد سبحانه إلى الأدب فى ذلك فقال عز وجل ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ( والله غفور رحيم ) وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمي — رضى الله عنه — فيما أورده غير واحد قال الإمام بسنده عن الأقرع بن حابس — رضى الله عنه — أنه نادى رسول الله — ﷺ — فقال يا محمد يا محمد .

## إرشادات آلهية

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ  
نَادِمِينَ ﴿٥٧﴾ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ  
إِلَيْكُمْ آلَ إِبْرَاهِيمَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ  
﴿٥٨﴾ فَضَلَّاهُم مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا  
فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا  
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦١﴾

## معاني المفردات

( الفاسق ) هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره . ( النبأ ) الخبر  
قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن ، ( بجهالة )  
أى : جاهلين حالهم ، ( فتصبحوا ) أى : فتصيروا . ( نادمين ) أى : مغتمين غمًا لازمًا متمنين أنه لم  
يقع . ( لعنتم ) أى : لوقعتم في الجهد والهلاك . ( الراشدون ) الرشاد : إمابة الحق واتباع الطريق السوى .  
( بغت ) البغى : التطاول والفساد . ( تفيء ) أى : ترجع إلى الطاعة . ( المقسطين ) العادلين المحقين

## المناسبة وإجمال المعنى

أدب الله عباده المؤمنين بأدب نافع لهم في دينهم ودينهم أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر  
الدين بأى خبر ، لا يصدقونه بأذى ذى بدء حتى يثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على  
قوله ، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يصيبوا بأذى قومًا  
هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع . ثم عقب تعالى بما يترتب  
على سماع مثل هذه ( الأنباء المكذوبة ) من تخاصم ، وتباغض ، وتقاتل فقال : إذا رأيتم أيها المؤمنون طائفتين

من إخوانكم جنحتا إلى القتال والعدوان ، فابذلوا جهدهم للتوفيق بينهما ، وادعوهم إلى النزول على حكم الله تعالى ، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فقاتلوا تلك الطائفة الباغية ، حتى تثوب إلى رشدها ، وترضى بحكم الله تعالى ، وتقلع عن البغى والعدوان فإذا كفت عن العدوان فأصلحوا بينهما بالعدل ، لأنهم إخوانكم في الدين ، ومن واجب المسلمين أن يصلحوا بين الإخوان ، لا أن يتركوا البغضاء تدب ، والفرقة تعمل عملها ؛ لأن المؤمنين جميعاً إخوة ، جمعتهم رابطة الإيمان وليس ثمة طريق إلى إعادة الصفاء إلا بالإصلاح بين المتخاصمين ، فهو سبيل الفلاح وطريق الفوز والنجاح ، واتقوا الله لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بمرضاته ولقائه .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾ .

قال ابن كثير :

يأمر تعالى بالثبوت في خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه وقد نهى الله — عز وجل — عن اتباع سبيل المفسدين . وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد في مسنده من رواية مالك بن المصطلق وهو الحارث بن ضرار الخزاعي — رضى الله عنه — يقول : قدمت على رسول الله ﷺ — قد دعاني إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب دفعت زكاته ، وترسل إلي يارسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة من استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ — أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأتته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم إن رسول الله ﷺ — كان وقت لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ﷺ ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله ﷺ — الخلق ولا أرى حبس رسول الله ﷺ إلا من سخطه ، فانطلقوا بنا نأتي رسول الله ﷺ — وبعث رسول الله ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أي : خاف فرجع حتى أتى رسول الله ﷺ — فقال يارسول الله إن الحارث قد

منعنى الزكاة وأراد قتلى فغضب رسول الله ﷺ — وبعث البعث إلى الحارث — رضى الله عنه — وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيم قال لهم إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال ولم؟ قالوا إن رسول الله ﷺ — بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله، قال — رضى الله عنه — لا، والذي بعث محمدًا ﷺ بالحق ما رأيته بينه ولا أثنى فلما دخل الحارث على الرسول قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولى»<sup>(١)</sup> قال لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أثنى وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول الله ﷺ خشيت أن يكون سخطه من الله تعالى ورسوله قال فنزلت الحجرات ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ﴾ إلى قوله: ﴿حكيم﴾.

قال الإمام الفخر الرازى: ما ذكره المفسرون من أنها نزلت بسبب (الوليد بن عقبة) حين بعثه الرسول ﷺ — إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم .. الخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب الثبوت في خبر الفاسق، وأنها نزلت في ذلك الحين الذى وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد. وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف؛ لأن الوليد لم يتقصّد الإساءة إليهم، ورواية الإمام أحمد تدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى هجاعة الحارث — وقد خرجت في انتظاره. فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر الرسول ﷺ — بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله .. ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شئ بعيد؛ لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقاً، وكيف والفاسق في أكثر المواضع المراد به من خرج من ربة الإيمان لقوله تعالى ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ وقوله تعالى ﴿ففسق عن أمر ربه﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ إلى غير ذلك أهد.

وقوله تعالى ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾

أى: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك اسمه ﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ ثم يبين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿لو يطيعكم في الأمر لعنتم﴾ أى: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم كما قال تعالى ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾.

(١) الحديث في مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧٩

وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ج ٧ ص ٢٤٤

(٢) الآية ٧١ من سورة المؤمنون

وقوله تعالى ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِيمَانٌ وَزِينَةٌ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أى : حبيه إلى نفوسكم وحسنه في قلوبكم قال الإمام أحمد عن أنس — رضى الله عنه — قال كان رسول الله ﷺ يقول « الإسلام علانية والإيمان في القلب — قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول — التقوى ههنا ، التقوى ههنا » (١).

وقوله تعالى ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أى : وبغض إليكم الكفر والفسوق والعصيان وهى الذنوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة .

وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

وقوله تعالى ﴿ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أى : فعل الله ذلك بكم فضلاً ، أى : الفضل ، والنعمة له . ( والله عليم حكيم ) أى : والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية . ( حكيم ) فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العارف بالله يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل . وهذا معنى قوله — ﷺ — فى الحديث الصحيح من حديث بريرة — رضى الله عنه — « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٢).

فجمع فى قوله — ﷺ — « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي » مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل ، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولى النعم والإحسان ، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة فى كل وقت ، وألا لا يرى نفسه إلا مفلساً ، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه بمن بها ، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف ، والإفلاس المحض ، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملت الكسرة من كل جهاته ، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكال فاقته وفقره إليه ، وأن فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة ، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى ، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر ، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته . ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوى .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٩٣ من رواية أحمد وأبى يعلى وفى مسند أحمد ج ٣ ص ١٣٤ ، ١٣٥ وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ج ٧ ص ٣٥٢

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ١٢٢

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل ، وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذنبك الأصليين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة ، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام ، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه الى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله — عز وجل — ويحيره ويتداركه برحمته . ( الوابل الصيب لابن القيم )

قوله تعالى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأُصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

أى : وإن اقتلت طائفتان من أهل الايمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه . سواء كان لهما أو عليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل . ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أى : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التي تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له . ﴿ فَإِنْ فَاءَتْ فَأُصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أى : فإن رجعت الباغية بعد قتالك إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال في وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل في كل أمورهم فقال تعالى ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أى : واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون ، إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء . وفي الصحيح عن أنسى — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قلت : يا رسول الله : هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصر ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه »<sup>(١)</sup>

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أى : انهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية وفي الحديث المتفق عليه عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثل المؤمنين في تراحهم وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر »<sup>(٢)</sup>

١ — الحديث في حلية الأولياء ح ٣ ص ٩٤ ، وفي مسند أحمد ح ٣ ص ٩٩ ، وفي مجمع الزوائد وفي صحيح البخارى ح ٧ ص ٢٦٤ — كتاب المظالم ح ٣ ص ١٦٨ ، وصحيح مسلم — كتاب البر — باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً  
٢ — الحديث في صحيح مسلم — ح ٤ ص ١٩٩٩ — باب تراحم المؤمنين — وفي صحيح البخارى — كتاب الأدب — باب رحمة الناس والبهائم ح ٨ ص ١١ ، ١٢

وفي مسند أحمد ح ٤ ص ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٥

وفي تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — ح ٧ ص ٣٥٥



وعن أبى موسى ، عن النبي ﷺ — : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه » <sup>(١)</sup> وكان النبي ﷺ — جالساً إذ جاءه رجل يسأل ، وطالب حاجة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « اشفعوا فلتؤجروا ، وليقضى الله على لسان نبيه ما شاء » <sup>(٢)</sup> متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله » <sup>(٣)</sup> متفق عليه .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — « المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » <sup>(٤)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ — « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تداربوا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله . التقوى ههنا — ويشير إلى صدره ثلاث مرات — بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » <sup>(٥)</sup> متفق عليه .

وعن أنس — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ — قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » <sup>(٦)</sup> متفق عليه .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « حق المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » <sup>(٧)</sup> .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب .

(١) . الحديث في صحيح البخارى ح ٨ ص ١٤ ط الشعب — باب تعاون المؤمن —  
وفي صحيح مسلم — ح ٤ ص ١٩٩٩ باب تراحم المؤمنين .

(٢) . الحديث في صحيح البخارى ح ٨ ص ١٤ ط الشعب — باب تعاون المؤمن

(٣) . الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٨٤٢ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والطبرانى

(٤) . الحديث في الجامع الكبير للسيوطى ح ١ ص ٤٤٦ من رواية الترمذى عن أبى هريرة وفى مسند أحمد والطبرانى فى الكبير عن واثلة وفى مسند أحمد ح ٢ ص ٢٧٧

وفى تحفة الأحوذى — باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ح ٦ ص ٥٤

(٥) . الحديث فى صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — ح ٤ ص ١٩٨٦

(٦) . الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الايمان — ح ١ ص ٦٧

(٧) . الحديث فى صحيح مسلم — كتاب السلام ح ٤ ص ١٧٠٥

وقوله تعالى ﴿ واتقوا الله ﴾ في كل ما تأكلون وما تذررون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين كما قال تعالى ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ (١) وكقوله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله عليكم رقيباً ﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ (٣) .

قال القرطبي : في هذه الآية والتي قبلها دليل على أن البغى لا يذيل اسم الإيمان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ، قال الحارث الأعور : سئل على بن أبي طالب — رضى الله عنه — وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصفين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وبعد أن عشنا في تلك الأجواء الرفيعة المستوى ، المشرقة المحيا ، السامية السامقة ، نزيد الأمر وضوحاً فنسلط تلك الأضواء الكاشفة على هذا المشهد القرآني المهيّب ، ونستمد تلك الأضواء من كتاب روائع البيان لما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية التي تستنبط من هذه الآيات الكريمة .

يقول صاحب « روائع البيان » ما نصه :

سورة الحجرات تسمى صورة ( الأخلاق والآداب ) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ خمس مرات ، وفي كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم ، وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها في فقرات ، وهي :

١ — وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الرسول — وعدم التقدم عليه برأى ، أو قول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله .. ﴾ أى : لا تعجلوا بقول ، أو فعل قبل أن يقول : فيه رسول الله أو يفعل .

٢ — احترام الرسول ، وتعظيم شأنه ، وعدم رفع الصوت في حضرته ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي .. الآية ﴾ .

٣ — وجوب التثبت من صحة الأخبار ، وعدم الاعتماد على أقوال الفسقة المفسدين ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا .. الآية ﴾ .

(١) الآية ١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١ من سورة النساء

(٣) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران

٤ — النهى عن السخرية بالناس وعن التناز باللقاب ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن .. ﴾ الآية .

٥ — تنهى عن التجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وعن سائر الأخلاق الذميمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً .. ﴾ الآية .

فهذه السورة الكريمة التى لا تتجاوز ثمانى عشرة آية قد جمعت الفضائل ، والآداب الإنسانية ، فلا عجب أن تسمى ( سورة الآداب ) أو ( سورة الأخلاق ) فهى تتناول الأدب مع الله ، والأدب مع الرسول ، والأدب مع النفس والأدب مع المؤمنين ، والأدب مع الناس عامة ، وكلها بهذا الشكل الريب . ( وهذه هى اللطيفة الأولى ) .

### اللطيفة الثانية :

تصدير الخطاب بالنداء ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ لتنبية المخاطبين على أن ما بعده أمر خطير ، يستدعى مزيد العناية والاهتمام بشأته ، ووصفهم بالإيمان لتثبيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به . أفاده العلامة أبو السعود .

### اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ فى هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون حذراً يقظاً ، لا يقبل كل كلام يلقي على عواهنه ، دون أن يعرف المصدر ، وتنكير ( فاسق ) للتعميم ، لأنه نكرة فى سياق الشرط وهى كالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم كما قرره علماء الأصول ، والمعنى إن جاءكم أى : فاسق فتثبتوا من خبره ، وجاء بحرف التشكيك ( إن ) ولم يقل ( إذا ) التى تفيد التحقيق ، ليشير إلى أن وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل ( الندرة ) إذ الأصل فى المؤمن أن يكون صادقاً ، ولما كان رسول الله ﷺ — وأصحابه بالمنزلة التى لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من ( الوليد بن عقبة ) إلا فى الندرة قيل : ( إن جاءكم ) بحرف الشك . فتدبر أسرار الكتاب العزيز ( روح المعانى للأولوسى ) .

### اللطيفة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ تقديم خير أن على اسمها ليفيد معنى الحصر ، المستبعد لزيادة التوبيخ لهم على ما فرط منهم فى حق الرسول ﷺ — وفى الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدى الرسول ﷺ — الإيقاع بالحارث وقومه ، وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه — عليه السلام — بين أظهرهم .

قال الإمام الفخر — رحمه الله — : « والذي اختاره وكأنه هو الأقوى إن الله تعالى لما قال : ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ أى : فتثبتوا واكشفوا ، قال بعده : ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ .. أى : الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبي — ﷺ — فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما قال القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ في مسألة : هذا الشيخ قاعد .. لا يريد به بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالرجوع إليه ، فكأن الله تعالى يقول : استرشدوا بالرسول — ﷺ — فإنه يعلم ولا يطيع أحدا ، فلا يوجد فيه حيف ، ولا يروج عليه زيف لأنه لا يعتمد على كثير من آرائكم التى تبدونها ، وإنما يعتمد على الوحي الذى يأتيه من عند الله . »

### اللطيفة الخامسة :

صيغة المضارع تفيد ( الاستمرار والتجدد ) بخلاف الماضي ، فالعدول عن الماضي إلى المضارع في قوله تعالى : ﴿ لو يطيعكم ﴾ ليفيد هذا المعنى على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول لهم إطاعة مستمرة بدليل قوله تعالى : ﴿ في كثير من الأمر ﴾ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، نقول : فلان يقرى الضيف ، ويحمى الحرم ، تريد أن ذلك شأنه وأنه مستمر على ذلك .  
وكأن الله تعالى يقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ ولا تكونوا أمثال هؤلاء الذين استفزهم النبأ قبل التعرف على صدقه ، ثم لم يكتفوا حتى أرادوا أن يحملوا الرسول على رأيهم ، ليقوعوا أنفسهم ويوقعوا غيرهم في العنت والإرهاق ، واعلموا جلالة قدر الرسول — ﷺ — وتفادوا عن أمثال هذه الأخطاء .

### اللطيفة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ وما آتيم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾<sup>(١)</sup> وهذا الالتفات من المحسنات البديعية كما قرره علماء البلاغة ، ويقصد به التعظيم أى : هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه في قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات ، وأعلى المناصب ، ونالوا هذه الرتبة العظيمة ( رتبة الرشاد ) فضلاً من الله وكرماً .

### اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ الطائفة في اللفظ : مفرد ، وفي المعنى : جمع ، لأنها تدل على عدد كبير من الناس ، ولهذا جاء التعبير بقوله : ﴿ اقتتلوا ﴾ ، رعاية للمعنى فإن كل طائفة من الطائفتين جماعة ، ثم قال تعالى : ﴿ فأصلحوا بينهما ﴾ ولم يقل بينهم رعاية للفظ ، والنكتة

في هذا هو ما قيل : إنهم عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وهم مختلطون ، فلذا جمع الضمير ، وفي حال الصلح تتفق كلمة كل طائفة حتى يكونوا كنفسين فلذا ثنى الضمير . ( أفاده الفخر الرازي ) .

### اللطيفة الثامنة :

قال الإمام الفخر : — رحمه الله — قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل ( منكم ) مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ، وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت أحداً من غلماني يفعل كذا فامنع ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنع ، كذلك ههنا قال : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

### اللطيفة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، فيه تشبيه لطيف يسمى ( التشبيه البليغ ) وأصل الكلام : المؤمنون كالأخوة في وجوب التراحم ، والتناصر فحذف وجه الشبه ، وأداة الشبه فأصبح بليغاً ، قال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فאלله تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم كما بين الإخوة من النسب ، والإسلام لهم كالأب فأخوة ( العقيدة ) فوق أخوة ( الجسد ) ، ورابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ، وقد قال الشاعر العربي :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

### اللطيفة العاشرة :

سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من قتال فقال : تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا تلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته . وسئل ( الحسن البصرى ) عن قتالهم ، فقال : ( قتال شهدة أصحاب محمد — ﷺ — وغبنا ، وعلموا ، وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا ) .

وقال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن : ، ولا نبتدع رأياً منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله — عز وجل — .

## الأحكام الشرعية ( المستنبطة من الآيات )

الحكم الأول : هل يقبل خبر الواحد إذا كان عدلاً ؟ استدل العلماء بهذه الآية الكريمة ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ووجه الاستدلال من جهتين :

( الأولى ) : أن الله تعالى : أمر بالتثبت في خبر الفاسق ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان ثمة فائدة من ذكر التثبت ، لأن خبر كل من العدل ، والفاسق مردود ، فلما دل الأمر بالتثبت في خبر الفاسق ، وجب قبول خبر العدل ، وهذا الاستدلال كما يقول علماء الأصول من باب ( مفهوم المخالفة ) .

( الثانية ) : أن العلة في رد الخبر هي ( الفسق ) لأن الخبر أمانة ، والفسق يبطلها فإذا انتفت العلة انتفى الرد ، وثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً ، وإذا ثبت ذلك وجب حينئذ قبوله والعمل به .

وأما المجهول الذي لا تعلم عدالته ولا فسقه فقد استدل الحنفية على قبول خبره ، وحجتهم في ذلك أن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت ، فإذا انتفى الفسق فقد انتفى وجوبه ، ويبقى ما وراءه على الأصل وهو قبول خبره ، لأن الأصل في المؤمن العدالة .

وأنت ترى أن هذا الاستدلال مبني على أن الأصل العدالة ، ولكن بعض الفقهاء يعارض في هذا ويقول : الأصل الفسق لأنه أكثر ، والعدالة طارئة فلا يقبل قوله حتى يثبت عدالته .

## الترجيح

والظاهر أن مسألة قبول خبر المجهول مبنية على هذا ، فإن صح أن الأصل العدالة فهو باق على عدالته حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها فهو داخل في حكم الفسق حتى يتبين عدالته ، والمسألة تطلب بالتفصيل من كتب الأصول .

## الحكم الثاني :

هل يجب البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على أن من الصحابة من ليس بعدل لأن الله تعالى : أطلق لقب الفاسق على ( الوليد بن عقبة ) فإنها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجه من اللفظ العام وهو صحابي بالاتفاق ، وقد أمر الله بالتثبت مع خبره ، فلا بد من البحث عن عدالة الصحابة في الشهادة والرواية .

والمسألة خلافية وفيها أقوال نذكرها بإيجاز :

الأول : أن الصحابة كلهم عدول ، ولا يبحث عن عدالتهم في رواية ولا شهادة ، وهذا رأى جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

الثاني : أن الصحابة كغيرهم يُبحث عن العدالة فيهم في الرواية والشهادة ، إلا من يكون ظاهر العدالة ، أو مقطوعها كالشيخين ( أبى بكر ) و ( عمر ) — رضى الله عنهما — .

الثالث : أنهم عدول إلى زمن عثمان — رضى الله عنه — ، ويبحث عن عدالتهم بعد مقتله ، وهذا رأى طائفة من العلماء .

الرابع : أنهم عدول إلا من قاتل علياً — كرم الله وجهه — لفسقه بالخروج على الإمام الحق وهذا مذهب المعتزلة .

## الترجيح

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً من أن الصحابة كلهم عدول ، ببركة صحبة النبي — ﷺ — ومزيد من ثناء الله — عز وجل — في كتابه العزيز كقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ <sup>(١)</sup> أى : عدولاً ، وقوله سبحانه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله جل ذكره : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقوله جل وعلا : ﴿ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقوله جل وعلا : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ <sup>(٥)</sup> إلى آخر ما هنا لك من الآيات الكثيرة .

وكذلك ما ثبت في السنة المطهرة من مدحهم ، والثناء عليهم وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله — ﷺ — على الإطلاق ، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التى تشير إلى فضيلتهم باختصار .

١ — قال — ﷺ — : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. الحديث » <sup>(٦)</sup> ، ( رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ) .

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣

(٢) سورة آل عمران من الآية ١١٠

(٣) سورة الفتح من الآية ٢٩

(٤) سورة الحشر الآية ٨

(٥) سورة البينة من الآية ٨

(٦) الحديث في صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ، ص ١٩٦٣ عن عبد الله رقم ٢١٢ / ٢٥٣٣

— وفي صحيح البخارى كتاب فضائل أصحاب النبي — ج ٥ ص ٣ عن عبد الله

— وفي سنن الترمذى كتاب القدر — باب ما جاء في القرن الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ رقم ٢٣٢٠ عن عمران بن حصين .

— وفي سند الامام أحمد ج ١ ص ٤٣٤ حديث عبد الله .

٢ - وقال - ﷺ : « لا تسبوا أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه »<sup>(١)</sup> ، (رواه الشيخان وأبو داود والترمذي) .

٣ - وقال - ﷺ : « الله ، الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فحببي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »<sup>(٢)</sup> ، (رواه الترمذي) .

فهذه الأخبار التي وردت في الكتاب ، والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة ، وأفضليتهم على سائر الناس ، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق ، لأنهم لا يصرون على الذنب ، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ، ولا يحكم بفسقه على التأييد ، فهذا (ماعز الأسلمي) الذي ارتكب الفاحشة يقول عنه النبي - ﷺ : « بعد أن أمر برجمه » لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »<sup>(٣)</sup> ، (هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم) .

والقول بأن بعض الصحابة قد وقع في الذنب والمخالفة ، بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم - لا يعنى أنهم غير عدول ، لأن الفاسق الذي ترد شهادته ، وروايته هو الذي يصر على الذنب والمعصية ، وليس في الصحابة من يصر على ذلك .

وقد عرفت ما ذكره الإمام الفخر أنها لم تنزل خاصة بسبب (الوليد بن عقبة) وإنما نزلت عامة في بيان حكم كل فاسق . وأنها نزلت في ذلك الوقت الذي حدثت فيه تلك القصة ، فهي مثل التاريخ لنزول الآية ، وكلام الإمام الفخر نفيس فارجع إليه .

الحكم الثالث : هل تقبل شهادة الفاسق أو المبتدع .

اتفق العلماء على أن شهادة الفاسق لا تقبل عملاً بالآية الكريمة ﴿ إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ وكذلك لا تقبل روايته ، لأن الرواية عن رسول الله - ﷺ - أمانة ودين ، والفسق يطلها لاحتمال كذبه على رسول الله - ﷺ - .

قال القرطبي : « ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يطلها » .

(١) الحديث في صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٩٦٧ رقم ٢٢٢ / ٢٥٩١ - وفي سنن أبي داود ج ٥ ص ٤٥ رقم ٤٦٥٨ - كتاب السنة - باب النبي عن سب أصحاب النبي - ﷺ - وفي سنن الترمذي ج ٥ ص ٣٥٧ رقم ٣٩٥٢ أبواب المناقب . وفي البخاري ج ٥ ص ١٠ .

(٢) الحديث في سنن الترمذي (أبواب المناقب) في من سب أصحاب النبي - ﷺ - ج ٥ ص ٣٥٨ رقم ٣٩٥٤ .

(٣) الحديث في صحيح مسلم كتاب الحدود - باب من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ رقم ٢٢ / ١٦٩٥ عن ماعز بن مالك من حديثه الطويل .



وقال الجصاص :

وقوله تعالى : ﴿ فَتبينوا ﴾ اقتضى ذلك النهى عن قبول شهادة الفاسق مطلقا ، إذ كان كل شهادة خيرا ، وكذلك سائر أخباره فلذلك قلنا : شهادة الفاسق غير مقبولة في شيء من الحقوق وكذلك أخباره في الرواية عن النبي ﷺ — وكل ما كان من أمر الدين ، يتعلق به اثبات شرع ، أو حكم ، أو اثبات حق على إنسان .

وقد استثنى العلماء من قبول خبر الفاسق أمورا تتعلق بالمعاملات وليس فيها شهادة على الغير منها : أ — قبول قوله في الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل في ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ب — قبول قوله في الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل في ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ج — وكذلك في الإذن بالدخول ونحوه كما إذا استأذن إنسان فقال له : ادخل . لا تشترط فيه العدالة . ومثل هذا جميع أخبار المعاملات إذا لم يكن فيها شهادة على الغير .

واختلف العلماء في أمر الولاية بالنكاح ، فذهب الشافعى وغيره إلى أن الفاسق لا يكون وليا في النكاح ، لأنه يسىء التصرف ، وقد يضر بمن يلى أمر نكاحها بسبب فسوقه .

وقال أبو حنيفة ومالك : تصح ولايته ، لأنه يلى ما لها فيلى بُضعها كالعدل ، وهو — وإن كان فاسقا — إلا أن غيرته موفره ، وبها يحمى الحرم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمه ، وإذا ولى المال فالنكاح أولى .

### أما المتبوع :

وهو الفاسق الذى يكون فسقه بسبب الاعتقاد ، وهو متأول للنصوص كالجبرية ، والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته كالإمام الشافعى — رحمه الله — ومنهم من قبلهما ، وفرق الحنفية فقالوا : تقبل منه الشهادة ، ولا تقبل منه الرواية لأن من ابتدع بدعة بسبب الدين فلا يبعد أن ينتصر لهواه ويدعو الناس إلى ذلك فندروايته دون شهادته ، لأن الدعوة إلى مذهب داعية إلى النقل فلا يؤتمن على الرواية وهذا مذهب جمهور أئمة الفقه والحديث .

### الحكم الرابع : هل تصح ولاية الفاسق ؟

قال ابن العربى — رحمه الله — : « ومن العجب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمارة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين ؟ ! وهذا إنما كان أصلة أن الولاية الذين كانوا يصلون بالناس ، لما فسدت آديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلى

معهم ووراءهم ، كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أسأوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقيّة أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته ، وبوجوب الإعادة أقول ، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سرّاً في نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه ولا ينتقض حكمه الذي أمضاه بحال ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر ، أو قول يحكى ، فإن الكلام كثير والحق ظاهر .. (آيات الأحكام لابن العربي) .

### الحكم الخامس : هل يجب قتال أهل البغى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قتال أهل البغى ، الخارجين على الإمام أو أحد المسلمين ، ولكن بعد دعوتهم إلى الوفاق والصلح ، والسير بينهم بما يصلح ذات البين ، فإن أقاموا على البغى وجب قتالهم عملاً بقوله : ( فأصلحوا بينهما فإن بغت أحدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تقىء إلى أمر الله ) .

وذهب جماعة ممن يدعى العلم إلى عدم جواز قتال البغاة من المؤمنين ، واحتجوا بقوله — عليه السلام — : « سباب المؤمن فسوق وقاتله كفر »<sup>(١)</sup> رواه الشيخان والترمذى والنسائى . وهذا الحديث لا ينهض حجة لهم ، لأن من بغى من المؤمنين فقد أمر القرآن بقتاله ، فكيف يحتج بمثل هذا الحديث لإبطال حكم الله عز وجل ؟ قال القرطبى :

وهذه الآية : دليل على فساد قول من منع قتال المؤمنين . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفراً لكان الله — تعالى — قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك !! وقد قاتل الصديق — رضى الله عنه — من تمسك بالاسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر الا يتبع مول ولا يجhez على جريح ، ولم تحل أموالهم بخلاف الكفار . وقال الطبرى :

(١) الحديث فى صحيح البخارى ( كتاب الإيمان ) باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله ج ١ ص ١٩ — وفى صحيح مسلم — كتاب الإيمان باب سباب المسلم فسوق وقاتله كفر عن عبد الله بن سعد ج ١ ص ٨١ رقم ٦٤ / ١١٦ . — وفى سنن الترمذى ( كتاب البر والصلة ) ( باب ما جاء فى الشتم ) ج ٣ ص ٢٣٨ رقم ٢٠٤٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث من صحيح .

— وفى سنن النسائى : ج ٤ ص ١٢١ ( كتاب تحريم الدم ) باب قتال المسلم عن عبد الله . — وفى سنن ابن أبى ماجة كتاب الفتن باب سباب المسلم فسوق وقاتله كفر ج ٢ ص ٢٩٩ رقم ٣٩٣٩ .

« ولو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ، ولزوم المنازل ، لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق ، والبخور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله — عليه السلام — « خذوا على أيدي سفهائكم »<sup>(١)</sup> .

## أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على وجوب قتل البغاة بعدة أدلة نوجزها فيما يلي :

أ — قوله تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله ﴾ الآية .

ب — حديث « سيخرج قوم في آخر الزمان ، حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »<sup>(٢)</sup> ، ( رواه الشيخان وأبو داود والنسائي ) .

ج — حديث « سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القول ويسئون العمل ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، قالوا يا رسول الله : ماسيماهم ؟ قال : التحليق »<sup>(٣)</sup> ، ( رواه السنن إلا الترمذي ) .  
فهذه الأحاديث صريحة في وجوب قتال أهل البغي ومن شائعهم على باطلهم من أهل الفجور والضلال .

(١) الحديث في كنز العمال ج ٣ ص ٦٩ رقم ٥٥٢٥ — الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وانظر القرطبي ج ٦ ص ٤ .

(٢) الحديث في البخاري كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٤٤ .

— وفي صحيح مسلم : كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج ج ٢ ص ٧٤٦ رقم ١٥٤ / ١٠٦٦ .

— وفي أبو داود كتاب الأدب — باب قتل الخوارج ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٤٧٦٧ .

— وفي نصف عبد الرزاق ج ١٠ ص ١٥٦ رقم ١٨٦٧٧ .

وفي سنن النسائي ج ١ المصرية بالأزهر ج ٧ ص ١٩ كتاب تحريم الدم ( باب من شهر سبقه ثم وضعه في الناس ) .

(٣) الحديث في سنن أبي داود و ( كتاب الأدب ) باب قتال الخوارج ج ٥ ص ١٢٣ رقم ٤٧٦٥ . فقد ورد الحديث بلفظه .

— وانظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ١٤٧ « كتاب قتال أهل البغي » ، فقد ورد الحديث من رواية أنس بن مالك في حديث طويل .

— وانظر صحيح مسلم ( كتاب الزكاة ) باب الخوارج شر الخلق والخليقة ج ٢ ص ٧٥٠ حديث ١٥٨ / ١٠٦٨ فقد ورد هذا من رواية لأبي ذر مع اختلاف في بعض ألفاظه وجمله .

— وفي السنن الكبرى للبيهقي من رواية أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ج ٨ ص ١٧١ .

## الحكم السادس : هل تكون أموال البغاة غنيمة للمسلمين ؟

اختلف العلماء في حكم أموال البغاة هل تكون غنيمة للمسلمين ؟ أم ترد إليهم بعد الصلح وانتهاء الحرب ؟

أ — فقال محمد بن الحسن الشيباني : إن أموالهم لا تكون غنيمة ، وإنما يستعان على حربهم بسلاحهم وخيلهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها رد عليهم السلاح والمال .

ب — وقال أبو يوسف : إن ما وجد في أيدي البغاة من سلاح وعتاد فهو ( غنيمة ) يقسم ويخمس .  
ج — وقال مالك : لا تسبى ذراريهم ولا أموالهم . وهو مذهب الشافعي .

حجة أبي يوسف : أنهم باغون معتدون فيقسم ما لهم غنيمة بين المسلمين .  
حجة الجمهور : أن بغيتهم يحل قتالهم ، ولا يحل أموالهم وذراريهم ، لأنهم ليسوا كفاراً ، وإنما هم مؤمنون باغون ، أو فاسقون خارجون عن الطاعة ، والأمر بقتالهم من أجل ردهم إلى صف المؤمنين .  
واستدلوا بما روى عن ابن عباس أن الخوارج لما تقموا على ( علي ) — كرم الله وجهه — قال : أقتسبون أمكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فلتن فعلتم لقد كفرتم .

واستدلوا بحديث ابن عمر عن النبي — ﷺ — أنه قال : « يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة » ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها <sup>(١)</sup> ، ( القرطبي ) .

قال القرطبي :

« والمعول في ذلك عندنا أن الصحابة — رضي الله عنهم — في حروبهم لم يتبعوا مدبراً ، ولا ذفقوا على جريح ( أى أجهزوا على جريح ) ولا قتلوا أسيراً ، ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً ، وهم القدوة » .  
الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لأنهم ليسوا كفاراً ولأننا لو أخذنا أموالهم وسبينا ذراريهم تألبوا علينا ولم يمكن ردهم إلى صف المسلمين والله أعلم .

فائدة هامة : حول ما وقع بين الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين : قال العلامة القرطبي — رحمه الله — : « لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوعة به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله — عز وجل — ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ونهى النبي — ﷺ — عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبي ﷺ — أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً لم يكن بالقتل فيه شهيداً ، لأن الشهادة لا تكون إلا بالقتل في الطاعة .

ومما يدل على ذلك ما قد صحح بأن قاتل الزبير في النار ، وقوله — عليه السلام — ( بشر قاتل ابن صفية بالنار ) وإذا كان كذلك فقد ثبت : أن ( طلحة ) و ( الزبير ) غير عاصيين ، ولا آثمين بالقتال ، وقد سئل بعضهم عن الدماء التي أريقَت فيما بينهم فقال تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ (١) .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب الثبوت من الأخبار وعدم الوثوق بخبر الفاسق الخارج عن طاعة الله .  
ثانياً : ضرورة التريث قبل الحكم على الأشخاص لمجرد سماع الأنباء خشية الظلم والعدوان عليهم .  
ثالثاً : الرسول ﷺ — هو المرجع للمؤمنين ، فلا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يقطع بأمر دونه .  
رابعاً : وجوب الإصلاح بين طوائف المؤمنين عند حصول النزاع خشية تصدع الصف ، وتفرق الكلمة .

خامساً : إذا بغت إحدى الطائفتين على الأخرى ولم يمكن الإصلاح وجب قبر الفتنة بحد السيف .  
سادساً : المؤمنون إخوة جمعهم رابطة ( العقيدة والإيمان ) وهذه الرابطة أقوى من رابطة النسب والدم .  
سابعاً : يجب على المؤمنين مقاومة أهل البغي إبقاءً لوحدة الأمة الإسلامية ودفعاً للظلم عن المستضعفين .

### حكمة التشريع

يدعو الإسلام إلى الثبوت في الخبر ، وأخذ الحيطة والحذر ، في كل أمر من أمور المسلمين ، ليجتنبوا المزالق التي يدبرها لهم أعداؤهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فكم من فتنة حصلت بسبب خير كاذب ، نقله فاسق . فاجر ؟ وكم من دماء أريقَت بسبب فتنة هوجاء أشعل نارها أناس ماكرون ؟ لا يريدون للأمة الخير ، ولا يضمرون للمسلمين إلا كل شر ، وبلاء ، وفتنة ، ليفسدوا عليهم وحدتهم ، ويكذبوا عليهم صفاءهم وسرورهم .

لذلك أمر الإسلام بمبدأ كريم فاضل ( مبدأ التمهيص ) والتثبت من كل خير ، وخاصة خبر الفاسق ، الذى لا يقيم حرمة للدين ، ولا يبالي بما يحدث من جراء كذبه وبهتانه من أضرار فادحة ، ونتائج وخيمة ، تشل حركة المجتمع وقد تفضى إلى فجيرة عظيمة تودى بحياة أناس بريئين ، كما كان سيحدث فى قصة ( الوليد بن عقبة ) لولا أن الله — عز وجل — أطلع رسوله على جليلة الأمر ، بواسطة الوحي المنزل ، فكان فى ذلك صيانة الدماء البريئة ، وحفظ وحدة المسلمين ، كما أمر الإسلام بمقاومة الظلم والطغيان ، أياً كان مصدره ، فدعا إلى الإصلاح بين الطوائف المتنازعة ، والفئات المتخاصمة ، فإن لم ينفع الصلح ، ولم تثمر دعوته ، كان السيف هو الحكم الفاصل تقاتل به الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله ، وتنفى إلى رشد ها .

وهذه الخطة الحكيمة التى انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية ، لصيانة المجتمع المسلم من الخصام ، والتفكك والاندفاع وراء الأهواء الطائشة التى لا تحبى منها الأمة إلا كل شر ، وبلاء . أ هـ .

## من الآداب الإسلامية

قال تعالى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَر قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

### معانى المفردات

﴿ لا يسخر ﴾ السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ، وضحك منه ، وهزى به ، وهزى منه ، والاسم السخرية والسخرى ( بالضم والكسر ) وقد تكون بالمحاكاة بالقول ، أو بالفعل ، أو بالإشارة ، أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعه أو على قبح صورته .

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : لا يعب بعضكم بعضاً بقول ، أو إشارة باليد ، أو العين أو نحوهما ، المؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ التنازير : المتعابر والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، ﴿ الاسم ﴾ الذكر والصيت ، ﴿ اجتنبوا ﴾ أى : تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له . ﴿ الاثم ﴾ الذنب ، ﴿ التجسس ﴾ البحث عن العورات والمعائب والكشف عما ستره الناس . ﴿ والغيبة ﴾ ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته . ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ أى : من آدم وحواء ، ﴿ شعوباً ﴾ الشعوب واحدهم شعب ( بفتح الشين وسكون العين ) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد . كربيعة ومضر .. وسمى الشعب شعباً لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجر .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله — تعالى — ومع النبى — ﷺ — ، بين سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقيه باللقب الذى يتاذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً . كذلك ينبغى عليه أن يبتعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً . فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر — رضى الله عنه — أنه قال : ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت وأن تجد لها فى الخير محملاً ، وكذلك ينبغى عليه ألا يبحث عن عورات الناس ومعائبهم وعدم ذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون ، وقد مثل الشارع المغتاب بأكل لحم الميتة استفظاعاً له . قال قتادة : كما تكبره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فأكره لحم أخيك وهو حى .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ .

إنه لترتيب إلهى عال حيث رتب — سبحانه — مسألة النزاع والقتال بين الطوائف والأشخاص على أبناء الفاسقين ولذا نبهنا فيما سبق إلى التبين والتثبت فى تلقى الأخبار ، وأنه لنسق فريد أن يسوق تلك الإرشادات الإلهية فى هذه الآيات التى تتضمن سل السخائم وإماتة الأحقاد حتى تصبح الأمة الإسلامية كالجسد الواحد بعد ذلك .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ نادانا المولى — سبحانه وتعالى — بوصف الإيمان لينهانا عن السخرية وغيرها ليشعرنا بأن ما يدعوننا إليه من إرشاد هو مقتضى الإيمان الصحيح فقد قال صاحب الخلق العظيم : ﴿ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً ﴾<sup>(١)</sup> .  
وقوله تعالى : ﴿ لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ .

أى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر رجل أو امرأة أو جماعة من رجل آخر أو امرأة أخرى أو جماعة أخرى ، والسخرية بالناس رذيلة تغضب الرحمن وترضى الشيطان ، وتثير كوامن الفتن وبواعث الشر وهى صفة المجردين من الخير ، المنغمسين فى حمأة الرذيلة ، فالسخرية دليل على خبث الطوية ، وسوء السريرة ، ودناءة النفس ، ولا يصح أن يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، فالمستهزأ به غالباً يكون خيراً عند الله من المستهزئ .

فينبغى ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بأحد لثرائة حالة أو لكونه ذا عاهة فى بدنه ، أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعلة أخلص ضميراً وأبقى قلباً ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .

وقد قال الإمام النووى فى رياض الصالحين : باب تحريم احتقار المسلمين — بعد أن أورد هذه الآية : « وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وعن ابن مسعود — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ — قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال ، رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، وفعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم . ومعنى « بطر الحق » دفعه ، و « غمط الناس » احتقارهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية قال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾<sup>(٤)</sup> أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب

(١) الحديث فى سنن الترمذى كتاب الرخاع باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٣١٥ وفى الباب عن عائشة وابن عباس ، وقال ابو عيسى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب تحريم ظلم المسلم وحزله واحتقاره .. الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديثه الطويل .

(٣) انظر صحيح مسلم ( كتاب الإيمان ) باب تحريم الكبر وبيان ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ .

(٤) سورة المزمل الآية ١



الناس ويعتابهم ويظعن في أعراضهم ، أو يلزمهم سرّاً بعينه أو حاجبه ، قال الطبري : اللزم باليد والعين واللسان والاشارة والهمز لا يكون إلا باللسان . وفي قوله : ﴿ أنفسكم ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم : قال النبي ﷺ — : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »<sup>(١)</sup> ، وقال — ﷺ — « يصير أحدكم القذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه ، وقيل : من سعادة المرء ان يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره »<sup>(٢)</sup> ، قال الشاعر :

المرء إن كان عاقلاً ورعاً اشغله عن عيوبه ورعُه  
كما السقيم المريض يشغله عن وجع الناس وجعه  
وقوله تعالى : ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ .

قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يغير بعد إسلامه بكفره يا يهودى يا نصرانى ، فنزلت هذه الآية . وروى عن قتادة : هو قول الرجل لأخيه : يا فاسق ، يا منافق وقاله مجاهد والحسن أيضا . وقال الإمام أحمد : عن أبى جيرة : بن الضحاك : قال : فينا نزلت في بنى مسلمة ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾ قال : قدم رسول الله ﷺ — المدينة وليس فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت ﴿ ولا تنازروا بالألقاب ﴾<sup>(٣)</sup> .

ولله در النبي ﷺ — حيث يوصى بأن تدعو أخاك بأحب الأسماء إليه .  
وقوله تعالى : ﴿ بس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أى : بس الصفة والاسم الفسوق وهو التنازع بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتعانون بعد ما دخلتم في الإسلام وعقلتموه .  
قوله تعالى : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ أى : ومن لم يتب من هذا فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم فاكسبوا عقاب الله بعصيانهم وأوامره .

## في الفرق بين الاسم والكنية واللقب

قال ابن القيم : هذه الثلاثة . وإن اشتركت في تعريف المدعو بها . فإنها تفرق في أمر آخر . وهو أن الاسم إما أن يفهم مدحاً أو ذماً أو لا يفهم واحداً منهما . فإن أفهم ذلك فهو اللقب . وغالب

(١) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب البر والصلة ) باب تراجم المؤمنين وتعاطفهم ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٦ / ٢٥٨٦ .

(٢) انظر كنز العمال ج ١٦ ص ١٢٢ رقم ٤٤١٤١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

— وفي كشف الخفاء ج ٢ ص ٥٤٣ رقم ٣٢١٢ عن أبى هريرة .

— وفي انخاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٣٧ الحديث ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٢٦٠ ( حديث أبى جيرة بن الضحاك — رضى الله عنه — .

وفي سنن أبى داود ( كتاب الأدب ) باب في الألقاب ج ٥ ص ٢٤٦ رقم ٤٩٦٢ .

استعماله في الذم . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَا تَابِرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ولا خلاف في تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه سواء كان فيه أو لمن يكن ، وأما إذا عرف بذلك ، واشتهر به كالأعمش والاشتر والأصم والأعرج . فقد اطرده استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً ، وسهل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود في مسائله . سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب . لا يعرف إلا به ، ولا يكرهه . قال أليس يقال سليمان الأعمش ، وحيد الطويل . كأنه لا يرى به بأساً ، وأما أن لا يفهم مدحاً ، ولا ذمّاً ، فإن صدر بأب وأم فهو الكنية ، كأبي فلان ، وأم فلان ، وإن لم يصدر بذلك فهو الاسم . كزيد وعمرو ، وهذا هو الذي كانت تعرفه العرب ، وعليه مدار مخاطبتهم .. » .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال صاحب التفسير الواضح : هذا القسم مشتمل على ثلاثة أمراض : ١ - الظن ، السوء ، ٢ - تتبع عورة أخيك ، ٣ - إشاعة عورته بين الناس بالغيبة . وتلك صفات لعمري تتنافى مع الإيمان الصحيح ولا يصح أن تكون في المؤمنين ، ولذا صدر الكلام بالنداء بوصف الإيمان فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ، وقد أخذ في هذا القسم بالتدرج الطبيعي ، فإن أول بوادر الشر أن يخطر ببالك ظن سيء ، وتأويل غير مقبول لفعل أخيك ، فتأخذ في تأكيد هذا الخاطر وتثبته بتتبع حركاته واستقصاء أعماله ، لتبنى من ذلك كله عقائد يعلم الله أنها على أسس من الوهم والظن السيء ، وربما فعلها أخوك من غير قصد ، ولو كان قلبك سليماً من سوء الظن لما فهمت هذا ، ثم يأتي بعد هذا التجسس دور الغيبة وإذاعة السوء محبة أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين وهو دور التقاطع والتدابير والتباغض وربما تفاقم الشر حتى يصل إلى أعلاه ، وقد كان السبب أوهاماً وخيالات لا أساس لها .

وقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ ، وهذا أعلى أسلوب وأدقه حيث قال : اجتنبوا كثيراً من الظن ، فإن من الظن ما هو مطلوب كالاحتياط في دفع الأذى عن النفس والمال .

قال القرطبي : للظن حالتان : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس . وخبر الواحد وغير ذلك من قيم المتلفات وأروش الجنائيات . والحالة الثانية - أن يقع في النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنه عنه على ما قررنا آنفاً .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب القواني الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ - أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها من الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للثم فلا يلومن إلا نفسه ،

ومن كنتم سره كانت الخيرة في يده ، وما كافأت من عصي الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن في اكتسابهم ، فإنهم زينة في الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فبينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك ، وأحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشي الله ، وشاور في أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل — سبحانه — الأمر باجتنب كثير من الظن بقوله تعالى : ﴿ **إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ** ﴾ أى : إن ظن المؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم .

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .. ثم لما أمرهم — سبحانه — باجتنب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال ﴿ **وَلَا تَجَسَّسُوا** ﴾ أى : ولا يتبع بعضهم عورة بعض ولا يبحث عن سرائره يتغنى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقتصروا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفي الصحيحين عن أنى هريرة أن النبي — ﷺ — قال : « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ** ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام » <sup>(١)</sup> .

﴿ **التجسس** ﴾ : البحث عما يكتُم عنك ، ﴿ **والتحسس** ﴾ : طلب الأخبار ، والبحث عنها ، ﴿ **والتناجش** ﴾ : البيع على بيع غيرك ، ﴿ **والتدابير** ﴾ : الهجر والقطيعة .

وعن أنى برزة الأسلمي قال : قال رسول الله — ﷺ — : « **يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلْسَانَهُ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانَ قَلْبَهُ** ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في عُقر بيته » <sup>(٢)</sup> .

وعن زيد بن وهب قال : أنى ابن مسعود فقيلاً : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شيء ونأخذ به .

وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُمْ بَعْضاً** ﴾ نهى — عز وجل — عن الغيبة وهي أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه في صحيح مسلم عن أنى هريرة — رضي الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « **أَتَدْرُونَ مَا الْغِيْبَةُ ؟** قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :

(١) الحديث في صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٣ كتاب الأدب ( باب ما ينهى عن التحاور والتدابير ) ورد الحديث بلفظه عن أنى هريرة . — وفي سنن الترمذى ، البر والصلة — باب في الحسد عن أنس ج ٣ ص ٢٢١ رقم ٢٠٠٠ وفي صحيح مسلم : كتاب البر والصلة ( باب تحريم الظن والتحسس والتنافس .. ونحوها ج ٤ ص ١٩٨٥ ) ورد الحديث بلفظه عن أنى هريرة .  
(٢) الحديث : في سنن أنى داود كتاب الأدب — باب في الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أنى برزة الأسلمي .

« ذكرك أبحاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »<sup>(١)</sup> يقال : اغتابه اغتاباً إذا وقع فيه ، والأسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرة : لو مرَّ بك رجل أقطع فقلت : هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى اسحاق فقال صدق .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . قال القرطبي : مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم يأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة ، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام في الدين وقبيح في النفوس .

وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية ، قال — ﷺ — : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس »<sup>(٢)</sup> فشبه الواقعة في الناس بأكل لحومهم . فمن تنقص مسلماً . أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم »<sup>(٣)</sup> أخرجه ابو داود .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وسمع على بن الحسين — رضى الله عنهما — رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ قال مجاهد : فكرهتم أكل الميتة فأكروها غيبة الناس ، وقال الغراء معناه : أى : فقد كرهتموه فلا تفعلوه .

(١) الحديث في سنن أبى داود كتاب الأدب ج ٥ ص ١٩٢ باب في القبية ورد عن أبى هريرة .

وفي صحيح مسلم : ( كتاب البر والصلة ) باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠١ رقم ٧٠ / ٢٥١٩ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) الحديث في تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٦ ( تفسير سورة الحجرات )

(٣) الحديث في سنن أبى داود ( كتاب الأدب ) باب في الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٧٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ أى : إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به إن يعذبه بعد توبته . ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يُقْلَع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

### بحث في الغيبة

قال صاحب كتاب « مختصر منهاج القاصدين » وهو يحدثنا عن آفات اللسان : الكلام فيما لا يعنى ، والخوض فى الباطل ، والتعمر فى الكلام ، والفحش والسب والبذاء ، والمزاح ، والسخرية والاستهزاء وافشاء السر واختلاف الوعد والكذب ثم قال :

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنبى عنها وشبه صاحبها بأكل الميتة .

وفى الحديث « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » <sup>(١)</sup> .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ﷺ — « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته » <sup>(٢)</sup> .

وقال على بن الحسين — رضى الله عنهما — : إياك والغيبة ، فإنها ادم كلاب الناس .

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

### معنى الغيبة :

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ونحو ذلك .

أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ونحو ذلك .

أو فى خلقه كقولك هو سئء الخلق ، بخيل ، متكبر ونحو ذلك . أو فى ثوبه كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ( كتاب بدء الوحي ) باب قول النبى ﷺ — ج ١ ص ٢٦

وانظر صحيح مسلم كتاب القسامة ج ٣ ص ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ رقم ١٦٧٩ / ٢٩ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ( كتاب الأدب ) باب فى الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ حديث رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزة الأشلمى .

— وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الامام الترمذى ج ٦ ص ١٨٠ حديث رقم ٢١٠١ ورد الحديث بلفظه .

— وفى سنن الترمذى ( كتاب البر والصلة ) ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢١٠١ ( باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ) عن ابن عمر وقال ابو عيسى هذا حديث غريب لا لفرقة إلا من حديث الحسين بن واقد .

والدليل على ذلك ، أن النبي ﷺ — سئل عن الغيبة قال : « ذكرتك أخاك بما يكره » قال :  
أرأيت إن كان في أخي ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان في أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن  
لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »<sup>(١)</sup> .  
وأعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل في الغيبة سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ،  
والإشارة والكتابة بالقلم فإن القلم أحد اللسانين .

## أقبح أنواع الغيبة

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المترهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذي  
لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل في طلب الخطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ،  
أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .  
وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بأفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو  
يظهر الدعاء ويخفي قصده .

## تحريم سماع الغيبة

واعلم : أن المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف  
منقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .  
قال تعالى : في وصف المؤمنين ( وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه )<sup>(٢)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره ،  
وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وعن أبي الدرداء — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ — قال : « من رد عن عرض أخيه ،  
رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »<sup>(٥)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن .

(١) انظر سنن الترمذى ( كتاب البر والصلة ) باب ما جاء في القيبة ج ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ رقم ١٩٩٩ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

— وفي سنن أبي داود ( كتاب الأدب ) ج ٥ ص ١٩٢ باب ما جاء في القيبة ورد عن أبي هريرة .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٣٦

(٤) سورة الأنعام الآية ٦٨

(٥) الحديث في سنن الترمذى ( كتاب البر والسر ) باب ما جاء في الذب عن المسلم ج ٣ ص ٢١٩ رقم ١٩٩٦ عن أبي الدرداء  
وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن عتيان بن مالك — رضى الله عنه — فى حديثه الطويل المشهور قال : قام النبى — ﷺ — يصلى فقال « أين مالك بن الدخشنى ؟ » فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ولا رسوله فقال النبى — ﷺ — : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال : لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ! وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يتغنى بذلك وجه الله » <sup>(١)</sup> متفق عليه .

ورأى عمر بن عتبة موله مع رجل وهو يقع فى آخر فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الحنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك البائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه ، فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

## فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغية صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدتهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويرىهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

## علاج الغيبة

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة معرض لسخط الله ومقته ، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

(١) الحديث فى كتاب اللؤلؤ والمرجان ( كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها ) باب الرخصة فى التخلف على الجماعة ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ رقم ٣٨٤ حديث عتيان بن مالك .

وينبغي إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر في عيوب نفسه ، ويشغل بإصلاحها ، ويستحي أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

إن عبت قوماً بالذى فيك مثله فكيف يعيب الناس من هو أعور  
وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم فذلك عند الله والناس أكبر  
وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ، وفقهه في الدين ، وبصره عيوبه .  
وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشغل بالشكر على نعم الله عليه ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب  
وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغي أن لا يرضاها لغيره من نفسه .  
فلينظر في السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج الصلة يكون بقطع سببها .

## فصل في حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .  
والظن : ما تركز إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف  
أمراً لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذوراً لأنك لو كذبت  
كنت قد أسأت الظن بالخبر ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغي أن تبحث ،  
هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومن خطر لك خاطر سوء على مسلم ،  
فينبغي أن تزيد في مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغضب الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقي إليك  
خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه في السر .  
واعلم : أن من ثمرات سوء الظن ، التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل  
بالتجسس ، وذلك منهى عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك  
أسلم للمسلم .

## بيان الأعذار المرخصة في الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص في ذكر مساوئ الغير ، وهو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه  
إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :  
أحدها : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه .  
الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .



الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتي ، ظلمني فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقي في الخلاص ، فالتعيين مباح والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو نحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : لرسول الله ﷺ — : « إن ابا سفيان رجل شحيح » <sup>(١)</sup> ولم ينكر عليها — ﷺ .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفكهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشتري . وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصيح للمستشير ، لا على قصد الوقعة إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

والدليل أن فاطمة بنت قيس ، — رضى الله عنها — قالت : أتيت النبي — ﷺ — فقلت : إن أباجهم ومعاوية خطباني ؟ فقال رسول الله — ﷺ — « أما معاوية ، فصعلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه » <sup>(٢)</sup> متفق عليه ومعنى لا يضع العصا عن عاتقه أى : كثير الأسفار . الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستكف أن يذكر به . قيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه مخيبة : قال : لا ، ولا كرامة .

## وأما كفارة الغيبة

فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين

إحدهما : على حق الله — تعالى — إذ فعل ما نهاه عنه ، وكفارة ذلك التوبة والندم .

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستملمه ، وأظهر له الندم على فعله .

(١) الحديث في صحيح البخارى ج ٧ ص ٨٦ ( كتاب النفقات ) باب وعلى الوارث مثل ذلك عن عائشة — رضى الله عنها — وفي صحيح مسلم ( كتاب الاقضية ) باب قضية هند ج ٣ ص ١٣٣٨ رقم ١٧١٤/٧ عن عائشة .

(٢) الحديث في صحيح مسلم — كتاب الطلاق — باب المطلقة ثلاث لا نفقة لها ج ٢ ص ١١١٤ رقم ١٤٨٠ .

— وانظر الترمذى أبواب النكاح — باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ج ٢ ص ٣٠٠ رقم ١١٤٣ حديث فاطمة بنت قيس .

— وانظر سنن أبى داود ( كتاب الطلاق ) باب فى نفقة المبتوتة ج ٢ ص ٧١٢ رقم ٢٢٨٤ .

— وانظر سنن النسائى — كتاب النكاح — باب إذا استشارت المرأة رجلاً فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأتها فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطىها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه » <sup>(١)</sup> .  
وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوعز صدره .

قال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تشي عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات .  
أ . ه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً للناس أنه - سبحانه - خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب آخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال ابن كثير : فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء - عليهما السلام - سواء ، وإنما يتفاضلون بالأموال الدنية - وهي طاعة الله - تعالى - بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم في البشرية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالاحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله - ﷺ - .

قال البخاري : عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله - ﷺ - أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » <sup>(٣)</sup> الحديث .

(١) انظر شكل الآثار للطحاوي ج ١ ص ٧٠ باب شكل ما روى عن رسول الله - ﷺ - من أمره من قبله مظلمه لأخيه في عرض أو في مال أن يتحلله منها في الدنيا .

- وانظر تفسير القرطبي ( تفسير سورة البقرة الآية ٤٨ ج ١ ص ٣٧٨ عن أبي هريرة .

- وانظر صحيح البخاري ( كتاب المظالم ) باب من كانت له مظلمة عند الرجل ج ٣ ص ١٧٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١

(٣) الحديث في صحيح البخاري ج ٦ ص ٦٢ ( في تفسير سورة يوسف ) عن أبي هريرة .

وقال مسلم : عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » <sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبي حاتم عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : طاف رسول الله — ﷺ — يوم فتح مكة على ناقته القضاء يستلم الأركان بمحجن في يده فما وجد لها مناخا في المسجد حتى نزل — ﷺ — على أيدي الرجل فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ثم إن — رسول الله ﷺ — خطبهم على راحلته فحمد الله — تعالى — وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله — تعالى — ورجل فاجر شقى هين على الله ، تعالى ، إن الله — عز وجل — يقول : ﴿ يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ، ثم قال — ﷺ — أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم » <sup>(٢)</sup> .

وأخرج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى ، أو حدثنا من شهد خطب رسول الله — ﷺ — بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال — ليلغ الشاهد الغائب » <sup>(٣)</sup> .

أبوهم آدم والأُم حواء	الناس من جهة التمثيل أكفاء
وأعظمُ خلقت فيهم وأعضاء	نفس كنفس وأرواح مشاكله
يفأخرون به فالطين والماء	فإن يكن لهم من أصلهم حسب
على الهدى لمن استهدى أدلاء	ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم
وللرجال على الأفعال سيماء	وقدر كل امرئ وما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء	و ضد كل امرئ ما كان يجهله

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٩٧ رقم ٢٥٦٤ / ٣٤ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (فى تفسير سورة الحجرات) ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ رقم ٣٣٢٤ عن ابن عمر وانظر كثر العمال ج ١ ص ٢٥٨ رقم ١٢٩٦ عن ابن عمر .

(٣) الحديث فى كثر العمال ج ٣ ص ٦٥ رقم ٥٦٥٢ ورد هذا بلفظه وانظر الحديث فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٦٦ باب الخطب فى الحج ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى نضرة .

محمد فأقول هكذا وهكذا<sup>(١)</sup> . وأعرض في كل عطفية . وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله - ﷺ - جهارا غير سرّ يقول : « إن آل أبي ليسوا لي بأولياء إنما وليّ الله وصالح المؤمنين »<sup>(٢)</sup> .

قال القرطبي : وقد جاء منصوباً عنه - عليه السلام - « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله »<sup>(٣)</sup> . والتقوى بمعناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً .

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى  
من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى

روى البخارى عن سهل بن سعد أن النبى - ﷺ - مر عليه رجل فقال : « ما تقولون في هذا » ؟ فقالوا : حرّى إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : « ما تقولون في هذا » قالوا : حرّى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع . فقال رسول الله - ﷺ - « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »<sup>(٤)</sup> .

من لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً وإن كان كاسياً  
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أى : إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم فاجعلوا التقوى زادكم لدى مغادكم .

(١) الحديث في أتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٤٢٠ ورد الحديث عن أبى هريرة وفي كنز العمال الحديث من ( الديلمى رواية عن معاذ ) رقم ٥٦٥٩ باب التقوى من الاكمال .

(٢) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب الإيمان ) باب موادة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم ج ١ ص ١٩٧ رقم ٣٦٦ / ٢١٥ ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن العاص .

(٣) انظر القرطبي ج ١٦ ص ٣٤٥ في تفسير سورة الحجرات .

(٤) الحديث في صحيح البخارى ج ٧ ص ٩ ( كتاب النكاح ) باب الأكفاء في الدين : عن سهل .

## حقيقة الإيمان والإسلام

\* قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُلْ تَمَّ تَوْمِنُوكُمْ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

### معاني المفردات

﴿الأعراب﴾ : سكان البادية . ﴿آمنا﴾ أي : صدقنا بما جئت به من الشرائع وامتثلنا ما أمرونا به . ﴿لم تؤمنوا﴾ : لم تصدقوا بقلوبكم . ﴿أسلمنا﴾ : استسلمنا خوفاً وطمعاً . ﴿لا يلتكم﴾ أي لا ينقصكم ، يقال لاته يلتيه إذا نقصه ﴿يمنون عليك﴾ أي : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنعة ، وأسدى إليك نعمة .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث — سبحانه — الناس على التقوى — وبخ من في إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغنم وعرض الدنيا .. قال السدى : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزينة وجهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع ، قالوا آمنا ليؤمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا .

## التفسير

قال تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .  
قال العلامة ابن كثير :

يقول — تعالى — منكرأ على الأعرب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد : ( قالت الأعرب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ) وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل — عليه الصلاة والسلام — حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترق من الأعم — إلى الأخص — ، ثم للأخص منه . وقال الإمام أحمد عن عامر بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه ، — رضى الله عنهما — قال أعطى رسول الله — ﷺ — رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً فقال سعد : — رضى الله تعالى عنهما — يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ، وفلاناً ، ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال : النبي — ﷺ — : أو مسلم — جتى أعادها سعد — رضى الله عنه — ثلاثاً ، والنبي — ﷺ — يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبي — ﷺ — : « إني لأعطي رجلاً وأدع من هو أحب إلى منهم فلم أعطه شيئاً مخافة أن يكبوا في النار على وجوههم »<sup>(١)</sup> اخرجنا — الصحيحين من حديث الزهري به ، فقد فرق النبي — ﷺ — بين المؤمن والمسلم فدل على : أن الإيمان أخص من الاسلام .. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعرب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فادبوا في ذلك وهذا معنى قول ابن عباس : — رضى الله عنهما — وابراهيم النخعي ، و قتادة ، وإختره ابن جرير ، وإنما قلنا : هذا لأن البخارى — رحمه الله — ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد انهم قالوا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ أى : استسلمنا خوف القتل والسبي ، قال مجاهد : نزلت في بنى أسد من خزيمه ، وقال قتادة انزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله — ﷺ — والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فادبوا

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ، ص ١٧٦ عن سعد بن أبي وقاص عن أبيه .

— وفي صحيح البخارى ج ١ ص ١٣ ( كتاب الإيمان ) باب إذا لم يكن الاسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل عن سعد بن أبي وقاص .

— وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٣ ( كتاب الإيمان ) رقم الحديث ٢٣٦ / ١٥٠ باب تألف قلب من يخاف الله على إيمانه نصعه .

— وفي سنن النسائي ج ١ ص ١٠٣ عن الزهري ( كتاب الإيمان وشرائعه ) .

وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقين في سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ ، أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ، ثم قال : ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل : ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الله غفور رحيم ﴾ أى : لمن تاب إليه وأناب .

وقوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ .

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه — أولئك هم الصادقون في قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ، ليحققوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الأرض والله بكل شيء عليم ﴾ ، ﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ ؟ أى : قل لهم : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوائحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً . ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيها كقوله تعالى : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ <sup>(٢)</sup> ، قوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم فتنا لكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شيء . قوله تعالى : ﴿ يمينون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ ، يعنى — سبحانه — للأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم ، على الرسول — ﷺ — يقول الله — تعالى — رداً عليهم : ﴿ قل لا تمنوا على إسلامكم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، والله المنة عليكم فيه ، ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين ﴾ أى : في دعواكم ذلك .

قاله — سبحانه وتعالى — لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه — سبحانه — خلقنا بمحض جوده وكرمه وبمحض فضله ومنته .

يقول — تعالى — في الحديث القدسي : « يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم . وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا <sup>(١)</sup> » ، فليو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل متهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكثر — سبحانه وتعالى — بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه ، وإعائته ، وبفضله ، ومنته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كعصية أفجر رجل ، وخالفوا أمره ونهيه لم يضره ذلك ، ولم ينقص ذلك من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكهم ، وخلق غيرهم فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية الغنى الحميد قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز <sup>(٢)</sup> . ﴾

قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾ أى : إن الله يعلم ما غاب فيهما وهو بصير بسركم وعلايتكم لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم <sup>(٣)</sup> ﴾

(١) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب البر والصلة ) باب تعزيم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ رقم ٢٥٧٧ / ٥٥ عن أبى دُرٍّ من حديثه الطويل بقوله : يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى .. الخ .

(٢) سورة ( فاطر ) الآيتان ١٥ ، ١٧ .

(٣) سورة الحشر الآيات ٢٢ — ٢٤



## تفسير سورة ( ق )

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : خمس وأربعون

وكلماتها : ثلاثمائة وخمس وسبعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون

مجموع فواصل آياتها : ( صر جد ظب )

سميت بـ ( ق ) لافتتاحها بها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : إثبات النبوة للرسول — ﷺ — وبيان حجة التوحيد ، والاخبار عن إهلاك القرون الماضية وعلم الحق — تعالى — بضمائر الخلق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق ، المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العاصين يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً في ذلك اليوم ، وتغيظ الجحيم على أهله ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخليق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، ووعظ الرسول — ﷺ — الخلق بالقرآن المجيد في قوله : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وقال قرينه ﴾ وبعده : ﴿ قال قرينه ﴾ لأن الأول خطاب الإنسان من قرينه ومتصل بكلامه ، والثاني استئناف خطاب الله — سبحانه — من غير اتصاله بالمخاطب الأول وهو قوله : ﴿ ربنا ما أطعته ﴾ ، وكذلك الجواب بغير واو ، وهو قوله : ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ وكذلك ﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ فجاء الكل على نسق واحد .

قوله : ﴿ قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وفي طه ﴿ وقبل غروبها ﴾ لأن في هذه السورة : راعى الفواصل ، وفي طه ، راعى القياس ، لأن الغروب للشمس ، كما أن الطلوع لها . أ هـ .

مناسبتها لما قبلها :

أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقاً ، وذلك يقتضى الشك في البعث ، وافتتح السورة بما يتعلق بذلك .

## فضل السورة

حديث مسلم ، وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه — الصلاة والسلام — كان يقرأ هذه السورة في الركعة الأولى من صلاة الفجر .

واخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي « إنه — ﷺ — كان يقرأ في العيد بقاف ، واقتربت »<sup>(١)</sup> .

واخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا من في رسول الله — ﷺ — كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس »<sup>(٢)</sup> .

وكل ذلك دليل على أنه — ﷺ — كان يقرأ بها في المجمع الكبيرة كالعيدين ، والجمع لاشتغالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . فهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزاً وترج النفس رجاً ، وتثير فيها روعة الإعجاب ، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨ حديث أبي واقد الليثي — رضى الله عنه —  
 (٢) وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦٥ ، ٤٣٦ في أحاديث أم هشام من حارثة بن الفهمان — رضى الله عنه —  
 — وانظر صحيح مسلم ( كتاب الجمعة ) ج ٢ ص ٥٩٥ باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم الحديث ٨٧٢ / ٥٠ .  
 — وفي سنن أبي داود ج ١ ص ٦٦١ ( كتاب الصلاة ) باب الرجل يحط على قوس رقم الحديث ١١٠٢ .  
 وحديث رقم ١١٠٠ أيضا .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنَ إِذَا الْمَجِيدُ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَإِذَا  
 مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْبٌ حَفِيزٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا  
 بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا  
 مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرٌ  
 لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ  
 لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ  
 وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ  
 وَعِيدُ ﴿١٤﴾ أَفَعَيَيْنَا بَالِ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

### معاني المفردات

﴿ المجيد ﴾ من المجد وهو كما قال الراغب : السعة في الكرم ، وصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والآخروية . ﴿ رجع بعيد ﴾ أى : بعث بعد الموت بعيد عن الأذهان . ﴿ ما تنقص الأرض ﴾ أى : ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم . ﴿ حفيظ ﴾ أى : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها . ﴿ بالحق ﴾ أى : بالنبوة الثابتة بالمعجزات . ﴿ مريع ﴾ أى : مضطرب . ﴿ بنيناها ﴾ أى : أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، ﴿ وزيناها ﴾ أى : بالكواكب ، ﴿ فروج ﴾ أى : شقوق ، ﴿ مددناها ﴾ أى : بسطناها ، ﴿ رواسي ﴾ أى : جبالا ثوابت تمنعها من الميّد والاضطراب ، ﴿ زوج ﴾ صنف ، ﴿ بهيج ﴾ أى : ذى بهجة وحسن ، ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ أى : تبصيراً وتذكيراً ، ﴿ منيب ﴾ من أناب إذا رجع وخضع ، ﴿ حب الحصيد ﴾ أى : حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ، ﴿ باسقات ﴾ أى : طويلات ، والطلع ما ينمو ويصير بلحاً ثم رطباً ثم تمراً ، ﴿ نضيد ﴾ أى : منضود بعضه فوق بعض ، ﴿ الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ الرس ﴾ البئر التى لم تطو أى : لم تبني وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب — عليه الصلاة والسلام — ، ﴿ والأيكة ﴾ الغيضة الملتفة الشجر ، ﴿ تبع ﴾ هو تبع الحميرى ، ﴿ أفعينا ﴾ العى عن الأمر : العجز عنه ﴿ لبس ﴾ أى : شك شديد وحيرة واختلاط .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾

﴿ ق ﴾ أحد حروف الهجاء وفي القرآن الكريم سور افتتحت بمثل هذا الحرف فقد تفتتحت السورة بحرف واحد مثل ﴿ ص ﴾ و ﴿ ق ﴾ و ﴿ ن ﴾ وقد تفتتحت بحرفين مثل ﴿ حم ﴾ ، ﴿ طه ﴾ وقد تفتتحت بثلاثة أحرف مثل ﴿ الم ﴾ ﴿ الر ﴾ ﴿ طسم ﴾ ، وقد تفتتحت بأربعة أحرف مثل ﴿ المر ﴾ وقد تفتتحت بخمسة أحرف مثل ﴿ كهيعص ﴾ و ﴿ حم عسق ﴾ .

ونحن إذا حذفنا المكرر من تلك الحروف أعطينا جملة تقول ﴿ نص حكيم ، قاطع ، له سر ﴾ . وقد شئت حكمة الله — تعالى — أن يتحدى أساطين الفكر وأرباب البلاغة وعباقره الكلمة ، وجهابذة البيان ، بهذا الكتاب الكريم ، وفي هذه الحروف الهجائية التي افتتح الله — تعالى — بها بعض السور فيها إشارة إلى هذا الإعجاز ، فهذا كتاب عربى مبين ، نزل على نبي عربى وهو بشر ، فإن كنتم تكذبونه فما جاء به فقد بعث بمعجزة خالدة دائمة هي :

القرآن الكريم : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ <sup>(١)</sup> فأنتم عرب تتكلمون

بلغة هذا الكتاب ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فأتوا بعشر سور وإلا فأتوا بسورة ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ <sup>(٢)</sup> . والنتيجة : أنهم عجزوا عجزاً تاماً فلزمتهم الحجة ، ﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

ولمكانة هذا الكتاب المعجز ، وعلاوا منزلته ، ورفعة طبقته ، أقسم عليه وهو جواب القسم ( البعث حق ) كما يستفاد ذلك من سياق الآيات في قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ فكأنه — تعالى — يقول لهم : أقسم بهذا الكتاب المعجز « لتبعثن » فإعجازى في كلمتى كإعجازى في خلقى فكل شئ عندى بالكاف والنون ، فإذا كان القرآن كوناً ناطقاً فإن القرآن كون صامت ، وإذا كان ذلك كذلك محمد — ﷺ — قرآن ، يمشى بين الناس وإعجازى في كلماتى التنزيلية كإعجازى في كلماتى التكوينية ، فالتنزيل نور ، والتكوين نور وكلاهما نور على نور ، ﴿ يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم ﴾ <sup>(٤)</sup> وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون <sup>(٥)</sup> .

(٤) سورة النور الآية : ٣٥

(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٣

(١) سورة الطور الآية ٣٤

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤

(٣) سورة هود الآية ١٤

قوله تعالى : ﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ .  
 أى : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم .. ﴾ <sup>(٢)</sup> . أى : وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم قال — عز وجل — مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أنذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ أى : يقولون : أنذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف : يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ( ذلك رجع بعيد ) أى : بعيد الوقوع . منهم يعتقدون استحالة وعدم إمكانه . قال الله تعالى : راداً عليهم :

﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أى : قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم في البلى نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أى : حافظ لذلك فالعلم شامل ، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة . كقوله تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال : بعد ذلك فهو باطل ﴿ فهم في أمر مريج ﴾ أى : مضطرب كقوله تعالى : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ <sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

يقول — تعالى — منبهاً للعباد على قدرته العظيمة ، التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ بالمصاييح ﴿ وما لها من فروج ﴾ قال مجاهد : يعنى : من شقوق كقوله تعالى : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿ <sup>(٥)</sup> . أى : كليل عن أن يرى عبياً ، أو نقصاً .

(١) سورة يونس الآية ٢

(٢) سورة الاعراف الآية ٦٣

(٣) سورة القمر الآيتان ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الذاريات الآيتان ٨ ، ٩

(٥) سورة الملك الآيتان ٣ ، ٤

وقوله تعالى : ﴿ والأرض مددناها ﴾ أى : وسعناها وفرشناها ، ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهى : الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أى : من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، كقوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ بهيج ﴾ أى : حسن المنظر ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعتاب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ أى : ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة ، تبصرة ودلالة ، وذكرى لكل عبد منيب ، أى : خاضع خائف ، وجل رجاء إلى الله — عز وجل — كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقلنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزينا وما للظالمين من أنصار ، ربنا إنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنوا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ <sup>(٣)</sup> .

## من آيات الله الكونية

يقول العلامة ابن القيم : تأمل العبرة فى وضع العالم وتأليف أجزائه ، ونظمها على أحسن نظام ، وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ، ومصالحه ، وكل ما يحتاج إليه ، فالسمااء مسقفة المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له وزينة ، وأدلة للهنّقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المعدة للمهياة كل شيء منها لشأنه ، الذى يصلح له وضروب النبات مهياة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الإنسان يحرسه ، وهو نائم ، وقاعد مما هو مستعد لا هلاكه وأذاه فلولاً ما سلط عليه من ضده لم

(١) سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٤

يقر للإنسان قرار بينهم ، وجعل الإنسان كالمملك المخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا : أعظم دلالة ، وأوضحها على أن العالم مخلوق خالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وإن الخالق يستحيل أن يكون اثنين ، بل الإله واحد لا إله إلا هو — تعالى — عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً ، وأنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما ، واختل نظامهما ، وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول ، وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا — ف سبحان الله — رب العرش عما يصفون ، ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾<sup>(١)</sup> .

— فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها ، وارتفاعها ، وسعتها ، وقرارها ، بحيث لا تصعد علواً كالنار ، ولا تهبط نازلة كالأجسام . الثقيلة ، ولا عمد تحتها ، ولا علاقة فوقها ، بل هي : ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزلزلا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ، ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان ، وأشدّها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كلّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء . فتأمل كيف جعل اديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكسأ فيها بطول مباشرتها له . هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

— وتأمل الحكمة البعيدة في تيسيره — سبحانه — على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله ، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع ، وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالغادر على مراتب الحاجات ، وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار ، وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لا ختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المتعقد فتأمل حكمة ربك في أن سخر له الريح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحاباً ، أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره وإذاه فسل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير ، وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحاباً ، أو ضباباً ، أو يذهبوه عن الناس ، ويكشفوه عنهم ولو شاء

ربه — تعالى — لحبس عنه الرياح فاجتنتق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .  
 — ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان ، وعن مزارعهم ،  
 ومراعيتهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم ، فإن قلت : فما حكمة هذه القفار الخالية ، والفلوات الفارغة  
 الموحشة ، فاعلم أن فيها معاش لا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب ، وعليها أرزاقهم ، وفيها مطردهم  
 ومنزلهم كالمدن والمساكن للإنس ، وفيها مجاهم ومرعاهم ومصيفهم وشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس  
 للناس ، ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال ، والبدو والاستبدال بالأوطان ، فكم من بيداء سباق صارت  
 قصورا وجنانا ، ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها ، لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين . في أماكنهم  
 لا يجدون عنها إنتقالا إذا فدحهم ما يزعمهم عنها ، ويضطربهم إلى النقلة منها ، وكذلك الماء لولا كثرتة ،  
 وتدفعه في الأودية والأنهار ، لضاق عن حاجة الناس إليه ، ولغلب القوى الضعيف ، واستبد به دونه  
 فيحصل الضرر ، وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع ، فاقتضت  
 الحكمة ، إن كان بهذه الكثرة والسعة ، في كل وقت ، وأما النار فقد تقدم أن الحكمة : اقتضت كمونها  
 متى شاء العبد ، أوراها عند الحاجة ، فهي وإن لم تكن مبنوثة في كل مكان فإنها عتيدة حاصلة ، متى  
 احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها ، فإنها لو كانت  
 ظاهرة أبدا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لاتظهر  
 أبدا لفانت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم إن جعلها مخزنة في الأجسام يخرجها  
 ويقيها الرجل عند حاجته إليها .. »

— ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها ، وفيها  
 من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصرها .. فمن منافعها : أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قلالها حاصلا  
 لشراب الناس ، إلى حين نفاذه ، وجعل فيها ليزوب أولاً فأولاً فتجىء منه السيول الغريرة ، وتسيل  
 منه الأنهار والأودية فينبت في المروج ، والوهاد والربا ضروب النبات ، والفواكه والأودية ، التي لا يكون  
 مثلها في السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة ، وساح دفعة فعدم  
 وقت الحاجة إليه ، وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن  
 تلافيه ولا دفعه لأذيتة . ( ومن منافعها ) ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف ، والمعاقل  
 التي يمتزله الحصون والقلاع ، وهي أيضا : أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها  
 للأبنية على اختلاف أصنافها ، والإرصية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف  
 أصنافها من الذهب والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزربرجد ، والزمرد وأضعاف ذلك  
 من أنواع المعادن الذي يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى : أن فيها ما يكون الشيء اليسير  
 منه تزيد قيمته ، ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها  
 ومبدعها — سبحانه — ( ومن منافعها ) أيضا : أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم



ما تحتها ولهذا : فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . ( ومن منافعها ) أيضا : أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، ( ومن منافعها ) أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾<sup>(١)</sup> فالجوارى : السفن وأعلام الجبال ، وأحدها علم .. فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ( ومن منافعها ) أيضا : ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التي لا تكون في السهول ، والرمال ، كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . ( ومن منافعها ) أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير القلاع والمدن ، ( ومن منافعها ) ما ذكره الله — تعالى — في كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن أعظم بها من منفعة ، وحكمة هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها ، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمساكن ، ولماأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن ، والمغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذي نصبت عليه ، ولقد دعانا الله — سبحانه وتعالى — في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾<sup>(٢)</sup> فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها ، وفاطرها ، وعلمه ، وحكمته ، ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له ، وتسجد ، وتشقق ، وتهبط من خشيته . ﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴾<sup>(٣)</sup> . أ هـ

قوله تعالى : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

أى : ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما ، وأنبتنا به النخل الطوال التي لها طلع منضود مترام بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

(١) سورة الشورى الآية ٣٢

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠

(٣) سورة لقمان الآية رقم ١١

وقوله — تعالى — : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوج ﴾ أى : وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التى لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوج ﴾ أى : ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، وفى التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالاحياء ، وعن احياء الموتى بالخروج تضخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة ، بين إخراج النبات ، وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحيها غنى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك غنى الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٣)</sup> .

يقول العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » :

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها ، وتلوها ، وظرابها ، وآكامها ، ومنخفضها ، ومرتفعها ، ولو كان ربها تعالى : إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر وفى ذلك فساد ، فافتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشئ — سبحانه — السحاب ، وهى روايا الأرض ثم : يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر ، وتلقحها به كما يلقي الفحل الأنثى ، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار ، وإذا بعدت من البحر قل مطرها .. ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو ، والغيم يعتقان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساد فلو توالى الأمطار لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب ، والثمار ، وعفنت الزرع ، والخضروات وأرخت الأبدان ، وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المأكول ، وتقطعت المسالك ، والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان ، وغيض الماء ، وانقطع معين العيون والآبار والأنهار ، والأودية ، وعظم الضرر واحتدم الهواء فبيس ما على الأرض وجفت الأبدان ، وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروباً من الأمراض عسرة الزوال فافتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو ، والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر ، وصح الهواء ، ودفع كل واحد منهما عادية الآخر ، واستقام أمر العالم وصلح .

(١) سورة الحج الآيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة فصلت الآية ٣٩

(٣) سورة الروم الآية ٥٠

ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات ، والثمار ، والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شيء ، متتابعة ، ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التي رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن لكل فصل أوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار ، وهذا بارد ، وهذا معتدل ، وكل في فصله موافق المصلحة ، لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم إنه — سبحانه — خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف ، والخشب ، والورق ، والنور ، والسعف ، والكرب وغيرها من منافع النبات ، والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية ، والسفن والرحال ، والأواني وغيرها ، ومنافع النور من الأدوية ، والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرأى الشجر ، وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللفظ . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ، ثم الورق الأخضر ، ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها وطعومها ، ورائحتها ومنافعها ، وما يراد منها . ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة ، وهاتيك العيدان ، وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب ، وهذا التقدير المحكم ، وهذه الأصباغ الفاتكة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره ، وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً ، وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ، ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح ، وأنزل عليها المطر ، ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها ، فتؤديه الأغصان إلى الأوراق والثمر ، كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفيه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزیده على قدر حاجته ، فسل الجاحد من أعطى هذا ، ومن هداها إليه ، ووضعها فيها ، فلو اجتمع الأولون والآخرين هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة ، أو حيلة ، أو مزاوله ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ؟ ودلت عليه آياته ؟ كما قيل :

فواجباً كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكــــــــــــــــة	وتسكينــــــــــــــــة أبداً شاهد
وفي كل شيء لــــــــه آية	تدل على أنه واحد

ويقول العلامة ابن القيم في الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب :

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح ، جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثة ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبي — ﷺ — وذلك من وجوه كثيرة ، ( أحدها ) : ثبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

( الثاني ) : طيب ثمرها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام ، طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

( الثالث ) : دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء ، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه — تعالى — .

( الرابع ) : سهولة تناول ثمرتها وتيسره ، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها ، وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها ، فتراها كأنها قد هيئت منها المراق والدرج إلى أعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله وما هو بالغر ولا بالئيم .

( الخامس ) : أن ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبة فاكهة وحلاوة ، ويابسها يكون قوتاً وأدماً وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل في الأدوية والأشربة ، وعموم المنفعة به وبالغنى فوق كل الثمار .

( السادس ) : من وجوه التشبيه : أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد ، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة ، وتقلعها تارة ، وتقصف أفنانها ، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا ترزعزه الرياح .

( السابع ) : أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شيء بغير منفعة ، فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يحجل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ، ويستر به الفرج والخلل ، وخصوصها يتخذ منه المكاتل والزناويل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها وكرها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها ، فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور ، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ (١) .

( الثامن ) : أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها ، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

( التاسع ) : أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاها ، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر ، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

( العاشر ) : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً ، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر ، حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعتها ، وخصوصها ، وليفها وكرهها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط ، إن أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب ، فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأموناً . وفي الترمذى مرفوعاً إلى النبي ﷺ — ( خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره )<sup>(١)</sup> فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه ، فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا ، وأخرى معترضة كاللحمة ، كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب فلا تنقص من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ، ولبشها في السقوف ، والجسور ، والأواني ، وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب ، وغيرها إذا تأملته . شبه النسج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلب بل ترى بعضه كأنه دخل بعضاً طويلاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه ، فإنه لو كان مصمتاً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت ، وما أشبهها ، ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة العظيمة ، والأمتعة الكثيرة ، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لعظمت المئونة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم ﴿ وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾<sup>(٢)</sup> . قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ، أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ .

بعد أن ذكر — سبحانه — تكذيب المشركين للرسول ﷺ — في صدر السورة ذكر المكذبين للرسول من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسلياً لرسوله ﷺ — وعبرة لهم . ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ أى : كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب . ﴿ كل كذب

(١) الحديث في سنن الترمذى ( أبواب الوصايا ) باب ٦٣ ج ٣ ص ٣٥٩ رقم ٢٣٦٢ عن أنس بن مالك قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

(٢) سورة إبراهيم من الآية ٣٤

الرسول ﴿ من هذه الأمم المكذبة ﴾ ﴿ فحق وعيد ﴾ أى : فحق عليهم وعيدي وعقابي . كقوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أفعمينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أى : أفأعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ؟ ، ﴿ بل هم في لبس من خلق جديد ﴾ أى : في حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم مكذب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف أبدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وفي مسند الامام أحمد : من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ﷺ — بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : يا ابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة » <sup>(٣)</sup> .

## المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت في سورة ق

يقول العلامة ابن القيم في فوائده

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى ، وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء ، وهؤلاء ، وتضمنت اثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كما له من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة ، والأصغر ، وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الإنسان ، ووفاته ، واعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، واحاطته بـ سبحانه — به من كل وجه ، حتى علمه بوساوس نفسه ، واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وإنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد

(٢) النكبات الآيات : ١٩ ، ٢٠

(١) سورة غافر الآيات ٤ ، ٥

(٣) الحديث في مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ ( حديث بشر بن جحاش عن النبي ﷺ والحديث في تحاف السادة المدعين ج ٤ ص ٣٤٨ وقال العراقى : رواه ابن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش : قلت ورواه أيضا أحمد وابن سعد والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم ولفظهم جميعاً بقول الله : يا ابن آدم أني تعجزني .. الخ .

يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : ( هذا ما لدى عتيد ) أى : هذا الذى أمرت بإحضاره قد أحضرته ، فيقال عند إحضاره ( ألقيا فى جهنم كل كفار عتيد ) كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : أذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

### ( المعاد للجسد ذاته )

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله — سبحانه — يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ، ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها ، لا أنه — سبحانه — يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبر به الرسل ، حيث زعم أن الله — سبحانه — يخلق بدنًا غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غير ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة ، وسائر كتب الله تعالى ، وهذا فى الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكروا من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام آخر غير هذه الأجسام يعذبها ، وينعمها كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله — سبحانه — أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فئت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ ، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى ، وصاروا عظاماً ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : ﴿أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله ( قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ) كبير معنى .

فإنه — سبحانه — جعل هذا جواباً لسؤال مقدر ، وهو : إنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، فأخبر — سبحانه — أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم ، وعظامهم ، وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها ، وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو : — سبحانه — يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

### شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ، ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثانى : إن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : إن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئاً بعد شىء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميم النوع الإنسانى كله ، ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك ، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

### براهين المعاد

أحدها : تقرير كمال علم الرب - سبحانه - وتعالى كما قال فى جواب من قال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ، وقال : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ ﴿<sup>(٢)</sup>﴾ .

والثانى : تقرير كمال قدرته ، كقوله ( أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ) ﴿<sup>(٣)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾ ﴿<sup>(٤)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾ ﴿<sup>(٥)</sup>﴾ .

ويجمع - سبحانه - بين الأمرين كما فى قوله : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

والثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ﴾ ﴿<sup>(٦)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾ ﴿<sup>(٧)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ أحسب أن يترك سدى ﴾ ﴿<sup>(٨)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ أفحسب أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾ ﴿<sup>(٩)</sup>﴾ ، وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ ﴿<sup>(١٠)</sup>﴾ .

(١) سورة (يس) الآيتان ٧٨ ، ٧٩

(٢) سورة الحجر الآيتان ٨٥ ، ٨٦

(٣) سورة (يس) من الآية ٨١

(٤) سورة القيامة الآية ٤

(٥) سورة الحج الآية ٦

(٦) سورة الدخان الآية ٣٨

(٧) سورة (ص) الآية ٢٧

(٨) سورة القيامة ٣٦

(٩) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥ ، ١١٦

(١٠) سورة الجاثية الآيتان ٢١ ، ٢٢



ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب — تعالى — وكمال اسمائه ، وصفاته تقتضيه وتوجيه ، وأنه منزّه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص . ثم أخبر — سبحانه — أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم ( فهم في أمر مريج ) مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوى وبنائه ، وارتفاعه ، واستوائه وحسنه ، والثمامه ، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض ، وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وإن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب ، وتبصر بها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وإن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكير في مادة أرزاقهم وأقواتهم ، وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض ، وأسود ، وأحمر ، وأصفر ، وحلو ، وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعتها ، وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها ، واختلاف منافعها ، وصفاتها وأشكالها ، ومقاديرها . ثم ، أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾<sup>(١)</sup> ، ثم قال : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أى : مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار ، والأقوات ، والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبت فيها .

ثم انتقل — سبحانه — : إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهه وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذى أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم من أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب ، بل أخبر به أخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب ، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرناً بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد — سبحانه — إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ أفبعينا بالخلق الأول ﴾ يقال : لكل من عجز عن شيء : عيى به ، وعيى فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :

عيوا بأمرهم — كما عييت بيضتها الحمامة

ومن قولة تعالى : ﴿ ولم يعي مخلقهن ﴾ قال ابن عباس : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل : قلت : هذا تفسير يلزم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن العرب تقول : أعيانى أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه ولم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعيانى دواؤك إذا لم تهتد له ولم تقف عليه .

ولازم هذا المعنى : العجز عنه ، والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ، فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعيائها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة ، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها ، فإذا باضت أعيائها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهى تنقلها من مكان إلى مكان ، وتجار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ، ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالاعياء : فى هذه الآية : التعب ، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى : هو الذى نفاه — سبحانه — عن نفسه فى آخر السورة بقوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ . ثم أخبر — سبحانه — أنهم ﴿ فى لبس من خلق جديد ﴾ أى : أنهم الملبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته ، وشواهد ربوبيته ، وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها ، وقواها وصفاتها ، وما فيها من اللحم ، والعظم والعروق ، والأعصاب والرباطات ، والناقد والآلات ، والعلوم ، والإدارات ، والصناعات .. كل ذلك من نطفة ماء . فلو أنصف العبد ربه لا كفى بفكره فى نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه ، وصفاته ، ثم أخبر — سبحانه — عن أحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربيه إليه بالعلم والإحاطة وإن ذلك أدنى إليه من العرق الذى هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه ، والعلم به من ذلك العرق .. أهـ .

## الموت والبعث والجزاء

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوْسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَفَّى  
الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ  
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ  
نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ

﴿٦٦﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٦٧﴾ الْقِيَامِ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٦٨﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٦٩﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٧٠﴾ \* قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٧١﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٧٢﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٧٣﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ ﴿٧٤﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٧٥﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٧٦﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٧٧﴾ آدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٧٨﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

### معاني المفردات

- ﴿ الوسوسة ﴾ : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلى ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر بالبال .
- ﴿ جعل الوريد ﴾ : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يروان من الرأس إليه .
- ﴿ قعيد ﴾ بمعنى مقاعد ، كالجلس بمعنى مجالس .
- ﴿ والريب ﴾ : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال .
- ﴿ عتيد ﴾ أى : مهيا لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر .
- ﴿ سكرة الموت ﴾ : شدته ، ﴿ بالحق ﴾ أى : بحقيقة الحال .
- ﴿ تحيد ﴾ أى : تميل وتعدل . ﴿ يوم الوعيد ﴾ : يوم إنجاز الوعد ، ﴿ السائق والشهيد ﴾ : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله والآخر يشهد عليها بعملها . ﴿ الغطاء ﴾ : الحجاب المغطى لأمر المعاد ، وهو : الغفلة والانهماك فى اللذات ، وقصر النظر عليها ، ﴿ حديد ﴾ أى : نافذ لزوال المانع للإبصار .
- ﴿ القرين ﴾ : هو : الملك الموكل بالمرء . ﴿ عتيد ﴾ أى : معد محضر . ﴿ عتيد ﴾ أى : مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق . ﴿ مناع للخير ﴾ أى : كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه . ﴿ معتد ﴾ أى : متجاوز للحق ظالم . ﴿ مرِب ﴾ أى : شاك فى الله وفى دينه ، ﴿ القرين ﴾ هنا : الشيطان المقيض له ، ﴿ بعيد ﴾ أى : من الحق ، ﴿ لا تختصموا لى ﴾ أى : لا يجادل بعضكم بعضا عندى ، ﴿ بالوعيد ﴾ أى : على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى السنة رسلى .

﴿ ما يبذل القول لدى ﴾ أى : لا يقع فيه الخلف والتغير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى .  
 ﴿ مزيد ﴾ : زيادة . ﴿ أزلقت ﴾ أى : أدنيت وقربت . ﴿ غير بعيد ﴾ أى : فى مكان غير بعيد  
 منهم بل هو بمرأى منهم . ﴿ هذا ما توعدون ﴾ أى : هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة الرسل .  
 ﴿ أوأب ﴾ أى : رجّاع عن المعصية إلى الطاعة . ﴿ حفيظ ﴾ أى : حافظ لحدود الله وشرائعه .  
 ﴿ خشى الرحمن بالغيب ﴾ أى : خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد .  
 ﴿ منيب ﴾ أى : مخلص مقبل على طاعة الله . ﴿ بسلام ﴾ أى : سالمين من العذاب وزوال النعم ،  
 ﴿ الخلود ﴾ أى : فى الجنة إذ لا موت فيها . ﴿ مزيد ﴾ أى : بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر  
 على قلب بشر .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن استدلل — سبحانه — على إمكان البعث بقوله : أفعيننا بالخلق الأول . أردف ذلك دليلاً  
 آخر على إمكانه ، وهو علمه بما فى صدورهم ، وعدم خفاء شيء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك  
 لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لا شك  
 فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها .  
 ثم ذكر — سبحانه — الحوار الذى دار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر ورد القرين  
 عليه ، وأن الله — سبحانه — نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم على السنة  
 رسله ، ثم أردف هذا ذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قرية منهم بحيث يرونها رأى العين ،  
 فتطمئن إليها نفوسهم وتثلج لمراها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة  
 الأنبياء . والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ، ونعيم فهو حاضر ، ولهم  
 فوق هذا رضوان من ربهم ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ (١) .

### التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ . إذ يتلقى  
 المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة الموت  
 بالحق ذلك ما كنت منه تحيد .

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ .  
 يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره حتى أنه تعالى يعلم ما  
 توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر ، كما قال تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض  
 وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء  
 الحسنى ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكما قال جل في علاه : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ،  
 ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وكما قال جل ذكره : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم  
 ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ، قال ابن كثير يعني : ملائكته تعالى أقرب  
 إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العليم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان  
 بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما  
 قال : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ ، كما قال في المختصر : ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن  
 لا تبصرون ﴾ يعني : ملائكته وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ <sup>(٤)</sup>  
 فالملائكة نزلت بالذكر — وهو : القرآن — بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان  
 من حبل وريده إليه باقتدار الله — جل وعلا — لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان  
 لمة وكذلك : « الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، ولهذا قال :  
 تعالى : ههنا ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعني : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان . أ هـ .  
 وقال ابن القيم — رحمه الله — قال شيخنا — ابن تيمية — المراد : بقول : ﴿ نحن ﴾ أى : ملائكتنا ،  
 قال : ويدل عليه قوله : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ .

فقيد المذكور يتلقى الملكين .. أ هـ .

قال الإمام ابن تيمية « وهو — سبحانه — فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيم عليهم ، مطلع  
 إليهم ، فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب  
 عتيد ﴾ .

(١) سورة ( طه ) الآيات ٦ — ٨ .

(٢) سورة ( الملك ) الآيات ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة التوبة الآية ٧٨ .

(٤) سورة ( الحجر ) الآية ٩ .

(٥) من الحديث الموجود في البخارى كتاب الأحكام ( باب الشهادة تكون عند الحاكم في ولاية القضاء ) ج ٩ ص ٨٧ .

— وفي سند الامام أحمد ج ٣ ص ١٥٦ .

— وفي سنن أبى داود ( كتاب الصوم ) باب المتكف يدخل البيت عند الحاجة ج ٢ ص ٨٣٥ رقم ٢٤٧٠ .

﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ، ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أى : مترصد كقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (١) . وكقوله تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أى : إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة قال ابن كثير : وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شئ من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب ، وعقاب كما هو قول ابن عباس — رضى الله عنهما — ؟ على قولين : الأظهر الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد بسنده ، عن بلال بن الحارث المزنى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله — تعالى — ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله — عز وجل — له بها رضوانه إلى يوم يلقاه » (٣) قال : فكان علقمة — الذى روى الحديث عن بلال بن الحارث — يقول : كم من كلام قد منعه حديث بلال بن الحارث ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وله شاهد فى الصحيح . وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله — تعالى — نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، رواه ابن حاتم وقال : الحسن البصرى ، وقلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل ، أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (٤) ، ثم يقول : عدل ، والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وذكر الإمام أحمد أنه كان يثنى فى مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شئ حتى الأنين فلم يثن أحمد حتى مات — رحمه الله — .

(١) سورة الانفطار الآيات ١٠ — ١٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٠

(٣) الحديث فى سند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٦٩ ورد الحديث بلفظه عن بلال بن الحارث المزنى .

— وفى تحفة الأخوذى بشرح جامع الترمذى ( أبواب الزهد ) باب ما جاء فى قلة الكلام رقم ٢٤٢١ .

— وفى سنن ابن ماجه ( كتاب الفتن ) باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٢ ، ١٣١٣ رقم ٣٩٦٩ .

(٤) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

قوله تبارك — وتعالى — : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ يقول : — عز وجل — وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أى : كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمتري فيه ، ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أى : هذا هو الذى كنت تفر منه ، قد جاءك فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص . قال تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال جل في علاه : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ <sup>(٣)</sup> .

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنخ عن خطبتها تسلم  
إن التلى تخطب غرارة قريية العرس من المائم  
قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال الحسن البصرى : ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .  
وقال أبو العتاهية :

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحن  
ومادون دائرة الردى حصن لمن يتحصن  
وقال آخر :

زيت بيتك جاهلاً وتحمرته ولعل غيرك صاحب البيت  
من كانت الأيام سائرة به فكأنه قد حلّ بالموت  
والمرء مرتين بسوف وليتنى وهلاكه في السوف والليت  
لله در فتى تدبر أمره ففدا وراح مبادر الفوت  
وكان عمر بن عبد العزيز — رضى الله — عنه يقول في خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله — عز وجل — من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن . خاف الله — تعالى — واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه

(١) سورة الجمعة الآية ٨

(٢) سورة العنكبوت الآية ٥٧

(٣) سورة الرحمن الآيات ٢٦ ، ٢٧

بعدكم الباقيون ؟ ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غادياً راثحاً إلى الله قد قضى نخبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه في بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد ، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

وقال الحسن : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك ترجعها جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، يا ابن آدم ، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به . الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ المعاناة ؟ فكأن قد . هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحالها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبي بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم . من رأى محمداً ﷺ — فقد رآه غادياً راثحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رفع له علم فشمّر إليه . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . علام تعرجون . أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل يوم تزدلون ، فماذا تنتظرون . إن الله — تعالى — بعث محمداً — عليه السلام — على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعاً ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتا وبُلبغة ثم قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾<sup>(١)</sup> فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قيرك ، واعلم أنك لم تنزل في هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظرت ففكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم أذكر قوله : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَانَهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾<sup>(٢)</sup> عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم . ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم ، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . ما لي أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً . ذهب الناس

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢١

(٢) سورة الاسراء الآيات ١٣ ، ١٤



وبقى التناسل . لو تكاشفتُم ما تدافنتُم . تهاديتُم الأطباق ولم تهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله أمراً أهدى إلينا مساوينا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن أخذه من قبل ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم ، وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته . فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم ، ليس الإيمان بالتحلى ، ولا بالتقنى ، ولكنه ما وقر في القلب ، وصدقته الأعمال .

## تذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة

باب : ذكر الموت والاستعداد له

يقول العلامة القرطبي في كتابه ( التذكرة ) ما ملخصه .

روى النسائي عن أبا هريرة قال : قال رسول الله ﷺ — « أكثرُوا ذكر هادم اللذات »<sup>(١)</sup> يعني الموت .

وروى الترمذى : عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ — « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »<sup>(٢)</sup> .

وقال السدى في قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾<sup>(٣)</sup> أى : أكثركم للموت ذكراً ، وله أحسن استعداداً ومنه أشد خوفاً محذراً .

﴿ فصل ﴾ : قال : علماؤنا — رحمة الله عليهم — قوله : عليه الصلاة والسلام : « أكثرُوا ذكر هادم اللذات الموت »<sup>(٤)</sup> كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة ، وأبلغ في الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره غص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنى في المستقبل ، وزهده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففى قوله : عليه — الصلاة والسلام — : « أكثرُوا ذكر هادم اللذات الموت »<sup>(٥)</sup> مع قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾<sup>(٦)</sup> ما يكفى السامع له ، ويشغل الناظر فيه وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الآيات :

(١) الحديث في سنن النسائي ج ٤ ص ٤ كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت

(٢) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ( كتاب صفحة القيامة ) باب ذكر الموت .

وفي سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة تبارك من لمآية ٢

(٤) الحديث في رقم ١ من هذه الصفحة

(٥) الحديث في رقم ١ في هذه الصفحة

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥ وفي سورة العنكبوت من الآية ٥٧

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويودى المال والولد  
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا  
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له والإنس والجن فيما بينهما ترد  
أين الملوك التي كانت لعزتها من كل أوب إليها وافد يفند؟  
حوض هنالك مورود بلا كذب لابد من ورده يوماً كما وردوا

﴿ فصل ﴾ : إذا ثبت ما ذكرناه . فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار  
الفانية ، والتوجه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة ،  
ونعمة ومحنة ، فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه ، فإنه لا يدوم .  
والموت أصعب منه ، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه  
عنها . ولقد أحسن من قال :

اذكر الموت هادم اللذات ، وتجهز لمصرع سوف يأتي .

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم . وذلك ليكون  
المرء على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك . وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل .  
الرحيل . فلما توفي فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه . فقليل : إنه قد مات فقال :

مازال يلهج بالرحيل وذكره حتى أناخ ببابه الجمال  
فأصابه متيقظاً متشأراً ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم  
عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم : يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون  
على أنفسكم باق حياتكم ؟ من الموت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه . وهو مع  
هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم ييكي حتى يسقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة والآخرة ، فيكون  
حتى كان بين أيديهم جنازة .

وقال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط  
العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل  
في العبادة ، فنفكر يا مغرور في الموت وسكرته ، وصعوبة كأسة ومرارته ، فيا للموت من وعد ما  
أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ،  
وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم في يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ،  
وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من  
فراشك ، وغطائك إلى عرى ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمنجهد

في البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان ، بل هي والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب .  
فأين الذي جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمذك ، وقدمت  
بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال في تفسير قوله تعالى : ﴿ وابغ فيما آتاك الله الدار  
الآخرة ﴾<sup>(١)</sup> أى : أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة وهي الجنة ، فإن حق المؤمن أن  
يصرف الدنيا فيما ينفعه في الآخرة ، لا في الطين والماء والتجير والبغى ، فكأنهم قالوا : لا تنس أنك  
تترك جميع مالك إلا نصيبك الذي هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تلوى فيهما ، وحنوط  
وقال آخر :

هي القناعة لا تبغى بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن  
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

﴿ فصل ﴾ وقوله — ﷺ — : « الكيس من دان نفسه »<sup>(٢)</sup> ، دان : حاسب . وقيل ذل . قال  
أبو عبيدة : دان نفسه : أى : أذلها واستعبدها . يقال : دنته أدنيه ، إذا ذلته فيذل نفسه في عبادة  
الله — سبحانه — وتعالى ، عملاً يعدّه لما بدع الموت ، ولقاء الله — تعالى — ، وكذلك يحاسب نفسه  
على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره ، بصالح عمله ، والتنصل من سالف زلله ، وذكر الله —  
تعالى — وطاعته في جميع أحواله . فهذا هو الزاد ليوم المعاد ، والعاجز ضد الكيس . والكيس : العاقل ،  
والعاجز : المقصر في الأمور ، فهو مع تقصيره في طاعة ربه ، واتباع شهوات نفسه متمن على الله  
أن يغفر له ، وهذا هو الاغترار فإن الله — تعالى — أمره ونهاه ، وقال الحسن البصرى : « إن قوماً  
آلتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ويقول أحدهم : إني أحسن الظن برى . وكذب  
لو أحسن الظن لأحسن العمل » وتلا قوله تعالى : ﴿ وذلكم ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم فأصبحتم  
من الخاسرين ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ ( كتاب حفة القيامة ) باب ذكر الموت : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وفي سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٣

## باب ما يذكر الموت والآخرة ويزهد في الدنيا

روى مسلم عن أنى هريرة قال : زار النبي ﷺ - قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : « استأذنت ربي أن استغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت »<sup>(١)</sup> .

(فصل) : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، يختلف فيه للنساء . أما الشواث فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لمن ذلك ، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف في هذا إن شاء الله - تعالى - وعلى هذا المعنى يكون قوله عليه - الصلاة والسلام - : « زوروا القبور » عاماً . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحل ..

وروى عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه خرج إلى المقبرة فلما أشرف عليها قال : يا أهل القبور أخبرونا عنكم ، أو نخبركم أما خبر من قبلنا : فالمال قد اقتسم ، والنساء قد تزوجن ، والمساكين قد سكنها قوم غيركم ، ثم قال : أما والله لو استطاعوا لقالوا : لم نر زاداً خيراً من التقوى . ولقد أحسن أبو العاتية حيث يقول :

يا عجباً للناس لو فكروا	وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها	فلإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى	غداً إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى	والبر كانوا خير ما يدخر
عجبت للإنسان في فخره	وهو غداً في قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة	وجيفة آخره يفجر
أصبح لا يملك تقديم ما	يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره	في كل ما يقضى وما يقدر

(١) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب الجنائز ) باب استئذان النبي ﷺ - ربه عز وجل - في زيارة قبر أمه ج ٢ ص ٦٧١ رقم ٩٧٦ / ١٠٨ ورد بلفظه عن أنى هريرة .

وفي سنن ابن ماجه ( كتاب الجنائز ) باب ما جاء في زيارة قبور المشركين ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧٢ .

## علاج قسوة القلب

( فصل ) قال العلماء : — رحمة الله عليهم — : ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هي عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب ، وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها .

الثاني : ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميمم البنين ، والبنات كما تقدم في الباب قبل ، قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصي ، ويلين القلب القاسي ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها .

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن في النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، ما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان عن النوم والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد في الاجتهاد والتعب .

فهذه ثلاثة أمور ينبغي لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه ، فإن انتفع بها فذاك ، وإن عظم عليه ران القلب واستحكمت فيه دواعي الذنب ، فزيارة قبور الموتى تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول ، والثاني ، والثالث . ولذلك قال : عليه الصلاة والسلام — : « زوروا القبور فإنها تذكر الموت والآخرة ، وترهد في الدنيا »<sup>(١)</sup> ، فالأول : سماع بالأذن ، والثاني : إخبار للقلب بما إليه المصير وقائم له مقام التخويف والتحذير في مشاهدة من احتضر ، وزيارة قبر من مات من المسلمين معانية ، فلذلك كانا أبلغ من الأول والثاني . إلا أن لاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن في كل الأوقات . وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات ، وأما زيارة القبور : فوجودها أسرع ، والانتفاع بها أليق وأجدر ، فينبغي لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها ، ويحضر قلبه في إتيانها ، ولا يكون حظه منها الطواف على الأجداث فقط ، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة ، ونعوذ بالله من ذلك . بل يقصد بزيارته . وجه الله — تعالى — وإصلاح فساد قلبه ، أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن ، ويجتنب المشي على المقابر ، والجلوس عليها إذا دخل المقابر ، ويخلع نعليه كما جاء في أحاديث ، ويسلم إذا دخل المقابر ، ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »<sup>(٢)</sup> كذلك كان عليه — الصلاة والسلام — يقول : —

(١) الحديث في سنن ابن ماجه ( كتاب الجنائز ) باب ما جاء في زيارة القبور ج ١ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ رقم ١٥٦٩ ، ١٥٧١ .

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه كتاب الجنائز ( باب ما يقال في إذ دخل المقابر ج ١ ص ٤٩٣ رقم ١٥٤٦ من رواية عائشة — رضى الله عنها —

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴾<sup>(١)</sup>

روى البخارى عن عائشة — رضى الله عنها — : أن رسول الله — ﷺ — كانت بين يديه ركوة ، أو علبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ثم نصب يديه فجعل يقول : « في الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده<sup>(٢)</sup> .  
وروى أبو هدية ابراهيم بن هدية قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبي — ﷺ — قال : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> .

وفي الخبر من حديث حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن النبي — ﷺ — « إن الملائكة تكتنف العبد ، وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحارى والبرارى من شدة سكرات الموت »<sup>(٤)</sup> وجاءت الرواية بأن ملك الموت — عليه السلام — إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : « وعزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن » ذكره القاضى أبو بكر بن العرى .  
( فصل ) : قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين ؟ وعن الاستعداد له متخلفين ؟ ﴿ قل هو نبي عظيم . أنعم عنه معرضون ﴾<sup>(٥)</sup> قالوا : وما جرى على الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — من شدائد الموت وسكراته ، فله فائدتان .

أحدهما : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموقى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً ويرى سهولة خروج روحه ، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه ؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خيرهم : شدة ألمه ، مع كرامتهم على الله — تعالى — وتهوينه على بعضهم ، قطع الخلق بشدة الموت الذى يعانیه ، ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه ، ما خلا الشهيد قتل الكفار على ما يأتى ذكره .

الثانية : وبما خطر لبعض الناس أن هؤلاء : أحباب الله ، وأنبيأؤه ورسله ، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ وهو — سبحانه — قادر أن يخفف عنهم أجمعين ، كما قال : في قصة ابراهيم : « أما

(١) سورة القيامة الآية ٢٦

(٢) الحديث في صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣٣ ( كتاب الرقاق ) باب سكرات الموت

(٣) الحديث في تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٣ ( وجاءت سكرة الموت بالحق ) سورة ( ق )

(٤) الحديث في تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٢٧١ عن أنس بن مالك .

(٥) سورة ( ص ) ( الآيتان ٦٧ ، ٦٨ )

روى أبو داود ، عن بريدة بن حصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « نهيتمكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكراً »<sup>(١)</sup> وذكر النسائي عن بريدة أيضاً ، عن النبي ﷺ قال : ﷺ من أراد أن يزور قبراً فليزوره ، ولا تقولوا هجراً »<sup>(٢)</sup> بمعنى سوءاً ، وذكر أبو عمر من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « مامن رجل يمر بقبر أخيه المؤمن الذي كان يعرفه فيسلم عليه ، إلا رد عليه السلام »<sup>(٣)</sup> روى هكذا موقوفاً عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : « فإن لم يعرفه وسلم : رد عليه السلام » .

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها - قالت : قلت يا رسول الله : كيف أقول : إذا دخلت المقابر ؟ قال : « قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين ، وإنا ، إن شاء الله ، بكم لاحقون »<sup>(٤)</sup> .

وفى الصحيحين أنه عليه - الصلاة والسلام - مرّ بامرأة تبكى عند قبر لها فقال لها : « اتقى الله واصبرى »<sup>(٥)</sup> الحديث

## باب ما جاء أن للموت سكرات وفى تسليم الأعضاء بعضها على بعض وفيما يصير الإنسان إليه

وصف الله - سبحانه - وتعالى - شدة الموت فى أربع آيات :

- الأولى : قوله الحق : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾<sup>(١)</sup>  
الثانية : قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ﴾<sup>(٢)</sup>  
الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فلولاً إذا بلغت الحلقوم ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ( كتاب الجنائز ) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧١ .

(٢) الحديث فى سنن النسائي ج ٤ ص ٨٩ ( كتاب الجنائز ) باب زيارة القبور .

(٣) الحديث فى تاريخ الخطيب ج ٦ ص ١٣٧ رقم ٣١٧٥ .

وانظر كنز العمال ج ١٥ ص ٦٥٧ رقم ٤٦٠٢ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور ج ٢ ص ٦٧١ رقم ٩٧٤ / ١٠٣ .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الجنائز ) باب فى الصبر فعلى المصيبة عند الصدمة الأولى ج ٢ ص ٦٣٧ رقم ١٥ / ٦٢٦ .

وفى صحيح البخارى ج ٩ ص ٨١ ( كتاب الأحكام ) باب ما ذكر ان النبي ﷺ ( لم يكن له يواب ) .

(٦) سورة ( ق ) الآية ١٩

(٨) سورة الواقعة الآية ٨٣

(٧) سورة الأنعام الآية ٩٣

إنا قد هونا عليك » فالجواب : « إن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »<sup>(١)</sup> كما قال نبينا — عليه الصلاة والسلام . خرجه البخارى وغيره ، فأحب الله أن يتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه ، ورفعته لدرجاتهم عنده ، وليس ذلك في حقهم نقصاً ، ولا عذاباً ، بل هو كمال قال : كمال رفعة ، مع رضاهم بجميل ما يجرى الله عليهم ، فأراد الحق — سبحانه وتعالى — أن يختم لهم بهذه الشدائد ، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ، ليرفع منازلهم ، ويعظم أجورهم قبل موتهم . كما ابتلى إبراهيم بالنار ، وموسى بالخوف والأسفار ، وعيسى بالصحارى والقفار ، ونبينا محمداً — ﷺ — بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار ، كل ذلك لرفعة في أحوالهم ، وكمال في درجاتهم ، ولا يفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم ، ومؤاخذه على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا .

## باب الموت كفارة لكل مسلم

أخرج أبو نعيم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « الموت كفارة لكل مسلم »<sup>(٢)</sup> ، ذكره القاضى أبو بكر ابن العرى في سراج المريدين له ، وقال فيه : حديث صحيح حسن .

( فصل ) : إنما كان الموت كفارة ، لكل ما يلقاه الميت في مرضه من الآلام والأوجاع ، وقد قال — ﷺ — : « ما من مسلم يصيبه أذى ، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »<sup>(٣)</sup> . أخرجه مسلم .

وعن زيد بن أسلم : مولى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : « إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بكرات الموت وشدائده درجاته من الجنة ، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفًا في الدنيا ، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه في الدنيا ثم : يصير إلى النار » ذكره أبو محمد عبد الحق .

(١) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ ( أبواب الزهد ) من رواية سعد بن أبيه .

— وفي سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ من رواية سعد بن أبى وقاص ( كتاب الفتن ) باب الصبر على البلاء .  
وفي صحيح البخارى : ( كتاب الطب ) باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول من رواية عبد الله ولفظه « الأمثل فالأمثل بهامشه » .

وفي سند الامام أحمد : ج ١ ص ٧٢ عن رواية مصعب بن سعد بن أبى وقاص : بلفظه

(٢) الحديث في حلية الأولياء ج ٣ ص ١٢١

(٣) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩١ رقم ٤٥ / ٢٥٧١ ( كتاب البر والصلة )



## باب لا يموت أحد إلا وهو يحسن بالله الظن وفي الخوف من الله تعالى

روى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : قبل وفاته بثلاثة أيام : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن » <sup>(١)</sup> وذكر الترمذى الحكيم عن الحسن أنه قال : بلغنى عن رسول الله ﷺ — أنه قال : قال ربكم — عز وجل — : « لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فمن خافنى فى الدنيا ، أمنتته فى الآخرة ، ومن أمنتنى فى الدنيا ، أحففته فى الآخرة » <sup>(٢)</sup> .

( فصل ) : حسن الظن بالله — تعالى — ، ينبغى أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه فى حال الصحة ، وهو أن الله — تعالى — يرحمه ويتجاوز عنه ، ويغفر له ، وينبغى لجلسائه ، أن يذكروه بذلك حتى يدخل فى قوله تعالى فى الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما يشاء » <sup>(٣)</sup> . وقال الفضيل بن عياض : « الخوف أفضل من الرجاء . ما كان العبد صحيحاً فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل من الخوف » .

وذكر ابن أبى الدنيا بسنده عن حصين عن إبراهيم قال : « كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت ، حتى يحسن ظنه بربه عز وجل » .

وفى التنزيل قال : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

## باب تلقين الميت : لا إله إلا الله

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ﷺ — « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله » <sup>(٥)</sup> .

قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل به المسلمون . وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة ، وليدخل فى عموم قوله — عليه السلام — « من كان آخر كلامه

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٢ / ٢٨٧٧ ( كتاب الجنة وصفة نعيمها )

(٢) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب السنة ( كتاب المواعظ ) باب الخوف من الله ص ٧٤ .

(٣) الحديث فى المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب التوبة والإنابة » ج ٤ ص ٢٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة الحجر الآية ٥٦

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣١ رقم ١ / ٩١٦ ( كتاب الجنائز ) عن أبى سعيد

— وفى سنن أبى داود ( كتاب الجنائز ) باب فى التلقين ج ٣ ص ٤٨٧ رقم ٣١١٧ من رواية أبى سعيد الخدرى .

لا إله إلا الله دخل الجنة»<sup>(١)</sup> أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل ، وصححه أبو محمد عبد الحق ، ولينه المتحضر على ما يدفع به الشيطان ، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عقيدته ، ( نسأل الله السلامة ) .

فإذا تلقى المحتضر ، وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر ، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين ، والإلحاح عليه إذا هو تلقى ، أو فهم ذلك عنه . قال أبو محمد عبد الحق : وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لح عليه بها أن يتبرم ، ويضجر ، ويثقلها الشيطان عليه فيكون سبباً لسوء الخاتمة ، وكذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به . قال الحسن بن عيسى : قال : لى ابن المبارك لقنى — يعنى الشهادة — ولا تعد على إلا أن أتكلم بكلام ثان ، والمقصود أن يموت الرجل ، وليس فى قلبه إلا الله — عز وجل — لأن المدار على القلب ، وعمل القلب هو الذى ينظر فيه وتكون النجاة به ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما فى القلب فلا فائدة فيها ، ولا عبر عندها .

ولابد من تلقين الميت ، وتذكيره الشهادة ، وإن كان على غاية من التيقظ . فقد ذكر أبو نعيم الحافظ ، من حديث مكحول ، عن وائلة بن الأسقع ، عن النبى — ﷺ — « احضروا موتاكم ولقنوههم : لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحكيم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حiale»<sup>(٢)</sup> .

## باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير وكيف الدعاء للميت إذا مات وفى تغميضه

روى مسلم عن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قال : رسول الله — ﷺ — : « إذا حضرتم المريض ، أو الميت فقولوا : خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى — ﷺ — فقلت يا رسول الله : إن أبا سلمة قد مات فقال : قولى : « اللهم اغفر لى وله وأعقبنى منه عقبى حسنة »<sup>(٣)</sup> قالت : فقلت . فأعقبنى الله من هو خير منه رسول الله — ﷺ —

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٣ ص ٤٨٦ رقم ٣١١٦ ( كتاب الجنائز ) باب فى التلقين عن معاذ بن جبل .

(٢) الحديث انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الجنائز ) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٩١٩ / ٦ ورد بلفظه عن أم سلمة .

وعنها قالت : دخل رسول الله ﷺ — على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله ، فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال : « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهدين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له في قبره ، ونور له فيه »<sup>(١)</sup> .

( فصل ) : قال علماؤنا : قوله : عليه الصلاة والسلام — : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خیر »<sup>(٢)</sup> أمر ندب ، وتعليم بما يقال عند المريض ، أو الميت ، واخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك ولهذا استحَب العلماء : أن يحضر الميت الصالحون ، وأهل الخير حالة موته ليذكروه ، ويدعوا له ولمن يخلفه ، ويقولوا خيراً فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت ومن يصاب به ، ومن يخلفه .

## باب ما جاء في سوء الخاتمة وما جاء في أن الأعمال بالخواتيم

روى مسلم عن أنى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : « إن الرجل ليعمل الزمان الطويل يعمل أهل الجنة ، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة »<sup>(٣)</sup> .

وفى البخارى : عن سهل بن سعد ، عن النبى ﷺ — قال : « إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم »<sup>(٤)</sup> .

قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة — أعادنا الله منها — لا تكون لمن استقام ظاهراً وصلاح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به — والحمد لله — وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم . فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله ، ثم العياذ بالله ، أو يكون ممن كان مستقيماً ، ثم يتغير عن حاله ، ويخرج عن سنته ، ويأخذ فى طريقه ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته .

(١) الحديث فى مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧ / ٩٢٠ ( كتاب الجنائز )

(٢) الحديث فى صحيح مسلم فى رقم ١ فى ( كتاب الجنائز ) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٦ / ٩١٩

(٣) الحديث فى مسلم ( كتاب القدر ) باب القدر ج ٤ ص ٤٠٤٢ رقم ١١ / ٢٦٥١ ورد الحديث بلفظه عن أنى هريرة .

(٤) الحديث فى البخارى ج ٨ ص ١٥٥ ( كتاب القدر ) باب العمل بالخواتيم ورد بلفظه عن أنى هريرة .

( قال العلماء ) : وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة ، والاستقامة على مشيئته موقوفة ، والعاقبة مغيبة ، والإرادة غير مغالبة ، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدار عليك وخيره ، فمهما افتخرت بذلك ، كنت كالمفتخر بمتاع غيره ، وربما سلب عنك فساد قلبك من الخير أدخل من جوف البعير ، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم . فأصبحت وزهرها يابس هشيم ، إذ هبت عليها الريح العقيم . كذلك العبد يسمى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم . ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .

## باب ما جاء في رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد في الخبر : أن بعض الأنبياء — عليهم السلام — قال لملك الموت — عليه السلام — : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لى والله رسل كثيرة من الإللال والامراض والشيب والهموم ، وتغير السمع والبصر فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب ، فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيراً بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذى ليس بعدى رسول ، وأنا النذير الذى ليس بعدى نذير .. فما من يوم تطلع فيه شمس ، ولا تغرب إلا وملك الموت ينادى : يا أبناء الأربعين ، هذا وقت أخذ الزاد ، أذهانكم حاضرة ، وأعضاؤكم قوية شداد . يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد ، ويا أبناء الستين نسيت العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿١﴾ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿٢﴾ . ذكره ابن الجوزى فى كتاب روضة المشتاق ، والطريق إلى الملك الخلاق .

وفى البخارى ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « أعذر الله إلى امرئ آخر أجله حتى بلغ ستين سنة » ﴿٣﴾ .

يقال : أعذر فى الأمر أى : بالغ فيه أى : أعذر غاية الأعذار بعده وأكبر الأعذار إلى بنى آدم بعثة الرسل إليهم ليم حجته عليهم . ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ ﴿٤﴾ .

وللفقيه أبى عبد الله محمد بن أبى ذمينة — رحمه الله تعالى آمين — :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ونحن فى غفلة عما يداوينا  
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها وإن توشحت من أثوابها الحسنات

(١) سورة فاطر من الآية ٣٧

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١١١ كتاب الرقائق ورد الحديث بلفظه .

(٣) الآية سورة الأسراء الآية رقم ١٥

أين الأحبة والجيران ما فعلوا أين الذين هم كانوا لنا سكنا  
سقاهم الموت كأساً غير صافية فصيرهم لأطباق الثرى رهنا  
وروى أن ملك الموت دخل على داود — عليه السلام — فقال : من أنت ؟ فقال : من لا يهاب  
الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا ، قال : فإذا أنت ملك الموت قال : نعم قال : اتيتي  
ولم أستعد بعد ؟ قال : يا داود أين فلان قريبك ؟ أين فلان جارك ؟ قال : مات ، قال : أما كان  
لك في هؤلاء عبرة لتستعد . وقيل : النذير الحمى . ومنه قوله — ﷺ — : « الحمى نذير الموت »<sup>(١)</sup>  
أى : رائد الموت .

قال الأزهرى : معناه أن الحمى رسول الموت أى : كأنها تشعر بقدومه ، وتنذر بمجيئه ، وقيل :  
موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان ، وذلك إنذار الرحيل في كل وقت وأوان وحين وزمان .

## باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى ييشر وأنه يصعد بها

أخرج ابن ماجه ، عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « تحضر  
الملائكة . فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب .. اخرجى  
حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، ذلك حتى تخرج ، ثم  
يعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون . فلان بن فلان فيقال : مرحباً بالنفس  
الطيبة كانت في الجسد الطيب . ادخلي حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا  
يزال يقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله تعالى . فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجى  
أيتها النفس الخبيثة ! كانت في الجسد الخبيث . اخرجى ذميمة وأبشرى بجحيم وغساق . وآخر من شكله  
أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فلا يفتح لها فيقال : من هذا ؟  
فيقال : فلان . فيقال : لا مرحباً بالنفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة فإنها لا تفتح  
لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر »<sup>(٢)</sup> . اخرج عن أنس بن مالك عن أنس بن مالك .  
وذكره مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا خرجت روح العبد المؤمن  
تلقاها ملكان يصعدان بها »<sup>(٣)</sup> الحديث .

(١) الحديث في كشف الخفاء ج ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ج ١ / صلب

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رقم ٤٢٦٢ خرجه أبو  
بكر بن أنس عن أنس بن مالك .

(٣) الحديث وفي صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) ج ٤ ص ٢٢٠٢ رقم ٢٨٧٢ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك : قال : ويقول أهل السماء . روح طيبة جاءت من قبل الأرض — صلى الله عليه وعلى جسد كنت تعميرته . فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لعنا . ويقول : أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا بها إلى آخر الأجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله — ﷺ — ربطة كانت عليته على أنفه هكذا .

وروى البخارى ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى — ﷺ — قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقالت عائشة — أو بعض أزواجه : انا لنكره الموت فقال : « ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب لقاءه ، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه »<sup>(١)</sup> أخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس بن مالك .

وخرج الترمذى فى أبواب القدر عن أنس قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله ، فقليل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »<sup>(٢)</sup> قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

وعن قتادة : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ روح وريحان ﴾ قال : الروح : الرحمة ، والريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت .

## باب ما جاء فى كيفية التوفى للموتى ؟ واختلاف أحوالهم فى ذلك

ذكر الله تعالى : التوفى فى كتابه محملاً ومفصلاً : فقال الله — تعالى — : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقال : ﴿ توفته رسلنا وهم

(١) الحديث فى البخارى ( كتاب الإيمان ) ج ٢ ص ١٣٥ طبعه دار السعادة فى هداية البارى لترتيب أحاديث البخارى بلفظه . — وانظر صحيح مسلم ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) باب من أحب لقاء الله .

(٢) أحب الله لقاءه ج ٤ ص ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ حديث رقم ١٥ / ٢٦٨٤ ، فعد ورد الحديث بلفظه من رواية عائشة .

الحديث فى سنن الترمذى : أبواب القدر باب ما جاء إن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار ج ٣ ص ٣٠٥ رقم ٢٢٢٩ عن أنس وورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) الآية سورة النحل من الآية ٣٢

(٤) سورة المسجد من الآية ١١

لا يفرطون ﴿١﴾ ، وقال : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ ﴿٢﴾ فهذا كله مجمل ، وقد بينه رسول الله ﷺ — على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وقال : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ﴿٣﴾ ، وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ ﴿٤﴾ وهذا مخصوص بمن قتل من الكفار يوم بدر بإتفاق أهل التأويل ، فيما قاله : بعض علمائنا ، وقد ذكر المهدوى وغيره : فى ذلك اختلافاً ، وأن الكفار حتى الآن يتوفون بالضرب ، والهوان والله أعلم .

فصل : إن قال : قائل : كيف : الجمع بين هذه الآى وكيف : يقبض ملك الموت فى زمن واحد أرواح من يموت بالشرق والمغرب ؟ قيل له : اعلم أن التوفى مأخوذ من توفيت الذين ولستوفيته إذا قبضته ولم يدع منه شيئاً ، فتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك ، وتارة إلى أعوانه من الملائكة ، لأنهم قد يتولون ذلك أيضاً ، وتارة إلى الله — تعالى — وهو المتوفى على الحقيقة كما قال سبحانه : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾ ﴿٥﴾ ، وقال ﴿ وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ﴾ ﴿٦﴾ ، وقال : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم ﴾ ﴿٧﴾ فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره .

وقال الكلبي : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمناً ، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً ، وهذا المعنى منصوص فى حديث البراء ، وسيأتى ان شاء الله .

## باب ما جاء إن ملك الموت — عليه السلام — هو القابض لأرواح الخلق وانه يقف على كل بيت فى كل يوم خمس مرات

قال الله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾  
وروى جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : نظر رسول الله ﷺ — إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : له النبى — ﷺ — : « إرفق بصاحبى فإنه مؤمن » ﴿٨﴾ فقال : ملك

(١) سورة الأنعام من الآية ٦١

(٢) سورة النحل من الآية ٢٨

(٣) سورة الأنفال الآية ٥٠

(٤) سورة ( محمد ) من آية ٢٧

(٥) سورة الزمر من الآية ٤٢

(٦) سورة الحج من الآية ٦٦

(٧) سورة الملك من الآية ٢

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٩٣ عن رواية جعفر بن محمد عن أبيه ورد هذا الحديث بلفظه ( تفسير سورة السجدة )  
فى قوله تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .

الموت — عليه السلام — : يا محمد طب نفساً ، وقر عينا فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر ، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم ، وكبيرهم منهم لأنفسهم ، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الأمر بقبضها .

قال جعفر بن محمد : بلغنى أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الماوردى .  
قال الشيخ المؤلف — رحمه الله — وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل ذى روح ، وأن تصرفه كله بأمر الله — عز وجل — وبخلقه واختراعه .

### باب ما يتبع الميت إلى قبره ، وبعد موته وما يبقى معه فيه

روى مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يتبع الميت ثلاث . فيرجع اثنان ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »<sup>(١)</sup> .  
وقال اسماعيل بن رافع : ما من ذى رحم أوصل لذى رحمه ، من رجل أتبع ذا رحم بحج أو عتق أو صدقة .

### باب ما جاء فى هول المطلع

قال أبو الدرداء — رضى الله عنه — : « أضحكنى ثلاث وأبكاني ثلاث : أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه ، وضاحك ملء فيه لا يدرى أأرضى الله أم أسخطه ؟ وأبكاني ثلاث : فراق الأحبة محمد — ﷺ — وحزبه ، وأحزنى هول المطلع عند غمرات الموت ، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدرى إلى الجنة أو إلى النار » أخرج ابن المبارك .  
قال وأخبرنا محمد ، بلغ به أنس بن مالك قال : ألا أحدثكم بيومين ولييتين لم تسمع الخلائق بمثلهن : أول يوم يحيثك البشير من الله — تعالى — إما برضاه ، وإما بسخطه ، ويوم تعرض فيه على ربك أخذاً كتابك ، إما يمينك وإما بشمالك . وليلة تستأنف فيها المبيت فى القبور ولم تبت فيها قط . وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة .

(١) الحديث فى مسلم « كتاب الزهد والرقائق » ج ٤ ص ٢٢٧٣ حديث رقم ٥ / ٢٩٦٠ فقد الحديث بلفظه من رواية لأنس .



## باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة وفي البكاء عنده ، وفي حكمه والاستعداد له

روى ابن ماجه عن هانيء بن عثمان قال : كان عثمان — رضى الله عنه — إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقبل له . تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكي من هذا ؟ قال : إن رسول الله — ﷺ — قال : « إن القبر أول منازل الآخرة . فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » . قال ما رأيت منظراً قط إلا ، والقبر أفظع منه <sup>(١)</sup> .

وروى ابن ماجه عن البراء ، قال : كنا مع رسول الله — ﷺ — في جنازة . فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بلّ الثرى ثم قال : « يا إخواني لمثل هذا فأعدوا » <sup>(٢)</sup> .  
وروى مسلم عن جابر ، قال : نهى رسول الله — ﷺ — « أن يخصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه » <sup>(٣)</sup> .

قال علماؤنا — رحمهم — : وكره مالك تخصيص القبور ، لأن ذلك من المباهاة وزينة الحياة الدنيا ، وتلك منازل الآخرة ، وليس بموضع المباهاة ، وإنما يزين الميت في قبره عمله . وأنشدوا :

وإذا وليت أمور قوم ليلة فاعلم بأنك بعدها مسؤول  
وإذا حُملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول  
يا صاحب القبر المنقش سطحه ولعله من تحته مغلول

وفي صحيح سلم ، عن أبي الهياج الأسدي ، قال : قال لي علي بن أبي طالب — رضى الله عنه — : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله — ﷺ — ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته <sup>(٤)</sup> .

وقال أبو داود في المراسيل ، عن عاصم بن أبي صالح : رأيت قبر النبي — ﷺ — شبراً ، أو نحواً من شبر ، يعنى : في الارتفاع .

(١) الحديث في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٢٦ كتاب الزهد — باب ذكر القبر والبل

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤٩١٥ عن البراء

(٣) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب النهى عن تخصيص القبر والبناء عليه فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ج ٢ .

ص ٦٦٧ حديث رقم ٩٤ / ٩٧٠

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب الأمر بتسوية القبر ج ٢ ص ٦٦٦ حديث رقم ٩٣ / ٩٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي الهياج الأسرى .

قال علماؤنا : — رحمة الله عليهم — يسمن القبر ليعرف كى يحترم ويمنع من الارتفاع الكثير الذى كانت الجاهلية تفعله ، فإنها كانت تبنى فوقها تفخيماً لها وتعظيماً ، وأنشدوا :  
أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور  
أبناوا إلا مباهاة وفخراً على الفقراء حتى فى القبور  
لعمرك لو كشفت التراب عنهم فما تدرى الغنى من الفقير  
ولا الجلد المباشر ثوب صوف من الجلد المباشر للحريير  
إذا أكل الثرى هذا وهذا فما فضل الغنى على الفقير ؟

يا هذا ، أين الذى جمعه من الأموال ، وأعدته للشدائد والأهوال ، لقد أصبحت كفك منه عند الموت نحالية صفراً ، وبدلت من بعد غناك ، وعزك ذلاً وفقراً ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا من سلب من أهله ودياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد ، إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أو ما علمت يا مغرور : أن لا بد من الارتحال ، إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثم قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ، ما بطشت اليدان ، ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك فألى الجنان ، وإن كانت الأجرى فألى النيران ، يا غافلاً عن هذه الأحوال . إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتخسب أن الأمر صغير ، وتزعم أن الخطب يسير ؟ وتظن أن سينفعك حالك ، إذ آن إرتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، إذ زلت بك قدمك أو يعطف عليك معشرك ، حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ماتوهم ، ولا بد لك أن ستعلم . لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ، ولا للعضات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع دأبك أن تنقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك ، يا نائماً فى غفلة وفى خبطه يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غداً ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ، أم تميز بين الأشد والرشا ، كلا والله لن يدفع عن الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور ، فطوى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ﴿١﴾ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ﴿٢﴾ فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمن منازل الأبرار ، وأنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار ، بل أكثر من الأعمال الصالحات ، وراقب الله فى الخلوات ، رب الأرض والسموات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهده عن العمل ، أو ما سمعت الرسول حيث يقول : « لما جلس على القبور . يا أخوانى ، لمثل هذا فأعدوا » ﴿٣﴾ أو ما سمعت الذى

(١) سورة النجم الآيتان ٣٩ ، ٤٠

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤١٩٥

خلقك فسواك يقول : ﴿ وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى ﴾<sup>(١)</sup> .  
 وأنشدوا :

تزود من معاشك للمعاد . وقم لله وأعمل خير زاد  
 ولا تجمع من الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد  
 أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد  
 وقال آخر :

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً والقوم حولك يضحكون سروراً  
 فأمل ليوم أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكاً مسروراً  
 وروى عن محمد القرشي أنه قال : سمعت شيخنا يقول : أيها الناس : إني لكم ناصح ، وعليكم  
 شفيق ، فاعملوا في ظلمة الليل لظلمة القبور ، وصوموا في الحر قبل يوم النشور ، وحجوا يحط عنكم  
 عظام الأمور ، وتصدقوا مخافة يوم عسير .

## باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتي عند قبض أرواحهم وفي قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسي ، وعند بن حميد في مسنديهما ، وعلى بن معبد في كتاب الطاعة والمعصية ،  
 وهناد بن السري في زهده . وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم .. وحديث أبي عوانة أتمهما قال البراء :  
 خرجنا مع رسول الله ﷺ — في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس  
 رسول الله ﷺ — : « وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير » قال عمر بن ثابت : ( وقع )  
 ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرفع بصره ، وينظر إلى السماء ، ويخفض بصره ، وينظر إلى الأرض ،  
 ثم قال : « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم قال : « إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من  
 الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول اخرجي أيتها النفس الطيبة إلى  
 مغفرة من الله ، ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا » قال : عمرو في حديثه : ولم  
 يقله أبو عوانة « وإن كنتم ترون غير ذلك . وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم  
 الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك  
 لم يدعوها في يده طرفة عين » قال : فلذلك قوله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ قال :

فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتعرج الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقال : اكتبوا كتابه في عليين ﴿ وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾ فيكتب كتابه في عليين ثم يقال : رده إلى الأرض فأني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فردد إلى الأرض ، وتعاد روحه في جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهاز فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربي الله ، وديني الإسلام ، فيقولان : فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فأمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ قال : وينادي منادى السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره ، ويمثل عمله له في صورة رجل حسن الوجه : طيب الرائحة ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فيقول : بشرك الله بخير ، من أنت فوجهك الوجه الذي جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذي كنت توعده ، أو الأمر الذي كنت توعده أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً . فيقول : يارب أقم الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي .. قال : « فإن كان فاجراً وكان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك الموت فجلس عند رأسه فقال : أخرجني أيتها النفس الخبيثة ، أبشرى بسخط من الله وغضبه فتتزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها في يده طرفة عين ، قال : فنفق في جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب في الصوف الميتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجُدت ، فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم فيقولون رده إلى الأرض إني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمي به من السماء قال وتلا هذه الآية : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ قال : فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديداً الانتهاز فينتهرانه ، ويجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقولان فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال محمد ، فيقول : لا أدري سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويمثل له عمله في صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح ، قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول : من أنت فوجهك الذي جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فو الله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله ، قال عمرو في حديثه عن المنهال

عن زاذان عن البراء عن النبي ﷺ — : « فيقيض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً » ، أو قال : رميماً فيضربه به ضربة تسمعه الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى <sup>(١)</sup> ، وفي رواية على بن معبد ثم يقال : افرشوا له لو حين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ، ويفتح له باب إلى النار . أ هـ .

الموت بحر طافح موجّه تذهب فيه حيلة السابح  
يا نفس إني قائل فاسمعي مقالة من مشفق ناصح  
لا ينفّع الإنسان في قبره غير التقى والعمل الصالح  
قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ، ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور ﴾ وهي : النفخة الآخرة للبعث ، ﴿ ذلك يوم الوعيد ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : سائق : يسوقها إلى الله تعالى ، وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وقال مطرف عن أبي جعفر مولى أشجع عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال السائق الملك والشهيد العمل . وقال ابن جرير « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » ، أى : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ ، أى : لقد كنت أيها الإنسان في غفلة عن هذا الذى عانيت من الأهوال والشدائد ، فجلبنا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيت وعانيت فزال عنك هذه الغفلة . ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ أى : قوى نافذ يرى ما كان محجوباً عنه . وقال مجاهد : ﴿ فبصرك اليوم حديد ﴾ يعنى : نظرك إلى لسان ميزانك حين

(١) الحديث انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ فقد ورد الحديث عن البراء بن عازب وهو حديث طويل وهو مختلف في ترتيب جملة عما هو مدون هنا مع الاتحاد في المعنى والمراد .

وانظر مسند أبى داود الطيالسى ج ٣ ص ١٠٢ حديث رقم ٧٥٣ الحديث الطويل المروى عن أبى عوانة .

(٢) سورة (يس) الآيات ٥١ — ٥٣

توزن سيئاتك وحسناتك . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً ﴾ (١) .

## النفخ في الصور

قال القرطبي — رحمه الله — :

« قال : علماؤنا — رحمهم الله — فالنفخ في الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ويجمع ما تفرق منها في البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهياتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء .

أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أغراى إلى النبى — ﷺ — فقال : « ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه » (٢) قال هذا حديث حسن .

وعن أنى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — ﷺ — : « وكيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى — ﷺ — فقال : لهم : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » (٣) قال حديث حسن .

## ومعنى التقم أى وضع طرفه فى فمه

وأخرج أبو داود الطيالسى ، والبيهقى ، وغيرهما ، عن أنى رزين العقيل قال : قلت : يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى قومك جدياً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : نعم قال : « فتلك آية الله فى خلقه » (٤) .

وهذا الحديث : موافق لقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى »

(١) سورة النبأ من الآية ٤٠

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ( أبواب صفة القيامة — باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤١ حديث رقم ٢٥٤٧ فقد ورد الحديث لفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤٢ حديث رقم ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث من رواية أنى سعيد ولفظه : وكيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى — ﷺ — فقال لهم : « قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

وقد روى من غير هذا وجه هذا الحديث عن عطية عن أنى سعيد عن النبى — ﷺ — نحوه .

(٤) الحديث فى مسند أنى داود الديالى ج ٤ ص ١٤٧ . من رواية أنى رزين العقيل .

وانظر مسند أحمد ج ٤ ص ١١ ، ١٢ فقد وردت أحاديث متعددة بهذا المعنى .

لعلكم تذكرون ﴿١﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ ﴿٢﴾ والآيات في هذا المعنى كثيرة .

### باب : يبعث كل عبد على ما مات عليه

روى مسلم : عن جابر بن عبد الله ، قال : سمعت النبي — ﷺ — يقول : « يبعث كل عبد على ما مات عليه » (٣) .

وروى البخارى عن عبد الله ، بن عمر قال : قال رسول الله — ﷺ — « إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم » (٤) .

وروى مالك عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « والذي نفسى بيده لا يُكَلِّم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة ، وجرحه يشعب دماً اللون لون الدم ، والعرف عرف المسك » (٥) وأخرجه أيضاً البخارى ومسلم .

وروى أبو هدييه ابراهيم بن هدييه : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — : « من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ، ويعاين منكرًا ونكيرًا سكران ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق في سوط جهنم يسمى السكران ، فيه عين يجرى ماؤها دماً ، لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه » .

وروى مسلم عن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله — ﷺ — محرماً فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله — ﷺ — « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه في ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تحمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » وأخرجه البخارى أيضاً .

قوله تعالى : ﴿ وقال قريته هذا ما لدى عتيد ، ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فالقياه في العذاب الشديد . قال قريته ربنا ما أطفيتيه ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾ .

(١) سورة الاعراف الآية ٥٧

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٢٨٧٨ / ٨٣ .

(٤) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٢٨٧٩ / ٨٤ — وفي البخارى ( كتاب الفتن ) باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً — ج ٩ ص ٧١ .

(٥) الحديث : وفي الموطأ للإمام مالك ج ٢ ص ٤٦١ عن أبى هريرة بلفظه ( كتاب الجهاد ) وباب الشهداء في سبيل الله .

والحديث في البخارى ( كتاب الجهاد ) باب من يحرم في سبيل الله — عز وجل — ج ٤ ص ٢٢ عن أبى هريرة .

والحديث في مسلم ( كتاب الامارة ) باب — فضل الجهاد والخروج في سبيل الله ج ٣ ص ١٩٩٦ رقم ١٠٣ ، ١٠٥ / ١٨٧٦

قال ابن القيم — رحمه الله — في هذه الآيات : أخبر سبحانه أنه قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره ! هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد ، وقال ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبه عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى والتحقيق أن الآية : تتضمن الأمرين ، أى : هذا الشخص الذى وكلت به ، وهذا عمله الذى أحصيته عليه فحيث يقال : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله ألماً آخر فالقياه فى العذاب الشديد ﴾ وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً ، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر — سبحانه — صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

أحدها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .  
الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعنى منعه للخير الذى هو احسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله ، والخير الذى هو احسان إلى الناس ، فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير ، معتد على الناس ، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .  
الخامسة : أنه مريب ، أى : صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت لكل ريبة .  
السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله ألماً آخر يعبد ، ويحبه . ويغضب له ، ويرضى له ، ويحلف باسمه ، وينذر له ، ويوالى فيه ، ويعادى فيه : فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذى أطغاه أضله . فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال إبليس لأهل النار : ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ (١) .

وعلى هذا ، فالقرين هنا فى قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ هو شيطانه يختصمان عند الله .

وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو : الملك فيدعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطفى . وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهل حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ، ﴿ ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ فيقول : الرب تعالى : ﴿ لا تختصموا لى ﴾ ، وقد أخبر — سبحانه — عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورتي



الصفات والأعراف ، وأخبر عن اختصاص الناس بين يديه في سورة الزمر ، وأخبر عن اختصاص أهل النار فيها في سورة ( الشعراء ) وسورة ( ص ) .

ثم أخبر — سبحانه — أنه لا يبدل القول لديه ، ف قيل : المراد بذلك قوله : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ووعدته لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا تخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين في الآية .. وقوله تعالى : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ من تمام قوله : ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ في المعنى ، أى : ما قلته ووعدت به لا بد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور . قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

يخبر — تعالى — أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك لأنه — تبارك وتعالى — وعدّها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو — سبحانه — وتعالى — يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهي تقول : هل من مزيد : أى : هل بقى شيء تزيدني ؟ قال ابن كثير هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث . قال البخارى : عند تفسير هذه الآية : بسنده عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — « يلقي في النار وتقول هل من مزيد ؟ يضع قدمه فيها فتقول قط قط » <sup>(٢)</sup> .

وهناك طريق آخر للحديث قال البخارى : بسنده عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « تحاجت الجنة والنار ، فقالت : النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله : — عز وجل — للجنة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشياء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذاب ، أعذب بك من أشياء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ، ملؤها ، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط فهنالك تمتلئ ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله — عز وجل — من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله — عز وجل — ينشئ لها خلقاً آخر » <sup>(٣)</sup> . وكذلك عند الإمام مسلم وأحمد ، وقال : الحافظ أبو يعلى في

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) انظر الحديث في صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس .

(٣) الحديث : انظر صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

— وفي صحيح مسلم ( كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٢٨٤٦ / ٣٤ ورد الحديث عن أنس بن مالك .

— وفي سند الامام أحمد ج ٢ ص ٣١٤ ورد الحديث بلفظه .

مسنده : عن أنس بن كعب — رضى الله عنه قال : أن رسول الله ﷺ — قال : « يعرفني ﷺ — تعالى — نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عني ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عني ، ثم يؤذن لي في الكلام ، ثم تمر أمتي على الصراط — مضروب بين ظهرائي جهنم ، فيمرون بأسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو ، وهي الأعمال . وجهنم تسأل المزيدي ، حتى يضع فيها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وأنا على الخوض » : قيل : وما الخوض يا رسول الله ؟ قال — ﷺ — : « والذي نفسي بيده ، إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظماً أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً » (١) .

وهذا القول : هو اختيار ابن جرير ، وقد قال : ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنهما — في قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ قال : ما امتلأت قال : تقول : وهل فئ من مكان يزداد فئ . وكذا رواه الحكم بن أبان عن إعرمة . ﴿ وتقول هل من مزيد ﴾ ، وهل فئ مدخل واحد ، قد امتلأت .

وكذا روى عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ هل امتلأت ﴾ إنما هو بعد ما يضع قدمه عليها قدمه ، فتنزوي وتقول : حيثئذ : هل بقي فئ ﴿ مزيد ﴾ يسع شيئاً ؟ قال العوفي : عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾ أى : وادنت وقربت الجنة وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب كقوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ (٢) ، وكقوله تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد ﴾ .

قال ابن القيم : — رحمة الله — : أخبر عن تقريب الجنة للمتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

(١) سورة التكوين الآية ١٣

(٢) الحديث في سند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠٧

وفي الدر المنثور في التفسير ج ٧ ص ٦٠٣ في تفسير سورة « ق » عن أنس بن كعب .

وانظر ابن كثير تفسير سورة « ق » ج ٧ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ط / الشعب

وانظر كنز العمال ج ١٤ ص ٤٣٦ ( باب الشفاعة ) رقم ٣٩١٩٦ .

أحدها : أن يكون أوّاباً ، أى : رجّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة إلى ذكره قال عبيد بن عمير : الآواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظاً ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه ، وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الآواب مستعملاً لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته ، وطاعته ، والحفيظ مستعملاً : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والآواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته ، وقدرته ، وعلمه ، وإطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله ، وأمره ونهيه ، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ، ولقائه فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله ، وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبة والاقبال عليه ، ثم ذكر — سبحانه — جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدنيا مزيد ﴾ . أى : وتقول لهم الملائكة تكمرة لهم . ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أى : الذى لا موت بعده ولا ظعن ولا رحيل . وقوله : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد ﴾ أى : لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم . كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾<sup>(٢)</sup> .

روى مسلم فى صحيحه من حديث صهيب : قال : قرأ رسول الله ﷺ — ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجزكموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ ! فيكشف الحجاب ، فينظرون الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة<sup>(٣)</sup> فالحسنى : هى الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله — عز وجل — كذلك فسرهما رسول الله ﷺ .

(١) سورة (يس) الآية ٥٨

(٢) سورة (يونس) الآية ٢٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى — ج ١ ص ١٦٣ رقم ٢٩٧ / ١٨١ عن صهيب .

وعن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن في الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحشو في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ! فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً » (١) . رواه مسلم .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : شهدت من النبي — ﷺ — مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : في آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ ﴿ تتجأ في جنوبهم عن المضاجع ﴾ إلى قوله : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ » (٢) .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا ، فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبداً » (٣) . رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن الله عز وجل يقول : لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك . ربنا وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ؟ يا ربنا وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك : فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى : شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » (٤) متفق عليه .

فحى على جنات عدن فإنها	منازلنا الأولى وفيها الخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونسلم
وحى على يوم المزيد الذى به	زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحى على وإد هنالك أنيس	وتربته من إذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة	ومن خالص القيان لا تنقصم
وكتبان مسك قد جعلن مقاعدا	لمن دون أصحاب المنابر يعلم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) ج ٤ ص ٢١٧٨ رقم ٢٨٣٣ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) عن سهل بن سعد الساعدى ج ٤ ص ٢١٥٧ رقم ٢٨٢٥ / ٥ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب الجنة ونعيمها ) ج ٤ ص ٢١٨٢ رقم ٢٨٣٧ / ٢٢ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم : ( كتاب الجنة ونعيمها ) باب إحلال الرضوان على أهل الجنة .. ج ٤ ص ٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩ / ٩ .

وفى صحيح البخارى : ( كتاب الرقاق ) باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١٤٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

فينا هموف عيشهم وسرورهم      وأرزاقهم تحرى عليهم وتقسم  
إذا هم بنور ساطع أشرفت له      بأفطار الجنات لا يتوهم  
تجلى لهم رب السموات جهرة      فيضحك فوق العرش ثم يكلم  
سلام عليكم يسمعون جميعهم      بآذانهم تسليمه إذ يسلم  
يقول سلوني ما اشتيت فكل ما      تريدون عندي أننى أنا أرحم  
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا      فأنت الذى تولى الجميل وترحم  
فيعطيم هذا ويشهد جمعهم      عليه تعالى الله فالله أكرم  
فيلبائعا هذا يخس معجل      كأنك لا تدري، بلى سوف تعلم  
فإن كنت لا تدري فلك مصيبة      وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

### مواعظ وآداب

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى  
لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ  
وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٦٨﴾ فَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ  
الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٧٠﴾ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٧١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ  
بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٧٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ  
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٧٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٧٥﴾

### معانى المفردات

﴿ القرن ﴾ الجيل من الناس ، ﴿ بطشاً ﴾ أى : قوة ، ﴿ فنقَّبوا في البلاد ﴾ أى : ساروا فيها  
يبتغون الأرزاق والمكاسب . ﴿ محيص ﴾ مهرب ، ﴿ لذكرى ﴾ أى : لعبرة ، ﴿ قلب ﴾ أى : لبُّ  
يعنى به ، ﴿ أو ألقى السمع ﴾ أى : أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي ، ﴿ شهيد ﴾ أى : حاضر  
فهو من الشهود بمعنى الحضور . ﴿ لغوب ﴾ أى : تعب ، ﴿ سبح بحمد ربك ﴾ أى : نزهه عن  
كل نقص وأثبت له كل كمال ، ﴿ أدبار السجود ﴾ أى : أعقاب الصلوات ، ﴿ يوم ينادى المنادى ﴾

أى : يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى . ﴿ من مكان قريب ﴾ أى : بحيث لا يخفى الصوت على أحد . ﴿ الصيحة ﴾ النفخة النائية ، ﴿ بالحق ﴾ أى : بالبعث والجزاء ، ﴿ يوم الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ تشقق ﴾ أى : تتصدع ، ﴿ بجبار ﴾ أى : بمسيطر ومسلط . إنما أنت منذر وداع .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أُنذَرهم — سبحانه — بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أُنذَرهم بما يجعل لهم في الدنيا من ضروب العذاب سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ، ووسط بين ذلك المتقين ومايلا قوته من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لب وع سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أيام وما أصابه — سبحانه — أدنى تعب ولا لغوب كما قال — سبحانه — ﴿ أفبعينا بالخلق الأول ﴾ ثم أمره بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور وسمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور ، وتشققت الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وإنا لنعلم ما يقول المشركون في البعث والنشور ، فدعهم في غيهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بعد اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع الذكرى إلا المؤمنين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيى ﴾ . أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم وكانوا أشد من قومك بطشاً ، وأكثر منهم قوة : كعاد وثمود وتبع ، فنقبوا في البلاد وسلوكوا كل طريق ابتغاء الرزق ، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأً حين حُم القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل في الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ ، أى : إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة ( لمن كان له قلب ) ، أى : لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى ما يقال له . ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أى : استمع القرآن وهو شاهد القلب . وقد ورد في هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن الكريم .

قال ابن القيم رحمه الله :

« إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به — سبحانه — منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى : ﴿ **إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ ، وذلك إن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذى يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد .. فقلوه : ﴿ **إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى** ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، وهذا هو المؤثر ، وقوله : ﴿ **لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ** ﴾ فهذا هو المحل القابل . والمراد به : القلب الحى الذى يعقل عن الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا** ﴾<sup>(١)</sup> أى : حى القلب .

وقوله : ﴿ **أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ** ﴾ ، أى : وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثير بالكلام .

وقوله : ﴿ **وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ أى : شاهد القلب حاضر غير عائب .

قال ابن قتيبة : استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته ، عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر : وهو القرآن ، والمحل القابل : وهو القلب الحى ، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتقى وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ، وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ** ﴾ .

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا اعياء ، تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا : إنه استراح في اليوم السابع تعالى الله عما يقولون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ ثم أمر — سبحانه — نبيه بالتأسي به — سبحانه — في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه ، كما أنه — سبحانه — صبر على قول اليهود أنه استراح . ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه — سبحانه — ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ ثم أمره — سبحانه — بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وبالليل وأدبار السجود .

قال ابن عباس ( أدبار السجود ) هو الوتر ، وقال عمر وعلى وأبو هريرة وابن عباس في رواية أخرى هما الركبتان بعد المغرب وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسييح باللسان ادبار الصلوات المكتوبات . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾<sup>(١)</sup>

وكقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أنى الليل فسبح وأظراف النهار لعلك ترضى ﴾<sup>(٢)</sup> . قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نغنى ونغيت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ واستمع ﴾ يا محمد ، ﴿ يوم ينادى المناد من مكان قريب ﴾ قال قتادة : قال كعب : الأحبار يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ ، يعنى النفخة في الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون . ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أى : من القبور ، ﴿ إنا نحن ونغيت وإلينا المصير ﴾ أى : هو — سبحانه — الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ ، وذلك أن الله — تعالى — ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها ، كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله — تعالى — [ اسرافيل ينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب الصور ، فإذا نفخ ] اسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله — عز وجل — وعزى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ — وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله — عز وجل — ، ﴿ مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾<sup>(٣)</sup>

﴿ قالوا يا ويلينا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فالיום لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة القمر الآية ٨

(١) سورة الحجر الآيات ٩٧ — ٩٩

(٢) سورة (يس) الآيات ٥٢ — ٥٤

(٢) سورة (طه) الآية ١٣٠



وفي صحيح مسلم عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »<sup>(١)</sup>.

وقوله عز وجل : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال جل جلاله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ، وقال — سبحانه وتعالى — : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾<sup>(٢)</sup>.

## بيان الحشر إلى الموقف كيف هو وفي أرض المحشر وذكر الصخرة

قال العلامة القرطبي في « التذكرة » ما ملخصه :

قوله تعالى : « واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ . قال قتادة : المنادى : هو صاحب الصور ينادى من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقيل : باثنى عشر ميلاً ذكره القشيري والأول ذكره الماوردي ، وقيل : إن المنادى جبريل والله أعلم قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى في أذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد : النفخ في الصور . ﴿ ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض المحشر ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : هين سهل .

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟

قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج ، ويحتمل أن تتناول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيى واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد تقدم أن الأرواح فى الصور ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ﴿ فإذا هم من الأجداث ﴾ أى : القبور ، ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ وهذا يبين لك ما ذكرنا وبالله توفيقنا . ورى مسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ — : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقى ليس فيه علم لأحد »<sup>(٣)</sup>.

(١) الحديث فى صحيح مسلم : كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا — ﷺ — على جميع الخلائق ج ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٨ عن أنس هريرة .

(٢) سورة ( لقمان ) الآية ٢٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم : ( كتاب صفات المنافين ) باب فى البعث والنشور ج ٤ ص ٢١٥٠ رقم ٢٧٩٠ / ٢٨ عن سهل بن سعد .

وفى البخارى ج ٨ ص ١٣٥ ( باب يفيض الله الأرض ) ، ( كتاب الرقاق والأدب )

وقوله : ﴿ أول من يكسى من إبراهيم ﴾ فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له ، كما خص موسى — عليه السلام — بأن النبى — ﷺ — يجده معلقاً بساق العرش مع أن النبى — ﷺ — أول من تنشق عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقاً ، بل هو أفضل من وافى القيامة — ﷺ — بيان قوله ( لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ) .

روى مسلم عن عائشة : — رضى الله عنها — قالت : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من ينظر بعضهم إلى بعض <sup>(١)</sup> .

واخرج الترمذى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن النبى — ﷺ — قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » فقالت امرأة : أيبصر بعضنا ، أو يرى بعضنا غورة بعض ؟ قال : « يا فلانة لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » <sup>(٢)</sup> قال : حديث حسن صحيح .

فصل : قلت : هذا الباب ، والذي قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً أى : غير محتونين كما بدأنا أول خلق نعيده . قال العلماء : يحشر العبد غداً ، وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عضو يرد فى القيامة عليه حتى الختان . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ . أخبر سبحانه : أنه — ﷺ — ليس بمسلط عليهم ، ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ، ويكرهم عليه ، إنما أنت مبلغ كقوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا آياهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ <sup>(٣)</sup> . ثم أمره — سبحانه — أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده فهو الذى ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ <sup>(٤)</sup> وأما من لا يؤمن بقاءه ، ولا يخاف وعيده ، ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ﴾ .

كان قتاد : بعد ما يقرأ هذه الآية يقول : اللهم ، اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .. آمين .

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب صفة الجنة — باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ١١٩٤ رقم ٥٦ / ٢٨٥٩ . وفى البخارى كتاب الرفاق والأدب باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ( كتاب التفسير ) ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس مع اختلاف يسر فى بعض ألفاظه .

وانظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٢ ص ٣٨ فقد جاء فى الحديث ٢٥٣٩ المروى عن ابن عباس الشق الأول وهو « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً كما خلقوا » .

(٣) سورة الغاشية الآيات ٢١ — ٢٦

(٤) سورة الأعلى الآية ١٠

(٥) سورة الأعلى لآيتان ١١ ، ١٢

واخرج أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ، عن عبد الله بن سعود : « يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا ، فمن أطعم الله أطعمه ، ومن سقا الله سقاه ، ومن كسا الله كساه ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله في ذلك اليوم » .

### باب ما جاء في حشر الناس إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ، وفي أول من يكسى منهم وفي أول ما يتكلم من الإنسان .

روى مسلم عن ابن عباس — رضى الله عنه — قال : قام فينا رسول الله — ﷺ — بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم — عليه السلام — ألا وإنه يؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب : أصحاي فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ إلى قوله ﴿ العزيز الحكيم ﴾ . قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم ﴿<sup>(١)</sup>﴾ .

أخرجه البخارى أيضاً : والترمذى ، عن معاوية بن حيدة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : « ههنا إلى ههنا تحشرون ركبانا ومشاة وتجررون على وجوهكم يوم القيامة أفواهكم القدم توفون سبعين أمة أنتم خيرهم على الله وأكرمهم على الله ، وأن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه »<sup>(٢)</sup> ، وفى رواية أخرى ذكرها ابن أبى شيبه « وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » .

فصل : قوله : ﴿ غرلاً ﴾ أى : غير مختونين ، ﴿ النقى ﴾ الحوارى وهو : الدرملك من الدقيق ، ﴿ والعصر ﴾ بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلاً ، ﴿ والقدم ﴾ مصفاة الكوز والابريق . قاله الليث : قال أبو عبيدة : يعنى : أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالقدم الذى يجعل على الإبريق .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ( كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها ) باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ٢١٩٤ ، ٢١٩٥ رقم ٥٨ / ٢٨٦٠ عن ابن عباس وفى سنن الترمذى ( أبواب صفة القيامة ) باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٤ ص ٣٨ رقم ٢٥٣٩ وفى البخارى ( كتاب الأدب والرقاق ) باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) الحديث فى صحيح البخارى :

وفى سنن الترمذى ( كتاب صفة القيامة ) باب ما جاء فى صفة الحشر ج ٤ ص ٣٩ رقم ٢٥٤١ وقال : أبو عيسى : هذا حديث حسن .

## تفسير سورة الذاريات

مقدمة :

السورة : مكية ، عدد آياتها : ستون  
 وعدد كلماتها : ثلاثمائة وستون  
 وحروفها : ألف ومائتان وسبع وثمانون .  
 مجموع فواصل آياتها : ( قفاك معن ) .  
 وسميت بالذاريات : لمفتتحها

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذكر القسم : حقية البعث والقيامة ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ،  
 وثواب أرباب الهداية ، وحجة الواحدانية ، وكرامة إبراهيم في باب الضيافة ، وفي إسحاق له بالبشارة ،  
 ولقوم لوط بالهلاكة ، ولفرعون وأهله من الملامة ، ولعاد ، وثمود ، وقوم نوح من الدمار والخسارة ،  
 وخلق السماء والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات ، لإجل الدلالة ، وتكذيب المشركين لما فيه  
 للرسول ﷺ — من التسلية ، وتخليق الخلق لإجل العبادة ، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة  
 في قوله ﴿ فلا يستعجلون ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون آخذين ﴾ وفي الطور ، ﴿ في جنات ونعيم فاكهين ﴾  
 ليس بتكرار ، لأن ما في هذه السورة متصل بذكر ما به يصل الإنسان إليها ، وهو قوله : ﴿ إنهم  
 كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ ، وفي الطور متصل بما ينال الإنسان فيها إذا وصل إليها ، وهو قوله :  
 ﴿ ووزقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا ﴾ الآيات .

قوله ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ وبعده : ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ ليس بتكرار ، لأن كل  
 واحد منهما متعلق بغير ما يتعلق به الآخر . فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية ، والثاني متعلق  
 بالشرك بالله — تعالى — أ هـ .

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء ، والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا  
 من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُورًا ﴿١﴾ فَالْحَمَلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقْسَمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَائًا تَهْمُ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾

### معاني المفردات

﴿الذاريات﴾ : الرياح تذر التراب وغيره أى : تفرقه ، ﴿وقراً﴾ : الوقر : حمل البعير وجمعه أوقار ، أى : أثقال . ﴿والحاملات وقرأ﴾ : هى الرياح الحاملات للسحاب المشيع بيخار الماء ، ﴿والجاريات يسرا﴾ : قيل : هى النجوم ، وقيل : هى السفن ، ﴿فالمقسمات أمراً﴾ : المراد : الملائكة تقسم المقدرات الربانية . ﴿إنما توعدون﴾ : من البعث ، ﴿جواب القسم﴾ : ﴿إن الدين﴾ : الجزء بعد الحساب ، ﴿ذات الحبك﴾ : الطرق التى تسير فيها الكواكب . واحداها حبيكة ، ﴿قول مختلف﴾ : متناقض مضطرب ، ﴿يؤفك عنه﴾ : أى : يصرف عن الحق الآتى به الرسول ، ﴿قتل الخراصون﴾ : لعن وقبح الكذابين ، ﴿غمرة﴾ : جهالة غامرة بأمر الآخرة ، ﴿سَاهُونَ﴾ : غافلون عما أمروا به ، ﴿آيان يوم الدين﴾ : أى : متى يوم الجزاء ، ﴿يفتنون﴾ : يحرقون ويعذبون . ﴿يهجعون﴾ : الهجوع النوم ليلاً ، والهجرة النوم الخفيفة ، ﴿الأسحار﴾ : واحداها سحر وهو : السدس الأخير من الليل . ﴿حق﴾ : نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم واشفاقاً على عباده ، ﴿السائل﴾ : هو المستجدى الطالب العطاء ، ﴿المحروم﴾ : هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ، ﴿آيات﴾ : أى : دلائل على قدرته — تعالى — . ﴿للموقنين﴾

أى : للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، ﴿ وما تواعدون ﴾ أى : والذي تواعدونه من خير أو شر .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ، إنما تواعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ﴾ .

أقسم — سبحانه وتعالى — بالذاريات وهى : الرياح تذر والمطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات إذا تهشم . كما قال — تعالى — ﴿ فأصبح هشيمًا تذروه الرياح ﴾ <sup>(١)</sup> أى : تفرقه ، وتنشره . ثم أقسم — سبحانه — بما فوق ذلك وحى : ﴿ الجاريات يسرا ﴾ وهى : النجوم التى من فوق القمام ، ﴿ ويسراً ﴾ أى : مسخرة مذلة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جرياً سهلاً — ومنهم من لم يذكر غيره وأختار ابن تيميه — رحمه الله — القول الأول . وقال : هو أحسن فى الترتيب والانتقال من السافل إلى العالى ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه ، وذلك قوله — تعالى : ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ وهم : المدبرات أمراً .

قال ابن القيم : — رحمه الله — وأقسم — سبحانه — بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية . والدلالة الباهرة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها ، وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه وريح تلقجه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح وللسفن ريح ، وللرحمة ريح وللعذاب ريح إلى غير ذلك من أنواع الرياح ، وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدير لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها رخاء تارة وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذاباً تارة ، فتارة يحبس بها الزرع والثمار وتارة ، ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة وتارة عقيما وتارة لافحة وتارة جنوبا وتارة دبوراً ، وتارة صبا ، وتارة شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير لطيفة المسارقات بين السماء والأرض . إذا قطع من الحيوان الذى على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله —

سبحانه — إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات والآذان ، والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجزر ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق الله .. والمقصود أن الرياح أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته .

ثم : أقسم — سبحانه — بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو . فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شئ . فيأمر الرياح ، فتحمله على متونها ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض . حامل لأرزاق العباد ، والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدره الله ، فإنه لو بقى لأضر النبات ، والحيوان فأنشأه — سبحانه — فى زمن يصلح لإنشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله ، وشاقه إلى بلد شديد الحاجة إليه .

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمله الماء ، والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟ ومن أغاث بقطره العباد وأحيا به البلاد وصيرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا ... — فسبحان — من شهدت الموجودات ربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضرر .. وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وسل الجاريات يسرا من السفن . من أمسكها على وجه الماء . وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء ، وطغيان الرياح ؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذى أجرى لها ريحاً واحدة تسيّر بها . ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ، ويقاومها . فتتموج فى البحر يميناً وشمالاً . تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذى يمشى على الماء . فيقطع المسافة البعيدة . ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره . مقبلاً ومدبراً بريح واحدة تجرى فى موج كالجبال ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾<sup>(١)</sup> ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه ، وأوليائه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب ، والشمس والقمر : من الذى خلقها وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ، وفادت بين أشكالها . ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط والأبيض ، والأحمر والزجاجى اللون والدرى اللون ،

والمتوسط في قبة الفلك ، والمتطرف في جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر ، ومنها ما يقطعه في عام ، ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ، ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك . ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال ، فهو أبدي ، ومنها أبدي الخفاء ، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر في الربع الشرق وكوكب آخر في وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قد دنا من الغروب ، وكأنه رقية ينتظر بطلوعه غيبته .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وحدتها تدل على المصار كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كما له ، وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله . فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر ، فهي هداية في طرق العلم بالخالق — سبحانه — وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلائها على هذه المطالب لا تقصر عن دلائها على طرق البر والبحر ، بل دلائها للعقول على ذلك أظهر من دلائها على الطرق الحسية ، فهي هداية في هذا وهذا وأما دلالة ( المقسمات أمراً ) وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد مد تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة ، فالرب — تعالى — يدبرهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر ، والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ، ويحفظ بنى آدم طائفة و بإحصار أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحي طائفة ، وبالجبال طائفة ، وبكل شئون العالم طائفة . هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء ، والحسن وما فيهم من القوة والشدة ، ولطاقة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام في خدمته ، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم .

ثم أقسم — سبحانه — بهذه الأمور على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَوْعِدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أى : ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب ، ﴿ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴾ أى : إن الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز أن تكون ( ما ) موصولة ، والعائد محذوف . والمعنى : أن الذى توعدونه لصادق ، أى : كائن وثابت . وأن تكون مصدرية ، أى : إن وعدكم لحق وصدق .

وإذا تأملت هذا التناسب والأرتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدله والأعلى عليه ، مرشداً إليه . قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْحَبْكِ إِنَّكُمْ لَفَى قَوْلٍ مُخْتَلَفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مِنْ أُفْكَ قَتْلِ الْخِرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ذُوقُوا فَتَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ .



قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ثم أقسم — سبحانه — ﴿ بالسما ذات الحبك ﴾ قال ابن عباس : يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك : حسننها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد ، وقال أبو عبيدة والمبرد : الحبك : الطريق وقال : شمر : الحبوك في اللغة ما أجيد عمله والمقصود بهذا كله : ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

ثم ذكر — سبحانه — المقسم عليه فقال : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي ﷺ — وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم فإن الحق شيء واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ <sup>(١)</sup> أى : مختلط ملتبس وفي ضمن هذا الجواب : انكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

وقوله تعالى : ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ ، أخير — سبحانه — أنه يصدف بسبب ذلك القول المختلف من صدف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسيب كقوله تعالى : ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ من أفك ﴾ ، أى : من سبق في علم الله أنه يضل ويؤفك وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الإيمان ، وقيل : إلى الرسول . والمعنى : يصرف عنه من صرف حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً قال : ﴿ قتل الخراصون ﴾ أى : المكذبون : ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ ، وجهالة قد غمرت قلوبهم أى : غطتها وغشتها ، كغمرة الماء ، وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف أو غم ، ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ بل قلوبهم في غمرة من هذا ﴾ <sup>(٣)</sup> أى : غفلة وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم ، والسهو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه ، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك .

(١) سورة ( ق ) الآية ٥

(٢) سورة ( هود ) من الآية ٥٣

(٣) سورة المؤمنون من الآية ٦٣

قوله تعالى : ﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ ، استبعاداً للوقوع وجحداً . فأخبر — تعالى — أن ذلك ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ والمشهور في تفسير هذا الحرف : أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة ( على ) تعطى معنى زائداً على ما ذكره ، ولو كان المراد نفس الحرق لقليل يومهم في النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى في كما تكون ( في ) بمعنى ( على ) . والظاهر : أن فنتهم على النار ، قيل : فنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنة أشد منها ، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله — تعالى — : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ <sup>(١)</sup> واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر فتنة . فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة . ولهذا قال : ﴿ ذوقوا فنتكم ﴾ وكان وقوفهم على النار ، وعرضهم عليها من أعظم فنتهم ، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ، ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون في موقف القيامة ، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فنتهم ، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها ﴿ ذوقوا فنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ . يقال : لهم ذلك تقريباً ، وتوبيخاً ، وتحقيراً وتصغيراً .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفي أموالهم حق للسائل والمحروم وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن المتقين لله — عز وجل — أنهم يوم معادهم يكونون في جنات ، وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال .

وقوله تعالى ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أى : عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ، ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أى : في الدار الدنيا ، ﴿ محسنين ﴾ بالفرائض كانوا يعبدون الله كأنهم يرونه .

قال ابن القيم : « ذكر — سبحانه — جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون وأنهم ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ من الخير والكرامة .

وفي ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به ، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا

عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم ، وانشرح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك ، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه .

قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالم حق للسائل والمحروم .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ أى : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ، ونومهم ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة : قال الأصنف ابن قيس ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال عبد الرحمن ، بن زيد ، بن أسلم . قال : رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله — تعالى — قوماً فقال : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم فقال له : أبى — — رضى الله عنه — طوى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ .

## فضل قيام الليل من الكتاب والسنة

قال تعالى : ﴿ وَمَنِ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ (١) . وهذا الأمر وإن كان خاصاً برسول الله — ﷺ — إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاعتداء به — ﷺ — . وقال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ (٢) .

قال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ، تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ

(١) سورة الاسراء الآية ٧٩

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٦٣ ، ٦٤

نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿١﴾ .

قال الحسن البصري : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر .  
وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَاب ﴾ (٢) .

ففض — سبحانه — التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .  
هذا بعض ما جاء في كتاب الله ، أما ما جاء في سنة رسول الله — ﷺ — فهناك بعضه :  
عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » (٣) رواه مسلم .  
وعن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — ﷺ — « كان يقوم من الليل حتى تنفطر قدماه » ، فقلت له : « لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ »  
قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً » (٤) متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوماً ، ويفطر يوماً » (٥) متفق عليه .

وعن جابر — رضى الله عنه — قال : « سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة » (٦) رواه مسلم .

وعن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » (٧) رواه الطبراني بإسناد حسن .

(١) سورة السجدة الآيات ١٥ — ١٧

(٢) سورة الزمر الآية ٩

(٣) الحديث في صحيح مسلم ( كتاب الصيام ) باب فصل صوم المحرم ج ٢ ص ٨٢١ رقم ٢٠٢ / ١٦٦٣ عن أبي هريرة .

(٤) الحديث في صحيح البخارى : ج ٢ ص ٦٣ ( كتاب التهجد ) باب قيام النبي ﷺ حتى يقوم قدامه .

— وفي مسلم في صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ ( كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ) باب أكثر الأعمال والاجتهاد في العبادة .

(٥) انظر البخارى ( كتاب بدء الخلق ) باب من أحب الصلاة إلى الله ، صلاة داود .. الخ ج ٤ ص ١٥٦ عند عبد الله بن عمرو .  
وفي صحيح مسلم ( كتاب الصيام ) ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١١٨٩ / ١١٥٩ .

(٦) الحديث في صحيح مسلم : انظر صحيح مسلم ( كتاب الصلاة ) باب في الليل ساعة مستجاب فيها الدعاة عن جابر : ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٦ / ٧٥٧ والرقم الذى يليه .

(٧) الحديث فقى مجمع الزوائد ( كتاب الصلاة ) باب في صلاة الليل ج ٢ ص ٢٥١ ورد الحديث بلفظه عن عبد الله رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : « جاء جبريل إلى رسول الله — ﷺ — فقال : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »<sup>(١)</sup> ( رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن واخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي ) .

وعن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — أنه سمع النبي — ﷺ — يقول : « أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن »<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وصححه والنسائى وصححه وابن خزيمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »<sup>(٣)</sup> رواه أبو داود وصححه وابن خزيمة . قال الحافظ المنذرى : أى : له قطار من الأجر ، ومن أول تبارك إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم .

وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — قال : أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال : أبو موسى الأشعرى لمن هى يا رسول الله ؟ قال : — ﷺ — « لمن آلا الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام »<sup>(٥)</sup> رواه أحمد .

وفي الحديث الذى رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن معاذ بن جبل وفيه « .. ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل في جوف الليل .. ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ ( يعملون ) الحديث<sup>(٦)</sup> .

(١) الحديث في مجمع الزوائد ج ١ ص ٢١٩ باب الايجار في الموعظة ورد الحديث بلفظه عن سهل بن سعد — رضى الله عنه — وفي الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٣١ رقم ٢٦٦ ورد بلفظه عن سهل بن سعد .

(٢) الحديث في سنن الترمذى : ( كتاب الدعوات ) ج ٥ ص ٢٢٩ رقم ٣٦٥٠ عن عمر بن عبسة وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث انظر سنن أبى داود ( كتاب الصلاة ) باب تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ رقم ١٣٩٨ عن عمر بن العاص .

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم ( كتاب صلاة المسافرين ) باب فضل من يقوم بالقرآن .. ج ١ ص ٥٥٩ رقم ٢٦٨ / ٨١٦ .

(٥) الحديث انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٨٣ عن عبد الله بن عمر .

(٦) الحديث انظر سنن الترمذى ( كتاب الايمان ) باب ما جاء في حرمة الصلاة ج ٤ ص ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ عن معاذ بن جبل وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى — رحمه الله — : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة في جوف الليل ، فقيل له : ما بال المهتدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فلبسهم من نوره . وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما      واذر الدموع على الخدود سجاما  
واعلم بأنك ميت ومحاسب      يا من على سخط الجليل أقاما  
عليه قوم أخلصوا في حبه      فرضى بهم واختصهم خداما  
قوم إذا جن الظلام عليهم      باتوا هنالك سجداً وقياما  
خص البطون من التعفف خمرا      لا يعرفون سوى الحلال طعاما

قوله تعالى : ﴿ وبالأَسْحار هم يستغفرون ﴾ أخبر عنهم — سبحانه — بأنهم مع صلاحهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر محتوماً بصلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجداً وقياماً ، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك كما قال تعالى : في وصفهم في سورة آل عمران ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾<sup>(١)</sup> .

قال ابن القيم : « وكان النبی — عليه السلام — إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً ، وأمره الله — سبحانه — أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار ، وشرع — عليه السلام — للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار . وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — عليه السلام — يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة »<sup>(٢)</sup> ( رواه الترمذى وقال حديث حسن ) .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — عليه السلام — قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له »<sup>(٣)</sup> ( متفق عليه ) .

(١) سورة آل عمران الآية ١٧

(٢) الحديث في سنن الترمذى ( كتاب الدعوات ) ج ٥ ص ٢٠٨ رقم ٣٦٠٨ عن أنس ابن مالك : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الحديث في صحيح البخارى : ( كتاب الجمعة ) باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ج ٢ ص ٦٦ عن أبى هريرة . وفى صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرهم — باب الترغيب والذكر في آخر الليل والاجابة فيه ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٨ / ٧٥٨ عن رواية أبى هريرة .

وفي رواية أخرى عند مسلم عن أنس بن مالك ، وأبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ — قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزل عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »<sup>(١)</sup> .

وقال : « إن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى هذه السماء الدنيا ، فنادى ، فقال : هل من مذنّب يتوب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من داع ؟ هل من سائل ؟ إلى الفجر »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ هذا مدح ثالث لهم . قال محمد بن مسيرين وقتادة : الحق : هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحماً ، أو يقرى به حنيفاً ، أو يحمل به كلاً ، أو يغنى به محروماً .

﴿ والسائل ﴾ الذى يسأل الناس لفاقته ، قاله ابن عباس وغيره ، ﴿ والمحروم ﴾ الذى حُرِمَ المال . وقال قتادة ، والزهرى : ﴿ المحروم ﴾ المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً ، ولا يعلم بحاجته . وفي الأثر « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم فيقول الله : — تعالى — وعزنى وجلالى — لأقربنكم ولأبعدنهم » .

ويقول ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ أخبر — سبحانه — عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ، ضد ( الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ) وأكد إخلاصهم فى هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذى لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور ، والمحروم المتعفف الذى لا يسأل . وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين ، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر ، والشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمة بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين . قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ لما ذكر — سبحانه — أمر الفريقين بين أن فى الأرض علامات تدل على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار والأنهار ، والبحار ، واختلاف ألْسنة الناس ، وألوانهم وما جلبوا عليه من الإرادات ، والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم ، والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه . قاله ابن كثير .

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء — باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٢٧٠٠ / ٣٩

وفى سنن الترمذى عن أنس بن مالك وأبي سعيد ج ٥ ص ١٢٨ أبواب الدعوات وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر مسلم : ( كتاب صلاة المسافرين ) باب الترغيب فى الدعاء والذكر ج ١ ص ٥٢٣ رقم ٢٧٢ / ٧٥٨ .

وقال العلامة ابن القيم في هذه الآية : ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ ، قال : « فآيات الأرض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد . فإنها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ <sup>(١)</sup> ولا ينافي ذلك كونها كروية . فهي كرة في الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً ، وجعلها مهاداً ذلولاً توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول والفتوس وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وجعلها بساطاً ، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم في بطنها ، وطحاحا فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاحا ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل والنجاح . ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة . وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفاً فيه كما تكفاً السفينة فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الإلهية أن وضع عليها رواسي يشبها بها . لكلا تميد ، وليستقر عليها الأنعام ، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدّة كالحديد ، فيمتنع حفرها ، وشقها . والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشى فيها ، ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنه لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدمائة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان ، ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدمائة . وأشرف الجواهر عند الإنسان ، الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد ، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها ، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر ، وأنفع ، وأبرك وإن كانت تلك أعلى وأعز ، فعلاؤها ، وعزتها لقاتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس ، وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور . وما كان كذلك لم يقبل السخونة . فيبقى في غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ، ولا يتأق في النبات ، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقه ، لكلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ، ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف فاقتضت حكمته — سبحانه — أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان ، والأنعام والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته ، وكذلك خلق منها النوع الإنسانى ، وأعادها إليها ويخرجه منها ..



ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة فهذه سهلة ، وهذه حزنه ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه تربة ، وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ، ويلاصقها ويلبها رخوة ، وهذه سوداء ، ويلبها أرض بيضاء ، وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر ، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لا تصلح له ، بل تصلح لغيره ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم ، وهذه مسجرة بالجبال ، وهذه لا تصلح إلا على المطر ، وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله — سبحانه — الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض .

فلو سألتها من نوعها هذا التنوع ؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها من الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها . ومنافعها ؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجها منها ؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستعصية ولا ممتعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بطنها ؟ وفرشها ومهداً وذللاً ، وطماها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى يمسخها أن تتحرك فتزلزل ، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبداع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحاً ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً — ﷺ — وأنشأ منها أوليائه وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثيرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة — كما نشاهده في الصيف — فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة ، التى بها انتظام العالم ؟ ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ؟ ومن الذى جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتاً للأحياء ؟ ومن الذى يحياها بعد موتها ، فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ، ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ في الجبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبئت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينقذ منه الولد ، فإذا حصل الحب في الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة الخفية في باطن

الأرض ، فوصلت النداءة والحرارة إلى باطن الحبة ، فانتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق ، ثم عظم ذلك الولد ، حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه ، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلاف مؤلفة . كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية ، وذلك من البركة ، التي وضعها الله — سبحانه — في هذه الأم ، فيما لها من آية ، تكفى وحدها في الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وأفعاله ، وعلى صدق رسله ، فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور ..

فهذا بعض آيات الأرض ، ومن الآيات التي فيها وقائعه سبحانه ، التي أوقعها بالأمم المكذبين لرسولهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾<sup>(١)</sup> وقال في قوم لوط : ﴿ وإنكم ترمون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسيل مقيم ﴾<sup>(٣)</sup> أى : بطريق ثابت لا يزول عن حاله وقال تعالى : ﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾<sup>(٤)</sup> أى : ديارهاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى : ﴿ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم ﴾<sup>(٥)</sup> وقال عن رجل يخرج وحده ، لا عدة له ولا عدد ، ولا مال ، فيدعوا الأمة العظيمة ، إلى توحيد الله ، والإيمان به وطاعته ، ويحذروهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته ، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالصواعق ، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه ، والهاكون أضعاف أضعافهم عوداً وقوة ، ومتعة وأموالاً :

فيالك من آيات حق لو اهتدى بهن مريد الحق ، كن هواديا  
ولكن على تلك القلوب أكنة فليست وإن أصغت تجيب المناديا  
فهلا امتنعوا — إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً وأقوى شوكة — بقوتهم وعددهم من بأسه  
وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من أضعف منهم من اتباع الرسل ؟

(١) العنكبوت آية : ٣٨

(٢) الصافات الآيات : ١٣٧

(٣) الحجر الآيات : ٧٣ — ٧٦

(٤) الحجر الآيات : ٧٨ ، ٧٩

(٥) إبراهيم آية : ٤٥

ومن الآيات التي في الأرض ، مما يحدثه الله فيها كل وقت ، ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله — سبحانه وتعالى — في الأرض ، إقامة للحجة ، على من لم يشاهد تلك الآيات ، التي قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن ، يشاهدون ما يشاهده الأولون ، أو نظيره ، كما قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (١) وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لا بد أن يرى الله — سبحانه — أهل كل قرن من الآيات ، ما يبين لهم أنه الله ، الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما يذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير .

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ قيل : التقدير وفي الأرض وفي أنفسهم آياته للموقنين . وقيل : المعنى : وفي خلق أنفسكم من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، ولحم ، وعظم ، إلى نفخ الروح ، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الدالة على كمال قدرته ، والشاهدة على وحدانيته ( أفلا تبصرون ) يعنى بصر القلب ، ليعرفوا كمال القدرة لله — سبحانه وتعالى —

قال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ يقول : أو لم ينظروا في ذلك نظر تفكر وتدبر ، حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغيرات ، على أنها محدثات ، والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم ، قدير سميع ، بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات ، لكان الإنسان أكمل منه ، وذلك محال قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمِيتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ (٢) فلإنسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل في نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرفه . كان نطفة ، ثم علقه ، ثم مضغة ، ثم لحماً وعظاماً ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه في الحال الأفضل ، التي هي كمال عقله ، وبلوغ أشده ، عضواً من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد في جوارحه جراحة ، فيدله ذلك على أنه في حاله نقصه ، وأوان ضعفه ، عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة ، إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره

لنفسه ، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ، ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك ، أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعاً صنعه ، وناقلاً نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك ، لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر .

وقال الحكماء : إن كل شىء في العالم الكبير ، له نظير في العالم الصغير ، الذى هو بدون الإنسان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . فحواس الإنسان ، أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها ، بمنزلة الشمس والقمر في إدراك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى تراباً من جنس الأرض ، وفيه من جنس الماء العرق ، وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس ، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار في الأرض ، وكبده بمنزلة العيون التى تستمد منها الأنهار ، لأن العروق تستمد من الكبير ، ومثاته بمنزلة البحر ، لا نصاب ما في أوعية البدن إليها ، كما تنصب الأنهار إلى البحر ، وعظامه بمنزلة الجبال ، التى هى أوتاد الأرض ، وأعضاؤه كالأشجار ، كما أن لكل شجر ورقاً أو ثمراً ، فكذلك لكل عضو فعل أو أثر والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض ، ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير ، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجين الساجد
ما في الوجود سواك رب يُعبد	كلاً ولا مولى هناك فيقصد
أنت الأله الواحد الحق الذى	كل الوجود له يقر ويشهد

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، دعاه خالقه وبارئه ، ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والفكر في نفسه ، فإذا تفكر الإنسان في نفسه ، استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فإنه إذا نظر في نفسه ، وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمديره ، داله عليه ، مرشدة إليه ، إذا يجده مكوناً من قطرة ماء : لحوماً منضدة وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشددة بحبال

للعروق والأعصاب ، قد قمطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثائه وستين مفصلاً ، ما بين كبير وصغير ، وتخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثائه وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنایع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات ، التي يؤذيه احتباسها . وجعل داخل بابي السمع مرأً قائلاً ، لئلا تلج فيها دابة ، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابي البصر مالحاً ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه ، فلا يتنغص به لو كان مرأً أو مالحاً ،

وجعل له مصباحين ، من نور كالسراج المضيء ، مركبين في أعلى مكان منه ، وفي أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له ، وركب هذا النور في جزء صغير جداً ، يبصر به السماء والأرض ، وما بينهما ، وغشاه بسبع طبقات ، وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل على محله علقاً بمصرعين أعلى وأسفل ، وركب في ذيل المصراعين ، أهداباً من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالاً ، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك ، وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين ، شغلاً مخصوصاً ، ولكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصاً ، لو زاد على ذلك أو نقص منه ، لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة ، وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة ، ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضاً وسواداً ، وجعل القوة الباصرة في السواد ، وجعل البياض مستقراً لها وسكناً ، وزين كلاهما بالآخر ، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر . ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة ، وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة . لو نقصت عضلة واحدة ، لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التي إنما تنطبع فيها الصور ، إذا كانت في غاية الصفاة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية ، من جميع الكدورات ، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً ، فإنها لاتزال تراها تنظف عينا بيدها ، من آثار الغبار والكدورات ، وكما جعل سبحانه العينين مؤدبتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه إليه ، كما تراه جعلها مرأتين للقلب ، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة

والفطنة ، والزيف والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة ، وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب ، فالعين مرآة القلب ، وطليلة ورسوله ، ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء ، وأبعدها تأثيراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما ، أكثر من تأثر العين على لطافتها ، وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فإنها لو كانت متفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة .

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبي الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلاً ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها ، وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات ، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الانعطافات وقف هناك ، فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدي الإنسان ، وأما الأذنان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان ، وأمامه ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء فتأق المسموعات إليهما على نسبة واحدة . وخلقت العينان بغطاء ، والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة . إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرضى لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين ، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بليتها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والنجوم تأثر اللحم إذ المصلحة فى بروزها لتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار .

ومن ذلك الأنف . نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائماً معتدلاً ، فى أحسن شكل وأوفقه للمنفعة ، وأودعه حاسة الشم التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفاتها ومنافعها ومضارها ، ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها . وأيضاً فإنه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه إلى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبداً . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن ذلك . فيدخله هواء كبير . ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكيفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلاً . لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته . والهواء الذى يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطراً يصعد إلى الدماغ ، وشطراً ينزل إلى الرئة ، وهو من آلات النطق . فإن له إعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فإنه جعل

مصباً لفضلات الدماغ ، تنحدر منه في تلك القصبة ، فيخرج . فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها ستراً ، ولم يجعلها بارزة فتستقلها العيون . وجعل فيها تجويفاً . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفه تمنعه من الإدراك والاستنشاق . فيبقى التجويف الثانى نائباً عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة ، مثل ذلك في العينين .

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف ، كيف يدخله أولاً من المنخرين ، وينكسر برده هناك ، ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئة ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئة إلى القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية فيه . ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم إذا سخن في الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم إلى الرئة . ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجاً ، فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال . وهو له في اليوم واللييلة ، أربعة وعشرون ألف نفس ، لله في كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء النفس من الأعضاء ، والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها ؟

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ويمكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعديناً للحرارة الغريزية ، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته ، وبقي هنالك ساعة فسخن واحترق . فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت في الحنجرة والحنك ، واللسان ، والشفيتين . والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به .

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عن المحتاج إلى دفعه وإخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هي من أكمل المنافع والمصالح . فإن المقصود الأصل من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب . فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أخرى . وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام .

ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : في الضيق ، والسعة والخشونة والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها ، فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة . فإن هذا

الاختلاف — الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددتها — فقلما يشبهه صوتان أو صورتان — ليس فى الطبيعة ما يقتضيه . وإنما هو صنع الله الذى اتقن كل شئ وأحسن كل شئ خلقه . فتبارك الله أحسن الخالقين وتبارك الله رب العالمين . فمميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد  
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام — وهى أعظمها — ومنفعة الذوق والإدراك وجعله دليلاً على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلاً على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة .

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحمياً ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهيل حركته ولهذا لا تجد فى الأعضاء من لا يكثرث بكثرة الحركة سواه فإن أى عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون ، إلا اللسان . وأيضاً فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمزجه البدن ويحتاج إلى قيس وبسط . وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ، ولم يتهيأ منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغائى والله أعلم .

وجعل سبحانه على اللسان غلقتين : أحدهما الأسنان ، والثانى الفم ، وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحداً ولم يجعل على الأذن غطاء . ذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للأكثر آفات طبقتين وللمتوسط طبقتين ، وجعل الأقل آفة بلا طبق .

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مرأ كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها — حكمة بالغة — فإن الطعام والشراب يخالطه بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلولا أنه حلو لما تذ الإنسان بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا بعد



يطبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع — وهى الثنايا وما يليها — حادة الرأس ليسهل بها القطع . وجعل لنواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرأس ، عريضة ، ليتأنى بها الطحن.. ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأنى بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر . إذ ربما كلت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل إلى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابتة كما ينبت الزرع فى الأرض . ولم يكسها سبحانه لحماً ، كسائر العظام سواها . إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ويتلقى عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة الحيوان إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه . مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هى المكتسبة العارية تمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته — كسائر عظامه — لعدم الحاجة إليها — عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأعطى وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأت معه حين يولد لأضرت بحلمه الشدى . إذ لا عقل له يحزره عن عضها فكانت الأم تمتنع من إرضاعه .

فكانت عجيب أمرها الاتفاق والموالة التى بينهما وبين المعدة . فإنه يسلم إليها الشئء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتضججه وتطبخه . ثم يرسل إليها منه معلومها المقدر لها . فإذا عجزت عن قطع شئء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه . فإذا كَلَّت الأسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت . وهى تصحب الإنسان وتخدمه ما لم يرها ، فإذا وقعت عينه عليها فارقت الأبد وهى سلاح ومنشار ، وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه .

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فإن البدن لما كان حاراً رطباً . والحرارة إذا عملت فى الرطوبة فلا بد أن تثير بخاراً وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن إلى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلا بد أن تحدث مساماً ومنافذ فى ظاهر الجلد . وتلك الأبخرة إما أن تكون رطبة لطيفة . فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شئئاً . وإما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلاً فإذا ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار إذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال إلى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك إذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء ، فإذا عاد إلى الماء عاد الماء إلى اتصاله الأول فإذا كان الجلد فى غاية اليبس لم يتولد الشعر ، لأن الجلد اليابس إذا انتقب بقيت

تلك الثقب مفتوحة لليس الجلد . فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه إلى بعض فإن الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فإنه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الإنفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخاني في تلك الثقب لا يزال يده بخار آخر يدفعه أولاً فأولاً الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله فيبقى بعضه مركزاً في الجلد ، منزلته منزلة أصل النبات وبعضه يطلع إلى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هي البخار الدخاني اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار . والآلة التي بها يتم أمره هي المسام التي ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعراً بإذن الله .

والغاية التي من أجلها وجد نثيان عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة ، والأخر خاص . وهو إما للزينة . وإما للوقاية . وإذا بان أن الشعر إنما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام . أحدهما حرارة غالية على اليبس . كالعيان . الثاني عكسه . وهو ييبس غالب على الحرارة كالمشايع . الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف . كأبدان النساء . ففي هذه الأقسام يقل الشعر . وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويسسهم معتدل ينتوى تولد الشعر فيهم .

وفي شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن . والسبب الذي صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ ، ومن الدماغ الى فوق ، وكان هذا الشعر نتمياً على الدوام ، لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر فبناء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخلص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه .

وأما شعر الحاجبين فقيه - مع الحس والزينة والجمال - وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل على هذا المقدار لأنه لو نقص عنه لزال منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب . ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً وأن يكون باقياً على حال واحد في مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر في جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد في طول الجفن لئلا يطول وينمو ..

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، الهيبة . لهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحى ومنها التميز بين الرجال والنساء .

وأما شعر العانة ، والإبط ، والأنف فممنفعتها تنقية البدن من الفضلة . ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذا وفر وجد ثقلا وكسلا وغماً . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ، وتنشف الإبط . وكان حلق العانة أولى من تنفها لصلابة الشعر وتأذى صاحبها بتنشفه ، وكان تنشف الإبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع في هذا وهذا .

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه أخلى الكفين والجبهة والأخصيين من الشعر ، فإن الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقنا للقبض ، والإصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به . وأيضاً فإنهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما يخل بتام هذه المنفعة . وأما الأخصيان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشى وأعاقه في المشى كثيراً مما يعلق بشعره من على الأرض ، ويتعلق بما عليها أيضاً . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية في الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخصيين فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو ، وكلما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضاً فإن كثرة وطء الأرض بالأخصيين يصلبهما ويجعل سطحيهما أملس لا ينبت شيئاً ، كما أن الأرض التي توطأ كثيراً لا تنبت شيئاً .

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، وأظلم الوجه وتدل على العين . وكان يحتاج إلى حلقه دائماً ، ومنع العينين من كمال الإدراك ، والسبب المؤدى لذلك أن الذي تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفاً إلى الجبهة . بل صاعداً إلى فوق ..

ثم يقول العلامة ابن القيم :

فاستقبل الآن النظر في نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول ، وهو النطفة التي هي قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف أخرجها الرب تعالى من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع الحبة والألفة بين الذكور والإناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها في الرحم في قرار مكين لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طوراً بعد طور ، وطبقاً بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة — وهي بيضاء مشرقة — علقه حمراء ، ثم جعلها مضغعة ، ثم قسم أجزاء المضغعة إلى العظام والأعصاب والعروق ، والأوتار ، واللحم في داخل الرحم في الظلمات الثلاث ، ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر في تلك النطفة شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آله ولا قلمه . فهل رأيت مصوراً لا تحصى آله ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التي قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من العجائب . وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع في تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات والأعصاب والطرق ، والحجاري ، والدماغ ، والمنافذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر ، والتخيل وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد .

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرته في بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة .

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات . وذلك أن الدماغ يخطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية . وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد ثم فوق الجلد الشعر فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقاً . والمقصود من تخليقها الإحتياط في صنون الدماغ من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه في طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الأوسط محل التأمل والتفكير ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان . لا بد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم ، ولو لم يكن حافظاً لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجيء الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التي فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها .. فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته . كيف ترسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم

والممالك والأمم في هذا المحل الصغير؟ والإنسان يحفظ كتباً كثيرة جداً وعلوماً شتى متعددة، وصنائع مختلفة، فترتسم كلها في هذا الجزء الصغير، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض، بل كل صورة منهم بنفسها محصلة في هذا المحل. وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة في محل صغير لا تختلط بعضها ببعض، وطمس بعضها بعضاً. وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة، والمتضادة، ولا ييطل منها صورة صورة.

ومن أعجب الأشياء أن القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى.

مثاله: أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان، وتسمع صوته فتعلم أنه هو، وتلمس الشيء فتعرفه، وتشمه فتعرف أنه هو، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذي رأيته، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته، ويقوم لك مقام مشاهدته. ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراؤه. وأجمعوا على جواز وطئه امرأته، وهو لم يرها قط، اعتماداً منه على الصوت. بل لو كانت خرساء أيضاً وهو أطرش جاز له الوطء.

وقد جعل الله — سبحانه — بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض. ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيراً في كتابه كقوله: ﴿إِن السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾<sup>(٣)</sup> وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى. وتفيد فائدتها في الجملة. لا في كل شيء.

ثم أودع سبحانه قوة التفكير وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع في الدنيا والآخرة، فركب القوة المفكرة عن شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً، فيتولد من بين هذين الشيئين شيء وثالث جديد لم يكن للعقل شعور به. كانت موادّه عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث. ومن هاهنا حصل استخراج الصنائع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن، وأمور

١ — سورة الإسراء الآية: ٣٦

٢ — سورة الأحقاف الآية: ٢٦

٣ — سورة الأعراف الآية: ١٧٩

الزراعة والفلاحة وغير ذلك . فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية . فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان فكان أمراً ذهنياً ، ثم صار وجودياً خارجياً . ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية . ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تكن منه أرباب الفكر كان استخراج الطلوب بهذه الطريقة يتضمن فكراً وتقديراً فيفكر في استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما — يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً قال تعالى عن الوليد : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً وبين شهوداً ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ (١) فكرر سبحانه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديراً كلياً وتقديراً جزئياً . فالتقدير الكلي أن الساحر هو الذي يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئي أن الذي يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فههنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشيء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمل .

ثم أنزل إلى العين . وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وإيداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات . وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الإبصار في قدر العدسة . ثم أظهر في تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لاتنسب لها إليه البتة ؟ وجعل تلك القوة الباصرة في جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصنونة بالأجفان ، لتسترها ، وتحفظها ، وتصلقها وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سبباً لاجتماع النور الذي به الإبصار ، ويكون مانعاً من تفرقه ، ويكون أبلغ في الحسن والجمال .

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين .

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة — التي إنما ينتفع بها إذا كانت في غاية الصقالة والصفاء — جعل سبحانه الأجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أبداً باختيار الإنسان وغير اختيار ، لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجية . فيتأثر القلب ، ثم يظهر ما فيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما في القلب يظهر فيهما ، ومرآة لما في الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين في المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه وغيظه ، وحيه ، وبغضه ، ونفرتة فسبحان الله العليم الحكيم .

ثم اعدل إلى الأذنين ، وتأمل شقيهما ، وخلقيهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عوناً على إدراك السمع ، وجعلها مرة لتمتنع الهواء عن الدخول في الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدفين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ ، وجعل في الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتتكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذي يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنزلة السراج الذي يضيء للمسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعاني الغائبة التي ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه فكان جعلهما في الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول .

ثم انزل إلى الأنف ، وتأمل شكله وخلقه ، وكيف رفعه سبحانه في وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بابين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة استنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها .. وجعل سبحانه تجويفه واسعاً لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ ، فإن الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطراً منه — وهو أكثره — ينفذ إلى الرئة ، وشطراً ينفذ إلى الدماغ . ولذلك يضر المزمكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل في الأنف أيضاً إعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزاً . وذلك أبلغ في حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سليماً ، وجعل تجويفه نازلاً إلى أسفل ، ليكون مصباً للفضلات النازلة من الدماغ . وستره بساتر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات في عين الرأي ..

ثم انزل إلى الصدر تر معدن العلم ؟ والحلم والوقار ؟ والسكينة ، والبر وأضدادها ، فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسان ، وصدور السفلة تغلى بالفجور والشرور والإساءة والحسد والمكر .

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى شاهدة القلب تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويول ، ويعزل ، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند . كلهم في خدمته ، إن استقام استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبة ومشيتته والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضى به ، وعنه والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما في الإنسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل ، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها إلى الجوارح من الطاعات والمعاصي ، إنما هي آثاره ، فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن — عز وجل — .

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبل إلى ، فبادرت وقامت بين يدي رب العالمين . وكره عز وجل انبعاث آخرين فنبطهم وقيل اقعدها مع القاعدين كانت أكثر يمين رسول الله — ﷺ — « لا ومقلب القلوب »<sup>(١)</sup> وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك »<sup>(٢)</sup> قال بعض السلف . القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة في يوم ريح عاصف .

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع في الجانب الأيسر من الصدر ، وفي باطنه تجويف ، وفي التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح ، والثانى أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسانية .

وللقلب جندان : جندى يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الأعضاء ذلت له تذليلاً .

١ — صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قوله تعالى : ونا الرزاق ذو القوة المتين ٩ / ١٤٥ وأبو داود — كتاب الإيمان والنذور — باب ما جاء في يمين النبى — ﷺ — ما كانت ٣ / ٥٧٧ رقم ٣٢٦٣ والترمذى في الإيمان والنذور حديث رقم ١٥٤٠



ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل في هذا العالم ليتذود منه افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذي خلق لأجله . فأعين بالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له في خدمته لتجلبب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جنديين : باطن ، وهو الإرادة والشهوة ، والقوى . وظاهر وهو الأعضاء . فخلق في القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التي هي آلة الإرادة ، واحتاج في دفع المضار إلى جنديين : باطن ، وهو الغضب الذي يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأعداء وظاهر وهو الأعضاء التي ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ولا يتم ذلك إلا بمعرفة ما يجلب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشیطان أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الخلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفاً ومحلاً ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفاً وهو المنافسة في فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع كما قال — ﷺ — : « احرص على ما ينفعك »<sup>(١)</sup> ، ولقوة الشهوة مصرفاً وهو التزوج بأربع والتسرى بما شاء ، ولقوة حب المال مصرفاً ، وهو إنفاقه في مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبه المال على هذا الوجه لا تدم ، ولحبة الجاه مصرفاً ، وهو استعماله في تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصر المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . فمحبية الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة . وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفاً ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفاً ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل . وهكذا جميع القوى التي ركبت فيه جعل لها مصرفاً وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه ، عليم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به ...

قوله تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وتلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم .

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى رب السماء رزقكم كقوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وفى الحديث الصحيح « إن أحداكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد — الحديث

وقوله تعالى : ﴿ وما تواعدون ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ وما تواعدون ﴾ الجنة . وقال الضحاك : ﴿ وما تواعدون ﴾ من الجنة والنار . وقال ابن سيرين والربيع : ﴿ وما تواعدون ﴾ من أمر الساعة .

هكذا يحدد المنهج الربانى بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزيع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد فى الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم وهو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين قال تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ <sup>(٣)</sup> ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾ <sup>(٤)</sup> ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾ <sup>(٥)</sup> .

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعى للخوف ولا داعى للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء بل عليه السعى لذكر الله والمشى فى مناكب الأرض والتوكل على

١ - سورة هود الآية : ٦

٢ - صحيح مسلم - كتاب القدر - باب كيفية الخلق آدمى فى بطن أمه ٤ / ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣

٣ - سورة يونس الآية : ٣١

٤ - سورة النمل الآية : ٦٤

٥ - سورة سبأ الآية : ٢٤

٦ - سورة فاطر الآية : ٤

٧ - سورة الملك الآية : ٢١

الله قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خصاصا وتروح بطانا » (١) .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل لها دائما :

لا تعجلن فليس الرزق بالعمل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل .

فلو جهدنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل .

قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ يقسم سبحانه بذاته العلية أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ — رضى الله عنه — إذا حدث بالشئ يقول لصاحبه : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه ، وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : فورب السماء والأرض إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون وقال الفراء : إنه لحق كما أن الآدمي ناطق . وقال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قلت : وفي الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا » (٢) فشبّه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده ، والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده ولا خالجه شك في أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس .

١ — سنن الترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ٤ / ٤ رقم ٢٤٤٧

وابن ماجه — كتاب الزهد — باب التوكل واليقين ٢ / ١٣٩٤ رقم ٤١٦٤  
ومسند أحمد ١ / ٣٠

٢ — انظر تفسير ابن كثير — سورة الذاريات ٧ / ٣٩٧ آية ٢٣

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين وأكده بتشبيهه بالواقع الذى لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الأدلة العيانة والبرهانية ما جعله معانياً مشاهداً بالبصائر . وإن لم يعاين بالأبصار . ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه لا تستعد له ، ولا تأخذ له أهمية . والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد . فأكثر الخلق لا ينظرون فى المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولا يتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور . ولا فى رحلتهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أين يرحلون ؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل ، وشلتهم الغفلة ، وغرتهم الأمانى التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الأمل ، وكأن المقيم لا يرحل ، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل ، وكأن مع كل مقيم توقع من الله : فلان ابن فلان بالأمان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن المطالبة ، آمنين من العقابة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به مطالبون ويعمرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم إليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألفتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها ، ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدر فى أى المحلين تنزل ؟ وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جنائياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته ، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وسار بفكره ، وأمعن النظر . وتأمل الآيات . لفهم المراد من إيجاده . ولنظرت عين الراحل إلى الطريق . ولأخذ المسافر فى التزود والمريض فى التداوى . والحازم ما يجوز أن يأتى . فما الظن بأمر متيقن . كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم . وكأنهم يعانبون الأمر . فأظلمت ربوع الإيمان من أهلها خالية . ومعلمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن على . عن الأوزاعى قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه ، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس . ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ما يقضون فيه من أمر معاده وما هم صائرون إليه . ثم يأخذون فى الفقه .

## من قصص الأنبياء مع أقوامهم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفٍ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٢٨﴾ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرْهُ بَعْلُكَ عَالِيَةً قَالَتْ أَمْرَأَتُهُ فِي صِرَةٍ فَبَصَّكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ \* قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي نُوحٍ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنَ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمِ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾

## تفسير المفردات

(الضيف) لفظ يستعمل للواحد والكثير (المكرمين) أى : عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلهم فى أكرم موضع . (قوم منكرون) أى : قوم لا عهد لنا بكم من قبل . (فراغ) إلى أهله) أى : ذهب إليهم خفية من ضيفه ، (سمين) أى : ممتلئ بالشحم واللحم . (فقربه إليهم) أى : وضعه لديهم ، (فأوجس منهم خيفة) أى : أحضر فى نفسه الخوف منهم (امرأته) هى سارة لما سمعت بشارتهم له (صرة) أى : صيحة ، (فبصكت وجهها) أى : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : يا ويلتنا ، (عجوز عقيم) أى : أنا كبيرة السن لا ألد . (وفى موسى) وجعلنا فى قصة موسى آية . (فتولى بركنه) فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان . (وهو ملهم) أت بما يلام عليه من الكفر .

(الريح العقيم) المهلكة لهم ، القاطعة لتسلمهم .  
 (كالرميم) كالشيء البالي المفتت الهالك .  
 (ففتوا) فاستكبروا وطفغوا . (فأخذهم الصاعقة) فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء . (وما كانوا منتصرين) أى : ما كان لهم ناصر .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم بعزته أنه كائن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يقلعوا عما هم عليه فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية . كقوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح من قبل .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، ويكون النبى — ﷺ — مجلى سنته ، ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأق بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيماً لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه توجيهاً لأنظاره حتى يصغى إليه ويهتم بأمره وتنبهاً إلى أن الرسول — ﷺ — لم يعلم به إلا من طريق الوحي .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من عالم زمانهم ، فقد كان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسى مما حكى الله عنهم : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ (١) ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل سبحانه ملائكة لإنزال الهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل ذلك أن ينزلوا ضيوفاً على إبراهيم بصورة فتیان

## تصويب أخطاء المجلد السادس

### الجزء الخامس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢٥٠	٨	لا إله رب السموات السبع	إلا الله رب السموات السبع
٥٢٧٥	٢	ثم لا يجاورنك	ثم لا يحاورونك

### الجزء السادس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٥٨٧	٥	لحمر	عمر
٥٥٩٣	١٣	نشدم	نقدم
٥٥٩٥	٢٣	اليمكال	المكيال
٥٥٩٧	١٩	دتارا	ونارا
٥٦٠١	٢٢	جر	جد
٥٦٠٩	٨	هم	هما
٥٦٤٢	٦	حكيم بم	حكيم بن
٥٦٤٧	١٣	يفش	يفشى
٥٦٦٢	٨	إنى	أنى
٥٦٧١	١٥	وما يجدون	وما يحدون
٥٦٧١	٢٠	وعزته	وعترته
٥٧٠٥	٨	سوف	سوق
٥٧٠٦	١٠	قلبي	قلب
٥٧٠٨	٢٥	فأحرروا	فأخروا
٥٧٦٢	٥	الحار	الحارث
٥٧٦٤	٤	الظيم	القيم
٥٨٠٣	٢	مخلوق خالق	مخلوق الخالق
٥٨٠٤	١	ترك	فاختنق من
٥٨٠٥	١٠	تنبتها	تنبتها
٥٨٠٧	٢٦	فواجبا	فواعجا
٥٨١٧	٢٠	تمبه	تيميه
٥٨٢١	٩	عن أبا	عن أبى
٥٨٢٣	١٣	لما بدع	لما بعد
٥٨٣٩	٨	فأعل	فاعمل
٥٨٥٤	١	زيادة (عن)	ابراهيم

## محتويات المجلد السادس

### الجزء الرابع والعشرون

آخر سورة الزمر (٣٢ - ٧٥) ، سورة غافر (١ - ٨٥)

سورة فصلت (١ - ٤٦)

#### الصفحة

#### \* سورة الزمر

٤٩٣٨	.....	أحكام صادقة لا مرية فيها	٤٦ - ٣٢ الآيات
٤٩٤٦	.....	عاقبة الظالمين	٥٢ - ٤٧ الآيات
٤٩٤٨	.....	رحمة وتوجيه	٦١ - ٥٣ الآيات
٤٩٨٢	.....	من مشاهد القيامة في القرآن الكريم	٧٥ - ٦٢ الآيات

#### \* سورة غافر

٤٩٩٣	.....	مقدمة السورة	
٤٩٩٤	.....	أول سورة غافر	٦ - ١ الآيات
٤٩٩٨	.....	منزلة المؤمنين عند الله تعالى	٩ - ٧ الآيات
٥٠٠١	.....	أحكام تخشع لها القلوب	٢٢ - ١٠ الآيات
٥٠٠٩	.....	قصص موسى عليه السلام مع فرعون	٥٠ - ٢٣ الآيات
٥٠٦٧	.....	الوعد الحق	٦٠ - ٥١ الآيات
٥٠٨٤	.....	من سورة غافر	٦٨ - ٦١ الآيات
٥٠٨٨	.....	حال أهل النار	٨٥ - ٦٩ الآيات

#### \* سورة فصلت

٥٠٩٤	.....	مقدمة السورة	
٥٠٩٥	.....	أول سورة فصلت	٨ - ١ الآيات
٥٠٩٩	.....	من آيات التوحيد	١٢ - ٩ الآيات
٥١٠٢	.....	قصص عاد وثمود	١٨ - ١٣ الآيات
٥١١٧	.....	أحوال أعداء الله وتوجيهات إلى أولياء الله	٣٦ - ١٩ الآيات
٥١٤٧	.....	من آيات التوحيد	٤٦ - ٣٧ الآيات

### الجزء الخامس والعشرون

آخر سورة فصلت (٤٧ - ٥٤) ، سورة الشورى (١ - ٥٣)

سورة الزخرف (١ - ٨٩) ، سورة الدخان (١ - ٥٩)

سورة الجاثية (١ - ٣٧)

#### \* سورة فصلت

٥١٥٥	.....	من أحوال الإنسان	٥٤ - ٤٧ الآيات
------	-------	------------------	----------------



\* سورة الشورى

٥١٥٩	..... مقدمة السورة
٥١٦٠	..... أول سورة الشورى
٥٢١٤	..... الآيات ١ - ١٢ - الأنبياء دعوتهم واحدة
٥٢٣٣	..... الآيات ٢٧ - ٣٥ - أحكام وعبر
٥٢٣٩	..... الآيات ٣٦ - ٤٣ - الزهد والشورى والعفو
٥٢٩٣	..... الآيات ٤٤ - ٥٠ - من مشاهد القيامة
٥٢٩٧	..... الآيات ٥١ - ٥٣ - من صور الوحي

\* سورة الزخرف

٥٣٦٣	..... مقدمة السورة
٥٣٦٤	..... أول سورة الزخرف
٥٣٧٤	..... الآيات ٢٦ - ٤٥ - إبراهيم والوحدانية
٥٣٨٢	..... الآيات ٤٦ - ٥٦ - طرف من قصة موسى عليه السلام
٥٣٨٧	..... الآيات ٥٧ - ٦٥ - طرف من قصة المسيح عليه السلام
٥٤١٤	..... الآيات ٦٦ - ٨٩ - من مشاهد القيامة

\* سورة الدخان

٥٤٣٣	..... مقدمة السورة
٥٤٣٤	..... أول سورة الدخان
٥٤٤١	..... الآيات ١٧ - ٣٣ - طرف من قصة موسى
٥٤٤٥	..... الآيات ٣٤ - ٥٠ - منكرو البعث وجزاؤهم

\* سورة الجاثية

٥٥٠١	..... مقدمة السورة
٥٥٠١	..... أول سورة الجاثية
٥٥٠٤	..... الآيات ١٢ - ٢٦ - من نعم الله تعالى على عباده
٥٥٣٥	..... الآيات ٢٧ - ٣٧ - الله وحده مالك الملك

الجزء السادس والعشرون

- سورة الأحقاف (١ - ٣٥) ، سورة محمد (١ - ٣٨)  
 سورة الفتح (١ - ٢٩) ، سورة الحجرات (١ - ١٨)  
 سورة ق (١ - ٤٥) ، سورة الذاريات (١ - ٤٦)

\* سورة الأحقاف

٥٥٤١	..... أول سورة الأحقاف
٥٥٤٧	..... الآيات ١٥ - ٢٠ - الإحسان إلى الوالدين وأحكام أخرى
٥٥٦٤	..... الآيات ٢١ - ٢٨ - طرف من قصة هود

\* سورة محمد

٥٥٧٥	.....	- مقدمة السورة
٥٥٧٦	.....	- أول سورة محمد
٥٦٣٨	.....	- الآيات ١ - ٩
٥٦٤٥	.....	- الآيات ١٠ - ١٩
٥٦٥٢	.....	- الآيات ٢٠ - ٣١
	.....	- الآيات ٣٢ - ٣٨

\* سورة الفتح

٥٦٦٣	.....	- مقدمة السورة
٥٦٦٥	.....	- أول سورة الفتح
٥٦٦٩	.....	- الآيات ١ - ٧
٥٦٧٤	.....	- الآيات ٨ - ١٠
٥٦٧٨	.....	- الآيات ١١ - ١٧
٥٦٨٥	.....	- الآيات ١٨ - ٢٦
	.....	- الآيات ٢٧ - ٢٩

\* سورة الحجرات

٥٧٥٥	.....	- مقدمة السورة
٥٧٥٦	.....	- أول سورة الحجرات
٥٧٦٠	.....	- الآيات ١ - ٥
٥٧٧٨	.....	- الآيات ٦ - ١٠
٥٧٩٣	.....	- الآيات ١١ - ١٣
	.....	- الآيات ١٤ - ١٨

\* سورة ق

٥٧٩٧	.....	- مقدمة السورة
٥٧٩٩	.....	- أول سورة ق
٥٨١٤	.....	- الآيات ١ - ١٥
٥٨٤٩	.....	- الآيات ١٦ - ٣٤
	.....	- الآيات ٣٦ - ٤٥

\* سورة الذاريات

٥٨٥٦	.....	- مقدمة السورة
٥٨٥٧	.....	- أول سورة الذاريات
٥٨٨٩	.....	- الآيات ١ - ٢٣
	.....	- الآيات ٢٤ - ٤٦

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ ( هل أتاك ) أى : ألم يأتك حديث ضيف إبراهيم ( المكرمين ) أى عند الله ودليله قوله تعالى عن الملائكة ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ وقال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مجاهد : مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه . قوله تعالى : ﴿ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام ﴾ أى : عليكم سلام . قال علماء اللغة : الرفع أقوى وأثبت من النصب فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فالخليل اختار الأفضل . وقوله : ( قوم منكرون ) وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : ( قوم منكرون ) وقوله : ( فراغ إلى أهله ) أى : انسل خفية في سرعة ( فجاء بعجل سمين ) أى : من خيار ماله ، وفي الآية الأخرى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أى : شوى على الرضف ( فقربه إليهم ) أى : أدناه منهم ( قال ألا تأكلون ) تلتطف في العبارة وعرض حسن . قال ابن كثير : ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . ثم قال وهذه الآية نظمت آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتى سمين مشوى فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : ( ألا تأكلون ؟ ) على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فأفعل .

قوله تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة ﴾ أى : فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضر في نفسه الخوف منهم وقد جاء في سورة هود : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامراته قائمة فضحكت ﴾<sup>(١)</sup> أى : استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعنتهم على الله تعالى فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . وهنا قال تعالى : ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقال عجوز عقيم ﴾ والبشارة له هى بشارة لها لأن الولد منها فكل منهما بشر به ولا تعارض بين الآيتين وقوله : ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أى في صرخة عظيمة قال ابن عباس وهى قولها : ﴿ قالت يا ويلتنا ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب ﴾ وقوله : ﴿ فصكت وجهها ﴾ أى : ضربت بيدها على جبينها أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب .

﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أى : كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت فى حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أى : عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، وفى الآية الأخرى : ﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ . (١)

قوله تعالى : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه — الصلاة والسلام : — ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ أى : ما شأنكم وفيهم جثث ؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة ﴾ أى : معلمة ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أى : مكتبة عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه وفى سورة هود : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيم عذاب غير مردود ﴾ (٢) وفى سورة العنكبوت : ﴿ قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ (٣) وقال تعالى ههنا : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ أى : فما وجدنا فيها غير أهل بيت مسلمين يعنى لوطاً وبنتيه .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا فيها آية ﴾ أى : عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم كما قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ (٤) وقوله : ﴿ للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالذكرى — كما قال تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن

١ — سورة هود الآية : ٧٣

٢ — سورة هود الآيات : ٧٤ — ٧٦

٣ — سورة العنكبوت الآية : ٣٢

٤ — سورة العنكبوت الآية : ٣٥

ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم في الیم . وهو ملیم ﴾ أى : وتركنا أيضا في قصة موسى مع فرعون وقومه آية : ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسultan مبین ﴾ أى : بدلیل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبین استكبارا وعنادا . ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في الیم ﴾ فكان عاقبة أمرهم خسرا ، ألقاهم ﴿ في الیم ﴾ أى البحر ﴿ وهو ملیم ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

قوله تعالى : ﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : وتركنا في عاد آية لمن تأمل واعتبر وتفكر وازدجر ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وهى التى لا تلقح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة بل هى كما قال المولى : ﴿ ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾ وقوله : ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : كالشيء الهشيم الهالك البالى وقال السدى : كالتراب المدقوق

وقوله تعالى : ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ أى : وفى ثمود أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حتى حين ﴾ أى : إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما جاء في سورة هود قال لهم النبى صالحي : ﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثين ﴾ (١) وقيل : معنى ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ أى : أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم قال ابن كثير : والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ (٢) وهكذا قال ههنا : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فتعوا عن أمر ربهم ﴾ أى : خالفوا أمر الله فعقروا الناقة فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى : صيحة العذاب ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى : من نهوض . قال

١ - سورة هود الآيات : ١٠١ - ١٠٨

٢ - سورة هود الآيات : ٦٤ - ٦٧

٣ - سورة فصلت الآية : ١٧

ابن عباس : أى : ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى : ولا يقدرّون على أن ينتصروا مما هم فيه قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنيب ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

## من آيات القدرة الباهرة

### ورسالة الجن والإنس

قال تعالى :

وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَبْهُدُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾ فَاذْكُرُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونٌ ﴿٦٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٦٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٦٤﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٦٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٦٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٦٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٧٠﴾

### معاني المفردات

( بنيناها بأيدي ) قال ابن عباس وغيره : أى : بقوة .

( إنا لموسعون ) أى : لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ، من الوسع بمعنى الطاقة .

- ( الأرض فرشناها ) مهدناها وبسطناها كالفرش للاستقرار عليها .  
 ( خلقنا زوجين ) صنفين ونوعين مختلفين .  
 ( ففروا إلى الله ) فاهربوا من عقابه إلى ثوابه .  
 ( طاغون ) متجاوزون الحد في الكفر .  
 ( ليعبدون ) ليخضعوا لى ويتذلّلوا .  
 ( ذنوباً ) أى : نصيباً من العذاب .  
 ( فويل ) هلاك أو شدة عذاب .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة — أرشد إلى وحدانيته سبحانه وعظيم قدرته ، فبين أنه خلق السموات بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكراً وأنثى ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ثم أمرهم أن يعتصموا بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نداً وشريكاً . ثم أردف هذا فذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته ، لا لاحتياجه إليهم في تحصيل رزق ولا إحضار طعام ، فالله هو الرزاق ذو القوة ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة ، فأولى لهم ألا يستعجلوه بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فقد حقت عليهم كلمة ربك في اليوم الذى يوعدون ، وسيقع عليهم العذاب ما لا مرد له ، ولا يجدون له رافعاً .

قوله تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى منهاً على خلق العالم العلوى والسفلى : ﴿ والسماء بنيناها ﴾ أى : جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ بأيد ﴾ أى : بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد : ﴿ وإنا لموسعون ﴾ أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى . ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أى : جعلنا فراشا للمخلوقات كقوله تعالى : ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أى : وجعلناها مهداً لأهلها فنعم الماهدون نحن لهم والمعنى فى الجمع للتعظيم .

قوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أى : صنفين ونوعين مختلفين قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى ، وكالآشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأرايح والأصوات . أى : جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد فلا يقدر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إن هو عز وجل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لذا قال تعالى : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ف ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ . قوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إلى لكم منه نذير مبين ﴾

قال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم .

وقال الحسين بن الفضيل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن قرأ إلى غيره لم يتمتع منه .

وقال أبو بكر الوراق : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقوله : ﴿ إلى لكم منه نذير مبين ﴾ أى : أنذركم . عقابه على الكفر والمعصية . وقد كان من دعاء الحبيب المصطفى — صلوات ربي وسلامه عليه — « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »<sup>(١)</sup>

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن وقال « اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك ، ولا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك ، امنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت »<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين ﴾ قال ابن عباس : أى : أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بالله .

١ — ابن ماجه — كتاب الدعاء — باب ما تعوذ منه رسول الله — ﷺ — ١٢٦٢/٢ رقم ٣٨٤١ والترمذى — كتاب

الدعوات — باب رقم ٧٦ ح ٥ صفحة ٥٢٤ حديث رقم ٣٤٩٣ وقال الترمذى : حديث حسن

٢ — اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ما يقول عند النوم وأخذ المنعجم



## حاجة العبد إلى أن يعبد الله أعظم

### من حاجة الجسد إلى روحه

قال ابن القيم رحمه الله : « اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه ولا في العمل له ولا في الحلف به ولا في النذر له ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به : فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو ، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره وهي كادحة إليه كدحاً فملاقية ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها ، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في وقت ثم يعذب ولا بد في وقت آخر ، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك ، وإنما يحصل له بملاسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التي تحكه فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما في حكمها من اللذة ، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب ، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما والله الموفق المعين ، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة ، والمقصود أن إله العبد الذي لا بد له منه في كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين هو الإله الحق الذي كل ما سواه باطل ، والذي إنما كان فهو معه ، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هي فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة ، ولهذا قال إمام الحنفية : ﴿ لا أحب الآفلين ﴾ . والله أعلم .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ يقول تعالى مسلماً لنبيه — ﷺ — : — وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسولهم : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ... الآية ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أتواصوا به ؟ ﴾ أى : أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أى : ولكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم : ﴿ فتول عنهم ﴾ أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعنى فما نلومك على ذلك . ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أى : إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة كما قال سبحانه : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان

له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ وكما قال جل في علاه : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أى : إنما خلقتهم لأمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أى : إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن عباس وأبو الجوزاء : أى : ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ أى : الشديد القوى . ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر سبحانه أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم قال الإمام أحمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — يعنى قال الله تعالى — « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك » <sup>(٢)</sup>

قال ابن كثير : وقد ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى « ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى بتجدنى ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فأتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء » <sup>(٣)</sup>

١ — سورة المؤمنون الآيات : ١١٥ — ١١٧

٢ — سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة باب ٣٠ ٦٤٢/٤ رقم ٢٤٦٦ وقال حديث حسن غريب

٣ — انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة الزاريات ٤٠٢/٧ آية ٥٨

## بحث في العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة :  
فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث . وأداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة  
الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان  
للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ،  
وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشيته الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ،  
والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من  
عذابه ، وأمثال ذلك ، هي من العبادة لله .

وذلك : أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التي خلق الخلق لها . كما قال تعالى :  
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : ﴿ اعبدوا  
الله ما لكم من إله غيره ﴾ <sup>(١)</sup> وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم . وقال تعالى :  
﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من  
حقت عليه الضلالة ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله  
إلا أنا فاعبدون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ <sup>(٤)</sup> ، كما قال في الآية  
الأخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم  
أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ <sup>(٥)</sup> وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال : ﴿ واعبد ربك  
حتى يأتيك اليقين ﴾ <sup>(٦)</sup>

١ - سورة الأعراف الآية : ٥٩

٢ - سورة النحل الآية : ٣٦

٣ - سورة الأنبياء الآية : ٢٥

٤ - سورة الأنبياء الآية : ٩٢

٥ - سورة المؤمنون آيتان : ٥١ ، ٥٢

٦ - سورة الحجر الآية : ٩٩

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وله من في السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ <sup>(١)</sup>

وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ <sup>(٣)</sup>.

ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى : ﴿ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾ <sup>(٤)</sup> وقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾ <sup>(٥)</sup> الآيات ولما قال الشيطان : ﴿ رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ <sup>(٦)</sup> قال الله تعالى : ﴿ هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ <sup>(٧)</sup>.

وقال في وصف الملائكة بذلك : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾ <sup>(٨)</sup> وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ <sup>(٩)</sup> وقال النبي عن المسيح الذي ادعت فيه الإلهية والنبوة : ﴿ إن النبي — ﷺ — في الحديث الصحيح « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » <sup>(١٠)</sup>

( والإطراء : الزيادة في المدح والتغالي فيه )

- ٧ — سورة الحجر الآيات : ٤١ ، ٤٢  
٨ — سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ — ٢٨  
٩ — سورة مريم الآيات : ٨٨ — ٩٥  
١٠ — مسند أحمد ١ / ٥٥

- ١ — سورة الأنبياء الآيات : ١٩ ، ٢٠  
٢ — سورة الأعراف الآية : ٢٠٦  
٣ — سورة غافر الآية : ٦٠  
٤ — سورة الإنسان الآية : ٦  
٥ — سورة الفرقان الآية : ٦٣  
٦ — سورة الحجر الآيات : ٣٩ ، ٤٠

وقد نعته الله بالعبودية في أكمل أحواله . فقال في الإسراء : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً ﴾<sup>(١)</sup> وقال في الإيحاء : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾<sup>(٢)</sup> وقال في الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال في التحدى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله ﴾<sup>(٤)</sup>

فالدين كله داخل فى العبادة . وقد ثبت فى الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبى — ﷺ — فى صورة أعرابى ، وسأله عنه الإسلام قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ، قال : فما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك — ثم قال فى آخر الحديث : « هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم »<sup>(٥)</sup> فجعل هذا كله من الدين . [ العبودية مدارها على قاعدتين هما أصلهما : حب كامل ، وذل تام ] والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : دنته ، فدان : أى : أذلته فذل . ويقال : يدين الله ، ويدين لله ، أى يعبد الله ويطيعه ، ويخضع له ..

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً . يقال طريق معبد . إذا كان مذلاً وقد وطأته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله ، بغاية المحبة له ...

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه . ولهذا لا يكفي أحدهما فى عبادة الله تعالى . بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله فتعظيمه باطل قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم

١ — سورة الإسراء الآية : ١

٢ — سورة النجم الآية : ١٠

٣ — سورة الجن الآية : ١٩

٤ — سورة البقرة الآية : ٢٣

٥ — صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٣٦ رقم ٨

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترهبوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿١﴾

فجنس المحبة تكون لله ورسوله ، كالطاعة . فإن الطاعة لله ورسوله ، والإرضاء لله ورسوله ﴿٢﴾ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴿٣﴾ ، والإيتاء لله ورسوله ﴿٤﴾ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴿٥﴾ وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ، ونحو ذلك . فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا : بأنا مسلمون ﴾ ﴿٦﴾ ....

وتحرير ذلك : أن « العبد » يراد به المعبود الذي عبده الله ، فذلله وديره وصرفه ، وبهذا الاعتبار ؛ فالخلقون كلهم عباد الله : الأبرار منهم والفقجار ، والمؤمنون والكفار ، وأهل الجنة وأهل النار . اذ هو ربهم كلهم ومليكهم ، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر . فما شاء كان وإن لم يشاءوا ، وما شاءوا إن لم يشأ — لم يكن . كما قال تعالى : ﴿ أفغير دين الله يغفون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ ﴿٧﴾ .

فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم ، لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق لكل شيء ومدبره ومسخره إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو انكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به وشكروه بعبودية الإلهية ؛ رغباً ورهباً ، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له ، مستكبراً على ربه ، لا يقر ولا يخضع له ، مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجدل له ، كان عذاباً على صاحبه كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها بأنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ ﴿٨﴾ .

وقال تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ﴿٩﴾ فإن اعترف العبد

١ - سورة التوبة الآية : ٢٤

٢ - سورة التوبة الآية : ٦٢

٣ - سورة التوبة الآية : ٥٩

٤ - سورة آل عمران الآية : ٦٤

٥ - سورة آل عمران الآية : ٨٣

٦ - سورة النمل الآية : ١٤

٧ - سورة الأنعام : ٣٣

أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله . وهذا العبد يسأل ربه ، ويتضرع إليه ويتوكل عليه . لكن قد يطيع أمره وقد يعصه ، وقد يعبد مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام . ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً . كما قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾<sup>(١)</sup> . فإن المشركين كانوا يقولون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره . قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله قل أفلا تتقون ؟ قل من يملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾<sup>(٣)</sup>

وكثير ممن يتكلم في الحقيقة فيشدها ، لا يشهد إلا هذه الحقيقة . وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها وفى معرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر بل إبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار .

أقال تعالى حاكياً عن إبليس : ﴿ رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾<sup>(٤)</sup> وقال له : ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾<sup>(٥)</sup> وأمثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وكذلك أهل النار قالوا : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى عنهم : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا ﴾<sup>(٧)</sup> فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله ، كان من جنس إبليس ومن أهل النار ، فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق ، الذين يسقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان ، كان من شر أهل الكفر والإلحاد ، ومن ظن أن الخضر وغيره ينقذ عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك . كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله ، حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد ، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله ، لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر رسوله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادى أعداءه الكافرين والفاسقين .

١ - سورة يوسف الآية : ١٠٦

٢ - سورة الزمر الآية : ٢٨

٣ - سورة المؤمنون الآيات : ٨٤ - ٨٩

٤ - سورة ص الآية ٧٩

٥ - سورة ص الآية ٧٩

٦ - سورة المؤمنون الآية : ١٠٨

٧ - سورة الانعام الآية : ٢٠

وهذه العبادة متعلقة بألوهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبد ، أو يعبد معها إلهاً آخر . فالإله هو الذى يأله القلب بكمال الحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك .

ويقول شيخ الإسلام : ومن عبادته وطاعته ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحسب الإمكان ، والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فتجتهدون فى إقامة دينه مستعينين به ، مزيلين بذلك ، ما قدر من السيئات ، دافعين ما قد يخاف من آثار ذلك ،

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله . وكل ذلك من العبادة .. ثم يقول : فالخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده وطاعته ورسوله لا يكون متبعاً لدين شرعة الله أبداً ، كما قال تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغفوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين ﴾ (١) ...

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط ونحو ذلك من الأسماء : مقصودها واحد ، ولها أصلان .

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله .

والثانى : أن لا يعبد إلا بما أمر وشرع ، لا يعبد بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع . قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ (٢)

وقال تعالى : ﴿ بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ (٤)

١ - سورة الجاثية الآيتان : ١٨ ، ١٩

٣ - سورة الكهف الآية : ١١٠

٣ - سورة البقرة الآية : ١١٢

٤ - سورة النساء الآية : ١٢٥



فالعَمَل الصالح : هو الإحسان وهو فعل الحسنات ، والحسنات : هي ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب . فما كان من البدع في الدين التي ليست في الكتاب ، ولا في صحيح السنة فإنها وإن قالها من قاله ، وعمل بها من عمل : ليست مشروعة . فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح . كما أن من يعمل ما لا يجوز ، كالفواحش والظلم : ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ ، وقوله : ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً » .

وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى : ﴿ ليلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة ..

إذا تبين هذا فكمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كماله وعلت درجته ...

ثم يقول شيخ الإسلام : إذا تبين ذلك . فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عظيماً وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان . وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ، ولهذا كانت إلهية الرب لهم فيها عموم وخصوص . ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل . وفي الصحيح عن النبي ﷺ — أنه قال : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الحمصية ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى ، وإن منع سخط »<sup>(١)</sup> كما قال تعالى ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾<sup>(٢)</sup> فريضهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ، ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو

١ — صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير — باب الحراسة في الغزو في سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب في المكثرين ٢ / ١٣٨٦ رقم ٤١٣٦

٢ — سورة التوبة الآية : ٥٨

رقيق له . إذا الرق والعبودية في الحقيقة . هو رق القلب وعبوديته . فما استرق القلب واستعبده . فالقلب عبده ولهذا يقال :

العبد حر ما قنع والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أطلت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حراً

قال الخليل - ﷺ - قال تعالى : ( فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون )<sup>(١)</sup>

فالعبد لابد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك . فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله ، فقيرا إليه ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيرا إليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأهل وإنما أيسحت للضرورة . وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد ، كقوله - ﷺ - : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلاقى الله وليس في وجهه مُزعة لحم »<sup>(٢)</sup> ( المزعة : القطعة الصغيرة )<sup>(٣)</sup>

وقوله : « لا تحل المسألة إلا لذي غُرم مقطع ، أو دم مدجع ، أو فقر مدقع »<sup>(٤)</sup> وهذا المعنى في الصحيح .

وقال في الحديث « من يستغنى يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ومن تصبر يصبه الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »<sup>(٥)</sup> .

١ - سورة العنكبوت الآية : ١٧

٢ - صحيح مسلم - كتاب الزكاة - باب كراهية المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٠

٣ - ابن ماجه - كتاب الزكاة - باب كراهية المسألة ١ / ٥٨٩ رقم ١٨٤٠ وأبو داود - كتاب الزكاة - باب من يعطى من الصدقة وجد الغنى ٢ / ٢٧٧ رقم ١٦٢٦ والترمذي - كتاب الزكاة - باب من تحل له الزكاة رقم ٦٥٠ وقال : حديث حسن

٤ - سنن الترمذي - كتاب الزكاة - باب ما جاء من لا تحل له الصدقة ٢ / ٨١ رقم ٦٤٧ والطبراني في المعجم الكبير ٤ / ١٧ رقم ٣٥٠٤ مع تقديم وتأخير

٥ - سنن الترمذي - كتاب البر والصلة - باب ما جاء في الصبر ٤ / ٣٧٣ رقم ٢٠٢٤

وأوصني خواص أصحابه « أن لا يسألوا الناس شيئاً »

وفي المسند أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده ، فلا يقول لأحد : ناولني إياه » ويقول . :  
« إن حبيبي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً »<sup>(١)</sup>

وفي صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أن النبي — ﷺ — « بايعه في طائفة ، وأسر إليهم كلمة خفيفة : أن لا تسألوا الناس شيئاً ، فكان بعض أولئك نفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد ناولني إياه »<sup>(٢)</sup>

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع . كقوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾<sup>(٣)</sup> وقول النبي — ﷺ — لابن عباس « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » .

ومنه قول الجليل ( فابتغوا عند الله الرزق ) ، ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ، كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾<sup>(٤)</sup>

والإنسان لا بد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه . ودفع ما يضره ، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ، فلا يسأل رزقه إلا من الله ، ولا يشتكي إلا إليه ، كما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ إنما أشكو بشي وحزني إلى الله ﴾<sup>(٥)</sup>

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل ، والصبر الجميل . وقد قيل : إن الهجر الجميل : هو هجر بلا أذى . والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل صبر بغير شكوى

٢ — مسند أحمد — مسند أبي بكر ١ / ١٨٠ رقم ٦٥ . وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف لانقطاعه لأن ابن أبي مليكة تابعي ثقة لم يذكر أبا بكر .

٣ — صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب كراهة المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٣

٣ — سورة الشرح الآيتين : ٧ ، ٨

٤ — سورة النساء الآية : ٣٢

٥ — سورة يوسف الآية : ٨٦

إلى المخلوق . ولهذا قرىء على أحمد بن حنبل في مرضه : أن طاووساً كان يكره أنين المريض ويقول إنه شكوى . فما أن أحمد حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي في الضبر الجميل فإن يعقوب قال : ( فصر جميل ) وقال : ( إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ) .

ومن دعاء موسى : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكال ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ — لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي : وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربى ورب المستضعفين ، اللهم إلى من تكلنتى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن ينزل لى سخطك ، أو يحل على غضبك : لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له ، وحرية مما سواه ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له ، فبأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل استغنى عن شئت تكن نظيره ، وتفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره .

فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله . لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه ، كما لك أو ملكه ، وشيخه ومخدومه وغيرهم ، فمن هو قد مات أو يموت .

قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ (٢)

١ — مجمع الزوائد للبيهقى : كتاب المغازى والسير — باب خروج النبى ﷺ — إلى الطائف ٦ / ٣٥ والقرطبى ١٦ / ٢١١

٢ — سورة الفرقان الآية : ٥٨

وكل من علق قلبه بال مخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه ، أو أن يهدوه ، خضع قلبه لهم ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك . وإن كان في الظاهر أميراً لهم ، مديراً لأموارهم ، متصرفاً بهم . فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر .

فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة — ولو كانت مباحة — يبقى قلبه أسيراً لها تتحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكةا ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها . لا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها . وأنه لا يعتاض عنها بغيرها . فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور ، الذي لا يستطيع الخلاص منه ، بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن . فإن من استعبد بدنه واسترق لايالي ما دام قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الإحتيال في الخلاص .

وإما إذا كان القلب والذي هو ملك الجسم — رقيقاً مستعبداً . يتيماً لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب . وعبودية القلب وأسرته هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق ، لم يضره ذلك ، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك . وأما من استعبد قلبه فصار عبداً لغير الله فهذا يضره ذلك كل الضرر ولو كان في الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس .

قال النبي ﷺ — « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس »<sup>(١)</sup> .

وهذا لعمر الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة . فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبي . فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب .

١ — صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب الغنى غنى النفس — ٨ / ١١٨ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب القناعة ١٣٨٦ / ٢ رقم ٤١٣٧ والترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء أن الغنى غنى النفس ٤ / ٥٨٦ رقم ٢٣٧٣ وقال الترمذى : حديث حسن صحيح

وهؤلاء العشاق عشاق الصور من أعظم الناس عذاباً وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقى متعلقاً بها ، مستعبداً لها اجتمع له من أنواع الشر والخسران والنساء مالا يحصيه إلا رب العباد . ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فقد دام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ، ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه . وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة . ومتى إفاقة من به سكران ؟  
ومن أعظم أسباب هذا البلاء : إغراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له ، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ، ولا ألد ولا أمتع ولا أطيب .

والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه ، أو خوفاً من مكروه : فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر .

قال تعالى في حق يوسف : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ <sup>(١)</sup> فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها . فإذا ذاق طعم الإخلاص لله وقوى في قلبه انتقهر له هواه بلا كبير علاج .

قال تعالى : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ﴾ <sup>(٢)</sup> فإن الصلاة فيها دفع لشر مكروه ، وهو الفحشاء والمنكر . وفيها تحصيل خير محبوب ، وهو ذكر الله .

وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه . فإن ذكر الله عبادة الله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها .

وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصور لغيره على سبيل التبع . والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة الشر طلب ذلك فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل .

ولهذا قال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصْلَى ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ <sup>(٤)</sup>

فجعل سبحانه غرض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس ، ويبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور ، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك .

وكذلك طلب الرياسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو في الحقيقة يروجهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال والولايات ، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه ، فهو في الظاهر رئيس مطاع ، وفي الحقيقة عبد مطيع لهم .  
والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله . وإذا كان تعاونهما على العلو في الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق . فكل واحد من الشخصين — لهواه الذي استعبده واسترقه — مستعبد للآخر وهكذا أيضا طالب المال ، فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه .

وهذه الأمور نوعان : منها : ما يحتاج العبد إليه ، ككل ما يحتاج إليه من طعامه وشرابه وسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ، ويرغب إليه فيه . فيكون المال عنده — يستعمله في حاجته — بمنزلة حماره الذي يركبه ، وبساطه الذي يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذي يقضى فيه حاجته ، من غير أن يستعبده ، فيكون هلوياً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .  
ومنها : ما لا يحتاج العبد إليه . فهذا لا ينبغي له أن يعلق قلبه به .

فإذا علق قلبه به صار مستعبداً له ، وربما صار معتمداً على غير الله . فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله .

١ — سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠ .

٢ — سورة الأعلى الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

٣ — سورة النور الآية : ٣٠ .

٤ — سورة النور الآية : ٢١ .

وهذا من أحق الناس بقوله — ﷺ — : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس القטיפه ، تعس عبد الخميصة »<sup>(١)</sup> وهذا هو أعطاه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله . ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله . وهذا هو الذى استكمل الإيمان ، كما فى الحديث « من أحب الله وأبغض الله وأعطى الله ومنع الله فقد استكمل الإيمان »<sup>(٢)</sup> .

وقال — ﷺ — : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »<sup>(٣)</sup> .

وفى الصحيح عنه — ﷺ — : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار »<sup>(٤)</sup> فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه .

فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق ، لا لغرض آخر . فكان هذا من تمام حبه لله .

فإن محبة محبوب من تمام محبة المحبوب . فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله ، لأجل قيامهم بمحوبات الحق ، لا لشيء آخر ، فقد أحبه الله لا لغيره .

وقد قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين ﴾<sup>(٥)</sup>

ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعون يحبكم الله ﴾<sup>(٦)</sup> فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله ولا ينهى إلا عما يبغضه الله ، ولا يفعل إلا ما يحب الله ولا يحجر إلا بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول ، فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى فيما فعل . ومن فعل هذا قد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله .

١ — صحيح البخارى — كتاب فضل الجهاد والسير — باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب فى الكثرين ٢ / ١٣٨٥ رقم ٤١٣٥

٢ — سنن أبى داود — كتاب السنة — باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥ / ٦٠ رقم ٤٦٨١

٣ — مسند أحمد ٤ / ٢٨٦

٤ — صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان خصال من اتصف بهم وجد حلاوة الإيمان ٦٦١ رقم ٤٣

٥ — سورة المائدة الآية : ٥٤

٦ — سورة آل عمران الآية : ٣١



وقد جعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ، والجهد في سبيله ، وذلك لأن الجهد حقيقة الاجتهاد في حصول ما يحبه الله : من الإيمان ، والعمل الصالح ، وفي دفع ما يبغضه الله : من الكفر ، والفسوق والعصيان .

وقد قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ — إِلَى قَوْلِهِ — حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ <sup>(١)</sup> فتوعد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهد في سبيله بهذا الوعيد الشديد ، بل قد ثبت عنه — ﷺ — في الصحيح أنه قال « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » <sup>(٢)</sup> .

فحقيقة المحبة : لا تتم إلا بمؤالة المحبوب ، وهو موافقته في حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب . فكلما قويت المحبة في القلب ، طلب القلب فعل المحبوبات .

فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة حازمة في حصول المحبوبات فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها ، وإن كان عاجزاً عليها ففعل ما يقدر عليه من ذلك ، كان له أجر كأجر الفاعل .

كما قال النبي — ﷺ — : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » <sup>(٣)</sup> .

والجهد هو بذل الوسع — وهو كل ما يملك من القدرة — في حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهد وكان تركه دليلاً على ضعف محبة الله ورسوله في قلبه . ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالباً إلا باحتتال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرياسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم في الدنيا . مع ما يصيبهم من الضرر بالمال نفسه في الدنيا والآخرة .

١ — سورة التوبة الآية : ٢٤

٢ — صحيح البخارى — كتاب الإيمان — باب حب الرسول من الإيمان ١ / ١٢ وابن ماجه — المقدمة — باب في الإيمان ١ /

٢٦ رقم ٦٧

٣ — صحيح البخارى — كتاب الجهاد والسير — باب من حبه العذر عن الغزو ٤ / ٣١ وابن ماجه — كتاب الجهاد — باب

من حبه العذر عن الجهاد ٢ / ٩٢٣ رقم ٢٧٦٥

فالحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبين لغير الله ما يحتملون في سبيل حصول محبوبهم ، دل ذلك على ضعف محبته لله ، إذ كان ما يسلكه أولئك في نظرهم — هو الطريق الذي يشير به العقل .

ومن العلوم أن المؤمن أشد حباً لله كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾<sup>(١)</sup>

نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل له بها المطلوب . فمثل هذه الطريقة لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة . فكيف إذا كانت فاسدة . والطريق غير موصل ؟ كما يفعله المتهورون في طلب المال والرياسة والصور ، من حب أمور توجب لهم ضرراً ولا تحصل لهم مطلوباً . وإنما للمقصود الطرق التي يسلكها ذو العقل السليم لحصول مطلوبة .

وإذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية مما سواه والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة ، وهي العلة الغائبة . ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهي العلة الفاعلة . فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده ، وحيه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ، ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة . وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر نه على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله . فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾<sup>(٢)</sup> . فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهي ويريده ، ولم يحصل له عبادته لله ، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته إلا الله ، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة ﴿ لا إله إلا الله ﴾ ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله .

وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى في هذا المطلوب ، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلاً عليه ، مفتقراً إليه في حصوله ، لم يحصل ، فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فالعبد مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المستول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إله الذي لا إله غيره ، وهو ربه الذي لا رب سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين . فمتى كان يحب غير الله لذاته ، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه . كان عبداً لما أحبه ، وعبداً لما رجاه ، بحسب حبه له ورجائه إياه ، وإذا لم يحب أحداً لذاته إلا الله ، وأى شيء أحبه سواه فإنما أحبه له ، ولم يرج قط شيئاً إلا الله ، وإذا فعل ما فعل من الأسباب ، أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذي خلقها وقدرها وسخرها له ، وأن كل ما في السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره وهو مفتقر إليه ، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك . والناس في هذا على درجات متفاوتة ، لا يحصى طرفها إلا الله . فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم ، وأهداهم أتمهم عبودية الله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذي أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والمتنع عن الاستسلام له مستكبر . وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ — « يقول الله : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبتة » (٢٤١) ... ( مختصراً من رسالة العبودية للإمام ابن تيمية ) :

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾

أى فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة ، وإشراكهم بالله — عز وجل — وتكذيبه رسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التى كذبت رسلها . ﴿ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ أى : فلا يطلبون منى أن أعجل بالإتيان به ، فإنى لا أخاف الفوت ، ولا يلحقنى عجز وهذا جواب عن قولهم . ﴿ فَأَتْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (٣) ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴾ أى : فويل

١ — مسلم — كتاب الإيمان — باب تحريم الكبر وبيانه ٩٣/١ رقم ٩١ وأبو داود — كتاب الناس — باب ما جاء فى الكبر ٣٥١ / ٤ رقم ٤٠٩١ والترمذى — كتاب البر والصلة — باب ما جاء فى الكبر ٣ / ٢٤٣ رقم ٢٠٦٦ .

٢ — صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — باب تحريم الكبر ٤ / ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ وسنن أبى داود كتاب اللباس — باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ ومسند أحمد ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ .

٣ — سورة الأعراف الآية : ٧٠ .

٤ — سورة النحل الآية : ١ .

لهم من حلول ذلك العذاب الذى وعدوه يوم القيامة حين لا تغنى نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون ﴿يوم يخرجون من الأجداث سراغاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون﴾<sup>(١)</sup>.

## تفسير سورة الطور

### مقدمة :

قال صاحب البصائر :  
السورة مكية بالاتفاق  
عدد آياتها : تسع وأربعون  
وكلماتها : ثلاثمائة واثنى عشرة  
وحروفها : ألف وخمسمائة .  
مجموع فواصل آياتها ( من رعا )  
وسميت سورة الطور ، لمفتتحها .

### مقصود السورة

معظم مقصود السورة : القسم بعذاب الكفار ، والإخبار عن ذلهم فى العقوبة ، ومنازلهم فى النار ، وطرب أهل الجنة بثواب الله الكريم الغفار ، وإلزام الحجة على الكفرة الفجار ، وبشارتهم قبل عقوبة العقبى بعذابهم فى هذه الدار ، ووصية سيد رسل الأبرار بالعبادة والاصطبار ، فى قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسيح إنذار النجوم ﴾<sup>(٢)</sup>

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ أعاد ( أم ) خمس عشرة مرة وكلها إلتزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب .

١ — سورة الماعج الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

٢ — سورة الطور الآية : ٤٩

قوله : ﴿ وَيُطَوِّفُ عَلَيْهِمْ ﴾ بالواو ، وعطف على قوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ ﴾ وكذلك : ﴿ وَأَقْبَلَ ﴾ بالواو ، وفي الواقعة : ﴿ يَطُوفُ ﴾ بغير واو فيحتمل أن يكون حالاً ، أو يكون خبراً بعد خبر . وفي الإنسان : ﴿ وَيُطَوِّفُ ﴾ عطف على ﴿ وَيُطَافُ ﴾ .

### مناسبتها لما قبلها

- ١ — إن في ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .
- ٢ — إن في نهاية كل منهما وعيداً للكافرين .
- ٣ — إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التي تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففي الأول أقسم بالرياح الداريات التي تنفع الإنسان في معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذي أنزل فيه التوراة النافعة للناس في معادهم .
- ٤ — في كل منهما أمر النبي بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف .
- ٥ — تضمنت كلتاها الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعاني المتشابهة في السورتين .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ① وَكَتَبَ مُسْطُورٍ ② فِي رَقٍ مَّنْشُورٍ ③ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ④ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ⑤ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ⑦ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ⑧ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ⑨ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا ⑩ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ⑪ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ⑫ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً ⑬ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ أَصَلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْجَزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ⑰ فَكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقْنَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ⑱ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ⑲ مُتَكِبِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ⑳ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ㉑ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ

وَلَحْمٍ مِّمَّا يَسْتُهِونَ ﴿٢٦﴾ يَتَنَزَّعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِمْ ﴿٢٧﴾ \* وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ غُلَامَانِ لَهُمَا  
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٨﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ  
﴿٣٠﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السُّمُومِ ﴿٣١﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٣٢﴾

## معاني المفردات

(الطور) المراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى — عليه السلام — ( وكتاب  
مسطور ) المراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، والمسطور :  
أى : المكتوب على طريق منظم ( رق ) الرق ( بالفتح والكسر ) جلد رقيق يكتب فيه ( منشور ) بالمنشور  
المفتوح الذى لاختم عليه . ( والبيت المعمور ) قيل : المراد الكعبة ، وقيل : بيت هيجال البيت المعمور  
فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم وعلى كلا القولين فكل  
منهما سيد البيوت . ( والسقف المرفوع ) هو السماء . ( والبحر المسجور ) أى : الموقد المحمى ، من  
سجر النار أى : أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم  
قديماً . ( تمر ) تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المور التردد فى الذهاب والرجوع . ( خوض )  
أصل الخوض السير فى الماء . ثم استعمل فى الشروع فى كل شئ وغلب فى الخوض فى الباطل ( يدعون )  
أى : يدفعون دفعاً شديداً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار  
ويطرحون فيها . ( فاكهين ) أى : طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، ( وقاهم ) حفظهم ( هنيئاً )  
الطعام الهنيئ : مالا يلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تخمة ولا سقم ، ( وزوجناهم ) أى : قرناهم ( حور  
عين ) الحوار : واحدته حوراء ، والحور : أسوداد المقلة ، والعين : واحدته عينا : أى : واسعة  
العينين .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف  
المرفوع ، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، يوم تقوم السماء موراً وتسير الجبال  
سيراً فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار  
التي كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم  
إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة ، الدالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته وتضمن هذا القسم خمسة أشياء ( والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور ) فالطور هو الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة ، وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه السلام . قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه : عن نوف البكالي قال : أوحى الله — عز وجل — إلى الجبال : إني نازل على جبل منكم . قال فشتمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال أرضى بما قسم الله لي ، فكان الأمر عليه ، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به ، ولأنه لسيد الجبال .

( والثاني ) ( وكتاب مسطور ) الكتاب المسطور في الرق المنشور المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنته من آيات ربوبيته ، وأدلة صحف مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة . فالصحف هي الرق ، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً وعلى هذا فيكون قد أقسم سبحانه بسيد الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمناً للنبتين المعظمتين . نبوة موسى ونبوة محمد — ﷺ — وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلها كما في سورة التين والزيتون .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور قال علي وابن عباس وغيرهما : هو بيت في السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . وقيل : هو البيت الحرام . قال ابن القيم : ولا ريب أن كلاً منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم . وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته . وهما مظهر آياته وعجائب صنعته . وهما السقف المرفوع وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدراً وارتفاعاً ، وسعة وسمكاً ، ولوناً ، وإشراقاً وهي محل ملائكته ، وهي سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور ، والأيام ، والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

( والثاني ) البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه التي لا يحصيها إلا الله قال مجاهد : ( البحر المسجور ) الموقد وقد جاء في الخبر : « إن البحر يُسجر يوم القيامة فيكون ناراً »<sup>(١)</sup> ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال علي وابن عباس : أوقدت فصارت ناراً<sup>(٢)</sup> .

١ — انظر تفسير الطبري — سورة الطور والتكوير آية : ٦

٢ — انظر تفسير ابن كثير في هذه الآية

قوله تعالى : ﴿ إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ هذا جواب القسم أى : إن عذاب يوم القيامة لحيط بالكافرين المكذبين بالرسل ( ماله من دافع ) لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهرباً ، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال : ( يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا ) والمور حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجىء ولهذا فرق سبحانه بين حركة السماء وحركة الجبال فقال : ( وتسير الجبال سيراً ) وقال تعالى : ( وإذا الجبال سيرت ) من مكان إلى مكان . وأما السماء فإنها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب وتجيء .

قوله تعالى : ( فويل يَوْمئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ) الذين هم في خوض يلعبون ( قال ابن القيم : ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة ، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها ، وهى الخوض الذى هو كلام باطل ، واللعب الذى هو سعى ضائع . فلا علم نافع ولا عمل صالح . بل علومهم خوض بالباطل ، وأعمالهم لعب . ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعاءً قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاءً ﴾ أى : يدفع في أقيمتهم وأكتافهم ، دعاءً بعد دفع . فإذا وقفوا عليها وعابوها وقفوا ، وقيل لهم : ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴾ وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق ثم يقال : ( أفسح هذا ؟ ) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءكم به الرسل . أنه سحر ، وأنهم مسجرة . فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم ، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها ؟ أم أنتم لا تبصرون ؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق ، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق ؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذى كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا إليه وتعللوا بإنقضاء البلية لانقضاء أمدّها . فقيل لهم يومئذ : ﴿ اصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُعْجِزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع ، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب . ولا الجزع يعطف عليك قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة . ثم اعلّموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك ، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً ، فلم يجدوا من اقترانهم به بدءاً بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا . فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألستهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه . فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الأقوى الأضعف . وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما حكم الله وحكمته في خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك أحداً .



قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ، فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُم رَّبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، مُتَكَبِّرِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ، وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴾

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم في الجنان ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴾ وذكر حالهم في المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُم رَّبُّهُمْ ﴾ أى : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكّل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك فجمع لهم سبحانه بين النعيمين : نعيم القلب بالتفكه . ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح . ﴿ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ فوفاهم ما يكرهون . وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أى يقال لهم ذلك : ﴿ هَنِيئًا ﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى : ليهنئكم ما صرتم إليه . وقيل : أى : متعم بنعيم الجنة إمتاعاً هنيئاً ، وقيل : ﴿ هَنِيئًا ﴾ أى : لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنيء فأخبر سبحانه عن دوام ذلك لهم ثم ذكر جل في علاه مجالسهم وهياتهم فيها فقال تعالى : ( متكئين على سرر مصفوفة ) وفي ذكر اصطفاها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى : ( متكئين عليها متقابلين ) فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيداً منه . قد حيل بينه وبينه . بل سريرته إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر سبحانه أزواجهم وأنهم الحور العين . وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين قال مجاهد : زوجناهم بهن أى : أنكحناهم إياهن . والحور العين قال مجاهد : التى يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن وكالمراة من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى : بيض وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور البيض الوجوه ، العين : الحسن الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأهداب مع سوادها ، كاملة الحسن . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال تعالى : ( خيرات حسنات ) فالبياض في ألوانهن ، والحسن في وجوههن ، والملاحة في عيونهن وقد وصف الله — سبحانه — نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ودل بما وصف بما سكت عنه .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم ، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم .

قال الحافظ الطبراني عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ — قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لي ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ (١) الآية .

قال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : يقول والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتي ألحقهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم قال ابن كثير هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول يارب أنى لي هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك » (٢) واسناده صحيح وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ — : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٣)

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ لما أخبر سبحانه عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لا يؤخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى : ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ أى : مرتين بعمله ولا يحمله عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابناً كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ الْمَجْرِمِينَ ﴾ (٤)

١ — المعجم الكبير للطبراني ١١ / ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨

٢ — مسند أحمد ٢ / ٥٠٩

٣ — صحيح مسلم — كتاب الوصية — باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣ / ١٢٥٥ رقم ١٦٣١ وأبو داود — كتاب الوصايا — باب ما جاء في الصدقة عن الميت ٣ / ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠ والترمذي — كتاب الأحكام — باب في الوقف رقم ١٣٧٦ والنسائي — كتاب الوصايا — باب فضل الصدقة عن الميت رقم ٣٦٨١

٤ — سورة المدثر الآيات : ٣٨ — ٤١

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ عَمَّا يُشْتَهُونَ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ يَطْوَفُ عَلَيْهِمْ ظِلْمَانُ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مُكْنُونٌ ﴾

ثم ذكر سبحانه إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب . وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم ، ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الأثم لهم فقال : ﴿ لَا لَغْوَ فِيهَا وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴾ فنقصد باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش في المقال . ونفى بالتأثم جميع الصفات المذمومة التي أثمرت شارب الخمر . وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْتِيهِمْ ﴾ ولم يقل ولا إثم أى : ليس فيها ما يحملهم على الإثم ، ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأتئون .

ثم وصف سبحانه خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدنسه الأيدي ، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم في موضع آخر : ﴿ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حُسْبُهُمْ لَوْلُؤُا مُتَوَرِّدُونَ ﴾ ففى ذكره المنشور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

قوله تعالى : ﴿ وَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ، فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ، إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ أى : كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا ، فأمنا مما نخاف : ( ووقانا عذاب السوم ) وهذا ضد حال الشقى الذى كان في أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم فبدل الله — سبحانه — إشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان . ثم أخير عن حالهم في الدنيا . وأنهم كانوا يصيرون لله فيها . فأوصلتهم عبادة وحده إلى قربه وجواره ، وحل كرامته والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ، فإنه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة والله أعلم . ( مستفاد من كتاب التبيان لابن القيم )

## إرشاد وتوجيه ومناقشة

قال تعالى :

فَذَكِّرْ مَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا يَجْنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٤٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمَتَرَبِّصِينَ ﴿٤١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلُسُهُمْ بِهِذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ أَخْلُقُونَ ﴿٤٥﴾ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٤٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٤٩﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٥٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٥٤﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٥٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٥٨﴾ وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٥٩﴾

## معانى المفردات

﴿ فذكر ﴾ أى : فأنبت على ما أنت عليه من التذكير . ﴿ والكاهن ﴾ من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ﴿ ترصد ﴾ أى : تنتظر ﴿ المنون ﴾ الدهر وريية : حوادثه وحروفه ﴿ والأحلام ﴾ العقول ﴿ والطغيان ﴾ تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ﴿ نقوله ﴾ أى : أختلقه من تلقاء نفسه ، إذ القول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب . ﴿ أم خلقوا من غير شيء ﴾ : أى من غير خالق ﴿ خزائن ربك ﴾ أى : خزائن رزقه ﴿ المسيطرون ﴾ أى : القاهرون المسلطون عليها من قولهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه ﴿ سلم ﴾ أى : مرتقى إلى السماء ، ﴿ بسلطان مبين ﴾ أى : بحجة واضحة تصدق استماعه ، ﴿ مغرم ﴾ أى : التزام غرامه تطلبها منهم ، ﴿ مثقلون ﴾ أى : محملون ثقلًا ﴿ الغيب ﴾ أى : علم الغيب ﴿ كيدا ﴾ أى : شرًا ، ﴿ المكيدون ﴾ أى : الذين يحيق بهم الشر ويعود

إليهم وباله . ﴿ كسفاً ﴾ أى : قطعة ، ﴿ مركوم ﴾ أى : متراكم ملقى على بعض ، ﴿ يصعقون ﴾ أى : يقتلون ، ﴿ دون ذلك ﴾ أى : قبله وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا . أى : فى حفظنا وحراستنا ، ﴿ إدبار النجوم ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى : غيبتها بضوء الصباح .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لا محالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول — ﷺ — على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرته من لدته — أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجه وسيفاً فى هذه الدار ومنزلة ورفعة فى دار القرار ، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعاً للهوى لا اتباعاً للدليل والبرهان ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضره شيئاً ، فالله ناصرهم عليهم ، وسيظهر دينه ، ويتم له الغلبة والفلح عليهم ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لا مرد له ، يوم لا تنفعهم حبايلهم وشراكمهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك ولياً ولا نصيراً ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرهم عليهم وكذلك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ، ومن مجلسك وحين تغيب النجوم ، ويصبح الصباح وتغرد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة سيوح ، قدوس ، رب الملائكة والروح .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾

يقول تعالى أمراً رسوله — ﷺ — : بأن يبلغ رسالته إلى عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خير السماء ( ولا مجنون ) وهو الذى يتخطبه الشيطان من المس . ومن قال إنه كاهن : شبيهة بن ربيعة ومن قال إنه مجنون : عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا في الإنكار عليه فقال :

﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإن معكم من المتربصين ﴾

روى أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة وذهبت مذاهب شتى في صدد دعوته — ﷺ — ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون في الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر ويهلك كما هلك زهير والنابعة والأعشى ، ثم أفرقوا على هذه المقالة فنزلت الآية ( رواه محمد بن اسحق في السيرة عن ابن عباس ) فقال تعالى منكرأ عليهم : ( أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ) أى قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فيستريح منه ومن شأنه قال تعالى أمر رسوله أن يهددهم ويتكلم بهم : ( قل تربصوا فإن معكم من المتربصين ) أى : قل لهم : انتظروا وتمهلوا في ريب المنون ، فإن متربص معكم منتظرا قضاء الله في وفيمكم ، وستعلمون لمن عقبى الدار .

قوله تعالى : ( أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون ) أى : عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقاويل الهائلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها ضلال معاندون فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك كقوله تعالى : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾

أى : أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ ( بل لا يؤمنون ) أى : أن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ما قالوا . ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا

فقال :

( فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ) أى : إن كان شاعراً فلديهم الشعراء العظماء ، أو كاهناً . فلديكم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب ، فهلّم فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله . قال تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾<sup>(١)</sup>

## بحث في الإعجاز القرآني

يقول الدكتور محمد عبد الله ذراز رحمه الله في كتابه النبأ العظيم ما نصه :

### القرآن معجزة لغوية

« من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه فيم ذلك الشك ؟ هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية ؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته .

إن علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذي أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان ومازال معجزة بيانية لسائر الناس ولكنه لا يوقن بأنه كان معجراً كذلك لمن جاء به ؟

أم يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدري ، ما أسرارها وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب :

١ — فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة ، وآنس من نفسه اقتداراً في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه ، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض — إن عرض — للأغرار الناشئين ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني ، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته ثم ينظر في القرآن بعد ذلك وأناله زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره ، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره ، إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار

اللغة وإحساناً في تصريف القول ، وامتلاكاً لناصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكاراً لقوته ، وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن . وهذا قد يبدو لك عجيبي ، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه . ولكن لا عجب . فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه : لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها . ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها . ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون فإن أئى المغرور إلا إصراراً على غروره ، وكبر عليه أن يقر بعجزه وقصوره ، دعوانه إلى الميدان ليحرب نفسه ويبرز قوته ، وقلنا له : أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ... غير أننا نعظه بوحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يُطيل الروية ويحكم الموازنة وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ، فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلظه ويوارى سوءته . وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها .

وإن في التاريخ لعبراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة : فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛ بل نزلوا به إلى حزب من السخف والتفاهة بإد عواره ، باق عاره وشفاره . فمنهم عاقل استحميا أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته . ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين ( ومن ذلك ما أشتهر عن تلك الكتب التي وصفها زعماء نخلتي « القاديانية » و « البهائية » لتكون دستوراً دينياً كالقرآن وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية ... )

ومنهم طائش برز بها إلى الناس . فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين . ( كمسيلة الكذاب ... )

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن لم يستح فليصنع ما يشاء .

٢ — وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعباً في هذه الصناعة ، فقال في نفسه : « لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لى في معارضة القرآن يدان : لعل هذا الأمر يكون يسيراً على من هو أفصح منى لساناً وأسحر بياناً » فمثل هذا تقوله له : إرجع إلى أهل الذكر من أدياء عصرك فاسألهم هل يقدر أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك « لو نشاء لقلنا مثل



هذا « فقل : « هاتوا برهانكم ! » وإن قالوا : « لا طاقة لنا به » فقل : أى : شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز .

ثم أرجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبعث التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره وأن بضعة نفر الذين انفضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزى والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن . وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربي ، وأرق أدوار التهذيب اللغوى . وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى أدركت هذه اللغة أشدها ؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟ .. ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ — إنها سوق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم ؛ وما هى إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة يتبارون في عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوى في ذلك رجالهم ونسائهم وما أمر حسن والخنساء وغيرهما بخاف على متأدب .

فما هو إلا أن جاء القرآن — وإذا الأسواق قد انفضت ، إلا منه . وإذا الأندية قد صِفِرت ، إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى في صور شتى ، متهمينهم بمتزلة معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله . ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ثم بسورة واحدة من مثله ( وانظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التجديد ولذا كان هو آخر صيغ التحدى نزولاً ، فلم يجيء التحدى بلفظ ( من مثله إلا في سورة البقرة المدنية ) وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاعوا من استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير موارد

فقال : ﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (١) سورة الإسراء . وقال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ (٢) سورة البقرة فانظر أى إلهاب ، وأى استفزاز ! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله : ﴿ ولن تفعلوا ﴾ ثم هددهم بالنار ، ثم سواهم بالحجارة . فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤

منافسته وهم الأعداء الألداء وأبادة الضيم الأعزاء ، وقد أصاب منهم موضع عزيمتهم وفخارهم ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته ، ولا سلباً يصعدون به إلى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شاخ ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ... حتى إذا استياسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الخوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف . وتلك هى الحيلة التى يلجأ إليها كل مغلوب فى الحجة والبرهان ، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان .

ومضى عصر القرآن والتحدى قائم ليجرب كل امرئ نفسه ، وجاء العصر الذى بعده وفى البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم ، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه ، ويثبتوا أنهم قادرون من أن القرآن على ما عجز عنه أوائلهم ، لفعلوا ، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل :

ثم مضت تلك القرون ، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ، كانوا أشد عجزاً وأقل طمعاً فى هذا المطلب العزيم . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم ، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجدانى وبرهانى .. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٣ - فإن قال لنا ، نعم ، قد علمت أنه لم يأت أحد بشيء فى معارضة القرآن ، ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم ، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التى من شأنها أن تبعث عليه ، أو لأن صارفاً إليها ثبط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه ، أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه - فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلة اكتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله ، وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزاً عنه حقاً ، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية بل لمانع خارجى هو حماية القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين ، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله .

قلنا له هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال .

**أما الأول** فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة ، وأى شيء أقوى فى استشارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذى توجهه إليك معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدى كاف وحده فى إثارة حفيظة الجبان وإشغال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته فكيف

لو كان الذي تتحداه مجبوراً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر ، والتي هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

**وأما الثاني** فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها ، حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استبظوها وتذرعوها بها ؛ أيخادعون عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم ، أم يسامونوه بالمال والملك ليكف عن دعوته ، أم يتراضون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه ، أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم ، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يهيمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم ، أم يمحرون به ليشبوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، أن يخطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم في محاربتهم . أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأه ؟ !

ثم لماذا كل هذا وهو قد دهم على أن الطريق الوحيد لإسكائه هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمره في أيديهم ؟ ولكنهم طرّفوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذي دهم عليه . فأى شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبي وأصحابه فقد كانوا من قبل تعطفهم عليهم أرحامهم ، وتحبهم إليهم مكارم أخلاقهم كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن في الصدور ولا في داخل البيوت فقد قبلوا منهم أن يعبد امرؤ ربه في بيته كيف يشاء إنما كانت مقصوبة إلى هدف واحد ، ومقاومة لخطر واحد هو إعلان هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يهجنن في روعك أنهم ما نقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان في العرب حنفاء من فحول الخطباء والشعراء وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالهم قد أهمهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يعنهم من أمر غيره ؟ وما ذلك إلا أنهم وجدوا له شأنًا آخر لا يشبه شأن الناس ، وأنهم أحسوا في قرآنه قوة غلبة ، وتياراً جارفاً يريد أن ييسط ملطانه حيث يصل صدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته

من طريق المعارضة الكلامية التي هي هجّيراهم ، والتي هي الطريق المباشر الذي تحداهم به . فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية . وكذلك فعلوا . وكذلك مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا

**وأما الثالث فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم ، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يستطيعوا ألسنتهم إليه ، ويجربوا قدرتهم عليه ، لأنه ما كان لأمرى أن يحس بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والعودة إلا بعد محاولة وتجربة . ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلهم عدداً وأسفهم رأياً . فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنهم عجز فطري عتيد ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب .**

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادیء ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم : كيف عيوا به وهو منهم على طرف التمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أى داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذى هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته . ولكنهم لم يبيثوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضى مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً . « ما هذا بقول بشر »

٤ — فإن قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرّاً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ولكنى لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر ، لأنى أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية :

فمن حروفهم رُكِّبت كلماته ومن كلماتهم ألفت جملة وآياته ، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه . فأى جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادّها وأبنيّتها ؟ وأى جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائفها ولم تأخذ به في مذاهبها ، حتى تقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟ قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك في جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل في الإعجاز . وأوضح في قطع الأعدار

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته . أأعجمى وعربى ؟ ! ﴾

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان ، كمثل صنعة البنيان : فاللهندسون البناؤون ، لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض ، ولا يخرجون في صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك ، في اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكثها للناس من الحر والقر ، وفي تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة في المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء ، بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فهم من يفى بذلك كله ، أوجله ، ومنهم من يخل بشيء منه ، أو أشياء ، إلى فنون من الزينة والزخرف ، يتفاوت الذوق الهندسى فيها ، تفاوتاً بعيداً . كذلك ترى أهل اللغة الواحدة ، يؤدون الغرض الواحد ، على طرائق شتى ، تاوت حفظها في احسن والقبول ، وما من لغة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم ، بخارج عن مواد اللغة وقواعدها في الجملة ، ولكن حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع ، قد يعلو بالكلام ، حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك ، وسوء الاختيار في شيء من ذلك ، قد ينزل به حتى تمجّه أذنك ، وتغنى منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

ذلك أن اللغة ، فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والأشارة ، والفحوى والإيحاء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الإسمية والفعلية ، وفيها النفى والإثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز ، وفيها الإطناب والإيجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها الابتداء والعطف ، وفيها التعريف والتكثير ، وفيها التقديم والتأخير ، وهلم جراً . . . . .

ومن كل هذه المسالك ، ينفذ الناس إلى أغراضهم ، غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم في شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون .

يبد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذى يجمل في كل موطن ، وليس شيء منها بالذى يقبح في كل موطن . إذاً هان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعماً واحداً ، وفي سمعهم نغمة واحدة . كلا ، فإن الطريق الواحد ، قد يبلغك مأمناً حيناً ، ويقصّر بك عن غايتك حيناً آخر ، ورب كلمة تراها في موضع ما كالحُرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها في موضع آخر ، كالدرة اللامعة ، فالشأن إذاً في هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد ، ففي الجدال ، أيها أقوم بالحجة ، وأدحض للشبهة ، وفي الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع ، وفي موطن اللين ، أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع ، وفي موطن الشدة ، أيها أشد اطلاعاً على الأفتدة بتلك النار الموقدة ، وعلى الجملة ، أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان .

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير ، لأن مجال الاختيار كثير الشعب ، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيبات ، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان ، فضلاً عن الموازنة بينها ، فضلاً عن حسن الاختيار فيها . . . . .

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول ، يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها ، الذى هو أحق بها ، وهى أحق به : بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد

اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين وقرارة المكين ، لا يوماً أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، وتجس العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا ، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب ، بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان .

هذا مطلب له دليله ، وإجمال له تفصيله ، وليس من قصدنا ، أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله ، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة ، لتعلم أن ليس كل الكلام عربي ، ككل كلام عربي ، وأن هذه الناحية اللغوية ، جديرة بأن تتفاوت فيها القوى ، نازلة إلى حد العجز ، أو صاعدة إلى حد الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه ، وبلوغه الغاية في هذا المضمار ، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام ، فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة ، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه سلماً عن أهله ، وتقتنع فيه بشهادة العارفين به ، وإذاً يكون من حقت علينا أن نقدم لك مثلاً عن شهادتهم ، فخذ الآن هذا المثال :

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً ، لتعرض لما قبله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً ، يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر ، لا يبرجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى ، وإنه ليعظم ما تحته . . . الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال صحيح على شرط البخاري .

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجيك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درها ، فتفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلي لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله في بحث الإعجاز العلمي ، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوي » ، وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هي أبنية صوتية ، مادتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي ، الذي نحن بصددده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام .

## ( الشبه الخامسة والرد عليها )

هـ — سيقول السائل ، إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع ، لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً ، ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ، ليست في الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة ، على مراتب شتى ، فما نرى إذاً علينا من حرج ، أن نعد الإعجاز ، الذي حدثمونا عنه أمراً مشاعاً ، يجري في أساليب الناس ، كما يجري في القرآن ، ألا ترون أن كل قائل ، أو كاتب ، إنما يضع في بيانه ، قطعة من عقله ووجدانه ، على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل ، يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم ؟ إنكم لتستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية ، صوراً كلامية بعدة الناطقين بها ، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب ، كما يكتب كاتب آخر على السواء ، ولا قارئاً كذلك ، بل إنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً في الأداء ، فليس البدوى كالحضرى ، ولا الذكى كالغبي ، وليس الطائش كالحليم ، ولا المريض كالسليم ، وليس الأدنى في هذا الباب ، يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى ، يستطيع النزول إلى الأدنى ، بل المتشابهان فطرة ومزاجاً ، المتساويان تربية وتعليماً ، قد يشربان من كأس واحدة ، ثم لا يتناقضان بالكلام على صورة واحدة ، فكيف تأمرون الناس أن يجيئكم بمثل القرآن ، وهم لا يقدرُونَ أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدون عجزهم عن آية على قدسيته ، وأنتم لا تعدون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية ، على أن ذلك الأسلوب ، صنع إلهي محض ، لا كسب فيه للذى جرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوِّغ لنا ، أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر ، غير أنه اختص أسلوبه بضاحبه ، كما اختص كل امرئ بأسلوب نفسه ؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسنا نماريك في أن كلام المتكلم ، إنما هو صورة تملئها عليه فطرته ومواهبه ، ولا في أن هذه الفطره والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس ، لا بد أن تترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم ، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس ، فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول ، فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة .

كل هذا نسلمه ولا ننكره ، لا يضُرُّنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا ، ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن ، ولا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية ، كلا .. ذلك ما لا يطمع فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه ، وإنما نطلب كلاماً أيّاً كان نمطه ومنهاجه ، على النحو الذى يحسنه المتكلم أيّاً كانت

فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية ، حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس ، وإن كان على غير صورته الخاصة ، فالأمر الذى ندعوهم إلى التماثل ، أو المقاربة فيه ، هو هذا المقدار الذى فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون ، وذلك غير المعارض والصور المعنية ، التى لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم ...

هب إذا المدعوين لمعارضة القرآن ، فيهم الأكفاء والأنداد لنبي القرآن ، في الفطرة والسليقة العربية ، أو من هم أكمل منه فيها ، أو هبهم جميعاً دونه في تلك المنزلة ، فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سلفيتهم ، بقول أحسن من قوله ، وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله ، وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويحيثوا بشيء من مثله ، وشيء من هذه المراتب الثلاث ، لو تم لكان كافياً ، في رد الحجة وإبطال التحدى .

سنقول : بل اختار الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان ، لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذائق الذى قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه ، هو الذى قعد بهم عن معارضة قرآنه ، إذا لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآنى ، كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوى .

فنجيب : أما أن محمداً ﷺ ، كان هو أفصح العرب وكان له في هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم ، فذلك ما لا نمارى — بل لا نمتري — فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذى كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله في مجارى العادات ، وبين بعض الناس وبعض في حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقاً للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من الحلو إن حال بينهم وبين الجيء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب ، ألا وإننا قد أرخينا لهم العنان في معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يجيئوننا أن يكون كلا أو (بعضاً) ، وكثيراً أو يسيراً ، ومماثلاً أو قريباً من المماثل ، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل : أن التفاوت بينه على السواء وبين سائر البلغاء ، كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، ولا اختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة ، وتنتسب إلى سائر الفطر في قليل



ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة الى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ، فلا شك أن القول بذلك ، هو أخو القول بأن من الإنسان ، لا يكون من عمل الإنسان ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء ، وفي الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك في كل عصر ، ففي عصور متطاولة ، وإن لم يكن في كل فنون الكلام ، ففي بعض فنونه .  
وكم رأينا من أناس كثيرة ، تتشابه قلوبهم وعقولهم وألستهم ، فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتفاوت أحياناً ، حتى لقد خيل إليك أن الروح السارى في القولين ، روح واحد ، وأن النفس ها هنا هو النفس هناك ، وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين ، من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والحوارزمي ، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن ، من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقاً أن يجيء بشيء من مثله ، من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ، وأقرب إليه هدياً وسمتاً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً ، أو لكان جديراً بأصحابه ، الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوا واستظهروه ، وتدوقوا معناه وتمثلوه ، وترسموا خطواته ، واغترفوا من مناهله ، أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضى به غريزة التأسي ، وشيمة نقل الطباع من الطباع ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يكن ، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم ، كما هو جهد البليغ فينا ، أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالاته ، ليزيدها به علواً ونباهة شأن .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية ، لوجب على قياس ما أصْلته من المقدمات ، أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام الحمدي ، ما أنطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة ، لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة ، لا تكون نفسين ، ونحن نرى الأسلوب القرآني ، فنراه ضرباً واحده ، ونرى الأسلوب النبوي ، فنراه ضرباً واحده ، لا يجري مع القرآن في ميدانه ، إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء ، لا تستطيع إليها صعوداً ، ثم نرى أساليب الناس ، فنراها على اختلافها ضرباً واحداً ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يجبو حبواً ، ومنها ما يشتد عدواً ، ونسبة أقوالها إلى القرآن ، كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات » السماوية .

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي ، فتطمع في إقتناصها ومجاراتها ، كما تطمع في إقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة ، فيشبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة هي ، أم من كلمات الصحابة أو التابعين ، ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوي ، بمزيد الفصاحة ،

ونقاء الديباجة ، واحكام السُّدَد ، ولكنه امتياز ، قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن ، وقد يقصر الذوق وحده عن إداركه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تميز بعض الحديث المرفوع ، من الحديث الموقوف أو المقطوع .

أما الأسلوب القرآني ، فإنه يحمل طابعاً ، لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعاً ، يطمع أن يحوم حول جهاه ؟ بل يدع الأعناق تشرب إليه ، ثم يردّها ناكسة الأذقان على الصدور ....

فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا ، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس ووازن وذاق ووجد ، فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً : نعم لقد نثلت كنانة الكلام بين يدي ، وعججت سهامها ، فيما وجدت كالقرآن أصلي عوداً ، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فيما وجدت كالقرآن أعذب مورداً ، والآن آمنت أنه كما وصفتموه ، نسيج وحده ، وأنه يعلو ولا يعلى ، وأنه يحطم ما تحته ، غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت — ما يزال الذي أحسُّ به من ذلك معنى يتجمجم في الصدر ، لا حسن تفسيره ولا أملك تعليقه . وما زالت النفس بعد هذا وذلك ، نزاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا ، التي استأثرت القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوي ، فهل من سبل إلى عرض شيء من ذلك علينا ، لتطمئن قلوبنا ، ونزداد إيماناً إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن ، فقد — والله — طلبت منا جسيماً ، وكلفتنا مراماً بعيداً ، لئله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أعلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذي وصفوه بما أدركوه ، أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم ، هل نحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم ، فنزعم أننا في هذه العُجالة ، سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص ، التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه ، أو تلوناه وتدبرناه ، لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير ، مما يعبده الناس ، فإن زادك الناس من ذلك أنواعاً ، رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً .

## أول ما يفاجؤك

أول ما يلاقيك ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن الكريم ، خاصية تأليفه الصوتي في شكله وجوهره .

دع القارئ المجوّد ، يقرأ القرآن ، ويرتلّه -حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذ منه مكاناً قصياً ، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدّاتها وعنّاتها ، واتصالاتها وسكناتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرّدت تجريداً ، وأرسلت ساذجة في الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب ، لا تجده في كلام آخر لو جرّد هذا التجريد ، وجود هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً ، يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئاً آخر ، لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر ، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر ، فإذا هي تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى ، فإذا هي تتشابه أهواؤها ، وتذهب مذهبا متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملّها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت من القرآن أبداً في لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد ونواصل على أوضاع مختلفة ، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعرّوك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن ، لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون ، لماذا كانت العرب إذا اختصمت في القرآن ، قارنت بينه وبين الشعر نفياً وإثباتاً ، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب ، وهديت إلى السر الذى فطنت له العرب ، ولم يظن له المستعربون ؟

إن أول شيء أحسسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتى البديع ، الذى قسمت فيه الحركة والسكون ، تقسيماً منوعاً ، يحدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المد والغنة ، توزيعاً بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادى النفس فيه آناً بعد آناً ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، وهذا النحو من التنظيم الصوتى ، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه فى أشعارها ، فذهبت فيها إلى حد الإسراف فى الاستهواء ، ثم إلى حد الإملال فى التكرير ، فإنها ما كانت تعهده قط ، ولا كان يتبهاً لها بتلك السهولة فى منشور كلامها ، سواء منه المرسل والمسجوع ، بل كان يقع لها فى أجود نثرها عيوب ، تغض من سلاسة التركيب ، ويمكن معها إجادة ترتيله ، إلا بإدخال شيء عليه ، أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً إن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن فى خيال العرب أنه شعر ، لأنها وجدت فى توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا فى الشعر ، ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر لأنه — كما قال الوليد : ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ، ولا فى قصيدة ، ثم لا عجب أن تجعل مرءً هذه الحيرة أخيراً ، إلى أنه ضرب من الحد ، لأنه جمع بين طرفى الإطلاق والتقييد فى حد وسط ، فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

فإذا ما اقتربت بأذنتك قليلاً قليلاً ، فطرقك سمعك جواهر حروفه خارجه من مخارجها الصحيحة ، فاجأئك منه لمدة أخرى فى نظم تلك الحروف ، ووصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها . هذا يكبر وذاك يصغر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وآخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا ، فترى الجمال اللغوى ماثلاً أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة ، لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معازلة ، ولا تناكر ولا تنافر وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضرى الفاتر ، ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحضرة وسلامتها ، وقدر فيه الأمران تقديراً لا يبغي بعضها على بعض . فإذا مزيج منهما ، كأنما هو عصارة اللغتين أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقى أدواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية التى قبلها ، تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنى ، وليس الشأن فى هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلى النفيسة ، فإنه جلت قدرته ، قد أجرى سنته فى نظام هذا العالم ، أن يغشى جلائل أسرارهِ بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل

حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها ، وحرصهم عليها ، انظر كيف جعل باعته الغذاء ، ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة ، فكذا لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم ، التي أودعها هذا الكتاب الكريم ، قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناس بعذوبته ، ويفريهم عليها بظلاله ، ويكون بمنزلة « الحذاء » يستحث النفوس على السير إليها ، ويهون عليها وعناء السفر في طلب كمالها ، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العرى المبين ذلك القلب العذب الجميل ، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وآذانهم ، مادامت فيهم حاسة تذوق ، وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب ، يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره ( إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون )<sup>(١)</sup> .

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم ، يجمع الى الجمال عزة وغرابة ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال ، كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع ؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة ، كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدى والإعجاز ، وأعتصم بها من أبدى المعارضين والمبدلين ، وأن ذلك الجمال ، ما كان ليكفى وحده في كف أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به ، ذلك أن الناس — كما يقول الباقلاني ( في كتابه : إعجاز القرآن ) — إذا استحسنا هذه الصناعة ، يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجيدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأن السابق ، أو أرى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم ، في اقتداء بعضهم ببعض ، وأساليب الناس على اختلاف طرائفها في النثر والشعر إلا مناهل مورودة ، ومسالك معبدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتراضى الألسنة والأقلام عليها بالمرانة ، كسائر الصناعات .

فما الذي منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألستهم وأقلامهم ، وهم شرع في إستحسان طريقته ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟ ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية ، كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه في بنيته ، وما أتخذ في رصف حروفه وكلماته ، وجملة وآياته ، من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه ، فلا جرم ، لم يجدوا له مثلاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه ، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو البلغاء ، أو النبين والمرسلين لأفسد بذلك مزاجه في فم كل قارئ ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كل سامع ، وإذا نادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ،

ولنفاه القرآن عن نفسه ، كما ينفي الكير خبث الحديد ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾<sup>(١)</sup> .

فإذا أنت لم يُلهك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما ورأها من السر المصون ، بل فليست القشرة عن لها ، وكشفت الصدفة عن درّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيتِكَ منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله في بحث الإعجاز العلمي ، وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز « اللغوي » وإنما اللفظ ألفاظ .

يبد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هي أية صوتية ، ما دتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هي أعظم الناحيتين اثراً في الإعجاز اللغوي ، الذي نحن بصددده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام .

أما النظر في المعاني القرآنية ، من جهة ما فيها من العلوم العجيبة ، فتلك خطوة أخرى ، ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة ، إزاء الفضيلة البيانية ، إنما تعتمد دقة التصوير ، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون ، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً ، وأن يكون هدى في نفسه على أى صورة أخرجته ، وبأى لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى ، فيكون التعبير الجيد مما يزيد في قيمته العلمية ، لكن النظر ههنا في قيمة البيان لا في قيمة المبين ، فلا تعجل عجل علينا بتلك النظرة العلمية ، حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية .

والآن فنبدأ وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانية . ولنرتبها على أربعة مراتب :

١ — القرآن في قطعة قطعة منه .

٢ - القرآن في سورة سورة منه .

٣ - القرآن فيما بين بعض السور وبعض

٤ - القرآن في جملته .

## « القرآن في قطعة قطعة منه »

لبينا ندرى والله ماذا نقول لك في أسلوب معجز في وصفه ، كما هو معجزة في نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هي جملة القول فيه ، وهي أنه « تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرافها » . هذه كلمة تحتاج تفسيراً طويلاً يمتليء به الصدر ، ولا ينطلق به اللسان ، وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة ، غير أننا قبل أن نحدثك في هذا الجانب عن القرآن ، سنحدثك عن كلام الناس حديثاً ، يفهمه كل من عاجل صنعة البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا ، وجوه الكمال هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا ، أسباب الإعجاز هناك ! .

« القصد في اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى »

نهایتان كل من حاول أن يجمع بينهما ، وقف منهما موقف الزوج بين ضربتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى أحدهما :

فالذى يعتمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، ذلك أنه إما أن يؤدي لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول في باب الحاجة : « صدقوا ، أو كذبوا » وفي باب الوصف « حسن ، أو قبيح » وفي باب الإخبار « كان أو لم يكن » وفي باب الطلب « افعل ، أو لا تفعل » لا زائد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شيء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ، يبذل جهده في ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس في البيان ، حتى يخرج ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته ، أو هيكلًا من العظم ، لا يكسوه لحم ولا عصب ، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه ، ويكشف شمس فصاحته ، ورب اختصار يطوى الكلام طياً ، يزهق روحه ، ويعمى طريقه ؛ ويرد إيجازه عياً وإلغازاً .

والذى يعتمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ؛ وإبراز كل دقائقه بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه لا يجد له بُدأً من أن يمد في نفسه مدأً ، لأنه لا يجد في القليل من اللفظ ما يشفي صدره ، ويؤدي عن نفسه رسالتها كاملة فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لا يلبث أن يياعد ما بين

أطراف كلامه ، وييطيء بك في الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة نشاطك ، وباعثة إقبالك ، اخذتين في التفاوض والاضمحلال ، إن عامة من نعرفهم من الفصحاء قدامى ومحدثين ، يؤتون من هذا الجانب غالباً ، أعنى جانب الإملاك والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف ، وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد « فمنهم » من يذهب إلى التكلف والتفصح ، باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدى وتعيد ، وتقبل وتدبر ، حتى تهتدى إلى وجه مراده ، وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضعفاً عن الفهم . « ومنهم » من يُلقى حول المعنى ركماً من الحشو والفضول ، ينوء بحمله ، أو يلبسه ثوباً فضفاضاً من المترادف والمتقارب ، يتعثر في أذْياله ، يحسب أنه يوفى لك المعنى ويمجده ، وفي الحق إنما ينشده ويبدده ، ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه ، لأغناك عنه ثانی شطريه ...

ولئن ظفرت بأحد وفق لتقريب نيتك الغائتين إلى حد ما ، في جملة أو جملتين ، فتربص به كيف أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنساني ، فيحل من عقدة كلامه ، ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ، ما كان غصاً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوته إلا في الشيء بعد الشيء ، كما تصادف في التراب قطعة من التبر هاهنا ، وقطعة هناك ، فتقول ؛ هذا نفيس جيد ، وهذا أنفـس وأجود ، وهذا هو واسطة العقد وبيت القصيد .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام :: « هل رأيتم قصيدة ، أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟ لقد أجمعت كلماتهم على أن أبرع الشعراء ، لم يبلغوا مرتبة الإجابة ، إلا في أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والردى ، والغث والمستكره ، وكذلك قالوا في الكتاب والخطباء ، والأمر فيهم آيين .

فإن سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغائتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير ، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية . « نقية » لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها ، « وافية » لا يشذ عنها شيء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية ، كل ذلك في أوجز لفظ وأنقاه ، ففي كل جملة منه ، جهاز من أجهزة المعنى ، وفي كل كلمة منه ، عضو من أعضائه ، وفي كل حرف منه ، جزء بقدره ، وفي أوضاع كلماته من جملة ، وأوضاع جملة من آياته سر الحياة الذي ينتظم المعنى بأدائه ، وبالجملـة ترى كما يقول الباقلاني : « محاسن متوالية ، وبدائع تترى » .



ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد مأحصته كفك الكلمات عدداً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين ، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذاك ، ثم انظر : كل كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ وأي كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائله ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية — : « لو نزع منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد » بل هو كما وصفه الله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾<sup>(١)</sup>

( ج — د )

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غايتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف ، الذي تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم في الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة ، التي تخاطب بها الأذكياء ، لجتهدت من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك — إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك — أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة ، تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوق والملوك ، فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته ، فذلك ما لا تجده على أتمه ، إلا في القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء ، أو في كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة ، أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، لا يلتوى على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾<sup>(٢)</sup> .

( هـ — و )

« إقناع العقل » و « إقناع العاطفة » .

وفي النفس الإنسانية قوتان ، قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، فأما إحداها فتنب عن الحق لمعرفة ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام ، هو الذي يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطيّر إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معاً .

١ — هود آية : ١

٢ — القمر آية رقم : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء ، إلا غلّوا في جانب ، وقصّروا في جانب . ( فأما الحكماء ) فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعري ونبو عن الطباع . ( وأما الشعراء ) فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوّروه لك أن يكون غياً ، أو رشداً ؛ وأن يكون حقيقة ، أو تخيلاً ، فتراهم جادين ، وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا ييكون ، ويطربون وإن كان لا يطربون ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ (١) .

وكل امرئ حين يفكر ، فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرئ حين يحس ويشعر ، فإنما هو شاعر صغير ، فسل علماء النفس « هل رأيتم أحداً ، تتكافأ فيه قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وسائر القوى النفسية على سواء ، ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل ، عند قليل من الناس ، فهل ترونها تعمل في النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ يجيبونك بلسان واحد كلا : بل لا تعمل إلا مناوبة في حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن ، أضمحلت الأخرى ، وكاد ينمحي أثرها ، فالذى ينمك في التفكير تتناقض قوة وجدانه ، والذي يقع تحت تأثير لذة أو ألم ، يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة متدبرة معاً ، وصدق الله : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ (٢) .

وأما أن أسلوباً واحداً ، يتجه اتجاهاً واتحداً ، ويجمع في يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يشرى الروح في الجسد والماء في العود الأخضر ، فذلك مالا تظفر به في كلام بشر ، ولا هو من سنن الله في النفس الإنسانية .

فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد ، الذى يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة ، بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة ، بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحّين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل

والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده في كتابه الكريم ، حيثما توجهت ألا تراه في فسحة قصصه وأخباره لا ينس حق العقل من حكمة وعبره ؟ ( أقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف ) أو لا تراه في معمعة براهينه وأحكامه ، لا ينس حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيك وتأنيب ؟ يث ذلك في مطالع آياته ، ومقاطعها وتضاعفها ﴿ تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ <sup>(١)</sup> و ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(ز- ح)

« البيان » و « الإجمال »

وهذه عجيبة أخرى ، تجدها في القرآن ، ولا تجدها فيما سواه ، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم ، لم تتسع لتأويل ، وإذا أجملوها ، ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو إلى اللغو الذي لا يفيد ، و يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد ، وتقرأ القطعة من القرآن ، فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام ، والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك ، دون كذا خاطر ، ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات ، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة ، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خيراً ، ووقفت على معناه محدوداً ... هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى ، لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة ، أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيحة ، أو محتملة الصحة ، كأنما هي فص من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة ، بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدري ماذا تأخذ عينك ، وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك ، لرأى منها أكثر مما رأيت ، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كل منه ما يُسر له ، بل ترى محيطاً مترامياً الأطراف ، لا تجده عقول الأفراد ولا الأجيال .

وهذا مثل صغير : أقرأ قوله تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ — الآية ٢١٢ من سورة البقرة — وانظر هل ترى كلاماً آيين من هذا في عقول الناس .

ثم انظر كم في هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت في معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ، ولا هائل يسأله ، لماذا ييسط الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو

١ — الزمر آية : ٢٣

٢ — الطارق الآيتان : ١٣ — ١٤

قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ، أصبت . ولو قلت : يرزقه كثيراً لا يدخل تحت حصر ولا حساب ، أصبت ، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق في الدنيا ، وأن نظامها لا يجري على حسب ما عند المرزوق ، من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه في الابتلاء ، وفي ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثاني يكون تنبيهاً على سعة خزائنه ، وبسطه يده جل شأنه .

وعلى الثالث : يكون تلويحاً للمؤمنين ، بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبذل عسرهم يسرا ، وفقيرهم غنى ، من حيث لا يظنون ، وعلى الرابع والخامس ، يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافاً كثيرة لا يحصرهم العد ، ومن وقف على علم التأويل ، واطلع على معترك أفهام العلماء في آية رأى من ذلك العجب العاجب .

هانحن أولاً ، قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانة ، التي لا تنال مثلها أيدي الناس ، وها قد أعطيناك في حاشية كل منها نموذجاً صغيراً ، يفتح لك الباب إلى احتدائه في سائر القرآن ، فهل ترى في هذا وفاء بما وعدناك ، وبما عودناك ، من التقفية على آثار التفصيل بشيء من التطبيق والتتمثيل ؟ أم لا لاتزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثلة ؟

سنزيدك ، وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآني ، ومثانة نظمه ، وعجيب تصرفه ، حتى يؤدي لك المعنى الوافر الثمرى ، وفي اللفظ القاصد النقي ، إذ كانت هذه الخاصة الأولى — من الخواص التي ذكرناها — أحوج إلى التوقيف والإرشاد .

يقول الله تعالى في ذكر حجاج اليهود : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم : آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ . قَالُوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ ﴾ ( سورة البقرة الآية ٩١ )

هذه قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة ، تتلخص فيما يلي :

- ١ — مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .
- ٢ — إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .
- ٣ — الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محامياً بليغاً ، وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن في هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعاني ، التي تختلج في نفس الداعى والمدعو ، لما وسعه في أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفنى بما حوّلها من إشارات ، واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم قد آمنتم بالتوراة ، التي جاء بها موسى ، لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذي جاء به محمد أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها . فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز ( آمنوا بما أنزل الله ) . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنياته ، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله « على محمد » مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة ، أتدرى لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذكر لكان في نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذي هو عمود الدليل .. وأما الثاني فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه ، أن يخرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم ، فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح ، وذلك إلى ما في هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين شيء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله ، كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذي دعانا للإيمان بالتوراة ، ليس هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمنّا بها ، لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلکم قرآنکم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج ، هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن في قوله : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة ، أن حذف منها فاعل الإنزال ، وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره في نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم ، يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ،

وهذا هو المقصد الثاني ، ولكنهم تحاشوا التصريح به ، لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، انظر كيف أبرزه ؟

إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم في جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم ؛ فقال : ( ويكفرون بما وراءه ) أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ ( ماوراءه ) فإن لهذه الكلمة ، وجهاً تعم به غير القرآن ، ووجهاً تخص به هذا العموم ، ذلك أنهم كما كفروا بالقران المنزل على محمد ، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوراة ، أى جاء بعدها ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة من صحف إبراهيم مثلاً مثلاً ، وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد ، باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع ، وهذا هو غاية الإنصاف وتحري الصدق في الاتهام .

جاء دور الردّ والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه ، فتراه لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً ، كأنها مسلمة ، لينى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا ، بل ( هو الحق ) كله — وهل يعارض الحق ، حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر ؟

ثم يترقى ، فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه ، كالأمر بين كل حق وحق ؟ فقد يكون الشيء حقاً وغيره حقاً ، فلا يتكاذبان ، ولكنهما في شأين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و ( مصداقاً ) لما بين يديه من الكتب ، فأنى يكذب به من يؤمن بها ؟ !

ثم يستمر في إكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن التحريف أو الضياع ، الذى نال من هذه الكتب ، قد ذهب بمعالم الحق فيها ، جملة ، لكان لهم بعض العذر في تكذيبهم بالقرآن ، إذ يحق لهم أن يقولوا « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب في عصرنا ، ليس بينها وبين القرآن ، هذا التطابق والتصادف ، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به ، بل لو أن هذه البقية ، ليست عندهم ، ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر ، أما وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب في زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فبماذا يعتذرون وأتى يذهبون ؟ ! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة ( لما معهم )

فانظر إلى الاحكام في صنعة البيان ، إنما هي كلمة رفعت ، وأخرى وضعت في مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه للكلمة حسماً لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الحرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها ، بمثابة حركة تطويق للخصم ، أتمت في خطوة واحدة ، وفي غير ما جلبه ولا طنطنه .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوى ، الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الرد على المقصد الأصلي ، الذى تجحوا بإعلانه والانتحار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً ، وبين أن داء الجحود فيهم ، داء قديم ، قد أشربوه في قلوبهم ، ومضت عليه القرون ، حتى أصبح مرضاً مزمناً ، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ، ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفطعة ، التى لا سبيل لإنكارها ، فى جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره : ( قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ )

١ — تأمل كيف أن هذا الانتقال ، كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم ، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه ، وهل الذى يكذب من يُصدقك يبقى مصداقاً لك ؟ !

غير أن هذا المعنى ، إنما أخذ استنباطاً من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم ، فكانت هذه هى مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة ( مصداقاً لما معهم ) مغلاقاً لما قبلها ، مفتاحاً لما بعدها ، وكانت آخر درجة فى سلم الغرض الأول هى أول أجزاء الكلام ! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمam البيان ، تدريجاً له على مدارجها ، وتنزيلاً له على قدر حاجتها وفى وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلع النفس واستشراقها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ، ووقفها عليها تامة كاملة .

٢ — وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقى لتلك الجرائم ، فلم يقل : ( فلم قتل آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل : وقالوا سمعنا وعصينا ؟ ) إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة فى بادئ الرأى فكان يحق لهم فى جوابها ، أن يقولوا : « ومالنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تترز وازرة وزر أخرى »

ولو زاد مثلاً « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حيل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى — يوقفهم بادية ذى بدء في موقف الاتهام — إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبهياً في الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية في الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك ، فقد وضعتها على الجاني الأثيم ، لأنهم لا ينفكون عن الاستئتان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفعالهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

٣ — وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى . وهى جريمة القتل فى صيغة الفعل المضارع ، تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزاكية .

٤ — ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام ، مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبى العزى الكريم ، وباباً من الاطماع لأعدائه فى نوح تدايرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله ( من قبل ) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم ، وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس ، ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التحوز المذكور آنفاً فى الاسناد وفى الصيغة .

٥ — وانظر كيف جىء بالأفعال فى الجرائم التالية ، على صيغة الماضى ، بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة . ( من قبل ) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعى ، حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ — وانظر إلى الآداب العالية فى عرض الجريمة الثانية ، وهى جريمة الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها ، وأشد نكراً فى العقول ، نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم

العجل الها ، بل طوى هذا المفعول الثانى استبشاعاً للتصريح به فى صيغة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة ، .. وكم فى هذا الحذف من تعبير وتهويل ! فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى فى الخصم .

٧ — ثم انظر إلى النواحي التى أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة ، لا تمس إليها حاجة البيان فى الحال ، فقد قال : إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق ، أفى

أصول الدين فحسب ، أم فى الأصول والفروع جميعاً ، أم فى الأصول وبعض الفروع ، وإلى أى حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا ينتزل إلا بقدر معلوم ، وماذا يعنى الداعى إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق

بين الأديان إلى فروعها ، أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع .

وقال : إنهم يقتلون أنبياء الله ، فمن هم أولئك الأنبياء ؟ ليعث علماء التاريخ !

وقال : إن موسى جاءهم بالبينات .. فكم هى ؟ وما هى ؟

وقال : إنه أخذ عليهم ميثاقهم ، فعلى أى شىء كان الميثاق ؟ أن حكمة البيان القرآنى ، لأجل

من أن تعرض لهذه التفاصيل فى مثل هذا الموضع ، ولو ذكرت هاهنا ، لكان مثلها مثل من يُسأل :



لم ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ، وولد في عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ — ولو ذهبنا نتتبع سائر ما في هذه القطعة من اللطائف ، لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه ، الذي قصدنا إليه ، فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه في كلام الناس ، ذلك أن المرء إذا اهمه أمر من الدفاع ، أو الإقناع ، أو غيرها ، بدت على كلامه مسحة الإنفعال بأغراضه ، وكأن تأثيره بها في نفسك على قدر تأثيره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة في ظفره ، ومن الامتعاض في إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه ، إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً في دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها في عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة ، تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد في حجاجه أخذاً ورداً ، المقتصد في وصفه مدحاً وقدحاً ،

انظر إليه حين يجادل عن القرآن ، فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة : ( هو الحق ) . نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة ، إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق ، التي تقتنع بها ، وتحب أن تقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجّل على بني إسرائيل أفحش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذي هو مثل في البلادة ، موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم في تأييدهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ، فتراه لا يزيد على أن يقول في الأولى : إن هذا « ظلم » وفي الثانية : « بئسما » صنعتم ، أذلك كل ما تقابله به هذه الشفاعات ؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فهمتا على وجهيهما ، ولكن الألم وحرارة الاندفاع في الانتقام ؟ بل أين الإقناع والتشنيع وأين الإسراف والفجور الذي تراه في كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الخصومة ، وما أعز هذا الجنب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر .

قلنا إن القرآن الكريم ، يستثمر دائماً برفق أقل ما يمكن من اللفظ في توليد أكثر ما يمكن من

المعاني . أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجمالية ، التي يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيلية ، التي يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله ؛ لأننا نراه في كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الاسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه في كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى ، بأقل من ألفاظه ولا بما يسامر بها ، فليس فيه كلمة إلا هي مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى ...

« وبعد » فإن سر الإيجاز في القرآن لا يقف عند الحد الذي أشرنا إليه ، من اجتناب الحشو والفضول به ، وانتفاء الألفاظ الجامعة المانعة التي هي — بطبيعتها اللغوية — أيم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعاً لمعانية المناسبة ، لا ، بل إنه كثيراً ما يسلك في إيجازه سيلاً أعز وأعجب .

فلقد تراه يعمد — بعد حذف فضول الكلام وزوائده — إلى حذف شيء من أصوله وأركانه ، التي لا يتم الكلام في العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملات كثيرة متلاحقة ومتفرقة في القطعة الواحدة ، ثم تراه في الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ في تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفي طلاوة وعذوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى في لفظة ، أن لفظة أوسع منه قليلاً .

فإذا ما طلبت سر ذلك ، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية في كلمة هنا وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب إدارة عجيبة ، وأمر عليها جندرة البيان بيد صناع ، فأحكم بها خلقه وسواه ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نير مشرق ، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطى ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء ، إلا بعد تأمل وفحص دقيق .

لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف في كلامها ، وترى ذلك من الفضيلة البيانية ، متى قامت الدلائل اللاتحة على ذلك المحذوف ، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها ، فإذا قيل للعرب أين أخوك ، قال : في الدار ، وإذا قيل له : من في الدار ؟ قال : أخى ، ولو قال أخى في الدار ، لعد ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو ، لكن الشأو ، الذي بلغه القرآن في هذا الباب — كغيره من أبواب البلاغة — ليس في متناول الألسنة والأقلام ، ولا في متناول الأمانى والأحلام .

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ ولو يجعل الله للناس الشر استعجابهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ... فنذر الدين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾<sup>(١)</sup> الآية مسوقة في شأن منكري البعث

الذى قال لهم النبى : إني رسول الله إليكم ، وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقالوا متهمكمين : ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾<sup>(١)</sup> فلما لم يجيبهم الله إلى اقتراحهم ، وأخر عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة ، والعافية الحاضرة ، حتى نسوا ريب الدهر ، وأمّنوا مكر الله ، وما يجبسه لو كان آتياً ؟

أراد القرآن أن يقول في جواب هذا الاستعجال — لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم بالخير إذا استعجلوه ، لعجله لهؤلاء ، ولكنه قد جرت سنته التي لا تبدل ، بأن يمهّل الظالمين ، ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى ، وعلى وفق هذا النظام الميسنون ، سترك هؤلاء وشأنهم ، حتى يجيء وقتهم .

هذا هو الوضع الذى يوضع عليه الكلام فى السنة الناس ، وفى طبيعة اللغة ، لتأدية المعنى الإجمالى الذى ترمى إليه الآية ، فانظر ماذا جرى .. ؟

١ — كان الكلام فى وضعه العادى مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات ، والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقصروا القرآن على الأولى والأخيرة ، أما الوسطى ، وهى الاستدراك — أو الاستثنائية ، كما يسميها علماء المنطق ، فقد طواها طياً .

٢ — وكانت المقدمة الأولى فى وضعها الساذج ، تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله فى الخير وفى الشر ، واستعجال من الناس كذلك ، ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

٣ — وكانت المقابلة فى التشبيه بحسب الظاهر إنما هى بين تعجيل وتعجيل ، أو بين استعجال واستعجال ، فأدير الكلام فى الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال ، وبعد هذا التصرف كله ، هل ترى كلاماً مبتوراً ، أو طريقاً ملتوياً يتعثر فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة كالبدر ليس دونه سحب ؟

فارجع إلى طلب شيء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الاشراف مع هذا الاختصار البليغ ؟

نقول :

(أما الأول)

فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبها ، يدلان على مكانها ، ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب ، فقد أقام عن يمينها كلمة « لو » الامتناعية التي صدر بها المقدمة الأولى ، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل ، وعن يسارها حرف التفرع ، التي صدر به النتيجة في قوله : ( فنذر ) لكي ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس ، فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصّاً في المطلوب ، لأنها كما تكون للتفرع ، تكون لمجرد العطف — فربما اتصل القارئ عاطفاً بها على جزاء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف — لم يكتف بالفاء ، بل عزّزها بقوتين أخريين ، إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضي إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظي بينها وبين ما قبلها ، إيذاناً بإنقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما في أدنى اضطراب أو ليس ، ذلك إلى ما في التحويل من الاقتنان في الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب في القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجيروت الملكي نفسه .

(أما الثاني)

فإنه لما حذف طرفين من الأطراف الأربعة ، لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحداً ، هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالمذكور على المحذوف ، فكانت كلمة « التعجيل » منبهة على نظيرتها في المشبه به ، وكلمة « الاستعجال » منبهة على مقابلتها في المشبه .

(أما الثالث)

فإنه نبه به على معنى هو غاية في اللطف ، وهو سر الامهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله ، ذلك بأنه صوّر هذا التعجيل المفروض بصورة ، تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته ، وسد حاجته الملحة ، التي تبعثه على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه ، كأنه قيل : إنه تعالى لو عجل لهم ذلك ، لكان مثله بهذا التعجيل ، كمثله هؤلاء المستعجلين في استفزاز البواعث إياه ، وحاش لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى

( منها ) أن كلمة « لو » بحسب وضعها وطبيعة معناها ، تتطلب أن يليها فعل ماضى ، ولكن المطلوب ها هنا ليس هو نفي المضى فحسب ، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله ، التى لن تجد لها تبديلا ، فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطلال الكلام ، ولقيل « لو كانت سنة الله المستعمرة فى خلقه أن يعجل .. الخ » ! فانظر كيف اختصر الكلام فى لفظ واحد ، بإخراج الفعل فى صورة المضارع ، الدال على التكرار والاستمرار ، واكتفى بوضع « لو » قرينة على أن ما بعدها ماضى فى معناه ، وهكذا أدى الغرضين جميعاً فى رفق ولين .

( ومنها ) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب ، أن يوضع الجواب عدلا له فيقال : ( لعجله : ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر ، لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذى تقضى به آجالهم .

( ومنها ) أنه كان مقتضى الظاهر فى تقرير النتيجة أن يقال :

« فندرهم » أو « فندر هؤلاء » ولكنه قال : ( فندر الذين لا يرجون لقاءنا ) تحصيلا لغرضين مهمين ، أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثانى التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .  
( ومنها غير ذلك ... )

قل لنا يربك : لو ظفرت فى كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ، ففى أى أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهذه المجموعة ، أو بما يدانيها فى هذا القدر ، أو فى ضعيفة من الألفاظ ؟

## — ٢ —

### القرآن فى سورة سورة منه

« الكثرة » و « الواحدة »

هذا الذى حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية فى أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يضاف إليه أمر آخر ، هو زينة تلك الثروة وجمالها ، ذلك هو تناسق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنها لتتنظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها . وأنت قد تعرف أن الكلام

في الشأن الواحد ، إذا ساء نظمه ، انحلت وحدة معناه ، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة ، إذا لم يكن سطحها مستوياً ، أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بد إذا لإبراز تلك الوحدة الطبيعية « المعنوية » من إحطام هذه الوحدة الفنية « البيانية » وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره ، حتى تتماسك وتتعانق ، أشد التماسك والتعانق ، ليس ذلك بالأمر الهين ، كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؟ بل هو مطلب كبير « يحتاج » مهارة وحذقاً ولطف حس في اختيار المواقع لتلك الأجزاء ، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم ، أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ « ثم يحتاج » مثل ذلك في اختيار أحسن الطرق لمزجها ، بالإسناد ، أو بالتعليق أو بالعطف ، أو بغيرها ، هذا كله بعد التلطف في اختيار تلك الأجزاء أنفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى ، وأنها نقية من الخشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوى في تراميها إلى الغرض ، ويستوى هو في استهدافه لها ، كما تستوى أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوى هو بالقياس إلى كل منها .

تلك حال المعنى الواحد ، الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً ، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحري ، يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة ، واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث ، كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء ، بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى .

إنه من أجل عزة هذا الطلب ، نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما في غرض غرض ، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً . « فالشعراء » حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عدة ، أكثر ما يجيئون بها أشتاتاً لا يلوى بعضها على بعض ، وقليلاً ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما في الانتقال من النسيب إلى المدح . « والكتاب » ربما استعانوا على سيد تلك الثغرات ، باستعمال أدوات التنبيه ، أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقي علينا .. ولننتقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة ، إذا تناوها الكلام الواحد في المجلس الواحد ، فكيف لو قد جرى بها في ظروف مختلفة ، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوة بينها أعظم اتساعاً ، فإن كنت قد أعجبتك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه ، حيث الموضوعات شتى ، والظروف متفاوتة ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاز والإعجاب ...

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أجلناه في هذا الفصل ، من نظام الوحدات في السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن نريك نموذجاً من السور المنجمة ، كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر ، تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسق واحد من البيان ، تتعلق فيه الجمل والكلمات ، فأى شيء أكبر شهادة وأصدق مثلاً ، من سورة نعرضها عليك هي أطول سور القرآن كافة ، وهي أكثرها جمعاً للمعاني المختلفة ، وهي أكثرها في التنزيل نجومياً ، وهي أبعداها في هذا التنجيم تراخياً .

تلك هي سورة البقرة التي جمعت بضعا وثمانين ومائتي آية ، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً ، وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً .

واعلم أنه ليس من ههنا الآن ، أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية ، التي تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ...

ولئنا نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوي في جملتها ، لكي ترى في ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى ...

### ( نظام عقد المعاني في سورة البقرة )

اعلم أن هذه السورة على طولها ، تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، ونجائمة . على هذا الترتيب .

( المقدمة ) في التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية ، قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، ولئما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان في قلبه مرض .

( المقصد الأول ) في دعوة للناس كافة إلى اعتناق الاسلام .

( المقصد الثاني ) في دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة ، إلى ترك باطلهم والدخول في هذا الدين الحق .

( المقصد الثالث ) في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

( المقصد الرابع ) ذكر الوازع والنازع الديني ، الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها .

( الخاتمة ) في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم .

رغبنا إليك أيها القارئ الكريم ، حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق ، أن تستظهر بالمصحف بين يديك ، لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه في كل خطوة .

## المقدمة في عشرين آية ( ١ - ٢٠ )

١ — بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة ، لا عهد للعرب بتصدير مثلها في الإنشاء والإنشاء ، وإنما عهدوها من القراء الكاتبين في بدء تعليمهم النهجى للناشئين . ( أ . ل . م )

ومهما يكن من أمر المعنى ، الذي قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذي وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدي الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها ، من شأنه أن يوقظ الأسماع ، ويوجه القلوب لما يلي هذا الأسلوب الغريب .

٢ — وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث :

أما أولاهن : فأعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن ، هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس في الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه ( ذلك الكتاب )

وأما الأخريان فيدعمان هذا الكم بالحجة والبرهان ، أليس تفاضل الكتب ، إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا الحق أن يكون نيراً لا يثير شبهه ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك ، أن يكون ذلك الحق ، مما تمس إليه حاجة الناس في إنارة السبيل ، وإقامة الدليل ، إذا ما اشتبهت عليهم السبل ، وتفرقت المسالك ، فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث ، فهو الحق المحض الذي لا باطل فيه ، بل هو الحق اللائح ، الذي لا شبهة باطل فيه ، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين ، الذي يخرج الناس من الظلمات إلى النور ( لاريب فيه . هدى ) .

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث ، بعد تلك الأحرف الثلاثة ، موقع التنويه بالمقصود بعد

التنبيه إليه .



وكذلك المربي الصالح « يبدأ » خطابه الجليل الشأن ، باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم « ويثني » بالتحاذ الوسائل التي تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة .

٣ — أول ما تتشوف إليه النفس ، بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته ، هو تعرف الأثر الذي سيحدثه في الناس ومقدار إيجابتهم لدعوته ، فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة ، وهي انقسام الناس في شأنه إلى فئات ثلاث : فئة تؤمن به ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً مؤثناً اثناً بحتاً ؟ ... أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله ؟ ..

شيء من ذلك لم يكن ، ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال ، ذلك أنه في أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخرتين ، بل أعرض عنهما ، كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى ، فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه ، قائلاً إنه : ( هدى للمتقين الذين يؤمنون ... ) فكانت هذه « اللام الجارة » هي المعبرة السرية التي انزلق عليه الكلام ، وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

٤ — ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها ، بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذي لا ريب فيه ؛ حرياً في بادئ الرأي أن يعدّ من المفارقات ، التي تثير في نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ، ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟ !

ومن جهة أخرى ، فقد كان موقف هذا النبي الرحيم — ﷺ — في جده البالغ في دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوراً له في عين من يراه ، بصورة الطامع في إيمان الناس أجمعين ، الظان أن هذه الأمانة ستصبح في متناول يده ، متى أخذ الناس في أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه مسلمون ، ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ، ويقول إن الذي سيتنفع بهداه إنما هم المتقون ، فكان هذا التحديد مظنة ، لأن يتهل الرسول — ﷺ — إلى ربه قائلاً : سبحانه اللهم ، ولم لا يتهدى به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن ، بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة

القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل ، لا إلى فاعلية الفاعل ، وهل يُغض من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت بجعله ؟ وهل يضير الشمس ألا يتنفع بنورها العمى أو المتعمون ؟ — ( إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ... )

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين ، الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين ، الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين في القصد من أول الأمر ، إذا لعطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه يبنى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذى نطقت به الحال ، وإزالة لذلك التعجب الذى أثاره سابق المقال ، وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البياني .

٥ — وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فأنضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على اختها ، لأنهم في التجافى عن الهدى مشتركون ، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم .. ( ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين )

٦ — وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل ، فقد اشتمل الحديث في كل طائفة على ثلاثة عناصر ، مرتبة على هذا النمط : وصف الحقيقة الواقعة ، بيان السبب فيها ، فالإخبار عن نتائجها المنتظرة .

« فحقيقة » الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركيذها العلمى والعملى ، وسبب ذلك استمسكهم بالهدى ، وإمدادهم بالتوفيق من ربهم ، ومآل أمرهم ، الفوز والفلاح .

« وحقيقة » الطائفة الثانية ، أنهم مجردون من أساس التقوى ، وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع مع إنذار « والسبب » عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، فلهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وعاقبة أمرهم العذاب الأليم .

« وحقيقة » الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير ، وباطن سوء ، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون ، وليس في قلوبهم من الإيمان شيء ، ولكل من الوصفين سبب وجزاء أما دعواهم الإيمان ، فسببها قصد المخادعة ، وجزاء الخداع عائد إليهم ، وأما إسرارهم الكفر فسببه مرضى قلوبهم . وجزاء زيادة المرض والعذاب الأليم .

وكما بين سبحانه في الطائفة الثانية ، أنها بلغت من الإصرار والغباوة مبلغاً لا يجدى معه الإنذار ، بين في الطائفة الثالثة ، أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصيح الناصحين ، فهم

المفسدون ، ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ، ويزعمون أنهم الراشدون ، ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟ ثم كما ختم الكلام في شأن الطائفة الأولى ، بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح ، ختم الكلام في شأن الطائفتين الأخريين ، بأن سجل عليهما وصف الضلالة والخسران .

لذلك ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلاً يناسبها ، فضرب مثلاً للمعتزين المختوم على قلوبهم ، بقوم كانوا يسرون في ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله ، لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلّبوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة ، فذلك مثل النور الذي طلع به محمد — ﷺ — في تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين ، الذي ألفوا العيش في ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأساً ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ (١) .

وضرب مثلاً للمتريدين المخادعين ، بقوم جادتهم السماء بغيث منهمر ، في ليلة ذات رعود وبروق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نيلاً ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعاً ، وأما تلك التقلبات الجوية والرعد والبرق ، فكانت هي مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لا بسين لكل حال لبوسها ، سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى ... ذلك أبداً دأب المنافقين في كل أمرهم ، إن توقعوا ربها عاطلاً التمسوه في أى صفت وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك ، تنكروا للفتة التي ينالها في سبيلها شيء من المكروه ، وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيداً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذي يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإن له قبله الحق لا يخشى في الله لومة لائم .

وليس يبالي حين يقتل مسلماً . على أى جنب كان في الله مصرعه

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووضعت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه ، ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع في المآل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشيء الذي يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح ، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر ، لا يكون إلا حقاً واضحاً لا ريب فيه .

فما هو ذلك الحق الذى لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لاشك أن هذا كله تشويق أى تشويق لسماع الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق ، هى أن يعبدوا ربهم وحده ، ويؤمنوا بكتابه ونبيه ( الخ ) جريئاً على أسلوب الغيبة ، الذى جرى عليه فى وصف الكتاب ، وفى وصف الناس ، ولكنه حوّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : ( يأيها الناس اعبدوا ربكم ... )

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذى وصف القرآن به الطوائف الثلاث « متقين ، وكافرين ، ومخادعين » قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال فبعد أن كانوا غُيباً فى مبدأ الحديث عنهم ، أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافى حاضرين فى خيال السامع ، كأنهم رأى عين ، وفى مكان ينادون منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم ، كما يوجه إلى الحاضرين فى الحس والمشاهدة ، هذا من الناحية العامة ، وأما من الناحية الأخرى ، فإن هذه الأمثال البليغة التى ضربت فى شأن المعرضين خاصة ، قد أبرزتهم أمام السامع فى صورة محزنة ، تبعث فى نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم .

حتى أنه لا يشفى صدره ، إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم ، أن افتحوا أعينكم أيها القوم ، وتعالوا إلى طريق النجاه . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد ، لسماع هذا النداء . ( يأيها الناس اعبدوا ربكم ) — الآيات إلى آخر المقصد الأول .

المقصد الأول من مقاصد السورة : فى خمس آيات ( ٢١ — ٢٥ ) .

فى هذه الآيات الخمس تسمع نداء قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب :

١ — أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .

٢ — أن آمنوا بكتابه الذى نزل على عبده .

٣ — أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هي الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية ، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعي ، من المبدأ ، إلى الواسطة ، إلى الغاية .

وترى كل واحد من الركنين الأولين ، قد أقيم على أساس من البرهان العقلي القاطع لكل شبهة ، أما الركن الثالث ، فقد جرى به مجزاً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب ، وتحريك الوجدان ، بالتحذير والتبشير ما يسد في موضعه مسد البرهان .

### عود على بدء : في أربع عشرة آية ( ٢٦ — ٣٩ )

١ — بدأ الكلام في السورة — كما علمت — بوصف القرآن بما فيه من الهدى اجمالاً : فكان الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن في هذه الهداية ، ليقول أنها هداية كاملة بالبيان الوافي الشامل لكل شيء ، فانظر كيف مهّد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع :

أما المقدمة ، فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود ، فقد بين فيه أن الله وحده المثل الأعلى ، الذي لا يشاركه فيه شيء الأنداد ، ثم وضع فيه الفصيل بين النبي والمتنبي بتلك المعجزة العالمية ، التي لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتي بمثلها ، ثم ذكر مثل النار التي أعدت للكافرين ، ومثل الجنة التي وعد المتقون .

فتراه قد تناول في هذه الأمثال ضرباً شتى من الحقائق علوية وسفلية ، مادية ومعنوية .. حتى كانت نهاية الحديث ، أن عرض ما في الجنة من أنواع النع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعاني التي قد يستحى المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهي الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذي لا يستحى من الحق ، وأنه الرحيم الذي ينتزل رحمته إلى مستوى العقول البشرية ، فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، وما يرجون أو يخشون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوتة إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، ببيان أن هذه هي طريقة القرآن في هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ، ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضعاً

كل شيء في موضعه ، مسمى له باسمه ، لا يبالى أن يتناول في بيانه جلائل الأمور أو محقراتها ( إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها )

حقاً إن شأن هذا الكتاب في تفصيل الحق والباطل ، والضرار والنافع ، شأن كتاب الأعمال في تفصيل الحسنات والسيئات ، كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً ، قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس في قبول هدايته ، وإلى النعي على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته في الهداية ، قد جرنا هنا إلى مثل هذا التقسيم . ( يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ) وإلى النعي على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم ( وما يضل به إلا الفاسقين )

وكما أن بيان أوصافهم هناك ، قد جلاهم أمام السامع في صورة تحرك دايعته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار : ( كيف تكفرون بالله — الآيات ) .

٢ — وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة ، ولكن في ثوب جديد :

( أما في الركن الأول ) فقد سمعته هناك ، يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ، ينهى عن الكفر بالله . وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة ، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك في شيء من التفصيل .

( وأما الركن الثاني )

فقد ذكر هناك نبوة هذا النبي الخاتم ، وهنا ذكر نبوة ذلك النبي الأول آدم ، لتعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم متصل بنشأة الانسان ، وقد مهد لهذا البيان ، بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة ، وما جرى في شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشرى ،

اختاره الله لخلافة الأرض ، وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ، ليكون آلامتان بذلك جارياً مع الامتتان بالنعم المذكورة في الركن الأول على حسن نسق — ثم اتصل من هذا التفصيل ، إلى شرح ما نشأ عنه من حسر إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ، ومخادعته إياه بوساوسه ، وما انتهى إليه

أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما ، وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو — كما ترى — حديث يطلب بعضه بعضاً ، ويأخذ بعضه بأعناق بعض .

( وأما الركن الثالث ) فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بمألهما من وصف رائع أو مروع ، وتراه هنا يكتفى عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلها ناظماً مصنع الأجزية مع وضع التكاليف في سلك واحد ، ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها ، هو مناط السعادة أو الشقاوة في العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا — كما ختمه في المقدمة — بشأن المخالفين ، تمهيداً للانتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وهو المقصد الثاني

المقصد الثاني من مقاصد السورة : في ثلاث وعشرين ومائة آية ( ٤٠ — ١٦٢ ) :

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هي غرة السور المدنية ، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وأكثرهم جدالاً في دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم ، بحسبك أن تعلم هذا وذاك ، لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعني دعوة بني اسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ، ولتعلم حكمة ذلك التبسط في الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بألوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستتالة واستطالة إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل في هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ، ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

( بدأ ) الكلام معهم بآية فذة ( ٤٠ ) هي على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله ، ففيها يناديهم بأحب أسمائهم ، وأشرف أنسابهم ، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبنى على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويزهدهم .

( ثم ) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج ، ويقدر معلوم ، فشرح العهد الذي طلب منهم الوفاء به ، في ست آيات ( ٤١ — ٤٦ ) — وبين مقدار النعمة التي امتن بها عليهم في آية ( ٤٧ ) ومقدار الخافة التي خوفهم منها في آية أخرى ( ٤٨ ) .

( ثم ) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

- ( القسم الأول ) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .
- ( القسم الثاني ) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .
- ( القسم الثالث ) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .
- ( القسم الرابع ) يذكر فيه حاضر المسلمين في وقت البعثة .

أرأيت هذه المراحل الأربع ، التي سلكها القرآن في دعوة بنى اسرائيل ، كيف رتبها مرحلة مرحلة ، وكيف سار في كل مرحلة منها خطوة خطوة .

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا ، لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متتائين ، فهي في جملتها مناجات من الله للنبي والمؤمنين ، في خاصة شأنهم ، وفيما يعينهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لئلا يكون كل طرف منها بلون المقصد الذي يتصل به ، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قدر ، ألم تر كيف بدأها ، بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم في بعض حقائق الاسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق ، التي تماروا فيها ، فجعل يسمح غبار الشبهه عن وجهها ، حتى جلاها بيضاء للناظرين ، فكانت هذه البداية — كما ترى — نهاية لتلك المعارك الطويلة ، التي حورب فيها الباطل في كل ميدان ، ثم رأيت كيف ساق الحديث ، فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمسك بها في غير ما آبه ، أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها ، يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحى به سياقه هذه النجوى المتواصلة ، التي مدت في خطاب المؤمنين مدأ ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع في طيها نداء خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادا ، وأقبلنا على الأولياء تعليماً وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتتح كتاب الإبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بنى اسرائيل ، لم تكن إلا طليعة من كتاب الحق ، تنبئ أن سيتلوها جيشه الجرار ، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار ، إلا ترى الميدان ، قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الاسرائيلية ، التي كانت تتراءى لك في ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟



أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الإسلامية ، قد انبعثت يسوق بعضها بعضاً ، أصول جامعة ، نظرية تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية ، ألم يأن لسائر الفروع أن تنجى من خلفها ، حتى تبلغ الشمس ضحاها ...

هكذا تفتحت الأذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة ، فلو أنها أقبلت علينا الآن عدداً وسرداً ، ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضياً .

لكن القرآن ، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود ، مكتفياً بهذا التمهيد ، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد ، وتأخذ أمبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد ، فانظر فيما يلي :

المدخل إلى المقصد الثالث : في خمس عشرة آية ( ١٦٣ — ١٧٧ ) .

نيف وعشر من الآيات الكريمة ، هي بمثابة الدهليز بين الباب والدار ، يقطعها السائر في خطوات ثلاث :

- ( الخطوة الأولى ) تقرير وحدة الخالق المعبود ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾<sup>(١)</sup>
- ( الخطوة الثانية ) تقرير وحدة الأمر المطاع ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً .. ﴾<sup>(٢)</sup>
- ( الخطوة الثالثة ) فهرس إجمالى للأوامر والطاعات المطلوبة .
- ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. ﴾<sup>(٣)</sup>

المقصد الثالث من مقاصد السورة : في ست ومائة آية ( ١٧٨ — ٢٨٣ ) بعد إرساء الأساس ، تكون إقامة البنيان ، وبعد الأطمئنان على سلامة الخارج ، يجيء دور البناء والإنشاء فى الداخل ...

نعم ، لقد تم ( إصلاح العقيدة ) التى هى روح الدين وجوهره ، فليبدأ ( تفصيل الشريعة ) التى هى مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبه المعاندين ، وأقيمت الحجة عليهم ، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين . وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل موجهة إلى بيان ( حقائق الإيمان ) فلتوجه الآن ، إلى بسط ( شرائع الإسلام ) .

١ — البقرة آية رقم : ١٦٣ .

٢ — البقرة آية رقم : ١٦٨ .

٣ — البقرة آية رقم : ١٧٧ .

وأنت فقد رأيت كيف مهّدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقى فيه سباقها ، وسياقها ... ولو أنك تلفت الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة ( آية البر ) التي انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظرى والعملى ، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذا الشطر العملى .

فاعلم الآن ، أن هذا الشطر العملى ، الذى لمخناه من قبل مطوياً فى فهرس موجز ، سنراه فيما يلى ، مبسوطاً فى بيان مفصل .

ففى نيف ومائة آية ، سنرى فناً جديداً من المعانى ، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم فى شتى مناص الحياة ، فى شأن الفرد ، وفى شأن الأسرة ، وفى شأن الأمة ... بياناً مؤتلفاً تارة ، وجواباً عن سؤال تارة أخرى ، متناولاً فى جملة عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : فى تأخير إقامة البنيان ، ريثما أُرسيّت قواعدة وفى تأجيل الفروع ، حتى أحكمت أصولها ، ستبدو من ورائها حكم جزئية ، وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ، ينظر إلى تلاصق لبناتها فى بنيتها ، وتناسق حباتها فى قلاذتها ، ثم رجع ينظر فى وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فناخذ فى استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة : لقد ختمت آية البر كما رأيت ، بخصلة من خصال البر ، مُيزّت فى إعرابها تمييزاً ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أى تنويه ، تلك هى خلة الصبر ، التى شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر فى البأساء ، والصبر فى الضراء ، والصبر حين البأس ، فهل تعلم أنه الآن وقد برىء دور التفصيل ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستشرها نشرأ مرتباً ترتیباً تصاعدياً ، على عكس ترتيب الطّى ، الصبر حين البأس ، ثم الصبر فى الضراء ، ثم الصبر فى البأساء ، وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدى نفسه ، سيتبع فى سائر الخصال ، الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية فى سبيل الله ؟

إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس :

لا تحسبته هنا صبراً على الجروح والقروح فى الحرب ، فذلك معنى سلبى استسلامى ، ولا تحسبته صبراً فى البطش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملى إيجابى حقاً ، ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب ،

لا إلى قوة الخلق والأدب « ليس الشديد بالصرعة ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب »<sup>(١)</sup>

هكذا سيختار الله لنا من مثل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها في معايير القيم ؛ ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام ، وردعاً لها من الاسراف في القتل ، ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل .

( القصاص — ١٧٨ — ١٧٩ ) .. وإذا كانت تداعى المعاني يسوقنا من الحديث عن القتل ، إلى الحديث عمن هم بشرف الموت ، ناسب تتميم الكلام ، ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه برأهم ( الوصية ١٨٠ — ١٨٢ )  
الصبر في الضراء :

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر في الضراء أعلاها ، ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق ، ولكنه الصبر على الظماً والخمصة في طاعة الله ( الصوم ١٨٣ — ١٨٧ ) .... وينساق الحديث عن الصوم المؤقت عن بعض الحلال ، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام ( ١٨٨ ) .  
الصبر في البأساء :

وعلى هذا التمثل نفسه ، سنرى الصبر في البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطرابي على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ، ولكنه الصبر الاختياري على التضحية بالأموال إنفاقاً لها في سبيل الله .

والمثال الذي يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج ، ينتظم الصبر في البأساء والضراء جميعاً ، إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال ( الحج إلى بيت الله ١٨٩ — ٢٠٢ ) ولا تنس ها هنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة ، التي انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج ... تلك هي مسألة الأهلة ، التي جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً ( ١٨٩ ) .

ولتقف بك ها هنا وقفة يسيرة ، نشير فيها إلى شأن عجيب من شؤون النسق القرآني في هذا الموضع ؛ ذلك أنه حين بدى بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاء ، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات في أحكام الجهاد بالنفس والمال في قتال الأعداء ( ١٩٠ — ١٩٥ ) — فاصلة ، يحسبها الجاهل رقعة غريبة في ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذي يعرف تاريخ الاسلام وأسباب نزول القرآن ،

يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع ، وإصابة المحز ، لا مجرد الاقتران الزماني بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية ، في السنة السادسة من الهجرة ، ولكن لأن أداء المناسك في ذلك العام كان عزمًا لم ينفذ ، وأملًا لم يتحقق ؛ إذ حصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن ييطشوا بأعدائهم ، الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان ، وأمرهم ألا يقاتلوا في المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله ، فكذلك فلينصرف القاريء أو المستمع ها هنا ، وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل ، كما انصرف المسلمون إذ ذاك عن مكة ، وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل ... هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكراً خالداً لتلك الأحداث الأولى ، وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية ، نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نفتسها تارة من تصريح تعبيرة ، وطوراً من نهجه وأسلوبه ، في تعجيل البيان أو تأخير ، ثم كانت هذه الآيات الفاصلة في الوقت نفسه درساً عملياً في صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر في أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلاً حتى يحدث له منه ذكراً في ساعته الموقوتة ، وهكذا لن يطول بنا الانتظار ، حتى نرى أحكام الحج والعمرة ، نجىء في إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروى بالبيان الشافي الوافي ( ١٩٦ — ٢٠٣ ) وبتمام هذا البيان ، تتم الحلقة الأولى من الأحكام ، أعنى فريضة الصبر في البأساء والضراء وحين البأس .

#### استجمامة ( ٢٠٤ — ٢١٤ )

وشاءت حكمة الله ، وتلطفه بنا في تربية نفوسنا على طاعة أمره ؛ ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية ، من فورنا هذا ، ولكن بعد استراحة فيها شيء من الموعظة العامة ، يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطئ لها السبيل إلى ما بقى ، .. وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة ، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة ، التي ختم بها حديث الحج ، والتي قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامعهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ، ولا يفكر في أمر الآخرة ، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه ( ٢٠٠ — ٢٠٢ ) فجاءت الموعظة العامة ، تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين ! فئتين : فئة لا تبالى أن تضحي الأثرة أو الإيثار إلى العباد ، وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك ، لا تضن أن تضحي بنفسها في سبيل مرضاة الله ( ٢٠٤ — ٢٠٧ ) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ، إلى توجيه النصيح للمؤمنين ، بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ، محذرة إياهم من الزلل عنها ، بعد أن هدوا إليها ، ووقفوا عليها ، مغرية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء في سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل في ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة ( ٢٠٨ — ٢١٤ ) .

هنا تمت الاستراحة بالموعظة العامة .

وستكون الحلقة التالية في تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية ، التي أجملت في آية البر ، وهي الوفاء بالعهود والعقود ، وستختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية ، عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة : أليست الأسرة هي المجال الأول للتدريب على حسن العشرة ، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت في هذا المجتمع الصغير ، استقامت بالتدرج في المجتمع الكبير ، ثم في المجتمع الأكبر ؟

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا تَوّاً إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المتشعبة ؟ كلا إن هذا البيان التربوي الحكيم ، لن يهجم بنا عليها دفعة ، ولكنه سيتلطف في الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد ( ٢١٥ — ٢١٨ ) ، وتتصل أواخرها بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى ، وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة ( ٢٢٠ — ٢٢٢ ) وهكذا نصل في رفق ولين ، دون اقتضاب ولا ابتسار ، إلى صميم الحلقة الثانية ( ٢٢٣ — ٢٣٧ ) حيث نتلقى في شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيماً ، مؤلفاً من شطرين ، شطره الأول يعالج شؤون الأسرة في أثناء اتصالها ( ٢٢٣ — ٢٣٢ ) وشطره الأخير يعالج شؤونها في حال انحلالها وانفصالها ( ٢٣٣ — ٢٣٧ )

تأمل أول كل شيء في خط سير المعاني :

انظر كيف استهل الحديث بإرسال الأساس ، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية ( ٢٢٣ ) ثم انظر كيف تلاه النهي عن إدخال اليمين في أمثال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل ( ٢٢٤ — ٢٢٥ ) وكيف عقبه بحكم فرعى من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية ، وهو حكم من حلف على الإمتناع عن زوجته ( ٢٢٦ — ٢٢٧ ) وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق ، وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات ( ٢٢٨ ) .

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوي ، وهذا التدرج المنطقي ، في شؤون كانت متفرقة ، ارتبعتها الحوادث ارتجالاً ، فتعال معي لأضع يدك في هذه القطعة ، على حرف واحد ، تلمس فيه مبلغ الاحكام في التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأنًا واحداً ذا نسق واحد :

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق :

( وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن .. )

ألا ترى كيف أدير الأسلوب في حكم الإيلاء على وجه معين ، يطل القارئ منه على أفق متلبد ، ينذر باحتمال الفراق ؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهياً له من قبل ؛ كأنه خاتمة حكم الإيلاء ، وكانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها ؛ فلما جاءت فتيا الطلاق في إبانها ، كانت هي تلك العروة المنتظرة ، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا ، وكانت منهما حلقة مفرغة ، لا يدري أين طرفاها ، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً ..

ترى من علم محمداً — لو كان القرآن من عنده — أنه سوف يُستفتى يوماً ما في تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع في نسق مع حكم الإيلاء ، وأنه ينبغي لاستقامة النسق كله ، أن يساق حكم الإيلاء ، الذي وقع الاستفتاء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناها إلى حديث الطلاق ، الذي سوف يسأل عنه بعد حين ؛ لكي ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه ؟ .. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى ، فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة ، الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وتمضى السورة في هذا النمط الجديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدة ، ورجعة ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبة ، وصداقاً ، ومتعة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية . ( ٣٧ ) .

وهناك تبدأ الحلقة الثالثة ( حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى <sup>(١)</sup> ) ( ..... ) ( ٢٣٨ ) —

( ٢٧٤ ) .

فلننظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتحكث ، والاستجمام ، والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية . سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة ، بل لفته جدّ مباغته ، قد يحسبها الناظر اقتضاباً ، وما هي باقتضاب إلا في حكم النظر السطحي ... أما من تابع سير قافلة المعاني منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثي الطريق ، الذي رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر في البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقي : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه في سبيل الله ، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة ، قد جاءت هنا في رتبها وفي موضعها المقدر لها ، وفق ترتيبها في الآية الجامعة ..

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت في موضعها ورتبتها ، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسى ، ولا تمهيد يبانى التى ختمت بها الحلقة السابقة . ( وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير )<sup>(١)</sup> فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية ، وضعت وقت الحاجة إليها ، بعد أن استطال الحديث في تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ، معبرة جىء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً ، صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلى ، إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : ( ولا تنسوا الفضل بينكم ) لا تنسوا . الفضل .. بينكم إن كل حرف أقام بيننا فترة ما ، ليفصل في شئوننا ، ثم أخذ الآن يطوى صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ، فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادة في هذه الشؤون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذى هو أسمى من قانون الحق والعدل ، وحولوا أبصاركم معى إلى الشؤون الكلية الكبرى ، التى هى أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأجرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم نعم لقد كفاكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصلوات ... انفقوا في سبيل الله ... جاهدوا في سبيل الله ..

« وبعد » فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر ؟

إن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين ، من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال ..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله .

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة في ترك الصلاة ، ولا في تأجيلها ، لا في سلم ولا في حرب ، لا في أمن ولا في خوف ( حافظوا على الصلوات ) ( ٢٣٨ ) وإنما الرخصة عند الخوف في شيء واحد : في صفات الصلاة وهياتها ( فإن خفتم فرجالاً أو ركبناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ) ( ٢٣٩ ) . والصلاة كما نعلم قوة معنوية ، على العدو ، وعدة من عدد النصر ، لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً ، والصلاة في الوقت نفسه

طهره للنفس من مساوئ الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا ، لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة ، التي أمرتنا بالتسارع والتكارع في المعاملات ... هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً ، بل قل إنه مثلث الفائدة ، لأنه في نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآفة الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآفة الجامعة ، ليفصل إجمالها في هذا الجانب ..

والجندى في الحرب تشغله على الأقل مخافتان ، مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ؛ ومخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل ، .. لذلك إنساق البيان الكريم يطرد من قبله كلتا المخافتين ..

أما أهله ، فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تمتع حولاً كاملاً في بيته ، وكذلك مطلقة سيقرر لها حق في المتعة لا ينس ، فليقر عيناً من هذه الناحية ( ٢٤٠ - ٢٤٢ ) وأما خوف الموت ، فليعلم أن الذى يطلب الموت قد توهب له الحياة .  
( ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ) ( ٢٤٣ ) .

وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله ( كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ) وتلك سنة الله في المرسلين ( ٢٤٦ - ٢٥٣ ) .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بزيادة التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسى كامل ، لتلقى الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ( ٢٤٤ - ٢٤٥ ) وتفصل لهم العبرة التاريخية التى تثبت أقدامهم حين البأس ، والتى تزيدهم أملاً في النصر ( ٢٤٦ - ٢٥٣ ) والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة فى آية قصيرة ( ٢٤٤ ) ثم فى آيات كثيرة ( ٢٤٦ - ٢٥٣ ) . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه فى آية قصيرة ( ٢٥٥ ) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه فى آيات كثيرة كذلك ، وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة ( ٢٥٤ - ٢٦٠ ) وطابع اللين تارة ( ٢٦١ ) وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى ( ٢٦٢ - ٢٧٤ ) .

ثم ينساق الحديث عن فضيلة التضحية والإيثار ، التى هى أسمى الفضائل الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستثثار ، التى هى فى الطرف المقابل ، أحط أنواع المعاملات البشرية ، ( أعنى رذيلة الربا ،



التي تستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف ، الذي يبذله أضعافاً مضاعفة ( ٢٧٥ — ٢٧٩ ) وكان هذا الاقتران بينهما في البيان ، إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما في حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين ، يقيم القرآن ميزان القسط في الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطاناً في المطالبة برأس ماله كله ، لا ينتفض منه شيء ( لا تظلمون ولا تُظلمون ) . غير أنه يحذرننا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ، فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنيين ، إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدين ، وهذه أكرم وأفضل ( وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ) . ( ٢٨٠ — ٢٨١ ) .

ولما كان الطابع البارز في هذا التشريع القرآني ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون في امر المال ، وربما مال بها إلى التفریط في حفظه وتثمينه ، جاءت آيتا الدين والرهان ( ٢٨٢ — ٢٨٣ ) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية ، في حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها .

بمختلف الوسائل ، تمهيداً لإنفاقها في أحسن الوجوه ، فمن لم يجد سبيلاً إلى التوثق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته ( فيلُود الذي أوْتَمَن أمانته ) .

وهكذا ختم الشطر العملي من السورة ، بهذه القاعدة المثلى التي هي أساس كل معاملة شريفة ، أعني قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة ... آمين .

المقصد الرابع من مقاصد السورة : في آية واحدة ( ١٨٤ )

في الآية السابقة ، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية ، عند الحد الذي أراد الله بيانه في هذه السورة ، وبها ختم الشطر الثاني من الحقيقة الدينية ، وهو شطرها العملي ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادي في الآي ، وما بعدها . وهكذا تناول البيان حتى الآن ١ — حقائق الإيمان ، ٢ — شرائع الإسلام ... هل بقي في بنيان الدين شيء فوق هذه الأركان ؟

نعم ، لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان ... والإسلام ، بقى الإحسان ، وهو كما فسرهُ صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، أن تراقب الله فى كل شأنك ، وأن تستشعر شهادته لك فى شرك وإعلانك ، وأن تستعد لحاسبته لك ، حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن ، ولا كل سلم ، وإنما يحوم حول حماء صفوة الصفوة من المتقين ...

وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة فى هذه الآية الواحدة ، التى توج بها هامة السورة : ( ٢٨٤ ) .

الخاتمة : فى آيتين اثنتين ( ٢٨٥ — ٢٨٦ ) .

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألم بعناصره جميعها ، الإيمان ، الإسلام ، والاحسان ، لم يبق بعد تمام الحديث إلا طى صحيفته وإعلان ختامه ؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟ لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التى افتتحت بها سورة البقرة ، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة ، مع هذه الخاتمة ، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ، ليلتحم من قوسيهما سور محكم ، يحيط بهذه السورة ، فإذا هى سورة حقاً ، أى بنية مجبوكة سورة ، ألم يكن مطلع السورة ، وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ، ويطيع أمرها ، بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد ؟ بلى ، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة هل آمن بها أحد وهل اتبع هداها أحد ؟ ثم ننتظر منها إن كل ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع ...

وهكذا سيكون مقطع السورة :

- ١ — بلاغا عن نجاح دعوتها : ( آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... وقالوا سمعنا وأطعنا )
- ٢ — وفاء بوعددها لكل نفس بذلت وسعها فى اتباعها : ( لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت )
- ٣ — فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين ، فليسطوا إذاً أكفهم مبتهلين : ( ربنا .... ربنا .... أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ) .

تلك هي سورة البقرة ... أرأيت وحدثها في كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها في لوحها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها ، وارتفعت سماؤها بغير عمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة حية .

كل ذرة في خليتها ، وكل خلية في عضوها ؛ وكل عضو في جهازه ، وكل جهاز في جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخط جامع مرسوم ، رسمه مرنى النفوس ومزكيا ، ومنور العقول وهاديا ، ومرشد الأرواح وحاديا فتالله لو أن هذه السورة ، رتبت بعد تمام نزولها ، لكان جمع أشناتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم منها — كسائر النجوم في سائر السور — كان يوضع في رتبته من فور نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة ، محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة ، بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟ لعمرى لئن كانت للقرآن في بلاغة تعبيره معجزات ، وفي أساليب تربيته معجزات ، وفي نبوءاته الصادقة معجزات ، وفي تشريعاته الخالدة معجزات ، وفي كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، لعمرى إنه في ترتيب آية على هذا الوجه هو معجزة المعجزات .

### مناقشة

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطنون ، أم هم سلم يستمعون فيه قليات مستمعهم بسلطان مبين ، أم له النبات ولكم البنون ، أم تسئلهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم هم إله غير الله سبحانه الله عما يشركون ﴾

قال البخارى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه : قال سمعت النبي — ﷺ — : يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ( أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطنون ؟ )

كاد قلبى أن يطير ، وجبير بن مطعم ، كان قد قدم على النبي — ﷺ — ، بعد وقعة بدر في فداء الأسارى ، وكان إذا ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة ، من جملة ما حمله على الدخول في الاسلام بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية قال تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ ؟ أى أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم . أى لا هذا ، ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم ، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، كما قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون ﴾ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿ بل لا يوقنون ﴾ بالحق ولا يتدبرون فى الآيات ، فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض . وقوله : ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما ، فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، وينبوا الأمور على مشيئتهم ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ أى أيدعون أن لهم مرتقى إلى السماء ، ومصعداً وسبباً ( يستمعون فيه ) أى عليه الأخبار ، ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد — ﷺ — بطريق الوحي .

﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أى بحجة بينة أن هذا الذى هم عليه حق .

وقوله تعالى : ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون ، وهم حكماء عند أنفسهم ، أى تضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، والمشركون يزعمون أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يضيفون من نسبة البنات إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ﴾ أى : إنك يا محمد متجرد فى دعوتك ، لا تبغى من ورائها مالا ولا جاهاً ، فماذا يضايقهم . ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أى فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم .

وقوله : ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله .

وقوله : ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم

غير الله تعالى ، حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة ؟ ويستجدوا به لدفع الضر والعذاب عنهم ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام .

هذا فى الرسول وفى الدين ، غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾ <sup>(١)</sup> فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله جل فى علاه : ﴿ أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون ﴾ أى ألهم خالق رازق ،

قال الخليل : كل ما فى سورة « الطور » من ذكر « أم » فكلمة استفهام وليس بعطف ، ولقد تكررت كلمة « أم » خمس عشرة مرة و« أم » عند علماء اللغة ، تحيىء فى هذا السياق للإضراب ، الذى يعقبه استفهام ، قد يكون توبيخاً ، أو تقريراً ، أو تعجبياً .

إلهى

يامن له عنت الوجوه بأسرها      رهبا وكل الكائنات توحدا  
أنت الإله الواحد الحق الذى      كل القلوب له تقر وتشهد

قوله تعالى : ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ، يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون ﴾

أى أن هؤلاء قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات ، فعابوا كسفاً من السماء ساقطاً — لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الآذان ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ <sup>(٣)</sup>

١ — فاطر آية رقم : ٤٣

٢ — الشعراء آية رقم : ٢٢٧

٣ — الحجر الآيتان رقم ١٤ — ١٥

ثم أمر رسوله ﷺ — أن يتركهم وشأنهم ، فقال تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ﴾ أى فدعهم وشأنهم ، ولا تكثر بهم ، حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم ، وذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون ﴾ أى لا ينفعهم كيدهم ، ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا ، لا يجزى عنهم يوم القيامة شيئا ( رلا هم ينصرون ) ولا يجدون لهم نصيرا ، ولا معينا يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾

أى وإن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ( عذابا دون ذلك أى قبل ذلك فى الدار الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ (٢) ) ولهذا قال تعالى : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أى نعذبهم فى الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون ، ويشوبون إلى رشدهم ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا خلى عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ أى واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ، وامضى لأمر الله ، وبلغ ما أرسلت به ، واصدع بما تؤمر ، فإنك بمرأى منا نراك ، ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك منهم أذى ، كما قال تعالى : ﴿ فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم ﴾ (٤)

١ — المارج الآيات : ٤٢ — ٤٤

٢ — السجدة آية : ٢١

٣ — الدخان الآيات : ١٥ ، ١٦

٤ — الشعراء الآيات : ٢١٦ — ٢٢٠

وقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾  
 قوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى ونزه ربك مما لا يليق به ، حين تقوم من  
 منامك ، ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده . قال ابن عباس : أى صل لله حين تقوم  
 من منامك

قال أبو الجوزاء : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى من نومك من فراشك ، واختاره ابن  
 جرير . قال القرطبي : وفى هذا روايات صحاح ، منها حديث عبادة عن النبي — ﷺ — قال : « من  
 تعارّ في الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ،  
 سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لى أو  
 دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته »<sup>(١)</sup> أخرجه البخارى  
 (وتعارّ) الرجل من الليل إذا هب من نومه مع صوت .

وعن ابن عباس أن رسول الله — ﷺ — كان يقول إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل : « اللهم  
 لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن .  
 ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك  
 الحق ، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنيبون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك  
 توكلت وبك آمنت ، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاکمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت  
 وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك »<sup>(٢)</sup> متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان إذا استيقظ من الليل ، مسح النوم عن  
 وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران »<sup>(٣)</sup> .

وفى سنن أبى داود عن عائشة أن رسول الله — ﷺ — كان إذا استيقظ من الليل : قال : « لا إله  
 إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرک لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا ترغ قلبى بعد  
 إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »<sup>(٤)</sup>

١ — أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ٦٨ كتاب التهجد بالليل باب فضل من تعار من الليل فصل . وانظر تفسير ابن  
 كثير فى تفسير سورة الطور آية ٤٨ ج ٧ ص ٤١٤ .

٢ — أخرجه البخارى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٣ باب قول الله تعالى أنا الرزاق ذو القوة المتين .

٣ — أخرجه البخارى كتاب التفسير سورة آل عمران ج ٦ ص ٥٢ — ٥٣ .

٤ — أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ج ٥ ص ٣٠٦ برقم ٥٠٦١ باب ما يقول الرجل إذا تعار من الليل .

وقال ابن أبي حاتم عن عطاء بن أبي رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له .

وقال عبد الرزاق عن أبي عثمان الفقير إن جبريل علم النبي — ﷺ — إذا قام من مجلسه أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك » <sup>(١)</sup> قال معمر وسمعت غيره يقول هذا القول . كفارة المجالس ، قال ابن كثير ، هذا الحديث مرسل وقد وردت أحاديث سنده من طرق يقوى بعضها بعضاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ أى واذكره وابعده بالتلاوة والصلاة في الليل ؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس ، وأبعد من الرياء قال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قيلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال سبحانه : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ أى وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ﴿ وقد ثبت في الصحيحين من عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن رسول الله — ﷺ — على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر <sup>(٤)</sup> وفي لفظ مسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » <sup>(٥)</sup> .

- 
- ١ — أخرجه ابن كثير في تفسير سورة الطور رقم ٤٨ ح ٧ ص ٤١٥ أخرجه سنن أبي داود كتاب الأدب باب في كفارة المجلس ح ٥ ص ١٨٢ رقم ٤٨٥٩ ، أخرجه مصنف عبد الرزاق باب كفارة المجالس ح ١١ ص ٢٤ رقم ١٩٧٩٦
  - ٢ — للزمل آية : ٦
  - ٣ — الأسراء آية : ٧٩
  - ٤ — رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي الفجر ح ١ ص ٥٠١ رقم ٧٢٣ / ٩٤
  - رواه البخارى في صحيحه كتاب التهجد بالليل باب التعاهد على ركعتي الفجر ح ٢ ص ٧١ — ٧٢ وانظر تفسير ابن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ ح ٧ ص ٤١٦
  - ٥ — رواه صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتي سنة الفجر ، والحد عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما ح ١ ص ٥٠١ رقم ٧٢٥ / ٩٦ . وانظر أيضاً تفسير بن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ ح ٧ ص ٤١٦



## تفسير سورة النجم

## مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق  
 عدد آياتها : اثنتان وستون  
 وكلماتها : ثلاثمائة وستون  
 وحروفها : ألف وأربعمائة وخمسون  
 مجموع فواصل آياتها ( واهن )  
 سميت النجم لمفتتحها

## مقصود السورة :

القسم بالوحي ، وهداية المصطفى — ﷺ — وبيان معراج الكرامة ، وذكر قبائح أقوال الكفار ، وعقيدتهم في حق الملائكة والأصنام ، ومدح مجتنبي الكبائر ، والشكوى من المعرضين عن الصدقة ، وبيان جزاء الأعمال في القيامة ، وإقامة أنواع الحجة على وجود الصانع ، والاشارة إلى أحوال من أهلكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجيء القيامة ، والأمر بالخضوع والانقياد لأمر الحق تعالى في قوله : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

المتشابهات : قوله : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ، وبعده : ﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى ( ومناة الثالثة الأخرى ) ، والثاني بعبادتهم الملائكة ، ثم ضم الظن فقال : ﴿ إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ﴾ .

قوله : ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ ( ما أنزل ) في جميع القرآن بالألف إلا في الأعراف ( ما نزل بها من سلطان ) .

## مناسبتها لما قبلها من وجوه

- ١ — إن السورة قبلها ختمت بقوله : ( وإدبار النجوم ) وبدئت هذه بقوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾
- ٢ — إن السورة قبلها ذكر فيها تقول القرآن ، وذكر هذا في مفتتح هذه السورة .
- ٣ — أنه قال هناك في المؤمنين : ﴿ الحقنا بهم فزيتهم ﴾ وقال هنا في الكفار : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما نعى ﴾ .

وهي كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبي ﷺ — قراءتها ، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون .  
وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي « إن أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ والنجم ﴾ فسجد رسول الله ﷺ — وسجد كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ؛ فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف<sup>(١)</sup> .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمْنُونَهُ وَعَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ مَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

١ — أخرجه : البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٧٧ كتاب التفسير [ تفسير سورة النجم ] ، وإخرجه صحيح مسلم ج ١ ص ٤٠٥ رقم ٥٧٦ / ١٠٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب سجود التلاوة . وأخرجه أبو داود في سننه ج ٢ ص ١٢٢ رقم ١٤٠٦ كتاب الصلاة باب من رأى فيها السجود .

## معانى المفردات

﴿ والنجم ﴾ جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ﴿ هوى ﴾ يقال هوى النجم هويًا ( بالفتح ) أى سقط وغرب . وهويًا ( بالضم ) إذا علا وصعد . ﴿ ما ضل ﴾ ما حاد عن الطريق المستقيم . ﴿ صاحبكم ﴾ أى مصاحبكم ، والتعبير عنه ﷺ بعنوان المصاحبة لهم ، إيدانا بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشرعية ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة ، تقتضى إحاطتهم خيرا ببراءته مما نسب إليه ، ويإنصافه بالهدى والرشاد . ﴿ وما غوى ﴾ أى وما أعتقد باطلاً . والخطاب فى هذا لقريش ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى ما يتكلم بالباطل ، ﴿ شديد القوى ﴾ المراد به جبريل أمين الوحي عليه السلام ، ﴿ ذو مرة ﴾ أى ذو حصة عقل وقوة عارضة .

﴿ فاستوى ﴾ أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى بدء النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ﴿ ثم دنا ﴾ أى ثم قرب ﴿ فتدلى ﴾ أى فنزل . من قولهم تدلت القمرة . ﴿ قاب قوسين ﴾ الغاب مقدار ما بين القبض والسيّة ، ولكل قوس قبان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح ، وبالذراع والباع والخطوة ، والشبر والإصبع ﴿ أو أدنى ﴾ : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاده - ﷺ - ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه ببصره ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أى أفتجادلون على ما يراه معاينة ، ﴿ نزلة أخرى ﴾ أى مرة أخرى . ﴿ سندرة المنتهى ﴾ هى شجرة نبق ، قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، ﴿ جنة المأوى ﴾ أى : الجنة التى يأتى إليها المتقون يوم القيامة ، ﴿ يغشى ﴾ أى يغطى ، ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما عدل عن رؤية العجائب التى أمر برؤيتها ومكن منها ، وما مال يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ أى ما جاوز ما أمر به ، ﴿ آيات ربه الكبرى ﴾ أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

يقول الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآيات المباركات .

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه ، على تنزيه رسوله وبرأته ، مما نسبته إليه أعداؤه من الضلال والغى .

واختلف الناس في المراد بالنجم ، فقال الكلبي : عن ابن عباس : أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله : أربع آيات ، وثلاثاً ، والسورة وكان بين أوله وآخره عشرون سنة ، وهو قول مقاتل ولضحاك ، ومجاهد وعلى هذا فسمى القرآن نجماً ، لتفرقه في النزول ، والعرب تسمى التفرق تنجيماً ، والمفرق نجماً ، وقول ( هوى ) على هذا القول أي : نزل من علي إلى أسفل ، وكذلك قال الأصمعي : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، إذا سقط إلى أسفل .

وقال ابن عباس في رواية على بن أبي طلحة ، وعطية في قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ يعنى الثريا إذا سقطت وغابت وهو الرواية الأخرى عن مجاهد . والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا ، وقال أبو حمزة اليماني : يعنى النجوم إذا انتشرت يوم القيامة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية عكرمة : يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين ، إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع ، وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال .

ويكون سبحانه ، قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة ، التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له ، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى ، رصداً بين يدي الوحي ، وجرساً له . وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور ، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه .

وليس بالبين تسميه القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هويماً ، ولا عهد في القرآن ذلك ، فيحمل هذا اللفظ عليه ؛ وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت .

وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيام . بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ، ولا المكابرة فيه ، فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى ، فإن النجوم التى ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماءه ،

وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية ، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى ، والغى المنفى للرشد فقال تعالى : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ فالهدى في علمه ، والرشاد في علمه ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ، وبهما سعادته وفلاحه ، وبهما وصف النبي ﷺ — خلفاءه — فقال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى »<sup>(١)</sup> فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه ، بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ، ودين الحق ، لا يشبهه الراشد المهدى ، بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ، والله در القائل :

وما انتفاع أخنى الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأثوار والظلم .

فالناس أربعة أقسام : ضال في علمه غاوى في قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفوا الرسل .

( الثانى ) مهتد في علمه غاوى في قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية — أمة اليهود — ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

( الثالث ) ضال في علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر .

( الرابع ) مهتد في علمه ، راشد في قصده ، وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وإن كانوا الأقلين عدداً منهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ ما ضل صاحبكم ﴾ ولم يقل ما ضل محمد تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به ومجاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غى ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ وبقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾

قوله تعالى ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هداه وارشده وقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين نفى الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغى والضلال .

قوله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أى ما نطقه إلا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحى يوحى .

وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ .

وقال الشافعى : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبى طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحى ، وما فرض رسول الله ﷺ — من صدقة وعقول — الديات — فإنما نزل به الوحى .

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ — بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه .

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « أَلَا أَنَى أُوتِيتِ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال الله تعالى ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحى والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال ﴿عَلِمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ وهذا نظير قوله تعالى ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ مطاع ثم أمين .

وقوله تعالى ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أى جميل المنظر ، حسن الصورة ، ذو جلاله ليس شيطانياً أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل خلق الله وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحى والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره فى سورة التكويد . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته . وهذه كانت أوصاف الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله ﷺ — أشجع الناس ، وأعلمهم وأجملهم ، والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك ، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى ، وأجمل الخلق وأضعفهم هماً ونفوساً .

قوله تعالى ﴿فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ﴾ ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ﴿

قوله تعالى : ﴿ فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ ثم ذكر سبحانه استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإحياء الله ما أوحى ، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى فتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإحيائه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ، ويعاينونها ، هابطاً من السماء ، إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ ، وخاطبه بما أمره الله به قائلا : ربك يقول لك : كذا وكذا ، وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أو أدنى من ذلك ، وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة .

قوله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتخارونه على ما يرى ﴾ ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رآته عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده وبصره ، بل ما رآه يبصره صدقه الفؤاد ، وعلم أنه كذلك . وقوله : ﴿ أفتخارونه على ما يرى ﴾ أى أفتكذبونه وتجادلون فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى ؛ فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى ، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، رآه على صورته التى خلق عليها مرتين كما فى الصحيحين عن زر بن حبیش أن سئل عن قوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قال : أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ ، رأى جبريل له ستائة جناح<sup>(١)</sup> . وقال البخارى ، عنه : رأى رفرفا أخضر يسد الأفق ؛ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام ، وفى صحيحه أيضا عن مسروق ، قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت : يأم المؤمنين انظرنى ولا تتعجلينى ألم يقل الله عز وجل : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة ، سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ،

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ١ ص ٥٤ ، باب فى ذكر سورة المنتهى رقم ١١٠ . وأخرجه مسلم فى كتاب الاسيمان ح ١

رأيته منبسطة من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، فقالت : أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ الأنعام آية ١٠٣ ، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ الشورى آية ٥١ ، قالت : ومن زعم أن محمدا ، كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة آية ٦٧ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد ، فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول : ﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿ وإذا تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ (١) الأجزاب آية ٣٧ ، وفي الصحيحين عن مصروق أيضا ، قال : سألت عائشة رضی الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد وقف شعري لما قلت (٢) وفيهما أيضا قال ، قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ قالت : ( إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته ، فسد الأفق ) (٣) .

وفي صحيح مسلم بأن أبا ذر سألہ ﷺ هل رأيت ربك فقال : « نور أنى أراه » (٤)

وفي صحيح مسلم أيضا من حديث أبي موسى الأشعري قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٥) وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له . ولا ينافي هذا قوله في الحديث الصحيح — حديث الرؤية يوم القيامة — « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يبق له شيء ، كما قال ابن عباس في قوله عز وجل ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ح ١ ص ١٥٩ برقم ١٧٧/٢٨٧ .

(٢) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦٠ برقم ١٧٧/٢٨٩ .

(٣) أخرجه مسلم ص ١٦٠/١٦١ برقم ١٧٧/٢٩٠ .

(٤) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦١ برقم ١٧٨/٢٩١ .

(٥) أخرجه مسلم ح ١ ص ١٦١ ب ١٦٢ برقم ١٧٩/٢٩٣ .



قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، إذا تجلى به لم يقدّم له شيء ، وهذا الذى ذكره ابن عباس يقتضى أن قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ على عمومته وإطلاقه فى الدنيا والآخرة ، ولا يلزم من ذلك أن لا يرى ، بل يرى فى الآخرة بالأبصار من غير إدراك .

وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هى عليه ، وإن رأيتها مع القرب الذى بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذى بين أبصار المخلوقات وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم ، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء ومن تجلى الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلى ، وفى الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آتيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن » (١) .

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى ، هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى ، فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه ، فهو الحجاب المخلوق ، وأما أنوار الذات الذى يحجب عن إدراكها ، فذلك صفة للذات لا تفارق ذات الرب جل جلاله ، ولو كشف ذلك الحجاب ، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، وتكفى هذه الإشارة فى هذا المقام للمصدق الموقن ، وأما المعطل الجهى فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن الخير عنه بالرؤية فى سورة النجم ، هو جبريل عليه السلام . وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية ، وقد تبين أن المرتى فيها جبريل ، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس ، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارسى الإجماع على ما قالته عائشة ، فقال — فى نقضه على بشر المريسى فى الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ، أن رسول الله ﷺ قال : رأيت ربي البارحة فى أحسن صورة ، فحكى تأويل المريسى الباطل — ثم قال : ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهب إليه ، أما أن رسول الله ﷺ ، قال فى حديث أبى ذر : « إنه لم ير ربه ، وقال رسول الله ﷺ « لن تتروا ربكم حتى تموتوا » ، وقال عائشة رضى الله عنها : من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك ، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال : « صليت ما شاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبي ، فأتاني ربي في أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم ؛ قال القاضي عياض : « وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه : أن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة ، عرضة للآفات والفناء ، فلم تكن لهم قدرة على الرؤية ، فإذا كان في الآخرة ، وركبوا تركيباً آخر ، ورزقوا قوى أخرى ثابتة باقية ، وأتم أنوار قلوبهم وأبصارهم وقلوبهم قووا على الرؤية ، وقد رأيت نحو هذا من تلك ابن أنس قال : لم ير في الدنيا لأنه باق ، ولا يرى الباقي بالفاني ، فإذا كان في الآخرة ورزقوا أبصار باقية ربي الباقي بالباقي .

قال القاضي أبو الفضل : وهذا كلام مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة ، فإذا قوى الله من شاء من عباده فأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع في حقه .

وقال شيخ الإسلام ابن حجر : « جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك قول ابن عباس : أتعجبون من أن تكون الخلعة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤيا لمحمد ؟ وعنه : رأى ربه بفؤاده مرتين ، وعنه : لم يره بعينه ، وإنما رآه بقلبه ، فعلى هذا يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة ، بأن يحمل نفياً على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب . قال أبو إسحق محمد بن إبراهيم تلميذ ابن حجر : المراد برؤية الفؤاد : رؤية القلب بخلق إدراك البصر فيه ، لا مجرد حصول العلم ، وذلك بخلاف غيره من الأولياء ، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم ، فإنما يريدون المعرفة فأعلمه ؛ فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس ، وقد تقدم أن ذلك ممتنع شرعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالاً ، ولا جاوز ما أمر به ، وعلى هذا المفسرون ، فنفي عن نبيه ما يعرض للرأي ، الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالاً ، وجاوزه بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام ، وفي تلك الحضرة إذا لم يلتفت جانباً ، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطرافه وإقباله على ما أرى ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما

في ذلك في ثبات الجأش ، وسكون القلب وطمأنينته ، وهذا غاية الكمال ، وزيف البصر ، التفاته جانبا ، وطغيانه ، مده أمامه إلى حيث ينتهي ، فزه في هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغنى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيف والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) . أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين ، استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ ولو كان رأى ربه ، لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس .

### عبادة غير الله باطلة

قال تعالى :

أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢﴾ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ﴿٥﴾ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ﴿٦﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٧﴾ \* وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ ﴿٩﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿١٠﴾ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١١﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ ﴿١٢﴾

## معاني المفردات

- ﴿ اللات ، والعزى ، ومناة ﴾ : أصنام كانت تعبدتها العرب في جاهليتها .  
 ﴿ الأخرى ﴾ أى : المتأخرة الوضعية القدر .  
 ﴿ ضيزى ﴾ أى : قسمة جائرة غير عادلة .

## المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن بين سبحانه ما رآه محمد ﷺ ، من العجائب ليلة المعراج ، قال للمشركين ماذا رأيتم في هذه الأصنام ؟ وكيف تحضرون أنفسكم في العالم المادى وأصنامها ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم تكن لها عروج إلى السماء ، ولا سيما أن هذه الأصنام ، لا تشفع لهم عند ربهم ، ولا تجديهم نفعا ، فما هذا منهم إلا أباطيل لا تغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن تعرض عن هؤلاء ، الذين لا هم لهم ، إلا جمع حطام الدنيا والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، ويجازيهم بما يقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

## التفسير :

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ اللات والعزى ﴾ قال : كان اللات رجلاً يلى السوق ، سوقى الحاج . قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار ( بنخلة ) وهى بين مكة والطائف ، وكانت قريش يعظمونها ... وأما ( مناة ) فكانت بالمشلل عند قدير ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها ، يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها ، طواغيت آخر ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة ، التى نص عليها في كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أَلَمْ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ ﴾ أى تجعلون له ولدا ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو أقسمتم أنتم ومخلوقون مثلكم هذه القسمة ، لكانت قسمة جائزة ، لذا قال تعالى : ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ أى تلك قسمة جائزة غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها ، ثم أنكر عليهم سبحانه — ما ابتدعوه من الكذب والافتراء ، فى عبادة الأصنام ، وتسميتها آلهة فقال تعالى : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى أن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة — هى أسماء فحسب ، وليس لها مسميات هى الحق البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يعكف على عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان ، تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلدها فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو الاسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ثم أكد ما سلف بقوله تعالى : ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم ، وتعظيم آبائهم الأقدمين .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم ، وعظيم غفلتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ أى هم يتبعون ما كان عليه أشلافهم ، وينقادون إلى آرائهم ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك جزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا ﴿ كَانَهُمْ حَمْرٌ مُسْتَفْرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (٢) .

### قصة الغرائق « موضوعة »

ذكر الأستاذ الدكتور / محمد بن محمد أبو شهبه فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب

التفسير » ما نصه :

ومن الموضوعات فى أسباب النزول ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وَمَا

(١) يوسف آية : ٤٠ .

(٢) المائدة الآيات : ٥٠ — ٥١ .

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴿١﴾ .

فقد ذكر بعض المفسرين ما قاله السيوطي : أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق بسند صحيح : ( كما زعم ) عن سعد بن جبير قال : قرأ النبي ﷺ — بمكة : ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ : ﴿ أفرايم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرائق العلا ، وإن شفاعتني لترجى ، فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجدوا وسجد ، فنزلت ، وأخرجه البزار وابن مردويه ، بوجه آخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — فيما أحسبه — وقال : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، وبعد أن ذكر له طرقا كثيرة قال : وكلها إما ضعيفة ، وإما منقطعة ، سوى طريق سعيد بن جبير الأولى ، وهذا الطريق ، وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير ، هم معتمد المصححين للقصة ، كابن حجر والسيوطي (٢) .

وهذه القصة غير ثابتة : لا من جهة النقل ، ولا من جهة العقل والنظر . أما من جهة النقل :

فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين ، قال البيهقي وهو من كبار رجال السنة : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضي عياض في كتابه « الشفاء » : إن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ، ولا رواية ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، والمولوعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين ، لم يسندوها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع منها حديث شعبة ، قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبي ﷺ بإسناد متصل ، إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبي عن أبي خالد عن ابن عباس ، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيه ، الذي لا يوثق به ولا حقيقة معه ، وأما حديث الكلبي فمما لا يجوز الرواية عنه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه أ . هـ . وكذا أنكر القصة القاضي

(١) الحج الآيات : ٥٢ — ٥٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ح ٥ ص ٤٣٩ طبع الشعب .

أبو بكر بن العربي وطعن فيها من جهة النقل ، وسئل محمد بن إسحاق وابن خزيمة ، عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وذهب إلى وضعها الإمام : أبو منصور الماتريدي وصنف منها كتابا نحن نرى : أن من أنكرها وقضى بوضعها ، أكثر ممن صححها اعتادا على روايات مرسلة .

## اضطراب الرواية

ومما يقلل الثقة بالحديث : اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً ، فقائل يقول : إنه كان في الصلاة ، وآخر يقول : قالها في نادي قومه ، وثالث يقول : قالها وقد أصابته سنة ، ورابع يقول : بل حدث نفسه فيها ، ومن قائل : إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبي لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتكم ؟ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان : أن النبي قرأها كما رويت : تلك الغرائق العلا على أنحاء مختلفة ، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية ، ويقلل الثقة بها ، والحق أبلج والباطل لجج .

والقصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحاح ، ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ، والذي روى في البخارى — عن ابن عباس : « أن النبي — ﷺ — قرأ : النجم وهو بمكة ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والأنس » ، وفي رواية ابن مسعود : « أول سورة أنزلت فيها السجدة والنجم ، قال : فسجد رسول الله — ﷺ — وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيت بعد ذلك قتل كافراً<sup>(١)</sup> » . أما سجود المسلمين : فاتباعاً لأمر الله ، وأما سجود المشركين : فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة ، وعيون الكلم والجوامع ، مع التهديد والإنذار ، وقد كان العربي يسمع القرآن ، فيخر له ساجداً ، أضف إلى ذلك : ما فيه من موافقة الجماعة ، والشخص إذا كان في جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ، ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب ، وهذا أمر مشاهد ، وفي علم النفس ما يؤيده ، وذكر البخارى في تفسير سورة الحج قال : وقال ابن عباس : « إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته » : إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيطلل الله ما يلقي الشيطان ، ويحكم آياته ويقال : أمنيته قراءته ، فقد حكى الثانى بصيغة التمريض التى تدل على الضعف ، وليس في هذا ولا ذاك ما يشير إلى ما يزعمون .

(١) أخرجه البخارى ح ٦ ص ١٧٧ طبع الشعب .

## المعتمدون للقصة

ومع ما ذكرنا من قول المحققين في القصة ، فقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر ، فصحح القصة ، وجعل لها أصلا ، قال في « الفتح » في تفسير الحج ، مع ما ساق الطرق الكثيرة ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف ، وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أنها أصلا ، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين ، رجالهما على شرط الصحيح : أحدهما : ما أخرجه الطبري من طريق يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثاني : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمد بن سليمان ، وحماد بن سلمة ، فرقهما عن داود بن أبي هند عن أبي العبالية ، وبعد أن ذكر كلام القاضي أبي بكر بن العري ، والقاضي عياض قال : وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها ، دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهي مراسيل ، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك ، تعين تأويل ما فيها مما يستنكر ، وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه ، تلك الغرائق العلا ، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه — ﷺ — أن يزيد في القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إن كان مغايرا ، لما جاء به من التوحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء في ذلك مسالك ، وبعد أن ذكر الكثير منها ، ولم يرتضه ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل ، وهو أن النبي ﷺ — كان يرتل القرآن ترتيلا ، فارتصده الشيطان في سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمة محاكيا نغمته ، بحيث سمعها من دنا ، فظنه من قوله ، وأشاعها بين الناس ، قال : وهو الذي ارتضاه القاضي عياض وأبو بكر بن العري أهـ . والقاضيان : عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلا وعقلا ، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزيلا على تسليم الصحة .

## الذي أجيب به على ما ذكره الحافظ

١ — إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل ، وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المخدوف غير صحابي ، وحيث ، يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثاني فلا يؤمن أن يكون كذابا ، والإمام مسلم قال في مقدمة كتابه : والمرسل في أصل قولنا وقول أهل العلم بالإنخبار ، ليس بحجة .



٢ — الاحتجاج بالمرسل إنما هو الفرعيات التي يكفى فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافى دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : أن خبر الواحد — لو كان صحيحا — لا يؤخذ به في العقائد ، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين ، فما بالك بالضعيف .

٣ — هذا التأويل الذى ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه ، كلاهما لا يجوز . وفتح هذا الباب خطر على الرسالات ، وإذا سلمنا أن الشيطان ، هو الذى نطق في أثناء سكوت الرسول ، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا سمعنا فكيف لا يادر إلى إنكارها ؟ والبيان في مثل هذا وجب على الفور ، وإذا لم يسمع النبى ، ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فكيف يسكتون ؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع ؟

ثم كيف يتفق هذا وما روى : من أن النبى حزن حزنا شديداً وأن جبريل قال له ما جئتكَ بهذا الحق !!

الحق : أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون ، فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث .

### مصادمة القصة للقرآن المتواتر

فقد أفادت القصة : تسلط الشيطان على النبى بالزيادة في القرآن ما ليس منه ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾<sup>(١)</sup> .

وأى شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء — بله رسول الله — ؟

وقال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه ... ﴾<sup>(٢)</sup> . وأى بشر أصدق إيمانا ، وأقوى توكلًا من رسول الله ؟ ..

### وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر

فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته — عليه الصلاة والسلام — من مثل ما روى ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة العرب وهو كفر ، أو أن يتصور عليه الشيطان ، ويشبهه

(١) الحجر آية : ٤٢ .

(٢) النحل آية : ١٠٠ .

عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبي ذلك ، حتى ينبه جبريل ، وذلك ممتنع في حقه أن يقول من قبل نفسه عمدًا وهو كفر ، أو سهوًا وهو معصوم ، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه ، أو قلبه لا عمدًا ولا سهوًا ، أو يكون للشيطان سبيل عليه في التبليغ ، ولو وجدنا ذلك ، لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلًا للتشكيك في الأديان .

ووجه آخر لفساد هذه القصة : وهو أن الله — تعالى — ذم الأصنام في هذه السورة ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وما التمسك بأذيالها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة ، لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظام مفككًا ، والكلام متخاذلاً ، وكيف يقع مدح بين ذمين ؟ بل كيف يجوز هذا من كمل عقله على كل العقول ، واتسع في باب البيان ومعرفة الفصيح علمه ؟ وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض السامعون ، وهم أهل اللسن والفصاحة ، ومنهم أعداؤه الذين يتلمسون له الزلات والعيثرات ؟ ولو أن ما روى كان واقعًا لشغب المعادون ، وارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولقامت قيامة مكة ، كما حدث في الإسراء ، ولكن شيئًا من ذلك لم يكن ..

ومما يدل على افتعال القصة : ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده في رده هذه الفرية ، وهو : أن وصف العرب لأهتهم بالغرائيق لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : إن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم ، إلا ما جاء في : « معجم ياقوت » من غير سند ولا معروف بطريق صحيح ، والذي تعرفه اللغة ، أن الغرنوق والغرائيق : اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، ومن معانيه ، الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك ( راجع القاموس ) ، ولا شيء من معانيه اللغوية ، يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها في فصيح الملام ، الذي يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرائيق ، لأن الذوق الأدنى ، يأبى ذلك .

## زعم مردود

وقد تناول أحد أعداء الدين ، وهو « سيرموير » المستشرق : الذي طبل لهذه القصة وزمر ، أن يدعمها بما يزعم أنه صحيح ، وهو ما روى : أن النبي لما قال ذلك ، تهاذن المسلمون والمشركون ، وترامى الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، فرجعوا إلى وطنهم ، وهو باطل ، والسبب في رجوع مهاجرى الحبشة ، هو : إسلام السيد الهمام عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد أعز الله به الإسلام ،

وقوى شوكة المسلمين ، فخفف المشركون من غلوائهم مما رغب مهاجري الحبشة في الرجوع إلى وطنهم ، وانضم إلى ذلك ، حدوث ثورة في بلاد النجاشي ، كان اعترافه بأن ما جاء به القرآن في عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله حق مصدق لما جاء به الأنجيل ، وإيواؤه المسلمين بعض أسبابها ، فأثر المسلمون العودة على المقام بالحبشة ، خشية أن يتطايروا إليهم الشرر ، والضرر .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهي مخالفة للقرآن المتواتر ، ومناقضة لما ثبت بالعقل ، مع تعذر التأويل ، فلا جرم ؛ أن التحقيق يدعوني ، إلى أن أصدع ، بأن حديث الغرائيق مكذوب محتلق ، وضعه الزنادقة ؛ الذين يحاولون إفساد الدين والطعن في خاتم الأنبياء .

وإذا انتبهنا إلى هذه النتيجة الموقفة ، فما معنى الآية حيثذ ؟ وللإجابة عن ذلك ؛ أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام في تفسيرها ، وفي تفسيرها وجهان ، الأول ، أن التمني بمعنى القراءة ، إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذى ذكره المبطلون ، بل بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه مما يحتمله الكلام ، ولا يكون مراداً للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلك يؤدي إليه ، وذلك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبه ، ويسعون وراء الرية ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حيثذ ، لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ، إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحياً أنزل الله فيه هداية لهم ، قام في وجهه مشاغبون ، يقولون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس ، ولا يزال الأنبياء يجادلونهم في سبيل الحق ، حتى ينتظر ، فينسخ الله ما يلقي الشيطان من شبه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة في الخلق ، ليميز الخبيث من الطيب ، فيفتن ضعفاء الإيمان ، الذين في قلوبهم مرض ، ثم يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتثبت له قلوبهم .

ثانياً : أن التمني : المراد به ، تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى ... وما أرسلنا من رسول ولا نبي ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان في سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس في صدور الناس ، فثاروا في وجهه ، وجادلوه بالسلاح حيناً ، وبالقول حيناً آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها ، ونالوا منه وهو قليل الأتباع ، ظنوا أن الحق في جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جرياً على سنته ، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجلاً ، فينخدع بذلك الذين في قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحى الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات ، وينشئ من ضعف أنصار الآيات قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة

الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، هذا هو الحق ، وما عدا ذلك فهو باطل . أ . ه .

## الأمر لله وحده

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أى ليس كل من تمنى خيراً حصل له بكفوله تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ﴾<sup>(١)</sup> . ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئاً يحصل له .

قال القرطبي وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ من شفاعاة الأصنام ، نزلت في النضر بن الحرث ، وقيل في الوليد بن المغيرة ، وقيل في سائر الكفار .

قوله تعالى : ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، لا ما تمنى أحد . فكل شيء يجرى بتقديره ومشئته ، ومشئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد ، إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال جل في علاه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فاعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله ، لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، كما قال تعالى : ﴿ ... بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة النساء : آية رقم ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٤ .

(٣) سورة الأنبياء : الآيات ٢٦ - ٢٨ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ هم الكفار الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله ﴿ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى أنهم لم يشاهدوا خلقه الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه عن رسول الله ﷺ — ولم يروه فى كتاب ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ الظَّنُّ لَا يَغْنَىٰ مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ أى لا يجدى شيئا ولا يقوم أبدا مقام الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَىٰ ﴾ أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ، ولم يأخذوا بما فيه ، مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة ، وقصص الأولين المذكرة بأمور الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم ، وانتصروا على شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجدوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها . ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ أى أن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُغنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر آذانهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلة من دبير .

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ — « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » (٢) .

(١) سورة الزخرف : آية ١٩٠ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ح ٦ ص ٧١ من رواية لعائشة .

وفي الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » . وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ألا إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما وآله ، وعالمًا ومتعلمًا »<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى وقال حديث حسن وعن أنس — رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »<sup>(٢)</sup> . متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى ﴾ أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمساءه مفكرًا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على السنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها وسار على أثرها — وبمن حاد عن الطريق وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شيء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجاز كلا بما كسب واكتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، بحسب ما أحاط به واسع علمه ، وبمقدار فضله على من أحببت إليه مصداقا لقوله : ﴿ نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

وخلاصة القول : إن هؤلاء قوم لا تجدى منهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، ﴿ فلا تبتس بما كانوا يفعلون ﴾<sup>(٤)</sup> .

## العدالة الإلهية

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى  
 ﴿٢١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنِّمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴿٢٢﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي

(١) أخرجه الترمذى ح ٤ ص ٤٨٥ — ٤٨٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى هو أن الدنيا على الله . رقم ٢٣٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى ح ٤ ص ٦١ عن رواية لأنس .

(٣) الحجر : الآيتان ٤٩ — ٥٠ .

(٤) هود : آية ٣٦ .

تَوَلَّى ۝ وَأَعْطَى قَلِيلًا ۝ وَأَكْدَى ۝ أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهوَ يُرَى ۝ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ۝ أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ۝ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ۝ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ۝ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ۝ وَإِنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۝ وَإِنَّهُ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا ۝ وَإِنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى ۝ وَإِنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَى ۝ وَإِنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى ۝ وَإِنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۝ وَنُوحًا إِذْ مَا أَبْقَى ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى ۝ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ ۝ فَيَأْتِيءُ الْآءَ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذَرِ الْأُولَىٰ ۝ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنْتُمْ سَعِيدُونَ ۝ فَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا ۝

### معاني المفردات

﴿بما عملوا﴾ أى بالعقاب على عملهم . ﴿بالحسنى﴾ أى بالثوبة الحسنى وهى الجنة . ﴿كبائر الإثم﴾ ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر . ﴿الفواحش﴾ واحدها فاحشة ، وهى ما عظم قبحها من الكبائر . ( اللثم ) ما صغر من الذنوب . وهو فى اللغة اسم لما قل قدره ومنه لثم الشعر ، وقيل اللثم : الدنو من الشيء دون ارتكابه من قولهم أُلِمت بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد الهمم بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيب : هو ما خطر على القلب ، ( الأجنة ) واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن . ( تولى ) أى أعرض عن اتباع الحق . ( أكدى ) أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ كُدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل . ( ينبأ ) يخبر . ( صحف موسى ) هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع . ( وفى ) أى أتم ما أمر به ( ألا تزر وازرة وزر أخرى ) . أى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى . ( المنتهى ) أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، ( تمنى ) أى تدفع فى الرحم . ( النشأة الأخرى ) هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث . ( أغنى وأقنى ) أى أغنى من شاء وأفقر من شاء . ( الشعرى ) هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء ، الذى يُقال له مرزم الجوزاء ، وقد عبده طائفة من العرب ، ، ( وعاد الأولى ) هم قوم هود . ( وعادا الأخرى ) من ولد عاد الأولى . ( والمؤتفكة ) هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها اتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم . ( أهوى ) أى أسقط فى الأرض . ( غشاها ) أى غطاها .

﴿ الآلاء ﴾ : النعم واحدها الى ( بالفتح والكسر ) . ﴿ تمارى ﴾ تترى وتشك ، والخطاب للإنسان .  
 ﴿ هذا نذير من النذر ﴾ أى أن محمداً بعض من أنذر . ﴿ أزفت ﴾ قربت والآزة ، الساعة ، وسميت  
 بذلك لقرب قيامها ، أولدونها من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ اقتربت الساعة ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ من دون  
 الله ﴾ أى من غيره . ﴿ كاشفة ﴾ أى نفس تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ،  
 ( والحديث ) القرآن . ﴿ سامدون ﴾ أى لاهون غافلون . وعن ابن عباس : السمود : الغناء فى لغة  
 حمير ، يقال : اسمدى لنا ، أى غنى لنا ، قال أبو عبيدة : المسمود الذى غنى له .

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالإعراض عن المشركين ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وإنهم قوم  
 ضالون لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم ، ذكر هنا أنه لا يهملهم ، بل سيجزيهم  
 بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض فلا يترك عباده هملاً ، بل يجازيهم بعدله ، فيثيب  
 المحسن بالجنة ، ويعاقب المسىء بما هو أهله ، ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين ، ثم حذر عباده  
 بأنه لا تحفى عليه خافية من أمورهم ، من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا ، فيعلم  
 المطيع من العاصي ، فلا حاجة للعبد إذا إلى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات ، ثم ذكر  
 أن من العجب العاجب بعد أن يسمع سامع ، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه  
 جُعلاً ، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً ، حتى وقف عن العطاء ، ومن ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا  
 لا يكون إلا بوحي ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؛ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم ، كشريعة موسى  
 وإبراهيم على غير هذا ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فمن أين  
 وصل له أن ذلك مجز له ، ثم بين سبحانه أنه المحي والمميت ، وأنه هو المتصرف فى أمور العالم خلقاً  
 وتديراً وملكاً ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت  
 رسلها وأنكرت الخالق ، وختم سبحانه السورة ، كما بدأها بالحديث عن هذا القرآن العظيم ، فقال :  
 ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون ﴾ فلا تعجبوا من القرآن منكبين ، ولا تضحكوا  
 منه مستهزئين وابكوا حزناً على ما فرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها  
 سعادتكم ، واسجدوا شكراً لبارئ النسيم الذى أوجدها من العدم ، وابدؤوه بكرة وعشيا ، شكراً  
 على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .



## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم في خلقه بالعدل ، خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم أقداراً ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى ، عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيئته ، بين فضله وعدله . ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى فهو يجازى بحسب علمه المحيط بكل شيء ، المحسن بالإحسان ، والمسيء بصنيع ما أساء ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه أوصاف المحسنين فقال تعالى : ﴿ الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ أى أن المحسنين هم الذين يتعدون عما عظم شأنه من كباثر المعاصي ، كالشرك ، وقتل النفس ، التى حرم الله إلا بالحق ، والزنا ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ... ولا تقع منهم إلا صغائرها ، فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم . كقوله تعالى : ﴿ إن تحببوا كباثر ما تنهون عنه تكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ (٢) .

وقال ههنا : ﴿ الذين يحبون كباثر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظاً من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى

(١) الجاثية : الآيتان ٢١ - ٢٢ .

(٢) النساء : آية ٣١ .

وتشهى ، والفرج يصدق من ذلك أو يكذبه <sup>(١)</sup> ، أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به . فإن تقدم بفرجه كان زانيا ، وإلا فهو اللمم ، كذا قال ابن جرير عن ابن مسعود . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ أَعْتَبُ ﴾ قال : إلا اللمم <sup>(٢)</sup> قال : إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال ابن جرير عن مجاهد أنه قال في هذه الآية ( إلا اللمم ) قال : الذى يلتم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرَ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ مَا أَلَمَّا

وقال الكلبي : اللمم على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا في الدنيا ولا عذابًا في الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم ، يلتم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ أى رحمته سبحانه وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال جل ذكره : ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ <sup>(٦)</sup> . وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ <sup>(٧)</sup> .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم : إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

(١) أخرجه أحمد ح ٢ ص ٢٧٦ طبع دار الفكر العربى . وانظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٤٧ . كتاب القدر . باب قدر ابن آدم حظه من الزنا : رقم ٢٦٥٧/٢١ .

(٢) طه : آية ٨٢ .

(٣) الزمر : آية ٥٣ .

(٤) النساء : آية ١١٠ .

(٥) غافر : آية ٧ .

(٦) الأعراف : الآيات ١٥٦ — ١٥٨ .

ياابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك . يابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة      فلقد علمت بأن عفوك أعظم  
إن كان لا يرجوك إلا محسن      فمن الذى يدعو ويرجو المجرم  
ما لى إليك وسيلة إلا الرجا      وجيئل عفوك ثم إلى مسلم

قوله تعالى : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ . أى هو سبحانه بصير بكم ، عليم بأحوالكم ، وأقوالكم ، التى ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أبائكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين ، فريقاً للجنة ، وفريقاً للسعير .

قال مكحول : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقى ، ثم كنا مراضيع ، فهلك من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفعة ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شباباً ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخاً — لا أبالك — فماذا بعد هذا ننتظر !؟

وقوله : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ أى فإذا علمتم ذلك ، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاة العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصى ، ومن ولغ فيها ودنس نفسه باجتراحها .

قال الحسن فى هذه الآية : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

والآية بكوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون شيئاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٥١٢ كتاب الدعوات . باب فى فضل التوبة والاستفسار . رقم ٣٥٤٠ .

(٢) النساء : آية ٤٩ .

وقال مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتي برة ، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة إن رسول الله ﷺ نهي عن هذا الاسم وسميت برة فقال رسول الله ﷺ « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا بم نسميها ؟ قال : سموها زينب »<sup>(١)</sup> .

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ويلك قطعت عنق صاحبك — مراراً — أو كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلاناً ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحداً ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أفرايت الذي تولى ، وأعطى قليلاً وأكدى ، أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما في صحف موسى ، وإبراهيم الذي وفى ألا تزرر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله : فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴿ وأعطي قليلاً وأكدى ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد ، قال عكرمة وسعيد كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون أكدينا ويتركون العمل .

قوله تعالى : ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ﴾ أى عند هذا الذى أمسك خشية الإنفاق ، وقطع معروفة أعنده علم الغيب أنه سينفذ ما فى يده ، حتى قد أمسك عن معروفة ، فهو يرى ذلك عياناً ؟ أى ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً .

قوله تعالى : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ﴾ أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما فى التوراة وصحفها قرية العهد منهم .

(١) أخرجه مسلم ح ٣ ص ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ برقم ٢١٤٢/١٩ .

(٢) أخرجه أحمد : ح ٥ ص ٤٦ ط دار الفكر العربى .

ثم فصل سبحانه ما جاء في هاتين الشريعتين فقال تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أमत وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ <sup>(١)</sup> . أى ولا تكسب كل نفس إثماً إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أى كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره ، لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط الإمام مالك والإمام الشافعى ومن تبعهما ، أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموقى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه ، بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة — رضى الله عنهم — لو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربان يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما ، وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » <sup>(٣)</sup> . فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث ، إن طيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه ، والصدقة الجارية كالوقوف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إنا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا

(١) سورة الأنعام : آية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٣) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ ومسلم ج ٣ ص ٢٥٥ برقم ١٦٣١/١٤ .

وآثارهم ﴿١﴾ . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ... الحديث » ﴿٢﴾ . ( أفاده العلامة ابن كثير ) .

قوله تعالى : ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أى أن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ، ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين ، كقوله تعالى : ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ ﴿٣﴾ . ﴿ يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره فيضاعف الله له الحسنة ، ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها ، أو يعفو عنها بفضلها ، قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ ﴿٥﴾ . وقال سبحانه : ﴿ مثل الذى ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ ﴿٦﴾ . وقال جل فى علاه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ﴿٧﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن إلى ربك المنتهى ﴾ أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقيير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار ، وفى هذا تهديد بليغ للمسيء ، وحث شديد للمحسن ، وتسليية لقلبه ﷺ ، كأنه يقول له : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عمرو بن ميمون الأودى قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يا بنى أود إني رسول الله ﷺ إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

(١) يس : آية ١٢ .

(٢) أخرجه : صحيح مسلم فى كتاب العلم باب من سند سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة ح ٤ ص ٢٠٦٠

رقم ٢٦٧٤/١٦ .

(٣) التوبة : آية ١٠٥ .

(٤) الطارق : الآيات ٩ ، ١٠ .

(٥) الأنعام : آية ١٦٠ .

(٦) البقرة : آية ٢٦١ .

(٧) البقرة : آية ٢٤٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ﴾ أى خلق فى عباده الضحك والبكاء ، وسببهما وهما مختلفان ، والمراد أن سبحانه خلق ما يسر ، وما يحزن من الأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أى وأنه سبحانه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ هُوَ يَحْيِى وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ﴾ ذلك بأنه على كل شىء قدير ، وكل شىء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شىء ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾ أى وأنه خلق الذكر والأنثى ، من الإنسان وغيره من الحيوان ، من المنى الذى يَدْفَقُ فى الأرحام ، كقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى ؟ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى ؟ ﴾ ثم كان علقه فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴿ وكقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال ههنا سبحانه : ﴿ وَأَنْ عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخَرَى ﴾ أى كما خلق البداءة ، هو قادر سبحانه على الإعادة ، وهى النشأة الأخرى يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ . إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ، وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴾ أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء . قال بن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴾ <sup>(٣)</sup> . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) الطارق : الآيات ٥ - ٨ .

(٢) العنكبوت : الآيات ١٩ - ٢٢ .

(٣) سبأ : آية ٣٩ .

(٤) العنكبوت : آية ٦٢ .

(٥) الروم : آية ٣٧ .

فسبحان الخالق . البارئ . المصور ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ،  
الرافع ، المعز ، المذل ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز  
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولى الليل في النهار وتولج النهار في  
الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم :  
هو هذا النجم الوقاد ، الذي يقال مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ، وإنما ذكر أنه رب  
الشعرى ، وإن كان ربا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبد ، فأعلمهم الله — جل وعز — أن الشعرى  
مربوب وليس برب ، قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس  
والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن  
الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾ وهى قوم هود عليه السلام ، وعاد الأخرى هى إرم  
بن سام بن نوح ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق  
مثلا فى البلاد ﴾<sup>(٣)</sup> . وقد كانوا من أشد الأمم وأقوامهم وأعتاهم على الله ورسوله ، فأهلكهم ﴿ برج  
صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾<sup>(٤)</sup> . أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأولى من ولد عاد الأولى .

وقوله تعالى : ﴿ وثمود فما أبقي ﴾ أى وأهلك ثمود فما أبقي عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم ،  
أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة  
العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقوله ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد  
وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدعوا بالظلم ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من

(١) آل عمران : الآيات ٢٦ — ٢٧ .

(٢) الحج : آية ١٨ .

(٣) الفجر : الآيات ٦ — ١١ .

(٤) الحاقة : الآيات ٦ ، ٧ .

(٥) فصلت : آية ١٧ .



عمل بها ، وكانت أطغى منهما ، وأكثر تجاوز للحد ، لأنهم سمعوا المواعظ ، وطال عليهم الأمد ، وليث فيهم النبي نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ولم يرتدعوا ، حتى دعا عليهم نبيهم ، بقوله : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ، ويمشي إلى نوح ، يحذره منه ، ويقول : يا بني إن أبى مشى بى إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فأياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، ولا يتأثر من دعائه له ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ <sup>(٣)</sup> . قوله تعالى : ﴿ والمؤتفة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، قال تعالى : ﴿ فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقوله : ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أى ألبسهما ما ألبسهما من الحجارة كما قال تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى ، هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ .

قوله ﴿ فبأى آلاء ربك تتماهى ﴾ أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان ، تمشى وتمترى وتشك ؟ كقوله تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ <sup>(٦)</sup> . وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ <sup>(٧)</sup> . وكقوله سبحانه : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ <sup>(٨)</sup> .

(٥) النمل : آية ٥٨ .

(٦) الواقعة : آية ٨٣ .

(٧) الانفطار : الآيات ٦ ، ٧ .

(٨) الرحمن : آية ١٣ .

(١) نوح : آية ٢٦ .

(٢) نوح : الآيات ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) نوح : آية ٢٥ .

(٤) الحجر : آية ٧٤ .

وقوله تعالى : ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾ يعنى محمدًا ﷺ من نذر من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، يسىء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل بالذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم فآخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال ، جزاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى ترى عليه . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أى اقتربت القرية ، وهى القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم ، قبل أن تأخذكم الساعة بغتة . وأنتم لا تشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجدوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار سبحانه فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

- (١) وحدانية الله بقوله : ﴿ فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾ .
  - (٢) إثبات نبوة محمد ﷺ بقوله : ﴿ هذا نذير ﴾ .
  - (٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ .
- ثم أنكر المشركون تعجبهم من القرآن ، واستهزاءهم به وإعراضهم عنه ، فقال تعالى : ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون ﴾ .

أى أفينفى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن ، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ، وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ ويخرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ (٣) . وكيف تلهون عن استماع عبره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتلقونها تلقى الله السامى المعرض عما يسمع ، غير المكرثر بما يلقى إليه .. ﴿ وأنتم سامدون ﴾ والسمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقىنة : أسمدتينا ، أى أهينا بالغناء قال الحسن ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى غافلون .

(١) سبأ : آية ٤٦ .

(٢) غافر : آية ١٨ .

(٣) الإسراء : آية ١٠٩ .

ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له ، والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ ، والتوحيد والإخلاص : ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ أى فاخلعوا له وأخلصوا ووحده .

## تحقيق علمى فى تحريم الغناء

قوله تعالى : ﴿ وأنتم سامدون ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بالجميرية ؛ اسمدى لنا ؛ أى غنى لنا ، وهى إحدى الآيات الثلاث التى استدلت بها العلماء على تحريم الغناء .

والآية الثانية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾<sup>(١)</sup> . سئل ابن مسعود عنها ، فأقسم والله الذى لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات إنه الغناء ، وعن ابن عمر إنه الغناء ، وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول .

(٢)

والآية الثالثة : ﴿ واستغفر من استطعت منهم بصوتك ﴾ قال مجاهد الغناء والمزامير صوت الشيطان . وروى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله .. ﴾ إلى آخر الآية<sup>(٣)</sup> » .

وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبى ﷺ قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما ، صوت مزار ورثة شيطان عند نعته ، ومرح ورثة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب<sup>(٤)</sup> » .

(١) لقمان : آية ٦ .

(٢) الأيسراء : آية ٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى : ح ٥ ص ٢٥ ، تفسير سورة لقمان من رواية لأبى أمامة .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الجنائز » باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، ح ٢ ص ٢٣٧ ، حديث رقم ١٠١١ من رواية الجابر بن عبد الله جاء فيها « ..... ولكن نهي عن صوتين أحمرين فاجرين : صوت عند مصيبة : حمش وجوه ، وشق جيوب ورثة شيطان » . وقال فى الحديث كلام أكثر من هذا . وانظر مجمع الزوائد « باب فى النوح » ح ٣ ص ١٣ ، فقد ورد الحديث من رواية لأنس ولفظه : « صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : مزار عن نعمة ورثة عند مصيبة » رواه البزار ورجاله ثقات . وفى كشف الأستار عن زوائد البزار ح ١ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، « باب ما جاء فى النوح » حديث ٧٩٥ ، لأنس بن مالك « نص رواية مجمع الزوائد » . وفى باب « جواز البكاء » للبزار ورد الحديث ٨٠٥ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ورد رواية لعبد الرحمن بن عوف جاء فيها « ..... إنما نهي عن النوح ، عن صوتين أحمرين فاجرين صوت عند نعمة ، لعب وهو مزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة حمش وجوه ، وشق جيوب ورثة شيطان ... » إلخ .

وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس إلى قينة يسمع منها صب في أذنه الآنك يوم القيامة »<sup>(١)</sup> . ( والأنك الرصاص المذاب ) .

قال القرطبي . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء ، وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذى يحرك النفوس ، ويعيئها على الهوى ، والغزل والمجون ، الذى يحرك الساكن ويعيئ الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشَبِّب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهم وذكر الخمر والمحرّمات لا يختلف فى تحريمه ؛ لأنّه اللّهو والغناء المذموم بالاتفاق ، فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحدّ أنجشة وسلمة بن الأكوع ، فأما ما ابتدئته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغاني بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعاذف والأوتار فحرام .

وقال العلامة ابن القيم : ( فى كتابه إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان ) :

« ومن مكايد عدو الله ومصايدّه ، التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ؛ سماع المكاء والتصديّة ، والغناء بالآلات المحرّمة ، الذى يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كادبه الشيطان النفوس المبطلّة ؛ وخسّنه لها مكرًا منه وغرورًا ، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا ، فلو رأيتهم عند ذاك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت واحدة إليه ، فتأيلوا له ولا كتأيل النشوان ، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم ، أرايت تكسر الخنايث والنسوان ؟ ويحقّ لهم ذلك ؛ وقد خالط خمارة النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيّا الكؤوس ، فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق ، وأمّوال فى غير طاعة الله تنفق ، واستفزههم بصوته رحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله ، ونخز فى صدورهم وخزًا ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أَرًا فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالذباب ترقص وُسيط الدار ، فيأرحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، ويساوتنا من أشباه الحمير والأنعام ، ويشامتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربًا ،

(١) انظر تفسير القرطبي « تفسير سورة لقمان » ج ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظة من رواية لأنس بن مالك .

واتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره ، لما حرك له ساكناً ، ولا أزعج له قاطئاً ، ولا أثار فيه وجداً ، ولا قدح فيه من لواجع الشوق إلى الله زنداً ، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت ، فيأبها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون ؛ هلا كانت هذه الأشجان عن سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكلة ، والجنسية علة الضم قدرًا وشرعًا ، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعًا ، فمن أين هذا الأخاء والنسب ؟ لولا التعلق من للشيطان بأقوى سبب ، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً ؟ ﴿ أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ (١) .

ولقد أحسن القائل :

لكنه إطراق ساه لاهى  
والله ما رقصوا لأجل الله  
فمتى رأيت عبادة بملاهى ؟  
تقييده بأوامر ونواهى  
زجرًا وتخويفًا بفعل مناهى  
شهواتها ، يابحها المتناهى  
فلأجل ذلك غدا عظيم الجاه  
أسبابه ، عند المجهول الساهى ؟  
خمر العقول بمائل ومضاهى  
وانظر إلى النسوان عند ملاهى  
من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى  
— ريم ، والتأثيم عند الله ؟

ثلى الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة  
وأبى الغناء ، فكالحمير تناهقوا  
دف ، ومزمار ، ونغمة شادين  
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا  
سمعوا له رعبًا وبرقًا ، إذ حوى  
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن  
وأبى السماع موافقًا أغراضها  
أبى المساعد للهوى من قاطع  
إن لم يكن خمرًا للجسوم ، فإنه  
فانظر إلى النشوان عند شربه  
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه  
واحكم فأبى الخمرتين أحق بالتحـ

ويقول ابن القيم :

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي في خطبه كتابه ، في تحريم السماع : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يرينا الحق حقاً فنقتبه ، والباطل باطلاً فنجتنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يتستر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأثم بالمعصية جهاراً ، ثم ازداد الأمر إداراً ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ، وفقنا الله وإياهم ، استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني واللغو ، وسماع الطقطقة والنقيير ، واعتقدته من الدين الذي يقرهم إلى الله ، وجاهرت به جماعة المسلمين ، وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾<sup>(١)</sup> .

فرايت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التي تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء ، الذين تدور الفتيا عليهم في أقاصي الأرض ودانيتها ، حتى تعلم هذه الطائفة ، أنها قد خالفت علماء المسلمين في بدعتها ، والله ولي التوفيق .

## فتاوى الأئمة الأربعة في الغناء

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية ، كان له أن يردها بالعيب .

وسئل مالك رحمه الله : عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء ؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب . قلت : مذهب أبي حنيفة في ذلك من أشد المذاهب ، وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاحى كلها ،

كالزمار ، والدقة ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق ، والتلذذ به كفر ، هذا لفظهم ، ورووا في ذلك حديثاً لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد في أن لا يسمعه إذا مر به أو كان في جواره .

وقال أبو يوسف في دار يسمع منها صوت المعازف والملاهي : أدخل عليه بغير إذنه ، لأن النهي عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام ، إذا سمع من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سيّطاً ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعي : فقال في كتاب أدب القضاء : إن الغناء هو مكروه ، يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفیه ، ترد شهادته ، وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضي إلى الطيب الطبري ، والشيخ إلى إسحاق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق في التنبيه : ولا تصح ، يعنى الإجارة ، على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافاً . فقد تضمن كلام الشيخ أموراً :

أحدهما : أن منفعة الغناء بمجرد منفعة محرمة .

الثاني : أن الاستئجار عليها باطل .

الثالث : أن أكل المال به ، أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضاً عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله في مقابلة محرم ، وأن بذله في ذلك كبذله في مقابلة الدم والميتة .

الخامس : أن الزمر حرام ، وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو حراماً ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، والبراع ، ولا ينبغى لمن شم رائحة العلم أن يتوقف في تحريم ذلك ، فأقل ما فيه : أنه من شعار الفساق وشاربى الخمر .

وكذلك قال أبو زكريا النووي في روضته :

القسم الثاني : أن يغنى ببعض آلات الغناء ، بما هو من شعارشاربي الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والعنبر ، وسائر المعازف والأوتار ، يحرم استعماله واستماعه . قال : وفي اليراع وجهان ، صحح البغوى التحريم .

ثم ذكر عن الغزالي الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة ، وقد حكى أبو عمرو ابن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذى جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال في فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء ، إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله فى الإجماع والاختلاف ، أنه أباح هذا السماع ؛ والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى ، إنما نقل فى الشبابة منفردة ، والدف منفرداً ، فمن لا يحصل أولاً يتأمل ربما اعتقد خلافاً بين الشافعيين فى هذا السماع الجامع لهذه الملاهى ، وذلك وهم بين الصائر إليه ؛ تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص فى أقاويلهم تزندق أو كاد .

قال : وقولهم فى السماع المذكور : أنه من القربات والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما فى قوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ (١) .

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال : خلفت ببغداد شيئاً أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغير ، يصدون به الناس عن القرآن .

فاذا كان هذا قوله فى التعبير ، وتعليله أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطح أو مخدة على توقيع غنائه ، فليت شعرى ما يقول فى سماع التغير عنده كنفلة فى بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل حرام ، فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .



ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبد الله ابنه : سألت أبا عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق في القلب ، لا يعجبني . ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق ....

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها ، وعنه في كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص في أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة ، فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفاً ونحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوي ألفين . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

## سماع الأغاني من المرأة من أعظم المحرمات

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد ، فمن أعظم المحرمات وأشدّها فساداً للدين .

قال الشافعي رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه تردّ شهادته ، وأغلظ القول فيه ، وقال : هو ديانة ، فمن فعل ذلك كان ديوثاً .

قال القاضي أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهاً ، لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهاً فاسقاً .

قال : وكان الشافعي يكره التبغير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن .....

## شبهات والرد عليها

قال العلامة ابن القيم في كتابه ( مدارج السالكين )

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مبلح : بكونه مستلذاً طبعاً ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمال يقاسى تعب السير ومشقة الحموله ، فيهن عليه بالحُداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة في خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال : ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾<sup>(١)</sup> . وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ، فقال فيه : ﴿ فهم في روضة يحبرون ﴾<sup>(٢)</sup> . وإن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حراماً ، وهو في الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأذنه — أى كاستماعه — لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن ، وبأن أبا موسى الأشعري استمع النبي ﷺ إلى صوته ، وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود »<sup>(٣)</sup> . أى زينته لك وحسنه . وبقوله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم »<sup>(٤)</sup> . وبقوله ﷺ « ليس منا ما لم يتغن بالقرآن »<sup>(٥)</sup> . والصحيح : أنه من التغنى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسده الإمام أحمد رحمه الله ، فقال يحسنه بصوته ما استطاع . وبأن النبي ﷺ أقر عائشة على غناء القيتين يوم العيد . وقال لأبي بكر : « دعهما . فإن لكل قوم عيداً . وهذا عيدنا أهل الإسلام »<sup>(٦)</sup> .

وبأنه ﷺ أذن في العرس في الغناء وسماه لهواً . وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :  
نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً  
ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادى في منصرفه من خبير . فجعل يقول :

والله لولا الله ما لفقدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا	إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صيح بنا أتينا	وبالصياح عولوا علينا

ونحن عن فضلك ما استغينا

(١) لقمان : آية ١٩ .

(٢) الروم : آية ١٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ح ١ ص ٥٤٦ ، حديث رقم

٧٩٣/٢٣٦ .

(٤) انظر سند أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة ح ٢ ص ٥٥٥ رقم ١٤٦٨ .

(٥) انظر سنن أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل في القراءة ح ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤٦٩ .

(٦) انظر سند الإمام أحمد ح ٦ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

فدعا لقائله :

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه بيرده .  
 واستنشد الأسود بن سريع قصائده حمد بها ربه .  
 واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية .  
 وأنشده الأعشى شيئاً من شعره فسمعه .  
 وصدق لبدا في قوله : الاكل شيء ما خلا الله باطل .  
 ودعا لحسان « أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافع عنه » وكان يعجبه شعره . وقال له  
 « اهجهم . وروح القدس معك »<sup>(٥)</sup> .

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى :  
 ومبرأ من كل غير حـيـضه      وفساد مرضعة وداء مُغـيـل  
 وإذا نظرت إلى أسيرة وجهه      برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت « أنت أحق بهذا البيت » فسُرَّ بقولها .  
 وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليا  
 لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح في هؤلاء السادة القدوة الأعلام .  
 وبأن الإجماع منعقد على إباحتها أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت آدمى أولى  
 بالإباحتها ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدد روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيئاً  
 له على الحرام ، وإن كان مباحاً كان السماع في حقه مباحاً ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع  
 في حقه قرينة وطاعة ، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيئها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب ، كاللذاز العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة ، والفم  
 بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حراماً كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

فالجواب :

إن هذه حَيِّدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائماً لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ، فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة ، تكون في الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح ، فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذه إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم ، وهل يستدل بوجود اللذة والملازمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التي صح عن النبي ﷺ تحريمها ، وأن في أمته من سيستحلها بأصح إسناد ، وأجمع أهل العلم على تحريمها ، إلا لذينة تُلذ السمع ؟ وهل في التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة أو تحريم .

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب ، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة السنة الجميلة ، أليست زيادة في النعمة ، والله خالقها ومعطى حسننها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟ وهل في ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدقوف والشبابات ؟!

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر ، بأن في الجنة خمرًا ، وعلى حل لباس الحرير ، بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حل أواني الذهب والفضة والتحلّى بهما للرجال ، بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به في الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع ، قيل : هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع »

فيقال لك : أى السماعات تغنى ؟ وأى المسموعات تريد ؟ . فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب والمستحب ، فعين نوعاً يقع الكلام فيه نفياً وإثباتاً .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجى به أعداؤه ؟ . فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتداسونها ، وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأئاب عليها ، وحرص حسناً عليها ، وهى التى غرت أصحاب السماع الشيطاني فقالوا : تلك قصائد ، وسماعتنا قصائد ، فنعلم إذن ، والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتبسيح كلام ، والغنية كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعتكم هذا الشيطاني المشتغل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟

ونظير هذا : ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأذنه له ، وإذنه فيه ، ومحبة الله له ، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القذ والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الحدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجنى والمهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى ، مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه ، إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها ، إلا فى عسكر الهالكين ، سليماً حريئاً ، أسيراً قتيلاً ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس ، وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويبسح له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أن لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب ، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لا فاقد ، فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع — المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية — بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى عيد وفرح ، وأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم ، فأين هذا من هذا ؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق رضى الله عنه سمي ذلك « زموراً من مزامير الشيطان » وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجوئيتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة في إنشادهما ولا استماعهما ، أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى ؟ فياسبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم في هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة ، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (١) . وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدين ، وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء ، بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القمرى والبلبل والحفراز ونحوها ؟ بل تقول : لو كانا سواء ، لكان اتخاذ هذا السماع قرينة وطاعة ، تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع في حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك ، فمن لم يبين عليها فبناؤه على شفا جرف هار .

## القاعدة الأولى :

إن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحكم إليه ؟

فهذا ينشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكماً ، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكماً للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر ، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيروه إلى النفوس ، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون أنفسهم ...

فليتدبر اللبيب هذا الموضع في نفسه وفي غيره ، فكل ما خالف مراد الله الديني من العبد ، فهو حظه وشهوته ، مالا كان ، أو رياسته ، أو صورة ، أو حالاً ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

## تحكيم الوحي :

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدث المكاشف — عمر رضى الله عنه — لا يلتفت إلى ذوقه ووجدته ومخاطباته في شيء من أمور الدين ، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشيء ولم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجدته وخطابه ، بل يقول « لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ويقول : « يأياها الناس ، رجل أخطأ وامرأة أصابت » فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

## القاعدة الثانية :

إنه إذا وقع النزاع في حكم من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق ، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة ، عند الله ، وعند عباده المؤمنين ، وهى وحيه الذى تتلقى أحكام التوازل والأحوال والواردات منه ، وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله وردده فهو الباطل المردود ، ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ؛ فليس على شيء من الدين ، وإن . وإن ، وإنما معه خدع وغرور ﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١) .

## القاعدة الثالثة :

إذا هكل على الناظر أو السالك حكم شيء ، هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولاسيما إذا كان طريقاً مفضياً إلى ما يغضب الله ورسوله ، موصلاً إليه عن قرب ، وهو رقية له ورائد وبريد ، فهذا لا يشك في تحريمه أو لو البصائر .

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ، لأنه يسوق النفس إلى السكر ، الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقاً للنفس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو « رقية الزنا » وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبي إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك بغنى عن البرهان ، ولا سيما إذا جمع هيئة تحذو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور ، بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان ، والعُشراء والإخوان ، وآلات المعازف ، من البراع والدف والأوتار والعيدان ، وكان القوال شاذاً شجى الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ، وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

## ما جاء فى الشرع من أسماء السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى

قال ابن القيم : « هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى له فى الشرع بضعة عشر اسماً :

اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

أسماءه دلت على أوصافه ————— تباً لذى الأسماء والأوصاف

فذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقعها عليه فى كلام الله ، وكلام رسوله والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب الزمار ، والدف ، والغنا	وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش فى غيّه وضلاله	على تاتنا يحيا ويعث أشيا
وفى تتنا يوم المعاد نجاته	إلى الجنة الحمراء ، يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة	أضاع ، وعند الوزن ما خف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته	إذا حصلت أعماله كلها هبا
دعاه الهدى والغى من ذا يجيبه ؟	فقال لداعى الغى : أهلاً ومرحباً
وأعرض عن داعى الهدى ، قاتلاً له :	هواى إلى صوت المعازف قد صبا



فالاسم الأول : اللهو ، ( هو الحديث )

قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾ (١) .

.. قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ..

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وهذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبى إسحاق أيضا .

وقال : أكثر ما جاء في التفسير : أن هو الحديث ههنا هو الغناء ، لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء — ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء ، قال : وأما غناء الفتيات ، فذلك أشد ما في الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبي ﷺ قال : « من استمع إلى قينة صُب في أذنيه الآنك يوم القيامة » (٢) . والآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير هو الحديث بالغناء مرفوعا إلى النبي ﷺ ففي سند الإمام أحمد ، وسند الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة والسياق للترمذى : أن النبي ﷺ قال : « لا تتبعوا المغنيات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام » (٣) .

في مثل هذا نزلت هذه الآية :

﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ .

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زجر عن على بن يزيد الإهالى عن القاسم ،

(١) لقمان : الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبي « تفسير سورة لقمان ح ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد ح ٥ ص ٢٦٤ .

فعبيد الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلى ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سندكرها إن شاء الله تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .. وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا أنه الغناء .

ولا تعارض بين تفسير « هو الحديث » بالغناء ، وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن ، فكلاهما هو الحديث ، ولهذا قال ابن عباس : هو الحديث : الباطل والغناء . فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ، ومنهم من جمعهما .

إذا عرف هذا ، فإهل الغناء ومستبعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن وإن لم ينالوا جميعه . فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل هو الحديث بالقرآن ، ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ، وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئا استهزأ به ، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرا ، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعينهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه أنك لا تجد أحدا عنى بالغناء وسماع آياته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علما وعملا ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن ، عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يسكت القارىء ، ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغنى ، ويستقصر نوبته .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فإما من مات قلبه ، وعظمت فنتته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة . ﴿ ومن يرد الله فنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾<sup>(١)</sup> .

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) المائدة : آية ٤١ .

(٢) الفرقان : آية ٧٢ .

قال محمد بن الحنفية : الزور ههنا الغناء ، وقاله ليث عن مجاهد : وقال الكلبي : لا يحضرون مجالس الباطل .

قال الزجاج : لا يجالسون أهل المعاصي ، ولا يماثلونهم عليها ، ومروا من الكرام ، الذين لا يرضون باللغو ، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله .

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ (١) .

وقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ ولم يقل بالزور ، لأن ( يشهدون ) بمعنى يحضرون . فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور . فكيف بالشكلم به وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور . والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » فالزور : القول ، والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل ، ومنه الزور ، بالفتح ، ومنه : زرت فلاناً إذا ملت إليه ، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل ، الذي لا حقيقة له قولاً وفعلاً .

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق . قال ابن وهب : أخبرني سليمان بن بلال عن كثير بن زيد ، أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى في الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل ، فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : رأيت الباطل ، أين هو ؟ قال : في النار ، قال : فهو ذاك .

وقال رجل لابن عباس رضي الله عنهما : ما تقول في الغناء ، أحلال هو أم حرام ؟ فقال :

(١) القصص : آية ٥٥ .

(٢) المؤمنون : الآيات ١ - ٣ .

لا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاء يوم القيامة : فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس ، اذهب فقد افقتت نفسك .

فهذا جواب ابن عباس رضي الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذي ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف ، والآلات المطربات ، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء ، لقالوا فيه قول ، فإن مضرتهم وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمن أبطل الباطل أن تأتى شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم ، فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على المذكاة ، والتحليل للملعون فاعله على النكاح ، الذي هو سنة رسول الله ﷺ .

وأما اسم المكاء والتصدية

فقال تعالى عن الكفار :

﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾<sup>(١)</sup> .

قال ابن عباس ، وابن عمر ، وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن وقتادة : المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق .

قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون .

قال ابن عرفة ، وابن الانباري : المكاء والتصدية ليسا من الصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية ، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار .

والمقصود : أن المصفيق والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر ، بل

أمروا بالعدول عنه إلى التسييح ، لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا حاجة ، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلًا ؟ .

وأما تضميته رقية الزنا

فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس في رقى الزنى أنجح منه ، وهذه التسمية ، معروفة عن الفضيل بن عياض . قال ابن أبي الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن ، قال : قال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا .

قال : وأخبرني محمد بن الفضل الأزدي ، قال : نزل الخطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة ، فلما جنة الليل سمع غناء ، فقال لصاحب المنزل ، كف هذا عني ، فقال : وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعني ابنته ، فإن كفته وإلا خرجت عنك .

فإذا كان الشاعر المفتون اللسان ، الذي هابت العزب هجاءه ، خاف عاقبة الغناء ، فما الظن بغيره ؟ ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنى ، فهو أعلم بالأثم الذي يستحقه .

ومن المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل ، اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطى اللبان . وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًا ، فإذا كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين ، من جهة الصوت ، ومن جهة معناه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأنجشة حاديه : « يأنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير »<sup>(١)</sup> عني النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة ، والرقص بالتخنق والتكسر ، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسمًا قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطاف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (باب رحمة النبي ﷺ بالنساء) - ٤ ص ١٨١١ رقم ٢٣٢٣/٧٠ .

به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة وذلك منه من إحدى العطايا ، وكم خبأ لأهله من آلام ينتظره ، وغموم متوقعة ، وهموم مستقبلية .

وأما تسميته منبت النفاق

فقال علي بن الجعد ، عن ابن مسعود رضی الله عنه قال : « الغناء ينبت النفاق في القلب » .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعاً ، رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الملاحى .

قال بسنده عن عبد الله بن مسعود رضی الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت الماء البقل »<sup>(١)</sup> ... وفي رفعه نظره والموقوف أصح .

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق في القلب من بين سائر المعاصي ؟

قيل : هذا من أول شيء على فقه الصحابة في أحوال القلوب وأعمالها ، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها ، فكانوا كالمداوى من السقم بالسقم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التي ركبوها أو بأكثرها . فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن في السلف ، والعدول عن الدواء النافع الذي ركب الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة المرضى ، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتألت الدور ، والطرقات والأسواق ، من المرضى ، وقام كل جهول يطيب الناس ، فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه كنبات الزرع في الماء .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان في القلب أبداً لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغى ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسسه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ، ح ١٠ ص ٢٢٣ كتاب الشهوات ، باب الرجل يغنى فيخذ الغناء صناعة يؤتى عليه ويأتى له ويكون منسوباً إليه مشهوراً به معروفاً أو المرأة .

ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح ، فهو والخمر رضيعاً لبان ، وفي تمهيجهما على القبائح فرسا رهان ، فإنه صنو الخمر ورضيعه ، ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ ، وأحكم بينهما الوفاء التى لا تنسخ ، وهو اجس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل فى مكانم القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة والرقاعة ، والرعوننة والحماقة ، فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار ، وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع إلى الغناء ومال إليه ، نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه ، وقال : يارب لا تجمع بينى وبين قرآن عدول فى صدر واحد ، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب ، والزهوة والفرقة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويشب وثبات الذباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أذكر ليلة وقد اجتمعنا	على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغاني	فأسكرت النفوس بغير راح
فلم نر فيهم إلا نشاوى	سروراً ، والبرد هناك صاص
إذا نادى أخو اللذات فيه	أجاب اللهو : حى على السماع
ولم نملك سوى المهجات شيئاً	أرقناها <u>                    </u> لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق فى قوم ، والعناد فى قوم ، والكذب فى قوم ، والفجور فى قوم ، والرعوننة فى قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على القلب ، ويكرهه إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقاً فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان ، كما سيأتى ، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن فى قلب أبداً .

وأيضاً فإن أساس النفاق ، أن يخالف الظاهر الباطن ، وصاحب الغناء بين أمرين :

أما أن يتهتك ، فيكون فاجراً ، أو يظهر النسك ، فيكون منافقاً ، فإنه يظهر الرغبة في الله ورسوله من أصوات المعازف وآلات اللهو ، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من حجة ما يحبه الله ورسوله ، وكراهة ما يكرهه قفر ، وهذا محض النفاق .

وأيضاً : فإن الإيمان قول وعمل ، قول بالحق ، وعمل بالطاعة . وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن ، والنفاق قول بالباطل ، وعمل البغي ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضاً ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، وفقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضاً : فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عن النفاق .

وأيضاً ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .  
وأيضاً : فإن المنافق يفسد من حيث يظن أن يصلح ، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين ، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أن يصلحه . والمغنى يدعوا القلوب إلى فتنة الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات .

قال الضحّاك : « الغناء مفسدة للقلب ، مسخطة للرب » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق . وبالجملّة فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته : قرآن الشيطان

فمأثور عن التابعين ....

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين ، قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاحى والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبي جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرانه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .



وأما تسميته : بالصوت الأحق ، والصوت الفاجر .

فهى تسمية الصادق المصدق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

« خرج رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يوجد بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكي وأنت تنهى الناس ؟ قال : إني لم أنه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحقرين فاجرين : صوت عند نغمة هو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمخ وجوه ، وشق جيوب ، ورنه ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم ، لولا أنه حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك جزئاً هو أشد من هذا ، وإنا بك لحزنون ، تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » قال الترمذى : هذا حديث حسن <sup>(١)</sup> .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتاً أحق ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبي ﷺ أبا بكر الصديق على تسمية الغناء زمور الشيطان ، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبداً .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه صوتاً أحق فاجراً ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحداً ، ووصفهما بالحمق والفجور وصفاً واحداً .

وقال الحسن : صوتان ملعونان : مزار عند نغمة ، ورنه عند مصيبة .

وأما تسميته صوت الشيطان .

فقد قال الله تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ اذهب فمَن تبعك منهم فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ، وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصُوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ ، وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، وَعَدْتُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه الترمذى ، أبواب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ح ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ . هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الإسراء : الإيتان ٦٣ - ٦٤ .

قال ابن أبي حاتم في تفسيره : عن ابن عباس : ( واستفزز من استطعت منهم بصوتك ) قال : كل داع إلى معصية .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعي إلى المعصية ، ولهذا فسر صوت الشيطان به ، قال ابن أبي حاتم : عن مجاهد ( واستفزز من استطعت منهم بصوتك ) قال : استزل منهم من استطعت .

قال : وصوته الغناء ، والباطل ...

وهذه الإضافة إضافة تشخيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك ، فكل مثلكم بغير طاعة الله ، ومصوت يبراع أو مزمارة ، أو دف حرام ، أو طبل ، فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع في معصية الله على قدميه ، فهو من رجله ، وكل راكب في معصية الله فهو من خياليته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ( رجله ) : كل رجل مشى في معصية الله . وقال قتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس .

وأما تسميته زمور الشيطان .

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : « دخل على النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعات ، فاضطجع على الفراش وحول وجهه ، ودخل أبو بكر رضي الله عنه فانتهرني . قال : مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا » (١) .

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبي بكر تسمية الغناء مزمارة الشيطان ، وأقرهما لأنها جاريتان غير مكلفتين ، بغناء الأعراب الذي قيل في يوم حرب بعات من الشجاعة والحرب ، وكان اليوم يوم عيد ، فتوسع حزب الشيطان في ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبي أمرد صوته فتنة ، صورته فتنة ، يغني بما يدعو إلى الزنى والفجور وشرب الخمر ، مع آلات اللهو التي حرسها رسول الله ﷺ في عدة أحاديث . ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه في الشجاعة ونحوها في

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان لأبو عبد الله البنايوري كتاب صلاة العيدين رقم ٥١٣ ص ١٩٦ .

يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل ، نعم ؛ نحن لا نجزم ولا نكره مثل ما كان في بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه ، وإنما نجزم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته بالسمود :

فقد قال الله تعالى ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ﴾ .

قال عكرمة عن ابن عباس « السمود : الغناء في لغة حمير » . يقال : اسمدى لنا ، أى غنى لنا ، وقال أبو زبيد :

وكان العزيف فيها غناء      للندامى من شارب مسمود

قال أبو عبيدة : المسمود : الذى غنى له ، وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية .

وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية ، من أن السمود الغفلة والسهو عن الشيء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشيء بهم أو فرح ، يتشاغل به ، وأنشد :

رمى الحدثان نسوة آل حرب      بمقدار سمدن له سُودا

وقال ابن الأنبارى : السامد اللاهى ، والسامد الساهى ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس في الآية : وأنتم مستكبرون . وقال الضحاک : أشرون بطرون . وقال غيره اللاهون غافلون معرضون ، فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء .

أسماءه دلت على أوصافه      تبلى لذى الأسماء والأوصاف

## تفسير سورة القمر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : خمس وخمسون ..

وكلماتها : ثلاثمائة واثنان وأربعون .

وحروفها : ألف واربعمئة وثلاثة وعشرون .

وفواصل آياتها كلها على حرف الراء .

وسميت سورة القمر : لاشتغالها على ذكر انشقاق القمر .

معظم مقصود السورة :

تخويف بهجوم القيامة ، والشكوى من عبادة أهل الضلالة ، وذلمهم في وقت البعث وقيام الساعة ، وخبر الطوفان ، وهلاك الأمم المختلفة ، وحديث العادين ونكبتهم بالنكباء ، وقصة ناقة صالح ، وإهلاك جبريل قومه بالصيحة ، وحديث قوم لوط وتماديهم في المعصية ، وحديث فرعون ، وتعديه في الجهالة ، وتقرير القضاء والقدر ، وإظهار علامة القيامة ، وبروز المتيقن في الجنة في مقعد صدق ، ومقام القربة في قوله تعالى : ﴿ مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ .

المتشابه من سورة القمر :

قصة نوح وعاد وثمود ولوط ، ذكر في كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حل بهم ، ليتعظ به حامل القرآن وتاليه ، ويعظ غيره ، وأعاد في قصة عاد ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ مرتين ؛ لأن الأولى في الدنيا ، والثانية في العقبى ، كما قال في هذه القصة : ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ <sup>(١)</sup> وقيل : الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم ، والثانية لتحذير غيرهم بعد إهلاكهم .

## مناسبة السورة لما قبلها :

من وجوه

(١) مشاكلة آخر السورة لأول هذه ، فقد قال تعالى في آخر سورة النجم : ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ما جاء في سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التي كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذي أشار عليه في السابقة ، بقوله : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعَرِّضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَلِیْغَةٌ ۚ فَا تُغْنِ الْنُذُرُ ۚ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ یَوْمَ یَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكْرٍ ۚ خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ یَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۚ مَّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ یَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا یَوْمٌ عَسِرٌ ۚ ﴾

## معاني المفردات

( اقتربت ) أى دنت وقربت .

انشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين .

( آية ) : أى دليلا على نبوتك .

( مستمر ) : أى مطرد دائم .

- ﴿ أهواءهم ﴾ : أى مازينه لهم الشيطان من الوسوس والأوهام .  
 ﴿ مستقر ﴾ : أى منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة .  
 ﴿ الأنبياء ﴾ : أخبار القرون الماضية . وما حاق بهم من العذاب ، جزاء تكذيبهم للرسل ، واحداها نبأ .  
 ﴿ بالغة ﴾ : أى واصله غاية الأحكام والإبداع ، ﴿ تغنى ﴾ أى تفيد وتنفع .  
 ﴿ النذر ﴾ : واحدهم نذير بمعنى منذر .  
 ﴿ فتول عنهم ﴾ : أى لا تجادلهم ولا تحاجهم .  
 ﴿ نكر ﴾ : أى أمر تنكره النفوس إذ لا عهد له بمثله .  
 ﴿ خشعا ﴾ : واحدهم خاشع : أى ذليل .  
 ﴿ والأجداث ﴾ : القبور .  
 ﴿ مهطعين ﴾ : أى مسرعين متقادين .  
 ﴿ عسير ﴾ : أى صعب شديد الهول .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ <sup>(٢)</sup> . وكقوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ <sup>(٣)</sup> . وكقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ <sup>(٤)</sup> . قال العلامة ابن كثير : وقد وردت الأحاديث بذلك .

(١) سورة القمر : آية ٥ .

(٢) النحل : آية ١ .

(٣) الأنبياء : آية ١ .

(٤) النجم : آية ٥٧ .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبي ﷺ والشمس على قيعقان بعد العصر فقال : « ما أعماركم في أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى » (١) .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى (٢) . أخرجاه من حديث أبي حازم مسلمة بن دينار وقال الإمام أحمد بسنده عن وهب السوائي قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقني » (٣) . وجمع الأعشى بين السبابة والوسطى .

وقال أبو جعفر بن جرير بسنده عن أبي عبد الرحمن السلمي قال نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبي وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، فقلت لأبي ايسبق الناس غدا ؟ فقال : يا بني إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وانشق القمر ﴾ أى وقد انشق القمر ، قال ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أى انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال القرطبي : وعلى هذا الجمهور من العلماء ، ثبت ذلك في الصحيح للبخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضى الله عنهم .

وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقتربت الساعة »

(١) أخرجه أحمد في مسنده ح ٢ ص ١١٦ ، وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير ح ٧ ص ٤٤٥ في تفسير سورة القمر .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ح ٣ ص ٢٢٢ ، وأخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة باب قرب الساعة ح ٤ ص ٢٢٦٨ ، رقم ٢٩٥٠/١٣٢ .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ح ٤ ص ٣٠٩ .

(٤) أخرجه تفسير ابن كثير سورة القمر ح ٧ ص ٤٤٧ .

وانشق القمر» إلى قوله « سحر مستمر »<sup>(١)</sup> . قال أبو عيسى الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، ولفظ البخارى عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعد ، وهو منتظر ؛ أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر وغيره .

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول ، أن القمر انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل . قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر ، قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن كنت صادقاً فاشق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ ، « إن فعلت تؤمنون » قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادى المشركين : « يافلان يافلان اشهدوا »<sup>(٢)</sup> .

وفى حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا من سحر بن أبى كبشة سحرهم فاسئلوا السفار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا »<sup>(٣)</sup> . أى أن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان . ويقولوا سحر مستمر ) أى ذاهب من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب ، قاله أنس و قتادة ومجاهد وغيرهم . وقال أبو العالية والضحاك : ﴿ سحر مستمر ﴾ أى محكم قوى شديد ، وهى من الميرة وهى القوة .

وقوله : ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أى كذبوا الحق إذ جاءهم واتبعوا ما أمرتهم به آراءهم وأهوائهم ، من جهلهم وسخافة عقولهم . وقوله : ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ، وقال السدى : مستقر أى واقع .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ أى ولقد جاءهم من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسول ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب ؛ مما يتلى عليهم فى هذا القرآن ، ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب .

(١) أخرجه البخارى ح ٦ ص ١٧٨ فى تفسير سورة القمر . وأخرجه أيضاً تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر .

(٢) أخرجه تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر .

(٣) أخرجه تفسير الطبرى ح ٢٧ ص ٥١ فى تفسير سورة القمر .



وقوله تعالى: ﴿حكمة بالغة﴾ أى حكمة بالغة فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله . ( فما تغنى النذر ) يعنى أى شئ تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ قال ابن كثير الآية كقوله تعالى : ﴿ قل فله الحجة البالغة فلو شاء هداكم أجمعين ﴾ . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ (١) .

## بحث فى معجزات الرسول ﷺ

إن قدرة الإنسان محدودة بما حداها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الإنسان وإلا فلا ، فالإنسان مثلا يستطيع إذا توافر لديه أكسجين وهيدروجين ، والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل . بينهما ، أن يصنع منهما ماء ، فهذا مداخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بالكترونات وبروتونات النحاس ، فيصبح النحاس ذهباً ، إذا توافرت لذلك شروط وأدوات معينة ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهباً من لا شئ ، إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانيات ، يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون ، ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أن رسول الله ﷺ هو أن تظهر معه آثار قدرة الله ، فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون ، مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله ، بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله ، وتقوم بذلك حجة الله على خلقه ، بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ﷺ — تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا ، إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى إقامة الحجة ..

(١) الأنعام : آية ١٤٩ .

(٢) يونس : آية ١٠١ .

ولم يوجد رسول أبداً في تاريخ العالم ، كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتاً تاريخياً ، يتحدى أدق معايير النقد التاريخي مثل ما كان لحاتم رسل الله محمد ﷺ — فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين ، لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ — ما وصل إليها العالم قط ، ولا يرق إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخياً ، يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة ، مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر ، تحيط بكل الأوضاع ، مما لا يبقى ريباً لمرتاب ، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله ، وهذه نماذج من هذه الوقائع ، التي لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ ، مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله ، وبها قامت الحجة على خلق الله في كل العصور ، هي القرآن الكريم . ( مستفاد من كتاب « الرسول » للشيخ سعيد حوى )

## انشقاق القمر

قال القاضي أبي الفضل عياض اليحصبي في كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » ما ملخصه : قال الله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾ أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه : أخبرنا الحسين عن محمد الخافظ من كتابه حدثنا القاضي سراج بن عبد الله حدثنا الأصيلي حدثنا المروزي حدثنا الغبري حدثنا البخاري حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي عمر عن ابن مسعود — رضي الله عنه — قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقه فوق الجبل ، وفرقه دونه ، فقال رسول الله ﷺ ، أشهدوا وفي رواية مجاهد ونحن مع النبي ﷺ ؛ وفي بعض طرق الأعمش بمنى ، ورواه أيضا عن ابن مسعود الأسود وقال حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر ، ورواه عنه مسروق أنه كان بمكة ، وزاد فقال قريش : سحر كم ابن أبي كبشة ، فقال رجل منهم : إن محمداً إن كان سحر القمر ، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسخر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك <sup>(١)</sup> .

وعن أنس سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية ، فأراه انشقاق القمر مرتين ، حتى رأوا

(١) أخرجه تفسير الطبري ح ٢٧ ص ٥٠ ، من تفسير سورة القمر .

حراء بينهما ؛ رواه عن أنس قتادة .. وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة والآية مصرحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول ، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم ، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة ، فلم يره انشق ، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب ، لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر في حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، وفي بعضها جزئية ، وفي بعضها كلية ، وفي بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلاً ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع العصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئاً ، إلا من رصد ذلك واهبت به ، ولذلك يكون الكسوف القمري كثيراً في الليل وأكثر الناس لا يعلم به حتى يخبر ، وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها ، من أنوار ونجوم طوالع عظام ، تظهر في الأحيان بالليل في السماء ولا علم عند أحد منها .

### نبي الماء بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته

أما الأحاديث في هذا فكثيراً جداً ، روى حديث نبي الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس ، حتى آخرهم ، ورواه أيضاً عن أنس قتادة وقال بإناء فيه ماء يغمر أصابعه ، أو لا يكاد يغمر ، قال : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة ، وفي رواية وهم بالزوراء عند السوق ، ورواه أيضاً حميد وثابت والحسن عن أنس وفي رواية حميد قلت لكم كانوا ثمانين رجلاً ونحوه عن ثابت وعنه أيضاً وهم نحو من سبعين رجلاً ، وأما ابن مسعود ففي الصحيح من رواية علقمة عنه ، بينما نحن مع رسول الله ﷺ : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه في إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ . ( أخرجه الشيخان ) (١) .

وفي الصحيح عن جابر رضى الله عنه عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركة

فتوضاً منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما في ركوتك فوضع النبي ﷺ يده في الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون وفيه قلت : كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة<sup>(١)</sup> ، وفي رواية الوليد بن عباد بن عباد بن الصامت في حديث مسلم الطويل في ذكر غزوة بواط قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا جابر ناد الوضوء وذكر الحديث بطوله ، وأنه لم يجد إلا قطرة في عزلاء شجب . ( فم المزايدة الأسفل ) فأقى به النبي ﷺ فغمزه ، وتكلم بشيء لا أدرى ما هو ، وقال ناد بجفنة الركب فأتيت ، فوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبي ﷺ ، بسط يده في الجفنة وفرق أصابعه وصب جابر عليه ، وقال بسم الله قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت ، حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رروا ، فقلت : هلى بقى أحد له حاجة ، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى<sup>(٢)</sup> .

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعائه بمسه ودعوته .

فيما روى مالك في الموطأ عن معاذ بن جبل في قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهى تبض ( أى : تسيل قليلا ) بشيء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع في شيء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، وأعادها فيها ، فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس ، قال في حديث ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد ملئ جناحنا<sup>(٣)</sup> .

وأخرج مسلم عن أبي قتادة ، أن النبي ﷺ ، كان في سفر فأسرى ، ثم نام فما استيقظ إلا والشمس في ظهره ، فدعا بمىضة ( إناء يوضع فيه الماء ) كانت معى فيها شيء من ماء فتوضاً منها ثم قال : احفظ علينا ميضاتك ، فسيكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقال الناس : اهلكنا وعطشنا فقال لا هلك عليكم ، ثم قال : انطلقوا إلى عمري يعنى القدح الصغير ، فدعا بالمىضة ، فجعل النبي ﷺ ، يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فقال النبي ﷺ : أحسنوا الملء كلكم سيروى .. حتى ما بقى أحد<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٣٠٨ رقم ٧٤ / ٣٠١٣ كتاب الزهد والرفائق باب حديث جابر الطويل .

(٢) رواه مسلم ح ٤ ص ٢٣٠٧ كتاب الزهد والرفائق باب حديث جابر رقم ٣٠١٣ .

(٣) أخرجه مالك في موطأه كتاب قصر الصلاة في السفر ح ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ رقم ٢ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضاها .

## ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه

روى مسلم عن جابر ، أن رجلا أتى النبي ﷺ — استطعمه ، فأطعمه شطر وسق شعير ( الوسق مقدار ستين صاعا ) فما زال يأكل منه وامرأته وضيغه حتى كاله ، فأتى النبي ﷺ — فأخبره ، فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم » .

( فلقد استمر أكلهم منه من غير نقص شيء منه إلى أن كاله ، فظهر نقصه بعد الكيل مما يأخذ منه ، فكانت البركة في ترك كياله ، حتى لو لم يكله لم ينقد مدة حياتهم )<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك حديث أبي طلحة المشهور — القصة في صحيح البخارى — وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده ؛ أى إبطه ؛ فأمر بها ففتت ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول<sup>(٢)</sup> .

وحديث جابر فى إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق ( العناق الأثنى من أولاد المعز ، لم يتم لها سنة ) .

وقال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا ( أى انصرفوا ) وإن برمتنا لتغط كما هي ( أى تغلى غليانا شديدا ) وإن عجبنا ليخبر . ( أى أنهم استمروا على خبز العجين وإيصاله شيئا فشيئا لمن يأكل منه ، ولم ينقص ببركة النبي ﷺ )<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى .

وحديث أنى أيوب ( رواه عنه الطبرانى ، والبيهقى ) أنه صنع لرسول الله ﷺ — ولأبى بكر الطعام زهاء ( أى مقدار ) ما يكفيهما ؛ فقال له النبي ﷺ — : ادع ثلاثين من أشرف الأنصار ؛ فدعاهم فأكلوا حتى تركوا ؛ ثم قال : ادع ستين ؛ فكان مثل ذلك ؛ ثم قال : ادع سبعين فأكلوا حتى تركوا ، وما خرج منهم أحد حتى أسلم ، وبايع .

(١) أخرجه مسلم ح ٤ ص ١٧٨٤ كتاب الفضائل ، باب فى معجزات النبي ﷺ ٩ / ٢٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الفضائل . باب علامات النبوة ح ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . ط الشعب . وكذلك فى كتاب الأطعمة .

(٣) انظر صحيح البخارى ، باب غزوة الخندق ، ح ٥ ص ١٣٩ فقد ورد الحديث من رواية جابر ، وانظر ص ١٣٨ فقد ورد عن جابر برواية أخرى .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامي مائة وثمنا نون رجلا<sup>(١)</sup> .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري ، عن أبيه ، ومثله لسلمة بن الأكوع ، وأبي هريرة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فذكروا مخمصة ( الجوع ، والمجاعة ) أصابت الناس مع النبي ﷺ — في بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد ( أى : طلب من كل رجل منهم أن يأتي بما بقي عنده من زاده ) ، فجاء الرجل بالخبثية من الطعام ، ( أى : ما يملأ اليدين معاً ) ، وفوق ذلك ، وأعلامهم الذي أتى بالصاع من التمر ، فجمعه على نطع ، ( وهو بساط من جلد ) .

قال سلمة : فحزرتة كربضة العنز ( أى قدرته كمقدار جثة عنز باركة على الأرض ) ؛ ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقي في الحبش وعاء إلا ملئوه وبقي منه . ( رواه ابن سعد ، والبيهقي ، وصحاحه )<sup>(٢)</sup> .

وعن أبي هريرة : أمرني النبي ﷺ أن أدعو له أهل الصفة . ( وهم فقراء الصحابة الأغراب وغيرهم ) فتبعتهم حتى جمعتهم ، فوضعت بين أيدينا صفحة ، ( إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام ) فأكلنا ما شئنا ، وفرغنا وهي مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع . ( رواه ابن أبي شيبة والطبراني بسند صحيح )<sup>(٣)</sup> .

ومنه حديث أبي هريرة حين أصابه الجوع ، فاستتبعه النبي ﷺ ، فوجد لبنا في قدح قد أهدي إليه ، وأمره أن يدعو أهل الصفة . قال : فقلت : ما هذا اللبن فيهم ؟ ( أى ما مقداره القليل كاف لهم ) .

كنت أحق أن أصيب منه شربة ، أتقوى بها . عنددعوتهم . وذكر أمر النبي ﷺ — له أن يسقيهم ، فجعلت أعطي الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يأخذه الآخر ، حتى روى جميعهم ، قال : فأخذ النبي ﷺ — القدح ، وقال : بقيت أنا وأنت أقعد فاشرب ، فشربت ، ثم قال : اشرب ، ومازال يقولها وأشرب حتى قلت : لا والذي بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكا ( أى لم يبق في جوف محلا خاليا يدخله ) ، فأخذ القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه الميثمي في مجمع الزوائد . ح ٨ ص ٣٠٣ . باب معجزته — ﷺ — في الطعام وبركته فيه . وقال الميثمي . رواه الطبراني وفي إسناده من لم أعرفه .

(٢) أخرجه صحيح مسلم في كتاب اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت ح ٣ ص ١٣٥٤ رقم ١٩ / ١٧٢٩ .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ح ١١ ص ٤٦٩ — ٤٧٠ ، رقم ١١٧٥٧ كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمد ﷺ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ح ٨ ص ١٢٠ كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبي ﷺ .

وفي حديث أنس : تزوج رسول الله ﷺ ، فصنعت أمى أم سليم حيساً ، فجعلته في تور ( الحيس : طعام من لبن وأقط وتمر وسمن يحاس ، أى يخلط بعضه ببعض ، والنور : إناء من حجارة واسع ) . فذهبت به إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : ضعه ، وادع لى فلاناً وفلاناً ، ومن لقيت فدعوتهم ، ولم أدع أحداً لقيته إلا دعوته ، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملئوا الصفة والحجرة ، فقال لهم النبي ﷺ تحلقوا عشرة عشرة ، ووضع النبي ﷺ يده على الطعام فدعا فيه ، وقال ما شاء الله أن يقول ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، فقال لى : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت<sup>(١)</sup> » ( سنن الترمذى ) .

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة في الصحيح ، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل ، بضعة عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافهم من التابعين ، ثم ممن لا يتعد بعدهم .

## كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

عن ابن عمر ، كنا مع رسول الله ﷺ في سفرة ، فدنا منه أعرابي ، فقال : يا أعرابي ، أين تريد ؟ قال : إلى أهلى قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله . قال : من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة السمرة ( السمرة : شجرة عظيمة ذات شوك ) . وهى بشاطيء الوادى وادعها فإنها تحببك فأقبلت تحد الأرض ( أى تشققها ) حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثاً ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها<sup>(٢)</sup> . ( رواه البيهقى ، والبزار ، والدرامى مسنداً عن ابن عمر ) .

وفي صحيح مسلم في حديث جابر بن عبد الله الطويل : ذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا بشجرتين في شاطيء الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداها ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال : انقادى علىّ بإذن الله ؛ فانقادت معه كالبعير المحشوش الذى يصانع قائده . وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : التما علىّ بإذن الله ؛ فالتأمتا .

(١) أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٢٥٥ ، أبواب المناقب . باب ٣٠ ، أنظر صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الهدية للعروس .

ح ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ط الشعب .

( ومعنى انقادی علی : أى طاوعینى ومیل على ، ومعنى کالبعیر الخشوش : الخشوش : الذى یوضع فى أنفه خشاش یدلل به ، ومعنى یصانع قائده : المراد به الملاينة وسهولة الانقياد . والمنصف : أى وسط المكان <sup>(١)</sup> .

وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ مثله فى غزاة حنین .

وروى مسلم عن ابن مسعود : أن الجن قالوا : من یشهد لك ؟ قال : هذه الشجرة . تعالى یاشجرة ؛ فجاءت تجر عروقها لها قعاقع . ( حکایة صوت الحركة من الأجرام الصلبة ) <sup>(٢)</sup> .

وبعد أن أورد القاضى أبو الفضل روايات أخرى قال : فهذا ابن عمر وبريدة وجابر وابن مسعود ، ويعلى بن مرة ، وأسامة بن یزید وأنس بن مالك وعلى بن أبى طالب وابن عباس وغيرهم — قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها .

وقد رواها عنهم من التابعین أضعافهم ؛ فصارت فى انتشارها من القوة حیث هی ، أى صارت فى مرتبة قوية لا یشک فیها أحد من العقلاء .

وعن ابن عباس رضی الله عنهما أنه ﷺ ، قال لأعرابی : أرأیت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فدعاه فجعل ینقر حتى أتاه ( أى یثب صعدا ) فقال ارجع ، فعاد إلى مكانه <sup>(٣)</sup> ( رواه البخارى فى تاریخه ، والدرامى والبيهقى مسندا . وأخرجه الترمذی وقال حدیث صحیح ) .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرفائق . باب حدث جابر الطویل ، وقصة أنى البشر ح ٤ ص ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ . رقم

٣٠١٢ / ٧٤ .

(٢) أخرجه تفسیر القرطبى فى كتاب الجامع لأحكام القرآن ح ١٩ ص ٤ — ٥ ، من تفسیر سورة الجن آية ٣ .

(٣) أخرجه الترمذی . حدیث رقم ٣٧٠٧ . ح ٥ ص ٢٥٤ أبواب المناقب . باب ٢٨ .



## فصل في قصة حنين الجذع

ويعضد هذه الاخبار أحاديث أنين الجذع ، وهو في نفسه مشهور منتشر ، والخبرية متواتر ، قد خرجة أهل الصحيح — كالبخارى ومسلم — ورواه من الصحابة بضعة عشر ، وابن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريد ، وأم سلمة ، والمطلب بن أبى وداعة ، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث .

قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل ؛ فكان النبي ﷺ ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها ( أى يقوم مستنذاً ) فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار . ( العشار الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، والمراد خوارها حين وضعها أو عقبه ، نزاعها لولدها إذا لم تره ) .

وفي رواية أنس حتى ارتج المسجد بخواره .

وفي رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به .

وفي رواية المطلب وأبى : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبي ﷺ ، فوضع يده عليه فسكت .

زاد غيره : فقال النبي ﷺ : إن هذا بكى لما فقد من الذكر .

وزاد غيره : والذى نفسى بيده ، لو لم ألتمزه ( أى أضمه ) لم يزل هكذا إلى يوم القيامة ؛ تحزننا على رسول الله ﷺ ؛ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر<sup>(١)</sup> .

فكان الحسن البصرى ، إذا حدث بهذا بكى ، وقال : يا عباد الله الخشبة ( يريد هنا الجذع ) تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه لمكانه ؛ فأنتم أحق أن تشناقوا إلى لقاءه .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الفضائل باب علامات النبوة ح ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . ط الشعب .

انظر سنن الترمذى . ح ٥ ص ٢٥٤ . أبواب المناقب . باب ٢٨ .

قال القاضي : ومثل هذا في سائر الجمادات .

عن ابن مسعود قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفي رواية أخرى له : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه<sup>(١)</sup> . ( رواه البخاري ) ( والرواية الأخرى رواها الترمذي ) .

وقال أنس : أخذ النبي ﷺ كفا من حصي ، فسبحن في يد رسول الله ﷺ ، حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن في يد أبي بكر — رضى الله عنه — فسبحن ، ثم في أيدينا فما سبحن . ( أخرجه ابن عساكر في تاريخه ) .

وروى مثله أبو ذر ، وذكر أنهم سبحن في كف عمر وعثمان . ( رواه الطبراني والبيهقي والبخاري )<sup>(٢)</sup> .

وقال علي كنا بمكة مع رسول الله ﷺ ، فخرج إلى بعض نواحيها ، فما استقبله شجرة ولا جبل ، إلا قال له : السلام عليك يا رسول الله . ( رواه الترمذي ، بسند صحيح )<sup>(٣)</sup> .

وعن جابر بن سمرة عن النبي ﷺ إني لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم على ، قيل : إنه الحجر الأسود<sup>(٤)</sup> . ( رواه مسلم والترمذي ) .

وعن عائشة رضى الله عنها : لما استقبلني جبريل عليه السلام بالرسالة ، جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله . ( في حديث صحيح رواه البخاري في مسنده ) .

وعن جابر بن عبد الله : لم يكن النبي ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له . ( رواه البيهقي )<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه البخاري ح ٤ ص ٢٣٥ . باب علامات النبوة .

(٢) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ . باب تسبيح الحصى وقال الهيثمي : رواه البزار والطبراني في الأوسط .

(٣) أخرجه الترمذي : ح ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٢٧ . وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي وتسليمه الحجر عليه قبل النبوة ح ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢ / ٢٧٧ .

انظر سنن الترمذي . ح ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٦ ط .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٦٠ . كتاب علامات النبوة . باب تسليم الحجر والشجر عليه .

وعن ابن عباس : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص في الحجارة ؛ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب في يده إليها ولا يمسه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع لقفاه ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقي منها صنم ، ( أخرجه الشيخان ، والبزار ، والطبراني أبو يعلى عن جابر وابن مسعود والحديث في مسند الطيالسي <sup>(١)</sup> ) .

## فصل

### في الآيات في ضروب الحيوانات

قال القاضي عياض بسنده عن مجاهد عن عائشة : رضى الله عنها ؛ قالت : كان عندى داجن ، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ ، قر وثبت مكانه ؛ فلم يجيء ولم يذهب ؛ وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب <sup>(٢)</sup> .

( ومعنى داجن : شاة تألف البيوت وتعلف فيها ، وتطلق على غيرها من الحيوانات التى تربى في البيوت ، ومعنى قر وثبت مكانه : وقف في مكانه لا يتحرك ) .

روى عن عمر أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى قد صاد ضبا ؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : نبي الله . فقال : واللأت والعزى ، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب ، وطرحه بين يدى النبي ﷺ ؛ فقال النبي ﷺ : يا ضب ؛ فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك يازين من وافي القيامة . قال : من تعبد ؟ قال : الذى في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عقابه . قال : فمن أنا ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبتك . فأسلم الأعرابى <sup>(٣)</sup> . ( رواه الطبراني ، والبيهقى ) .

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ح ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ١١٦٦ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . وذكره تفسير ابن كثير تفسير سورة الإسراء آية ٨١ ح ٥ ص ١٠٩ .

(٢) انظر الشفاء للقاضي عياض . الباب الرابع ، فيما أظهره الله على يديه من المعجزات . فصل في الآيات في ضروب الحيوانات . ح ١ ص ٣٠٩ . ط دار الفكر .

(٣) رواه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، باب شهادة الضب بنبوته ﷺ .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أنى سعيد الخدرى : بينا راع يرعى غنماً له ، عرض الذئب لشاة منها ، فأخذها الراعى منه ، فألقى الذئب وقال للراعى : ألا تتقى الله ! حُلّت بينى وبين رزقى ! قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله بين الحرتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق . فأتى الراعى النبى ﷺ ، فأخبره فقال النبى : قم فحدثهم ، ثم قال : صدق ، والحديث فيه قصة وفى بعضه طول . ( رواها أحمد ، والبزار ، والبيهقى )<sup>(١)</sup> .

( ومعنى رسول الله بين الحرتين المقصود بالمدينة فالحرة : ثنية مرتفعة ذات حجارة سود والحرتان بالمدينة ) .

ومن هذا الباب ما روى من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، ومعه كتابه ، فهمهم وتنحى عن الطريق ، وذكر فى منصرفه مثل ذلك .

( أخرجه البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم ، وذكره البخارى فى تاريخه ) .

وفى رواية أخرى عنه — أن سفينة تكسرت به ، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد ؛ فقلت له : أنا مولى رسول الله ﷺ ؛ فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق .

( هذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجيه ) .

ثم قال القاضى : والحديث فى هذا الباب كثير ، وقد جئنا منه بالمشهور ، وما وقع فى كتب الأئمة .

(١) أخرجه الإمام أحمد ح ٣ ص ٨٣ — ٨٤ ، مقدور الحديث من رواية لأنى سعيد .

انظر مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩١ . باب إخبار الذئب بنبوته ﷺ .

## ومن معجزاته إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن يهودية أهدت للنبي ﷺ شاة مصلية سمّتها ، فأكل رسول الله — ﷺ — منها ، وأكل القوم ، فقال ﷺ : ارفعوا أيديكم ، فإنما أخبرتنى أنها مسمومة . فمات يشرين البراء . وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؛ قالت : إن كنت نبيا لم يضرك الذى صنعت ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك . قال : فأمر بها فقتلت . ( رواه أبو داود مسندا إلى أبى هريرة ) .  
( ومعنى مصلية : أى مشوية ، سمّتها : وضعت فيها السم ) .

وقد روى هذا الحديث أنس ، وفيه : قالت : أردت قتلك . فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك ، فقالوا : نقتلها ؟ قال : لا .

ورواه أيضا جابر بن عبد الله وفيه : أخبرتنى هذه الذراع ، قال : ولم يعاقبها .  
وفي حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : فى وجعه الذى مات فيه : مازالت أكلة خبير تعادنى ؛ فالآن أوان قطعت أبهرى . ( رواه ابن سعد بسند صحيح ) .

وحكى ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدا مع ما أكرمه الله به من النبوة .

ومعنى تعادنى : تعود إلّى مرة بعد مرة فى أوقات معلومة . والأبهر : عرق كبير متصل بالقلب ، وقيل : العرق الذى فى وسط الظهر ، إذا انقطع لا يتصور معه حياة ، ومات شهيدا : أى بسم الشاة .

وقال ابن محنون : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التى سمّتها ( وحديث الشاة المسمومة فى سنن أبى داود ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وطبقات ابن سعد )<sup>(١)</sup> .

(١) أخرجه أبو داود ح ٤ ص ٦٥٠ رقم ٤٥١٢ « كتاب الديان » باب م سقى رجلا سما أو أطعمه فمات .  
وانظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ، ح ٤ ص ١٢١ فقد ورد حديث لأبى هريرة فى هذا .

قال القاضي عياض : وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور .

وروى عن سمر بن عطية أن النبي ﷺ أتى بصبي قد شب لم يتكلم قط ؛ فقال : من أنا : فقال رسول الله . ( رواه البيهقي في دلائل النبوة ) .

وهو حديث مبارك الإمامة ، ويعرف بحديث شاصونة ، اسم روايه ، وفيه فقال له النبي ﷺ : صدقت ، بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب ، فكان يسمى مبارك الإمامة .. وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع .

### ومن معجزاته ﷺ إبراء المرضى وذوى العاهات

عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابن شهاب ، وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بغزوة أحد بطولها ؛ قال وقالوا : قال سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ لناولني السهم لا نصل له ، فيقول أرم به ؛ وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت ، واصيب يومئذ عين قتادة — يعني ابن النعمان — حتى وقعت على وجنتيه ، فردها رسول الله ﷺ ؛ فكانت أحسن عينيه<sup>(١)</sup> . ( هذا الجزء في سيرة ابن هشام ورواه البيهقي ) .

وروى النسائي والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه أن أعمى قال يا رسول الله ؛ ادع الله أن يكشف لي عن بصرى . قال : فانطلق فتوضأ ؛ ثم صل ركعتين ؛ ثم قال : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة ؛ يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه في . قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره<sup>(٢)</sup> . ( ومعنى أتوجه بك إلى ربك : أي بدعائك لي فكان توسله بدعاء النبي له ﷺ ) .

(١) أخرجه مجمع الزوائد ح ٨ ص ٢٩٧ . باب رده البصر ﷺ .

(٢) أخرجه الحاكم ح ١ ص ٥٢٦ كتاب الدعاء — باب دعاء رد البصر ، وأخرجه أيضا ابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء في صلاة الحاجة ح ١ ص ٤٤١ رقم ١٣٨٥ عن عثمان بن حنيف .

وتقل في عيني على ابن أبي طالب يوم خير ، وكان رمدا فأصبح بارئاً<sup>(١)</sup> . ( رواه البخاري ومسلم ) .

ونفت على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خير فبرئت . ( رواه البخاري ) .

ونفت في رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب ، حين قتل ابن الأشرف ، فبرئت . وعلى ساق علي بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبرئ مكانه ، وما نزل عن فرسه . ( أخرجه البنوي في معجمه كما قال السيوطي في نسيم الرياض ٣ - ١١٨ ) .

وعن ابن عباس : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فنع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ؛ فشفي .

( فنع : أي قاء ، والجرو : ولد الكلب والسبع ) والحديث رواه أحمد في سنده بسند متصل بابن عباس وكذلك رواه البيهقي وابن أبي شيبة<sup>(٢)</sup> .

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل ، فمسح عليه ودعا له وتقل فيه فبرأ لحينه . ( رواه البيهقي ، والنسائي والطيالسي ، مستنداً مصححاً فيه ) .

### ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم ( إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم )

وهذا باب واسع جداً ، وإجابة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة . وقد جاء في حديث حذيفة رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولده ولده . ( رواه أحمد في مسنده ) .

(١) أخرجه البخاري في « أبواب الغزوات » غزوة خير ح ٥ ص ١٧١ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد .

(٢) أخرجه البخاري في « أبواب الغزوات » باب غزوة خير ، ح ٥ ص ١٧٠ فقد ورد الحديث عن يزيد بن أبي عبيد .

(٣) انظر مجمع الزوائد باب طاعة الجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ح ٨ ص ٢ . وقال الهيثمي رواه أحمد والطبراني . وفيه فرقه السبخي وثقة ابن معين والمجلد وضعفه غيرها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال قالت أمى : يا رسول الله ، خادمتك أنس ، ادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتيته ( رواه البخارى )<sup>(١)</sup> .

ومن رواية عكرمة : قال أنس : فو الله ، إن مالى لكثير ، وإن ولدى وولد ولدى ليعادون اليوم على نحو المائة .<sup>(٢)</sup> ( أخرجه مسلم ) .

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً .... ( رواه البيهقى ) .

ودعا بعز الاسلام بعمر رضى الله عنه ، أو بأبى جهل ، فاستجيب له فى عمر . قال ابن مسعود رضى الله عنه : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأصاب الناس فى بعض مغازية عطش ، فسأله عمر الدعاء ، فدعا فجاءت سحابة ، فسقتم حاجتهم ، ثم أقلعت ( رواه البيهقى والحاكم وضححه عن عمر ) .

ودعا فى الاستسقاء ، فسقوا ، ثم شكوا إليه المطر ، فدعا فصحوا ( أى صحت السماء وانكشف غيمها ، والحديث فى صحيح البخارى ومسلم )<sup>(٣)</sup> .

ودعا لابن عباس : اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل . فنُسمى بعد الخبر وترجمان القرآن . ( والحديث رواه الشيخان )<sup>(٤)</sup> .

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمنية ( أى : فى بيعه وشرائه ) فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه ( رواه البيهقى ) .

ودعا بمثله لعروة بن أبى الجعد ، فقال : لقد كنت أقوم بالكناسة ، ( أى القمامة ) فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً ( رواه البخارى ) .

(١) أخرجه الامام البخارى فى صحيحه ج ٨ ص ٩٣ كتاب الدعوات باب دعوة النبى ﷺ لحادمه بطول العمر وبكثرة ماله .  
وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ٢٤٨٠ / ١٤١ .  
(٢) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ٢٤٨٠ / ١٤٣ .  
٣ — أخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء ص ١٩٧ — ١٩٨ رقم ٥١٧ .  
٤ — رواه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رقم ٢٤٧٧ / ١٣٨ .



وقال البخارى فى حديثه : فكان لو اشترى التراب ربح فيه .  
ودعا على مُضر فأقحطوا ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .<sup>(١)</sup> ( والحديث فى صحيح البخارى ومسلم ) .

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس  
رياسة فى أقطار الدنيا . ( والحديث رواه الشيخان عن ابن عباس ) .<sup>(٢)</sup>

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

## ومن معجزاته ﷺ ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون فى المستقبل

والأحاديث فى هذا الباب بحر لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره .  
وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر ، لكثرة روايتها ،  
واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب :

عن حذيفة قال : قام فىنا رسول الله ﷺ ، مقاماً فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام  
الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه  
الشيء فأعرفه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه . ( رواه  
مسلم )<sup>(٣)</sup> .

( وفى رواية أبى داود )

ثم قال حذيفة ما أدرى ، أنسى أصحابى أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد  
فتنة ، إلى أن تنقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً ، إلا قد سماه لنا باسمه ، واسم أبيه ، وقبيلته .

(١) أخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ج ٤ ص ٢٢٣٦ ،

٢٢٣٧ رقم ٧٥ / ٧٦ — ٢٩١٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٤ ص ٤٤١ رقم ٤٢٤٠ كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن وولاتها .

وأخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٢١٧ رقم ٢٣ / ٢٨٩١ كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اخبار النبى ﷺ .

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء ، إلا ذكرنا منه علماً . ( رواه أحمد والطبراني وغيرهما بسند صحيح )<sup>(١)</sup> .

( ومعنى إلا ذكرنا منه علماً : أى تذكرنا وفهمنا من طيرانه ، علماً يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمننا في الأرض ) .

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ ، مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس ، واليمن ، والشام ، والعراق ، وظهور الأمن ، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة ستغزى وتفتح خير على يدى على في غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى ، وقصر ، وما يحدث بينهم من الفنون والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قبلهم ، واقتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنها ستكون لهم أنماط ( جمع غلط وهو البساط والمراد التوسع في الدنيا ) يغدو أحدهم في حلة ، ويروح في أخرى ، وتوضع بين يديه صحيفة ، وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة .

ثم قال آخر الحديث ( الذى رواه الترمذى وغيره وحسنه ) : وأنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء ( مشيه فيها مد اليدين ، والمراد به التبخر ) وخدمتهم بنات فارس والروم ، رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم .

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتقارب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتن والتهرج . ( رواه مسلم ) .

وقال : ويل للعرب من شر قد اقترب . ( رواه الشيخان )<sup>(٢)</sup> .

وأنه زويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها ( والحديث في صحيح مسلم ) .

وكذلك كان ، امتدت في المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجة حيث لا عمارة ورواءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم تمتد في الجنوب ولا في الشمال مثل ذلك .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٥ ص ١٥٣ ، ص ١٦٢ .

(٢) أخرجه الامام البخارى في صحيحه في كتاب بدء الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج ج ٤ ص ١٦٨ ، ص ٢٤١ باب علامات

وقال : يكون في ثقيف كذاب ومثبير ، فأروهما : الحجاج ، والمختار وأن مسيلمة يعقره الله<sup>(١)</sup> .  
(والحديث في الصحيح البخارى ومسلم ) .

وان فاطمة أول أهله لحوقاً به .<sup>(٢)</sup> (الحديث في صحيح مسلم ) .

وأندر بالردة ، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون مُلكاً ، فكانت كذه بمدة الحسن بن على<sup>(٣)</sup> ( والحديث مما رواه الشيخان عن ابن عمر ) ، وقال : لا يأتى زمان إلا والذي بعده شر منه<sup>(٤)</sup> ( الحديث في البخارى ) .

.... إلى ما أخبر به من الحوادث التى تكون ولم يأت بعد ، منها ما ظهرت مقدماتها ، كقوله ، عمران بيت المقدس خراب يثر ، وخراب يثر خروج الملحمة ، وخروج الملحمة ، فتح القسطنطينية ( وبقية الحديث — كما فى سنن أبى داود ) ، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ، ثم ضرب بيده على فخذ الذى حدث أو منكبه ، ثم قال : إن هذا لحق كما أنك ها هنا ، أو كما أنك قاعد — يعنى معاذ بن جبل ) إلى ما أخبر به من أشراط الساعة وآيات حلولها ، وذكر النشء والحشر ، وأخبار الأبرار والفجار ، والجنة والنار وعرصات القيامة .

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشمل على أجزاء وحده ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التى ذكرنا كفاية ، وأكثرها فى الصحيح وعند الأئمة . انتهى البحث . ( من كتاب الشفا للمقاضى عياض ) .

## إرشاد وتحذير

قوله تعالى : ﴿ فتول عنهم يوم يدعوا الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ .

(٢) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبى ج ٤ ص ١٩٠٥ رقم ٩٧ — ٩٨ . ٢٢٤٥٠ / ٩٩ .

(٣) أبى داود فى سننه فى كتاب السنة باب فى الخلفاء ج ٥ ص ٣٦ رقم ٤٦٤٦ ورواه مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٢٠ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٣٢ .

يقول تعالى : فقل يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ،  
أعرض عنهم وانتظرهم انهم منتظرون قال تعالى : ﴿ فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ،  
أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر  
فسوف يبصرون سبحانه ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب  
العالمين ﴾<sup>(١)</sup>

قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أى إلى شيء منكرفظيع ، وهو موقف الحساب  
وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال . ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ،  
وأضاف الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان ، قال تعالى : ﴿ خاشعين  
من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ الأجداث القبور يخرجون منها  
كأنهم جراد منتشر ، أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ، جراد  
منتشر فى الآفاق ، كقوله تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفرش المبثوث ﴾<sup>(٤)</sup> . وقوله تعالى :  
﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون . ﴿ يقول الكافرون هذا  
يوم عسر ﴾ أى يوم شديد الهول سىء المنقلب . كقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ  
يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾<sup>(٥)</sup> . وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه  
ولا مشقة .

(١) الصافات الآيات : ١٧٤ - ١٨٢

(٢) الشورى الآية ٤٥

(٣) القلم الآية ٤٣

(٤) القارعة الآية ٣

(٥) المدثر الآيات ٨ - ١٠

## الرسل وأقوامهم

\* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ  
فَأَنْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَخَرَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ  
عَلَى أَمْرٍ قَدِيرٍ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوْجِ وَدُسِرَ ﴿١٣﴾ تَجَرَّى بِاعْيُنِنَا جَزَاءُ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ  
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا  
الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا  
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أُجُزَالٌ تَحُلٍ مُنْقَعَرٍ ﴿٢٠﴾  
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ  
بِالنُّذْرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشِيرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا تَلَّيْنَا صَلَاحَ لِسَانِهِ وَسَعِيَ ﴿٢٤﴾ أَتَلْقَى الدِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ  
بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً  
لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا  
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا  
كَهَيْشِ الْمَحْضَرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدْكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ  
بِالنُّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٌ مِنْ عِنْدِنَا  
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذْرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ

ضَيْفِهِ، فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِرْ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا  
عَذَابِي وَنَذِرْ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْكُرُوءَانَ لِلَّذِي كَرِهَلْ مِنْ مَذْكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾  
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴿

### معاني المفردات

( وازدجر ) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف .  
( فانتصر ) أى فانتقم لى منهم . ( منهم ) كثير . . ( فالتقى الماء ) أى ماء السماء وماء الأرض .  
( على أمر ) أى على حال . ( قد قدر ) أى قد قدره الله فى الأزل ( ذات ألواح ) أى ذات خشب  
عريضة ، ( دسر ) أى مسامير ، ( بأعيننا ) المراد بحراستنا وحفظنا ، ( تركناها ) أى أبقينا السفينة .  
( آية ) أى علامة ودليلا ، ( مذكر ) أى متذكر ومعتبر ، ( نذر ) واحدها نذير بمعنى إنذار . ( يسرنا )  
أى سهلنا ، ( للذكر ) أى للعظة والاعتبار ، ( مذكر ) أى متعظ بمواعظة .  
( الریح الصرصر ) الباردة أشد البرد ، ( النحس ) الشؤم ، ( منقعر ) أى مقتلع من أصوله ،  
يقال قعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .  
( سحر ) أى جنون . ( الأشر ) شديد البطر والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ،  
وقلة القيام بحقها ، ( فتنة ) أى اختباراً ، ( فارتقبهم ) أى فانتظرهم ( واصطبر ) أى واصبر على أذاهم .  
( والشرب ) النصيب ، ( محتضر ) أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ،  
( صاحبهم ) هو قدار بن سالف الشقى ، ( فتعاطى ) أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث  
به ، ( فعقر ) أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، ( صيحة واحدة ) هى صيحة صاحبها جبريل عليه  
السلام ، ( والهشيم ) ما تهشم وتفتت من الشجر ، ( واحتظر ) الذى يعمل الحظيرة فتساقط منه بعض  
أجزاء وتفتت حال العمل . ( حاصباً ) أى ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهى الحصا ، ( والسحر ) السدس  
الأخير من الليل ، ( فتماروا بالنذر ) أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، ( راودوه ) أعن ضيفه )  
أى صرفوه عن رأيه فيهم ، فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، ( فطمسنا أعينهم ) أى  
فحجبناهم عن الأبصار ، فلم تر شيئاً ، ( بكرة ) أى أول النهار ، ( مستقر ) أى دائب بهم إلى أن  
يهلكوا ، ( النذر ) واحدها نذير بمعنى إنذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلوات الله  
عليه ، ( عزيز ) أى لا يغالب ولا يغلب ، ( مقتدر ) أى لا يعجزه شيء .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه مزدجر لو تذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئاً — أردف هذا ذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع من الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم ، بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تتبئس بما كانوا يفعلون ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾<sup>(١)</sup> ، وفي هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وانهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، فسيحل بهم من العذاب ، مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجي نبيه والمؤمنين ، كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التي أحلها بأمتهم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ ، يقول تعالى : كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح ، ﴿ فكذبوا عبدنا ﴾ أى صرحوا له بالكذب واتهموه بالجنون والضلal ، وقالوا له كما حكى الله عنهم ، ﴿ قال الملائكة من قومك إنا لترك في ضلال مبين ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقالوا : ﴿ إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾<sup>(٣)</sup> وقالوا هنا ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ وازدجر ، أى انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ لكن لم تنته يا نوح لتكون من المرجومين ﴾<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾ أى إلى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ، فانتصر أنت لدينك كقوله تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار الثور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾<sup>(٥)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ قال رب إن قومى كاذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجى ومن معى من المؤمنين ﴾<sup>(٦)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ وقال نوح

(١) الأحقاف آية ٣٥

(٢) الأعراف آية ٦٠

(٣) المؤمنون آية ٢٥

(٤) الشعراء آية ١١٦

(٥) المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٦) الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴿١﴾ ، قال الله تعالى : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ أى فأجبنا دعاءه ، وأمرناه باتخاذ السفينة ، وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، أى كثير . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحب لم يقلع أربعين عاماً . ﴿ وفجرنا الأرض عيونا ﴾ أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها ، فتفجرت بالعيون ، ونبتت جميع أرجاء الأرض ، حتى التناير التى هى محال النيران ، نبتت عيوناً ، ﴿ فالتقى الماء ﴾ أى من السماء والأرض ، ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أى أمر مقدر ، قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا ان يغرقوا ، وقال محمد بن كعب كانت الأموات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء وتلا هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ أى حملناه على سفينة ذات ألواح ، ﴿ ودسر ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسرت بها السفينة أى شدت ، وقال الحسن وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج ، سميت بذلك ، لأنها تدسر الماء أى تدفعه ، والدسر الدفع والمخز .

وقوله تعالى : ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى برأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، وقوله تعالى : ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أى جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحاً ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم ، ليتدبروا ويتعظوا ، ويرعوا أن يسلكوا مسلكهم ، وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ فهل من مدكر ؟ ﴾ أى فهل من معتبر بتلك الآية ، الجديرة بطويل التفكير ، والتأمل فى عواقب المكذبين يرسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

(١) نوح ٢٦ ، ٢٧

(٢) الحاقة الآيات ١١ ، ١٢

(٣) الشعراء الآيات ١٢١ ، ١٢٢



ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴾ أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أفظع إنذارى لهم ، بما أحلته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار ، كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما تؤخره إلا لآجل معدود ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه ، أن هذا القصص وأمثاله ، إنما ذكر في القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى ، فقال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ قال سعيد بن جبيرة : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ، فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ، ليذكروا ما فيه ﴿ فهل من مدكر ﴾ قال أبو بكر الوراق : فهل من طالب خير وعلم ، فيعان عليه ، قال القرطبي : وكرر في هذه السورة للتنبيه والإفهام ، وقيل : إن الله تعالى قص في هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، فكان في كل قصة ونبأ ذكر لمستمع أن لو أذكر ، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : ﴿ فهل من مدكر ﴾ لأن « هل » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت في أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، « فاللام » من « هل » للاستعراض و « الهاء » للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله : ﴿ كذبت عاد ﴾ هم قوم هود ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابي إياهم وعقابي لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هوداً ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى في الغي والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفي هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء ، لما يلقي عليهم قبل ذكره ، وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فانظروا كيف كان عذابي وإنذارى لهم به قبل نزوله .

ثم فصل ما أجمله أولاً فقال تعالى :

﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر ﴾ أى أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، ﴿ في يوم نحس مستمر ﴾ أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك .

قوله تعالى : ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ أى تقلعهم من مواضعهم ، قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رؤوسهم ، فتندق أعناقهم ، وتبين رؤوسهم عن أجسادهم ، والمنقعر المنقطع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فانقعرت ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية ﴾<sup>(١)</sup> .

ثم هوّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانها فقال :

﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أى فانظروا كيف كان عذابي وإنذارى وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة في بليغ الكلام ، في باب إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثاني إلى عذاب الآخرة ، كما جاء في قصصهم في آية أخرى ، ﴿ لنذيقهم عذاب الحزى في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر ، ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ، إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاضى فعقر ، فكيف كان عذابي ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

(١) الحاقة الآيات ٦ - ٨

(٢) فصلت آية ١٦

قوله تعالى : ﴿ كَذِبْتَ ثُمَّ بُنِدْتَ بِالْأَنْزَارِ ﴾ أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقهم ، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب ، فإن تكذبه تكذيب لهم جميعاً ، لا تفاقمهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد وحجى الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ﴾ أى أتنبع واحداً من الدهماء ، لا من علية القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرئ منا بعلم ظاهر ، ولا ثروة وغنى ، تجعله يدعى أن يكون الزعيم لنا ، ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم : ﴿ إِنَّا إِذَا لَفَى ضَلَالٍ وَسَعَرَ ﴾ أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوى وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

ثم بالغوا فى العتو والإنكار ، وتعجبوا من أمره ، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا : ﴿ أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ، بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشَرٌ ﴾ أى أنزل عليه الوحى من بيننا ، وأوقى النبوة ، وهو واحد منا ؟ ولم يختصه الله بإنزال الشرائع عليه ، وهو ليس بملك مكرم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويود أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له ووعدا لقومه فقال : ﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْأَشْرَ ﴾ أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ، ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال تعالى : ﴿ إِنَّا مَرْسَلُوا النَّاقَةَ فَتَنَ لَهُمْ ﴾ أى إنا مخرجو الناقة من الهضبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختباراً لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه . ويكفرون به ؟ .

﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ أى فانتظر ماذا يفعلون ؟ وأبصر ماذا يصنعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ، ومهلك عدوك .

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مَحْتَضَرٌ ﴾ أى وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرهم هم أخرى .

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ، ولا ترد الماء وهي عليه ، فصعب ذلك عليهم . ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ أى فملت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص منها ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضوه على ذلك ، فلبى طلبهم ، وتناولها بيده ، وأهوى بالسيف ضرباً على قوائمها ، فخرت صريعة ، ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً فففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾<sup>(١)</sup> . قال تعالى : ﴿ فكيف كان عذابى ونذرى ﴾ ثم فصل هذا العذاب بقوله : ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أى إنا أرسلنا جبريل ، فضاخ بهم صيحة ، فصاروا كالخشيش البالى ، الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمر بعيد . قال ابن عباس : انهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ، كما قال سبحانه : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾<sup>(٢)</sup> ، ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن ، الذى قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرطبي فهل من منزجر عن المعاصي ؟

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ، نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ، ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذرى ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ، فذوقوا عذابى ونذرى ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط ، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إتيان الذكور ، وهى الفاحشة ، التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم ، حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها واتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهى الحجارة ، ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أى خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً ، لم يمسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك نجزي من شكر ﴾ أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا وهكذا نجزي من شكرنا على نعمتنا وأطاعتنا فائتمر بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

(١) الإسراء آية ١٦

(٢) الذاريات الآيات ٤٣ - ٤٥

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أنذرهم عذابه ، وخوفهم بأسه فقال :

﴿ ولقد أنذرهم بطشتنا فتمأروا بالنذر ﴾ أى ولقد أنذرهم نبهم بأس الله وعذابه ، قبل حلوله بهم ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتمأروا به ، كما قال الله سبحانه : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾<sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اتنا بعداب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل ، في صور شباب مرد حسان ، محبة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي ، أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لى يكمن قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾<sup>(٣)</sup> فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أديبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أى لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر ﴾ ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببيعد ﴾<sup>(٤)</sup> ثم ختم سبحانه القصة

(١) الأعراف الآيات ٨٠ - ٨٢

(٢) العنكبوت الآيات ٢٨ - ٢٩

(٣) هود الآيات ٧٨ - ٨٠

(٤) هود الآيات ٨٢ - ٨٣

بقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ وهذه الجملة القسمية ، وردت في آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ﴾ وتنبيهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الاذكار ، كافية في الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار ، وقد جاء هذا التكرير في سورة الشعراء ، من قوله : ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾<sup>(١)</sup> ، وفيما سيأتى في سورة الرحمن — إن شاء الله — من قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله في سورة المرسلات : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا كثير في كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هام الأمور .

قوله تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون ، بالبشارة إن آمنوا ، والندارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أى فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ، ولا عين ولا أثر ، كما قال جل في علاه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسنل بنى اسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزه من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) الشعراء الآيات ٨ — ٩

(٢) الرحمن ١٣

(٣) المرسلات ١٥

(٤) الاسراء الآيات ١٠١ — ١٠٣

(٥) النمل الآيات ١٣ — ١٤

## وعد ووعد

﴿ أَكْفَرْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ (١٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴿١٤﴾ سَيَهْمُ  
الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿١٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي  
ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿١٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ  
بِقَدَرٍ ﴿١٩﴾ وَمَا أَمَرْنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصَرِ ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَدَكِرٍ ﴿٢١﴾  
وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٢٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٢٤﴾  
فِي مَقْعَدٍ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢٥﴾

## معاني المفردات

﴿ براءة ﴾ أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، ﴿ والزبور ﴾ الكتب السماوية واحدها زبور ، ﴿ يولون ﴾ أى يرجعون ، ﴿ الدبر ﴾ أى الأدبار هارين منزهين ، ﴿ والساعة ﴾ هى القيامة ، ﴿ موعدهم ﴾ أى موعد عذابهم ، ﴿ أذهى ﴾ أى أعظم داهية ، وهى الأمر الفظيع ، الذى لا يهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، ﴿ وأمر ﴾ أى أشد مرارة فى الذوق ، والمراد الشدة والهول . ﴿ إن المجرمين فى ضلال ﴾ أى فى الدنيا عن الحق ، ﴿ وسعر ﴾ أى نيران واحدها سعر ، ﴿ يسحبون ﴾ أى يجرون ، ﴿ سقر ﴾ اسم لجهنم ، ﴿ ومسها ﴾ حرها ، ﴿ بقدر ﴾ أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ﴿ أمرنا ﴾ أى شأننا ، ﴿ واحدة ﴾ أى كلمة واحدة وهى قوله : ﴿ كن ﴾ ﴿ كلمع بالبصر ﴾ أى فى اليسر والسرعة ، ﴿ أشياكم ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الاتباع ، ﴿ مذكر ﴾ أى متعظ ، ﴿ فى الزبور ﴾ أى فى كتب الحفظة ، ﴿ مستطر ﴾ أى سطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله . ﴿ نهر ﴾ أى أنهار ، ﴿ فى مقعد صدق ﴾ أى فى مكان مرضى ، ﴿ عند ملك مقتدر ﴾ أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، وفصل ما اجبوا به من عذاب الله ، الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله — أعقب هذا بتنبية كفار قريش ، إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، فستحل بهم سنتنا ، ويحق بهم من البلاء ، مثل ما حل بأحزابهم من المكذبين من قبلهم ، ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ فقال لهم : على ما تتكلمون ، وماذا تظنون ؟ أنتم خير ممن سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتن من السيئات ؟ أم أنكم تظنون انكم جمع كثير ، لا يمكن أن ينال بسوء ، كلا إن شيئاً من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهمون ، وسيحل بكم قضاء الله الذى لا مفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالاً ، ثم بين سبحانه أن كل شيء بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له ، من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ، ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ ﴾ <sup>(١)</sup> أى أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم ، الذين أحللت بهم نقي من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابي ونقمتي ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى . ﴿ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبْرِ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ سَيَزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ أى يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء ، قال تعالى : ﴿ سَيَزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ ﴾ أى سيتفرق شملهم ويغلبون .

قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده



وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يشب في الدرع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبي حاتم عن عكرمة قال لما نزلت : ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ) ، قال عمر أى جمع يهزم ؟ أى أى جمع يغلب ؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يشب في الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين في ضلال وسعر ، يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين ، أنهم في ضلال وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾ أى كما كانوا في سعر وشك وتردد أورثهم النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم ولا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ذوقوا مس سقر ، أخرج سليم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر ، فنزلت ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ واخرجه الترمذى أيضاً وقال حديث حسن صحيح<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ إلى إن كل كائن في هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة ، والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها في الخليقة كقوله تعالى : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾<sup>(٤)</sup> ، وقوله : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾<sup>(٥)</sup> ، وكقوله سبحانه ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾<sup>(٦)</sup> .

قال القرطبي رحمه الله : ( عقيدة أهل السنة في القضاء والقدر ) .  
الذى عليه أهل السنة ، أن الله سبحانه قدر الأشياء ، أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجد ، على نحو ما سبق في علمه ، فلا يحدث حدث في العالم العلوى والسفلى ، إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته

(١) أخرجه البخارى في صحيحه في تفسير سورة اقربت الساعة ج ٦ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٧ في تفسير سورة القمر آية ٤٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه في المقدمة باب في القدر ج ١ ص ٣٢ رقم ٨٣ .

(٤) الفرقان آية ٢

(٥) الأعلى الآيات ١ — ٣

(٦) الأحزاب آية ٣٨

وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا ، والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذر رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال « أنتم خصماء الله يوم القيامة » .

روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم ، وأن ماتوا فلا تشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » رواه ابن ماجه في سننه (١) .

وفي صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ، ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله : « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فاحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ (٢) ، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب ، كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهى درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود ، ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائن ، لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلوه كائناً — لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقض ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى في كتابه : ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ (٣) ، وقال تعالى : ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ (٤) .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في المقدمة باب في القدر ج ١ ص ٣٥ رقم ٩٢ .

(٢) الأنبياء آية ٢٣

(٣) الفرقان آية ٢

(٤) الأحزاب آية ٣٨

فويل لمن صار لله تعالى في القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً : ( من كتاب العقيدة الطحاوية ) .

قوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أى إنما نأمر بالشئ مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثنائية ، فيكون ذلك الذى نأمر به حاصلًا موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، كما قال جل في علاه : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ والله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر ﴾ أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش ، من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا في أمثالهم ، بشتى العقوبات كما قال سبحانه : ﴿ وإنكم تتررون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ (٥) ثم بين لهم سبحانه ، أن كل أعمالهم محصاة عليهم ، وسيحاسبون على النقيير والقطمير فقال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر ﴾ أى وكل شيء فعلوه مقيد لدى الكرام الكاتبين ، كما قال تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (٦) فما من صغيرة ولا كبيرة إلا هي مسطورة في دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، ويوم القيامة يقولون : ﴿ ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٧) .

روى الامام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » (٨) .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيراً	إن الصغير غدا يعود كبيراً
إن الصغير وإن تقادم عهده	عند الإله مسطر تسطيراً
فأسأل هدايتك الإله فتتد	فكفى بربك هادياً ونصيراً

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل في السر والعلن ،

(٥) الأحقاف آية ٢٧

(٦) ق آية ١٨

(٧) الكهف آية ٤٩

(٨) أخرجه أحمد في مسنده ج ٦ ص ٧٠

(١) يس آية ٨٢

(٢) النحل آية ٧٧

(٣) الصافات آية ١٠

(٤) القتال الآيات ١٣٧ - ١٣٨

وقاموا الليل واستغفروا بالأسحار ، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من استبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على مشاق الطاعات ، وحرموها منه.أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم ، وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه ، أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب ، كما ينالون الزلفى عند ربهم ، القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته ، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا في زمرة من يسمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطول العظيم .

## تفسير سورة الرحمن

مقدمة

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز »

السورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وسبعون

وكلماتها : ثلاثمائة وإحدى وخمسون

وحروفها : ألف وثلاثمائة وست وثلاثون

وسميت سورة الرحمن لمفتتحها

## مقصود السورة

معظم مقصود السورة : المنة على الخلق بتعليم القرآن ، وتلقين البيان ، وأمر الخلائق بالعدل في الميزان ، وألانة عليهم بالعصف والريحان ، وبيان عجائب القدرة في طينة الإنسان وبدائع البحر ، وعجائبها : من استخراج اللؤلؤ والمرجان ، واجراء الفلك على وجه الماء ، أبدع جريان ، وفناء الخلق وبقاء الرحمن ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وأن لا نجا للعبد من الله ، إلا بحجة وبرهان ، وقهره الخلائق في القيامة بلهب النار والدخان ، وسؤال أهل الطاعة ( وكذا ) أهل العصيان وطوف الكفار في الجحيم ، ودلال المؤمنين في نعيم الجنان ، ومكافأة أهل الإحسان بالإحسان ، ( وسدور ) المؤمنين بأزواجهم من الحور الحسان ، وتقليبهم ورودهم في رياض الرضوان ، على بساط الشاذروان ، وخطبة جلال الحق ، على لسان أهل التوحيد والإيمان ، بقوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

## المتشابهات

قوله ﴿ ووضع الميزان ﴾ أعاده ثلاث مرات ، فصرح ولم يضم ، ليكون كل واحد قائماً بنفسه غير محتاج إلى الأول ، وقيل : لأن كل واحد غير الآخر . الأول ميزان الدنيا ، والثاني ميزان الآخرة ، والثالث ميزان العقل : نزلت متفرقة ، فافتضى الاظهار .

قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ كرر الآية إحدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقيبها ، لأن في حرقها ودفعها نعما توازي النعم المذكورة ، أو لأنها حلت بالأعداد وذلك يعد من أكثر النعماء ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية في وصف الجنان وأهلها ، على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنيتين اللتين دونها ، فمن أعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق كلتا الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة ، والله أعلم .

### مناسبتها لما قبلها

لما قال سبحانه في آخر سورة القمر ( بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ) ثم وصف حال الجرمين في سقر ، وحال المتقين في جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال في هذه السورة أتم تفصيل .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۝٥ بِحُسْبَانٍ ۝٦ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٧ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٨ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٩ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝١٠ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْحَامِ ۝١١ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝١٢ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٣ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٤ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝١٥ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝١٦ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٧ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٨ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٩ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝٢٠ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝٢١ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٢ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝٢٣ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٨ ﴾

## معاني المفردات

﴿ الرحمن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، ﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع ، ﴿ البيان ﴾ تعبير الإنسان عما في ضميره ، وإفهامه لغيره ، ﴿ بحسبان ﴾ أى بحساب دقيق منظم فالحُسبان يضم الحاء مصدر مثل الغفران ومعناه الحساب .

﴿ يسجدان ﴾ أى ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً ، ﴿ رفعها ﴾ أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، ﴿ الميزان ﴾ العدل والنظام ، ﴿ أقيموا الوزن بالقسط ﴾ أى قوموا وزنكم بالعدل ، ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾ أى لا تنقصوه ، ﴿ للأنام ﴾ أى للخلق ، ﴿ والأكام ﴾ واحدها ( كيم ) بالكسر : وعاء الثمر ، ﴿ والعصف ﴾ ورق النبات الذى على السنبلة ، ﴿ والريحان ﴾ كل مشوم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها ألى ( بفتح الهمزة وكسرها ) .. ﴿ الصلصال ﴾ الطين اليابس الذى له صلصلة وصوت إذا نقر ، ﴿ الفخار ﴾ الخزف وهو الطين المطبوخ ، ﴿ الجان ﴾ نوع من الجن ، ﴿ والمارج ﴾ اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، ﴿ رب المشرقين ﴾ أى مشرق الشمس صيفاً وشتاءً ، ﴿ ورب المغربين ﴾ أى مغربيهما كذلك ( مرج البحرين ) أى أرسلهما وأجراهما من قولك مرجت الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه ( يلتقيان ) أى يتجاوران وتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، ﴿ برزخ ﴾ أى حاجز ، ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغي أحدهما على الآخر بالممازجة وإبطال خاصته . ﴿ واللؤلؤ ﴾ الدر المخلوق فى الأصداف ، ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر ، ﴿ الجوارى ﴾ السفن الكبار ، ﴿ المنشئات ﴾ أى المصنوعات . ﴿ والأعلام ﴾ الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى ، ﴿ فإن ﴾ أى هالك ، ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ أى ذو العظمة والكبرياء .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾<sup>(١)</sup> ، وهو يجرى غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو : ( بسم الله الرحمن الرحيم ) وقد يذكر موصوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الاسراء آية ١١٠

(٢) طه آية ٥

قال الخطابي : ذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه اسم مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة ، الذى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وذكر اسم الرحمن سبعة وخمسين مرة ، فى كتاب الله الكريم ، وأكثر سورة ذكر فيها اسم الرحمن « سورة مريم » إذ ذكر « الرحمن » ستة عشر مرة ، ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم ، وكثير من العلماء يفسر ﴿ الرحمن ﴾ بأنه المنعم بعبائمه النعم ، وجلائل الآلاء ، ويفسر ﴿ الرحيم ﴾ بأنه المنعم بدقائق النعم ، ولطائفها ، وإننا لنسير مع اللغة العربية فى تفهم صيغة ﴿ الرحمن ﴾ ، وصيغة ﴿ الرحيم ﴾ إذ لا بد لكل صيغة من مدلول لغوى ، مقصود المعنى ، باهر الدلالة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين ( فالرحمن ) صيغة جاءت بها اللغة للدلالة على التكثير والتكبير ، وللدلالة على ما يصدر عن تلك الصفة ، من رحمت متجددات ، وتعطفات مستمرات ، وأما ( الرحيم ) فصيغة تدل على الوصف الملازم الثابت ، فتكون دلالة الوصفين أن الله سبحانه وتعالى ( رحيم ) فى ذاته ، قد ثبتت له تلك الصفة ثبوتاً ذاتياً سرمدياً أبدياً ، ثم هو ( رحمن ) كثير الرحمة بعباده ، لا تنقطع عنهم آثار الرحمة ، ولا تستغنى عنها الحياة لحظة من لحظاتها ( فالرحمن ) الذى تتجدد رحمته ، ويتتابع إحسانه ..

إن آثار رحمة الله دلت عليها صيغة ( رحمن ) لتبدو فى كل لحظة ، بل فى كل برهة ، بل فى كل نفس يتنفسه الكائن الحى ، فى كل لحظة تسبح فيها الأفلاك رحمة من الله ، وفى كل حركة تجرى فى الأرض ، أو فى السماء رحمة من الله ، ولو تخلت هذه الرحمة عن العوالم برهة ، لكان الفساد الشامل ، بل العدم المطلق ، فهذه الرحمة المتجددة ، ذات الآثار السرمدية ، هى التى لا تنتهى آثارها ، ولا ينقطع مددها ، يقول تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لحى الموقى ، وهو على كل شىء قدير ﴾ (١) ، ويقول تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٢) .

فإنه عظمت قدرته ، وعمت رحمته ، يَصُون هذا الإنسان ، ويحرسه ويرعاه فى كل طور من أطوار تربيته ، ثم يتعهده بالرزق والعون والمليد ، فى قُلل الجبال ، وفى سارب البحار ، وفى مرامى

(١) الروم آية ٥٠

(٢) الروم الآيات ٢٠ - ٢٥

الفلوات ، وإن جن الليل ، وإن انبثق النهار ﴿١﴾ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴿٢﴾ . ويقول تعالى : ﴿٣﴾ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما في السموات وما في الأرض وإن الله هو الغنى الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجرى في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴿٤﴾ ، ومن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب أعظم من تضمينه علم إنزال الغيث وإنبات الكلاء ، وإخراج الحب ، فاقضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح ، أعظم من اقتضاها لما تحصل به حياة الأبدان والاشباح ، يقول تعالى : ﴿٥﴾ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴿٦﴾ ، ويقول جل وعلا : ﴿٧﴾ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴿٨﴾ ، لذا ذكره المولى سبحانه وتعالى في أول النعم ، فقال تعالى : ﴿٩﴾ علم القرآن ﴿١٠﴾ أى سهله لأن يذكر ويقرأ ، كما قال تعالى : ﴿١١﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴿١٢﴾ ، وقال الخازن : إن الله عز وجل عدد نعمه على عباده ، فقدم أعظمها نعمة ، وأعلاها رتبة ، وهو القرآن العظيم ، لأنه أعظم وحى الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفياه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه في أبواب اللين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية .

وقوله تعالى : ﴿١٣﴾ خلق الإنسان أى خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان

الجنس .

وقوله : ﴿١٤﴾ علمه البيان ﴿١٥﴾ أى ألهمه النطق ، الذى يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان . وقال السدى : علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به ، وقال يمان : البيان : الكتابة والخط بالقلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿١٦﴾ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴿١٧﴾ ، قال البيضاوى : والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثا على شكره ، وتنبهاً على تقصيرهم فيه ، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية ، فقدم الأهم .

(١) الأنبياء آية ٤٢

(٢) الحج الآيات ٦٣ - ٦٥

(٣) الحديد آية ٩

(٤) العنكبوت آية ٥١

(٥) القمر آية ١٧

(٦) العلق الآيات ١ - ٥



ويقول الإمام ابن القيم قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ دلت هذه الكلمات ، على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها ، فقوله خلق الإنسان : إخبار عن الابداع الخارجى العينى ، وخص الإنسان بالخلق ، لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وقوله : ﴿ علم القرآن ﴾ إخبار عن إعطائه الوجود العلمى الذهنى ، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه ، كما انه انما صار إنساناً بخلقه ، فهو الذى خلقه وعلمه ، ثم قال : ﴿ علمه البيان ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة ، كل منها يسمى بياناً ، أحدها البيان الذهنى ، الذى يميز فيه بين المعلومات ، الثانى : البيان اللفظى ، الذى يعبر به عن تلك المعلومات ، ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث : البيان الرسمى الخطى ، الذى يرسم به تلك الألفاظ ، فيتبين الناظر معانيها ، كما تبين للسامع معانى الألفاظ ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب ، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة ، كقوله تعالى : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ (٢) ، ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله : ﴿ صم بكم عمى ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ (٤) ..

ويقول : فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلم ، وكل شئ فى الخارج ، فبخلقه وجد ، وكل علم فى الذهن ، فتعليمه حصل ، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان ، فبأقداره وخلق وتعليمه ، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه ، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له ( أى للعلم ) .

قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكم تكذبان ﴾ .

انتقل النص القرآنى بعد ذلك لصفحة الكون المنظور ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة ، التى لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أى إن الشمس والقمر ، وهما من

(١) الاسراء آية ٣٦

(٢) النحل آية ٧٨

(٣) البقرة آية ١٨

(٤) البقرة آية ٧

أعظم الأجرام ، يجريان في بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان ، انتفع بهما الناس في شئون الزراعة ، كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها في كل فصل من الفصول ، وفي الأمور المالية ، من بيع وشراء ، لآجال محدودة ، من شهور وسنين ، وفي تقدير الأعمار والآجال التي تقدمت ، وجاءت في أخبار الماضيين ، والتي ستكون للحاضرين كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (١) ، وكقوله تعالى : ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) ، وبعد أن ذكر سبحانه ، أن الشمس والقمر طوع قدرته ، وقد جعل لهما النظم الدقيقة في الحسبان ، أردفه انقياد العوالم الأرضية له ، فقال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ أي والنجم والشجر ، يسجدان للكبير المتعال ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجال والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ (٤) .

قال النحاس أصيل السجود في اللغة : الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها ، لأن الله عز وجل ، وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ، ويكون من سجود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ والسماء رفعها ﴾ كقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ (٥) ، وكقوله : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ (٦) . وقوله تعالى : ﴿ ووضع الميزان ﴾ أي العدل كما قال تعالى : ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾ (٧) ، وكقوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ (٨) ، قال مجاهد وقتادة والسدي : أي وضع في الأرض العدل ، الذي أمر به ، وقال

(١) الإسراء الآية ١٢

(٢) يونس الآية ٥

(٣) الأنعام الآية ٩٦

(٤) الحج الآية ١٨

(٥) ق الآية ٦

(٦) الرعد الآية ٢

(٧) الشورى الآية ١٧

(٨) الحديد الآية ٢٥

الحسن وقتادة — أيضاً — والضحالك: هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به ، لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الوزن بالقسط ﴾ والقسط العدل ، ﴿ وَلَا تَخْسِرُوا الميزان ﴾ أى لا تبخسوا الوزن بل وزنوا بالحق والقسط كما قال تعالى : ﴿ وَزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكْتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال .

قوله تعالى : ﴿ والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى كما رفع السماء وضع الأرض ومهدا وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم والوانهم وألوانهم فى سائر أقطارها وأرجائها ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلمهم يهتدون ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وكقوله : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ﴾ أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار ، طازجة ومطبوخة ومجففة ، على شتى الأشكال ، وجذوب الألوان ، والنخل ذات الأوعية تثمرها حين ظهوره ، وأفردا بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنايل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جمارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

وقوله تعالى : ﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾ أى وجميع الحبوب ، التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته ، وذكر أولاً الفاكهة ، لأنها للتفكه فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء ، ثم الحب الذى عليه المعول فى

(١) الإسراء الآية ٣٥

(٢) المطففين الآيات ١ — ٥

(٣) الأنبياء الآية ٣١

(٤) الملك الآية ١٥

الغذاء في جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله في سائر البلاد ، وجعل النخل في البلاد الحارة دون غيرها . وقوله تعالى : ﴿ فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به في العبادة ، دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم ، قال ابن كثير في تفسيره :

قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن جابر ، قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : ( لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ) كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ قال لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد .. فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به ، اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد وكان ابن عباس يقول لا بأياها يارب أى لا نكذب بشيء منها<sup>(١)</sup> .

وقد كررت هذه الآية ، في واحدة وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة ، وتأكيذاً للتذكير بها ، فتراه سبحانه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وقال القرطبي رحمه الله : قال الترمذى محمد بن علي : هذه السورة من بين السور علم القرآن ، والعلم إمام الجند ، والجند تتبعه ، وإنما صارت علماً ، لأنها سورة صفة الملك والقدرة ، فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ، ليعلم العباد أن جميع ما يصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته ، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ ثم ذكر ما صنع به ، وما من عليه به ، ثم ذكر حساب الشمس والقمر ، وسجود الأشياء من نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخطب هذين الثقلين الجن والإنس ، حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته ، التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه وجحدوا الرحمة ، التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلاً لهم : ﴿ فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم ، أنهم جعلوا في هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته ، شريكاً يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم ، ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجنان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : ﴿ فَبَأَى آلاءِ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإن له في كل خلق بعد خلق ، قدرة بعد قدرة ، فالتكرير في هذه الآيات للتأكيد والمبالغة في التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلق خلق .. أ هـ .

قوله تعالى : خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴿١﴾ .

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، قال الامام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » أى من طين . ورواه أيضاً مسلم . (١) .

وقد جاء في الكتاب الكريم ، عبارات مختلفة في خلق الإنسان ، باعتبار مراتب الخلق ، فمرة قال : انه خلق من تراب ، وأخرى قال : إنه من طين ، وثالثة قال : إنه من طين لازب ، أى لاصق باليد لما اختلط به من الماء ، وهنا قال من صلصال ، وهى مادة الأصل ، وأحياناً يذكر مادة الفرع ، وهو الماء المهيّن .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ مما أفاض عليكم في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان ، شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ أى رب مشرق الصيف والشتاء ، ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات ، ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب ، مصالح للخلق من الجن والإنس ، قال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ولما ذكر نعمه التي ترى على عباده في البر ، أعقبها بنعمه عليهم في البحر فقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ أى أرسل البحر الملح والبحر العذب ، متجاورين متلاقين ، لا يبغي أحدهما على الآخر ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من قدرته ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ويجرى

شمالاً ، حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط ولا يبغي أحدهما على الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ <sup>(١)</sup> . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقد ثبت في الكشف الحديث ، أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح ، يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان ، وإن كان الغالب ، أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام ﴾ أى وله السفن الكبار ، التى رفعت شرعها في الهواء كالجبال الشاهقة تجرى في البحر بنعمة الله ليربكم من آياته ، فهى كالجبال في كبرها . وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة ، من قطر إلى قطر ، واقليم إلى اقليم ، بما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه ، من سائر أنواع البضائع ولهذا قال تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

والبر والبحر فيض من عطاياه	والشمس والبدر من أنوار حكمته
والموج كبره والحوث ناجياه	الطير سبحه والسوحش مجده
والنحل يهتف حمداً في خلاليه	والنمل تحت الصخور الصم قدسه
والعبد ينسى ورنى ليس ينساه	والناس يعصونه جهراً فيسترهم

قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فإن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض ، سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحى الذى لا يموت أبداً .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> ووجه النعمة في فناء الخلق ، أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب .

(١) الفرقان الآية ٥٣

(٢) القصص الآية ٨٨

وقوله تعالى : ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ،  
﴿ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ، قال ابن عباس ذو الجلال والإكرام  
ذو العظمة والكبرياء .

وعن أنس رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال « اللهم  
إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي  
يا قيوم » فقال النبي ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم . الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به  
أعطى » (١) .

( اخرجه أهل السنن الأربعة والأمم أحمد فى مسنده ) .

وفى مسند الامام أحمد وصحيح الحاكم عن حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعة بن عامر  
عن النبي ﷺ أنه قال : « أَلْظُّوا بِيَاذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » (٢) ( أَلْظُّوا ) ( بفتح الألف وكسر اللام  
وتشديد الظاء ) قال أبو عبيدة : الإلظاظ : لزوم الشيء والمثابرة عليه ، ويقال : الإلظاظ الإلحاح .  
والمعنى : تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها . وعن سعيد المقبرى أن رجلاً ألح فجعل يقول : اللهم يا  
ذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى أنى قد سمعت فما حاجتك ؟

ولما أخبر سبحانه عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ،  
فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام ، بحكمه العدل قال : ﴿ فَبِأَى آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ .

## البقاء لله وحده

أخوانى ، تفكروا فى مصارع الذين سبقوا ، وتدبروا مصيرهم أين انطلقوا ، واعلموا أن القوم  
انقسموا وافترقوا ، قوم منهم سعدوا ، ومنهم قوم شقوا .  
شعر :

عجبت والدمر لا تفنى عجائبه	لراكنين إلى الدنيا وقد صدقوا
وطال ما نغصوا بالفجع ضاحية	وطال بالفجع والتنغيص ما طرقوا
دار تغر بها الآمال مهلكة	وذو التجارب فيها خائف فرق
يا للرجال لخدوع بزخرفها	بعد البيان ومغرور بها يثق

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم ج ٢ ص ١٢٦٨ رقم ٨٣٥٨ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى سننه ج ٤ ص ١٧٧ .

أقول والنفس تدعوني لباطلها  
أين الذين إلى لذاتها ركنوا  
أمت مساكهم قفراً معطلة  
يا أهل لذات دار لا بقاء لها  
أين المملوك ملوك الناس والسوق  
قد كان فيها لهم عيش ومرتق  
كأنهم لم يكونوا قبلها خلقوا  
إن اغتراراً بظل زایل حق

وقال الحسن : إن الله تبارك وتعالى ، قد كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم مشاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

شعر :

ألا كل حي هالك وابن هالك  
فقل لغريب الدار انك راحل  
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها  
تجرع فيها هالكاً فقد هالك  
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها  
إذا امتحن الدنيا ليب تكشف له  
عليك بدار لا يزال ظلالها  
فما يبلغ الراضى رضاه يبلغه  
وذو نسب في الهالكين عريق  
إلى منزل فأى الخل سحيق  
شواظ حريق أو دخان حريق  
وتشجى فريقاً منهم بفريق  
قراراً فما دنياك غير طريق  
عن عدو في ثياب صديق  
ولا يتأذى أهلها بمضييق  
ولا ينفع الصادى صدهاء بريق

قال الحسن البصرى : ما عجبت من شيء ، كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ وهل عبدت الأصنام وعصى الرحمن ، إلا لحب الدنيا وإيثارها ؟ .

وكان يقول : من عرف ربه أحبه ، وآثر ما عنده ، ومن عرف الدنيا وغرورها ، زهد فيها . وقيل له : يا أبا سعيد هل يرى الله عز وجل في دار الدنيا ؟

فقال : لا ! قيل : فهل نراه في الدار الآخرة ؟ فقال : نعم !

قيل : وما الفرق بين ذلك ؟ فقال : لأن الدنيا فانية ، وفان كل ما فيها ، ولأن الآخرة باقية ، وباق كل ما فيها ، ومحال أن يرى الباقي بالفانى ، والقديم الأزلى بالحدث ، وإذا كان يوم القيامة خلق الله لعباده أبصاراً باقية ، يرون بها ربهم تفضلاً عليهم وإكراماً لهم .



وكان يقول : روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ ، وهو راقد على سرير موصول بالشريط وقد أثر في جنبه أثر الحبل فدمعت عيناه : فقال النبي ﷺ « مالك يا ابن الخطاب ؟ فقال : ذكرت كسرى وقىصر وما هما فيه من الملك والتنعيم ، ورأيتك وأنت رسول الله وصفيه ومصطفاه وحييه تنام على سرير موصول بالشريط ، فقال : ﷺ : أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فقال : رضيت يا رسول الله ، فقال ﷺ : إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب سافر في يوم صائف فرفعت له شجرة ذات ظل ظليل ، فنزل إليها فقال ( أى نام ) تحتها هنيئة ، ثم راح وتركها » (١) .

وكان يقول : وجد في حجر مكتوب : ابن آدم ، لو أنك رأيت قليل ما بقى من أجلك ، لزهدت فيما ترجوه من أملك ، ولرغبت في الزيادة من عملك ، ولقصرت في حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك ، لقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ، وصرت تدعى ولا تحيب .

شعر :

يا غادياً في غفلة ورائحاً	إلى متى تستحسن القبائح
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً	يستنطق الله به الجوارح
يا عجباً منك وأنت مبصر	كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ في غد	صحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى ان تكون خاسراً	يوم يفوز من يكون راجحاً

ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال على الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ، ومُصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أولياته ، ربخوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت بيئها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً .

فيأيتها الدام للدنيا المعلن نفسه ، متى خدعتك الدنيا ، أم ي استذمت إليك ، أم بصارع آباءك في البلى ، أم بمضاجع أمهاتك في الثرى ، كما مرّضت بيديك ، وعللت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ، ولا ينفعك بكاؤك .

وقيل لبكر بن عبد الله المزني : صف لنا الدنيا ، فقال : ما مضى منها فحلم ، وما بقى فأمانى

وقيل : الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صدق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل الحق من الباطل .

وقال ابن مسعود : ليس من الناس أحد إلا وهو ضيف على الدنيا ، وماله عارية ، فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة .

شعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه      تنحّ عن خطبها تسلم  
إن التى تخطب غرارة      قريّة العرس من الماتم

وقال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحة الله ، وإن هلكت فبدنوبك .

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمه ، واستظهر لنفسه ، والشقى من جمع لغيره ، وبخل على نفسه .

وقال بعض الشعراء :

من كان يعلم أن الموت مدركه      والقبر سكنه والبعث مخرجه  
وأنه بين جنات ستهجه      يوم القيامة أو نار ستنضجه  
فكل شيء سوى التقوى به سَمَجْ      وما أقام عليه منه أَسْمَجْ  
ترى الذى أتخذ الدنيا له وطنا      لم يدر أن المنيا سوف ترعجه

روى جعفر بن محمد ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ : أنه قال فى بعض خطبه .

« أيها الناس ، إن لكم نهاية فانتهاوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالم فانتهاوا إلى معالمكم ، وإن المؤمن بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خلقت لكم ،

وأنتم خلقتم للآخرة ، فو الذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار « (١) .

### من مشاهد القيامة

﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ (٣٩) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٤٠) ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾ (٤١) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٤٢) ﴿ بِمَعْشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ (٤٣) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٤٤) ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمْ شَوَاطِئُ مِنْ نَارٍ وَنَحَاسٍ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴾ (٤٥) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٤٦) ﴿ إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ (٤٧) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٤٨) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ (٤٩) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٥٠) ﴿ يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (٥١) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٥٢) ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾ (٥٣) ﴿ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ﴾ (٥٤) ﴿ فَيَأْتِيءُ الْآءِ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ﴾ (٥٥) ﴿

### معاني المفردات

﴿ يسأله من في السموات والأرض ﴾ أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه ، ﴿ هو في شأن ﴾ أى في أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصاً ، ويجدد أحوالاً ، ﴿ سنفرغ لكم ﴾ أى سنقصده لحاسبتكم بعد الإمهال ، ﴿ أيها الثقلان ﴾ الإنس والجن ، ﴿ أن تنفذوا ﴾ أى تخرجوا ، ﴿ والأقطار ﴾

الجوانب ، واحدها قطر ، ﴿ والسلطان ﴾ إلا بأمر الله ، ﴿ الشواظ ﴾ اللهب الخالص ، ﴿ النحاس ﴾ الدخان الذى لا خب فيه ، ﴿ فلا تتصران ﴾ أى فلا تمتنعان من الله ، ولا يكون لكما منه ناصر ، ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ أى فإذا جاء يوم القيامة ، تصدعت السموات ، واختلقت نظمها ، واحمر لونها ، وأذيت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه ، مما يدهن به ، ﴿ والسيما ﴾ العلامة ، ﴿ والنواصى ﴾ واحدها ناصية ، وهى مقدم الرأس ، ﴿ الأقدام ﴾ واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الحار ، ﴿ آن ﴾ أى متناهٍ فى الحرارة ، لا يستطيع شربه من شدة حرارته .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد — عزت قدرته — نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها ولا ثبات ، فكل شيء يفنى إلا ذاته تعالى ، ذكر أن كل من فى الوجود مفتقر إليه ، فهو المدبر أمره ، والمتصرف فيه ، فهو يحى قوماً ويميت آخرين ، ويرفع قوماً ويخفض آخرين ، ثم نبههم إلى أنه فى يوم القيامة ، سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل ان تندموا ، ولات ساعة مندم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلاق إليه فى جميع الآئات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم ومآلهم ، وأنه سبحانه كل يوم هو فى شأن .

قال ابن جرير بسنده ، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ فقلنا يا رسول الله وماذا شأن ؟ قال « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين » (١) .

قال المفسرون : هي شئون يديها ولا يتديها ، أى يظهرها للخلق ، ولا ينشئها من جديد ، لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ، ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغنى فقيراً ، في قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، توج الليل في النهار وتوج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

قوله تعالى : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ قال وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ سبحانه .

وقال البخارى : سنحاسبكم ، لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : لأنفرغن لك وما به شغل ، يقول لآخذنك على غرتك ، وقوله تعالى : ﴿ أيها الثقلان ﴾ أى الإنس والجن ، كما جاء في الحديث الصحيح « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » <sup>(٢)</sup> ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ ، قال ابن كثير : أى لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق ، سبع صفوف ، من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أى إلا بأمر الله ، ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ﴾ وهذا إنما يكون في القيامة لا في الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ يرسل عليكم شواظ من نار ﴾ . ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) . قوله تعالى : ﴿ يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الشواظ هو لهب النار ، وقبل الشواظ الدخان ، وقال الضحاك : ﴿ شواظ من نار ﴾ أى سيل من نار . ﴿ ونحاس ﴾ قال ابن عباس النحاس دخان النار . قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نحاساً ( بضم النون ) .

(١) آل عمران الآيتان : ٢٦ - ٢٧

(٢) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٣ ص ٤ ، وكذا البخارى في كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال ج ٢ ص ١٣ وكذلك جاء في نفس الكتاب باب ما جاء في عذاب القبر ج ٢ ص ١٢٣ .

وقال مجاهد : النحاس الصفر المذاب ، فيصب على رؤوسهم وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك ﴿ ونحاس ﴾ سبل من نحاس .

قال ابن كثير : والمعنى على كل قول : لو ذهبت هارين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية ، بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم ، لترجعوا ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا تتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ أى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله جل في علاه : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أى تذوب كما يذوب الفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ ، التى يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الموقف كقوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ <sup>(٤)</sup> ثم يسألون بعد ذلك ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ <sup>(٥)</sup> . ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ ، قال الحسن وقاتدة : يعرفونهم بأسوداد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأئنا أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ <sup>(٦)</sup> ، وكما قال سبحانه : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ <sup>(٧)</sup> ، وكما قال جل في علاه : ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ <sup>(٨)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رؤوسهم وأقدامهم ، فيقذفون في النار . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه في سلسلة من وراء ظهره ، وعنه : يؤخذ برجلي الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ، ثم يلقى في النار ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصريته ،

(٥) الحجر الآيات ٩٢ - ٩٣

(٦) يونس الآية ٢٧

(٧) آل عمران الآية ١٠٦

(٨) طه الآية ١٠٢

(١) الحاقة الآية ١٦

(٢) الانشقاق الآيات ١ ، ٢

(٣) الفرقان الآية ٢٥

(٤) المرسلات الآيات ٣٥ ، ٣٦

وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِذْ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ، فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (١) . وكما قال جل في علاه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ، يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

أى هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ما هي حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك : تقریباً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتخفيراً ، كما قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ، هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ، أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ أَصْلُوهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آتٍ ﴾ أى تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون في الجحيم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب ، يقطع أمعاءهم . وقوله تعالى : ﴿ آتٍ ﴾ أى حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطيع من شدة ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ خَذَوْهُ فَاعْتَلَوْهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ثُمَّ صَبَوْا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴾ (٤) ، وكقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (٥) .

ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ورحمته ، وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه مما يزرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك ، قال ممتناً بذلك على برئته : ﴿ فَبَأَى آلَاءُ رَبِّكَمَا تَكْذِبَانِ ﴾ .

(١) غافر الآيات ٧١ - ٧٢

(٢) الإسراء الآية ٢٩

(٣) الطور الآيات ١٣ - ١٦

(٤) الدخان الآيات ٤٣ - ٤٨

(٥) الحج الآيات ١٩ - ٢٢

## السابقون وأصحاب اليمين

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ ﴿٤٦﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٤٨﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٤٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿٥٠﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۖ ﴿٥٢﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٣﴾ مُتَكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ ۖ ﴿٥٤﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَلْصِرَاتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ ۖ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۖ ﴿٥٦﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ۖ ﴿٥٨﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ۖ ﴿٦٠﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ۖ ﴿٦٢﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَتَانِ ۖ ﴿٦٤﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٥﴾ فِيهَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۖ ﴿٦٦﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٧﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۖ ﴿٦٨﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حَسَنٌ ۖ ﴿٧٠﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۖ ﴿٧٢﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ ۖ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۖ ﴿٧٤﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧٥﴾ مُتَكِعِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ وَعَبَقَرٍ حَسَنٍ ۖ ﴿٧٦﴾ فِيهَا ۖ الْآءُ رَبُّكُمْ تُكَذِّبَانِ ۖ ﴿٧٧﴾ تَبَرَّكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۖ ﴿٧٨﴾﴾

## معاني المفردات

﴿مقام ربه﴾ أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، ﴿ذواتا﴾ مثنى ذات بمعنى صاحبة ، ﴿والأفنان﴾ الأنواع واحدها فن : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، ﴿زوجان﴾ أى صنفان ، ﴿والفرش﴾ واحدها فراش ، ﴿والبطائن﴾ ، واحدها بطانة ، ﴿والإستبرق﴾ الديباج أى الحرير الثخين ، ﴿والجنى﴾ الثمر ، ﴿دان﴾ أى قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع .



﴿ قاصرات الطرف ﴾ أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، ﴿ لم يطمثن ﴾ أى لم يمسهن ، وأصل الطمث قروح الدم ، ويراد به قربان النساء ، ﴿ كآتهن الياقوت والمرجان ﴾ فى الصفاء والبياض .

﴿ ومن دونهما ﴾ أى من ورائهما ، ﴿ مدها متان ﴾ أى خضراوان بسواد ، لأن الخضرة إذا اشتدت ، ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه . ﴿ نضاختان ﴾ أى فوارتان بالماء ، ﴿ حور ﴾ واحدتهم حوراء : أى بيضاء . ﴿ مقصورات فى الخيام ﴾ أى مخدرات يقال : امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف فى الطرق ، ﴿ والخيام ﴾ واحدها خيمة ، وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشيء من نبات الأرض .

﴿ الرفرف ﴾ واحدها رفرقة : وهى الوسادة - المخدة - أو ما تدلى من الأسرة من غالى الثياب ، ﴿ والعبرى ﴾ منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب انه بلد يسكنه الجن ، ويسندون إليه كل شئ عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى بالسط .

﴿ تبارك اسم ربك ﴾ أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما يراه المشركون برهم ، والعصاة لأوامره ونواهيه ، من الأهوال يوم القيامة - ذكر هنا ما أعدّه من النعيم المقيم ، لمن خشى ربه ، وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه ، تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دان لمن طلبه ، وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباح ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بيضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم ذكر سبحانه جنتين آخرين ، دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة فالأوليان للمقربين ، والآخريان لأصحاب اليمين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

يقول تعالى : ولمن خاف مقام ربه بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ،

كما قال عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ (١) ، وكقوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ (٢) ، وكما قال البخارى بسنده عن أنى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » (٣) .

قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في الإنس والجن ، فهي من أول دليل على أن الجن يدخلون الجنة ، إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء ، فقال : ﴿ ولئن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

## الخوف وحقيقته وبيان درجاته

قال الشيخ ابن قدامة المقدسى فى كتابه « منهاج القاصدين » بتصريف .

أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترقاء ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جنائية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه ، بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنائيته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب بضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جنائية ، بل عن صفة الخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغناؤه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه ، وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبدينه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » ( جزء من حديث فى البخارى ) (٤) .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين » (٥) متفق عليه .

( والخنين بالخاء المعجمة : هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف ) .

(٢) البينة الآيتان ٧ - ٨ .

(١) النازعات الآيتان ٤٠ - ٤١ .

(٣) أخرجه البخارى : فى كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنوع وأسماى الله ج ٩ ص ١٦٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلو فى الدين والبدوع

لقوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ ج ٩ ص ١٢٠ .

(٥) أخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ - دار الفكر بيروت .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ <sup>(١)</sup> وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات ، بالنحول والاصفرار والبكاء .. وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصي ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

عن أنى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج ، بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » <sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال حسن ( وأدلج : معناه سار من أول الليل ، والمراد : التشمير فى الطاعة ) ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكره اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه ، إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأذى الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب المهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرع لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخضة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضار ، لا يدرى أبغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة ، بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف ، بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأحوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إيمان التحريم ، سمي ورعاً ، وإن انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

### بيان أقسام الخوف

أعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ، وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة لا يسأل عما يفعل .  
وقد قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » ومن أقسام الخائفين ، من يخاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر .  
ومنهم من يخاف هيبه الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة .

(١) فاطر الآية ٢٨

(٢) أخرجه الترمذى فى أبواب صفة القيامة ج ٤ ص ٥١ رقم ٢٥٦٧ .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

## ذكر خوف نبينا ﷺ

قال صاحب كتاب « الشفا » القاضي عياض :

« وأما خوفه ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه ، ولذلك قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » وفي رواية الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه « إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أظن السماء وحق لها أن تنط » ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأرون إلى الله » (١) ، قال أبو ذر : وددت أنى شجرة تعضد .

وفي حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه . فقيل له : « أتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً » (٢) .

وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى ، فقامت معه فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة ، يفعل مثل ذلك » (٣) . وعن حذيفة مثله .. وعن عبد الله بن الشخير أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

قال ابن أبي هالة : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة . وقال ﷺ « إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٤) وفي رواية « سبعين مرة » .

(١) أخرجه ابن عساكر ج ٥ ص ٢٩٢ وكذلك اتعاف السادة المتقين بشرح علوم الدين ج ٧ ص ٣٠٨ .

(٢) أخرجه الترمذى في باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ ضبعة دار الفكر بيروت .

(٣) أخرجه صحيح مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب أكثر الأعمال والاجتهاد في العبادة ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٢٨١٩ / ٧٩ .

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح باب الذكر في الركوع ج ٢ ص ١٩١ .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه ج ٧ ص ٥٢ كتاب النكاح باب كان يغان على قلبه فيستغفر الله ويتوب إليه في اليوم مائة مرة .

وأخرجه صحيح مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج ٤ ص ٢٠٧٥ رقم ٢٧٠٢ / ٤١ .

## ذكر خوف الصحابة رضوان الله عليهم

كان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد ، وقال : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل ، وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر — رضى الله عنهم —

وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسمع آية ، فيمرض فيعاد أياماً ، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء .

قال على بن أبى طالب : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يراوحن بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل ، مادوا كما يمد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ولقد صدق من قال فيهم :

بـتـلـاوة ، وتضرع وسؤال  
لعدوهم من أشجع الأبطال  
يتسابقون بصالح الأعمال  
وبها أشعة نوره المتلألئ  
فى سورة الفتح المبين العالى  
قـوم يحجم ذؤو إدلال  
وبهل أقى ، وبسورة الأنفال

يحيون ليلهم بطاعة ربهم  
فى الليل رهبان ، وعند جهادهم  
وإذا بدأ علم الرهان رأيتهم  
بوجوههم أثر السجود لربهم  
ولقد أبان لك الكتاب صفاتهم  
وبراع السبع الطوال صفاتهم  
وبراءة ، والحشر فيها وصفهم

وكان الحسن يقول : إن لله عبداً ، كمن رأى أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى .

وكان سُمَيْط يقول : أتاهم من الله وعيد وقدهم ، فناموا على خوف ، وأكلوا على تنغيص .

وقال أحمد بن حنبل — رضى الله عنه — : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتيه .

وكان بشر الحافى لا ينام الليل ، ويقول : أخاف أن يأتى أمر الله وأنا نائم .

وكلمما هم بذرق الكرى صاح به الهجران قم لاتنم

قال عمر بن ذر : لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا إلى أهل الغفلة ، قد سكنوا إلى فرشهم ، ورجعوا إلى ملاذهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فرحين مستبشرين ، بما قد وهب الله

لهم من السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وباشروا ظلمته بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل ، وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولى الليل بربح وغبن ، فاعملوا لأنفسكم في هذا الليل وسواده ، فإن الخبون من غبن خير الدنيا والآخرة ، كم من قائم لله تعالى في هذا الليل ، قد اغتبط بقيامه في ظلمة حضرته ، وكم من نائم قد ندم على طول نومه ، عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غداً .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾<sup>(١)</sup> .

## في فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منهما

قال ابن قدامة : فضيلة كل شيء بقدر إعاقته على طلب السعادة ، وهي لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة ، قال الله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال النبي ﷺ : قال الله عز وجل : « وعزتي وجلالي ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمين إن أمننى في الدنيا ، أخففته يوم القيامة ، وإن خافنى في الدنيا أمنتته يوم القيامة »<sup>(٤)</sup> ( أخرجه ابن حبان عن أبى هريرة ، وسنده حسن ) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبداً : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »<sup>(٥)</sup> .

واعلم : أن قول القاتل : أيهما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيهما أفضل الخبز أو الماء ؟

(١) السجدة الآيتان ١٦ - ١٧

(٢) الرحمن الآية ٤٦

(٣) البنية الآية ٨

(٤) أخرجه اتحاف السادة المتقين بشرح أحياء علوم الدين للزبيدي ج ٩ ص ٢١١ .

(٥) أخرجه تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٥ في تفسير سورة آل عمران آية رقم ٢٠٠ .

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتماعاً ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء ، دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل — لأن المعاصي والاعتزاز من الخلق أغلب .

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا إلا محبباً لله تعالى ، محبباً للقائه ، حسن الظن به ، قوله تعالى : ﴿ ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

ثم نعت سبحانه وتعالى هاتين الجنتين فقال : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أى أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) .

﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداها يقال لها التسليم ، والأخرى السلسيل ، قاله الحسن البصرى ( فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ) .  
﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أى فيهما من كل فاكهة صنفان من جميع أنواع الثمار ، مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة ، إلا الأسماء ، يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً ، وفرقاً بينا فى التفاضل . ( فبأى آلاء ربكما تكذبان و ) ( فبأى الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟ )

قوله تعالى : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه طعام وشراب أهل الجنة ، ذكر فراشهم ، فقال ﴿ متكئين على فرش بطائنها من استبرق ﴾ أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظواهر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو أخبرتم بالظواهر ؟ .

وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟

قال : هذا ما قال الله فيه ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ <sup>(١)</sup> . وفى هذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب وراحة البال .

قوله تعالى : ﴿ وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ أى وثمراها قريب منهم متى شاءوا كقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وكقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> فهى لا تمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ . ثم ذكر سبحانه وتعالى النساء اللواتي يمتعون بهن ، فقال تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

أى فى تلك الجنات ، نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسهن أحد قبل أزواجهن ، لا من الجن ولا من الإنس . قال ابن القيم : ظاهر القرآن . أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا ، وإنما هن من الحور العين . وأما نساء الدنيا فنساء الإنس قد طمثن الإنس ، ونساء الجن قد طمثن الجن ، والآية تدل على ذلك ، ويدل على أنهن الحور اللاتي خلقهن فى الجنة : أنه سبحانه جعلهن ، مما أعده الله فى الجنة لأهلها ، من الفواكه والثمار ، والأنهار والملابس وغيرها ، ويدل عليه أيضاً الآية التى بعدها ، وهى قوله تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضاً ، وقال الامام أحمد مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى نغ ساقها من وراء الثياب » <sup>(٤)</sup> . وقال الامام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه — يعنى سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما



فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لمألت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » ورواه البخارى عن أنس بنحوه<sup>(١)</sup> .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

قوله تعالى : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ أى ما جزاء الإحسان في العمل إلا الإحسان في المثوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾<sup>(٣)</sup> .

روى عن ابن عباس أنه قال « هل جزاء من قال : لا إله إلا الله في الدنيا إلا الجنة في الآخرة » .

﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ اللهم ولا يشيء من آلائك ربنا تكذب ، فلك الحمد .

قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

قال ابن كثير : هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في الرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ، وقد تقدم في الحديث الذى أخرجه البخارى جنتان من ذهب وجنتان من فضة ، فالأوليان للمقربين ، والآخريان لأصحاب اليمين ، قال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، والدليل على شرف الأوليين على الآخرين وجوه ( أحدها ) أنه نعت الأولتين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وهذا ظاهر في شرف التقدم وعلوه على الثانى ، وقال هناك : ﴿ ذواتا أفنان ﴾ وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ ، وقال ههنا : ﴿ مدهامتان ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء .. ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قد اسودتا من الخضرة ، من شدة الرى من الماء .

(١) أخرجه الامام أحمد ج ٣ — ص ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ .

(٢) الرعد الآية ١٨

(٣) يونس الآية ٢٦

وقال محمد بن كعب القرطبي ﴿مدها متان﴾ أى ممتلئتان من الخضرة . ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ .

وقوله : ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ وقال هناك : ﴿فيهما عينان تجربان﴾ وههنا ﴿نضاختان﴾ قال ابن عباس : أى فياضتان والجرى أقوى من النضخ . ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ .

قوله تعالى : ﴿فيهما فاكهة ونخل ورمان﴾ وقال هناك ﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾ ولا شك ان الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنوع على فاكهة وهى نكرة في سياق الإثبات لا تعم ولهذا فسر قوله ﴿ونخل ورمان﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخارى وغيره وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ .

قوله تعالى : ﴿فيهن خيرات حسان﴾ أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن ، ورد أن الحور يغنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام . ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ .

وقوله : ﴿حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ أى وهؤلاء الخيرات الحسان ، واسعات العيون ، مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسن بطوافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت ، للدلالة على شدة الصيانة ، قال البخارى عن عبد الله بن قيس ان رسول الله ﷺ قال : «إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخريين يطوف عليهم المؤمن»<sup>(١)</sup> وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه . ﴿فبأى آلاء ربكم تكذبان﴾ .

قوله تعالى : ﴿لم يطمئنن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ تقدم تفسيره ، وقوله : ﴿متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان﴾ أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة ، وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر . ﴿فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ اللهم ولا بشيء من آلائنا نكذب ، فلك الحمد ، وكما

(١) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٨٢ تفسير سورة الرحمن

بدأ سبحانه السورة باسم من أسمائه الحسنی وصفاته العلی ، ختمها كذلك ، فقال تعالى : ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ قال ابن عباس ﴿ ذي الجلال والإكرام ﴾ ذي العظمة والكبرياء ، وفي الدعاء الماثورة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .  
دعاء :

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، سبحانه وبمحمدك ، أنت ربي ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسي ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لي ذنبي جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك أنابك وإليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .  
( رواه مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد ) .

## تفسير سورة الواقعة

مقدمة : قال صاحب البصائر :  
السورة مكية بالاتفاق .  
عدد آياتها : ست وتسعون  
وكلماتها : ثلاثمائة وثمان وسبعون .  
وحروفها : ألف وسبعمائة وثلاث .  
مجموعة فواصل آياتها ( لا بد من ) على الباء منها آية واحدة : ( وماء مسكوب ) .  
سميت بسورة الواقعة ، لمفتتحها .

## مقصود السورة

معظم مقصود السورة : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالاضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرقى في بحار الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الحلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار ، وما في ضمنهما . من النعمة والمنة ، ومس المصحف ، وقراءته في حال الطهارة ، وحال التوفى في ساعة السكره ، وذكر قوم بالبشارة ، وقوم بالخسارة والخطبة على جلال الحق تعالى بالكبرياء والعظمة بقوله : ﴿ فسيح باسم ربك العظيم ﴾ .

## المتشابهات

قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ أعاد ذكرها . وكذلك ﴿ أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ﴾ ، ثم قال ﴿ السابقون ﴾ لأن التقدير عند بعضهم . والسابقون ما السابقون فحذف ( ما ) لدلالة ما قبله عليه . وقيل تقديره : أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ، والسابقون ، ثم ذكر عقيب كل واحد منهم تعظيماً أو تهويلاً ، فقال : ما أصحاب الميمنة ، ما أصحاب المشئمة ، والسابقون أى هم السابقون ، والكلام فيه يطول .

قوله : ﴿ أفرأيت ما تمنون ﴾ ﴿ أفرأيت ما تحرثون ﴾ ، ﴿ أفرأيت الماء الذى تشربون ﴾ ﴿ أفرأيت النار التى تورون ﴾ بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه ، وهو الحب الذى منه قوته ، ثم الماء الذى منه سوغه وعجنه ، ثم النار التى منها نضجه وصلاحه ، وذكر عقيب كل واحد ما يأتى عليه ويفسده ، فقال فى الأولى : ﴿ نحن قدرنا بينكم ﴾ وفى الثانية : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ وفى الثالثة : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ ولم يقل فى الرابعة ما يفسدها ، بل قال : نحن جعلناها تذكرة ، يتعظون بها ومتاعاً للمقوين : أى للمسافرين ينتفعون بها .

## وجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ، ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين ، وجنتى بعض آخر منهم ، وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة ، وأصحاب مشئمة وسابقين .

(٣) أنه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رج الأرض ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ١ ﴿لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ ٢ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ ٣ ﴿إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ٤ ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ٥ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ ٦ ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ٧ ﴿فَأَصْحَبُ الْمُئِمَّةِ مَا أَصْحَبُ الْمُئِمَّةِ﴾ ٨ ﴿وَأَصْحَبُ الْمُشْجَمَةِ مَا أَصْحَبُ الْمُشْجَمَةِ﴾ ٩ ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ١٠ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١ ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ١٢ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَى﴾ ١٣ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٤ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ ١٥ ﴿مُتَكِعِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ ١٦ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ تُخْلِدُونَ﴾ ١٧ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ١٨ ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ﴾ ١٩ ﴿وَفَلَكِهِم مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَحْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ٢١ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٢٢ ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُوفِ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٣ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ٢٥ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ٢٦

## معاني المفردات

﴿وقعت﴾ أى حدثت ، ﴿والواقعة﴾ القيامة ، ﴿لوقعتها﴾ أى لوقوعها ، ﴿كاذبة﴾ أى كذب ، ﴿رجت﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ، ﴿بست﴾ أى فتت وصارت كالسويق الملتوت ، ﴿هباء﴾ أى غباراً ، ﴿منبثاً﴾ أى متفرقاً ، ﴿أزواجاً﴾ أى أصنافاً ، ﴿المئمة﴾ ناحية اليمين ، والمشامة ناحية الشمال ، ﴿والسابقون﴾ هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا ، ﴿والمقربون﴾ هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم ، ﴿والثلة﴾ الجماعة ، قلت أو كثرت ، وقيل : الجماعة الكثيرة من الناس ، ﴿موضونة﴾ من الوضع وهو النسج ، ﴿أكواب﴾ أى آنية لا عرا لها ولا خراطيم ، ﴿أباريق﴾ واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . ﴿كأس من معين﴾ أى خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أى لا يلحقهم صداد بسببها ، كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا المحرمة ، ﴿ولا ينزفون﴾ أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، ﴿يتخايرون﴾ أى يختارون ، ﴿حور﴾ واحدته حوراء : أى بيضاء ، ﴿عين﴾ واحدته عينا ، أى واسعة العينين ، ﴿المكنون﴾ المصون الذى لم تمسه الأيدي ، وهى أصفى وأبعد من التغير .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ، لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ، إِذَا رَجَتِ الْأَرْضُ رَجًا وَبَسَتْ الْجِبَالُ بَسًا فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ۖ ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله أراك قد شئت ! قال : « شيتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »<sup>(١)</sup> ( رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ووافقه الذهبى ) .

قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفطيع ، والوعيد الشديد ، لاشتياهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما فى بعضهن من الأمر بالاستقامة .

قوله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة ، وسميت واقعة ، لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وفيه إضمار ، أى اذكروا إذا وقعت الواقعة .

وقوله : ﴿ لَيْسَ لَوْقَعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ قال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى أيضا : ليس لها تكذيب ، أى ينبغى ألا يكذب بها أحد ، وقال قتادة : لا يردّها شيء كما قال سبحانه : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ قال قتادة : خفضت أقواماً فى عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء الله فى الجنة .

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير فى تفسير سورة الواقعة ج ٥ ص ٧١ رقم ٣٣٥١ ، أخرجه الحاكم ج ٢ ص ٣٤٣ كتاب التفسير .

(٢) المعارج الآيتان ١ ، ٢

وقال محمد بن كعب القرطبي : خفضت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفضين ، والخفض والرفع يستعملان — عند العرب — في المكانة والمكان ، والعز والمهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة ، توسعاً على عادة العرب في اضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ، مما لم يكن منه الفعل ، والخاص والرافع على الحقيقة ، إنما هو الله وحده ، فرفع أوليائه في أعلى الدرجات ، وخفض أعدائه في أسفل الدرجات . ( قاله القرطبي ) .

قوله تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أى زلزلت وحركت ، كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها ﴾ (١) ، وكما قال سبحانه : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أى فتت ، قال مجاهد : كما يُبس الدقيق ، أى يُلت ، كما قال جل وعلا : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (٣) ، لذا قال سبحانه : ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ قال عكرمة : المنبث الذى قد ذرته الريح وبشته ، أى ونشرته ، وقال قتادة ( هباء منبثاً ) كيبس الشجر الذى تذرزه الرياح ، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال الرواسى عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، أى قلعها وصيرورتها كالعهن المنفوش .

قوله تعالى : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون ﴾ قال العلامة ابن كثير :

أى وينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمنهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين ، قال السدى : وهم جمهور أهل الجنة وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ، ويؤتون كتبهم بشمالهم ، ويأخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار — عياذ بالله من صنعهم — وطائفة سابقون بالخيرات ، بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء ،

(١) لرزلة الآيات ١ - ٣

(٢) الفجر آية ٢١

(٣) طه الآيات ١٠٥ - ١٠٧

والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ .

قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحاً إلى الصلاة ، وقال سعيد بن جبير : السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، قال الله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ﴾ <sup>(١)</sup> . قال ابن كثير : وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين ، هم المبادرون إلى فعل الخيرات ، كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ <sup>(٣)</sup> ، فمن سابق في هذه الدنيا ، وسبق إلى فعل الخير ، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، لذا قال تعالى : ﴿ أولئك المقربون في جنات النعيم ﴾ أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل ( السابق ) هم الذين نالوا خطوة عند ربهم ، وهم في جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم ( ثلة ) أى جماعة من الأولين وقليل من الآخرين ، وقد اختلفوا في المراد بقوله الأولين والآخرين ، فقليل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالأخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله عليه السلام : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » <sup>(٤)</sup> ولم يحك غيره ، ولا عزاه إلى أحد ، ومما يستأنس به لهذا القول ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبى ﷺ « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونها النصف الثانى » <sup>(٥)</sup> ورواه أحمد بسنده عن أبى هريرة . وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا ، فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ،

(١) ، (٢) ال عمران الآية ١٣٣

(٣) الحديد الآية ٢١

(٤) أخرجه ابن جرير الطبرى في تفسيره ج ٢٧ ص ٩٩ وكذلك تفسير ابن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٧ ص ٤٩٢ الآية

رقم ١٣ ، ١٤ .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٥٠٤ .



والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم . فالقول الثاني في هذا المقام ، هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى من صور هذه الأمة ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ أى من هذه الأمة . ثم قال ابن كثير : ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » (١) الحديث بتمامه .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ، مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى السابقون في الجنة ، مجالسهم على سرر ، جمع سرير منسوجة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، قال مجاهد : ( على سرر موضونه ) : مرمولة بالذهب ، أى منسوجة بالذهب . ﴿ مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا ﴾ أى على السرر ﴿ مُتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا في المؤمن وزوجته وأهله ، أى يتكئون متقابلين ، قاله مجاهد وغيره .

قال الكلبي : طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت ، فإذا جلس عليها ارتفعت ، قال تعالى في موضع آخر : ﴿ وَفُرش مرفوعة ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ، بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ﴾ .

قوله : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴾ قال مجاهد : أى غلمان لا يموتون ، وقال الحسن : لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقد وصف الله حسنهم في قوله تعالى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴾ أما الأكواب ، فهى الكيزان ، التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التى جمعت الوصفين ، والكؤس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية ، معين ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ رقم ٢١٠ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

(٢) الواقعة الآية ٢٤

(٣) الطور الآية ٢٤

(٤) الإنسان الآية ١٩

وقوله تعالى : ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أى لا تصدع رءوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ، روى الضحاك عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال السكر ، والصداع ، والقىء ، والبول فذكر الله تعالى نحر الجنة ونزهاها عن هذه الخصال .

وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ﴾ أى ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، كما قال تعالى : متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ﴿ (١) .

وقوله : ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى فى شجر الجنة » فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال : ﴿ آكلها أنعم منها — قالها ثلاثاً — وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها ﴾ (٢) . وقال الحسن بن عرفة بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وصور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أى وصور عين ، كأئنه الرطب فى بياضه وصفائه ، كما وصفهن سبحانه فى أكثر من موضع بقوله : ﴿ كأئنه بيض مكنون ﴾ (٤) وبقوله : ﴿ كأئنه الياقوت والمرجان ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أى هذا الذى اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ، كقوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ (٦) .

ثم قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة كلاماً لاغياً ، أى عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملاً على شئ حقير ، أو ضعيف ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أى إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ (٧) . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، اللهم انا نسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

(١) ص الآية ٥١

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٢٢١ .

(٣) أخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢١ ج ص ٤٩٨ وأخرجه الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧

رقم ٧٣ .

(٤) الصفات الآية ٤٩

(٥) الرحمن الآية ٥٨

(٦) الإنسان الآية ٢٢

(٧) يونس الآية ١٠

## أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلِّ مَّدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكْهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَاءً ﴿٣٥﴾ فَعَلَّنَهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾

## معاني المفردات

﴿السدر﴾ شجر البق ، ﴿مخضود﴾ أى خضد شوكة ، أى قطع ، ﴿الطلح﴾ شجر الموز ، ﴿منضود﴾ أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ، فليست له سوق بارزة ، ﴿مدودة﴾ أى منبسط ممتد لا يقلص ولا يتفاوت ، ﴿مسكوب﴾ أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، ﴿فرش﴾ واحدها فراش كسّرح وسراج ، ﴿مرفوعة﴾ أى عالية منضدة ، ﴿عرباً﴾ أى متحبيات إلى أزواجهن ، ﴿أتراباً﴾ : أى متساويات في السن واحدتهن ترّب .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال السابقين ، وبين ما لهم من نعيم مقيم في جنات النعيم — أردف ذلك ذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم في جنات ، يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة ، التي لا تنقطع أبداً ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ونساء حسان أبكار في سن واحدة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ إلى أى شيء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ، ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجلر بسنده عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب

ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوماً فقال يا رسول الله : ذكر الله في الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هي ؟ » قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ في سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكه ثمرة ، ففتور الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ما فيها لون يشبه الآخر » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ قال مجاهد : أى متراكم الثمر ، وقال ابن عباس يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال العلامة ابن كثير : فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد أنه قال ( وطلح منضود ) قال : الموز (٢) قال وروى عن ابن عباس وأبى هريرة والحسن وعكرمة وأبى قتادة مثل ذلك وبه قال مجاهد وابن زيد وزاد فقال أهل اليمن يسمون الموز الطلح ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

قوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها . اقرءوا إن شئتم ﴾ وظل ممدود . وكذا رواه مسلم وأحمد (٣) وفي رواية أحمد « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة هي شجرة الخلد » . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ (٦) ، قوله تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أى مصبوب لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه .

(١) أخرجه تفسيرا بن كثير في تفسير سورة الواقعة الآية ٢٨ ج ٨ ص ٣ . وأخرجه أيضا الترغيب والترهيب للمندرى ج ٤ ص ٥٢٧ — ٥٢٨ باب نعيم أهل الجنة .

(٢) أخرجه تفسيرا بن كثير في تفسير سورة الواقعة الآية ٢٩ ج ٨ ص ٤ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٤ ص ١٤٤ ، أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إن في الجنة شجرة ج ٤ ص ٢١٧٥ ، أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ١٣٥ رقم ٦ / ٢٨٢٦ . وأخرجه الترغيب والترغيب ج ٤ ص ٥١٩ فصل في شجر الجنة وغارها رقم ٥١ .

(٤) النساء الآية ٥٧

(٥) الرعد الآية ٣٥

(٦) المرسلات الآية ٤١

وقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان والطعوم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾ (١) ، أى يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم ، وفي الصحيحين في ذكر سدره المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر (٢) ، وفيهما أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خسفت الشمس **فصل** رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إني رأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . الحديث (٣) . وقوله تعالى : ﴿ لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ، وقال قتادة لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقد تقدم في الحديث : إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أى وفرش عالية وطيبة ناعمة ، وقوله تعالى : ﴿ انا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين ﴾ . قال ابن القيم في تفسير هذه الآيات :

أعاد الضمير إلى النساء ، ولم يجر لهن ذكر ، لأن الفرش دلت عليهن ، إذ هي محلهن ، وقيل : الفرش في قوله : ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ كناية عن النساء ، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها ، ولكن قوله : ﴿ مرفوعة ﴾ يأبى هذا إلا أن يقال : المراد رفعة القدر ، وقد تقدم تفسير النبي ﷺ للفرش وارتفاعها .

فالصواب : أنها الفرش نفسها ، ودلت على النساء ، لأنها محلهن غالباً .

قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقاً جديداً ، وقال ابن عباس : يريد نساء الآدميات .

وقال الكلبي ومقاتل : يعنى نساء أهل الدنيا العجز والشمط ، يقول الله تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا . ويؤيده ما رواه يحيى الحماني بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وعندها عجوز ، فقال : من هذه ؟ فقالت : إحدى خالتي ، فقال :

(١) البقرة الآية ٢٥

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان باب الأسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وقرض الصلوات ج ١ ص ١٤٥ رقم ٢٥٩ / ١٦٢ .

(٣) أخرجه سند النسائي لنسبوى في كتاب الكسوف باب قدر القراءة في صلاة الكسوف ج ٣ ص ١٤٦ - ١٤٧ .

أما إنه لا يدخل الجنة عجوز ، فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبي ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء » خلقاً آخر ، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، وأول من يكسى إبراهيم خليل الله ، ثم قرأ النبي ﷺ « إنا أنشأناهن إنشاء »<sup>(١)</sup> .

وقال آدم بسنده عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله تعالى : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ « يعنى الثيبات والأبكار اللاتي كن في الدنيا »<sup>(٢)</sup> .

وقال آدم بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة العجز » فبكت عجوز ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز ، إنها يومئذ شابة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾<sup>(٣)</sup> وذكر مقاتل قولاً آخر ، وهو اختيار الزجاج : « انهن الحور العين اللاتي ذكرهن قبل ، أنشأهن الله عز وجل لأوليائه ، لم يقع عليهن ولادة .

والظاهر : أن المراد أنشأهن الله في الجنة إنشاء ، ويدل عليه وجوه أحدها : أنه قد قال في حق السابقين : ﴿ يطوف عليهم أولادان مخلدون باكوأب — إلى قوله — كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ فذكر سدرهم وآيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم ، وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم ، وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهم مثل نساء من قبلهم خلقهن في الجنة .

الثاني : أنه سبحانه قال : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان ، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك ، كقوله : ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾<sup>(٤)</sup> .

الثالث : أن الخطاب بقوله : ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ إلى آخره : للذكور والإناث ، والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين ، وقوله : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاء ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء . وتأمل تأكيده بالمصدر ، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة ، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات ، بل هن أحق به منهن فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم .

(١) أخرجه الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ج ٨ تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٥ طبعة دار الفكر .

(٢) أخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ . وأخرجه أبو داد الطيالسي ج ٦ ص ١٨٥ رقم ١٣٠٧ .

(٣) أخرجه تفسير بن كثير في تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ الآية رقم ٣٥ .

(٤) النجم الآية ٤٧ .

وقوله ﴿عرباً﴾ جمع عروب ، وهن المتحبيات إلى أزواجهن ، قال ابن الأعرابي : العروب من النساء : المطيعة لزوجها ، المتحبة إليه . قلت : يريد حسن موافقتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع .. وذكر المفسرون في تفسير العرب . أنهم العواشق المتحبيات .. قلت : فجمع سبحانه بين حسن صورتها ، وحسن عشرتها . وهذا غاية ما يطلب من النساء ، وبه تكمل لذة الرجل بهن . وقوله : ﴿أتراباً﴾ أى كلهن في سن واحدة ، لا تمتاز واحدة عن أخرى .

اخراج الترمذى فى الشامائل بسنده عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿حور عين﴾ قال « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿كأَمْثالِ اللؤلؤِ المكنون﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى . قلت أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿فبين خيرات حسان﴾ قال لخيرات الأخلاق حسان الوجوه . قلت أخبرنى عن قوله : ﴿كأنهن بيض مكنون﴾ قال « رقتن كرفة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر وهو الغرقى » قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله : ﴿عرباً أتراباً﴾ قال : « هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز رمضا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محبات أترابا على ميلاد واحد » قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين . قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة . قلت يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل ، ألبس الله وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب ، يقلن نحن الخالدات ، فلا نموت أبداً ، ونحن الناعمات فلا نياس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوى لمن كنا له ، وكان لنا ، قلت يا رسول الله : المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ، فتدخل الجنة ، ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ » قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقا ، فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »<sup>(١)</sup> وقال الطبرانى بسنده عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »<sup>(٢)</sup> . وقال أبو داود الطيالسى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء قلت يا رسول الله ويطبق ذلك ؟ قال يعطى قوة مائة »<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه تفسير بن كثير تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٠ .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير ج ١ ص ٩١ ، وأخرجه أيضا تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ .

(٣) أخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ وأخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده ج ٨ ص ٢٦٩ رقم

وقوله تعالى : ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أى خلقهن لأصحاب اليمين وقوله : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ أى جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين ، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ﴿ ثلة من الأولين ، ثلة من الآخرين ﴾ قال رسول الله ﷺ « هما جميعاً من أمتي » (١) .

### أصحاب الشمال

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴾ (٤١) فِي سَمُورٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُورٍ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْخَنَثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَا بَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ الْمُكْذِبُونَ (٥١) لَا تَكُونُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُرٍ (٥٢) فَالِقُونَ مِّنْهُ الْبُطُونَ (٥٣) فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْحَمِيمِ (٥٥) هَذَا تَزُحُّهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦) ﴿

### معانى المفردات

﴿ السموم ﴾ حز نار ينفذ في المسام ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ واليحموم ﴾ دخان أسود ، كما قال ابن عباس : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى لا هو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، ﴿ مترفين ﴾ أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على شيء مما جاء به الرسل ، ﴿ يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يقلعون ، ﴿ الخنث العظيم ﴾ أى الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، ﴿ والميقات ﴾ ما وقت به الشيء ، والمراد به يوم القيامة ، وسمى به ، لأنه وقت به الدنيا .

(١) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ٢ ص ٣٩١ .

وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير في تفسير سورة الواقعة الآية رقم ١٣ ، ١٤ ج ٧ ص ٤٩٢ ، ج ٨ ص ١٥ .



﴿ وشجر الزقوم ﴾ شجر ينبت في أصل الجحيم . ﴿ والهيم ﴾ واحدها أهيم وهو الجمل الذي يصيبه الهيام — بالضم — وهو داء يشبه الاستسقاء ، يصيب الأبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً . ﴿ النزل ﴾ ما يقدم للضيف إذا نزل تكرامة له . ﴿ ويوم الدين ﴾ يوم الجزاء .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه زوجين من الأزواج الثلاثة ، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم ، في جنات ونعيم ، في جملة شئونهم ، في مآكلهم ومشربهم وفرشهم ، وأزواجهم — أردف ذلك ذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، ثم أعقبه بذكر السبب في هذا ، بأنهم كانوا في دنياهم مترفين غارقين في ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ، ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتماً ، وأن مآكلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يترنون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة في هذا اليوم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سحوم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ .

أى وأصحاب الشمال في حال لا يستطيع وصفها ، ولا يقدر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المهم بقوله تعالى : ﴿ في سحوم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ﴾ أى هم في حر ينفذ في المسام ، وماء متناه في الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم ، يؤلم من يستظل به ، وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموماً ، وماءهم الذى يستغيثون به حميماً ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بمآكلهم مع حرها ؟

كقوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جملة صنفر ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لا بارد ولا كريم ﴾ أى ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر كما قاله الحسن وقتادة ، ﴿ ولا كريم ﴾ أى ولا كريم المنظر ، وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة في النفي ، فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة ..

ثم ذكر سبحانه السبب في تعذيبهم ، فقال تعالى : ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون ﴾ .

أى كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أى يقيمون ولا يتوبون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، قال ابن عباس : الحنث العظيم الشرك ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نفعل بالجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبشرين لوقوعه . قال الله تعالى : ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم ، سيجمعون عرصات إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحداً ، كما قال تعالى : ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (٣) ، وكقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما تؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم

(١) الرسائل الآيات ٢٩ — ٣٤

(٢) الصافات الآيات ٣٤ — ٣٩

(٣) مريم الآيات ٩٣ — ٩٥

نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴿١﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿مجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ أى هو موقت بوقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ، قوله تعالى : ﴿ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين﴾ .

أى أيها الذين ضللتهم فأصررتهم على الذنب العظيم ، إذ لم توحّدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتهم رسله ، فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم — إنكم لآكلون من شجر الزقوم ، فمالتون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك ماء حار لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا تترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلاً .

كما قال تعالى : ﴿أذلك خير نزلاً ، أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلوعها كأنه رعوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالتون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لالى الجحيم﴾ (٢) ، وكما قال تعالى : ﴿إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ (٣) .

أخرج الامام أحمد بسنده عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف بمن ليس له طعام إلا من الزقوم » (٤) وكذلك رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿هذا نزلهم يوم الدين﴾ أى هذا الزقوم المأكول والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم ، كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار ؟ ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، كما قال تعالى : ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون﴾ (٥) .

(١) هود الآيات ١٠٣ — ١٠٥

(٢) الصافات الآيات ٦٢ — ٦٨

(٣) الدخان الآيات ٤٣ — ٥٠

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٠١

(٥) الدخان الآيتان ٤٩ — ٥٠

## من دلائل التوحيد

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ ٥٧ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ٥٨ ﴿ أَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ ٥٩ ﴿ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ٦٠ ﴿ عَلَيَّ أَنْ يُبَدَّلَ امْتِلَاكُمْ وَنُشِشَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٦١ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ٦٢ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ٦٣ ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ٦٤ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ٦٥ ﴿ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴾ ٦٦ ﴿ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ٦٧ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ ٦٨ ﴿ أَنْتُمْ أَتْرَلْتُمُوهُ مِنَ الزَّمَنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴾ ٦٩ ﴿ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ ٧٠ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ٧١ ﴿ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ٧٢ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَنَعْنَعًا لِلْمُقِيمِينَ ﴾ ٧٣ ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ ٧٤

## معاني المفردات

! تمنون ﴿ أى تقدفون فى الأرحام من النطف ﴾ ﴿ تخلقونه ﴾ ﴿ أى تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلق ﴾ ﴿ قدرنا ﴾ ﴿ أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ﴾ ﴿ نبدل أمثالكم ﴾ ﴿ أى نغيثكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ﴾ ﴿ فيما لا تعلمون ﴾ ﴿ أى من الخلق والأطوار التى لا تعهدونها ﴾ ﴿ فلو لا تذكرون ﴾ ﴿ أى فهلا تتذكرون ذلك ﴾ ﴿ تحرثون ﴾ ﴿ أى تبدرون حبه وتعملون فى أرضه ﴾ ﴿ تزرعون ﴾ ﴿ أى تبتونه وتجعلونه نباتاً يرق ﴾ ﴿ حطاماً ﴾ ﴿ أى هشيماً متكسراً متفتتاً لشدة يسه بعد ما أنبتناه ﴾ ﴿ تفكّهون ﴾ ﴿ أى تتعجبون من سوء حاله ﴾ ﴿ مغرمون ﴾ ﴿ أى معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك ﴾ ﴿ محرومون ﴾ ﴿ أى غير مجدودين ﴾ ﴿ فليس لنا جد وحظ ﴾ ﴿ الزن ﴾ ﴿ السحاب واحده مزنة ﴾ ﴿ أجاجا ﴾ ﴿ أى ملحاً زعاقاً ﴾ ﴿ لا يصلح لشرب ولا فى زرع ﴾ ﴿ لولا ﴾ ﴿ بمعنى هلا ﴾ وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ﴾ ﴿ تورون ﴾ ﴿ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد

﴿ تذكرة ﴾ تذكيراً بالبعث ، ﴿ ومتاعاً ﴾ أى منفعة ، ﴿ للمقوين ﴾ أى للمسافرين الذين يسكنون القواء : أى القفز والمفاوز ، ﴿ فسيح ﴾ أى تعجب من أمرهم وقل : سبحان الله العظيم .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها ، وفصل ما يلقاه السابقون ، وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لا زب فى حميم وعشاق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم ، لأنهم أشركوا بربهم ، وعبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء — أردف ذلك إقامة الأدلة على الأوهية من خلق وزرق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث ، وهو النبوة فيما بعد .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفأرأيتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .  
قال ابن كثير :

يقول تعالى مقررًا للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون ﴾ (١) ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أى نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذى قدر على البداءة ، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أى فهلا تصدقون بالبعث ، ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أفأرأيتم ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ أى أنتم تقرونه فى الأرحام ، وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى صرفناه بينكم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أى نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أى من الصفات والأحوال ، ثم قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أى قد علمتم أن الله أنشأكم ، بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون ، وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن

ذلك على الله يسير قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴿١﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١) . وكقوله جل شأنه : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ (٢) ، وكقوله جل وعلا : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر ﴾ (٣) ، وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ (٤) .

### فلينظر الإنسان مم خلق

خلق الإنسان من نطفة ، قذيفة منوية تشتمل على أكثر من ٨٠ مليون كائن منوى في السنتيمتر الواحد ، هذه القذيفة ، إذا صبت في الأرحام لا يصلح منها للإنجاب ، إلا كائن منوى واحد . هذا الكائن المنوى لا تراه إلا بالمجهر الكبير حجمه ١٠٠٠٠ / ٥٢ من المليمتر ، مفلطح الرأس طويل الذنب يسبح في ظلمات بسرعة ١/٢ مليمتر في الثانية الواحدة ، خلق منه الإنسان في كل مرة يجتمع فيها الذكر والأنثى ، تنساب ملايين الحيوانات المنوية ، لكى تسبح بذيلها حول بويضة صغيرة .. تراها بالميكروسكوب تضرب بذيلها ، وكأنها ترقص ومن بين هذه الملايين ، يخترق حيوان واحد جدار البويضة ، ترى هو أقوى هذه الحيوانات المنوية ؟ أبداً .. هل هو أضعفها ؟ أبداً .. هل هو ؟ .. هل هو ؟! أبداً قد يكون الحيوان العليل الذى يحمل المرض الوراثى ، هو الذى يخترق جدار البويضة ، وتبقى ملايين الحيوانات المملوءة صحة خارجها ، قد يكون أضعفها ، قد يكون وقد يكون . العلماء يقولون نحن نعرف أن هذه العملية لا تخضع لأى قانون مدون ، ونحن نقول إنها تخضع لإرادة الله لمشيئة الله .

(٤) الطارق الآيات : ٦ - ١٠

(٥) المؤمنون الآيات ١٢ - ١٧

(١) العنكبوت الآيات ١٩ - ٢٢

(٢) الروم الآية ٢٧

(٣) يس الآيات ٧٧ - ٧٩

وفي الثانية التي يخرق الحيوان المنوى جدار البويضة يتحدد كل شيء أليس عجباً!! يتحدد نوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى — لون بشرته ، لون شعره — تصميم هيكله الجسدى — طويل أم قصير ، يدين أم رفيع — تناسق الأطراف — الأمراض الوراثية التي يحملها ، كل شيء .. كل شيء ؟ .

والآن هل تعرف ما هو وزن الخلية التي حددت كل هذه الصفات ؟ وزنها ٦ من مليون من الجرام ، أى : أنك إذا جئت بجرام ثم قسمته إلى مليون جزء يكون وزن الخلية ستة أجزاء منه أترى الإعجاز ؟ ! وتنمو الخلية الملقحة هذه داخل الرحم .

رحم طوله ٧ سم وعرضه ٥ سم وسمكه ٢ ١/٢ سم . هل فيه ضوء يضيء له حتى يخلق ؟ لا بل ظلمات ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١) ، هل صورك فى الأشعة تحت الحمراء ؟ هل صورك فى الأشعة فوق البنفسجية ؟ هل صورك فى ضوء الشمس أو ضوء القمر ؟ لا .

إذاً فى أى شيء صورك ؟! فى ظلمات ثلاث ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأتى تصرفون ﴾ (٢) .

يا من يرى مد البعوض جناحه	فى ظلمة الليل الهم لأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها	والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها	فى قاع بحر ذاخر متجندل

ألهى

يا من له عنت الوجوه بأسرها	رهباً وكل الكائنات توحيد
أنت الإله الواحد الحق الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

— ( مستفاد من كتاب القرآن والإعجاز فى خلق الإنسان للدكتور طاهر توفيق ) .

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم ما تحرثون . أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمت تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . ﴾ .

هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته ، أى : أخبروني عن البذر الذى تلقونه فى الطين ﴿ أنتم

(١) سورة آل عمران الآية ٦

(٢) سورة الزمر الآية ٦

تزرعونه أم نحن الزارعون ﴿١﴾ أى : أنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبيل والحب ، أم نحن الفاعلون لذلك ؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذى يخرج الحب وينبت الزرع فكيف تنكرون إخراجهم الأموات من الأرض ؟ .

قال تعالى : ﴿٢﴾ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿٣﴾ .

وقال جل شأنه : ﴿٤﴾ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتي لعلكم تذكرون ﴿٥﴾ .

وقال سبحانه : ﴿٦﴾ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتي وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴿٧﴾ . وقال جل ذكره : ﴿٨﴾ آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ألله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴿٩﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿١٠﴾ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلأ . وحدائق غلبأ . وفاكهة وأبأ . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴿١١﴾ .

وقال سبحانه : ﴿١٢﴾ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكولون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحانه الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴿١٣﴾ .

(٤) سورة النمل الآية ٦

(٥) سورة عبس الآيات ٢٤ - ٢٢

(٦) سورة يس الآيات ٣٣ - ٣٦

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧

(٣) سورة الحج الآيات ٥ - ٧



إلى آثار ما صنع الملك  
بأبصارهن الذهب السبيك  
بأن الله ليس له شريك

تأمل في نبات الأرض وانظر  
عيون من لجين شاخصات  
على قضب الزبرجد شاهدات

ذات الغصون المنضرة  
وكيف صارت شجرة  
يخرج منها الثمرة  
أنعمه منهمرة  
وقدرة مقتدرة  
وزانه بانجم كالدرر المنتثرة  
أوجد فيه قمرة  
كالدرر المنتثرة  
أنعمه منهمرة  
وقدرة مقتدرة  
جذوتها مستعرة  
حرارة منتشرة  
في الجو مثل الشررة  
أنعمه منهمرة  
وقدرة مقتدرة  
من شق فيه بصره  
بقدره مفتكـره  
أنعمه منهمرة  
وقدرة مقتدرة

انظر لتلك الشجرة  
كيف نمت من حبة  
فانظر وقل من ذا الذي  
ذاك هو الله الذي  
ذو حكمـة بالغـة  
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمرة  
انظر إلى الليل فمن  
وزانه بانجم  
ذاك هو الله الذي  
ذو حكمـة بالغـة  
انظر إلى الشمس التي  
فيها ضياء وبها  
من ذا الذي أوجدها  
ذاك هو الله الذي  
ذو حكمـة بالغـة  
انظر إلى المرء وقل  
من الذي جهزه  
ذاك هو الله الذي  
ذو حكمـة بالغـة

قوله تعالى : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلمتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ أي :  
نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ﴿ ولو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي : لأيسنائه قبل  
استوائه واستحضاره ، ﴿ فظلمتم تفكهون ﴾ أي : فظلمتم وبقيتم تتفجعون وتخزنون على الزرع مما حلَّ  
به وتقولون : ﴿ إنا لمغرمون ﴾ قال قتادة : أي : لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، ﴿ بل نحن  
محرومون ﴾ أي : بل نحن محرومون الرزق ، غرمتنا قيمة البذر ، وحرمتنا خروج الزرع .

## نظرة في حياة النبات

يقول الأستاذ الدكتور / محمد أحمد الغمراوي — رحمه الله — في كتابه « الاسلام في عصر العلم »

ما نصه :

« إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يؤخذ الأكسجين وثاني أكسيد الكربون وأحياناً الأزوت ، ومن الأرض يؤخذ الماء وبعض الأملاح ، خصوصاً الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعاً في كل هذا ، لكن محور هذا التغذى ، وهو تمثيل ثاني أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا في الأجزاء الخضراء من النبات ، سواء كانت الخضرة في الساق ، أو الفروع ، أو الأوراق . لكن ما يحدث في غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث في الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال : إن حياة النبات ، وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثاني أكسيد الكربون في الأوراق الخضراء » .

إن النبات يبدأ حياته في الغالب بذرة أو نواة توضع في الأرض وتسقى بالماء فتنبت ، أى : تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملاً ورقتين صغيرتين خضراوتين .

هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الإنبات : لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء ، وعلى الجذير والورقتين يتوقف تغذى النبات بعد ذلك . فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض ، والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ — تمتص الأكسجين من الهواء لإحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقاً بطيئاً . وتطرد فضلات التغذى من ثاني أكسيد الكربون وبخار الماء ، هذه العملية تنفسية ، وتجري ليلاً ونهاراً ، وهى وان كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها في الورق أفعل وأكثر .

٢ — تمتص ثاني أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيراً كيميائياً باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحاداً ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما في العصارة النباتية على الخلايا لتمثلها مع ما يكون في العصارة من أملاح ، وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان في ثاني أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم : إن النبات في التمثيل الخضرى

يحلل ثاني أوكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرده الأوكسجين ، والواقع انه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيباً تنتج عنه مواد عضوية وأوكسجين بقدر ما كان في ثاني أوكسيد الكربون ، وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الإنبات انما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير ، فالجذير يمتص الماء والأملاح ، والوريقات تمتص الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون وتمضم ذلك كله ، أى : تحوله إلى مواد معقدة نسبياً إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها ، وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر ، والسويق إلى ساق ، والوريقات إلى أوراق كثيرة ، ثم إذا جاء دور الإثمار إلى أزهار وحب وثمار .

لكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لا بد لإتمامه من طاقة ، فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ، ولكن الله سبحانه وتعالى — يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس : يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثاني أوكسيد الكربون والماء ، أى : أنه تحول ما تمتصه إلى طاقة كيميائية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه ، لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى إلا نهاراً فى حين ان التنفس يجرى نهاراً وليلاً ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيراً فى الشمس منه فى الظل ، على أن للتمثيل الخضرى فى الضوء حداً أقصى يقف عنده قلما يبلغه النبات ولو فى الشمس ، لأنه متوقف — أيضاً — على مقدار ثاني أوكسيد الكربون فى الهواء ، وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية ، وثاني أوكسيد الكربون ، والماء من ناحية أخرى أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعال أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعال أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل . أما أفعال أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر . وأما ثاني أوكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريباً من وجه الأرض مثلاً تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ إلى ١٣ فى كل ١٠٠٠٠ ، وفى يوليو مثلاً تبلغ نسبته من ٢,٧ إلى ٢,٢٩ ، وفى الشتاء من ٣ إلى ٣,٦ فى كل ١٠٠٠٠ ، وتزداد النسبة طبعاً وانتشار الغازات كفيلا بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثاني أوكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٢,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة ، لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدار هائلاً

من ثاني أكسيد الكربون قدره بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز في الهواء .

على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاماً ، إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعاً باختلاف النباتات ، واختلاف الظروف ، لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر في الظروف المسعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة في الساعة ، فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر في أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها في فصول نشاطها في العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التي يخلقها الله بالتمثيل الخضرى في درجة الحرارة العادية كل عام ، صحيح أن هذه المواد تداخل في عناصرها الأوكسجين والأيدروجين وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدره بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ إلى ٨٠ بليون كيلو جرام من ثاني أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثاني أكسيد الكربون في الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات في نحو ثلث قرن ، ووقفت بوقوفها الحياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضرورياً للحياة ، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت . إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار في الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها في جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض ، فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلاً بعد جيل ، في النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التي يخلق الله منها الجيل الذي بعده . فالأوكسجين يستمد من الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثاني أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى يفعل التمثيل الخضرى ، والكربون يستمد من النبات من ثاني أكسيد الكربون من الجو ، ويتغذى الحيوان بالنبات ، ثم يموت النبات ، فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثاني أكسيد الكربون ، فيما يتحول إليه ، ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثاني أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ، ويصعد ثاني أكسيد الكربون في الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض ، وأحياناً من أزوت الجو فيحول إلى جزء منه ، ويتغذى الحيوان بالنبات وتحلل فضلاتهما وأجسامها في الأرض بعد الموت ، وتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد في الجو ، وفي الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

طبعاً هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد منه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله — سبحانه — بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليدور كل عنصر أنه ثابت المقدار ، وهذا هو سر خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الإنسان ، فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوقى خطأ من العلم فى هذا العصر الحديث .

تلك أمثلة من دورة المادة فى حياة النبات والحيوان ، أو بين الحياة والموت ، وللتمثيل الخضرى أثر عظيم فيها . أما الطاقة التى تقوم عليها حياة الكائن الحى ، كما تقوم على المادة ، فليس لها دورة ، أو ليس يعرف الإنسان لها دورة ، إنما الطاقة على سطح الأرض مستمدة كلها من الشمس ، وللتمثيل الخضرى فى ذلك أعظم الأثر .

إن الانسان والحيوان ينتفع طبعاً بما يصله من حرارة الشمس وضوئها المباشر وكذلك النبات ينتفع باعتدال الجو حوله ، لكن هذا على عظمه لا يكاد يذكر بجانب ارتفاع النبات بما يمثله ويخترنه من ضوء الشمس ، أو بجانب ارتفاع الحيوان بالطاقة المخزونة فى النبات . فالطاقة التى يخترنها النبات من الشمس هى جزء من صميم كيانه كالمادة التى يأخذها من الهواء أو من الأرض . والإنسان والحيوان يستمد مادته وطاقته من النبات ، فهو حين يتغذى بالنبات ليس يأخذ مادة النمو فقط ، ولكن يأخذ طاقة للعمل . وكل طاقة له خارجية مردها فى النهاية إلى النبات ، ومصدرها الأول هو الشمس .

فالنار التى يستدفى بها الإنسان ، أو التى يستوقدها فى قطاراته أو سفنه التجارية أو آلاته الصناعية ، كلها نباتى الأصل ، سواء أكانت نار خشب ، أم نار فحم ، أو نار زيت أم نار كحول ، أو نار بنزين ، حتى نار البترول الذى يختلفون فى مصدره أحيوانى هوأم نباتى أو معدنى مردها — أيضاً — إلى النبات فى النهاية .

فعلى النبات مدار حياة الحيوان وحياة الإنسان ، لا من حيث المادة فحسب ، ولكن من حيث الطاقة التى هى بالفعل وبالحرف أهم من المادة .

ومدار النبات فى مادته وطاقته على التمثيل الخضرى المتوقف على الضوء من ناحية وعلى نواتج التحلل والتعفن والاحتراق من ناحية أخرى ..

لكننا نريد مع ذلك إلا نترك هذا الفصل حتى ننظر معك فى آيتين اثنتين لن تجد صعوبة فى فهم

اشارتهما الواضحة إذا استحضرنا ما قدمناه لك من الحقائق . الأولى : آية سورة الأنعام ، والثانية آية سورة يس ، كلاهما تنبه إلى أثر التمثيل الخضرى فى الحياة ، إلا أن آية سورة يس تؤكد فيه ناحية الطاقة ، وآية سورة الأنعام تؤكد فيه ناحية النمو .

أما آية سورة يس ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾<sup>(١)</sup> .

فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر ، وترتيب النار على خضرة الشجر . ومن يعرف أثر الخضرة فى نمو الشجر ، وفى بناء كيانه الخشبى على الأخضر ، وفى اختزانه ما فى ذلك الكيان من طاقة تبدو نارا عند الاستيقاد ، لا يجد صعوبة فى إدراك سر ترتيب النار على الخضرة ، أو فى تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها . ومن لم يعرف هذا تحير أمام هذا الترتيب الغريب ، وراح يتلمس للآية توجيها يذهب بها فى غير وجهها ، كما فعل من تلمس تفسير الآية فى سهولة اتقاد المرح والعقار .

على أن هناك قرينة قرآنية قوية تعين أن تفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى ذكرناه ، ألا وهى قرينة السياق .

إن تلك الآية الكريمة إنما سيقّت رداً على مفكرى البعث . بعث الإنسان بعد أن يصير عظماً رميماً ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه . قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم توقدون ﴾<sup>(١)</sup> . فلا بد أن يكون هناك صلة بين معناها وبين مسألة البعث ، كما لا بد أن يكون هناك حجة فيها على مفكرى البعث . أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها اتصالاً وثيقاً بحياة النبات وإنشائه حياً نامياً قوياً ، بعد أن كان بذرة أو نواة لائماء بها ولا حياة ، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحاً باتضاح الحجة التى فى الآية على مفكر البعث ، والتى تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته ، بعد خروج أول وريقتين خضراوتين من البذرة أو النواة ، إنما هو آتٍ من مواد أولية هى نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه ، أى : من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذى استبعد المفكر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى .

هذا وقد أشارت الآية الكريمة إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه ، لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثنائى أو أكسيد الكربون

(١) سورة يس الآية ٨٠

(١) سورة يس الآيات ٧٨ — ٨٠

ورمادا أو أملاحاً ، هي في الحقيقة التي تقابل العظم الرميم الذي ذكره الجاحد . فكأن الآية تقول لذلك المفكر : إن الذي يبعث الشجرة بعد أن فئت ويخلقها مرة أخرى بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها أو احتراقها ، قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته ويخلقه مرة أخرى من نواتج تعفنه ، وتحوله إلى عظم رميم وغير عظم رميم إلا أنه لما لم يكن مأموناً على العقل حين نزلت الآية التصريح بهذه المعاني اكتفى في الآية بإيداعها مفاتيح إلى هذه المعاني ، لينتفع بها الإنسان إذا اتسع علمه ، ألا وهي وصف الشجر بالخضرة عند جعله أصلاً للنار ، مع السياق على أنه إذا كانت آية سورة يس قد عبرت عن خلق الشجر من الخضرة بلازمة ، وهو خلق النار من الخضرة ، فإن ما أشارت إليه آية سورة يس قد صرحت به آية سورة الأنعام ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ﴾ <sup>(١)</sup> هذه الآية إذا أخذت حرفياً فقد صرحت بما ألمنا به من حياة النبات في التفسير السابق . فهناك دور الإنبات ينتهي بخروج الوريقات الخضراء . وكلمة نبات في الآية يصح أن تكون — أيضا — اسم مصدر بمعنى ( الإنبات ) . فالماء ينبت الله به كل بذر وكل نوى . ومن ناتج هذا الإنبات يخرج الله الخضر ، ومن هذا الخضر يخرج الله الحب المتراكب الذي هو ثمرة النبات ، وإذن فالله يخرج — أيضا — من الخضر ما بين الخضر والحب من ساق وفروع وأوراق وأزهار .

على أن بقية آية سورة الأنعام صريحة — أيضا — في أن ما يخرج الله — سبحانه — من الخضر ليس مقصوراً على الزرع ذى الحب ولكن يتناول الأعناب ، والزيتون ، والرمان ، وأشباهاها من النباتات طبعاً ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ألا إننا كنا بئس	وأى بنى آدم خالداً
وبدوهم كان من ربهم	وكل إلى بابيه عائداً
فواعجباً : كيف يعصى الإله	بل كيف يجحده الجاحد ؟
وفي كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد !

قوله تعالى : ﴿ أفرايم الماء الذى تشربون . أنتم أنزتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون ﴾ .

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٩

(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٩

أى : أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ﴿ أنتم أنزتموه من المزن ﴾ أى : من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟ ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولاً تشكرون ﴾ أى : لو نشاء لجعلناه ملحاً زعاقاً لا تتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على انزاله المطر غذاً زلاً ؟

قال تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (١) .

قال جل ذكره : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ (٢) .

وقال جلا وعلا : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً . لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً ﴾ (٣) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كفافاً . أحياء وأمواتاً . وجعلنا فيها رواسى شملت وأسقيناكم ماء فراتاً . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (٤) .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى جعفر عن النبى — ﷺ : إنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقانا عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا » (٥) .

واخرج الامام مسلم عن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن

(١) سورة النحل الآيات ١٠ — ١١

(٢) سورة الحجر الآية ٢٢

(٣) سورة الفرقان الآيات ٤٨ — ٤٩

(٤) سورة المرسلات الآيات ٢٥ — ٢٨

(٥) انظر تفسير ابن كثير .. « تفسير سورة الواقعة » ج ٨ ص ١٨ ط دار الشعب فقد ورد الحديث بلفظه لابن أبى حاتم عن جعفر .



الله — تعالى — ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها «<sup>(١)</sup> .

وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين »<sup>(٢)</sup> .

وأخرج أبو داود والنسائى بالإسناد الصحيح عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله — ﷺ — إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله أطعم وسقوا وجعل له مخرجاً »<sup>(٣)</sup> .

## آية الله فى إيجاد الماء العذب

قال الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

فى قوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ﴾ . الناس طبعاً يسلمون بالقدرة الالهية على قلب العذب أجاجاً ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ولا يتساءلون هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله . إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت ، والأزوت كما تعرف — أيضاً — لا يكاد يتحد فى العادة بشيء ولا بالأوكسيجين الذى يكاد يتحد بكل شيء ، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأوكسيجين بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين أزوتين أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

(١) انظر صحيح مسلم . كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب « استحباب حمد الله تعالى — بعد الأكل والشرب ج ٤ ص ٢٠٩٥ حديث رقم ٨٩ / ٢٧٣٤ من رواية لأبى مالك .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ج ٥ ص ١٧٠ — ١٧١ حديث رقم ٣٥٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب الأطعمة » باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى أيوب الأنصارى .

وقليل من حمض الأزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن يتقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأى سنة من سنن الله الكونية ، فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائى ويتكرر في الهواء ، وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب في ماء السحاب ، ويجوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء . إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل في ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول في الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .. ولو شاء الله لكثره في ماء المطر فأفسده على الناس .

سواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة . ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض .

إن نعمة الله على الناس في الماء العذب أكبر من أن يقوموا بشكرها ، لأن كل ماء عذب في الأرض كان أجاجاً في الأصل إذ هو آت من ماء البحار . إنك تعرف أن الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء ، هذا الماء كله ماء ملح ومنه يقطر الله للإنسان والحيوان والنبات ما لا غنى لهم عنه من الماء العذب . أما جهاز التقطير فليس كمثله جهاز : البحار كلها في ذلك الجهاز دست لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان في تقطيراته التافهة ، ولكن يسخن من فوق بنار قدر تفوق نار الأرض آلاف المرات ، فإذا ما تبخر الماء بحرارة الشمس تكثف في مكثف ناهيك من مكثف : الجو العلوى كله والجبال ، والرياح مسخرة تحمل البخار من الأرض إلى الجو ، وتحمل السحاب في الجو إلى حيث يشاء الله أن تنزل الأمطار ، فإذا سالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الحصب والتماء إلى الأقطار تبخر بعض الماء وامتصت الأرض منه بعضاً ، وصار باقية إلى البحر الذى كان منه مصعده .

لكن ليس شيء من هذا الماء بضائع . فما تمتصه الأرض تتفجر به بعد عيوناً حيث يشاء الله ، وما يتبخر من الماء العذب ، أو يصير إلى البحر فهو في حرز حريز من الضياع ، إذ ماله أن يصير مرة أخرى ماء يحيا به الناس والأنعام ، وتحيا به الأرض الموات . وهذا فرق آخر بين صنع الله وصنع الإنسان .

فما يقلت إلى الجو من الإنسان أثناء تقطيراته فهو ضائع لا يملك الإنسان له استرداداً ، لكن

ليس شيء من الماء أو غير الماء الصاعد إلى الجو ضائعاً في ملك الله ، فالماء بين البحر والجو واليابسة في دورة مقدرة متصلة لا انقطاع فيها ولا توقف ولا تعثر ، عليها مدار الحياة في الأرض ، ولا تنتهى أبداً إلا ان يشاء الله الذي أذن لها بالابتداء .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ أفرايتم النار التي تورون . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾

أى : أفرايتم النار التي تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، أنتم أنشأتم شجرتها التي منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك الرّخ بالعفار ( نوعان من الشجر ) فيأتون بعود من العفار وبقطعة عريضة من الرّخ يحفرون في وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار في هذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة ويحرك عود العفار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه . ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان البيت في القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار في قوله تعالى في قصص موسى : ﴿ إني آنست ناراً لعلّى آتيكم منها بقبس أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .

ثم بين منافع هذه النار في قوله تعالى : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ﴾ قال مجاهد . وقتادة في قوله تعالى : ﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أى : تذكر النار الكبرى وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال : « يا قوم ناركم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ قال انها قد ضربت بالبحر ضربتين أو مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنو منها . وهذا الذي حكاه قتادة اخرج به الإمام أحمد في سنده موصولاً عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد » (١) .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة .

ورواه البخارى ومسلم — أيضا — وفي رواية : « والذى نفسى بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَتاعاً لِّلْمُقَوِّينَ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم يعنى بالمقوين المسافرين . وقال مجاهد ﴿ وَمَتاعاً لِّلْمُقَوِّينَ ﴾ للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار .

قال ابن كثير وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله — تعالى — أودعها في الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافرين من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناراً فأطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاماً في حق الناس . كلهم .

وفي الحديث « المسلمون شركاء في ثلاثة .. النار والكأ والماء » <sup>(٢)</sup> .

## الحكمة في خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار

قال العلامة ابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » ما نصه :

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها ، فاقضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « ضفة النار وأنها مخلوقة » ج ٢ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أنى الزناد عن الأعرج عن أنى هريرة بلفظ « ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قيل : يا رسول الله ، ان كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » .

وفي صحيح مسلم « كتاب الجنة صفة نعيمها وأهلها » باب « في شدة حر نار جهنم .. الخ ج ٤ ص ٢١٨٤ حديث ٢٨٤٣ / ٣٠ بلفظه « ناركم هذه التى يؤقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها » وفي رواية أنى الزناد « .. كلهن مثل حرها » .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الرهون » باب المسلمون شركاء في ثلاث فقد ورد الحديث ٢٤٧٢ عن رواية لابن عباس بلفظ : « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكأ والنار وثمنه حرام » قال أبو سعيد : يعنى الماء الجارى .  
في الزوائد : عبد الله بن خراش ( ورد في سند الحديث ) قد ضعفه أبو زرعة والبخارى وغيرهما . وقال محمد بن عمار الموصلى : كذاب .

ويقيها الرجل عند حاجته اليها ، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها ، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة والضرر . قال تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ إلى قوله : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين ، وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفئ والأنس وغير ذلك .

ثم تأمل حكمته في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقد لها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة المنفعة وهي هذا المصباح الذي يتخذة الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلمة الليل الداجي وكيف تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك . ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حوله كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفي ولا ينفد ولا يضعف ، وأما منافع النار في إنضاج الأطعمة والأدوية وتخفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه ، وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله ، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو ، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا المسك يمسكه لذهب نازلاً ، فمن أعطى هذه القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره ، وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

ويقول الشيخ نديم الجسر في كتابه « قصة الإيمان » ( عن طريق الحوار بين الشيخ وتلميذه ) .

يقول القرآن العظيم : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ . أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم . ﴿ ، ويقول تعالى : ﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .

أما العلم فيقول : إن النار هي عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الأجسام

وأن ( الاحتراق ) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيميائية تحصل عند اتحاد جسم من الأجسام مع الأوكسجين . ولكن الاحتراق الذى يولد الحرارة إنما يحصل من اتحاد ( الأوكسجين مع الكربون ) وهذا الكربون موجود فى الطبيعة فى أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء ، ولكن أعظم وجوده وأيسره فى النباتات ، فأنسجة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون . بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد فى تركيب جسم النبات وغذائه وثماره . فهل أدركت الآن ، يا حيران ، ما تنطوى عليه هذه الآيات ، وما أعظمها وأوضحها ( تذكرة ) . فى بيان القدرة والحكمة !! فالنار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان ، فى دفعه وطعامه وصناعته . ولوجدت مكونة كالماء والهواء لأهلكت الحياة ، أو كانت خطراً دائماً عليها . فانظر كيف أعد الخالق لها نواميسها ، وعناصرها ، وجعلها ( كامنة ) فى الشجر الأخضر كمنوئاً بالقوة ، وسلطنا على توريثها ، عند الحاجة ، وبقدر اللزوم ، وجعلها لنا متاعاً وتذكرة فتذكر بها ( حينما نستخرجها من مكنمها فى الشجر الأخضر الطرىء المائى الذى لا نتوقع كمنون النار فيه ) ، تلك القدرة العظيمة والحكمة الباهرة التى أنشأت لنا شجرة النار . فإن هذا التذكير مما يثير عجب البدوى الساذج ، ويدله على قدرة الخالق ، كما يثير عجب العالم ، فيدرك ما وراءه من أسرار القدرة والحكمة والنظام والمقصد والتصميم .

فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار ( غير المتكونة بالفعل ، ليقال إنها تكونت بالمصادفة العمياء ، بل مُعدة ومهيأة للتكوين بالقوة ، وموقفة على عمل ينتجها ويخرجها عن كمنونها ، عند الحاجة ، وفق نواميس دقيقة ) .

هل كانت هذه النار التى من الله علينا بها ليزكروا بوجوده ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ، يا حيران ؟

قال التلميذ ( حيران ) — سبحان الله العظيم .. أ . ه .

ما فى الوجود سواك رب يعبد	كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها	ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنا الإله الواحد الفرد الذى	كل القلوب له تقرر وتشهد

## قسم ومشاهد

﴿ فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ (٧٥) ﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ (٧٦) ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ (٧٧) ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴾ (٧٨) ﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ (٧٩) ﴿ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٨٠) ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ ﴾ (٨١) ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (٨٢) ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ (٨٣) ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٌ تَنْظُرُونَ ﴾ (٨٤) ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (٨٥) ﴿ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ (٨٦) ﴿ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٨٧) ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٨٨) ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ ﴾ (٨٩) ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (٩٠) ﴿ فَسَلَمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾ (٩١) ﴿ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ (٩٢) ﴿ فَنَزْلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (٩٣) ﴿ وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٌ ﴾ (٩٤) ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ (٩٥) ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (٩٦) ﴿

## معانى المفردات

﴿ لا أقسم بمواقع النجوم ﴾ أى : أقسم بمواقع النجوم . وهذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ومعنى ( مواقع النجوم ) أى : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، ﴿ مكنون ﴾ أى : مصون عن التغير والتبدل . ﴿ المطهرون ﴾ أى : المنزهون من دنس الخطوط النفسية ، ﴿ مدهنون ﴾ أى : متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه . ﴿ لولا ﴾ حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب . ﴿ الحلقوم ﴾ مجرى الطعام . ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى : علماً وقدره ﴿ امدينين ﴾ أى : محاسنين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين ، من قولهم : دان السلطان الرعية إذا استدّهم ، واستعبدهم ، ﴿ فروح ﴾ الروح : الراحة . ﴿ وريحان ﴾ رزق حسن . ﴿ والمكذبن الضالين ﴾ هم أصحاب الشمال ، ﴿ فنزل ﴾ أى : فجزأه نزل ، ﴿ وتصلية جسيم ﴾ أى : ادخال فى النار ، ﴿ حق اليقين ﴾ أى : حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء — أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يروونه في مشاهداتهم من مساقط النجوم ، انه لكتاب كريم ، لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل — عليه السلام — أمين الوحي ، فكيف تتهاونون في اتباع أوامره ، والانتفاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم ؟ ثم أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لا بد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، وإذا فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق انكم لا تعقلون الدليل والبرهان ، بل لا تفهمون إلا المحسوسات ، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة . فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، وإخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها ، ف قيل : هي آيات القرآن « ومواقعها » نزولها شيئاً بعد شيء وهذا قول ابن عباس — رضى الله عنه — في رواية عطاء ، وقيل : النجوم هي الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها .. ومن حجة قول من قال هي مساقطها عند الغروب : أن الرب — تعالى —



يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، إذ فيها وفي أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله : ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ <sup>(٣)</sup> . ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت في القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله — تعالى — : ﴿ وإدبار النجوم ﴾ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم : وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي فتلك هداية في الظلمات الحسية ، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية . فجمع بين الهديتين ، مع ما في النجوم من الرجوع للشياطين ، وفي آيات القرآن من رجوع شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعانية . والقرآن آياته المتلوه السمعية ، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أى : وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك . وفي هذا تفخم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكال الحكمة ، وفراط الرحمة ومن مقتضيات رحمته ، إلا يترك عباده سدى .

ويحدثنا عن عدد النجوم العالم الفلكي « جيمس جينز » في كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التي في الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التي تغطي شواطئ البحار في العالم كله .. ويقول كذلك في كتابه « النجوم ومالكها » « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التي في هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة في الدقيقة مدة ثمان ساعات في كل يوم ، فلا بد لنا من سبعمائة

(١) ١٥ ، ١٦ سورة التكوين

(٢) ١ سورة النجم

(٣) ٤٠ سورة المعارج

سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم في الدقيقة لاستغرقنا في ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التي نعيش عليها ، فهي أقل من نقطة على حرف في مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين في أى كتاب من هذه الكتب في هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم — وهى شمس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته — فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟ إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية — التى تتكون من ٣٥٦ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية — لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ... ولذلك كان الكلام للعرب الأميين ( انه لقسم لو تعلمون عظيم ) وكيف يعلمون ؟ وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد الشاسعة التى تنتقل الكواكب فيها ولكن لفت نظرهم إن هذه الكواكب وما فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس الجميع يجب أن يسلم لله وجهه ، وإن ينحنى له صلبه ، وأن يخضع لأمر ربه ، وأن يستكين لحكمه فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾

فوصفه — سبحانه وتعالى — بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هو الذى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله ، والله — سبحانه وتعالى — ووصف نفسه بالكريم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبي : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أى : حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لأنه كلامه . وقال الأزهري : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وإنه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللقيم الذى لا يخرج خيره إلا النزر إلا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس والليثم . قوله تعالى : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ .

قال ابن القيم : اختلف المفسرون فى هذا : فقليل هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾ (١) ، ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدي الملائكة قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فهذا يدل أنه بأيديهم يمسنه . وهذا هو الصحيح فى معنى الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

( الوجه الأول ) أن الآية سبقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون . فيستحيل على أحاث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسه ، كما قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾ (٢) ، نفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . وكذلك قوله فى سورة عبس : ﴿ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾ فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

( الوجه الثانى ) أن السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

( الوجه الثالث ) إن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ﷺ — وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار ، يوضحه .

(١) سورة عبس الآيات ١٤ — ١٧

(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٠ — ٢١١

(٣) سورة الصفات الآية ٤٩

( الوجه الرابع ) وهو قوله : ﴿ في كتاب مكنون ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر ، كما قال تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾<sup>(١)</sup> وهكذا قال السلف . قال الكلبي : مكنون من الشياطين . وقال مقاتل : مستور . وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو اسحق : مصون في السماء . يوضحه .

( الوجه الخامس ) أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ ﴾<sup>(٢)</sup> . يوضحه .

( الوجه السادس ) أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين ، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث .

( الوجه السابع ) قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره . إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي .

( الوجه الثامن ) أنه قال : ﴿ إلا المطهرون ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون . ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾<sup>(٣)</sup> وفي الحديث « اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين » فالمتطهر فاعل التطهر والمطهر الذي طهره غيره ، فالمتوضئ متطهر ، والملائكة مطهرون .

( الوجه التاسع ) أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد الكلام مكنوناً في كتاب ، لا يستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سبقت ببيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التي تدل على أنه منزل من عند الله ، وأنه محفوظ مصون ، لا يصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمسه محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة .

١ - الصافات الآية ٤٩

٢ - سورة ابروج آيتان ٢٢ - ٢٣

٣ - سورة البقرة من الآية ٢٢٢

( الوجه العاشر ) ما رواه سعيد بن منصور في سننه بسنده عن أنس بن مالك في قوله ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ قال : المطهرون : الملائكة . وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع . وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب في سائله : سمعت اسحق في قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ ، قال : النسخة التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون . قال الملائكة :

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر . فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسه إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسه إلا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهري عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أنه في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ — إلى أهل اليمن في السنن ، والفرائض والديات ( ان لا يمسه القرآن إلا طاهر )<sup>(١)</sup> قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحاً . وقال أيضاً : لا أشك أن رسول الله ﷺ — كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى شهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر في مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً . وقد رواه ابن حبان في صحيحه ، ومالك في موطنه . وفي المسألة آثار أخرى مذكورة في غير هذا الموضع .

## لا يفهم القرآن إلا القلوب الطاهرة

ويقول ابن القيم : ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي . قال البخاري في صحيحه في هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به . وهذا — أيضاً — من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه حرج ومن لم يؤمن بأن الله — سبحانه وتعالى — يكلم

(١) انظر موطأ الامام مالك « كتاب القرآن » باب الأمر بالوضوء لمن مس القرآن ط / دار الشعب / ١٤١ حديث ١ عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم .

به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففى قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطناً يخالف ظاهره ، وأن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففى قلبه منه حرج .. ومن سخط عليه آل الآرائين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففى قلبه منه حرج ، ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً فى أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يأتى بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم بإحسان . وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته ، وتبنيته وقياس الشيء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التى عقدها الله — سبحانه وتعالى — وربطها بين الظاهر والباطن — فهتت هذه المعانى كلها من الآية . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : هذا القرآن العظيم منزل من الله رب العالمين وليس هو كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر بل هو الحق الذى لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع .

قال ابن القيم : وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين

( أحدهما ) أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ ونظيره ﴿ ولكن حق القول منى ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله : ﴿ قل نزله روح القدس من ربك ﴾ <sup>(٢)</sup> .

( والثانى ) علو الله — سبحانه — فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر — هو وصول الشيء من أعلا إلى أسفل . والرب — تعالى — إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملأ ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينههم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) سورة النحل من الآية ١٠٢

العالمين ، أقر بأن القرآن تنزله على رسوله ، وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الإستدلال بالمعجزات والحوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله تعالى : ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ .

ثم وبخهم — سبحانه — على وضعهم الأذهان في غير موضعه ، وأنهم يداهون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجز ، وتشتي عليه الخناصر ، وتعتقد عليه القلوب والأفئدة ، ويخارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اعتداء في طرق المطالب العالية ، إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ؟ وإنما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة إنما تكون في باطل قوى لا يمكن إزالته ، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهنة إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يدهن به ؟

ثم قال تعالى : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفطره ، وكان لا حياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب — أنعم — سبحانه — على عباده بهذين النوعين من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت — سبحانه — بينهم في قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته . فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه في الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب . وبالعكس . وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر . والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فإن الله — تعالى — تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ، ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكديماً ، فإن التصديق والشكر لما كان سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة . فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب ، وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . ومن بعض معاني الآية قولهم : مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى والله أعلم ( حكاه ابن القيم ) .

قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أى : الروح ، ﴿ الحلقوم ﴾ أى : الخلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق . وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق ﴾ (١) . ولهذا قال ههنا : ﴿ وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ، ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أى : بملائكتنا ، ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أى : ولكن لا ترونهم كما قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ قال سعيد بن حبيب والحسن البصرى : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتحزون فردوا هذه النفس ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ وقال ميمون بن مهران فى قوله : ( فلولا إن كنتم غير مدينين ) أى : غير معذبين مقهورين . وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« ثم ختم — سبحانه — السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة . وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مذبذبون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته ، وقرره على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا إنكاره فقال : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾ أى : وصلت الروح إلى هذا الموضع . بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها إذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب — تعالى — أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب . فإن قيل : أى الارتباط بين هذين الأمرين حتى يلزم بينهما ؟ قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقرروا بأنهم مربوبون مملكون ، عبيد للمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر أمر ، ناه ،

(١) سورة القيامة الآيات ٢٦ — ٣٠

(٢) سورة الأنعام الآيات ٦١ — ٦٢



أو لا يقرون بذلك : فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله . وأن لا يجعلوا له نداً ، ولا شريكاً ، وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وإن أنكروا ذلك وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين ، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الروح الحلقوم . فإن المتصرف في نفسه ، الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدير له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدافع له . وإن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية ، والله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة « لولا » ثانياً قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الأول . وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثاني ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه . فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً ، واستدلالاً على أصول الإيمان : من وجود الخالق — سبحانه — ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه في أرواح عباده ، حيث لا يقدر على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلى أبدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينها تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا في صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزأين — منتظمة أحسن الانتظام . ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض .

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه . قال الغراء : وأجيب ( فلولاً إذا بلغت ) و ( فلولاً إن كنتم غير مدينين ) بجواب واحد وهو ( ترجعونها إن كنتم صادقين ) .

وقال الجرجاني : قوله ﴿ ترجعونها ﴾ جواب قوله ﴿ فلولاً ﴾ المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولاً إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون ؟ .

يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون انه لا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه

من الوجوه . فهل دلکم ذلك على أن الأمر إلى ملك قادر قاهر ، متصرف فيکم ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ؟ .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ﴾<sup>(١)</sup> ، أى : إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقاً جديداً ، فكونوا خلقاً لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك ، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو إما أن تقولوا بأن لكم رباً متصرفاً فيکم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيکم مشيئته وقدرته ، يمتككم إذا شاء ، ويحييکم إذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على إعادتکم خلقاً جديداً بعد ما أماتکم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيکم ، والقدرة فيکم . فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييکم بعد ما أماتکم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذى فى الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد .

قوله تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . إن هذا هو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم . ﴾

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مريبون مجزيون محاسبون — ذكر — سبحانه — طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاثة طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية طبقة المقربين عند الوفاة : الروح ، والريحان ، والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التى يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة : ﴿ فالروح ﴾ الفرح والسرور ، والسرور والابتهاج ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك قوتها وغذاؤها ، ﴿ والريحان ﴾ الرزق وهو الأكل والشرب ( والجنة ) المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث فى البرزخ وفى المعاد الثانى .

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهى طبقة أصحاب اليمين ، ولما كانوا دون المقربين فى المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلام من الآفات والشرور التى تحصل للمكذبين الضالين فقال : ( وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين ) . والسلام مصدر من مسلم . أى : فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال لك السلامة . كما يقال للقادم : لك البشرى فهذه تحية عند اللقاء .

قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . كما قال تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال الكلبي : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك ، وعلى هذا فقوله : ﴿ من أصحاب اليمين ﴾ أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، ثم ذكر — سبحانه — الطبقة الثالثة ، وهى طبقة الضال فى نفسه ، المكذب لأهل الحق ، وأن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم . ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم ﴾ ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال : ( إن هذا هو حق اليقين ) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين ، وعن درجة اليقين إلى حقه .

ثم أمره أن ينزه اسمه — تبارك وتعالى — عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه لمسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون فقال تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سبحانه الله وبحمده ، سبحانه الله العظيم ، سبحانهك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

## تفسير سورة الحديد

مقدمة

قال صاحب البصائر

السورة مدنية ، وقيل مكية

عدد آياتها : تسع وعشرون

وكلماتها : خمسمائة وأربع وأربعون .

وحروفها : ألفان وأربعمئة وست وسبعون .

وجمموع فواصل آياتها ( من بزرد ) على الزاء ( ان الله قوى عزيز ) وعلى الدال ( هو الغنى الحميد ) .

سميت سورة الحديد لقوله — تعالى — فيها : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ .

معظم مقصود السورة

الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات في الأرض والسموات وتنزيه الحق — تعالى — في الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإتفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين في صحراء القرصات وبيان خسية الدنيا وعز الجنات ، وتسليية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات ، في قوله ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ﴾ بهذه الآيات .

### المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ ﴾ وكذلك في الحشر ، والصف ، ثم ﴿ يَسْبَحُ ﴾ في الجمعة والتغابن ، هذه كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر في بنى اسرائيل ، لأنه الأصل ، ثم بالماضي ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل ، ثم بالأمر في سورة الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها . وهى أربع : المصدر ، والماضي ، والمستقبل ، والأمر للمخاطب .

قوله : ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وبعده ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأولى في الدنيا ، لقوله ﴿ يَحْيَى وَيَمِيتُ ﴾ والثانية في العقبى ، لقوله ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ .

قوله ﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ بزيادة ﴿ هُوَ ﴾ لأن ﴿ بشراكم ﴾ مبتدأ ، ﴿ وجنات ﴾ خبره ، ﴿ تجري من تحتها ﴾ صفة لها ، ﴿ خالدين فيها ﴾ حال ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قبله ﴿ وهو ﴾ تنبيه على عظيم شأن المذكور ﴿ الفوز العظيم ﴾ خبرة .

قوله : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ ابتداء كلام ﴿ ولقد أرسلنا ﴾ عطف عليه .

قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، وفي سورة التغابن ، ﴿ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ فصل في هذه السورة ، وأجل هناك ، موافقة لما قبلها في هذه السورة ، فإنه فصل أهوال الدنيا والآخرة فيها ، بقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ الآية .

وجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح . فكأنه قيل : سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما في السموات والأرض .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ  
يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ  
مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾  
يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

## معاني المفردات

- ﴿سبح الله﴾ نزه الله ومجده . ﴿العزیز﴾ القادر الغالب على كل شيء .
- ﴿الأول﴾ السابق على جميع الموجودات ليس قبله شيء .
- ﴿الآخر﴾ الباقي بعد فنائها . ليس بعده شيء .
- ﴿الظاهر﴾ فليس فوقه شيء .
- ﴿الباطن﴾ فليس دونه شيء كذلك فسرہ البشير النذير .
- ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بكماله تعالى .
- ﴿ما يلج﴾ ما يدخل من مطر وغيره .
- ﴿ما يعرج﴾ ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال .
- ﴿وهو معكم﴾ بعلمه المحيط بكل شيء .
- ﴿يولج الليل﴾ يدخله .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : إن ما دونه من خلقه يتزهمه عن كل نقص ، تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته . كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. الْآيَةُ ﴾<sup>(١)</sup> ، وكما قال جل شأنه : ﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ .. الْآيَةُ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال رب العزة : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال جل وعلا : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. الْآيَةُ ﴾<sup>(٤)</sup> .

والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفعلاً واعتقاداً . فإن قيل : قد جاء في بعض فواتح السور ﴿ سُبْحَ اللَّهِ ﴾ بلفظ الماضي ، وفي بعضها ﴿ يُسَبِّحُ اللَّهُ ﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قال الخازن في تفسيره : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هي كانت مسبحة أبداً في الماضي ، وستكون مسبحة أبداً في المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شيء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه وتصريفها فيما شاء وأحب .

قوله تعالى : ﴿ لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَحْيَىٰ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : هو سبحانه المالك المتصرف فى خلقه فيحيى ويميت ويعطى من يشاء ما يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال عز وجل : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَكَّلْ عَلَى الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعِ الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . تَوَلَّجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجَ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتَخْرُجُ الْمَيِّتُ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ

(١) سورة غافر من الآية ٧

(٢) سورة الشورى من الآيات ٣ - ٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٤٤

(٤) سورة الرعد من الآية ١٣

من تشاء بغير حساب ﴿١﴾ . وكما قال سبحانه : ﴿لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير﴾ ﴿٢﴾ ، فهو — سبحانه — الملك الحق الذى بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له فى ملكه ولا معين ، المتصرف فى خلقه بما يشاء من الأمر والنهى والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

قوله تعالى : ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم﴾ .

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقضى عني الدين واغنني من الفقر » (٣) رواه مسلم .

قال الامام ابن القيم — رحمه الله — أثناء كلامه على هذه الأسماء الحسنی الأربعة وهى : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن : هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالبعد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . وأعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله — سبحانه — سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه — سبحانه — إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب الحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهى إحاطتان زمانية ومكانية ، فأحاطته أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إلى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ — ٢٧

(٢) سورة المائدة الآية ١٢٠

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والرجاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ج ٤ ص ٢٠٨٤

حديث رقم ٦٣ / ٢٧١٣ من رواية لأبى هريرة .

فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده .. فسبق كل شيء بأوليته وبقي بعد كل شيء ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد فهو الأول في آخريته ، والآخر في أوليته ، والظاهر في بطوته ، والباطن في ظهوره ، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . ثم ساق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فشفى وكفى — رحمه الله تعالى — ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله — ﷺ — في حديث أبي هريرة المتقدم قريباً بأوجز عبارة وأحضرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم — ﷺ — ( من كتاب مصارح القبول للشيخ حافظ بن أحمد حلمي ) .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾<sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر وغيره ، ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزرع وثمار ومعادن فلا تخفى عليه خافية . كما قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٣)</sup> ، ما من جيل إلا ويعلم ما فى وعزه ، ولا بحر إلا ويدرى ما فى قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ان ذلك على الله يسير .

وقوله تعالى : ﴿ وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ﴾ أى : انه سبحانه يعلم ما ينزل من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام مع الملائكة الكرام وفى الأثر « ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء الله — تعالى — .

(١) سورة الشورى من الآية ١١

(٢) سورة آل عمران الآية ٥

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٩



وقوله : ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أى : من الملائكة والأعمال كما قال تعالى : ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾<sup>(١)</sup> ، وكما جاء فى الحديث الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أى : رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر فى ليل أو نهار فى البيوت أو فى القفار الجميع فى علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ، كما قال تعالى : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٣)</sup> ، وكقوله تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾<sup>(٤)</sup> ، وكقوله — جل وعلا — : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم ﴾<sup>(٥)</sup> .

وفى الصحيح أن رسول الله — ﷺ — قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »<sup>(٦)</sup> .  
وكان الامام أحمد كثيراً ما ينشد هذين البيتين :  
إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل على رقيب

(١) سورة فاطر من الآية ١٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام « ان الله لا ينام » ج ١ ص ١٦١ — ١٦٢ فقد ورد الحديث ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية لأبى موسى ولفظه : « قام فينا رسول الله — ﷺ — بخمس كلمات فقال : « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجا به النور ( وفى رواية أبى بكر : النار ) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(٣) سورة يونس الآية ٦١

(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ — ١١

(٥) سورة المجادلة الآية ٧

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ حديث ٨ / ١ وهو حديث طويل من رواية لعبد الله بن عمر عن أبيه وهو حديث طويل ، يعتبر هذا الحديث الذى معنا جزء منه .  
وانظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب سؤال جبريل النبى — ﷺ — عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .. الخ فقد ورد حديث لأبى هريرة هذا الحديث الذى معنا جزء منه .

ولا تحسبن الله يغفل ساعة      ولا أن ما تخفى عليه يغيب  
يا من يرى مد البعوض جناحه      في ظلمة الليل البهيم الأليل  
ويرى نياط عروقها في نحرها      والمخ في تلك العظام التحل  
ويرى ويسمع ما دونها      في قاع بحر ذاخر متجندل

قوله تعالى : ﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أى : هو المالك لما فيهما ،  
والمدير لأمرهما ، والتنفذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال تعالى :  
﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون ﴾ <sup>(١)</sup> . وكما قال سبحانه ﴿ وهو الله لا إله  
إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ أى : يقلب الليل والنهار ويقدرهما  
بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وكل  
ذلك بحكمته وتقديره لما يريد به بخلقه وقوله : ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أى : يعلم السرائر وإن  
دقت وإن خفيت . فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر . كيف لا وهو الذى  
خلق وقدر ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وهذى الصحارى والجبال الرواسيا      سل الواحة الخضراء والماء جاريا  
سل الليل والأصباح والطيور شاديا      سل الروض مزدانا سل الزهر والندى  
وسل هذه الأنسام والأرض والسما      فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا  
فمن غير رى يرجع الصبح ثانيا      ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم  
سوى الله يجره كما شاء راويا      ولو أن هذى الريح ثارت واعصرت  
أفى كونكم من يمك الريح ناهيا

(١) سورة يس الآية ٨٣

(٢) سورة القصص الآية ٧٠

(٣) سورة الملك الآية ١٤

## توجيه وإرشاد

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَانْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝۷ ﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝۸ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝۹ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝۱۰ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝۱۱ ﴾

## معاني المفردات

﴿ مستخلفين فيه ﴾ أى : جعلكم — سبحانه — خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ،  
﴿ آيات بينات ﴾ الآيات البينات هى القرآن الكريم ، ﴿ الفتح ﴾ هو فتح مكة ، و ﴿ الحسنى ﴾ أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ﴿ يقرض الله ﴾ أى : ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته وقدرته وعلمه بين أن كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء ، ثم ذكر أنواعاً من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأوماً إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكليف الدينية فأمر بالإيمان والإخلاص والانقياد لرسوله — ﷺ — ، ثم طلب انفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردة فهو ملك له وأنتم

خلفاؤه ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول وقد أخذ عليكم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم والله رعوف بكم إذ أنقذكم من ظلمات الشرك إلى نور الطاعة ، ثم ذكر — سبحانه — فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقل المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنی ، ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضاً له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

أمر — تبارك وتعالى — بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل والدوام والنبات على ذلك والاستمرار كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ أى : وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه في طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً ، وفي هذا ترغيب أيما ترغيب في الإنفاق ، لأنه من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه — علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره وبذا يسهل عليه إنفاقه .  
قال الشاعر :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه	تملكه المال الذى هو مالكة
ألا إنما مالى الذى أنا منفق	وليس لى المال الذى أنا تاركة
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى	يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

وقال آخر :

كل نفس عند ميّتها      حظها من مالها الكفن  
إن مال المرء ليس له      منه إلا ذكره الحسن

قال شعبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : « انتهيت إلى رسول الله ﷺ — وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت وما سوى ذلك فذهب وتاركه للناس »<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

ثم حث — سبحانه — على ما تقدم من الإيمان والإنفاق في سبيل الله فقال تعالى : ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ أي : فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خولهم الله عمن قبلهم — في سبيل الله لهم الثواب العظيم عند ربهم وهناك يرون من الكرامة والثوبة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

أي : وأي شيء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به .

قال ابن كثير قد روي في الحديث من طرق في أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ — قال يوماً لأصحابه : أي المؤمنین أعجب إليكم إيماناً ؟ — قالوا الملائكة — قال وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ — قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم — قالوا فنحن قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنین إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها ..<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذا نظير قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والرقائق » ج ٤ ص ٢٢٧٣ فقد ورد الحديث ٣ / ٢٩٥٨ من رواية لقتادة عن مطرق عن أبيه وهو بلفظه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير « تفسير سورة الحديد » ج ٨ ص ٢٦ ، ٢٧ .

الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ ، ويعنى بذلك بيعة الرسول ﷺ — .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : هو تعالى الذى ينزل على محمد القرآن العظيم ، المعجز فى بيانه ، الواضح فى أحكامه ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أى : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ أى : مبالغ فى الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم . كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ ﴿٢﴾ ، وكما قال جل وعلا : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهتدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ ﴿٣﴾ . وكما قال سبحانه : ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد . الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ ﴿٤﴾ . وكما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ ﴿٥﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله والله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ .

أى : وما لكم أيها الناس لا تنفقوا مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثاً . فأنفقوا ولا تحشوا فقراً وإقلاقاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ويده مقاليدهما وعنده خزائنها وهو مالك العرش بما حوى وهو القائل سبحانه : ﴿ وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ ﴿٦﴾ ، وقال : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ ﴿٧﴾ ، فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذى العرش إقلاقاً وعلم أن الله سيخلفه عليه .

(٥) سورة يونس الآيات ٥٧ ، ٥٨

(٦) سورة سبأ من الآية ٣٩

(٧) سورة النحل من الآية ٩٦

(١) سورة المائدة الآية ٧

(٢) سورة النساء الآية ١٧٤

(٣) سورة المائدة الآيات ١٥ ، ١٦

(٤) سورة إبراهيم الآيات ١ ، ٢

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ .

قال قتادة : كان قتالان ؛ أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى : وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في مقدار الجزاء كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً ﴾ (١) .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ — : « لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : عالم بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفي الآية وعد ووعد .

قال ابن كثير : أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وماذا لك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وأنفاقه في حال الجهد والقلّة والضيق ، وفي الحديث « سبق درهم ألف » (٣) ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أباً بكر — رضى الله عنه — له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيد من عمل بها من سائر أئم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله — عز وجل — ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

(١) سورة النساء الآية ٩٥

(٢) انظر صحيح البخارى « باب فضائل أصحاب النبى » ج ٥ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه حدث به ذكر ان عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الزكاة » باب « جهد المقل » ج ٥ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « سبق درهم مائة ألف درهم .. » حديث طويل .

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم ﴾ أى : من هذا الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسباً أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ (١) ، وكما قال سبحانه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ (٢) ، قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له — الآية ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرئى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت رضى حائط ، وله حائط فيه ستائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعياها ، قال : فجاء أبو الدحداح فنادها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضت رضى — عز وجل — ، وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله — ﷺ — قال : « كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح » (٣) ، وفى لفظ « رب نخلة مدلاة عرووقها در ويقوت لأبى الدحداح فى الجنة » .

## وعد ووعيد

﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتْ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنٰفِقُونَ

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية ثلث مع اختلاف فى بعض ألفاظ القصة ، ولفظ الحديث

« كم من عذق راح لأبى الدحداح فى الجنة » .

وانظر مسند الامام أحمد — أيضا — ج ٥ ص ٩٥ فقد وردت عدة روايات فى هذا الحديث .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنائز » باب « ركوب المصلى » ج ٢ ص ٦٦ فقد ورد الحديث بلفظ .. كم من عذق معلق أو مدلل

لأبى الدحداح فى الجنة .. برقم ٩٦٥ / ٨٩ .

وانظر كثر العمال ج ١١ ص ٦٥٨ — ٦٥٩ فقد ورد الحديث بعده روايات برقم ٣٣١٨٠ ، ٣٣١٨١ ، ٣٣١٨٢ .



وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا  
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِلُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ  
نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ  
اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ النَّارُ هِيَ  
مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

### معاني المفردات

﴿ بشراكم ﴾ أى : ما تبشرون به ، ﴿ انظرونا ﴾ أى : انتظرونا ، ﴿ نقتبس ﴾ أصل الاقتباس طلب القبس : أى الجذوة من النار ، ﴿ بسور ﴾ السور : الحاجز ، ﴿ من قبله ﴾ أى : من جهته ، ﴿ بلى ﴾ أى : كنتم معنا ، ﴿ فتتم أنفسكم ﴾ أى : أهلكتموها بالمعاص والشهوات ، ﴿ وتربصتم ﴾ أى : انتظرتهم بالمؤمنين مصايب الزمان ، ﴿ واربتهم ﴾ أى : شككتهم فى أمر البعث ، ﴿ الأمانى ﴾ الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام ، ﴿ الغرور ﴾ بالفتح الشيطان ، ﴿ فدية ﴾ والفدية والفداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، ﴿ مأواكم ﴾ أى : منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ مولاكم ﴾ أى : أولى بكم ، ﴿ والمصير ﴾ المآل والعاقبة .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالإيمان والإنفاق فى سبيله ثم ذكر أن المنافقين أول الاسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين — ذكر هنا حال المؤمنين المنافقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك يتخبطون فى الظلمات ، كما كانوا فى الدنيا يعيشون كالبهائم فى ظلمات الجهل والغى والضلال ، ثم بين أنه يضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى .. ثم أعقبه أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

يقول تعالى — مخبراً عن المؤمنين المتصدقين — : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود في قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمشون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة .

ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وقال قتادة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ — كان يقول : « من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه »<sup>(١)</sup> ، وقال الحسن : ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ يعنى : على الصراط . « وهذا النور الذى أودعه فى قلب عبده من معرفته ومحبه والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ثم تقوى مادته فتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وصفته فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضيء مرة ويطفأ مرة ، إذ كانت هذه حال نوره فى الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً » . ( قاله ابن القيم فى الوابل الصيب ) .

وقوله تعالى : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

أى : يقال لهم بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خالدين

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى « تفسير سورة الحديد » ج ٢٧ ص ١٢٨ القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم .. ﴾ الخ . فقد ورد الحديثان سعيد عن قتادة ، وعن ابن مسعود .

(٢) سورة الرعد الآيتان ٢٣ — ٢٤

فيها ﴿ أى : ما كنين فيها أبداً ﴾ ذلك هو الفوز العظيم ﴿ كما قال سبحانه : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ (١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ (٢) .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين في موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين ، فقال تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

هذا إخبار من الله سبحانه عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأحوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله به ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة في باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلى فلما صلى على الجنازة وأخذوا في دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم في منزل تفتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا — يشير إلى القبر — بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى موطن يوم القيامة فإنكم في بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذى ضرب به الله — تعالى — في كتابه فقال : ﴿ أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٣) ، فلا يستضيء الكافر والمنافق بنور المؤمن ، كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ ، ﴿ قيل ارجعوا وراءكم فاتمسوا نوراً ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (٤) فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة الزمر الآية ٧٣

(٣) سورة النور الآية ٤٠

(٤) سورة النساء الآية ١٤٢

فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ ، وقال العوفي والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينا الناس في ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ انظرونا نقبس من نوركم ﴾ فإننا كنا معكم في الدنيا قال المؤمنون : ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فاتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبراني بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ — « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله — تعالى — يعطي كل مؤمن نوراً وكل منافق نوراً فإذا استوتوا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : انظرونا نقبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً » (١) .

ويقول ابن القيم : ولما لم يكن للمنافقين نور ثابت بل كان نوره ظاهراً لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وقوله تعالى : ﴿ فضرِبَ بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ . قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذي قال الله تعالى : ﴿ وبينهما حجاب ﴾ (٢) وهكذا روى عن مجاهد رحمه الله وغير واحد ، قال ابن كثير وهو الصحيح . وقوله ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أى : الجنة وما فيها ، ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أى : النار ، قاله قتادة وابن زيد وغيرهما . وقوله : ﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قالوا بلى ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا . ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتمكم الأماني ﴾ قال بعض السلف : أى : فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات وتربصتم أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب البعث » باب ما جاء في الميزان والصراط والورود ج ١٠ ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس . رواه الطبراني وفيه اسحق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك .  
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

وقال قتادة : ﴿ تَرِيصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبِعْتُمْ ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِي ﴾ أى : قلتم سيغفر لنا ، وقيل : غرتكم الدنيا ، ﴿ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : ما زلتُمْ في هذا حتى جاءكم الموت . ﴿ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ أى : الشيطان ، قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله ما زالوا عليها حتى قذفهم الله في النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا : أى : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ولو جاء أحدهم يوم القيامة بجملة الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ ﴾ أى : هى مصيركم وإليها متقلبكم وقوله : ﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

« اللهم إنا نعوذ بك من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق ، اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهك الكريم خالصة ، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً » .

### رقائق ومواعظ

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ <sup>(١٦)</sup>  
 أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ <sup>(١٧)</sup> إِنَّ الْمُصَدِّقِينَ

وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَعُفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

### معاني المفردات

﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ ألم يحىء وقت ذلك ، ﴿ أَنْ تَخْشَعَ ﴾ الخشوع : الخشية والخوف ، ﴿ لَذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لمواعظه ، ﴿ الْحَقِّ ﴾ هو القرآن ، ﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ هم اليهود والنصارى ، ﴿ الْأَمَدِ ﴾ الزمان ، ﴿ وَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ﴾ أى : طال العهد دينهم دين أنبيائهم ، ﴿ فَفَقَسْتُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أى : صلبت وصارت كاللحجارة أو أشد قسوة ، ﴿ فَاسْقُونَ ﴾ أى : خارجون عن حدود دينهم ، ﴿ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ ﴾ هى التى لا تنبت شيئاً ، و ﴿ الْآيَاتِ ﴾ هى البينات والحجج . ﴿ تَعْقِلُونَ ﴾ تدبرون ، ﴿ الْمُصَدِّقِينَ ﴾ أى : المتصدقين ، ﴿ قَرْضٍ حَسَنًا ﴾ القرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، ﴿ يَضَاعَفُ لَهُمْ ﴾ أى : يضاعف لهم ثواب أعمالهم ، ﴿ الصِّدِّيقُونَ وَالصِّدِّيقِ ﴾ : من كثر منه الصدق وصار سجية له ، ﴿ وَالشُّهَدَاءُ ﴾ من قتلوا فى سبيل الله .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة — ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لَذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَفَقَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، ففهمه وتنقاد له ، وتسمع له وتطيعه ، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً

مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴿١﴾ .

روى الامام مسلم بسنده عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ الآية إلا أربع سنين (٢) . وقال قتادة : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله — ﷺ — قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين بوعد ولا وعيد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فى الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة .

وقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

قال ابن كثير : فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحى الأرض الميتة المجذبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراہين القرآن والدلائل ، ويوصل إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١) سورة الزمر الآية ٢٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ج ٤ ص ٢٣١٩

حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود .

## كلمة في الخشوع

قال الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلي : ما ملخصه :

أصل الخشوع هو لين القلب ورقته ، أو سكونه وخضوعه وانكساره وحرقته ، فإذا خشع القلب ، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء ، لأنها تابعة له ، كما قال — ﷺ — : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب »<sup>(١)</sup> ( رواه البخارى ) فإذا خشع القلب ، خشع السمع والبصر والرأس ، والوجه ، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام ، ولهذا كان النبى — ﷺ — يقول فى ركوعه فى الصلاة « خشع لك سمعى وبصرى ونحى وعظمى وعصبى » ( رواه مسلم ) ، ورأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا خشعت جوارحه »<sup>(٢)</sup> .

قال المسعودى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ قال : « هو الخشوع فى القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت فى صلاتك » . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ قال : « خائفون ساكنون » . وقال الحسن — رحمه الله — « كان الخشوع فى قلوبهم فغضوا له البصر فى الصلاة » .

وقد وصف الله — تعالى — فى كتابه الأرض بالخشوع فقال : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾<sup>(٣)</sup> ، فاهتزأها وربوها — وهو ارتفاعها — مزيل لخشوعها ، فدل على أن الخشوع الذى كانت عليه هو سكونها وانخفاضها .

فكذلك القلب إذا خشع ، فإنه تسكن خواطره ، وإرادته الرديئة التى تنشأ من اتباع الهوى ؛ وينكسر وينخضع لله ، فيزول بذلك ما كان فيه من التعاضم والترفع والتكبر ، ومتى سكن ذلك فى القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها ، حتى الصوت وقد وصف الله — تعالى — الأصوات بالخشوع فى قوله : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾<sup>(٤)</sup> فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « فضل من استبرأ لدينه » ج ١ ص ٢١ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل « الحلال بين .. الخ » .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح » باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩٢ فقد ورد الحديث من رواية لعل بن أبى طالب ولفظه : « اللهم لك ركعت ، ولك أسلمت ربك أمت خشع له سمعى وبصرى وعظمى ونحى وعصبى » .

(٣) سورة فصلت من الآية ٣٩

(٤) سورة طه من الآية ١٠٨ .



## الفرق بين خشوع النفاق وخشوع الإيمان

ومتى تكلف الإنسان تعاطى الخشوع في جوارحه أو أطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه ، كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذى كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم : « استيعذوا بالله من خشوع النفاق ، قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع » .

ونظر عمر — رضى الله عنه — إلى شاب قد نكس رأسه فقال له : « يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب » .  
فمن أظهر خشوعاً غير ما في قلبه ، فإنما هو نفاق على نفاق .

## الخشوع حاصل من معرفة الله

وأصل الخشوع الحاصل في القلب ، إنما هو من معرفة الله ، ومعرفة عظمته وجلاله وكأله ، فمن كان بالله أعرف ، فهو له أخشع .

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع . فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده ، وإطلاعه على سره وضميره ، المقتضى للاستحياء من الله — تعالى — ، ومراقبته في الحركات والسكنات . ومن خاشع لمطالعته لكأله وجماله المقتضى للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته .

ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضى للخوف منه . وهو — سبحانه وتعالى — يتقرب ممن يناجيه في الصلاة ويعفر وجهه في التراب بالسجود ، كما يتقرب من عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويحيب دعاءهم ، ويعطيهم سؤلهم ، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والاجابة .

## الخشوع هو العلم النافع وهو أول ما يرفع من العلم

فخرج النسائي بسنده عن عوف بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يوماً ، فقال : « هذا اوان يرفع فيه العلم ، فقال رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد : يا رسول الله ، أو يرفع العلم وقد أثبت ووعته القلوب ؟ فقال له رسول الله ﷺ — : « أن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله — عز وجل — » ، قال : « فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال : صدق عوف ،

الا اخبرك بأول ذلك يرفع ؟ قلت : بلى ، قال : الخشوع ، حتى لا ترى خاشعاً » ( وخرجه الحاكم بنحوه وصححه وقره الذهبي )<sup>(١)</sup> .

فالعلم النافع : هو ما يباشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار ، وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم وإنما كان على اللسان ، فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود — رضى الله عنه — « إن أقواماً يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب ، فرسخ فيه ، نفع صاحبه » .

وقال الحسن — رحمه الله — « العلم علمان : علم باللسان ، وعلم بالقلب : فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم » .

فأخبر النبي — ﷺ — أن العلم الذى عند أهل الكتاب من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشيء منه ، لما فقدوا المقصود منه ، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بمحصول الخشية والإنابة لقلوبهم وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم .

ولهذا المعنى وصف الله — سبحانه — في كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقوله تعالى — في وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبلنا — : ﴿ وَيَخْرُجُونَ لِلْذِّقَانِ يَكُونُ بَيْنَهُمْ خُشُوعًا ﴾<sup>(٤)</sup> مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع في قلبه .

وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوَّلِكَ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ . اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾<sup>(٥)</sup> ، ولين القلوب هو زوال غشاوتها لحدوث الخشوع فيها والرقعة ، وقد قبح الله من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴿٦﴾ الْآيَةَ . قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ « مَا كَانَ بَيْنَ إِسْلَامِنَا وَبَيْنَ أَنْ عَوْقِبْنَا بِهَذِهِ الْآيَةِ إِلَّا أَرْبَعُ سِنِينَ ﴾<sup>(٧)</sup> اخرجه مسلم .

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین للحاکم « کتاب العلم » باب « هذا اوان يختلس العلم من الناس .. » الخ ج ١ ص ٩٨ — ٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن جبير بن نظير ، ثم قال هذا صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته ، والشاهد لذلك فيه شددان أوس فقد سمع جبير بن نظير الحديث منهما جميعاً ومن ثالث من الصحابة وهو أبو الدرداء .

(٢) سورة فاطر من الآية ٢٨

(٣) سورة الزمر من الآية ٩

(٤) سورة الاسراء من الآية ١٠٩

(٥) سورة الزمر من الآيتان ٢٢ — ٢٣

(٦) سورة الحديد من الآية ١٦

(٧) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا .. ﴾ الخ ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم

وكان مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — يقرأ هذه الآية ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله﴾ (١) الآية .

ثم يقول : « أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه » وروى عن الحسن — رحمه الله تعالى — قال : « يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدث بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حملك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسي لخشعت وتصدعت » أما سمعته يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله — الآية . فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها وتنزجر بها عن معاصي الله — عز وجل — ، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه وآتاك من حكمه لأن عليك الحساب ولك الجنة أو النار .

وقد كان النبي — ﷺ — يستعيز من قلب لا يخشع كما في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم : أن النبي — ﷺ — كان يقول : « اللهم اني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها » (٢) .

### الخشوع في الصلاة

وقد شرع الله — تعالى — لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشئ عن خشوع القلب وذله وانكساره ، ومن أعظم ما يظهر فيه ذلك من العبادات الصلاة ، وقد مدح الله الخاشعين فيها لقوله : ﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ (٣) ، قال سعيد بن جبير : يعنى متواضعين لا يعرف من عن يمينه ، ولا من عن شماله ، ولا يلتفت من الخشوع لله — عز وجل — وقال منصور عن مجاهد — رحمه الله — في قوله — تعالى — : ﴿سماهم في وجوههم من أثر السجود﴾ (٤) ، قال « الخشوع في الصلاة » .

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة :

— وضع اليدين إحداها على الأخرى لله حال القيام . وقد روى عن الإمام أحمد — رضى الله تعالى — أنه سئل عن المراد بذلك فقال : « هو ذل بين يدي عزيز » قال على بن محمد المصرى الواعظ — رحمه الله — : « ما سمعت في العلم بأحسن من هذا » .

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة ، يوجب للمصلئ أن يتذكر وقوفه بين يدي الله — تعالى — للحساب .

كان ذو النون — رحمه الله — تعالى — يقول في وصف العباد : « لو رأيت أحدهم وقد قام

(١) سورة الحشر من الآية ٢١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل » ج ٤ ص ٢٠٨٨ فقد ورد الحديث رقم ٧٣ / ٢٧٢٢ من رواية يزيد بن أرقم وهو حديث طويل . هذا الحديد جزء منه .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١ — ٢

(٤) سورة الفتح الآية ٢٩

إلى صلاته ، فلما وقف في محرابه واستفتح كلام سيده ، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فأنخلع قلبه وذهل عقله « اخرجه أبو نعيم — رحمه الله — .

ومن ذلك إقباله على الله — عز وجل — وعدم التفاته إلى غيره وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفرغ القلب للرب — عز وجل —

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — أنه قال —

في فضل الوضوء وثوابه — : « ... فإن هو قام وصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذى هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيتته يوم ولدته أمه » (١) .

الثانى : عدم الالتفات بالنظر يمينا وشمالاً وقصر النظر على موضع السجود وهو من لوازم الخشوع

للقلب وعدم التفاته .

وفي البخارى عن عائشة — رضى الله عنها — سألت النبي — ﷺ — عن الالتفات في الصلاة ،

فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » (٢) .

وخرج الإمام أحمد — رحمه الله — وأبو داود — رحمه الله — والنسائي — رحمه الله — من

حديث أبى ذر — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد في صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه » (٣) .

وقال عطاء — رحمه الله — : وبلغنا أن الرب — عز وجل — يقول « يا ابن آدم إلى من تلتفت ،

أنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

ومن ذلك الركوع : وهو ذل بظاهر الجسد وتماثل الخضوع في الركوع : أن يخضع القلب لله ،

ويذل له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله — عز وجل — ، ولهذا كان النبي — ﷺ —

يقول في ركوعه : « خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى وعظمى ، وما استقلت به قدمى » إشارة إلى

أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه .

ومن ذلك السجود : وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه حيث جعل العبد أشرف أعضائه

وأعزها عليه ، وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه في التراب متعظراً ، ويتبع ذلك انكسار القلب

وتواضعه ، وخشوعه لله — عز وجل — ، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله — عز

(١) انظر صحيح مسلم

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « الالتفات في الصلاة » ج ١ ص ١٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية

لعائشة .

وانظر سنن النسائي « كتاب السهو » باب التشديد في الالتفات في الصلاة فقد ورد الحديث عن عائشة مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٧٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر ولفظه : « لا يزال الله — عز وجل — مقبلاً

على العبد في صلاته ما لم يلتفت فإذا صرف وجهه عنه انصرف عنه » ..

وانظر سنن النسائي « كتاب السهو » باب التشديد في الالتفات في الصلاة فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر بلفظ رواية البخارى .

وجل — إليه ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، كما صح عن النبي — ﷺ — وقال الله — تعالى — : ﴿ واسجد واقترب ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومن تمام خشوع العبد لله عز وجل وتواضعه له في ركوعه وسجوده أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو فكأنه يقول الذل والتواضع وصفى ، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك .

ولهذا شرع للعبد في ركوعه أن يقول : « سبحان ربى العظيم » وفي سجوده « سبحان ربى الأعلى » . وكان النبي — ﷺ — يقول في سجوده : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة » <sup>(٢)</sup> ( رواه أبو داود ) .

وكان ﷺ يقول — أيضا — : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » <sup>(٣)</sup> ( رواه مسلم — كان يقول — أيضا — : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » <sup>(٤)</sup> ... أ . هـ .

### فضل الصدقة

قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً . وإنما عطف بالفعل على الإسم ، لأن ذلك الإسم في تقدير الفعل ، أى : إن الذين صدقوا وأقرضوا ﴿ يضاعف لهم ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبي — ﷺ — قال : « من تصدَّق بعدل ثمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يرى أحدكم فلولاً حتى تكون مثل الجبل » <sup>(٥)</sup> أخرجه الشيخان . ومعنى عدل تمر : ما يساوى ثمرة . ومعنى فلوله : بفتح الفاء وضمها وضم اللام . المهر من الخيل إذا بلغ سنة .

(١) سورة العلق من الآية ١٩

(٢) انظر سنن النسائي « كتاب الافتتاح في الصلاة » باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٣ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل من رواية لعوف بن مالك .

(٣) انظر سنن النسائي « كتاب الافتتاح في الصلاة » باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية من محمد بن قسيلة .

(٤) انظر سنن النسائي « كتاب الافتتاح في الصلاة » باب الدعاء في السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية من محمد بن إبراهيم عن عائشة .

وفي حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ — : « ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « الصوم جنة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » . أخرجه الترمذى مطولاً وقال : حسن صحيح<sup>(١)</sup> .

ومن بين السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم مطولاً .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أى : والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله ، وآمنوا بما جاء وهم به من عند ربهم أولئك هم في حكم الله بمنزلة الصديقين . قال الامام مالك بن أنس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ — : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل بينهم » قالوا : « يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم » ، قال بلى ، والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أى : والذين استشهدوا في سبيل الله لهم أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم يتفاوتون في ذلك بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة — أن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا . ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾<sup>(٤)</sup> .

قال ابن القيم : وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب ، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله — تعالى — ويسابق إلى القرب

(١) انظر صحيح البخارى من كتاب التوحيد باب « وكالة عرشه على الماء .. » الخ ج ٩ ص ١٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) انظر سنن الترمذى — كتاب الايمان « باب ما جاء في حرمة الصلاة » ج ٤ ص ١٢٤ حديث ٢٧٤٩ فقد ورد الحديث مطولاً من معاذ بن جبل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) وانظر صحيح البخارى « باب وجوب الزكاة » باب « الصدقة باليمين » ج ٢ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب فضل « اخفاء الصدقة » ج ٢ ص ٧١٥ حديث ٩١ / ١٠٣١ فقد ورد الحديث مطولاً من رواية لأبى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله »

(٤) وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « ترائى أهل الجنة .. » الخ ج ٤ ص ٢١٧٧ حديث رقم ٢٨٣١ / ١١ من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظه .

(٥) سورة النساء الآيتان ٦٩ — ٧٠

منه ، وقد ذكر الله — تعالى — النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمصدقِينَ وَالْمصدقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ثم قال : ﴿ وَالشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ قليل : هذا عطف على الخير من ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله : ﴿ لهم أجرهم ونورهم ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور : أنهم صديقون ، وشهداء . فهذه هي المرتبة والمنزلة قيل : ثم الكلام عند قوله تعالى ﴿ الصديقون ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال : ﴿ الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتثلوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والإحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم . ثم ذكر الشهداء وأنه — تعالى — يجرى عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله — تعالى — أثابهم الله — تعالى — عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون فيجرى عليهم رزقهم ونورهم فهؤلاء السعداء ..

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك ذكر حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ أى : والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً لا يفارقونها .

### حقيقة الدنيا والعمل للباقيّة

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَجْبَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَهُ مُضْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتْعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا

مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ  
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ  
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى  
ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً  
وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا  
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا  
بِرُسُلِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ  
﴿٢٨﴾ لَيْسَ لَكَ يَلْعَمُ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

## معاني المفردات

﴿ وتفاخر بينكم ﴾ أى : بالأنساب والعظام البالية ، ﴿ وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾  
أى : مباهاة بكثرة العدد والعُدَد ، ﴿ غيث ﴾ الغيث : المطر ، ﴿ الكفار ﴾ هنا الزراع ، ﴿ يسبح ﴾  
أى : يبتدىء في اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضراً ، ﴿ حطاماً ﴾ أى : هشيمًا متكسراً من  
يبسه ، و ﴿ الغرور ﴾ الخديعة ، ﴿ في كتاب ﴾ هو اللوح المحفوظ ، ﴿ نبرأها ﴾ أى : نخلقها  
ونوجدتها ، ﴿ تأسوا ﴾ أى : تحزنوا ، ﴿ ما فاتكم ﴾ أى : من نعيم الدنيا ، ﴿ ما آتاكم ﴾ أى :  
ما أعطاكم ، ﴿ مختال ﴾ المختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، ﴿ فخور ﴾ الفخور :  
هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه ، ﴿ الميزان ﴾ العدل ، ﴿ بالقسط ﴾ بالحق ، ﴿ وأنزلنا  
الحديد ﴾ أى : خلقناه ، ﴿ بأس ﴾ البأس : القوة ، ﴿ وليعلم الله ﴾ أى : ليعلمه علم مشاهدة  
ووجود في الخارج ، ﴿ قفينا ﴾ قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، و ﴿ الانجيل ﴾ الكتاب الذى أنزل على  
عيسى وفيه شريعته ، ﴿ ابتدعوها ﴾ أى : استحدثوها ولم تكن في دينهم ، ﴿ ابتغاء رضوان الله ﴾  
أى : طلباً لرضاه ومحبه ، ﴿ فما رعوها ﴾ أى : ما حافظوا عليها ، ﴿ كفلين ﴾ الكفل : النصيب ،  
﴿ لئلا يعلم ﴾ أى : لئلا يعلم .



## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بشر المؤمنين بالنور المقام يوم القيامة ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات — أردف ذلك وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول في جنت عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلاً منه ورحمة ، وبعد أن أبان أن متاع الدنيا زائل ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم — أردف ذلك تهوين المصائب على المؤمنين ، لكي لا يحزنوا على فائت ، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية . ثم بين أن المختالين الذين ييخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ويأمرون الناس بالبخل لا يجن إلا على أنفسهم ، والله غنى عنهم وهو المحمود على نعمه التي لا تدخل تحت حد . ثم ذكر سبحانه أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ثم ذكر أنه شرف نوحاً وإبراهيم — عليهما السلام — بالرسالة ، ثم جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ثم ذكر النبي عيسى — عليه السلام — وشريعته وذكر غلو أهل الكتاب وأن أكثرهم فاسقون ، ثم ختم السورة بالحديث عن رحمته التي كتبها للذين يتقون ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يبيح فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ .

يقول تعالى — موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرها لها — : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها ، هذا كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل

المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿١﴾ ثم ضرب — تعالى — مثل الحياة في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس وقوله تعالى : ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ أى : يعجب الزارع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شئ عليها وأميل الناس إليها وقوله : ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً بأن يصير ييساً متحطماً هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء وهكذا الانسان يكون كذلك في أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم انه يشرع في الكهولة ، فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشئ اليسير كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ (٢) ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (٣) وقال جل وعلا : ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة فإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » (٥) رواه مسلم .

وعن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله : فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » (٦) متفق عليه .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤

(٢) سورة الروم الآية ٥٤

(٣) سورة لقمان الآية ٣٣

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » ( كتاب الرقاق ) باب أكثر أهل الحية الفقراء .. الخ ج

٤ ص ٢٠٩٨ حديث رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ من رواية لأبى سعيد الخدرى وزاد « فإن أول فتنة بنى اسرائيل كانت في النساء » وفي حديث ابن باشر « لينظر كيف تعملون » .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب « سكرات الموت » ج ٨ ص ١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » <sup>(١)</sup> ، متفق عليه .

إن الله عبداً فطناً  
نظروا فيها فلمّا علموا  
جعلوهما لجة واتخذوا  
طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً  
أنها ليست لحي وطنناً  
صالح الأعمال فيها سفناً

قوله تعالى : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

لما أبان - سبحانه - أن الآخرة قرية ، وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم - حث على المبادرة إلى فعل الخيرات - فقال : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ أى : سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان وعمل الطاعات وسارعوا إلى جنة واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة . قال السدى : إن الله - تعالى - شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنويها على أن طولها أضعاف ذلك ، وقوله : ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ﴾ أى : هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدقين بالله ورسوله ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أى : ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى : ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين . والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الرفاق » باب الجنة إلى أحدكم من شراك فعله والنار مثل ذلك ج ٨ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٣٣ - ١٣٦

وكفوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَوٍ . خَتَامُهُمْ مَسْكٌ . وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا . إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ .

أى : ما يحدث فى الأرض من مصيبة من المصائب كقحط ، وزلزلة ، وغيره ﴿ ولا فى أنفسكم ﴾ أى : من الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ، ﴿ إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ أى : إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدتها ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أى : إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله — عز وجل — وإن كان عسيراً على العباد ثم بين تعالى لنا الحكمة فى إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر ، فقال تعالى : ﴿ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ أى : أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطاكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ، ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أى : جاءكم ، وتفسير آتاكم أى : أعطاكم وكلاهما متلازم أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشيراً وبطراً تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور أى : على غيره . قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً ، والحزن صبراً . ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ( ومن يتول ) أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى — عليه السلام — لقوله ﴿ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وكما قال رب العزة : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، فإنه سبحانه لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه سبحانه خلقنا بمحض جوده وكرمه وفضله ومنته ، ولو أن البشر جميعاً مذ خلقوا إلى أن تمهد لهم على ظهر الأرض حركة كفروا بالله ونسوه ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كف شعاعاً من ضيائه ، ولا غض بريقاً من

(١) سورة المطففين الآيات ٢٢ — ٢٦

(٢) سورة ابراهيم الآية ٨

(٣) سورة فاطر الآية ١٥

كبريائه ، فإنه — سبحانه وتعالى — أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته من أن ينال منه وهم وأهم أو جهل جاهل ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز

يقول تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهى كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودينامهم ﴿ والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ أى : وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحري وما أشبه ذلك وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم ، وتحمى المظلوم ، وفيه كذلك منافع للناس فى حاجاتهم فى معاشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

وقوله : ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أى : وإنما فعل ذلك ليرام ناصرى دينه باستعمال السلاح والكرام مجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم . وقوله ﴿ إن الله قوى عزيز ﴾ أى : إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

قال ابن كثير : فى قوله ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله — ﷺ — بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله المهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الامام أحمد بسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما —

قال : قال رسول الله ﷺ — : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

## أهمية الحديد ودخوله في كل اختراع

قال الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي رحمه الله في كتابه الاسلام في عصر العلم ما نصه : وقد صرح به القرآن وخصه بالذكر لأهميته البالغة في حياة الإنسان في سورة سميت باسمه ، وذلك في قوله من سورة الحديد ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ﴾ الآية ، وفي قوله : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ معجزة قرآنية علمية ، لأن التحليل الطيفي قد أثبت أن الحديد عنصر من عناصر النجوم والشمس التي انفصلت عنها الأرض إنفصالا أشار إليه القرآن في سورة الأنبياء بقوله : ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما .. ﴾ (٢) الآية ، فكان الله — سبحانه وتعالى — أنزل الحديد من الشمس مع الأرض ليتنفع به الإنسان في اختراعاته كما يتنفع به في دمه . وهاتان الآيتان الكريمتان كل منهما مثل عجيب من أمثلة الإعجاز العلمي للقرآن .

والحديد وغيره من العناصر يستخرج من خاماته بواسطة النار ، أو ما تتحول حرارتها إليه من طاقة كهربائية مثلاً . وإلى هذا الجانب أشار القرآن إشارة عجيبة في مغزاها ووضوحها ، وذلك في قوله من سورة الرعد ﴿ وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله .. ﴾ (٣) الآية .. وفي هذه الآية الكريمة إشارة أحاطت بفن التعدين الذي هو أساس كل اختراع ..

وليست هذه هي الإشارة الواحدة التي تشمل استعمال الإنسان النار في اختراعاته ، فهناك على الأقل اشارتان أخريان ، إحداها صريحة ، والأخرى ضمنية . أما الصريحة : ففي قصة السد وابتناء ذى القرنين إياه ﴿ أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ قد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠

(٣) سورة الرعد الآية ١٧

آتوني أفرغ عليه قطراً. فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴿١﴾ الكهف ، وفي هاتين الآيتين اشارة إلى جانب آخر من أهم جوانب التعدين من ناحية ، والاختراعات من ناحية أخرى ، فإن الحديد النقي ليس في قوة بعض سبائكته ، فأنواع الفولاذ كلها هي من سبيك الحديد مع قليل من الكربون أو غيره كالمجنيز . وفي الآية اشارة إلى باب السبائك كلها بذكر مثل منها مثل سبك الحديد والنحاس معاً ، إذا القطر هو النحاس .

اما الاشارة الأخرى الضمنية ففي قوله — تعالى — تذكيراً بنعمه على سيدنا داوود : ﴿ وألنا له الحديد . أن عمل سابغات وقدر في السرد ﴾ ﴿٢﴾ الآية وإذا كان الله — سبحانه — آلان الحديد لنبيه داوود معجزة بغير نار ، ففي الآية الكريمة تعليم ضمنى لغير داود أن يلين الحديد بالنار ، حتى يستطيع أن ينتفع به في اختراعاته المضروب لها هنا المثل بعمل الدروع السابقة ، والمضروب للتقدير الضروري فيها المثل بالتقدير في السرد الذي أمر الله به نبيه داوود ، وذكره في القرآن تعليماً وتنبهياً للإنسان إلى ما ينبغي عليه في كل اختراع . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً — عليه السلام — لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته وكذلك إبراهيم — عليه السلام — خليل الرحمن ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وجعلنا في ذريتهم النبوة والكتاب ﴾ ﴿٣﴾ ، ثم بين سبحانه أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضلال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان . كما حكى سبحانه عن إبراهيم : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ ﴿٤﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل ﴾ . أى : ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالى العصور والأيام . ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة

(١) سورة الكهف الآيات ٩٧

(٢) سورة سبأ الآيات ١٠ — ١١

(٣) سورة الحديد الآية ٢٦

(٤) سورة الصفات الآية ١١٣

شريعته في عصر التنزيل ولوجود أتباعه في جزيرة العرب وغيرها فقال ﴿ وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ أى : وأعطيناه الانجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء مكملًا لما في التوراة ومخففاً بعض أحكامها التى شرعت تغليظاً على بنى اسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رافة ﴾ أى : رقة وهى الخشية ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق .

وقوله تعالى : ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ قال ابن كثير : فيه قولان : ( احدهما ) انهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير وقادة . ( والآخر ) ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين :

( احدهما ) الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله .

( الثانى ) في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله — عز وجل — .

وقوله تعالى : ﴿ فآتيناهم آياتنا وآمنوا منهم فاسقون ﴾ أى : فآتيناهم آياتنا وآمنوا منهم إيماناً صحيحاً أجورهم التى استحقوها كفاء أعمالهم ، ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترخوا الشرور والآثام وظهر فسادهم في البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكذبوا في النار ، وباعوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ أى : يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وداوموا واثبتوا على الإيمان بالله ورسوله ﴿ يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أى : يعطيكم



ضعفين من رحمته ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ أى : ويجعل لكم نوراً تمشون به فى الدنيا ، والآخرة على الصراط ، ﴿ ويغفر لكم ﴾ أى : ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : عظيم المغفرة واسع الرحمة . كما قال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ (١) .

وكفوله تعالى : ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

قال ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : وفيه أن أهل النور هم أهل المشى فى الناس ، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع . فلا مشى لقلوبهم ، ولا لأحوالهم ، ولا لأقوالهم ، ولا لأقدامهم إلى الطاعات . وكذلك لا تمشى على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم .

وفى قوله : « تمشون به » نكتة بديعة ، وهى : « أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم ، كما يمشون بها بين الناس فى الدنيا ، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن يتقل قدماً عن قدم على الصراط ، فلا يستطيع المشى أحوج ما يكون إليه » أهـ .

وفى الصحيح عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى — ﷺ — خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نوراً واجعل فى بصرى نوراً ، واجعل من خلفى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، اللهم أعطنى نوراً » (٣) . وقوله تعالى : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٩

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقرعها » باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » ج ١ ص ٥٢٥ حديث رقم ١٨١ / ٧٦٣ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث مطولاً وهذا جزء منه . ولفظه « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وعظمى نوراً » . وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب « الدعاء إذا انتبه من الليل » ج ٨ ص ٨٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مطولاً وفيه .. « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوقى نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

روى الأمام احمد في مسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ — « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عملاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا لا ، قال فإنما هو فضلى أوتيته من أشياء <sup>(١)</sup> .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ﴾ أى : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ لا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد — ﷺ — إلى من يحبون . ﴿ يؤتيه من يشاء ﴾ ، وفي البخارى أن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول — وهو قائم على المنبر — : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيت القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيت قيراطين قيراطين . قال أهل التوراة : ربنا ، هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شيء قالوا : لا . فقال فذلك فضلى أوتيته من أشياء <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ أى : والله واسع الفضل كثير العطاء . كما قال سبحانه : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . ( من أدعية الرسول الكريم ﷺ صحيح مسلم )

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « مواقيت الصلاة وفضلها » باب من أدرك ركعة من العصر ج ١ ص ١٤٦

فقد ورد الحديث من رواية لسالم بن عبد الله عن أبيه مع اختلاف في بعض جملة وإن اتفقت معانيه .

(٣) سورة آل عمران الآيات : ٧٣ — ٧٤

## سورة المجادلة

قال صاحب البصائر : بصيرة في قد سمع .  
السورة مدنية بالاتفاق ، آياتها ثنتان وعشرون عند الجمهور ، واحد عشر عند المكيين ،  
وكلماتها أربع مائة وثلاث وسبعون . وحروفها ألف وسبع مائة واثنان وتسعون .  
وسميت سورة المجادلة ، لقوله — تعالى — : ﴿ تجادلك في زوجها ﴾ .

## معظم مقصود السورة

بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع في المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المناققين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، والحكم على بعض بالفلاح ، وعلى بعض بالخسران ، في قوله : ﴿ هم الخاسرون ﴾ ، ﴿ هم المفلحون ﴾ .

## المتشابهات

﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ وبعده : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ . لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم في الجاهلية الظهار ، فقيده بقوله : ﴿ منكم ﴾ ، وبقوله : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ ، ثم بين أحكام الظهار للناس عامة ، فعطف عليه فقال : ﴿ والذين يظاهرون ﴾ ، فجاء في كل آية ما اقتضاه معناه .  
قوله : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ ، وبعده : ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ ، لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذي هو جزاء الكافرين ، والثاني متصل بقوله : ﴿ كتبوا ﴾ وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال : ﴿ مهين ﴾ .  
قوله : ﴿ جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ بالغاء ، لما فيه من التعقيب ، أى : فبئس المصير ما صاروا إليه وهو جهنم .  
قوله : ﴿ من الله شيئاً أولئك ﴾ بغير الواو ، موافقة للجمل التي قبلها ، وموافقة لقوله : ﴿ أولئك حزب الله ﴾ .

## وجه اتصالها بما قبلها

( ١ ) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الواوى .  
( ٢ ) أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن ، وذكر في مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه — تعالى — .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَخَاوِرُكُمْ إِنَّا اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا النَّسَبُ وَلَدَنَّهُمْ وَلَئِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِيُتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝

## معاني المفردات

﴿ سَمِعَ ﴾ أى : أجاب وقبل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده ، ﴿ التى تجادلک فی زوجها ﴾ هى خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى : تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ أى : تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، ﴿ يسمع ﴾ السمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله — تعالى — لنفسه . ﴿ تخاوركما ﴾ التخاور : المراءاة فى الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال : كلمته فما رجع إلى حواراً : أى : ما رد على بشيء ، ﴿ يظاهرون ﴾ الظهار : لغة من ظاهر ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال : ظاهر فلان فلاناً : أى نصره . وظاهر بين ثوبين : أى : لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أى : قال لها : أنت على كظهر أمى ، أى : محرمة ، وقد كان هذا أشد طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية : ﴿ إن أمهاتهم إلا اللاتى ولدنهم ﴾ : أى : ما أمهاتهم ﴿ منكراً ﴾ والمنكر : ما ينكره الشرع والعقل والطبع ، ﴿ زوراً ﴾ أى : كذباً ، ﴿ فتحريرو رقبة ﴾ أى : عتق عبد أو جارية ، ﴿ أن يتماسا ﴾ أى : أن يجتمعا اجتماع الأزواج ، ﴿ متتابعين ﴾ أى : متوالين ، ﴿ فمن لم يستطع ﴾ أى : من لم يقدر على ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، ﴿ حدود الله ﴾ أى : أحكام شريعته ، ﴿ وللكافرين ﴾ أى : وللذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

## سبب النزول وإجمال المعنى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت في خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت . ومن حديث ذلك : أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال لها : أنت على كظهر أُمى [ وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه ] ، وكان هذا أول ظهار في الاسلام ، فندم لساعته ، فدعاها [ طلب ملامستها ] فأبت ، وقالت : والذي نفسى بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأنت الرسول — ﷺ — فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلاسنى ، ونثرت بطنى ( كثر ولدى ) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة تتعشنى بها وإياه فحدثنى بها ، فقال — عليه الصلاة والسلام — والله ما أمرت فى شأنك بشيء حتى الآن ، وفى رواية : ما أراك إلا قد حرمت ، قالت : ما ذكر طلاقاً ، وجادلت رسول الله — ﷺ — مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدنى وما يشق على من فراقه ، وفى رواية أنها قالت : أشكو إلى الله فاقضى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغيراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم لى جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال رسول الله — ﷺ — : يا خولة أبشرى ، قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله ﴾ الآيات (١) .

روى البخارى فى تاريخه : أنها استوقفت عمر يوماً فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت كالיום ، فقال — رضى الله عنه — : وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى أستمع الله لها ، فأنزل فيها ما أنزل . ( قد سمع الله ) الآيات .  
والشارع اعتبر الظهار يمينا ، وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى :

- ( ١ ) تحرير رقبة ( عتق عبد أو جارية ) .
- ( ٢ ) صيام شهرين متوالين إن لم يجد ما يعتقه .
- ( ٣ ) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم لكبر أو مرض لا يرجى زواله ، لكل مسكين نصف صاع من بر ( رطل وثلاث ) أو صاع من تمر أو شعير .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . تفسير سورة المجادلة فقد وردت فيها روايات متعددة فى أسباب النزول .

روى الامام أحمد — رضى الله عنه — بسنده عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبی ﷺ — تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله — عز وجل — ﴿ قد سمع الله قول الذى تجادلک فى زوجها ﴾<sup>(١)</sup> إلى آخر الآية .

وفى رواية لابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : تبارک الذى أوعى سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله : أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع بطنى ظاهر منى ، اللهم إني أشكو إليك قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ قد سمع الله قول الذى تجادلک فى زوجها ﴾ . قالت وزوجها أوس بن الصامت<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن لہية : عن أبى الأسود : عن عروة : عن أوس بن الصامت وكان أوس امرأة به لم ، فكان إذا أخذه لمة واشتد به يظاهر من امرأته وإذا ذهب لم يقل شيئاً ، فأتت رسول الله ﷺ — تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول الذى تجادلک فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

روى الامام أحمد بسنده عن خولة بنت ثعلبة قالت : فنى والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يوماً فراجعت به بشيء فغضب . فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل على فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فوائبنى فامتنعت منه . فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جارائى فاستعرت منها ثياباً ثم

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٦٧ حديث رقم ١٨٨ عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبی ﷺ — وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله : ﴿ قد سمع الله قول الذى تجادلک فى زوجها .. ﴾ وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب « الظهار » ج ١ ص ٦٦٦ فقد ورد الحديث رقم ٢٠٦٣ عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارک الذى وسع سمعه كل شيء ، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، دنثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إني أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات : ﴿ قد سمع الله قول الذى تجادلک فى زوجها ﴾ .

خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ — فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت فجعل رسول الله ﷺ — يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » قالت : فو الله ما برحت حتى نزل في قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ — ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لي : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآناً — ثم قرأ علي — ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ قالت : فقال لي رسول الله ﷺ — : « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قال : فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام فقال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر » قالت : فقلت والله يا رسول الله ماذا عنده . قالت : فقال رسول الله ﷺ — : « فإنا سنعيه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعيه بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسن فتصديق به عنه ثم استوصى بأبن عمك خيراً » قالت : ففعلت<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار : مشتق من الظهر وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي . ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيها كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت علي كظهر أمي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحتها ابنة عم له . يقال لها : خولة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط في يديه . وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله ﷺ — فأنت رسول الله ﷺ — فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة ما أمرنا في أمرك بشيء ، فأنزل الله على رسول الله ﷺ — فقال : « يا خويلة أبشري » قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ — إلى قوله تعالى — ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا والله ما يجد رقبة غيري فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ . قالت : من أين ما هي إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . وهذا إسناد جيد قوي<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن خولة بنت ثعلبة .

(٢) انظر سنن البيهقي « كتاب الظهار » ج ٧ ص ٣٧٢ باب سبب نزول آية الظهار فقد ورد الحديث عن رواية لابن عباس .

وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ظهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » قال رأيت خلخالها في ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله — عز وجل — وقال الترمذى حسن غريب صحيح .

قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتأسا فهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفي كفارة القتل مقيدة بالإيمان . فحمل الشافعى — رحمه الله — ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد في ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمي في قصة الجارية السوداء وأن رسول الله — ﷺ — قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » وقد رواه أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه . وقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس قال : أتى رجل رسول الله — ﷺ — فقال : إني ظهرت من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله — ﷺ — : « ألم يقل الله — تعالى — ﴿ من قبل أن يتأسا ﴾ قال : أعجبتنى . قال : « أمسك حتى تكفر » .

قوله تعالى : ﴿ ذلكم توعدون به ﴾ أى : تزجرون به ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أى : خير بما يصلحكم عليم بأحوالكم . فهو — سبحانه — يريد بكم أن تسلكوا طريق الهدى والرشاد ، والعفاف والسداد ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم .

### الإسلام محرر العبيد

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب ، وأنت تقرأ قوله — عز وجل — : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ﴾ بعد قوله — تعالى — : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ﴾ فما سر التعبير بقوله — جل شأنه — : ﴿ فمن لم يجد ولماذا لم يقل : ﴿ فمن لم يستطع ﴾ كما قال في شأن الصيام . ذلك الأمر . لحكمة بالغة لا يدركها إلا ذوو الأبواب الباصرة ، وأولو الأفئدة المستنيرة فإن الله — سبحانه وتعالى — يعلم أنه سيأتى اليوم الذى يحرر الاسلام فيه العبيد بحيث لا يجد من أراد الكفارة عبداً يعتقه ، أو أمة يطلق سراحها . وقد تحقق العلم الإلهى القديم المحيط الشامل فحرر الإسلام العبيد ، وأعطى لكل إنسان حقه في الحرية والعزة والكرامة .

﴿ لقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ (١) .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعد له .. فما أشد حاجة البشرية إليه ، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل



من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير . والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الاسلام ، فجعلوا من مسألة « الرق » ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن في الإسلام والنيل منه ، بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا في الإسلام مغزماً لطاعن أو طعنة لغامز ، ولو تدبر هؤلاء مسألة « الرق » لوجدوا أنها كانت من القضايا التي يعود الفضل كله للإسلام في حلها ، بل هي مفخرة من مفاخر الاسلام .

يقول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد — رحمه الله — في كتابه ( ما يقال عن الاسلام ) : مسألة الرق في الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شيء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون ، لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء : أولاهما — نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الانسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه في مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسلام في إنصافه لجميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التي يتفق عليها الماديون والمبشرون — فهي غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام في هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياساً على نجاح الاسلام بين الأفريقيين في الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التي يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التي يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون — غاية الجهد — لنشر دعوتهم إغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم في الوطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول في مسألة « النخاسة » ، وتلفيق الأكاذيب التي توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا « النخاسة » قديماً وحديثاً وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم أن تاريخ النخاسة أنها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية ، تعتمد على سمارتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا في مدارس المبشرين .

أما الحقيقة التي تقابل هذه الدعاية المسموحة وينبغى أن تقابلها في ميادينها الواسعة فهي واضحة ، قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلماً كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعي الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفي صناعة التبشير .

إن الأديان جميعاً — قبل الإسلام — أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ، ومسخرهم في خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . وجاء الإسلام فشرع العتق ، و لم يشرع الرق : وقد ندب المسلمين إلى فك الأسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

وقال ابن لية حدثني عطاء : عن سعيد بن جبير : ( ثم يعودون لما قالوا ) يعنى يريدون أن يعودوا في الجماع الذى حرموه على أنفسهم ، وقال الحسن بن البصرى : يعنى الغشيان في الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : ﴿ من قبل أن يتامسا ﴾ والمس : النكاح ، وكذا قال عطاء والزهرى وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الزهرى ليس له أن يقبلها ولا يمسه حتى يكفر .

قال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل في الظهار الكفارة . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل في هذه الآية بقوله منكم ، فالخطاب للمؤمنين . وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ من نسائهم ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل في هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : أنت على كأمى ، أو مثل أمى ، أو كظهر أمى ، وأما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التى ولدته ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً . ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أى : عما كان منكم في حال الجاهلية — وهكذا — أيضاً — عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه أبو داود أن رسول الله ﷺ — سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختى ، فقال : « أختك هي ؟ » <sup>(١)</sup> فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ولو قصده لحرمته عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ اختلف السلف والأئمة في المراد بقوله تعالى : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعى : هو أن يمسه بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه : أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الطلاق » باب في الرجل يقول لامرأته : يا أختى ج ٢ ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ فقد ورد الحديث

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإِسار لغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث في يمينه ، ومن يظهر من زوجه ، ومن يؤدي الزكاة في مصارفها ، ومنها : فدية الرقاب .. ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدول الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » .

فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاماً تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المتقاتلين ؟ .

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تفهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعاً أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان ؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه — قبل أربعة عشر قرناً — هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه : فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها . فالاسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوفيرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدي الأرقاء ولا تنفق عليها أجوراً ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية ، يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ، يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سياق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى — بعد طول التعثر والمجال — لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال — قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأجير والاستغلال .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق — من جانب الواقع التاريخى — هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية — حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين — فإن الأرقاء من الزنوج لم يزدوا فى البلاد الاسلامية — بعد ثلاثة عشر قرناً — على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض .. هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد هذا الفارق في العدد : فارق المعاملة التي لقيها الأرقاء في البلاد الإسلامية ، والمعاملة التي لقيها إخوانهم في الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة في النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاماً من الأسود الذي يرفع هذه الحواجز بينه وبين ساداته « البيض » . ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التي تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثل وحضارة تصلح لها وتخطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التي يحارب بها الإسلام .. فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟! وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلي للدعاية المفرضة التي يشنها سماسة المادة والتبشير . وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام إنما هي في الحقيقة مفخرة عظيمة للحل السليم الذي عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق في هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبدها بحكمة معروفة فيه .. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجرائم دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « فى الدين والأخلاق والقومية » ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا قمة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشيء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون عن أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟!

وإن تعجب لشيء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالاسلام وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده وأنهم هم الذين أفسوه ، ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاعتصاب ! وانهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد ، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام : لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب ، في اليونان ، وفي الرومان ، وفي غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه ، وكان السارق الذي يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصادقه في قصة يوسف — عليه السلام — :

﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾<sup>(١)</sup> ، وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيع له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فككها منه أبد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرم البشرية محمد — ﷺ — خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد — صلوات الله وسلامه عليه — حين جاء بالاسلام ؟ انه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة الزممة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق في تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج . كان الرق وباءً يتساقط فيه الناس تساقط الفراش في النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبي الإسلام محمد — ﷺ — لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ! إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى

ويعمى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً في ظلال الإسلام فيقول:

فأما النطاق الذى ضربه الاسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواق الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف ، ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ، ولا القتل ، لم يعد شئ من ذلك كله . منذ ظهر الإسلام — يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الإسلام بتحسين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل انه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء ، إلا فى حالة الاضطراب وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام — قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل — أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء ، غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام — وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة لإنشاء رق جديد — قد ترك — إلى جانب هذه الأبواب — منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين — في هذا الحال — أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ، ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس في هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواء في المشروعية .

فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثر لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببذل أو بغير بدل : ﴿ فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ إِيمَانِهِ ظَلَمَ لِنَفْسِهِ أَفَأَمَّا الْإِنْسَانُ لِرَبِّهِ خَفِيحٌ بِذُنُوبِهِ أَفَرَأَى إِنْ لَمْ يَرُدَّهُ شِقَاقُ رَبِّهِ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامِ أَعْقَابٌ ﴾

فداء ﴿١﴾ ، كما أن سنة الرسول الرحيم — ﷺ — لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا في حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف في لغة العصر باسم : عقوبة ( مجرمي الحرب ) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له في زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً في عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الاسلامي ، ولا في نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله في نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة ، اتقاء لخطره ، وكسراً لشوكة وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي ، وإنما يتخذه إجراءً مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه ويلج في المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التي أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحتها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب ، كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم بمختلف الوسائل ، قال تعالى :

﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة ﴾ (٢) .

(١) سورة محمد من الآية ٤

(٢) سورة البلد الآيات ١١ — ١٣



وقال عليه الصلاة والسلام :

( من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار .<sup>(١)</sup> )

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة .. إذ جعل فيها سهماً مكرراً في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح « قانون الكفارات » وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث في اليمين ، والفطر في رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة » التي تقع من السيد في حق العبد نفسه .. وفي هذا يقول رسول الرحمة — صلوات الله وسلامه عليه — : ( من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه )<sup>(٢)</sup> .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح ، أو تشويه الجسم ، فإن حكمه — عند أكثر الأئمة — أن يصير العبد حراً بمجرد اصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الاسلامي الرحيم : لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين ، ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، انهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة في فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتبوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات .. ذلك أنه أوجب على المخدمين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخدمتهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم .

(١) انظر صحيح مسلم كتاب « العتق » باب « فضل العتق » ج ٢ ص ١١٤٧ حديث رقم ٢٢ / ١٥٠٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة وزاد في آخره .. « حتى فرجه بفرجه » .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الايمان » باب « صحبة المالك وكفارة من لطم عبده » ج ٣ ص ١٢٧٨ حديث رقم ٢٩ / ١٦٥٧ عن زاذان أبي عمر قال : أئنت ابن عمر ، وقد أعتق مملوكا قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً ، فقال : ما فيه من الأجر ما يسوى هذا ، إلا أني سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « عن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين :

« إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »<sup>(١)</sup> .

صدقت يا نبي الرحمة — صلوات ربي وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ — منع لإنشائه ، وابتدائه .

٢ — عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ — عطف سابغ عليه في أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معي :

أما والله لعبد في ظل الإسلام ، خير من كثير من الأحرار في كل نظام . وهكذا ينتهي هذا المقال الرائع الذي وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التي يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .. وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو في كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متهدداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية ، وإحاطتها بالكرامة ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء .

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين في الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد .. ﴿ إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد ﴾ ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب ما ينهى عن السباب واللعن ج ٤ ص ٥٨ فقد ورد الحديث من رواية طويلة لأبي ذر .. إلى أن قال رسول الله — ﷺ — هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « الإحسان إلى المالك » ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٦٩٠ عن أبي ذر بلفظ : قال رسول الله — ﷺ — « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » ..

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣

وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى .. فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتميز المصطنع .. وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — عن طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب ، والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

## المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟

التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية حتى لا يمكن أبداً أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه .

والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنساناً ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة ، والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق — تبارك وتعالى — أن يمتد بقاءه فيحقق ما يصبوا إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟!

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق  
شخص وأشكال تمر وتنقضى فتفى جميعاً والمهمين باق

الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبي الكريم — صلوات ربي وسلامه عليه — يعلن فى

خطبته الجامعة : ( أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم )<sup>(١)</sup> .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

أخا الإسلام :

لا تركزن إلى القصور الفاخرة      واذكر عظامك حين تمسى ناخرة  
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل      يارب إن العيش عيش الآخرة

إن المساواة في الإسلام تدعو إليها الفطرة العامة ، ويقضى بها المصير المشترك ، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية ، قامت في الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعاً إلى عبادة الرب الواحد ، رب العالمين ، وهذه المساواة في الإنسانية : تستلزم المساواة في الحقوق .. فالناس جميعاً أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع .

فالحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه ، والناس — مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم — أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لخلق على طمع      فإن ذلك نقص منك في الدين  
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة      إلا بإذن الذي سواك من طين  
فلا تصاحب غنياً تستعز به      وكن عفيفاً ، وعظم حرمة الدين  
واسترزق الله مما في خزائنه      فإن رزقك بين الكاف والنون  
واستغن بالله عن دنيا الملوك      كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة ، يا من قلت : ﴿ ولقد كرمتنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣

(٣) سورة الاسراء الآية ٧٠

## العدالة في الإسلام

والعدل في الإسلام عدل مطلق ، يستوى فيه الأصدقاء والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله — جل شأنه — : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وأنت ترى رسول الله — ﷺ — يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. إنها غضبة مضرية .

وإذا غضبت فإنما هي غضبة للحق : لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى أسامة بن زيد ، الحب بن الحب ، يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل — كانت قد سرت — ويقول له غاضباً معنفاً : « أتشفع في حد من حدود الله » ثم يخطب في الناس قائلاً :

« إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَأَيُّمَ اللَّهِ : لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ : لَقَطَعْتُ يَدَهَا » <sup>(٢)</sup> .

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن في سمع الزمان هذا المبدأ الخالد ، بعد ما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — فيقول :

« أَيُّهَا النَّاسُ : الضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوًى حَتَّىٰ آخِذَ الْحَقِّ لَهُ ، وَالْقَوًى فِيكُمْ ضَعِيفٌ حَتَّىٰ آخِذَ الْحَقِّ مِنْهُ » .

ويقول في رسالة له لأبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — في أمر القضاء . ﴿ آسَ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَعَدْلُكَ وَمَجْلِسُكَ ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَبْأَسُ ضَعِيفٌ مِنْ عَدْلِكَ » .  
وها هو ذا « ضرار الصدائى » يصف أمير المؤمنين علياً — كرم الله وجهه — وما اتصف به من العدالة والانصاف للرعية فيقول :

(١) سورة المائدة الآية ٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الحدود » باب « قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة في الحدود » ج ٣ ص ١٣١٥

فقد ورد الحديثان ٨ — ٩ / ١٦٨٨ عن عائشة في هذا .

« كان فينا كأحدنا ، يميننا إذا سألناه ، ويميننا إذا استبأناه ، ونحن مع تقريه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظم أهل الدين ويحب المساكين .. لا يطمع القوى في باطله ، ولا يئأس الضعيف من عدله .. كان — والله — غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه » .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامي المشرف الذي وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية ، وقد قال له كلمته الخالدة : يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

أبعد هذا التكريم للبشرية ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التي تقول أن الرق في الاسلام يعتبر تهمة توجه ضده ، وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئاً ، بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانی عطفه ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

هذا الإسلام ، هو الذي كانت عدالته مضرب الأمثال في معاملة البشر ، مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر في هذا المجال ، ماجرى بين علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب ، وقد تحاكم الأول امام عمر ، وكان الخصم يهودياً ، وكان عمر — كعادته — ينادى علياً قائلاً : يا أبا الحسن ، فلما ناداه في هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ، ظهر الغضب على وجه علي ، فظن عمر أن علياً يتبرم من وقوفه مع اليهودي على قدم المساواة ، وعلى هو من تعلم : حسباً ونسباً ، وإيماناً ، وصدقاً .. قال عمر لعلي : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً ؟ فقال علي — رضى الله عنه — : إنما غضبت لأنك لم تسويني وبين خصمي اليهودي ، إذ ناديته باسمه ، وناديتني بكنيتي !

أرأيت أن هذه المساواة في الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف في ساحة القضاء مع خصم يهودي ، يأبى عليه دينه أن يترك لفظاً تشم منه رائحة التعظيم

له فيغضب ، ويعد هذا تمييزاً في موطن القضاء .. وما كان النداء من عمر الانداء قد اعتاده ، ولكن لم يستطبه منه في هذا الموطن ( موطن القضاء ، ورد الحقوق ) .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الاسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ، وبين ما يدور في العالم من شروخ التفرقة العنصرية في أعظم الأمم حضارة في عصرنا هذا ؟

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التي وضعها العبد ، وسولت له نفسه الامارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

شتان ، ثم شتان ، بين عدل الخالق وظلم المخلوق .

وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١) .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهي ، والعدل الرباني .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك في العالم الحر : من تفرق بين الأسود والأبيض ، وتجعل للبيض حقوقاً لا يناهاها مواطنوهم السود !

وما أمر هذه التفرقة في أمريكا وجنوب افريقيا وغيرها من دول العالم ، بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان .

## محمد الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ، ولا يمارى في مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرْ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ (٢) .

(١) سورة النساء الآية ١٣٥

(٢) سورة الجاثية الآية ٨

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الاسلام وجماله .  
أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف ، وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم أن يقولوا إن محمداً هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذاناً بأنه محرر العبيد .. فقد كانت أول رضعة ، وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه « أبى لُب » تسمى « ثوية » .. وكان من حسن الطالع وبشير اليمين : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أباً لُب بمولد السيد الجليل محمد — ﷺ — : فرح بهذا الخبر فرحاً عظيماً ، وكانت مكافأته : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذاناً وإعلاماً بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى .. انها السيدة الجليلة « بركة الحبشية » المكنية « بأم أيمن » :

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله — ﷺ — وقال لها سيدنا محمد — ﷺ — بعد موت أمه : أنت أُمى بعد أُمى .. وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة — رضى الله عنها — فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبي — ﷺ — من النساء ، وأقامت « أم أيمن » بمكة تحتل أذى المشركين ، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع ، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش !

أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال . ومما حضرته من الغزوات : غزوة أحد ، وخيبر ، وكاننا من أهم غزوات النبي — ﷺ — .

هذا بالاضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظاً فى الشهداء من رجالهن .. فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن ، الذى مات شهيداً يوم « حنين » ، وبعد موت « عبيد » : تزوجت بزيد بن جارثة وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقدمات « زيد » شهيداً فى « مؤتة » ، فصبرت على فقد زوجها « زيد » وابنها أيمن وكان أسامة غلاماً ، فعكفت على رعايته والعناية به ، حتى جعلت منه رجلاً



يقود جيشاً ، فيه من الأبطال مثل أبي بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبي ﷺ — ولم يكن أسامة قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبي ﷺ — كانت أم أيمن تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكائها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن ، كما كان رسول الله ﷺ — يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ، فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحي السماء قد انقطع فهيجهما على البكاء ، فجعلت تبكي ويكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التي تبكى انقطاع الوحي ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهي لا ترى إلا السعادة الروحية التي تصل بيننا وبين الملا الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت أم أيمن بعد عشرين يوماً من خلافة عثمان — رضى الله عنه — سنة ٦٤٣ م . أرايت إلى هذا الجلال وتلك العظمة في هذه السيدة التي كانت مملوكة للرسول ﷺ — فامتدت يداها الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التي تكلم الخليفة أبا بكر ، ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحي بعد رسول الله ﷺ — ؟

إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن محمداً ﷺ — جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

## زيد بن حارثة

حب رسول الله ﷺ — الذى قال في شأنه : « أنت مولاي ومنى وأحب القوم إلى »<sup>(١)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى باب فضائل الصحابة ج ٢ ص ٣٠٣ باب مناقب زيد بن حارثة فقد ورد عن البراء عن النبي ﷺ — قوله في هذا المعنى : « أنت أخونا ومولانا » .

## نشأته وشأنه ومكانته في الإسلام :

خرجت أمه « سعدى بنت ثعلبة » معه تزور قومها « بنى معن » فأغارت خيل لبنى القيس ابن جسر ، فمروا على أبيات « بنى معن » فاحتملوا زيداً — وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً — ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل ، فحج قوم من « كلب » ، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكي « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيداً » فعرفهم ، وعرفوه ، وأقبل عليهم ، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم « حكيم بن حزام بن خويلد لعتمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم : فلما تزوجها شريف — قريش : محمد ابن عبد الله — ﷺ ، وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبي — ﷺ — فدخلوا عليه وقالوا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العاني وتطعمون الأسير .. جئنا في ابنتنا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا في فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء . فقال لهم الرسول — ﷺ — : « دعوه فخيروه ، فإن إختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن إختارني ، فو الله ما أنا بالذي أختار على من إختارني » .

فدعاه النبي — ﷺ — وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال من هما ؟

قال زيد : هذا أبى وهذا عمى ، فقال رسول الله — ﷺ — : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فإخترنى أو إخترها (١) .

فقال زيد : ما أنا بالذي أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ !

قال زيد : نعم ! إني قد رأيت من الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً .

(١) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

فلما رأى رسول الله ﷺ — ذلك اخرج به إلى الحجر ، وقال : « يا من حضر ، إشهدوا أن زيدا ابني : أرثه ويرثني » (١) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت أنفسهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء .

ولم يفارق النبي — صلوات الله وسلامه عليه — لحظة ، فأحبه النبي حباً شديداً .  
وأذن النبي — ﷺ — في الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل في المدينة على سعد بن خيثمة .  
ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد أخوين في الله . ثم آخى النبي الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدماء وأحدأ ، واستخلفه الرسول — ﷺ — على المدينة عندما خرج إلى « المريسيع » ، وشهد الخندق والحديبية وحينئذ .

وخرج زيد أميراً في سبع سرايا : أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد « فرات بن حيان العجلي » .

وقدم بالعير على النبي — ﷺ — ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .  
قالت أم المؤمنين عائشة — رضي الله عنها — : « ما بعث رسول الله زيد بن حارثة في جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقي بعده لاستخلفه » .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلاً : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر : فعبد الله بن رواحه » (٢) .

(١) انظر تفسير القرطبي « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١١٨ فقد ورد الحديث بلفظ « يا معشر قريش اشهدوا أنه النبي يرثني وأرثه » . وفي ص ١٩٣ ورد الحديث بلفظ : « اشهدوا أني وارث وموروث » . وانظر من الغاية ج ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .  
(٢) انظر صحيح البخاري كتاب « المغازي » باب « غزوة مؤتة ج ٣ ص ٥٨ » فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمر قال : أمر رسول الله — ﷺ — في غزوة مؤتة زيد بن حارثة فقال رسول الله — ﷺ — : « إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحه .. الخ » .

وتحرك الجيش الإسلامي بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » .

أليس في هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشاً فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد ابن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « أسامة » الحملة بعد وفاة الرسول — ﷺ — ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس ، وطهر القلوب .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما لك شرعة قدسية غراء  
والمسلمون جميعهم جسد ، إذا عضو شكى ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤتة » ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلاً .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدونها ؟ وتناولته السيوف بالطنن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله — ﷺ — وأخيراً استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة :

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، حيث قال : « زيد ابنى » ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى — ﷺ — يقول : « استغفروا لزيد ، لقد دخل الجنة وهو يسعى » ،

ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبي ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عباد : يا رسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول — ﷺ — : ( يا سعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب ) .

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ، يا من أثنى عليك رسول الله خيراً ، ويا من أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق ، يا من ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيته شهيداً ، وعشت في دار الكرامة في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

﴿ ولا تحسن الذين قتلوا في سبيل الله أموالاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون <sup>(١)</sup> .

## بلال بن رباح مؤذن الرسول وكفى بالأذان شرفاً

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، وبملاؤها القلوب عزة وكرامة ؟

كان بلال عبداً مملوكاً لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ولا تؤثر فيه الرياح القواصف .. كان كلما اشتد عليه الأذى وتضاعف أمامه الكروب : ازداد إيماناً على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف انه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ولا عجب : فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان حديد الوجه حديد القلب .. لو وزعت قسوة قلبه على الناس ، ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد .

أجل يا بلال ! ان الله واحد فى ذاته لا شريك له ، واحد فى صفاته لا نظير له .. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر ، إنه رب عزيز قادر ، له الجبين قد سجد ويردد بلال هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ، ويشطاط عكوه الله غضباً فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله ، عذب ماشئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئاً ؟!

الله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجاً ، وقد تقدم الصديق — رضى الله عنه — فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله — ﷺ — . عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله — ﷺ — إنك أندى صوتاً . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشربأت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا ليؤذن ، فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (١) .

### سرعة بديته — رضى الله عنه — :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديتهك وحضور حجتك وعندما سألك سائل فقال لك يا بلال : ابن من أنت ؟ فقلت له — على الفور أنا ابن الذى اسجد الله له الملائكة صدقت يا بلال فرسول الله يؤيدك كل التأيد اذ يقول : ( كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى ) .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى — ﷺ — لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يا ابن السوداء فلما بلغ رسول الله — ﷺ — ذلك : امتلاً غضباً وقال فى حدة وشدة : ( يا أبا ذر : أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية ) ، وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام يتاراه ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يا بلال : طأ على خدى بقدميك !

انه الأدب والخلق الذى ترى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم .  
دعابة لطيفة :

لقد كان رسول الله — ﷺ — إذا رأى هؤلاء النفر الذين انعم الله عليهم بنعمة الاسلام والعق : ييش لهم ويتسم .

سأل رسول الله — ﷺ — بلال ذات يوم — وكان يوم الأضحى — بم ضحيت يا بلال ؟ فقال : يا رسول الله لم أجد الا « ديكا » فضحيت به ، فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة : « مؤذن ضحى بمؤذن » وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول الا حقا .

فرحمك الله يا بلال يا من رفعت إلى مكانة فى الاسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلاً عظيماً وأجرأ كريماً .

## سلمان الفارسي

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناده رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس ، يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائماً على شأن النار يغذيها بالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف .. ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات .. هل يليق بالإله أن يكون محتاجاً إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفئ هذه النار . وأخيراً ، ولى هارباً ، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة .. ونزل على أحد الرهبان ، فدلّه الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء .. وولى سلمان وجهه شطر المدينة ، فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين يثير ادعى أنه اشتراه ، فصار « سلمان » عبداً مملوكاً لذلك اليهودى يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول — ﷺ — إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها

الراهب ، الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى — ﷺ — لا يقبل الصدقة ، ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان ، فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حراً ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه ، فقال رسول الله — ﷺ — لهم : « سلمان منا آل البيت »<sup>(١)</sup> .

وكان لسلمان موقفه التاريخى المجيد يوم ( الخندق ) عندما اذهمت الخطوب ، واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة ، استشار الرسول أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا رأى قبولاً مطلقاً فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق ، وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى لسلمان هذا الموقف الاسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الاسلام .. قال له سائل : يا سلمان ، من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الاسلام ، ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين عمر بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الاسلام .  
أجل يا سلمان

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب  
فقد رفع الاسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان سلمان رجلاً مجداً فى حياته ، لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتي بـ « خوص » النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها ، ويقسم الربح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة .

وقد صدق فيه قول رسول الله — ﷺ — : « إن الله يرضى لرضا سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها » .

رحمك الله يا سلمان ، وجزاك عن الاسلام خيراً ، يا من قال عنك الرسول — ﷺ — :  
« سلمان منا ، آل البيت » .

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١ « عن أخبار سلمان ووفاته » حديث رقم ٦٠٤٠ من رواية لكثير بن عبد الله المزنى . قال فى الجمع ج ٦ ص ١٣٠ : فيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور ، وحسنه الترمذى حديثه . وانظر تفسير القرطبي « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه .



هينئاً لك ، ثم هينئاً لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه .

### وخلاصة القول :

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الاسلام سادة وقادة .

لقد حاول الملاء من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ﷺ — عن هؤلاء المستضعفين وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك ، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد هوان عليها صداً الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الاسلام على افتراءهم ؟

لقد مروا برسول الله ﷺ — ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه هؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه ، لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ (١) ، وقال أيضاً : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ (٢) . بل لقد كرمهم القرآن تكريماً دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ (٣) .

وكان السيد الجليل رسول الله ﷺ — إذا لقيهم يقول : « مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً » .

(١) سورة الكهف الآية ٢٨

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢

(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤

## الصيام

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعِينَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَاسَا ۖ ﴾ .  
وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى نوع آخر من الكفارات وهو صيام شهرين متتابعين . وهنا لا بد لنا أن نعلم أن كفارة الظهار في الصيام مثل كفارة من جامع زوجته في نهار رمضان ومثل كفارة القتل الخطأ والتي قال الله فيها : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَابِعِينَ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۖ ﴾ <sup>(١)</sup> .

أما كفارة اليمين المنعقدة فقد قال فيها الله — تعالى — : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ومن ثم ، فإننا نرى أن نبسط القول عن الصيام وأقسامه حتى نعطي صورة واضحة تنفع المسلم . فنقول وبالله التوفيق .

ما من شك في أن الصيام طيب للأبدان ، ولقد عجبت لسائل قال للإمام الباقلاني صاحب إعجاز القرآن قال له السائل : إن كتابكم خلا من الطب ، فقال له الامام على الفور : بل إن كتابنا جمع الطب في نصف آية . قال : اقرأها ، قال الامام : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> . فُبَهِتَ الذي كفر .

والناظر في كتاب الله — تعالى — يجده قد احتوى على الطب النفساني . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

كذلك احتوى على الطب الاجتماعي . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

واحتوى على الصحة الوقائية . قال جل شأنه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيةُ وَالنَّطِيجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ .. ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(٥) سورة الروم الآية ٢١

(٣) سورة الأعراف الآية ٣١

(١) سورة النساء الآية ٩٢

(٦) سورة المائدة الآية ٣

(٤) سورة الزمر الآية ٥٣

(٢) سورة المائدة الآية ٨٩

واحتوى كذلك على الصحة الغذائية ، قال جل شأنه : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾<sup>(١)</sup> . هذا هو القرآن في كماله وجماله وبهائه .

أما عن الصيام وماله من روعة وجلال ، فإنه أستاذ في بناء النفوس على الخلق الكريم ، ولن نجح هنا في سباحات الخيال وآفاقه الشاسعة ، إنما تكفينا كلمة واحدة عقب بها المولى — تبارك اسمه — على الصيام وهي « لعلكم تتقون » بعدما قال سبحانه : ﴿ يأيا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾<sup>(٢)</sup> ، وكلمة لعل تفيد الترجى ، وهو توقع حدوث الأمر المحبوب ، ولكن الترجى الذى يفيد التوقع لا يليق بذات الله لأن التوقع يفيد الجهل ، بالمستقبل والله — جل شأنه — علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . إذن فلا بد أن يكون المعنى هنا غير الترجى ، وعلى هذا فإنها — أى لعل — تفيد العلة والحكمة والغاية والهدف ، أى كتبنا عليكم الصيام لتتقوا . فما هى التقوى ؟ وأين مكانها ؟ يجيب على هذا السؤال الامام على — رضى الله عنه — فيقول :

التقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .  
أما مكانها ، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « التقوى ها هنا — مشيراً إلى صدره الشريف »<sup>(٣)</sup> إذن فهناك مناسبة كبرى وطيدة بين الصيام والإيمان والتقوى ، فالإيمان تصديق بالقلب . قال - بعض السلف - : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما قرى القلب وصدقه العمل » ، وتقول آيات الكتاب العزيز : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾<sup>(٤)</sup> ، ، ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾<sup>(٥)</sup> .

والصيام عبادة سرية لا يطلع عليها الاعلام الغيوب . فقد تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من الماء ما شئت ثم تخرج على الناس في نهار رمضان تشكو شدة الظمأ ولوعة الجوع ، وأنت لا تدري أن الله مطلع على ما تقول :

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم .. » الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ . عن أبى هريرة من حديث طويل جاء فيه : « التقوى ههنا » .

(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٥) سورة النحل الآية ١٠٦

الله يدري كل ما تضرر يعلم ما تخفى وما تظهر  
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

نعم الصيام عبادة سرية لذلك نسبها الله إليه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به » (١).

فإذا كان الإيمان محله القلب ، وإذا كان الصيام عبادة سرية ، وإذا كانت التقوى محلها القلب ، فإن القضايا التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة كلها سرية لا يعلمها ولا يطلع عليها إلا الله . ومن ثم كان الصيام وسط بين الإيمان والتقوى ، لأن الإيمان يؤدى إلى الطاعة ، والطاعة تؤدى إلى التقوى . فهذا تسلسل منطقى قرآنى رائع ، إذ القرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، وعندما لا يؤدى الصيام إلى التقوى ، يكون هذا خداع عجيب :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري فى القياس بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

لقد كان تركيز الاسلام دائماً فى تربية النفوس على تكوين وازع من داخل النفس يجعلها تخشى الله ، ومن ثم كانت اجابة المصطفى — صلوات ربي وسلامه عليه — شافية كافية واضية عندما قال له جبريل : أخبرنى عن الإحسان ، كانت الإجابة : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٢) . هذا ما يسميه الفلاسفة بالضمير ، ونحن نسميه بالوازع الداخلى الذى لا يهيم عليه الإعلام الغيوب ، ولا يرى هذا الوازع إلا الإيمان والصيام والتقوى . فالنفس بطبيعتها إن لم يكن رقيبها من داخلها فلن تنضبط أبداً . ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾ (٣) .

هذا الوازع الداخلى هو الذى جعل الزوجة الصالحة فى صدر الإسلام تقول لزوجها وهويسقبل

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « بيان الإيمان والاسلام والاحسان .. الخ » ج ١ ص ٣٦ — ٣٧ حديث رقم ٨ / ١ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لعبد الله بن عمر .

(٣) سورة المجادلة الآية ٢

يومه سعيًا وراء لقمة العيش : يا هذا اتق الله ولا تأكل حراماً إننا نستطيع أن نصبر على الجوع في الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد من عمله بادرته قائلة : كم نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله .

إذا كان الصيام يؤدي إلى تقوى الله فإن التقوى هي السلاح الأقوى . قيل لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله وحسن الخلق » قيل : فما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : « البطن والفرج » <sup>(١)</sup> .

ولذا ورد في الحديث الشريف : « من أصبح وهمه تقوى الله وقاه الله هم الدنيا والآخرة .

إن هذا السلاح القوى هو الذى جعل راعى الغنم ينال جائزة الدولة التقديرية من أمير المؤمنين عمر ، وهو يتفقد حال الرعية . قال لراعى الغنم : يا غلام ، أعطنا غنمة نتغذى بها . فقال له الغلام : إنها ملك سيدي . قال له أمير المؤمنين — والراعى لا يدرى من المتحدث — : نشترها منك ونثر أمامه شيئاً من الدنانير والدراهم ، وللدنانير يريقها الذى يسيل لها لعاب المرضى ، وللدراهم رنينها الذى تنخلع له قلوب ضعفاء الإيمان . قال الراعى : وإذا سألتى سيدي عنها فماذا أقول له ؟ قال له عمر : قل له أكلها الذئب ، فانتفض الراعى انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر وقال له : يا هذا ، وإذا كذبت على سيدي الأصغر فأين الله ؟ أين الله ؟ أين الله ؟

ولم يستطع عمر بعد ذلك أن يتكلم فقد انعقد لسانه بعد ما شعر بقشعريرة تنتاب بدنه وكأنه يقف في وهدة سحيقة ويطل بناظره إلى قمة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها ، وانطلق إلى سيد الغلام واشترى منه الغنم كلها والعبد فأعتق العبد ووهبه الغنم وقال أنقذته كلمته هذه من رق الدنيا وأرجو أن تنقذه من عذاب النار يوم القيامة .

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب في الخلق الحسن وفضله .. الخ « ج ٣ ص ٤٠٣ فقد ورد الحديث رقم ٤ من رواية لأبي هريرة ، وقال : رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب . وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء في حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة رقم ٢٠٧٢ .

لولا أن هناك في النفس وازع يراقب الله في تصرفاته ، ما كان هناك شيء يجدى ، فالأجهزة بمختلف أشكالها وألوانها لا تستطيع أن تديم المراقبة إذ تعثرها فترات غفلة وركود ، أما الذى لا يغفل ولا ينام صاحب المملكة الدائمة والعظمة القائمة فكل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فاله منقلبه ، سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، فأى رتبة في الدنيا تنال من القوة مثلما للتقوى من قوة . ومن هنا فقد قال الرسول ﷺ — : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »<sup>(١)</sup> .

إن التقوى هي الركيزة الحقيقية للأخلاق .

والفقر خير من غنى يطغىها  
و غنى النفوس هو الكفاف فإن أبت  
فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وقف الامام على — رضى الله عنه — ذات يوم بين المقابر ومعه بعض الأصحاب ، ونادى على الأموات : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون وأنا ان شاء الله بكم لاحقون . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما دياركم فقد سكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم نظر إلى أصحابه وقال : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى صدقت يا أمير المؤمنين .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى  
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير  
تقلب عرياناً ولو كان كاسياً  
فممن كان لله عاصياً

إن الله تعالى : أعد للمتقين جنة عرضها السموات والأرض ، ثم وصفهم بصفات لا تسامى ولا يلحق بها ولا يشق لها غبار ، قال — جل شأنه — : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب ف يخلق الحسن وفضله .. الخ « ج ٣ ص ٤٠٩ حديث رقم ٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي ذر — رضى الله عنه — رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « ما جاء في معاشره الناس » ج ٣ ص ٢٣٩ حديث رقم ٢٠٥٣ من رواية لأبي هريرة .

(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣ — ١٣٤

إن هذه الآيات تنزل على قلوب الطائعين كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الطمأى .

كان للمأمون بن هارون الرشيد خادم يصب له الماء فوق الإبريق من يديه في الطست فطار الرشاش على وجه الأمير فاشتد غضبه وانتفخت أوداجه فنظر إليه الخادم في هدوء وسكينة وقال له : يا سيدي ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ ﴾ قال الأمير : كظمت غيظي ، قال الخادم : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ قال الأمير : عفوت عنك ، قال الخادم : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ قال الأمير : اذهب فأنت حر لوجه الله ولك مني ألف درهم فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحول القلوب من ثورة الغضب إلى رحاب السكينة إنها صفة من صفات التقوى .

لا تركزن إلى الدنيا وما فيها	فالموت لا شك يفنيا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها	والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طيتها	والزعفران حشيش نابت فيها

تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحكمة البالغة عندما أمرتنا بالصيام ، وجعلته فريضة على أمة الاسلام ، وجعلت الغرض منه والهدف الأعلى تقواك ، وجعلت التقوى خوفاً من الجليل وعملاً بالتنزيل ، ورضاً بالقليل ، واستعداداً ليوم الرحيل ، وصدق رسولك الكريم إذ أشار إلى صدره مبيناً مكان التقوى .

فيا أمة الاسلام ، لا تجعلوا الصيام إمساك عن شهوق البطن والفرج فحسب . إنه بهذا المعنى جسد بلا روح ، وشمس بلا ضوء ، وقمر بلا نور ، إنما حقيقة الصيام أن تصوم جوارحكم عما يغضب الله مع إمساك الجسد عن الأكل والشرب والشهوة ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والله — تعالى — يوفقنا لما فيه رضاه .

### قال الفقهاء

الصيام يطلق على الإمساك . قال الله تعالى : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً ﴾<sup>(١)</sup> أى : إمساكاً عن الكلام .

والمقصود به هنا : الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية .

فضله :

١ — عن أنى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — قال : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى [ إضافته إلى الله إضافة تشريف ] ، وأنا أجزى به .

هذا الحديث بعضه قدسى وبعضه نبوى ، فالنبوى من قوله : « والصيام جنة إلى آخر الحديث » ، والصيام جنة [ مانع من المعاصى ] فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث [ الرفث : هو الفحش فى القول ] ولا يصخب [ لا يصيح ] ، ولا يجهل [ أى : لا يسفه ] ، فإن شاتمته أحد أو قاتله فليقل : إني صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده لخلوف [ الخلوف تغير رائحة الفم بسبب الصوم ] فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، « وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا فطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه »<sup>(١)</sup> رواه أحمد ومسلم والنسائى .

٢ — ورواية البخارى وأبى داود : « الصيام جنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن إمرؤ قاتله أو شاتمته فليقل : إني صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها »<sup>(٢)</sup> .

٣ — وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبى ﷺ — قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى [ حرف نداء بمعنى « ي » أى : يارب ] رب منعتك الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعتك النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان [ أى : تقبل شفاعتهما ]<sup>(٣)</sup> رواه أحمد بسند صحيح .

٤ — وعن أنى أمانة قال : أتيت رسول الله ﷺ — فقلت : مرئى بعمل يدخلنى الجنة . قال : « عليك بالصوم فإنه لا عدل له [ أى : لا مثل له ] ، ثم أتيت الثانية ، فقال : « عليك بالصيام »<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد الحديث من رواية لأنى هريرة .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « هل يقول إني صائم » ج ١ ص ٣٢٦ فقد الحديث عن أنى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل الصوم » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لأنى هريرة مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو . وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترغيب فى الصوم مطلقاً ، وما جاء فى فضله وفضل دعاء الصائم » ج ٢ ص ٨٤ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .



٥ — وعن أبي سعيد الخدري<sup>(١)</sup> - رضى الله عنه — أن النبي — ﷺ — قال : « لا يصوم عبد يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً »<sup>(٢)</sup> رواه الجماعة إلا وأبو داود  
٦ — وعن سهل بن سعد أن النبي — ﷺ — قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان . يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخروهم أغلق ذلك الباب »<sup>(٣)</sup> رواه البخارى ومسلم .

## أقسامه

قال الفقهاء : ينقسم الصيام إلى قسمين : فرض وتطوع . أما الفرض فينقسم إلى أربعة أقسام : رمضان ، وقضاؤه ، والنذر ، والكفارات ولما تحدثنا عن أنواع الكفارات وقلنا : إن الكفارة إما أن تكون كفارة ظهار ، أو جماع في نهار رمضان ، أو قتل خطأ ، أو يمين منعقدة . لما كان ذلك كذلك ، فسوف نفصل الكلام هنا عن صيام رمضان لكونه أحد الأركان التي بنى عليها الإسلام . ثم بعد ذلك نفصل القول في صيام التطوع . فنقول وبالله التوفيق :

## صوم رمضان

### حكمه : —

صوم رمضان واجب بالكتاب والسنة والإجماع . فأما الكتاب : فقول الله — تعالى — : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ<sup>(٦)</sup> مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾<sup>(٧)</sup> .

(١) انظر المستدرک على الصحيحين للحاکم « کتاب الصوم » ج ١ ص ٤٢١ فقد ورد الحديث من رواية لأبي أمامة .  
وانظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبي أمامة .  
(٢) انظر صحيح مسلم « کتاب الصيام » باب « فضل الصيام في سبيل الله .. الخ » ج ٢ ص ٨٠٨ حديث ١٦٧ / ١١٥٣  
فقد ورد الحديث عن أبي سعيد الخدري بلفظه : قال رسول الله — ﷺ — : « ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً » وانظر الحديث رقم ١٦٨ بعده .  
وانظر سنن ابن ماجه « کتاب الصيام » باب في « صيام يوم في سبيل الله » ج ١ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ حديث ١٧١٧ عن أبي سعيد الخدري .

(٣) انظر صحيح البخارى « کتاب الصوم » باب « الريان للصائمين » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد مع اختلاف في بعض ألفاظه .

(٦) شهد : حضر

(٧) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٤) كتب : فرض

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٣

وأما السنة : فقول النبي — ﷺ — : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت »<sup>(١)</sup> .

وفي حديث طلحة بن عبيد الله : أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أخبرني عما فرض الله عليّ من الصيام ؟ قال : « شهر رمضان » .  
قال : هل عليّ غيره ؟ قال : « لا . إلا أن تطوّع »<sup>(٢)</sup> .

وأجمعت الأمة : على وجوب صيام رمضان . وأنه أحد أركان الإسلام التي عُلمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الاسلام . وكانت فرضيته يوم الاثنين ، ليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة .

## فضل شهر رمضان وفضل العمل فيه

١ — عن أبي هريرة أن النبي — ﷺ — قال : لما حضر رمضان « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغلّ فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »<sup>(٣)</sup> رواه أحمد والنسائي والبيهقي .

٢ — وعن عرفة قال : كنت عند عتبة بن فرقد وهو يحدث عن رمضان قال : فدخل علينا رجل من أصحاب محمد — ﷺ — ، فلما رآه عتبة هابه فسكت . قال : فحدث عن رمضان . قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « في رمضان تغلق فيه أبواب النار وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتصفد فيه الشياطين . قال : وينادى فيه ملك : يا باغي الخير أبشر ، ويا باغي الشر أقصر ، حتى ينقضي رمضان »<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد والنسائي وسنده جيد .

٣ — وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »<sup>(٥)</sup> رواه مسلم .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « دعاؤكم إيمانكم » ج ١ ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر — رضى الله عنهما — بلفظ « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « وجوب صوم رمضان » .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن عرفة .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الطهارة » باب « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. الخ » ج ١ ص ٢٠٩ حديث رقم

٢٣٣ / ١٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

- ٤ — وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبي ﷺ — قال : من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما كان ينبغى أن يتحفظ منه ، كفر ما قبله <sup>(١)</sup> . رواه أحمد والبيهقى بسند جيد .
- ٥ — وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ — : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ( طالباً وجه الله وثوابه ) غفر له ما تقدم من ذنبه » <sup>(٢)</sup> رواه أحمد وأصحاب السنن .

## الترهيب من الفطر في رمضان

- ١ — عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن رسول الله ﷺ — قال : « عُرِيَ الاسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان » <sup>(٣)</sup> رواه أبو يعلى والديلمى وصححه الذهبي .
- ٢ — وعن أبي هريرة : أن النبي ﷺ — قال : « من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه » <sup>(٤)</sup> رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى . وقال البخارى : ويذكر عن أبي هريرة رفعه : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه » <sup>(٥)</sup> وبه قال ابن مسعود .

قال الذهبي : وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض : أنه شر من الزانى ومدمن الخمر ، بل يشككون في إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال .

## أركان الصوم

للصيام ركنان تتركب منهما حقيقته :

- ١ — الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدرى .  
 (٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية أبي هريرة وزاد « ... ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وانظر ص ٣٢٥ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً .  
 (٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترهيب من إفطار شيء عن رمضان من غير عذر » ج ٢ ص ١٠١ — ١٠٢ حديث رقم ٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عباس .  
 (٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « في كفارة من أفطر يوماً من رمضان » ج ١ ص ٥٣٥ حديث ١٦٧٢ فقد ورد عن أبي هريرة ولفظه : قال رسول الله ﷺ — « من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ، لم يجزه صيام الدهر كله » .  
 (٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « إذا جامع في رمضان » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي هريرة .

لقول الله — تعالى — : ﴿ فَالآنَ بَاشِرُوهُمْ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ، ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود بياض النهار وسواد الليل .

لما رواه البخارى ومسلم : أن عدى بن حاتم قال : لما نزلت : ( حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتي ، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي ، فغدوت على رسول الله — ﷺ — فذكرت له ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار » <sup>(٢)</sup> .

٢ — النية . لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله — ﷺ — : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » <sup>(٤)</sup> ولا بد أن تكون قبل الفجر ، من كل ليلة من ليالي شهر رمضان .

لحديث حفصة قالت : قال رسول الله — ﷺ — : « من لم يجمع ( يجمع من الإجماع ، وهو إحكام النية والعزيمة ) الصيام قبل الفجر فلا صيام له » <sup>(٥)</sup> رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

وتصح في أى جزء من أجزاء الليل ، ولا يشترط التلفظ بها فإنها عمل قلبي لا دخل للسان فيه ، فإن حقيقتها القصد إلى الفعل امتثالاً لأمر الله — تعالى — وطلباً لوجهه الكريم .

فمن تسحر بالليل قاصداً الصيام تقرباً إلى الله بهذا الإمساك فهو ناي .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. الخ » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد الحديث عن رواية لعدى ابن حاتم .

(٣) سورة البينة الآية

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الوحي » ج ١ ص ٥ ، ٦ فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « في فرض الصوم من الليل .. الخ » ج ١ ص ٥٤٢ فقد الحديث رقم

١٧٠٠ عن حفصة بلفظ : قال رسول الله — ﷺ — : « لا صيام لمن لم يفرضه من الليل » ومعنى لم يفرضه : لم ينو .

ومن عزم على الكف عن المفطرات أثناء النهار مخلصاً لله فهو نادر كذلك وإن لم يتسحر .  
وقال كثير من الفقهاء : إن نية صيام التطوع تجزى من النهار إن لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : دخل على النبي ﷺ — ذات يوم فقال : « هل عندكم شيء ؟ قلنا : لا .  
قال : فإني صائم »<sup>(١)</sup> رواه مسلم وأبو داود . واشترط الأحناف أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو  
المشهور من قولي — الشافعي ، وظاهر قولي ابن مسعود وأحمد : أنها تجزى قبل الزوال وبعده على  
السواء .

### على من يجب

أجمع العلماء : على أنه يجب الصيام على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم ،  
ويجب أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس .

فلا صيام على كافر ولا مجنون ولا صبي ولا مريض ولا مسافر ولا حائض  
ولا نفساء ولا شيخ كبير ولا حامل ولا مرضع .

وبعض هؤلاء لا صيام عليهم مطلقاً : كالكافر والمجنون ، وبعضهم يطلب من  
وليّه أن يأمره بالصيام ، وبعضهم يجب عليه الفطر والقضاء ، وبعضهم يرخّص لهم  
في الفطر وتجب عليه الفدية ، وهذا بيان كل على حدة :

### صيام الكافر والمجنون : —

الصيام عبادة إسلامية ، فلا تجب على غير المسلمين ، والمجنون غير مكلف ، لأنه مسلوب العقل  
الذي هو مناط التكليف ، وفي حديث على رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « رُفِعَ القلم عن  
ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يحتلم »<sup>(٢)</sup> رواه أحمد وأبو  
داود والترمذي .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز صوم النافلة بقية من النهار .. الخ ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧٠ / ١١٥٤  
فقد ورد من حديث طويل لعائشة ، وانظر الحديث قبله ١٦٩ / ١١٥٤ لعائشة أيضاً .

(٢) انظر سنن أبي داود « كتاب الحدود » باب في المجنون يسرق أو يصيب أحد ج ٤ ص ٥٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٤٤٠١  
من رواية لعل .

## صيام الصبي :

والصبي . وإن كان الصيام غير واجب عليه ، إلا أنه ينبغي لولي أمره أن يأمره به ليعتاده من الصغر مادام مستطيعاً له وقادراً عليه .

فعن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل رسول الله ﷺ — صبيحة عاشوراء — إلى قري الأنصار : من كان أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه ، فكنا نصومه بعد ذلك ، ونصوم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن ( الصوف ) فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه ، حتى يكون عند الإفطار <sup>(١)</sup> رواه البخاري ومسلم .

## ● من يرخّص لهم في الفطر وتجب عليهم الفدية : —

يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذي لا يرجى برؤه وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق غير ما يزاولونه من أعمال هؤلاء جميعاً يرخّص لهم الفطر إذا كان الصيام يجهدهم يشق عليهم مشقة شديدة في جميع فصول السنة .

عليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، وقدّر ذلك بقدر صاع ( قدح وثلاث ) أو نصف صاع أو مد ، على خلاف في ذلك ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .  
قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه » <sup>(٢)</sup> رواه الداقطنى والحاكم وصححاه .

وروى البخاري عن عطاء : أنه سمع ابن عباس — رضي الله عنهما — يقرأ : ﴿ وعلى الذين يطبقونه فدية طعام مسكين ﴾ <sup>(٣)</sup> قال ابن عباس ليست بمنسوخة وهي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً ( مذهب مالك وابن حزم أنه لا قضاء ولا فدية ) .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصيام » باب صوم الصبيان ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث من رواية الربيع بنت معوذ .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب من أكل في عاشوراء فليكيف بقية يومه ج ٢ ص ٧٩٨ ، ٧٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية الربيع بنت معوذ برقم ١١٣٦ / ١١٣٦ .

(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس . وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وفيه الدليل .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهد الصوم مثل الشيخ الكبير . وكذلك العمال الذين يضطلعون بمشاق الأعمال بصورة دائمة .

قال الشيخ محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى ( المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ ) ونحوهم ، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجري من مناجمه .

ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل . وكانوا يملكون الفدية .

والحبل والمرضع إذا خافنا على أولادهما ( ومعرفة ذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن ) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس .

روى أبو داود عن عكرمة ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه ﴾ ، كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً ، والحبل والمرضع إذا خافنا « يعنى على أولادهما » أفطرتا وأطعمتا <sup>(١)</sup> رواه البزار .

وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأُم ولد له حبل : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك القضاء ولا قضاء عليك » <sup>(٢)</sup> . وصحح الدار قطنى إسناده . وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها . فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكيناً مَدّاً ( ربع قدح من قمح ) من حنطة . رواه مالك والبيهقى .

وفى الحديث : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبل والمرضع الصوم » <sup>(٣)</sup> .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب من قال : هى مثبته للشيخ والحبل ج ٤ ص ٧٣٨ فقد ورد الحديث ٢٣١٨ من رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس وهو موافق للحديث الذى معنا .

(٢) انظر مسند البيهقى « كتاب الصيام » باب « الحامل والمرضع إذا خافا على ولديهما أفطرتا وتصدقنا عن كل يوم بد من حنطة ثم قضتا » ج ٤ ص ٢٣٠ فقد ورد الحديث عن نافع عن ابن عمر .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس . وانظر ج ٤ ص ٣٤٧ من المرجع نفسه .

وعند الأحناف وأبى عبيد وأبى ثور : أنهما يقضيان فقط ، ولا إطعام عليهما . وعند أحمد والشافعي : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

## من يرخص لهم في الفطر ويجب عليهم القضاء :

يباح الفطر للمريض الذى يرجى برؤه والمسافر ويجب عليهما القضاء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ <sup>(١)</sup> . وروى أحمد وأبو داود والبيهقى بسند صحيح من حديث معاذ . قال : ان الله — تعالى — فرض على النبى — ﷺ — الصيام . فأُنزل : ﴿ يأيا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ . إلى قوله : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ ، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً ، فأجزأ ذلك عنه . ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ إلى قوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ . فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر ، وأثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام .

والمرض المباح للفطر هو المرض الشديد الذى يزيد بالصوم ، أو يخشى تأخر برته ( يعرف ذلك ، إما بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن ) .

قال فى المغنى : وحكى عن بعض السلف أنه أباح الفطر بكل مرض حتى من وجع الإصبع والضرس : لعموم الآية فيه ، ولأن المسافر يباح له الفطر وإن لم يحتج إليه ، فكذلك المريض ، وهذا مذهب البخارى وعطاء وأهل الظاهر . والصحيح الذى يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك من غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك لزمه الفطر وإن كان صحيحاً مقيماً وعليه القضاء . قال الله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٢) سورة النساء الآية ٢٩ .



وقال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (١) .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التي يجها الله وقد يلحقه بذلك ضرر .

وقد كان بعض الصحابة يصوم على عهد رسول الله - ﷺ - وبعضهم يفطر متابعين في ذلك فتوى الرسول - ﷺ - .

قال حمزة الأسلمي : يا رسول الله ، أجد منى قوة على الصوم في السفر ، فهل على جناح ؟ فقال : « هي رخصة من الله - تعالى - فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » (٢) رواه مسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله - ﷺ - إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمننا من صام ومننا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فافطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا بعد ذلك نصوم مع رسول الله - ﷺ - في السفر » (٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

وعن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - قال : « كنا نغزو مع رسول الله - ﷺ - في رمضان فمننا الصائم ومننا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر ( أى لا يعيب عليه ) ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر ، فإن ذلك حسن » (٤) رواه أحمد ومسلم .

(١) سورة الحج الآية ٧٨

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب التخيير في الصوم والفطر في السفر » ج ٢ ص ٧٩٠ حديث رقم ١٠٧ / ١١٢١ فقد ورد الحديث عن حمزة بن عمرو الأسلمي .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أجر المفطر في الصوم إذا تولى العمل » ج ٢ ص ٧٨٩ فقد ورد الحديث برقم ١٠٢ / ١١٢٠ من رواية أبي سعيد الخدري .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٧ فقد ورد الحديث رقم ٩٦ / ١١١٦ من رواية أبي سعيد الخدري .

وقد اختلف الفقهاء في أيهما أفضل ؟ ..

فرأى أبو حنيفة والشافعي ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام .:

وقال أحمد : الفطر أفضل .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ، ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك ، فالصوم في حقه أفضل .

وحقق الشوكاني فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضاً عن قبول الرخصة فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف على نفسه العُجْبَ أو الرياء إذا صام في السفر فالفطر في حقه أفضل .

وما كان من الصيام خالياً عن هذه الأمور فهو أفضل من الإفطار . وإذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار .

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - : « أن رسول الله - ﷺ - خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم ( اسم واد أمام عسفان ) وصام الناس معه . فقليل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت . فدعا بقدر من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه . فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا . فقال : أولئك العصاة » . ( لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة )<sup>(١)</sup> رواه مسلم والنسائي والترمذي وصححه .

وأما إذا نوى الصوم وهو مقيم ثم سافر أثناء النهار فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الفطر له . وأجازه أحمد وإسحاق . كما رواه الترمذي وحسنه عن محمد بن كعب قال : أتيت في رمضان أنس بن مالك وهو يريد سفراً ، وقد رُحِلت له راحلته ولبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل . فقلت له : سنة ؟ فقال : سنة . ثم ركب .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٥ فقد ورد الحديث برقم ٩٠ / ١١١٤ من رواية جابر بن عبد الله .

وعن عبيد بن جبير قال : ركب مع أبى بصرة الغفارى فى سفينة من الفسطاط ( مصر القديمة ) فى رمضان ، فدفع ثم قرب غداءه . ثم قال : اقترب ، فقلت أأست بين البيوت . فقال أبو بصرة : أرغبت عن سنة رسول الله ﷺ ( استفهام إنكارى ) ؟ رواه أحمد وأبو داود ورجاله ثقات .

قال الشوكانى : والحديثان يدلان على أن للمسافر أن يفطر قبل خروجه من الموضع الذى أراد السفر منه .

وقال ابن العرى : وأما حديث أنس فصحيح يقتضى جواز الفطر مع أهبة السفر ، وقال : وهذا هو الحق .

والسفر المباح للفطر : هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الإقامة التى يجوز للمسافر أن يفطر فيها هى المدة التى يجوز له أن يقصر الصلاة فيها .

وقد روى أحمد وأبو داود والبيهقى والطحاوى عن منصور الكلبي : أن دحية بن خليفة خرج من قرية من دمشق مرة إلى قدر عقبة ( أى أن المسافة التى قطعها من القرية التى خرج منها تعدل المسافة التى بين مصر القديمة وميت عقبة المجاورة لإمبابة وقدرت هذه المسافة بفرسخ ) . من الفسطاط فى رمضان ، ثم إنه أفطر وأفطر معه ناس ، وكره آخرون أن يفطروا .

فلما رجع إلى قريته قال : والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنت أظن أن أراه : إن قوماً رغبوا عن هدى رسول الله ﷺ — وأصحابه . يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم إقبضنى إليك .

## من يجب عليه الفطر والقضاء معاً :

اتفق الفقهاء : على أنه يجب الفطر على الحائض والنفساء ويحرم عليهما الصيام ، وإذا صاماً لا يصح صومهما ويقع باطلاً وعليهما قضاء ما فاتهما .

روى البخارى ومسلم عن عائشة . قالت : كنا نحيض على عهد رسول الله ﷺ — فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة<sup>(١)</sup> .

## الأيام المنهى عن صيامها

جاءت الأحاديث مصرحة بالنهاى عن صيام أيام نبينا فيما يلى :

### ١ — النهى عن صيام يومى العيدين :

أجمع العلماء على تحريم صوم يومى العيدين ، سواء أكان الصوم فرضاً أو تطوعاً .

لقول عمر رضى الله عنه : « إن رسول الله ﷺ — نهى عن صيام هذين اليومين . أما يوم الفطر ، ففطركم من صومكم ( أى الفطر من صيام رمضان ) ، وأما يوم الأضحى ، فكلوا من نسككم ( النسك : الأضحى )<sup>(٢)</sup> رواه أحمد والأربعة .

### ٢ — النهى صوم أيام التشريق :

لا يجوز صيام الأيام الثلاثة التى تلى عيد النحر :

لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ — بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى . « أن لا تصوموا هذه الأيام ، فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »<sup>(٣)</sup> رواه أحمد بإسناد جيد .  
وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : « أن رسول الله ﷺ —

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحيض » باب لا تقضى الحائض الصلاة ج ١ ص ٦٧ فقد ورد أن امرأة قالت لعائشة : أنجزى احداً صلاتها إذا طهرت . فقالت أحرورية أنت ؟ كنا نحيض مع النبى ﷺ — فلا يأمرنا به أو قالت فلا تفعله « وانظر ص ٣٣٤ باب تترك الحائض الصوم والصلاة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الحيض » باب « وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة » ج ١ ص ٢٦٤ حديث رقم ٦٩ / ٣٣٥ فقد ورد عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بأحرورية : ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبننا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الفطر » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد عن أنى عبيد مولى ابن أزهري قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقال : هذان يومان نهى رسول الله ﷺ — عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم .

وعن أنى سعيد — رضى الله عنه — قال : نهى النبى ﷺ — عن صوم يوم الفطر والنحر .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى » ج ٢ ص ٧٩٩ حديثه ١٣٨ / ١١٣٧ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥١٣ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنى هريرة .

أرسل صائماً يصيح : أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب والعال ( جماع الرجل زوجته )<sup>(١)</sup> .

وأجاز أصحاب الشافعى صيام أيام التشريق فيما له سبب من نذر أو كفارة أو قضاء .

أما ما لا سبب له فلا يجوز فيها بلا خلاف .

وجعلوا هذا نظير الصلاة التى لها سبب فى الأوقات المنهى عن الصلاة فيها .

### ٣ - النهى عن صيام يوم الجمعة منفرداً :

يوم الجمعة عيد أسبوعى للمسلمين ، ولذلك نهى الشارع عن صيامه . وذهب الجمهور : إلى أن النهى للكره ( وعن أى حنيفة ومالك : لا يكره ، والأدلة المذكورة حجة عليهما ) لا للتحريم إلا إذا صام يوماً قبله أو يوماً بعده أو وافق عادة له أو كان يوم عرفة أو عاشوراء ، فإنه حينئذ لا يكره صيامه .

فعن عبد الله بن عمرو : « أن رسول الله ﷺ دخل على جويرة بنت الحارث وهى صائمة فى يوم الجمعة فقال لها : أصمت أمس ؟ فقالت : لا . قال : أتريدين أن تصومى غداً ؟ قالت : لا . قال : فأفطرى إذن »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والنسائى بسند جيد .

وعن عامر الاشعري قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : « إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصوموه إلا أن تصوموا قبله أو بعده »<sup>(٣)</sup> .

وقال على - رضى الله عنه - : من كان منكم متطوعاً فليصم يوم الخميس ولا يصم يوم الجمعة ، فإنه يوم طعام وشراب وذكر<sup>(٤)</sup> . رواه ابن أى شيبه بسند حسن وفى الصحيحين من حديث جابر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « لا تصوموا يوم الجمعة إلا قبله يوم أو بعده يوم » .

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب الصيام » باب « نهى عن صيامه من أيام التشريق وغيرها » ج ٣ ص ٢٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أيوب عن جويرة بنت الحارث .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ « إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده » .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وفي لفظ لمسلم : ولا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم <sup>(١)</sup> .

#### ٤ - النهي عن افراد يوم السبت بصيام :

عن بُسر السلمي عن أخته الصماء : أن رسول الله ﷺ - قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم » ويشتمل القضاء والنذور والنفل ، وإذا وافق عادته أو كان يوم عرفة ونحو ذلك ( وإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب ( قشر عنب ) أو عود شجرة فليمضغه » . رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، وحسنه الترمذى . وقال : ومعنى الكراهة في هذا أن يختص الرجل يوم السبت بصيام ، لأن اليهود يعظمون يوم السبت <sup>(٢)</sup> .

وقالت أم سلمة : « كان النبي ﷺ - يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ، ويقول : إنهما عيد المشركين ، فأنا أحب أن أخالفهم » <sup>(٣)</sup> رواه أحمد والبيهقى والحاكم وابن خزيمة وصححه .

ومذهب الأحناف والشافعية والحنابلة كراهة الصوم يوم السبت منفرداً لهذه الأدلة .  
وخالف في ذلك مالك فجوز صامه منفرداً بلا كراهة ، والحديث حجة عليه .

#### ٥ - النهي عن صوم يوم الشك :

قال عمار بن ياسر - رضى الله عنه - : « من صام اليوم الذى شك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ » . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح <sup>(٤)</sup> . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول سفيان الثورى ومالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق : كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذى يشك فيه .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة بلفظ « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوماً قبله أو بعده » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « كراهة صيام يوم الجمعة منفرداً » فقد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة برقم ١٤٨ / ١١٤٣ ج ٢ ص ٨٠١ .

(٢) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في صيام يوم السبت » ج ١ ص ٥٥٠ حديث رقم ١٧٢٦ من رواية لعبد الله ابن بسر بلفظ « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم ، فإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب أو شجرة فليمضه » وفي رواية أخرى عن عبد الله بن بسر عن أخته بلفظه .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم سلمة .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في صيام يوم الشك » ج ١ ص ٥٢٧ حديث ١٦٤٢ فقد ورد الحديث عن عمار بلفظ « من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم » .

ورأى أكثرهم إن صامه وكان من شهر رمضان أن يقضى يوماً مكانه (وعند الحنفية : ان ظهر أنه من رمضان وصامه أجزأ عنه ) ، فإن صامه لموافقته عادة له جاز له الصيام حينئذ بدون كراهة .

فعن أبي هريرة : أن النبي ﷺ — قال : « لا تقدموا ( تتقدموا ) صوم رمضان بيوم أو يومين ، إلا أن يكون صوم يصومه رجل . فليصم ذلك اليوم » <sup>(١)</sup> رواه الجماعة وقال الترمذى حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول رمضان لمعنى رمضان .

وإن كان رجل يصوم صوماً فوافق صيامه ذلك فلا بأس به عندهم .

#### ٦ — النبي عن صوم الدهر :

يحرم صيام السنة كلها بما فيها الأيام التي نهى الشارع عن صيامها . لقول رسول الله ﷺ : « لا صام من صام الأبد » <sup>(٢)</sup> رواه أحمد والبخارى ومسلم .

فإن أفطر يومى العيد وأيام التشريق وصام بقية الأيام انتفت الكراهة إذا كان ممن يقوى على صيامها .

قال الترمذى : وقد كره قوم من أهل العلم صيام الدهر إذا لم يفطر يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق .

فمن أفطر فى هذه الأيام فقد خرج من حد الكراهة ولا يكون قد صام الدهر كله هكذا روى عن مالك والشافعى وأحمد وإسحاق .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يتقدم رمضان بصوم يوم ولا يومين » ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ وقد ورد من رواية لأبي هريرة بلفظ « لا يتقدم أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم فليصم ذلك اليوم » . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين » ج ٢ ص ٧٦٢ حيث ٢١ / ١٠٨٢ من رواية لأبي هريرة بلفظ « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم الدهر » ج ١ ص ٣٣٨ فقد ورد حديث طويل لأبي العباس الشاعر أنه أخبر عطاء بسماعه من عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — وقد جاء فى آخر ، قال عطاء : لا أدري كيف ذكر صيام الأبد قال النبي ﷺ — : « لا صام من صام الأبد مرتين » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم الدهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٤ — ٨١٥ من حديث طويل لعطاء جاء فى آخره « لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد » .

وقد أقر النبي ﷺ - حمزة الأسلمي على سبرد الصيام وقال له : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »<sup>(١)</sup>.

والأفضل أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فإن ذلك أحب الصيام إلى الله .

#### ٧ - النبي عن صيام المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه :

نبي رسول الله ﷺ - المرأة أن تصوم وزوجها حاضر حتى تستأذنه .

فعن أبي هريرة : أن النبي ﷺ - قال : « لا تصم المرأة يوماً واحداً وزوجها شاهد إلا بإذنه ، إلا رمضان »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وقد حمل العلماء هذا النبي على التحريم ، وأجازوا للزوج أن يفسد صيام زوجته لو صامت دون أن يأذن لها لافتياتها على حقه ( لتعديها على حقه ) ، وهذا في غير رمضان كما جاء في الحديث ، فإنه لا يحتاج إلى إذن من الزوج .

وكذلك لها أن تصوم من غير اذنه إذا كان غائباً ، فإذا قدم له أن يفسد صيامها . وجعلوا مرض الزوج وعجزه عن مباشرتها مثل غيبته عنها في جواز صومها دون أن تستأذنه .

#### النبي عن وصال الصوم

( متابعة بعضه بعضاً دون فطر أو سحور ) .

١ - عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ - قال : إياكم والوصال « قالها ثلاث مرات » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : إنكم لستم في ذلك مثلي ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ( أى يجعل الله له قوة الطاعم ) فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »<sup>(٣)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « الصوم في السفر والإفطار » ج ١ ص ٣٣٣ فقد ورد الحديث عن حمزة بلفظ « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » .

انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « التخيير في الصوم والفطر في السفر » ج ٢ ص ٧٨٩ حديث رقم ١٠٤ / ١١٢١ فقد ورد الحديث بلفظه رداً على سؤال حمزة بن عمرو الأسلمي .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب « ما أنفق العبد من مال مولاه » ج ٢ ص ٧١١ حديث رقم ٨٤ / ١٠٢٦ من رواية لأبي هريرة من حديث طويل بلفظ « لا تصم المرأة وبعلمها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه .. الخ » . وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « في المرأة تصوم بغير إذن زوجها » ج ١ ص ٥٦٠ حديث ١٧٦١ من رواية لأبي هريرة .. قال : « لا تصوم المرأة وزوجها شاهد يوماً من غير شهر رمضان إلا بإذنه » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « التنكيل لمن أكثر الوصال » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ : « إياكم والوصال مرتين ، قيل : إنك تواصل . قال : إني أبيت يطعمني ربي ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النبي عن الوصال في الصوم » ج ٢ ص ٧٧٤ حديث ٥٨ / ١١٠٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « إياكم والوصال » قالوا : فإنك تواصل ، يا رسول الله ! قال : إنكم لستم في ذلك مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .



وقد حمل الفقهاء النهى على الكراهة .

وجوز أحمد وإسحاق وابن المنذر الوصال إلى السحر ، ما لم تكن مشقة على الصائم لما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « لا تواصلوا ، فأيتكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر »<sup>(١)</sup> .

## صيام التطوع

رغب رسول الله ﷺ في صيام هذه الأيام الآتية :

— صيام ستة أيام من شوال :

روى الجماعة إلا البخارى والنسائى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى — ﷺ — قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر »<sup>(٢)</sup> ( هذا لمن صام رمضان كل سنة ) . قال العلماء : الحسنه بعشر أمثالها ، ورمضان بعشرة شهور ، والأيام الستة بشهرين . وعند أحمد : أنها تؤدي متتابعة وغير متتابعة ، ولا فضل لأحدهما على الآخر . وعند الحنفية والشافعية : الأفضل صومها متتابعة عقب العيد .

— صوم عشر ذى الحجة وتأکید يوم عرفة لغیر الحاج :

١ — عن أبى قتادة — رضى الله عنه — قال ، قال رسول الله — ﷺ — : « صوم يوم عرفة يكفر سنتين : ماضية ومستقبله ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية »<sup>(٣)</sup> رواه الجماعة إلا البخارى والترمذى .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الوصال إلى السحر » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد هذا الحديث عن حديث طويل لأبى سعيد .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعاً لرمضان » ج ٢ ص ٨٢٢ رقم ٢٠٤ / ١١٦٤ لأبى أيوب بلفظ « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام ستة أيام من شوال ج ١ ص ٥٤٧ حديث رقم ١٧١٦ من رواية لأبى أيوب مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام يوم عرفة » وباب صيام يوم عاشوراء ج ١ ص ٥٥١ ، ص ٥٥٣ فقد ورد الحديث ١٧٣٠ عن أبى قتادة والحديث ١٧٣١ عن قتادة أيضاً فى صوم يوم عرفة ، والحديث ١٧٣٨ عن أبى قتادة فى صيام يوم عاشوراء وكلها تؤدي المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ وهو حديث طويل لأبى قتادة ، جاء فيه أن رسول الله — ﷺ — سئل عن صوم يوم عرفة : فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية » وعن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية » .

- ٢ — عن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله ﷺ — : صيام عاشوراء ، والعشر ( أى من ذى الحجة ) ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والركعتين قبل الغداة »<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والنسائي .
- ٣ — عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ — : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام وهى أيام أكل وشرب »<sup>(٢)</sup> . رواه الخمسة إلا ابن ماجه ، وصححه الترمذى .
- ٤ — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : « نهى رسول الله ﷺ — عن صوم يوم عرفة بعرفات »<sup>(٣)</sup> ، رواه أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحَب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة<sup>(٤)</sup>

- ٥ — عن أم الفضل : أنهم شكّوا فى صوم رسول الله ﷺ — يوم عرفة ، فأرسلت إليه بقدر لبن وهو واقف على بعيره فشربه « متفق عليه .

### صيام المحرم وتأكيده صوم عاشوراء ويوماً قبلها ويوماً بعدها :

- ١ — عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ — : « أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ . قال : الصلاة فى جوف الليل . قيل : ثم أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : شهر الله ( الإضافة للتشريف ) ( الذى تدعونه ) المحرم »<sup>(٥)</sup> . رواه أحمد ومسلم وأبو داود .
- ٢ — عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : « إن هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء صام ومن شاء فليفطر »<sup>(٦)</sup> متفق عليه .
- ٣ — عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية ،

(١) انظر سنن النسائي « كتاب الصيام » باب كيف يصوم ثلاثة أيام .. الخ ج ٤ ص ٢٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن حفصة .  
(٢) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عقبة بن عامر .  
وانظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب كراهية صوم أيام التشريق ج ٢ ص ١٣٥ حديث رقم ٧٧٠ فقد ورد بلفظه .  
(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام يوم عرفة ج ١ ص ٥٥١ حديث ١٧٣٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر « صحيح البخارى » كتاب الصوم « باب صوم يوم عرفة ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد هذا عن أم الفضل وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ج ٢ ص ٧٩١ حديث ١١٢٣ / ١١٠ مروي عن أم الفضل .  
(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل صوم المحرم » ج ٢ ص ٨٢١ فقد ورد الحديث ٢٠٣ / ١١٦٣ من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى ترتيب جملة فقد جمع الأسئلة أولاً ، ثم الاجابة بعد ذلك .  
(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن معاوية بن أبى سفيان .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٥ حديث ١١٢٩ / ١٢٦ فقد ورد الحديث عن معاوية مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

- وكان رسول الله ﷺ — يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان — ترك يوم عاشوراء : فمن شاء صامه ومن شاء تركه «<sup>(١)</sup> متفق عليه .
- ٤ — عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قدم النبي ﷺ — المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله فيه موسى وبنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . فقال النبي ﷺ — : « أنا أحق بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه «<sup>(٢)</sup> .
- ٥ — عن أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود وتتخذة عيداً . فقال رسول الله ﷺ — : « صوموه أنتم »<sup>(٣)</sup> متفق عليه .
- ٦ — عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : لما صام رسول الله ﷺ — يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله : انه يوم تعظمه اليهود والنصارى .. فقال : « فإذا كان العام المقبل — إن شاء الله — صمنا اليوم التاسع »<sup>(٤)</sup> قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ — . رواه مسلم ، وأبو داود ..
- وفى لفظ قال رسول الله ﷺ — : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع »<sup>(٥)</sup> يعنى مع يوم عاشوراء . رواه أحمد ومسلم .

وقد ذكر العلماء : أن صيام يوم عاشوراء على ثلاث مراتب :  
المرتبة الأولى : صوم ثلاثة أيام : التاسع والعاشر والحادى عشر .  
المرتبة الثانية : صوم التاسع والعاشر .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسلمة .. عن عائشة بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٨ / ١١٣٠ من رواية لابن عباس مع اختلاف بعض ألفاظه .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ ز ٣٤٢ فقد ورد الحديث من رواية لآبى موسى مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٩ / ١١٣١ فقد ورد من رواية لآبى موسى بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أى يوم يصام فى عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٧ — ٧٩٨ حديث ١٣٣ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث رواية لابن عباس بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أى يوم يصام فى عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٨ حديث ١٣٤ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

المرتبة الثالثة : صوم العاشر وحده .

التوسعة يوم عاشوراء :

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « من وسّع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته »<sup>(١)</sup> رواه البيهقي في الشعب وابن عبد البر .

صيام أكثر شعبان :

كان رسول الله — ﷺ — يصوم أكثر شعبان . قالت عائشة .. فما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر إلا شهر رمضان ، وما رأيته أكثر صياماً منه في شعبان »<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

وعن أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال : « ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم »<sup>(٣)</sup> رواه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة .

وتخصيص صوم يوم النصف منه ظناً أن له فضيلة على غيره مما لم يأت به دليل صحيح .

صوم الأشهر الحرم :

الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والحرم ، ورجب ويستحب الإكثار من الصيام فيها .

(١) انظر شعب « الايمان للبيهقي » باب « تخصيص شهر الحرم بالذكر » ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه .  
(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « صوم شعبان » ج ١ ص ٣٣٧ فقد ورد الحديث عن عائشة في حديث طويل . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صيام النبى — ﷺ — في غير رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١١٥٦ / ١٧٥ من رواية لعائشة ولفظه « .. وما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان » .  
(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » صوم النبى — ﷺ — ... الخ ج ٤ ص ٢٠١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأسامة بن زيد .

فمن رجل من باهلة : « أنه أتى النبي ﷺ — فقال : يا رسول الله ، أنا الرجل الذي جئتكَ عام الأول . فقال : فما غيرك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك . فقال رسول الله ﷺ — : لم عذبت نفسك ؟ ثم قال : صم شهر الصبر ، ويوماً من كل شهر . قال : زدني فإن بي قوة . قال صم يومين . قال : زدني ، قال : صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك . وقال بأصابه الثلاثة ، فضمها ثم أرسلها ( أى أشار إليه بصيام ثلاثة أيام وفطر ثلاثة أخرى )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والبيهقى بسند جيد .

وصيام رجب ليس له فضل زائد على غيره من الشهور إلا أنه من الأشهر الحرم . ولم يرد في السنة الصحيحة أن للصيام فيه فضيلة بخصوصه . وأن ما جاء في ذلك مما لا ينتهز للاحتجاج به .

قال ابن حجر : « لم يرد في فضله ولا في صيامه ولا في صيام شيء منه ولا في قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة .

### صوم يومى الاثنين والخميس :

عن أنى هريرة أن النبي ﷺ — كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . فقيل له : ( أى سئل عن الباعث على صوم يومى الاثنين والخميس ) فقال : « إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل مسلم ، أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول : أخرهما »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد بسند صحيح .

وفى صحيح مسلم أنه — ﷺ — سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه »<sup>(٣)</sup> أى نزل على الوحى فيه .

### صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

قال أبو ذر الغفارى — رضى الله عنه — : « أمرنا رسول الله ﷺ — : أن نصوم من الشهر

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام أشهر الحرم » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث ١٧٤١ عن أنى مجبة الباهلى ، عن أبيه أو عن عمه فى هذا مع اختلاف فى بعض ألفاظه وزيادة فى آخره « وصم أشهر الحرم » . وانظر سنن أنى داود « كتاب الصوم » باب « فى صوم أشهر الحرم » ج ٢ ص ٨٠٩ ، ١١٠ حديث رقم ٢٤٢٨ من رواية للباهلى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث عن أنى هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١١٦٢ / ١٩٧ حديث طويل لأنى قتادة الأنصارى جاء فيه السؤال عن صوم يوم الاثنين . وانظر الحديث ١١٦٢ / ١٩٨ لأنى قتادة — أيضاً — .

ثلاثة أيام ، البيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال : هي كصوم الدهر <sup>(١)</sup> رواه النسائي وصححه ابن حبان .

وجاء عنه — ﷺ — انه كان يصوم من الشهر : السبت والأحد والاثنين . ومن الشهر الآخر : الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأنه كان يصوم من غرة كل هلال ثلاثة أيام ، وأنه كان يصوم الخميس من أول الشهر والاثنين الذي يليه ، والاثنين الذي يليه .

صيام يوم وفطر يوم :

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله — ﷺ — : « لقد أخبرت أنك تقوم الليل وتصوم النهار . قال : قلت : يا رسول الله ، نعم . قال : فصم وأفطر ، وصلّ ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزورك عليك حقاً ، وإن لزورك ( ضيفك ) عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فقال : فشددت فشددت عليّ . قال : فقلت يا رسول الله : إني أجد قوة . قال : فصم من كل جمعة ثلاثة أيام . قال فشددت فشددت عليّ . قال فقلت : يا رسول الله إني أجد قوة . قال : صم صوم نبي الله داود ولا تزد عليه . قلت : يا رسول الله : وما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام ؟ قال : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً <sup>(٢)</sup> رواه أحمد وغيره .

وروى — أيضا — عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله — ﷺ — : « أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود . كان ينام نصفه ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً <sup>(٣)</sup> .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » ج ١ ص ٣٣٩ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « أوصاني خليلي — ﷺ — بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتي الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام . »

وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب استحباب صلاة الضحى .. الخ ج ١ ص ٤٩٩ فقد ورد الحديث ٨٥ / ٧٢١ لأبي هريرة والحديث ٨٦ / ٧٢٢ لأبي الدرداء ذكر فيها صيام ثلاثة أيام من كل شهر . وانظر سنن النسائي « كتاب الصوم — ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٢ فقد وردت عدة روايات لأبي ذر في هذا .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٩٨ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به .. الخ ج ٢ ص ١٠٠ فقد ورد الحديث ١٨٩ / ١١٥٩ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود — عليه السلام — كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً . »

## جواز فطر الصائم المتطوع

١ - عن أم هانئ - رضى الله عنها - « أن رسول الله ﷺ - دخل عليها يوم الفتح ، فأتى بشراب فشرب ثم ناولنى . فقلت : إني صائمة ، فقال : إن المتطوع أمير على نفسه ، فإن شئت فصومى وإن شئت فأفطرى »<sup>(١)</sup> رواه أحمد والدارقطنى والبيهقى .

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولفظه : « الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر »<sup>(٢)</sup> .

وعن أبى جحيفة قال : « أخى النبى ﷺ - بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبى الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال : كل قال فأبى صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأبى النبى ﷺ - فذكر ذلك له ، فقال النبى ﷺ - : « صدق سلمان »<sup>(٣)</sup> رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : صنعت لرسول الله ﷺ - طعاماً ، فأتانى هو وأصحابه ، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إني صائم ، فقال رسول الله ﷺ - : « دعاكم أخوكم وتكلف لكم . ثم قال : أفطر وصم يوماً مكانه إن شئت »<sup>(٤)</sup> رواه البيهقى بإسناد حسن كما قال الحافظ .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث عن أم هانئ .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث عن أم هانئ وبزيادة « ان شاء صام وإن شاء أفطر » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع .. الخ ج ١ ص ٣٣٦ - ٣٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى حنيفة .

(٤) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب التخيير فى القضاء إن كان صومه تطوعاً ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز الفطر لمن صام متطوعاً ، واستحبوا له قضاء ذلك اليوم استدلالاً بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

## آداب الصيام

يستحب للصائم أن يراعى في صيامه الآداب الآتية :

١ — السحور :

وقد أجمعت الأمة على استحبابه وأنه لا إثم على من تركه فعن أنس — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « تسحروا فإن في السحور بركة » <sup>(١)</sup> ( السحور بالفتح المأكول ، وبالضم المصدر والفعل ) رواه البخارى ومسلم .

وعن المقدم بن معد يكرب عن النبي — ﷺ — قال : عليكم بهذا السحور ، فإنه هو الغذاء المبارك <sup>(٢)</sup> رواه النسائي بسند جيد .

وسبب البركة : أنه يقوى الصائم وينشطه ويهون عليه الصيام .

بم يتحقق :

ويتحقق السحور بكثير الطعام وقليله ولو بجرعة ماء . فعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « السحور بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين » <sup>(٣)</sup> رواه أحمد .

وقته :

وقت السحور من منتصف الليل إلى طلوع الفجر ، والمستحب تأخيرها . فعن زيد بن ثابت — رضى الله عنه — قال : « تسحرنا مع رسول الله — ﷺ — ثم قمنا إلى الصلاة . قلت : كم كان قدر ما بينهما ؟ قال : خمسين آية » <sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصوم » باب « فضل السحور » الخ ج ٢ ص ٧٧٠ حديث رقم ١٠٩٥ / ٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن النسائي « كتاب الصيام » باب « تسمية السحور غداء » ج ٤ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن المقدم بن معد يكرب .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢ ، ٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحور .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ حديث رقم ١٠٩٧ / ٤٧ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت .



وعن عمرو بن ميمون قال : « كان أصحاب محمد ﷺ — أعجل الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً »<sup>(١)</sup> رواه البيهقي بسند صحيح .

وعن أبي ذر الغفاري — رضى الله عنه — مرفوعاً : « ما تزال أمتي بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور »<sup>(٢)</sup> وفي سنده سليمان بن أبي عثمان ، وهو مجهول .

### الشك في طلوع الفجر :

ولو شك في طلوع الفجر ، فله أن يأكل ويشرب حتى يستيقن طلوعه ولا يعمل بالشك ، فإن الله — عز وجل — جعل نهاية الأكل والشرب التبين نفسه لا الشك . فقال : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »<sup>(٣)</sup> .

وقال رجل لابن عباس — رضى الله عنهما — : « إني أتسحر ، فإذا شككت أمسكت ، فقال ابن عباس : كل ما شككت حتى لا تشك » .

وقال أبو داود : قال أبو عبد الله ( أحمد بن حنبل ) : « إذا شك في الفجر يأكل حتى يستيقن طلوعه » .

وهذا مذهب ابن عباس وعطاء والأوزاعي وأحمد .

وقال النووي : وقد اتفق أصحاب الشافعي على جواز الأكل للشاك في طلوع الفجر .

### ٢ — تعجيل الفطر :

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر متى تحقق غروب الشمس .

فعن سهل بن سعد : أن النبي ﷺ — قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »<sup>(٤)</sup> رواه البخاري ومسلم .

وينبغي أن يكون الفطر على رطبات وتراً ، فإن لم يجد فعلى الماء .

(١) انظر سنن البيهقي « كتاب الصيام » باب ما يستحب من تعجيل الفطور وتأخير السحور ج ٤ ص ٢٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لعمرو بن ميمون .

(٢) انظر سنن البيهقي « كتاب الصيام » باب « تعجيل الفطور وتأخير السحور » فقد وردت أحاديث متعددة في هذا الشأن عن سهل بن سعد ، وأبو هريرة عن أبي عطية .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب تعجيل الإفطار ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحر .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية سهل بن سعد .

فعن أنس — رضى الله عنه — قال : « كان رسول الله — ﷺ — يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، فإن لم تكن فعلى تمرات ، فإن لم تكن حسا حسوات ( أى شرب ) من ماء »<sup>(١)</sup> رواه أبو داود والحاكم وصححه ، والترمذى وحسنه .

وعن سلمان بن عامر : أن النبى — ﷺ — قال : « إذا كان أحدكم صائماً فليفطر على التمر ، فإن لم يجد التمر فعلى الماء فإن الماء طهور »<sup>(٢)</sup> رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح .

وفى الحديث دليل على أنه يستحب الفطر قبل صلاة المغرب بهذه الكيفية ، فإذا صلى ، تناول حاجته من الطعام بعد ذلك ، إلا إذا كان الطعام موجوداً فإنه يبدأ به . قال أنس : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا قدم العشاء فابدؤا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ، ولا تعجلوا عن عشائكم »<sup>(٣)</sup> رواه الشيخان .

### ٣ — الدعاء عند الصيام وأثناء الصيام :

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى — ﷺ — قال : « إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد » وقال عبد الله إذا أفطر يقول : « اللهم إني أسألك برحمتك التى وسعت كل شيء أن تغفر لى »<sup>(٤)</sup>

وروى مرسلاً : أنه ﷺ كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »<sup>(٥)</sup>

وثبت أنه ﷺ كان يقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وثبت الأجر — إن شاء الله تعالى — »<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٦٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس . وانظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » ج ٤

ص ٢٣٩

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء على ما يستحب الفطر » ج ١ ص ٥٤٢ حديث ١٦٩٩ فقد ورد عن سلمان بن عامر ، قال : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا أفطر أحدكم ، فليفطر على تمر ، فإن لم يجد فليفطر على الماء فإنه طهور » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأذان » باب « إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة » الخ ج ١ ص ١٢٣ . فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وانظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » باب « كراهة الصلاة بحضرة الطعام .. » الخ ج ١ ص ٣٩٢ حديث رقم ٦٤ ( .... ) من رواية ابن شهاب عن أنس بن مالك بلفظ « إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة .. » الخ ..

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ حديث ١٧٥٣ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « ما يقول إذا أفطر » ج ٤ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر

(٦) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « ما يقول إذا أفطر » فقد ورد الحديث من رواية عن معاذ بن زهرة . ج ٤ ص ٢٣٩

وروى الترمذى بسند حسن أنه — ﷺ — قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ( يستفاد منه استحباب الدعاء طول مدة الصيام ) » الإمام العادل والمظلوم »

#### ٤ — الكف عما يتنافى مع الصيام :

الصيام عبادة من أفضل القربات ، شرعه الله — تعالى — ليهذب النفس ويعودها الخير . فينبغي أن يتحفظ الصائم من الأعمال التي تخدش صومه حتى ينتفع بالصيام وتحصل له التقوى التي ذكرها الله في قوله : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١).

وليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب ، وإنما هو إمساك عن الأكل والشرب وسائر ما نهى الله عنه .

فعن أبي هريرة أن النبي — ﷺ — قال : « ليس الصيام ، من الأكل والشرب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سأتك أحد ، أو جهل عليك ، فقل إني صائم . إني صائم » (٢) رواه ابن خزيمة . وابن حبان والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وروى الجماعة إلا مسلماً عن أبي هريرة : أن النبي — ﷺ — قال : من لم يدع ( يترك ) قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » (٣) ( أى ليس لله إرادة في قبول صيامه : أى إن الله لا يقبل صيامه ) .

وعنه أن النبي — ﷺ — قال : « رُب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » (٤) رواه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « في الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ فقد ورد الحديث ١٧٥٢ عن أبي هريرة بلفظ « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتي لأنصركن ولو بعد حين » .  
(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « ترهيب الصائم من الغيبة والفحش والكذب .. الخ » ج ٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ ، فقد ورد الحديث رقم ٤ عن أبي هريرة بلفظه .  
وقال : رواه ابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب اللباس » باب « قول الله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ » ج ٤ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » .  
(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في الغيبة والرفث للصائم » ج ١ ص ٥٣٩ فقد ورد الحديث ١٦٩٠ عن أبي هريرة بلفظه .

## ٥ - السواك :

ويستحب للصائم أن يتسوك أثناء الصوم ، ولا فرق بين أول النهار وآخره .

قال الترمذى : « ولم ير الشافعى بالسواك أول النهار وآخره بأساً » . وكان النبى - ﷺ - يتسوك وهو صائم (١) .

## ٦ - الجود ومدارسة القرآن :

الجود ومدارسة القرآن مستحبان فى كل وقت ، إلا أنهما آكد فى رمضان روى البخارى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة » (٢) ( أى فى الإسراع والعموم ) .

## ٧ - الاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان :

روى البخارى ومسلم عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - « كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المنزر » (٣) .

وروى الترمذى وصححه عن على - رضى الله عنه - قال : « كان رسول الله - ﷺ - يوقظ أهله فى العشر الأواخر ، ويرفع المنزر » (٤) .

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ حديث رقم ١٦٧٧ ، فقد ورد عن عائشة قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « من خير خصال الصائم السواك » قال وفى الزوائد فى إسناده مجالد وهو ضعيف ، لكن له شاهد من حديث عامر بن ربيعة . رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « صفة النبى » ج ٢ ص ٢٧٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس . (٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « العمل فى العشر الأواخر » ج ١ ص ٣٤٤ فقد ورد الحديث عن عائشة وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ١١٧٤ / ٧ فقد ورد عن عائشة « كان إذا دخل العشر أحيا الليل » الخ وورد الحديث رقم ١١٧٥ / ٨ عن عائشة قالت : « كان رسول الله - ﷺ - يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيره » .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب « ما جاء فى ليلة القدر » حديث ٧٩٢ فقد ورد الحديث عن عائشة ولم يرد

فيه « ويرفع المنزر » .

## مباحات الصيام

يباح في الصيام ما يأتي :

١ - نزول الماء والانغماس فيه :

لما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن ، عن بعض أصحاب النبي - ﷺ - : أنه حدث فقال : « ولقد رأيت رسول الله - ﷺ - يصب على رأسه الماء وهو صائم ، من العطش أو من الحر »<sup>(١)</sup> رواه أحمد ومالك وأبو داود بإسناد صحيح .

وفي الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - : « كان يصبح جنباً وهو صائم ثم يغتسل »<sup>(٢)</sup> فإن دخل الماء في جوف الصائم عن غير قصد فصومه صحيح .

٢ - الاكتحال والقطرة ونحوهما مما يدخل العين سواء أوجد طعمه في حلقه أم لم يجده ، لأن العين ليست بمنفذ إلى الجوف .

وعن أنس : « أنه كان يكتحل وهو صائم »<sup>(٣)</sup> .

وإلى هذا ذهب الشافعية ، وحكاها ابن المنذر عن عطاء والحسن والنخعي والأوزاعي وأبي حنيفة وأبي ثور .

وروى عن ابن عمر وأنس وابن أبي أوفى عن الصحابة . وهو مذهب داود . ولم يصح في هذا الباب شيء عن النبي - ﷺ - كما قال الترمذي .

٣ - القبلة : لمن قدر على ضبط نفسه :

فقد ثبت عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان النبي - ﷺ - يقبل وهو صائم ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم لإربه »<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر سنن البيهقي « كتاب الصيام » باب « الصائم يصب على رأسه الماء » ج ٤ ص ٢٦٣ من رواية لأبي بكر بن عبد الرحمن عن جدته .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « الصائم يصبح جنباً » ج ١ ص ٣٢٩ فقد أخرجت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله - ﷺ - كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب » ج ٢ ص ٧٧٩ - ٨٧٠ فقد ورد الحديث رقم ١١٠٩ / ٧٥ فقد أخرجت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله - ﷺ - كان النبي - ﷺ - يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم » وانظر الأحاديث بعده .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء في السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ فقد ورد الحديث ١٦٧٨ أن عائشة قالت : اكتحل رسول الله - ﷺ - وهو صائم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة .. الخ » ج ٢ ص ٧٧٧ حديث رقم ١١٠٦ / ٦٥ عن رواية عائشة وقد ورد الحديث بلفظه وانظر الحديث قبله والحديث بعده .

وعن عمر — رضى الله عنه — أنه قال : « هشتت ( نشطت ) يوماً ، فقبلت وأنا صائم ، فأتيت النبي — ﷺ — فقلت : صنعت اليوم أمراً عظيماً ، قبلت وأنا صائم ، فقال رسول الله — ﷺ — : أرأيت لو تفضضت بماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس بذلك ، قال : فقيم ( أى فقيم السواك )

قال ابن المنذر : رخص في القبلة عمر وابن عباس وأبو هريرة وعائشة وعطاء والشعبي والحسن وأحمد وإسحاق .

ومذهب الأحناف والشافعية : أنها تكره على من حركت شهوته ولا تكره لغيره ، لكن الأولى تركها ، ولا فرق بين الشيخ والشاب في ذلك ، والاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال . فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوى كرهت . وإن لم تحركها لشاب أو شيخ ضعيف ، لم تكره والأولى تركها .

وسواء قبل الخد أو الفم أو غيرهما . وهكذا المباشرة باليد والمعانقة لهما حكم القبلة .  
٤ — الحقنة : مطلقاً سواء كانت للتغذية أو لغيرها ، وسواء أكانت في العروق ، أم تحت الجلد فإنها وإن وصلت إلى الجوف فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد .

٥ — الحجامة ( أخذ الدم من الرأس ) : فقد احتجم النبي — ﷺ — وهو صائم ( رواه البخارى ) إلا إذا كانت تضعف الصائم بأنها تكره له ، قال ثابت البناني لأنس : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم على عهد رسول الله — ﷺ — : قال : « لا . إلا من أجل الضعف »<sup>(١)</sup> رواه البخارى وغيره .

٦ — المضمضة والاستنشاق : إلا أنه تكره المبالغة فيهما . فعن لقيط بن صبرة أن النبي — ﷺ — قال : « فإذا استنشقت فأبلغ ، إلا أن تكون صائماً »<sup>(٢)</sup> . رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح .

وقد كره أهل العلم السُّعوط ( وضع الدواء في الأنف ) للصائم ورأوا أن ذلك يفطر ، وفي الحديث ما يقوى قولهم .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الحجامة والقيء للصائم » ج ١ ص ٣٣٢ فقد ورد الحديث عن ابن عباس وآخر عن أنس .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطهارة وسننها » باب المبالغة في الاستنشاق والاستنثار ج ١ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث رقم ٤٠٧ عن لقيط بن صبرة عن أبيه بلفظ .. قال : قلت : يا رسول الله : أخبرنى عن الوضوء ، قال : « أسبغ الوضوء ، وبالع في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً » .

قال ابن قدامة : وإن تَضَمُّضَ أو استنشَق في الطهارة فسبِق الماء إلى حلقه من غير قصد ولا إسراف فلا شيء عليه ، وبه قال الأوزاعي وإسحاق والشافعي في أحد قوليه ورُوي ذلك عن ابن عباس ، وقال مالك وأبو حنيفة : « يفطر لأنه أوصل الماء إلى جوفه ذاكراً لصومه » فأفطر ، كما لو تعمد شربه .

قال ابن قدامة مرجحاً الرأي الأول ، ولنا أنه إذا وصل الماء إلى حلقه من غير إسراف ولا قصد ، فأنشبه مالوطات ذبابة إلى حلقه ، وبهذا فارق المتعمد . ( قال ابن عباس : دخول الذباب في حلق الصائم لا يفطر ) .

٧ — وكذا يباح له ما لا يمكن الاحتراز عنه ، كبلع الريق وغبار الطريق وغربة الدقيق والنخامة ونحو ذلك .

وقال ابن عباس : لا بأس أن يذوق الطعام الخل والشيء يريد شراؤه .  
وكان الحسن يمضغ الجوز لابن ابنه وهو صائم ، ورخص فيه إبراهيم .

وأما مضغ العلك ( اللبان ) فإنه مكروه ، إذا كان لا يفتت منه أجزاء وممن قال بكراهته : الشعبي والنخعي ، والأحناف والشافعي والحنابلة .

ورخصت عائشة وعطاء في مضغه ، لأنه لا يصل إلى جوفه فهو كالحصاة يضعها في جوفه .  
هذا إذا لم تتحلل منه أجزاء ، فإن تحللت منه أجزاء ونزلت إلى الجوف ، أفطر .

قال ابن تيمية : « وشم الروائح الطيبة لا بأس به للصائم ، وقال : أما الكحل والحقنة وما يقطر في إحليله ، ومداواة المأمومة والجائفة ، فهذا مما تنازع فيه أهل العلم ، فمنهم من لم يفطر بشيء من ذلك ، ومنهم من فطر بالجميع لا بالكحل ، ومنهم من فطر بالجميع لا بالتقطير ، ومنهم من لا يفطر بالكحل ولا بالتقطير ، ويفطر بما سوى ذلك .

ثم قال مرجحاً الرأي الأول : والأظهر أنه لا يفطر بشيء من ذلك ، فإن الصيام من دين الإسلام ، الذي يحتاج إلى معرفته الخاص والعام .

فلو كانت هذه الأمور مما حرمها الله ورسوله في الصيام ويفسد الصوم بها ، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه ، ولو ذكر ذلك لعلمه الصحابة وبلغوه الأمة كما بلغوا سائر شرعه . فلما لم ينقل

أحد من أهل العلم عن النبي ﷺ - في ذلك ، لا حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداً ولا مرسلًا علم أنه لم ينكر شيئاً من ذلك .

قال : فإذا كانت الأحكام التي تعمُّ بها البلوى ، لا بد أن يبينها الرسول ﷺ - بياناً عاماً ، ولا بد أن تنقل الأمة ذلك . فمعلوم أن الكحل ونحوه مما تعمُّ به البلوى كما تعمُّ بالدهن والإغتسال والبخور والطيب .

فلو كان هذا مما يفطر لبينه النبي ﷺ - كما بين الإفطار بغيره ، فلما لم يبين ذلك ، علم أنه من جنس الطيب والبخور والدهن والبخور قد يتصاعد إلى الأنف ويدخل في الدماغ ، وينعقد أجساماً .

والدهن يشربه البدن ويدخل داخله ويتقوى به الإنسان ، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة . فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطيبه وتبخيره وادهانه ، وكذلك اكتحاله .

وقد كان المسلمون في عهده - - يجرح أحدهم إما في الجهاد وإما في غيره ، مأمومة وجائفة ، فلو كان هذا يفطر ، لبين لهم ذلك فلما لم ينه الصائم عن ذلك ، علم أنه لم يجعله مفطراً . ثم قال : فإن الكحل لا يغذى البتة ، ولا يدخل أحد كحلاً إلى جوفه ، لا من أنفه ولا من فمه .

وكذلك الحقنة يقصد الحقنة الشرجية ، فإنها لا تفطر الصائم - وإن كان بعض المذاهب تعدها من المفطرات - لأنها لا تغذى بل تستفرغ ما في البدن ، كما لو شمس شيئاً من المسهلات ، أو فزع فزعا أوجب استطلاق جوفه ، وهي لاتصل إلى المعدة والدواء الذي يصل إلى المعدة ، في مداواة الجائفة ( أى : الجراحة التي تصل إلى الجوف ) ، والمأمومة ( أى : الشجة في الرأس تصل إلى أم الدماغ ومداواتهم ليست تغذية ) لا يشبه ما يصل إليها من غذائه .

والله سبحانه قال : ﴿ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ (١) .

وقال ﷺ : « الصوم جنة » (٢) ، وقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم » (٣) .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٦ حديث رقم ١٦٢ / ١١٥١ فقد ورد الحديث

عن أنى هريرة بلفظ « الصيام جنة » .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٨٧ « كتاب الأحكام .. الخ » فقد ورد الحديث ولم يرد فيه « فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم »

وكذلك في مسند أحمد وغيره من غير هذه الزيادة .

وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه .



فالصائم نهى عن الأكل والشرب ، لأن ذلك سبب التقوى ، فترك الأكل والشرب الذى يؤلّد الدم الكثير الذى يجرى فيه الشيطان ، إنما يتولد من الغذاء ، لا عن حقنة ، ولا كحل ولا ما يقطر فى الذكر ، ولا ما يداوى به المأمومة والجائفة . انتهى ..

٨ — ويباح للصائم أن يأكل ويشرب ويجمع حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر وفى فمه طعام ، وجب عليه أن يلفظه أو كان مجامعاً وجب عليه أن ينزعه .

فإن لفظ أو نزعه صح صومه ، وإن ابتلع ما فى فمه من طعام مختاراً ، أو استدأ الجمار أفطر .

روى البخارى ومسلم عن عائشة — رضى الله عنها — : أن النبى — ﷺ — قال : « إن بلالاً يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »<sup>(١)</sup> .

٩ — ويباح للصائم أن يصبح جنباً .

١٠ — الحائض والنفساء إذا انقطع الدم من الليل جاز لهما تأخير الغسل إلى الصبح وأصبحتا صائمتين ، ثم عليهما أن يتطهرا للصلاة .

## ما يبطل الصيام

ما يبطل الصيام قسماً .

١ — ما يبطله ويوجب القضاء .

٢ — وما يبطله ويوجب القضاء والكفارة .

فأما ما يبطله ويوجب القضاء فقط فهو ما يأتى :

١ ، ٢ — الأكل والشرب عمداً .

فإن أكل أو شرب ناسياً أو مخطئاً أو مكرهاً فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة أن النبى — ﷺ — قال : « من نسى وهو صائم فأكل أو شرب ، فليتم صومه ،

فإنما أطعمه الله وسقاه »<sup>(٢)</sup> رواه الجماعة .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا تمتنعكم من سحوركم أذان بلال » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد هذا من حديث عائشة وفيه ... فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر .. الخ » ج ٢ ص ٧٦٨ حديث ٣٨ / ١٠٩٢ فقد ورد الحديث عن ابن عمر وورد مثله عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً » ج ١ ص ٣٣٠ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أكل الناس وشربه وجماعه لا يفطر » ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧١ / ١١٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم . وبه يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد وإسحاق .

وروى الدارقطنى والبيهقى والحاكم . وقال — صحيح على شرط مسلم — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « من أفطر فى رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة »<sup>(١)</sup> قال الحافظ بن حجر : إسناده صحيح .

وعن ابن عباس — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما إستكرهوا عليه »<sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجه والطبرانى والحاكم .

٣ — القىء عمداً :

فإن غلبه القىء فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة — رضى الله عنه — ، أن النبى — ﷺ — قال : « من ذرعه ( غلبه ) القىء فليس عليه قضاء ، ومن استقاء ( تعمد القىء واستخرجه ، بشم ما يقيئه أو بإدخال يده ) عمداً فليقض »<sup>(٣)</sup> رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان والدارقطنى والحاكم وصححه .

قال الخطابى : لا أعلم خلافاً بين أهل العلم فى أن من ذرعه القىء لا قضاء عليه ، ولا فى أن من استقاء عمداً فعليه القضاء .

٤ ، ٥ — الحيض والنفاس ، ولو فى اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس ، وهذا مما أجمع عليه العلماء .  
٦ — الاستمناء : ( تعمد اخراج المنى بأى سبب من الأسباب ) ، سواء أكان سببه تقبيل الرجل لزوجته أو ضمها إليه ، أو كان باليد ، فهذا يبطل الصوم ويوجب القضاء .

فإن كان سببه مجرد النظر أو الفكر فإنه مثل الاحتلام نهاراً فى الصيام ، لا يبطل الصوم ولا يجب فيه شيء .

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه ولا قضاء عليه » ج ٤ ص ٢٢٩ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى الصائم بقىء » ج ١ ص ٥٣٦ حديث ١٦٧٦ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

وكذلك الذى لا يؤثر فى الصوم قَلَّ أو كَثُر .

٧ — تناول ما لا يتغذى به من المنفذ المعتاد إلى الجوف مثل تعاطى الملح الكثير ، فهذا يفطر فى قول عامة أهل العلم .

٨ — ومن نوى الفطر وهو صائم بطل صومه ، وإن لم يتناول مفطراً .

فإن النية ركن من أركان الصيام ، فإذا نقضها قاصداً الفطر ومتعمداً له انتقض صيامه لا محالة .

٩ — إذا أكل أو شرب أو جامع ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك ، فعليه القضاء عند جمهور العلماء ، ومنهم الأئمة الأربعة .

وذهب إسحاق وداود وابن حزم وعطاء وعروة والحسن البصرى ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقول الله تعالى : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ <sup>(١)</sup> .

ولقول رسول الله ﷺ : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » <sup>(٢)</sup> رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

وروى عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت — عباساً ( أى : أقداً ضخماً ، قيل : إن القدح نحو ثمانية أرتال ) أخرجت من بيت حفصة فشربوا ، ثم طلعت الشمس من سحاب فكأن ذلك شق على الناس . فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لم ؟ والله ما تجانفنا الإثم . ( التجانف : الميل ، أى لم نمل لارتكاب الإثم ) .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر — رضى الله عنها — قالت : أفطرنا يوماً من رمضان فى غيم على عهد رسول الله — ﷺ — ، ثم طلعت الشمس <sup>(٣)</sup> .

(١) سورة الأحزاب الآية ٥

(٢) انظر سنن ابن ماجة « كتاب الطلاق » باب « طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر الحديث ٢٠٤٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب إذا أفطر فى رمضان ثم طلعت الشمس ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أسماء بنت أبى بكر .

قال ابن تيمية : وهذا يدل على شيئين :

الأول : يدل على أنه لا يُستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبي ﷺ ، والصحابة — مع نبهم — اعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم .  
والثاني يدل على أنه لا يجب القضاء . فإن النبي ﷺ — لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك كما نقل فطرهم ، فلما لم ينقل ، دلّ على أنه لم يأمرهم به .

وأما ما يطله ويوجب القضاء والكفارة فهو الجماع لا غير عند الجمهور .

فعن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ — فقال : هلك يا رسول الله . قال : « وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى في رمضان . فقال : هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين . قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا . قال : ثم جلس ، فأقى النبي ﷺ — بقرق ( مكيال يسع ١٥ صاعاً ) فيه تمر فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على أفقر منا ؟ فما بين لابتها ( جمع لابة . وهى الأرض التى فيها حجارة سود والمراد ما بين أطراف المدينة أفقر منا ) . أهل بيت أحوج إليه منا . فضحك النبي ﷺ — حتى بدت نواجذه وقال : اذهب فأطعمه أهلك » (١) رواه الجماعة .

( استدلل بهذا من ذهب إلى سقوط الكفارة بالإعسار ، وهو أحد قولى الشافعى ، ومشهور مذهب أحمد ، وجزم به بعض المالكية والجمهور على أن الكفارة لا تسقط بالإعسار ) .

ومذهب الجمهور : أن المرأة والرجل سواء في وجوب الكفارة عليهما . ما دام قد تعمد الجماع ، مختارين في نهار رمضان ( فإن كان الصيام قضاء رمضان ، أو نذراً وأفطر بالجماع ، فلا كفارة في ذلك ) ناويين الصيام . فإن وقع الجماع نسياناً ، أو لم يكونا مختارين ، بأن أكرها عليه ، أو لم يكونا ناويين الصيام ، فلا كفارة على واحد منهما . فإن أكرهت المرأة من الرجل ، أو كانت مفطرة لعذر وجبت الكفارة عليه دونها .

ومذهب الشافعى : أنه لا كفارة على المرأة مطلقاً ، لا في حالة الاختيار ولا في حالة الإكراه — وإنما يلزمها القضاء فقط .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء فتصدق عليه فليكفر » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .  
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٧٨١ — ٧٨٢ حديث ١١١١ / ٨١ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .

قال النووي : والأصح — على الجملة — وجوب كفارة واحدة عليه خاصة عن نفسه فقط ، وأنه لا شيء على المرأة ولا يلاقيها الوجوب لأنه حق مال مختص بالجماع فاختص به الرجل دون المرأة ، كالمهر .

قال أبو داود : سئل ( هذه إحدى الروايتين عن أحمد ) أحمد عمن أتى أهله في رمضان ، أعليها كفارة ؟ قال : ما سمعنا أن على امرأة كفارة .

قال في المعنى : ووجه ذلك : أن النبي — ﷺ — « أمر الواطيء في رمضان أن يعتق رقبة » ولم يأمر في المرأة بشيء مع علمه بوجود ذلك منها .

والكفارة على الترتيب المذكور في الحديث ، في قول جمهور العلماء .  
فيجب العتق أولاً ، فإذا عجز عنه صام شهرين متتابعين ( ليس فيهما رمضان ولا أيام العيدين والتشريق ) فإن عجز عنه أطعم ستين مسكيناً من أوسط ما يطعم منه أهله ( مذهب أحمد لكل مسكين مد من قمح ، أو نصف صاع من تمر ، أو شعير ونحوهما . وقال أبو حنيفة : من القمح نصف صاع ومن غيره صاع . وقال الشافعي ومالك : يطعم مداً من أى الأنواع شاء . وهذا رأى أبى هريرة وعطاء والأوزاعي ، وهو أظهر . فإن العرق الذى أعطى للأعرابي يسع ١٥ صاعاً ) . وأنه لا يصح . الانتقال من حالة إلى أخرى ، إلا إذا عجز عنها . ومذهب المالكية ورواية لأحمد : أنه مخير بين هذه الثلاث فأياً فعل أجزأ عنه .

لما روى مالك وابن جريج . عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة « أن رجلاً أفطر في رمضان ، فأمره رسول الله — ﷺ — أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً » (١) رواه مسلم . و « أو » تفيد التخيير .

ولأن الكفارة بسبب المخالفة ، فكانت على التخيير . ككفارة اليمين .  
قال الشوكاني : وقد وقع في الروايات ما يدل على الترتيب والتخيير ، والذين رووا الترتيب أكثر ومعهم الزيادة .

وجمع المهلب والقرطبي بين الروايات بتعدد الواقعة . قال الحافظ : وهو بعيد لأن القصة واحدة والمخرج متحد ، والأصل عدم التعدد . وجمع بعضهم بحمل الترتيب على الأولوية ، والتخيير على الجواز ، وعكسه بعضهم . انتهى .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ حديث ١١١١ / ٨٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

ومن جامع عامداً في نهار رمضان ، ولم يكفر ثم جامع في يوم آخر منه فعليه كفارة واحدة عند الأحناف ، ورواية عن أحمد ، لأنها جزاء عن جناية تكرر سببها قبل استيفائها ، فتتداخل .

وقال مالك والشافعي ، ورواية عن أحمد : عليه كفارتان ، لأن كل يوم عبادة مستقلة ، فإذا وجبت الكفارة بإفساده لم تتداخل كرمضانين . وقد أجمعوا : على أن من جامع في نهار رمضان عامداً وكفر ، ثم جامع في يوم آخر ، فعليه كفارة أخرى .

وكذلك أجمعوا على أن من جامع مرتين في يوم واحد ولم يكفر عن الأول : أن عليه كفارة واحدة .

فإن كفر عن الجماع الأول لم يكفر ثانياً عند جمهور الأئمة . وقال أحمد : عليه كفارة ثانية .

### قضاء رمضان

قضاء رمضان لا يجب على الفور ، بل يجب وجوباً موسعاً في أى وقت وكذلك الكفارة .

فقد صح عن عائشة أنها كانت تقضى ما عليها من رمضان في شعبان ( رواه أحمد ومسلم ) ولم تكن تقضيه فوراً عند قدرتها على القضاء .

والقضاء مثل الأداء ، بمعنى أن من ترك أياماً يقضيها دون أن يزيد عليها .

ويُفارق القضاء الأداء في أنه لا يلزم فيه التتابع . لقول الله — تعالى — : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ <sup>(١)</sup> . أى ومن كان مريضاً ، أو مسافراً فأفطر ، فليصم عدة الأيام التي أفطر فيها في أيام أخر متتابعات أو غير متتابعات ، فإن الله أطلق الصيام ولم يقيده .

وروى الدارقطني عن ابن عمر — رضى الله عنهما — ، أن النبي — ﷺ — قال في قضاء رمضان : « إن شاء فَرَّق وإن شاء تابع » <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٢) انظر سنن الدارقطني « كتاب الصيام » ج ٢ ص ١٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر تحت رقم ٧٤ .

وإن أخر القضاء حتى دخل رمضان آخر صام رمضان الحاضر ثم يقضى بعده ما عليه ، ولا فدية عليه ، سواء كان التأخير لعذر أو لغير عذر .

وهذا مذهب الأحناف والحسن البصرى .

ووافق مالك والشافعى وأحمد واسحاق . أنه لا فدية عليه إذا كان التأخير بسبب العذر .

وخالفوهم فيما إذا لم يكن له عذر فى التأخير . فقالوا : عليه أن يصوم رمضان الحاضر ، ثم يقضى ما عليه بعده ، ويفدى عما فاتة عن كل يوم مداً من طعام .

وليس لهم فى ذلك دليل يمكن الاحتجاج به .

فالظاهر ماذهب إليه الأحناف ، فإنه لا شرع إلا بنصر صحيح .

### من مات وعليه صيام

أجمع العلماء على أن من مات وعليه فوائت من الصلاة فإن وليه لا يصلى عنه ، هو ولا غيره ، وكذلك من عجز عن الصيام لا يصوم عنه أحد أثناء حياته . فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء فى حكمه .

فذهب جمهور العلماء ، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعى إلى أن وليه لا يصوم عنه ويطعم عنه مدّاً عن كل يوم ( يرى الحنفية أن الواجب نصف صاع من قمح ، وصاع من غيره ) .

والمذهب المختار عند الشافعية أنه يستحب لوليه أن يصوم عنه ويبرأ به الميت ولا يحتاج إلى إطعام عنه .

والمراد بالولى القريب ، سواء كان عصبية ، أو وارثاً أو غيرهما .

ولو سأم أجنبى عنه ، صح إن كان بإذن الولى ، وإلا فإنه لا يصح .

واستدلوا بما رواه أحمد والشيخان عن عائشة أن النبى ﷺ قال : « من مات وعليه صيام ،

صام عنه وليه»<sup>(١)</sup> زاد البزاز لفظ : إن شاء وسندها حسن وروى أحمد وأصحاب السنن : عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ، إن أمي ماتت وعليها صوم شهر ، أفأ قضيه عنها ؟ » فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضية عنها ؟ قال : نعم . قال : فدين الله أحق أن يقضى »<sup>(٢)</sup> .

قال النووي : « وهذا القول هو الصحيح المختار الذي نعتقه وهو الذي صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .  
— التقدير في البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها :

اختلف الفقهاء في التقدير في البلاد التي يطول نهارها ويقصر ليلها ، والبلاد التي يقصر نهارها ويطول ليلها على أي البلاد يكون ؟  
ف قيل : يكون التقدير على البلاد المعتدلة التي وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل : على أقرب بلاد معتدلة إليهم .

## ليلة القدر

— فضلها :

ليلة القدر أفضل ليالي السنة لقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾<sup>(٣)</sup> .

— أي القرآن : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾<sup>(٤)</sup> .

أي العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٣ حديث ١١٤٧ / ١٥٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٤ حديث ١١٤٨ / ١٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة القدر الآيات ١ - ٣

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٥



— استحباب طلبها :

ويستحب طلبها في الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبي — ﷺ — يجتهد في طلبها في العشر الأواخر من رمضان .

فقد كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر ( أى اعتزل النساء واشتد في العبادة )<sup>(١)</sup> .

— أى الليالى هي ؟

للعلماء آراء في تعيين هذه الليلة ، فمنهم من يرى أنها ليلة الحادى والعشرين ، ومنهم من يرى انها ليلة الثالث والعشرين ، ومنهم من يرى أنها ليلة الخامس والعشرين ، ومنهم من ذهب إلى أنها ليلة التاسع والعشرين . ومنهم من قال : انها تنتقل في ليالى الوتر من العشر الأواخر .

وأكثرهم على أنها ليلة السابع والعشرين .

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان متحريراً فليتحربها ليلة السابع والعشرين »<sup>(٢)</sup> .

وروى مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى بن كعب أنه قال : « والله الذى لا إله إلا هو إنها لفي رمضان — يحلف ما يستثنى — والله انى لأعلم أى ليلة هي . هي الليلة التى أمرنا رسول الله — ﷺ — بقيامها . هي ليلة سبع وعشرين . وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها »<sup>(٣)</sup> .

— قيامها والدعاء فيها :

١ — روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الاعتكاف » باب « الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ١١٧٤ / ٧ عن عائشة في ذلك .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب فضل ليلة القدر .. الخ ج ٢ ص ٨٢٨ حديث ٢٢٠ / ٧٦٢ فقد ورد الحديث عن أبى بن كعب في هذا .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » . وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح » ج ١ ص ٥٢٣ — ٥٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٧٥ / ٧٦٠ من رواية لأبى هريرة بلفظ البخارى .

٢ — وروى أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه عن عائشة رضى الله عنها — قالت : قلت : يا رسول الله ، أرايت إن علمت أى ليلة القدر . ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفواً تحب العفو فاعف عني »<sup>(١)</sup> .

## الإطعام

قوله تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ فمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِينَ مِسْكِيناً ﴾ أى : من أوسط ما يطعم منه أهله ﴿ ذَلِكَ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أى : لتصدقوا بأحكامه وتمثلوا أمره وأمر رسوله وليحدث لكم كمال الإيمان ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أى : الجاحدين لأحكام الله — تعالى — الخارجين عن التصديق بما بعث به نبيه — ﷺ — والعذاب الأليم هو المؤلم الذى قال الله فيه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾<sup>(٢)</sup> .

## كتاب الظهار

والآن نبين بالتفصيل ما جاء عن الفقهاء من أحكام فى الظهار ، فنقول وبالله التوفيق :

تعريفه :

الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى .

قال فى الفتح :

« وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمي الركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك . لأنها مركوب الرجل » .

والظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فأبطل الإسلام هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً للمرأة حتى يكفر زوجها .

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الدعاء » باب « الدعاء بالعفو والعافية » ج ٢ ص ١٢٦٥ حديث ٣٨٥٠ فقد ورد الحديث عن عائشة .

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق ، كان ظهاراً ، ولو طلق يريد ظهاراً ، كان طلاقاً ، فلو قال : « أنت على كظهر أمي » ، وعنى به الطلاق ، لم يكن طلاقاً ، وكان ظهاراً لا تطلق به المرأة .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية ، فنسخ ، فلم يجوز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً أن أوس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضاً فإنه صريح في حكمه ، فلم يجوز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد أجمع العلماء على حرمة ، فلا يجوز الإقدام عليه لقول الله — تعالى — : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم إنا أمهاتهم إلا اللائ ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ﴾ .

وأصل ذلك ما ثبت في السنن أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة . وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ — واشتكت إلى الله ، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات . فقالت : « يا رسول الله ، إن أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة مرغوب في ، فلما خلاسني ، ونثرت بطني ، جعلني كأمه عنده ، فقال لها رسول الله ﷺ : « ما عندى في أمرك شيء » .

فقالت : « اللهم إني أشكو إليك » .

وروى أنها قالت : « ان لي صبية صغيراً ، ان ضمهم اليه ضاعوا ، وان ضممتهم إلي جاعوا » . فتنزل القرآن .

وقالت عائشة : « الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات » ، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ — وأنا في كسر البيت يخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

فقال النبي ﷺ — :

« ليعتق رقبة ! قالت : لا يجد ! قال : فيصوم شهرين متتابعين . قالت : يا رسول الله ، إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ما عنده من شيء يتصدق به . قال :

سأعيته بعزق من تمر ! قالت : وأنا أعيته بعزق آخر . قال : أحسنت فأطعمي عنه ستين مسكيناً ، وارجعي إلى ابن عمك «<sup>(١)</sup>» .

وفي السنن أن سلمة بنت صخر البياضي ، ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان ، ثم واقعها ليلة قبل إنسلاخه . فقال له النبي ﷺ — أنت بذاك يا سلمة . قال : قلت : أنا بذاك ( أى أنت الملم بذاك والمرتكب له ) يا رسول الله ؟ — مرتين — وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم في بما أراك الله . قال : حرر رقبة . قلت : والذي بعثك بالحق نبياً ما أملك — قبة غيرها — وضربت صفحة رقبتي ، قال : فصم شهرين متتابعين . قال : فهل أصبت الذي أصبت إلا في الصيام ؟ قال : فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً . قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا وحشين ( أى بتنا مقفرين لا طعام لنا ) . ما لنا طعام . قال : فانطلق إلى صدقة بنى زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها . قال : خرجت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند رسول الله السورة وحسن الرأي ، وقد أمر لي بصدقتكم «<sup>(٢)</sup>» .

— هل الظهار مختص بالأم ؟

ذهب الجمهور إلى أن الظهار ، يختص بالأم كما ورد في القرآن وكما جاء في السنة . فلو قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي ، كان مظاهراً ، ولو قال لها : أنت علي كظهر أختي لم يكن مظاهراً . وذهب البعض ، ومنهم الأحناف والأوزاعي والثوري والشافعي في أحد قوليه ، وزيد بن علي ، إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم ، ( قال الأئمة الثلاثة ورواية عن أحمد ، إذا قالت المرأة لزوجها : أنت علي كظهر أمي ، فإنه لا كفارة عليها ، وقال أحمد في الرواية الأخرى — وهي أظهرها — يجب عليها الكفارة إذا وطئها ، وهي التي اختارها الخرق ) .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته في التحريم بإحدى المحرمات عليه ، على وجه التأييد بالنسب أو المصاهرة أو الرضاع ، إذ العلة هي التحريم المؤبد .

ومن قال لامرأته : إنها أختي أو أمي على سبيل الكرامة والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً .

والظهار لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم . لزوجته . قد انعقد زواجها انعقاداً صحيحاً

نافذاً .

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث عن خولة بنت نبلة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ — ٦٦٦ حديث رقم ٢٠٦٢ فقد ورد الحديث من رواية سلمة بن صخر البياض .. مع اختلاف في بعض ألفاظه .

— الظهار المؤقت :

الظهار المؤقت هو إذا ظاهر من امرأته إلى مدة ، مثل أن يقول : « أنت على كظهر أمي إلى الليل » ثم أصابها قبل انقضاء تلك المدة .

وحكمه أنه ظهار كالمطلق .

قال الخطابي :

واختلفوا فيه إذا بر فلم يحنث :

فقال مالك وابن أبي ليلى : إذا قال لامرأته : « أنت على كظهر أمي إلى الليل » لزمته الكفارة وإن لم يقربها .

وقال أكثر أهل العلم : لا شيء عليه إن لم يقربها .

قال : وللشافعي في الظهار المؤقت قولاً : أحدهما أنه ليس بظهار .

— أثر الظهار :

إذا ظاهر الرجل من امرأته ، وصح الظهار ، ترتب عليه أثران :

الأثر الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقول الله سبحانه : ﴿ من قبل أن يتأسا ﴾ .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل والمعانقة ونحو ذلك ، وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب بعض أهل العلم ( هذا رأى الثوري ، وأحد قولي الشافعي ) إلى أن المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

والأثر الثاني : وجوب الكفارة بالعود .

وما هو العود ؟

اختلف العلماء في العود ... ما هو ؟

فقال قتادة ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة وأصحابه :

« انه إرادة المسيس لما حرم بالظهار » لأنه إذا أراد ، فقد عاد من عزم ، إلى عزم الفعل ، سواء

فعل أم لا .

وقال الشافعي :

بل هو إمساكها بعد الظهر وقتاً يسع الطلاق ، ولم يطلق إذ تشبيها بالأُم يقتضى إبانها ، وإمساكها نقيضه ، فإذا أمسكها فقد عاد فيما قال ، لأن العود للقول مخالفته .

وقال مالك وأحمد :

بل هو العزم على الوطء فقط ، وإن لم يطأ .

وقال داود وشعبة ، وأهل الظاهر :

بل إعادة لفظ الظهر فالكفارة لا تجب عندهم إلا بالظهر المعاد ، لا المبتدأ .

— المسيس قبل التكفير :

إذا مس الرجل زوجته قبل التفكير ، فإن ذلك يحرم ، والكفارة لا تسقط ولا تتضاعف ، بل تبقى كما هي ، كفارة واحدة .

قال الصّلب بن دينار : سألت عشرة من الفقهاء عن المظاهر بجامع قبل أن يكفر ؟ فقالوا : كفارة واحدة .

— ما هي الكفارة ؟

والكفارة هي : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً . لقول الله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَظَاهَرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامَ سِتِينَ مَسْكِيناً ﴾ .

وقد روعي في كفارة الظهر التشديد ، محافظة على العلاقة الزوجية ومنعاً من ظلم المرأة ، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها ، احترم العلاقة الزوجية ، وامتنع عن ظلم زوجته .

## الظهار وكفارته في الإسلام

تحت هذا العنوان كتب الشيخ الصابوني في كتابه ( روائع البيان — تفسير آيات الأحكام ) فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير .  
الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً  
من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة  
من قبل أن يأتيا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من  
قبل أن يأتيا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين  
عذاب أليم ﴾ .

## التحليل اللفظي

﴿ سمع الله ﴾ : السمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، فهما من صفات  
الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفاً بهما .

ومعنى السميع : المدرك للأصوات من غير أن يكون له أذن لأنها لا تخفى عليه .

قال أبو السعود : ومعنى سمعه — تعالى — لقولها : إجابة دعائها ، لا مجرد علمه — تعالى —  
بذلك كما هو المعنى بقوله — تعالى — : ﴿ والله يسمع تحاوركما ﴾ أى : يعلم تراجعكما الكلام .

﴿ تجادلك ﴾ أى : تراجعك في شأن زوجها ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .

وفي الحديث : ( ما أوقى قوم الجدل إلا ضلوا )<sup>(١)</sup> والمراد بالحديث الجدل على الباطل ، وطلب

(١) هذا جزء حديث رواه الترمذى عن أنى أمانة في ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الزخرف ج ٥ ص ٣٧٨ رقم ٣٢٥٣  
ولفظه : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ﷺ — هذه الآية : ﴿ ما ضربه لك إلا جدلا  
بل هم قوم خصمون ﴾ »

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .  
ورواه ابن ماجه في المقدمة ج ١ ص ١٩ رقم ٤٨  
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

المغالبة به . لإظهار الحق ، فإن ذلك محمود — لقوله — تعالى — : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾<sup>(١)</sup> والمراد هنا : المراجعة فى الكلام .

﴿ وتشتكى ﴾ الشكوى : إظهار البث وما انطوت عليه النفس من الهم والغم . وفى التنزيل : ﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾<sup>(٢)</sup> وشكا واشتكى بمعنى واحد .

﴿ تحاوركما ﴾ المحاورة : المراجعة فى الكلام ، من حار الشيء ، يحور ، حوراً ، أى : رجع يرجع رجوعاً ، ومنه حديث : « تعوذ بالله من الحور بعد الكور »<sup>(٣)</sup> ومنه : فما أحر بكلمة ، أى : فما أجاب . قال عترة :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى  
ولكان لو علم الكلام مكلّمى

يريد به فرسه ، أى : لو كان يعلم الكلام لكلمنى .

﴿ يظاهرون ﴾ الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى . ومعناه الأصلى : مقابلة الظهر بالظهر ، يقال : ظاهر فلان فلاناً ، أى : قابل ظهره بظهره ، ثم استعمل فى تحريم الزوجة يجعلها محرمة كظهر أمه .

قال اللوسى : الظهار لغة : مصدر ظاهر ، وهو ( مفاعلة ) من الظهر ، ويراد به معان مختلفة ، راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض .

فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة .

وظاهره : إذا غايظة وإن لم يقابل حقيقة ، باعتبار أن المغايظة تقتضى ذلك .

وظاهره : إذا نصره ، باعتبار أنه يقال : قوى ظهره : إذا نصره .

وظاهر بين ثوبين : إذا لبس أحدهما فوق الآخر .

وظاهر من امرأته : إذا قال لها : أنت على كظهر أمى .

وهذا الأخير هو المعنى الذى نزلت فيه الآيات .

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٨٦ من سورة يوسف .

(٣) هذا جزء حديث رواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الدعاء ) باب ما يدعو به الرجل إذا سافر ج ٢ ص ١٢٧٩ رقم ٣٨٨٨ ولفظه : « اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآية المنقلب ، والحور بعد الكور ، ودعوة المظلوم ، وسوء النظر فى أهل والمال » .

وانظر الجامع الصحيح للترمذى ج ٥ ص ٤٩٨ رقم ٣٤٣٩ .



قال في الفتح : « وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمي المركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل » .

﴿ اللاتى ﴾ : جمع التى ، فيقال : اللاتى ، واللاتى . قال — تعالى — : ﴿ واللاتى يخافون نशوزهن ﴾ <sup>(١)</sup> .

﴿ منكراً ﴾ المنكر من الأمر : خلاف العروف ، وكل ما قبحه الشرع وحرّمه وكرهه فهو منكراً .

﴿ زوراً ﴾ الزور : الكذب والباطل الواضح ، ومنه شهادة الزور .  
﴿ تحرير رقبة ﴾ حرّره ، أى : جعلته حراً لوجه الله . والرقبة فى الأصل : العنق ، ثم أطلقت على ذات الإنسان تسمية للشئ ببعضه . والمراد بها المملوك عبداً أو أمة .

قال الآلوسى : وذلك من تسمية الكل باسم الجزء .  
﴿ يتامسا ﴾ المسّ : مسك الشئ باليد ، ثم استعير للجماع ، لأنه لمس والتصاق . لأن فيه التصاق الجسم بالجسم ، والتماس هنا : كناية عن الجماع .  
﴿ مسكيناً ﴾ المسكين : الذى لا شئ له ، وقيل : الذى لا شئ له يكفى عياله . وأصل المسكين فى اللغة : الخاضع .

والمراد به هنا ما يعم الفقير . والمسكين أحسن حالاً من الفقير .  
وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتماعا ( يعنى فى اللفظ ) افترقا ( فى المعنى ) وإذا افترقا اجتماعا .

﴿ حدود ﴾ الحد : الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وجمعه : حدود وحدود الله : الأشياء التى يبين تحريمها وتحليلها . وأمر أن لا يتعدى شئ منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها ومنع من مخالفتها .

وهنا قوله : ﴿ تلك حدود الله ﴾ <sup>(٢)</sup> يعنى الحدود بين معصيته وطاعته . فمعصيته الظهار . وطاعته الكفارة .

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .

(٢) من الآية ١٣ من سورة النساء .

## المعنى الإجمالي

إن الله — تعالى — سميع قريب ، يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، وهذه امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ — تشكو ظلم زوجها لها ، حيث حرّمها على نفسه بلفظ كانت الجاهلية تستعمله . أفيبقى هذا اللفظ محرماً في الإسلام ؟ !

جادلت رسول الله ﷺ — وتوجهت بالدعاء إلى المولى جل وعلا ، الذى لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، تشكو إليه وحدتها ، فلا أهل لها ولا معيل ولا نصير ، وقد كبر سنّها ، وأولادها صغار ، إن أبقتهم عنده ضاعوا ، وإن ضمّتهم إليه جاعوا .

ورسول الله — صلوات الله عليه — لا يشرّع من قبل نفسه ، وإنما يتبع الوحي الذى يأتيه من ربه ، ولم يوح إليه فى الظهار بشيء . ولذلك ما كان يجزم بالتحريم ، وإنما كان يقول : « ما أراك إلا قد حرّمت عليه »<sup>(١)</sup> فكانت تجادله .

استجاب الله دعاء هذه المرأة الضعيفة الوحيدة ، ونزل الوحي ليقول للزوج : زوجك التى ظهرت منها ليست بأملك . فأملك هى التى ولدتك حقيقة ، وحرمت عليك بذلك ، فكيف تصف ما أباحه الله لك بما حرّمه عليك ؟ إنك تقول قولاً يمقته الشرع ، فضلاً عن كونه كذباً وزوراً ، ومع ذلك فإن الله عفو عن من أخطأ ثم تاب ، غفور لمن وقف عند حدود الشرع ، واتبع أمر الله الذى أنزله على نبيه .

فمن ظاهر من زوجه وقال لها : أنت على كظهر أمى ، ثم أراد أن ينقض قوله ، ويعود إلى ما أحله الله له من زوجه ، فالواجب عليه أن يحرر عبداً مملوكاً قبل أن يمسك زوجه ، هذا حكم من ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، ويعلموا أن الله — جل وعلا — خير بكل ما يعملونه ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه .

فمن لم يجد الرقبة بأن كان لا يملك ثمنها ، أو لا يجد عبداً يشتريه ويعتقه فليصم شهرين متتابعين من قبل أن يقرب زوجه ، فإذا كان ضعيفاً لا يقوى على الصوم ، أو مريضاً يضعفه الصوم ، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ما يشبههم ، ذلك هو حكم الله فى الظهار ، لتؤمنوا أن هذا منزل من عند الله — تعالى — وتتبعوه وتقفوا عند حدود ما شرع لكم فلا تتعدوها .

## سبب النزول

أولاً : عن عائشة — رضى الله عنها — قالت :

« تبارك الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة وكلمت رسول الله — ﷺ — وأنا فى جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبائى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سبنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك .

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ، والنسائى مختصراً ، ورواه الواحدى فى أسباب النزول ، والطبرى ، والحاكم فى المستدرک وصححه ووافقه الذهبى ، ورواه ابن ماجه فى سننه بسند صحيح ، والبيهقى فى سننه .

ثانياً : وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — :

« كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت على كظهر أمى ، حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام ( أوس ) ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقى إلى رسول الله — ﷺ — فسله ، فأنته ، فنزلت هذه الآيات »<sup>(٢)</sup> . رواه البيهقى فى السنن ، والسيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه والنحاس .

ثالثاً : وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت :

ظاهر منى زوجى أوس بن الصنامت ، فجئت رسول الله — ﷺ — أشكو إليه وهو يجادلنى فيه ويقول : « اتقى الله فإنه ابن عمك » . فما برحت حتى نزل القرآن : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ... ﴾ إلى الفرض أى : إلى قوله — تعالى — : ﴿ فتحريز رقبة من قبل أن

(١) انظر صحيح البخارى ( كتاب التوحيد ) ج ٩ ص ١٤٤ فقد رواه مختصراً . ورواه أيضاً النسائى فى سننه فى ( الظهار ) ج ٥ ص ١٦٨ مختصراً .

وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الطلاق ) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣ .

وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب التفسير ) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٤٨١ .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى ( كتاب الظهار ) بروايتين ج ٧ ص ٣٨٢ .

ورواه السيوطى فى الدر المنثور فى ( تفسير سورة المجادلة ) ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ .

ورواه الطبرى فى تفسيره ( تفسير سورة المجادلة ) ج ٢٨ ص ٥ .

(٢) الحديث رواه البيهقى فى السنن فى ( كتاب الظهار ) ج ٧ ص ٣٨٢ . وانظر الدر المنثور للسيوطى فى ( تفسير سورة المجادلة )

يتماسا ... ﴿ الآية ، قال : « يعتق رقبة » قلت : لا يجد ، قال : « فيصوم شهرين متتابعين » قلت : يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً » قلت : ما عنده شيء يتصدق به . قال : « فأني سأعينه بعرق من تمر » ، قلت : يا رسول الله وإني أعينه بعرق آخر . قال : « قد أحسنت ، اذهبي فأطعمي بهما عنه ستين مسكيناً وارجعي إلى ابن عمك »<sup>(١)</sup> ، قال : والعرق : ستون صاعاً . رواه أبو داود ، والإمام أحمد بمعناه .

## وجوه القراءات

أولاً : قوله — تعالى — : ﴿ قد سمع الله ﴾ بإظهار الدال .

وقرأ أبو عمرو وحمزة الكسائي بإدغام الدال في السين .  
قال الكسائي : من قرأ ( قد سمع ) فبين الدال فلسانه أعجمي ليس بعرق .  
قال الآلوسي : « ولا يلتفت إلى هذا ، فكلا الأمرين فصيح متواتر ، بل الجمهور على البيان » .  
ثانياً : قوله — تعالى — : ﴿ تجادلك في زوجها ﴾ قراءة الجمهور تجادلك من المجادلة وهي المراجعة في الكلام .

وقرئ ﴿ تحاورك ﴾ أي : تراجعك الكلام .

ثالثاً : قوله — تعالى — : ﴿ يظاهرون من نسائهم ﴾ قرأ حفص وعاصم ﴿ يظاهرون ﴾ بضم الياء وكسر الهاء .

وقرأ نافع وابن كثير وعمرو ﴿ يظهرون ﴾ بتشديد الظاء والهاء وحذف الألف وفتح الياء .  
وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿ يظاهرون ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء والألف .  
وقرأ الحسن وقتادة : ﴿ يطهرون ﴾ بفتح الياء وفتح الظاء مخففة مكسورة الهاء مشددة والمعنى : ( يقولون هن : أنتن كظهور أمهاتنا ) .

رابعاً : قوله — تعالى — : ﴿ ماهن أمهاتهم ﴾ الجمهور بكسر التاء وهي لغة أهل الحجاز .

وقرأ المفضل عن عاصم ( أمهاتهم ) بالرفع على لغة تميم .

وقرأ ابن مسعود : ( بأمهاتهم ) بزيادة الباء .

(١) انظر سنن أبي داود ( كتاب الطلاق ) باب في الظهار ج ٢ ص ٢٦٦ رقم ٢٢١٤ ورواه الامام أحمد في مسنده ( حديث خولة بنت ثعلبة رضى الله عنها ) ج ٦ ص ١١٠ ، ١١١ .

## وجوه الإعراب

أولاً : قوله — تعالى — : ﴿ وتشتكى إلى الله ﴾ عطف على ﴿ تجادلک ﴾ فهو من عطف الجمل ، لا محل لها من الإعراب لكونها صلة للتي .

وجوز بعضهم أن تكون حالاً ، أى : تجادلک شاكية حالها إلى الله — تعالى — ويقدر مبتدأ ، أى : وهى تشتكى لأن المضارعية لا تقترن بالواو فى الفصحى ، فيقدر معها المبتدأ لتكون اسمية .

ثانياً : قوله — تعالى — : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ اسم الموصول ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، أى : مخطئون ، وأقيم دليله — وهو قوله تعالى : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ مقامه .

ثالثاً : قوله — تعالى — : ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ .

وقال ابن الانبارى : خبره ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أى : ما نساؤهم أمهاتهم .

قال الغراء : وانتصاب الأمهات ههنا بإلقاء الباء . وهى قراءة عبد الله ﴿ ما هن بأمهاتهم ﴾ ومثله : ﴿ ما هذا بشراً ﴾<sup>(١)</sup> أى : ما هذا يبشر فلما ألقى الباء ألقى أثرها ، وهو النصب ، وعلى هذا كلام أهل الحجاز . فأما أهل نجد فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا وقالوا ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ و ﴿ ما هذا بشر ﴾ .

وقال أبو حيان : أجرى ( ما ) مجرى ( ليس ) فى رفع الاسم ونصب الخبر كما فى قوله — تعالى — : ﴿ ما هذا بشراً ﴾ وقوله : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾<sup>(٢)</sup> .

أقول : هذا هو الصحيح ، لأن ( ما ) بمعنى ليس فهى نافية حجازية وهى لغة القرآن .

رابعاً : قوله — تعالى — : ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ انتصب ﴿ منكراً وزوراً ﴾ على الوصف لمصدر محذوف ، وتقديره : وإنهم ليقولون قولاً منكراً ، وقولاً زوراً .

خامساً : قوله — تعالى — : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم هم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة ﴾ اسم الموصول ( الذين ) مبتدأ . وقوله — تعالى — : ( فتحرير رقبة ) مبتدأ آخر خبره مقدر ، أى : فعلهم تحرير رقبة ، أى : فكفارتهم تحرير رقبة .

والجملة من المبتدأ الثانى وخبره خبر الموصول . ودخلته الغاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

(١) من الآية ٣١ من سورة يوسف

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الحاقة

سادساً : قوله — تعالى — : ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾

قال ابن الانباري : الجار والمجرور في موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿ يعودون ﴾ و ﴿ ما ﴾ مصدرية ، وتقديره : يعودون لقولهم . والمصدر في موضع المفعول ، كقولك : ﴿ هذا الثوب نسج اليمن ﴾ أى : منسوجه ، ومعناه يعودون للإمساك القول فيه الظهار ولا يطلق . وقيل : اللام في ﴿ لما قالوا ﴾ بمعنى ( إلى ) أى : يعودون إلى قول الكلمة التي قالوها أولاً ، من قولهم : أنت على كظهر أمي ، وهذا مذهب أهل الظاهر .

### لطائف التفسير

#### \* اللطيفة الأولى :

يقول علماء اللغة : ﴿ قد ﴾ حرف يوجب به الشيء ، وهي إذا دخلت على الماضي تفيد ﴿ التحقيق ﴾ وإذا دخلت على المضارع تفيد ﴿ التقليل ﴾ لأنها تميل إلى الشك ، تقول : قد ينزل المطر ، وقد يجود البخيل . وأما في كلام الله فهي للتحقيق سواء دخلت على الماضي أو المضارع ، كقوله — تعالى — : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾ (١) .

قال الجوهري : ( قد ) حرف لا يدخل إلا على الأفعال .

قال الزمخشري : « معنى ( قد ) التوقع لأنه — ﷺ — والمجادلة كانا متوقعين أن ينزل الله في شكواها ما يفرج عنها » .  
ومعنى سمعه — تعالى — لقولها اجابة دعائها ، لا لمجرد علمه — تعالى — بذلك ، وهو كقول المصلي : سمع الله لمن حمده .

#### \* اللطيفة الثانية :

قال الإمام الفخر : هذه الواقعة تدل على أن من انقطع وجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له فيما أحبه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك الأمر . وصيغة المضارع ( يسمع ) تفيد التجدد ، للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التجاوز وتجده ، وذكرها مع الرسول في سلك الخطاب ( تحاوركما ) تشريف لها بهذا الخطاب الكريم ، وإظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة والروعة في قلوب المؤمنين .  
قوله — تعالى — : ﴿ والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

## \* اللطيفة الثالثة :

قال ابن منظور : كانت العرب تطلق النساء في الجاهلية بهذه الكلمة : ﴿ أنت على كظهر أمي ﴾ وإنما خصوا ( الظهر ) دون البطن ، والفخذ ، والفرج — وهذه أولى التحريم — لأن الظهر موضع الركوب ، وامرأة مركوبة اذا غشيت ، فكأنه أراد أن يقول : ركوبك للنكاح على حرام كركوب أمي للنكاح ، فأقام الظهر مقام الركوب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية .

وقال الفخر الرازي : ليس الظهر مأخوذاً من الظهر الذي هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر في هذا الموضع من سائر الأعضاء ، التي هي مواضع المباشعة والتلذذ ، بل الظهر ههنا مأخوذ من العلو ، ومنه قوله — تعالى — : ﴿ فما استطاعوا أن يظهروه ﴾<sup>(١)</sup> أى : يعلوه ، وكل من علا شيئاً فقد ظهره ، ومنه سُمي المركوب ظهراً ، لأن راكبه يعلوه ، وكذا امرأة الرجل ظهره لأنه يعلوها بملك البضع ، فكأن امرأة الرجل مركوب للرجل وظهر به .

ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول في الطلاق : نزلت عن امرأتى ، أى : طلقتها ، وفي قولهم : أنت على كظهر أمي ( حذف واضمار ) لأن تأويله : ظهرك على ، أى : ملكى إياك ، وعلوى عليك حرام . كما أن علوى على أمي وملكها حرام على .

## \* اللطيفة الرابعة :

المظاهر شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل هي أم ، فكيف كان ذلك منكراً وزوراً ؟

قال الامام الفخر في الجواب عن ذلك : إن الكذب إنما لزم لأن قوله : « أنت على كظهر أمي » إما أن يكون اخباراً ، أو انشاءً .

فعلى الأول : انه كذب لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة في وصف الحل والمحرمة كذب .

وعلى الإنشاء : كان ذلك أيضاً كذباً ، لأن معناه أن الشرع جعله سبباً في حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله إنشاء في وقوع هذا الحكم كذباً وزوراً .

(١) من الآية ٩٧ من سورة الكهف

## \* اللطيفة الخامسة :

روى أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — مر في خلافته على امرأة ، وكان راكباً على حمار والناس معه ، فاستوقفته تلك المرأة طويلاً ووعظته ، وقالت له : عهدى بك يا عمرو أنت صغير تدعى عميراً ، ثم قيل لك : يا عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر في الرعية ، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟

فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لا زلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هذه ( خولة بنت ثعلبة ) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ !

أقول : رضى الله عنك يا عمر فهذه أخلاق الصديقين .

## \* اللطيفة السادسة :

قوله — تعالى — : ﴿ الَّذِينَ يَظَاهِرُونَ مِنْكُمْ ﴾ الخطاب بلفظ ﴿ مِنْكُمْ ﴾ فيه مزيد توبيخ للعرب ، وتهجين لعاداتهم فى الظهار ، لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم .

## \* اللطيفة السابعة :

روى الامام الترمذى عن ( سلمة بن صخر البياضى ) أنه قال : « كنت امرأً أصيب من النساء ما لا يصيب غيرى ، فلما دخل رمضان خفت أن أصيب من امرأتى شيئاً يتابع بى حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ رمضان ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشفت لى منها شئ ، فما لبثت أن نزوت عليها ، فلما أصبحت أخبرت قومى ، فقلت : امشوا معى إلى النبى — ﷺ — فقال : « أنت بذاك يا سلمة » ، قلت : أنا بذاك يا رسول الله — مرتين — وأنا صابر لأمر الله . فاحكم فيما أراك الله .

قال : حرر رقبة ، قلت : والذى بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها — وضربت صفحة رقبتي ..



قال فصم شهرين متتابعين .

قلت : وهل أصبت الذي أصبت إلا من الصيام .

قال : فأطعم وسقاً ( الوسق — بالفتح — ستون صاعاً بصاع النبي ﷺ ) من تمر بين ستين مسكيناً .

قلت : والذي بعثك بالحق لقد بتنا وحشين ( مقفرين لا طعام لنا ) ما لنا من طعام .

قال : فانطلق إلى صاحب صدقة بنى زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها » فرجعت إلى قومي فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي ، ووجدت عند النبي ﷺ — السعة وحسن الرأي ، وقد أمر لي بصدقتمكم <sup>(١)</sup> .

رواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وحسنه الترمذى .

## الأحكام الشرعية

### الحكم الأول :

هل الظهار مشروع كالطلاق أم هو محرم ؟

كان الظهار في الجاهلية طلاقاً ، بل هو أشد أنواع الطلاق عندهم ، لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التي تحرم حرمة على التأيد بل لا تجوز بحال من الأحوال ، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً قربان المرأة حتى يكفر زوجها ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتبرونه في الجاهلية . فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق كان ظهاراً ، ولو طلق يريد به الظهار كان طلاقاً ، والعبرة باللفظ لا بالنية ، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية فنسخ ، فلم يجوز أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً ، فإن ( أوس بن الصامت ) إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأصبرى عليه .

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذى ( كتاب التفسير ) باب : ومن سورة المجادلة ج ٥ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ رقم ٣٢٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود في سننه في ( كتاب الطلاق ) باب في الظهار ج ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ رقم ٢٢١٣ وقد رواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الطلاق ) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ رقم ٢٠٦٢ وانظر نيل الأوطار للوشكاني ( كتاب الظهار ) ج ٦ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ وقال : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، واخرجه — أيضاً — الحاكم .

واخرجه الامام أحمد في مسنده ( حديث سلمة بن صخر الزرق الأنصاري ) ج ٤ ص ٣٧ .

وانظر المستدرک للحاكم ( كتاب التفسير ) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٢٠٣ قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبي في التلخيص .

حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضاً فإنه صريح في حكمه ، فلم يجوز جعله كناية في الحكم الذي أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب .

وقد دلت الآية الكريمة وهي قوله — تعالى — : « وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً » على أن الظهار حرام ، بل لقد قال فقهاء الشافعية : إنه من الكبائر ، فمن أقدم عليه اعتبر كاذباً معانداً للشرع .

وقد اتفق العلماء على حرمة ، فلا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كذب وزور وبهتان ، وهو يختلف عن الطلاق ، فالطلاق مشروع ، وهذا ممنوع ، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرماً ويجب عليه الكفارة .

#### الحكم الثاني :

##### ماذا يترتب على الظهار من أحكام ؟

إذا ظاهر الرجل من امرأته تترتب عليه أمران :

— الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقوله — تعالى — : ﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ﴾ .

— والثاني : وجوب الكفارة بالعود ، لقوله — تعالى — : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا .. ﴾ الآية . وستحدث عن معنى العود في الحكم الثالث إن شاء الله .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقييل ، والمعانقة وغيرها من وجوه الاستمتاع ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء ( الحنفية والمالكية والحنابلة ) .

وقال الثوري والشافعي ( في أحد قوليه ) : ان المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

#### حجة الجمهور :

أ — أن العموم الوارد في الآية ( من قبل أن يتأسا ) فإنه يشمل جميع وجوه الاستمتاع .

ب — مقتضى التشبيه الذى هو سبب الحرمة ( كظهر أمى ) فكما يحرم مباشرة الأم والاستمتاع بها بجميع الوجوه ، فكذلك يحرم الاستمتاع بالزوجة المظاهر منها بجميع الوجوه عملاً بالتشبيه .  
 ج — أمر الرسول ﷺ — للرجل الذى ظاهر من زوجته بالاعتزال حتى يكفر . الحديث رواه أصحاب السنن عن ابن عباس وفيه قال — ﷺ — له : « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : « لا تقر بها حتى تفعل ما أمرك الله » (١) .

### حجة الشافعى والثورى :

أ — الآية ذكرت المسيس وهو كناية عن الجماع فيقتصر عليه .  
 ب — الحرمة ليست لمعنى يُخلُ بالنكاح فأشبهه الحيض ، الذى يحرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة .  
 أقول : رأى الجمهور أحوط من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، سيما وقد نقل الامام الفخر ان للشافعى فيه قولين : ( أحدهما ) : أنه يحرم الجماع فقط . ( والثانى ) أنه يحرم جميع جهات الاستمتاع قال : وهو الأظهر . وكفى الله المؤمنين القتال .

### الحكم الثالث :

ما المراد بالعود فى الآية الكريمة ؟

اختلف الفقهاء فى المراد من العود فى قوله — تعالى — : ( ثم يعودون لما قالوا ) على عدة أقوال :  
 أ — قال أبو حنيفة : العود : هو عبارة عن العزم على استباحة الوطء والملاسة .  
 ب — وقال الشافعى : العود : هو أن يمسكها بعد الظهر مع القدرة على الطلاق .  
 ج — وقال مالك وأحمد : العود : هو العزم على الوطء فقط ، أو على الوطء والإمساك .  
 د — وقال أهل الظاهر : العود : أن يكرر لفظ الظهر مرة ثانية فإن لم يكرر لا يقع الظهر .  
 والآراء الثلاثة الأولى متقاربة فى المعنى ، لأن العود إلى الامسك ، أو الوطء ، أو إبقائها بعد الظهر بدون طلاق ، كلها تدل على معنى الندم وإرادة المعاشرة لزوجة التى ظاهر منها . فاللام فى ( لما ) بمعنى ( إلى ) .

(١) الحديث رواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى ( كتاب الطلاق ) باب : ما جاء فى المظاهر بواقع قبل أن يكفر ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .  
 ورواه أبو داود بمعناه فى سننه فى ( كتاب الطلاق ) باب فى الظهار ج ٥ ص ٢٦٨ رقم ٢٢٢٣ .  
 وانظر سنن ابن ماجه ( كتاب الطلاق ) باب : الظاهر بجامع قبل أن يكفر ج ١ ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ .  
 ورواه النسائى فى سننه فى ( كتاب الطلاق ) باب الظهار ج ٦ ص ١٦٨ من طريق عكرمة مرسلاً .  
 وانظر نيل الأوطار للشوكانى ( حكم إذا واقع قبل أن يكفر ) ج ٦ ص ٢٦١ رقم ٤ .

والمعنى : يرجعون إلى تحليل ما حرموا على أنفسهم بالعزم على الوطء ، وقد عدّد القرطبي فيها سبعة أقوال .

قال الغراء : معنى الآية يرجعون عما قالوا ، وفي نقض ما قالوا .

## — دليل الظاهرية

قال أهل الظاهر : ان العود معناه تكرار لفظ الظهار واعادته ، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد اللفظ — يعنى ظاهر مرة ثانية — .

وقالوا : الذى يعقل من قولهم : عاد إلى الشيء ، أى : أنه فعله مرة ثانية ، كما قال — تعالى — : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (١) .

فإذا لم يتكرر الظهار لا يقع التحريم .

قال الزجاج : وهذا قول من لا يدرى اللغة .

وقال أبو على الفارسي : ليس هو كما ادّعوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليها إنسان قبل ، وسميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد ثم عاد الناس إليها ، قال الهذلي :  
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

وقال ابن العري : « ويشبه أن يكون هذا من جهالة داود وأشياعه ، وهو باطل قطعاً ، لأنه قد رويت قصص المظاهرين وليس فيها ذكر لعود القول منهم ، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ، لأن الله — تعالى — وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له : إذا أعدت القول المحرم والسبب المحذور وجبت عليك الكفارة ؟ » .

أقول : ما قاله جمهور الفقهاء أن المراد بالعود ليس تكرار اللفظ ، إنما هو العود إلى معاشرتها والعزم على وطئها هو الصحيح المعقول لغة وشرعاً ، لأن المظاهر قد حرم على نفسه قربان الزوجة ، فهو يريد أن ينقض ذلك ويعيدها إلى نفسه فيلزمه التكفير بهذا العزم .

وأما ما قاله أهل الظاهر فباطل لا يقوم عليه دليل ، بل هو من آثار الفهم السقيم الذى تحبّط فيه هؤلاء فى كثير من الأحكام الشرعية ، ويكفى لبطلانه حديث ( أوس بن الصامت ) فإنه لم يكرر الظهار ، وقد الزمه — عليه السلام — الكفارة . وحديث ( سلمة بن صخر ) فقد أمره — عليه السلام — بالكفارة مع أنه لم يكرر اللفظ . وكفى بذلك حجة قاطعة ، ولا رأى لأحد أمام قول المعصوم — عليه السلام — .

— الحكم الرابع : هل يصح ظهار غير المسلم كالذمى والكتانى ؟  
ذهب الجمهور ( الحنفية والمالكية والحنابلة ) إلى أن ظهار الذمى لا يقع لأن الله — تعالى — يقول : ﴿ الذين يظاهرون منكم ﴾ وظاهر قوله : ﴿ منكم ﴾ أن غير المسلم لا يتناوله الحكم .

وقالوا أيضا : إن الذمى ليس من أهل الكفارة ، لأن فيها إعتاق رقبة ، والصوم ، ولما كان الصوم عبادة لا تصحّ من غير المسلم ، إذن فلا يصح ظهاره .  
فالظهار عندهم لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم .  
— مذهب الشافعى : قال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى وتترتب عليه أحكامه ، كذلك يقع ظهاره .

قال الآلوسى : والعجب من الإمام الشافعى — عليه الرحمة — أن يقول بصحته مع أنه يشترط النية فى الكفارة ، والإيمان فى الرقبة ، والكافر لا يملك المؤمن .

أقول : الراجح رأى الجمهور ، واستدلّاهم بالكفارة فى ( العتق والصيام ) قوى ، وأما استدلالهم بمفهوم الصفة فى الآية الكريمة ( منكم ) فليس بذاك ، لأن الآية وردت مورد ( التهجين والتشيع ) لما مرّ أن الظهار لم يعرف إلا عند العرب فليس فيها ما يدلّ لهم . والله أعلم .

— الحكم الخامس : هل يصح الظهار من الأمة ؟  
أ — ذهب ( الحنفية والحنبلية والشافعية ) إلى أن الرجل لو ظاهر من أمته لا يصح ، ولا يترتب عليه أحكام الظهار ، لقوله — تعالى — : ﴿ من نسائهم ﴾ لأن حقيقة اطلاق النساء على ( الزوجات ) دون ( الإماء ) بدليل قوله — تعالى — : ﴿ أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ﴾ <sup>(١)</sup> . فقد غاير بينهما ، فالمراد بالنساء فى الآية الحرائر .

- ب — وذهب مالك : إلى صحة الظهار في الأمة مطلقاً لأنها مثل الحرة .  
ج — وروى عن الامام أحمد : أنه لا يكون مظاهراً ، ولكن تلزمه كفارة الظهار .

الحكم السادس : هل يقع ظهار المرأة ؟

اتفق الفقهاء على أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها بقولها : ( أنت على كظهر أمي ) فلا كفارة عليها ولا يلزمها شيء وكلامها لغو .

قال ابن العربي : وهو صحيح في المعنى لأن الحَلَّ والعقد ، والتحليل والتحریم في النكاح من الرجال ليس بيد النساء منه شيء .

وروى عن الإمام أحمد ( في أحد قوليهِ ) أنه يجب عليها الكفارة إذا وطئها وهي التي اختارها الخرق .

الحكم السابع : هل الظهار يختص بالأم ؟

أ — ذهب الجمهور إلى أن الظهار يختص بالأم ، كما ورد في القرآن الكريم ، وكما جاء في السنة المطهرة ، فلو قال لزوجته : ( أنت على كظهر أمي ) كان مظاهراً . ولو قال لها : أنت على كظهر أختي أو ابنتي لم يكن ذلك ظهاراً .

ب — وذهب أبو حنيفة والشافعي ( في أحد قوليهِ ) : إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته في التحريم بإحدى المحرمات عليه على وجه التأييد بالنسب ، أو المصاهرة ، أو الرضاع ، إذ العلة هي التحريم المؤبد .

وأما من قال لامرأته : يا أختي ، أو يا أمي ، على سبيل الكرامة ، والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً ، ولكن يكره له ذلك لما راه أبو داود عن ( أبي تيممة المهجيمي ) أن رسول الله — ﷺ — سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختي ، فكره ذلك ، ونهى عنه .<sup>(١)</sup>

(١) انظر سنن أبي داود ( كتاب الطلاق ) باب : في الرجل يقول لامرأته : يا أختي ج ٢ ص ٢٦٤ رقم ٢٢١٠ ولفظه : عن أبي تيممة المهجيمي أن رجلاً قال لامرأته : يا أختي ، فقال رسول الله — ﷺ — : « أختك هي ؟ » فكره ذلك ونهى عنه . وانظر رقم ٢٢١١ من نفس المرجع .

— الحكم الثامن : ما هي كفارة الظهار ؟

الكفارة هي : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً كما دلت عليه الآية .

أ — الإعتاق : وقد أطلقت الرقبة في الآية فهل تجزئ أى رقبة ولو كافرة ؟

ذهب الحنفية إلى أن يجزئ في الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ولو رضيعاً ، لأن الاسم ينطلق على كل ذلك .

وذهب الشافعية والمالكية إلى اشتراط الإيمان في الرقبة ، فلا يصح عتق غير مؤمن حملاً للمطلق على المقيد في آية القتل ، لقوله — تعالى — : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ <sup>(١)</sup> بجامع الإذن في السبب في كل منهما .

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا في حكم واحد في حادثة واحدة ، لأنه حينئذ يلزم ذلك لزوماً عقلياً ، إذ الشيء لا يكون نفسه مطلوباً إدخاله في الوجود مطلقاً ومقيداً ، كالصوم في كفارة اليمين ، ورد مطلقاً ومقيداً بالتتابع في القراءة المشهورة التي تجوز القراءة بمثلها .  
وأما الإمام أحمد ففى المسألة عنه روايتان .

ب — صيام شهرين متتابعين :

من عجز عن إعتاق الرقبة فعليه صوم شهرين متتابعين .  
ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص ، وإن صام بغير الأهلة فلا بد من ستين يوماً عند الحنفية .

وعند الشافعية والمالكية : يصوم إلى الهلال ثم شهراً بالهلال ثم يتم الأول بالعدد .

ج — إطعام ستين مسكيناً :

من لم يستطع صيام شهرين متتابعين بأن لم يستطع أصل الصيام ، أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من كبر أو مرض لا يرجى زواله عادة أو بقول طبيب فعليه إطعام ستين مسكيناً .  
واختلف الفقهاء في قدر الإطعام لكل مسكين .

قال أبو حيان :

والظاهر مطلق الإطعام وتخصيصه ما كانت العادة في الإطعام وقت النزول وهو ما يشبع من غير

تحديد بمد .

ولا يجزى وعند مالك والشافعي أن يطعم أقل من ستين مسكيناً .  
وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

— الحكم التاسع : هل تغلظ بالمسيس قبل التكفير .

١ — ذهب أبو حنيفة : إلى أن المظاهر إذا جامع زوجته قبل أن يكفر أثم وعصى الله ، وتسقط عنه الكفارة لفوات وقتها .

ب — وذهب جمهور الفقهاء إلى أنه أثم وعصى ويستغفر ويتوب ، ويمسك عن زوجته حتى يكفر كفارة واحدة .

قال أبو بكر الرازي : إن الظهار لا يوجب كفارة ، وإنما يوجب تحريم الوطء ، ولا يرتفع إلا بالكفارة ، فإذا لم يرد وطأها فلا كفارة عليه ، وإن ماتت أو عاشت فلا شيء عليه ، إذ كان حكم الظهار إيجاب التحريم فقط مؤقتاً بأداء الكفارة ، وذلك لأنه علق حكم الظهار وما أوجب به من الكفارة بأدائها قبل الوطء لقوله : ﴿ من قبل أن يتامسا ﴾ فمتى وقع المسيس فقد فات الشرط فلا تجب الكفارة بالآية ، لأن كل فرض محصور بوقت أو معلق على شرط ، فإنه متى فات الشرط ، وعُدم الشرط ، لم يجب باللفظ الأول واحتيج إلى دلالة أخرى في إيجاب مثله في الوقت الثاني ، فهذا حكم الظهار إذا وقع المسيس قبل التكفير ، إلا أنه قد ثبت عن النبي — ﷺ — أن رجلاً ظاهر من امرأته فوطئها قبل التكفير ثم سأل النبي — ﷺ — فقال له : « استغفر الله ولا تعد حتى تكفر »<sup>(١)</sup> فصار التحريم الذي بعد الوطء واجباً بالسنة .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور أنه يأنم بهذا الفعل وتجب عليه كفارة واحدة والله أعلم .

\* ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

أولاً : استجابة الله دعاء الشاكي الصادق إذا أخلص الدعاء .

ثانياً : عدم جواز تشبيه الزوجة بمحرم من المحرمات على التأيد .

ثالثاً : عدم جواز مس المرأة قبل أداء كفارة الظهار .

رابعاً : خصال الكفارة مرتبة لا يصار إلى التالية قبل العجز عن التي قبلها .

خامساً : حدود الله يجب التزامها ، ولا يجوز تعديها .

(١) الحديث رواه الترمذى بمعناه ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ من حديث ابن عباس . وانظر سنن أبي داود ج ٢ ص ٢٦٨

رقم ٢٢٢٣ وابن ماجه ج ١ ص ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ والنسائي ج ٦ ص ١٦٧ .



## حكمة التشريع

لقد شرع الإسلام الزواج عقداً دائماً غير مؤقت . لا يقطعه إلا هادم اللذات ، أو أبغض الحلال إلى الله ، وبالزواج يحل للرجل كل شيء من زوجه ، في حدود ما أباحه الله — تعالى — له ، فإذا جاء الإنسان يريد أن يغير ما أباحه الله له فيجعل الحلال حراماً ، فقد ارتكب كبيرة لا محالة ، وتجاوز بذلك الحدود التي شرعها الله له ، فلهذا كان عقابه كبيراً ، وكانت أولى خصال الكفارة ما فيه فائدة للمجتمع ، ألا وهي تحرير رقاب العبيد ، وهذه إحدى سبل تحريرهم ، فإذا لم يستطع شراء العبد وعتقه ، فليصم شهرين متتابعين ، والصوم مدرسة تهذب خلقه ، وترى نفسه وتقوم ما اعوج من تربيته .

هذا ان كان صحيح الجسم ، موفور الصحة ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فالمرضى الذى لا يستطيع الصوم ، ينتقل الواجب في حقه إلى المجتمع أيضاً فيطعم ستين مسكيناً ، وهكذا تنتقل خصال الكفارة بين فائدة المجتمع وفائدة الرجل نفسه .

هذا جزاء من حرم حلالاً ، فليتعظ المؤمنون بهذا الجزاء الزاجر .

## وعيد وتهديد

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُتِبَتْ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ  
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٠﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ  
وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ  
إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾

## معاني المفردات

﴿ يحادون ﴾ أى : يشاقون وبعادون ، وأصل المحادة : الممانعة ، ومنه قيل للبواب حداد ، ﴿ كبتوا ﴾ أى : خذلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلاناً : إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت . ﴿ آيات بينات ﴾ أى : حججاً وبراهين مبينة لحدود شرائعنا . ﴿ مهين ﴾ أى : يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا ، أى : يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريعاً لهم . ﴿ أحصاه الله ﴾ أى : أحاط به عدداً لم يرغب عنه شيء منه . ﴿ شهيد ﴾ أى : مشاهد لا يخفى عليه شيء . ﴿ ألم تر ﴾ أى : ألم تعلم ، ﴿ ما يكون ﴾ أى : ما يوجد . ﴿ والنجوى ﴾ : التناجى والمسامرة ، كما قال : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾<sup>(١)</sup> ، وقد يستعمل في التناجين كما قال : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾<sup>(٢)</sup> أى : أصحاب نجوى .

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار ، وبيّن أنه إنما شرعها تغليظاً للناس حتى يتركوا الظهار ( وقد كان ديدنهم في الجاهلية ) ويتبعوا أوامر الشريعة ، ويلين قيادهم لها ، ويخلصوا لله ربهم في جميع أعمالهم ، فتصفو نفوسهم ، وتزكو بصالح الأعمال .

أردف هذا بيان أن من يشاق الله ورسوله ويعصى أوامره ، يلحق به الخزي والهوان في الدنيا وله في الآخرة العذاب المهين في نار جهنم ، ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد ، فبيّن أنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، فهو عليم بمناجاة المتناجين ، فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم ، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم ، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر فهو معهم أينما كانوا ، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم ، وسينبئكم بها عند العرض والحساب ، وحين ينصب الميزان ، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم ، وتندمون ولات ساعة مندم .

## التفسير

قوله — تعالى — : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين ﴾ .

(١) من الآية ١١٤ من سورة النساء

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الاسراء

هذا إخبار منه — سبحانه وتعالى — عن قوم عاندوا وشاقوا وتمردوا على أوامر الله ورسوله كما في قوله — جل شأنه — : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله — جل شأنه — : ﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ <sup>(٢)</sup> .

هؤلاء المعاندون المكابرون أهينوا ولعنوا وأخذوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم . ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ أى : واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر خاخر مكابر ، ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال — تعالى — : ﴿ يوم يعثهم الله جميعاً ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أى : فيخبرهم بالذى فعلوا من خير وشر ، ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أى : لا يغيب عنه شيء ولا يخفى ، ولا ينسى شيئاً .

تزود من التقوى فإنك راحل	وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع	ولا بد يوماً أن تزد الودائع
دنياك ساعات سراع الزوال	وإنما العقبى خلود المال
فهل تبيع الخلد يا غافلاً	وتشتري دنيا النى والضلال

وقد عقد الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى مجلساً فى ذكر القيامة وأهوالها — أجازنا الله منها — فقال :

## سورة الزلزلة وما تشير إليه

قال الله — عز وجل — : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله — تبارك وتعالى — بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمثلوا ما أمرهم به من الطاعة والإيمان ، وخوفهم الله — تعالى — من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

(١) الآية ١١٥ من سورة النساء

(٢) الآية ٤ من سورة الحشر

قال الله — سبحانه وبحمده — : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول : إذا تحركت الأرض بأهلها فزلزلت من نواحيها وارتجت من مشرقها ومغربها فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل في بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرائيل — عليه السلام — وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا ( أحيان الدنيا ، أى : مدتها ، والحين : الوقت ، ويجمع أيضاً على : أحيان وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها . وذلك إذا حمد الحق وظهر الباطل . وترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد ، وظهر الفساد ، وفشا الربا ، وكثر اللواط والزنى ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمر ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرئ القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب ، وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصي والذنوب ( أى : تباهوا بها وأظهروها ولم يزجروا عنها . وهذا الواقع في عصرنا — ولا حول ولا قوة إلا بالله ) فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار — جل جلاله — عليهم فعند ذلك يقول الله : يا إسرائيل ، انفخ نفخة الصعق ( صعق الرجل : غشى عليه ، وصعق من في السموات ومن في الأرض ، أى : مات ، وهو المراد هنا ) .

فينفخ إسرائيل عند ذلك كما أمره الجبار — جل جلاله — فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غصبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

### صفة إسرائيل

وإسرائيل ( اسم أعجمي ، ويقال فيه : إسرائين ، أيضاً بالنون ) . — عليه السلام — ملك عظيم جناح له بالشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسائة عام ، والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش ، والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ في الصور ؟ والصور : قرن من نور .

قال النبي — ﷺ — : ﴿ الصور قرن من نور ، والذي نفسى بيده ، إن أعظم شارة فيه كما بين السماء والأرض ﴾ (١) .

(١) ورد في الترمذى في ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الزمر ج ٥ ص ٣٧٣ حديث رقم ٣٠٤٤ عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال : قال أعراى : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : « قرن ينفخ فيه » . وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وانظر الدر المنثور ج ٧ ص ٢٥٦ وقال فيه : ( إن عظم دارة فيه لعرض .. الخ ) .

وروى عنه — ﷺ — أنه قال : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص بصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ في الصور » (١) (الصور : القرن ، وقيل : هو جمع صورة ) فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله — تبارك وتعالى — لما عبد فيها ووجد وقرأ كلامه فيها ، وذلك قوله — تعالى — : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (٢) .

جاء في التفسير أن الأشياء كلها تهلك إلا عملاً يراد به وجه الله — تعالى — ، والمساجد لا تهلك لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى .

### خشية النبي من هبوب الريح

روى عن النبي — ﷺ — أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يدخل ويخرج مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض . (٣)

فإذا كان رسول الله — ﷺ — يخاف هذا الخوف كله وهو أكرم الخلق على الله ، فكيف بمن أفنى عمره في السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والبطلات ؟ وضيع أوقاته في العصيان حتى مات ؟ وأنشدوا :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة	وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه	كذلك في الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين برهم	وعمرك في التقصان بل أنت ظالم

(١) ورد في تاريخ بغداد للخطيب ج ٥ ص ١٥٣ رقم ٢٥٨٧ حديث بلفظ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته ، وحتى ظهره ينظر تجاه العرش كأن عينيه كوكبان دريان لم يطرف قط مخافة أن يؤمر من قبل ذلك » والحديث رواه أنس بن مالك . (٢) من الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٣) روى ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٢٨٠ ، ١٢٨١ رقم ٣٨٩١ عن عائشة قالت : كان رسول الله — ﷺ — إذا رأى غيلة ( سحابة تكون فطنة المطر ) تلون وجهه وتغير ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سرى عنه . قال : فذكرت له عائشة بعض ما رأته منه . فقال : « وما يدريك ؟ لعله كما قال قوم هود : فلما رآوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا اهدا عارض ممطرنا .. الآية » .

وانظر مسند الإمام أحمد ( مسند عائشة — رضى الله عنها — ) ج ٦ ص ١٢١ فقد روته بلفظ : « كان رسول الله — ﷺ — إذا رأى الريح فقد اشتدت تغير وجهه » . وانظر مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١١ فقد رواه عن أنس .

فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم      ولا أنت في النوم ناج وسالم  
تسر بما يفنى وتفرح بالـمـنى      كما سر باللذات في النوم حالم  
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها      ولا تكثر العصيان ، إنك ظالم

وروى عن النبي ﷺ — أنه قال : « انتهيت ليلة أسرى بي إلى السماء السابعة ، فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته وقدم رجلاً وأخر أخرى والعرش على منكبه ( مجمع عظم العضد والكتف ) والصور في فيه بين شذقيه ، وقد تهيأ للنفخ في الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغن النفخة ، كما رأيت من تهيئته للنفخة » (١) .

سئل رسول الله ﷺ — عن إسرافيل فقال : « له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله ( ما بين الكتفين ) وإنه ليفكر كل يوم ثلاث ساعات في عظمة الله — تعالى — فيبكي من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحراً من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض وإنه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع » والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير .

فأله يا معشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعد والقيام الساعة وزلزالها .  
قال الله — تعالى — : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض ، وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر ، وتهدم المباني ، فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونباتها شيء إلا دخل في جوفها .  
قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

## متى ينفخ في الصور ؟

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبي ﷺ — عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبني ، فكان النبي ﷺ — يقول : « في آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم فإذا غضب الله — تعالى — على أهل الأرض أمر الله — تعالى — إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق ، فينفخ على غفلة من الناس ، فمن الناس من هو في وطنه ، ومنهم من هو في سوقه ، ومنهم من هو في حرثه ، ومنهم

(١) انظر أحاديث الصور وإسرافيل وموت الملائكة وملك الموت في الدر المنثور ج ٧ ص ٢٤٩ — ٢٦٢ .

من هو في سفره ، ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فيه حتى يخذ ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم »

وإسرافيل لا يقطع الصيحة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ، ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه في بعض في بطن الأرض ، والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على بطنه ، ومنهم من هو صريع على ظهره ، وعلى جنبه ، وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة في فيه فيموت وما أدرك أن يتلعها ، وتنقطع السلاسل التي فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة ، وتموت ملائكة السبع السموات ، والحجب والسرادقات والصادقون والمسيحون ، وحملة العرش والكرسي ، وأهل سرادقات الكرويين ( طائفة من الملائكة ، سموا كرويين لشدة حزنهم وطول عبادتهم . وهم كالأولياء في الناس ) ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت — عليهم السلام — .

### كيف يموت جبريل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : يا ملك الموت من بقى ؟ — وهو أعلم — فيقول ملك الموت : سيدى ومولاي أنت أعلم . بقى إسرافيل ، وبقى جبريل ، وبقى ميكائيل وبقى عبدك الضعيف ملك الموت ، خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال ، فيقول له الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه . فينطلق ملك الموت إلى جبريل — عليه السلام — فيجده ساجداً وراكعاً ، فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يا مسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرس والسرادقات وسكان سدره ( شجرة ) المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل — عليه السلام — ويقول متضرعاً إلى الله تعالى : يا الله : هون على سكرات الموت . فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر جبريل منها صريعاً ، فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقى يا ملك الموت و — وهو أعلم — فيقول : مولاي وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

### كيف يموت ميكائيل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله — تعالى — فيجده ينتظر الماء ليكيهه على السحاب ، فيقول له : ما أغفلك يا مسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل

الأرضين وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات الجدد والكروبيون والصادقون والمسيحون ، وقد أمرني ربّي بقبض روحك ، فعند ذلك يبكي ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت فيحضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه فيخر صريعاً ميتاً لا روح فيه ، فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقى — وهو أعلم — يا ملك الموت ؟ فيقول : مولاي وسيدى : أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت

### كيف يموت إسرافيل ؟

فيقول الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل فيقول له : ما أغفلك يا مسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرني ربّي ومولاي أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاي : هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر ميتاً صريعاً . فلو كان أهل السموات في السموات وأهل الأرض في الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

### كيف يموت ملك الموت ؟

فيقول الجبار — تبارك وتعالى — : من بقى يا ملك الموت ؟ وهو أعلم .. فيقول : مولاي وسيدى : أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت . فيقول الجبار — تعالى — : وعزّي وجلالي لأذيقنك ما أذقت عبادي ، انطلق بين الجنة والنار ومات ، فينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله — تبارك وتعالى — أمان الخلائق ، لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته ، فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنّها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار ، الذي خلق الليل والنهار ، فلا ترى أنيساً ، ولا تحس حسيساً ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

### لمن الملك اليوم ؟

ثم يطلع الله — تبارك وتعالى — إلى الدنيا فيقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك ؟ وأين عمارك ؟ وأين الملوك وأبناء الملوك ؟ وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين أكلوا رزقي ، وتقلبوا في نعمتي وعبدوا غيري ، لمن الملك اليوم ؟



فلا يجيبه أحد ، فيقول — تعالى — : الملك لله الواحد القهار ، فينظر الجبار — جل جلاله — إلى عباده موتى من بين صريع على خده ، ومن بين بال في قبره ، ثم يقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك وأين عمارك ؟ وأين الملوك ؟ وأين الجبابرة ؟ لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول — تعالى — : لله الواحد القهار . فتبقى الأرضون والسموات ليس فيها من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل : تبقى أربعين يوماً وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك ينزل الله — تبارك وتعالى — من السماء السابعة — من بحر يقال له : بحر الحيوان — ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاماً ، فيشق ذلك الماء الأرض شقاً ، فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبث بذلك الماء كما ينبث الزرع بالمطر .

### كيفية بعث الموتي

قال الله — تعالى — : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ إلى قوله : ﴿ كذلك نخرج الموتى ﴾ (١) - الآية . كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتصم الأجساد بقدرة الجبار — جل جلاله — وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار — جل جلاله — : ليعثن إسرافيل ، فيقوم إسرافيل — عليه السلام — حياً بقدرة الله — تعالى — فيقول له الجبار : يا إسرافيل : التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحى الله — تبارك وتعالى — إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

### صفة الصور

والصور : قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

### أين يقف إسرافيل ؟

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقف على صخرة بيت المقدس وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمة ، والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله — تعالى — : ﴿ واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب ﴾ (٢) .

(١) الآية : ٥٧ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٤١ من سورة ق

ويقول إسرائيل في ندائه : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتقطعة ، والأشعار المتبددة ، والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ليجازر يكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرائيل — عليه السلام — في الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور فتنتشر بين السماء والأرض كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ، ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكفار تخرج مظلمة بظلمات الكفر ، وإسرائيل يديم الصوت ، والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ، ثم تدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد ، فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه في دار الدنيا ، فتدب الأرواح في الأجساد كما يدب السم في الملسوع ( هو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه ، فيتمشى في الجسم على مهل ، إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطاً محكماً أن يشرط بموسى لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس في فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون ) حتى ترجع إلى أجسادها كما كانت في دار الدنيا ، ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، إسرائيل — عليه السلام — ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدّاً ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

### ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم خرج من كل إنسان عمله الذى عمله في الدنيا ، لأن عمل كل إنسان يصحبه في قبره ، فإذا كان العبد مطيعاً لربه وعمل عملاً صالحاً كان أنيسه في الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره ، ويؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبيها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : يا حبيبى ما عليك من هذا شيء ، ليس يراد به من أطاع الله ، إنما يراد به من عصى الله — تعالى — مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبداً مطيعاً لمولائك ، متبعاً لنبيك ، تاركاً لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

### العمل السوء وهيبته

وإذا كان العبد خاطئاً وعاصياً لذى الجلال ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل في دار الدنيا ، وكان قد صحبه في قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيماً ، فلا يمر على هول ولا نار ولا شيء من هموم القيامة إلا قال له عمله : يا عدو الله : هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور      يوم فيه يفوز أهل القبور  
يوم فيه الجزاء جنة عدن      لمطيع ومن عصى في سعيه  
خاب من قد عصى وفاز مطيع      راقب الله في جميع الأمور  
قام في الليل للإله ذليلاً      ليس يخلو من خوفه للقدير  
خاف من عظم يوم هول شديد      شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المریدین انتبهوا من هذا المنام ، واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتي يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

### إخراج الأرض ما فيها

قال الله — تعالى — : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبئات أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله — تعالى — أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عمله صالحاً وجدته نوراً يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى أرض القيامة ، وإن كان عملاً سيئاً وجدته ظلمة سوداء تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة ، فهو قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .

فمثل لنفسك يا مغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب ، وأظهرت لك القبائح والعيوب ، وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى      وأثقلت ظهري الذنوب  
أورثنى ذكرها سقاماً      فليس لى فى الورى طبيب  
يا شؤم نفسى غداة حشرى      إذا أحاطت بى الكروب  
وصوت داع دعا باسمي      أين مفرى ؟ وما أجيب ؟  
هذا كتاب الذنوب (١) فاقرأ      فعندها تظهر العيوب

(١) إشارة إلى قوله — تعالى — : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيماً ﴾ — سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم في أيامه ، قال له الملك : يا عدو الله خذ عملك فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به في الدنيا ولم تراقب مولاك ، وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة فيجده على ظهره أثقل من جبال الدنيا ، والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقاً حثيثاً بالعنف والانتهاز والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله — تعالى — فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالي إذا جاء الحساب غداً	وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة	من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا	يوم المعاد ويوم الذل والعار
يفوز كل مطيع للعزيز غداً	بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلد لانفاد له	يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه	لا يستريح من التعذيب فى النار
فابكوا كثيراً فقد حق البكاء لكم	خوف العذاب بدمع واكف جارى

فالله الله يا أولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من ألم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب ، وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

## مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل — عليه السلام — لا يقطع النداء فى الصور حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموقى وما أودعها الله — تعالى — من شئ ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ، ووحوشها ودوابها ، وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله — تعالى — وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ، ففى تبديلها قولان :

## هيئة أرض الحساب

أحدهما : أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء ، لا جبل فيها ولا بناء ، ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ، ولا عصى الله — تعالى — عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كوني فتكون ، وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل : ان تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها ، وتسجير بحارها ، وتسجير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوين شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها ، وتشققها ، فهذا تبديل الأرض والسموات . والله أعلم بحقيقة ذلك .

## كيف يقف الناس في المحشر ؟

فإذا قطع إسرافيل — عليه السلام — النداء وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ، ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره ، لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ، ولا الوالد بولده ، ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما جاء به من العصيان ، وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

## مقدار زمن المحشر

ويقال — والله أعلم — : ان الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنين الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استزلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس في الدنيا لمن آ	من بالبعث سرور
إنما يفرح بالعد	نينا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع	كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم	السمما فيه تمور

## بكاء النبي من أهوال القيامة

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « خوفني جبريل — عليه السلام — من أهوال يوم القيامة حتى أبكاني ، فقلت له : حبيبي جبريل : أليس قد غفر الله لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ؟

فقال : يا محمد : لتشاهدن من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة . فبكى رسول الله ﷺ — حتى بلت دموعه لحيته <sup>(١)</sup> .

فإذا كان رسول الله ﷺ — يبكي من هول يوم الحساب وقد آمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعد به الجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟ وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره في معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل في قوله — تعالى — : ﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴾ <sup>(٢)</sup> هو تحريكها ، وقيل : دَكًّا دَكًّا : اذهاباً .

## معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دَكًّا دَكًّا ، وصفاً صفاً ؟ فقال :

تدكدك الأرض دَكًّا بعد دك ، أى : تحريك مرة بعد أخرى حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر . وقوله : صفاً صفاً : تأتى الملائكة صفاً بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثرت زلازل الأرض ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ <sup>(٣)</sup> حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر مشيد ، من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله !! ومن بلاء ما أطوله !! ومن جبار ما أعدله !! قد أفنى العباد بالحمام ( الموت ) فلا يرى أحد من الأنام . فإذا استوى الأولون والآخرون في أرض القيامة ، أمر الله — تبارك وتعالى — السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع كقطع السحاب ، وقيل : كما يتطاير القطن بين يدي القطانين إذا ندفوه .

فمثل لنفسك صوت انشقاقها في سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ، ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم في أيام حياتك ما يقيقك تلك الأهوال ، لأن الخلق في أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم في الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحاً وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، آمنه الله من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم في دينه عملاً صالحاً لآخراه لقيته صعاب الخطوب ، وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة ، إذا حل في أهوال القيامة .

(١) انظر مختصر التذكرة ( تذكرة القرطبي ) للإمام الشعراوى ، باب ذكر ما يلقي الناس في الوقف من الأهوال والشدائد ص

٥٠ فقد أؤزده عن ابن الجوزى غير معزو إلى مرجع من كتب الحديث .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفجر .

(٣) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

## الأمْن والخوف

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : يقول الله — تبارك وتعالى — : « إذا خافنى عبدي في الدنيا أمنتته يوم القيامة وإذا أمنتني في الدنيا أخفته يوم القيامة » فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل في الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب ، وندم الصبر على ما فرط في الدنيا وضيع من الثواب والרגائب .

فإذا انشقت السموات عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات ، وظهر العذاب ، وجلت العقوبات ، وأظهر الله محبتات السريرات ، وندم العبد المغرور على ما أذنب في الأيام والأوقات ، وما جنى في الشهور والساعات .

فإذا انشقت السموات كثرت الأحزان ، وبرزت النيران — وأزلفت الجنان — وندم العاصي على ما عمل من العصيان ، وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن .

فانتبهوا لهذه الأهوال ، يا معشر الاخوان ، يا أهل الإسلام والإيمان ، فإن الهول — والله — عظيم ، والخطب كبير جسيم .

## ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السموات وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : لا تجزعوا منا ، فإننا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها ، وأنعامها وطيرها ووحوشها ، وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفاً ، فيبقى العباد يموج بعضهم في بعض .

## ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية وهم أكثر عدداً وأعظم خلقاً ممن اجتمع في الأرض سبعين ضعفاً ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من في الأرض ، فيقولون لهم : لا تجزعوا ، نحن مشغولون

بأنفسنا ، ونخاف مما تخافون منه . فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفاً ، وكان أهل كل سماء في صف واحد على حدة ، كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا : —

يا غافلين أيققوا قبل بعثكم	وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غداً	لا ينطقون بلا بكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم	والله طالهم بالحل والحرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم	وعد الإله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة	لا ينطقون ، بلا روح من الزحم

### الجبابة في الحشر كالذر

روى أن الجبابة يحشرون يوم القيامة على صورة الذر ( صغار التل ، وقد وردت جملة أحاديث تؤيد ذلك ، وخصوصاً في قصة الإسراء عند الكلام على رؤيته — ﷺ — للعصاة والمذنبين ، أصغر الناس خلقاً ، لتجبرهم على العباد في الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة على كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذب بطل ، فحيث لا حيلة لحتال في ( يوم لا بيع فيه ولا خلال )<sup>(١)</sup> .

شعر :

مقام المذنبين غداً عسير	إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا	فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفاً	ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد	على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكوا وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل ، والهول الكبير ، والخطب الجليل ، والعذاب الشديد الطويل .

### حديث في أهوال يوم القيامة

ذكر في بعض الأخبار عن المختار — ﷺ — وعلى آله الأخيار ، دوام اختلاف الليل والنهار — أنه قال : « ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة » .



فاندم يا منسكين على ما صنعت وفات ، وأصلح بالتوبة النصوص ما هو آت ، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ، ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

## شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات ، وأهل الحجب والسرادات ، وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض في عرصة القيامة ، وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام ، وشخصت الأحداق ، وتطاولت الأعناق وانشئت من شدة العطش ، واجتمع زحام الخلائق وأنفاسهم وشدة حر الشمس وضيق البأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها في دار الدنيا ، وقد زيد في حر الشمس ما يتضاعف — قيل حر عشر سنين — ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش ، وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

## مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله — تعالى — يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم بين مستريح يبرد الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره في الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن ، خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

## ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول في أليم العذاب ، وقد صارت العزة لدى البطش الشديد ، ولزمت الزلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل — وهو دردى الزيت الذى يجلس في قعر الإناء ( والمهل أيضاً : النحاس المذاب . والمهل : القيق والصديد ) قيل : ترجع السماء كالدهن الرقيق ، وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف ، وتصير الخلائق كالفرش وهو البعوض ، وقيل : كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة ، كذلك الخلق يموج بعضهم في بعض ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على

الأمم بأعمالها . وشاب الوليد ، وحضر الوعد وحق الوعيد ، وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، ففكروا فيما تسمعون يا معشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم يا جماعة الإخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب . وأنشدوا :

مثل لقلبك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت <sup>(١)</sup> شمس النهار وأضعفت <sup>(٢)</sup>	حرًا على روس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها	فرأيها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت ، بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها	خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت	وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحاً	وعجائباً قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمره متعلق	خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله	كيف المقيم على الذنوب دهور ؟

### جهنم في المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار — جل جلاله — أن يؤتى بجهنم — أعادنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته — فيؤتى بها وأهوالها وأنكالاها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها ، وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، وتنن غسليها ، وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلائها ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

### وصف جهنم

قال الله — تعالى — : ﴿ وبُرازت الجحيم لمن يرى ﴾<sup>(٣)</sup> فيراها الخلائق كلهم وهي تغناظ على العباد ، وتغضب لغضب الجبار — جل جلاله — وتنغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ،

(١) كورت الشمس : قال ابن عباس : غورت . وقال قتادة : ذهب ضوءها . وقال أبو عبيد : مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحي

(٢) أضعفت : أى : زيد عليها مثلها أو أكثر ، يريد أن الشمس زادت حرارة بعد تكويرها .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النازعات

قد تعلق بكل زمام سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم وتأتى على أهل الموقف ، والملائكة الذين يحبسونها : وجوههم مثل الجمر ، وأعينهم مثل البرق الخاطف ، فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه ، بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد ، من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار كأمثال الجبال الراسيات العظام ، ورعوسها كرعوس الأفاعي ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة ، وأعينهم زرق ، وجوههم كالحة ، قد خلقوا من نار السموم ، فتريد جهنم أن تنفلت من أيدي الملائكة من غضب الجبار — جل جلاله — هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهم —

### بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله — تبارك وتعالى — جاءت بالهول الأكبر ، والفرع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد فإذا قربت من الخلائق سمعوا لها شهيقاً ورأوا لها حريقاً ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت ، وأرادت أن تثب عليهم ، فاعتناظت وتحمحت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، فلا يجدون منفذاً ولا مكاناً يستغيثون إليه ، ومنادى ينادى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (١) . أى : بحجة ، ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدي الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها — صلوات الله وسلامه عليه — محمد الرسول ، وكل نبي يومئذ بنفسه مشغول .

### رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد — ﷺ — بزمامها ، ويقبض على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو — ﷺ — يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره — ﷺ — وتناديه : أيها النبي المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلي من يديك ، فما جعل الله لى ولا لغيرى من سلطان عليك . فيناديها الملك الجليل الجبار : هذا محمد حبيبي سيد الأبرار ، ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود ، بإذن الملك المعبود ، لحمد — ﷺ — صاحب الخوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود . ولو تركها خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، لأهلكت الخلائق أجمعين ، غضباً لغضب رب العالمين ، أعاذنا الله وإياكم برحمته منها — انه أرحم الراحمين .

## جهنم وزفيرها

وقيل : إن جهنم — أعادنا الله منها ، وزحزحنا وإياكم برحمته عنها — إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار ، وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة فترمى شرراً على رعوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء ، وزيد البحر ورمل البر ، فتقع على رعوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها ، وجفت أزهارها ، ويست عيونها وأنهارها ، من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

## الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى فلا تبقى دمة في عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ولا يسأل أحد إلا نفسه : البر والفاجر .

## الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهي أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا ولي ولا صديق إلا جثا على ركبتيه ، حتى إبراهيم وجميع المرسلين ، ما خلا حبيب رب العالمين محمد — ﷺ — خاتم النبيين ، فإنه لا يسأل عن هول النار ، فقد خلصه الله من أهوالها .

## الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة ، وهي أعظم من الأولى والثانية والثالثة فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين : وتفر الخلائق كلهم هارين ، ويتعلق جبريل وميكائيل — عليهما السلام — بساق العرش ، وكل ملك ينادى : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم غيرها . ويقول أيضاً كل واحد منهم : بجرمة محمد ، وبقدر محمد — ﷺ — نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمة وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها في بعض ، وتقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

## بماذا تخدم النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد — ﷺ — ويلقى يده في زمامها ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخدم من نور وجهه المبارك ، وهو — ﷺ — يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : يا سلام سلم أمتى من العذاب الشديد .

وأنشدوا :

الدمع في خد من عصي حسن	حسب الفتى من دموعه الحزن
يا من شكل حافظاه خلوته	لما خلا ، والعباد ما فطنوا
قد كان ربي عليك مطلعاً	وأنت لاهى الفؤاد مفتتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به	ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غداً	لم يعلم المذنبون ما وسن

يا قوم : العجب من القلوب التي بُليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

يا أخى : كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليعثن الجبار الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنفير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير ، في اليوم المهول العبوس والعسير ، الذي يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير ، رفق الله بنا وبكم في ذلك اليوم انه على ما يشاء قدير ثم يبعث الله تعالى جبريل إلى جهنم فيقول لها : الله تعالى يقول لك : الطاعة . فتقول : وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله ، واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : يا جبريل : هل خلق الله خلقاً يعذبني به ؟ فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله — تعالى — إلا نعمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نعمة لمن عصاه ، ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذاك — والله — تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصي والذنوب .

وأنشدوا :

ليس في الدنيا لمن آمن بالبـعث سرور

فإن الله وإنما إليه راجعون ، على من باع نفسه في سوق الخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

## من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين — رحمه الله — أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من في الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

يا كثير الذنوب أقصر قليلاً قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر ، من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « يا عباد : لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »<sup>(١)</sup> . فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول — سبحانه — : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾<sup>(٢)</sup> فعندئذ يأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار .

عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين ، وتتطاير الصحف في الألف ، فكل امرئ بما اكتسب معترف ، فندم الظالم ، وخسر الآثم ، وظهرت في الصحف الفضائح ، وكثر الخجل ، واشتد الوجل ، وبدت الفضائح ، وشهدت على كل امرئ حفظته والجوارح .

وأنشدوا :

وتماذيت في قبيح فعالي  
والموازين قد نصبن حيالي  
والتييون يشهدون سؤالي  
في سؤالي وما يكون مقالي ؟  
لست أبقي لها ولا تبقى لي  
بل حقيق أنا بنار السغالي  
فارحم العبد يا جميل الفعال  
ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

طال والله بالذنوب اشتغالي  
ليت شعري إذا أتيت فريداً  
والدواوين قد نشرن وجئنا  
ما اعتذارى وما أقول لربي  
أورثتنى الذنوب دار هموم  
يا عظيم الجلال ما لي عذر  
غير أن الرجاء فيك مكين  
وتفضل على عبدي مسيء

## هذا يوم الدين

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « إذا جمع الله — تبارك وتعالى — الأولين والآخرين نادى مناد : هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون » (١) .

فانظر لنفسك يا مسكين ، يا ضعيف الإيمان واليقين ، يا من يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين . ما أجراًك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين . فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب . وأنشدوا :

هل دواء أبرأيه من سقامى ؟  
ومشيى موكل بجمامى  
قد تغذيت مدق بالحرام  
وتباعدت من محل الكرام  
وكلامى يزيد قرح كلامى (١)  
واغترارى وشقوى واحترامى  
فى فكاكى من الذنوب العظام  
وإلى الركن والصفى والمقام  
كى أزور النبى خير الأنام  
ذو اشتياق لحج بيت حرام  
وينجنى من هول يوم القيام  
مات خوفاً من العذاب الغرام

يا طبيب الذنوب والآثام  
إن داء الذنوب أضعف جسمى  
وشفائى أعياء الأطباء إلى  
وركبت الذنوب سراً وجهراً  
كيف بالطب أن يعالج مسقمى  
أيها الناس قد علمتم ذنوبى  
وأنا أرغب الدعاء فجودوا  
واشتياق إلى الطواف شديد  
وإلى يثرب يحن فـؤادى  
فسلوا الله فى الوصول فإنى  
فلعل الإله يغفر جرمى  
ويفك ذو الجلال عبداً ضعيفاً

(١) روى ابن كثير فى تفسيره ( تفسير سورة المرسلات ) ج ٤ ص ٤٦١ عن ابن أبى حاتم بسنده إلى أبى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحماس يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الواعى ، ويقول الله : هذا ( يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لهم كيد فكيدون ) اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ولا شيطان مرید . »  
(٢) الأولى : كلامه ، أى : ألفاظه — بفتح الكاف — والثانية بكسرها ، أى : جروحه .

## موعظة كعب الأخبار

روى أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال لكعب : يا كعب خوفنا . فأطرق برأسه ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين : والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها حتى تفيض على أهل الجمع ، وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبى ، ومائة ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها . فعند ذلك يعرض لها النبى — ﷺ — وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ( ثلاثاً ) فتقول له : يا أيها النبى الكريم ، والرسول الرؤوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل . فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذ رأى الأهوال العظام بالنبى — عليه الصلاة والسلام — فيقول : يا رسول الله : أنقذنى من عذاب الله . فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربي فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوقى . فيقول — ﷺ — : لا شقوة على أحد من أمتى ، ولا على من قال فى الدنيا مخلصاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه .

وأنشدوا :

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى	شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور	عراة يتغنون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها	فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا	سقوطاً كالفراش والجراد
وقد بلغت جناجرهم قلوب	وقد شخصوا بأبصار حداد
فيا جبار عفواً منك فالطف	ويا رحمن رفقاً بالعباد
ونودوا للصراط ألا هلموا	فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف	مقامع من زبانية شداد
ألا يا معشر الاسلام هبوا	من الإغفال فى غمر الرقاد



## حديث في الترهيب

روى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »<sup>(١)</sup> .

فقدموا عباد الله في السير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل ، والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإننا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه في العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران ، والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة بالنقصان .

ففكر فيما تسمع أيها الإنسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الإنسان .

وأنشدوا :

مقام المذنبين غداً ذليل	وقدر الطائعين غداً جليل
إذا مد الصراط على جحيم	تصول على العصاة وتستطيل
ونادى مالكاُ خذ من عصاني	فإني اليوم لست لهم أقيـل

## سجود جهنم

ذكر في بعض الأخبار أن جهنم — أعادنا الله منها ، وزحزحنا برحمته عنها — تستأذن يوم القيامة في السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ثم يقال لها : ارفعي رأسك فترفع رأسها وهي تقول : الحمد لله الذي خلقني ليتنقم بي ممن عصاه ولم يجعل شيئاً من خلقه ينتقم به مني .

إلهي : قد اشتد بلائي وأخذت ناري ، وغلا حيمي وزقومي ، وكثر ننتي وغسليني ( ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ) وأكل بعضي بعضاً ، إلهي : عجل عليّ بأهلي ، فو عزتك لأنتقمن لك ممن عصاك واتبع هواه ، وجحد آياتك وكذب رسلك ، وجعل معك إلهاً غيرك ، لا إله إلا أنت . فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعاً ، ثم تغتاض على أهل المعاصي فترمي بشرر وفي القرآن : ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) الحديث رواه السيوطي في الدر المنثور ج ٦ ص ١٧٨ في ( تفسير سورة النور ) تفسير الآية ٣٠ ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم .. ﴾ الآية . وعزاه إلى ابن أبي الدنيا والديلمي .

وانظر تفسير ابن كثير في نفس الآية ولفظه : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت في سبيل الله ، وعينا خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » .

(٢) الآية ٣٢ من سورة المرسلات

وفسره ابن عباس بأعناق النخل . وقال الزمخشري : أعناق النخل وأعناق الابل ، وقال الهروي : أعناق الإبل ، كعدد النجوم في السماء ، وزبد البحر ورمل البرونيات الأرض على رعوس الخلائق ، فيقع على رعوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجاباً بينه وبين شر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضاً لشرر جهنم . أعاذنا الله منها ، وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

## مجلس في ذكر الميزان والصراط

قال الله — سبحانه وتعالى — ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً .. ﴾ (١) الآية ، عباد الله ، ما لقلوبكم لا تحشع ؟ وما لآذانكم لا تسمع ؟ وما لدعائكم لا يسمع ؟ وما لعيونكم لا تدمع ؟ وما لبطونكم من السحت ( بسكون الحاء وضمها : الحرام ، وأسحت في تجارته : إذا اكتسب السحت ) والحرام لا تشيع ؟ وما لعملكم المحمود لا يرفع ؟ .  
إخواني : من شغل نفسه بخدمة المعبود المحمود ؟ من خاف من ورود النار وبئس الورد والمورود ؟

## افتخار الوحوش على بنى آدم

ذكر في بعض الأخبار أن الوحوش تجتمع يوم القيامة فتخر ساجدة ، فيقال لها : ما هذا يوم السجود ، فتقول : إنما سجدنا شكراً لله الذي لم يجعلنا من ولد آدم ، وجعلنا ممن يشهد فضائح ابن آدم .

فالله الله يا إخواني . اقبلوا النصيحة ، قبل يوم الخجل والفضيحة فإذا كان يوم القيامة وجاءت جهنم بأهوالها ، يضرب الصراط على متنها ، طوله خمسمائة عام ، وقد قيل : طوله ستة وثلاثون ألف سنة من سنين الدنيا ، أدق من الشعر ، وأحد من موسى ، وقيل : أحد من السيف ، وأحر من الجمر . وقد قيل : إنه شعرة من جفن مالك خازن جهنم يمدها على متن جهنم ، عليه حسك وكلايب . ( الحسك : شوك السعدان ، والحسك أيضاً : ما يعمل من الحديد على مثاله للمحاربين . والكلايب : آلة من الحديد كالخطاف ) قد تعلق بكل كlob منها عدد نجوم السماء من الزبانية ، لو أن واحداً منها أذن الله له أن يتنفس في الدنيا لأحرقها بإنسها وجنّها ، وجميع ما ذرأ الله فيها ، ولأذاب جبالها وجفف بحارها .

## صفة الصراط

والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، فلا يجوز يومئذ إلا من كان له نور ، ولا يكون النور يومئذ إلا من الأعمال الصالحة ، فمن عمل عملاً صالحاً نجاه من النار ، وجاز إلى دار الراحة والقرار ، ومن لم يقدم في الدنيا عملاً صالحاً حرم من النظر إلى وجه الجبار ، وهوى في دار الندامة والبور . في دار عذابها سموم وشرابها حميم ( ماء حار ) وظلها لا بارد ولا كريم ، وطعامها الزقوم ( اسم طعام للعرب ، فيه تمر وزبد . قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴾ <sup>(١)</sup> ) ، يتردى - والله - في دار عذابها أليم ، ومسكنها جحيم ، وساكنها أبداً في العذاب مقيم ، يتردى - والله - في نار قعرها بعيد ، وعذابها شديد ، وشرابها صديد ، ومقامها حديد ، وما هي من الظالمين ببيعد .

وأنشدوا :

وأن تناسى الحمى والعقبا  
ك وبانت مساويك فيه بروقا  
على أتباع المنايا طروقا  
صباحاً تلازمهم أو غبوقاً  
م فيسمعهم للمنايا نعيقا  
ر حتى أعاد الفسيحات ضيقا  
عساك تجوز الصراط الدقيقا  
ت وتلقى الحوامل ، وعداً صدوقا  
لها عنق تترامى حريقا  
تقطع أمعاءهم والعروقا  
لتسمع إلا البكا والشهيقا  
ت تحال مباسمهن البروقا  
ن فمشتاقه تتلقى مشوقا  
بدار المقامة يوماً رفيقا

أما آن يا أخى أن تستفيقا  
وقد ضحك الشيب في عارضد  
وركب أتاهاهم وقد عرضوا  
أدارت عليهم كؤوس الحمام  
وما زال فيهم غراب الحما  
ويحجل في عرصات البقوص  
ألا فازجر النفس عن غيا  
مقام به تذهل المرضعا  
وتبرز للناس حمار الجحيم  
شرابهم المهل في قعرها  
إذا طبقت فوقهم لم يكن  
أذلك خير أم القصاصا  
قصرن على حب أزواجه  
لقد فاز من كان للمصطفى

## حسن العمل والصراط

فمثل لنفسك يا مسكين وقد جئت إلى الصراط ، وقد رأيت العاملين وقد جازوا ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورأيت البطالين في ظلمات البطالات ، وغمرات الجهالات . فالله الله يا جماعة الضعفاء ، يا من قطع عمره في الخلاف والجفاء ، خذوا لأنفسكم بالاحتياط ، واحذروا الأهوال الصعبة عند جواز الصراط ، لأن الصراط لا يجوزه آثم ، ولا ينجو منه ظالم . والصراط حق دقيق ، لا ينجو منه من خالف التحقيق ، وترك السنة ومنهاج ( الطريق الواضح ) الطريق . الصراط طويل بعيد ، لا يجوزه إلا من أخذ نفسه بالحزم الشديد ، واستقام على طاعة الولي الحميد . الصراط مهول مخوف ، لا يجوزه إلا من أغاث الملهوف ، وأطاع الرحيم الرءوف ، الصراط صعب مهول ، لا يجوزه إلا من اتبع سنة محمد الرسول . وأطاع رباً لا يحول ولا يزول ، الصراط كثير الزبانية ( عند العرب — الشرط — وأصل الزبن : الدفع ، لأنها تدفع العصاة إلى النار ) لا يجوزه إلا من أطاع مولاه في الفانية . وراقب الله في السر والعلانية .

ذكر في بعض الأخبار أنه لا يجوز الصراط العبد والأمة إلا من بعد نشر الدواوين ، ووضع الموازين .

## الموازين يوم القيامة

ذكر أن لكل إنسان ميزاناً يوزن به عمله ، فمن عمل عملاً سيئاً خف ميزانه وهوى في النار ، وقد قيل : إن الميزان هو منصوب بين يدي عرش الرحمن ، يوزن به أعمال العباد .

وكان الحسن — رضى الله عنه — يقول : لكل إنسان ميزان يوزن به عمله من خير وشر ، واستدل على ذلك بقوله — تعالى — : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ (١) الآية . وأما قوله — تعالى — : ﴿ وأما من ثقلت موازينه ، وأما من خفت موازينه ﴾ فهو ميزان الحسنات وميزان السيئات ، وقوله : ﴿ ثقلت وخفت ﴾ فقوله : ﴿ ثقلت ﴾ بقول : لا إله إلا الله ، بالإخلاص ، و ﴿ خفت ﴾ من الحسنات بالشرك والنفاق والرياء والسمعة ، لأن العبد قد يقول : لا إله إلا الله على معصية ، ويقول لا إله إلا الله والله أكبر على أخذ مال مسلم ، فإنما ذلك نفاق ، لأن النبي — ﷺ —

قال : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً رجع ميزانه ونجا من النار ودخل الجنة » ف قيل : يا رسول الله : وما إخلاصها ؟ فقال : « أن تزرع حرم عما حرم الله تعالى »<sup>(١)</sup> .

## وزن الأعمال

ذكر في بعض الأخبار أنه يقدم عبد يوم القيامة للحساب فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً مملوءة بالسيئات فتوضع في كفة الميزان فيشتد همّ العبد وكربه ، فيقول الجبار — جل جلاله — : لعبدى عندى ذخيرة ادخرتها له ، فيأمر الله تبارك وتعالى أن يخرج له رقعة صغيرة فيها مكتوب ، مات فلان وهو يشهد ويقول : لا إله إلا الله مخلصاً<sup>(٢)</sup> .

## كلمة التوحيد

فيقول الله — تعالى — : ضعوها في ميزان عبدى ، فتوضع في ميزانه ، فيميل الميزان بها ، وترجع على جميع سيئاته ، فعند ذلك يفرح العبد ، فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنة .

وأنشدوا :

أشهد أن لا إله إلا الله	أعنددت لله حين ألقاه
يرحمنى في القيامة الله	أقولها للإله خالصة
يوم العقوبة يوم بلواه	لعل يوم الحساب أنجو بها
ويخسر الجاحدون نعماه	يوم يفوز التقى قائلها
ومن عصى فالجيم مأواه	فهى لدار الخلود قائدة
فهو الذى قد آتاه تقواه	من قالها للإله مخلصه
الله قدد خصه وأرضاه	وهو الذى فى الجنان مسكنه
بدار عدن جوار مولاه	قد فاز عبد يكون ذاكرها
طوى لمن قالها وطوباه <sup>(٣)</sup>	يحظى بدار الخلود قائلها
فاز بدنيهاه وأخراه	من كان عند الممات قائلها

(١) الحديث فى تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ٦٤ عن أنس بن مالك — رضى الله عنه —

(٢) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب الزهد ) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج ٢ ص ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠ .

(٣) الطوى : فعلى من الطيب ، واسم شجرة فى الجنة .

فإن الله عباد الله ، ارجعوا إلى مولاكم أن يثبتكم على الكلمة المباركة الخفيفة في اللسان ، الثقيلة في الميزان ، المزينة للديوان ، بها يرضى الملك الرحمن ، وبها يسخط العين الشيطان ، وبها ينجو العبد المذنب من النيران ، وبها يصل العبد إلى نعيم الخلد والإيمان .

## فضل الصدقة

ذكر أن العبد إذا قدم إلى ميزانه وأخرجت سجلات سيئاته أعظم من جبال الدنيا ، فإذا وجدت له صدقة طيبة تصدق بها لم يرد بها إلا وجه الله — تعالى — ولم يطلب بها جزاء من مخلوق ، ولا رياء ولا سمعة ولا محمدة ولا شكراً ، فإن تلك الصدقة توضع في الميزان بأمر الملك الخلاق ، فترجح على جميع سيئاته ولو كانت سيئاته مثل وزن الجبال .

وأنشدوا :

يا جامع المال يرجو أن يدوم له كل ما استطعت قدم للموازين  
ولا تكن كالذي قد قال إذ حضرت وفاته ثلث مالى للمساكين<sup>(١)</sup>

واعلموا عباد الله أن الميزان إذا نصب للعبد فهو من أعظم الأهوال يوم القيامة ، لأن العبد إذا نظر إلى الميزان فؤاده ، وكثرت خطوبة ، وعظمت كربوه ( الكرب : الغم الشديد الذى يأخذ النفس ) فلا تهدى روعة العبد حتى يرى أثقل ميزانه أم يخف ؟ فإن ثقل ميزانه فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه فقد خسر خسراناً ميبئاً ، ولقى من العذاب أمراً عظيماً .

## شفاعة الرسول

ذكر في الأخبار أن أمة محمد ﷺ — إذا قدموا إلى الميزان عظمت كربوهم ، حين أظهرت لهم قبائحهم وعيوبهم ، ووزنت أوزارهم ( آثامهم وأثقالهم ) وذنوبهم ، وضائق حيلهم ، وتغيرت أحوالهم ، فعند ذلك يأتيهم النبي الشفيع محمد ﷺ — فإذا نظر إلى أمته قد تحيروا عند الميزان دعا الله أن يقل موازينهم ، فيأمره الله — تعالى — أن ينظر إلى موازين أمته ، فينظر — ﷺ — إليها فترجح موازينهم من نظره ونور وجهه — ﷺ —

ذكر أن الميزان بيد جبريل — عليه السلام — وله كفتان : إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، وأن الذرة والخردلة ( الذرة : أصغر الثمل ، والخردلة : حب صغير جداً ) والحبة من أعمال العباد من الخير والشر لتوضع في الكفة ، فتميل بها بقدره الله — تعالى — فالله أعلم بحقيقة ذلك .

فلا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن صغرت في عينه ، وربما ثقلت الميزان ، ولا يحقرن أحدكم سيئة يعملها وإن صغرت ، وربما خففت الميزان ، لأن الذنب الصغير في عين محتقرة يأتي يوم القيامة وهو في الميزان أعظم من الجبال الرواسي .

### ما يثقل الميزان

قال الله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ (١) الآية . روى أبو هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (٢) وقيل : جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله : جئتك تعلمنى ما يدخلنى الجنة ، وينجيني من النار . فقال له النبى — ﷺ — : « ألا أدلك على كلمتين ثقيلتين في الميزان ، خفيفتين على اللسان ، ترضيان الرحمن وتسخطان الشيطان ؟ تقول : سبحانه الله والحمد لله ، فإنهما المقربتان ، يقربان من الجنة ، ويبعدان من النار » (٣) فكل من زعم أن الميزان ليس هو حق ، فقد رد على الله في كتابه ، وعلى رسوله — ﷺ — في سنته .

### الرأس في الخير والرأس في الشر

روى عن الحسن — رضى الله عنه — قال : يؤتى يوم القيامة بالميزان فيؤضع بين يدي الله — تبارك وتعالى — ثم يدعى العباد للحساب ، فإذا كان العبد أو الأمة رأساً في الخير ( يريد الرأس في الخير : من سن سنة خير فانتشرت وعمل الناس بها ، كما أن رأس الشر : من سن سنة سوء فانتشرت وعمل الناس بها . وفي الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ،

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

(٢) انظر صحيح البخارى بمashية السندى ( كتاب الدعاء ) ج ٤ ص ١١٤ ، ص ٣٢١ ( كتاب التوحيد ) وانظر صحيح مسلم . بشرح النووي ( كتاب الذكر والدعاء ) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ١٧ ص ١٩ ورواه الترمذى في ( كتاب الدعوات ) ج ٥ ص ٥١٢ رقم ٣٤٦٧ ورواه ابن ماجه في ( كتاب الأدب ) ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦ .  
(٣) انظر الحديث قبله ، حيث لم أعثر عليه في المراجع التى بين يدي .

ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة<sup>(١)</sup> والسنة : الطريقة والسيرة ( يدعو إليه ويأمر به دعى باسمه ، ثم يقرب من الميزان فتوزن حسناته وسيئاته ولو كانت حسنة واحدة ولو كانت سيئاته أكثر من حسناته وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — إذا تقبل من العبد أو الأمة حسنة واحدة غفر له جميع ذنوبه وإن كثرت ذنوبه .

وقد قال رسول الله — ﷺ — لعائشة : « يا عائشة : لو قبل الله تعالى من العبد سجدة واحدة لأدخله بها الجنة » فقالت : يا رسول الله ، فماذا يصنع بأعمال العباد ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « يأكلها الرياء والسمعة كما تأكل النار الحطب » . وإذا كان العبد أو الأمة رأساً في الشر يأمر به ويدعو إليه دعى باسمه فقدم إلى الميزان ، فتوضع حسناته وسيئاته ، فترجح سيئاته على حسناته ولو كانت سيئاته واحدة ، ولو كانت حسناته أكثر وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله — تعالى — أحبطها ولم يتقبل منها حسنة واحدة ، ويأمر بهم ذات الشمال إلى النار ، فقال أصحابه — رضى الله عنهم — : يا رسول الله : أما كانوا مسلمين ؟ فقال — ﷺ — : « كانوا يصلون كما تصلون ، ويصومون كما تصومون ، ويزكون كما تزكون ، ويقومون من الليل برهة ، ولكن كانوا إذا عرض عليهم درهم حرام وثبوا عليه كالذئاب ، فأحبط الله أعمالهم بذلك ، ولم يتقبل منهم حسنة واحدة ، وإذا لم يتقبل الله من العبد حسنة واحدة فأحرى أن يؤثر في الميزان ، لأن الحسنات لا تنفع ولا تثقل الميزان إذا لم يتقبلها الله — تعالى — لأنه — تعالى — لا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً » .

فالله الله عباد الله ، إذا عملتم عملاً فأخلصوا الله ، فإن الله لا ينفعكم ولا يتقبل منكم إلا ما كان لوجهه خالصاً .

وأنشدوا :

من كان يعلم أن الله باعشه يوم الحساب لدى نشر الدواوين  
فلا يرد بفعال البر أجمعها إلا الحساب وتثقيل الموازين

فقدموا عباد الله للميزان بلزوم طاعة الرحمن ، قدموا للموازين بطاعتكم لسلطان السلاطين .  
إخواني : وأعظم مصيبة وحسرة من خفت موازينه من الحسنات ، وأمر به إلى العذاب والعقوبات .  
الويل ثم الويل لمن خفت موازينه من صالح الأعمال ، وغضب عليه ذو الجود والإفصال ، وأمر به إلى العذاب والنكال ، وإلى السلاسل والأغلال .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الزكاة ) باب الحث على الصدقة ج ٧ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ فقد رواه عن المنذر بن جرير عن أبيه .  
وانظر سنن ابن ماجه ( المقدمة ) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١ ص ٧٤ رقم ٢٠٣ .



## وزن أعمال العباد

يا إخواني : فإذا وزنت أعمال العباد ، وخف من خف ، وثقل من ثقل ، أمروا أن يمضوا إلى الصراط ، فيجىء كل إنسان إلى الصراط ، فمن الناس من يضع عليه قدمه ، فيزل من أول قدم يضعها فيهبى في النار ، ومن الناس من يمشى القليل منه ويزل في النار ، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يجوزه كالريح الهبوب ، ومنهم من يجوزه كالطير السريع في طيرانه ، ومنهم من يهرول ( الهرولة : ضرب من السير بين المشى والعدو ) ومنهم من يكون كالضعيف إذا مشى ، ومنهم من يكون كالمبطون ( العليل البطن ) الذى يمشى على يديه ورجليه ، ومن الناس من يأتى إلى الصراط فتأخذه فتبهى به ، كل هذا على قدر أعمال العباد وأنواهم ورتبتهم ، وعلى قدر القبول من الله — تبارك وتعالى — بها ، وعلى قدر تثقيل الموازين وتخفيفها ، فإذا أتى العبد من أمة محمد — ﷺ — إلى الصراط ، فمن كان من أهل الذنوب ولم يكن له عمل يجوز به على الصراط بقى متحيراً لا يقدر على الجواز ، فبينما هم في شدة الفزع من هول الصراط إذ أقبل محمد — ﷺ — .

## نور الرسول على الصراط

فإذا نظر — صلوات الله وسلامه عليه — إليهم كساهم نور وجهه — ﷺ — ما يجوزهم الصراط ، فيأخذ كل واحد من نور وجه المصطفى — ﷺ — على قدر صلاته عليه في الدنيا ، فيستبق العباد في الجواز على قد ما أخذوا من النور الذى أخذوا من نور وجه المصطفى ، وكلما أخذ الخلق من نور وجهه — ﷺ — زاد الله — تبارك وتعالى — في النور في وجه الحبيب — محمد ﷺ — فأكثرُوا من الصلاة على نبيكم — ﷺ — فإن صلاتكم عليه مبلغة إليه .

## فضل الصلاة على النبي

قال النبي — ﷺ — : « أنجاكم من أهوال يوم القيامة ومواطنها أكثركم على صلاة ، وأولاكم بشفاعتى أكثركم على صلاة » (١) فأكثرُوا من الصلاة عليه يا معشر المذنبين ، فهو شفيعكم يوم الجزاء والدين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وجعلنا بالصلاة عليه من الآمنين من عقابه والفائزين برحمته من عذابه إنه منهم كريم — وأنشدوا :

(١) انظر جامع الأحاديث للسيوطي ج ٧ ص ٦٥٨ فتد أورده بلفظ « يا أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم على صلاة » وعزاه إلى الديلمي عن أنس .

ألا أكرم بأحمد ذى المعالى شفيع الناس يوم السؤال  
 إذا مد الصراط على جحيم تصول على العباد باستطال  
 إذا كان النبى لنا شفيعاً ستنجو من سلاسلها الطوال  
 ولو كانت خطايانا جساماً تشبه بالثقال من الجبال  
 لجزنا فى الصراط بغير حزن إلى دار الخلود مع الجلال  
 روى عن النبى ﷺ — أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما  
 تنزل النساء » (١) ذكر أن الصراط المستقيم عليه زبانية ينظرون إلى وجوه العباد ، فمن رأوا فى وجهه  
 نور ، تركوه أن يتحول ويجوز ، ومن لم يروا فى وجهه نوراً كبكبه فى النار ، ولا يكون النور يومئذ  
 إلا من العمل الصالح .

### جسور جهنم

روى بعض العلماء عن التابعين وعن بعض أصحابه أنهم قالوا : إن جهنم — أعادنا الله منها —  
 عليها سبعة جسور وهى القناطر ، ثلاثة دون الرب — سبحانه وتعالى — الرابعة الوسطى عليها الرب —  
 جل جلاله — لا حد ولا كيف ، تسليماً وإيماناً وتصديقاً .

### القنطرة الأولى

والضراط أحد من السيف ، فيقول الله — تبارك وتعالى — حين يبلغون القنطرة الأولى :  
 ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تنصرون ﴾ (١) فيحسبون فيحاسبون على الصلاة ، فمن وجدت  
 صلاته تامة نجا من تلك القنطرة ، ومن لم توجد له صلاة تامة هوى فى النار فينجو من نجا ويهلك  
 من هلك .

### القنطرة الثانية

ثم يحسبون على القنطرة الثانية فيحاسبون على الأمانة ، وهى أمانة الخالق وأمانة الخلق ، وإذا أراد  
 الله بعبده خيراً جعل الغنى فى قلبه ، وجعله أميناً لله ، وأعانه على أداء الأمانات التى افترض عليه —

(١) هذا جزء حديث أورده صاحب كتر العمال ج ١٤ ص ٣٨٦ رقم ٣٩٠٣٦ وعزاه إلى البيهقى فى شعب الإيمان وضعف ،

عن أنس .

(٢) الآيتان ٢٤ — ٢٥ من سورة الصافات .

جل جلاله — من الوضوء والاعتسال والصلاة والصيام والزكاة ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله ، فذلك العبد الذى ألهمه الله — تعالى — رشده ، وبصره عيوب نفسه ، وجعل غناه فى قلبه .

## تأدية الأمانة وتضييعها

وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه وفى قلبه وكسله عن أداء الأمانات من المفترض الذى افترض عليه وعلى جميع عباده ، وغيب عنه رشده ، وسلط عليه الشيطان فزين له سوء عمله ، وحبب إليه عيوبه ، فإذا كان العبد كذلك فلا يبالي عما قال ولا عما قيل فيه ، ولا يكون همه إلا فى دنياه وأصلاحها ، ولا يبالي بتلف دينه ، فذلك العبد الذى قد سخط عليه مولاه ، وأبعده عن أبواب الخير كلها ، وقربه من أبواب الشر كلها ، قال الله — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ (١) .

## تضييع الأمانة

ذكر فى بعض الأخبار أنه يؤتى بمضييع الأمانة فيقال له : أذ ما ضيعت ، فيقول : يارب ذهبت عنى الدنيا ، فمن أين أؤديها ؟ فيخلق له مثلها فى قعر جهنم ، أعادنا الله منها — فيقال : أنزل إليها وأخرجها إلى صاحبها ، فينزل العبد المسكين إليها فيرفعها على كتفه ، فهى أثقل من جبال الدنيا كلها ، فإذا صار الشقى المسكين إلى أعلى جهنم وقعت عن كتفه إلى قعر جهنم ، فيقال له : أنزل إليها فينزل مرة أخرى ويرفعها ، فإذا صار إلى أعلى جهنم وقعت منه ، فلا يزال هذا عذابه إلى ما شاء الله — تعالى — من ذلك .

هذا كله عند جواز الصراط — والله أعلم — وهذا العبد — والله أعلم — الذى ضيع أمانات الناس .

أنشدوا :

وصرت إلى النيران بالوزر والإثم  
وبان لأهل الجمع ما كان من جرحى  
أمانة رب العرش والذكر والحكم

خرجت من الدنيا وقد خنت أهلها  
وطالبنى الجبار بالصدق والوفاء  
وقيل لكل الخلق هذا مضييع

## القنطرة الثالثة

ثم يحاسبون على القنطرة الثالثة وهي أدنى من الرب — جل جلاله — بلا تكليف ولا تحديد —  
فيحاسبون على صلة الرحم كيف وصلوها ؟

## صلة الرحم

ولم قطعوها ؟ والرحم يومئذ تنادى : اللهم من وصلني فصله ، ومن قطعني فاقطعه ، فينجو  
من نجا ، ويهلك من هلك .

## القنطرة الرابعة

ثم يمرون على القنطرة الرابعة فيحاسبون على بر الوالدين ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك وهو  
السؤال العظيم ، لأن الله — تعالى — قد قرن شكره بشكر الوالدين فقال — جل أسمه ، وعز وجهه — :  
﴿ أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾<sup>(١)</sup> فالله — تعالى — يقول فى بعض كتبه المنزلة :

## شكر الوالدين

أرض والديك ، فإن رضائى فى رضا الوالدين وسخطى فى سخط الوالدين ، فلو أن عبداً جاء  
يوم القيامة بعمل ألف صديق وكان عاقباً لوالديه ما نظر الله — تبارك وتعالى — فى شيء من عمله ،  
وكان مصيره إلى النار ، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة ضحك فى وجه والديه أو أحدهما إلا غفر  
الله له ما كان من الذنوب والخطايا ، وكان مصيره إلى الجنة .

وأنشدوا :

والوالدان إلى شكر الإله وصول  
والوالدان إلى دار السلام سبيل  
صل والديك ولا تقطع حبالهما  
ليجزينك فى دار البقاء جليل

(١) وصول : أى : بسبب برهما ودعائهما تصل إلى رضا الله — تعالى — ورحمته ، كما أنهما طريق  
إلى الجنة ، وهى دار السلام . وقد أمرنا الله تعالى ببرهما فى القرآن عند قوله : ﴿ فلا تقل لهما أف  
ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

(١) من الآية ١٤ من سورة لقمان .

(٢) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

## القنطرة الخامسة

ثم يحبسون على القنطرة الخامسة فيحاسبون على حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، فينجو من حفظ لسانه ويهلك من سرح لسانه بما لا يعنيه ، لأنه ليس من جوارح العبد أشد ذنباً من اللسان ، لأن كلمة يتكلم بها العبد أو الأمة تكون سبباً لدخول النار .

## ترك الغيبة والنميمة

وقد كان بعض الخائفين إذا أصبح أخذ لوحاً ودواة وجعلهما بجواره ، فإذا تكلم كلمة كتبها في اللوح ويقول لنفسه : هكذا أثبتتها عليك المَلَكُ بأمر المَلِكِ ، فإذا غربت الشمس وصلى صلاة المغرب وضع اللوح بين يديه وجعل يقرأ ويكي ، ويقول في بكائه ونحيبه وتقريره لنفسه : يا نفس كَأْنِي بك وقد سئلت عن هذا عند جواز الصراط ، يا نفس تراك بأى كلمة من هذه تدخلين النار ، فلا يزال يكي حتى لا يجد بكاء وتفرغ دموعه فيغشى عليه ، فإذا أفاق مما هو فيه أخرج اللوح وكبت ما فيه بقرطاس وهو يقول متضرعاً : يا الله عفواً ورفقاً ولطفاً بعبدك . فلم يزل هذا دأبه حتى مات ، فرآه بعض الصالحين في المنام في حالة حسنة ، فسأله عما لقي من الله تعالى فقال : ما يلقي من الكريم إلا الكرم ، جعل محاسبتي لنفسى في الدنيا بدلاً عن الحساب في الآخرة ، وجعل دموعى التى بكيت في الدنيا أنهاراً تروينى يوم العطش الأكبر ، وتفضل الكريم على بدخول الجنة وبجواز الصراط ، ومن على بالفضيلة العظيمة والزياره الكبرى إلى وجهه الكريم .

## كلمة الشر وعذابها

وقد روى عن النبى ﷺ — أنه قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة فينزل بها في النار بعد ما بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله — تبارك وتعالى — بعبد خيراً أعانته على حفظ لسانه وشغله بعيوب نفسه عن عيوب غيره » (١) .

قيل : مر رجل على رجل فسلم عليه ، فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشف لك عن حالى ما سلمت على . فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشفت لى عيوبك لكان فى عيوبى ما يشغلنى عن جميع عيوبك . فجلس كل منهما يكي فى ناحية حتى بل كل واحد منهما الأرض بدموعه ، ثم تفرقا .

(١) انظر مسند أحمد ٢ / ٣٧٩ فقد رواه عن أبى هريرة إلى قوله : « ما بين المشرق والمغرب » .

## شهادة الزور

وروى عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « من شهد شهادة زور على ذمى أو مسلم أو من كان من الناس ، علق بلسانه في الدرك الأسفل من جهنم »<sup>(١)</sup> .

وفي بعض الأخبار أن شهادة الزور من أعظم الكبائر عند الله تعالى ، وشاهد الزور يعلق بلسانه بكل كلمة في شهادة الزور ، وبكل حرف كتب فيها شهادته ألف عام على الصراط عند القنطرة الخامسة . ولو أن شاهد الزور جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبياً ما نظر الله إليه . وكذلك صاحب الغيبة والنيمة لا يجوز من هذا الصنف الصراط إلا أن يعفو الله أو تدركه الشفاعة .

وأنشدوا :

إذا ازدحم العباد لكى يجوزوا	تساقط كل جبار أثم
بقعر النار ليس لهم مغيث	ولا للعاصي يوماً من حميم
ومن يطع الإله فسوف ينجو	من التعذيب في قعر الجحيم
إذا نصب الصراط على جحيم	فيالله من هول عظيم
ألا يا معشر الإسلام توبوا	من العصيان للرب الرحيم

إخواني : أطيعوا الله في السر والإعلان ، واعملوا بالسنة والقرآن ، واتركوا الأوزار والعصيان ، واحذروا من هول الصراط المنسوب على سُموم النيران .

## القنطرة السادسة

ثم يحسبون على القنطرة السادسة فيحاسبون على حفظ الجار ، فينجو من حفظ جاره وأكرم ضيفه ، ويهلك من خان جاره ولم يكرم ضيفه .

## إكرام الضيف

روى عن النبي ﷺ — أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »<sup>(٢)</sup> وكرامته أن يكرمه لوجه الله ، وتكون ضيافته من خلال ، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له . فما أنفق على الضيف في الخمر أو فيما لا يرضى الله — تعالى — به فإن ذلك الضيف يأتي يوم

(١) لم أعتز عليه في المراجع التي بين يدي

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ج ١ ص ١١ ( كتاب الإيمان ) رقم ٢٩

القيامة يتعاقب هذا بهذا ويلعن هذا بهذا ، ثم يأتیان إلى الصراط ، وكل واحد منهما يلوم صاحبه ، ويقول له : لعنك الله بالذى ساعدتني على الإنفاق في غير الله . ثم يقال لهما : جوزا الصراط ، ففي أول قدم يضعان على الصراط يهويان في النار .

## البركة مع الضيف

وقال رسول الله ﷺ — : « الضيف إذا دخل بيت المؤمن ، دخلت معه ألف بركة وألف رحمة ، ويكتب الله — تعالى — لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمرة » .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبي ﷺ — قال : « درهم ينفقه الرجل على ضيفه أفضل من ألف دينار ينفقها في سبيل الله ، ومن أكرم الضيف لوجه الله أكرمه — تعالى — يوم القيامة بألف كرامة ، وخلصه من النار وأدخله الجنة »

وقد جاء في حديث عائشة — رضى الله عنها — أن النبي ﷺ — كان يقول لها : « يا عائشة لا تتكلفى للضيف فتمليه »<sup>(١)</sup> ( ولذلك ندب أن يقدم الإنسان للضيف ما وجد ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا كما يفعله الناس الآن من الاقتراض ( لبيضوا وجوههم أمام الضيف ) وليس ذلك من السنة في شيء ، فغاية الجود بذلك الموجودة وعلى الضيف أن لا يقترح ، بل يأكل ما يجد ويشكر عليه ) وإنما أراد — ﷺ — مداومتها على إكرام الضيف .

وفي حديث على بن أبى طالب — رضى الله تعالى عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « يا على : إذا جاءك الضيف فاعلم أن الله — تعالى — قدمن عليك إذ بعثه إليك ليغفر لك ذنبك بذلك » .

## ينزل الضيف برزقه

وفي حديث أبى هريرة — رضى الله تعالى عنه — قال : قال رسول الله ﷺ — : « أيها الناس لا تكرهوا الضيف ، فإنه إذا نزل نزل برزقه ، وإذا رحل رحل بذنوب أهل المنزل »<sup>(٢)</sup> ( ليس المراد أنه يحمل ذنوبهم ، بل إن الله — تعالى — يغفر لهم ذنوبهم بإكرامهم للضيف ) .

(١) الحديث في كنز العمال برقم ٢٥٨٩٠ وعزاه إلى النيرازى والرافعى عن عياض بن أبى قرصافة عن أبيه .

(٢) انظر كشف الخفاء للعجلونى ج ١ ص ٩١ فقد ذكره بلفظ : « إذا دخل الضيف على قوم دخل برزقه ، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم » قال السخاوى رواه الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً ، وله شاهد عند أبى الشيخ عن أبى قرصافة .

وفي حديث معاذ بن جبل — رضى الله تعالى عنه — : « ما من منزل ينزل فيه ضيف إلا بعث الله — تبارك وتعالى — إلى ذلك المنزل قبل نزول الضيف به بأربعين يوماً ملكاً على صورة طائر ينادى : يا أهل المنزل فلان بن فلان ضيفكم في يوم كذا وكذا ، والخلف من باب كذا وكذا ، فتقول الملائكة الذين وكلوا بأهل الدار : وبعد الخلف ما يكون ؟ فيخرج لهم ذلك الملك كتاباً فيه مكتوب : قد غفر الله لأهل المنزل ولو كانوا في ألف »<sup>(١)</sup> .

وفي حديث آخر أنه قال : « ما من عبد من عباد الله المؤمنين أكرم ضيفاً لوجه الله الكريم إلا نظر الله إليهم إن كانوا جماعة ، فإن كان الضيف من أهل جنة وكان رب المنزل من أهل النار جعله الله — تعالى — من أهل الجنة بإكرامه ضيفه »<sup>(٢)</sup> .

وفي حديث آخر : « إن الضيف ورب المنزل — وأرباب المنزل إن كانوا جماعة — يأتون الصراط فيأخذ كل واحد منهم بيد صاحبه فيجوز الصراط أسرع من البرق اللامع ، فإن لم يكن فيهم من له عمل يجوز به الصراط ، أمر الله الملك الموكل بنفقة الضيف أن يأخذ بيدهم ويجوز الصراط ولو كانوا مائة ألف »<sup>(٣)</sup> .

## إطعام الطعام

وإطعام الطعام ينقسم على ثلاثة أوجه : مخلوف ومسلوف ومتلوف ، فالمخلوف الذى يطعم لوجه الله لا يريد به غير الله — تعالى — ولا يطلب به جزاء من مخلوق . والمسلوف الذى تضيفه مرة ويضيفك مرة أخرى . والمتلوف كل ما كان إطعامه على المعاصي . والمخلوف والمسلوف فيهما الأجر إلا أن المخلوف أعظم أجراً ، والمتلوف هو حسرة وندامة يوم القيامة .

وأنشدوا :

يا مكرم الضيف للرحمن خالقنا      عند الصراط ستلقى الخير موفوراً  
أكرم ضيوفك كي ترجو الجواز غداً      على الصراط وترجو الخلد مجبوراً

(١) لم أعثر عليه

(٢) لم أعثر عليه

(٣) لم أعثر عليه



## حفظ الجار

وأما حفظ الجار فإن العبد أو الأمة يسأل عن حفظه ، فمن حفظ جاره جاز الصراط ونجا من العذاب الأليم ، وصار إلى الجنة ودار النعيم .

وروى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شعبان وجاره جائع ، أو بات ريان وجاره عطشان »<sup>(١)</sup> .

ومن كرامة حفظ الجار أن توقظه من الغفلات ، وتلهمه إلى الطاعات ، وتأمره بإقامة الصلوات .

## تعلق الجار بالجار

ذكر في بعض الأخبار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب : جارى هذا خاننى فى الدنيا . فيقول الله — تبارك وتعالى — : لم خنت جارك ؟ فيقول : وعزتك وجلالك ما خنته لا فى مال ولا فى أهل ، وأنت أعلم بذلك . فيقول له جاره : ما فعلت ذلك ولكن رأيتنى على المعاصى فلم تزجرنى عنها ، فيؤمر به وبصاحبه إلى النار ، ولا يغفر الله لهما .

وما من عبد مسلم — أو أمة مسلمة — حفظ جاره وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر إلا جوزه الله — تبارك وتعالى — على الصراط قبل العباد بخمسمائة عام .

## الوصية بحفظ الجار

وروى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « لقد أوصانى ربى ليلة أسرى بى بحفظ الجار حتى ظننت أنه سيورثه » . وبعض العلماء يرى شفاعة الجار .

فكل من حفظ الجيران فقد أطاع الرحمن . وأسخط الشيطان ، وعمل بالسنة والقرآن .

روى أن الرجل الصالح والمرأة الصالحة يشفعان يوم القيامة فى سبعين من جيرانهما ويجوزانهم على الصراط .

(١) روى فى الآتى المصفوعة ج ٢ ص ٨٢ بلفظ : « ما آمن بى من بات شعبان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » من حديث أنس .

عباد الله — من حفظ الجار نجا من النار ، وجاز الصراط إلى دار القرار ، ومن حفظ الجار فقد عمل بالسنة والكتاب ، وأطاع الملك الوهاب ، وأسخط الشيطان اللعين الكذاب ، وما من جار يلقى جاره المسلم فيسلم عليه إلا غفر الله لجاره ولو كان له ألف جار .

حفظ الجار قرينة ووسيلة ، ودرجة عند الله وفضيلة .

وأنشدوا :

يا حافظ الجار ترجو أن تنال به عفو الإله وعفو الله مذكور<sup>(١)</sup>  
الجار يشفع للجيران كلهم يوم الحساب وذنب الجار مغفور

### القنطرة السابعة

ثم يحبسون على القنطرة السابعة فيسألون عن الصدق ، من حفظ لسانه عن الكذب نجا من الصراط ونجا من النار ، وصار إلى الجنة مع الأبرار .

### الصدق والكذب

ومن كذب فقد خالف الكتاب والسنة ، وقد حرم نعيم الجنة .

روى عن النبي ﷺ — أنه قال : « إذا كذب المؤمن كذبة من غير عذر تباعد منه المملكان مسيرة سنة من تنن ما جاء به . وكتب الله تبارك وتعالى عليه بكذبة ثمانين خطيئة ، أقلها كما يزني بأمه »<sup>(١)</sup> ( لأن ذلك من أصعب الكبائر ، فضلاً عن استحالاته عقلاً ) .

(١) مذكور : أى : رأيته عند الله ذخيرة لك يوم القيامة ، وقد حكى عن المهلب بن أبى صفرة أنه كان يتكفل بأربعين بيتاً من كل جهة من بيته بالخبز والطعام والكسوة حتى لا يتكلفوا أن يصنعوا طعاماً في جواره أو يوقدوا تنوراً .

(١) جاء في صحيح الترمذى في ( كتاب البر والصلة ) باب ما جاء في الصدق والكذب ج ٤ ص ٣٤٨ رقم ١٩٧٢ حديث بلفظ : عن ابن عمر أن النبي ﷺ — قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلاً من تنن ما جاء به » .  
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن جيد غريب .

## كذبة المؤمن بثمانين خطيئة

وإذا كذب المؤمن من غير عذر يخرج من فيه شيء منتن حتى يبلغ العرش فتلعنه حملة العرش ، ويلعنه ثمانون ألف ملك ، ويكتب عليه ثمانون خطيئة أقلها مثل جبل أحد ( جبل بالمدينة كانت عنده واقعة أحد الشهيرة ) . الكذب نفاق ، والكذب من الكبائر ، وإذا استحل العبد الكذب فقد استحل المحارم كلها ، وإذا لم يستحل العبد الكذب لم يقدر أن يياشر شيئاً من محارم الله ، وإن الصادق إذا جاء الصراط سبقه نور وجهه مسيرة مائة عام — يعنى على الصراط — ومن صدق عمل بكتاب الله ، واتبع سنة رسول الله ، والصادق أسرع جوازاً على الصراط وأسرع الناس دخولاً الجنة .

والكاذب في أول قدم يضعها على الصراط يهوى في النار فلا ينجو من الجسر السابع — وهو أصعبها — إلا من صدق ، ويهلك من كذب .

جعلنا الله وأياكم — برحمته — ممن صدق فنجا .

وأنشدوا :

أصدق يريك إله العرش جنته	يوم المعاد ولا تولع بتكذيب
إن الصدوق لدى الرحمن منزله	دار الخلود بلا موت وتعذيب
يوم الجزاء على متن الصراط إلى	دار النعيم بلا حزن وتكيب

ذكر في بعض الأخبار أن الصادق يجوز على الصراط وهو لا يشعر به ولا يهو له ، فالله الله عباد الله : كونوا من الصادقين ، ولا تكونوا من الكاذبين ، وتأسوا بخاتم النبيين وسيد المرسلين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

## نجاة الصادقين

ذكر في بعض الأخبار أن الناس الذين ينجون من الصراط وهو له ، يحبسون بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة .

قال رسول الله — ﷺ — : « والذى نفسى بيده إن أحدهم مسكنه في الجنة أدل منه لمسكنه

الذى كان فى الدنيا»<sup>(١)</sup> . يا لها من كرامة ويا لها من نعمة ، ويا لها من فرحة . فقدموا عباد الله اليسير من الأوقات والقليل من الساعات ما يجوزكم الصراط ، ويقيكم الآفات ، الصراط على متن جهنم ممدود ، لا يجوزه إلا من خاف من أهوال اليوم الموعود وأطاع الملك المعبود ، الغفور الودود .

## الصلاة تجوز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن من صام ثلاثة أيام من كل شهر وقام فى ليلة من لياليها يصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، فإذا فرغ من صلاته صلى على محمد — ﷺ — عشر مرات ثم يقول : سبحان من كان ولا مكان ، سبحان الموجود بكل حين وأوان ، سبحان المعبود فى كل أوان ، سبحان المسبح بكل لسان ، سبحان المنجى من الهلكات ، سبحان خالق الأرضين والسموات ، جوزه الله — تعالى — على الصراط أسرع من البرق الخاطف ، ولا يؤذيه حر النار ويمضى إلى الجنة مع أول زمرة من الصحابة والتابعين ، ويشفعه الله — تبارك وتعالى — فى سبعين من أهله وجيرانه . وهى أفضل ما يصام من الشهر وهى يوم ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر .

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما يزل النساء ، وجبريل — عليه السلام — أخذ بحجزتى ( حجة الإزار ، معقدة ، وحجة السراويل : محل التكة ) إذا عصفت الريح بأمتى فصاحوا : يا محمداه ، فلولا أن جبريل — عليه السلام — أخذ بحجزتى لأغثت أمتى ، فيأدرون جوازاً فلا يجوزه ظالم ، فييقون متحيرين ثم يتداركهم الله برحمته وبفضل دعائى لهم ، فيقول : جوزوا على الصراط بعفوى فيجوزوا » اللهم اغفر لنا جميعاً برحمتك .

وأنشدوا :

لو علم الخلق ما يراد بهم	وأما مورد غنداً يردوا
ما استعذبوا لذة الحياة ولا	طاب لهم عيش إذا رقدوا
خوفاً من العرض والصراط على	نار تلظى وحرها يقدر
والناس فى هول موقف عسر	قد عاينوا هوله الذى وعدوا

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب ما جاء فى الرقاق) ج ٤ ص ١٣٤ إلا أنه قال : « فو الذى نفس محمد بيده لأتخدم أهلى بمنزله فى الجنة بمنزله كان فى الدنيا » .

يا لك من موقف يفوز به قوم هم للجنان قد وفدوا  
مع النبي اصطفاه خالقنا صلى عليه المهيمن الصمد<sup>(١)</sup>  
عباد الله : اشتروا أنفسكم من مولاكم باليسير من الأعمال ، وبالقليل من الأفعال ، وبالطيب  
من الأقوال ، من قبل حبسكم على الصراط لشدة الأهوال ، يوم لا يبيع فيه ولا خلال ، بين يدي الكبير  
المتعال .

### كيفية الجواز على الصراط

ذكر في بعض الأخبار أن الناس ينقسمون في جواز الصراط سبعة أقسام : فيجوز أول قسم من  
الرجال والنساء كطرفه عين ، والقسم الثاني كالبرق الخاطف ، والقسم الثالث كالريح العاصف . والقسم  
الرابع كالطير المجذ . والقسم الخامس كالخيل في جريها ، والقسم السادس كالماشى ، والقسم السابع  
كالمهرول .

### أقسام الناجين على الصراط

فأما القسم الأول : فهم أصحاب الصدقات وقوام الليل والعلماء يقدمونهم .  
والقسم الثاني : هم الذين استقاموا على أداء الفرائض ولم يفرطوا فيها وأدوها في أوقاتها .  
والقسم الثالث : هم الذين أدوا الزكاة ولزموا صحبة العلماء وأحبوهم .  
والقسم الرابع : هم الذين وصلوا أرحامهم ، وطلبوا بصلتها رضاء مولاهم .  
روى عن النبي ﷺ — أنه أوصى عند موته بصلة الرحم ، وما من عبد وصل رحمه بنفسه  
أو ماله إلا جعله الله — تعالى — يوم القيامة على الصراط كالذي يمشى في رياض الجنة ، ولا يرى من  
أهوال الصراط شيئاً ، ويدخل الجنة مع أول زمرة تجوز الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمنهم .  
والقسم الخامس : هم الذين غضوا أبصارهم عن محارم الله ، وصانوا فروجهم عن الفواحش ،  
وحفظوا أزواجهم عما لا يحل لهن ، وحجبهن ولا طفوهن ورفقوا بهن ، كما قال — ﷺ — ( وفي  
هذا رد على من قال بأن المرأة الشرقية كانت مستعبدة من الأزل ، فقد أمرت الشريعة الإسلامية في  
غير ما موضع بإكرامها وإعزازها ، وأباح لها التصرف بما لها وتجارتها وساوئها بالرجل في كثير من  
الأمور . هذا في الوقت الذي كانت فيه المرأة الأوروبية تحسب كالمتاع في المنزل ) .

(١) الصمد ، أى : السيد ، لأنه يصمد إليه في الحوائج ، أى : يقصد .

## حديث في العناية بالنساء

« النساء ودائع الأحرار ، ولا يعزهن إلا عزيز ، ولا يذهن إلا ذليل ، والذليل عند الله في النار » وكذلك المرأة إذا عزت زوجها وأطاعته فيما يرضى الله تعالى .

## آكل الربا

وقد ذكر أن آكل الربا يأبى الصراط ، فيجعل الله — تبارك وتعالى — كل درهم وكل حبة وكل ثوب وكل لقمة وكل شيء أكل أو اكتسبت يده من الربا ثعباناً من نار يخطفه من على الصراط ، ويهوى به في قعر جهنم مع اليهود ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له ما جنى .

والقسم السابع : هم الذين يروا الوالدين ، وبروا الأزواج ، وبروا الجيران ، وبروا الإخوان : ولزموا المساجد ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وحفظوا حدود الله ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — وأنشدوا :

أتطمع بالنجاة وكيف تنجو	ولست على نجاتك بالحرص
ولو في نيلها أعملت حرصاً	لنلت الفوز بالثمن الرخيص
ولكنى أراك تريد عزاً	وحالك حال ممتن نقيص
وليس لمن تعرض للمعاصي	هديت عن الضلالة — من محيص

## المصدقون سرّاً وعلانية

يا أحبائي : إذا جاز الناس الصراط وجدوا خلقاً كثيراً نساء ورجالا قد سمعواهم إلى الجنة فيقولون : من هؤلاء الذين سبقونا ؟ فتقول لهم الملائكة : هؤلاء الرجال الذين تصدقوا في السر ابتغاء وجه الله ، وتصدقوا في العلانية ليحببوا الصدقة إلى عباد الله ، هؤلاء الذين فرجوا عن المكروبين . وهؤلاء النسوة اللواتي أطعن أزواجهن ، وحفظن فروجهن وحفظن ألسنتهن عن أذى الزوج وعن أذى الجيران ، وتصدقن في السر والإعلان ، تسبق هذه الزمرة ( الجماعة ، والزمرة : الجماعات ) جميع الناس إلى الصراط وجوازه بخمسائة عام . ومن كان من إخوانهم من أهل الذنوب جازوا في شفاعتهم ، فإذا جازت أول زمرة من الأولين السابقين ، وزمرة المتأخرين يبقى رجل واحد فيضع قدمه الواحدة فتزل فيبقى بالقدم الأخرى ، فيركب الصراط على بطنه والنار تصيبه على قدر ذنوبه .

## آخر من يبقى على الصراط

فلا يزال يجبو ويتدرج ، ويبكى ويتضرع إلى الله — تعالى — حتى يجوز ، فإذا جازونجا رد رأسه ونظر إلى الصراط وأهوال أهل النار ، وعواء أهل النار ( صياح الكلب والذئب ) في النار فيقول : سبحان الذى خلصنى منك ونجاني من أهوال النار . فبينما هو ينظر إلى الصراط ويقول هذا القول ، يبعث الله — تعالى — إليه بلطفه ملكاً من ملائكته فيأتيه فيأخذه بيده ويقول له : قم يا عبد الله فينطلق إلى غدير ( قطعة من ماء ، يغادرها السيل ، أى : يتركها ) من ماء على باب الجنة ، فيقول له الملك : اغتسل من هذا الماء واشرب منه ، فيغتسل العبد ويشرب كما أمره الملك فيعود كالقمر الطالع ليلة التمام ، وتعود رائحته كرائحة أهل الجنة ، ولونه كألوان أهل الجنة . ثم ينطلق به إلى قرب جهنم فيقول له : قف ها هنا حتى يأتيك إذن من ربك ، فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلب يستغيثون من شدة العذاب ، فإذا سمع العبد أهل النار وما هم فيه بكى وقال : يارب : اصرف وجهى عن أهل النار حتى لا أنظر إليهم ولا أسمع صوتهم ولا أسألك غير هذا ، فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين فيحول وجهه عن أهل النار إلى أهل الجنة ، فينظر إلى ناحية أهل الجنة فيرى بينه وبين باب الجنة روضة خضراء ما رأى أحد قط مثلها ، ثم ينظر إلى باب الجنة وجماله ، وعرضه مسيرة أربعين يوماً للطير المسرع — والله أعلم — من أى الأعوام ، يقول : يارب قد أحسنت إلى الإحسان كله جوزتنى الصراط وأنجيتنى من النار وأدنيتنى من باب الجنة ، هذه الروضة أسألك أن تبلغنى إليها ولا إسألك غير ذلك ، فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، أأنت قد عزمت إنك لا تسأل غير هذا المقام ؟ فيأخذ بيده وينطلق به للروضة فيدخله فيها .

## باب الجنة

فينظر إلى باب الجنة ، وإلى بهجة تلك القصور وأطرافها من الجندل ( الحجارة الكبيرة ) الأخضر ، وحصباؤها ( الحصباء : الحصى الصغير ) من الياقوت الأحمر ، فيستنشق نسيم طيب الكافور والمسك ، ويسمع حسن تغريد الأطيوار وخرير تلك الأنهار ، وما لا تصفه ألسنة الواصفين ولا يحظر ببال المتفكرين ، فإذا سمع العبد ذلك كله استخفه الطرب فيقول : يا مولاي لقد أنعمت علىّ نعماً أكمل النعم : جوزتنى الصراط ، وأنجيتنى من النار ، وصرفت وجهى عن أهل النار حتى لا أراهم ، ولكن أسألك — يا سيدى ومولاي — أن تدخلنى الجنة ، فأجعل هذا الباب بينى وبين أهل النار حتى لا أسمع

حسبهم ( الحسيس : الصوت الخفى ، ومنه قوله — تعالى — : ﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ <sup>(١)</sup> ) ولا أرى عذابهم . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك !! ألسنت قد زعمت أنك لا تسأل غير ما قد سألت ؟ فيقول : وعزتك يارب لا سألتك غيره . فيأخذ الملك بيده فيدخله الباب ، فينظر العبد عن يمينه وعن شماله مسيرة سنة ، فلا يرى إلا الشجر المثمر ، وما رأى قط مثلها ولا خطر على قلب آدمى ولا جنى ، فينظر إلى أدنى شجرة فيرى عندها روضة فيها شجرة أصلها ذهب ، وأغصانها فضة وورقها حلى ما رأى مثلها قط آدمى ولا جنى ولا خطر على قلب بشر ، وثمرها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، فيقول العبد : يارب لقد أنعمت على عبدك ، وتفضلت ونجيتنى من النار ، وأدخلتني الجنة وأعطينتني وأرضيتني ، وإنما بينى وبين هذه الروضة قليل فبلغنى إليها ، فو عزتك لا سألتك غيرها . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألسنت قد زعمت أنك لا تسأل غير ما سألت ؟ يا ابن آدم أين ما أقسمت به ؟ أما تستحي من الله ؟!

### منازل الجنة

فيأخذ بيده فينطلق إلى أدنى منزل من منازلها ، فإذا هو بقصر من لؤلؤه بيضاء بين يديه ، فلا يملك نفسه حين ينظر إليه ، فيقول : يارب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره . فيأتيه الملك من عند الله — سبحانه وتعالى — فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك . ألسنت قد زعمت أنك لا تسأل غير ما أنت فيه ؟ فينظر بين يديه فإذا بمنزل كأنما المنزل الأول والثاني وجميع ما خلق ورآه حلم ، فيسأله فيعطى ، فلا يزال كذلك حتى يعطى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فلو نزل في أدنى قصر من قصوره الجن والإنس لكان عنده من الكراسى ما يجلسون ويتكئون عليها ، ولكان عنده من الموائد ما يفضل عنهم ، ولكان عندهم من الطعام والشراب ما يأكلون ، وإذا أكلوا وشربوا لم ينقص من الطعام والشراب إلا بقدر ما أصاب رجل واحد ﴿ وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وأنشدوا :

يطيب لهم مع الحور المقيـل  
إذا ناداهم الملك الجليـل

مقام المتقين غداً جليل  
وأنوال عليهم مشرقـات

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الشورى



## فائدة الجواز على الصراط

ذكر في بعض الأخبار أن العبد أو الأمة إذا ذكر الصراط وهوله وصعوبته ودقته وطوله وبعد مسافته ، ثم بكى ثم قام فصلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، ويسلم عن كل ركعتين ، فإذا فرغ من العشر ركعات صلى على النبي ﷺ — وشرف وكرم مائة مرة ثم قال : سبحان الله من خلق ما شاء ، وقضى بما شاء ، والحمد لله على كل شيء — ثلاث مرات — ثم يقول : اللهم جوزني الصراط ونجني من هوله ، الله لا إله إلا أنت لا شريك لك وصلى الله على سيدنا محمد وآله . فمن صلى هذه الصلاة وقال هذا القول جوزه الله — تبارك وتعالى — الصراط وهو لا يشعر به ولا يهوله مع أول زمرة تمر إلى الجنة .

فاغتنموا — رحمكم الله — هذا الثواب ، وتحصنوا به من أليم العذاب ، يا أولى العقول والألباب ( اللب : العقل أيضاً ) لأن الصراط حاد دقيق ، وطريقه أبعد الطريق ، يا له من طريق ، لا يعين على جوازه أخ ولا صديق ، إلا عمل صالح ورب رفيق .

واعلموا — وفقنا الله وإياكم — أن العمر يذهب ، والدنيا تفتنى وتخرب ، والنفس تموت والمراد إلى الحى الذى لا يموت ، فاستعدوا بكثرة الأنوار ، وبالصلاة وفعل الخير فى الليل والنهار ، وبالطاعة للنبي السيد المختار ، وبالعمل بكتاب الله الملك الواحد القهار ، وابكوا على هول الصراط المنسوب على متن النار . يسره الله لنا وهونه علينا . آمين يارب العالمين . إنه قريب مجيب .

## شفاعة الناس بعضهم لبعض

ذكر أن العبد إذا جاوز الصراط وخلص ، ذكر فى ذلك الموقف أباه وإخوانه وأبناءه وجيرانه ، فعند ذلك يسأل الصديق فى صديقه ، والوالد فى ولده ، والجار فى جاره ، والرجل فى زوجته ، والمرأة فى زوجها ، والإمام فى جماعته التى كان يصلى بها ، فيشفع كل واحد منهم على قدر عمله ومنزلته عند ربه .

روى قتادة عن الحسن البصرى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ — : « ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد أحداً : عند الميزان حتى ينظر أثقل ميزانه أم يخف ، وعند الصراط حتى ينظر أيجوز

أم لا ، وعند الصحف حتى ينظر أيمينه يأخذ الصحيفة أم بشماله <sup>(١)</sup> . فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا صديقه ولا حبيب له ولا قريبه ولا ابنه ولا والديه ، وذلك قول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ <sup>(٢)</sup> هو مشغول بنفسه عن غيره من شدة الأهوال العظام . أسأل الله أن يسهلها لنا برحمته ، ويهونها علينا بمنه ولطفه .

وأنشدوا :

بكيت على هول الصراط وذكره	وهول زفير النار من أعظم الذكر
وكيف يطيق الصبر من كان عاصياً	خالق كل الخلق في السر والجهر
ومن يك ذا خوف شديد لهوله	فإن له أمناً من الهول في الحشر
فليس لمن ييكى هول صراطه	جزاء سوى دار النعيم مع الفخر
فياله من هول عظيم يجوزه	رجال أطاعوا الله في سالف العمر

عباد الله : تفكروا في هول الصراط الدقيق البعيد ، وأشفقوا من الهول العظيم الشديد ، وأطيعوا الجبار الولي الحميد .

## لا تقبل صلاة شراب الخمر

ذكر أن شراب الخمر إذا أتوا على الصراط تحطفهم الزبانية فتهدى بهم إلى عين الخبال ، وهى قبح أهل النار ، فيسقون بكل كأس شربوا من الخمر فى الدنيا شربة من الخبال ، لو أن تلك الشربة تصب من السماء السابعة لأحرقت السموات والأرضين بمن فيهن ومن عليهن . والأصل فى شارب الخمر أنه يخطف من على الصراط لأنه ليس فى وجهه نور ، لأن النور لا يكون إلا من العمل الصالح ، وشارب الخمر ليس له عمل صالح ، والأصل فيه أن الأعمال كلها لا تقبل إلا من صلى ، لأن الصلاة هى رأس الأعمال ، وشارب الخمر لا تقبل منه صلاة ما دام مضراً على شرب الخمر ، فإذا لم تقبل منه صلاة فلا يقبل منه سائر عمله ، فيأتى إلى الصراط ووجهه أسود ، وقد عهد إلى الزبانية الذين على الصراط أن لا يتركوا أن يجوز إلا من له نور ، ومن ليس له نور أن يكبوه فى النار ، إلا من تاب وترك الخمر ورجع إلى الله تعالى .

(١) انظر سنن أبى داود ( كتاب السنة ) باب فى ذكر الميزان ج ٤ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ رقم ٤٧٥٥ ولفظه : « أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أنخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرأوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره ، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم » .

(٢) الآية ٣٧ من سورة عبس

## التوبة من الخمر وثوابها

يا إخواني : اعلّموا أن شارب الخمر إذا تاب وترك الخمر لوجه الله — تعالى — كان يوم القيامة أفضل وأكثر نوراً على الصراط ، وأسرع جوازاً من لم يشربها . فالله الله يا معشر المذنبين ، توبوا إلى مولاكم أسرع الحاسبين ، يغفر لكم ذنوبكم أجمعين .

## فضل المؤذنين

ذكر في بعض الأخبار أن المؤذنين إذا أتوا إلى الصراط يجدون نجائب من نور مسرجة بسرج الياقوت والزبرجد ، فيركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم عند جواز الصراط في أربعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ، ويجوز في نور المؤذن ألف رجل وألف امرأة ، وفي حديث آخر : أن المؤذن إذا جاء إلى الصراط سبقه نور الأذان ، ونور لا إله إلا الله ، ونور محمد رسول الله ، ونور الدعاء الذي يدعو الناس إلى توحيد الله — تبارك وتعالى — فيجوز الصراط في نور المؤذن أربعون ألفاً ممن ليس لهم نور ، وهم أهل الذنوب والخطايا ( لأن المؤذن غالباً إذا أذن ابتغاء مرضاة الله ، وذكر عباده بأوقات الصلاة وأقامها وصلّاها وواظب على ذلك ، انقطعت علائق نفسه السيئة عن ملاذ الدنيا ، ووجد اللذة كل اللذة في ما هو بصده ) .

روى عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « ما من عبد مسلم حان عليه وقت الصلاة في أرض قفراء أو موضع ليس فيه جماعة ، فقام فأذن ثم قام فصلى إلا وأم من جنود الأرض ما لا يحصى عددهم إلا الله — تبارك وتعالى — ويكتب الله له بعددهم حسنات ، ويمحو بعددهم سيئات ، ويرفع له بعددهم في الجنة درجات ، لو دخل في أدنى درجة من درجاته الجن والإنس لوسعتهم ، ولكان فيها من القرش والأسرة والموائد والطعام والشراب والخدم ما يفضل عنهم ، وإن لم يؤذن واقتصر على الإقامة وحدها لم يصل خلفه إلا ملكاه اللذان يكتبان عمله » وفي حديث آخر : « إذا أذن العبد المسلم في فلاة من الأرض ثم أقام فصلى جعل الله — تبارك وتعالى — خلفه سبع صفوف من الملائكة المقربين ، أحد طرفي الصف بالشرق والآخر بالمغرب ، فإذا فرغ من صلاته ودعا آمنوا على دعائه ، ويكتب الله — تبارك وتعالى — له بعددهم حسنات ، ويمحو عنه — جل وعلا — بعددهم سيئات ، ويرفع له — تعالى — بعددهم درجات ، كل درجة أعظم من الدنيا سبعين ألف مرة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا جاء يوم القيامة إلى الصراط جاء معه أصحابه من الملائكة الذين صلوا خلفه ، كل ملك منهم معه نور من نور الجنة ، فيأخذون بيده وبأيدي أهله وبأيدي إخوانه الذين صحبوه وأحبوه في الله فيفرون عليهم من تلك الأنوار ، ويجوزونهم الصراط في شفاعته ويمضون معهم إلى الجنة ولا يرون من هول الصراط ولا من حره ولا صعوبته شيئاً » .

## فضل العلماء

ذكر في بعض الأخبار أن العلماء إذا أتوا إلى الصراط تكون وجوههم كالشمس الضاحية ، وأنوارهم بين أيديهم ، ويبد كل عالم منهم لواء من نور الجنة يضيء له مسيرة خمسمائة عام ، وتحت لواء العالم كل من اقتدى بعلمه ، وكل من أحبه في الله ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباء الله ، هؤلاء أولياء الله ، هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء ، هؤلاء الذين علموا عباد الله ، هؤلاء الذين دعوا إلى الله ، هؤلاء الذين حفظوا حدود الله ، هؤلاء مصابيح الدجى ، هؤلاء أئمة الهدى . فإذا دنوا من الصراط يوضع على رأس كل واحد منهم تاج من نور الجنة ، لو وضع ذلك التاج في السماء السابعة العليا لخرق نوره إلى الأرض السابعة السفلى ، ويكسى كل واحد منهم حلة من حلل الجنة لو نشرت تلك الحلة بين السماء والأرض لغطى نورها نور الشمس ، ولما الخلائق كلهم عشقاً إلى رؤيتها ، وللأت الأرض والبحار من رائحة المسك ، وينزل على رأس كل واحد منهم غمامة من نور تقيه من حر شرر جهنم ومن حر الشمس ، وأنشدوا : -

يا طالب العلم ترجو أن تنال به	عفو الإله وعفو الله موجود
أطلب بعلمك وجه الله خالقنا	إن الصراط على النيران ممدود
عفو الإله لأهل العلم نائلهم	وعفوه عند أهل الجهل مفقود
فاحرص هديت على التعليم مجتهداً	وأنت عند إله العرش محمود
فاعمل بعلم رسول الله سيدنا	وأنت بين عباد الله مسعود

واعلموا أن الله - تعالى - لا يقبل عملاً بلا علم . قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) فالعلماء قد أثبت لهم الجبار الخشية والتقوى . قال الله - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ومن لا يعلم لا يتقى ، وكيف يتقى من لا يدرى ما تبقى ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : -

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يحمد الله ويوحّد . هو إمام العمل ، والعمل

(١) سورة فاطر الآية ٣٨

(٢) سورة المائدة الآية ٢٧

تابعه ، يرفع الله بالعلم أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة يقتدى بهم وينتهى إلى رأيهم <sup>(١)</sup> .

فقد بين رسول الله ﷺ — أن العبادة لا تكون إلا بالعلم ، لقوله — ﷺ — : « به يعرف الله ويعبد » ويستوفى ذكر فضل العلم في قول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . والمقصود في هذا الموضع ذكر الصراط والجواز عليه .

## فضل حملة القرآن

ذكر في بعض الأخبار أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثران من مسك أسود ، وأنوار وجوههم تغشى بالأبصار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة — الذين وكلوا بحملة القرآن — فتأخذ بأيديهم ، وتضع التيجان على رؤوسهم ، والحلل على أجسامهم ، وتقرب إليهم خيلاً من نور الجنة عليها سرج من المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب ، إجمها من اللؤلؤ والياقوت ، يركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويجوز في شفاعته كل واحد مائة ألف ممن قد استوجب النار ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباب الله ، هؤلاء أولياء الله الذين قرءوا كتاب الله ، وعملوا به ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم أهل الله ، وهم أحباب الله ، من أحبهم في الدنيا أحبه الله ، فجاوزوا الصراط وخلفوه بلا هول ولا هم ولا حزن ولا غم . وهذا إذا عملوا بالقرآن ، ووقفوا عند أوامره ونواهيه وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وآمنوا بحكمه ، ووقفوا عند متشابهه ، وسارعوا إليه ( أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون <sup>(٢)</sup> ) ، أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده <sup>(٣)</sup> ) أولئك أولياء الله الصالحون ، أولئك الذين رضى الله عنهم ، ووقفهم وهداهم ، وآتاهم تقواهم .

## من لم يعمل بالقرآن

وأما حامل القرآن إذا لم يعمل به فإنه يأتي إلى الصراط فتستقبله الزبانية بمقامع الحديد وأراذب النار ، وتسود وجوههم على قدر ما ضيعوا من العلم ، فمن تعلم علماً للتجبر والمباهاة أو الرياء أو السمعة ولم يرد به وجه الله تعالى وطلب به الرشا والبراطيل ، وكنمه ولم ينصح به عباد الله ، وطلب به الرياسة

(١) انظر أحياء علوم الدين ج ١ ص ٢٠ باب فضيلة التعليم .

وانظر ابن حبان في كتاب الثواب ، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ وقال : ليس له اسناد قوى .

(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٠

وصحبة الملوك ، ومشى به إلى أبواب أنباء الدنيا ، وإلى دور الظلمة وأهل الجور ، وحكم به بغير العدل ، ألجم بلجام من نار جهنم ، وكان عمله عليه حجة وغمة ومحنة وحسرة وندامة وظلمة على الصراط . ثم يكون العلم للعامل نوراً وفرحة وسروراً وجنة وحبوراً . ينظر المغرور المسكين إلى وفود العلماء وزمر الأولياء وألويتهم على رعوسهم منشورة ، وقلوبهم مما بشروا به من الفوز بالجنان مسرورة ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والملائكة تنادى : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾<sup>(١)</sup> وأنت في ظلمك حيران ، أيقنت بالحلول في سموم النيران ، إلا أن يتداركك بعفوه الملك الديان .

وقد أخذ الملك بيدك وهو ينادى عليك ولجام النار في فمك لو كان ذلك اللجام في الدنيا لأحرقها من مشرقها إلى مغربها ، وينادى عليك : هذا الذى ضيع حدود الله ، هذا الذى خالف أوامر الله ، هذا الذى بدّل عهد الله ، وخالف كتاب الله وسنة رسول الله — ﷺ — ، وآثر حب الدنيا على ما عند هؤلاء .

يا مسكين أخذت على العلم أجرة وبرطिला ( ليس المراد هنا أن يأخذ المدرس على التدريس جعلاً يعيش به ، ولكن المراد من جعل العلم وسيلة لكسب السحت من المال بأن أعان به ظالماً ، أو مدح به جباراً غاشماً ) واشترت به ثمناً قليلاً ، ولم تراقب مولى كريماً جليلاً ، وتركت وراءك يوماً هائلاً ثقيلاً ، وخسرت يا مغرور ملكاً كبيراً دائماً جزيلاً .

## فسقة حملة القرآن

ذكر في بعض الأخبار عن النبي — ﷺ — أنه قال : « الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ويبدأ بنا قبل عبدة الأوثان والنيران ؟ فتقول الملائكة : ليس من يعلم كمن لا يعلم »<sup>(٢)</sup> .

وفي حديث آخر : « إن الملائكة الذين جعلهم الله على الصراط إذا نظروا إلى حملة القرآن الفساق أخذوهم وزجوا في أفقيتهم وألقوهم في جهنم أو يعف الله — تعالى — عنهم » .

(١) سورة الأعراف الآية ٤٩

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٦ . كتاب العلم . باب الترهيب من أن يخالف فعله قوله .

انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزى . ج ١ ص ٢٦٦ ، باب عقوبة فسقة العلماء .

اللهم أعف عنا وعن جميع إخواننا المسلمين ، واجعل القرآن حجة لنا ولا تجعله حجة علينا يا أرحم الراحمين وأنشدوا :

عظمت مصيبة حامل القرآن      إن كان ملجؤه إلى النيران  
فهو الجزاء لمن عصي رب العلا      دار العذاب وموقف الخسران  
عظمت خسارته وجل مصابه      عند الصراط بظلمة وهوان  
يارب عفواً عن قبيح فعالنا      أنت الدليل لجنة الرضوان

فاتقوا الله معشر أهل القرآن في كتابه ، واشفقوا من ألم عذابه ، واعملوا بالقرآن وارغبوا في جزيل ثوابه ، لأن القرآن هو لكم وهو عليكم ، إن لم تعملوا به ويل وثبور ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ (١) .

روى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « عرضت على الذنوب كلها فلم أر فيها ذنباً أعظم من ذنب حامل القرآن وتاركه » (٢) ومعنى تاركه ، تارك العمل به ، العمل مع قلة العلم أعظم من كثرة العلم وقلة العمل .

روى عن النبي — ﷺ — أنه قال « يسأل حامل القرآن عما يسأل عنه الأنبياء » وإذا غضب حامل القرآن يقول له القرآن : أما تستحي ، أنا معك وأنت تغضب ؟ اقتد بي تنج ، وأكرمني بالطاعة أكرمك وأنجيك من الأهوال وأجوزك الصراط وأدخلك الجنة .

ويروى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « ما من شفيح أفضل منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » (٣) . فإننا لله وإنا إليه راجعون على من لا يعمل بالسنة والقرآن ، كيف اختار النار على الجنان ، وعصى مولاه وأطاع الشيطان ، لقد ضل ضللاً بعيداً ، وتبوأ عذاباً شديداً . وبقي من الخير فريداً وحيداً . فيا لها من مصيبة ما أعظمها ، ومن حسرة ما أدامها .

(١) سورة لقمان الآية ٣٣

(٢) انظر مصنف ابن أبي شيبة ج ١٠ ص ٤٧٩ . كتاب فضائل القرآن . باب في نسيان القرآن . رقم ١٠٠٤٧ .

(٣) الحديث في كتاب احياء علوم الدين . باب فضيلة القرآن .

وانظر صحيح مسلم ١ ص ٥٥٣ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . في فضل القرآن بلفظ ( قرعوا فإنه يحيى يوم القيامة شفيحاً لصاحبه ) .

## ما خلف الصراط

روى الحسن عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « خلف الصراط جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرب جل جلاله ، وجسر عليه الرحمة » . فيأبها السامع لما جاء من أحاديث الصفات والآثار المشكلات ، سلم الأمور لباريها ، واترك تأويلها إن كنت تالها وقاريها ، وعليك بخويصة نفسك ، وأعمل ليوم رمسك ( الرمس : تراب القبر ، ورمس الميت : دفنه ) وذلك الجسر عليه السؤال ، ذلك الوقت يقول الله — جل جلاله وتقديست أسماؤه — : عبدى عملت كذا في يوم كذا ؟ فيقول العبد : نعم يارب . فلا يزال الرب جل جلاله يعرف العبد ، والعبد يعترف ويقول نعم حتى يقول العبد : لإرسالك بى إلى النار أهون على من هذا التوبيخ . فيقول له الله تعالى : يا عبدى : بعينى إذا كنت عملت ذلك وكنت عليك شهيداً وملائكتى وأرضى ، ولكن سترت عليك بحلمى وجودى ، يا عبدى ، أنا سترتها فى الدنيا عليك وأنا أغفرها اليوم لك<sup>(١)</sup> . غفر الله لنا أجمعين ، وأمانتنا برحمته مسلمين تائبين على السنة والجماعة على شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله ﷺ — .

## مجلس فى قوله تعالى وتقديست أسماؤه :

﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسماهم ﴾<sup>(٢)</sup>

هؤلاء الذين ذكرهم المولى — جل جلاله — بقوله : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فحبسوا على الأعراف ، والأعراف هى مواضع مرتفعة على الصراط ، لأن الصراط سبع قناطر وهى الجسور بعضها أصعب من بعض ، وبعضها أشد سؤالاً من بعض ، وبعضها أكثر ارتفاعاً من بعض ، وعند كل جسر يسأل العبد فيها عن عبادته التى افترضها الله عليه فى الدنيا . فنسأل الله التوفيق فى الدنيا والتسهيل فى الآخرة فى تلك المقامات .

## سؤال العباد يوم القيامة

فأول ما يسأل عنه العبد الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الأمانة ، ثم بر الوالدين ، ثم حفظ اللسان ، ثم حفظ الجار ، ثم صلة الرحم ، وكذلك جميع ما أمر الله — عز وجل — به وجميع ما نهى عنه ، فكل من جاء إلى جسر من جسور الصراط سئل عن عبادته ، فإن أجابها جاز وصار

(١) (مقيل إن الأعراف سور بين الجنة والنار وسمى أعرافاً لمعرفة العباد أحوالهم عنده ، فمنهم شقى وسعيد) .  
(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ كتاب التوحيد . باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم .



إلى الجنة ، ونور الإيمان يسعى بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، وإن لم يأت بها نقص نوره ، وهو نور الإيمان لأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بطاعة الله وينقص بمعصية الله ، فكل من نقص ثوابه بالمعصية ، نقص نوره على الصراط . فمن أراد مولاه أن يعذبه أتم له النور في بعض جسور الصراط وطفأ النور عنه في بعضه . والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، لو أن قطرة من ظلمة الصراط وضعت في الدنيا لأظلم مشرق الدنيا ومغربها ، ولما الخلق من شدة الظلمة ، وإنما حبس الله تعالى هؤلاء القوم على أعراف الصراط ليبين لأهل الجنة والملائكة والجن والإنس ولجميع ما خلق الله — تبارك وتعالى — فضل نبينا محمد ﷺ . وليظهر فخره وجاهه وقدره وحرمة عند ربنا — جل جلاله — وذلك أن الله — تبارك وتعالى — يأمر العباد بمضون على الصراط والصراط منصوب على متن جهنم ، وتأقي الخلائق إلى الصراط ، المؤمنون والكافرون ، فأما المؤمنون فيمضون وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيامهم ، أى عن أيانهم .

### ظلمات الكفر والمعصية

وأما الكافرون فإنهم يمضون في ظلمات الكفر ، وظلمات أعمالهم التي عملوا في حال الكفر في دار الدنيا ، فإذا أتوا إلى الصراط ، فأول قدم يضعونها على الصراط يهون ( يسقطون إلى أسفل ) في النار فتخطفهم الملائكة بالكلايب فتلقبهم في قعر جهنم ، فإذا مضى المؤمنون بنورهم ، مضى المنافقون في آثارهم يتبعونهم وينادونهم : أنظرونا نقبس من نوركم ، فمشى في ضوئكم ، فيقال : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . وهو قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ (١) وذلك أنهم كانوا في الدنيا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وأظهروا لهم الإيمان بألستهم واعتقدوا الكفر بقلوبهم ، والله تعالى يعامل العباد على عقائد قلوبهم ، والمنافقون كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فإذا كانوا على الصراط على آثار المؤمنين ليمشوا في نورهم قالوا للمؤمنين : أنظرونا نقبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فيظنون أن وراءهم نوراً يلتمسونه فيرجعون وراءهم ، فيرفع لهم سرداب ، فيظنون أن في السرداب نوراً يجوزهم على الصراط ، فيقتحم بهم إلى أبواب جهنم ، فإذا رأى المؤمنون المنافقين قد تساقطوا وتهافتوا في النار ، فزعوا مما حل بالمنافقين ، فعند ذلك يقال لهم : ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ (٢) وهذا العذاب الذي فزعتم منه هو للمنافقين الذين عصوا الله ورسوله وجحدوا بآيات الله وخالفوا كتابه ، فعند ذلك يضرب بينهم بسور له باب .

(١) سورة النساء الآية ١٤٢

(٢) سورة الحديد الآية ١٢

## السور الحاجز بين الجنة والنار

والسور هو الحائط له باب إلى الجنة ، وهو حائط بين الجنة والنار ، باطن هذا الحائط فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب — يعنى جهنم — والباطن فيه الرحمة — يعنى الجنة — فإذا رأى المنافقون المؤمنون لم يرجعوا عليهم ( يعرجون : يرتقون ، وعرج في السلم : ارتقى ) ولم يلتفتوا إليهم ، ورأوهم في حال السلامة والفوز . فيقول لهم المنافقون : ألم نكن معكم في الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : ألم نكن معكم في الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم — أى عذبتهم — وأحرقتم أنفسكم بالنار بخلافكم لرسول الله — ﷺ — وقولكم بألسنتكم ما ليس في قلوبكم ، وتكذبيكم بقاء الله — تبارك وتعالى — ، وكذبتهم بهذا اليوم وتربصتم برسول الله — ﷺ — وبالمؤمنين الدوائر ، وغرركم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغرکم بالله الغرور فيما فعلتم برسول الله — ﷺ — وبالمؤمنين ، فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا — يعنى لا يؤخذ من كافر ولا منافق فداء .

## صفة المنافقين

فالكافر ، هو الذى كفر في السر والإعلان ، والمنافق ، الذى كفر في السر وآمن في الإعلان ، وآمن بلسانه وكفر بقلبه ، وقوله : ﴿ مَا وَكَّمُ النَّارُ ﴾ أى مرجعكم إليها ومستقركم فيها ، هذا كله غرور الشيطان بكم حتى جاءكم الموت و متم على النفاق ، فإذا رجعوا ورائهم ليلتمسوا النور رأوا سرداباً فيدخلون ذلك السرداب ويظنون أن النور فيه فيهم بهم على أبواب جهنم ، فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتقذفهم في جهنم حتى يجاوزون الباب الأول من جهنم ، ثم يلقون في الباب الثانى حتى يجاوزونه ، فلا يزالون من باب إلى باب حتى ينتهوا إلى الدرك الأسفل من النار ، فينتهى بهم إلى جب ( الجب : البئر التى تبني بالحجارة ) يقال له جب الحزن ، في ذلك الجب بئر يقال له الهيب ، فيها تواييت من نار وعليها أقفال من نار .

## بئر الهيب

على تلك البئر صخرة من كبريت في تلك البئر باب إذا رفعت تلك الصخرة استغاثت نار جهنم من تلك النار التى تخرج منها فتأكل تلك النار التى تخرج من تلك البئر نيران جهنم وما فيها أسرع من طرفة عين ، فيؤتى بالمنافقين فيلقون في تلك البئر ، وتوضع عليهم تلك الصخرة فلا يخرجون منها

أبداً ، كلما أكلت تلك النار لحومهم جدد الله لهم لحوماً غيرها ، فلا يخرجون من تلك البئر أبداً ،  
فذلك قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَوِيْرًا ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله :  
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> يعنى بقوله : ﴿ ارجعوا وراءكم فاتمسوا نورا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وأما المؤمنون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فإنهم يمشون على الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم  
وبأيامهم ، حتى إذا كانوا على جسر الصراط ، وهو أعلى الجسور من الصراط وهى الأعراف وهى  
المواضع المرتفعة وأحدها عرف ، وتسمى النشز من الأرض وهو الموضع المرتفع عرفاً ، ومنها عرف  
الديك .

## أهل الأعراف

فإذا صاروا على تلك المواضع من الصراط ، نقص نورهم وبقوا على أطراف أنامل أرجلهم ورأوا  
أن ذلك ظلمة ، وذلك أن الخلق فى الصراط على قدر أعمالهم فى الدنيا ، فمن الناس من يكون له  
من النور ما يضىء على الصراط مسيرة مائة عام ، ومنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة سنة ،  
وما يضىء مسيرة شهر ومسييرة جمعة ، ومسييرة يوم ، ومسييرة ساعة ، ومن الناس من يعطى من النور  
ما يضىء له موضع قدميه . على قدر منازلهم عند الله - تعالى - وعلى قدر أعمالهم فى الدنيا ، فيستبقون  
فى الجواز على قدر أنوارهم التى معهم فمن كان له نور كثير جاز فى السعة ، ومن كان له نور قليل  
جاز فى الضيق ، على قدر ما أعطى الله لكل عبد ، فإذا ثبت أصحاب الأعراف على أنامل أرجلهم  
فى ذلك ولا ينظرون إلى موضع أقدامهم من شدة الظلمة ، والظلمة هى من شدة سواد جهنم ، أعاذنا  
الله وإياكم منها وسهل لجميعنا شذائدها وظلمتها ، وثبت على الصراط أقدامنا بمنه وفضله . والصراط  
أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، وأحر من الجمر ، عليه من الحسك ( الشوك مثل حسك  
السعدان ، والحسك ما يعمل من الحديد على مثاله للحرب ) والكلايب أكثر من عدد الإنس والجن ،  
قد تعلق بكل كlob من الزبانية عدد نجوم السماء إذا تكلم واحد منهم تنثر النار من فيه ، لو أن  
واحداً منهم بصق فى البحار الزاخرة لجففها ، وإذا تكلم واحد منهم فزع صاحبه منه ، ولو سمع أهل  
الدنيا صوت واحد يتكلم بالكلام لمات كل من فيها من إنسها وجنّها وجميع ما خلق الله - تبارك  
وتعالى - فيها من برها وبحرها من فظاعة كلامه ، ومن شدة صوته . وإذا صاح مالك خازن جهنم  
على خزنة جهنم يغشى عليهم من شدة صوته ، والصراط مع دقته ورقته يضطرب كما تضطرب السفينة

(١) سورة النساء الآية ١٤٥

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢

(٣) سورة الحديد الآية ١٣

بأهلها إذا كانت الريح عاصفة ، فإذا ثبت القوم على أناملهم من أرجلهم لا يستطيعون الجواز وهم ينظرون إلى أهل النار كيف يعذبون في النار ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> وهم يستغيثون ويتضرعون إلى مولاهم — جل جلاله — ويسألونه النجاة من النار ومن هول ما هم فيه من صعوبة الصراط ، فيمكثون كذلك ما شاء الله — تبارك وتعالى — مغمومين مكرويين محزونين لا يدرون أينجون أم يهلكون ، مع كل إنسان منهم حافظاه الذان كانا يكتبان عليه عمله في الدنيا ، فبينما هم كذلك إذ يلقي الله — تبارك وتعالى — ذكرهم في قلوب إخوانهم من أهل الجنة وعلى ألسنتهم ، فيقول بعضهم لبعض : يا ليت شعرنا ما فعل إخواننا من أهل الأعراف .

فيقولون : ما لنا علم بما صنعوا ولكننا نسأل الحفظة ومن معهم حتى يخبرونا ما فعلوا فينادون من قصورهم : يا معشر الملائكة الذين مع أصحاب الأعراف ، ما فعل إخواننا من أصحاب الأعراف ؟

## شفاعة أهل الجنة في أصحاب الأعراف

فيقول الملائكة : يا معشر أهل الجنة : أصحاب الأعراف لم يدخلوها ، وهم يطمعون بدخولها ، قد قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، وبقوا على أطراف أناملهم وأرجلهم ، وهم وقوف ينتظرون رحمة ربهم ، فذلك قوله — تعالى — : ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ يعني نادى الملائكة أصحاب الجنة ﴿ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

## حياء آدم

فعند ذلك يلبس أهل الجنة الحلى والحلل ، ويضعون التيجان على رؤوسهم ، ثم يمضون بأجمعهم حتى يأتوا آدم — عليه الصلاة والسلام — وهو في قصره ، فينادون بأجمعهم : يا أبانا : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك كرام ملائكته ، وأسكنك جنته ، إن ناساً من ولدك محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين . فيقول آدم — عليه السلام — : لست هنالك . أنا الذى عصيت ربي ، وأكلت من الشجرة ففقر لى ، وأنا أستحي أن أسأله بعد المغفرة شيئاً . ولكن عليكم بابنى نوح الذى حملة الله في الفلك .

(١) سورة الأعراف الآية ٤٧

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

### حياء نوح

فيأتوا نوحاً — عليه السلام — فينادون بأجمعهم : يا نوح : فيشرف عليهم من قصره فينظر إلى جماعتهم فيقول لهم نوح : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا نوح : أنت الذى حملك الله فى الفلك ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم نوح : لست هنالك ، أنا الذى خاطبت ربي فيما ليس لى به علم ، فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ، ولكن عليكم بإبراهيم الذى اتخذ الله خليلاً ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، فيأتون إبراهيم — عليه السلام — وهو فى قصره فينادون بأجمعهم : يا إبراهيم : أنت الذى اتخذك الله خليلاً ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم : لست هنالك ، أنا الذى كذبت كذبتين — وقيل ثلاث — فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بموسى ابن عمران كليم الله ونبيه .

### حياء موسى

فيأتون موسى — عليه السلام — فينادونه ، فيشرف عليهم فيقولون له : يا موسى : أنت الذى كلمك الله بغير ترجمان ، وأنزل عليك التوراة وضرب لك طريقاً ييساً فى البحر ، وأراك العجائب من قدرته ، إن ناساً من إخواننا محبوسون على الصراط قل نورهم وطفئ سراجهم فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم موسى : لست هنالك أنا الذى وكزت الرجل فقتلته فغفر لى وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بعيسى بن مريم العذراء البتول ( البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج الدائمة العبادة ) البكر .

### حياء عيسى

فيأتون عيسى ، وهو — ﷺ — فى قصره ، فينادونه بأجمعهم يا عيسى : فيشرف عليهم من قصره فيقول لهم : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا عيسى : أنت الذى خلقك الله من غير بشر ، وأنت الذى جعلك الله آية للناس ، وأنت ابن الطاهرة البكر العذراء البتول ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول : لست هنالك ، أنا الذى زعمت النصارى أنى قلت لهم اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، فأستحى منه أن أسأله شيئاً ، ولكن عليكم بالذى كان آخر المرسلين وهو اليوم أولهم ، عليكم به فهو ، إمام المتقين ، وسيد العالمين وخاتم النبيين ، محمد — ﷺ — .

## شفاعة محمد

فيأتون النبي — ﷺ — وهو في قصره خير قصور الجنة ، فيقفون حول القصر والقصر قد أشرق نوره وبهجته على جميع قصور أهل الجنة ، فينادون بأجمعهم : يا محمد : يا أبا القاسم : يا أحمد : يا سيد العالمين : ، يا إمام المتقين : يا خاتم النبيين : ، فيشرف عليهم محمد — ﷺ — من قصره والنور من وجهه قد أشرق على قصور الجنة كلها ، فيقول لهم — صلوات الله وسلامه عليه — : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : أنت الذى جعلك الله خاتم النبيين وسيد العالمين وإمام المتقين ، إن ناساً من أمتك على الصراط محبوسون ، قل نورهم ، وطفئ سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين .

## دخوله جنة عدن

فيقول النبي — ﷺ — : أنا لها ، فيلبس — ﷺ — الحل والحلل ويضع على رأسه التاج ، ويتبعه أهل الجنة حتى ينتهى إلى باب جنة عدن فيستفتح فيقال : من هذا؟ قال — ﷺ — : فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرداق ملك يتلألاً نوراً فيهلنى ما أرى منه ، فيؤنسنى ويمسحنى فيقول : يا أحمد أنت عبد وأنا عبد مثلك ، ثم أمضى فأنتهى إلى سرداق ثان ، فأستفتح فيقال : من هذا؟ فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرداق ملك عظيم أعظم خلقاً وأشد نوراً من الذى رأيت ، فيهلنى ما رأيت من عظمه ، فيؤنسنى ويمسحنى ويقول : يا أحمد : أنت عبد وأنا عبد مثلك فلا أزال أمشى فى عظم الملائكة وبعضهم أشد نوراً من بعض حتى أنتهى إلى السرداق السابع فأستفتح فيقال : من هذا؟ فأقول : أنا أحمد ، فيفتح لى فإذا خلف السرداق جبريل — عليه الصلاة والسلام — ، فيقول : مرحباً بهذا الصوت لقد كنت إليه مشتاقاً . فأمضى حتى أنتهى إلى الحجب ، فترفع الحجب فيتجلى لى رب العالمين — جل جلاله وعظمت قدرته — ، فإذا نظرت إليه خرت له ساجداً فأحمده بتحميد ما حمده بمثله ملك من حملة العرش ولا من حملة الكرسي ولا بنى مرسل حينئذ فى ذلك المكان ، حتى يقول الكروبيون والروحانيون وأصحاب السرادقات : إن هذا لأهل أن يشفعه الله فيمن يشفع .

## سجوده بين يدى الله تعالى

فيقول الجبار — جل جلاله وعظمت قدرته — : يا أحمد : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، قال رسول الله — ﷺ — : فأرفع رأسى من السجود فإذا نظرت إلى ربي — جل جلاله — خرت

ساجداً وأحمده وأثنى عليه بمثل ما حمدته به في المرة الأولى ، فأفعل ذلك ثلاث مرات ورنى — جل جلاله — يقول لى فى كل مرة : إرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يارب : إن ناساً من أمتى محبوسون على الصراط قل نورهم وطفئ سراجهم فأتمم لهم نورهم ، وأضئ سراجهم ، وهم الذين يقولون عند ذلك : ﴿ ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شئ قدير ﴾ (١) . حتى نمضى كما مضى إخواننا إلى الجنة ، فيبعث الله — تبارك وتعالى — الملائكة فيأتون بالنور من جنة عدن ، ثم يغمسون غمساً فيحي الله نورهم ويضئ سراجهم ، ثم تقبل الملائكة على أهل جهنم فيقولون لهم : ﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ (٢) وذلك أن أهل جهنم لما نظروا إلى أصحاب الأعراف محبوسين على الصراط قال بعضهم لبعض : والله ما حبسوا هؤلاء إلا ليدخلوا معنا فى جهنم ، فمن أجل ذلك قالت لهم الملائكة : ( هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ) ثم تقبل الملائكة على أصحاب الأعراف .

### جاه المصطفى العظيم

فيقولون لهم : ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ أى لا تحزنون ولا تموتون فى الجنة أبداً ، فيمضون والنور الذى جاءتهم به الملائكة من جنة عدن ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حتى يجوزوا الصراط ويدخلوا الجنة ويلحقوا بمنازلهم وإخوانهم ونبهم — ﷺ — ، وإنما حبسهم الجبار — جل جلاله وعظمت قدرته — ليظهر جاه محمد — ﷺ — وفضله وحرمة ودرجته ومنزله ومكانه عند الله — تبارك وتعالى — . من الشفاعة — ﷺ — صلاة تشرف بها عقباه ، وتبلغه بها من الشفاعة العظمى رضاه ، آمين يارب العالمين ، صلاة دائمة منتهى الآباد ، طيبة باقية بلا انقطاع ولا نفاذ ، صلاة تنجيها بها من حر جهنم وبئس المصير ، وتدخلنا الجنة مع صحابته الأبرار الطيبين . آمين يارب العالمين .

### مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾

﴿ وفى حساب الملائكة والرسل واللوح المحفوظ ﴾

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « تقف للعرض الأكبر بين يدى رب العالمين فيفرون على قدر أعمالهم » .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : يقول الله — تبارك وتعالى — يوم القيامة : « يا بنى آدم انصتوا فظالما نصت لكم » .

(١) سورة التحريم الآية ٨

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٩

وفي رواية أخرى : « فقد نصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأنظر أعمالكم ، فانظروا اليوم أعمالكم تعرض عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، احشروا على عبادي فو عزتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم » .

فكيف بك يا مسكين يا مغرور يا تارك الحق والصواب ، يا مخالفاً للسنة والكتاب ، يا ظالماً لنفسه يا غافلاً عن الحساب ، يا من بذل نفسه لأليم العذاب ، يا من تهادى في معصية رب الأرباب ، ونسى الجنة وحسن المآب . وأنشدوا :

إلى كم لا تفيق من التصابي	وهذا العمر يؤذن بالذهاب
ويرضى بالقليل المرء حظاً	ويزهد في الكثير من الثواب
فقد ما غرت الدنيا أناساً	كما غر المحين بالشراب
تمنهم غروراً باطلات	وتخدعهم بآمال كذاب
كأنك لا ترى في كل يوم	جنائز تستحث إلى الخراب
خلقت من التراب وعن قريب	ستلحق — غير شك — بالتراب
وتحيا بعد موتك كي تجازي	بما قدمت في يوم الحساب
فإن تك بالمشيء بقبح فعل	فحسبك بالعقاب مع العذاب
وإن كنت الذي قدمت خيراً	جزيت به غداً حسن المآب

### تبكيت الله تعالى للجبابرة

ذكر في بعض الأخبار أن الجبار — جل جلاله — إذا اجتمع الأولون والآخرون في عرصة القيامة نادى — سبحانه وتعالى — : أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الملوك وأبناء الملوك قصمت<sup>(١)</sup> الجبابرة بسلطاني ، وأفنيت الملوك بعظمتي .

ذكر في الخبر أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الخلائق خلقة لتجبرهم على العباد ، والجبابرة هم الذين تجبروا على الخلق وعن اتباع سنة رسول الله — ﷺ — . وقيل : الجبابرة هم الذين أجبروا المساكين والضعفاء على ما لا يطيقوا ، وهذا الاسم قد اشترك فيه الخالق والمخلوق فالخالق — جل جلاله — هو جبار على الحقيقة .



## تفسير الجبار

وتفسير الجبار — في حق الله تعالى — الذى جبر عباده على ما أراد ، وقيل الذى يجبر عن ظلم العباد : إن الله — تعالى جل اسمه — لا ينسب إليه الظلم لأن حد الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، لأن الدنيا والآخرة ملك الله تعالى ، والجبار من العباد هو الظالم الذى يضع الشيء في غير موضعه ، يأخذ ما ليس له بحق ويرده إلى ما قد ملكه الله — تبارك وتعالى — ، وإذا قضى الله — تبارك وتعالى — على عبده بقضاء فهو له خيرة . لقول رسول الله — ﷺ — : « لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يرى أن الذى قضاه الله — تعالى — عليه أوله خير له من الذى أراد لنفسه » ، وقال رسول الله — ﷺ — : « في قضاء الله تعالى خيرة إلا قضاء النار » وإذا قضى الله تبارك وتعالى على عبده بالنار فهو عبده وهو خلقه لم يعنه أحد على خلقه ولا على رزقه ، وهو يفعل ما يريد لا شريك في ملكه . ثم ينادى الجليل جل جلاله : ﴿ يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ <sup>(١)</sup> فإذا سمع الخلق هذا النداء رفعوا رءوسهم وطمعوا كلهم في هذا النداء وقالوا كلهم نحن عباد الله ، ثم ينادى ثانية ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فعند ذلك ينكس رأسه من لم يكن مسلماً ، فتبقى أهل الأديان متحيرين ويفرح المسلمون ، ثم ينادى الثالثة : ﴿ الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ أى كانوا يتقون الكبائر ، فينكس أهل الكبائر من أهل التوحيد رءوسهم ويرفع رءوسهم سائر أهل التوحيد الذين اجتنبوا الكبائر وتابوا عنها توبة نصوحا . فكيف بك يا مغرور : يا مسكين : قد ارتكبت الكبائر والصغائر ، وعصيت مولاك في الخفيات والظواهر ، وأيقنت أنك مسئول يوم تبلى السرائر ، ولاق من العقوبة على ذلك الحظ الجزيل الوافر . وأنشدوا :

عصيت الله ألوان المعاصي كأنى لست أوقن بالقصاص  
فما لى لا أنوح على ذنوبى وأبكى يوم يؤخذ بالنواصي

## نصيحة

فانظر لنفسك يا مسكين : يا ضعيف الإيمان واليقين : قبل حلول الندم ، وزوال النعم ، ونزول النقم ، حيث لا ينفع الندم ، فاستعد للسؤال ، وتباً للجدال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

## السائق والشهيد

فإذا سمع العباد النداء وعلم كل عبد وأمة منزلته من جميع أهل الأديان ، نشرت الدواوين ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين ، ونصبت المنابر بالأنبياء والرسل ، فيجلس كل نبي على منبره وأمه قد أحدقت به ، ونصبت الكراسي للصدّيقين والشهداء ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾<sup>(١)</sup> سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، فالتاس ينقسمون في السياقة على قسمين : قسم تسوقه الملائكة ببر وإكرام ، وروق وإجلال ، وتؤمنهم وتهديء روعاتهم كلما نظر العبد إلى من يعذب أو ينكل يقول له سائقه من الملائكة : يا عبد الله ما أنت مثل هذا ، هذا عصي الله وأنت أطعته ، والقسم الثاني يساقون بالإنتهار والسطوة والإغلاظ ، يسوقه سائقه وهو يروعه ويقول له : يا عدو الله هذا الحساب سوف تدري ، كلما نظر المسكين إلى من يعذب أو ينكل ( نكل به جعله عبرة لغيره ) قال له سائقه : الساعة تكون أنت مثل هذا ، هذا عصي الله وأنت عصيته ، أما علمت يا عدو الله أن الحساب والحشر أمامك ؟ وأنشدوا :

كأنى بنفسى قد بلغت مدى عمرى	وأنكرت ما قد كنت أعرف من دهرى
وطالبنى من لا أقوم بدفعه	وحولت من دارى إلى ظلمة القبر
وفاز بميراثى أناس فشتوا	بإفسادهم ما كنت أجمع من أمرى
وأغفلنى من كان ييدى محبتى	فأخلصه ودى ويغمره برى
فلم يسخ لى منهم صديق بدعوة	إذا ما جرى يوماً بحضرته ذكرى
وأضحى ليلى ساكناً مبهجاً به	وفى اللحد يبتى لا أقوم إلى الحشر
فيا شقوى إن لم يجد بنجاته	إلهى ولم يجبر برحمته فقرى
فقد أثقلت ظهرى ذنوب لو أنها	على ظهر طور <sup>(٢)</sup> أثقلته من الوزر

فما أعظم مصيبتكم ، وما أطول حسرتكم إن لم يعف عنكم مولاكم وجعل النار مأواكم ، فاغتموا التجارة في دار الفناء والذهاب ، يجازيكم بها مولاكم عند مناقشة الحساب ، فالحساب عظيم عسير ، والجهل — والله — جليل كبير ، والناقد مميز بصير ، واليوم عبوس قمطير .

(١) سورة ق الآية ٢١

(٢) الطور : الجبل العظيم

## اللوحة المحفوظ

ذكر عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال : إذا جمع الله — تبارك وتعالى — الأولين والآخرين في صعيد واحد ونشرت الدواوين ، ونصبت الموازين ، وأحضرت الأنبياء بأممها ، وحضر الصديقون والشهداء ، وحشر وحوش الأرض ، وهوامها وطيورها وأنعامها ، وسكان جبالها وبحارها ، ينادى مناد من قبل العرش : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى باللوحة المحفوظ فيوقف بين يدي الجبار — جل جلاله — خاضعاً ذليلاً ، فيقول له تبارك وتعالى : ما صنعت بالوحي الذي أنزلت فيك ؟ واللوحة من درة بيضاء ، صفحتاه من ياقوتة حمراء ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تبارك وتعالى فيه في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، فيخلق في كل نظرة ، ويحيى ويميت ويعز ويذل ، ويرفع أقواماً ويفعل بهم الخير ويوفقهم بفضله . ويخفض أقواماً ويصدهم عن منهاج الهدى بعدله ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون يوم القيامة لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عبدوه حق عبادته ، لأنه — جل جلاله — أجل وأعظم من أن يوفى في العبادة والطاعة والمعرفة حقه ، ما قدر على هذا بنى مرسل ولا ملك مقرب ، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . قال فيقف اللوح بين يدي الجبار جل جلاله وعظمت قدرته فيقول له : أيها اللوح المحفوظ ما صنعت بالذي أنزلت فيك ؟ فيقول اللوح المحفوظ : سيدى ومولاي بلغته عبدك ميكائيل .

## رسالة ميكائيل

فينادى أين ميكائيل ؟ فيؤتى به — عليه السلام — وهو ملك عظيم له ستة عشر ألف جناح لو نشر منها جناحاً واحداً في الدنيا لما وسعته ، فيقف بين يدي الله تعالى خاضعاً ذليلاً قد بلغت نفسه إلى حنجرته فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الجبار جل جلاله ، فيقول الله له : ما صنعت بالوحي الذي بلغ إليك اللوح المحفوظ ؟ وهل تشهد له بالتليغ ؟ وأنا أعلم بذلك منك ولكن سبق في علمي أنى أسأل اليوم عبادى وجميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض ، فيقول ميكائيل : بلغنى اللوح المحفوظ وبلغته عبدك إسرئيل وأنت أعلم .

## رسالة إسرئيل

فيرأ اللوح المحفوظ بشهادة ميكائيل له ، ثم ينادى أين إسرئيل ؟ فيؤتى به — عليه السلام — وهو ملك عظيم له جناح بالشرق وجناح بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى والعرش على رأسه ،

فيقف بين يدي الله — تبارك وتعالى وجل — ، مع عظم خلقه ، خاضعاً ذليلاً قد ذهبت نفسه وتغير لونه ، وارتعدت فرائضه واضطربت أوصاله واصططكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقة فلا هي تدخل ولا هي تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الله — تبارك وتعالى — . فيقول له الجبار — جل جلاله — : ما صنعت بالوحي الذي بلغك ميكائيل ؟ وهل بلغك وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا علام الغيوب . فيقول إسرافيل — عليه السلام — : نعم يا سيدي ومولاي قد بلغني وأنت أعلم وقد بلغت عبدك جبريل ، فيقرأ ميكائيل بشهادة إسرافيل — عليهما السلام — .

### رسالة جبرائيل

ثم ينادي : أين جبريل ؟ فيؤتى بجبريل — عليه السلام — وقد تغير لونه وتبلبل لبه وارتعدت فرائضه واضطربت أوصاله واصططكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقة فلا هي تدخل ولا هي تخرج جزعاً وخوفاً من الجبار — جل جلاله — ، فيقول الله — تبارك وتعالى — : يا جبريل ما صنعت بالوحي الذي بلغك عبدي إسرافيل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول جبريل عليه السلام : نعم يا سيدي ومولاي بلغني وبلغته نبيك نوحاً — عليه السلام — وأنت أعلم . فيقرأ إسرافيل بشهادة جبريل .

### شهادة نوح

فيؤتى بنوح — عليه السلام — حتى يوقف بين يدي الجبار — جل جلاله — وقد ذهبت نفسه وتغير لونه وقد مات فزعاً وخوفاً من الجبار — جل جلاله — فيقول الجبار — جل جلاله — : يا نوح : ما صنعت بالوحي الذي بلغك عبدي جبريل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول — عليه الصلاة والسلام — : نعم يا سيدي ومولاي قد بلغني عبدك جبريل — عليه السلام — وقد بلغت قومي وأنت أعلم من جميع عبادك بذلك . فيقول الله — تبارك وتعالى — : صدقت ، أنا أعلم من جميع خلقي ولكن قد سبق في علمي أن أسأل جميع خلقي وأستشهد بعضهم على بعض وأنا الحاكم الجبار الذي لا أجور في حكمي . ثم يدعى بقوم نوح — عليه السلام — فيقول لهم : ما صنعتم بالوحي الذي بلغكم نوح ؟ وهل بلغكم وهل تشهدون له بالتبليغ ؟ فيقول قوم نوح : ربنا ما جاءنا من نذير ولا رأيناه يوماً قط ولا سمعناه به ولا بلغ إلينا رسالة ، فإذا سمع نوح — عليه السلام — كلام قومه ذهبت نفسه وود لو ابتلغته الأرض ، ولو قضى الله — تبارك وتعالى — بالموت لمات نوح حين جحدته قومه ، حياءً من الله — تبارك وتعالى — ، فيقول الله — تبارك وتعالى — : يا نوح : هل تجد من يشهد لك أنك قد بلغت قومك الرسالة ؟ فينظر نوح — عليه السلام — في الموقف يميناً وشمالاً ومشرقاً ومغرباً يتضح

ويتبصر من بين سائر الأنبياء والمرسلين ، وبين كراسي الشهداء والصديقين . فلا يرى في المنابر أعلى ولا أنور ولا أحسن ولا أزهى من منبر محمد — ﷺ — .

## جاه الرسول الأعظم

ولا يرى في الأنبياء وجهاً أحسن من وجه محمد — ﷺ — ، ولا يرى نوح في الكراسي أنور ولا أحسن من كراسي أمة محمد — ﷺ — ، ولا يرى أبهى ولا أنور ولا أحسن من كراسي أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — . ولا يرى في الوجوه وجوهاً أحسن من وجوه أمة محمد — ﷺ — ، ولا يرى في الصديقين والشهداء أحسن ولا أبهى ولا أنور من وجه أبي بكر الصديق — رضي الله عنه — .

## فضل أبي بكر الصديق

فيقول له نوح : قد أصبت من يشهد لي يا مولاي وسيدى ، فيقول الله — تبارك وتعالى — وهو أعلم — من يشهد لك يا نوح ؟ فيقول نوح — عليه السلام — يشهد لي محمد — ﷺ — وأُمته بأني قد بلغت قومي الرسالة ، فينادى مناد : أين النبي الأمي العربي التهامي ؟ أين أحمد ؟ أين سيد المرسلين ، وأين خاتم النبيين والمرسلين ، أين إمام المتقين ؟ فعند ذلك يقوم محمد — ﷺ — ، وعند ذلك يرفع أهل الجمع رءوسهم إذا رأوا رسول الله — ﷺ — فيمضي — صلوات الله وسلامه عليه — حتى ينتهي إلى ربه — عز وجل — فيقول له ربه يا أحمد — ونوح قائم ينظر — ما تقول هل بلغ نوح الرسالة إلى قومه ؟

فيقول محمد — ﷺ — : نعم يا سيدى ومولاي قد بلغ وأقام يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً . فيقول الجبار — جل جلاله — : صدقت يا أحمد . فعند ذلك يفرح نوح — عليه السلام — ويتهلل وجهه ، ثم يقول الله تعالى : يا محمد : هلم أمتك إلى الحساب والشهادة ، فتجتمع كل أمة حول نبيها وتنتظر أمة محمد — ﷺ — — يميناً وشمالاً فلا يرون النبي — ﷺ — ، والأمم قد أهدقت بأنبيائها وينظر الأنبياء والأمم إلى منبر رسول الله — ﷺ — — خالياً .

## منبر الرسول والمحشر

فيقول بعضهم لبعض : لمن هذا المنبر الذي لا يرى في الموقف مثله لحسنه وجماله ، ولا يرى أنور منه ولا أعلا ولا أبهى منه ، ونراه خالياً ولا نرى له صاحباً ؟

فبينما هم ينظرون إلى منبر النبي ﷺ — إذ ينادى المنادى ، ألا إن هذا المنبر منبر محمد —  
 ﷺ — ، وإن محمداً — ﷺ — يناجى ربه في المذنبين من أمته يشفع لهم إلى الله — تعالى — : فبينما  
 هذه الأمة وقوف مغموون محزونون بما يأتي النبي ﷺ — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم —  
 صلوات الله وسلامه عليه — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم — صلوات الله  
 وسلامه عليه — من عند ربه — جل جلاله — حتى ينتهي إليهم فيقوم بينهم فيرفعون رعوسهم وينظرون  
 إليه فإذا رآهم — صلوات الله وسلامه عليه — أرسل عينيه بالبكاء ، فإذا نظروا ﴿ تجدد كل نفس ما  
 عملت من خير محضراً ﴾ (١) الآية . ذلك يوم مهول عبوس ، يوم تشيب فيه الرعوس ، وتذهل فيه  
 النفوس ، وتبلو كل نفس ما أسلفت ، وتقدم كل أمة على ما أقدمت ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ،  
 يجدد الله كل عبد وأمة ما عمل وقدم من خير ثواباً ونعيماً ، وسروراً مقيماً ، ورباً كريماً ، رعوفاً بعباده  
 رحيماً . ويجدد كل عبد وأمة ما عمل من شر خزيماً جسيماً ، وناراً وجحيماً ، وعذاباً مقيماً ، ونكلاً  
 أليماً ، ورباً غضباناً عظيماً ﴿ يوم تجدد كل نفس ما عملت ﴾ .

## الثواب والعقاب

يجدد الطائع الثواب ، ويجدد الفاسق العذاب ، يجدد المؤمن لذة الوصال ، بالنظر إلى الكبير المتعال ،  
 في دار الخلد والجلال ، ويجدد الكافر العذاب والنكال ، والسلاسل والأغلال ، والجحيم والخيال ، وفظاعة  
 الأهوال ، يوم تجدد كل نفس ما عملت ، يجدد المؤمن النعيم والكرامة ، والأمن في القيامة ، والعافية  
 والسلامة ، والحلول في دار المقامة ، ويجدد الكافر الخزي والندامة ، والعذاب والملامة ، ﴿ يوم تجدد كل  
 نفس ما عملت ﴾ يجدد المؤمن الدرجات ، ويجدد الكافر العقوبات ، يجدد المؤمن السرور ، ويجدد الفاجر  
 الثبور ، يجدد المؤمن النعيم والخلود ، ويجدد الفاجر عذاباً غير مردود ، يجدد المؤمن ما قدم من الإحسان ،  
 في درجات الجنان في جوار الرحمن ، مع الخيرات الحسان ، ويجدد الفاجر ما عمل من العصيان في سموم  
 النيران ، في جوار الشيطان ، مع الذل والهوان . ﴿ يوم تجدد كل نفس ما عملت ﴾ في يوم هائل عظيم ،  
 يوم تكثر فيه الغموم وتعظم فيه الهموم ، ويفصل الرب بين عباده وهو الحى القيوم ﴿ يوم تجدد كل  
 نفس ما عملت ﴾ يوم تندم على القبائح ، وتأسف عند معاينة الفضائح ، وتوجد الأعمال في الصحف  
 الصحائف ﴿ يوم تجدد كل نفس ما عملت ﴾ يوم يندم الظالم ويخسر الآثم ، ويكون الجبار — جل  
 جلاله — في ذلك اليوم العدل الحاكم ، ذلك يوم الندامة والحسرة ، والأهوال والعبرة . وأنشدوا :  
 يا واحداً صمداً بغير قرين ارحم ضراعة عبداً المسكين  
 واعطف على إذا وقفت مروعاً حيران بين يديك يوم الدين

يا حسرتى بين العباد إذا هموا      خافوا الحساب فخف عنهم دونى  
ما حيلتى فى يوم نشر صحيفتى      إذا قيل لى خذها بغير يمين  
ما حيلتى عند الحساب وهوله      إذا قصرت بى قوتى و يقينى  
لا حيلة عندى ولا لى مؤئل      إن خاننى طمعى وحسن ظنونى  
يارب لا تترك عبيدك هالكاً      وارحم بفضلك عبرتى وشئونى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ أى تجده حاضراً عتيداً ( العتيد الحاضر المهيأ )  
وتسأل عن أعمالك سؤالاً شديداً ﴿ وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ (١) . قيل  
الأمداً البعيد الذى يود من عمل سوءاً وعصى مولاة أن يكون بينه وبين عمله سوء كما بين المشرق  
والمغرب وقيل الأمداً البعيد الغاية فى البعد الذى يتمنى أنه تاب فى الدنيا وتبدل الشر بالخير حتى يمحو  
عنه السوء بالتوبة فلا يراه ولا يسمعه ولا يعاقب عليه إذا رأى التائبين غفر لهم بالتوبة ، وبدلت سيئاتهم  
بالحسنات والأوبة ، كما قال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم  
الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢) الآية .

### فائدة التوبة

وقال - رسول الله - ﷺ - « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٣) فإذا رأى المسكين الذى  
عمل السوء وقد أحاطت به الكرب وترادفت عليه الهموم والخطوب ، واسود وجهه من ظلمات الذنوب ،  
وقد غضب عليه علام الغيوب ، ورأى الذين تابوا من إخوانه وأهله وأصحابه وجيرانه قد فازوا بالملك  
الكبير ، والحساب اليسير ، ولباس السندس والحرير والنظر إلى وجه السميع البصير ، قد جاء فى القرآن  
الكريم ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (٤) ، وفى الحديث « سترون ربكم كالقمر عند تمامه  
لا تضارون شيئاً عن رؤيته » (٥) ورؤية الله - تعالى - يوم القيامة لا شك فيها وتلك أفضل الكرامة ، وقد  
أيدها الإمام أحمد بن حنبل بأحاديث صحيحة ورأى نفسه قد خسر وخاب ، وحرم الثواب ، ونوقش

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٦٨ كتاب صفة القيامة باب ٤٩ رقم ٢٤٩٩ ط / دار الكتب العلمية - تحقيق كمال يوسف الحوت . وقال : هذا حديث غريب لا تعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة .

وانظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٢٠ . كتاب الزهد . باب ذكر التوبة . رقم ٤٢٥١ .

(٤) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٨٣ . كتاب التوحيد . باب قول الله - تعالى - ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .  
انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٩٤ كتاب صفة الجنة وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

الحساب ، وحجب عن رب الأرباب ، وصار إلى أليم العذاب . يود لو كان تائباً ، ولم يكن من الرحمة خائباً ، يود لو كان السوء عنه بعيداً ولم يكن حاضراً عتيداً ، ولم يكن العذاب عليه شديداً . يود لو كان من التائبين ، ولم يكن من المحرومين ، يود لو كان من الآمنين ولم يكن من المخالفين ، يود لو كان من الطائعين ولم يكن من العصيين ، يود لو كان من المحسنين ولم يكن من الظالمين ، يود لو كان من أهل الجنان ولم يكن من أهل النيران ، يود لو كان من أهل الثواب ولم يكن من أهل العقاب ، يود لو كان من أهل النعيم ولم يكن من أهل الجحيم ، يود لو كان من الأولياء ولم يكن من الأشقياء . يود لو كان من أهل الوفاق ، ولم يكن من أهل النفاق . يود لو كان من أهل الفوز بالجنة ، ولم يكن من أهل العذاب والمحنة . يود لو كان سعيداً رشيداً ، ولم يكن عن الله بعيداً . لا أبعدنا الله وإياك من رحمته ، وقربنا وإياكم بالفوز لجنته .

## عمل العبد يلزمه

ذكر في بعض الأخبار أن العبد إذا مات أحضر عمله كله عند رأسه حين يغسل خيراً كان أو شراً ، فإذا صلى عليه ومضى إلى قبره وانصرف الناس عنه بقى عمله معه في قبره ولا يزال معه في قبره إلى يوم يخرج من قبره فإذا خرج خرج معه ، فإذا قدم إلى الحساب اجتمع عمله كله خيره وشره حتى حركاته وأنفاسه ووفاته وخلافه ، يجد الكل مجموعاً لم يُنس منه شيء من الكبائر ولا من الصغائر ، ولا من الظواهر ولا من السرائر .

## الحض على التوبة

فالله الله معشر المذنبين ، ابعدوا عن عمل السوء بالتوبة إلى الرحمن ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها غرور الشيطان ، واعلموا أن الله - تبارك وتعالى - يمحو عنكم سيئاتكم بترك الذنوب والعزم على التوبة ، ويرحمكم يوم الحساب بحسن الأوبة . يا أخى وما عسى أن أقول لك من كرم مولاك الجليل - جل جلاله - لو أن الذنوب التى عملت فى أيام طفيتانك وعصيانك كانت مثل جبال الدنيا برمالها وبحارها وأنهارها ، وتبت توبة واحدة بصدق وحرقة وندامة ، ليغفرها لك مولاك الكريم بكرمه وفضله ، ولا تسأل عنها يوم القيامة ، قال الله - تعالى - : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ لَا تَغْفِرُونَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) ، وأنشدوا :



نهاك الطيب محيلاً على      مطاعم لوللتها لم تمت  
 وخاطبك الله جل اسمه      بترك الذنوب التي حرمت  
 فأعرضت عن أمره لاهياً      وأمنت نفسك ما خوفت  
 فأطمعها أن تنال الرضا      بجهلك في فضل من قد عصت  
 فماذا تقول إذا أزعجت      لتخرج بالكفره فاستسلمت  
 فلا ندم حظ أوزارها      ولا توبة غسلك ما جنت  
 وأفردت وحدك في ملحد      بكت فيه نفسك ما أسلفت

### ما تحويه الآية

يا أهل الذنوب تدبروا هذه الآية فإن فيها بلاغة لمن تذكر ، وزجراً لمن اعتبر ، وتخويفاً لمن تدبر ، ونهيًا لمن تفكر . فالفكرة عبادة ، وخير وزيادة لأن مولاكم الكريم قد خوفكم وهددكم وزجركم بها زجراً شديداً فقال : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ (١) .

ثم قال : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى يحذركم عقابه وعذابه إذا عصيتموه ويجزل لكم ثوابه إذا أطعتموه ، فلا يحقرن أحدكم من الذنوب شيئاً وإن صغر ، فربما كان فيه شدة العذاب والعقاب ، ولا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن قلت فربما كان فيها الرضا من الملك الوهاب ، واعلموا أن الذنب الذي يحقره صاحبه يكون يوم القيامة في ميزان فاعله أثقل من جبال الأرض ، فازجر نفسك عن غيرها وقدم في حياتك ليوم فقرك . والأصل في الذنب الصغير أن يكون سبباً لدخول صاحبه النار . إن العبد المغرور يعمل الذنب ويحقره ولا يفكر في من قد عصاه وهو الجبار - جل جلاله - ، فعند ذلك يغضب عليه مولاؤه ويقول له : عبدى حقر ذنبه واستخف بحقى ، وعزق وجلالى لأعذبه عليه بالنار ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له بالتوبة .

وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً »<sup>(١)</sup> قال الله - سبحانه - : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ الآية . وأنشدوا :

قد ذهب الحى إلى عـرسه وعـذب الميت فى رسمه  
مرتهن النفس بأعمالها لا يأمن الإطلاق من حبسه  
لنفسه صالح أعمـالها وما سوى هذا على نفسه

### حكاية عن أحد الصالحين

حكى أن المنصور بن عمار - رحمه الله - دخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : يا منصور مسألة ؟ وقد أمهلتك سنة كاملة ، من أعقل الناس ؟ ومن أجهل الناس ؟ قال : فخرج منصور إلى بعض الفضاء من القصر ليخرج فإذا الجواب قد حضره ، فرجع إلى عبد الملك ، فقال له عبد الملك : يا منصور ما الذى ردك إلينا ؟ قال : يا أمير المؤمنين أعقل الناس محسن خائف وأجهل الناس مسيء آمن . فبكى أمير المؤمنين حتى بل ثيابه بدموعه ثم قال : أحسنت والله يا منصور ثم قال له إقرأ على شيئاً من كتاب الله فهو الشفاء لما فى الصدور ، وهو الدواء والنور ، فقرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية . فقال عبد الملك : قتلتني يا منصور ، وما معنى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال منصور : عقوبته يا أمير المؤمنين فبكى عبد الملك ثم أفاق فبكى مرة أخرى ثم قال يا منصور : وما معنى ( رءوف بالعباد ) قال : رحيم غفار لمن تاب وأناب . قال : وما معنى ﴿ ما عملت من سوء محضراً ﴾ قال : كل صغيرة وكبيرة يجدها العبد يوم القيامة ، لم يغفر الله منها شيئاً . فبكى عبد الملك حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال :

### رقعة عبد الملك بن مروان

إن - والله - من فكر فى هذه الآية وعصى مولاہ بعد ذلك لقد ضل ضلالاً بعيداً . وأنشدوا :  
بكى على عظم الذنوب وغزرها وما قل من يبكى لعظم سؤاله  
تفكر فى عظم السؤال وهو له وتندب دهرأ زاد قبح فعاله

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦١ ، ج ٨ ص ٤٨٣ . ط / الشعب .

وانظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤١٧ كتاب الزهد رقم ٣٢٤٣ بلفظ يا عائشة : إياك .. الحديث .

وانظر مسند أحمد ج ٦ ص ١٥١ وأيضاً ج ٦ ص ٧٠

لعل إله العرش يرحم عبده ويمنحه في الحشر طول وصاله  
ويغفر ما قد كان في طول جهله ويسكنه بالغفو دار جلاله  
وإن نظر الرب العظيم جلاله فذاك جسيم من جزيل نواله

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ تجد والله كل نفس ما قدمت في الأيام ،  
من الطاعات والإجرام ، ذلك يوم المصائب ويوم النوائب ، ويوم العجائب . يوم هتك الأستار ، يوم  
تسعر فيه النار ، يوم يفوز فيه الأبرار ، ويندم فيه الفجار ، وتعرض العباد على الواحد القهار ، فالعجب  
كل العجب ممن قطع عمره في الأغفال ، وضع أيامه في المحال ، وأفنى شبابه في الضلال ، ولم يعمل  
بما في كتاب ذى المجد والجلال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير  
محضراً﴾ يقول الله تعالى : يا ابن آدم تطلب موعظة ساعة وتقيم على الذنب سنة وأنشدوا :  
ما بال قلبك باللذات قد شغفا وعن فوات صواب الفعل ما أسفا  
وقد توعدده الجبار خالقنا وبالذنوب وبالعصيان قد كلفا

### توبيخ الله تعالى للعباد

ذكر في بعض الأخبار أن الله تعالى يقول في بعض كتبه المنزلة على أنبيائه : يا عبدى ما الذى  
زهذك فى ورغبك فى غيرى ؟ عبدى أنا أقرب إليك وتهرب عني وأطلبك وتفر منى . عبدى بسطت  
لك غرور الدنيا فاشتغلت بها عني ، وآثرتها على زهدت فى سعة رحمتي ، أهكذا يفعل المطيعون بأربابهم  
الحسنين إليهم ؟ عبدى ، من الذى سترك وكلاك وحفظك ووقاك ؟ هل كانت لك شركة فى نفسك  
معى ، أم هل كالت لك قوة بنفسك على ؟ عبدى ما الذى قصرك عن عبادتى ؟ ما الذى زهدك فى  
طاعتى ؟ أين أنت من هادم اللذات ، أين أنت من نواح الآباء والأمهات ، أين أنت من المفرق بين  
البنين والبنات ، أين أنت ممن لا يستأذن على أصحاب القصور ، ولا يستأمر أرباب الدور ، أين أنت  
من قاصم الجبارين الموكل بأرواح المخلوقين ؟ عبدى ، أليس قد اضمحلت آثار الماضين ، ودرست معالم  
السالفين ، واتبع آثارهم الباقون . ومن ذا الذى يقوم بخلود الدهر غيرى ؟ ومن ذا الذى ينفع دوام  
الأبد غيرى ؟ عجزت عن الخلود الجبال الراسيات والأطواد العاليات والبحار الطاميات . أنا الذى تفردت  
بالبقاء ، وحكمت على عبادى بالفناء ، أنا الله لا إله إلا أنا لا شريك معى فى ملكى ، ولا نظير لى  
فى حكمى ، ولا ضد لى فى سلطانى . وأنشدوا :

أما والذى لا خلد إلا لوجهه ومن ليس فى العز المتع له كفو  
لئن كان هذا العيش مرّاً مذاقه لقد يجتنى من غشه الثمر الخلو

## السؤال لا يدع ذرة

واعلموا أن الله — تعالى — سائلكم عن الكبيرة والصغيرة ، والخفية والسريرة ، وعن كل ما قل ، وما دق وما جل ، لا يغفل عن شيء ، يجد العبد ما عمل حاضراً ، ويجزى به وافراً ، ويسأل عما عمل سراً مظاهراً ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ تجد — والله — القليل والكثير ، والنقير والذرة والقطمير . وأنشدوا :

والله لو بكينا طول الأيام بدمع هامل سجام  
وفرنا من الأهل والأوطان إلى الجبال والآكام<sup>(١)</sup>

خوفاً من ذلك المقام ، لكان ذلك لنا قليلاً خوفاً من سؤال الملك العلام . فكيف ونحن لا نفيق من الغفلات ، ولا ننتبه من السكرات ، ولا نخاف يوماً نجد فيه الحسنات والسيئات ، ونسأل عن المظالم والتبعات ، كما قال الذى فطر الأرض والسماوات : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ .

## سؤال الله تعالى للعباد

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن الله — تعالى — يخلو بعبده يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ويقول له : عبدى : عملت كذا وكذا فى يوم كذا . أما علمت أنى مطلع عليك ؟ يا عبدى أفجعلتنى أهون الناظرين إليك ؟ أما استحييت منى ، أما استحييت من ملائكتى ، أما خفت من عقابى ؟ عبدى أرويتك من الماء البارد وقويت جسمك ووسعت عليك من سعة رزق فعصيتنى . حتى إن العبد ليزوب حياء من الله ويغمره العرق حتى ليكاد يموت من الفزع ، ثم يقول العبد : يارب : النار أهون على من حيائى منك ومن العباد . فيأمر الله — تعالى — به إلى النار ، فيمضى العبد وهو يرد رأسه ويقول : يارب : وعزتك وجلالك ما عصيت بهذا كله استخفافاً بحقك ، وما ظننت بك إلا أن تغفر لى كما سترت على فى الدنيا ، وقد أيقنت أن عصيانى ذلك لا يضرک ، وأن رحمتك لى لا تنقصك . فيقول الله — تبارك وتعالى — : يا ملائكتى مروا بعبدى إلى الجنة . ومن العباد من يقول : يارب العذاب على أهون من توبيخك لى أرسل لى إلى النار كما يفعل بالعبد الآبق<sup>(٢)</sup> عن مولاه . فيقول الله — تبارك وتعالى — : عبدى ما وبختك إلا لأعرفك أن ذنوبك بعينى إذ عصيتنى بها ، وجعلت توبيخى لك كفارة لذنوبك وقد غفرتها لك وقد رحمتك وأنا أرحم الراحمين . مروا بعبدى إلى الجنة »<sup>(٣)</sup> .

(١) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل المرتفع من الرمل أو الحجارة

(٢) أبى العبد — بفتح الباء — هرب

(٣) انظر الحديث بمعناه فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٤٦٩ ، ص ٤٧٠ .

جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة أجمعين ، وتوفانا برحمته مسلمين ، وختم لنا عند فراق الدنيا بحسن الخاتمة ، وكلمة التقوى ، قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله — صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم — ، وحشرنا معه في المقام الأعظم ، مع أصحابه وأزواجه الكرام أمهات المؤمنين ، آمين . يارب العالمين .

## مجلس في قوله تعالى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية .

قال الله — سبحانه وتعالى — : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يجد المؤمن الحسنات في قرار الجنات ، والقصور العاليات ، والحدائق والدرجات ، والنظر إلى رب الأرضين والسموات ، يجد الطائع البشري ، ويجد الفاجر النار الكبرى ، يجد المؤمن الأمان مع السرور والرضوان ، ويجد الفاجر الهوان مع الذل والخسران ، يجد المؤمن الملك الجزيل ، مع الثواب والتفضيل ، وأنهار السلسيل ، والنظر إلى وجه الملك الجليل ، ويجد الفاجر النوح والعيول ، والحزن الدائم الطويل ، والعذاب الشديد الثقيل ، يجد المؤمن الخلاص ، والتبجيل والإختصاص ، ويجد الفاجر العذاب وشدة القصاص . المؤمن يوم القيامة مرحوم والفاجر باللعة مرجوم ، المؤمن عند الحساب مستور ، والفاجر عند السؤال مشهور . المؤمن عند الحساب يلاطف ، والفاجر عند الحساب يكشف . المؤمن حسابه عتاب ، والفاجر سؤاله عذاب . المؤمن يجد من مولاة الرحمة ، والفاجر يجد من الله النقمة . المؤمن حسابه يسير والفاجر حسابه عسير . المؤمن يجد لباسه حرير الجنان ، والفاجر لباسه سراويل القطران . المؤمن يجد عمله سروراً والفاجر يجد عمله ويلاً وثوراً . المؤمن يجد الإتصال ، والفاجر يجد الانفصال . المؤمن يجد الخلاص والفكاك ، والفاجر يجد الهوان والهلاك . المؤمن مع محمد النبي ، والفاجر مع الشيطان الغوى . المؤمن في وجهه نضرة النعيم ، والفاجر في وجهه ظلمة الجحيم ، المؤمن في الحساب ريان ، والفاجر في الموقف عطشان . وأنشدوا :

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ<sup>(١)</sup> إلىّ يلح لك البرهان  
أودعت ما لو قلته لك قلت لي هذا لعمرك كله هذيان  
فانظر لعقلك من يبانك واعتبر اتقن ان صنعتَه فثم الشأن<sup>(٢)</sup>

(١) أصاخ له : استمع

(٢) أى إذا نظرت بعين فكرك وتدبرت بسديد رأيك صنع الله — تعالى — وإتقان هذا الصنع في الذرة الصغيرة وفي القليل الكبير لعلمت أنه هناك الشأن أو الدلالة على قدرته وحدانيته .

وجزا محاسن فعلهم في حشرهم عند الإله وعنده الرضوان  
هذا لعمري ظاهر لا يخفى نطق الرسول وبين الفرقان  
وفي كل شيء له آية ، تدل على أنه الواحد

### حكم قدسية

ذكر في بعض الحكم التي أنزلت على الأنبياء — عليهم الصلاة والسلام — : عجباً لمن لا يرحم نفسه كيف يرحم ، وعجباً لمن يدوم على المعصية كيف يرجو حسن المآب ، وعجباً لمن يعمل أعمال النيران وهو يطلب نعيم الجنان . كأنك يا أخي قد قربت من العرض والحساب ، ووقفت بين يدي الملك الوهاب ، فيأمر بك إلى الجنة وحسن المآب ، أو إلى النار وأليم العذاب ، تفكر في هذا كله يا مغرور لعل القسوة تنجلي من قلبك ، والوقر أن يزول عن سمعك ، والغطاء أن يرتفع عن بصر قلبك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور . فانظر يا أخي بنور فكرتك ، وأطلق الموعدة على بحر عبرتك ، فلعل العين أن تدمع ، ولعل القلب أن يرق ويخشع ، فإذا جرت الدموع وخشعت القلوب محيت الذنوب ، وبلغت المنى والمرغوب ، ويسر حسابك علام الغيوب . وأنشدوا :

تذكرى المكث في التراب	حتى أنادى إلى الحساب
هون كل البلاء عندي	وهكذا الفقد للشباب <sup>(١)</sup>
فليت شعري ومقامي	تحت الثرى أو متى إياي
لو كان لي عقل ما هنائي	نومومي ولا ساع <sup>(٢)</sup> لي شرابي
ولا ضحكك ولست أدري	ما لي لدى الله من حساب

### النداء بأسماء الخلائق

ذكر في بعض الأخبار : أن الخلائق إذا وقفوا في أرض القيامة فيقف كل عبد وأمة إذا نادى المنادى باسمك يا مغرور على رعبس الأولين والآخرين . أين فلان بن فلان ؟ أو أين فلانة بنت فلان ؟ هلم إلى الحساب بين يدي رب العالمين ، فاستقر في سمعك يا مسكين أنك أنت المنادى من جميع الخلق ، فقامت على قدميك قد تغير من الفزع لونك ، وانخلع من الجزع قلبك ، واضطربت من الهلع مفاصلك ، وقد سمع من كان حولك حسيس قلبك بالحققان ، وأوصالك قد اشتدت في الطيران ، فكادت نفسك

(١) أي وهون أيضاً فقدى للشباب وهو حقاً أشد ما يحزن عليه الشيخ . وقيل : إن الشباب علة التصالي ، روائح الجنة في الشباب .

(٢) ساع الشراب : سهل مدخله في الخلق

أن ترهق من خوف الرحمن ، فإذا نظر الملك الموكل بسوقك وقد تغير لونك وتحير لبك ، علم أنك أنت المنادى باسمه فإذا كنت من أهل النفاق والعصيان للملك الخلاق ، نظر على وجهك ظلمة الذنوب ، فعلم أنك عدو لعلام الغيوب ، فجمع بين ناصيتك وقدميك ، غضباً لغضب الله عليك .

## أهل الرشاد والتوفيق

قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ (١) وإن كنت من أهل الرشاد ، والتوفيق والسداد ، الذين وفوا الله بالميعاد ، وخافوا مولاهم رب العباد ، أخذ بيدك الملك وقادك ، يجوز بك بالرفق ورفع الخلائق أبصارهم إليك ، وتمنوا مثل ما من الله عليك وأنت سائر إلى ربك ليجازيك بسعيك ، ويعدل عليك بكسبك . فلما انتهى بك الملك إلى سلطان العظمة .

فإن كنت من أهل السير الصالح في الدنيا سترك جل جلاله بالنور ، وأبدى لك البشري والسرور ، وقربك وأدناك ، وفضلك وحبابك ، فلم يطلع على حسابك ملك ولا نبي ولا رسول ، إلا الملك الجبار الذي لا يحول ولا يزول ، فيقول لك : عبي : أنت الذي كنت تسهر والعباد نائمون ، وتصوم والعباد يشبعون ، وتبكي والعباد يضحكون ، وتحزن والعباد يفرحون ، وتحافني والعباد آمنون ، أنت الذي كنت تجتهد في عبادتي والعباد بطلون ، وتتصدق والعباد ييخلون ، وتبذل المعروف بين عبادي والناس يمنعون .

يقول المولى جل جلاله : فو عزتي وجلالي وملكي ومجدي وكبريائي وعظيم سلطاني وقدرتي على جميع العباد لأؤمنن روعك ، ولأبيحنك جنتي ، ولأوسعنك مغفرتي ورحمتي ، ولأعطينك من جزيل ثوابي وحسن مآبي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولأبيحنك النظر إلى وجهي ، ولأرفعن قدرك وجاهك ، ولأشفعنك في إخوانك وأهلك وأحبائك وجيرانك من أهل الذنوب والخطايا .

## شفاعة العبد المؤمن

يقول المولى جل جلاله : يا عبي ، أخرج إلى موقف الحشر فانظر إلى من لقيني من أهل الذنوب على التوحيد ، قد شفعتك فيه ، خذ بيده وانطلق به إلى الجنة بلا خوف ولا حزن ، والله تعالى أعلم . وأنشدوا :

عنى إليك فما اللذات من شغلى ولا سبيل الضبا واللهو من سبلى  
 حال التقى دون ما قد كنت تعرفه فلست منه على زيغ ولا زلل<sup>(١)</sup>  
 فى الخشر لى شغل عن كل مشتغل بلذة وعن الألاحظ والمقل  
 هذا أطار الكرى عن مقتلى وزوى<sup>(٢)</sup> عنى المنى وطوى المبسوط من أملى  
 كم ليلة بت فيها ساهراً أرقاً أخشى العقاب وأخشى سرعة الأجل  
 قال الله - تعالى - : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود  
 لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾<sup>(٣)</sup> رءوف - والله - بالمؤمنين ،  
 ذو نعمة على الظالمين ، رءوف بأهل الإحسان ، وذو انتقام من أهل العصيان ، رءوف بأهل السداد ،  
 وذو انتقام من أهل العناد ، يا مغرور تفكر فى هذه الآية فلك فيها من التخويف غاية ، ومن الزجر  
 والتقريع نهاية ، فازجر نفسك عن هواها ، عساك تبلغها يوم العرض منها .

### حكاية عن ذى النون المصرى

حكى عن ذى النون المصرى بن إبراهيم الأخمى ( أخميم بلدة من صعيد مصر مشهورة ، وهى  
 الآن مركز مهم يصنع فيه قماش جيد وذى النون المصرى من أعلام المتصوفين القدماء اشتهرت عنه  
 ألفاظ من الحكمة العالمية والفلسفة الإسلامية ورى كثيراً من المريدين . وله ترجمة وافية فى تاريخ الخطيب  
 البغدادي ) رحمة الله تعالى عليه أنه قال : خرجت مرة من المرات إلى ناحية الأردن من أرض الشام ،  
 فلما علوت الوادى فإذا أنا بسواد قد أقبل وهو يقول ﴿ وبداءهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾<sup>(٤)</sup>  
 فلما قرب منى السواد إذا هو شخص ، فتأملت ، فإذا هو امرأة عليها جبة صوف ، وخمار من صوف ،  
 ويدها ركوة<sup>(٥)</sup> ، ويدها الأخرى عكاز ، فقالت لى غير فازعة منى : من أنت ؟ فقلت لها رجل  
 غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة وهو مؤنس الغرباء ، ومعين الضعفاء ، فاجعله أنيسك  
 إذا استوحشت ، وهاديك إذا ضللت ، وصاحبك إذا احتجت . قال ذو النون : فبكيت من كلامها  
 فقلت مم بكائك ؟ قلت لها : وقع دواؤك على دائى وأنا أرجو أن يكون سبباً لشفاى ، قالت فإن كنت

(١) الزيغ : الإغراف عن السبيل السوى ، والزلال : الخطأ والوقوع فى المعصية .

(٢) زوى الشيء يزويه زياً ، جمعه وقبضه ، وفى الحديث « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » وهى هنا بمعنى : منع  
 وحجب . انظر الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . وانظر سنن الترمذى  
 ج ٤ ص ٤١٠ كتاب الفتن . باب ما جاء فى سؤال النبى ﷺ فى أمته .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٤) سورة الزمر الآية ٤٧

(٥) والركوة : وعاء للماء يحمله المتزهدون ، ويصنع من الخشب غالباً . وترى مع التمشيخين كثيراً .



صادقاً في مقاتلتك فلم بكيت ؟ قلت لها رحمك الله والصادق لا يبكي !! قالت : لا ، قلت لها : لم لا يبكي الصادق ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب وملجأ يلجأ إليه ، وماكم القلب أحر من الزفير والشهيق وذلك ضعيف عند أوليائه . قال ذو النون : فبقيت والله متعجبا من قولها ، فقالت لي : ما لك ؟ قلت : أنا والله متعجب من قولك ، قالت : وهل نسيت القرحة التي ذكرتها ؟ قال قلت لها : رحمك الله إن رأيت أن تمنى على بالزيادة . فقالت : وما أفادك الحكيم في مقامك بين يديه من الفوائد ما يستغنى به عن طلب الزوائد ! قال : قلت لها : رحمك الله ما أنا بمستغنى عن طلب الزوائد ، قالت : صدقت يا مسكين ، حب مولاك واشتق إليه فإن له يوماً يذيق فيه أوليائه كأساً لا يظمئون بعده أبداً ، ثم علا شهيق ثم قالت : يا حبيب قلبي إلی ، كم تخلفني في دار لا أجد فيها صادقاً برئياً من الدعاوى الكاذبة يساعدن على البكاء أيام حياتي . ثم تركنتي وانحدرت في الوادي وهي تقول : اللهم إليك لا إلى النار ، حتى غاب شخصها عن بصرى ، وانقطع صوتها عن سمعى . قال ذو النون : فوالله ما ذكرت كلامها قط إلا كدر على احشائي وعيشي . قال ذو النون : فلقد ادبتي واستقام حالي مذ رأيته وأنشدوا :

أريد وأنت تعلم ما مرادى وتعلم ما تلجلج في فؤادى  
فهب لي ذلتى واغفر ذنوبى وسامحنى بها يوم التنادى

### رجع إلى الموعظة

يا أخى : مالك لا تغكر في قول مولاك الذى لم يزل عليك شهيداً وهو يسمعك — ويراك ، قوله تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾ (١) الآية . اقرع يا مسكين بهذا الكلام باب قلبك فعساك تذيل عنه الأقفال . وترده عن الغي والمحال ، وتوقفه عن السهو والإغفال ، قال الله الكبير المتعال ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ (٢) ، ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يوم يظهر الخفى من أعمالك ، يوم تبكى على قبيح أفعالك ، يوم يحزن المسىء من أقوالك ، يوم تنوح على خطاياك وضلالك .

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة محمد الآية ٢٤

## جهنم وشهدتها

ذكر أن الخلق إذا اجتمعوا في الموقف وضاق المتسع ، وعظم الفرع ، واشتد الجزع ، واختلفت الأقدام ، وكثر الإزدحام ، وجاءت جهنم بالهول الأعظم ، والعذاب المقيم الأليم ، ووقفت بين يدي الجبار خاضعة للملك القهار أمر الجبار — جل جلاله — أن تفتح أبوابها ، وترفع كل جلال<sup>(١)</sup> عليها ، وهي سبعة أبواب على كل باب سبعمائة ألف جلال ، وهي الحجب ، ولولا تلك الأجلال لاحتقرت السموات ومن فيها والأرضون ومن عليها ، غلظ كل جلال خمسمائة عام ، فإذا فتح منها الأبواب رفعت تلك الحجب من عليها ورمت النفط والقطران وحجارة الكبريت ويخرج منها عنق من نار أسود فيلتقط من الموقف كل ذهب وفضة وياقوتة وزبرجدة<sup>(٢)</sup> ولؤلؤة<sup>(٣)</sup> استعدت لزينة الدنيا .

## زينة الدنيا الزائلة

فيأخذ الكل ويجمعه ، والجبار — جل جلاله — يقول لها : اتركي ما لم يكن لنا فكل ما كان من زينة لم يرد به وجه الله — تعالى — أخذته النار ، ومناد ينادى أصحابها : « هذه زينتكم التي إشتغلتم بها عن طاعة الله — عز وجل — وآثرتوها على ما عند الله ، ولم تتبعوا سنة النبيين ، ولا سير الصالحين » ثم ينادى المنادى : « اتبعوا زينتكم » فتخرج عنق من النار مرة أخرى فتلتقط أصحابها إلا من رحم الله .

## صاعقة جهنم

فعند ذلك يقول كل عبد وأمة : يا ليت هذا كله جعلته في جنب الله ، يا ليتني لم يكن معي ، يا ليتني بعد عني ، ثم يأمر الله — تعالى — أن ترتفع صاعقة من جهنم سوداء ، فتسود وجوه أقوام من الرجال والنساء ، وتعمى أبصار قوم من الرجال والنساء ، وتختم على أفواه قوم من الرجال والنساء ، فذلك قول الله — عز وجل — : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾<sup>(٤)</sup> ، يا أخى يا مسكين يا ضعيف اليقين مثلى : أترأى من أى الفريقين تكون ؟ أمن الذين أبيضت وجوههم ففى رحمة الملك الرحيم ، أو من الذين اسودت وجوههم ففى العذاب الأليم ؟ أفهل تكون من الذين أبيضت وجوههم بالرحمة ، أم من الذين اسودت وجوههم بالنقمة ؟ فكل من اسود وجهه فقد أيقن بالنار ، وكل من

(١) جلال : جمع جل ، وهو يصنع للدواب ، وهنا بمعنى الحجاب ، أى الستار الموضوع على جهنم .

(٢) الزبرجد : جوهر ثمين معروف ، لونه أميل إلى الزرقة .

(٣) اللؤلؤ : ما يخرج من الأصواف .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٦

أبيض وجهه فقد أيقن أنه من أهل دار القرار ، فيا لها من فرصة ما أعظمها ، ويا لها من مصيبة ما أدومها ، فإذا نزل السواد في وجهه من شاء الله — تبارك وتعالى — صار ذلك السواد حجاباً بينه وبين النظر إلى وجه مولاه ، وإذا نزل البياض في وجهه من أراد الله — تبارك وتعالى — يبيض وجهه رفع ذلك النور حجاب الذنوب الذي يحجب العبد عن النظر إلى وجه علام الغيوب .

### من أبيض وجهه

وذلك أن البياض نور المغفرة ، وهو نور الرحمة ، وهو نور القرب ، وهو نور الوصال .  
والسواد أيضاً هو سواد البعد ، وهو سواد الانفصال ، وهو سواد النكال وهو سواد النقمة ، وهو سواد الحجة . قال الله — تعالى — : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ (١) . فالحجاب يا مسكين يا مغرور في الدنيا وقع على قلبك باكتساب السيئات ، ودوامك على الخطيئات ، وإشتغالك عن رب الأرضين والسموات ، قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ﴾ (٢) .

فيا معشر المذنبين : أبعدوا السوء وأبدلوه بالإحسان ، وارغبوا في نعيم الجنان ، وارجعوا عن الأوزار والعصيان ، فإنها تزيدكم من عذاب النيران . يا أخى : أبعد السوء وأبغضه بغضاً شديداً ، وكن على إبعاده بالتوبة جليداً جليداً ، من قبل أن يأتى يوم تود أن لو كان السوء عنك بعيداً ، ولم تتبع شيطاناً غوياً مريداً .  
وأنشدوا :

يا من إليه جميع الخلق يتهلوا	وكل حى على رحماه يتكل
يا من نأى فرأى ما فى الغيوب	وما تحت الثرى وحجاب الليل ينسدل
يا من دنا فنأى عن أن تحيط به	الأفكار ظمرا أو الأوهام والعلل
أنت الملاذ إذا ما أزممة شملت	وأنت ملجأ من ضاقت به الخيل
أنت المنادى به فى كل حادثة	أنت الإله وأنت الذخيرة والأمل
أنت الغيث لمن سدت مذهبهم	أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إننا قصدناك والآمال واقعة	عليك والكل ملهوف ومبتهل
فإن غفرت فعن طول وعن كرم	وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

(١) سورة المطففين الآية ١٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠

## حكاية ذى النون عن الراهب الصامت

قال ذو النون — رحمه الله — : ذكر لى عن راهب بالشام أنه لم يكلم أحداً مدة أربعين سنة ، فنهضت إليه فلم أزل أنادى تحت صومعته<sup>(١)</sup> وأقسم أن يشرف على حتى أشرف من أعلى صومعته ، فراودته على الكلام فأبى على : فقلت له بالذى سكنت من أجله ومن خوفه ألا أجبتنى عما أسألك عنه ، فقال لى : قل ولا تطل الكلام على ، قلت له : منذ كم أنت فى هذا الموضع ؟ فقال : منذ يوم واحد ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : سمعت الناس يقولون أمس واليوم وغداً ، فأما أمس فقد فات ، وأما اليوم فلى ، وأما الغد فلا أدرى أبلغه أم لا ، ثم أدخل رأسه فما كلمنى وهو يبكى ويقول : لا صبر لى على النار . وأنشدوا :

أيا نفس لا صبر على النار فاعلمى      وكونى على خوف من النار ما عشت  
ودومى على الأحزان ما دمت حية      عسى تذهب الأحزان عنك إذا مت  
يقولون فى طول الكلام بلاغة      وقد علموا أن البلاغة فى الصمت  
إذا العبد لم يلعب هواه بعقله      عصى ربه وازداد مقتاً على مقت

## تقسيم العمر على الأعمال

معشر المذنبين : اجعلوا أعماركم ثلاثة أيام : يوم مضى ، ويوم أنتم فيه ، ويوم تنتظرونه لا تدرون بما يأتىكم من صلاح أو فساد ولعلكم لا تبلغونه ، فأصلحوا اليوم الذى مضى بالندم على ما فاتكم فيه من الطاعة والإحسان ، وما اقترفتكم فيه من الذنوب والعصيان ، واليوم الذى مضى إنما تصلحونه فى اليوم الذى أنتم فيه بالبكاء والندامة ، وذم النفس مع الملامة . وأنشدوا :

حتى متى نحن والأيام نحسبها      وإنما نحن فيها بين ———ومين  
يوم تولى ويوم أنت تأمله      لعله أجلب الأيام للحين<sup>(٢)</sup>

آنس الله روعتى وروعتكم يوم النشور ، وآنس وحشتى ووحشتكم فى القبور ، إنه على ذلك قدير ، وهو عليه يسير ، وأماتنا وإياكم على هذه الكلمة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، غير مبديلين ولا مغيرين ولا مبتعدين . آمين . يارب العالمين .

(١) الصومعة : بناء صغير دقيق الرأس يسكنه راهب النصارى وهى أشبه بـ ( فيلا ) صغيرة لسكنى فرد أو اثنين .

(٢) الحين : بالفتح — الهلاك ، وحان الرجل : هلك

## مجلس في قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ يَمِينَهُ ﴾ الآية

يا أخى يا مسكين يا حيران ، من الذنوب والعصيان ، يا من تعرض لسخط الملك الديان ، يا من أقرعين عدوه الشيطان ، بتأديه على الخذلان ، والضلال والبهتان ، والأوزار والطغيان ، يا مغرور : إنك آخذ كتاباً ، ووارد حساباً ، ونازل ثواباً ، أو عذاباً . فقم يا غافل في دار الغرور ، ما تجده في الكتاب المنشور ، من الثواب والحبور ، والفرح والسرور ، والضياء والنور ، من رحمة العزيز الغفور .

## أين الكتب يوم القيامة ؟

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « الكتب كلها تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة بعث الله — تبارك وتعالى — ريحاً تطهرها بالآيمان وبالشمال » أول حرف فى الكتاب ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ (١) ما أعدل الملك الوهاب ، إذا جعل الإنسان حسيب نفسه فى قراءة الكتاب . يا مسكين يا مغرور : إن أخذت الكتاب بالشمال فحسبك العذاب والنكال ، والمحن والأهوال ، والسلاسل والأغلال ، والحميم والخيال ، واللغة والانفصال من ذى الجود والجلال . وإن أخذت الكتاب باليمين ، فحسبك المقام الأمين فى أعلى عليين ، مع الولدان والخور العين ، والاتصال برب العالمين ، وبمحمد خاتم النبيين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين — . وإن أصرت فى الدنيا على جرمك ، ولم تتب إلى مولاك عن قبيح ذنبك ، فسوف تأخذ كتابك من وراء ظهرك ، فتجد فيه ما يحزن قلبك ، ويعظم حزنك ويكثر كربك ، فيا معشر المذنبين : اعلّموا أنما جعل الله الدنيا إبتلاء واختباراً ، وأوجب عليكم فيها حقوقاً كباراً ، فمتى ضيعتموها فقد أودعتم كتبكم آثاماً وأوزاراً ، ومتى وفيتم بها فقد ملأتم كتبكم سروراً وأنواراً ، وما من عبد ولا أمة إلا وله كتاب يقرؤه يوم العرض والحساب ، وإنما مثل الناس عند قراءتهم الكتاب ، كمثل الزارع إن زرع طيباً ، رفع طيباً ، وإن زرع خبيثاً رفع خبيثاً ، يا أخى : فكأنك أنت كتبت بأقوالك ، وملأته بأفعالك ، وسودته بالقبايح من أعمالك . وأنشدوا:

كأنى بنفسى فى القيامة واقف      وقد فاض دمعى حين أُعْطِى كتابيا  
لعلمى بأفعالى وسوء مناقبى      وأن كتابى سوف يبدى المساويا

(١) الحديث فى التذكرة فى أحوال الموق وأمور الآخرة . للقرطبي . ص ٢٩١ . باب ما جاء فى تطاير الصحف .

انظر المعنى فى تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

فيا أهل الذنوب مثلي : اعلّموا أن الأعمال قد أثبتت عليكم في الديوان ، من الإحسان والعصيان ، والزيادة والنقصان ، والنفاق والإيمان ، وأنت غافل في سكرة الغرور ، وكتابك مملوء بالويل والثبور<sup>(١)</sup> . فبادروا إلى الصحائف وامحوا ما فيها من القبائح ، ومحصوا<sup>(٢)</sup> ما قد ثبت عليكم من الفضائح ، وذلك باكتساب الحسنات ، كما قال رب الأرضين والسماوات : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾<sup>(٣)</sup>

## أول الناس حساباً

ذكر في بعض الأخبار أن أول ما يحاسب الله من الأمم أمة محمد — ﷺ — فإذا اجتمع الأولون والآخرون في أرض القيامة وقفت أمة محمد — ﷺ — ، فأول من يدعى منهم إلى الحساب — رجل من قريش من بنى مخزوم يقال له عبد الله بن عبد الأسد ، وله أخ يقال له الأسود بن عبد الأسد وفيهما نزلت هاتان الآيتان ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴾<sup>(٤)</sup> إلى قوله ﴿ في الأيام الخالية ﴾ نزلت هذه الآية في عبد الله بن عبد الأسد . ﴿ وأما من أوتي كتابه بشماله ﴾<sup>(٥)</sup> وهو الأسود بن عبد الأسد ، فأما عبد الله وهو المؤمن فيدخل من وراء الحجب فيوقف بين يدي الله عز وجل ، فترعد فرائضه ، وتنفك أوصاله ، وتذهل نفسه من شدة الخوف من الله تعالى ، فيبنا هو على أشد الأحوال من الخوف بين يدي الجبار — جل جلاله — إذ يأتيه ملك من عند الله تعالى وبيده صحيفة بيضاء مختومة بخاتم الخلد ، فيقول له الملك :

## كتاب الحسنات

هذا كتابك فيتناول الكتاب بيمينه . وكل من كان من أهل الشقاوة إذا أوتي كتابه يروم أن يمد اليمين لأخذه فلا يقدر ، لأنه يجد يمينه كأنما علق فيها جبال الدنيا فلا يطيق أن يرفعها من الثقل ، وقيل أنها تفك يده ، وقيل أنها تلصق بجسده ، وقيل أن الملك يقول له : يا عدو الله خذ كتابك بشمالك فإنك من أصحاب الشمال — جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين — .

(١) الثبور : الهلاك والخسران

(٢) التمحيص : الإبتلاء والإختبار

(٣) سورة هود الآية ١١٤

(٤) سورة الحاقة الآية ١٩

(٥) سورة الحاقة الآية ٢٥

فيتناول عبد الله أخو الأسود كتابه يمينه ويقال له اقرأ ما عملت من جد وشر ولا تلومن إلا نفسك ، فيفيض خاتم الكتاب فينشر كتابه فإذا هو مكتوب بخط أبيض في باطن الكتاب السيئات وفي ظاهره الحسنات فيقال له -اقرأ سيئاتك ، فأول حرق يجد في الكتاب أصغر ذنب عمله في الدنيا فإذا رأى ذلك الذنب ميل رأسه ونكسه حياء من الله - تعالى - وسال منه من العرق ما لو أن مائتين من الإبل أكلت حمضاً والتهبت عطشاً ووردت على عرقه لشربت كلها ورجعت وقد رويت وما نقص من عرقه شيء .

### كيفية السؤال

هذا كله حياء من الله عز وجل فيقول الجبار - جل جلاله - : عبدى فيقول : لبيك ربي وسعديك فيقول : ارفع رأسك أتعرف ذنبك هذا ؟ فيقول مولاي وسيدى وعزتك وجلالك أنى لأعرفه ، فيقول : عبدى أتذكر يوم كذا وكذا ، في موضع كذا وكذا ، وأنت على هذا الذنب ؟ فيقول : نعم ، وعزتك وجلالك ، فيقول له الجبار جل جلاله : عبدى أنك إذا أخفيت ذلك من الخلائق ، لقد علمت أنى كنت مطلعاً عليك فيقول : بلى يا سيدى ومولاي وعزتك وجلالك لقد علمت ذلك . فيقول له جل جلاله : أما استحييت منى ؟ أما راقبتنى ؟ أما علمت أن مرجعك إلى ؟ والعبد في هذا التوبيخ قد علاه الفرق وزاب من شدة الفرق فيقول مولاي وسيدى : لأن ترسل بى إلى النار أهون على من هذا التوبيخ ، فيقول الله - تبارك وتعالى - : عبدى أليس قد سترتها عليك في الدنيا ؟ فيقول العبد مولاي لقد فعلت ذلك بى فيقول جل جلاله : عبدى وعزتى وجلالى ومجدى وجودى وكرمى لقد محوتها من قلوب الملائكة وقلوب الآدميين وأبقيتها بينى وبينك حتى تعلم نعمتى عليك وأفضالى لديك في الدنيا والآخرة .

### غفران الذنوب

فلا يزال - جل جلاله - يفعل به ذلك في كل ذنب حتى يقرأ جميع ما في كتابه من الذنوب فإذا أتى على آخر الكتاب وجد فيه ، عبدى : هذه سيئاتك قد غفرتها لك . فعند ذلك يبيض وجهه وتحسن بشرته ويذهب عنه الحزن والهم والجزع .

ثم يقول الله - جل جلاله - : قلب كتابك فاقرأ حسناتك ، فيقلب العبد كتابه فيقرأ حسناته ، كلما مر على حسنة إزداد قلبه فرحة وسروراً ، وإزداد بياضاً وحسناً ونوراً ، ثم يؤتى بتاج من نور فيوضع على رأسه لو أخرج ذلك التاج إلى الدنيا لكسف نوره ضوء الشمس والقمر .

## لباس المكرمين

ويؤتى بحلتين من حلل الجنة ، شبر منها خير من الدنيا وما فيها مائة ألف مرة ، فيلبسها ويحلى كل مفصل منه بحلى الجنة ، ويقال له : اخرج على الناس وأخبرهم وبشرهم أن لكل عبد وأمة من المؤمنين مثل ذلك . فعند ذلك يخرج عبد الله بن عبد الأسد وكتابه يمينه وقد أشرق وجهه نوراً ، وقلبه قد امتلأ سروراً . قد جرت على وجهه بضرة نعيم الجنان ، وتلك علامة لأهل الإيمان . والمملك أخذ يمينه وهو ينادى عليه نداء البشرى : ألا إن فلاناً قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، والخلائق قد رفعوا أبصارهم إليه وتمنوا مثل ما من الله به عليه وهو يقرأ : ﴿ هَازِمُ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ ﴾<sup>(١)</sup> ليس فيه سيئة واحدة قد غفر الله — تبارك وتعالى — جميع ذنوبه ومحاها عني ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حَسَابِيهِ ﴾<sup>(٢)</sup> إلى أين أنت في الدنيا أنى ألقى هذا اليوم وكنت خائفاً من هوله ، ومن قراءتي كتابي ومن حساب ربي جل جلاله ، فلا يزال كذلك حتى ينتهي إلى أصحابه فيقولون : من هذا العبد الذي أكرمه الله ورضى عنه ؟ اللهم اجعله من أحبائنا وقربه منا حتى ننظر إلى ما قد فضله مولانا به ، فإذا قرب منهم سلم عليهم فيقولون له : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أو ما تعرفوني ؟ فيقولون له : يا عبد الله ، لقد زيتتك كرامة المولى — جل جلاله — حتى لا نعرفك ، فمن أنت ؟ فيقول لهم : أنا عبد الله بن عبد الأسد ، ألا وإن لكل واحد منكم مثل هذا ، وهكذا يفعل الله — تبارك وتعالى — بكل مؤمن يكون رأساً في الخير يدعوه إليه ويأمر به ، ثم يشفعه الله — تبارك وتعالى — في كل من شاء من أهل الذنوب ، فعند ذلك يفرح أصحابه بما قد بشرهم به من المغفرة والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾<sup>(٣)</sup> قد رضى ورضيت نفسه ورضى عنه مولاه ، وهو راض بتلك العيشة ، والعيشة هي الجنة ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾<sup>(٤)</sup> في غرفة ارتفاعها مسيرة مائة عام من لؤلؤة بيضاء أو من ياقوتة حمراء ، ملاطها المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب والكافور الأبيض . ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾<sup>(٥)</sup> يعنى ثمارها دانية منهم ، إذا اشتبهوا نزلت عليهم حتى تدخل عليهم في منازلهم ، فتدنو منهم فيأكلون من ثمارها ما يشتهون وهم نيام أو قعود أو قيام على أى حال أرادوا ، ثم ترجع إلى أماكنها وذلك قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا ﴾<sup>(٦)</sup> لا موت فيها ولا حزن ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾<sup>(٧)</sup> يعنى الأيام الماضية ، وهى أيام الدنيا التى أطاعوا الله — تبارك وتعالى — فيها ، واستقاموا ولم يزوغوا عن طاعته . وأنشدوا :

(٥) سورة الحاقة آية ٢٣

(٦) سورة الحاقة آية ٢٤

(٧) سورة الحاقة آية ٢٤

(٣) سورة الحاقة آية ٢١

(٤) سورة الحاقة آية ٢٢

(١) سورة الحاقة آية ١٩

(٢) سورة الحاقة آية ٢٠



ببابك عبد من عبيدك مذنّب كثير الخطايا جاء يسألك العفو  
فأنزل عليه العفو يا من بمنه على قوم موسى أنزل المن والسلوى  
أنا عبدك المسكين فارحم تضرعى ولا تجعل النيران يارب لى مشوى  
وخفف من العصيان ظهري إننى بلغت من الأوزار غايتها القصوى  
فهذا عبد الله بن عبد الأسد ، الذى أنزل الله تعالى فيه هذه الآية ، وعلى سيرته فى الحساب تجرى  
سير المؤمنين من أمة محمد ﷺ — على قدر أحوالهم واجتهادهم فى الدنيا فى الخير والإستقامة على  
طاعة الله

### أشد الناس عذاباً

وأما قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾ <sup>(١)</sup> فهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى  
وهو أخو عبد الله بن عبد الأسد وذلك أن الله تعالى يدعو به على إثر أخيه عبد الله فيدخل  
الأسود حتى يوقف ، وبينه وبين الله - عز وجل - حجاب السخط ، فيكون من وراء الحجاب  
لأن الله - تعالى - لا يراه إلا المؤمنون وأما الكفار فلا يرونه ، قال الله - تعالى - : ﴿ كلا  
إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ <sup>(٢)</sup> فيوقف الأسود بين يدى الملائكة يرعد من خوف العذاب ،  
والملائكة الذين معه هم ملائكة العذاب ، فيبنا هو كذلك إذ يأتيه ملك من ملائكة السخط فيأخذه  
بيده اليمنى ثم يهزها فيخلعها من موضعها فيعلقها من صلبه بجلده ، ثم يأخذ برأسه فيلوى عنقه فيحول  
وجهه فى قفاه

### كتاب السيئات

ثم يأتيه ملك من وراء ظهره فى يده صحيفة سوداء فيها كتاب بخط أسود فى باطن الكتاب حسناته  
وفى ظاهره سيئاته والكتاب مختوم ، فيقال له : هذا كتابك خذه فلا يقدر أن يتناوله يمينه لأن يمينه  
مخلوعة من منكبه ، فيتناول كتابه بشماله فيقال له : فض خاتم الكتاب فيفضه ، ويقال له : انشر كتابك  
واقراء ، فينشر الصحيفة وهى سوداء فيبدأ بباطن الكتاب فتستقبله حسناته فيقرأها ويفرح ويظن أنه  
سينجو من عذاب الله — تبارك وتعالى — ، حتى إذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه حسناتك  
قد ردت عليك لأنك لم ترد بها وجه الله — تعالى — والدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ من كان

(١) سورة الحاقة آية ٢٥

(٢) سورة المطففين آية ١٥

يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون<sup>(١)</sup> أى لا ينقصون ، تعجل لهم فى الدنيا أجور أعمالهم ولا يثابون فى الآخرة بشيء من أعمالهم ، ولا يتجاوز عنهم فى شيء من أعمالهم السيئة حتى يعذبهم الله — تعالى — عليها ، وأعمالهم الحسنة أحبطها الله — عز وجل — بالكفر ، والأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تبارك وتعالى — يجازى الله — تعالى — أصحابها بالثواب الباقى وهو نعيم الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، فوجه الله باق ونعيم الجنة باق ، لأن الله تعالى خلق الجنة ثواباً لأهل الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تعالى — : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾<sup>(٢)</sup> وكل عمل يراد به وجه الله لا يهلك ، يبقى ثوابه لصاحبه ، وثوابه الجنة ، فإن الله — تبارك وتعالى — يثيب على العمل الباقى بالنعيم الدائم الباقى ، ويثيب على العمل الفانى ، وهو ما يعمل للدنيا وزينتها بالعرض الفانى وهو حطام الدنيا ، والمؤمن لا يرضى الله — عز وجل — أن يثيبه على عمله الصالح بعرض من الدنيا وإن وسع عليه فى الدنيا . أى بالمال والجاه والقوة . فإنما يعطيه ذلك زيادة ومعونة يستعين بها على طاعته ، وأجر عمله ادخره له ليوم فقره إذا احتاج إليه . ثم يقال للأسود بن عبد الأسد : اقلب كتابك فاقرأ فيقلب ظاهره فتستقبله سيئاته مثل الجبال الرواسى وهى سود بخط أسود ، لأنها محبوبة بالكفر غير مقبولة ، فأول سيئة يقرؤها يسود وجهه ويسمج<sup>(٣)</sup> لونه ، كلما قرأ سيئة ازداد سماجة وقبحاً ، فإذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه سيئاتك قد اضعفت ، إني قد أضعف عليك العذاب بعملك السيئات .

### صفة العذاب للكافر

فيرجع وجهه أشد سواداً من القار — وهو الزفت — ويعظم جسده للنار حتى يكون ما بين منكبيه مسيرة شهر ، وغلظ كل فخذ من فخذه مسيرة ثلاثة أيام ، وما بين شفتيه العليا والسفلى أربعون ذراعاً ، وقد خرجت أنيابه وأضراسه من بين شفتيه بادية وعيناه زرق ، وحدقتاه قد وقعتا على وجهه من شدة ما هو فيه من العذاب ، وكل ضرس من أضراسه أعظم من جبل أحد ، شعره كآجام القصب ، وله سبعة جلود غلظ ، كل جلد منها أربعون ذراعاً ، ما بين الجلد إلى الجلد مسيرة ثلاثة أيام فيها ديدان لها جليلة كجلبة الوحوش فى البرية ، فى جسده من الشعر ما لا يحصى عدده إلا الله — تعالى — ، فى أصل كل شعرة من الآلام والوجع والعذاب ما لو قسم على أهل الدنيا من يوم خلقهم الله — تعالى — إلى يوم يبعثهم لماتوا كلهم فى أسرع من طرفة عين . ثم يؤتى بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فتغل بها

(١) سورة هود آية ١٥

(٢) سورة القصص آية ٨٨

(٣) سمج : قبح — والسماجة : القباحة

يداه وعنقه ، ويدخل طرفها في فيه وتخرج من دبره ، ثم يلف ما بقى منها على عنقه يتوقد ويشتعل ناراً ، ثم يؤتى بصخرة من كبريت أعظم من الجبل العظيم ، لو وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرها فتعلق في عنقه وهي تشتعل ناراً ، ثم يؤتى بتاج من نار فيوضع على رأسه فيصعد حر الصخرة إلى وجهه ، وينزل حر التاج إلى وجهه ، ويجتمع مع حر الصخرة ، ولا يقدر أن يرفع عن وجهه بيديه لأنهما مغلولتان إلى عنقه . قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (١) وقال عز وجل : ﴿ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (٢) تغشى وجوه الكفار . ثم يؤتى بسربال ( قميص ) من قطران وهو نحاس جهنم ، قد انتهى في شدة الحر فيلبسه ، لو أن ذلك السربال ألقى في الدنيا لصارت الدنيا من مشرقها إلى مغربها جمرة واحدة أسرع من لمح البصر ، ثم يقرن مع شيطان يكون ذلك الشيطان عليه أشد من كل عذاب يعذب به ، ثم يقال له : اخرج على الناس واخبر أصحابك أن لكل واحد منهم مثل هذا العذاب . فيخرج الأسود على أقبح الأحوال ، وكتابه بشماله ليس فيه حسنة واحدة ، وسيقاته ظاهرة للخلق ، والمملك ينادى على الأسود ابن عبد الأسد : يا أهل الموقف ، قد شقى الأسود شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . إلعنوه فإن الله تعالى قد لعنه وسخط عليه ، فينادى بأعلى صوته نداء يسمعه أهل الجمع : ﴿ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ﴾ (٣) أى يا ليتنى لم أعط كتابى بشمالى ولا يحل لى هذا البلاء الذى أنا فيه ﴿ وَلَمْ أُدْرَ مَا حَسَابِيهِ ﴾ (٤) أى يا ليتنى تبت وآمنت ولم أحاسب بهذا الحساب ، ولا نزل لى هذا العذاب . ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ (٥) أى ياليت الموت عاد إلئى حتى يريحنى من هذا العذاب . ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَةَ ﴾ (٦) يعنى المال الذى كان معه فى الدنيا وكان ينفقه فى غير الله وييخل به فى ذات الله — تبارك وتعالى — ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ (٧) أى انقطعت عنى حجتى واضمحلت . ثم يأمر الله — تعالى — أن يخرج له منبر من جهنم من نار فينصب له ، ويصعد عليه وتبدو كل قبيحه عملها فى الدنيا ، ويلعنه كل من فى الموقف ويعيره حتى يود لو أمر به إلى النار ، ثم يقول الله — تبارك وتعالى — للملائكة : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٨)

فبيتدره سبعون ألف ملك خلقوا من نار السموم ، مع كل ملك منهم زمن العذاب خلاف ما مع الآخر فبأخذونه بينهم فيلقونه فى الهاوية من النار الحامية ، ويدخلون بسلسلة فى فيه ويخرجون طرفها

(١) سورة الزمر آية ٢٤

(٢) سورة ابراهيم آية ٥٠

(٣) سورة الحاقة آية ٢٥

(٤) سورة الحاقة آية ٢٦

(٥) سورة الحاقة آية ٢٧

(٦) سورة الحاقة آية ٢٨

(٧) سورة الحاقة آية ٢٩

(٨) سورة الحاقة الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

من دبره كما تصنع الخزوة في السلك ، ثم يطعم الغسلين وهو شيء أسود نتن — لو أن قطرة من الغسلين ( هو ما أنغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، ويقال هو صديدهم ) لو أخرجت إلى الدنيا ، لمات جميع أهلها من التتن .

## طعام أهل النار

ولمّا يطعم أهل النار الغسلين لأنهم كانوا في الدنيا لا يرون أن يغتسلوا من الجنابة ، ولا يتوضأوا للصلاة فيحرق الغسلين مواضع الوضوء والاعتسال وما سقط منه أطعموه إياه جزاء بما ضيعوا في الدنيا من حقوق الله — تعالى — ، وهذا العذاب كله للأسود بن عبد الأسد ، وكذلك لكل من كان في الشر رأساً يأمر به ويدعو إليه ، يفعل به كما فعل بالأسود بن عبد الأسد ، وكل من كان في الدنيا في الخير رأساً يأمر به ويدعو إليه يفعل به كما فعل بعبد الله بن عبد الأسد ، يجزى الله — تعالى — الناس كلهم على هذا المنهاج في الخير والشر ، والله يفعل ما يشاء ، لا إله إلا هو ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فنعوذ بالله من أعمال أصحاب الشمال .

## مجلس في قوله تبارك وتعالى

﴿ ووضع الكتاب ﴾ الآية .

يا أهل الذنوب مثلي ، يا أهل العيوب مثلي ، يا من يعصى ولا يتوب ، يا من الغى والمحال له صواب ، يا من ضيع غاية المنى والمرغوب ، يا من سود كتابه بمعصية علام الغيوب ، اعلّموا — عصمنا الله وإياكم — أن للعباد غداً صحائف يقرعون فيها الحسنات والقبائح ، فمن كتب له حافظاه خيراً في الدار الفانية فهو خير له في الدار الباقية ، ومن كان خائفاً في الدنيا من العذاب ، متحفظاً بما يثبت عليه في الكتاب ، متجنباً لمعصية رب الأرباب ، وفقه الله مولاه للحق والصواب ، ويسر عليه برحمته الحساب ، ومحيت أوزاره من الكتاب ، ورضى عنه الملك الوهاب ، وأمر به إلى الجنة وحسن المآب . ومن علم أن عمله يثبت عليه في الديوان ، وهو يقرؤه لا محالة بين يدي الرحمن ، فكيف يألف العصيان ؟ وكيف يتحرك منه اللسان ، بالزور والبهتان ، ومخالفة كتاب الملك الديان ؟

## الفرق بين الحسنة والسيئة

ذكر في بعض الحكم أن رجلاً كان يسوق دابته فعثرت ، فقال الرجل : تعست الدابة — يعني عثرت — فقال ملك اليمين لملك الشمال : ليست بحسنة فاكبتها ، فأوحى الله — تعالى — لملك الشمال ما ترك صاحب اليمين فاكتهه أنت ، فكتب صاحب الشمال قول الرجل : تعست الدابة .

وأعظم من هذا أنه ما من عبد ولا أمة يتنفس نفساً إلا أثبت عليه في الكتاب ، فإن خرج النفس في طاعة الله أثبتته صاحب اليمين ، وإن خرج النفس في غير طاعة الله — تعالى — أثبتته صاحب الشمال حتى يحكم الله — تعالى — يوم الحساب فيه بحكمه ، فمن علم هذا يقيناً فلا يحتاج أن تمر عليه ساعة من ساعاته ، ولا وقت من أوقاته ، ولا لحظة من لحظاته إلا في ذكر الله وفي الفكرة في عظمة الله .

## النجاة في ذكر الله

روى عن النبي — ﷺ — أنه قال : « ليس شيء أنجي للمؤمن من عذاب الله من ذكر الله ، وأكثر ما يجد المؤمن في صحيفته يوم القيامة الإستغفار في الليل والنهار »<sup>(١)</sup> فكل من كان في الدنيا من قراءة كتابه خائفاً مشفقاً ، كان الله — تبارك وتعالى — به عند قراءته إياه رحيماً مرفقاً . ومن كان في الدنيا من الغافلين ، كان عند قراءته من النادمين .

فلو رأيتم يا أهل الذنوب ما قد أثبت عليكم في الديوان ، من الخطايا والعصيان ، والزور والبهتان ، والزيادة والنقصان ، والغفلة والنسيان ، لعظمت منكم المصائب . وكثرت منكم النوائب ، وسارعتم إلى الثواب والرغائب ، ولتبتن إلى رب المشارق والمغارب . وأنشدوا :

ما بال عينك تبكى لما سلفا ذكر الذنوب وخوف النار والتلفا  
يا أيها المذنب المحصى جرائمه لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا  
من الذنوب التي لم تبيل جدتها وكيف تبلى وقد أودعتها صحفا  
أما تخاف أما تخشى فضائحتها إذا الغطاء انجلي عنهن وانكشفا

اعلموا معاشر المذنبين لو أن الله — تعالى — أطلع بعضنا على صحائف بعض ، وكشف له ما فيها من الذنوب لكان الناس يشتغلون عن معاشهم بتعير بعضهم لبعض ، ولعنة بعضهم . فإننا الله وإنا إليه راجعون .

## حكاية عن رقة ابن واسع

حكى عن محمد بن واسع — رحمه الله — أنه ما رآه أحد قط ضاحكاً ، وإن كان ليبيكى حتى ترحمه الناس ، فذكر له ذلك فقال : يا أحبابي وكيف يضحك من لا يدرى بما أثبت عليه في كتابه ولا يدرى بما يختم له ؟ اللهم اختم لنا بخير .

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٦٦٢ بمعناه

وانظر أيضا الدار المنشور للسيوطي ج ٥ ص ٣٤٧ تغير قوله — تعالى — في سورة الإسراء ( ويخرون للأذقان يكون )

وكان رجل يكلم محمد بن واسع في حاجة ، فقال له محمد بن واسع : ادن مني فلو كانت للذنوب رائحة لما قدرت أن تدنو مني . فيا معشر المذنبين مثلي ، وكلنا مذنب ، لا تغتروا بستر الله — تعالى — عليكم فإن له يوماً يهلك فيه الأستار ، ويحاسب عباده على ما عملوا في الليل والنهار ، فقوم إلى الجنة وقوم إلى النار . فالخير والشر قد حصل عليكم في الكتاب الذي يوضع لكم يوم العرض والحساب ، بين يدي رب الأرباب ، قال الملك الوهاب ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ (١) . ووضع الكتاب للمؤمنين ، ووضع الكتاب للمجرمين . ووضع الكتاب لأهل الإيمان ، ووضع الكتاب لأهل النيران . ووضع الكتاب لأهل الثواب . ووضع الكتاب لأهل العقاب . ووضع الكتاب للطائعين . ووضع الكتاب للعاصين . ووضع الكتاب لأهل الإخلاص والوفاق ، ووضع الكتاب لأهل الرياء والنفاق . ووضع الكتاب لأهل الوفاء ، ووضع الكتاب لأهل الجفاء ، ووضع الكتاب للعاملين ، ووضع الكتاب للباطالين . ووضع الكتاب للقائمين ، ووضع الكتاب للنائمين ، ووضع الكتاب للمستغفرين ، ووضع الكتاب للغافلين . ووضع الكتاب للسعداء ، ووضع الكتاب للأشقياء .. ووضع الكتاب لأهل الجنة ، ووضع الكتاب لأهل المحنة . ووضع الكتاب للأبرار ، ووضع الكتاب للفجار ، ووضع الكتاب لأهل الكرامة ، ووضع الكتاب لأهل الندامة . ووضع الكتاب لأهل الرشاد ، ووضع الكتاب لأهل الفساد . وضع الكتاب لأهل الحسنات ووضع الكتاب لأهل السيئات . وضع الكتاب لأهل النعيم والسرور ، ووضع الكتاب لأهل الويل والقبور . فكتب تبشر بالجنة ، وكتب آخرها بالعنة والمحنة . جعلنا الله وإياكم ممن ييسره كتابه بالجنة برحمته .

## إحاطة الكتاب بكل شيء

واعلموا يا معشر المذنبين أن الله تعالى — لم يدع شيئاً من القول إلا وقد فسر له لعباده ، وأنزل بذلك كتابه العزيز فقال فيه — تبارك وتعالى — : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ (٢) وقد أعلمنا إلهنا ومولانا أن ﴿ كل إنسان ألزمناه طائره ﴾ (٣) وأن كل إنسان لابد له من السؤال ولابد له من حساب ، ولابد له من ثواب أو حساب . ومولانا عز وجل قد أمرنا بالعمل الصالح ، ووعدنا عليه بالجنة ، ونهانا عن المعاصي وتوعدنا عليها بالنار . وما قدمنا من خير أو شر قد أثبت عليكم في كتاب مكتوب ، بالحسنات والذنوب .

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨

(٣) سورة الإسراء آية ١٣

## حكاية في كتابة الكتب

روى عن الحسن ( هو الحسن البصرى ) - رضى الله عنه - أنه قال : ما من عبد ولا أمة يدفن إلا دخل عليه ملك في قبره معه دواة وقرطاس ، فيأخذ الملك برأس الميت ويقعده ويرفع إليه ذلك القرطاس ويناوله قلماً ويقول له : اكتب جميع ما عملت في عمرك الذى وجبت عليك فيه الحدود من خير وشر ، فيأخذ الميت القلم فيكتب وإن لم يكن في الدنيا كاتباً ، فإن كان العبد من أهل السعادة فأول ما يجرى القلم بيده بإذن الله - تبارك وتعالى - : « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن بسم الله الرحمن الرحيم لا تكون في كتاب أهل الشقاوة ، وإنما تكون في كتاب أهل الإيمان والسنة والأمان والغفران . لأن بسم الله الرحمن الرحيم هي آية الإيمان ، وهى إخبار عن رحمة الله ولطفه جل جلاله . يا أهل السنة من هذه الأمة ، فإذا ثبت العبد في كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد أمن في قبره من العذاب والضيقة .

## البسمة وبركتها

وإذا لم يثبت في كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد حل به العذاب في قبره ، فإذا كتب العبد ما عمل من خير وشر شقياً كان أو سعيداً ، يطوى الملك الكتاب ويعلقه في عنقه . فإذا خرج العبد من قبره يوم القيامة جاءه ذلك الملك فأخذ الكتاب وناوله إياه وقال : يا ولى الله أو يا عدو الله ، أتعرف هذا ؟ فيقول : نعم أنا كتبت ، وأنا عملته ، فيقول له : فاقرأه فيستقبله منه ما سبق له من سعادة أو شقاوة .

فالله الله معشر المذنبين ، مثلى ، المؤمنين . لا تضيعوا أيامكم بالقبائح ، ولا تهملوا أعماركم في الذنوب والفضائح ، فإن جميع أعمالكم قد حصلت عليكم في الصحائف الصالحات ، وستقرؤونها بين يدي مولاكم ، وتشهد عليكم الجوارح بالقبیح والحسن من أعمالكم . وأنشدوا :

سوف يأتى عليك ساعة خوف حين تعطى صحائف الأعمال  
وكأنى أرى فضائح قوم قد تجل لكشفها ذو الجلال  
ليت شعرى إذا قرأت كتابى يمينى أعطاه أم بشمالى

## حكاية عن عيسى - عليه السلام -

روى عن محمد بن اللباد - رحمه الله - أنه قال : دخل عيسى ابن مريم - عليه السلام - وعلى نبينا محمد - عليه السلام - مدينة خربة فدخل قصرًا من قصورها فنادى : يا خراب الآخرين أين أهلك وعمارك ؟ فأجابه شيء من آخر القصر أيا ابن مريم بادوا وسيعودون . فاجتهد يا أخى لا تفرط فإن العظام قد بليت وبقيت أعمالهم في رقابهم . وأنشدوا :

لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غداً يعود كبيراً  
كل الذنوب وإن تقادم عهدها عند الإله مسطر مسطوراً

أيها الرجل المقنع بالمشيب ، الملبس حلة المعاصي المريب ، قد خسرت أيام الشباب ، وبذلت مهجتك للعذاب ، بغفلتك عما في الكتاب ، واتباعك اللعين الكذاب ، وتهاونك بالحساب ، وصدودك عن الصواب ، ومعصيتك لرب الأرباب . ما حيلتك يا مكروب ، مثلي ، سودت كتابك بالذنوب ، وعصيت مولاك علام الغيوب ، وبعث الحظ الجزيل بالكذب المشوب ، وضيعت الجنة التي ليس فيها نصب ولا لغوب<sup>(١)</sup> واعلموا معشر المذنبين أن العبد إذا وفقه مولاه وأعطاه الفكرة في قراءة كتابه كان عند مولاه مستجاب الدعاء .

### حكاية في الاعتماد على الله

حكى : عن مطرف بن الشخير — رحمه الله — أنه أرسل رسولاً عن عوزماء<sup>(٢)</sup> وكان في زمان الحر ، فأبطأ عليه الرسول ، وكان عنده جماعة قد عطشوا ، وكان معه قليل ماء ، فقام فتوضأ بذلك الماء ، ثم صلى ركعتين دعا فيهما مولاه — سبحانه — ، فأرسل الله — تبارك وتعالى — سحابة حتى شرب هو وأصحابه ، فقليل له : بم بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : جعلت كتابي نصب عيني ، في ليل ونهارى حتى كأني أقرؤه بين يدي ربي — جل جلاله — .

### حكاية عن مالك بن دينار

قال عبد الواحد بن زيد — رحمه الله — : كنا عند محمد بن واسع ومعه مالك بن دينار ، فجاء رجل فكلم مالكاً وأغلظ عليه في الكلام في قسمة قسمها وقال وضعتها في غير حقها ، وفضلت بها أهل مجلسك ليكثر جمعك ، ولتصرف وجوه الناس إليك ، قال : فبكى مالك بن دينار وقال : ما أردت بهذا ، هذا الذي تقول ، قال : بلى والله لقد أردته ، فلما أكثر على مالك الكلام رفع جيب يديه وقال : اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت . فسقط الرجل ميتاً بإذن الله .

(١) النصب — بالفتح — : شدة النصب . اللغو : الإعياء .

(٢) أى عن شدة عوزهم واحتياجهم للماء كما يحصل غالباً في البلاد التي لم يكن بها نهر جار .



## دعاء ابن واسع

وكان محمد بن واسع إذا جن عليه الليل ييكي ويقول في بكائه : ويلي من ذنوب قد أحصيت ، ومن صحيفة قد ملئت ، ورى قد علم ذلك ولم يخف عليه من ذلك شيء . فأورثه الله تعالى ببيكائه على كتابه ، وعلى حياته من ربه الإستجابة في الدعاء وتنور القلب . وأنشدوا :

أرى المشيب بالعذار قد ألم	كأن موتى عن قريب قد هجم
خط المشيب أسطراً في مفرق	فراعنى ما خطه ومارقم
هل الفتى إذا انقضى شبابه	إلا كزرع هاج <sup>(١)</sup> سوف ينحطم
شاب الفؤاد قبل شب لمتى <sup>(٢)</sup>	واعتادنى ضعف القوى قبل الهرم <sup>(٣)</sup>
ويحى من التويخ من رى غداً	من ذلك الأمر الشديد المستهم
ويحى إذا نادى المنادى بى ألا	قم عبد سوء مسرع للعرض قم
ويحى إذا ما قال لى مقراً	وخص شيئاً بعد شيء ثم عم
ما قد صنعت فى فروضى والذى	قضيت منها هل صفا لى هل سلم
فجئت رى خاسراً قد أثقلت	ظهرى ذنوبى كالحساب المرتكم .

قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾<sup>(٤)</sup> وضع الكتاب لفصل القضاء ، ووضع الكتاب للحزن والبكاء ، وضع الكتاب لتبدو الفضائح ، ووضع الكتاب لتظهر القبائح ، وضع الكتاب لتصح الصحائح .

الله الله يا معشر المذنبين : حاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب وارحموا أنفسكم قبل نزول العذاب وبادروا بالتوبة قبل غلق الباب ، واجتهدوا فى بقية أعماركم قبل وضع الكتاب ، وسارعوا إلى المغفرة من ربكم قبل الخجل بين يدي رب الأرباب ، وقبل أن تطلبوا برد الجواب ، وتحبس الألسنة عن النطق والخطاب ، وتشهد الجوارح بما عملت من عصيان أو ثواب . وأنشدوا :

أبك لذنبك طوال الدهر مجتهداً أن البكاء معول الأحزان  
لا تنس ذنبك فى الكتاب وعظمة أن الذنوب تحيط بالإنسان

(١) هاج النبات : ييس وجف

(٢) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن ، فإذا بلغ المنكين سمي جمعة .

(٣) الهرم : كبر السن ، والهرم مشهور بمصر

(٤) سورة الكهف . آية ٤٩

مساكين أهل الذنوب ، ما أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن ، مساكين أهل الذنوب : جلت  
كروبيهم ، وعظمت خطوبهم ، وكبرت عيوبهم ، وأحصيت عليهم في الكتاب ذنوبهم ، مساكين أهل  
الذنوب : عصوا الجبار في الليل والنهار ، وبذلوا مهجتهم لعذاب النار ، وسودوا صحفهم الخطايا  
والأوزار . مساكين أهل الذنوب : غفلوا عن الطاعة ، وخالفوا السنة والجماعة ، وخسروا أنفسهم قبل  
قيام الساعة ، وأنشدوا :

(من كان) يخشى الله جل جلاله فليكثر العبرات في الخلوات  
فلعله بعد التذكر والبكا بدلت له العبرات بالحسنات  
وتخفف الأوزار عن منشوره يوم الحساب وموقف الحسرات

### عجائب الكتب

قال الله - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾<sup>(١)</sup> . عباد الله ، عند  
وضع الكتاب عجائب ، وأحزان ومصائب ، وكروب ونوائب . فواحد يوضع له الكتاب فييكي ، وآخر  
يوضع له الكتاب فيفرح وييكي . وآخر يوضع له الكتاب فتجري على وجهه نضرة<sup>(٢)</sup> النعيم . وآخر  
يوضع له الكتاب فتعلو وجهه ظلمة الجحيم . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بسخط الرب الجواد .  
وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بالتوفيق والسداد .  
اللهم وفقنا للطاعة ، وأمتنا على السنة والجماعة ، ونجنا من أهوال يوم الساعة ، وأدخلنا في جملة أهل  
الشفاعة .

واعلموا معشر المذنبين : أن الماء يمحو الكتاب من ألواح الصبيان ، والدمع يمحو من كتبكم  
الأوزار والعصيان ، والهموم والغموم والأحزان . فاجتهدوا في البكاء معشر الإخوان ، وأكثروا الندامة  
فإنها توجب الغفران وأنشدوا :

دعوني على نفسي أنوح وأندب بدمع غزير واكف يتصبب  
دعوني على نفسي أنوح فإنني أخاف على نفسي الضعيفة تعطب  
وإني حقيق بالتضرع والبكا إذا ما هدا النوم والليل غيب<sup>(٣)</sup>  
وجالت دواعي الحزن من كل جانب وغارت نجوم الليل وانفض كوكب

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) النضرة : الحسن والرونق . والنضار : الذهب .

(٣) الليل غيب : شديد الظلام

كفى أن عيني بالدموع يخيلة      وأنى بآفات الذنوب معذب  
فمن لى إذا نادى المنادى بمن عصي      إلى أين إلجأى إلى أين أهرب؟  
وقد ظهرت تلك الفضائح كلها      وقد قرب الميزان والنار تلهب  
فيأطول حزنى ثم ياطول حسرى      لئن كنت فى قاع الجحيم أعذب  
فقد فاز بالملك العظيم عصابة      تبيت قياماً فى دجى الليل ترهب  
إذا أشرف الجبار من فوق عرشه      وقد زينت حور الجنان الكواعب  
فناداهم سهلاً وأهلاً ومرحباً      أبحث لكم دارى وما شئتم اطلبوا

فبادروا ، رحمكم الله فى هذه الأيام الشريفة ، إلى نحو السيئات من الصحيفة .

### ضرب مثل فى رقة القلب

يأخى : الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد فى النار ، عرق طرفها الآخر ، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقه ندامة الذنوب التى حصلت فى الكتاب المكتوب الموضوع جادت العينان بواكف الدموع ، ولانت الجوارح بالخضوع ، والقلب بالإنبابة والخشوع وأنشدوا :

كتب بأدمعى فى صحن خدى      كتاباً بالتذلل والخضوع  
فقالوا قد عفونا عنك لما      محوت قبيح فعلك بالدموع

### حكاية عن التوبة

ذكر عن بعض الخائفين أنه قال : رأيت رجلاً واقفاً على صبي من الصبيان فى المكتب وهو يحو لوحاً ، وكان اللوح قد كتبه بالخبر ، وكانت الكتابة قد ثبتت ولا تزول بالماء ، فجعل الصبي يحك اللوح بالحبل والتراب ، فقال الرجل الواقف عليه : يا بنى مالك تحك اللوح بالحبل ؟ فقال : ليزول الخبر الذى ثبت . فيه فقال له الرجل : والحبل يا بنى يزيل الخبر ؟ قال : نعم ، ألا ترى أن الحبل شبه الخنادق فقال الرجل : ذلك بطول المدة ، فقال الصبي : لا ، يا نعم الرجل إلا بالحزم والإجتهد وإياك يا نعم الرجل : بعيد الذهن ، قال الرجل : كيف ذلك يا بنى ؟ قال : لأنى قد قلت لك إشارة لو ألقيتها على قلبك لأفاق وإمحي الخبر الذى عليه .

فقال الرجل : يا بنى : كان على قلبى خبر قال يا عم وأى لون هو الخبر ؟ قال : هو أسود قال الصبي :

يا عم ألم أقل لك إنك بعيد الدهن؟ وأى سواد أشد من سواد الذنوب على القلوب؟ فصاح الرجل صيحة وخر مغشياً على وجهه ، ثم أخذ البكاء فقال له الصبي : أما الآن فقد وجدت الدواء لذنوبك وعوها من كتابك وقلبك فقال الرجل يا بنى وما الدواء؟ فقال له البكاء فقال : يا بنى : والبكاء يمحو الذنوب من الكتاب والقلب؟ قال له : نعم ، والدليل على ذلك قول النبي - ﷺ - « إن الدموع تطفىء بحار النار يوم القيامة عن الباكي » .

## الدموع تمحو الذنوب

فإذا محت الدموع بحار النار ، فإحرى أن تمحو من الكتاب القبائح والأوزار ، وإذا زالت من الكتاب الفضائح والأوزار ، رضى عنك الملك الغفار ، وأمر بك إلى دار الراحة والقرار ، وخلصت من عذاب البوار .

فابكوا يا جماعة المسلمين على ما أذنبتم في الشهور والأعوام ، وفي الساعات والأيام ، عن الخطايا والإجرام ، واكتساب الربا والحرام ، وظلم الضعفاء والأرامل والأيتام ، وما فرطتم فيه من أداء حقوق الملك العلام ، وأنشدوا :

وددت أن دموعي بحر فأسفحها	من مقلتي على ما فات من زمني
واها على أسف منى على وهل	ينجى التأسف إلاغلة الشجن
والله لووضح تحقيق التأسف ما	ألغيت مع إلا مع النوم في الحزن
ياليت لي عيناً في كل جارحة	تبكى على بدمع مانع الوسن

## فضل البكاء

فالواجب — والله يا أهل الإعلام — على كل مسلم علم من نفسه ذنباً أن يكثر البكاء عليه عساه يحوه من كتابه موله ، ويتفضل عليه ويغفر له ما قد جناه ، فهو المنان الكريم ، المتفضل العظيم .

اللهم يا أكرم الأكرمين ، ويا آخر الغافرين ، تفضل علينا بتوبة وعلى جميع المذنبين ، تنقلنا بها من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، وثبتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب ولا تباعه<sup>(١)</sup> على منهاج أهل السنة والجماعة ، الذين أوجبت لهم الرحمة والشفاعة

(١) التباعة والتبعة : ما اتبع به

اللهم إن الطاعة والمعاصي بقدرك ، وفي يدك القلوب والنواصي ، فظهر قلوبنا بماء التوبة ، واغسلها من دنس الحوبة ، وامتعنا بالسلامة في ديننا ودنيانا ، وفي أسماعنا وأبصارنا ، وجميع جوارحنا ما أبقيتنا ، ولا تردنا على أعقابنا بعد إذ هديتنا ، فإنك على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

### العلم المحيط

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم يبينهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ (١) .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين . يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير .

الله يـدري كل ما تـضمـر يعلم ما تخـفـى وما تـظـهـر وإن خـدعت الناس لم تستطع خـداع من يطوى ومن ينشر قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله .

يا من يرى مد البعوض جناحه في ظلمة الليل البهيم الأليل ويرى ويسمع ما يرى مادونها في قاع بحر ذاخر متجندل

سبحانك أنت القائل : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ ، وأنت القائل : ﴿ ألا إنهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ (٢) وأنت القائل :

(١) سورة المجادلة آية ٧

(٢) سورة هود آية ٥ ، ٦

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخير ﴾<sup>(١)</sup> .

يقول تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه وإطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا ، وأين كانوا ، فقال — تعالى — : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾<sup>(٢)</sup> أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له كما قال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أننا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾<sup>(٤)</sup> ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك في إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو — سبحانه وتعالى — مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء ، ثم قال تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾<sup>(٥)</sup> قال الإمام أحمد : إفتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

### أحكام تتعلق بالنجوى

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْآثِمِ وَالْعَادُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ جَهَنَّمَ بَصُورًا فَنُفِثَ فِيهَا الْفَيْسُ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَتَنَجَّوْا بِالْآثِمِ وَالْعَادُونَ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَتَجَافَى أَيْلَافُ النَّاقِصِينَ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(٤) سورة الزخرف آية ٨٠

(٥) سورة المجادلة آية ٧

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤

(٢) سورة المجادلة آية ٧

(٣) سورة التوبة آية ٧٨

## معاني المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى : بما هو معصية وذنب ، والعدوان : الإعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى : هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى : عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى : يقاسون حرّها .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ، ومجازيهم على ما يكون به التناجى — خاطب رسوله معجّباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيّوه بغير تحية الله ، فيقولون له : السام عليك ( يريدون الموت ) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للإستخفاف به ، وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم ، ثم نبى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضرهم شيء منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكّلوا .

## سبب النزول

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوؤهم ذلك ، فشكوا إلى رسول الله فنهاهم — أى اليهود والمنافقين — عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ﴾ .

وروى البخارى أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : السام عليك — أى الموت عليك — قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : عليكم السام ولعنكم الله ، وغضب عليكم ، فقال — عليه الصلاة والسلام — : مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعى ما قلت ؟ ورددت عليهم ، فيستجاب لى فيهم ، ولا يستجاب لهم . وفى رواية أخرى فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ (١) .

(١) انظر صحيح البخارى . ج ٨ ص ١٥ كتاب الأدب باب لم يكن النبى ﷺ — فاحشاً ولا متفحشاً .

## أضواء كاشفة

إن أمر هؤلاء الذين يؤمرون بترك شيء ، وينهون عنه ثم يعودون إليه إن أمر هؤلاء لعجيب ! ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى من المنافقين واليهود ، فإنهم كانوا يتناجون دون المؤمنين ، ثم ينظرون إليهم ، ويتغامزون بأعينهم عليهم ، مع إيهامهم أن أقاربهم وإخوانهم أصابهم شر ، ولا يزالون كذلك حتى تعود أقارب المسلمين ، فلما كثر ذلك من المنافقين وإخوانهم اليهود ، شكاهم المسلمون للنبي ﷺ — فنهاهم عن ذلك ، فعادوا لمثل فعلهم ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ ( الإستفهام في الآية للإنكار والتعجب ، والتعبير بالمضارع في « يعودون » للدلالة على تكرار عودتهم وتجديدها واستحضار صورتها العجيبة ) ، ومع ذلك فهم يتناجون بما هو إثم عند أنفسهم ، ووبال عليهم لأن ضرره عائد لهم ، وبما هو عدوان على المؤمنين ، وبما هو تواصل بمخالفة الرسول ﷺ — ، انظر إلى هؤلاء أيها المسلم ، واحذر أن تكون ممن يتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول التي هي رمز الانتهاك القانون العام .

ولقد جر ذكر بعض صفاتهم إلى ذكر صفة أخرى ، تدل على سوء القصد ، وخبث النية ، فهؤلاء المنافقون واليهود كان يأتي بعضهم إلى النبي ، ويحييه بتحية لم يشرعها الله ، ولم يأذن بها ، وهي قولهم : السام عليك ، يريدون الدعاء عليه بالموت والهلاك ، فكان النبي ﷺ يرد عليهم قائلاً : وعليكم ، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد بل يقولون في أنفسهم : هل يعذبنا الله بما نقول ، والمراد : لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بسبب قولنا هذا . والله يرد عليهم بقوله الفصل : حسبهم جهنم وكفى ، يدخلونها ويصطلون بنارها ، فبئس المصير مصيرهم .

يأيها الذين آمنوا : إن مقتضى هذا الإيمان أن تمتثلوا أمر الله ، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح ، وخاصة التناجى بالإثم والعدوان فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ، وليكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى ، وبالخير والصلاح ، واتقوا الله في السر والعلن ، فإنه مطلع عليكم ، ثم إليه تحشرون . روى عن النبي ﷺ — أنه قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج إثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه » (١) . أي من أجل أن يقع في نفسه ما يحزن لأجله إن كثيراً ما يفهم أن الحديث عنه بما يكره .

(١) الحديث في صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧١٨ كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . رقم ٢١٨٣ / ٣٦

— وانظر سنن الترمذي ج ٥ ص ١١٧ ، ١١٨ كتاب الأدب . باب ما جاء لا يتناجى إثنان دون ثالث . رقم ٢٨٢٥ .

— وانظر صحيح البخاري . كتاب الاستئذان . ج ٧ ص ٨٠ ط / الشعب



إنما التناجى سرّاً أى مع وجود من يظن شراً من تزين الشيطان ليحزن الذين آمنوا إذ قد فهموا من تناجى اليهود والمنافقين أن إخوانهم أصيبوا بشر ، وليس التناجى بضارهم فى شيء إلا بإذن الله ، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون . أنظر إلى أدب القرآن فى المناجاة ، وكيف يوجهها إلى البر والتقوى ، ويمنعها عن الإثم والعدوان .

### التفسير

قال ابن أبى نجیح عن مجاهد : ( ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ) قال اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حیان وزاد : كان بين النبى — ﷺ — وبين اليهود مودة وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبى — ﷺ — جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيم فترك طريقه عليهم ، فهاهم النبى — ﷺ — عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله — تعالى — : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ﴾ وقال ابن حاتم بسنده عن ربيع بن عبد الرحمن بن أبى سعد الخدرى عن أبيه عن جده قال : كنا نتأوب رسول الله — ﷺ — نبيت عنده ، يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله — ﷺ — فقال : « ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟ » قلنا : تبنا إلى الله يارسول الله . إنا كنا فى ذكر المسيح فرقاً منه . فقال : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل »<sup>(١)</sup> هذا إسناد غريب وفيه بعض الضعفاء .

قوله تعالى : ﴿ ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أى يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم ( والعدوان ) وهو ما يتعلق بغيرهم ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : دخل على رسول الله — ﷺ — يهود فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله — ﷺ — : « يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « أو ما سمعت أقول وعليكم ؟ » فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ . وفى

رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعة وأن رسول الله ﷺ - قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا »<sup>(١)</sup> . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ - بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال النبى ﷺ - « هل تدرون ما قال ؟ » قالوا : سلم يارسول الله . قال « بل قال سام عليكم » أى تسامون دينكم ، قال رسول الله ﷺ - : « ردوه » فردوه عليه ، فقال نبى الله : « أقلت سام عليكم » قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ - : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك »<sup>(٢)</sup> . أى عليك ما قلت ، وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح ، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة بنحوه .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وانما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أى جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ يصلونها فبئس المصير ﴾ . وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾<sup>(٣)</sup> | إسناده حسن ولم يخرجوه ؛

وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ - إذا حيوه : سام عليك ، قال الله تعالى : ﴿ حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾ . ثم قال - تعالى - مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ يأيتها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﴾ أى كما يتناجى به الجهلة من كفره أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾ أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها . قال الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٠٦ ، ١٧٠٦ كتاب السلام . باب السلام . باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم : رقم ١٠ ، ١١ / ٢١٦٥

وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٨ ، ٦٩ . تفسير سورة المجادلة ط / الشعب .  
(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٩ ط / الشعب وانظر تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ١١ .

أنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ كتاب تفسير القرآن باب سورة المجادلة . رقم ٣٣٠١

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ١٧٠ مسند عبد الله بن عمرو .

- وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٦٩ ط / الشعب

سمعت رسول الله ﷺ — يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ — يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أن قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » <sup>(١)</sup> أخرجه في الصحيحين من حديث قتادة .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا النُّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أى : إنما النجوى وهى المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً . ﴿ لِيَحْزَنَ الشَّيْطَانُ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى : ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ، ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله واليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن كما قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ — : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه » <sup>(٢)</sup> أخرجه من حديث الأعمشى . وقال عبد الرازق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ — : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه » <sup>(٣)</sup> انفرد بإخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل كلاهما عن حماد بن زيد عن أيوب به .

(١) انظر صحيح البخارى تفسير سورة هود ٦ ص ٩٣

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٢٠ كتاب التوبة — باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٥٢ / ٢٧٦٨ .

انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٧٠ ط / الشعب

وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٧٤

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢

(٣) انظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان ج ٧ ص ٨٠ ط / الشعب وانظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم

مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . ج ٤ ص ١٧١٨ رقم ٣٦ / ٢١٨٣

## من آداب الإسلام

قال تعالى :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَأَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ  
 انْشَرُوا فَانْشَرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾  
 يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةٌ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرٌ  
 فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقْتُمْ فَلِذَٰلِكَ  
 تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

## التحليل اللفظي

تفَسَّحُوا : توسعوا في المجلس وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عني أى تنج ، يقال :  
 بلدة فسيحة ، ومغارة فسيحة ، ولك فيه فسحة أى : سعة .  
 قال القرطبي : وَفَسَّحَ يَفْسَحُ مثل قَنَعَ يَمْنَعُ ، أى وَسَّعَ في المجلس ، وَفُسِّحَ يَفْسَحُ مثل كَرُمَ يَكْرُمُ ،  
 أى : صار واسعاً ، ومنه مكان فسيح .

انْشَرُوا : انهضوا وارتفعوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض ، قال في اللسان : النَشْرُ : المرتفع  
 عن الأرض ، ونَشَرَ الشَّيْءُ : ارتفع ، وتَلَّ نَاشِرٌ : مرتفع ، وفي التنزيل ( وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فَانْشَرُوا )  
 قرأها الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز يرفعونها ، وهى لغتان ومعناه : إذا قيل انهضوا فانهضوا وقوموا .  
 درجات : أى : منازل رفيعة ، جمع درجة وهى الرفعة في المنزلة . فأخوذ من الدَّرَج الذى يرقى به  
 إلى السطح .

قال في اللسان : والدرجة : الرفعة في المنزلة ، والدرجة واحدة الدرجات ، وهى الطبقات من المراتب ،  
 ودرجات الجنة : منازل أرفع من منازل .

نَجْوَاكُمْ : النجوى مصدر بمعنى التناجى وهو المسارة . مأخوذة من ( النجوة ) وهى ما ارتفع من  
 الأرض ، فالمتناجيان يخلوان بسرهما كخلو المرتفع من الأرض عما يتصل به .

وقيل : النجوى من المناجاة وهى الخلاص ، وكأن المتناجين يتعاونان على أن يخلص أحدهما الآخر .  
ومعنى الآية : إذا أردتم مناجاة الرسول ﷺ — لأمر من الأمور فتصدقوا قبلها .  
أظهر : أى أركى لأنفسكم وأطيب عند الله .  
أأشفقتم : الإشفاق : الخوف من المكروه ، والمعنى : أخفتم وبخلتم بالصدقة وشق ذلك عليكم ؟  
قال ابن عباس : « أأشفقتم » أى : أبخلتم بالصدقة وهو استفهام معناه التقرير .

### المعنى الإجمالى

يقول الله — جل ثناؤه — ما معناه : يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا فى المجلس لأخوانكم القادمين ، فتوسعوا لهم ، وافسحوا لهم ، حتى يأخذ القادم مكانه فى المجلس ، فإن ذلك سبب المودة والمحبة بينكم ، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس ، وإذا فسحتهم لهم فإن الله تعالى يفسح لكم فى رحمته ، وينور قلوبكم ، ويوسع لكم فى الدنيا والآخرة . وإذا قيل لكم — أيها المؤمنون — انهضوا إلى الصلاة ، والجهاد ، وعمل الخير فانهضوا ، أو قيل لكم قوموا من مقاعدكم للتوسعة على غيركم فأطيعوا ، فإن الله — تعالى — يحب من عباده الطاعة ، ويرفع درجات المؤمنين ، والعلماء العاملين الذين يتفنون بعلمهم وجه الله ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وليست الرفاعة عند الله — تعالى — بالسبق إلى صدور المجالس ، وإنما هى بالعلم والإيمان .

ثم أمر — تعالى — عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته — عليه الصلاة والسلام — لأمر من الأمور ، أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة ، تعظيماً لشأن الرسول ﷺ — ونفعاً للفقراء ، وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراءوغ ، فإن ذلك أركى للنفوس ، وأظهر للقلوب ، وأكرم عند الله — تعالى — ، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج . ثم أخبر تعالى بأن عمل الخير كالصدقة وغيرها لا ينبغي أن يخاف منها الإنسان فقال ما معناه : أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال ، فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم ، ورخص لكم فى الترك ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ولا تفرطوا فيها وفى سائر الطاعات ، لأن الله خير بما تعملون .

### سبب النزول

أ — روى أن النبى — ﷺ — كان يوم الجمعة فى الصفة ، وفى المكان ضيق ، وكان عليه — الصلاة والسلام — يكرم أهل بدر من ( المهاجرين والأنصار ) فجاء ناس من أهل بدر ، منهم ( ثابت بن قيس بن شماس ) وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى — ﷺ — فقالوا : السلام عليك أيها النبى

ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ — ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفتحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله ﷺ — فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، وقم يا فلان ، فأقام نفرأ مقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مجلسه ، وأحبّ قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل الله — تعالى — هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ (١) (أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان) .

ب — وروى عن ابن عباس وقتادة : « أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ﷺ — ، في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان — ﷺ — سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ .. ﴾ الآية .

ح — وروى عن مقاتل : أن الأغنياء كانوا يأتون النبي ﷺ — فيكثر مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره — ﷺ — طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت الآية : ﴿ إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ ﴾ .

## وجوه القراءات

- ١ — قوله تعالى : ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ تَفَسَّحُوا ﴾
- ٢ — قرأ الجمهور ﴿ فِي الْمَجْلِسِ ﴾ بالإفراد على إدارة معنى الجمع ، وقرأ عاصم وقتادة ﴿ الْمَجَالِسِ ﴾ بالجمع .
- ٣ — قوله تعالى : ﴿ انشُرُوا فانشُرُوا ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين فيهما . قال الغراء : وهما لغتان مثل : يعكفون ويعرشون .
- ٤ — قرأ الجمهور ﴿ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ﴾ بالإفراد ، وقرأ ﴿ صَدَقَاتٍ ﴾ بالجمع لجمع المخاطبين .

## وجوه الإعراب

- ١ — قوله تعالى : ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يفسح مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وحرك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين ، ومثله ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشروا يرفع الله عز وجل المؤمنين جزاء امتثالهم درجات .

٢ — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ قال أبو حيان معطوفاً على الذين آمنوا عطف صفات .

والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة واختار الطيبي : أن يكون في اللفظ تقدير يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا في الدنيا بالنصر وحسن الذكر ، ويرفع الذين أُوتوا العلم درجات تعظيماً لهم .

٣ — قوله تعالى : ﴿ أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تَقْدَمُوا ﴾ أن وما بعدها في تأويل مصدر مفعول لـ ( أشفقتم ) والله أعلم .

### لطائف التفسير

— اللطيفة الأولى : لما نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم في هذه الآيات بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وقد كان الصحابة — رضوان الله عليهم — شديدي الحرص على القرب من رسول الله ﷺ — والجلوس بين يديه حرصاً على استماع كلامه ، فأمروا بالتوسعة على إخوانهم في المجلس تطييباً لقلوبهم ، وهذا هو السر في مجيء هذه الآيات عقب آيات النهي عن التناجي بالإثم والعدوان .

— اللطيفة الثانية : ذكر — تعالى — في أول الآية مكانة المؤمنين ، ثم عطف عليها بذكر مكانة العلماء ، والعطف في مثل هذا الموطن هو من باب ( عطف الخاص على العام ) تعظيماً لشأن العلماء كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد اسم الموصول في النظم الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ .

— اللطيفة الثالثة : الأمر للمؤمنين بالصدقة عند مناجاة الرسول — ﷺ — فيه فوائد عديدة :

أولها : تعظيم الرسول — ﷺ — وتعظيم مناجاته .

ثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة .

ثالثها : الزجر عن الإفراط في الأسئلة لرسول الله — ﷺ — .

رابعها : التمييز بين الخُلص والمنافق ، ومحبة الدنيا ومحبة الآخرة .

— اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ﴾ : في هذا اللفظ استعارة يسميها علماء البلاغة ( استعارة تمثيلية ) وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان كالإنسان فقد استعار

اليدين للنجوى ، وقيل إنها ( استعارة مكنية ) حيث شبه النجوى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان على سبيل الاستعارة المكنية ومثله قوله تعالى : ﴿ بين يدي عذاب شديد ﴾ وذكر اليدين تخييل .

— اللطيفة الخامسة : أشاد القرآن بمنزلة العلماء الرفيعة ، ومكانتهم السامية عند الله — تعالى — ، ويكفيهم هذا الشرف والفخر وقد قال — ﷺ — : ( من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام ، فينبه وبين النبيين درجة )<sup>(١)</sup> . ( أخرجه الدارمي عن عمر بن كثير عن الحسن ) . وقد ذكر بعض الظرفاء مناظرة رمزية بين ( العقل والعلم ) تذكرها لطرافتها قال بعض الأدباء :

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا	من ذا الذي منهما قد أحرز الشرفا ؟
فالعلم قال : أنا أدركت غايته	والعقل قال : أنا الرحمن بي عُرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له :	بأيّنا الله فرقانه اتصففا ؟
فبان للعقل أن العلم سيّده	فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

## الأحكام الشرعية

— الحكم الأول : ما المراد بـ ( المجالس ) في الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون في المراد بالمجلس على ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن المراد به مجلس الرسول — ﷺ — خاصة ، وهو قول مجاهد والثاني : أن المراد به مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، حيث كانوا لحرصهم على الشهادة يأبون التوسع ، وهو قول ابن عباس ، والحسن .

والثالث : أن المراد به مجالس الذكر كلها ، وهو قول قتادة وهو الأرجح . قال الطبري : « والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين ، أن يتفصحوا في المجلس ، ولم يخص بذلك مجلس النبي — ﷺ — دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس ، من مجالس رسول الله — ﷺ — ومجالس القتال » .

وقال القرطبي : الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه .

(١) انظر سنن الدارمي ج ١ ص ٨٥ . باب فضل العلم والعالم .

— انظر تحاف السادة المتقين ج ١ ص ١٠٠



— الحكم الثاني : هل يباح الجلوس مكان الشخص بدون إذنه ؟ .

دلت الآية الكريمة على وجوب التوسع في المجلس للقادم ، وهذا من مكارم الأخلاق التي أرشد إليها الإسلام ، ولكن لا يباح للإنسان أن يأمر غيره بالقيام ليجلس مجلسه لقوله — ﷺ — : ( لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا )<sup>(١)</sup> وقد جرى الحكم أن من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجلس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن الآداب الإجتماعية تقضى على الناس بتقديم أولى ( الفضل والعلم ) وبذلك جرى عرف الناس وعوائدهم في القديم والحديث .

ولقد كان هذا الأدب السامي شأن الصحابة في مجلس الرسول — ﷺ — فكانوا يقدمون بالهجرة ، وبالعلم ، وبالسن ، وما فعله النبي — ﷺ — في جماعة ( ثابت بن قيس ) من أهل بدر ، فإنما كان لتعليم الناس مكارم الأخلاق ، وخاصة مع أهل الفضل والعلم ، من المهاجرين والأنصار .  
أ — روى ابن العري بسنده عن انس بن مالك — رضى الله عنه — أنه قال : « بيننا رسول الله — ﷺ — في المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبي طالب فوقف وسلم ، ثم نظر مجلساً يشبهه ، فنظر رسول الله — ﷺ — في وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالساً على يمين النبي — ﷺ — فترشح له عن محله ، وقال : ها هنا يأبأ الحسن . فجلس بين النبي — ﷺ — وبين أبي بكر ، فقال يأبأ بكر : إنما يعرف الفضل ، لأهل الفضل ، ذوو الفضل »<sup>(٢)</sup> .

ب — وثبت في الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه في ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله — ﷺ — أعلمه إياه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا قدّمت الفتى »<sup>(٣)</sup> .

وإذا قام الإنسان من مجلسه لحاجة ثم رجع إليه فهو أحق بالمجلس لقوله — ﷺ — : ( من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به )<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجمعة باب . لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد في مكانه ج ٢ ص ١٠ ط / الشعب  
انظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه  
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٢٨ ، ٤٣٨ ، ٥٢٣ .

(٢) انظر كشف الحفاء ج ١ ص ٢٥٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٢٩ ، ٥٣٠ تفسير سورة . إذا جاء نصر الله والفتح . ط / الشعب

(٤) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧١٥ . كتاب السلام . باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به . رقم ٢١٧٩ .

— الحكم الثالث : هل يجوز القيام للقادم إذا كان من أهل الفضل والصلاح . .

ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز القيام للقادم إذا كان مسلماً من أهل الفضل والصلاح على وجه التكريم ، لأن احترام المسلم واجب ، وتكريمه لدينه وصلاحه مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه سبيل المحبة والمودة ، وقد قال — ﷺ — « لا تحقرون من المعروف شيئاً ولو أن تُكلم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك »<sup>(١)</sup>.

فالقيام للقادم جائز على وجه التكرمة ، إن لم يكن فاسقاً ، ولم يكن سيلاً للكبرياء والخيلاء ، وما لم يصبح ديدناً للإنسان عند كل دخول أو خروج ، وفي كل حين وآن فعند ذلك يكره .

قال العلامة ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث : ( قوموا إلى سيدكم )<sup>(٢)</sup> ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : ( من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار )<sup>(٣)</sup> . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة ( سعد بن معاذ ) فإنه لما استقدمه النبي — ﷺ — حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما زال إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم .

أقول : جمهور العلماء على جواز القيام للقادم ، إلا إذا كان فاسقاً ، أو عاصياً أو مرتكباً لكبيرة ، أو مشهوراً بالكبر وحب الظهور ، وأما ما استدل به بعضهم من منع القيام بحديث .. ( من أحب أن يتمثل له الناس قياماً ... )<sup>(٤)</sup> الحديث ، فليس فيه دليل لهم ، لأن الرسول — ﷺ — لم يطلق اللفظ وإنما قيده بوصف يدل على الكبرياء وحب الظهور ( من أحب أن يتمثل له الناس قياماً ) ولم يقل — صلوات الله عليه — : ( من قام له الناس فليتبوأ مقعده من النار ) ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على المتكبر المغرور ، والفرق دقيق بين اللفظين فلا ينبغي أن يغفل عنه .

(١) انظر صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٤٦ . باب حسن الخلق .

— انظر الخرائطي . في مكارم الأخلاق ص ١٦ . بلفظ لا تنهذهن ..... المطبعة السلفية .

(٢) الحديث في صحيح مسلم . ج ٣ ص ١٧١٥ كتاب الجهاد وسير . باب جواز قتال من نقر العهد . رقم ١٧٦٨/٦٤

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٣٩٠ ، ٣٩١ رقم ٥٢١٥ كتاب الأدب

انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٧٢ . ط / الشعب

انظر كنز العمال ج ٩ ص ١٣٨ رقم ٢٥٣٨٧

انظر تحفة الأحوذى ج ٨ ص ٣٠ رقم ٢٩٠٣ .

(٤) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٣٩٠ ، ٣٩١ . كتاب الأدب

وأما ما يقوله بعضهم : من أن القيام ركن من أركان الصلاة فلذلك يحرم ، لأنه يشبه العبادة ، فهذا جهل مطبق لا يصدر من فقيه عالم يتصدى لاستنباط الأحكام .

كيف والصلاة تشتمل على أركان كثيرة كالقعود ، وقراءة القرآن والتشهد ، والصلاة على النبي — ﷺ — في بعض الأقوال — كما هو مذهب الإمام الشافعي — فهل يقول أحد : إن الجلوس بين يدي العالم حرام لأنه ركن من أركان الصلاة ؟ وإن الصلاة — على النبي عليه السلام — حرام في حضرة الناس لأنها ركن من أركان الصلاة ؟

وقياس القيام على الركوع والسجود في الحرمه ، قياس مع الفارق ، وهو قياس باطل ، لأن الركوع والسجود لا يجوز لغير الله كما قال — عليه السلام — : ( لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها )<sup>(١)</sup> وقد ورد في تحريمه النص القاطع ، أما القيام ، والقعود ، والإضطجاع ، فليس من هذا القبيل ، وكفانا الله شر الجهل ، وحماته المتطفلين على العلم والعلماء .

— الحكم الرابع : هل الصدقة عند مناجاة الرسول — ﷺ — واجبة ؟  
اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ؟ فقال بعضهم : إن الأمر للوجوب ، ويؤيد هذا قوله — تعالى — في آخر الآية : ﴿ فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ومثل هذا لا يقال إلا في الواجبات التي لا يصح تركها .

وقال آخرون : إن الأمر للندب والاستحباب ، وذلك لأن الله تعالى قال في الآية : ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهرة ، وهو إنما يستعمل في التطوع دون الفرض .

ومن جهة أخرى : فإن الله تعالى قال في الآية التي بعد هذه مباشرة : ﴿ أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ؟ ﴾ وهذا يزيل ما في الأمر الأول من احتمال الوجوب ، ويبقى الأمر للندب .

واتفق العلماء على أن الآية منسوخة بنسخها الآية التي بعدها : ﴿ أشفقتم أن تقدموا ﴾ وقد اختلفوا في مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقيل : بقي التكليف عشرة أيام ثم نسخ ، وقيل : ما بقي إلا ساعة من النهار ثم نسخ .

(١) الحديث في سنن الترمذی ج ٣ ص ٤٦٥ كتاب الرضاع . باب ما جاء في حق الزوج على المرأة . رقم ١١٥٩ . وقال

الترمذی : هذا حديث حسن

وقد روى عن علي — كرم الله وجهه — أنه قال : ( إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان لى دينار ، فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت الرسول ﷺ — قدمت بين يدي نجواى درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد )<sup>(١)</sup> .

قال القرطبي : ( وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن علي — رضى الله عنه — ضعيف ، لأن الله — تعالى — قال : ﴿ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشيء ، والله أعلم ) .

## ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- أولاً : وجوب التوسعة في المجلس للقادم لأنها من مكارم الأخلاق .
- ثانياً : التوسعة للمؤمن في المجلس سبب لرحمة الله — عز وجل — وطريق لرضوانه .
- ثالثاً : الرفعة عند الله والعزة والكرامة إنما تكون بالعلم والإيمان .
- رابعاً : وجوب تعظيم الرسول ﷺ — وعدم الإثقال عليه في المناجاة .
- خامساً : تقديم الصدقة قبل المناجاة مظهر من مظاهر تكريم الرسول ﷺ — .
- سادساً : نسخ الأحكام الشرعية لمصلحة البشر تخفيف من الله — تعالى — على عباده .
- سابعاً : الصلاة والزكاة أعظم أركان الإسلام ولهذا قرن القرآن الكريم بينهما في كثير من الآيات .

## حزب الشيطان

قال تعالى :

\* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧﴾ لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ

لَهُمْ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ سَتَحَوِّدَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ  
فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَّا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ  
الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذْلَىٰ ﴿٢٠﴾

### معاني المفردات

• ألم تر : أى : أخبرنى ، وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب ،  
والمراد من الذين تولوا : المنافقون ، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ،  
وغضب الله : سخطه والطرده من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أى : لأنهم مذنبون ، على الكذب :  
أى : على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى وقاية وستراً على المؤاخذة ، على شىء : أى : من جلب  
منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشىء : حواه وأحاط به ، قال المبرد : ويقال : حاوزت الإبل ،  
وحزتها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذياً نسيج وحده : أى : سائساً ضابطاً  
للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى : لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب  
الشیطان : جنوده وأتباعه ، يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلى : أى : فى جملة أذل خلق الله ،  
لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله ﷺ — كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول  
الله ﷺ — لتلقى الدين عنه والإهداء بهديه حتى كان يضيق بهم المجلس ، فأمرُوا أن يتوسعوا  
ولا يتضاموا ، ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون  
لهم عليهم ، وإذا لاقوا المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم تؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم  
كاذبون فى كل ما يقولون ، وقد جعلوا الإيمان وقاية لستر ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا خلال  
ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ، ويذكرون لهم ما ييغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء  
عذاباً شديداً يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد فى الدنيا لن يغنى عنهم شيئاً حينئذ ؛ ثم ذكر  
أن الذى جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم  
عذاب اليوم الآخر ؛ ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح فى شىء ، وسيرد

الله عليهم كيدهم في نخورهم ، ويحيط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون . وبعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يخلفون كذباً إنهم مؤمنون ، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذي حملهم على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب لله من تعظيم . والإيمان باليوم الآخر . ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم باعوا الباقي بالفاني ، والزائل الذي لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً ، بين هنا سبب خسرائهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمره ، فكتب عليهم الذلة في الدنيا والآخرة .

### أضواء كاشفة

انظر يا من يتأتى منه النظر — متعجباً — إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم اليهود وقد تولاهم المنافقون يسرون اليهم بالمودة ، ويخلفون لهم إنهم لمعكم ، ويعلم الله إن المنافقين لكاذبون ، كيف يتولون قوماً غضب الله عليهم ؟ حالة كونهم ما هم منكم ، ولا منهم أى : هؤلاء الذين تولوا اليهود ليسوا من المؤمنين الخالص ، ولا من الكافرين الخالص بل هم مذنبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

روى أن هذه الآية نزلت في عبد الله بن نبتل ، المنافق — وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية — وكان يجالس النبي ﷺ — ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فيبينا نحن جلوس مع النبي في إحدى حجراته إذ قال : « يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعيني شيطان »<sup>(١)</sup> فدخل عبد الله بن نبتل ، فقال النبي له : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبي : « فعلت » فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت الآية ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ ويخلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ نعم ، حلفوا بالله أيماناً فاجرة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وتلك هي اليمين الغموس .

هؤلاء أعد الله لهم عذاباً شديداً ، وهو الدرك الأسفل من جهنم ، إنهم بثس العمل عملهم ، هؤلاء اتخذوا أيمانهم الفاجرة الكاذبة جنة ووقاية لهم حتى أمنوا القتل ، وفي قراءة : « إيمانهم ، أى : الظاهري كان وقاية لهم من القتل ، فصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وهو جهادهم بقتلهم وأخذ أموالهم ، وقيل صدهم عن سبيل الله بإلقاء الأراجيف وتثييط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم من القتل ، وقد كان المنافقون كذلك ، ويترتب عليه أن لهم عذاباً ذا إهانة في الدنيا والآخرة ، لن تنفعهم أموالهم التي جمعوها ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ، ولن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً من الإغناء ، وكيف تنفعهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ؟ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

(١) انظر تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٣٠٤

— انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٧٨ ط / الشعب

اذكر يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له أنهم مؤمنون ، وما علموا أن ذلك لا ينفعهم أبداً ، ولا يليق بعاقل أبداً ، يحلفون لله كما يحلفون لكم ، يحسبون أنهم على شيء من منفعة بسبب يمينهم ، ألا إنهم هم الكاذبون المبالغون في الكذب ، حيث كذبوا بين يدي علام الغيوب يوم القيامة في الحال التي يؤمن فيها الفاجر ، فلا عجب إذ يحلفون لكم الآن ، ولسائل أن يسأل عن السبب في هذا ، والجواب أنه : استحوذ عليهم الشيطان فملك عنانهم ، وغلب على عقولهم حتى اتبعوه بلا عقل ولا روية ، وهذا هو سبب كذبهم وضلالهم السابق ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . حتى نسوا أنفسهم فتركوها ترتكب الآثام والأباطيل أولئك — والإشارة لبعدهم في الغواية والبهتان — حزب الشيطان وجماعته المتجمعون على الإثم والعدوان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون وأي خسارة بعد هذا ؟

إن الذين يخادون الله ورسوله بمخالفة أمره ، واتباع الشيطان ، أولئك في عداد الأذلين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ . هذا إخبار من الله — تبارك وتعالى — عن المنافقين الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء . وهؤلاء المنافقون في الحقيقة ليسوا من المؤمنين ولا من اليهود والنصارى . إنما هم كما قال — تعالى — : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١)

وكما قال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا . بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا . الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا . مَذْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ (١) .

وما أعظم قول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ . وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأُصْبِحُوا خَاسِرِينَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ . قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُونَ مَنْ لَا أَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ . قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ . وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنُوا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ، وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتِ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ (٢) ۝ وَلَا يَنْهَاهُمْ

(١) سورة النساء الآيات ١٣٧ - ١٤٦

(٢) سورة المائدة الآيات ٥١ - ٥٨



الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴿١﴾

ثم قال تعالى منكرأ على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن وهم في نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ (٢) وقال ههنا : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعنى اليهود الذين كان المنافقون يماثلونهم ويوالونهم في الباطن . ثم قال تعالى : ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود .

ثم قال تعالى : ﴿ ويخلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعنى المنافقين يخلفون على الكذب وهم علمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهى اليمين الغموس ولا سيما في مثل حالهم اللعين عياداً بالله منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون . وهم في ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان في نفس الأمر مطابقاً ولهذا شهد الله بكذبهم في أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى : ﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهى موالة الكافرين ونصحهم ومعاودة المؤمنين وغشهم ولهذا قال تعالى : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أى : أظهروا الإيمان فأبطنوا الكفر واتقوا بالإيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٩ — ٦٦

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٣

سبيل الله لبعض الناس ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أى : فى مقابلة ما امتنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الخائنة . ثم قال تعالى : ﴿ لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم . ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحداً ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أى : يحلفون بالله — عز وجل — أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا — يحلفون للناس فى الدنيا لأن من عاش على شيء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم — عز وجل — ثم قال تعالى منكراً عليهم حسابهم : ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : أن النبى — ﷺ — كان فى ظل حجره من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل . قال : « إنه سيأتىكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله — ﷺ — فكلمه فقال : « علام تشمنى أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم . قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له . واعتذروا إليه قال فأنزل الله عز وجل : ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ (١) .

وحال هؤلاء كما أخبر الله — تعالى — عن المشركين فى قوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون ﴾ (٢) . ثم قال تعالى : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله — عز وجل — وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو داود بسنده عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فاعلمك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » (٣) . قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة .. ثم قال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ يعنى الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال تعالى : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

(١) مسند أحمد ١ / ٢٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٥٠ .

(٢) سورة الأنعام الآيات ٢٢ — ٢٤ .

(٣) سنن أبى داود — كتاب الصلاة — باب فى التشديد فى ترك الجماعة ١ / ٣٧١ رقم ٥٤٧ .

ثم يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعنى الذين هم فى حد والشرع فى حد أى مجانبون للحق مشاقون له هم فى ناحية والهدى فى ناحية : ﴿ أولئك فى الأذلين ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين فى الدنيا والآخرة .

## النفاق والمنافقون

إن المؤمنين فى العهد المكى كانوا مبتلين ، يعذبون ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة ولم يكن هناك « منافقون » لأن النفاق طبيعة المراوغة والاحتياى وهذا الدين لم يكن يقدر عليه فى مكة إلا المؤمنون الصادقون أما فى المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبابة ، التى تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وابتنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم فى الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم فى درجات النار ، لأن الطائفتين اشتركا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفر المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ ٤ المنافقون .

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يرد هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم للمسلمين ظاهراً ، وموالاتهم له ومخالطتهم إياهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم — وهم فى الباطن على خلاف دينهم — أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينتضى ويعقبه النصر والظفر ، أما هؤلاء فمعهم فى الديار والمنازل صباحاً ومساءً ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم .. صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علفت به كلاليب كلهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له بمقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبة القهقري إداراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله - سبحانه وتعالى - على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامي ، ويؤدي أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفي المتسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على الملك أو أوى مأرب من ماربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحق والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونونهم في أخرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الإبتلاء والإمتحان قال تعالى : ﴿ أَلَمْ أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتَرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ١ - ٣ العنكبوت ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُرَكَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيَحْصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ ١٤٠ - ١٤١ آل عمران ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أجل : إنه لا بد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فلا ابتلاء سنة ربانية عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، فله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال .. لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه .

والحديث عن المنافقين طويل وطويل والحديث هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين في كيدهم للدعوة الإسلامية .

(١) من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن في

عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ » ١١ - ١٢ الحشر

• وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُم مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ١٤ المجادلة

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت في عبد الله بن أبي وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبي ﷺ — ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مَذْبُذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾ ١٤٣ النساء

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة « المنافقون » بين الله فيها أنهم يظهرون مالا يبتغون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ٧ المنافقون .

وفيهما أيضاً :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة والرسول والمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ٨ . المنافقون .

روى البخارى ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ — : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبي فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال — ﷺ — « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (١) .

قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان عن أبيه أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله : إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرفى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالديه منى ، إني أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » (١) .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يملكون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك وبلك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكان إنما يسير ساقه — « من صفته — صلى الله عليه وسلم — أنه يسوق أصحابه أى يقدمهم ويمشى خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشى خلفه » فشكى له عبد الله بن أبي ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : أما إذا أذن لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجز الآن (٢) .

وحقاً إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرفى به فأنا أحمل إليك رأسه . إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

(٢) من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ — ٦٣ النساء

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٦ سورة المنافقون آية ٨

(٢) تفسير ابن كثير — طبعة الشعب . سورة المنافقون آية ٨٨ / ١٥٩

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين .  
 وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين .  
 أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ — ٥٠ النور

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً في هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : سمعت وأطعت ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

هذه هي صفة المؤمن ، أما المنافق فصفتة الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل في صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم :

﴿ الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حيث رجع ثلث الجيش برعامة ابن أبي . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفي موالاتهم للكفار يقول الله في شأنهم :

﴿ أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ ١٣٨ — ١٣٩ النساء .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ومنتعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ ١٤١ النساء .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل اقعدها مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنه وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتى ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لم تحيطه بالكافرين . إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴿ ٤٥ — ٥٠ التوبة .

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جبناء ، مخذلون ، ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً :

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنتك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ٨٦ — ٨٧ التوبة .

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله ﷺ — أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم يعرفون بلحن القول ﴿ ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ٣٠ محمد .

## حزب الله

قال الله تعالى :

كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ ٢١ ﴾ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ



## معاني المفردات

كتب الله : أى قضى وحكم ، لأغلبين : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قواهم ، بروح منه : أى بنور يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما حكم الله تعالى على المنافقين بالخسران وحكم على الذين يحادون الله ورسوله بأنهم فى الأذلين ، قضى قضاءً لا يتغير بأن الغلبة والنصر له سبحانه ولرسله الكرام وأن الذلة لأعدائه ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاته أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخواناً أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم العزة ، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصروه دينه ، وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة فى الدارين ، كما قال : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصَرُوا لِلَّهِ يَنصِرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ (١) 》 .

## أضواء كاشفة

إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما سبب ذلك ؟ الجواب : كتب الله لأغلبين أنا ورسلى أى قدر وأراد إرادة مؤكدة كأنه أقسم عليها ، ولذا جاء الجواب باللام المؤكدة فى قوله : لأغلبين أنا ورسلى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ۝ (٢) 》 ولا غرابة إن ربك لقوى قادر عزيز غالب . لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله حقاً إيماناً كاملاً ، يوادون من حاد الله ورسوله بقلوبهم مخلصين ، والغرض من هذا الأسلوب بيان أنه لا ينبغي أن يجتمع فى قلب واحد إيمان كامل مع موادة الكفار ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال ، وهذا مبالغة فى النهى عنه والزجر عن سلوك طريقه ، والنهى عنه الإخلاص القلبى للكافر ، ولو كان أباً أو ابناً أو أخاً أو من العشيرة ، وقد كان الصحابة لا يفضلون على حب الله ورسوله شيئاً بل بعضهم قتل وصفع وأهان بعض أقاربه فى سبيل الله ، أولئك الممثلون أمر الله ، الذين يجدون حلاوة الإيمان فى حب الله ورسوله . وهم بالطبع لا يوادون أعداء الله وأعداء الإسلام والقرآن ، أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان وثبته ، وأيدهم بروح من عنده ، وأثار قلوبهم للحق فاعتنقوه ،

(١) سورة محمد الآية : ٧

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧١ — ١٧٣

وسيدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الرحمن المختصون بالقرآن ، ألا إن حزب الله هم المفلحون وحدهم ، وأى فلاح بعد ذلك ؟ ! !

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أى : قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصر له وكتابته ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار ﴾ <sup>(١)</sup> وقال ههنا : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوى عزيز ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبهر أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أى لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ﴾ <sup>(٢)</sup> . الآية . وقال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ إلى آخرها ، فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة — رضى الله عنهم — ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ نزلت فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ أو أبناءهم ﴾ بن السديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ أو إخوانهم ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ أو عشيرتهم ﴾ فى عمر قتل قريباً له يومئذ فאלله أعلم .

(١) سورة عامر الآيتان : ٥١ — ٥٢

(٢) سورة آل عمران الآية : ٢٨

(٣) سورة التوبة الآية : ٢٤

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ﷺ - المسلمين في أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنوا العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ، هل تمكنى من فلان . قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست في قلوبنا مادة للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ أى : من اتصف أنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله في قلبه الإيمان أى كتب له السعادة وقررها في قلبه وزين الإيمان في بصيرته . قال السدى : ( كتب في قلوبهم الإيمان ) جعل في قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : ( وأيدهم بروح منه ) أى : قواهم وقوله تعالى : ﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ هذا جزاؤهم عند الله فالكريم إذا وعد وفى وأنجز إذا أوعد فهو بالخيار إن شاء عفا وإن شاء عاقب .

فليتك تحلو والحياة مريرة	وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر	وبينى وبين العالمين خراب
إذا صبح منك الود فالكل هين	وكل الذى فوق التراب تراب

سبحانك أنت القائل : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً وهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ وأنت القائل : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (١) .

رضاك خير من الدنيا وما فيها	يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها	سوى رضاك فذا أقصى أمانها
فنظرة منك ياسولى ويا أملى	خير إلى من الدنيا وما فيها

سمع أحد الصالحين رجلاً في مجلسه يقول : اللهم ارض عني ، فقال له : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك . قال الرجل : وكيف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم تسر بالنعمة شرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

ما مسنى قدر بكرة أو رضى  
إلا اهتديت به إليك طريقاً  
أمضى القضاء على الرضا منى به  
إني عرفتك في البلاء رفيقاً

إلهى : — شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولحمة من غضبك تزهد الروح ولو  
انغمست في نعيم الدنيا .

أنا لا أضام وفي رحابك عزى  
أنا لا أخاف وفي رضاك أمانى  
يازب حبك فى دمي وكيانى  
نور أغر يذوب فى وجدانى

أستحي أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت إن كانت ذنوبى لها حد وغاية ، فإن  
عفوك لا حد له ولا نهاية .

فعلنا خطايانا وسترك مسبل  
وليس لشيء أنت ساتره كشف  
إذا نحن لم نخطيء وتعفو تكرمأ  
فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

يارب : — إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ ورحمتى  
وسعت كل شيء ﴾ وأنا شيء فلتسعن رحمتك .

يا بارى الكون فى عز وتمكين  
وكل أمر جرى بالكاف والنون  
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى  
لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

قوله تعالى : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ أى : هؤلاء حزب الله أى عباد  
الله وأهل كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم فى الدنيا  
والآخرة فى مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم  
الخاسرون ﴾ . وقد قال ابنى حاتم بسنده كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : اعلم أن الجاه جاهان ، جاه  
يجريه الله تعالى على أيدي أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم  
على لسان رسول الله ﷺ — « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا

حضرُوا لم يدعُوا ، قلوبهم مصايح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة « فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله فيهم : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (١) »

وقال نعيم بن حماد بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ — « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندي يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيته إلى » . ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾ . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . رواه أبو أحمد العسكري (٢) .

### قضية ذات أهمية بالغة

بعد الحديث عن حزب الله وحزب الشيطان ، أرى لزماً على كل مسلم أن يقف طويلاً طويلاً أمام تلك القضية التي يجب على كل مسلم أن يعلمها ويعمل بمقتضاها ويدرك مبناها ومعناها ويقف على حقيقة مرماها ومغزاها . وهذه القضية تدور حول سؤالين : لمن يكون الولاء ؟ ومن يكون البراء ؟

وعندما نتحدث عن هذه القضية نبدأ حديثنا بقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣)

وقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ (٤) .

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك

(١) سند ابن ماجه — كتاب الفتن — باب من ترجى له السلامة من الفتن ٢ / ١٣٢٠ رقم ٣٩٨٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب . سورة المجادلة . آية ٨٠ / ٨٢٢

(٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٤) سورة الممتحنة الآيتان : ١ ، ٢

نسعى ونحفر ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فلمن يكون الولاء ومن يكون البراء ؛ وتحت هذين السؤالين تندرج بحوث كثيرة نسأل الله تعالى أن يلهمنا العمل بما نعلم كما نسأله أن يبيصرنا بعيوبنا .

قال الشيخ : محمد بن سعيد بن سالم في هذه القضية التي بين أيدينا :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدى ومن يضل الله فلن تجد له ولياً مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ — وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهذاه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد :

فإنه من رحمة الله — سبحانه وتعالى — وعظيم لطفه بخلقه : أن جعل الرسالة المحمدية هي خاتمة الرسالات السماوية وجعلها سبجانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . وكتب تبارك اسمه وتعالى جلده السعادة في الدارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدرها حق قدرها وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدى نبي الله - ﷺ - وسماهم أولياء الله وحزبه ، وكتب عز وجل الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم سماهم أولياء الشيطان وجنده .

وأصل هذه الرسالة الخالدة : كلمة التوحيد ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) .

هذه الكلمة العظيمة — كما يقول ابن القيم : — « التي لأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار وأسست الملة ولأجلها جردت السيوف للجهاد وهي حق الله على جميع العباد » وحقيقة هذه الكلمة : « مركبة من معرفة ما جاء به الرسول — ﷺ — علماً ، والتصديق به عقداً ، والاقرار به لفظاً والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان وكأله في الحب في الله والبغض في الله والمنع في الله وأن يكون الله وحده إله ومعبوده والطريق إليه : تجريد متابعة رسوله — ﷺ — ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله . هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله ، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع : الولاء والبراء .

ولئن كان هذا المفهوم العقدي الهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئاً .

ذلك أن الولاء والبراء : هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعي لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم في حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة .

ولن تتحقق كلمة التوحيد في الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء والبراء ممن يستحق البراء .

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدي الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك . إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى : —

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (١) .

وقال جل جلاله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢)

وقد قال أحد العلماء — وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله — « إنه ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم — أى الولاء والبراء — بعد وجوب التوحيد وتحريمه ضده » ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهرًا طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة الغراء في ربوع المعمورة وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ثم ما الذى حدث ؟ لقد تفهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذنان اللهو .

تراجعت بعد أن زهدت في الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام .

تبعث الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجنون .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٢) سورة المائدة الآية : ٥١

تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافي بالفلسفات الجاهلية والمهرطقة البشرية .

دخلت هذه الأمة في طاعة الكافرين واطمأنت إليهم ، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة .

وبرزت صور موالاة الكفار في أمور شتى منها : —

(١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله ، وتنمية شريعة الله عن الحكم في الأرض ورميها بالقصور والجمود وعدم مسابقة العصر ومواكبة التقدم الحضارى .

(٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة — شرقية كانت أم غربية — وإحلالها محل شريعة الله الغراء وغمز كل مسلم يظالب بشرع الله ب : التعصب والرجعية والتخلف .

(٣) ومنها : التشكيك في سنة رسول الله ﷺ — والطعن في دواوينها الكريمة والخط من قدر أولئك الرجال الأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا .

(٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة في حياة المسلمين ذلك مثل دعوة القومية الطورانية والقومية العربية والقومية الهندية .. و .. الخ .

(٥) إفساد المجتمعات الإسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم وبث سموم الغزو الفكرى في المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها .

وأمام هذه الصبورة وغيرها من الصور الكثيرة تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية يدعمها الدليل من الكتاب والسنة والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام ومن هذه الأسئلة : لمن ينتمى المسلم ؟ ولمن يكون ولاؤه ؟ ومن يكون براؤه ؟ ما حكم تولى الكفار ونصرتهم ؟ وما حكم الإسلام في المذاهب الفكرية التى يروج لها المستغفلون أو الخاقدون من أبناء أمتنا ومن ينطقون بألسنتنا ؟

كيف ينبغي أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم في مشارق الأرض ومغاربها حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر ؟



ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذى خلعتهم عليهم المدنية الأجنبية ؟ يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس .

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء أما كونها توحيد ألوهية وعبادة : فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير — إلا من رحمه الله — ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال : « إن الانسان لا يستقيم له إسلام ولا وحدانية وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى في سورة المجادلة : —

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

لما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية ، ثم عرفوا الإسلام خرجوا — نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة .

ترى ما سر تلك العظمة التى نقرأ عنها ونسمع وكأنها شبه أحلام نظراً للهوة السحيقة التى وصلنا إليها ؟ ذلك الجيل الذى كان الواحد منهم إذا دخل فى الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية وانتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق وتصور ومفاهيم كليلية وعبودية للمال والعبيد إلى حياة رحبة فسيحة وعالم يملؤه نور الله وتصور كامل شامل ، واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله — عز وجل —

إن سر ذلك النجاح وتلك العظمة هو نقطة البدء التى بدأ بها رسول الله — ﷺ — وهى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » هذه الكلمة التى مزقت كل رابطة ، وأهدرت كل وشيمة إلا وشمة العقيدة . رابطة الحب فى الله ، رابطة المؤاخاة الإيمانية التى يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون .

ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال « قال رسول الله — ﷺ — « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى . اليوم أظلمهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » (١) .

وعن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : قال النبي — ﷺ — « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يا رسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »<sup>(١)</sup> وقرأ هذه الآية : —

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>

ولقد مكث رسول الله — ﷺ — بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها في نفوس العصابة المسلمة مما جعل آثار ذلك تنعكس في أفعالهم الحميدة وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله في الأرض حين قامت دولة المصطفى في المدينة المنورة . إن الذى يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية ومفهومها الصحيح الذى جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم وبيانها للناس . بعد أن انحرف الناس — إلا من رحمهم الله — عن العقيدة الصافية التى جاء بها الرسول — ﷺ —

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعى وتدبر لمعناها ولوازمها ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد ، دون نظر لكامل النصوص في هذه القضية ، ودون رجوع إلى بيان ذلك في كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة .

ومسح أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج .

أما النظام الذى تقوم عليه الحياة . أما الولاء لمن يكون ؟ والبراء ممن يكون ؟ أما الحب لمن ؟ والبغض لمن ؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم ! !

إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوية فحسب . وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته . وتأمل — كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — « وحال رسول الله — ﷺ — لما قام ينذر المشركين من الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد لم يكرهوا واستحسنوا وحدثوا

(١) سنن أبى داود — كتاب البيوع والإجازات — باب فى الرهن ٣ / ٧٩٩ رقم ٣٥٢٧

(٢) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣

أنفسهم بالدخول فيه إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحيث شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، وقالوا : سفه أحلامنا وعاب ديننا وشم آهتنا ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر أنهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً .

فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام — ولو وحد الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغض ، كما قال تعالى في سورة المجادلة : —

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ .

فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدين لا يعرفونها — أى لا إله إلا الله — وإلا فما الذى حمل المسلمين على الصبر على ذلك : العذاب والأسر والضرب والهجرة للحبشة مع أنه — ﷺ — أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم .

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة « لا إله إلا الله » فلا بد من الشرح لها والبيان لدلولها وحقيقتها وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً .

ومن الله نستمد العون والسداد .

## كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وبذلك تنفى الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية — رحمه الله — : « ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا يمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » وهى ملة إبراهيم الخليل — عليه السلام — وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم : أجمعين أما شقها الثانى « محمد رسول الله » فمعناه تجريد متابعتة فيما أمر والانتهاة عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت « لا إله إلا الله » ولاء وبراء نفيًا وإثباتًا . ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين . وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾<sup>(١)</sup>

وفي هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية . يعنى الآية السابقة .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله .

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها ﴾<sup>(٣)</sup>

وبراء من حكم الجاهلية : —

﴿ أفحكم الجاهلية يغنون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وبراء من كل دين غير دين الإسلام : —

﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾<sup>(٥)</sup> .

ثم هي نفى وإثبات تنفى أربعة أمور . وثبتت أربعة أمور : —

« تنفى : الآلهة ، والطواغيت والأنداد والأرباب .

فالآلهة : ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر أنت متخذة إلهاً .

والطواغيت : من عبد وهو راض أو رشح للعبادة .

والأنداد : ما حزبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال . فهو ند لقوله

تعالى : —

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾<sup>(٦)</sup>

والأرباب : من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اتخذوا أجبازهم ورجانهم أرباباً

من دون الله ﴾<sup>(٧)</sup> .

وثبتت أربعة أمور : —

التعبد : وهو كونك ما تقصد إلا الله .

والتعظيم والمحبة : لقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾<sup>(٨)</sup> والخوف والرجاء : لقوله تعالى :

(٥) سورة آل عمران الآية : ٨٥

(٦) سورة البقرة الآية : ١٦٥

(٧) سورة التوبة الآية : ٣١

(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢

(٣) سورة الروم الآية : ٣٠

(٤) سورة المائدة الآية : ٥٠

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بَضْرًا فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل كما أخبر تعالى عن إبراهيم — عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام — بتكسير الأصنام وتبريه من قومه : —

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ (٢) .

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبنى معنى لا إله إلا الله بنفى الشرك وتوابعه ، ويقرر الإخلاص وشرائعه ، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمناً وإما التزاماً يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى والتقوى : — أن يتقى سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي وإخلاص العبادة لله واتباع أمره على ما شرعه . كما قال ابن مسعود — رضى الله عنه — « أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » .

أما كيف تم لأصحاب رسول الله — ﷺ — معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينة : حدث محمد بن عبد الملك المصيصي قال : كنا عند سفيان بن عيينة في سبعين ومائة فسأله رجل عن الإيمان ؟ فقال : قول وعمل قال : يزيد وينقص ؟ قال : يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه وأشار سفيان بيده . قال الرجل : كيف نصنع نقوم عندما يزعمون : أن الإيمان قول بلا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده .

إن الله — عز وجل — بعث نبينا محمداً — ﷺ — إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأنه رسول . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله — عز وجل — فلم علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالصلاة فأمرهم بفعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم .

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سورة المتحنة الآية : ٤

فلما علم الله — جل وعلا — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم فأمرهم ففعلوا ، حتى أتى أحدهم برأس أبيه فقال : يا رسول الله : هذا رأس شيخ الكافرين ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبداً وأن يحلقوا رؤوسهم تذلاً ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم فلما علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم ، فلما علم الله — تبارك وتعالى — الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ قال سفيان : فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها ، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً . هكذا السنة أبلغها عنى من سألك من الناس وقد ذكر العلماء — رحمهم الله — شروطاً سبعة لـ « لا إله إلا الله » لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه وإليك شرحها : —

## شروط « لا إله إلا الله »

ينبغي أن نعلم أنه « ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها فكم من عامى اجمعت فيه والتزمها ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم ، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله » .

وقد قال وهب بن منبه لمن سألته : أليس « لا إله إلا الله » مفتاح الجنة ؟ قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك . وأسنان هذا المفتاح هي شروط « لا إله إلا الله » الآتية : —

### الشرط الأول : —

العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا المنافي للجهل بذلك قال تعالى :

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾<sup>(١)</sup>

وقال ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾<sup>(٢)</sup>

أى : بلا إله إلا الله ﴿ وهم يعملون ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : —

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾<sup>(٣)</sup> .

وفى الصحيح عن عثمان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »<sup>(٤)</sup> .

### الشرط الثانى : —

اليقين المنافى للشك . ومعنى ذلك : أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة ، يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾<sup>(٥)</sup>

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »<sup>(٦)</sup>

وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة »<sup>(٧)</sup> وعن أبى هريرة أيضاً من حديث طويل « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة »<sup>(٨)</sup> وقال القرطبى : — فى « الفهم على صحيح مسلم » باب لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان وأحاديث هذا الباب تدل على فساد مذهب بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً .

(١) سورة محمد الآية : ١٩

(٢) سورة الزخرف الآية : ٨٦

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨

(٤) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٥ رقم ٤٣

(٥) سورة الحجرات الآية : ١٥

(٦) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٦ رقم ٤٤

(٧) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٧ رقم ٤٥

(٨) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٩ رقم ٥٢

الشرط الثالث : —

القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه وقد قص الله — عز وجل — علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأبأها كما قال تعالى : —  
﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أولو جئكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلكم به كافرون فانقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾<sup>(١)</sup>

وقال تعالى : —

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup>

ويقول تعالى : —

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أنا لئاركوا إلهتنا لشاعر مجنون ﴾<sup>(٣)</sup> .

الشرط الرابع : —

الانقياد لما دلت عليه ، المنافي لترك ذلك .

قال تعالى : ﴿ وأنبئوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾<sup>(٤)</sup>

وقال : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾<sup>(٥)</sup>

وقال : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾<sup>(٦)</sup> .

وفي الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »<sup>(٧)</sup> هذا هو تمام الانقياد وغايته .

وقال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾<sup>(٨)</sup>

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٣ — ٢٥

(٢) سورة يونس الآية : ١٠٣

(٣) سورة الصافات : الآيتان : ٢٦ — ٢٧

(٤) سورة الزمر الآية : ٥٤

(٥) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٢

(٧) شرح السنة للإمام النبوى ١ / ٢١٣ رقم ١٠٤

(٨) سورة النساء الآية : ٦٥



قال ابن كثير — رحمه الله — في تفسيرها : يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول في جميع الأمور فما حكّم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أى : إذا حكموك بطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ويتقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة كما ورد في الحديث « والذي نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

#### الشرط الخامس : —

الصدق المنافي للكذب وهو أن يقولها صدقاً من قلب يواطئ قلبه لسانه قال تعالى : —  
﴿ ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (١)

#### وقال تعالى : —

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ (٢) .

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — [ ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار ] (٣) .

قال العلامة ابن القيم : « والتصديق بلا إله إلا الله يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامثال أوامره واجتناب نواهيه فالمصدق بها على الحقيقة هو الذى يأتى بذلك كله ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقوقها وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقوقها »

(١) سورة النكبات الآيات : ١ — ٣

(٢) سورة البقرة الآيات : ٨ — ١٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ٢٠

وفي الحديث : قال — ﷺ — : [ شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه ]<sup>(١)</sup> .

وقال ابن رجب : « أما من قال : لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله وقوله ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى . ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾<sup>(٣)</sup> .

الشرط السادس : —

الإخلاص وهو تصفية العمل بصالح النية من جميع شوائب الشرك قال تعالى : — ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : — ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾<sup>(٥)</sup> .

وفي الصحيح عن أنى هريرة عن النبي — ﷺ — « قال أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه »<sup>(٦)</sup>

وفي الصحيح عن عتيان بن مالك — رضى الله عنه — عن النبي — ﷺ — قال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله — عز وجل — »<sup>(٧)</sup> .

وللنسائي في اليوم واللييلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبي — ﷺ — قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مخلصاً بها قلبه ، يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله »<sup>(٨)</sup> .

(١) مسند أحمد ٢ / ٣٠٧

(٢) سورة القصص الآية : ٥٠

(٣) سورة ص الآية : ٢٦

(٤) سورة الزمر الآية : ٣

(٥) سورة البينة الآية : ٥

(٦) صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب صفحة الجنة والنار ٨ / ١٤٦

(٧) صحيح البخارى — كتاب الصلاة — باب المساجد بيوت الله ١ / ١١٦

(٨) عمل اليوم واللييلة للنسائي صفحة ٢٨ رقم ٢٨

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : « إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة . ولقد ضرب الله سبحانه في القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص في توحيدهِ وللمشرك قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾ (١)

ويقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — في تفسيرها : « هذا مثل يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة . وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح « هل يستويان » ؟ لا . لأن الذي يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق والذي يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل لا يستقر على حال ، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع . وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده » .

ويقول الشيخ القاسمي — رحمه الله — : « إن القصد هو توحيد المعبود في توحيد الوجهة ودرء الفرقة كما قال تعالى :

﴿ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ (٢)

إن الاسلام لا بد فيه من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾

الشرط السابع : —

الحجة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها وبغض ما ناقص ذلك ، قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يأيا الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ﴾

(١) سورة الزمر الآية : ٢٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٣٩

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴿١﴾ .

وفي الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (٢)

قال الشيخ حافظ الحكمي — رحمه الله — : « علامة حب العبد ربه : تقديم محابه إن خالفت هواه وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه وموالاته من وإلى الله ورسوله . ومعاداة من عاداه واتباع رسوله — ﷺ — واقتفاء أثره وقبول هدايته » .

ويقول ابن القيم في القونية : —

شرط المحبة أن توافق من تحب	على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا	فك ما يجب فأنت ذوى بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعى	حبا له ماذاك في إمكان
وكذا تعادى جاهداً أحبابه	أين المحبة يأخا الشيطان
ليس العبادة غير توجيه المحبة	مع خضوع القلب والأركان

إلى أن يقول :

ولقد رأينا من فريق يدعى إلا سلام شركا ظاهرا البنيان  
جعلوا له شركاء والوهم وس وهم به في الحب لا السلطان

### « الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله »

« لما كان أصل الموالاتة : الحب . وأصل المعاداة : البغض . وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاتة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة والجهاد والهجرة ونحو ذلك »  
فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله . وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة .  
أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى :

(١) سورة المائدة الآية : ٥٤

(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان — باب حلاوة الإيمان ١٢ / ١

﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير ﴾ (١).

ويقول تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ (٢).

ويقول تباركت أسماؤه : عن أهداف أعداء الله : ﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله ﴾ (٣).

ويقول تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (٤).

ويقول تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ (٥).

أما الأحاديث والآثار : فكثيرة وأذكر منها : —

(١) ما رواه الامام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي أن رسول الله — ﷺ — بايعه على أن « تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر » (٦).

(٢) روى ابن شيبة بسنده قال : قال رسول الله — ﷺ — « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » (٧).

(٣) روى الطبراني في الكبير عن ابن عباس — رضي الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله » (٨).

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزي عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : « من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك وقد ضارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً »

(١) سورة آل عمران الآية : ٢٨

(٢) سورة آل عمران الآيات : ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) سورة المائدة الآية : ٥١

(٥) سورة المائدة الآية : ٥٤

(٦) مسند أحمد ٤ / ٣٥٧

(٧) مصنف ابن أبي شيبة — كتاب الإيمان ١١ / ٤١ رقم ١٠٤٧٠

(٨) الطبراني الكبير ١١ / ٢١٥ رقم ١١٥٣٧

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في شرح قول ابن عباس هذا : قوله « ووالى في الله » هذا بيان لل لازم المحبة في الله وهو الموالاة فيه ، إشارة إلى أنه لا يكفي في ذلك مجرد الحب بل لابدفع ذلك من الموالاة التي هي لازم الحب . وهي النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً . وقوله « وعادى في الله » هذا بيان لل لازم البغض في الله ، وهو المعاداة فيه . أى : إظهار العداوة بالفعل كلجهد لأعداء الله والبراء منهم والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفي مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى :

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براءؤ منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾<sup>(١)</sup>

قلت : وما سبق يتضح أن الولاء في الله هو : محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم . والبراء هو : بغض أعداء الله ومجاهدتهم وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بـ : ( أولياء الله ) والفريق الثاني بـ : ( أولياء الشيطان ) قال تعالى : —

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى :

﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾<sup>(٣)</sup> . وأعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾<sup>(٥)</sup> .

والواجب على المسلم أن يتكلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن : ﴿ كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ والعامى من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾<sup>(٦)</sup> .

(٤) سورة الأنعام الآية : ١١٢

(٥) سورة غافر الآية : ٨٣

(٦) سورة الصافات الآية : ١٧٣

(١) سورة الممتحنة الآية : ٤

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٧

(٣) سورة النساء الآية : ٧٦

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستغربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هي تجميع عقيدة المسلمين وتذويب شخصيتهم المتفردة لجعلهم جماً للشعب المختار كما تنص على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون . فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه بل يحذر المسلمون عامة من الانزلاق في مهاوى الروى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع

فبان بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم « لا إله إلا الله » وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — « أن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضى أن لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله ولا يوالى إلا الله ولا يعادى إلا الله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله » ويوالى المؤمنين فى أى مكان خلوا ويعادى الكافرين ولو كانوا أقرب قريب .

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح فى الأحاديث الواردة بخصوصها .

يقول العلامة ابن القيم — رحمه الله — : « ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه : لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شئ ومليكه كم كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحب وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبى — ﷺ — « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله » (١) .

وقوله : ﴿ يخرج من النار من قال لا إله إلا الله ﴾ (٢) .

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث ، التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنوا بعضهم

(١) صحيح البخارى — كتاب الجمعة — باب صلاة النوافل جماعة ٢ / ٧٥

(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان — باب زيادة الإيمان ونقصه ١ / ١٨

وصحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب أدنى أهل الجنة منزلة ١ / ١٨٢ رقم ٣٢٥

منسوخة وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال : المعنى لا يدخلها خالداً ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهه . فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلًا بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار .

بل لابد من قول القلب ، وقول اللسان .

وقول القلب : يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات ومعرفة حقيقة الإلهية المنفعية عن غير الله المختصة به التي يستحيل ثبوتها لغيره وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفةً و يقيناً وحالاً : ما يوجب تحريم قائلها على النار .

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفه ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر فتنتقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ولكن السر الذي ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات .

وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت ، لأن ذلك كان أمراً آخرًا ، وإيماناً آخر ولذلك الحق بأهل القرية الصالحة ، وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش ، يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلهة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها . وملء الماء في خفها ولم تعباً بتعرضها للتلف وحملها خفها بغيا وهو ملآن حتى أمكنها الرق من البشائر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها »

وقد ورد في صحيح مسلم قوله — ﷺ — « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله » (١) .

يقول محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلطف بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من



دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة : الدين يقولون : إن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وأخروا العمل عن الإيمان .

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبي ﷺ — من كلمة لا إله إلا الله فأبوا واستكبروا ولم يكن ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محي ميمت . ولما قال لهم النبي ﷺ — قولوا : لا إله إلا الله قالوا :

﴿ أجعل الألهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ ه سورة ص

« فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعى الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشيء من المعاني ، والحاذق من يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله ، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله . ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول : وهنا شبهة ، وهي قول من يقول : أن النبي ﷺ — أنكر على أسامة قتل من قال : « لا إله إلا الله وكذلك قوله — ﷺ — : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله » (١) . وأحاديث أخر في الكف عن قائلها .

ومراد هؤلاء الجهلة : أن من قائلها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل . فيقال لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله ﷺ — قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون : لا إله إلا الله « وأن أصحاب رسول الله ﷺ — قاتلوا بنى حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويدعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم على بن أبى طالب بالنار ( هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علي — رضى الله عنه — ) وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله ، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قائلها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذى هو أصل دين الرسل ورأسه ! ؟

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث . فمعلوم أن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول

عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتِينُوا ﴾ ٩٤ النساء أى فثبتوا . فدللت الآية على وجوب الكف حتى يثبت منه ، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى : ﴿ فَتِينُوا ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للثبوت معنى .

وأيضاً أمره — ﷺ — بقتل الخوارج ﴿ أَيْنَمَا لَقَيْتَهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ لَنَنْ أَدْرِكَهُمْ لِأَقْتُلَهُمْ قَتْلَ عَادٍ ﴾ (١) . مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسييحاً ، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم . وقد تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم « لا إله إلا الله » ولا كثرة العبادة ولا إدعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

ويعلم كل ذى لب أنها لو كانت كلمة — مجرد كلمة — لكان أمرها على قريش سهلاً فتنطقها وتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة . ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذى يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التى تحطم طغيان قريش واستعبادها للناس . ولها أهميتها فى تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هى الميزان والفخار الذى ينشده الناس ، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد .

فحرى بكل مسلم جاد فى إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبد الله على بصيرة وعلم ويقين .

## آثار الإقرار بلا إله إلا الله فى حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودى — رحمه الله — فى كتابه القيم « مبادئ الإسلام » تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلى :

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر ، بخلاف من يقول بآلهة متعددة . أو من يجحد .

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشئ فى النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شيء ، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ، وهو المحيى المميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه ، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . لأن الله هو العظيم القادر . وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ٦٣٩

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها : تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر ، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء . أما الملحد فإنه يتكبر وييطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

(٤) المؤمن بهذه الكلمة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح . أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة . فمنهم من يقول : إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا ، عند أبيه ، ومنهم من يقول : نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا . ومنهم من يقول : إننا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا ، ومنهم من يقدم النذور والقرايين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة في العمل بما يشاء . أما الملحد الذي لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر في هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما .

(٥) قائل هذه في الدنيا لا يتسرب إليه اليأس . ولا يقعد به القنوط ، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض . ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل ، حتى ولو طرد وأهين وضاعت عليه سبل العيش .

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، وهو يبذل جهده متوكلاً على الله ، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة ، وسرعان ما يدب له اليأس ، ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يفرضى بهم أحياناً إلى الانتحار .

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يرى الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حيناً يضطلع بمعالى الأمور ابتغاء مرضاة الله . إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض . فيكون قباته ورسوخه وصلابته التي يستمدّها من هذا التصور ، كالجبال الراسية وأبى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة ، لأن الذي يُجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان ، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين ، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعند ذلك يضحى في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده . وينزع الثانى بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده .

من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجراً ممن يؤمن بالله تعالى ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر فهذا كفر عمل . وكذلك قوله : (من

أنى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته في دبرها فقد برئ عما أنزل على محمد<sup>(١)</sup> وقوله : ( إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما<sup>(٢)</sup> ) .

« وقد سمي الله — سبحانه وتعالى — من عمل ببعض كتابه ، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنعم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ٨٤ — ٨٥ سورة البقرة .

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذي أمرهم به والتزموه ، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم في الكتاب . ثم أخبر أنهم يفدون من أسر من ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم في الكتاب ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه . « فالإيمان العملى يضاده الكفر العملى والإيمان الاعتقادى يضاده الكفر الاعتقادى . وقد أعلن النبى ﷺ — بما قلناه في قوله في الحديث الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر<sup>(٣)</sup> » ففرق بين قتاله وسبابه وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به . والآخر كفراً ومعلوم إنما أراد الكفر العملى لا الاعتقادى وهذا الكفر لا يخرج من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية كما لا يخرج الزانى والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان .

« وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا منهم فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقاً أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود في النار وفريقاً جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان فهؤلاء غلوا وهؤلاء حفوا . وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذى هو في المذاهب كالإسلام في الملل . فها هنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك . وفسوق دون فسوق ، وظلم دون

(١) سنن أبى داود — كتاب الطب — باب في الكاهن ٤ / ٢٢٥ رقم ٣٩٠٤ والترمذى في الطهارة رقم ١٣٥ وابن ماجه في

الطهارة رقم ٦٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر رقم ٣٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان قول النبى ﷺ — باب المسلم فسوق وقتاله كفر

ظلم . قال سفيان بن عيينة : عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

الرصاصات والقنابل فإنه عندما يتقدم في سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأن يمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين ؟

(٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويظهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم وغيرها من الصفحات القبيحة .

(٩) وأهم شيء وأجدره في هذا الصدد : أن الإيمان بـ « لا إله إلا الله » يجعل الإنسان متقيدا بشرع الله ومحافظا عليه فإن المؤمن يعتقد بتعين أن الله خير بكل شيء وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه إذا كان يستطيع أن يفلت من بطش أى كان فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله - عز وجل - .

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً في ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرو على اقتراف ما حرم الله ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله . ومن أجل ذلك جعل بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً والمسلم هو : العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله . وهذا هو أصل الإسلام ومصدر قوته وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هي مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه والإسلام لا يعنى منه شيء لو زال هذا الأساس .

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب حيث أورد قول سفيان بن عيينة : ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كلماء البارد لأهل الدنيا ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد فمن قاتلها عصم ماله ودمه ، ومن أبأها فماله ودمه أهدر ، وهى مفتاح الجنة ومفتاح دعوة الرسل . ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء - رحمهم الله تعالى - حول فضلها وما في ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام .

## نواقض « لا إله إلا الله »

« حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه »

سبق الكلام على مفهوم « لا إله إلا الله » وشروطها ، وحقيقتها وآثارها . وهنا أذكر نواقضها ، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة « لا إله إلا الله » ذلك أن معرفة الضد يميز الشيء المراد إيضاحه . كما قيل : « وبضدها تتميز الأشياء » . ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هى

نواقض الإسلام ، بشتى صورها ، وقبل إيراد ذلك ، لابد من أن نورد — قاعدة جليلة لأهل السنة والجماعة ، بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً . وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة ، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة . والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط .

وقد كثر كلام الناس حول هذا في القديم والحديث ولكل وجهة هو موليا . بيد أنى وجدت للعلامة ابن القيم كلاماً قيماً في هذا الموضوع — وهى القاعدة التى أشرت إليها آنفاً . قال رحمه الله فى كتاب الصلاة :

« الكفر والإيمان متقابلان ، إذا زال أحدهما خلفه الآخر . ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة ، وكل شعبة منها تسمى إيماناً : فالصلاة من الإيمان ، وكذلك الحج والزكاة والصيام ، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل ، والخشية من الله والإنابة إليه ، حتى تنتهى هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان .

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة . ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة الأذى عن الطريق . وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً . منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب . وكذلك الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر . والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر . والصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر . والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر ، والمعاصى كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان . « وشعب الإيمان قسمان : قولية وفعلية ، وكذلك شعب الكفر نوعان : قولية وفعلية . ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان ، وكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان ، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية . فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً — وهى شعبة من شعب الكفر — فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، فهذا أصل » .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، والقول قسمان : قول القلب : وهو الاعتقاد . وقول اللسان : وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب ، وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة

زال الإيمان بكماله . وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة ، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصديق : فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة . فأهل السنة : مجمعون على زوال الإيمان ، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ، بل ويقرون به سرّاً وجهرّاً ويقولون : ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به .

« وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده ، الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد ، أطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد . وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه ، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً — فليس هو التصديق المستلزم للإيمان . فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد ، فكفر الجحود : أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً ، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه . وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه . وأما كفر العمل : فنقسم إلى ما يضاد الإيمان ، وإلى ما لا يضاده . فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبي وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملي قطعاً ولا يمكن أن ينفي عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه . فالحكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله — ﷺ — ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد . ومن الممتنع أن يسمى الله — سبحانه — الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمى رسول الله — ﷺ — تارك الصلاة كافراً ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر . وقد نفى رسول الله — ﷺ — عن الزاني والسارق وشارب الخمر ، وعن لا يأمن من جاره بوائقه . وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل ، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد .»

« وكذلك قوله : ﴿ لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ﴾ <sup>(١)</sup> قال : هو بهم

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان معنى تحول النبي — ﷺ — : لأرجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب

الكفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقال في رواية أخرى عنه : كفر لا ينقل عن الملة . وقال طاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة... وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وهذا الذي قاله عطاء بين في القرآن لمن فهمه ، فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً ، وسمى جاحداً ما أنزله على رسوله كافراً . وليس الكافران على حد سواء .

٢٥٤ البقرة

﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾

وسمى متعدى حدوده في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال :

١ الطلاق

﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾

وقال نبيه يونس :

٨٧ الأنبياء

﴿ لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين ﴾

وقال صفيه آدم :

٢٣ الأعراف .

﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾

وقال كلمه موسى :

١٦ القصص

﴿ رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ﴾

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم .

ويسمى الكافر فاسقاً : كما في قوله :

﴿ وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ﴾ ٢٦ — ٢٧ البقرة

وقال :

﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ ٩٩ البقرة

وهذا كثير في القرآن . ويسمى المؤمن فاسقاً كما في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾

٦ الحجرات

نزلت في الحكم بن أبي العاص . وليس الفاسق كالفاسق . وقال تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ﴾

ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤

النور

وقال عن إبليس :

٥٠ الكهف

﴿ ففسق عن أمر به ﴾

وقال :

١٩٧ البقرة

﴿ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ﴾



وليس الفسوق كالفسوق .

والكفر كفران ، والظلم ظلمات ، والفسق فسقان ، وكذا الجهل جهلان : جهل كفر كما في قوله تعالى :  
﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ١٩٩ الأعراف

وجهل غير كفر كقوله تعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ١٧ النساء  
وكذلك الشرك شركان : شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر ، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك  
الأصغر ، وهو شرك العمل كالرياء . قال تعالى في الشرك الأكبر :

﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ٧٢ المائدة  
وقال :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ﴾ ٣١ الحج  
وفي شرك الرياء :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ١١٠ الكهف  
ومن هذا الشرك الأصغر قوله — ﷺ — : « من حلف بغير الله فقد أشرك »<sup>(١)</sup> رواه أبو داود  
وغیره . ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرج عن الملة ، ولا يوجب له حكم الكفار . ومن هذا قوله  
صلى الله عليه وسلم : « الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب الثعلب »<sup>(٢)</sup> .

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة ، وإلى  
ما لا ينقل عنها . وكذا النفاق نفاقان : نفاق اعتقاد ، ونفاق عمل ، فنفاق الاعتقاد : هو الذى أنكره  
الله على المنافقين في القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار .

« ونفاق عمل كقوله — ﷺ — في الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ،  
وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »<sup>(٣)</sup> . وفي الصحيح أيضاً : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ،  
ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد  
غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا أؤتمن خان »<sup>(٣)</sup> . فهذا نفاق عمل ، قد يجتمع مع أصل الإيمان ، ولكن  
إذا استحکم وکمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإن  
الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال ، فإذا كملت في العبد ولم يكن له ما ينهيه عن شيء منها فهذا  
لا يكون إلا منافقاً خالصاً ..

(١) سنن أبي داود — كتاب الإيمان والنذور — باب في كراهية الحلف بالآباء ٣ / ٥٧٠ رقم ٣٢٥١

وسنن الترمذی — كتاب النذور — باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ٤ / ١١٠ رقم ١٥٣٥

(٢) مسند أحمد ٤ / ٤٠٣

(٣) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان خصل المنافق ١ / ٧٨ رقم ١٠٧

« وكلام الإمام أحمد يدل على هذا ، فإن اسماعيل بن سعيد الشالنجي قال : سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهد ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ، هل يكون مصرّاً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : ﴿ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ﴾ ، يخرج من الإيمان ويقع في الإسلام ، ونحو قوله : ﴿ لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ﴾ <sup>(١)</sup> . ونحو قول ابن عباس في قوله :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة  
قال اسماعيل : فقلت له ما هذا الكفر ؟ قال : لا ينقل عن الملة ، مثل الإيمان بعضه دون بعض ، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وهذا من أعظم أصول أهل السنة ، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية .

« ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل ، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة . قال تعالى : ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ١٠٦ يوسف .

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك ، وقال تعالى :  
﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله  
ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ ١٤ الحجرات

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفى الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه .  
﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ ١٥ الحجرات .

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين ، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين . وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار .

« قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن — يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاز — فهو مسلم ولا اسمه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك — يريد دون الكبائر — سميته مؤمناً

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب خصال المنافق ٧٨/١ رقم ١٠٦

اللولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي رقم ٣٦

ناقص الإيمان ، فقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق » . فدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام . كذلك الرياء شرك ، فإذا رأى الرجل في شيء من عمله إجتماع فيه الشرك والإسلام .  
« وإذا حكم بغير ما أنزل الله ، أو فعل ما سماه رسول الله — ﷺ — كفراً ، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام .

وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان ، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً ، وقد لا يسمى . كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً ، وقد لا يطلق عليه هذا الإسلام . فهي هنا أمران : أمر إسمي لفظي ، وأمر معنوي حكمي .

فالمعنوي : هل هذه الخصلة كفر أم لا ؟ واللفظي : هل يسمى من قام به كافراً أم لا ؟

فالأمر الأول : شرعي محض ، والثاني لغوي وشرعي .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً ، وإن كان ما قام به كفراً . كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً : ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً ، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً ، وشعبة النفاق نفاقاً ، وشعبة الكفر كفراً . وقد يطلق عليه الفعل كقوله : ( فمن تركها فقد كفر ) و ( من حلف بغير الله فقد كفر ) وقوله : ( من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ، ومن حلف بغير الله فقد كفر )<sup>(١)</sup> . رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ . فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه .

يقول الشيخ محمد بن سعيد بن سالم : ولي على هذا النص تعليق :

في النص المتقدم بعض العبارات التي قد توهم بعض الناس في قضية « الحاكمية » حيث ذكر ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر . وهنا لابد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال .

(١) المستدرک علی الصحیحین للحاکم — کتاب الإیمان ١ / ٨ وقال الحاکم : حدیث صحیح علی شرطہما جمیعاً

إن المجتمع الإسلامي منذ قيامه على يد رسول الله — ﷺ — قد قام على الحكم بشريعة الله ، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون ، ثم الخلفاء الأمويون مضواً على ذلك وإن كان بدر منهم بعض الانحرافات ، إلا أن الحكم الذى يتحاكم إليه الناس هو شرع الله ، يظلمهم بربايته ويرعاهم بحكمته وعدالته . ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشيء . ثم جاء التتار ، وأتى « هولاكو » بالياسق .

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم ابن القيم كلام لا غبار عليه ، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة ، أو شفاعاة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر .

وأما ما وجد في حياة المسلمين — ولأول مرة في تاريخهم — وهو تنحية شريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضارى ، والعصر المتطور فهذه ردة جديدة على حياة المسلمين . إذا الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة ، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة واستبدال الذى هو أدنى بها ، فحل محلها القانون الفرنسى أو الإنجليزى أو الأمريكى أو الإشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلة الكافرة ولى على هذا الكلام أدلة كثيرة منها :  
(١) ما أورده ابن القيم نفسه — رحمه الله — من قول الإمام أحمد « حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه » .

نعم ، إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها ، وألین منها في مسابقة تطورات العصر كُفر صريح .  
(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً من أن الكفر الذى هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم « الملتزم للإسلام وشرائعه » فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه ، هو الذى ينطبق عليه هذا الحكم . وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله .

(٣) قضية التحليل والتحريم ، والتشريع للناس ، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جل جلاله فمن ادعاها لنفسه فقد آله نفسه ونصبها ندأ يعبد من دون الله .  
(٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها ، هذا من الأشياء التى كفر العلماء قديماً وحديثاً فاعلمها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة . وهل يجادل أحد في ذلك والله يقول :  
﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ ٥٤ الأعراف

فكما أنه سبحانه — وباعتراف الناس — مؤمنهم وكافرهم — هو خالق السماء والأرض ، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان ، والحكم والسيادة .

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد — رحمه الله — وهى قوله ﴿ حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه ﴾ علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ — رحمه الله — حيث يقول :

« إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد — » — ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين .

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم — رحمه الله — فى كتاب : « مدارج السالكين » حيث قال بعد أن أورد الأقوال فى قضية الحكم قال : « والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين : الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر . وإن اعتقد أنه غير واجب « وأنه مخير فيه ، مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأ : فهذا مخطىء له حكم المخطئين » .

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — فى كتاب « منهاج السنة » حيث قال : « ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر . فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر . فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار » .

(٨) يقول العلامة ابن القيم فى تفسير قوله تعالى :

﴿ تالله إنا كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ٩٧ — ٩٨ الشعراء

« هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية ، وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار كقوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ الأنعام .

وأصح القولين : أن المعنى : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ويعبدونه ، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها ، فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة « أن لا إله إلا الله » .

وأن مما يزيد إيضاح الحقيقة في أمر إجلال القانون والهوى محل الشرع ، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع هي :

(١) كفر تكذيب : وهو اعتقاد كذب الرسل . وهذا القسم قليل في الكفار ، فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المَعذرة . قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ ١٤ التمل  
وقال لرسوله — ﷺ — :

﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ ٣٣ الأنعام

(٢) كفر إباء واستكبار : مثل كفر إبليس : ومن هذا كفر من عرف الرسول ولم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾ ٤٧ المؤمنون

ومنه كفر أبى طالب فإنه صدقه ولم يشك في صدقه ولكن أخذته الحمية ، وتعظيم آباءه أن يرغب عن ملتهم .

(٣) كفر إعراض : مثل من يعرض عن الرسول — ﷺ — لا يسمعه ، ولا يصدقه ، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى إلى ما جاء به البتة ، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبي — ﷺ — :  
« والله ما أقول لك كلمة : إن كنت صادقاً فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك » .

(٤) كفر الشك : حيث لا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك في أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول — ﷺ — جملة ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق .

(٥) كفر نفاق : وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر . وبعد أن وضعنا الكفر بنوعيه — نعوذ بالله منه — نتقل إلى تبيان الشرك — نعوذ بالله منه ، وهو كما قال ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة ، وإلى أصغر وهو الرياء . أما الشرك الأكبر فدليله قوله تعالى :

﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ١١٦ النساء

وهو أربعة أنواع كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي :

(١) شرك الدعوة : قال تعالى :

﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾

(٢) شرك النية والإرادة والقصد : قال تعالى :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزيتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ١٥ — ١٦ هود

(٣) شرك الطاعة : قال تعالى :

﴿ اتخذوا أجبازهم وزهباهم أرباباً من دون الله ﴾ ٣١ التوبة

وفي الحديث : عن عدى بن حاتم حين سمع النبي ﷺ — يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أجبازهم وزهباهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال : بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم<sup>(١)</sup> . قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسيرها : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(٤) شرك الخبة : قال تعالى :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ﴾ ١٦٥ البقرة

وأما النفاق : فمنه ما هو مخرج من الملة ، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « والنفاق منه ما هو أكبر ، يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبي وغيره ، بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به ، أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه إلا عدواً لله ورسوله » .

وأما الردة : فهي الكفر بعد الإيمان فمن ( قال الكفر أو فعله أو رضى به مختاراً للكفر ، وإن كان مع ذلك ييغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة والحديث ، وذكروا ذلك في كتبهم فقالوا : إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلاً ، وإما اعتقاداً . وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقدده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً .

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقدده ولا نطق به ، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أى فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال : إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم .

## نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي :

(١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى :

١١٦ النساء

﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة . كفر إجماعاً .

(٣) من لم يكفر المشركين ، أو شك في كفرهم ، أو صحح مذهبهم . كفر إجماعاً .

(٤) من اعتقد أن غير هدى النبي — ﷺ — أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من

حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر .

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول — ﷺ — ولو عمل به كفر إجماعاً . والدليل قوله

تعالى :

٩ محمد

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطُ أَعْمَالَهُمْ ﴾

(٦) من استهزأ بشيء من دين الله ، أو ثوابه أو عقابه ، كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ . لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ ٦٥ — ٦٦ التوبة .

(٧) السحر ، ومنه الصرف ، والعطف فمن فعله أو رضى به كفر والدليل قوله تعالى :

١٠٢ البقرة .

﴿ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى :

٥١ المائدة

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي — ﷺ — وأنه يسعه الخروج من شريعته

كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى — عليهما السلام —

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ، ولا يعمل به ، والدليل قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُتَقِمُونَ ﴾ السجدة ٢٢

ولا فرق في جميع النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطراً ،

ومن أكثر ما يكون وقوعاً ، فينبغي للمسلم أن يحذرهما ويخاف منهما على نفسه .

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها ، نظراً لأهميتها وخطورتها على

حياة المسلمين وليتضح سبب الاسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك .

الأول : ( من اعتقد أن غير هدى النبي — ﷺ — أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن

من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر ) .



إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة ، واستيراد قوانين البشر القاصرة : ردة جديدة برزت في القرون الأخيرة من حياة المسلمين ، ذلك أن المجتمع الإسلامي عاش قروناً طويلاً يستظل بشرع الله وتيمن الشريعة على حياة أفرادها حكماً ومحكومين — مع وجود بعض المعاصي سواء كانت كبائر أم صفائر — ولكن نظام حياة الناس ، والتشريع المنفذ في أمورهم هو شرع الله وحكمه ، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام في الأرض كانت كل هذه الأمور في ازدياد وتوسع . أما رمى الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر ، فهذا شيء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمي من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم ، ومن أهم أمور الدين قال تعالى :

- ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة .  
 ﴿ ولم لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ٤٥ المائدة .  
 ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤٧ المائدة .  
 ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ٥٠ المائدة .  
 ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ٦٥ النساء .  
 ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ٢١ الشورى

وقال تعالى :

- ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسل وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مدعين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٤٧ — ٥١ النور

ويقول سبحانه :

- ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ ١١٥ النساء

ثم يبين سبحانه زيف زعم من يدعى الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول :

- ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا

إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴿٦٠ — ٦١ النساء﴾  
ولقد أحسن أحد العلماء في وصف من طمست بصيرته فاستبدل بالشريعة القانون حيث قال : إن مثل  
هذا مثل « الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح ، ويجيا بالعذرة والغائط في المستراح » . ولقد  
قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾ ٢٠ المجادلة .

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولى عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه — ﷺ — وما هذه الذلة  
التي يعيشها المسلمون اليوم في الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع الله . فهاهم أولاء اليوم كثير ولكنهم  
غثاء كغثاء السيل ، طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس ، ولقد صدقت فيهم نبوءة  
محمد — ﷺ — حين قال :  
« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال :  
« بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،  
وليقذفن الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل : يارسول الله : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية  
الموت » (١) .

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذي سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحملة الذين يتزويون  
بزي العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر ، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة  
ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام يرى من هؤلاء . ويرحم الله علماء السلف الذين  
كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم .

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير — رحمه الله — يذكر في كتابه « تفسير القرآن العظيم » ما حل  
بالأمة الإسلامية أيام التتار ، وذلك عند قوله تعالى :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ ٥٠ المائدة

قال : ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ،  
وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ،  
كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، ما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم  
به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان ، الذي وضع لهم « الياسق » وهو عبارة  
عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ،

وفيه كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ — ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير .

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله . وهو معنى ما روى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير ، وجحد ما أنزل الله من الحكم الشرعي لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم ، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول ﷺ — قطعياً فإنه كافر كفرأ ينقل عن الملة .

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق ، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول ﷺ — أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان ، وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب في كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التي هي زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ — نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفرأ ينقل عن الملة لما في ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

(٤) من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذي قبله .

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ورسوله : إيجاد المحاكم الوضعية التي مراجعها القانون الوضعي ، كالقانون الفرنسي أو الأمريكي أو البريطاني أو غيرها من مذاهب الكفار ، وأى كفر فوق هذا الكفر ؟ وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم والتي يسمونها « سلومهم » يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله .

( أما الكفر الذي لا ينقل عن الملة : والذي ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — بأنه كفر دون كفر وقوله أيضاً : « ليس بالكفر الذي تذهبون إليه » فذلك مثل ، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم في القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى . وهذا وإن لم يخرج كفه عن الملة فإنه معصية عظيمة أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقه وغيرها فإن معصية سماها الله في كتابه كفرأ أعظم من معصية لم يسمها الله كفرأ ) .

وإن الذى جعلنا نهب فى ذكر شئون الحاكمية وتفضيل أحكامها هو خطورتها وعظمتها . فإن موالاته الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله ، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذى تأله القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والإقياد ، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقى لطاغية فى الأرض حق الوجود والتشريع . وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم .

الثانى : من الأمور التى يجب أن نتدبرها بروية — من نواقض الإسلام — مظاهره المشرىين ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾

٥١ المائدة

وهذا من أعظم النواقض التى وقع فيها سواد الناس اليوم فى الأرض ، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية . فلقد صرنا فى عصر يستحى فيه أن يقال للكافر : يا كافر ! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله ، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان ، ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمنى أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبي إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم فى تشريعاتهم ، إلى كشف عورات المسلمين لهم ، إلى كل صغير وكبير فى حياتهم .

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها ، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره فى عقيدة الولاء والبراء . حسب المقياس الشرعى الصحيح ، وليس حسب مقياس أهواء البشر . إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين . والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله .

## مفهوم الولاء والبراء تعريفه وأهميته فى الكتاب والسنة

— الولاء فى اللغة : جاء فى لسان العرب : الموالاتة — كما قال ابن الأعرابى : — أن يتشاجرا اثنان فيدخل ثالث بينهما للصالح ، ويكون له فى أحدهما هوى فيؤالیه أو يحاييه . ووالى فلان فلاناً إذا أحبه .

والمولى : اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو : الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم ، والمعتق ، والناصر ، والمحِب والتابع والجار ، وابن العم ، والحليف والعقيد والصهر ، والعبد والمعتق والمنعم عليه . ويلاحظ في هذه المعاني أنها تقوم على النصرة والمجبة .

وَالْوَلَايَةُ — بِالْفَتْحِ — فِي النَّسَبِ وَالنَّصْرَةِ وَالْعَتَقِ . وَالْمُوَالَاةُ — بِالضَّمِّ — مِنْ وَالى الْقَوْمِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ فِي قَوْلِهِ — ﷺ — : « مِنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ » <sup>(١)</sup> يَعْنِي بِذَلِكَ وِلَاءَ الْإِسْلَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾  
والموالاتة ضد المعاداة ، والولى ضد العدو ، قال تعالى :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمْسَكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾  
قال ثعلب : كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذهُ ولياً .. وقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾  
ولهم في نصرهم على عدوهم ، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وقيل : ولهم أى : يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم .  
وَالْوَلِيُّ : الْقَرَبُ وَالِدُنُو . وَالْمُوَالَاةُ : الْمَتَابَعَةُ .

وَالْتَوَلَّى : يَكُونُ بِمَعْنَى الْإِعْرَاضِ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْإِتِّبَاعِ . قَالَ تَعَالَى :

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾  
أى : إن تعرضوا عن الإسلام .  
وقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

معناه : من يتبعهم وينصرهم .  
وقال صاحب « المصباح المنير » : الولى : فعيل بمعنى فاعل ، من وليه إذا قام به ، ومنه قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾  
ويكون الولى بمعنى مفعول ، في حق المطيع ، فيقال : المؤمن ولي الله .  
ووالاه موالاتة وولاء : من باب « قاتل » أى تابعه .

تعريف البراء في اللغة : قال ابن الأعرابي : برىء إذا تخلص ، وبرىء : إذا تنزه وتباعد ، وبرىء إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ براءة من الله ورسوله ﴾  
أى إعذار وإنذار .

وفي حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر : إن يوسف قد سأل العمل ، فقال أبو هريرة : إن يوسف منى برىء وأنا منه براء . أى برىء عن مساوئته في الحكم وأن أقاس به ، ولم يزد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به ، انتهى من النهاية . والبراء والبرىء سواء .

وليلة البراء : ليلة يتبرأ القمر من الشمس ، وهى أول ليلة من الشهر .  
— تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحي : الولاية هى النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً أو باطناً . قال تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾  
٢٥٧ البقرة

فمؤالة الكفار تعنى التقرب إليهم وإظهار الود لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا .

— تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحي : هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .  
— شرح تعريف الولاء والبراء : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الولاية : ضد العداوة . وأصل الولاية : المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد .. والولى : القريب يقال : هذا بلى هذا : أى يقرب منه ، ومنه قوله — ﷺ — : « الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »<sup>(١)</sup> أى لأقرب رجل إلى الميت .

فإذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه ، كان المعادى لولىه معادياً له . كما قال تعالى :

﴿ يأياها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ١ المتحنة .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الفرائض — باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلاولى

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، ولهذا جاء في الحديث :

« ومن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »<sup>(١)</sup>

ومسمى الموالة ( لأعداء الله ) : يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات . ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالة والنصرة بين المؤمنين ، ونهى عن موالة الكافرين كلهم . من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين : أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته ، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببعضه ومعاداته ، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان .

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض ، فإن أصل الإيمان أن تحب في الله أنبياءه وأتباعهم ، وتبغض في الله أعداءه وأعداء رسله . وقد ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قوله : « من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً » . وإذا كان صبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس في زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدى على أهله شيئاً ، وهذا في القرن الذى هو خير القرون : فجدير بالمؤمن أن يعى ويعرف من يحب ومن يبغض ، ومن يوالى ومن يعادى ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو في صف الشيطان وحزبه أم في صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون ، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ! وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا — كما قال الصحابى الجليل عبد الله بن عباس — فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل ، وحيث لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها .

وفي عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس في الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً .

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

## أهمية هذا الموضوع في الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع — الولاء والبراء — رغم أهميته ووضوحه في الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف في الكتب العقدية القديمة قليل جداً . وذلك راجع إلى ثلاثة أمور :

(١) إن هذا المفهوم العقدي كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان ، حيث إنهم — من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضئ — كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقدي ، والتميز الواضح ، وقيامهم أيضاً بالجهاد في سبيل الله . كل هذا جعل الأمر واضحاً وجلياً في حسهم ، وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة في كل شيء وهذا الأمر فيهما واضح جداً .

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامي الأول ، خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تظهر فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع ، وإنما نشأت حول صفات الله — جل جلاله — وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها . فكان لابد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن الله صفات تليق بجلاله وعظمته . نشبتا له كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل .

من هنا ظهرت مؤلفاتهم — رحمهم الله — بالحديث في هذا الشأن ، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا في كلمات موجزة صغيرة كقولهم : « ونحن أصحاب رسول الله ﷺ — ولا نفرط في حب أحد منهم ، ولا نبتأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم » .

(٣) وبعد دخول علم الكلام في مؤلفات المسلمين العقائدية ، وتعكير صفوها بما ليس منها : لم يعد لهذا الموضوع ذكر البتة : وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء ، بل إنه تابع لإقصاء موضوع « لا إله إلا الله وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام ، التي لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً سليماً صحيحاً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعي ولا بمعاني الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس ، وأقوم للقيام بما أراد الله منهم . ولو أن الأمة الإسلامية تقيد بقول رسولها ﷺ — « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك »<sup>(١)</sup> وغضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب ، ولا تحببت في متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلي سواء كان شرقياً أم غربياً على حد سواء .



وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق ، جيل اعتز بانتماؤه لدينه الخالص ، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله في الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً .

ولعله من المناسب هنا أن نتحدث عن طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة بصفة عامة وجناية الكلام على المسلمين لتقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقيدى الربانى وبين جهالات علم الكلام .

لقد أدرك سلف هذه الأمة — رحمهم الله — أن كتاب الله العزيز هو : كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع . وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها ، فلما أنزل كتابه على رسوله — ﷺ — كان هو النور الهادى للنفوس ، ومصدر كل خير لها ، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران . وميزة الخطاب القرآنى : أنه يخاطب « الإنسان » كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة ، وفيها حب الخير وكره الشر :

﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾

٧ — ١٠ الشمس .

هكذا هي الطريقة القرآنية في عرضها للعقيدة أنها : ( طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب « الإنسان » كله ، وتخاطبه — أول ما تخاطبه — عن طريق الوجدان ، ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة في الأمر ، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش ، فيأخذ دورة في التلقى منفعلاً بالقضية ، متحركاً للإيمان بها ، لا مجرد مُسَاجِل فيها بالمنطق والبرهان : والقرآن حين يصنع ذلك فهو مستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله ، فالله الذى خلق هذه الفطرة هو الذى أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها ، مستجيباً لها ، ومحياً لها ، وباعثاً ومقوماً في آن . والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك ، وله دور في قضية الإيمان .. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا « الحياة » إنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان ، أما في قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده ، بل تشاركه العاطفة والوجدان » .

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامى لنبحث عن تاريخ الإنحراف في الدراسات العقيدية لوجدنا أن ذلك

قد وقع في العهد الأموي بشكل بسيط ، ولكنه بلغ قمته في العهد العباسي إبان ترجمة العلوم الهندية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية .

فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل في الإسلام أناس أظهرها الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط في المترجمات ، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية . ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلي ، رأوا أن يستوردوا غناء الجاهلية الإغريقية وسمى ذلك عند المخدوعين به « فلسفة » !! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالاتها . وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامي قناعاً غريباً عليه . غريباً عليه في ذاته ، وغريباً عليه في عرضه ، وغريباً أيضاً على أهله . وسر ذلك أن : ( هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التي تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية ) .

وحرى بنا أن نسأل : ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التي نمت وترعرعت في جو وثني كافر ، وبين المورد العذب دين الله « الإسلام » ؟

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعى وراء كل ناعق ؟

أم أنه نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة في ربوع الأرض ؟

أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام في محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخطئها بالشوائب القرية عنها ؟ !

والذي يظهر والله أعلم أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل بحسب أهميته إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة في عهدها الأول يظهر : أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام في العهد العباسي — كالمأمون مثلاً — فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها .

ويصدق ذلك أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة . وتردد الحاكم في إرسالها ، وجمع رجال دولته واستشارهم حول هذا

الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : ( ارسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها ) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها . ثم أحضر المأمون حنين بن اسحاق — وكان فقي لسنأ — وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية ، فامثل لأمره . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل . مما جعل حنيناً يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة . وصدق — والله — المطران القبرصى : إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل — رحمه الله — في مسألة خلق القرآن ؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة — ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره ؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها ؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة علم الكلام الجاهلي وخلطة بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمي بـ « الفلسفة الإسلامية » .

وإذا علمنا : أن المترجمين كان جلهم نصارى . وقد كتبوا في الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون به . فكيف يوثق بنصراني يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتباً يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها في مؤلفاتهم لقد صدق الشاعر حين قال :

ومن جعل الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة في عرض العقيدة وبين علم الكلام ، نذكر الأمور التالية في المباينة بينهما ، لا من باب المقارنة ، فلا وجه للمقارنة في الحقيقة ، إذ الأمر كما يقول الشاعر : ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا وإنما من باب التنبيه والتذكير .

(١) في المصدر : فمصدر العقيدة القرآنية : الله رب العالمين . أما مصدر « علم الكلام » فعقول البشر القاصرة الهزيلة .

(٢) في المنهج والسييل : فغاية علم الكلام : إثبات وحدانية الخالق ، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ « لا إله إلا الله » .

ثم إن علم الكلام — يسعى لتحقيق « المعرفة » في الوقت الذي نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى « الحركة » من وراء المعرفة ، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنساني ليحقق وجوده في الأرض حسب الخطة التي رسمها له التصور الرباني ، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها ، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التي كتبها الله للإنسان .

ثم إن المنهج القرآني يدعو إلى ( عبادة الله وحده ) قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء : ٢٥ وأوصى المصطفى ﷺ — معاذاً حين بعثه إلى اليمن : أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى « الشك » أو « النظر » كما هي طريقة المتكلمين .

( والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدئية ، والمنطق ، والطبيعي ، والجوهر والعرض — بل يسألهم عن استجابتهم للرسول أو عدمها .  
﴿ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾  
٨ — ١١ الملك

ووحداية الخالق التي هي غاية علم الكلام : لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول ﷺ — فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم :  
﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾  
٢٥ لقمان

(٣) قوة التأثير : الذي هو طابع العقيدة الربانية : مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتنقيها . بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم — وهو سقراط — ( الشيء الذي لا أزال أعلمه جيداً هو أنني لست أعلم شيئاً ) .  
(٤) الأسلوب : فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع . واللمسة المباشرة والإيجاء بالحقائق الكبيرة ، مع بساطة في العرض ووضوح في البيان وإعجاز في اللفظ والمعنى . مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية . وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام ، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التي لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً .

وأسلوب المتكلمين يسير على خط واحد في كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله : ( فإن قيل لنا كذا ، قلنا لهم كذا ) .

أما الأسلوب القرآني فإنه يعرض العقيدة على نمطين :

الأول : توحيد في الإثبات والمعرفة . أى إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر بها عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم ، وهذا موجود في أول سورة الحديد ، وطه ، وآخر الحشر ، وأول السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها

الثاني : توحيد في الطلب والقصد : وهذا ما تضمنته سورة : ﴿ قل يأيتها الكافرون ﴾ ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ٦٤ آل عمران

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها ، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام .

ويعرف الأول بأنه : توحيد علمي خبري ، والثاني بأنه : توحيد إرادى طلبى . ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى — ﷺ — في عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كافية في الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنة في عرض العقيدة فقد سلك ( سبلاً ) لا تلتقى مع صراط الله المستقيم .

روى الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئونا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى — ﷺ — فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : لقد كان تلقى صحابة رسول الله — ﷺ — هذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقى الجندي في الميدان « الأمر اليومى » ليعمل به فور تلقيه ، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود .

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصرأ على كتاب الله وسنة رسوله في عقيدته ولكن الانحراف الذى طرأ على المسائل العقدية فى العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانهار بفلسفة اليونان وعلومهم . ولو كان هناك وعى وتفكير فى الأشياء المترجمة لا تقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين . ولكن الخطأ الذى حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنه « الإلهيات » عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم .

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب فى ذلك ؟

وصدق جبر هذه الأمة عبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — حين قال محذراً : ( أولاً ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل إليكم ) .

والذى حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالى : إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبى الذى أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التى زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم .

ولكن رحمة الله بعباده وتكفلهم — جل جلاله — بحفظ هذا الدين تجلت فى إيجاد علماء أعلام ، فى كل عصر ومصر ، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله ، وتبصير الأمة بما شردت عنه ، وزهدت فيه

لهذا حين رأى كثير من الأئمة — رحمهم الله — هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين فى تصوراتهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادى نحوه .

فهذا الإمام الجليل الشافعى — رحمه الله — يقول : « فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام » . ويقول أبو يوسف صاحب أى حنيفة — رحمهما الله — « العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم » .

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله : « كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول » .

وذكر ابن الجوزي — رحمه الله — : أن أصل الدخول في العلم والاعتقاد : من الفلسفة وذلك أن خلقاً من العلماء في ديننا لم يقتصروا بما قنع به رسول الله ﷺ — من الانعكاف على الكتاب والسنة ، بل أوغلوا في النظر في مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا في الكلام الذي حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — فيقول :

( هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول ، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد . أخذوا يقولون :

إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكديماً ، أو تأويلاً أو تفويضاً . لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس ) . وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعظة ، وهي كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا في بحر الكلام اللجج ثم خرجوا منه يطلبون النجاة . إنها كلمة أتى عبد الله محمد بن عمر الرازي حيث قال : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيته تشفى غليلاً ، ولا تروى غليلاً . ورأيت أقرب الطرق . طريقة القرآن .. ومن جرب مثل تجربتي ، عرف مثل معرفتي . هذا وإنه لخرى بالأمة ، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله ، فتتدبر معانيها ، وتعمل بما فيها ففى ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب .

٢٨ الرد

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

ثم يستطرد الشيخ محمد بن سعيد بن سالم فيقول :

إن من أولى البدهيات في هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتفاء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها ( لا إله إلا الله محمد رسول الله ) . والبراءة من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً في كتاب الله وسنة رسوله — ﷺ —

قال تعالى :

﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ ٢٥٦ البقرة

وقال :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾  
١٠٣ آل عمران

﴿ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾  
٧١ الأنعام

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾  
٢٢ لقمان

﴿ ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾  
٨٥ آل عمران

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾  
٣٣ فصلت

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله — سبحانه وتعالى — بإنعامه على المسلمين بهذا الدين ، فالولاء له مصدر القوة والعزة .  
فمن استمسك بهذا الولاء ، وحققه فقد استمسك بالعروة الوثقى .

أما الحديث — فمن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — :  
« إن الله قد أذهب عنكم عبية ( كبر ونخوة ) الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي ، أو فاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن<sup>(١)</sup> وحرص المصطفى — ﷺ — على تربية أمة والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التي لا تستمد قوتها وحيوتها من هذا الدين القيم ، فنجدته — ﷺ — يحثهم على أن يكون انتمائهم للصف الإسلامي وحسب . ففي الحديث عن أبي عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال : شهدت مع رسول الله — ﷺ - أحداً ، فضربت رجلاً من المشركين ، فقلت : خذها مني وأنا الغلام الفارسي ، فالتفت إلى رسول الله — ﷺ - وقال : « فهلا قلت خذها مني وأنا الغلام الأنصاري »<sup>(٢)</sup> .

(١) سنن أبي داود — كتاب الأدب — باب في التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦

وسنن الترمذي — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥

(٢) سنن أبي داود — كتاب الأدب — باب العصبية ٥ / ٣٤٢ رقم ٥١٢٣ وسنن ابن ماجه — كتاب الجهاد

باب النية في القتال ٢ / ٩٣١ رقم ٢٧٨٤



ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو : إفراد الله — تعالى — بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإناابة والخشوع والخوف والرجاء ، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى ، قال جل شأنه :

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ ﴾ (١)

وقال رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — « .... وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ﴾ (٢) .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالخافة .. ويتجرد لله محبة وخشية وإناابة وتوكلاً ، واشتغالاً به عن غيره ، ف يرى أعماله فكرة في أمر عدوه وخوفه منه ، واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا . ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين . قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء

هذا طريق من طرق منهج العقيدة في غرسها للولاء والبراء في النفوس .

وطريق آخر : وهو استخدام مشاهد يوم القيامة ، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين ، الذين سلكوا غير منهج الله في الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء — وتبرؤ كل فريق من صاحبه .

قال تعالى :

﴿ إِذَا تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ورَأَوْا الْعَذَابَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تَبَرَأُوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ (٣)

ولا شك أن هذه حال من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها ، وشدة تبعه فيها ونصبه ، إذ لم يخلص مولاته ومعاداته ، ومحبه وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله . ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالات كانت لغير الله ، لا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة — باب ٥٩ ، ٤ / ٦٦٧ رقم ٢٥١٦

(٣) البقرة ١٣٦-١٣٧ .

ربه وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد ، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ — والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه .

ومن منهج القرآن أيضاً في موضوع الولاء والبراء : ضرب المثل ، وهذا كثير في القرآن الكريم وأبرز مثال في هذه القضية هو إبراهيم — عليه السلام — خليل الرحمن وأبو الأنبياء . فإنه هو القدوة الأولى في الولاء والبراء .

وإذا وجدت محبة الله في القلب ، تحمل المؤمن من حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله — تعالى — ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى في سبيل الله .

ثم يمضي القرآن الكريم في أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ٥٤ المائدة

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم :

﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ٤ الصف

﴿ بَلِ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾ ١٥٠ آل عمران

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ ٧٨ الحج

ومن لوازم محبة الله اتباع رسوله ﷺ —

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ٣١ آل عمران

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فاتباع سنة رسوله ﷺ — واتباع شريعته باطنياً وظاهراً هو موجب محبة الله ، كما أن الجهاد في سبيل الله ، وموالة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها .

ويقول الحسن البصري — رحمه الله — : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ . لقد روى الكتاب والسنة الأمة على الحب في الله

والبغض في الله ، والولاء في الله والبراء في الله ، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت في النار لكان أحب

إليها من أن تعود في الكفر بعد إذ أنتزها الله منه . ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم في واقع

حياة المسلمين — إلا من رحم ربك — فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجليلة شيئاً لأن

هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق : « ليس في كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر

ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » . وما سر استيراد مذاهب البشرية الإلحادية

وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة بهرج الباطل وزيف الحقيقة .

## أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم — عليه السلام — وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر .

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس في سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها .  
قال تعالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ . فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخُوفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١)  
وفي سورة الأعراف يأتي بيان عدم سجود إبليس :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ (٢)

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان رده — لعنه الله — الامتناع والاستكبار مستخدماً في ذلك قياسه الفاسد : إن النار أشرف من الطين ، وهو بهذا ينصب نفسه نداً لله — سبحانه وتعالى — :  
الله يقول كذا ، فيقول إبليس أنا أرى كذا ولذلك استحق اللعنة والطرود من رحمة الله .

وانقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه :  
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٣)  
فأما الفريق الذي أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن .

وأما الفريق الذي أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان .

وقبل الحديث عن الفريقين ، لا بد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان — حتى بعد قصته مع آدم — فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات في القرآن فحسب ، بل زاد الأمر بياناً فحذر بنى آدم في مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا

لغواية الشيطان ويعرضوا عن طريق الله المستقيم . قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ <sup>(١)</sup> ﴾

ثم يأتي التذكير مع التحذير في قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَاهُم هُوَ وَقَبِيلُهُ مَن حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ <sup>(٢)</sup> ﴾

ولم يقتصر البيان القرآني الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطاني ، حتى يبصر كل ذي عينين ويتفكر أولوا الأبواب فقال تعالى عن إبليس : ﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَلَأُضِلَّهُمْ ولَأَمْنِيَهُمْ ولَأَمْرُهُمْ فليتكن آذَانُ الْأَنْعَامِ ولَأَمْرُهُمْ فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يَعدُهُم وَيَمْنِيهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا <sup>(٣)</sup> ﴾

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه :

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ عِبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ <sup>(٤)</sup> ﴾

ومشهداً آخر لإبليس حتى يتبرأ من أتباعه :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلِمُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي . إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ <sup>(٥)</sup> ﴾

إنه ليس بعد بيان الله بيان ، والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن اتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين . ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا جواردة بينهما إنما الحرب والعداوة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان .

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله ، ولقد أخبرنا الله — جل جلاله — بذلك في مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله :

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ <sup>(٦)</sup> ﴾

(١) سورة إبراهيم . ٢٢

(٢) سورة النساء . ١١٨ - ١٢٠

(١) سورة البقرة . ٢٠٨

(٦) سورة البقرة . ٢١٢

(٤) سورة يس . ٥٩ - ٦١

(٢) سورة الأعراف . ٢٧

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿ إِن الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ . وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى  
 أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>  
 وانظر إلى التصوير القرآني لعداوة حزب الشيطان ، وما تنطوي عليه نفوسهم ضد المؤمنين في  
 قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يِنَّاتٍ تَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ  
 عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ النَّارِ وَعِندَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾<sup>(٣)</sup>  
 وههنا حقيقة هامة وهي : إن العداوة التي وقعت بين آدم — عليه السلام — وبين إبليس هي عداوة  
 قائمة إبليس وبنى آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة  
 انقسام الناس إلى فريق الهدى والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان .  
 ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾<sup>(٤)</sup> .

وعلى ذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين في الدنيا ولا في الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن  
 تيمية — رحمه الله — : ( ومن سنة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق  
 بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ) .  
 وانظر إلى عداوة قوم نوح — عليه السلام — له ، وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى  
 وعيسى ثم محمد — ﷺ — ، ثم العداوة التي تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض  
 ومن عليها .

وإذا كان أولياء الرحمن مصرين على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى  
 في حمأة الجهل والضلال ، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نداءً بعيداً ، أو شهوة يراد إشباعها  
 أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين . وصدق الله العظيم إذ يقول :  
 ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ  
 مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾<sup>(٥)</sup>

أما حزب الرحمن فهم « الذين ينتمون إليه سبحانه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحداً  
 غيره ، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن  
 وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت » .

وقد جاء الدين الإسلامي بفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، فلم يجعل  
 التقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب . كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة

(٤) ٢ سورة التغابن .

(٥) ٢٥٧ سورة البقرة .

(١) ٧٦ سورة الأعراف .

(٢) الآيات من ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .

(٣) ٧٢ سورة الحج .

على السواء — بل جعل التقاء الناس على العقيدة في الله ، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح .  
قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

١٣ الحجرات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ولا لأسود  
على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب »<sup>(١)</sup> .

وقال أيضاً : « إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى وفاجر  
شقى »<sup>(٢)</sup> . ولقد تبرأ المصطفى — ﷺ — من أقرباء له ليسوا على دينه ، ليضع من نفسه قدوة  
للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص — رضي الله عنه — سمعت رسول الله — ﷺ — يقول  
جهاراً من غير سر : « إن آل فلان — أناس من أقاربه — ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح  
المؤمنين »<sup>(٣)</sup> متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا » وهذا موافق  
لقوله تعالى<sup>(٤)</sup> :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

٤ التحريم .

من هنا كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده ، وعبدوه وحده ،  
وخافوه وحده . بعكس الفريق الثاني فإنهم كلما دعاهم رسول من رسل الله قالوا :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوْكَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوْكَانَ آبَاؤُهُمْ

١٠٤ المائدة

لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

ومن صفات أولياء الرحمن : الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ

٥١ النور

المفلحون ﴾

أما أولياء الشيطان : فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه ، واتباع الهوى والشيطان .

(١) مسند أحمد ٥ / ٤١١

(٢) سنن الترمذي — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥ وقال : حديث حسن غريب ، وسنن

أبي داود — كتاب الأدب — باب في التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب موالة المؤمنين ومقاطعة غيرهم رقم ١٢٨

(٤) مسند أحمد ٥ / ٢٣٥

قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَيَّا بِالْأَسْتِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ﴾

٤٦ النساء .

وقال :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ ٢٢ السجدة .

يقول العلامة ابن القيم : « كل من كذب رسول الله ﷺ — وأعرض عن متابعتة ، وحاد عن شريعته ، ورغب عن ملته ، واتبع غير سنته ، ولم يتمسك بعهدته ، ومكن الجهل من نفسه ، والهوى والفساد من قلبه ، والجحود والكفر من صدره ، والعصيان والمخالفة من جوارحه ، فهو ولي الشيطان » .

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم : ( إذا جاء الحق معارضاً في طريق رسالتهم طحنوه ، وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإن لم يجدوا منه بداً أعطوه السكة والخطبة ، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم ، وكان لهم ، صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مدعين لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهوائهم .

﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَى اللَّهِ مُدْعِينَ . أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَخِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ٤٨ — ٥٠ النور

### طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بينا سمات الفريقين ، نتحدث الآن عن العداوة بينهما ، ومعرفة هذه العداوة أمر لا بد منه لتمييز الخبيث من الطيب .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ ١٧٩ آل عمران

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف العوبة بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتدوين المسلم في خضم الجو الجاهل المعاصر وتبييع ولائه لربه ودينه وإخوانه المسلمين . وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين . هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها : بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير ، والإجلال والإكبار والتعظيم ، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم ، وننهج نهجهم نفتق آثارهم في كل وضع وحال ، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها ، حقها وباطلها ، بل إنه لا بطلان فيها .

ولكن هيات خستوا وخابوا ، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قادراً ، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى .

ولابد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين ، نبذة بسيطة عن عداوة إبليس للإنسان حتى نعلم مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية ، ومدى تليسة الحق بالباطل على أوليائه فيبين الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه ، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل في ست مراتب نذكرها هنا باختصار :

(١) الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أئينه ، واستراح من تعبته معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فإن ظفر به صبره من عسكره ونوابه ، فصار من دعاة إبليس ، فإن يس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهى :

(٢) البدعة : لأنها أحب إليه من : الفسوق والعصيان ، وذلك أن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعدد ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، فإن كان الشخص ممن يعادى أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهى :

(٣) الكبائر : على اختلاف أنواعها : فيحرص أن يوقعه فيها ، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه . ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها ؟ فإن عجز عن هذه نقله للتي بعدها وهى :

(٤) الصغائر : التي إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبي ﷺ — : « إياكم ومحقرات

الذنوب ، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بغلاة من الأرض »<sup>(١)</sup> . وذكر حديثاً معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتوا . ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه ، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة .

(٥) اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوات الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتي بعدها .

(٦) اشتغاله بالعمل المفضول عن الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، ويفتح له أبواب خير كثيرة ، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل . وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور الله يقذفه في قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ — وشدة عنايته بمراتب الأعمال



عند الله ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول — ﷺ — ونوابه في الأمة ، وخلفائه في الأرض والله بمن يفضله على من يشاء من عباده .  
وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان ، فما هو سبب العداوة ومثيرها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة :

(١) الكبر : فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة .

قال الله تعالى فيهم :

﴿ إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان آتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾  
٥٦ غافر

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ٨٧ البقرة .  
وقال تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾ ٧ لقمان .  
(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، واللبصق بالشهوات واللذائذ . قال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ ١٠٧ النحل .  
﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد ﴾  
٣ إبراهيم .

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما : فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد الله المخلصين ، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أى احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله .

قال تعالى :

﴿ ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء ﴾  
٨٩ النساء .

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله ، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله بكل ما تعنى كلمة « كيد » سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء ، أو العذاب والاضطهاد ، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء .

(٣) الحسد : فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ ، ولذلك يكون للمؤمنين الحسد والحقد ، وقد بين الله ذلك في كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة

أجل هذه هي أمنيته أن يكفر عباد الله ليتساوا معهم في الكفر والضلال ، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدكم لو ظهروا على المؤمنين فقال تعالى :

﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولأذمة ﴾ ٨ التوبة

(٤) سلب الهيمنة والولاء : وهذا أمر يختص بـ « الملأ » أى السيادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس ، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرغبة والخوف والرجاء . فإذا جاء دين الله وشرعه الذى يحجر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن « الملأ » يثرون ويعادون دعاة الخير لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وإن شرفهم قد زال وإن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبدهم الله فخوفهم من الله وحبه لله وولائهم لله وبغضهم في الله . ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ﷺ — يدعو إلى الدخول في الإسلام فاستكبر في نفسه وكأنه يقول : أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إلّى لأدخل في دينهم الجديد وظن أن ملكه سيزول إذا دخل في الدين الجديد فما كان منه إلا أن مزق الكتاب قد استجاب الله دعوة نبيه — فمزق الله ملك كسرى شر ممزق فهكذا الطواغيت التى لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمة تعادى أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى :

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ البروج الآية : ٨

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها - فى دخيلة نفسها - لا تعرف ما فيه من الحق والخير أو لأنها - بينها وبين نفسها - تعتقد حقاً أن باطلها الذى تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام ! كلا ! فهى تكرهه وهى عالة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذى يقوم ما اعوج من شؤون الحياة وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم ، تكرهه لأنها هى الجاهلية ..... وهو الإسلام !

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ فصلت الآية : ١٧

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم : فهى جزء من عقيدتهم وأحسب أنى فضلت القول فى هذا فى التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله من أنهم ييغضون فى الله من حاد الله ورسوله . قال تعالى :

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (١)

« إنهم لا يلتقون مع أعدائهم فى منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم — عليه السلام —

« إنا ببراءة منكم ومما تعبدون من دون الله كفرننا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « إنه لا يستقيم للإنسان إسلام — ولو وحد الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً ﴾ وما دمننا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو ( القاسم المشترك ) بين أعداء الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه ..

إن طبيعة المنهج الإسلامى التى يعرفها جيداً أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله فى الأرض وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وتحطيم الحواجز المادية التى تحول بين الناس كافة . وبين حرية الاختيار الحقيقية ... ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما فى صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربانى الذى يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم فهى حتمية لا اختيار فيها فى الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء .... وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (١)

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسياً نص عليه القرآن الكريم فأما الكفار فقد قال الله تعالى عنهم : -

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مم نوره ولو كره الكافرون ﴾ (٢)

وقال فى شأن « المشركين » : -

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ (٣)

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٤)

وأما عداوة أهل الكتاب فالله يقول عنهم : -

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (٥)

﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾ (٦)

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السيل ﴾ (٧)

﴿ وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ (٨)

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(٢) سورة المائدة الآية : ٨٢

(٣) سورة النساء الآية : ٤٤

(٤) سورة آل عمران الآية : ١١٩

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧

(٢) سورة الصف الآية : ٨

(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٥

(٤) سورة التوبة الآية : ٣٣

أما عداوة المنافقين : فقد نبه القرآن الكريم على ذلك في مواضع كثيرة ومن ذلك ما ورد في أول سورة البقرة حيث ذكرهم في ثلاثة عشرة آية من آية ٨ - ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً ، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاة وهم أعداؤه في الحقيقة يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد .

« فيال الله كم معقل للإسلام هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه وكم من لواء مرفوع قد وضعوه ... اتفقوا على مفارقة الوحي فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون :

﴿ فقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ <sup>(١)</sup> رأس ما لهم الخديعة والمكر وبضاعتهم الكذب وعندهم العقل المعيشى : إن الفريقين عنهم راضون وهم بنبيهم آمنون .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ <sup>(٢)</sup> « من علقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزقته كل تمزيق ، ومن تعلق شرر فتنهم بقلبه ألقاه في عذاب الحريق ، خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك ، تجرئ بهم في موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف ، فألقته بين سفن الهالكين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقد نزلت بخصوصهم سورة كاملة في القرآن هي سورة ﴿ المنافقون ﴾ وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين في قوله تعالى عنهم : —

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة والرسولة وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ <sup>(٤)</sup>

وما دمتنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض وهم الذين يثبون غزوهم بشتى الأساليب وهم رمز « البهرج والانبهار » أمام المخدوعين من أبناء المسلمين .

يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : إن حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة هي من أجل العقيدة . وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً في المعركة ضد الإسلام والمسلمين وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى — في خبث ومكر — لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها : أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية ، وألقوا في روع المخدوعين منا : إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها !

(٣) سورة البقرة الآية : ١٦

(٤) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٩

ولا يجوز رفع رايها وخوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصين ! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد ، بينما هم في قرارة نفوسهم جميعاً : يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التي نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً !

فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبتعد عن توجيه الله لنبيه — ﷺ — ولأمتة وهو سبحانه أصدق القائلين ..

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾<sup>(١)</sup>

هذا هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾<sup>(٢)</sup> على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو إختلاف الدينين وافتراق المنهجين . فلما دين الله واتباع شرعه وموالة عباده المؤمنين .

ولما دين الباطل واتباع الهوى والشهوات والشیطان والانضمام إلى حزب الشيطان . فعلى أولياء الله أن يعتزوا بدينهم ، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون ، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم .

فقد ورد فى جملة البخارى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « يقول الله تعالى : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألتنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيزنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبضه نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه ﴾<sup>(٣)</sup> ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أئى معكم ففتبوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾<sup>(٥)</sup>

﴿ فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾<sup>(٦)</sup> وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك ، ففى غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وأعز دينه ونصر حزبه وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست

(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٠

(٣) صحيح البخارى — كتاب الرقائق — باب التواضع ٨ / ١٣١

(٦) سورة محمد الآية : ٣٥

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٨

(٥) سورة الأنفال الآية : ١٢

بغائبة عن الأذهان . ونصر الله وتأييده للمؤمنين في معركتهم مع التتار ومع الصليبيين الحاقدين . وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول .

وسيقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص في العمل ابتغاء مرضاته هو وحده والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

### « عقيدة أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء »

لا بد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة في الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء التي لا تستند إلى دليل قوى من كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ - .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : على المؤمن أن يعادى في الله ويوالى في الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه - فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية » .  
قال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتُلَا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ <sup>(١)</sup>

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى وأمر بالإصلاح بينهم فليتدبر المؤمن : إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه .

وإذا اجتمع في الرجل الواحد : خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعادة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع في الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص يقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته

هذا هو الأصل الذي اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن وافقهم . ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس في نظر

أهل السنة والجماعة - بحسب الحب والبغض والولاء والبراء - ثلاثة أصناف :

الأول : - من يحب عمله وهو من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً ، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله ، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله وأحب في الله ووالى في الله وأبغض في الله ، وعادى في الله وقدم قول رسول الله - ﷺ - على قول كل أحد كائناً من كان .

الثاني : - من يحب وجهه ويبغض من وجهه ، فهو المسلم الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير ، ويبغض أكثر مما يصلح .. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد

الله بن حماز وهو رجل من أصحاب رسول الله ﷺ — كان يشرب الخمر فأُتي به إلى رسول الله ﷺ — فلغنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي ﷺ — « لا تلغوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله »<sup>(١)</sup> مع أنه ﷺ — لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه .

الثالث : — من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله لقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة أو أشرك بالله في عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل والخضوع والخشية والرغبة والرغبة والتعلق ، أو الحد في أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها .

فأهل السنة والجماعة — إذن — يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملاً ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة — ويتبرأون من الكفرة والملحددين والمشركين المرتدين ويعادونهم عداوة وبغضاً كاملين أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر ، وأهل السنة والجماعة يتبرأون عن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ يأيا الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منهم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناءؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأق الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(٣)</sup>

ويلخص الامام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول :

الحمد والذم والحب والبغض والموالة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التي أنزل الله بها سلطانه وسلطانته كتابه فمن كان مؤمناً وجبت موالاته من أى صنف كان ومن كان كافراً وجبت معاداته من أى صنف كان .

قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) صحيح البخارى — كتاب الحدود — باب ما يكره من لعن شارب الخمر ١٩٧/ ٨

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ (٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ (٤) سورة المائدة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

وقال ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(١)</sup>

وقال : ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولا يجعل الأنبياء والصديقون والشهداء الصالحون بمنزلة الفساق في الإيمان والدين والحب والبغض والموالة والمعاداة . قال تعالى :

﴿وَأِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا إِلَى قَوْلِهِ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾﴾<sup>(٣)</sup> فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغى .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضاً موالة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم بشهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

## الولاء والبراء القلبي

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة في هذا الموضوع أن الولاء القلبي وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكرهاته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكرهاته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فلن يعطى ثواب الفاعل الكامل .

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكرهاته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾<sup>(٤)</sup> .

## « موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء »

يدخل في معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء والبدعة : مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذى ولا إلف مثل ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق أى خلقهم ابتداءً ومنه قوله تعالى :

﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾<sup>(٥)</sup>

وقوله ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾<sup>(٦)</sup>

(٤) سورة القصص الآية : ٥٠

(٥) سورة البقرة الآية : ١١٧

(٦) سورة الأحقاف الآية : ٩

(١) سورة المائدة الآية : ٥١

(٢) سورة التوبة الآية : ٧١

(٣) سورة الحجرات الآيات : ٩ ، ١٠



أى لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تختصره القلوب وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح .  
قال ابن الجوزى : « البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع . والأغلب في المبتدعات أنها تصادم  
الشرعية بالمخالفة وتوجب التعاطي عليها بزيادة أو نقصان » .

ولقائل أن يقول : ما شأننا الآن وأصحاب البدع لاسيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء  
منهم وموالة المؤمنين ونصرتهم ؟ ؟

والجواب على ذلك : أولاً : أن البدعة خطرهما عظيم وكبير والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوتة  
ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة وفي هذا يقول الإمام الشاطبي : « البدعة تنقسم إلى رتب  
متفاوتة منها ما هو كفر صراح كبدعة الجاهلية التي نبه عليها القرآن بقوله :

﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ (١)  
وقوله تعالى :

﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه  
شركاء ﴾ (٢)

وقوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ﴾ (٣)

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة تحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك  
أنه كفر - كفر صراح .

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله — عز وجل — فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرع  
ومن شرع فقد أله نفسه . وكما أن الله — سبحانه وتعالى — هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر  
والسلطان : قال تعالى :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ (٤)

وقال سبحانه :

﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾ (٥)

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهد بعد الإعذار والإنذار  
والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلي .

فقد قال — ﷺ — « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد » (٦)

(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤

(٥) سورة النحل الآية : ١١٦

(١) سورة الأنعام الآية : ١٣٦

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٩

(٣) سورة المائدة : ١٠٣

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الأقضية — باب نقص الأحكام الباطلة رقم ١١٢٠

قال البغوي : « وقد اتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبي فقال : « ومن البدع ما هو من المعاصي التي ليست بكفر أو يختلف فيها هل هي كفر أم لا ؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة . ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر ، كبدعة التبتل والصيام قائماً في الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماعة . ومنها : ما هو مكروه كالاختلاط للدعاء عشية عرفة ، وذكر السلاطين في خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعي . وما أشبه ذلك » .

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة .  
ثانياً : — لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة في التحذير من البدع وأصحابها .

ومن ذلك ما قاله الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — حيث يقول : —  
« من كان مستنأ فليستسني بمن قد مات : أولئك أصحاب محمد — ﷺ — كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه — ﷺ — ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم »

وقال سفيان الثوري — رحمه الله — : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال الامام مالك — رحمه الله — : من أحدث في هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله — ﷺ — خان الدين لأن الله تعالى يقول :  
﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾<sup>(١)</sup> « فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً »

وذكر الشاطبي — رحمه الله — أن مفاصد البدع تنحصر في أمرين : —  
(١) أنها مضادة للشارع ومراغمة له حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفى بما حوله .

(٢) أن كل بدعة — وإن قلت — تشريع زائد أو ناقص أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادماً في المشروع ولو فعل أحد مثل هذا في نفس الشريعة عامداً لكفر إن الزيادة والنقصان فيها أو التغيير — قل أو كثر — كفر . وبعض هذا النظر عموم الأدلة في ذم البدع ومنها : قوله — ﷺ — « كل بدعة ضلالة »<sup>(٢)</sup>  
وقوله — ﷺ — : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »<sup>(٣)</sup>

(١) سورة المائدة الآية : ٣

(٢) سنن أبي داود — كتاب السنة — باب في لزوم السنة ١٥/ ٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه — المقدمة ١٦/ ١ رقم ٤٢

(٣) صحيح مسلم — كتاب العلم — باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤ / ٢٠٦٠ رقم ١٦ والترمذي كتاب العلم رقم ٢٦٧٦

باب فيمن دعا إلى هدى . وابن ماجه في المقدمة — باب من سن سنة حسنة رقم ٢٠٦ وقال : الترمذي : هنا حديث حسن صحيح .

وقال أحد علماء السلف لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون »  
فالخلاصة : أنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من البدعين خاصة أصحاب البدع الكفرية .

## سورة الحشر

قال صاحب البصائر :

« السورة مدنية بالاتفاق . آياتها أربع وعشرون ، كلماتها أربعمئة وخمسة وأربعون . حروفها ألف وتسعمائة وثلاث عشرة . فواصل آياتها ( من بر ) على الباء آيتان : العقاب فى موضعين . سميت سورة الحشر ، لقوله : لأول الحشر » .

معظم مقصود السورة : الخير عن جلاء نبى النضير وقسم الغنائم وتفصيل حال المهاجرين والأنصار والشكايه من المنافقين فى واقعة قريظة وذكر برصيصاء العابد والنظر إلى العواقب وتأثير نزول القرآن وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته وبيان أن جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله ( الأسماء الحسنى ) إلى آخر السورة .  
ليس فيها منسوخ .

المشابهات :

قوله تعالى : ( وما أفاء الله ) وبعده : ( فأخاء الله ) بغير واو ، لأن الأول معطوف على قوله : ( ما قطعتم ) والثانى استئناف ليس له به تعلق . وقول من قال : انه بدل من الأول زيف عند أكثر المفسرين . قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وبعده : ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ لأن الأول متصل بقوله : ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾ لأنهم يرون الظاهر ولا يفقهون على ما استتر عليهم . والفقه معرفة ظاهر الشرع وغامضة بسرعة فظة فنفى عنهم ذلك والثانى متصل بقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أى لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا .  
وجه إرتباطها بما قبلها :

وذلك من وجوه

( ١ ) إن من آخر السالفة قال : ( كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ) وفى أول هذه قال « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » .

( ٢ ) إن فى السابقة ذكر من خاد الله ورسوله وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله .

( ٣ ) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا وفى هذه ذكر ما حل باليهود

وبيان عدم فائدة تولى المنافقين إياهم « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله ﷺ — على ألا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة لا ترد له راية

فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبي ﷺ — بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس وكان عليه الصلاة والسلام قد أطلع منهم على خيانة حين أتاهم ليستعينهم في رية المسلمين من بنى عامر عند منصرفه من بئر معونة إذ هموا بطرح حجر عليه فعصمه الله .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهاً المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله ﷺ — واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل في بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب وقالوا ذرنا نبكى شجوناً ثم ائتمر أمرك ) فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأخذابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم . وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأركة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة وقذف الله الرعب في قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من متاعهم ، فحملوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم هما آل أبي الحقيق وآل جحي بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالخيبر وقبض النبي ﷺ — أموالهم وسلاحهم فوجد خمسين درعاً وخمسين سيفاً .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

## معاني المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير ( بزنة أمير ) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قريظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ، أى : جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر : إجلاء غمر إياهم من خير إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المشيدة ، مانعهم حصونهم من الله : أى : مانعهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى : جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا : أى : من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذف الشيء : رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر . يخربون : أى : يهدمون ، فاعتبروا : أى : فاتعظوا ، والاعتبار : النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليُعرف بالنظر فيها شئ آخر من جنسها ، وأجلت القوم عن منازلهم : أى : أخرجتهم منها ، وجَلّوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الاجلاء والاخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا الجماعة ، والثانى يكون لواحد ولجماعة وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما : والليتة : النخلة .

## المناسبة وإجمال المعنى

لقد نقض اليهود عهد رسول الله ﷺ — وظاهروا المشركين اتكالاً على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم ، فتهباً رسول الله ﷺ — وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدمه حصنوا الأزقة فحاصروهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأى إلا الجلاء ، وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

## أضواء كاشفة

اجلاء بنى النضير يحتاج فهمه إلى مقدمة تاريخية بسيطة ، تلخص فى أن النبى ﷺ — حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود ، وعقد معهم العهد على أن لا يقاتلهم ، ولا يقاتلوه ، وظل الحال كذلك حتى وقع ما جعل المسلمون يحاصرون بنى قينقاع ويجلوهم عن المدينة ، عقب غزوة بدر ، ثم كانت غزوة أحد التى هزم فيها جيش المسلمين ، وكان لهذا أثر عميق فى نفوس المنافقين واليهود ، وقبائل العرب مما كان سبباً فى حوادث تابعت كيوم الرجيع — وفيه قتلت هزيلة ثلاثة من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحداً فى الطريق ، وباعت إثنين لقريش قتلوهما ، وهما زيد بن الدثنة وخبيب — ويوم بئر معونة ، وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلة . ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين فى بئر

معونة والرَّجِيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من محمد وصحبه ، ووجدوا ما أضعف في نفوسهم هيئته ، وفكر النبي — ﷺ — كثيراً في هذا الأمر ، وعمل على تقوية الجبهة الداخلية حتى لا يكون هناك خلاف في وجهة النظر في المدينة وما حوالها ، ورأى النبي أن من الحكمة السياسية أن يستطلع نوايا اليهود ؛ فذهب يوماً إلى بنى النضير يسألهم المعونة في دية قتيلين قتلتهما أحد المسلمين خطأ ، وهما من بنى عامر حلفائهم ، ذهب إليهم في عشرة من أصحابه . فلما ذكر لهم ما جاء من أجله أظهروا الغبطة والسرور ، إلا أنه بدت فيهم حركة مريبة وأنهم يدبرون قتله على يد عمر بن جحاش بن كعب اليهودي بواسطة حجر يلقيه على النبي من فوق السطح وهو جالس بجوار الجدار ، فلما أطلع الله على ذلك خرج الرسول وحده وقصد المدينة ، وظن من معه من الصحابة أنه قام لبعض شأنه فلما استبطأوا النبي طلبوه فعلموا أنه قصد المدينة ودخل المسجد ، فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ، ومن اعتزامهم الغدر به ، قرر المسلمون إجلاءهم من المدينة حتى يهدأ الجو ، ويصفو ، فأرسل النبي لهم محمد بن مسلمة وقال لهم على لسان الرسول : أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما همتم به من الغدر بى . ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه . ضاقت الدنيا في وجه بنى النضير وتشاوروا في أمرهم ، وبيناهم كذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبى المنافق بشير عليهم بالبقاء والتحصن ، ويعرض عليهم ألفين من قومه وغيرهم . فانتهى الأمر فيما بينهم إلى التحصن بالحصون ، وظنوا أنها تمنعهم من النبي — ﷺ — أما المسلمون فساروا إليهم وحاصروهم عشرين ليلة ، وأمر النبي المسلمين أن يقطعوا نخلهم أو يحرقوه حتى لا تبقى اليهود متعلقة بأموالها متحمسة لديارها ، وجزع اليهود ، ونادوا يا محمد : قد كنت تنهى عن الفساد وتصيب من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها ﴾ (١) الآية .

وفى الآيات التى بين أيدينا يخبر الحق — تبارك وتعالى — بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض يسبحه ويقده ويصلى له ويوحده ، ويتقاد له ويسجد : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ (٢) وكيف لا يكون ذلك كذلك ؟ وهو العزيز الجبار الحكيم الفعال ، ومن مظاهر هذا إجلاء بنى النضير الذى ذكر فى قوله تعالى بما معناه : هو الحق سبحانه الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب — وهم بنو النضير من ديارهم وأموالهم بعد ما نقضوا العهود ، وعادوا الرسول والمؤمنين أخرجهم فى وقت الحشر الأول من ديارهم .

سبحانه أخرج بنى النضير من ديارهم رغم كثرة عددهم ، ووفرة عُددهم ، وقرب بنى قريظة وأهل خير منهم ، وعرض المنافقين مساعدتهم عليهم ، لهذا كله ما ظن المسلمون أنهم يخرجون ، وقد ظنوا هم أن حصونهم تمنعهم من بأس الله إذ جاءهم ، فما أغنى عنهم من ذلك شيء أبداً ، وجاءهم

(١) سيرة ابن هشام — أمر إجلاء بنى النضير ٣ / ١٩٩

(٢) سورة الإسراء الآية : ٤٤

من الله ما لم يكن بياهم ، وقد قذف الله في قلوبهم الرعب ، وكيف لا .. ؟ والنبى نصر بالرعب من بشيرة شهر ، فكان ما أراد المسلمون ، وضاحوهم على أن يخرجوا من ديارهم ، ولكل ثلاثة منهم يعير ، يحملون عليه ما شاعوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فكانوا يخرجون بيوتهم بأيديهم ليأخذوا ما غلا ثمنه وخف حمله ﴿ يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ وتفكروا في عاقبة من خاف الله ورسوله ، ومن لم يخف الله ورسوله .

ولولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء لكان لهم عذاب في الدنيا أشد ، وهو القتل والأسر ، ولهم في الآخرة على كفرهم عذاب النار . ذلك كله بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وعادوه ، وأرادوا قتله ، وأطلقوا عليه ألسنتهم وأيديهم بالسوء ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، وانظر إلى القرآن حيث جعل عداوة الرسول عداوة الله ، كما أن طاعته كذلك .

وقد كان المسلمون أثناء الحصار يقطعون نخيلهم ويحرقونه ، فقل إن هذا سعى في الأرض بالفساد والله حرمه ، فأجاب العزيز الحكيم بقوله : ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها . كما هي بلا قطع فذلك كله بإذن الله وأمره ، وفي هذا خير بلا شك ، والله أمر بهذا ليعز المؤمنين ، وليذل ويخزي الفاسقين .

### غزوة بنى النضير

أ ( قوات الطرفين :

أولاً : المسلمون :

مسلمو المدينة بقيادة الرسول — ﷺ —

ثانياً : اليهود :

بنو النضير : الذين كانت منازلهم بناحية « الغرس » وما والاها .

ب ( الهدف :

التخلص من بنى النضير لتآمرهم على اغتيال الرسول — ﷺ —

ج ( الحوادث :

ذهب النبى — ﷺ — إلى منازل بنى النضير في ضواحي المدينة ليستعين بهم في دية قتيلين معاهدين للمسلمين قتلها عمرو بن أمية الضمري خطأ دون أن يعلم بعهدهما فلما فاوضهم الرسول ، أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم مع عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر وعمر وعلى . وفي أثناء تبسط بعضهم معه في الحديث رأى أن بعضهم يأتمرون به ، فيذهب أحدهم إلى ناحية ، وينتدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ثم يدخل أحدهم « عمرو بن جحاش » البيت الذى كان الرسول — ﷺ — مستنداً إلى جداره .

حينذاك رابه أمرهم وزاده رية ما كان يبلغه سابقاً من حديثهم عنه واثارهم به ، فترك موقعه بالقرب من الجدار ، وقفل راجعاً إلى المدينة وحده . ولما امتبطأ أصحابه ، قاموا للتفتيش عنه ، فأروا رجلاً مقبلاً من المدينة أخبرهم أن النبي ﷺ — هناك ، فأسرعوا يلحقون به . فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به ، تنبهوا إلى حركات اليهود التي تدل على مؤامرتهم للقضاء على حياة الرسول ﷺ —

وقد عرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذى أراد قتل النبي ﷺ — بإلقاء حجر الرحي عليه من فوق سطح الجدار الذى كان الرسول تحته .

استدعى الرسول ﷺ — محمد بن مسلمة وقال له : « اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما همم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشراً ، فمن رنى بعد ذلك ضربت عنقه » .

لم يجد اليهود بعد ذلك مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، إلا أن منافقى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبى أرسلوا إليهم : « أن اثبتوا ونحن نصركم على محمد وصحبه » .

عند ذاك عادت لليهود ثقتهم بأنفسهم ، واستقر رأيهم على القتال ، وأرسلوا للنبي ﷺ — من يقول له : « لن نخرج فافعل ما بدالك » .. ثم اجتمعوا بحصونهم ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها فى القتال ، وكدسوا أرزاقاً تكفيهم لمدة سنة فى حصارهم ، وكان الماء متيسراً لديهم باستمرار . تحرك المسلمون بقيادة الرسول القائد إلى ديار بنى النضير ، فحاصروهم عشرين ليلة ، كانوا أثناءها يحتلون شارعاً بعد شارع وداراً بعد دار ولما رأى الرسول ﷺ — إصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية ، أمر أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرقوه ، حتى لا تبقى اليهود على حماسها فى القتال طمعاً فى المحافظة على أموالها .

وجزع اليهود وانتظروا عبثاً إسراع عبد الله بن أبى أو القبائل الأخرى لنجدتهم ، فسألوا محمداً — أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذرائعهم ، حتى يخرجوا من المدينة .

وافق الرسول ﷺ — على مصالحتهم بشرط أن يخرجوا من المدينة ولكل ثلاثة منهم بغير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فخرج بعضهم إلى « خير » وبعضهم إلى ضواحي الشام ، وتركوا للمسلمين وراءهم مقام كثيرة من سلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وغللاً عظيمة ، كما أصبحت أرضهم للمسلمين .



## التفسير

قوله تعالى : ﴿ سُبْحَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هذا إخبار منه تبارك وتعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلى له ويوحده كقوله تعالى : ﴿ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمٰوٰتِ السَّبْعُ وَالْاَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِيحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : منيع الجنب ( الحكيم ) فى قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ : يعنى يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى وغير واحد كان رسول الله — ﷺ — لما قدم المدينة هادئهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقتلوه فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يصد فأجلاهم النبى — ﷺ — وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم إلى أذرعات من أعلى الشام وهى أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خير ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : ﴿ يَخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود بسنده عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبى — ﷺ — أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبى ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله — ﷺ — يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله ليقاتلنه أو لنخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجمعوا لقتال النبى — ﷺ — فلما بلغ ذلك النبى — ﷺ — لقىهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » . فلما سمعوا ذلك من النبى — ﷺ — تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتب كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نساءكم شيء وهو الخلاخيل . فلما بلغ كتابهم النبى — ﷺ — أجمعت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبى — ﷺ — : أخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقى بمكان المنصف ، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنوا بك فقص خبرهم فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله — ﷺ — بالكتاب فحصرهم فقال لهم : « إنكم والله لا تؤمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا الغد على بنى قريظة

بالكتائب وترك بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلبت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكان نخل بنى النضير لرسول الله ﷺ — خاصة أعطاه الله إياها وخصه بها فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يقول بغير قتال ، فأعطى النبي ﷺ — أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ — التي في أيدي بنى فاطمة — رضى الله عنها — (١)

وهذا ملخص لغزوة بنى النضير كما ذكره أصحاب المغازي والسير : وإنه لما قتل أصحاب بدر معونة من أصحاب رسول الله ﷺ — رضى الله عنهم وكانوا سبعين . وأقلت منهم عمرو بن أمية الضمري فلما كان في أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر وكان معهما عهد من رسول الله ﷺ — وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول الله ﷺ — فقال له رسول الله ﷺ — : « لقد قتلت رجلين لأديهما » وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد فخرج رسول الله ﷺ — إلى بنى النضير ليستعينهم في دية ذينك الرجلين وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقها . قال محمد بن اسحاق بن يسار في كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله ﷺ — إلى بنى النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري للجوار الذي كان رسول الله ﷺ — عقد لهما فيما حدثني يزيد بن رومان وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف فلما آتاهم رسول الله ﷺ — يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله ﷺ — إلى جنب جدار من بيوتهم — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة . كما قال : ورسول الله ﷺ — في نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى — رضى الله عنهم — فأقى رسول الله ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبي ﷺ — أصحابه قاموا في طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسأله عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ — حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله ﷺ — بالتهوؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه في الحصون فأمر رسول الله ﷺ — بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ .

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعه ومالك بن أبي قوفل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف في قلوبهم الرعب ، فسأل رسول الله ﷺ — أن يجلبهم عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله ﷺ — فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة — سماك بن خرشة — ذكرا فقراً فأعطاها رسول الله ﷺ — قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . قال ابن اسحاق : وقد حدثني بعض آل يامين أن رسول الله ﷺ — قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأني ، فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن اسحاق : ونزل في بنى النضير سورة الحشر بأسرها .<sup>(١)</sup> فقوله تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعنى بنى النضير . ﴿ من ديارهم لأول الحشر ﴾ . قال ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض الحشر ههنا — يعنى الشام — فليقرأ هذه الآية : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ﴾ قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض الحشر »<sup>(٢)</sup> . وحدثنا أبو سعيد الأشج بسنده عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ﷺ بنى النضير قال : « هذا أول الحشر وأنا على الأثر » ورواه ابن جزير عن ابن بشار عن ابن أبي عدي عن عوف عن الحسن به<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ ما ظننم أن يخرجوا ﴾ أى : في مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أى جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال . كما قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه .

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشغب ٨ / ٨٤

(٣) تفسير الطبري — طبعة الحلبي ٢٨ / ٢٩

(٤) سورة النحل الآية : ٢٦ .

وقوله : ﴿يَجْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هو نقص ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ — يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها . يقول الله تعالى : ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولَى الْأَبْصَارِ﴾ . وقوله : ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذِبُ فِي الدُّنْيَا﴾ أى : لو أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفى من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ونحو ذلك قاله الزهري عن عروة والسدي وابن زيد لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم في الدار الدنيا مع ما أعد لهم في الدار الآخرة من العذاب في نار جهنم . قال ابن أبي حاتم بسنده عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناصية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ — حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهي السلاح فأجلاهم رسول الله ﷺ — قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم في آى من التوراة وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله ﷺ — وأنزل الله فيهم : ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ — إِلَى قَوْلِهِ — وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ وقال عكرمة : الجلاء : القتل ، وفي رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد : وقال الضحاك أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بغيراً وسقاء . فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ — قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بغيراً وسقاء . والجلاء : إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى<sup>(١)</sup> .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهري بسنده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله ﷺ — بعثه إلى بنى النضير وأمره أن يؤجلهم في الجلاء ثلاثة أيام<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ أى : حتم لازم لا بد لهم منه .

وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ — وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿وَمَنْ يَشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل — انظر الدار المنثور ٦ / ١٩١

(٢) الدار المنثور للسيوطي — طبعة دار الفكر ٨ / ٩١

وقوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ : اللين : نوع من التمر وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر . وقال كثيرون من المفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخلة ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً . وذلك أن رسول الله ﷺ — لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن اسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله ﷺ — : إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة (١) أى ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيبته وقدره ورضاه وفيه نكاية للعدو وخزي لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هى مغامم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه ، وقد روى نحو هذا مدفوعاً فقال الترمذى بسنده عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله ﷺ — هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ . وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخيل ثم شدد عليهم فأتوا النبي ﷺ — فقالوا : يا رسول الله : علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾ (١) . وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ — قطع نخل بنى النضير وحرق (٢) ، وأخرجه صاحبها الصحيح من رواية موسى بن عقبة (٣) بنموه ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : أحاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ — فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود بالمدينة ، ولهما أيضاً عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ — حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة فأنزل الله ﷻ — : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ .

(١) تفسير الطبرى — طبعة الحلبى ٢٨ / ٣٤

(٢) سنن الترمذى — كتاب التفسير — تفسير سورة الحشر ٥ / ٨١ رقم ٣٣٥٧

ما هو الفىء وما حكمه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَى لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا تَنَزَّلُ الرُّسُلُ فَخْذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

### معاني المفردات

( وما أفاء ) : المراد ما رده الله على رسوله ، والفىء في اصطلاح علماء الإسلام ما أخذ من الكفار بلا حرب ولا إيجاف خيل بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب ، ولكل تقسيم يخالف الآخر . ( فما أوجفتم ) وجف الفرس والبعير وجيفاً : عدا ، وأوجفه : جعله يعدو أى يسرع في الجرى ( من خيل ولا ركاب ) الخيل معروفة ، والركاب هى الإبل خاصة ( دولة ) : يقال : تداول القوم الكرة كانت في يد هذا ثم في يد هذا ، والإسم : الدولة بضم الدال وفتحها ، وقال بعضهم : الدولة في المملك ، والدولة في المملك . ( تبوءوا الدار والإيمان ) إتخذوها مباءةً ومنزلاً مع الإيمان ( ويؤثرون ) الإيثار هو تقديم الغير على النفس في أغراض الدنيا ( خصاصة ) حاجة ( شح نفسه ) الشح لؤم الطبع ويلزمه البخل مع الحرص ( غلاً ) حقداً وحسداً .

وهذا شروع في بيان حكم الأموال التي أخذت منهم بعد بيان ما حل بهم في الدنيا ، وما أعد لهم في الآخرة ، ثم استطرده فذكر أصناف المؤمنين الذين يستحقون الفىء ..

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه ما حل ببني النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتخریق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلالهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع — ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم فجعله فيئاً لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى في السلاح والكراع عُدّة في سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله ،

روى أن الصحابة — رضى الله عنهم — طلبوا من الرسول — ﷺ — أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة في بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتبعتم أنفسكم في تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفىء فيما لم تتحملوا في تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء

وبعد أن بين مصارف الفىء ، وذكر أنه لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين — ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكني المدينة وبالع في مدحهم ، فذكر لهم هذه الفضائل :

- (١) لأنهم يحسبون المهاجرين .
  - (٢) لأنهم ليس في قلوبهم حقد ولا حسد لهم .
  - (٣) لأنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم في أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذي يدسّ النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .
- ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يحيون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل في قلوبهم حقداً وحسداً لهم .

### أضواء كاشفة

وما أعاده الله على رسوله من أموال بني النضير فما ركبتم لأجلها خيلاً ولا إبلاً ولا تجشتم في تحصيلها مشقة ، ولا لقيتم بها حرباً ، ولذا كانت هذه الأموال لرسول الله بعد تقسيم خمسها على مستحقيه كما في الآية .

ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء من أعدائه ، وفي هذا بيان أن الأموال للرسول وليست

لأصحابه لأنهم لم يوجفوا لها خيلاً ، ولم يركبوا لها إبلاً ، ولم يقاسوا فيها من شذائد الحروب ، والله على كل شيء قدير يسقط من يشاء على من يشاء .

وكان الله خلق المال والمتاع ليتقرب به العبد إلى ربه ، فإذا صرف في غير محله ، واستولى عليه الكفار ليصرفوه في غير وجوهه فقد خرج عن وضعه الأصلي ثم إذا عاد إلى المسلم الذي ينفقه في وجوه الخير فقد عاد إلى الوجه الأول ، ولذا عبّر الله بقوله : ما أفاء الله على رسوله .

وكان سائلاً سأل وقال : قد علمنا حكم ما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير فما حكم الفئء إذا كان من غيرهم ؟ والجواب هو : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ، ولذی القرى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

والفئء يقسم خمسة أقسام ، خمس منها يقسم خمسة أخماس : سهم لله وللرسول ، وكان له في حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته ، وسهم لذوی القرى من أقارب الرسول وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب ، والأربعة أخماس الباقية فهي للنبي - ﷺ - خاصة ، وقد وزعها في حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرهما الفقر ، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند أى للجيش نالم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص ، أما الغنيمة فتقسم خمسة : - خمس لهؤلاء الخمسة كما في سورة الأنفال والأربعة أخماس الباقية للمقاتلين الذين حضروا المعركة كما في سورة الأنفال ، وإنما كان تقسيم الفئء على هذا النظام كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم يتداولونه بينهم ، ويحرم الفقير منه ، فإذا : يفهم من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبي على المهاجرين دون الأنصار . من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبي على المهاجرين دون الأنصار .

أيها المسلمون ، ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله وهذا هو دستور الإسلام الحق الجامع لكل أمر ونهى ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « للفقراء المهاجرين في سبيل الله .. » فكأن الله قال : أعني بأولئك الأربعة - لذی القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل . هؤلاء الفقراء المهاجرين أو الأنصار أو التابعين . وقال بعضهم : المعنى اعجبوا لهؤلاء الفقراء حيث تركوا الأوطان والأموال وتحملوا الضيق والتغرب في حب النبي - ﷺ - وهل الفقر شرط في إعطائهم أولاً ؟ قولان : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله : حالة كونهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ناوين نصرة الرسول ودينه ، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون في دعوى الإيمان حيث نالهم ما نالهم من أجله ؛ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم هم الأنصار - رضى الله عنهم - نزلوا المدينة واتخذوها مباءة ومنزلاً للإسلام ، وموتلاً له ، وألفوا الإيمان وأخلصوا له من قبل هجرة المهاجرين إليهم يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين ، ولا يجدون في صدورهم حسداً ولا غيظاً مما أوتوا أى مما أعطى المهاجرون من الفئء وغيره ، مع حرمانهم منه ، فنفسهم لم تتبع ما أعطى المهاجرون ولم تطمع إلى شيء منه تحتاج إليه ،



على أنهم يؤثرون على أنفسهم غيرهم ، ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من الطيبات مع الحاجة إليه ، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل لأخيه المهاجر عن واحدة وخيره فيهما ، وهذا هو مظهر من مظاهر الإخاء الذي فعله النبي ﷺ — عندما استقر بالمدينة ، وهذا بلا شك يدل على صفاء النفس من أكراد المادة والدنيا ، ويدل على قوة الروح ومبلغ العزوف عنها ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون لا غير ، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير ، وهو سبب الكثير من الجرائم : والذين جاءوا من بعدهم إلى الدين الجديد حيث تأخر زمنهم أو جاءوا بعد المهاجرين وآمنوا بعد الفتح واستتباب الدولة الإسلامية حالة كونهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فهي أخوة في الدين ، ولا شك أنها أعز من أخوة النسب ، اللهم لا تجعل في قلوبنا غلاً ولا حقداً للذين آمنوا مطلقاً ، ربنا إنك رؤوف بنا رحيم بخلقك ، ومن هذا يظهر موقف الصحابة ومكائهم ، وأن الواجب أن ندعوا لهم بخير وأن نفهم فيهم الصدق والإخلاص الكامل . وفي الحديث : « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »<sup>(١)</sup> .

### التفسير

يقول تعالى مبيناً ما الفىء وما صفته وما حكمه ، فالفىء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاب خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصالحة بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله في قلوبهم من هبة رسول الله ﷺ — فأفأه الله على رسوله ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجوه البر والصالح التي ذكرها الله — عز وجل — في هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أى من بنى النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يعنى الإبل ﴿ ولكن الله يسلط رسوله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ أى : هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء . ثم قال تعالى : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ أى جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بنى النضير . ولهذا قال تعالى : ﴿ فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ إلى آخرها . والتي بعدها . فهذه مصارف أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد بسنده عن عمر — رضى الله عنه — قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ﷺ — خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته ومابقى جعله في الكراع والسلاح في سبيل الله — عز وجل —<sup>(٢)</sup>

(١) قال المعجلون في كشف الخفا : رواه البيهقي . وأسند الديلمى عن ابن عباس بلفظ : « أصحابي بمنزله النجوم في السماء

بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

(٢) مسند أحمد ١ / ٢٥ ، ٤٨

وفي الصحيحين عن مالك بن أوس قال : أرسل إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين تعالى النهار فجثته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دَفَّ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشيء فأقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيري بذلك . فقال : خذه فجاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين : هل لك في عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ؟ قال : نعم ، فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين : هل لك في العباس وعلى ؟ قال نعم ، فأذن لهما فدخلوا . فقال العباس : يا أمير المؤمنين : اقض بينى وبين هذا — يعنى علياً ، فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وارحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلى أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر — رضى الله عنه — : اتقد ، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله — ﷺ — قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا نعم ، ثم أقبل على عليٍّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله — ﷺ — قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بني النضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله — ﷺ — يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ويجعل ما بقي أسوة المال ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم ، ثم أقبل على عليٍّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك ؟ قالوا نعم ، فلما توفى رسول الله — ﷺ — قال أبو بكر : أنا ولى رسول الله — ﷺ — فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها . فقال أبو بكر — رضى الله عنه — : قال رسول الله — ﷺ — : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أنا ولى رسول الله — ﷺ — وولى أبى بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتكما فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تليها بالذى كان رسول الله — ﷺ — يليها فأخذتماها منى على ذلك ثم جئتما لى لأقضى بينكما بغير ذلك ، والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها ، فرداها إليَّ<sup>(١)</sup> ، أخرجاه من حديث الزهرى به قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله — ﷺ — قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير قال : فجعل يرد بعد ذلك ، قال وإن أهلى أمرولى أن آتى النبى — ﷺ — فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت

تقول : كلا والله الذي لا إله إلا هو لا يعطيكمهن وقد أعطانيهن أو كما قالت ، فقال نبي الله : « لك كذا وكذا » قال : وتقول كلا والله . قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال وتقول : كلا والله ، قال : ويقول : « لك كذا وكذا » قال حتى أعطاهما حسبت أنه قال عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال<sup>(١)</sup> . ورواه البخاري ومسلم<sup>(٢)</sup> من طرق عن معمر به .

وهذه المصارف المذكورة في هذه الآية هي المصارف المذكورة في خمس الغنيمة وقوله تعالى : ﴿ كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ أى جعلنا هذه المصارف لمال الفئء كى لا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أى مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدته في كتاب الله تعالى وعن رسول الله ﷺ — قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذى تقول . تقول : فما وجدت فيه : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ قالت بلى ، قال : فإني سمعت رسول الله ﷺ — ينهى عن الواصلة والواشمة والناقصة ، قالت : فلعله في بعض أهللك ، قال : فادخلى فانظري ، فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت : ما رأيت بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود قال : لعن الله الواشمت والمستوشمات والمتمصصات والمتفلمات للحسن ، المغيرات خلق الله — عز وجل — قال فبلغ امرأة من بنى أسد في البيت يقال لها أم يعقوب فجاءت إليه فقالت : بلغني أنك قلت كيت وكيت ، قال : مالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ — وفي كتاب الله تعالى ، فقالت : إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدته أنا قرأت ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) قالت بلى ؟ قال : اذهبي فانظري فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً قال : لو كان كذا لم تجامعنا . أخرجاه في الصحيحين<sup>(٤)</sup> من حديث عبدالله بن مسعود وقد ثبت في الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ — قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا به ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »<sup>(٥)</sup>

(١) مسند أحمد ٣ / ٢١٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجهاد — باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم رقم ١١٦٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشيب ٨ / ٩٢

(٤) مسند أحمد ١ / ٤٣٣ ، ٤٣٤

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب اللباس والزينة — باب قتل الواصلة والمستوصلة رقم ١٣٧٧

صحيح البخاري — كتاب الاعتصام — باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ — ٩ / ١١٦

سلم — كتاب الفضائل — باب توقيه — وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٤ / ١٨٣٠ رقم ١٣٠

وقال النسائي بسنده عن سعد بن جبير عن عمرو ابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ﷺ — : أنه نهى عن الدباء والحتب والمزفت والنقير ثم تلا رسول الله ﷺ — : ( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا )<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم : قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئتهم . رواه البخارى<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أى من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . قال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال المهاجرون أيا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أنيتم عليهم ودعوتم الله لهم وقال البخارى بسنده عن يحيى بن سعيد أنه سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ﷺ - الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثره » . تفرد به البخارى من هذا الوجه<sup>(٣)</sup> .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار أقسم بيننا وبين إخواننا النخل . قال : لا . فقالوا يكفونا المؤنة وتشركونا فى الثمر قالوا سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم<sup>(٤)</sup> ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أى : لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة ﴾ يعنى الحسد ﴿ مما أوتوا ﴾ قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد ، ومما يستدل

(١) سنن النسائي — كتاب الأشربة — باب ذكر الدلالة على النبى للموصوف من الأدعية ٨ / ٣٠٨

(٢) صحيح البخارى — كتاب التفسير — سورة الحشر ٦ / ١٨٥

(٣) مسند أحمد ٣ / ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤

(٤) صحيح البخارى — كتاب مناقب الأنصار — باب قول النبى ﷺ — للأنصار : « اصبروا حتى تلقوني على الخوض »

به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ — فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ — مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ — مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل مثل حالته الأولى فلما قام رسول الله ﷺ — تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إني لأحيت أئى فأقسمت أئى لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : « نعم » قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أئى لم أسمعنه يقول : إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أن أحترق عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بينى وبين أئى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ﷺ — يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ — ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعائى فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أئى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التى بلغت بك وهى التى لا تطاق<sup>(١)</sup> .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ ولا يجلدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ يعنى مما أوتوا المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم فى الأنصار فعاتبهم الله فى ذلك فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ قدير ﴾ قال : وقال رسول الله ﷺ — : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله ﷺ — « أو غير ذلك » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يارسول الله<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعنى حاجة أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدعون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ — أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل »<sup>(٣)</sup>

(١) مسند أحمد ٣ / ١٦٦

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٢ طبعة الحلبي

(٣) سنن أبى داود — كتاب الزكاة . باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢ / ٣١٢ رقم ١٦٧٧

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ﴾ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَصَدَّقُوا وَهُمْ يَحِبُّونَ مَا تَصَدَّقُوا بِهِ وَقَدْ لَا يَكُونُ لَهُمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ وَلَا ضَرُورَةٌ بِهِ وَهَؤُلَاءِ آثَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مَعَ خِصَاصَتِهِمْ وَحَاجَتِهِمْ إِلَى مَا أَنْفَقُوهُ ، وَمِنْ هَذَا الْمَقَامِ تَصَدَّقَ الصَّدِيقُ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — بِجَمِيعِ مَالِهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — « مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ » ؟ فَقَالَ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ — أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ <sup>(١)</sup> ، وَهَكَذَا الْمَاءُ الَّذِي عَرَضَ عَلَى عِكْرَمَةَ وَأَصْحَابِهِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ فَكُلَ مِنْهُمْ يَأْمُرُ بِدَفْعِهِ إِلَى صَاحِبِهِ وَهُوَ جَرِيحٌ مَثْقَلٌ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَى الْمَاءِ ، فَردَهُ الْآخِرُ إِلَى الثَّالِثِ فَمَا وَصَلَ إِلَى الثَّالِثِ حَتَّى مَاتُوا عَنْ آخِرِهِمْ وَلَمْ يَشْرَبْهُ أَحَدٌ مِنْهُمْ — رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ — وَأَرْضَاهُمْ — .

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ — ﷺ — فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ . فَأَرْسَلِ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئاً ، فَقَالَ النَّبِيُّ — ﷺ — « أَلَا رَجُلٌ يَضِيفُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ هَذَا ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ — ﷺ — لَا تَدْخِرِيهِ شَيْئاً . فَقَالَتْ : وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلَّا قُوتُ الصَّبِيَةِ قَالَ : فَإِذَا أَرَادَ الصَّبِيَةُ الْعِشَاءَ فَنُومِيهِمْ وَتَعَالَى فَأُطْفِئِ السِّرَاجَ وَنَطْوِ بِطُونَنَا اللَّيْلَةَ فَفَعَلَتْ ، ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ — ﷺ — فَقَالَ : « لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ — عَزَّ وَجَلَّ — أَوْ ضَحِكَ — مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ » وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ <sup>(٢)</sup>

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُوَقِّ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ أَيُّ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشَّحِّ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ .

قَالَ أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ — ﷺ — قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الشَّحَّ فَإِنَّ الشَّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ » <sup>(٣)</sup> . إِنْفَرَدَ بِإِخْرَاجِهِ مُسْلِمٌ فَرَوَاهُ عَنْ الْقَعْنَبِيِّ عَنْ دَاوُدَ بْنِ قَيْسٍ بِهِ <sup>(٤)</sup> .

وَقَالَ الْأَعْمَشُ بِسَنَدِهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ — ﷺ — « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاتَّقُوا الْفَحْشَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشَّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، أَمْرُهُمْ بِالظُّلْمِ فَظَلَمُوا ، وَأَمْرُهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا ، وَأَمْرُهُمْ بِالْقَطِيعَةِ

(١) سنن الترمذی — کتاب المناقب — باب فی مناقب أبی بکر وعمر رضی اللہ عنہما ٥ / ٣٦٧٥ وقال الترمذی حديث حسن صحيح . وسنن أبی داود — کتاب الزکاة — باب الرخصة للرجل یمزج من ماله ٢ / ٣١٢ رقم ١٦٧٨  
(٢) صحيح البخاری — کتاب التفسیر — سورة الحشر ٦ / ١٨٥  
(٣) مسند أحمد ٣ / ٢٢٣  
(٤) صحيح مسلم — کتاب البر والصلة — باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦ رقم ٥٦

فقطعوا»<sup>(١)</sup> ورواه أحمد بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً »<sup>(٢)</sup> وقال ابن أبي حاتم بسنده عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال يا أبا عبد الرحمن إني أخاف أن تكون أصابتي هذه الآية .

وقال سفيان الثوري بسنده عن أبي الهياج الأسدي قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسي . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إني إذا وقيت شح نفسي لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف — رضى الله عنه — رواه ابن جرير . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : « برئ من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى في النائة »<sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال في آية براءة : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لأنصارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم في السر والعلانية . ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ﴾ أى : قائلين ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ وما أحسن ما استنبط الصحابة ليس له في مال الفىء نصيب لعدم إتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ وقال ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم فسوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ الآية<sup>(٤)</sup>

وقال اسماعيل بن عليه بسنده عن عائشة قالت : أمرتم بالإستغفار ولأصحاب — محمد صلى الله عليه وسلم — فسببتموهم . سمعت نبيكم ﷺ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها

(١) سنن أبي داود — كتاب الزكاة — باب في الشح ٢ / ٣٢٤ رقم ١٦٩٨

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٥٠٥

(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٣ طبعة الحلبي

(٤) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٤ طبعة الحلبي

أولها « رواه البغوى <sup>(١)</sup> . وقال أبو داود بسنده عن الزهري قال : قال عمر — رضى الله عنه — : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال الزهري : قال عمر — رضى الله عنه — : هذه لرسول الله — ﷺ — خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم — والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم — والذين جاؤا من بعدهم ، فاستوعبت الآية الناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . قال أيوب : إلا بعض من تملكون من أركانكم <sup>(٢)</sup>

وقال ابن جرير بسنده عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن الخطاب : ( إنما الصدقات للفقراء والمساكين — حتى بلغ — عليم حكيم ) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : ( واعلموا أنما غنمنا من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى ) الآية : ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : ( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى — حتى بلغ للفقراء — والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم — والذين جاؤا من بعدهم ) ثم قال : استوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت لياتين الراعى يسير / حُمْرَةٌ نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه . <sup>(٣)</sup>

### هكذا المنافقون واليهود

\* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأََدْبَرُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْنِطُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ

(١) تفسير البغوى — سورة الحشر ٤ / ٣٢١

(٢) سنن أبى داود — كتاب الخراج والإمارة والفتىء — باب فى صفايا رسول الله — ﷺ — من الأموال ٣ / ٣٧٢ رقم ٢٩٦٦

(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٣٧ طبعة الحلبي



ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَبَّاسًا كَفَرًا قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾

### معاني المفردات

نافقوا : أى : أظهروا غير ما أضمرنا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان الأصدقاء . واحداهم : أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لنصرتكم : أى : لتعاونتكم ، ليولن الأدبار : أى : ليقرن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لا يفقهون : أى : لا يعلمون عظمتة تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى : مجتمعين ، محصنة : أى : بالدروب والخنادق وغيرها ، جُذُر : أى : حيطان ، واحداهما جدار ، بأسهم : أى : جريهم ، وشتى : أى : متفرقة ، واحداهما شتيت ، وبال أمرهم : سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلاً وبيل : أى : وخيم سىء العاقبة .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء ، أردفه ذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول ورفقته لأولئك اليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله — ﷺ — بما قصه الله علينا وفصله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويغفونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن اسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبى بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

### أضواء كاشفة

انظر — يا من يتأتى منه النظر — متعجباً إلى الذين نافقوا فى إيمانهم وبعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل التى حكيت فى القرآن — يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم الذين كفروا من اليهود ، وهم بنو النضير ، وكانوا إخوانهم فى الدين والكفر والصدقة يقولون : والله لئن أخرجتم من دياركم كما يطلب

محمد وصحبه منكم لنخرجن معكم ، ولا نطيع في شأنكم أحداً يمنعنا من الخروج وإن طال الزمن ،  
ووالله لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولنعاوننكم على عدوكم ، ولو كانوا هم المسلمين . والله يشهد إن المنافقين  
لكاذبون في مواعيدهم وعهودهم المؤكدة بالإيمان ، والله لئن أخرج اليهود لا يخرجون معهم لأنهم  
منافقون ، والله لئن قوتل اليهود أى بنو النضير لا ينصرهم المنافقون أبداً ، وهذا وعد إخبار بالغيب  
وقد تحقق ذلك كله ، ولئن نصرهم فرضاً وتقديراً ليولن الأدبار ويمعنون في الفرار ، ولا يلوون على  
شيء فإنهم المنافقون وكفى .

لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة في صدورهم من الله - عز وجل - ذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون  
ولا يعرفون عظمة الله فيخشونه حق خشيته .

لا يقاتلونكم أى اليهود والمنافقون جميعاً إلا في قرى محصنة بالتحصينات التى عرفوها والتى ستعرف  
في المستقبل ، أو من وراء جدار ، نعم رأيانهم في حروب فلسطين لا يقاتلون الناس إلا كذلك ، فإن  
أفقدتهم هواء ، وقلوبهم مليئة بالجبن والخور والضعف وحب الدنيا وكرهية الموت والخوف الموروث  
من المسلمين ، وهم إن أبدوا شجاعة فشجاعة ظاهرة لا تلبث أن تناع ، ولقد صدق الله في وصفهم  
هذا الوصف الدقيق « بأستهم بينهم شديد » فهم كما يقول الشاعر :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طالب الطعن وحده والنزالا

وما أروع قول الله : « بينهم » أما إذا كان البأس والحرب بينهم وبين غيرهم كانوا أجبن من الجبن تحسبهم  
جميعاً مجتمعين ، والواقع أن قلوبهم واتجاههم شتى .

الله يقول ذلك عن اليهود ، وهو أصدق القائلين ، بقى من يقاتلهم هل هو مثلهم أو أشد ؟  
أم أصبح المسلمون تتوزعهم الفرق والخلافات وأصبحوا يجرّون وراء أمريكا وانجلترا ، وتركوا دينهم  
وقرائهم وراءهم ظهرياً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها المسلمون تشجعوا واتحدوا ، ولا يهنكم أمر تلك الشرزمة من العصابات اليهودية مهما  
ساعدتها أمريكا وانجلترا وروسيا فالله يقول : تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .  
مثل اليهود من بنى النضير كمثّل الذين من قبلهم حيث ذاقوا وبال أمرهم ، وعاقبة كفرهم قريباً ، فلم  
تنأخر عقوبتهم إلى يوم القيامة ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، وقد كان ذلك مع المشركين يوم بدر ،  
ومع بنى قريظة قبل بنى النضير ، ومثل المنافقين الذين وعدوا بنى النضير بالمساعدة ثم تخانواهم ، كمثّل  
الشیطان إذ قال للإنسان اكفر ، وأغراه على الكفر ، فلما كفر بالله وعصى رسله ، ووقع في عاقبة  
كفره تبرأ الشيطان منه ولم يقف معه وقال : كذباً ورياءً إلى برىء منك إلى أخاف الله رب العالمين ،  
فكان عاقبتهم - من وسوس بالكفر ومن كفر - أنهما في النار خالدین فيها ، وذلك جزاء الظالمين  
مطلقاً .

## التفسير

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى : كاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ﴿ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ لِيُولِنَ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ لَا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يعنى أنهم من جنبهم واهلهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾ أى : عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى : ﴿ وَيَذِيقُ بَعْضُكُم بِأَسَ بَعْضٌ ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف قال إبراهيم النخعى : يعنى أهل الكتاب والمنافقين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال مجاهد والسدى ومقاتل بن حيان : يعنى كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعنى يهود بنى قينقاع وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ﷺ — قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّ بَرِيءٌ مِنْكَ ﴾ يعنى مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين يعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حققت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعباد بالله — الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ إِنِّ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هى منه مع غيرها من الوقائع الشاكلة لها ، فقال ابن جرير بسنده عن أبى إسحاق قال : سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت علياً — رضى الله عنه يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراد فاعياه فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فیداوينا قال : فجاءوا جاءه إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبت فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء

إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعيتني أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك فاسجد لي سجدة فسجد له ، قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين فذلك قوله : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ (١)

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال : فتزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها في المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا لا بل قصها علينا ، قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، قالوا فوالله ما هذا إلا لشيء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأقموه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقية الشيطان فقال : إني أنا الذي أوقعتك في هذا ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ قتل (٢) . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص فوالله أعلم . وهذا القصة مخالفة لقصة جريج العابد ، فإن جريجاً اتهمته / امرأة بغى بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولي الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . قالوا : ياعدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا ، فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : يا غلام من أبوك . قال : أرى الراعي وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه . فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب ، قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت .

وقوله تعالى : ﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ أى : فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبي

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبي

## موجبات التقوى

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَشِيعَةً مُّتَصِدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۚ أَلَمْ يَكُنْ أَلَمًا مِّنَ الْمُهَيَّمِينَ الْعَزِيزُ ۚ الْجَبَّارُ الْمُنَكِّرُ ۚ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۚ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

## معاني المفردات

( لغد ) : المراد به يوم القيامة أطلق عليه لقربه وتحقيق وقوعه كالغد . ( الملك ) : المالك المتصرف في خلقه وملكه تصرفاً تاماً . ( القدوس ) : البليغ في البعد عن النقص أو الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله ( السلام ) : ذو السلامة من كل نقص وعيب . ( المؤمن ) : المصدق لنفسه ورسله فيما بلغوه عنه بالقول أو بخلق المعجزات على أيديهم أو هو واهباً لأمن لعباده . ( المهيمن ) : الرقيب الحافظ لكل شيء مأخوذ من قولهم : أمن الراعى الذئب على غنم إذا حفظهم حفظاً كاملاً من كل سوء . ( العزيز ) : الغالب من عز إذا غلب ، أو هو الذى لا مثل له من قولهم هذا شيء عزيز أو نادر المثال ( الجبار ) : الذى جبر خلقه على ما أراد ( المتكبر ) : البليغ الكبرياء والعظمة . ( الخالق ) : المقدر لخلقته على حسب ما تقضيه حكمته . ( البارئ ) : الموجد لخلقته برئياً من التفاوت المحل به . ( المصور ) : الموجد لصور الأشياء وكيفياتها . ( الاسماء ) : الأسماء الدالة على محاسن المعاني . ما مضى كان في الكلام على اليهود والمنافقين ، وبيان نهايتهم في الدنيا والآخرة . ولما أتم هذا شرع في وعظ المسلمين وتبنيهم إلى يوم القيامة وما فيه وأنه لا يستوى العاصى والمطيع ولفت نظرهم إلى القرآن الكريم وما فيه ثم ذكر بعض صفات الحق — تبارك وتعالى — التى تغرس في النفوس الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة وكان هذا ختاماً للسورة ما أجمله !

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبين أن ما يقولون غير ما يظنون وأن مثلهم كمثل الشيطان في الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابه التي كانت عليهم وبالأ ونكالا وكان فيها سوء حالهم في دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا في دنياهم ما ينفعهم في آخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم وألا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الدين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

وبعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى إستعدادا ليوم القيامة — ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب وتتصدع لدى سماع عظاته الأثقة لما فيه من وعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام فلو أنا اهتمنا الجبل عقلا وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتتصدع من خوف الله — عز وجل — فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ، ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه . وبعد أن وصف القرآن بالعظيم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

## أضواء كاشفة

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى حيثما كنتم وفى أى عمل عملتم ولتنظر نفس واحدة أى شئ قدمته من الأعمال ليوم القيامة ولتحاسب كل نفس نفسها عما عملت ، قبل أن تحاسب هى عليه وفى هذا حث عظيم على النظر فيما ينفع لغد وبيان أن النظر فيه قليل واتقوا الله إن الله خير بما تعملون وسيجازيكم عليه إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وإياكم أن تكونوا كالذين نسوا حقوق الله ، وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا الواجب عليهم نحو الذات الأقدس — جل شأنه — لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم الله بسبب ذلك أنفسهم حتى لم يعملوا خيرا ولم يحصلوا ما يخلصها يوم القيامة أولئك الذين نسوا الله هم الفاسقون الكاملون فى الفسق والفجور فإياكم أن تكونوا مثلهم واعلموا أنه لا يستوى أصحاب النار الذين عملوا لها حيث خالفوا أمر الله فى كل شئ . وأصحاب الجنة الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ؛ أصحاب الجنة هم الفائزون وحدهم . وفى هذا تنبيه وأى تنبيه للناس وإيداناً لهم بأنهم لفرط فضلهم وقلة تفكيرهم . وفى الآخرة وأحوالها كأنهم لا يعرفون أن هناك فرقا بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وهذا كما تقول لمن يسئ إلى أخيه : هذا أخوك .

يأيها الذين آمنوا : ألم تعلموا أن معكم حبل الله المتين وكلامه الكريم ، وقرآنه المجيد فكيف لا تتعظون به ؟ وكيف لا تملأ قلوبكم خشية عند سماع كلامه ؟ مع العلم أنه لو أنزل هذا القرآن على

جبل وكان له عقل يميز مع أن الجبل علم في القساوة لرأيته خاشعاً متشققاً من خشية الله وهذا تمثيل وتخيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

واعلم أن الذي أنزل القرآن وأمر بالتقوى هو الله جل جلاله واجب الوجود أزلاً وأبداً الحاضر الذي لا يزول المعبود فلا أحد يستحق العبادة غيره ولا معبود بحق سواه هو الرحمن الرحيم بخلقه في الدنيا والآخرة « ورحمتي وسعت كل شيء »<sup>(١)</sup> هو الله الذي لا إله إلا هو صاحب الملك والملكوت بيده الأمر « ألا له الخلق والأمر »<sup>(٢)</sup> يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو كل شيء قدير هو الملك القدوس المنتزه عن كل نقص وعيب ، الكامل في كل شيء ذو السلامة من كل ما يشينه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وهو المؤمن المصدق لنفسه ولرسله بما أنزل من كتاب وما خلق من معجزات ، سبحانه وتعالى وهب الأمن لعباده في الدنيا والآخرة وهو المهيمن والرقيب على خلقه وملكه أو هو الذي أمن على خلقه وملكه من كل شيء لإحاطة علمه وإكمال قدرته وهو العزيز الجبار الذي جبر خلقه على ما أراد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو المتكبر الذي تكبر بربوبيته فلا شيء مثله والكبرياء في صفات الله مدح وفي صفات المخلوقات ذم وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ — قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : ﴿ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحدة منهما قصمته ثم قذفته في النار ﴾<sup>(٣)</sup> .

سبحانه وتعالى عما يشركون !! هو الله الخالق المقدر لكل شيء الباري لهذا الكون والموحد له خالياً من تفاوت يخل به وهو الذي أوجد صورته وكيفياته على حسب حكمته وإرادته .

لله سبحانه الأسماء الحسنى الدالة على محاسن المعاني وفضائلها وأشرفها . يسبح له لأجل هذا كله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم الجامع للكمال كله .

روى عن ابن عباس : اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر وفي رواية عن البراء عن علي — رضي الله عنهما — أنه قال : يا براء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقراً من أول سورة الحديد عشر آيات . وآخر الحشر ثم قل : يا من هو كذلك وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل لي كذا وكذا . والعبرة في هذا كله بالإخلاص وصفاء الروح والقرآن كله وخاصة أمثال هذه الآيات مما يصفى الروح وينقيها ويجعل دعاءها مقبولاً . . . نفعنا الله بالقرآن آمين .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٢٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤

(٣) سنن أبي داود — كتاب اللباس — باب ما جاء في الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وسنن ابن ماجه — كتاب الزهد — باب

البراءة من الكبر والتواضع ٤ / ١٣٩٧ رقم ١٤٧٤ ومسند أحمد ٢ / ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢

## التفسير

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

قال الإمام أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ — في صدر النهار قال : فجاءه قوم حفاة عراة محتابى الثمار أو العباء متقلدى السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ﷺ — لما رأى بهم من الفاقة قال فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ — إِلَى آخِرِ الْآيَةِ وَاقْرَأُوا آيَةَ التِّي فِي الْحَشْرِ — وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ — تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره — حتى قال — ولو بشق تمره » قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله ﷺ - : يتהלل وجهه كأنه مذهبه فقال رسول الله ﷺ - : « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء »<sup>(١)</sup> فقله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ( واتقوا الله ) تأكيد ثان ( إن الله خبير بما تعملون ) أى : اعلّموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

## المراقبة والمحاسبة

في كتابه ( إحياء علوم الدين ) كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزالي — رحمه الله تعالى — تحت هذا العنوان فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما أجترحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسيب على خواطر عباده إذا اختلجت الذى لا يغزب عن علمه مثقال ذره في



السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقيض والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل لقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلك وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراجعة لولا فضله بقبول بضاعتها المراجعة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فيفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انحلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتييسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإرثاء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد . فقد قال الله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسين ﴾ (١) — وقال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروأ أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ (٥).

وقال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خيراً محضاً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ (٧) فعرف أرباب البصائر ومن جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرات والخطرات واللحظات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات

(١) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩

(٣) سورة المجادلة الآية : ٦

(٤) سورة الزلزلة الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٨١

(٦) سورة آل عمران الآية : ٣٠

(٧) سورة البقرة الآية : ٢٣٥

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن متقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه راحت حسراته وطالت في عروضات يوم القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ﴾ <sup>(١)</sup> فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة ثم بالمراقبة ثم بالحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة ست مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك الحاسبة ولكن لك حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

### المقام الأول من المراقبة المشاركة

أعلم أن مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند الحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكة فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستنجرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكة وغلामه الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها .

فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المهدي مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التقدم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر ، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل : —

أشد الغم عندى في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها ،

يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو معروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح . ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركته فيقول للنفس : ما لي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأنسأ في أجلى ، وأنعم على به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً . فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت ، فأياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهر لا قيمة لها ، واعلمى يا نفس أن اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التي عملها في تلك الساعة ، فينالها الفرح والسرور والاستبشار لمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار / ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح منها ، ويغشاها ظلامها ، وهي الساعة التي عصى الله فيها ، فينالها من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتنقص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه ، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته ، وناهيك به حسرة وغناً . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانتي ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ، ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك ، وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرتة لا يطاق وإن كان دون ألم النار<sup>(١)</sup> .

وقد قال بعضهم هب أن المسيء قد عفى عنه أليس قد فاتته ثواب المحسنين ، أشار به إلى الغبن والحسرة : وقال الله — تعالى — : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾<sup>(٢)</sup> فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصيته في أعضائه السبعة : وهي العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله — تعالى — بهذه الأعضاء فيوحيها بحفظها عن معاصيها ، أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله — تعالى — يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها

(١) انظر الحديث : ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة ... في كتاب إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٤١ . كتاب المحاسبة والمراقبة ط / الشعب . وقال محققه : الحديث بطوله لم أجده أصلاً .  
(٢) سورة التغابن الآية ٩

وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للإقتداء ، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضو ، لا سيما اللسان ، والبطن ، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه في الحركة ، وجنابته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والتميمة ، وتركبة النفس وقذفه الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الاعداء ، والممارسة في الكلام وغير ذلك ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله ، واصلاح ذات البين ، وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ (١) .

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة . ويشترط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها ، وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تكرر عليه في اليوم واللييلة ، ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقي ، ولكن لا يخلو كل يوم عن فهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه في ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرهما مغبة الإهمال ، ويعظهما كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٢) .

فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام المراقبة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ (٣) وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة ، زيادة ونقصان ، فانه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا

(١) سورة ق الآية ١٨

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٥

ضربهم في سبيل الله فينبوا ﴿١﴾ ، وقال — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فينبوا ﴾ ﴿٢﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾ ﴿٣﴾ ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للإحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه — عليه السلام — قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانتبه عنه » ﴿٤﴾ .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة .

وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة .

وروى شداد بن أوس عنه — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » ﴿٥﴾ . ( دان نفسه : أى حاسبها ويوم الدين : يوم الحساب ، وقوله : — اثنا لمدينون — أى لمحاسبون ) .

وقال عمر — رضى الله عنه — : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتنبأوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : قبل أن تجدها في كتاب الله قال : ويل لديان الأرض من ديان الساء فعلاه بالدرة . وقال إلا من حاسب نفسه فقال كعب : يا أمير المؤمنين : إنها إلى جنبها في التوراة ما بينها حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فبأشرها .

( المراقبة الثانية : المراقبة ) إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالفة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولندكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها : أما الفضيلة : فقد سأل جبريل — عليه السلام — عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » . وقال — عليه السلام — : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ﴿٦﴾ . وقد قال —

(١) سورة النساء الآية ٩٤

(٢) سورة الحجرات الآية ٦

(٣) سورة ق الآية ١٦

(٤) انظر اتخاف السادة المثقين ج ١٠ ص ١٠٣

(٥) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .

— انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٢٣ . كتاب الزهد . باب ذكر الموت والاستعداد له . رقم ٤٢٦٠ .

(٦) الحديث في صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ . كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ٨ / ١ .

— انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٨ ، ٩ كتاب الإيمان رقم ٢٦١٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

تعالى — : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال — تعالى — : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال الله — تعالى — : ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾<sup>(٣)</sup> . وقال — تعالى — : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَائِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله — تعالى — ، فسأله عن تفسيره فقال : كن أبداً كأنك ترى الله — عز وجل — .

وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيباً عليّ فلا أبالي بغيره وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات : وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على أصليين : أن تلزم نفسك المراقبة لله — عز وجل — ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شبوخ ؟ فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحة ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعاً لا يراني فيه أحد إذ الله مطلع عليّ في كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك أن تكرم .

وحكى أن زليخا لما خلعت ييوسف — عليه السلام — قامت فغطت وجه صنم كان لها . فقال ييوسف : مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار .

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحي ؟ فقال : ممن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب . قالت : فأين مكوكبها ؟ .

وقال رجل للجيتيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المتطور إليه .

(١) سورة الرعد الآية ٣٣ .

(٢) سورة العلق الآية ١٤ .

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) سورة الماعج الآيات ٣٢ ، ٣٤ .

وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقت من ورد الجنة قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله - عز وجل - : إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي وذكروا عظمى فراقبوني ، والذين انشئت أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتى صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب - تعالى - . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولقطة .

ويروى أن الله - تعالى - قال للملائكة : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن .

وقال محمد بن علي الترمذي : اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان .

وسئل بعضهم عن قوله - تعالى - : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾ (١) فقال : معناه : ذلك لمن راقب ربه - عز وجل - وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس : إستقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد وليس معه سهو ، ومراقبة الله - تعالى - في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب . وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب  
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب  
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وإن غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي : عظمى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجتراءت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت .

وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة .

وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله - تعالى - .

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى مكة ، فعرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال : إني مملوك . فقال : قل لسيدك أكلها الذئب . قال : فأين الله ؟ قال فبكى عمر — رضى الله عنه — ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

## بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

إعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يشمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح وفي القلب ، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والتفاتة إليه ، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشارة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك ، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ، أعنى أنها خلت على الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالقلب فإذا استولت على القلب إستجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

**الدرجة الأولى :** مراقبة المقربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه المراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والإستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة للملوك الأرض ، حتى إن خدّم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم في مجالس الملوك لشدة إستغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشى فرماً يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له .

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال :



ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد ابن زيد : من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت في الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا — عليهما السلام — أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقبل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً .

وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداً منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله — تعالى — أشهى . فقلت : أنت وحدك ؟ فقال : معي ربي وملكاي . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى . وقال : أكثر خلقت شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله — تعالى — لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلي على أبي الحسن النوري وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنور كانت لنا . فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري ، فقال له عيسى بن يونس المصري المعروف بالزاهد : إن في صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ، فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفي وسطى خرقة وليس على كتفي شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة ، فسلمت عليهما فما أجاباني ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علي السلام ، فرجع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلي وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقي من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أفل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتي ثم طأطأ رأسه في المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عطشى فرفع رأسه إلي وقال : يا ابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلاً شيئاً ولا شرباً فلما كان اليوم الثالث قلت في سرى : أحلفهما أن يعطاني لعل أن أنتفع بعظمتي فرفع الشاب رأسه وقال لي : يا ابن خفيف : عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيئته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم . ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلفت

إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة فإنهم يرون الله في الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله — تعالى — ومن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ونظر في العمل . أما قبل العمل ، فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو الله خاصة أو هو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ، فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله — تعالى — أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرفها سوء فعلها وسعيها في فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، وهذا التوقف في بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإن في الخبر : « إنه ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لِمَ ، والثاني : كيف ، والثالث : لمن » بمعنى لم : أي لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثاني فقيل له : كيف فعلت هذا ؟ فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم ، فيقال له : كيف فعلت ؟ أبعلم محقق أم بجهل وظن فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث : وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له : لمن عملت ؟ أوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله أو لمراءات خلق مثلك فخذ أجرك منه . أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري ، أما سمعتني أقول : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ <sup>(٢)</sup> . ويحك أما سمعتني أقول : ﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فإذا عرف العبد أنه يصدد هذه المطالبات والتوبيخات ، طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدى ولا يعيد إلا بعد التثبت ولا يحرك جفنأً ولا أثملاً إلا بعد التأمل .

(١) سورة الأعراف الآية ١٩١

(٢) سورة العنكبوت الآية ١٧

(٣) سورة الزمر الآية ٣

وقد قال النبي ﷺ — لمعاذ : « إن الرجل لِيُسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بإصبعيه ، وعن لمسه ثوب أخيه »<sup>(١)</sup> .

وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم الله — تعالى — عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر .

وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان : « اتق الله عند همك إذا هممت » . وقال محمد بن علي :

إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربّه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله — تعالى — وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر ، هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كان ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور فيتقّى ذلك . والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماته ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله — تعالى — على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله — تعالى — فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه ، ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر في ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضي بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقلبين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوصى الله تعالى إلى داود — عليه السلام — : لا تسأل عني عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشره والتكاليف عليها محبوبة عن نور الله — تعالى — فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها ، وهي شهوات الدنيا فلتكن همة المريد أولاً في أحكام العلم أو في طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ، إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله —

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٨٨ . وقال العراق لم أجده أصلاً ، ولكن انظر حلية الأولياء ج ١ ص ٣١ . ترجمة أحمد ابن أبي الخوارى . حديث بلفظ « يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير ... وفيه » . ( إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ) .

ﷺ — : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات »<sup>(١)</sup> . جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال — عليه السلام — : « من قارف ذنباً فارق عقل لا يعود إليه أبداً »<sup>(٢)</sup> . فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الآدمي به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط في الخصومات النائرة في اتباع الشهوات ، وقالوا : هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفي الخبر : « أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المثبت » .

ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الإشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله — ﷺ — إذ قال : « فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك »<sup>(٣)</sup> . كل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله — تعالى — : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾<sup>(٤)</sup> . وقوله — عليه السلام — : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »<sup>(٥)</sup> . وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ، سعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق — رضى الله تعالى عنه — : اللهم أرني الحق حقاً وارزقني اتباعه ، وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابه ، ولا تجعله متشابهاً عليّ فأتبع الهوى . وقال عيسى — عليه السلام — : « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه »<sup>(٦)</sup> . وقد كان من دعاء النبي — ﷺ — : « اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم »<sup>(٧)</sup> . فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٥

(٢) انظر المرجع السابق

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

(٤) سورة الإسراء .

(٥) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٧٥ — ١٧٧ .

(٦) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ . وقال رواه الطبراني من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٧) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

قال — تعالى — إمتناناً على عبده : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ <sup>(١)</sup> وأراد به العلم وقال — تعالى — : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ <sup>(٥)</sup> . وقال على كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله — تعالى — ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأت أذاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً ، وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلقت ، وشغلك لآخرتك ، وهملك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله : ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهي لله أم للهوى وقد قال — ﷺ — : « ثلاث من كن فيه إستكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يراى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخرة أثر الآخرة على الدنيا » <sup>(٦)</sup> . وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله — ﷺ — : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » <sup>(٧)</sup> .

النظر الثاني للمراقبة عند الشروع في العمل وذلك يتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله — تعالى — في جميع ذلك قدر على عبادة الله — تعالى — فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله — ﷺ — : « خير المجالس ما استقبل به القبلة » <sup>(٨)</sup> . ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه .

(١) سورة النساء الآية ١١٣

(٢) سورة النحل الآية ٤٣

(٣) سورة الليل الآية ١٢

(٤) سورة القيامة الآية ١٩

(٥) سورة النحل الآية ٩

(٦) انظر انخاف السادة الثقلين . ج ٩ ص ٩٧٨ . وقال الواقي فيه سالم المرادى . ضعفه الشيخ حسين والنسائي . ووثقه ابن حبان . انظر الديلمي في مسند الفردوس . ورقة ١٢٠ / مخطوط .

(٧) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٤٨٣ . كتاب الزهد باب ١١ رقم ٢٣١٧ . وقال : هذا حديث غريب .

— انظر سنن ابن ماجه ص ٢ ص ١٣١٥ . كتاب الفتن . باب كف اللسان في الفتنة رقم ٣٩٧٦ .

(٨) انظر كشف الحفاء ج ١ ص ٤٧٤

قال إبراهيم بن أدهم — رحمه الله — : جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول : هكذا تجالس الملوك ! فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام ، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها ، فكل ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فإذا لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والإشتغال بالتفكير ، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة والشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بدله من الصبر عليها ، ونعمة لا بد له من الشكر عليها ، وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله — تعالى — عليه ، إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله — تعالى — ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾<sup>(١)</sup> . فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾<sup>(٢)</sup> وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضى الله فيها ، وساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ، فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر — رضى الله تعالى عنه — من قوله — عليه السلام — : « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة في غير محرم »<sup>(٣)</sup> وما روى عنه أيضاً في معناه : ( وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة ينجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة ينتظر فيها في صنع الله — تعالى — ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرّب ) . فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرّب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر

(١) سورة الطلاق الآية ١

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

(٣) انظر تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٨

انظر حلية الأولياء ج ١ ص ١٦٦ حديث . يا أبا ذر ان للمسجد تحية .

والفكر فإن الطعام الذى يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والإعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الإضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين ، وعلامات المحبين ، إذ الحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله — تعالى — فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملة ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ، ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ — ولقدرته ولعلمه — هو الله — تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبى — ﷺ — : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) .

### المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة ، فقد قال الله — تعالى — : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ (٢) وهذه إشارة على المحاسبة لما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر — رضى الله تعالى عنه — : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنها قبل أن توزنوا .

وفى الخبر : « أنه — عليه السلام — جاءه رجل فقال : يا رسول الله : أوصنى ، فقال : أمستوص

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٦٣ كتاب ألقاظ الأدب رقم ٢٢٤٦ / ٥ .

(٢) سورة الحشر الآية ١٨

أنت ؟ فقال نعم ، قال : إذا همت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فامضه ، وإن كان غياً فانتبه عنه <sup>(١)</sup> .

وفي الخبر : ويتبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه .

وقال — تعالى — : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ <sup>(٢)</sup> . والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي — ﷺ — : « إني لأستغفر الله — تعالى — وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » <sup>(٣)</sup> .

وقال الله — تعالى — : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ <sup>(٤)</sup> . وعن عمر — رضي الله تعالى عنه — أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم !! وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة — رضي الله تعالى عنها — أن أبا بكر — رضوان الله عليه — قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر ثم قال لها : كيف قلت فأعادت عليه ما قال . فقال : لا أحد أعز عليّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبد لها بكلمة غيرها .

« وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاتته » .

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغللمانك ما يكفونك هذا ، فقال : أردت أن أجرب نفسي هل تنكره .

وقال الحسن : المؤمن قوأم على نفسه يحاسبها الله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ، ولكن هيئات ، حيل بيني وبينك ، وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب — رضي الله تعالى عنه — يوماً ، وقد خرج وخرجت

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٥٧ . كتاب المراقبة والمحاسبة . الرابطة الثالثة . محاسبة النفس بعد العمل . ط / الشعب .

(٢) سورة النور من الآية ٣١ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥٤ . كتاب الأدب . باب الاستغفار رقم ٣٨١٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .



معه حتى دخل<sup>(١)</sup> حائطاً ، فسمعته يقول ، وبينى وبينه جدار ، وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك .

وقال الحسن فى قوله — تعالى — : ﴿ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾<sup>(٢)</sup> قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشرىتى ؟ والله أجدر يمضى قدماً لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — : رحم الله عبداً قال لنفسه : أأست صاحبة كذا ؟ أأست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطها ، ثم ألزمها كتاب الله — تعالى — فكان له قائداً . وهذا من معاتبة النفس . وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغللها ، فقلت لنفسى : يا نفس أى شئ تريدین ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً . قلت : فأنت فى الأمانة فأعملى .

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يضر الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكاني .

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه : يا حنيف : ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

### بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصاً منه على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمائه وكلفه تداركاً فى المستقبل .

(١) حائطاً : بستاناً

(٢) سورة القيامة الآية ٢

فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وريحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله — تعالى — عليه ، ورغبها في مثلها ، وإن فوتها من أصيلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعابيتها ، ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها ، فينبغي أن يتقى غيبنة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكاراة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره ، وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً ، وساعة ساعة ، في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة ابن الصمة ، وكان بالرقعة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتي ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف ؟ وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ، ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلاً يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى .

فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره لامتألت داره في مدة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

### للمرابطة الرابعة : في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير في حق الله — تعالى — فلا ينبغي أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإن أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه

عن شهبواته ، هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة . فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى ييسر .

وروى أنه كان في بني اسرائيل رجل يتعبد في صومعته ، فمكث كذلك زمناً طويلاً ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله — تعالى — . فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومعتي ! لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة في الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل في بعض كتبه ذكره .

ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبي يقول : أصابتنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت في نفسي تأخراً وتقصيراً ، فحدثتني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء ، أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي . فقلت : واعجباه ! أنا أعامل الله في طول عمري ، فيجب له علي حق ، فلا أجد في المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! . آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيها ، فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بترت . وقال : إنك للحاظلة إلى ما يضررك ، ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش .

ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعينك لأعاقبك بصوم سنة ، فصامها . وقال مالك بن ضيغم : جاء رياح القيسى يسأل عن أبي بعد العصر ، فقلنا : إنه نائم . فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له : ألا نوقظه لك ، فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل ، أو لعقل زائل ، سواء لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته .

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتعهد فقام سنة لم ينم فيها للذى صنع .

وعن طلحة — رضى الله تعالى عنه — قال : « انطلق رجل ذات يوم فزرع ثيابه وتمرغ في الرمضاء ، فكان يقول لنفسه : ذوق ، ونار جهنم أشد حراً ، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ، فبينما هو كذلك إذ أبصر

النبي - ﷺ - في ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتني نفسي ، فقال له النبي - ﷺ - : « ألم يكن لك بد من الذي صنعت ؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه : « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يا فلان : ادع لي ، يا فلان : ادع لي ، فقال النبي - ﷺ - : « عُمَّهُمْ » ، فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي - ﷺ - يقول : « اللهم سده » . فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مأبهم .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك في شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلّى منها ، فكيف أعطيها شهواتها ! .

ودخل ابن السماك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب ، فقال : يا داود : سجت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له .

وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله — تعالى — حاجة ، فقام سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة ثمرة ، ثم سأل لحاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت ، لو كان فيك خيراً لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم : ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت ، وقد قضى الله حاجتك .

وقال عبد الله بن قيس . كنا في غزاة لنا ، فحضر العدو فصيح في الناس ، فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسي : ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لي : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان في موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله ما زال دأبه حتى رأيته صريعاً . فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أئى طلحة لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك .

وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم . وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوق بصره على امرأة فجعل على نفسه ألا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا .

وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك إنما أريد بك الخير .

ورأى محمد بن بشر داوود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ، فقال : إن نفسي تدعوني إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داوود ملحاً مادام في الدنيا ، فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم .

والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق ، وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ، وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدولك ، وأشد طغياناً عليك ، وضرك من طغيانها أعظم من ضرك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم ، الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغص عليك عيش الآخرة ، فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

### للمرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت . وإن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد ، فينبغي أن يؤديها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله — تعالى — . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياناً تلك الليلة . وآخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشياً ، أو التصديق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومواظبة لها بما فيه نجاتها . فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فما سبيل معالجتها ؟ . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين . ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهداه ، فعملت على ذلك أسبوعاً ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد في هذا الزمان من يجتهد في العبادة اجتهد الأولين ، فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهد ، وقد انقضى تعبهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدره ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهي به أبد الآباد ، نعوذ

بالله - تعالى - من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين ، وفضائلهم ، ما يحرك رغبة المريد في الاجتهاد إقتداء بهم فقد قال رسول الله - ﷺ - : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »<sup>(١)</sup> .

قال الحسن أجهدتهم العبادة . قال الله - تعالى - : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾<sup>(٢)</sup> . قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ، ويخافون ألا ينجم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله - ﷺ - : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »<sup>(٣)</sup> . ويروى أن الله - تعالى - يقول للملائكة : ما بال عبادى مجتهدين ؟ فيقولون : إلهنا : خوفهم شيئاً فخافوه وشوقهم إلى شىء فاشتاقوا إليه . فيقول الله - تبارك وتعالى - : فكيف لورائى عبادى لكانوا أشد اجتهاداً .

وقال الحسن : أدركت أقواماً ، وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ، ولهم كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا في شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، والله مازالوا كذلك ، وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يا فتى : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أسقام وأمراض . فقال : سألتك بالله إلا صدقتنى فقال : يا أمير المؤمنين : ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها ، وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربي ، والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظلمات لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو نعيم : كان داوود الطائى يشرب الفتيت ، ولا يأكل الخبز ، فقيل له في ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوماً فقال : إن في سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال : يا ابن أخى ، إن لى في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف ، وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزین من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ،

(١) انظر آحياء علوم الدين . ج ٤ كتاب المراقبة والمحاسبة . وقال محققه لم أجده أصلاً . إلا أن أحمد قد رواه في الزهد .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٠ .

(٣) انظر انحف السادة المتقين ج ١٠ كتاب المراقبة والمحاسبة .

- انظر كشف الخفاء ج ١ ص ٤٦١ . أبلغ خيراً من طال عمره وحسن عمله .

فقليل له في ذلك : فقال : إن الله — تعالى — خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله — عز وجل — ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة .

وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ، وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله في جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفّر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد ، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله — عز وجل — لم يأمر بك بكل هذا فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الإستكانة شيئاً إلا جئت به .

وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك ، عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك .

وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت إذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رأى مضطجعاً إلا في علة الموت .

وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلّموه في ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من شدة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ، فبكي القوم عن آخرهم .

وعن أبي محمد المغازلي قال : جاور أبو محمد الجريري بمكة سنة فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ، ولا إلى حائط ، ولم يمد رجله . فعبر عليه أبو بكر الكتاني ، فسلم عليه ، وقال له : يا أبا محمد : بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطني فأعانني على ظاهري ، فأطرق الكتاني ومشى مفكراً .

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلي فرأيت أنه قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ، فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت : ولم بالله يا فتح : بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دماً ، فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على خلفي عن واجب حق الله — تعالى — وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لي الدموع ، قال :

فرايته بعد موته في المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي ، فقلت له : فماذا صنع في دموعك ؟ فقال : قربني ربي — عز وجل — وقال : يا فتح : الدمع على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي . فقال لي : يا فتح : ماذا أردت بهذا كله ، وعزتي وجلالي لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة .

وقيل إن قوماً أرادوا سفرًا فحادوا عن الطريق ، فانتبهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب : إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ : فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد فقالوا : يا راهب : إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب : علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال : على نياتهم . فقالوا : أوصنا ، فقال : تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ، ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته : يا راهب : فلم يجبني ، فناديته ثانية : فلم يجبني ، فناديته الثالثة : فأشرف علي وقال : يا هذا ما أنا براهب . إنما الراهب من رهب الله في سمائه ، وعظمه في كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه ، وحمله على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذلل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر في حسابه وعقابه ، فنهزه صائم ، ولبه قويم ، قد أسهره ذكر النار ، ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب . وأما أنا فكلب عقور . حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت : يا راهب : فما الذي قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال : يا أخى : لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا ، وزينتها ، لأنها محل المعاصي والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله — تعالى — من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداود الطائي : لو سرحت لحيتك فقال : إني إذن لفارغ . وكان أويس القرني يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحیی الليل كله في ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود . فيحیی الليل كله في سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام ، كان لا يتها بالطعام والشراب ، فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك قال : الرفق أطلب ، دعيني أتعب قليلاً وأتعم طويلاً ، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً .

وقال سفيان الثوري : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى .

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل .

وكان كهمس بن الحسن يصلي كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومي يامأوى كل شر .

فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان ييكي ويقول : ذهب نصف عملي .

وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول : يأبى ما أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول : يا ابتنا

إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقي الربيع من البكاء والسهر ، نادته يا بني : لعلك قتلت قتيلًا



قال : نعم يا أماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك ، وعفوا عنك . فيقول : يا أماه : هي نفسي ، وعن عمر بن أخت بشر بن الحرث قال : سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمى : يا أختى : جوفى وخواصرى تضرب على . فقالت له أمى : يا أختى : أتأذن لى حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندى تتحساه يرم جوفك ، فقال لها : ويحك أخاف أن يقول : من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدرى أيش أقول له . فبكت أمى ، وبكى معها ، وبكى معهم ، قال عمر : ورأت أمى ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفساً ضعيفاً فقالت له أمى : يا أختى : ليت أمى لم تلدى ، فقد والله تقطعت كبدى مما أرى بك ، فسمعتة يقول لها ، وأنا فليت أمى لم تلدى وأذ ولدتنى لم يدر ثديها على . قال عمر : وكانت أمى تبكى عليه الليل والنهار .

وقال الربيع : أتيت أويساً فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت : ألا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نائمة ، ومن بطن لا تشبع فقلت : حسبى هذا منه ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال : يا أبا عبد الله : مالى أراك كأنك مريض ، فقال وما لأويس أن لا يكون مريضاً ، يطعم المريض وأويس غير طاعم ، ويتام المريض وأويس غير نائم .

وقال أحمد بن حرب : ياعجباً لمن يعرف أن الجنة ترين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما .

وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر ، وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً فحاك ذلك في صدرى ، فقلت له : رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعاً ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال : كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً ، وفي أودية النار أحياناً ، فهل في ذلك نوم ؟

وقال ثابت البناني : أدركت رجلاً كان أحدهم يصلى فيعجز عن أن يأق فراشه إلا حبوا .

وقيل : مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة .

وعن أبى بكر المطوعى قال : كان وردى في شببتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة ( شك من الراوى ) . وكان منصور المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه : ما هذا الذى تصنع بنفسك ؟ تبكى الليل عامته لا تسكت : لعلك يا بنى : أصبت نفساً ، لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى .

وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل ، وظمأ الهواجر ، فقال : هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار . وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول : ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها . وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح ، فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسي فإذا جاء الليل قال : من خاف أوج ، وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن القيس أربعة أشهر فما رأيته نام ليل ولا نهار .

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب — رضى الله تعالى عنه — أنه قال : صليت خلف علي — رضى الله تعالى عنه — الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — وما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، كانوا يصبحون شعناً غبراً صفرأ ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكر الله مادوا كما يمد الشجر في الريح ، وهملت أعينهم حتى تبطل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ، يعنى من كان حوله . وكان أبو مسلم الخولاني قد علق سوطاً في مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومي فوالله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا منى .

فإذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتي وكان يقول : أیظن أصحاب محمد — ﷺ — أن يستأثروا به دوننا ؟ ، كلا والله لنزاحمهم زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجلاً .

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الإجهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان في الصيف اضطجع في داخل البيوت ليجد الحر ، فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي .

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة — رضى الله عنها — أسلم عليها ، فغدوت يوماً إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحى ، وهى تقرأ : ﴿ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴾ (١) وتبكي وتدعو وتردد الآية . فقامت حتى مللت ، وهى كما هى ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى ، تردد الآية وتبكي وتدعو .

وقال محمد بن اسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء .

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غيرة الخاشعين .

وقيل للحسن : ما بال المهتجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي : خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولا تعلمني ، وخلقت معي عدواً ، وجعلته يجري مني مجرى الدم ، وجعلته يراني ولا أراه ، ثم قلت لي : استمسك . إلهي : كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي : في الدنيا المموم والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح !؟ .

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح .

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داء ، ومن ههنا قارئ ، ومن ههنا متوضئ ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عبداً أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه ، فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوايت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ، ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم ، كالديباج حسناً ، وهم في الظاهر مناديل مبدولون لمن أرادهم تواضعاً ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تحيي ، لها دوى عال ، فاتبع الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ إلى قوله :

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾<sup>(١)</sup> قال : فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية ، إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه ، فقلت : وأسفاه ! هذا لشقائي ، ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعتة وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين ، ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال : ما لي وللدنيا ، وما للدنيا ولي ، عليك يا دنيا بأبناء جنسك ، وألف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبي ، وإياهم فاخذعي ، ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة في التراب ييلون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديته . يا عبد الله : أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : وكيف يفرغ من ييادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ، أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ، وبقيت آثامه ، ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عني ساعة ، وقرأ : ﴿ وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾<sup>(٢)</sup> . ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخر مغشياً عليه ، فقلت قد خرجت روحه . فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما خاطري ؟ هب لي إساءتي من فضلك ! وجللني بسترِكَ ، واعف عن ذنوبي بكرم وجهك ، إذا وقفت بين يديك ، فقلت له بالذي ترجوه لنفسك وثق به إلا كلمتني ، فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إني لفى هذا الموضع مذ شاء الله ، أجاهد إبليس ويجاهدني ، فلم يجدعوناً عليّ ليخرجني مما أنا فيه غيرك ، فأليك عني يا مخدوع : فقد عطلت على لساني ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي ، وأنا أعوذ بالله من شرك ، ثم أرجو أن يعيدني من سخطه ، ويتفضل عليّ برحمته . قال : فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأعاقب في موضعي هذا ، فانصرفت وتركته .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في مسير لي ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال لي : يا هذا : قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه ، فاتبعته فسمعتة وهو يقول : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾<sup>(٣)</sup> اللهم بارك لي في الموت ، فقلت وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهي بالنظر إليك ، واملاً قلبي من المحبة لك ، وأجرني من ذل التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لي الحياء منك ، وحان لي الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعني أجلي ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أمل ، ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد      تراه بقمة أو بطن وادى  
ينوح على معاص فاضحات      يكدّر ثقلها صفو الرقاد

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة الزمر الآية ٤٧

(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥

فإن هاجت مخاوفه وزادت فدعوته أغثنى يا عمادى  
فأنت بما ألقىه عليم كثير الصفح عن زلل العباد  
وقيل أيضاً :

ألذ من التلذذ بالغواني إذا أقبلن في حلل حسان  
منيب فر من أهل ومال يسبح إلى مكان من مكان  
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ويظفر في العباداة بالأمانى  
تلذذه التلاوة أين ولى وذكر بالفؤاد وباللسان  
وعند الموت يأتيه بشير يبشر بالنجاة من الهوان  
فيدرك ما أرادو ما تمنى من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة ،  
ف قيل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم  
القيامة ؟ فقيل خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم !  
يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين  
ألف سنة ، لكان ربك كثيراً ، وكنت بالرغبة فيه جديراً ، فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمرت نفسك عليك ، وامتنعت  
من المواظبة على العباداة ، فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من  
اقتدى بهم فهو أنجع في القلب ، وأبعث على الاقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل  
عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم ، والسكون في زمرتهم ،  
وغمارهم وهم العقلاء ، والحكماء ، وذوو البصائر في الدين ، وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ،  
ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك  
نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها يا نفس  
لا تستنكفى أن تكوني أقل من امرأة . فأحسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها .

ولنذكر الآن نبذة عن أحوال المجتهدات : فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة  
قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهي : قد غارت النجوم ، ونامت العيون ،  
وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع  
الفجر قالت : إلهي : هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري ، أقبلت منى ليلتى فأهناً ؟ أم  
رددتها على فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتني . وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع  
في نفسي عن وجودك وكرمك .

ويروى عن عجرة أنها كانت تحبى الليل ، وكانت مكفوفة البصر ! فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك يا إلهى : أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين ، وأن ترفعنى لديك فى عليين ، فى درجة المقربين ، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين ، فأنت أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء . فقلت لصاحب لى : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريد ، قال فبكيت ثم قالت : والله لو ددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ، ثم أبكى دماً حتى لا تبقى قطرة من دم فى جراحة من جوارحى ، وأنى لى بالبكاء ، وأنى لى بالبكاء ، فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء ، حتى غشى عليها .

وقال محمد بن معاذ : حدثتني امرأة من المتعبدات قالت : رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم . فقلت : ما شأن أهل الجنة قيام ، فقال لى قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت : ومن هذه المرأة فقيل : أمة سوداء من أهل الأيكة ، يقال لها شعوانة . قالت : فقلت : أختى والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجبية تطير بها فى الهواء ، فلما رأيتها ناديت : يا أختى : أما ترين مكافى من مكانك . فلو دعوت لى مولاك فلحقنى بك قالت : فتبسمت إلتى وقالت : لم يأن لقدومك ولكن إحفظى عن اثنتين : إلزمنى الحزن قلبك ، وقدمى محبة الله على هواك ، ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن : كانت لى جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتهت ، فالتفتها فلم أجدها ، فقممت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول : بحبك لى ألا ما غفرت لى ذنوبى . فقلت لها : لا تقولى بحبك لى ، ولكن قولى بحبى لك ، فقالت : يا مولاي بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لى أيقظ عيني وكثير من خلقه ينام .

وقال أبو هاشم القرشى : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً ، فقلت يوماً لخدام لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع . قال : فأشرف عليها ، فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء ، وهى مستقبلة القبلة ، تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أترأها تظن أنك لا ترى سوء فعلها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شئ قدير . وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ <sup>(١)</sup> ويكى فلما قرب منى

السواد إذا هي امرأة عليها جبة صوف ويدها ركوة ، فقالت لى : من أنت ؟ غير فرعة منى فقلت : رجل غريب فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة . قال : فبكيت لقولها فقالت لى : ما الذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الذواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت . قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت : لا . قلت : ولم ذاك قالت : لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجباً من قولها . وقال أحمد بن على ، إستأذنا على عفيرة ، فحجبتنا ، فلأزمننا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعناها وهى تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها : يا أمة الله : ادعى لنا فقالت : جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ، ثم قالت لنا : مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فباليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وباليته إذا عصت لم تعد .

وقال بعض الصالحين : خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتسبتها فى موضع بناحية السوق ، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها فى الموضع ، فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت : يا مولاي : لا تعجل على ، إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكر الله — تعالى — فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرة . فقالت : ساء ما صنعت ، كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما .

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريدة . تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء ، قال : فدخلنا عليها ، فقلنا : يا بريدة : كيف أصبحت ! قالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها : كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت : إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما ، فى الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ، ثم أعرضت . قال : فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شىء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح .

وقال أبو سليمان الداراني : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر ، فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ، قالت : جزاؤه أن تصوم له غداً .

وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى : ما أشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين . إلهى : إن كان دنا أجلى ولم يقربنى

منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل على ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي : قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك ، فالويل لها أن لم تسعدها . إلهي : إنك لم تنزل بي برأ أيام حياتي ، فلا تقطع عني برك بعد مماتي ، ولقد رجوت ممن تولاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه . إلهي : كيف أياس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي . إلهي : إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتني لك قد أجارتني ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله : إلهي : لو أردت إهانتني لما هديتني ، ولو أردت فضيحتني لم تسترنني ، فمتعني بماله هديتني ، وأدم لي بما به سترتني . إلهي ما أظنك تردني في حاجة أفيت فيها عمري . إلهي : لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك . وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عمت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلي قاعدة ، فسلمنا عليها . ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر . قال : فشبهت ثم قالت : علمي بنفسى قرّح فؤادى وكلم كبدي . والله لوددت أن الله لم يخلقني ولم أك شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك أن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك ، وبعد أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما يتيسر الخير في ذلك الزمان لكثرة الأعوان . والآل فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه ، وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، وإياك أن تتدلى بجبل غرورها وتنخدع بتزويره ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم . ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقهم وتركبي في سفينة تنخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ، أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم في صنيعهم ، وتأخذين حذرهم مما دهاك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتأذى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له في كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ، ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾<sup>(١)</sup> . فعليك إذا اشتغلت بمعاتبه نفسك ، وحملها على الإجهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبها وتويعها ، وتقرعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها .



## الرابطة السادسة : في توبيخ النفس ومعابقتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفضامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعدل ، والملامة ، كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعابقتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك . أوحى الله — تعالى — إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم : عظ نفسك ، فإن اتعظت فعض الناس ، وإلا فاستحيى مني . وقال — تعالى — : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> . وسيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغاوتها ، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها وإستنكافها إذا نسبت إلى الحق ، فتقول لها : يا نفس : ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة ، والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنت صائرة إلى إحداهما على القرب ، فما لك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ! فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً ، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ؟ ومن غير مواعدة ، ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ، ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : ﴿ اقْتَرِبْ لِلنَّاسِ حَسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفلةٍ معرضون . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> . ويحك يا نفس إن كانت جرائتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حيائك . ويحك يا نفس : لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ، أفظنين أنك تطيقين عقابه ؟ هيهات هيهات ، جرى نفسك إن أهلك البطر عن أليم عذابه ، فاحتسبي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام ، أو قرني أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله وفضله ؟ وإستغنائك عن طاعتك ، وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكليته

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١ ، ٢ ، ٣

إلى كرم الله — تعالى — . وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فلم تنزعين الروح في طلبها ، وتحصيلها ، من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا ؟ وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس : ما أعجب نفاقك ، ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ <sup>(١)</sup> وقال في أمر الآخرة : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ <sup>(٢)</sup> فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها ، فكذبت به بأفعالك ، وأصبحت تتكاليين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار .

ويحك يا نفس : كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وكأنك تظنين أنك إذا مت إنفلت وتخلصت وهيات ، أتحسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكوني نطفة من منى يمى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك ، وأجهلك ، إما تتفكرين أنه مما ذا خلقك ؟ من نطفة خلقتك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أمانتك فأقبرك ، أفتكذبينه في قوله ، ثم إذا شاء أنشرك ، فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرک ؟ ولو أن يهودياً أخبرك في ألد أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله — تعالى — في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين ، وظن مع نقصان عقل ، وقصور علم . والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقرباً لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء ، أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء ، أم صار حر جهنم ، وأغلاها ، وأنكالها ، وزقومها ، ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تحسبن بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء . بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يحتطفك من غير مهلة ، فبماذا أمنت إستعجال الأجل . وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أتظنين أن من يطعم ، الدابة في حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك . أرايت لو سافر رجل ليتفقه في الغربية ، فأقام فيها سنين متعطلاً ، بطلاً ، يعد نفسه بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ،

(١) سورة هود الآية ٦

(٢) سورة النجم الآية ٣٩

هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانته أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه إعتياداً على كرم الله — سبحانه وتعالى — . ثم هبى أن الجهد في آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ، أفنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا مجال وجوده ، أما تتأملين مذم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً ، فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا ، بل تعجزين عنه اليوم ، فإنت غداً عنه أعجز ، وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ! فما لا يقدر عليه في الشباب ، لا يقدر عليه قط في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب المشيب . والقضيب الرطب يقبل الإنحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإن كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحمافة ؟ ولعلك تقولين ما يمنعني عن الإستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح إعتذارك ! ان كنت صادقة في ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطعم في ذلك إلا في الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكالات ، وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالإضافة إلى الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طال مدته ، وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار في دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله : ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى ، أو لحق جلى : أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله — تعالى — وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراج ، واستغناؤه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة

تسمعيها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ — حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » (١) . ويحك يا نفس لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك فما أمرك بهم لمغيرك ، ولا تضعي أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتني الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها ، يا نفس : أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة ، والخطب ، وجميع الأسباب . ولا تتكلمين في ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وخطب ، وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا . كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة ، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي ؟ هيئات ، كما لا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله — تعالى — في أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه ، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه . كما أن كرم الله — تعالى — في دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الجبة والخطب مما يستغني عنه خالقك ومولاك ، إنما تشتريه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها ، وإنما هي طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين .

ويحك يا نفس : اترعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقتكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله — تعالى — لا تجددين لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحك يا نفس : ما أراك إلا ألقت الدنيا ، وأنبت بها ، فبسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكددين في نفسك مودتها ، فاحسبي أنك غافلة من عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دارملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقتها ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أما تعلمين أن الدنيا دار الملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت . ولهذا قال سيد البشر — صلى الله عليه وسلم — « إن روح القدس نفث في روعي أحب

(١) الحديث في سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .

— وانظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٢٣ كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له رقم ٤٢٦٠ .

من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت <sup>(١)</sup> ويحك يا نفس : أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري ، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ . أما تريد كيف يجمعون ما لا يأكلون ، وبينون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ، يبني كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض ، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً ؟ . أما تستحيين يا نفس : من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟ واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور ، وإنما تملين بالطبع إلى التشبه والإقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذكاء .

يا نفس : ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة ! ولعلك يا نفس : أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك ، وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من على وجه الأرض ، ممن عبدك ، وسجد لك ، وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ، ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً ، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي ؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ؟ بل أمر دارك فضلاً عن محلتك ، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها ، وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ، أم مالك لا ترهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكوني في زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، في جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكوني في صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل . فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين .

فبادري ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلح عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

(١) انظر اتخاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٥٢ . وقال العراقي : رواه الشيرازي والطبراني في الأوسط والأصغر وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟ أما تعلمين يا نفس : أن الموت موعده ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك . أما علمت يا نفس : أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالآيمان المغلظة أنهم لا يرحلون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم . أما تعلمين يا نفس : أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت في أميئتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بخذافيرها لا شتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس : أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين الله في السر بالعظام ، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ، تأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالردائل ، تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس : أن المذنب أثنى من العذرة ، وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين في تطهير غيرك ، وأنت غير طيبة في نفسك .

ويحك يا نفس : لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس : قد جعلت نفسك حملاً للإبليس يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الأفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح في يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزلللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس : ما أغدرك ، ويحك يا نفس : ما أوقحك ، ويحك يا نفس : ما أجهلك ! وما أجراك على المعاصي ، ويحك كم تعقدين فتنقضين ، ويحك كم تعهدين فتغدرين ، ويحك يا نفس : أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنياهم قبوراً ، وأملهم غروراً . ويحك يا نفس : أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيات ، هيات ، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا في هدم عمرك مند سقطت من بطن أمك . فابني على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدره إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة . ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك . ولا تحزين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس : تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك . فكم من مستقبل يوماً لا يستكملها ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذري أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سره وعلايته . فانظري يا نفس : بأى بدن تقفين بين يدي الله ، وبأى لسان تحيين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال ، وفي دار زوال لدار مقامة ، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، إعمل قبل أن لا تعمل ، اخرجي من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس : إلى الدنيا اعتباراً ، أو سعيك لها إضطراراً ، ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة ابتداراً ، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويتغنى الزيادة فيما بقي ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمي يا نفس : أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر ، فاتغطي يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلي هذه النصيحة ، فإن من اعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا بهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجّد والقيام ، فإن لم تنزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تنزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تنزل فبصلة الأرحام ، واللطف بالأيتام ، فإن لم تنزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطئي نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقتطعي من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقي فيك موضع للرجاء ، فواظبي على النياحة والبكاء ، واستعيني بأرحم الراحمين ، واشتكي إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الإستغاثة ، ولا تملي طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرع ، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويحيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ! ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمستول جواد ، والمتغاث به بد رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولي يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حلیم يا عظیم ، يا كريم أنا المذنب المصّر ، أنا الجريء الذى لا أقلع ، أنا المتأدى الذى لا أستحي ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ،

واضالك الغريق ، فاعجل أغاثني وفرجني ، وأرني آثار رحمتك ، وأدقني برد عفوك ومغفرتك ، وارزقني قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، إقتداء بأبيك آدم — عليه السلام — فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمة فاطلع الله — عز وجل — عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكسر رأسه ، فأوحى الله — تعالى — إليه : يا آدم : ما هذا الجهد الذي أرى بك ؟ قال : يارب : عظمت مصيبتى ، وأحاطت بى خطيئتي ، وأخرجت من ملكوت ربى ، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتي ؟ ، فأوحى الله — تعالى — إليه يا آدم : ألم أصطفك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك بيدي ، ونفخت فيك من روحي ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدي ، وتعرضت لسخطى ؟ ، فوعزتي وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك . يعبدوننى ، ويسبحوننى ، ثم عصونى ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم — عليه السلام — عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله إلهى أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى ، أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى ، واعبيده ، خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى ، واعبيده ، إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ، واعبيده إن كانت المقامع لرأسك تهاً ، واعبيده قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول : يارب : وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لى نفسى ، وأعاننى على ذلك شقوتى ، وغرني سترك المرضي على ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك بفعلى ، فمن عذابك الآن من يستنقذنى ؟ . أو يجبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسواتاه من الوقوف بين يديك غداً . إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين خطوا . أمع المخفين أجوز ، أم مع المثقلين أحط ؟ . ويل ! كلما كبرت سننى كثرت ذنوبى . ويل ! كلما طال عمرى كثرت معاصي ، فألى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ ، أما آن لى أن أستحيى من ربى . فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والإسترعاء ، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيأ ، ويوشك أن لا يكون الله — تعالى — عنه راضياً .

### تحذير

قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله تعالى ، فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال — تعالى — :



﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله اخالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (١) ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده عن نعيم بن نمحة قال : كان في خطبة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو في عمل الله — عز وجل — فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله — عز وجل — ، إن قوماً جعلوا آجاءهم لغيرهم فهاكم الله — عز وجل — أن تكونوا أمثالهم ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أين من ترفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا في أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ . قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفتى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله — تعالى — أثنى على زكريا وأهل بيته فقال — تعالى — : ﴿ إنهم كانوا يشارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ (٢) لا خير في قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله . ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم . هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات .

وقوله تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء في حكم الله — تعالى — يوم القيامة ، كما قال — تعالى — : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ (٤) ، وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ (٥) .

ومثل ذلك قوله — تعالى — : ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون ﴾ (٦) ، وقوله — جل شأنه — : ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ (٧) .

(١) سورة المنافقون الآية ٩

(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٠

(٣) سورة الجاثية الآية ٢١

(٤) سورة غافر الآية ٥٨

(٥) سورة ص الآية ٢٨

(٦) سورة ن الآيات ٣٢ — ٣٦

(٧) سورة السجدة الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

أما قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ فهذا منطق العدالة الإلهية إذ المساواة بينهما ظلم .  
والله — تبارك وتعالى — هو الحكم العدل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت  
من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (١) .

## عظمة القرآن وأسماء الله الحسنى

قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال  
نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو  
الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون .  
هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .  
يقول — تعالى — معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب ، وتتصدع  
عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ، ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً  
من خشية الله ﴾ . أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتتصدع  
من خوف الله — عز وجل — فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية  
الله ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتديرتم كتابه ولهذا قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم  
يتفكرون ﴾ . قال العوفي عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً  
متصدعاً ﴾ إلى آخرها . يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن  
خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ، ثم قال — تعالى — :  
﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر  
أن رسول الله — ﷺ — لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد  
فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبى — ﷺ — ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن  
الجذع وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات  
هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشاققوا إلى رسول الله — ﷺ — من الجذع .  
وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت ، وتتصدعت من خشيتها  
فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال — تعالى — : ﴿ ولو أن قرناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض  
أو كلم به الموتى ﴾ (٢) الآية . وقد قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق  
فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله ﴾ (٣) .

(١) سورة النساء الآية ٤٠

(٢) سورة الرعد الآية ٣١

(٣) سورة البقرة الآية ٧٠

ثم قال — تعالى — ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ أخبر — تعالى — أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء من جليل وحقيق وكبير ، وصغير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله — تعالى — ﴿هو الرحمن الرحيم﴾ أى : أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال — تعالى — ﴿ورحمته وسعت كل شيء﴾<sup>(١)</sup> ، وقال — تعالى — ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال — تعالى — ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم قال تعالى : ﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك﴾ أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله — تعالى — ﴿القدوس﴾ . قال وهب بن منبه : أى : الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى : المبارك . وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام . ﴿السلام﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص . لكماله فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . وقوله — تعالى — ﴿المؤمن﴾ قال الضحاك عن ابن عباس أى : أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله أنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به . وقوله — تعالى — ﴿المهيمن﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿والله على كل شيء شهيد﴾<sup>(٤)</sup> ، وقوله : ﴿ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾<sup>(٥)</sup> ، وقوله : ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾<sup>(٦)</sup> الآية ، وقوله تعالى : ﴿العزيز﴾ أى : الذى قد عز كل شيء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنبه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال — تعالى — ﴿الجبار المتكبر﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما جاء فى الصحيح : «العظمة ازارى والكبرياء ردأتى فمن نازعتى واحداً منهما عذبتة»<sup>(٧)</sup> . وقال قتادة : الجبار الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر يعنى عن كل سوء . ثم قال — تعالى — ﴿سبحان الله عما يشركون﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤

(٣) سورة يونس الآية ٥٨

(٤) سورة المجادلة من الآية ٦

(٥) سورة يونس من الآية ٤٦

(٦) سورة الرعد الآية ٣٣

(٧) انظر سنن أبى داود . كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر . ج ٤ ص ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ .

وانظر سنن ابن ماجه . كتاب الزهد . باب البراءة من الكبر ج ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .

انظر مسند احمد ج ٢ ص ٣٧٦ ، ٤١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق الباري المصور ﴾ الخلق : التقدير ، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعد ض القوم يخلق ثم لا يقترى

أى أنت تنفذ ما خلقت أى قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى : التنفيذ ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى أى قطع على ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله — تعالى — : ﴿ الخالق الباري المصور ﴾ أى الذى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التى يريد والصورة التى يختار . كقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ولهذا قال : المصور أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها . وقوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ فقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله — ﷺ — : « إن لله — تعالى — تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »<sup>(١)</sup> . وسياق الترمذى وابن ماجه له عن أبى هريرة أيضاً وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » . واللفظ للترمذى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الباري المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب الحبيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدى المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المعطى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور »<sup>(٢)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ يسبح له ما فى السموات والأرض ﴾ كقوله — تعالى — : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فىهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾<sup>(٣)</sup> . وقوله — تعالى — : ﴿ وهو العزيز ﴾ : أى : فلا يرام جنباه ( الحكيم ) فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد بسنده عن معقل بن يسار عن النبى — ﷺ — قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة »<sup>(٤)</sup> .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٦٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب أسماء الله تعالى رقم ٦ ، ٥ / ٢٦٧٧ .

(٢) الحديث بكامله فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٩٦ . كتاب الدعوات باب ٨٣ . رقم ٣٥٠٧ .  
انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٧٩ ، ١٢٧٠ . كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل . رقم ٣٨٦١ .

(٣) سورة الاسراء الآية ٤٤

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٦ مسند معقل بن يسار .

## أسماء الله الحسنى دستور الأخلاق في الإسلام

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ ، ﴿ هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ ( الحشر / ٢٢ — ٢٤ ) . إنها تسييحه مديدة بهذه الصفات المجيدة ، ذات ثلاث مقاطع يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ أو ﴿ هو الله ﴾ .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ فتقرر فى الضمير وحدانية اعتقاد ، وحدانية العبادة ، وحدانية الاتجاه ، وحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى انتهاء . ويقوم على هذه الوحدانية مبدأ كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله . ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ، ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ، ولو كان فى خلوة أو مناجاة ، ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام .

﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح ويتعادل الخوف والرجاء ، والفرع والطمأنينة ، فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم ، ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون ، وهم يصارعون الشرور والأهواء .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ يعيدها فى أول التسييحه التالية لأنها القاعدة التى تقوم عليها سائر الصفات .

﴿ الملك ﴾ فيستقر فى الضمير لأن لا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية ، لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين فى وقت واحد ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ (١) .

﴿ القدوس ﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة ، والطهارة المطلقة ، ويلقى في ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقى فيوض الملك القدوس والتسبيح له والتقديس .

﴿ السلام ﴾ وهو اسم كذلك يشع السلام ، والأمن ، والطمأنينة ، في جنبات الوجود ، وفي قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن في جواره ، سالم في كنفه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الاسم بالسلام والراحة والإطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى المواعدة والسلام .

﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

﴿ المهيمن ﴾ وهذا بدء صفحة أخرى في تصور صفة الله — سبحانه — إذ كانت الصفات السابقة : ﴿ القدوس السلام المؤمن ﴾ صفات تتعلق بمجرد بذات الله . فأما هذا فتتعلق بذات الله فاعلة في الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ فهي صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد في صفاته هذه . وما يتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك ومن ثم يجيء ختام الآية : ﴿ سبحانه الله عما يشركون ﴾ .

ثم يبدأ المقطع الأخير في التسبيحة المديدة .

﴿ هو الله ﴾ فهي الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

﴿ الخالق ﴾ . ﴿ الباري ﴾ والخلق : التصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق .

﴿ المصور ﴾ وهي كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملائح المتميزة والسمات التي تمنح لكل شيء شخصيته الخاصة . وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة — حسب التصور الإنساني — فأما في عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه من مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذي نعرفه بها في حدود طاقاتنا الصغيرة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ الحسنى في ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التي توحى بالحسن المقلوب وتفيضه عليها ، وهي الأسماء التي يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق إحاثها واتجاهها دليل أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج في مراقبة وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مدلولاتها الموحية وفي فيوضها العجيبة ، هي مشهد التسبيح لله يشيع في جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود .

﴿ يسبح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاقى فيه المطلع والختام . في تناسق والتثام . ( للأستاذ سيد قطب ) .

## الأسماء الحسنی ألفاظ الحديث النبوی الشریف والروایات الواردة فی الأسماء الحسنی

جاء فی صحیح الترمذی :

حدثنا یوسف بن حماد البصری بسنده عن أبی هريرة — رضی الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غیر واحد ، من أحصاها دخل الجنة » (١) .

قال یوسف : حدثنا عبد الأعلى ، عن هشام بن حسان عن محمد عن أبی هريرة — رضی الله عنه — عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

حدثنا ابراهيم بن یعقوب الجوزجانی ، حدثنی صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن أبی حمزة ، عن أبی الزناد عن الأعرج عن أبی هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » . وهى :

« الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدئ المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » (٢) .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال : حفظناه من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رواية قال : « لله تسعة وتسعون اسماً مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » (٣) .

(١) انظر سنن الترمذی ج ٥ ص ٤٩٦ كتاب الدعوات . باب ٨٣ رقم ٣٥٠٦ .

(٢) انظر سنن الترمذی ج ٥ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٧ .

(٣) انظر صحيح البخارى بمأشئة السندى ج ٤ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب الله مائة اسم غير واحد . ط / الحلبي .

وقد أخرج الطبراني الحديث المذكور ، عن أنى زرعة الدمشقي ، عن صفوان بن صالح ، مخالف في عدة أسماء فقال : ( القائم الدائم بدل القابض الباسط ) ( والشديد بدل الرشيد ) ، ( والأعلى المحيط مالك يوم الدين بدل الودود المجيد الحكيم ) .

ووقع عن ابن حيان عن الحسن بن سفيان عن صفوان ، ( الرافع بدل المانع ) . ووقع في صحيح ابن خزيمة في رواية صفوان أيضاً ، مخالفة في بعض الأسماء قال : ( الحاكم بدل الحكيم ) ، ( المولي بدل الوالي ) . وجاء في سنن ابن ماجه ، باب أسماء الله عز وجل : حدثنا أبو بكر بن أنى شيبه ، حدثنا عبده بن سليمان عن أنى هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة »<sup>(١)</sup> .

حدثنا هشام بن عمار بسنده عن أنى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، إنه وتر يحب الوتر ، من حفظها دخل الجنة وهي :

الله الواحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن الخالق البارئ المصور الملك الحق السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرحمن الرحيم اللطيف الخبير السميع البصير العليم العظيم البار المتعال الجليل الجميل الحي القيوم القادر القاهر العلي الحكيم القريب المجيب الغني الوهاب الودود الشكور الماجد الواحد الوالي الراشد العفو الغفور الحلیم الكريم التواب الرب المجيد الولي الشهيد المبين البرهان الرؤوف ( مرة أخرى ) الرحيم المبدي المعيد الباعث الوارث القوي الشديد الضار النافع الباقي الوافي الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل المقسط الرزاق ذو القوة المتين القائم الدائم الحافظ الوكيل الناظر السامع المعطي المحيي المميت المانع الجامع الهادي الكافي الأبدي العالم الصادق النور المنير التام القديم الوتر .

الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم أن أولها يفتح بقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى »<sup>(٢)</sup> .

وبذلك تكون رواية زهير كما وردت في سنن ابن ماجه مخالفة لرواية الوليد ، كما جاءت في صحيح الترمذي في خمسة وعشرين اسماً ، فليس في بداية زهير ، الأسماء والصفات التالية :

القدوس الغفار القهار الفتاح الحكم العدل الكبير الحفيظ المميت الحسيب الرقيب الواسع الحميد المحصي المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم مالك الملك ذو الجلال والإكرام المغني البديع الرشيد الصبور .

وذكر بعدها :

(١) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٦٩ كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦٠ .

(٢) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ . كتاب باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦١ .



البار الجميل القاهر القريب الراشد الرب المبين البرهان الشديد الواقى ذو القوة القائم الدائم الحافظ  
الناظر السامع المعطى الكافى الأبد العالم الصادق المنير التام القديم الوتر .

## الأسماء الحسنى

### كما جاءت فى الكتاب العربى المبين

نزلت فى القرآن العظيم « الأسماء الحسنى » التالية ، حسب ترتيبها فى المصحف .

(١) الله

(٢) الرحمن

(٣) الرحيم

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ( ١ — الفاتحة ) .

(٤) الرب . رب العالمين

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ( ٢ — الفاتحة )

(٥) الملك

﴿ مالك يوم الدين ﴾ ( ٤ — الفاتحة )

﴿ فعلى الله الملك الحق ﴾ ( ١١٤ طه ) .

(٦) المحيط

﴿ والله محيط بالكافرين ﴾ ( ١٩ البقرة )

﴿ ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ ( ٥٤ فصلت )

(٧) القدير

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ ( ٢٠ البقرة )

(٨) العليم

﴿ فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾ ( ٢٩ البقرة )

(٩) الحكيم

• ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ( ٣٢ البقرة ) .

(١٠) التواب

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ( ٣٧ البقرة ) .

(١١) الباريء

﴿ ... فتوبوا إلى بارئكم ﴾ ( ٥٤ البقرة ) .

(١٢) البصير

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ( ٩٦ البقرة )

(١٣) الولي

﴿ وهو الولي الحميد ﴾

(١٤) النصير

﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ ( ١٠٧ البقرة )

(١٥) الواسع

﴿ ان الله واسع عليم ﴾ ( ١١٥ البقرة )

(١٦) البديع

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ ( ١١٧ البقرة )

(١٧) السميع

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ ( ١٢٧ البقرة )

(١٨) العزيز

﴿ ربنا وابعث فيهم رسلاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت

العزيز الحكيم ﴾ ( ١٢٩ البقرة ) .

(١٩) الإله

(٢٠) الواحد

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا نعبد إلهك وإله

آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ ( ١٣٣ البقرة )

(٢١) الرؤوف

﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ ( ١٤٣ البقرة )

(٢٢) الشاكر

﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ ( ١٥٨ البقرة )

(٢٣) الغفور

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ( ١٧٣ البقرة )

( ٢٤ ) القريب

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ ( ١٨٦ البقرة )

( ٢٥ ) الحليم

﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ ( ٢٢٥ البقرة )

( ٢٦ ) الخبير

﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ( ٢٣٤ البقرة )

( ٢٧ ) الحي

( ٢٨ ) القيوم

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾

( ٢٩ ) العلى

( ٣٠ ) العظيم

﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ ( ٢٥٥ البقرة )

( ٣١ ) الغنى

﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾ ( ٢٦٣ البقرة )

( ٣٢ ) الحميد

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ ( ٢٦٧ البقرة )

( ٣٣ ) الوهاب

﴿ وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ( ٨ آل عمران )

( ٣٤ ) الجامع

﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ( ٩ آل عمران )

( ٣٥ ) القائم

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ( ١٨ آل عمران )

﴿ أَقْمِنِ لَهُمْ قَائِمًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ( ٣٣ الرعد )

( ٣٦ ) مالك الملك

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مِنْ تَشَاءُ ﴾ ( ٢٦ آل عمران )

(٣٧) الشهيد

﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ ( ٩٨ آل عمران )

(٣٨) الناصر

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ( ١٥ آل عمران )

(٣٩) الوكيل

﴿ فرادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ( ١٧٣ آل عمران )

(٤٠) الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ ( ١ النساء )

(٤١) الحسيب

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ ( ٦ النساء )

(٤٢) الكبير

﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ ( ٣٤ النساء )

(٤٣) العفو

﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ ( ٤٣ النساء )

(٤٤) المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ ( ٨٥ النساء )

(٤٥) الرزاق

﴿ وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ ( ١١٤ النساء )

(٤٦) الفاطر

﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ ( ١٤ الانعام )

(٤٧) القاهر

﴿ وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ﴾ ( ١٨ الانعام )

(٤٨) القادر

﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ( ٣٧ الانعام )

(٤٩) الحق

﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ ( ٦٢ الانعام )

٥٠. عالم الغيب والشهادة

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ ( ٧٣ الانعام )

( ٥١ ) الخالق

﴿ ذالكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شئ فاعبدوه ﴾ ( ١٠٢ الانعام )

( ٥٢ ) اللطيف

﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ( ١٠٣ الانعام )

( ٥٣ ) الحكم

﴿ أفغير الله أبغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ ( ١١٤ الانعام )

( ٥٤ ) الصادق

﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ ( ١٤٦ الأنعام )

( ٥٥ ) المولى

﴿ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ ( ٤٠ الأنفال )

( ٥٦ ) القوى

﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ ( ٥٢ الأنفال )

( ٥٧ ) الحفيظ

﴿ إن ربى على كل شئ حفيظ ﴾ ( ٥٧ هود )

( ٥٨ ) المجيب

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾ ( ٦١ هود )

( ٥٩ ) المجيد

﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ ( ٧٣ هود )

( ٦٠ ) الودود

﴿ إن ربى رحيم ودود ﴾ ( ٩٠ هود )

( ٦١ ) المستعان

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ ( ١٨ يوسف )

( ٦٢ ) الغالب

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ( ٢١ يوسف ) .

(٦٣) القهار

﴿ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ( ٣٩ يوسف )

(٦٤) الحافظ

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ( ٦٤ يوسف )

(٦٥) المتعالى

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى ﴾ ( ٩ الرعد )

(٦٦) الوالى

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ ( ١١ الرعد )

(٦٧) الشديد

﴿ وَهُمْ يَجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ( ١٣ الرعد )

ذكر هذا الاسم الحسن فى رواية زهير ، ومن أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم « الشديد »  
هذا الاسم الكريم فى الآية الثالثة عشرة ، من السورة الثالثة عشرة ، من الجزء الثالث عشر من الكتاب العزيز ،  
ذلك بأن سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

(٦٨) الوارث

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنَمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ ( ٢٣ الحجر )

(٦٩) الخلاق

﴿ إِنْ رَبُّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ ( ٨٦ الحجر )

(٧٠) الكفيل

﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾

( ٩١ النحل )

(٧١) المقتدر

﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ ( ٤٥ الكهف )

(٧٢) الحفى

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ، سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ، إِنَّهُ كَانَ بى حَفِيًّا ﴾ ( ٤٧ مريم )

(٧٣) الغفار

﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ ( ٨٢ طه )

(٧٤) اهتدى

﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٤ الحج)

(٧٥) المبين

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (٢٥ النور)

٧٦ - النور

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (١)

٧٧ - الكريم

﴿ وَمَنْ شَكَرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رُبِّي غَنِي كَرِيمٌ ﴾ (٢)

٧٨ - المنتقم

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾ (٣)

٧٩ - الفتاح

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَاتِحُ الْعَلِيمُ ﴾ (٤)

٨٠ - الشكور

﴿ لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٥)

٨١ - الكافي

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ (٦)

٨٢ - الغافر

﴿ غَافِرُ الذَّنْبِ ﴾ (٧)

٨٣ - الرفيع الدرجات

٨٤ - ذو العرش

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

التَّلَاقِ ﴾ (٨) غافر

(١) النور آية : ٣٥

(٢) النمل آية : ٤٠

(٣) السجدة آية : ٢٢

(٤) سبأ آية : ٢٦

(٥) فاطر آية : ٣٠

(٦) الزمر آية : ٣٦

(٧) غافر آية : ٣

(٨) غافر آية : ١٥

٨٥ - الخبي

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحيى الموتى ، إنه على كل شيء قدير ﴾ (١) .

٨٦ - الرزاق

٨٧ - ذو القوة

٨٨ - المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (٢) .

٨٩ - البر

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾ (٣) .

٩٠ - المليك

﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ (٤) .

٩١ - ذو الجلال والإكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ (٥) .

٩٢ - الأول

٩٣ - الآخر

٩٤ - الظاهر

٩٥ - الباطن

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ (٦) .

٩٦ - القدوس

٩٧ - السلام

٩٨ - المؤمن

٩٩ - المهيمن

١٠٠ - الجبار

١٠١ - المتكبر

﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ﴾ (٧) .

(٥) الرحمن آية : ٢٢

(٦) الحديد آية : ٣

(٧) الحشر آية : ٢٣

(١) فصلت آية : ٣٩

(٢) الذاريات آية : ٥٨

(٣) الطور آية : ٢٨

(٤) القمر آية : ٥٥



١٠٢ — المصور

هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنی ، یسبح له ما فی السموات والأرض وهو العزیز الحکیم ﴿١﴾ .

١٠٣ — الأعلى

﴿ سبّح اسم ربك الأعلى ﴾ ﴿٢﴾

١٠٤ — الأکرم

﴿ اقرأ وربك الأکرم ﴾ ﴿٣﴾

١٠٥ — الأحد

﴿ قل هو الله أحد ﴾ ﴿٤﴾

١٠٦ — الصمد

﴿ الله الصمد ﴾ ﴿٥﴾

الذی ﴿ لم یلد ولم یولد ولم یکن له کفواً أحد ﴾

تلك هی الأسماء الحسنی التي جاءت فی القرآن العظیم ، بصیغة الاسم ، وفی مواضع ظاهرة من آیات الكتاب العزیز ، وقد قرأت مائة وستة أسماء نزلت بلفظ الاسم فی آی الذکر الحکیم . والحكمة فی قوله ﷺ « تسعة وتسعين » :

نلاحظ أن العدد « تسعة وتسعين » ذکر فی كلام الرسول أكثر من مرة كقوله ﷺ :

« إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فمنها رحمة یتراحم بها الخلق .. وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة » ﴿٦﴾

كما ذکر هذا العدد فی القرآن الکریم مرة ، فی الآية الثالثة والعشرين من سورة « ص » وأغلب الظن أن هذا العدد ذکر فی كتب الله التي تؤمن بها فما الحكمة فی اختيار هذا العدد بالذات ، مع إجماع العلماء أن الأسماء الحسنی أكثر من هذا ؟ بل إن بعض الأسماء الحسنی قد استأثر بها الله سبحانه ، فی علم الغیب عنده . بدلیل هذا الدعاء للنبي — ﷺ — :

(٤) سورة الاخلاص آية : ١

(٥) سورة الاخلاص آية : ٢

(١) سورة الحشر آية : ٢٤

(٢) سورة الأعلى آية : ١

(٣) سورة العلق آية : ٣

(٦) أخرجه الطبرانی فی معجمه الكبير ح ٦ رقم ٦١٢٦ ص ٣٠٧ وأخرجه أيضا صحيح مسلم فی كتاب التوبة باب فی سعة رحمة الله تعالى وأذاها سبقت غضبه ح ٤ ص ٢١٠٨ رقم ٢٠ / ٢٧٥٣ وهما ما أسند عن سلمان الفارسی .

« . . . سألت بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي » (١) .

ويرى الفخر الرازي ، أن الحكمة في القصر على هذا العدد المخصوص ، أنه تعبد لا يعقل معناه ، كما قيل في عدد الصلوات وغيرها .. ، إشارة إلى أن الأسماء لا تؤخذ قياساً ، وربما كان السبب في اختيار هذا العدد أنه يطلق على الأشياء ، التي يصعب حصرها ، وربما كانت الحكمة أن معاني الأسماء ولو كانت كثيرة جداً ، إلا أنها موجودة — على قدر احتياجنا — في هذه الأسماء الحسنی التسعة والتسعين ، أو أن الأسماء المذكورة هي أشهر الأسماء وأبينها معاني ، وذلك بقدر حاجتنا إلى الاسماء ، التي ندعو بها الله سبحانه ، وليس بعد أسماء الله الذي لا إله إلا هو . وأخيراً أحب أن أضيف أن كثيراً ممن عنى بكتابة الأسماء الحسنی ، قد ذكر مائة اسم ، كما فعل الإمام أبو بكر البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فقد ذكر البيهقي الأسماء كما جاءت برواية الوليد عن شعيب ، ثم أضاف الاسم : « الكافي » فيكون المجموع مائة ، وقد جزم الهيلي فقال : الأسماء الحسنی مائة على عدد درجات الجنة ، والحديث الشريف يقول : « مائة غير واحد في رواية الوليد عن شعيب » . ويقول الرسول محمد — ﷺ — : « مائة إلا واحداً » (٢) . في رواية زهير ويكون « الواحد » هو الله الذي لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد والله ورسوله أعلم .

### الله

هو الاسم العظيم الدال على الموجود الحق الجامع لجميع صفات الكمال الإلهية ، وهو أكبر الأسماء وأجمعها للمعاني ،

وهو الاسم الذي تفرد به الله سبحانه وتعالى ، واختصه لنفسه ، وقدمه على جميع اسمائه ، وأضاف اسماءه كلها إليه ، وكل ما يأتي بعده من الاسماء نعت له ، وصفة ، ومتعلقة به ، وتوصف سائر الأسماء بأنها اسماء الله تعالى ، وتعرف في الأغلب بالإضافة إليه ، أو تجرى له مجرى الصفات ، وقد سبقت الأسماء الحسنی : الرب الرحمن العزيز ، الحميد ، الحكيم ، قليلاً نادراً في بعض آيات القرآن الكريم :

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٩١ ، ص ٤٥٢ .

فقد ذكر اسم الرب مسنداً إليه في الآية ١٣٣ من سورة الأنعام :

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾

٥٨ الكهف

كما ذكر اسم « الحكيم » مسنداً إليه في الآية الأولى من سورة هود :

﴿ آلر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنی ، يقال : من الأسماء الحسنی من أسماء الله تعالى ، ولا يقال الأسماء الحسنی من أسماء الحليم ، أو من أسماء الغفور ، أو من أسماء الصبور .

وإذا قلت : « الله » لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ، ولهذا جاز أن ينادى اسم الله وفيه لام التعريف ، ويقطع همزته فيقال : يا الله واللهم أصله يا الله ، حذف حرف النداء ، وعوض عنه ميم مشددة بالآخر للتعظيم والتفخيم .

والاسلام لا يتم إلا بذكر هذا الاسم الكريم : « الله » ولا يقبل اسم عوض منه ، فلا يقال إلاه .

## لا إله إلا الله

قال محمد — ﷺ — : « أفضل ما قلت أنا والنبیون من قبلی : لا إله إلا الله »

فتعالوا معی لنرى بعض النور الذى فى هذه الكلمة ، الكلمة الطيبة ، كلمة التقوى : لا إله إلا

الله .

« لا » نافية

« إله » كلمة إلاه ، على وزن كتاب ، اسم بمعنى مألوه ، على وزن مفعول ، مثل كتاب هو اسم بمعنى مكتوب ، ومثل إمام وهو مأموم . وخير الطرق لمعرفة مدلول هذا اللفظ ، هو طريق الاشتقاق : يقال : الله ، أى عَبدَ . ويقال : الله إلا الله ، وأله أكوهه ، أى الله ألوهية ، أى عبد عبادة ، ويقال يتأله ، يتعبد ، ويقال : هو عابد متأله فيكون الإله هو المعبود .

والعبادة هى الطاعة وتنفيذ الدين ، والمقصود من العبادة هو العمل للوصول إلى غاية ، أى أن العبادة هى الطريق إلى غاية .

فمن عبد الله ليتوصل بعبادته إلى كسب ثواب ، أو دفع عقاب ، كان المعبود في الحقيقة ، هو ذلك الخير ، قال الله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد ﴾<sup>(١)</sup> « يشرى نفسه : أى يبيع نفسه » .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾<sup>(٢)</sup> .

فالعبادة يجب أن تكون لغیر غاية إلا الله ، وإلا كانت غير ثبات على دين الحق ، وانحراف عن سبيل الله ، وهذا هو الشرك الذى ربما لا يراه بعض الناس ، وأولى بمن يفعل ذلك أن يخلص دينه لله ، قال تعالى :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا الله الدين الخالص ﴾<sup>(٣)</sup>

والإخلاص : هو قصد المؤمن بعمله ونيته مرضاة الله وحده ، والقصد : هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود سراً ، ولا يجوز أن يكون المقصود سراً أو علناً إلا الله وحده . وفي اللغة : تخلص الشيء ، فهو خالص ، أى سلم ونجا . يقال : خلص الماء من الكدر ، أى صفا ، وهذا ثوب خالص إذا كان صافى البياض ، والدين الخالص أى خلوصه من الشرك ومن الرياء ، والذين هم يراعون لهم من المشركين .

ولما كان الدعاء هو غي العباد ، بل إن سؤال الله وحده ، هو العبادة ، ثم ينبغى أن نعلم علم اليقين ، أن ما عند الله هو أقرب إلينا مما فى أيدينا ، من أجل ذلك ، فلا يسأل إلا إياه ، ولا يقصد إلا إياه ، ومن غير الله ، صاحب الأسماء الحسنی ، يقصد فى الرغائب كلها ؛ وهو الذى يجب أن يسأل ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة هى الميل الفطرى من القلب إلى الذى فطره ، وهذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهذا هو دين الله ، ولا تبديل لدين الله ، قال الله تعالى :

(١) البقرة آية : ٢٠٧

(٢) الحج آية : ١١

(٣) الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

﴿ فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿ (١) ﴾ . « وخلق الله هو دين الله » .

وقد أجمع العلماء على أن تفسير : « لا تبديل لخلق الله » ، في الآية الكريمة المحكمة السابقة ، هو : « لا تبديل لدين الله » . وقد ذكر من قال ذلك في تفسير الطبري :

حدثني محمد بن عمرو بسنده عن مجاهد : « لا تبديل لخلق الله : قال : « لدينه » . أى لدين الله .

وجاء في صحيح البخارى في تفسير سورة الروم : ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ : لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والفطرة الإسلام ، وهذا هو الدين الحنيف (٢) .

والدين هو الشريعة ، والدين هو الطاعة والانقياد ، والدين الحنيف هو الحب في الله ، أى أن عبادة الرحمن ، هى اعتصام بالله بحبل من الحب .

﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٣)

والحب هو ميل القلب إلى من يحب ، يقال : مال إليه — أى أحبه . وهذا الحب الحنيف ، هو ميل قلب العابد إلى المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وهو ميل القلب الفطرى إلى فاطر السموات والأرض ، وهو من لدن الله ، وهو من روح الله ، وهو من نور الله ، وهو من آيات الله ، وهو فطرة الله ، وهو ملك للذى فطره ، مقلب القلوب الذى لا إله إلا هو الرحمن ، وهو هدى الله — يهدى به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ إن ربى على صراط مستقيم ﴾ (٤) .

وهذا الميل من القلب إلى صاحب الفضل ، خلقه وطبيعة فى الإنسان ، فإن المولود يحب ويميل ويضطرب إلى أمه ، التى ترضعه وتحنو عليه ، لينام آمناً ويقوم ، والمريض يحب الطبيب ، الذى كان سبباً فى ذهاب الآم مرضه ، والفضل كله لله ، فمن باب أولى - أن يميل القلب الذى هداه الله إلى الحق ، ومن حق هذا القلب ، أن يميل إلى الذى خلقه ، وخلق كل شيء ، قال تعالى على لسان إبراهيم :

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب التفسير . تفسير سورة الروم ح ٦ ص ١٤٣ ط / الشعب

(٣) آل عمران آية : ١٠١

(٤) هود آية : ٥٦

- ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾
- ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقئ ﴾
- ﴿ وإذا مرضت فهو يشفئ ﴾
- ﴿ والذى يميتى ثم يحيئنى ﴾ (١)

وإن الله تعالى أرحم بنا جميعاً من الأم بابنها ، ومن رحمته أن جعل لنا هذا الميل الفطرى ، الذى يهذى الله به من يشاء إلى سبيله وإلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، والله يقول الحق وهو يهذى السبيل ، وهذا هو دين الحق ، وهو الدين القيم ، وهو الدين الخفيف .

#### معنى الخنف فى اللغة :

الحاء والنون والفاء ، ح ن ف ، خنف ، أصل مستقيم ، وهو « الميل » يقال : خنف يحنف حنفاً ، أى مال يميل ميلاً بسكون الياء ، ويقال : قد تحنف فلان إلى الشئ إذا مال إليه ، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف ، وله دين حنيف ، وتحنف فلان إذا أسلم ، والحنيف : هو المخلص الذى أسلم لأمر الله ، فلم يلقو فى شئ من دينه ، وجمعه حنفاء ، قال الله تعالى : ﴿ حنفاء لله غير مشركين به ﴾ (٢)

أى مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ، كما جاء فى كتب التفسير ويقال : مال إلى ، أى أقبل إلى ، أو عدل إلى — والعدل : هو ما قام فى النفوس أنه المستقيم ، وهو ضد الجور — يقال : اعتدل أى استقام ، جاء فى لسان العرب لابن منظور :

وفى أسماء الله سبحانه ، العدل : هو تعالى الذى لا يميل به الهوى ، فيجور فى الحكم والتعديل هو التقويم .

والميل هو الرغبة ، يقال : مال إلى : أى رغب إلى ، ويقال : رغب يرغب رغبة ، إذا حرص على الشئ وطمع فيه ، ومنها الرغبة إلى الله تعالى ، ويقال رغب فيه رغباً ورغبة ، أى أراد به بالحرص

(١) الشعراء الآيات : ٧٨ — ٨١

(٢) الحج آية : رقم ٣١

عليه وأحبه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾ (١) .  
 ﴿ عَسَىٰ رَبِّنَا أَنْ يَدُلَّنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾ (٢) .  
 ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (٣) .

غير أن الرغبة إلى الله الواحد القهار ، امتزج فيها الرهبة مع الرغبة ، والخوف مع الطمع ، قال الله تعالى :

﴿ إِنْهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٤) .

وهكذا نرى أن الخنف معناه : « الميل » فإن كان الخنف خلقة في الشيء ، فهو « قنيل » بفتح الباء ، يقال مال يميل ميلاً ، بفتح الباء ، أى أعوج . يقال : رجل أحنف ، أى به اعوجاج في الرجلين ، ويمشى على ظهر قدميه ، وبه حنف ، وقد حنفت رجله ، وهى حنفاء بفتح الحاء .

والملة هى طريقة للوصول ، وخير الملل هى ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذى أخلص دينه لله ، واستعمل ميل قلبه الفطرى للوصول إلى الله الرحمن الرحيم .

﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ ﴾ (٥) .

ومن يميل عن صراط الله إلا من جهل فطرته .

من أجل ذلك ، اتفق ذكر الحنيفية السمحة في القرآن الكريم مع تأكيد الإخلاص لله ، وعدم الشرك به سبحانه .

١ — ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦)

(١) التوبة آية رقم : ٥٩

(٢) القلم آية رقم : ٣٢

(٣) الشرح آية : ٨

(٤) الأنبياء آية رقم : ٩٠

(٥) السجدة آية رقم : ١٦

(٦) البقرة آية : ١٣٠

(٧) البقرة آية : ١٣٥

- ٢ — ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .
- ٣ — ﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ ، فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .
- ٤ — ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) .
- ٥ — ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤) .
- ٦ — ﴿ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .
- ٧ — ﴿ إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٦) .
- ٨ — ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٧) .
- ٩ — ﴿ حَنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ . . . ﴾ (٨) .
- ﴿ . . . وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٩) .

كما اتفق ذكر الحنف ، وهذا الميل من القلب إلى الله الواحد القهار ، مع ذكر « إبراهيم الذي وفى » — فى بضع آيات من القرآن العظيم .

ذلك بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، استعمل ميل قلبه الفطرى ، للوصول إلى الله الحق المتين ، إذ لم ينشرح صدره أن تكون تماثيل أبيه آلهة وكفر بالكوكب ، ولم يشعر بأن يكون القمر أو الشمس رباً له ، ولم يشعر معهما إلا بقلب سقيم ، ورجع وذهب وأتاب إلى الله ، وعلم أن لا سبيل له إلا طريق واحد ، يهذى إلى إله واحد ، وجاء ربه بقلب سليم « وسلام على إبراهيم » .

## القلب السليم وطرق الوقاية والعلاج

هذا الاتجاه وهذا « الميل » وهذا الهدى إلى الإيمان هو من فضل الله ، يؤتيه من يشاء من عباده ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ويزدادوا هدى .

﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (١٠) .

(٦) النحل آية رقم : ١٢٠

(٧) النحل آية رقم : ١٢٣

(٨) الحج آية رقم : ٣١

(٩) النساء آية رقم : ٨٢

(١٠) النساء آية رقم : ٦٩

(١) آل عمران آية : ٦٧

(٢) آل عمران آية : ٩٥

(٣) الأنعام آية : ٧٩

(٤) الأنعام آية : ١٦١

(٥) يونس آية : ١٠٥



﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ (١) ذلك بأن اتباع الشهوات ، هو ميل عظيم عن الحق من الذين في قلوبهم مرض ، ليزدادوا مرضاً على مرضهم ، ورجساً على رجسهم ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (٢) .

وهذا من علم الله ، عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، وإن مثل علم الله فينا ، كمثل السماء التي تظلمنا والأرض التي تقلنا .

ولا نستطيع الخروج من علم الله ، وكما لا تحملنا السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملنا علم الله .

أما هذا الإيمان الفطري ، فينبغي للإنسان المحافظة عليه ومن إغواء شياطين الإنس والجن ، كما نحافظ على الجسد من ضرر الجراثيم والفيروسات .

### درجات القلوب التي في الصدور :

ويمكن تقسيم سلامة القلب من المرض على قدر استجابة القلب إلى داعي الله ، أو استسلامه إلى كيد الشيطان على النحو التالي : —

أولاً : — القلب السليم :

وهذه هي أعظم درجة من الصحة القلبية ، وهي درجة المتقين ، كما وصفهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة :

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ (٣) .

ثانياً : — ثم تأتي بعد ذلك درجة الذين استجابوا لله ولرسوله ، إذا دعاهم لما يحییهم من النور والقرآن العظيم ، وهذه هي درجة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى ربهم يتوكلون ، فليس للشيطان عليهم سلطان قال تعالى :

﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (٤) .

ثالثاً : ثم تأتي بعد ذلك ، ومبادئ المرض عند الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، قال الله تعالى :

﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً﴾ (٥) .

(١) القصص آية رقم : ٥٠ .

(٢) القصص آية : ٥٦ .

(٣) الأعراف آية رقم : ٢٠١ .

(٤) النحل آية رقم : ٩٩ .

(٥) النساء آية رقم : ١٧ .

رابعاً : — ثم تأتى بعد ذلك حالة القلب المريض ، الذى لا يزال فى حالة صحية ، تسمح له بالاستجابة إلى المؤثرات الخارجية القوية ، فوق العادية ثم تزول هذه الاستجابة بزوال المؤثر .  
ويمكن الكشف على مثل هذا القلب ، كما يمكن للطبيب أن يختبر الفعل غير الإرادى المنعكس ، فإن الطبيب إذا مس قرنية العين — القرنية ، هى الجزء الشفاف أمام حدة العين — فإنه إذا مس الرمدى قرنية العين بطرف خيط رفيع من القطن مثلاً ، تكون أو الحركة المرتدة المنتظرة أن ترمش وتنقبض جفون العينين معاً ، ويكون هذا دليل على أن جميع الأعصاب الموصلة من قرنية العين إلى الجهاز العصبى المركزى ، ومنه إلى عضلات الجفون لتتقبض ، أى أن الأعصاب والعضلات مازالت سليمة ، وهذه علامة طيبة ، كما أن الرجوع إلى الحق ، والإنابة والتضرع إلى الله تعالى علامة على أن القلب لا يزال يستجيب ، ويذكر الله تضرعاً ، وإن كان لم يتضرع إلا فى الشدائد . قال عز وجل : -

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (١) .  
﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم يرميهم يشركون ﴾ وهكذا نرى أن مس الضر ربما كان علاجاً للفريق الآخر .

خامساً : — حالة القلب المريض المزمن فى المرض إلى درجة القسوة ، ومثل هذا القلب القاسى ، لا تنفعه هزات أو لبأساء ، ولا صدمات الضراء ليخشع أو أن يرجع إلى الله ، قال تعالى :

﴿ فلولوا إذ جاءهم بأمناء تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ (٢)

## الوقاية : —

وكما أنه يجب تحصين كل مولود ضد الأمراض المعدية ، حتى يكتسب الطفل المناعة لهذه الأمراض ، لكى لا تفتك ببذنة ويبقى جسمه سليماً ، كذلك يجب أن يلحق الأطفال مبادئ الإسلام ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا ما بلغوا أشدهم ، أقاموا الدين الذى اصطفاه لنا الله ، حتى لا يضيعوا الصلاة ، وحتى لا يتبعوا الشهوات ، وحتى لا يكون دينهم لعباً ولهواً ، وحتى لا تكون الشياطين لهم أولياء ، تدخل عليهم فى مجال الدم واللحم ، وتبث فى عروقهم سموم الرجس والفحشاء والمنكر ، كالخمر والميسر ، وهكذا يطغى الدنس على قلوبهم بما اكتسبوا من الإثم ، فيقسو القلب ويدخله المرض ، والقلب المريض

(١) النحل آية رقم : ٥٣

(٢) الأنعام آية رقم : ٤٣

لا يعقل ولا يسمع ولا يرى ، إذا يفقد بياضه وشفافيته ، ولا ينفذ إليه نور الهداية ، ويرجع الإنسان إلى طبيعته الطينية السوداء ، قبل أن يفيض الله تعالى عليه من نوره ، وقبل أن ينفخ الله سبحانه فيه من روحه ، ويصبح كالأنعام ، أو أضل سبيلاً ، إذ يرد الإنسان أجوف لا يخالط ، ويكون مرتعاً للشياطين ، تستعينه وتستهوياً ، ولا يصغى مثل هذا القلب المريض إلا إلى هواه ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (١) وهذه هي أقصى درجات المضاعفات من المرض ، وليس بعدها إلا الهلاك .

## العلاج : —

ويتلخص العلاج في الإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، حتى لا يُعبد إلا إياه ، واتمسك بكتابه الكريم حتى لا تنضل الطريق ، قال الله تعالى في كتابه الحكيم : —  
﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وقال سبحانه : —

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ (٣) .

وقال جل ثناؤه : —

﴿ وَإِلَىٰ لَغْفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ (٤) .

وقال تعالى :

﴿ . . . مُبِينٍ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٥) .

والتوبة الخالصة براءة وطهور للقلب ، ورجوع إلى الفطرة ، وكأنها ميلاد جديد فينفذ نور الإيمان إلى القلب ، فيخرجه الله من الظلمات إلى النور ، فيمكن للإنسان أن يحارب أولياء الشيطان ، ويمكنه العمل بكتاب الله ، الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويكون الميل كله لله ، ويكون الحب كله لله ، وتكون العبادة كلها لله ، وتكون الألوهية كلها لله ، ويكون لا إله إلا الله .

(١) الفرقان آية رقم : ٤٣

(٢) الزمر آية رقم : ٥٣

(٣) مريم آية رقم : ٦٠

(٤) طه آية رقم : ٨٢

(٥) الروم آية رقم : ٣١

٢ — والتفسير الثاني لكلمة « إله » يأتي من قولنا : إله الرجل إذا فزع من أمر نزل به : فيقال : إلهه بمعنى أجاره يحيره فألهه : أى أجاره وأغاثه وأمنه ، قال الله تعالى :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء . . ؟ وهو يحير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾<sup>(١)</sup>

والله وحده هو الذى يغيث من يستجير به ، ولا يجزو مخلوق أن يحصى مخلوقاً من الخالق ، وما من خالق غير الله .

٣ — والتفسير الثالث لكلمة « إله » يعرف من قولنا : إله بمعنى تحير ، يقال إله — يأله ، إذا تحير . والآله : هو المتحير .

ومن المجاز : حار الماء فى المكان وتحير ، واستحار إذا اجتمع ووقف . والآلهية ، فعلانية من إله : إذا تحير ، وفى قول وهب بن الورد : « إذا وقع العبد فى إلهانية الرب ومهيمنة الصديقين ورهبانية الأبرار ، لم يحير أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه » .

أى : إذا وقع العبد فى عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وحرف همه الها ، أبغض كل شيء حتى ما « يميل » قلبه إلا إلى الله ، ذلك بأن الله هو الأول والآخر ، وهو الظاهر والباطن ، وهو الكبير المتعال الذى تأله العقول فى عظمتة .

قال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب ، الجزء الأول ، صفحة : ٨٥ : ( فالعبد إذا تفكر فيه تحير ، لأن كل ما يتخيله الإنسان ويتصوره ، فهو بخلافه ، مع الاعتراف بالعجز عن الإدراك ، فهنا العجز عن درك الإدراك إدراك ، ولا شك أن هذا موقف عجيب ، تتحير العقول فيه ) وأى شيء أكثر حيرة أن يكون سبحانه : —

﴿ . . . ليس كمثله شيء ﴾<sup>(٢)</sup>

٤ — ويجوز أن تشتق كلمة ولاه من كلمة إله . وذلك لأن الألف من الحروف المتحركة ، ويمكن أن تكون قد أبدلت الواو همزة ، فيكون أصله : ولاة ، فأبدلت الواو فقيلاً إله ، كما قالوا : أشاح فى وشاح ، واشتق من أوله وهو شدة الطرب والسرور أو شدة الحزن والخوف ، يقال : وله ، يله ويوله ولهاً إلى أمه وغيرها ، أى حسن واشتد وحيره ، كما يقال إله الفصيل إذا وله بأمه ، ويكون التفسير

١ — المؤمنون آية رقم : ٨٨

٢ — الشورى آية رقم : ١١

الرابع لكلمة أله ، أو ولاه أن الخلق يولھون إلى الله تعالى في حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما ينوبهم من الأهوال والشدائد ، قال الله تعالى : —

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾<sup>(١)</sup>

قال الراغب الأصفهاني : وكل مخلوق ، واله نحو الله تعالى ، إما بالتسخير فقط ، كالجمادات والحيوانات وإما بالتسخير والإرادة معاً ، كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دل قول الله تعالى :

﴿ . . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾<sup>(٢)</sup> وجاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الذي وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تحت كلمة سبح : سبح يسبح سبحاً وسباحة : عام ومَرَّ في الماء . وسبح سبحاً : جرى :

﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾<sup>(٣)</sup>

ويقال : حَفَّ أى طف ، وسبحان الله الذى لا إله إلا هو ، مالك يوم الدين ، الذى قال في كتابه المبين : —

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(٤)</sup> ولما كان الاشتقاق ، هو أخذ كلمة من كلمة ، مع تناسب بينهما في اللفظ والمعنى ، ولما كان من الممكن اشتقاق كلمات من كلمة « إله » وهى المركبة من ثلاث حروف ، لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة ابتداءً ، وبذلك يمكن أن نشق منها الكلمات والأصول التالية : — أولاً : ل أ هـ ، لا هـ .

١ — يقال : لاه يليه لها ، بمعنى علا وارتفع ، يقال : لاهت الشمس ، إذا علت وتوسطت كبد السماء ، وسميت الشمس آلهة ، لارتفاعها في السماء .

وقال الجوهري : ( كأنهم سموها آلهة ، لتعظيمهم لها في عبادتهم إياها ) . هذا وقد سمي القمر مثل ذلك ، ويوجد من يعظم النار ، لأنها جوهر علوى كما يقولون ، ولكن :

١ — الأنعام آية رقم : ٦٤

٢ — الاسراء الآية رقم : ٤٤

٣ — يس آية رقم : ٤٠

٤ — الزمر آية رقم : ٧٥

﴿... أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟﴾ (١) .

وهو الذى سخر الشمس والقمر وهو :

﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾ (٢) .

والله سبحانه وتعالى هو المتعال على خلقه بالقهر وهو ﴿القاهر فوق عباده وهو الحكيم

الخبير﴾ (٣) .

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير﴾ (٤) .

ذلك بأنه سبحانه ، العلى فوق كل شيء لقدرته وهو :

﴿رفيع الدرجات ذو العرش﴾ (٥) .

وسبحان الله عظيم الصفات وسبحان رنى الأعلى .

ثانياً : — لاه بمعنى تستر . يقال لاه يليه ليها . أى احتجب وسبحان من احتجب عن الخلق ، فلا عين تراه ، وهو الذى تخشع القلوب من كلمات كتابه .

﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ (٦) .

﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى

الجلل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق

قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين﴾ (٧) .

وكيف تراه العيون وهو الذى :

﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ (٨) .

ومع ذلك ، فإننا نرى آيات الله فى كل شيء قال تعالى :

﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ (٩) .

ثالثاً : أهـ ل ، أهل ، يقال : هو أهل لكذا ، أى مستوجب ، ويقال : قد استأهل وهو مستأهل

له . . . ومن غير الله أهل للألوهية . كلها ؟

﴿... هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾ (١٠) .

(٦) الحشر آية : ٢١

(٧) الأعراف آية : ١٢٣

(٨) الأنعام آية : ١٠٣

(٩) فصلت آية : ٥٣

(١٠) المدثر آية : ٥٦

(١) يوسف آية : ٣٩

(٢) الرعد آية : ٩

(٣) الأنعام آية : ١٨

(٤) لقمان آية : ٣٠

(٥) غافر آية : ١٥

رابعاً : هـ أ ل ، هـ ا ك ، والهول : هو المخافة من الأمر والله وحده ، هو الذى نرجو رحمته ونخاف عذابه .

قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؛ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ (١)

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٢)

خامساً : هـ ل ل ، هـ ل ل ، هـ ل ل ، الهاء واللام أصل يدل على رفع الصوت ( كما جاء فى كتاب مقاييس اللغة لابن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ) واستهلال المولود ، هو صياحه ساعة ولادته ، واستهلال المطر ، هو صوت وقوعه على الأرض ، والله وحده هو الذى مستغيثاً به تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (٣)

### ( جَار — صَاح )

ويفسر العلماء ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾ (٤) أى ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح للأصنام ، لذلك حرم الله لحومها على المؤمنين كما حرم عليهم الميتة والدم المسفوح ، قال تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾ (٥) .

وقيل أيضاً للمبلى فى حجة أو عمرة : مهل ، ويقال : أهل بالحج أى رفع صوته بالتلبية ، وقيل : الإهلال والتهلل ، أن يقال : لا إله إلا الله ، قال الراغب الأصفهاني ، المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية : ومن هذه الجملة : « لا إله إلا الله » ركبت هذه اللفظة . التهلل وسبحان الله :

﴿ . . . عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ (٥)

وهو الله الذى لا إله إلا هو ، وهو الذى قال فى كتابه الكريم :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه . . . ﴾ (٦)

### الله ٢٦٩٩

ذكر الاسم « الله » سبحانه وتعالى ألفين وستائة وتسع وتسعين مرة فى القرآن الكريم ، كما ورد فى المعجم الفهرسى ، وزيادة ذكر « الله » مرة فى بسم الله الرحمن الرحيم ، باعتبار البسملة آية فى فاتحة الكتاب وفى الكتاب الحكيم آيات بينات محكمات ، ذكر فى أول كل منها الاسم الأعظم الله ومنها :

(١) الزمر آية : ٣٦

(٢) البقرة آية : ١١٢

(٣) النحل آية : ٥٣

(٤) البقرة آية : ١٧٣

(٥) سبا آية : ٣

(٦) سورة الاسراء آية : ٦٧

١ - ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾ (١) .

٢ - ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (٢) .

٣ - ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ (٣) .

٤ - ﴿الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً﴾ (٤) .

٥ - ﴿الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بقاء ربكم توقنون﴾ (٥) .

٦ - ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار﴾ (٦) .

٧ - ﴿الله ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾ (٧) .

٨ - ﴿الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد﴾ (٨) .

٩ - ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ (٩) .

(٥) الرعد آية : ٢  
(٦) الرعد آية : ٨  
(٧) الرعد آية : ٢٦  
(٨) إبراهيم آية : ٢  
(٩) إبراهيم آية : ٣٢

(١) البقرة آية : ٢٥٥  
(٢) البقرة آية : ٢٥٧  
(٣) آل عمران آية : ٢  
(٤) النساء آية : ٨٧



١٠ - ﴿الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى﴾ (١).

١١ - ﴿الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون﴾ (٢).

١٢ - ﴿الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾ (٣).

١٣ - ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة ، الزجاجه كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾ (٤).

١٤ - ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ (٥).

١٥ - ﴿الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم﴾ (٦).

١٦ - ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون﴾ (٧).

١٧ - ﴿الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ (٨).

١٨ - ﴿الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطله فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ (٩).

١٩ - ﴿الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ (١٠).

٦ - العنكبوت آية : ٦٢

٧ - الروم آية : ١١

٨ - الروم آية : ٤٠

٩ - الروم آية : ٤٨

١٠ - الروم آية : ٥٤

١ - طه آية : ٨

٢ - الحج آية : ٦٩

٣ - الحج آية : ٧٥

٤ - النور آية : ٣٥

٥ - النمل آية : ٢٦

٢٠ - ﴿الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون﴾ (١).

٢١ - ﴿الله ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ (٢).

٢٢ - ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاقى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهذى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ (٣).

٢٣ - ﴿الله يتولى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٤).

٢٤ - ﴿الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل﴾ (٥).

٢٥ - ﴿الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ (٦).

٢٦ - ﴿الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيات ذلكم الله ربكم فيأولك الله رب العالمين﴾ (٧).

٢٧ - ﴿الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ (٨).

٢٨ - ﴿الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب﴾ (٩).

٢٩ - ﴿الله لطيف بعباده يزرق من يشاء وهو القوى العزيز﴾ (١٠).

٣٠ - ﴿الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتسبغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (١١).

(١) السجده. آية : ٤

(٢) الصافات. آية : ١٢٦

(٣) الزمر. آية : ٢٣

(٤) الزمر. آية : ٤٢

(٥) سورة الزمر. آية : ٦٢

(٦) غافر. آية : ٦١

(٧) غافر. آية : ٦١

(٨) غافر. آية : ٦٤

(٩) الشورى. آية : ١٧

(١٠) الشورى. آية : ١٩

(١١) الحاثيه. آية : ١٢

٣١ — ﴿الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾<sup>(١)</sup> .

٣٢ — ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾<sup>(٢)</sup> .

٣٣ — ﴿الله الصمد﴾<sup>(٣)</sup> .

الذي

﴿لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾<sup>(٤)</sup> .

ومن أسرار القرآن العظيم أن نزلت فيه تسع وعشرون سورة لم يذكر فيها لفظ الجلالة ( الله )  
وهي سور : القمر — الرحمن — الواقعة — القلم — القيامة — المرسلات — النبأ — عبس —  
المطففين — الطارق — الفجر — البلد — الليل — الشرح — القدر — الزلزلة — القارعة — التكاثر — العصر — الفيل —  
قريش — الماعون — الكوثر — الكافرون — المسد — الفلق — الناس .

وإذا تدبرنا القرآن وجدنا أن السور التي ذكر فيها اسم ( الله ) كثيراً وبعده أكثر من عدد آيات  
هذه السور ، هي سور آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة . كما نلاحظ أن لفظ الجلالة ( الله )  
ذكر مرة واحدة في أول الآية الرابعة من الثلاثين آية في سورة السجدة ، وذكرت كلمة ( الله ) ثلاث  
مرات في سورة يس مرتين في الآية السابعة والأربعين .

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله  
أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين﴾<sup>(٥)</sup> .  
والثالثة في الآية الرابعة والسبعين .

﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾<sup>(٦)</sup> .

وذكر اسم الجلالة ( الله ) مرة واحدة في سورة ( ق ) في الآية السادسة والعشرين :  
﴿الذي جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾<sup>(٧)</sup> .

(٤) سورة الاخلاص آية : ٣ ، ٤

(٥) سورة يس آية : ٤٧

(٦) سورة يس آية : ٧٤

(٧) سورة ق آية : ٢٦

١ — التفائين آية : ١٣

٢ — الطلاق آية : ١٢

٣ — الإخلاص آية : ٢

وذكر الاسم الله مرة واحدة في كل من سور الحاقة والمعارج والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والأعلى والغاشية والشمس والتين والعلق والهمزة .

وذكر لفظ ( الله ) مرتين في كل من سور :

الحجر — والنصر — الاخلاص — وفاتحة الكتاب .

وقد ذكر « الله الله » أى مرتين متابعتين في آية واحدة في سورة الأنعام : في قوله تعالى :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (١)

## ٢ - الرحمن

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ (٢) .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى يختص بالله سبحانه لا يجوز أن يسمى به غيره ، وهو يجرى غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد يذكر موصوفاً ، كما قال الله : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

والرحمن هو الاسم الدال على أن الرحمة قائمة به سبحانه وتعالى ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة ، والتي لا نظير له فيها ، ولذلك لا يشئ ولا يجمع .  
والرحمن صيغة تعظيم من الرحمة كالرحيم ، لكن الرحمن من زيادة المعنى وأكبر تعظيماً ، لأن صيغة الرحمن تتناول جلائل النعم وعامها وأصولها .

واسم الرحمن قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم — وإن كان اسم الرحمن مشتقاً من الرحمة أى أن « الرحمن » اسم وصفه لا ينافى أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً .

ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة في القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم .

قال الله تعالى : —

- ١ — ﴿ كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن كل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾ <sup>(١)</sup> .
- ٢ — ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ <sup>(٢)</sup> .
- ٣ — ﴿ فكلني واشرنني وقرى عيناً فأما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾ <sup>(٣)</sup> .
- ٤ — ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ <sup>(٤)</sup> .
- ٥ — ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ <sup>(٥)</sup> .
- ٦ — ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبننا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ <sup>(٦)</sup> .
- ٧ — ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً ﴾ <sup>(٧)</sup> .
- ٨ — ﴿ ثم لنزعن من كل شيعة أئيم أشد على الرحمن عتياً ﴾ <sup>(٨)</sup> .
- ٩ — ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً ﴾ <sup>(٩)</sup> .
- ١٠ — ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ <sup>(١٠)</sup> .
- ١١ — ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾ <sup>(١١)</sup> .
- ١٢ — ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ <sup>(١٢)</sup> .
- ١٣ — ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ <sup>(١٣)</sup> .
- ١٤ — ﴿ . . . ونخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً ﴾ <sup>(١٤)</sup> .
- ١٥ — ﴿ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ <sup>(١٥)</sup> .
- ١٦ — ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾ <sup>(١٦)</sup> .
- ١٧ — ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ <sup>(١٧)</sup> .

(١٠) مريم آية : ٧٨

(١١) مريم آية : ٨٥

(١٢) مريم آية : ٨٧

(١٣) مريم آية : ٨٨

(١٤) مريم الآيتان : ٩٠ - ٩١

(١٥) مريم آية : ٩٢

(١٦) مريم آية : ٩٣

(١٧) مريم آية : ٩٦

(١) الرعد آية : ٣٠

(٢) مريم آية : ١٨

(٣) مريم آية : ٢٦

(٤) مريم آية : ٤٤

(٥) مريم آية : ٤٥

(٦) مريم آية : ٥٨

(٧) مريم آية : ٦١

(٨) مريم آية : ٦٩

(٩) مريم آية : ٧٥

- ١٨ — ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ (١).
- ١٩ — ﴿وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً﴾ (٢).
- ٢٠ — ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ (٣).
- ٢١ — ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرمون﴾ (٤).
- ٢٢ — ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً هذا الذي يذكر آهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ (٥).
- ٢٣ — ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ (٦).
- ٢٤ — ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ (٧).
- ٢٥ — ﴿الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيراً﴾ (٨).
- ٢٦ — ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن — أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً﴾ (٩).
- ٢٨ — ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ (١٠).
- ٢٩ — ﴿وما يأتهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين﴾ (١١).
- ٣٠ — ﴿إنما تنذر من آتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم﴾ (١٢).
- ٣١ — ﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون﴾ (١٣).
- ٣٢ — ﴿أأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون﴾ (١٤).
- ٣٣ — ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ (١٥).
- ٣٤ — ﴿تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ (١٦).
- ٣٥ — ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾ (١٧).
- ٣٦ — ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؛ ستكتب شهادتهم ويسألون﴾ (١٨).

(١٠) الفرقان آية : ٦٣

(١١) الشعراء آية : ٥

(١٢) يس آية : ١١

(١٣) يس آية : ١٥

(١٤) يس آية : ٢٣

(١٥) يس آية : ٥٢

(١٦) فصلت آية : ٢

(١٧) الزخرف آية : ١٧

(١٨) الزخرف آية : ١٩

(١) طه آية : ٥

(٢) طه آية : ١٠٨

(٣) طه آية : ١٠٩

(٤) الأنبياء آية : ٢٦

(٥) الأنبياء آية : ٣٦

(٦) الأنبياء آية : ٤٢

(٧) الفرقان آية : ٢٦

(٨) الفرقان آية : ٥٩

(٩) الفرقان آية : ٦٠

- ٣٧ — ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عهدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون﴾ (١).  
 ٣٨ — ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون﴾ (٢).  
 ٣٩ — ﴿ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقیض له شیطاناً فهو له قرين﴾ (٣).  
 ٤٠ — ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أ جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ (٤).  
 ٤١ — ﴿قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين﴾ (٥).  
 ٤٢ — ﴿من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ (٦).

٤٣ — ﴿الرحمن علم القرآن﴾ (٧).

٤٤ — ﴿الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ (٨).

٤٥ — ﴿أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير﴾ (٩).

٤٦ — ﴿أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور﴾ (١٠).

٤٧ — ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين﴾ (١١).

٤٨ — ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (١٢).

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ذكرت فى فواتح السور غير التوبة ولم تكتب ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فى أول سورة التوبة ، لأن النبى - ﷺ - لم يؤمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم ، وأخرج فى معناه أن البسملة أمان - والسورة نزلت لرفع الأمن بالسيف والقتال ، كما ذكرت البسملة فى الآية الثلاثين . من سورة النمل :

(٧) الرحمن الآيتان : ١ - ٢

(٨) الملك آية : ٣

(٩) الملك آية : ١٩

(١٠) الملك آية : ٢١

(١١) الملك آية : ٢٩

(١٢) البأ آية : ٣٨

(١) الزخرف آية : ٢٠

(٢) الزخرف آية : ٣٣

(٣) الزخرف آية : ٣٦

(٤) الزخرف آية : ٤٥

(٥) الزخرف آية : ٨١

(٦) ق آية : ٣٣

وذكر اسم الرحمن سبعا وخمسين مرة في كتاب الله الكريم على النحو التالي : ذكر ﴿ الرحمن ﴾ ذكر مرتين في فاتحة الكتاب وذلك باعتبار ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ الآية الأولى من سورة الفاتحة ، وفي الآية الثالثة من فاتحة الكتاب وهي :

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ .

وذكر الرحمن مرة واحدة في سورة البقرة :

﴿ وإلهمكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

٤ — وذكر الرحمن مرة واحدة في سورة الرعد في الآية الثلاثين . وذكر الرحمن مرة واحدة في سورة الإسراء .

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ .

وأكثر سورة ذكر فيها الرحمن سورة مريم ، ذكر الرحمن ستة عشرة مرة في الآيات ١٨ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ .

وذكر الرحمن أربع مرات ، في سورة طه في الآيات ٥ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، وذكر الرحمن أربع مرات ، في سورة الأنبياء في الآيات ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٢ ، وذكر الرحمن خمس مرات في سورة الفرقان في الآيات ٢٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ذلك بأن الرحمن ، سبحانه ذكر مرتين في الآية الستين من سورة الفرقان .

وذكر الرحمن مرة واحدة ، في سورة الشعراء في الآية الخامسة . وذكر الرحمن مرة واحدة ، في الآية الثلاثين من سورة النمل .

وذكر الرحمن أربع مرات ، في سورة يس في الآيات ١١ ، ١٥ ، ٣٣ ، ٥٢ ، وذكر الرحمن سبع مرات ، في سورة الزخرف في الآيات ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨١ . وذكر الرحمن مرة واحدة ، في أول سورة الرحمن . وذكر الرحمن مرة واحدة في سورة الحشر وذلك في الآية الكريمة الثانية والعشرين .



وذكر الرحمن أربع مرات ، في سورة الملك في الآيات ٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ وذكر الله باسمه الرحمن مرتين ، في سورة النبأ في الآيتين ٥٦ ، ٥٧ وجاء في كتاب « الأسماء والصفات » للإمام أبى بكر بن على البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ ، طبعة الهند ، صفحة ٣٦ ما يلى : —

قال الحلينسى رحمة الله في معنى الرحمن ، أنه المزيج للعلل — وذلك أنه لما أراد من الجن والإنس أن يعبدوه ، يعنى لما أراد أن يأمر من شاء منهم بعبادته ، عرفهم وجوه العبادات — وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح ، فحاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنذرهم وأمهلهم ، فصارت العلل مزاحه ، وحجج العصاة والمقصرين منقطعة . وقال أبو سليمان الخطائى رحمه الله « اختلف الناس في تفسير الرحمن . ومعناه ، وهل هو مشتق من الرحمة ! فذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق ، لأنه غير مشتق ، لأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لا تصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال الله الرحمن بعباده ، كما يقال رحيم بعباده ، ولأنه لو كان مشتق من الرحمة ، لا تنكره العرب حين سمعوه ، إذا كانوا لا ينكرون رحمة ربهم . . . وقد قال الله عز وجل :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ (١) .

وذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة لا نظير له فيها .

وكتب أبو بكر البيهقى ، قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن يوسف الأصبهاني ، قال أخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين القطان ، قال : أخبرنا أحمد بن يوسف السلمى ، قال : حدثنا عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : قال الله عز وجل : ﴿ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ﴾ (٢) .

قال الخطائى رحمه الله : فالرحمن ذو الرحمة الشاملة ، التى وسعت الخلق فى آرزاقهم ، وأسباب معاشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر ، والصالح والطالح .

١ — الفرقان آية : ٦٠

٢ — انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى ح ١٠ ص ٤١٨ . كتاب الأدب باب من وصل وصله الله .

انظر صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب من وصل وصله الله . ح ٨ ص ٧٥٦

وقد ذهب الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، إلى أن اسم « الرحمن » قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم ، وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً .  
فبالأحرى أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة ، أبعد من مقدور العباد ، فالرحمن هو العطوف على العباد .

أولاً : بالايحاد .

ثانياً : بالهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .

ثالثاً : بالإسعاد فى الآخرة .

رابعاً : بالإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

والرحمن هو الخالق الذى يريد الخير لعباده ، فأنعم علينا بكتابه المبين .

والحمد لله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الذى علم القرآن ، وهو الذى خلق الإنسان ، وعلمه

البيان .

### ٣ - الرحيم

« اللهم إني أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الذى إذا استُرِحِمَتْ به رَحِمَتْ » . الحمد لله الذى أرسل رسوله رحمة للعالمين ، ونزل القرآن رحمة للمؤمنين ، الرحيم من أسماء الله تعالى ، وهو اسم مشتق من الرحمة ، ومعنى الرحمة هو تخليص من رحمهم الله من الضر والضلال ، والإنعام عليهم بالهدى والمغفرة والإيمان ، والرحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل أى راحم ، وبناء فعيل للمبالغة كعالم وعليم ، وقادر وقدير ، أى أن الرحيم صيغة تعظيم من الرحمة .

والرحمة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، قال الله تعالى :

﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ (١) . والله يقسم رحمته كيف يشاء ، ويدخل رحمته من يشاء ، والرحمة من الله إنعام وإفضال ، ونحن لا نكاد نرى آثار رحمة الله لكثرتها ، ذلك بأن نعم الله لا تحصى ، ولكننا نحس إن أمسك الله بعض رحمته ، ونشعر وكأنها تنزع نزاعاً .

قال الله تعالى :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴾<sup>(١)</sup> ولا يوجد شيء في الوجود يعادل رحمة الله غير علمه عز وجل .

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وأن الله يرحمنا في هذه الحياة الدنيا التي لا نلبث فيها إلا قليلاً ، وينعم الله علينا بشتى صنوف الإحسان ، ويفضل بعضنا على بعض ، فكيف تكون رحمة ربي في الدار الآخرة ، التي هي خير للذين يتقون ، والتي هي دار القرار ؟

١ — ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ — ﴿ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

٣ — ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾<sup>(٥)</sup> .  
من أجل ذلك كتب الله على نفسه الرحمة ، وأرسل نبي الرحمة ، محمداً بن عبد الله ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وجعل طاعة خاتم النبيين والصلاة والسلام عليه سبباً في تحصيل الرحمة ، التي هي سعادة الآخرة ، وجعل سبحانه ، نصيب الأتقى منها أكبر ، قال تعالى :  
﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ فجعلها بشري التقوى والإحسان ، قال تعالى :

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾<sup>(٦)</sup>

وهو الذي لا يرد عذابه عن القاسية قلوبهم ، قال رسول الله ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »<sup>(٨)</sup> وقال الله تعالى : ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾<sup>(٩)</sup> والرحيم من صفات الرحمن ، ويجوز أن يفيض الله على عباده بنصيب من الرحمة ، فيكون رحيماً بإذن الله ، وأكثر عباد الله نصيباً من هذه الرحمة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى في كتابه الكريم :

١ — هود آية : ٩

٢ — غافر آية : ٧

٣ — يوسف آية : ٥٧

٤ — النحل آية : ٤١

٥ — الاسراء آية : ٢١

٦ — الأعراف آية : ١٥٦

٧ — الأعراف آية : ٥٦

٨ — أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢ ص ١٠٠ كتاب الجائز باب قول النبي يعذب الميت ببعض بكاء أهله .

٩ — الأنعام آية : ١٤٧ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (١) .  
قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ،  
فبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعا وتسعين إلى يوم القيامة » .

ورد هذا الحديث بهذا النص في مسند ابن حنبل الجزء الخامس . كما ورد مع إختلاف في النص  
لصحيح مسلم وفي سنن ابن ماجه . وورد اللفظ مطولاً في تفسير الطبرى الجزء السابع ، حدثنا محمد  
بن المثنى — قال : حدثنا عبد الوهاب قال : حدثنا داود عن أبى عثمان ، عن سليمان قال : « إن الله  
تعالى ذكره ، لما خلق السموات والأرض . خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض  
فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلق . فيها يتعاطفون ، وبها تشرب الوحوش والطيور  
الماء ، فإذا كان يوم القيامة ، قصرها الله على المتقين وزادهم تسعاً وتسعين » (٢) .

أما رحمة الله فهي رحمة واسعة ، ولا يمكن لخلق أن يحسبها ، أو أن يعقلها ، لكن بفضل الله  
وواسع رحمته ، يمكن لقلب المؤمن أن يؤمن بها ، وهذه الرحمة التى أودعها الله الرحماء من الخلق في  
الدنيا ، يصح أن تقارن بالعلم الذى علمه الله تعالى عباده من الحكماء والعلماء ، أو أن توازى الرزق  
الذى رزقه الله عباده في هذه الحياة الدنيا ، وكل من عند الله ، وبيعض هذه الرحمة التى بين الخلائق ،  
تتابع الطير في جو السماء ، وتتابع الحيتان في الماء ، وتحنُّ الأمهات على أبنائهن ، والحب ، وكل الحب  
الذى أوصى به سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، وبمثل هذه الرحمة التى وهبها الله لعباده ، يؤلف  
الله تعالى بين قلوب من يشاء ... و :

﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾ (٣) .

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك  
لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (٤) .

كل هذا قليل من الرحمة ، التى أفاض الرحمن بها على عباده الرحماء ، وهى كما ترى لا يمكن  
أن تعد أو أن تحصى .

والرحمة التى وهبها الله عباده المتقين في الآخرة ، خير وأبقى ، وهى مائة ضعف الرحمة السابقة ،  
وأنها لرزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الرحمة ، ماله من نفاذ . وفي يوم القيامة ، ترى المؤمنين  
والمؤمنات ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويسرون سروراً عظيماً ، ويخبرون بما بينهم من هذه الرحمة

١ — التوبة آية : ١٢٨ .

٢ — أخرجه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الزهد ) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ح ٢ ص ١٤٣٥ من رواية أبى سعيد —  
رضى الله عنه — قال في الزوائد : حديث أبى سعيد بن صحيح رجال ثقات .  
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ( من حديث جندب البجلي ) ح ٤ ص ٣١٢ .

٣ — الأنفال آية : ٦٣ .

٤ — الروم آية : ٢١ .

والحب ، والكافرون والمنافقون ما لهم من نصيب من هذه الرحمة والحب والمودة ، حتى الأحياء منهم ويقصر الله هذه الرحمة على المتقين :

﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾<sup>(١)</sup> وبيعض هذه الرحمة ، يتبادل أصحاب النعيم العشق مع الأزواج المطهرة من الحور العين ، والخور : هن الجميلات ، شديديات سواد العيون في شدة بياضها ، العين : أى الحسان واسعات العيون ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، الحسان الأبيكار ، الكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاه التى بدأ ثديها يستدير ، والتى تكعبت ثديها أى نهت الأتراب ، وهن الصواحب الأمثال الأكفاء ، العُرب — بضم العين والراء — قاصرات الطرف ، والقصر : أى الحبس ، والطرف هنا معناه النظر ، والمراد حابسات أعينهن على أزواجهن ، لا ينظرون إلى غيرهم لجمالهم فى نظرهن ، وبجزء من هذه الرحمة ، ينزع الله ما فى صدور المتقين من غلٍّ ، إذا حصل ما فى الصدور ، ويخرج ما فى قلوبهم من بعض حقد للذين آمنوا ، ويألفون ويؤلفون ، ويصبحون إخوانا ، وتجرى من تحتهم الأنهار ، على سرر متقابلين ، وبذلك تكاد تضىء حكمة أحكم الحاكمين ، جل ثناؤه ، الذى أوحى لعباده بهذا الدعاء .

﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾<sup>(٢)</sup> .

والله سميع الدعاء ، ثم يوفى المتقين نصيبهم من الرحمة ، يوم القيامة ، غير منقوص ، وإنا لنطمع أن يكون أجرنا من الرحمة فى الآخرة ، بغير حساب ، وخالصات لوجه الله الكريم . ولما كان ما أوتينا من العلم هو « كلمات » ولا علم لنا برحمة الله ، إلا إنها وسعت كل شيء ، وإلا أن تكون خزائن رحمة ربه مثل كلمات ربه ، و : ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا﴾<sup>(٣)</sup> .

﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم﴾<sup>(٤)</sup> .

فإنه ليس لأحد منا ينجيه عمله ، إلا أن يتغمدنا الله برحمة منه وفضل ولا سبيل لنا إلا أن نسأله تعالى أن يرحمنا ، والله هو الغنى ذو الرحمة ، وهو خير الراحمين ، وهو أرحم الراحمين . وهكذا نرى أن من عرف شيئا عن رحمة الله ، اشتاق إلى الله ، ومن اشتاق إلى الله ، رحمه الله .

(١) الزخرف آية : ٦٧

(٢) الحشر آية : ١٠

(٣) الكهف آية : ١٠٩

(٤) لقمان آية : ٢٧

## ومرة أخرى مع الاسم الكريم : الرحيم

ذكر « الرحيم » مائة وأربعة عشر مرة في القرآن الكريم على النحو التالي :

## — الرحمن الرحيم :

ذكر الرحمن الرحيم ست مرات في ست آيات من آي الذكر الحكيم وهي : الآية الأولى والثالثة من سورة الفاتحة ، والآية ١٦٣ من سورة البقرة ، والآية الثلاثين من سورة النمل ، والآية الثانية من سورة فصلت ، والآية الثانية والعشرين من سورة الحشر .

## — التواب الرحيم

ذكر التواب الرحيم ست مرات في الكتاب المبين :

﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ ٣٧ البقرة كما ذكر التواب الرحيم في الآيات : ٥٤ ، ١٢٨ ، ١٦٠ من سورة البقرة وذكر التواب الرحيم مرتين في سورة التوبة .

١١ — ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب

الرحيم ﴾ ١٠٤ التوبة

١٢ — والآية ١١٨ من سورة التوبة .

﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾

١٣ — ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ؟ واتقوا الله ، إن الله

تواب رحيم ﴾ ١٢ الحجرات

وسبحانه ﴿ تواباً رحيماً ﴾ .

١٤ — الآية من سورة النساء :

١٥ — ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك

فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ ٦٤ النساء

وهو ﴿ العزيز الرحيم ﴾

ذكر العزيز الرحيم ثلاث عشرة مرة في الكتاب العزى الكريم على النحو التالي : تسع مرات

في سورة الشعراء وهي ثمان مرات من الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ،

١٩١ التي نصها جميعاً .

﴿ ... وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴾ .

والتاسعة في الآية ٢١٧ من سورة الشعراء .

٢٤ — ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾

وذكر العزيز الرحيم في الآية الخامسة من سورة الروم

٢٥ — ﴿ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾

٢٦ — ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ ٦٠ سجدة

٢٧ — ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ ٥ يس

٢٨ — ﴿ إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾ ٤٢ الدخان .

﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾

٢٩ — ﴿ وإن يمسك الله بضرب فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ،

يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾ ١٠٧ يونس

٣٠ — ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٩٨ يوسف

٣١ — ﴿ نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ﴾ ٤٩ الحجر .

٣٢ — ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ١٦

القصص

٣٣ — ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر

الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ ٥٣ الزمر

٣٤ — ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن

في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ ٥ الشورى .

٣٥ — ﴿ أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ، هو أعلم بما تفيضون

فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم ﴾ الأحقاف .

وهو الرحيم الغفور

ذكر الرحيم الغفور مرة واحدة في كتاب الله العزيز وذلك في الآية الثانية من سورة سبأ :

٣٦ — ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو

الرحيم الغفور ﴾ .

غفور رحيم :

ذكر اسم « غفور رحيم » تسعاً وأربعين مرة في القرآن الكريم في الآيات التسع والأربعين التالية ،

وهي الآيات :

١٧٣ — ١٨٢ — ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ من سورة البقرة . والآيات : ٣١ — ٨٩ —

١٢٩ من سورة آل عمران . والآية ٢٥ من سورة النساء — والآيات : ٣ — ٣٤ — ٣٩ — ٧٩ —

٩٨ من سورة الأنعام . والآيتين ١٥٢ — ١٦٧ من سورة الأعراف والآيتين ٦٩ — ٧٠ من سورة

الأنفال — والآيات ٥ — ٢٧ — ٩١ — ١٠٢ من سورة التوبة . والآية ٤١ من سورة هود والآية ٥٣ من سورة يوسف . والآية ٣٦ من سورة إبراهيم والآيات ٥ — ٢٢ — ٣٣ — ٦٢ من سورة النور . والآية ٢٨ من سورة الحديد . والآية ١٢ من سورة المجادلة ، والآية ٧ من سورة الممتحنة والآية ١٤ من سورة التغابن . والآية الأولى من سورة التحريم ، والآية ٢٠ من سورة المزمل .  
وسبحانه .

غفوراً رحيماً .

ورد ذكرها خمس عشرة مرة في الخمس عشرة آية التالية :

الآيات : ٢٣ — ٩٦ — ١٠٠ — ١٠٦ — ١١٠ — ١٢٩ — ١٥٢ من سورة النساء .  
والآيتين ٦ — ٧٠ من سورة الفرقان . والآيات ٥ — ٢٤ — ٥٩ — ٧٣ من سورة الأحزاب —  
والآية : ١٤ من سورة الفتح .

وهو رءوف رحيم .

ذكرت كلمة رءوف رحيم ثمان مرات في الثمان الآيات التالية الآية ١٤٣ من سورة البقرة ،  
والآية ١١٧ من سورة التوبة ، والآية السابعة من سورة النحل ، والآية ٤٧ من سورة النمل ، والآية  
٦٥ من سورة الحج . والآية ٢٠ من سورة النور ، والآية ٩ من سورة الحديد ، والآية ١٠ من سورة  
الحشر وهي :

١٠٨ — ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ  
وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رءوف رحيم ﴾ .

وهو رحيم ودود .

١٠٩ — ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدود ﴾ ٩٠ هود

وهو رب رحيم .

١١٠ — ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيم ﴾ ٥٨ يس

وهو البر الرحيم

١١١ — ﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البر الرحيم ﴾ ٢٨ الطور .

وسبحانه رحيماً :

١١٢ — ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ  
مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ ٢٩ النساء .

١١٣ — ﴿ رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّه كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾

٦٦ الإسراء .



١١٤ — ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ ٤٣ الأحزاب .  
وهكذا ذكر اسم « الرحيم » سبحانه ، فى القرآن العظيم مائة وأربع عشرة مرة بعدد سور القرآن العظيم .

## ٤ — الملك

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ (١) .

تبارك الذى له ملك السموات والأرض ، وما بينهما وما فوقهن ، ولم يتخذ ولداً .  
فاطر وبديع السموات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً . والإبداع هو الخلق أول مرة ، وإخراج الشيء مما لا نعلم إلى الوجود ، من أجل ذلك لا يعقل أن يملك ، بمعنى المُلْك ، إلا الله الملك الحق المبين ، وهو سبحانه المتصرف فى كل شيء بالإبداع والخلق والموت والحياة والنشور .  
والملك الحق هو الغنى مطلقاً عن كل ما سواه ، وعن كل ما يحتاج إليه سواه ، أما من يحتاج إلى الغير فلا يصح أن يسمى مطلقاً ، إلا أن يؤتى ملكاً محدداً موقتاً ، أو أن يكون ذلك مجازاً وهذا واضح جداً للمؤمنين اليوم ، ولجميع المخلوقات يوم القيامة ، ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ ١٦ غافر .  
﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ٦٧ الزمر .

وقد ذكر الملك فى بضع آيات من القرآن العظيم :

- ١ — ﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾
  - ٢ — ﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ ١١٤ طه .
  - ٣ — ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ١١٦ المؤمنون .
  - ٤ — ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾ ٢٣ الحشر .
  - ٥ — ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ ١ الجمعة .
  - ٦ — ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ١ — ٢ الناس .
- جاء فى صحيح البخارى الجزء التاسع ، كتاب التوحيد : قول الله تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ :  
عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض » (٢) .

(١) المؤمنون آية : ١١٦ وطه آية : ١١٤

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٩ ص ١٤٢ . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى . ﴿ أنا الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ ٨٣ يس والملكوت هو الملك العظيم الواسع المطلق ، كالرحموت للرحمة الواسعة ، والرهبوت للرهبة الشديدة ، وهو فعلوت من الملك ، فهذا الوزن فى اللغة يفيد المنتهى .

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ﴾ ١ الملك واليد مجاز عن القدرة والإحاطة والملك ، فالذى يملك السمع والأبصار والأفئدة ، والموت والحياة ، والنشور والشفاعة ، والرحمة والرزق ، هو الله ، ونحن لا نملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، من أجل ذلك ، فلا مُلك إلا لله ، ولا مَلِك إلا الله ، مالك الملك لا شريك له .  
وهنا دعاء عرفة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

## ٥ - القدوس

### ﴿ رب الملائكة والروح ﴾

القدوس بالضم والتشديد من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو اسم جميل مشتق من القدس أى الطهر .

والقدوس سبحانه ، هو الطاهر المنزه .  
والتقديس والتطهير ، هو تنزيه الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ (١) .

قال الزجاج : أى نطهر أنفسنا ، وكذلك نفعل بمن أطاعك ، نقده أى نطهره .  
ذلك بأن القدس هو الطهر والنزاهة .  
وقد ذكر القدوس مرتين فى كتاب الله الكريم ، مرة فى سورة الجحر ، والثانية فى الآية الأولى من سورة الجمعة : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ (٢) .  
عن قتادة عن مطرف عن عائشة رضى الله عنهم قالت : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه :

« سُبُّوحٌ قدوس رب الملائكة والروح » (٣) .

١ - البقرة الآية : ٣٠

٢ - الجمعة الآية ١

٣ - أخرجه مسلم فى صحيحه . ج ١ ص ٣٥٣ . كتاب الصلاة . باب . ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٢٢٣ / ٤٨٧ .

## ٦ - السلام

﴿التحيات لله والصلوات والطيبات﴾

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام﴾<sup>(١)</sup>. ومعنى السلام فى اللغة ، السلامة والأمان ، والسلام هو الذى ليس فى الوجود سلامة إلا وكانت صادرة منه تعالى ، فسبحان السلام مانح السلامة فى الدنيا والآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .  
 وأسأل ربى « السلام » أن يصلى ويسلم على رسول السلام سيدنا محمد نبى الاسلام ، كان رسول الله ﷺ ، إذا أراد أن ينصرف من صلاته ، استغفر ثلاث مرات ثم قال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام »<sup>(٢)</sup> .

اللهم أنت السلام

ومنك السلام

وإليك يرجع السلام

فحينما ربنا بالسلام

وأدخلنا دارك دار السلام

تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام

## ٧ - المؤمن

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم﴾<sup>(٣)</sup> .

سبحان الذى شهد لنفسه بالوحدانية قبل شهادة خلقه ، والإيمان هو التصديق ، والله هو المؤمن المصدق لنفسه ، ومن أصدق من الله — قىلاً ، ومن أصدق من الله حديثاً .  
 وسبحان المؤمن الذى يعزى إليه الأمن والأمان ، فلا أمن ولا أمان إلا من عنده .  
 وسبحان المؤمن واهب الأمن ، والأمن ضد الخوف ، وسبحان الذى أطعمنا من جوع وآمنا من خوف .

وهنا مكان حسن لتدبر الثلاث الآيات من سورة الأنعام : ﴿وحاجه قومه ، قال : اتحاجونى فى الله وقد هدان . ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون \* وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً \* فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون \* الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الحشر الآية : ٢٣

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ج ١ ص ٢٩٨ . كتاب اقامة الصلاة . باب ما يقال بعد التسليم . رقم ٩٢٤ .

(٣) آل عمران الآية : ١٨ .

(٤) الأنعام الآيات ٨٠ - ٨٢

## ٨ - المهيمن

﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان المهيمن بعلمه ، وكإل قدرته على كل شيء ، والمهيمن هو الرقيب على كل شيء ، وهو الحافظ لكل شيء ، والخاضع لسلطانه كل شيء ، وهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، والمهيمن هو الشاهد المطلع على أفعال مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾<sup>(٢)</sup> ، ( مهيمناً عليه ) : أى رقيباً على ما سبقه من الكتب ، يقر الحق ويظهر خطأ الباطل ، قال أهل اللغة : الهيمنة : القيام على الشيء والرعاية له ، والمهيمن : الشاهد ، وهو من آمن غيره من الخوف ، وقيل المهيمن : هو الشهيد لنفسه بالوحدانية .

وقال أهل التفسير فى المهيمن : أنه الأمين . قال أبو سليمان : وأصله مؤمن فقلبت الهمزة هاء ، لأن الهاء أخف من الهمزة ، وهو على وزن مسيطر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : مهيمناً عليه ، قال : مؤتمناً عليه ومهيمناً عليه . قال : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ومهيمناً عليه : قال المهيمن الشاهد على ما قبله من الكتب .

قال أبو سليمان : فالله عز وجل المهيمن أى الشاهد على خلقه ، بما يكون منهم من قول وفعل .

كقوله تعالى : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾<sup>(٣)</sup> .

والإفاضة هى الاندفاع فى الشيء بقوة ، أى تفعلونه بسرعة . ولتدبر باقى الآية الكريمة : ﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٤)</sup> . وسبحان المهيمن الذى لا يغيب عنه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وقد ذكر الاسم المحيط « المهيمن » مرة واحدة فى الكتاب المبين .

(٣) يونس الآية : ٦١

(٤) يونس الآية : ٦١

(١) النساء الآية : ١

(٢) المائدة الآية : ٤٨

## ٩ - العزيز

﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾<sup>(١)</sup> .

سبحان العزيز الذى لا يوجد مثله ، ويا من ليس له ضد ولا شبيه ، ويا من تشتد إليه الحاجة ، ويا من يصعب الوصول إليه . والعزیز ، سبحانه ، هو القوى ، الذى لا يجوز عليه مكر الماكرين ، وقد ذكر العزيز ثمانية وثمانين مرة في كتاب الله الكريم ، وهو العزيز الرحيم ، وهو العزيز العليم ، وهو عزيز ذو انتقام ، وهو القوى العزيز ، وهو العزيز الغفار ، وهو العزيز الغفور ، وهو العزيز الحميد ، وهو العزيز الوهاب ، وهو عزيز مقتدر . ﴿ ... وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾<sup>(٢)</sup> .

## ١٠ الجبار

﴿ الجبار المتكبر ﴾<sup>(٣)</sup> .

سبحان الجبار القهار ، الذى قهر خلقه ، ويجبرهم على ما أراده ، إرادة حكيم في لطف الخبير ، ذلك بأن من معاني الجبر ، القهر ، يقال : جبره وأجبره على الأمر يجبره ، أى أكرهه وقهره ونفذت مشيئته : ﴿ وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾<sup>(٤)</sup> . والجبار فعال من جبر ، إذا أغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وجبر الشيء : إصلاحه ، قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾<sup>(٥)</sup> .

والبال : الحال والشأن ، والبال : رخاء النفس ، والبال : القلب . يقال : ما يخطر فلان ببال ، ويقال خطر الشيء ببال ، وأخطره الله بباله . والجبار هو العالى ، الذى لا ينال ، قال ابن الأبنارى : الجبار في صفة الله تعالى الذى لا ينال ، ومنه قيل للنخلة التى فاتت يد المتناول جبارة ، فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الإحاطة بجلاله . وقال ابن عباس : الجبار هو الملك العظيم ، وقد ذكر « الجبار المتكبر » سبحانه ، مرة واحدة في الكتاب العزيز .

## ١١ - المتكبر

﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾<sup>(٦)</sup> .

سبحان الجبار المتكبر ، ذى الكبرياء ، الذى له الكبرياء في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

(٤) الأنعام الآية : ١٨

(٥) محمد الآية : ٢

الحشر الآية : ٢٣

(١) الصفات الآية : ١٨٠

(٢) غافر الآية : ٤٢

(٣) الحشر الآية : ٢٣

والكبرياء : هي الرفعة في الدرجات والعظمة ، والعظمة والكبرياء لله . جاء في الحديث الصحيح عن رب كل شيء : « الكبرياء ردائي والعظمة إزارى فمن نازعنى فى أحدهما قصمته »<sup>(١)</sup> أى أهلكته . وأعوذ بالله من كل قلب متكبر جبار ، ذلك بأن الكبر والكبرياء من صفات الله ، ولا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر ، ويطيع الله على قلبه : ﴿ كذلك يطيع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾<sup>(٢)</sup> . وسبحانه الجبار المتكبر عما يقولون علواً كبيراً . وقد ذكر المتكبر تعالى مرة واحدة فى الكتاب المبين فى الآية الثالثة والعشرين من سورة الحشر : ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ .

## ١٢ - الخالق

﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾<sup>(٣)</sup>

الخالق هو الفاطر وهو الموجود المبدع على غير مثال سبق . وأحب أن أدخر هذا الاسم العظيم ( الخالق ) إلى الخلق فى عالم الملكوت ، عالم الخلق الأول :

يوم خلق الله السموات والأرض ، ويوم خلق الله الملائكة ، ويوم خلق الله الآجال حين يموت من مات ، ويوم ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، ويوم خلق الله آدم فى أحسن تقويم ، وأسكنه الجنة ، ويوم خلقنا فى ظهر آدم ، واستخرجنا وأخذ علينا الميثاق ، ثم أماتنا . وهو الذى خلق بقضاء وأمر ، أو بقول وإرادة ، سبحانه ، قال تعالى : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾<sup>(٤)</sup> .

والخالق والبعث كلاهما من أمر ربي ، والخالق الباعث ، سبحانه ، هو الذى خلق كل شيء فى عالم الغيب ، والخالق من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، وقد ذكر « الخالق » فى نهاية سورة الحشر ، ثم لتدبر الآيات السبع الآتية :

١ - ﴿ ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾<sup>(٥)</sup> .

٢ - ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ ألا تذكرون ﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه ج ٢ ص ١٣٩٧ . كتاب الزهد . رقم ٤١٧٤ . انظر سنن أبى داود ج ٤ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ . كتاب اللباس . باب ما جاء فى الكبر رقم ٤٠٩٠

(٢) غافر الآية : ٣٥

(٣) الفرقان الآية : ٢٠

(٤) لقمان الآية : ٢٨

(٥) الانعام الآية : ١٠٢

(٦) النحل الآية : ١٧

- ٣ - ﴿ قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾ (١) .  
 ٤ - ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ (٢) .  
 ٥ - ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ (٣) .  
 ٦ - ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾ (٤) .  
 ٧ - ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ (٥) .

### ١٣ - الباري

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ (٦) .  
 أجمع أهل الذكر ، أن البرية شئ بين الخلق والتصوير ، وذلك وفقاً لترتيب الأسماء الحسنی ، الخالق الباري المصور ، ذلك بأن التصوير مسبوق بالتقدير أولاً ، والبرية بينهما .  
 والباري من البرء ، وهو خلوص الشئ من غيره ، كبرء المريض من مرضه ، والمدين من دينه ، وقد قرأت في كتب الأسماء والصفات أن ندعو الله بهذا الاسم الحسن « الباري » للسلامة من الآفات ، ويحتمل أن يكون معنى الباري ، هو الذي يبرئ جوهر المخلوق من الآفات ، حتى يمكنه اجتياز هذه النقلة من عالم التقدير والخلق الأول ، إلى عالم الشهادة والظهور للاختيار في عالم الملك .  
 أو بكلمات أخرى : أنه من كتب له الرحيل من عالم الغيب والملكوت ، إلى عالم الشهادة والملك ، للابتلاء والتنافس ، يجب عليه أن يحصن ضد الآفة - أى ينبغي له أن يحصل على هذه الحصانة والبراءة من الآفات من الباري سبحانه ، أو أنه من قدر له أن يحمل وسام الحياة ، لا يستطيع ذلك ، إلا إذا منح براءة هذا الوسام من الباري الحق ، وقد ذكر الباري تعالى مرتين في القرآن الكريم ، مرة في سورة الحشر ، ثم لتدبر ثلاث كلمات من الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

### ١٤ - المصور

﴿ هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ﴾ (٧) .  
 سبحانه الذي أنشأ الانسان على صور مختلفة ، متميزاً بعضها عن بعض في الأشكال والأحجام والألوان ، ليتعارفوا ، وسبحان من صورنا في الأرحام أطواراً ، وتشكيلاً بعد تشكيل ، في ظلمات البطن

(٥) التين الآية : ٤

(٦) البينة الآية : ٧

(٧) آل عمران الآية : ٦

(١) الرعد الآية : ١٦

(٢) فصلت الآية : ٢١

(٣) المؤمنون الآية : ١١٥

(٤) ق الآية : ٣٨

والرحم والمشيمة ، وهذا التشكيل يتم من تركيب ذرات بنى آدم ، التى سبق لها التقدير يوم أشهدهم الله ربنا على أنفسهم .

وفى عالم الشهادة ، يتم تركيب الصورة ، كما شاء الله على هيئة الأصل فى أحسن تقويم يوم الخلق الأول .

ثم بعد ذلك ، فلتدبر الآيات البينات من سورة النجم :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَأَحْيَا ﴾

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾

﴿ مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾

﴿ وَأَن عَلَيْهِ النُّشْأَةُ الْآخَرَى ﴾<sup>(١)</sup>

فما هى النشأة الأخرى ؟ يقول الامام الفخر الرازى محمد فخر الدين فى تفسيره الكبير ، مفاتيح الغيب : [ والذى ظهر لى بعد طول التفكير والسؤال من فضل الله تعالى ، والهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد من النشأة الأخرى : نفخ الروح الانسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة ، تحالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بنى آدم ] .

وفى الأرحام كما يتم التصوير يتم نفخ الروح كما جاء فى الحديث الشريف ، فقد جاء فى صحيح مسلم بشرح النووى باب القدر . روى أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء . ويكتب الملك »<sup>(٢)</sup> .  
كما جاء فى نفس الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقه مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل الملك فينفخ فيه الروح »<sup>(٣)</sup> .

كما قيل فى معنى : ( ثم أنشأناه خلقاً آخر ) ، هو نفخ الروح ، غير خلق النطفة علقه ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر ، أو نفخ الروح ، أو النشأة الأخرى ، تميز الانسان عن أنواع الحيوانات . وبعد ، يجوز أن تكون النشأة الأخرى ، هى نفخ الروح ، وتخصص النشأة الآخرة للحشر .

﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) النجم الآيات : ٤٤ — ٤٧

(٢) أخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » ج ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن مسعود .

(٣) أخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » ج ٤ ص ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣ / ١

(٤) العنكبوت الآية : ٢٠



## ١٥ - الغفار

﴿ألا هو العزيز الغفار﴾<sup>(١)</sup>.

الغفر والغفران في اللغة ، معناهما الستر ، وسبحان الغفار الذى أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التى سترها الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى هو ساتر الذنب .  
جاء في كتاب الأسماء والصفات عن هذا الاسم الكريم : الغفار هو المبالغ في الستر ، فلا يشهر الذنب لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وقيل لصحابي : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يُدنى من المؤمن فيضع عليه كنفه ويستتره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى كتاب حسناته »<sup>(٢)</sup> هذا للمؤمنين أما الكفار والمنافقون فلهم شأن آخر ، وقد ذكر الغفار في تنزيل العزيز الحكيم خمس مرات في الآيات :

١ - ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾<sup>(٣)</sup>.

وقد ذكر العزيز الغفار ثلاث مرات في القرآن الكريم .

٢ - ﴿رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار﴾<sup>(٤)</sup>.٣ - ﴿خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾<sup>(٥)</sup>.٤ - ﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار﴾<sup>(٦)</sup>.٥ - ﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً﴾<sup>(٧)</sup>.

ونوصي بذكر هذا الاسم الكريم كثيراً . ففيه معاني الإنابة والرجوع إلى الله .

## ١٦ - القهار

﴿سبحانه هو الله الواحد القهار﴾

القهر في اللغة : هو الاستيلاء على الشيء ظاهراً وباطناً ، ولا موجود إلا هو مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز في قبضته تعالى .

(١) الزمر الآية : ٥

(٢) أخرجه صحيح البخارى « كتاب المظالم » باب قوله تعالى : ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ ج ٣ ص ١٦٨ فقد ورد الحديث

(٥) الزمر الآية : ٥

عن رواية لابن عمر .

(٦) الزمر الآية : ٥٢

(٣) طه الآية : ٨٢

(٧) نوح الآية : ١٠

(٤) ص الآية : ٦٦

وإذا تدبرنا الأسماء الحسنى لله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار ، نجد أن مردّ جميع الأفعال إلى إله ( واحد ) وإلى تدبير ( واحد ) وليس للانسان إلا التسليم إلى الله ، وذلك العزيز الغفار الذى يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، هو الواحد القهار الذى إن أسلمنا له ما يريد كفانا ما نريد ، وإن لم نسلم له ما يريد أتعبنا فيما نريد ، ثم لا يكون إلا ما يريد سبحانه .

وقد ذكر « الواحد القهار » ست مرات فى القرآن الكريم :

- ١ — ﴿أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(١)</sup>
- ٢ — ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(٢)</sup>
- ٣ — ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ٤٨ ابراهيم .
- ٤ — ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(٣)</sup> .
- ٥ — ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(٤)</sup>
- ٦ — ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾<sup>(٥)</sup> .

## ١٧ — الوهاب

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٦)</sup>

سبحان الله الوهاب : الكثير المواهب ، أى الكثير الهبات ، يقال : هذه هبة فلان وموهبته وهباته ومواهبه . والهبة هى العطية الخالية من العوض والغرض ، فإذا كثرت سُمى صاحبها وهاباً ، ولا يكون حقيقة إلا الله تعالى .

ويقال للمولود له : شكرت الوهاب وبورك لك فى الموهوب . ويقال : اللهم هب لى ذنوبى ، والله استوهبُ ذنوبى . أى استغفر ذنوبى .

والوهاب الحق ، هو الذى يملك ما يعطى ، ولا مالك فى الواقع سوى الله .. وقد ذكر الوهاب سبحانه ثلاث مرات فى الكتاب الحكيم :

- ١ — ﴿رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٧)</sup>
- ٢ — أَمْ عَنْدهم خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ<sup>(٨)</sup>
- ٣ — ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾<sup>(٩)</sup>

(٧) آل عمران : ٨

(٨) ص الآية : ٩

(٩) ص الآية : ٣٥

(٤) الزمر الآية : ٤

(٥) غافر الآية : ١٦

(٦) آل عمران : ٨

(١) يوسف الآية : ٣٩

(٢) الرعد الآية : ١٦

(٣) ص الآية : ٦٥

## ١٨ - الرزاق

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾<sup>(١)</sup> .

سبحان الله الرازق رزقاً بعد رزق ، وهو تعالى المكثر الموسع للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم نوره ، وهداهم إلى الإيمان ، ووفقهم إلى الطاعات ، وهو تعالى المتكفل بالرزق ، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وسبحان الذى يطعم ولا يطعم ، والرازق هو الذى خلق الرزق ، والمرزوق ، وخلق أسباب التمتع بهذا الرزق ، والرزق على قسمين .

١ - ظاهر للأبدان كالأطعمة .

٢ - باطن للقلوب كالعلم .

وهو سبحانه خالق الرزقين .

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه قال : أمر الرزق بطلبك ، وأمرت بطلب الجنة . اللهم يا رزاق ، إنا نسألك رضاك والجنة ، فلا عيش إلا عيش الآخرة . ﴿ورزق ربك خير وأبقى﴾<sup>(٣)</sup> .

قال القشيري : من عرف أن الله هو الرازق ، أفرد بالقصد إليه . ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى﴾<sup>(٤)</sup> .  
وقد ذكر الرازق ، سبحانه وتعالى ، مرة واحدة في القرآن الكريم .

## ١٩ - الفتاح

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾<sup>(٥)</sup> .

سبحان الفتاح الذى يفتح خزائن رحمته على عباده ، وهو الذى فتح على النفوس باب توفيقه ، وهو الذى رفع الحجاب عن قلوب أوليائه ، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ، ليبصروا الحق . وهو الذى يفتح الأبواب لهم إلى ملكوته سبحانه ، فيكون معنى الفتح الكشف والتبين .  
وقيل فى معنى الفتاح : « الحاكم بين الخلائق » من الفتح وهو الحكم ، والفتاح هو الذى يفتح ما انغلق بين عباده ، ويميز الحق على الباطل ، ويعلى الحق ، ويخزى المبطل .

(١) الذاريات الآية : ٥٨

(٢) الذاريات الآية : ٥٨

(٣) طه الآية : ١٣١

(٤) طه الآية : ١٣٢

(٥) الانعام الآية : ٥٩

قال تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾<sup>(١)</sup> أى احكم .  
 ويكون الفاتح بمعنى الناصر ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾<sup>(٢)</sup>  
 وقد ذكر « الفتح » مرة واحدة في الكتاب العزيز :  
 ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم ﴾<sup>(٣)</sup> .  
 ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير  
 الفاتحين ﴾<sup>(٤)</sup> .

## ٢٠ — العليم

﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾<sup>(٥)</sup>  
 سبحانه البالغ في العلم ، فعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات ، محيط بها ، سابق على وجودها ،  
 وسبحان الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغرب عن علمه شيء .  
 وسبحان من عنده « علم » الساعة ، وسبحان « عالم » غيب السموات والأرض « علام »  
 الغيوب ، وسبحان من « علم » آدم الأسماء كلها ، وصلى الله على سيدنا محمد . والله « أعلم » حيث  
 يجعل رسالته . وقد ذكر « العليم » تعالى ، مائة وأربعة وخمسين مرة في كتاب الله الكريم : « وهو عليم  
 بالمتقين ، وهو عليم بما تفعلون ، والله بما تعملون عليم ، وهو عليم بما يصنعون ، والله عليم بما يعملون ،  
 والله عليم بما تعملون ، والله عليم بالمفسدين ، والله عليم بالظالمين ، والله عليم بكل شيء ، والله عليم  
 بذات الصدور ، وهو السميع العليم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو العزيز العليم ، وهو  
 الواسع العليم ، وهو العليم الخبير ، وهو العليم القدير ، وهو الفتح العليم ، وهو العليم الخليم ، وهو سبحانه  
 شاكراً عليم » .  
 وحين أكتب « العليم » تعالى ، أذكر « الرحيم » سبحانه : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة  
 وعلماً ﴾<sup>(٦)</sup> .

## ٢١ — القابض

والله يقبض ويسطو إليه ترجعون ﴿<sup>(٧)</sup>

(١) الأعراف الآية : ٨٩

(٢) الأنفال الآية : ١٩

(٣) سبأ الآية : ٢٦

(٤) الأعراف الآية : ٨٩

(٥) يوسف الآية : ٧٦

(٦) غافر الآية : ٧

(٧) البقرة الآية : ٢٤٥

## ٢٢ - الباسط

﴿ بل يده مبسوطتان يتفق كيف يشاء ﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان القابض الباسط ، والقبض عكس البسط ، والبسط من التوسعة ، ويجوز أن يكون معنى القبض الأخذ .

وقيل في معنى القابض : المخرج للأرواح من الأشباح عند الموت . وقيل غير ذلك . والقبض يكون معه الخوف .

سبحان موسع الرزق لمن يشاء من عباده . وسبحان مبسط النفوس بالسرور والفرح . وقيل : هو الذى ينشر الأرواح فى الأجساد عند الحياة ، ويبسطها فى الأشباح عند البعث لعرض الأعمال .

والبسط يكون معه الإزجاء والرجاء والطمع . وفى اللغة يقال : بسط بمعنى : نشر ، والبسطة معناها : السعة . والبسيط ، الواسع ، ويقل بسط فى العلوم أو فى الآفاق ، توسع فيها وجال فى مناحيها . والباسط صفة من صفات الله ، لأنه يبسط الرزق لمن يشاء ، أى يوسعه ، ولكنها لم ترد نصاً فى القرآن ، بل وردت صورة الفعل فى سورة الرعد .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾<sup>(٢)</sup>.

## ٢٣ - الخافض

## ٢٤ - الرافع

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾<sup>(٣)</sup>.

سبحان الذى يخفض الكفار بالاشقاء ، ويرفع المؤمنين بالاسعاد ، وسبحان من يرفع أوليائه بالتقريب ، ويخفض أعداءه بالإبعاد ، وسبحان مالك يوم الدين .

وسبحان رب الواقعة الخافضة الرافعة ، أى خافضة لقوم إلى النار ، ورافعة آخرين إلى الجنة . وسبحان من بيده الميزان ، يخفض ويرفع .

﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾

﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾

﴿ خافضة رافعة ﴾<sup>(٤)</sup>.

(٣) الرحمن الآية : ٧

(٤) الواقعة الآيات : ١ - ٣

(١) المائدة الآية : ٦٤

(٢) الرعد الآية : ٢٦

## ٢٥ - المعز

## ٢٦ - المذل

﴿وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾<sup>(١)</sup> .

سبحان من أعز الطائعين بطاعته .

وسبحان من أعز أوليائه بعصمته ، ثم غفر لهم برحمته ، ثم نقلهم إلى دار كرامته ، ثم أكرمهم برؤيته ومشاهدته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا مال وذا إعزاز دينوى ، بحيث يصير مرغوباً فيه قليل المثال .

وسبحان من أذل العاصين بمعصيته .

وسبحان من أذل أعداءه بخرمان معرفته ، وركوب محارمه ، ثم نقلهم إلى دار عقوبته ، وقابلهم بطرده ولعنته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا وصف فى الدنيا بسببه يرغب عنه ، ويسقط من درجة الاعتبار .

فمن أطاع الله واجتنب معاصيه ، أعزه الله إذ ما من طاعة ، إلا والعز معها ، وما من معصيته ،

إلا والذل معها . أفتعصيه ويعزك ؟ كلا . فقد ربط — سبحانه — العز بالطاعة ، فهى طاعة ونور

وكشف حجاب ، وربط — تعالى — الذل بالمعصية ، فهى معصية وذل وظلمة وحجاب بينك وبينه

تعالى .

## ٢٧ - السميع

﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾<sup>(٢)</sup> .

سبحان الذى يسمع دعوات عبادہ وتضرعاتهم ، ولا يشغله نداء عن نداء ، ولا تمنعه اجابة دعاء

شخص ، عن اجابة دعاء آخر ، وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه ، وسبحان من يكشف السوء ،

وسبحان غافر الذنب عند الاستغفار ، وقابل التوب عند الانابة ، وقابل الأعذار عند العثرات ، وسبحان

من يعلم ما تخفى الصدور ، ويسمع كل نجوى ، ولا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وسبحان

(١) آل عمران الآية : ٢٦

(٢) الشورى الآية : ١١

الله السميع البصير ، المجيب الرقيب ، فيكون السماع بمعنى السمع أى الاجابة ، كقوله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يسمع »<sup>(١)</sup> أى من دعاء لا يستجاب .  
وقد يكون السماع بمعنى القبول كقولنا : سمع الله لمن حمده ، أى قبل الله حمد من حمده .  
كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع »<sup>(٢)</sup> .  
أوقد ذكر « السميع » تعالى خمساً وأربعين مرة في الكتاب العربي المبين ، فهو السميع العليم ، وهو السميع البصير ، وهو سميع الدعاء ، وهو سميع قريب .

## ٢٨ - البصير

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(٣)</sup> .  
سبحان الذى يدرك ويصير خاتمة الأعين وما تخفى الصدور ، وسبحان العالم بخفيات الأمور .  
ومتى علمنا أن الله بصير ، وجب علينا أن نعبده كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه ، فإن الله يرى ، فينبغى لنا ألا يرانا حيث نهانا ، إشفافاً من قوله ﷺ : « من لم يكن له ورع يحجزه عن محارم الله تعالى لم يعبأ الله تعالى بشيء من عمله »<sup>(٤)</sup> . وقيل في هذا المعنى : « إذا أردت أن تعصى الله فاعصه في موضع لا يراك فيه » . ويكفى أن نعلم أن الله بصير بكل شيء نعمله .  
وقد ذكر « البصير » سبحانه ، واحداً وأربعين مرة في كتاب الله العزيز وهو : « السميع البصير ، وهو الخبير البصير ، وهو بصير بالعباد ، وهو بما تعملون بصير ، وهو بصير بما تعملون » .  
﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾<sup>(٥)</sup> .

## ٢٩ - الحكم

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾<sup>(٦)</sup> .  
الحكم بفتح الحاء ومعناه : الحاكم الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . وقيل في معنى الحكم : هو الذى حكم على القلوب بالرضا ، وعلى النفوس بالإنقياد والطاعة . وقيل في معناه : هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، والبار والفاجر ، ويبين لكل نفس ما عملت من خير وشر .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٢٦١ رقم ٣٨٣٧ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢ ص ١٢٦١ . كتاب الدعاء . باب دعاء رسول الله ﷺ رقم ٣٨٣٧ . وانظر كنز العمال رقم ٣٧٧٩ .

والحاكم ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) الأنعام الآية : ١٠٣ .

(٤) أخرجه ابن عساکر ج ٢ ص ٦٥ عن أنس بلفظ : « الورع سيد العمل من لم ين له ورع يردّه عن معصية الله إذا خلاها لم يعبأ الله بسائر عمله شيان » .

(٥) الحجرات الآية : ١٨ .

(٦) الرعد الآية : ٤١ .

وسبحان القائل في كتابه الكريم : ﴿ فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ﴾ (١) .  
وقد ذكر الحكم مرة واحدة في الذكر الحكيم : ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذى أنزل إليكم  
الكتاب مفصلاً ﴾ (٢) .

### ٣٠ - العدل

﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ﴾ (٣) .  
سبحان الله الحكم العدل ، والعدل هو في اللغة مصدر أقيم مقام الاسم للزيادة ، أى البالغ في  
العدل ، أى الذى لا يظلم أحداً .  
والعدل مأخوذ من الاعتدال ، وهو الاستواء ، ويقع صفة للحكم والحاكم معاً ، فيقال حاكم عدل  
وحكم عدل .  
وسبحان الكريم العفو ذى العدل ، الذى قد ملأ كل شئ عدله . ثم لتدبر هذه الآية الكريمة  
من سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شئ وهو كل على مولاه  
أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ (٤) .

### ٣١ - اللطيف

﴿ ان ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ (٥) .  
سبحان من يعلم بخفيات الأمور ، ودقائق الأشياء وغوامضها ، وما رق منها وما لطف ، وهو  
المدرِك العليم بذات الصدور ، ذلك بأنه تعالى هو خالق كل شئ .  
﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٦) .  
وقيل في معانى اللطيف : هو الذى يريد بعباده الخير واليسر ، ويفيض لهم أسباب الصلاح والبر .  
وقيل عن اللطيف ، هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم  
من حيث لا يحتسبون ، كقوله تعالى : ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء ﴾ (٧) .  
وقد ذكر اللطيف سبع مرات في الكتاب العربى المبين .

(١) الأعراف الآية : ٨٧

(٢) الأنعام الآية : ١١٤

(٣) الأنعام الآية : ١١٥

(٤) النحل الآية : ٧٦

(٥) يوسف الآية : ١٠٠

(٦) الملك الآية : ١٤

(٧) الشورى الآية : ١٩



## ٣٢ - الخيبر

﴿ ولا يثبتك مثل خبير ﴾ (١).

الخبير من الخبرة ، وهى العلم بالخبايا الباطنة ، علم اليقين ، ولا يعزب عنه شيء ، فلا يجرى فى الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تطمئن نفس ولا تضطرب إلا ويكون علمها عند ربي . وقد ذكر « الخبير » تعالى خمساً وأربعين مرة فى الكتاب الكريم : فهو الحكيم الخبير ، وهو الخبير البصير ، وهو اللطيف الخبير ، وهو العليم الخبير ، وهو بما تعملون خبير ، وهو خبير بما تعملون ، وهو خبير بما تفعلون وهو خبير بما يصنعون .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (٢).

## ٣٣ - الحليم

﴿ والله غنى حليم ﴾ (٣). ﴿ والله غفور حليم ﴾ (٤).

سبحان الحليم ذى الصفح والأناة ، الذى لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عبادة لأجل ذنوبهم ، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ، ذلك بأنه تعالى هو الصفوح مع القدرة ، المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة . ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٥).

وكيف يعجل من لا يخاف الفوت . قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ (٦) . وإليكم هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين ﴾ (٧) . وسبحان الله الحليم ، الذى يمهل العاصى ، فإن تاب قبل توبته ، وإن أصر أخر العقاب عنه ، لعلمه تعالى أنه لا يخرج من ملكه . وهذا دعاء للإنباء : « يا من عصمت المعصومين وحفظت المحفوظين ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتنى ، تجدى معصوماً ، وإن أهملتنى تجدى مخذولاً ، ناصيتى بيدك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

(١) فاطر الآية : ١٤

(٢) الملك الآية : ١٤

(٣) البقرة الآية : ٢٦٣

(٤) البقرة الآية : ٢٢٥

(٥) النحل الآية : ٦١

(٦) الرحمن الآية : ٣٣

(٧) أخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب دعاء الكرب ج ٤ ص ٢٠٩٢ - ٢٠٩٣ رقم ٨٣ / ٢٧٣٠ .

وقد ذكر الحليم سبحانه إحدى عشرة مرة في الكتاب العربي الكريم : فهو غفور حلیم ، وهو حلیم غفور ، وهو علیم حلیم ، وهو غنی حلیم ، وهو تعالى ، شكور حلیم .

### ٣٤ - العظيم

﴿ وهو العلي العظيم ﴾<sup>(١)</sup> .

العظيم صيغة مبالغة من العظم . والعظم هو الفخامة والعز والمجد والكبرياء . وسبحان الله العظيم المستحق لصفات العلوّ والمجد ورفعة القدر ، وسبحان من ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلالة نهاية وسبحان العظيم الذي لا تهتدى العقول لوصف عظمته ، ولا يحيط بكنهه بصيرة ، وسبحان العظيم بوجوب وجوده ، وسبحان العظيم ذي القوة المتين ، وهو القادر الذي لا يعجزه شيء ، فهو سبحانه الله العظيم بتنزهه عن صفات خلقه ، ذو الثناء الفاخر ، كان النبي ﷺ يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش الكريم »<sup>(٢)</sup> .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال : « أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى بإذن الله »<sup>(٣)</sup> ، والله المثل الأعلى ، وإليكم هذه البشرى للمؤمنين من محمد رسول الله . قوله ﷺ : « من تعلم وعلم وعمل فذلك يدعى في ملكوت السماء عظيماً »<sup>(٤)</sup> . وقد ذكر العظيم تعالى ، ست مرات في القرآن الكريم : مرة في سورة البقرة في نهاية آية الكرسي ، وهي الآية ٢٥٥ ، ومرة في الآية الرابعة من سورة الشورى ، ومرتين في الآيتين ٧٤ - ٩٦ من سورة الواقعة ومرتين في الآيتين : ٣٣ ، ٥٢ من سورة الحاقة . ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

### ٣٥ - الغفور

﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾<sup>(٥)</sup> .

سبحان ربي الغفور ، كثير المغفرة والستر . قال تعالى : ﴿ أنى أنا الغفور الرحيم ﴾<sup>(٦)</sup> . وسبحان ربي الغفور الغفار ، وقيل في معنى الغفور : هو كثير الغفر من جهة الكيفية ، فيغفر الذنوب العظام ، وقيل في معنى الغفار : هو كثير العفو من جهة الكمية ، فيغفر الذنوب الكثيرة .

(١) الشورى الآية : ٤

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء باب دعاء الكرب . رقم ٢٧٣٠ / ٨٣ .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير ج ١ ص ٢١ . انظر كنز العمال ج ٩ ص ١٠٤ رقم ٢٥١٩٧

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ١٠٦ . وكنز العمال ج ١٠ ص ١٦٤ رقم ٢٨٨٥٠

(٥) آل عمران آية : ١٣٥

(٦) الحجر آية : ٤٩

عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : « علمني دعاء أدعوه به في صلاتي » . قال : قل : « اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمي إنك أنت الغفور الرحيم » (١) . رواه البخاري .

كما روى البخاري هذا الدعاء أو « سيد الاستغفار » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٢) ، وقد ذكر ( الغفور تعالى ) واحداً وتسعين مرة في كتاب الله الكريم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الرحيم الغفور ، وهو الغفور الحليم ، وهو حلیم غفور وهو العزيز الغفور ، وهو الغفور الودود ، وهو الغفور الشكور .

## ٣٦ - الشكور

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ (٣) ..

سبحان كثير الثناء ، الذي يجازي بيسير الطاعات كثير الدرجات ، وسبحان الذي يعطي العمل في أيام معدودة ، نعيماً في الآخرة غير محدود .

وقد ذكر الشكور تعالى أربع مرات في القرآن المجيد :

- ١ - ﴿ ليوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾ (٤) .
- ٢ - ﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ﴾ (٥) .
- ٣ - ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور ﴾ (٦) .
- ٤ - ﴿ والله شكور حلیم ﴾ (٧) .

## ٣٧ - العلى

﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾ (٨) .

سبحان العلى علو الجلال والكمال ، قال الحليمي في معنى العلى : « إنه الذي ليس فوقه فيما يجب له من معالي الجلال أحد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلى بالاطلاق » . عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء قط إلا استفتح « بسبحان ربي الأعلى العلى الوهاب » (٩) . وجاء في كتاب الأسماء والصفات ، أن رسول

(١) أخرجه البخاري ج ١ ص ٢١١ . كتاب الصلاة . باب الدعاء قبل السلام . (٢) الشورى آية : ٢٣ .

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٨٣ . كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار (٤) التفابن آية : ١٧ (٥) غافر آية : ١٢ .

(٦) فاطر آية : ٣٤ (٧) فاطر آية : ٣٠ (٨) فاطر آية : ٣٤ (٩) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٤ ص ٥٤ .

الله ﷺ ليلة أسرى به ، سمع تسبيحاً في السموات العلى : « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » .  
وقد ذكر العلى سبحانه ثمان مرات في القرآن العظيم في الآيات : ٢٥٥ البقرة ، ٦٢ الحج ، ٣٠ لقمان ، ٢٣ سبأ ، ١٢ غافر ، ٤ الشورى ، ٥١ الشورى ، ٣٤ النساء .  
وهو العلى العظيم ، وهو العلى الكبير ، وأنه على حكيم .

### ٣٨ - الكبير

﴿ الكبير الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ﴾

سبحان الكبير الذى فاق مدح المادحين ، ذلك بأن الله أكبر من مشاهدة الحواس وإدراك العقول ، ومن كل شيء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : كان يعلمهم دعاء رُقِيَّة من الأوجاع كلها ومن الحمى : « بسم الله الكبير ، نعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نَعَار وشر حر النار » <sup>(١)</sup> .  
وذكر الكبير تعالى ، خمس مرات في القرآن العظيم :

١ - ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ <sup>(٢)</sup>

٢ - ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ <sup>(٣)</sup> .

٣ - ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ <sup>(٤)</sup>

٤ - ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ﴾ <sup>(٥)</sup>

٥ - ﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾ <sup>(٦)</sup>

### ٣٩ - الحفيظ

﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ <sup>(٧)</sup>

سبحان الحفيظ ، وهو الحافظ ، والحفيظ معناه : صون الشيء من الزوال ، فسبحان الذى يحفظ السموات والأرض وما فيهما ، لتبقى مدة بقاءهما ، فلا تزلوا ولا تختلا .  
قال الله عز وجل : ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ <sup>(٨)</sup> وقال جل وعلا : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾ <sup>(٩)</sup> أى حفظناها حفظاً ، وهو الذى يحفظ عباده من المهالك ويقبهم مصارع الشر .

(١) أخرجه ابن ماجه ج ٢ ص ١١٦٥ كتاب الطب . باب ما يعوذ به من الحمى . رقم ٢٣٥٦ ، انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٧٣ كتاب الطب . باب ما جاء في تبريد الحمى بالماء . رقم ٢١٥٧ . (٤) لقمان آية : ٣٠ . (٧) هود آية : ٥٧ . (٢) الرعد آية : ٩ . (٥) سبأ آية : ٢٣ . (٨) البقرة آية : ٢٥٥ . (٣) الحج آية : ٦٢ . (٦) غافر آية : ١٢ . (٩) الصافات آية : ٧ .

قال الله عز وجل : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (١) أى بأمره .

وسبحان الذى يحفظ على الخلق أعمالهم ، ويحصى عليهم أقوالهم ، ويعلم نياتهم وما تكن صدورهم ، فلا تغيب عنه غائبة ، ولا تخفى عليه خافية ، وسبحان الذى يحفظ أوليائه ، فيعصمهم عن مواقععة الذنوب ، ويحرسهم من مكائيد الشيطان ، ليسلموا من شره وفستته .  
وقد ذكر « الحفيظ » تعالى ثلاث مرات فى القرآن الحكيم :

١ - ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ (٢)

٢ - ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ (٣)

٣ - ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٤) .

## ٤٠ - المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٥)

سبحان الذى يعطى الأقوات ، وقيل فى معنى المقيت : أى خالق الأقوات البدنية والروحانية وموصلها أى الأشباح والأرواح .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى جعل من القوت ذكر الحى الذى لا يموت قال عليه الصلاة والسلام : « أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » (٦) .

وقال الأزهرى أن « المقيت » هو « المقتدر » بلغة قريش فيكون قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٧) ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ (٨) أى مطلقاً قادراً .

وقد ذكر « المقيت » تعالى مرة واحدة فى القرآن العزيز : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٩)

(١) الرعد آية : ١١

(٢) هود آية : ٥٧

(٣) سبأ آية : ٢١

(٤) الشورى آية : ٦

(٥) النساء آية : ٨٥

(٦) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٧٧٤ . كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم رقم ١١٠٣/٥٧

(٧) النساء آية : ٨٥

(٨) الكهف آية : ٤٥

(٩) النساء آية : ٨٥

## ٤١ - الحسيب

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾<sup>(١)</sup>

سبحان الكافي ، ويجوز أن يكون الحسيب من الحسب ، الذى هو الاكتفاء فيكون معناه الكافي

سبحانه . ولتدبر الآيتين : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾<sup>(٣)</sup>

ويجوز أن يكون الحسيب من الحساب ، فيكون معناه المحاسب ، ولتعلم هذه الآيات :

١ - ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾<sup>(٤)</sup>

٢ - ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾<sup>(٥)</sup>

٣ - ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾<sup>(٦)</sup>

كما ورد عن سيدنا عمر : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا »<sup>(٧)</sup>

وقد ذكر الحسيب سبحانه ثلاث مرات في القرآن العظيم :

١ - ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾<sup>(٨)</sup>

٢ - ﴿ إن الله كان على كل شيء حسيباً ﴾<sup>(٩)</sup>

٣ - ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾<sup>(١٠)</sup>

## ٤٢ - الجليل

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاکرام ﴾

سبحان الجامع لجميع صفات الجلال ، ذو الجلال والاکرام ، وسبحان الذى جلّ قدره فى قلوب

العارفين .

« والجليل » اسم من الجلال والعظمة ، ومعناه منصرف إلى جلال القدر وعظم الشأن ، ومعناه

المستحق للأمر والنهى ، ومن حق البارئ جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً ، وطاعته

له لازمة ، وهو الذى يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع .

وفى اللغة : ج ل ل ، و « جلال » الله عظمته ، ويقال فعلته من « جلالك » أى من أجلك ،

وجلّ ( يجلّ ) بالكسر ( جلاله ) أى عظم قدره ، فهو ( جليل ) و ( أجلّه ) فى المرتبة .

من ذلك نرى أن الجليل بحق هو الله ، ويجوز أن ندعوه تعالى بهذا الاسم .

(٦) الانشقاق آية : ٨

(٧) اخرج ابن كثير ج ٤ ص ٤١٢ . سورة الحاقة آية ١٧

(٨) النساء آية : ٦

(٩) النساء آية : ٩

(١٠) الأحزاب آية : ١٠

(١) آل عمران آية : ١٧٣

(٢) الأنفال آية : ٦٢

(٣) الطلاق آية : ٣

(٤) الأنبياء آية : ٤٧

(٥) الأنعام آية : ٦٢

## ٤٣ - الكريم

﴿إِنْ رُبِّيْ غَنِى كَرِيْمٌ﴾ (١) :

هو أحكم الحاكمين الغنى الأكرم ، الذى يعطى ما يشاء ، لمن يشاء وكيف يشاء ، بغير سؤال ، وإذا سئل أعطى .

قال رسول الله ﷺ : « إِنْ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى كَرِيْمٌ يَسْتَحْيِ مِنْ عَبْدِهِ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا صَفْرًا » .

وقال رسول الله ﷺ : « إِنْ اللَّهُ عَزَّ اسْمُهُ ، كَرِيْمٌ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ وَيُبْغِضُ سَفْسَافَهَا » .  
قال أهل اللغة فى معنى الكريم : أَنَّهُ التَّفَاحُ ، نَسَأَلُهُ ، تَعَالَى أَنْ يَتَفَحَّنَا نَفْحَةً تَخِيرُ ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ويقال : أَكْرَمَهُ اللَّهُ ، وَكَرَّمَهُ اللَّهُ ، وَأَكْرَمَ نَفْسَهُ بِالتَّقْوَى ، وَأَكْرَمَهَا عَنِ الْمَعَاصَى ، وَهُوَ يَتَكْرَمُ عَنِ الشَّوَاتِنِ ، وَإِنْ أَجَلَ الْمَكَارِمِ اجْتَنَابَ الْحَارِمِ .

ويقال : هُوَ كَرِيْمٌ قَوْمُهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ : « إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيْمَةٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ » (٢) . وَقَدْ يَتَجَمَّلُ الْمُسْلِمُ بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، وَيُوصَفُ بِالسَّخَاءِ .

قال رسول الله ﷺ : « لَا تَقُولُوا لَشَجَرَةِ الْعَنْبِ الْكَرْمَ ، فَإِنَّ الْكَرْمَ هُوَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ » (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ ، بَعِيدٌ عَنِ النَّارِ . وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ عَنِ اللَّهِ ، بَعِيدٌ عَنِ النَّاسِ ، بَعِيدٌ عَنِ الْجَنَّةِ ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ » (٤) .  
قال الغنى الكريم :

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (٥) .

وإليكم هذا الوعد الكريم من الله :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ (٦) .

(١) التخل آية : ٤٠

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص ١٦٥ . كتاب الصلاة باب الدعاء . رقم ١٤٨٨ . والترمذى فى الدعوات . باب كرم الله تعالى .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى سننه . ج ٢ ص ١٢٢٣ . كتاب الأدب باب إذا أتاكم كريم قوم . رقم ٣٧١٢ .

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٥ ص ٢٥٥ . كتاب الأدب . باب فى الكرم وحفظ المنطق . رقم ٤٩٧٤ . ومسلم فى فضائل على بن أبى طالب حديث رقم ٢٤٠٨ .

انظر البخارى ج ٨ ص ٥١ ، ٥٢ . كتاب الأدب . باب . قول النبى « إنما الكرم قلب المؤمن » .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٣ ص ٢٣١ . أبواب البر والصلة . باب ٤٠ ( ما جاء فى السماء ) رقم ٢٠٢٧ .

(٦) الانعام آية : ١٦٠

(٧) البقرة آية : ٢٦١

تلك هي الحدود الدنيا من الأجور الكريمة ، ولكن باب الله مفتوح ، ومع الإخلاص لله تضاعف الأجور أضعافاً كثيرة :

﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾<sup>(١)</sup> .

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾<sup>(٢)</sup> .

فأى حساب هذا ، وأى أجر عظيم ، إلا أن يكون من لدن الكريم الحق ، بل إنا لنطمع من « كريم العفو » ما هو أكثر من ذلك ، والحمد لله كثيراً على هذا الوعد الكريم ، وعد الله :

﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾<sup>(٣)</sup> بالفرقان وقد ثبت عن النبي ﷺ في الأخبار عن كرم عفو الله تعالى ما هو أبلى من ذلك . قال رسول الله ﷺ : « إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولاً الْجَنَّةَ ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا رَجُلٌ يُؤْتَى فَيُقَالُ : اعْرَضُوا عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا ، فَيَعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ ، فَيُقَالُ : عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا أَوْ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا ، كَذَا وَكَذَا ، فَيَقُولُ : نَعَمْ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْكُرَ ، وَهُوَ مُشْفَقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تَعْرَضَ عَلَيْهِ ، قَالَ ، فَيُقَالُ : فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً ، قَالَ : فَيَقُولُ : رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ مَا أَرَاهَا هَاهُنَا ، قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحَكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ »<sup>(٤)</sup> رواه مسلم في الصحيح .

وقد ذكر الكريم المطلق الذي لا يضيع من لادبه والتجأ إليه ، مرتين في القرآن الكريم :

١ - ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رُبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾<sup>(٥)</sup>

٢ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾<sup>(٦)</sup> .

وأى شيء خدعك وجرأك على عصيانه ، سبحانه .

قال رسول الله ﷺ : « غره جهله » وقيل : غره حقه ، وقيل : غره شيطانه . ونقول : غرنا ستورك المرخاة ، وإنا نعتر في كرم الكريم ، وعفو الرحيم ، ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . وسبحان الله الكريم الأكرم ، كريم العفو وهو أكرم الأكرمين .

(١) الزمر آية : ١٠

(٢) غافر آية : ٤٠

(٣) الفرقان آية : ٧٠

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٧٧ . كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة . رقم ٣١٤ / ١٩٠ .

(٥) البقر آية : ٤٠

(٦) الانفطار آية : ٦



## ٤٤ - الرقيب

﴿إن الله كان عليكم رقيباً﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان الرقيب القريب ، الذى لا يخفى عليه شئ من أفعال العباد ، قال تعالى :

﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد ذكر الرقيب سبحانه وتعالى ، ثلاث مرات فى الكتاب العربى الحكيم :

١ - ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾<sup>(٣)</sup>.٢ - ﴿واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً﴾<sup>(٤)</sup>.٣ - ﴿وكان الله على كل شئ رقيباً﴾<sup>(٥)</sup>.

## ٤٥ - المجيب

﴿إن ربى قريب مجيب﴾<sup>(٦)</sup>.

سبحان ربى القريب المجيب ، الذى يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ونسأله تعالى أن نستجيب له

بطاعته ، سبحانه ، وطاعة رسوله ﷺ .

قال تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيككم﴾<sup>(٧)</sup>.﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله﴾<sup>(٨)</sup>.﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى﴾<sup>(٩)</sup>.

وقد ذكر « المجيب » تعالى فى الآية التالية :

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب﴾<sup>(١٠)</sup>.

ثم لنقرأ خمس كلمات من النور :

﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيئون﴾<sup>(١١)</sup>.

(١) النساء آية : ١

(٢) ق آية : ١٦

(٣) المائدة آية : ١١٧

(٤) النساء آية : ١

(٥) الأحزاب آية : ٥٢

(٦) هود آية : ٦١

(٧) الأنفال آية : ٢٤

(٨) الشورى آية : ٢٦

(٩) الرعد آية : ١٨

(١٠) هود آية : ٦١

(١١) الصافات آية : ٧٥

## ٤٦ — الواسع

﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ (١).

وسبحان الواسع الرحمة . قال تعالى :

﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ (٢).

وسبحان الواسع العلم ، المحيط علمه بكل شيء :

وقد ذكر الواسع العليم سبع مرات في القرآن العظيم :

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾ (٣).

﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (٤).

﴿ والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (٥).

٤ — ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم ﴾ (٦).

٥ — ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (٧).

٦ — ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾ (٨).

٧ — ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴾ (٩).

وسبحان الواسع المغفرة . قال تعالى :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم

إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ، فلا تركوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١٠).

وسبحان الواسع الحكيم . قال تعالى :

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ (١١).

وقد ذكر الواسع سبحانه وتعالى ، تسع مرات في الكتاب الحكيم .

(١) غافر آية : ٧.

(٢) الأعراف آية : ١٥٦.

(٣) البقرة آية : ١١٩.

(٤) البقرة آية : ٢٤٧.

(٥) البقرة آية : ٢٦١.

(٦) البقرة آية : ٢٦٨.

(٧) آل عمران آية : ٧٣.

(٨) المائدة آية : ٥٤.

(٩) النور آية : ٣٢.

(١٠) النجم آية : ٣٢.

(١١) النساء آية : ١٣٠.

## ٤٧ - الحكيم

﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ (١).

سبحان المحسن في التدبير ، الذي أصاب كل شيء قدره ، وسبحان الحكيم ذو الحكمة البالغة ، وكال العلم وإحسان العمل ، وقيل إن الحكمة هي العلم مع العمل والعدل ، وقيل إن الحكمة مجموعة معان من العدل والتنظيم والتقويم والعلم .

« والحكيم » صيغة تعظيم لذي الحكمة ، فيكون معنى الحكيم ، العظيم في حكمته .  
وقد ذكر « الحكيم » سبحانه ، واحداً وتسعين مرة في مجموع سور القرآن الكريم ، فهو العزيز الحكيم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو الحكيم الخبير ، وهو التواب الحكيم ، وهو العليّ الحكيم ، وهو الواسع الحكيم .

﴿ وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ﴾ (٢).

## ٤٨ - الودود

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾ (٣).

الودود من الود وهو الحب ، وسبحان الحب للمؤمنين ، وهو المحبوب لهم ، ومحبة الله لعباده ، رحمته إياهم ، ومحبة المؤمنين لله تعالى طاعته ، وطاعة الله رحمة من الله ، والله نور السموات والأرض ، فمن أصابه من ذلك النور ، فقد سبق له من الله الهدى ، وما أحب المؤمن لله ! وما أحبه لله !  
وقيل في معنى الودود ، أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه ، لما عرفوا من كماله في ذاته وصفاته وغفرانه تعالى .

وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره ، إذا أحب عباده المطيعين ، فهو فضل منه ، وإذا أحبه عباده العارفون ، فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

وهنا مكان هذا الدعاء الجميل : « يا ودود ، يا ذا العرش المجيد يامبديء يامعبد ، يا فعال لما يريد ، أسألك بنور وجهك ، الذي ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك » ، التي قدرت بها على جميع خلقك ، وبرحمتك التي وسعت كل شيء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيب اغثنى .

وقد ذكر الودود سبحانه ، مرتين في القرآن الكريم :

١ - ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ﴾ (٤).

٢ - ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ (٥).

(٣) مريم آية : ٩٦

(٤) هود آية : ٩٠

(٥) والبروج آية : ١٤

(١) البقرة آية : ٢٦٩

(٢) آل عمران آية : ٦٢

## ٤٩ - المجيد

﴿ إنه حميد مجيد ﴾ (١) .

سبحان المجيد ، ذو الشرف التام الكامل ، المفيض على العباد بالمجد والعطايا ، والمجد هو الشرف العظيم الرفيع القدر ، والمجيد في اللغة : هو الذى عظم كرمه .

وقيل في معنى « المجيد » . سبحانه ، هو الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ، وقيل : البالغ المنتهى فى الكرم .

وقد ذكر « المجيد » ، تعالى مرة واحدة فى القرآن المجيد ﴿ ... رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ (٢) .

## ٥٠ - الباعث

﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾ (٣) .

سبحان الله ، باعث النبيين ، مبشرين ومنذرين ، والحمد لله الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، محمد رسول الله خير مبعوث .

وسبحان باعث الموتى . قال تعالى : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٤) ويجوز أن يكون معنى الباعث ، مثير الساكن ، وسبحان باعث الهمم ، وباعث ما فى عالم الغيب .

جاء فى سنن ابن ماجه أن النبي ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم قال : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث أو تجمع عبادك » (٥) .

وكان رسول الله يقول عند الاستيقاظ : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » (٦) .

وهذا الاسم العظيم « الباعث » غير وارد بصيغة الاسم فى القرآن الكريم ، ثم لنقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ (٧) .

(١) هود آية : ٧٣

(٢) هود آية : ٧٣

(٣) آل عمران : ١٦٤

(٤) الحج آية : ٧

(٥) أخرجه ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٧٦ كتاب الدعاء . باب ما يدعو إذا آوى إلى فراشه . رقم ٣٨٧٧ .

(٦) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٨٥ كتاب الدعوات . باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن .

(٧) الاسراء آية : ٧٩

## ٥١ - الشهيد

﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾<sup>(١)</sup>

سبحان الشهيد العليم بظواهر الأشياء ، وسبحان الخبير العليم ببواطن ، الأشياء ، وقيل الشهيد مبالغة في الشاهد ، والشهادة ترجع إلى العلم مع الحضور .

وسبحان الذى كرم الإنسان بنعمة المشاهدة ، فرأى من آيات الله ما أفعم القلوب بالشهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم . قال تعالى :

﴿ قل أى شئ أكبر شهادة ، قل الله ، شهيد بيني وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر « الشهيد » سبحانه تسعة عشر مرة في القرآن العظيم ، والله شهيد على ما تعملون ، والله على كل شئ شهيد ، وأنه على كل شئ شهيد ، وكفى بالله شهيداً .

## ٥٢ - الحق

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾<sup>(٣)</sup>

سبحان الموجود اليقين الثابت ، والله — سبحانه — هو الحق ، ومنه الحق ، وإليه يرجع كل حق ، وصفات الله سبحانه حق ، والعدل حق ، والصدق حق ، يقال : أحق الله الحق ، أى أثبتته وأظهره . ﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾<sup>(٤)</sup> .

قال رسول الله ﷺ : «أصدق كلمة قالها شاعر كبير : «ألا كل شئ ما خلا الله باطل»<sup>(٥)</sup> . وكان النبى ﷺ إذ تهجد من الليل يدعو : « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك

(١) الاسراء آية : ٩٦

(٢) الأنعام آية : ١٩

(٣) النور آية : ٢٥

(٤) يونس آية : ٨٢

(٥) أخرجه البخارى « باب أيام الجاهلية » ج ٥ ص ٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هرير

توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك جاكمت ، فاعفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت <sup>(١)</sup> . رواه البخارى فى الصحيح .  
وقد ذكر « الحق » تعالى ست مرات فى القرآن الحكيم فى الآيات : ٦٢ : الأنعام ، ٣٢ : يونس ، ٦ : الحج ، ١٢ : الحج ، ١١٦ : المؤمنون ، ٢٥ : النور .  
هذا وإن كانت كلمة الحق ، قد ذكرت مئات المرات فى القرآن المجيد ٢٢٧ مرة ، ثم نقرأ الآية :  
﴿ فذلکم الله ربکم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، هدانا الله إلى الحق ، ونسأل الله أن تتبع الحق لوجه الحق وحده .

### ٥٣ - الوكيل

﴿ وتوکل على الله وكفى بالله وکیلاً ﴾ <sup>(٣)</sup>  
سبحان الوکیل الکافی لمن توکل علیه ، القائم بأمور العباد ، وهو الذى من استغنى به أغناه عما سواه ، وهو المتصرف فى الأمور على حسب إرادته ، وهو سبحانه ، الموکول إليه تدبیر أمر کل شىء ، وقد ذکر « الوکیل » سبحانه ، ثلاث عشرة مرة فى الكتاب الحكيم ، وهو على کل شىء وکیل ، والله على ما نقول وکیل ، وكفى بالله وکیلاً وكفى بربك وکیلاً ، وتوکل على الله ، وكفى بالله وکیلاً .  
﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وکیلاً ﴾ <sup>(٤)</sup>  
﴿ وعلى الله فلیتوکل المتوکلون ﴾ <sup>(٥)</sup>  
﴿ فإذا عزم فتوکل على الله ، إن الله یحب المتوکلین ﴾ <sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٨٥ ، ٨٦ كتاب الدعوات باب النوم على الشق الأيمن . ط / الشعب .

(٢) يونس آية : ٣٢

(٣) الأحزاب آية : ٣

(٤) المزمل آية : ٩

(٥) ابراهيم آية : ١٢

(٦) آل عمران آية : ١٥٩

## ٥٤ - القوى

﴿إن ربك هو القوى العزيز﴾<sup>(١)</sup> .  
 سبحانه الخلاق العليم ، ذى القوة المتين ، والقوة لله جميعاً ، ولا قوة إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .  
 ولنقرأ هذه الآية الكريمة :  
 ﴿فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجهلون﴾<sup>(٢)</sup> .  
 وقد ذكر « القوى » سبحانه تسع مرات فى القرآن الكريم ، فهو تعالى قوى شديد العقاب :  
 الآيات : ٥٢ - الأنفال ، ٢٢ - غافر .  
 وهو سبحانه : القوى العزيز ، الآيات : ٦٦ - هود ، ٤٠ - الحج ، ٧٤ - الحج ، ١٩ - الشورى ، ٢٥ - الحديد ، ٢١ - المجادلة ، ٢٥ - الأحزاب .  
 ﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز﴾<sup>(٣)</sup> .

## ٥٥ - المتين

﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾<sup>(٤)</sup> .  
 سبحانه الله الرزاق ذى القوة المتين .  
 وسبحان الذى لا تتناقص قوته .  
 عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : « المتين » يقول : « الشديد » وفى اللغة يقال : هو متين القوى .  
 ومن المجاز يقال : رأى متين .  
 واسمه تعالى « المتين » يدل على شدة القوة ، والقدرة ، والله - سبحانه - متم قدره ، وبالحق أمره .  
 وقد ذكر « المتين » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب المبين ﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة هود آية : ٦٦  
 (٢) سورة فصلت آية : ٢٥  
 (٣) سورة الحديد آية : ٢٥  
 (٤) سورة الذاريات آية : ٥٨

## ٥٦ - الولي

﴿إن ولي الله الذي نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين﴾<sup>(١)</sup> .  
 سبحانه المتكفل بأمور العباد كلها ، وسبحان الذي يتولى الصالحين من عباده ، الناصر لمن أطاعه ،  
 وذلك بأن الله هو الذي نصر أوليائه ، وقهر أعداءه وقيل : الولي : هو الذي أحب أوليائه ونصرهم على  
 أنفسهم باجتناّب المعاصي ، وقيل : هو المتولى لأمر عباده المختصين بإحسانه .  
 وفي اللغة : ( ولي ) الزاو ، اللام ، والياء ، أصل صحيح يدل على القرب ، يقال : تباعد بعد  
 ولى ، أى : تباعد بعد قرب ، ويجرز أن يكون من معاني الولي : القريب .  
 وقد ذكر « الولي » سبحانه ثلاث عشرة مرة في الكتاب العربي المبين :  
 ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾<sup>(٢)</sup> ، والله ولي المؤمنين .  
 قال تعالى : ﴿أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولي﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿وهو الولي الحميد﴾<sup>(٤)</sup> ،  
 والله ولي المتقين ، ﴿وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً﴾<sup>(٥)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿إنما وليكم الله ورسوله  
 والذين آمنوا﴾<sup>(٦)</sup> ، وقوله : ﴿أنت ولينا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾<sup>(٧)</sup> ، وقوله : ﴿قالوا  
 سبائحك أنت ولينا من دونهم﴾<sup>(٨)</sup> ، وقوله : ﴿لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا  
 يعملون﴾<sup>(٩)</sup> ، وقوله : ﴿أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾<sup>(١٠)</sup> .

## ٥٧ - الحميد

﴿وهودوا إلى صراط الحميد﴾<sup>(١١)</sup> .

سبحان الحميد مستوجب الحمد ، أهل الثناء بما أثنى على نفسه ، وأحمد الله تعالى بجميع محامده ،  
 والحمد لله صاحب الحمد ومستحقه ، فمن ذا الذي يستحق الحمد سواء ؟ بل له الحمد كله لا غيره ، وهو  
 الذي يحمد على كل حال ، وفي السراء والضراء ، ذلك بأنه سبحانه ، حكيم حميد ، وهو الذي اتصل

(١) سورة الأعراف آية : ١٩٦

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧

(٣) سورة الشورى آية : ٩

(٤) سورة الشورى آية : ٢٨

(٥) سورة النساء آية : ٤٥

(٦) سورة المائدة آية : ٥٥

(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٥

(٨) سورة سبأ آية : ٤١

(٩) سورة الأنعام آية : ١٢٧

(١٠) سورة يوسف آية : ١٠١

(١١) سورة الحج آية : ٢٤



حمد المؤمنين له - تعالى - في أول أم الكتاب : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(١)</sup> . في الدنيا ، وفي الآخرة .  
﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(٢)</sup> .  
وإن أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها .  
اللهم إنا نسألك أن نحمدك ، كما ينبغي لجلال وجهك ، وعظيم سلطانتك حمداً لا ينتهى .  
وقيل في معنى الحميد - سبحانه - : هو الذى يوفقك للخيرات ، ويحمدك عليها ، ويمحو عنك  
السيئات .

وقد ذكر « الحميد » - تعالى - سبع عشرة مرة في القرآن المجيد ، وهو - سبحانه - الغنى الحميد ، وهو  
العزیز الحميد ، وهو حميد مجيد ، وهو حكيم حميد ، وهو الولی الحميد .

## ٥٨ - المحصى

﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾<sup>(٣)</sup> .  
سبحان الذى أحصى كل شيء - علمه ، وسبحانه المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً ، وسبحان  
العالم بخفيات الأمور ومحصيها ، وقيل المحصى من الإحصاء : وهو الإحاطة بحساب الأشياء ، وما شأنه  
التعداد . وفي اللغة يقال : أرضى محصاة ، أى كثيرة الحصى ، ويقال : هم أكثر من الحصى وحسناتك  
لا تحصى ، وهذا أمر لا أحصيه ، أى لا أطيعه ولا أضبطه .  
وهذا الإسم الكريم لم يرد في القرآن المبين بصيغة الإسم ، ومن شاء فليقرأ :  
﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ لقد أحصاهم وعدّهم عدداً ﴾<sup>(٥)</sup> ،  
﴿ .... وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾<sup>(٦)</sup> ، ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾<sup>(٧)</sup> .

## ٥٩ - المبدىء

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾<sup>(٧)</sup> .  
سبحان الذى بدأ الخلق وابتدأه ، وأظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود ، وفي اللغة ، يقال : أمر  
بديء أى أمر عجيب .  
قال تعالى :

(٥) سورة يس آية : ١٢

(٦) سورة النبا آية : ٩

(٧) سورة البروج آية : ١٣

(١) سورة الفاتحة آية : ٢

(٢) سورة يونس آية : ١٠

(٣) سورة الجن آية :

(٤) سورة مريم الآيتان ٩٣ ، ٩٤

﴿ آمَنَ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ؟ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾<sup>(١)</sup> ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

## ٦٠ - الْمَعِيدُ

﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ ﴾<sup>(٣)</sup> .  
سبحان الذي يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ، ثم يعيدهم ، بعد الموت إلى الحياة . وفي اللغة يقال : فلان ما يبديء وما يعيد ، إذا لم يكن له حيلة .  
قال تعالى :  
﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِ لِلْكَتَبِ ، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ ، وَعَدُّا عَلَيْنَا ، إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

## ٦١ - الْمَحْيِي

﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ ، وَأَنَّهُ يَحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾<sup>(٥)</sup> .  
سبحان خالق الحياة ومعطيها لمن شاء ، وسبحان الذي أحيا قلوب المؤمنين بنوره ، والحمد لله الذي أرسل رسوله بالحق ، ونزل الكتاب لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين .  
وسبحان الذي أنزل من السماء ماء ، وجعل من الماء كل شيء حي .  
﴿ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ ذَلِكَ لَمَحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾<sup>(٦)</sup> .  
﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ ﴾<sup>(٧)</sup> .  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا أَصْبَحْتُمْ فَقُولُوا : اللَّهُمَّ بَكَ أَصْبَحْنَا وَبِكَ أَمْسَيْنَا ، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ »<sup>(٨)</sup> .

(١) سورة النمل آية : ٦٤

(٢) سورة الروم آية : ٢٧

(٣) سورة الروم آية : ٦٢

(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٤

(٥) سورة أحمج آية : ٦

(٦) سورة الروم آية : ٥٧

(٧) سورة الانعام آية : ٨

(٨) رواه الترمذي في ( أبواب الدعوات ) باب : ما جاء في الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ح ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥١ وقال : هذا حديث حسن .

- ورواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الدعاء ) باب : ما يدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى ح ٢ ص ١٢٧٢ رقم ٣٨٦٨ .

- ورواه ابن السني رقم ٢٣ ، ٤٨ ، وابن حبان ٢٣٥٤ ومجمع الزوائد ١١٤/١٠ والإمام أحمد ٣٥٤١٢ .

## ٦٢ - الميت

﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان الذى خلق الموت والحياة ، وسبحان الذى يخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها .

وسبحان من أحيا العارفين بالطاعات والموافقات ، وأمات المذنبين بالمخالفات ، وسبحان خالق الموت وموجهه على من يشاء من الأحياء متى شاء ، وكيف شاء ، وسبحان من أحيا القلوب بذكره ، ونعوذ بالله السميع العليم من أن نكون فى غفلة عن ذكره تعالى ﴿وما يستوى الأحياء ولا الأموات﴾<sup>(٢)</sup> .  
كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »<sup>(٣)</sup> .

## ٦٣ - الحى

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت﴾<sup>(٤)</sup>.

سبحان الحى الموجود الواجب الوجود ، الباقى الدائم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والأزل هو دوام الوجود فى الماضى ، والأبد هو دوام الوجود فى المستقبل ، وقيل أن معنى أزلية الله تعالى ، وأزلية صفاته سبحانه ، أنه موجود حيث لا زمان . وهو من أسماء الله القديم فى الأزل حيث لا موجود غيره تعالى ، والحى سبحانه هو الذى لا يموت . وهو تعالى : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾<sup>(٥)</sup> .  
(يا حى أحيى قلوبنا بنور معرفتك ومحبتك فى الدنيا قبل الآخرة) جاء فى كتاب الأسماء والصفات لأبى بكر البيهقى ، صفحة ١٤ ، .

عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « اسم الله الأعظم لفى سور من القرآن ثلاث : البقرة وآل عمران وطه »<sup>(٦)</sup> .  
ولتدبر معاً الآيات الثلاث :

(١) سورة النجم آية ٤٤

(٢) سورة فاطر آية ٢٢

(٣) أخرجه أبو داود فى (الأدب) ح ٣٠٠ رقم : ٥٠٤٩ والبخارى فى باب مايقول إذا نام ح ٨٥ ص ٨٥ والترمذى فى (أبواب الدعوات) ح ١٤٦ رقم : ٣٤٧٧ ، رواه ابن ماجه باختصار برقم ٣٨٨٠ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٨

(٥) سورة القصص آية ٨٨

(٦) أخرجه ابن كثير فى التفسير : تفسير آية الكرسي ح ١ ص ٤٥٤ وعزاه لأبى مردوديه ، وأول الحديث « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث : .... الحديث »

- ١ - ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾<sup>(١)</sup> .
  - ٢ - ﴿آلم . الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾<sup>(٢)</sup> .
  - ٣ - ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾<sup>(٣)</sup> .
- وجاء في نفس الصفحة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالساً في الحلقة ورجل قائم يصلى ، فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال في دعائه : « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المَنَّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم . . إني أسألك » . فقال النبي ﷺ : « لقد دعا باسمه العظيم الذى إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سئل به أعطى »<sup>(٤)</sup> .
- وقد ذكر « الحى » خمس مرات في الكتاب المبين :
- ٤ - ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده﴾<sup>(٥)</sup> .
  - ٥ - ﴿هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين﴾<sup>(٦)</sup> .
- ذلك بأن :
- ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾<sup>(٧)</sup> .
- فسبحان الحى الذى ليس لحياته زوال ، وسبحانك اللهم أنت الحى الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون .

## ٦٤ - القيوم

- ﴿الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾<sup>(٨)</sup> .
- سبحان القائم بنفسه ، الغنى عن غيره ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « كان الله ولا شيء معه »<sup>(٩)</sup> .
- وقيل القيوم هو الدائم الباقي الذى لا يزول ، فيكون تأكيداً للحى ، والقيوم هو الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وهو القائم بتدبير خلقه ، وهو مدبر السموات والأرض ، وهو المقيم لكل شيء ، وكل شيء قائم بأمره .

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١ ، ٢

(٣) سورة طه آية : ١١١

(٤) أخرجه أبو داود في سننه في ( كتاب الصلاة ) باب الدعاء حـ ٢٠٧٧ ، ١٦٧٨ رقم : ١٤٩٥ وأخرجه النسائي في ( كتاب الافتتاح ) باب الدعاء بعد الذكر .

(٥) سورة الفرقان آية ٥٨

(٦) سورة غافر آية ٦٥

(٧) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ وآل عمران آية رقم : ٢

(٩) أخرجه البخارى في صحيحه في ( كتاب بدء الخلق ) حـ ٢٠٧٧ طبع دار احياء الكتب العربية من رواية عمران بن حصين بلفظ : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب في الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض . . . » ورواه الطبرانى أيضاً .

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ (١) .  
 ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ (٢) .  
 ..... إذا أنتم تخرجون ، قيام تنظرون ، إلى دار المقامة ، يوم تقوم الساعة ، ويوم يقوم  
 الأشهاد ، ويوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .  
 وهو سبحانه « القائم » أى الرقيب على كل نفس بما كسبت .  
 ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (٣) .  
 وهو تعالى المقيم للعدل . وهو عز وجل القائم بالقسط :  
 ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾ (٤) .  
 وإذا تدبرنا القرآن ، حيث تتلاقى معانى القيوم ، والقائم ، والقيام ، والقوام ، والمقيم ، وإذا  
 علمنا أن من معانى « القائم » الرقيب ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ﴾ (٥) ، ثم إذا قال  
 المفسرون أن تفسير قائماً بالقسط ، أى مقيماً للعدل . فلقلوب المؤمنين أن تخشع ، وجلودهم أن تقشعر  
 لما نزل من الحق : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ (٦) .  
 « يا حى يا قيوم برحمتك نستغيث » ، « اللهم أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى ولا إلى  
 أحد من خلقك ، طرفة عين ولا أقل من ذلك » .  
 وقيل أنه من معانى القيوم : الذى لا ينام .  
 وقد ذكر « قِيمُ » السموات والأرض ، وقيوم السموات والأرض فى روايتين لدعاء للنبي ، وفى  
 الصحيح أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم لك الحمد  
 أنت رب السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض » (٧) .  
 وقد ذكر الحى « القيوم » مقلب القلوب ، ثلاث مرات فى القرآن المجيد ، نسأله تعالى أن يثبت  
 قلوبنا على دينه القيم .

## ٦٥ - الواجد

﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ﴾ (٨)  
 سبحانه الذى لا يخرج من العدم إلى الوجود شيئاً إلا هو ، وسبحان الغنى فى كل شيء ، ولكل  
 شيء وكل شيء حاضر لديه .

(١) سورة فاطر آية : ٤١

(٢) سورة الروم آية : ٢٥

(٣) سورة الرعد آية : ٣٣

(٤) سورة آل عمران آية : ١٨

(٥) سورة الرعد آية : ٣٣

(٦) سورة طه آية : ١١١

(٧) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة برقم : ٨٧٤ من رواية ابن عباس ، ضمنه حديث طويل .

(٨) سورة الحجر آية رقم : ٢١

وقيل الواحد : الذى لا يضل عنه شىء ولا يفوته شىء .  
 وقيل الواحد : مأخوذ من الوجدان بمعنى العلم . يقال : وجدت فلاناً فقيهاً . أى علمت كونه كذلك .  
 ويقال : وجدت طعم الشىء إذا أدركته ، ويجوز أن يكون الواحد بمعنى العليم .  
 وقيل : الواحد : هو الله يجد كل ما يطلبه ويريد ، ولا يعوزه شىء من ذلك ، ولا يعجزه شىء ولا يفوته شىء .

## ٦٦ - الما جد

( اللهم أنت الما جد المجيد الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم الوعيد ) .  
 سبحانه الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان العظيم القدر ، العظيم الشرف ، الواسع الكرم .  
 ويجوز أن يكون الما جد بمعنى المجيد كالعالم بمعنى العليم .  
 عن أبى ذر رضى الله عنه ، عن النبى - ﷺ - عن ربه عز وجل قال : يقول : « يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم بقدرى ، من علم منكم أنى ذو مقدرة على المغفرة فاستغفرونى غفرت له ولا أبالى ، وكلكم هالك إلا من هديت فسلونى الهدى أهديكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، لم يزد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى لم ينقص ذلك من ملكى جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا فسأل كل سائل منكم ما سأل لم ينقص ذلك مما عندى شيئاً ، كما لو أن أحدكم مرّ على شفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها ، ذلك بآنى جواد « ما جد » أفعل ما أشاء عطائى كلام وإذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » (١) .  
 وهذا الإسم الكريم غير مذكور فى القرآن ، بل المذكور المجيد .

## ٦٧ - الوا حد

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ (٢) .  
 سبحانه الواحد فى ذاته لا قسيم له .  
 وسبحان الواحد فى صفاته الأزلية ، لا نظير له .  
 وسبحان الواحد فى أفعاله ، لا شريك له .  
 أى أن « الواحد » هو الفرد ، المنفرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله :

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب ( القيامة ) باب فضل الرفق رقم : ٢٦١٣ وقال : هذا حديث حسن

(٢) سورة ابراهيم آية رقم : ٥٢

فهو واحد في ذاته لا يتجزأ ، ولا يتناهى .  
 واحد في صفاته لا يشبه شىء ، ولا يشبهه شىء .  
 واحد في أفعاله لا شريك له .  
 ومن عرف أنه « الواحد » أفرد قلبه له .  
 وأنقل إليكم هذا الدعاء : « اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي بحبك حتى لا يكون لى شغل ولا هم  
 سواك » .  
 وقد فُسر قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله وتر يحب الوتر »<sup>(٣)</sup> ، يعنى يحب القلب المنفرد له تعالى .

وإذا كان من تهواه فى الحسن واحداً

فكن واحداً فى الحب إن كنت تهواه  
 وفى الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول فى دعائه : « اللهم إني أسألك بأنك أنت  
 الله الواحد الأحد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال : ( لقد سأل الله  
 باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى )<sup>(١)</sup> . وقد ذكر « الواحد » إحدى وعشرين  
 مرة فى الكتاب العظيم .

## ٦٨ - الصمد

﴿ الله الصمد ﴾<sup>(٢)</sup> .

سبحان الصمد الذى يصمد إليه فى الحوائج ، أى الذى يقصد إليه فيها . والصمد سبحانه ، هو  
 المقصود فى الحوائج على الدوام ، ولا يقصد فى قضائها إلا هو ، والقصد هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى  
 المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود بالقلب سراً ، وما ينبغى أن يكون القصد سراً أو علناً إلا لله  
 وحده ، وما ينبغى للإنسان أن يتجه بنفسه أو بقلبه إلى غير الله ، وما ينبغى للإنسان أن يكون من  
 المشركين .

وقيل الصمد : هو الذى أصمدت إليه الأمور ، فلا يقضى فيها غيره ، ولا يقضى دونه . وقد ذكر  
 « الصمد » مرة واحدة فى القرآن المجيد فى سورة الإخلاص .

(١) أخرجه : رواه أبو نصر عن ابى هريرة : أنظر كتز العمال حـ ٧ رقم : ١٩٥٣٢ ورواه الترمذى فى ( أبواب الوتر ) باب ما جاء الوتر ليس  
 بحتم حـ ١ صـ ٢٨٢ رقم ٤٥٢ عن عل - رضى الله عنه - مع زيادة : « فأتروا يأهل القرآن » .  
 وقال الترمذى : حديث على حديث حسن .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى ( كتاب الصلاة ) باب ما جاء فى الوتر حـ ١ صـ ٣٧٠ رقم : ١١٩٦ من رواية على - رضى الله عنه - مع تقديم  
 وتأخير ، ويرقم ١١٧٠ عن عبدالله بن مسعود بمثل رواية الترمذى .

(٢) أخرجه ابن ابى شيبه فى مصنفه فى ( كتاب الزهد ) حـ ١٤ صـ ٣١ عن بريدة ورواه ابن ماجه فى ( كتاب الدعاء ) حـ ٢ صـ ١٢٦٧ ،  
 ١٢٦٨ برقم : ٣٨٥٧ ورواه ابن حبان برقم : ٨٨٩  
 (٣) سورة الإخلاص آية ٢

قال رسول الله - ﷺ - : «والذى نفسى بيده» ﴿قل هو الله أحد﴾ السورة «إنها لتعدل ثلث القرآن»<sup>(١)</sup> . أخرجه البخارى .

«إن القرآن أنزل ثلثاً منها أحكاماً ، وثلثاً منها وعداً ووعيداً ، وثلثاً منها الأسماء والصفات . وقد جمع في قل هو الله أحد ، أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات ، فقليل : «إنها ثلث القرآن» .

## ٦٩ - القادر

﴿فقدرونا نعم القادرون﴾<sup>(٢)</sup> .

سبحان الله القادر ، ذو القدرة التامة ، الذى لا يعجزه شىء ، بل يستتب له ما يريد على ما يريد .  
﴿.. وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً﴾<sup>(٣)</sup>  
والْقَدْر - بفتحيتين - اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر - سبحانه - وقدر الشىء مبلغه ، بسكون الدال - وهو مصدر - قال الله تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾<sup>(٤)</sup> أى ما عظموه حق عظمته ، والقدر بالفتح - ما يقدره الله من القضاء .

وليلة القدر ، هى ليلة الشرف العظيم ، وفُسِّر القدر بالتقدير . وفى القرطبى : قال مجاهد فى :  
﴿وما أدراك ما ليلة القدر﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى : ليلة التقدير ، سميت بذلك ، لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمر إلى مثلها من السنة المقبلة ، من أمر الموت والأجل والرزق ، وغير ذلك .

جاء فى صحيح البخارى ، الجزء السادس ، صفحة ٧١ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله - ﷺ - : «أعوذ بوجهك»<sup>(٥)</sup> .  
وقد ذكر «القادر» سبحانه وتعالى : سبع مرات فى كتاب الله الكريم .

ولنقرأ معاً هذه الآية البينة :

﴿أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم﴾<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى فضائل القرآن ، فضل سورة «قل هو الله أحد» ح ٦٣٣٣

(٢) سورة المرسلات آية : ٢٣

(٣) سورة فاطر آية : ٤٤

(٤) سورة الأنعام آية : ٩١ والزمر آية : ٦٧

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ٧٧٦ من رواية جابر بن عبد الله - رضى الله عنه .

(٦) سورة يس آية : ٨١



## ٧٠ - المقتدر

﴿إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ (١). سبحانه رب المقتدر، ذو القدرة العظيم، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، وعلى كل من أعطاه حظاً من قدره.

وهو المقتدر على جميع الممكنات، والمقتدر يفيد معنى القادر مبالغة وأكثر تعظيماً وفي اللغة: ق در - قدر، يقال: هو قادر مقتدر ذو قدرة ومقدرة، وقدر الشيء مبلغه، بسكون الدال وفتحها. والأمور تجري بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره، ومقاديره.

و(القدر) بالفتح لا غير، ما يقدره الله من القضاء، وإذا وافق الشيء قالوا: جاء على قدر، ويقال: قدر الشيء أى قدره من التقدير، وبابه ضرب وفي الحديث: «إذا غم عليكم الهلال فأقذروا له» (٢)، أى أتموا ثلاثين، ويقال: مالى عليه مقدرة بكسر الدال وفتحها أى «قدرة» وسنة قولهم: المقدرة تذهب الحفيظة، وقد ذكر «المقتدر» سبحانه وتعالى مرتين في القرآن الكريم، والمرتين في سورة القمر. ﴿... كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾

كتب الفخر الرازى: وفي قوله: ﴿عزيز مقتدر﴾ لطفه: وهى أن العزيز المراد منه الغالب، لكن العزيز قد يكون، يغلب على العدو ويظفر به، وفي الأول يكون غير متمكن من أخذه، لبعده إن كان هارباً، ولمنعته إن كان محارباً. قال: أخذ غالب لم يكن عاجزاً، وإنما كان ممهلاً.

## ٧١ - المقدم ٧٢ - المؤخر

(اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير).

سبحان المقدم والمؤخر لما شاء كما شاء بحكمته، وسبحان المقدم من شاء بالتقوى والإنابة والصدق والاستجابة، وسبحان من أخر من شاء عن طاعته وعن فرقته وردّه إلى حوله وقوته. وسبحان الذى قدم الأبرار وأخر الفجار، وسبحان الذى يقرب ويبعد، فمن قربه فقد قدمه، ومن أبعدّه فقد أخره.

وسبحان الذى يقدم بعض الأشياء على بعض بأمره، إما بالوجود كتقديم الأسباب على مسبباتها، أو بالشرف كتقديم الأنبياء والصالحين من عباده.

(١) سورة القمر الآيتان ٥٤، ٥٥

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه في (كتاب الصيام) ح ٣٣ - وأخرجه مسلم في (كتاب الصيام) باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال

وصلى الله على سيدنا محمد الذى قدمه ربه على جميع خلقه : قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ (١) . . وقال تعالى : ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) . كان رسول الله - ﷺ - يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافي فى أمرى وما أنت به أعلم منى ، اللهم اغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وجدى وهزنى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير » (٤) . ثم لتتدبر معاً هذه الآيات البينات : قوله تعالى : ﴿ يَبْنِى الْإِنْسَانَ يَوْمِئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ (٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَىٰ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ (٦) ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (٧) .

## ٧٣ - الأول

( هو الأول قبل كل شىء بلا بداية ) .  
سبحان الأول قبل كل شىء بلا بداية ، والآخر بعد كل شىء بلا نهاية ، وسبحان الموجود الواجب الوجود ، الأول لكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، وهذه الأولية وهذا التقدم ، ليس بالزمان ولا بالمكان ولا بأى شىء ، فى حدود العقل أو محاط العلم .  
والله سبحانه « ظاهر باطن » فى كونه أولاً : هو الأول ، أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد متقدم عليها ، فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة .  
وهو الأول « أبطن من كل باطن » لأنك إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت ، لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك ، فهو محدود عقلك وعلمك ، فيكون متناهياً ، فتكون الأولية خارجة عنه ، وليس فى حدود العقل إلا أن يتدبر القرآن :  
﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ (٨) .  
قيل : ويجوز أن يكون معنى ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أنه هو « الأول » لم يكن قبله شىء .

(١) سورة الانعام آية : ١٤

(٢) سورة الانعام آية : ١٦٣

(٣) سورة الزمر الآيتان : ١١ ، ١٢

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه فى ( كتاب الدعوات ) ح ٨٥٠٥ ، ورواه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة

والاستغفار ، باب التعمد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ح ٤ ص ٢٠٨٧ رقم : ٢٧١٩/٧٠

(٥) سورة القيامة آية : ١٣

(٦) سورة ق آية : ٢٨

(٧) سورة ابراهيم آية : ٤٢

(٨) سورة الواقعة آية : ٦٠

## ٧٤ - الآخر

( هو الآخر بعد كل شيء بلا نهاية ) .

سبحان الآخر الأبدى الباقي الدائم بلا نهاية ، وسبحان الله رب الآخرة والأولى .

﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾ (١) .

عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « يا كائن قبل أن يكون شيء والمكون لكل شيء والكائن بعدما لا يكون شيء : أسألك بلحظة من لحظات الحافظات الغافرات الاجيات المنجيات » (٢) .

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

## ٧٥ - الظاهر

( وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ) .

سبحان الظاهر وجوده لكثرة دلائله ، وهو البادى بالأدلة عليه وفى أفعاله ، فلا يمكن نجهل وجوده ، وهو الظاهر بحججه الباهرة ، وبراهينه النيرة ، وشواهد أحلامه الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وجدانيته .

« والظاهر » هو الغالب العالى ، ومنه قوله تعالى :

﴿ ... فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ (٣) . أى : فأصبحوا غاليين عالىين .

قيل أن عثمان - رضى الله عنه - سأل النبي ﷺ عن تفسير : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال له النبي ﷺ ( ما سألتى أحد تفسيرها ، لا إله إلا الله ، والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير » (٤) .

(١) سورة سبا آية : ١

(٢) أخرجه كثر العمال برقم : ٤٩٩٨

(٣) سورة الصف آية : ١٤

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ، فى تفسير سورة الزمر ح ٧ ص ٦٦ طبع دار الفكر ونبه على ضعفه .

## ٧٦ - الباطن

( وأنت الباطن . فليس دونك شيء ) .

سبحان الباطن حقيقة ذاته ، فلا تكنها العقول ، وسبحان من احتجب عن إدراك الحواس ، مع شدة ظهوره ، وكمال نوره ، وسبحانه من ليس له شبه ولا ضد .

وسبحان الباطن على كل شيء رحمة وعلماً ، وسبحانه الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ومالنا من دون الله من ولى ولا نصير .

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ هذا الدعاء :

« اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء خالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء أقض عنا الدين واغننا من الفقر » (١) .

وقد ذكر « الأول والآخر والظاهر والباطن » - سبحانه وتعالى - مرة واحدة فى القرآن العظيم ، فى الآية الثالثة من سورة الحديد :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ (٢) .

وكتب الفخر الرازى : سمعت والدى - رحمه الله - يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت الآية : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا .

## ٧٧ - الوالى

﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾ (٣) .

سبحان المالك للأشياء ، والمتولى لها ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، وهو المنفرد بالتدبير ، القائم على كل شيء ، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه ، وكل شيء يجرى بحكمه وبأمره .

ويحتمل أن يكون الوالى بمعنى المنعم بالعتاء الدافع للبلاء . ولتدبر الآية الحادية عشرة من سورة

الرعد :

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الذكر والدعاء) بأرقام ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ورواه الترمذى برقم ٣٤٨١ وابن ماجه رقم ٣٨٣١

(٢) سورة الحديد آية : ٣

(٣) سورة الرعد آية : ١١

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (١).

## ٧٨ - المتعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٢).

سبحان البالغ في العلو، المتعالى بوجوب وجوده، رفيع الدرجات ذو العرش.

وقيل : المتعالى ، معناه الرفيع في كبريائه وعظمته ، وعلا مجده عن كل ما يدرك أو يفهم من أوصاف خلقه ، فكل من اسمه المجيد والعلی والعظيم والكبير والمتعالى ، يدخل في الذي يليه بمعناه طرداً وعكساً : فهو العظيم في مجده ، المجيد في عظمته ، العلى في ذلك ، والمجيد العظيم في علوه ، الكبير في مجده وعلوه وعظمته ، العظيم المجيد العلى في كبريائه ، وهو تعالى ، المتعالى في ذلك كله .

قال رسول الله ﷺ : « بشئ عبدٌ تخيل واختال ونسى الكبير المتعال » (٣).

وقد ذكر « المتعالى » سبحانه ، مرة واحدة في الكتاب العظيم في الآية التاسعة من سورة الرعد .

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

## ٧٩ - البر

﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾ (٤).

سبحان العطوف على عباده بلطفه ، الذي من على السائلين بعطائه . وعلى العابدين بجميل جزائه ، وسبحان الذي منه كل مبرة وإحسان . والبر بفتح الباء معناه : فاعل البر بكسرهما ، أى الإحسان ، وهى كلمة جامعة لكل صفات الخير ، وهو من أسماء الله تعالى .

وفى اللغة « البر » هو الاتساع كما يرى المفسرون ، واللغويون أن البر هو الصلة والخير والاتساع فى الإحسان والصدق . ويجوز أن يكون معنى البر الكثير الطاعة ، وجمعه : أبرار . ومن المجاز : فلان يبر ربه ، أى : يطيعه ، وفى هذا يكون البر إسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله ، أو اسم جامع لجميل الخصال ولكل فعل مرضى .

وطاعة الله سبحانه هى عبادته تعالى وبر الوالدين والتوسع فى الإحسان إليهما ، والجنة تحت أقدام الأمهات .

(١) سورة الرعد آية : ١١

(٢) سورة الرعد آية : ٩

(٣) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٥٠ فى أبواب صفة القيامة

(٤) سورة الطور آية : ٢٨

والبار : من يصدر عنه البر والطاعة وجمعه بررة . قال تعالى :

﴿ بأيدي سفرة كرام بررة ﴾<sup>(١)</sup> .

وأولى بالإنسان أن يكون مشغلاً بأعمال البر ، واستباق الخيرات ، وأن لا يضر الشر ، ولا يؤذى أحداً ، فإن البار هو الذى لا يؤذى . ولذا قيل : « البر شيء هين وجه طلق وكلام لين » وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا ينام كما تزرع تحصد وكما تدين تدان »<sup>(٢)</sup> .

ورضاء الرب فى رضاء الوالدين ، فلا أقل من البر بهما وشدة الإحسان إليهما ، وبالقول الكريم والدعاء لهما :

وسبحان ربى الخنان المنان ، الذى من على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وهو الذى من على المؤمنين بأن جعلهم من أهل اليمين ، وهو الذى أهمهم القيام بصالح الأعمال ، وهو الذى رزقهم القبول وقبول أحسن ما عملوا . . وهو الذى يتجاوز عن سيئاتهم .

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾<sup>(٣)</sup> .

فياله من بر من ذى المن والكرم . . . البر الرحيم .

قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذرىتى إني تبث إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ ... إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾<sup>(٥)</sup> .

وقد ذكر « البر الرحيم » مرة واحدة فى سورة الطور من القرآن الكريم .

(١) سورة عبس الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) أخرجه المجلون فى كشف الخفاء برقم ٩٠٢ وقال : رواه ابو نعيم وابن عدى والديلمى عن ابن عمر ، ورواه عبدالرزاق فى الزهد عن ابى قلابه مرسل ، وأحمد عن ابى الدرداء موقوفاً

(٣) سورة الزمر آية : ٣٥

(٤) سورة الاحقاف الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الطور الآيات : ٢٦ - ٢٨

## ٨٠ - التواب

﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو التواب الحكيم ، وسبحان الذى يقابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالاجابة . وفى اللغة ، يقال : تاب الله عليه ، أى غفر له وأنقذه من المعاصي . والتوبة لغة : الرجوع . يقال : تاب إذا رجع ، وآب أى رجع قال تعالى :

﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾<sup>(٢)</sup>.

ويقال : تاب بمعنى رجع ، قال تعالى : ﴿وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له﴾<sup>(٣)</sup> أى ارجعوا .

ويقال : تاب بالمثلثة إذا رجع .

فتحصل أنه يقال : تاب ، وثاب ، وناب ، أناب ، وآب وكلها بمعنى : رجع .

والتوبة بالنسبة للعباد ، هى الندم على المعصية والرجوع إلى الطاعة ، والله تعالى يتوب على من يشاء من عباده برجوعه بالقبول .

وقيل : إذا تاب العبد إلى الله بسؤاله تاب الله عليه بنواله .

والتوبة الخالصة هى لقاء الله تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾<sup>(٤)</sup>.

وقد ذكر «التواب» - سبحانه - أحد عشرة مرة فى القرآن الكريم .

## ٨١ - المنتقم

﴿والله عزيز ذو انتقام﴾<sup>(٥)</sup>

سبحان الذى نخشى نعمته لقدرته وعظمته وهو الذى نرجو رحمته .

وإنا ندعوه ، تعالى ، خوفاً وذمماً ، قال تعالى :

﴿إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة

وسروراً﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة التوبة آية : ١١٨

(٢) سورة الاسراء آية : ٢٥

(٣) سورة الزمر آية : ٥٤

(٤) سورة الكهف آية : ١١٠

(٥) سورة آل عمران آية : ٤

(٦) سورة الانسان الآيتان : ١٠ ، ١١

وقال تعالى :

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى :

﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾<sup>(٣)</sup>.

## ٨٢ - العفو

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾<sup>(٤)</sup>.

الحمد لله الذى يمحو الذنوب ، ويتجاوز عن السيئات ، وهو المريد لمحو الزلة والتجاوز عنها بكرمه .

قال رسول الله ﷺ : « ... وأتبع السيئة الحسنة تمحها .. »<sup>(٥)</sup> . والعفو ، إزالة الأثر ، ومنه عفت الديار ، وأن الغفران يشعر بالستر ، والعفو بالمحو .

وقيل معنى العفو : الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا مال فلان أى كثر .

وفى اللغة يقال : هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه . ويقال : خذ ما عفا وصفا ، وخذ عفوه وصفوه وعفوته وصفوته .

ويقال : أعطيته عفواً من غير مسألة : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾<sup>(٦)</sup> أى : فضل المال ، أى الفاضل عن الحاجة .

ويقول : أطعمونا من عوافيكم ، دامت بكم عوافيكم ، جمع عافى القدر وهو بقية المرق فيها .  
ويقال : « على الكريم عافيته » أى سؤاله . ويقال : فى واديهم كلاً عاف ، وعشب واف ، أى كثير .

وقد ذكر : « العفو » سبحانه خمس مرات فى القرآن الكريم : أربع مرات مع الاسم « الغفور » والخامسة مع الاسم « القدير » .

(٣) سورة الاسراء آية : ٥٧

(٤) سورة الحج آية : ٦٠

(٥) أخرجه : الترمذى ح ٣١٢ رقم ١٩٨٧ كتاب البر والصلة - باب ماجاء فى معاشره الناس .

(١) سورة الدخان آية : ١٦

(٢) سورة النور آية : ٣٧

(٦) سورة البقرة آية : ٢١٩



- ١ - ﴿... إن الله لعفو غفور﴾ (١).
- ٢ - ﴿... وإن الله لعفو غفور﴾ (٢).
- ٣ - ﴿... إن الله كان عفواً غفوراً﴾ (٣).
- ٤ - ﴿فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً﴾ (٤).
- ٥ - ﴿إن تبدوا خيراً أو تحفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً﴾ (٥).

### ٨٣ - الرءوف

﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رءوف بالعباد﴾ (٦).

سبحان ربى الرءوف الرحيم ، الذى كلف الثرى بما لم يكلف به المسكين ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر وخفف الفرائض فى حال الضعف .

والحمد لله الذى يحب أن تؤق رخصه ، كما يحب أن تؤق عزائمه .

وفى اللغة ، وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، لمجمع اللغة العربية - يقال : رأف به ، أى أشفق عليه من مكروه يحل به . والرأفة : أشد الرحمة - والرأفة من الله : دفع السوء .

وإليك هذا الدعاء الذى فيه سبعة أسماء : « اللهم افعلى بى وبهم عاجلاً وآجلاً ، فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن له أهل ، إناك أنت غفور حلیم ، جواد كريم ، رءوف رحيم » .

وقد ذكر « الرءوف » سبحانه عشر مرات فى الكتاب الكريم وهو الرءوف الرحيم .

ثم لتتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ (٧) .

(١) سورة الحج آية : ٦٠

(٢) سورة المجادلة آية : ٢

(٣) سورة النساء آية : ٤٣

(٤) سورة النساء آية : ٩٩

(٥) سورة النساء آية : ١٤٩

(٦) سورة البقرة آية : ٢٠٧

(٧) سورة آل عمران آية : ٣٠

## ٨٤ - مالك الملك

﴿ تؤق الملك من تشاء ﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان الذى له التصرف المطلق ، مالك الملك الذى تنفذ مشيئته فى ملكه كيف يشاء ، وكما يشاء ، لا مرد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، والملك هنا بضم الميم ، مصدر بمعنى السلطان ، والقدرة . وقيل : الملك بمعنى المملكة . والمالك بمعنى القادر التام القدرة .

وتبارك الذى بيده الملك ، مالك الملك ، الذى يملك كل شىء ، مالك السمع والأبصار والأفئدة ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد ذكر « مالك الملك » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز . وذلك فى الآية المحكمة البينة ، السادسة والعشرين من سورة آل عمران : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾<sup>(٣)</sup> .

## ٨٥ - ذو الجلال والاكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾<sup>(٤)</sup>.

سبحان الذى لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا وهو له . ولا كرامة ولا إكرام إلا وهو صادر منه . فالجلال له فى ذاته ، والكرامة فائضة منه على خلقه . وقيل : « ذو الجلال » إشارة إلى صفات الكمال .

﴿ والاكرام ﴾ إشارة إلى صفات التنزيه .

وقيل ﴿ الجلال ﴾ هو الوصف الحقيقى .

﴿ والاكرام ﴾ هو الوصف الاضافى .

وقيل : ﴿ الجلال ﴾ صفة ذاته - سبحانه .

﴿ والاكرام ﴾ صفة فعله ، تعالى .

جاء فى بعض الروايات أنه اسم الله الأعظم ، فقد قيل فى ذلك أنه كان ﷺ ماراً فى طريق ، إذ رأى أعرابيا يقول : « اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان مالك الملك ذو الجلال والاكرام » .

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٢) سورة غافر آية : ١٦

(٣) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

فقال النبي ﷺ : « إنه دعا باسم الله الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »<sup>(١)</sup> .  
وقد ذكر ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ مرتين في القرآن العظيم . والمرتين في سورة الرحمن :  
﴿ ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾<sup>(٢)</sup> .  
﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والاكرام ﴾<sup>(٣)</sup> .

## ٨٦ - المقسط

﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾<sup>(٤)</sup> .

سبحان المقسط ، القائم بالقسط ، المقيم للعدل ، العادل في الحكم . وسبحان الذي يتتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله في أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والانصاف ولا يقدر عليه إلا الله تعالى . ومثاله ما روى عن النبي ﷺ أنه قال : « بينما رسول الله جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أضحكك ، قال : رجلان من أمتي جثياً بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لي مظلمتي من هذا ، فقال الله عز وجل : رد على أخيك مظلمته . فقال : يا رب لم يبق من حسناتي شيء ؟ فقال عز وجل للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء ، فقال : يا رب فليحمل عني من أوزاري .. ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، وقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم .. قال : فيقول الله عز وجل أي للمتظلم : ارفع بصرك فانظر في الجنان ، فقال : يا رب أرى مدائن من فضة ، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا ؟ أولأي صديق هذا ؟ أولأي شهيد هذا ؟ قال الله عز وجل : لمن أعطى الثمن . فقال : يا رب : ومن يملك ذلك ، قال : « أنت تملكه » . قال : بماذا يا رب ؟ فقال : « بعفوك عن أخيك » قال : يا رب قد عفوت عنه . قال الله عز وجل : « خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » ثم قال ﷺ « اتقوا الله . اتقوا الله . وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يعدل بين المؤمنين يوم القيامة »<sup>(٥)</sup> .

## ٨٧ - الجامع

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾<sup>(٦)</sup> .

سبحان الذي جمع الكمالات كلها ذاتاً ووصفاً ، وفعلاً . فليس كذاته ذات ، ولا كصفاته ، صفات ، ولا كفعله فعل .

(١) أخرجه الطحاوي في شكل الآثار ١٠ ص ٦٢ عن أنس رضي الله عنه .

(٢) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٣) سورة الرحمن آية : ٧٨

(٤) سورة يونس آية : ٥٤

(٥) أخرجه في كنز العمال برقم ٤٣٠٩٨ وعزاه إلى الحاكم عن أنس والحديث في المستدرک للحاكم في ( كتاب الأحوال ) ح ٤ ص ٥٧٦ وقد

قال : « فإن الله يصلح بين المسلمين » .

(٦) سورة التغابن آية : ٩

وسبحان جامع الناس ليوم لا ريب فيه :

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾  
و « يوم يجمع » هو يوم القيامة ، يسمى بذلك ، لأن الله تعالى يجمع فيه بين الأولين والآخرين ، من الانس والجن ، وجميع أهل السماء والأرض ، وبين كل عبد وعمله ، وبين الظالم والمظلوم ، وبين كل نبي وأمته ، وبين ثواب أهل الطاعة ، وعتاب أهل المعصية .

« والتغابن » تفاعل من الغبن ، وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن من منازل ومنازل ، أهله في الجنة ، وهذا التغابن أى التفاعل ليس من اثنين . فالمغابنة بين الشخص ونفسه ، فيظهر يومئذ غبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان ، والمغابنة على سبيل التجريد ، وسبحان الجامع الذى جمع بين قلوب الأحباب ، وألف بين القلوب :  
قال تعالى :

﴿ ... واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

## ٨٨ - الغنى

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾<sup>(٣)</sup> .

سبحان الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وهو المستغنى عن كل ما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه .  
قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقيل فى معنى « الغنى » : أنه الكامل بماله وبما عنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، وللمحتاج إليه

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣

(٢) سورة الأنفال آية : ٦٣٠

(٣) سورة الأنعام آية : ١٣٣

(٤) سورة فاطر آية : ١٥

فضل بوجود ما ليس عند المحتاج ، فالنقص منفي عن الغنى المطلق بكل حال ، والعجز غير جائز عليه سبحانه ، ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل .. إذ كل شيء سواه خلق له ، وبدع أبدعه لا تملكه من أمره شيئاً ، وإنما يكون كل شيء كما يريد الله خالق كل شيء .

والفقير ما سوى الله تعالى ، وهو « سبحانه » الغنى عن العالمين .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس » (١) .

فغنى النفوس هو العفاف فأن أبت

فجميع ما في الأرض لا يكفيها

وأعلى درجة الغنى ، الاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس . وقد يكون الإنسان فقيراً جداً ، وعند الناس متحملاً غنياً . كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ فسبحان الذي يعطي من يشاء ويكفيه ، ثم إذا شاء يرضيه .

وقد ذكر « الغنى » ثمان عشرة مرة في الكتاب الكريم :

وهو الغنى الحميد وهو غنى حلیم وهو غنى كريم وهو الغنى ذو الرحمة ، وسبحانه هو الغنى له ما في السموات وما في الأرض .

قال تعالى :

﴿ .. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ؟ اتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ﴾ (٣) .

## ٨٩ - المغنى

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ (٤) .

سبحان معطى الغنى والكفاية لمن شاء من عباده ، على طبق ما اقتضته حكمته ، وسبقت به مشيئته ، فهو الذي يعطى السائلين سؤالهم .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض رقم ١٠٥٧/١٢٠

(٢) سورة النمل آية : ٤٠

(٣) سورة يونس آية : ٦٨

(٤) سورة النجم آية : ٤٨

قال تعالى :

﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾<sup>(١)</sup> .  
والمغنى الحق ، هو الذى لا حاجة له إلى أحد من الخلق أصلاً ، والذى يحتاج ومعه ما يحتاج إليه ،  
فهو غنى مجازاً .

ومن عرف أن الله تعالى هو الغنى المغنى .. استغنى بالاعتماد عليه .

قال تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ ... وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾<sup>(٣)</sup> .

## ٩٠ - المانع

( اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ) .

سبحان الذى منع البلاء حفظاً وعناية ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً أو حماية .  
وسبحان الذى يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة الا لمن يحب .  
وهذا الاسم لم يرد فى القرآن لكنه مجمع عليه فقد ذكر فى كل من رواية الوليد ورواية زهير فى الحديث  
النبوى الشريف .

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة ( لا إله إلا الله وحده  
لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت  
ولا ينفع ذا الجد منك الجد )<sup>(٤)</sup> .

وسبحان الذى يرد أسباب الهلاك والنقصان فى الأديان والأبدان ، بما يخالفه من أسباب الحفظ ،  
ومن فهم معنى « الحفيظ » فهم معنى المانع .

وأن المنع ايراد الحفظ ، وقد يكون الحفظ ايراد المنع .

وكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظ إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع الأسباب المهلكة - فسبحان

من قال :

(٢) سورة الفصحى آية : ٨

(١) سورة ابراهيم آية : ٣٤

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨

(٤) أخرجه البخارى بحاشية السننى ج ١ ص ١٥٣ كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾ (١)

## ٩١ - الضار

﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾ (٢)

## ٩٢ - النافع

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

سبحان الذي يصيب من يشاء من عباده برحمته ، وهو الذي يملك الضر والنفع ، وهو على كل شيء قدير ، وقد يكون من الضر نفعاً ، أو نوعاً من أنواع العلاج ، للذين هم بربهم لا يشركون . قال تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ (٣) . وقال تعالى :

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ (٤) .

وسبحان الذي بيده أسباب كل شيء مسخرات بأمره . ﴿ .. وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله .. ﴾ (٥) وأكبر دليل قصة إبراهيم عليه السلام : أولاً بيان السكين لا تقطع بنفسها في ولده اسماعيل .

وثانياً : بأن النار لا تحرق نفسها ، بل كانت برداً وسلاماً على إبراهيم بأمر الله . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه . في الدنيا ، ويوم القيامة .

(١) سورة يونس آية : ١٠٧

(٢) سورة يونس آية : ٤٩

(٣) سورة النحل الآيتان : ٥٣ - ٥٤

(٤) سورة الروم الآية : ٣٣

(٥) سورة البقرة الآية : ١٠٢

قال تعالى : ﴿ فَمَنْ زَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
والحمد لله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم .

## ٩٣ - النور

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

سبحان الذي نور قلوب الصادقين بتوحيده ، وسبحان الذي نور السماء والأرض بما خلق فيهما من الأنوار .

قال ابن عباس : « النور ، الهادي الرشيد الذي يرشد بهدايته من يشاء ، فيبين له الحق ويلهمه اتباعه » .

وقال الحلبي : « وهو الهادي لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدركون إلا ما يرهم إدراكه ، فالخواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته » .

وقيل : « النور » الظاهر الذي ظهر كل الظهور ، فإن الظاهر في ذاته المظهر بغيره ، سمى نوراً ، فهو مظهر لكل شيء ، ولكل موجود باخراجه من العدم إلى الوجود .

وقيل : هو الذي منه النور ، والعرب تسمى من منه الشيء باسم ذلك الشيء . وقيل : هو خالق الأنوار ، وقيل غير ذلك .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥

(٢) سورة الاعراف الآية : ١٨٨

(٣) سورة يونس الآية : ٤٩

(٤) سورة النور الآية : ٣٥



سأل ابن عباس النبي ﷺ - « هل رأيت ربك ليلة أسرى بك ؟ قال : نعم نور أتى أراه » (١) .

وكان النبي ﷺ - يدعو بهذا الدعاء بالغدو ، عند ظهور أول النهار وهو صلاة الفجر : « ... اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبري ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في شعري ونوراً في بشري ونوراً في لحمي ، ونوراً في دمي ، ونوراً في عظامي ، ونوراً من بين يدي ، ونوراً من خلفي ، ونوراً عن يميني ، ونوراً عن شمالي ، ونوراً من فوقي ، ونوراً من تحتي ، اللهم زدني نوراً ، واعطني نوراً واجعل لي نوراً » (٢) .

ولتتدبر آية النور ، من سورة النور ، من النور والكتاب المبين الذي أنزله نور السموات والأرض :

﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ (٣) .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنه ، قوله : « الله نور السموات والأرض » يقول سبحانه وتعالى : هادي أهل السموات والأرض مثل نوره :- مثل هداية في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يضيء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل الهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ، ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور .

قال تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ (٥) .

## ٩٤ - الهادي

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) .

سبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وهو الذي هدى ما خلق لما أراد منه في دينه ودنياه ، وجميع أمره .

وسبحان المرشد لعباده ، وهو الذي دل المؤمنين إلى الدين الحق .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١- ص ١٦١ كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام نوراني أراه . انظر سنن الترمذي ٥- ص ٣٦٩ رقم

٣٢٨٢ .

(٢) أنظر سنن الترمذي ٥- ص ٤٥١ كتاب الدعوات باب ٣٠ ما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة

(٣) سورة النور آية : ٣٥

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

(٥) سورة النور آية : ٤٠

(٦) سورة الحج آية : ٥٤

وسبحان الذى يهدى القلوب إلى معرفته ، والنفوس إلى طاعته ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وإن الهدى هدى الله .

وقد ورد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :

« سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شيء كان نبي الله - ﷺ - يفتح الصلاة إذا قام من الليل ؟ قالت : « كان إذا قام من الليل كان يفتح صلاته بـ : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »<sup>(١)</sup> .

وقد ذكر « الهادى » سبحانه بلفظ الاسم مرتين فى القرآن الكريم :

١ - ﴿ ... وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

اللهم إنا نسألك أن تهدينا إلى الصراط المستقيم .

٢ - ﴿ ... وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

## ٩٥ - البديع

﴿ بديع السموات والأرض أى يكون له ولد ﴾<sup>(٢)</sup> .

سبحان الخالق البديع فى ذاته ، ولا يماثله أحد فى صفاته ، ولا فى حكم من أحكامه ، أو أمر من أوامره فهو البديع المطلق ، الذى أبدع الخلق من غير مثال سبق ، وسبحان الذى أظهر عجائب صنعته ، وغرائب حكمته ، يقال هذا شيء بديع إذا كان عديم المثل .

وفى اللغة ب د ع - ( أبدع ) الشيء اخترعه لا على المثال ، والله بديع السموات والأرض ، أى

( مبتدعها ) و ( البديع ) المبتدع أيضاً ، وشيء ( بدع ) بالكسر أى مبتدع ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾<sup>(٣)</sup> .

أى ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد ، وذلك ، بأن البدع والبديع ، هو الذى لم يسبق له مثيل . وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سمع رجلاً يقول :

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه - أنظر أبوداود فى كتاب الصلاة باب من ذكر أنه يرفع يديه إذا قام من التينين ، وباب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٣) سورة الأحقاف آية : ٩

« اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض ، ذو الجلال والاکرام . أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » فقال النبي - ﷺ - : « لقد كاد يدعو الله باسمه الذي إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى » (١) .

وقد ذكر « البديع » سبحانه مرتين في الكتاب العزيز :

- ١ - ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٢)
- ٢ - ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ، وهو بكل شيء عليم ﴾ (٣) .

## ٩٦ - الباقي

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاکرام ﴾ (٤) .

سبحان الموجود الواجب وجوده بذاته وهو الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء ، والبقاء لله تعالى ، هو بقاء أبدى أزلى . . من أبد الأبد . . إلى أزل الأزل .

وليست صفة بقائه ودوامه سبحانه وتعالى ، كبقاء الجنة والنار ودوامهما ، ذلك بأن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان بعد أن لم تكونا .

فيكون بقاء الجنة والنار أبدياً غير أزلى .

والأبد بالنسبة إلى الجنة ، هو استمرار الوجود إلى ما شاء الله ، ومن شاء فليتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ ﴾ (٥) .

وقد قيل في معنى الأزلى : هو ما لا يكون مسبوقاً بالعدم وهذه الصفة من صفات الله وحده . كما أن كل شيء يستولى عليه الفناء وكل شيء هالك إلا وجهه .

وقد قيل أن معنى أزلية الله تعالى وأزلية صفاته ، أنه موجود حيث لا مكان .

فسبحان الموجود الذي ليس لوجوده ابتداء ، وسبحان الباقي .

(١) أخرجه هذا اللفظ البيهقي في السنن الكبرى ، ويلفظ : « لقد دعا » ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم في المستدرک ، وسعيد بن منصور في سننه .

(٢) سورة البقرة آية : ١١٧

(٣) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٥) سورة هود آية : ١٠٨

## ٩٧ - الوارث

﴿ وإنا لنحن نحي ونغيث ونحن الوارثون ﴾<sup>(١)</sup>.

سبحان من له ما في السموات وما في الأرض ، رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحه .  
وسبحان الباقي بعد فناء خلقه ، الذي ليس لملكه أمد ، وإليه يرجع كل شيء والعمل الصالح يرفعه .

ثم لتتدبر هذا الدعاء من سورة الأنبياء :

﴿ ... رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾<sup>(٢)</sup>.

يا الله ، أنت الوارث الحق المبين : ﴿ رب لا تذرنى فرداً ... ﴾  
إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وإذا بعث ما في القبور وحصل ما في الصدور  
نسألك أن تورثنا من الأرض من الكتاب القول الثابت ، والطيب من القول :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا من قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور ، يوم  
هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء ..

لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴿ .. وأنت خير الوارثين ﴾ .

## ٩٨ - الرشيد

﴿ ربنا آتانا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾<sup>(٣)</sup>.

سبحان رب الرشيد المرشد ، ملهم الرشد لأهل طاعته ، وهو الذي أرشد الخلائق إلى هدايته ، ذى  
الحبل الشديد والأمر الرشيد .

قال الحليمي - رحمه الله - « الرشيد » هو المرشد ، سبحانه ، ومعناه الدال على المصالح والداعي  
إليها ، وهذا من قوله تعالى :

﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الحجر آية : ٢٣

(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٩

(٣) سورة الكهف آية : ١٠

(٤) سورة الكهف آية : ١٧

فإن مهىء الرشد مرشد .

أى هاديا .

والرشد هو الصلاح ، وهو الاستقامة ، وهو خلاف الغي والضلال .

ومن دعاء للنبي عليه الصلاة والسلام : « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعشى وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدى وتركى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل شئ .. إلى أن يقول - ﷺ - فى هذا الدعاء .. اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان » (١) وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد .

## ٩٩ - الصبور

﴿ وما يؤخره إلا لأجل معدود ﴾ (٢)

سبحان الصبور ، الذى يملئ ويمهل ، وينظر ولا يعجل ، ولا يعاجل ولا يسارع إلى الفعل قبل أوانه ، وينزل الأمر بقدر معلوم ولا يؤخرها عن آجالها .

وربما كان معنى الصبور ، هو الذى يسقط العقوبة بعد وجوبها ، وقد ينطلق على من يؤخرها ، فيكون كالحليم الذى لا يعجل بالعقوبة على من يعصاه .  
وقد يكون معناه : ملهم الصبر لجميع خلقه .

وفى اللغة : الصبر هو حبس النفس عن الجزع ، وبابه ضرب قال الله تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (٣) .

( واصبر نفسك ) أى أحبسها . يقال : صبره أى حبسه وفى حديث النبى - ﷺ - فى رجل أمسك رجلاً وقتله آخر قال : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر » (٤) أى أحبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت ، ويقال هو صبير القوم : للذى يصبر لهم ومعهم فى أمورهم وهو صبور ومصطبر ومتصبر .  
ويقال استعبد الشئ إذا اشتد . ويقال : اصطبرت منه أى اقتصد منه . وفى حديث عثمان : « هذه يدى لعمار فليصطبر » وأصبرنى القاضى : أقصنى وملأ المكىال إلى أصباره ، وأدهق الكأس إلى أصبارها : حروفها وشرها بأصبارها . كلها  
وفى الحديث : « سدرة المنتهى صبر الجنة » أى أعلاها .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ح ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الدعوات باب تابع لما يقول إذا قام من الليل إلى الصلاة . رقم ٣٤١٩

(٢) سورة هود آية : ١٠٥

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨

(٤) أخرجه فى كنز العمال برقم ٣٩٨٣٩ وعزاه إلى ابن عبيد فى الغريب ، والبيهقى عن اسماعيل بن أمية مرسل .

ولتدبر القرآن :

﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما تؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾<sup>(١)</sup> .  
البحث السابق من كتاب ( الأسماء الحسنى ) لمؤلفه دكتور/ حسن عز الدين الجمل .

## سورة الممتحنة

قال صاحب البصائر :

بصيرة في ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى ﴾ .

السورة مدنية بالاتفاق وآياتها ثلاثة عشر ، وكلماتها ثلاثمائة وأربعون ، وحروفها ألف وخمسمائة وعشر ، مجموع فواصل آياتها ( لم نرد ) على اللام منها آية : السبيل وعلى الدال آية : الحميد : ولها ثلاثة أسماء . سورة الممتحنة ، سورة الامتحان ، كلاهما لقوله فيها ( فامتحنوهن ) والثالث : سورة المودة . لقوله ( تلقون إليهم بالمودة ) . ( وتسرون إليهم بالمودة ) . ( بين الذين عاديتهم منهم مودة ) .

معظم مقصود السورة : النهي عن موالاته الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح في طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيغ والضلالة في قوله : ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ وبعده : ﴿ تسرون إليهم بالمودة ﴾ الأول حال من المخاطبين . وقيل : أتلون إليهم والاستفهام مقدر . وقيل : خبر مبتدأ ، أى أنتم تلقون . والثاني بدل من الأول على الوجوه المذكورة . والباء زيادة عند الأخفش . وقيل بسبب أن تودوا وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبي - ﷺ - وسره بالمودة .

قوله : ﴿ كانت لكم أسوة حسنة ﴾ وبعده : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة ﴾ أنث الفعل الأول مع الحائل ، وذكر الثاني لكثرة الحائل ، وإنما كرر ، لأن الأول في القول ، والثاني في الفعل وقيل : الأول في إبراهيم والثاني في محمد - ﷺ - .

مناسبتها لما قبلها :

١ - إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لثلا يشبهوا المنافقين .

٢ - إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين من المشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

### معاني المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل إيمانكم با؟ ، ضل : أى أخطأ . وسواء السبيل : أى الطريق المستوى ، وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحلق فى إدراك الشئ وفعله ، ومنه رجل يثقف يقف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

### المناسبة وإجمال المعنى

روى البخارى ومسلم وغيرهما : « أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله - ﷺ - بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى) فأعطائها عشرة دنانير وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة ، هذا صورته .

( من حاجب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله - ﷺ - يريدكم فخذوا حذرکم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرساناً . وقال : أنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ( موضع ) فإن بها ظعينة ( امرأة ) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها واخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال علي : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله - ﷺ - وسل سيفه وقال لها : أخرجي الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله - ﷺ - حاطباً وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ، ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكني كنت امرأة ملصقة في قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني ، فصدقه رسول الله - ﷺ - وقبل عذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال - ﷺ - : إنه شهد بديراً ، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فتزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ (١) - الآية .

## أضواء كاشفة

يا أيها الذين اتصفتم بالايمان ، لا يليق بكم لأجل هذا الوصف ، أن تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء وأصدقاء ، ولو في الظاهر ، فالله ينهانا عن موالاتهم والاسرار اليهم بأخبارنا ، ولو كان هذا في الظاهر ، لا عن عقيدة وایمان : لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء حالة كونكم تلقون اليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بها ، كما فعل أخوكم حاطب بن أبي بلتعة عن حسن نية ، لا تتخذوهم أولياء والحال أنهم كفروا بما جاءكم من الحق والقرآن ، فأنتم مؤمنون به مصدقون له ، وهم كافرون فيبينكم عداوة شديدة في العقيدة ، فكيف تلتقون ؟ هم كفروا بالله ورسوله ، والحال أنهم يخرجون الرسول وإياكم من دياركم وأموالكم وأوطانكم لا لشيء أبداً ، إلا لأنكم تؤمنون بالله ربكم ، عجباً كيف تجعلونهم أولياء وتسرون إليهم بالمودة ؟ !! إن كنتم خرجتم للجهاد في سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، فلا تتخذوهم أولياء ، أى : لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي .

كيف تلقون إليهم بالمودة ، تسرون إليهم بأخبار الرسول سراً ، وأنا أعلم السر وأخفى ، نعم الله يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، وأخطأ طريق الهدى والحق .

(١) أخرجه : البخارى في المغازى باب غزوة الفتح ، والجهاد والسير باب - الجاسوس ، والتفسير (سورة الممتحنة)

- وأخرجه مسلم : كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة ح ٤ ص ١٩٤١

- وانظر الترمذى ح ٣٨١ ، ٣٨٣ كتاب التفسير . باب ٦٠



كيف هذا مع أنهم إن يظفروا بكم ويدركوكم على أى وضع ، يكونوا لكم أعداء ، ويعاملوكم معاملة العدو اللدود ، ويسطوا اليكم أيديهم بالضرب والسبى والقتل ، وألستهم بالشتيم والسب والذم ، ولا عجب فإنهم يودون من صميم قلوبهم لو تكفرون .

وما لكم توادون أعداء الله وأعداءكم من أجل قرابتكم وأولادكم ؟ مع أنه لن تنفعكم أرحامكم ولا قراباتكم ، ولن تنفعكم أولادكم وأموالكم فى شىء ، يوم القيامة يفصل بينكم ويقضى بحكمه ، فاعملوا لأجل هذا اليوم ، وأنظروا ماذا قدمتموه لهذا الغد ، وأعلموا أن الله بما تعملون بصير فسيجازيكم على كل عمل .

### التفسير

كان سبب نزول هذه السورة الكريمة ، قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان فلما عزم رسول الله - ﷺ - على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبى - ﷺ - المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : « اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا ، فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله - ﷺ - من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً فاطلع الله تعالى على ذلك رسول الله - ﷺ - استجابة لدعائه ، فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بين فى هذا الحديث المتفق على صحته .

قال الامام أحمد بسنده عن مرة إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره أنه سمع علياً - رضى الله عنه - يقول : بعثنى رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، قلنا ، لتخرجن الكتاب أولتقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - : « يا حاطب ما هذا » قال : لا تعجل على ، انى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات ، يحمون أهلهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه صدقكم » .

فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه شهد بداراً ، وما يدريك لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : « أعمالوا ما شئتم فقد غفرت لكم » <sup>(١)</sup> . وزاد البخارى فى كتاب

المغازى فأنزل الله السورة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ . وقال في كتاب التفسير قال عمرو ونزلت فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ وقال لا أدري الآية في الحديث أو قال عمرو قال البخارى قال على يعنى ابن المدينى قيل لسفيان : في هذا نزلت ﴿ لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ فقال سفيان هذا في حديث الناس حفظته من عمرو وما تركت منه حرفاً ولا أرى أحداً حفظه غيرى .

وقد أخرجه في الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - وأباً مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال : انطلقوا حتى تأتوا روض خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب فأتخناها فالتمسنا ، فلم نر كتاباً فقلنا : ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أولتجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجرتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر يا رسول الله : قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلاضرب عنقه ، فقال النبى - ﷺ - : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال حاطب : والله ما بى الا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله - ﷺ - ، أردت أن تكون لى عند القوم يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال : « صدق لا تقولوا له إلا خيراً » فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلاضرب عنقه فقال : « أليس من أهل بدر ؟ » فقال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : أعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم <sup>(١)</sup> . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى في المغازى في غزوة بدر .

وقد روى من وجه آخر عن على قال ابن أبى حاتم بسنده عن الحارث عن على قال : لما أراد النبى - ﷺ - أن يأتى مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة منهم حاطب بن أبى بلتعة وأفشى في الناس أنه يريد خيبر قال : فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله - ﷺ - يريدكم ، فأخبر رسول الله - ﷺ - قال فبعثنى - ﷺ - وأباً مرثد وليس منا رجل إلا وعنده فرس فقال : « اتوا روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذى ذكر رسول الله - ﷺ - فقلنا لها : هات الكتاب فقالت ما معى كتاب فوضعنا متاعها وقتشناها فلم نجده فى متاعها فقال أبو مرثد لعله ألا يكون معها فقلت : ما كذب رسول الله - ﷺ - ولا كذبنا فقلنا لها لتخرجنه أولنعرينه ، فقالت أما تتقون الله ألستم مسلمين فقلنا : لتخرجنه أولنعرينك قال عمرو بن مرة فأخرجته من حجرتها ، وقال حبيب بن أبى ثابت : أخرجته من قبلها فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا الكتاب من حاطب بن أبى بلتعة ، فقام عمر فقال : يا رسول الله خان الله ورسوله فائذن لى فلاضرب عنقه فقال رسول الله - ﷺ - : « أليس قد شهد بدرأ » قالوا بلى ، قال عمر بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك ، فقال رسول الله

(١) أخرجه البخارى كتاب المغازى باب فضل من شهد بدرأ ح ٣ ص ٧ ط / الحلبى

- ﷺ : « فلعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم إنى بما تعملون بصير » ففاضت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم ، فأرسل رسول الله - ﷺ - إلى حاطب فقال : « يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال يا رسول الله إنى كنت امرأاً ملصقاً فى قريش ، وكان لى بها مال وأهل ، ولم يكن أحد من أصحابك إلا وله بمكة من يمنع أهله ، وماله ، فكتبت بذلك إليهم ، ووالله يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً »<sup>(١)</sup> قال حبيب بن أبى ثابت فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ الآية .

قد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير فقال محمد بن اسحاق بن يسار فى السيرة حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله - ﷺ - المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله - ﷺ - من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر إنها من مزينة ، وزعم غيره انها سارة مولاة لبنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لقريش ، فجعلته فى رأسها ، ثم قتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب حاطب معها كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لهم من أمرنا » فخرجا حتى أدركاها بالخليفة حليفة بنى أبى أحمد فاستنزلاها بالخليفة فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أولئك شفك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأق به رسول الله - ﷺ - فدعا رسول الله - ﷺ - حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » فقال يا رسول الله : أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأاً ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى فلاضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فأنزل الله عز وجل فى حاطب : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى قوله - قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم وما تعبدون من دون الله كفرننا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾<sup>(٢)</sup> . إلى آخر القصة .

وروى معمر عن الزهرى عن عروة نحو ذلك ، وهكذا ذكر مقاتل بن حيان أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاه عشرة دراهم ، وأن رسول الله - ﷺ - بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة على نحو ما تقدم .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٤ ص٣٤٥ ، ٣٤٦ تفسير سورة الممتحنة

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٤ ص٨٥٨ بعنوان . حاطب ابن أبى بلتعة يرسل لأهل مكة خطاباً .

وعن السدي قريباً منه ، وهكذا قال العوفي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة فقله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾ يعنى المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارعتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منهم فإنه منهم ﴾ <sup>(١)</sup> وهذا تهديد شديد ووعد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ <sup>(٣)</sup> . وقال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه ﴾ <sup>(٤)</sup> ولهذا قبل رسول الله ﷺ - عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هنا الحديث الذى رواه الامام أحمد بسنده عن حذيفة قال : ضرب لنا رسول الله ﷺ - أمثالا واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلاً وترك سائرهما قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه » <sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وأخلاص العبادة لله وحده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ أى لم يكن لكم عندهم ذنب ، إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ <sup>(٦)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ <sup>(٧)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلى وابتغاء مرضاتى ﴾ أى إن كنتم كذلك ، فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلى باغين لمرضاتى عنكم ، فلا توالوا أعدائى وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم ، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم .

(١) سورة المائدة آية : ٥١

(٢) سورة المائدة آية : ٥٧

(٣) سورة النساء آية : ١٤٤

(٤) سورة آل عمران آية : ٢٨

(٥) أخرجه : ابن كثير في تفسيره ج ٤ ص ٣٤٧

(٦) سورة البروج آية : ٨

(٧) سورة الحج آية : ٤٠

وقوله تعالى : ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أى تفعلون ذلك ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألستهم بالسوء ﴾ أى لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وودوا لو تكفروا ﴾ أى ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا نهيج على عداوتهم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أى قراباتكم لا تنفعكم عند الله ، إذا أراد الله بكم سوء ونفعهم لا يصل اليكم ، إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم ، فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء .

ولما كانت هذه الآيات الكريمة لها تعلق كبير بالولاء والبراء ، فإننا نسوق هذا البحث القيم ، الذى كتبه الشيخ محمد بن سعيد بن سالم القحطاني عن الولاء والبراء فى العهد المكي ، والعهد المدنى قال : نتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد - ﷺ - ، مستمدين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وكتب السير والمغازى .

وقد اعتمدنا فى تقسيم الآيات إلى مكى ومدنى ، على ما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن من أن المكى : - على الأشهر - هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها .

ومن المعروف أن المسلم منذ أن يعلن شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فإن ذلك يعنى إفراذ الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية ، وخلع كل ولاء وعبودية ، وطاعة وخضوع ، وخوف ورجاء ، لأى معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله ، وقصد هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى .

وقد نزل الوحي الإلهى أول ما نزل على المصطفى - ﷺ - فى غار حراء بقوله سبحانه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها المدثر ، قم فأندر ﴾ (٢) .

وبدا المصطفى - ﷺ - ، يدعو الناس سراً إلى الإسلام ، وأسلم معه نفر قليل منهم أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وخديجة بنت خويلد زوجته - رضى الله عنهم - جميعاً ، وبدأ رسول الله - ﷺ - ، يغرس فى نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله ، والاجتماع على ذلك ، وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين ، وبغض الكفر والشرك وأهله ، وهذا هو لازم كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة المدثر آية : ١

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة ، وشيجة العقيدة في نفوس المؤمنين ، وبدأ يقر في نفوسهم أن هذه هي الرابطة الحقيقية ، وهي الرابطة التي تطمئن لها نفس المؤمن ، ومع نمو هذه الغرسة الجديدة ، بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية ،، والروابط الجاهلية ، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط ، تكبر يوماً فيوماً في نفس كل من آمن بالله ورسوله .

## الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

اختار المصطفى - ﷺ - دار الأرقم ، لتلقي من آمن معه أمور هذا الدين ، ولقد كانت هذه الدار هي الملتقى الأول لأولئك القادة العظام ، كانت هي الدار التي بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده في الأرض . ترى ما هو حال المسلمين آنذاك ؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين ؟ يجب على ذلك الأستاذ/سيد قطب رحمه الله فيقول : إنه لم يكن للإسلام والمسلمين في مكة شريعة ولا دولة ، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين ، كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنون ولاءهم من فورهم للعصبية المسلمة ، وكان الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه في الجاهلية ، ويبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية ، إنه يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف . « لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم في جاهليته وحاضره ، في إسلامه ونشأت عن هذه العزلة عزلة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً » .

« إنه قد انفصل نهائياً من بيئة الجاهلية ، واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية ، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ، ويعطى في عالم التجارة والتعامل اليومي . فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر .

وحين انخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام ، فإنه أيضاً كان ينسلخ من القيادة الجاهلية ، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة ، ويرجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام ، وهذا هو الذي أزعج « الملأ » من قريش ! « أزعجهم زحف الإسلام وأزعجهم القرآن ، ولم يزعجهم من قبل أن ( الحنفاء ) اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ، واعتقدوا بالوهمية الله وحده ، وقدموا له الشعائر وحده ، فهذا لا يهم الطاغوت كما يفهم بعض الطيبين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام .

« إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلي وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية ، التي تريد أن تحقق الإسلام في عالم الواقع ، ولذلك قاوم « الملأ » من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب ، والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله ، فكان لقاء عميقاً ، لأن كلا منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه ، ويهتدى بهديه ، ويتوجه إليه ، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد ، يربطه بأخوته في الله ، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينها أحده دم .

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء الله سبحانه وتعالى ، لتربية الأمة على أسس العقيدة ، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف ، وكان من الطرق التي سلكها القرآن في عرض هذه العقيدة ضرب المثل ، لأنه كما يقال : بالمثال يتضح المقال ، ومعلوم أن كلام الله واضح ، ولكن سياق المثل ، يستثير في الإنسان نوعاً من التفكير ، وتدبر العبرة والعظة ، لتغيير المسار الخاطئ ، والاتجاه في الطريق الصحيح .

ومن هذه الأمثلة في موضوعنا قوله تعالى :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ (١) .

ويتقرر هذه الحقيقة الضخمة في النفوس ، كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم ، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ، ودكوا الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ، مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

ومكث المصطفى - ﷺ - في دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات ، كما قال ذلك علماء السير والمغازي . وبعد أن فشا ذكر الإسلام في مكة ، وتحدث الناس به ، أمر الله عز وجل رسوله - ﷺ - أن يصدع بما جاء منه ، وأن يبادئ الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (٢) .

وقال الله له :-

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٣) .

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين ، وهذا الابتلاء الذي ظاهره الشدة ، هو في حقيقته نعمة ، لأنه يتضح من خلاله ، الصادق من الكاذب ، والخبيث من الطيب . قال تعالى :

﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ (٤) .

وحدث لأصحاب رسول الله - ﷺ - من الابتلاء والشدة الشيء الكثير ، حتى أنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم .

## ردود الفعل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذي صبه عليهم أعداء الله ؟ ما هو رد فعل المسلمين تجاه ما فعل بهم عامة ، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة ؟

(١) سورة العنكبوت آية : ٤١

(٢) سورة الحجر آية : ٩٤

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٢١٤ - ٢١٥

(٤) سورة العنكبوت الآيات : ١ - ٣

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل . قال تعالى :-

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً ﴾ (١) .

وصبر المصطفى - ﷺ - ، وكانت تربيته الربانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه ، فكانوا كل يوم يزدادون من سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات والشهوات . شيئاً كثيراً .

( كان - ﷺ - يأخذهم بالصبر على الأذى ، والصفح الجميل ، وقهر النفس ، مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب ، وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم أمة من أيامها حرب البسوس ، وداحس والغبراء ، وما يوم الفجار بيبعد !

ولكن رسول الله - ﷺ - قد كبح نخوتهم العربية ، فانقهروا لأمره ، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما يشيب منه النفوس في غير جبن وفي غير عجز ) . هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم . أما ولاؤهم فيما بينهم ، فنقول : إن المصطفى - ﷺ - ، قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين في نفوسهم هما :-

١ - الإيمان بالله ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه ، وتمثل صفاته في الضمائر وتقواه ، ومراقبته ، مع اليقظة والحساسية التي بلغت في نفوسهم حداً غير معهود إلا في النادر من الأحوال .  
٢ - الحب الفياض والتكافل الجاد العميق ، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً ، لولا أنه وقع بالفعل لعدد من أحلام العالمين ، إن نقطة الحب في الله التي التقى عليها هؤلاء المؤمنون ، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أو عزم ، وما يستتبع ذلك من ألم أو سرور ، وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض ، تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أو شر .

ولكى يكون لهذا الكلام ما يدعمه من دليل ، وحتى نعلم ما هي نتائج تربية « دار الأرقم » أذكر موقفاً واحداً لصديق هذه الأمة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .

وطيء أبو بكر رضي الله عنه في مكة يوماً بعد ما أسلم ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ، ويجرفها لوجهه ثم نزا على بطن أبي بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيمم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته فتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله - ﷺ - ، فمسوا منه بالسنتهم وعزلوه ثم قالوا ، وقالوا لأمه أم الخير : انظري أن تطعميه شيئاً أو تسفيهه إياه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله - ﷺ - ؟ فقالت : والله ما لي علم بصاحبك فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فأسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : أن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله ، وأن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت والله أن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإن لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله - ﷺ - ، قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شيء عليك منها قالت : سالم صالح ، قال : أين هو ؟ قالت : في دار ابن الأرقم قال : فإن الله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب أو آتى رسول الله - ﷺ - ، فأملها حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس



خرجنا به يتكئ عليهما حتى أدخلناه على رسول الله - ﷺ - ، يا الله رجل مضروب ، مشخن بالجراح لا يتناول حتى شربة الماء ، وهو أشد ما يكون حاجة إليها حتى يرى رسول الله - ﷺ - ؟  
حقاً إنها تربية دونها كل تربية ، وحقاً نقول إن ذلك الجيل الذي رباه المصطفى - ﷺ - ، جيل فريد على غير مثال سابق ولا لاحق .

## سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم في العهد المكي :

إن المرحلة المكية كانت تقتضى أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشركين علاقة غير قتالية ، علاقة بيان للحق وصبر على الأذى فيه ، واحتساب لكل ما عرفته رباع مكة ورمضاؤها ، والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى - ﷺ - ، وعذاب واضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم - رضى الله عنهم أجمعين -

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضى اتخاذ الأساليب السلمية ، وعرض الحقائق الايمانية عرضاً مؤثراً ، عله يكون في هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر ، ما يرجع لأصل اللب صوابهم ، وما أجدر ذلك باستجابة القوم لولا اتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية ، وما إلى ذلك .

والتربية النبوية في هذا العهد ذات شأن عظيم ، ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس والصبر على الأذى وإعداد العدة مع حبس دواعي الانطلاق وكف حدة الأقدام ، وإحتمال جهل الجاهلين وبغى الطاغين ، وكل ذلك من غير ذل ولا استهزاء ولا يأس ولا وهن ، بل أن عيونهم قريرة ، وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ، ونفوسهم مستعيلة على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم .

ومن المهم في هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية في عدم فرضية القتال في مكة ، فإنه إنما شرع في العهد المدني ، أما ( حين كان المسلمون في مكة ، فقد كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمون - وهم أقل من العشر - بقتال الباقيين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يا رسول الله ألا نغيل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليألى منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله - ﷺ - « إني لم أؤمر بهذا » .

ونحن حين نلتمس الحكمة في هذه الحالة وفي غيرها من التكاليف الشرعية - كما يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه ، لأننا حينئذ نتألى على الله مالم يبين لنا من حكمة ، ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هي الأسباب والعلل الحقيقية أوقد تكون .

ذلك أن شأن المؤمن أمام أى تكليف ، أو أى حكم من أحكام الشريعة ، هو التسليم المطلق ، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنما نقول هذه الحكمة ، والأسباب من باب الاحتفاء وعلى أنه مجرد إحتمال ، لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح .

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله في كتابيه القيمين « في ظلال القرآن » عند تفسير سورة النساء وفي « معالم في الطريق » .

فصل الجهاد في سبيل الله موجز فيما يلي :

١ - إن الكف عن القتال في مكة ، ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة ومن أهداف التربية في مثل هذه البيئة : تربية الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم ، حين يقع عليه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، فلا يندفع لأول مؤثر ولا يهتاج لأول مهيج ، ومن ثم يتم الاعتدال في طبيعته وحركته ، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيد بأوامر القيادة الجديدة ، حيث لا يتصرف إلا وفق ما تأمره - مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي المسلم لإنشاء « المجتمع المسلم »

٢ - وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ في مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه الفترة - إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثرات العرب المعروفة أمثال: داحس والغبراء وحرب البسوس وحينئذ يتحول الاسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية .

٣ - وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت ، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هي التي تعذب المؤمنين ، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ومعنى الاذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت ثم يقال : هذا هو الاسلام ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ، فقد كانت دعاية قريش في المواسم ، أن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل المولى ؟

٤ - وربما كان ذلك أيضاً ، لما يعلم الله من أن كثيرين من المعاندين ، الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قاداته ، ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ؟

٥ - وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية في بيئة قبلية من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم ، وقد وقعت ظواهر كثيرة ثبت صحة هذه النظرة في هذه البيئة - فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ورأى في ذلك عاراً على العرب وعرض عليه جواره وحايته .. وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب .

٦ - وربما كان ذلك أيضاً ، لقلّة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها لترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة

إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم - ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام في الأرض نظام ، ولا يوجد له كيان واقعي ، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وأخرة .

٧ - إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها والأمر بالقتال ودفع الأذى ، لأن الأمر الأساسي في هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو « وجود الدعوة » ووجودها في شخص الداعية محمد - ﷺ - وشخصه في حماية سيوف بنى هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهي مهددة بالقطع ، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها في ندوات قريش ، حول الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا وفي الاجتماعات العامة ، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله ، أو أن يفرض عليه كلاماً بعينه يقوله ، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبتها لم يكف ، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم ، لم يسكت ، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا ، أي يجاملهم فيجاملوه ، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن .

إن هذه الاعتبارات كلها . فيما نحسب - كانت بعض ما اقتضت حكمة الله - معه - أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لتتم تربيتهم ، واعدادهم ، وليقف المسلمون في انتظار أمر القيادة في الوقت المناسب ، وليخرجوا أنفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ .. لتكون خالصة لله ، وفي سبيل الله .

والناظر في الفترة المكية والتي كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله ، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن في عدم الاستعجال واستباق الزمن ، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب ، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى - ﷺ - لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة ، فيأخذوا منها العبرة والأسوة ، لأنه لا يقف في وجه الجاهلية - أيأ كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلية - إلا رجال إختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية ، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله في نفوسهم ، فيصدق عليهم حينئذ أنهم : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ (١)

لا تهمهم قوة عدو ، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم : ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٢) .

قال ابن اسحاق لما رأى رسول الله - ﷺ - ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ثم من عمه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله - ﷺ - إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام .

(١) سورة الاحزاب الآية : ٢٣

(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

ثم أن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث أعز الله به الإسلام ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » إنها نعمة كبرى تجلت في إسلام عمر ، الذى منح ولاءه ونصرته للمسلمين ، وصبر بغضه وعداوته وبراءة للكافرين ، كيف لا وهو الذى أشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال : « افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها - أى مكة - لكم أو تركتموها لنا » .

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضى الله عنه وهم في الحبشة ، ففرحوا بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة ، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والإضطهاد ، فلم يزداهم ذلك إلا صلابة في العود ، وثباتاً على الحق ، وأملأ في فرج من الله قريب .

ثم تعرض رسول الله - ﷺ - ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء ، التى هى من سنن الدعوة إلى الله : ذلك الدرس هو موت أبى طالب عم رسول الله ، الذى كان مناصراً له وحامياً ، وموت زوجة رسول الله خديجة - رضى الله عنها - أول امرأة أسلمت ، وكانت مثلاً للمرأة المسلمة الصالحة ، وهنا يطمع أعداء الله في رسول الله - ﷺ - ولكن الله أكبر من كل شيء ، ثم رأى المصطفى - ﷺ - أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيئاً وناصراً ، فخرج إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منه ، فاتجه إلى ربه قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وانت ربي ، إلى من تكلني ، إلى بعيد يتجهمني ؟ أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، ثم رجع إلى مكة .

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً على قول المصطفى - ﷺ - :

« إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي » فإن هم الداعية المسلم ، هو رضاء الله وكفى ، ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس ، فإن ذلك ليس له كبير حسابان ، طالما أن الغاية هى رضاء الله »

## بر الأقارب المشركين

ومن خلال تتبع القرآن المكي ، نجد أنه - رغم قطع الولاء سواء في الحب أو النصر - بين المسلم وأقاربه الكفار ، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم قال تعالى :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾<sup>(١)</sup>

قال البغوى : إن هذه الآية وآية لقمان وهى قوله تعالى :

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾<sup>(٢)</sup>

نزلت في سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - وأمه حمّة بنت أبي سفيان ، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام ، وكان باراً بأمه .

قالت له أمه : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا أكل ولا أشرب ، حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت ، فتعير بذلك أبد الدهر ، يقال : ياقاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ، ولم تشرب ، ولم تستظل ، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة ، لم تأكل ، ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني ، فكلى وإن شئت فلا تأكل ، فلما يأسست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية وأمره بالبر بوالديه ، والاحسان إليهما وعدم طاعتها في الشرك ، لأنه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) .

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شيء لا طاعة لمخلوق في مخالفته ، وبر القريب المشرك شيء ، قد يكون من باب تأليفه وترغيبه في الإسلام .

## كيف كانت صورة البراء في العهد المكي

١ - إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهو يحس بأنه قد دخل في دين جديد غير دين آبائه وأجداده ، إنه يشعر في اللحظة التى يجيء فيها إلى الإسلام ، أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها في الجاهلية ، وكان يقف من كل ما عاشه في الجاهلية ، موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذى يحس أن كل هذا رجس ، لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد ، ويمكننا أن نسمى هذا «بالعزلة الشعورية» فالمسلم قد انخلع من البيئة الجاهلية ، وعرفها وتصورها وتصور عاداتها وروابطها ، وانخلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود ، وانضم إلى التجمع الإسلامى الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته .

(١) سورة العنكبوت آية : ٨

(٢) سورة لقمان آية : ١٥

- ٢- بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار :
- ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ (١)
- ٣- وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل . قال تعالى :
- ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلًا ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفئك الذين لا يؤمنون ﴾ (٣)

ثم يذكر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم - ليأخذوا منه أسوة وقوة فيقول سبحانه :

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ (٤)

والى جانب هذا التذكير الربانى ، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس ، فى حياة الناس لمن يوزع ولاؤه بين أرباب متفرقة ، ومن يكون ولاؤه لرب واحد ، واتجاه واحد .

قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سليماً لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٥)

فقد وضع الله فى هذا المثال القرآنى حال المشرك الذى لا يؤمن بالله ، ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفى الله ، بحال العبد الذى تملكه جماعة مشتركين فى خدمته لهم ، لا يمكنه إرضاءهم أجمعين ، وحال الموحد الذى يعبد الله وحده ، ويوالى فى الله وحده ، مثله كمثل عبد لمالك واحد ، قد سلم له ، وعلم مقاصده ، وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو فى راحة من تشاحن الخلاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه ، مع رافة مالكه به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليته بمصالحه ، فهل يستوعب هذان العبدان ؟ لا إنهما لا يستويان ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ وعلى طريقة القرآن فى اهتمامه بقضية اليوم الآخر ، لما لها من أثر عظيم فى قضية الإيمان : نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، لمن يكون ولاؤه لغير الله ، وكيف انقلب هذا الولاء إلى عداوة وبغضاء ، ثم كيف أصبحت الخلقة عداوة وشحناء .

(١) سورة النجم الآيتان : ٢٩ - ٣٠

(٢) سورة المزمل آية : ١٠

(٣) سورة الروم آية : ٦٠

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ - ٢٨

(٥) سورة الزمر آية : ٢٩

قال تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾ (١)

وقال تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (٢)

وقال تعالى :

﴿ ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (٣)

٤ - ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله ، بأن دينكم باطل لا ندخل فيه ، وديننا هو الحق الذى ندين الله به ، فلا نعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما نعبد .

## لكم دينكم ولى دين<sup>(٤)</sup>

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلائهم بدينهم ، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ، ولما بدأت خطوط اليأس فى نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم ، سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم ، الدالة على طيش أحلامهم ، ورعونتهم الحمقاء . فقد دعوا رسول الله - ﷺ - إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده . سنة فأنزل الله سورة الكافرون :

بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ قل ياأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ (٥)

ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها فى إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ (٦) وقوله تعالى :

﴿ قل إني نهيئت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ (٧)

(١) سورة فصلت آية : ٢٩

(٢) سورة الزخرف آية : ٦٧

(٣) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٤) سورة الكافرون آية : ٦

(٥) سورة الكافرون الآيات : ١ : ٦

(٦) سورة يونس آية : ٤١

(٧) سورة الأنعام الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

وقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

بهذه النصاعة وهذا الوضوح ، جاءت هذه الآيات الكريمات ، لترسم معالم الطريق بين الصف الإسلامي ، والصف الكافر المشرك ، الذي لا يؤمن بالله ورسوله ، ومع هذا الوضوح القرآني ، نجد أن بعض المتسبين للعلم ، قد فهم من هذه الآيات - وخاصة سورة الكافرون - إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم الباطل ، وهذا زعم باطل ، مخالف لحقيقة الإسلام ، ودعوة رسول الإسلام ، ومضاد لدعوة الرسل جميعاً . يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : « إن هذه السورة - سورة الكافرون - تشتمل على النفي المحض ، وهذه خاصية هذه السورة ، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها .

« ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، مع تضمينها للإثبات بأن له معبوداً يعبد ، وأنتم بريئون من عبادته ، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء .

﴿ إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ (٢)

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله . « ولهذا كان النبي - ﷺ - يقرنها بسورة الاخلاص في سنة الفجر ، وسنة المغرب ، وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه : هل هو إقرار ، فيكون منسوخاً ، أو مخصوصاً ؟ أولاً نسخ في الآية ولا تخصيص ؟

« هذه مسألة شريفة من أهم المسائل ، وقد غلط في السورة خلائق ، وظنوا أنها منسوخة بآية السيف ، لا اعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون : أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب .

وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص ، بل هي محكمة وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها ، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه .

« وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص . ومنشأ الغلط : ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم . ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا : منسوخة وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص . ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً . بل لم يزل رسول الله - ﷺ - في أول الأمر وأشد عليه وعلى أصحاب أشد على الإنكار عليهم ، وعيب دينهم وتقييحه ، والنهي عنه ، والتهديد والتوعيد في كل وقت وفي كل ناد . فكيف يقال : إن الآية اقتضت تقريراً لهم ؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل .

(١) سورة يونس الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧



ولما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم ، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً ، فإنه دين باطل فهو مختص لا نشركم فيه ، ولا أنتم تشركونا في ديننا الحق .

« فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم ، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص ؟ !

أفترى إذاً جوهدهوا بالسيف كما جوهدهوا بالحجة لا يصح أن يقال : لكم دينكم ولى دين . بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده . وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول - ﷺ - أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به ، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضى هذا إقرارهم على بدعتهم ، بل يقولون لهم هذه براءة منها . وهم مع هذا متصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان .

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً : شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقال :

« قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ اللام فى لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون فى دينكم لا أشرككم فيه ، وأنا مختص بدينى لا تشركونى فيه كما قال تعالى :

﴿ لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١ يونس

وليس فى هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب . كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة . بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ولا يجوزون بعمله ولا ينفعهم ، وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ، ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط .

« ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى :

﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم .

ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ ١ - ٦ الكافرون

فظن هذا الملحد أن قوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضى بدين الكفار ، فهذا من أبين الكذب والإفراء على محمد - ﷺ - فهو لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه . . ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١

يونس

وقوله تعالى :

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت

لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ ١٥ الشورى

وإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾ ٢١٥ - ٢١٦ الشعراء

فبرأ من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟ .

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال في شأن هذه السورة : « ليس في القرآن أشد غيظاً لإبليس منها ، لأنها توحيد وبراءة من الشرك » . وقال الأصمعي : كان يقال لـ « قل يأيتها الكافرون » و « قل هو الله أحد » المشقشستان . أى أنها تبرئان من النفاق .

### فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق : « فلما أراد الله - عز وجل - إظهار دينه وإعزاز نبيه - ﷺ - وإنجاز مواعده له ، خرج رسول الله - ﷺ - في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم - ﷺ - من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : « أمن موالى اليهود » قالوا : نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلموا ، والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله - ﷺ - ودعواهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله - ﷺ - أجل : بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هياً الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلى كلمته ، وينشره في الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل . إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسموا « الأنصار » أنصار الله ، أنصار نبيه ، أنصار دينه ، أنصار عباده المؤمنين ، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجبابرتها الذين هم في أعين الناس كبار وهم في حقيقة الأمر صغار وأقزام .

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوا رسول الله - ﷺ - بالعقبة الأولى فبايعوه ، وكانت البيعة على الاسلام وأرسل معهم رسول الله - ﷺ - مصعب بن عمير رضى الله عنه يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، ويؤمهم في الصلاة .

وقدم مصعب بن عمير - رضى الله عنه - ومعه وفد كريم من الأنصار في موسم الحج ، فكانت بيعة العقبة الكبرى « حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة : حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ؟ » لقد بلغ الإيمان أوجه في هذه القلوب الفتية ، وأن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخائق المضروب حول الدعوة والداعية .

## صيغة البيعة

تكلم رسول الله - ﷺ - فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم »<sup>(١)</sup> ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حباً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله - ﷺ - ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »<sup>(٢)</sup> .

قال ابن هشام : الهدم الهدم : يعنى الحرمة ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

ثم قام أسعد بن زرارة فقال : رويداً يا أهل يثرب : فإننا لم نصرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة ، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف ، فإذا أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جنة فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا يا أسعد : أمط عنا بيدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها ، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه<sup>(٣)</sup> .

أجل : ( إنه الإيمان بالله والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ذلك كله كان يتدافع في النفوس المجتمعة في ظلام الليل بجوار مكة السادرة في غيها ، يتدافع ليعلم أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء ) .

ترى : أى صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق ؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته . وانظر إلى رد المصطفى - ﷺ - « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » هذه هى الصلة الحقيقية والشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم . لقد أصبح الدم واحداً . « أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلى والتناصر الجاهلى والولاء الجاهلى ليحل محلها الولاء الإسلامى والوقوف فى الصف الإسلامى والبراءة من الكفر وأهله واعتناق الأخوة الجديدة التى أمر الله بها . إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »<sup>(٤)</sup> .

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه ، وما هيا لهم من النصرة والمنعة والدار التى يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهجه فى الأرض . أرض الأنصار . أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء فى العهد المدنى .

(١) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ج ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٢) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ج ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٣) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ج ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٤) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - ج ١ ص ٤٤٠ برواية البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان ، عن

بريدة ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، وفى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥/٦٥

### الولاء والبراء في العهد المدني

لما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز عبده ورسوله محمد - ﷺ - ومن معه ، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل ، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى - جل وعلا - بقرب وعده الذى وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : قال تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ولميكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ ٥٥ النور ولقد وقع هذا التمكين الربانى بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول :

﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ ٢٦٤ الأنفال .

وسيبقى هذا الوعد بالتمكين مادام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له .

### نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة : خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحداناً ، ولم يبق منهم إلا رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعلى حيث أقاما بأمر منه - ﷺ - وإلا من احتبسه المشركون كرهاً .

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله - ﷺ - قد تجهزوا ، وخرجوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى المدينة ، وعرفوا أنها دار منعة ، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس : خافوا خروج رسول الله - ﷺ - ولحقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته ، فلذلك اجتمعوا في دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجا منهم ليتشاوروا في أمره .

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأى واحد : وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه في القبائل .

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه - ﷺ - أكبر من مكر أولئك المجرمين ، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى - ﷺ - يأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة .

وخرج رسول الله - ﷺ - ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وبقي على بن أبى طالب - رضى الله عنه - حيث نام تلك الليلة في فراش المصطفى - ﷺ - وبتتهى الأمر بخسارة وذلة ( الملاء ) من قريش .

ووصل المصطفى - ﷺ - إلى دار الهجرة ، دار النصرة والمنعة ، حيث وجد « أنصار الله » فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج ، وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الإحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم ، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة .

وكان أول عمل قام به رسول الله - ﷺ - في المدينة هو بناء المسجد لينطلق منه النداء الرباني « الله أكبر الله أكبر » وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوي للأمة المسلمة يتلقون فيه وحى الله عن رسول الله ، ويتعلمون أمور دينهم ، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التي انطلقت للجهاد في سبيل الله .

وبعد ذلك : « أخى رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار أخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله - عز وجل - ﴿ وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ ٦ الأحزاب .

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة » .

إن هذه الأخوة الإيمانية هي الوشيجة العظمى ، والرابطة الفريدة في علاقات البشر بعضهم مع بعض ، فلقد أحس كل مؤمن - كما يقول الأستاذ محمد قطب - سواء كان مهاجرياً أم أنصاريّاً برباط جديد يربطه بأخوته في الله ، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينها آصرة دم بل أن آصرة الدم . حين كانت في الجاهلية - لم تكن تشيء في نفس أحدهم ذلك الحب الصافي العجيب الذى يحسه الآن لأخيه في العقيدة .

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام ؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة ؟

والجواب : أن الأمر ليس سراً ، ولا سحراً ، ولكنه الإسلام يلتقى فيه الناس على العقيدة في الله ، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هي الحال في العلاقات الجاهلية ، وإنما الجانب البارز هو الحب في الله .

### وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار ، ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة في حياة المسلمين سواء في مستوى « الأمة والدولة » أم على مستوى الأفراد فأما ما يتعلق بهم كأمة : فقد كانت هذه المؤاخاة هي الركيزة الأساسية في تكوين مفهوم « الأمة المسلمة » أمة التقت على العقيدة في الله ، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب أو الأرض أو اللون أو اللغة ، أو الجنس فيها أى حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة . والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل في ذلك فهو القائل :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض ، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، ويناصره ويجاهد من أجله ، ويؤثر على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ ٧١ التوبة .

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد ﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبك ﴾ - بين أصابعه ﴿ (١) . وعن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » (٢) .

ولقد أنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار . فقال سبحانه عن المهاجرين :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ﴾ ٨ الحشر .

ثم يثنى سبحانه على الأنصار بقوله :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ٩ الحشر .

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك ، فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله - ﷺ - ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله قد أصبح جبههم من العقيدة التي يدين بها المسلم ربه ، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففي الحديث الصحيح : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار » (٣) .

وقال - ﷺ - : « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله » (٤) وهذه الأخوة تكون « المجتمع الاسلامي » ذلك المجتمع الذي تظلل راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية ويسوده الحب والتفاني ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، الجهاد رهبانيته ، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته ، القوى فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوى حتى يأخذ حقه ، ولاؤه لله ورسوله والمؤمنين ، وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب ، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه ، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم يحب أن يلقى في النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما قال - ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم - « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب

(١) الحديث في جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطي - ج ١ ص ٤٤٠ برواية البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان وفي صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥/٦٥

(٢) الحديث في صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٦/٦٦

(٣) الحديث في جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطي - ج ١ ص ٣ برواية أحمد والبخاري ومسلم والنسائي ، عن أنس وفي صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ٨٥ رقم ٧٤/١٢٨

(٤) الحديث في جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطي - ج ١ ص ٣٩٦ برواية ابن أبي شيبة عن البراء .

المراء لا يحبه إلا الله ، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» (١) .

وبهذه المؤاخاة الایمانية وجد « التكافل الاجتماعي » وبرزت فيه صورة خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده .

ومنها ما رواه البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله - ﷺ - بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إني أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق يننى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدوحتى جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبى - ﷺ - : « مهيم » ؟ قال : تزوجت . قال : « كم سقت إليها » ؟ قال : نواة من ذهب ( وإن إعجاب المراء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبزهم فى ميدانهم ، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان ) (٢) .

وخلاصة القول : إن هذه المؤاخاة ( كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التى تبعثها تلك العقيدة فى نفوس المؤمنين بها « إنما المؤمنون إخوة » ١٠ الحجرات . وكان تدريباً ناجحاً فذاً فى نجاحه ، فريداً فى التاريخ .

وكانت كذلك تدريباً عملياً على « التكافل » وهو معنى من المعانى العميقة فى بناء الجماعة الإسلامية . القادرون يكفلون غير القادرين ، على أساس الأخوة فى الله من جانب وعلى أساس التصرف فى مال الله بما يرضى الله من جانب آخر) .

### سمات الولاء والبراء فى العهد المدنى

لئن كانت سمات العهد المكى هى : بيان الحجة وإقامتها ، والصبر على الأذى وكف الأيدي ، والهجر الجميل ، فإن ذلك كان لحكمة ربانية منها : أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف ، وصلل النفوس على ضوء منهاجه ، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله فى الفعل والترك على حد سواء . ولكن الأمر أخذ صورة أخرى فى العهد المدنى ، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد فى سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية .

وأول ما نذكره فى هذا العهد : هو الوثيقة التى كتبها رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، ومن تبعهم ، حيث وادع فيها اليهود ، وعاهدهم ، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط

(١) الحديث فى مسند أحمد - ج ٣ ص ٢٤٨ بلفظ : وثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب العبد لا يحبه إلا الله - عز وجل - وأن يقذف فى النار أحب إليه من أن يعادى فى الكفر ،  
(٢) انظر البخارى - باب إخاء النبى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ج ٥ ص ٣٨ طبعة دار الشعب .

عليهم . وقد أوردها ابن اسحاق دون سند وأوردها الامام أحمد في مسنده ، وأوردها أصحاب السير والمغازي .

وسوف نقتصر على بعض فقراتها التي تخص موضوع الموالاة . جاء في أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبي - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس » (١) .

« ... وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ( عظيمة ) ظلم ، أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً . ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافرأً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » .

« وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد - ﷺ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

وهذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الانسان « حيث وردت بما يجعل المجتمع الاسلامي مجتمعاً متلاحماً متماسكاً ، وكفلت - أيضاً - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الاسلامي .

وقد لخص الامام ابن القيم - رحمه الله - صورة المجتمع المدني آنذاك بقوله : ( لما قدم النبي - ﷺ - المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة .

وقسم تاركوه ، فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم ، ومنهم من دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون .

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه - تبارك وتعالى - . وقد اتضح لنا من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هي سمات هذا العهد :

١ - كيد أهل الكتاب للإسلام ، ثم النهي والتحذير من موالاتهم وطاعتهم .

٢ - ظهور النفاق والمنافقين .

٣ - البراء من هؤلاء وأولئك : أى : المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد في موضعها .



## أولاً : كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم

تتفق نظرة المنصفين الباحثين في التاريخ اليهودي : أن اليهود أمة حاقدة ، الخداع طبعها والغدر دينها ، وعادة الله ورسله خلقها ولحكمة الله علمها انتقلت الرسالة من بين اسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي - ﷺ - وقد كان كيد اليهود - خاصة - قد بدأ منذ أن كان رسول الله - ﷺ - في مكة حيث كانت تعاون قريشا في أسئلة العناد التي توجه للمصطفى - ﷺ - وذلك مثل قولهم لقريش : اسألوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف .

ولما هاجر رسول الله - ﷺ - ومن معه إلى المدينة ، قامت قيامة اليهود ، فلم يهدأ لهم بال ، ولم يهنا لهم عيش . ذلك أن قيام الدولة المسلمة في الأرض له أثره الكبير عليهم ، فالإسلام هو الذي يكسر شوكتهم ، ويفضح مكنوناتهم ، وتحرير الناس من شرورهم ، ومزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم . ومن هنا لم يفتأوا يكيّدون للإسلام ورسوله والمؤمنين وينصبون العراquil في وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون في أحضانهم ، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثنية الآنفة الذكر ، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار ، وأذوا رسول الله - ﷺ - وهما بما لم ينالوا .

ولذلك عني القرآن المدني وخاصة أكبر سورة - وهي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - بكشف سترهم وفضحهم ، وبيان كيدهم . والآيات الكريمة في هذا كثيرة جدا ولكنني أورد طرفا منها هنا ليتضح ( للمسلمين ) المخدوعين بهم اليوم ، الذين يوالونهم ويبجلوهم بل يقتدون بهم . ما عليه أعداء الذين هم قتلة الأنبياء ودعاة الفساد في الأرض .

قال تعالى :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة .  
وفي سورة آل عمران :

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ٦٩ آل عمران .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ ٧٢ آل عمران .

﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٥ البقرة .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ١٠٥ البقرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَتَمْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ ١١٨ آل عمران .

فهذه الآيات وغيرها مما في مثل معناها : تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه . ولذلك جاءت آيات كثيرة في تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة ، أو طاعتهم أو اتخاذهم أولياء أو الركوع إليهم . قال تعالى : ﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهَدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٢٠ البقرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ١٤٩ - ١٥٠ آل عمران .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ ١٠٠ - ١٠١ آل عمران .

ورد في سبب نزول هاتين الآيتين : أن شاس بن قيس اليهودي . وكان شيخاً قد غبر في الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم - مر على نفر من أصحاب رسول الله - ﷺ - من الأوس والخزرج في مجلس جمعهم ، يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم في الجاهلية من العداوة فقال : قد اجتمع ملائكة بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بعث - أحد أيامهم في الجاهلية - وما كان فيه ، وأنشدتهم بعض ما كانوا يقولوا فيه من الأشعار ، ففعل . وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواتب رجلان من الحيين ، فتقاولا وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا : ارجعا السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة - وهي الحرة ، فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية .

وبلغ رسول الله - ﷺ - ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً » (١) .

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فآلقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله - ﷺ - سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ الآية (٢) .

(١) الحديث في تفسير الطبري - تفسير سورة آل عمران ج ٤ ص ١٦

(٢) الآية ١٠٠ من سورة آل عمران .

قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله - ﷺ - فأومأ إلينا بيده ، فكففنا وأصلح الله - تعالى - ما بيننا فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله - ﷺ - فما رأيت يوماً أقبح

ولا أوحش أولاً وأحسن آخراً من ذلك اليوم . ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بني إسرائيل مع موسى - عليه السلام - في قصة ذبح البقرة - بقوله :

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ . وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ) ٧٥ - ٧٧ البقرة .

ثم يأتي التحذير الأقوى في سورة المائدة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ٥١ المائدة .

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ . وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرُ أَوْلِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ لَمُسْتَقِيمٌ ﴾ ٥٥ - ٥٧ المائدة .

إن هذه النصوص وغيرها : قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، ففقطعت ما في نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء ، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط .

## ثانياً : النفاق والمنافقون

إن المؤمنين في العهد المكي كانوا مبتلين ، يعذبون ، ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن في مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين والجبابة . ولم يكن هناك « منافقون » ، لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيايل وهذا الدين لم يكن يقدر عليه في مكة إلا المؤمنون الصادقون .

أما في المدينة ، ويعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبابة ، التي تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ، ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : ( قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسوله ، فهم في الدرك الأسفل من النار ، كما قال تعالى :

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم في دركان النار ، لأن الطائفتين اشتركتا في الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى في حقهم :

﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ ٤ المنافقون

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يردها هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف ، وأنه لا يترحم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً ، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم ، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم في الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم ، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينتضى ويعقبه النصر والظفر أما هؤلاء فمعهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم .. صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخالب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذياً ، ويمشى على عقبه الفهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة ألا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمنين والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدي إلى ضياع القدوة الحسنة في المجتمع الإسلامى ، ويؤدي أيضاً إلى دوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفي المتنبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من مآربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحق والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونوهم في أخرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ، ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان . قال تعالى :

﴿ ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ ١ - ٣ العنكبوت .

﴿ إن يمسسكم قوم فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليلمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ١٤٠ - ١٤١ آل عمران .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أحل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالابتلاء سنة ربانية في تمحيص النفوس وصقلها على الحق ، ثم إنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفي حال العافية والبلاء ، فله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال . لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه .

ولنتكلم هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين في كيدهم للدعوة الإسلامية .

١ - من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن في عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ١١ - ١٢ الحشر .

وقال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ ١٤ المجادلة .

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت في عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبي - ﷺ - ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿ مدبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سيلاً ﴾ ١٤٣ النساء .

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هي سورة « المنافقون » بين الله فيها أنهم يظهرون ما لا يبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضى الله عنها قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها فتنه » فسمعها عبد الله بن أبيّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق : قال ﷺ : « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » (١) .

قال محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله : إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرفى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى في الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترقب به ونحسن صحبته ما بقى معنا » (٢) .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن أبي على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك وملك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ - وكان إنما يسير ساقه - فشكى له عبد الله بن أبي ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فإذا له رسول الله - ﷺ - فقال : أما إذ أذن لك رسول الله - ﷺ - فجز الآن .

وحقاً ، إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرفى به فأنا أحمل إليك رأسه ، إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء في نفسه .  
٢ - من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التي تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطواغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ - ٦٣ النساء .

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٧ - ٥٠ النور .

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً في هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : « سمعت وأطعت » .

(١) انظر البخارى - كتاب التفسير - ج ٦ ص ١٩١ ط الشعب

(٢) الحديث في سيرة النبی - ﷺ - لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي ج ٣ ص ٣٠٥

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ٥١ سورة النور .

هذه هي صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

٣ - من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل في صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِأَخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلُوبًا قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون في غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبي . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفي موالاتهم للكفار يقول الله في شأنهم .

﴿ بَشَرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُمِيتُوا عَنْهُمْ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ (١) .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْكُمْ وَنُتَمَكِّمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ (٢) .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ . لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنْنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكَ مَصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلِ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾ (٣)

ففي هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، لأنهم جبناء مخذولون ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً .

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنُوا أُولَئِكَ الطُّوَلُ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ . رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (٤) .

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء

(٢) الآية ١٤١ من سورة النساء

(٣) الآيات ٤٥ إلى ٥٠ من سورة التوبة

(٤) الآيتان ٨٦ ، ٨٧ من سورة التوبة

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله - ﷺ - أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عيانا ولكنهم يعرفون بلحن القول ولو شاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول .

﴿ ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ (١) .

ثالثا - البراء في العهد المدني

أى ( المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع أعدائهم ) .

لئن كانت التربية في العهد المكي تمتاز بضبط النفس والصبر على الأذى وتبليغ الدعوة واعداد العدة مع حبس دواعى الانطلاق وكف حدة الإقدام . فإن التربية في المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن في شكل جديد حيث انطلق المؤمنون في سبيل الله لإعلاء كلمة الله والضرب على يد أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن . من هنا كان الجهاد في سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في العهد المدني وبعد الهجرة النبوية والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة واحتمال المشقات والأذى في سبيل الذود عنها من الأعداء .

والحديث عن الجهاد طويل وطويل وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه وفهم الناس لمقصده مختلف خاصة في العصور المتأخرة ، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهاة الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء .

ففى الوقت الذى يقول فيه أعداء الله . إن دين الاسلام انتشر بالسيف وجد من ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام ؟ فيلوى أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعا عن الإسلام ! ومن هنا يوضع الإسلام في مقام الدفاع ويصور على أنه كالذى يقاتل في معركة إنسحاب حيث كلما طرأت شبهة انبرى لها من يدافع .

والذى نعتقده ونراه الحق في هذه القضية : أن هذه مهزلة سخيفة لم تحدث إلا في القرون المتأخرة ، حين صارت الغلبة للكفر وأربابه ، وأندحر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء .

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفى ويشفى ويغنى . ومن المهم في هذا المقام : أن نعرف هدى المصطفى - ﷺ - وسيرته مع أعداء الله وجهاده لهم . وللإمام ابن القيم - رحمه الله - تلخيص قيم نوره هنا بتمامه نظراً لأهميته .

قال - رحمه الله - في زاد المعاد : ( أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه .



﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ .

فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ « يا أيها المدثر » ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة ثم أنذر العالمين فأقام بضعة عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : ( ١ ) أهل صلح وهدنة . ( ٢ ) وأهل حرب . ( ٣ ) وأهل ذمة .

فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة « براءة » نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان .

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

- ١ - قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم .
- ٢ - وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .
- ٣ - وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم . وهى الأشهر الأربعة المذكورة في قوله : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحَرَمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) .

فالحرم هاهنا أشهر التسيير أولها يوم الأذان وهو اليوم العاشر من ذى الحجة وهو يوم الحج الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك . وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وليست هى الأربعة المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حَرَمٌ ﴾ (٢) .

فإن تلك : واحد فرد ، وثلاثة سرد . رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ولم يسير المشركين في هذه الأربعة . فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية ، وهو إما أجلهم أربعة أشهر ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم فقتل الناقض لعهد وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق أربعة أشهر وأمره أن يتم للموفى بعده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية .

(١) الآية ٥ من سورة التوبة

(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول « براءة » على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام وضاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ومسلم آمن وخائف محارب .

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد في غير ما آية . فمنها قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم « ويكون الدين كله لله » لا يكون مع دينكم كفر . وقال تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

إن الجهاد في الإسلام : هدفه أن يعيد الله وحده في الأرض وأن تهيمن شريعته ، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين في الأرض .

﴿ وَمَالِكُمْ لَا تَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> . واليك تفصيل صور البراء من كل طائفة وكيفية جهاد المسلمين لهم :

### ( أ ) صور البراء من المشركين :

١ - بعد أن قامت الدولة المسلمة في المدينة كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك في مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين وتفصيل ذلك ورد بتلخيص ابن القيم الذي سبق ذكره . قال تعالى :

(١) الآية ٣٩ من سورة الأنفال

(٢) الآية ٩ من سورة الصف

(٣) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج

(٤) الآية ٧٥ من سورة النساء

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسלخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذلهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا آيات الله ثمناً قليلاً فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم يتتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويغزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾<sup>(١)</sup> .

٢ - منعهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى :

﴿ يأيتها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾<sup>(٢)</sup> .

قال ابن كثير : كان نزول هذه الآية سنة تسع ولهذا بعث رسول الله - ﷺ - علياً صحبة أبي بكر - رضي الله عنهما - عامئذ وأمره أن ينادى في المشركين .

« ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »<sup>(٣)</sup> .

فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدرأ .

٣ - منع النكاح بالمشركات : ذكر ابن جرير - وهو يتحدث عن صلح الحديبية - إنه جاء إلى النبي - ﷺ - نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل :

﴿ يأيتها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار . لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وءاتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) الحديث في صحيح البخارى - تفسير سورة براءة - ج ٦ ص ٨١

(٤) الممتحنة آية : ١٠

(١) الآيات ١ - ١٥ من سورة التوبة

(٢) الآية ٢٨ من سورة التوبة

قال فطلق عمر - رضى الله عنه - يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك .

٤ - منع إقامة المسلم فى دار الشرك وذلك بعد أن أعز الله دينه وعباده وقامت لهم دولة فحينئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم أن يفتن ، ولكى ينضم إلى جماعة المسلمين فهم إخوته وأوليأؤه من دون الناس . قال - ﷺ - « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله لم ؟ قال : « لا تراهى تاراهما »<sup>(١)</sup> .

## ( ب ) البراء من أهل الكتاب

إن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين وجميع أعدائهم - ومنهم أهل الكتاب - فإنه لا بد أن نشير إلى بعض ما نزل فى مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران التى عنيت بهم كثيراً وكشفت ما لديهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من أمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وفى سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾<sup>(٤)</sup> .

ففى هذه الآيات وغيرها نجد التقريع لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم ومخازيهم .

ثم يأتى النص القرآنى للرسول - ﷺ - وللمؤمنين من ورائه بأن يقولوا لأهل الكتاب إنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه .

﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب . ولقد كان جهاد المصطفى - ﷺ - وأصحابه لأهل الكتاب : بنى قينقاع وبنى قريظة وبين بنى النضير . صورة واضحة بارزة فى مفاصلتهم وجهادهم والبراءة منهم .

(١) الحديث فى الجامع الكبير - للسيوطى ج ١ ص ٣٢٦ برواية أبى داود والترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى ، غن

قيس بن أبى حازم

وفى سنن أبى داود - كتاب الجهاد - ج ٣ ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة آل عمران

(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة آل عمران

(٤) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة المائدة

## (ج) البراء من المنافقين

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدى رسول الله - ﷺ - معهم وفى ذلك يقول العلامة ابن القيم : ( وأما سيرته - ﷺ - فى المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة . وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم ) .

ولأنه لمن أبرز صفات المنافقين موالة الكفار وكراهية دين الله والتخذيل فى صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين : كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل فى ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها :

١ - الاعراض عنهم والغلظة عليهم : وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَأَوْاهِمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

وهى نفس آية « ٩ من سورة التحريم » .

وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى أنها سميت ( بالفاضحة ) ، ففى صحيح البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة ؟ قال : التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل : ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها <sup>(١)</sup> .

وفى سورة النساء :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

٢ - النهى عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم :

﴿ وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

قال ابن كثير : وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه وإن كان سبب نزول الآية فى عبدالله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين .

٣ - لا يقبل لهم عذر فى التخلف عن الجهاد ومن ثم عدم قبولهم فيه مرة أخرى قال تعالى

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَذْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعَدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) انظر تفسير القرطبي - تفسير سورة براءة - ج ٨ ص ٦١

(٢) الآية ٨١ من سورة النساء

(٣) الآية ٨٤ من سورة التوبة

(٤) الآية ٨٣ من سورة التوبة

﴿ يعتذرون اليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ (١) .

٤ - عدم الاستغفار لهم قال تعالى :

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٢) .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأرءوهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٣) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَّا بَرَاءٌ أَوْ أَمِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا تُغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٦)

### معاني المفردات

الأسوة : ( بضم الهمزة وكسرهما وبها قرىء ) من يؤتى به كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسى ، براء واحد هم برىء كظرفاء وظريف :  
 أى : متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى من الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء :  
 أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنه للذين كفروا : أى : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله .  
 من قولهم : فتن الفضة : أى : أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى : مجيئه ،  
 ومن يقول : أى : ومن يعص النصيحة .

(١) الآيات ٩٤ إلى ٩٦ من سورة التوبة

(٢) الآية ٨٠ من سورة التوبة

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة المنافقون

## المناسبة وإجمال المعنى :

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين وذكر لهم الموانع التي تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار وتمنى الكفر لهم وصدهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به وأنهم متى وجدوا سبيلاً لأذاهم يقول أو فكر سلوكه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا براء منكم ، قال الغراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ، لتعلم أن الحب في الله والبغض في الله من أوثق عرا الإيمان .

## أضواء كاشفة :

## أسوة إبراهيم في هذا :

كيف تتخذون أعدائي وأعداءكم أولياء ؟ ألا تقتدون بأبيكم إبراهيم ؟ قد كانت لكم أسوة حسنة ، وقدوة طيبة في أبيكم إبراهيم الخليل والذين معه من المؤمنين إذ قالوا لقومهم : إنا براءوا منكم وبما تعبدون فنحن لا نعتد بكم ولا نحفل بأهتكم بل أنكرناكم وبدا بيننا وبينكم العداوة لا المحبة والبغضاء لا الصداقة في كل وقت كل هذا حتى تؤمنوا بالله وحده وتكفروا بشرككم اقتدوا بأقوال إبراهيم وأفعاله إلا قوله لأبيه : لأستغفرن لك .

واستثناء قول إبراهيم هذا من الأسوة الحسنة ، لأنها واجب اتباعه وتقليد إبراهيم فيها حيث ذكر بعدها هذا الوعيد « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .

واستغفار إبراهيم لأبيه حيث لم يعرف اصراره على الكفر وموته عليه بمعنى الدعاء له بالتوفيق جائز شرعاً بدليل قوله فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه والحكم في الإسلام على هذا بالجواز حيث لم نعلم أن الكافر مصر على الكفر أو مات عليه فالاستغفار بهذا المعنى جائز لا واجب ولهذا استثنى من القدوة الواجب اتباعها وبعضهم أجاب عن هذا بقوله : إبراهيم عليه السلام استغفر حيث لم يعلم إصرار أبيه وقد كان وعده أما أنتم فتعرفون إصرار هؤلاء وفضاعة عنادهم وشدة كراهيتهم لكم فلا ينبغي أبداً أن تحاملوهم وتدعوا لهم بالخير بعد أن وصف الله لكم نياتهم ورأيتم أنتم أفعالهم وهذا تجريح حسن بلا شك .

لأستغفرن لك رب والحال أني لا أملك لك من الله شيئاً فاعمل بما يرضيه فلن أغني عنك من الله شيئاً يا أبت !

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فتعذبنا على أيديهم أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم على حق ونحن على باطل فيفتنوا لذلك وللأسف ما يحصل اليوم هو هذا فيا رب لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا سيئاتنا ، وقنا عذاب الخزي في الدنيا والآخرة ربنا انك أنت العزيز الحكيم .

لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يقول عن ذلك

ولا يقتدى بالصالحين فليعلم أن الله هو الغنى عنه وعن عمله المحمود في السموات والأرض وهذا تهديد لمن لم يقتد بالقدوة الحسنة .

### التفسير

وهل الايمان إلا الحب في الله والبغض في الله إن الإيمان عقيدة لا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول لا مجال فيها للمراوغة أو المكر والخداع إنها صريحة واضحة والإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً والملاح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلاً ومعيار ذلك الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله وتعطى في الله وتمنع في الله .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه » أى وأتباعه الذين آمنوا معه « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » أى : تبرأنا منكم « وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم » أى : بدينكم وطريقكم « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » يعنى وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً تبرأ منكم ونبغضكم حتى تؤمنوا بالله وحده .

أى : إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتحلوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أى : لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله - عز وجل - ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم - إلى قوله تعالى - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ أى ليس لكم في ذلك أسوة أى في الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك غير واحد .

ثم قال تعالى غيبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم فلجأوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

أى : توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك المصير أى : المعاد في الدار الآخرة ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه واختاره ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله تعالى ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى : واستر ذنوبنا من غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجنايبك ﴿ الحكيم ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك



ثم قال تعالى ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ وهذا تأكيد لما تقدم هو مستثنى منه ما تقدم أيضاً ، لأن هذه الأسوة المثبتة هنا هي الأولى بعينها وقوله تعالى ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ تبيح إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد وقوله تعالى ﴿ومن يتول﴾ أى : عما أمر الله به ﴿فإن الله هو الغنى الحميد﴾ كقوله تعالى ﴿إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد﴾<sup>(١)</sup> . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الغنى الذى قد كمل في غناه وهو الله هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفاء وليس كمثله شيء سبحانه الله الواحد القهار والحمد المستحمد إلى خلقه أى : هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

### (أسوة حسنة في الولاء والبراء من الأمم الماضية)

#### (١) إبراهيم الخليل - عليه السلام - :

لقد كان نبي الله إبراهيم عليه السلام . أسوة حسنة وقدوة طيبة وفي ولأته لربه ودينه وعباد الله المؤمنين وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه .

لقد كانت سيرة نبي الله إبراهيم - عليه السلام - مع قومه كأي نبي رسول حيث دعاهم بالتى هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده وإقراره بالعبادة والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله .

قال تعالى ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يأتى لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يأتى إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً . يأتى لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصياً يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أرأغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك . واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك رب إنه كان بى حقياً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً﴾<sup>(٢)</sup> .

تلك هي نقطة البدء في دعوة خليل الرحمن ، دعوة بالحسنى متبرئاً بأقرب الناس إليه فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه عل في ذلك ردعاً وزجراً وتفكيراً في هذا الأمر الجديد ونجاة للداعى من مشاركة أهل الباطل في باطلهم إذا لابد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم

ثم يمضى القرآن في بيان إبراهيم - عليه السلام - مبيناً أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل : ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآبائكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾<sup>(٣)</sup>

(١) الآية ٨ من سورة إبراهيم

(٢) الآيات ٤١ إلى ٤٩ من سورة مريم

(٣) الآيات ٦٩ إلى ٧٧ من سورة الشعراء

ولم يجدوا حجة وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد قال لهم إبراهيم - عليه السلام - أنا عدو أهتكم هذه وهذا كما قال لوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾<sup>(١)</sup>

وقال هود عليه السلام :- ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيّدوني جميعاً ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾<sup>(٣)</sup>

وعقيدة إبراهيم - عليه السلام - هذه هي التي عبر عنها علماؤنا الأجلاء علماء سلف هذه الأمة بقولهم : لا موالاة إلا بالمعاداة كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لا تصح لموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المجيبين إنه قال لقومه : ﴿ أفأرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴾<sup>(٤)</sup> فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلّة إلا بتحقيق هذه المعاداة .

فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾<sup>(٥)</sup>

أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة لا إله إلا الله وهى التى ورثها إمام الحنفاء ولأتباعه إلى يوم القيامة .

ويقول الامام الطبرى : قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة فى فعل إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا فى قول إبراهيم ﴿ لأستغفرن لك ﴾

فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إياه قبل يتبين له أنه عدو الله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فتبرأوا من أعداء الله ، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرءوا من عبادة ما سواه ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء .

وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوى أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم - كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ فى إبادة الدعاة إلى الله ، لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده . ﴿ وما نقصموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ٨ البروج - وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق - عليه الصلاة والسلام - فصارت النار برداً وسلاماً عليه ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ ٩٧ - ٩٨ الصافات

(١) من الآية ٧١ من سورة يونس

(٢) من الآية ٥٤ إلى ٥٦ من سورة هود

(٣) من الآية ٤ من سورة الممتحنة

(٤) من الآية ٧٥ إلى ٧٧ من سورة الشعراء

(٥) من الآية ٢٦ إلى ٢٨ من سورة الزخرف

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى إستعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب - جل جلاله - وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا ياتار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾ ٦٨ - ٧٠ الأنبياء وتأتى التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد - ﷺ - باتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٢٣ النحل ﴿ قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ٩٥ آل عمران ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٥ البقرة ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ ٦٨ آل عمران

﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ ١٢٥ النساء

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ ٧٨ الحج  
﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ ١٣٠ البقرة

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد - ﷺ - عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الاقتداء به في الإخلاص ، والتوكل على الله وحده ، وعبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه

## ( ب ) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

إن دعوة الأنبياء واحدة . دعوة لعبادة الله وحده وإفراده بالعبودية والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه ، والبراءة من كل طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة .

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ٣٦ النحل فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغراء إنهم المؤمنون ، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفي أى عصر ومصر عاشوا يوردها ربنا - تبارك وتعالى - في محكم تنزيله ، حتى تكون لنا أسوة حسنة . وتسلية لرسوله الكريم - ﷺ - عما كان يلاقه هو وصحابته الأخيار .

وما أحوج الداعية المسلم - وهو الحريص على حب الخير لكل الناس - أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فيسجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقه من مشقة وعنت . وإذا كانت هذه سنة الله في أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى والعنت - وهم أكرم خلق الله على الله - فمن باب أولى أن يلاقى دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم وكل ما يلقونه إنما هو ابتلاء واختبار كما قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليزر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران وحين يثبت المؤمنين على الحق ، ويتوكلون على الله حق توكله ، ويخافونه وحده ، ولا يخافون إلا الله ، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس في

دين الله ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس ، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند الله .

ومن هذه الأمثلة التي نريد الحديث عنها باختصار ، نوح - عليه الصلاة والسلام - فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل ، والموقف الذي نريد أن نتحدث عنه من مواقفه - عليه السلام - هو موقفه مع ابنه الذي عصاه وأبى أن يستجيب لدعوة أبيه . قال تعالى : ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر . واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾<sup>(١)</sup>

إن الوشيجة التي يجتمع عليها الناس في هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، ولا الجنس والعنصر ، ولا الحرفة والطريقة إنها وشيجة العقيدة « أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ويبين الله لنوح لماذا لا يكون ابنه من أهله ؟ « إنه عمل غير صالح ، فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما ﴾ فلا تسألن ما ليس لك به علم ﴿ إنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك .

وهنا يأتى الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته . فيقول العبد الصالح نوح : ﴿ رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾<sup>(٢)</sup>

لقد استعلى نبي الله على العاطفة ورضى بحكم الله ، فلا حاجة ولا التواء ، ولا معذرة ولا تأويل ، بل تسليم مطلق ، واتباع لما يحب الله ويرضى ، وإعراض عما يكره ويغضض وولاء لمن يحب الله وبراء وعداء لمن حاد الله ولو كان أقرب قريب .

ولم يكن شأن نبي الله نوح - عليه السلام - هذا مقصوراً على هذا الابن الكافر ، بل أيضاً مع زوجته ، وباله من امتحان عظيم في الزوجة والابن هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة لفعلها وهي زوجة لوط - عليه السلام - فقد ابتلى هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ضربهما الله لنا مثلاً في كتابه العزيز فقال :

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين ﴾ ١٠ التحريم

على أن ما يجب التنويه عنه هنا ، أن هذه الخيانة في الدين وليست في الفاحشة ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء - عليهم السلام -

(١) من الآية ٤٢ إلى ٤٧ من سورة هود

(٢) من الآية ٤٧ من سورة هود

أما امرأة نوح فكانت تنشى سره ، إذا آمن معه أحد أخبرت الجابرة من قومها ، وامرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح .

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً في الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل امرأة مؤمنة هي زوجة فرعون اللعين . قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ﴾ ١١ التحريم إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذي تعيش فيه ، في قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً في الجنة وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شيء وهي ألصق الناس به . ﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ (١) وتبرأت من قوم فرعون وهي تعيش بينهم ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ (٢) إنه مثل للاستعلاء على عرض الدنيا في أزهى صوره ، فقد كانت امرأة فرعون ، أعظم ملوك الأرض يومئذ ، في قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهي ، لقد استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب ، بل اعتبرته شراً وندساً وبلاء تستعيز بالله منه .

إنها امرأة واحدة في مملكة عريضة قوية . وقفت وحدها في وسط ضغط المجتمع وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، ورفعت رأسها للسما ، إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر إن وقوف المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان ، علّ في ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسه الناس بشيء لم يكتبه الله عليهم .

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة ، وشحنة عمل ، ومنهاج ديننا وآخرة حتى نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالإنتساب إليه وهي الدعوة إلى الله . يقول قتادة : كان فرعون أعنى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر إمرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه . وهناك أيضاً نموذج آخر ، وعلم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم . إنه مثل رفيع في الولاء لله ودينه وعباده الصالحين في النصر والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله ، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم ، إنه مؤمن آل فرعون .

لننظر في موقفه وفي ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى - عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام - لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ ٢٨ غافر واسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطياً من آل فرعون . وكان يكتم إيمانه عن قومه القبط ، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ فزوني أقتل موسى ﴾ ٢٦ غافر فأخذت الرجل غضبة لله - عز وجل - وه أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر (٣) ولا أعظم من هذه الكلمة وهي

(١) من الآية ١١ من سورة التحريم

(٣) الحديث في جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطي ج ١ ص ١٢٨ برواية أبي داود وابن ماجه ، عن أبي سعيد ، وأحمد وابن ماجه

والطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي أمامة

وفي سنن أبي داود - كتاب اللامح - ج ٤ ص ٥١٤

قوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ فانظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبي الله موسى ونصرته له ، وتدبر برأته من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب .

وأخيراً نقف مع الفتية الصلحاء ﴿ أصحاب الكهف ﴾ الذين تركوا الأهل والولد والوطن والعشيرة حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قوم فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف الذي تجلت فيه معجزة عظيمة يسوقها الله لنا عبرة وعظة في حفظه لعباده الصالحين : قال تعالى : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً . وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . - ١٦ الكهف لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً . وحين تتباين الطريقتان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة في الحياة . بل لا بد من الفرار بالعقيدة

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل ، إنما هم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجأهروا بها . وهم أيضاً لا يطيقون صد أراء قومهم ، وعبادة ألهتهم على سبيل التقية وإخفاء عبادتهم لله .

على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف فلا بد من الفرار بدينهم إلى الله ، وقد فروا إلى الكهف خشن ضيق ، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا .

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسنونها ظليلاً فسيحة ممتدة ﴿ ينشر ﴾ تلقى ظلال السعة والبحبوحه والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب ، تنتشر فيه الرحمة وتوسع خيوطها .

إنه الإيمان ، وما قيمة الظواهر ، وما قيمة القيم والأوضاع والمذلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك علماً آخر في جنبات القلب المغمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمن . عالماً تظلمه الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

وهكذا تتعدد الأمثال في جميع الوشائج والروابط ، وشيجة الأبوة في قصة نوح ، وشيجة النبوة والوطن في قصة إبراهيم ، وشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً في قصة أصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية في قصص امرأتى نوح ولوط وامرأة فرعون .

هكذا يمضي الموكب الكريم حتى تحيي الأمة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب ، فتمضي على النهج الرباني للأمة المؤمنة وتفترق العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة لا تجمد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴿ ٢٢ المجادلة

لقد جمعت هذه العشيرة صهيياً الرومي وبلالاً الحبشي ، وسلمان الفارسي وأبا بكر العربي القرشي تحت راية لا إله الا الله محمد رسول الله « وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم - ﷺ -

﴿دعوها فإنها فتنة﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية﴾<sup>(٢)</sup> فانتهى أمر هذه الفتنة ، وماتت نعة الجنس . واختفت لوثة القوم ، واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، وإنما وطنه هو : ﴿دار الاسلام﴾ تلك الدار التي تسيطر عليها عقيدته ، وتحكم فيها شريعة الله وحدها . وتبقى سيرة المصطفى ﷺ - وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل ، ورضى بذلك النهج القويم .

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بوليّه ، وإنما وليه الطاغوت ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ٢٥٧ البقرة

**توجيهات إلهية**

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٦﴾﴾

### معاني المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبرؤهم : أى : تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى : تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى : العادلين ، وظاهروا : أى : ساعدوا ، أن تولوهم : أى : أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم

### المناسبة وإجمال المعنى

لما نهاهم عن موالة الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه . حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد في معاداتهم ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه - أردف ذلك سبحانه أن سيغير من طباع المشركين ، ويغرس في قلوبهم حبة الإسلام ، فيتم التواد والتصافى بينكم وبينهم .

وفى ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطبيب لقلوبهم ، وقد أنجز الله وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من التحاب والتواد ، ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم

روى أحمد في جملة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيلة بنت عبد العزى على إبتها

أسماء بنت أبي بكر بهدايا - صئاب ( صباغ يتخذ من الخردل والزبيب ) وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله عنها - أن تسأل رسول الله - ﷺ - عن هذا فسألت فأنزل الله : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية . فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية فى خزاعة وبني الحارث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله - ﷺ - على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه .<sup>(١)</sup>

### أضواء كاشفة

وأما أنتم أيها المسلمون فلا يشق ذلك عليكم عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم فى الدين من أقاربكم وأهليكم المشركين ، عسى الله أن يجعل بينكم وبينهم مودة وصلة وأخوة فى الإسلام ، والله على كل شىء قدير ، وهو الغفور لما فرط من الذنوب الرحيم بخلقه إذا تابوا وأنبأوا .

وفى هذه الآية حدد علاقتنا بالكفار لقد نهانا عن مودتهم واصطفائهم بأخبار الحروب والأخبار التى تضر الأمة الإسلامية ، ولكن هل نحن منهيون عن البر بهم مادياً والقسط إليهم والعدل معهم ؟ ولقد أجاب الله عن ذلك جواباً شافياً فقال ما معناه : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى أمر الدين وشأنه ، ولم يخرجوكم من دياركم ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يفعلوا هذا أن تبروهم بالخير ، وتقسطوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بالحسنى ماداموا لم يسئوا إليكم فى الدين أو الدنيا إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن موالاة ومحبة من قاتلوكم فى الدين ، وجاهدوكم عليه بكل نفس ونفيس كما فعلت قريش مثلاً حيث قاتلوكم لأجل الدين ، وأخرجوكم من دياركم وأموالكم ، وظاهروا الغير وتعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ومحبتهم ومن يتوهم ويتخذهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون .

### التفسير

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة ﴾ أى : محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ والله قدير ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة كما قال تعالى ممنناً على الأنصار ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ الآية<sup>(٢)</sup> . وكذا قال لهم النبى - ﷺ - « ألم أجذكم ضللاً فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ »<sup>(٣)</sup> وقال الله تعالى : ﴿ هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾<sup>(٤)</sup> ، وفى الحديث : « أحب حبيبك هوناً ما فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما »<sup>(٥)</sup> . وقال الشاعر :

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - ج ٨ ص ١١٦ وقال رواه أحمد ج ٤ ص ٤

(٢) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى صحيح البخارى - باب غزوة الطائف ج ٥ ص ٢٠٠ ط الشعب

(٤) الآية ٦٢ من سورة الأنفال

(٥) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطى - ج ١ ص ٢٣ برواية الترمذى وقال : غريب ، وابن جرير والبيهقى فى شعب

الايمان ، عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير ، عن ابن عمر  
وفى سنن الترمذى رقم ١٩٩٧ ط الحلى من رواية أبى هريرة



وقد يجمع الله الشيتين بعد ما  
 وقوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له  
 وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أى ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية نزلت في أبي سفيان بن صخر بن حرب فإن رسول الله - ﷺ -  
 تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفي هذا الذى قاله مقاتل نظر فإن رسول الله - ﷺ - تزوج بأُم  
 حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه  
 ابن أبي حاتم حيث قال : قرئ على محمد بن عزيز حدثني سلامة حدثني عقيل حدثني ابن شهاب أن  
 رسول الله - ﷺ - استعمل أبا سفيان بن صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله - ﷺ -  
 أقبل فلقي ذا الحمار مرتداً فقاتله فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين قال ابن شهاب : وهو ممن  
 أنزل الله فيه : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ الآية .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله : ثلاث أعطينهن ، قال :  
 « نعم » قال : تأمرني أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال « نعم » قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين  
 يديك ، قال « نعم » قال وعندي أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبي سفيان أزوجكها - الحديث -<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ ولم  
 يظاهروا أى : يعاونوا على إخراجكم أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين  
 كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إن الله  
 يحب المقسطين ﴾ قال الإمام أحمد بسنده عن أساء بنت أبي بكر - رضى الله عنها - قالت : قدمت أُمى  
 وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبي - ﷺ - فقلت : يارسول الله إن أُمى قدمت وهى راغبة  
 أفأصلها ؟ قال : « نعم صلى أملك » أخرجاه<sup>(٢)</sup>

وقال الإمام أحمد بسنده عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قدمت قتيلة على ابنتها أساء  
 بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهى مشركة فأبى أساء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت  
 عائشة النبي - ﷺ - فأَنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ﴾ إلى آخر الآية  
 فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها . وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث مصعب  
 بن ثابت به وفي رواية لأحمد وابن جرير قتيلة بنت عبد العزى بن سعد من بنى مالك ابن حسل وزاد ابن أبي  
 حاتم فى المدة التى كانت بين قريش ورسول الله - ﷺ - وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار  
 بسنده عن عروة عن عائشة وأساء أنها قالتا : قدمت علينا أُمنا المدينة وهى مشركة فى الهدنة التى كانت بين  
 رسول الله - ﷺ - وبين قريش فقلنا يارسول الله إن أُمنا قدمت علينا المدينة وهى راغبة أفنصلها ؟ قال :

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - ٤ ص ١٩٤٥ رقم ٢٥٠٧/١٦٨

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧

« نعم فصلها »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ إِنْ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ قال ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وماولوا »<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تُولَّوهُمْ ﴾ أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله - عز وجل - عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

### المتحنة وبيعة النساء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهْنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَسْئَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ۚ مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ فَانْكَحُوا ۚ الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِّثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَآتَقُوا اللَّهَ ۚ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْعًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِيَنَّكَ ۚ

(١) الحديث : في تفسير ابن كثير - تفسير سورة المتحنة - ج ٨ ص ١١٦ ، ١١٧ وقال المحقق : وقع لنا الحديث في المسند من غير هذا الطريق انظر مسند أحمد - ج ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، وانظر البخارى - كتاب الهبة - باب الهدية للمشركين ج ٣ ص ٢١٥  
(٢) الحديث : في تفسير ابن كثير - تفسير سورة المتحنة - ج ٨ ص ١١٧ وقال انظر ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٥  
وقال ابن كثير في ج ٧ ص ٣٥٥ الحديث في صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب فضيلة الامام العادل ج ٦ ص ٧ والنسائي - كتاب آداب القضاة - باب فضل الحاكم العادل في حكمه - ج ٨ ص ٣٢١ ، ٣٢٢

فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَاسْتَغْفِرَ لَهُنَّ اللَّهُ<sup>ع</sup> إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَپْسُوْا مِنْ الْأَخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ  
الْكَفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ ﴿١٢﴾

لما كان هذا النص الكريم له تعلق وثيق ببعض الأحكام الشرعية ، فقد أثرنا أن نسجله على تلك الصفحات من كتاب « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام » للشيخ الصابوني . قال في تفسير هذه الآيات :

#### التحليل اللفظي :

مهاجرات : أى : من دار الكفر ، والهجرة في اللغة الخروج من أرض إلى أرض ، وفي الشرع : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان وفي الحديث : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » (١) المراد بعد فتح مكة ، حيث أصبحت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

قال الأزهرى : وأصل الهجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وسمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم ابتغاء مرضاة الله . ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال .

فامتحنوهن : الامتحان في اللغة الاختبار . والمراد اختبارهن على الإيمان . بما يغلب على الظن ، أما حقيقة الإيمان فلا يمكن أن تعلم ؛ لأنه لا يطلع على القلوب إلا علام الغيوب ، فلنا الظاهر والله - سبحانه - يتولى السرائر ، ويدل عليه قوله ( الله أعلم بإيمانهن ) .

وآتوهم ما أنفقوا : يعنى أعطوا أزواجهن الكفار مثل ما دفعوا إليهن من المهور . قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم ، فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شيء . وقال قتادة : الحكم في رد الصداق إنما هو في نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليه الصداق . قال القرطبي : والأمر كما قاله .

أجورهن : يعنى مهورهن ، وسمى المهر أجراً ؛ لأنه في الظاهر أجر البضع وأما في الحقيقة فهو بذل وعطية لإظهار خطر المحل وشرفه .

بعصم الكوافر : جمع عصمة ، وهى ما يعتصم به من عهد وسبب ، وأصل العصمة : الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا النكاح . والكوافر : جمع كافرة .

والمعنى : لا تعتدوا بنكاح زوجاتكم الكافرات فقد انقطعت العلاقة بينكم وبينهن .  
قال ابن عباس : « من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين .

قال الزجاج : إنها إن كفرت فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن ، أى : قد أنبت عقد النكاح .  
واسألوا ما أنفقتم : أى : إن لحقت امرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر على نسائكم اللاحقات بهم .  
وليسألوا ما أنفقوا : يعنى المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن المهر .

والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

فاتكم : سبقكم وانفلت من أيديكم .

فعاقبتهم : قال الزجاج : أى : أصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم منهم .

بيهتان : البهتان : الكذب والباطل ، والافتراء الذى يتحيز من بطلانه ، ومنه حديث ( فقد بهته )<sup>(١)</sup> أى : افترت عليه ما لم يقله .

والمراد به فى الآية : اللقيط .

قال ابن عباس : لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن .

وقال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهم وأرجلهم . وهو قول الجمهور .

معروف : المعروف : ما يستحسنه الشرع ، وترتضيه العقول السليمة وهو ضد المنكر .

لا تتولوا قوماً أى : لا تتخذوهم أصدقاء ، وأولياء . تودوهم من دون المؤمنين ، والمراد بالقوم : اليهود ، أو جميع الكفرة .

يشسوا من الآخرة ، أى : يشسوا من ثواب الآخرة ، واليأس : انقطاع الأمل من الشئ ، وهو ضد الرجاء .

### المعنى الإجمالى

يقول الله تعالى ما معناه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإيمان ، فراراً بدينهن ، وحباً فى الله ورسوله ، فاخبروهن على هذا الإيمان ، لتعلموا هل هن راغبات فى الاسلام حقاً ، أم

أنهن هاربات من أزواجهن طمعاً في دنيا ، أوحياً لرجل ، فإذا علمتم - أيها المؤمنون - بالدلائل والأمارات أنهن مؤمنات ، فلا يحل لكم ردهن إلى الكفار ﴿ لأنه الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك ، وعليكم أن تدفعوا لأزواجهن الكفرة ما أنفقوا عليهم من مهر ، ولا حرج عليكم أن تتزوجوا بهن بصداق جديد ، بعد أن تؤدوا لهن حقوقهن كاملة .

ومن كانت له امرأة كافرة لم تهاجر مع زوجها ، فلا يعتد بهذه الزوجة ، فقد زالت عصمة النكاح بينهما بسبب الكفر ، وانبت عقد النكاح ؛ لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة ، ومن ارتدت بعد إسلامها ولحقت بدار الكفر ، فعاملوها معاملة المشركة ، فقد زال النكاح وانقضت الروابط الزوجية بالردة ، وأصبحت غير صالحة لأن تبقى في عصمة المؤمن ، ولكم أن تطالبوهم بما دفعتم من مهر نسائكم اللاحقات بالكفار ، كما يطالبونكم بمهر أزواجهن المهاجرات إليكم .

ذلكم هو حكم الله الذي شرعه لكم ، فلا تحيدوا عنه ولا تعتدوا بغيره ، لأن الله عليم حكيم ، لا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وإن انفلت منكم - أيها المؤمنون - بعض النساء ، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقونه من مهرهن ، وأصبتموهن في القتال ، وغنمتم منهم ، فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر قصاصاً ، واتقوا الله الذي صدقتم به ، وأمتنم بتشريع الحكيم العادل .

وأما أنت - يا محمد - فإذا جاءك المؤمنات للبيعة ، فبايعهن على السمع والطاعة ، وأشرط عليهم ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئذن أولادهن ، كما كان يفعل أهل الجاهلية ، ولا يلحقن بأزواجهن لقيطاً من غير أولادهن ، ولا يعصينك في طاعة أو معروف ، فإذا وافقن على هذه الشروط فبايعهم على ذلك ، وعلى سائر أحكام الإسلام ، واطلب لهن من الله الرحمة والمغفرة ، إذا وفين بالبيعة فإن الله غفور رحيم ، مبالغ في المغفرة والرحمة لمن استقام وتاب وأناب .

### سبب النزول

أولاً : روى عن ابن عباس أنه قال : إن مشركي مكة صالحوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية ، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت (سبيعة بنت الحارث الأسلمية) بعد الفراغ من الكتاب ، والنبي - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية ، فأقبل زوجها - وكان كافراً - فقال يا محمد : أردت على امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فنزلت هذه الآية الكريمة .

أقول : ذكر في هذه الرواية أنها (سبيعة) والمشهور عند المفسرين أنها (أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط) كما نبه عليه القرطبي وابن الجوزي وغيرهما .

ثانياً : وروى أن ناساً من فقراء المسلمين ، كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ، ويواصلونهم فيصيرون بذلك من ثمارهم وطعامهم فنزلت الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ الآية .

## وجوه القراءات

أولاً : قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ ﴾ قرأ الجمهور ( مهاجراتٍ ) بالنصب على الحال ، وقرأ ( مهاجراتٌ ) بالرفع على البدل من المؤمنات ، فكأنه قيل : إذا جاءكم مهاجرات .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بضم التاء والتخفيف من الإمساك ، وقرأ أنوعمرو ويعقوب ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بضم التاء والتشديد من التمسك ، وقرأ عكرمة والحسن ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بفتح التاء والميم والسين المشددة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فَعَاقِبْتُمْ ﴾ وقرأ ابن مسعود والنخعي : ﴿ فَعَقِبْتُمْ ﴾ بغير ألف وبالتخفيف . وقرأ ابن عباس والأعمش ﴿ فَعَقِبْتُمْ ﴾ بتشديد القاف قال الزجاج : والمعنى في التشديد والتخفيف واحد ، أى : كانت العقبي لكم بأن غلبتم ، وقرأ مجاهد ﴿ فَعَقِبْتُمْ ﴾ .

## وجوه الإعراب

- ١ - قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٌ ﴾ .  
مهاجرات : حال منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .
- ٢ - قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ .  
وأفعل التفضيل ﴿ أَعْلَمُ ﴾ خبره ، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب .
- ٣ - قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكَحُوهُنَّ ﴾ أن : فى موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر أى : منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : ولا جناح عليكم فى أن تنكحوهن .
- ٤ - قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَانٍ ﴾ يفتريه : جملة فعلية وفى موضعها وجهان من الإعراب :  
النصب على الحال من المضمرة فى ﴿ يَأْتِينَ ﴾ والجر على الوصف لـ ﴿ بِيْهْتَانٍ ﴾ .
- ٥ - قوله تعالى : ﴿ كَمَا يَتَّبِعُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾ .  
من أصحاب القبور فى موضع نصب ، لأنه يتعلق بـ ( يتَّبِعُ ) وتقديره يتسوا من بعث أصحاب القبور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

## لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

ما الفائدة فى امتحان المهاجرات مع أنهن مؤمنات ؟  
الجواب : أن الامتحان إنما هو لمعرفة سبب الهجرة ، هل كان حباً فى الله ورسوله . أم كان من أجل الدنيا ؟

قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن ؛ لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة قالت : لألحقن بمحمد .

وقد روى عن ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يستحلف المرأة فيقول : « بالله الذى لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله »<sup>(١)</sup> . فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها .

#### اللطيفة الثانية :

السرفى ذكر هذه الجملة الاعتراضية ﴿ الله أعلم بإيمانهن ﴾ هو بيان أنه يكفى لنا العلم الظاهر ، أما العلم الحقيقى الذى تطمئن به النفس وهو الإحاطة بحليّة الأمر ، ومعرفة حقيقة الإيمان فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، فنحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر فسبحانه من إله عليم ، يعلم السر وأخفى .

#### اللطيفة الثالثة :

الحكمة فى عدم رد المهاجرات هى أن النساء أرق قلوباً ، وأسرع تقلباً ، وأشد فتنة من الرجال ، لأنه لا صبر لهن على تحمل البلاء والأذى فى سبيل الله ، فرحم الله ضعفهن ، ومنع من ردهن إلى الكفرة المشركين .

#### اللطيفة الرابعة :

أمر الله تعالى برد المهر على الزوج الكافر إذا أسلمت زوجته ، وذلك من الوفاء بالعهد الذى رعاه الإسلام .

قال القرطبي : وذلك لثلا يقع على الزوج خسران من الوجهين : ( الزوجة والمال ) ؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام ، أمر برد المال إليه وذلك من الوفاء بالعهد .

#### اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هن يحلون لهن ﴾ فيه إشارة إلى أنه لاصلة بين الإيمان والكفر ، فإذا أسلمت الزوجة وزوجها كافر حرمت عليه لعدم التجانس بينهما ، فهى مؤمنة وهو كافر ، وقد قطعت العلاقة بينهما ، وهذا يدل على أن رابطة ( العقيدة ) أقوى من رابطة ( النسب ) فتدبره .

#### اللطيفة السادسة :

روى أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أخذ البيعة على النساء كانت ( هند بنت عتبة ) فى النساء المبايعات وهى زوجة ( أبى سفيان ) وكانت متقبّة خوفاً من أن يعرفها النبي - صلى الله عليه وسلم -

وسلم - لما صنعت به حمزة يوم أحد . فلما قرأ قوله تعالى : ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت هند : إن أبا سفيان زجل شحيح ، وإنى أصيب من ماله قوتنا ، فقال أبو سفيان : هولك حلال ، فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - وعرفها ، وقال : أنت هند ؟ فقالت : عفا الله عما سلف ، أعف يا نبي الله عفا الله عنك<sup>(١)</sup> .

فلما قرأ : ﴿ ولا يزينن ﴾ قالت هند : أوتزنى الحرة ؟

فلما قرأ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر ابن الخطاب حتى استلقى .. وكان حنظلة ولدها قتل يوم بدر .

فلما قرأ : ﴿ ولا يأتين بيهتان يفتريته بين أيديهن وأرجلهن ﴾ قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فلما قرأ : ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء .

اللطيفة السابعة :

قال القراء : كانت المرأة في الجاهلية تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن .

وقال الزمخشري : « كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها ، عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ؛ لأن ( بطنها ) الذي تحمله فيه بين اليدين ، و ( فرجها ) الذي تلده به بين الرجلين ، وقيل : كنى بذلك عن الولد الدعى ( غير الشرعى ) فهين عن ذلك ؛ لأنه من شعار الجاهلية ، المنافى لشعار المسلمين » .

## الأحكام الشرعية

• الحكم الأول :

هل كان عقد الصلح يشمل الرجال والنساء ؟

كان صلح الحديبية الذي تم بين الرسول - ﷺ - وبين مشركي قريش قد نص على أن من أتى محمداً من قريش رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من عند محمد لم يردوه عليه ، وقد جاءت ( أم كلثوم بنت عقبة ) بعد أن كتب عقد الصلح مهاجرة إلى رسول الله - ﷺ - وجاء أهلها يطلبونها فقالت : يا رسول الله : أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ما قد عذمت ، فتردني إلى الكفار يفتنونني عن ديني ، ولا صبر لي ؟ فقال - ﷺ - لأهلها : كان الشرط في الرجال لا في النساء ، فأنزل الله هذه الآية فامتنعها - ﷺ - ولم يردوها إليهم<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - ج ٨ ص ١٢٥ ، وقال : انظر تفسير الطبري ج ٨ ص ٥١٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - ج ٨ ص ١٨ ، وقال المحقق : ساق ابن الأثير هذا الحديث من هذه الرواية في ترجمة

(عبد الله بن أبي أحمد بن جحش)



قال القرطبي : وقد اختلف العلماء هل دخل النساء فى عهد المهادنة لفظاً ، أو عموماً ؟  
فقال طائفة : قد كان شرط ردهن فى عقد المهادنة لفظاً صريحاً فنسخ الله ردهن من العقد ،  
ومنعه منه ، وابقاه فى الرجال على ما كان . وقالت طائفة : لم يشترط ردهن فى العقد لفظاً ، وإنما أطلق  
العقد ردّ من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال ، فبين الله تعالى خروجهن عن  
عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرم من عليهم .  
الثانى : أنهن أرق قلوباً ، وأسرع تعباً منهم ، فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان - عليه الصلاة والسلام - عاهد عليه قريشاً من  
أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلماً ، فنسخ من ذلك النساء ، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن .  
أقول : ذكر الإمام الفخر نقلاً عن الضحاك أن العهد كان على غير الصيغة المتقدمة ، وأنه كان  
يشتمل على نص خاص بالنساء صورته كالتالى :

( لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت فى دينك ولها زوج رددت على  
زوجها ما أنفق عليها ، وللنبي - ﷺ - من الشرط مثل ذلك ) .

وعلى هذا رأى تكون الآية موافقة للعهد ، مقررة له ، وهذا الذى تطمئن إليه النفس وترتاح ،  
وما عده من الأقوال فيحتاج إلى تمحيص وتدقيق ، لأنها تنافى روح التشريع الإسلامى ، من جهة أن  
الوفاء بالعهد واجب على المسلمين ، ولا ينبغي لأحد الطرفين أن يستبد بتخصيص نصوصه أو إلغائها  
دون موافقة الطرف الثانى . فما ذهب إليه الضحاك هو الأولى .

يقول سيد قطب - رحمه الله - :

« ويظهر أن النص لم يكن قاطعاً فى موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات  
المؤمنات إلى الكفار ، خشية أن يفتن فى دينهن وهن ضعاف ، ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية  
معها ، تنظم التعامل فيها على عدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته ، دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ،  
وما فيها من شطط وجور على طريقة الإسلام ، فى كل معاملاته الداخلية والدولية » .

✽ الحكم الثانى :

ما هو حكم المشركة إذا خرجت إلينا مسلمة ؟  
دلّ قوله تعالى : ﴿ لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلونّ لهنّ ﴾ على أن المرأة إذا أسلمت وقعت الفرقة  
بينها وبين زوجها ، فلا تحلّ له ، ولا يحلّ لها . وقد اختلف الفقهاء هل تحصل الفرقة بالإسلام . أم  
باختلاف الدارين ؟ على مذهبين :

( أ ) مذهب أبى حنيفة : أن الفرقة تقع باختلاف الدارين .

( ب ) مذهب الجمهور ( الشافعية والمالكية والحنابلة ) أن الفرقة تقع بالإسلام وذلك عند انتهاء عدتها . فإن أسلم الزوج قبل انتهاء عدتها فهي امرأته .

دليل الحنفية :

( أ ) قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فلو كانت الزوجية باقية لكان الزوج أولى بها بأن تكون معه حيث أراد .

( ب ) قوله تعالى : ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ قالوا : ولو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج رد المهر ؛ لأنه لا يجوز أن يستحق البضع وبذله .

( جـ ) قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ ولو كان النكاح الأول باقياً لما جاز لأحد أن يتزوج بها .

( د ) قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ ؛ لأن معناه عندهم : لا تتمسكوا بعصمة الكافرة ، ولا تعتدوا بها ، ولا تمنعكم من التزوج بها .

( هـ ) وقالوا أيضاً : لقد اتفق الفقهاء على جواز وطء ( المسيية ) بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج في دار الحرب ، ولا سبب يبيح هذا إلا اختلاف الدار ، وقد قال - ﷺ - في السبايا : ( لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل « المرأة التي لا تحمل » حتى تستبرأ بحيضة ) (١) .

أدلة الجمهور :

( أ ) قالوا : إن سبب الفرقة هو الإسلام ؛ لأنها لم تعد صالحة لأن تكون فراشاً لكافر ، ولو كان اختلاف الدار هو سبب الفرقة ، لوجب أن تحصل الفرقة بمجيء المشركة إلينا ودخولها بعهد أمان ولولم تسلم ، ولم يقل به أحد .

( ب ) ما روى عن مجاهد أنه قال : ( إذا أسلم الكافر وهي في العدة فهي امرأته ، وإن لم يسلم فُرق بينهما ) .

( جـ ) ما روى عن ابن عباس أنه قال : ( رد النبي - ﷺ - ابنته زينب على ( أبي العاص بن الربيع ) بالنكاح الأول ، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة وبقي زوجها بمكة مشركاً ، ثم ردها عليه بعد إسلامه ) .

قال القرطبي : « قوله تعالى : ﴿ فلا ترجعوهن إلى الكفار » لا من حل لهم ، ولا هم يحلون لهن ﴾ أى : لم يحل الله مؤمنة لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدل دليل على أن الذي أوجب فرقة المسلمة من زوجها ، إسلامها لا هجرتها ، فبين أن العلة في عدم الحل الاسلام ، وليس باختلاف الدار .

والخلاصة : فإن الحنفية يقولون : إن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً وبقي الآخر

حربياً فقد وقعت الفرقة بينهما ، ولا يرون العدة على المهاجرة ، ويبسحون نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملاً ، عملاً بالآية الكريمة : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ حيث لم تلزمها العدة ، وقد بانّت من زوجها بمجرد الهجرة .

والجمهور يقولون : لا تقع الفرقة إلا بإسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا ، فإن أسلمت قبل أن يدخل زوجها تنجزت الفرقة وبانت منه ، لأنه لا عدة عليها ، وإن أسلمت بعد الدخول بها توقفت إلى انقضاء العدة ، فإن أسلم قبل انقضاء العدة فهي زوجته ، وإلا بانّت منه .

وحجتهم في ذلك الأدلة التي سبقت وما روى أن (أبا سفيان) أسلم قبل زوجته (هند بنت عتبة) ثم أسلمت بعده بأيام فاستقروا على نكاحهما ، لأن عدتها لم تكن قد انقضت .

### \* الحكم الثالث :

هل يجوز الزواج بالمشاركة الوثنية ؟

دل قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ على حرمة النكاح بالكافرة المشاركة ؛ لأن معنى الآية : ولا تمسكوا بعصم نسائكم المشركات أى : لا تعتدوا بنكاحهن فإنه باطل .

كما دل قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾<sup>(١)</sup> على حرمة نكاح المشركة ، وقد اتفق العلماء على أن هذه الآيات خاصة بالمشركات من غير أهل الكتاب ؛ لأن الكتابيات يجوز الزواج بهن لقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ﴾<sup>(٢)</sup> الآية .

قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم نكاح الكتابيات .

أقول : أجمع الفقهاء على حرمة الزواج بالمشاركة - وهي التي لا تدين بدين سماوى - وعلى جواز النكاح بالنصرانية أو اليهودية من أهل الكتاب للنص السابق ، اللهم إلا ما روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - كان إذا سئل عن زواج الرجل بالنصرانية أو اليهودية قال :

« حرم الله المشركات على المؤمنين ، ولا أعرف شيئاً من الإشراف أعظم من أن تقول المرأة : ربها عيسى ، أو عبد من عباد الله » .

وهذا القول من عبد الله بن عمر محمول على (الكراهة) لا على (التحريم) ؛ لأن النص صريح بالحل ، ولعله خشى الفتنة على الرجل في دينه ، أو خشى على الأولاد من التنصر فكرهه لذلك والله أعلم .

(١) الآية ٢٢١ من سورة البقرة

(٢) من الآية ٥ من سورة المائدة

\* الحكم الرابع :

كيف كانت بيعة النبي - ﷺ - للنساء  
 بايع النبي ﷺ - النساء - بعد أن فتح مكة ، وكانت بيعته لهن بالشرائط المذكورة في هذه الآية :  
 ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبائعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ﴾ .  
 وقد صح في الحديث أن النبي - ﷺ - لم يصافح في البيعة امرأة ، وإنما بايعهن بالكلام ، ودل ذلك على حرمة مصافحة النساء (١) .

وقد كانت بيعة الرجال أن يضع الرجل يده في يد الرسول - ﷺ - ويبايعه على الإسلام والجهاد ، والسمع والطاعة ، وأما النساء فلم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح امرأة ، ولا وضع يده في يدها ، إنما كانت البيعة بالكلام فقط ، ويدل عليه ما يلي :

النصوص الشرعية الدالة على حرمة المصافحة

أولاً : روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت :  
 « كان - ﷺ - يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، بقول الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات ﴾ إلى قوله ﴿ غفور رحيم ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله - ﷺ - : قد بايعتك كلاماً ، والله ما مسّت يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك » (٢) .

ثانياً : وروى الإمام أحمد عن ( أميمة بنت رقيقة ) قالت :  
 « أتيت رسول الله - ﷺ - في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن ، ألا نشرك بالله شيئاً .. الآية .. وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .  
 قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : إني لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة » (٣) .

ثالثاً : وفي صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها بعد أن ذكرت البيعة قالت « وكان رسول الله ﷺ إذا أقرن بذلك من قولهن ، قال لهن : « أنطلقن فقد بايعتكن » . ولا والله ما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : « قد بايعتكن كلاماً » .  
 قال الحافظ بن حجر ا قوله : « قد بايعتك كلاماً » أى : يقول ذلك كلاماً فقط لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة ، أقول : الروايات كلها تشير إلى أن البيعة كانت بالكلام ، ولم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح النساء في بيعة أو غيرها ، ورسول الله - ﷺ - عندما يمتنع عن

(١) الحديث في صحيح البخارى - تفسير سورة الممتحنة - ج ٦ ص ١٨٧ ط الشعب

(٢) الحديث في مسند أحمد - ج ٦ ص ٣٥٧

(٣) الحديث في صحيح مسلم - ج ١٤٨٩ رقم ٨٨ ، ٨٩

مصافحة النساء مع أنه المعصوم ، فإنما هو تعليم للأمة وإرشاد لها لسلوك طريق الاستقامة ، وإذا كان رسول الله - ﷺ - وهو الطاهر الفاضل ، الشريف ، الذى لا يشك إنسان فى نزاهته وطهارته ، وسلامة قلبه ، لا يصافح النساء ، ويكتفى بالكلام فى مبايعتهن ، مع أن أمر البيعة أمر عظيم الشأن ، فكيف يباح لغيره من الرجال مصافحة النساء ، مع أن الشهوة فيهم غالبية ؟ والفتنة غير مأمونة ، والشيطان يجرى فيهم مجرى الدم .

وكيف يزعم بعض الناس أن مصافحة النساء غير محرمة فى الشريعة الإسلامية ؟ « سبحانك هذا بهتان عظيم » .

### • الحكم الخامس :

فالمراد من قوله تعالى : ﴿ ولا يعصيتك فى معروف ﴾ ؟

اختلف العلماء فى المراد من الآية الكريمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به النوح على الميت ، قاله ابن عباس ، وروى عن النبى - ﷺ - مرفوعاً .

والثانى : أن المراد أن لا يدعون ويلاً ، ولا يخذشن وجهاً ، ولا يقطعن شعراً ، ولا يشققن ثوباً ،

قال زيد بن أسلم .

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله - ﷺ - من شرائع الإسلام وآدابه وهذا هو الأرجح .

قال العلامة القرطبى : « والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبى - ﷺ - وينهى عنه ، فيدخل

فيه النوح ، وتخريق الثياب ، وجز الشعر ، والخلوة بغير محرم ، إلى غير ذلك ، وهذه كلها كبائر ،

ومن أفعال الجاهلية ، وفى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أربع فى أمتى من أمر

الجاهلية .. وذكر منها النياحة » (١) .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : امتحان المهاجرات المؤمنات للتعرف على سبب الهجرة .

ثانياً : نحن نحكم بالظاهر ، والله - جل وعلا - يتولى السرائر .

ثالثاً : حرمة نكاح المشركات اللواتى لا يؤمن بالله تعالى .

رابعاً : إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك وتحرم عليه .

خامساً : البيعة للنساء تكون بالشرائط التى ذكرها القرآن الكريم .

سادساً : الطاعة لأولى الأمر تكون فى حدود ما شرع الله تعالى .

سابعاً : جواز نكاح الكتابيات اللاتى يؤمن بكتاب منزل من عند الله .

### حكمة التشريع

حرمت الشريعة الإسلامية الغراء نكاح المشركات ، وحظرت على المسلم أن يُبقى فى عصمته

امراً لا تؤمن بالله ، ولا تعتقد بكتاب أورشول ، وتنكر البعث والنشور ، وذلك لما يترتب على هذا الزواج من مخاطر دينية ، واجتماعية ، وأضرار عظيمة تلحق بالزوج والأولاد ، وبالتالي تهدد حياة الأسرة التي هي النواة لبناء المجتمع الأكبر .

وقد قضت السنة الإلهية أن تمتزج الأرواح بالأرواح ، وتتلاءم الأنفس مع الأنفس عند الزواج ، لينعم الزوجان في حياة آمنة سعيدة ، يرفرف عليها الحب ، وتظللها السعادة ، ويخيم عليها التعاون والتفاهم ، والوثام .

ولما كان هذا الانسجام والتفاهم ، لا يكاد يوجد بين قلوبين متنافرين ونفسين مختلفين ، لنفس مؤمنة خيرة ، ونفس مشركة فاجرة ، وكان هذا يؤدي بدوره إلى التنافر ، والخصام ، والنزاع ، لذلك حرم الإسلام الزواج بالوثنية المشركة ، وعدّه زواجاً باطلاً لا يستقيم مع شريعة الله .

فالمشركة التي ليس لها دين يزجرها عن الشر ، ويأمرها بالخير ، ويحرم عليها الخيانة ، ويوجب عليها الأمانة ، هذه الزوجة لا يمكن أن يسعد المرء في حياته معها ، ولا تصلح أن تكون ( رفيقة الحياة ) لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر مع الفارق الكبير بين نفسيهما . والزوجة حالة امتزاج واندماج واستقرار ، ولا يمكن أن تقوم الحياة بدون هذا الامتزاج ، والإيمان هو قوام الحياة السعيدة ، الذي لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يسكن إليه ويطمئن في جواره ، وصدق رسول الله - ﷺ - حين قال :

( الأرواح جنود مجنّدة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ) (١) .

### التفسير

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الشرك إلى دار الإيمان ، فامتنحنوهن بما يغلب على ظنكم أنهن صادقات في إيمانهن ، ولم يأتين حباً في الانتقال من دار إلى دار أو بغضاً في زوج بل كان الدافع لهن هو حب الله ورسوله واعلموا أن الله أعلم بإيمانهن حقيقة ، فلا سبيل لكم إلى ما تظمن به قلوبكم ، من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، ولكن هذا ما يمكن فعله ، فإن علمتم فيهن صدق الإيمان فلا ترجعوهن إلى الكفار .

- وهذا تقيد للشرط المطلق في عقد الصلح - بل أبقوهن معكم وقد فرق الشارع الحكيم هنا بين الرجل والمرأة فإن الرجل قوى يمكنه أن يستقل ويترك دار الكفر ، والمرأة لا تقوى على الإغراء فيخشى معها الفتنة .

لا هن حل لهم حالاً ، ولا أزواجهن الكفار يحلون لهم في المستقبل بأي شكل ما داموا مشركين ، وهن مؤمنات ، ويلزم على هذا أن تؤثوا الأزواج ما أنفقوا ، محل ذلك في الأزواج الذين

(١) الحديث في صحيح البخاري - كتاب بدء الخلق - باب خلق آدم جـ ٤ ص ١٦٢ ط الشعب

بيننا وبينهم عهد أما الحريون فلا يلزمنا شيء لهم ، على أن هذا الأمر للندب ، وبشرط أن يطلبه الزواج وإلا فلا يجب شيء .

وهؤلاء المهاجرات لا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا أتيتموهن مهورهن وما حكم المرأة التي يتركها زوجها في دار الشرك وهو مسلم ؟ الحكم أنه إذا أسلم الزوج ، وكان إسلامه حقيقياً فيجب فسخ عقد النكاح السابق بينه وبين المشركة الوثنية أما الكتابية فلا فسخ ؛ لأنه يجوز العقد عليها ابتداءً ، ومحل قطع العلاقة الزوجية بين المسلم والمشركة مشروط بألا يجمعها الإسلام في العدة .

﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة . ردوا إلى الكفار مهرها ، وكان ذلك نصفه وعدلاً بين الناس ، ثم نسخ هذا الحكم ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم بالعدل ، والله عليم حكيم .

وإن فاتكم شيء من أزواجكم وذهبن إلى الكفار ثم لم يعطوكم شيئاً من المهر فعاقبتن ، وأنت العاقبة لكم فغنمتن شيئاً منهن ، قاتوا الذين ذهبت أزواجهن ، ولم يأخذوا مهورهن مثل ما أنفقوا لفواته عليهم من جهة الكفار ، واتقوا الله في كل شيء ، اتقوه فأنتم به مؤمنون ، ومن الواجب على المؤمن تقوى الله في السر والعلانية ، وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإتياء للكفار والمؤمنين ، وقد رفع هذا الحكم العام ، وأصبح الحكم شخصياً ليس على الإمام والمسلمين عامة .

يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على عدم الشرك بالله شيئاً وعدم السرقة ، والزنا ، وقتل الأولاد خوف الفقر أو العار كما كان يفعل في الجاهلية من وأد البنات أحياء ، ولا يعصينك في معروف عرف حسنه شرعاً وعقلاً من طاعة الله ورسوله والإحسان للناس ، وكل ما أمر به الشرع الشريف .

إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على هذا الأساس فبایعهن ، واستغفر لهن الله على ما فرط منهن ، وقد كانت مبايعة الرجال على الإسلام والجهاد ومبايعة النساء على ما ذكر في الآية نزلت ، وقيل هما سواء في كل ذلك ، ولعل السر في مبايعة النساء لهذا أن النساء كثيراً ما يرتكبن مثل هذه الأعمال ، والثابت أن هذه الآيات نزلت في مبايعة النبي - ﷺ - للنساء في فتح مكة ، وكانت فيهن هند بنت عتبة ، ولها قصة مذكورة في كتب السيرة ، بدئت هذه السورة بالنهي عن موالاة الكفار وخاصة اليهود ، وختمت بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عنها .

يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً قد غضب الله عليهم ، ولعنهم ، وهم اليهود قد يشؤا من الآخرة وثوابها مع أنهم يوقنون بها ، وذلك لعنادهم مع النبي مع علمهم بصدقه ، هؤلاء يشؤا كما يش الكفار حالة كونهم من أصحاب القبور ، وقيل كما يش الكفار الأحياء من أصحاب القبور الذين ماتوا ، يشؤا من الرجوع إليهم والالتقاء بهم في أي وقت .

## سورة الصف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . آياتها أربع عشرة . وكلماتها مائتان وإحدى وعشرون . وحروفها تسعمائة . ولها اسمان : سورة الصف لقوله : ﴿ يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ ، وسورة الحواريين ، لقوله : ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ وقيل تسمى سورة عيسى .

معظم مقصود السورة : عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها وتشريف صفوف الغزاة والمصلين ، والتنبيه على جفاء بني إسرائيل ، وإظهار دين المصطفى على سائر الأديان ، وبيان التجارة الرباحة مع الرحيم الرحمن ، والبشارة بنصر الإيمان ، على أهل الكفر والخذلان ، وغلبة بني إسرائيل على أعدائهم ذوى العدوان ، فى قوله : ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ والسورة محكمة ، خالية عن الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ﴾ بالالف واللام ، وفى غيرها : ﴿ افترى على الله كذباً ﴾ بالنكرة .

لأنها أكثر استعمالاً مع المصدر من المعرفة ، وخصت هذه السورة بالمعرفة ، لأنه إشارة إلى ما تقدم من قول اليهود والنصارى .

قوله : ﴿ ليطفثوا ﴾ باللام ؛ لأن المفعول محذوف . وقيل : اللام زيادة . وقيل : محمول على المصدر .

قوله : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ جزم على جواب الأمر ، فإن قوله : ﴿ تؤمنون ﴾ محمول على الأمر أى : آمنوا وليس بعده : ( من ) ولا ( خالدين ) .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله - ﷺ - فيسأله : أى : الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد فأرسل رسول الله - ﷺ - إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ( الصف ) كلها .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ  
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ۖ كَانَهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا ﴿٤﴾

### معاني المفردات

(لم) أى : لأى شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك التأنيب  
والتوبيخ ، على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى : عظم ، والمقت : أشد البغض وأعظمه ،  
ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص : المحكم ، قال المبرد : تقول :  
رصصت البناء إذا لاءمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير قطعة واحدة .

### المناسبة وإجمال المعنى

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلنا على  
أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد لأهل  
معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه ، فلما نزل الجهاد وكره ذلك ناس من المؤمنين  
وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

### \* أضواء كاشفة \*

يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله لأى شىء تقولون ما لا تفعلونه من الخير والمعروف ، ومدار  
التوبيخ والانكار فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجه إلى قولهم أولاً للدلالة على أنهم مؤاخذون على  
شيئين الوعد وترك العمل « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن  
خان » (١) . كبر المقت عند الله وفى حسابه أن تقولوا ما لا تفعلون ، نعم إن قولهم سنفعل الخير ثم  
لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، ومبغوض عند الله أشد البغض ، ومن هنا كان الخلف فى الوعد ،  
والكذب ، مذمومين شرعاً ، ولا يرضى عنهما الله ، أما الذى يرضى عنه الله فهذا هو ذا : ﴿ إن الله يحب  
الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ نعم إن الله يحبهم ويرضى عنهم ، لأنهم يقاتلون  
فى سبيله وابتغاء مرضاته ، يقاتلون بنظام ودقة وحكمة صافين أنفسهم مستعدين للقتال على حسب  
زمانهم ، حالة كونهم كالبنيان المرصوص الذى يحمى بعضه بعضاً ، البنيان المحكم الدقيق الذى  
لا فرجة فيه ولا خلل ، وهذه إشارة إلى إحكام الأمر فى القتال والاستعداد له استعداداً مناسباً مع الوحدة  
والاجتماع التام على الكلمة ، ومقابلة العدو بقلوب ثابتة راسخة رسوخ البنيان الشامخ المحكم .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣ بلفظ : « آية المنافق ثلاثة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن  
خان » من رواية الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، عند أبى هريرة ، وأبى التيجان عن ابن مسعود وفى مسند أحمد ج ٢ ص  
٣٥٧ . وفى صحيح البخارى - كتاب الايمان - باب علامة المنافق - ج ١ ص ١٦ ط الشعب .

## التفسير

قوله تعالى ﴿سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - بأنه سبحانه له ما في السموات وما في الأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات كما قال في الآية الأخرى : ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾<sup>(١)</sup> .

والتسبيح تنزيه لله - تعالى - عن كل ما لا يليق بذاته ، فهو - سبحانه - متصف بكل كمال منزّه عن كل نقص . وكمالات الله لا تنتهى ، لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد ، ومن ثم ، فقد جاء التسبيح في الكتاب العزيز في صور متنوعة وصيغ متعددة ، جاء بصيغة الماضي كما في هذه الآية التي افتتح الله - تعالى - بها سورة (الصف) وجاء بصيغة المضارع كما في قوله - تعالى - : ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾<sup>(٢)</sup> وكما في قوله جل شأنه : ﴿يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير﴾<sup>(٣)</sup> .

وجاء بصيغة الأمر كما في قوله جل شأنه : ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾<sup>(٤)</sup> وجاء بصيغة المصدر كما في قوله تبارك اسمه : ﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾<sup>(٥)</sup> وجاء بصيغة الصفة كما في قوله - جل جلاله - : ﴿فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾<sup>(٦)</sup> . وما ذلك كله إلا لعظم مكانة المسبحين عند الله ، وقد أمر تعالى بتسبيحه على كل حال : ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾<sup>(٧)</sup> . وقد نادى نبي الله يونس ربه مهلاً ومسيحاً قال تعالى : ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾<sup>(٨)</sup> . هذا الإله العظيم الكبير الحقيق بالتنزيه ، هو العزيز الذى لا يغلب ، ﴿وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير﴾<sup>(٩)</sup> الحكيم الذى لا يضع الأمور إلا في نصابها ، المنزه عن العبث ، المنصف بالحكمة البالغة الباهرة ، ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾<sup>(١٠)</sup> سبحانه الطير في وكره ، ومجده الوحش في قفره ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، سبحانه كل سابع في الماء ، ومخلق في الهواء ، وسارب في الخضراء ، ومستكن في الأحشاء ، وذاهب في لجج الماء ، ومستقر في الصخرة الصباء .

(٦) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤

(٧) سورة الروم آية ١٧ ، ١٨

(٨) سورة الأنبياء آية ٨٧ ، ٨٨

(٩) سورة الأنعام آية ١٨

(١٠) سورة الاسراء آية ٤٤

(١) سورة الاسراء آية ٤٤

(٢) سورة الجمعة آية ١

(٣) سورة التغابن آية ١

(٤) سورة الأعلى آية ١

(٥) سورة الاسراء آية ١

الشمس والبدر من أنوار حكمته      والبر والبحر فيض من عطايه  
الطير سبجه والوحش مجده      والموج كبره والحوث نجاهه  
والنمل تحت الصخور الصم قدسه      والنحل يهتف حمداً في خلاياه  
والناس يعصونه جهراً فيسترهم      والعبد ينسى وربي ليس ينساه

فلو سألت السموات والأرض ومن فيهن وسألت العالم من عرشه إلى فرشه ، وقلت له من خالقك لأجابه بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا      وهذي الصحارى والجبال الرواسيا  
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى      سل الليل والإصباح والطير شاديا  
وسل هذه الأنسام والأرض والسماء      وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا  
فلو جنّ هذا الليل وامتد سرمداً      فمن غير رب يرجع الصبح ثانياً  
ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم      سوى الله يجريه كما شاء راوياً  
ولو أن هذى الريح هاجت وأعصرت      فمن غير رب يمسك الريح ناهياً

ولعظم شأن التسبيح نسوق هذه الأحاديث النبوية الشريفة حتى نكون قد جمعنا بين ما جاء في الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة ، عسى الله أن ينفعنا بما قرأ ونسمع .

١ - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » (١) رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله : أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : ( سبحان الله وبحمده ) (٢) . رواه مسلم والنسائى والترمذى إلا أنه قال : سبحان ربى وبحمده . وقال حديث حسن صحيح .

٣ - وفي رواية مسلم : أن رسول الله - ﷺ - سئل أى الكلام أفضل ؟ قال : ( ما اصطفى « اختار ورضى » الله لملائكته ، أولعباده ، سبحان الله وبحمده ) (٣) .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح

انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التسبيح والتهليل رقم ٢٦٩٤/٣١

انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ . كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٢٨٠٦

انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٧٨ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٧ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٥ ص ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١/٨٥

انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٥

(٣) انظر الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب ٢٢ فضل سبحان الله وبحمده . رقم ٢٧٣١/٨٤ .

٤ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ومن قال لا إله إلا الله له بها عهد عند الله يوم القيامة <sup>(١)</sup> . رواه الطبراني بإسناد فيه نظر .

زاد في رواية عن أيوب بن عتبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفذ ( تذهب ) ذلك كله إلا أن يتطول ( يتفضل وينعم ويسامح ) الله برحمته .

٥ - وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » <sup>(٢)</sup> رواه البزار بإسناد جيد .

٦ - وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : من هاله ( شق عليه ) صعب عليه قيام الليل للعبادة ( الليل أن يكابده ) ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله ، فليكثر من : « سبحان الله وبحمده » ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه في سبيل الله عز وجل <sup>(٣)</sup> . رواه الفرياني والطبراني واللفظ له .

٧ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « ومن قال سبحان الله وبحمده ، في يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر » <sup>(٤)</sup> . ( كناية عن المبالغة في الكثرة ) رواه مسلم والترمذي . والنسائي .

٨ - وعن سليمان - بن يسار - رضى الله عنه - عن رجل من الأنصار أن النبي - ﷺ - قال : قال نوح لابنه : إني موصيك بوصية وقاصرها لكي لا تتساها ، أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أما اللتان أوصيك بهما ، فيستبشر الله بهما ، وصالح خلقه ، وهما يكثران الولوج على الله ، أوصيك بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض لو كانت حلقة قصمتها ، ولو كانتا في كفة وزنتهما ، وأوصيك بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزق الخلق ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً . وأما اللتان أنهاك عنهما ، فيحتجب الله منهما ، وصالح خلقه ، أنهاك عن

(١) انظر الطبراني في معجمه الكبير ج ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .

انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٨٧ كتاب الأذكار فصل فيمن قال لا إله إلا الله وسبحان الله وبحمده .

(٢) انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٤٧٧ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٤/٣٤٦٥ وقال : حديث حسن غريب صحيح .

انظر كشف الاستار عن زوائد الدار ج ٤ ص ١٣ رقم ٣٠٧٩ .

(٣) انظر الطبراني في معجمه الكبير ج ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠ .

انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٩٤ كتاب الأذكار فصل ما جاء في سبحان الله وبحمده وما ضم معه .

(٤) انظر صحيح البخاري ج ٤ ص ١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح .

انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٦٩١/٢٨ في حديث أوله « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .

انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٤٧٨ كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٦ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الشرك ( أن تجعل لله شريكاً في ذاته ، أوفى صفاته أوفى أفعاله ) والكبر<sup>(١)</sup> . ( العظمة والغطرسة ، والعجب بالنفس ، وقلة الأدب ، وعدم الذوق في المعاملة ، واحتقار الناس والتقصير في واجباتهم ) رواه النسائي واللفظ له والبخاري والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد ( الولوج : الدخول ) .

٩- وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله وأتوب إليه . من قالها كتبت له كما قالها ، ثم علقت بالعرش لا يمحوها ذنب عمله صاحبها حتى يلقى الله يوم القيامة وهي مخطومة كما قالها »<sup>(٢)</sup> رواه البخاري ورواته ثقات .

١٠- وعن مصعب بن سعد - رضى الله عنه - قال : حدثني أبي قال : كنا عند رسول الله - ﷺ - فقال : « يعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ، ألف حسنة ؟ » فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : « يسبح مائة تسبيحة ، فكتب له ألف حسنة . أو يحط عنه ألف خطيئة »<sup>(٣)</sup> . رواه مسلم والترمذي .

١٠- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس »<sup>(٤)</sup> . رواه مسلم والترمذي .

١١- وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله - ﷺ - : أحب الكلام إلى الله أربع : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت »<sup>(٥)</sup> . رواه مسلم وابن ماجه والنسائي وزاد : وهن من القرآن . ورواه النسائي أيضاً وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة .

١٢- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - مر به وهو يغرس غرساً ، فقال : « يا أبا هريرة ما الذى تغرس ؟ قلت : غراساً . « قال ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، تغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة »<sup>(٦)</sup> . رواه ابن ماجه بإسناد حسن ، واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(١) انظر عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٢٤٦ .

(٢) انظر كشف الاستار عن زوائد البخاري ج ٤ ص ١٤ رقم ٣٠٨١ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٣ كتاب الذكر والدعاء . باب ٥٩ رقم ٣٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح . طبعة دار الكتب العلمية . انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٤٧٧ كتاب الدعوات . باب ٥٩ رقم ٣٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح . طبعة دار الكتب العلمية .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٥/٣٢ .

انظر سنن الترمذي ج ٥ ص ٥٣٩ كتاب الدعوات . باب ١٢٩ رقم ٣٥٩٧ وقال : هذا حديث صحيح .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٦٨٥ كتاب الآداب باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة رقم ٢١٣٧/١٢ .

انظر عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٢٥٠ رقم ٨٥٣ بلفظ إذا حدثك بحديث .

(٦) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٧ .

انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥١٢ . كتاب فضيلة التسبيح .

١٣ - وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لقيت ابراهيم - عليه السلام - ليلة أسرى بي ، فقال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان ( أمكنة مستوية مبسوطة منبسطة واسعة في وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ، ويستوى نباتها . القيعان جمع قاع ) وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » <sup>(١)</sup> رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .

١٤ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، غرس له بكل واحدة منهن شجرة فى الجنة » <sup>(٢)</sup> رواه الطبرانى واسناده حسن .

١٥ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من هلك مائة مرة ، وسبح مائة مرة ، وكبر مائة مرة ، كان خيراً له من عشر رقاب يعتقهن وسبع بدنان ( جمع بدنة ) ، وإنما سميت بها الابل لعظم بدنها » . قال - تعالى - : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ ينحرهن <sup>(٣)</sup> .

١٦ - وعن أم هانئ - رضى الله عنها - قالت : مر بى رسول الله - ﷺ - ذات يوم ، فقلت : يا رسول الله قد كبرت سننى ، وضعفت ، أو كما قالت : فمر بى بعمل أعمله وأنا جالسة ، قال : « سبى الله مائة تسبيحة ، فإنها تعدل لك مائة رقة تعتقنيها من ولد إسماعيل ، واحمدى الله مائة تحميدة ، فإنها تعدل لك مائة فرس مسرجة ملجمة تحملين عليها فى سبيل الله ، وكبرى الله مائة تكبيرة ، فإنها تعدل لك مائة بدنة مقلدة متقبلة ، وهلى الله مائة تهليلة : قال أبوخلف : أحسبه قال : تملاً ما بين السماء والأرض ، ولا يرفع يومئذ لأحد عمل أفضل مما يرفع لك إلا أن يأتى بمثل ما أتيت » <sup>(٤)</sup> رواه أحمد بإسناد حسن ، واللفظ له والنسائى ولم يقل : ولا يرفع إلى آخره ، والبيهقى بتمامه .

١٧ - وعن أبى هريرة وأبى سعيد - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : « إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لا إله إلا الله فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » <sup>(٥)</sup> رواه أحمد وابن أبى الدين والنسائى واللفظ له .

(١) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٤٦ . كتاب الدعوات باب ٥٩ رقم ٣٤٦٢ وقال : هذا حديث حسن غريب . من حديث ابن مسعود .

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٣٥

(٣) انظر الأدب المفرد لأبى عبد الله البخارى ج ٢ ص ٩٢ رقم ٦٣٦

(٤) انظر عمل اليوم للنسائى ص ٢٤٩ ثم ٨٥٠ . انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٤٤ مسند أم هانئ .

(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٨ رقم ٨٤٦ . انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٠٢

١٨ - وعن أبي مالك الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الطهور شرط الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ( أى أن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين . ويجوز أن يوسم المتصدق بسيماء يعرف بها فيكون برهاناً له على حاله ولا يسأل عن مصرف ماله ) والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، ( أى تنتفع به إن تلوته وعملت به ، وإلا فشاهد على تقصيرك ) كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ( أى كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله - تعالى - بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعها فيوبقها ، أى يهلكها )<sup>(١)</sup> رواه مسلم والترمذى والنسائى .

١٩ - وعن رجل من بنى سُلَيْم قال : عدّهن رسول الله - ﷺ - فى يدي أو فى يده . قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم نصف الصبر ، والطهور نصف الإيمان »<sup>(٢)</sup> رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

٢٠ - وعن أبي ذر - رضى الله عنه - أن ناساً من أصحاب النبى - ﷺ - قالوا للنبي - ﷺ - : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أىأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام ( بطريق الزنا وهتك الأعراض ، وتمزيق حجاب العفاف ) كان عليه وزر ( ذنب ) فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم وابن ماجه .

( الدثور : بضم الدال : جمع دثر بفتحها ، وهو المال الكثير ) .

( والبضع : بضم الموحدة : هو الجماع وقيل هو الفرج نفسه ) .

٢١ - وعن أبي سلمى - رضى الله عنه - راعى رسول الله - ﷺ - . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : يخ بخ ( كلمة يقال عند المدح والرضا بالشئ وتكرر للمبالغة والإحسان ) لخمس ما أثقلهن ( ترجع كفتها ويكثر أجرها ) فى الميزان : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله والله أكبر ، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه ( يطلب من الله العوض ) ، ويسلمه ذخيرة عند ربه ولا يجزع ، ولا يقول ما يغضب الرب تبارك وتعالى »<sup>(٤)</sup> رواه النسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه ورواه البزار بلفظه من حديث ثوبان ، وحسن اسناده .

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٠٣ كتاب الطهارة . باب ١ رقم ٢٢٣ .

انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٥٠١ كتاب الدعوات . باب ٨٦ رقم ٣٥١٧ .

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٥٠١ كتاب الدعوات باب ٨٧ رقم ٣٥١٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٥/٥٢ .

(٤) انظر كشف الاستار هم زوائد البزار ج ٤ ص ٩ رقم ٣٠٧٢ .

انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥١١

انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٧١ رقم ١٦٧

انظر صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٠٠ رقم ٨٣٠

٢٢ - وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله - ﷺ - : « خلق كل انسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل . فمن كبر الله وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله واستغفر الله ، وعزل ( أبعد عن طريق الناس ) حجراً عن طريق المسلمين ، أو شوكة أو عظماً عن طريق المسلمين ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة ، فإنه يمسى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار »<sup>(١)</sup> . رواه مسلم والنسائي .

٢٣ - وعن ابن أبي أوفى - رضى الله عنه - قال : قال أعرابي : يا رسول الله : إني قد عاجلت القرآن ( أخذت في تلاوته فصعبت على قراءته قراءة تامة ) فلم أستطعه ، فعلمني شيئاً يجزى من القرآن ( يعطيني ثواباً جزيلاً كأنى قرأت من القرآن ) قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقلها وأمسكها بأصابعه ، فقال : يا رسول الله هذا لربى فمالى ؟ قال : تقول : اللهم اغفر لى وارحمى وعافنى وارزقنى ، واحسبه قال واهدنى ، ومضى الأعرابي فقال رسول الله - ﷺ - : ذهب الأعرابي وقد ملأ يديه خيراً »<sup>(٢)</sup> . رواه ابن أبي الدنيا عن الحجاج بن أرطاة عن ابراهيم السكسكى عنه ، ورواه البيهقى مختصراً ، وزاد فيه : ولا حول ولا قوة إلا بالله . واسناده جيد .

٢٤ - وعن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - قال : جاء أعرابي إلى النبي - ﷺ - فقال : علمنى كلاماً أقوله ، قال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً . والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . قال : هؤلاء . فمالى ؟ قال : قل : اللهم اغفر لى ، وارحمى ، واهدنى ، وارزقنى »<sup>(٣)</sup> . وزاد من حديث أبي مالك الأشجعى : وعافنى ، وفى رواية قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك . رواه مسلم .

٢٥ - وروى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : جاء رجل بدوى إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله علمنى خيراً . قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . قال : وعقد بيده أربعاً ، ثم ذهب وقال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ثم رجع فلما رآه رسول الله - ﷺ - تيسم ، وقال : تفكر البائس ، فقال : يا رسول الله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا كله فمالى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : إذا قلت سبحان الله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : الحمد لله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : لا إله إلا الله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت الله أكبر قال الله : صدقت فتقول : اللهم اغفر لى ، فيقول الله : قد فعلت ، فتقول : اللهم ارحمنى ، فيقول الله : قد فعلت ، وتقول : اللهم ارزقنى ، فيقول الله : قد فعلت ، قال : فعقد الأعرابي سبعاً فى يده »<sup>(٤)</sup> . رواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقى ، وهو فى المسند وسنن النسائي من حديث أبي هريرة بمعناه .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٧/٥٤ .

انظر عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ رقم ٨٤٣ .

(٢) انظر السنن الكبرى للبيهقى ج ٢ ص ٣٨١ كتاب الصلاة باب الذكر يقوم مقام القراءة إذا لم يحسن من القرآن شيئاً .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٦/٣٣٠ .

(٤) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقى .



٢٦- وعن سلمى أم بنى رافع - رضى الله عنها - مولى رسول الله - ﷺ - أنها قالت : يا رسول الله أخبرني بكلمات ، ولا تكثر على ، فقال : « قولى : الله أكبر عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى سبحان الله عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى : اللهم اغفر لى ، يقول الله قد فعلت ، فتقولين عشر مرات : ويقول قد فعلت »<sup>(١)</sup> . رواه الطبرانى ورواه محتج بهم فى الصحيح .

٢٧- وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : استكثروا من الباقيات ( الدائم ثوابها ونعيمها ) الصالحات ( المقبول ذكر الله بها ، الداعية إلى تبجيل الله وتقديسه ) . قيل : وماهن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وأبو يعلى والنسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٢٨- وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « خذوا جنتكم . قالوا يا رسول الله عدو حضر ؟ قال : لا . ولكن جنتكم من النار . قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات . وهن الباقيات الصالحات »<sup>(٣)</sup> . رواه النسائى واللفظ له ، والحاكم والبيهقى .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . ( جنتكم ) : بضم الجيم وتشديد النون : أى ما يستركم ويقيكم ، ( ومجنبات ) بفتح النون : أى مقدمات أمامكم ، وفى رواية الحاكم منجيات بتقديم النون على الجيم ، وكذا رواه الطبرانى فى الأوسط ، وزاد ولا حول ولا قوة إلا بالله ورواه فى الصغير من حديث أبى هريرة فجمع بين اللفظين فقال : ومنجيات ومجنبات ، واسناده جيد قوى . ( ومعقبات ) بكسر القاف المشددة أى تتعقبكم ، وتأتى من ورائكم .

٢٩- وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فإنهن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا ( تزيلها وتلقيها ) كما تحط الشجرة ورقها ، وهى من كنوز الجنة »<sup>(٤)</sup> . رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد .

٣٠- وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن مما تذكرون من جلال الله : التسبيح والتهليل والتحميد . ينعطفن ( يملن ) نحو العرش . لهن دوى ( صوت ) كدوى النحل . تذكُر بصاحبها ، أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له من يذكر به »<sup>(٥)</sup> . رواه ابن أبى الدنيا وابن ماجة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٤ ص ٣٠٢ رقم ٧٦٦ .

(٢) انظر صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٠٢ رقم ٨٣٧ .

انظر الحاكم فى مستدركه ج ١ ص ٥١٢ كتاب الدعاء باب بيان الباقيات الصالحات .

انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٥٠ رقم ٨٥٤ .

انظر كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥٤١ .

(٤) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ رقم ٣٨٠٧ .

(٥) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٢ كتاب الأدب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٩ .

انظر كتاب المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥٠٠ كتاب الدعاء باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

٣١- وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : إذا حدثتكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك في كتاب الله : إن العبد إذا قال : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله . قبض عليهن ملك فضمنهن تحت جناحه ، وصعد بهن ، لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُحيّا بهن وجه الرحمن . ثم تلا عبد الله : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾<sup>(١)</sup> رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

٣٢- وعن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفذه فلم ينتفض ، ثم نفذه فانتفض ، فقال - ﷺ - : « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها »<sup>(٢)</sup> رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

٣٣- وعن معاذ بن عبد الله بن رافع - رضى الله عنه - قال : كنت في مجلس فيه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن أبي عميرة - رضى الله عنهم - فقال ابن أبي عميرة : سمعت معاذ ابن جبل يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كلمتان إحداهما ليس لها ناهية دون العرش ، والأخرى تملأ ما بين السماء والأرض . لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقال ابن أبي عميرة : أنت سمعته يقول ذلك ؟ قال نعم ، فبكى عبد الله بن عمر حتى اختضبت ( ابتلت وغمرت ) لحيته بدموعه ، وقال : هما كلمتان نعلقهما ونألفهما »<sup>(٣)</sup> نحفظهما ونكثر من ذكر الله بهما ) رواه الطبراني .

٣٤- وروى عن أبي الدرداء - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر ، أعتق الله ربه من النار ، ولا يقو لها اثنين إلا أعتق الله شطره من النار ، وإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار »<sup>(٤)</sup> رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

٣٥- وعن عمران يعني ابن حصين - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما يستطيع أحدكم أن يعمل كل يوم مثل أحد ؟ قالوا : يارسول الله : ومن يستطيع أن يعمل كل يوم عملاً مثل أحد ؟ قال : كلكم يستطيعه . قالوا يارسول الله : ماذا ؟ قال : سبحان الله أعظم من أحد ، ( ثوابها أكبر عند الله وأثقل من جبل أحد ) ولا إله إلا الله أعظم من أحد ، والحمد لله أعظم من أحد ، والله أكبر أعظم من أحد »<sup>(٥)</sup> رواه ابن أبي الدنيا والنسائي والطبراني والبخاري .

٣٦- وعن عبد الله ، يعني ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يؤتي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يؤتي الإيمان إلا من أحب ، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان ، فمن ضنَّ بالمال أن ينفقه ، وهاب العدو أن يجاهده ، والليل أن يكابده ، فليكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »<sup>(٦)</sup> . رواه الطبراني .

(١) انظر المستدرک علی الصحیحین ج ٢ ص ٤٢٥ .

(٢) انظر مسند أحمد ج ٣ ص ١٥٢ معاذ بن عبد الله بن رافع .

(٣) انظر مجمع الزوائد . كتاب الأذکار باب ما جاء في لا إله إلا الله والله أكبر ج ١٠ ص ٨٦ .

(٤) انظر الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائي ص ٢٤٧ رقم ٨٤٢ بلفظ ايعجز أحدكم .

انظر المعجم الكبير للطبراني ج ١٨ ص ١٧٤ ، ١٧٥ رقم ٣٩٨ .

نظر كشف الاستار عن زوائد البزار ج ٤ ص ١٠ ، ١١ رقم ٣٠٧٥ .

(٦) انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٩ ص ٢٢٩ رقم ٨٩٩٠ .

٣٧- وعن أبي المنذر الجهني - رضى الله عنه - قال : قلت يانبي الله : علمنى أفضل الكلام ؟ قال : « يا أبا المنذر قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ويبيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، مائة مرة فى كل يوم ، فإنك يومئذ أفضل الناس عملاً . » إلا من قال مثل ما قلت ، وأكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها سيد الاستغفار ، وإنها ممحاة للخطايا ( مزيلة ) أحسبه قال موجبة للجنة ( مسببة دخول الجنة حتماً )<sup>(١)</sup> رواه البزار من رواية جابر الجعفر .

٣٨- وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كتب له بكل حرف عشر حسنات »<sup>(٢)</sup> رواه ابن أبي الدنيا .

٣٩- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبى - ﷺ - يقول : من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قال الله : أسلم ( انقاد وأطاع ) عبدى واستسلم ( فوض أمره لى )<sup>(٣)</sup> . رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

٤٠- وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد . قلت وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى

٤١- وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - « أول من يدعون إلى الجنة الذين يحمدون الله - عز وجل - فى السراء والضراء »<sup>(٥)</sup> رواه ابن أبي الدنيا والبزار .

٤٢- وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « الثانى من الله والعجلة من الشيطان ، وما أحد أكثر معاذير من الله ، وما من شيء أحب إلى الله من الحمد »<sup>(٦)</sup> رواه أبو يعلى ورجاله الصحيح .

٤٣- وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما أنعم الله على عبد من نعمة فقال : الحمد لله ، إلا أبدى شكرها ، فإن قالها ثانياً جدد الله له ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله له ذنوبه »<sup>(٧)</sup> رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٤ ص ٩ ، ١٠ كتاب الأذكار باب فى التسبيح والتحميد والتهليل رقم ٣٠٧٣ .

(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٣٨٨ رقم ١٣٤٣٥ .

(٣) انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ١ ص ٥٠٢ .

(٤) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٩ وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٤ ص ٢٨ كتاب الأذكار باب الحمد لله على كل حال . رقم ٣١١٤ .

(٦) انظر سنن الترمذى بلفظ الأناة من الله ج ٣ ص ٢٤٨ كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى الثانى والعجلة .

انظر كنز العمال ج ٣ ص ١٠١ رقم ٥٦٧٥ .

(٧) انظر المستدرك على الصحيحين ج ١ ص ٥٠٧ .

٤٤ - وروى عن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما أنعم الله - عز وجل - على عبد نعمة فحمد الله - عز وجل - عليها إلا كان ذلك أفضل من تلك النعمة ، وإن عظمت » <sup>(١)</sup> رواه الطبراني .

٤٥ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم » <sup>(٢)</sup> . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه والنسائي وابن حبان في صحيحه .

### \* فضل سبحان الله وبحمده \*

أولاً : محبوبة عند الله - جل وعلا -  
 ثانياً : تجلب آلاف الحسنات لذاكر الله بها ، وتكاد تؤدي شكر النعم على إنعامه وترجع كفة قائلها أمام وزن ما أنعم الله به على عباده ، إن شاء غفر له وسامحه وعفا عنه .  
 ثالثاً : تغفر له نخلة في الجنة .  
 رابعاً : الفقير يكثر من تسبيح الله - تعالى - رجاء أن يشيد له في الصالحات مكاناً علياً .  
 خامساً : تسبب غفران الخطايا وإن كثرت عددها « مثل زبد البحر » .  
 سادساً : سبب بسط الرزق وسعته ، وإزالة الضيق وتفريج الكرب .  
 سابعاً : ثوابها يكثر بجوار العرش يدخر لطالبه .  
 ثامناً : أحب صيغة اختارها رسول الله - ﷺ - .  
 تاسعاً : غراس الجنة بكل كلمة شجرة .  
 عاشراً : الإكثار من تسبيح الله بها تتحرر عشرة نفوس ذليلة ، ونحر إبل في الإنفاق لله - تعالى - .  
 الحادى عشر : بكل تسبيحة صدقة وذكر الله بها يؤدي الصدقات عن ٣٦٠ مفصلاً ، وهى الدروع الحصينة المانعة عذاب الله .  
 الثانى عشر : تلاوتها تنبئ عن تفويض العبد كل أعماله لربه ظاهرها وباطنها والشعور بالذلة والانقياد له ، والضعف والإستكانة ، وأنه وحده الفعال المنفذ القادر القهار .  
 الثالث عشر : بقدر تلاوتها ثمرات الجنة تدخر لذاكر الله .  
 الرابع عشر : الذاكرون أول زمرة يقدم لهم نعيم الله .  
 الخامس عشر : أعمالهم كاملة وأجورهم وافية ، والغافلون أعمالهم ناقصة قليلة البركة .  
 السادس عشر : تلاوتها . هذه الصيغة محمودة ومحبوبة ، وزائدة الثواب ومرجوة القبول لأنها من ألفاظ سيدنا المصطفى - ﷺ - قال - تعالى - ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ <sup>(٣)</sup>

(١) انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٥ .

انظر كنز العمال رقم ١٧١٩٥ .

انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٣٨ .

(٢) انظر عمل اليوم والليلة للنسائي ص ١٥٧ رقم ٤٩٩ ولفظه : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » .

انظر سنن أبى داود جـ ٥ ص ١٧٢ رقم ٤٨٤٠ .

انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٦١٠ كتاب النكاح . باب خطبة النكاح رقم ١٨٩٤ بلفظ « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد ... » .

(٣) سورة الضحى آية ٥ .

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفى به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم للموعد أم لا . واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان »<sup>(١)</sup> . وفي الحديث الآخر في الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهم كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها »<sup>(٢)</sup> فذكر منهم إخلاف الوعد ولهذا أكد الله هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيع قال : قال : أئانا رسول الله - ﷺ - وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله : تعالى أعطك ، فقال لها رسول الله - ﷺ - « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت تمرأ فقال « أما إنك لو لم تفعل كُتبت عليك كذبة »<sup>(٣)</sup>

وذهب الإمام مالك - رحمه الله - إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعد وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك على كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك لأنه تعلق به حق آدمي وهو مبني على المضايقة وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَا كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلِمُونَ فِتْيَلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾<sup>(٤)</sup> وقال - تعالى - ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾<sup>(٥)</sup> الآية . وهكذا هذه الآية معناها كما قال علي بن أبي طالب عن ابن عباس في قوله - تعالى - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقرؤا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك

(١) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٥ كتاب الايمان . باب علامة المنافق طبعة الحلبي .

انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٧٨ كتاب الايمان باب بيان خصال المنافق رقم ٥٩/١٠٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٥ كتاب الايمان باب علامة المنافق .

انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٧٨ كتاب الايمان . باب بيان خصال المنافق رقم ٥٨/١٠٦ .

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٢٦٥ كتاب الادب باب في التشديد في الكذب رقم ٤٩٩١ .

انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٤٧ .

(٤) سورة النساء آية ٧٧ ، ٧٨ .

(٥) سورة محمد آية ٢٠ .

فولوا عن النبي - ﷺ - مدبرين فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ ﴾ وقال : أحبكم إلى من قاتل في سبيلي . ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخاً لقوم يقولون قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد نزلت في قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون بذلك . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ لَمْ تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ ﴾ قال الجهاد . وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد ﴿ لَمْ تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ - إلى قوله - كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فما بين ذلك في نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا في مجلس : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت . فأنزل الله تعالى فيهم فقال عبد الله بن رواحة لا أبرح حبيساً في سبيل الله حتى أموت فقتل شهيداً .

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال كنا نقرأ سورة نسيها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أنى قد حفظت منها ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ ﴾ فتكتب شهادة في أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة . لقد قرن الإسلام القول بالعمل ، وأوجب ذلك على المؤمنين كما قال - تعالى - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (١) فالإيمان والإسلام نطق باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجان . ليس الإيمان بالتبني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل . وإن قوماً غرهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

كان المسيح بن مريم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يقول : « يا بني إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ولكن البسوا ثياب الملوك وآلنوا قلوبكم بخشية الله » .

لقد ألقى القرآن باللائمة على قوم أمروا ولم يأتروا ، ونهوا غيرهم ولم ينتهوا . قال - عز من قائل - : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ لذلك فإن أنبياء الله ضربوا المثل الأعلى في الإلتزام بالصدق قولاً وعملاً ، قال القرآن الكريم حكاية عن خطيب الأنبياء شعيب - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلَفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ . إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

كم تكون المسئولية خطيرة وجسيمة ، وكم يكون العقاب شديداً ومضاعفاً لقوم أمروا غيرهم ولم يأتروا ونهوا الناس ولم ينتهوا . قال - تعالى - في الحديث القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحهم فتنة تدع الحليم منهم حيران أبى يغترون أم عليّ يجترأون »

يأيها الرجل المعلم غيره  
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا  
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا  
أبدأ بنفسك فانها عن غيرها  
فهنالك يسمع ماتقول ويشتفى  
لا تنه عن خلق وتأتى مثله  
هلا لنفسك كان ذا التعليم  
كيا يصح به وأنت سقيم  
أبدأ وأنت من الرشاد عديم  
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم  
بالقول منك وينفع التعليم  
عار عليك إذا فعلت عظيم

وما أجل قول القائل :

يا واعظ الناس قد أصبحت متها  
تعيب دنيا وناساً عاملين لها  
إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها  
وأنت أعظم منهم رغبة فيها

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول لأهله : ( يا آل عمر اتقوا الله فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم ) وكان يقول : ( رحم الله أمراً أهدى إلى عيوى ) .  
وقد رويت أحاديث شريفة عن رسول الله - ﷺ - تروى من أن يأمر بمعروف ، وينهى عن منكر ويخالف قوله فعله .

١ - عن أسامة بن زيد - رضى الله عنها - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « يؤق بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت أمر بالمعروف ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم . ( الأقتاب : الأمعاء ) .

٢ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاهم ( تقطع شفاهم ) بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون »<sup>(٢)</sup> رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والبيهقى .

٣ - وعن الحسن - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أردت بها » . قال : فكان مالك يعنى ابن دينار إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أنحسبون أن عني تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائل عن يوم القيامة . قال : ما أردت به ،

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٧ كتاب بدأ الخلق . باب صفة النار وأنها مخلوقة .

انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢ كتاب الزهد والرقائق . باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله رقم ٢٩٨٩/٥١ .

(٢) انظر صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٣٥ .

انظر البيهقى فى شعب الإيمان نسخة مصورة من المخطوطة ص ١١٩ . باب طلب العلم . فصل ما ينبغي للعلم والمتعلم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى .

فأقول : أنت الشهيد على قلبي لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً<sup>(١)</sup> . رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي باسناد وحيد .

٤ - وروى عن الوليد بن عقبة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل<sup>(٢)</sup> » . رواه الطبراني في الكبير .

٥ - وعن أبي تيممة عن جندب بن عبد الله الأزدي صاحب رسول الله ﷺ - ، - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ - قال : « مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه<sup>(٣)</sup> » . رواه الطبراني وأسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبي برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

٦ - وعن عمران بن حصين - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان<sup>(٤)</sup> » . رواه الطبراني في الكبير والبزار ، ورواه محتج بهم في الصحيح .

٧ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ - قال : « إن الرجل لا يكون مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء . ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله ، ويأمن جاره بوائقه<sup>(٥)</sup> » . رواه الأصبهاني .

٨ - وعن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - : « إني لا أخوف على أمتي مؤمناً ولا مشركاً . أما المؤمن فيحجزه ( فيمنعه ) إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أخوف عليكم منافقاً عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون<sup>(٦)</sup> » . رواه الطبراني في الصغير والأوسط من رواية الحارث .

٩ - وعن الأعز بن أبي مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر ، بعث إليه فدعاه فأتاه فقال : إني أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تحف يدك من دمائهم وأن تضمر بطنك من أمواهم ، وأن تُجف لسانك عن أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله » . رواه الطبراني ورواه ثقات .

(١) انظر جامع الأحاديث ج ٥ ص ٥٩٢ رقم ١٨٨٤٠ .

انظر البيهقي في شعب الإيمان . باب العلم .

(٢) انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٥ باب في من لم يتنفع بعلمه .

انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٢٢ ص ١٥٠ رقم ٤٠٥ .

(٣) انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨٤ باب في من لم يتنفع بعلمه .

(٤) انظر زوائد البزار ج ١ ص ٩٧ رقم ١٦٨ عن عمر .

انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ .

انظر كنز العمال رقم ٢٨٩٧٠ . تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٢٢ .

(٥) انظر حلية الأولياء للأصبهاني ج ٤ ص ١٦٦ .

(٦) انظر المعجم الصغير للطبراني ج ٢ ص ٩٣ .



١٠ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينه » (١) رواه ابن حبان في صحيحه .

### \* فضل القتال في سبيل الله \*

قوله - تعالى - : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوعٌ ﴾ فهذا اخبار من الله - تعالى - بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا لمواجهة أعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان .

قال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال » (٢) . رواه ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغنى عن أبي ذر حديث كنت أشتهى لقاءه فلقيته . فقلت : يا أبا ذر : كان يبلغنى عنك حديث فكنت أشتهى لقاءك ، فقال الله أبوك فقد لقيت فهاهنا : فقلت كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله - ﷺ - حدثكم « أن الله ييغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال أجل . فلا إخالني أكذب على خليلي - ﷺ - قلت فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوعٌ ﴾ (٣) .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - « عبدى المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسبيته السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة ، وملكه الشام وأمه الحمادون يحمدون الله على كل حال ، وفى كل منزلة لهم دوى كدوى النحل فى جو السماء بالسحر ، يوضئون أطرافهم ويأترون على أنصافهم صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ إِنْ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوعٌ ﴾ رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم ولو على ظهر دابة (٤) رواه ابن أبي حاتم .

(١) انظر صحيح ابن حبان جـ ٧ ص ٥٠٦

(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ ٣ ص ٨٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٣٣ طبعة الشعب .

انظر سنن الترمذى حديث رقم ٢٥٦٨ .

انظر مسند أحمد جـ ٥ ص ١٧٦ .

(٤) انظر الشفاء للقاضى عياض جـ ١ ص ١٥ ، ١٦ .

انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٣٤ طبعة الشعب .

وقال سعيد بن جبير في قوله - تعالى - : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا ﴾ قال : كان رسول الله - ﷺ - لا يقاتل العدو إلا أن يضافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله - تعالى - : ﴿ كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ أى : ملتصق بعضه في بعض من الصف في القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض . وقال ابن عباس : ( كأنهم بنيان مرصوص ) مثبت لا يزول ملتصق بعضه ببعض . وقال قتادة : ( كأنهم بنيان مرصوص ) ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يجب أن يختلف بنيانه . فكذلك الله - عز وجل - لا يجب أن يختلف أمره وإن الله صف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير بسنده عن أبي بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتموني ألتفت في الصف فجؤا في الحى <sup>(١)</sup> .

### \* بعض ماورد من الآيات القرآنية \* في فضل الجهاد بالنفس والمال

قال الله - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعِلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة - ٢٤٤ ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة - ٢٦١ ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ آل عمران ١٦٩ - ١٧١ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ، آل عمران ٢٠٠ .

وقال - تعالى - : ﴿ فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ النساء - ٧٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ النساء - ٧٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ لَا يَسْتَوِ الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولَى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ النساء ٩٥ - ٩٦ .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٣٤ .

انظر تفسير الطبري ٥٧/٢٨ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ المائدة - ٥٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ الأنفال ١٥ - ١٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ الأنفال - ٣٩ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال ٤٥ - ٤٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جُنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَأَجْزَحْ لَهُمَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنفال ٦٠ - ٦١ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ الأنفال ٦٥ - ٦٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ التوبة - ٢٩ .

وقال - تعالى - : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ التوبة ٣٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة - ٤١ .

وقال - تعالى - : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ التوبة - ١١١ .

وقال - تعالى - : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ الحج - ٧٨ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ محمد - ٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الحجرات - ١٥ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبَشِ الْمَصِيرَ ﴾ التوبة - ٧٣ .

وقال - تعالى - : ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة - ٢١٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنُ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ الصف ١٠ - ١٣ .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الواردة في فضل الجهاد .

وأما الأحاديث الأربعون فهي هذه :

### الحديث الأول

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها <sup>(١)</sup> وحسابهم على الله » رواه مسلم .

١ - ذكر القاضي عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركوا العرب وأهل الأوثان ومن لا يوجد ، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقُتِلَ عليه ، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد - كأهل الكتاب وإن كان توحيدهم غير صحيح ولا ينفعهم شيئاً - فلا يكتفى في عصمته بقوله لا إله إلا الله ، إذا كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده ، فلذلك جاء الحديث : « وأنى رسول الله ويقم الصلاة ويؤتي الزكاة » هذا كلام القاضي .

قلت - أى الامام النووي : ولا بد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ﷺ - لما جاء في الرواية الأخرى لأبي هريرة - رضى الله عنه - وهي مذكورة في الكتاب - مسلم ( ٢١ ) : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به » والله أعلم .

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٢ ، ٥٣ كتاب الإيمان باب ٨ رقم ٢١/٣٥ .

انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ١ ص ١٣ كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة . طبعة الخليلي .

## الحديث الثاني

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : سئل رسول الله - ﷺ - : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال : « جهاد فى سبيل الله » . قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور » <sup>(١)</sup> رواه البخارى ومسلم .

١ - قال الحافظ بن حجر : فإن قيل : لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن ؟ فالجواب : إن نفع الحج قاصر غالباً ، ونفع الجهاد متعدد غالباً . أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين ، ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر ، فكان أهم منه فقَدَمَ .

وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله » <sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله أى العمل أحب إلى الله - تعالى - ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » <sup>(٣)</sup> رواه البخارى ومسلم .

٢ - محصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال : أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين ، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم . أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل فى ذلك الوقت أفضل منه فى غيره .

فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها . وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة - للنوافل - أفضل من الصدقة . ومع ذلك ففى وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل .

## الحديث الثالث

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : أتى رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : أى الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله » . قال : ثم من ؟ قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب يعبد الله ربه ، ويدع الناس من شره » <sup>(٤)</sup> رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٤ كتاب الايمان باب ١٧ طبعة الحلبي

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٨٨ ، ٨٩ كتاب الايمان باب بيان أن الايمان بالله تعالى أفضل الأعمال رقم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ .

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ١٣٤ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

(٤) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب أفضل الناس مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٣ كتاب الامارة . باب فضل الجهاد والمراطة رقم ١٢٢ ، ١٢٣ / ١٨٨٨ .

١ - الحديث محمول على الاعتزال في زمن الفتن والحروب - بين المسلمين - أو هو فيمن لا يسلم الناس منه ولا يصير عليهم ، أو نحو ذلك من الخصوص .

وقد كانت الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وجماهير الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد مختلطين ، فيحصلون منافع الاختلاط كشهود الجمعة والجماعة ، والجناز ، وعيادة المرضى ، وخلق الذكر ، وغير ذلك .

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : مر رجل من أصحاب النبي - ﷺ - بشعب - هو ما انفرج بين جبلين - فيه عينة - تصغير عين - من ماء عذبة فأعجبته لطيفها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب ، ولن أفعل حتى أستاذن رسول الله - ﷺ - . فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : « لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة أغزوا في سبيل الله ، من قاتل في سبيل الله فواق الناقة - هو ما بين الحلبتين من الوقت - وجبت له الجنة »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن .

### الحديث الرابع

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » . ثم قال : « مثل المجاهد في سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله »\* . رواه البخارى ومسلم .

١ - قال الامام النووي : في هذا الحديث عظيم فضل الجهاد ، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله - تعالى - أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك في لحظة من اللحظات . ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ، ولهذا قال - ﷺ - : « لا تستطيعونه » . والله أعلم . شرح مسلم .

### الحديث الخامس

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً قال : يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد ؟ قال : « لا أجده » ثم قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ »<sup>(٢)</sup> فقال ومن يستطيع ذلك ؟<sup>(٣)</sup> رواه البخارى .

١ - قال العلامة ابن حجر : هذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل الله ، تقتضى أن لا يعدل الجهاد شيء من الأعمال . قال عياض : اشتمل الحديث على تعظيم أمر الجهاد ، لأن الصيام وغيره مما ذكر من

(١) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١٥٥ كتاب فضائل الجهاد . باب ما جاء في فضل الفدر والرواح في سبيل الله رقم ١٦٥٠ .

(\*) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٢ ص ١٣٥ باب أفضل الناس مؤمن يجاهد نفسه وماله في سبيل الله .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٩٨ كتاب الامارة . باب فضل الشهادة في سبيل الله رقم ١٨٧٨/١١٠ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . ج ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد ، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها . فتح الباري .

### الحديث السادس

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن في الجنة مائة درجة أعددها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » <sup>(١)</sup> رواه البخارى .

١ - ليس في سياق الحديث التصريح بأن العدد المذكور هو جميع درج الجنة من غير زيادة ، إذ ليس فيه ما ينفيها . ويؤيد ذلك أن في حديث أبي سعيد المرفوع الذى أخرجه أبو داود وصححه الترمذى وابن حبان : « ويقال لصاحب القرآن اقراء وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها » <sup>(٢)</sup> . وعدد أى القرآن أكثر من ستة آلاف ومائتين ، والخلف فيما زاد على ذلك من الكسور .

### الحديث السابع

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وجبت له الجنة » . فعجب لها أبو سعيد فقال : أعددها على يا رسول الله . فأعدها عليه ، ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » <sup>(٣)</sup> رواه مسلم .

١ - قال القاضى عياض - رضى الله عنه - يحتمل أن هذا على ظاهره وأن الدرجات هنا المنازل التى بعضها أرفع من بعض في الظاهر ، وهذه صفة منازل أهل الجنة . كما جاء في أهل الغرف أنهم يتراءون كالكوكب الدرى الشديد الإنارة ويحتمل أن المراد الرفعة بالمعنى في كثرة النعيم وعظيم الإحسان ، مما لم يخطر على قلب بشر ولا يصفه مخلوق ، وأن أنواع ما أنعم الله به عليه من البر والكرامة يتفاضل تفاضلاً كثيراً ويكون تباعده في الفضل كما بين السماء والأرض في البعد قال القاضى : والاحتمال الأول أظهر . شرح مسلم .

### الحديث الثامن

عن أبي بكر بن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : « سمعت أبى وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » . فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى ، أنت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول هذا ؟ قال نعم ، فرجع إلى أصحابه فقال : اقرأ

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . ج ٢ ص ١٣٦ . كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين في سبيل الله .

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١٦٣ كتاب فضائل القرآن . باب ١٨ رقم ٢٩١٤ .

انظر صحيح ابن حبان ج ٢ ص ٧١ رقم ٧٦٣

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠١ كتاب الامارة باب ما أعد الله للمجاهد . رقم ١٨٨٤/١١٦ .

عليكم السلام . ثم كسر جفن سيفه\* فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل\* رواه مسلم .

١ - قال النووي في شرح مسلم : قال العلماء معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها .

وقال المناوي في شرح الجامع : هو كناية عن الدنو من العدو في الحرب بحيث تعلوه السيوف فيصير ظلها عليه . وقال أبواب الجنة ولم يقل الجنة لأن المراد أن الجهاد طريق لذلك ، وهذا التعبير أدل عليه .

### الحديث التاسع

عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : أتى النبي - ﷺ - رجل مقنع بالحديد فقال : يا رسول الله : أقاتل أو أسلم ؟ قال : « أسلم ثم قاتل » . فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً »<sup>(١)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

وعنه - رضى الله عنه - قال : جاء رجل من بني النبيت - قبيل من الأنصار - فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت عبده ورسوله . ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فقال النبي ﷺ : « عمل هذا يسيراً وأجر كثيراً » رواه مسلم .

### الحديث العاشر

عن أنس - رضى الله عنه - قال : انطلق رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون فقال رسول الله - ﷺ - : « لا يقدم أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه » . فدنا المشركون ، فقال رسول الله - ﷺ - : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . قال عمير بن الحمام<sup>(١)</sup> يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخ . بخ . فقال رسول الله - ﷺ - : « ما يحملك على قولك بَخْ . بَخْ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج ثمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : إن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضى الله عنه\* . رواه مسلم .

(\*) جفن السيف : أى : غمده .

(\*) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠٢/١٤٦ .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٩ كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ١٩٠٠/١٤٤ .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٠ ، ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠١/١٤٥ .



قوله : ( بخ . بخ ) : كلمة تقال عند التعجب من الشيء واستحسانه وقوله ( من قرنه ) : هو جعبة النشاب .

١ - عمير بن الحمام الأنصارى السلمى - رضى الله عنه - أول شهيد من الأنصار فى الاسلام فى حرب . كان رسول الله - ﷺ - قد آخى بينه وبين عبدة بن الحارث المطلبى فاستشهدا يوم بدر . وقد روى هذا الحديث ابن اسحاق وزاد : أنه أخذ السيف فقاتل القوم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد  
والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد  
وخير ما قاد إلى الرشاد وكل حى فإلى نفاذ .

### الحديث الحادى عشر

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً » . رواه مسلم (\*)

يعنى : قاتل الكافر فى الجهاد فى سبيل الله .

١ - فى شرح مسلم قال القاضى عياض : يحتمل أن هذا مختص بمن قتل كافراً فى الجهاد ، فيكون ذلك مكفراً لذنبه حتى لا يعاقب عليها ، وأن يكون عقابه بغير النار . أو يعاقب فى غير مكان عقاب الكفار ، ولا يجتمعان فى أدراكها . قال الطيبى : والأول هو الوجه وهو من الكناية التلويحية نفى الاجتماع فيلزم منه نفى المساواة بينهما . فيلزم ألا يدخل المجاهد النار أبداً ، فإنه لو دخلها لساواه . وقوله أبداً بمعنى قط فى الماضى وعوض فى المستقبل تنزيلاً للمستقبل منزلة الماضى . قال الجوهرى . يقال : لا أفعله أبداً أبداً أبداً ، كما يقال دهر الداهرين وعوض العائضين . والمقام يقتضيه لأنه ترغيب فى الجهاد والحث عليه .

### الحديث الثانى عشر

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون دم والريح ريح مسك » (١) رواه البخارى ومسلم ومعنى كلم : جرح .

١ - الحكمة فى كون الدم يأتى يوم القيامة على هيئة أنه يشهد لصاحبه بفضلته وعلى ظالمه بفعله . وفائدة رائحته الطيبة أن تنتشر فى أهل الموقف إظهاراً لفضيلته أيضاً ، ومن ثم لم يشرع غسل الشهيد فى المعركة .

(\*) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٥ كتاب الامارة . باب ٣٦ رقم ١٨٩١/١٣٠ .

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ط/الخلي ج ٢ ص ١٣٨ كتاب الجهاد والسير . باب من يجرح فى سبيل الله .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٥

## الحديث الثالث عشر

عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه <sup>(١)</sup> . وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فاطعمته ثم جلست تفلئ رأسه . فنام رسول الله - ﷺ - ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت : يا رسول الله ما يضحكك ؟ قال : « ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة » <sup>(٢)</sup> .

قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم . فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : « ناس من أمتي عرضوا على غزاة في سبيل الله » ، كما قال في الأولى قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت من الأولين » . فركبت أم حرام بنت ملحان البحر في زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت - رضى الله عنها - . رواه البخارى ومسلم .

ومعنى ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

قال الحافظ المنذرى في كتابه الترغيب والترهيب : كان معاوية - رضى الله عنه - قد أغزى عبادة بن الصامت قبرس ، فركب البحر غازياً وركبت معه زوجته أم حرام .

١ - قال النووي : اتفق العلماء على أنها كانت محرماً له - ﷺ - واختلفوا في كيفية ذلك . فقال ابن عبد البر وغيره : كانت إحدى خالاته من الرضاعة ، وقال آخرون : بل كانت خالة لأبيه أو لجدته لأن عبد المطلب كانت أمه من بنى النجار .

٢ - قال ابن عبد البر : أراد - والله أعلم - أنه رأى الغزاة في البحر من أمته ملوكاً على الأسرة في الجنة ، ورؤياه وحى ، وقد قال تعالى في صفة أهل الجنة : ﴿ على سُرُرٍ متقابلين ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ <sup>(٤)</sup> والأرائك هى السرر فى الحجال . فتح البارى .

٣ - فى الحديث معجزات للنبي - ﷺ - منها اخباره ببقاء أمته بعده وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد ، وأنهم يغزون وأنهم يركبون البحر وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان وأنها تكون معهم . وقد وجد - بحمد الله تعالى - كل ذلك . شرح مسلم .

٤ - كان ذلك سنة ثمان وعشرين ، وكان فى خلافة عثمان ومعاوية يومئذ أمير الشام . فتح البارى .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٨ ، ١٥١٩ كتاب الامارة باب ٤٩ رقم ١٦٠/١٩١٢

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٢ ص ١٤٩ كتاب الجهاد والسير . باب غزو المرأة فى البحر ط/الحلبى

(٣) سورة الصافات آية ٤٤

(٤) سورة يس آية ٥٦

## الحديث الرابع عشر

عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - أن اعرابياً أتى النبی - ﷺ - فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ فقال : رسول الله - ﷺ - : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم

١ - قال الحافظ بن أبي حمزة : الجواب هنا احتمال وجوهاً لكل واحد منها حكم أحدهما : وهو أعلاها بلا خلاف وهو أن يكون لله ولا يكون هناك غير ذلك .

والثاني : أن يكون المثير للقتال أحد الوجوه المذكورة في الحديث ، أو الزيادة التي في غيره ، وهي أن يقاتل طبعاً ، ثم عند الشروع يجرد النية أن تكون كلمة الله هي العليا ، فهذا هو الذى يعطيه نص الحديث . لأن المثير للشيء لا يلتفت إليه إذا لم يستصحب به الحال حتى يكون الفعل له ، لأن الحكم للأحداث فالأحداث .

الثالث : أن يكون لذلك المؤثر والله معاً - على حد واحد - فهذا ليس من الله في شيء . لما جاء أن الله - جل جلاله - إذا كان في العمل شرك لغيره يقول الله يوم القيامة لصاحب العمل : « أنا أغنى الشركاء ، اذهب فاطلب الأجر من غيري »<sup>(٢)</sup>

الرابع : أن يكون لأحد الوجوه المذكورة لا غير ، فهذا له ما يقتضيه فعله ونيته من إثم أو إباحة بحسب قواعد الشرع في كل قضية . بهجة النفوس .

## الحديث الخامس عشر

عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها »<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

١ - قال ابن دقيق العيد : يحتمل - الحديث - وجهين ، أحدهما أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقاً له في النفس . لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع ، فلذلك وقعت المفاضلة بها . وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوى ذرة مما في الجنة . والثاني : أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذى يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة الله - تعالى - .

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ج ٢ ص ١٣٩ كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة هي العليا .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٢ ، ١٥١٣ كتاب الامارة باب ٤٢ رقم ١٩٠٤/١٤٩

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ١٣٦ كتاب الجهاد والسير . باب الغدوة والروحة في سبيل الله ط/الخلبي .

انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٩٩ كتاب الامارة باب ٣٠ رقم ١٨٨٠/١١٢

قال ابن حجر : إن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا ، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا .  
الغدوة : الذهاب قبل الظهر ، والروحة : الرجوع بعده والمراد هنا : الذهاب والرجوع مطلقاً .

### الحديث السادس عشر

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تَضَمَّنَ اللَّهُ <sup>(١)</sup> لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ ، لَا يَخْرُجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَإِيمَانًا بِى وَتَصَدِيقًا بِرَسُولِى ، فَأَنَا ضَامِنٌ أَنْ أَدْخِلَهُ الْجَنَّةَ ، أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ . وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا كَلِمَ يَكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ كَلَّمَ ، لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ ، وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ سَرِيَّةً تَغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، وَلَكِنْ لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى . وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوُدِدْتُ أَنْ أَغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَقْتُلَ ثُمَّ أَغْزُوا فَأَقْتُلَ <sup>(٢)</sup> » رواه مسلم .

ورواه البخارى بلفظ : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرججه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق لكلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » . الحديث .

١ - وفي الرواية الأخرى « تكفل الله » ومعناها : أوجب الله تعالى له الجنة بفضلِهِ وكرمه سبحانه وتعالى . وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

٢ - قال الإمام النووى : فى الحديث ما كان عليه - ﷺ - من الشفقة على المسلمين والرأفة بهم ، وأنه كان يترك بعض ما يختاره للرفق بالمسلمين وأنه إذا تعارضت المصالح بدأ بأهمها .

٣ - قال الحافظ بن حجر : ظاهر الحديث أنه إذا غنم لا يحصل له أجر ، وليس ذلك مراداً . بل المراد أو غنيمة معها أجراً نقص من أجر من لم يغنم . لأن القواعد تقتضى أن الجهاد عند عدم الغنيمة أفضل منه وأتم أجراً عند وجودها فالحديث صريح فى نفى الحرمان ، وليس صريحاً فى نفى الجمع .

### الحديث السابع عشر

عن عبد الرحمن بن جبيرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مَا اغْبَرَّتْ قَدَمَا عَبْدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّهُ النَّارُ <sup>(١)</sup> » رواه البخارى .

١ - قال ابن حجر : فى هذا إشارة إلى عظيم قدر التصرف فى سبيل الله ، فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النار ، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٣

(٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٥ كتاب الجهاد والسير باب ما غيرت قدماه فى سبيل الله .

وهذا ليس منحصراً بالجهد في سبيل الله ، بل كل طاعة يجاهد المسلم فيها نفسه داخله في هذا المعنى . قال ابن أبي حمزة : وهو الأظهر كما ذهب إليه بعض الصحابة حيث قال لأخيه حين لقيه في طريق المسجد قد اغبرت قدماه فسأله : أغبر الصلاة أخرجك ؟ . قال : لا ، لم أخرج لغيرها . فقال : شهدت على رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ما اغبرت قدما رجلا في سبيل الله إلا حرمه الله على النار » . فقال له الرجل : ذلك خاص بالقتال ، فقال الصحابي : أفعال الخير كلها في سبيل الله . وقد قال - عليه السلام - : في الخارج للمسجد : « هو في ذمة الله إن مات أدخله الله الجنة ، وإن رجع إلى منزله كان كالمجاهد رجع بالأجر والغنيمة » وهذا نص في المسألة فيجب تعديه في جميع وجوه البر ، ويكون الأول - أي الجهاد - منها أظهرها وأعلاها .

### الحديث الثامن عشر

عن سهل بن سعد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها <sup>(١)</sup> » رواه البخارى ومسلم .

١ - الرباط : ههنا مرابطة الغزو في نحور العدو ، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين . قال ابن قتيبة : أصل الرباط أن يربط هؤلاء خيلهم وهؤلاء خيلهم استعداداً للقتال ، قال الله - تعالى - : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولقد كان الرباط دأب السلف كالأوزاعي والشافعي وغيرهم من علماء هذه الأمة . وروى الحافظ بن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك أنه أرسل إلى الفضيل بن عياض من مكان مرابطته بطرسوس هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خدّه بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا	وهج السنايك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله في	أنف إمريء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال - ناقل الرسالة - : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه في المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال : صدق أبو عبد الرحمن - ابن المبارك - ونصحني .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٣ . كتاب الجهاد والسير . باب فضل رباط يوم في سبيل الله .

(٢) سورة الأنفال آية ٦٠ .

## الحديث التاسع عشر

عن سلمان الفارسي - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « رباط يوم ليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل<sup>(١)</sup> » ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتان<sup>(٢)</sup> . رواه مسلم . يعنى فتنة القبر .

١ - قال الإمام النووي : هذه فضيلة ظاهرة للمرابط ، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد . وقد جاء جريحاً في غير مسلم - عند أبي داود والترمذى وأحمد - : « كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة » .

## الحديث العشرون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشَفَّع<sup>(٣)</sup> » رواه البخارى .

١ - قال ابن الجوزى : المعنى أنه حامل الذكر لا يقصد السمو ، فإن اتفق له السير سار . فكأنه قال : إن كان في الحراسة استمر فيها ، وإن كان في الساقة استمر فيها .

وطوبى : فعلى من كل شىء طيب . وقال بعضهم : المراد الدعاء له بالجنة ، لأن طوبى أشهر شجرها وأطيبه فدعا له أن ينالها .

## الحديث الحادى والعشرون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل يُمسك بعنان فرسه في سبيل الله<sup>(٤)</sup> » . يطير على منته . كلما سمع هيعة أوفزعة طار على منته . يبتغى القتل أو الموت مظانة<sup>(٥)</sup> . أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف . أو بطن واد من هذه الأودية . يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة . ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين . ليس من الناس إلا في خير<sup>(ب)</sup> رواه مسلم . والشعفة : رأس الجبل .

(١) قال النووي : المعاش هو العيش وهو الحياة ، وتقديره . والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك .

(٢) هيعة : الصوت عند حضور الأعداء . والفزعة : النهوض إلى العدو . ومعنى يبتغى القتل مظانة : يطلبه في موطنه التي يرجى فيها لشدة رغبته في الشهادة .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٠ . كتاب الامارة باب ٥٠ رقم ١٦٣/١٩١٣ .

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١٤٢ . كتاب فضائل الجهاد رقم ١٦٢١ وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ٢٠٦ .

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤١ ، ٤٢ . كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل الله . وأول الحديث نفس عبد الدينار

وعبد درهم .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ . كتاب الامارة . باب ٣٤ رقم ١٨٨٩/١٢٥٠ .

## الحديث الثاني والعشرون

عن زيد بن خالد الجهني - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم .  
وعن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بعث إلى بنى لحيان : « ليخرج من كل رجلين رجل »<sup>(٢)</sup> ، ثم قال للقاعد : « أيكم خلف الخارج ، في أهله فله مثل أجره » . رواه مسلم .

(١) أى حصل له أجر بسبب الغزو . وهذا الأجر يحصل بكل جهاد سواء قليله وكثيره ، ولكل خالف له في أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم في أمرهم . ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته . وفي الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم .

(٢) قال النووى : اتفق العلماء على أن بنى لحيان كانوا في ذلك الوقت كفاراً ، فبعث إليهم بعثاً يغزونهم وقال لذلك البعث ليخرج من كل قبيلة نصف عددها وهو المراد بقوله : « من كل رجلين رجل » .

## الحديث الثالث والعشرون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده ، فإن شبعه ورّيه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> . يعنى حسنات . رواه البخارى .

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل : يا رسول الله فالحيل ؟ قال : « الحيل لثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر فأما التى هى وزر ، فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام »<sup>(٣)</sup> . فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها في سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها »<sup>(٤)</sup> . فهى له ستر . وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام ، في مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شئ ، إلا كتب له ، عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له ، عدد أروائها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفاً أو شرفين إلا كتب له ، عدد آثارها ، وأروائها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها ، إلا كتب الله له ، عدد ما شربت حسنات »<sup>(٥)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٧ . كتاب الامارة باب ٣٨ رقم ١٨٩٥/١٣٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٧ . كتاب الامارة باب فضل اعانة الغازى في سبيل الله . رقم ١٨٩٣/١٣٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٣٤ كتاب الجهاد والسير . باب من احتبس فرساً .

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٦٥ - ٣٦ . كتاب الجهاد والسير . باب الحيل لثلاثة .

(٥) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٨١ كتاب الزكاة . باب اثم مانع الزكاة . رقم ٩٨٧/٢٤ .

طولها : حبلها الذى تربط به فى المرمى .

واستنتت : عدت ومرحت .

وشرفاً : شوطاً .

(١) أى معاداة لأهل الإسلام .

(٢) المراد أنه يجاهد عليها .

(٣) هذا من باب التنبيه لأنه إذا كان يحصل له هذه الحسنات من غير أن يقصد سقيها فإذا قصده فأولى بأضعاف الحسنات .

### الحديث الرابع والعشرون

عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله ، إلا باعد الله ، بذلك اليوم ، وجهه عن النار سبعين خريفاً » (١) . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن الجوزى : إذا أطلق ذكر « فى سبيل الله » فالمراد به الجهاد .

وقال القرطبى : سبيل الله طاعة الله ، فالمراد من صام قاصداً وجه الله .

قال الحافظ بن حجر : ويحتمل أن يكون ما هو أعم من ذلك ، ثم وجدته فى « فوائد أبي الطاهر الذهلى » عن أبي هريرة بلفظ : « ما من مرابط يربط فى سبيل الله فيصوم يوماً فى سبيل الله ، ولا يعارض ذلك أن الفطر فى الجهاد أولى ، لأن الصائم يضعف عن اللقاء . والفضل المذكور محمول على من لم يخش ضعفاً ، ولا سيما من اعتاده فصار ذلك من الأمور النسبية . فمن لم يضعفه الصوم عن الجهاد فالصوم فى حقه أفضل ليجمع بين الفضيلتين .

(٢) الخريف زمان معلوم من السنة والمراد به هنا العام . وتخصيص الخريف بالذكر دون باقى الفصول ، الصيف والشتاء والربيع ، لأن الخريف أزكى الفصول لكونه يجنى فيه الثمار . قال القرطبى : ورد ذكر السبعين لإرادة التكثير كثيراً .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣٢ . كتاب الجهاد والسير باب فضل الصوم فى سبيل الله ط/الشعب .

انظر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٠٨ . كتاب الصيام . باب فضل الصيام فى سبيل الله . رقم ١١٥٣/١٦٧



## الحديث الخامس والعشرون

عن أنس - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد<sup>(١)</sup> فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة »<sup>(٢)</sup> . وفي رواية : « لما يرى من فضل الشهادة » . رواه البخارى ومسلم .

(١) أما سبب تسميته شهيداً فقال النضر بن شميل : لأنه حتى فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار السلام ، وأرواح غيرهم إنما تشهدا يوم القيامة . وقال ابن الأنبارى : لأن الله - تعالى - وملائكته - عليهم الصلاة والسلام - يشهدون له بالجنة .

(٢) قال ابن بطلان : هذا الحديث أحل ما جاء في فضل الشهادة ، قال : وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثواب .

## الحديث السادس والعشرون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - : أن رسول الله - ﷺ - قال : « والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ، ثم أغزو فأقتل ، ثم أغزو فأقتل »<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

## الحديث السابع والعشرون

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - : أن رسول الله - ﷺ - قال : « يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الذنن »<sup>(٤)</sup> . رواه مسلم .

وعن قتادة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قام فيهم فذكر : أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال . فقال رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « نعم ، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ثم قال رسول الله - ﷺ - : « كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي ؟ قال رسول الله - ﷺ - : « نعم ، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الذنن ، فإن جبريل قال لي ذلك »<sup>(٥)</sup> . رواه مسلم .

وروى البخارى ومسلم عن أبي هريرة في حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات »<sup>(٦)</sup> . إن منها : « التولى يوم الزحف » . أى : الفرار عند لقاء العدو .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٦ . كتاب الجهاد والسير باب ثمن المجاهد أن يرجع إلى الدنيا .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٨ . كتاب الامارة . باب فضائل الشهادة في سبيل الله رقم ١٨٧٧/١٠٩

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١ . كتاب الجهاد والسير . باب ثمن الشهادة ط/الشعب .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٦ . كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٣

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٢ رقم ١٨٨٦/١٢٠

(٦) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠١ . كتاب الامارة باب ٣٢ رقم ١٨٨٥/١١٧

(١) قوله - ﷺ - : « إلا الدين » فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله - تعالى - .

(٢) قوله - ﷺ - : « نعم » ثم قال بعد ذلك : « إلا الدين فمحمول على أنه أوحى إليه به في الحال ولهذا قال : « فإن جبريل قال لي ذلك » .

(٣) أى : المهلكات ، وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها . وبقي السبع : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، أى : رميهن بالزنا والفاحشة .

### الحديث الثامن والعشرون

عن سُمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رأيت الليلة رجلين أتياني فصعدا بى الشجرة وأدخلاني داراً هى أحسن وأفضل ، لم أر قط أحسن منها . قالوا لى : أما هذه الدار فدار الشهداء »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .

### الحديث التاسع والعشرون

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : جىء أبى إلى النبى - ﷺ - قد مثّل به ، فوضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه فنهانى قومى . فسمع صوت صائحة ، فقيل ابنة عمرو أو أخت عمرو<sup>(١)</sup> ، فقال : « لم تبكى ، أو فلا تبكى ، ما زالت الملائكة تظلل بأجنحتها »<sup>(٢)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال الحافظ بن حجر : الصواب بنت عمرو وهى فاطمة بنت عمرو كما فى الرواية الأخرى وهى عمة جابر .

(٢) قال القاضى عياض : يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله ورضاه عنه ، وما أعد من الكرامة عليه ، إزدحموا عليه إكراماً له وفرحاً به .

### الحديث الثلاثون

عن أنس - رضى الله عنه - قال : بعث رسول الله - ﷺ - زيداً وجعفرأ وعبد الله بن رواحة ودفع الراية إلى زيد فأصيبوا جميعاً . قال أنس : فنعاهم رسول الله - ﷺ - قبل أن يجىء الخبر فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله - خالد بن الوليد »<sup>(ب)</sup> . قال : فجعل يحدث الناس وعيناه تذرفان . وفى رواية قال : « وما يسرهم أنهم عندنا » . رواه البخارى .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٠ كتاب الجهاد والسير . باب درجات المجاهدين ط/الشعب .

( ٢ ) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٦ كتاب الجهاد والسير . باب ظل الملائكة على الشهيد .

انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩١٧ ، ١٩١٨ . كتاب الفضائل باب فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام رقم ٢٤٧١/١٢٩ .

( ب ) انظر كتاب صحيح البخارى ج ٤ ص ٢١ كتاب الجهاد والسير باب تمى الشهادة .

(١) أطلع الله - سبحانه وتعالى - على ذلك رسوله من يومهم ذلك ، فأخبر به أصحابه وقال : « لقد رفَعوا إلى في الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب » . وفي رواية : « مُثِّل لي جعفر وزيد وابن رواحة في خيمة من دُرّ ، كل واحد منهم على سرير » .

### الحديث الحادى والثلاثون

عن أنس - رضى الله عنه - : أن أم الربيع بن البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى - ﷺ - فقالت : يا رسول الله : ألا تحدثنى عن حارثة - وكان قتل يوم بدر - فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء . فقال : « يا أم حارثة إنها جنان في الجنة ، وإن إبنك أصاب الفردوس الأعلى »<sup>(١)</sup> . رواه البخارى .

(١) الفردوس هو البستان الذى يجمع كل شىء . وفي حديث البخارى : « فإذا سألتكم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ، قال ابن حبان : المراد بالأوسط السعة وبالأعلى : الفوقية .

### الحديث الثانى والثلاثون

عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، آل عمران - ١٩ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله - ﷺ -<sup>(١)</sup> فقال : « أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطلع عليهم ربهم اطلاعه فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث نشاء ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .

(١) ليس في رواية مسلم ذكر الرسول - ﷺ - ، وإنما زادها المؤلف ليتضح المعنى . قال ابن القيم الجوزية في شرحه على أبى داود : كان ابن مسعود يشتد عليه أن يقول : قال رسول الله - ﷺ - ، وكان إذا سماه أرعد وتغير لونه . وكان كثيراً ما يقول ألفاظ الحديث موقوفة ، وإذا رفع شيئاً منها تحرى فيه وقال : أو شبه هذا ، أو قريباً من هذا . فكانه جرى على عادته في هذا الحديث وخاف أن لا يؤديه بلفظه فلم يذكر رسول الله - ﷺ - .

(٢) أى يخلق الله لأرواحهم بعد ما فارقت أبدانهم هياكل على تلك الهيئة تتعلق بها ، وتكون خلقاً على أبدانهم . وإليه الإشارة بقوله - تعالى - : ﴿ أحياء عند ربهم ﴾ فيتوسلون بها إلى نيل ما يشتهون من اللذائذ الحسية . والقناديل بمنزلة أوكار الطير . تحفه الأخودى .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٤ . كتاب الجهاد والسير . باب من أتاه سهم عذب فقتله .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٣ رقم ١٨٨٧/١٢١

## الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .

(١) المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد في هذا الوصف ، فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق . وفي هذا الحديث : أن من نوى فعل عبادة فمات فعلها لا يتوجه عليه من الذم ما يتوجه على من مات ولم ينوها .

## الحديث الرابع والثلاثون

عن سهل بن حنيف - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »<sup>(٢)</sup> . رواه مسلم .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تُصبه »<sup>(٣)</sup> . رواه مسلم .

(١) ومعنى هذه الرواية مفسر من الرواية الأولى ، ومعناها جميعاً ، أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطى من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه . وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير .

## الحديث الخامس والثلاثون

عن عبد الرحمن بن أبي أوفى - رضى الله عنها - : أن رسول الله - ﷺ - كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا »<sup>(٣)</sup> . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قال : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم »<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن دقيق العبد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفس ، وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة لم يؤمن أن يكون عند الوقوع كما ينبغي فيكره التمنى لذلك ، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وعد من نفسه . ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة .

(٢) في هذا الدعاء التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث . فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية ، وهى الإسلام . وإيجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهى الرزق . وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ نعمتين .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٧ . كتاب الامارة . باب ذم من مات ولم يغز رقم ١٩١٠/١٥٨ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٧ . كتاب الامارة . باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله رقم ١٩٠٩/١٥٧ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥١٧ رقم ١٩٠٨/١٥٦ .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ . كتاب الجهاد والسير باب ٦ رقم ١٧٤٢/٢٠ .

## الحديث السادس والثلاثون

عن أبي مسعود البدرى - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - بناقة مخطومة<sup>(١)</sup> فقال : هذه فى سبيل الله . فقال رسول الله - ﷺ - : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة<sup>(٢)</sup> » رواه مسلم .

(١) مخطومة : أى فيها خِطام . وخطام البعير أن يؤخذ حبل من ليف ، أو شعر أو كتان فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يُشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقاد البعير .

(٢) يحتمل أن المراد له أجرى سبعمائة ناقة ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له فى الجنة بها سبعمائة ناقة كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء فى خيل الجنة .

## الحديث السابع والثلاثون

عن عقبة بن عامر الجهنى - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من عَلِمَ الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصى<sup>(٣)</sup> » . رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « ستفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسمه<sup>(٤)</sup> » . رواه مسلم .

وعن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال : مر النبى - ﷺ - على نفر يتصلون فقال : « ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان رامياً<sup>(٥)</sup> » . رواه البخارى .

(١) فى الحديث والأحاديث بعده فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد فى سبيل الله - تعالى - . وكذلك المناقفة وسائر أنواع استعمال السلاح ، وكذا المسابقة بالخيول وغيرها . والمراد بهذا كله التمرن على القتال ، والتدرب والتحذق فيه ، ورياضة الأعضاء لذلك .

## الحديث الثامن والثلاثون

عن جابر - رضى الله عنه - قال : كنا مع النبى - ﷺ - فى غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالاً

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٠٥ . كتاب الامارة باب فضل الصدقة فى سبيل الله وتضعيفها رقم ١٨٩٢/١٣٢ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٣ . كتاب الامارة . باب فضل الرمي والحث عليه رقم ١٩١٧/١٦٧ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٣ . كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه . رقم ١٩١٩/١٦٩ .

(٤) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٥٢٢ . كتاب الامارة . باب فضل الرمي والحث عليه رقم ١٩١٨/١٦٨ .

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٥ . كتاب الجهاد والسير . باب التحريض على الرمي ط/الشعب .

ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم واديا ، إلا كانوا معكم . حبسهم المرض . وفى رواية : « حبسهم العذر »<sup>(١)</sup> وفى رواية : « إلا شركوكم فى الأجر »<sup>(٢)</sup> . رواه مسلم ورواه البخارى عن أنس - رضى الله عنه .

(١) قال المهلب : يشهد لهذا الحديث قوله - تعالى - : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر ﴾<sup>(٣)</sup> . فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ، ثم استثنى أولى الضرر من القاعدين فكأنه أحقهم بالفاضلين . وفى الحديث : أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل .

### الحديث التاسع والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم . وما من سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم » . رواه مسلم .

(١) أما معنى الحديث ، فالصواب الذى لا يجوز غيره ، أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم ولم يغنم . وأن الغنيمة هى فى مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثي أجرهم المترتب على الغزو .

### الحديث الأربعون

عن سليمان بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أمر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأتينهم ما أجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٣١ كتاب الجهاد والسير باب من حبسه العذر عن الغزو .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥١٨ . كتاب الإمارة باب من حبسه العذر عن الغزو رقم ١٩١١/١٥٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥١٥ . كتاب الإمارة باب بيان قد ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم . رقم ١٩٠٦/١٥٤ .

وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .

(١) السرية : قطعة من الجيش تخرج منه تغير وترجع إليه . قال ابراهيم الحري : هي الخيل تبلغ أربعمائة . وسميت سرية لأنها تسرى في الليل ويخفى ذهابها .

(٢) قال العلماء : الذمة هنا العهد ، وتخفروا بضم التاء يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرت أمانته وحميته . قالوا وهذا نهى تنزيه ، أى : لا تجعل لهم ذمة الله ، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش .

### \* طرف من ذكر موسى وعيسى - عليهما السلام

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١﴾

### معاني المفردات

تؤذوننى : أى : تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى : أصرّوا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى - عليه السلام - ، أزاع الله قلوبهم : أى : صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى : الخارجين عن الطاعة ، ومنهاج الصدق ، المصرّين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد - ﷺ - قال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه  
والطيون على المبارك أحمد

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « لم تقولون مالا تفعلون » ذكر هنا أن حالهم ، يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى ، حين نذبهم إلى قتال الجبارين بقوله : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين »<sup>(٢)</sup> . فلم يمثلوا أمره ، وعصوه أشد العصيان ، و « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . وقالوا : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »<sup>(٣)</sup> وأصرّوا على ذلك ،

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٥٧ . كتاب الجهاد والسير رقم ١٧٣١/٣ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢٤ .

وأذوه أشد الإيذاء ، فوبخهم على ذلك ، بما جاء فى الآية الكريمة ، وقد صرفهم الله عن قبول الحق ،  
والحق بهم الضيم والذل فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومثلهم أيضاً فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى : إني رسول الله وجاءهم  
بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال : إني مبشر برسول سيأتى من بعدى يسمى أحمد ، فعصوه  
وكذبوه ولم يمثلوا أمره .

### أضواء كاشفة

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى ؟ » وهذا كلام مستأنف مكرر لما قبله من شفاعته ترك  
القتال ، ومخالفة أمر الرسول ، واذكر وقت قول موسى لقومه - والمراد ذكر ما حصل فى الوقت - يا قوم  
لأى شىء تؤذوننى بمخالفة أمرى ، وتخلفكم عن القتال حين ندبتم قتال الجبارين ، وقولكم : « إن  
فيها قوماً جبارين وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . فاذهب أنت  
وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » . يا قوم لم تؤذوننى ؟ والحال أنكم تعلمون علماً أكيداً أنى رسول الله  
إليكم ، فلما أصروا على الزيف والانحراف عن الجادة ، أزاع الله قلوبهم وصرفها عن الخير لاختيارهم  
العمى وتركهم الهدى مطلقاً ، ولا عجب فهم مالوا عن الحق أولاً باختيارهم ، وهذا بلا شك يؤثر  
فيهم ، فإذا استمروا على ذلك طمس الله على قلوبهم ، فأمالها عن الحق دائماً ، وكيف يهديهم ربهم  
إلى الصواب ؟ والله لا يهدى القوم الفاسقين ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكونوا كهؤلاء ، واذكر إذ قال  
عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إني رسول الله إليكم ، حالة كونى مصداقاً لما تقدمنى من الكتب ،  
وخاصة التوراة وصاحبها موسى ، وحالة كونى مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فشريعته  
تؤيد الرسل السابقين واللاحقين ، وهذا الاسم الجليل - أحمد - من أسماء النبى - ﷺ - ، يقول حسان  
بن ثابت :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

وبشارته - عليه السلام - بالنبى محمد - ﷺ - مما نطق به القرآن . وهو الصادق فى خبره . الذى  
لا يقبل الشك ، فهو الكتاب الوحيد الذى نقل بالتواتر عن صاحبه ، وقيد كتابة وحفظاً قبل لحوق النبى  
بالرفيق الأعلى ، وأما إنكار النصارى لتلك البشارة فأمر لا يعاب به ، كشأنهم فى بقية عقائدهم ، على أن  
الإنجيل الذى وصل إلينا فيه البشارة ، وشأنها أن تكون كناية لا صريحة ، ففى إنجيل يوحنا طبع  
( نيويورك بأمريكا ) الإصحاح السادس عشر آية ٧ « لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه  
إن لم أنطلق لا يأتىكم المعزى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم »<sup>(٨)</sup> ، ومتى جاء ذلك يبكى العالم على  
خطيته ، وعلى بر ، وعلى دينوية<sup>(٩)</sup> ، أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى<sup>(١٠)</sup> ، وأما على بر فلأنى  
ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً<sup>(١١)</sup> ، وأما على دينوية فلأن رئيس هذا العالم قد دين<sup>(١٢)</sup> ، إن لى أموراً  
كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن<sup>(١٣)</sup> ، وأما متى جاء ذلك ذاك روح الحق ،  
فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر  
آتية<sup>(١٤)</sup> ، ذاك يمجدى لأنه يأخذ ممالى ويخبركم . هذه بشارة بالنبى المرسل ، الذى لا ينطق عن  
الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، يجىء والعالم يكفر بعيسى ، إذ يعتقد فيه الألوهية ، أو أنه ابن الله ،



مع أنه ابن مريم ، يجيء ليرشد الخلق إلى جميع الحق ، فمن غير محمد - ﷺ - جاء بهذا ؟ على أننا لا ننسى أن هذا ما سلم من التحريف والتغيير والتبديل والنصاري يؤولون في هذا تأويلاً غير مستساغ ، ولفظ ( البارا قليط ) ورد كثيراً في كتبهم قال يسوع المسيح : « إن البار قليط روح الحق الذي يرسله أبى - إلهى - يعلمكم كل شيء » ( والبار قليط ) لفظ يفيد معناه الحمد ، ولفظ المعزى السابق كناية عن خاتم الأنبياء ، ولذا جاءت البشارة في إنجيل برنابا صريحة بلفظ محمد ، والظاهر أنها مترجمة عن البار قليط والمعزى . فلما جاء عيسى - عليه السلام - بالمعجزات الظاهرة قالوا هذا سحر مبين ، فانظر إلى الناس جميعاً وقد كذبوا برسلمهم مع ظهور الآيات والمعجزات الدالة على صدق الرسل ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وكانت عاقبة أمرهم خسراً ، فاحذروا يا أمة محمد مثل هذه العاقبة .

### التفسير

هذا طرف من قصة الكليم موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يبين الله - تعالى - فيه مدى ما تحمله هذا النبي الكريم من قومه حتى كان نبينا محمد - ﷺ - يقول : « يرحم الله أخى موسى لقد أودى أكثر من هذا فصبر »<sup>(١)</sup> وفى هذه الآية الكريمة يخبر تعالى قائلاً :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - أنه قال لقومه ( لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ) ، أى لم تصلون الأذى إلى وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفى هذا تسلية لرسول الله - ﷺ - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال « رحمة الله على موسى : لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي - ﷺ - أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . كما قال - تعالى - : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾<sup>(٣)</sup> ، وقال - تعالى - : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾<sup>(٤)</sup> ، ولهذا قال تعالى فى هذه الآية ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٤٤ ، ٤١١ .

(٢) سورة الاحزاب آية ٦٩ .

(٣) سورة الانعام آية ١١٠ .

(٤) سورة النساء آية ١١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ ، يعنى التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصدق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأُمى العربى المكى أحمد . فعيسى - عليه السلام - هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ، ولا نبوة ، وما أحسن ما أورد البخارى ، الحديث الذى قال فيه حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيباً عن الزهرى قال أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشى الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب »<sup>(١)</sup> . ورواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى عم عمرو بن مروة عن أبى عبيدة عن أبى موسى قال سُمى لنا رسول الله - ﷺ - نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد وأنا أحمد والحاشى والمقفى ونبى الرحمة والتوبة والملحمة »<sup>(٢)</sup> ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأُمى الذى يحدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل » .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقرنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾<sup>(٣)</sup> ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حى لتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء لتبعنه وينصرنه ، وقال محمد ابن اسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - ﷺ - أنهم قالوا : يا رسول أخبرنا عن نفسك قال « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »<sup>(٤)</sup> وهذا إسناد جيد وروى له شواهد من وجوه أخر فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبي عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرياض بن سارية قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طيئته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين »<sup>(٥)</sup> وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان ابن عامر قال سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٢٨ كتاب الفضائل . باب فى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ٢٣٥٤/١٢٥ .

انظر صحيح البخارى . كتاب الفضائل . باب فى أسماء ورسول الله ج ٢ ص ٢٧٠ ط/الجبلى .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ . كتاب الفضل . باقى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ٢٣٥٥/١٢٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١

(٤) انظر تفسير البغوى ج ١ ص ١١١ .

انظر كنز العمال حديث رقم ٣١٨٣٤ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٨ ، ج ٦ ص ٤٢٥ ط/الشعب .

انظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ٢٢٢

ما كان بدء أمرك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ، وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً خديّ أخا زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله - ﷺ - إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن العاص وعمارة ابن الوليد بهديه ، فلما دخلا على النجاشى سجداً له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالوا له إن نفراً من بنى عمان نزلوا أرضك ورجبوا عنا وعن ملتنا قال فأين هم قالوا : هم فى أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلم ولم يسجد . فقالوا له مالك لا تسجد للملك . قال إنا لا نسجد إلا لله - عز وجل - قال وما ذاك . قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا الله - عز وجل - وأمرنا بالصلاة والزكاة قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم ، قال ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه . قال نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسهما بشر ، ولم يعترضها ولد ، قال فرفع عوداً من الأرض ، ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان : والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بداراً وزعم أن النبى - ﷺ - استغفر له حين بلغه موته . وقد رويت هذه القصة عن جعفر ، وأم سلمة - رضى الله عنهما - وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء - عليهم السلام - لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ، ونصره ، ومؤازرته إذا بعث ، وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل ، والد الأنبياء ، بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى بن مريم ، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك يعنى فى الأرض قال « دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بن مريم ورؤيا أمى التى رأت » أى أظهرت فى أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره - صلوات الله وسلامه عليه - . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قال ابن جريج وابن جرير ( فلما جاءهم ) أحمد أى : المبشر به فى الأعصار المتقدمة ، المنوه بذكره فى القرون السالفة . لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ( هذا سحر مبين ) .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قبيلاً  
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديل

يقول الشيخ المراغى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعد اسمه أحمد ﴾

يقول رحمه الله تعالى :

أى : واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : يا قوم إني مرسل إليكم من الله وإنى مصدق بالتوراة ويكتب الله وأنبيائه جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر .

﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ﴾ أى : وداعياً إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة . فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سينا ونجى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه ، « سينا مهبط الوحي على موسى ، وساعير مهبط الوحي على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحي على محمد - ﷺ - .

وفى هذا الفصل الحادى عشر من هذا السفر : يا موسى : إني سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ويقول لهم ما أمره به والذى لا يقبل قول ذلك النبى يتكلم بأسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء فى الانجيل ما هو بشارة به - فى انجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر - قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء .

وفيه أيضاً : قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبني وأبى يحبه ، وعنده تتميز المنزل ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء ، و - يذكركم كل ما قلت لكم ، أستودعكم سلامى ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبون تفرحون بمضى إلى الأب .

وفيه أيضاً : إن خيراً لكم أن انطلق لأبى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وإن لى كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب .

( والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد فسره بعضهم بالحمد وبعضهم بالحامد ، فى مدلوله إشارة إلى اسمه - عليه السلام أحمد )

كما لا يخفى على من كشف الله - تعالى - غشاوة التعصب عن عينيه ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ أى : فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة فاجثوه بالكذب والإعراض عنه استكباراً وعناداً وقالوا : إن ما جئت به ما هو إلا ترهات ، وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله جل شأنه : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ <sup>(٢)</sup>

أشرق النور في العوالم لما بشرتها بأحمد الأمناء  
 جاء للناس والسرائر فوضي لم يؤلف شتاتهم لواء  
 وحى الله مستباح وشرعه والحق والصواب وراء  
 تلك آى الفرقان أيها الله ضياء يهدى به من يشاء  
 ولجبريل جيئة وذهاب وهبوط إلى الثرى وارتقاء  
 نسخت لسنة النبيين والرسل كما ينسخ الضياء الضياء

### الله متم نوره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾  
 يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ  
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

### معانى المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله - عز وجل - والمراد من إبطال نور الله بأفواههم إرادتهم  
 إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، والله متم نوره : أى : : والله متم الحق ومبلغه غايته  
 بالهدى أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة السمحة ، ليظهره : أى : ليعليه على الدين كله : على سائر  
 الأديان .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته - ﷺ - من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات ،  
 قالوا هذا سحر مفترى ، أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ، ومبدع العالم ،  
 وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ، ونصب لهم المنار ، لكنهم ظلموا أنفسهم ، وجحدوا النور الواضح ،  
 والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وقدسيتهم لأنفسهم ، وأن مثلهم في صد الدعوة عن  
 الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه ، وأنى له بذلك ؟

فالله متم نوره ومكمل دينه مهما جد المشركون في إطفائه ؛ فالرسول - ﷺ - ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم وبالدين الحق الذي لا تحجب العقول مطعنا فيه ولا طريقاً إلا الاعتراف بما جاء به من حكم وأحكام .

### أضواء كاشفة

هنا تطرق الكلام إلى المكذبين بمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقال الله معناه : أى الناس أشد ظلماً ممن يدعى إلى الإسلام ، الذى هو دين الحق والعدل والكرامة ، الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فتكون إجابته على تلك الدعوة الافتراء على الله كذباً وزوراً بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً نعم لا أحد أظلم من هذا ، والله لا يهدى القوم الظالمين يريدون بهذا التكذيب أن يطفثوا نور الله بأفواههم وأنى لهم ذلك ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

هو الله الذى أرسل رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بمصدر الهداية والنور ، بالقرآن الذى يدعو إلى الهدى والفلاح ، أرسله بدين الحق والعزة والكرامة ، والشرعية السهلة الصالحة لكل زمان ومكان ، ليظهره على الدين كله ، وليعليه على جميع الأديان ، ولو كره المشركون ذلك ، لأنه هو الدين الوحيد الذى يدعو إلى التوحيد الخالص البرىء من شوائب الشرك ، وقد أنجز الله وعده وأظهر دينه بالحجة والبرهان على جميع الأديان . . الخ .

### التفسير

قوله - تعالى - ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام ﴾ أى لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ولهذا قال تعالى ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

ثم قال - تعالى - ﴿ يريدون ليطفثوا نور الله بأفواههم ﴾ أى : يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل ! كذا ذلك مستحيل ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة براءة بما فيه كفاية .

## التجارة المنجية

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوْمِنُونَ  
 بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَوْجُهُدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ  
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 وَمَسْكِنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ يُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ  
 قَرِيبٌ وَبَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ  
 لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَكَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ  
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَايَدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

## معاني المفردات

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح لينال به الثواب كما قال - سبحانه - : ﴿ إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ (١).

طيبة : أى طاهرة مستلذه ، جنات عدن : أى : بساتين إقامة وخلود ، قريب : أى : عاجل وهو فتح مكة ، وحوارى الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى : الناصرون لدينه ، فأيدينا : أى قوتنا وساعدنا ، على عدوهم : أى : الكفار ، ظاهرين : أى : غالبين .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث فى الآيات السابقة على الجهاد فى سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى ، فى التواكل والتخاذل إذ قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ونهاهم أيضاً عن أن يكونوا مثل قوم عيسى فى العصيان ، بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته - ذكر هنا أن الإيمان بالله ، والجهاد بالمال والنفس ، فى سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل والثواب

الآجل ، فيظفر بالنصرة فى الدنيا والغلبة على العدو ، وأخذ الغنائم وكراثم الأموال ، ويحظى فى الآخرة بغفران الذنب ورضوان الرب ، والكرامة فى جنات الخلود ، والإقامة ولا فوز أعظم من هذا .  
ثم ضرب لهم مثلاً بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به ، وهم حواريه ، وفرقة كفرت به ، وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله ، كما هى سنة الله فى البشر كما قال :  
﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾<sup>(٢)</sup> .

### أضواء كاشفة

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن كثيرة الربح ؟ ربحتها عشرة أمثال وقد تزيد إلى سبعمائة مثل والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، وتلك تجارة رابحة وأى ربح أكثر من هذا ؟  
﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾<sup>(٣)</sup> ، الآية من سورة التوبة .  
وكانه قيل : ما هذه التجارة ؟ دلنا عليها فقل : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، بأموالكم وأنفسكم . والمعنى على أن المؤمنين يداومون على ذلك من باب قوله تعالى : ﴿ فاستقم كما أمرت ﴾<sup>(٤)</sup> .

ذلكم الإيمان والجهاد خير لكم من كل شىء إن كنتم تعلمون . أنه خير فهو خير إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم ويسترها ، أو يباعد بينكم وبينها ، ويدخلكم جنات عالية تجرى من تحتها الأنهار ، ويدخلكم مساكن طيبة جيدة حسنة لا عيب فيها ولا خوف عليكم فيها ، ولا أنتم تحزنون ، وهى فى جنات عدن لا زوال فيها ذلك هو الفوز العظيم . نعم هو الفوز العظيم والربح الكثير والفضل العميم .

ولكم إلى جانب ما ذكر نعمة أخرى جلييلة أنتم تحبونها ، هى : نصر من الله على الأعداء ، وفتح قريب للأقطار والأمصار ، وانظر - وفكك الله - إلى عاقبة الإيمان الصحيح والجهاد فى سبيل الله .  
يا أيها الذين آمنوا - والخطاب للنبي - ﷺ - ولأمته - آمنوا وجاهدوا يكن لكم الثواب الجزيل . وبشرهم يا محمد بذلك فأنت الصادق المصدق .

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله وأعوانا لرسول الله ، كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى حين طلب منهم ذلك وقال لهم : من أنصارى متوجهاً إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار نبي الله .

(١) سورة المجادلة آية ٢١ .

(٢) سورة محمد آية ٧ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١ .

(٤) سورة هود آية ١١٢ .



ولما لحق عيسى بالرفيق الأعلى ، آمنت طائفة من بنى إسرائيل ، آمنت بالله الواحد الأحد ، وبعيسى بن مريم رسوله إليهم ، وكفرت طائفة أخرى ، حيث ادعت أنه الإله ، أو ابنه ، أو هو ثالث ثلاثة ، وغلب أهل الباطل على أهل الحق فلما جاء محمد - ﷺ - أيدنا به الذين آمنوا على عدوهم - الكافرين - فأصبحوا ظاهرين عليهم بالحجة والبرهان .

### التفسير

قوله - تعالى - ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ .

### سبب النزول

ورد في حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة - رضى الله عنهم - أرادوا أن يسألوا رسول الله - ﷺ - عن أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - ليفعلوه . فأنزل الله - تعالى - هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ، ومزيلة للمحذور ، فقال - تعالى - : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أى : من تجارة الدنيا والكد لها ، والتصدى لها وحدها . ثم قال - تعالى : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمسكن الطيبات ، والدرجات العاليات ، ولهذا قال - تعالى : ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومسكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله جل شأنه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم \* التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين » (١)

ومن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ، الدفاع عن أرض المسلمين ، بل إن هذا الدفاع من أهم فروض الأعيان .

كتب الدكتور عبد الله عزام تحت هذا العنوان :

(الدفاع عن أراضى المسلمين أهم فروض الأعيان)

فقال :

لقد اختار الله برحمته هذا الدين ليكون رحمة للعالمين ، وأرسل سيد المرسلين - ﷺ - ليكون خاتماً للنبيين بهذا الدين ونصر هذا الدين بالسيف ، والسنان بعد أن وضحه رسول الله - ﷺ - بالحجة

والبيان . فقد قال - ﷺ - في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والطبراني : « بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله - تعالى - وحده لا شريك له . وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »<sup>(١)</sup> .

وقد اقتضت حكمة الله أن يقيم صلاح الأرض على قانون الدفع فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾<sup>(٢)</sup> .

أى : أن الله - عز وجل - تفضل على البشرية بأن سن لهم هذا الناموس ، وبين لهم هذا القانون ، ( قانون الدفع ) أو بعبارة أخرى ، الصراع بين الحق والباطل ، وذلك من أجل صلاح البشرية ، وسيادة الحق وانتشار الخير ، بل إن الشعائر التعبدية ودور العبادة محمية بهذا القانون . لقوله - تعالى - : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾<sup>(٣)</sup> .

وهذا القانون « قانون الدفع » أو الجهاد قد احتل صفحات كثيرة من كتاب الله - عز وجل - لأن الحق لا بد له من قوة تحميه . فكم من حق وضع بسبب خذلان أهله له ؟ وكم من باطل رفع لأن له أنصاراً ورجالاً يضحون من أجله ؟ .

والجهاد يقوم على ركنين أساسيين هما : الصبر الذى يظهر شجاعة القلب والجنان ، والكرم الذى هو بذل المال والروح - والجدود بالنفس أقصى غاية الجدود . ففي الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد « الإيمان الصبر والسماحة »<sup>(٤)</sup> .

يقول ابن تيمية ( ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم فى دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم ، بين سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شئ قدير ﴾<sup>(٥)</sup> )

ولذا فقد أشار - ﷺ - إلى شر الصفات وهى البخل والجبن التى تؤدى إلى فساد النفوس وتدمير المجتمعات . ففي الحديث الصحيح « شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع »<sup>(٦)</sup> . رواه أبو داود وهو صحيح .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٥٠ ، ٩٢ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥١ .

(٣) سورة الحج آية ٤٠ .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٣٨٥ مسند عمرو بن عبسة .

(٥) التوبة آية : ٣٩

(٦) انظر سنن أبى داود ج ٣ ص ٢٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى الزهد فى الدنيا رقم ٢٥١١ .

ولقد مرت أزمان على سلفنا الصالح أخذوا بهذا القانون فسادوا الدنيا وأصبحوا أساتذة الأنام .  
كما قال الله - تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ (١) .  
وكما قال - ﷺ - في الحديث الصحيح : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل » (٢) . رواه أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي .

ثم جاءت ذراري المسلمين ، وأهملت قوانين الله ونسيت ربها فنسيها ، وضيعوا أحكامه فضاعوا ، ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ﴾ (٣) .  
زين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم ، جاء في الحديث الصحيح « أن الله يبغض كل جفطرى جواظ في الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم الدنيا جاهل بالآخرة » (٤) .

ومن أهم الفرائض الغائبة ، والواجبة المنسية ، فريضة الجهاد . التي غابت عن واقع المسلمين ، فأصبحوا كغناء السيل . كما قال - ﷺ - : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل : يا رسول الله أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غناء كغناء السيل ، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب أعدائكم لحبكم الدنيا وكرهيتكم الموت » وفي رواية ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حبكم للدنيا وكرهيتكم للقتال » (٥) . رواه أحمد بإسناد جيد وأبو داود في رواية وكرهية الموت وهو حديث صحيح .

### وجهاد الكفر نوعان

- ١ - جهاد الطلب ( طلب الكفار في بلادهم ) بحيث يكون الكفار في حالة لا يحشدون لقتال المسلمين ، فالقتال فرض كفاية ، فأقل فرض الكفاية سد الثغور بالمؤمنين لإرهاب أعداء الله ، وإرسال جيش في السنة على الأقل ، وعلى الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة ، أو مرتين . وعلى الرعية إعانتته ، فإن لم يبعث كان الإثم عليه ، وقد ساقها الفقهاء على الجزية . قال الأصوليون : « الجهاد دعوة قهرية فتجب إقامته بقدر الإمكان حتى لا يبقى مسلم أو مسالم » .
- ٢ - جهاد الدفع . ( دفع الكفار من بلادنا ) وهذا يكون فرض عين ، بل أهم فروض الأعيان ويتعين في حالات :

(١) سورة السجدة آية ٢٤ .  
(٢) انظر كنز العمال جـ ٣ ص ٤٤٨ رقم ٧٣٨٣ . وعزاه إلى أحمد في الزهد والطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمرو .  
(٣) سورة مريم آية ٥٩ .  
(٤) انظر كنز العمال جـ ١٦ ص ٤ رقم ٤٣٦٧٩ .  
انظر السنن الكبرى للبيهقي جـ ١٠ ص ١٩٤ .  
(٥) انظر مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٢٧٨ .  
انظر سنن أبي داود جـ ٤ ص ٤٨٣ رقم ٣٢٩٧ .

- ( أ ) إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين .  
 ( ب ) إذا التقى الصفان وتقابل الزحفان .  
 ( ج ) إذا استنفر الإمام أفراداً أو قوماً وجب عليهم النفير .  
 ( د ) إذا أسر الكفار مجموعة من المسلمين .

### الحالة الأولى - دخول الكفار بلدة من بلاد المسلمين :

ففى هذه الحالة اتفق السلف والخلف وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثون والمفسرون فى جميع العصور الإسلامية إطلاقاً ، أن الجهاد فى هذه الحالة يصبح فرض عين على أهل هذه البلدة التى هاجمها الكفار ، وعلى من قرب منهم ، بحيث يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائئه ، فإن لم يكف أهل تلك البلدة أو قصرُوا أو تكاسلُوا أو قعدُوا يتوسع فرض العين على شكل دوائر الأقرب فالأقرب ، فإن لم يكفُوا أو قصرُوا فعلى من يليهم ، ثم على من يليهم ، حتى يعم فرض العين الأرض كلها .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما قال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمه والدين واجب إجماعاً ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دحضه فلا يشترط له شرط ( كالزاد والراحلة ) بل يدفع بحسب الإمكان وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم » . . . ويعلل ابن تيمية رأيه بعدم اشتراط الراحلة فى رده على القاضى الذى قال : إذا تعين فرض الجهاد على أهل بلد فمن شرط وجوبه الزاد والراحلة إذا كانوا على مسافة القصر قياساً على الحج ، قال ابن تيمية : « ومآله القاضى من القياس على الحج لم ينقل عن أحد وهو ضعيف ، فإن وجوب الجهاد يكون لدفع العدو فيكون أوجب من الهجرة . ثم الهجرة لا تعتبر فيها الراحلة فبعض الجهاد أولى وثبت فى الصحيح عن حديث عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال : ( على المرء المسلم السمع والطاعة فى أمره ويسره ومنشطه ومكرهه وأثره عليه )<sup>(١)</sup> .

فأوجب الطاعة عمادها الاستنفار فى العسر واليسر وخصائص فى وجوبه مع الإعسار بخلاف الحج هذا فى قتال الطلب . وأما قتال الدفع . فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمه والدين واجب إجماعاً ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه وإليك نصوص مذاهب الفقهاء الأربعة التى تجمع على هذه القضية .

### أولاً : فقهاء الحنفية

قال ابن عابدين : « وفرض عين إن هجم العدو على ثغر من ثغور الإسلام فيصير فرض عين على من قرب منه ، فأما من وراءهم ببعد من العدو فهو فرض كفاية إذا لم يحتج إليهم ، فإن احتج إليهم بأن

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٦٩ . كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية ٣٨ / ١٨٣٩

عجز من كان يقرب العدو عن المقاومة مع العدو أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تكاسلوا ولم يجاهدوا ، فإنه يشترط على من يليهم ، فرض عين كالصلاة والصوم لا يسعهم تركه وثم إلى أن يفترض على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً على هذا التدرج .

ويمثل هذا أفتى الكسائي وابن نجيم وابن الهمام .

### ثانياً - عند المالكية

جاء في حاشية الدسوقي : ويتعين الجهاد بفجىء العدو . قال الدسوقي : « أى توجه الدفع بفجىء ( مفاجئة ) على كل أحد وإن امرأة أو عبداً أو صبيّاً ويخرجون ولو منعهم الولي والزوج ورب الدين » .

### ثالثاً : عند الشافعية

جاء في نهاية المحتاج للمزلى : « فإن دخلوا بلدة لنا وصار بيننا وبينهم دون مسافة القصر فيلزم أهلها الدفع حتى لا جهاد عليهم من فقير وولد وعبد ومدين وامرأة » .

### رابعاً : عند الحنابلة

جاء في المغنى لابن قدامة : ويتعين الجهاد فى ثلاثة مواضع :

١ - إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

٢ - إذا نزل الكافر ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

٣ - إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير .

ويقول ابن تيمية : « إذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب ، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة ، وأنه يجب النفير إليه بلا إذن والد ولا غريم ، ونصوص أحمد صريحة بهذا » وهذه الحالة تعرف بالنفير العام .

### أدلة النفير العام ومبرراته

١ - قال الله عز وجل : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ . التوبة ٤١ ، وقد جاءت الآية قبلها ترتب العذاب والاستبدال جزاء لترك النفير ، ولا عذاب إلا على ترك واجب أو فعل حرام ، ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شئ قدير ﴾ . التوبة ٣٩

قال ابن كثير : أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله - ﷺ - عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وقد بوب البخارى ( باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والسنية ) وأورد هذه الآية وكان النفير العام بسبب أنه ترامى إلى أسماع المسلمين أن الروم يعدون على تخوم الجزيرة لغزو المدينة ، فكيف إذا دخل الكفار بلد المسلمين أفلا يكون النفير أولى ؟ قال أبو طلحة -

رضى الله عنه - فى معنى قوله تعالى ﴿ خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ : كهولاً وشباباً ، ماسمع الله عذر أحد . وقال الحسن البصرى : فى العسر واليسر .

يقول ابن تيمية فى مجموع الفتاوى : « فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين ، كما قال - تعالى - : ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ﴾ <sup>(١)</sup> ، كما أمر النبى - ﷺ - بنصر المسلم . وسواء كان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه ، وماله ، مع القلة والكثرة ، والمشى والركوب ، كما كان المسلمون ، لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله فى تركه لأحد » .

وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل فقال « استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع » .

٢ - ويقول الله - عز وجل - : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . التوبة ٣٦ . قال ابن العربى : كافة يعنى محيطين بهم من كل جانب وحالة .

٣ - ويقول الله - عز وجل - ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . الأنفال ٤٠ . والفتنة هى الشرك كما قال ابن عباس والسدى وعند هجوم الكفار واستيلائهم على الديار فالأمة مهددة فى دينها ، ومعرضة للشك فى عقيدتها ، فيجب القتال لحماية الدين والنفس والعرض والمال .

٤ - قال - ﷺ - : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية فإذا استنفرتم فانفروا » <sup>(٢)</sup> . رواه البخارى .

فيجب النفير إذا استنفرت الأمة ، وفى حالة هجوم الكفار فالأمة مستنفرة لحماية دينها . ومدار الواجب على حاجة المسلمين أو استنفار الإمام كما قاله ابن حجر فى شرح هذا الحديث .

قال القرطبى : « كل من علم بضعف المسلمين عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غيائهم لزمه أيضاً الخروج إليهم » .

٥ - إن كل دين نزل من عند الله جاء للحفاظ على الضرورات الخمس : الدين ، والنفس ، والعرض ، والعقل ، والمال .

ولذا فيجب المحافظة على هذه الضرورات بأى وسيلة ومن هنا شرع الإسلام دفع الصائل ، والصائل : هو الذى يسطو على غيره قهراً يريد نفسه ، أو ماله ، أو عرضه .

( أ ) الصائل على العرض : ولو كان مسلماً إذا صال على العرض وجب دفعه باتفاق الفقهاء ولو أدى إلى قتله ، ولذا فقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز للمرأة أن تستسلم للأسر ولو قتلت إذا خافت على عرضها .

(١) سورة الأنفال آية ٧٢ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ ط/الحلبى .  
انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٨٨ . كتاب الامارة باب المبايعة بعد فتح مكة . رقم ١٥٠٣/٨٥ .

(ب) أما الصائل على المال أو النفس فيجب دفعه عند جمهور العلماء ، ويتفق مع الرأي الراجح في مذهب مالك والشافعي ولو أدى إلى قتل الصائل المسلم ، ففي الحديث الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »<sup>(١)</sup> . حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي .

قال الجصاص بعد هذا الحديث : « لا نعلم خلافاً أن رجلاً لو شهر سيفاً على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله » .

وفي هذه الحالة ( الصيال ) إذا قتل الصائل فهو في النار ولو كان مسلماً وإذا قتل العادل فهو شهيد . هذا حكم الصائل المسلم . فكيف إذا صال الكفار على أرض المسلمين حيث يتعرض الدين والعرض والنفس والمال للذهاب والزوال ألا يجب في هذه الحالة على المسلمين دفع الصائل الكافر والدولة الكافرة ؟ .

#### ٦ - تترس الكفار بأسرى المسلمين .

إذا اتخذ الكفار أسرى المسلمين كترس أمامهم وتقدموا لاحتلال بلاد المسلمين يجب قتال الكفار ولو أدى إلى قتل أسرى المسلمين . يقول ابن تيمية في مجمع الفتاوى : ( بل لو كان فيهم الكفار ) قوم صالحون من خيار الناس ولم يكن قتالهم إلا بقتل هؤلاء لقتلوا أيضاً ، فإن الأئمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بأسرى المسلمين وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا فإنه يجوز أن نرميهم - ونقصد الكفار - ولو لم نخف على المسلمين جاز رمي أولئك المسلمين أيضاً على أحد قولي العلماء » . وفي صفحة ٤٥ يقول : « والسنة والإجماع متفقان على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل قتل ، وإن كان المال الذي يأخذه قيراطاً من دينار ، ففي الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد »<sup>(٢)</sup> .

وذلك لأن حماية بقية المسلمين من الفتنة والشرك وحماية دينهم وعرضهم ومالهم أولى من إبقاء بعض المسلمين أحياء ، وهم الأسرى في يد الكفار المترس بهم .

#### ٧ - قتال الفئة الباغية :-

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقتسوا إن الله يحب المقسطين ﴾ . الحجرات ٩ .

إذا فرض الله علينا قتال الفئة الباغية المسلمة حفظاً لوحدة كلمة المسلمين وحماية دينهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، فكيف يكون الحكم في قتال الدولة الكافرة الباغية أليس هذا أولى وأجدر ؟

(١) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٥ . كتاب الايمان رقم ١٤٠/٢٥٥ .

انظر سنن الترمذي ج ٤ ص ٢١ كتاب الديات باب ما جاء في من قتل دون ماله فهو شهيد رقم ١٤١٨ .

(٢) انظر الحديث السابق





٢ - وإن هجم العدو على ثغر من ثغور المسلمين ، أو دخلوا بلدة إسلامية ، فهنا كما ذكرنا يصبح الجهاد فرض عين على أهل تلك البلدة ، وعلى من حولها ، وفي هذه الحالة يسقط الإذن ، فلا إذن لأحد على أحد ، حتى يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائته .  
وتبقى حالة سقوط استئذان الوالدين والزوج مستمرة ، حتى اخراج العدو من أرض المسلمين ، أو يجمع عدد فيهم الكفاية لاجراج العدو ، ولو اجتمع كل المسلمين في الأرض .  
ويقدم الجهاد وهو فرض عين على طاعة الوالد ، وهي فرض عين ، لأن الجهاد حماية للدين ، وطاعة الوالدين حماية للنفس ، إذ أن الجهاد ( مظنة حزنهما وتعبيهما ) والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفس ، إذ الجهاد نفسه إتلاف لنفس المجاهد ، إذا استشهد من أجل حفظ الدين ، وحماية الدين يقين ، وتلف نفس الوالدين ظن ، واليقين مقدم على الظن .

#### مثال فرض العين والكفاية :

مثل قوم على شاطئ البحر يتزهون ، وفيهم مجموعة تتقن السباحة ، ورأوا طفلاً يكاد يغرق ، وهو يصبح أنقذوني ، فلم يتحرك إليه أحد من السباحين ، وأراد سباح أن يتحرك لانقاذه ، فنهاه أبوه عن إنقاذه ، فهل يقول فقيه من فقهاء العصور كلها أنه يجب عليه طاعة والده وترك الطفل يغرق ؟ وهذا مثال أفغانستان اليوم إنها تستغيث ، فأطفالها يُذبحون ، وتُنتهك الأعراض فيها ، ويُقتل الأبرياء ، وتتأثر الأشلاء ، ويريد بعض الشباب الصادق أن يتحرك لانقاذهم ولمساعدتهم ، فيتعالى عليهم النكير ، كيف تذهب دون إذن والديك ؟

فإنقاذ الطفل الغريق ، فرض على كل السباحين الذين يرونه ، فقبل أن يتحرك أحد يتوجه خطاب وجوب الإنقاذ إلى الجميع ، فإن تحرك واحد لانقاذه ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يتحرك أحد ، فالإثم يلزم جميع السباحين ، وقبل أن يتحرك أحد لا إذن للوالدين ، ولو نهى الوالد ولده لإنقاذ الغريق ، فلا طاعة له ، لأن فرض الكفاية خطابه ابتداء كفرض العين ، وإنما يختلفان في النهاية ، فإن قام به البعض ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع .

يقول ابن تيمية : « فأما إذا هجم العدو ، فلا يبقى للخلاف وجه ، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعياً » .

ودليل استئذان الوالدين في فرض الكفاية ، وعدم استئذانهما في فرض العين الجمع بين الحديثين التاليين :

أولاً : حديث البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - « جاء رجل إلى النبي - ﷺ - يستأذنه في الجهاد فقال : « أحى والدك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد » <sup>(١)</sup> .

(١٦) أخرجه البخاري في (كتاب الأدب) باب : لا يجاهد الابن الابوين جـ ٤ ص ٤٧ طبع دار احياء الكتب العربية .  
وأخرجه ابن حبان في سننه في باب : الاستحباب للمرأة أن يؤثر بر الوالدين على الجهاد الفضل جـ ١ ص ٣٩٥ رقم ٤١٢

ثانياً : روى ابن حبان عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - « جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فسأله عن أفضل الأعمال قال : الصلاة ، قال : ثم مه قال : الجهاد ، قال : فإن لى والدين ، فقال : أمرك بوالديك خيراً ، فقال : والذي بعثك بالحق لأجاهدن وأتركهما قال : فأنت أعلم »<sup>(١)</sup> . قال الخافظ : وهو محمول على جهاد فرض العين توفيقاً بين الحديثين .

### استئذان الشيخ والمربي

لم ينص أحد من الفقهاء سلفاً وخلفاً ، أن للشيخ أو المربي حق الاذن على تلميذه في العبادات ، سواء كانت فروض كفاية ، أم فروضاً عينية ، ومن قال بغير هذا فليأتنا بنص شرعى أو بسلطان مبين . فلكل إنسان مسلم أن يذهب إلى الجهاد دون استئذان شيخه أو معلمه ، لأن إذن رب العالمين هو المقدم ، وقد أذن بل فرض الجهاد . قال ابن هبيرة : « إن من مكائيد الشيطان أن يقيم أوثاناً في المعنى ، تعبد من دون الله ، مثل أن يتبين له الحق ، فيقول : ليس هذا مذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدمه على الحق » .

ولو كان هذا التلميذ يريد دراسة الهندسة ، أو الطب ، أو التاريخ في الدول الغربية ، أو أمريكا ، حيث الفتن كقطع الليل المظلم ، وحيث الخضم المتلاطم من المغريات ، وبحور تسعير الشهوات ، وتأجيج النزوات أقول : لو ذهب هذا التلميذ دون إذن شيخه ، لما أنكر عليه الشيخ ولا غيره ، ولكن إذا نفر للرباط ، أو خرج للجهاد ، تجدد الألسنة عليه من كل جانب ، حيث يقال : كيف يخرج دون استئذان ؟ وقد فات شيخه أن يسمع لكلام النبوة الشريف « حرس ليلة في سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها »<sup>(٢)</sup> .

وفي صحيح مسلم : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان »<sup>(٣)</sup> .

« غدوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها »<sup>(٤)</sup> متفق عليه .

على الشيخ وتلاميذه أن يبادروا بالأعمال ، ويستبقوا الخيرات ، ولا تفوتهم نصيحة رسول الله - ﷺ - : « اغتسم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك »<sup>(٥)</sup> . وعليهم أن يسمعون الحديث الصحيح « قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة »<sup>(٦)</sup> رواه أحمد والحاكم والدارمى .

قال الشافعى : « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله - ﷺ - لم يحل له أن يدعها لقول أحد » .

(١) أخرجه ابن حبان ج ٣ ص ١١١ باب فضل الصلوات الخمس رقم ١٧١٩

(٢) أخرجه الحاكم ج ٢ ص ٨١ باب الجهاد .

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٥٢٠ كتاب الامارة باب فضل الرباط في سبيل الله عزوجل رقم ١٩١٣/١٦٣

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٥٠٠ كتاب الامارة باب فضل القدوة والروحة في سبيل الله . رقم ١٨٨١/١١٤ وابن ماجه رقم ٢٧٥٥

(٥) أخرجه كثر العمال ج ١٥ ص ٨٧٩ رقم ٤٣٤٩٠ وعزاه إلى الحاكم والبيهقى وأحمد في الزهد وإلى أبى نعيم في الحلية .

(٦) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢

## الجهاد بالمال

لا شك أن الجهاد بالنفس أعلى مرتبة من الجهاد بالمال ، ولذا فلم يعف الأغنياء في زمن رسول الله - ﷺ - من المشاركة بأنفسهم ، أمثال عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهم - لأن صقل النفوس وتربية الأرواح ، إنما تتم على مستوى رفيع في خضم المعركة ، ولذا فقد أوصى - ﷺ - أحد الصحابة قائلاً : « .. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الاسلام »<sup>(١)</sup> حديث صحيح رواه أحمد .

ولذلك فعندما سئل رسول الله - ﷺ - أيفتن المرء في قبره ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنه »<sup>(٢)</sup> حديث صحيح رواه النسائي ولذا فقد حذر رسول الله - ﷺ - من الانشغال بالدنيا عن الجهاد ، فقد أشار ذات مرة إلى سكة محراث ، وقال : « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل »<sup>(٣)</sup> رواه البخارى في صحيحه . وفي الصحيح : « إذا تبايعتم العينة ، وأخذتم بأذنان البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »<sup>(٤)</sup> رواه أبو داود .

وفي الصحيح كذلك : « لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا »<sup>(٥)</sup> رواه الترمذى . والضيعة : هى العقار أو الحرفة ، ففى هذه الأحاديث جمع رسول الله - ﷺ - متاع الدنيا وأسباب الانشغال : الزراعة ، التجارة بالربا . وحيلة ( العينة ) والانتاج الحيوانى والصناعة والحرفة ( الضيعة ) فالانشغال بهذه فى وقت ، يتعرض فيه الاسلام لمعركة الوجود أو الاجتثاث ، يعد حراماً وموبقة شرعية .

أما الجهاد بالمال ، فهو فرض إذا احتاج المجاهدون إليه ، فرض على النساء ، وفى أموال الصغار ، حتى لو كان الجهاد فرض كفاية ، كما قرر ذلك ابن تيمية .

ولذا يحرم على الناس الادخار فى حالة الحاجة للمال ، بل لقد سئل ابن تيمية سؤالا : « لو ضاق المال عن إطعام جياع ، والجهاد الذى يتضرر بتركه فقال : قدمنا الجهاد وإن مات الجياع ، كما فى مسألة الترس وأولى ، فإن هناك ( الترس ) نقلتهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله » .

قال القرطبي : « اتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة ، فإنه يجب صرف المال إليها » . وقال مالك : « يجب على الناس فداء أسراهم ، وإن استغرق ذلك أموالهم ، وهذا إجماع أيضا » . والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفوس ، والحفاظ على النفوس أولى من الحفاظ على الأموال ، فأموال الأغنياء ليست أغلى ولا أثمن من دماء المجاهدين .

فليتنبه الأغنياء إلى حكم الله فى أموالهم ، حيث الجهاد فى أشد الحاجة ودين المسلمين وديارهم معرضة للزوال ، والأغنياء غارقون فى شهواتهم ، ولو صام الأغنياء يوماً واحداً عن شهواتهم ، وأمسكوا أيديهم عن إتلاف الأموال فى كماليتهم ، وحولوها إلى المجاهدين فى أفغانستان ، الذين يموتون برداً ، وتنقطع أقدامهم من الثلج ، ولا يجدون قوت يومهم ، ولا ذخيرة يدفعون بها عن أنفسهم ، ويحققون بها دماءهم .

(١) أخرجه أحمد جـ ٣ ص ٨٢

(٢) أخرجه النسائي جـ ٤ ص ٩٩

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب ما جاء فى الحرج والمزارة . باب ما يحل من عواقب الاشتغال بآلة الزرع .

(٤) أخرجه أبو داود جـ ٣ ص ٧٤٠ رقم ٣٤٦٢

(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ كتاب الزهد باب ٢٠ رقم ٢٣٢٨

أقول : لو دفع الأغنياء مصروف يوم واحد للمجاهدين في البوسنة ، لأحدثت أموالهم بإذن الله تغييراً كبيراً في الجهاد نحو النصر ، ولقد أفتى كبار العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز بن باز ، أن دفع الزكاة للمجاهدين من أعظم القربات ، وأفضل الصدقات .  
الخلاصة :

أولاً : الجهاد بالنفس فرض عين على كل المسلمين في الأرض .

ثانياً : لا إذن لأحد على أحد في الجهاد فلا إذن للوالدين على الولد .

ثالثاً : الجهاد بالمال فرض عين ، ويحرم الادخار مادام الجهاد بحاجة إلى مال المسلمين .

رابعاً : إن ترك الجهاد كترك الصلاة والصيام ، بل ترك الجهاد أشد في هذه الأيام ، ونقل ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة .

### أسئلة كبيرة وأسئلة مهمة

هل نستطيع تطبيق هذه الفتوى اليوم ؟

قد يقول قائل بعد هذا : قد علمنا أن الجهاد اليوم بالنفس فرض عين ، وأن الجهاد فرض كالصلاة والصيام ، بل الجهاد بالنفس مقدم على الصلاة والصيام كما يقول ابن تيمية : « فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه » .

فالصلاة تؤخر وتجمع أو تختصر ركعاتها أو تتغير هيئتها بوجود الجهاد وفي الصحيحين : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس »<sup>(١)</sup> .

والمجاهد يفطر في رمضان ، كما روى مسلم أن رسول الله - ﷺ - أفطر وهو في طريقه إلى فتح مكة وقال : « إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا »<sup>(٢)</sup> .

وتبين لنا أنه لا يستأذن أحد في أداء فريضة الجهاد إذا تعينت ( أصبحت فرض عين ) كما أنه لا يستأذن الوالد ، أو الشيخ ، أو السيد ، في أداء فريضة الصبح قبل طلوع الشمس .

كذلك لا يستأذن أحد في أداء فريضة الجهاد ، فإذا نام الأب وابنه في مكان واحد ، وأراد الابن أن يصلي الفجر وأبوه نائم ، فهل يقول أحد بوجوب استئذان الابن لأبيه في صلاة الفرض ؟ ولنفرض أن الأب قد نهى ابنه عن القيام للصلاة ، لأي سبب في نفس الأب ، لثلا يزعم النائم - الذين لا يصلون الفجر - أولأن أباه لا يريد الصلاة ، فهل يطيع الابن أباه ؟ الجواب واضح « إنما الطاعة في المعروف » . متفق عليه . « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »<sup>(٣)</sup> حديث صحيح رواه أحمد والحاكم ، « لا طاعة لمن لم يطع الله »<sup>(٤)</sup> حديث صحيح رواه أحمد . وترك الجهاد معصية ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٤٣٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة . رقم ٦٢٧/٢٠٢

(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ٧٨٩ كتاب الصيام باب التخيير في الصيام والفطر في السفر رقم ١١٢٠/١٠٢

(٣) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٦٦ ، ٦٧ والحاكم ج ٣ ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ والألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٧٩ ، وصحيح الجامع

والصغير رقم ٧٣٩٦

(٤) أخرجه أحمد ج ٣ ص ٢١٣

## الاستئذان

أمر الاستئذان : ولزيادة الايضاح في هذه المسألة نقول وبالله التوفيق : إن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكونوا يستأذنون رسول الله - ﷺ - بعد عقد الرأية واستنفار الأمة ، بل كان استئذان النبي - ﷺ - استشارة بعد عقد النية ، أو بعد تسجيل اسم الصحابي في الغزوة ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والنسائي عن معاوية بن جاهمة السلمي « أن جاهمة أتى النبي - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : هل لك من أم ؟ فقال : نعم فقال : الزمها فإن الجنة عند رجلها » (١) .

وفي رواية : إنى إستكتبت في غزوة كذا ، أى : كتبت اسماً . هذا عندما كان الجهاد فرض كفاية .

فأما إذا أصبح الجهاد فرض عين بعد الاستنفار ، فإن استئذان النبي - ﷺ - يصبح علامة نفاق فقد جاء في محكم التنزيل : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ (٢) .

وأما الخلفاء الراشدون - أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ - رضى الله عنهم - فلا نعلم أن الصحابة والتابعين ، كانوا يستأذنوهم ، وما كان كل واحد يريد الغزو أو الجهاد ، يأتى إلى أبى بكر ليستأذنه ، فالمهم أن تعقد الرأية وتخرج السرية .

وأمرء المؤمنين من بعد الخلفاء لا نعلم أن الذى كان ينوى الرباط أو الجهاد ، يرسل إليهم يستأذنه ، ولا نعلم أن واحداً من المسلمين في التاريخ الإسلامى كله ، قد عوقب من قبل أمير المؤمنين ، بسبب الجهاد أو الغزو بدون إذنه ، وإنما يستأذن أمير الحرب وقائد المعركة في الغزو والهجوم ، من أجل التنظيم والتنسيق ، وحتى لا يفسد المراء الذى يهجم على العدو خطة المسلمين .

وخصص بعض الفقهاء كالأوزاعى الاستئذان من الإمام في حالة الجنود ، الذين يأخذون روايتهم من ديوان الجند . قال الرَّملى في نهاية المحتاج : « يكره الغزو بغير إذن الإمام أو نائبه ، ولا كراهة في حالات :

- ١ - إذا قوت الاستئذان المقصود .
- ٢ - أو عطل الإمام الغزو .
- ٣ - أو غلب على ظنه عدم الإذن كما بحث ذلك البلقيني .

(١) أخرجه أحمد جـ ٣ ص ٤٢٩ والنسائي جـ ٦ ص ١١

(٢) التوبة الآيتان ٤٤ ، ٤٥

نعود فنقول : هذا كله إذا كان الجهاد فرض كفاية ، أما إذا أصبح الجهاد متعيناً ( فرض عين ) فلا إذن ولا استئذان . قال ابن رشد : « طاعة الإمام لازمة ، وإن كان غير عدل ما لم يأمر بمعصية ، ومن المعصية النهي عن الجهاد المتعين » ونزيد المسألة وضوحاً فنقول : إن الإذن والاستئذان في فرض الكفاية ، إنما يكون بعد الكفاية ، أى بعد أن يكون عدد المجاهدين كافياً للقيام بالفرض ، أما قبل أن تحصل الكفاية ، فالخطاب موجه إلى الجميع ، ويجب على الكل ، ويسقط بفعل البعض ، ولا فرق بين فرض الكفاية . والعين ، قبل أن تتم الكفاية .

وقبل الكفاية : لا إذن ولا استئذان ، والإذن والاستئذان ، إنما يكون بعد العلم بكفاية المسلمين في أرض المعركة للقيام بالفرض .

بعد هذا كله قد يقول قائل :

تيقنا الآن أن الجهاد فرض عين ، وأنه لا إذن ولا استئذان من أحد أبداً في الجهاد ، ولكن هنالك أسئلة مهمة :

- ١ - هل يمكن تطبيق النفير عملياً في هذه الأيام ؟
- ٢ - هل نجاهد وليس هنالك أمير واحد ؟
- ٣ - هل يقاتل المسلم وحده إذا قعد الناس ؟
- ٤ - هل نستعين بالكفار إذا كنا ضعافاً ؟
- ٥ - هل نقاتل مع المسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الإسلامية ؟

### السؤال الأول

كيف نطبق النفير عملياً في هذه الأيام ؟

يرى بعض الناس أن النفير كما يطلب الإسلام ، بحيث تخرج المرأة دون إذن زوجها ، والولد دون إذن والده ، هذا أمر عسير جداً لأسباب .

- ١ - إن أية بقعة إسلامية لا تتسع لعشر معشار المسلمين .
- ٢ - إن هذا يؤدي إلى الإخلال بعملية التربية الإسلامية ، التي تعتبر الأمل بإذن الله - عز وجل - في إنقاذ الأمة .
- ٣ - إن هذا يؤدي إلى عملية تفريغ للبقاع الإسلامية ، إذ كل واحد يأق للجهاد إنما يترك ثغرة للشيعيين والبعثيين والقوميين والعلمانيين في بلده

## الجواب

لو طبق المسلمون أمر ربهم ، ونفذوا حكم شريعتهم في النفي أسبوعاً واحداً لفلسطين ، فإن فلسطين ستطهر نهائياً من اليهود ، وعندئذ لا نشعر أماكن الدعاة ، ولا تتدمر بيوتهم بخروج نسايتهم ، ولكننا ننتظر في كل مرة ونبقى ننظر إلى الإقليم الإسلامي ، الذي وقع تحت سيطرة الكفار ، حتى يتلغ ثم نؤنبه بخطب رنانة ودموع هائلة وحقوقات حرة وتأوهات كثيرة .

إننا نفكر بالاسلام تفكيراً إسلامياً قومياً ، فلا تتعدى نظراتنا حدود الجغرافية ، التي رسمتها لنا معاهدة سايكس - بيكو ، أو خطها جون أنطون البريطاني أو الفرنسي .

إن ابن مدينة الرمثا الأردنية على حدود سورية لشعر بالانتباء ، ويشد بتفكيره الإسلامي إلى ابن العقبة الأردنية - التي تبعد أكثر من ستمائة كم - أكثر من ارتباطه بابن مدينة درعا السورية ، التي لا تبعد عشرة كيلومترات عن الرمثا ، مع أن ابن درعا وابن العقبة الاثنان مسلمان متعبدان ، بل قد يكون ابن درعا أكثر تديناً والتزاماً من ابن العقبة - الأردنية .

## السؤال الثاني

هل نجاهد وليس لنا أمير واحد ؟

نعم نجاهد وليس لنا أمير ، ولم يقل أحد أن عدم اتحاد المسلمين على أمير يسقط فرضية الجهاد ، بل لقد رأينا المسلمين أيام الحروب الصليبية والتتار ، يقاتلون مع أن أمراءهم مختلفون ، وفي كل بلد أمير أو عدة أمراء ، ففي حلب وفي دمشق أمير ، وفي مصر أكثر من أمير ، وبعضهم يستنجد بالصليبيين على إخوانه الأمراء ، كما حصل من شاور الذي استعان بالصليبيين على أمير آخر في مصر ( ضرغام ) . ولم يقل أحد من العلماء أن هذا الحال يسقط فريضة الجهاد للدفاع عن أرض المسلمين بل يضاعف واجبهم .

وكذلك الحال في الأندلس التي كانت كما يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر  
وقال آخر :

مما يزهدي في أرض الأندلس القاب معتمد فيها ومعتضد  
القاب مملكة في غير موضعها كاهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد  
ولم يقل أحد من العلماء أنه لا جهاد في هذا الحال ، بل كان أعيان العلماء في مقدمة الصفوف في الأندلس .

وقد تخلو المعركة من قائد شرعى معه الولاية من الأمير العام ، كما حدث يوم مؤتة ، فقام خالد ابن الوليد واستلم الراية ، وأنقذ الله به الجيش المسلم وأقره - ﷺ - وأثنى عليه .

وقد يكون الامام أو أمير المؤمنين غير موجود ، وهذا لا يسقط فرضية القتال والدفاع عن أرض المسلمين ، ولا ننتظر حتى تقوم الولاية الكبرى وتستأنف الخلافة .

لأن الولاية العامة . والخلافة لا تأتى نظرياً بالثقافة والدراسة ، بل الجهاد أسلم طريقة ، لكى تصبح الولاية الخاصة ، أى إمارة القتال ولاية عامة وخلافة .

والمجاهدون يختارون أميراً للجهاد من بينهم ، يصلح أمرهم ، ويلم شعنتهم ، ويرد قلوبهم عن ضعيفهم ، ففي الحديث الصحيح عن عقبة بن عامر وكان من رهطه قال : « بعث رسول - ﷺ - سرية فسلمت رجلاً سيفاً قال ، فلما رجع قال : ما رأيت مثل ما لا منا رسول الله - ﷺ - قال : أعجزتم إذ بعثت رجلاً فلم يمض لأمرى أن تحصلوا مكانه من يمضى لأمرى »<sup>(١)</sup> .

فالرسول - ﷺ - حرضهم على تغيير أمير السرية الذى عقد له الراية بيده الشريفة ، فكيف إذا لم يكن أمير أصلاً ، إن الحاجة أشد إلى تأيد أمير للحرب .

قال ابن قدامة فى المغنى « فإن عدم الإمام لم يؤخر الجهاد ، لأن مصلحته تفوت بتأخيره » .

وإذا اختار الناس أميراً ، فيجب طاعته ، جاء فى فتح العلى المالك إذ فعل الشيخ ميارة إذا خلا الوقت من الأمير ، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ، يمهد سبيلهم ، ويرد قلوبهم عن ضعيفهم ، فقام بذلك قدر الجهد والطاقة .

فالظاهر أن القيام عليه لا يجوز والمعرض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته ، ففي صحيح مسلم الحديث « إنها ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان »<sup>(٢)</sup> « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه »<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه أبوداود كتاب الجهاد باب فى الطاعة رقم ٢٦١٠

(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٤٧٩ كتاب الامارة باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع رقم ١٨٥٢/٥٩

(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٤٨٠ رقم ١٨٥٢/٦٠



## السؤال الرابع

هل يقاتل الإنسان إذا قعد الناس؟

نعم يقاتل ، لأن الله عز وجل يخاطب نبيه - ﷺ - قائلاً : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »<sup>(١)</sup> .

فآية تأمر الرسول - ﷺ - بأمرين واجبين (لأن الأمر بالوجوب) .

١ - القتال ولو وحده .

٢ - تحريض المؤمنين .

ويذكر رب العزة الحكمة من القتال ، وهو كف بأس الكفار لا يخشون وجودنا إلا بالقتال « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »<sup>(٢)</sup> . وبترك القتال يسود الشرك ، وهو الفتنة ، ويتصّر الكفر ، وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم الآية على ظاهرها ، فعن أبي اسحق قال : قلت للبراء بن عازب - رضي الله عنه - : الرجل يحمل على المشركين أهو يلقي بيده إلى التهلكة ؟ قال : لا لأن الله بعث رسوله - ﷺ - فقال : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » إنما ذاك في النفقة .

« وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، إذا تعين الجهاد على الأعيان ، لغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو لخلوله بالعقر ، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج فإن قصروا عصوا ، فإذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى ، كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ركباناً ورجالاً عبيداً وأحراراً ، من كان له أب من غير إذنه ، ومن لا أب له حتى يظهر دين الله ، وتحمي البيعة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزي العدو ، ويستنقذ الأسرى ولا خلاف في هذا .

فكيف يصنع الواحد إذا قعد الجميع ، يعتمد إلى أسير واحد فيفديه ويغزو إن قدر وإلا جهز غازياً » .

بل إن قتال المرء وحده ، يرضى الله ويعجبه ، ففي الحديث الحسن الذي رواه أحمد وأبو داود قال - ﷺ - « عجب ربنا من رجل غزا في سبيل الله فانهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهرق دمه فيقول الله عز وجل للملائكة : انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندى وشفقة عما عندى حتى أهرق دمه »<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة النساء آية ٨٤

(٢) سورة الانفال آية ٣٩

(٣) أخرجه أبو داود جـ ٣ ص ٤٢ رقم ٢٥٣٦

## السؤال الخامس

هل نقاتل مع مسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الإسلامية ؟ هذا السؤال يثور من قبل بعض الناس ، وقسم منهم مخلصون ويتسائلون كيف نقاتل مع قوم ، فيهم الصادق ، وفيهم الكاذب ، ويتشرب بينهم شرب الدخان والنسوار ( كالدخان ) وقد يبيع بعضهم سلاحه ؟ وهم أناس متعصبون لمذهبهم الخنفي ، وبعضهم يعلق الرقى والتماثيل « وقبل أن أبين الحكم الشرعي أقول : أروني شعباً مسلماً في الأرض يخلو من هذه الأمور ؟ فهل نترك الكفار في كل أراضى المسلمين ، لأن هذه الأمور موجودة ؟

## الجواب

يجب القتال ، لأن القتال مبني على دفع أعظم الضررين فهناك القواعد الفقهية في مجلة الأحكام العدلية رقم ٢٦ « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » وفي المادة ٢٧ « الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف » وفي المادة رقم ٢٨ « إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أحقهما » وفي المادة رقم ٢٩ « تختار أهون الشرين » . فلا بد من اختيار أهون الشرين : أيهما أعظم شراً ، استيلاء الروس على أفغانستان ، وتحويلها إلى بلاد كفر ، يمنع فيها القرآن والإسلام ، أم الجهاد مع قوم فيهم ذنوب وأخطاء ؟ يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٥٠٦/٢٨ ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة ، الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم ، كما أخبر بذلك النبي - ﷺ - لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار ، أو مع عسكر كثير الفجور ، فإنه لا بد من أحد أمرين إما ترك الغزو معهم ، فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً في الدين والدنيا ، وأما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، وإقامة أكثر شعائر الإسلام ، وإن لم يمكن إقامة جميعها ، فهذا هو الواجب في هذه الصورة وكل ما أشبهها ، بل كثير من الغزو الحاصل مع الخلفاء الراشدين ، لم يقع إلا على هذا الوجه ، وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم »<sup>(١)</sup> فما داموا مسلمين يجب القتال معهم ، والهدف المعلن هو إقامة دين الله في الأرض .

ولو قاتل المسلمون في فلسطين لما ضاعت فلسطين ، رغم الفساد التي كانت في البداية . أما قادة الجهاد الأفغان فكلهم صائمون مصلون ، يقيمون الشعائر ، وينادون بالاسلام . يجب القتال مع أي قوم مسلمين ما داموا مسلمين ، مهما كان فسقهم وفجورهم إذا كان القتال ضد الكفار أو الملحدين .

يقول الشوكاني في نيل الأوطار ٤٤/٨ « وتجوز الاستعانة بالفساق على الكفار إجماعاً » .

(١) أخرجه مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٣ كتاب الامارة باب الخيل في نواحيها الخير إلى يوم القيامة رقم ١٨٧٣/٩٨

سادساً : هل نستعين بالمشركين إذا كنا في حالة ضعف يرى بعض الناس الاستعانة بأمريكا وبالدول الغربية في الجهاد ضد اليهود في فلسطين ، وهذا النوع من الاستعانة حرام باتفاق الفقهاء ، وتضييع لهدف الجهاد نهائياً ، وفي المسألة أحاديث متعارضة فمن الأحاديث المانعة للاستعانة :

١ - حديث في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم لمشرك يوم بدر : « فارجع فلن أستعين بمشرك » نيل الأوطار ١٢٨/٧ .

٢ - حديث آخر « إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » رواه أحمد والطبراني قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجال أحمد والطبراني ثقات وهنالك نص صحيح أن صفوان بن أمية ، قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر .

قال النووي في تهذيب الأسماء واللغات رقم ٢٦٣

« صفوان بن أمية شهد حينئذ مع النبي - ﷺ - كافراً » وقد استعار رسول الله - ﷺ - يوم حنين دروع صفوان ابن أمية ، وقال له - ﷺ - ( عارية مؤداة ) حديث صحيح رواه الحاكم انظر صحيح الجامع ٣٨٦٢ وثبت عند أهل السير أن قزمان خرج مع النبي - ﷺ - يوم أحد وقتل ثلاثة من حملة لواء المشركين ، وقال - ﷺ - عن قزمان : ( إن الله ليأزر هذا الدين بالرجل الفاجر ) وبناء على هذا التعارض ، فقد اختلف الفقهاء في الجمع بين الأحاديث منها : أن الاستعانة بالمشركين كانت ممنوعة ثم رخص فيها قال الحافظ في التلخيص ، وهذا أقربها وعليه نص الشافعي ( نيل الأوطار ٤٤/٨ ) .

وقد اتفق الفقهاء الأربعة على جواز الاستعانة بالكفار بشروط :

١ - أن يكون حكم الاسلام هو الظاهر ، أى يكون المسلمون أقوى من مجموع المشركين ، الذين استعانوا بهم ، والمشركين الذين يقاتلونهم بحيث لو اتفق الكفار جميعاً غلبهم المسلمون .

٢ - أن يكون الكافر حسن الظن بالمسلمين ، وتؤمن خيانتهم ، ويعرف ذلك من خلال معاملته

٣ - أن يكون المسلمون بحاجة إلى الكافر ، أو الكفار المستعان بهم .

( أ ) رأى الحنفية : قال محمد بن الحسن « لا بأس بأن يستعين المسلمون بأهل الشرك على أهل الشرك ، إذا كان حكم الاسلام هو الغالب » . وقال الجصاص « قال أصحابنا : لا بأس بالاستعانة بالمشركين على قتال غيرهم من المشركين ، إذا كانوا متى ظهوروا كان حكم الاسلام هو الظاهر » .

( ب ) المالكية : قال ابن القاسم « ولا أرى أن يستعينوا بهم يقاتلون معهم ، إلا أن يكون نوايته أَوْخَرًا ، فلا أرى بذلك بأساً » وقال مالك : « لا أرى أن يستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خدماً » .

( ج ) الشافعية : قال الرملى : « وللإمام أو نائبه الاستعانة بكفار ولو أهل حرب ، كأن يعرف حسن رأيهم فنياً ، ويشترط لجواز الاستعانة احتياجنا له لنحو خدمة أو قتال لقلتنا » .

(د) الحنبلية : قال ابن قدامة : « وعن أحمد ما يدل على جواز الاستعانة بالمشرك ، بل روى عن أحمد أنه يسهم للكافر من الغنائم ، إذا غزا مع الامام خلافاً للجمهور الذين لا يسهمون له » .

كثير من الكتاب يخطئون عندما يكتبون عن جواز السلم ، ويستشهدون بالنصوص القرآنية دون معرفة المراحل التاريخية للنصوص ، فلا بد من معرفة التدرج في النصوص الجهادية في القرآن حتى نزلت آية السيف في سورة التوبة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين » (١) .

﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ﴾ (٢) .

فقد قرر ابن القيم في زاد المعاد أن الجهاد كان محرماً في مكة المكرمة ثم مآذوناً فيه عند الهجرة ثم مأموراً به مع من بادأهم بالقتال ثم مأموراً به مع المشركين كافة .

ويقول ابن عابدين / حاشية ابن عابدين : اعلم أن الأمر بالقتال نزل مرتباً ، فقد كان رسول الله - ﷺ - مأموراً أولاً بالتبليغ والاعراض .

يقول تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ (٣) ثم بالمجادلة بالأحسن ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ (٤) ثم أذن لهم بالقتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (٥) .

ثم أمروا بالقتال إن قاتلوهم ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ (٦) .

ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ (٧) . ثم أمروا به مطلقاً ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٨) . ولذا لا بد من معرفة المرحلة الزمنية التي نزلت فيها الآية ، ولا بد من الإشارة ابتداءً أنه لا تجوز المفاوضات السياسية في مراحل الدعوة الأولى قبل أن يقوم للدعوة كيان وسلطان يحمي مبادئها ، وإذا دخلت الدعوة الإسلامية في أوائل مراحلها في المفاوضات السياسية ، فإن المبادئ تتميع وتختلط وتلتبس على الناس مفاهيمها ، ولا يقوم لها قائمة ، وتضيع الدعوة في غمرة الألاعيب السياسية والأحابيل الدولية .

وهذه الفترة تمثلها السورة الكريمة : ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ويمثل موقف المؤمن فيها ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليي الله الذي نزل

(١) سورة التوبة آية ٣٦

(٢) سورة التوبة آية ٦

(٣) سورة الحجر آية ٩٤

(٤) سورة النحل آية ١٢٥

(٥) سورة الحج آية ٣٩

(٦) سورة البقرة آية ١٩١

(٧) سورة التوبة آية ٥

(٨) سورة البقرة آية ١٩٠

الكتاب وهو يتولى الصالحين<sup>(١)</sup> لابد من اعلان المبادئ واستعلاء الدعاة ، حتى يصلب عودهم على نار المحنة ، وتصلق أرواحهم في الصبر على الفتنة ، وهكذا كان موقف رسول الله - ﷺ - الواضح والصحابه معه في مكة المكرمة ، أما بعد قيام دولة الإسلام ، فلا مانع من عقد المعاهدات .

### شروط عقد المعاهدة مع الكفار

اختلف الفقهاء في جواز عقد صلح مع الكفار ، فمنهم من أجازة على صلح الحديبية ، ومنهم من أجازة إذا كان المسلمون في ضعف شديد ، ومنهم من لم يجز الصلح أبدا وقالوا نسخت آية السيف كل معاهدة مع الكفار . ولكن نقول :

يجوز للمسلمين عقد معاهدة مع الكفار ، إذا كان ذلك مصلحة للمسلمين ولكن بشرط أن لا تتضمن المعاهدة شرطا يطل المعاهدة أو يفسدها ومنها :

١ - لا يجوز أن تتضمن المعاهدة بشرطا فيه اعتراف أو إقرار الكفار على شبر من أراض المسلمين ( نهاية المحتاج ٥٨/٨ ) لأن أرض الإسلام ليست لأحد ، فلا يحق لأحد أن يفاوض عليها ، وهذا الشرط يطل العقد لأن الأرض لله ، ثم للإسلام ، فلا يجوز لأحد أن يتصرف في ملك غيره ولا يبيع لابن آدم فيما لا يملك ، ولذا بالنسبة للروس لا يجوز التفاوض معهم حتى ينسحبوا من كل شبر من أراضى أفغانستان ولا مع اليهود أبداً في فلسطين .

٢ - إذا تعين الجهاد بطل الصلح ، كما إذا دخل العدو أرض المسلمين ، أو كان طالباً لهم . جاء في فتح العلى المالك ٢٨٩/١ في الصلح والمعاهدة في المعيار - في باب الجهاد - ما نصه : « أوقع الخليفة الصلح مع النصارى والمسلمون لا يرون إلا الجهاد ، فمهادنته منقوضة ، وفعله مردود » وحاشا تعين الجهاد في موضع لم نجر فيه الصلح ، كما لو كان العدو غالباً على المسلمين ، وكل ما نقل في تعين فرض الجهاد مانع من الصلح لاستلزامه إبطال فرض العين الذى هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ . نقل القاضى ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة ، لأن الجهاد إن تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه أنه على التراخي ، فالصلح المذكور يجب نقضه ، لأنه بمقتضى الشرع غير منبرم فحكمه غير لازم عند كل من حقق أصول الشريعة . والصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين ، وترك الجهاد المتعين ممتنع وكل ممتنع غير لازم .

٣ - كل شرط تضمن تعطيل شريعة الله أو إهمال شعائره ، فهو باطل فلا يجوز للكفار أن يتدخلوا في نظام الحكم ، لأن هذا إفساد للجهاد وهدفه .

٤ - لا يجوز أن يتضمن العقد شرطا فيه إذلال للمسلمين أو يشعر بهذا كما جاء في الحديث عن الزهري . قال : لما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله - ﷺ - إلى عيينة بن حصن بن حنيفة بن بدر

وإلى الحارث بن أبي عسوف المزني - وهما قائدا غطفان - فأعطاهما ثلثي ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح ، ولم تقع الشهادة ، فلما أراد ذلك بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عباد فاستشارهما فيه فذكر الحديث مفصلاً وفيه : قد علمنا أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، فهل ترون أن ندفع إليهم شيئاً من ثمار المدينة ؟ قالوا : يا رسول الله إن كنت قلت عن رأي فأريك متبع ، كنا لا ندفع إليهم ثمرة إلا بشرى أو قرى ونحن كفار وقد أعزنا الله بالإسلام ، فسر النبي - ﷺ - بقولهم مرسل قوى .

وقد شعر الأنصار من هذا أن فيه إذلالاً لهم ، ولذا جاء في بعض الروايات : لا نعطيكم إلا السيف .

٥ - أن لا يتضمن العقد شرطاً يخالف الشريعة الإسلامية مثل :

( أ ) إقرار المشركين السكن في أرض الحرمين لأنه في الحديث : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » .

( ب ) أو إرجاع امرأة مسلمة إلى الكفار « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » (١) أما إرجاع المسلم إلى الكفار ، فقد اختلف الفقهاء فيه ، فبعضهم أجاز إرجاعه قياساً على شرط الحديبية ، ولكن الفقهاء الآخرين رجحوا عدم جواز هذا الشرط ، أما شرط الحديبية فهو خاص برسول الله - ﷺ - لأنه علم أن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا هو الراجح « عن البراء بن عازب قال : واذع رسول الله - ﷺ - المشركين يوم الحديبية على ثلاث - من أتاهم من عند النبي - ﷺ - لن يردوه ، ومن أتى إلينا منهم ردوه إليهم ، قال - ﷺ - : من ذهب منا إليهم فأبعده الله » متفق عليه وزاد مسلم « ومن خرج منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً » (٢)

٦ - ولا يجوز كذلك أن يتضمن العقد إظهار شعائر الكفار في بلاد المسلمين ، مثل السماح لهم ببناء الكنائس والأديرة ، أو إرسال المبشرين الذين يفتنون المسلمين ويفسدون عقائدهم وخاصة في جزيرة العرب .

### « النصر والفتح القريب »

قوله تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾ (٣) .

هذا وعد منه سبحانه وتعالى بنصر المؤمنين نصراً مبيناً مؤزراً ، كما أنه وعد بفتح قريب عاجل لهم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يأيتها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٤) ، وقوله تعالى ﴿ ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ وفتح قريب ﴾ أى عاجل فهذه الزيادة ، هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٤١١ كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية في الحديبية رقم ١٧٨٤/٩٣

(٤) سورة محمد آية ٧

(٥) سورة الحج آية ٤٠

(٢) سورة الانفال آية ٦١

(٣) سورة الصف آية ١٣

ولقد أنجز الله تعالى وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فكان من النصر المبين ، والفتح القريب ، ما حدث يوم الفتح الأعظم ، يوم دخل الرسول - ﷺ - البلد الحرام فاتحاً منتصراً يعلن كلمة التوحيد عالية مدوية ، وكان لهذا الفتح قصة لا بد أن يقف عند دروبها كل قائد ، ولا بد أن تعيها الأمة الإسلامية ، لتسلك الطريق ، وتتبع النهج ، الذي صار عليه أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ونحن نسجل أحداث هذا اليوم بكل فخار واعزاز ، وتلكم قصة الفتح الأعظم كاملة لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .

في كتاب الرسول القائد قال اللواء محمود شيت خطاب تحت عنوان :

« عودة المستضعفين »

« ونريد أن نغن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » (١) .

### « فتح مكة »

#### الموقف العام

١ - المسلمون :

أتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود عسكرياً في المدينة وخارجها ، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل في شمالي المدينة حتى حدود العراق والشام ، وانتشر الإسلام بين القبائل العربية كلها ، فأصبح المسلمون قوة لا تدانيها أية قوة في بلاد العرب .

ولم يبق أمام المسلمين إلا فتح مكة ، تلك المدينة المقدسة التي انتشر الإسلام فيها أيضاً ، وما أسهل فتحها على المسلمين لولا عهد الحديبية الذي يحرص على الوفاء به الرسول - ﷺ - .

٢ - المشركون :

أدى انتشار الإسلام بين قسم كبير من القبائل ، ومن ضمنها قريش ، وبقاء القسم الآخر على الشرك إلى تفرق كلمتها ، واستحالة جمع هذه الكلمة على حرب المسلمين .

ولم يبق في قريش زعيم مسيطر ، يستطيع توجيهها إلى ما يريد حين يريد .

المسلمون فيها لا يخضعون إلا لأوامر الإسلام ، والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحقيق بقريش .

أراد بنو بكر حلفاء قريش ، أن يأخذوا بثرااتهم القديمة من بني خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرصهم على ذلك ، متطرفو قريش بقيادة عكرمة بن أبي جهل وبعض سادات قريش ، وأمدوهم سراً بالرجال والسلاح ، فقامت بنو بكر بهجوم مباغت على بني خزاعة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر في الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غير مكترثة بعهد الحديبية .

وانتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر .

## إعلان الحرب

### ١ - المسلمون :

سارع عمرو بن سالم الخزاعي بالتوجه إلى المدينة ، حاملاً أخبار نقض قريش وبني بكر لعهد الحديبية ، فلما وصلها قصد المسجد ، وقص على الرسول - ﷺ - وأصحابه ما أصاب خزاعة من بني بكر وقريش في مكة وخارجها ، فأجابه الرسول - ﷺ - : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

وخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبي - ﷺ - بما أصابهم ، فعزم الرسول - ﷺ - على فتح مكة .

### ٢ - قريش :

قدر معتدلو قريش وعقلاؤهم ، ماذا يعنيه انتهاء الهدنة بينهم وبين المسلمين ، فقرروا إيفاد أبي سفيان إلى المدينة للتشبيث بتثبيت العهد وإطالة مدته .

ولما وصل أبو سفيان « عسفان » في طريقه إلى المدينة رأى بديل بن ورقاء وأصحابه عائدين من المدينة ، فخاف أن يكونوا قد جاءوا عمداً رسول الله - ﷺ - وأخبروه بما حدث ، مما يزيد مهمته التي جاء من أجلها تعقيداً ، إلا أن بديلاً نفى مقابلة النبي - ﷺ - ولكن أبا سفيان ، عرف من فضلات راحلة بديل التي فيها نوى التمر ، أنه كان في المدينة .

ووصل أبو سفيان إلى المدينة فقص دار ابنته أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - وأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه ، فقال لها : يا بنية ما أدري أرغبت لي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : « بل هو فراش رسول الله أنت مشرك نجس » . قال أبو سفيان : « والله لقد أصابك بعدى شر » .

واستشفع أبو سفيان بأبي بكر ليكلم الرسول - ﷺ - فأبى ، واستشفع بعمر بن الخطاب ، فأغلق له في الرد ، وقال : « أنا أشفع لكم عند رسول الله - ﷺ - ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » .

ودخل أبو سفيان ، على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة ، فرد عليه علي « والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله - ﷺ - على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

واستشفع أبو سفيان بفاطمة بنت النبي - ﷺ - أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : « افيجير أحد على رسول الله ﷺ » .

فاستنصح أبو سفيان علياً بعد أن اشتدت عليه الأمور ، فنصحه أن يعود من حيث أتى ، ففعل أبو سفيان عائداً إلى قريش ، ليخبرهم بما لقي من صدود ، ولم يبق هنالك شك في إعلان الحرب .



## الاستعدادات

أمر الرسول - ﷺ - أصحابه بإنجاز استعداداتهم للحركة ، وأرسل من يخبر قبائل المسلمين خارج المدينة ، بإنجاز استعداداتهم للحركة أيضاً ، كما أمر أهله أن يجهزوه . ولكنه لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية ولا باتجاه حركته .

بل أخفى هذه النوايا حتى لأقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبي قتادة الأنصاري إلى بطن إخلم ، ليزيد من اسدال الستار الكثيف على نواياه الحقيقية .

دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوج النبي - ﷺ - وهي تهىء جهاز الرسول ، فقال لها : « أى بنية . أمركم رسول الله - ﷺ - أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز . قال : « فأيه تريئه يريد ؟ قالت : والله لا أدري » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول - ﷺ - بأنه سائر إلى مكة ، وبث عيون له ليحول دون وصول أنباء حركته إلى قريش ، ولكن حاطب بن أبى بلتعة كتب رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة يخبرهم فيها بنيات المسلمين فعلم الرسول - ﷺ - بهذه الرسالة ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام ليدركا المرأة ويأخذا تلك الرسالة منها ، فأدركاها وأخذا الرسالة التي كانت معها .

ودعا رسول الله - ﷺ - حاطباً يسأله : ما حملك على ذلك ؟ قال حاطب : « يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكني كنت أمراً ليس له في القوم من أهل ولا عشيرة ، وكانولي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم » وقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه فإن الرجل قد نافق » .

قال الرسول : « أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ لعل الله قد أطلع على من شهد بدرا فقال : اعملوا ما شئتم » .. ؟

شفع لحاطب ماضيه الخافل بالجهاد ، فعفا عنه الرسول - ﷺ - وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

## وأنجز المسلمون استعداداتهم للحركة \* قوات الطرفين \*

١ - المسلمون :

عشرة آلاف رجل بقيادة الرسول - ﷺ - .

٢ - المشركون :

قريش وبنو بكر كل قبيلة لها قائد خاص .

## في الطريق إلى مكة

١ - ترك المسلمون المدينة في رمضان من السنة الثامنة للهجرة قاصدين فتح مكة ، وكان جيش المسلمين مؤلفاً من الأنصار والمهاجرين ، وسليم ومزينة ، وغطفان وعفار وأسلم ، وطوائف من قيس وأسد وتميم ، وغيرهم من القبائل الأخرى في عدد وعُدَد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل ، وكلما تقدم الجيش نحو هدفه ازداد عدده ، بانضمام مسلمي القبائل التي تسكن على جانبي الطريق إليه .

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقي سر حركته مكتوماً لا تعرف قريش عنه شيئاً إذ مع اعتقاد قريش بأن محمداً - ﷺ - في حل من مهاجرتها ، ولكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجري الهجوم المتوقع ، ولشعور قريش بالخطر المحدق بها ، أسرع كثير من رجالها بالخروج إلى المسلمين ، لإعلان إسلامهم ، فصادف بعض هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ وجيش المسلمين في طريقه إلى مكة .

وصل الجيش مساء موضع « مر الظهران » على مسافة أربعة فراسخ فعسكر هناك وأمر الرسول - ﷺ - أن يوقد كل مسلم ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويته ، فيؤثر ذلك على معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول - ﷺ - هدفه في دخول مكة دون إراقة الدماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبوسفیان بن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن خزام بالخروج باتجاه النيران ، حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهوائهم ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبوسفیان لصاحبه بديل : « ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً » . فرد عليه بديل بن ورقاء : « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب » فلم يقتنع أبوسفیان بهذا الجواب فقال : « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » .

وكان العباس عم النبي - ﷺ - قد خرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة الرسول - ﷺ - ليخبر قريشاً بالجيش الضخم ، الذي جاء لقتالها ، والذي لا قبل لها به ، حتى يؤثر على معنوياتها وليضطربها للتسليم دون قتال ، فيحقق بذلك دماءها ، ويؤمن لها صلحاً شريفاً ، ويخلصها من معركة فاشلة معروفة النتائج سلفاً ، لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية ، فسمع وهو في طريقه حديث أبي سفيان وبديل بن ورقاء فعرف العباس صوت أبي سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول - ﷺ - حتى ينظر في أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد ، فيحقق به ويقومه العقاب .

أردف العباس أباسفيان على بغلة الرسول - ﷺ - وتوجها نحو معسكر المسلمين ، فلما وصل العباس المعسكر ودخله وأخذ يمر بنيران الجيش في طريقه إلى خيمة الرسول - ﷺ - رآه المسلمون ، فلم ينكروا شيئاً ، لأنهم عرفوا العباس ، فلما مرَّ العباس بنار عمر بن الخطاب عرف أباسفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع عمر إلى خيمة النبي - ﷺ - وطلب منه أن يأمره بضرب عنق أبي سفيان ولكن الرسول - ﷺ - طلب من عمه أن يأخذ أبي سفيان إلى خيمته ويحضره إليه صباح غد ، فلما كان

الصباح وجيء بأبي سفيان إلى النبي - ﷺ - أسلم ليحقن دمه ، فقال العباس : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً » .

قال الرسول - ﷺ - : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » (١) .

وأراد الرسول - ﷺ - أن يستوثق من سير الأمور كما يحب بعيداً عن وقوع الحرب ، فأوصى العباس باحتجاز أبي سفيان في مضيق الوادي ، حتى يستعرض الجيش الزاحف كله ، فلا تبقى في نفسه أية فكرة للمقاومة .

قال العباس : « خرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادي ، حيث أمرني رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس من هؤلاء فأقول سليم ! فيقول : ما لي وسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : ما لي ولمزينة ؟ حتى نفذت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألتني عنها ، فإذا أخبرته قال : ما لي ولبنى فلان » .

« حتى مر الرسول - ﷺ - في كتيبه الخضر ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله - ﷺ - في المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد هؤلاء من قبل ولا طاقة ؟ والله - يا أبا الفضل - لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » .

« قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : نعم إذن » عند ذاك قال العباس لأبي سفيان : « النجاء إلى قومك ! » فأسرع أبو سفيان إلى مكة .

### قبل دخول مكة

دخل أبو سفيان مكة مبهوراً مدعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً ، إذ انطلق اجتاحت قريشاً وقضى عليها قضاء لا تقوم لها قائمة بعده أبداً ، ورأى أهل مكة قوات المسلمين تقترب منهم ، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد قرروا قراراً حاسماً ولا اتخذوا تدابير القتال الضرورية ، فاجتمعوا إلى ساداتهم ينتظرون الرأي الأخير ، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق بينهم مجلجلاً جازماً : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

دهشت امرأة أبي سفيان هند بنت عتبة ، التي كانت تشايح المتطرفين من مشركي قريش في عداوتهم للمسلمين ، وهي تسمع من زوجها هذا الكلام .

فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم الأحس « أي هذا الزق المتنفخ »

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٦٢ باب بين العباس بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب في شأن أبي سفيان .

قبح من طليعة قوم ولم يكثرث أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... » .

قالت قريش : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ قال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وأصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، واجتمع بعضهم في المسجد الحرام ، وبقي المتطرفون مصرين على القتال .

### خطة الفتح

- ١ - كانت مجمل خطة الرسول لدخول مكة ما يلي :
  - ( أ ) الميسرة بقيادة الزبير بن العوام واجبها دخول مكة من شمالها .
  - ( ب ) الميمنة بقيادة خالد بن الوليد واجبها دخول مكة من جنوبها .
  - ( ج ) قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبي عباد واجبها دخول مكة من الغرب .
  - ( د ) قوات المهاجرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح واجبها دخول مكة من الشمال الغربي من اتجاه جبل هند .
  - ( هـ ) مثابة اجتماع القوات بعد الفتح في منطقة جبل هند .
- ٢ - كانت أوامر الرسول ﷺ لقواده بالاقبال إلا إذا اضطروا إلى القتال حتى يتم فتح مكة سلمياً وبدون قتال .

### الفتح

- ١ - قبل شروع القطاعات في دخول مكة ، سمع بعض المسلمين سعد بن عباد يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . . لذلك رأى الرسول ﷺ - حين بلغه ما قال سعد ، أن يأخذ الراية منه ، وأن يدفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، فقد كان قيس أهدأ أعصاباً من أبيه ، وأكثر سيطرة على نفسه ، حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب .
- دخلت قوات المسلمين مكة ، فلم تلق مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد ، فقد تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم من بني بكر في منطقة « الخندمة » فلما وصلت قطعات خالد أمطروها ببوابل من نبالهم ، لكن خالد لم يلبث أن فرقهم ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلّا طريقهما وانفصلا عنه ، ولم يلبث صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل ، حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن تركوا مواضعهم في « الخندمة » وفروا مع قواتهم .
- واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين وفتحت أبوابها لهم .

## في مكة

عسكر النبي - ﷺ - في منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة ، فلما استراح وتجمعت أرتاله نهض والمهاجرين والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت العتيق ، وكان في الكعبة ستون وثلاثمائة صنماً ، يطعن بها بالقوس وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها ، فرأى الصور تملؤها ، ومن بينها صورتان إبراهيم واسماعيل ، يستقسمان بالأزلام ، فمحا ما في الكعبة من صور ، ثم صلى ودار في البيت يكبر ، ولما أنهى تطهير البيت من الأصنام والصور ، وقف على باب الكعبة وقريش تنظر ماذا يصنع ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء :

الناس من آدم ، وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ . يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : « خيراً أخ كريم وابن أخ كريم » .

قال : « فإني أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » (١) .

طهر المسلمون البيت من الأصنام ، وأتم محمد - ﷺ - بذلك في أول يوم فتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية في البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التي كانت تعبد ويعبد آباؤها ، وهي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوماً ، نظم خلالها شئون مكة ، وفقه أهلها في الدين ، وأرسل بعض المفارز للدعوة إلى الإسلام ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء .

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٨٧٠ عفو رسول الله عن قريش ..

## خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

شهيديان فقط .

٢ - المشركون :

ثلاثة عشر قتيلاً وبعض الجرحى .

## سرايا الدعوة إلى التوحيد

الهدف :

١ - دعوة القبائل العربية المحيطة بمكة إلى الاسلام .

٢ - تحطيم الأصنام .

## سرية خالد بن الوليد إلى العزى

بعث النبي - ﷺ - خالداً لخمس ليال بقين من رمضان - أى بعد خمسة أيام من فتح مكة - لهدم « العزى » فى ثلاثين فارساً من أصحابه ، فلما سمع سادتها بمسير خالد إليها ، علق عليها سيفه والتجأ إلى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عز شدى شدة لاشوى لها على خالد ألقى القناع وشمري  
ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالداً فبئى بلأثم عاجل أوتنصرى  
فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عز كفرانك لاسبحانك إني رأيت الله قد أهانك

وعاد خالد إلى النبي - ﷺ - بعد انتهاء واجبه .

## سرية عمرو بن العاص إلى سواع

بعث رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة عمرو بن العاص إلى سواع صنم هذيل ليهدمه . قال عمرو : « فأنتهيت إليه وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قلت : أمرنى رسول الله - ﷺ - أن أهدمه ! فقال : لا تقدر على ذلك ! فقلت : لم ؟ فقال : تمنع ! فقلت : حتى الآن أنت فى الباطل ؟ ويحك هل يسمع أو يبصر ؟ ! فدنوت منه فكسرتة وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ فقال : أسلمت لله » .

## سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة

بعث رسول الله ﷺ - في شهر رمضان سنة ثمان للهجرة سعد بن أبي زيد الأشهلي إلى مناة ، وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان ، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن فقال السادن : « ما تريد » ؟ قال : « هدم مناة » قال : « أنت وذاك ! » فأقبل سعد يمشي إليها هو وأصحابه ، فهدموا الصنم ولم يجدوا في خزانها شيئاً ، فانصرف إلى رسول الله ﷺ - في مكة ، وكان ذلك لست بقين من رمضان المبارك .

## سرية خالد بن الوليد إلى جزيمة من كنانة

لما رجع خالد من هدم العزى ورسول الله ﷺ - مقيم بمكة بعثه في شوال سنة ثمان للهجرة إلى بني جزيمة وكانوا بأسفل مكة ناحية « يلملم » بعثه « داعياً » إلى الإسلام ولم يبعثه « غازياً » فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ! فجعلوا يقولون : صباناً . صباناً ! فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ثم دفع إلى كل رجل أسيره ، إذا كان يوم من الأيام أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره ، فلما علم النبي ﷺ - بذلك قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وفي رواية أخرى أن خالدًا خرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم ، فلما انتهى إلى بني جزيمة قال : « ما أنتم ؟ » قالوا : مسلمون ، قد صلبنا وصدقنا بمحمد وبنيينا المساجد في ساحاتنا وأذننا فيها !

فقال : « ما بال السلاح عليكم ؟ » فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فحفظنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح ! قال : « فضعوا السلاح » فلما وضعوه قال لهم : « استأسروا » فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكثف بعضاً وفرقهم في أصحابه ، فلما كان في السحر نادى خالد : « من كان معه أسير فليدافه » والمداfe : الإجهاز عليه بالسيف . فأما بنو سليم فقتلوا من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم ، فلما بلغ النبي ﷺ - ذلك قال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وبعث على بن أبي طالب رضى الله عنه ، فورى لهم قتلاهم وما ذهب منهم .

قال رسول الله ﷺ - : « يا على ! اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأنظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه ليدى لهم مبلغه الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال ، إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم حين فرغ منهم : « إني أعطيتكم هذه البقية من المال احتياطياً لرسول الله ﷺ - مما لا يعلم وتعلمون ، فلما رجع وأخبر رسول الله ﷺ - بما فعل ، قال له : « أصبت وأحسنست » (١) .

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي . باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جزيمة جـ ٣ ص ٧١ بحاشية السندي . انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٨٤

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، وهى الرواية التى رواها الامام البخارى ، فى صحيحه هى الصحيحة ، لأن صحيح البخارى هو أوثق المصادر فى روايته ، ولأنها أقرب للعقل والمنطق ، ولأن خالداً لو اقتنع باسلامهم لما تجرأ مطلقاً على قتلهم .

لقد قال بنو جزيمة : صباناً .. صباناً ، فحمل خالد هذه اللفظة على ظاهرها ، أى أنهم خرجوا من دين إلى دين ، فلم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام ، فالدليل على ذلك أنه قال لهم : « ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا » وهذا دليل قاطع على أنه لم يقتنع بأن كلمة : صباناً هى بمعنى أسلمنا .

## دروس من الفتح

### ١ - المباغتة :

حرص محمد - ﷺ - أشد الحرص ، على ألا يكشف نيته لأحد ، عندما أعترم الحركة إلى مكة ، وكان سبيله إلى ذلك الكتمان الشديد .

لم يبيع بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه أبى بكر ، بل لم يبيع بنياته إلى أحب نسائه إليه عائشة بنت أبى بكر ، وبقيت نواياه سراً مكتوماً ، حتى أنجز هو وأصحابه جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمره الانذارى إلى كافة المسلمين خارج المدينة وداخلها لإنجاز الاستحضارات ، ولكنه أباح بنواياه فى الحركة إلى مكة قبيل موعد خروجه من المدينة ، حيث لم يبق هنا مبرر للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الوقوع .

ومع ذلك فإنه بث عيونه وأرصاده ودورياته ، لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش . بث عيونه داخل المدينة ، ليقضى على كل خبر من أهلها إلى قريش ، وقد رأيت كيف أطلع على ارسال حاطب بن أبى بلتعة برسالته إلى مكة ، فاستطاع أن يحجز على تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها .

وبث دورياته فى المدينة وخارجها ، ليحرم قريشاً من الحصول على المعلومات عن نوايا المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات إليها .

وبقى النبى - ﷺ - يقظاً كل اليقظة ، حتى وصل ضواحي مكة ، ونجح بترتيباته فى حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين .

ولو انكشفت نيات المسلمين لقريش فى وقت مبكر ، لاستطاعت أن تحشد حلفاءها ، وتنظم قواتها ، وتقرر خطة مناسبة لمقاتلة المسلمين ، ولاستطاعت مقاومة النبى - ﷺ - وأصحابه أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقواته خسائر فى الأرواح والأموال دون مبرر : « ولكن الله سلم » .



ليس من السهل أبداً ، أن يتحرك جيش كبير تبلغ قوته عشرة آلاف راكب وراجل إلى مكة ، دون أن تعرف قريش وقت حركته ونواياه ، حتى يصل ذلك الجيش إلى ضواحي مكة ، فيفلت الأمر من قريش ، ولا تعرف ما تصنع إلا أن تلجأ إلى التسليم .

إن ترتيبات الرسول - ﷺ - لحرمان قريش من معرفة نواياه ، أمنت له مباغته ممتازة للغاية وأجبرت قريشاً على الاستسلام دون قتال .

## ٢ - المعلومات :

يقرر القائد خطته بالنسبة إلى المعلومات ، التي يستطيع الحصول عليها عن نوايا العدو ، وعدد قواته وتنظيمه وتسليمه ومواضعه وأسلوب قتاله .

وكلما كانت المعلومات المتيسرة مفصلة وافية ، كانت خطة القائد دقيقة ، وكان احتمال نجاحها كبيراً .

لقد استطاع المسلمون أن يعرفوا من وفد بني خزاعة أمر نقض الهدنة ، واستطاعوا معرفة تردد قريش في قراراتها ، كما استطاعوا أن يعرفوا كل خبر مهم يدخل إلى المدينة أو يخرج منها في أي وقت ما . أما قريش فلم تستطع أن تحصل على أي نوع من المعلومات ، في أي وقت كان قبل حركة الرسول - ﷺ - وأثناءها حتى وضوله ضواحي مكة .

حاول أبو سفيان أن يعرف نيات المسلمين من ابنته أم حبيبة زوج النبي - ﷺ - فلم يفلح وحاول أن يعرف ذلك من المسلمين في المدينة ، ففشل وحاول أن يعرف شيئا من وفد خزاعة ، فأنكر الوفد ذهابه إلى الرسول - ﷺ - وهكذا بقيت قريش في عماية من أمرها ، حتى وصل جيش المسلمين ضواحي مكة ، ونزل القضاء المحتوم بقريش وأثيب المسلمون بالفتح المبين .

## ٣ - بُعد النظر :

القائد الناجح هو الذي يتسم ببعد النظر بالإضافة إلى مزاياه الأخرى ، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع التدابير الضرورية ، لمعالجته دون أن يترك مصائر قواته للأقدار .

إن النصر من عند الله يؤتاه من يشاء ، هذا أمر مفروغ منه ، ولكن الله يكتب النصر لمن أعد له عدته ، واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه ، ولذلك يشدد العسكريون لإدخال أسوأ الاحتمالات في حسابهم عند الإقدام على أية حركة عسكرية .

أمر الرسول - ﷺ - أن يحبس أبو سفيان في مدخل الجبل إلى مكة ، حتى تمر به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عما رآه عن نية ويقين ، ولكي لا يكون اسرعه في العودة إلى قريش قبل أن تتحطم معنوياته تماماً ، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش مهما يكن نوعها ودرجة خطورتها .

وفعلًا اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها أن قريشاً لا قبل لها بالمقاومة .

وقد أدخل الرسول - ﷺ - في حسابه أسوأ الاحتمالات أيضاً ، عند تنظيم خطته لفتح مكة ، فقد كانت تلك الخطة ، تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها بإمكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة ، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة في أية جهة من مكة ، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من ارتال المسلمين على انفراد ، فتكون قوات قريش ضعيفة في كل مكان .

لقد اتخذ النبي - ﷺ - هذه التدابير الفعالة ، على الرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للمسلمين ضعيف جداً ، وذلك ليحول دون مباغته قواته وإيقاع الخسائر بها مهما تكن الظروف والأحوال .

إن هذا العمل من أروع أمثلة بُعد النظر الذي يجب أن يتسم به القائد .

#### ٤ - التنظيم :

كان جيش الفتح يتألف من المهاجرين والأنصار ، ومسلمي أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك ، ألف رجل من بني سليم ، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة ، وأربعمئة من بني غفار ، وأربعمئة وألف من بني جهينة ، وأربعمئة من أسلم ، وعدد من تميم وأسد وقيس ، وغيرها من القبائل الأخرى .

إن هذا التنظيم جعل المشركين يترددون في مقاومة جيش المسلمين ، لأن كل قبيلة لها فيه عدد كبير ، بل إن كثيراً من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحاً لها على الرغم من اختلاف العقيدتين ؟ والأكثر من ذلك ، فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى ، كما أن فشل أية قبيلة في التغلب عليه لا يعتبر عاراً عليها ، لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى بل لم يكن للعرب دون غيرهم ، بل كان للإسلام ولعنتقى هذا الدين من العرب وغير العرب .

إنى أعتقد أن تنظيم هذا الجيش ، بهذا الأسلوب الذي لا يخضع إلا للعقيدة الموحدة فقط دون غيرها من المؤثرات جعل القبائل كلها لا تحرص على مقاومته حرصها على مقاومة قبيلة خاصة ، وجعل أكثر تلك القبائل لا تريد فشله إذا لم تكن تريد النصر له ، وهذا أدى إلى تردد القبائل في مقاومته ، وامتناعها عن نقل المعلومات عنه إلى قريش أو غيرها ، كما أعتقد أن قوة هذا الجيش وحدها ، لم تكن المانع الوحيد لتردد القبائل في قتاله ونقل معلوماته للعدو ، لأن قتاله أو نقل المعلومات عنه لعدوه ، معناه إيقاع الخسائر في المسلمين ، تلك الخسائر التي تكون على القبائل كلها لا على قبيلة واحدة ، وبذلك يشمل الضرر القبائل كلها لا المسلمين وحدهم ، ومن يضمن ألا تكون أكثر الخسائر من منتسبي تلك القبيلة ، التي سببت للمسلمين هذه الخسائر إنها لعبقرية جديرة بالتأمل .

#### ٥ - المعنويات :

لم تكن معنويات المسلمين في وقت من الأوقات ، أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة البلد المقدس عند المسلمين ، الذي يتوجهون إليه في صلاتهم كل يوم ، ويحجون بيته كل عام .

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » (١) .  
 وقد كانت أهمية مكة للمهاجرين أكثر من أنها بلد مقدس ، فهي بلدهم الذي تركوه فراراً بدينهم ، وتركوا فيه أموالهم وأقرباءهم ، وكل عزيز عليهم .  
 لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوى الاعذار الصعبة .  
 أما معنويات قريش ، فقد كانت متردية للغاية ومن حقها أن تتردى ، فقد أثرت عليها عمرة القضاء كما رأيت ، كما أثر عليها انتشار الاسلام فى كل بيت من بيوت مكة تقريبا ، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال .

كان حماس بن قيس من بنى بكر يعد سلاحه قبل دخول الرسول - ﷺ - مكة فسألته امرأته المشركة :  
 « لماذا تعدّ ما أرى ؟ » قال : « لمحمد وأصحابه » قالت : « والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شىء » .

فإذا كان هذا حال معنويات المشركين فى مكة ، فكيف تستطيع المقاومة ، وكيف لا تتردد فى الاقدام على القتال ؟

إنى اعتبر أن فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء ، لأن هذه العمرة أثرت على معنويات قريش أعظم التأثير .

إن عمرة القضاء فتحت قلوب قريش ، وغزوة الفتح فتحت أبوابها .

ومما زاد فى انحطاط معنويات قريش ، وشل كل روح للمقاومة فيها ما اتخذهُ الرسول - ﷺ - من ترتيبات ايقاد عشرة آلاف نار فى ليلة الفتح ، ومرور الجيش كله بأبى سفيان قائد قريش أو أكبر قائد فيها ، ودخول أرتال المسلمين من كل جوانب مكة .

لقد كانت معركة ( الفتح ) معركة معنويات لا معركة ميدان .

٦ - السلم :

حرص الرسول - ﷺ - منذ خروجه من المدينة حتى فتح مكة على نياته السلمية ، ليؤلف بذلك قلوب المشركين ويجعلها تقبل على الإسلام .

ايقاد النيران فى ليلة الفتح بشكل لم تعرف له العرب مثيلاً من قبل ، يستهدف القضاء على روح المقاومة فى قريش ، ويجبرها على التسليم دون قتال .

ومرور الجيش بأبى سفيان ، يستهدف اقناعه بعدم جدوى المقاومة ، ليعمل من جانبه على اقناع قريش بهذا الرأى .

« ومن دخل دار أبي سفيان أو أغلق عليه بابه أو التجأ إلى البيت الحرام فهو آمن كما قال الرسول ﷺ (١) ومعناه : منع تجمع الناس للمقاومة ، وإجبارهم على الاستسلام . بل إن دخول ارتال المسلمين من كل جانب من جوانب مكة ، لا يعنى إلا إقناع قريش باستحالة المقاومة .

كما عهد - ﷺ - إلى امرأته ، حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

كل ذلك كان يستهدف السلم وحقق الدماء .

وبقى الرسول - ﷺ - مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً ، فقد أصدر العفو العام عن قريش وقال لهم : « أذهبوا فأنتم الطلقاء » (٢) .

وكما حرص الرسول - ﷺ - على السلم الإجماعي حرص على السلم للأفراد ، فمنع القتل حتى لفرد من المشركين : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه » (٣) .

قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلاً من هذيل غداة يوم الفتح ، لثأر سابق لها عنده ، فغضب الرسول أشد الغضب ، وقام في الناس خطيباً ومما قاله : « يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله - أى دينه » .

ثم ورى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة (٤) .

بل إن الرسول لم يقتل رجلاً من المشركين ، أراد اغتياله شخصياً ، وهو يطوف في البيت بل تلطف معه ، فقد اقترب منه فضالة ابن عمير ، يريد أن يجد له فرصة لقتله ، فنظر إليه النبي - ﷺ - نظرة عرف بها طويته ، فاستدعاه وسأله : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : « لا شيء ! كنت أذكر الله » . فضحك النبي - ﷺ - وتلطف معه ووضع يده على صدره ، فأنصرف الرجل وهو يقول : « ما رفع يده عن صدرى ، حتى ما من خلق الله شيء أحب إلى منه » (٥) .

لقد كان الرسول يستهدف من حرصه على السلم ، تأليف قلوب الناس ، وتوحيد كلمتهم ، ليقبلوا طائعين على الإسلام ، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذى آلت إليه ، وهى كانت سيدة العرب غير منازع ، لأنها أعظمهم حضارة ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم مالاً ، وفي بلدها البيت الحرام .

ليس من السهل أن ترضى قريش بمصيرها هذا ، وتقبل على الإسلام طائعة ، وتحمل رايات الجهاد ، لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية ، التى لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس

(١) أخرجه ابن هشام ج ٤ ص ٨٦٢

(٢) أخرجه ابن هشام ج ٤ ص ٨٧٠

(٣) سورة التوبة آية ٦

(٤) أخرجه ابن هشام ج ٤ ص ٨٧٣ باب خطبة رسول الله ﷺ غداة الفتح .

(٥) أخرجه ابن هشام ج ٤ ص ٨٧٤ . باب قصة فضالة الليثي .

عداوة للإسلام ، إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام ، : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ (١) زد على ذلك أن « السلام » في الإسلام دين ، أمر الله به في محكم كتابه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ (٢).

## ٧ - الوفاء :

التاريخ العسكرى طافح بأعمال الظلم والانتقام ، التى قام بها المنتصرون ، ويندر أن نجد فى التاريخ كله لهذا الوفاء .

رأى الأنصار دخول الرسول - ﷺ - بلده الحبيب ، بعد فراق طال أمده ، وشاهدوا التفاف قومه وأهله حوله ، فقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله - ﷺ - إذ فتح الله عليه أرضه وبلده ، يقيم بها ؟ ولكن محمداً - ﷺ - ما لبث أن سألهم : « ما قالوا ؟ » فلما أباحوا له بما يخالج نفوسهم بعد تردد ، قال : « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » .

وقد كان من حقه أن يستقر بمكة ، وفيها أهله وقومه ، وفيها بيت الله الحرام ، ولكن وفاء أبى عليه أن ينسى أصدقاء الشدة فى وقت الرخاء .

ورأى على بن أبى طالب مفتاح الكعبة بيد الرسول - ﷺ - فقال له : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

قال الرسول - ﷺ - : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فلما جاء عثمان قال له : « يا ابن طلحة ، هاك مفتاحك اليوم يوم بر ووفاء » (٣).

أما وفاؤه بعهوده وحرصه الشديد على التمسك بها فحديث معاد .

تلك أمثلة من وفاء الرسول - ﷺ - حتى قال أعداؤه عنه قبل أصدقائه : « أنه أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وأوفاهم » .

## ٨ - التواضع :

السيطرة على الأعصاب فى حالتى النصر والفشل ، من أصعب الأمور التى يجب أن تتوفر فى القائد الممتاز ، وربما تكون السيطرة على الأعصاب فى حالة الهزيمة أسهل من السيطرة عليها فى حالة النصر ، فكم غير النصر من أخلاق القادة وجعلها تنقلب من حال إلى حال .

(١) سورة البقرة آية ٥

(٢) سورة الانفال آية ٦١

(٣) أخرجه ابن هشام ج ٤ ص ٨٧٠ . باب رده مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة .

ولكن نصر المسلمين يوم الفتح ، جعل الرسول - ﷺ - يتواضع لله ، حتى رآه المسلمون يوم ذاك ورأسه قد انحني على رحله ، وبدأ عليه التواضع الجمل ، حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعاً ، وترقرقت في عينيه الدموع تواضعاً وشكراً لله .

إن قيمة هذا التواضع في موقف يُعدّ أكبر نصر للمسلمين ، تتضاعف قيمته في النفس ، إذا قارناه بمواقف العظمة والجبروت ، التي أبدأها مختلف القادة في مختلف الظروف ، عندما حازوا نصراً أقل قيمة من فتح مكة بكثير .

إن تواضع الرسول - ﷺ - درس عملي لكل قائد متتصر ، وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر .

## ٩ - العقيدة :

رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - فراش النبي - ﷺ - عن والدها أبي سفيان ، وقد جاءها من سفر قاصد بعد غياب طويل ، ذلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس ولو كان هذا المشرك أبها الحبيب .

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس عم النبي - ﷺ - ليواجه الرسول - ﷺ - رآه عمر بن الخطاب ، فترك خيمته واشتد نحو خيمة الرسول ، فلما وصلها قال : « يا رسول الله دعني أضرب عنقه » .

قال العباس : « يا رسول الله إني قد أجرته » فلما أكثر عمر قال العباس : ( مهلاً يا عمر ، ما تصنع هذا إلا أنه من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدى ما قلت هذه المقالة ) فقال عمر : « مهلاً يا عباس ، فوالله اسلامك يوم أسلمت كان أحب لي من اسلام الخطاب لو أسلم » هذا صحيح ، فقد كان عمر يمثل عقيدة المسلمين الأولين الراسخة ، بينما كان العباس حديث عهد بالإسلام .

وكيف تبرز إقدام المهاجرين على الاشتراك في غزوة الفتح ، تلك الغزوة التي لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين ، وقوات قريش قوم المهاجرين وأهلهم في بلدهم الحبيب .

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية ، بل هي رهن المصلحة العامة وحدها .

## ١٠ - تحطيم الأصنام :

في مكة يوم الفتح ، وفي غير مكة بعيد الفتح ، قضى على عقيدة الإشراف في أقوى معقل من معاقلها في البلاد العربية كلها .

إن تحطيم الأصنام - وهي التي كان يعبدونها المشركون ، ويقربون القرابين إليها دون أن تلود عن نفسها ، أو تصيب من حطمتها بأذى ، كما كان يعتقد المشركون بها - نزع من نفوسهم إلى الأبد آخر اعتقاد في قدسية هذه الأصنام وفائدتها .

## ١١ - القضايا الإدارية :

كان موقف إعاشة المسلمين في غزوة الفتح جيداً ، فلم يشك منهم أحد من نقص الأرزاق قبل الفتح وبعده ، حتى عادوا إلى المدينة .

كما كان موقف النقلة جيداً أيضاً ، فقد كان لدى جيش المسلمين عدد كبير من الإبل والخيول ، أفادوا منها في تنقلهم للركوب وحمل أمتعتهم .

أما تسليحهم فكان ممتازاً ويكفي أن تسمع وصف الكتيبة الخضراء ، التي كان فيها النبي - ﷺ - فقد كان أفرادها لا يرى منهم إلا الحديد من كثرة الحديد .

لقد تأمنت كافة القضايا الإدارية للمسلمين في غزوة الفتح ، بشكل لم يسبق له مثيل في غزوات الرسول - ﷺ - السابقة .

## إرشاد رباني

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب عظيم إلى الجماعة المؤمنة ، يقول فيها رافع السماء بلا عمد آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : ( من أنصاري إلى الله ) أي من معين في الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ( قال الحواريون ) وهم أتباع عيسى عليه السلام ( نحن أنصار الله ) أي نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازرك على ذلك ولهذا بعثهم دعوة إلى الناس في بلاد الشام في الاسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله - ﷺ - يقول في أيام الحج : « من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قریشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي »<sup>(١)</sup> حتى قبض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علماً عليهم رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - رسالة ربه إلى قومه وآزره من آزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بني اسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ومن قائل : إنه الله وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء .

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٢ تفسير سورة الصف .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ أى نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ أى عليهم وذلك ببعثة محمد - ﷺ - كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله ، حدثني أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال يعنى ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت أثنا عشر رجلاً من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بى أثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، قال ثم قال : أيكم يلقي عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى في درجتى : قال فقام شاب من أحدثهم سناً فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم عاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا فقال : نعم أنت ذاك . قال فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى عليه السلام من روضة في البيت إلى السماء ، قال وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفروه بعضهم أثنتى عشرة مرة بعد أن آمنوا به ففترقوا فيه ثلاث فرق ، فقالت فرقة كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوا فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ - « فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » يعنى الطائفة التى كفرت من بنى اسرائيل فى زمن عيسى والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ﴿ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ بإظهار محمد - ﷺ - دينهم على دين الكفار . هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رواه النسائى<sup>(١)</sup> عند تفسير هذه الآية من سننه عن أبى كريب عن محمد بن العلاء عن أبى معاوية بمثله سواء فأمة محمد - ﷺ - لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .



## سورة الجمعة بين يدي السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . وآياتها إحدى عشرة .  
وكلماتها مائة وثمانون . وحروفها سبعمائة وعشرون . وتسمى سورة الجمعة لقوله : ﴿ إذا نودي  
للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

معظم مقصود السورة :

بيان بعث المصطفى وتعيد اليهود والشكاية منهم وإلزام الحجة عليهم والترغيب في حضور الجمعة ،  
والشكاية من قوم بإعراضهم عن الجمعة وتقوية القلوب بضمان الرزق لكل حي في قوله : ﴿ والله خير  
الرازقين ﴾ .

والسورة خالية من الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله : ( ولا يتمنونه ) وفي البقرة ( ولن يتمنوه ) . مناسبتها لما قبلها :

وذلك من وجوه :

١ - إنه ذكر في السورة قبلها حال موسى مع قومه بإيذائهم له ، ناعياً عليهم ذلك وذكر في هذه حال  
الرسول - ﷺ - وفضل أمته تشريعاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

٢ - إنه حكى في السورة قبلها قول عيسى : « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » . وذكر هنا  
« هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم » إشارة إلى أنه هو الذي بشر به عيسى .

٣ - لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماء تجارة ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أن  
ذلك خير من التجارة الدنيوية .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ هُوَ الَّذِي  
بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ  
كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝

### معاني المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص ، المتصف بصفات الكمال ، الأميين : هم العرب ، واحدهم  
أُمى نسبة إلى الأم التي ولدته ، لأنه على الحال التي ولد عليها ، لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على  
الجبلة الأولى .

يزكيهم : أى يطهرهم بتلاوة آياته ، آخرين : واحدهم آخر ، بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم :  
أى لم يلحقوا بهم بعد وسيحلقون ، وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

### المناسبة وإجمال المعنى

يسبح لله كل ما فى السموات ، وما فى الأرض تسبيحاً متجدداً مستمراً ، لأنه صاحب الملك ،  
وييده الأمر والخلق ، وهو القدوس المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال ، العزيز الذى لا يغلبه  
غالب ، الحكيم فى كل شىء .

وأول مظهر من مظاهر فضله ونعمه على خلقه ، إرسال الرسل وخاصة النبى محمدًا - ﷺ - إماماً  
لهم ، وخاتماً للرسل كلهم ، ولا شك أن هذا من مظاهر عزته وحكمته هو الحق تبارك وتعالى ، الذى  
بعث فى العرب رسولاً من جنسهم أمياً مثلهم ، لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فهو يتلو عليهم الآيات ،  
ويحملهم على طهارة النفس وزكاء الطبع ، ويخلق فيهم الضمير الحى والوازع الإلهى ، وهو الذى  
يعلمهم القرآن والحكمة النافعة المأخوذة من حديثه . وقوله وفعله ، فهو المثل الأعلى والقائد الأسمى ،  
الذى قاد أمته إلى الحياة الصميمة ، وأوصلهم إلى مناهل العلوم والمعارف فى التشريع والقضاء  
والسياسة والاقتصاد ، وإن كانوا من قبل لفى جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، وأى ضلال أكثر من ضلال  
العرب قبل الإسلام !

يُعلم العرب الكتاب والحكمة ويزكيهم من دنس الرجس والشرك وسوء الفعل ، ويعلم آخرين  
منهم لم يلحقوا بهم وسيحلقون بهم ، هؤلاء هم الذين دخلوا فى الإسلام من العرب ومن غيرهم بعد  
الصحابة ، الذين ارتشفوا من معين النبوة مشافهة ، وما أروع كلمة « منهم » أى من الأمة الإسلامية ،  
إذ الإسلام لا يقر باختلاف الأجناس والألوان ، بل كل مسلم من أى جنس ولون ، فهو عضو فى أسرة  
الإسلام وأخو المسلم فى أى مكان ، وإن بعدت الدار وشط المزار .

ذلك الفضل العظيم فضل الله ونعمته ، يؤتیه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ، ولا حرج على فضل الله ، حيث فضل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كانوا أوزاعاً لا وزن لهم ، ولا قيمة لهم عند غيرهم من الأمم ، وظل الحال كذلك فالعرب لعبوا ويلعبون دوراً مهماً في العالم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض ، أى من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (١) ثم قال تعالى : ﴿ الملك القدوس ﴾ أى هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أى المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذى لا يغلب ، بل هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، ورضا كل بائس ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، فهو - سبحانه - مفزع كل ملهوف ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه ، الحكيم الذى تنزه عن العبث وعن كل نقص ، فهو ذو الحكمة البالغة ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا أراد قضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فهو الجدير بأن يسبح لله كل من في السموات والأرض ، إذ هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . ولما كان للتسبيح فضل كبير عند الله ، فقد عقد الإمام المنذرى باباً تحت عنوان .

### الترغيب فى جوامع من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

١ - عن جويرية - رضى الله عنها - : أن النبى - ﷺ - خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم . قال النبى - ﷺ - : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والترمذى .

وفى رواية لمسلم : سبحان الله عدد خلقه ، سبحانه الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته ، زاد النسائى فى آخره . والحمد لله كذلك .

(١) سورة الاسراء آية ٤٤

(٢) سورة المؤمنون آية ٨٨

وفى رواية له : سبحان الله ويحمده ولا إله إلا الله والله أكبر عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

ولفظ الترمذى : أن النبى - ﷺ - مر عليها - وهى فى المسجد ، ثم مربها وهى فى المسجد قريب نصف النهار فقال : ما زلت على حالك ؟ فقالت : نعم ، فقال : أعلمك كلمات تقولينها : سبحان الله عدد خلقه وسبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، ثلاث مرات ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات وذكر زنة عرشه ومداد كلماته ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : حديث حسن صحيح ، وفى رواية للنسائى : تكرار كل واحدة ثلاثاً أيضاً .

### نوع آخر

١ - عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عن أبيها رضى الله عنه أنه دخل مع رسول الله - ﷺ - على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل ؟ فقال : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان الله عدد ما بين ذلك ، سبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك .  
رواه أبوداود والترمذى ، وقال : حديث حسن<sup>(١)</sup> .

٢ - وروى الترمذى والحاكم أيضاً عن صفية - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - دخل عليها وبين يديها أربعة آلاف نواة تسبح بهن ، فقال : ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به ؟ فقالت : بل علمنى ، فقال : قولى سبحان الله عدد خلقه ، وقال الحاكم : قولى سبحان الله عدد ما خلق من شىء ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفى وليس إسناده معروف<sup>(٢)</sup> .

### نوع آخر

١ - عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : رأى النبى - ﷺ - ، وأنا أحرك شفتى ، فقال لى : بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله ، فقال : ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار ؟ قلت بلى يا رسول الله . قال تقول : سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملء ما خلق سبحان الله عدد ما فى الأرض ، سبحان الله ملء ما فى السماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كل شىء ، سبحان الله ملء كل شىء ، الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله ملء كل شىء . رواه أحمد وابن أبى الدنيا واللفظ له ،

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٥٢٥ رقم ٣٥٦٨ كتاب الدعوات . باب فى دعاء النبى ﷺ وتعونه دبر كل صلاة

أنظر سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب التسبيح بالحصى

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٥١٩ رقم ٣٥٥٤ كتاب الدعوات باب ١٠٤

والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما باختصار، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين<sup>(١)</sup> .

ورواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن ولفظه قال : أفلا أخبرك بشيء إذا قلته ، ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى . قال تقول : الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شيء ، والحمد لله على كل شيء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك .

### نوع آخر

١ - عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا يا ربنا : إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ، هو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قال : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها . رواه أحمد وابن ماجه<sup>(١)</sup> . وإسناد متصل ورواته ثقات .

إلا إنه لا يحضرنى الآن فى صدقة ابن بشير مولى العمر بنى جرح ، ولا عدالة (عضلت بالملكين) بتشديد الضاد المعجمة : أى اشتدت عليهما وعظمت واستغلق عليهما معناها .

### نوع آخر

١ - روى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من قال : الحمد لله الذى تواضع كل شيء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شيء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شيء لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شيء لقدرته ، فقالها يطلب بها ما عند الله ، كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك ، يستغفرون له إلى يوم القيامة . رواه الطبراني<sup>(٢)</sup> .

### نوع آخر

١ - عن أبى أيوب - رضى الله عنه - قال : قال رجل عند رسول الله - ﷺ - : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً . مباركاً فيه ، فقال رسول الله - ﷺ - : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله - ﷺ - على شيء يكرهه فقال رسول الله - ﷺ - : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صواباً فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً

(١) أخرجه كنز العمال ج ١ رقم ٢٠٤٤

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه ج ٢ ص ١٢٤٩ كتاب الأدب باب فضل الحامدين رقم ٣٨٠١

يبتدرون كلمتك ، أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟  
رواه ابن أبي الدنيا والطبراني بإسناد حسن واللفظ له والبيهقي<sup>(١)</sup> .

٢ - وعن أنس رضي الله عنه قال : كنت مع النبي - ﷺ - جالساً في الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على النبي - ﷺ - والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد النبي - ﷺ - : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يحمده وينبغي له ، فقال له رسول الله - ﷺ - : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبي - ﷺ - : والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك كلهم حريص على أن يكتبها ، فما دريا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذي العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدی . رواه أحمد ورواه ثقات والنسائي وابن حبان في صحيحه إلا أنهما قالاً : كما يحب ربنا ويرضى<sup>(٢)</sup> .

### نوع آخر

١ - عن سلمان رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : قال رجل : الحمد لله كثيراً ، فأعظمها الملك أن يكتبها فراجع فيها ربه عز وجل ، فقال : اكتبها كما قال عبدی . رواه الطبراني بإسناد فيه نظر<sup>(٣)</sup> .

٢ - وروى أبو الشيخ وابن حبان عن طريق عطية عن أبي سعيد مرفوعاً أيضاً : إذا قال العبد الحمد لله كثيراً . قال الله تعالى : اكتبوا لعبدي رحمتي كثيراً<sup>(٤)</sup> .

### نوع آخر

١ - عن علي رضي الله عنه : أن النبي - ﷺ - نزل عليه جبرائيل - عليه السلام - فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أويوماً ، فقل : اللهم لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك ، ولك الحمد حمداً لا ينتهي له دون علمك ، ولك الحمد حمداً لا ينتهي له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمداً لا آخر لقاؤه إلا رضاك . رواه البيهقي ، وقال : لم أكتبه إلا هكذا وفيه انقطاع بين علي ومن دونه<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه الطبراني وذكره كنز العمال ج ٢ رقم ٣٥٧٠

(٢) أخرجه أحمد ج ٣ ص ١٥٨

انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء في الحمد .

(٣) أخرجه مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٩٦ ، ٩٧ باب ما جاء في الحمد .

(٤) أخرجه مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء في الحمد .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٩٦ باب ما جاء في الحمد .

## البعثة النبوية

قوله تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ﴾ الأميون هم العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وقل للذين أتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ (١) . وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر ، كما قال تعالى في قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ (٢) وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ (٣) وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ (٤) وقوله : ﴿ لأنذرکم به ومن بلغ ﴾ (٥) وقوله تعالى إخباراً عن القرآن : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ (٦) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى ، وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد خصص الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أي نزرأ يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى بن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضاه الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب . في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحد من الأولين ولا يعطيه أحد من الآخرين وصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وقوله تعالى ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ قال الإمام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبي الغيث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي - ﷺ - فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفيها سلمان

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠

(٢) سورة الزخرف آية ٤٤

(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤

(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨

(٥) سورة الانعام آية ١٩

(٦) سورة الرعد آية ٣٦

الفارسي ، فوضع رسول الله - ﷺ - يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لنال رجال - أوجل - من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به<sup>(١)</sup> ، ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى العموم لبعثته - ﷺ - إلى جميع الناس لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ ﴾ بفارس ، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به ، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ قال هم الأعاجم وكل من صدق النبي - ﷺ - من غير العرب ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدي حدثنا الوليد ابن مسلم حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن في أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » . ثم قرأ : ﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ يعني بقية من لقي من أمة محمد - ﷺ - وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً - ﷺ - من النبوة ، وما خص به من أمته من بعثه - ﷺ - إليهم .

### الحديث عن اليهود

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

### معاني المفردات

حملوا التوراة : المراد كلفوا العمل بها وليس هو من الحمل على الظهر بل هو من الحملالة أي الكفالة .

(١) أخرجه كثر العمال جـ ٢ ص ٦٣٥ رقم ٤٩٥٤

انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٤٣

انظر مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٩٧ باب ما جاء في الحمد .



أسفاراً : كتباً كباراً ، وسميت أسفاراً لأنها تسفر عن معناها إذا قرئت ( أولياء الله ) أحبابه .  
( تفرون منه ) تخافون منه .

وهذا مثل ضربه الله لليهود حيث أعطاهم التوراة ، ولم يعملوا بها ، فكانوا كالحمار الذي يحمل الكتب الكبار ، وفي ذكر هذا المثل هنا تحذير لأمة محمد - ﷺ - من أن يكونوا كاليهود ويدعون ولا يعملون ، ويحملون ولا ينتفعون .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت الله سبحانه التوحيد والنبوة وذكر أن الرسول بعث للأمينين ، قال اليهود : إن الرسول لم يبعث لنا ، فرد الله عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم وعملوا بما فيها ، لرأوا فيها نعت الرسول والبشارة به وأنه يجب عليهم أتباعه ، وما مثلهم في حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعا .

ثم رد عليهم مقالاً آخر إذ قالوا نحن أحباء الله وأوليأؤه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياماً معدودات - بأنه لو كان ما تقولونه حقاً لتمنيتم الموت ، حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار ، وتذهبوا إلى دار النعيم ، وإنكم لن تفعلوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدعون ، ولم تفرون منه ، وهو ملائكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ، ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شراً .

### أضواء كاشفة

شبه الله سبحانه وتعالى اليهود - حيث حملوا التوراة وكلفوا بها وعملوا بما فيها وحفظوها ، ثم لم ينتفعوا بما فيها - كالحمار يحمل كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشی بها ولا يعلم عنها شيئاً ، وخص الحمار بالذكر ، لأنه علم في الجهالة والبلادة ، وهذا مثل منطبق على من لم يعمل بالقرآن وأحكامه ويعرض عنه . بش المثل ﴿ مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

وكان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الآخرة لهم دون سواهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فنزل في ذلك هذه الآية ، والمعنى : قل لهم يا محمد : ( يا أيها الذين هادوا واتبعوا موسى والتوراة إن زعمتم صادقين أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس إن كنتم صادقين ) في هذا الزعم فتمنوا الموت الذي ينقلكم إلى دار الكرامة ، فتحظوا بالسعادة التي أعدها لكم ربكم ولا يتمنونه أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الكفر والمعاصي وتكذيب الرسول - ﷺ - مع علمهم بصدقه ووصفه في التوراة وفي حديث أن النبي - ﷺ - قال لما نزلت هذه الآية « والذي نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات » (١) . وفي هذا إخبار عن الغيب ومعجزة للنبي الكريم .

(١) أخرجه البخارى جـ ٣ ص ٢٠١ كتاب التفسير . تفسير سورة الجمعة .

انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس .

انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٨٥ كتاب التفسير باب تفسير سورة الجمعة رقم ٣٣١٠ ورقم ٣٩٣٣ كتاب المناقب باب في فضل المعجم

قل لهم إن الموت الذى تفرون منه وتخافونه ، فإنه ملاقيكم حتماً ، إذ كل شيء هالك إلا وجهه ، ثم تردون أيها اليهود إلى عالم الغيب والشهادة ، الذى لا يخفى عليه منكم خافية ، فينبئكم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه . وقد تحداهم الله تبارك وتعالى بهذا لعلمه أنهم أحرص الناس على حياة .

قال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ (١) .

### التفسير

هذا إخبار منه - سبحانه وتعالى - عن اليهود الذين ورد ذكرهم فى كثير من آيات الكتاب الكريم خاصة سورة البقرة التى أفاضت فى الحديث عنهم وما قصة البقرة إلا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن هذا الشعب شعب صلب الرقبة وحسبنا فى ذلك قوله تعالى : ﴿ ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾ (٢) وفى سورة الجمعة يخبر تعالى ذاماً لهؤلاء الناس الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بهائم لم يعملوا بها مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفراً أى : كمثل الحمار إذا حمل كتاباً لا يدرى ما فيها فهو يحملها حملاً حسيماً ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمار لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لم فهم لم يستعملوها ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٣) وقال تعالى هنا : ﴿ بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ (٤) ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا ابن نمير عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفراً والذى يقول له أنصت ليس له جمعة » (٥) ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ (٦) أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفتن إن كنتم صادقين أى فيما تزعمونه قال الله تعالى : ﴿ ولا يتمونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ (٧) . أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ (٨) وقد قدمنا الكلام فى سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ (٩) .

(١) الجمعة آية ٦  
(٢) الجمعة آية ٧  
(٣) الجمعة آية ٧  
(٤) البقرة آية ٩٥ ، ٩٦

(١) سورة البقرة آية ٩٦  
(٢) سورة المائدة آية ٦٤  
(٣) الأعراف آية ١٧٩  
(٤) الجمعة آية : ٥

(٥) سند الإمام أحمد ح ١ ص ٢١٠ مستند عبدالله بن عباس

وقد ذكر القرآن الكريم مباهلة النصارى فى سورة آل عمران كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ (١).

ومباهلة المشركين فى سورة مريم ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾ (٢) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا اسماعيل بن يزيد الزرقى حدثنا أبو زيد حدثنا فرات عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله - ﷺ - « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » (٣).

رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرازق ، عن معمر ، عن عبد الكريم قال البخارى وتبعه عمرو بن خالد : عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، ورواه النسائى أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد الله الحلبي عن عبيد الله بن عمرو الرقى به أتم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ (٤) وفى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهزلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعاً « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعبى وانتهر دخل جحره فقالت له الأرض يا ثعلب دينى ، فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات » (٥).

### صلاة الجمعة

هذا مشهد كريم ليوم كريم هو خير يوم طلعت فيه الشمس وفيه ساعة الإجابة وله أفضال كثيرة إنه يوم الجمعة ومن ثم فقد تناوله المفسرون بما له من فضل عظيم تناولا شافياً كافياً قال صاحب الروائع فى تفسير هذا المشهد ما نصه :

(١) آل عمران ٦١

(٢) سورة مريم ٧٥

(٣) البخارى تفسير سورة اقرأ

(٤) النساء ٧٨

(٥) سنن الترمذى

## التحليل اللفظي

نودى : النداء : الدعاء بأرفع الصوت تقول : ناديته نداءً ومناداة .

وفى الحديث ( فإنه أُنْدى صوتاً منك )<sup>(١)</sup> أى أحسن وأعذب ، وقيل : أرفع وأعلى ، والمراد بالنداء هنا : الأذان والإعلام لصلاة الجمعة .

الجمعة : هو اليوم المعروف ، وهو يوم عيد المسلمين الأسبوعي .  
قال الفراء : يقال ( الجمعة ) بسكون الميم . و ( الجمعة ) بضم الميم . ( والجمعة ) بفتح الميم فيكون صفة اليوم أى تجمع الناس . كما يقال : ضحكة للذى يضحكك الناس ففيها ثلاث لغات<sup>(٢)</sup> .

والأفصح الأشهر ( الجمعة ) بضم الميم ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالثقل والتفخيم فاقروها جمعة .

وقد صار يوم الجمعة علماً على اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وسميت جمعة لاجتماع الناس فيها للصلاة ، وكانت العرب تسمى يوم الجمعة ( عروبة ) وأول من سماها جمعة ( كعب بن لؤى ) .  
قال السهيلي : ومعنى العروبة : الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العلم .

فاسعوا : السعى : العدو فى المشى والإسراع فيه ، والمراد منه فى الآية : امشوا إلى الصلاة بدون إفراط فى السرعة لقوله - عليه الصلاة والسلام : ﴿ إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون . وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا . وما فاتكم فأتموا ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال الفراء : المضى ، والسعى ، والذهاب ، بمعنى واحد واحتج بقولهم : هو يسعى فى البلاد يطلب فضل الله ، معناه يمضى يجدوا اجتهد وليس معناه : العدو والركض .  
واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أسعى على جُل بنى مالك . كل امرئ فى شأنه ساعى  
وكان ابن مسعود : يقرؤها : ( فامضوا إلى ذكر الله ) ويقول : « لو كانت من السعى لسعيت حتى يسقط ردائي »<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر لمجم الكبير للطبراني ج ٧ ص ٢٦٨

(٢) سنن أبو داود .

(٣) القرطبي

(٤) زاد المسير

قال القرطبي : وقراءة ابن مسعود تفسير منه ، لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة القرآن بالتفسير فى معرض التفسير ، ذكر الله : المراد بذكر الله صلاة الجمعة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ وقيل : المراد به الخطبة .

والصحيح الراجح : أن المراد به ( الصلاة والخطبة ) جميعاً لاشتغالهما على ذكر الله .  
وذروا البيع : أى اتركوا البيع ، والمعاملة ، وسائر أمور التجارة والأعمال .

قال الألوسى : أى : اتركوا المعاملة فيعم البيع ، والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات .

وقال القرطبي : وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق . قضيت الصلاة : أى : أدبتم الصلاة وفرغتم منها . يقال : قضى الرجل عمله أى : أداه ، ومنه قوله تعالى ﴿ فإذا قضيتم مناسككم ﴾ (١) أى : أدبتموها . وقضى دينه أى وفاه ، وليس من قضاء الغائبة فى الصلاة ، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أن لفظ ( القضاء ) يطلق على ( الأداء ) وهو استدلال لطيف .

فانتشروا : أى : تفرقوا فى الأرض لإقامة مصالحكم ، والانتشار معناه : التفرق ومنه قوله تعالى : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ (٢) . وابتغوا : أى : اطلبوا من الابتغاء بمعنى الطلب . قال تعالى : ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (٣) فضل الله : المراد به : الرزق والتجارة والكسب الحلال .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شيء من الدنيا ، وإنما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ، وزيارة الأخ فى الله .

انفضوا إليها : بمعنى انصرفوا إليها . وتفرقوا عنك ، والانفضاض معناه : التفرق والانصراف ، قال ذو الرمة :

تكاد تنفض منهن الحياز يمسه

وأعاد الضمير إلى التجارة ، لأنها كانت أهم إليهم ، وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا تجارة انفضوا إليها أولهوا انفضوا إليه . فحذف الثانى لدلالة الأول عليه مثل قوله تعالى : ﴿ يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ وكما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأى مختلف

(١) زاد المسير

(٢) الأحزاب : ٥٣

(٣) القصص ٧٧

وتركوك قائماً : أى : على المنبر تخطب ، قال بعض العلماء : وفيه دلالة على مشروعية القيام فى الخطبة .

خير الرازقين : لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده . ومن يكفر به ويجحده . فهو يعطى من سأل سواء كان مؤمناً أم كافراً .

قال الطبرى : ( والله خير الرازقين ) يقول : والله خير رازق . فإليه فارغبوا فى طلب أرزاقكم ، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره .

### المعنى الإجمالى

يقول الله - تعالى - ما معناه : يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ينادى لصلاة الجمعة ويؤذن لها ، فاتركوا أعمالكم وأشغالكم ، ودعوا البيع والشراء ، وامضوا سراعاً إلى ذكر الله وعبادته ، وإلى أداء صلاة الجمعة مع إخوانكم المسلمين فإن ذلك خير لكم وأفضل وأرجى لكم عند الله ، وأعود عليكم بالخيرات والبركات إن كنتم من أهل العلم والفهم السليم ، فإذا أدبتم الصلاة وفرغتم منها فانبثوا فى الأرض لقضاء مصالحكم واطلبوا من فضل الله ، فإن الرزق بيده ، وهو المنعم المتفضل الذى لا يخيب أمل السائل ، ولا يضيع عمل العامل ، ولا يمنع أحداً من فضله وإحسانه ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون .

ثم أخبرنا تعالى أن هناك فريقاً من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فإذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقة قادمة ، أو شىء من لهو الدنيا وزينتها ومهرجها تفرقوا عن رسول الله - عليه السلام - وانصرفوا إلى متاع الحياة وتركوا الرسول قائماً يخطب ، ولو عقلوا لعلموا أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن ثوابه خير من اللهو والتجارة وأن الله - جل وعلا - هو خير الرازقين . يرزق من يشاء بغير حساب وما عند الله خير للأبرار . وصدق الله حيث يقول :

﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق . ولنجزى الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

### سبب النزول

١ - أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : « بينما النبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت غير إلى المدينة . فابتدعها أصحاب رسول الله - ﷺ - حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر . فأنزل الله تعالى : ﴿ وإذا رأوا تجارة أولهواً انفضوا إليها ﴾ إلى آخر السورة .

(ب) وروى ابن كثير عن أبي يعلى بسنده إلى جابر بن عبد الله أنه قال :  
 « بينما النبي - ﷺ - يخطب يوم الجمعة . فقدمت غير إلى المدينة . فابتدروا أصحاب رسول  
 الله - ﷺ - حتى لم يبق مع رسول الله - ﷺ - إلا اثنا عشر رجلاً .  
 فقال رسول الله - ﷺ - : « والذي نفسى بيده لو تابعتهم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى  
 ناراً » .

ونزلت هذه الآية : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ... ﴾ .

(ج) وروى أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط فى سبب هذا الانصراف أن أهل المدينة أصابهم  
 جوع وغلاء سعر . فقدم ( دحية ) بغير تحمل ميرة وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من دري  
 بها . فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه . وتركوه - ﷺ - قائماً على المنبر فى اثني عشر رجلاً  
 قال جابر : أنا أحدهم . فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ <sup>(١)</sup> .

### وجوه القراءات

١ - قرأ الجمهور ( من يوم الجمعة ) بضم الجيم والميم . وقرأ الزهيري والأعمش بضم الجيم  
 وسكون الميم ( الجمعة ) وهى لغة تميم وقرأ أبو العالية والنخعي ( الجمعة ) بضم الجيم مع فتح الميم  
 وهى ثلاث لغات .

قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين وأما فتح الميم فمعناها :  
 الذى يجمع الناس ، كما تقول : « رجل لعنه » يكثر لعنة الناس وضحكة : يكثر الضحك <sup>(٢)</sup> .

٢ - قرأ الجمهور ( انفضوا إليها ) بضمير المؤنث عائداً إلى التجارة وقرأ ابن أبى عبله بضمير  
 المذكر ( انفضوا إليه ) عائداً إلى اللهو .

قال الأخفش : وكلاهما جائز عند العرب وقرئ ( انفضوا إليها ) بضمير الثنية عائداً إلى التجارة  
 واللهو .

٣ - قرأ الجمهور ( فاسعوا إلى ذكر الله ) وروى عن ابن مسعود وعمر أنهما كانا يقرآنها ( فامضوا  
 إلى ذكر الله ) وقراءتها محمولة على أنها وجه من وجوه التفسير . لا أنها قراءة من القراءات وقد مر معك  
 كلام القرطبي فتدبره <sup>(٣)</sup>

(١) انظر صحيح البخارى ح ٨ ص ٤٩٣

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطي

(٣) انظر البحر المحيط

## وجوه الإعراب

١ - قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .  
( إذا ) شرطية و ( نودى ) مبنى للمجهول ، و ( من ) بمعنى . ( فى ) أى : فى يوم الجمعة كقوله تعالى : ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾ <sup>(١)</sup> أى : فى الأرض .  
وجوز أبو البقاء كون ( من ) للتبعض .

وفى الكشف : هى بيان لـ ( إذا ) وتفسير له ، وقد اعترض عليه فى هذا ، والصحيح أنها بمعنى ( فى ) <sup>(٢)</sup> .

٢ - قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً ..... ﴾ .

( اذكروا ) فعل أمر مبنى على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل ، ولفظ الجلالة منصوب على التعظيم تأدياً و ( كثيراً ) صبغة لمفعول مطلق محذوف تقديره : ( ذكراً كثيراً ) .

وقد صرح به فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

قائماً منصوب على الحال وصاحب الحال هو النبى - ﷺ - المشار إليه بـ ( تركوك ) أى : تركوك أيها النبى حال كونك قائماً .

٤ - قوله تعالى : ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة . . ﴾ ( ما ) اسم موصول مبتدأ ، و ( خير ) خبره ، والجملة ( ما عند الله خير ) مقول القول .

## لطائف التفسير

### اللطيفة الأولى :

يوم الجمعة كان يسمى فى الجاهلية يوم ( العروبة ) وأول من سماه جمعة ( كعب بن لؤى ) وروى فى سبب تسميته أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبى - ﷺ - فقالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك . فهلهم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره . فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها فهى أول جمعة كانت فى الإسلام <sup>(٤)</sup> .

(١) تفسير الألوسى ٩٩/٢٨ والبحر المحيط

(٢) تفسير القرطبي

(٣) الأحزاب

(٤) الألوسى



## اللطفية الثانية :

فى التعبير لقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله . . ﴾ لطيفة وهى أنه ينبغى للمؤمن أن يقوم إلى صلاة الجمعة بجد ونشاط وعزيمة وهمة . لأن لفظ ( السعى ) يفيد القصد والجد والعزم وليس المراد منه العدو فى المشى فإن ذلك منهى عنه . قال الحسن : « والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه سعى بالقلوب وسعى بالنية ، وسعى بالرغبة ، ولقد نهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار »<sup>(١)</sup>

## اللطفية الثالثة :

أطلق لفظ البيع ( وذكروا البيع ) وقصد به جميع أنواع المعاملة من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها من المعاملات فهو على سبيل المجاز المرسل .

قال أبو حيان : « وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون من القرى إلى الأمصار ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمرُوا بالبدار إلى تجارة الآخرة ، ونهوا عن تجارة الدنيا حتى الفراغ من الصلاة »<sup>(٢)</sup>

## اللطفية الرابعة :

كان السلف الصالح يقتدون برسول الله - ﷺ - فى جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، حتى ولو لم يدركوا السر فيه ، وذلك من فرط حبهم لرسول الله - ﷺ - فقد روى عن بعضهم أنه كان إذا صلى الجمعة خرج فدار فى السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فقبل له : لأى شىء تصنع هذا ؟ قال : إني رأيت سيد المرسلين - ﷺ - هكذا يصنع ، وتلا هذه الآية : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾<sup>(٣)</sup>

## اللطفية الخامسة :

« كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إني أجت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين »<sup>(٤)</sup>

## اللطفية السادسة :

فى قوله : ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لطيفة وهى أن الله - عز وجل - أمر بالسعى فى طلب الرزق والاشتغال بالتجارة ، ولما كان هذا قد يسوق الإنسان إلى الغفلة وربما دفعته الرغبة فى جمع المال إلى الكذب والغش والاحتيال ، أمر المسلم أن يذكر الله تعالى ، ليعلم أن الدنيا ومتاعها فانية ، وأن الآخرة وما فيها باقية ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، فلا تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة كما قال تعالى فى وصف المؤمنين :

(١) تفسير القرطبي

(٢) البحر المحيط

(٣) ابن مردويه

(٤) الجامع لاحكام القرآن

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾<sup>(١)</sup> وهذا هو السر في الأمر بذكر الله كثيراً فتدبره .

اللطيفة السابعة :

الأصل في ( إذا ) أنها للاستقبال ، والآية الكريمة نزلت بعد تلك الحادثة وبعد انفضاض الناس عن رسول - الله صلى الله عليه وسلم - لهذا فقد خرجت عن الاستقبال واستعملت في الماضي ، على حد قول القائل :

وندمان يزيد الكأس طيباً سقيت ( إذا ) تغورت النجوم<sup>(٢)</sup>

### « ما ورد في فضائل يوم الجمعة »

( أ ) يوم الجمعة أفضل الأيام وأشرفها على الإطلاق فقد روى مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة . وفيه أخرج منها . ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة »<sup>(٣)</sup> .

( ب ) وروى مالك في الموطأ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مصخيه يوم الجمعة . من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة . إلا الإنس والجن . وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى ، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه<sup>(٤)</sup> .

( جـ ) وروى أبو داود في سننه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة على . قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟  
يعنى ( بليت ) فقال - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله - عز وجل - حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

### الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هو الأذان الذى يجب السعى عنده ؟

دل قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ على وجوب السعى إلى المسجد ، وترك البيع والشراء ، وقد اختلف العلماء فى الأذان الذى يجب السعى عنده .

(١) سورة النور آية ٣٧

(٢) روح المعاني

(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٨٥

(٤) رواه مالك فى الموطأ

- ١ - قال بعض العلماء : المراد به الأذان الأول الذى هو على المنارة .  
 ٢ - وقال آخرون : المراد به الأذان الذى بين يدى الخطيب إذا صعد الإمام المنبر .

### حجة الفريق الأول :

١ - أن المراد من النداء هو الإعلام ، والسعى إنما يجب عند الإعلام ، وهو ( الأذان الأول ) على المنارة ، الذى زاده عثمان - رضى الله عنه ، وذلك حين رأى كثرة الناس ، وتباعد مساكنهم عن المسجد ، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق يقال لها ( الزوراء ) وقد ثبت الأمر على ذلك من عهده إلى عصرنا هذا .

( ب ) واستدلوا بما رواه البخارى فى صحيحه عن ( السائب بن يزيد ) - رضى الله عنه - أنه قال : ( كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما ، فلما كان زمن عثمان - رضى الله عنه - وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء فنبت الأمر على ذلك ) .

( ج ) وقالوا : السعى عند الأذان الثانى ، وقت صعود الخطيب المنبر ، يفوت على الناس سماع الخطبة التى من أجلها خفف الله تعالى الصلاة فجعلها ركعتين ، ولم تكن بالمسلمين حاجة إلى هذا فى زمن النبى - صلى الله عليه وسلم - لقرب مساكنهم من المسجد ، ولحرصهم الشديد على أن يجيئوا من أول الوقت محافظة على أخذ الأحكام عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فكان النداء الذى بين يدى الخطيب يسمعونهم فيحضروا سراعاً ، ويدركون الخطبة من أولها لقرب المساكن من المسجد .

وهذا القول هو الظاهر المعتمد فى مذهب الحنفية . وقد نص عليه صاحب ( الكثر ) من أئمة فقهاء الحنفية فقال :

« ويجب السعى وترك البيع بالأذان الأول لقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ ﴾ الآية وإنما اعتبر حصول الإعلام به . وهذا القول هو الصحيح فى المذهب .

وقيل : العبرة للأذان الثانى ، الذى يكون بين يدى الخطيب على المنبر لأنه لم يكن فى زمنه - صلى الله عليه وسلم - إلا هو - وهو ضعيف - لأنه لو اعتبر وجوب السعى لم يتمكن من السنة القبلية ومن الاستماع بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى .

### حجة الفريق الثانى :

١ - الأذان الذى يجب فيه السعى وترك البيع هو ( الأذان الثانى ) الذى يكون بين يدى الخطيب ، لأنه هو الأذان الذى كان فى زمنه - صلى الله عليه وسلم - وهو - عليه السلام - أحرص الناس على أن يؤدى المؤمنون الواجب عليهم فى وقته ، فلو كان السعى واجباً قبل ذلك لبيته لهم وجعل بين الأذان والخطبة زمناً يتسع لحضور الناس .

(ب) ما روى عن ابن عمر والحسن في قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ قال : « إذا خرج الإمام وأذن المؤذن فقد نودى للصلاة » قالوا : وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره .

(جـ) وقالوا أيضا : إن المصلي يندب له أن يجيء مبكراً لفوائد جمّة كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة . ولكن تحريم البيع والشراء والحكم بالإثم شيء ، وإدراك الأمر المندوب شيء آخر . ثم إن السنة القبلية - على فرض أنها بقيت مطلوبة في الجمعة - فإنه لا يمكننا أن نوجب السعي قبل وقته لتحصيل سنة لم تثبت . فيبقى النداء الذي يحرم عنده البيع هو ( النداء الثاني ) الذي يكون عند صعود الخطيب المنبر . وهو الذي كان ( ) زمنه - عليه السلام وهذا المذهب هو رأى جمهور العلماء ، وقول عند فقهاء الحنفية ، ولعله يكون الأرجح ، والله تعالى أعلم .

الحكم الثانى : هل يفسخ البيع عند الأذان ؟

دل قوله - تعالى - ﴿ وذروا البيع ﴾ على حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان ، وقد اختلف العلماء في عقد البيع هل هو صحيح أم فاسد ؟ فقال بعضهم إنه فاسد لورود النهى ( وذروا البيع ) .

وقال الأكثرون إنه حرام ولكنه غير فاسد وهو يشبه الصلاة في الأرض المغصوبة تصح مع الكراهة . قال القرطبى في تفسيره الجامع لأحكام القرآن : « وفي وقت التحريم قولان : الأول : أنه من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة . قاله الضحاك ، والحسن ، وعطاء .

الثانى : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة . قاله الشافعى . قال : ومذهب مالك : أن يترك البيع إذا نودى للصلاة ويفسخ عنده ما وقع من البيع في ذلك الوقت ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع ، قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . قال ابن العربى : والصحيح فسخ البيع لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ردعاً .

ورأى بعض العلماء البيع في الوقت المذكور جائزاً وتأولوه النهى عنه ندباً واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ وهذا مذهب الشافعى . فإن البيع عنده ينعقد ولا يفسخ .

وقال الزنجشبرى في تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدى إلى فساد البيع ، قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن ما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة في الأرض المغصوبة والثوب المغصوب . والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس أنه فاسد . وقال القرطبى : والصحيح فساده وفسخه لقوله عليه الصلاة والسلام ( كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد ) أى مردود عليه والله أعلم .

## الحكم الثالث : هل الخطبة شرط لصحة الجمعة ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فاسمعوا إلى ذكر الله ﴾ على أن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة . لأن ذكر الله سواء قلنا إنه : ( الموعظة ) أو إنه ( الموعظة والصلاة معاً ) يدخل فيه خطبة الجمعة ، فلا بد أن تكون شرطاً لصحة الصلاة . ولأن صلاة الجمعة إنما خففت من أجل الخطبة وسماع الموعظة ، وعليه تكون الخطبة واجبة ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

غير أن فقهاء الحنفية قالوا : لا يشترط في الخطبة أن تكون مشتملة على ما يسمى ( خطبة ) عرفاً ، لأن الله - تعالى - ذكر الذكر من غير تفصيل بين كونه طويلاً ، أو قصيراً ، يسمى خطبة أو لا يسمى خطبة ، فكان الشرط هو الذكر مطلقاً ، ويكفى فيه أقل ما يطلق عليه اسم الذكر ، غير أن المأثور عنه - ﷺ - هو الذكر المسمى بـ ( الخطبة ) والمواظبة عليه فكان ذلك واجباً أو سنة ، لا أنه الشرط الذي لا يجزىء غيره .

## فقهاء الشافعية والحنابلة :

يشترطون أن يأتي الخطيب بخطبتين مستوفيتين لشروط خاصة منها : حمد الله ، والصلاة على النبي - صلى الله عليه وسلم - وقراءة آية من كتاب الله - تعالى - والوصية بتقوى الله تعالى .

وزاد الشافعية الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

## وفقهاء المالكية :

شرطوا في الخطبة شرطاً واحداً وهي أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير مما يسمى في العرف موعظة وخطبة .

## قال في الروضة الندية :

« ثم اعلم أن الخطبة المشروعة هي ما كان لقيادة - صلى الله عليه وسلم - من ترغيب الناس وترهيبهم ، فهذا في الحقيقة روح الخطبة الذي لأجله شرعت ، وأما اشتراط الحمد لله ، أو الصلاة على رسوله ، أو قراءة شيء من القرآن ، فجميعه خارج عن معظم المقصود من شرعية الخطبة ، واتفاق مثل ذلك في خطبته - صلى الله عليه وسلم - لا يدل على أنه مقصود محتتم وشرط لازم .

ولا يشك منصف أن معظم المقصود هو الوعظ دون ما يقع قبله من الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان عُرف العرب المستمر أن أحدهم إذا أراد أن يقوم مقاماً ، ويقول مقالاً ، شرع بالثناء على الله - وعلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وما أحسن هذا وأولاه - ولكن ليس هو المقصود ، بل المقصود ما بعده ولو قال : إن من قام في محفل من المحافل خطيباً ، ليس له باعث على ذلك إلا أن يصدر منه الحمد ، والصلاة ، لما كان هذا مقبولاً ، بل كل طبع سليم يمجّه ويردّه ، إذا تقرر هذا عرفت أن الوعظ في خطبة الجمعة هو الذي يساق إليه الحديث ، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع إلا أنه إذا قدم الثناء على الله وعلى رسوله ، أو استطرد في وعظه القوارع القرآنية كان أتم وأحسن .

## الحكم الرابع :

ما هو العدد الذى تتعقد به الجمعة ؟ .

لا خلاف بين الفقهاء أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، لقوله عليه السلام : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة ، إلا أربعة : مملوك ، أو امرأة ، أو صبي ، أو مريض »<sup>(١)</sup> .

ولأن التسمية تقتضى ذلك ، فلا يقال لمن صلى وحده إنه صلى الجمعة . فلا بد من الجماعة ، وقد اختلفوا فى العدد الذى تتعقد به الجمعة إلى خمسة عشر قولاً ذكرها الحافظ فى الفتح .

والآية الكريمة لم تنص على عدد معين ، وكذلك السنة المطهرة لم يرد فيها نص صريح صحيح على العدد الذى تتعقد به ، ولهذا اختلف الفقهاء على أقوال عديدة :

( أ ) الحنفية قالوا : يكف أربعة أحدهم الإمام ، وقيل ثلاثة .

( ب ) الشافعية والحنابلة قالوا : لا بد من جمع غفير أقله أربعون .

( جـ ) المالكية قالوا : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ، ويقع بينهم البيع ، ولا تتعقد بالثلاثة والأربعة ونحوهم .

قال الحافظ ابن حجر : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل ، وهناك أحكام أخرى تطلب من كتب الفروع ، ضربنا صفحاً عنها لأن الآية الكريمة لا تدل عليها ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

## ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : الجمعة فريضة على المسلمين المكلفين بالشروط المعروفة .

ثانياً : وجوب السعى للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة .

ثالثاً : حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان .

رابعاً : جواز الاشتغال بأمور التجارة والمعاش قبل الصلاة وبعدها .

خامساً : الرزق بيد الله ومع ذلك ينبغى أن يأخذ الإنسان بأسباب الكسب .

سادساً : لا ينبغى للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة .

## حكمة التشريع

الصلاة صلة العبد بربه ، وعبادة تشد القلب ، وتقوى الإيمان فيه . وهى إلى جانب هذا تزيد المجتمع ترابطاً وتآلفاً . يلتقى فيها أفرادها على الخير ، ويتعاونون على البر والتقوى ، وإذا كانت الصلوات

الخميس في كل يوم وليلة مفروضة فقد يُشغل المرء عن بعضها في شغله الدنيوى الذى يُبعده عن المسجد ، أو يتساهل في عدم المجيء إليها ، لذلك فقد فرض الله صلاة الجمعة في كل أسبوع مرة واحدة ليسرع إلى الصلاة يستمع كلام الله وحديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وموعظة الخطيب ، فيكون له زاداً إيمانياً ، ويجتمع بإخوانه المؤمنين جميعاً . فيتفقد الغائب ، ويعين المحتاج ، ويعود المريض ، ويصالح المتأصمين . ويبذل نصحه للمقصرين ، كما يتعلم الآداب الإسلامية في الاجتماع من السلام ، والاحترام ، والبشاشة التى تجعل المجتمع في سلام وأمان . لهذا كله فرض الله - سبحانه - صلاة الجمعة على كل مسلم ، وأمره أن يسعى إليها ، وحثه على أدائها . ا . هـ .

### فضل يوم الجمعة والصلاة

إن يوم الجمعة سيد الأيام وأفضلها عند الله - تعالى - وصلاة الجمعة هى المؤتمر الإسلامى العظيم الذى يجمع الله فيه القلوب على ذكره ومعرفته والإرشاد إليه ، حتى لقد بلغ من أهمية هذا اليوم والصلاة فيه أن المستر جلاستون رئيس وزراء بريطانيا وقف في مجلس العموم يقول لأعضائه إننا لن نقوم لنا قائمة في الشرق إلا إذا قضينا على تلك الأشياء أولها صلاة الجمعة وثانيها يوم عرفة وثالثها ذلك الكتاب ، ورفع المصحف بيده أمام الأعضاء ، فهب أحدهم مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه فقال له رئيس الوزراء : ما أردت تمزيق ورقة أيها الأحق إنما أردت تمزيقه من صدور المسلمين . ألا فليتنبه القضاة الغافلون ، وليستيقظوا ليعلموا ماذا يراد بهم ، لقد قال الحكيم الأفغانى جمال الدين كلمة حق قال : « إن المسلمين قد ماتت عزائمهم ، ومات فيهم كل شيء إلا شهواتهم » وقال طاغية الصهيونية موسى ديان :

« إن العرب لا يقرأون ، وإذا قرأوا لا يفهمون ، وإذا فهموا سرعان ما ينسون ، ولا يتذكرون ثم قال : وإنهم مثل الكلاب التى تنبح ولا تعض »

أيها المسلمون أفيقوا لقد هجرت المساجد وقل فيها الراكع والساجد ، وأصبحت تشكو لربها ظلم العباد ، حتى بلغ من جرأة أحد الذين يحملون الأقلام المسمومة أنه قال في عام ١٩٦٥ راقبوا أولادكم في المساجد ، ويومها رددت عليه في خطبة الجمعة وقلت تراقبهم في المساجد أم في المسارح ، أليس هذا قلباً للأوضاع ، وتذكرت قول أبى العلاء :

إذا وصف الطائى بالبخل مَادَرٌ وعيرقسا بالسفاهة بأقل  
وقال السها للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل  
وطالت الأرض السماء سفاهة وفاخرت الشهب الحصى والجنادل  
فياموت زر إن الحياة ذميمة ويانفسى جدى إن دهرك هازل

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِذَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَتَّقُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِلَّا تَتَضَرَّوْهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم . ﴿١﴾

على الأمة الإسلامية أن تنظر ثلاث نظرات إلى هذه الآيات الفذة حيث تكررت فيها كلمة إذ .  
النظرة الأولى : استراتيجية العدد كم كان عدد جيش الحق « إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين »  
النظرة الثانية : استراتيجية المكان من أين أدار معسكر الحق المعركة وأين كانت غرفة العمليات العسكرية . إذ هما في الغار

النظرة الثالثة : استراتيجية العقيدة أي شعار رفعوه ، الاشتراكية ، أم الوطنية ، أم الإيمان بالأرض والتراب لم يكن إلا كلمة حق قال عنها الكتاب العزيز :  
﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ومن كان الله معه لا يخيب سعيه ولا يضل سؤله ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن كان الله عليه فمن معه ، ومن وجد الله فماداً فقد . ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ ﴿٢﴾  
أفيقوا أيها المسلمون واستيقظوا من سباتكم هل أنتم في غفلة معرضون ، هل أصبحتم كما يقول القائل .

ناموا	ولا تستيقظوا	ما فاز	إلا	النوم .
وصوموا	ولا تتكلموا	إن	الكلام	محرم .
إن قيل إن نهاركم ليل	فقولوا	مظلم .		
أوقيل هذا شهدكم مر	فقولوا	علقم .		

يا أمة الإسلام ، أرضيتم بالذل والهوان وأنتم الأعلون ﴿ أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾

لقد ركز جلادستون على صلاة الجمعة ومن ثم فإننا نسوق هذا الحشد المقدس من أقوال الرسول - ﷺ - عن فضل هذا اليوم ، والصلاة فيه كما جاء ذلك في كتاب الترغيب والترهيب للمحافظ المنذرى - رحمه الله تعالى :

### كتاب الجمعة

الترغيب في صلاة الجمعة والسعي إليها وما جاء في فضل يومها وساعتها .



١ - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصا فقد لغا . » (١) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . (لغا) قيل : معناه خاب من الأجر ، وقيل : أخطأ ، وقيل : صارت جمعته ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

### المعنى

- قال النووي : فيه فضيلة الغسل ، وأنه ليس بواجب للرواية الثانية ، وفيه إستحباب وتحسين الوضوء ، ومعنى إحسانه : الإتيان به ثلاثاً ثلاثاً ، وذلك الأعضاء ، وإطالة الغرة والتجميل ، وتقديم الميامن ، والإتيان بسننه المشهورة ، وفيه إن التنقل قبل خروج الإمام يوم الجمعة مستحب ، وفيه أن النوافل المطلقة لا حد لها لقوله ﷺ : « فصلى ما قدر له » وفيه الإنصات للخطبة ، وفيه أن الكلام بعد الخطبة قبل الإحرام بالصلاة لا بأس به .

- سكت : قال الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ (٢) .

- قال العلماء : معنى المغفرة له أن الحسنة بعشر أمثالها ، وصار يوم الجمعة الذى فعل فيه هذه الأفعال الجميلة فى معنى الحسنة التى تجعل بعشر أمثالها : أى : سبعة أيام وثلاثة ، والمعنى : أن الله تعالى يكفر خطايا الصغيرة التى يفعلها مدة عشرة أيام ، وفيه فضلها ، وبركتها ، والحث على القيام بها ، فإنها مكفرات للصغائر داعية إلى التحلى بالمكارم ، وهى نور الإيمان يبعث فى قلوب المتقين .

ومن مس الحصا فقد لغا : معناه : من وضع يده على الأرض متلاعباً أثناء الخطبة أبطل جمعته وقال النووي : فيه النهى عن مس الحصا وغيره من أنواع العبث فى حالة الخطبة ، وفيه إشارة إلى إقبال القلب والجوارح على سماع الخطبة ، والمراد باللغو هنا الباطل المزموم المردود .

٢ - وعنه (أبي هريرة) - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن . إذا إجتنب الكبائر » (٣) رواه مسلم وغيره .

### المعنى

الفرائض : أداؤها يسبب غفران الصغائر ، وكذا أداء صلاة الجمعة يكفر ذنوب أسبوع ، وكذا صيام رمضان يستر عيوب عام كله مدة إجتنب الكبائر ، أى : عدم فعل الموبقات التى نهى الله عنها بوعيد شديد وزجر مؤلم ، قال الله تعالى : ﴿ والله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللثم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (٤) . أى بعقاب ما عملوا من سوء وبالثوبة الجنة لمن بعد عما يكبر عقابه ، أو يوجب الحد ،

(١) انظر صحيح مسلم . ص ٥٨٨

(٢) الاعراف آية ٢٠٤

(٣) صحيح مسلم

(٤) سورة النجم ٣١ ، ٣٢

وما فحش من العيوب ، إلا ما قل من الذنوب وصغر ، فإنه مغفور من مجتنب الكبائر ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ : أى : فلا تتنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصى والرذائل ، والجمعة عيد المؤمنين خص الله به عز وجل هذه الأمة ، فيه يعتق الله ستمائة ألف عتيق من النار ، ومن مات فيه أعطى أجر شهيد ووقاه الله فتنة القبر ، وفيه الصلاة على النبي - ﷺ - ثوابها مضاعف ، وفرضت الجمعة بمكة ليلة الإسراء ، ولم تقم فيها لقلة المسلمين ولخفاء الإسلام إذ ذاك وهى أفضل الصلوات ، ونعمة جسيمة ، امتن الله بها على عباده المؤمنين من أمة سيدنا محمد - ﷺ - وكان يسمى فى الجاهلية بيوم العروبة ، ويسمى يوم المزيد لزيادة الخيرات فيه ، وكذا ليلته أفضل ليالى الأسبوع ، وأفضل منه يوم عرفه ، وأفضل الليالى ليلة مولده - ﷺ - وعند الإمام أحمد بن حنبل أفضل الأيام يوم الجمعة مطلقاً ، وعند الشافعية الأفضل يوم عرفة ، فيوم الجمعة ، فيوم عيد الأضحى ، فيوم عيد الفطر ، والليالى ليلة مولده المباركة - ﷺ - فليلة القدر فليلة الجمعة ، فليلة الإسراء ، وعنده - ﷺ - الأفضل ليلة الإسراء وقد رأى ربه بعينى رأسه - عليه الصلاة والسلام . وأول من فعلها بالمدينة الشريفة قبل الهجرة أسعد بن زرارة - رضى الله عنه - بمحل يقال له : نقيع الخضعات على ميل من المدينة . والأصل فى وجوبها قول الله تبارك وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ .

فأمر بالسعى وظاهره الوجوب ، وإذا وجب السعى وجب ما يسعى إليه ، ونهى عن البيع وهو مباح ولا ينهى عن المباح إلا لواجب . والمراد بذكر الله الصلاة وقيل الخطبة ، وهى ركعتان ، وليست ظهراً مقصورة . قال عمر - رضى الله عنه - « الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ، وقد خاب من افتري » ، أى : كذب ، رواه الإمام أحمد وغيره ونزل - ﷺ - قباء حينما قدم المدينة فأقام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة فى واد لبني سالم بن عوف .

( ب ) وقال تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ قال البيضاوى : نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمرُوا باستماع قراءة الإمام والإنصات له ، وظاهر الملفظ يقتضى وجوبها حيث يقرأ القرآن مطلقاً ، وعامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم .

وفى تفسير الجلالين : نزلت فى ترك الكلام فى الخطبة وعبر عنها بالقرآن لاشتغالها عليه ، وقيل : فى قراءة القرآن مطلقاً وعلق الصاوى عليه واجب عند مالك ومذهب الشافعى الجديد : الإنصات سنة ، والكلام مكرمه ، فيحرم الكلام فى مجلس القرآن للتخليط على القارئ بل يجب الإنصات والاستماع فإن أمن التخليط فلا حرمة .

- وهى فرض عين على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، ذكر ، حر ، مقيم ، صحيح ، وشروط صحتها :

أولاً : إقامتها فى أبنية مصرأ كانت أوقرية فلا تقام فى الصحراء وإن كان فيها خيام .

ثانياً : إقامتها بأربعين مسلمين أحراراً ، ذكوراً ، مستوطنين بمحل إقامتها ، لا يظعنون شتاء ولا صيفاً مكلفين .

ويحرم السفر ولو قصيراً على من تلزمه الجمعة بعد طلوع فجر يومها إلا إذا وثق أن يتمكن من صلاتها في طريقه .

ثالثاً : وقوعها في وقت الظهر .

رابعاً : وقوعها جماعة ولو في الركعة الأولى بتمامها بأن يستمروا معه إلى السجود الثاني .

خامساً : أن لا يسبقها ولا يقارنها بتحريم جمعة أخرى بمحل اقامتها إلا إذا عسر اجتماع الناس بمكان واحد وإن تعددت الحاجة فجمعة الكل صحيحة .

سادساً : تقدم خطبتين على صلاتها وشروطها :

أولاً : وقوعها في وقت الظهر . .

ثانياً : أن تكونا عربيتين .

ثالثاً : أن لا يطول الفصل بغير الوعظ بين أركان كل منها .

رابعاً : ألا يطول الفصل بينهما وبين فراغها والصلاة .

خامساً : وأن يكون الخطيب قائماً فيها عند القدرة .

سادساً : وأن يكون متطهراً من الحدث والخبث .

سابعاً : وأن يكون ساتر العورة .

ثامناً : وأن يسمع أربعين ممن تنعقد بهم الجمعة .

تاسعاً : وأن يجلس بينهما ، ويسن كونه بقدر سورة الاخلاص .

\* وأركان الخطبتين :

أولاً : حمد الله تعالى فيها .

ثانياً : والصلاة على النبي - ﷺ - فيها ، ولا يكفى الضمير ولومع تقدم ذكره على المعتمد .

ثالثاً : والوصية بالتقوى فيها .

رابعاً : وقراءة آية مفهومة في إحداها وكونها في الأولى أولى .

خامساً : والدعاء للمؤمنين والمؤمنات في الثانية في آخرها .

وسنن الخطبتين :

أولاً : ترتيب أركانها والإنصات فيها لمن سمعها .

ثانياً : كونه على منبر أو مرتفع ثم يسلم على المسلمين . ثم يجلس فيؤذن بين يديه واحد .

ثالثا : وأن تكون الخطبة بلغة مفهومة متوسطة .

رابعا : وأن لا يلتفت في شيء منها .

خامسا : وأن يشغل يسراه بنحو سيف أو عصا ويمناه بحرف المنبر .

سادسا : وأن يقرأ في جلوسه بينهما سورة الإخلاص .

وسنن الجمعة :

أولا : الغسل .

ثانيا : تنظيف الجسد .

ثالثا : تقليم الاظافر .

رابعا : نفث الإبط .

خامساً : حلق العانة .

سادسا : قص الشارب .

سابعا : تسريح اللحية ، وتخضيب الشيب بحمرة أو صفر للتباعد ، ويحرم بالسواد إلا لإرهاب الكفار ويكره نفث الشيب لأنه نور وقيل : حرام .

ثامنا : والتطيب بالمسك والاستياك والاكتمال وترأ ثلثا .

تاسعا : والتزين بأحسن الثياب وأفضلها البياض .

عاشراً : والتبكير إلى المصلى ليأخذ مجلسه قبل ازدحام المصلين .

وهنا أشدد اللوم والعتاب على أولئك المتأخرين الذين يخطون الرقاب ويذاحمون الجالسين . هذا لعمري مضيع الحسنات ومحبط الثواب فأسرع أخي وخذ لك مكاناً في المجلس وسبح الله واستغفره وصل على حبيبه - ﷺ - تنجح وتربح .

والحادى عشر : المشى لها بسكينة ووقار .

الثاني عشر : والاشتغال بقراءة ، أو ذكر أو استغفار ، ويندب للإمام التأخير إلى وقت الخطبة ، ويجتهد أن لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يمر بين أيديهم وهم مصلون ، ويجلس بقرب حائط أو عمود حتى لا يمرؤا بين يديه ، ولا يقعد حتى يصلى التحية .

الثالث عشر : الإنصات بترك الكلام ، والذكر للسامع ، وترك الكلام دون الذكر لغيره .

الرابع عشر : إكثار الصلاة على النبي - ﷺ - .

الخامس عشر : الصدقة ، وإكثار الدعاء في يومها ليصادف ساعة الإجابة ولا بأس بهذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك فقهاً في الدين ، وزيادة في العلم ، وكفاية في الرزق ، وعافية وصحة في البدن ، وتوبة قبل الموت ، وراحة عند الموت ، ومغفرة بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا أرحم الراحمين » .

وتسن قراءة سورة الكهف لقوله - ﷻ - : « من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين<sup>(١)</sup> ومن دخل المسجد والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين ثم يجلس » .

فائدة : من قرأ الفاتحة والإخلاص والمعوذتين سبعاً . . سبعاً عقب سلامه من الجمعة قبل أن يثنى رجله وقبل أن يتكلم ، ثم قال : « اللهم يا غني ، يا حميد ، يا مبدئ ، يا معيد ، يا رحيم ، يا ودود ، أغني بحلالك عن حرامك ، وبفضلك عمن سواك ، وبطاعتك عن معصيتك أربع مرات أغناه الله تعالى ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحفظ له دينه ودنياه ، وأهله وولده .

٣ - وروى عن الطبراني في الكبير من حديث أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الجمعة كفارة لما بينهما وبين الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك بأن الله عز وجل قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها<sup>(٢)</sup> .

٤ - وعن أبي سعيد - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة ، من عاد مريضاً ، وشهد جنازة ، وصام يوماً ، وراح إلى الجمعة ، وأعتق رقبة<sup>(٣)</sup> . رواه ابن حبان في صحيحه

٥ - وعن يزيد بن أبي مريم - رضي الله عنه - قال : لحقني عباية بن رفاعه بن رافع ، - رضي الله عنه - وأنا أمشي إلى الجمعة ، فقال : أبشر . فإن خطاك هذه في سبيل الله ، سمعت أبا عيسى يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « من أغبرت قدماء في سبيل الله فهما حرام على النار<sup>(٣)</sup> رواه الترمذي ، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه البخاري وعنده قال عباية : أدركني أبو عيسى وأنا ذاهب إلى الجمعة ، فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من أغبرت قدماء في سبيل الله حرمه الله على النار<sup>(٤)</sup> .

وفي رواية : « ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار » وليس عنده قول عباية ليزيد .

٦ - وعن أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع ما بداله ولم يؤذ أحداً ثم أنصت حتى يصلي كان كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » . رواه أحمد والطبراني وابن خزيمة في صحيحه . ورواه أحمد ثقات .

(١) انظر الدر المنثور ج ٣ ص ٣٥٥ باب سورة الكهف

(٢) انظر المعجم الكبير للطبراني ج ٣

(٣) انظر صحيح بن ماجة

(٤) انظر سنن الترمذي ج ٤ ص ١٤٦ في كتاب فضائل الجهاد

٧ - وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من أغتسل يوم الجمعة ثم لبس من أحسن ثيابه ومس طيباً إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة ولم يتخط أحداً ولم يؤذه ثم ركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين » (١) رواه أحمد والطبراني من رواية حرب عن أبي الدرداء .

٨ - وعن عطاء الخرساني - رضى الله عنه - قال : كان نبیثة الهندلى - رضى الله عنه - يحدث عن رسول الله - ﷺ - : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ، ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بداله وإن وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعة وكلامه إن لم يغفر له في جمعة تلك ذنوبه كلها أن يكون كفارة الجمعة التي تليها » (٢) رواه أحمد .

٩ - وعن سلمان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » (٣) . رواه البخاري والنسائي .

وفي رواية للنسائي : « ما من رجل يتطهر يوم الجمعة كما أمر ، ثم يخرج من بيته حتى يأق الجمعة وينصت حتى يقضى صلاته إلا كان كفارة لما قبله من الجمعة » (٤) . ورواه الطبراني في الكبير باسناد حسن نحو رواية النسائي ، وقال في آخره :

إلا كان كفارة لما بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله » (٥) .

١٠ - وروى عن عتيق أبي بكر الصديق وعن عمران بن حصين - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من اغتسل يوم الجمعة كفرت عنه ذنوبه وخطاياها فإذا أخذ في المشى كتب له بكل خطوة عشرون حسنة فإذا انصرف من الصلاة أجزى بعمل مائتي سنة » (٦) . رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، وفي الأوسط أيضاً عن أبي بكر رضى الله عنه وحده ، وقال فيه :

كان له بكل خطوة عمل عشرين سنة .

١١ - وعن أوس بن أوس الثقفي - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من غسل يوم الجمعة واغتسل ويكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها » (٧) . رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(١) انظر مستد الامام أحمد ج ٣ وصحيح بن خزيمة

(٢، ٣) انظر مستد الامام أحمد

(٤) صحيح البخاري ج ٢٠ كتاب الجمعة

(٥) سنن النسائي ١، كتاب الجمعة

(٦، ٧) انظر المعجم الكبير للطبراني وأبو داود والترمذي

١٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبي - ﷺ - قال : « من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها » (١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

١٣ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « عرضت الجمعة على رسول الله - ﷺ - جاءه بها جبريل عليه السلام في كفه كالمراة البيضاء في وسطها كالنكتة السوداء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ولكم فيها خير تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك ، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه ، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه ، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيدي » (٢) . الحديث . رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد .

١٤ - وعن أبي لبابة بن عبد المنذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن يوم الجمعة سيد الأيام ، وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر . وفيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم . وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض . وفيه توفي الله آدم . وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئاً إلا أعطاه إياه ، ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (٣) رواه أحمد وابن ماجه بلفظ واحد .

١٥ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » (٤) رواه مسلم ، وأبو داود والترمذي والنسائي وابن خزيمة في صحيحه ولفظه قال :

« ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة هداانا الله له ، وضل الناس عنه فالناس لنا فيه تبع فهو لنا ، واليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، إن فيه لساعة لا يوافقها مؤمن يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه » فذكر الحديث .

### المعنى

- قال العراقي : المراد تفضيل الجمعة بالنسبة إلى أيامها ، وتفضيل يوم عرفه ، أو يوم النحر بالنسبة إلى السنة .

قال صاحب المفهم : صيغة خير وشر يستعملان للمفاضلة ولغيرها فإذا كانت للمفاضلة فأصلها أخير وأشر على وزن أفعّل ، وإذا لم يكونا للمفاضلة فهما من جملة الأسماء كما قال تعالى : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا ﴾ وقال : ﴿ وَيَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ قال : وهى في حديث الباب للمفاضلة ومعناها في هذا الحديث أن يوم الجمعة أفضل من كل يوم طلعت شمس .

(١) سند الامام أحمد

(٢) الطبراني في الأوسط

(٣) سند الامام أحمد

(٤) رواه مسلم في صحيحه

- وقال الشوكاني في ( فيه خلق آدم ) فيه دليل على أن آدم لم يخلق في الجنة بل خلق خارجها ثم أدخل فيها .

وقد قال جمع من العلماء منهم الرافعي ، وصاحب المغني : إن ساعة الإجابة مخفية في جميع اليوم كما أخفيت ليلة القدر . وقد روى الحاكم وابن خزيمة عن أبي سعيد أنه قال : سألت النبي - ﷺ - عنها فقال : قد علمتها ثم أنسيتها كما أنسيت ليلة القدر ، وقيل : إذا زالت الشمس ، وقيل : إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة ، وقيل : ما بين خروج الإمام إلى أن تقام الصلاة . وقيل : ما بين أن يحرم البيع إلى أن يحل . وقيل ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى تنقضي الصلاة . وقيل : عند الجلوس بين الخطبتين . وقيل : من إقامة الصلاة إلى تمام الصلاة . وقيل : في صلاة العصر ، والله أعلم بزمان وجودها رجاء التضرع ، وكثرة التذلل ، وخشية دائها في ساعة كلها ، والإكثار من الصلاة والدعاء ، فيصادفها من اجتهد . ومن خطب الحسنة لم يغفلها مهر . قال القاضي عياض : في شرح حديث : « خير يوم » الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست الذكر فضيلته لأن إخراج آدم ، وقيام الساعة لا يعد فضيلة وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام ، وما سيقع ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته .

وقال أبو بكر بن العزى في كتابه الأحوزى في شرح الترمذى الجميع من الفضائل وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية ، وهذا النسل العظيم ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ولم يخرج منها طرداً بل لقضاء أوطار ، ثم يعود إليها ، وأما قيام الساعة فسبب لتعميل جزاء الأنبياء والصدّيقين والأولياء وغيرهم ، وإظهار كرامتهم وشرفهم ، وفي هذا الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام .

قال النووي : لو قال لزوجته أنت طالق في أفضل الأيام فيه وجهان لأصحابنا : أحدهما تطلق يوم عرفة ، والثاني يوم الجمعة لهذا الحديث ، وهذا إذا لم يكن له نية ، أما إذا أراد أفضل أيام السنة فيتعين يوم عرفة ، وإن أراد أفضل أيام الأسبوع فيتعين الجمعة ، ولو قال أفضل ليلة تعين ليلة القدر ، وهي منحصرة في العشر الأواخر .

١٦ - وعن أوس بن أوس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة ، فأكثروا من الصلاة على فيه ، فإن صلاتكم يوم الجمعة معروضة على ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرميت : أى بليت ؟ فقال : إن الله - عز وجل وعلا - حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا »<sup>(١)</sup> رواه أبو داود والنسائي . وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، واللفظ له ، وهو أتم ، وله علة دقيقة امتاز إليها البخارى وغيره .

١٧ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على أفضل من يوم الجمعة وما من دابة إلا وهى تفرح يوم الجمعة إلا هذين الثقلين الجن والإنس »<sup>(٢)</sup> رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما .

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ١ انظر سنن النسائي حـ ٣٠٩١ انظر سنن ابى داود حـ ١ ص ٦٣٥

(٢) انظر صحيح ابن حبان حـ ٤ ص ١٩١



١٨ - وعن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تحشر الأيام على هيئتها ، وتحشر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدي إلى خدرها تضيء لهم يمشون في ضوئها ألوانهم كالبلج بياضاً وريحهم كالمسك ، يخوضون في جبال الكافور ينظر اليهم الثقلان ، لا يطفرون تعجباً حتى يدخلون الجنة ، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون »<sup>(١)</sup> رواه الطبراني وابن خزيمة في صحيحه ، وقال : إن صح هذا الخبر ، فإن في النفس من هذا الإسناد شيئاً .

١٩ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « إن الله - تبارك وتعالى - ليس تبارك أحداً من المسلمين يوم الجمعة إلا غفر له »<sup>(٢)</sup> رواه الطبراني في الأوسط مرفوعاً فيما أرى بإسناد حسن .

٢٠ - وعن أبي هريرة وحذيفة - رضى الله عنهما - قالوا : قال رسول الله - ﷺ - : « أضل الله - تبارك وتعالى - عن الجمعة من كان قبلنا ، كان لليهود يوم السبت ، والأحد للنصارى فهم لنا تبع إلى يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق »<sup>(٣)</sup> رواه ابن ماجه والبخاري ، ورجلها رجال الصحيح إلا أن البزار قال : نحن الآخرون في الدنيا الأولون يوم القيامة ، المغفور لهم قبل الخلائق وهو في مسلم بنحو اللفظ الأول من حديث حذيفة وحده .

٢١ - وروى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن يوم الجمعة ، وليلة الجمعة أربعة وعشرون ساعة ليس فيها ساعة إلا والله فيها ستمائة ألف عتيق من النار . قال : فخرجنا من عنده فدخلنا على الحسن فذكرنا له حديث ثابت . فقال : سمعته فزاد فيه : كلهم قد استوجبوا النار »<sup>(٤)</sup> رواه أبو يعلى والبيهقى باختصار ولفظه : « لله في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » .

٢٢ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - ذكر يوم الجمعة فقال : « فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه »<sup>(٥)</sup> وأشار بيده يقللها . رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه .

(وأما تعيين الساعة) : فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً بسطته في غير هذا الكتاب وأذكر هنا نبذة من الأحاديث الدالة لبعض الأقوال .

٢٣ - وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه - قال : قال لي عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - : أسمعت أباك يحدثك عن رسول الله - ﷺ - في شأن ساعة الجمعة ؟ قال قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »<sup>(٦)</sup> رواه مسلم وأبو داود وقال : يعنى على المنبر وإلى هذا القول ذهب طوائف من أهل العلم .

(١) رواه الطبراني وابن خزيمة

(٢) الطبراني في الأوسط

(٣) رواه ابن ماجه والبراز

(٤) البيهقى وابويعل

(٥) البخارى

(٦) رواه مسلم وأبو داود

٢٤ - وعن عمرو بن عوف المزني - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه . قالوا يا رسول الله أية ساعة هي ؟ قال هي : حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »<sup>(١)</sup> . رواه الترمذي وابن ماجه .

٢٥ - وروى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « التمسوا الساعة التي ترجى في يوم الجمعة بعد صلاة العصر إلى غيوبة الشمس »<sup>(٢)</sup> . رواه الترمذي .

٢٦ - وعن عبد الله بن سلام - رضى الله عنه - قال : قلت ورسول الله - ﷺ - جالس ، إنا لنجد في كتاب الله تعالى : في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي فيها شيئاً إلا قضى الله له حاجته قال عبد الله : فأشار إلى رسول الله - ﷺ - أو بعض ساعة فقلت صدقت أو بعض ساعة . قلت أى ساعة هي ؟ قال : آخر ساعات النهار ، قلت : إنها ليست ساعة صلاة ؟ قال : بلى إن العبد إذا صلى ثم جلس لم يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة »<sup>(٣)</sup> . رواه ابن ماجه واسناده على شرط الصحيح .

٢٧ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل للنبي - ﷺ - أى شيء يوم الجمعة . قال : لأن فيها طبت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة ، وفيها البعثة ، وفيها البطشة ، وفي آخر ثلاث ساعات منها : ساعة من دعا الله فيها استجيب له »<sup>(٤)</sup> . رواه أحمد من رواية على بن أبي طالب عن أبي هريرة ولم يسمع منه ورجاله محتج بهم في الصحيح .

٢٨ - وروى عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : « الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس »<sup>(٥)</sup> . رواه الأصبهاني .

٢٩ - وعن جابر - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : الجمعة اثنتا عشرة ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله - عز وجل - شيئاً إلا آتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر »<sup>(٦)</sup> . رواه أبو داود والنسائي .

ورأى بعض أهل العلم من أصحاب النبي - ﷺ - وغيرهم أن الساعة التي ترجى بعد العصر إلى أن تغرب الشمس وبه يقول أحمد وإسحق ، وقال أحمد : أكثر الحديث في الساعة التي ترجى فيها اجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر . قال : وترجى بعد الزوال ، ثم روى حديث عمرو بن عوف المتقدم . وقال الحافظ : أبو بكر المنذر :

اختلفوا في وقت الساعة التي يستجاب فيها الدعاء من يوم الجمعة فروينا عن أبي هريرة قال : هي من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ومن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وقال الحسن

(١) انظر مسند أبي يعلى ج ٦ ص ١٥٧ - ٢٠١

(٢) انظر شعب الإيمان للبيهقي

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٢ - كتاب الجمعة

(٤) انظر مسلم

(٥) انظر مجمع الزوائد ج ١

(٦) انظر مجمع الزوائد ج ٢

البصرى ، وأبو العالية : هى عند زوال الشمس ، وفيه قول ثالث وهو أنه إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة روى ذلك عن عائشة وروينا عن الحسن البصرى أنه قال : هى إذا قعد الإمام على المنبر حتى يفرغ . وقال أبو بردة : هى الساعة التى اختار الله فيها الصلاة وقال أبو السوار العدوى : كانوا يرون الدعاء مستجاباً ما بين أن تزول الشمس إلى أن يدخل فى الصلاة ، وفيه قول سابع وهو أنها ما بين أن تزيغ الشمس يشير إلى ذراع وروينا هذا القول عن أبي ذر وفيه قول ثامن وهو أنها ما بين العصر إلى أن تغرب الشمس ، كذا قال أبو هريرة ، وبه قال طاوس ، وعبد الله بن سلام - رضى الله عنه . والله أعلم .

### الترغيب فى الغسل يوم الجمعة

١ - عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « إن الغسل يوم الجمعة ليسل الخطايا من أصول الشعر استلاً » (١) . رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات .

٢ - وعن عبد الله بن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال : دخل على أبى وأنا أغتسل يوم الجمعة فقال غسلك هذا من جنابة أو للجمعة ؟ قلت : من جنابة ؟ قال أعد غسلأ آخر إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من اغتسل يوم الجمعة كان فى طهارة إلى الجمعة الأخرى » (١) . رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده قريب من الحسن وابن خزيمة فى صحيحه .

### المعنى

معناه أمره أبوه أن يعيد كرة الغسل مرة أخرى بنية غسل الجمعة ويعمل بسنة النبى - ﷺ - وكانت نيته غسل الحدث الأكبر وإزالته . قال العلماء : لا بد من النية . أى : ينوى الجنب رفع الجنابة أو الحدث الأكبر . أما إذا نوى الحديثين فتحصل الإزالة والعمل بالسنة ، ولو نوى غسل السنة لمسه يتدرج الحدث الأكبر فيه ، وبهذه المناسبة أذكر فرائض الغسل وستته ومكروهاته وشروطه :

### فروض الغسل وستته

أولاً : النية : وتكون النية مقرونة بأول الفرض ، وهو أول ما يغسل من أعلى البدن أو أسفله ، فلو نوى بعد غسل جزء وجب إعادته .

ثانياً : إزالة النجاسة إن كانت على بدنه .

ثالثاً : إيصال الماء إلى جميع الشعر والبشرة ، ولا فرق بين شعر الرأس وغيره ، والشعر المضفور إن لم يصل الماء إلى باطنه إلا بالنقض وجب نقضه . فالسيدة تتنبه لهذا الحكم ، وتعتنى بالغسل لتبنى عبادتها على صحة ، ويجب غسل ما ظهر من صمامى أذنيه أى : خرقها ، ومن أنف مشقوق مقطع ظهر بالقطع ، بخلاف الباطن الذى كان مفتوحاً قبل القطع فلا يجب غسله ، وإن ظهر بعد قطع ما كان

ساتره ، ومن شقوق بدن كشقوق الرجلين القلاحين والماشين ، ويجب إيصال الماء إلى ما تحت القلفة وهي الجلدة التي تزال بالختان للأقلف / وإلى ما يبدو من فرج المرأة عند قعودها لقضاء حاجتها ، ويجب غسل ملتقى المنفذ المسمى : ( السرية ) فيسترخي ليصل الماء إلى ذلك ، وينبغي لمن يغتسل من نحو إبريق أن ينوى رفع الحدث بعد الاستنجاء لثلا يحتاج إلى مسه بعد ذلك فيتنقض وضوؤه ، أو إلى كلفة في لف يده بخرقه .

وسنن الغسل : التسمية ، والوضوء قبله ، وينوى المغتسل سنة الغسل إن تجردت جنباته عن الحدث الأصغر ، وإلا نوى به الأصغر وإمرار اليد على ما وصلت إليه من الجسد ، وعند مالك - رحمه الله - يجب الدلك والموالة ، وتقديم اليمنى من شقيه على اليسرى ، وإزالة القذر وتعهد غضوان جلده ( معاطفة ) ، والتلثيث وتخليل الشعر .

ومكروهاته : الزيادة على ثلاث ، والإسراف في الماء ..

وشروطه : عدم المنافى ، وعدم الحائل .

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا كان يوم الجمعة فاغتسل الرجل ، وغسل رأسه ، ثم تطيب من أطيب طيبه ، ولبس من صالح ثيابه ثم خرج إلى الصلاة ولم يفرق بين اثنين ، ثم استمع الإمام غفر له من الجمعة إلى الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام » (١) رواه ابن خزيمة في صحيحه .

قال الحافظ : وفي هذا الحديث دليل على ما ذهب إليه مكحول ومن تابعه في تفسير قوله : غسل واغتسل . والله أعلم .

٤ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواك ، ويمس من الطيب ما قدر عليه » (٢) رواه مسلم وغيره .

٥ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين / فمن جاء الجمعة فليغتسل وإن كان عنده طيب فليمس منه وعليكم بالسواك » (٣) ، رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

### الترغيب في التبكير إلى الجمعة

/وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر/

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ومن راح في الساعة الثانية ، فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ،

(١) انظر صحيح ابن خزيمة ج٢ ص٣١

(٢) انظر مسلم ج٢ ص٥٨١ بكتاب الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج١

ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»<sup>(١)</sup>.

رواه مالك والبخارى ومسلم . وأبوداود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وفى رواية البخارى ومسلم وابن ماجه : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ومثل المهجر كمثل الذى يهدى بدنه ثم كالذى يهدى بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر»<sup>(٢)</sup>. ورواه ابن خزيمة فى صحيحه بنحو هذه .

٣ - وفى رواية له : أن رسول الله - ﷺ - قال : « المستعجل إلى الجمعة كالمهدى بدنه ، والذى يليه كالمهدى بقرة ، والذى يليه كالمهدى شاه ، والذى يليه كالمهدى طيراً ، وفى أخرى له قال : على كل باب من أبواب المساجد يوم الجمعة ملكان يكتبان الأول فالأول كرجل قدم بدنه ، وكرجل قدم بقرة ، وكرجل قدم شاه ، وكرجل قدم طيراً ، وكرجل قدم بيضة ، فإذا قعد الإمام طويت الصحف»<sup>(٣)</sup>.

(المهجر) : هو المبكر الآتى فى أول ساعة .

٤ - وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - ضرب مثل يوم الجمعة ثم التكبير كأجر البقرة كأجر الشاة حتى ذكر الدجاجة»<sup>(٤)</sup>. رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٥ - وعن أبى أمامه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تقعد الملائكة يوم الجمعة على أبواب المساجد معهم الصحف يكتبون الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ، قلت : يا أبا أمامة ليس لمن جاء بعد خروج الإمام جمعه ؟ قال : بلى ، ولكن ليس ممن يكتب فى الصحف»<sup>(٥)</sup>. رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

٦ - وفى رواية لأحمد - رضى الله عنه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة فيكتبون الأول والثانى والثالث حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف»<sup>(٦)</sup>.

٧ - وعن على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : « إذا كان يوم الجمعة خرجت الشياطين يريثون الناس إلى أسواقهم وتقعد الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الناس على قدر منازلهم : السابق والمصلى والذى يليه حتى يخرج الإمام ، فمن دنا من الإمام فأنصت واستمع ، ولم يبلغ كان له كفلان من الأجر ومن دنا من الإمام فلغا ولم ينصت ولم يستمع كان عليه كفلان من الوزر ومن قال صه

(١) صحيح مسلم

(٢) صحيح بن خزيمة ٣ كتاب الجمعة

(٣) صحيح بن خزيمة ٣ كتاب الجمعة

(٤) سنن ابن ماجه ١-

(٥) أنظر مجمع الزوائد

(٦) مستد الامام أحمد

فقد تكلم ومن تكلم فلا جمعة له ، ثم قال : هكذا سمعت نبيكم - ﷺ - يقول <sup>(١)</sup> « رواه أحمد وهذا لفظه ، وأبو داود .

ولفظه : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الرباث ، ويشيطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المساجد ، ويكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين ، حتى يخرج الإمام ، فإذا جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر فأنصت ولم يبلغ كان له كفلان من الأجر ، فإن نأى حيث لا يسمع فأنصت ولم يبلغ كان له كفل من الأجر فإن جلس مجلساً لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان له كفلان من وزر ، فإن جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر ولغا ولم ينصت كان له كفل من وزر ، قال ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : أنصت فقد لغا ومن لغا ليس له في جمعته شيء ، ثم قال في آخر ذلك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ذلك <sup>(٢)</sup> .

( قال الحافظ ) : وفي إسنادهما راوٍ لم يسمه .  
( الرباith ) : بالراء والباء الموحدة ، ثم ألف وباء مثناه تحت بعدها ثاء مثله : جمع ربيته وهي الأمر الذي يجلس المرء عن مقعده ويشبطه عنه ومعناه أن الشياطين تشغلهم وتفندهم عن السعى إلى الجمعة إلى أن تمضي الأوقات الفاضلة .

( قال الخطابي ) : الترابيث ليس بشيء إنما هو ( الرباith ) وقوله : فيرمون الناس ، إنما هو فيربثون الناس ، قال وكذلك روى لنا في غير هذا الحديث .

( قال الحافظ ) : يشير إلى لفظ رواية أحمد المذكورة ، وقوله :

( صه ) : بسكون الهاء وتكسر منونة ، وهي كلمة زجر للمتكلم : أي : اسكت . ( والكفل ) : بكسر الكاف : هو النصيب من الأجر أو الوزر .

٨ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد فيكتبون من جاء من الناس على منازلهم فرجل قدم جزوراً ورجل قدم بقرة ورجل قدم شاة ورجل قدم دجاجة ورجل قدم بيضة .

قال : فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طويت الصحف . ودخلوا المسجد يستمعون الذكر <sup>(٣)</sup> .

رواه أحمد بإسناد حسن . ورواه النسائي بنحوه من حديث أبي هريرة .

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ١ ص ٣٤٨ كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها رقم ١٠٩٣

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ ٢ ص ١٧٦ باب التبرك الى الجمعة

(٣) أنظر مسند الامام أحمد حـ ٢٦٠ مسند أبوامامة

٩- وعن عمرو بن شعيب - رضى الله عنه - عن أبيه عن جده عن النبي - ﷺ - أنه قال : « يُبعث الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون مجيء الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام ، فتقول الملائكة بعضهم لبعض :

ما جلس فلاناً ، فتقول الملائكة : اللهم إن كان ضالاً فاهده ، وإن كان مريضاً فاشفه ، وإن كان عائلاً فاغنه » (١).

رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

( العائل ) : الفقير .

١٠- وعن أبى عبيدة - رضى الله عنه - قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز إلى أهل الجنة فى كل يوم جمعة فى كتيب كافور فيكونون منه فى القرب على قدر تسارعهم ، فيحدث الله عز وجل لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك . ثم يرجعون إلى أهلهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد فإذا هو برجلين يوم الجمعة قد سبقاه فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن شاء الله إن يبارك فى الثالث » (٢) .

رواه الطبرانى فى الكبير وأبو عبيدة اسمه عامر ولم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وقيل سمع منه .

١١- وعن علقمة - رضى الله عنه - قال : خرجت مع عبد الله بن مسعود يوم الجمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة وما أربع رابع أربعة من الله ببعيد ، إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله عز وجل على قدر رواحهم إلى الجمعات الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد » (٣) . رواه ابن ماجه وابن أبى عاصم وإسنادهما حسن .

( قال الحافظ ) : رحمه الله : وتقدم حديث عبد الله بن عمرو عن النبي - ﷺ - قال :

« من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها » (٤) وكذلك تقدم حديث أوس بن أوس نحوه .

١٢- وروى عن سمرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أحضروا الجمعة وأدنوا من الإمام فإن الرجل ليكون من أهل الجنة فيتأخر عن الجمعة فيؤخر عن الجنة وإنه لمن أهلها » (٥) رواه الطبرانى والأصبهاني وغيرهما .

(١) انظر مسند الامام أحمد ج٢ ص ٢٥٩ مسند ابوسعيد الخدرى

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة ج٣ باب ذكر دعاء الملائكة للمتخلفين عن الجمعة

(٣) انظر مجمع الزوائد ج٢ باب التبرك الى الجمعة

(٤) انظر سنن ابن ماجه ج١ باب اقامة الصلاة

(٥) انظر مجمع الزوائد ج٢

## الترهيب من تخطي الرقاب يوم الجمعة

١ - عن عبد الله بن يسر - رضى الله عنهما - قال : جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبي - ﷺ - يخطب فقال النبي - ﷺ - : « اجلس فقد آذيت وآيت »<sup>(١)</sup> . رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما وليس عند أبي داود والنسائي : وآيت وعند ابن خزيمة : فقد آذيت وأوذيت ، ورواه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله .

( آيت ) : بمد الهمزة وبعدها نون ثم ياء مثناة تحت . أى أخرت المجيء : وآذيت بتخطيك رقاب الناس .

٢ - وروى عن معاذ بن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم »<sup>(٢)</sup> : رواه ابن ماجه والترمذى . وقال : حديث غريب ، والعمل عند أهل العلم .

٣ - وروى عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : بينما رسول الله - ﷺ - يخطب إذ جاء رجل يتخطى رقاب الناس حتى جلس قريباً من النبي - ﷺ - فلما قضى رسول الله - ﷺ - - صلاته قال : « ما منعك يا فلان أن تجمع معنا ؟ قال يا رسول الله : قد حرصت أن أضع نفسى بالمكان الذى ترى . قال قد رأيتك تتخطى رقاب الناس وتؤذيهم ومن آذى مسلماً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل »<sup>(٣)</sup> . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

٤ - وروى عن الأرقم بن الأرقم - رضى الله عنه - وكان من أصحاب النبي - ﷺ - - أن النبي - ﷺ - - قال : « إن الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كجار قصبه فى النار »<sup>(٤)</sup> رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

### المعنى

كجار قصبه فى النار : والجمع أقصاب : أى أمعاء وفيه كراهة التخطى يوم الجمعة وهى مختصة به ويحمل عليه مجالس العلم وغيرها ، ويؤيده أيضاً ما أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تخطى حلقة قوم بغير إذنهم فهو عاص »<sup>(٥)</sup> . قال العراقى : وقد استثنى من التحريم والكراهة الإمام أو من كان بين يديه فرجة لا يصل إليها إلا بالتخطى .

(١) انظر صحيح بن خزيمة ح-٣ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٢) انظر سنن ابن ماجه ح-١ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٣) انظر جمع الزوائد ح-٢ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٤) انظر مسند الامام أحمد ح-٣

(٥) انظر مسند الفردوس ح-٣ ص ٥٥٥ رقم ٥٤٣



وقال النووي : إذا لم يجد طريقاً إلى المنبر أو المحراب إلا بالتخطي لم يكره لأنه ضرورة .  
وقد خص الكراهة بعضهم بغير من يتبرك الناس بمروره ويسرهم ذلك ، ولا يتأذن لزوال علة الكراهة التي هي التأذى .

### الترهيب من الكلام والإمام يخطب والترغيب في الإنصات

١ - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال : إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت والإمام يخطب فقد لغوت <sup>(١)</sup> ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه وابن خزيمة .

( قوله ) : لغوت : قيل معناه : خبت من الأجر ، وقيل : تكلمت ، وقيل : أخطأت ، وقيل : بطلت فضيلة حروبك ، وقيل : صارت جمعتك ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

٢ - وعنه ( أبى هريرة ) - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « إذا تكلمت يوم الجمعة ، فقد لغوت وألغيت » <sup>(٢)</sup> يعنى والإمام يخطب ، رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

٣ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له : أنصت ليس له جمعة » <sup>(٣)</sup> رواه أحمد والبخارى والطبرانى .

٤ - وعن أبى بن كعب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قرأ يوم الجمعة تبارك وهو قائم يذكر بآيام الله وأبوذر يغمز أبى كعب فقال : متى أنزلت هذه السورة إنى لم أسمعها إلى الآن ، فأشار إليه أن أسكت ، فلما انصرفوا قال سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرنى ؟ فقال أبى : ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت . فذهب أبوذر إلى رسول الله - ﷺ - وأخبره بالذى قال أبى ، فقال رسول الله - ﷺ - « صدق أبى » <sup>(٤)</sup> . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

ورواه ابن خزيمة فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه قال : دخلت المسجد يوم الجمعة والنبي - ﷺ - يخطب فجلست قريباً من أبى بن كعب فقرأ النبي - ﷺ - سورة براءة فقلت لأبى : متى نزلت هذه السورة ؟ قال : فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتجهمنى ولم يكلمنى فلما صلى النبي - ﷺ - قلت لأبى : سألتك فتجهمنى ولم تكلمنى قال أبى : مالك من صلاتك إلا ما لغوت فذهبنا إلى النبي - ﷺ - فقلت يا نبي الله : كنت

(١) انظر صحيح مسلم ج٣ ص٥٨٣ كتاب الجمعة باب فى الإنصات فى خطبة الجمعة

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة ج٣ باب الزجر عن الكلام يوم الجمعة عند الخطبة

(٣) انظر سنن ابن ماجه

(٤) انظر سنن ابن ماجه

بجنب أبي وأنت تقرأ براءة ، فسألته متى نزلت هذه السورة ، فتجهمني ولم يكلمني ثم قال : مالك من صلاتك إلا ما لغوت ، قال النبي - ﷺ - : « صدق أبي »<sup>(١)</sup> .

(قوله) فتجهمني : معناه قطب وجهه وعبس ونظر إلى نظر المغضب المفكر .

٥ - وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : جلس رسول الله - ﷺ - يوماً على المنبر فخطب الناس ، وتلا آية وإلى جنبى أبي بن كعب فقلت له يا أبي : ومتى أنزلت هذه الآية ؟ قال : فأبى أن يكلمني ثم سأله فأبى أن يكلمني ، حتى نزل رسول الله - ﷺ - ، فقال أبي : مالك من جمعتك إلا ما لغيت ، فلما انصرف رسول الله - ﷺ - جثته فأخبرته ، فقلت : أى رسول الله إنك تلوت آية وإلى جنبى أبي بن كعب فقلت له : متى أنزلت هذه الآية ؟ فأبى أن يكلمني حتى إذا نزلت زعم أبي أنه ليس لى من جمعتى إلا ما لغيت ، فقال : « صدق أبي : إذا سمعت إمامك يتكلم ، فأنصت حتى يفرغ »<sup>(٢)</sup> ، رواه أحمد من رواية حرب بن قيس عن أبي الدرداء ولم يسمع منه .

٦ - وروى عن جابر - رضي الله عنه - قال : قال سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - لرجل : لا جمعة لك ، فقال النبي - ﷺ - : ( لم يا سعد ؟ ) قال : لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال ﷺ - : « صدق سعد »<sup>(٣)</sup> رواه أبو يعلى والبخاري .

٧ - وعن جابر أيضاً - رضي الله عنه - قال : دخل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - المسجد والنبي - ﷺ - يخطب ، فجلس إلى جنب أبي بن كعب فسأله عن شيء أو كلمه بشيء فلم يرد عليه أبي بظن ابن مسعود أنها موجدة ، فلما انقفل النبي - ﷺ - من صلاته ، قال ابن مسعود يا أبي : ما منعك أن ترد عليّ ؟ قال : إنك لم تحضر معنا الجمعة ، قال : لم ؟ قال تكلمت والنبي - ﷺ - يخطب ، فقال ابن مسعود : فدخل على النبي - ﷺ - فذكر ذلك له ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق أبي ، صدق أبي ، أطمع أياً »<sup>(٤)</sup> ، رواه أبو يعلى بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه .

٨ - وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : كفى لغواً أن تقول لصاحبك أنصت إذا خرج الإمام فى الجمعة<sup>(٥)</sup> ، رواه الطبراني فى الكبير موقوفاً بإسناد صحيح ، وتقدم فى حديث على المرفوع .

ومن قال يوم الجمعة لصاحبه أنصت فقد لغا ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شيء .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب امرأته إن كان لها ولبس من صالح ثيابه ثم لم يتخط رقاب الناس ولم يلبس عند الموعظة كان كفارة لما بينهما ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهراً »<sup>(٦)</sup> ، رواه أبو داود

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ١ ص

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ مسند أبو الدرداء

(٣) انظر جمع الزوائد

(٤) انظر مسند أبي يعلى مسند جابر

(٥) انظر جمع الزوائد

(٦) انظر سنن أبو داود حـ ١ كتاب الطهارة

وابن خزيمة في صحيحه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن خزيمة في صحيحه من حديث أبي هريرة بنحوه وتقدم .

١٠ - وعنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر فرجل حضرها بلغو فذلك حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله ، إن شاء أعطاه ، وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك أن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » (١) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه وتقدم في حديث على .

فمن دنا من الإمام واستمع ولم يبلغ كان له كفلان من الأجر . والحديث .

### الترهيب من ترك الجمعة لغير عذر

١ - عن ابن مسعود - رضى الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم » (٢) رواه مسلم والحاكم بإسناد على شرطهما ، وتقدم في باب الحمام حديث أبي سعيد ، وفيه ومن كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر فليسع إلى الجمعة ومن استغنى عنها بلهو أو تجارة استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، رواه الطبراني .

٢ - وعن أبي هريرة وابن عمر - رضى الله عنهم - أنهما سمعا رسول الله - ﷺ - يقول على أعواد منبره : « لينتهن أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » (٣) . رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما .

( قوله ) : ودعهم الجمعات . هو بفتح الواو ، وسكون الدال : أى تركهم الجمعات ورواه ابن خزيمة بلفظ تركهم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى .

٣ - وعن أبي الجعد الضمري وكانت له صحبة - رضى الله عنه ، عن النبي - ﷺ - قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه » (٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان في صحيحهما والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم . وفى رواية لابن خزيمة وابن حبان ، « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق » . وفى رواية ذكرها رزين : وليستا فى الأصول : « فقد برىء من الله » .

( أبو الجعد ) : اسمه أدرع وقيل جنادة ، وذكر الكرايس أن اسمه عمر بن أبى بكر ، وقال الترمذى : سألت محمداً ، يعنى البخارى عن اسم أبى الجعد فلم يعرفه .

(١) انظر مستد ابى داود ح١ كتاب الصلاة باب الكلام

(٢) انظر صحيح مسلم ح١ ص٤٥٢ كتاب المساجد

(٣) انظر صحيح مسلم ح٢ كتاب الجمعة باب التغليب فى ترك الجمعة

(٤) انظر صحيح ابوخزيمة ح٣ ذكر الختم على قلوب التاركين للجمعة

٤ - وعن أبي قتادة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير ضرورة طبع الله على قلبه »<sup>(١)</sup> . رواه أحمد بإسناد حسن والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٥ - وعن أسامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين »<sup>(٢)</sup> رواه الطبرانى فى الكبير من رواية جابر الجعفى ، وله شواهد .

٦ - وعن كعب بن مالك - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : « لىنتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ثم لا يأتونها أو ليطعن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »<sup>(٣)</sup> رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن .

٧ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا هل عسى أحدكم أن يتخذ الصبة من الغنم على رأس ميل أو ميلين فيتعذر عليه الكلا فيرتفع ، ثم تجىء الجمعة فلا يجىء ولا يشهدها ، وتجىء الجمعة فلا يشهدها ، حتى يطبع على قلبه »<sup>(٤)</sup> رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، وابن خزيمة فى صحيحه .

( الصبة ) : بضم الصاد والمهمله ، وتشديد الباء الموحدة : هى السرية إما من الخيل أو الإبل أو الغنم : ما بين العشرين إلى الثلاثين تضاف إلى ما كانت منه ، وقيل : هى ما بين العشرة إلى الأربعين .

٨ - وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قام رسول الله - ﷺ - خطيباً يوم الجمعة ، فقال : « عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميل من المدينة فلا يحضر الجمعة ، ثم قال فى الثانية : عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميلين من المدينة فلا يحضرها وقال فى الثالثة : عسى يكون على قدر ثلاثة أميال من المدينة فلا يحضر الجمعة ويطبع الله على قلبه »<sup>(٥)</sup> رواه أبو يعلى بإسناد لين .

وروى ابن ماجة عنه بإسناد جيد مرفوعاً : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طبع الله على قلبه »<sup>(٦)</sup> .

٩ - وروى عن جابر - رضى الله عنه - أيضاً قال : خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال : « يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن الله افترض

(١) انظر سنن أبى داود حـ١ كتاب الصلاة باب التشديد فى ترك الجمعة وصحيح ابن خزيمة

(٢) انظر مستند الامام أحمد حـ٣ مسند جابر بن عبد الله

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٤) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٥) انظر سنن ابن ماجة

(٦) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣

عليكم الجمعة في مقامى هذا ، فى يومى هذا فى شهرى هذا ، من عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أوبعدى وله إمام عادل ، أو جائر استخفافاً بها وجحوداً بها فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا بر له ، حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه <sup>(١)</sup> ، رواه ابن ماجه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى أخضر منه .

١٠ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الاسلام وراء ظهره <sup>(٢)</sup> .

رواه أبو يعلى موقوفاً بإسناد صحيح .

١١ - وعن حارثة بن النعمان - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يتخذ أحدكم السائمة فيشهد الصلاة فى جماعة فتعذر عليه سائمته ، فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلاً من هذا فيتحول ، ولا يشهد إلا الجمعة فتعذر عليه سائمته فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلاً من هذا فيتحول ، ولا يشهد الجمعة ولا الجماعة فيطبع الله على قلبه » <sup>(٣)</sup> .

رواه أحمد من رواية عمر بن عبد الله مولى غفرة وهو ثقة عنده ، وتقدم حديث أبى هريرة عند ابن ماجه وابن خزيمة بمعناه .

( قوله ) : أكلاً من هذا ، أى أكثر كلاً والكلاً : بفتح الكاف واللام وفى آخره : همزة غير محدودة : هو العشب الرطب واليابس .

١٢ - وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة - رضى الله عنه - سمعت عمر ولم أر رجلاً منابه شبيهاً قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من سمع نداء الجماعة فلم يأتها ثم سمعه فلم يأتها ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق » .  
رواه البيهقى .

وروى الترمذى عن ابن عباس : « أنه سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة . قال : « هو فى النار » <sup>(٤)</sup> .

(١) مجمع الزوائد ٢ - باب من ترك الجمعة

(٢) انظر مسند الامام أحمد ٥ - مسند حادثة ابن النعمان

(٣) انظر المطالب الغالية ١ - باب صلاة الجمعة

(٤) سنن الترمذى ١ - باب فيمن يسمع الأذان فلا يجيب

## الترغيب فى قراءة سورة الكهف وما يذكر معها ليلة الجمعة ويوم الجمعة

١ - عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين »<sup>(١)</sup> ، رواه النسائى والبيهقى مرفوعاً ، والحاكم مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، وقال صحيح الإسناد ، ورواه الدارمى فى مسنده موقوفاً على أبى سعيد ، ولفظه قال :

« من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق ، وفى أسانيدهم كلها إلا الحاكم أبو هاشم يحيى بن دينار الرومانى ، والأكثر على توثيقه ، وبقية الإسناد ثقات ، وفى إسناد الحاكم الذى صححه يضم بن حماد ، ويأتى الكلام عليه وعلى أبى هاشم .

٢ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سيطع له نور تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين »<sup>(٢)</sup> . رواه أبوبكر بن مردويه فى تفسيره بإسناد لا بأس به .

٣ - وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له » .

وفى رواية : « من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » . رواه الترمذى والأصبهانى ، ولفظه :

« من صلى بسورة الدخان فى ليلة بات يستغفر له سبعون ألف ملك » ، رواه الطبرانى والأصبهانى أيضاً من حديث أبى أمامة ، ولفظهما قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً فى الجنة »<sup>(٣)</sup> .

٤ - وروى عنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ سورة يس فى ليلة الجمعة غفر له »<sup>(٤)</sup> ، رواه الأصبهانى .

٥ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس »<sup>(٥)</sup> رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير .

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى ج٣ كتاب الجمعة

(٢) انظر الدر المنثور ج٥ سورة الكهف

(٣) سنن الترمذى ج٥ فضائل القرآن

(٤) انظر تحف السادة المتقين ج٣

(٥) انظر تحف السادة المتقين ج٣

## بحث قيم للعلامة ابن القيم

قال رحمه الله تعالى : ( فصل فى هديه - ﷺ - فى الجمعة . وذكر خصائص يومها ) .

ثبت فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون الأولون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا له ، والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ » (١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، وحذيفة - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق » (٢) .

وفى « المسند » والسنن ، من حديث أوس بن أوس عن النبى - ﷺ - « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا على من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة على » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ ( يعنى : قد بليت ) قال : « قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » (٣) .

ورواه الحاكم فى « المستدرک » وابن حبان فى « صحيحه » .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق الله آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة » (٤) .

قال : حديث حسن صحيح وصححه الحاكم .

وفى « المستدرک » أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً « سيد الأيام يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة » (٥) .

وروى مالك فى « الموطأ » ، عن أبى هريرة مرفوعاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مصيخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه » (٦) .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٢ باب الجمعة

(٢) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ باب فرض الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ باب فرض الجمعة

(٤) انظر سنن الترمذى جـ ٢ باب فضل الجمعة

(٥) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم

(٦) انظر موطأ مالك جـ ١ باب ماجاء فى الساعة التى فى يوم الجمعة

قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم ، فقلت : بل فى كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة ، فقال :  
صدق رسول الله - ﷺ - . . قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام ، فحدثته بمجلسى مع كعب ،  
قال : قد علمت أية ساعة هى ، قلت : فأخبرنى بها ، قال : هى آخر ساعة فى يوم الجمعة . فقلت :  
كيف وقد قال رسول الله - ﷺ - : « لا يصادفها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلى » .

وتلك الساعة لا يصلى فيها ؟ فقال ابن سلام : ألم يقل رسول الله - ﷺ - : « من جلس مجلساً  
ينتظر الصلاة ، فهو فى صلاة حتى يصلى » (١) .

وفى صحيح ابن حبان مرفوعاً ، ( لا تطلع الشمس على يوم خير من يوم الجمعة ) (٢) وفى مسند  
الشافعى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : أتى جبريل عليه السلام رسول الله - ﷺ - - بمراة  
بيضاء ، فيها وكعة . فقال النبى - ﷺ - : ( ما هذه ؟ ) فقال : « هذه يوم الجمعة فضلت بها أنت وأمتك  
والناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله  
بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزد ، فقال النبى - ﷺ - : ( يا جبريل ! ما اليوم المزد ؟ قال :  
إن ربك اتخذ فى الفردوس وادياً أقيم فيه كتب من مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله - سبحانه - ما شاء  
من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبیین وحف تلك المنابر لمناير من ذهب مكللة بالياقوت  
والزبرجد ، عليها الشهداء والصدیقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب ، فيقول الله - عز وجل :  
« أنا ربكم قد صدقتكم وعدى فسلونى أعطكم . فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : « قد رضيت  
عنكم ولكم ما تمنيتم ولدئى مزيدي » فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذى  
استوى فيه ربك - تبارك وتعالى - على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة . (٣)

رواه الشافعى عن إبراهيم بن محمد ، حدثنى موسى بن عبيدة ، قال : حدثنى أبو الأزهر معاوية بن  
إسحق بن طلحة ، عن عبد الله . ابن عمير عن أنس بن مالك . ثم قال : وأخبرنا إبراهيم قال : حدثنى  
أبو عمران إبراهيم بن الجعد عن أنس شبيهاً به .

وكان الشافعى حسن الرأى فى شيخه إبراهيم هذا ولكن قال فيه الإمام أحمد رحمه الله : معتزلى  
جهمى قدرى كل بلاء فيه .

ورواه أبو اليمان الحكم بن نافع ، حدثنا صفوان : قال : قال أنس : قال النبى - ﷺ - : « أنا  
جبريل فذكره » ورواه محمد بن شعيب عن عمر مولى غفرة ، عن أنس . ورواه أبو ظبية ، عن عثمان بن  
عمير ، عن أنس . وجمع أبو بكر بن أبى داود طرقه .

(١) انظر مسند الامام أحمد جده

(٢) انظر صحيح ابن حبان جده باب صلاة الجمعة

(٣) انظر مسند الشافعى



وفي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طلحة ، عن أبي هريرة ، قال : قيل للنبي - ﷺ - :  
لأى شيء سمي يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيه طينة أبيك آدم ، وفيه الصعقة ، والبعثة ، وفيه  
البطشة ، وفي آخره ثلاث ساعات فمنها ساعة من دعا الله فيها استجيب له » (١)

وقال الحسن بن سفيان النسوي في « مسنده » حدثنا أبو مروان هشام ابن خالد الأزرق ، حدثنا  
الحسن بن يحيى الخثني ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة ، حدثني أنس بن مالك ، قال : سمعت  
رسول الله - ﷺ - يقول :

« أتاني جبريل وفي يده كهيئة المرأة البيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت : ما هذه يا جبريل ؟ فقال :  
هذه الجمعة بعثت بها إليك تكون عيداً لك ولأمتك من بعدك . فقلت : وما لنا فيها يا جبريل ؟ قال :  
فيها خير كثير أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلي يسأل الله شيئاً إلا  
أعطاه . قلت : فما هذه النكتة السوداء يا جبريل ؟ قال : هذه الساعة تكون في يوم الجمعة وهو سيد الأيام  
ونحن نسميه عندنا يوم المزيّد . قلت وما يوم المزيّد يا جبريل ؟ قال : وذلك بأن ربك اتخذ في الجنة وادياً  
أقيم من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب عز وجل من عرشه إلى كرسيه ويحف  
الكرسي بمنابر من النور فيجلس عليها النبيون وتحف المنابر بكراسي من ذهب فيجلس عليها الصديقون  
والشهداء ، وتهبط أهل الغرف من غرفهم فيجلسون على كئبان المسك لا يرون لأهل المنابر والكراسي  
فضلاً في المجلس ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام تبارك وتعالى ، فيقول : سلوني فيقولون بأجمعهم :  
نسألك الرضى يارب فيشهد لهم على الرضى ثم يقول : سلوني ، فيسألونه حتى تنتهي نعمة كل عبد منهم  
قال : ثم يسعى عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم يرتفع الجبار من  
كرسيه إلى عرشه ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهي غرفة من لؤلؤة بيضاء ، أو ياقوتة حمراء ،  
أو زمرده خضراء ، ليس فيها فصم ولا وصم منورة ، فيها أنهارها ، أو قال : مطردة متدلية فيها ثمارها ،  
فيها أزواجها وخدمها ومساكنها قال : فأهل الجنة يتباشرون في الجنة بيوم الجمعة ، كما يتباشرون أهل الدنيا في  
الدنيا بالمطر » (٢)

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب « صفة الجنة » : حدثني أزهر بن مروان الرقاش ، حدثني عبد الله بن  
عمرارة الثياباني ، حدثنا القاسم بن مطيب عن الأعمس ، عن أبي وائل ، عن حذيفة ، قال : قال رسول  
الله - ﷺ - : « أتاني جبريل وفي كفه مرآة كأحسن المرآئ وأضوائها وإذا في وسطها لمعة سوداء ، فقلت :  
ما هذه اللمعة التي أرى فيها ؟ قال : هذه الجمعة ، قلت : وما الجمعة ؟ قال : يوم من أيام ربك عظيم  
وسأخبرك بشرفه وفضله في الدنيا وما يرجى فيه لأهله وأخبرك باسمه في الآخرة فأما شرفه وفضله في الدنيا  
فإن الله عز وجل جمع فيه أمر الخلق وأما ما يرجى فيه لأهله فإن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة  
مسلمة يسألان الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاهما إياه وأما شرفه وفضله في الآخرة واسمه ، فإن الله تبارك  
وتعالى إذا صير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جرت عليهم هذه الأيام وهذه الليالي ليس فيها

(١) مسند الإمام أحمد جده مسند أبو هريرة

(٢) أنظر كنز العمال في هذا المعنى جـ

ليل ولا نهار إلا قد علم الله عز وجل مقدار ذلك وساعاته ، فإذا كان يوم الجمعة حين يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم ، نادى أهل الجنة منادٍ ، يا أهل الجنة ! اخرجوا إلى وادى ووادى المزيد لا يعلم سعة طوله وعرضه إلا الله فيه كثبان المسك ، رؤوسها في السماء قال : فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور ويخرج غلمان المؤمنين بكراسى من ياقوت فإذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم ، بعث الله عليهم ريحاً تدعى المثيرة ، تثير ذلك المسك وتدخله من تحت ثيابهم وتخرجه في وجوههم وأشعارهم ، تلك الريح أعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها كل طيب على وجه الأبيض . قال : ثم يوحى الله تبارك وتعالى إلى حملة عرشه : ضعوه بين أظهرهم ، فيكون أول ما يسمعون منه : ( إلى يا عبادى الذين أطاعونى بالغيب ولم يرونى وصدقوا رسلى واتبعوا أمرى ، سلونى فهذا يوم المزيد ) فيجتمعون على كلمة واحدة : رضينا عنك . فارض عنا فيرجع الله إليهم : « أن يا أهل الجنة إني لولم أرض عنكم لم أسكنكم دارى فسلونى فهذا يوم المزيد » فيجتمعون على كلمة واحدة : يا ربنا وجهك ننظر إليه فيكشف تلك الحجب فيتجلى له عز وجل فيغشاهم من نوره شيء لولا أنه قضى ألا يحترقوا ، لا يحترقوا لما يغشاهم من نوره ثم يقال لهم : ارجعوا إلى منازلكم ، فيرجعون إلى منازلهم وقد أعطى كل واحد منهم الضعف على ما كانوا فيه ، فيرجعون إلى أزواجهم وقد خفوا عليهم وخفين عليهم مما غشاهم من نوره ، فإذا رجعوا تراءى النور حتى يرجعوا إلى صورهم التى كانوا عليها ، فتقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ، فيقول ذلك لأن الله عز وجل تجلى لنا .

فنظرنا منه قال : وإنه والله ما أحاط به خلق ، ولكنه قد أراهم من عظمتهم وجلاله ما شاء أن يريهم قال : فبذلك قولهم فنظرنا منه قال : فهم سيقبلون في مسك الجنة ونعيمها في كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه . قال رسول الله - ﷺ - : ( فذلك قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ )<sup>(١)</sup>

ورواه أبو نعيم في « صفة الجنة » من حديث عصمة بن محمد ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن أبي صالح ، عن أنس شبيهاً به .

وذكر أبو نعيم في « صفة الجنة » من حديث المسعودى عن المنهال عن أبي عبيدة ، عن عبد الله قال : سارعوا إلى الجمعة في الدنيا فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة في كل جمعة على كثيب من كافور أبيض فيكونون منه سبحانه بالقرب على قدر سرعتهم إلى الجمعة ويحدث لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فيرجعون إلى أهلهم وقد أخذت لهم .

### فصل في مبدأ الجمعة

قال ابن اسحاق : حدثني محمد بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبي حين كفّ بصره فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبي أمامة أسعد بن زرارة فمكث حيناً على ذلك فقلت : إن هذا بى العجز ، ألا أسأله عن هذا ؟ فخرجت

به كما كنت أخرج فلما سمع الأذان للجمعة استغفر له فقلت : يا أبتاه أرايت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان يوم الجمعة قال : أى بنى : كان أسعد أول من جمع بنا بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ في هزم النبيت من حرة بنى بياضة في نقيع يقال له : نقيع الخضعات قلت : فكم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً<sup>(١)</sup> .

قال البيهقي ومحمد بن اسحاق إذا ذكر سماعه من الراوى وكان الراوى ثقة استقام الإسناد وهذا حديث حسن صحيح الإسناد انتهى<sup>(٢)</sup> .

قلت : وهذا كان مبدأ الجمعة ثم قدم رسول الله ﷺ - المدينة فأقام بقباء في بنى غمرو بن عوف كما قاله ابن اسحاق يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة في بنى سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذى في بطن الوادى ، وكانت أول جمعة صلاها بالمدينة وذلك قبل تأسيس مسجده .

قال ابن اسحاق : وكانت أول خطبه خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

( أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليضعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآيتنك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك فليظنن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته )<sup>(٣)</sup> .

قال ابن اسحاق : ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال : إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينته الله في قلبه وأدخله في الاسلام بعد الكفر فاختره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أجسن الحديث ، وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سمّا الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه عن العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر سيرة بن هشام ج٢ أول جمعة أقيمت

(٢) انظر سيرة ابن هشام ج٢

(٣) انظر سيرة بن هشام ج٢

(٤) السنن الكبرى للبيهقي ج٣ كتاب الجمعة

وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره ، وقد اختلف العلماء : هل هو أفضل أم يوم عرفه ؟ على قولين : هما وجهان لأصحاب الشافعي .

وكان ﷺ يقرأ في فجره بسورتي ﴿ ألم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة ويسمونها سجدة الجمعة وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحباب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة في فجر الجمعة دفعاً لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : إنما كان النبي ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها فإنها إشتملت على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصل قراءتها حيث اتفقت فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة

الخاصية الثانية : استحباب كثرة الصلاة على النبي ﷺ فيه وفي ليلته لقوله ﷺ « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة و ليلة الجمعة » (١) .

ورسول الله ﷺ سيد الأنام ويوم الجمعة سيد الأيام للصلاة عليه في هذا اليوم مزيه ليست لغيره مع حكمة أخرى وهي أن كل خير نالته أمته في الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده فجمع الله لأمته به بين خيري الدنيا والآخرة فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة ، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم في الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو يوم عيد لهم في الدنيا ، ويوم فيه يسعفهم الله بطلباتهم ، وحوائجهم ، ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده فمن شكره وحده وإداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه في هذا اليوم وليلته .

الخاصية الثالثة : صلاة الجمعة التي هي من آكد فروض الاسلام ومن أعظم مجامع المسلمين وهي أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة ، ومن تركها تهاونا بها طبع الله على قلبه ، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتكبيرهم .

الخاصية الرابعة : الأمر بالاعتسال في يومها وهو أمر مؤكد جداً ووجوبه أقوى من وجوب الوتر ، وقراءة البسملة في الصلاة ، ووجوب الوضوء من مس النساء ، ووجوب الوضوء من مس الذكر ، ووجوب الوضوء من القهقهة في الصلاة ، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة ، والقيء ، ووجوب الصلاة على النبي ﷺ في المشهد الأخير ، ووجوب القراءة على المأموم ، وللناس في وجوبه ثلاثة أقوال : النفي ، والاثبات ، والتفصيل بين من به راتحة يحتاج إلى ازالتها فيجب عليه ، ومن هو مستغن عنه فيستحب له والثلاثة لأصحاب أحمد .

الخاصية الخامسة : التطيب فيه وهو أفضل من التطيب في غيره من أيام الأسبوع .

الخاصية السادسة : السواك فيه وله مزية على السواك في غيره .

الخاصة السابعة : التبكير للصلاة .

الخاصة الثامنة : أن يشتغل بالصلاة ، والذكر ، والقراءة ، حتى يخرج الإمام .

الخاصة التاسعة : الانصات للخطبة إذا سمعها وجوباً في أصح القولين فإن تركه كان لاغياً ومن لغا فلا جمعة له وفي ( المسند ) مرفوعاً ( والذي يقول لصاحبه : أنصت فلا جمعة له .

الخاصة العاشرة : قراءة سورة الكهف في يومها فقد روى عن النبي ﷺ : « من قرأ سورة الكهف

يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء به يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين » (١) .

وذكره سعيد بن منصور من قول أبي سعيد الخدري وهو أشبه .

الحادية عشرة : أنه لا يكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعي رحمه الله ومن وافقه وهو

إختيار شيخنا أبي العباس بن تيمية ولم يكن اعتماده على حديث ليث عن مجاهد عن أبي الخليل عن أبي قتادة عن النبي ﷺ أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يستحب له أن يصلي حتى يخرج الإمام وفي الحديث الصحيح : ( لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى ) (١) رواه البخاري فندبه إلى الصلاة ما كتب له ولم يمنعه عنها إلا في وقت خروج الإمام ولهذا قال غير واحد من السلف منهم عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل : خروج الإمام يمنع الصلاة وخطبته تمنع الكلام فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام لا إنتصاف النهار .

وأيضاً فإن الناس يكونون في المسجد تحت السقوف ولا يشعرون بوقت الزوال والرجل يكون متشاعلاً بالصلاة لا يدري بوقت الزوال ولا يمكنه أن يخرج ويتخطى رقاب الناس وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك .

وحديث أبي قتادة هذا قال أبو داود : هو مرسل لأن أبا الخليل لم يسمع من أبي قتادة والمرسل إذا اتصل به عمل وعضده قياس أو قول صحابي أو كان مرسله معروفاً باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضي قوته عمل به .

وأيضاً فقد عضده شواهد أخر منها ما ذكره الشافعي في كتابه فقال : ( روى عن اسحاق بن عبد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة . هكذا رواه رحمه الله في كتاب ( اختلاف الحديث ) ورواه في ( كتاب الجمعة ) : حدثنا ابراهيم بن محمد عن اسحاق ورواه أبو خالد الأحمر عن شيخ من أهل المدينة يقال له : عبد الله بن سعيد المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ وقد رواه البيهقي في ( المعرفة ) من حديث عطاء بن عجلان عن أبي نضرة عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : كان النبي ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة ولكن اسناده فيه من لا يحتج به . قاله البيهقي قال : ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبي قتادة أحدثت بعض القوة .

قال الشافعي : من شأن الناس التهجير إلى الجمعة والصلاة إلى خروج الإمام قال البيهقي : الذي أشار إليه الشافعي موجود في الأحاديث الصحيحة وهو أن النبي ﷺ رغب في التبكير إلى الجمعة ، وفي الصلاة إلى خروج الإمام من غير استثناء ، وذلك يوافق هذه الأحاديث التي أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة ، وروينا الرخصة في ذلك عن عطاء وطاووس والحسن ومكحول .

قلت : اختلف الناس في كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال أحدها : أنه ليس وقت كراهة بحال وهو مذهب مالك .

الثاني : أنه وقت كراهة في يوم الجمعة وغيرها وهو مذهب أبي حنيفة والمشهور من مذهب أحمد .

والثالث : أنه وقت كراهة إلا يوم الجمعة فليس بوقت كراهة ، وهذا مذهب الشافعي .

الثانية عشرة : قراءة ( سورة الجمعة ) و ( المنافقين ) أو ( سبح والغاشية ) في صلاة الجمعة فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن في الجمعة ذكره مسلم في صحيحه .

وفيه أيضا : أنه ﷺ كان يقرأ فيها بـ ( الجمعة ) و ( هل أتاك حديث الغاشية ) ثبت عنه ذلك كله .

ولا يستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها أو يقرأ إحداها في الركعتين فإنه خلاف السنة وجهال الأئمة يداومون على ذلك .

الثالثة عشرة : أنه يوم عيد متكرر في الأسبوع وقد روى أبو عبد الله ابن ماجه في ( سننه ) من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم وأهبط فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفي الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئا إلا أعطاه ، ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا شجر الا وهن يشفقن من يوم الجمعة » (١) .

الرابعة عشرة : أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التي يقدر عليها فقد روى الامام أحمد في ( مسنده ) من حديث أبي أيوب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتي المسجد ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحدا ثم انصت إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينهما » (٢) .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر في يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته » وفي سنن ابن ماجه عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعة سوى ثوبي مهنته » .

(١) انظر الدر المنثور جده تفسير سورة الكهف

(٢) انظر سنن ابن ماجه

الخامسة عشرة : أنه يستحب تجمير المسجد في يوم الجمعة . فقد ذكر ابن ماجة في سننه عن وائلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجروها في الجمع »<sup>(١)</sup> .

السادسة عشرة : أنه لا يجوز السفر في يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها وأما قبله فللعلماء ثلاثة أقوال وهي : روايات منصوصات عن أحمد أحدها : لا يجوز ، والثاني يجوز ، والثالث يجوز لنجهاد خاصة .

وأما مذهب الشافعى - رحمه الله - فيحرم عنده انشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال ولهم في سفر الطاعة وجهان : أحدهما : تحريمه وهو اختيار النووى والثانى : جوازه وهو اختيار الرافعى وأما السفر قبل الزوال فللشافعى فيه قولان : القديم : جوازه ، والجديد : أنه كالسفر بعد الزوال .

وأما مذهب مالك فقال صاحب ( التفریع ) ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يصلى الجمعة ولا بأس أن يسافر قبل الزوال ، والاختيار : أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يصلى الجمعة .

وذهب أبو حنيفة إلى جواز السفر مطلقا وقد روى الدارقطنى في ( الأفراد ) من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « من سافر من دار اقامته يرم الجمعة دعت عليه الملائكة الا يصحب في سفره »<sup>(٢)</sup> وهو من حديث ابن لهيعة . وفى مسند الإمام أحمد من حديث الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فى سرية فوافق ذلك يوم الجمعة قال : فغدا أصحابه وقال : اتخلف وأصلى مع رسول الله ﷺ ثم أحقهم فلما صلى النبى ﷺ رآه فقال : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟

فقال : أردت أن أصلى معك ثم أحقهم فقال : « لو انفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم »<sup>(٣)</sup> .

وأعلّ هذا الحديث : بأن لم يسمع من مقسم .

هذا إذا لم يخف المسافر فوت رفقته فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم جاز له السفر مطلقاً لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة ، ولعل ما روى عن الأوزاعى أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته فقال : ليمض على سفره محمول على هذا وكذلك قول ابن عمر رضى الله عنه : الجمعة لا تحبس عن السفر وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً مسألة نزاع ، والدليل : هو الفاصل على أن عبد الرزاق قد روى فى ( مصنفه ) عن معمر عن خالد الحذاء عن ابن سيرين أو غيره أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعدما قضى الجمعة فقال : ما شأنك قال : أردت سفرأ فكرهت أن أخرج حتى أصلى فقال عمر : إن الجمعة لا تمنعك السفر ما لم يحضر وقتها فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال ولا يمنع منه قبله .

وذكره عبد الرزاق أيضاً عن الثورى عن الأسود بن قيس عن أبيه قال : أبصر عمر بن الخطاب رجلاً

عليه هيئة السفر وقال الرجل : إن اليوم يوم جمعة ولولا ذلك لخرجت فقال عمر : إن الجمعة لا تحبس مسافراً فأخرج ما لم يحن الرواح وذكره أيضاً عن الثوري عن ابن أبي ذئب عن صالح بن كثير عن الزهري قال : خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة . وذكر عن معمر قال : سألت يحيى بن أبي كثير : هل يخرج الرجل يوم الجمعة ؟ فكرهه فجعلت أحدثه بالرخصة فيه فقال لي : قلما يخرج رجل في يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه . لو نظرت في ذلك وجدته كذلك .

وذكر ابن المبارك عن الأوزاعي عن حسان بن أبي عطية قال : إذا سافر الرجل يوم الجمعة دعا عليه النهار أن لا يُعان على حاجته ولا يصاحب في سفره .

وذكر الأوزاعي عن ابن المسيب أنه قال : السفر يوم الجمعة بعد الصلاة قال ابن جريج : قلت لعطاء : أبلغك أنه كان يقال : إذا أمسى في قرية جامعة من ليلة الجمعة فلا يذهب حتى يجمع ؟ قال : إن ذلك ليكره قلت : فمن يوم الخميس ؟ قال : لا ، ذلك النهار فلا يضره .

السابعة عشر : إن للماش إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها قال عبد الرزاق : عن معمر عن يحيى بن أبي كثير عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « من غَسَلَ واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ودنا من الإمام فأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها وذلك على الله يسير »<sup>(١)</sup> رواه أحمد في مسنده . قال الإمام أحمد : غَسَلَ بالتشديد : جامع أهله وكذلك فسره .

الثامنة عشرة : أنه يوم تكفير السيئات فقد روى الإمام أحمد في ( مسنده ) عن سلمان قال : قال لي رسول الله ﷺ : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع الله فيه أباكم آدم قال : ( ولكني أدري ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كانت كفارة لما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة )<sup>(٢)</sup> .

وفي المسند أيضاً من حديث عطاء الخراساني عن نبیثة الهذلي أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له وإن وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعة وكلامه إن لم يغفر له في جمعة تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التي تليها »<sup>(٣)</sup> .

وفي صحيح البخاري عن سلمان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »<sup>(٤)</sup> .

وفي مسند أحمد من حديث أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم لبس ثيابه ومسّ طيباً إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة ولم يتخط أحداً ولم يؤذَ وركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين »<sup>(٥)</sup> .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج٤

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج٤

(١) مسند الامام أحمد ج٣ ، ج٤

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج٤

(٣) انظر صحيح البخاري ج٢



الخاصة التاسعة عشرة : أن جهنم تسجّر كل يوم إلا يوم الجمعة ؛ لأنه أفضل الأيام عند الله ، ويقع فيه من الطاعات والعبادات والدعوات والابتهاال إلى الله - سبحانه وتعالى - ما يمنع من تسجير جهنم فيه ، ولذلك تكون معاصي أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم في غيره ، حتى أن أهل الفجور ليمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه في يوم السبت وغيره .

العشرون : أن فيه ساعة الإجابة ، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئاً إلا أعطاه ففي ( الصحيحين ) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . وقال : بيده يقللها »<sup>(١)</sup>.

وفي المسند من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر عن النبي ﷺ قال : « سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله ، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحي ، وفيه خمس خصال : خلق الله فيه آدم ، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفي الله - عز وجل - آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا أرض ولا رياح ولا بحر ولا جبال ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »<sup>(٢)</sup>.

وقد اختلف الناس في هذه الساعة : هل هي باقية أو قد رفعت ؟ على قولين حكاهما ابن عبد البر وغيره ، والذين قالوا : هي باقية ولم ترفع اختلفوا : هل هي في وقت من اليوم بعينه ؟ أم هي غير معينة ؟ على قولين ، ثم اختلف من قال بعدم تعيينها : هل هي تنتقل في ساعات اليوم أو لا ؟ على قولين أيضاً ، والذين قالوا بتعيينها اختلفوا على أحد عشر قولاً ، قال ابن المنذر : روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : هي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس .

الثاني : أنها عند الزوال ، ذكره ابن المنذر عن الحسن البصري وأبي العالية .

الثالث : أنها إذا أذن المؤذن بصلاة الجمعة ، قال ابن المنذر : روي ذلك عن عائشة - رضي الله عنها - .

الرابع : أنها إذا جلس الإمام على المنبر يخطب حتى يفرغ ، قال ابن المنذر : رويته عن الحسن البصري .

الخامس : قاله أبو بردة : هي الساعة التي اختار الله وقتها للصلاة .

السادس : قاله أبو السوار العدوي وقال : كانوا يرون أن الدعاء مستجاب ما بين زوال الشمس إلى أن تدخل الصلاة .

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الجمعة ) باب في الساعة التي في يوم الجمعة ح ١ ص ١٦٦ رقم ٤٩٥

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ( زيادة في حديث أبي لبابة بن عبد المنذر البدرى - رضي الله عنه ) ح ٣ ص ٤٣٠

السابع : قاله أبو ذر : إنها ما بين أن ترتفع الشمس شبراً إلى ذراع .  
الثامن : أنها ما بين العصر إلى غروب الشمس قاله أبو هريرة وعطاء وعبد الله بن سلام وطاووس  
حكى ذلك كله ابن المنذر .

التاسع : أنها آخر ساعة بعد العصر وهو قول أحمد وجمهور الصحابة والتابعين .

العاشر : أنها من حين خروج الإمام إلى فراغ الصلاة ، حكاه النووي وغيره .

الحادي عشر : أنها الساعة الثالثة من النهار ، حكاه صاحب ( المغني ) فيه ، وقال ( كعب ) : لو  
قسم الإنسان جمعة في جمع أتى على تلك الساعة وقال عمر : إن طلب حاجة في يوم ليسير .

وأرجح هذه الأقوال : قولان تضمنتهما الأحاديث الثابتة ، وأحدهما أرجح من الآخر :

الأول : أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة ، وحجة هذا القول ما روى مسلم في  
( صحيحه ) من حديث أبي بردة بن أبي موسى أن عبد الله بن عمر قال له : أسمعت أبأك يحدث عن  
رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة شيئاً ؟ قال : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول :  
« هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »<sup>(١)</sup> .

وروى ابن ماجه والترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني عن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة  
ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه » قالوا : يا رسول الله أية ساعة هي ؟ قال : « حين  
تقام الصلاة إلى الانصراف منها »<sup>(٢)</sup> .

والقول الثاني : أنها بعد العصر ، وهذا أرجح القولين ، وهو قول عبد الله بن سلام وأبي هريرة  
والإمام أحمد وخلق ، وحجة هذا القول ما رواه أحمد في ( مسنده ) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة  
أن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه وهي  
بعد العصر »<sup>(٣)</sup> .

وروى أبو داود والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « يوم الجمعة اثنا عشر ساعة ، فيها ساعة  
لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه ، فاتمسوها آخر ساعة بعد العصر »<sup>(٤)</sup> .

وروى سعيد بن منصور في ( سننه ) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن ناساً من أصحاب رسول الله  
ﷺ اجتمعوا فتذكروا الساعة التي في يوم الجمعة فتفرقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الجمعة ) ح ٦ ص ١٤٠

(٢) أنظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) باب ماجاء في الساعة التي ترجى في الجمعة ح ١ ص ٣٦٠ رقم ١١٣٨  
ورواه الترمذي في سننه في ( أبواب الصلاة ) ح ٢ ص ٣٦١ رقم ٤٩٠ وقال : حديث عمرو بن عوف حديث حسن  
غريب .

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ( مسند أبي هريرة — رضي الله عنه ) ح ٢ ص ٢٧٢

(٤) أنظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب الإجابة أية ساعة هي في يوم الجمعة ح ١ ص ٢٧٥ رقم ١٠٤٨ ورواه النسائي في

سننه في ( كتاب الجمعة ) باب وقت الجمعة ح ٣ ص ٩٩ ، ١٠٠

وفي سنن ابن ماجه : عن عبد الله بن سلام قال : قلت - ورسول الله ﷺ جالس - : إنا لنجد في كتاب الله ( يعني التوراة ) في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله - عز وجل - شيئاً إلا قضى الله له حاجته . قال عبد الله : فأشار إليّ رسول الله ﷺ أو بعض ساعة . قلت : صدقت يا رسول الله ، أو بعض ساعة . قلت : أي ساعة هي ؟ قال : « هي آخر ساعة من ساعات النهار » قلت : إنها ليست ساعة صلاة . قال : بلى إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لا يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة<sup>(١)</sup>.

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة قال : قيل للنبي ﷺ : لأي شيء سُمّي يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيها طبت طينة أهلك آدم ، وفيها الصعقة ، والبُعْثَةُ ، وفيها البطشة ، وفي آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له »<sup>(٢)</sup>.

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مُصَيَّخة يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله - عز وجل - حاجة إلا أعطاه إياها » قال كعب : ذلك في كل سنة يوم ؟ فقلت : بل في كل جمعة . قال : فقرأ كعب التوراة فقال : صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب ، فقال عبد الله بن سلام : وقد علمت أية ساعة هي . قال أبو هريرة : فقلت : أخبرني بها ، فقال عبد الله بن سلام : هي آخر ساعة من يوم الجمعة . فقلت : كيف هي آخر ساعة من يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي » وتلك الساعة لا يصلي فيها ؟ فقال عبد الله بن سلام : ألم يقل رسول الله ﷺ : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي » ؟ قال : فقلت : بلى . فقال : هو ذاك قال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي ( الصحيحين ) بعضه<sup>(٣)</sup>.

وأما من قال : إنها من حين يفتح الإمام الخطبة إلى فراغه من الصلاة فاحتج بما رواه مسلم في ( صحيحه ) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال : قال عبد الله بن عمر : سمعت أباك يحدث عن

(١) سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) باب ما جاء في الساعة التي ترجى في الجمعة ح ١ ص ٣٦٠ ، ٣٦١ رقم

١١٣٩

(٢) مسند أحمد ( مسند أبي هريرة ) ح ٢ ص ٣١١

(٣) الحديث في سنن أبي داود في ( كتاب الصلاة ) باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ح ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ رقم ١٠٤٦

ورواه الترمذي بنحوه في سننه في ( أبواب الصلاة ) باب ما جاء في الساعة التي ترجى في يوم الجمعة ح ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ رقم ٤٩١ ثم قال : وفي الحديث قصة طويلة ، وهذا حديث حسن صحيح .

ورواه النسائي في سننه بقصته كاملة في ( كتاب الجمعة ) باب الساعة التي يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة ح ٢ ،

ص ١١٤ ، ١١٥

رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة ؟ قال : قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الإمام الصلاة »<sup>(١)</sup>.

وأما من قال : هي ساعة الصلاة فاحتج بما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه » قالوا : يارسول الله ! أية ساعة هي ؟ قال : « حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »<sup>(٢)</sup> ولكن هذا الحديث ضعيف ، قال أبو عمر بن عبد البر : هو حديث لم يروه فيما علمت إلا كثير من عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده ، وليس هو ممن يحتج بحديثه ، وقد روى روح بن عبادة عن عوف عن معاوية بن قرة عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال لعبد الله ابن عمر : هي الساعة التي يخرج فيها الإمام إلى أن تقضي الصلاة فقال ابن عمر : أصاب الله بك .

وروى عبد الرحمن بن حجية عن أبي ذر أن امرأته سألته عن الساعة التي يستجاب فيها يوم الجمعة للعبد المؤمن فقال لها : هي مع رفع الشمس بيسير فإن سألتني بعدها فأنت طالق .

واحتج هؤلاء أيضاً بقوله في حديث أبي هريرة ( وهو قائم يصلي ) وبعد العصر لا صلاة في ذلك الوقت ، والأخذ بظاهر الحديث أولى . قال أبو عمر : يحتج أيضاً من ذهب إلى هذا بحديث علي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا زالت الشمس وفاءت الأفياء وراحت الأرواح فاطلبوا إلى الله حوائجكم ؛ فإنها ساعة الأوابين . ثم تلا « فإنه كان للأوابين غفوراً »<sup>(٣)</sup>.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : الساعة التي تذكر يوم الجمعة : ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وكان سعيد ابن جبير إذا صلى العصر لم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس ، وهذا هو قول أكثر السلف ، وعليه أكثر الأحاديث ، ويليهِ القول : بأنها ساعة الصلاة ، وبقية الأقوال لا دليل عليها .

وعندي أن ساعة الصلاة ساعة ترجى فيها الإجابة أيضاً ، فكلاهما ساعة إجابة ، وإن كانت الساعة المخصوصة هي آخر ساعة بعد العصر فهي ساعة معينة من اليوم لا تتقدم ولا تتأخر ، وأما ساعة الصلاة فتابعة للصلاة تقدمت أو تأخرت ؛ لأن اجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرعهم وابتهاهم إلى الله - تعالى - تأثيراً في الإجابة ، فساعة اجتماعهم ساعة ترجى فيها الإجابة ، وعلى هذا تتفق الأحاديث كلها ، ويكون النبي ﷺ قد حض أمته على الدعاء والابتها إلى الله - تعالى - في هاتين الساعتين ، ونظير هذا قوله ﷺ وقد سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : « هو مسجدكم هذا »<sup>(٤)</sup>.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الجمعة ) ح ٦ ص ١٤٠ ( وقد سبق تخريجه )

(٢) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذي رقم ٤٩٠ ( وقد سبق تخريجه )

(٣) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذي رقم ٤٩٠ ( وقد سبق تخريجه )

(٤) رواه السيوطي في الجامع الكبير وعزاه إلى البيهقي في شعب الإيمان عن علي - رضي الله عنه - والآية هي رقم ٢٥ من سورة الإسراء .

(٥) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الحج ) باب فضل المساجد الثلاثة ح ٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩

وأشار إلى مسجد المدينة . وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قباء الذي نزلت فيه الآية مؤسساً على التقوى بل كل منهما مؤسس على التقوى .

وكذلك قوله في ساعة الجمعة : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تنقضي الصلاة » لا ينافي قوله في الحديث الآخر : « فاتمسوها آخر ساعة بعد العصر » .

ويشبه هذا في الأسماء قوله ﷺ : « ما تعدون الرقوب فيكم قالوا : من لم يولد له . قال : « الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً »<sup>(١)</sup> فأخبر أن هذا هو الرقوب إذا لم يحصل له من ولده من الأجر ما حصل لمن قدم منهم فرطاً ، وهذا لا ينافي أن يسمى من لم يولد له رقوباً .

ومثله قوله ﷺ : « ما تعدون المفلس فيكم ؟ » قالوا : من لا درهم له ولا متاع . قال : « المفلس من يأتي يوم القيامة بمحسنت أمثال الجبال ويأتي وقد لطم هذا ، وضرب هذا ، وسفك دم هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته » الحديث<sup>(٢)</sup> .

ومثله قوله ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمررة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يتفطن له فيتصدق عليه »<sup>(٣)</sup> .

وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر يعظمها جميع أهل الملل ، وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة ، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه وقد اعترف به مؤمنهم .

وأما من قال بتقلها في أيام الجمع بذلك بين الأحاديث ، كما قيل ذلك في ليلة القدر ، وهذا ليس بقوي ، فإن ليلة القدر قد قال فيها النبي ﷺ : « فاتمسوها في خامسة تبقى ، في سابعة تبقى في تاسعة تبقى »<sup>(٤)</sup> .

ولم يجيء مثل ذلك في ساعة الجمعة .

وأيضاً فالأحاديث التي في ليلة القدر ليس فيها حديث صريح بأنها ليلة كذا وكذا بخلاف أحاديث ساعة الجمعة فظهر الفرق بينهما .

وأما قول من قال : إنها رفعت فهو نظير قول من قال : إن ليلة القدر رفعت ، وهذا القائل إن أراد أنها كانت معلومة فرفع علمها عن الأمة فيقال له : لم يرفع علمها عن كل الأمة وإن رفع عن بعضهم ،

(١) رواه مسلم في صحيحه ( مسلم بشرح النووي ) في ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ح ١٦ ص ١٦١ عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه : « ماتعدون الرقوب قديم ؟ » قال : قلنا : الذي لا يولد له . قال « ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً » قال : « فما تعدون الصرعة فيكم ؟ » قال : قلنا : الذي لا يصصره الرجال . قال : « ليس بذلك ، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب »

(٢) رواه أحمد ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ ، ٣٧١

(٣) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الزكاة ) باب : المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفتن له فيتصدق عليه ح ١ ص ٢١٩ رقم ٦١٦ والحديث من رواية أبي هريرة — رضى الله عنه .

(٤) رواه البخاري في صحيحه بمحاشية السندی ح ١ ص ٣٤٤ في ( كتاب الصيام ) بابه تحرى ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، إلا أنه قال : « في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى » من رواية عباس رضى الله عنهما .

وإن أراد أن حقيقتها وكونها ساعة إجابة رفعت فقول باطل مخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة ، فلا يعول عليه والله أعلم .

**الحادية والعشرون :** أن فيه صلاة الجمعة التي خصت من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا توجد في غيرها : من الاجتماع ، والعدد المخصوص ، واشتراط الإقامة والاستيطان ، والجهر بالقراءة ، وقد جاء من التشديد فيها ما لم يأت نظيره إلا في صلاة العصر ففي السنن الأربعة من حديث أبي الجعد الضمري - وكانت له صحبة - أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه »<sup>(١)</sup> قال الترمذي : حديث حسن ، وسألت محمد بن إسماعيل عن اسم أبي الجعد الضمري فقال : لم يعرف اسمه وقال : لا أعرف له عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث .

وقد جاء في السنن عن النبي ﷺ : « الأمر لمن تركها أن يتصدق بدينار ، فإن لم يجد فنصف دينار » رواه أبو داود والنسائي من رواية قدامة بن وبرة عن سمرة بن جندب ، ولكن قال أحمد : قدامة بن وبرة لا يعرف . وقال يحيى بن معين : ثقة . وحكى عن البخاري أنه لا يصح سماعه من سمرة<sup>(٢)</sup> .

وأجمع المسلمون على أن الجمعة فرض عين إلا قولاً يحكى عن الشافعي أنها فرض كفاية ، وهذا غلط عليه ؛ منشؤه أنه قال : وأما صلاة العيد فتجب على كل من تجب عليه صلاة الجمعة ، فظن هذا القائل أن صلاة العيد لما كانت فرض كفاية كانت الجمعة كذلك ، وهذا فاسد ، هذا نص من الشافعي أن العيد واجب على الجميع ، فإن فرض الكفاية يجب على الجميع كفرض الأعيان سواء ، وإنما يختلفان بسقوطه عن البعض بعد وجوبه بفعل الآخرين .

**الثانية والعشرون :** ان فيه الخطبة التي يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة ، وتذكير العباد بأيامه وتحذيرهم من بأسه ونقمته ، ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جناته ، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره ، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها .

**الثالثة والعشرون :** أنه اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله - سبحانه - جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة

(١) انظر سنن أبي داود ح ١ ص ٢٧٦ ( باب التشديد في ترك الجمعة ) رقم ١٠٥٢

وأنظر سنن الترمذي ح ٢ ص ٣٧٣ ( باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر ) رقم ٥٠٠ وقال أبو عيسى : حديث أبي الجعد حديث حسن .

ورواه النسائي في سننه ح ٣ ص ٨٨ ( باب التشديد في التخلف عن الجمعة )

وكذلك رواه ابن ماجه ح ١ ص ٣٥٧ ( باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر ) رقم ١١٢٥

(٢) سنن أبي داود ح ١ ص ٢٧٧ رقم ١٠٥٣ وقال : أبو داود : وهكذا رواه خالد بن قيس وخالفه في الإسناد ووافقه في المتن .

وأنظر سنن النسائي ( باب كفارة من ترك الجمعة من غير عذر ) ح ٣ ص ٨٩ .

ورواه ابن ماجه ح ١ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ رقم ١١٢٨ .

ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان ؛ ولهذا من صبح له يوم جمعة وسلم سلمت له سائر جمعة ، ومن صبح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له صبح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر . وبالله التوفيق .

**الرابعة والعشرون :** أنه لما كان في الأسبوع كالعيد في العام وكان العيد مشتملاً على صلاة وقربان ، وكان يوم الجمعة يوم صلاة جعل الله - سبحانه - التعجيل فيه إلى المسجد بدلاً من القربان وقائماً مقامه ، فيجتمع للرائح فيه إلى المسجد للصلاة ، والقربان ، كما في « الصحيحين » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من راح في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنه ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن »<sup>(١)</sup>.

وقد اختلف الفقهاء في هذه الساعة على قولين :

**أحدهما :** أنها من أول النهار وهذا هو المعروف في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما .

**والثاني :** أنها أجزاء من الساعة السادسة بعد الزوال ، وها هو المعروف في مذهب مالك ، واختاره بعض الشافعية ، واحتجوا عليه بحجتين :

**إحدهما :** أن الرواح لا يكون إلا بعد الزوال ، وهو مقابل الغدو الذي لا يكون إلا قبل الزوال ، قال - تعالى - : ﴿ غَدُوها شهر ورواحها شهر ﴾<sup>(٢)</sup>. قال الجوهري : ولا يكون إلا بعد الزوال .

**الحجة الثانية :** أن السلف كانوا أحرص شيء على الخير ، ولم يكونوا يغدون إلى الجمعة من وقت طلوع الشمس ، وأنكر مالك التذكير إليها في أول النهار ، وقال : لم ندرك عليه أهل المدينة .

واحتج أصحاب القول الأول بحديث جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة »<sup>(٣)</sup>.

قالوا والساعات المعهودة هي الساعات التي هي ثنتا عشرة ساعة ، وهي نوعان : ساعات تعديلية ، وساعات زمانية ، قالوا : ويدل على هذا القول أن النبي ﷺ إنما بلغ بالساعات إلى ست ، ولم يزد عليها ولو كانت الساعة أجزاء صغراً من الساعة التي تفعل فيها الجمعة لم تنحصر في ستة أجزاء ، بخلاف ما إذا كان المراد بها الساعات المعهودة فإن الساعة السادسة متى خرجت ودخلت السابعة خرج الإمام ، وطويت الصحف ، ولم يكتب لأحد قربان بعد ذلك ، كما جاء مصرحاً به في

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان ج ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٣ فقد روى الحديث بأطول من هذا ، وأوله : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فطأها قرب بدنه ... الحديث »

ورواه الترمذي في سننه ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ٤٩٩

(٢) من الآية : ١٢ من سورة سبأ

(٣) أنظر سنن النسائي ( باب وقت الجمعة ) ج ٣ ص ٩٩ وهذا جزء من الحديث .

سنن أبي داود من حديث علي - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين برأياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترايث أو الرباث ، ويثبطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة ، فتجلس على أبواب المساجد فيكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين حتى يخرج الإمام » (١).

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف أهل العلم في تلك الساعات ، فقالت طائفة منهم : أراد الساعات من طلوع الشمس وصفائها ، والأفضل عندهم التبكير في ذلك الوقت إلى الجمعة وهو قول الثوري ، وأبي حنيفة والشافعي وأكثر العلماء ، بل كلهم يستحب البكور إليها .

قال الشافعي - رحمه الله - : ولو بكر إليها بعد الفجر وقبل طلوع الشمس كان حسناً ، وذكر الأثرم ، قال : قيل لأحمد بن حنبل : كان مالك بن أنس يقول : لا ينبغي التهجير يوم الجمعة باكراً ، فقال : هذا خلاف حديث النبي ﷺ وقال : سبحان الله !! إلى أي شيء ذهب في هذا والنبي ﷺ يقول : « كالمهذي جزوراً » . قال : وأما مالك فذكر يحيى بن عمر عن حرمة أنه سأل ابن وهب عن تفسير هذه الساعات : أهو الغدو من أول ساعات النهار ، أو إنما أراد بهذا القول ساعات الرواح ؟ فقال ابن وهب : سألت مالكا عن هذا ، فقال : أما الذي يقع بقلبي ، فإنه إنما أراد ساعة واحدة تكون فيها هذه الساعات من راح من أول تلك الساعة أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة أو السادسة ولو لم يكن كذلك ، ما صليت الجمعة حتى يكون النهار تسع ساعات في وقت العصر أو قريباً من ذلك ، وكان ابن حبيب ينكر قول مالك هذا ، ويميل إلى القول الأول ، وقال : قول مالك هذا تحريف في تأويل الحديث ومحال من وجوه .

وقال : يدل ذلك أنه لا يجوز ساعات في ساعة واحدة : أن الشمس إنما تزول في الساعة السادسة من النهار ، وهو وقت الأذان وخروج الإمام إلى الخطبة ، فدل ذلك على أن الساعات في هذا الحديث هي ساعات النهار المعروفة ، فبدأ بأول ساعات النهار فقال : من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ثم قال : في الساعة الخامسة بيضة ثم انقطع التهجير وحان وقت الأذان فشرح الحديث بين في لفظه ، ولكنه حرف عن موضعه ، وشرح بالخلف من القول ومالا يكون ، وزهد شارحه الناس فيما رغبتهم فيه رسول الله ﷺ من التهجير من أول النهار ، وزعم أن ذلك كله إنما يجتمع في ساعة واحدة قرب زوال الشمس ، قال : وقد جاءت الآثار بالتهجير إلى الجمعة في أول النهار . هذا كله قول عبد الملك بن حبيب ، ثم رد عليه أبو عمر ، وقال : هذا تحامل منه على مالك - رحمه الله تعالى - فهو الذي قال القول الذي أنكره وجعله خلقاً وتحريفاً من التأويل ، والذي قاله مالك تشهد له الآثار الصحاح من رواية الأئمة ، ويشهد له أيضاً العمل بالمدينة عنده ، وهذا مما يصح فيه الاحتجاج بالعمل ، لأنه أمر يتردد كل جمعة لا يخفى على عامة العلماء .

فمن الآثار التي يحتج بها مالك ، ما رواه الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي



ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة ، قام على كل باب من أبواب المسجد ملائكة ، يكتبون الناس الأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة ، ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً ، حتى ذكر الدجاجة والبيضة ، فإذا جلس الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة » (١) قال : ألا ترى إلى ما في هذا الحديث ؟ فإنه قال : يكتبون الناس الأول فالأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه فجعل الأول مهجراً وهذه اللفظة إنما هي مأخوذة من الهجرة والتهجير ، وذلك وقت النهوض إلى الجمعة ، وليس ذلك وقت طلوع الشمس ؛ لأن ذلك الوقت ليس بهجرة ولا تهجير ، وفي الحديث : « تم الذي يليه تم الذي يليه » ولم يذكر الساعة . قال : والطرف بهذا اللفظ كثيرة مذكورة في « التمهيد » وفي بعضها « المتعجل إلى الجمعة كالمهدي بدنه » وفي أكثرها « المهجر كالمهدي جزوراً » الحديث . وفي بعضها ما يدل على أنه جعل الرائح إلى الجمعة في أول الساعة كالمهدي بدنه ، وفي آخرها كذلك ، وفي أول الساعة الثانية كالمهدي بقرة ، وفي آخرها كذلك . وقال بعض أصحاب الشافعي : لم يرد ﷺ بقوله : « المهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه » الناهض إليها في التهجير والهجرة ، وإنما أراد التارك لأشغاله وأعماله من أغراض أهل الدنيا للنهوض إلى الجمعة ، كالمهدي بدنه ، وذلك مأخوذ من الهجرة وهو ترك الوطن والنهوض إلى غيره ، ومنه سمي المهاجرون ، وقال الشافعي - رحمه الله - : أحب التبكير إلى الجمعة ولا تؤتى إلا مشياً . هذا كله كلام أبي عمر . قلت : ومدار إنكار التبكير أول النهار على ثلاثة أمور : أحدها : على لفظة الرواح وأنها لا تكون إلا بعد الزوال ، والثاني : لفظة التهجير ، وهي إنما تكون بالهجرة وقت شدة الحر ، والثالث : عمل أهل المدينة ، فإنهم لم يكونوا يأتون من أول النهار .

فأما لفظة الرواح : فلا ريب أنها تطلق على المضي بعد الزوال وهذا إنما يكون في الأكثر إذا قرئت بالغدو كقوله - تعالى - : ﴿ غَدَوْهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ ﴾ [ سبأ : ١٢ ] وقوله ﷺ : « من غدا إلى المسجد وراح ، أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح » (٢) وقول الشاعر :

نروح ونغدو لحاجتنا  
وحاجة من عاش لا تنقضي

وقد يطلق الرواح بمعنى الذهاب والمضي ، وهذا إنما يجيء إذا كانت مجزدة عن الاقتران بالغدو . وقال الأزهري في « التهذيب » : سمعت بعض العرب يستعمل الرواح في السير في كل وقت ، يقال : راح القوم : إذا ساروا ، وغدوا كذلك ، ويقول أحدهم لصاحبه : تروح ، ويخاطب أصحابه فيقول : روحوا ، أي : سيروا ، ويقول الآخر : ألا تروحون ؟ ومن ذلك ما جاء في الأخبار الصحيحة الثابتة . وهو بمعنى المضي إلى الجمعة والخفة إليها ، لا بمعنى الرواح بالعشي .

(١) الحديث رواه ابن ماجه في سننه ( باب ما جاء في التهجير إلى الجمعة ) ح ١ ص ٣٤٧ رقم ١٠٩٢ . وقال : في الزوائد : إسناد صحيح .

أنظر سنن النسائي ( باب التبكير إلى الجمعة ) ح ٣ ص ٩٨

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان ح ١ ص ١٣٢ رقم ٣٩٠ فقد رواه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - في ( باب المشي إلى الصلاة ) تحمى به الخطايا وترفع به الدرجات

وأما لفظ التهجير فمن الهجير ، والهجرة ، قال الجوهرى : هي نصف النهار عند اشتداد الحر ، تقول منه : هجر النهار ، قال امرؤ القيس :

فدعها وسلّ الهمّ عنها بحسرة ذمول إذا صام النهار وهجّروا

ويقال : أتينا أهلنا مهجرين ، أي في وقت الهجرة والتهجير ، والتهجر : السير في الهجرة ، فهذا ما يقرر به قول أهل المدينة .

قال الآخرون : الكلام في لفظ التهجير كالكلام في لفظ الرواح فإنه يطلق ويراد به التبكير . قال الأزهرى في « التهذيب » : روى مالك ، عن سلمى ، عن أبي صالح عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »<sup>(١)</sup>.

وفي حديث آخر مرفوع : « المهجّر إلى الجمعة كاللهدي بدنه »<sup>(٢)</sup> قال : ويذهب كثير من الناس إلى أن التهجير في هذه الأحاديث تفعيل من الهجرة : وقت الزوال ، وهو غلط ، والصواب فيه ما روى أبو داود المصاحفى عن النقد به شميل ، أنه قال : التهجير إلى الجمعة وغيرها : التبكير والمبادرة إلى كل شيء ، قال : سمعت الخليل يقول ذلك ، قاله في تفسير هذا الحديث .

قال الأزهرى : وهذا صحيح وهي لغة أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس ، قال ليلى :

راح القطين بهجر بعد ما ابتكروا فما تواصله سلمى وما تذر

فقرن الهجر بالابتكار ، والرواح عندهم : الذهاب والمضي ، يقال : راح القوم : إذا خفوا ومروا أي وقت كان . وقوله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »<sup>(٣)</sup> أراد به التبكير إلى جميع الصلوات ، وهو المضي إليها في أول أوقاتها .

قال الأزهرى : وسائر العرب يقولون : هجر الرجل : إذا خرج بالهجرة ، قال : وهي نصف النهار .

ثم قال الأزهرى : أنشدني المنذرى فيما روى لثعلب ، عن ابن الأعرابي في « نوادره » ، قال : قال جفنة بن جواس الرّبيعي في ناقته :

هل تذكرين قسمي فتدري أزمان أنت بعروض الجفر  
إذ أنت مضراً جواد الحضر عليّ إن لم تنهضي بوقري  
بأعين قدرت بقدر بالخالدي لا بصاع حجر

(١) هذا جزء حديث في اللؤلؤ والمرجان من رواية أبي هريرة - رضى الله عنه - في ( كتاب الصلاة ) باب : تسوية الصفوف وإقامتها

ح ١ ص ٩٠ رقم ٢٥١ ولفظه : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو

يعلمون ما في التهجير ... » الحديث

(٢) أنظر سنن النسائي ( باب التبكير إلى الجمعة ) ح ٣ ص ٩٨

(٣) سبق تخريجه .

وتصحبني أيا نقأ في سفر يهجرون بهجير الفجر  
ثمت تمشي ليلهم فتسري يطوون أعراض الفجاج الغير  
طبي أخي التجر برود التجر

قال الأزهري : يهجرون بهجير الفجر ، أي : ييكونون بوقت السحر . وأما كون أهل المدينة لم يكونوا يروحون إلى الجمعة أول النهار ، فهذا غاية عملهم في زمان مالك - رحمه الله - وهذا ليس بحجة ولها عند من يقول : إجماع أهل المدينة حجة ؛ فإن هذا ليس فيه إلا ترك الرواح إلى الجمعة من أول النهار ، وهذا جائز بالضرورة . وقد يكون اشتغال الرجل بمصالحه ومصالح أهله ومعاشه وغير ذلك من أمور دينه ودنياه أفضل من رواحه إلى الجمعة من أول النهار ، ولا ريب أن انتظار الصلاة بعد الصلاة وجلس الرجل في مصلاه حتى يصل الصلاة الأخرى أفضل من ذهابه وعوده في وقت آخر للثانية . كما قال عليه السلام : « والذي ينتظر الصلاة ، ثم يصلها مع الإمام أفضل من الذي يصلي ثم يروح إلى أهله » وأخبر « أن الملائكة لم تزل تصلي عليه مادام في مصلاه » وأخبر « أن انتظار الصلاة بعد الصلاة مما يحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات وأنه الرباط » . وأخبر « أن الله يباهي ملائكته بمن قضى فريضة وجلس ينتظر أخرى »<sup>(١)</sup>.

وهذا يدل على أن من صلى الصبح ثم جلس ينتظر الجمعة فهو أفضل ممن يذهب ثم يجيء في وقتها ؛ وكون أهل المدينة وغيرهم لا يفعلون ذلك لا يدل على أنه مكروه . فهكذا المجيء إليها والتبكير في أول النهار والله أعلم .

**الخامسة والعشرون :** أن للصدقة فيه مزية عليها في سائر الأيام ، والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع ؛ كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور . وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره ، فيتصدق به في طريقه سراً ، وسمعتة يقول : إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالصدقة بين يدي مناجاته - تعالى - أفضل وأولى بالفضيلة ، وقال أحمد بن زهير بن حرب : حدثنا أبي حدثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فقال أبو هريرة : إن في الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم في صلاة يسأل الله - عز وجل - شيئاً إلا آتاه إياه ، فقال كعب : أنا أحدثكم عن يوم الجمعة : إنه إذا كان يوم الجمعة فزعت له السموات والأرض ، والبر والبحر والجبال والشجر والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين ، وحفت الملائكة بأبواب المسجد

(١) أنظر أحاديث انتظار الصلاة في اللؤلؤ والمرجان ( باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة ) ح ١ ص ١٣١ رقم ٣٨٧ من رواية أبي هريرة .

وأنظر سنن أبي داود ( باب فضل القعود في المسجد ) ح ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ أرقام ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ وفي سنن الترمذي ( باب ماجاء في القعود في المسجد وانتظار الصلاة من الفضل ) ح ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ رقم ٣٣٠ وفي سنن النسائي ح ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ وفي سنن ابن ماجه ( باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة ) ح ١ ص ٢٦٢ أرقام ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١

فيكتبون من جاء الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ممن جاء بعد ، جاء لحق الله ، لما كتب عليه ، وحق على كل حالم أن يغتسل يومئذ كإغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أعظم من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على مثل يوم الجمعة . فقال ابن عباس : هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى إن كان لأهله طيب يمس منه .

**السادسة والعشرون :** أنه يوم يتجلى الله - عز وجل - فيه لأوليائه المؤمنين في الجنة وزيارتهم له فيكون أقربهم منه أقربهم من الإمام وأسبقهم إلى الزيارة أسبقهم إلى الجمعة ، وروى يحيى بن يمان عن شريك عن أبي اليقظان عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، في قوله - عز وجل - : ﴿ ولدينا مزيد ﴾ <sup>(١)</sup> قال : « يتجلى لهم في كل جمعة » .

وذكر الطبراني في « معجمه » من حديث أبي نعيم السعدي ، عن المنهال ابن عمرو عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة ، فإن الله - عز وجل - يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كتيب من كافور فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة ، فيحدث الله - سبحانه - لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، ثم يرجعون إلى أهلهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد ، فإذا برجلين ، فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن يشأ الله يبارك في الثالث .

وذكر البيهقي في « الشعب » عن علقمة بن قيس قال : رُحْتُ مع عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إلى جمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد . ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قذر رواحهم إلى الجمعة الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع » . ثم قال : « وما رابع أربعة ببعيد » <sup>(٢)</sup> .

قال الدارقطني في كتاب « الرؤية » :

حدثنا أحمد بن سلمان بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن محمد ، حدثنا مروان بن جعفر ، حدثنا نافع أبو الحسن مولى بني هاشم ، حدثنا عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم ، فأحدثهم عهداً بالنظر إليه من بكر في كل جمعة ، وتراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر » .

حدثنا محمد بن نوح ، حدثنا محمد بن موسى بن سفيان السكري ، حدثنا عبد الله بن الجهم الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن أبي طيبة عن عاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « أتاني جبريل وفي يده كالمراة البيضاء فيها كالنكتة السوداء فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها الله عليك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، قلت : ومالنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير أنت فيها الأول ، واليهود والنصارى من

(١) من الآية : ٣٥ من سورة ق

(٢) . أنظر سنن ابن ماجه ( باب ماجاء في التهجير إلى الجمعة ) ح ١ ص ٣٤٨ رقم ١٠٩٤

بعذك ، ولك فيها ساعة لا يسأل الله - عز وجل - عبد فيها شيئاً هو له قسمٌ إلا أعطاه ، أو ليس له قسم إلا أعطاه أفضل منه ، وأعاده الله من شر ما هو مكتوب عليه ، وإلا دفع عنه ما هو أعظم من ذلك قال : قلت : وما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هي الساعة تقوم يوم الجمعة وهو عندنا سيد الأيام ويدعوه أهل الآخرة يوم المزيد .

قال : قلت : يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال : ذلك أن ربك - عز وجل - اتخذ في الجنة وادياً أقيم من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حُف الكرسي بمنابر من نور ، فيجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم حُف المنابر بمنابر من ذهب فيجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها ، ويجيء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكُثْب قال : ثم يتجلى لهم ربهم - عز وجل - قال : فينظرون إليه ، فيقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي فسألوني فيسألونه الرضا . قال : رضاي أنزلكم داري وأنا لكم كرامتي ، فسألوني الرضا ، قال فيشهد لهم بالرضا ثم يسألونه حتى تنتهي رغبتهم ، ثم يفتح لهم عند ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال : ثم يرتفع رب العزة ويرتفع معه النبيون والشهداء ، ويجيء أهل الغرف إلى غرفهم . قال : كل غرفة من لؤلؤة لا وصل فيها ولا فصم ياقوتة حمراء وغرفة من زبرجدة خضراء أبوابها وعلاقيها وسقائفها وأغلاقيها منها ، أنهارها مطردة ، متدلية فيها أثمارها ، فيها أزواجها وخدمها . قال : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من كرامة الله - عز وجل - والنظر إلى وجهه الكريم فذلك يوم المزيد»<sup>(١)</sup>.

ولهذا الحديث عدة طرق ذكرها أبو الحسن الدارقطني في كتاب « الرؤية » .

**السابعة والعشرون :** أنه قد فُسِّرَ الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه بيوم الجمعة ، قال حميد بن زنجويه : حدثنا عبد الله بن موسى ، أنبأنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة واليوم المشهود : هو يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل من يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ، أو يستعيذه من شر إلا أعاده منه »<sup>(٢)</sup>.

ورواه الجارث بن أبي أسامة في « مسنده » عن روح ، عن موسى ابن عبيدة .

وفي « معجم الطبراني » من حديث محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، ويوم الجمعة ادخره الله لنا ، وصلاة الوسطى صلاة العصر »<sup>(٣)</sup> وقد روى من حديث جبير بن مطعم . قلت : والظاهر - والله أعلم - : أنه من

(١) أنظر مصنف ابن أبي شيبة ( كتاب الصلوات ) باب في فضل الجمعة ويومها ح ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١

(٢) أنظر تفسير ابن كثير ( تفسير سورة البروج ) ح ٤ ص ٤٩١ طبع دار إحياء الكتب العربية ( الحلبي ) من رواية ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة

(٣) الحديث في المعجم الكبير للطبراني في ( ما رواه شريح بن عبيد الحضرمي عن أبي مالك ) ح ٣ ص ٣٣٨ رقم ٣٤٥٨

**الثامنة والعشرون :** أنه اليوم الذي تفرع فيه السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا الإنس والجن فروى أبو الجواب عن عمار بن رزيق ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : اجتمع كعب وأبو هريرة فقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » .

فقال كعب : ألا أحدثكم عن يوم الجمعة ؟ إنه إذا كان يوم الجمعة ، فزعت له السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا ابن آدم والشیاطین وحفت الملائكة بأبواب المساجد فيكتبون الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ومن جاء بعد لحق الله ، ولما كتب عليه ، ويحق على كل حالم أن يغتسل فيه كإغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أفضل من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على يوم كيوم الجمعة »

قال ابن عباس هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى ، من كان لأهله طيب أن يمس منه يومئذ . وفي حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفرع ليوم الجمعة إلا هذين الثقلين من الجن والإنس »<sup>(١)</sup> وهذا حديث صحيح . وذلك أنه اليوم الذي تقوم فيه الساعة ويطوى العالم وتخرب فيه الدنيا ويُبعث فيه الناس إلى منازلهم من الجنة والنار .

**التاسعة والعشرون :** أنه اليوم الذي أدخره الله لهذه الأمة وأضل عنه أهل الكتاب قبلهم كما في « الصحيح » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة ، هداانا الله له ، وضل الناس عنه ، فالتاس لنا فيه تبع هو لنا وللإهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد » وفي حديث آخر « ذخره الله لنا »<sup>(٢)</sup> .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عاصم ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عمر بن قيس ، عن محمد بن الأشعث ، عن عائشة قالت : بينا أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود فأذن له فقال : السّام عليك قال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهمت أن أتكلم ، ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهمت أن أتكلم ، ثم دخل الثالثة فقال : السّام تفسير أبي هريرة ، فقد قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت علي بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار مولى بني هاشم ، عن أبي هريرة ، أما علي بن زيد ، فرفعه إلى النبي ، وأما يونس فلم يعدّ أباه هريرة أنه قال في هذه الآية : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ قال : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود : يوم القيامة .

— وأنظر مجمع الزوائد ح ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ وقال الهيثمي : وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ، قال أبو حاتم : لم يسمع من أبيه شيئاً .

(١) أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ( صلاة الجمعة ) ذكر البيان بأن أفضل الأيام يوم الجمعة ح ٤ ص ١٩١ رقم ٢٧٥٩

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ( مسند أبي هريرة — رضى الله عنه ) ح ٢ ص ٥١٩

عليكم ، قالت : فقلت : بل السام عليكم وغضبُ الله - إخوان القردة والخنازير - أتحبون رسول الله بما لم يحبه به الله - عز وجل - ؟ قالت : فنظر إليّ فقال : صه إن الله لا يحب الفُحش ولا التفحش ، قالوا قولاً فرددناه عليهم فلم يضرنا شيئاً ، ولزمهم إلى يوم القيامة ، إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على الجمعة التي هدانا الله لها وصلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وصلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام . آمين « (١) » .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالتاس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد » (٢) وفي « بيد » لغتان : بالباء وهي المشهودة ، وميد بالميم ، حكاه أبو عبيد . وفي هذه الكلمة قولان ، أحدهما : أنها بمعنى « غير وأشهد معنيها . والثاني : بمعنى « على » وأنشد أبو عبيد شاهداً له :

عمداً فعلت ذاك بيد أني إخال لو هلكت لم ترئي  
ترئي : تفعلي من الرنين .

**الثلاثون :** أنه خيرة الله من أيام الأسبوع ، كما أن شهر رمضان خيرته من شهور العام ، وليلة القدر خيرته من الليالي ، ومكة خيرته من الأرض ، ومحمد ﷺ خيرته من خلقه . قال آدم بن أبي إياس : حدثنا شيبان أبو معاوية ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، بن كعب الأحبار . قال : إن الله - عز وجل - اختار الشهور واختار شهر رمضان ، واختار الأيام واختار يوم الجمعة ، واختار الليالي واختار ليلة القدر ، واختار الساعات واختار ساعة الصلاة ، والجمعة تكفر ما بينها وبين الجمعة الأخرى وتزيد ثلاثاً ، ورمضان يكفر ما بينه وبين رمضان ، والحج يكفر ما بينه وبين الحج ، والعمرة تكفر ما بينها وبين العمرة ، ويموت الرجل بين خستين : حسنة قضاها وحسنة ينتظرها - يعني صلاتيه - وتصعد الشياطين في رمضان ، وتغلق أبواب النار ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، ويقال فيه : يا باغي الخير : هلم . رمضان أجمع ، وما من ليل أحب إلى الله العمل فيهن من ليلي العشر .

**الحادية والثلاثون :** أن الموتي تدنو أرواحهم من قبورهم ، وتوافيها في يوم الجمعة ، فيعرفون زوارهم ومن يمر بهم ويسلم عليهم ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام ، فهو يوم تلتقي فيه الأحياء والأموات ، فإذا قامت فيه الساعة التقى الأولون والآخرون ، وأهل الأرض وأهل السماء ، والرب والعبد ، والعامل وعمله ، والمظلوم وظالمه ، والشمس والقمر ، ولم تلتقيا قبل ذلك قط ، وهو يوم الجمع واللقاء ، ولهذا يلتقي الناس فيه في الدنيا أكثر من التقائهم في غيره ، فهو

(١) مسند الإمام أحمد ( مسند السيدة عائشة - رضى الله عنها ) ج ٦ ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الجمعة ) باب : هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ج ١ ص ١٦٦ رقم ٤٩٦

يوم التلاق . قال أبو التياح يزيد بن حميد : كان مطرف بن عبد الله يبادر فيدخل كل جمعة ، فأدج حتى إذا كان عند المقابر يوم الجمعة ، قال : فرأيت صاحب كل قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، قال : فقلت لهم : وتعلمون عندكم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما تقول فيه الطير ، قلت : وما تقول فيه الطير ؟ قالوا : تقول : رب سلم سلم ، يوم صالح . وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (المقامات) وغيره عن بعض أهل عاصم الجحدري ، قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بستين ، فقلت : أليس قد مُتَّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفَر من أصحابي تجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فنتلقى أخباركم . قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيات ؛ بليت الأجسام ، وإنما تتلقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا لكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

وذكر ابن أبي الدنيا أيضاً ، عن محمد بن واسع أنه كان يذهب كل غداة سبت حتى يأتي الجبانة فيقف على القبور فيسلم عليهم ويدعو لهم ثم ينصرف .

ف قيل له : لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين ، قال : بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده .

وذكر عن سفيان الثوري ، قال : بلغني عن الضحاك ، أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . ف قيل له : كيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

**الثانية والثلاثون :** أنه يكره إفراد يوم الجمعة بالصوم ، هذا منصوص أحمد ، قال الأثرم : قال لأبي عبد الله : صيام يوم الجمعة ؟ فذكر حديث النبي عن أن يُفرد ، ثم قال : إلا أن يكون في صيام كان يصومه ، وأما أن يُفرد ، فلا . قلت : رجل كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فوقع فطره يوم الخميس ، وصومه يوم الجمعة وفطره يوم السبت ، فصار الجمعة مفرداً ؛ قال : هذا إلا أن يتعمد صومه خاصة ، إنما كره أن يتعمد الجمعة .

وأباح مالك ، وأبو حنيفة صومه كسائر الأيام ، قال مالك : لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدي به ينهى عن صيام يوم الجمعة ، وصيامه حسن ، وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه قال ابن عبد البر : اختلف الآثار عن النبي ﷺ في صيام يوم الجمعة فروى ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ « كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال : قلما رأيت مفطراً يوم الجمعة » <sup>(١)</sup> وهذا حديث صحيح .

(١) مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه) - ح ١ ص ٤٠٦

والنسائي (باب صوم النبي ﷺ) - ح ٤ ص ٢٠٤

والترمذي (باب ما جاء في صوم يوم الجمعة) - ح ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢



وقد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة قط . ذكره ابن أبي شيبة ، عن حفص بن غياث ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عمير بن أبي عمير ، عن ابن عمر<sup>(١)</sup> .

وروي ابن عباس ، أنه كان يصومه ويواظب عليه<sup>(٢)</sup> . وأما الذي ذكره مالك ، فيقولون : إنه محمد بن المنكير . وقيل : صفوان بن سليم .

وروي الداوردي ، عن صفوان بن سليم عن رجل من بني جشم أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من صام يوم الجمعة كتب له عشرة أيام غرر زهر من أيام الآخرة لا يشاكلهن أيام الدنيا »<sup>(٣)</sup>

والأصل في صوم يوم الجمعة أنه عمل بر لا يمنع منه إلا بدليل لا معارض له .

قلت : قد صح المعارض صحة لا مطعن فيها البتة ، ففي « الصحيحين » : عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابراً : أنهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم<sup>(٤)</sup> .

وفي صحيح مسلم عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابر بن عبد الله وهو يطوف بالبيت : أنهى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم ورب هذه البنية<sup>(٥)</sup> .

وفي ( الصحيحين ) : من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يصوم من أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم يوماً قبله ، أو يوماً بعده »<sup>(٦)</sup> واللفظ للبخاري .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين سائر الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم »<sup>(٧)</sup> .

وفي صحيح البخاري ، عن جويرية بنت الحارث ، أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة ، فقال : « أَصُمْتِ أَمْس ؟ » قالت : لا . قال : « فتريدين أن تصومي غداً ؟ » قالت : لا . قال : فأفطري<sup>(٨)</sup> .

(١) مصنف ابن أبي شيبة ( باب من رخص في صوم يوم الجمعة ) ح ٣ ص ٤٦

(٢) الحديث في كنز العمال ( في الباب الثاني في صوم الفضل ) من الإكمال ح ٨ ص ٥٦١ رقم ٢٤١٧٢ وعزاه إلى أبي الشيخ ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الصيام ) باب كراهة صيام الجمعة منفرداً ح ١ ص ٢٥٣ رقم ٧٠٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الصيام ) باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم ح ٨ ص ١٨ إلا أنه قال جابر : نعم ورب هذا البيت .

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان ح ١ ص ٢٥٣ ( باب كراهة صيام الجمعة منفرداً ) رقم ٧٠١

(٦) مسلم بشرح النووي ( باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم ) ح ٨ ص ١٨ ، ١٩

(٧) أنظر صحيح البخاري بمحاشية السندی ( كتاب الصيام ) باب صوم يوم الجمعة ح ١ ص ٣٤٠ ومصنف ابن أبي شيبة ( كتاب

الصيام باب ما ذكر في صوم الجمعة ح ٣ ص ٤٤ ، ٤٥

وفي «مسند أحمد» عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : «لاتصوموا يوم الجمعة وحده»<sup>(١)</sup>. وفي «مسنده» أيضاً عن جنازة الأزدي قال : دخلت على رسول الله ﷺ يوم الجمعة في سبعة من الأزد ، أنا ثامنهم وهو يتغذى ، فقال : «هلموا إليّ للغداء» فقلنا : يارسول الله إنا صيام . فقال : أصمتم أمس ؟ قلنا : لا . قال : فتصومون غداً ؟ قلنا : لا . قال فأفطروا . قال : فأكلنا مع رسول الله ﷺ قال : فلما خرج وجلس على المنبر دعا بإناء ماء فشرب وهو على المنبر والناس ينظرون إليه ، يريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة<sup>(٢)</sup>.

وفي ( مسنده ) أيضاً عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوم الجمعة عيد ، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده »<sup>(٣)</sup>.

وذكر ابن أبي شيبة ، عن سفيان بن عيينه ، عن عمران بن ظبيان ، عن حكيم بن سعد ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : من كان منكم متطوعاً من الشهر أياماً ، فليكن في صومه يوم الخميس ، ولا يصم يوم الجمعة ؛ فإنه يوم طعام وشراب وذكر ، فيجمع الله له يومين صالحين : يوم صيامه ويوم نسكه مع المصلين<sup>(٤)</sup>.

وذكر ابن جرير عن مغيرة عن إبراهيم : أنهم كرهوا صوم الجمعة ليقووا على الصلاة<sup>(٥)</sup>. قلت : المأخذ في كراهيته : ثلاثة أمور ، هذا أحدها ، ولكن يشكل عليه زوال الكراهية بضم يوم قبله ، أو بعده إليه .

والثاني : أنه يوم عيد وهو الذي أشار إليه ﷺ وقد أورد على هذا التعليل إشكالان : أحدهما : أن صومه ليس بحرام وصوم يوم العيد حرام .

والثاني : أن الكراهة تزول بعدم إفراده . وأجيب عن الإشكالين ، بأنه ليس عيد العام بل عيد الأسبوع ، والتحريم إنما هو لصوم عيد العام وأما إذا صام يوماً قبله أو يوماً بعده فلا يكون قد صامه لأجل كونه جمعة وعيداً فتزول المفسدة الناشئة من تخصيصه ، بل يكون داخلياً في صيامه تبعاً ، وعلى هذا يحمل ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - في ( مسنده ) والنسائي ، والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود - إن صح - قال : قلما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة<sup>(٦)</sup> . فإن صح هذا ، تعين

(١) مسند الإمام أحمد ( مسند ابن عباس - رضي الله عنهما ) ح ١ ص ٢٨٨ .

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ( كتاب الصيام ) باب صوم الجمعة ح ٣ ص ٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد ( مسند أبي هريرة - رضي الله عنه ) ح ٢ ص ٥٣٢ .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة ( كتاب الصيام ) باب ما ذكر في صوم الجمعة ح ٣ ص ٤٤ إلا أنه قال : « ويوم نسكه مع المسلمين » بدل « ويوم نسكه مع المصلين » .

(٥) مصنف ابن أبي شيبة ( كتاب الصيام ) باب ما ذكر في صوم يوم الجمعة ح ٣ ص ٤٤ .

(٦) أنظر سنن النسائي ( باب صوم النبي ، صلى الله تعالى عليه وسلم ) ح ٤ ص ٢٠٤ .

ورواه الترمذي في سننه في ( كتاب الصوم ) باب ما جاء في صوم يوم الجمعة ح ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢ .

حملة على أنه كان يدخل في صيامه تبعاً لا أنه كان يفرد ؛ لصحة النهي عنه . وأين أحاديث النهي الثابتة في الصحيحين ، من حديث الجواز الذي لم يروه أحد من أهل الصحيح ؟ وقد حكم الترمذي بغرابته ، فكيف تعارض به الأحاديث الصحيحة الصريحة ثم يقدم عليها ؟

**والمأخذ الثالث :** سد الذريعة من أن يلحق بالدين ما ليس فيه ويوجب التشبه بأهل الكتاب في تخصيص بعض الأيام بالتجرد عن الأعمال الدنيوية ، وينضم إلى هذا المعنى : أن هذا اليوم لما كان ظاهر الفضل على الأيام كان الداعي إلى صومه قوياً فهو في مظنة تتابع الناس في صومه واحتفالهم به ما لا يحتفلون بصوم يوم غيره ، وفي ذلك إلحاق بالشرع ما ليس منه . ولهذا المعنى - والله أعلم - عني عن تخصيص ليلة الجمعة بالقيام من بين الليالي لأنها من أفضل الليالي ، حتى فضلها بعضهم على ليلة القدر ، وحكى رواية عن أحمد ، فهي في مظنة تخصيصها بالعبادة فحسم الشارع الذريعة وسدها بالنهي عن تخصيصها بالقيام . والله أعلم .

**فإن قيل :** ما تقولون في تخصيص يوم غيره بالصيام ؟ قيل : أما تخصيص ما خصصه الشارع كيوم الإثنين ويوم عرفة ويوم عاشوراء فسنة ، وأما تخصيص غيره كيوم السبت والثلاثاء والأحد والأربعاء فمكروه ، وما كان منها أقرب إلى التشبه بالكفار لتخصيص أيام أعيادهم بالتعظيم والصيام فأشد كراهة وأقرب إلى التحريم .

**الثالثة والثلاثون :** أنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالمبدأ والمعاد ، وقد شرع الله - سبحانه وتعالى - لكل أمة في الأسبوع يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويجتمعون فيه لتذكير المبدأ والمعاد والثواب والعقاب ، ويتذكرون اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي رب العالمين ، وكان أحق الأيام بهذا الغرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق ، وذلك يوم الجمعة فآخره الله لهذه الأمة ؛ لفضلها وشرفها ، فشرع اجتماعهم في هذا اليوم لطاعته ، وقدر اجتماعهم فيه مع الأمم لنيل كرامتهم ، فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا وقدرراً في الآخرة ، وفي مقدار انتصافه وقت الخطبة والصلاة ، يكون أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم كما ثبت عن ابن مسعود من غير وجه أنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقل أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم ، وقرأ : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ <sup>(١)</sup> وقرأ : ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكذلك هي في قراءته (مرجعهم) ولهذا كون الأيام سبعة إنما تعرفه الأمم التي لها كتاب ، فأما أمة لا كتاب لها فلا تعرف ذلك إلا من تلقاه منهم عن أمم الأنبياء ، فإنه ليس هنا علامة حسية يعرف بها كون الأيام سبعة بخلاف الشهر والسنة وفصولها ، ولما خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة

== قال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن غريب .

وأنظر مسند أحمد ح ١ ص ٤٠٦

(١) سورة الفرقان ، الآية : ٢٤

(٢) الآية : ٦٨ من سورة الصافات .

أيام وتعرف بذلك إلى عباده على ألسنة رسله وأنبيائه شرع لهم في الأسبوع يوماً يذكرهم فيه بذلك ، وحكمة الخلق وما خلقوا له ، وبأجل العالم ، وطبي السموات والأرض ، وعود الأمر كما بدأه - سبحانه - وعداً عليه حقاً ، وقولاً صدقاً ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجر يوم الجمعة سورتي : ﴿ ألم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون من المبدأ والمعاد وحشر الخلائق وبعثهم من القبور إلى الجنة والنار ، لا لأجل السجدة كما يظنه من نقص علمه ومعرفته ، فيأتي بسجدة من سورة أخرى ، ويعتقد أن فجر يوم الجمعة فضل بسجدة ، وينكر على من لم يفعلها .

وهكذا كانت قراءته ﷺ في الجامع الكبار كالأعياد ونحوها بالسورة المشتملة على التوحيد والمبدأ والمعاد وقصص الأنبياء مع أمهم ، وما عامل الله به من كذبهم وكفر بهم من الهلاك والشقاء ، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية .

كما كان يقرأ في العيدين بسورتي : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ و ﴿ اقرب الساعة وانشق القمر ﴾ وتارة بـ ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ و ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ وتارة يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة لما تضمنت من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها وترك العمل العائق عنها ، والأمر بالكثير ذكر الله ليحصل لهم الفلاح في الدارين ؛ فإن في نسيان ذكره - تعالى - العطب والهلاك في الدارين ، ويقرأ في الثانية بسورة ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ تحذيراً للأمة من النفاق المردى ، وتحذيراً لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكر الله ، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولا بد ، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم ، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالة يطلبون الإقالة ويتمنون الرجعة ولا يجابون إليها .

وكذلك كان ﷺ يفعل عند قدوم وفد يريد أن يسمعهم القرآن ، وكان يطيل قراءة الصلاة لجهرية لذلك ، كما صلى المغرب بـ ( الأعراف ) وبـ ( الطور ) و ( ق ) وكان يصلي الفجر بنحو مائة آية .

وكذلك كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأولياته وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملاً القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبيلى التراب أجسامهم ، فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه وحدها كفيلاً ببيان الهدى والتوحيد ، وذكر صفات الرب - جل جلاله - وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه - تعالى - التي

تحييه إلى خلقه ، وأيامه التي تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحبهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحييه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحبهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبّوه وأحبهم ، ثم طال العهد وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً ، فقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرسعوا الخطب بالتسجيع والفقر وعلم البديع فنقص - بل عدم - حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .  
فمما حفظ من خطبه عليه السلام أنه كان يكثر أن يخطب بالقرآن وسورة ( ق ) .

قالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان : ما حفظت ( ق ) إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يخطب بها على المنبر<sup>(١)</sup> .

وحُفظ من خطبته عليه السلام من رواية علي بن زيد بن جدعان - وفيها ضعف - : « يا أيها الناس : توبوا إلى الله - عز وجل - قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية تؤجروا وتحمدوا وترزقوا ، واعلموا أن الله - عز وجل - قد فرض عليكم الجمعة فريضة مكتوبة في مقامي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة ، من وجد إليها سبيلاً ، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي جحوداً بها أو استخفافاً بها وله إمام جائر أو عادل فلا جمع الله شمله ، ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له ، ألا ولا وضوء له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا بركة له حتى يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، ألا ولا يؤمن امرأة رجلاً ، ألا ولا يؤمن أعرابي مهاجراً ، ألا ولا يؤمن فاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان فيخاف سيفه وسوطه »<sup>(٢)</sup> .

وحفظ من خطبته أيضاً : « الحمد لله نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً »<sup>(٣)</sup> .

(١) سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب الرجل يخطب على قوس - ح ١ ص ٢٨٨ رقم ١١٠٠

وأنظر سنن النسائي ( باب القراءة في الخطبة ) ح ٣ ص ١٠٧

وأنظر صحيح مسلم بشرح النووي - ح ٦ ص ١٦٢

(٢) أنظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) باب في فرض الجمعة - ح ١ ص ٣٤٣ رقم ١٠٨١ في الزوائد : إسناده

ضعيف - لضعف علي بن زيد بن جدعان ، وعبد الله بن محمد العلوي .

وقد رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله .

(٣) سنن أبي داود ( باب الرجل يخطب على قوس ) - ح ١ ص ٢٨٧ رقم ١٠٩٧ من رواية ابن مسعود - رضي الله عنه .

## فصل

## في هديه ﷺ في خطبه

كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : « صَبِّحْكُمْ وَمَسَاءَكُمْ » ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ » رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

وفي لفظ : كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويشني عليه ثم يقول على إثر ذلك : وقد علا صوته . فذكره<sup>(٢)</sup>.

وفي لفظ : يحمد الله ويشني عليه بما هو أهله ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وخير الحديث كتاب الله »<sup>(٣)</sup>.

وفي لفظ النسائي : « وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار »<sup>(٤)</sup>.

وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناء والتشهد : « أما بعد » . وكان يقصر الخطبة ويطيل الصلاة ، ويكثر الذكر ، ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقول : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته من فقهه »<sup>(٥)</sup>.

وكان يعلم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي ، كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين .

ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس .

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض ، أو السؤال من أحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها .

وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة ثم يعود فيتمها ، كما نزل لأخذ الحسن والحسين - رضي الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الصلاة ) باب خطبته - ﷺ في الجمعة - ح ٦ ص ١٥٣ ، ١٥٤ من رواية جابر بن عبد الله - رضي الله عنه .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٦

(٣) المصدر السابق ص ١٥٦

(٤) انظر سنن النسائي ( كتاب صلاة العيدين ) باب كيف الخطبة - ح ٣ ص ١٨٨ ، ١٨٩ فقد روى هذا ، وهو جزء حديث الجابر بن عبد الله - رضي الله عنه .

(٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ( باب صلاة الجمعة وخطبتها ) - ح ٦ ص ١٥٨ فقد أورده جزءاً من حديث عن عمار بن ياسر - رضي الله عنهما .

عنهما - فأخذهما ثم رقى بهما المنبر فأتم خطبته ، وكان يدعو الرجل في خطبته : تعال يا فلان ، اجلس يا فلان ، صل يا فلان .

وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته ، فإذا رأى منهم ذافقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها .

وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله - تعالى - ودعائه وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر في خطبته .

وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس ، فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير شوايش يصيح بين يديه ، ولا لبس طيلسان ، ولا طراحة ولا سواد ، فإذا دخل المسجد سلم عليهم ، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ، ولم يدع مستقبل القبلة ، ثم يجلس ، ويأخذ بلال في الأذان ، فإذا فرغ منه قام النبي ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لا بإيراد خبر ولا غيره .

ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره ، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر وكان في الحرب يعتمد على قوس وفي الجمعة يعتمد على عصا ، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف ، وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائماً وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهله ؛ فإنه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره ، ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفاً البتة ، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس ، وكان منبره ثلاث درجات ، وكان قبل اتخاذه يخطب إلى جذع يستند إليه ، فلما تحول إلى المنبر حن الجذع حينئذ سمعه أهل المسجد فنزل إليه ﷺ وضته ، قال أنس : حن لما فقد ما كان يسمع من الوحي وفقده التصاق النبي ﷺ ولم يوضع المنبر في وسط المسجد ، وإنما وضع في جانبه الغربي قريباً من الحائط وكان بينه وبين الحائط قدر عمر الشاة .

وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ في غير الجمعة أو خطب قائماً في الجمعة استدار أصحابه إليه بوجوههم ، وكان وجهه ﷺ قبلهم في وقت الخطبة .

وكان يقوم فيخطب ثم يجلس جلسة خفيفة ، ثم يقوم فيخطب الثانية ، فإذا فرغ منها أخذ بلال في الإقامة ، وكان يأمر الناس بالدنو فيه ، ويأمرهم بالإنصات ، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أنصت فقد لغا ، ويقول : « من لغا فلا جمعة له »<sup>(١)</sup> وكان يقول : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له : أنصت ليست له جمعة »<sup>(٢)</sup> رواه أحمد . وقال أبي بن كعب : قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة ( قبارك ) وهو قائم فذكرنا بأيام الله ، وأبو

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الجمعة ) باب في الإنصات يوم الجمعة في الخطبة ج ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٤

ورواه النسائي ج ٣ ص ١٠٤ بمثل حديث الصحيحين = ورواه أبو داود ج ١ ص ٢٩٠ رقم ١١١٢

وأظهر سنن ابن ماجه ( باب ماجاء في الامتناع للخطبة ) ج ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١٠

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٤٠ فقد رواه عن ابن عباس = رضى الله عنهما .

الدرء أو أبو ذر يغمزني . فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فإني لم أسمعها إلا الآن . فأشار إليه أن اسكت ، فلما انصرفوا قال : سألتك : متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرني ، فقال : إنه ليس من صلاتك اليوم إلا ما لغوت ، فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وأخبره بالذي قال له أبي ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق أبي »<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : رجل حضرها يلغو وهو حظه منها ، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله - عز وجل - إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى يوم الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك أن الله - عز وجل - يقول : ( من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ) ذكره أحمد<sup>(٢)</sup>.

وكان إذا فرغ بلال من الأذان أخذ النبي ﷺ في الخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة ، ولم يكن الأذان إلا واحداً ، وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد لا سنة لها قبلها ، وهذا أصح قول العلماء ، وعليه تدل السنة ؛ فإن النبي ﷺ كان يخرج من بيته فأذا رقى المنبر أخذ بلال في أذان الجمعة ، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة من غير فصل ، وهذا كان رأي عين ، فمتى كانوا يصلون السنة ؟ ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال - رضي الله عنه - من الأذان قاموا كلهم فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة ، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنة قبلها هو مذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

والذين قالوا : إن لها سنة منهم من احتج بأنها ظهر مقصورة فيثبت لها أحكام الظهر ، وهذه حجة ضعيفة جداً ؛ فإن الجمعة صلاة مستقلة بنفسها تخالف الظهر في الجهر والعدد والخطبة والشروط المعتبرة لها ، وتوافقها في الوقت ، وليس إلحاق مسألة النزاع بموارد الاتفاق أولى من إلحاقها بموارد الافتراق ، بل إلحاقها بموارد الافتراق أولى لأنها أكثر مما اتفقا فيه .

ومنهم من أثبت السنة لها هنا بالقياس على الظهر ، وهو أيضاً قياس فاسد ؛ فإن السنة ما كان ثابتاً عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو سنة خلفائه الراشدين ، وليس في مسألتنا شيء من ذلك ، ولا يجوز إثبات السنن في مثل هذا بالقياس ؛ لأن هذا مما انعقد بسبب فعله في عهد النبي ﷺ فإذا لم يفعله ولم يشرعه كان تركه هو السنة ، ونظير هذا أن يشرع لصلاة العيد سنة قبلها أو بعدها بالقياس ، فلذلك كان الصحيح أنه لا يسن الغسل للمبيت بمزدلفة ولا لرمي الجمار ولا للطواف ولا للكسوف ولا للاستسقاء لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يغتسلوا لذلك مع فعلهم لهذه العبادات .

ومنهم من احتج بما ذكره البخاري في ( صحيحه ) فقال : باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أنبأنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ « كان يصلي قبل

(١) انظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ) باب ماجاء في الاستماع للخطبة ح ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١١

(٢) انظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب الكلام والإمام بخط ح ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ رقم ١١١٢ من رواية أبي هريرة عن

رسول الله ﷺ والآية هي رقم ١٦٠ من سورة الأنعام



الظهر ركعتين وبعدها ركعتين ، وبعد المغرب ركعتين في بيته ، وقبل العشاء ركعتين ، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصل ركعتين «<sup>(١)</sup> وهذا لا حجة فيه ولم يُرد به البخاري إثبات السنة قبل الجمعة ، وإنما مراده أنه هل ورد في الصلاة قبلها أو بعدها شيء ؟ ثم ذكر هذا الحديث ، أي : أنه لم يرد عنه فعل السنة إلا بعدها ولم يرد قبلها شيء .

وهذا ما فعل في كتاب العيدين ، فإنه قال : باب الصلاة قبل العيد وبعدها وقال أبو المعلى : سمعت سعيداً عن ابن عباس أنه كره الصلاة قبل العيد<sup>(٢)</sup> . ثم ذكر حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس « أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما ولمعه بلال »<sup>(٣)</sup> فترجم للعيد مثل ما ترجم للجمعة وذكر للعيد حديثاً دالاً على أنه لا تشرع الصلاة قبلها ولا بعدها ، فدل على أن مراده من الجمعة كذلك ، وقد ظن بعضهم أن الجمعة لما كانت بدلاً عن الظهر وقد ذكر في الحديث السنة قبل الظهر وبعدها دلّ على أن الجمعة كذلك ، وإنما قال : « وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف » بياناً لموضع صلاة السنة بعد الجمعة وأنه بعد الانصراف ، وهذا الظن غلط منه ؛ لأن البخاري قد ذكر في باب التطوع بعد المكتوبة حديث ابن عمر - رضي الله عنه - : صليت مع رسول الله ﷺ سجدتين قبل الظهر وسجدتين بعد الظهر وسجدتين بعد المغرب وسجدتين بعد العشاء وسجدتين بعد الجمعة فهذا صريح في أن الجمعة عند الضحابة صلاة مستقلة بنفسها غير الظهر وإلا لم يحتج إلى ذكرها لدخولها تحت اسم الظهر ، فلما لم يذكر لها سنة إلا بعدها عُلِمَ أنه لا سنة لها قبلها ، ومنهم من احتج بما رواه ابن ماجه في ( سننه ) عن أبي هريرة وجابر قال : جاء سليك الغطفاني ورسول الله ﷺ يخطب فقال له : « أصليت ركعتين قبل أن تحيي ؟ » قال : لا . قال : « فصل ركعتين وتجوّز فيهما »<sup>(٤)</sup> .

قال أبو البركات ابن تيمية : وقوله : ( قبل أن تحيي ) يدل على أن هاتين الركعتين سنة الجمعة وليستا تحية المسجد ، قال شيخنا حفيده أبو العباس : وهذا غلط ، والحديث المعروف في ( الصحيحين ) عن جابر قال : دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال : ( أصليت ؟ ) قال : لا . قال : « فصل ركعتين » وقال : « إذا جاء أحدكم الجمعة والإمام يخطب . فليركع ركعتين وليتجوّز فيهما »<sup>(٥)</sup> فهذا هو المحفوظ في هذا الحديث ، وأفراد ابن ماجه في الغالب غير صحيحة ، هذا معنى كلامه .

(١) أنظر صحيح البخاري بحاشية السندی ( باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها ) ح ١ ص ١٦٧

(٢) ، (٣) صحيح البخاري بحاشية السندی ( باب العيدين ) باب الصلاة قبل العيد وبعدها ح ١ ص ١٧٦

(٤) سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة ) باب فيمن دخل المسجد والإمام يخطب ح ١ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ رقم ١١١٤ وأنظر سنن

أبي داود ح ١ ص ٢٩١ رقم ١١١٦

(٥) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الجمعة ) باب التحية والإمام يخطب ح ١ ص ١٦٨ وهذا مركب من حديثين متتاليين برقمي ٥٠٢ ،

٥٠٣ وليس فيهما « وليتجوّز فيهما » وقد وردت هذه العبارة في رواية أبي داود ح ١ ص ٢٩٢ رقم ١١١٧ من رواية جابر - رضي الله عنه .

وقال شيخنا أبو الحجاج الحافظ المزي : هذا تصحيح من الرواة ، إنما هو ( أصليت قبل أن تجلس ) فغلط فيه الناسخ ، وقال : وكتاب ابن ماجه إنما تداولته شيوخ لم يعتنوا به بخلاف صحيح البخاري ومسلم فإن الحفاظ تداولوها واعتنوا بنضبطهما وتصحيحهما ، قال : ولذلك وقع فيه أغلاط وتصحيف .

قلت : ويدل على صحة هذا أن الذين اعتنوا بضبط سنن الصلاة قبلها وبعدها وصنفوا في ذلك من أهل الأحكام والسنن وغيرها لم يذكر واحد منهم هذا الحديث في سنة الجمعة قبلها ، وإنما ذكروه في استحباب فعل تحية المسجد والإمام على المنبر ، واحتجوا به على من منع من فعلها في هذه الحال ، فلو كانت هي سنة الجمعة لكان ذكرها هناك ، والترجمة عليها وحفظها وشهرتها أولى من تحية المسجد ، ويدل عليه أيضاً أن النبي ﷺ لم يأمر بهاتين الركعتين إلا الداخل لأجل أنها تحية المسجد ، ولو كانت سنة الجمعة لأمر بها القاعدين أيضاً ولم يخص بها الداخل وحده . ومنهم من احتج بما رواه أبو داود في ( سننه ) قال : حدثنا مسدد قال : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع قال ن : كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ، ويصلي بعدها ركعتين في بيته ، وحدث أن رسول الله ﷺ « كان يفعل ذلك »<sup>(١)</sup> وهذا لا حجة فيه على أن للجمعة سنة قبلها وإنما أراد بقوله : إن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك أنه كان يصلي ركعتين بعد الجمعة في بيته ، لا يصليهما في المسجد ، وهذا هو الأفضل فيهما كما ثبت في ( الصحيحين ) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته<sup>(٢)</sup> وفي ( السنن ) عن ابن عمر أنه إذا كان بمكة فصلى الجمعة تقدم فصلى ركعتين ، ثم تقدم فصلى أربعاً ، وإذا كان بالمدينة صلى الجمعة ثم رجع إلى بيته فصلى ركعتين ولم يصل بالمسجد ، فقيل له ، فقال : كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك<sup>(٣)</sup> . وأما إطالة ابن عمر الصلاة قبل الجمعة فإنه تطوع مطلق ، وهذا هو الأولى لمن جاء إلى الجمعة أنه يشتغل بالصلاة حتى يخرج الإمام .

قال أبو هريرة عن النبي ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم أتى المسجد فصلى ما قدر له ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته ثم يصلي معه غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام »<sup>(٤)</sup> وفي حديث نبيشة الهذلي : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذي أحداً ، فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له ، وإن وجد الإمام خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضي الإمام

(١) أنظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب الصلاة بعد الجمعة ح ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( باب فضل السنن الراتية قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن ح ١ ص ١٤٢ رقم ٤٢٣ ولفظه ( وهو لفظ مسلم ) : « صليت مع النبي ﷺ سجدتين قبل الظهر ، وسجدتين بعد الظهر ، وسجدتين بعد المغرب ، وسجدتين بعد العشاء ، وسجدتين بعد الجمعة ، فأما المغرب والعشاء ففي بيته »

ولفظ البخاري في ( باب التهجد بالليل ) ح ١ ص ٢٠٤ نفس اللفظ السابق ، وأما لفظ الحديث الذي معنا فقد رواه أبو داود عن ابن عمر — رضى الله عنهما — ح ١ ص ٢٩٥ رقم ١١٣٢ وفي سنن ابن

ماجه ح ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٣١ وسنن الترمذي ح ٢ ص ٣٩٩ رقم ٥٢١

(٣) أنظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب الصلاة بعد الجمعة ح ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٣٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( باب فضل من استمع وأنصت للخطبة ) ح ٦ ص ١٤٦

جمعته وكلامه ، إن لم يغفر له في جمعته تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التي تليها »<sup>(١)</sup> هكذا كان هدى الصحابة - رضي الله عنهم - .

قال ابن المنذر : روينا عن ابن عمر : أنه كان يصلي قبل الجمعة ثنتي عشرة ركعة .

وعن ابن عباس أنه كان يصلي ثمان ركعات ، وهذا دليل على أن ذلك كان منهم من باب التطوع المطلق ، ولذلك اختلف في العدد المروي عنهم في ذلك . وقال الترمذي في ( الجامع ) : وروى عن ابن مسعود أنه كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً<sup>(٢)</sup> وإليه ذهب ابن المبارك والثوري .

وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانيء النيسابوري : رأيت أبا عبد الله إذا كان يوم الجمعة يصلي إلى أن يعلم أن الشمس قد قاربت أن تزول ، فإذا قاربت أمسك عن الصلاة حتى يؤذن المؤذن ، فإذا أخذ في الآذان قام فصلى ركعتين أو أربعاً يفصل بينهما بالسلام ، فإذا صلى الفريضة انتظر في المسجد ، ثم يخرج منه فيأتي بعض المساجد التي بحضرة الجامع فيصل في ركعتين ثم يجلس ، وربما صلى أربعاً ثم يجلس ، ثم يقوم فيصل ركعتين أخريين ، فتلك ست ركعات على حديث علي ، وربما صلى بعد الست ستاً آخر ، أو أقل أو أكثر ، وقد أخذ من هذا بعض أصحابه رواية : أن للجمعة قبلها سنة ركعتين أو أربعاً ، وليس هذا بصريح بل ولا ظاهر ، فإن أحمد كان يمسك عن الصلاة في وقت النبي فإذا زال وقت النبي قام فأتى تطوعه إلى خروج الإمام ، فربما أدرك أربعاً وربما لم يدرك إلا ركعتين ، ومنهم من احتج على ثبوت السنة قبلها بما رواه ابن ماجه في ( سننه ) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية ، عن مبشر بن عبيد ، عن حجاج بن أرطاة ، عن عطية العوفي ، عن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ يركع قبل الجمعة أربعاً لا يفصل في شيء منهن »<sup>(٣)</sup> . قال ابن ماجه : باب الصلاة قبل الجمعة فذكره .

وهذا الحديث فيه عدة بلايا إحداها : بقية بن الوليد : إمام المدلسين ، وقد عنعنه ولم يصرح بالسماع .

الثانية : مبشر بن عبيد المنكر الحديث ، وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : شيخ كان يقال له : مبشر بن عبيد كان بحمص أظنه كوفياً ، روى عنه بقية وأبو المغيرة ، أحاديثه أحاديث موضوعة كذب ، وقال الدارقطني : مبشر بن عبيد متروك الحديث ، أحاديثه لا يتابع عليها .

الثالثة : الحجاج بن أرطاة الضعيف المدلس .

الرابعة : عطية العوفي ، قال البخاري : كان هشيم يتكلم فيه ، وضعفه أحمد ، وقال البيهقي : عطية العوفي لا يحتج به . ومبشر بن عبيد الحمصي منسوب إلى وضع الحديث . والحجاج بن أرطاة

(١) أنظر مسند الإمام أحمد ( حديث نيشة الهذلي - رضي الله عنه ) ح ٥ ص ٧٥

(٢) أنظر سنن الترمذي ( أبواب الجمعة ) باب ماجاء في الصلاة قبل الجمعة وبعدها ح ٢ ص ٤٠١

(٣) أنظر سنن ابن ماجه ( كتاب إقامة الصلاة ) باب ماجاء في الصلاة قبل الجمعة ح ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٢٩ وقال : في الزوائد :

وسنده مسلسل بالضعفاء ، عطية متفق على ضعفه . وحجاج مدلس ومبشر بن عبيد كذاب . وبقية - هو ابن الوليد - مدلس .

لا يحتاج به . قال بعضهم : ولعل الحديث انقلب على بعض هؤلاء الثلاثة الضعفاء لعدم ضبطهم وإتقانهم ، فقال : قبل الجمعة أربعاً ، وإنما هو بعد الجمعة ، فيكون موافقاً لما ثبت في ( الصحيح ) .

ونظير هذا : قول الشافعي في رواية عبد الله بن عمر : العمري : ( للفارس سهمان وللراجل سهم ) قال الشافعي : كأنه سمع نافعاً يقول : للفارس سهمان وللراجل سهم ، فقال للفارس سهمان وللراجل سهم حتى يكون موافقاً لحديث أخيه عبيد الله ، قال : وليس يشك أحد من أهل العلم في تقديم عبيد الله بن عمر على أخيه عبد الله في الحفظ .

قلت : ونظير هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في حديث أبي هريرة : « لا تزال جهنم يلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قط . وأما الجنة : فينشئ الله لها خلقاً »<sup>(١)</sup> فانقلب على بعض الرواة فقال : أما النار فينشئ الله لها خلقاً .

قلت : ونظير هذا حديث عائشة : « إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »<sup>(٢)</sup> وهو في ( الصحيحين ) فانقلب على بعض الرواة فقال : « ابن أم مكتوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال » .

ونظيره أيضاً عندي حديث أبي هريرة : « إذا صلى أحدكم فلا يرك كما يرك البعير ، وليضع يديه قبل ركبته »<sup>(٣)</sup> وأظنه وهم - والله أعلم - فيما قاله رسوله الصادق المصدوق ( وليضع ركبته قبل يديه ) كما قال وائل ابن حجر : كان رسول الله ﷺ إذا سجد وضع ركبته قبل يديه ، وقال الخطابي وغيره :

وحديث وائل بن حجر أصح من حديث أبي هريرة .

وكان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين سنتها ، وأمر من صلاها أن يصلي بعدها أربعاً ، قال شيخنا أبو العباس بن تيمية : إن صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإن صلى في بيته صلى ركعتين ، قلت : وعلى هذا تدل الأحاديث وقد ذكر أبو داود عن ابن عمر أنه كان إذا صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإذا صلى في بيته صلى ركعتين .

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته<sup>(٤)</sup> .

(١) في صحيح مسلم بشرح النووي ح ١٧ ص ١٨٢ رواية أبي هريرة ، ولكن بغير هذا اللفظ ، ولفظها : « تحتاج الجنة والنار ... » الحديث ، وأما لفظ : « لا تزال جهنم ... » الحديث فهو من رواية أنس بن مالك ص ١٨٤ من نفس المصدر .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الصيام ) باب بيان أن الدخول في الصوم يحصل بطلوع الفجر ... الخ ح ٢ ص ٢٤٢ رقم ٦٦٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ .

(٣) أنظر سنن أبي داود ( كتاب الصلاة ) باب كيف يضع ركبته قبل يديه ح ١ ص ٢٢٢ رقم ٨٤٠ إلا أنه قال : « إذا سجد أحدكم ... » الحديث . بدلا من « إذا صلى أحدكم ... » الحديث

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ( باب الصلاة بعد الجمعة ) ح ٦ ص ١٦٩ ، ١٧٠ وليس الحديث في البخاري ، اللهم إلا الحديث السابق في بيان ما كان يصلي رسول الله ﷺ من الروايات ، وهو برقم ٤٢٣ في اللؤلؤ والمرجان .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات »<sup>(١)</sup> والله أعلم .

### عود على بدء

وبعد ما طالت مسيرتنا في رحاب التفسير لهذا النص الكريم نعيد هنا موجزاً لتفسيره فنقول وبالله التوفيق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

المفردات :

﴿ نودي للصلاة ﴾ : أذن لها . ﴿ يوم الجمعة ﴾ : هو اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وتصل فيه صلاة الجمعة . ﴿ فاسعوا ﴾ : فامضوا إلى ذكر الله بقصد حسن . ﴿ وذروا البيع ﴾ : اتركوه . ﴿ قضيت الصلاة ﴾ : أدبت وفرغ منها . ﴿ انفضوا إليها ﴾ : أسرعوا لها .

### أضواء كاشفة

خاطب الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين خاصة بهذا النداء تشريعاً لهم وتكريماً ، وليعلموا أن إيمانهم يقتضي الإسراع في إجابة هذا الطلب وتحقيق الأمر . يا أيها المؤمنون إذا أذن لصلاة الجمعة في يوم الجمعة فالواجب عليكم أن تسعوا إلى ذكر الله سعيًا يتحقق به شهود الصلاة وحضورها من أولها لتحصلوا على الثواب كاملاً ، والمطلوب هو السعي بالإقدام والعمل مع الإخلاص بقلوب ذاكرة ونفوس راغبة في الحضور والمشاركة بين يدي الله - جل جلاله - .

اسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع والشراء وما شابههما .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ( باب الصلاة بعد الجمعة ) - ح ٦ ص ١٦٨ إلا أنه قال : « فليصل أربعاً » مكان « فليصل أربع ركعات »

ومن الذي تجب عليه الجمعة ويجب عليه السعي لها ؟ هم الرجال المقيمون الأحرار الذين لا عذر لهم ، وما المراد بهذا النداء ؟ هل هو الأذان الأول أو هو الأذان الذي بين يدي الخطيب ؟ الذي كان أيام النبي ﷺ أنه كان يؤذن المؤذن بين يديه ثم يقيم الصلاة ، والأذان الأول حصل أيام عثمان ، وعلى ذلك فالمراد هو الأذان الثاني لا الأول ، ولكن في الواقع أن الاستعداد المعقول في هذه الأيام يقتضي أن يترك البيع ونسعى للصلاة عند سماع الأذان الأول حتى يكمل الاستعداد للصلاة بهدوء وطمأنينة .

وقد ورد حديث عن النبي ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه » (١) والجمعة كأى صلاة يلزمها الوضوء والطهارة ويسن لها الغسل .

فإذا قضيت الصلاة ، وفرغتم منها فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً رجاء أن تكونوا من الفالحين ، وروى عن بعضهم أنه كان يقول عقب صلاة الجمعة : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

روى أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت غير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً ، فأنزلت هذه الآية ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ﴾ (٢) .

قل لهم : ما عند الله من الثواب الجزيل والفضل العميم والرزق الواسع والبركة التي يعطيها بعض عباده خير من اللهو ومن التجارة التي تسرعون إليها قصداً ، والله وحده خير الرازقين ، فاطلبوا منه الرزق واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة .

(١) انظر سنن أبي داود ح ١ ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٢ وسنن الترمذي ح ٢ ص ٣٧٣ رقم ٥٠٠ والنسائي ح ٣ ص ٨٨ وابن ماجه ح

١ ص ٣٥٧ رقم ١١٢٥

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ١ ص ١٦٧ رقم ٥٠٠ باب قوله تعالى : ( وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ) من رواية

جابر بن عبد الله — رضى الله عنه .

## سورة المنافقون

## مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها إحدى عشرة . كلماتها مائة وثمانون . حروفها سبعمائة وستة وسبعون . فواصل آياتها ( نون ) سميت سورة المنافقين بمفتتحها .

فعظم مقصود السورة : تقريع المنافقين وتبكيهم ، وبيان ذلهم وكذبهم ، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم ، وبيان عزهم وشرفهم ، والنهي عن نسيان ذكر الحق - تعالى - والغفلة عنه ، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت ، وبيان أنه لا تأخير ، ولا إمهال بعد حلول الأجل ، في قوله : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً ﴾ ... الآية .

وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾ وبعده : ﴿ لا يعلمون ﴾ ، لأن الأول متصل بقوله : ﴿ والله خزائن السموات والأرض ﴾ وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة ، والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله : ﴿ والله العزة والرسولة وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ أي : لا يعلمون بأن الله معز لأوليائه ومذل لأعدائه .

فضل السورة :

روى فيه من الأحاديث المردودة حديث أبي : من قرأها بريء من النفاق ، وحديث علي : « يا علي من قرأها أعطاه الله مثل ثواب من أنفق حمل بغير ديناراً في طاعة الله ، وخرج من الدنيا على رضا الله ، وله مثل ثواب من يقضي دين أبويه بعد موتهما ، وجعل الله اثني عشر منافقاً فداه من النار » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ

اللَّهُ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى  
 قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢﴾ \* وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا  
 تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ  
 فَاحْذَرُهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْتَ يَأْتِيكَونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا اسْتَغْفِرْ لَكُمْ  
 رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُوا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٤﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ  
 أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
 الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا  
 وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦﴾ يَقُولُونَ لَنْ  
 رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا أَلَا عَزَّ مِنْهَا الأَذَلُّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ  
 وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾

### معاني المفردات

﴿ جاءك المنافقون ﴾ : حضروا مجلسك . ﴿ نشهد ﴾ : نخلف ، ولا شك أن الحلف والشهادة  
 كل فيهما إثبات لأمر معين . ﴿ جنة ﴾ : سترة ووقاية . ﴿ فطبع ﴾ : ختم عليها بالخاتم . ﴿ خشب  
 مسندة ﴾ : أي خشب ممالة إلى الجدار . ﴿ قاتلهم ﴾ : لعنهم وطردهم . ﴿ يؤفكون ﴾ : يصرفون  
 عن الحق إلى الباطل . ﴿ لووا رؤوسهم ﴾ : عطفوها وأمالوها إلى غير جهة . ﴿ ينفضوا ﴾ :  
 يتفرقوا . ﴿ العزة ﴾ : العزة .

روى البخاري عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول :  
 « لا تنفقوا على من عند رسول الله حين ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها  
 الأذل » فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي  
 وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، وصدقهم رسول الله ﷺ وكذبني ، فأصابني هم لم يصبني مثله ، فجلست  
 في بيتي فأنزل الله - عز وجل - : « إذا جاءك المنافقون - إلى قوله - هم الذين يقولون لا تنفقوا على من  
 عند رسول الله - إلى قوله - ليخرجن الأعز منها الأذل » . فأرسل إلي رسول الله ﷺ ثم قال :  
 « إن الله صدقك » (١) .

(١) رواه البخاري في صحيحه في ( كتاب التفسير ) تفسير سورة المنافقون - ح ٣ ص ٢٠٢ ( أنظر صحيح البخاري بحاشية السندی )



أضواء كاشفة :

إذا جاءك المنافقون وحضروا مجلسك قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله حقاً والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، فالتكذيب من الله لهم ليس لقولهم : إنك لرسول الله ولكنه راجع إلى ادعائهم الصدق والموافقة في الشهادة بين اللسان والقلب ، ولا شك أنهم كاذبون في قولهم هذا لأنهم لا يؤمنون به بناء على أن الكذب ما خالف الاعتقاد .

اتخذوا أيمانهم التي تعودوا الحلف بها كذباً ، اتخذوها جنة لهم ووقاية ، فهم كلما ظهر منهم شيء يوجب المؤاخذة حلفوا عليه كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم - كما روى البخاري في سبب النزول - واتخاذ الأيمان جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا ويتخلصوا من المؤاخذة ، فهم صدوا عن سبيل الله من أراد الدخول في الإسلام واستمروا على ذلك ، وقرىء ﴿ إيمانهم ﴾ والمراد ما كانوا يظهرونه من إسلام ليكون وقاية لهم من القتل أو الأسر ، إنهم ما كانوا يعملون من النفاق وما يتبعه .

ذلك - والإشارة إلى أنهم أسوأ الناس عملاً ، أو إلى ما حكى من نفاقهم وكذبهم وأيمانهم - بسبب أنهم آمنوا نفاقاً وكذباً ، ثم كفروا ، أي : ظهر كفرهم من أقوالهم ، وأفعالهم ، فطبع على قلوبهم وختم عليها بالخاتم حتى لا يدخلها نور الحق ، فهم لا يفقهون الحق والطريق السوي . وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم لقوتها وتناسب أعضائها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم لفصاحته وذلافة ألسنتهم وحسن كلامهم في الدنيا ، والخطاب في الآية لكل من يصلح للخطاب ، وهو لسيد المخاطبين ﷺ وكانوا يحضرون مجلس الرسول كأنهم خشب مسندة ، شبهوا بهم جالسون مستندون إلى الخائط بالخشب المسندة ؛ إذ لا روح فيهم يعقل ، ولا بصيرة تبصر الخير والحق ، فهم كما نقول : نضد أو كراسي .

وهم لفرط هلعهم وشدة خوفهم من أن ينزل فيهم قرآن يفضحهم ، وسوء طويتهم ، يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، هم العدو الكاملون في العداوة ، إذ لا أحط من العدو المنافق الذي يضحك لك ، وقلبه يتميز غيظاً منك ، فاحذرهم لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تقربهم ، قاتلهم الله ، أي : لعنهم وطردهم من رحمته ، والكلام دعاء وطلب من ذاته - تعالى - أن يلعنهم هو ويطردهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يدعوا على المنافقين بذلك ... أنى يؤفكون ؟ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر الذي هم فيه .

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم عما فرط منكم أشاحوا برءوسهم وعطفوها كبراً وإعراضاً عن هذا الطلب واستهزاءً به ! ... ورأيتهم يصدون جاهدين عن سبيل الله غيرهم وهم مستكبرون .

سواء عليهم استغفارك لهم وعدمه فإنهم لن يتتبعوا به ولن يؤمنوا ؛ لأن الله لن يغفر لهم ؛ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، ولا غرابة في وصفهم بالفسق والخروج عن حدود الدين والعرف ، فهم يقولون لأصحابهم من الأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله من المهاجرين حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ؟ عجباً هؤلاء ؟ : أما علموا أن في السماء الرزق وأن لله خزائن السموات والأرض وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ، يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة من غزوة بني المصطلق ليخرجن الأعز منها - أرادوا أنفسهم - الأذل من المهاجرين وأصحاب رسول الله بثما قالوا ، والحال أن العزة والقهر والغلبة لله على أعدائه ، ولرسوله العزة بنصرة دينه وإظهاره على الأديان كلها ، وللمؤمنين العزة بنصرهم على أعدائهم وخاصة من يقول هذا الكلام السابق ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك .

أرأيت إلى المنافقين وإيمانهم الكاذب وإيمانهم وشهادتهم ؟ والله يعلم إنهم لكاذبون - انظر إليهم وقد اتخذوا أيمانهم جنة لهم ، وقد صدوا عن سبيل الله وساء عملهم ، وهم في المجالس كالخشب المسندة ويظنون أن كل صيحة واقعة عليهم ، وهم الذين يدعون غيرهم إلى الإمساك والشح لقصر عقولهم ، ويتعاهدون على إخراج المؤمنين ، معترزين بالباطل والغرور ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿١﴾ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴿٢﴾ .

### كلمة عن النفاق

النفاق : ضد الإخلاص .. فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين وتتهار القواعد ويهتز المجتمع . فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس في بناء النفوس : فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس .

والنفاق : ضد الإيمان ، والمنافقون - في كل زمان ومكان - عالة على المجتمعات في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة .

﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليحص ما في قلوبكم ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ يأيا الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ ﴿٤﴾ .

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة النساء

(٢) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية : ١٥٦ من سورة آل عمران .

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾<sup>(١)</sup>.

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق في تشييط المهم وتحبيط العزائم : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾<sup>(٢)</sup>.

إن الله - جل جلاله - يحب المخلصين ويبغض أهل الرياء المنافقين ، لقد حكم بالعذاب في جهنم على نماذج من الناس : أقواهم معسولة وقلوبهم أمر من الصبر .. يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً .. ملاك في مظهره ، شيطان في مخبره ... يلقاك بوجه أبي ذر وقلب أبي جهل . يقول الله - جل في علاه - : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾<sup>(٣)</sup>.

### أقسام النفاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق في العقيدة : يضرر صاحبه الكفر في قلبه ويظهر الإسلام على لسانه . ونفاق في العبادة : يدخل منها على حرف غير متمكن ولا مثبت . ونفاق في المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخلاق الإسلامية . وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة في بيان هذه الأقسام ، والتحذير منها ، نوضحها فيما يلي :

### النفاق في العقيدة

يقول - جل جلاله - في هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾<sup>(٤)</sup>.

ثم تبين الآيات الكريمة أن ما أصاب هؤلاء ليس مرضاً جسمانياً في عضو من أعضائهم ، أو مرضاً فسيولوجياً في قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض ... إنه مرض النفاق : ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) الآية : ١٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٠ من سورة البقرة .

ثم يشرح القرآن أعراض هذا المرض ويحكم على كل عرض منه ، فيقول عن هؤلاء : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾<sup>(١)</sup>.

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾<sup>(٢)</sup>.

ثم يذكر عرضاً آخر فيقول :

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾<sup>(٣)</sup>.

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾<sup>(٤)</sup>.

ثم يذكر عرضاً ثالثاً فيقول :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾<sup>(٥)</sup>.

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾<sup>(٦)</sup>.

ثم يحكم على هؤلاء جميعاً بقوله - جل شأنه - :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾<sup>(٧)</sup>.

ثم يصورهم في مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخالص ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تتفتح فيها نافذة تضيء لها طريق المعرفة ، فيقول - تعالى - :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون \* صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾<sup>(٨)</sup>.

والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ، ولا يشتنون على مبدأ ، فهم في غيهم يترددون ... ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول :

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين \* يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا

(١) الآية : ١١ من سورة البقرة .

(٢) الآية : ١٢ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ١٣ من سورة البقرة .

(٤) تكلمة الآية : ١٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٤ من سورة البقرة .

(٦) الآية : ١٥ من سورة البقرة .

(٧) الآية : ١٦ من سورة البقرة .

(٨) الآيتان : ١٧ ، ١٨ من سورة البقرة .

أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴿١﴾.

وتأتي سورة «النساء» لتضيف إلى هذه الأعراض التي ذكرناها أعراضاً أخرى لمرض النفاق .. ففي موطن الجهاد والخروج إلى القتال يقول الله في حق هؤلاء :

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً \* ولن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ (٢).

ويحكم الله على هذا الفريق بقوله :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً \* الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً \* وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً \* الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ (٣).

إذاً : فحياة هؤلاء استغلال وانتهاز الفرص ، وأنانية ، وحقد وحسد .

ثم يذكر القرآن عرضاً آخر لهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول - سبحانه - :

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً \* مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ (٤).

ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجادة فيقول :

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ (٥).

وبعد أن شخّص الكتاب العزيز هذا الداء الويل : وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستفحلاً ، ومهما سرى سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء .. إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل في :

التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله وإصلاح بين الناس واعتصام بحبل الله وإخلاص لدين الله ، قال - عز من

قائل :

(١) الآيات : ١٩ ، ٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٧٢ ، ٧٣ من سورة النساء .

(٣) الآيات : ١٣٨ - ١٤١ من سورة النساء .

(٤) الآيات : ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٥) الآية : ١٤٥ من سورة النساء .

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾<sup>(١)</sup>.

### نفاق العبادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الواثق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خيرٌ من مال وولد وصحة وجاه اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابهم فتنة من مرض أو فقر أو ابتلاء انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون الله حقاً ، ولا لرسوله واجباً . لقد صورت الآية هؤلاء تصويراً قوياً ، فقال - سبحانه - :

﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾<sup>(٢)</sup>.

هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهي صفة الوفاء ، التي إذا فقدتها الإنسان أصبح جسداً لا روح فيه .

### النفاق رذيلة والإخلاص فضيلة

من المعلوم الثبوت أن النفاق مرض خطير من أمراض القلوب ، فما هو الحل السليم والقويم لإصلاح القلوب ؟ إنه بناء النفوس على البر والتقوى ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ نقول - وبالله التوفيق - : الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصراً ومع الضيق فرجاً ، ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسراً ، وجعل لكل بداية نهاية : فالليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلا بد من دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من استغفره ألبسه ثوب العزة وأغناه عن الناس .. قيل لتقي الدين الحسن البصري - رضي الله عنه - : ما سر زهدك في الدنيا ؟ فقال : أربعة أشياء : علمت بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علي فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله ! يا أبا الإسلام :

سهرت أعين ونامت عيون      في شغون تكون أو لا تكون  
إن رباً كفاك بالأمس ما كان      سيكفيك في غدٍ ما يكون

(١) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .

(٢) الآية : ١١ من سورة الحج .

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، وقف مواقف الأبطال في ساعات الشدة .. فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف في حومة الوغى ، يدفعه إيمانه وتحفزه عقيدته يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى      ولك الكتاب الخالد الصفحات

من يقصد الدنيا بغيرك يلقها      تيهاً من الأهوال والظلمات

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناخت على الأيك الحمام .  
أما بعد :

فقد أقيمت نظرة في رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجاء الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التي تخدع النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلغ مداه في الأعماق ، فانصرفت بعض النفوس عن طريق الجادة وتنكبت نفوس أخرى الصراط السوي ، فاهتزت واضطربت تلك .. ذلك لأن الدنيا إذا تملك النفوس ، وتربعت على عرش القلوب : حجبتها عن رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة : مرة تتخبط في دياجير الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى .. فهي في حالة السراء جاحدة ، وفي حالة الغداء يائسة ، وكلا الأمرين أحلاهما مر :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً \* إذا مسه الشر جزوعاً \* وإذا مسه الخير منوعاً ﴾<sup>(١)</sup> . ثم استثنى الله - جل شأنه - من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين : الدنيوية والأخروية ، فقال في شأنه :

﴿ إلا المصلين \* الذين هم على صلاتهم دائمون \* والذين في أموالهم حق معلوم \* للسائل والمحروم \* والذين يصدقون بيوم الدين \* والذين هم من عذاب ربهم مشفقون \* إن عذاب ربهم غير مأمون \* والذين هم لفروجهم حافظون \* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين \* فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون \* والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون \* والذين بشهاداتهم قائمون \* والذين هم على صلاتهم يحافظون \* أولئك في جنات مكرمون ﴾<sup>(٢)</sup> .

يا أخا الإسلام :

قد يكون بناء القصور وتشيد البروج وناطحات السحاب أمراً سهلاً يرجع إلى المهارة في فن العمارة ، ولكن : ما أصعب بناء النفوس ؛ فإن بناءها سر من الأسرار الذي لا يقوى عليه إلا الذين صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله .. إذ أن هذه رسالة الأنبياء ، وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .

(١) الآيات : ١٩ - ٢١ من سورة المعارج .

(٢) الآيات : ٢٢ - ٣٥ من سورة المعارج .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشبيدها على أساس الحق ، وتركيتها بالصلاح والطهر ، مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من أعز الأهداف .. وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في مسجد النبي - صلوات الله عليه - يقول لبعض الصحابة : « ليذكر لي كل منكم أعظم شيء يتمناه ، قال أحدهم : أتمنى أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى أن يكون لي ملء المدينة خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : أتمنى أن يكون لي ألف عبد أعنتهم ابتغاء مرضاة الله .. وأخذ كل منهم يذكر ما يتمنى ، وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - !

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم ؛ فأمثال أبي بكر - من ذوي النفوس المطمئنة ، والأفتدة البصيرة ، هم الذين يملأون الكون أمناً وسلاماً ورحمة ووثاماً وإعزازاً وإكراماً ... لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها ، والرسول أستاذها ... نفوس كان أساسها توحيد الله ، وسلوكها طاعة الله !

إنه اليقين إذ عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس !

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾<sup>(١)</sup>.

وما أعظم الإيمان في بناء النفوس ، وما أجل رسالة التوحيد في تقويمها :

﴿ ونفس وما سواها \* فأنهها فجورها وتقواها \* قد أفلح من زكاها \* وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٢)</sup>.

« فاللهم إنا نسألك العافية في الدين والدنيا ، والعصمة من كل ذنب ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر .

### العقيدة وأثرها في التربية

إذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة في الاقتناع فإنها تصير أشد ثباتاً من الجبال الشم ، والرواسي الشامخات ، وإن أجل مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يوم أحاطت به الأشرار تحاول أن تطفئ جذوة الإيمان ، فماذا قال ؟ قال كلمته المشهورة التي طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، قال بلسان الحق :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ! » .

(١) الآية : ١٩ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات : ٧ - ٩ من سورة الشمس .



صدقت يا سيدي يا رسول الله حين قلت ، وعدلت حين حكمت ، وصبرت حتى ابتليت ، وشكرت عندما أعطيت ، وغفرت حينما ظلمت .. فعليك صلاة الله وسلامه ، يا من قلت :  
« اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

إن أثر العقيدة في التربية بعيد المدى شديد القوى .. فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تتعباً بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقيل ، لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق : ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾<sup>(١)</sup>.

ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا يحدث فيه حدث - صغير أو كبير - إلا بإذن الله :

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ﴾ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال \* سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾<sup>(٢)</sup>.

### التربية في مكة

إن الناظر المتأمل في الفترة التي قضاها الرسول ﷺ في مكة بعد البعثة - وهي ثلاثة عشر عاماً - يجد أنها قامت في نهجها على أساسين أكيدتين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتتركز في الدعوة إلى الوجدانية ، والإيمان بالبعث .

المبدأ الثاني : يشمل في تركية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ، وفي ذلك المبدأ يقول القرآن الكريم :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرنى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون \* وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾<sup>(٣)</sup>.

(١) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآيات : ٨ - ١٠ من سورة الرعد .

(٣) الآيات : ١٥١ - ١٥٣ من سورة الأنعام .

## مبدأ التوحيد

وفي مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحة الحازمة ، القطعية الثبوت . وليس ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة .. قال - جل شأنه - :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾<sup>(١)</sup>.

وخاطب القرآن ذوي الأفهام الباصرة فقال - سبحانه - :

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سيلاً \* سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال - تعالى - وهو يخاطب ذوي العقول والبصائر :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثم يؤكد هذا الجانب تأكيداً ينسجم تمام الانسجام مع ذوي الألباب فيقول - سبحانه - :

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون \* عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾<sup>(٤)</sup>.

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خلقتك ؟ لقال : أنا مخلوق للوحد الديان ! فما هذه المبدعات الإلهية والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال بأن الله واحد لا شريك له :

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً \* قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهمكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾<sup>(٥)</sup>.

واسمع إلى قوله - جل جلاله - :

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) من الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

(٥) الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ من سورة الكهف .

(٦) الآية : من سورة لقمان .

أخا الإسلام :

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك  
 عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك  
 على قضب الزبرجد شاهداث بأن الله ليس له شريك  
 وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولداً ، فقال - سبحانه - :  
 ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ (١).

وقال جل في علاه :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ لقد جنم شيئاً إذّا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض  
 وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾ (٢).  
 وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور التوحيد فقال - سبحانه - :  
 ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجباً . يهدي إلى الرشd فأمانا به ولن نشرك بربنا أحداً . وأنه تعالى جد ربنا  
 ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ (٣).

والله - جل جلاله - تنزه عن الجسمية ، فليس - سبحانه وتعالى - بجسم ، ولا معدود ، ولا  
 محدود ولا متبعض ، ولا متجزئ ولا متلون ، ولا متكيف ، ولا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق  
 الزمان ، ولا بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك : فالله - تعالى - بخلاف ذلك .. وفي  
 ذلك يقول - تبارك وتعالى - قولاً فصلاً :

﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ (٤).

والوحدانية : هي نداء الفطرة السليمة التي لم تكدرها انحرافات الهوى ولم تغيرها اتجاهات مريضة .  
 وكأنى بذلك الأعرابي الذي كان له صنم يعبده ويقدم له واجبات التقديس والولاء .. يأتي ذات  
 يوم ليسجد أمام صنمه فيجد به بللاً غزيراً ، فيقف عاجباً : ما الذي أحدث البلل بهذا المعبود ؟  
 ويلتفت حواليه ، فيجد ثعلبين يلعبان بالقرب منه ، فيعلم أنهما ( بالاً ) على صنمه !!  
 وعندئذ عاد إلى فطرته السليمة ، وأنشد قائلاً :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذل من بالث عليه الثعالب  
 فلو كان رباً كان يمنع نفسه فلا خير في رب نأته المطالب  
 برئت من الأصنام في الأرض كلها وآمنت بالله الذي هو غالب

(١) من الآية : ١٠١ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات : ٨٨ - ٩٢ من سورة مريم .

(٣) الآيات : ١ - ٣ من سورة الجن .

(٤) من الآية : ١١ من سورة الشورى .

## كل مولود يولد على الفطرة

لقد أخبر الصادق الأمين عليه السلام بأن :

« كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه »<sup>(١)</sup>.

ويقول ربنا - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي الجليل :

« إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »<sup>(٢)</sup>.

أخا الإسلام :

يكفي كلمة التوحيد شرفاً وقدرأ أنها رسالة الأنبياء جميعاً ، قال - تعالى - :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾<sup>(٣)</sup>.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله »<sup>(٤)</sup>.

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيماناً لا حدود له بأن الله خالق كل شيء ومقدره . يقول

- تعالى - في الحديث القدسي الجليل :

يؤذيني ابن آدم : يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »<sup>(٥)</sup>.

فليس لنا أن نلقي باللائمة على الأيام والليالي ، فإنها من خلق الله وهذا معنى قوله - تعالى - في

الحديث : « وأنا الدهر » أي خالقه :

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾<sup>(٦)</sup>.

﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾<sup>(٧)</sup>.

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾<sup>(٨)</sup>.

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب القدر ) باب - غنى ( كل مولود يولد على الفطرة ... الخ ) ص ٧٢٠ ، ٧٢١ رقم ١٧٠٢ من حديث أبي هريرة .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ) باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ح ١٧ ص ١٩٧ - ١٩٩ وهو جزء حديث طويل من رواية عياض بن همار الجاشعي - رضى الله عنه .

(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٤) هذا جزء حديث رواه الإمام مالك في موطئه في ( كتاب الحج ) باب : جامع الحج من رواية طلحة بن عبيد الله بن كريب ( أنظر تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي ح ١ ص ٣٦٩ طبع مطبعة صبيح ١٣٥٣ هـ )

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ) باب النهي عن سب الدهر ص ٥٨٤ رقم ١٤٤٩ من رواية أبي هريرة - رضى الله عنه .

(٦) الآية : ٦٣ من سورة الزمر .

(٧) الآية : ٤٤ من سورة النور .

(٨) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

أخا الإسلام :

عش راضياً واترك دواعي الألم      واعدل مع الظالم مهما ظلم  
نهاية الدنيا فناء فعش      فيها كريماً واعتبرها عدم

### العقيدة الصحيحة

العقيدة الصحيحة : هي التي لا يخالج قلب صاحبها شك في قدرة الله وعظمته ، ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا - جل في علاه - يقول فيه :

﴿ كذبي ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ، أما تكذبه إياي فقله : لن يعيدني كما بدأتي ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادتهم ، وأما شتمه إياي فقله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد ﴾<sup>(١)</sup>.

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له      طوبى لمن غاش بين الناس يهواك  
أني لأعجب ممن قد رأى طرفاً      من فيض جودك -ربي- كيف ينساك  
والله ما سعدت روحي ولا فرحت      في الدهر -ما بقيت- إلا بذكراك!

والعقيدة الصحيحة تقتضي من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله : فالله هو الخالق الذي لا يشاركه في خلقه أحد ، فمن أسند الأمور لغير الله في إيجادها وتقريرها وتديرها وتصريف شؤونها فقد أصيب في عقيدته بما يدعوه إلى وجوب تصحيحها :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد جاء في الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهني - رضي الله عنه - قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من المدينة ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال لهم : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب »<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر إلى فضل الله ورحمته كانوا مؤمنين بالله :

﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) انظر صحيح البخاري بحاشية السندی ( كتاب التفسير ) باب تفسير : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ح ٣ ص ٢٢٣

(٢) الآية : ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٣) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإيمان ) باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ح ١ ص ١٤ رقم ٤٦

(٤) الآية : ٢٨ من سورة الشورى .

وأما الذين أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوي ؛ وغيرها من المخلوقات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ، فهي من باب أولى غيرها كذلك .

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾<sup>(١)</sup>.

أخا الإسلام :

كن عن همومك معرضاً	وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة	تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق	وربما ضاق الفض
ولرب أمر مسـخط	لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء	فلا تكن متعرضاً

العقيدة ومراقبة الله تعالى

أخي القارئ الكريم :

لما كانت العقيدة هي مركز الدائرة الذي تدور حوله شعائر العبادات ، ومبادئ الأحكام وقواعد النظام فقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يحيط ذلك المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا يستطيع الشك أن يلقى ببذوره في ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المنيع ، اقرأ معنى قول الله تبارك وتعالى حيث يؤكد لعباده أنه محيط بكل شيء :

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾<sup>(٢)</sup>.

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله - تعالى - وهيمنة سلطانه ، وإطلاعه على الخفايا والأسرار ومكنون الصدور والأخبار ، ثم اقرأ قوله - جل شأنه - :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾<sup>(٣)</sup>.

ثم اسمع إلى موسى وهارون عليهما السلام . وهما يقولان لرب العزة : ﴿ ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) من الآية : ٤ من صورة الحديد .

(٤) الآية : ٤٥ من سورة طه .

فإذا قال لهما عالم الغيب والشهادة : ﴿ قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ (١).  
وما أجلّ قوله - تعالى - في الحديث القدسي الجليل : ﴿ ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن ﴾ (٢).

فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التي تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح - فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيز بالله منه ولا يعبأ بوساوسه : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ (٣).

يقول - صلوات الله وسلامه عليه - : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته » (٤).  
وفي حديث آخر : « هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً : فليقل آمنت بالله » (٥).

### الداء والدواء

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذباية تحاول أن تحجب بجناحها ضوء الشمس أو نور القمر ، وما يكون كيده بإزاء قلب امتلاً بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغير أو يبدل هذه القلوب فإن مثله كباسط كفيه إلى الماء ليلغ فيه ، وسرعان ما يندحر مخذولاً محسوراً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، أو كسراب بقية يحسبه الظمان ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الله ربي لا إله سواه      هل في الوجود حقيقة إله ؟  
يا من له وجب الكمال لذاته      الكل غاية فوزهم لقياه !

### الإيمان والإخلاص

**الإخلاص :** شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

(١) الآية : ٤٦ من سورة طه .

(٢) أنظر كشف الخفاء للعجلوني ح ٢ ص ٢٧٣ رقم ٢٢٥٦ وقال : ذكره في الإحياء وقال العراقي : لم أر له أصلاً .

(٣) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .

(٤) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإيمان ) باب الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ح ١ ص ٢٦ رقم ٨٢ من رواية أبي هريرة .

(٥) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الإيمان ) بيان الوسوسة في الإيمان ح ٢ ص ١٥٣ فقد رواه من حديث أبي هريرة .  
وأول التحديث : « لا يزال الناس ينسألون ، حتى يقال : هذا خلق الله ... »

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

القلوب المخلصة ترسل أشعتها ففضيء للناس طريق النجاة ، والقلوب المرائية تفرز سواداً قاتماً وظلمة حالكة تتعثر المجتمعات في سرايب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص فقال للمبعوث رحمة للعالمين : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال : ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ \* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال : ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقال - سبحانه - ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

فالإخلاص : هو الروح السارية في الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها .

وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾<sup>(٥)</sup> .

وألقى القرآن باللوم الشديد والزرع العنيف على هؤلاء الذين يراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله فقال - سبحانه - : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ \* الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ \* الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> .

فما هو الإخلاص ؟

الإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجه الله وحده لا شريك له ، ومن ثم فقد أوصى الله رسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطاً ﴾<sup>(٧)</sup> .

وقطع القرآن الحيل المراوغة التي أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال في كتابه العزيز :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾<sup>(٨)</sup> .

(١) الآية : ٢ من سورة الزمر .

(٢) الآيتان : ١١ ، ١٢ من سورة الزمر .

(٣) الآية : ١٤ من سورة الزمر .

(٤) من الآية : ٥ من سورة البينة .

(٥) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .

(٦) الآيات : ٤ - ٧ من سورة الماعون .

(٧) الآية : ٢٨ من سورة الكهف .

(٨) من الآية : ٥٢ من سورة الأنعام .



وأوصاه بهم خيراً فقال : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾<sup>(١)</sup>.  
 لقد كان الرسول ﷺ ييسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحباً بهم فيقول :  
 ( مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً ) .  
 وهذه درجات المخلصين بيننا رسول الله ﷺ فيقول : « طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح  
 الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء »<sup>(٢)</sup>.

### إنما الأعمال بالنيات

عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال  
 بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن  
 كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »<sup>(٣)</sup>.

وليس أمر الإخلاص في النية قاصراً على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت ، فالناس  
 يبعثون على ما ماتوا عليه ، فإن كانت نياتهم مخصصة لله بعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب  
 الله ، وإن لم تكن النيات مخصصة فالويل والعذاب .

قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : قال رسول الله ﷺ : « يغزو جيش الكعبة : فإذا  
 كانوا بببءاء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت : يارسول الله ؛ كيف يخسف بأولهم  
 وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ، ثم يبعثون على نياتهم »<sup>(٤)</sup>.

تأمل الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذي سيجزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق  
 ما يريد من البغي والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هي التي ستكون فيصلاً حاسماً  
 وجازماً في الأمر ، وإن كان الجميع قد مات إلا أن مدار الجزاء على النية ، فالنية السيئة تهوي بصاحبها  
 إلى أسفل الدرجات ، والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجات .

بل لقد شاء الله الكريم بفيضه وجوده أن يجري الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن  
 يشاركون في الأعمال الجليلة ؛ لأن الأعذار منعتهم وكان في نياتهم لو استطاعوا لفعلوا ، هذا رسول الله  
 ﷺ يخبر أصحابه فيقول لهم وهم في إحدى الغزوات : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم  
 وأدياً إلا كانوا معكم : حبسهم المرض »<sup>(٥)</sup>.

(١) من الآية : ٥٤ من سورة الأنعام .

(٢) انظر حلية الأولياء ح ١ ص ١٦ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإمارة ) باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنية ... الخ ، ح ٢ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ رقم ١٢٤٥ .

(٤) انظر اللؤلؤ والمرجان ح ٣ ص ٨٠٩ رقم ١٨٣١ ( كتاب الفتن وأشرط الساعة ) باب الخف بالجيش الذي يؤم البيت .

(٥) أنظر سنن ابن ماجه ( كتاب الجهاد ) باب من حبسه العذر عن الجهاد ح ٢ ص ٩٢٣ رقم ٢٧٦٤ من رواية أنس بن مالك ،

ورقم ٢٧٦٥ من رواية جابر ، إلا أنه قال في آخر الحديثين : « حبسهم العذر » وأنظر صحيح البخاري طبع الشعب ح ٤

ص ٣١ وصحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ح ٣ ص ١٥١٢ رقم ١٥٩ ، ١٩١١

وفي رواية «إلا شاركوكم في الأجر»<sup>(١)</sup>.

ولذا قال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسوما وسرنا نحن أوراها  
لقد أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

والإخلاص في النفقة حتى على أهل الذين تجب لهم النفقة يجعل لصاحبها ثواب الصدقة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها : كانت له صدقة »<sup>(٢)</sup>.

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة وأجر وثواب وذخر ، وها هو ذا سعد بن أبي وقاص يروي لنا هذا المشهد فيقول : « جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يا رسول الله : إني قد بلغني من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلاثي مالي ؟ قال : لا ، قلت فالشطر يا رسول الله ؟ فقال : لا . قلت : فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث والثلث كثير - أو كبير - إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في ( في امرأتك »<sup>(٣)</sup> أي : فمها .

ولكون الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة - رضي الله عنه - يروي فيقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »<sup>(٤)</sup> رواه مسلم .

ولقد كان المسيح - عليه السلام - يقول : « يا بني إسرائيل : لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بخشية الله » .  
أخا الإسلام :

ودع الكذب فلا يكن لك صاحباً إن الكذب يشين حراً يصحب

(١) هذه الرواية هي الثانية في المصدر السابق ( ابن ماجه ) رقم ٢٧٦٥

(٢) أنظر صحيح البخارى ( طبع الشعب ) ح ١ ص ٢٢ ( كتاب الإيمان ) باب ماجاء أن الأعمال بالنية ، من رواية أبي مسعود - رضي الله عنه .

وأنظر صحيح مسلم تحقيق عيد الباقي ح ٢ ص ٦٩٥ رقم ١٠٠٢/٤٨ من رواية أبي مسعود البدرى - رضي الله عنه .  
والنسائي ( كتاب الزكاة ) باب : أى الصدقة أفضل ؟ ح ٥ ص ٦٩ .

(٣) أنظر صحيح البخارى ، طبع الشعب ( كتاب الجنائز ) باب رضى النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن خولة ح ٢ ص ١٠٣ وصحيح مسلم تحقيق عيد الباقي ( كتاب الوصية ) باب الوصية بالثلث ح ٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١ رقم ١٦٢٨/٥

وأنظر صحيح الترمذى ( كتاب الجنائز ) باب ماجاء في الوصية بالثلث والرابع ح ٣ ص ٢٢٤ رقم ٩٨٢ رواه باختصار ، ورواه في ( أبواب الوصايا ) ح ٣ ص ٢٩١ رقم ٢١٩٩ في باب ماجاء في الوصية بالثلث ، ذكره بطوله .

وفي سنن النسائي في ( كتاب الوصايا ) باب الوصية بالثلث ح ٦ ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٤) صحيح مسلم تحقيق عيد الباقي ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب تحريم ظلم المسلم ... الخ ، ح ٤ ص ١٩٨٧ رقم

يلقاك يقسم أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب  
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب  
صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من قلت : ( ولكن ينظر إلى قلوبكم ) .

فقد قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : « الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده »<sup>(١)</sup> .  
أخا الإسلام :

إذا المرء لا يلقيك إلا تكلفاً فدعه ولا تكثر عليه التأسفا  
فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفا  
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير في ود يجيء تكلفاً  
ولا خير في خل يخون خليله ويلقاه من يعد المودة بالجفا  
وينكر عيشاً قد تقادم عهده ويظهر سراً كان بالأمن في خفا  
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق وفي يصدق الوعد منصفاً

صدقت يا سيدي يا رسول الله يا من قلت : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي »<sup>(٢)</sup> .

ويا من قلت : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال »<sup>(٣)</sup> .

### الإخلاص في الجهاد

إن الإخلاص يأخذ مكانته اللاتقة به في كل شيء بل وفي أخطر الأشياء : في الجهاد الذي نسترخص الأرواح في أسواقه ، والذي نجود فيه بالمهج والنفوس .

لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا

(١) رواه الغزالي في إحياء علوم الدين ( باب فضيلة الإخلاص ) ح ٤ ص ٣٧٦ بلفظ : « يقول الله تعالى : ﴿ الإخلاص من سرى ، استودعته قلب من أحببت من عبادي ﴾ عن الحسن مرسل .

قال العراق : حديث الحسن مرسل رويناه في جزء من مسلسلات القزويني . ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — بسند ضعيف .

(٢) أنظر سنن أبي داود ( كتاب الأدب ) باب من يؤمر أن يجالس ح ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ والحديث من رواية أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه ، وأنظر سنن الترمذي ( كتاب الزهد ) باب ما جاء في صحبة المؤمن ح ٤ ص ٦٠٠ ، ٦٠١ رقم ٢٣٩٥ وقال الترمذي : هذا حديث حسن — ورواه أحمد في مسنده ٢٨/٣ وابن حبان ٢٨٣/١ برقمي ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

(٣) الحديث في سنن أبي داود في ( كتاب الأدب ) باب من يؤمر أن يجالس ح ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ من رواية أبي هريرة — رضي الله عنه .

ورواه الترمذي في سننه في ( كتاب الزهد ) ح ٤ ص ٥٨٩ رقم ٢٣٧٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

استنفرتم فانفروا»<sup>(١)</sup>. أي : لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ولكن الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، جهاد النفس ، جهاد السيف .

استمع إلى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وهو يُسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح :

عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - وقال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ، ويقاتل حميه ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » متفق عليه .

### الإخلاص في الصلاة

ونتقل الآن من دور الإخلاص في ساحة الجهاد. وميادين القتال إلى دوره في الصلاة وكثرة الخطأ إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - فيقول :

( صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه »<sup>(١)</sup> .

تعال يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الرباني وترشف من هذا الرحيق الصافي ، من الكوثر

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الإمارة ) باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ح ١٣ ص ٧ ، ٨ فقد

رواه عن ابن عباس - رضي الله عنهما .  
ورواه ابن حبان في صحيحه ح ٧ ص ١٥٧ من حديث ابن عباس ، ص ١٧٩ من حديث عائشة - رضي الله عنها .  
ورواه أحمد في مسنده ٤٢٦/١ عن ابن عباس ، ٤٦٦/٦ عن صفوان بن أمية

المعسول ، والكرم الإلهي ، إليك ما قاله رسول الله ﷺ عن فضل الله العلي العظيم - جل جلاله - في الحديث القدس الجليل حيث يقول : « إن الله كتب الحسنات والسيئات » .

ثم بين ذلك : ( فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله - تبارك وتعالى - عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله - تعالى - عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها بعملها : كتبها الله سيئة واحدة » <sup>(١)</sup> .  
فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس .

فما أعظم الإيمان في بناء النفوس .

فعليك يا أخي بالإخلاص لله في السر والعلن ..

إن الله عبادةً فطنوا      طلقوا الدنيا وخافوا الفتنة  
نظروا فيها فلما علموا      أنها ليست لحى سكننا  
جعلوها لجة واتخذوا      صالح الأعمال فيها سفنا

### كلمة عن الوفاء

إذا : وجب علينا أن نعقب على هذا الجانب بكلمة عن الوفاء ؛ لعظيم أثره وجليل خطره ، خصوصاً إذا كان مع الله ، فنقول وبالله التوفيق : إن الله - جل جلاله - أوصى في كثير من آياته بالوفاء في جميع العهود وشتى العقود فقال - سبحانه - : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ <sup>(٢)</sup> ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقد أخذ مولانا - تبارك وتعالى - عقوداً على عبادة وعهوداً على خلقه فأول عقد أبرم : ذلك الذي شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذي لا شريك له ، وكان ذلك لعموم البشرية يختلف أشكالها ونماذجها ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وأخذ مولانا - تبارك وتعالى - عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا ذلك الرسول - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - الذي سيختم الله به الرسالات ، ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركوا زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإيمان ) باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ... الخ ح ١ ص ٢٥ ، ٢٦ رقم ٨١

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الإسراء .

(٣) من الآية : ١ من سورة المائدة .

(٤) الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشهود \* فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الكافرون ﴿١﴾

وأخذ الله على العلماء عهداً ، وأبرم معهم عقداً أن يبينوا للناس منازل إليهم من ربهم ولا يكتموا منه شيئاً فقال - سبحانه - : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ ﴿٢﴾ .

### الوفاء بالعهد

وهناك عقود كثيرة - غير هذه - أوصى الله برعايتها وصيانتها فقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ ﴿٣﴾ .  
وقال - جل شأنه - : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾ ﴿٤﴾ .

فإذا أبرم المسلم عقداً ، وجب احترامه ، وإذا أعطى عهداً . وجب الإلتزام به .  
ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه فيعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثقة لا خوف من نقضها ولا مطمع في اصطيلها .

ولا بد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لا بد من البر باليمين ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مآثم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير » ﴿٥﴾ .

ومن ثم فلا تعهد إلا بمعروف ... فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته في إمضائه مادامت فيه عين تطرف ، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والإنشاء ...

(١) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ٩١ من سورة النحل .

(٤) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٥) هذا جزء حديث في اللؤلؤ والمرجان قاله النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمره ح ٢ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ رقم ١٠٧١ ورواه أبو داود في سننه جزء حديث عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - في ( كتاب الإيمان والنور ) باب اليمين في

قطيعة الرحم ح ٣ ص ٢٢٨ رقم ٣٢٧٤

ورواه ابن ماجه في سننه في ( كتاب الكفارات ) باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ح ١ ص ٦٨١ رقم ٢١٠٨

من رواية عدى بن حاتم .

سبحانك ربّي عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت قدرتك ، ووسعت رحمتك ...  
 ما أجل الوفاء بالعهد ! ومن أعظم وفاء من الله بتنفيذ عقده الذي عقده مع المؤمنين !؟ عقد بيع وشراء . أعطاهم الجنة بعدما اشترى منهم الأنفس والأموال وهي ملكه وهو خالقها . ثم قال - سبحانه - : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ .

ثم قال : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ <sup>(١)</sup> .

في مدرسة الوفاء بالعهود ترى خريجو المعاهد الإسلامية التي اتصفت بحميد السجايا وكرم الشمايل .

روى أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم « أحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعترز إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد ابن معاذ : الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها دون أحد !!! قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع ثم تقدم .. قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو بينانه ...

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : ﴿ ليجزي الله الصّديقين بصدقهـم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا الله حقه ، لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلاً ؛ لأنهم رجال أبطال وقفوا مواقف الشرف في ساعات العسرة وأوقات الشدة .  
 فعليك يا أخي أن تأخذ عنهم القادة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة - رضي الله عنهم ورضوا عنه - .

(١) من الآية : ١١١ من سورة التوبة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ( تفسير سورة الأحزاب ) ح ٣ ص ٤٧٥ طبع الحلبي فقد رواه ابن أبي حاتم ورواه الترمذي في سننه في ( كتاب التفسير ) تفسير سورة الأحزاب ح ٥ ص ٣٤٩ رقم ٣٢٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه البخاري باختصار في ( كتاب المغازی ) باب غزوة أحد ح ٣ ص ٢١ ، ( البخاري بحاشية السندی - طبع الحلبي ) .  
 والآية رقم ٢٣ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الأحزاب .

## نفاق المعاملة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق .. ويتمثل في صور سيئة تتعلق بالمعاملات ...  
لقد دلت الأحاديث الصحيحة التي رويت عن المعصوم عليه السلام أن هناك آيات وعلامات وأمارات  
من اتصف بها كان منافقاً .

وعندما نغربل هذه الصفات ونطرحها على بساط البحث نجدها تدور حول خمس صفات :

١ - إذا حدث كذب .

٢ - إذا وعد أخلف .

٣ - إذا أؤتمن خان .

٤ - إذا عاهد غدر .

٥ - إذا خاصم فجر .

ولعلك - أيها القارئ الكريم - تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين ؛  
فالمؤمن إذا حدث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أؤتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز ، وإذا خاصم لا يجور  
ولا يفجر .

قل لي بربك : لو وجدت هذه الخصال - خصال المنافقين - في أمة هل تقوم لها قائمة أو ترتفع لها  
راية ؟ اسمع معي إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبحث على الصدق ويحذر من الكذب فيقول :  
« عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق  
ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ،  
وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »<sup>(١)</sup> .  
وما أروع هذا البيان الموجز الذي وصى به الرسول الأمين - صلوات الله وسلامه عليه - أحد  
طالبى الوصية فقال له : « لا تكذب » .

ولعل الوباء الذي استشرى والخطر الذي استفحل في هذه الحياة إنما يرجع إلى أصل واحد : هو  
الكذب ، فالكذاب خائن في وعده وفي عهده وفي أمانته وفي خصومته ... لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً  
ولا للمثل العليا قدراً لأنه يعيش في هذه الدنيا عيشة السائمة لا تبغى إلا أن تأكل وتملاً جوفها وهي  
تعلم أن هلاكها في سمنها .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله - ح ٣ ص ٧٠٦ رقم ١٦٧٥ فقد  
رواه من حديث عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - بلفظ : « إن الصدق يهدي إلى البر ... الحديث »  
ورواه أبو داود في سننه في ( كتاب الأدب ) باب في التشديد في الكذب - ح ٤ ص ٢٩٧ رقم ٤٩٨٩ مع تقديم وتأخير .  
وأخرجه الترمذى في سننه ( واللفظ له ) في كتاب البر والصلة ، باب : ما جاء في الصدق والكذب - ح ٤ ص ٣٤٧ رقم ١٩٧١  
وقال : هذا حديث حسن صحيح .



الصدق من صفات الرسل : ولقد لقب الرسول ﷺ قبل رسالته بأنه : « الصادق الأمين » ...  
هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف  
الذي وقفه عليه عند الهجرة : فقد خلف علي بن أبي طالب وراءه ليؤدي الودائع إلى أهلها ؛ إذ أن  
أهل مكة كانوا لا يأمنون أحداً على ودائعهم إلا الصادق الأمين ﷺ .

ولقد مدح الله إسماعيل - عليه السلام - بقوله : ﴿ واذكر في الكتب إسماعيل إنه كان صادق  
الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ وكان يأمر أهله بالصلوة والزكوة وكان عند ربه مرضياً ﴿ (١) .  
وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين فقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا  
مع الصادقين ﴾ (٢) .

وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أهل الصدق فقال : ﴿ يتغون فضلاً من الله ورضواناً  
وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٣) .  
إذاً : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق في القول والإخلاص في العمل .

ويوم يتوفر هذا الجانب في نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه في الحياة ويستقيم خلقه بين  
الناس ...

فالصدق في الحديث مطابقة الخبر للواقع ، والصدق في الوعد : الوفاء به ، والصدق في الأمانة :  
أداؤها ، والصدق في العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق في الخصومة : قول الحق ولو على  
نفسك .

وإننا لا ننسى هذا المشهد الرائع والموقف الجليل الذي وقفته أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها -  
من رسول الله ﷺ وقد جاءها بعد ما نزل عليه الملك في « غار حراء » يأمره بالقراءة ودخل الرسول  
ﷺ على زوجته الوفية يرجف فؤاده ... فماذا كان قولها لتزيل عنه ما ألم به ؟

لقد وصفته بكريم الشمالك وحيد السجايا وقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً » ودعمت قولها  
بتلك الحشيات القوية : « إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ،  
وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق » (٤) ... صلى عليك الله يا علم الهدى ...

ما يجب أن يكون عليه المسلم :

أخي المسلم : هذه صفات الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح الكرامة في الحياة ، ويضيئوا

(١) الأيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم .

(٢) الآية : ١١٩ من سورة التوبة .

(٣) من الآية : ٨ من سورة الحشر .

(٤) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الإيمان ) باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ - ح ١ ص ٣٢ ، ٣٣ رقم ٩٩ . فقد رواه عن عائشة  
رضي الله عنها .

شموس الهداية لأقوامهم ، ولكي يكون الإنسان من هؤلاء لا بد أن يكون وفياً بعهده ، ولكي يكون كذلك لا بد وأن يلتزم بعنصرين :

العنصر الأول : الذكر .

العنصر الثاني : قوة العزيمة .

ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : ﴿وبعهد الله أوفوا ذلكم وصكم به لعلكم تذكرون﴾<sup>(١)</sup> .

وقال لرسول الله ﷺ ﴿فإذا عزم فتوكل على الله﴾<sup>(٢)</sup> .

وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسي العهد ، قال - تعالى - : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل

فنسى﴾<sup>(٣)</sup> .

ولقد أكد القرآن في آيات كثيرة على لفظ «الذكر» فختمها قائلاً : ﴿كذلك نخرج الموتى

لعلكم تذكرون﴾<sup>(٤)</sup> . ﴿قد فصلنا الآيت لقوم يذكرون﴾<sup>(٥)</sup> إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا قوي العزم قويت الإرادة ، فتجشم الإنسان كل الصعاب في سبيل الوفاء والأداء : قال تعالى : ﴿وما يلقها إلا الذين صبروا وما يلقها إلا ذو حظ عظيم﴾<sup>(٦)</sup> .

### الرياء وأثره في النفوس

إذا كان النفاق ضد الإيمان فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان في قلب واحد كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص في قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله ، وما يشتمل عليه من نفاق في العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو : أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله - تعالى - وفي هذا يحذر العلي العظيم هؤلاء المرائين ، فيقول في الحديث القدسي الجليل : «أنا أغنى الشركاء عن الشرك : من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه»<sup>(٧)</sup> .

(١) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ١١٥ من سورة طه .

(٤) من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٥) من الآية : ١٢٦ من سورة الأنعام .

(٦) الآية : ٣٥ من سورة فصلت .

(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الزهد) باب تحريم الرياء ح ١٨ ص ١١٥ فقد رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه -

واللفظ لمسلم .

ورواه ابن ماجه في (كتاب الزهد) باب الرياء والسمعة ح ٢ ص ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢

وجاء في الحديث أيضاً : « يخرج آخر الزمان رجال يَخْتَلُونَ الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن ، أَلَسْتُمْ أَحْلَى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : أَيْبَى يَغْتَرُونَ ؟ أم عليّ يَجْتَرُونَ ؟ فبي حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران »<sup>(١)</sup>.

ومعنى قوله : « يَخْتَلُونَ الدنيا بالدين » أي : ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين .. ومعنى قوله : « يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن » : هو كناية عن لينهم للناس ظاهراً وإضممار السوء باطناً وخداعاً ، فليس في قلوبهم محبة للعباد يحبون أنفسهم فقط ، ويخدعون الناس بإظهار حبهم قاصدين بذلك أغراضاً دنيوية كما يريدون احترام الناس لهم بتحسين ظواهرهم ، ومعنى قوله - جل جلاله - : « أَيْبَى يَغْتَرُونَ » أي : يغترون بحلمي عليهم بتأخير عقوبتهم ؟

ومعنى قوله - تعالى - : « بي حلفت » أي : حلفت بي وحدي ، لا يستحقها غيري ، كما لا يجوز لأحد أن يخلف بغير الله - تعالى - وإن كان معظماً عند الناس ... قال رسول الله ﷺ : « لا تحلفوا - أيها الناس - بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليدع »<sup>(٢)</sup> فكان قوي الثقة بالله فلا يميل قلبك إلى رياء أو حب سمعه .

### العزة في طلب الرزق

أخا الإسلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع  
فإن ذلك نقص منك في الدين  
لن يقبل العبد أن يعطيك خردلة  
إلا بإذن الذي سواك من طين  
فلا تصاحب غنياً تستعز به  
وكن عفيفاً وعظماً حرمة الدين  
واسترزق الله مما في خزائنه  
فإن رزقك بين الكاف والنون

(١) أنظر سنن الترمذی ( كتاب الزهد ) ح ٤ ص ٦٠٤ رقم ٢٤٠٤ فقد رواه عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الإيمان ) ح ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ فقد رواه عن عبد الله بن مسعود بلفظ : « ألا إن

الله عز وجل - ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »

ورواه أبو داود في ( كتاب الإيمان والنور ) باب في كراهية الحلف بالآباء ح ٣ ص ٢٢٢ رقم ٣٢٤٩ من رواية عمر بن الخطاب - رضي الله عنه .

وأنظر سنن الترمذی ح ٤ ص ١١٠ رقم ١٥٣٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح

ورواه ابن ماجه مختصراً ح ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٤ وأنظر سنن النسائي ح ٧ ص ٤

واستغن بالله عن دنيا الملوك

كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لقد كان موقف الإيمان دائماً من أتباعه يدور حول الثقة بالله والاعتزاز بطاعته ... فالروح والرزق لا يملكها إلا الله - تبارك وتعالى - :

قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها »<sup>(١)</sup>.

فيا أخي :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل

الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل

فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل !!

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه الله خالقك . قال - تعالى - : ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو ﴾<sup>(٢)</sup>.

الرياء يفسد العمل ويحبطه :

لقد بلغ من موقف الوحي أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله ﷺ فيقول له : يا رسول الله إني أصلي طاعة لربي وليراني الناس . وإذا بالأمين جبريل - عليه السلام - ينزل بهذه الآية الكريمة : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾<sup>(٣)</sup>.

فالرياء في العبادة خبث لا يليق ، كذلك الرياء في معاملة الناس . قال عز من قائل : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾<sup>(٤)</sup>.

ولقد أخبر الصادق المعصوم ﴿ أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ﴾<sup>(٥)</sup>. ولعلك يا أخي ترتعد منك الفرائض عندما تقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الذي أودى الرياء فيه بقوم قدموا أعمالاً ولم يقصدوا بها وجه الله .. أودى بهم إلى النار وعذابها .. قال ﷺ :

(١) أنظر حلية الأولياء ( في ترجمة أحمد بن أبي الحواري ) ح ١٠ ص ٢٧ عن أبي أمامة - رضى الله عنه .

(٢) من الآية ٣ من سورة فاطر .

(٣) من الآية : ١١٠ من سورة الكهف .

(٤) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .

(٥) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٣٧٤ رقم ٢٠٢٥

« إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه : رجل استشهد فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ... ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » . رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

أرأيت إلى الرياء كيف يبط الأعمال مهما بلغت وجلت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها وحطم بنيانها وقوض أركانها وأزال قوتها وضيع ثوابها !!

نعوذ بالله من الرياء !!

لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأُذَى كَالَّذِي يَنْفَقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة ... فالمرءءون يحاولون أن يخادعوا - حتى وهم واقفون بين يدي الله - ويحاولون أن يظهروا أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته فيقول لهم الله - جل جلاله - : كذبتُم ! إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تخزله هذا وما ذاك إلا لاختلاط الرياء بالأعمال فأزال ثوابها كما يزيل المطر الغزير تراباً على حجر فيتزركه أملس ناعماً لا شيء عليه .

تنبيه وتحذير :

واعلم أن المرأئي لا يغيب أمره عن الناس مهما طال به عهد الرياء ، بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق في يوم ما . قال - صلوات الله وسلامه عليه - : « من سمع : سمع الله به . ومن يرأى : يرأى الله به »<sup>(٣)</sup>.

(١) الحديث في صحيح مسلم بشرح النووي ( كتاب الإمارة ) باب : من قاتل الرياء والسمعة استحق النار ح ١٣ ص ٥١، ٥٠ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه .

(٢) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٣) الحديث في اللؤلؤ والمرجان في ( كتاب الزهد والرقائق ) باب تحريم الرياء ح ٣ ص ٨٣٢ رقم ١٨٨٠ من حديث جندب - رضي الله عنه .

والمعنى أن « سمع » بتشديد الميم معناه : أظهر عمله للناس رياء . ومعنى « سمع الله به » أي : فضحه يوم القيامة . ومعنى « من رأى رأى الله به » أي : من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم رأى الله . أي : أظهر سريرته على رؤوس الخلائق .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه - يقول : « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله » .

وما من شك في أن أخطر الأشياء التي يحبطها الرياء : العلم إذا كان المقصود به غير الله وغير ما عند الله ... قال عليه السلام : « من تعلم علماً يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - يعني ربحها » <sup>(١)</sup> رواه أبو داود .

ونصيحتي :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله في كل فعله ... يقول القرآن الكريم مظهراً هذه القضية : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العلمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جعل دستور الحياة أمام الناس هذه الكلمات الفاضلة : « من أرضى الله وأسخط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته » <sup>(٣)</sup> .

فائدة جلييلة :

ونختتم هذا الباب بهذه الفائدة الشرعية الجلييلة :

هناك من الأمور ما يتوهم الإنسان أنه رياء وليس برياء ، ومثل هذا ما روى عن أبي ذر رضي الله عنه - قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أرايت الرجل الذي يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمنين » رواه مسلم <sup>(٤)</sup> .

ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول الله - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي : « عبادي لم تشكروني إن لم تشكروا من أجريت لك النعمة على يدي » . اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

(١) أنظر سنن أبي داود طبع دار الحديث بجمص ( كتاب العلم ) باب طلب العلم لغير الله تعالى ح ٤ ص ٧١ رقم ٣٦٦٤ فقد أخرجه عن أبي هريرة - رضي الله عنه .

وأنظر سنن ابن ماجه ( المقدمة ) باب الانتفاع بالعلم والعلم به ح ١ ص ٩٢ ، ٩٣ رقم ٢٥٢

(٢) سورة الأنعام ، الآيات : ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) رواه الترمذي في سننه في ( كتاب الزهد ) باب ٤٩ ح ٤ ص ٣٤ رقم ٢٥٢٧ عن عائشة - رضي الله عنها .

وأنظر صحيح ابن حبان ( الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ) ح ١ ص ٢٤٧ رقم ٢٧٧

(٤) أنظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ( كتاب البر والصلة والآداب ) ح ٤ ص ٢٠٣٤ رقم ٢٦٤٢/١٦٦

## الثبات على المبدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التي تهدم الأمم وتقوض المجتمعات ، بل من أشدها خطراً .. فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟

لم أجد أنجح ولا أنفع في بناء المجتمع أفضل من الثبات على المبدأ وأعني به مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ؛ ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها .. عندئذ تنمرغ في ماديّات مظلمة تتيه في بيءاء هذه الحياة .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذي نسي مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات في أوقاتها ... ماذا حدث لتلك « الحمامة » وماذا جرى لثعلبة ؟ روي أنه أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم : لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ، ووصلت القرابة .. فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بشيء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله - تعالى - : ﴿ ومنهم من عهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علم الغيوب ﴿ ١ ﴾ .

أرأيت إلى هذه العاقبة البوخيمة التي منى بها ذلك الذي نسي أصله وخان عهد الله ؟! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة ويوارق لامعة ، أقبلت عليه فنسى ربه ! وبعد أن كان « حمامة » تأوي إلى بيت الله فتأنس بذكره . قصت أجنحتها فتمرغت في أوحال الدنيا .. وهكذا الدنيا إذا حلت : أو حلت ، وإذا كست : أو كست ، وإذا جلت : أو جلت . وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا : مات !!

عظة وعبرة :

كذلك من الدروس التي يجب أن يعيها المجتمع في الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه فيمنع النعمة أصحابها ويصير بذلك كنوداً آثماً .

لقد روى أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أن يتلهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص قال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قلرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قدره وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقه عشره وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن

ويذهب عني هذا الذي قدرني الناس ! فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأبي المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطى بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله عليّ بصري . فمسحه فرد الله عليه بصره قال : فأبي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم فأعطى شاة والددة فأنج هذا ، وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا وادٍ من الغنم ، ثم إنه - أي : الملك - أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الجبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بغيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى « الأقرع » في صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت .

ثم أتى « الأعمى » في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت ودع ماشئت ، فوالله لا أجهدك اليوم ، أخذته الله فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك ! »<sup>(١)</sup>.

### إن هذه تذكرة

إن أعظم الوصايا الغالية التي وصى بها رسول الله ﷺ قوله : « احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »<sup>(٢)</sup>.  
أجل يا سيدي يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق ، يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت :

« عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »<sup>(٣)</sup>.

وإنني إذ أبرهن على هذه المبادئ الحقيقية أسوق هذه الدروس أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة ، إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا في شدة فنجاهم بالإخلاص ، لقد ثبتوا مع الله في طاعته ساعة الرخاء ، فتعرف الله عليهم ساعة الشدة .

(١) اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الزهد والرفائق ) - ٣ ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨

(٢) أنظر سنن الترمذي ( كتاب صفة القيامة ) - ٤ ص ٦٦٧ رقم ٢٥١٦ فقد رواه عن ابن عباس قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن السني في عمل اليوم والليلة ( باب ما يوصى به الغلام إذا عقل ) ص ١٢٥ ، ١٢٦ رقم ٤٢٧

(٣) صحيح مسلم يشرح النووي ( كتاب الزهد ) باب في أحاديث متفرقة - ١٨ ص ١٢٥ فقد رواه عن صهيب



قال رسول الله ﷺ : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أوامهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله - تعالى - بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فأنى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدرح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم كان أحب الناس إليّ - وفي رواية - كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت مني حتى ألت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها - وفي رواية - : فلما قعدت بين رجلها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركزت الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له ، وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين ، فقال : يا عبد الله أد إليّ أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والريق ، فقال : يا عبد الله ؛ لا تهزأ بي فقلت : لا أهرأ بك ، فأخذه كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمضون <sup>(١)</sup> . متفق عليه .

هل تأملت - أيها القارئ الكريم - هذا الهدى النبوي والإرشاد المحمدي في هذه الصورة البيانية الرائعة ؟!

### الإيمان وبناء النفوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبي فلنعلم أن القلب هو محله ... بهذا نطق الكتاب الكريم قال - تعالى - : ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ﴾ <sup>(٢)</sup> . وقال - جل شأنه - : ﴿ وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ) ح ٣ ص ٧٤٤ ، ٧٤٥ رقم ١٧٤٥ .

(٢) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(٣) من الآية : ١٠٦ من سورة النحل .

وقال - سبحانه - : ﴿ ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾<sup>(١)</sup>.

هل وقفت على الدور العظيم الذي قام به الإيمان في بناء النفوس ؟ فلولا الإيمان ما رأيت الرجل الأول من هؤلاء نفر الثلاثة ينتظر والديه النائمين حتى يقوموا فيشربا نصيبهما من اللبن ويؤثرهما على أولاده ! ولولا الإيمان ما قالت تلك الفتاة لابن عمها : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ... هل كان هناك أحد يراها إلا الله ؟ ولولا الإيمان ما استجاب ابن عمها لندائها وخشى !

﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولولا الإيمان ما رد ذلك المالك أجر هذا الأجير بعد ما زاد ونما واستثمر ...

لا عجب ! فإن الإيمان هو صانع المعجزات وباني النفوس ، فلولا الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر في جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله - جلت قدرته - يعمر به النفوس فتضيء وتشرق وتتألق وتتألق حتى تصير كالشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هي المركز الأول الذي ينبني عليه صلاح الفرد ، وينبني على صلاح الفرد صلاح المجتمع ، وإنما يؤدي الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتي أكله إذا كان مستشعراً عظمة الله وهيمته سلطانه ، نعم : مستشعراً في سره وعلايته حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية :

« اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »<sup>(٣)</sup>.

والإيمان إذا حل قلب ملاءه خشية ومعرفة ، قال - سبحانه - : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾<sup>(٤)</sup>. نعم لا يتوكلون على غيره لأنه وليهم .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾<sup>(٥)</sup>.

والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شاحخة الرعوس مشرّبة الأعناق ؛ لأنهم معترفون بالله .

(١) من الآية : ٧ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف .

(٣) انظر سنن الترمذی ( كتاب البر والصلة ) باب ماجاء في معاشره الناس ح ٤ ص ٣٥٥ رقم ١٩٨٧ فقد رواه عن أبي ذر - رضی الله عنه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٥) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾<sup>(١)</sup>.  
 كذلك يجعلون وجههم إليه - سبحانه - يعلمون أنه - جل جلاله - هو المتولي شئونهم .  
 ﴿ الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾<sup>(٢)</sup>.  
 والمؤمنون الصادقون إذا سألوا أو استعانوا : سألوا الله ، وطلبوا العون منه ؛ لأنهم يعلمون أنه - تعالى - أقرب إلى العبد من حبل الوريد .  
 لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة في القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التي كانت توجه إلى رسول الله ﷺ طالباً للبيان والمعرفة .  
 ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾<sup>(٣)</sup>.  
 ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فلولوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله ﴾<sup>(٥)</sup>.  
 يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾<sup>(٦)</sup>.  
 ﴿ ويسألونك عن أيتامى قل إصلاح لهم خير ﴾<sup>(٧)</sup>.  
 ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾<sup>(٨)</sup>.  
 ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾<sup>(٩)</sup>.  
 ﴿ فأنت ترى في الإجابة عن هذه الأسئلة تصديراً بكلمة « قل » إلا في قوله - تعالى - : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإنى قريب ﴾<sup>(١٠)</sup>.

وفى ذلك من قوة القرب إلى الله تعالى وشدة علمه وإحاطته بما يجعلنا نتوجه إليه دائماً في السراء والضراء  
 وحين البأس .

(١) من الآية : ١٠ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ١٨٩ من سورة البقرة .

(٤) من الآية : ٢١٥ من سورة البقرة .

(٥) من الآية : ٢١٧ من سورة البقرة .

(٦) من الآية : ٢١٩ من سورة البقرة .

(٧) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٨) من الآية : ٢٢٢ من سورة البقرة .

(٩) الآية : ١٠٥ من سورة طه .

(١٠) من الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

يارب. أنت تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات وتقول : « هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات ! » بهذا الإيمان : تبنى النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ؛ لأنها دائماً في حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة في حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة ... أسمعت إلى نوح - عليه السلام - عندما اشتد به الكرب وزاد عليه عناد قومه ، واتهم بأنه مجنون وازدجر ، ماذا قال ؟ ﴿ فعدا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر \* وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴿<sup>(١)</sup>

ثم رأيت إلى أيوب - عليه السلام - في مرضه وشدته وكربه ومحتته يتوجه إلى خالقه فيقول : ﴿ مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾<sup>(٢)</sup>

فيكون الجواب : ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾<sup>(٣)</sup>

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس - عليه السلام - وهو في بطن الحوت وفي ظلمة البحر وأعماقه ينادي ويهتف : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾<sup>(٤)</sup>

فتأتي الإجابة أسرع من البرق : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾<sup>(٥)</sup> .  
وها هو ذا زكريا - عليه السلام - يريد ولداً صالحاً وغلاماً رضيعاً فيتوجه إلى الله : ﴿ رب لا تدرني فرداً وأنت خير الوارثين ﴾<sup>(٦)</sup>

فتأتي الإجابة : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾<sup>(٧)</sup>

ثم استمع إلى مؤمن من آل فرعون بعد ما بذل النصيح والتوجيه وبين الطريق السوي يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين ، فيقول لهم : ﴿ فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾<sup>(٨)</sup>

فتأتي الإجابة والتجدة من رب العزة الذي يغيث الملهوفين : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾<sup>(٩)</sup>

(١) الآيات : ١٠ - ١٢ من سورة القمر .

(٢) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .

(٣) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .

(٤) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .

(٥) الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .

(٦) من الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .

(٧) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

(٨) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .

(٩) الآية : ٤٥ من سورة غافر .

## التفسير

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صحيفة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾

يقول - تعالى - مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال - تعالى - :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ثم قال - تعالى - : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وهذه حال المنافقين في كل زمان ومكان .

مرواغة كالثعالب .

وخداع باطل .

يلقاك يقسم أنه بك واثق

وإذا توارى عنك فهو العقرب

يسقيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب

جاء في الحديث القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقاً أليستهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبي حلفت لأتيحهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أي يغترون أم علي يجترئون »<sup>(١)</sup> .

كان المسيح ابن مريم - عليه السلام - يقول : يا بني إسرائيل لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألبسوا قلوبكم بخشية الله .  
إن الله - تعالى - وهو العليم بذات الصدور يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يقول في شأن هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ﴾ صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١).

قوله - تعالى : ﴿ اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة الآتمة ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فرجما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبلاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال - تعالى - : ﴿ فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

ولهذا كان الضحاک بن مزاحم يقرأها [ اتخذوا إيمانهم جنة ] أي : تصديقهم الظاهر جنة ، أي : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرأها ( إيمانهم ) جمع يمين .

وقوله - تعالى - : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ أي : إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبداهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

والأيمان الكاذبة من سمات المنافقين فهم دائماً يخلفون على الكذب .

قال - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم يخلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ اتخذوا إيمانهم جنة

فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين \* لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون \* استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون \* إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴿١﴾

والخداع : من سمات المنافقين فهو في دمائهم يسري سريان النار في الحلفاء ، والسلم الزعاف في الأحشاء .

قال - تعالى - في شأنهم :

﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً \* الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيتفون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً \* وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً \* الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً \* إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً \* يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً \* إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً \* إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً \* ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴿٢﴾ .

إن المنافقين يخادعون حتى مع خلفائهم من اليهود ، قال - تعالى - : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لنصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون \* لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ ﴿٣﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ أي : وكانوا أشكالا حسنة وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن .

(١) الآيات : ١٤٠ - ٢٠ من سورة المجادلة .

(٢) الآيات : ١٣٧ - ١٤٧ من سورة النساء .

(٣) الآيات : ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

ولهذا قال - تعالى - : ﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي : كلما وقع أمر أو كائنه أو خوف يعتقدون - لجبنهم - أنه نازل بهم ، كما قال - تعالى - :

﴿أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذُهِبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةٌ عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾<sup>(١)</sup> . فهم جهامات وصور بلا معان ،

ولهذا قال - تعالى - : ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي : كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال ؟!

وقد روى الإمام أحمد - رضي الله عنه - بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهب ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجرأ ، ولا يأتون الصلاة إلا دبرأ ، مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار »<sup>(٢)</sup> .

وقد سميت سورة براءة بالفاضحة والخزية والمقشقة والبحوث ؛ لأنها كشفت أسرار المنافقين وما ينطوي عليه صدورهم من كفر وحقد على الإسلام ، وحسد لنبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - وما كانوا يتصفون به من تأليب القبائل على الإسلام ورسوله . لقد انضموا دائماً إلى معسكرات الشرك ، ووقفوا مع أعداء الله في خندق واحد ، وقعدوا عن الجهاد وثبطوا الهمم .

قال - تعالى - : ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا مَخْرَجًا مَعَكُمْ يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ \* عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذُنْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ \* لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ \* إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ \* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةٌ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ \* لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ \* لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَلْبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ \* وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنْ جَهَنَّمَ لَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . إِنْ تَصَبَّكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلِ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ \* قُلْ لَنْ يَصِيَّبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ \* قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بَنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يَصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْيِدِنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ \* قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يَقْبَلَ مِنْكُمْ إِنَّا كُنَّا كُنْ

(١) الآية : ١٩ من سورة الأحزاب .

(٢) أنظر مسند أحمد (مسند أبي هريرة - رضي الله عنه) ج ٢ ص ٢٩٣



قوماً فاسقين \* وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون \* فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهر أنفسهم وهم كافرون \* ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون \* لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يمححون \* ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون \* ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون \* إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم \* ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين \* ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم \* يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون \* ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون \* لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين \* المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فسيهم إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبي ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم \*

وقال - عز من قائل - :

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ يخلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما هم في الأرض من ولي ولا نصير \* ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين \* فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون \* فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون \*

(١) الآيات : ٤٢ - ٦٨ من سورة التوبة .

(٢) الآيات : ٧٣ - ٧٧ من سورة التوبة .

## من مساوىء المنافقين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ  
وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٠٠﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ  
اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠١﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا  
عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ  
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٠٢﴾ يَقُولُونَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ  
مِنْهَا أَلَا ذَلَّ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

## التفسير

وهذا موقف من مواقفهم الخزية وما أكثرها بل ما أقبحها أنهم الذين أخبر الله - تعالى - عنهم بقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ فهذا إخبار منه - جلت قدرته - عن المنافقين عليهم لعائن الله إنهم : ﴿ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ ﴾ أي : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقار لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان : ( لووا رءوسهم ) قال ابن أبي عمر : حول سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شذراً ثم قال : هو هذا <sup>(١)</sup> .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول وقد قال محمد بن إسحق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة يعني مرجعه من أحد وكان عبد الله بن أبي بن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع يعني مرجعه بثلك الجيش ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره فلقية رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك ويلك ؟ قال قمت أشدد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه . وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً<sup>(١)</sup> ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه فلما كانت غزوة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع وهو غزوة بني المصطلق<sup>(٢)</sup> .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجهاه بن سعيد الغفاري وكان أجيراً لعمر بن الخطاب وسنان بن يزيد قال ابن إسحاق فحدثني محمد بن يحيى ابن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا . فقال سنان : يا معشر الأنصار وقال الجهجهاه : يا معشر المهاجرين وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل ، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كففتهم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها فسمعها زيد بن أرقم - رضي الله عنه - فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غليم عند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأخبره الخبر فقال عمر - رضي الله عنه - يارسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : ( فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن ناد يا عمر الرحيل ) فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ؟ ما قال عليه : زيد بن أرقم وكان عند قومه بمكان فقالوا : يارسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها فلقية أسيد بن الحضير - رضي الله عنه - فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال والله لقد رحت في ساعة

(١) سيرة ابن هشام ١٠٥/٢

(٢) تفسير الطبري ٧١/٢٨

منكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله ﷺ : ( أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل ) قال فأتت يارسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال أرفق به يارسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتوجه فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً ففسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشتغلهم بما كان من الحديث فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين<sup>(١)</sup> . وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . أخبرنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدي حدثنا سفيان . حدثنا عمرو بن دينار سمعت جابر ابن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري يا للأنصار وقال المهاجري يا للمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : ( ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة )<sup>(٢)</sup> . وقال عبد الله بن أبي بن سلول وقد فعلوها : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ ( دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه )<sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القرظي . عن زيد بن أرقم . قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ قال فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : ( إن الله قد أنزل عذرك وصدقك ) قال : فنزلت الآية ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا - حتى بلغ - لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾<sup>(٤)</sup> .

ورواه البخاري عند هذه الآية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة ثم قال : وقال ابن أبي زائدة : عن الأعمش . عن عمرو . عن ابن أبي ليلى . عن زيد عن النبي ﷺ ورواه الترمذي<sup>(٥)</sup> والنسائي عندها أيضاً من حديث شعبة به .

قال أبو عيسى الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي سعد الأزدي قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من

(١) سورة ابن هشام ٢٩٠/٢ - ٢٩٢

(٢) البخاري - كتاب التفسير - تفسير سورة المنافقون ١٩٢/٦ ومسلم - كتاب الدرباب نصر الأخ طالما أو مظلوما ١٩٥٨ ومسنند أحمد ٣٩٢/٣

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٦٨/٣

(٤) البخاري تفسير سورة المنافقون ١٩٠/٦

(٥) رواه الترمذي في تحفة الأحويث تفسير سورة المنافقون الحديث رقم ٣٣٦٩ جزء ٢١٧/٩

الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا إليه فسبق أعرابي أصحابه ليملاً الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابي فأرخصى زمام ناقته لتشرب فأتى أن يدعه فانتزع حجراً فغاض الماء فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري فشججه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأضره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا مثن حوله يعني الأعراب وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فأتوا محمد بالطعام فليأكل هو ومن معه ثم قال لأصحابه لئن رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد وأنا ردف عمي قال : فسمعت عبد الله بن أبي يقول ما قال فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله ﷺ وكذبتني قال فجاء إلى عمي فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون قال : فوقع عليّ من الغم ما لم يقع على أحد قط بيننا أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خفت برأسي من الهمة إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي فقال أبشر ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين<sup>(١)</sup>.

وقد قال ابن أبي حاتم - رحمه الله - : حدثنا محمد بن عزيز الإيلي حدثني سلام حدثني عقيل أخبرت محمد ابن مسلم أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة فاقتتل رجالان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي فقال البهزي : يامعشر الأنصار فنصره رجال من الأنصار وقال : المهاجري يامعشر المهاجرين فنصره رجال من المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع قد تناصرت علينا الجلايب وكانوا يدعون حديث الهجرة الجلايب . فقال عبد الله بن أبي - عدو الله - : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخش وكان من المنافقين<sup>(٢)</sup> ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه يريد عمر عبد الله بن أبي فقال رسول الله ﷺ لعمر : ( أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ ) قال عمر نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه فقال

(١) تحفة الأحوذى - تفسير سورة المنافقون ٢٦٥/٩ رقم ٣٣٦٨

(٢) أسد الغابة ٣٣٥

رسول الله ﷺ : ( اجلس ) فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ : ( أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟ ) قال : نعم والله لكن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ ( اجلس ) ثم قال رسول الله ﷺ : ( آذنوا بالرحيل ) فهجر بالناس فسار يومه وليته والغد حتى متع النهار ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاث مسارها من قفا المشلل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : ( أي عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟ ) قال عمر : نعم . فقال رسول الله ﷺ : والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه فيتحدث الناس أنني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً وأنزل الله عز وجل : ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا - إلى قوله تعالى - يقولون لن رجعا إلى المدينة ﴾ .

وقال محمد بن إسحق بن يسار حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمربي به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : ( بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا )<sup>(١)</sup>.

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يبرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : ورائك : فقال مالك وتلك ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الدليل فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير مسافة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن ، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة . حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق ماتأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي .

## الناكثون الناكصون الناقضون

إنهم المنافقون الناكثون للعهود الناكصون على أعقابهم الناقضون للعقود الذين حدثنا الله - تعالى - عنهم في قوله : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً بما كانوا يكسبون ﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون ﴾ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿<sup>(١)</sup>

## إنهم أصحاب مسجد الضرار

إنهم المنافقون الذين اتخذوا مسجداً ضراراً قال - تعالى - في شأنه : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴿<sup>(٢)</sup>

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ - ٨٧

(٢) سورة التوبة الآيات : ١٠٧ - ١١٠

## تحذير وإرشاد

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ  
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٠﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ  
أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ  
وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ  
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٢﴾

المفردات : ﴿ لا تلهكم ﴾ : لا تشغلكم . ﴿ أجلها ﴾ : الأجل : آخر العمر .

## أضواء كاشفة

يأيتها الذين آمنوا لا تكونوا كالمُتَنَافِقِينَ الذين يفترون بالأموال والأولاد ويشغلون بتدبيرها ورعايتها عند ذكر الله ، ولا شك أن من أهم الأسباب التي تدفع الإنسان إلى النفاق أو التحلل من الدين ، هو الانشغال بالدنيا وعوارضها ، والانهماك الشديد في تحصيلها ورعايتها ، فذلك مما يشغل الإنسان عن ذكر الله وعن عبادته ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، لأنهم باعوا الباقية بالفانية ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وليس معنى هذا أننا نترك الدنيا بما فيها من الأموال والأولاد . ولكن المنهى عنه هو الاشتغال بها عن ذكر الله . أما إعطاء الدنيا حقها مع العبادة وذكر الله فهذا هو المطلوب الشرع الشريف ، وفي هذه الدائرة يتنافس المتنافسون .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ انفقوا بعض ما جعلكم الله خلفاء فيه ، انفقوا بعضا يكن لكم حصنا ووقاية من عذاب الله ، انفقوا بعض المال يكن حصنا لكم ولما بكم حتى لا تنذهب في الدنيا ، ولا تعاقبوا عليها في الآخرة ، انفقوا قليلا من المال من قبل أن يأتي أحدكم الموت أو مقدماته وأماراته فيقول حين يرى ما أعد للمتخلفين عن أوامر الله فيقول : رب لولا أخرتني إلى أجل أي : إلى أجل قريب وأعطيتني أمدا قصيرا في الدنيا فأتصدق ببعض مالي ليكون وقاية لي من هذا العذاب واكن من العباد الصالحين .

ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، ولن يمهلهما عين إذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون .

وهكذا كل مفرد في دينه وعابث في دنياه عند الاحتضار يكون نادما على ما فرط سائلا الرب - سبحانه وتعالى - طول الأجل ، ولو مدة قصيرة يسيرة ليستعد وليستدرك ما فاتته ، ولكن هيهات هيهات ، قد كان ما كان وما هو آت آت والله خبير بما تعملون .



## التفسير

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من النهي بمتاع الحياة الدنيا وزيتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال : ﴿ وَأَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

## فضل النفقة

قال تعالى : ﴿ أَنْفَقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ .

وقال - جل شأنه - : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوَقِّ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَفْلُحُونَ ﴾ (١) .

وللنفقة مكانة عظيمة في الإسلام ولصاحبها قدم صدق عند الله كما له الأجر العظيم في الدنيا والآخرة ومن ثم فقد حث الرسول الكريم على النفقة ورغب فيها كما حذر من البخل ورهب منه ونحن نسوق هذا الحشد الكريم من الأحاديث النبوية الجليلة التي تبين لنا ما للنفقة والمنفقين من عظيم الأجر وكريم المثوبة .

١ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ( من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل ) رواه البخاري ومسلم (٢) .  
بعدل : أي : بمقدار . طيب : حلال .

٢ - وفي رواية لابن خزيمة : إن العبد إذا تصدق من طيب تقبلها الله منه وأخذها بيمينه فرباها كما يربي أحدكم مهره أو فضيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا (٣) .

(١) سورة الحشر آية : ٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وترتيبها رقم ٥٩٥

(٣) صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٣/٤ رقم ٢٤٢٦

٣ - وفي رواية صحيحة للترمذي قال رسول الله ﷺ : ( إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .  
ورواه مالك<sup>(١)</sup> بنحو رواية الترمذي هذه عن سعيد بن يسار مرسلاً لم يذكر أبا هريرة .

٤ - وعن عائشة - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليرى لأحدكم التمرة واللقمة كما يري أحدكم فلوؤه أو فصيله حتى تكون مثل أحد . رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له<sup>(٢)</sup> .

٥ - وروى عن أبي هريرة الأسلمي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله - عز وجل - حتى تكون مثل أحد » رواه الطبراني في الكبير<sup>(٣)</sup> .

٦ - وروى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله - عز وجل - ليدخل باللقمة الخبز وقبصه التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة أب البيت الأمر والزوجة تصلحه والخادم الذي يناول المسكين فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي لم ينس خدمنا » رواه الحاكم والطبراني في الأوسط<sup>(٤)</sup> .

المعنى : أي داوموا على ذكر الله وحمده وتسيحه واستغفاره والصلاة على حبيبه ﷺ .  
وبيّن ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضي الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول .

(١) موطأ مالك - كتاب الصدقة ٩٩٥/٢ رقم ١ وسنن الترمذي - كتاب الزكاة ٤١/٣ رقم ٦٦٢

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١١/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٤/٥

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٠/٣

(٤) المستدرک للحاكم ١٣٤/٤ ومجمع الزوائد ١١٢/٣

القبضه : بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو ما يتناوله الآخذ برعوس أنامله الثلاث .

قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴿١﴾ .

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأخذ من المسلمين صدقة ﴿ تطهرهم ﴾ من الذنوب ، وحب المال وتزكّيهم بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿ وصل عليهم ﴾ واعطف عليهم بالاستغفار لهم والدعاء ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم وجمعها لتعدد المدعو لهم ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بذله سبحانه من شأنه قبول توبة التائبين ، والتفضل عليهم .

اللهم إنا نتوجه إليك بسيدنا رسول الله ﷺ أن تقبل توبتنا ، فكما أن الصدقة المعطاة بإخلاص لك ، ومحبة في ثوابك تقبل كذلك نتوسل إليك بمحبتنا إلى سيدنا الأقوى وحيينا وقره عيوننا أن تتفضل علينا بالرحمة والقبول وتهب لنا توفيقاً يزيدنا طاعة وإقبالاً على الصالحات بمنك وكرمك .  
٧ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله - عز وجل - » رواه مسلم والترمذي ، ورواه مالك مراسلاً (٢) .

٨ - وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - يرفعه قال : ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر . رواه الطبراني (٣) .

المعنى : الله تعالى منزّه عن مشابهة الحوادث وليست له يد بالمعنى المفهوم من يدنا إنما هذا لتقريب الأفهام إن الله يعطف بالرحمة على المعطي ويزيده كرامة ويمده بإحسان ويضاعف ثوابه ويقبل عليه برعايته وبركاته .

مسئلة : سؤال . باب فقر : ذلة وضعة وشره نفس وطمع .

٩ - وروى عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ويدروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية تحببوا وتنصروا وترزقوا .

(١) سورة التوبة الآيات : ١٠٣ - ١٠٥

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٨ وسنن الترمذي - كتاب البر والصلة ٣٧٦/٤ رقم ٢٠٢٩ ومطأ

مالك - كتاب الصدقة ١٠٠٠/٢ رقم ١٢

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٤٠٥/١١ رقم ١٢١/٥٠

ومعنى تجبروا : تجب دعواتكم وتغتنوا وفي النهاية ( وفي حديث الدعاء ) . واجبرني واهدني : أي أغنني ، من جبر الله مصيئته : أي رد عليه ما ذهب منه وعوضه وأصله من جبر الكسر وفي أسماء الله - تعالى - الجبار : أي الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي ، وقيل : هو العالي فوق خلقه .

١٠ - وروى عن عائشة - رضي الله عنها - أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ : ما بقي منها ؟ قالت : ما بقي منها إلا كتفها . قال : بقي كلها غير كتفها ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ومعناه : أنهم تصدقوا بها إلا كتفها<sup>(١)</sup> .

المعنى : ... .. تصدق ﷺ بلحم الشاة كلها إلا كتفها القطعة الأمامية فقط ثم سأل ﷺ سؤال براعة وكال : ما بقي منها ؟ وأجاب ﷺ ليعلم المسلمين أن الذي يذهب لله هو الباقي ثوابه الخالد بنعيمه الجزيل الأجر قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون<sup>(٢)</sup> وفيه الحث على الصدقة والإكثار من الإحسان .

١١ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فافني أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذاك فهو ذاهب وتاركه للناس » رواه مسلم<sup>(٣)</sup> .

المعنى : مالي مالي : أحب مالي . فأبلى : أخلق وتقطع . أو أعطى فاقتنى : فأبقي . والمعنى يميل الإنسان إلى جمع المال ويشتاق إليه ولكن نصيبه من ماله ثلاثة :

( أ ) يتنعم به المطعومات ويتذوقه ويتلذذ به .

( ب ) أنواع الملابس والزينة والمركب والأثاث والأهبة .

( ج ) التصدق وتشيد المكرمات . فإذا لم يستفد الإنسان في حياته من هؤلاء فلا فائدة في ماله ، وهو ذاهب إلى ورثته . قال تعالى : ﴿ يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي

(١) سنن ابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها - باب فرض الجمعة ٣٤٣/١ رقم ١٠٨١

(٢) الترمذي - كتاب صفة القيامة ٦٤٤/٥ رقم ٢٤٧٠ وقال : حديث حسن صحيح

(٣) سورة النحل الآيات : ٩٦ ، ٩٧

صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفائق ٢٢٧٣/٤ رقم ٢٩٥٩

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون \* قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون <sup>(١)</sup>.

﴿ زينة الله ﴾ : من الثياب ، وما يتجمل به كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدرع ، ﴿ الطيبات ﴾ : المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس والمتجملات الإباحة .

﴿ الفواحش ﴾ : ما تزايد قبحه جهرها وسرها .

﴿ الإثم ﴾ : الذنب .

وقيل : شرب الخمر ﴿ والبغي ﴾ الظلم أو الكبر واجتنبوا الإلحاد في صفاته تعالى سبحانه والافتراء عليه تهكماً بالكفرة كقولهم : الله أمرنا بها .

قال الشاعر :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التي كان قبل الموت يينها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التي كانت مسيطرة	حتى سقاها بكأس الموت ساقيا
أموالنا للنوي الميراث نجمعها	ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر :

غداً توفي النفس ما كسبت	ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم	وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

١٢ - وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يارسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » رواه البخاري والنسائي <sup>(٢)</sup>.

١٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتاً في صحابه . اسق حديقة فلان فتتحي ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للإسم الذي سمع في السحاب الذي هذا ماؤه

(١) سورة الآيات : ٣١ - ٣٣

(٢) صحيح البخاري - كتاب الرقاق - باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وستن النسائي - كتاب الوصايا باب الكراهية في

تأخير الوصية ٢٣٧/٦

يقول : اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا ؟ فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأصدق بثلته وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد ثلثه « رواه مسلم <sup>(١)</sup> » .

المعنى : يقص لك ﷺ حكاية المتصدق « فأصدق بثلثه » يسوق الله له غيثاً ويبعث له مطراً ويرسل له ماء مسخراً من قبل الله يتوجه لزرعه ذلك الرجل الصالح المحسن ، وقد أسمع الله كرامته له صوت ذلك الذي في السحاب : ( اسق حديقة فلان ) وسط صحراء لا نبات فيها ، والدرس من هذا الحديث العذب طلب الإنفاق لله وكثرة الصدقة والعمل لله والله يهب الأرزاق ويعطي البركة للمزكين . قال - تعالى - : ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

أين الملحدون المنكرون كرامة الأولياء وهذا رجل في بستانه شاهد عمله رجل آخر سمع صوتاً في السحابة ومشى مع مسيل الماء فسأل عن صاحب البستان فطابق الاسم المنادي فاستفهم : مما تصنع فيها ؟ فأجاب :

( أ ) ينفق ثلث إيراد الحديقة لله .

( ب ) وينفق على أهله وأسرته الثلث الثاني .

( جـ ) ويشترى ما يلزم للزراعة من الثلث الأخير .

هل يتعظ المسلمون بهذا ، ملائكة الله تسوق الأمطار لسقى الصالحين وري أرضهم إن من نظام الله البديع أن سخر ملائكته لأعمال اقتضتها حكمته - سبحانه - ومنها الموكلون بالسحاب وقد سمعت الأمر ( اسق حديقة فلان ) .

قال - تعالى - :

( أ ) ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون \* أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون \* لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولاً تشكرون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فأنت ترى نعم الله العظيمة ، ومنها : الماء العذب الذي نشره ينزله الله من السحاب حسب إرادته تفضلاً على عباده ولو شاء لجعله ملحاً - من الأجاج الذي يحرق الفم . سبحانه نحمده ونشكر فضله ومن شكره الإنفاق في الخير والصدقة على المحتاجين وعمل البر وقال تعالى في بيان فضله ودلائل قدرته :

( ب ) ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها إلا مع الله يل هم قوم يعطلون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفق - باب الصدقة في الساكنين ٢٢٨٨/٤ رقم ٢٩٨٤

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٨

(٣) سورة الواقعة الآية : ٦٨ - ٧٠

(٤) سورة المل الآية : ٦٠

سبحانه لا يقدر على إنبات الحقائق المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع غيره ، فأنفقوا حباً في ثوابه .  
(جـ) وقال - تعالى - : ﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> . الجرز : الصحراء .

(د) وقال - تعالى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بِشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً \* لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنَسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنْعَامَ كَثِيراً ﴾<sup>(٢)</sup> .  
بشراً : مبشراً قدام المطر ليتزعرع الثبات . أناسي جمع إنسي أو إنسان .

(هـ) وقال - تعالى - : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ بِشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَاباً ثِقَالاً سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

سقت لك هذه الآيات لتعلم أن ماء الأنهار من الله - تعالى - ، وأصله من السحاب عسى أن تتقي الله وتشكر له - سبحانه - فضله وإحسانه إليك وتجتهد في كثرة الإنفاق في عمل البر ، وتشيد المكرمات ، وفعل الصالحات وترسم أمامك حب الخير ، وأداء الزكاة ، ووفرة الصدقات واقتد بذلك الصالح الذي وجهه الله السحاب فسقى زرعه . فحافظوا أيها المسلمون على الإنفاق رجاء وفرة ماء السماء .

قال - تعالى - :

( أ ) ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> .

( ب ) ﴿ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ ﴾<sup>(٥)</sup> وأداء الزكاة خلة ثالثة للمتقين الكرماء في قوله تعالى :

(جـ) ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ \* الَّذِينَ يقيمُونَ الصلاةَ وَيُؤْتُونَ الزكاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٦)</sup> وقال تعالى :

( د ) ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾<sup>(٧)</sup> .

﴿ العَدْلُ ﴾ : حب الحق والتوسط في الأمور وتوحيد الله والجلود .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢

(٦) سورة لقمان الآيات : ٣ - ٥

(٧) سورة النحل : ٩٠

(١) سورة السجدة الآية : ٢٧

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٤٨ ، ٤٩

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٤) سورة الأنفال الآية : ٦٠

﴿ الإحسان ﴾ : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكلمة كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال - عليه الصلاة والسلام - : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »<sup>(١)</sup>.

﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ : وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه .

﴿ الفحشاء ﴾ : الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها .

﴿ المنكر ﴾ : القبيح الذي نهى عنه الشارع وما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية .

﴿ البغي ﴾ : ( الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم ) .

وقال تعالى :

( هـ ) ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾<sup>(٢)</sup>.

أنفق أيها المسلم لتندرج في سلك الذين شملهم برحمته ولتندمج في عقد المتقين المشمولين برعايته .

﴿ اتقوا ﴾ : اتقوا المعاصي .

﴿ محسنون ﴾ : في أعمالهم بالولاية والفضل ، أو مع الذين اتقوا الله لتعظيم أمره ، والذين هم

محسنون بالشفقة على خلقه ومن الرأفة الزكاة وإخراج الصدقة وإذا إطلعت على أشعار العرب وجدت المروءة السامية والرغبة في الإحسان والتفاخر بالجوود .

قال دعبيل الخزاعي الشاعر المشهور لتعرف موسيقى طربه غليان قدره واعتماده على الله - تعالى -

في طلب الرزق :

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضيا	وزودك ولم يرثوا لك الوصيا
قالت سلامة أين المال ؟ قلت لها	المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالي في الجفون فما	أبقين ذمأ ولا أبقين لي نشبا
قالت سلامة دع هذا اللبون لنا	لصية مثل أفراخ القطا زغبنا
قلت احبسها ففيها متعة لهم	إن لم ينخ طارق يبغي القرى سغبنا
لما احتبى الضيف وأعقلت حلوبتها	بكي العيال وغنى قدرنا طربنا
هذا سبيل وهذا فاعلمي خلقي	فأرضي فه أو فكوني بعض من غضبنا
مالا يفوت وما قد فات مطلبه	فلن يفوتني الرزق الذي كتبنا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبني	والرزق أكثر لي مني له طلبنا
هل أنت واجد شيء لو عنيت به	كالأجر والحمد مرتاداً ومكتسبنا

وإن الله بعث لنا النعم لتمتع بخيراتها وتنفق وتأكُل على شريطة استعمالها فيما يرضى قال الله تعالى :

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الإيمان رقم هـ

سورة النحل الآية : ١٢٨



﴿ ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾<sup>(١)</sup>.

﴿ فيما طعموا ﴾ : مما لا يحرم عليهم .

﴿ اتقوا ﴾ : واثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة .

﴿ ثم اتقوا ﴾ : ما حرم عليهم كالخمر .

﴿ آمنوا ﴾ : أي : آمنوا بتحريمه .

﴿ ثم اتقوا ﴾ : ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي .

﴿ وأحسنوا ﴾ : ونحروا الأعمال الجليلة واشتغلوا بها قال البيضاوي : باعتبار المراتب الثلاث في المبدأ والوسط والنتهي . أو باعتبار ما تبقى فإنه ينبغي أن يترك المجرمات توقياً من العقاب والشبهات ، تحرزاً عن الوقوع في الحرام وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهدياً لها عن دنس الطبيعة . المحسنين ﴾ : فلا يؤاخذهم بشيء ، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً .

وإن من الإحسان العطف على الفقراء والإنفاق على البائسين وإخراج جزء من المال والمساعدة على فعل البر وإنشاء مشروعات الخير لتكسب المحامد وهذه تعاليم الله - تعالى - لبني إسرائيل . قال البيضاوي : إن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر أمرهم الله - سبحانه وتعالى - بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال : إني كتبته لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى - عليه الصلاة والسلام - أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به فأخذ عليهم الميثاق . واختار منهم النقباء . وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار . ونهاهم أن يحدثوا قومهم . فأروا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً ، فهابوا ورجعوا . وحديثوا قومهم . ونكثوا الميثاق إلا كالبنا بن يوقنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفرانيم بن يوسف .

قال - تعالى - : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ . فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة المائدة الآية : ٩٣

(٢) سورة المائدة الآيات : ١٢ ، ١٣

﴿ وعزرتهم ﴾ : نصرتهم وقويتهم .

﴿ قرضاً حسناً ﴾ : بالإئفاق في سبيل الخير .

﴿ لعناهم ﴾ : طردناهم من رحمتنا . أو ضربنا عليهم الجزية ، أو مسخناهم .

﴿ مما ذكروا به ﴾ : من التوراة ، أو من اتباع محمد ﷺ قال ابن مسعود : ( قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية ) . وفيه تنبيه على أن العفو من الكافر الخائن إحسان . فضلاً عن العفو عن غيره . احتوى الميثاق والمعاهدة على خمس مواد .

أولاً : أداء الصلاة ، ثانياً : الزكاة ، ثالثاً : الإيمان بالرسول . رابعاً : تأييدهم والعمل بشريعتهم وحبهم . خامساً : الإئفاق في عمل الخير وتشجيع الصالحات . هذا عهد الله لأولاد آدم يعملون بقرآنه وإلا زال نعمته منهم وسلب فضله وأخذ خيره وبعث الجهل وفشا الشقاق وسادت الفوضى وانتزعت البركة ووقعت تلى المواعظ فلا تتأثر القلوب ولا تتعظ الأفتدة ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ قال الشاعر :

إذا جادت الدنيا عليك فجذبها      على الناس طراً إنها تتقلب  
فلا الجود يفيها إذا هي أقبلت      ولا البخل يقيها إذا هي تذهب

١٤ - وعن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة . وفي رواية : من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل . رواه البخاري ومسلم<sup>(١)</sup> .

١٥ - وعند عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة . رواه أحمد بإسناد صحيح<sup>(٢)</sup> .

١٦ - وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . رواه أحمد بإسناد حسن<sup>(٣)</sup> .

١٧ - وروى عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ على أعواد المنبر يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقيم المعوج وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان . رواه أبو يعلى والبخاري وقدر روى هذا الحديث عن أنس وأبي هريرة وأبي ، والنعمان بن بشير

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة رقم ٥٩٧

(٢) مسند أحمد ٣٨٨/١

(٣) مسند أحمد ٧٩/٦

وغيرهم من الصحابة - رضي الله عنهم -<sup>(١)</sup>.

المعنى :

الصدقة : تدل على حسن الخاتمة وتبعد السوءات وتزيل المكاره .

وتسد رمق الجائع وتنفعه .

١٨ - وعن جابر - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عُجرة : يا كعب

ابن عجرة : الصلاة قربان والصيام جنة والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار يا كعب بن

عجرة : الناس غاديان فبائع نفسه فموثق رقبته ومبتاع نفسه في عتق رقبته . رواه أبو يعلى بإسناد

صحيح<sup>(٢)</sup>.

المعنى :

تقربك من رحمة الله وتجلب رضاه .

والصيام جنة : وقاية له من السوء .

تطفىء الخطيئة : تزيل أثر الذنب .

غاديان : ذاهبان وقاصدان : أي هما صنفان صنف يعمل ليبعد من جهنم ويفك أسرهم من

العذاب . وآخر يعمل سوءاً ويغضب ( به ) فيستحق العذاب ويحق عليه الذل والأسر .

١٩ - وعن كعب بن عجرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : يا كعب بن عجرة

إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت النار أولى به . يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فغادٍ في

فكأك نفسه فمعتقها ، وغادٍ فموثقها ، يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة

تطفىء الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا . رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(٣)</sup>.

المعنى :

السحت : أكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والظلم والسرقة والنهب والمكس وكل مال أخذه بلا

طريق شرعي يحرم الله عليه الجنة فلا يدخلها .

أي : ذاهب لإزالة العذاب بالعمل الصالح في حياته ، والثاني ذاهب إلى تمكين عرى الذل وإدخال

جهنم بما يقتضيه من الخطايا .

٢٠ - وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فذكر الحديث إلى أن قال فيه : ثم

قال : يعني النبي ﷺ : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال : « الصوم جنة

والصدقة تطفيء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح<sup>(٤)</sup>.

(١) كشف الأستار عن زوائد البراز ٤٤٢/١ رقم ٩٣٣

(٢) أبو يعلى

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣٦/٧

(٤) سنن الترمذي - كتاب الإيمان - باب ما جاء في حرمة الصلاة ١٢/٥ رقم ٢٦١٦ وقال : حديث حسن صحيح

٢١ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة لتطفئ غضب الرب وتدفع منية السوء » . رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه<sup>(١)</sup>.

المعنى :

الإحسان إلى الفقراء والإنفاق في الخير يبعد سوء الخاتمة ويرشد إلى المحامد ويضمن حسن العاقبة كما قال تعالى :

( أ ) ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ : أي : حسن العاقبة لأهل التقوى .

( ب ) ﴿ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى لحبيبه ﷺ ليعلم أمته : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾<sup>(٣)</sup>.

﴿ بالغيب ﴾ : غائبين عن عذابه ، أو عن الناس في خلواتهم ، ومن تطهر من دنس المعاصي ، وأنفق في الخير جازاه الله بالنعيم على تزكيته ، على أن عدم الإنفاق قد يجر إلى الإلحاد وعدم الصدقة وراءها قسوة القلب وغفلته عن الله وقد دعا النبي ﷺ الناس إلى توحيد الله والاستقامة في العمل : ﴿ فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴾<sup>(٤)</sup> فامتنعهم عن الزكاة كما قال البيضاوي : لاستغراقهم في طلب الدنيا ، وإنكارهم للآخرة ليلخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق .

وإن الله - تعالى - أمر أزواج خير الخلق ﷺ : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾<sup>(٥)</sup>.

أي : في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه . وقد وعد - سبحانه - خصلاً عشرة يقوم بها رجال أبرار أطهار أخيار منها : ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ في قوله - تعالى - : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرأ عظيماً ﴾<sup>(٦)</sup>.

فانظر رعاك الله إلى هذا الثواب الجزيل وقد ضمن الله حسنى الخاتمة للمنفق في البر .

(١) سنن الترمذي ٤٣/٣ رقم ٦٦٤ وقال : حديث حسن غريب والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣١/٥ رقم ٣٢٩٨

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٣

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة فصلت الآيتان : ٦ ، ٧

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

٢٢ - وعن أبي كبشة الأنماري - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاء ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، أو كلمة نحوها ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يحبط في ماله بغير علم ، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء » رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup>.

المعنى :

فوزرهما : ذنبهما . فقد بين طيب النفوس ﷺ رغبات الإنسان في الحياة :  
 أولاً : رجل موفق مسدد الخطوات بر صالح وغني وعالم فاستعمل بماله ما يشيد له المكرمات الصالحات ونفعه الله بعلمه فأثمر في غرس المحامد وفعل المكارم فأفاد واستفاد .  
 ثانياً : عالم وفقير فعلم بعلمه . وتمنى لو اغتنى لفعل خيراً فتوابه ثواب من فعل .  
 ثالثاً : غني شرير أطلق عنان ماله في فعل المفاسد وارتكاب المحارم وطغى وبغى وقطع أقاربه وحرم المسكين فهذا في الدرك الأسفل من النار وأردأ عاقبة وبئس ماله .  
 رابعاً : رجل فقير ولكن نيته خبيثة منعه عن الموبقات ضيق يده ولم يخش الله ولم يرجه سبحانه ، ويتمنى لو يغتنى لأجرم وسلك سبيل الدعارة فكأنه فعل ذلك وعوقب أشنع عقاب وباء بسوء العاقبة .

٢٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق : كمثل رجلين عليهما جنتان من جديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقبهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها . قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول : بأصبعيه هكذا في جبيه يوسعها ولا تتوسع . رواه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه :

مثل المنفق المتصدق والبخيل : كمثل رجلين عليهما جبتان ، أو جنتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فإذا أراد المنفق أن ينفق اتسعت عليه الدرع أو مرت حتى تحج بنانه وتعفو أثره ، فإذا أراد

(١) سنن الترمذي - كتاب الزهد - باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر ٥٦٢/٤ رقم ٢٣٢٥ وابن ماجه - كتاب الزهد باب النية

البخيل أن ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى أخذت بترقوته أو برقبته ، يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - أشهد أنه رأى رسول الله ﷺ يوسعها ولا تتسع<sup>(١)</sup>.

[ الجنة ] : بضم الجيم وتشديد النون : كل ما وقى الإنسان ويضاف إلى ما يكون منه .  
[ التراقي ] : جمع ترقوة بفتح التاء وضمها لحن : وهو العظم الذي يكون بين ثغرة نحر الإنسان وعاتقه .

[ وقلصت ] : بفتح القاف واللام : أي : انجمعت وتشمرت وهو ضد : استرخت وانبسطت .  
[ والجيب ] : هو الخرق الذي يخرج الإنسان منه رأسه في الثوب ونحوه .

المعنى :

قال النووي : معنى تقلصت : انقبضت ، ومعنى يعفو أثره : أي عَمِيَ أثر مشيه بسبوغها وكألفها ، وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق ، والبخل بضد ذلك ، وقيل : هو تمثيل لكثرة الجود والبخل ، وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء ، وتعود ذلك وإذا أمسك صار ذلك عادة له ، وقيل : معنى يمحو أثره : أي : يذهب بخطاياهم ويمحوها ، وقيل : في البخيل قلصت ولزمت كل حلقة مكانها : أي يحمي عليه يوم القيامة فيكوي بها والصواب الأول والحديث جاء على التمثيل لا على الخبر عن كائن . وقيل : ضرب المثل بهما لأن المنفق يستره الله تعالى بنفقته ، ويستر عورته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجنة لابسها ، والبخل كمن ليس جنة إلى ثدييه فيبقى مكشوفاً بادي العورة مفتضحاً في الدنيا والآخرة . هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله - تعالى - .

٢٤ - عن مالك - رحمه الله - أنه بلغه عن عائشة - رضي الله عنها - أن مسكيناً سألها وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيا إياه فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيا إياه . قالت : ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لها أهل بيت أو إنسان ما كان يهدي لها شاة وكفنها فدعتها عائشة ، فقالت كلي من هذا خير من قرصك .

المعنى :

لمولاة : خادمة . معناه أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - جادت بما عندها ثقة بالله واعتماداً على الرزاق جل وعلا وإجابة للسائل كما أمر ﷺ فأثابها الله - سبحانه - وعوضها خيراً وزادها برأً وأجراً وإحساناً ونعيماً = ( شاة وطعاماً وكل ما يلزم ) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم .

٢٥ = قال مالك : وبلغني أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وبين يديها عنب : فقالت لإنسان نخذ حبة فأعطه إياها فجعل ينظر إليها ويعجب فقالت عائشة - رضي الله عنها - : أعجب كم ترى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب مثل المنفق والبخل رقم ٦٠٠ وسنن النسائي - كتاب الزكاة -

المعنى :

أتصدق بهذا لأنال بوزنه حسنات من الله - جل وعلا سبحانه - المنفق الخلف ، قال تعالى :

( أ ) ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ (١).

( ب ) ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ (٢).

قال البيضاوي : يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبيل الخيرات أو بآداء الزكاة على أحسن وجه والترغيب فيه بوعده العوض كما صرح به ( وأعظم ) من متاع الدنيا ( واستغفروا الله ) في مجامع أموالكم فإن الإنسان لا يخلو من تقريط .

٢٦ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل : لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على زانية . قال : اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون يُصدق الليلة على غني . قال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني فأثني فقيل له : أما صدقتك على سارق : فلعله أن يستعف عن سرقة وأما الزانية : فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغني : فلعله يعتبر فينق مما أعطاه الله . رواه البخاري واللفظ له ومسلم والنسائي وقالوا فيه (٣) : فأثني فقيل له أما صدقتك فقد قبلت ثم ذكر الحديث

المعنى :

قال النووي في باب ثبوت أجر المتصدق : وإن وقعت الصدقة في يد فاسق ونحوه - وفيه ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقاً وغنياً ففي كل كبد جرى أجر وهذا في صدقة التطوع وأما الزكاة فلا يجزئ دفعها إلى غني .

٢٧ - وعن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس . قال يزيد : فكان أبو الخير مرثد : لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم قال : صحيح على شرط مسلم (٤).

(١) سورة نساء الآية : ٣٩

(٢) سورة الزمل الآية : ٢٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب ثبوت أجر المتصدق رقم ٦٠١ ومنه النسائي - كتاب الزكاة - باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد ٥٥/٥

(٤) مسند أحمد ١٤٧/٤ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٤/٤ رقم ٢٤٣١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٢/٥ والمستدرک للحاكم ٤١٦/١

والمعنى :

يوم القيامة تكون الصدقة ظلة على صاحبها وواقية له من عذاب الله وجنة من الهول ولو قلت مثل قطعة من الخبز أو البصل وهذا رجل يأخذ من بيته ما وجد ولا يبالي بحقارته رجاء أن توجد له في الصالحات ظلل تقيه أهوال يوم الحساب فاجتهد أخي أن تتصدق ليقبك الله شر ذلك اليوم .

٢٨ - وفي رواية لابن خزيمة أيضاً عن يزيد بن أبي حبيب عن مرتد بن أبي عبد الله المزني : أنه كان أول أهل مضر يروح إلى المسجد وما رأيته داخل المسجد قط إلا وفي كفه صدقة : إما فلوس وإما خبز وإما قمح . قال : حتى زبما رأيت البصل يحمله : قال : فأقول يا أبا الخير إن هذا ينتن ثيابك ، قال فيقول : يا ابن أبي حبيب أما إني لم أجد في البيت شيئاً لم أتصدق به غيره إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ظل المؤمن يوم القيامة صدقته »<sup>(١)</sup>.

٢٩ - وعنه - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الصدقة لتطفئ عن أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته ، رواه الطبراني في الكبير والبيهقي وفيه ابن لهيعة<sup>(٢)</sup>.

٣٠ - وعن الحسن - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : فيما يروى عن ربه - عز وجل - أنه يقول : يا ابن آدم . افرغ من كنزك عندي ولا تحرق ولا غرق ولا سرق أو فيك أحوج ما تكون إليه . رواه الطبراني والبيهقي وقال هذا مرسل وقد روينا عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله إذا استولج شيئاً حفظه »<sup>(٣)</sup>.

المعنى : إداخر وجد وأنفق من مالك مدخراً ثواب ذلك عندى ، سبحانه يحفظ هذا من الضياع فلا يصيبه أى تلف ثم يشيه ويقدم له الجزء الأوفى عند موته ، يفتح له نعيم الجنة ويغدق عليه رحماته فيدرك جزاء إحسانه ويبعد عنه الحساب والأهوال .

٣١ - وروى عن ميمونة بنت سعد أنها قالت : يا رسول الله : أفتنا عن الصدقة ؟ فقال : إنها حجاب من النار لمن احتسبها يتغنى بها وجه الله عز وجل . رواه الطبراني<sup>(٤)</sup>.

٣٢ - وعن أبي ذؤ - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحي سبعين شيطاناً .

رواه أحمد والبخاري والطبراني وابن خزيمة في صحيحه وتردد في سماع الأعمش من بريدة والحاكم

(١) صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٢

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٢٨٦/١٧ رقم ٧٨٨ والجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٥٢٥/٦ رقم ٣٠٧٦

(٣) الجامع لشعب الإيمان - باب الصبر على الصدقة التطوع ٥٢٠/٦ رقم ٣٠٧١

(٤) مجمع الزوائد ١٠٩/٣



والبيهقي وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ورواه البيهقي أيضاً عن أبي ذر موقوفاً عليه قال : ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لحيان سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها<sup>(١)</sup>

٣٣ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبله المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ ، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ ﴾ ، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو برّها وزخرها عند الله فضعتها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابع ذلك مال رابع . رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ بيرحاء ] : بكسر الباء وفتحها ممدوداً : اسم لحديقة نخل كانت لأبي طلحة رضي الله عنه وقال بعض مشايخنا : صوابه بَيْرْحَى : بفتح الباء الموحدة والراء مقصوراً ، وإنما صحفه الناس . وقوله [ رابع ] روى بالباء الموحدة وبالياء المثناة تحت .

٣٤ - وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله : ما تقول في الصلاة ؟ قال : تمام العمل ، قلت : يا رسول الله : تركت أفضل عمل في نفسي أو خيره ؟ قال : ماهو ؟ قلت : الصوم ؟ قال : خير وليس هناك ، قلت يا رسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال بشق ثمرة قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً . رواه البزار واللفظ له وابن حبان في صحيحه أطول منه بنحوه والحاكم<sup>(٣)</sup> .

المعنى : تمام العمل : حسن أدائها وإتمام أركانها وسنتها .  
بفضل طعامك : مازاد عن حاجتك وحاجة عيالك تصدق به تريد ألا تدع فيك من الخير شيئاً :

أى : لا بد للإنسان أن يكون فيه ذرة من خير ولا يخلو من محامد ، فهذا أبو ذر رضي الله عنه يكثر من - فإن لم أفعل - فيسهل عليه ﷺ الجواب ويدعوه إلى عمل ولو قل من نصف ثمرة أو

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي ٨٦/٧ رقم ٣١٩٩ والحاكم في المستدرک ٤١٧/١ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ومسنده أحمد ٣٥٠/٥ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١٠٥/٤ رقم ٢٤٥٧ وكشف الأستار عن زوائد البزار ٤٤٧/١ رقم ٩٤٣

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٥٨٢ وسنن الترمذي - كتاب تفسير القرآن ٢٢٤/٥ رقم ٢٩٩٧ وسنن النسائي ٢٣١/٦

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار - أبواب صدقة التطوع ٤٤٥/١ رقم ٩٤١

ألفاظ حسنة عذبة أو اجتناب الشرور وترك القبائح وإلا فياخية من لم يفعل ذلك ولم تكن في صحيفته حسنات من الصالحات ويقول ﷺ : « تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً » أى تود يا أبا ذر ألا يكون لك شيء من المكارم وإن حقر — وفيه أن الإنسان يضرب بسهم صائب في الإنفاق وتشديد الطيبات ، ويتصدق بما زاد عن طلباته الضرورية ويحسن القول ، ويتقى الله .

٣٥ - روى البيهقي ولفظه في إحدى رواياته قال : سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال : الإيمان بالله . قلت يا نبي الله : مع الإيمان عمل ؟ قال : أن تر فتح مما خولك الله وتر فتح مما رزقك الله . قلت يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ماير فتح ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ؟ قال : فليعن الأخيق . قلت : يا رسول الله : أرايت إن كان لا يمس أن يصنع ؟ قال : فليعن مظلوماً قلت : يا نبي الله ! أرايت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ؟ قال : ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس قلت يا رسول الله : أرايت إن فعل هذا يدخله الجنة ؟ قال : ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة<sup>(١)</sup> .

المعنى : فليعن مظلوماً : فليزل آلام المكروب وأضرار المصاب ويبعد الباطل ويحق الحق ويغث المستغاث وينجد المتألم .

— ما تريد أن تترك لصاحبك : كفى هذا الضعف ألا تحب ألا يكون لك عمل صالح ومروءة تثاب عليها .

ليمسك : لينع ويصد .

ألا أخذت بيده : المعنى أن الخصلة المحددة تقوده إلى نعيم الجنة وتضىء له سبل الاحترام وفيه الحث على عمل البر والضرب بسهم في تنفيذ أوامر الله واجتناب مناهيه .

٣٦ - وروى عن رافع بن خديج — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة تسد سبعين باباً من السوء . رواه الطبراني في الكبير<sup>(٢)</sup> .

المعنى : الاحسان والانفاق لله تمنع الشرور وتصد الأذى وتقفل سبعين باباً من الضرر والهلاك والفقر والمرض وهكذا من الأعمال المؤلفة المؤذية ، وفيه الحث على عمل الخير ابتغاء وجه الله ليحيا الطلب ويمزول الكرب ويفك العسير .

٣٧ - وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة ، رواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً على أنس ولعله أشبه<sup>(٣)</sup> .

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي — باب التحريض على صدقة الطلوع ٥٠٤/٦ رقم ٢٠٥٧

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٣٢٧/٤ رقم ٤٤٠٢

(٣) السنن الكبرى للبيهقي ١٨٩/٤

٣٨ - وعنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : تصدقوا فإن الصدقة فكاكم من النار . رواه البيهقي من طريق الحارث بن عمير عن حميد عنه<sup>(١)</sup>.

وروى عن علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لا يتخطاها . رواه الطبراني ، وذكره رزين في جامعه وليس في شيء من الأصول<sup>(٢)</sup>.

**المعنى :** أسرعوا بتقديم صدقة لله فإنها تمنع المصائب ولا تغدوها الآلام . وكم رأينا من مريض شفاه الله لإحسانه ومسألة عسيرة سهلها الله بالصدقة ودين زال لفعل الخير لله وآمال يسر الله وجوده بالانفاق وقد أجد في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ دليلاً ناجحاً ودواء شافياً للوصول إلى نصر الله وإغداق رحمته على المحافظ على أداء الصلاة والزكاة فهذا أمر منه - سبحانه وتعالى - بالكف عن القتال وإقامة الصلاة وإخراج الزكاة حتى يأتي نصر الله ويشرق فتح الله . الاستفهام تعجبي ! أى تعجب يا محمد من قومك كيف يكرهون القتال مع كونهم قبل ذلك كانوا طالبين له وراغبين فيه ، منهم :

عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وسعد بن أبي وقاص وقدامة بن مظعون ، وجماعة كانوا بمكة يتحملون أذى الكفار والله يأمرهم بالتحمل والصبر فلما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة أمروا بالقتال وكرهتهم غلبت الرأفة عليهم أو لمحبتهم المعيشة قال الصاوى : ولما نزلت الآية أقبلوا عما خطر بياهم وشمروا عن ساعد الصبر والاجتهاد وجاهدوا في الله حتى جهاده . ود لعلينا العكوف على عبادة الله مع الإخلاص في إقامة هذين الركبتين : الصلاة ، والزكاة ، قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ من سورة النساء .

يسر الله للمسلمين الخروج إلى المدينة ، وبقي بعضهم إلى فتح مكة حتى شعروا بالعزة وجعل الله لهم من لدنه خير ولّى وناصر وهو محمد ﷺ ولما خرج ﷺ استعمل عتاب أبي أسيد فأرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة . هذه أوامر الله يا أخى للمستضعفين ﴿ من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾<sup>(٣)</sup> .

والقرية : مكة : قوم ضعفوا عن الهجرة مستذلين ممتحنين ولكن حافظوا على أداء اثنتين : ( الصلاة والزكاة ) حتى استجاب الله دعاءهم . ونصرهم نصراً مؤزراً . قال البيضاوى : وإنما ذكر

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقي - باب التحريض على صدقة التطوع ٥٢٩/٦ رقم ٣٠٨٢

(٢) مجمع الزوائد ١١٠/٣

(٣) سورة النساء الآية : ٧٥

الولدان مبالغاً في الحث ، وتنبهياً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم في الدعاء حتى يشاركوا في استئزال الرحمة واستدفاعه البلية ، وقيل : المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد .

ما أشبه حالتنا اليوم بحالة صدر الإسلام في الضعف والذلة ولكن شتان بين عملنا وعمل رجاله الأبطال — رضوان الله عليهم .

إنهم أدوا أوامر الله بأخلاص وعزيمة قوية فصبروا ونجحوا ، وفتح الله لهم فتحاً مبيناً فبدل الله ذلهم عزاً . وفقرهم غنى ونحن الآن في هذا الزمان نرى تقصيراً في حقوق الله ورجالاً نفوسهم غافلة عن طاعة الله وذكر الله والصلاة والزكاة لله . ألم يأن للمسلمين أن يتوبوا ويصلوا ويزكوا ويستقيموا رجاء أن الله يعزهم كما أعز أهل مكة ويرعاهم برحمته وإحسانه فإنه تعالى أمرهم بالقتال فجاهدوا واستبسلوا في سبيل نصر دين الله ولكن دعاني إلى ذكر هذه الآيات حبي الشديد لأمر الله لأولئك الصابرين المحتسبين المستضعفين بالصلاة والزكاة حتى أراد الله فقواهم ، وأشرق شمس الإسلام وأضاء الحق وعم نوره . قال تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ﴾ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد \* لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها نزلوا من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴿١﴾ .

قال البيضاوى : الخطاب للنبي ﷺ ، والمراد أمته ، أو تشبته على ما كان عليه والمعنى : لا تنتظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم في مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم . روى أن المؤمنين كانوا يرون المشركين في رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله فيما نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد ، قال عليه الصلاة والسلام « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع » أ . هـ بيضاوى .

٤٠ - وعن الحارث الأشعري — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ، ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فذكر الحديث إلى أن قال فيه : وأمركم بالصدقة ومثل ذلك كمثله رجل أسره العدو . فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسي منكم وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه ، الحديث رواه الترمذى وصححه ابن خزيمة واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما (٢)

٤١ - وعن رافع بن مكيث وكان ممن شهد الحديبية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٦ - ١٩٨

(٢) سنن الترمذى الحديث رقم ٢٨٦٣ وابن خزيمة ١٨٩٥/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣/٨ والمستدرک للحاكم ٤٢١/١

حسن الملكة ثناء وسوء الخلق شؤم والبرُّ زيادة في العمر والصدقة تطفيء الخطيئة وتقي ميتة السوء .  
رواه الطبراني في الكبير وفيه رجل لم يسم وروى أبو داود بعضه<sup>(١)</sup>.

المعنى : حسن الملكة : الذكاء الوقاد

ثناء وسوء : الغضب والكدر والشتم والشقاق والحسد وهكذا من النقائص .

شؤم : وبال ويجز السوء والأذى .

البر : فعل الخير وتشديد الصالحات والعمل الحمود يكون سبباً لزيادة العمر بمعنى أن الله يتكرم بحفظ صحة البار ويجعل له سيرة حسنة ، ويحفظ وقته من الضياع في اللغو بل يبارك فيه والبر ضد العقوق فكأن إطاعة الوالدين والإحسان إليهما سبب طول العمر والبر : الصدق وفلان يبر خالقه ، ويتبرره : أى يطيعه وإنى أشاهد من أطاع الله متعه بكمال الصحة وحسن حاله وأزال آلامه وأطال عمره .

تطفيء : تزيل الذنب

تقى : تمنع سوء الخاتمة والهلاك بحالة شنيعة رديئة .

٤٢ - وعن عمرو بن عوف - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن صدقة المسلم تزيد في العمر وتمنع ميتة السوء ويذهب الله بها الكبر والفخر . رواه الطبراني من طريق كثير بن عبد الله عن أبيه عن جده عمرو بن عوف ، وقد حسنها الترمذى وصححها ابن خزيمة لغير هذا المتن<sup>(٢)</sup>.

٤٣ - وعن عمر - رضى الله عنه - قال : ذكر أن الأعمال تباهى فتقول الصدقة : أنا أفضلكم . رواه ابن خزيمة في صحيحه<sup>(٣)</sup>.

٤٤ - وعن عوف بن مالك - رضى الله عنه - قال : خرج رسول الله ﷺ ويده عصا وقد علق رجل قنوه حشف فجعل يطعن في ذلك القنوه فقال : لو شاء رب هذه الصدقة بأطيب من هذا إن رب هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة . رواه النسائى واللفظ له . وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما في حديث<sup>(٤)</sup>.

المعنى : قنوه : عنق ( سباطة ) .

حشف : أردأ التمر .

فجعل يطعن : يضرب أى يذم ويبين ﷺ رداءه هذه الصدقة وقلة ثوابها عند الله وتمنى أن

(١) مجمع الزوائد للبيهقى ٢٢/٨

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٢٢/١٧ رقم ٣١

(٣) صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٣

(٤) سنن النسائى ٤٢/٥ وسنن أبى داود ٢٦١/٢ رقم ١٦٠٨ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١٠٩/٤ رقم ٢٤٦٧ والإحسان

بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧١/٨

ذلك الرجل يتصدق بأحسن وأبدع منها لأنها ستقيه يوم القيامة وتكون طعاماً له يوم لا يجد شيئاً يصدق عنه الأهوال ، ويدفع عنه الظمأ والجوع وفيه الحث على اختيار الطيب في الإنفاق والتصدق من الشيء المفيد المقيم ، قال تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾<sup>(١)</sup>

٤٥ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ من جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه . رواه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم<sup>(٢)</sup>

٤٦ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : خير الصدقة ما أبقت غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول امرأتك : انفق عليّ أو طلقني ، ويقول مملوكك : أنفق عليّ أو بعني ويقول ولدك إلى من تكلنا ؟ رواه ابن خزيمة في صحيحه ولعل قوله : تقول امرأتك إلى آخره من كلام أبي هريرة مدرج<sup>(٣)</sup> .

المعنى : ما أبقت : ما فادت وتركت أثراً بمنع السؤال وأزالت جوعاً ودفعت فقراً وقدمت عملاً يفيد .

٤٧ - وعنه - رضي الله عنه - أنه قال : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل وابدأ بمن تعول . رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم<sup>(٤)</sup> .

المعنى : طاقة أى إخراج شيء من قليل بمعنى أن الإنسان يرى نفسه فقيراً ولكن يوجد من القليل ابتغاء ثواب الله وكرمه وانتظار فضله ثم أمر ﷺ باعطاء الصدقة لمن يهلك أمره بفتح الجيم وضمها .

٤٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : سبق درهم مائة ألف درهم فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به . رواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحه واللفظ له والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم<sup>(٥)</sup> .

[ قوله ] : من عرضه بضم العين المهملة وبالضاد المعجمة : أى من جانبه .

المعنى : يبين لك ﷺ ثواب الصدقة الخارجة من مال الفقير يضاعف أجرها مئات لأن الغنى يوجد عن سعة وينفق من كثرة ولكن الفقير يدعوه إيمانه بربه إلى الإنفاق ويتنظر رزق الله .

٤٩ - وعن أم محمد - رضي الله عنها - أنها قالت : يا رسول الله إن المسكين يقوم على

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٢

(٢) صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٥٢/٥

(٣) صحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٦/٤ رقم ٢٤٣٦

(٤) سنن أبي داود ٣١٢/٢ رقم ١٦٧٧ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٤ والمستدرک للحاكم ٤١٤/١

(٥) سنن النسائي ٥٩/٥ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٤/٥ والمستدرک للحاكم ٤١٦/١

بابي فما أجد له شيئاً أعطيه إياه فقال لها رسول الله ﷺ : إن لم تجدى إلا ظلفاً محرقاً فادفعيه إليه في يده . رواه الترمذى وابن خزيمة .

وزاد في رواية : لا تردى سائلك ولو بظلف محرق ، وابن حبان في صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

﴿ الظلف ﴾ : بكسر الظاء المعجمة للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس .

٥٠ - وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى اسرائيل فعبد الله في صومعة ستين عاماً فأمرت الأرض فأحضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فزددت خيراً فنزل ومعه رغيف أورغيفان فبينما هو في الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت سيئته بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له رواه ابن حبان في صحيحه ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً عليه ولفظه (٢) .

إن راهباً عبد الله في صومعته ستين سنة فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه فنزل إليها فواقعها ست ليال ثم سقط في يده فهرب فأتى مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً فأتى برغيف فكسره فأعطى رجلاً عن يمينه نصفه وأعطى آخر عن يساره نصفه فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه فوضعت الستون في كفة ووضع الستة في كفة فرجحت يعني الستة ثم وضع الرغيف فرجح يعني الرغيف الستة التي غشيها :

المعنى : أى تقرب إليها وجامعها .

يبين ﷺ أن الصدقة برغيف أو رغيفين كانت سبب زيادة الحسنات فرجحت كفة الصدقة أمام الفاحشة وتجلى عليه ربه بالرضوان والرحمة وعفا عنه وإن تعجب فعجب طاعة ستين سنة أمام هذه الكبيرة تضاعل وزنها وخف حجمها ولم تنفعه جزاء ارتكابه هذه الموبقة ولكن عاطفة الإحسان لله في لحظة أدخلته في جنة الله وطاشت دونها هذه الكبيرة وفيه الحث على الصدقة والتباعد عن الفاحشة وانتظار ثواب الله ووجود خشيته والطمع في جزائه - قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٣) . قال البيضاوى : يعم المهاجرين والأنصار الذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ : سترها بالإيمان وعملهم الصالح . ط ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ : حالهم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد قال

(١) سنن الترمذى ٤٣/٣ رقم ٦٦٥ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان

١٥٧/٥

(٢) : الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٩٨/١

(٣) سورة محمد الآية : ٢

تعالى مبيناً حال الدنيا وأن الزكاة جزء من المال وفيها الخير كله : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفَكُمْ تَبْخُلُوا وَيَخْرُجْ أَصْغَانَكُمْ \* هَآأَنَّمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُتَفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَخِلْ وَمَنْ يَخِلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنَى وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ من سورة القتال<sup>(١)</sup>.

﴿ أَجُورَكُمْ ﴾ : ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ : أى : جميع أموالكم بل يقتصر على جزء منها يسير كربع العشر أو العشر . ﴿ فَيُحْفَكُمْ ﴾ : فيجهدكم بطلب الكل ، ﴿ تَبْخُلُوا ﴾ : فلا تعطوا ، ويخرج الله تعالى بالزكاة الأحقاد ويزيل الشقاق .

إن عبادة ذلك الرجل قاصرة عليه لا يتعدى ثوابها لغيره وهى لغنى حميد سبحانه فلم تنفع إزاء معصيته حاسبه الله عليها ولكن مر بخاطره الكرم وعلاج البخل والتحلّى بالجود والسخاء : فتصدق برغيف أو اثنين ، فقبل الله صدقته فضاعف ثوابه فثقل ميزانه فرجحت عن الفاحشة فغفر الله له .

ومعنى ﴿ ثُمَّ سَقَطَ فِي يَدِهِ فَهَرَبَ ﴾ أى : ندم واستغفر وأقر بذنبه فعفا الله عنه ومتعته بفضلله ، قال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ \* لَكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ \* الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنَى الْحَمِيدُ ﴾ .

﴿ مُصِيبَةٍ ﴾ : كجذب وعاهة فى الأرض . ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ : كمرض وآفة إلا مكتوبة فى اللوح المحفوظ مثبتة فى علم الله تعالى . ﴿ نَبْرَأَهَا : تَخْلُقُهَا وَالضَّمِيرُ لِلْأَرْضِ أَوْ لِلْمَعْصِيَةِ أَوْ لِلْأَنْفُسِ : ﴿ بِمَا آتَاكُمْ ﴾ : بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدرهان عليه الأمر ، والمراد به نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله . والفرح الموجب للبطر والاختيال . والمختال بالمال يضره به غالباً ، ومن يعرض عن الانفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا يتفعه التقرب إليه بشكر من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق .

آمنت بالله واعتقدت أن الصدقة تنفع صاحبها وتكون غفران ذنوبه وزيادة رزقه من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس .



## فوائد الصدقة كما أخبرنا النبي ﷺ

أولاً : تنمية الصدقة وزيادة أجرها وإدخالها عند الغنى الوهاب ( يقبلها يمينه ثم يربها )  
 ثانياً : يضع الله البركة في المال الباقي ويبعد عنه المصائب ويزيده غمًا ورجحاً ﴿ ما نقصت صدقة من مال ﴾ .

ثالثاً : الصدقة سبب زيادة الرزق ونصر الله وعنايته بالمتصدق ﴿ ترزقوا وتنصروا وتحبوا ﴾ .

رابعاً : يسخر الله للمتصدق ما يفيد من مسقى أرض ومساعدة ووجود مال ومحبة الأصدقاء ﴿ اسقى حديقة فلان ﴾ وفيه يبارك الله في ماء الأنهار لتروى الأرض المزكاة .

خامساً : تبعد صاحبها عن النار وتفك عنه ضيق الدنيا والآخرة ﴿ اتقوا النار ولو بشق تمرة ﴾ .

سادساً : الصدقة تزيل الخطايا وتغسل صحيفة صاحبها من الأدناس وتطهرها من الذنوب ﴿ تطفىء الخطيئة ﴾ . وقد أعلمنا قائد الحكمة ومبعث الرحمة عابداً راهباً أخطأ فأحسن فلم ينفعه عمله إلا صدقة رغيف أو رغيفين أطفأت خطيئة ( رجع الرغيف ) .

سابعاً : الصدقة تصد الرؤيا وتمنع الحوادث وتجلب حسن الخاتمة فيموت المحسن على فراشة مبشراً ينعم الله لا يموت برصاص ولا يقتله قاتل ولا يحسد ولا يذم ولا يقتل مؤامرة ولا يعاكسه ﴿ وتدفع سبعين باباً من ميتة السوء ﴾ كالحسد والكيد والدس والتأمر والفقر وموت البغته وهكذا من العواقب القبيحة الرذيلة السيئة .

ثامناً : الصدقة درع قوى يلبسه المحسن فيقيه عاديات الدهر وحوادث الزمان ﴿ جنة تغشى أنامله وتعفو أثره ﴾ .

تاسعاً : الصدقة كشجرة يستظل بها المحسن : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ . وظل المؤمن يوم القيامة صدقته .

عاشراً : الصدقة تهدم حصون الشيطان وتكسر أتيابهم وتحطم قيودهم وترد كيدهم وتصد بغيمهم . ﴿ يفك عنها لحيا سبعين شيطاناً ﴾ المعنى أن الشيطان يضع أتيابه ولحيه عند ما يهم المتصدق أن ينفذ الإنفاق فيوسوس له بالبخل والشح والفاقة ، وعدم احتياج هذا السائل وهكذا من الغواية فمن تصدق فك أغلاله وأزال وساوسه وأنفق لله فحماءه الله من أذاهم ووقاه شرورهم وحفظه من إضلاله ، وأبعد عنه أضراره . قال تعالى يحكى عن الشيطان : ﴿ قال فيما أغويتى لأقعدن لهم صراطك ﴾ .

المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذعوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿١﴾ .

أحد عشر : الصدقة تضع البركة في العمر بإذن الله وتجلب الصحة وتدعو إلى الوثام وتجلب محبة الناس وتقيم حصوناً منيعة من قلوب الفقراء ليحفظوه بأنفسهم وليدعو له بخير . وليصدوا عنه كل باغ ويحرسوه ، ويتمنوا خدمته وراحته ﴿ صدقة المسلم تزيد في العمر ﴾ .

وإليك أيها الأخ أقدم آية عزاء يوم الاحتضار تبلغ أعلى الصدر . ﴿ التراقي ﴾ وتقول ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه ﴿ ويظن ﴾ المحتضر . ﴿ الفراق ﴾ وتلتوى ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة . لماذا ؟ لأنه كان لا يتصدق ولا يزكى ماله ولا يؤدي حقوق الله من صلاة وغيرها ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ﴾ إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴿٢﴾ . من سورة القيامة .

(١)

﴿ ناضرة ﴾ : بهية متللة . ﴿ ناظرة ﴾ : مستغرقة مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه أو منتظرة إنعامه . ﴿ باسرة ﴾ : شديدو العبوس . ﴿ فاقرة ﴾ : داهية تكسر الفقار . ﴿ المساق ﴾ : سوفه إلى الله تعالى وحكمه . إن شاهدنا : ﴿ فلا صدق ﴾ : أى حال ذلك الرجل مؤلم لأنه كان بخيلاً وشحيحاً لم يزك ولم يصل .

اللهم بلغنا رضاك لنراك

### الإنفاق خصلة الأبرار

وقد أجمع العقلاء على حقارة الدنيا ورغب عنها المتقون الذين استبدلوا بحبها طاعة الله وأنفقوا فنالوا الجنة وفازوا بالتمتع بالأزواج المطهرة الحسان ، وأحاطتهم رحمة الله وعملهم رضوانه مع الأبرار الصالحين والله تعالى يعينهم بقوله ﴿ الذين يقولون ربنا إنا آمنة فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴿٣﴾ .

قال البيضاوى : حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب فإن معاملته مع الله إما توسل ، وإما طلب . والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملها وإما بالبدن وهو إما قولى : وهو الصدق وإما فعلى ، وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٦ - ١٨

(٢) سورة القيامة الآيات : ٢٢ - ٣٢

(٣) سورة آل عمران الآيات : ١٦ - ١٧

الإِنفاق في سبيل الخير وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة لأن العبادة حيثئذ أشق والنفس أصفى والروح أجمع سيما للمجتهدين قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون .

وقد عد الله الإِنفاق من صفات المؤمنين في قوله تبارك وتعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴿<sup>(١)</sup>﴾ . من سورة التوبة .

﴿ عزيز ﴾ : غالب على كل شيء لا يتمتع عليه ما يريده . ﴿ حكيم ﴾ : يضع الأشياء في مواضعها . ﴿ طيبة ﴾ : تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفي الحديث « إنها معقور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر » .

فأنت ترى المتقين والمزكين معدودين في صفوف العظماء والأبطال الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، فحفظوا بنعيم جنته ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى إلى نيل الوصول ، والفوز باللقاء إذ يتحلى الخالق العظيم جل وعلا ويقول : « أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً » حديث شريف . الصدقة من العمل الصالح ، وقد قال تعالى :

( أ ) ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً<sup>(٢)</sup> . وقد أخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين الفاسقين البخلاء الذين يحضون الأنصار على عدم الإِنفاق .

( ب ) ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ﴾<sup>(٣)</sup> . سبحانه بيده الأرزاق والقسم .

( ج ) ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾<sup>(٤)</sup>

﴿ ليوم الجمع ﴾ : الحساب والجزاء . ﴿ التغابن ﴾ : يغيبه فيه بعضهم بعضاً لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس مستعار من تغابن التجار . بمعنى أن الكفار يأخذون منازل المؤمنين في النار لو ماتوا كفراً . ويغيبه المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا والتغابن ليس على بابه لأن هذا سرور للمؤمنين .

(٣) سورة المنافقون الآية : ٧

(٤) سورة التغابن الآية : ٩

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٧١ - ٧٢

(٢) سورة الطلاق الآية : ١١

## ولا يحض على طعام المسكين

إن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل وقسوة القلب وهذه عبارة البيضاوى يفسر حال رجل قدم كتابه بشماله فعذب عذاباً عسيراً لماذا ؟ لسببين :

(أ) لا يؤمن بالله .

(ب) لا يحض على بذل طعام المسكين أو إطعامه .

نعوذ بالله من مال وراءه العقاب وحر المصائب والويلات لأن صاحبه بخيل وفي الحقوق شحيح فكل عمله قبيح وعاقبته سيئة ولن تجد أصدق حديثاً من كلام الله تعالى مبيناً حال المؤمنين الصالحين وحال الفاسقين الكافرين العصاة المذنبين . قال عز شأنه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابِهِ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ ﴾ إني ظننت أنى ملاق حساييه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوقى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ما حساييه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عني ماليه هلك غنى سلطانية خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلوكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون <sup>(١)</sup>.

﴿ مالية ﴾ : أى مالى وما يتبعنى . ﴿ سلطانية ﴾ : حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا . أو ملكى وتسلطى على الناس . ﴿ فاسلوكوه ﴾ : فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده ، وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة . قال الصاوى كأنه قيل : ما باله يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب : لا يؤمن بالله ، ولا يحض ، وقال البيضاوى : تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك ولا يحض ويجوز أن يكون ذكر الحض للإشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تبارك الفعل . وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع . ﴿ حميم ﴾ : قريب يحميه . ﴿ غسلين ﴾ : غسالة أهل النار وصديدهم . ﴿ الخاطئون ﴾ : أصحاب الخطايا ، من خطيء الرجل إذا تعمد الذنب ، لا من الخطأ المضاد للصواب . ﴿ إن شاهدنا ﴾ : ﴿ ولا يحض ﴾ فكأن البخيل ويأمر الناس بالبخل متخلق بأخلاق الكفار فيعذبه الله انتقاماً منه على تقصيره فى الإنفاق لله وياليتها يسكت بل يدعو إلى التشبه به ليكون قوة سيئة فى الإجمار والأعسار وأداة منع وباب شر ، وطريق خير ، وبوق حرمان ، وقد قال الإمام على كرم الله وجهه : ألا أنبئكم بالعالم كل العالم من لم يزين لعباد الله معاصى الله ولم يؤمنهم مكره ، ولم يؤيسهم من روحه : أى العالم الكامل علماً من دعا إلى الله وحذر الناس من الوقوع فى المناهى ، ولم يقطع أملهم من رحمته وقال الشاعر :

فما يمر خيال الغدر فى خلدى      ولا تلوح سمات الشرفى خالى

قلبي سليم ونفسي حرة ويدي مأمونه ولساني غير ختال

### اتصف المنافقون بمكارم الأخلاق كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز

اقرأ سورة المعارج تجد قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً \* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً \* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً \* إِلَّا الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلنَّسَائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (١).

﴿ هَلُوعاً ﴾ : شديد الحرص قليل الصبر . ﴿ الشَّرُّ ﴾ : الضر ، يجزع ويتكدر ويضجر .  
﴿ الْخَيْرُ ﴾ : السعة والخيرات ، يبالغ بالإمساك والبخل :

قال البيضاوي : طبائع جبل الإنسان عليها ، استثنى سبحانه قيل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق في طاعة الحق والاشفاق على الحق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الأجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك في حب العاجل وقصور النظر عليها .

اندرج المنافقون فيمن كلهم الله بتوفيقه فأدركوا لذة طاعة الله في الجود وتشديد الصالحات بالإففاق فتزهدوا عن الدناءة والأخلاق الذميمة وسمت صفاتهم الحميدة وعملوا بأداب الله بتنفيذ أوامره واتباع الرسول ﷺ وهو لنا قدوة حسنة .

انتقل بعد ذلك إلى قراءة سورة ( المؤمنون ) تجد استدراج الله تعالى للأغنياء والتنبيه على أن المال والبنين إمداد من الله وليس فيهما دليل على مسارعة الخير ، قال جل شأنه : ﴿ أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدِّهِمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ \* نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ \* إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ \* وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ \* وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ \* أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هُمْ سَابِقُونَ \* وَلَا نَكُفُّ عَنْهُمْ نَفْسًا إِلَّا وَرَعَهُمَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) من سورة المؤمنون .

﴿ إِنَّمَا نُمِدِّهِمْ ﴾ : أي أنما نعطيهم ، ونجعلهم مدداً والخير غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم — وهذا في الكفار ولكن أريد أن أشبه البخيل غير المنفق في مشروعات الخير بأولئك الذين قست قلوبهم فخلت من الإيمان بالله المعطي الخلف . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ : حذرون خائفون من عذاب الله .

(١) سورة المعارج الآيات : ١٩ - ٢٥

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥٥ - ٦٢

وإن شاهدنا : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ : أى : يعطون ما أعطوه من الصدقات ، وقرىء : ﴿ يأتون ما آتوا ﴾ : أى : يفعلون ما فعلوا من الطاعات وقلوبهم خائفة ألا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به . ﴿ يسارعون ﴾ : أى : يرغبون في الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون بها أو يسارعون في نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ (١) فيكون إثباتاً لهم ما نفى عنه أضدادهم . ﴿ سابقون ﴾ : لأجلها فاعلون السبق . أو سابقون الناس إلى الطاعة ، أو الثواب أو الجنة . ﴿ وسعها ﴾ : قدر طاقتها . يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على النفوس . ﴿ كتاب ﴾ : يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال . ﴿ بالحق ﴾ : بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع . ﴿ لا يظلمون ﴾ : بزيادة عقاب أو نقصان ثواب . أهـ البيضاوى

وهل تجد اسمى صفة من الإقدام على الإنفاق ثقة بالله وإعتقاداً بحسن جزائه سبحانه وتعالى .

### اعتراف أهل سقر بأعذارهم منها : ولم نك نطعم المسكين

يفصل الله بين الخلائق فيذهب العصاة والكفرة الفسقة إلى جهنم فيتحادث المجرمون : ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى آتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ (٢) . من سورة المدثر .

أيها المسلم : هذا إقرار من الجهنميين وكان من صفاتهم البخل وإنعدام الخير منهم ولا يعطون الفقراء .

( أ ) لا يؤدون الصلاة الواجبة .

( ب ) ولا يؤدون ما يجب إعطاؤه .

( جـ ) يشرعون في الباطل ( مع الخائضين ) : الشارعين فيه .

( د ) يكذبون بיום القيامة .

أهل بيت رسول الله ﷺ يطعمون الطعام على حبه

سيدنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى في الكرم والقُدوة الحسنة في الانفاق فلا غرو أن يظهر أثر

تعاليمه في أهله وأقربائه . قال البيضاوى في تفسيره :

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٨

(٢) سورة المدثر الآيات : ٤٢ - ٤٨

وعن بن عباس — رضى الله عنهما — أن الحسن والحسين — رضى الله عنهما — مرضا فعادهما رسول الله ﷺ في ناس ، فقالوا : لو نذرت على ولديك فنذر على وفاطمة — رضى الله عنهما — صوم ثلاث إن برثنا فشفيا ، وما معهم شيء فاستقرض على من ( شمعون الجندى ) ثلاث أصوع من شعير ، فطحن فاطمة صاعاً واختبرت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يزوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم يتيم فآثروه ثم وقف عليهم في الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فنزل . جبريل — عليه السلام — بهذه السورة وقال : خذها يا محمد هناك الله في أهل بيتك قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيروا \* يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً \* ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً \* إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً \* إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً \* فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً \* وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً \* متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً \* ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً \* ويطاف عليهم بأبية من فضة وأكواب كانت قواريرا \* قوارير من فضة قدروها تقديراً \* ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً \* عينا فيها تسمى سلسيلاً \* ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً \* وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً \* عاليهم ثياب سندس خضر واسترق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً \* إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴿ ١ ﴾ .

فهل تقتدى أيها المؤمن بأولئك الكرام الذين جادوا من قلة وأنفقوا في ضيق اعتماداً على الله ، ورجاء رحمته ورضوانه .

وقال الصاوى في تفسير : ﴿ ويطعمون الطعام ﴾ نزلت في علي بن أبى طالب وأهل بيته وذلك أنه أجز نفسه ليلة ليسقى نخلاً بشيء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً لياً يكلوه يقال له الحرير فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام إلى آخره ( على حبه ) أى مع حبه وشهوته ففيه إشار على النفس ويصح رجوع الضمير لله : أى على حب الله : أى لوجهه ، وابتغاء رضوانه وخص الثلاثة لأنهم من العواجز المعدمين الكسب . والأسير المحبوس بحق : أى وأولى المحبوس بباطل وعلى — رضى الله عنه — سأل سائل ، وهو زاكع في صلاته فطرح له خاتمه ﴿ ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ في الصلاة حرصاً على الاحسان ومسارة إليه . قال البيضاوى : نزلت في علي رضى الله عنه .هـ . ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ (١)

الآية .

٥١ - وعن المغيرة بن عبد الله الجعفى قال : جلسنا إلى رجل من أصحاب النبى — ﷺ — يقال

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٢٢

(٢) سورة المائدة الآية : ٥٥

له خصفه بن خصفه : فجعل ينظر إلى رجل سمين فقلت له : ما تنظر إليه ؟ فقال : ذكرت حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : تدرون ما الشديد ؟ قلنا : الرجل يصرع الرجل . قال : إن الشديد كل الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . تدرون ما الرقوب ؟ قلنا الرجل الذى لا يولد له . قال : إن الرقوب الرجل الذى له الولد ، لم يقدم منهم شيئاً ، ثم قال : تدرون ما الصعلوك ؟ قال قلنا : الرجل الذى لا مال له ؟ قال : إن الصعلوك كل الصعلوك الذى له المال لم يقدم منه شيئاً . رواه البيهقى<sup>(١)</sup>.

### الترغيب فى صدقة السر

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . رواه البخارى ومسلم من أبى هريرة هكذا<sup>(٢)</sup>.

٢ - وروى عن أنس - رضى الله عنه - قال : رسول الله ﷺ : لما خلق الله الأرض جعلت تيد وتكأ فأرساها بالجبال فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : ياربنا ! هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : النار . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : الماء . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : الريح قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم إذا تصدق بصدقة يمينه فأخفاها من شماله<sup>(٣)</sup>.

٣ - وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : إن صدقة السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى رواه الطبرانى فى الكبير<sup>(٤)</sup>.

٤ - وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : صنائع المعروف : تقى مصارع السوء ، وصدقة السر : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد فى العمر رواه الطبرانى فى الكبير<sup>(٥)</sup>.

٥ - وروى عن أم سلمة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : صنائع

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى - باب التحريض على صدقة التطوع ٥١٩/٦ رقم ٣٠٧٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان - كتاب الزكاة - باب فضل إخفاء الصدقة رقم ٦١٠

(٣) مسند أحمد ١٢٤/٣ وتحفة الأحوذى ٣٠٧/٩ رقم ٣٤٢٨ وقال الترمذى : حديث غريب

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٤٢١/١٩ رقم ١٠١٨

(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣١٢/٨ رقم ٨٠١٤



المعروف : تقى مصارع السوء والصدقة، خفياً : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد في العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة وأول من يدخل الجنة أهل المعروف رواه الطبراني في الأوسط<sup>(١)</sup>.

٦ - وعن أنى أمانة - رضى الله عنه - أن أبا ذر قال : يا رسول الله : ما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله المزيّد ثم قرأ : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة . قيل يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال سر إلى فقير أو جهد من مقل ، ثم قرأ : إن تبدوا الصدقات فنعمنا هى الآية . رواه أحمد مطولاً والطبراني واللفظ له . وفي إسنادهما على بن يزيد<sup>(٢)</sup>

وعن أنى ذر - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله . فأما الذين يحبهم : فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سرّاً لا يعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعدل به فوضعوا رءوسهم فقام يتملقنى ويتلو آياتى ورجل كان فى سرية فلقى العدو فهزموا فأقبل بصدرة حتى يقتل أو يفتح له . والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم . رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحة<sup>(٣)</sup>.

المعنى فقام يتملقنى : تجافى جنبه عن مضجعه وذهب لعبادة الله وذكره .  
الشيخ الزانى : كبير السن هرم ومع ذلك يرتكب الفاحشة بمعنى أن عقابه أشد من غيره رجل ضعفت قوته وشهوته وكد ولم يكسر حدته فى الفاحشة .  
الفقير المختال : لا يملك شيئاً ولكن يتكبر على الناس ويتجبر ويختال والمنهى عنه الخيلاء والعجب والغلطرسه على الناس وهو محتاج .  
الغنى الظلوم : صاحب الثروة والنعمة ولكن يتعدى على خلق الله ويسئ إليهم ويمنع حقوقهم ويضيع أموالهم عدواناً مع أنه فى سعة يمكنه أداء الحقوق كاملة ويتجبر ويقسو . ويطغى ويبغى .

سيدنا موسى عليه السلام يقول لفرعون : هل لك إلى أن تزكى ليعتبر المسلمون

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى \* إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى \* اذهب إلى فرعون إنه طغى \* فقل هل لك إلى أن تزكى \* وأهديك إلى ربك فتخشى \* فأراه الآية الكبرى \* فكذب وعصى \* ثم أدبر يسعى \* فحشر فنادى \* فقال أنا ربكم الأعلى \* فأخذه الله نكال الآخرة والأولى \* إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

(١) مجمع الزوائد ١١٥/٣

(٢) مسند أحمد ٢٦٥/٥ والمعجم الكبير للطبراني ٢٦٩/٨ رقم ٧٨٩١

(٣) سنن النسائى ٨٤/٥ وصحيح ابن خزيمة - كتاب الزكاة ١٠٤/٤ رقم ٢٤٥٦ ومسند أحمد ١٥٣/٥

إن شاهدنا العظة من دروس موسى عليه السلام لفرعون وتكبره على الناس فطمس الله معالمه وضيع ملكه لماذا ؟ لأنه طغى وبغى وعس في الأرض وأفسد ولم يؤمن بالله ورسله ولم يعمل صالحا وساق الله تعالى لحبيبه هذا الحديث ليسليه على تكذيب قومه ويعظهم أن يعتبروا فيعملوا صالحا خشية أن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منه كذلك دعوا الناس أن يعملوا بالكتاب والسنة ويصلوا ويتصدقوا خشية زوال هذه النعم وانتشار نقم الله وعذابه بينهم .

﴿ تزكى ﴾ : أى هل لك ميل يا فرعون إلى أن تتطهر من الكفر وتبتعد عن الطغيان وتنفذ لأوامر الله وتتجنب الظلم وتترك الضلال والإفساد ، ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ : ارشدك إلى معرفته — عز وجل . ﴿ فتخشى ﴾ : بأداء الواجبات ، وترك المحرمات إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة . ﴿ الآية ﴾ : المعجزة ، وهى قلب العصا حيه فكذب فرعون موسى وعصى الله — عز وجل — ثم أدبر عن الطاعة ساعياً في إبطال أمره . أدبر بعد ما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً في مشيه . ﴿ فحشر ﴾ : فجمع السحرة أو جنوده . ﴿ الأعلى ﴾ : أى كل من بلى أمركم . ﴿ نكال الآخرة ﴾ : الإحراق في جهنم . ﴿ الأولى ؟ ﴾ : الإغراق في الدنيا . قال تعالى : ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ فالיום ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا . ﴿ لغافلون ﴾ : أى أتؤمن الآن وقد أيسست من نفسك ولم يبق لك اختيار . ﴿ المفسدين ﴾ : الضالين المضلين عن الإيمان . ﴿ ننجيك ﴾ : ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل . ﴿ بيدك ﴾ : عارياً من الروح أو كاملاً سوياً أو عرياناً من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرفون بها لتكون لمن وراءك علامة .

إذ كان في نفوس بنى إسرائيل من عظمتهم ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك عن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن ، وكبرياء الملك مقهور مملوك بعيد عن مظان الربوبية فقد كف الله تزويرك وأماط الشبهة في أمرك وذلك دليل على كمال قدرة الخالق جل وعلا وعلمه وإرادته ، وإن إزالة ملك هذا الطاغية معنى من معاني بغض الله وكرهته للظالمين . فالعدل يعمر والظلم يدمر وقديماً قيل : العدل أساس الملك قال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾<sup>(١)</sup> . أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهمك

(١) سورة النازعات الآيات : ١٥ - ٢٦

(٢) سورة القصص الآية : ٥٠

في اتباع الهوى فاللهم وفقنا لتتبع السيد المصطفى ﷺ وترسم شرعه . وقال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاهها ﴾ وقد خاب من دساها ﴿<sup>(١)</sup> أى أتمها بالعلم والعمل وفيه الحث على تكميل النفس والالتجاء إلى التضرع إلى الخالق جل وعلا رجاء السير على منهج الرسول ﷺ ﴿ دساها ﴾ : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق .

### المنفق يعطيه الله حتى يرضى ويعافيه من العسر ويسر له اليسر

تزود يأخى من أحاديث رسول الله ﷺ رجاء أن تتعود السخاء فيزيد الله رزقك ويقيك المكاره ويعينك على طاعته ويهيئ لك طرق السداد والرشاد ويدللك سبل السعادة ومصدق ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى \* وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى \* وما يغنى عنه ماله إذا تردى \* إن علينا للهدى \* وإن لنا للآخرة والأولى \* فأنذرتكم ناراً تلظى \* لا يصلاها إلا الأشقى \* الذى كذب وتولى \* وسيجنها الأتقى \* الذى يؤتى ماله يتزكى \* وما لأحد عنده من نعمة تجزى \* إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى \* ولسوف يرضى ﴿<sup>(٢)</sup> من سورة الليل : أى أعطى الطاعة وجاد فى الخير وأحسن إلى الفقراء واتقى المعاصى وخاف الله وعمل صالحاً .

﴿ بالحسنى ﴾ : بكلمة التوحيد بمعنى أنه رجا الله ووثق به وخشيه . ﴿ فسنيسره ﴾ : فسنهيئه للخلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة . ﴿ بخل ﴾ : شح بما أمر به ولم يؤدى الزكاة ولم يتصدق بمعنى أنه لم يفعل الواجبات والنوافل . ﴿ للعسرى ﴾ : للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ، يأخى : ثق بهذا وتصدق وأفعل الخير ، والله يجازيك الجزاء الأوفى ويزيل عنك السوء ويحفظك ويشفيك ويلهمك الصواب والحكمة ولقد أخبرك جل وعلا أن مالك لا ينفعك إذا مت إلا إذا أنفقتة فى مرضاة الله وإبتغاء ثوابه . ﴿ تردى ﴾ : هلك أو وقع فى حفرة جهنم . ﴿ الهدى ﴾ : تفضل من الله جل وعلا أن يبين الإرشاد إلى الحق . ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أى الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، يقول جل جلاله : نعطي فى الدارين ما نشاء لمن نشاء أو ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء . ﴿ تلظى ﴾ : تلهب . ﴿ لا يصلاها ﴾ : لا يلزم مقاسياً شدتها . ﴿ إلا الأشقى ﴾ : الكافر الذى كذب الحق وأعرض عن الطاعة والفاسق لا يلزمها . ﴿ الأتقى ﴾ : الذى اتقى الشرك والمعاصى . ﴿ يؤتى ماله ﴾ : يصرفه فى مصارف الخير . ﴿ ولسوف يرضى ﴾ : وعد بالثواب الذى يرضيه . والآيات نزلت فى أنى بكر — رضى الله عنه — حين اشترى بلالا فى جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم ولذلك : المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف أ.هـ بيبضاوى .

(١) سورة الشمس الآيات : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ - ٢١

هذا أبو بكر — رضى الله عنه — منذ ظهر فجر الإسلام وسيرته أندى من المسك لأنه أنفق لله وأحب في الله وهو جدير بكل ثناء ومدح :

فسر بنا في ذمام الليل متعسفاً	نفحة الطيب تهدينا إلى الملل
فالحب حيث العدد والأسد رابضة	حول الكناس لها غاب من الأسل
قد زاد طيب أحاديث الكرام بها	ما بالكرائم من حين وعن بخل
تبيت نار الهوى منهن في كبـد	حرى ونار القرى منهم على القلـل

الغنى يخلد في النعيم إذا ما أنفق ماله لله في الصالحات والمال الكثير يجر إلى المعاصي

إذا أعطى الله الإنسان مالا وفيرا فصرفه في وجوه الخير وفي الطيبات وأدى حقوق الله فيه فاز بعز الله وتمتع بالسعادة في حياته ومماته . أما إذا بخل وقصر في الزكاة ونأى عن الصدقات جرى مضاره في شهواته وضيعه في الموبقات وارتكب به الخطايا وامتلاّت مجالسه بالغيه والتميمه ، وباء بالخسران وقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن ( الأخنس بن شريق ) وكان مغيباً أو ( الوليد بن المغيرة ) واعتياه رسول الله ﷺ . قال تعالى :

( أ ) ﴿ ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا لينبذن في الحطمة ﴾ . وشاهدنا رجل ثرى اغتر بكثرة ماله فطغى واغتاب ونم وعادى رسول الله ﷺ ولم يؤمن به ﷺ ولم يعمل صالحاً فاستحق عذاب الله . ﴿ وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ (١) . تطلع على الأفئدة : تطو أوساط القلوب لأنها محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة . ﴿ مؤصدة ﴾ : مطبقة وموثقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص أهـ يضاوى .

انتقل أيها الأخ إلى سيرة أبي هب فإنه ﷺ جمع أقاربه كما أمره سبحانه وتعالى : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ (٢) ، فأنذرهم ، فقال أبو هب تبالك ألهذا دعوتنا وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت .

( ب ) ﴿ تبت يدا أبنى هب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ (٣) : أى : مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهه الأتباع أو عمله الذى ظن أنه سينفعه أو ولده عتبة ، وقد أفرسه أسد في طريق الشام وقد أحرق به البعير ومات أبو هب بالفرسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً

(١) سورة المزة الآيات : ٥ - ٩

(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١٤

(٣) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢

حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه ، فهو إخبار عن الغيب طابقة وقوعه . أ.هـ  
بيضاوى .

وشاهدنا رجل طمس الله على بصيرته فلم يؤمن برسول الله ﷺ وأخذته الغرور بماله فلم  
يشيد به الصالحات ولعل ذلك عبرة للمسلمين الأغنياء أن يقبلوا على طاعة الله ويعملوا صالحاً  
وينفقوا حبا في الله ، فالإنسان ببطرته يحب المال ، ولكن يعالجها بالإنفاق والميل إلى فعل  
الخيرات قال تعالى :

(ج) ﴿ إن الإنسان لربه كنود \* وإنه على ذلك لشهيد \* وإنه لحب الخير لشديد \* أفلا يعلم إذا  
بعثر ما في القبور \* وحصل ما في الصدور \* إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا الإنفاق من علامات المتقين كما أخبرنا الله تعالى في محكم كتابه والبخل من شيم  
الأشرار كما رأيت . قال عز شأنه :

(أ) ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين \* الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما  
رزقناهم ينفقون ﴾<sup>(٢)</sup>.

(ب) ﴿ يأتيتها النفس المطمئنة \* ارجعى إلى ربك راضية مرضية \* فادخلى في عبادى وادخلى  
جنتى ﴾<sup>(٣)</sup>.

(ج) وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية \* فى جنة عالية \* لاتسمع فيها لاغية \* فيها عين جارية \* فيها  
سرر مرفوعة \* وأكواب موضوعة \* ونمارق مصفوفة \* وزراى مبثوثة ﴾<sup>(٤)</sup>.

(د) ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره \* ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾<sup>(٥)</sup>.

(هـ) ﴿ فأما من ثقلت موازينه \* فهو فى عيشة راضية \* وأما من خفت موازينه \* فأما هاهوية \* وما  
أدراك ماهية \* نار حامية ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة العاديات الآيات : ٦ - ١١

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢ ، ٣

(٣) سورة الفجر الآيات : ٢٧ - ٣٠

(٤) سورة الغاشية الآيات : ٨ - ١٦

(٥) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨

(٦) سورة القارعة الآيات : ٦ - ١١

## الترغيب في الصدقة على الزوج والأقارب وتقديمهم على غيرهم

عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود — رضى الله عنهما — قالت : قال رسول الله ﷺ تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فائته فأسأله ، فإن كان ذلك يجزى عني وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبد الله بل ائته أنت فانطلقت فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ مثل حاجتها حاجتي وكان رسول الله ﷺ قد ألقى عليه المهابة فخرج علينا بلال رضى الله عنه فقلت له : أئت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما ولا تخبره من نحن . قالت فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله بن مسعود ، فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة . رواه البخارى ومسلم والنقطة له<sup>(١)</sup>

٢ - وعن سلمان بن عامر — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم تتان : صدقة ، وصلة رواه النسائى والترمذى وحسنه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والحاكم وقال : صحيح الإسناد ولفظ ابن خزيمة قال : الصدقة على المسكين صدقة وعلى القريب صدقتان : صدقة ، وصلة<sup>(٢)</sup>

٣ - وعن حكيم بن حزام — رضى الله عنه — أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل ؟ قال : على ذى الرحم الكاشح رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن<sup>(٣)</sup> . [ الكاشح ] بالشين المعجمة : هو الذى يضر عداوته فى كشحه وهو خضره يعنى : أن أفضل الصدقة على ذى الرحم القاطع المضر العداوة فى باطنه .

٤ - وعن أم كلثوم بنت عقبة — رضى الله عنها — أن النبى ﷺ قال : أفضل الصدقة : الصدقة على ذى الرحم الكاشح . رواه الطبرانى فى الكبير . ورجاله رجال الصحيح وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم<sup>(٤)</sup> .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين رقم ٥٨٤

(٢) سنن النسائى ٩٢٥٥ وسنن الترمذى ٣٨/٣ رقم ٦٥٨ وصحيح ابن خزيمة ٧٧/٤ رقم ١٣٨٥ والإحسان جرتب صحيح ابن حبان ١٤٣/٥ والمستدرک للحاکم کتاب الزكاة ٤٠٧/١

(٣) مسند أحمد ٤٠٢/٣ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٢٦/٣ رقم ٣١٢٦

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ١٦٥/٤ رقم ٣٩٢٣ وابن خزيمة ٧٨/٤ رقم ٢٣٨٦ والحاكم فى المستدرک ٤٠٦/١ وأحمد فى سننه

٥ - وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : إن الصدقة على ذى قرابة يضعف أجرها مرتين . رواه الطبرانى فى الكبير من طريق عبيد الله بن زحر<sup>(١)</sup>

**الترهيب من أن يسأل الإنسان مولاه أو قريبه من فضل ماله  
فبيخل عليه أو يصرف صدقته إلى الأجانب وأقرباؤه محتاجون**

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق لا يُعذب الله يوم القيامة من رحم اليتيم ولأن له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه ولم يتناول على جاره بفضل ما أتاه الله وقال : يا أمة محمد والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة . رواه الطبرانى . ورواته ثقات وعبد الله بن عامر الأسلمى<sup>(٢)</sup> .

٢ - وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله : من أبر ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وقال رسول الله ﷺ : لا يسأل رجل مولاه من فضل هو عنده فيمنعه إياه إلا دعى له يوم القيامة فضله الذى منعه شجاعاً أقرع . رواه أبو داود واللفظ له والترمذى وقال : حديث حسن . قال أبو داود : الأقرع الذى ذهب شعر رأسه من السم<sup>(٣)</sup> .

المعنى : أمك : أى أكرم أمك واعتن بها وأغدق عليها من نعمتك وكرر ﷺ ثالثاً طالباً الوصاية بها والرفقة وشدة الإكرام والإحسان ويليها الأب .

مولاه : سيده : أى : خادم يطلب من مخدمه عليه نفقته وإطعامه وكسوته فيبخل إلا جاء هذا الخير والنعم متمثلاً أفعى يأخذ بلهزمتيه ويعذبه . قال فى النهاية : الأقرع : الذى لا شعر على رأسه ، يريد حيه قد تمعط جلد رأسه وكثرة سمه وطول عمره أ.هـ .

وفيه إكرام الوالدين وتقديم الأم . قال الله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾<sup>(٤)</sup> وفيه الجود والسخاء وبذل الكرم خشية أن تمثل بافة يوم القيامة تعذب مانع الخير .

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٢٤٤/٨ رقم ٧٨٣٤

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٧/٣

(٣) أخرجه أبو داود - كتاب الأدب ٣٥١/٥ رقم ٥١٣٩ والترمذى - كتاب البر ٣٠٩/٤ رقم ١٨٩٧ وقال الترمذى : حديث حسن

(٤) سورة الاسراء آية : ٢٣

٣ - وعن جرير بن عبد الله البجلي - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ما من ذى رحم يأتي ذا رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج الله له من جهنم حية يقال لها شجاع يتلمظ فيطوق به . رواه الطبراني في الأوسط والكبير بأسناد جيد<sup>(١)</sup>.

[ التلمظ ] تطعم ما يبقى في الفم من آثار الطعام .

المعنى : يأتي ذا رحمه : أى ما من رجل له أقارب فقصده واحد منهم يطلب منه شيئاً مما أنعم الله به عليه فيشح ولا يعطيه إلا عذبه الله بنوع شديد في الألم فيسلط عليه ثعباناً يدخل في فمه ويقرصه ويحيط بجسمه فيؤلمه وفيه الحث على الجود وإعطاء ما يمكن إتقاء عذاب الله وحبا في ثوابه وفي حديث أنس في التميمك ( فجل الصبى يتلمظ ) أى يدير لسانه في فمه ويحركه يتبع أثر التمر واسم ما يبقى في الفم من أثر الطعام . والخلاصة الترغيب في بذل الصدقة للأقارب المحتاجين وتقديم من تعول . قال تعالى :

( أ ) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختلاً فخوراً ﴾ الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً \* والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴿ ٣٨ من سورة النساء .

( ب ) ﴿ فآت ذا القربى حقه ﴾<sup>(٢)</sup>.

( ج ) ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾<sup>(٣)</sup>.

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : أيما رجل أتاه ابن عمه يسأله من فضله فمنعه منه الله فضله يوم القيامة . رواه الطبراني في الصغير والأوسط<sup>(٤)</sup>.

### الترغيب في القرض وما جاء في فضله

١ - عن البراء بن عازب - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من منح منيحة لبن أو ورق أو هدى زقاقاً كان له مثل عتق رقبة . رواه أحمد والترمذى . واللفظ له ، وابن

(١) المعجم الكبير للطبراني ٣٦٦/٢ رقم ٢٣٤٣

(٢) سورة الروم الآية : ٣٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٢٦

(٤) مجمع الزوائد ١٥٤/٨



حبان في صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> ومعنى قوله : منح منيحة ورق ، إنما يعنى به قرض الدرهم وقوله : أو هدى زقاقاً : إنما يعنى به هداية الطريق وهو إرشاد السبيل

**المعنى :** منح منيحة : أعطى عطاءً وفي النهاية : منحة الورق القرض ومنحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثم يردها .

الزقاق بالضم : الطريق يريد من دل الضال أو الأعمى على طريقه ، وقيل أراد من تصدق بزقاق من النخل وهى السكة منها والأول أشبه لأن هدى من الهداية لا من الهدية .

٢ - وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : كل قرض صدقة . رواه الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى<sup>(٢)</sup> .

**المعنى :** كل قرض صدقة : ما تعطيه من المال لتقضاه وما سلفت من إحسان قال تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ . وفى الغريب وسمى ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضاً . قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ﴾<sup>(٣)</sup> .

واعتقد أن بذل المال فى سبيل إرضاء الله - سبحانه وتعالى - يساوى بذل النفوس باخلاص لتجاهد فى نصر دينه وإذا تصفحت كتاب الله العزيز تجد فى سورة الصف . ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون \* يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم \* وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب \* وبشر المؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup> من سورة الصف .

### القرض كما قال العلماء الفقهاء فى كتب الفقه

وهو تمليك الشيء على أن يرد مثله وهو سنة مؤكدة وقد يجب للمضطر ويحرم لمن يستعين به على معصيته وأركانه أربعة : الصيغة والمقرض والمتعاقدان والصيغة نحو أقرضتك ويقول الآخذ : قبلت ويجوز إقراض كل ما يجوز فيه السلم مما ينضبط ، أما ما لا ينضبط فلا يجوز إقراضه نعم يجوز إقراض المعجن كالخمير والخبز وزناً ، وأجازه بعضهم عداً ، وعليه العمل فى الأمصار ويرد المقرض مثل ما اقترض ولا يجوز قرضه نقد أو غيره بشرط جر منفعة للمقرض كأن يرد زيادة أو يرد ببلد آخر فلورد زائداً قدرأ أو صفة بلا شرط فلا بأس ولا كراهة ولو شرط أجلاً فالشرط لغو وللمقرض مطالبته قبل

(١) مسند أحمد ٢٨٦/٤ وسنن الترمذى ٣٤٠/٤ رقم ١٩٥٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧٨/٧

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٣٨٧/٢٢ رقم ٩٦٤ والجامع لشعب الإيمان ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٥

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٤٥

(٤) سورة الصف الآيات : ١٠ - ١٣

حلولة ويسن الوفاء بالتأجيل فإن شرط المقرض في القرص الأجل لمنفعة تعود عليه فسد القرض ويقع الأقراض بشرط الاشهاد والكفيل والرهن . أ.هـ تنوير القلوب ٢٧٢ .

ومعنى السلم : بيع شيء موصوف في الذمة بلفظ السلم أو السلف . قال ﷺ : « من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » . رواه الشيخان<sup>(١)</sup> .

ومعنى مالا ينضبط : كالمعجونات والمطبوخات والخبز وكل ما دخلته النار وأثرت فيه إلا التمييز كسمن وعسل ولا في الخفاف والنعال المركبة والجلود والسفرجل والبطيخ عدأ ، ويصح في الأخيرين وزناً . ويشترط في الحبوب كالبرو الأرز وفي الثمار كالتمر والزبيب . ذكر نوعه ولونه وبلده وجرمه وكونه قديماً أو جديداً . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ﴾<sup>(٢)</sup> . قال ابن عباس — رضى الله عنهما — نزلت في السلم . ذكرت لك هذا لعظيم ثواب فك ضيق المعسر . وزيادة أجر الكريم ذي المروءة الذي يفرج كرب أخيه وينفس عنه آلام احتياجه ويبعد فقره المدقع .

٣ - وعن أبي أمامة — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، رواه الطبراني والبيهقي ، كلاهما رواية عتبة بن حميد<sup>(٣)</sup> . ورواه ابن ماجه والبيهقي أيضاً كلاهما عن خالد بن يزيد بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بي على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، الحديث وعتبة بن حميد عندي أصلح حالا من خالد<sup>(٤)</sup> .

٤ - وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أن النبي ﷺ قال : ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة . رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي مرفوعاً وموقوفاً<sup>(٥)</sup> .

٥ - وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . رواه ابن حبان في صحيحه ، رواه مسلم الترمذى ، وأبو داود<sup>(٦)</sup> .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب المساقاة — باب السلم رقم ١٠٣٤

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٢

(٣) المعجم الكبير للطبراني ٢٩٧/٨ رقم ٧٩٧٦ والجامع لشعب الإيمان للبيهقي ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٦

(٤) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣١ والجامع لشعب الإيمان للبيهقي — فصل في القرض ١٦٤/٩ رقم ٣٨٨

(٥) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٩/٧ رقم ٥٠١٨

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥١/٧ وصحيح مسلم ٢٠٧٤/٤ وسنن الترمذى ١٩٥/٥ رقم ٢٩٤٥ وسنن أبي داود

## الترغيب في التيسير على المعسر وإنظاره والوضع عنه

١ - عن أبي قتادة - رضى الله عنه - أنه طلب غريباً له فتواري عنه ثم وجده ، فقال : إني معسر ؟ قال : آله . قال : آله : فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه . رواه مسلم وغيره ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح وقال فيه : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة وأن يظله تحت عرشه فلينظر معسراً<sup>(١)</sup> .  
المعنى : غريباً : صاحب دين له ، والغرم : أداء شيء لازم ، والغرم : الذى يلتزم ما ضمنه وتكفل به ويؤديه .

فتواري : اختفى - معسر : لا يمكن السداد الآن . كرب : أهوال . فلينفس : فليفرج وليزل ضيقه ويؤخر المطالبة .

٢ - وعن حذيفة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : عملت من الخير شيئاً ؟ قال : لا . قالوا : تذكر ؟ قال : كنت أداين الناس فأمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجاوزوا عن الموسر قال : قال الله : تجاوزوا عنه . رواه البخارى ومسلم واللفظ له<sup>(٢)</sup> .

٣ - وفي رواية لمسلم وابن ماجه عن حذيفة أيضاً عن النبي ﷺ : أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له : ما كنت تعمل ؟ قال : فإما ذكر وإما ذكر ؟ فقال : كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر وأتجاوز في السكة أو في النقد فغفر له<sup>(٣)</sup> .

المعنى : أتساح في الاقتضاء والاستيفاء وقبول ما فيه نقص يسير ، والسكة : الدراهم والدنانير بمعنى أنى أتساهل ولا أدقق .

٤ - وفي رواية للبخارى ومسلم عنه أيضاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ، فقال : هل عملت من خير ؟ قال : ما أعلم . قيل له : أنظر ! قال : ما أعلم شيئاً غير أنى كنت أبايع الناس في الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة فقال أبو مسعود : وأنا سمعته يقول ذلك<sup>(٤)</sup> .

٥ - وعنه رضى الله عنه قال : أتى الله بعبد من عباده أتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت في

(١) صحيح مسلم ١١٩٦/٣ رقم ١٥٦٣ ومجمع الزوائد ١٣٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

(٣) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٨ وسنن ابن ماجه - كتاب الصدقات - باب

إنظار المعسر ٨٠٨/٢ رقم ٢٤٢٠

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

الدنيا ؟ قال : ولا يكتُمون الله حديثاً ؟ قال : يارب آتيتي مالا فكنت أباع الناس وكان من خلقي الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى : هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ رواه مسلم هكذا موقوفاً على حذيفة ومرفوعاً عن عقبة وأبى مسعود<sup>(١)</sup>.

المعنى : الجواز : التسامح وفي هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه إما كل الدين وإما بعضه : من كثير أو قليل أو فضل المسامحة في الاقتضاء وفي الاستيفاء سواء استوفى من موسر أو معسر وفضل الوضع من الدين وأنه لا يحتقر شيء من أفعال الخير : فلعله سبب السعادة والرحمة . وفيه جواز توكيل العبيد والإذن لهم في التصرف وهذا على رأى من يقول : شرع من قبلنا شرع لنا .  
يسر على الموسر : آخذ ما تيسر وأساع بما تعسر .

٦ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس وكان يقول لفته : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله عز وجل يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه . رواه البخارى ومسلم والنسائى ولفظه :

إن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً لم يعمل خيراً قط وكان يداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا فلما هلك . قال الله له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا إلا أنه كان لى غلام وكنت أداين الناس فإذا بعثته يتقاضى . قلت له : خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا . قال الله تعالى : قد تجاوزت عنك<sup>(٢)</sup>.

٧ - وعن أبى مسعود البدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً وكان يأمر غلامه أن يتجاوزوا عن المعسر . قال الله تعالى : نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه . رواه مسلم والترمذى<sup>(٣)</sup>.

٨ - وعن بريدة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة . ثم سمعته يقول : من أنظر معسراً فله كل مثليه يوم صدقة ، فقلت يا رسول الله سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة ، ثم سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة ؟ قال له : كل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة . رواه الحاكم ورواته محتج بهم في الصحيح<sup>(٤)</sup> . ورواه أحمد أيضاً وابن ماجه والحاكم مختصراً : من

(١) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٧

(٣) صحيح مسلم - كتاب المساقاة - باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ١٥٦١ وسنن الترمذى - كتاب البيوع - باب

إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٧

(٤) المستدرک للحاكم - كتاب البيوع ٢٩/٢

أنظر معسراً فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره بعد ذلك فله كل يوم مثليه صدقة . وقال الحاكم : صحيح على شرطهما<sup>(١)</sup>.

٩ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . رواه مسلم وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه مختصراً والحاكم وقال : صحيح على شرطهما<sup>(٢)</sup>.

١٠ - وروى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من فرج عن مسلم كربة جعل الله تعالى له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط بضئيهما عالم لا يحصيهم إلا رب العزة . رواه الطبراني في الأوسط<sup>(٣)</sup>.

١١ - وعنه - رضى الله عنه - أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله . رواه الترمذي<sup>(٤)</sup>.

١٢ - وعن أبي اليسر - رضى الله عنه - قال : أبصرت عيناي هاتان ، ووضع أصبعين على عينيهِ وسمعت أذنائ هاتان ، ووضع أصبعين في أذنيه . ووعاه قلبي هذا - وأشار إلى نياط قلبه - رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله في ظله . رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له<sup>(٥)</sup>.

١٣ - وروى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر . رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اصطناع المعروف .

١٤ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته . رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط<sup>(٦)</sup>.

١٥ - وعنه - رضى الله عنه - قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول : هكذا

(١) مسند أحمد ٣٦٠/٥ وابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٨

(٢) صحيح مسلم ، ٣٠٧٤/٤ رقم ٢٦٩٩ وسنن أبي داود ٢٣٤/٥ رقم ٤٩٤٦ وسنن الترمذي ٣٢٦/٤ رقم ١٩٣٠ وسنن ابن

ماجه ٨٢/١ رقم ٢٢٥ والمستدرک للحاكم ٣٨٣/٤

(٣) مجمع الزوائد ١٩٢/٨

(٤) الترمذي كتاب البيوع - باب ما جاء في إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٦ وقال : حديث حسن صحيح

(٥) سنن ابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٩ والمستدرک للحاكم ٢٩/٢

(٦) المعجم الكبير للطبراني ١٥١/١١ رقم ١١٣٣٠

وأوماً أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض : من أنظر معسراً أو وضع له ، وقاه الله من فيح جهنم . رواه أحمد بإسناد جيد وابن أبي الدنيا في اصطناع المعروف ولفظه قال :

دخل رسول الله ﷺ المسجد وهو يقول : أيكم يسره أن يقيه الله عز وجل من فيح جهنم ؟ قلنا : يا رسول الله كلنا يسره قال : من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله عز وجل من فيح جهنم <sup>(١)</sup> .

١٦ - وعن أبي قتادة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من نفس عن غريمه أو محي عنه كان في ظل العرش يوم القيامة . رواه البغوي في شرح السنة <sup>(٢)</sup> .

١٧ - وروى عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أظل الله عبداً في ظله يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك مغارم <sup>(٣)</sup> .

١٨ - وروى عن أسعد بن زرارة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه . رواه الطبراني في الكبير <sup>(٤)</sup> .  
المعنى : يسر : يوسع عليه ويتنظر يسره أو ليسر عنه .

١٩ - وروى عن شداد بن أوس - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو تصدق عليه أظله الله في ظله يوم القيامة . رواه الطبراني في الأوسط <sup>(٥)</sup> .

المعنى : تصدق عليه : أبرأ ذمته أو سامحه أو زال دينه ليقية الله العذاب ويظله بعدله وإحسانه وفيه الرأفة بالمدين وتأخير مطالبته حتى يقدر ، سيدنا رسول الله ﷺ يضع قانون جمعيات التعاون للمسلمين إقرأ هذا الباب أيها المسلم لتعلم وسيلة نجاتك يوم الحساب : مساعدتك المسلم في تأخير دينه « من سره أن ينجيه الله ووعد ﷺ بالجزاء .

( أ ) إزالة الكرب

( ب ) استغلاله برحمة الله . هذا وقد نظر الله إلى وجهة رجل لم تنفعه صالحاته في حياته سوى عاطفة مدانية الناس والصبر على أداء المعسر .

[ أنظر المعسر ] وقد رغب - ﷺ في مضاعفة نواب الدائن : « كل يوم مثليه صدقة » . هذا إلى جعله مصباحاً منيراً يهتدى بهديه ملايين الناس . ( شعبتين من نور ) ، ثم بين ﷺ أن الإنظار سبب إجابة الدعاء وكشف الكرب وبعث التوبة ومحو الذنوب : « أنظره

(١) مسند أحمد ٣٢٧/١

(٢) شرح السنة للبغوي ١٩٩/٨ رقم ٢١٤٣

(٣) مسند أحمد ٧٣/١

(٤) المعجم الكبير للطبراني ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩

(٥) الطبراني الكبير ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩

الله بذنبه إلى توبته . « هذا إلى أمانه من نار جهنم فلا يصطليها . » وقاه الله عز وجل من فيح جهنم « فتعاونوا أيها المسلمون على مديد المعونة وأقرضوا المحتاجين ، وساعدوا الفقراء الذين يريدون عملاً شريفاً في الحياة واستجدوا وابذلوا ما يجلب لكم سعادة الحياة بإيجاد المشروعات العظيمة النافعة التي تجلب لكم اليسر والرخاء والعيش الرغد قال تعالى : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ (١) من سورة المائدة .

أى على العفو والإعفاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى .

### والخلاصة :

#### مبادئ السعادة :

- ١ - يمد الغنى الفقير .
- ٢ - تقيم أعمالاً للعاطلين .
- ٣ - تؤلف نقابات .
- ٤ - تأخير دفع المحتاج .
- ٥ - وجود التبادل .
- ٦ - الدين المعاملة .
- ٧ - حب المنفعة .
- ٨ - الإحسان .

### الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير كرماً والترهيب من الإمساك والادخار شحاً

١ - عن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً . رواه البخارى ومسلم ، وابن حبان في صحيحه ولفظه (٢) .

إن ملكاً يباب من أبواب الجنة يقول : من يقرض اليوم يجز غداً وملك يباب آخر يقول : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً . ورواه الطبرانى مثل ابن حبان إلا أنه قال : يباب من أبواب السماء .

٢ - وعنه — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : يا عبادي : أنفق أنفق عليك . وقال : يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يفض ما بيده وكان عرشه على الماء ويبيده الميزان يخفض ويرفع . رواه البخارى ومسلم (٣) .

(١) سورة المائدة الآية : ٣

(٢) المؤثر والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب النفق والممسك رقم ٥٩١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٠/٥

(٣) المؤثر والمرجان — كتاب الزكاة — باب الخث على النفقة رقم ٥٨٠

[ لا نعيضها ] بفتح أوله : أى لا ينقصها .

المعنى : يد الله : خزائنه لا تنفذ ، السح : الصب الدائم . قال النووي شارحاً قوله ﷺ في رواية مسلم « يد الله ملاءى » قال القاضى قال الإمام المازرى : هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنى المناسبة للشمال لا يوصف بها البارى — سبحانه وتعالى — لأنها تتضمن إثبات الشمال وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله سبحانه عن التجسيم والحد وإنما خاطبهم رسول الله ﷺ بما يفهمونه ، وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقصه الانفاق ولا يمسك خشية الإملاق جل الله عن ذلك وعد ﷺ عن توالى النعم بسح اليمين لأن البازل منا يفعل ذلك يمينه . قال : ويحتمل أن يريد بذلك أن قدرة الله سبحانه وتعالى على الأشياء على وجه واحد لا يختلف ضعفاً وقوة ، وأن المقدورات تقع بها على جهة واحدة لا تختلف قوة وضعفاً كما يختلف فعلنا باليمين والشمال ، تعالى الله عن صفات المخلوقين ومشابهة المحدثين .

٣ - وعن أبى أمامة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : يا ابن آدم : إنك أن تبذل الفضل خير لك ، وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى . رواه مسلم والترمذى<sup>(١)</sup>.

[ الكفاف ] بفتح الكاف ما كف عن الحاجة إلى الناس مع القناعة لا يزيد على قدر الحاجة .  
[ الفضل ] : مازاد على قدر الحاجة .

المعنى : الفضل : الزائد عن حاجتك وأهل بيتك وإنفاقه خير لك لبقائه لك ثواباً جزيلاً عند ربك جل وعلا ، والبخل به تعب وكدر فى حفظه ويسألك الله عن عدم إنفاقه .  
ولا تلام على كفاف : لا عتاب ولا حساب على الفقير الذى لا يملك شيئاً . [ والكفاف ] : القلة . فيه الدعوة إلى الاحسان والصدقة ، واطمئنان الفقير من العذاب على وجود النعم ﴿ ولتسألن يومئذ عن النعم ﴾ . [ وابدأ بمن تعول ] : تجب نفقته عليك من أم وزوجة وأهل . قال النووي : فيه تقديم نفقة نفسه وعياله لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم .

٤ - وعن أبى الدرداء — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا وبجنيها ملكان يناديان : اللهم من أنفق فأعقبه خلفاً ، ومن أمسك فأعقبه تلفاً ، رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى من طريق الحاكم ولفظه فى إحدى رواياته قال رسول الله ﷺ : ما من يوم طلعت شمس إلا وبجنيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين يا أيها الناس : هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت الشمس إلا وكان بجنيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم عط منفقاً خلفاً وأعط

(١) صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٧١٨/٢ رقم ١٠٣٦ وسنن الترمذى —

كتاب الزهد — باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٥٧٣/٤ رقم ٢٣٤٣



ممسكاً تلفاً ، وأنزل الله في ذلك قرآناً في قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم في سورة يونس : والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وأنزل في قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً : والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلا قوله للعسرى<sup>(١)</sup>.

٥ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مثل البخيل والمنفق كمثلهما رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فاما المنفق : فلا ينفق إلا سبغت أو فرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزمته كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع . رواه البخارى ومسلم<sup>(٢)</sup>.

والمعنى : [ الجنة ] : بضم الجيم : ما أجن المرء وستره والمراد به هنا : الدرع . ومعنى الحديث أن المنفق كلما أنفق طالب عليه ، وسبغت حتى تستر بنان رجليه ويديه والبخيل كلما أراد أن ينفق لزمته كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع شبه ﷺ نعم الله تعالى ورزقه بالجنة وفي رواية : بالجنة فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبغت ، ووفرت حتى تستر ستره كاملاً شاملاً ، والبخيل كلما أراد أن ينفق منعه الشح ، والحرص ، وخوف النقص فهو بمنعه يطلب أن يزيد ما عنده وأن تتسع عليه النعم فلا تتسع ولا تستر منه ما يروم ستره والله سبحانه أعلم .

٦ - وعن قيس بن سلع الأنصارى - رضى الله عنه - أن إخوته شكوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا إنه يبذر ماله وينبسط فيه . قلت : يا رسول الله آخذ نصيبى من الثمرة فأنفقه في سبيل الله وعلى من صحبني فضرِب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنفق ينفق الله عليك ثلاث مرات ، فلما كان بعد ذلك خرجت في سبيل الله ومعى راحلة وأنا أكثر أهل بيتي اليوم وأيسره . رواه الطبرانى في الأوسط وقال : تفرد به سعيد بن زياد أبو عاصم<sup>(٣)</sup>.

٧ - وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : الأخلاء ثلاثة . فأما خليل فيقول : أنا معك حتى تأتى قبرك وأما خليل فيقول : لك ما أعطيت وما أمسكت فليس لك فذلك مالك ، وأما خليل فيقول : أنا معك حيث دخلت ، وحيث خرجت فذلك عمله ، فيقول : والله لقد كنت من أهون الثلاثة على . رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولا علة له<sup>(٤)</sup>.

٨ - وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله . قالوا يا رسول الله : مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ قال : فإن ماله ما قدم

(١) سند أحمد ١٩٧/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٨/٥ والمستدرک للحاکم ٤٤٥/٢ والجامع لشعب الإيمان - باب

كراهية رد من جاء سائلاً ٢٠/٧ رقم ٣١٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب مثل المنفق والبخيل رقم ٦٠٠

(٣) مجمع الزوائد ١٢٨/٣

(٤) المستدرک للحاکم - كتاب الإيمان ٧٤/١

ومال وارثه ما أخر . رواه البخارى والنسائى<sup>(١)</sup>.

٩ - وعنه - رضى الله عنه - قال : دخل النبي ﷺ على بلال وعنده صبر من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيافك قال : أما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً : رواه البزار بإسناد حسن والطبرانى في الكبير<sup>(٢)</sup> وقال : أما تخشى أن يفور له بخار في نار جهنم .

١٠ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ عاد بلالاً ، فأخرج له صبراً من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : إدخرته لك يا رسول الله ، قال : أما تخشى أن يجعل لك بخار في نار جهنم ؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلاقاً . رواه أبو يعلى ، والطبرانى في الكبير والأوسط بإسناد حسن<sup>(٣)</sup>.

١١ - وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قال لى رسول الله ﷺ : لا توكى فيوكاً عليك  
وفي رواية : أنفقى ، أو انفعى أو انضحى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك . رواه البخارى ومسلم وأبو داود<sup>(٤)</sup>.

[ انضحى ] بالحاء المهملة ، وانضحى ، وأنفقى الثلاثة معنى واحد ، وقوله : لا توكى ، قال الخطائى : لاتدخرى والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذى يربط به ، يقول : لا تمنعنى مافى يدك فتقطع مادة بركة الرزق عنك . أ.هـ.

١٢ - وعن بلال - رضى الله عنه - قال : قال لى رسول الله ﷺ : يا بلال : مت فقيراً ولا تمت غنياً . قلت : وكيف لى بذلك ؟ قال : ما رزقت فلا تجبأ ، وما سئلت فلا تمنع ، فقلت : يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار ، رواه الطبرانى في الكبير وأبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد ، وعنده : قال لى : اتق الله فقيراً ، وتلقه غنياً<sup>(٥)</sup>.

١٣ - وعن ابن مسعود - رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها .

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وسنن النسائى - كتاب الوصايا باب الكراهية فى تأخير الوصية ٢٣٧/٦

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٠/٤ رقم ٣٦٥٣ ومجمع الزوائد ١٢٦/٣

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤٢/١ رقم ١٠٢٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبى داود - كتاب الزكاة - باب فى الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣٢٣/١ رقم ١٠٢١ والمستدرک للحاكم ٣١٦/٤

وفي رواية : لا حسد إلا في اثنتين : رجل أتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل أتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار . رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup> والمراد بالحسد : هنا الغبطة وهو تمنى مثل ما للمغبط وهذا لا بأس به ، وله نيته فإن تمنى زوالها عنه فذلك حرام وهو الحسد المذموم .

١٤ - وعن طلحة بن يحيى عن جدته سعدى قالت : دخلت يوما على طلحة تعنى ابن عبيد الله : فرأيت منه ثقلاً ، فقلت له : مالك لعله رابك من شيء فنعتبك ؟ قال : لا ، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت ولكن إجتمع عندى مال ، ولا أدرى كيف أصنع به . قالت : وما يغمك منه ادع قومك فاقسمه بينهم ، فقال يا غلام : على بقومى فسألت الخازن كم قسم ؟ قال : أربعمئة ألف . رواه الطبرانى بإسناد حسن<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ فنعتبك ] : فتقدم لك العتبى ونزىل ما علق بك من جهتنا . [ حليلة ] : زوجة ، ونعم : كلمة مدح وثناء . [ لا أدرى كيف ] : لا أعلم على أى حال أوزعه خشية سؤال الله عنه يوم القيامة . [ ما يغمك ] أى شيء جلب لك الغم والهم من وجوده .

سيدنا طلحة بن عبيد الله يخاف من وجود ماله ، ففرقه على أقاربه لله رجاء ثواب الله ليقابل ربه فقيراً ، فخيف سؤاله وينعم باله ويهنأ عيشه ويدوم صفاؤه ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ . بقومى : ائت بأقارنى وأهلى .

١٥ - وروى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : نشر الله عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد فقال لأحدهما : أى فلان ابن فلان ؟ قال : لبيك رب وسعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى أى رب . قال : وكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ، ولبيكت كثيراً أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم ويقول للآخر : أى فلان ابن فلان ، فيقول : لبيك أى رب وسعديك ؟ قال له : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى . أى رب قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ فقال : أنفقت فى طاعتك ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبيكت قليلاً ، أما إن الذى قد وثقت به أنزلت بهم . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

[ العيلة ] : بفتح العين المهملة ، وسكون الياء : هو الفقر . [ الطول ] : بفتح الطاء : هو الفضل والقدرة والغنى . [ بحسن طولك ] : فضلك ونعمتك وعلمت أنك الرزاق المعطى فاعتمدت

(١) اللؤلؤ والمرجان - كتاب صلاة المسافرين قصرها - باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه رقم ٤٦٦

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٤٨/٩

عليك سبحانه وأطعتك واطقت الله فيه . هذا درس لأولئك الذين تكالبوا على الدنيا وطمعوا في تراثها وجشعوا فيها .

الأول : رجل أعطاه الله المال ورزقه البنين فازداد جشعاً في جمع المال وحرّم الفقراء وبخل وشح في حقوق الله فأخطأ طريق الهدى فمات وترك لأولاده الحسرة والندامة إذ نزع الله البركة من ماله ففنى وافتقر أولاده .

الثاني : خاف مقام ربه وأطاع الله في أوامره واجتناب مناهيه وزكى وتصدق وأقام مشروعات الخير أو ساهم فيها وترك لأولاده تقوى الله فبارك الله في ماله فمات ورزقهم الله السعادة والرزق الكثير والعيش الرغد وذلك مصداق قوله تعالى :

( أ ) ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾<sup>(١)</sup> . قال البيضاوى : أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ، ويتقوه في أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذرارهم الضعاف بعد وفاتهم أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم ثم أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ أو المنتهى . وشاهدنا : الأمر بالتقوى وقول الحق . هذان ينفعان الذرية كما قال تعالى :

( ب ) ﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾<sup>(٢)</sup> . قال البيضاوى : كنز من ذهب أو فضة روى ذلك مرفوعاً ، والذم على كنزهما في قوله : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾<sup>(٣)</sup> . لمن لا يؤدى زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق .. واسمهما : أحلم وحديم .

[ صالحاً ] تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء ، وكان شياحاً واسمه كاشح ( أشدهما ) الحلم وكال رأى : ( الرحمة ) مرحومين من ربك ، وقال تعالى :

( ج ) ﴿ إن ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾<sup>(٤)</sup> قال البيضاوى : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه .

١٦ - وعن مالك الدار أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أخذ أربعمئة دينار فجعلها

(١) سورة النساء الآية : ٩

(٢) سورة الكهف الآية : ٨٢

(٣) سورة التوبة الآية : ٣٤

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٩٦

في صرة فقال للغلام : اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تله في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه ، فقال يقول لك أمير المؤمنين أجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ثم قال : تعالى يا جارية اذهبي بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتله في البيت حتى تنظر ما يصنع فذهب بها إليه فقال يقول لك أمير المؤمنين أجعل هذه في بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله تعالى يا جارية اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهبي إلى بيت فلان بكذا ، اذهب إلى بيت فلان بكذا فاطلعت امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين فأعطينا فلم يبق في الخرق إلا ديناران فدحى بهما إليها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال : إنهم إخوة بعضهم من بعض ، رواه الطبراني في الكبير<sup>(١)</sup> ورواه إلى مالك الدار ثقات مشهورون ، ومالك الدار لا أعرفه .

[ تله ] : هو بفتح التاء المثناة فوق واللام أيضاً وتشديد الهاء : أي تشاغل . [ فدحى بهما ] بالحاء المهملة : أي رمى بهما .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال يا عائشة : ابعتي بالذهب إلى علي ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة ما به فبعث إلى علي فتصدق بها وأمسى رسول الله ﷺ — في حديد ، الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة بمصباح لها إلى امرأة من نسائها فقالت : أهدى لنا في مصباحنا عن عكتك السمن فإن رسول الله ﷺ أمسى في حديد الموت . رواه الطبراني في الكبير ، ورواه ثقات متجه بهم في الصحيح ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث عائشة بمعناه<sup>(٢)</sup> .

المعنى : عكتك : وعاء من جلود مستدير يختص بالسمن أو العسل إن جلا كان يهدى النبي ﷺ العكة من السمن أو العسل هو بالسمن أخص . والمعنى أن سيدنا رسول الله ﷺ يحتضر ويقاسى آلام الموت لتأسى به أمته فتعمل صالحاً ويتبع منهجه ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تمرضه وتلازمه ، وتعتنى به ﷺ ثم في حالة الشدة ينظر إلى سبعة دنانير كان حفظها لحاجة الفقراء ولإنفاقها في مصالح المسلمين يأمر بإرسالها إلى الإمام على كرم الله وجهه ليتصدق بها .

١٨ - وعن عبد الله بن الصامت قال : كنت مع أبي ذر رضى الله عنه فخرج عطاؤه ومعه جارية له قال : فجعلت تقضى حوائجه ففضل معها سبعة فأمرها أن تشتري به فلوساً ، قال قلت : لو أخرته للحاجة تنوبك أو للضيف ينزل بك . قال : إن خليلي عهد إلي أن أيما ذهب أو فضة أو كى عليه

(١) مجمع الزوائد للهيتمي ١٢٤/٣

(٢) مجمع الزوائد للهيتمي ١٢٤/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٨٨/٥

فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه في سبيل الله عز وجل . رواه أحمد ورجاله الصحيح<sup>(١)</sup>.

ورواه أحمد أيضاً والطبراني باختصار القصة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أوكى على ذهب أو فضة ، ولم ينفقه في سبيل الله كان جمرأ يوم القيامة يكوى به هذا لفظ الطبراني ورجاله الصحيح<sup>(٢)</sup>.

١٩ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : أهديت للنبي ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائراً : فلما كان من الغد أتته بها ، فقال لها رسول الله ﷺ : ألم أنك أن ترفعى شيئاً لغد : فإن الله يأتي برزق غد . رواه أبو يعلى والبيهقي ، ورواه أبي يعلى ثقات .

٢٠ - وعن أنس - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغد . رواه ابن حبان في صحيحه والبيهقي كلاهما من رواية جعفر ابن سليمان الضبعي عن ثابت عنه<sup>(٣)</sup>.

٢١ - وعن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يقول : إني لألج هذه الغرفة ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال فأتوفى ولم أنفقه . رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن<sup>(٤)</sup>.

[ الألج ] : أى لأدخل . [ والغرفة ] بضم الغين المعجمة : هى العلية .

٢٢ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : ما أحب أن لي أحداً ذهباً أبقي صبح ثلاثة وعندى منه شيء إلا شيئاً أعده لدين .

رواه البزار من رواية عطية عن أبي سعيد وهو إسناد حسن وله شواهد . كثيرة<sup>(٥)</sup>.

٢٣ - وعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال لي أبو ذر يا ابن أخي كنت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده فقال لي ، يا أبا ذر ما أحب أن لي أحداً ذهباً وفضة أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه قيراطاً . قلت : يا رسول الله : قنطاراً . قال يا أبا ذر : أذهب إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر ، أريد الآخرة وتريد الدنيا قيراطاً فأعادها على ثلاث مرات . رواه البزار بإسناد حسن<sup>(٦)</sup>.

٢٤ - وعنه - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ التفت إلى أحد ، فقال والذي نفسى بيده :

(١) مسند أحمد ١٧٥/٥

(٢) مسند أحمد ١٦٥/٥ والطبراني في الكبير ١٦٣/٢ رقم ١٦٤١

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٩٩/٨

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٣/٣

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٩

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٧

ما يسرني أن أحداً تحول لآل محمد ذهباً أنفقته في سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه دينارين إلا دينارين أعدهما للدين إن كان . رواه أحمد وأبو يعلى وإسناد أحمد جيد قوى<sup>(١)</sup>.

٢٥ - وعن قيس بن أبي حازم قال : دخلت على سعيد بن مسعود تعودته فقال ما أدرى ما يقولون ، ولكن ليت مافى تابوتى هذا جمر ، فلما مات نظروا فإذا فيه ألف أو ألفان : رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن<sup>(٢)</sup>.

٢٦ - وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - أن رجلاً توفى على عهد رسول الله ﷺ فلم يوجد له كفن فأتى النبي ﷺ فقال : انظروا إلى داخله لإزاره فأجيب دينار أو ديناران فقال : كيتان . وفي رواية : توفى رجل من أهل الصفة فوجد في مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ : كية ثم توفى آخر فوجد في مئزره ديناران فقال ﷺ كيتان . رواه أحمد والطبراني من طرق ورواه بعضها ثقات<sup>(٣)</sup>.

٢٧ - وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : توفى رجل من أهل الصفة فوجدوا في شملته دينارين فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وابن حبان في صحيحه<sup>(٤)</sup>.  
[ قال الحافظ ] : وإنما كان كذلك لأنه ادخر مع تلبسه بالفقر ظاهراً ومشاركته الفقراء فيما يأتيهم من الصدقة .

٢٨ - وعن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ فأتى بجنازة ثم أتى بأخرى ، فقال : هل ترك من دين ؟ قالوا : لا . قال فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنائير فقال : بأصابعه ثلاث كيات ، الحديث . رواه أحمد بإسناد حسن جيد واللفظ له والبخارى بنحوه وابن حبان في صحيحه<sup>(٥)</sup>.

٢٩ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن أعرابياً غزا مع رسول الله ﷺ خبير فأصابه من سهمه ديناران فأخذهما الأعرابي فجعلهما في عباءة فخيطن عليهما فمات الأعرابي فوجد الديناران فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وإسناده حسن لا بأس به في المتابعات<sup>(٦)</sup>.

(١) مسند أحمد ٥٣٠/٢ ومسند أبي يعلى ٨٤/٥ رقم ٢٦٨٤

(٢) مجمع الزوائد للهيتمي ١٢٥/٣

(٣) مسند أحمد ٢٥٣/٥ والمعجم الكبير للطبراني ١٢٤/٨ رقم ٧٥٠٦

(٤) مسند أحمد ٤٠٥/١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٠٩/٥

(٥) مسند أحمد ٥٠/٤ وصحيح البخارى - كتاب السلم - باب إذا أحال دين الميت ١١٧/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان

١٠٩/٥

## ترغيب المرأة في الصدقة من مال زوجها إذا أذن وترهيبها منها ما لم يأذن

١ - عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما اكتسب وللخادم مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً . رواه البخارى ومسلم واللفظ له وأبو داود وابن ماجه والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وعند بعضهم : إذا تصدقت بدل : أنفقت<sup>(١)</sup> .

المعنى : [ غير مفسدة ] : غير مسرفة قد يعلم رضا الزوج به فى العادة قال النووى : إن المشارك فى الطاعة مشارك فى الأجر ، ومعنى المشاركة أن له أجراً كما لصاحبه أجر وليس معناه أن يزاحم فى أجره والمراد المشاركة فى أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب ، وإن كان أحدهما أكثر ولا يلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء بل قد يكون ثواب هذا أكثر وقد يكون عكسه فإذا أعطى المالك لخازنه أو إمرأته أو غيرهما مائة درهم أو نحوها ليوصلها إلى مستحق الصدقة على باب داره أو نحوه فأجر المالك أكثر وإن أعطاه رمانة أو رغيف ونحوهما مما ليس له كثير قيمة ليذهب به إلى محتاج فى مسافة بعيدة بحيث يقابل مشى الذهاب إليه بأجرة تزيد على الرمانة أو الرغيف ، فأجر الوكيل أكثر ، وقد يكون عمله قدر الرغيف مثلاً ، فيكون مقدار الاجر سواء .

٢ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه . رواه البخارى ومسلم وأبو داود<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ زوجها شاهد ] : حاضر . قال النووى : هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذى ليس له زمن معين ، وهذا النهى للتحريم ، صرح به أصحابنا ، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها فى كل الأيام وحقه فيها واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخى . فإن قيل فينبغى أن يجوز لها الصوم بغير إذنه فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع بها فى العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد ، وقوله ﷺ : « وزوجها مشاهد » أى : مقيم فى البلد أما إذا كان مسافراً فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه .

٣ - وفى رواية لأبى داود أن أباً هريرة : سئل عن المرأة هل تصدق من بيت زوجها ؟ قال :

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٦٠٣ وأبو داود ٣١٧/٢ رقم ١٦٨٧ وابن ماجه ٧٧٠/٢ رقم ٢٢٩٤ وسنن الترمذى ٤٩/٣ رقم ٦٧٢ والنسائى ٦٥/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٨/٥  
(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب المرأة إذا تصدقت من بيت زوجها بإذنه رقم ٦٠٤ وسنن أبى داود - كتاب الصوم - باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٥٨



لا إلا من قوتها والأجر بينهما ولا يحل لها أن تتصدق من مال زوجها إلا بإذنه<sup>(١)</sup>.

زاد رزين العبدري في جامعه : فإن أذن لها فالأجر بينهما ، فإن فعلت بغير إذنه فالأجر له والإثم عليها .

**المعنى :** قال النووي : معناه أن هذه النفقة والصدقة التي أخرجهما الخازن أو المرأة أو المملوك ونحوهم بإذن المالك يترتب على جملتها ثواب على قدر المال والعمل فيكون ذلك مقسوماً بينهما ، لهذا نصيب بماله ولهذا نصيب بعمله فلا يزاحم صاحب المال العامل في نصيب عمله ، ولا يزاحم العامل صاحب المال في نصيب ماله . واعلم أنه لا بد للعامل وهو الخازن والزوجة والمملوك من إذن المالك في ذلك فإن لم يكن إذن أصلاً ، فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم في مال غيرهم بغير إذنه والإذن ضربان : أحدهما : الإذن الصريح في النفقة والصدقة .

**والثاني :** الإذن المفهوم من المراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطرد العرف فيه ، وعلم بالعرف رضا الزوج والمالك به فإذا كان ذلك حاصل ، وإن لم يتكلم وهذا إذا علم رضا لاطراد العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس في السماحة بذلك والرضا به فإن اضطرب العرف ، وشك في رضاه أو كان شخصاً يشح بذلك وعلم من حاله ذلك أو شك فيه لم يجز للمرأة أو غيرها التصديق من ماله إلا بصريح إذنه .

٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها . رواه أبو داود والنسائي من طريق عمرو بن شعيب<sup>(٢)</sup>.

٥ - وعن أسماء - رضي الله عنها - قالت : قلت يا رسول الله : ما لي مآل إلا ما أدخل على الزبير أفأتصدق ؟ قال : تصدق ولا توعى فيوعى عليك<sup>(٣)</sup>.

**المعنى :** [ لا توعى ] : ولا تحفظي ولا تكتري وفي النهاية : أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك وتجازى بتضييق رزقك .

٦ - وعن عمر بن مرة قال : سمعت أبا وائل يحدث عن عائشة عن النبي ﷺ قال : إذا تصدقت المرأة من بيت زوجها كان لها أجرها . ولزوجها مثل ذلك لا ينقص كل واحد منهما من أجر صاحبه شيئاً ، له بما كسب ولها بما أنفقت رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن<sup>(٤)</sup>.

(١) سنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب المرأة تتصدق من بيت زوجها ٣١٨/٢ رقم ١٦٨٨

(٢) سنن أبي داود - كتاب البيوع والإجازات - باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٨١٦/٣ رقم ٣٥٤٧ وسنن النسائي - كتاب الزكاة - باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٦٥/٥

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب الحث على الإنفاق وكراهية الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبي داود - كتاب الزكاة - باب في الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٤) الترمذى - كتاب الزكاة - باب في نفقة المرأة من بيت زوجها ٤٩/٣ رقم ٦٧١

المعنى : قال النووي : واعلم أن المراد بنفقة المرأة والعبد والخازن النفقة على عيال صاحب المال وغلماؤه ومصالحه وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما وكذلك صدقتهم المأذون فيها بالصریح أو العرف .

٧ - وعن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في خطبته عام حجة الوداع : لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها . قيل يا رسول الله : ولا الطعام ؟ قال : ذلك أفضل أموالنا . رواه الترمذی<sup>(١)</sup>.

### دستور ربة البيت في تدبير المنزل وإدارة شئونه

أولاً : يرشد ﷺ الزوجة أن تحفظ مال زوجها وتدير أمرها وتطيعه ، وتميل إلى حب الخير وفعل البر ، وتحلب رضا بعلمها وتقصد وتراعى الواجب فتؤديه ولا تبذر وتنفق « غير مفسدة » . لتنال من الله الثواب الجزيل لأن الأجر فضل من الله تعالى يؤتیه من يشاء ثم يحثها ﷺ على أمور أربعة .

- |                     |                |
|---------------------|----------------|
| ( أ ) التصديق       | ( جـ ) طاعته   |
| ( ب ) استئذان الزوج | ( د ) حفظ ماله |

وإذا نمت هذه العاطفة في السيدة العاقلة ترعرعت على التقوى ، وشبت على الصالحات ، وسدد الله خطاها وأرغد عيشها وأحاطها بعزه ورحماته فتنمو دوحات الألفه ، وتشرق شمس السعادة بينهما فيعيشان قريرى العين مثلوجى الفؤاد ، والله يضع البركة في أولادهما ، ويهب لهم النجاية :  
نعم الإله على العباد كثيرة وأمهلهن نجاية الأولاد

ثانياً : إستفهام الدرة المكنونة السيدة أسماء - رضي الله عنه - من سيدنا رسول الله ﷺ لتستضيء بنوره الوهاج « أفأ تصدق » ؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام : « تصدقي » . أمرها بالتحل بالجلود والميل إلى الكرم ، وأن تسبق في ميدان المحامد والمكارم ليكون لها القدح الممل في أعمال الخير ، ونهاها أن تبخل وحذرهما أن تشح ليزيد رزقهما ويكثر مالهما ويسمو ذكرهما ، فيفوزان بالنعيم المقيم ، والحياة البعيدة من شوائب الكدر ، ويتمتعان برضا المولى جل وعلا قال تعالى . ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) الترمذی - كتاب الرصايا - باب لاوصية لوارث ٤/٤٣٣ رقم ٢١٢٠

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٦

## الترغيب في إطعام الطعام وسقي الماء والترهيب من منعه

١ - عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف - رواه البخارى ومسلم والنسائى<sup>(١)</sup>.

المعنى : [ أى الإسلام ] : يستفهم عن أحسن الأعمال التى توصله إلى كمال الإسلام ، فأجاب ﷺ باثنين لأن حال السائل يقتضيهما :

( أ ) الجود ، وإطعام الفقراء والتخلى بالكرم وبذل الخير

( ب ) إفشاء السلام على الصغير والكبير والجليل والحقير والراكب والماشى من المسلمين .

٢ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قلت يا رسول الله : إني إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عيني ، فأبغضنى عن كل شيء ؟ فقال : كل شيء خلق من الماء . قال : فقلت : أخبرنى بشيء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام ، وضل الأرحام ، وصلى بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام . رواه أحمد ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد<sup>(٢)</sup>.

٢ - وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : أعبدوا الرحمن ، وأطعموا ، وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذى<sup>(٣)</sup>.

وعنه أيضاً - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال أبو مالك الأشعرى : لمن هى يا رسول الله قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد أحمد<sup>(٤)</sup>.

٥ - وعن أبى مالك الأشعرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله - تعالى - لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام . رواه ابن حبان فى صحيحه<sup>(٥)</sup>.

٦ - وعن حمزة بن صهيب عن أبيه - رضى الله عنه - قال : قال عمر لصهيب : فيك

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الإيمان - باب بيان تفاضل الإيمان رقم ٢٤ وسنن النسائى - كتاب الإيمان -

باب أى الإسلام أفضل ١٠٦/٨

(٢) مسند أحمد ٢/٢٩٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤/١١٥ والمستدرک للحاكم ٤/١٦٠

(٣) الترمذى - كتاب الأطعمة - باب فضل إطعام الطعام ٤/٢٨٧ رقم ١٨٥٥ وقال : حسن صحيح

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٣/٣٤٢ رقم ٣٤٦٧

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١/٣٦٣ والجامع لشعب الإيمان ٦/٥٣٧ رقم ٣٠٨٩

سرف في الطعام ، فقال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : خياركم من أطعم الطعام . رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب وفي إسناده عبد الله بن محمد ابن عقيل .

٧ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : الكفارات إطعام الطعام ، وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد<sup>(١)</sup>

٨ - وعن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة انجفل الناس إليه فكنيت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذي<sup>(٢)</sup>.

[ انجفل الناس ] بالجيم : أى أسرعوا ومضوا كلهم . [ إستبته ] : أى تحققت وتبينته .

٩ - وعن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين . رواه الحاكم وصححه ، والبيهقي متصلاً ومرسلاً من طريقه أيضاً إلا أنه قال<sup>(٣)</sup> :

إن من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان ، وقال : قال عبد الوهاب يعنى : الجائع ، ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب إلا أنه قال : إن حق موجبات الجنة : إطعام المسلم السغبان . [ السغبان ] بالسين المهملة والغين المعجمة بعدها باء موحدة

١٠ - وعن عائشة - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليرى لأحدكم التمرة واللقمة كما يرى أحدكم فلوله أو فصيله حتى يكون مثل أحد . رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(٤)</sup>.

١١ - وروى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل ليدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة : الأمر به والزوجة المصلحة له والخادم الذى يتناول المسكين وقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا . رواه الطبراني في الأوسط والحاكم<sup>(٥)</sup>.

المعنى : أن الصدقة تسبب دخول ثلاثة الجنة :

( أ ) صاحبها .

( ب ) زوجته .

( ج ) الذى وصل الصدقة والأمر به .

(١) المستدرک للحاکم - کتاب الأطعمة ١٢٩/٤

(٢) الترمذی - کتاب الأطعمة - باب فضل إطعام الطعام ٢٨٦/٤ رقم ١٨٥٤ وقال : حسیح صحیح غریب

(٣) المستدرک للحاکم ٥٢٤/٢ والجامع لشعب الإيمان - باب ما جاء فی إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤١/٦ رقم ٣٠٩٤

(٤) الإحسان بترتیب صحیح ابن حبان ١٣٣/٥

(٥) مجمع الزوائد ١١٢/٣ والمستدرک للحاکم ١٣٤/٤

[ القصة ] : لفتح القاف وضمها وبالصاد المهملة : هي ما يتناوله الآخذ برعوس أصابعه الثلاث .

١٢ - وعن أنى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله في صومعته ستين عاماً وأمطرت الأرض فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو في الأرض لقيته امرأة ، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له . رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(١)</sup>.

١٣ - وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ؟ قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة فإن لم تنطق ذلك فأطعم الجائع وأسق الظمآن الحديث . رواه أحمد وابن حبان في صحيحه والبيهقى<sup>(٢)</sup>.

١٤ - وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه باعذه الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام رواه الطبرانى في الكبير وأبو الشيخ ابن حبان في الثواب والحاكم والبيهقى . وقال الحاكم : صحيح الإسناد<sup>(٣)</sup>.

١٥ - وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً . رواه أبو الشيخ في الثواب والبيهقى . واللفظ له والأصهبانى كلهم من رواية زرى مؤذن هشام عن أنس ولفظ أبى الشيخ والأصهبانى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عمل أفضل من إشباع كبد جائع<sup>(٤)</sup>.

١٦ - وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : أيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة وأيما مؤمن سقى مؤمناً على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم وأيما مؤمن كسا مؤمناً على عرى كساه الله يوم القيامة من حلل الجنة<sup>(٥)</sup>.

١٧ - وعن بى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدنى قال يارب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما

(١) الإحسان بترتيب أحاديث صحيح ابن حبان ٢٩٨/١

(٢) مسند أحمد ٢٩٩/٤ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥٧/٦ والسنن الكبرى للبيهقى ٢٢٣/٤

(٣) مجمع الزوائد للهيتمي ١٣٠/٣ والحاكم في المستدرک ١٢٩/٤ والبيهقى في الجامع لشعب الإيمان ٥٤٣/٦ رقم ٣٠٩٦

(٤) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى ٣ باب ما جاء في إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤٢/٦ رقم ٣٠٩٥

(٥) سنن أبى داود - كتاب الزكاة ٣٤/٢ رقم ١٦٨٢ وسنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦٣٣/٤ رقم ٢٤٤٩

علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني . قال يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلاناً فلم تطعمه فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقيني . قال يارب : وكيف أسقيك وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي . رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

١٨ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : أنا فقال : من أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ فقال أبو بكر : أنا . فقال : من تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال من عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعت هذه الخصال قط في رجل إلا دخل الجنة . رواه ابن خزيمة في صحيحه<sup>(٢)</sup>.

المعنى : نبه النبي ﷺ على أمور أربعة توصلك إلى جنة الله وتسبب غفرانه وتجلب إحسانه :  
( أ ) صوم النفل  
( ب ) إطعام الفقير  
( ج ) المشى مع النعش لتشيع الجنازة للعظة والاعتبار  
( د ) زيارة المريض

١٩ - وروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الأعمال أفضل قال : إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته أو كسوت عورته أو قضيت له حاجة . رواه الطبراني في الأوسط ورواه أبو الشيخ في الثواب من حديث ابن عمر منحوه ، وفي رواية له : أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تطرد عنه جوعاً أو تقضي عنه ديناً<sup>(٣)</sup>.

٢٠ - وروى عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : من أطعم مؤمناً حتى يشبعه من سغب أدخله الله باباً من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله ، رواه الطبراني في الكبير<sup>(٤)</sup>.

٢١ - وروى عن جعفر العبدى والحسن قالا : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يباهى ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده . رواه أبو الشيخ في الثواب مرسلأ .

٢٢ - ورد عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه وأدخله جنته : رفيق بالضعيف وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك وثلاث من كن فيه أظله الله عز وجل تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله : الوضوء في المكراه والمشى إلى

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب - باب فضل عيادة المريض ١٩٩٠/٤ رقم ٢٥٦٩

(٢) صحيح ابن خزيمة ٣٠٤/٣ رقم ٢١٣١

(٣) مجمع الزوائد ٣/١٣٠

(٤) مجمع الزوائد للهيتمي ٣/١٣٠

المساجد في الظلم وإطعام الجائع . رواه الترمذى بالثلاث الأول فقط<sup>(١)</sup>.

٢٣ - وروى عن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : لأن أطعم أحملاً لي في الله لقمة أحب إلي من أن أتصدق على مسكين بدرهم ولأن أعطى أحملاً لي في الله درهماً أحب إلي من أن أتصدق على مسكين بمائة درهم . رواه أبو الشيخ .

٢٤ - وعن علي - رضى الله عنه - قال : لأن أجمع نفراً من إخواني على صاع أو صاعين من طعام أحب إلي من أن أدخل سوقكم فأشتري رقبة فأعتقها . رواه أبو الشيخ في الثواب موقوفاً عليه . وفي إسناده ليث بن أبي سليم .

٢٥ - وعن كدير الصبي أن رجلاً أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال : أخبرني بعمل يقربني من الجنة ويباعدني من النار ؟ فقال النبي ﷺ : أوها أعملتاك ؟ قال : نعم : تقول العدل ، وتعطي الفضل . قال : والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة وما أستطيع أن أعطى الفضل ، قال : فتنعم الطعام وتفشئ السلام ؟ قال : هذه أيضاً شديدة . قال : فهل لك إبل ؟ قال : نعم . قال : فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء ثم أعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غباً فاسقهم فلعلك لا . قال : لا بعيرك ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة قال : فانطلق الاعرابي يكبر فما انخرق سقاؤه ولا هلك بعيره حتى قتل شهيداً رواه الطبراني والبيهقي ، ورواه الطبراني إلى كدير رواه الصحيح ورواه ابن خزيمة في صحيحه باختصار<sup>(٢)</sup>.

٢٦ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : أتى النبي ﷺ رجل فقال : ما عمل إن عملت به دخلت الجنة ؟ قال : أنت بيلد يجلب به الماء ؟ قال : نعم . قال : فاشترها سقاء جديداً ثم اسق فيها حتى تخرقها ، فإنك لن تخرقها حتى تبلغ بها عمل الجنة . رواه الطبراني في الكبير<sup>(٣)</sup>.

٢٧ - وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إني أنزع في حوضي إذا ملأته لإبلى ورد على البعير لغيري فسقيته فهل في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن في كل ذات كبد حرأ أجرأ . رواه أحمد ورواته ثقات مشهورون<sup>(٤)</sup>.

٢٨ - وعن محمود بن الربيع أن سراقه بن جعشم . قال يا رسول الله الضالة ترد على حوضي فهل لي فيها من أجر إن سقيتها . قال اسقها فإن في كل ذات كبد حرأ أجرأ . رواه ابن حبان في صحيحه ورواه ابن ماجه والبيهقي كلاهما عن عبد الرحمن ابن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمه سراقه بن جعشم رضى الله عنه<sup>(٥)</sup>.

(١) الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦٥٦/٤ رقم ٢٤٩٤ وقال : حديث حسن غريب

(٢) مجمع الزوائد للهيتمي ١٣٢/٣ والسنن الكبرى للبيهقي ١٨٦/٤ وصحيح ابن خزيمة ١٢٥/٤ رقم ٢٥٠٣

(٣) المعجم الكبير للطبراني ١٠٤/١٢ رقم ١٢٦٠٥

(٤) مسند أحمد ٢٢٢/٢

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٧/١ وابن ماجه - كتاب الأدب ١٢١٥/٢ رقم ٣٦٨٦ والسنن الكبرى للبيهقي ١٨٦/٤

٢٩ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : بينا رجل يمشى بطريق أشد عليه الحر فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان منى فنزل البئر فملاً خفه ماء ، أمسكه بغيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ، فقال فى كل كبد رطبة أجر . رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : فشكر الله له فأدخله الجنة<sup>(١)</sup>.

٣٠ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : سبع تجرى للعبد بعد موته وهو فى قبره : من علم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته . رواه البزار وأبو نعيم فى الحلية<sup>(٢)</sup>.

٣١ - وروى عن سعيد بن عباد - رضى الله عنه - أنه أتى النبى ﷺ فقال : أى الصدقة أفضل إليك ؟ قال : سقى الماء . رواه البيهقى<sup>(٣)</sup>.

٣٢ - وعن أنس - رضى الله عنه - أن سعداً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ﷺ : إن أمى توفيت ولم توصى أينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم وعليك بالماء . رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته محتج بهم فى الصحيح<sup>(٤)</sup>.

والمعنى : أن رسول الله ﷺ رغب فى إيجاد الآبار للمسلمين ليشربوا فيدوم الثواب ويزداد الأجر فهل للمسلمين أن يشتروا عدداً بخارية ويركبوها لجلب الماء للمحتاج وزوار الرسول ﷺ . قال النووى : فيه الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم . وهو مالا يؤمر بقتله كالكلب العقور والمرتد والفواسق ص ٣٣١ مختار الإمام مسلم .

٣٣ - وعن سعد بن عباد - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ﷺ : إن أمى ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء فحفر بئراً وقال : هذه لأم سعد . رواه أبو داود . واللفظ له<sup>(٥)</sup>.

٣٤ - وعن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : من حفر ماء لم تشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة . رواه البخارى فى تاريخه . وابن خزيمة فى صحيحه<sup>(٦)</sup>.

(١) الموطأ للإمام مالك - كتاب صفة النبى - باب ما جاء فى الطعام والشراب رقم ٢٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

رقم ١٤٤٧ وسنن أبى داود ٥٠/٣ رقم ٢٥٥٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٨/١

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٨٩/١ رقم ١٤٩ والحلية لأبى نعيم ٣٤٣/٢

(٣) الجامع لشعب الإيمان ٥٥٢/٦ رقم ٣١٠٦

(٤) مجمع الزوائد ١٣٨/٣

(٥) سنن أبى داود - كتاب الزكاة - باب فضل سقى الماء ٣١٣/٢ رقم ١٦٨١

(٦) البخارى فى التاريخ ٣٣٢/١/١ وصحيح ابن خزيمة ٢٦٩/٢ رقم ١٢٩٢



٣٥ - وعن علي بن الحسن ابن شقيق قال : سمعت ابن المبارك وسأله رجل : يا أبا عبد الرحمن . قرحة في ركبتي منذ سبع سنين وقد عالجت بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم انتفع به ؟ قال : أذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس الماء فاحفر هناك بئراً فإني أرجو أن تنبع هناك عين ويمسك عنك الدم ، ففعل الرجل فبراً . رواه البيهقي ، وقال : وفي هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكم أبي عبد الله رحمه الله .

فإنه قرح وجهه وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب وبقي فيه قريباً من سنة فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابوني أن يدعو له في مجلسه يوم الجمعة فدعا له وأكثر الناس التأمين ، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألقت امرأة في المجلس رقعة بأنها عادت إلى بيتها واجهدت في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلة فرأت في ضاحها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها : قولي لأبي عبد الله يوسع الماء على المسلمين فجئت بالرقعة إلى الحاكم فأمر بسكاية بنيت على باب داره وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها وطرح الجمر في الماء وأخذ الناس في الشرب فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء وزالت تلك القروح وعاد وجهه إلى أحسن ما كان وعاش بعد ذلك سنين .

المعنى : [ قرحة ] : جرح طال فتح موضعه يرشح ويؤلم . [ فبراً ] : شفاه الله وجف . أرشده إلى عمل بر دائم يسبب له الدعوات الصالحة لعل الله ينظر إليه نظر رحمة وشفاء وقد كان جاء إلى جهة قفرة لا ماء فيها يروى الناس فحفر بئراً عامة يشرب منها الإنسان والحيوان والثبات فتكرم الله جل وعلا بإزالة ألمه وشفاء دملته — وفيه الحث على إنشاء الآبار والمشافي والملاجئ والمصانع والمعامل وكل أعمال تجلب الخير وتسهل أسباب الرزق وتفتح أشغالاً للعاطلين وتزيل الشر عن الأمنين .

٣٦ - وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل بغلاف يمنعه ابن السبيل<sup>(١)</sup> .

٣٧ - وعن امرأة يقال لها بهية عن أبيها قالت : استأذن أبي للنبي ﷺ فدخل بينه وبين ممتعيه فجعل يقبل ويلتزم ثم قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : الماء : قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : الملح : قال : يا نبي الله ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : أن تفعل الخير خير لك . رواه أبو داود<sup>(٢)</sup> .

٣٨ - وعن رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ قال : غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاثاً أسمعته يقول : المسلمون شركاء في ثلاث : الكلا والماء والنار . رواه أبو داود<sup>(٣)</sup> .

٣٩ - وروى عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : يا رسول الله ما الشيء الذي لا يحل

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان رقم ٦٨

(٢) أبو داود — كتاب البيوع والإجازات — باب منع الماء ٧٥٠/٣ رقم ٣٤٧٦

(٣) أبو داود — كتاب البيوع والإجازات — باب منع الماء ٧٥٠/٣ رقم ٣٤٧٧

منعه ؟ قال : الماء والملح والنار ، . قالت قلت يا رسول الله هذا الماء ، وقد عرفناه ، فما بال الملح والنار ، قال يا حميراء . من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيبت تلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها . رواه ابن ماجه<sup>(١)</sup>.

٤٠ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلأ والنار وثمنه حرام . قال أبو سعيد يعنى : الماء الجارى . رواه ابن ماجه أيضاً<sup>(٢)</sup>.

### الترغيب في شكر المعروف ومكافأة فاعله والدعاء له

وما جاء فيمن لم يشكر ما أولى إليه .

١ - عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعينوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن استجار بالله فأجبروه ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه . رواه أبو داود والنسائي<sup>(٣)</sup>.

٢ - وعن جابر - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثنى فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد كفر ومن غملى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور . رواه الترمذى عن أبى الزبير عنه<sup>(٤)</sup>.

٣ - وعن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الشاء<sup>(٥)</sup>.

وفي رواية : من أولى معروفاً أو أسدى إليه معروف فقال للذى أسداه : جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الشاء . رواه الترمذى .

٤ - وعن الأشعث بن قيس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس . وفي رواية : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أحمد ورواته ثقات<sup>(٦)</sup>.

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الرهون - باب المسلمون شركاء في ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٤

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الرهون - باب المسلمون شركاء في ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٢

(٣) سنن أبى داود - كتاب الزكاة - باب عطية من سأل بالله ٣١٠/٢ رقم ١٦٧٢ وسنن النسائي - كتاب الزكاة - باب من سأل

بالله - عز وجل - ٨٢/٥

(٤) الترمذى - كتاب البر والصلة - باب في التشيع بما لم يعطه ٣٧٩/٤ رقم ٢٠٣٤ وقال : حديث حسن غريب

(٥) الترمذى - كتاب البر والصلة - باب في التشيع بما لم يعطه ٣٨٠/٤ رقم ٢٠٣٥ وقال : حديث حسن جيد غريب

(٦) مسند أحمد ٢١٢/٥

٥ - وعن عائشة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : من أتى إليه معروف - فليكن فيء به ومن لم يستطع فليذكره فإن من ذكره فقد شكره ومن تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبى زور . رواه أحمد<sup>(١)</sup>.

٦ - وعن أنى هريرة - رضى الله عنه - عن النبي ﷺ قال : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أبو داود والترمذى . وقال : صحيح<sup>(٢)</sup>.

٧ - وروى عن طلحة يعنى ابن عبيد الله - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من أولى معروفاً فليذكره فمن ذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره . رواه الطبرانى . ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عائشة رضى الله عنها<sup>(٣)</sup>.

٨ - وعن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب رواه عبد الله بن أحمد فى زوائده بإسناد لا بأس به . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف باختصار<sup>(٤)</sup>.

٩ - وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله ما رأينا قوماً أحسن بذلاً لكثير ولا أحسن مواساة فى قليل منهم ولقد كفونا المؤنة ، قال : ليس تشنون عليهم به وتدعون لهم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك بذاك . رواه أبو داود والنسائى واللفظ له<sup>(٥)</sup>.

### الاستعداد للموت قبل وقوعه

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . هذا إرشاد مشوب بالتحذير فقد أمر الله تعالى بالاستعداد للسفر الطويل قال سبحانه : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَالٍ ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ

(١) مسند أحمد ٩٠/٦

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب شكر المعروف ١٥٧/٥ رقم ٤٨١١ وسنن الترمذى - كتاب البر والصلة - باب الشكر

لمن أحسن إليك ٣٣٩/٤ رقم ١٩٥٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٧٤/١ رقم ٢١١

(٤) مسند أحمد ٢٧٨/٤

(٥) سنن أبى داود - كتاب الأدب ١٥٨/٥ رقم ٤٨١٢

يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴿١﴾ ولا يليق بالمسلم أن يسمع كل هذه التوجيهات الربانية والإرشادات الإلهية ثم يظل في غفلة إلى أن يفجأه مفرق الجماعات ومعلم البنين والبنات وعندما ينام على فراش الموت يقول رب ارجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت فيقال له كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ في الصور . فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون .

تزود من التقوى فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع  
فما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع  
إن أجل الله لا يؤخر لو كنتم تعلمون فإذا ما ندمت فإنه لا ينفع الندم وإذا ما سألت الله التأخير  
إلى أجل قريب فإن الله تعالى يحذرك ويحذر أمثالك من هذا السؤال قال عز من قائل :  
﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من  
المؤمنين ﴾ فيقول لهم الله تعالى : ﴿ بل بداهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه  
وإنهم لكاذبون ﴾ .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد  
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفساد  
أترضى أن تكون رقيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب  
نحجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال \* وسكنتم في مساكن  
الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال \* وقد مكروا مكروهم وعند  
الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال ﴾ (٢) .

إن الذين يتمنون العودة عند الموت قد خسروا أنفسهم فإن الله يقول لهم ولأمثالهم أو لم نعمركم  
ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ويقول لهم ولأمثالهم ولن يؤخر  
الله نفساً إذا جاء أجلها لأن الأجل معلوم وثابت لا يتقدم ولا يتأخر قال تعالى : ﴿ فإذا جاء أجلهم  
لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ (٣)

تزود من التقوى فإنك لا تدري إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٤

(٢) سورة ابراهيم الآيات : ٤٤ - ٤٦

(٣) سورة النحل الآية : ٦١

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً      وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى  
وكم من عروس زينوها لزوجها      وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر  
وكم صغار يرتجى طول عمرهم      وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر  
وكم من صحيح مات من غير علة      وكم سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذى حكم بهذا الحكم هو الخبير العليم بحقائق الأشياء لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

### التوبة

أيها المسلم الكريم بادر بالتوبة قبل الموت قبل أن تندم فلا ينفعك الندم .

عن أبى موسى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . رواه مسلم<sup>(١)</sup> .

٢ - وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . رواه مسلم<sup>(٢)</sup> .

٣ - وعن صفوان بن عسال — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه<sup>(٣)</sup> . رواه الترمذى .

المعنى : [ يتوب مسيء النهار ] : ليرجع إلى ربه مذنّب يومه ، كذا سبحانه يقبل توبة من اقترف الذنوب ليلاً ويستمر سبحانه على ذلك حتى تظهر علامات الساعة وقرب يوم القيامة . [ من مغربها ] أى تتغير الشمس ، وتطلع من جهة المغرب ، وتترك جهة الشرق ، كما قال تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع \* ماله من دافع \* يوم تمور السماء موراً \* وتسير الجبال سيراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

﴿ لواقع ﴾ : لنازل . ﴿ تمور ﴾ : تضطرب . وتصير الجبال هباء فلا تقبل توبة : وقد عد علماء التوحيد من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها بعد نزول سيدنا عيسى — عليه السلام — إلى الأرض : ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ ، ويكثر الأمن فى زمنه ، والخصب والرخاء والبركة

(١) صحيح مسلم — كتاب التوبة — باب قبول التوبة من الذنوب ٢١١٢/٤ رقم ٢٧٥٩

(٢) صحيح مسلم — كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار — باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٦/٤ رقم ٢٧٠٣

(٣) سنن الترمذى — كتاب الدعوات ٥٤٦/٥ رقم ٣٥٣٦

(٤) سورة الطور الآيات : ٧ - ١٠

ويشرق نوره على المنارة البيضاء شرق دمشق وقت صلاة الصبح كذا قالوا . وأول الساعة من النفخة الثانية كما قال تعالى : ﴿ لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْةٌ ﴾ . ثم يخرج المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج من السد الذي حجزهم به ذو القرنين وهم من ولد يافث ابن نوح عليه السلام كذا خروج الدابة كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> . أى : تكلمهم ببطلان الأديان ما عدا دين الإسلام . [ فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه ] : أى يقرب قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> قال البيضاوى : أى : قبل حضور الموت لقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وبقوله ﷺ : « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » <sup>(٤)</sup> .  
فعدم قبول التوبة فى حالتين :

( أ ) عند الاحتضار .

(ب) وعند تغيير شروق الشمس : حيثئذ تسد أبواب الرحمة ويخرج دخان الفتن التى تؤذن بالعذاب وحلول الحساب وابتداء العقاب نسأل الله السلامة ونتوب إليه جل جلاله ونستغفره ونحمده سبحانه .

٤ - وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : للجنة ثمانية أبواب : سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه، رواه أبو يعلى والطبرانى بإسناد جيد <sup>(٥)</sup> .

٥ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم . رواه ابن ماجه بإسناد جيد <sup>(٦)</sup> .

المعنى : أى : فعلتم ذنوباً كثرت حتى ارتفعت درجاتها . ثم أدركتم الرجوع إلى الله جل وعلا .

٦ - وعن جابر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنايه . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : أى : الرجوع إلى الله جل وعلا وعقد النية على تشييد الصالحات .

(١) سورة النمل الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء الآية : ١٧

(٣) سورة النساء الآية : ١٨

(٤) سنن الترمذى - كتاب الدعوات ٥٤٧/٥ رقم ٢٥٣٧ وسنن أبى ماجه - كتاب الزهد ١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥٣

(٥) مسند أبى يعلى ٢٣٢/١ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٥٤/١٠ رقم ١٠٤٧٩

(٦) سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - باب ذكر التوبة ١٤١٩/٢ رقم ٤٢٤٨

وعن عائشة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب . رواه أبو يعلى .

٨ - وروى عن جابر — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن وإن راقع فسعير من هلك على رقبته<sup>(١)</sup> .

٩ - وعن أبي سعيد الخدرى — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الغرس في آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين . رواه ابن حبان في صحيحه<sup>(٢)</sup> .

[ الآخيه ] : مد الهمزة وكسر الحاء المعجمة بعدها ياء مثناة تحت مشددة : هي حيل يدفن في الأرض مثنيًا ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة وقيل : هو عود يعرض في الحائط تشد إليه الدابة .

١٠ - وعن أنس — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون .. رواه الترمذى وابن ماجه<sup>(٣)</sup> .

١١ - وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن عبداً أصاب ذنباً ، فقال : يارب إني أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يارب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى . قال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ، ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يارب إني أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقال له ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء . رواه البخارى ومسلم<sup>(٤)</sup> .

[ قوله : فليعمل ما شاء ] معناه والله أعلم : أنه مادام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله : ثم أصاب ذنباً آخر فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أنه يذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين .

(١) مجمع الزوائد ٢٠١/١٠

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/٢

(٣) سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة ٦٥٩/٤ رقم ٢٤٩٩ وسنن ابن ماجه — كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤٢٠/٢ رقم

٤٢٥١

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب التوبة — باب قبول التوبة من الذنوب رقم ١٧٥٤

١٢ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه فإن قال ونزع واستغفر صقل منها وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه فذلك الران الذى ذكر الله في كتابه » . ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾<sup>(١)</sup> .

رواه الترمذى وصححه النسائى . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له من طريقين قال فى أحدهما : صحيح على شرط مسلم . ولفظ ابن حبان وغيره : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة ينكت فى قلبه نكتة فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تملأ قلبه الحديث .

١٣ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً ، فإن أصبح ذهباً اتبعناك فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً فمن كفر منهم عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح<sup>(٢)</sup> .

المعنى : أى : طلب قبول التوبة ونزول الرحمة إنك يا الله غفور رحيم قال تعالى : ﴿ حم \* تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم \* غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ . من سورة غافر الآيات ١ - ٣ .

﴿ الطول ﴾ : الفضل بترك العقاب المستحق . ﴿ المصير ﴾ : يرجع إليه جل وعلا فى إثابة المطيع وتعذيب العاصى واختار ﷺ فتح باب رضوان الله وطلب عليه الصلاة والسلام إنعامه على عباده وإحسانه وتفضله ، ورغب عن المال لأنه عرض زائل فان . ماذا يفيدك أيها المسلم لو حول الله لك الجبال ذهباً ؟ ماذا تصنع بها ؟ ﴿ وكل نفس ذائقة الموت ﴾ وكل نعيم لا محالة زائل ؟ ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ سورة الأنعام الآية ٣٢ .

فهل تتوب إلى ربك جل وعلا وتقبل على الأعمال الصالحات وتكثر من ذكر الله والصدقات وتدخر ثوابها عند العزيز الوهاب فتستعم بها فى آخرتك ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ سورة النحل ٩٦ - ٩٧ .

إن شاهدنا وعد الله حفظ النعيم للصالح التقى أن يمدد بأفضاله وإكرامه وهو ما طلبه النبي ﷺ لأئمة صلى الله عليه وسلم يا رسول الله علمت المطيعين المخلصين الزهد والقناعة والرغبة فى فعل البر والخير والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل الأعلى فى ترك طعام الدنيا والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل

(١) أنظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤١٨ حديث رقم ٤٢٤٤ « كتاب الزهد »

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ج ٥ ص ٣٩ ، ج ١٠ ص ١٩٦ .



الأعلى في ترك طعام الدنيا ونبذه وتشيين المحاملة والمكارم . وقد روى لنا الإمام مسلم في حديث أبي هريرة « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قال : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا الذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار » (١) الحديث .

قال النووي : فيه ما كان عليه النبي ﷺ وكبار أصحابه من التقلل من الدنيا وما ابتلوا به من الجوع وضيق العيش فإذا حصل يسر أنفق في طاعة الله من وجوه البر وإيثار المحتاجين وتجهيز السرايا : أى الجيش يحارب في سبيل الله تعالى أ.هـ .

فلعلك فهمت سر الإعراض عن الجبال أن تكون ذهباً ورغبته ﷺ في قبول التوبة وفعل الصالحات لله تعالى : نسأل الله الهداية والتوفيق .

١٤ - وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٢) . رواه ابن ماجه والترمذى وقال الحديث حسن .

[ يغرغر ] : بغينين معجمتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة معناه مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشيء الذى يتغرغر به .

١٥ - وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله ، أوصنى ؟ قال : عليك بتقوى الله ما استطعت واذكر الله عند كل حجر وشجر وما عملت من سوء فأحدث له توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية (٣) . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [ عليك بتقوى الله ] : أى الزم الخوف من الله والعمل لإرضائه وتجنب سخطه واترك المعاصي وصحبة الأشرار . [ ما استطعت ] : قدر طاقتك ومدة إستطاعتك كما قال تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ سورة التغابن ١٦

أى ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم واسمعوا مواعظه وأطيعوا أوامره وأنفقوا في وجوه الخير خالصاً لوجهه .

[ عند كل حجر وشجر ] : أى : ومجده وعظمه سبحانه أى : تفكر في صنعه تعالى وخلقه واحمده كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون \* الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ سورة البقرة : ٢١ - ٢٢ .

(١) أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٦٠٩ حديث رقم ١٤٠ / ٢٠٣٨ مقلود الحرية من رواية لآنى هريرة

(٢) أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣ من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٣ أورده عن عبد الله بن عمرو .

أى : أطيعوا بارئكم ، وبارئ آباءكم ، وأجدادكم الأمم السابقة راجين أن تنخرطوا فى سلك المتقين الأبرار الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى . نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهى التبرى من كل شئ سوى الله تعالى إلى الله تعالى وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ سورة السجدة : ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ سورة الإسراء : ٥٧

﴿ فراشاً ﴾ ميسوطة منبثة ( بناء ) قبة مضروبة عليكم مرفوعة بلا عمد ﴿ أنداداً ﴾ أشباهاً وأمثالا فى إسناد الأفعال إلى غيره ، أى : وحدوه واعتقدوا أنه الفعال لكل شئ .

[ فأحدث له توبة ] : جدد له ندماً ورجوعاً إلى الله جل وعلا . [ والعلائية بالعلانية ] : أى : أذنبت جهاراً فأعلن توبتك وأعلم الناس إقلاعك عما فعلت وأكثر من التضرع تنجح . قال تعالى :

( أ ) ﴿ وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون \* وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ سورة القصص : ٦٩ - ٧٠ .

( ب ) وقال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ سورة يونس : ١٠٠ .

( جـ ) وقال تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون \* فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ سورة الأعراف : ٢٩ .

( د ) وقال تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين \* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ سورة الحجر : ٩٨ - ٩٩

( هـ ) وقال تعالى : ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخر خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ سورة يوسف : ٥٦ - ٥٧

١٦ - وروى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعامله من الأرض حتى يلقي الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » رواه الأصبهاني (١).

المعنى : [ جوارحه ] : أيديه وأرجله . [ معاملته ] : آثاره التى دب فيها للمعاصى ومشى فيها ، قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ سورة فصلت : ٤٦ . فاتق الله يا عبد الله ، وأسرع بالتوبة ، وأعمل بأوامر الله لتريح ، وأعلم أن عمرك محدود ولن تضمن طوله ، فقد وعدك الله جل وعلا أن ينسى الكتبة ما عملت من سوء ، ويبعد جوارحك عن الشهود عليك بما اقترفت من الذنوب ويضيع آثار مشيك للأذى أو لارتكاب المعاصى ،

وقد قال تعالى في محكم كتابه : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ \* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ سورة فصلت ١٩ - ٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ \* يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ سورة النور : ٢٤ - ٢٥ .

إن رسول الله ﷺ وصف لنا الدواء الناجع ألا وهو التوبة وعقد الخناصر على طاعته سبحانه وتقوية العزيمة في عبادته وأشار إلى السلاح القاطع الذي يخرس كل شهود على العصيان ألا وهو الانابة إلى الله مع ذكره سبحانه وتأدية الواجبات والابتعاد عن السيئات قال تعالى :

( أ ) ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾ سورة الرحمن : ٤٦ .

( ب ) ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ سورة الرحمن : ٦٠ .

( جـ ) وفي سورة الواقعة ذكر سبحانه وتعالى : ( أ ) الزرع . ( ب ) الماء . ( جـ ) النار . أي : أنه هو السبب في إيجاد أولئك قال جل شأنه ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سورة الواقعة : ٩٦ . قال النسفي : أي : فزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، أي : قل : سبحان ربي العظيم . لأنه جدير بذلك .

١٧ - وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : التادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة وأحذروا التسويف فإن الموت يأتي بغتة ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ . رواه الاصبهاني<sup>(١)</sup> من رواية ثابت بن محمد الكوفي العابد .

المعنى : [ التادم ] : الباكي على خطاياهم والحزين على تقصيره

المعجب المترفع التكبر الذي يستحسن عمله الذي يتعاضم ويتفاخر . [ المقت ] : السخط والعذاب لأنه مراء كذاب . [ كل عامل ] : إنسان في الحياة أو إنسانة سيقبل يوم القيامة ويرى صحائف أعماله أن خيراً وإن شراً كما قال تعالى :

( أ ) ﴿ والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ سورة الحديد : ١٩

(ب) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ \* يَوْمَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ جَمِيعاً فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ سورة المجادلة : ٥ - ٦

[ حسن عمله وسوء عمله ] : عند الاحتضار يبشر الله الصالح بنعيمه والطالح بالعذاب .  
[ مطيتان ] : موصلتان للأعمال لمن يريد التحصيل وتشديد المحامد فالإنسان خلق ليعمل وينتبهز فرصة وجوده ، فيكد في البر والخير ويجد في المكارم كما قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ \* الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ سورة تبارك : ١ - ٢ . [ التسويف ] : التأجيل في التوبة ونية التأخير في عمل صالح ، بل أسرعوا وتوبوا إلى الله وأعملوا صالحاً ففيه الترغيب في الإجابة إلى الله والعمل بكتابه وسنة نبيه وترك الآمال والأمانى الكاذبة . [ بغتة ] : فجأة . [ بحلم الله ] : بتأجيل عقاب المذنب ، والحليم من أسماء الله تعالى ومعناه الذي لا يستخفه شيء من عصيان العباد ، ولا يستغفزه الغضب عليهم سبحانه صبور مؤخر عقاب المسيء يمهّل وينتظر الآية « ويتوب الله على من تاب » . [ شراك نعله ] : أقرب شيء يملكه ومعنى الشراك أحد سيور اسفل التي تكون على وجهها وهذا على سبيل التقريب والتفهيم إلى أن النعيم أو العذاب مدرك بسرعة وبعد خروج الروح يرى المؤمن الطائع ثوابه وللعاصي عقابه فالعاقل من تاب إلى الله وأسرع في الطاعة وجد في العبادة ، ولا يعلم انتهاء العمر إلا الله جل جلاله فالنبي ﷺ يرغب المؤمن في التوبة رجاء إدراك رحمة الله وثوابه ويغضه في القنوط ، وينفره من الكبر والغرور ، كما قال تعالى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكَافِرَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَمُوجُ فَتَرَاهُ مَصْفُوراً ثُمَّ يَكُونُ حِطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ \* سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ سورة الحديد : ٢٠ - ٢١ .

﴿ خيراً يره ﴾ : يدرك جزاءه ويتمتع بنعمته . قال النفي : روى أن جد الفرزدق أتاه — عليه السلام — ليستقرئته فقرأ عليه هذه الآية فقال حسبي حسبي ، وهي أحكم آية وسميت الجامعة . والله أعلم .

وقال البيضاوي : ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ﴾ الزلزلة : ٦ . أى : من مخرجهم من القبور إلى الموقف متفرقين بحسب مراتبهم .

١٨ - وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — عن النبي ﷺ قال : « التائب من

الذنب كمن لا ذنب له»<sup>(١)</sup>. رواه ابن ماجه والطبرانى كلاهما من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ولم يسمع منه ، ورواه الطبرانى رواه الصحيح ، ورواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالستهزىء بربه » وقد روى بهذه الزيادة موقوفاً .

المعنى : [ التائب ] : النادم على فعله المقبل على ربه بطاعته يعفو عنه ربه سبحانه ويثيبه ويحط ذنوبه ويمحو خطاياہ تفضلاً ويجعل صحيفته نقية مثل الذى ليست له ذنوب كما قال تعالى : ﴿ إلا من تاب وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً \* ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

﴿ المستغفر من الذنب ﴾ : الذى يطلب إزالة ذنوبه بطلب المغفرة مع إصراره على العصيان وعكوفه على الفسوق تهجم منه على عظمة الله وسخرية منه ومجون وطمع فى رحمة القادر القهار الجبار واستهزاء بالخالق المنتقم ، وقد حكى الله تعالى عن اليهود والمنافقين مدة رسول الله ﷺ يقسمون بمحبة رسول الله ﷺ واحترامه ونصره كذبا وخداعا ولكن يصرون على عداوته ويضربون الخصام له فخرأهم الله ولم يقبل أى عمل لهم وفضحهم كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم يخلفون على الكذب وهم يعلمون \* أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون \* اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين \* لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون \* يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يخلفون لكم ويحسبون أنهم على شئء ألا إنهم هم الكاذبون \* استعوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ المجادلة : ١٤ - ١٩ .

قال البيضاوى : فتمرنوا على سوء العمل أو اصرروا عليه إن الفساق الآن يتهاونون فى حقوق الله امتناناً بأنفسهم وتساهلاً واستهزاء بعقوبتهم الضالة النائمة الغافلة عن الله ، فترى العصاة يسوفون فى الصلاة ويؤجلون عمل الخير إلحاداً وإفساداً كما قال تعالى فيهم ﴿ نسوا الله فأنسىهم ﴾ التوبة : ٦٧ .

قال فى الغريب . إذا نسب ذلك إلى الله فهو تركه إياهم استهانة بهم ومجازاة لما تركوه كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ الأعراف : ٥١ . وكما قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنسأهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ الحشر : ١٩ أى تركو ذكره عز وجل وما أمرهم به فتركهم سبحانه من ذكره بالرحمة والتوفيق . مسكين من لم يتب . وماذا ينتظر ؟ والله تعالى له رقيب وحسيب فليستيقظ الإنسان من سباته وليكثر من الاستغفار فى الأسحار رجاء غفرانه سبحانه : ما أحسن الخلوة فيذكر الإنسان هول الموقف وما أحاطه من نعم مولاه وماذا

عمل استعداداً وغداً يتجلى الإله برأفته ورحماته فيظله برضوانه ويكون أحد السبعة ﴿ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ﴾ .

١٩ - وعن حميد الطويل قال : قلت لأنس بن مالك — رضى الله عنه : أقال النبي ﷺ : « الندم توبة ، قال : نعم »<sup>(١)</sup> رواه ابن حبان في صحيحه .

المعنى : نعم : أجاب سيدنا أنس أن البكاء على التعقيد في عمل الصالحات توبة والتضرع إلى المولى بالقول وإقلاع الإصرار على العصيان وشحذ العزيمة على الطاعة وتقوية الإرادة الصارمة على العبادة مما يسبب قبول الله ويحبب رضاه وقد قال النبي ﷺ : يبسط يده . قال النووي : بسط إليه استعارة في قبول التوبة ، وخطوب العرب بأمر حسبي يفهمونه وهو مجاز فإن يد الجارحة مستحيلة في حق الله سبحانه وتعالى والعرب إذا رضى أحدهم بالشئ بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه .

٢٠ - وعن عبد الله بن معقل قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه فقال له أبى : سمعت النبي ﷺ يقول : الندم توبة ؟ قال : نعم<sup>(٢)</sup> . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٢١ - وعن عائشة — رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه »<sup>(٣)</sup> رواه الحاكم من رواية هشام زياد وهو ساقط وقال : صح الإسناد .

٢٢ - وعن ابن مسعود — رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل . رواه مسلم<sup>(٤)</sup> .

المعنى : [ أغير ] : شديد الانتقام بقوة وأكثر عقاباً ومعنى الغيرة الحمية والأنفة وشدة اليقظة : يقال رجل غيور وامرأة غيور . [ الفواحش ] : المعاصي ما ظهر منها وما بطن كالزنا والسرقة والحسد وهكذا من الأشياء القبيحة الفظيعة . [ العذر ] : التوبة والندم . قال النووي : قال القاضي : أى اعتذار العباد إليه من تقصيرهم وتوبتهم من معاصيهم فيغفر لهم سبحانه . قال تعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ﴾ سورة الشورى : ٢٥ .

وقد فسر ﷺ في حديث مسلم « وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله » رواه أبو هريرة .

وفي رواية البخارى ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرین قال القسطلانى : الفواحش كل

(١) أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٢ من رواية عن ابن معقل قال : دخلت مع أبى على عبد الله فسمعتة يقول : قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة » فقال له أبى : أنت سمعت النبي ﷺ يقول : « الندم توبة » قال : نعم .

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٥ / ٢٧٦٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود

(٤) رواه صحيح مسلم ح ٤ ص ٢١١٣ - ٢١١٤ رقم ٣٥٠٣٤، ٣٣٠٣٢ / ٢٧٦ كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى ، وتحريم

الفواحش .

خصلة قيحة من الأقوال والأفعال ( المدح ) المدح والثناء بذكر أوصاف الكمال . وزاد البخارى « ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » يخبر ﷺ أن الله تعالى يحب الذى يتحلّى بثلاثة :

( أ ) المدح : أى يكون كثير التضرع والدعاء كما قال تعالى ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ وكما قال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »

( ب ) شديد الغيرة باجتنب ما نهى الله عنه وترك المعاصى .

( ج ) التوبة والالتجاء إلى الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم \* وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾ الحجر : ٤٩ - ٥٠ .

[ الكتاب ] : الكتب السماوية المنزلة من السماء وحى من الله جل وعلا على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لتستبين أوامره ، وتتجلى مقاصده ، فيعمل بها العبد ليتقرب إلى ربه ، وأشهرها أربعة : التوراة لسيدنا موسى ، والإنجيل لسيدنا عيسى ، والزبور لسيدنا داود ، والفرقان لسيدنا محمد ﷺ كما أنه أرسل الرسل مهذيين ومرشدين ومعلمين ليبينوا للناس الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه ، قال تعالى لحبيبه ﷺ ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ سورة غافر : ٧٨ .

وقال علماء التوحيد يجب معرفة خمسة وعشرين منهم وهم ساداتنا : آدم — إدريس — نوح — هود — صالح — إبراهيم — لوط — إسماعيل — إسحق — يعقوب — يوسف — أيوب — شعيب — موسى — هارون — ذوالكفل — داود — سليمان — إلياس — اليسع — يونس — زكريا — يحيى — عيسى — أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

وأولو العزم خمسة : أى الذين صبروا وتحملوا المشاق : ( محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم وإن الله تعالى ما أرسل الرسل إلا ليعرفوا الناس آلاءه وأنه تعالى بجدير بكل ثناء وخليق بكل تدلل وخشوع وعبادة وطاعة وحقيق بالتوبة إليه كما قال جل شأنه : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾ سورة الأنعام : ٤٨ - ٤٩ .

٢٣ - وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » (١) رواه مسلم وغيره .

المعنى : [ نفسى بيده ] : يقسم ﷺ بالقادر الذى بيده تصارييف الأمور ذى الفضل والرحمة والحلم سبحانه وتعالى . [ لذهب الله بكم ] : لأماتكم وأفناكم وأوجد أمة أخرى تقع منها الخطايا وفى هذا بشرى بقبول التوبة والترغيب فى عدم اليأس وإرسال أشعة الرجاء والأمل فى نفوس العاصين ليتوبوا كما قال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر

الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم \* وأنبؤوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون \* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنهم لا تشعرون \* أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين \* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين \* أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين \* بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿ الزمر ٥٣ : ٥٩ .

٢٤ - وعن عمران بن الحصية - رضى الله عنه - أن امرأة من جهنية أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنا فقالت : يا نبي الله ، أصبت حداً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ وليها قال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتني بها ففعل ، فأمر بها نبي الله ﷺ فشُدَّت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر : تصلى عليها يا نبي الله وقد زنت ؟ قال : تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جاءت بنفسها لله عز وجل<sup>(١)</sup> . رواه مسلم .

٢٥ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ، ولكن سمعته أكثر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاه سبتين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من إمرأته أرعدت وبكت فقال : ما يبكيك أكرهتك ؟ قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملني عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته قط ، أذهبي فهى لك وقال : لا والله لا أعصى الله بعدها أبداً فمات من ليلية فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر للكفل »<sup>(٢)</sup> . رواه الترمذى وحسنه واللفظ له وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ أكثر من عشرين مرة يقول : فذكر بنحوه . والحاكم والبيهقى من طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [ الكفل ] : رجل زير . [ لا يتورع ] : يميل إلى عصيان الله تعالى وغشيان الفجور ويحب الفسوق . [ أرعدت ] : ارتعش جسمها وبرد . [ الحاجة ] : الفقر الذى دعانى إلى التفريط فى عرضي . [ وما فعلته قط ] : قد خفت الله من عصيانه وما بدت منك فاحشة . [ والله لا أعصى الله ] : هذا العزم بمثابة توبة قبلها الله تعالى فشكر له وسامحه وستر ذنوبه تفضلاً . لمحة رضى وثانية عطف من الزمن وجزء من الوقت أدركته سعادة الله ورضوانه ، فعفا عنه بسبب مرور خشيته رد ما من الزمن ، فالعاقل يتوب إلى الله فى كل لحظة ، رجاء أن يشمل كرم مولاه سبحانه كما شمل ذلك الرجل الفحاش طيلة عمره ويتوب الله على من تاب .

٢٦ - وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « كانت قريتان : إحداهما سالحة ،

(١) انظر صحيح مسلم - ج ٣ ص ١٣٢٤ حديث ٢٤ / ١٦٩٦ من رواية عمران بن حصين .

(٢) انظر سنن الترمذى - ج ٤ ص ٦٨ ، ٦٩ حديث رقم ٢٦١٤ أورده من رواية لابن عمر وأنظر صحيح ابن حبان - ج ١ ص ٣٠١ ،

٣٠٢ فقد ورد الحديث رقم ٣٨٨ من رواية لابن عمر



والأخرى ظالمة . فخرج رجل من القرية الظالمة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله فاختصم فيه الملك والشیطان فقال الشيطان : والله ما عصاني قط فقا الملك : إنه قد خرج يزيد التوبة فقضی بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب فوجدوه إلى القرية الصالحة بشير فغفر له . قال معمر : وسمعت من يقول : قرب الله إليه القرية الصالحة «<sup>(١)</sup>» رواه الطبرانی بإسناد صحيح .

٢٧ - وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ! إنطلق إلى الأرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فاتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فأبى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاوسا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة «<sup>(٢)</sup>» .

وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشير فجعل من أهلها .

وفي رواية : فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقرى وقال : قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشير فغفر له .

وفي رواية : قال قتادة قال الحسن : ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى ب صدره نحوها . رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

المعنى : [ فقبضة ملائكة الرحمة ] : أى تسلمته إلى نعم الله وإحسانه بسبب غفران ذنوبه باهتمامه وسيره إلى بلد الصالحين المطيعين . هذا رجل تاب الله عليه بسبب عزمه على السير إلى هذه القرية ، فما بالك بمن أحب الصالحين وعاشرهم وأكرمهم وودهم وزارهم وحضر مجالسهم ودعا بدعواتهم الطيبة ؟ أرى أن الله كريم عظيم يقبله ويوفقه ويهديه إلى الخير ويغفر ذنوبه ، ومن أحب قوماً حشر معهم . حسبك قوله ﷺ « أنت مع من أحببت » نسأل الله السلامة .

قال النووي : في باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله ( ثم أفتاه العالم بأن له توبة ) هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس ، وأماما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة لا أنه يعتقد بطلان

(١) انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن مسعود وقال : رواه الطبرانی موقوفاً ورجاله رجال الصحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١١٨ « كتاب التوبة » حديث ٤٦ / ٢٧٦٦ من رواية لأبي سعيد ، وانظر الأحاديث ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٧٦٦ / .

توبته ، وهذا الحديث ظاهر فيه وإن كان شرعاً لمن قبلنا ، وفي الاحتجاج به خلاف ، فليس موضوع الخلاف وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعاً لنا بلا شك وهذا قد ورد شرعنا به ، وهو قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً \* إلا من تاب ﴿ الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وأما قوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ النساء : ٩٣ . فالصواب في معناها أن جزاءه جهنم ، وقد يجازى به ، وقد يجازى بغيره ، وقد لا يجازى بل يعفى عنه ، فإن قتل عمداً مستحلاً له بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد يخلد به في جهنم بالإجماع ، وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاصي مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالداً فيها ولكن بفضل الله — تعالى ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها فلا يخلد هذا ، ولكن قد يعفى عنه فلا يدخل النار أصلاً ، وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين ثم يخرج معهم إلى الجنة ، ولا يدخل إلى النار فهذا هو الصواب في معنى الآية .

٢٨ - وعن أبي عبد ربه أنه سمع معاوية بن أبي سفيان على الخير يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً أسرف على نفسه فلقى رجلاً فقال : إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلهم ظلماً ، فهل تجدلى من توبة ؟ فقال : إن حدثك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك ههنا قوم يتعبدون فأتهم تعبد الله معهم فتوجه إليهم فمات على ذلك فاجتمعت ملائكة الرحمة وملائكة العقاب فبعث الله إليهم ملكاً فقال : قيسوا ما بين المكانين فأبهم كان أقرب فهو فوجدوه أقرب إلى دير التوايين بأثمله فغفر له . رواه الطبراني بإسنادين أحدهما جيد .

ورواه أيضاً بنحوه بإسناد لا بأس به عن عبد الله بن عمرو فذكر الحديث إلى أن قال : ثم أتى راهبا آخر فقال : إني قتلت مائة نفس فهل تجدلى من توبة ؟ فقال : لقد أسرفت وما أدرى ولكن ههنا قرىتان قرية يقال لها : نصرة والأخرى يقال لها : كفره فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم وأما أهل كفره فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم فانطلق إلى أهل نصرة فإن ثبت فيها ، وعملت عمل أهلها فلا شك في توبتك فانطلق يومها حتى إذا كان بين القريتين أدركه الموت فسألت الملائكة ربها عنه ، فقال : انظروا إلى أي القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها فوجدوه أقرب إلى نصرة بغير أثمله فكتب من أهلها<sup>(١)</sup> .

٢٩ - وعن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني ، والله الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ،

(١) أنظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١١ ، ٢١٢ فقد ورد الحديث عن عبد ربه أنه سمع معاوية ، كما أورد أيضاً رواية عبد الله بن عمرو قبله في باب « مغفرة الله تعالى للذنوب العظام وسعة رحمته » .

ومن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلى ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلى يمشى أقبلت إليه أهول» (١) رواه مسلم واللفظ له والبخارى بنحوه .

المعنى : [ عند ظن عبدى لى ] : قال القاضى : معناه : بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح . [ معه حيث يذكرنى ] : أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية وأما قوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ فمعناه بالعلم والإحاطة . [ أفرح بتوبة عبده من أحدكم ] : قال العلماء : فرح الله تعالى رضاه ، وقال المازرى : الفرح ينقسم إلى عدة وجوه : منها السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به فالمراد هنا : أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واحد وجد ضالته بالغلاة فغير عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره .

بخ بخ .. أيها المسلم يحب الله لك التوبة : أى : ترجع إليه نادماً مقصداً على درك الحسنات ، وتستعد للمستقبل فتعمل صالحاً ، ليشملك بعزه وبرضاه ، وتأمل فى الحديث . رجل فى مفازة يملك شيئاً نفيساً عزيزاً غالياً ثميناً فيفقداه فلم يجده وضاع منه وصار يبحث عنه بجهد وكد ثم وجده ما مقدار فرحه بالعثور على بغيته والحصول على ماله ؟ إنه لشديد الحبور — والله تعالى كثير الرضا عن التائب أكثر من الذى وجد ما يهوى :

( أ ) ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾ المائدة : ٧٤ .

( ب ) ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون \* ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين \* قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين \* قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾ الأنعام : ٦٠ - ٦٤

إن شاهدنا مراقبة الله تعالى لعبده أن جعل له ملائكة تحفظ أعماله ومع ذلك يعفو سبحانه فيثق العبد بلطف سيده ويعتمد على عفوه وستره ﴿ مولاهم ﴾ : الذى يتولى أمورهم ويحكم بالحق : أى : العدل ، ثم ساق لهم بعض نعمه ﴿ تضرعاً وخفية ﴾ : معلنين ومسررين ﴿ كرب ﴾ : غم ولكن تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد . فانظر إلى مدى حلم الله بعباده . ﴿ ضالته ﴾ : الشيء المفقود . ﴿ الفلاة ﴾ : الصحراء أى الأرض القفر .

٣٠ - وعن يزيد بن نعيم قال : سمعت أبا ذر الغفارى — رضى الله عنه — وهو على المنبر

بالفسطاط يقول : سمعت النبي ﷺ يقول : « من تقرب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً ، أقبل إليه مهرولاً ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى ، وأجل ، والله أعلى وأجل »<sup>(١)</sup>. رواه أحمد والطبراني . وإسنادهما حسن .

٣١ - وعن شريح هو ابن الحارث قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقول : قال النبي ﷺ : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم قم إلى أمشي إليك وأمشي إلى أهرول إليك »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد بإسناد صحيح .

٣٢ - وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة »<sup>(٣)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

٣٣ - وفي رواية لمسلم : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت عنه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ نخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك « أخطأ من شدة الفرح »<sup>(٤)</sup> .

المعنى : [ أيس منها ] : جرى وراءها فلم يمسكها . [ فاضطجع ] : استراح ونام . [ قد أيس ] : زال أمله وقل رجاءه في العثور عليها . [ فأخذ نخطامها ] : زمامها وقبض عليه . [ أخطأ من شدة الفرح ] : هذا تمثيل لنهاية السرور الصادر من العبد الذي وجد ناقته ليقرّب لك رضا الله تعالى بتوبة عبده والرجوع إليه والأخذ في طاعته والشروع في العمل الصالح له .

٣٤ - وعن الحارث بن سويد عن عبد الله - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دؤوبة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فآله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده »<sup>(٥)</sup> . رواه البخاري ومسلم .

(١) أنظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٥٥ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٧٨ فقد أورد الحديث بلفظه عن شريح .

(٣) أنظر صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٩ « باب التوبة » فقد ورد الحديث من رواية لأنس وأنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٥ حديث رقم ٨ / ٢٧٤٧ فيه رواية لأنس غير أنه جاء فيها « إذا استيقظ على بعيره » والصحيح إذا سقط على بعيره .

(٤) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٤ - ٢١٠٥ حديث رقم ٧ / ٢٧٤٧ من رواية لأنس .

(٥) أنظر صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٩ فقد ورد الحديث من رواية للحارث بن سويد بألفاظ مختلفة .

وأنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٣ فقد ورد الحديث رواية للحارث بن سويد مع اختلاف في بعض ألفاظه ، وقد صححت رواية هذا الكتاب على رواية مسلم .

المعنى : [ الدوية ] : فبح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً : هى الفلاة القفر والمفازة .

٣٥ - وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى ، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وبما بقى »<sup>(١)</sup> . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [ من أحسن فيما بقى ] : أى تاب إلى الله وأخلص فى حياته الآتية المستقبلية سامحه الله وعفا عنه ما عمله فى الأزمان السابقة تفضلاً . [ ومن أساء فيما بقى ] : أخطأ فى مستقبله . [ أخذ بما مضى وما بقى ] : حاسبه الله على الأعمال الماضية والمستقبلية ففيه الترغيب فى التوبة رجاء ستر الله لما عمله سابقاً .

٣٦ - وعن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى تخرج إلى الأرض »<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد والطبرانى بإسنادين . رواه أحدهما رواية الصحيح .

المعنى : [ درع ] : الزردية أى الواقية من الحديد أو النحاس . [ خنقته ] : ضيقت عليه وآلمته . [ فانفكت ] : انفرجت والمعنى : أن الحسنات تذهب السيئات وتفك المسلم من عقاب ذنوبه وتدفع عنه سوء وتجعله فى بحبوحة الرخاء والسعادة ، كما قال تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ سورة هود : ١١٤ .

٣٧ - وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - أن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال يا رسول الله : أوصنى . قال : « أعبد الله لا تشرك به شيئاً » قال : يا رسول الله ، زدنى قال : « إذا أسأت فأحسن قال : يا رسول الله زدنى ، قال : استقم وليحسن خلقك »<sup>(٣)</sup> . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ فأحسن ] : فاجتنب الخطأ وأجد فى عملك وأكثر من الصالحات . [ وليحسن خلقك ] : يزيد أدبك وتحلى بمكارم الأخلاق وتتصف بالمحامد والمحسن والكمال .

٢٨ - ورواه الطبرانى بإسناد ورواته ثقات : عن أبى سلمة عن معاذ قال : قلت : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك فى الموتى وأذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر وإذا عملت سيئة فاعمل بمجنبتها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية »<sup>(٤)</sup> وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

(١) أنظر كنز العمال ج ٤ ص ٢٤٤ حديث رقم ١٠٣٥٧ فقد أورد الحديث عن ابن عساکر من رواية أبى ذر .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٤٥ فقد أورد الحديث من رواية لعقبة بن عامر .

(٣) أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٧٠ - ٣٧١ فقد أورد الحديث من رواية لمعاد تحت رقم ٥٢٥ .

(٤) أنظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢١٨ فقد ورد الحديث من رواية لمعاد .

- ورواه البيهقي في كتاب الزهد من رواية إسماعيل بن رافع المدني ، عن ثعلبة بن صالح ، عن سليمان بن موسى ، عن معاذ قال : أخذ سيدي رسول الله ﷺ فمشى قليلاً ثم قال يا معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والتفقه في القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً ، أو تكذب صادقاً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، وأن تفسد في الأرض — يا معاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة . السر بالسر والعلانية بالعلانية<sup>(١)</sup>.

المعنى : [ كأنك تراه ] : أى تستحضر أن الحق مطلع عليك ومراقب أفعالك [ متظهر ] : دوحة الخشوع بمعرفة جلالته وعظمته وتزداد خشيته سبحانه أمامك فنخلص العمل وتفرغ قلبك لمناجاته جل وعلا فدائماً تستمر على التذلل له والإحسان في كل ما يسند إليك رجاء ارضاء من يراك . وفي الفتح وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه في سره وعلايته وفي مجلس العلم حضر جبريل عليه السلام فسأل النبي ﷺ عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . [ وأعدد نفسك في الموق ] : أى ازهد ولا تطمع في الدنيا بكثرة العمل واستعد للآخرة بقرب الأجل كأنك مع من ماتوا فيسألهم ربهم عن أعمالهم فكأنك تحت الطلب كما قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، فأد ماعليك من الدين . [ عند كل حجر ] : أى : رأيت آثاره البديعة في خلقه فسبحه واحمده وأشكر له نعمه ، وأعلم أن كل صنعة لا بد لها من صانع ويعدد الله لنا بعض صنائعه لنوحده كما قال تعالى :

( أ ) ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ النمل : ٦٠

( ب ) ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ الحجر : ٢٢

( ج ) ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ الفرقان : ٤٨ - ٥٠

يسوق الله تعالى هذه الدلائل ليتأمل العبد في بدائع قدرته وجمال حكمته فيذكره .

(١) أنظر كنز العمال ج ١٠ ص ٥٩٤ حديث رقم ٣٠٢٩١ باب « بعث معاذ » فقد هذا الحديث ضمن حديث طويل لمعاذ وقال رواه ابن عساکر وفيه ركن الشامي متروك .

﴿ فاعمل بمجنبا حسنة ﴾ : بعدها عملاً صالحاً يحو أثرها بعد التوبة . ﴿ تقوى الله ﴾ : خشية والرهبة منه بإخلاص القلب ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتظهر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

قال النسفي : أي : في أوامره فلا تخالفوها وعبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهادان وكرر بالتقوى تأكيداً أو اتقوا الله في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا الله في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجزى مجرى الوعيد وهو أن الله خبير . وفيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه . ﴿ صدق الحديث ﴾ : القول يطابق الواقع والأخبار توافق الحق . ﴿ وفاء العهد ﴾ : تنفيذ ما اتفق عليه كما قال تعالى . ﴿ وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ النحل : ٩١

قال البيضاوي : أي البيعة لرسول الله ﷺ وأنا أقول : وأيضاً الوفاء بالعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله والتحلل بمكارم الأخلاق .

﴿ أداء الأمانة ﴾ : المحافظة على الوديعة وتسليمها وحفظ الأسرار للأخبار والابتعاد عن السرفة والأذى وفعل الإضرار . ﴿ رخم اليتيم ﴾ : أي الرأفة بالذي مات والده وتقديم الخير والمساعدة له وإكرامه والعناية بشئونه ومراعاة تسمير ماله وحفظ وعلم إغتياله أو إضراره ، كما قال تعالى : ﴿ فاما اليتيم فلا تقهر ﴾ الضحى : ٩ . ﴿ حفظ الجوار ﴾ : إكرام الجار ومراعاة حرمة وتقديم صنوف الخير له كما قال تعالى : ﴿ والجار ذي القربى والجار الجنب ﴾ أي : الذي قرب جداره وقبل : الذي له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ، والجنب البعيد الذي لأقربة له وعنه عليه الصلاة والسلام « الجيران ثلاثة فجار له ثلاث حقوق : حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام ، وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد وهو المشرك من أهل الكتاب » (١) .

﴿ كظم الغيظ ﴾ : الإمساك عن الغضب وحبس الانتقام والكف عن إمضاء العقاب كما قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ . ﴿ لين الكلام ﴾ : طيبه وعذوبة ألفاظه وبديع أسلوبه وحسن خطابه ورشيق عباراته كما قال الشاعر :

فيه السماحة والفصاحة والتقوى . . والبأس أجمع والحجى والخير

﴿ بذل السلام ﴾ : إفشائه كما قال ﷺ حينما سئل : « تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » (٢) قال القسطلاني من المسلمين فلا تخص به أحداً تكبداً وتجيئاً . ( لزوم الإمام ) : اتباع أوامر الحاكم وإستماع نصائحه وطاعته وعدم بث الفتن ضده كما قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ من سورة النساء .

(١) انظر كنز العمال جزء ٩ ص ٥١ حديث رقم ٣٤٨٩١ فقد أورد الحديث عن البزار وأبو الشيخ في الثواب والحلية عن جابر .

(٢) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٠٨٣ وهو جزء من الحديث رقم ٣٢٥٣ .

وملازمة العلماء ومجالسة الأخيار الأبرار الأصفياء وحضور الجماعات في المسجد وإختيار الأصحاب في الله الله .

﴿ والتفقه في القرآن ﴾ : كفهم آياته والتبحر في معرفة أسرارهِ والعكوف على تلاوته والإكتثار من ذكرهِ والتفكر في معناه كما قال تعالى :

( أ ) ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ البقرة : ٢٦٩

( ب ) ﴿ وقال تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر الله ﴾ لقمان : ١٢

( ج ) وقوله ﷺ « ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين »

﴿ حب الآخرة ﴾ : الاستعداد ليوم القيامة والإيمان به لأنه لا بد منه كما قال تعالى : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾ الحج : ٧

﴿ الجزع من الحساب ﴾ : الخوف من يوم تشدد فيه الأهوال وتعظم فيه المسؤولية كما قال تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون \* ما لكم لا تناصرون \* بل هم اليوم مستسلمون \* وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون \* قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين \* قالوا بل لم تكونوا مؤمنين \* وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين \* فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون \* فأغويناكم إنا كنا غاوين \* فانهم يومئذ في العذاب مشتركون \* إنا كذلك نفعل بالمجرمين \* ﴾ الصافات : ٢٤ - ٣٤

أى : احبسوهم في الموقف فإنهم مسئولون عن عقائدهم وأعمالهم . ( مستسلمون ) منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم يسأل الرؤساء والأتباع . وبين الله تعالى سبب عقابهم ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ ويقولون أننا لطاركو آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم \* وما تجزون إلا ما كنتم تعملون \* إلا عباد الله المخلصين \* أولئك لهم رزق معلوم \* فواكه وهم مكرمون \* في جنات النعيم ﴾ الصافات : ٣٥ - ٤٣ .

أرأيت هذه الحكاية يمثلها الله تعالى لعباده المصدقين الآن العاملين بالكتاب والسنة ليخشوا الله ويستعدوا ليوم ، وصفه الرب جل جلاله ﴿ الله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ البقرة : الآيتان : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

﴿ قصد الأمل ﴾ : عدم استرسال الأمانى الحلوة والركون إلى زخارف الدنيا بانتظار سعة الرزق وزيادة الأموال وتشديد القصور وتسويق في عمل البر وفعل الخير وتأجيل غرس الصالحات وبذر الطيبات فالمؤمن يقنع ويمجد ويعمل عملاً طيباً من وقته .



﴿ وَأَنهَآكَ أَن تَشْتُمَ مُسْلِمًا ﴾ : يحذر من سب المسلم وأذاه والركون إلى الكاذب الفاجر أو يرد كلام الصالح المتقى ويغير أقواله افتراء عليه أو يعلن الحرب على رئيسه ويخاصمه ويوقد نار العداوة وييث الفتن والمخالفة وقد اشترط ﷺ الطاعة بالعدل واتباع الحق . أما إذا خالف الإمام وفعل ما يغضب ربه فليجتنبه فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

بل الإنسان يركن إلى ربه ويخشاه ويؤدى حقوقه ، ولا يخاف إلا ربه وحده ، يريد ﷺ أن يتحلى المسلم بست عشرة صفة : الخوف الداعى إلى إيجاد الصالحات ، الصدق ، الوفاء ، الأمانة ، الشرف والضمير التقى ، مراقبة الخالق ، العطف على المسكين واليتيم ، حسن الجوار ، حبس النفس عن الغضب وطيب القول وإنشاء التحية وموافقة الأمير ، والتزود بتعليم الكتاب والسنة والاستيقاق إلى ملاقاته الرب جل وعلا مع الاعتقاد بالجزاء خيرا وإن شرا وعدم الغرور وكبح جماح الشيطان الغرور الذى يبعث الشر والجشع وجمع الدنيا والضرب لهم فى الأعمال الصالحة وإصابة المرمى فى تشييد المكارم ووجود آثارها ظاهرة جليلة ( قيمة المرء ما يحسنه ) قال المتنبى :

ومن يجد الطريق إلى المعالى      فلا يذر المطى بلا سنام  
ولم أر فى عيوب الناس شيئا      كنقص القادرين على التمام

\*\*\*\*

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله      مخافة فقر فالذى فعل الفقير  
عليكم بدارى فاهدموها فإنها      تراث كريم لا يخاف العواقب  
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه      وأعرض عن ذكر العواقب جانباً  
ولم يستشر فى رأيه غير نفسه      ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً

٣٩ - وعن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى . وقال : حديث حسن .

المعنى : [ اتق الله ] : أى احسن الله سبحانه فى كل زمان ومكان وراقبه واعلم أنه مطلع عليك فلا تعصه . قال النووى : أى اتقه فى الخلوة كما تقيه فى الجلوة بهذه الناس كما قال تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ . الآية من سورة المجادلة . والتقوى كلمة جامعة لفعل الواجبات وترك المنهيات .

[ اتبع السيئة الحسنة ] : أى إذا أخطأت فتب واشفعها بفعل صالح ليزيل أثر ما بدر منك ويعد ما تركته الهفوة من حفوة . قال النووى : أى إذا فعلت سيئة فاستغفر الله تعالى منها وافعل بعدها

(١) انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٣٩ حديث ٢٠٥٣ فقد أورد الحديث عن أبى ذر .

حسنة تمحها . هذه السيئة المتعلقة بحق الله تعالى ، أما السيئة المتعلقة بحق العباد من الغضب والغيبة والتهمة فلا يححوها إلا الإستحلال من العباد ولا بد أن يعني له جهة الظلامة فيقول قلت عليك كيت وكيت . وفي الحديث دليل على أن محاسبة النفس واجبة قال ﷺ « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ من سورة الحشر .

[بخلق حسن] : استعمل مع العالم حسن المعاملة بإظهار الأدب ولين الجانب والبشاشة واللطف والحلم . قال النووي : الخلق الحسن كلمة جامعة للإحسان إلى الناس وإلى كف الأذى عنهم . ولنا قدوة حسنة بسيدنا المصطفى ﷺ فقال له جبريل عليه السلام حين نزل قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین ﴾ قال في تفسير ذلك أن تغفو عن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك وقال تعالى :

( أ ) ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾

( ب ) ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾

كان ﷺ خلقه القرآن يأتمر بأمره ويتزجر بزواجه ويرضى لرضاه ويسخط لسخطه عليه الصلاة والسلام وفي الحديث بيان أن المرء يسود بثلاثة ويرق إلى العلياء :

( أ ) تقوى الله في السر والعلانية .

( ب ) فعل الخير وإيجاد البر الجالب لحسن المعاملة .

( ج ) مكارم الأخلاق والتحلل بآداب الشرع ولابن الوردي :

سارع إلى فعل الجميل وقلد الـ	أعناق حسنى فالزمان عواری
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى	تغنم فما الدنيا بدار قرار
وتوخ فعل المكرمات تبرعاً	فالمكرمات حميدة الآثار
كن عالماً في الناس أو متعلماً	أو سامعاً فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به	فالحر مطلع على الأسرار
والعلم مهما صادف التقوى يكن	كالريح إذ مرت على الأزهار
هل يستوى العلماء والجهال في	فضل أم الظلماء كالأنوار

\*\*\*\*\*

لا ظل للمرء عن تقى ورضا	وإن أظلتـه أوراق وأفتان
لا تعد بشباب ناعم خضل	فكم تقدم قبل الشيب شبان

فألروض يزدان بالأنوار ناعمه والحر بالعدل والإحسان يزدان

\*\*\*\*\*

٤٠ - وروى أحمد بإسناد جيد عن أبي ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : ستة أيام ثم أعقل يا أبا ذر بما يقال لك بعد فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله في سر أمرك وعلايته وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحداً شيئاً وإن سقط سوطك ولا تقبض أمانة ، ولا تقض بين اثنين<sup>(١)</sup>

المعنى : [ ستة أيام ] : أى انتظر ستة أيام وتمهل ثم افهم الذى أقوله لك من حسن المواعظ ولباب الإرشاد . [ وإن سقط سوطك ] : أى اعتمد على الله وعلى نفسك فى قضاء مصالحك واترك التواكل والتباطؤ وتعهد شؤؤنك بنفسك وصغير الأمور ككبيرها وإن ركبت وسقطت عصاك فأنزل وخذها وقوفى نفسك العزيمة والاعتماد على النفس وقوة الإرادة . والسوط معروف وجمعه أسواط . وسيط قال تعالى : ﴿ سوط عذاب ﴾ أى ألم سوط عذاب والمراد الشدة والمراد فى الحديث لاتتهاون ولا تطلب شيئاً من أحد ولو سقط مافى يدك فعلى حقارته هانة . [ ولا تقبض أمانة ] : لا تودع عندك أمانة خشية أن لا تقوم بحفظها وتؤديها كاملة تامة ينصح ﷺ بأربعة :

( أ ) التقوى

( ب ) إتقان العمل والتوبة عند الإساءة ثم الإحسان

( ج ) الاعتماد على النفس

( د ) عدم قبول الودائع إذ آنس الإنسان عدم حفظها وقد بين الله تعالى فوائد التقوى فى قوله عز شأنه :

- ١ - ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ . الطلاق .
- ٢ - ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم ﴾ . التغابن .
- ٣ - ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ . الطلاق .
- ٤ - ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ . الطلاق .
- ٥ - ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ . الطلاق .

فأنت ترى سيدنا رسول الله ﷺ يشوق أبا ذر للدرس الجديد ويشوق المرغبات والمحسنات ويدعوه إلى العمل بما يقوله ﷺ وتفهمه وعض النواجز على إدراكه وفهمه رجاء أن يثمر أدب الشرع .

وإنما المرء حديث بعده فكُن حديثاً حسناً لمن وعى

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٨١ فقد أورد الحديث من رواية لأبي ذر .

ما اعتن لي بأس يناجى همتى إلا تحدهاء رجاء فاكنمى

٤١ - وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قلت يا رسول الله : أوصنى . قال : إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها . قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ، قال : هي أفضل الحسنات <sup>(١)</sup> . رواه أحمد عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبى ذر .

المعنى : [ أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ ] : سأله أبو الدرداء رضى الله عنه كلمة التوحيد فعدها <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> من أفضل أعمال البر ففيه التوبة والذكر والتسبيح والدعاء والصدقات وأنواع الطاعة تعد الحسنات فتجلب رضا الله تعالى وإحسانه .

٤٢ - وعن عبد الله - رضى الله عنه - قال : إن رجلاً أصاب من امرأة قبله وفي رواية جاء رجل إلى النبي <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> فقال : يا رسول الله إني عالت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هاذا فاقض في ما شئت فقال له عمر لقد سترك الله لو سترت نفسك . قال : فلم يرد النبي <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> شيئاً فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ <sup>(٢)</sup> . فقال رجل من القوم : يا نبي الله هذا له خاصة ؟ قال : بل الناس كافة <sup>(٣)</sup> . رواه مسلم وغيره .

المعنى : [ دون أن أمسها ] : أى شيئاً غير ملامستها ومجامعتها . [ فأنا هاذا ] : أنا واقف بين يديك خاضع لحكم الله في تنفيذ حده . [ لقد سترك الله ] : أى فعلت هذا والله تعالى لم يفضحك بإظهار عملك للناس . [ طرفي النهار ] : الصبح والظهر والعصر . [ زلفاً من الليل ] : المغرب والعشاء ويدخل فيه ساعة السحر التهجد والإستغفار والندم والتضرع إلى القادر جل وعلا التواب . [ إن الحسنات يذهبن السيئات ] : أى الصالحات وفروع العبادة . قال النووي : معنى الحديث أى تناولت واستمتعت بها . والمراد بالمس الجماع . ومعناه استمتعت بها بالقبلة والمعانقة وغيرهما من جميع أنواع الاستمتاع إلا الجماع . [ كافة ] : أى كلهم .

هكذا تستعمل كافة حالا ، ولا يضاف فيقال : كافة الناس ولا كافة وهذا تصريح بأن الحسنات تكفر السيئات . واختلفوا في المراد بالحسنات هنا : فنقل الثعلبي أن أكثر المفسرين على أنها الصلوات الخمس واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة . وقال مجاهد : هو قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويحتمل أن المراد الحسنات مطلقاً . [ ذكرى للذاكرين ] : عظة للمتعظين ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ <sup>(٤)</sup> .

٤٣ - وعن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبي <sup>صلى الله عليه وسلم</sup> فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٦٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .

(٢) سورة هود : آية ١١٤ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١١٦ - ٢١١٧ حديث رقم ٤٢ / ٢٧٦٣ من رواية لعبد الله بن مسعود بلفظه .

(٤) سورة هود : آية ١١٥ .

فلم يترك فيها شيئاً وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها : فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : فأما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن . قال : وغدراقي وفجراقي ؟ قال : نعم قال : الله أكبر ، فما زال يكبر حتى توارى<sup>(١)</sup> . رواه البزار والطبراني واللفظ له وإسناده جيد قوى .

المعنى : [ الحاجة ] : الصغيرة ، [ والداجة ] : الحاجة الكبيرة . [ تفعل الخيرات ] : تعمل صالحاً وتجعل لك في الطيبات ذكراً حسناً وتتقى الله وتجتنب المعاصي ليدل الله ذنوبك حسنات كما قال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً<sup>(٢)</sup> .

أو قد عزم الرجل على فعل الخير ومنها المحافظة على الصلاة وقد رأيت قول من أصاب قبله هذه الآية لى أى صلاتي مذهبة لمعصيتي مختصة بى أو عامة للناس كلهم . وقال القسطلاني : فيه عدم الحد في قبله ونحوه وسقوط التعذير عن أى شيئاً منها وجاء تائباً نادماً .

وقال ابن المنذر : فيه أنه لا حد على من وجد مع أجنبية في لحاف واحد [ عذراقي ] : أفعالي الذميمة التي نقضت فيها العهد ونكثت ونُحِت ، يقال : غدر به : نقض عهده . [ فجراقي ] : إرتكأى المعاصي وفعل الموبقات . من فجر العبد فجوراً : فسق وزنى وفجر الحالف فجوراً وكذب . وفي النهاية : التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله . الفجار جمع فاجر وهو المنبعث في المحارم والمعاصي . [ نعم ] : أجاب ﷺ بغفران ذنوبه إذا تاب وأتاب . [ توارى ] : إختفى عن أيمن الناظرين إليه ففيه الترغيب بالسرعة في الرجوع إلى من فتح أبواب التوبة لعباده رجاء إدراك رحمته إنه غفور رحيم شكور ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ .

### آيات الترغيب في التوبة من الذنوب

١ - قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ - وقال تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى طويل . وقال رواه الطبراني والبزار

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٧٠ - ٧١ .

(٣) سورة التحريم : آية ٨ .

(٤) سورة النور : آية ٣١ .

٣ - وقال : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون \* أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - وقال عز شأنه ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾<sup>(٢)</sup>.

٥ - وقال عز شأنه ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً \* وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾<sup>(٣)</sup>.

٦ - وقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾<sup>(٤)</sup>.

٧ - وقال تعالى : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾<sup>(٥)</sup>.

٨ - وقال تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٦)</sup>.

٩ - وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾<sup>(٧)</sup>.

١٠ - وقال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾<sup>(٨)</sup>.

١١ - وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير \* إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾<sup>(٩)</sup>.

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢٥ - ٢٦ .

(٢) سورة المائدة : آية ٧٤ .

(٣) سورة النساء : الآيتان ١٧ - ١٨ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٧١ .

(٥) سورة غافر : الآية ٧ .

(٦) سورة الفرقان : الآية ٧ .

(٧) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

(٨) سورة نوح : الآية ١٠ .

(٩) سورة هود : الآيتان ٣ - ٤ .

## حقيقة التوبة

قال الغزالي : التوبة عبادة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور : علم وحال وفعل .

أما العلم معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محققة ييقن غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت محبوبه ندماً إذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنوب الذى كان ملابساً له وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوت للمحسوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فيتلاقى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم والإيمان واليقين فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرف على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب بحيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحب أو انحر حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضى ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، بمنطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالساق والمقدمة ، والترك كالثمرة . والتابع المتأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام : « الندم توبة »<sup>(١)</sup> إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه قيل في حد التوبة إنه دومان الحشا لما سبق من الخطأ أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب أو خلع لباب الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال .

وأعلم أن وجوب التوبة ظاهر بقوله ﷺ من حديث مسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله »<sup>(٢)</sup> وقول الله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا ﴾<sup>(٤)</sup> والنصوح الخالص لله

(١) انظر مسند الإمام ح ١ ص ٣٧٦ فقد ورد الحديث من رواية ابن مسعود .

(٢) انظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ « باب مستجاب الاستغفار والاستكثار منه » حديث رقم ٤٢ / ٢٧٠٣ من رواية لأبي بردة .

(٣) سورة النور : ٣١ .

(٤) سورة التحريم : آية ٨ .

تعالى الخالي من الشوائب ويدل على فضل التوبة قول الله تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾<sup>(١)</sup>.

قال الغزالي : وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل ، مستغنياً عن قائد يقوده في كل خطوة ، فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهdy إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس في طريق الدين إما قاصر يفتقر إلى سماع نص من كتاب الله وسنة رسوله ، أو سعيد يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصه وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور الإيمان . ثم قال : معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغراء الإنسان والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة وتكمل الشهوات في الصبا والشباب فإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات الملازمة للإنسان كما حكى الله تعالى عن إبليس ﴿ لأحتكن ذريته إلا قليلاً ﴾<sup>(٢)</sup> وقد قيل :

فلا تجسنى هنداً لها العذر وحدها سجيّة نفس كل غانية هند

فالتوبة فرض عين في حق كل شخص . وكل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب أو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، أو لا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة »<sup>(٣)</sup> الحديث . ولهذا أكرمه الله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾<sup>(٤)</sup> الفتح .

وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟

وفي بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب :

أولاً : الإصرار والمواظبة .

ثانياً : وأن يستصغر الذنب .

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

(٢) سورة الاسراء : آية ٦٢ .

(٣) أنظر كثر العمال ح ١ ص ٤٧٦ فقد ورد الحديث برقم ٢٠٧٥ عن الأغر المزني .

(٤) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٢٦٠ فقد ورد الحديث من رواية للأغر المزني .

(٤) سورة الفتح : آية ٢ .



- ثالثاً : وأن يفرح بالصغيرة ويتيح بها .  
 رابعاً : وأن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه كما قال تعالى : ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾<sup>(١)</sup>  
 خامساً : أن يذكر الذنب بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره .  
 سادساً : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به .

### وفي شروط التوبة :

- ١ - الندم : أى توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة وإنسكاب الدمع وطول البكاء والفكر .  
 ٢ - أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع .

### وفي بيان أقسام العباد في دوام التوبة :

- أولاً : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه وتسمى التوبة النصوح .

- ثانياً : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوبه ، يقتربها لا عن عمد وتجريد قصد ولكن ييكي بها ثم يندم وتسمى النفس اللوامة والأولى النفس الساكنة المطمئنة الراضية ، قال تعالى : ﴿ الذين يحبون كبار الإثم والفواحش إلا اللوم إن ربك واسع المغفرة ﴾ من سورة النجم آية ٣٢ .

- ثالثاً : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فتقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة ألا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة ، والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها . وعند الفراغ يتندم وتسمى النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ سورة التوبة آية ١٠٢ .

- رابعاً : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك تنهاك الغافل في اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصيرين وهذه النفس هي الأمانة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة : وأمره في مشيئة الله تعالى نسأل الله حسن الخاتمة .

ثم بين الغزالي أن الحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب بالتضرع إلى الله تعالى في

سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الأبق ونعيم الخير للمسلمين والعزم على الطاعات ، وإما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار ، فيقول : ربي ظلمت نفسي وعملت سوءاً فأغفر لي ذنوبي ويكثر من ضروب الاستغفار ، وإما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات ، وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا :

أربعة من أعماق القلب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وجب الإقلاع عن الذنب ، ويخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له .

وأربعة من أعمال الجوارح وهي : أن تصلي عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة . وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تصدق بصدقة ، ثم تصوم يوماً .

وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء . وتدخل المسجد وتصلّي ركعتين .

وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات .

وكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا ، وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ، قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ . سورة الأنفال آية ٣٣ .

### فوائد التوبة كما قال ﷺ

- ١ - يتجلى الله تعالى على التائب بفضوانه وإحسانه « ييسط يده » .
- ٢ - تفتح له أبواب رحماته فتدركه نعمه « باب مفتوح » .
- ٣ - تذلل توبته على سعادته وإنعامه وقبوله .
- ٤ - يعد من خير الناس التواب .
- ٥ - يسعه حلم الله وعفوه « غفرت لعبدي » .
- ٦ - ويجلي قلبه بالتوبة ويزيل الصدأ « ألران » .
- ٧ - يدخل في الصالحين الذين زهدوا في الذهب واختاروا التوبة « الصفا ذهباً » .
- ٨ - يغير التائب صحائف أعماله بأحسن منها بتشديد الصالحات والمحامد « فأحدث توبة » .
- ٩ - يأمل التائب أن ينال من خيرات الله وكراماته « النادم ينتظر » .
- ١٠ - ربما تصادفه العناية بالسعادة بسبب التوبة فيدخل الجنة « الكفل » .
- ١١ - قد تكون العزيمة مسببة لغفران الكبائر « قاتل مائة » .
- ١٢ - يحظى بفرح ربه به « لله أفرح » .

١٣- يقبل الله تعالى على التائب أضعاف أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته «أهرول»  
 ١٤- يوسع التائب على نفسه ويزيل الضيق ويذهب الهم ويبعد الكرب «عمل حسنة فانفكت حلقة» .

١٥- يعمل التائب بسنة رسول الله ﷺ وبوصيته «إن أسأت فأحسن» وقد سمي علماء الصوفية النفس بحسب قربها إلى ربها بالطاعة وإخلاص العبادة والاستقامة :

(أ) المطمئنة (ب) اللوامة  
 (ج) المسولة (د) الأمانة بالسوء

هل تجدد معنى التوبة لله ونعزم على طاعة الله والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ رجاء أن يقبلنا الله الذي غمرنا بنعمائه ، وحبانا بأفضاله ، الجدير بعبادته والإخلاص له والخوف منه كما قال تعالى : ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون \* قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿١﴾

المعنى : ﴿ مكباً ﴾ : يعثر كل ساعة ويعصى ربه كل وقت ويخر على وجهه صاغراً غير معتمد على ربه الرزاق . ﴿ سوياً ﴾ : مطيعاً قائماً على الحق مرتكناً إلى القوى ربه . سالماً من الأخطاء ، وتكرم الخالق جل وعلا بخلق الحواس لتتفجروا بها فتسمعوا المواعظ وتتنظروا صنائعه فتجلوه بحق وتفكروا في بدائع خلقه فتعبروا وتتوبوا ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴿٢﴾ .

### الترغيب في الفراغ للعبادة والإقبال على الله تعالى والترهيب من الاهتمام بالدنيا والانهماك عليها

١ - عن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : « قال رسول الله ﷺ : يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ قلبك غنى واملأ يدك رزقا . يا ابن آدم لا تباعد مني فأملأ قلبك فقراً واملأ يدك شغلاً » ﴿٣﴾ . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد

المعنى : [ يا ابن آدم ] : يخاطب الله تعالى الإنسان الذى ركب عقلاً يرشده إلى صالحه ومعاشه ومعاده وسعادته .. [ تفرغ لعبادتي ] : تخل لطاعتي والعمل لى وابذل طاقتك فى رضى ووقتك فى خدمتى . [ أملأ قلبك غنى ] : قناعة وبسطة ورخاء وسعة . [ أملأ يدك رزقاً ] :

(١) سورة الملك الآيات : ٢٢ ٢٤ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢٥ .

(٣) انظر المستدرک على الصحيحين للحاکم ج ٤ ص ٣٢٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية معقل بن يسار وقال : هذا حديث

صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

نعما : أى أكثر عليك الخير وأوفر لك الحاجات الكثيرة التى يهيك أمرها فى الدنيا فتشعر بكل سرور . [ لا تتباعد ] : أى لاتعصى أوامرى ولا تستعمل الفجور والطمع . [ أملاً يدك شغلا ] : أجعل أعمالك كثيرة بلا فائدة ، وأسلط عليك الدنيا تسخر بك بجشعها .

٢ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : تلا رسول الله ﷺ : « من كان يريد حرث الآخرة » الآية : قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادى أملاً صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأث صدرك شغلا ولم أسد فقرك<sup>(١)</sup> . رواه ابن ماجه والترمذى ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن وابن حبان فى صحيحه باختصار إلا أنه قال : ملأث يدك شغلا ، والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

المعنى : الآية : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نذر له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾ سورة الشورى آية ٢٠ ثوابها ، شبهن بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ، ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث فى الأصل : إلقاء البذر فى الأرض ويقال للزرع الحاصل منه ﴿ نذر ﴾ نعطة بالواحد عشر إلى سبعمائة مما فوقها ﴿ نؤته منها ﴾ أى : من الدنيا شيئاً على حسب ما قسمناه له ، وليس له فى آخرته أجراً على أعماله إذ الأعمال بالنيات . اهـ . يضاوى . وقال النسفى : ﴿ نذر له فى حرثه ﴾ بالتوفيق فى عمله ، أو التضعيف فى إحسانه ، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة . وماله نصيب قط فى الآخرة . ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾ سورة الشورى آية ١٩ فى إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه وعظم من الجرائم حلمه ، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطى العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة وعن الخير لطف بأوليائه فعفره ، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه . اهـ . نفسى . [ ملأث صدرك شغلا ] : أعمالاً تفكر فى أدائها بلا ثمرة .

٣ - وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجنيتها ملكان إنما يُسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأبى الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى وما غربت شمس قط ! إلا وبجنيتها ملكان يناديان : اللهم عجل لمنفق خلفاً وعجل لممسك تلفاً<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له . وقال : صحيح الاسناد ورواه البيهقى من طريق الحاكم ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمس إلا وكان بجنيتها ملكان يناديان نداء يسمعه ما خلق الله كلهم غير الثقلين : يأبى الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آت

(١) أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣٧٦ حديث رقم ٤١٠٧ من رواية أبى هريرة

وأنظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ح ٢ ص ٤٤٣ مقدور الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة .

(٢) أنظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ح ٢ ص ٤٤٥ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية أبى الدرداء وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

الشمس إلا وكان بجنتيتها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً وأنزل الله عز وجل في ذلك في قول الملكين : **يأياها الناس هلموا إلى ربكم ﴿١﴾ والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿٢﴾** وأنزل الله في قولهما : **« اللهم اعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً »** : ﴿٣﴾ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلا قولة : للعسرى ﴿٤﴾** .

**المعنى :** [ الثقلين ] : الانس والجن . [ هلموا إلى ربكم ] : اقبلوا عليه بالطاعات .  
[ ألهى ] : شغل عن العبادة . [ اللهم عجل لمنفق خلفاً ] : الجواد كريم عوضاً وسعة وبسطة رزق .  
[ وعجل لممسك تلفاً ] : لبخيل شحيح خسارة وتلفاً .

النبي ﷺ يخبر أن من ملائكة الرحمة اثنين يدعوان جل وعلا صباح مساء أن يخلف على الجواد ويعطى المحسن ويزيد في رزق المتصدق الكريم ويبارك في نعمه وفي أولاده ويعاقب البخيل بإقلال رزقه وينزع البركة مما أعطى ويصبيه التلف والدمار والبوار كما قال تعالى في حكاية رجلين من بنى اسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا فاشتري الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن في وجوه البر أو في أخوين من بنى مخزوم : كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة يقل رسول الله ﷺ ﴿٥﴾ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ﴿٦﴾ إلى قوله تعالى : ﴿٧﴾ وأحيط بشمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربي أحداً ﴿٨﴾

فالأول بخيل مقصر في حقوق الله وفي وجوه الإحسان فسلط الله عليه الآفات فأهلك ثمراته .  
المثل الثاني بستان نصير وحديقة فيحاء غناء لرجل صالح بصنعاء على بعد فرسخين منها يكرم الفقراء لله تعالى فورثه بنوه فضننوا على المساكين وقالوا لو فعلنا كأبينا ضاق علينا الأمر وحلفوا بالله ليقطعن الثمرة مبكرين ولم يستننوا والأمر للرازق الواحد القهار . كما قال تعالى في سورة القلم ﴿٩﴾ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴿١٧﴾ ولا يستثنون ﴿١٨﴾ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴿١٩﴾ فأصبحت كالصريم ﴿٢٠﴾** أى كالبستان الذى قطع ثماره بحيث لم يبق فيه شيء . هذان مثالن في القرآن الكريم يضربهما الله للأغنياء أصحاب الثروة الواسعة رجاء أن يوجدوا بما لهم وينفقوا في وجوه البر وتشيد الصالحات وإلا تسلب منهم هذه النعم وتفنى الأموال وتزول الثروة :

قريباً ويدعو الندى فيجيب  
وليث إذ يلقي العدو غضوب  
حبي الشيب للنفس اللجوج غلوب

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه  
هو العسل الماذى لينا وشيمة  
جليم إذا ما سورة الجهل أطلقت

(١) يونس آية : ٢٥ .

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٢ .

فتى أريحى كان يهتز للندى كما اهتز ماضى الشفرتين قضيب

[ والله يدعو إلى دار السلام ] : قال النسفى : دار السلام الجنة ، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها أو السلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل : لفشوا السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ، إلا قبيلاً سلاماً سلاماً . [ يهدى ] : يوفق إلى الإسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية ، والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون . ﴿ الذين أحسنوا الحسنی ﴾ للذين آمنوا بالله ورسوله المثوبة الحسنی وهى الجنة ﴿ وزيادة ﴾ رؤية الرب عز وجل وقيل الزيادة : المحبة فى قلوب العباد ، وقيل الزيادة : مغفرة من الله ورضوان ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ ولا يغشى وجوههم غبرة فيها سواد ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار .

﴿ والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والانثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنی (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنی (٩) فسنيسره للعسرى (١٠) ﴾ سورة الليل .

المعنى : مساعيتكم فى الدنيا مختلفة هذا يعمل لله وذا للربا أعطى الطاعة واتقى المعصية ، وصدق بالكلمة الحسنی ، وهى مادلت على حق الكلمة كتوحيد ووصلت إلى خير فسنهىء له طريق الجنة واليسر والسعادة . وهذا ( بخل ) بما أمر به وشح فى الواجبات واستلذ بالشهوات وناء عن البر بجانبه بالموبقات وابتعد عن الصالحات الموصلة إلى حسن العقبى ونعيمها ( العسرى ) نوصله إلى ما يتمنى من العسر والضيق والشدة لميله إلى ملذاته .

٤ - وروى عن أبى الدرداء - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله عز وجل له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع »<sup>(١)</sup> . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى فى الزهد

المعنى : [ ما استطعتم ] : بقدر استطاعتكم بكبح جماح النفس عن المعاصى وشره جمع المال بلا حق . [ من كانت الدنيا أكبر همه ] : نهاية ما يرجوه من كده وزع الله طلباته الجملة ونشر حاجاته وأكثر جشعه وشره . [ جعل فقره بين عينيه ] : مهما أعطى من المال يتخيل له الفقر والدعة والذل . [ من كانت الآخرة أكبر همه ] : يوم القيامة فيعمل لحسابه كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (١٩) ﴾ كلا غمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء

(١) أنظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من رواية لأبى الدرداء وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه مهر بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

ربك وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً (٢١) ﴿ سورة الإسراء .

﴿ ما نشاء ﴾ بإرادة الله لا ما يشاء ذلك الطماع الشره . قال النسفي : أى من كانت العاجلة هم ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد نقيذ المعجل بمشيئته والمعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيراً من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيراً منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتي حظاً من الدنيا فيها وإلا فربما كان في الفقر خيراً له . ﴿ يصلها ﴾ يدخلها ﴿ مذموماً ﴾ ممقوتاً . ﴿ مدحوراً ﴾ مطروداً من رحمة الله ﴿ مؤمن ﴾ مصدق لله في وعده ووعيده ﴿ مشكوراً ﴾ مقبولا عند الله تعالى مثاباً عليه . عن بعض السلف : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب وتلا الآية فإنه شرط فيها ثلاث شرائط في كون السعى مشكوراً بإرادة الآخرة والسعى فيما كلف ، والإيمان الثابت اهـ . [ جعل غناه في قلبه : رزقه القناعة والرضى والسرور بكل ما ينال والاستبشار وانتظار الفرج ويزول عنه اليأس . ] جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه [ : تقبل عليه وتزوره وتحبه وتساعد على مهام أموره فتروج تجارته وبذاع صيته وينتشر ذكره الطيب ويتبرك به ونهاية الحكام وتخشى سطوته الأشرار . وقد شاهدت رجلاً صالحاً عالماً احترامه الناس لعمله الصالح ويجلوه فاهتدوا بأنواره ووثقوا بأقواله وكان حجة ثبناً نبراساً منيراً في دياجي الشبهات وحاول الأشرار أن يؤذوه وأطلقوا عليه من بنادقهم ناراً فحماه الله ووقاه ومرت الرصاصه بجوار أذنه سالماً وبعد حين وقع المجرمون في حادثة بعيدة منه فنالوا جزاءهم وأخذوا عقابهم الصارم . ] كان الله عز وجل بكل خير إليه أسرع [ : يوصل إليه أنواع البر والبركات بسرعة عاجلة .

٥ - وعن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة »<sup>(١)</sup> . رواه ابن ماجه ورواته ثقات ، والطبراني ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضيعته ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له ، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ، ويكفيه ضيعته وتأنيبه الدنيا وهي راغمة »<sup>(٢)</sup> . رواه في حديث بإسناد لا بأس به ورواه ابن حبان في صحيحه بنحوه وتقدم لفظه في العلم .

(١) أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣٧٥ باب الهم لدنيا حديث رقم ٤١٠٥ فقد أورد الحديث من رواية زيد بن ثابت وقال : في الزوائد : إسناده صحيح ، رجاله ثقات .

(٢) أنظر مجمع الزوائد ح ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من حديث طويل لزيد بن ثابت ، وقال روى ابن ماجه بعضه - رواه الطبراني في الأوسط ورجاله وثقوا .

﴿ قوله : شئت عليه ضيعته ﴾ بفتح الضاد المعجمة وإسكان المثناة تحت : معناه فرق عليه حاله وصناعته ومعاشه وما هو مهم به وشعبه عليه ليكثر كده ويعظم تبعه .

المعنى : [ الدنيا هم ] : جمع المال مقصده بلا إيجاد عمل صالح في سعيه . [ الآخرة نيته ] : نهاية ما يرجو في حياته فيكثر من طاعة الله ابتغاء ثوابه . [ أئته الدنيا وهي راغمة ] : أقبلت عليه النعم الجمة مساقاة منقادة قال في النهاية : لما كان العاجز الدليل لا يخلو من غضب قالوا ترغم إذا غضب وراغمه إذا غاضبه . وقد فسر حديث أسماء « إن أمي قدمت على راغمة مشركة أفاضلها قال نعم » تريد أنها قدمت على غضبي لإسلامي وهجرني متسخطة لأمرى أو كارهة مجبتها إلى لولا ميسيس الحاجة وقيل : هاربة من قومها من قوله تعالى : ﴿ يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ﴾ : أى مهربا ومتسعا فأنت ترى بشرى من رسول الله ﷺ للصالح التقى المؤمن العابد أن ييسط الله له رزقه ويجعل عيشه رغدا ويسر أموره ويقضى آماله ويذل له مصاعب الدنيا فتكون له سهلة :

إذا صح عون الخالق المرء لم يجد عسيرا من الآمال إلا ميسرا

٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة هم جعل الله غناه في قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ومن كانت الدنيا هم جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأت من الدنيا إلا ما قدر له »<sup>(١)</sup>. رواه الترمذي عن يزيد الرقاشي عنه ويزيد قد وثق ولا بأس به في المتابعات ورواه البزار ولفظه قال رسول الله ﷺ : « من كانت نيته الآخرة جعل الله الغنى في قلبه وجمع له شمله ونزع الفقر من بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة فلا يصبح إلا فقيرا ولا يمسي إلا فقيرا . ورواه الطبراني بلفظ تقدم في الاقتصاد .

٧ - وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها<sup>(٢)</sup>. رواه أبو الشيخ بن حبان والبيهقي من رواية الحسن عن عمران واختلف في سماعه منه .

المعنى : [ وكله الله إليها ] : أى : تركه بلا مساعدة لتشغله الدنيا وتسخره وتستخدمه .

٨ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من جعل الهموم همًا واحدًا كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يُبال الله في أى أودية الدنيا هلك »<sup>(٣)</sup>. رواه الحاكم والبيهقي من

(١) أنظر سنن الترمذي المجلد الرابع ص ٥٧ حديث رقم ٢٥٨٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن يزيد بن أبان - وهو الرقاش - عن أنس بن مالك .

(٢) أنظر مجمع الزوائد ح ١٠ ص ٣٠٣ باب ما جاء في العزلة فقد أورد الحديث من رواية عمران بن حصين وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه إبراهيم بن أشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان في الثقات ، وقال : يقرب ويحظن ويخالف ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) أنظر المستدرک علی الصحيحین للحاکم ح ٢ ص ٤٤٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن عمر وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣٧٥ حديث رقم ٤١٠٦ فقد أورد الحديث من روى - بن مسعود .



طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الاسناد ورواه ابن ماجه في حديث عن ابن مسعود .

**المعنى :** [ من جعل الهموم هماً واحداً ] : الكد والتفكير لطلب شيء واحد وهو إرضاء الله جل وعلا وحده والسعى لطاعته والعمل له بإخلاص . [ كفاه الله هم دنياه ] : حفظه الله من جميع الهموم ووقاه وأبعد عنه مشاغل الدنيا . [ تشعبته الهموم ] : فرقته وشغلته كثرة الحاجيات قال الشاعر أبو الحسن التهامي :

طبعتم على كدر وأنت تريدها	صفوا من الأقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها	متطلب في الماء جذوة نار
فالعمر نوم والمنية يقظة	والمرء بينهما خيال سار
فالدهر يخدع بالمني ويعفى ان	هنا ويهدم ما بنى بيوار
ليس الزمان وان حرصت مسالماً	خلق الزمان عداوة الأصرار
ثوب الرباء يشف عما تحته	وإذا التحفت به فإنك عار
شيءان ينقشعان أو لوهلة	ظل الشباب وخله الاشرار

الدنيا كثيرة المناجى متفرقة الحاجات وهمومها حمة ودواؤها التقوى وحب العمل الصالح  
للاخرة كما قال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب ﴾ ١٩٧ من  
سورة البقرة .

٩ - وفي رواية عن ابن مسعود أيضاً قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم أحوال الدنيا لم يبال الله عز وجل في أي أوديته هلك » (١) .

**المعنى :** [ هم المعاد ] : نشر الخلائق ووجودهم للحساب ، ولجبرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

يعود الفضل منك على قریش	وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد أمنت وحشتهم برفق	ويعبى الناس وحشك أن يصادا
وتدعو الله مجتهدا ليرضى	وتذكر في رعتك المعادا

فسيدنا عمر يتقى الله ويعمل صالحاً ليوم القيامة ويخاف سؤال الله في الرعية التي يدير أمورها .  
[ تشعبت به الهموم أحوال الدنيا ] : تتناهى الوسوس وتكثر الأفكار المبعدة عن الله تعالى فيحرم من توفيق الله تعالى له فيضل ويخطئ ويسخره الشيطان للغواية .

١٠ - وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله في شيء<sup>(١)</sup>. الحديث رواه الطبراني .

المعنى : [ وهمه الدنيا ] : حبها وجمع المال لشهواتها وزخارفها وزينتها . [ ليس من الله في شيء ] : فهو محروم من طاعة الله وليس له ثواب البتة .

١١ - وروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه »<sup>(٢)</sup>. رواه الطبراني .

المعنى : [ حزينا ] : كحياً غضبان محملاً بأثقال الدنيا من كد وتعب من جراء خطاياها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم حطامها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم القناعة . [ ساخطاً على ربه ] : غير راض عن فعله يائساً من فرجه وروحه غير مستسلم لقضائه وقدره . ففيه أن يقنع ويحمد الله على ما أعطى ويشكر له فضله ويطلب الهداية ووضع البركة فيما منح عاملاً يقول الامام علي كرم الله وجهه :  
وان ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نكبات الدهر عنك تزلزل كمن  
يريد النبي ﷺ أن يعلم المسلمين القناعة والرضا ومقابلة الشدائد بصدر رحب وثرغ باسم ،  
ولا يفكر في هموم الدنيا لحظة فإن مع العسر يسرا .

عسى الكرب الذي أُمسيته فيه يكون وراءه فرج قريب

### الثمرات التي يجنيها المطيع ربه سبحانه وتعالى

- أولاً : يملأ الله فؤاده سروراً وغبناً وقناعة ( تفرغ )
- ثانياً : يقيه عاديّات الزمان ويبعد عنه هموم الدنيا .
- ثالثاً : يكتسب رضا الله ودعوات الملائكة الصالحة ( هلموا ) .
- رابعاً : ييسر الله له رزقه ويمد له المعونة ويهب له الصحة التامة والنعمة العامة ( كفاء الله ) .
- خامساً : يزيل عنه الأكدار ويرضيه ويفتح له طريق السعادة والسيادة لأنه عبد ﴿ العزيز الحميد الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ ٩ من سورة البروج .

(١) انظر مجمع الزوائد ح ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه ضمن حديث طويل وقال : رواه الطبراني وفيه يزيد بن ربيعة الرحبي وهو متروك .

(٢) انظر مجمع الزوائد ح ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأنس بن مالك وقال رواه الطبراني في الصغير وفيه وهب بن راشد البصري صاحب ثابت وهو متروك .

## الآيات القرآنية الدائمة الدنيا الحائنة على طاعة الله

( أ ) قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُجِ ﴾ ٧٧ من سورة النساء ﴿ قَلِيلٌ ﴾ سريع التقضى . ولا تنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه .  
( ب ) وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخِيطاً ﴾ ٢٦ من سورة النساء

( ج ) وقال تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يَرْيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ ١٣٤ من سورة النساء .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ فَإِنْ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيّاً حَمِيداً ﴾ (١٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ \* وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴾ (١٣٣) . من سورة النساء .

( د ) وقال تعالى : ﴿ زِينٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ \* ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْتِ ﴾ (١٤) . قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ \* وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَرِ (١٧) ﴾ من سورة آل عمران .

﴿ الْمَأْتِ ﴾ أى المرجع وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية ، سبحانه يشب المحسن ويعاقب المسيء ، خير بأحوال خلقه .

( هـ ) وقال تعالى : ﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حِطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢٤) من سورة الحديد .

( و ) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٦٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ

واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٦٦) ﴿ من سورة التباين .

( ز ) وقال تعالى : ﴿ بل تؤثرن الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧) إن هذا لفي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩) ﴾ من سورة الأعلى .

( ح ) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً \* إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣) ﴾ من سورة لقمان .

﴿ لا يجزى ﴾ : لا يقضى عنه . ﴿ وعد الله ﴾ : ثوابه وعقابه لا يمكن خلفه .  
﴿ الغرور ﴾ : الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجرئكم على المعاصي .

### الترغيب في العمل الصالح عند فساد الزمان

١ - عن أبي أمية الشعباني قال : سألت أبا ثعلبة الخشبي قال : قلت يا أبا ثعلبة تقول في هذه الآية : ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ ؟ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليكم بخافة أنفسكم ، ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم »<sup>(١)</sup> . رواه ابن ماجه والترمذي وقال : حديث حسن غريب ، وأبو داود وزاد : قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : أجر خمسين منكم .

المعنى : [ خبيراً ] : استفهمت من رجل بصير ثقة ثبت . [ ائتمروا بالمعروف ] : أى فليظهر كل منكم النصيحة لأخيه ويتشاور وليأمر بالمعروف ، وفي الغريب والائثار قول الأمر ، ويقال للتشاور ائثار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به ، قال تعالى : ﴿ إن الملا يأترون بك ﴾ ا.هـ ، وقوله تعالى : ﴿ وائتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى وليأمر بعضكم بعضاً بجميل الأفعال وحמיד الخصال . [ انتهوا عن المنكر ] : ابتعدوا عن الموبقات واحجزوا أنفسكم عن القبائح . [ شحاً مطاعاً ] : تقصيرا في الواجبات وبخلاً متبعاً وتقشيراً . [ هوى متبعاً ] : نفوساً مائلة إلى الشهوات . [ دنيا مؤثرة ] : مختارة محبوبة مقدمة على الآخرة بالميل فيها إلى الترف والدنيا والفجور . [ فعليكم بنفسك ] : أى أصلح نفسك وكملها بأداب الدين واعمل صالحاً إذا فشا بخل الناس وكثرت المعاصي

(١) انظر سنن الترمذي ح ٤ ص ٣٢٣ « تفسير سورة المائدة » حديث رقم ٥٠٥١ فقد أورد الحديث من رواية لأبي أمية ، وقال :

هذا حديث حسن غريب .

وأنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣٣٠ - ١٣٣١ حديث رقم ٤٠١٤ فقد أورد الحديث عن أبي أمية بالفاظه مختلفة .

ومال الناس إلى حب الدنيا ولم يعملوا للآخرة . [ دع عنك العوام ] : اترك الناس . [ ورائكم أيام الصبر ] : إزاء هذا الصبر وحبس النفس على طاعة الله تعالى الأعلى : أى الرفيع سلطانه المنيع في شأنه القوى القاهر المعبود بحق الصمد كما قال الله تعالى لحبيبه ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ٤ من سورة الضحى . أى ما أعد الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود ، خير لك مما أعجبك في الدنيا . هذا درس لنا يرغبنا الله في الأعمال الصالحة اتقاء القارعة ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥) فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو في عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١) ﴿ من سورة القارعة . الفراش الحشرات . قال النسفى : شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطايير إلى الداعى من كل جانب كما يتطايير الفراش إلى النار ا.هـ . ﴿ العهن ﴾ : الصوف المصبوغ بالألون ﴿ المنفوش ﴾ : المتفرق أجزاءه .

الصبر فيهن مثل القبض على الجمر : أى كبح جماح النفس عن المعاصى صعب مر ومحرق مثل القبض على النار ، ولكن في ذلك ثوابا لمن اتقى الله واجتذب صحبة الفساق والأشرار فالعابد يعطيه الله أجر خمسين من عمل مثله ففيه الترغيب في اجتناب المعاصى مهما زاد روادها وكثر الداعون لها كما قال تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ (١) حتى زرم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ﴿ من سورة التكاثر .

أى شغلكم التبارى في الكثرة والتباهى بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله حتى أدرككم الموت . ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع هم ولا يهتم بدينه . ﴿ سوف تعلمون ﴾ عند النزاع سوء عاقبة ما كنتم عليه ثم في القبور ثم لتسألن عن الأمن والصحة فيم أفيتموها .

٢ - وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « العبادة في المهرج كهجرة إلى » . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه<sup>(١)</sup>

[ المهرج ] : هو الاختلاف والفتن وقد فسر في بعض الأحاديث بالقتل لأن الفتن والاختلاف من أسبابه فأقيم المسبب مقام السبب .

المعنى : [ عبادة في المهرج كهجرة إلى ] : أى طاعة الله واتباع أوامره والعمل بكتابه وسنة حبيبه ﷺ أثناء انتشار المعاصى مثل مفارقة وطنه واتباع رسوله ﷺ والسكن بجواره والقرب منه والعمل بشرعه واقتفاء أثره .

(١) أنظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٦٨ حديث ١٣٠ / ٢٩٤٨ من رواية لمعقل بن يسار أنظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣١٨ حديث رقم ٣٩٨٥ من رواية لمعقل بن يسار .

(أ) قال الله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾ . ٢٣ من سورة الأنعام .

(ب) وقال تعالى : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهائراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ٣٤ من سورة يونس أى حال الدنيا العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ زخرفها ﴾ حسننها وبهجتها . ﴿ حصيداً ﴾ شبيها بما جنى وقطع كان لم يفن زرعها : أى لم يلبث . وشاهدنا إسراع المؤمن فى اكتساب العباداة خشية ذهاب زهرة الدنيا بموته .

### آية ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ درس تربية وتكميل

ما أجمل معنى هذه الآية ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ تطلب من الإنسان أن يكمل نفسه ويؤدبها ويقبل على تعاليم ربه فيعمل بها ويعكف على التفقه فى السنة والفهم فى الدين لشمر دوحة عرفانه وتشرق شمس فعله وضاءة وضاحة الجبين .

يا خادماً الجسم كم تسعى لخدمته      أتطلب الربح فيما فيه خسران  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها      فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ماذا ينتظر الإنسان فى حياته ؟ ينتظر أن يعمل صالحاً فيرضى ربه فيهدأ باله ويرتاح ضميره وبعد الآية تقرأ حديث رسول الله ﷺ تجد إرشاداً إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل واتباع النصائح ، واجتناب القبائح والتوصية بالحق والصبر وترك ميدان الجهلة تسرح وتمرح كالسائمة وعدم مجارة العصاة الطغاة والإقبال على الطاعات فالله تعالى يقول : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ فإذا أطاع العبد ربه سلم من العقاب ونال الثواب ، وربما صار قدوة حسنة وهداية ونبراساً لأهل زمانه وقد وعد ﷺ العابد العامل أن له أجراً مضاعفاً من الله جل جلاله ، مثل أجر أصحابه وأتباعه ﴿ أجر خمسين منكم ﴾ أى أيها الصحابة الأجلاء . لماذا ؟ لأنه فى وقت فشت فيه المعصية وضل عامة الناس وساء العمل . وازداد الفسوق . وعم الترف وكثرت الشهوات فلا حول ولا قوة إلا بالله : إن هذه الآية تطلب من كل فرد أن يصلح نفسه لتسعد الأمة ، وتتقدم إلى ذروة العلا وتنبه الوعاظ والعلماء أن يكونوا أسوة حسنة وعنواناً للأعمال الصالحة :

لو أنصف الناس استبراح القاضى      وبات كل عن أخيه راضى

قال أبو الأسود الدؤلى يصف أحوال الناس ويطلب من القادة العمل وتهذيب النفس وتأديبها :

حسدوا والفتى إذ لم ينالوا سعيه  
 وترى اللبيب محسدا لم يجترم  
 وكذلك من عظمت عليه نعمة  
 فاتسرك بجمارة السفيه فانها  
 فإذا جريت مع السفيه كما جرى  
 وإذا عتبت على السفيه ولنته  
 يا أيها الرجل المعلم غيره  
 نصف الدواء لذى السقام وذى الضنى  
 وأراك تصلح بالرشاد عقولنا  
 لانتنه عن خلق وتأقى مثله  
 ابدا بنفسك فانها عن غيرها  
 فهناك يقبل ما وعظمت ويقتدى  
 لا تكلمن عرض ابن عمك ظالماً  
 وجريمه أيضاً حريمك فاحمه  
 وإذا اقتصصتك من ابن عمك كلمة  
 وإذا طلبت إلى كريم حاجة  
 فإذا رأك مسلماً ذكر الذى  
 ورأى عواقب حمد ذاك وذمه  
 فارج الكريم وان رأيت حفاه  
 ان كنت مضطراً وإلا فاتخذ  
 واتركه واحذر أن تمر ببابه  
 فالناس قد صاروا بهائم كلهم  
 عمى وبكم وليس يرجى نفعهم  
 وإذا طلبت من لئيم حاجة  
 وألزم قبالة بينه وفئائه  
 وعجبت للدنيا ورغبة أهلها  
 والأحق المزوق أعجب من رأى  
 ثم انقضى عجبى لعلمى أنه

فالحق أعداء له وخصوم  
 شتم الرجال وعرضه مشتموم  
 حساده سيف عليه صبروم  
 ندم وغب بعد ذاك وخيم  
 فكلا كما فى جريه مدموم  
 فى مثل ما تانى فأنت ظلوم  
 هلا لنفسك كان ذا التعليم  
 كيما يصح به وأنت سقيم  
 أبدا وأنت من الرشاد عديم  
 عار عليك إذا فعلت عظيم  
 فإذا أنتهت عنه فأنت حكيم  
 بالمعلم منك وينفع التعليم  
 فإذا فعلت فعرضك المكالم  
 كيلا يباع لديك منه حريم  
 فكلومه لك إن عقلت كلوم  
 فلقاؤه يكفيك والتسليم  
 كلمته فكأنه ملزم  
 للمرء تبقى والعظام رميم  
 فالعتب منه والكريم كريم  
 نفقاً كأنك خائف مهزوم  
 دهر وعرضك ان فعلت سليم  
 ومن البهائم قائل وزعيم  
 وزعيمهم فى النائبات سليم  
 فالبح فى رفق وأنت مديم  
 بأشد مالزم للغريم غريم  
 والرزق فيما بينهم مقسوم  
 من أهلها والعاقل المحروم  
 رزق مواف وقته معلوم

إن أبا الأسود الدؤلى كان فى صدر الإسلام وفى إبان عزه وعظمته وشروق شمس الساطعة بالأعمال الصالحة وعاصر الإمام علياً كرم الله وجهه . ولكن أثبت لنا إن فى العالم حسداً وخصومة وغيبة ونميمة وسفاهة ووجه اللائمة على الوعاظ وطلب أن تعملوا بإرشادهم رجاء أن تنفع الموعظة . وهكذا من خلال الخير ونحن الآن وقد انتشرت المعاصى أضعافاً وضاعفة وساءت الحال وزاد الطغيان فالعاقل المؤمن من يكمل نفسه ويؤدبها بآداب الدين ويعمل بالآية ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا أهديتكم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . ١٠٥ من سورة المائدة .

### الترغيب فى المداومة على العمل وإن قل

١ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجزه بالليل فيصلى عليه ويسطه بالنهار فيجلس عليه فجعل الناس يثوبون إلى النبي ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال : ( يا أيها الناس خذوا من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تمّلوا وإن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل )<sup>(١)</sup> .

المعنى : ﴿ حصير ﴾ : فرش من نبات يسمى سمرا . ﴿ تحجزه بالليل ﴾ : من باب قتل منعه من التصرف ، قال القسطلانى : أى يتخذ كالحجرة ، وفى رواية يحتجز يجعله حاجزاً بينه وبين غيره من يحجزه .هـ . ﴿ يسطه ﴾ : يفرشه . ﴿ يثوبون ﴾ : يرجعون . ﴿ أقبل عليهم ﴾ : أى توجه ﷺ نحوهم يعطيهم درساً . ﴿ ما تطيقون ﴾ : قدر طاقتكم ومقدار جهدكم فلا تحملوا أنفسكم صعب الأعمال فالدين يسر لا عسر . ﴿ لا يمل ﴾ : لا تنتهى رحمته ولا ينقص فضله لمن أطاعه وأجره جزيل وكنزه لا يفنى كما قال ﷺ : ﴿ ملأى لا يقيضها نفقة سحاء الليل والنهار ﴾<sup>(٢)</sup> وكال قال الله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ من سورة النحل .

﴿ تمّلوا ﴾ : تضعفوا فالإنسان مركب من لحم ودم يحتاج إلى راحة من عناء عمله فإذا استمر فى العبادة عجز عن المواصلة وضعف عن الزيادة والنبي ﷺ يريد الترغيب فى العمل الصالح ما أمكن كمال قال الله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وقال القسطلانى : حتى تمّلوا : أى لا يقطع عنكم فضله حتى تتركوا سؤاله .هـ ، سيدنا رسول الله ﷺ يدعو العاملين إلى الجد والكد جهد الطاقة والسعى مدة الاستطاعة والأخذ بنصيب وافر فى الصالحات مع الراحة والاطمئنان والهدوء فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ولأنى بكر المغرى :

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ١٠ ص ٣١٤ باب الجلوس على الحصير ونحوه رقم ٥٨٦١ من رواية عائشة رضى الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٩ ص ١٥٠ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأنى هريرة .



وقيمة المرء ما كان يحسنه      فاطلب لنفسك ماتعلو به وصل  
وكل علم جناه ممكن أبدا      إلا إذا اعتصم الانسان بالكسل  
وأفضل البر ما لا من يتبعه      ولا تقلد شىء من المطل

إن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل : الذى تستمر المواظبة عليه وخير الأمور الوسط وشر الأمور الشطط ففيه الترغيب فى إتقان العمل بتؤدة وتأن فإنه لا ينظر إلى زمنه ولكن ينظر إلى جودته .

٢ - وفى رواية : وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه .

٣ - وفى رواية قالت : إن رسول الله ﷺ . سئل أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

٤ - وفى رواية : أن رسول الله ﷺ قال : « سدّدوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » (١) . رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [ سدّدوا ] : اقصدوا السداد وتحروا الصواب . [ قاربوا ] : كونوا مقارين لفعل الخير . [ لن يدخل أحدكم عمله الجنة ] : بل بفضل الله ورحمته وليس المراد توهين العمل بل الاعلام بأن العمل إنما يتم بفضل الله ورحمته فلا ينبغي أن تتكلوا على أعمالكم ، وهذا الحديث لا يعارض قوله تعالى : ﴿ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ لأن العمل إنما حصل بتوفيق الله ورحمته . وقال النووى : ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو من رحمة الله تعالى ا.هـ . عزيزى ص ٣٢٠ ج . يأمر النبى ﷺ أن يسيروا على منهج القرآن الكريم ويستضيئوا بأنواره الوضاء رجاء السداد والإصابة واتباع الحكمة والرشد ، ومهما أحسن العابد العامل يكثر الخوف والرجاء كما قال تعالى فى أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم : « يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » ولا يغتر الإنسان بعمله فالنعيم من فضل الله تعالى . قال الشاعر :

من لم تكن حلل التقوى ملابسه      عار وإن كان مغموراً فى الحلل

\*\*\*\*\*

ومن يطع اللهو عصر الصبا      فذلك فى الشيب لا يرجع  
وكم فرحة جلبت ترحه      وكم ضحك بعده مطمع

\*\*\*\*\*

(١) انظر صحيح البخارى ح ٨ ص ١٢٢ فقد أورد الحديث من رواية لعائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى ح ٨ ص ١٢٢ « وكتاب الرفاق » باب « القصد والمداومة على العمل فقد أورد الحديث بلفظه عن عائشة .

وانظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢١٧١ حديث رقم ٧٨ / ٢٨١٨ فقد أورد الحديث عن عائشة بألفاظه مختلفة .

لا تنسى في الحصة أيام السقم فإن عقبى تارك الحزم الندم

(أ) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون (١٦) ﴾ من سورة هود .

(ب) وقال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً (٤٦) ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً (٤٧) وعرضوا على ربك صفاً ﴾ من سورة الكهف .

وقال النسفي ﴿ زينة الحياة الدنيا ﴾ لازاد القبر وعدة العقبي . وأعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان . أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . خير عند ربك ثواباً ﴿ جزاء لأنه وعد صادق وأكثر الأموال كاذبة يعني أن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله ويصيب في الآخرة ويوم نسير الجبال في الجو بأن تجعل هباء منثوراً منبثاً وليس على الأرض ما يسترها من الجبال والأشجار ، وحشرنا الموتى فلم نترك غادرة : أي تركه وعرضوا مصطفىين ظاهرين :

(ج) وقال تعالى : ﴿ فخرج على قوميه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ ٧٩ من سورة القصص .

خرج قارون على بغلة شهباء عليه الأرجوات وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . قيل كانوا مسلمين ، وإنما تمنوا على سبيل الرغبة في اليسار كعادة البشر . ولكن الصالحين يابون أن يتشبهوا بالفساق قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠) ﴾ من سورة القصص . ﴿ ويلكم ﴾ دعاء بالهلكة ثم استعمل في الردع والزجر لبعث على ترك ما لا يرضى . وأن شاهدنا أن العلماء عرفوا الثواب الباقي للطاعات فطلقوا الدنيا وهانت عليهم فتفانوا في العمل الصالح واقتدوا بالمثل الأعلى سيدنا محمد ﷺ ( حصر يحجزه ) .

٥ - وفي رواية له قال : سألت عائشة رضي الله عنها كيف كان عمل رسول الله ﷺ هل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمه . وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع . روه البخاري<sup>(١)</sup> وفي رواية : كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ما ديم عليه .

٦ - وفي رواية له : سئلت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما : أي العمل كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالوا : ما ديم عليه وإن قل<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر صحيح البخاري ح ٨ ص ١٢٢ - ١٢٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

(٢) انظر صحيح البخاري ح ٨ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة مع اختلاف يسير في اللفظ .

٧ - وعن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته وهو جالس ، وكان أحب العمل مادوم عليه العبد وإن كان شيئاً يسيراً<sup>(١)</sup> . رواه ابن حبان في صحيحه .

المعنى : [ داوم عليه العبد ] : الذى استمر عليه طيلة عمره . [ يسيراً ] : قليلاً .

### الترغيب في الفقر وقلة ذات اليد

وما جاء في فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبيهم ومجالستهم

عن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين أيديكم عقبة كئوداً لا ينجو منها إلا كل مخف »<sup>(٢)</sup> . رواه البزار بإسناد حسن .

٢ - وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضى الله عنهما قال : قلت له : مالك لا تطلب كما يطلب فلان وفلان ؟ قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن وراءكم عقبة كئوداً لا يجوزها المثقلون فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة »<sup>(٣)</sup> . رواه الطبراني بإسناد صحيح .

[ الكئود ] : بفتح الكاف وبعدها همزة مضمومة : هي العقبة الصعبة .

المعنى : [ المثقلون ] : أصحاب الغنى واليسار والأموال الوفيرة إلا بعد الحساب . [ أتخفف ] : أكون خفيف السؤال قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَك رَقَبَةً (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) بَتِيًّا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِمْنَةِ (١٨) ﴾ من سورة البلد الله تعالى يمين على عبده ليعمل له عينين يبصر بهما المرئيات ولساناً يعبر به عما في ضميره وشفتين يستر بهما ثغره ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ ، وهديناه طريق الخير والشر المفضين إلى الجنة والنار فلم يشكر الإنسان تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب أو إطعام اليتامى والمساكين ثم بالإيمان الذى هو أصل كل طاعة وأساس كل خير ، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى أن الإنفاق على هذا الوجه مرضى نافع عند الله لا أن يهلك مالا لبدا : أى كثيراً في الرياء والفخار وعن الحسن : عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان بخ يخ سيدنا رسول الله ﷺ يستعد لمجاوزة هذه العقبة ويتقلل من حطام الدنيا ويتزود بالتقوى لتفتدى به أمته .

(١) انظر صحيح ابن حبان ح ٤ ص ٩٣ حديث ٢٤٩٨ فقد أورد الحديث من رواية أم سلمة .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ح ٤ ص ٢٧٠ حديث رقم ٣٦٩٦ فقد ورد الحديث عن أم الدرداء عن أبي الدرداء بلفظه وقال محققه : قال الهيثمي في الزوائد رجاله رجال الصحيح غير أسد بن موسى ( وموسى ) بن مسلم الصغير وهما ثقتان .

(٣) انظر مجمع الزوائد ح ٣ ص ٩٧ باب ما جاء في السؤال فقد أورد الحديث بلفظه عن أم الدرداء وقال رواه الطبراني في الكبير رجاله رجال الثقات .

٣ - وروى عن أنس رضي الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبي ذر ، فقال : يا أبا ذر : أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يصعدوها إلا الخفون . قال رجل : يا رسول الله أمن الخفين أنا أم من المثقلين ؟ قال : عندك طعام يوم ؟ قال : نعم ، وطعام غد . قال : وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين . رواه الطبراني<sup>(١)</sup> .

المعنى : [ أمن الخفين أنا أم من المثقلين ] : هل أنا من الذين أحماهم خفيفة أم ثقيلة ؟ [ طعام بعد غد ] : اليوم الثالث .

هذا درس زهد وورع والاقبال على الله والاخلاص له وعدم الركون إلى زخارف الدنيا . يسأل أبو ذر حبيبه ومرشده ﷺ ليعلمه طريق النجاة وسبيل الخلاص . إن الذي يمر بسلام هو القانع الذي يحب طاعة الله ويتصدق ولا يغتر بالدنيا ولا يجمع إلا ماسد الرمق وازال الجوع . والمثقل من عنده طعام ثلاثة أيام فما حال الأغنياء الآن ؟ وما عملوه بأموالهم للنجاة من حساب الله ؟ [ المثقلين ] : الذي حمل نفسه فوق طاقتها وأثقلها من كثرة الحساب كما قال تعالى : ﴿ ثم لتستلن يؤمنذ عن النعيم ﴾ وكما قال ﷺ : « وأصحاب الجد محبسون » .

٤ - وعن أبي أسماء أنه دخل على أبي ذر وهو بالربذة وعنده امرأة سوداء مشنعة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرني هذه السويدة ؟ فأمرني أن آتي العراق ، فإذا أتيت العراق مالوا على بدنيهم . وإن خليلي ﷺ عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة وأنا أن نأقي عليه وفي أحمالنا اقتدار واضطمار أخرى أن تنجو من أن نأقي عليه ونحن مواقير<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد ورواته رواية الصحيح .

[ الدحض ] : بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين ، وبفتح الحاء أيضاً وآخره ضاد معجمة هو الزلق .

المعنى : [ الربذة ] : قرية كانت عامرة في صدر الاسلام ، وبها قبر أبي ذر الغفاري وجماعة من الصحابة وهي في وقتنا دارة لا يعرف بها رسم وهي عن المدينة في جهة الشرق عن طريق حاج العراق نحو ثلاثة أيام . هـ مصباح . [ مشنعة ] : شعرها متفرق منتشر كذاع ص ٣١٩ - ٢ وفي ن ط : مسفعته ، وفي النهاية السفعة نوع من السواد ليس بالكثير وقليل سواد مع لون آخر . [ المحاسن ] : المحامد والجمال . [ الخلق ] : العطر والرائحة الذكية . [ مالوا على بدنيهم ] : أقبلوا على بأعمالهم الكثيرة التي تشغلن عن طاعة الله . [ عهد إليّ ] : أفهمني وأعلمني أن غير الجسر عقبة صعبة وطريق كئود ذات زلق ووحل وزلل . [ نأقي عليه ] : نمر عليه خفافاً لا ثقلاً . [ اقتدار

(١) أنظر مجمع الزوائد ح ١٠ ص ٢٦٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن أبي ذر وقال : رواه الطبراني في الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم : ليس بالقوى ، وبقي رجاله ثقات .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٥ ص ١٥٩ فقد أورد الحديث عن أبي ذر برواياته المتضمنة لهذه الرواية .

واضطمار [ : قدرة على حمل أعبائه . [ أجرى ] : أولى بالفوز . [ مواقير ] : محملون أثقالاً ، من أوفر الدابة : أثقلها : ودابة وقرى .

٥ - وعن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « إن الله عز وجل ليحمي عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »<sup>(١)</sup> . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ ليحمي ] : ليحفظ . [ الطعام والشراب ] : زاد في ن ذ<sup>(٢)</sup> : تخافون عليه . المعنى أن الله تعالى بلطفه وحكمته وقدرته يسلم المطيع من آفات الحياة ويقيه أضرارها ويبيعه من همومها ، رزق القناعة والرضاء نضارة الصحة كعطف الأب على ابنه إذا مرض . أو عطف القريب على قريبه فيخشى عليه تناول الأكل ويلزمه الحمية ويراعيه ويعتنى بطلباته ، فالله أحق بالرفقة وهو تعالى : الرؤوف الرحيم ففيه الترغيب في العبادة والتفويض إلى الله تعالى في كل الأمور رجاء السلامة من أدران الدنيا : فالله خير حافظاً .

٦ - وعن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عز وجل عبداً أحماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء »<sup>(٣)</sup> . رواه الطبراني بإسناد حسن ، ورواه ابن حبان في صحيحه ، والحاكم بلفظ من حديث أبي قتادة وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [ أحب الله عز وجل ] : أقبل عليه برضوانه لكثرة عبادته له سبحانه .

٧ - وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبي ﷺ قال : « أطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء وأطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء »<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم ورواه أحمد بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو وإلا أنه قال فيه : وأطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء . .

المعنى : [ أكثر أهلها الفقراء ] : يخبر ﷺ أن الفقراء أسبق الناس إلى دخول الجنة لأن حسابهم يسير وأكثر الناس دخولا في النار النساء وبين ﷺ السبب في حديث البخارى : « قالوا : لم يارسول

(١) انظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٠٨ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبي سعيد الخدري ، وقال : كذا قال عن أبي سعيد ، وفي حديث عمارة بن غزية عن قتادة بن النعمان والإسنادان عندي صحيحان .

(٢) هذه الزيادة في الحاكم أيضا .

(٣) أنظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨٥ باب « إذا أحب الله تعالى عبدا » فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لرافع بن خريج ، وقال : رواه الطبراني وإسناده حسن .

وانظر المستدرک على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٠٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لقتادة وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٢ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لعمران بن حصين .

وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٤ / ٢٧٣٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس

وانظر مسند الإمام ج ٢ ص ١٧٣ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو .

الله ؟ قال : يكفرون . قيل يكفرون بالله . قال يكفرون العشير ويكفرون الإحسان ، لو أحسنت إلى أحداهن الدهر ثم رأيت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط » قال القسطلاني العشير : أى إحسان الزوج لأنها كالمصرة على كفران النعمة والاصرار على المعصية سبب العذاب . ١ هـ ص ٢٣٩ جواهر البخارى .

٨ - وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ أنه قال : إن موسى صلوات الله وسلامه عليه قال : أى رب عبدك المؤمن تقتدر عليه فى الدنيا ؟ قال : يفتح له باب من الجنة فينظر إليها قال : يا موسى : هذا ما أعددت له ، فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كان أقطع اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة . وكان هذا مصيره لم ير بؤساً قط . قال : ثم قال موسى : أى رب عبدك الكافر توسع عليه فى الدنيا ؟ قال : يفتح له باب من النار فيقال له : يا موسى : هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره كان لم ير خيراً قط . رواه أحمد من طريق ابن لهيعة عن دراج<sup>(١)</sup> المعنى : [ تقتدر عليه ] : تضيق رزقه وتقلل حاجاته . [ بؤساً ] : ضيقاً وشدة .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكارة ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فتسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونى ولا يشركون بى شيئاً وتسد بهم الثغور ويتقى بهم المكارة ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتىهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . رواه أحمد والبخارى ورواهما ثقات ، وابن حبان فى صحيحه<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ المهاجرون ] : الذين تركوا وطنهم وعاشوا مع رسول الله ﷺ فى المدينة أو فارقوا أوطانهم وذهبوا إلى بلاد الاسلام وطاعة الله موفورة . [ يسد بالياء ] : أى يكونون عرضة لصد هجمات الأعداء ، وحصوناً قوية منيعة لرد الخصوم الكفار الفجار ، وفى النهاية . [ الثغر ] : الموضع الذى يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع الخفاة من أطراف البلاد . [ تتقى بهم المكارة ] : يكونون سبباً لابعاد المخاوف وهم قواد مهرة يعتمد عليهم فى إزالة الكروب . [ حاجته فى

(١) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٣ ص ٨١ والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٢ ص ١٦٨ والحديث عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

أنظر كشف الاستار عن زوائد البزار على الكتب الستة ح ٤ ص ٢٥٦ رقم ٣٦٦٥ باب الفقر عن رواية عبد الله بن عمرو بن

صدره [ : أى فقراء لهم مطالب ولا يشكون إلا لله . [ قضاء ] : أداء . [ سلام عليكم ] : بشارة بدوام السلامة كما قال تعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ﴾ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار \* ﴿ من سورة الرعد . أى هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات أو على أمر الله ، [ أو بسلام ] : أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والأول أوجه ١- هـ نسفى . [ فنعم عقبى الدار ] : أى أمدح هذه النتيجة التى أوصلتكم إلى الجنات ، نعم كلمة مدح وثناء ، وعقبى بمعنى عاقبة وثمره مجناة كما قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقوى ﴾ .

١٠ - وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن حوضى ما بين عدن إلى عمان أكوابه عدد النجوم وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وأكثر الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين . قلنا : يا رسول الله صفهم لنا . قال : شعثُ الرعوس دُنُسُ الثياب الذين لا ينجحون المتنعمات ، ولا تفتح لهمُ السدد الذين يعطون ما عليهم ولا يعطون ما لهم . رواه الطبراني ورواه رواة الصحيح ، وهو فى الترمذى وابن ماجه بنجوه<sup>(١)</sup> . [ السدد ] : هنا : هى الأبواب .

المعنى : [ شعثُ الرعوس ] : رعوسهم متغيرة متلبدة ، وفى المصباح : شعث الشعر شعثاً : تغير وتلبد لقلة تعهده بالدهن ورجل أشعث وامرأة شعثاء ، وهو أشعث أغبر : أى من غير استحداد ولا تنظف ، والمعنى يهملهم طاعة الله وحده ولا يعتنون بأجسامهم مثل هذا الزمن الذى يجب خدمة نفسه ويترك طاعة الله تعالى كما وصف الله الكفار : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴿ ١٢ من سورة محمد ﷺ . [ دنس الثياب ] : أى ملابسهم قدرة بالية . [ المتنعمات ] : أى لا يتزوجون السيدات المترفة اللاتي لا يساعدنهن على تقوى الله . [ يعطون ما عليهم ] : يؤدون الواجب وحقوق الناس كاملة وحقوقهم مهضومة وأمواهم يطعم الناس فيها لتسامحهم ويعكفونهم على العبادة ، والمعنى وراة حوض رسول الله الذين يشربون من مائه العذب متحلون بصفات :

( أ ) ليس عندهم شيء من طعام الدنيا يلهمهم عن ذكر الله وتسييحه .

( ب ) يتركون محال الفجور واللغو ، ويحضرون مجالس العلم ويعملون صالحاً ، ويقطعون صحبة الأشرار « المهاجرون » .

( ج ) يقبلون على تكميل أنفسهم بآداب الشرع ، ولا يتحملون ولا يعتنون بالمظاهر الكذابة « شعث » .

( د ) سبائهم مطيعة محتجة بعيدة عن العصيان عابدة قانتة مطيعة « غير المتنعمة » .

(١) أنظر الطبراني فى معجمه الكبير - ج ٢ ص ٩٦ رقم ١٤٣٧ ، ١٤٤٣ عن رواية ثوبان .

ورواه أحمد فى مسنده - ج ٥ ص ٢٧٥ - ٢٧٦ عن رواية ثوبان وهى رواية طويلة .

(هـ) نفوسهم متواضعة لينة سهلة لا يؤبه لهم ولا تحتدمهم الظلمة الجهلة ، ويعطون ما عليهم كاملاً ولا يأخذون الذى استقر لهم طمعاً فى حلمهم وكرمهم .  
فتى كان يدينه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبيعه الفقر  
فتى لا يعد المال ربا ولا ترى به حفة إن نال مالا ولا كبير  
فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه إذا ثوب الداعى وتشفى به الجزر  
وهون وجدى أننى سوف أعتدى على إثره يوماً وإن نفس العمر

١١ - وعن أبى سلام الأسود أنه قال لعمر بن عبد العزيز : سمعت ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياض من اللبن وأحلى من العسل وأكابه عدد النجوم من شرب منه شربة لم يظماً بعدها أبداً أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رعوساً ، الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم السدد قال فقال عمر : لكنى قد نكحت المنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى السدد ، لا جرم أنى لا أغسل رأسى حتى يشعث ولا ثوبى الذى يلى جسدى حتى يتسخ . رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد<sup>(١)</sup>.

المعنى : [ لم يظماً ] : لم يظراً عليه عطش أبداً ولا يصيبه ألم ولا شدة وشرباً بفتح الشين المصدر ، وبضمها وبكسرهما : اسم « فشاربون شرب الميم » . [ نكحت المنعمات ] : سيدنا عمر تزوج النساء الجميلات اللاتى وصفن بالنعيم والعز وقوبل بكل اجلال واحترام وخشى الناس بأسه ، ثم أراد أن يتكشف ويخشوشن ولقد ثبت أنه رفع ثوبه وخصف نعله كرسول الله ﷺ ولبس الثوب المرقع وفى حلية الأولياء مشى مرة وهو أمير المؤمنين فخلع نعله وعبر ما كان يملأ الشارع . [ لا جرم أنى ] : حقاً أنى . [ يشعث ] : يتغير ويتلبد والمعنى ساقبل على تكميل الباطن وأدع الظاهر .

١٢ - وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، فقيل : صفهم لنا ؟ قال : الدنسة ثيابهم الشعثة رعوسهم الذين لا يؤذن لهم على الهدات ولا ينكحون المنعمات توكل بهم مشارق الأرض ومغاربها يعطون كل الذى عليهم ولا يعطون كل الذى لهم . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات<sup>(٢)</sup> . ورواه مسلم متخصراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً . ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضاً ، وقال : بأربعين عاماً .

(١) انظر المستدرک على الصحيحين فى الحديث للحاكم ح ٤ ص ١٨٤ كتاب اللباس باب بيان أوصاف حوض الكوثر عن رواية ثوبان .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى ح ٤ ص ١٣٦ حديث رقم ١٢ « باب يدخل فقراء أمتى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب . وزاد فيه أن مسلماً رواه مختصراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً . ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضاً ، وقال : بأربعين عاماً وحديث : « إن فقراء أمتى ... الخ » . وفى صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ح ٤ ص ٢٢٨٥ / ٣٧ / ٢٩٧٩ عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .



المعنى : [ خريفاً ] : عاماً « سنة » . [ لا يؤذن لهم على السدات ] : يقفون مدة طويلة على الأبواب إذا طلبوا السؤال فلا يعتنى بهم لتواضعهم وحلمهم وذهبت عنهم صفة التكبر والتجبر . [ المنعمات يوكل ] : المعنى نفوسهم خاضعة خاشعة لله فانية في ذكره .

١٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبي ﷺ قال : يجتمعون يوم القيامة ، فيقال : أين فقراء هذه الأمة : قال : فيقال لهم : ماذا عملتم ؟ فيقولون ربنا ابتلينا فصبرنا ووليت الأموال والسلطان غيرنا فيقول الله جل وعلا : صدقتم قال : فيدخلون الجنة قبل الناس ويبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان . قالوا : فأين المؤمنون يومئذ ؟ قال : يوضع لهم كراس من نور ويظلل عليهم الغمام يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار . رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه (١) .

المعنى : [ ابتلينا فصبرنا ] : أى أفقرتنا اختباراً لنا فأطعناك ورضيناك وحسبنا الأنفس عن الجزع ولم نعصك . [ ووليت السلطان والأموال ] : أى يارب أسندت إدارة الأموال الوفيرة والنعم الكثيرة لغيرنا من عبادك وكذا الحكم والأمر النافذ والسلطة القاهرة وجعلتنا فقراء في الحياة الدنيا . [ يبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان ] : يسألهم ربهم عز وجل فيم أنفقتم أموالكم ؟ وأين أضعتموها ؟ وما الصالحات التى شيدتموها ؟ ولماذا ملكتم فظلمتم ؟ وهكذا يسألون عن الصغير والكبير . قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ ٧٠ من سورة الحج . سبحانه لا يخفى عليه شئ وإن الاحاطة به وإثباته فى اللوح المحفوظ أو الحكم بينكم على الله يسير أى سهل لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات سواء . وشاهدنا احاطة الله بأعمال عبادة ليشيب المحسن ويعاقب المسيء كما قال تعالى : ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ نسأل الله السلامة : إن الدين يدعو إلى النظافة والنظافة من الإيمان فالمعنى أن هؤلاء الصالحين يحبون تحسين الباطن وتكميله وانشغاله بربه ، وإذا قربت إليهم أيها الأخ المسلم وجدت رائحتهم جميلة طاهرة نقية لأن الله تعالى جميل ويحب الجميل والنبي ﷺ جعل الطهارة اساساً لصحة الصلاة . وقال الله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ . [ الغمام ] : أى السحاب يكون عليهم كالظلة يقيهم حر الشمس المحرقة . [ ذلك اليوم ] : أى يوم القيامة يمر عليهم بسلامة لا يشعرون فيه بألم أو شدة ، الله أكبر التقشف والتقلل من حطام الدنيا والتباعد عن الرياسة والسلطة ينجى من شدائد يوم الحساب ، ويتمتع الزاهد الفقير بالأضواء المشرقة والنعم المقيم كما قال الله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً \* من سورة الدهر والله تعالى أخبرنا فى كتابه ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ ٨ من سورة الحشر .

(١) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى - ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧ حديث رقم ١٣ « باب يدخل فقراء أمى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه .

قال البيضاوى : فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم وقد جاهدوا في الله حق جهاده بأنفسهم وأموالهم .هـ . وينال ثوابهم من هاجر في سبيل نصر دين الله وأقام شعائره وعمل بكتابه وسنة رسوله وترك الأشرار العصاة ونبت أصحابهم .

١٤ - وعن عبد الرحمن بن سابط قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى سعيد بن عامر : إنا مستعلموك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم . قال : فذكر حديثاً طويلاً قال فيه : قال سعيد : وما أنا بمختلف عن العنق الأول بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء المسلمين يزفون كما تزف الحمام فيقال لهم : قفوا للحساب ، فيقولون : والله ما تركنا شيئاً نحاسب به فيقول الله عز وجل : صدق عبادي فيدخلون الجنة قبل الناس بسبعين عاماً<sup>(١)</sup> . رواه الطبراني وأبو الشيخ وابن حبان في الثواب ورواهما ثقات إلا يزيد بن أبي زياد .

المعنى : [ مستعلموك ] : أى نستفهم عن سير الأبطال المجاهدين . [ العنق الأول ] : الفوج : أى الطائفة المسرعة في طاعة الله تعالى وفي المصباح : العنق ضرب من السير فسيح سريع من أعنق إغنافاً . [ الحمام ] : الطيور المغردة جميلة الصورة حسنة الهيئة يفرح بها أصحابها ويطيرون بها .

١٥ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كنت عند رسول الله ﷺ يوماً ، فطلعت الشمس فقال : يأتي قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس قال أبو بكر : نحن هم يا رسول الله ؟ قال : لا ولكم خير كثير ولكنهم الفقراء المهاجرون الذين يحشرون من أقطار الأرض . فذكر الحديث رواه أحمد والطبراني وزاد ثم قال : طوى للغرباء قيل : من الغرباء ؟ قال : أناس صالحون قليل في ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم . وأحد أسنادى الطبراني رواه رواة الصحيح<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ يحشرون ] : يوجدون من جميع جهاتها . [ طوى ] : مكان في الجنة يناله البعيد عن وطنه حباً في رضا الله تعالى ورسوله وابتغاء فراق الأشرار العصاة . [ ناس سوء ] : أي رفاق عصاة فجرة طغاة ظلمة فيفارقهم الصالحون خشية العدوى والقذوة السيئة . [ كثير من يعصيهم ] : الذى يوافقهم في المعاصي أكثر من الأبرار المطيعين .

١٦ - وعن أبى الصديق الناجى عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه قال : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بأربعمائة عام — قال فقلت : إن الحسن يذكر أربعين عاماً ؟ فقال : عن أصحاب النبى ﷺ أربعمائة عام حتى يقول المؤمن الغنى : يا ليتنى كنت عبلاً . قال : قلت يا رسول الله : سمهم لنا بأسمائهم ؟ قال : هم الذين إذا كان مكروه بعثوا إليه ، وإذا كان نعيم بعث إليه سواهم . وهم الذين يحبون عن الأبواب<sup>(٣)</sup> . رواه أحمد من رواية زيد ابن الحوارى عنه .

(١) انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الرحمن بن سابط

(٢) انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٦٠ فقد أورد الحديث من رواية لأبى بكر الصديق وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير

زيد بن أبى الحوارى وقد وثق على ضعفه .

**المعنى :** [ عيلا ] : مؤمناً فقيراً لا أملك شيئاً في حياقي حتى يقل حساب ما أنعم على به في دنياي . [ إذا كان مكروه بعثوا إليه ] : يرسلون للشدائد ويواجهون الصعاب لشدة إيمانهم بالله تعالى والثقة بنصره كما قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ ويرسل غيرهم لكسب الأموال وجلب الخيرات وينل الأرزاق الواسعة العيش الرغد . [ يحجبون عن الأبواب ] : معناه لزهادتهم في الدنيا يمنعون من الدخول على الحكام أى لا يحترمهم الناس لتواضعهم وخلع رداء الكبر عنهم « هينون لينون أيسار ذوو كرم » .

١٧ - وعن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام<sup>(١)</sup> . رواه الترمذى وابن حبان في صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

قال الحافظ : ورواته محتج بهم في الصحيح ، ورواه ابن ماجه بزيادة من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر .

١٨ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : البقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا في الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ماشاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقية الفقير فقال : يا أخى ماذا حبسك ؟ والله لقد حبست حتى خفت عليك ، فيقول : يا أخى إني حبست بعدك محبسا فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق مالو ورده ألف بغير كلها أكلته حمض النبات لصدرت عنه رواء<sup>(٢)</sup> . رواه أحمد بإسناد جيد قوى . « الحمض » : ما ملح وأمر من النبات .

**المعنى :** حبس الغنى [ : انتظر للحساب على أمواله . [ ماذا حبسك ] : أى شيء أبعدك عن دخول الجنة ؟ [ محبساً فظيعاً ] : حبساً شديداً الأحوال .

١٩ - وعن عبد الله بن أنس رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه أجمع ما كانوا ، فقال : إني رأيت الليلة منازلكم في الجنة ، وقرب منازلكم ثم إن رسول الله ﷺ أقبل على أنى بكر رضى الله عنه فقال يا أبا بكر : إني لأعرف رجلاً أعرف اسمه ، واسم أبيه وأمه لا يأتي باباً من أبواب الجنة إلا قالوا : مرحباً مرحباً . فقال سلمان : من هذا المرتفع شأنه يا رسول الله ؟ قال : فهو أبو بكر بن أنس قحافة ، ثم أقبل على عمر رضى الله عنه فقال : يا عمر لقد رأيت في الجنة قصرأ من درة بيضاء لؤلؤة أبيض مشيد بالياقوت فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لغنى من قریش ، فظننت أنه لى فذهبت لأدخله ، فقال : يا محمد هذا لعمر بن الخطاب ، فما منعنى من دخوله إلا غيرتك يا

(١) انظر صحيح ابن حبان ح ٢ ص ٣٣ فقد ورد الحديث رقم ٦٧٤ من رواية لأنى هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٣٨٠ رقم ٤١٢٢ فقد أورد الحديث عن رواية لأنى هريرة .

وانظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٩٠٨ رقم ٢٤٥٨ فقد أورد الحديث من رواية أنى هريرة وقال هذا حديث حسن صحيح

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ح ١ ص ٣٠٤ فقد أورد الحديث من رواية لابن عباس .

أبا حفص ، فبكى عمر وقال : بأبى وأمى عليك أغار يا رسول الله ؟ ثم أقبل على عثمان رضى الله عنه ، فقال يا عثمان إن لكل نبي رفيقاً في الجنة وأنت رفيقى في الجنة ، ثم أخذ بيد على رضى الله عنه فقال يا على : أوماترضى أن يكون منزلك في الجنة مقابل منزلى ، ثم أقبل على طلحة والزبير رضى الله عنهما ، فقال : يا طلحة ويا زبير : إن لكل نبي حوارى وأنتا حوارى ، ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال : لقد بطأ بك عنا من بين أصحابى حتى خشيت أن تكون هلكت وعرقْتُ عرقاً شديداً ، فقلت : ما بطأ بك ؟ فقلت : يا رسول الله من كثرة مالى ما زلت موقوفاً محاسباً أسأل عن مالى من أين اكتسبته وفيما أنفقت ، فبكى عبد الرحمن ، وقال : يا رسول الله هذه مائة راحلة جاءتني الليلة من تجارة مصر فإني أشهدك أنها على فقراء أهل المدينة وأيتامهم لعل الله يخفف عن ذلك اليوم<sup>(١)</sup> . رواه البزار واللفظ له والطبراني ورواه ثقات إلى عمار بن سيف وقد وثق .

« قال الحافظ » : وقد ورد من غير وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ : أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله ، ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن ، ولقد كان ماله بالصفة التي ذكر رسول الله ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، فأنى تنقص درجاته في الآخرة أو يقصد به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ؟ فإنه لم يرد هذا في حق غيره إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق والله أعلم .  
المعنى : [ مرحباً ] : وجدت مكاناً راحباً : أى واسعاً وسروراً وتشريفاً مباركاً .  
[ غيرتك ] : الحمية والأنفة والشهامة على حفظ الحرم . [ أن يكون منزلك في الجنة مقابل منزلى ] : كذا ط و ع ص ٣٣٢ - ٢ ، وفي ن د : أن تكون منزلتك مقابل منزلي . [ حوارى ] : أنصار مخلصين وأتباعاً صالحين . [ بطأ ] : أى أخرك . استفهم ﷺ عن سبب تأخيرته ، ولم يلحق درجته الصالحين الأوائل حتى خاف ﷺ أن يهلك عبد الرحمن فأجاب رضى الله عنه بوفرة أمواله ، ودقة الحساب : من أى مكان أوجده ؟ وعلى من أنفقه ؟ وفى أى الوجوه صرفه ؟ ثم أثمر درسه ﷺ فأكثر سيدنا عبد الرحمن من أفعال البر ووجه خيرات مائة راحلة إلى الفقراء والأيتام ذخيرة عند ربه جل وعلا ورجا أن ينجيه من أهوال القيامة . انتبهوا يا أصحاب الأموال والضيعات فالله تعالى سيحاسبكم عليها . أنفقوا في حياتكم وشيدوا أعمال البر وساعدوا على انشاء المشروعات المفيدة ، إن الوطن يناديكم أن توجدوا أعمالاً حرة لأبنائه . شيدوا مصنوعات وأنشئوا الشركات الوطنية ، وحرام عليكم أن تودعوا الأموال في المصارف مكدسة مخزونة بلا استثمار طيب وحلال ، وقد رأيت سيدنا عبد الرحمن وهو صاحب المنزلة الرفيعة في الدين ومع ذلك وقف ليسأل وتأخر عن زملائه وبعبارة أخرى « يدخل الجنة حبواً » : أى يدرج على بطنه ويزحف على الأرض لماذا ؟ لأنه كثير الغلات وافر الخيرات مع شهادة عدول له أنه رضى الله عنه سباق إلى المكارم جواد وكريم محسن « نعم المال الصالح للرجل

(١) انظر كنز العمال ح ١٣ ص ٢٥١ حديث رقم ٣٦٧٤٨ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله ابن أبى أوفى ، وقال رواه ابن عساکر .

الصالح « : أى أمدح المال إذا وفق صاحبه لأعمال البر مثل سيدنا عبد الرحمن ، فأين الثريا والثرى من أغنياء زمننا هذا وما يفعلون بغناهم الآن ؟ هل استعدوا ليوم الحساب » .

٢٠ - وعن أسامة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : قُمتُ على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجدة محبسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء<sup>(١)</sup> . رواه البخارى ومسلم  
« الجدة » بفتح الجيم : هو الحظ والغنى .

المعنى : [ المساكين ] : الفقراء . [ محبسون ] : منتظرون للحساب على باب الجنة — فيم أنفقوا ؟ ومن أين جمعوا ؟

٢١ - وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : رأيتُ أنى دخلتُ الجنة فإذا أعلى أهل الجنة فقراء المهاجرين وذراى المؤمنين وإذا ليس فيها أحد أقل من الأغنياء والنساء فقيل لى : أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسبون ويحصون ، وأما النساء فألهن الأحران : الذهب والحريز الحديث . رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن طريق عبد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم عنه<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ ذراى ] : الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . [ يحصون ] : يزكون ويظهرون كما قال تعالى : ﴿ وَلِيَحْصِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ ولِيَحْصِ مَا فِى قُلُوبِكُمْ . فالتمحيص التزكية وأصله إزالة ما يشوبه من خبث وتخليص الشيء مما فيه من عيب كالفحص . [ ألهن الأحران ] : غرهن التمتع والترف فقصرن فى حقوق الله .

٢٢ - وروى عن أنس رضى الله عنه : أن النبي ﷺ قال : اللهم أحيى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة فقالت عائشة : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردى مسكينا ولو بشق تمر . يا عائشة حبى المساكين وقربهم ، فإن الله يقربك يوم القيامة . رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، وتقدم فى صلاة الجماعة حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : أتانى الليلة آت من رنى ، وفى رواية : رنى فى أحسن صورة فذكر الحديث إلى أن قال : قال يا محمد . قلتُ لبيك وسعديك ، فقال : إذا صليت قل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا اردت بعبادك فتته فاقبضنى إليك غير مفتون . الحديث . رواه الترمذى وحسنه<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر صحيح مسلم - ح ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٣ / ٢٧٣٦ فقد أورد الحديث من رواية لأسامة ابن زيد .

(٢) انظر مسند الامام أحمد - ح ٥ ص ٢٥٩ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .

انظر مجمع الزوائد للهيتمى - ح ١٠ ص ٢٦١ - ٢٦٢ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .

(٣) انظر سنن الترمذى - ح ٤ ص ٨ حديث رقم ٢٤٥٧ كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم .

المعنى : [ مسكيناً ] : المسكين الذى لا شئ له ، وهو أبلغ من الفقير . يدعو ﷺ أن يرزقه الله الهيبة والخشية ويبعد عنه زخارف الدنيا حتى يخلص لعبادته سبحانه . [ لبيك وسعديك ] : إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد إسعاد ثم أمر ﷺ بطلب ثلاثة :

( أ ) . الاعانة على تشييد الصالحات وإيجاد المحامد وغرس المكارم .

( ب ) . الابتعاد عن القبائح وهجر الموبقات وصحبة الأشرار .

( ج ) . إكرام الضعفاء والتقرب إلى الصالحين ومودتهم وصحبة الأخيار الأبرار .

[ فتنه ] : اختباراً . [ فأقبضنى إليك ] : فالحقنى إلى الرفيق الأعلى سليماً من كل محنة .

٢٣ - وعن أنى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم أحيى مسكيناً وتوفنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين وإن أشقى الأتقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . رواه ابن ماجة إلى قوله : المساكين ، والحاكم بتمامه ، وقال صحيح الإسناد<sup>(١)</sup> . ورواه أبو الشيخ والبيهقى عن عطاء ابن أنى رباح سمع أبا سعيد يقول : يا أيها الناس : لا تحملنكم العسرة على طلب الرزق من غير حله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً ، واحشرنى فى زمرة المساكين ، فإن أشقى الأتقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . قال أبو الشيخ : زاد فيه غير أنى زرعة عن سليمان بن عبد الرحمن ولا تحشرنى فى زمرة الأغنياء .

المعنى : [ العسرة ] : الضيق الشدة . [ طلب الرزق من غير حلة ] : جمع المال من وجوه الحرام خشية عذاب الله فى الآخرة لكم . قال تعالى :

( أ ) ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ١٦٨ من سورة البقرة .

( ب ) وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ﴾ سورة البقرة

٢٤ - وعن أنى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : أحبوا الفقراء وجالسوهم وأحب العرب من قلبك وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك . رواه الحاكم<sup>(٢)</sup> وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ أحبوا الفقراء ] : أظهروا مودتهم وقدموا لهم الإكرام والاحترام . [ العرب ] : أصحاب النبى ﷺ وأهله وأتباعه ومن سلك سنته إلى يوم الدين . [ ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك ] : ليبعدك عن الناس تقصيرك فى حقوق الله وكل ما تعلمه من خلالك خيرها وشرها .

٢٥ - وعن عائذ بن عمرو : أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا :

(١) انظر سنن بن ماجة ح ٢ ص ١٣٨١ رقم ٤١٢٦ كتاب الزهد باب مجالسة الفقراء من رواية أنى سعيد الخدرى .

انظر المستدرک على الصحيحین ح ٤ ص ٣٢٢ كتاب الرقاق من رواية أنى سعيد الخدرى .

(٢) انظر المستدرک للحاکم ح ٤ ص ٣٣٢ كتاب الرقاق من رواية أبو هريرة .

ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ، فأقى النبي ﷺ فأجاره فقال : يا أبا بكر : لعلك أغضبتهم ؟ لكن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فأتاهم أبو بكر ، فقال : يا إخوانه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي . رواه مسلم <sup>(١)</sup> وغيره .

**المعنى :** [ نفر ] : جماعة . [ فقالوا ] : سادتنا سلمان وصهيب وبلال تهكموا بأبى سفيان فأنكر قولهم أبو بكر وسماه سيدياً ، وأمر ﷺ أبا بكر أن يصلح هؤلاء السادة الأبرار لأن رضاهم من رضا الله جل وعلا كما قال تعالى : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فذهب رضى الله عنه يستعطفهم ويستحيلهم عذراً ويتمنى رضاهم . أبو سفيان رجل كبير فى قومه ذو مكانة سامية ولكن احتقره هذا النفر لكفره وعناده وعداوته لله ورسوله فدافع عنه أبو بكر ولكن آسف واستغفر ربه والله غفور رحيم .

[ لشيخ قريش ] : حماه وهو رئيس قبيلة وصاحب كلمة نافذة وسلطان قوى وأنجب ابنه سيدنا معاوية رضى الله عنه رأس الدولة الأموية . [ أغضبت ربك ] : إذ تعديت على أوليائه . [ أغضبتكم ؟ ] : هل تكدرتم من دفاعى عن أبى سفيان ؟ فأظهروا غضبهم من الدفاع عن أهل الكفر والله ولى المؤمنين ففيه محبة المسلمين وعدم الدفاع عن الفسقة الملحددين . [ قالوا : لا يغفر الله لك يا أخى ] : أى ما أغضبتنا ، ثم ادعوا له بالغفران وزيادة الإحسان لأنه رضى الله عنه أخوهم فى الدين ، وهنا درس أخلاقى ، يحمى رسول الله ﷺ أبا سفيان ثم يلزمه أبا بكر بإرضاء أصحابه فيسترضيهم ويطلبون له الخير والعز والسعادة .

٢٦ - وعن أمية عبد الله بن خالد بن أسيد قال : كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المسلمين . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح <sup>(٢)</sup> وهو مرسل . وفى رواية : يستنصر بصعاليك المسلمين .

**المعنى :** [ يستفتح ] : يطلب الفتح والفوز . [ صعاليك المسلمين ] : فقراهم ، ففيه أن الانسان يتبرك ويستبشر بالضعفاء كما قال ﷺ « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

٢٧ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كان ليعقوب أخ مؤاخ فى الله تعالى ، فقال ذات يوم : يا يعقوب ما الذى أذهب بصرى ؟ قال : البكاء على يوسف . قال : ما الذى قوس ظهرك ؟ قال : الحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل فقال : يا يعقوب ! إن الله يقرئك السلام ، ويقول : أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى ؟ قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل : الله أعلم بما تشكو يا يعقوب ، ثم قال يعقوب : أى رب أما ترحم الشيخ الكبير ! أذهبت

(١) انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٩٤٧ رقم ١٧٠ / ٢٥٠٤ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضى الله عنهم .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ١٠ ص ٢٦٢ من رواية أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد .

بصرى ، وقوست ظهري ، فازدد على ريحانتى أشمه شمة قبل الموت ، ثم اصنع لى ما أردت قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أبشر ، وليفرح قلبك فوعزنى لو كانا ميتين لنشترهما فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب عبادى إلى الأنبياء والمساكين ، وتدرى لم أذهب بصرى وقوست ظهرك ، وصنع إخوة يوسف بيوسف ماصنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين يتيم وهو صائم فلم تطعموه منه شيئاً قال : فكان يعقوب عليه السلام بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر منادياً فنادى : ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغذ مع يعقوب ، وإن كان صائماً أمر منادياً فنادى : ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب عليه السلام . رواه الحاكم ومن طريقة البيهقى عن حفص بن عمر بن الزبير عن أنس قال الحاكم<sup>(١)</sup> : كذا فى سماعى عن حفص بن عمر ابن الزبير ، وأظن الزبير وهم ؟ وأنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة ، فإن كان كذلك فالحديث صحيح ، وقد أخرجه اسحاق بن راهويه فى تفسيره قال : أنبأنا عمرو ابن محمد حدثنا زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن أنس عن النبى ﷺ بنحوه .

المعنى : [ مؤاخ ] : صديق متفق معه على طاعة الله تعالى . [ يا يعقوب ] : يوم : يا يعقوب كذا د و غ ص ٣٢٤ - ٢ وفى ن ط : ذا يوم ليعقوب يا يعقوب . [ أذهب بصرى ] : لفقده وذهابه . [ قوس ظهرك ] : حناه . [ أشكو بشى ] : كشف ما انطويت عليه من الغم ، وفى الغريب : أى غمى الذى يثنه عن كتمان فهو مصدر فى تقدير مفعول أو بمعنى غمنى الذى بث فكرى نحو توزعنى الفكر . [ رب أما ترحم الشيخ الكبير ] : توسل به سبحانه وتعالى يعقوب فى الخلوة ودعاه وطلب الرأفة منه جل وعلا . [ لنشترهما ] : لأحييتهما . [ فاصنع طعاماً للمساكين ] : أعمل موائد أكل لفقراء الله تعالى . [ وتدرى ] : هل تعلم ؟ [ مبسكين يتيم ] : فقير مات أبوه .

٢٨ - وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى رسول الله ﷺ بخصال من الخير : أوصانى بأن لا أنظر إلى من هو فوق وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت . الحديث رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه<sup>(٢)</sup> .

المعنى : [ فوق ] : الذى هو أعلى منى فى المال والجاه والصحة . [ دونى ] : أقل منى فى النعم والصحة . [ الدنو منهم ] : القرب منهم والعطف عليهم واکرامهم . [ أن أصل رحمى ] : أزور أقارى وأمدهم بالمودة والعطاء وأن قاطعت أو تباعدت أو هجرت ينصح ﷺ أباً ذر أن يتبع مناهج أربعة هى منابع العز ومعين السعادة والسرور وكثرة الرزق .

( أ ) الرضا بالقليل وعدم الفكر فى رقى من سما عليه خشية استصغار نعم الله التى فاز بها وتمتع بخيراتها ، فيغضب أو يحسد أو يقتاب أو يسخط .

(١) انظر المستدرک للحاکم ج ٢ ص ٣٤٨ کتاب التفسیر من رواية أنس بن مالك .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ١٠ ص ٢٦٣ من رواية أبى ذر .

انظر الاحسان بصحيح بن حبان ج ١ ص ٣٣٧ رقم ٤٥٠ من رواية أبى ذر باب ذكر وصية المصطفى ﷺ بصلة الرحم وإن



(ب) يقارن نفسه بالذى هو أقل منه في النعم رجاء الحمد والشكر والقناعة وكثرة العبادة كإل قال تعالى : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ .

(ج) حب الفقراء ومجالستهم .

(د) زيارة الأقارب والاحسان إليهم .

٢٩ - وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مستضعف لو يُقسِمُ على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر . رواه البخارى وابن ماجه ومسلم<sup>(١)</sup> .

« العتل » بضم العين والتاء وتشديد اللام : هو الجانى الغليظ .

« الجواظ » بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة : هو الضخم المختال فى مشيته وقيل : القصير البطين وقيل الجموع المتنوع .

٣٠ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع . وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون . رواه أحمد والحاكم<sup>(٢)</sup> ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

« الجعظرى » بفتح الجيم وإسكان العين المهملة وفتح الظاء المعجمة قال ابن فارس : هو المنتفخ بما ليس عنده .

المعنى : [ جماع ] : يجب جمع المال لطمعه وشرهه . [ مناع ] : لا يرجى خير منه . [ الضعفاء المغلوبون ] : الذين يغلب على أمرهم لقناعتهم ورضاهم .

٣١ - وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال : ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظ المستكبر . ألا أخبركم بخير عباد الله : الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له . لو أقسم على الله لأبره . رواه أحمد ورواته<sup>(٣)</sup> رواة الصحيح ! لا محمد بن جابر .

« الطمر » بكسر الطاء : هو الثوب الخلق .

المعنى : [ الفظ المستكبر ] : الخشن الجافى فظيع المعاملة قاسى الطبع . [ لا يؤبه له ] : لا يعتنى به .

(١) انظر مسنن بن ماجه ح ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٦ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .

انظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢١٩٠ رقم ٤٦ / ٢٨٥٣ كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء من رواية حارثة بن وهب .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ح ٤ ص ٣٠٦ من رواية عبد الله بن عمرو .

أنظر المستدرک للحاكم ح ٢ ص ٤٩٩ باب التفسير سورة ن والقلم من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ح ٥ ص ٤٠٧ من رواية حذيفة .

٣٢ - وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى قال : رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه ابن ماجه<sup>(١)</sup> ورواة إسناده محتج بهم فى الصحيح إلا سويد بن عبد العزيز .

٣٣ - وعن سراقه بن مالك بن جعشم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا سراقه ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار قلت : بلى يا رسول الله . قال : أما أهل النار فكل جعظرى جواظ مستكبر ، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، والحاكم<sup>(٢)</sup> وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣٤ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : أحتجت الجنة والنار فقالت النار : فى الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة : فى ضعفاء المسلمين ومساكينهم ، فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشياء ، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشياء ولكليهما على ملؤها . رواة مسلم<sup>(٣)</sup>

المعنى : [ أحتجت ] : تخاصمتا بلسان المقال والحال . [ الجبارون ] : اختصت بالمتكبر المتعظم بما ليس فيه والمتجبر الظالم الممنوع الذى لا يوصل إليه أو الذى لا يكثر بأمر الضعفاء من الناس وسقطتهم ، وفسر القسطلانى ضعفاء الناس وسقطتهم بالمحتقرين بين الناس الساقطين من أعينهم لتواضعهم لربهم اهـ .

٣٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة<sup>(٤)</sup> . رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [ العظيم ] : فى الطول والجاه المنتفخة أو واجه الترف المتنعم الممتلئ صحة ، [ السمين ] : الأكل والشروب ، وزاد البخارى وقال اقرءوا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . قال البيضاوى : أى فنزدرى بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً .  
أولا نضع لهم ميزانا توزن به أعمالهم لانحياطها اهـ .  
وقال النسفى : فلا يكون لهم عندنا وزن مقدار اهـ .

٣٦ - وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك فى هذا ؟ قال رجل من أشراف الناس : هذا والله حريئ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن

(١) انظر سنن بن ماجه ح ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٥ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .

(٢) رواه المستدرک للحاكم ح ٣ ص ٦١٩ فى كتاب معرفة الصحابة . من رواية سراقه بن مالك بن جعشم .

ورواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٦٥ من رواية سراقه بن مالك .

(٣) رواه صحيح مسلم فى كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ح ٤ ص ٢١٨٦ رقم

٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧ .

(٤) رواه صحيح مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ح ٤ ص ٢١٤٧ رقم ١٨ / ٢٧٨٥ من رواية أبى هريرة .

يشفع — فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل ، فقال رسول الله ﷺ : ما رأيك في هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حري إن أخطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال لا يسمع لقوله فقال رسول الله ﷺ هذا خير من ملء الأرض مثل هذا . رواه البخاري ومسلم وابن ماجه .

المعنى : [ أشرف الناس ] : سراتهم وساداتهم وعظمائهم . [ حري ] : جدير وحقيق وأولى إن أراد زواج أى سيده أعطى ونكح وعقد العقد الشرعى عليها . [ شفع ] : رجا فى مسألة أجيب طلبه وقضيت حاجته . [ أخرى أن خطب أن لا ينكح ] : أحق ألا يزوج لفقره ولا يرجوه أحد لضعته وهوانه على الناس قال لا يسمع ؟ والمعنى إن تكلم غضوا النظر عنه ، ولم ينصتوا لقوله وازدروا به واحتقروه فأخبر ﷺ أنه أفضل من ذلك المتكبر المتجبر الطاغية من ملايين ملايين تملأ الدنيا مثل ذلك الحقير لكفره أو لعصيانه ربه وظلمه . صلى الله عليك يا رسول الله تضرب مثلاً أعلى للعزة والرفعة باتباع الدين والعمل بكتاب رب العالمين ليسمو الإنسان عند ربه ويحظى بالدرجات العالية ، وتضرب صفحاً عن حطام الدنيا وزخارفها الموجودة عند الفسقة العصاة المجرمين كما قال الله تعالى :

( أ ) ﴿ والله العزة والرسولة وللمؤمنين ﴾

( ب ) ﴿ إن العزة لله جميعاً ﴾ وهكذا النفوس العامرة بالإيمان عالية سامية تشعر بعزة الله ونصره وقوته ، ولا تخشى بأس سواه .

١ - أى إذا طلب من الناس شيئاً أسرعوا فى إعطائه .

٢ - إذا وجد فى محفل يجلوه واحترموه ودخل موقراً معزراً .

٣ - هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل بسكنة فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه اهـ نهاية .

٤ - يذكر محامده وبدائع بحلاله .

٥ - مما طلعت عليه الشمس : أى كل ما يظهر على سطح الأرض — لماذا ؟ لأنه فقير مخلص لربه مطيع .

٦ - أخذه باستحقاق وإذ حرم نال ثواب صبره ورضاه بما قسم له .

٣٨ - وعنه رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : أنظر أرفع رجل فى المسجد قال : فنظرت ، فإذا رجل عليه حلة ، قلت : هذا قال : قال لى : انظر أوضع رجل فى المسجد قال : فنظرت فإذا رجل عليه أخلاق ، قال : قلت هذا قال : فقال رسول الله ﷺ : لهذا عند الله خير يوم

القيامة من ملء الأرض مثل هذا . رواه أحمد<sup>(١)</sup> بأسانيد رواها محتج بهم في الصحيح ، وابن حبان في صحيحه .

٣٩ - وعن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه فقال رسول الله ﷺ : هل تُنصرون وترزقون إلا بضعفائكم . رواه البخارى<sup>(٢)</sup> والنسائى وعنده : فقال النبى ﷺ : إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم .

٤٠ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . رواه أبو داود<sup>(٣)</sup> والترمذى والنسائى .

٤١ - وعن وائلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : كنت فى أصحاب الصفه فلقد رأيتنا وما منا إنسان عليه ثوب تام ، وأخذ العرق فى جلودنا طرقا من الغبار والوسخ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : ليشر فقراء المهاجرين إذ أقبل رجل عليه شارة حسنة فجعل النبى ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتى بكلام يعلو كلام النبى ﷺ فلما انصرف قال : إن الله عز وجل لا يحب هذا وحزبه يلوون ألسنتهم للناس لى البقر بلسانها المرعى كذلك يلوى الله عز وجل ألسنتهم ووجوههم فى النار<sup>(٤)</sup> . رواه الطبرانى بأسانيد أحدها صحيح .

المعنى : [ وأضرابه ] : أى أمثاله . وفى النهاية ضرب الأمثال ، وهو اعتبار الشئ بغيره وتمثيله به والضرب المثل والضرباء الأمثال والنظراء وأحدهم ضريب اهـ . [ يلوون ألسنتهم للناس ] : كناية عن الكذب وقال تعالى : ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ ليا بألسنتهم ﴾ ويقال فلان لا يلوى على أحد إذا أمعن فى الهزيمة ، قال تعالى : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ اهـ غريب . [ لى البقر ] : ميلان الماشية بلسانها لتأكل فى المرعى . [ يلوى الله عز وجل ألسنتهم ] : يميلها فيقعون فى جهنم . لماذا ؟ لتجبرهم وتكبرهم وارتفاع صوته أمام حضرة النبى ﷺ أو أمام العلماء الفضلاء والسادة الاتقياء ويتناولون على الناس باللسان البذى والقول الدنىء تعاجباً وتظاهراً ورياء كما تمد البقر ألسنتها إلى الكلاء .

٤٢ - وعن العرياض بن سارية رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يخرج إلينا فى الصفة

(١) انظر مسند الامام أحمد ح ٥ ص ١٥٧ من رواية أبى ذر .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه ح ٤ ص ٤٤ كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب من رواية أبى هريرة .

(٣) رواه أبو داود فى سننه ح ٣ ص ٧٣ رقم ٢٥٩٤ من رواية أبى الدرداء

رواه الترمذى فى سننه ح ٣ ص ١٢٣ رقم ١٧٥٤ من رواية أبى الدرداء .

رواه النسائى فى سننه ح ٦ ص ٤٥ رقم ٣١٨٠ كتاب الجهاد باب من استعان بالضعفاء .

(٤) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٦١ من رواية وائلة بن الاسقع .

وعليها الحوتكية فقال : لو تعلمون ما أدخر لكم مادخرتم على مازوى حاكم ولتفتحن عليكم فارس والروم . رواه أحمد<sup>(١)</sup>.

**المعنى :** [ الحوتكية ] : بجاء مهملة مفتوحة ثم واو ساكنة ثم تاء مثناة فوق قيل : هي عمة يتعممها الأعراب يسمونها بهذا الاسم ، وقيل : هو مضاف إلى رجل يسمى حوتكا كان يتعممها . والحوتك : القصير وقيل : هي حميصة منسوبة إليه وإلى القصر وهذا أظهر والله أعلم . [ ما ادخر ] : أى الذى كنز وعد ذخيرة لكم عند الله جل وعلا . [ ما زوى ] : أى ( خفى ) . [ ولتفتحن عليكم فارس والروم ] : أى والله ليفتح الله لكم بلاد فارس والروم فتدخلونها ظافرين وتحكمون أهلها فرحين مستشرين وتفوزون بشمرائها وتسعدون بخيراتها والمعنى أبشروا فالله سيكثر لكم الفتوح وتكونون سادة قادة .

٤٣ - وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بك وشهد أنى رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك وأقلل له من الدنيا ومن لم يؤمن بك ويشهد أنى رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر عليه من الدنيا . رواه أبى الدنيا والطبرانى<sup>(٢)</sup> وابن حبان فى صحيحه وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ورواه ابن ماجه من حديث عمرو بن عيلان الثقفى وهو مختلف فى صحبته قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أنى ما جئت به الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء . ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره .

**المعنى :** [ آمن بك ] : صدق بوجودك واعترف بالرسالة فأعنه على طاعتك ليشثاق إلى مناجاتك ويرضى بأفعالك ويقنع ويصبر ويحلم ويسعد . [ أقلل له من الدنيا ] : اجعل رزقه قليلاً ليتيسر له العكوف على عبادتك ولتبعد عنه مشاغل الدنيا ولهوها ولعبها وزينتها .  
دعاء مستجاب للمؤمن التقى :

( أ ) الطاعة ( ب ) الرضا ( ج ) الكفاف

والفاجر الشقى

( أ ) عدم الخوف من الله تعالى ( ب ) السخط والتبرم من الحوادث ( ج ) جشعه على ملذات الدنيا وجمع المال بلا أعمال صالحة .

٤٤ - وعن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت والموت خير من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب . رواه أحمد بإسنادين<sup>(٣)</sup> رواه أحدهما محتج بهم فى الصحيح ومحمود له رؤية .

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده ح ٤ ص ١٢٨ من رواية العرباض بن سارية .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه ح ١ ص ٢١٥ من رواية فضالة بن عبيد .

(٣) رواه الامام أحمد فى مسنده ح ٥ ص ٤٢٧ .

المعنى : [ الموت ] : الفناء والذهاب من الدنيا ولكن الموت خير من الاستمرار في المعاصي والخن والميل إلى الشهوات . [ قلة المال أقل للحساب ] : يوم القيامة يسأل الله تعالى عن المال فيم أنفق ؟ ومن أين أكتسبه ؟ وقتله تخفف الحساب وتجعل صحيفة الإنسان نقية بيضاء من الذنوب والمؤمن يتذكر دائماً الموت ويحب العيش الكفاف .

٤٥ - وروى عن أنى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قل ماله وكثرت عياله وحسنت صلاته ولم يغترب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معى كهاتيه<sup>(١)</sup> . رواه أبو يعلى والأصبهاني .

المعنى : [ عياله ] : أفراد أسرته . [ حسنت صلاته ] : صلاحها صلاة كاملة مستوفية الشروط والأركان والسنن . [ ولم يغترب المسلمين ] : ولم يذكر المسلمين بسوء . المعنى : الذى اتصف لصفات أربعة يجاور رسول الله ﷺ في الجنة ويكون مكانه قريباً منه عليه الصلاة والسلام . ( أ ) الزهد في الدنيا والرضا بعيشه والقناعة برزقه .

( ب ) رجل فيحب معيل منتج مثر يكد في حياته ، ويجمع لأهله وأولاده فيخدم أمتة بوجود أولاد بررة مصلحين عاملين .

( ج ) يؤدي الصلاة في أوقاتها تامة بخشوع .

( د ) يسلم المسلمون من لسانه ويده .

هذه أربعة خصال تجعلك قريباً من رسول الله ﷺ .

٤٦ - وعن أنى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره<sup>(٢)</sup> . رواه مسلم .

المعنى : [ أشعث ] : المبلد الشعر المغبر . [ أغبر مدفوع بالأبواب ] : أى لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقاراً له ولو حلف على وقوع أجاب الله سؤاله لعظم منزلته عند الله تعالى . اهـ النووى .

فعليك يا أخى بحجة الصالحين الزاهدين الورعين واطلب دعواتهم فإنها مستجابة كما قال ﷺ .

وفي الجامع الصغير ( أشعث ) ثائر الرأس مغبره قد أخذ فيه الجهد حتى أصابه الشعث وعلته الغيرة ويكرمه الله باجابة سؤاله وصيانتة من الخبث في يمينه . وقال الخفى أشعث : أى اشتغل بربه عن تعهد بدنه بالتنظيف حتى تغير لونه وشعث شعره ولو حلف بالله أو بنفسه بأن يقول والله أو وحياتى لابد من كذا وقيل المراد لو عبد الله لقبل عبادته فالقسم العبادة والبر القبول والأولى حمله على ظاهره فان أهل الدلال يقسمون عليه تعالى ملاحظين تلك النعمة التى أنعم بها عليهم من إجابتهم بعين ما طلبوا

(١) رواه مفتاح الترتيب لتاريخ الخطيب ح ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) رواه مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين ح ٤ ص ٢٠٢٤ رقم ١٣٨ / ٢٦٢٢ من رواية

أنى هريرة .

فقد نقل عن بعضهم أنه أراد أن يجمع زوجته فأخبرته بأن أولاده مستيقظون فدعا عليهم بالموت فماتوا جميعاً وكانوا سبعة فأخبر من هو أرقى منه بذلك فدعا عليه بالموت فمات وقال لو عاش لأمات ناساً كثيرين . وكان لسيدى أوى محمود الحنفى ولد ليس له غيره وكان إذا طلب من أحد شيئاً ولم يعطه قال له مت فيموت فدعا عليه أبوه فمات . نفعا الله بهم جميعاً .

٤٧ - وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول رب أشعث أغبر ذى طمرين مصفح عن أبواب الناس لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبراني<sup>(١)</sup> فى الأوسط ورواته رواة الصحيح إلا عبد الله بن موسى القيمي .

المعنى : [ أشعث ] : جعد الرأس ، [ أغبر ] : غير الغبار لونه . [ ذى طمرين ] : تشبه طمر وهو الثوب الخلق ( تبنى عنه أعين الناس ) أى ترجع وتغض عن النظر إليه احتقاراً له ( لو أقسم ) الانكسار وراثثة الحال والهيئة من أعظم أسباب الاجابة . ا.هـ . [ مصفح ] : معرض ولم يذهب إليها تعففاً وقناعة وزهادة . من أصفحة رده .

٤٨ - وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى من لو جاء أحدكم يسئله ديناراً لم يعطه ولو سألته درهماً لم يعطه ولو سألته فلساً لم يعطه فلو سأل الله الجنة أعطاها إياه ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبراني<sup>(٢)</sup> . ورواته محتج بهم فى الصحيح .

المعنى : [ إن من أمتى ] : أى يوجد فى أمتى أقعد يطلب من الناس فيحرم ، ولو طلب من ربه تعالى لأجابه ما هو أفضل وأبقى وهو النعيم المقيم . [ فلساً ] : الذى يتعامل به يقال أفلس الرجل كأنه صار إلى حال ليس له فلوس : كما يقال أقهر إذا صار إلى حال يقهر عليه . ا.هـ . ففيه الترغيب فى إكراه الفقير السائل وطلب دعواته رجاء الفوز بالجنة .

٤٩ - وعن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أغبط أوليائى عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال : عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه . رواه الترمذى<sup>(٣)</sup> من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم إلى أمانة ثم قال : وهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال : عرض على ربي ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشيع يوماً وأجوع يوماً أو قال : ثلاثاً أو نحو هذا فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن .

المعنى : [ أوليائى عندي ] : أى أن أحسن شيء يتمنى المؤمنون الاتقياء البررة أن ينال حظ ذلك الذى تحلى بخلال ستة :

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب ما جاء فى البله . من رواية أنس .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب فيمن لا يؤبه له .

(٣) رواه الترمذى فى صحيحه ح ٤ ص ٥ - ٦ رقم ٢٤٥١ كتاب الزهد باب ما جاء فى الكفاف والصبر عليه .

- ( أ ) ماله قليل .  
 ( ب ) يحسن الصلاة .  
 ( ج ) يخلص في العبادة .  
 ( د ) يميل إلى الأعمال الصالحة التي تفعل في السر .  
 ( هـ ) لا يحب الشهرة وإذاعة الصيت .  
 ( و ) عيشة كفاف خفيف الحساب .  
 [ في السر ] : بعيداً عن الرياء . [ غامضاً في الناس ] : يميل إلى العكوف في عقر داره .  
 [ كفافاً ] : الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة ومنه حديث عمر وددت أني سلمت من الخلافة كفافاً لا على ولا لي . [ نقر بيده ] : أى معه بيده الشريفة ﷺ وزاد من صفاته قرب منيته وقلة من ينعيه ويُرثيه وقلة الارث فيه الترويب بالاقبال على الذكر والتسبيح والطاعة والتقليل من زخارف الدنيا ما أمكن . [ بطحاء مكة ] : الحصى الصغار الموجودة في الجبال . لم يرض ﷺ بزهرة الدنيا لشدة قناعته وزهده وإعراضه عن الدنيا واختار ﷺ قليلاً يأكل يوماً فيشبع فيحمد ربه ويشنى عليه جل وعلا ، ولا يجد شيئاً يوماً فيجوع فيتضرع إلى ربه ويسأله سمو الدرجات وعظيم الرضوان ، وفي هذا المعنى يقول الإمام البوصيري يمدح النبي ﷺ :

ظلمت سنة من أحياء الظلام إلى	أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى	تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب	عن نفسه فأراها أيا شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته	إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من	لولا لم تخرج الدنيا من العدم

[ تضرعت ] : التجأت إليك طالبا بذل وخشوع . [ ذكرتك ] : سبحتك كثيراً .

٥٠ - وروى ابن ماجه والحاكم الحديث الأول إلا أنهما قالا : أغبط الناس عندي والباقي بنحوه<sup>(١)</sup> . قال الحاكم : صحيح الإسناد كذا قال : [ قوله : خفيف الحاذ ] بحاء مهملة وذال معجمة مخففة : خفيف الحال قليل المال .

المعنى : [ أغبط الناس عندي ] : أى أكثر الناس غبطة وفي النهاية غبطت الرجل أغبطه غبطا : إذا اشتيت أن يكون لك مثل ماله ، وأن يدوم عليه ما هو فيه ، وحسدته أحسدته حسداً إذا اشتيت أن يكون لك ماله وأن يزول عنه ما هو فيه ومنه الحديث « على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع واللهم غبطا لا هبطا » : أى أولنا منزلة نغبط عليها وجنبنا منازل الهبوط والضعفة وقيل معناه : نسألك الغبطة : وهى النعمة والسرور ونعوذ بك من الذل والخضوع . اهـ .

(١) رواه ابن ماجه في سننه ح ٢ ص ١٣٧٨ - ١٣٧٩ رقم ٤١١٧ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .

رواه الحاكم في مستدركه ح ٤ ص ١٢٣ كتاب الأطعمة .



٥١ - وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكي فقال : ما يبكيك ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الاتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة . رواه ابن ماجه والحاكم<sup>(١)</sup> واللفظ له وقال صحيح ، ولا علة له .

المعنى : [ اليسير ] : القليل من العمل لغير الله إشراك وإلحاد . [ عادى ] : حاربهم وآذاهم وقدم لهم كل شرك قال تعالى : ﴿ إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ . [ المحاربة ] : أظهر الله العداوة والعصيان من برز بروزاً : ظهر وبارز في الحرب مبارزة وبرازا فهو مبارز وبرز الرجل في العلم تبرزاً : برع وفاق نظراءه . [ لم يفتقدوا ] : لم يسأل عنهم لتواضعهم إلى ربهم لا يحبون المحافل التي تجتمع على غير طاعة الله تعالى . [ من كل غبراء مظلمة ] : ينجيهم الله تعالى من كل الفتن والظلمات كما في حديث على رضي الله عنه « يوشك أن تغشاكم دواجي ظلمه » أي ظلمها واحداها داجية أهـ . ولكن الصالحين يقيمهم الله شرور الدنيا بأنوار إيمانهم برهم قال تعالى :

( أ ) ﴿ قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ ١٢٠ من سورة النحل .

(ب) وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب ﴾ وشاهدنا الأبرار لا تنقطع محبتهم لله تعالى بخلاف محبة الأشرار الفساق أصحاب الشهرة والصيت الكاذب فأغراضهم لغير الله فاسدة لا ثواب لها .

(ج) وقال تعالى : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك ... الآية ﴿ من سورة البقرة .

ساقها الله للعقلاء الذين يتدبرون معنى القرآن ويعملون بأوامره فيعتزون به وحده . وشاهدنا النبراس الوهاج المتألىء . المضىء في قلوب من يتفكر في بدائع صنع الله .

### خلاصة أقواله ﷺ في التخشن والزهد في الدنيا وحب الفقراء

أولاً : تنجى قلة المال من شدائد يوم القيامة « عقبة » .

ثانياً : تسرع بالفوز ودرك النعيم « يصعدها الخفقون » .

(١) رواه الحاكم في مستدركه ح ١ ص ٤ كتاب الايمان .

رواه ابن ماجه في سننه ح ٢ ص ١٣٢٠ - ١٣٢١ كتاب الفتن باب من ترجى له السلامة من الفتن .

ثالثاً : مطية مسرعة ومركب وطىء وسيارة البهجة والسرور إلى طريق الجنة « ليست ذا دحض ومزلة » .

رابعاً : سبب إقبال الله تعالى على عبده الفقير وإغداقه بالرحمات وحفظه من الأكدار والهموم « حماه الدنيا » .

خامساً : بشره النبي ﷺ بدخول الجنة . وكان من السابقين « اطلعت في الجنة » .

سادساً : يفوز بالنعيم والفوز الذى وثق به سيدنا موسى عليه السلام واختاره الله لعبده الصالح « بفتح له باب الجنة فينتظر إليه قال موسى أى رب ما أعددت له » .

سابعاً : يسبق أهل المحشر ويشرب من حوضه ﷺ « أكثر وروداً عليه الفقراء المهاجرين » .

ثامناً : يسبق الفقير الغنى الصالح بسنين عديدة « أربعين أو خمسمائة »

تاسعاً : تستقبل الملائكة الفقراء باحتفال العز والسرور « يزفون كما تزف الحمام » .

عاشرأ : صحيفة الفقير نقية بيضاء من أوراق الدنيا لحفة ماله فيها « مؤمن فقير ومؤمن غنى » .

الحادى عشر : فاز الأصحاب بالسبق إلا سيدنا عبد الرحمن حتى قال ﷺ « لقد بطأ بك غناك من بين أصحابى » .

الثانى عشر : الفقير داخل فى زمرة دعوته ﷺ المستجابة « أحيى مسكيناً » .

الثالث عشر : حب الفقراء يجلب السعادة والنصر والصحة التامة والنعمة العامة « يستفتح بصعاليك » .

الرابع عشر : إكرامهم يدفع البلاء ويزيل كربوب الدنيا ويجلب النضارة كما فى حديث سيدنا يعقوب « فاصنع طعاماً للمساكين » .

الخامس عشر : حركات الفقير وسكناته وكل أعماله حسنة له « ألا أخبركم عن ملوك الجنة » .

السادس عشر : أفضل خلق الله الفقير « خير من ملء الأرض » .

الثامن عشر : أهل الصفة قال الله تعالى عنهم ﴿ أولئك فى ضعفائكم ﴾

التاسع عشر : وجود الفقير يوسع الرزق للمتفق عليه ﴿ ابغوني فى ضعفائكم ﴾

العشرون : الفقير سعيد ، لأنه اختار أن يجوع يوماً ويشبع يوماً مثل ما خير حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ « بطحاء مكة ذهباً » .

الحادى والعشرون : فليهنأ الفقير فأوقاته كلها فى طاعة وهى من دلائل رضوان الله ورحماته وهو مثل سيدنا رسول الله فى المعيشة « أشبع يوماً وأجوع يوماً » .

الثانى والعشرون : قلب الفقير الراضى ثرياً وضاءة وشمس مشرقة تتفتح لها ينابيع الحكمة « مصاييح الدجى » .

الثالث والعشرون : ترفرف عليهم شادات السعادة وراحة الضمير وهناءة الحياة « إن غابوا لم يفتقدوا » فتجسد حقارة الدنيا عندهم محققة لا يهتمهم زخارفها ولا يعتنون بمشاغلها ، رضى الله عنهم وحشرنا في زمريتهم كما قال سيدنا سليمان عليه السلام ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ . ١٩ من سورة النمل .

أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأن أوفق للعمل بكتابك إتماماً للشكر واستدامة للنعمة يارب ، وقال تعالى :

( أ ) ﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ ( ٧٤ ) \* والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ . من سورة الأنفال . أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

( ب ) قال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ ٢١٨ من سورة البقرة .

( ج ) وقال تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ٢١٢ من سورة البقرة

الترغيب في الزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالقليل ، والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس وبعض ماجاء في عيش النبي ﷺ في المأكل والملبس والمشرب ونحو ذلك :

عن سهل بن سعد الساعدي رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ؟ فقال : ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس . رواه ابن ماجه<sup>(١)</sup> وقد حسن بعض مشايخنا إسناده

المعنى : [ أحبنى الله ] : رضى عنى وقبل عملى وأسعدنى . [ أحبنى الناس ] : اكرموني وزادوني في احترامى . [ ازهد في الدنيا ] : ارض بقليل الشيء فيها ولا تكثر من حطامها ولا تحب زخارفها وارغب عن زيتها وأقبل على ربك بالعبادة وفي النهاية « أفضل الناس مؤمن مزهد » المزهد القليل الشيء . وحديث الزهري سئل عن الزهد في الدنيا فقال : هو أن لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره . أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ولا صبره عن ترك الحرام . [ وازهد فيما في أيدي الناس ] : أى لا تنظر إلى مافى أيدي الناس وفي الجامع الصغير ( ازهد ) أى

(١) رواه ابن ماجه في سننه ح ٢ ص ١٣٧٣ - ١٣٧٤ كتاب الزهد باب الزهد في الدنيا .

أعرض عنها بقلبك ولا تحصل منها إلا على ما تحتاج إليه ( يحبك الله ) لأن الله تعالى يحب من أطاعه وطاعته لا تجتمع محبة الدنيا لأن حبها رأس كل خطيئة ( وازهد فيما في أيدي الناس ) أى فيما عندهم من الدنيا ( يحبك الناس ) قال المناوى لأن طباعهم جعلت على حب الدنيا ومن نازع إنسانا في محبة قلاه : ومن تركه له أحبه واصطفاه . قال الدارقطنى : أصول الحديث أربعة هذا منها .

وقال الحنفى : الزهد لغة لترك الشيء إحتقاراً له سواء كان محتاجاً له أولاً واصطلاحاً : ترك ما زاد على حاجته من الحلال والورع ترك الحرام والشبهة في الدنيا : أى الشاغلة عن طاعة الله تعالى المترتب عليها ضياع حقوق الخلق والحق وهى المعنية بحديث « تعس عبد الدينار » الخ وحديث « الدنيا ملعونة » الخ ... أما المعينة على الطاعة فمدوحة كما في حديث « نعمت الدنيا مطية المؤمن ، المؤمن بها يصل إلى الخير وينجو من الشر » . قال المناوى : وليس من الزهد ترك الجماع فقد قال سفيان بن عيينه كثرة النساء ليست من الدنيا فقد كان على كرم الله وجهه أزهد الصحابة وله أربع زوجات وتسع عشرة سرية . وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء ، وكان الجنيد شيخ القوم يحب الجماع ويقول إني أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى الطعام . ( يحبك الناس ) ولذا قيل لأهل البصرة ، من سيدكم ؟ فقالوا الحسن البصرى فقيل : فيم سادكم ؟ فقالوا احتجنا لعلمه واستغنى عن دينانا .

حديث بديع جمع التربية الدينية والدنيوية فيغرس في قلب المؤمن القناعة والرضا والصبر والحلم والكرم والإنفاق في الخير وتشديد المحامد والחסن فيبعد عن اللهو والطمع والشر والبخل وهكذا من صفات المطرودين من رحمة الله تعالى وكلما زاد الإيمان بالله أقبل العبد على الطاعات وقلل من الدنيا وجعلها سوقاً رابحة نافعة لإيجاد صالح الأعمال فيها وفرصة سانحة لفعل المكرمات . وانظر رعاك الله إلى حال الكفار ، والفجار الذين غفلوا عن طاعة الله تعالى وسروا بنعيم الدنيا وبما بسط لهم فيها وقد حكى الله جل جلاله حادتهم ﴿ الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ ٢٦ من سورة الرعد .

نعمة الدنيا فانية وماهى بجانب النعيم الباقي إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى قال البيضاوى : والمعنى أنهم أثروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغترؤا بما هو في جنبه نزر قليل النفع يسرع الزوال . ١هـ

٢ - وعن إبراهيم بن أدهم قال : جاء رجل إلى النبی ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل يحبني الله عليه ويحبني الناس عليه ؟ فقال : أما العمل الذى يحبك الله عليه فالزهد في الدنيا وأما العمل الذى يحبك الناس عليه فانبذ إليهم ما في يديك من الحطام . رواه ابن أبى الدنيا<sup>(١)</sup> هكذا نعضلها ، ورواه بعضهم عنه عن منصور عن ربعى بن حراش قال : جاء رجل . فذكره مرسلًا .

(١) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ح ٤ ص ١٥٧ كتاب الترغيب في الزهد في الدنيا والاكتفاء منها بالقليل والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس .

**المعنى :** [ فأنبذ إليهم ما في يديك من الحطام ] : أى أظهر السخاء والجود واجعل ما معك سهل الجنى قريب الفائدة يعود عليهم بالخير والبركة . ولسعيد بن حميد :

تمتع من الدنيا فانك فاني وإنك في أيدي الحوادث عاني  
\*\*\*\*\*

لعمري لمقدما عضنى الجوع عضه      فآليت أن لا أصنع الدهر جائعاً  
فقلوا لهذا اللائمى اليوم أعفنى      فان أنت لم تفعل مغض الأصابعاً

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الزهد فى الدنيا يريح القلب والجسد رواه الطبرانى<sup>(١)</sup>.

**المعنى :** [ الزهد فى الدنيا ] : التقلل من جمع المال يسبب راحة الضمير وسعادة الحياة ويترد الهموم ويبعد المشاغل والوساوس ويعطى الجسم الراحة التامة .

٤ - وعن الضحاك رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول من أزهّد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غداً فى أيامه وغد نفسه من الموتى . رواه أبى الدنيا مرسلاً<sup>(٢)</sup>.

**المعنى :** [ يا رسول الله من أزهّد الناس ] : استفهام عن أكثر الناس قناعة وزهادة وفى الجامع الصغير : أى أكثرهم زهداً فى الدنيا . [ لم ينس القبر ] : يعنى الموت ونزول القبر ووحدته ووحشته وسؤال الملكين وظلمته فيستعد له بزرع الأعمال الصالحة فى حياته ليجنبها بعد مماته . [ البلى ] : الفناء والاضمحلال والتغير والانتقال من دنيا إلى أخرى سنة الله فى خلقه . [ زينة الدنيا ] : مع إمكان نيلها ما جتنب الزخرفة والبهجة وكمل باطن نفسه بآداب الشرع . [ وآثر ما يبقى على ما يفنى ] : اختار الآخرة وما ينتفع بها على الدنيا وما فيها . ترك الشهوات وأقبل على الطاعات . اجتنب مجالس السوء ورغب فى مجالس الذكر والعلم وصاحب الأبرار الأخبار . [ لم يعد غداً فى أيامه ] : جعل الموت نصب عينيه على توالى اللحظات فيسرع فى أداء حقوق الله وسداد الدين وترك المظالم ويبيض صحيفته بكثرة الاستغفار والصلاة على المختار وذكر الجبار القهار الغفور الوهاب . قال الشاعر أبو الفتح البستي يبين هوان الدنيا على الصالحين الذين فهموا لباب الدين :

زيادة المرء فى دنياه نقصان      وربحه غير محض الخير خسران  
وكل وجدان حظ لا ثبات له      فان معناه فى التحقيق فقدان  
يا عامراً لخراب الدهر مجتهداً      بالله هل لخراب العمر عمران

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا ح ١٠ ص ٢٨٦ .

رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ح ٤ ص ١٥٧ - ١٥٨ كتاب الترغيب فى الزهد .

(٢) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ح ٤ ص ١٥٧ - ١٥٨ فى كتاب الزهد فى الدنيا .

ويا حريضاً على الأموال يجمعها  
دع الفؤاد من الدنيا وزينتها  
وارع سمعك أمثالاً أفصلها  
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم  
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته  
أقبل على النفس واستكمل فضائلها  
وكن على الدهر معاوناً لذى أمل  
وأشد يدك بحبل الله معتصماً  
من يثق الله يحمده في عواقبه  
من استعان بغير الله في طلب  
من كان للخير مناعاً فليس له  
من جاد بالمال مال الناس قاطبة  
كن ريق البشر إن الحرهته  
ورافق الرفق في كل الأمور فلم  
ولا يغرنك حظ جبره حزن  
لا ظل للمرء يعرى من نهى وتقى  
يا ظالماً فرحاً بالعز ساعده  
يا أيها العالم المرضى سيرته  
ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج  
لا تحسبني سروراً دائماً أبداً  
يا رافلاً في الشباب الوصف منتشياً  
ويا أخا الشيب لو نأ صمت نفسك لم  
وكل كسر فإن الدين يجبره

أنسيت أن سرور المال أحزان  
وضفوها كدر والوصل هجران  
كما يفصل ياقوت ومرجان  
فظالما استعبد الإنسان إحسان  
أطلب الربح مما فيه خسران  
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان  
يرجو نذاك فإن الحر معوان  
فإنه الركن إن خانتك أركان  
ويكفه شر من عزو ومن هانوا  
فإن ناصره عجز وخذلان  
على الحقيقة إخوان وأخذان  
إليه والمال للإنسان فتان  
صخيفة وعليهما البشر عنوان  
يندم رفيق ولم يذمه إنسان  
فالحن هدم ورفق المرء بنيان  
وإن أطلت به أوراق وأفنان  
إن كنت في سنة فالدهر يقظان  
أبشر فأنت بغير المساء ريان  
فأنت ما بينها لا شك ظمان  
من سره زمن ساءت أزماني  
من كأسه هل أصاب الرشد نشوان  
يكن لمثلك في الإسراف إمعان  
وما لكسر قناة الدين جيران

٥ - وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل ناجي موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل وكان فيما ناجاه ربه أن قال : يا موسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي قال موسى : يارب البرية كلها ويا مالك يوم الدين ويا ذا الجلال والإكرام : ماذا أعددت

لهم وماذا جزيتهم قال : أما الزهاد في الدنيا فإنني أبحثهم جنتي يتبعون منها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون فإنني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم فأدخلهم الجنة بغير حساب وأما البكاؤون من خشيتي فأولئك لهم لرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . رواه الطبراني والأصبهاني<sup>(١)</sup>.

**المعنى :** [ مقتهم ] : أبغضهم أشد البغض عن أمر قبيح المعنى أنكر هذا الصوت المنكر منهم إزاء صوت الرب جل وعلا . [ يتصنع لى ] : يفعل ما فيه رضاى ويتزلف إلى ويتقرب . [ الزهد ] : الرغبة عن زينتها والتقلل من التعب في جمع مالها . [ الورع ] : البعد عن الشبهات وتحرى الحلال . [ البكاء من خشيتي ] : الخوف من عقابه جل وعلا والشوق إلى ثوابه . [ يارب البرية ] : سيد العالم أجمع وخالقها . [ أبحثهم جنتي ] : جعلتها مباحة . [ فإنني أستحييهم ] : أترك سؤالهم حبا في حياتهم . [ الرفيق الأعلى ] : أعلى مكان في الجنة ( الفردوس ) .

٦ - وروى عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما تزين الأبرار في الدنيا بمثل الزهد في الدنيا<sup>(٢)</sup> . رواه أبو يعلى .

**المعنى :** [ ما تزين الأبرار ] : تحلى وتجعل وتكمل .

٧ - وروى عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم من يزهد في الدنيا فادنوا منه فإنه يُلْقن الحكمة . رواه أبو يعلى .

**المعنى :** [ فادنوا منه ] : تقربوا إليه وجالسوه فإنه يلهم الصواب ويلقن الرشاد ويقول الحق . قال المناوى : أى يعلم دقائق الاشارات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوى ا.هـ .

وفي الجامع الصغير في تفسير قوله تعالى : ﴿ يُوْقَى الْحِكْمَةَ مِنْ يَشَاء ﴾ . أى العلم النافع المؤدى إلى العمل ، قال العلقمى قال سفيان بن عيينة : الزهد ثلاثة أحرف زأى وهاء ودال . فالزأى ترك الزينة والهاء ترك الهوى والدال ترك الدنيا بجملتها . وحقيقة الزهد الشرعية استصغار الدنيا بجملتها واحتقار جميع شأنها فمن كانت الدنيا عنده صغيرة حقيرة هانت عليه فالزاهد هو المستصغر للدنيا المحتقر بها الذى انصرف قلبه عنها تصغر قدرها عنده ، ولا يفرح لشيء منها ولا يحزن على فقدده ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على طاعة ربه ويكون مع ذلك دائم الشغل بذكر الله تعالى وذكر الآخرة .

قال الفضيل بن عياض : جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها .

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير ح ١٢ ص ١٢٠ - ١٢١ رقم ١٢٦٥٠ من رواية بن عباس .

رواه مجمع الزوائد للهيثمي ح ١٠ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمي ح ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء في الزهد في الدنيا .

(٣) رواه مجمع الزوائد للهيثمي ح ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء في الزهد في الدنيا .

وقال أحمد وسفيان الثوري وغيرهما : الزهد قصر الأمل .

وقال ابن المبارك : الزهد الثقة بالله . وقال أبو سليمان الداراني : الزهد ترك ما يشغل عن الله .

١.هـ.

٨ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا أعلمه إلا رفعه قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل . رواه الطبراني<sup>(١)</sup> وإسناده محتمل للتحسين ومثته غريب .

المعنى : [ أول ] : أول وجود الاسلام وفي زهرته وفتوته . [ اليقين ] : سكون الفهم مع ثبات الحكم مع الثقة بوجود الله والتوكل عليه جل وعلا وعقد العزيمة على طاعته والتفاني في الإخلاص له عز شأنه . [ البخل ] : التقصير في أداء الحقوق وعدم الانفاق في وجوه البر . [ الأمل ] : التسويف في الأعمال الصالحة وحب المال إلى درجة الميل إلى تشييد القصور ووفرة الخيرات مع الترف والبذخ .

٩ - وروى عن أنس رضي الله عنه يرفعه قال : ينادى مناد : دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها . من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر . رواه البزار<sup>(٢)</sup> ، وقال : لا يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه .

المعنى : [ أخذ حتفه ] : هلاكه ، معناه الذي يسلم نفسه لمطامع الحياة والاسترسال في آمال جنى الأموال وقع في الهاوية ولا يدرى لماذا ؟ لأن أعمال الدنيا خالية من الثواب المدخر له بعد مماته فمهما جمع من زخارف الدنيا ومات لا ينفعه شيء إلا إذا شيد بماله قصور الصالحات التي أعد الله أجرها للمحسنين :

هي الدنيا تقول بملء فيها حذار حذار من بطش وقتكى

\*\*\*\*\*

شباب بلا تقوى كفص بلا جنى يرى غير مأسوف عليه فيحطب

١٠ - وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خير الذكر الخفي وخير الرزق أو العيش ما يكفي ، الشك من ابن وهب . رواه أبو عوانه<sup>(٣)</sup> وابن حبان في صحيحهما والبيهقي .

المعنى : [ الذكر الخفي ] : أى أفضل العبادة التي تصدر من مطيع بعيد عن الرياء وحب الظهور والشهرة . [ ما يكفي ] : الذي يسد الحاجة ويبعد الجوع .

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب مجاء في الزهد في الدنيا .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار للحافظ الهيثمى ح ٤ رقم ٣٦٩٥ ص ٢٧٠ باب هوان الدنيا .

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه ح ٢ ص ٨٩ - ٩٠ رقم ٨٠٦ باب ذكر بيان بأن ذكر العبد ربه جل وعلا بينه وبين نفسه أفضل من ذكره بحيث يسمع صوته .



١١ - وعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . رواه مسلم والنسائي<sup>(١)</sup> . وزاد : فما تركت بعد فتنة أضر على الرجال من النساء .

**المعنى :** [ حلوة ] : طعم جمع المال فيها لذيذ تميل النفس إلى زيتها ، يقال حلا بضمى يحلو . [ خضرة ] : نضرة زاهرة ذاهية . وفي البخارى فى باب المنافسة فى الدنيا قوله ﷺ « أحشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا » قال القسطلانى : فيه أن المنافسة فى الدنيا قد تجر إلى الهلاك فى الدين . اهـ . وفى باب فضل النفقة فى سبيل الله تعالى قوله ﷺ « خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل » . قال القسطلانى : خضرة من حيث المنظر ، حلوة من حيث الذوق ، نعم المال لمن جمعه من حلال وأنفقه فى جميع أنواع الخير . [ مستخلفكم فيها ] : جاعلكم أولياء خلفاء فى إنفاق المال تتصرفون فيه تصرف المالك وفى الحقيقة الله تعالى المنعم المعطى الوهاب الرزاق ، قال تعالى : ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ٧ سورة الحديد .

قال البيضاوى من الأموال التى جعلكم الله خلفاء فى التصرف فيها فهى الحقيقة له لا لكم أو التى استخلفكم عن قبلكم فى تملكها والتصرف فيها وفيه حث على الانفاق وتهوين له عن النفس . اهـ .

[ فاتقوا الدنيا ] : احذروا الدنيا وابتعدوا عن ميل النساء واخشوا أن يمنعن عن طاعة الله ، فاتقوا الدنيا . يأمرنا ﷺ باليقظة والحذر من ثنتين :

( أ ) الدنيا لأنها رأس كل خطيئة وسبب كل نقص وحجب يجر الغفلة عن ذكر الله ومشاغلا جملة تلهى عن الله .

( ب ) النساء لأنهن شرك الفتن وحباثل الشيطان قد يسبين قطيعة الرحم أو يمنعن فعل الخير أو يكن لاهيات لاعبات مائلات عميلات لضعفاء الايمان وقد تقدم ثنتان فى الحديث هما سببان قويان فى نصر الاسلام واشراق شمسهِ وبلوغ أوج عزه وطلوع كواكب نجمه متألقه فى سماء الرفعة والمجد : هما الزهد واليقين .

[ أضر ] : أكثر اضراراً . يحذر ﷺ من الميل إلى حب السيدات وإرخاء العنان لطلبائهن بلا تحكم الشرع بينهن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ كُنْ عَظِيمٌ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

كم شخص حن إلى المرأة فمال إليها وعصى الله فى طاعتها فدعته إلى فراق شقيقه وغضب قريبه

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه ح ٤ ص ٢٠٩٨ رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الرقاق .

والاعتكاف من غشيان الملائكة والتمتع لشراب الخمر وأكتب هذا وفي يدي صحيفة تنبئ عن رجل موظف يعول أسرة كبيرة كباراً وصغاراً ولكن أحب فتاة وراودها عن نفسها ولمس عفافها فحملت سفاحاً ثم وضعت ولداً وقبل أن يظهر أمرها للنيابة ذهب إلى مقر وظيفته وودع رئيسه وزملاءه وذهب إلى بيته فقبل أولاده الصغار وقال لهم إني سأموت ودخل في حجرة وأحكم إقفال نوافذها ووجه فوهة البندقية على عنقه وانتحر فميت أطفاله . لماذا ؟ خشي الفضيحة من عاره ولطخ جبين الانسانية بهتك عرض المرأة . ولقد صدق من قال : فتش عن المرأة فإن لها في كل جناية أصبعاً .

[ على الرجال من النساء ] : قال العلقمي : في الحديث إن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ويشهد له قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء ﴾ سورة آل عمران . فجعلهن من عين الشهوات وبدأهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك . ويقع في المشاهدة حب الرجل ولده من امرأته التي هي عنده محبوبة أكثر من حبه ولده من غيرها ومن أمثلة ذلك قصة النعمان ابن بشير في الهبة وقد قال بعض الحكماء : النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن . ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين بشغله عن طلب أمور الدين وتحمله على التهلكة على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد . وقد أخرج مسلم من حديث أبي سعيد في أثناء حديث « واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » اهـ .

النساء أساس الخصومة بين المتحايين ومنبع الجرائم بين الأشرار والداء العضال الذي أعيا المصلحين الأطباء في علاج الاتحاد والتآلف والتوادم والتحابب . هذا في العموم . ولا يخلو كل عصر من فضليات النساء اللاتي هن اليد الطولى في تشييد قصور المحاق وإيجاد صالحات الأعمال وكن المثل الأعلى في التربية السامية والكمال والآداب وأنجبن بنين وخدمن الوطن والدين أمثال السيدة خديجة والسيدة عائشة ومن على شاكلتهما وحذا حذوهما إلى الآن وبذا قال الشاعر :

ولنو كان النساء كمثل هذى لفضلت النساء على الرجال

وقالت أخرى تبين فوائدها في العالم

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهي شم الرياحين

١٢ - وعن عمرة بنت الحارث رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورُب متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة . رواه الطبراني<sup>(١)</sup> بإسناد حسن

المعنى : [ بحقها ] : جمع فيها المال الحلال من وجوه شريفة وطرق شرعية . [ متخوض ] : أصل الخوض المشى في الماء وتحريكه ثم إستعمل في التلبس في الأمر والتصرف فيه : أى رب متصرف

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير حـ ٢٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ من رواية عمرة بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية .

رواه مجمع الزوائد للهيتمي حـ ١٠ ص ٢٤٧ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة من رواية عمرة بنت الحارث .

في مال الله تعالى بما لا يرضاه الله تعالى والتخوض تفعل منه وقيل هو التخليط في تحصيله من غير وجهه كيف أمكن . اهـ .

المعنى أن الدنيا محبوبه مائلة إلى زينتها النفس ومشتاقة إلى كثرة خيراتها ولكن يختار المؤمن حلالها وطبها ليعمل صالحا به والفاجر العاصي يستعمل هذه النعم في شهواته فيهوى بها في جهنم ، لأن الذي وهب له هذه النعم سيحاسبه عليها وهل عمل بها حسب شرع حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ ؟

١٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتته نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار . رواه الطبراني في الكبير<sup>(١)</sup> ورواه ثقات .

المعنى : [ متخوض ] : تارك العنان لنفسه تدله على المعاصي وترتكب الشهوات الذميمة فينفق في وجوه الشرور والعصيان وعقابه دخول جهنم والعياذ بالله تعالى .

١٤ - وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قضى نهمته في الدنيا حيل بينه وبين شهواته في الآخرة ومن مد عينيه إلى زينة المترفين كان مهينا في ملكوت السموات ومن صبر على القوت الشديد صبرا جميلا أكنه الله من الفردوس حيث شاء . رواه الطبراني في الأوسط والصغير<sup>(٢)</sup>

المعنى : [ قضى نهمته ] : أى أدرك طلب نفسه وذاق حلاوة ما يتمنى في حياته . وفي النهاية النعمة : بلوغ الهمة في الشيء ومنه النهم من الجوع . [ حيل ] : بعد . [ مد عينيه إلى زينة المترفين ] : أى نظر إلى رغد المنعمين واطلع على خيراتهم وأن تضجر وحسد ولم يصبر على ما أعطاه الله تعالى . [ كان مهينا ] : واقعة عليه كل إهانة وأذى من الملائكة البررة . وفي النهاية ملكوت اسم مبنى من الملك كالجبروت والرهوت من الجد والرهبة . [ ومن صبر ] : حبس نفسه على تحمل الجوع وقنع برزقه ورضى بالقليل ملكه الله أعلى جهة في الجنة يتمتع بنعيمها جزاء صبره في حياته .

١٥ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لا يصيب عبد من الدنيا شيئا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريما . رواه ابن أبي الدنيا وإسناده جيد وروى عن عائشة مرفوعا والموقوف أصح .

المعنى : [ لا يصيب ] : لا ينال العبد شيئا من خيرات الدنيا إلا حاسبه الله عليه وأخذ منه درجات سامية كانت له في آخرته .

١٦ - وروى عن ثوبان رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما يكفيني من الدنيا ؟ قال

(١) رواه مجمع الزوائد للهيتمي ح ١٠ ص ٢٤٦ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيتمي ح ١٠ ص ٢٤٨ كتاب الزهد باب فيمن أخذ الدنيا — باب منه « من رواية البراء بن عازب .

ما سد جوعتك ووارى عورتك وإن كان لك بيت يظلك فذاك وإن كانت لك دابة فبخ . رواه الطبراني <sup>(١)</sup> في الأوسط .

المعنى : [ وارى ] : ستر . وعورة الرجل ما بين السرة وركبة وعورة المرأة جميع جسمها إلا وجهها وكفيها . [ فذاك ] : هذا كافيك . [ فبخ ] : كلمة تقال عند المدح والرضا اهـ . أى العاقل يطلب في حياته :

( أ ) ما يقيه شر الجوع .

( ب ) ما يكنه وقيه شر الحر والبرد ويغطي سوءته .

( ج ) مركب وطىء سهل يجلب له الراحة ويوفر عليه التعب . ومازاد على ذلك ينفقه في وجوه البر ادخارا عند الله جل وعلا .

١٧ - وعن أنى عسيب رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بى فدعانى فخرجت إليه ثم مر بأبى بكر رحمه الله فدعاه فخرج إليه فخرج إلى فأنطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : أطعمنا فجاء بعذق فوضعه ، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب فقال : لتسئلن عن هذا يوم القيامة . قال : فأخذ عمر رحمه الله العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسر قبل رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا رسول الله إنا لمستولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : نعم إلا من ثلاث : خرقه كف بها عورته أو كسرة سد بها جوعته أو حجر يدخل فيه من الحر والقر . رواه أحمد <sup>(٢)</sup> ورواته ثقات .

المعنى : [ فأنطلق حتى دخل حائطا ] : أتى حائطاً والحائط ههنا : البستان من النخيل إذا كان عليه حائط وهو الجدار وجمعه حوائط . [ بعذق ] : العرجون بما فيه من الشماريح . [ لتسئلن عن هذا ] : والله ليسألكم عن هذه الأكلة الجميلة الحلوة البديعة . [ البُسر ] : التمر ، تغرق أمام حضرته ﷺ . [ إلا من ثلاث خرقه ] : قطعة من نسيج تستر العورة ، أو قطعة من [ خبز ] : تطرد الجوع . [ أو حجر يدخل ] : والمعنى بيت على قدر منع الحر والبرد فقط ومازاد عن هذه الثلاثة يحاسب الله عليها حساباً عسيراً ففيه الترغيب في طلب ثلاثة على قدر الحاجة الواقية :

٣ - منزل

٢ - طعام

١ - ملابس

١٨ - وعن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : ليس لابن آدم حق إلا في هذه الخصال : بيت يكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء . رواه الترمذى والحاكم وصحاحه والبيهقى <sup>(٣)</sup> ولفظه : قال رسول الله ﷺ : كل شيء فضل عن ظل بيت وكسر خبز وثوب يوارى

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى ح ١٠ ص ٢٥٤ كتاب الزهد باب ما يكفى ابن آدم من الدنيا .

(٢) رواه أحمد في مسنده ح ٥ ص ٨١ . من رواية أنى عسيب .

(٣) رواه الحاكم في مستدركه ح ٤ ص ٣٢١ كتاب الرقاق .

رواه الترمذى في سننه ح ٤ ص ٣ رقم ٢٤٤٤ كتاب الزهد باب ماجاء في الزهادة في الدنيا .

عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق . قال الحسن : فقلت لحمران : ما يمنعك أن تأخذ ؟ وكان يعجبه الجمال يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بي

المعنى : [ الجلف ] : بكسر الجيم وسكون اللام بعدهما فاء : هو غليظ الخبز وخشنه وقال النضر بن شميل : هو الخبز ليس معه إدام . [ فضل ] : زيادة داعية إلى الترف يسأل الله معطيها فيم استعملها .

١٩ - وعن أبي عبد الرحمن الجبلى قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألسنت من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال فأنت من الأغنياء . قال : فإني لى خادماً ؟ قال : فأنت من الملوك رواه مسلم<sup>(١)</sup> موقوفاً .

المعنى : [ ألك امرأة ] : زوجة ترجع إليها من عملك فتجد قرة عين وسرورا وحياة سعيدة . [ ألك مسكن ] : منزل تسكنه .

والمعنى ثنتان ملكتهما فعذك الله من الموسرين الأغنياء :

( أ ) زوجية .

( ب ) بيت ، والثالثة خادم يقضى له حاجاته لراحته فعده ﷺ من الملوك . .

٢٠ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ما فوق الإزار وظل الحائط وحر الماء فضل يحاسب به العبد يوم القيامة أو يسأله عنه . رواه البزار<sup>(٢)</sup> ورواته ثقات إلا ليث بن أبي سليم وحديثه جيد فى المتابعات .

المعنى : [ ما فوق الإزار ] : الرداء : أى الزائد عن ستر العورة . [ فضل ] : زيادة عن حق العبد يسأل عن نعيمها .

٢١ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يحاسب العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصح لك جسمك وأروك من الماء البارد . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم<sup>(٣)</sup> وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [ ألم أصح لك جسمك ] : ألم أعطك صحة ونضارة وأزِيل ظمأك ؟

٢٢ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : إن أردت اللحق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقيعه . رواه الترمذى والحاكم والبيهقى من طريقها وغيرها كلهم من رواية صالح بن حسان .

(١) رواه مسلم فى صحيحه ح ٤ ص ٢٢٨٥ رقم ٣٧ / ٢٩٧٩ .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار ح ٤ ص ٢٤٧ رقم ٣٦٤٣ باب فيما يسأل العبد عنه .

(٣) رواه الترمذى فى سننه كتاب اللباس باب ما جاء فى توقيع الثوب ح ٣ ص ١٥٥ رقم ١٨٣٩ .

المعنى : [ اللحق بي ] : مرافقتي في الجنة . [ كزاد الراكب ] : قدر زاد المسافر . [ وإياك ومجالسة الأغنياء ] : احذرى مجالسة أصحاب الأموال والثروة . [ ولا تستخلفى ثوباً ] : ولا تأتى بثوب جديد .

ثلاثة تقربك إلى رسول الله ﷺ .

( أ ) التقليل من الدنيا

( ب ) مجالسة الفقراء لا المنعمين .

( ج ) التخش والتقشف والقناعة والزهد في الملبس .

٢٣ - وعن أبي سفين عن أشياخه قال : قدم سعد على سلمان يعوده قال : فبكى فقال سعد : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ توفي رسول الله ﷺ وهو عنك راضي ، وترد عليه الحوض وتلقى أصحابك ، فقال : ما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً قال : لتكون بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب وحول هذه الأساود ، قال : وإنما حوله إجانة وجفنة ومطهرة فقال : يا سعد : أذكر الله عند همك إذا هممت وعند يدك إذا قسمت وعند حكمك إذا حكمت . رواه الحاكم<sup>(١)</sup> وقال : صحيح الإسناد كذا قال : ( قوله : وهذه الأساود حول ) قال أبو عبيد أراد الشخص من المتاع وكل شخص سواد من إنسان أو متاع أو غيره .

المعنى : [ ما أبكى جزعاً ] : خوفاً . [ ولا حرصاً على الدنيا ] : شدة الطمع . والمعنى يبكي سليمان خشية أن يسأله ربه عن هذه الأشياء التي تركها :

( أ ) طست ( ب ) ما يوضع عليه الطعام ( ج ) إبريق

[ بُلْعُهُ ] : ما يتبلغ ويتوصل به إلى الشيء المطلوب . [ إجانة ] : إناء يغسل فيه الثياب والجمع أجاجين . [ جفنة ] : مائدة والعرب تدعو السيد الطعام جفنة ، لأنه يضعها ويطعم الناس فيها : أى مضيفة للجدود والاحسان . [ مطهرة ] : إداوة أى إناء التطهير والنظافة . [ همك ] : عزمك على إيجاد عمل . [ قسمت ] : وزعت : أى سو بالعدل وفرق بالحق . [ حكمت ] : إذا حضرت النزاع بين متخاصمين فاعدل .

٢٤ - وعن أنس رضى الله عنه قال : اشتكى سلمان فعاده سعد فرآه يبكى فقال له سعد : ما يبكيك يا أخى ؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ ، أليس ، أليس ؟ قال سلمان : ما أبكى واحدة من اثنتين وأبكى خضاً على الدنيا ولا كراهية الآخرة ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ما أرانى إلا قد تعديت . قال : وما عهد إليك ؟ قال عهد إلينا أنه يكفى أحدكم مثل زاد الراكب ، ولا أرانى إلا قد تعديت ، وأما أنت يا سعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت وعند قسمك إذا قسمت : وعند همك إذا هممت قال ثابت : فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما مع نفقة كانت عنده . رواه ابن ماجه<sup>(٢)</sup> ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده .

(١) رواه الحاكم في مستدركه ح ٤ ص ٣١٧ كتاب الرقاق .

(٢) رواه ابن ماجه في سننه ح ٢ ص ١٣٧٤ رقم ٤١٠٤ كتاب الزهد باب الزهد في الدنيا .

( قال الحافظ ) : وقد جاء في صحيح ابن حبان أن مال سلمان رضى الله عنه جمع فبلغ خمسة عشر درهما ، وفي الطبراني : أن متاع سلمان يبيع فبلغ أربعة عشر درهما .

المعنى : [ ضناً ] : بخلاً من ضمن ضنانه .

إن الانسان خلق ليعمل في هذه الحياة ويجد في جنى ثمار الصالحات بما كسبت يده فلا يمنع الزهد أن يتقن الموظف عمله أو يحترف الصانع أو يبيع التاجر ليربح وهكذا قاله تعالى يقول : ﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾

وهذا الشاعر نفسه تطمح إلى المعالي بكده وعرق جبينه ، يقول المتنبي :

ليس التعلل بالآمال من أرى	ولا القناعة بالإقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى	حتى تسد عليها طرقها همى
والليالى التى أحننت على جدى	بحرقنة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناساً ومحصول على غنم	وذكر جود ومحصول على الكلم

[ بنات الدهر ] : أى حوادثه . [ محصول ] : أى حصول على مواعيد .

فيريد أن المجد يرقى إلى العلياء بكده ويكسب المال بعرق جبينه ولا يرضى الصغائر :

لا تركن إلى الهوى	واحذر مفارقة الهوى
يومما تسير إلى الثرى	ويفوز غيورك بالثراء

ينهى الشاعر عن اتباع الشهوات ، ثم يحيب الانسان إلى التمتع بخيرات الدنيا في وجوه الحلال ويرغبه بتشديد الصالحات ذخرا له بعد مماته ( والباقيات الصالحات خير ) .

قد عضنى نار النوائب	ورأيت آمالى كـواذب
والمرء يعشق لذة الد	نيافتقه المصائب
وإذا تفرق درهما	زنته حين يلذ الشارب

\*\*\*\*\*

لا تجرد بالعطاء في غير حق	ليس في منع غير ذى الود بخل
إنما الجود أن تجود على من	هو للجود والندى منك أهل

إن الذى يرغب فى الزهد — عليه السلام كان راعى غنم فى إبان صغره . ثم تاجر فربح مالا وفيرا ثم عكف على طاعة ربه حتى اصطفاه الله لرسالته فكان ملكا عادلا ورسولا أدى الرسالة بأمانة وشجاعة ، وكان رئيس القواد فأكثر الفتوح ودانت له المعمورة ومع وفرة النعم يقول عليه السلام فى حديثه « أجوع يوما وأشبع يوما » ثم قفى أثره أصحابه الأبرار واتبع منهجه المسلمون الأخيار حتى إن

السيدة عائشة رضي الله عنها جاءها يوما آلاف الدنانير فوزعتها ولم تجد ما تفطر عليه . هذا هو معنى الزهد أيها السبادة . وليس الزهد الميل إلى الكسل والبطالة والخلو من العمل وللشيخ عمر الأنسي :

إذا أنت لم تعمل بما أنت قائم  
ولا تصحبنى زادا سوى البر والتقوى  
فأنت أسير الجهل أو أنت تكذب  
ولأحمد الكيواني :

يا مكثرا من ذم كل ذميم  
هل تنجح الآداب عند معاشر  
ابدأ بنفسك قبل كل ملوم  
مع زهدهم في العلم والتعليم

٢٥ - وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ ما طلعت شمس قط إلا بُعثت بجنيته ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . رواه أحمد . ورواه رواة الصحيح وابن حبان في صحيحه والحاكم<sup>(١)</sup> وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ بجنيته ] : بناحيته . [ الثقلين ] : الانس والجن . [ هلموا إلى ربكم ] : اقبلوا على ربكم بطاعته وذكره . [ كثر وألهى ] : شغل عن عبادته .

٢٦ - وروى الطبراني من حديث فضالة عن أبي أمامة قال : قال : رسول الله ﷺ : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير<sup>(٢)</sup> ؟

المعنى : [ النجد هنا ] : الطريق ومنه قوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ : أى الطريقين طريق الخير وطريق الشر .

٢٧ - وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع : رواه<sup>(٣)</sup> الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

المعنى : [ طوبى ] : مكان في الجنة تظله شجرة واسعة الظلال يستظل بها الذى وفق لآداب الاسلام وعمل بها .

(١) رواه ابن حبان في صحيحه ح ٥ ص ١٣٩ ، ح ٢ ص ٣٨ من رواية أبو الدرداء . .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه ح ٢ ص ٤٤٥ ، رواه الامام أحمد في مسنده ح ٥ ص ١٩٧ .

(٣) رواه مجمع الزوائد للهيتمي ح ١٠ ص ٢٥٦ كتاب الزهد .

(٣) رواه الامام أحمد في مسنده ح ٦ ص ١٩ .



٢٨ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقتعه الله بما آتاه . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه<sup>(١)</sup>.

المعنى : [ الكفاف ] : الذى ليس فيه فضل عن الكفاية . [ قنَّعه ] : أرضاه باليسير ، وفى النهاية : قنع يقنع قنوعاً إذا رضى والقناعة كنز لا يفنى لأن الانفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، ومنه الحديث « عز من قنع وذل من طمع ، لأن القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزاً » .

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤٣ رقم ١٢٥ ، رواه الامام أحمد فى مسنده ح ٢ ص ١٦٨

## تفسير سورة التغابن

## مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آخرها : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها : ثمان عشرة .

وعدد كلماتها : مائتان وإحدى وأربعون .

وحروفها : ألف وسبعون .

فواصل آياتها : ( من در ) وعلى الدال آية واحدة : حميد . وسميت سورة التغابن .

لقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ .

## مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان تسييح المخلوقات ، والحكمة في تخليق الخلق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإنكار الكفار البعث والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد ، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتقين ، والخبر عن اطلاع الحق على علم الغيب في قوله : ﴿ عالم الغيب ﴾ الآية .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ وبعده ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ إنما كرّر ( ما ) في أول السورة ، لاختلاف تسييح أهل الأرض وأهل السماء في الكثرة والقلّة ، والبعد والقرب ، من المعصية والطاعة ، وكذلك اختلاف ما يسرون وما يعلنون ، فإنهما ضدّان ، ولم يكرر مع ( يعلم ) لأن الكل بالإضافة إلى علم الله سبحانه جنس واحد ، لا يخفى عليه شيء .

قوله : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ ومثله في الطلاق سواء ، لكنه زاد هنا ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ ، لأن هذه السورة بعد قوله : ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ الآيات فأخبر عن الكفار بسيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله ، ولم يتقدم الخبر عن الكفار بسيئات في الطلاق ، فلم يحتج إلى ذكرها .

## مناسبة السورة لما قبلها

١ - إنه في السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ، وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

- ٢ - نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، أن الأموال والأولاد فتنة .  
 ٣ - في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله . وفي ذكر التغابن حث عليه أيضاً .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
 قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ  
 بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ  
 الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ  
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ  
 فَدَّاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ  
 بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ  
 حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ  
 بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي  
 أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ  
 التَّغَابُنِ وَمَنْ يُمْنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ  
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾  
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ  
 الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

## معاني المفردات

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ : هذا استفهام للتعجب من حالهم . ﴿ وَالنَّبَأُ ﴾ : الخبر الهام . ﴿ ذَاقُوا ﴾ وبال أمرهم : أصل الوبال : النقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، والأمر هنا المقصود به كفرهم . ﴿ الْيِّنَاتِ ﴾ : المعجزات . ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ : أعرضوا ، ﴿ اسْتَغْنَى اللَّهُ ﴾ : أى أظهر غناه عنهم ، إذ أهلكهم وقطع دابرهم ﴿ زَعَمَ ﴾ : أكثر ما يستعمل للدعاء الباطل ، ﴿ بَلَى ﴾ : كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده كما وقع في الآية ﴿ لَتَبْعَنَّ ﴾ : أى لتحاسن وتجزون بإعمالكم ﴿ وَالنُّورِ ﴾ : هو القرآن الكريم ﴿ وَالْخَيْرِ ﴾ : هو العلم ببواطن الأمور ﴿ يَوْمَ الْجُمُعِ ﴾ : يوم القيامة ، سمي بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد . ﴿ وَيَوْمَ التَّغَابُنِ ﴾ : قال القرطبي : سمي يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار . أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والتعيم بالعذاب ، يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة لك .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يَسْبَحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴿ . أى ينزه الله تعالى ويمجده جميع ما في السموات والأرض من مخلوقات ، تنزيهاً دائماً مستمراً . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْبَحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عِلْمَ صَلَاتِهِ وَتَسْبِيحِهِ ﴾ والله عليم بما يفعلون ﴿ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ﴾ أى هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى قادر سبحانه على كل شيء ، قدير يغنى ويفقر ، ويعز ويذل ، وإذا أراد شيئاً ، فإنما يقول له كن فيكون ، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه . قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً ﴾<sup>(٢)</sup>

أخرج أبو داود والنسائي عن أبي عياش أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا أصبح لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل وكتب له عشر حسنات وحط عنه عشر سيئات ورفعه له عشر درجات وكان في حرز من الشيطان حتى يمسي ، وإن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح »<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة النور الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة الاسراء آية : ١١١

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ح ٥ ص ٣١٧ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٧٧ .

وأخرج الإمام مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . اللهم إني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم ، وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر ، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »<sup>(٢)</sup>.

وعنه أيضاً عن النبى ﷺ قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده »<sup>(٣)</sup>. أخرجه البخارى .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه »<sup>(٤)</sup>. أخرجه البخارى

قوله تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ \* والله بما تعملون بصير ﴿ هو سبحانه الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك ﴾ فلا بد من وجود مؤمن وكافر \* وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال \* وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزئهم بها أتم الجزاء \* ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ وأحسن صوركم وإليه المصير ﴿ قوله : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أى خلقهما للحق ، وهو أن يجرى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ \* وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴿<sup>(٥)</sup> وكقوله تعالى :

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل رقم ٢٧٢٣/٧٤ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح .

أخرجه النسائى في عمل اليوم والليلة بواب ثواب من قال سبحان الله العظيم ص ٢٤٥

(٣) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣١١ كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى ونضع الموازين القسط

أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦

(٤) أخرجه البخارى ج ٢ ص ٢٢٣ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده

(٥) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup> . وقوله تعالى : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم ، كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾<sup>(٢)</sup> . فإن من نظر فى شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه ، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر الحيوان ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه .

وقوله تعالى : ﴿ وإليه المصير ﴾ أى المرجع والمآب ، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السماوية والأرضية والنفسية ، فقال تعالى : ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ . فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى استوى فى علمه ما أسر العبد وما أظهر ، الذى علم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، كيف لا وهو الذى خلق وقدر ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ ألم يأتكم نبا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾ : أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة ، نبا الذين كفروا بالرسول من قبلكم ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم ، التى أصرت على الكفر والعناد ، كيف حل بهم عقاب ربهم ، وعظيم نقمته ، وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها ، فمن صاعقه من السماء تجتاحهم ، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم ، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر ، وتمحوهم من صفحة الوجود ، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم ، وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وسيكون لهم عظيم النكال والوبال ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، إن الله سريع الحساب .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم فى ذلك ، مذكر ، لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ما حل بهم بالبينات فقالوا أبشر يهدونا ؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد ﴾ أى أن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسول بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، ﴿ وقالوا : أبشر يهدونا ﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر ﴿ فكفروا ﴾ أى بهذا القول ، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده ، وقيل : كفروا بالرسول ، وتولوا عن البرهان ، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة . ﴿ واستغنى الله ﴾

(١) سورة الدخان الآيات : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة التين آية : ٤ .

(٣) سورة الملك آية : ١٤ .

أى بسلطانه عن طاعة عباده ، قاله مقاتل : فبعد أن طال عنادهم ، وتمادوا في غيهم ، أهلكتهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده ، وقد حمد نفسه في كتابه قبل أن يحمده الحامدون ، فقال في كتابه : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾<sup>(١)</sup>

وجاء في الحديث القدسي « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك في ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواد مسلم .

قال الامام النووى : دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن في ذاته عن كل شيء ، وأنه تعالى لا يتكثر بشيء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم بين أنه مستغن عن ذلك قال تعالى : ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شيء ، فقد استغنى عن كل موجود . ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ ولم يكن له شريك في الملك ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن المعين والظهير ، فقال تعالى : ﴿ ولم يكن له ولى من الدل ﴾ فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الدل منتف عنه تعالى ، ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعة المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه بكطاعة أتقى رجل منهم ، وبأدروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه ، لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ، ولا يكون ذلك زيادة في ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانتة ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كمعصية أفجر رجل — أبلّيس وخالفوا أمره ونهيه ، لم يضره ذلك ، ولم ينقص من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكتهم وخلق غيرهم ، فسبحانه من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ﴾ قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴿ . أى ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، فقالوا كما حكى الله عنهم ﴿ أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟ ﴾<sup>(٣)</sup> وقالوا : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾<sup>(٤)</sup> . فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

(٣) سورة الرعد آية : ٥ .

(٤) سورة يس آية : ٧٨ .

(١) سورة الفاتحة آية : ٢

(٢) سورة فاطر الآيات : ١٥ - ١٧ .

﴿ قل بلى ورنى لتبعثن ﴾ ثم لتبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴿ أى قل لهم : إن البعث كائن لا محالة ، وإنكم ورنى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ، ستحاسبين على أعمالكم ﴾ وتجزون على الكثير والقليل ﴾ والنقيير والقطمير ﴾ وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحل هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ﴾ قل بلى ورنى لتأتينكم ﴿ الآية <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ﴿ يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ .

بعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة ، بما لا مجال معه للإنكار — طالبهم بالإيمان بهما فقال : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾ أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابة الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات . كما قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم <sup>(٣)</sup> . ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون فقال : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تحفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير ، أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ وما تؤخره إلا لإجل معدود ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ <sup>(٥)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ فالكافرون قد اشتزوا الدنيا بالآخرة ، فخسرت صفقتهم ، ولم يربحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم ، فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين . قال ابن

(١) سورة يونس آية : ٥٣ .

(٢) سورة سبأ آية ٣ .

(٣) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

(٤) سورة الجاثية الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

(٥) سورة هود الآيات : ١٠٣ - ١٠٥ .



عباس هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، ومعناه كما قال القرطبي : أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غبت فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقص عليه والغلبة لك . قال المفسرون : فالمغبنون من غبن أهله ومنازله في الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان .

وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن في ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فعلمه وضعفه هو ، ولم يعمل به ، فشقى به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به ، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشح عليه ، وقوط في طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ، ورجل كان له عبدٌ فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى :

ثم بين سبحانه وتعالى هذا التغابن وفصله بقوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيَدْخُلْهُ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ، يمح عنه ذنوبه ، ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لا يثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده ، لا نطوائه على النجاة من أعظم المهالك ، واجل المخاطر . ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

أى والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا بأدلتهم وآى كتابه ، الذى أنزله على عبده محمد ﷺ أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبداً ، وبئس النار مصيراً لهم .

### كل شيء بقضاء

قال تعالى .

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغَفَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ

وَأُولَدُكُمْ فَتْنَةً ۚ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ  
وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۚ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ  
وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

### معاني المفردات

﴿المصيبة﴾ : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر . ﴿بإذن الله﴾ : أى بقدرته  
ومشيئته . ﴿يهد قلبه﴾ : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة . ﴿فتنة﴾ : أى بلاء ومحنة . ﴿ومن  
يوق﴾ : أى من يحفظ نفسه ﴿والشح﴾ : البخل مع الحرص . ﴿والقرض الحسن﴾ : هو  
التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الناس قسمان : كافر ومؤمن ... أردف ذلك ببيان أن ما يصيب  
الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وذكر أن  
المؤمن ينبغي أن يتوكل على الله تعالى ، وألا يعتمد إلا عليه ، ثم ذكر سبحانه أن من الأولاد والزوجات  
أعداء لآبائهم وأزواجهم ، ويشطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين  
وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ، ولا تتبعوا أهواءهم ، حتى لا تكونوا إخوان الشياطين ،  
ويزينون لكم المعاصي ، ويصدونكم عن الطاعة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ،  
فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ،  
فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح ، فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ...

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء  
عليم ﴾ . يقول تعالى مخبرا بما أخبر به في سورة الحديد : ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في  
أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ (١)

وهكذا قال مهنا : ﴿ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ﴾ أى بإرادته وقضائه ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم ﴾ أى ومن أصابته مصيبة ، فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاتته من الدنيا هدى فى قلبه ورزقه الله اليقين الصادق ، وأزلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال ابن جبير فى قوله تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ عند المصيبة فيقول : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾<sup>(١)</sup> .

وفى الحديث « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ قال القرطبى : لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلم لأمره ، ولا كراهة من كرهه .

قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴿ أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم ، فإنما عليه أداء ما حُمِّل من الرسالة ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئاً بعد ذلك .

قال الزهرى من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلىنا التسليم .

وعن العرياض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »<sup>(٣)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قيل ومن أبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »<sup>(٤)</sup> رواه البخارى .

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) أخرجه مسلم : ح ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرفائق . باب المؤمن أمره كله خير رقم ٢٩٩٩/٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه ح ٥ ص ٤٣ كتاب العلم — باب ماجاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع رقم ٢٦٧٦ . وأخرجه أبو داود . كتاب السنة — باب فى لزوم السنة .

أخرجه ابن ماجه فى المقدمة — باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين .

(٤) أخرجه البخارى ح ٩ ص ١١٤ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة ، والجهد ، والصيام ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيعها ، قال رسول الله ﷺ : «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما اقترأها القوم ، وذلفت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى فى إثرها : ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴿قال نعم﴾ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴿قال : نعم﴾ ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ﴿قال نعم :﴾ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴿قال نعم﴾ رواه مسلم<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى : ﴿الله لا إله إلا هو﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿الله لا إله إلا هو ، أى لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا معبود بحق إلا هو ، ولا خالق غيره ، فعليه توكلوا ، كما قال سبحانه ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذة وكيلاً﴾<sup>(٢)</sup> وكقوله سبحانه : ﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ قل أفرايتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل من كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل من ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾<sup>(٥)</sup>

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : «بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو أجهل على» رواه أبو داود ورواه الترمذى وقال حسن صحيح وهذا لفظ أبى داود<sup>(٦)</sup>.

(١) أخرجه مسلم ح ١ ص ١١٥ ، ١١٦ كتاب الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق رقم ١٢٥/١٩٩ .

(٢) سورة المزمل آية : ٩ .

(٣) سورة الفرقان : ٥٨ .

(٤) سورة الزمر آية : ٣٨ .

(٥) سورة الانفال آية : ٢ .

(٦) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الادب باب ما يقول إذا خرج من بيته ح ٥ ص ٣٢٧ رقم ٥٠٩٤ .

وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات . باب تعوذ من أن تجهل رقم ٣٤٢٣

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال يعني إذا خرج من بيته — بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له هُديت وكُفيت ، ووُقيت ، وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى وقال الترمذى : حديث حسن . وزاد أبو داود : « فيقول — يعني الشيطان — لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُي »<sup>(١)</sup> ؟

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم ﴾ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴿

سأل رجل ابن عباس عن هذه الآية قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبي ﷺ فلما أتوا النبي ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، همّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم — الآية ﴾ قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح<sup>(٢)</sup>.

قال القاضى أبو بكر العري : هذا يبين وجه العداوة ، فإن العدو لم يكن عدواً لذاته ، وإنما كان عدواً بفعله ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾<sup>(٣)</sup> وفى صحيح البخارى من حديث أنس عن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الإيمان فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آباءك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ، ثم قعد له على طريق الجهاد ، فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتكبح نساؤك ، ويقسم مالك ، فخالفه فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة »<sup>(٤)</sup>. وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما — يكون بالسوسة

والثانى — بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ، قال الله تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناً فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾<sup>(٥)</sup> وفى حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً ، وفى صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك فى حال العبد ، قال النبي ﷺ : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك

(١) أخرجه : أنظر أبو داود ج ٥ ص ٣٢٨ كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٥٠٩٥ .

(٢) وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٣٤٢٢ .

أخرجه : انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٣٩١ كتاب التفسير — تفسير سورة التغابن — رقم ٣٣١٧ .

(٣) سورة المنافقون آية : ٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تاريخ البخارى الكبير ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ رقم ٢٤٣١ .

ورواه ابن حبان فى صحيحه ج ٧ ص ٥٧ رقم ٤٥٧٤ .

(٥) سورة فصلت آية : ٢٥ .

فلا انتقش»<sup>(١)</sup> ولا دناة أعظم من عبادة الدينار والدرهم ، ولا همّة أخس من همّة ترتفع بثوب جديد .

وقوله تعالى : ﴿ فاحذروهم ﴾ معناه على أنفسكم والحذر على النفس يكون بوجهين : إما ضرر في البدن ، وإما ضرر في الدين ، وضرر البدن يتعلق بالدنيا ، وضرر الدين يتعلق بالآخرة ، فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به وقوله : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ روى الطبري عن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ قال : كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ فيقول له أهله . أين تذهب وتدعنا ؟ قال : فإذا أسلم وفقه قال : لأرجعن إلى الذين كانوا يهون عن هذا الأمر ، فلا فعلن ، قال ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ قال القرطبي : والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد ، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار ، إذ كثيراً ما يترتب على ذلك الوقوع في الآثام ، وإرتكاب كبير المحظورات . وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾<sup>(٢)</sup> وأخرج أحمد والطبراني والحاكم والترمذي عن كعب بن عياض قل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتي المال »<sup>(٣)</sup> وروى عن بعض السلف : العيال سوس الطاعات .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم : اللهم اعصمني من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل : اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا ﴾ « من » للتبعض ، لأن كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر « من » في قوله تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

وقوله تعالى : ﴿ والله عنده ﴾ أى يوم القيامة ﴿ أجر عظيم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴿ قل أؤنبثكم بخير من ذلكم للذين اتقوا ﴾

(١) أخرجه ابن ماجة في سننه كتاب الزهد — باب في المكثرين رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣٦ .

(٢) سورة العلق الآيتان ٦ ، ٧ .

(٣) أخرجه الترمذي ح ٤ ص ٤٩٢ . كتاب الزهد . باب — ماجاء أن فتنة هذه الأمة في المال رقم ٢٣٣٦ .

أخرجه الإمام أحمد في مسنده ح ٤ ص ١٦٠ .

عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله \* والله بصير بالعباد ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْراً لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُّوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ أى ابدلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » (١) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ﴾ أى اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه . قال قتادة : عليهما بويع النبى ﷺ على السمع والطاعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْفَقُوا خَيْراً لِّأَنْفُسِكُمْ ﴾ أى وابدلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا يكن ذلك خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُّوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغي فى دينه ودنياه ، فيكون محبباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ، ومحبته ورضوانه ودخول جنته .

قال سفيان الثورى بسنده عن أبى الهياج الأسدى ، قال كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسى ، لا يزيد على ذلك ، فقلت له فقال : إني إذا وقيت شح نفسى ، لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال تعالى : ﴿ إِنْ تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، متقربين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويستر لكم ما فرط من زلاتكم ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١)

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ح ٢ ص ٥٠٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

وقوله تعالى : ﴿ والله شكور حلیم ﴾ فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾ أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه فى أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو سبحانه ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة ، الحكيم فى تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة . كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك \* القدوس \* السلام \* المؤمن المهيمن \* العزيز \* الجبار \* المتكبر \* سبحان الله عما يشركون \* هو الله الخالق البارئ المصور \* له الأسماء الحسنى \* يسبح له ما فى السموات والأرض \* وهو العزيز الحكيم <sup>(١)</sup> .

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجزه إلى مسلم » <sup>(٢)</sup> من أدعية الرسول الكريم ﷺ رواه أبو داود والترمذى والطبرانى فى الأوسط .

(١) سورة الحشر الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) أخرجه أبو داود ح ٥ ص ٣٢١ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٨٣ .

أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .



## تفسير سورة الطلاق

## مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدينة بالاتفاق .

عدد آياتها : اثنتا عشرة آية .

وكلماتها : مائتان وأربعون .

وحروفها : ألف وستون .

فواصل آياتها : على الألف .

ولها اسمان : سورة الطلاق لقوله ﴿ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ والثاني سورة النساء

القصرى قاله عبد الله بن مسعود .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان طلاق السنة ، وأحكام العدة ، والتوكل على الله في الأمور ، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاع وبيان عقوبة المتعدين وعذابهم ، وأن التكليف على قدر الطاقة ، وللصالحين الثواب والكرامة ، وبيان إحاطة العلم ، والقدرة في قوله تعالى : ﴿ لَتَعْلَمُوا ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات ، ووعد في كل مرة بنوع من الجزاء ، فقال أولاً ﴿ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ : يخرج ما أدخل فيه وهو يكرهه ، ويتيح له محبوبه من حيث لا يأمل . وقال في الثاني : يسهل عليه الصعب من أمره ، ويتيح له خيراً مما طلقها ، والثالث وعد عليه أفضل الجزاء ، وهو ما يكون في الآخرة من النعماء . ومناسبتها لما قبلها :

لما وقع في سورة التغابن ﴿ إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادٍ كُمْ عَدُوًّا لَكُمْ ﴾ وكانت عداوة الأزواج قد تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ

وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ

مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ  
 اللَّهُ يَحْدُثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١٠١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ  
 فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ  
 ذَٰلِكُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنِ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ  
 مَخْرَجًا ﴿١٠٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ  
 اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿١٠٣﴾ وَاللَّيْ يَبْسُ مِنْ الْمَحِيضِ  
 مِنْ نِّسَاءِكُمْ إِنْ أَرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّيْ لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ  
 أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿١٠٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ  
 اللَّهِ أَنْزَلَهُ وَإِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴿١٠٥﴾  
 أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ  
 وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٌ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ  
 فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتِمَرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمَرْضِعُ لَهُ  
 أُخْرَىٰ ﴿١٠٦﴾ لِيَنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ  
 لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿١٠٧﴾

## معاني المفردات

﴿ طلقتم النساء ﴾ : أى أردتم طلاقهن . ﴿ العديتين ﴾ : أى مستقبلين عديتين بأن تطلقوهن  
 فى طهر لا قربان فيه . ﴿ وأحصوا العدة ﴾ : أى اضطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل .  
 ﴿ والفاحشة المينة ﴾ : هى ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج .

﴿ حدود الله ﴾ : شرائعه التي أمر بها ونهى عن تركها ، ﴿ ظلم نفسه ﴾ : أى أضر بها ،  
 ﴿ والأمر ﴾ : هو الندم على طلاقها والميل إلى رجعتها . ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ : أى قاربن انتهاء  
 العدة . ﴿ فأمسكوهن ﴾ : أى فراجعوهن . ﴿ بمعروف ﴾ : أى مع حسن عشرة . ﴿ أو فارقوهن  
 بمعروف ﴾ : أى مع إعطاء الحق واثقاء المضارة ﴿ بالغ أمره ﴾ : أى منفذ حكمه وقضائه فى خلقه  
 يفعل ما يشاء . ﴿ قدرا ﴾ : أى تقديراً وتوقيتاً . ﴿ من وجدكم ﴾ : أى من وسعكم .  
 ﴿ ولا تضاروهن ﴾ : أى فى النفقة والسكنى . ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ : أى لتلجثوهن إلى الخروج  
 بشغل المكان أو بإسكان من لا يردن السكنى معه ، ﴿ ائتمروا ﴾ : أى تأمروا وتشاوروا ،  
 ﴿ بمعروف ﴾ : أى : بمجمل فى الأجر والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ، ولا من الأم معاصرة ،  
 ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاققة فى الأجر أو بطلب الزيادة . ﴿ قدر  
 عليه ﴾ : أى ضيق ، ﴿ آتاه الله ﴾ : أى أعطاه ﴿ ما آتاه ﴾ : أى إلا بقدر ما أعطاه من الأرزاق  
 قل أو وجل .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله  
 ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد  
 حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ .

﴿ يا أيها النبى ﴾ نداء للنبي ﷺ وخطاب له على سبيل التكريم والتنبية ثم خاطب الأمة تبعاً ،  
 فقال تعالى : ﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال البخارى عن سالم أن عبد الله بن عمر  
 أخبره أنه طلق امرأة له وهى حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ منه ، ثم قال :  
 « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسه فتلك  
 العدة التى أمر بها الله عز وجل » رواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة وفى  
 رواية قال ابن عمر . وقرأ النبى ﷺ ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ (١) .

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله فى قوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال الطهر من غير  
 جماع ، وروى عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن  
 حيان مثل ذلك ، وهى رواية عن عكرمة والضحاك وقال على عن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله  
 تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾ قال لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر جامعها فيه ، ولكن يتركها  
 حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة قال ابن كثير : ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه  
 طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان

(١) أخرجه البخارى ح ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

حملها ، والبدعى هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ أى احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة ، فتمتنع من الأزواج . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ﴾ أى فى ذلك ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق . وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التربية التى هى الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون فى التقوى حينئذ خوفاً من فوت تلك التربية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يُخْرَجْنَ ﴾ أى فى مدة العدة ، لها حق السكنى على الزوج مادامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضا الخروج ، لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ ﴾ أى لا يخرجن من بيوتهن إلا أن تتركب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهم ، وتشمل ما إذا نشرت المرأة أو بذت على أهل الرجل وأذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أنى بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ﴾ أى شرائعه ومحارمه ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ ﴾ أى يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتى بها ﴿ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ أى بفعل ذلك وقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ أى إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله تعالى فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل ، قال الزهرى عن فاطمة بنت قيس فى قوله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ قالت هى الرجعة .

وقال القرطبى : الأمر الذى يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليها ، فيراجعها ، وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة . ومعنى القول : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع ، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً وقال مقاتل فى قوله : ﴿ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أى بعد طلقه أو طلقتين ﴿ أَمْرًا ﴾ أى المراجعة من غير خلاف .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذُوَ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر \* ومن يتق الله يجعل له مخرجاً \* ويرزقه من حيث لا يحتسب \* ومن يتوكل على الله فهو حسبه \* إن الله بالغ أمره \* قد جعل الله لكل شىء قدراً \* .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ أى قاربن انقضاء العدة ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا طَلَقْتُمْ

النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن — الآية ﴿١﴾ أى قرين من انقضاء الأجل ولكن لم تفرغ العدة الكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿بمعروف﴾ أى محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أى من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾ أى على الرجعة إذا عزم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال طلقت لغير سنة ، وراجعت لغير سنة ، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن جريج كان عطاء يقول : ﴿وأشهدوا ذوى عدل منكم﴾ قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا شاهداً عدل ، كما قال الله عز وجل إلا أن يكون من عذر .

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة ، كقوله تعالى : ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ وعند الشافعى واجب في الرجعة مندوب إليه في الفرقة ، وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يتهم في إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدعى الباقي ثبوت الزوجية ليرث .

وقال القرطبي في قوله تعالى : ﴿ذوى عدل منكم﴾ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكر دون الإناث ، لأن « ذوى » مذكر ، ولذلك قال علماؤنا : لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال .

وقوله تعالى : ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ أى تقرباً إلى الله في إقامة الشهادة على وجهها ، إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ... الآية﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ولا يأتى الشهداء إذا ما دعوا﴾<sup>(٤)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ذلكم يوعد به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ أى هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتى به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وإنه شرع هذا ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

(٢) أخرجه : أبو داود كتاب الطلاق باب الرجل يراجع ولا يشهد ح ٢ ص ٦٣٧ رقم ٢١٨٦

وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطلاق باب الرجعة حديث رقم ٢٠٢٥

(٣) سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

آيات الله هزواً واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا إن الله بكل شيء عليم ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أى ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتمهم ... » الحديث (٢) .

وقال عمران بن عثمان ﴿ ومن يتق الله ﴾ فيقف عند حدوده ، ويحتنب معاصيه ، يخرج من الحرام إلى الحلال ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة . ﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ من حيث لا يرجو وقال ابن عينية : هو البركة في الرزق . وقال ابن عباس : قرأ النبي ﷺ ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ قال : « مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » ( قاله القرطبي في تفسيره ) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ أى من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه ، كما قال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ قال ابن القيم « فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »

وقال الربيع بن خيثم : « إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه \* ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه \* ومن وثق به نجاه \* ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك في كتاب الله » قال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (٤) وقال تعالى : ﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ (٦) وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ (٧) .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

(٢) أخرجه أحمد ح ٥ ص ١٧٨ .

(٣) سورة التغابن آية : ١١ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٣ .

(٥) سورة التغابن آية : ١٧ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .

(٧) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال له رسول الله ﷺ « يا غلام إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقاليم وجفت الصحف »<sup>(١)</sup>. ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أى منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريد به ويشاؤه ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾ تقديرأ كقوله تعالى : ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن ﴾ وأولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن \* ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً \* ذلك أمر الله أنزله إليكم \* ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً \* .

قال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة « البقرة » فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن ناساً يقولون قد بقى من النساء من لم يذكر فيهن شيء : الصغار والكبار وذوات الحمل ، فنزلت ﴿ واللائى يئسن — الآية ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مبيناً لعدة الآية ، وهى التى قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً من الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض إن عدتهن كعدة الآية ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واللائى لم يحضن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إن ارتبتم ﴾ فيه قولان ﴿ أحدهما ﴾ وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهرى وابن زيد : أى إن رأين دماً وشككتن فى كونه حيضاً أو استحاضة . والقول الثانى . ان ارتبتم فى حكم عدتهن ولم تعرفوه ، فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر

وقوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أى ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وزدت به السنة النبوية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ قال الضحاك : أى من يتقه فى طلاق السنة يجعل له من أمره يسراً فى الرجعة . وقال مقاتل ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً فى توفيقه للطاعة وقوله تعالى : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ أى الذى ذكر من الأحكام أمر

(١) أخرجه الإمام أحمد ح ١ ص ٢٩٣ ، ٣٠٧ — ترمذى ح ٤ ص ٥٧٦ كتاب صفة القيامة باب ٥٩ رقم ٢٥١٦ .

(٢) سورة الرعد آية : ٨ .

الله أنزله إليكم وبينه لكم ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ أى يعمل بطاعته ﴿ يكفر عنه سيئاته ﴾ أى يذهب عنه المحذور ﴿ ويعظم له أجراً ﴾ ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

قال أبو حيان : لما كان الكلام فى أمر المطلقات ، وأحكامهن ، من العدة وغيرها وكنّ لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل ﴿ الأمر بالتقوى ﴾ حيث المعنى مبرزاً فى صورة شرط وجزاء فى قوله : ﴿ ومن يتق الله ... ﴾ إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقاته بعض ما يشينها ، وينفر الخطاب عنها ، ويوهم أنه فارقتها لأمر ظهر له منها . فلذلك تكرر قوله : ﴿ ومن يتق الله ﴾ فى العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرر ، والنفقة على المعتدات .. وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر .

قوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن \* فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى \* لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله \* لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها \* سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴿

قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده ، إذا طلق أحدكم المرأة ، أن يسكنها فى منزل ، حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ أى عندكم ﴿ من وجدكم ﴾ يعنى سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب جنب بيتك فأسكنها فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ قال مقاتل : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بما لها ، أو تخرج من مسكنه . وقال الثورى عن منصور عن أبى الضحى ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ قال يطلقها فإذا بقى يومان راجعها . وقوله تعالى : ﴿ وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه فى البائن إن كانت حاملاً ، أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق على

الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، وقوله تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أى إذا وضعن حملهن ، وهن طوالق فقد بنّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ولكن بعد أن تغذيه باللبن ، وهو باكورة اللبن الذى لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحققت أجر مثلها ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أى ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله



بما تعملون بصير ﴿١﴾. وكما قال سبحانه ﴿لا تضار والدته بولدها ولا مولود له بولده﴾ ﴿٢﴾.

وقوله تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ أى وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة فى أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية ، فهى أحق بولدها .

وقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ أى لينفق على المولود والده ووليه بحسب قدرته . ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ أى ومن كان رزقه بمقدار القوت فحسب فلينفق على مقدار ذلك ، ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ أى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى كما قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ ﴿٣﴾.

وقوله تعالى : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ أى بعد الضيق غنى ، وبعد الشدة سعة .

### الأحكام الشرعية فى هذه الآيات المباركات

قال صاحب كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام فى هذه الآيات المباركات :

الحكم الأول : هل الطلاق مباح أو محظور ؟

لقد أباح الله تعالى الطلاق بقوله تعالى : ﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق » .

وفى لفظ « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » رواه أبو داود وابن ماجه<sup>(٤)</sup> قال الحنفية والحنابلة : الطلاق محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح وإنما أبيع للحاجة ، ويحمل لفظ المباح على ما أبيع فى بعض الأوقات ، التى تتحقق فيه الحاجة المبيحة .

وقد نقل عن ابن حجر أن الطلاق :

( أ ) إما واجب كطلاق المولى بعد التربص مدة أربعة أشهر ، وطلاق الحكمين فى الشقاق بين الزوجين إذا لم يمكن الإصلاح .

( ب ) أو مندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل إليها ، أو تكون غير عفيفة .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .

(٤) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باب فى كراهية الطلاق ح ٢ ص ٣٣١ رقم ٢١٧٨

أنظر سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٠١٨ . كتاب الطلاق

(ج) أو حرام وهو الطلاق البدعي .

(د) أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للحديث .

الحكم الثاني : ماهو الطلاق السنّي وماهى شروطه ؟

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فتغيظ ، فقال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، وإن بدا له أن يطلقها فليطلقها » قبل أن يمسه فتلك العدة التى أمر الله عز وجل ( رواه الستة ومالك والشافعى <sup>(١)</sup> ) ولهذا الحديث حصل الإجماع على أن الطلاق فى الحيض ممنوع . وفى الطهر مأذون فيه إذا لم يجامعها فيه .

والجمهور : على أنه لو طلق لغير العدة ، التى أمر الله ، وقع طلاقه وأثم ، وذلك لقوله ﷺ : « ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد » : النكاح والطلاق والرجعة » رواه الترمذى وأبو داود <sup>(٢)</sup> .

واختلف الفقهاء فيما يدخل فى طلاق السنة :

فقال الحنفية : إن طلاق السنة من وجهين :

أحدهما : فى الوقت ، وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها . والآخر : من جهة العدد ، وهو أن لا يزيد فى الطهر الواحد على تطبيقه واحدة .

وقال المالكية : طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة :

وهو أن يطلقها واحدة ، وهى ممن تحيض ، طاهراً ، ولم يمسه فى ذلك الطهر ، ولا تقدمه طلاق فى حيض ، ولا تبعه طلاق فى طهر يتلوه وخلا عن العوض .

وقال الشافعية : « طلاق السنة أن يطلقها كل طهر خاصة ، ولو طلقها ثلاثاً فى طهر لم يكن بدعة » .

وقال الحنابلة : « طلاق السنة أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه » .

فالاتفاق واقع على أن طلاق السنة فى طهر لم يجامعها فيه ، وأما من أضاف كونها حاملاً ، فلما ورد فى حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال لعمر : « مره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت ، أو وهى حامل » ( رواه مسلم والنسائى وأبو داود <sup>(٣)</sup> ) وأما العدد والخلاف فيه فبحثه عند قوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه ح ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام . باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ح ٣ ص ٤٩٠ كتاب الطلاق — باب — ماجاء فى الجبد والمزول فى الطلاق رقم ١١٨٤ . وأخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ ، وابن ماجه رقم ٢٠٣٩ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باق طلاق السنة ح ٢ ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ رقم ٢١٨٢ .

أخرجه مسلم فى كتاب الطلاق حديث رقم ١٤٧١ وأخرجه النسائى فى الطلاق ح ٦ ص ١٣٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم : ٢٢٩ .

وأما قول المالكية : « وهى ممن تحيض » فهذا شرط متفق عليه . قال الفخر الرازى : والطلاق فى السنة إنما يتصور فى البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل ، إذ لا سنة فى الصغيرة وغير المدخول بها والآيسة ولا بدعة أيضا لعدم العدة بالأقراء .

وقال أبو بكر الجصاص : والوقت مشروط لمن يطلق فى العدة ، لأن من لا عدة عليها فأن كان طلقها قبل الدخول فطلاقها مباح فى الحيض ، وأما بقية الشروط فمختلف فيها وتنظر فى كتب الفروع .

**الحكم الثالث : هل للمعتدة أن تخرج من بيتها ؟**

دل قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ على أن المطلقة لا تخرج من مسكن النكاح مادامت فى العدة ، فلا يجوز لزوجها أن يخرجها ، ولا يجوز لها الخروج أيضا إلا لضرورة ظاهرة ، فإن أخرجت أثم ولا تنقطع العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء .

واختلف الفقهاء فى خروج المعتدة من بيتها لقضاء حوائجها على مذاهب .

( أ ) قال مالك وأحمد : المعتدة تخرج فى النهار فى حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل .

( ب ) وقال الشافعى : لا تخرج الرجعية ليلاً ولا نهاراً . وإنما تخرج المبتوتة فى النهار .

( ج ) وقال أبو حنيفة : المطلقة لا تخرج ليلاً ولا نهاراً . والمتوفى عنها زوجها لها أن تخرج فى النهار .

**دليل المالكية والحنابلة :**

استدل مالك وأحمد بحديث ( جابر بن عبد الله ) قال : « طلقت خالتي فأرادت أن تُجدى نخلها ، فزجرها رجل أن تخرج ، فأنت النبى ﷺ فقال : « بلى فجدى نخلك . فإنك عسى أن تصدق أو تفعل معروفاً »<sup>(١)</sup> رواه مسلم .

**دليل الشافعى :**

واستدل الشافعى بالآية الكريمة ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ﴾ بالنسبة للمطلقة رجعيًا ، فلا تخرج ليلاً ولا نهاراً .

وأما المبتوتة فاستدل بحديث ( فاطمة بنت قيس ) فقد ورد فى صحيح مسلم أن ( فاطمة بنت قيس ) قالت يا رسول الله : زوجى طلقنى ثلاثاً وأخاف أن يقتحم علىّ قال : فأمرها فتحولت<sup>(٢)</sup> . وفى البخارى عن عائشة أن ( فاطمة بنت قيس ) كانت فى مكان وحش فخيف على ناحيتها ، فلذلك أرخص . النبى ﷺ لها<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه مسلم - ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق باب جواز خروج المعتدة البائن رقم ١٤٨٣/٥٥

(٢) أخرجه مسلم : فى صحيحه - ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق . باب المطلقة ثلاثاً رقم ١٤٨٢/٥٣

(٣) أخرجه البخارى :

## دليل الحنفية :

واستدل أبو حنيفة بعموم قوله تعالى : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فقد حرمت على المطلقة أن تخرج ليلاً أو نهاراً ، سواء كانت رجعية أم مبتوتة ، وأما المتوفى عنها زوجها فتحتاج للخروج نهاراً لقضاء حوائجها ، ولا تخرج ليلاً لعدم الضرورة .

ولو أذن الزوج لزوجته بالخروج فهل لها أن تخرج ؟

قال الحنفية : ليس لها أن تخرج لأن السكنى حق للشرع مؤكدا لا يسقط بالإذن ، حتى لو اختلعت على أن لا سكنى لها تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ، ويلزمها أن تكثرى بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا .

قال الشافعية : إنهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، إذ الحق لا يعدوهما ، فالمنعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

وقد قال الفخر الرازى : فلم يكن لها الخروج وإن رضى الزوج ولا إخراجها وإن رضيت إلا عن ضرورة .

الحكم الرابع : ماهى الفاحشة التى تخرج بها المعتدة من المنزل ؟

لقد اختلف السلف فى المراد بالفاحشة فى قوله تعالى : ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ وتبعاً لذلك اختلف الفقهاء .

فقال أبو حنيفة : يقول ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة ، فيكون معنى الآية : إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق .

والاستثناء عليه راجع إلى ﴿ لا يخرجن ﴾ والمعنى : لا يسمح لهن فى الخروج إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يسمح لهن فيه ، فيكون ذلك منعا عن الخروج على أبلغ وجه .

قال ابن الهمام : كما يقال : « لا تزن إلا أن تكون فاسقاً ، ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبلغ جداً » .

وقال أبو يوسف : بقول الحسن وزيد بن أسلم : هو أن تزنى فتخرج للحد ، أى لا تخرجوهن إلا إن زنين .

وعن ابن عباس قال : إلا أن تبذو على أهلها ، فإذا فعلت ذلك حل لهم أن يخرجوها ، كما ورد عن فاطمة بنت قيس أنها أخرجت لذلك . وعنه أيضاً قال : جميع المعاصى من سرقة أو قذف أو زنا أو غير ذلك واختاره الطبرى .

وقال الضحاك : الفاحشة المبينة : عصيان الزوج .

وقال قتادة : إلا أن تنشر فإذا فعلت حل إخراجها .

قال أبو بكر الجصاص : هذه المعاني كلها يحتملها اللفظ ، وجائز أن يكون جميعها مراداً ، فيكون خروجها فاحشة ، وإذا زنت أخرجت للحد ، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضاً .  
فأما عصيان الزوج والنشوز ، فإن كان في البذاءة وسوء الخلق اللذين يتعذر القيام معها فيه فجائز أن يكون مراداً ، وإن كانت إنما عصت زوجها في شيء غير ذلك ، فإن ذلك ليس بعذر في إخراجها ...

#### الحكم الخامس : ما حكم الإشهاد في الفرقة والرجعية ؟

قال أبو حنيفة : الإشهاد مندوب إليه في الفرقة والرجعية ، لقوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تباعتم ﴾ فإن الإشهاد في البيع مندوب لا واجب ، فكذا هنا ، وهو قول مالك والشافعي وأحمد في أحد قوليهما .

وقال الشافعي وأحمد في القول الآخر : الإشهاد واجب في الرجعية مندوب إليه في الفرقة .

#### أدلة الجمهور :

١ - لما جعل الله تعالى للزوج الإمساك أو الفراق ، ثم عقبه بذكر الإشهاد ، كان معلوماً وقوع الرجعية إذا رجع ، وجواز الإشهاد بعد ذلك ، إذ لم يجعل بالإشهاد شرطاً في الرجعية .

٢ - لم يختلف الفقهاء في أن المراد بالفراق المذكور في الآية ، إنما هو تركها حتى تنقضي عدتها ، وأن الفرقة تصح وإن لم يقع الإشهاد عليها ، وقد ذكر الإشهاد عقيب الفرقة ثم لم يكن شرطاً في صحتها ، فكذلك الرجعية .

٣ - وأيضاً لما كانت الفرقة حقاً للزوج ، جازت بغير الإشهاد ، إذ لا يحتاج فيها إلى رضا غيره ، وكانت الرجعية أيضاً حقاً له وجب أن تجوز بغير إشهاد .

٤ - وأيضاً لما أمر الله بالإشهاد على الإمساك أو الفرقة احتياطاً لهما ، ونفياً للتهمة عنهما إذا علم الطلاق ولم يعلم الرجعية ، أو يعلم الطلاق والفراق ، فلا يؤمن التجاحد بينهما ، ولم يكن معنى الاحتياط مقصوراً على الإشهاد في حال الرجعية أو الفرقة ، بل يكون الاحتياط باقياً وأن أشهد بعدهما وجب أن لا يختلف حكمهما إذا أشهد بعد الرجعية بساعة أو ساعتين .

#### الحكم السادس : ما هي عدة المرأة التي لا تحيض ؟

المرأة غير الحائض تشمل من بلغت من اليأس ، والصغيرة التي لم تر الحيض بعد ، أما من يمست من الحيض فعدتها ثلاثة أشهر بلا خلاف ، وكذا الصغيرة التي لم تحض ...

وأما المرأة إذا كانت تحيض ثم لم تر الحيض في عدتها ولم يدر سببه : فقال الحنفية والشافعية : إن عدتها الحيض حتى تدخل في السن التي لا تحيض أهلها من النساء ، فتستأنف عدة الآيسة ثلاثة أشهر .

ونقل عن علي وعثمان ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وقال مالك وأحمد : تنتظر تسعة أشهر لتعلم براءة رحمها ، لأن هذه المدة هي غالب مدة الحمل ، فإذا لم يبين الحمل فيها علم براءة الرحم ، ثم تعتد بعد ذلك عدة الآيسات ثلاثة أشهر . ونقل عن عمر أنه قضى بذلك .

**الحكم السابع :** ما المراد من قوله تعالى : ﴿ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ﴾ ؟

قال الجصاص : غير جائز أن يكون المراد به الارتياح في الإياس ، لأننا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر .

واختلف أهل العلم في ( الرية ) المذكورة في الآية على أقوال : اختار الطبري : أن يكون المعنى : « إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر » وهو قول الجصاص فقد قال : « وذكر الارتياح في الآية ، إنما هو على وجه ذكر السبب الذي نزل عليه الحكم ، فكان بمعنى واللائي يئسن من الحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، ونقل هذا عن مجاهد . وقال مجاهد : الآية واردة في المستحاضة أطبق بها الدم لا تدرى ، أهو دم حيض أم دم عله .

وقال عكرمة وقتادة : من الرية المرأة المستحاضة التي لا يستقيم لها الحيض ، تحيض في أول الشهر مزاراً ، وفي الأشهر مرة .

وقيل : إنه متصل بأول السورة والمعنى : لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم في انقضاء العدة . قال القرطبي : وهو أصح ما قيل فيه . وقال الزجاج : المعنى ان ارتبتم في حيضهن ، وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحضن مثلهن .

**الحكم الثالث :** ماهي عدة الحوامل ؟

نصت الآية على أن الحامل تنتهي عدتها بولادتها ، ودل قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَالَّذِينَ يَتوفُونَ مِنْكُمْ وَيُذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾<sup>(١)</sup> على أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فإذا كانت المتوفى عنها زوجها حاملاً ، فبأى الأجلين تأخذ ؟ ولم يختلف السلف والخلف أن عدة المطلقة الحامل أن تضع حملها ، واختلفوا في المتوفى عنها زوجها .

قال الجمهور : عدة المتوفى عنها زوجها الحامل أن تضع حملها .

وقال علي وابن عباس : ﴿ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ ﴾ في المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أبعد الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر ، صيرت إلى آخرها .

**حجة الجمهور :**

استدل الجمهور بحديث سبيعة الاسلمية أنها كانت تحت ( سعد بن خولة ) وهو ممن شهد

بدرأ ، فتوفى عنها في حجة الوداع . وهى حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها رجل من بنى عبد الدار ، فقال لها : مالى أراك متجملة ، لعلك تترحين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشرأ ، قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك ، جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حلت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى . ( رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم )<sup>(١)</sup> .

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول : تعتد آخر الأجلين فقال : من شاء لا عنته . ما نزلت ﴿ أولات الأحمال ﴾ إلا بعد آية المتوفى قال أبو بكر الجصاص : أفاد قول ابن مسعود أن الآية مكتفية بنفسها في إفادة الحكم على عمومها ، غير مضمنة بما قبلها من ذكر المطلقة فوجب اعتبار الحمل في الجميع ، من المطلقات ، والمتوفى عنهن أزواجهن .

الحكم الرابع : هل للمطلقة ثلاثاً سكنى ونفقة ؟

لا خلاف بين العلماء في إسكان المطلقات الرجعيات ، واختلفوا في المطلقة ثلاثاً على أقوال :  
 - ذهب مالك والشافعى ورواية عن أحمد إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها .  
 - وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة مادامت في العدة .  
 - وذهب أحمد وغيره إلى أنها لا نفقة لها ولا سكنى .

دليل المذهب الأول :

قوله تعالى : ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ وذلك أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة ، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل ، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها .

دليل المذهب الثاني :

- ١ - قوله تعالى : ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ وترك النفقة من أكبر الإضرار وفي إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبين هذا .
- ٢ - ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية .
- ٣ - ولأنها محبوسة عليه لحقه فاستحقت النفقة كالزوجة .
- ٤ - أن السكنى لما كانت حقاً في مال ، وقد أوجبها الله لها بنص الكتاب ، إذا كانت الآية قد

(١) أخرجه ابن ماجه ح ١ ص ٦٥٣ ، ٦٥٤ كتاب الطلاق باب الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج رقم ٢٠٢٧ ،

تناولت المبتوتة والرجعية ، فقد اقتضى ذلك وجوب النفقة ، إذا كانت السكنى حقاً في مال وهي بعض النفقة .

### دليل المذهب الثالث :

١ - حديث فاطمة بنت قيس : أنه طلقها زوجها في عهد النبي ﷺ وكان أنفق عليها نفقة فلما رأت ذلك قالت : والله لأعلمن رسول الله ﷺ فإن كان لي نفقة أخذت الذي يصلحتني ، وإن لم تكن لي نفقة لم آخذ شيئاً .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا نفقة لك ولا سكنى » وفي رواية « إنما السكنى والنفقة على من له عليها رجعة » . والحديث رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ومالك والدارقطني وغيرهم<sup>(١)</sup> . وللعلماء في مناقشة الأدلة كلام طويل ينظر في كتب الفروع .

### الحكم الخامس : على من يجب الرضاع ؟

قال المالكية : رضاع الولد على الزوجة مادامت الزوجية ألا تسرف الزوجة وموضعها ، فعلى الأب رضاعه يومئذ في ماله ، فإن طلقها فلا يلزمها رضاعة ، إلا أن يكون غير قابل ثدى غيرها فيلزمها رضاعه .

وقال الحنفية : لا يجب الرضاع على الأم بحال .

وقيل : يجب الرضاع على الأم في كل حال .

### ما ترشد إليه الآيات الكريمة

- ١ - الطلاق السني هو الطلاق الذي يكون في طهر لم تجامع فيه المرأة .
- ٢ - الطلاق البدعي ما كان في الطهر الذي جومعت فيه المرأة ، أو في وقت الحيض .
- ٣ - السكنى واجبة للمطلقة على زوجها فلا يجوز له إخراجها حتى تنتهي العدة .
- ٤ - إذا خرجت المرأة من بيت زوجها قبل انتهاء عدتها ، فقد عصت الله وأثمت .
- ٥ - حدود الله تعالى يجب التزامها وعدم تعديها ، لأنها شريعة الله .
- ٦ - إقامة الشهادة حق لله تعالى على عباده ، لدفع الظلم عن الخلائق .
- ٧ - التوكل على الله والالتجاء إليه . ملاك الأمر كله ، وراحة النفس .
- ٨ - المرأة اليائسة من الحيض والصغيرة التي لم تحض ، إذا طلقها فعدتهما ثلاثة أشهر .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ١١٥ كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها . رقم ١٤٨٠/٣٧ .



- ٩ - المرأة الحامل تنقضي عدتها بوضع الحمل .
- ١٠ - تقوى الله تعالى تيسر أمور المؤمن في الدنيا ، وتكفر السيئات ، وتعظم الأجر في الآخرة .
- ١١ - المرأة المعتدة تسكن في منزل زوجها حتى تنقضي عدتها .
- ١٢ - على الرجل أن لا يضيق على المعتدة في النفقة أو السكنى ليجبرها على الخروج من منزله .
- ١٣ - نفقة الحامل تستمر حتى تضع الحمل ، وإن طالبت المدة .
- ١٤ - للمرأة الحق الكامل في أن تأخذ أجره على إرضاع ولدها من الرجل .
- ١٥ - الإنفاق يكون بحسب مال الرجل غنى وفقراً .
- ١٦ - التكليف منوط بالقدرة التي مكن الله بها عبده .

### حكمة التشريع

الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الإسلامي ، وبها قوامه ، ففيها تلتقى النفوس على المودة والرحمة ، والتعاطف والستر ، وفي كنفه تنبت الطفولة وتدرج الحداثة ، ومنه تمتد وشائج الرحمة ، وأواصر التكافل ولكن الحياة الواقعية والطبيعة البشرية تثبت بين الفنية والأخرى ، أن هناك حالات لا يمكن معها استمرار الحياة الزوجية ، لذلك شرع الله الطلاق كآخر حل من حلول تتقدمه ، إن لم تجد كل المحاولات ، وأباح للرجل أن يركن إلى أبغض الحلال وهو الطلاق .

ولكن ليس من السنة أن يطلق الرجل في كل وقت يريد ، فليس له أن يطلقها وهو راغب عنها في الحيض ، وفي ذلك دعوة له ليمهل ولا يسرع ليفصل عرى الزوجين ، ويتفكر في محاسن زوجه لعلها تغلب سيئاتها . فتتغير القلوب ، وتعود إلى صفائها بعد موجة من الغضب اعترتها ، وسحابة غشيت المودة التي يكنها الزوج لزوجته .

والطلاق يقع حيثما طلق في الوقت الذي بينه الشرع أو في غيره ، لأن فك الزوجية ، وهدم اللبنة الأولى للمجتمع ليس لعباً تلوكه الألسنة في كل وقت ، وعند أدنى بادرة ، بل هو الجد كل الجد ، فمن نطق به لزمته نتائجه وعصى الله — جلت حكمته — لأنه لم يقف عند حدوده ، ويتبع تعاليمه .

وأمر الله — العليم الخبير — بإحصاء العدة لضبط انتهائها ، ومعرفة أمدتها بدقة لعدم إطالة الأمد على المطلقة ، والإضرار بها ، ولكيلا تنقص من مدتها ممالا يؤدي منها وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل وجعل الله جل ثناؤه العدة تمكث المرأة فيها مدة من الزمن ينفق عليها مطلقها ،

ويسكنها في بيته ، ليكون في أمان واطمئنان وهي تحت نظره ، إن ظهر حملها ، فالولد ولده ، وإن لم يظهر الحمل في مدة العدة ، فلم يعد بين الرجل وزوجه أية علاقة تربطهما ، هو بالنسبة إليها كسائر الرجال ، وهي بالنسبة إليه كسائر النساء ، لا تستطيع أن تطالبه بنسب ولا نفقة ولا غير ذلك .

وبهذا لم يظلم الإسلام المرأة ، حيث فرض لها النفقة ، والسكنى مادامت محبوسة لصالح الرجل ، وأمن الرجل من جهة زوجها حيث مكثت مدة يتبين معها شغل رحمها أو فراغه .

وأما الحوامل فقد جعل الله تعالى عدتهن الوضع ، طال أمد الحمل بعد الطلاق أم قصر ، وذلك لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار .

وأمر الله عز وجل الرجال أن يسكنوا النساء مما يجدون هم من سكن وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم ، لا أقل مما هم عليه في سكناهم ، ونهاهم أن يعمدوا إلى الإضرار بهن بالتضييق عليهن في فسحة المسكن ، أو في المعاملة أثناء إقامتهن .

وخصت ذوات الأحمال بذكر النفقة مع وجوب النفقة لكل معتدة ، لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة المدة إذا قصرت مدة الحمل ، فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعي .

وأما الرضاع ، فلم يجعله الله سبحانه واجباً على الأم دون مقابل ، ومادامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعه تستعين به على حياتها ، وعلى إدرار اللبن للطفل ، وهذا منتهى المراعاة للأم في هذه الشريعة .

وفي الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتبرا بينهما بالمعروف في شأن هذا الوليد ، ويتشاورا في أمره ، ورائدهما مصلحته — وهو أمانة بينهما — فلا يكون فشلهما هما في حياتهما نكبة على الصغير والأمر منوط بالله في الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما أن يعقدا به الأمر كله ، ويتجها إليه ، ويراقباه في كل أمرهما ، وهو المانع المانع ، القابض الباسط .

والزوجان يتفارقان — في ظل هذه التوجيهات القرآنية — وفي قلب كل منهما بذور اللود لم تمت ، وربما جاءها ما ينعشها في يوم من الأيام إلى أدب رفيع يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ويشيع فيها أرجه وشذاه . اهـ .

( بحث في )

## بناء الأسرة المسلمة ( للمؤلف )

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وحبينا ونور قلوبنا محمد بن عبد الله ، طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضياؤها ، المبعوث رحمة للبشرية جمعاء ليحررها من شرور أنفسها وسيئات أعمالها .

أما بعد :

وقفت في معترك الحياة على ساحل مترامى الأطراف ، أتأمل ما تموج به المجتمعات الإنسانية من مشاكل ، تجعل الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن بعدهم عن منهج الله شديد ، وظللت أحص وأفند وأقلب الأمور على مختلف الوجوه ، فوجدت أن العيب فينا وما ندرى والدواء معنا وما نشعر .

فالمشاكل كبيرها وصغيرها مردها إلى تلك التريبة ، والنشأة الأولى التي درج عليها الإنسان منذ تفتحت عيناه على الحياة ، ويمكن أن نلخص الكثير من القول بالاستعانة بمن أوتي جوامع الكلم ، واصطفاه وبه واجتبه ، وفضله على كل خلق الله ، حيث قال الحبيب المصطفى : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »<sup>(١)</sup>.

من هنا مفتاح القضية وموطن العلة ، حيث يمكن تشخيص الداء ، ووصف الدواء من الخلية الأولى للمجتمع من الأسرة ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فهذا هو الداء العضال ، والأمر الوبال على الأجيال المتعاقبة ، ولذلك فعندما ألقيت نظرة فاحصة على عناية الإسلام ببناء الأسرة وجدت قلبي يسجد أمام عظمة الله الحكيم الخبير ، ووجدت قلمي يقف عاجزا أمام وصف ذلك البناء الشاخ في علوه المترامى في أطرافه المتين في أساسه المحكم في هندسته ودقة صنعه .

فقد وضع الشرع الحكيم أساساً عريقاً لذلك البناء في مراسم الخطبة وعقد الزواج والزفاف ، ورسم له من الخطوط العريضة في المباشرة الزوجية ما يضيئ عليه البهجة والسعادة ، والطهر والعفاف ، فإذا ما أثمرت تلك العلاقة ثمرتها المرجوة ، فهناك من التشريعات والقوانين الأهلية ما يحافظ على تلك الثمرة ويضمن لها الجو الصالح ، الذي تنمو وترعرع فيه كأروع ما يكون الإنسان ، الذي يستحق الخلافة عن الله في الأرض .

لقد جعل الإسلام من الأسرة سفينة تسير باسم الله مجريها ومرساها ، تجوب بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، وهي رافعة شراع الإيمان الذي يحميها من الغرق ، ويوجهها إلى الغاية السامية ، حاملة الأمانة ، ومؤدية الرسالة ، حتى تخرج من ضيق الدنيا وجورها إلى سعة الآخرة وعدلها .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ح ٤ ص ٢٠٤٧ كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم ٢٦٥٨/٢٢ .

فإلى كل مسلم ومسلمة ، يريدان بناء أسرة مسلمة على تقوى من الله ، وإلى كل زوج وزوجة ، يريدان إصلاح حياتهما ، وإلى كل أب وأم ، يريدان تنشئة أبنائهما على طاعة الله ورسوله ، ليكونوا قرة عين لهما ، إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذا الكتاب « الإسلام وبناء الأسرة » ليكون لهم نبراساً يضيء حياتهم ويهديهم سواء السبيل : ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ﴾<sup>(١)</sup>

فلنرهدف السمع جيداً لنعى كيف سعى الإسلام إلى بناء الأسرة على أساس متين ، وبالتالي بناء المجتمع الإسلامى بما يحقق له كل معانى العزة والرفعة ، والاستقرار والطمأنينة ، ولنكن على حذر من تلك البدع التى دخلت على مجتمعاتنا حيث كان الهدف الأول دائماً لكل أعداء الحق ، هو هدم قواعد بناء الأسرة المسلمة ، لأنهم بدراستهم لمنهج الإسلام السامى ، عرفوا أن مكمن القوة فى تلك القواعد الراسخة ، فأعملوا فيها معاول الهدم لتحقيق بغيتهم فى القضاء على ديننا الحنيف .

فاعتصموا أيها المسلمون بحبل الله المتين ، وابنوا أسرركم على هدى من القرآن الكريم وسنة رسوله الحبيب ، ومن استمسك بالله ، فقد هدى إلى صراط الحميد ، ونجا من كيد الشيطان وأعداء الدين ، ولا أملك إلا أن أردد قول الحق العظيم : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾<sup>(٢)</sup>.

### الدعوة إلى بناء الأسرة

من نعم الله تعالى على عباده ، أنه شرع الزواج ليكون سنة محكمة من سنن المرسلين ، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولكى يعمر البشر هذه الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾<sup>(٤)</sup> فلا بد أن يكون هناك سنن وشرائع ، تبين للناس كيف يقيمون الحياة الزوجية ، فى سلوك مستقيم ، وبناء متين ، ومن هنا فإن الإسلام نظم العلاقات ، وحدد الحدود ، وبين الحقوق ، ووضع الواجبات ، لتسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، وتعيش الأسرة حياة راضية لا تسمع فيها لآغية . والناظر فى كتاب الله ، يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وآلائه

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة ق آية : ٣٧ .

(٣) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٤) سورة هود آية : ٦١ .

على عباده قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(١)</sup>.

إذا نظرت إلى سابقها ولا حقها وسابقها ، ما للزواج من صلة أكيدة بالكون الذي خلقه الله تعالى من العرش إلى الفرش ، وكأنه ( أى الزواج ) قد صار سنة كونية ، محكمة البنيان ، وطيدة الأركان .

فسابق هذه الآية يقول : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ <sup>(٢)</sup> ولا حقها يقول : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ <sup>(٣)</sup> فالآية بين السباق واللاحق قد تبوأ مكانا عليا ، وذلك مادّل عليه السياق ، ولقد سمى الله تعالى عقد الزواج ( ميثاقاً غليظاً ) قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ <sup>(٤)</sup>.

كما سمى الميثاق الذي أخذه من الأنبياء ﴿ ميثاقاً غليظاً ﴾ قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ <sup>(٥)</sup>.

وفي القرآن الكريم من الآيات ما يدل دلالة قاطعة ، على أن الزواج نعمة عظيمة ، امتن الله بها على عباده ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ <sup>(٦)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾ <sup>(٧)</sup> وقوله تعالى : ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ <sup>(٨)</sup>.

وليس الزواج مقصوراً على عالم البشر إنما هو سنة مطردة في الكون كله . قال تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ <sup>(٩)</sup>.

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٠ .

(٣) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٤) سورة النساء آية : ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٧ .

(٦) سورة النساء آية : ١ .

(٧) سورة الفرقان آية : ٥٤ .

(٨) سورة النحل آية : ٧٢ .

(٩) سورة الذريات آية : ٤٩ .

وقال جل شأنه : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup>

وقد أعطى الله تعالى كل شيء وخلقه ثم هدى : قال تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذروكم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ﴾<sup>(٢)</sup>. وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾<sup>(٣)</sup>

وقد حث الصادق المعصوم على الزواج ، ورغب فيه ، وجاءت أحاديثه الشريفة ، مستفيضة ، فيها من النور النبوى ، ما يضيء الطريق لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .  
من ذلك قوله ﷺ :

١ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » رواه البخارى ومسلم<sup>(٤)</sup>.

٢ - وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهراً فليتزوج الحرائر » رواه ابن ماجه حديث ضعيف<sup>(٥)</sup>.

٣ - وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن المرسلين الخناء والتعطر والسواك والنكاح » رواه الترمذى<sup>(٦)</sup>.

٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم<sup>(٧)</sup>.

٥ - وروى « الدنيا متاع ، ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة » . « مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها »<sup>(٨)</sup>.

٦ - وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها

(١) سورة يس آية : ٣٦ .

(٢) سورة الشورى آية : ١١ .

(٣) سورة الحجرات آية : ١٣ .

(٤) أخرجه البخارى ومسلم : أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح . باب استحباب النكاح لمن تآقت نفسه إليه . رقم ١٤٠٠/١ .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه ح ١ ص ٥٩٨ كتاب النكاح . باب تزويج الحرائر والولود رقم ١٨٦٢ .

(٦) أخرجه الترمذى ح ٣ ص ٣٩١ كتاب النكاح . باب ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه . رقم ١٠٨٠ .

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه ح ٢ ص ١٠٩٠ كتاب الرضاع باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة رقم ١٤٦٧/٥٩ .

(٨) أخرجه الترغيب والترهيب ح ٣ ص ٤١ .

أبرته وإن غاب عنها نصحته في نفسها وماله»<sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه .

٧ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن النبي ﷺ قال : « أربع من أعطين فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلباً شاكراً ، ولساناً ذاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً ، وزوجة لا تبغى حوباً في نفسها وماله »<sup>(٢)</sup>.

٨ - وعن ثوبان رضى الله عنه ، قال لما نزلت : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ قال : كنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره فقال بعض أصحابه : أنزلت في الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه ؟ فقال : « لسان ذاكر ، وقلب شاكراً ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه » رواه الترمذى<sup>(٣)</sup>

٩ - وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح . ومن شقاوة ابن آدم : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » ( رواه الطبرانى ، والبخارى ، وصححه ورواه أحمد بسنده صحيح )<sup>(٤)</sup>.

١٠ - وعن سعد بن أبى وقاص أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك ، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيفة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق » وثلاث من الشقاوة : المرأة تراها فتسوءك ، وتحمل لسانها عليك ، وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفاً — بطيئة — فإن ضربتها أتعبتك ، وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك والدار تكون ضيقة قليلة المرافق ( رواه الحاكم )<sup>(٥)</sup>.

١١ - وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله في الشطر الباقي » رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد<sup>(٦)</sup>.

١٢ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد في سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » رواه الترمذى<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ح ١ ص ٥٩٦ كتاب النكاح باب أفضل النساء رقم ١٨٥٧

(٢) أخرجه المنقى الهندى في كنز العمال ح ١٥ رقم ٤٣٤١٦ .

(٣) أخرجه الترمذى ح ٥ ص ٢٥٩ كتاب تفسير القرآن — تفسير سورة التوبة رقم ٣٠٩٤

(٤) أخرجه المنقى الهندى ح ١١ رقم ٣٠٧٥٤ ، الحاكم ح ٢ ص ١٩٢ كتاب النكاح

أخرجه الحاكم في مستدركه ح ٢ ص ١٤٤ كتاب الفىء . وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه

(٥) الحاكم في مستدركه ح ٢ ص ١٦٢ كتاب النكاح .

(٦) أخرجه الحاكم في مستدركه ح ٢ ص ١٦١ كتاب النكاح . وقال حديث صحيح ولم يخرجاه

(٧) أخرجه الحاكم في مستدركه كتاب النكاح ح ٢ ص ١٦٠ . ورواه الترمذى برقم ١٦٥٥ .

١٣ - وعن أنى نجيح رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى » رواه الطبراني<sup>(١)</sup>.

١٤ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ : فلما أخبروا كأنهم ثقالوها فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا أصلى الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلى ، وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس منى » رواه البخاري<sup>(٢)</sup>.

١٥ - وعن أنى سعيد الخدري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يدك » رواه أحمد<sup>(٣)</sup>.

١٦ - وعن أنى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه<sup>(٤)</sup>.

١٧ - وروى عن أنس رضى الله عنه عن النبي ﷺ : « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة ومن تزوج امرأة لم يربها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبراني<sup>(٥)</sup>.

١٨ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجهنن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » ( رواه ابن ماجه<sup>(٦)</sup> )  
( وخرماء أى مقطوعة الأطراف من خرمت الشيء تجزأ أى ثقتبه )

١٩ - وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إني أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أما أتزوجها فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثركم بالأمم » رواه أبو دلود<sup>(٧)</sup>.

(١) أخرجه مجمع الزوائد ح ٤ ص ٢٥١ والسنن الكبرى للبيهقى ح ٧ ص ٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى ح ٣ ص ٢٣٧ كتاب النكاح . باب الترغيب فى النكاح .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ح ٣ ص ٨٠ .

(٤) انظر صحيح مسلم فى كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين ح ٢ ص ١٠٨٦ رقم ١٤٦٦/٥٣ .

(٥) أخرجه الدر المنثور ح ١ ص ٢٥٧ وحلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجه ح ١ ص ٥٩٧ كتاب النكاح . باب تزويج ذات الدين رقم ١٨٥٩ .

(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح ح ٢ ص ١٦٢ .



وجل جلاله إذ يقول مرغبا في الزوج ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ <sup>(١)</sup> وهذا أمر ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ <sup>(٢)</sup> وهذا ترغيب مع الدعوة إلى العدل . ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ <sup>(٣)</sup> وهذا منع مع العضل ونهى عنه .

وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾ <sup>(٤)</sup> .

فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ <sup>(٥)</sup> فسبحان من مدح أوليائه بسؤال ذلك في دعائه .

### وللزواج فوائد

ومن حكمة الله تعالى البالغة أنه ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى ، فحكمة الله عالية وغالبة ، وحجة الله بالغة وواضحة

١ - أنه يلائم الفطرة الإنسانية ويوافقها وينسجم معها :

فقد روى البيهقي في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه « ان الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة » <sup>(٦)</sup> ففي الزواج التحصن من الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج ، وفيه ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة . والنظر والملاعبة بين الزوجين إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهي عن الحق نفور .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ <sup>(٧)</sup> ومعنى لتسكنوا أي تقيموا إليها وتألفوا بها ، فإن الجنسية علة للضم ، والاختلاف سبب للتنافر . ومعنى ﴿ بينكم ﴾ أي بين الرجال والنساء بسبب الزواج حال التعارف والتواد والتراحم ، وقيل : ﴿ مودة ﴾ كناية عن الجماع ﴿ ورحمة ﴾ الولد .

(١) سورة النور آية : ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية : ٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٢ .

(٤) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٥) سورة الفرقان آية : ٧٤ .

(٦) أخرجه المنذرى في الترغيب والترهيب في ( كتاب النكاح ) ح ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقي

(٧) سورة الروم آية : ٢١ .

ومن فوائد الزواج :

٢ - طلب الولد : لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع ، وفي طلب الولد قرية ولمرضاة الله تعالى ، فلا يجب الصالح أن يلقي الله عزباً . وفي الاستجابة لأمر الله بالزواج فوائد كثيرة من ناحية الذرية حددها الإمام الغزالي بقوله :

( أ ) موافقة محبة الله بالسعى في تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

( ب ) محبة رسول الله ﷺ في تكثير من به مباهاته .

( ج ) طلب القبول بدعاء الولد الصالح بعده .

( د ) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

٣ - تفرغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل المطبخ والكنس والفرش ، وتنظيف الأواني ، وتهئية أسباب المعيشة ، قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة وإنما تفرغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظي في معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ﴾ قال المرأة الصالحة ومن فوائده :

٤ - مجاهدة النفس ورياضتها بالدعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهم ، واحتمال الأذى منهم ، والسعى في إصلاحهم وإرشادهم إلى طريق الدين ، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهم والقيام بترتيبه لأولاده ، قال عليه الصلاة والسلام : « يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة »<sup>(١)</sup> فكل مقاساه . بسبب الأهل والولد بمنزلة الجهاد في سبيل الله تعالى ، ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقوله ﷺ « ما أنفق الرجل على أهله فهو صدقة »<sup>(٢)</sup> وإن الرجل ليؤجر في اللقمة يرفعها في أمهات أي فمها وعلى من وفقه الله تعالى للزواج ألا يقع في تلك المحاذير .

أولاً : العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانياً : القصور عن القيام بحقوقهم ، والصبر على أخلاقهم ، واحتمال الأذى منهم وفي هذا خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته ، قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول »<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾<sup>(٤)</sup> أمرنا أن نقيم النار كما نقي أنفسنا .

(١) أخرجه المتقي الهندي في كنز العمال ح ٦ ص ١٢ رقم ١٤٦٢٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد ح ٥ ص ٢٧٣ وكنز العمال ح ٦ رقم ٦٣٢٣

(٣) أخرجه : (الصحيح)

(٤) سورة التحريم آية : ٦ .

ثالثاً : أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال وإدخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم ، وكل ما شغل عن الله تعالى من أهل ومال وولد ، فهو مشغوم على صاحبه ، فينقل من التمتع المباح إلى الإغراق في ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان في التمتع بهن ، قال إبراهيم بن آدهم رحمه الله : « من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء » .

### قواعد البناء

إن الإسلام وهو يشيد قواعد بناء الأسرة ، وأرسي لها أساساً متينة الأعماق متصلة بمجبل السماء ، حتى تكون ناطحة سحاب تجاوز النجوم في العلاء ، فإذا كانت النجوم زينة السماء فإن الأسرة هي زينة المجتمعات ، وهي البهجة والنفاء والأهل والأحباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فيما نعيم دائم ، وإما غذاب ليس له دافع من الله ذى المعارج .

لقد أحكم الإسلام البناء للأسرة ، وشيدها على قواعد من الإلتقاء لحجر الأساس ، لا يقوى بناء على تجارتها في مثل هذا التوغل في الأعماق ، فتعال معي أخى المسلم وأختي المسلمة لثريا ماهي الشروط المطلوبة في الزوج المسلم والزوجة المسلمة ، وهي شروط وصفها الشارع الحكيم للبناء الراسخ العميق ، حتى لا يكون هشاً تذروه أعاصير الحياة وعواصفها ، فيصبح المسلم يقلب كفيه على ما أنفق فيه وحسرة على ما فرط في جنب الله .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ (١) .

ولما كانت القاعدتان الأساسيتان في بناء الأسرة ، هما الزوج والزوجة ، فقد وضع الشرع الحكيم لهما من المواصفات ما ينمي المودة والرحمة ومشاعر الخير والتواصل ، ويجعل الزواج بحق من أجل النعم التي امتن لها الله علينا ، حيث تسير السفينة يحوطها الحب والرضى والعطاء وتظلها سحائب الرحمة والإيمان .

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ (٢) .

أولاً : سمات الزوجة الصالحة في الشرع الحكيم :

١ - إن أهم ما عنى به الإسلام لا اختيار الزوجة التي تعين على نوائب الدهر ، وتكون سكناً

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٤ .

وذخرا للرجل وخير متاع ينبغي التطلع إليه والحرص عليه هو دينها ، قال ﷺ : ﴿ تنكح المرأة لأربع : لملها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك ﴾ رواه البخارى<sup>(١)</sup>.

وقال صلوات ربي وسلامه عليه « لا تزوجوا النساء لحسنهن ففسى حسنهن أن يردين ولا تزوجوهن لما هن ففسى أن يظفيهن ولكن تزوجهن على الدين ولأمة خرماء ذات دين أفضل »<sup>(٢)</sup> وحذر الرسول الحبيب من المرأة الجميلة التي لا يحوط جمالها هذا سياج الإيمان فقال ﷺ : « وإياكم وخضراء الدمن قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء »<sup>(٣)</sup>.

فلماذا شرع الدين في المقام الأول لاختيار الزوجة ؟ لأن الدين هو الحصن المنيع والسراج المنير لظلمات الحياة وهو حبل الله المتين الذي ينجو به المرء من مكاييد الكائدين وألسنة الحاقدين وعيون الحاسدين وهو المحل الأساسى لتقييم الناس يوم الدين قال ﷺ : ﴿ إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ﴾<sup>(٤)</sup>.

ونظراً لأن الإسلام هو دين الفطرة السيوية والمصلحة الاجتماعية فقد وضع عدة معايير أخرى إضافية لاختيار الزوجة لتحقيق الهدف الأسمى والسعادة القصوى من الزواج من تلك المعايير .

٢ - الأصل والشرف :- وذلك بأن تكون الزوجة من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والخلق وأصالة الشرف وأرومة الأصل ، فالناس معادن يتفاوتون فيما بينهم وضاعة وشرفاً ويتفاضلون فساداً وصلاحاً

قال ﷺ : « الناس معادن في الخير والشر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا »<sup>(٥)</sup>.

وروى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس »<sup>(٦)</sup>.

وروى ابن ماجه عن عائشة رضی الله عنها مرفوعاً : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء »<sup>(٧)</sup>.

إن أصالة المرأة وبيئتها الكريمة ، تجعلها بعيدة عن الانحرافات النفسية وتغمر أولادها حناناً وتطبعهم بالعادات الأصيلة والأخلاق الاسلامية القويمة ، ترضعهم لبان المكارم والفضائل ، ويكتسبون منها بشكل فطرى خصال الخير ومكارم الأخلاق . خطب رسول الله ﷺ ( أم هانئ )

(١) رواه البخارى في صحيحه في ( كتاب النكاح ) باب الأكفاء في الدين ح ٧ ص ٩ .

(٢) رواه المتقى الهندى في كنز العمال ح ١٦ رقم ٤٤٥٦٥ .

(٣) رواه المتقى الهندى في كنز العمال ح ١٦ رقم ٤٤٥٨٧ .

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه ح ٤ ص ١٩٨٧ كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله .

(٥) رواه مسلم ح ٤ ص ٢٠٣١ ، ٢٠٣٢ كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/١٦٠ .

(٦) رواه العراقى في تخریج أحاديث إحياء علوم الدين ح ٢ ص ٤١ .

(٧) رواه العراقى في تخریج أحاديث إحياء علوم الدين ح ٤ ص ١٠٢ .

فاعتذرت إليه بأنها صاحبة أولاد فقال : « خير نساء ركن الإبل صالح نساء قريش ، أحناء على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده »<sup>(١)</sup>.

وتحقيقاً لهذا الهدى النبوى أجاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن سؤال لأحد الأبناء لما سأله ما حق الولد على أبيه بقوله : « ان ينتقى أمه ويحسن اسمه ويعلمه القرآن » . فإذا ما تحقق هذان المعياران الاصيلان ، فهناك أيضاً معايير أخرى منها :

٣ - الجمال : لم يسقط الإسلام الجمال من حسان ، لأن النفس البشرية جبلت على عشق الجمال وهوايته ، وتتوق إليه ، لتحقيق السكن النفسى والارتواء العاطفى ، ففى الحديث الصحيح : « إن الله جميل يحب الجمال »<sup>(٢)</sup>. وقال ﷺ : « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها برتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » رواه النسائى<sup>(٣)</sup>.

وخطب المغيرة بن شعبة امرأة فأخبر رسول الله ﷺ فقال له : « اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى تدوم بينكما المودة والعشرة ونصح الرسول رجلاً خطب امرأة من الأنصار فقال له : « أنظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً »<sup>(٤)</sup>.

٤ - تفضيل المرأة البكر : يستحسن أن تكون الزوجة بكرة ، فإن البكر ساذجة لم يسبق لها عهد بالرجال ، فيكون الزوج بها أدعى إلى تقوية عقدة النكاح ، ويكون حبها لزوجها الصق بقلها ، لكون البكر مجبولة على الأئس والألفة بأول إنسان تكون فى عصمته وتلتقى معه وتتعرف عليه ، ينكس المرأة الثيب ، فقد لا تجد فى الزوج الثانى الألفة التامة والمحبة المتبادلة والتعلق القلبي الصادق لمقارنتها بين أخلاق الزوج الأول ومعاملة الثانى لها .

وهناك دلائل على هذا التفضيل من الهدى النبوى : لما تزوج جابر بن عبد الله ثيباً قال له رسول الله ﷺ : هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك<sup>(٥)</sup> فأخبر جابر الرسول ﷺ بأن أباه قد ترك بنات صغار وهن فى حاجة إلى رعية امرأة تقوم على شئونهن وأن الثيب أقدر على هذه الرعاية من البكر التى لم تدرب على تدبير المنزل .

وروى « عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأتقى أرحاماً وأقل جناً ، وأرضى باليسير »<sup>(٦)</sup>.

والمقصود بعذوبة الأفواه طيب الكلام ، ونطق الأرحام : كثرة الأولاد وأقل جناً أقل مكرًا وخديعة .

(١) رواه البخارى ح ٧ ص ٧ ورواه مسلم فى فضائل الصحابة رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) رواه الإمام مسلم ح ١ ص ٩٣ كتاب الإيمان باب تحريم الكبر رقم ٩١/١٤٧ .

(٣) أنظر تفسير ابن كثير ح ١ ص ٥٠٣ تفسير سورة النساء آية ٣٤ .

(٤) رواه ابن ماجه فى سننه ح ١ ص ٥٩٩ كتاب النكاح . باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها رقم ١٨٦٥ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه ح ٢ ص ١٠٨٧ كتاب الرضاع باب استحباب نكاح البكر رقم ٥٤ ، ٥٥ ، ٧١٥/٥٦ .

(٦) رواه البخارى ح ٧ ص ٦ كتاب النكاح باب نكاح الأبكار .

وقد وضحت السيدة عائشة رضي الله عنها كل هذه المعاني عندما قالت للرسول ﷺ فيما رواه البخاري يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل منها وشجرة لم يؤكل منها في أى منها كنت ترتع بعيرك ؟ قال عليه الصلاة والسلام في التي لم يرتع فيها قالت رضي الله عنها ( فأناهي ) وتقصد بذلك بيان فضلها على باقي الزوجات باعتبار أن الرسول ﷺ لم يتزوج بكرةً غيرها<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - تفضيل الزواج بالمرأة الولود :

لما كان الغرض الأسمى من الزواج هو الإنجاب ، فينبغي أن تكون الزوجة منجبة ، وتعرف بسلامة جسمها ، والنظر في حال أمها ، وحال أخواتها المتزوجات ، وخالاتها وعماتها ، فإن كن من الصنف الولود فالأرجح أن تكون مثلهن في الإنجاب ، وهذا ضروري لمضاعفة أعداد الأمة المحمدية ، التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، وما ذاك إلا من الهدى النبوى ، وذلك حين جاءه رجل يقول له : يا رسول الله أنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها : فنهاه ثم أتاه الثانية ، فقال : له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثركم الأمم يوم القيامة »<sup>(٢)</sup>.

#### ٦ - تفضيل الاغترب في الزواج :

أى الابتعاد قدر الإمكان عن النساء ذوات النسب والقربة ، حرصاً على نجابة الولد وضماناً لسلامة الذرية من الأمراض الوراثية ، وتوسيعاً لدائرة التعارف الأسرية وتوطيداً للروابط الاجتماعية ، ولذلك روى « لا تنكحوا القربة فإن الولد يخلق ضاويًا » أى نحيفاً ضعيف الجسم بليد الذكاء وروى « اغتربوا لا تضوا »<sup>(٣)</sup>.

وقد أثبت علم الوراثة بعد أربعة عشر قرناً معجزة الرسول ﷺ وإخبار أنه الصادق ، حينما أثبت أن الزواج بالقربة يجعل النسل ضعيفاً ويورث الأولاد صفات خلقية ذميمة .

هذه هي المعايير العامة وضعها الإسلام لاختيار الزوجة ، على أن يكون معروفاً في يقين كل مسلم أن المعيار الأهم والأكيد ، هو معيار الدين والأخلاق ، فمن فاز بتلك الزوجة فقد فاز بخير الدنيا والآخرة ، أما بقية المعايير فهي تختلف ظروف كل مسلم مقدم على الزواج مثلما تزوج جابر امرأة ثيبا لتكون أقدر على رعاية أخوته البنات اللاتي تركهن والده أمانة في عنقه ، فهو قد فضل أداء الأمانة خير أداء على إرضاء ميوله الوجدانية ، ونزعاته الشخصية ، وهذا أمر محمود وسلوك رشيد ، يدل على أصالة التمييز في هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ وعرفوا أن البر هو ما أطمأن إليه القلب ، ولم ينازعه منه ريب ، وعرفوا أن الخير في أمة محمد إلى يوم القيامة ، وعرفوا أن توافر كل تلك

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه ح ١ ص ٥٩٨ كتاب النكاح باب تزويج الأبكار رقم ١٨٦١ .

(٢) رواه الحاكم في مستدركه كتاب النكاح ح ٢ ص ١٦٢ .

(٣) رواه الغزالي في إحياء علوم الدين ح ٢ ص ٤١ وقال العراقي في تخريج الحديث : لم أجده أصلاً معتمداً . قلت إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا في النوايح . رواه إبراهيم الحري في غريب الحديث . وقال معناه تزوجوا الغرائب .

الصفات في امرأة واحدة أمر عسير المنال ولا يتفق مع ظروف الحياة ، لأن الكمال لله وحده فرجعوا كفة دينهم على دنياهم وساروا على نهج من هداهم وأرسي في وجدانهم إن الزوجة الصالحة تعين على أمر الدين والدنيا وهذا مطلب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

روى أن سيدنا داود ناجى ربه ومولاه فقال : « اللهم إني أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكرةً وقلباً شاكراً ، وبدناً على البلاء صابراً وزوجة تعينني على أمر ديني ودنياي . وأعوذ بك من ولد يكون عليّ سيداً ، ومن مال يكون وبلاً عليّ ويتمتع به غيري ، ومن جار سوء إن رأى خيراً أنكره وإن رأى سوء أذاعه ، ومن زوجة تشينني قبل المشيب » .

فاتقوا الله أيها الشباب المقدم على الزواج ، ولا يغرنكم الجمال الزائف ، أو المال الزائل ، أو الحب الطاغى ، وليكن جل همكم هو الزوجة الصالحة في المقام الأول ، وما توفر لها بعد ذلك من ميزات ، فهو فضل ونعمة من الله والله عليم بذات الصدور وبنياتكم ترزقون ﴿ إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ (١) .

قالت السيدة عائشة رضی الله عنها : « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » فيجب على ولي أمر المرأة أن يختار لها رجلاً ذا دين وذا خلق ، يفهم الإسلام فهماً حقيقياً ، ويطبقه تطبيقاً عملياً سلوكياً بكل فضائله السامية وآدابه الرفيعة ، وقد حدد لنا الخليفة عمر بن الخطاب رضی الله عنه الموازين الصحيحة لمعرفة الأشخاص ، وإظهار حقائق الرجال ، وذلك حينما جاءه رجل يشهد لرجل آخر .

فقال له عمر : أتعرف هذا الرجل ؟

فأجاب : نعم

قال : هل أنت جاره الذي يعرف مدخله ومخرجه ؟

فأجاب : الرجل : لا

قال عمر : هل صاحبه في السفر الذي تعرف به مكارم الأخلاق .

فأجاب الرجل : لا .

فصاح به عمر : لعلك رأيته قائماً قاعداً يصلي في المسجد يرفع رأسه تارة ويخفضه أخرى . فرد الرجل نعم .

فقال له عمر : اذهب فإنك لا تعرف والتفت إلى الرجل وقال له : ائتنى بمن يعرفك ، فعمر رضی الله عنه لا ينخدع بالمظهر الخارجي للإنسان ، ولكنه يهيمه أن يعرف الجوهر بموازين حقيقة تدل على الإيمان الحقيقي والخلق الطيب .

روى الترمذی عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه

إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»<sup>(١)</sup> وأى فتنة أعظم على المرأة المؤمنة من أن تقع تحت يد فاسق ، تشعر معه تحت سقف الزوجية بالاغتراب ، والله جعل الزواج سكناً ومودة ورحمة ، وأى فتنة أعظم من الزواج من رجل لا يعرف الله ، يسير بالمرأة إلى طريق الهاوية من سفور واختلاط وعدم مراعاة قواعد الفضيلة .

وأى فتنة وفساد أعظم من أن يتربى الأولاد على الانحراف والإباحية والفساد والمنكر .

وصدقت ياسيدى يا رسول الله عندما قلت : « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها »<sup>(٢)</sup> . فاتقوا الله أيها الرجال في بناتكن ولا تغرنكم الحياة الدنيا فهي متاع قليل والآخرة خير وأبقى والرجل الصالح التقى المؤمن يرتقى بيناتكن إلى مدارج العلى أما الفاسق فهو يهوى بهن إلى الهاوية وما أذكراكم ماهى نار حامية .

قال ابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله : « ومن كان مصراً على الفسوق لا ينبغي أن يزوج » .

وقال الرجل للحسن بن علي : « إن لى بنتا فمن ترى أن أزوجه له ؟ قال : زوجها ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها وأن أبغضها لم يظلمها » . حقاً ما أحسن الرجل التقى فهو شخصية غنية بمكارم الأخلاق محوطة بعناية الله وعونه كما قال صلوات ربي وسلامه عليه : « ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونه : المجاهد في سبيل الله ، والناكح ليستعف والمكاتب يريد الأداء »<sup>(٣)</sup> .

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن التقوى ، هى فقط المعيار الوحيد في اختيار الرجل ، بل هناك عدة معايير أخرى يشترك فيها مع المرأة بما سبق ذكره فيها : الاختيار على أساس الأصل والشرف ، والاغتراب في الزواج ، ولكن المعيار الذى يتفرد به الرجل عن المرأة هو :

القدرة على القيام بأعباء المعيشة :

لأن الرجل هو رب الأسرة ، والمتصرف في أمرها ، وله القوامة عليها ، ولن يكون ذلك إلا بقدرته على الإنفاق قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾<sup>(٤)</sup>

قال ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى وقاية<sup>(٥)</sup> .

(١) . رواه الترمذى في سننه - ج ٣ ص ٣٩٥ كتاب النكاح . باب ٣ رقم ١٠٨٥

(٢) . رواه الزبيدى في تحاف السادة المتقين - ج ٥ ص ٣٤٩ وقال العراقى رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث أنس ورواه في الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح .

(٣) . رواه الحاكم في مستدركه - ج ٢ ص ١٦٠ كتاب النكاح وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) . سورة النساء آية : ٣٤ .

(٥) . رواه مسلم - ج ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح رقم ١٤٠٠/١ .



والبَاءة مقصود بها ما يتطلبه الزواج من نفقات والتزامات المعيشة وهذا أفضل للرجل أن يكون هو صاحب الطول في الإنفاق فلا يطمع في الزواج من غنية تنفق عليه وتذله بماها ، قال الإمام الغزالي في كتابة ( الإحياء ) :

( قال بعضهم ) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق ، وتسويق الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر على ذهاب ماها .

( وقال بعضهم ) ينبغي أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقته : بالسن والطول والمال والحسب ، وأن تكون المرأة فوق أربع بالجمال والأدب والخلق والورع .

تلك هي قواعد البناء للأسرة المسلمة ، وهي لاشك قواعد وطيدة الأركان ، وقد أحاط الإسلام هذه القواعد بسياج منيع ، يسمى التكافؤ ، فلا بد أن يكون ثمة تقارب بين الزوج والزوجة من حيث السن والمركز الاجتماعي والمستوى الثقافي والاقتصادي ، فإن التقارب في هذه النواحي بما يعين على دوام العشرة وبقاء الألفة ، ولا أدل على ذلك من موقف سيدنا رسول الله ﷺ من ابنته السيدة فاطمة فقد خطبها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقال : إنها صغيرة فلما خطبها علي زوجها إياه .

وإذا أراد ولي أمر فناة أن يرجح معياراً من المعايير ، فليكن هو معيار الخلق والدين ، أسوة بسيد الخلق أجمعين ، ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وإليك قصة سعيد بن المسيب في زواج ابنته التي خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط في يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف ، ولكنه رفض خوفاً من افتتان ابنته بالمال الجاه ، وفضل أن يزوجه لرجل تقى هو عبد الله بن أبي وداعة الذي يحكى قصة زواجه قائلاً : « كنت أجلس إلى سعيد بن المسيب فتفقدني أياماً فلما أتيتته قال : أين كنت ؟ قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ، قال ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت امرأة ؟ فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك إلا درهين أو ثلاثة ؟ فقال أنا فقلت : وتفعل ؟ قال نعم فحمد الله تعالى ، وصلى على النبي ﷺ ، وزوجني على درهين أو قال ثلاثة . قال فقمتم وما أدري ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلي ، وجعلت أفكر ممن آخذ وبمن استدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلي ، فأسرجت وكنت صائماً فقدمت عشائي لأفطر وكان خبزاً وزيتاً ، وإذا ببالي يقرع فقلت : من هذا ! قال سعيد قال فكفرت في كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد

قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلي لأتيتك فقال : لأنت أحق أن تؤثني قلت فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عزباً فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه إمراؤك ، وإذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها فدفعها في الباب ، وردده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة

التي فيها الخبز والزيت ، فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ، ثم صعدت السطح ناديت الجيران فجاءوني وقالوا : ما شأنك ؟ قلت ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجها قلت نعم : قالوا : وهي في الدار ؟ قلت نعم فزولوا إليها وبلغ ذلك أمي فجاءت وقالت : وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام : قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها فإذا هي من أجل النساء ، وأحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتيني سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتته وهو في حلقتة ، فسلمت عليه فرد عليّ السلام ، ولم يكلمني حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ، فقلت : بخير يا أبا محمد علي ما يحب الصديق ويكره العدو قال : إن رابك من أمر فدونك والعصا ، فانصرفت إلى منزلي فوجه إليّ بعشرين ألف درهم .

هذا زواج مثالي ، سداه التقوى ، ولحمته العمل الصالح ، ورأس ماله : المودة والرحمة .

« إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، والدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . إن قصة سعيد بن المسيب مع تلميذه : عبد الله بن أبي وداعة مدرسة عظمى من مدارس الإسلام ، لقد أثر ما يبقى على ما يفنى ، فتقوى الله وحسن الخلق والعمل الصالح شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، لقد كان سعيد سعيداً بهذا الزواج ، قرير العين بتلك المصاهرة ، فالمال عرض زائل ، والتقوى قيمة ثابتة ، والجاه ظل حائل ، والإيمان قيمة راسخة ، والقصور ليست هي السعادة ، والرضا جبل باذخ شاخ لا تؤثر فيه العواصف ولا تحركه القواصف ، وما من شك في أن عظمة الاسلام ترجع إلى اليسر وتبسيط الأمور لا تعقيد ولا نصب ولا تعب في أمر يسره الله تعالى .

« فأقلهن مهراً أيسرهن بركة ، فمن يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، ومن شؤم المرأة ثقل مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها » كما قال ﷺ : لقد دخل سعيد بن المسيب داره يوماً فوجد ابنته ( الرباب ) التي زوجها عبد الله بن أبي وداعة وجدها جالسة وقد راحت في تفكير عميق سألها : ماذا كنت تصغيين يا رباب : قالت يا أبتى كنت أرتل القرآن الكريم ، قال : أفهمت ما زلت ؟ قالت نعم إلا آية وقفت عندها قال : وما تلك الآية ؟ قالت : ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ (١) لقد علمت أن حسنة الآخرة الجنة ، فما حسنة الدنيا قال لها : الرجل الصالح للمرأة الصالحة ، والمرأة الصالحة للرجل الصالح .

ولكن التقى هو السعيد

ولست أرى السعادة جمع المال

وعند الله للأتقى مزيد

وتقوى الله خير الزاد ذخرا

وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

ليعلم العقلاء أن السعادة ليست فى سكنى القصور ، ولا فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، وإنما السعادة مملكة قائمة بالنفس ، صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾<sup>(١)</sup>

وأخبر عنها الصادق المعصوم فى قوله : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »<sup>(٢)</sup>.

السعادة تزكية النفس وتطهيرها من الدنايا ، وسفاسف الأمور ، وإشراق العقل بنور الهدى ، وانتصار الذهن فى نصره الحق . ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾<sup>(٣)</sup> فعلى الباحثين عن السعادة أن يعلموا أن السعادة حقيقة ثابتة ، لا تتركز على حياة أو مال أو سلطان ، إنما هي صرح شاخ أساسه العمل الصالح والإيمان الراسخ والقلب السليم ، وتلك هي أركان البناء الروحى للزواج ، فإن كان القادمون على الزواج يظنون أن قواعد البناء مادية فقط ، تتمثل فى الإمكانيات المادية لكل من الزوجين ، فهم خاطئون كل الخطأ ، واهمون كل الوهم ، لأن الأسرة هي روح المجتمع ونبضه ، هي دعامة وركيزته ، هي المادة والروح ، هي العقيدة والعمل ، فليتقوا الله ربهم وليكن البناء الروحى جُلْ مهمهم وعلى الله قصد السبيل وبه الهداية ومنه التوفيق .

### الخطبة

إن الخطبة هي الخطوات العملية لإرساء حجر الأساس للحياة الزوجية وبناء الأسرة ، وإذا كانت هناك دراسات كثيرة حول الطريقة المثلى لوضع دعائم أى بنية من ناحية الوقت والتكلفة والجهد ، والأدوات التى تستخدم لذلك ، والمواد التى تعطى أفضل نتائج ممكنة ، فإن مدرسة محمد ﷺ قد حددت منهاجاً سليماً لإرساء دعائم الأسرة ، يحفظ لها كيانها مدى الحياة ، ويصونها من كل عواصف قد تطرأ عليها خلال رحلتها وسط أمواج البشرية ، ومعتك طباع الحياة ، فما هي تلك الخطوات وماهي الضمانات التى وضعها الشرع الحكيم ، لتحقيق الضمانات لكل من الطرفين وإحاطة الأسرة بسياس متين على أساس من الخلق والدين ؟

### أولا الأعمال :

أول عمل يعمل به الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، فإن وافقوا برسل امرأة أمينة ، لتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط

(١) سورة التوبة آية : ١٠٠ .

(٢) رواه الترمذى كتاب الزهد باب الصحة والفراغ رقم ٢٣٠٦ .

(٣) سورة الشمس الأيتان : ٩ ، ١٠ .

بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها على أن يراعى أن هناك شروطاً في المرأة التي تباح خطبتها منها :

أن تكون خالية من الموانع الشرعية التي تمنع زواجه منها في الحال ، ألا يسبق غيره إليها بخطبة شرعية ، فإن كانت ثمة موانع شرعية ، كأن تكون محرمة عليه بسبب من أسباب التحريم المؤبدة أو المؤقتة ، أو كان غيره سبقه بخطبتها ، فلا يباح له خطبتها . بالنسبة للتحريم المؤبد ، فقد بينه الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاقي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائكم اللاقي في حجبوركم من نسائكم اللاقي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين لا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً والمحصات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم ﴾ <sup>(١)</sup> ويسبقها الآية الكريمة ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ <sup>(٢)</sup>

بالنسبة للموانع المؤقتة :

١ - تحرم خطبة المعتدة ، سواء أكانت عدتها عدة وفاة أو عدة طلاق ، وسواء أكان الطلاق طلاقاً رجعياً أم بائناً .

فإن كانت معتدة من طلاق رجعي ، حرمت خطبتها ، لأنها لم تخرج عن عصمة زوجها وله مراجعتها في أي وقت شاء ، وإن كانت معتدة من طلاق بائن حرمت خطبتها بطريق التصريح ، إذ حق الزوج لا يزال متعلقاً بها ، وله حق إعادتها بعقد جديد ففي تقدم رجل آخر لخطبتها اعتداء عليه ، واختلف العلماء في التعريض بخطبتها ، والصحيح جوازه ، حتى يكون للمرأة فرصة للتفضيل والاختيار في أحسن الظروف وليس وسط مهاوى اليأس والضياع ، وإن كانت معتدة من وفاة ، فإنه يجوز التعريض لخطبتها أثناء العدة دون التصريح ، لأن صلة الزوجية قد انقطعت بالوفاة ، فلم يبق للزوج حق يتعلق بزوجته ، التي مات عنها ، وإنما حرمت خطبتها على شعور أهل الميت وورثته من جانب آخر ، فالإسلام وهو يقيم دعائم بنيان جديد ، يأبى أن يقيمه على جرح مشاعر الآخرين ، بل يريد أن يحوط بسياج من الأمن المعنوي ، حتى لا يعرض لرياح النفوس البشرية ، التي يجتاحها الشكوك والأوهام إذا تمت الأمور على وجه السرعة . ولم يحسب لها حساباً ، فتأق النتائج بأوخم العواقب قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفاً

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٢ .

ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴿  
الآية (١)﴾.

والمراد بالنساء المعتدات لوفاة أزواجهن ، لأن الكلام في هذا السياق ، ومعنى التعريض أن يذكر المتكلم شيئا يدل به على شيء لم يذكره ، مثل أن يقول : « إني أريد أن أتزوج » أو يقول : « لوددت أن يسر لي امرأة صالحة » أو يقول : « إن الله لسائق لك خيرا » والهدية إلى المعتدة جائزة وهي من التعريض .

وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج ، وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن حسين . قالت سكينه بنت حنظلة : استأذن علي بن محمد عليّ ولم تنفض عدتي من مهلك زوجي فقال : قد عرفت قرابتي من رسول الله ﷺ وقرابتي من علي وموضعي في العرب . قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر إنك رجل يؤخذ منك تحطيني في عدتي ! قال : إنما أخبرتك بقرابتي من رسول الله ﷺ حرمت عليّ .

وخلاصة الآراء أن التصريح بالخطبة حرام لجميع المعتدات ، والتعريض مباح للبائن وللمعتدة من الوفاة ، وحرام في المعتدة من طلاق رجعي .

٢ - يحرم على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه ، لما في ذلك من اعتداء على حق الخاطب الأول وإساءة إليه ، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر والاعتداء الذي يروّع الآمنين ، وهو أمر يأباه الإسلام ويرفضه ، لأنه يبنى مجتمعه على أساس من الحب والود والأمن والأمان ، كما أنه لا يرضى للمرأة أن تكون سلعة تباع وتشترى لمن يدفع أكثر ، فهي حجر الأساس المتين والركن الرئيس في بناء الأسرة ، ولذلك فلها حرمتها ولها قداستها في عبور الرجال إليها . عن عقبة بن لمار أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن أخو المؤمن فلا يحل له أن يتناع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر » (١) . وحل التحريم ما إذا صرحت الخطوبة بالإجابة ، أو صرح وليها الذي أذنت له ، حيث يكون إذنه معتبرا ، وتجاوز الخطبة لو وقع التصريح بالرد ، أو وقعت الإجابة بالتعريض ، أو لم يعلم الثاني بخطبة الأول ، أو أذن الخاطب الأول للثاني .

حكى الترمذي عن الشافعي في معنى الحديث : إذا خطب المرأة فرضيت به وركنت إليه ، فليس لأحد أن يخطب على خطبته .

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٥ .

(٢) أخرجه البخاري — كتاب البيوع — باب لا يبيع على بيع أخيه رقم ١٠٨٣ .

أخرجه مسلم كتاب النكاح حديث رقم ٥١ .

أخرجه الترمذي ح ٣ ص ٤٤٠ كتاب النكاح — باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ١١٣٤ .

## موافقة المرأة على الخطبة

لا بد من موافقة المرأة على من يتقدم لخطبتها ، لإقامة الحياة الزوجية على أساس من التراضي بين الطرفين ، وهو أمر لا بد منه لإشاعة الحب والوئام بين جنبات الأسرة ، وليس للأهل إرغام المرأة بحال من الأحوال على الاقتران بشخص لا يتحقق معه الوئام الروحي ، ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن في نفسها وإذنها صمئها »<sup>(١)</sup> رواه الجماعة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتى تستأذن قالوا : يا رسول الله : كيف إذنها ؟ قال : أن تسكت »<sup>(٢)</sup>.

وعن خنساء بنت خدام : أن أباه زوجها وهي ثيب فأنت رسول الله ﷺ فرد نكاحها . أخرجه الجماعة إلا مسليماً<sup>(٣)</sup>.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « آمروا النساء في بناتهن »<sup>(٤)</sup>.

ولاشك أن هذا يدل على روعة الهدى النبوي ، لأن الأمهات أقرب الناس إلى معرفة ميول بناتهن وعن ابن عباس : « إن جارتك بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباه زوجها وهي كارهة فخيرها النبي » رواه أحمد<sup>(٥)</sup>.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع لي خنيسة قال : « فجعل الأمر إليها فقالت قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء »<sup>(٦)</sup> . رواه ابن ماجه

(١) أخرجه أبو داود حد ٢ ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ كتاب النكاح باب في الثيب رقم ٢٠٩٩

(٢) أخرجه أبو داود حد ٢ ص ٥٧٣ كتاب النكاح باب في الاستمطار رقم ٢٠٩٢

أخرجه البخاري في النكاح باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها . ومسلم في النكاح رقم ١٤١٩ والترمذي في

النكاح رقم ١١٠٧ وابن ماجه في النكاح رقم ١٨٧١

(٣) أخرجه أبو داود حد ٢ ص ٥٧٩ كتاب النكاح باب في الثيب رقم ٢١٠١

(٤) أخرجه أبو داود في سننه حد ٢ ص ٥٧٥ كتاب النكاح باب في الاستمطار رقم ٢٠٩٥

(٥) أخرجه الامام أحمد في مسنده حديث ٢٤٦٩ تحقيق الشيخ شاكر

(٦) أخرجه ابن ماجه كتاب النكاح . باب من زوج ابنته وهي كارهة رقم ١٨٧٤ .

## استخارة الخطبة

يستحسن قبل الإقدام على الخطبة من كلا الطرفين أن يستخيرا ربهما في شريك الحياة بعد جمع المعلومات الأولية عنه ، وذلك حتى يقيما بنياتهما على تقوى الله ، ويعلما أن الزواج قدسيته والتزامات وتبعات ، ما فرضت إلا ابتغاء مرضاة الله العظيم ورسوله المصطفى الحبيب ، الذى أرسله للناس بشريعة غراء تحميهم من الأهواء ونزعات الشيطان

## وكيفية الاستخارة للمستخير كما نلى :

أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : «بعد التشهد وقبل السلام» « اللهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرتك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر — ويسميه — خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاقدره لى وإن كنت تعلم أن هذا الأمر — ويسميه — شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فإذا ما انشرح الصدر إلى الزواج ، فليقدما على بركة الله وسنة رسوله ، فالزواج ليس رحلة ترفيية ، ولكنه سنة نبوية ، فيجب أن يحاط بما يليق به من قدسيته ، وأن يتعد الرجل المؤمن عن التقاليع الغربية والتقاليد الشيطانية ، فنحن أمة مسلمة رضيينا بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، والرضا هو السمع والطاعة لكل ما أمر به الله والرسول وجعله منهاج حياتنا ونور صدورنا ورييع قلوبنا ، وحده يفلح المؤمنون ، ويحققون ما يصبون إليه من سعادة ورفاهية .

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم عاكفون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾<sup>(١)</sup>.

ماذا يقول من جاء يخطب امرأة من أهلها ؟ يستحب أن يبدأ الخطبة بالحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله ﷺ ويقول :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله جئتكم راغباً فى فتاتكم فلانة ، أو فى كريمتكم فلانة بنت فلانة . جاء فى سنن أبى داود وابن ماجه وغيرهما

عن أبى هريرة رضى الله عنه وعن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجزم » وفى بعض الروايات ( كل أمر ) ومعنى أجزم أى قليل البركة<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) أخرجه أبو داود ح ٥ ص ١٧٢ كتاب الأدب باب فى الهدى فى الكلام رقم ٤٨٤٠ وابن ماجه كتاب النكاح ح ١ ص ٦١٠

وجاء في سنن أبي داود والترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء »<sup>(١)</sup> ولاشك أن ذكر الله في كل أمر يشيع الطمأنينة في القلوب ، ويسبغ الخير والبركة على ذلك الأمر ، أما ما نراه من بدع في مجتمعنا ، فهي أبعد ما تكون عن الإسلام ، وهي السر وراء ما يعترى الأسر من مشكلات تزلزل أركانها وتهدد أرجاءها بالزوال ، فاحذروا أيها المسلمون من تصدع البنيان واخلصوا العمل فإن الناقد بصير ، واذكروا الله يذكركم ، وابتعدوا عن كل ما حذر منه الحبيب المصطفى ، فقد استعاذ من صوت يطلق عند فرحة وصوت يطلق عند مصيبة ، ونحن بلاشك نملك البديل الأسنى والفرح الأعظم ، وهو ذكر الله ﷻ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﷻ<sup>(٢)</sup>

### النظر إلى الخطوبة :

لما كان الزواج هو بناء وطيد الأركان ، لذا فقد عنى الإسلام بدراسة المعالم والأرجاء وخطر الخلوة والاختلاط في فترة الخطوبة ، أى سمح بعرض المرأة للزواج ، ولكنه في إطار إيماني جميل يحميها من همزات الشياطين وألسنة المتقولين ، فعلى كل من الرجل والمرأة رؤية بعضهما للآخر قبل الإقدام على الاقتران ، فالحازم لا يدخل مدخلا حتى يعرف خيره من شره قبل الدخول فيه .

وهذا النظر ندب إليه الشرع ورغب فيه :

فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه نكاحها فليفعل قال جابر : فخطبت امرأة من بنى سلمة فكنت أختبئ لها حتى رأيت منها بعض ما دعاني إليها »<sup>(٣)</sup> رواه أبو داود .

- وعن المغيرة بن شعبه : أنه خطب امرأة فقال له رسول الله ﷺ « أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أجدر أن يدوم الوفاق بينكما<sup>(٤)</sup> . رواه النسائي .

ولكن يجب على الرجل المؤمن ، أن يتقى الله ربه ، وليعرف أن هذا النظر ليس مطلقا ، ولكنه مقيد بتعاليم الإسلام ومبادئه الحكيمة ، فالشرع الحكيم لا يميز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين أما ما عداهما فلم يجزه ، إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة ، فضلا عما فيه من الإثارة والفتن مما لا يرضاه الإسلام ، وهو يشيد بنيان أسرة على تقوى من الله .

(١) أخرجه أبو داود : ح ٥ ص ١٧٣ كتاب الأدب باب في الخطبة رقم ٤٨٤١ والترمذي في النكاح . باب في خطبة النكاح رقم

١١٠٦

(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ح ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ كتاب النكاح باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ٢٠٨٢

(٤) أخرجه أحمد ح ٢ ص ٢٤٦ .



فالنظرة إلى الوجه والكفين تكفى كما ذهب جمهور العلماء ، لأنه يستدل بالنظر إلى الوجه على الجمال أو الدمامة ، وإلى الكفين على خصوبة البدن أو عدمها .

وهى أشد ما تكون الحاجة إليهما فى الحياة الزوجية ، فتعرف بالوصف والاستيصال والتحرى ممن خالطوها بالمعاشرة ، أو الحوار أو بواسطة بعض أفراد ممن هم موضع الثقة من الأقرباء كالأم والأخت ، وقد بعث النبى ﷺ أم سليم إلى امرأة فقال : « انظرى إلى عرقوبها وشمى معافطها ، وفى رواية شمى عوارضها »<sup>(١)</sup> رواه أحمد . والمقصود بمعافطها ناحيتا العنق ، والعوارض ! الأسنان فى عرض الفم وهى ما بين الأسنان والأضراس والمراد اختبار رائحة الفم

أما بالنسبة لنظر المرأة إلى الرجل ، فهذا الحق ثابت لها أيضاً ، لأنها شريكة له فى رحلة الحياة ، فلها أن تنظر إلى خاطبها ، فإنه يعجبها منه مثل ما يعجبه منها ، وقد تقدمت الأحاديث النبوية الشريفة التى تنهى عن إجبار المرأة على الزواج من رجل لا توافق عليه ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، والله أمر بطاعتها لزوجها ، ولن تطيع المرأة رجلاً لا تشعر نحوه بالقبول أو تكون مرغمة عليه . قال عمر : لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم . ما يعجبهم منهن .

ولذلك فرؤية كل من الرجل والمرأة للآخر ، قبل الإقدام على اجراءات الاقتران أمر ضرورى ، دعا إليه الشرع الإسلامى الخفيف ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية ، تارة تتفق ، وتارة تختلف ، وقد لا يكون للجمال فيها أى مدخل قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

فالأرواح الطيبة تتوافق مع الأرواح الطيبة ، والأرواح الخبيثة تنسجم مع الأرواح الخبيثة ، لذلك عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة البشرية ، وحققه فى واقع الناس .

كما قال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾<sup>(٣)</sup> .

فإذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحى ونفسى فى الحياة ، فلا يكون ثمة معنى للحياة بوجه عام ، وهو يشيد البنیان ، فما كان ليقم الدعائم على أساس من الاختلاف ، فهذا مآله إلى التفرقة والزوال ، ولكن الحكيم الخبير وضع لنا المنهاج القويم لنسير على هديه راشدين فنفوز بالسعادة فى الدارين .

(١) أخرجه الإمام أحمد ح ٣ ص ٢٣١ مسند أنس بن مالك

(٢) أخرجه مسلم : ح ٤ ص ٢٠٣١ . كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/٥٩ .

(٣) سورة النور آية : ٢٦ .

## حظر الخلوة بالخطوبة :

يحرم تحريماً تاماً الخلوة بالخطوبة ، لأنها محرمة على الخاطب حتى يعقد عليها ، ولم يرد الشرع بغير النظر ، فبقيت على التحريم ، أما ما نراه حالياً من تهاون الناس في هذا الشأن ، بحيث يسمحون لبناتهم أن يخالط الواحدة منهن خطيبها ، وتخلو معه دون رقابة ، بحجة أن يدرس كلا منهما سلوك الآخر قبل الزفاف ، فهذا مما تأباه الشريعة الإسلامية كلية ، لأنه لا يؤمن مع الخلوة موقعة ما نهى الله عنه ، مما يؤدي إلى ضياع شرف المرأة ، وفساد عفافها ، وإهدار كرامتها ، وقد لا يتم الزواج ، فتكون قد أضافت إلى ذلك سوء سمعتها مما يؤدي إلى كساد سوق الزواج لها .

إن الأحاديث التي وردت على لسان الصادق المعصوم في تحريم الخلوة ، تجل عن الحصر نذكر

منها :

- عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم فإن ثالثهما الشيطان»<sup>(١)</sup>

وعن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم » رواه أحمد<sup>(٢)</sup>.

وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال : « لأن يطعن في رأس أحدكم بمييط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل له »<sup>(٣)</sup> رواه الطبراني .

وروى عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إياك والخلوة بالنساء فوالذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأ خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له »<sup>(٤)</sup>.

وفي هذا الحديث يطلب النبي ﷺ من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات ، خشية إفساد الشيطان وإضلاله ورجاء العصمة ، والابتعاد عن الغواية ، والوقوع في المكاره ، ثم يقسم ﷺ بالقاهر القادر الذي بيده تصارييف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة ، تجعل للشيطان ميداناً واسعاً ، يمرح فيه بالتحدث بالوقوع في المعاصي ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة ، والاحتكاك بها بلا نكاح شرعي ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأرثك هم الفائزون ﴾<sup>(٥)</sup>.

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء .

(١) أخرجه الترغيب والترهيب - ح ١ ص ١٤٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد - ح ١ ص ٢٦ ، ٢٢٢ .

(٣) أخرجه المتقى الهندي في كنز العمال - ح ٥ ص ١٣٠٦٥ .

(٤) أخرجه المتقى الهندي في كنز العمال - ح ٥ رقم ١٣٠٣٥ .

(٥) سورة النور آية : ٥٢ .

فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت « رواه البخارى ومسلم والترمذى <sup>(١)</sup> .

وهذا الحديث يوضح كيف أن الهلاك يأتي من الاختلاط ، الذى يدعو إلى الطمأنينة ، حيث يؤتى الجذر من مكمنه والحمو أقارب زوج المرأة ، كعمه وأخيه وأبن أخيه وابن عمه ونحوهم ، ومعنى الحمو الموت : أى الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر تمكنه من الوصول إلى المرأة ، والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وهذه عظة وعبرة للناس ، حتى يعلموا أن خلوة الخطيب بخطيبته تحفها المكاره والمخاطر ، لأنه أجنبى عنها حتى يعقد القرآن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » <sup>(٢)</sup> وهكذا فإن ما نراه فى مجتمعاتنا من خروج الخطيب مع خطيبته بدون محرم ، هو بدعة ، لا يقرها الشرع والدين ، ولو كان هذا الخروج له فائدة فى دراسة سلوك كل منهما الآخر ، فلماذا نرى هؤلاء الناس يدب الشجار بينهما بعد الزواج ، وكثير ما يؤدى إلى الطلاق رغم طول مدة الخطبة بما فيها من دراسة مستفيضة !!؟

فإن كنت يا أخى المؤمن تريد أن تؤسس بنيانك على تقوى من الله ورضوان ، وليس على شفا حفرة من النار ، فاجعل بدايتك كما أمر شرع الله ، ولا تتبع أهواء الذين ضلوا عن منهج الله ، لأنهم يبنون بنيانهم بمعصية الله ورسوله ، فكيف ينتظرون بعد ذلك الخير والبركة والطمأنينة ، فاعتصم بالله أخى المؤمن وكن كما أراد الله لك : ﴿ ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ <sup>(٣)</sup>

حذار يا أخى أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فكيف إذا كانوا يفتنوك عن كل ما أنزل الله إليك ، باتباع عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، وما هى من الإيمان فى شىء فاعتصم بحبل الله المتين ، لأن التقوى هى السلاح الأقوى .

### العدول عن الخطبة :

الخطبة مقدمة تسبق عقد الزواج ، وكثيرا ما يعقبها تقديم المهر كله أو بعضه ، وتقديم هدايا وهبات تقوية للصلات وتأكيذا للعلاقة الجديدة ، وقد يحدث أن يعدل الخاطب أو المخطوبة أو هما معا ، فهل يزد ما أعطى للمخطوبة ؟

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح — باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم رقم ٢١٤٥

أخرجه مسلم — كتاب السلام رقم ٢٠

أخرجه الترمذى كتاب الرضاع . باب ماجاء فى كراهية الدخول على المغيبات رقم ١١٧١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ح ١ ص ١٨ .

(٣) سورة المائدة آية : ٤٩ .

إن الخطبة مجرد وعد بالزواج، فليست عقدًا ملزمًا، والعدول عن أنجازه حق من الحقوق، التي يملكها كل من المتواعدين، ولم يجعل الشارع لإخلاف الوعد عقوبة مادية، يجازى بمقتضاها المخلف وإن عد ذلك خلقًا ذميما، ووصفه بأنه من صفات المنافقين، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملزمة تقتضى عدم الوفاء، ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا أؤتمن خان»<sup>(١)</sup>

ولما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال: «انظروا فلاناً (الرجل من قريش) فإنى قلت له فى ابنتى قولاً كشبه العدة وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أئى قد زوجته». وما قدمه الخاطب من المهر فله الحق فى استرداده، لأنه دفع فى مقابل الزواج وعوضاً عنه، ومادام الزواج لم يوجد، فإن المهر لا يستحق شئ منه، ويجب رده إلى صاحبه إذ أنه حق خالص له، وأما الهدايا فحكمها حكم الهبة.

والصحيح أن الهبة لا يجوز الرجوع فيها، إذا كانت تبرعاً محضاً لا لأجل العوض، لأن الموهوب له حين قبض العين الموهوبة دخلت فى ملكه، وجاز له التصرف فيها، فرجوع الواهب فيها انتزاع لملكه منه بغير رضاه، وهذا باطل شرعاً وعقلاً، فإذا وهب ليتعوض من هبته ويثاب عليها فلم يفعل الموهوب له جاز له الرجوع فى هبته وللواهب هنا حق الرجوع فيما وهب، لأن هبته على جهة المعاوضة، فلما لم يتم الزواج، كان له حق الرجوع فيما وهب.

### والأصل فى ذلك

١ - ما رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل لرجل أن يعطى عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده»<sup>(٢)</sup>.

٢ - وورد عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «العائد فى هبته كالعائد فى قيمه»<sup>(٣)</sup>.

٣ - وعن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من وهب هبته فهو أحق بها مالم يشب منها» أى يعوض عنها<sup>(٤)</sup>.

وطريقة الجمع بين هذه الأحاديث هى ما ذكره ابن القيم فى كتابه (إعلام الموقعين) قال: ويكون الواهب الذى لا يحل له الرجوع هو من وهب تبرعاً محضاً لا لأجل العوض، والواهب الذى له الرجوع هو من وهب ليتعوض من هبته ويثاب منها فلم يفعل الموهوب له وتستعمل سنن رسول الله ﷺ كلها، ولا يضرب بعضها بعض.

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ح ١ ص ٧٨ كتاب الإيمان . باب خصال المنافق رقم ٥٨/١٠٦ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ح ٣ ص ٨٠٨ كتاب البيوع والإجازات باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ ، والترمذى فى الولاء والهبة رقم ٢١٣٣ والنسائى فى الهبة رقم ٣٧٢٠ وابن ماجه فى الهبات رقم ٢٣٧٧ .

(٣) أخرجه أبو داود ح ٣ ص ٨٠٨ . كتاب البيوع باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ .

(٤) أخرجه الدارقطنى فى سننه ح ٣ ص ٤٣ ونصب الراية ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ والإمام أحمد ح ١ ص ٢٥٠ .

رأى الفقهاء :

- بالنسبة للمذهب الحنفى : يرى أن ما أهده الخاطب لمخطوبته له الحق فى استرداده إن كان قائماً على حالته لم يتغير ، فالأسورة أو الخاتم أو العقد أو الساعة ونحو ذلك يرد إلى الخاطب إذا كانت موجودة ، فإن لم يكن قائماً على حالته بأن فقد أو بيع ، أو تغير بالزيادة ، أو كان طعاماً فأكل أو قماشاً مخيط ثوباً ، فليس للخاطب الحق فى استرداد ما أهده أو استرداد بدل منه .

وللمالكية فى ذلك تفصيل : من أن يكون العدول من جهته أو جهتها فإن كان العدول من جهته ، فلا رجوع له فيما أهده وإن كان العدول من جهتها فله الرجوع بكل ما أهده سواء أكان باقياً على حاله أو كان قد هلك ، فيرجع ببدله إلا إذا كان ( عرُف ) أو شرط فيجب العمل به .  
- وعند الشافعية : ترد الهدية سواء أكانت قائمة ، أو هالكة ، فإن كانت قائمة ، ردت هى ذاتها وإلا ردت قيمتها .

وهكذا تبين لنا الخطوة الأولى من الخطوات التى تؤدى إلى بناء الأسرة وهى ( الخطبة ) وفيها من كرامة الإنسان ما فيها ، قال تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾<sup>(١)</sup>

وفى الخطبة إتيان البيوت من أبوابها ، وهذا هو صراط الله المستقيم ، الذى يدعو الناس إلى العمل فى ضوء الشمس دون خداع ، أو التواء ، أو سير فى الظلمات ، أو اتباع لخطوات الشيطان ، فعلى كل خاطب أن يتقى الله ويقدم الخير ، فتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقياء سعادة الدنيا والآخرة .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

## عقد الزواج

إن عقد الزواج هو الركن الركين فى الخطوات العملية لبناء الأسرة ، حيث وضع الإسلام النظام الملائم ، الذى يجعل اتصال الرجل بالمرأة لتكوين الحياة الزوجية اتصالاً كريماً مبنياً على رضاها وعلى الإيجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا وعلى إشهاد على أن كلا منهما قد أصبح للآخر ، هذا النظام هو الذى ارتضاه الله لقيام الأسرة الإسلامية والحياة الزوجية السليمة ، لرعاية ما يثمر عن تلك العلاقة من أبناءهم زينة الحياة الدنيا ، وأزهارها ، التى تحتاج إلى الرعاية والعناية الفائقة ، لأنهم دعائم المجتمع

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .

(٢) سورة النحل آية : ٩٧ .

المسلم وعدته في المستقبل ، أما فيما عدا ذلك . من أنظمة لا تصال الرجل بالمرأة ، فقد هدمها الإسلام ، وبرىء منها الله ورسوله ، ولكي نعرف عظمة الشرع الحكيم في بناء الأسرة على دعائم وطيدة الأركان ، فلا بد من القاء نظرة على نظام النكاح في الجاهلية ، والتي قضى عليها الاسلام ، واجتثها من جذورها ، لأنها تعد من النسل للضياع ، وتجعل المرأة كلاً مباحاً لكل رافع .

### الأنكحة التي هدمها الإسلام :

فمن ذلك : نكاح الخدن : كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لؤم ، وهو المذكور في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَخَذَتِ أَخْدَانُكَ ﴾<sup>(١)</sup> ومنها نكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل أنزل لي عن أمراتك وأنزل لك عن امرأتك وأزيدك ( رواه الدارقطني عن أبي هريرة بسند ضعيف جدا )

وذكرت السيدة عائشة رضی الله عنها غير هذين النوعين فقالت : « كان النكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء :

- ١ - نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .
- ٢ - نكاح الاستبضاع : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئنها أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها ، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجاة الولد .
- ٣ - ونكاح آخر : يجتمع الرهط « ما دون العشرة على المرأة ، فيدخلون كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم ماكان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان تسمى من أحببت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع الرجل منه .
- ٤ - ونكاح رابع : يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن دخل عليها ، وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات ، تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة جمع قائف ( وهو من يشبه بين الناس ) فيلحق الولد بالشبه ويدعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الإنكاح الناس اليوم ، وهذا النظام الذي أبقي عليه الإسلام لا يتحقق إلا بتحقيق أركانه من الإيجاب والقبول ، وبشرط الإشهاد ، وبهذا يتم العقد ، الذي يفيد حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه الذي شرعه الله وبه تثبت الحقوق والواجبات التي تلزم كل منهما .

## حكم الزواج

( واجب — مستحب — محرم — مكروه )

الزواج الواجب : يجب الزواج على من قدر عليه وتاقت نفسه إليه وخشى العنت لأن صيانة النفس وإعفافها عن الحرام واجب ولا يتم ذلك إلا بالزواج .

قال القرطبي : المستطيع الذى يخاف الضرر على نفسه ، ودينه من العزوبة لا يرتفع عنه ذلك بالتزوج ، لا يختلف فى وجوب التزويج عليه ، فإن ثاقت نفسه إليه وعجز عن الانفاق على الزوجة ، فإنه يسعه قول الله تعالى : ﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ (١) . وليكثر من الصيام لما رواه الجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » (٢) .

الزواج المستحب : أما من كان تائقاً له وقادراً عليه ولكنه يأمن على نفسه من اقتراف ما حرم الله عليه ، فإن الزواج يستحب له ويكون أولى من التخلي للعبادة ، فإن الرهبانية ليست من الإسلام فى شيء .

روى الطبرانى عن سعيد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية ، السمحة » (٣) .

روى البيهقى من حديث أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : « تزوجوا فإنى مكاثركم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى » (٤) .

وقال عمر لأبى الزوائد : « إنما يمنعك من التزوج عجز أو فجور وقال ابن عباس : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج » .

ويحرم فى حق من يخل بالزوجة فى الوطء مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه

قال القرطبي : فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها ، أو شيء من حقوقها ، وكذلك لو كانت به علة تمنعه من الاستمتاع ، كان عليه أن يبين ، كيلا يغير المرأة من نفسه ، وكذلك لا يجوز أن يغترها بنسب يدعيه ، ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها .

(١) سورة النور آية : ٣٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ح ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت له نفسه رقم ١٤٠٠/١ .

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب فى ( كتاب النكاح ) ح ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقى .

(٤) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ح ٧ ص ٧٨ .

وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج ، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص أو داء في الفرج ، لم يجوز لها أن تغره وعليها أن تبين ما بها في ذلك ، كما يجب على بائع السلعة أن يبين ما بسلعته من العيوب ، ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيباً فله الرد ، فإن كان العيب بالمرأة ردها الزوج وأخذ ما كان أعطائها من الصداق .

**الزواج المكروه :**

ويكره في حق من يخل بالزوجة في الوطء والإنفاق ، حيث لا يقع ضرر بالمرأة ، بأن كانت غنية وليس لها رغبة قوية في الوطء ، فإن انقطع بذلك عن شيء من الطاعات أو الاشتغال بالعلم اشتدت الكراهة .

### النهي عن التبتل للقادر على الزواج

عن ابن عباس : أن رجلاً شكاً إلى رسول الله ﷺ العزوبة فقال : « ألا أختصى فقال ليس منا من خصى أو أختصى » رواه الطبراني<sup>(١)</sup>.

وقال سعد بن أبي وقاص : رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون المتبتل ولو أذن له لا تختصينا . رواه البخاري . أى لو أذن بالتبتل لبالغنا في التبتل ، حتى يفضى بنا الأمر إلى الاختصاص .

قال الطبري : التبتل الذي أراده عثمان بن مظعون ، تحريم النساء والطيب وكل ما يتلذذ ، فلهذا أنزل في حق ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

### تقديم الزواج على الحج :

وان احتاج الإنسان إلى الزواج أو خشي العنت بتركه ، قدمه على الحج الواجب ، وإن لم يخف قدم الحج عليه ، وكذلك فروض الكفاية كالعلم والجهاد تقدم على الزواج ، إذا لم يخشى العنت .

### الإعراض عن الزواج وسببه :

تبين مما تقدم أن الزواج ضرورة لا غنى عنها ، وأنه لا يمنع منه إلا العجز أو الفجور ، كما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وأن الرهبانية ليست من الإسلام في شيء ، وأن الإعراض عن الزواج يفوت على الإنسان كثيراً من المنافع والمزايا .

(١) أخرجه البخاري ح ٧ ص ٥ كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء



وكان هذا كافياً في دفع الجماعة المسلمة على تهيئة أسبابه ، وتيسير وسائله ، حتى ينعم به الرجال والنساء على السواء ، ولكن على العكس من ذلك ، خرجت كثير من الأسر عن سماحة الإسلام وسمو تعاليمه ، فعمدوا الزواج ، ووضعوا العقبات في طريقه ، وخلقوا بذلك التعقيد أزمة ، تعرض بسببها الرجال والنساء لآلام العزوبة وما يتبعه من الاستجابة إلى العلاقات الطائشة والصلات الخليعة

وظاهرة أزمة الزواج لا تبدو في مجتمع القرية ، كما تبدو في مجتمع المدينة. إذ أن القرية لا تزال الحياة فيها بعيدة عن الإسراف وأسباب التعقيد إذا استثنينا بعض الأسر الغنية — بينما تبدو الحياة في المدينة معقدة كل التعقيد .

ومعظم أسباب هذه الأزمة ترجع إلى التغالى في المهور وكثرة النفقات ، التي ترهق الزوج ويعيا بها .

هذه من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن تبدل المرأة وخروجها بهذه الصورة المثيرة ألقى الريبة والشك في مسلكها وجعل الرجل حذراً من اختيار شريكة حياته ، بل إن بعض الناس عزف عن الزواج ، إذ لم يجد المرأة التي تصلح في نظره للقيام بأعباء الحياة الزوجية ، لذا لا بد من العودة إلى تعاليم الإسلام الرشيدة فيما يتصل بتربية المرأة وتنشئتها على الفضيلة والعفاف والاحتشام ، وترك التغالى في المهر ، وتكاليف الزواج حرصاً على إقامة الأسرة على دعائم متينة من تقوى الله ورسوله ، وحتى لا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير .

### أركان العقد وشروطه

ولعقد الزواج أركان وشروط تحدثت عنها كتب الفقه ونبينها فيما يلي :

أما أركان العقد فهي : « الإيجاب والقبول »

**فالإيجاب :** هو ما صدر أولاً من أحد المتعاقدين للتعبير عن إرادته في إنشاء الصلة الزوجية .

**والقبول :** هو ما صدر ثانياً من المتعاقد الآخذ من العبارات الدالة على الرضا والموافقة .

أما ما ذكره الفقهاء من شروط العقد فهي :

١ - تمييز المتعاقدين :

فإن كان أحدهما مجنوناً أو صغيراً لا يميز ، فإن الزواج لا ينعقد .

٢ - اتحاد مجلس الإيجاب والقبول :

بمعنى ألا يفصل الإيجاب والقبول بكلام أجنبي ، أو بما يعد في العرف إعراضاً وتشاغلاً عنه بغيره .

٣ - ألا يخالف القبول بكلام أجنبي : أو بما يعد في العرف إعراضاً وتشاغلاً عنه بغيره .

٤ - ألا يخالف القبول الإيجاب :

إلا إذا كانت المخالفة إلى ماهو أحسن للموجب ، فإنها تكون أبلغ في الموافقة ، فإذا قال للواجب : زوجتك ابنتي فلانة على مهر قدره مائة جنيه ، فقال القابل : قبلت زواجها على مائتين انعقد الزواج ، لاشتمال القبول على ماهو أصلح .

٥ - سماع كل من المتعاقدين بعضهما من بعض ما يفهم أن المقصود من الكلام ، هو إنشاء عقد الزواج ، وإن لم يفهم من كل منهما معاني مفردات العبارة ، لأن العبرة بالمقاصد والنيات .  
ألفاظ الإنعقاد :

اتفق العلماء على انعقاد الزواج بكل لفظ يفيد معنى النكاح مثل زوجتك أو نكحتك .  
أما القبول فإنه ينعقد بكل لفظ يفيد الرضا والموافقة مثل : قبلت — وافقت — أفضيت — نفذت .

واختلف العلماء إذا استعمل في الإيجاب لفظ غير الفاظ الزواج ، مثل الهبة أو البيع أو التملك أو الصدقة فأجازه الأحناف والثوري وأبو ثور وأبو عبيد وأبو داود ، لأنه عقد يعتبر فيه النية ، ولا يشترط في صحته اعتبار لفظ الخصوص ، بل المعتبر فيه أى لفظ اتفق إذا فهم المعنى الشرعى مشاركة ، لأن النبي ﷺ زوج رجلاً امرأة فقال : « قد ملكتها بما معك من القرآن » رواه البخارى (١) .

ولأن لفظ الهبة انعقد به زواج النبي ﷺ فكذلك ينعقد به زواج أمته ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ﴾ إلى قوله ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ﴾ (٢) .

وذهب الشافعى وأحمد وسعيد بن المسيب وعطاء ، إلى أنه لا يصح إلا بلفظ التزويج أو الانكاح وما اشتق منهما ، لأن ما سواهما من الألفاظ كالتملك والهبة لا يأتى على معنى الزواج .  
واتفق العلماء على جواز العقد بغير اللغة العربية وذلك إذا كان العاقدان أو أحدهما لا يفهم العربية .

أما إذا كانا يفهمان منها ، فقد اختلف العلماء في جواز العقد بغير العربية ، فأجازه البعض ولم يجزه البعض الآخر .

ويجوز زواج الأخرس بإشارته إن فهمت ، كما يصح بيعه لأن الإشارة معنى مفهم ، وإن لم

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح — باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٠ .

تفهم إشارته لا يصح منه ، لأن العقد بين شخصين ، ولا بد من فهم كل واحد منهما ما يصدر من صاحبه .

وإذا غاب أحد طرفي العقد ، وأراد أن يعقد الزواج ، فعليه أن يرسل رسوياً ، أو يكتب كتاباً إلى الطرف الآخر ، يطلب الزواج إذا كان له رغبة في القبول ، أن يحضر الشهود ويسمعهم عبارة الكتاب أو رسالة الرسول ، ويشهدهم في المجلس على أنه قبل الزواج ، ويعتبر القبول مقيداً بالمجلس .

### شروط صيغة العقد :

اشترط الفقهاء لصياغة العقد شروطاً منها :

أن تكون بلفظين وضعا للماضي ، أو وضع أحدهما للماضي والآخر للمستقبل مثل : أن يقول العاقد الأول : زوجتك ابنتي ويقول القابل : قبلت أو يقول : أزوجك ابنتي فيقول : قبلت .

وذلك لأن الصيغة التي إختارها الشارع الحكيم لإنشاء العقود ، هي صيغة الماضي ، لأن دلالتها على حصول الرضا من الطرفين قطعية ، ولا تحتل أي معنى آخر ، بخلاف الصيغ الدالة على الحال أو الاستقبال ، فإنها لا تدل قطعاً على حصول الرضا وقت التكلم .

فلو قال أحدهما : أزوجك ابنتي ؟ وقال الآخر : أقبل فإن الصيغة منهما لا ينعقد بها الزواج : لاحتمال أن يكون المراد من هذه الألفاظ مجرد الوعد . بالزواج مستقبلاً ليس عقداً له في الحال .

ومن شروط صيغة الزواج أن تكون منجزة ، أي مطلقة غير مقيدة بقيد ، وذلك مثل أن يقول الرجل للمخاطب : زوجتك ابنتي ، فيقول المخاطب : قبلت ، فهذه صيغة منجزة ، فإن كانت الصيغة مقيدة بشرط غير محقق في الحال قبل أن يقول المخاطب : إن التحقت بالوظيفة تزوجت ابنتك . فيقول الأب : قبلت فإن الزواج بهذه الصيغة لا ينعقد .

كذلك لا ينعقد الزواج بالصيغة الدالة على زمن محدد ، كأن يتزوج مدة شهر ، أو أكثر أو أقل فإن الزواج لا يجل لأن المقصود منه دوام المعاشرة للتوالد والمحافظة على النسل وتربية الأولاد .

ومن ثم فإنه لا يجوز الزواج المؤقت للتجليل ، أو زواج المتعة .

وهناك شروط أخرى قد تقتن بها صيغة العقد ، وللفقهاء فيها أحكام نبيها فيما يلي :

قد يكون هذا الشرط من مقتضيات العقد ، أو يكون منافياً ، أو يكون مما يعود نفعه على المرأة ، أو يكون شرطاً قد نهى الشارع عنه .

ولكل حالة من هذه الحالات حكم خاص بها :

١ - الشروط التي يجب الوفاء بها :

من الشروط ما يجب الوفاء بها ، وهي ما كانت من مقتضيات العقد ومقاصده ، ولم تتضمن تغييراً لحكم الله ورسوله ، كاشتراط العشرة بالمعروف ، والإنفاق عليها وكسوتها وسكنائها بالمعروف ، وأن لا يقصر من شيء من حقوقها ، ويقسم لها كغيرها ، وأنها لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، ولا تشتر عليه ، ولا تصوم تطوعاً بغير إذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه ، ولا تتصرف في متاعه إلا برضاه ونحو ذلك .

٢ - الشروط التي لا يجب الوفاء بها :

ومنها ما لا يجب الوفاء بها مع صحة العقد ، وهو ما كان منافياً لمقتضى العقد ، كاشتراط ترك الإنفاق والوطء ، أو كاشتراط أن لا مهر لها أو يعزل عنها ، أو اشتراط أن تنفق عليه ، أو تعطيه شيئاً ، أو لا يكون عندها في الأسبوع إلا ليلة ، أو شرط لها النهار دون الليل .

فهذه الشروط كلها باطلة في نفسها ، لأنها تنافي العقد ، ولأنها تتضمن إسقاط حقوق تجب بالعقد قبل إنعقاده ، فلم يصح أما العقد في نفسه ، فهو صحيح .

٣ - الشروط التي فيها نفع للمرأة :

ومن الشروط التي ما يعود نفعه وفائدته إلى المرأة ، مثل أن يشترط لها ألا يخرجها من دارها أو بلدها ، أو لا يسافر بها أو لا يتزوج عليها ونحو ذلك .

فمن العلماء من رأى أن الزواج صحيح ، وأن هذه الشروط ملغاه ولا يلزم الزوج الوفاء بها . ومنهم من ذهب إلى وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة والأول مذهب أبي حنيفة والشافعي وكثير من العلماء ، واستدلوا بما يأتي :

أن رسول الله ﷺ قال : « على شروطهم إلا شرطاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً »<sup>(١)</sup>

وقوله ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط »<sup>(٢)</sup> .

قالوا : وهذا ليس في كتاب الله ، لأن الشرع لا يقتضيه .

والرأى الثاني : مذهب عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص ، ومعاوية ، وعمر بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وجابر بن زيد ، وطاووس ، والأوزاعي ، وإسحاق ، والحنابلة .

(١) أخرجه المنقح الهندي في كنز العمال ح ٤ رقم ١٠٩٤٨

(٢) أخرجه البخاري ح ٢ ص ١١٩ كتاب الشروط باب الشروط في الولاء وباب المكاتب وما لا يجل من الشروط .

واستدلوا بما يأتي : يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾<sup>(١)</sup>.

وقول الرسول ﷺ : « المسلمون على شروطهم »<sup>(٢)</sup> وما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج »<sup>(٣)</sup>.

ومن الشروط ما نهى الشارع عنها ، ويحرم الوفاء بها : وهى اشتراط المرأة عند الزواج طلاق ضررتها .

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى » رواه أحمد<sup>(٤)</sup>.

فهذا النهى يقتضى فسادا لمنهى عنه ، ولأنها شرطت عليه فسخ عقده وإبطال حقه وحق إمرأته ، فلم يصح ، كما لو شرطت عليه فسخ بيعه . فإن قبل فما الفارق بين هذا وبين اشتراطها أن لا يتزوج عليها . أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذا فقال : الفرق بينهما أن فى اشتراط طلاق الزوجة من الإضرار بها وكسر قلبها ، وخراب بيتها ، وشماتة أعدائها ، فليس فى اشتراط عدم نكاحها ونكاح غيرها وقد فرق النص بينهما . فقياس أحدهما على الآخر فاسد .

### شروط صحة الزواج

يشترط لصحة الزواج شرطان :

أحدهما : ألا تكون المرأة التى يراد زواجها محرمة عليه .

وثانيهما : الإشهاد .

وهناك تفصيل لكل منهما :

### المحرمات من النساء

يشترط فى المرأة التى يراد زواجها ألا تكون محرمة على من يريد زواجها ، سواء أكان هذا التحريم مؤبداً أم مؤقتاً .

(١) سورة المائدة آية : ١ .

(٢) أخرجه المثنى الهندى فى كنز العمال ح ٢ رقم ١٠٩١٧ .

(٣) أخرجه البخارى كتاب الشروط باب الشروط فى المهر عند عقدة النكاح رقم ١٣١١

ومسلم — كتاب النكاح حديث رقم ٦٣ .

ترمذى — ح ٣ ص ٤٣٤ كتاب النكاح باب ما جاء فى الشرط عند عقدة النكاح رقم ١١٢٧

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ح ٢ ص ١٧٦ .



٣ - زوجة الابن ، وابن ابنه ، وابن بنته ، وإن نزل ، لقول الله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ .  
الحلائل : جمع حليلة . وهى الزوجة .

٤ - زوجة الأب : يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه بمجرد عقد الأب عليها ولم يدخل بها ، وكان هذا النوع من الزواج فاشياً فى الجاهلية ، وكانوا يسمونه زواج المقت ، وسمى الولد منها مقتياً أو مقتياً ، وقد نهى الله عنه وذمه ونفر منه .

المحرمات بسبب الرضاع :

حرم الشرع الحكيم بسبب الرضاع كل ما يحرم بسبب النسب وبيانه كما يلى :

والذى يحرم من النسب هو : الأم ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وهى التى بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ وعلى هذا فتتزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع هى وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب .

فتحرم :

- ١ - المرأة المرضعة لأنها بإرضاعها تعد أما للرضيع .
- ٢ - وأم المرضعة لأنها جدة له .
- ٣ - أم زوج المرضعة - صاحب اللبن - لأنها جدة كذلك .
- ٤ - أخت الأم لأنها خالة الرضيع .
- ٥ - أخت زوجها - صاحب اللبن - لأنها عمتة .
- ٦ - بنات بناتها وبناتها لأنهن بنات أخوته وأخواته .
- ٧ - الأخت سواء أكانت أختاً لأب وأم ، وأختاً لأم ، أو أختاً لأب .

بما تثبت الحرمة بالرضاع :

فيما مضى تبين لنا أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فهل كل رضاع يكون سبباً فى الحرمة ؟

إن للفقهاء فى ذلك أقوالاً وأدلة يحسن بنا أن نفصلها وإليك بيانها :

١ - القول الأول : إن قليل الرضاع وكثيره سواء فى التحريم ، أخذاً بإطلاق الأرضاع فى الآية

ولما رواه البخارى ومسلم عن عقبه بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : ( قد أرضعتكما ) . فأتيت النبي ﷺ — فذكرت له ذلك فقال : وكيف ؟ وقد قيل ؟! دعها عنك<sup>(١)</sup>.

فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات وأمره بتركها ، دليل على أنه لا اعتبار إلا بالارضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه ، لأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له ، ولأن انتشاز العظم وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره .

وهذا مذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى والزهرى وقتادة وجماد والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد :

٢ - القول الثانى : إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان فيما نزل من القرآن ﴿عشر رضعات معلومات يحرمن﴾ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ ، وهن فيما يقرأ من القرآن<sup>(٢)</sup> » وهذا تقييد لإطلاق الكتاب والسنة وتقييد المطلق ببيان لا نسخ ولا تخصيص .

ولو لم يعترض على هذا رأى بأن القرآن لا يثبت إلا متواتراً وأنه لو كان كما قالت عائشة ، لما خفى على المخالفين ، ولأسيما الإمام على وابن عباس يقول : لو لم يوجه إلى هذا رأى هذه الاعتراضات لكان أقوى الأراء ، ولهذا عدل الإمام البخارى عن هذه الرواية . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن الزبير وعطاء وطاوس والشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه وابن حزم وأكثر أهل الحديث .

القول الثالث : إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر . لأن النبي ﷺ قال : « لا تحرم المصبة ولا المصتان » . وهذا صريح فى نفى التحريم بما دون الثلاث ، فيكون التحريم منحصرأ فيما زاد عليهما . والمرضعة التى ينبت بلبنها التحريم ، هى كل امرأة ذر اللبن من ثديها ، سواء أكانت بالغة أم غير بالغة ، وسواء أكانت يائسة من الحيض أم غير يائسة ، وسواء أكان لها زوج أم لم يكن ، وسواء أكانت حاملاً أم غير حامل .

مسألة لأبد من مراعاتها :

فى حديث عن النبي ﷺ قال : « إنما الرضاعة من المجاعة »<sup>(٣)</sup> . ذلك لأن اللبن إنما ينبت اللحم وينشر العظم فى تلك المدرة التى حددها الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى ( كتاب الرضاع ) باب شهادة النساء فى الرضاع ح ٧ ص ٤٦٣٧ وانظره فى البخارى .

(٢) أخرجه مسلم ح ٢ ص ١٠٧٥ كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات رقم ١٤٥٢/٢٤ .

(٣) أخرجه مسلم ح ٢ ص ١٠٧٨ كتاب الرضاعة باب وإنما الرضاعة من المجاعة رقم ١٤٥٥/٣٢ .



حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة<sup>(١)</sup> فإذا ما أنبت اللبن اللحم ، وانشر العظم ، ولا يكون ذلك إلا في الحولين ، فقد صار الرضيع جزءاً ممن رضع معه أو اشترك في تلك الموضع ، ولعن الله ناكح جزئه وفي تلك المسألة أعنى بها سن الرضاعة أحكام للفقهاء نذكرها فيما يلي :

قال ﷺ : « لا رضاع إلا في الحولين »<sup>(٢)</sup> وروى مرفوعاً إلى النبي ﷺ « لا رضاع إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم »<sup>(٣)</sup>.

وإنما يكون ذلك لمن هو في سن الحولين ينمو باللبن عظمه وينبت عليه لحمه .

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء وكان قبل الفطام »<sup>(٤)</sup> . ولو فطم الرضيع قبل الحولين واستغنى بالغذاء عن اللبن ، ثم أرضعته امرأة ، فإن ذلك الرضاع ثبت به الحرمة عند أبي حنيفة والشافعي ، لقول الرسول ﷺ « إنما الرضاعة من المجاعة » .

وقال مالك : ما كان من الرضاعة بعد الحولين كان قليلاً وكثيراً لا يحرم شيئاً إنما هو بمنزلة الماء . وقال : إذا فصل الصبي قبل الحولين أو استغنى بالفطام عن الرضاع فما ارتضع بعد ذلك لم يكن للإرضاع حرمة .

### الحرمات مؤقتاً

الجمع بين المحرمين : يحرم الجمع بين الأختين ، وبين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، كما يحرم الجمع بين كل إمرأتين بينهما قرابة لو كانت احدهما رجلاً لم يجز له التزوج بالأخرى .

ودليل ذلك : قوله تعالى : ﴿ وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ ما ورد البخاري ومسلم عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها<sup>(٥)</sup>.

ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه عن فيروز الديلمي أنه أدركه الإسلام وتحتة أختان فقال له رسول الله ﷺ « طلق أيتهما شئت »<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في ( كتاب الرضاع ) باب ماجاء في تحديد ذلك بالحولين ح ٧ ص ٤٦٢ .

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى في ( كتاب الرضاع ) ح ٧ ص ٤٦١ باب : رضاع الكبير .

(٤) أخرجه : الترمذي ح ٣ ص ٤٥٨ رقم ١١٥٢ كتاب الرضاع باب ماجاء في شهادة المرأة الواحدة في الرضاع

(٥) أخرجه : الترمذي ح ٣ ص ٤٣٢ كتاب النكاح باب ٣٠ رقم ١١٢٥

(٦) أخرجه الترمذي ح ٣ ص ٤٣٦ كتاب النكاح باب ماجاء في الرجل يسلم وعنده أختان رقم ١١٢٩ ، ١١٣٠

أخرجه أبو داود — كتاب الطلاق — باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان رقم ٢٢٤٣

أخرجه ابن ماجه — كتاب النكاح — باب الرجل يسلم وعنده أختان رقم ١٩٥٠

وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : « إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم »<sup>(١)</sup>.

فإن الجمع بينهما يولد التحاسد ، ويجر إلى البغضاء ، لأن الضرتين قلما تسكن عواصف الغيرة بينهما .

وهذا الجمع بين المحارم كما هو ممنوع من الزواج ، فهو ممنوع في العدة ، فقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقاً رجعياً ، فلا يجوز له أن يتزوج اختها ، أو أربعاً سواها ، حتى تنقضي عدتها ، لأن الزواج قائم وله حق الرجعة في أى وقت .

### زوجة الغير ومعتدته

كذلك يحرم على المسلم الزواج بزوجة الغير والمعتدة من غيره ، وكذلك المطلقة ثلاثاً لا تحل لمن طلقها ، حتى تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ، لقوله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾<sup>(٢)</sup> ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>.

كذلك يحرم على المحرم أن يعقد النكاح ، لنفسه أو لغيره ، بولاية أو وكالة ، ويقع العقد باطلاً لا تترتب عليه آثاره الشرعية . لقوله ﷺ : « لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب »<sup>(٤)</sup> رواه الترمذى .

وقال الأحناف بجواز عقد النكاح للمحرم لأن الإحرام لا يمنع صلاحية المرأة للعقد عليها وإنما يمنع الجماع لا صحة العقد .

### حكم الإشهاد على الزواج

بعد ما تبين لنا المحرمات من النساء ، وذكرنا أن ذلك شرط من شروط صحة العقد ، نذكر هنا الشرط الثانى ، وهو الإشهاد على الزواج .

(١) أخرجه الإمام أحمد ح ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ .

(٢) البقرة آية ٢٢٩ .

(٣) البقرة آية ٢٣٠ .

(٤) أخرجه الترمذى كتاب الحج — باب ماجاء في كراهية تزويج المحرم رقم ٨٤٠ .

أخرجه مسلم كتاب الحج رقم ٤١ - ٤٥ .

أخرجه أبو داود كتاب المناسك — باب المحرم يتزوج رقم ١٨٤١ ، ١٨٤٢ .

ذهب جمهور العلماء إلى أن الزواج لا ينعقد إلا بنية ، ولا ينعقد حتى يكون الشهود حضور حالة العقد ، ولو حصل إعلان عنه بوسيلة أخرى .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « البغايا اللاتي ينكحن أنفسهن بغير بينه »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا نكاح إلا بولي وشاهدى عدل »<sup>(٢)</sup> . وهذا النفى يتوجه إلى الصحة ، وذلك يستلزم أن يكون الإشهاد شرطاً ، لأنه قد استلزم عدمه الصحة وما كان كذلك فهو شرط .

ثالثاً : وعن إبي الزبير المكي ، أن عمر بن الخطاب أتى بنكاح لم يشهد عليه إلا لرجل وإمرأة فقال : « هذا نكاح السر ولا أجزئه ولو كنت تقدمت فيه لرجمت » . والأحاديث وإن كانت ضعيفة إلا أنه تقوى بعضها بعضاً .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ ، ومن بعدهم من التابعين وغيرهم ، قالوا : « ولا نكاح إلا بشهود » لم يختلف فى ذلك من معنى منهم إلا قوم من المتأخرين من أهل العلم . ولأنه يتعلق به حق غير المتعاقدين ، وهو الولد ، فاشتطت ويشترط فى الشهود : العقل والبلوغ وسماع كلام المتعاقدين مع فهم أن المقصود به عقد الزواج ، فلو شهد على العقد صبي أو مجنون أو أصم أو سكران لم يجز واشترط الشافعي فى الشهود العدالة ، لقوله ﷺ : « لا نكاح إلا بولي وشاهدى عدل »<sup>(٣)</sup>

وعند الشافعية أنه إذا عقد الزواج بشهادة مجهول الحال ، ففيه وجهان ، والمذهب أنه يصح لأن الزواج يكون فى القرى والبادية ، وبين عامة الناس ممن لا يعرف حقيقة العدالة ، فاعتبار ذلك يشق ، فاكتمى بظاهر الحال ، وكون الشاهد مستوراً لم يظهر فسقه ، فإذا تبين بعد العقد أنه كان فاسقاً ، لم يؤثر ذلك العقد ، لأن الشرط فى العدالة من حيث الظاهر ألا يكون ظاهر الفسق وقد تحقق ذلك .

والشافعية والجنابلة يشترطون فى الشهود الذكورة ، فإن عقد الزواج بشهادة رجل وامرأتين ، لا يصح ، لما رواه أبو عبيد عن الزهرى أنه قال : « قضت السنة عن رسول الله ﷺ : « أن لا يجوز شهادة النساء فى الحدود ولا فى النكاح ولا فى الطلاق » .

والأحناف لا يشترطون هذا الشرط ، ويرون أن شهادة رجل وامرأتين كافية ، لقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من

(١) أخرجه أبو داود فى سننه ح ٣ ص ٤١١ رقم ١١٠٣ كتاب النكاح باب ما جاء لانكاح ببينة

(٢) أخرجه أحمد ، ح ٤ ص ٣٩٤ ، ح ٤١٣ ، ح ١ ص ٢٥٠ .

(٣) أخرجه أحمد ح ٤ ص ٣٩٤ ، ح ٤١٣ ، ح ١ ص ٢٥٠ .

الشهداء ﴿١﴾ ولأنه مثل البيع في أنه عقد معاوضة ، فينعقد لشاهدين من الرجال ، ويصير عقد الزواج لازماً ، إذا استوفى أركانه ، وشروط صحته ، وشروط نفاذه .  
وإذا لزم فليس لأحد الزوجين ، ولا لغيرهما حق نقض العقد ، ولا فسخه ولا ينتهي إلا بالطلاق أو الوفاة وهذا هو الأصل في عقد الزواج .

## الزنا والزناة

قال تعالى :  
﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون . الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ ( قرآن كريم من سورة النور )<sup>(١)</sup> .  
قال ﷺ : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »<sup>(٢)</sup> . حديث صحيح .

## قال العلماء الفقهاء

لا يحل للرجل أن يتزوج بزانية ، ولا يحل للمرأة أن تتزوج بزاني ، إلا أن يحدث كل منهما توبة ودليل هذا :  
١ - أن الله جعل العفاف شرطاً يجب توفره في كل من الزوجين قبل الزواج . قال تعالى :  
﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾<sup>(٣)</sup> .  
أي إن الله كما أحل الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، أحل زواج العفيفات من المؤمنات والعفيفات من أهل الكتاب ، في حال كون الزواج أعفاء غير مسافحين ولا متخذي أخدان .

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

(٢) سورة النور الآيات : ١ - ٣ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه - ١ ص ٧٧ كتاب الإيمان - باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي رقم ١٠٤ / ٥٧ .

(٤) المائدة آية ٥ .

٢ - وذكر ذلك في زواج الإماء عند العجز عن طول الحرة فقال : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾<sup>(١)</sup>.

٣ - يؤيد هذا ما جاء صريحاً في قوله تعالى : ﴿ الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾<sup>(٢)</sup>.

ومعنى ينكح : يعقد . وحرم ذلك أى وحرم على المؤمنين ، أن يتزوجوا من هو متصف بالزنا أو بالشرك ، فإنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

٤ - ما رواه عمر بن شعيب عن أبيه عم جده أن مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقتها قال : فجئت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله أأنكح عناقاً : قال : فسكت عني فنزلت : ﴿ والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴾ فدعاني فقرأها عليّ ، وقال : « لاتنكحها »<sup>(٣)</sup> رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

٥ - وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله »<sup>(٤)</sup> رواه أحمد وأبو داود .

قال الشوكانى : هذا الوصف مخرج الغالب باعتبار من ظهر منه الزنا ، ومنه دليل على أنه لا يحل للرجل أن يتزوج بمن ظهر منها الزنا ، وكذلك لا يحل للمرأة أن تتزوج بمن ظهر منه الزنا .

ويدل على ذلك الآية المذكورة في الكتاب الكريم ، لأن في آخرها : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ فإنه صريح في التحريم .

### الزنا والزواج :

وثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية .

فإن الزواج هو نواة المجتمع ، وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعى الذى يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التى تجعل للحياة قيمة وتقديراً ، وأنه هو الحنان الحقيقى والحب الصحيح ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك فى بناء الأسرة وعمار العالم .

(١) سورة النساء آية : ٢٥ .

(٢) سورة النور آية : ٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ح ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ كتاب النكاح باب قوله تعالى : ﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾ رقم ٢٠٥١ .

وأخرجه الترمذى . فى كتاب التفسير باب تفسير سورة النور رقم ٣١٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود ح ٢ ص ٥٤٣ كتاب النكاح رقم ٢٠٥٢ .

## علة الإسلام في تحريم نكاح الزنا :

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقي بين أنياب الزانية ، ولا المسلمة أن تقع في يد الزانى ، وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشتى الجرائم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض ، وللإسلام — فى كل أحكامه وأوامره وفى كل محرماته ونواهيه ، لا يريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى ، الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .

## وجه الشبه بين الزنا والمشركين :

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المتبع لسنة أفضل الخلق أجمعين سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، لا يمكن أن يعيش مع زانية لا تفكر تفكيره ، ولا يستطيع أن يعاشر امرأة لا تحب حياته المستقيمة ، ولا يستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لا تشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله تعالى قال عن الزواج : ﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١).

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟.. وأين النفس من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وأن المسلم الذى لا يستطيع نكاح الزانية — كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها — لا يمكن كذلك أن يعيش مع شريكة لا تعتقد اعتقاده ، ولا تؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة ما يراه ، لا تحرم ما يحرمه عليه دينه من الفسق والفجور ، ولا تعترف بالمبادئ الإنسانية السامية التى نص عليها الإسلام ، لها عقيدتها الضالة واعتقاداتها الباطلة ، لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لا يمت إلى عقله بصلة ، قال تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه وبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ (٢).

## التوبة تجب ما قبلها :

فإن تاب كل من الزانى والزانية ، توبة نصوحا بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب ، واستأنف كل منهما حياة نظيفة مبرأة من الاثم ، ومطهرة من الدنس ، فإن الله يقبل توبتهما ، ويدخلهما برحمته فى عباده الصالحين .

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴿١﴾

سئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة ... أيتزوجها ؟  
قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلاً من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمرت الشفيرة على أوداجها ، فأدركت قداووها حتى برأت ، ثم أن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة ، فقرأت القرآن ونسكت ، حتى كانت من أنسك نسائهم ، فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدها ، ويكره أن يغش على ابنة أخيه فأقى عمر بن الخطاب فذكر ذلك له . فقال عمر : لو أفشيت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه .

وفي رواية أن عمر قال : أتخير بشأنها ؟.. تعتمد إلى ما ستره الله فتبديه والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت ألا أدع أحداً أصاب فاحشة في الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبى بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها فإن أجابت فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

وقد تابع في ذلك ما روى عن ابن عمر . وقال أصحابه ألا ينبغي لمسلم أن يدعو امرأته إلى الزنا ويطلبه منها ، لأن طلبه ذلك منها إنما يكون خلوة ولا تحل الخلوة بأجنبي ، ولو كان في تعلمهما القرآن فكيف يحل في مراودتها على الزنا ؟

ثم لا يأمن أن إجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية ، فلا يحل التعرض لمثل هذا ، لأن التوبة من سائر الذنوب ، وفي حق سائر الناس ، وبالنسبة إلى سائر الأحكام على غير هذا الوجه ، فكذلك يكون هذا ، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ورجحه ابن تيمية وابن القيم .

إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطاً آخر ، وهو إنقضاء العدة ، فمتى تزوجها قبل التوبة أو إنقضاء عدتها ، كان الزواج فاسداً ويفرق بينهما .

ومذهب الحنفية ، والشافعية والمالكية ، أنه يجوز للزاني أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزاني فالزنا لا يمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : « سبب اختلافهم في مفهوم قوله تعالى : ﴿ والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾

هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟

وهل الإشادة في قوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى الزنا أو النكاح ؟

وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم . لما جاء في الحديث : أن رجلاً قال للنبي ﷺ في زوجته : أنها لا ترد يد لامس . فقال له النبي ﷺ : « طلقها » فقال له : إني أحبها فقال له : « أمسكها » . ثم أن المجوزين اختلفوا في زواجها في عدتها .

فنهى مالك احتراماً لماء الزوج ، وصيانة لاختلاط النسب الصريح بولد الزنا .

وذهب أبو حنيفة والشافعي إلى أنه يجوز العقد عليها من غير إنقضاء عدة ، ثم ان الشافعي يجوز العقد عليها وإن كانت حاملاً ، لأنه لا حرمة لهذا العمل .

وقال أبو يوسف ، ورواية عن أبي حنيفة : لا يجوز العقد عليها ، حتى تضع الحمل ، لئلا يكون الزوج قد سقى ماءه زرع غيره .

ونهى رسول الله ﷺ « أن توطأ المسيئة الحامل حتى تضع مع أن حملها مملوك له » .

فالحامل من الزنا أولى ألا توطأ حتى تضع ، لأن ماء الزاني وإن لم يكن له حرمة ، فماء الزوج محترم ، فكيف يسوغ له أن يخلطه بماء الفجور ؟

ولأن النبي ﷺ هم بلعن الذي يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره ، وكانت مسيبة مع إنقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوك له ، وقال أبو حنيفة في الرواية الأخرى يصح العقد عليها ولكن لا توطأ حتى تضع .

### الحقوق الزوجية والواجبات

أقام الإسلام الميزان عادلاً في الحقوق والواجبات لا في الزواج وحده ، وإنما في كل قضاياها ومسائله فما من قضية من قضايا الإسلام ، وما من مسألة تتعلق بأحوال العباد ، إلا وأقام الإسلام الوزن بالقسط ، ولم يخسر الميزان ، فلكل من العباد حقوق ، وعلى كل واجبات ، وإذا كانت الأسرة هي اللبنة الأساسية في بناء المجتمع فقد أسسها الإسلام على تقوى من الله ورضوان ، وهياً لها وسائل السعادة وسبل الرق فبناها على الإيمان والإسلام والإحسان وشيدها على المحبة والمودة والرحمة ، وجعل الشراكة بين الزوجين رأس مالها مودة ومحبة ، ورحمة وثقة واحترام متبادل ، فالمسلمون أخوة وهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحصى والسهرة ، إنهم تتكافؤ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فما أجمل أن تقرأ هذه الآيات ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يفتكرون ﴾ (١)



وما أعظم أن تقف أمام هذه الآية الجليلة ، لتعرف سابقها ولاحقها وسباقها ، إنها وضعت بين آيات السنن الكونية ، ونواميس الكون ، وقوانين الخلق ، فسابقها قوله جل ذكره : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ (١)

ولاحقها قوله تبارك اسمه ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ (٢)

وسباقها ، يؤخذ من السباق واللاحق ، وهو ما يفيد أن الزواج سنة من سنن الكون ، فهو بين خلق البشرية ، وخلق الكون علوية وسفلية ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ (٣)

وجاء قوله جل جلاله : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون ﴾ (٤) أما الفرد الصمد الذى لا يوصف بالزوجية ، فهو الواحد الأحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، تنزه عنه الشريك ذاته ، وتقدسست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخير ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير \* قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ (٥)

إن من صفات الله تعالى العليا ، ومن أسمائه الحسنى ، الحكم العدل ، لذا قسم الحقوق والواجبات ، بالعدل القويم ، والقسطاس المستقيم ، فيا معشر المسلمين ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ (٦) ويا أيها الأزواج والزوجات ، ليعرف كل منكم ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات ، وهاكم بيان الحقوق والواجبات .

(١) سورة الروم آية : ٢٠ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٣) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

(٥) سورة الأنعام الآيات ١٠١ - ١٠٤ .

(٦) سورة الشعراء الآيات : ١٨١ - ١٨٣ .

## قال العلماء الفاقهون

إذا وقع عقد الزواج صحيحاً نافذاً ، ترتبت عليه آثاره ووجبت بمقتضاه الحقوق الزوجية وهي :

١ - حقوق واجبة للزوجة على زوجها .

٢ - حقوق واجبة للزوج على زوجته .

٣ - حقوق مشتركة بينهما .

وقيام كل من الزوجين بواجبه ، والاضطلاع بمسئوليته ، هو الذى يوفر أسباب الاطمئنان ، والهدوء النفسى ، وبذلك تتم السعادة الزوجية .

## الحقوق المشتركة بين الزوجين

١ - حل العشرة الزوجية ، واستمتاع كل من الزوجين بالآخر ، وهذا الحل مشترك بينهما ، فيحل للزوج من زوجته ما يحل لها منه ، وهذا الاستمتاع حل للزوجين ، ولا يحصل إلا بمشاركتها معاً ، لأنه لا يمكن أن ينفرد به أحدهما .

٢ - حرمة المصاهرة : أى أن الزوجة ، تحرم على آباء الزوج وأجداده وأبنائه ، وفروع أبنائه وبناته ، كما يحرم هو على أمهاتها وبناتها وفروع أبنائها وبناتها ...

٣ - ثبوت التوارث بينهما بمجرد إتمام العقد ، فإذا مات أحدهما بعد إتمام العقد ، ورثه الآخر ، ولو لم يتم الدخول .

٤ - ثبوت نسب الولد من الزوج صاحب الفراش .

٥ - المعاشرة بالمعروف ، فيجب على كل من الزوجين ، أن يعاشر الآخر بالمعروف ، حتى يسودهما الوئام ويظلهما السلام .

## الحقوق الواجبة للزوجة على زوجها

حقوق مالية : وهى المهر والنفقة .

حقوق غير مالية : مثل العدل بين الزوجات ، إذا كان الزوج متزوجاً بأكثر من واحدة ، ومثل عدم الإضرار بالزوجة .

## المهر

من الحقوق المادية للمرأة على زوجها المهر ، فمن عدالة الإسلام وعظمة أحكامه ، أن أعطى المرأة حق التملك ، قال تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال جل شأنه في حقها في الميراث : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال جل شأنه في شأن المهر : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾<sup>(٣)</sup> أى وآتوا النساء مهورهن عطاء مفروضاً لا يقابله عوض ، فإذا أعطين شيئاً من المهر بعد ماملكن من غير إكراه ولا حياء ولا خديعة ، فخذوه سائغاً لا غصة فيه ولا إثم معه .

فإذا أعطت الزوجة شيئاً من مالها حياءً أو خوفاً أو خديعة ، فلا يحل أخذه ، قال تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾<sup>(٤)</sup>.

وفي المهر تطيب لنفس المرأة ، فإنه هدية خالصة ، وفي الهدية ما يؤكد المحبة ويقويها ، جاء في الحديث : « تهادوا تحابوا »<sup>(٥)</sup>.

## قدر المهر

لما كان الإسلام صالحاً لكل زمان وفي كل مكان ، فإنه لم يحدد للمهر قدراً لا يحيد عنه الزوجان ، إذ الناس يختلفون في الغنى والفقر ، ويتفاوتون في السعة والضيق .

وقد جاءت النصوص دالة على أن المهر شيء له قيمة ، فيجوز أن يكون خاتماً . من حديد ، أو قدحاً من تمر ، أو تعليماً لكتاب الله إذا تراضى عليه المتعاقدان .

(١) سورة النساء آية : ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية : ٧ .

(٣) سورة النساء آية : ٤ .

(٤) سورة النساء آية : ٢٠ .

(٥) أخرجه أحمد ح ٢ ص ٤٠٥ .

١ - عن عامر بن ربيعة أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ : « أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين ؟ فقالت : نعم فأجازه »<sup>(١)</sup> رواه أحمد .

٢ - وعن سهل بن سعد أن النبي ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني وهبت نفسي لك ، فقامت قياماً طويلاً فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة فقال رسول الله ﷺ هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندي إلا أزارى هذا فقال النبي ﷺ إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فاتمس شيئاً فقال : ما أجد شيئاً فقال : التمس ولو خاتماً من حديد ، فاتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : هل معك من القرآن شيء قال : نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها ، فقال النبي ﷺ قد زوجتكها بما معك من القرآن »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم .

٣ - وعن أنس : أن أبا طلحة خطب أم سليم فقالت : « والله ما مثلك يرد ولكنك كافر وأنا مسلمة ولا يحل لى أن أتزوجك فإن تسلم فذلك مهرى ولا أسألك غيره فكان ذلك مهرها »

وفى الأحاديث السابقة دلالة على أن المهر يجوز بالشيء القليل وبالمنفعة وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين ، ولم ينكر عليه أحد ، بل عد ذلك من مناقبه وفضائله .

وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف على صداق خمسة دراهم وأقره النبي ﷺ . وإذا كان المهر لاحد لأقله ، فإنه كذلك لاحد لأكثره ، فإن عمر رضى الله عنه لما نهى عن التغالى فى المهور ، وألا يزيد على أربعمئة درهم ونزل عن منبره ، فاعترضه امرأة من قریش فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ وآتيم إحداهن قنطارا ﴾<sup>(٣)</sup> فقال : نعم عفوا كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر ، فقال : « إني كنت قد نهيتمكم أن لا تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمئة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب . وعن عبد الله بن مصعب أن عمر قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ماذا لك قال : ولم ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿ وآتيم إحداهن قنطارا ﴾ وقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسند ح ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) أخرجه البخارى كتاب النكاح باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠ .

ومسلم كتاب النكاح رقم ٧٦ .

والترمذى ح ٣ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب النكاح رقم ١١١٤ .

(٣) سورة النساء آية : ٢٠ .

## المغالة في المهور

لما كانت السمة العامة للإسلام اليسر ودفع الحرج فإنه رغب في تيسير الزواج ، إذ بالزواج تيسر العفة ، ويلجأ الشباب إلى حياة الطهر والنقاء حتى تعيش الأمة في حياة صافية بعيداً عن ذئاب البشر الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، فجعل أقل النساء مهراً أعظمهن بركة ، وجعل خفة المهر من يمن الزواج .

عن عائشة رضی الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إن أعظم النكاح بركة أسره مؤنة »<sup>(١)</sup> .  
وقال : « يمن المرأة خفة مهرها ، ويسر نكاحها ، وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها ، وعسر نكاحها ، وسوء خلقها »<sup>(٢)</sup> .

وقد جعل كثير من الناس هذه التعاليم وحاد عنها وتعلق بعادات الجاهلية من التغالى في المهور ، ورفض التزويج إلا إذا دفع الزوج قدراً كبيراً من المال يرهقه ويضايقه كأن المرأة سلعة يساوم عليها ويتجر بها .

## النفقة

من حق الزوجة على زوجها أن يقوم بالإففاق عليها ، وقد ثبت وجوب ذلك بالكتاب والسنة والإجماع .

وتتمثل النفقة في ما تحتاج إليه المرأة من طعام ومسكن وخدمة ودواء وكسوة وإن كانت غنية قال تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها ﴾<sup>(٣)</sup> .

المراد ﴿ بالمولود له ﴾ : الأب ، والرزق في هذا الحكم : الطعام الكافي .. والكسوة : اللباس والمعروف : المتعارف في عرف الشارع من غير تفريط ولا إفراط .

وقال تعالى : ﴿ اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾<sup>(٤)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٦ ص ٨٢ ، ١٤٥ .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٦ ص ٧٧ ، ٩١ بلفظ يمن المرأة تيسر خطبتها وتيسر صداقها .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٤) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٥) سورة الطلاق الآية ٧ .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع : « .. فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. » الحديث<sup>(١)</sup>.

وروى البخارى ومسلم عن عائشة — رضى الله عنها : أن هنداً بنت عتبة قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، قال : « خذى ما يكفيك وولدى بالمعروف »<sup>(٢)</sup>.

وعن معاوية القشيري رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت »<sup>(٣)</sup>.

أما الإجماع فقد قال ابن قدامة : اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا بالغين إلا الناشز منهن .

### الترغيب في النفقة

وردت عن النبي ﷺ أحاديث ترغب الزوج في الإنفاق على أهله وقد رأينا أن نذكرها حتى نعلم الفائدة ، ويرفع الحرج من صدور الأزواج ، فإن العرف لا يضيع بين الله والناس ، قال — تعالى : ﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ﴾<sup>(٤)</sup> وقال جل شأنه ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾<sup>(٥)</sup>.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك »<sup>(٦)</sup> رواه مسلم

— وعن جابر أن النبي ﷺ قال : « أول ما يوضع في ميزان العبد ، نفقته على أهله »<sup>(٧)</sup> ( أخرجه الطبراني في الأوسط وقال المنادى صحيح ) .

- (١) أنظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٨٩ كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ رقم ١٢١٨/١٤٧ .
- (٢) أنظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٣٨ كتاب الأقضية . باب قضية هند رقم ١٧١٤/٧ .
- (٣) أنظر مسند أحمد ج ٤ ص ٤٤٧ .
- (٤) سورة النحل آية ١٩٦ .
- (٥) سورة البقرة آية ١٩٧ .
- (٦) أنظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٢ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك رقم ٩٩٥/٣٩ .
- (٧) أخرجه الطبراني في الأوسط وقال المنادى صحيح .

— وعن سعد بن أبي وقاص — رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له : « ... وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك »<sup>(١)</sup> رواه البخاري ومسلم .

— وعن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة »<sup>(٢)</sup> رواه البخاري ومسلم .

— وعن المقدم بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »<sup>(٣)</sup> رواه أحمد .

— وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعمل . أملك وأباك وأحتك وأحاك وأدناك فأدناك »<sup>(٤)</sup> رواه الطبراني .

— وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المعونة تأتي من الله للعبد على قدر المثونة وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة »<sup>(٥)</sup> رواه البيهقي والبخاري وغيرهما .

— عن أبي هريرة رضى الله عنه — أن النبي ﷺ قال : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »<sup>(٦)</sup> رواه البخاري .

— وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إغماً أن يضيع من يقوت »<sup>(٧)</sup> رواه أبو داود والنسائي .

— عن الحسن رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ! حتى يسأل الرجل عن أهل بيته »<sup>(٨)</sup> رواه ابن حبان .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطيت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة ، لتأكلها فاستطعمتها ابتناها فشقت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبني شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو اعتقها بها من النار »<sup>(٩)</sup> رواه مسلم .

(١) أنظر صحيح البخاري ح ١ ص ٢٢ . كتاب الإيمان . باب ما جاء إن الأعمال بالنية .

(٢) أنظر صحيح البخاري ح ١ ص ٢١ ، ٢٢ . كتاب الإيمان . باب ما جاء إن الأعمال بالنيات .

(٣) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤) أنظر كنز العمال ح ١٦ رقم ٤٤٤٤٠ .

(٥) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار ح ٢ ص ١٩٥ رقم ١٥٠٦ .

(٦) أنظر صحيح البخاري ح ٢ ص ١٤٢ . كتاب وجوب الزكاة . باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ... ﴾

(٧) أنظر سنن أبي داود ح ٢ ص ٣٢١ . كتاب الزكاة . باب في صلة الرحم . رقم : ١٦٩٢

(٨) أنظر صحيح ابن حبان ح ٧ ص ١٢ .

(٩) أنظر صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٠٢٧ . كتاب البر والصلة . باب فضل الإحسان إلى البنات رقم : ٢٦٣٠/١٤٨

وروى الطبراني عن عدى بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يئن أو يمتن إلا كن له حجاباً من النار فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان »<sup>(١)</sup>.

### لماذا وجبت النفقة للزوجة ؟

هناك أصل عام يقول : « كل من احتبس لحق غيره ومنفعته فنفعته على من احتبس لأجله » ومن هذا المنطلق يقرر الإسلام وشريعته الغراء أن النفقة واجبة على الزوج لزوجته إذ الزوجة وقد وقع عقد الزواج صحيحاً تكون بمقتضى ذلك مقصورة على زوجها لا تتعداه إلى غيره ، ومحبوسة لحقه حتى تتحقق الحكمة من الزواج بالعصمة والعفة قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى : ﴿ نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾<sup>(٣)</sup>

وقال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾<sup>(٤)</sup> وطاعة الزوجة لزوجها واجبة عليها كذلك قرارها في بيته وتدير منزله وحضانة الأطفال وتربية الأولاد قال ﷺ : « والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها »

لقد اقتضى منطق العدالة الإسلامية أن يقوم الزوج بالإتفاق على زوجته مقابل احتباسها عليه وطاعتها له والإرعاء لما له وحضانة أولاده ، والقيام على تدبير شأنه ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات وقد صدق الحكم العدل إذ يقول : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾<sup>(٥)</sup> وإذ يقول ( الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم )<sup>(٦)</sup>

ويشترط لوجوب النفقة شروط ذكرها الفقهاء فيما يلى :

(١) . أنظر كثر العمال ح ١٦ رقم ٤٥٣٨١

(٢) . سورة البقرة من الآية ١٨٧ .

(٣) . سورة البقرة من الآية ٢٢٣ .

(٤) . سورة المؤمنون الآيات من ٥ - ٧ وكذلك سورة الماعز ٢٩ - ٣١ .

(٥) . انظر مسند الإمام أحمد ح ٢ ص ٥ مسند عبد الله بن عمر .

(٦) . سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(٧) . سورة النساء آية ٣٤ .



- ١ - أن يكون عقد الزواج صحيحاً .
  - ٢ - أن تسلم نفسها إلى زوجها .
  - ٣ - أن تمكنه من الاستمتاع بها .
  - ٤ - ألا تمتنع من الانتقال حيث يريد الزوج إلا إذا كان الزوج يريد الإضرار بها بالسفر أو لا تأمن على نفسها أو مالها .
  - ٥ - أن يكون من أهل الاستمتاع .
- فإذا لم يتوافر شرط من هذه الشروط فإن النفقة لا تجب . ذلك أن العقد إذا لم يكن صحيحاً بل كان فاسداً فإنه يجب على الزوجين المفاصلة دفعاً للفساد .
- وكذلك إذا لم تسلم نفسها إلى زوجها ، أو لم تمكنه من الاستمتاع بها ، أو امتنعت من الانتقال إلى الجهة التي يريدّها ففي هذه الحالات لا تجب النفقة حيث لم يتحقق الاحتباس الذي هو سببها ، كما لا يجب ثمن المبيع إذا امتنع البائع من تسليم المبيع ، أو سلم في موضع دون موضع .
- ولأن النبي ﷺ تزوج عائشة رضي الله عنها ودخلت عليه بعد سنتين ولم ينفق عليها إلا من حين دخلت عليه ، ولم يلتزم نفقتها لما مضى .

قال الفقهاء :

إذا ارتد الزوج بعد الدخول لم تسقط نفقتها لأن امتناع الوط وبسبب من جهته وهو قادر على إزالته بالعودة إلى الإسلام بخلاف ما إذا ارتدت الزوجة فإن نفقتها تسقط لأنها منعت الاستمتاع بمعصيته من قبلها فتكون كالناشر .

### حقوق غير مادية

سبق الحديث عن الحقوق المادية للمرأة وبيان وجوبها على الرجل وقد ذكرنا في ذلك وجوب المهر والنفقة وهنا نتحدث عن الحقوق غير المادية للمرأة على زوجها ومن تلك الحقوق :

### حسن المعاشرة

قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ <sup>(١)</sup> .

ومن مظاهر إكمال الخلق ونمو الإيمان أن يكون المرء رفيقا مع أهله يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم » (١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » (٢) رواه الترمذی .

وليس إكرام الرجل لزوجته مظهراً من مظاهر الضعف ، كما يظن البعض ، بل هو سمة من سمات الكرم وقوة الشخصية .

قال ﷺ : « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم » (٣)

إن المسلم في بيته سمح النفس ، كريم الشمائل ، حميد السجايا ، لا يتكف أن يلاحظ أهله ، ولا تخلو معاملته لأهله من دعابة رقيقة .

قالت عائشة رضي الله عنها : « تسابقني رسول الله ﷺ فسبقته فلبشنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني » فقال : « هذه بتلك » (٤) رواه أحمد .

وعن عائشة رضي الله عنها أيضا قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » (٥).

وبين الرسول ﷺ كيف يعامل الرجل زوجته معاملة تطابق فطرتها وتوافق ما جبلت عليه فيقول : « إن المرأة خلقت من ضلع فإن أقمتها كسرته فدارها تعش بها » (٦)

وعن أبي هريرة رضي الله عن أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا

(١) أنظر سنن الترمذی ح ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع . باب ما جاء في حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٢) أنظر سنن الترمذی ح ٥ ص ١٠ ، ١١ . كتاب الإيمان . باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه . رقم ٦١٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر اتحاف السادة المتقين ٣٦٤/٥ وبين عساكر ٢٣٣/٤ . وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألباني ح ٢ ص ٢٤١ رقم ٨٤٥ . (٤) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٤ ، ٣٩ ، ٢٦٤ .

(٥) أنظر صحيح ابن ماجه ح ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح . باب حسن معاشره النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٦) أنظر صحيح البخارى ح ٤ ص ١٦١ كتاب بدء الخلق . باب . قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... ﴾



وإذا عفوت فعداً ومقعداً  
 لا يستهين بعفوك الجاهل  
 وإذا رحمت فأنت أم أو أب  
 هذان في الدين هما الرحماء  
 وإذا أخذت العهد أو أعطيته  
 فجميع عهدك ذمة ووفاء  
 وإذا خطبت فللمنابير هزة  
 تعزرو الندى وللقلوب بكاء  
 وإذا غضبت فإنما هي غضبة  
 للحق لا ضعف ولا شحشاء  
 لو أن إنسان تخير ملة  
 ما اختار إلا دينك الفقراء  
 المصلحون أصابع جمعت يدا  
 هي أنت بل أنت اليأس البيضاء  
 يا من له عز الشفاعة وحده  
 وهو المنزه ماله شفعاء  
 عرش القيام أنت تحت لواءه  
 والحوض أنت حياله القباء

يا رسول الله لقد بينت لنا سنن الهدى والرشاد ، ووضعت لنا الأسس القويمة ، والأصول  
 المستقيمة وأنت تخطب خطبة الوداع حتى نزلت عليك البشريات الأربع ( اليوم بشس الذين كفروا من  
 دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام  
 ديناً )<sup>(١)</sup>

نعم قد أكمل الله دينه ، فدين الله لا ينقص أبداً ، وأتم علينا نعمته فليس نعمة الله حكراً  
 ولا ضيقاً إنما ستظل سمحة أبداً ، ورضى لنا الإسلام ديناً ( فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً )<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة المائدة من الآية ٣ .

(٢) سورة الجن آية ١٤ .

عن عمرو بن الأحوص الجشمي رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ — في حجة الوداع يقول : بعد أن حمدا الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندهم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ، إلا إن لكم على نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً ، فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ، إلا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن كسوتهن وطعامهن » <sup>(١)</sup> رواه ابن ماجه والترمذى .

معاني مفردات الحديث :

فاحشه : معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

مُبْرَح : غير مهلك لم يؤذ بكر .

فلا تبغوا : فلا تطلبوا غير الطاعة طريقاً .

لا يوطئن فرشكم : لا يكون الفراش لأجنبي وطاء سهلاً يتمتع بلذته .

كسوتهن وطعامهن : أى : القيام بالكسوة . وإلا طعام أى : الغذاء

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبا ببعض ما اتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ومعنى ﴿ بفاحشة مبينة ﴾ كالنشوز وسوء العشرة ﴿ بالمعروف ﴾ بالإنصاف في الفعل والاجمال في القول فلا تفارقوهن لكرهه النفس فإنك قد تكره ما هو أصلح ديناً وأكثر خيراً ، وقد تحب ما هو بخلافه ، وليكن نظركم إلى ما هو أصلح للدين وأدنى إلى الخير ، وعسى في الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه والمعنى : فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ <sup>(٣)</sup>

### نفاذ البصيرة

لكي تكون حكيماً في المعاشرة ثابت الفكر صائب الرأى في معاملة أهلك ، لابد أن تضع نصب عينيك قول الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) أنظر صحيح الجامع ( سنن الترمذى ) ح ٣ ص ٤٦٧ كتاب الرضاع باب ماجاء في حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٣

وأنظر سنن ابن ماجه كتاب النكاح . باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(٢) سورة النساء آية ١٩

(٣) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٤) سورة النساء من الآية ١٩

وقوله ﷺ : ﴿ استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء ﴾ (١)

فعلى المسلم ألا يكره زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء وليكن لأخلاقها الحسنة في نفسه ما يغفر مساوئها ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوة .

إذا كنت في كل الأمور معاتباً .. صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه  
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه .. مقارف ذنب مرة ومجانبه  
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى .. ظمئت وأى الناس تصفو مشاربهم  
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها .. كفى المرء نبلاً أن تعد معاياه  
فإذا ما كانت الزوجة سيئة فمنطق الإنصاف يقتضى ألا تنسى أن لها حسنات فهي قاضية حاجاتك ، مرضعة أولادك ، غاسلة ثيابك ، طاهية طعامك ( ان الحسنات يذهبن السيئات )  
وعين الرضا عن كل شر غضيضة . كما أن عين البغض تبدى المساوىء

### صيانة العرض

ومن حق المرأة على زوجها أن يصون عرضها ، ويحفظها من القيل والقال ، وكل ما يחדش الشرف ويسبىء إلى العرض ، ويمتن كرامتها ، ويعرض سمعتها لقالة السوء ، وهذا من الغيرة التى يحبها الله .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يغار ، وان المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتي العبد ما حرم عليه » (٢).

وروى أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فقال الرسول : « أتعجبون من غيرة سعد ! لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » (٣).

(١) أنظر صحيح البخارى ح ٤ ص ١٦١ . كتاب بدء الخلق . باب قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... ﴾

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة .

(٣) أنظر صحيح البخارى ح ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة . ط / الشعب

أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ١٦٣٦ كتاب اللعان رقم ١٤٩٩/١٧ واللفظ له

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء »<sup>(١)</sup>

والديوث : هو الذى لا يبالي من دخل على أهله .  
ورجله النساء : هى التى تشبه بالرجال .

### الاعتدال مطلوب فى الغيرة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال الصادق المعصوم ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجسوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا تحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا »<sup>(٣)</sup> .

وكما يجب على الرجل أن يغار على زوجته فإنه يطلب منه أن يعتدل فى هذه الغيرة فلا يبالغ فى إساءة الظن بها ، ولا يسرف فى تقصى كل حركاتها وسكناتها ، ولا يحصى جميع عيوبها ، فإن ذلك يفسد العلاقة الزوجية ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .

يقول الرسول ﷺ : « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله : فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريية ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريية ، والإختيال الذى يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال ، والإختيال الذى يبغضه الله الإختيال فى الباطل »<sup>(٤)</sup> وقال علي كرم الله وجهه . لا تكثر الغيرة على أهلِكَ فترامى بالسوء من أجلِكَ .

### المباشرة الزوجية

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ نَسْأُكُمْ حَرِّثَ لَكُمْ فَأَتُوا حَرِّثَكُمْ أُنَى شَتَمَ وَقَدَمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ

(١) أنظر كنز العمال ج ١٦ رقم ٤٣٨٠٧ ، ٤٣٨١٩ ، ٤٣٨٤٢

(٢) سورة الحجرات الآية ١٢

(٣) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٨٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس رقم ٢٥٦٣/٢٨ .

(٤) أنظر كنز العمال ج ٣ رقم ٧٠٦٦ .

ملاقوه وبشر المؤمنين ﴿١﴾

وقال سبحانه : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ﴿٢﴾ ثم قال : ﴿ فَلَا أَنْ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا

مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ ﴿٣﴾

وللفقهاء في المباشرة الزوجية أقوال يجمل أن نبينها فيما يلي :

قال ابن حزم : فرض على الرجل أن يجامل امرأته التي هي زوجته وأدنى ذلك مرة في كل طهر إن قدر على ذلك ، وإلا فهو عاصي لله تعالى .

برهان ذلك قول الله عز وجل : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ . وذهب جمهور العلماء إلى ما ذهب إليه ابن حزم من الوجوب على الرجل إذا لم يكن له عذر .

وقال الشافعي : لا يجب عليه لأنه حق له فلا يجب عليه كسائر الحقوق ونص أحمد على أنه مقدر بأربعة أشهر لأن الله قدره في حق المولى بهذه المدة فكذلك في حق غيره .

وإذا سافر عن امرأته فإن لم يكن له عذر مانع من الرجوع فإن أحمد ذهب إلى توقيته بستة أشهر وسئل : كم يغيب الرجل عن زوجته قال : ستة أشهر يكتب إليه فإن أبى أن يرجع فرق الحاكم بينهما .

وقد ثبت في السنة أن جماع الرجل زوجته من الصدقات التي يثيب الله عليها . روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ... ولك في جماع زوجتك أجر .. قالوا يا رسول الله : أياقئ أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ... فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر » ﴿٤﴾ .

ويستحب المداعبة ، والملاعبة ، والملاطفة ، والتقبيل والانتظار حتى تقضى المرأة حاجتها .

روى أبو يعلى عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها فإذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها » ﴿٥﴾ .

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ، (٣) سورة البقرة من الآية ١٨٧

(٤) أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ١٠٠٦/٥٣ .

(٥) أنظر كنز العمال ح ١٦ رقم ٤٤٨٣٨ .



## التستر عند الجماع

أمر الإسلام ستر العورة في كل حال إلا إذا اقتضى الأمر كشفها فعن بهر بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا نبي الله ... عوراتنا ما نأتي منها وما نذر ؟.. قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ماملكت يمينك » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان القوم بعضهم من بعض قال : « إن استطعت ألا يراها أحد فلا يراها » . قال : قلت : إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : « فالله أحق أن يستحيا منه »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى وقال حديث حسن ومن الحديث جواز كشف العورة عند الجماع ، مع ذلك لا ينبغي أن يتجرد الزوجان تجرداً كاملاً .

عن ابن عمر أن النبي ﷺ : قال : « إياكم والتعري ، فإن معكم من لا يفارقكم ، إلا عند الغائط ، وحين يفضي الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرمهم »<sup>(٢)</sup> . رواه الترمذى وقال حديث غريب .

## التسمية عند الجماع

يسن أن يسمى الإنسان ويستعيز عند الجماع . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله ، قال : بسم الله — اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقنا ، فإن قدر بينهما في ذلك ولد ، لن يضر ذلك الولد الشيطان أبداً »<sup>(٣)</sup> .

إتيان الرجل من غير المأثى ( حرام )

إتيان المرأة في دبرها تنفر منه الفطرة ، ويأباه الطبع ، ويحرمه الشرع قال الله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ والحرث موضع الحرث أى بالإتيان في الفرج خاصة !

قال ثعبان

إنما الأرحام أرضون لنا محترثات

فعلينا الزرع فيها وعلى الله النبات

وهذا كقول الله : ﴿ فأتوهن من حيث أمركم الله ﴾ . ومما رواه البخارى ومسلم : أن اليهود كانت على عهد رسول الله ﷺ — تزعم أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها لا في قبلها جاء الولد

(١) أنظر سنن الترمذى ح ٥ ص ١٠٢ كتاب الأدب باب ماجاء في حفظ العورة . رقم ٢٧٩٤ .

(٢) أنظر سنن الترمذى ح ٥ ص ١٠٤ كتاب الأدب . باب ماجاء في الإستتر عند الجماع . رقم ٢٨٠٠ . ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر صحيح البخارى ح ٤ ص ١٤٩ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس ط / الشعب أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ١٠٥٨ كتاب النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع رقم ١٤٣٤/١١٦ .

أحول ، وكان الأنصار يتبعون اليهود في هذا ، فأنزل الله — عز وجل — ﴿ نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾<sup>(١)</sup>

أى أنه لا حرج في إتيان النساء بأى كيفية ، مادام ذلك في الفرج ومادمت تقصدون الحرث . وقد جاءت الأحاديث صريحة في النهى عن إتيان المرأة في دبرها ، روى أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، أن النبى ﷺ قال : « لا تأتوا النساء في أعجازهن . أو قال في أدبارهن »<sup>(٢)</sup> ورواه ثقان وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : فى الذى يأتى امرأته فى دبرها ... « هى اللوطية الصغرى » وعن أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من أتى امرأة فى دبرها »<sup>(٣)</sup>.

قال ابن تيمية : ومتى وطئها فى الدبر وطاوعته عزرا جميعا وإلا فرق بينهما كما يفرق بين الفاجر ومن يفجر به .

ولقد صدق الله العظيم إذ يقول ( فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين )

### حرمة التكلم بما يجرى بين الزوجين أثناء المباشرة :

فعن أبى سعيد — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها »<sup>(٤)</sup> رواه أحمد .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ ، أقبل عليهم بوجهه فقال : « مجالسكم . هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وارخى سترة ، ثم يخرج فيحدث فيقول : فعلت بأهلى كذا فعلت بأهلى كذا ؟ .. فسكنوا ، فأقبل على النساء فقال هل منكن من تحدث ؟ .. فجئت فتاة كعاب على إحدى ركبتها ، وتناولت ليرها الرسول ﷺ وليسمع كلامها ، فقالت : أى والله .. إنهم يتحدثون ، وإنهن ليحدثن . فقال : هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة . لقى أحدهما صاحبه بالسكة ، ففضى حاجته منها — والناس ينظرون إليه »<sup>(٥)</sup> ( رواه أحمد وأبو داود )

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حديث رقم ١١٦٤ . ومسنند الإمام أحمد ح ١ ص ٨٦ ، ح ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

(٣) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) أنظر مسند الإمام أحمد ح ٦ ص ٣٨ .

(٥) أنظر كنز العمال ح ١٦ رقم ٤٤٨٧٩ .

## تعدد الزوجات

لما كان الإسلام ديناً عالمياً دائماً إلى أن تقوم الساعة لا يحويه مكان ولا يحده زمان — لما كان ذلك كذلك — اقتضى أن تكون صيدليته شاملة وافية كافية ، فيها لكل داء داؤه الذى يستطب به ، ومن هذه الأدوية التى اشتملت عليها صيدليته المباركة تعدد الزوجات ، فإن هذا التعدد قد يكون دواءً لأمراض كثيرة ، وقد يكون فيه الحل لأزمات متعددة قد تكون الزوجة مريضة لا تقوى على القيام بحقوق الزوج ، أو قد تكون مسنة أقعدها السن عن تلبية رغبات زوجها ، وقد تكون عاقراً لا تلد ، فهل من الأفضل أن يقع الانفصال بينهما فتترك بيت الزوجية ؟

لقد رأى الإسلام بإباحة التعدد أن تظل الزوجة الأولى في عش الزوجية هاتئة في رعاية زوجها ، ذلك أهدى سبيلاً وأهدى مقيلاً ، ففي إباحة التعدد وفاء لها حتى لا تصير شريرة طريفة ، أضف إلى ذلك ما يقع من حروب واستشهاد للرجال في الميادين فماذا يكون الحل لو كثرت الأرامل بعد موت الرجال . لا حل إلا بإباحة التعدد لتعيش في بيت الزوجية النساء اللاتي فقدن الأزواج . وقد تستدعى حال الرجل حتى يعيش عفيفاً أن يتزوج على امرأته لسد حاجته خشية أن ينحرف فيخطيء الحساب ، فيأتى بأوخم العواقب ، فهل من الخير أن تكون المرأة التى تسد حاجته وتكسيه العفة والطهر في بيت آمن مستقر ، وحياة هادئة مطمئنة . هل من الخير أن تكون تلك المرأة خليلة أم حليمة ؟ .

إن الإسلام يقيم الحياة على أساس الطهر والنقاء بعيداً عن العبث والخلل والانحراف ( أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين )<sup>(١)</sup>

لقد سد الإسلام كل ثغرة قد يكون فيها منفذ إلى الحرام فأباح التعدد كى يسد ويقم الأسوار العالية الحصينة حول منطقة الزناكى لا يقرب تلك الجنائية أحد ، لذا فإن الله تعالى لم يقل ولا تزنوا وإنما قال : ﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾ والفرق بعيد بين المعنيين إذ لو قال : ( ولا تزنوا ) لكان قرب الزنا مباحاً من النظر واللمس والخلوة وغير ذلك من مقدمات الزنا ، لكن اقتضت حكمة التشريع أن ينهى عن القرب حتى لا يقع الإنسان في الجريمة ، إذ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا إن حمى الله محارمه ، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام فليس ثمة أدنى شك في أمر النهي عن القرب نهى عن الزنا من باب أولى كما أن النهي في قوله تعالى : ﴿ ولا تقبل لهما أف ﴾ في حق الوالدين نهى عما هو أشد من التأفف كالضرب مثلاً .

من أجل ذلك أباح الإسلام التعدد ، ولم يترك الأمر فوضى إنما حدد المعالم ، وبين المناهج ووضح المسالك ، فقال : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾<sup>(٢)</sup> أى : أقرب ألا تجوروا أو تظلموا .

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء من الآية ٣ .

فمن حق المرأة على زوجها إذا تزوج عليها أن يكون عادلاً في المعاملة .

### العدالة بين الزوجين

عن أبي هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلنا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهلهم وماولوا »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

من الإحسان في المعاملة عند تعدد الزوجات أن يعدل بين زوجاته ولا يفضل واحدة منهن على غيرها لأن الله تعالى أمر بالاعتصاف على زوجة واحدة عند الخوف من الجور في قوله جل شأنه ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا يقتضى الأمر بالعدل بين الزوجات عند التعدد .  
فإن لم يعدل استحق على عمله هذا أن يعد في الدنيا من المقوتين ويحشر في الآخرة مع الظالمين .

والعدل الذى يطالب به الزوج في هذه الحالة هو التسوية بين الزوجات في كل ما يستطيعه ، ويدخل تحت قدرته من الحقوق ، كالتسوية في النفقة ، وإحسان المعاملة ، ولطف العشرة من غير ميل إلى إحداهن ، ومضارة ما سواها . أما المساواة بينهن في المحبة والميل القلبي فليست بمطلوبة ، لأن ذلك ليس في مقدور الإنسان فلا يطالب به شرعاً كما يرشد إلى ذلك قول عائشة — رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ — يقسم فيعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يريد — ﷺ الميل الباطنى والمحبة القلبية .

ومن العدل الذى يستطيعه الزوج أن يسوى بين زوجاته في المبيت ، وذلك بأن يبيت عند كل واحدة منهن بمقدار المدة التى يبيتها عند الأخرى ، ولا فرق في هذا بين البكر واليئس ، والجديدة والقديمة ، والمسلمة والكتانية ، وصاحبة العذر وغيرها ، لأن سبب وجوب القسم في المبيت هو الزوجية ، وهى قدر مشترك عند هؤلاء جميعاً ، فتجب التسوية بينهن في ما يترتب عليها وهو المبيت . والقسم في المبيت واجب في حال الصحة والمرض ، فلو مرض الزوج وأراد أن يقيم في بيت إحداهن فلا يجوز له ذلك إلا إذا رضى به سائر أزواجه لأن النبى ﷺ كان يقسم بين أزواجه وهو مريض ولما ثقل عليه المرض استأذن أزواجه أن يمرض في بيت عائشة فأذن له .

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٤٧ كتاب النكاح باب ما جاء في التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٠ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة . باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨

(٣) سورة النساء من الآية ٣ .

وفي الصحيحين عن عائشة — رضي الله عنها قالت : « لما ثقل رسول الله ﷺ استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له ولولا أن القسم واجب في حال المرض ما كان — عليه الصلاة والسلام — في حاجة إلى إذن زوجاته ليقيم في بيت عائشة ، ولا يجب القسم على الزوج في حالة السفر فإذا أراد السفر كان له أن يختار من زوجاته من تسافر معه لأنه هو الذي يقدر مشقة السفر ويعرف من تصلح له منهن ومن لا تصلح وربما كان ترك بعضهن لازماً لتدبير المنزل ، لكن الأفضل أن يقرع بينهن فيسافر بمن خرجت قرعتها لما فيها من تطيب النفوس وصفاء القلوب ، وهذا ما كان يفعله النبي ﷺ عند إرادة السفر قالت السيدة عائشة — رضي الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فمن خرج سهمها خرج بها معه »<sup>(١)</sup> ولا تحتسب مدة السفر من أيام القسم حتى لو سافر بواحدة من زوجاته ثم قدم من السفر وطلبت الزوجة الأخرى أن يقيم عندها مقدار مدة السفر لم يلزمه ذلك .

والغرض من هذا ألا يؤدي واحدة بإيثار الأخرى عليها وأن يعمل مافي وسعه ليرضيهن جميعاً ، والأصل في ذلك قول النبي ﷺ « من كانت له امرأتان فمال إلى إحدهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »<sup>(٢)</sup> وقوله ﷺ « إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا »<sup>(٣)</sup>.

### شبهة مردودة

يدعى البعض أن تعدد الزوجات لا أساس له في الإسلام ذلك لأن الله تعالى قيده بالعدل في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾<sup>(٤)</sup> ثم نفى استطاعة ذلك العدل في قوله تعالى : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾<sup>(٥)</sup> وهذا الإدعاء باطل ، باطل . ومردود ومرفوض من أساسه إذ لو صح ذلك لوقع التناقض في كتاب الله وليصح أن يقال إن بعض الآيات يناقض البعض الآخر والله تعالى يرد على هؤلاء في قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) انظر كنز العمال ج ٧ رقم ١٨٣٣٧

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٧

وانظر سنن أبي داود . ج ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٣١٣٣ .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨ .

(٤) سورة النساء آية ٣ .

(٥) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٦) سورة النمل آية ٦ .

وبقوله : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ <sup>(١)</sup> .  
وبقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ <sup>(٢)</sup> وبقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ <sup>(٣)</sup> .

فكيف يبيح الله تعالى التعدد بقوله : ﴿ فأنكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ <sup>(٤)</sup> ثم يلغيه

بقوله : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ إن هذا الكلام على حد القول الذى حرم التعدد يعتبر ضرباً من العبث فكيف يلعب بكتاب الله وهو المنزه عن العبث . إن الرد على هؤلاء يسير وواضح . فالجهة بين العدلين منفكة وبعيدة فالمراد بالعدل فى الآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ العدل المساوى الذى سبق بيانه من النفقة والمبيت والسكنى وغير ذلك ، أما العدل فى الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فإن المقصود به العدل القلبي الذى ليس فى استطاعة الإنسان ، والذى أخبر عنه الصادق المعصوم — عليه السلام — بقوله : « فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك » <sup>(٥)</sup>

لذا قال تعالى : ﴿ فلا تملوا كل الميل ﴾ ولم يقل ( ولا تملوا بعض الميل ) فكل الميل منهن عنه إذ يمكن الاحتراز عنه أما بعض الميل القلبي فقد يكون فوق الطاقة والاستطاعة لذا جاء التعقيب بعد ﴿ فلا تملوا كل الميل ﴾ بقوله تعالى : ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ .

والمراد بالمعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة ، قال تعالى : بعد ذلك ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ <sup>(٦)</sup> . وإذا علمنا ذلك فإن التعدد فى الإسلام أمر مباح مع العدالة المادية التى يستطيع الإنسان أن يقوم بها فإن عجز عن العدالة فعليه أن يسلك الطريق الذى وضحه الله تعالى فى قوله : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيماكم ذلك أدنى ألا تعملوا ﴾ <sup>(٧)</sup>

(١) سورة هود آية ١ .

(٢) سورة محمد آية ٢٤ .

(٣) سورة النساء آية ٨٢ .

(٤) سورة النساء آية ٣ .

(٥) أنظر سنن أبى داود حد ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ . وكذلك أخرجه النسائى ، فى عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه ( ٦٤/٧ ) . والترمذى فى النكاح ( التسوية بين الضرائر ) رقم ١١٤٠ . وابن ماجه فى النكاح باب القسمة بين النساء رقم ١٩٧١ .

(٦) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٧) سورة النساء آية ٣ .

## الزواج المثالي

ونعني به أعظم زواج على وجه البسيطة ، إنه زواج الصادق الأمين محمد ﷺ من العفيفة الطاهرة خديجة بنت خويلد — رضى الله عنها — والذي استمر ربع قرن من الزمان عاش فيها الزوجان عيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، ولنبدأ القصة من أولها :

يروى ابن الأثير وابن هشام أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال ، تتأجر

الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد بن عبد الله هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً في مالها ومعه ميسرة ، فحالفه التوفيق في هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه في أمانة تامة ونبل عظيم .

## شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبي ﷺ وعظيم أخلاقه ماملاً قلبه دهشة وإعجاباً ، رأى الصدق في صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة في معاملته رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى ، رأى فيه الأمانة في أسمى معانيها .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة وإنها لشهادة حق وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة إلى السيدة خديجة فوجدت في نفسها قلباً طهوراً طيباً فتمكنت من القلب كل تمكن .

لقد أعجبت بصدقه وأمانته — وكفى بهما — إنه رأس مال ضخم ، ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول في خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها ، كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتي العزائم  
وتأتي على قدر الكرام المكارم  
وتعظم في عين الصغير صغيرها  
وتصغر في عين العظيم العظماء

كلم الرسول أعمامه ، فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبوا له من عمها عمر بن اسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول منهما ( عتيق بن عائد التميمي ) ثم خلفه عليها ( أبو هالة التميمي ) وبعد موتها طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا ، فلم تفتح بابها ، لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة حتى اذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت في محمد الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة الطاهرة ، فرضيها زوجها .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقي خطبة الزواج . وقف يقول : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد فإن محمداً بن عبد الله ابن أخي لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قليلاً ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وإن لمحمد رغبة من خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى .

### دعوة باطلة

نعم إنها دعوى لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها . وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام ، ونبتت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء ، لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ﷺ بالسيدة خديجة — رضى الله عنها — أن نعقب بهذا البحث ، لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد في أزواج رسول الله ﷺ وهم بذلك ينضحون مافي قلوبهم من زيغ . فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هي السماء . ضاحكة السن بسامة المُنحيا .



ماضر شمس الضحى في الأفق ساطعة

أن لا يرى نورها — من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة ، وأبناء القرر الثقافي أن الرسول لن يغيره أن تنبح عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وماضر السورود وما عليها

إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وها نحن أولا نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا ، فنذرنا قاعاً صافصفا .

إن قصة زواجه ﷺ من خديجة — رضى الله عنها — كما ذكرنا سابقاً توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية . أن رسول الله ﷺ لم يكن في اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكتملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع فيمن هى أقل منه سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ويتحلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبيلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً وقد ناهز النبي ﷺ الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هذا الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء . والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمداً ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلاً من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف . هذا فضلاً عن أنه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسرون من ورائهم ، ينعمون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يعرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يداً سلاء .

إنهم يمضغون الهواء . ويفتلون من الرمال حبلاً

لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ .

وتخيلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذة الجسد ،  
الغارق في معيشته المنزلية ورسائله العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا لله يا رسول الله .

والله ما علمنا عليك من سوء ، إنها فرية مافيا مرية ( كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون  
إلا كذباً ) .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهواني الغارق في لذات الجسد . وموضوع زواجه  
ﷺ هو وحده الدليل الكافي على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهواني لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر في بيئة مثل بيئة العرب في جاهليتها  
عفيف النفس دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله .

الرجل الشهواني لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقرب من ضعف عمره ، ثم يعيش  
معه دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وأن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن  
يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل في مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة — رضى الله عنها — ثم من غيرها فإن لكل منهن قصة .  
ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

### زوجة بالسيدة سودة ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعه — رضى الله عنها — وكانت زوجاً للسكران بن عمرو وكان  
قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ولو عادت إلى أهلها بعد  
موت زوجها لعذبوها وفتنوها عن دينها فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ،  
وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة — رضى الله  
عنها — في السنة الأولى من الهجرة فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها  
وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصاً على إيمانه فاراً بعقيدته وتآلفاً لقومها وقوم زوجها  
الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء في هذا ؟!

### زواجه بالسيدة عائشة (رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة عائشة — رضى الله عنها — بنت أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه ( ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا )

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة وعلمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما وقد كانت — رضى الله عنها — واسطة فى نقل الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا !!

### زواجه بالسيدة حفصة (رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته بيدرس ، وتزوجها رسول الله ﷺ — مكافأة لها وحباً فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا !؟

### زواجه بالسيدة زينب بنت جحش (رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ويجعله أصلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد بوحي من الله تعالى للتشريع ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾<sup>(١)</sup>

وقد كان زواجه بها إعفاء من إهمال يصيبها بعد طلاق يذللها فيقضى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار فما بالك بمطلقات الأرقاء . قل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا !؟

### زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش — رضى الله عنهما — فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيواء لها وجيراً لمصاها في زوجها وحفظاً لدينها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة أم سلمة ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة أم سلمة ( هند بنت أبى أمية ) وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد وكانا أسلما قديما وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد فتزوجها ﷺ فأواها وحفظها ، فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته وكانت كثيرة الأولاد فأواها وآوى أولادها وقام لشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة أم حبيبة ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة أم حبيبة ( رملة بنت أبى سفيان ) وكانت زوجاً لعبيد الله ابن جحش وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم تنصر زوجها ومات هناك وثبتت هى على إسلامها وأبت أن تقتصر معه وخالفته واختارت الإسلام عليه فآتم الله تعالى لها : الإسلام والهجرة والصحبة وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

وقد خطبها ﷺ حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها — رضى الله عنها — زهاء خمسين سنة وقد تزوجها إيواء لها وتألفاً لقومها وقد أسلم لسبب هذا الزواج كثير من قومها ، منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث ( رضى الله عنها )

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار وكانت زوجاً لمانع بن صفوان المصطلقى وقد قتل كافراً يوم المريسيع وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم فأعتقها ﷺ وتزوجها فلما سمع المسلمون بذلك اعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### زواجه بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب ( رضى الله عنه )

وتزوج بالسيدة صفية بنت حى بن أخطب سيد بنى النضير . قتل أبوها مع بنى قريظة وكان زوجها لسلام بن شكم القرظى ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر فأخذت — رضى الله عنها - فى السبى فخبرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول فاختارت الخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها ( اليهود ) وقد أسلم كثير منهم . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

### حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية لا تمت إلى الشهوة بسبب ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتى لا يستطيع تبليغها الرجال كالطهارة والغسل والحيض والنفاس والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء ، ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين امرأة واحدة بل عدة نساء من عدة قبائل وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره وبسط شرائعه ، قال تعالى : ﴿ واذكرون ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ (١)

وقد ثبت أنهم أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقهاً ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء من التمتع واللذة ليس غير لانتخب الحسان الأبيكار والكواعب والأتراب ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات ..

فهل بعد هذا لمبشر — عتل زنيم — أن يقول ﷺ إنه شهواني يميل إلى النساء ؟ في حين أن في ديانتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره وأقلامنا عن تدوينه ؟

فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

### ﴿ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ﴾

وفضلاً عن ذلك فلم تكن علاقاته — عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا بأى زوجة مهما غلت ؟ فقد عاشرهن السنين الطوال فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية بل النظرة الحانية . وما من رجل بلغ ما بلغ من المروءة والدقة وسعة إلا واستمال رضاه إلى غضب في ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضمر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .

ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل وبعث ليتمم مكارم الأخلاق ... الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم لم يكن كذلك ولم يكن هذا منه ﷺ جنباً أو ضعفاً بل كان كالأجلا .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة ؟

### قصة التخيير

قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحكن سراحاً جيلاً \* وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ الآيات من سورة الأحزاب<sup>(١)</sup>.

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . ح ٢ ص ١٨٤ رقم ١٤٨٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ولا زخارف براءة لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا والإيمان والحكمة لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً فاختار أن يكون نبياً عبداً وقال في ذلك « أجوع يوماً فأذكرك وأشبع يوماً فأشكرك » ورفض الحياة في زخارفها ومباهجها ومفاتها ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماً وحشماً وترفاً لكان له في ذلك .

ورودتـه الجبال الشم من ذهب  
عن نفسه فأراهـا \_\_\_\_\_ أيما شمم  
وأكدت زهده فيها ضرورتـه  
إن الضرورة لاتعدو على المعصم  
وكيف يدرك في الدنيا حقيقته  
قوم نيام تسلوا عنه بالحلـم ؟

كيف يقال على هذا النبي ﷺ أنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذي كان يمحث في بيته شهرين ولم توقد في بيته نار يطبخ عليها ؟

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين في أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية وشهوة نسائية لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآني ، يقول رحمه الله : « هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهب إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله في ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن — رضى الله عنهن وأرضاهن — الله ورسوله والدار الآخرة — فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة — رضى الله عنها — زوجة النبي ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ... ﴾ الآيات إلى تمام الآيتين . فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

أرأيت يأخا الإسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرت بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى ﴿ أمتعن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع فى أنه يأتي لمن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربي ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحي من رب السماء . بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطراً وريحاناً .

إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾<sup>(١)</sup> .

## حقوق الزوج

قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن ميزان الإسلام عادل فى كل قضاياها وبين الحقوق والواجبات يقيم الإسلام الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان ، فكما أن للزوجة حقوق على زوجها قد سبق بيانها فإن منطبق العدالة يقتضى أن يكون للزوج حقوقاً على زوجته حتى لا يظغى الميزان فيخطيء الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

وهامو الصادق الأمين صلوات ربي وسلامه عليه حدثنا عن مكانة الزوج بالنسبة للزوجة .

عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قلت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال : أمه<sup>(٣)</sup> «(رواه البزار .

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣٤ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . ح ٢ ص ١٧٦ . رقم ١٤٦٢ .



وعن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »<sup>(١)</sup> رواه الترمذى .

وعن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت בעلها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت »<sup>(٢)</sup> رواه ابن حبان والإمام أحمد .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : جاءت امرأة إلى النبی ﷺ قالت : يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبته الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نقوم عليهم فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منك من يفعله »<sup>(٣)</sup> رواه البزار .

— وعن قيس بن سعد — رضى الله عنه — قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمزبان لهم فقلت : رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمزبان لهم فأنت أحق أن يسجد لك ، فقال لى : « أرايت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ؟ فقلت لا . فقال : لا تفعلوا لو كنت امرأة أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »<sup>(٤)</sup> رواه أبو داود .

ولفظ ابن ماجه فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعلوا فإنى لو كنت امرأة أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذي نفسى محمد بيده لا تؤدى المرأة حق زوجها حتى تؤدى حق زوجها »<sup>(٥)</sup> .

وعن أنى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »<sup>(٦)</sup> رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لهما قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأتى عليه إلا كان الذى فى السماء سائخا عليها حتى يرضى عنها »<sup>(٧)</sup> .

(١) انظر سنن الترمذى ح ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦١ .

انظر سنن ابن ماجه ح ١ ص ٥٩٥ . كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ح ١ ص ١٩١ . وصحيح ابن حبان ح ٦ ص ١٨٤ والبزار ح ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٣ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار ح ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٤ .

(٤) انظر سنن أنى داود ح ٢ ص ٦٠٤ رقم ٢١٤٠ .

(٥) انظر سنن ابن ماجه ح ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم ح ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم اقتناعها من فراش زوجها . رقم ١٤٣٦/١٢٢ .

(٧) انظر صحيح مسلم ح ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم اقتناعها من فراش زوجها . رقم ١٤٣١/١٢١ .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : رسول الله ﷺ « اثنان لا تجاوز صلاتهما رعوسهما : عبد أبى من مواليه حتى يرجع ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع »<sup>(١)</sup>. رواه الطبرانى .  
وقد فضل الفقهاء الحقوق الواجبة للزوج على زوجته تفصيلاً لا يدع لبساً أو غموضاً وإليك بيان تلك الحقوق :

## ١ - الطاعة

للزوج حقوق على زوجته يجب عليها مراعتها والقيام بها وأول هذه الحقوق الطاعة ، فالأسرة هى الجماعة الأولى التى تتكون منها الأمة ، وبصلاحها تصلح الأمة وبفسادها تفسد ، لا ينتظم أمر جماعة من الجماعات ولا يستقيم حالها إلا إذا كان لها رئيس يدير أمورها ويصرف شئونها ويوجهها إلى الغاية الصحيحة فى الحياة ، ولما كانت المرأة قد أعدتها الفطرة الإلهية للحمل والولادة والعناية بشئون البيت ووهبتها خَلقة لا تقوى على الكفاح الخارجى فى الحياة فى حين أنها وهبت الرجل قوة فى البدن والعزم والعمل وطبيعة تمكنه أن يعيش فى البيت ويعمل خارجه. ويتردد على الأسواق ويختلط بالناس فيعرف من شئون الحياة وسياسة الاجتماع مالا تعرف لذلك كان أجدر منها بمرتبة الرئاسة ، وله عليها حق الطاعة فعليها أن تطيعه فيما هو من شئون الزوجية فى غير ما نهى الله عنه إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾<sup>(٢)</sup> فإنه سبحانه جعل للزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات وجعل للأزواج درجة على الزوجات وهذه الدرجة هى درجة الرئاسة البيتية والقومية على شئون الزوجة وما يلزم لرعاية الأولاد وتربيتهم وقد أثبت جل شأنه هذه القوامة فى الآية الأخرى بقوله عز وجل ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾<sup>(٣)</sup>

وبين السبب فى تحميل الرجال مسئولية الهيمنة والقوامة وهو ما أودعه فيهم من القوة فى البدن والقدرة على الكفاح وتحصيل المال وما كلفهم به من الإنفاق على البيت والقيام بكل ما تحتاج إليه الزوجة والأبناء والأسرة .

ومجال الناحية الخلقية فى هذا أوسع من مجال الناحية القانونية ولذلك كثرت الأحاديث التى تحت الزوجة على طاعة زوجها .

(١) انظر كنز العمال ج ٩ رقم ٢٥١٠٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

## ٢ - القرار في البيت

قال الفقهاء ومن حق الزوج على زوجته القرار في البيت : قال تعالى ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾<sup>(١)</sup>

وقال جل شأنه : ﴿ إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا ﴾<sup>(٢)</sup>

هذه أحكام الله ، والله تعالى إذا قضى فلا راد لقضائه وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وهو الحكم العدل المقسط ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتي من لده أجرًا عظيمًا ﴾<sup>(٣)</sup> لذا قال سبحانه ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ﴾<sup>(٤)</sup>

قال الفقهاء : ومن حق الزوج على زوجته أن تقيم معه في المسكن الذي أعده لهما متى أوفاهما عاجل صداقها ، وكان المسكن الذي أعده لها مسكناً شرعياً تتوفر فيه أسباب الراحة والاستقرار والكرامة لأن عقد الزواج يتضمن تعهد كل منهما بالقيام بمطالب الزوجية ، ومطالب الزوجية تقتضي قرار الزوجة في المنزل حتى تستطيع التفرغ لما شرع الزواج له من إنجاب الأولاد والعناية بهم وتهئية وسائل الراحة لأفراد الأسرة جميعاً ، خصوصاً وأن خروج المرأة مدعاة للفتنة ولو فتح هذا الباب لاجتلت نظام الأسرة ، وسرى الشك إلى الزوج في سلوك زوجته ، وفي هذا من الفساد ما لا يخفى ، لذلك على الزوجة أن تبقى في منزل الزوجية وألا تخرج منه إلا إذا أذن لها الزوج في ذلك أو كان هناك ضرورة تدعوها إلى الخروج كأداء فريضة الحج بشرط أن تكون في صحبة ذى محرم ، وكزيارة أبويها وأقاربها المحارم .

وقد نص الفقهاء على أن للزوجة الحق في أن تزور أبويها مرة في كل أسبوع وأن تزور من عداها من المحارم مرة في كل سنة ، والذي ينبغي في هذا الموضوع أن يترك تقدير مرات الزيارة وفتراتها للعرف مع مراعاة حال الزوجة وحال أقاربها وحال زوجها فقد يقضى العرف بأن خروجها مرة في كل

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

(٣) سورة النساء آية ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

أسبوع لزيارة أبويها لاداعى إليه وقد يكون في خروجها كل أسبوع لزيارتها فتح لباب الفتنة خصوصاً إذا كانت الزوجة شابة أو كان الزوج من ذوى المكانات فى الهيئة الاجتماعية .

وفى جميع الحالات التى يباح للزوجة فيها الخروج لا يجوز لها شرعاً أن تخرج على وجه ينافى الأدب ، ويجافى الفضيلة ، ويدعو إلى الفتنة ، كأن تخرج متزينة متعطرة أو كاشفة عن شئ مما أوجب الله عليها ستره كالشعر والعنق والصدر والذراعين والساقين ، وغير ذلك مما يكون من شأنه أن يدعو الرجال إلى التطلع إليها والافتتان بها ، لقول الله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ <sup>(١)</sup> ومن التبرج على ما جاء فى بعض الروايات المشية بتكسروحركات مثيرة ، كما كان يفعلنه نساء الجاهلية الأولى ، ومن التبرج أيضاً أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً لا يحجب رؤية ما تحته أو يصف ما تحته ويحدد أجزاء جسمها .

روى مسلم فى صحيحه عن أنى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد . نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا . ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » <sup>(٢)</sup>

وأخرج الحاكم عن أنى موسى — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : « أيا امرأة استعطرت فخرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية » <sup>(٣)</sup> .

ومما يتناولله حق الطاعة والقرار فى البيت أن تصون المرأة نفسها عما يدنس شرفها وشرف زوجها وأن تحافظ على كرامتها ، وأن ترعى أولادها وتحسن تربيتهم ، وأن تحفظ مال زوجها فلا تعط أحداً منه شيئاً لم تجر العادة بإعطائه إلا بإذن زوجها ، وألا تأذن لأحد فى دخول بيته من غير رضاه ، وأن تحسن عشرته كما يجب عليه أن يحسن عشرتها ، وبذلك يسود الوئام بين الزوجين ويعيشان فى هناء وسعادة .

هذا ومما ينبغى أن تعلمه المرأة أن ملازمتها لبيتها وعدم خروجها إلا بإذن زوجها أو لضرورة أو حاجة لا يراد منه — كما يشيعه أعداء الفضيلة — حبسها فى المنزل أو التضيق عليها ، وإنما يراد منه تفرغها لخدمة البيت والإشراف على شئونه التى هى من خصائصها ورعاية الأولاد فى الطفولة التى

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

(٢) أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٦٨٠ كتاب اللباس والزينة . باب النساء والكاسيات العاريات المائلات المميلات . رقم ٢١٢٨/١٢٥٠ .

(٣) انظر المستدرک على الصحيحين ح ٢ ص ٣٩٦ تفسير سورة النور .

هى من شأنها والمحافظة على كرامتها وحمايتها من الأضرار والمفاسد التى تنشأ عن كثرة الخروج ومزاحمة الرجال .

وعلى الجملة فإن ملازمة المرأة لبيتها يخلصها من آفات كثيرة وبلايا عديدة ، وإن إيجاب الشرع ذلك عليها هو لفائدتها وراحتها والسير بها إلى ما يوجب لها الرفعة وعلو الشأن والراحة والهناء ، وحسبه فخراً أن الله تعالى جعله من أحسن ما توصف به المرأة فقال تعالى : ﴿ حور مقصورات فى الخيام ﴾<sup>(١)</sup> وحث عليه النبي ﷺ فى كثير من الأحاديث ومن ذلك ما رواه الترمذى أن الرسول ﷺ قال : « إن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها »<sup>(٢)</sup> . وأخرج البزار عن أنس قال : جاءت النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يا رسول الله : ذهبت الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله فهل لنا من عمل ندرك به المجاهدين ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من قعدت منكم فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله »<sup>(٣)</sup> .

ولو أن عقلاء الأمة حرصوا على هذا المبدأ الإسلامى وعلموه لأزواجهم وبناتهم وأئزموهن به لقضوا على التبرج وفساد الأخلاق وصانوا بذلك أعراضهم ، وحفظوا أنسابهم وحملوا الأسرة من التفكك والانحلال هذا ، ومما ينبغى التنبيه عليه هنا أن التزام الزوجة بالطاعة والانقياد لزوجها يقابله واجب على الزوج ، وهو الإنفاق على الزوجة ، فإذا قام الزوج بالواجب عليه وامتنعت الزوجة من طاعة زوجها بدون عذر كان ذلك نشوزاً مانعاً لاستحقاقها النفقة ، فللزوجة أن يمتنع من الإنفاق عليها إلى أن تعود إلى طاعته .

### ٣ - التأديب

ومن الحقوق التى جعلها الشارع الحكيم للزوج حق تأديب الزوجة وتهذيبها بالمعروف اللائق بمكانها ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾<sup>(٤)</sup> .

جعلت الآية النوع الأول : الصالحات ، وهن اللاتى وصفهن الله تعالى بقوله : ﴿ فالصالحات

(١) سورة الرحمن آية ٧٢ .

(٢) أنظر كنز العمال ج ١٥ رقم ١٣٠٥١ ، ١٣٠٥٦ .

(٣) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٢ ص ١٨٢ . كتاب النكاح رقم ١٤٧٥ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﷻ وهؤلاء لسن في حاجة إلى تأديب ، فقد بلغن بصلاجهن وخضوعهن لله ولأزواجهن وحفظ ما يجب حفظه من أسرار الزوجية مرتبة تسمو عن التعرض لهن .

والنوع الثاني : غير الصالحات ، وهن اللاتي يحاولن الخروج عن حقوق الزوجية والنشوز عن طاعة أزواجهن وعصيانهن لهم ، وهؤلاء في حاجة إلى الإصلاح والتهديب والتأديب ليردهن إلى الصواب لأن تركهن في غيهن يسبب شقاء البيت ويعرض الحياة الزوجية للتدهور والانحلال . وقد رسم الله في هذه الآية الطريق لهذا الإصلاح والتهديب ، ووكل ذلك إلى الزوج بحكم الإشراف والرياسة ومخاطبته لزوجته وإطلاعه على ما ظهر من شأنها وما بطن ، ولم يكل ذلك إلى غيره من الولاة والقضاة صوناً لما بينهما من الذيوع والانتشار .

ولما كانت طبائع النساء تختلف باختلاف البيئة وتنوع التربية وكان من الذنوب الصغيرة والكبيرة ، شرع الله تعالى من أساليب التهديب ووسائل التأديب ثلاثاً ليختار الزوج منها ما يلائم الذنب وحال الزوجة .

الوسيلة الأولى : الموعظة الحسنة ، وهذه تلائم المرأة التي تكفيها الإشارة أو الكلمة أو الذنب الصغير والرجل أدرى بما يؤثر في زوجته .

الوسيلة الثانية : الهجر في المضجع ، وقد اختلف العلماء في المراد به فقليل : المراد أن يبيت في حجرة غير التي تبيت فيها وقيل : أن يبيت في فراش غير فراشها وقيل غير ذلك ، ومادام المقصود من الهجر التأديب فليترك ذلك للزوج يفعل ما يراه أدرى إلى كبح جماحها وردّها إلى صوابها ، وقد حدد العلماء مدة الهجر في المضجع بما لا يبلغ مدة الإيلاء المقدرة شرعاً بأربعة أشهر .

الوسيلة الثالثة : الضرب ، وهو علاج الشرسات اللاتي لا يجدى فيهن الوعظ ولا الهجر ، ولا يصلح مثلهن إلا به ، وقد جعله الشارع الحكيم آخر الوسائل الإصلاحية التي يملكها الرجل ، وبذلك كان كالدواء الأخير الذي لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، والضرب الذي يملكه الزوج هو الضرب الذي لا يكون شديداً ولا شائناً ، ففي السنة أن رسول الله ﷺ خطب الناس في حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ثم قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان-عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً »<sup>(١)</sup>.

ولو استعمل الرجل وسائل التأديب واستنفذ طرق العلاج التي يملكها بما فيها وسيلة الضرب ولم يجد ذلك في إصلاح الزوجة لجأ إلى المرحلة الرابعة كما قال تعالى : ﷻ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا

حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريد إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴿١﴾.

على ما سيأتى بيانه — ان شاء الله — فى الكلام عند التفريق بين الزوجين للضرر الناشئ عن الشقاق .

وقد أساء بعد المتعلمين تعليماً مدينياً وفهم أن يكون الضرب وسيلة من وسائل العلاج ووصفوه بأنه علاج صحراوى جاف لا يتفق مع التحضر والرق الذى وصلت إليه المرأة ، وما ينبغى أن يكون لها من الاحترام والتكريم ، وقد فات هؤلاء الناقدين أن الإسلام ليس تشريعاً لإقليم خاص ولا لبيئة خاصة وإنما هو تشريع عام لكل الناس ولجميع البيئات فلا بد أن يضع من العلاج ما يلائم كل طائفة ويصلح لكل نوع .

وأن الضرب ليس هو كل ما شرعه الإسلام من علاج ، وإنما هو واحد من ثلاثة هو آخرها فى الذكر ، كما هو آخرها فى الالتجاء إليه . والخير بأحوال النساء يعلم أن منهن من لا يصلح حالها إلا بهذا النوع من التأديب ، ولو أن هؤلاء المنكرين وسعوا دائرة أفقهم وعرفوا أن الناس أصناف وأنواع وأن علاج كل صنف يختلف عن علاج الصنف الآخر لما شعروا بمرارة ولا عضاضة من هذا النوع من التأديب .

### أحكام تتعلق بالأسرة

وبعد الحديث عن الحقوق الزوجية وتقسيمها إلى مشتركة وخاصة بالزوج وخاصة بالزوجة يهمننا أن يشمل هذه الأحكام التى تتعلق بالأسرة كما جاءت فى كتاب « المجتمع الإسلامى » كما تنظمه سورة النساء لفَضيلة الشيخ / محمد محمد المدنى يقول رحمه الله : منزلة الأسرة فى الإسلام

١ - الأسرة هى المجتمع الصغير الذى يترى فيه الإنسان وينشأ من أول عهده بالحياة فى أحضانه يتطبع بطابعه ويرى الأشياء بعينه ويتعرفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته وماله من أيماء حية يستحسن ما يراه حسناً أو يستقبح ما يراه قبيحاً إلى غير ذلك .

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو ينبوع الأول الذى يمد الأمة بالرجال والنساء وأنه إذا كان هذا ينبوع طيباً صافياً خالياً من الشوائب المفسدة كان إمداده خيراً على الأمة وزاداً لها من الأفراد الصالحين الطيبين الذين يصبون فى مجتمعها الأكبر لبنات قوة وحلقات تعاون ودعاة فضيلة ودعائم نظام ومصادر سعادة وإذا كان هذا ينبوع مشوباً بالشوائب قائماً على الفوضى والإهمال فإن إمداده يكون شراً على الأمة وخطراً على مقوماتها ونكداً ووبالاً على مجتمعها .

وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكْثًا﴾<sup>(١)</sup>

فهذا مثل ضربه الله تعالى لكل مصدر من المصادر التي تمد الناس ، فإذا كان هذا المصدر طيباً كان إمداده طيباً وإذا كان خبيثاً كان إمداده خبيثاً وقد ضرب الله لنا مثلاً آخر بعد أن بين مصائر الكافرين والمؤمنين فقال جل ذكره : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تَتَوَقَّى أَكْلُهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ \* وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ \* يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ \* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ \* جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾<sup>(٢)</sup>.

٢ - لذلك عنى الإسلام عامة — كتاباً وسنة وفقها وحكما وقضاء بهذا الينبوع الأول من ينابيع المجتمع فوضع له عن طريق التشريع والإرشاد والتوجيه مجموعة من القوانين والنظم هي خير ما أخرج للناس في هذا الجانب الحيوى الأساسى من شئون الإصلاح الاجتماعى .

وسورة النساء قد أخذت من هذا بحظ وافر ولا عجب فهي السورة التي تبنى المجتمع الإسلامى على أسس الاستقرار والفضيلة والسعادة الكاملة : وقد قدمنا بعض الأمثلة من توجيهها لأفراد الأسر إلى المبادئ السليمة والسبل الرشيدة وهنا نتحدث عن الأحكام التي شرعتها في هذا الجانب .

١ - لم تقتصر سورة النساء على معالجة شئون الأسرة من ناحية الزوجية ولكنها بدأت من الأساس فأمرت بإنصاف اليتامى والسفهاء باعتبارهم أضعف أفراد الأسرة وجعلت لهم من المجتمع الأكبر رقيباً يقوم لليتيم بما يعوضه من رعاية الأب ويقوم للسفيه بما يعوضه عما فقد من الرشد ثم أمرت برعاية النساء في حقوقهن المالية فأبطلت ما كان عليه الجاهلية من حرمانهن وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً مما ترك الوالدان والأقربون في نص قوى مفيد لأن هذا الحق ثابت للنساء على نحو مستقل كسبوته للرجال ثم شرعت نظام الميراث كاملاً على نحو يقطع دابر النزاع ويحقق لكل عضو في الأسرة نصيباً يوازى مسؤولياته وما عهد إليه به من شئون نفسه ومجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير وقد تقدم القول في ذلك فيما مضى من الأحكام .

٢ - أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية فإننا نجد أن أول ما عنت به السورة هو وجوب إعطاء النساء مهرهن نحلة وإبطاها بذلك ما كان في الجاهلية منذ أخذ الأولياء صداق من تحت أيديهن من النساء أو احتجاز الأزواج لهذا الصداق أو لبعضه دون وفاء به تهاوناً بحقوقهن وطمعاً فيهن .

(١) سورة الأعراف آية ٥٨ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٤ - ٢٩ .



ولاشك أن تشريع هذا الحكم هو أول خطوة عملية في اصلاح نفس الزوجة وإشعارها أنها وقد انفصلت عن أسرتها النسبية واتجهت إلى تأسيس أسرة زوجية قد أعطيت ما يساعدها على ذلك وقد اعترف لها بحق ما لى تكون فيه آخذة وتشعر فيه بمبادئ الاستقلال من الأسرة السابقة وأنها لم تنتقل إلى البيت الجديد كسلعة قبض وليها ثمنها أو استولى عليها زوجها دون أن يبذل في سبيلها .

إن بما يصلح المرأة أن تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها وأن هناك من يبذل الكثير من ماله رمزاً لحاجته إليها ورغبته فيها وقد جعل الصداق على الرجل تحقيقاً لهذه الغاية الحسنة التى هى تكريم المرأة واعتبار ما تزهى بها وتعتز بحكم أنوثتها وذلك مالا يوجد في النظم التى تجعل المرأة بإذلة كأنها هى الطالبة للرجل فيفرضون عليها أن تدفع من المال ما يسمونه باسم « الدولة » وقد يكلفونها مالا تستطيع وربما ظلت الفتاة سنوات طوالاً تدخر من المال ما تقدمه لمن يخطبها وفي ذلك إشعار لها من أول حياتها بأنها محتاجة إلى رجل وأنها يجب أن تبذل في سبيل رجل .

فلاشك أن حكم الله في ذلك هو العدل ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ (١).

### حماية الاسرة من الرذيلة

وعنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة عن طريق حماية الزوجة والأنثى عامة من جريمة الإناث وحماية الزوج والرجل عامة من جريمة الذكران وهما الجريمتان اللتان ذكر حكمهما في قوله تعالى : ﴿واللاقي يأتين الفاحشة من نسائكم ..﴾ الآية .

### إبطال عادة إرث النساء

وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوى قرباه بأن تورث كما يورث المتاع ، طمعاً فيها أو في فداء تقدمه وذلك لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ (٢) وقد كان من عادة العرب في الجاهلية . أن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجها وإن شاءوا لم يزوجها فهم أحق بها من أهلها ، وكان الرجل إذا مات جاء وارثه فألقى على امرأته ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميعة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها . كذلك كانت المرأة في البيضة العربية الجاهلية فأنقذها الله تعالى وكرمها وأعتقها من هذا الاستعباد فجعل لها الحق في نفسها وفي مالها وأعطاها نصيباً من ميراث زوجها فكان ذلك انقلاباً عظيماً في تاريخ حقوق النساء .

(١) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٩ .

## تحريم عضل الزوجات :

٥ - وعنت السورة بحماية الزوجات من أن يعضلهن أزواجهن بغير مبرر . وأصل العضل التضيق والمنع وكان الرجل في الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيعضلها أى يضيق عليها ويمنعها حقوقها الزوجية ويذرهما كالمعلقة لا هى بالمتزوجة ولا بالمطلقة حتى تعطيه ما قدم لها من صداق أو بعضه أو أكثر ، بل وصل ذلك بهم إلى حد أن صار قانوناً معمولاً به فكان الرجل يكتب بينه وبين من فارقها كارهاً لها كتاباً ويشهد عليها الشهود يشترط عليها فيه ألا تتزوج إلا بإذنه فإذا خطبها خاطب فإن أعطت زوجها الأول وأرضته أذن لها ، وإلا أعضلها أى منعها ورفض خاطبها وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لاعتدوا ﴾ . ونحن نشاهد في عصرنا آثاراً من هذه العادات الجاهلية وفيها من إذا كره المرأة ضيق عليها وأساء عشرتها لتفتدى منه بإيرائه من مؤخر صداقها ، ومنهم من لا يكتفى بذلك بل يطلب في مقابل طلاقه لمن يكرهها ويمسكها ضراراً المال الكثير فداء لها . وهذا ظلم لا يرضاه الله ولا يليق بمن وضعت في يده أمانة الزوجية وكلف بصونها ومراقبة الله فيها .

وقد استثنت الآية من ذلك حالة صدور فاحشة مبينة أى واضحة من الزوجة وأباحث هذا الاستثناء أن يمسك الرجل المرأة حتى تفتدى بمال أو تتنازل عن بعض صداقها كالمؤخر مثلاً .

والفاحشة المبينة ليست شيئاً معيناً كالزنا مثلاً فكل ما يصدر من المرأة مما يؤذى العرض أو الكرامة أو يأباه العرف السليم فهو فاحشة تستحق المرأة إذا ارتكبته أن يضيق عليها لأنها حينئذ هى المعتدية وهى التى أساءت إلى الزوجية وخرجت على حدودها . وإنما وصف الفاحشة بكونها « مبينة » لكى لا يتوسع الأزواج فيعدوا المفوآت والأخطاء اليسيرة على زوجاتهم فالمفروض أن المرأة تخطئ أحياناً ولكن هناك فرقاً بين خطأ وخطأ فلا ينبغي التشديد في احتساب كل شيء على النساء ولكن - ينبغي أن تكون الحماية الزوجية قائمة على كثير من التسامح فالله تعالى ينصف بهذا كلا من الرجل والمرأة فإذا كانت المرأة صالحة قائمة بواجبها غير مفسدة ولا مفحشة حرم على الرجل مضايقتها والتطلع إلى أن يأخذ شيئاً من مالها أو صداقها فداء لها ، وإن كانت المرأة ظالمة مفسدة مفحشة تجعل حياة زوجها شقية أو تقرب من ذلك فإنها حينئذ تستحق أن تعامل بالتضييق وأن تطالب بتعويض الرجل ما أنفقه أو بعض ما أنفقه ، وكثير من النساء من تتطلع إلى الطلاق لمتزوج بغير زوجها فالرجل مظلوم مع مثل هذه الزوجة ومن حقه أن يعوض .

## حق كل من الزوجين على صاحبه

٦ - وعنت سورة النساء بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة فأوجب معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائماً أماراً على المستقبل السعيد أو الشقى وذلك

قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾<sup>(١)</sup>.

كما عيّنت ببيان الأساس الذي يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبه وقرأ في ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾<sup>(٣)</sup>.

وتتلخص الأحكام التي جاءت بها هذه الآيات فيما يلي :

- ١ - على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .
- ٢ - على المرأة أن تطيع زوجها لرياسته وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه في نفسها وبيت زوجها فقد جعلها الله أمينة على ذلك
- ٣ - على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله في تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه فلا يتطلع النساء إلى مباحض الله بالرجال وجعلهم مفضلين فيه ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه .

### نشوز المرأة وكيف يعالج :

- ٧ - قد رسمت سورة النساء الخطة التي تتبع في حالة وقوع خلاف بين الزوجين وإذا تدبرنا الأقسام التي يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هي حالة الزوجة التي يخشى منها النشوز

وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها في قوله تعالى : ﴿ واللاتي يخافون نشوزهن فعضوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً ﴾<sup>(٤)</sup> ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز وهو في الأصل الارتفاع ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفرد منه . وسمى استعصاؤها عليه نشوزاً لما كان خلاف النساء يرجع غالباً على أن ترفع المرأة وتعالها عن قبول رياسة زوجها وطاعته .

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة النساء آية ٣٢ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

وفي الآية معنى يجب أن نلتفت إليه وأن نوجه به وجهة الإسلام في وضع هذه العقوبات بين يدي الأزواج على زوجاتهم وخطته في تنفيذها على سنة التدرج .

ذلك أن الآية تقول ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ولكن على توقعه فخوف وقوع الشيء هو توقع حصوله وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر في أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته وتسير في الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل عادة على الأواخر وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيراً ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاء مستحكماً وبغضاً ليس من السهل اقتلاعه من القلوب فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلي ليتدعوا علاجهم ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف .

### الخطوة الأولى :

( فعظوهن )

فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة في طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء يناسبها الخطوة الأولى وهي خطوة النصح والإرشاد في رفق ولين وتلك هي المذكورة بقوله تعالى ﴿ فعظوهن ﴾ وينبغي أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة فإن الشأن أن هذه المرحلة تطول بعض الوقت وأنها تقابل في الحين بعد الحين بالتذكير وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله في ذلك وأنه ليس متهدداً مندفعاً من أول الأمر فإن ذلك يصلح كثيراً من النساء اللواتي لاتصلجن الشدة والعنف .

### الخطوة الثانية :

﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾

فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ولكنها بليغة في صمتها ، مؤثرة تأثيراً كبيراً في المرأة فإن أكبر ما تقوى به المرأة أن ترى زوجها دائماً بها شديد الميل إليها فإذا وجدت منه ما يدل على الإنصراف عنها وعدم التأثير بأنوثتها أحست بأنها بدأت تدخل في منطقة مد الخط وأن عليها ألا تسترسل ولذلك أمر الله تعالى بالهجران في المضاجع ليظهر هذا الموقف السلبي من الرجل في أقصى

مداه ولتشعر به المرأة واضحاً وهذا هو لسر في أن التعبير جاء بقوله ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع — مع كونه هجراً — إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حيناً من الوقت ولكن في المضجع أشد أفصاحاً عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعي وتيسرها .

### الخطوة الثالثة :

#### ﴿واضربوهن﴾

ولكن ينبغي أن يعلم أن أسلوب الهجران الزوجي لا يمكن أن يستمر طويلاً فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه فهو إما أن يؤدي الغاية منه سريعاً وإما أن يعلم أنه هو أيضاً غير مفيد في تطويع هذا الإباء وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتى الخطوة الثالثة لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته وتمكنه وأنه يوشك أن يعصف بالزوجية وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشقاق وقد يكون في هذه الأسرة أولاد وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات وكوارث تجر إلى كوارث وهكذا كما شأن الطلاق الذي هو عند الله أبغض الحلال لما يحمله الناس من أثقال .

### رد على وهم :

وهذه الخطوة الثالثة هي تأديب المرأة بالضرب وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشا ويقولون أنه يصلح للمقرون الأولى لا العصور المدنية والحضارة ، ولكنهم في هذا النقد غير متصفين وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التي طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال والمنحكومات في شئون الأسرة فقد درج هؤلاء على المبالغة في تدليل المرأة واسباغ ألوان من الاحترام عليها حتى أفسدوا ذوقها وأذواق من يتصلون بها فإن لكل شيء حداً ، والإسلام لا ينكر على المرأة كرامتها ولكنه يقف بها عند حدها الذي رسمه لها ملاحظاً فيه دورها في المجتمع ووظيفتها التي تتناسب وطبيعتها وحاجة الناس إليها وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج لما بيناه من أن ذلك هو الموافق للطبيعة ولما اكتسب كل من الرجل والمرأة من صفات خلقية ، فهل ترى الإسلام يقرر ذلك ويجعله مبدأ من مبادئه ويترتب عليه سائر أحكامه ثم لا يحفظه بما يكفل تنفيذه واستقراره والخضوع له ؟ وهل تراه يترك المرأة تنساق على هذا النحو الذي وصفناه في الماحل الثلاث الى إفساد زوجية وتشريد أبناء وتخطيم قلب وتخريب بيت وجر لألوان من المشكلات كل ذلك في سبيل أن يعفيها من لظمة أو صفة من زوجها ؟ وأى ذلك أخف على المجتمع ضرراً ، بل عليها وهي على زوجها وأولادها : أحدث ذلك كله أم الحيلولة دونه بهذا اللون من التأديب .

ثم إن الضرب المأذون فيه إنما هو الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه « غير مبرح » وقد ألف للناس أن يؤدبوا بمثله أبناءهم صفاراً وكباراً فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة وإنما هم صوره كذلك لأنهم ضخموه ثم نقدوه لأنهم ضخموا إحساس المرأة به ولو رجعوا إلى الطبيعة لولتهم على أن تتمتع من له الرياسة بلون يكون له حق العقوبة به حين لا يجدى غيره ويصلح به ما يخشى فساداً هو أمر ضرورى لمصلحة الرئيس والمرءوس كليهما ففى بعض الأحيان يجب علينا أن نحمل أبناءنا وأحبابنا من أنفسهم ومن مصير سيئ ينتظرهم وهم عنه غافلون ، وما هذا النقد وأمثاله إلا انسياق مع الأوهام ومحاولة يقصد بها بعض الناس أن يثبتوا لأنفسهم صفات التهذيب والتمدن ولو على حساب الطبيعة والواقع وما تصلح عليه الحياة .

هذه الخطوات الثلاث التى يخطوها الأزواج فى اصلاح الزوجات اللاتى يخافون نشوزهن .  
وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أنه لا يجوز أن ينتقل من خطوة إلى خطوة إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة وذلك هو قوله تعالى بعد ذكر هذه الخطوات ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً ﴾<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدتها وأخذت فى طريق الطاعة والتزام الوضع الذى وصفه الله فإنه لا يجوز للزوج أن ينفى السبيل الثانية أو يقفز إلى السبيل الثالثة وإلا كان ظالماً متجنياً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التى جعلها فى يده للإصلاح بالمعروف ، لا للتحكم ولا للإذلال .

وما أبلغ ما ذيلت الآية فى ذلك حيث تقول ﴿ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً ﴾ أى : فهو أعلى منكم سلطاناً وأكبر قدرة فلو تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم فإن الله أقدر على عقوبتكم ، وسلطانه أعلى من سلطانكم .

#### (ب) نشوز الرجل وكيف يعالج .

وهذه هى الحالة الثانية من أحوال الخلاف بين الزوجية وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً \* وَلَنْ تُسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمِخْلَقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً \* وَإِنْ يَضْرِبَا بِغُلِّهِمَا يَغْضَبْهُمَا وَلَوْ حَبَصَ اللَّهُ فِيهِمَا شَيْئاً وَسِعَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ذَكِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

١ - تقدم تفسير النشوز وهو بمعناه الذى ذكر فى المرأة مقصود هنا فقد يحتج الرجل إلى لون

(١) سورة النساء من آية ٣٤ .

(٢) سورة النساء الآيات ١٢٨ - ١٣٠ .

من ألوان الترفع على المرأة والاستكبار وقد عطف على هذا شيء آخر هو الإعراض وهو ميل الرجل عن المرأة لا لتكبر منه أو ترفع ولكن بسبب آخر قد يكون كراهية لها مبعث طبيعي يرجع إلى نقص فيها ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى الزوج نفسه واعتلال ذوقه وعدم اتفاق أخلاقها فليست المرأة دائماً هي العلة في عدم التوافق بل قد يرجع ذلك إلى الرجل .

فإن امرأة خافت من بعلها أحد هذين أى توقعته وبدرت البوادر الدالة عليه فلا جناح عليهما أن يتفاهما فيتصالحا على وجه من الوجوه ومعنى ذلك أن الله تعالى يريد من الزوجين أن يحاولا حل مشكلتهما بأنفسهما دون أن يندخلا بينهما أحداً فإن ذلك أقرب إلى أن يصلا إلى هذا الحل لو اتجها إلى سر الكراهية اتجها مباشراً وكان الإخلاص لهما رائداً فإذا لم توصلهما هذه الخطوة إلى حل المشكلة فليس في الكلام ما يمنع من أن يستعينا ببعض أقاربهما أو أصدقائهما لأن الآية تقول : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ وأحداث الصلح أو التصالح يكون بإحدى الطريقتين إما بالتفاهم المباشر وإما بتوسيط من يعينهما على ذلك ...

٢ - وفي الآية بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثر الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب - في الغالب - من النوع الحساس والتخاصم في مثل هذه الحالة يكون عرضاً لإسرار الأمر في صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه وقد يؤدي الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة وربما تعرض الزوج في سبيل عرض مشكلته إلى ما يسيء الزوجة في نفسها ويسىء أقاربها تبعاً لذلك فيغضبون ويفكرون في الانتقام من الزوج وربما تعصب للزوج أيضاً أقاربه فيتسع مجال النزاع .

ولهذا أرشد الله كلاً من الزوجين إلى ما هو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراخى فقال تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ ولعل في هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس في عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه الدعوة منافية للمصلحة وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيراً من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظوراً إليها من الناس بنظرات الشك والتظن فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر وثابت في سبيل إثبات الضرر كثيراً ما أفاضت وتعرضت لأسرار وأن الأزواج يلاقون من ذلك الشيء الكثير فلا يضرهم ولا يجعل الناس ينظرون إليهم بنظرات التظن أو الاحتقار - نقول : لا يضح أن

يعترض بذلك . هذا قياس مع الفارق كما يقولون فإن وضع المرأة في المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ولا كذلك الرجل .

٣ - ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التي قد تحول بينها وبين إتمام هذه الصلح فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق في منتصف الطريق فهذا يضحى بعض التضحية والآخر يبادل تضحيته بمثلها أو بأكثر منها ولكن النفوس يحضرها الشح والعفن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما في نفسيهما هذه المواقع النفسية وعلى الرجل في ذلك القسبط الأوفر فإنه يحكم وصفه من أول الأمر هو الطرف الباذل ثم هو الذى نشر أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشور والإعراض فبدرت منه بوادر ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وما فيها معه ولذلك يقول عز وجل ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾<sup>(١)</sup>.

٤ - ولما كان أكثر ما يبعث على الكراهية نشوزاً أو إعراضاً في قلب الرجل هو اتجاهه إلى زوجة أخرى فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبني على هذا الغرض : ذلك أن من الحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين فإن استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ بين الزوجتين فيما بعد من مظاهر السعادة الزوجية كالنفقة والكسوة والمبيت والبشاشة وحسن المعاملة ، فإنه لا يستطيع أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن في الميل القلبي والمحبة الروحية التي من شأن المرأة أن تحس بهما بمقتضى غريزة الأنثى فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع فإنه لا تكليف إلا في حدود الاستطاعة ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيداً لما يأتي بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهنهن فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلا هي بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولا هي بمطلقة تلمس السعادة الزوجية في تجربة أخرى ، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه في هذا الشأن فيصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانباً كبيراً من ميله النفسى وذلك بأن يجد نقصه العاطفى بالتلطف في المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة لكيلا يجرح شعور المرأة فهذا في الحقيقة نهى عن الاسترسال في عاطفة البغض وعن تعذيبها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضاً ترغيباً للرجال في الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدي إليه تحذيراً من الخروج على أمر الله بالظلم والتماهى في الإساءة وذلك ما يؤخذه من قوله تعالى ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٢) سورة النساء آية ١٢٩ .



أى فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبي إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم رحمة بكم .

٥ - وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك الا التفرق بين الزوجين والتماس كل منهما حياة أهدأ فى ظل زوجية جديدة وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغنى الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾<sup>(١)</sup>.

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء فى هذا كله وفى غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية . وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفصيله كما جاء فى سورة البقرة مثلاً ، وذلك لأنها السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تقرر به السورة مرأ وما تركته يفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته وفيه الخير المرجو له فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث الأمل وهو وصفه تعالى بأنه كان — وما يزال — ( واسعاً ) وتذكر أيضاً ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله ﴿ حكيماً ﴾ . وإذا فهذا أيضاً بناء فى المجتمع أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

#### (ج) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها فى قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين وما يتوصل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه فى نظيرته من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التبديد عن هذا الخلاف بأسلوب

(١) سورة النساء آية ١٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٥ .

إضافة الشقاق إلى ﴿بينهما﴾ وذلك قوله تعالى : ﴿شقاق بينهما﴾ فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه إما بمعنى : شقاق بينهما أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه شقاق .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول : ( إن خفم شقاقاً ) ما فابعثوا حكماً — الآية . فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين وإنما المراد هو خوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين وهذا ما يفيدته جعل البين نفسه مصدراً للشقاق كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاد كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق كما جاء فى آية أخرى تقول ﴿لإن خفم ألا يقيما حدود الله﴾<sup>(١)</sup> وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا على ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾<sup>(٢)</sup> ولهذا جاءت بها السورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

### العدل فى سورة النساء

إن سورة النساء قد أسهمت بنصيب واضح فى تقرير مبدأ العدل فى القضاء وفى الشهادة وكل المبادئ والأحكام التى أتت بها يمكن إرجاعها إلى مبدأ العدل .

١ - فالمساواة التى تحدثت عنها فى أول آية منها هى أساس العدل ولولاها لاضطرب ميزانه . ﴿يأأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾<sup>(٣)</sup> .

٢ - واعتقاد الوحدة فى عدل فى الاعتقاد وفيه إنصاف للعقل لأن العقل يحكم بأن للكون صانعا واحدا تبدو آثار قدرته وربوبيته فى كل ما خلق وفى كل ما جعل وفى كل ما أنعم فلا بد للعقل من أن يحكم بأن الإله المستحق للعبادة والخضوع دون شريك له هو هذا الخالق الواحد ولذلك جاء فى وصية لقمان لابنه ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢٩ .

(٢) سورة الروم الآية ٢١ .

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) سورة لقمان الآية ١٣ .

ونجاء في سورة النساء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup> وما هذا إلا لأن الشريك قد أدخل بميزان العدل إخلالاً عظيماً وخرج على مقتضى العقل خروجاً بعيداً فلم يعد أهلاً لأن يغفر له ويتجاوز عن ذنبه وفي هذه السورة أيضاً قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

٣ - والتضامن الاجتماعي الذي تقرره السورة في الآيات التي تبدأ بقوله تعالى : ﴿واعبدوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ الْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾<sup>(٣)</sup> هو أيضاً مظهر من مظاهر عدل الإسلام لأنه لا يمكن أن يتحقق التوازن على وجه يكفل الاستقرار إلا بذلك ، ولا يمكن أن يقبل في العقول أن يكون أحد أعضاء المجتمع متخماً بالمال والنعم وبجانبه من هو مستحق لبعض ذلك ليعيش ثم يعفى هذا المترفع المنعم من أن يعاون أخاه بشيء من ماله إن ذلك لا يمكن أن يحكم به عاقل ولا يمكن أن يرتضيه نظام يقوم على العدل والتعاون .

وتجد السورة حينما تحدثت عن النساء في أول آية جاء فيها الحديث عن النساء تقول : ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْسُطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَىٰ وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ . فالأمر إذن في جواز التعدد أو عدم جوازه منوط بالعدل وجوداً وعدماً .

وهكذا كل حكم من الأحكام في هذه السورة أو في غيرها إنما يستهدف العدل ويقوم على العدل وهذا أمر منطقي وإلا لما شرح ولما ألزم به الناس في شريعة العدل .  
وصدق الله العظيم القائل في محكم كتابه ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾<sup>(٤)</sup>.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) سورة النساء من آية ٤٨ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ .

(٤) سورة الشورى آية ١٧ .

## جزاء الظالمين وإرشاد المؤمنين

قال تعالى :

وَكَايِن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا  
عَذَابًا نُّكَرًا ﴿١٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿١٩﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ  
عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ  
ذِكْرًا ﴿٢٠﴾ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّیُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿٢١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ  
سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ  
قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٢٢﴾

## معاني المفردات

- ﴿ وكاين من قرية ﴾ : أى : كثير من أهل القرى .
- ﴿ عتت ﴾ : أى تجبرت وتكبرت
- ﴿ نكراً ﴾ : أى : منكراً عظيماً .
- ﴿ وبال أمرها ﴾ : أى : عاقبة عتوها .
- ﴿ خسراً ﴾ : أى خسارة فى الآخرة .
- ﴿ ذكراً ﴾ : أى : قرآناً .
- ﴿ رسولاً ﴾ : أى : وأرسل رسولاً .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر بأن الطلاق لا يكون إلا في أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزواج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها فقد ظلم نفسه ، توعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلوكوا غير ما شرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأئم السالفة التي كذبت رسلها ، فأخذها عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً في الآخرين .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً . أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ، ونخبراً عما حل بالأئم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد \* وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آهنتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تنبيب \* وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد \* إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود \* وما تؤخره إلا لأجل معدود \* يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ (١).

وقوله تعالى : ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً \* أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ أى في الدار الآخرة مع ما عجل لهم من العذاب في الدنيا .

ثم نبه سبحانه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا ﴾ أى : فخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ، فأنتم أصحاب العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين . كقوله تعالى عن الخاسرين ﴿ هم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون ﴾ (٢) ثم بين سبحانه ما يكون مذكراً لهم وداعياً لتقوى الله فقال

(١) سورة هود الآيات ١٠٠ - ١٠٥

(٢) سورة الزمر من الآية ١٦

تعالى : ﴿ ... قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبینات لیخرج الدين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴿ أى قد أنزل الله إليكم يا ذوى البصائر ذكراً لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين ، وتعملوا بطاعته .

قال القرطبي وقيل : الذكر هنا الشرف ، نحو قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبینات لیخرج الدين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بینات لیخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ <sup>(٣)</sup> وكما قال سبحانه : ﴿ الله ولى الدين آمنوا یخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ <sup>(٤)</sup> أى من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وقد سمى الله تعالى الوحي الذى أنزله نوراً لما يحصل به الهدى كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ثم بين سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾

أى : ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، ويعمل بطاعته — يدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار ما كثين فيها أبداً ولا ييغون عنها حولا ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ﴾ <sup>(٦)</sup>

وقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ﴾ بطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب . وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ <sup>(٧)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ﴾ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين

(١) . سورة الأنبياء آية ١٠ .

(٢) . سورة الزخرف آية ٤٤ .

(٣) . سورة الحديد آية ٩ .

(٤) . سورة البقرة الآية ٢٥٧ .

(٥) . سورة الشورى آية ٥٢٠ .

(٦) . سورة الرعد آية ٣٥ .

(٧) . سورة الزخرف الآيات ٧١ - ٧٣ .

فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لوزننا ما له من نفاذ ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾ ﴿٢﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿الله الذي خلق سبع سموات﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟﴾ ﴿٣﴾ وقوله تعالى : ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم﴾ ﴿٤﴾ وقوله : ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ ﴿٥﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ومن الأرض مثلهن﴾ أى سبعاً أيضاً كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وفي البخارى « خسف به إلى سبع أرضين » ﴿٦﴾ . قال العلامة ابن كثير : ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأعزق في النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند .

قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس — رضى الله عنه — في قوله تعالى : ﴿سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾ قال لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفرتم تكذيبكم بها .

قال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله في كتابه ( الإسلام في عصر العلم ) ما نصه : والعلم لا يعرف إلى الآن ماهى السموات السبع ومن قبل لم يعرف أن السماء فوق هواء الأرض سبوءاء حالكة والشمس طالعة بالنهار الا بعد قرون تزيد على العشرة من نزول الآية القرآنية التى تنص على هذه الحقيقة العجيبة . وكان الواجب إذ لم يجدوا فى العلم تفسيراً لعدد السموات أن يلتمسوا لعدد السبع تفسيراً فى القرآن كتاب الله . فهذا من صميم تفسير القرآن بالقرآن ولو أنهم اتجهوا هذا الاتجاه لكان من المؤكد أن يصلوا إلى تفسير صحيح ، فالتفسير غير بعيد ممن يلتمسه مستعيناً باللغة من ناحية وبالآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع من ناحية أخرى .

أما اللغة فتقول إن السماء ماعلا الأرض ، وعلم البديع يقول إن بين السماء والأرض مقابلة

(١) سورة ص الآيات ٤٩ - ٥٤ .

(٢) سورة الطلاق الآية ١٢ .

(٣) سورة نوح آية ١٥ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٩ .

(٥) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(٦) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٢٣٢ . كتاب المساقاة . باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها رقم ١٦١٢/١٤٢ .

حتى عدوا هذه المقابلة من بديعيات قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ اقْلَعِي ﴾<sup>(١)</sup>. فإذا ضممننا إلى هذا قوله تعالى في آخر سورة الطلاق ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ أى : سبعا . كما هو المتبادر وكما اتفق عليه جمهور المفسرين . تبين المقصود من السموات السبع في القرآن . أنه مادام هناك ست أرضين غير أرضنا ، وكل أرض يقابلها سماء ، فهناك إذن غير السماء المقابلة لأرضنا ست سموات أخرى ، لكل أرض سماؤها ، فهل هذا معنى بعيد ؟ أم هل في هذا التفسير تكلف ما ، أو تحميل للآي مالا تتحمل كما يحشى على القرآن من يقول بمنع المطابقة بين الآيات الكونية في القرآن وبين ما يتصل بمعناها من يقينيات العلم الحديث ؟ إذا كان القرآن قد سبق العلم الحديث بتقرير حقائق كونية لم يكشفها العلم إلا بعد عصر القرآن ، مثل جرى الشمس جريا ليس هو ما بين الشروق والغروب في رأى العين ، ومثل ليل للسماء غير الليل المعروف في الأرض ، فلا غرابة في أن يخبرنا ويخبر الإنسانية التي أنزل لهدايتها بحقائق لم يكشف عنها علماء الفطرة إلى اليوم مثل وجود حياة في السماء تشبه الحياة على الأرض ، ومثل أن هناك أرضين سبعا وسموات سبعا كما نصت عليه آية سورة الطلاق لتعليم الإنسانية إذا آن الأوان ، ومكن الله العلم من الكشف عنها ﴿ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ ١ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : ينزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع . وقال الحسن : بين كل سماءين أرض وأمر . والأمر هنا الوحي قال القرطبي فيكون قوله ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التي هي أدناها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها . وقيل : الأمر القضاء والقدر وهو قول الأكثرين . فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى ﴿ بَيْنَهُنَّ ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ يعنى أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكن ، وإن استوى كل ذلك في مقدوره سبحانه وتعالى . وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته . قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ ﴾<sup>(٢)</sup> وقال جل في علاه : ﴿ اللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ \* وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾<sup>(٣)</sup>

قال الامام الطحاوى — رحمه الله — في صفات المولى سبحانه : خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا ، وضرب لهم آجالا ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ،

(١) سورة هود الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٣) سورة المائدة آية ١٢٠ .



وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجري بتقديره ومشيعته ، ومشيعته تنفذ لا مشعية العباد ، إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلي عدلاً ، وكلهم يتقلبون في مشيعته ، بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده .

لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ﷺ .

### تفسير سورة التحريم

#### مقدمة :

قال صاحب البصائر :  
السورة مدنية آياتها اثنتا عشرة  
وكلماتها : مائتان وأربعون .  
وحروفها : ألف وستون .  
وفواصل آياتها : ( منار ) على الألف آية فحسب ( أبكاراً ) .  
سميت سورة التحريم ، لمفتتحه ( لم تحرم )

#### مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : عقاب الرسول ﷺ في تحريم ما أحل الله له ، وتغيير الأزواج الطاهرات على إيدائه وإظهار سره ، والأمر بالتحرز والتجنب من جهنم ، والأمر بالتوبة النصوح والوعد بإتمام النور في القيامة ، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة ، ومع المذافين بالبرهان والحجة ، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصديق والإخلاص ، والخبر عن الفتوة وتصديق مريم بقوله : ﴿ وصدقت بكلمات ربها ﴾ .

المتشابهات : قوله تعالى : ﴿ خيراً منكن مسلمات مؤمنات ... ﴾ ذكر الجميع بغير واو ، ثم ختم بالواو ، فقال ﴿ وأبكاراً ﴾ لأنه استحالة العطف على ﴿ ثيبات ﴾ فعطفها على أول الكلام .  
ويحسن الوقف على ﴿ ثيبات ﴾ لما استحالة عطف ﴿ أبكاراً ﴾ عليها . وقول من قال إنها واو الثمانية بعيد . والله أعلم . أهـ

مناسبتها لما قبلها :

( ١ ) أن سورة الطلاق في حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي ﷺ تعليماً لأُمَّته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبي ﷺ بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

( ٢ ) أن كليهما افتتحت بخطاب النبي ﷺ .

( ٣ ) تلك في خصام نساء الأمة ، وهذه في خصومة نساء النبي ﷺ . وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾  
 قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ  
 النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ  
 وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ ﴿٣﴾ الْخَبِيرُ ﴿٤﴾  
 إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ  
 وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٥﴾ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ  
 أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَنَاطَاتٍ نَزَبَتْ عَنِ دِينِ اللَّهِ فَإِنَّ إِلَهَكُمْ  
 وَابْكَارًا ﴿٦﴾

### معاني المفردات

﴿ ما أحل الله لك ﴾ : شرب العسل ، ﴿ تبغى ﴾ : تطلب . ﴿ تحلة أيمانكم ﴾ : تحليلها بالكفارة . ﴿ الله مولاكم ﴾ : ناصركم ومتولى أموركم ، ﴿ نبأت به ﴾ : أخبرت به  
 غيرها . ﴿ أظهره الله عليه ﴾ : أطلعه الله تعالى على إفشائه . ﴿ صغت قلوبكما ﴾ : مالت  
 عن حقه ﷺ عليكما . ﴿ تظاهرا عليه ﴾ : تعاونا عليه بما يسوءه . ﴿ هو مولاها ﴾ : وليه

وناصره . ﴿ ظهر ﴾ : فوج مظاهر معين له . ﴿ مسلمات ﴾ : خاضعات لله بالطاعة .  
 ﴿ مؤمنات ﴾ : مصدقات بتوحيد الله مخلصات . ﴿ قانتات ﴾ : مطيعات خاضعات لله .  
 ﴿ تائبات ﴾ : أى : مقلعات عن الذنوب . ﴿ عابدات ﴾ : أى : متعهدات منذلات لأمر  
 الله وأمر رسوله ﷺ . ﴿ سائحات ﴾ : أى : صائحات ، وسمى الصائم بذلك من حيث أن  
 السائح لا زاد معه ولا يزال ممسكاً حتى يجد الطعام ؟ كالصائم لا يزال كذلك حتى يجيء وقت  
 الإفطار .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور  
 رحيم ﴾ .

قال ابن كثير : اختلف في سبب نزول صدور هذه السورة ف قيل نزلت في شأن مارية وكان  
 رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات  
 أزواجك ﴾ الآية .

روى النسائي بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تنزل به عائشة  
 وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ؟ ﴾ إلى آخر  
 الآية<sup>(١)</sup> .

وقال ابن جرير بسنده : أن ابن عباس — رضى الله عنهما — كان يقول في الحرام يمين  
 تكفرها . وقال ابن عباس ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة )<sup>(٢)</sup> يعنى أن رسول الله ﷺ  
 حرم جاريته فقال الله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ قد فرض الله  
 لكم تحلة أيمانكم ﴾ فكفر يمينه فصير الحرام يميناً ورواه البخارى ومسلم والدارقطنى وقال ابن حجر  
 في الفتح : « اى إذا قال الرجل لأمراته أنت على حرام لا تطلق وعليه كفارة يمين والغرض من حديث  
 ابن عباس — رضى الله عنهما — قوله فيه ( لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة )<sup>(٣)</sup> فإن فيه  
 إشارة إلى سبب نزول أول هذه السورة إلى قوله فيها ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾ وقد وقع في  
 بعض حديث ابن عباس عن عمر في القصة الآتية في الباب الذى يليه « فعاتبه الله في ذلك وجعل له  
 كفارة اليمين » ا.هـ .

(١) سورة التحريم آية ١ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ج ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم . ط / الحلبي .

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١ .

وقال ابن كثير : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شرباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة ، وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قول فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة نفذ فيهما ١. هـ.

وقال أبو حنيفة أنه إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى . فإن لم ينو شيئاً كانت يميناً وكان الرجل مولياً من امرأته .

قال ابن كثير : وفي الصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما قال البخاري عند هذه الآية . عن عائشة قالت كان النبي ﷺ وعلى آله وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وخفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغاير إني أجد منك ريح مغاير . قال « لا ولكنني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحداً »<sup>(١)</sup>. وفي رواية مسلم « وكان رسول الله ﷺ يشد عليه أن يوجد منه ريح » يعني الريح الخبيثة ولهذا قلن له أكلت مغاير لأن ريحها فيه شيء . والمغاير ( صمغ حلولة رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العُرفُط يكون بالحجاز )<sup>(٢)</sup>.

فقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك ﴾ ؟ أي : يا أيها النبي لم تمتنع عن شرب العسل الذي أحله الله لك ، تلتبس بذلك رضا أزواجك ؟

وفي ندائه ﷺ بيايها النبي في مفتتح العتاب حسن تلطف وتنويه بشأنه — عليه الصلاة والسلام — ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي : والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، وإنما عاتبه سبحانه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليقين أو بدونه تعظيماً لقدره الشريف ، وإجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامي يعد كالذنوب وإن لم يكن في نفسه كذلك .

قوله تعالى : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴾ أي قد شرع لكم أيمانكم بالكفارة عنها وذلك في قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾ .

(١) أنظر صحيح البخاري - ج ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم

(٢) أنظر تفسير ابن كثير . ج ٤ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ . نفسه سورة التحريم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللّٰهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى والله متولى أموركم ينصركم على أعدائكم ومسهل لكم سبل الفلاح فى دينكم وأحرامكم ﴿ وهو العليم الحكيم ﴾ أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم .

ثم ساق ما هو كالل دليل على علمه سبحانه فقال جل فى علاه :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسْرَ النَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَاكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَأْنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أى واذكر حين أسر النبى ﷺ إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه — أخبر حفصة ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنت شربت عسلاً عند زينب فلن أعود وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرماً منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه ﷺ ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مِنْ أَنْبَاكَ هَذَا قَالَ نَبَأْنِى الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ أى : فلما أخبر النبى ﷺ حفصة بما دار بينهما وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنباك بهذا ؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتا بإخبارها رسول الله ﷺ : قال الحبيب المصطفى : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شئ فىهما .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ \* عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنْ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنْ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَائِمَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيَّابَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ .

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبه له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعت وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال فوقفت له حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه فقال : تلك حفصة وعائشة ، قال فقلت : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبه لك ، قال فلا تفعل ، ما ظننت أن عندى من علم فأسألتى ، فإن كان لى علم خبرتك به . قال ثم قال عمر : والله إن كنا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينما أنا فى أمر أبائهم إذ قالت إمرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، قال فقلت لها : مالك ولما هاهنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى عجباً لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تراجع أنت ، وإن ابتكت لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان . فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية

إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إننا لتراجعه . فقلت : تعلمين أني أحذرك عقوبة الله ، وغضب رسوله ، ﷺ . يا بنية لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ يريد عائشة — قال ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرايتي منها فكلمتها ، فقالت أم سلمة . عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت في كل شيء حتى تبتغي أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه فأخذتني والله أخذاً كسرتني عن بعض ما كنت أجد ، فخرجت من عندها وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب كنت آتية بالخبر ، ونحن نتخوف مَلِكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأث صدورنا منه ، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب ، فقال افتح افتح فقلت جاء الغساني ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه ، فقلت رغم أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبي فخرجت حتى جئت ، فإذا رسول الله ﷺ في مشربة له يرق عليها بعجلة ، و غلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة ، فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لي فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء ، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف ، وإن عند رجله قرظاً مصبوراً ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت الحصير في جنبه فبكيت ، فقال ، مايكيك ؟ فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ .

وفي رواية الإمام أحمد : فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرفع رأسه إلي وقال « لا » فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما تغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على إمرأتي يوماً فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفأتمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت ، فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هي أو سم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى ، فقلت استأنس يا رسول الله ؟ قال « نعم » فجلست فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه ، فقلت : أدع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً ﷺ وقال : « أفي شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا » فقلت : استغفر لي يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجلته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

فقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أى : إن تتوبا من ذنبكما وتقلعا عن مخالفة رسوله ﷺ فتحبا ما أحب وتكرها ماكرهه فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما ما يجب عليكما نحوه — ﷺ من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال ﴿ وَإِنْ تظاهروا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ أى وإن تتعاونوا على العمل على ما يؤذيه ويسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره — فلن يضره ذلك ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك من مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾ .

قال القرطبي قيل : هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ ، لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه فى الدنيا نساء خيراً منهن ، والله سبحانه كان عالماً بأنه كان لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ، على أنه إن طلقهن أبد له خيراً منهن تخويفاً لهن . وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ وهو إخبار عن القدرة وتخويف لهم ، لا أن فى الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ مسلمات ﴾ قال سعيد بن جبير مخلصات . وقيل مسلمات لأمر الله وأمر رسوله . ﴿ مؤمنات ﴾ مصدقات بما أمرن به ونهين عنه . ﴿ قانتات ﴾ مطيعات والقنوت الطاعة . ﴿ تائبات ﴾ أى من ذنوبهن ، قاله السدى ، ﴿ عابدات ﴾ أى كثيرات العبادة لله تعالى . ﴿ سائحات ﴾ صائمات قاله ابن عباس والحسن وابن جبير .

وقوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكارا ﴾ أى منهن ثيب ومنهن بكر وسميت الثيب ثيباً لأنها راجعة إلى بيت أبويها ، وأما البكر فهي العذراء ، سميت بكراً لأنها على أول حالتها التى خلقت بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه : فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منك فنزلت هذه الآية .

### ارشاد وتوجيه

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ ۚ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ  
 آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ  
 وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ  
 ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا  
 وَآغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(الآيات من ٦ - ٨)

### معاني المفردات

﴿قوا أنفسكم﴾ : أى اجعلوها لها وقاية من النار بترك المعاصي .  
 ﴿وأهلكم﴾ : أى يحملهم على ذلك بالنصح والتأديب . ﴿والوقود﴾ : بفتح الواو :  
 ما توقد به النار ، ﴿والحجارة﴾ : هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : ﴿إنكم  
 وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ . ﴿ملائكة﴾ : هم خزنتها  
 التسعة عشر ، ﴿غلاظ﴾ : أى غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا . ﴿شداد﴾ أى  
 أقوياء الأبدان . ﴿والتوبة النصوح﴾ : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى  
 مثله فيما هو آت .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بعض نساء النبي ﷺ بالتوبة عما فرط من الزلات ، أمر المؤمنين عامة  
 بوقاية أنفسهم وأهلهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة يوم يقال للكافرين : لا تعتذروا فقد  
 فات الأوان ثم أمر المؤمنين أن يقللوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحاً ، فيندموا على ما قرط منهم  
 من المفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ليكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات  
 النعيم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهلكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها  
 ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾



أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله : لِيُعَلِّمَ بعضكم بعضاً ما تتقون به النار وتدفعونها عنكم ، إنه طاعة الله تعالى وامثال أوامره ، ولتعلموا أهليكم من العمل بطاعته ما يقون به أنفسهم منها ، واحملوهم على ذلك بالنصح والتأديب .

قال القرطبي : روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — إنه قال في هذه الآية : قوا أنفسكم وأهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيمهم الله بكم .

وقال على وقتادة ومجاهد : قوا أنفسكم وأفعالكم وقوا أهليكم بوصيتكم فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله إصلاح الراعى للرعية ففى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » . وعن هذا عبر الحسن فى هذه الآية بقوله : يأمرهم وينهاهم .

وقال بعض العلماء : لما قال ﴿ قوا أنفسكم ﴾ دخل فيه الأولاد ، لأن الولد بعض منه ، كما دخل فى قوله تعالى ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ فلم يفرّدوا بالذكر أفراد سائر القربات . فيعلمه الحلال والحرام ، ويحنبه المعاصى والآثام إلى غير ذلك من الأحكام . وقال عليه الصلاة والسلام « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع »<sup>(١)</sup> رواه أبو داود وغيره وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب مستنداً فى ذلك إلى رؤية الهلال . وقد روى مسلم أن النبى ﷺ كان إذا أوتر يقول « قومى فأوترى يا عائشة »<sup>(٢)</sup> وروى أن النبى ﷺ قال « رحم الله امرأ قام من الليل فأيقظ أهله فإن لم تقم رش وجهها بالماء . رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء »<sup>(٣)</sup>.

وأخرج البخارى بسنده عن هند بنت الحارث الفراسية « أن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت : استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول : « سبحان الله ، ماذا أنزل الله من الخزائن ، وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات — يريد أزواجه — لكى يصلين ؟ رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة »<sup>(٤)</sup>.

قال ابن بطال : فى هذا الحديث أن الفتوح فى الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه فيقع

(١) أنظر سنن أبى داود ج ١ ص ٣٣٤ كتاب الصلاة . باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة . رقم ٤٩٥ .

(٢) أنظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥١١ كتاب صلاة المسافرين باب صلاة الليل وعدد ركعات النبى ﷺ . رقم ٧٤٤/١٣٤ .

(٣) أنظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٧٣ . كتاب الصلاة . باب قيام الليل حديث رقم ١٣٠٨ . وكذلك أخرجه النسائى فى قيام الليل

رقم ١٦١١ وابن ماجه فى إقامة الصلاة . باب فى من أيقظ أهله من الليل رقم ١٣٣٦ .

(٤) أنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٢ ( ط / الشعب ) . كتاب التهجد . باب تحريض النبى ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير

القتال بسببه وأن ييخل به فيمنع الحق أو يطر صاحبه فيسرف ، فأراد ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كله وكذا غيرهن ممن بلغه ذلك .

قال ابن حجر : واختلف في المراد بقوله ( كاسية وعارية ) على أوجه أحدها : كاسية في الدنيا بالثياب لوجود الغنى ، عارية في الآخرة من الثواب لعدم العمل في الدنيا ثانيها : كاسية بالثياب ولكنها شفافة لا تستر عورتها فتعاقب في الآخرة بالعري جزاء على ذلك . ثالثها : كاسية من نعم الله ، عارية من الشكر الذى تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب ، رابعها : كاسية جسدها لكنها تشد خمارها من ورائها فيبدو صدرها فتصير عارية فتعاقب في الآخرة . خامسها : كاسية من خلعة التزوج بالرجل الصالح ، عارية في الآخرة من العمل ، فلا ينفعها صلاح زوجها كما قال تعالى : ﴿ فلا أنساب بينهم ﴾ ذكر هذا الأخير الطيبى ورجعه لمناسبة المقام ، واللظة وإن وردت في أزواج النبی ﷺ لكن العبرة بعموم اللفظ ، وفي الحديث النذب إلى الدعاء ، والتفرع عند نزول الفتن ولاسيما في الليل لرجاء وقت الإجابة وكذلك ينصح الرجل لأهله .

وقوله تعالى : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ يعنى الملائكة الزبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ﴿ شداد ﴾ أى : شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ في أخذهم أهل النار ، شداد عليهم . قال ابن عباس : ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان في قعر جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى : لا يخالفونه في أمره من زيادة أو نقصان . ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أى : في وقته ، فلا يؤخرونه ولا يقدمونه .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾

أى : يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون وإنما تجزون اليوم بأعمالكم كما قال تعالى : ﴿ فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون ﴾ وكما قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

### أسرتك أيها المسلم

من أخطر المشاكل التى تواجه المسلم الواعى المخلص لدينه ، الشاعر بثقل الأمانة التى يحملها ، كيفية تربية أبنائه تربية اسلامية سليمة ، وتوجيههم توجيهاً مؤمناً متزاناً ، بعيداً عن الأزمات النفسية ، والانحرافات العقيدية ، والأمراض الاجتماعية والسلوكية .

فالأسرة المسلمة اليوم تتأرجح بين تيارين هادمين ، تيار القديم الفاسد الجاهل المريض ، الذى

يعود إلى عصور من التخلف الإيماني ، والتأخر الحضاري والتفكير العامي الوليد من العادات الجاهلية .  
والتقاليد الاجتماعية الناتجة عن تطور أعمى غير موجه ، وتيار جديد القلق المضطرب الذي يدعو إلى  
عبادة المادة ، والابتعاد عن الهداية الإلهية ، مقدماً ثقافة فكرية وإجتماعية غريبة في جوانب كثيرة منها  
مقومات أمتنا عقيدة وحضارة وتاريخاً وأهدافاً .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذي أسلمنا إلى التيار الثاني ، فكان  
الأخير من القوة والهيمنة في ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه  
كل خير ، ويمحو في مجتمعا بقايا جذور الإيمان القوية .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذي أسلمنا إلى التيار الثاني ، فكان الأخير  
من القوة والهيمنة في ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه كل  
خير ، ويمحو في مجتمعا بقايا جذور الإيمان القوية .

ولو درس المسلم العاقل ما فعله المستعمرون في بلاد الإسلام من تخطيط علمي منظم لإفساد  
شبابنا ، وزعزعة الإيمان في نفوسهم بنشئ الطرق ، وتشكيكهم في تاريخهم وتراثهم ، ونشر الاتجاهات  
الإباحية والحياة المائعة الضائعة الهادمة بينهم ، إضافة إلى ما فعلوه من تحطيم قوى الحضارة النامية في  
بلادهم ، وإعاقة تقدمها في جميع مجالات الحياة ، لعلم أن المصيبة كبيرة ، والمشكلة خطيرة . وأنه لم يعد  
يكفى أن نوجه إلى أبنائنا كلمات عامة شفهية ... صلوا ... اقرؤوا القرآن ... خافوا الله .

بل لابد من خطة هادفة في داخل البيت ناضجة تستطيع أن تقتلع جذور هذه المشكلة إلى حد  
أن لا تكون خطراً على مستقبل الأبناء والبنات .

وفي سبيل الوصول إلى الملامح العامة لهذا التخطيط الإسلامي التربوي الناضج لابد من الخروج من  
هذه المقدمة العامة إلى عرض المشاكل الخاصة في داخل الأسرة . لأن القاعدة العلمية في البحث تعلمنا  
تعيين المشكلة أولاً ، ثم محاولة فهمها وتحديد أجزائها ، ثم وضع الحلول المناسبة لكل جزئية من جزئياتها ،  
كئى يتكامل الحل في النهاية ، فيقضى بذلك على المشكلة ، دون تهريج وفوضى ، أو الدوران في حلقة  
مفرغة .

### ( المشكلة الأولى ) جهل رب الأسرة بالمبادئ العامة للإسلام

فأولى المشاكل في رأيي جهل رب الأسرة بالمبادئ العامة للإسلام وأهدافه الخاصة في بناء الحياة ،  
وعدم الاطلاع على سيرة النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ليفهم دروسها وعبرها ، وصورها الحياتية  
المملوءة بالحركة والقوة والإيمان . ولا يقف جهله عند هذا الحد . بل هو يجهل واقع المجتمع الإسلامي  
ومشاكله وأوضاعه وتطورات . ويجهل المخططات الاستعمارية المتنوعة لإفساد الأسرة المسلمة ، وزعزعتها  
وتحطيمها في النهاية .

وهذا الجهل يسوق إلى سوء التوجيه ، وفساد التقدير ، ويؤدى إلى ضياع الأسرة فى متاهات هذه الحياة الصاخبة بالأحداث ، المنعمة بالتيارات إذن لم يفد الأسرة حماس ربها للإسلام ، ولم يخدمها حتى حرصه على أداء الفرائض ، ولم يؤثر فى مجرى تفكير أفرادها تفكيره المشوه عن الدين ، غير المبني على أساس من الوعى والتفقه والمعرفة الواضحة البعيدة عن العقلية العلمية .

فلا بد إذن للمسلم الذى يريد أن ينشئ أولاده إنشاءً إسلامياً على أساس من الإيمان والتقوى والجهاد المتكامل فى الحياة ، أن يعيد النظر فى موقفه الفاسد هذا ، بمعايشة الفكر الإسلامى ، والمطالعة المستمرة فيه والاطلاع على كل جديد حسب ثقافته وطاقته الفكرية ، ومعرفة الطرق الهادمة لمقومات الأسرة المسلمة .

### سوء معاملة الأبوين للولد

( المشكلة الثانية ) عدم إدراك رب الأسرة اليوم للتربية المجدية التى يجب أن تتبع فى مثل هذه الأوضاع الأسرية المعقدة .

فكثير من أرباب الأسر مازالوا ينطلقوا من مكانن العنجهية والقسوة فى معاملة الأولاد ظناً منهم أن هذا هو الطريق الطبيعى لتوجيه الأولاد توجيهاً سليماً .

ومن الأمور التى يكاد يجمع علماء التربية عليها ، أن الولد إذا عومل من قبل أبويه ومربيه المعاملة القاسية ، وأدب من قبلهم بالضرب الشديد ، والتوبيخ القارع ، وكان دائماً الهدف فى التحقير والازدراء ، والتشهير والسخرية ، فإن ردود الفعل ستظهر فى سلوكه وخلقه ، وإن ظاهرة الخوف والانكماش ستبدو فى تصرفاته وأفعاله ، وقد يؤول به الأمر إلى الانتحار حيناً أو إلى مقاتلة أبويه أحياناً ، أو إلى ترك البيت نهائياً تخلصاً مما يعانيه من القسوة الظالمة ، والمعاملة الأثيمة .

والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة ، يأمر كل من كان فى عنقه مسئولية التوجيه والتربية ، ولاسيما الأباء والأمهات منهم ، يأمرهم جميعاً أن يتخلقوا بالأخلاق العالية ، والمعاملة الرحيمة ، حتى ينشأ الأولاد على الاستقامة ، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية ، وبالتالي حتى يشعروا أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ <sup>(١)</sup> الآية .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) سورة النحل آية ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى : « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله »<sup>(١)</sup>

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »<sup>(٢)</sup>.

أن هؤلاء مازالوا يجهلون التركيب النفسى والاجتماعى الجديد لهذا الجيل الناشئ عن الأمراض الحضارية الجديدة .

وآخرون مازالوا يعتقدون أن طريق محاربة المجالات الخلاعية فى البيت هو التمزيق والصراخ والسب والضرب .

وهم مازالوا يؤمنون أن طريق الإهانة والحبس للأولاد فى غرف البيت هو الطريق الصحيح لمنع الأولاد عن ارتياد الأفلام التى لا يريدونهم الذهاب إليها .

وطائفة أخرى من الآباء المسلمين ، مازالوا يظنون أن التخطيط لتربية إسلامية يتحقق عن طريق تحفيظ الأولاد آيات أو أحاديث ، أو تكليفهم بقراءة كتاب معين قراءة دون هضم مضمون ، والشوق إلى معانيه .

وكل ما يفعله هؤلاء أن يصدروا أوامر صارمة فى صباح أو مساء إلى الأولاد والبنات ، دون تفكير جدى فى نقلها من عالم النظريات إلى عالم الواقع الحى ، وإلى عالم السلوك العملى .

إن مثل هذا التخطيط الناجح الذى نتحدث عنه لابد أن يعتمد على الحب والتخطيط واليقظة الدائمة .

## الحب

لأن رب الأسرة إذا أراد أن تقبل آراؤه فى هذا الوسط الاجتماعى المعقد ، عليه أن يحب نفسه إلى أولاده منذ صغرهم . ولقد ثبت فى علم النفس أن الطفل من بداية تفتق قوة الفهم فيه ، يحاول أن يتقمص أحب الناس إليه ، أى يحاول أن يتخذه مثلاً يقلده ، ويتخذها مناراً لحياته . فإذا كان هذا الحب والده ، تقمص شخصيته وطرح كل الشخصيات الأخرى ، فإذا كان الأب مسلماً يريد أن يربيه تربية إسلامية أفلح فى ذلك من خلال شحنات الحب التى يغمر ولده بها . فحب الإسلام يبدأ بدخول كيانه من خلال حبه لوالده . ثم مع الأيام يتمكن من نفسه أكثر فأكثر فيظهر على شخصيته وسلوكه مستقلاً عن حبه لوالده ، وبذلك تنجح التجربة ، وتوثق ثمارها المرجوه .

(١) ، (٢) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٢٨٥ كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى رحمة المسلمين . رقم ١٩٢٤ وانظر سنن أبى داود كتاب الأدب باب فى الرحمة .

إن المسلم إن لم يحول نفسه إلى مثال لابنه ، فسيأخذ مثالا آخر في المدرسة أو في الشارع أو في بطون الكتب والمجلات وقد يكون ذلك المثال فاسداً فليداً الفساد يسرى في كيانه ، فلا يفيد معه الكلام النظري الذي يطلقه في التوجيه الديني في ليل أو نهار .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال : فما هي يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن يتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب ( أى القرآن ) ، قال الولد : يا أمير المؤمنين إن أبى لم يفعل شيئاً من ذلك ، أما أمى فإنها زنجية كانت لجوسى ، وقد سماني جُعلا ( أى : خنفساء ) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : جئت إليّ تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسيء إليك ؟!

وهكذا حمل عمر الرجل حين أهمل تربية ابنه مسؤولية عقوق ولده له . ألا فليأخذ الآباء من هذا الخبر العظة والعبرة في الملاحظة لأولادهم ، وحسن المعاملة لهم ، والرفق بهم ، واتباع الطريق الأقوم في تربيته وتوجيههم .

**المشكلة الثالثة** وهناك أمر آخر في غاية الأهمية ، وهو معاملة رب الأسرة لأولاده معاملة خالية من السكون الزوجي ، والأخلاق الإسلامية الكريمة . فكثير من هؤلاء لا يترددون في إهانة زوجاتهم أمام أولادهم ، ولا يقدرون جهودهم في الحياة البيتية تقديراً جيداً ، ولا يقيمون لهن وزناً في تسيير أمور الأسرة والمشاركة في حل مشاكلها . وقد يتجاوز ذلك إلى الظلم الصارخ ، وحجب الحقوق الزوجية عنهن ، تلك التي قررها الإسلام لهن الأمر الذي يقود إلى تيجتين خطرتين ( أولاهما ) أنه يسقط بأخلاقه الرديئة وعدم ذوقه الاجتماعي في نظر أولاده من حيث كونه مثلاً . فلا ينسجمون بذلك مع أفكاره الإسلامية بل يرونها لسوء تطبيقه ، وقصر مداركه ، أفكاراً مثالية لا ظل لها في الواقع ، ولا أثر لها على السلوك . ( ثانيهما ) إن الزوجة المظلومة تحاول شعورياً أولاً شعورياً أن تثار من زوجها بطريقة وضع الحواجز بين أولادها . لا بل أحياناً تحاول أن تكره إليهم والدهم حتى ينحازوا إليها ويدافعوا عنها ، بل يصل الأمر أحياناً إلى درجة أنها تحاول أن تصور لهم أن سبب ظلمة لها وتعد به عليها هو تدنيه ، فإن أرادوا أن يكونوا منفطحين مرنين في الحياة يجب أن لا يسلكوا سبيل والدهم ، وتنتهى هذه المسألة بعدم تعاون الزوجة مع زوجها .

وهكذا يخفق هذا المسكين بسوء إرادته ، وأرادة تصرفاته في تربية أولاده تربية جيدة ، من حيث كان منتهى أمله الوصول إلى ذلك الهدف النبيل .

## ما السبب إذن في انحراف أولاد كثير من المسلمين ؟

وقد يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ هذه الكلمات سؤال في غاية الخطورة والأهمية فتقول : ما السبب إذن في انحراف أولاد كثير من المسلمين الذين لا يجهلون الإسلام فحسب بل هم لا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويعيشون مأساته في هذا العصر ، وقد أوتوا قدراً من حسن التوجيه ، وجودة التقدير ويعاملون نساءهم معاملة كريمة ؟ أقول :

لأبد أن هناك أسباباً أخرى وراء ذلك ، من أخطرها الزوجة ... نعم زوجته !! وهذا الأمر يرجع إلى الخطبة ، ويتقدم الزواج ، فالمفروض على المسلم الصالح الذي يريد أن يتزوج التأكد من أسرة البنات التي يريد الاقتران بها . ويدرسها دراسة دقيقة من حيث الانسجام الفكري ، والتخلق بالأخلاق الإسلامية فالمرأة لها دور كبير في التربية التي نتحدث عنها ورحم الله من قال : الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعباً طيب الأعراق

فالأم في تحمل المسؤولية كالأب سواء بسواء ، بل مسؤوليتها أهم وأخطر ، باعتبار أنها ملازمة لولدها منذ الولادة إلى أن يشب ويتزوجه ، ويبلغ السن التي تؤهله ليكون إنسان الواجب ورجل الحياة . والرسول ﷺ قد أفرد الأم بتحمل المسؤولية حين قال « والأم راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » وإذا قصرت الأم في الواجب التربوي نحو أولادها وإذا أهمل الأب مسؤولية التوجيه والتربية نحو أولاده ، لانصرافه وقت الفراغ إلى اللهو وارتياك القهوات مع الأصحاب والخلان ، فلاشك أن الأبناء سينشئون نشأة اليتامى ، ويعيشون عيشة المشردين بل سيكونون سبب فساد وأداة إجرام للأمة بأسرها .

ولله درمن من قال :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من	هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذي تلقى له	أمّاً تخلّت أو أباً مشغولاً

ويزداد الأمر سوءاً عندما يقضى الأبوان جلّ وقتهما في حياة الإثم والغواية ، ويتقلبان في أتون الشهوات والملذات ، ويتخبطان في طريق الانحلال والإباحية ، فلاشك أن انحراف الولد يكون أبلغ وأخطر ، وتدرجه في الإجرام يكون آكد وأعظم .

## تحمل المسؤولية

والإسلام في دعوته إلى تحمل المسؤوليات ، حمل الآباء والأمهات مسؤولية كبرى في تربية الأبناء ، وإعدادهم الإعداد الكامل لحمل أعباء الحياة وتهدهم بالعذاب الأكبر إذا هم فرطوا وقصروا وخانوا : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون <sup>(١)</sup>.

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أكد في أكثر من أمر وأكثر من وصية بضرورة العناية بالأولاد ، ووجوب القيام بأمرهم ، والاهتمام بتربيتهم . وإليكم طائفة من أوامره وتوجيهاته :

« والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ... » رواه البخاري ومسلم <sup>(٢)</sup>.

« أدبوا أولادكم وأحسنوا أدبهم » رواه ابن ماجه <sup>(٣)</sup>

« علموا أولادكم أوأهليكم الخير وأدبهم » رواه عبدالرازق وسعيد بن منصور <sup>(٤)</sup>.

« مروا أولادكم بامثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، فذلك وقاية لهم من النار » رواه ابن جرير <sup>(٥)</sup>.

« أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فان حملة القرآن في ظل عرش الله ، يوم لا ظل إلا ظله » رواه الطبراني <sup>(٦)</sup>

- ومن العوامل الكبيرة التي تؤدي إلى انحراف الولد أيضاً قد يكون عن طريق دخول الكتب والمجلات التي تحمل أفكاراً وأخلاقاً مخالفة للإسلام إلى داخل الأسرة .

ولا يكون علاج ذلك بتمزيق هذه الكتب وتلك المجلات ، والاعتداء على الأولاد بالسب والضرب . فإن ذلك يؤدي إلى عكس المراد إذ يلجأون بعد ذلك إلى إخفائها وقراءتها ، بل يطلبونها بشغف أكثر ، وإصرار أكبر .

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل ، رقم ١٨٢٩/٢٠ .

(٣) انظر سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١١ .

انظر كنز العمال ج ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .

(٤) انظر مصنف عبيد الرزاق ج ١١ رقم ٤٧٤١ .

(٥) انظر تفسير الطبري ج ١٧ ص ١٢٤ .

(٦) انظر كنز العمال ج ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .



والعلاج الصحيح ، أن يستعرض معهم موضوعات تلك الكتب والمجلات وصورها فيبين تفاهتها ومخالفتها الصريحة للإسلام الذي حبيه إليهم من قبل ورباهم عليه . ثم يبين لهم بأسلوب قريب إلى عقولهم ، محجب إلى نفوسهم الأضرار التي تنتج من مثل هذه الكتب وتلك المجلات .

ثم هذا لا يكفي ! بل عليه أن يقدم إليهم بديلاً ويعوضهم بكتب ومجلات أخرى مناسبة ، إسلامية وعلمية وأدبية وقصصية ، تملأ فراغهم ، وتغذيهم بالثقافة الصحيحة والفكر الاجتماعي النير والقصص الإنسانية الرائعة .

- ومن العوامل الكبيرة التي تؤدي إلى انحراف الولد ، رفاق السوء والخلطة الفاسدة ، ولاسيما إن كان الولد بليد الذكاء ، ضعيف العقيدة ، متميع الخلق فسرعان ما يتأثر بمصاحبة الأشرار ، ومرافقة الفجار وسرعان ما يكتسب منهم أخط العادات واقبح الأخلاق ، بل يسير معهم في طريق الشقاوة بخطى سريعة حتى يصبح الإجرام طبعاً من طباعهم ، والانحراف عادة متأصلة من عاداتهم ويصعب بعد ذلك رده إلى الجادة المستقيمة ، وإنقاذه من وهدة الضلال وهوة الشقاء .

والإسلام بتعاليمه التربوية وجه الآباء والمربين إلى أن يراقبوا أولادهم مراقبة تامة ، وخاصة في سن التمييز والمراهقة ، ليعرفوا من يخالطون ويصاحبون ، وإلى أين يغدون ويروحون ؟ وإلى أى الأماكن يذهبون ويرتادون ؟

كما وجههم أن يختاروا لهم الرفقة الصالحة ، ليكتسبوا منهم كل خلق كريم وأدب رفيع ، وعادة فاضلة .

وإليكم توجيهات الإسلام وتحذيراته من قرناء الشر ، ورفاق السوء والفساد ، قال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول : يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً \* ياويلت ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾ (١) .

وقال أيضاً : ﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته \* ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ (٢) .

وقال كذلك : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذى « المرء على دين خليله ، فلينظر أحداً من يخال » (٤)

وقال أيضاً : فيما رواه البخارى ومسلم « مثل المجلس الصالح والمجلس السوء كمثل حامل

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧ - ٢٩ .

(٢) سورة ق الآية ٢٣ .

(٣) سورة الزخرف آية ٦٧ .

(٤) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٥٠٩ كتاب الزهد - باب ٤٥ رقم ٢٣٧٨ .

المسك ، ونافع الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك أو تشتري منه ، أو تجد منه ريحاً طيبة ، ونافع الكير إما أن يحرق ثيابك ، أو تجد منه ريحاً منتنة»<sup>(١)</sup>.

فما أجدر الآباء والمربين أن يأخذوا بهذه التوجيهات الكريمة ، حتى تنصلح أحوال أولادهم ، وتسمو أخلاقهم ، ويظهر في المجتمع أدبهم ، وحتى يكونوا في الأمة أداة خير ، ورسول إصلاح ، ودعاة هداية فينصلح المجتمع بصلاحهم ، وتفتخر الأمة بكريم فعالهم ، وجميل صفاتهم .

تلكم هي أهم العوامل الأساسية في انحراف الولد ، وهي عوامل ضارة وخطيرة — كما علمت — فإن لم يتدارك المربون هذه العوامل ، وإن لم يستأصلوا أسبابها ، وإن لم يأخذوا بالعلاج الناجع الذي وصفه الإسلام في الإصلاح والتربية ، فإن الأولاد سينشئون على الفساد ، ويتربون على الإجرام ، بل يكونون أداة هدم وتخريب لكيان المجتمع ، واستقرار الأمة ، وأمن البشرية ومن الصعوبة بمكان ردهم إلى الجادة ، وتفهمهم الحق ، والسير بهم نحو معالم الخير ، وطريق الهدى ، والصراط المستقيم .

فما أجدر الآباء والمربين أن يمشوا على سنن الإسلام ، ومنهج القويم في تربية الأولاد ، ومعالجة انحرافهم ، وتقويم سلوكهم ، وإصلاح نفوسهم وتثبيت عقيدتهم ، وتلقينهم مبادئ الخير والفضيلة والأخلاق ، حتى يروا أبناءهم كالملائكة في طهر أرواحهم ، وصفاء نفوسهم ، ونقاء سريرتهم ، وأمثالهم لأمر ربهم ، بل يكونون قدوة صالحة لغيرهم في كل مكرمة وفضيلة ، وإنتاج وتضحية ، وخلق وعمل صالح .

﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾<sup>(٢)</sup>

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾<sup>(٣)</sup>.

نقل هذا البحث من رسالة أسرتك أيها المسلم للدكتور محسن عبد الحميد ، ومن كتاب تربية الأولاد في الإسلام .

قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري

(١) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٦ كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين رقم ٢٦٢٨/١٤٦ .

(٢) سورة الفرقان آية ٧٤ .

(٣) سورة إبراهيم الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

من تحتها الأنهار يوم لا يحزى الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴿

أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ! توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة ، روى ابن جرير بسنده عن سماك بن حرب قال : سمعت النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : ( يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ) قال يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه

وقال قتادة : التوبة النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل : الخالصة ، يقال : نصح أى : أخلص له القول .

وقال الحسن : التوبة النصوح أن يفيض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره .

وقال الكلبي : التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب .

وقال أبو بكر الوراق : هوان تضيق الأرض عليك بما رحبت ، وتضيق عليك نفسك ، كالثلاثة الذين خلفوا :

وقال أبو بكر الدقاق المصرى : التوبة النصوح هي رد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات .

وقال ذوالنون : التوبة النصوح علامتها : قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام .

وقال رويم : هو أن تكون لله وجهاً بلا قفا ، كما كنت له عند المعصية قفاً بلا وجه .

وقال فتح الموصلى : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظما .

قال القرطبي : وأصل التوبة النصوح من الخلوص ، يقال : هذا غسل ناصح إذا خلص من الشمع .

وقوله تعالى : ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ﴾ وعسى من الله — جل في علاه — موجبة بمنزلة التحقيق . وهذا إجماع من الله لعباده في قبول التوبة ، منه وتكرماً ، لأن العظيم إذا وعد وفى .

﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى ويدخلكم فى الآخرة حدائق وبساتين ناضرة تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ يوم لا يحزى الله النبي والذين آمنوا معه ﴾ أى ولا يحزىهم معه يعنى يوم القيامة ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ أى نور هؤلاء المؤمنين يضىء لهم على الصراط ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمالهم .

وفي الحديث الصحيح « أن النبي ﷺ سئل : كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟ فقال : « إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء »<sup>(١)</sup> أى تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ يقولون ربنا أقم لنا نورنا ﴾ قال ابن عباس — رضى الله عنهما : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين يدعون ربهم به أشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة . ﴿ واغفر لنا ﴾ أى وامنح عنا ما فرط من الذنوب ﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾ أى : إنك أنت سبحانه القادر على كل شيء ، من المغفرة والعقاب ، والرحمة والعذاب .

### بحث في التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

قال الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى فى « منهاج القاصدين » : أعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾

وقال جل فى علاه : ﴿ إن الله يحب المتطهرين ﴾

وقال النبي ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة »<sup>(٢)</sup> .

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهب ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال أرجع إلى مكاني الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فأناله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »<sup>(٣)</sup> .

(١) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار رقم ٢٧٠٢/٤٢ .

(٢) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠١٢ كتاب التوبة باب الحض على التوبة رقم ٢٦٧٥/٢ .

والأحاديث كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعديات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

### التوبة واجبة على الدوام

والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلا بد منه ولهذا قال ﷺ : « إنه ليغان على قلبي ، فأستغفر الله في اليوم واللييلة سبعين مرة »<sup>(١)</sup> ولذلك أكرم الله تعالى بقوله : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾<sup>(٢)</sup> فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة قال الله تعالى : ﴿ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغفر »<sup>(٤)</sup>.

### شروط التوبة

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصدًا ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصي حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه . والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه ، طال بكأؤه ، واشتدت مصيبتة ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه ؟

وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد في الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

(١) أنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٢٧٠٢/٤١ .

(٢) سورة الفتح آية ٢ .

(٣) سورة الشورى آية ٢٥ .

(٤) أنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٥١ كتاب الدعوات . باب فضل التوبة والاستغفار رقم ٣٥٣٧ .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها مثل أن يكون صلاحها في ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك فيقضئها كلها . وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات يقضئها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصي ، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى الحسنات بمقدار تلك السيئات قال تعالى : ﴿ إِن الْحَسَنَاتُ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ وقال النبي ﷺ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »<sup>(١)</sup>.

مثال ما ذكرنا :

أن يكفر سماع الملاحى بسماع القرآن ، ومجالس الذكر ، ويكفر من المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال ، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ، فحبها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيته تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل ، والالتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه حتى من مظالم الناس .

ومظالمهم إما في النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ ، أوصل الدية إلى مستحقها إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لوزنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى ، فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الولي حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل قصة ما عز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه .

(١) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٣١٢ ، ٣١٣ كتاب البر والصلة . باب ما جاء في معاشره الناس رقم ١٩٨٧ .

الثاني : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس في المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه . وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فيفعل ما يقدر عليه من ذلك ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه في القصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته .

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكة ولا ورثته ، تصدق عنه وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أنه يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المهم لا يكفي ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنى بجارته ، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة ، ولا خلاص إلا برجحان الحسنات .

- ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزمًا مؤكدًا . مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضر في مرضه ، فيعزم عزمًا جزمًا أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة مادام في مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول مرة إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

### بيان أقسام العباد في دوام التوبة

الناس في التوبة أربع طبقات :

**الطبقة الأولى :** تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما قرط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك عنها البشر في العادات ، فهذه هي الاستقامة في التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملء بمجاهدتها .

**الطبقة الثانية :** تائب قد سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يتلى بها في مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئاً منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هي النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجع حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى إذ قال : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللغم إن ربك واسع المغفرة ﴾<sup>(١)</sup>.

**الطبقة الثالثة :** أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته في بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسولة وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾<sup>(٢)</sup> فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ وعاقبته بخطره من حيث تأخيره وتسويفه ، فرمى يختطف قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

**الطبقة الرابعة :** أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هي الأماراة بالسوء . ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح . فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتي لا تضره ، ثم تراه يركب البحار في طلب الدينار ، فلو قيل له . فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس في بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

(١) سورة النجم آية ٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٢ .



### فيما ينبغي للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، تمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان للقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار مثل أن يقول : رب ظلمت نفسي فأغفر لي

روى في الحديث الصحيح ، أن النبي ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلي ركعتين ، ويستغفر الله عز وجل ، إلا غفر له »<sup>(١)</sup> .  
وأما الجوارح بالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

### فصل في دواء التوبة وطريق

#### علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . ولا يبطل الشيء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر . والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمر :

أحدها : أن المريض لا يدري أنه مريض .

الثاني : أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك نراه يتكلم على فضل الله في مرض القلب ، ويجهل في علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا في هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدرُوا على تحذير

الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكننا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر مافى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء عليهم السلام والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب كحال آدم عليه السلام ... ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه » أخرجه أحمد .

وقال الفضل بن عياض : إني لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

وقال الحسن — رحمه الله : الحسنه نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئه ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب ، كشرب الخمر والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وهذا الذى ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلا بد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشباب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى . وسنة رسوله ﷺ فإذا أشد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

(١) انظر سنن الترمذى ح ٥ ص ٤٠٤ كتاب تفسير القرآن باب ٧٤ .

انظر النساء فى الكبرى كتاب التفسير ، عمل اليوم والليلة ص ١٣٩ . باب ما يفعل من بلى بذنوب وما يقول .

انظر سنن ابن ماجه — الزهد باب المدلومة على العمل .

والذى يهبج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتى ، والنظر إليه وعلاجه . الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكير فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه وتعالى من وراء ذلك كله . ( ا.هـ ) .

### كل مسئول عن عمله

قال تعالى :

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٣﴾

### معاني المفردات

﴿ اغلظ عليهم ﴾ : أى شدد . ﴿ ضرب المثل ﴾ : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها في الغرابة ، ﴿ تحت عبدين ﴾ : أى في عصمتها . ﴿ فخانتهما ﴾ : أى نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان . ﴿ فلم يغنيا عنهما ﴾ : أى لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من الله شيئاً . ﴿ نجنى من فرعون وعمله ﴾ : أى خلصنى منه فإني أبرأ إليك منه ومن عمله . ﴿ احصنت فرجها ﴾ : أى حفظته وصانته . ﴿ القانتين ﴾ : أى الطائعين المحبتين لله .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتوبة النصوح ، أمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلبة لهم في القول والعمل ، وذكر أن جزاءهم في الآخرة جهنم وبئس القيل والمأوى وبعد ذلك ذكر أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، وفي جوهرها صفاء ونقاء فلا تجدى فيها العظة والعبرة ، ولا مخالطة المؤمنين الاتقياء ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط . كذلك إذا كان جوهر النفس نقياً خالصاً من كدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئاً وضرب لذلك مثل امرأة فرعون . وكذلك مريم ابنة عمران التي عفت فأتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

يقول تعالى : آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أى فى الدنيا . ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ أى فى الآخرة بئس المأوى والمقيل .

## مراتب الجهاد

قال العلامة ابن القيم : لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه فاستولى على أنواعه كلها فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال تعالى : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيراً ﴾ فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً <sup>(١)</sup> فهذه سورة مكية أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الاسلام . قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد في العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً . ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسول - صلوات الله وسلامه عليهم - من ذلك الحظ الأوفر وكان لبينا - صلوات الله وسلامه عليه من ذلك اكمل الجهاد وأتمه ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرضاً على جهاد العدو نفسه في ذات الله ، كما قال النبي ﷺ « المجاهد من جاهد نفسه في ذات الله والمهاجر من هاجر مانهى الله عنه »<sup>(١)</sup> كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذى بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله ، بل لا يمكنه الخروج الى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادها وبينها عدو ثالث لا يمكنه جهادها الا بجهاده وهو واقف بينها يثبط العبد عن جهادها ويخذه ويحرف به ولا يزال يخيل له مافى جهادها من المشاق وترك الحفظ وفوت اللذات والمشتبهات ولا يمكنه ان يجاهد دينك العدوین إلا بجهادها فكان جهاده هو الأصل لجهادها وهو الشيطان قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾<sup>(٢)</sup> والأمر باتخاذ عدوا تنبيه على استفراغ الواسع في محاربته ومجاهدته كأنه عدو لا يقتر ولا يقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتهم وجهادها . وقد يلى العبد بمحاربتهم في هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له وابتلاء فأعطى الله العبد مدداً وعدة وأعواناً وسلاحاً لهذا الجهاد . وأعطى أعداءه مدداً وعدة وأعواناً وسلاحاً وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليلبوا أخبارهم ويمتنح من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضهم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلبوا بعضهم ببعض ﴾<sup>(٤)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلا أخباركم ﴾<sup>(٥)</sup> .

فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم إني معكم فثبتوا الذين آمنوا وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوهم وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ، ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويدأوا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرهم بهم فأضربهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين مالا يدفعون عن أنفسهم ، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه لتخطفهم عدوهم واجتاحهم ، وهذه

(١) انظر كثر العمال ج ٤ رقم ١١٢٦١ ، ٢١٢٦٦

(٢) سورة فاطر آية ٦

(٣) سورة الفرقان آية ٢٠ .

(٤) سورة محمد آية ٤ .

(٥) سورة محمد آية ٣١ .

المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره ، فإن قوى الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نبيه فإنه يعد الأمانى ويمنى الغرور ، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها ، فجاهدته بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه وبذه وماله لتكون كلمة الله هي العليا .

إذا عُرف هذا فالجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس : أربع مراتب أيضاً . أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به ومتى فاتته علمه شقيت فى الدارين الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعلمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهدى والبيئات ولا ينفعه علمه ولا ينجيهِ من عذاب الله . الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعلم وعمل فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السماء .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان : أحدهما : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك الفارحة فى الإيمان . الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات والشهوات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان ( ا.هـ ) ( من كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد )

قال تعالى :

قال ابن القيم : اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : للكفار ومثليين للمؤمنين .

فيتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمه ونسب ، أو صلة صهر ، أو سبب من أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان ، لنفعت النوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامراتيهما ،

فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي ، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق إتصال النبوة والأبوة والزوجية فلم يغنى نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولا لوط عن امرأتهم من الله شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم ﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة : أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة ، أو صهر ، أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو ينجيهم من عذاب الله ، أو يشفع لهم عند الله وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم ، وهو الشرك الذي لا يغفره الله .

وأما المثلاث اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون .

ووجه المثل : أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً ، إذا فارقه في كفره وعمله فمعصيته لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض ، إذا أضاعوا أمر الله فتأتى عامة . فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به ، وهو من أكفر الكافرين ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

وقولها ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ قال العلماء اختارت الجار قبل الدار . وقولها ﴿ ونجنى من فرعون وعمله ﴾ أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ، وقولها ﴿ ونجنى من القوم الظالمين ﴾ وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم — رضى الله عنها — روى ابن جرير بسنده عن القاسم بن أبى بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح . وروى أنها ضحكت حينما رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون — لعنه الله — ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها فى الجنة — رضى الله عنها .

قوله تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ﴾ أى حفظته وصانته والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أى بواسطة الملك وهو جبريل فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى وأمره الله تعالى أن ينفخ بغيه فى جيب درعها فنزلت النفخة فولجت فى فرجها

(١) سورة الممتحنة آية ٤

(٢) سورة لقمان آية ٣٣

فكان منه الحمل بعبسى عليه السلام ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ﴾ أى بقدره وشرعه ،  
﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

وهذا المثل الثانى للمؤمنين : مريم التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر فذكر سبحانه ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التى لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر . والمرأة العزب التى لا وصلة بينها وبين أحد .

فالأولى : لاتنفعها وصلتها وسببها .

والثانية : لا تضرها وصلتها وسببها .

والثالثة : لا يضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم فى هذه الأمثال من الأسرار البديعة مايناسب سياق السورة . فإنها سبقت فى ذكر أزواج النبى ﷺ وتحذيرهن من التظاهر عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة . لم ينفعهن اتصاھن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصاھما بهما .

ولهذا ضرب فى هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ، ثم ضرب لهما المثل الثانى يحرضهما على التمسك بالطاعة .

وفى ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً : اعتبار آخر ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاه على نساء العالمين .

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه .

وفى هذا أيضاً تسلية لعائشة أم المؤمنين — إن كان السورة نزلت بعد قصة إلفك — وتوطین نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها .

فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف ، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد ، والتسليّة وتوطین النفس لمن أودى منهن ، وكذب عليهن وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولاسيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون .

« اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً »



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى فضيلة الداعية الكريمة والخالص الأمامية الأستاذ / أحمد محيى رئيس الكتب المصرية الحديث للطباعة والنشر - السلام عليكم ورحمة الله  
تتلف أجزاء رعايا القدير لفضيلة العالم شيخ الدعاة وإمام العصر الشيخ عبد الحميد كشك وكذا مؤلفاته القيمة ذات الفائدة لكل مسلم - جزاكم الله على ما هتكم في  
إخراج هذا التفسير وكذا كل من ساهم في تعميم هذه الفائدة الكبرى - تحياتنا ودعواتنا لكم وللشيخ بطول العمر بآياتكم هذه الأيات تحمل النعمة والإعزاز والتقدير لكم :

شَيْخُ الدَّعَاةِ إِلَيْكَ مِنْ تَبْيَا فِي  
يَا مَنْ مَلَأَتْ قُلُوبَنَا مِنْ سُنَّةٍ  
وَجَمَعَتْ آلاَافَ الْقُلُوبِ عَلَى الْهُدَى  
كَانَ اللَّقَاءُ بِجُمُعَةٍ مَيْمُونَةٍ  
عَبْدُ الْحَمِيدِ إِمَامُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ  
سَحَرَ الْقُلُوبَ حَدِيثُهُ فَتَرْتَمَتْ  
حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ النَّحِيبُ بِجَمْعِنَا  
عَيْنُ الْحَيَاةِ يَضُمُّنَا فِي جَنَّةٍ  
حَوْلَ ابْنِ كَشْكٍ لَشَّتْ فِي كَلِمَاتِهِ  
وَلَقَدْ رَشَفْنَا مِنْ بِحَارِ عُلُومِهِ  
حَتَّى شَعَرْنَا بِالْمَلَائِكِ حَوْلَنَا  
يَا شَيْخَنَا صَبْرًا عَلَى كُلِّ آذَى  
سَتَظِلُّ يَا عَبْدَ الْحَمِيدِ إِمَامَنَا  
سَتَظِلُّ فِي عَيْنِ الْحَيَاةِ خَطِيبَنَا  
وَسَتَشْهَدُ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ فَأْرُسُ  
فَاهُنَا بِتَفْسِيرِ الرَّحَابِ عَلَى هُدًى  
قَسَمًا فَهَذَا جَوْهَرٌ يَا سَيِّدِي  
فَلَأَنْتَ خَيْرُ مُفَسِّرٍ وَمَوْضِحٍ  
يَا غَابِرَ الْبَحْرِ الْعَمِيقِ فَلَأَتَهْنِ  
يَا قَاهِرَ الظُّلُمَاتِ بَلَّتْ مَكَانَةٌ  
سِرًّا لِمَا إِنْ رَبِّي حَافِظٌ  
مَهْمَا ظَلَمَ الْحَاقِدِينَ يَعْمُنَا  
سَتَظِلُّ فِي كُلِّ الْقُلُوبِ إِلَى الْمَدَى  
هَذِي تَرَانِيمِي إِلَيْكَ تَسْجُدُهَا  
فَلَأَنْتَ فِي قَلْبِي وَمِلَّ خَوَاطِرِي  
سَتَظِلُّ يَا عَبْدَ الْحَمِيدِ لَشِيدَنَا

كُلَّ الدَّعَاءِ يَا فَارِسَ الْمِيدَانِ  
لِلْمُصْطَفَى وَتَلَوْتَ مِنْ قُرْآنِ  
حَتَّى اهْتَدَى مَنْ عَاثَ فِي الظُّغْيَانِ  
جَمَعَتْ مِنَ الْأَحْبَابِ وَالْخَلَائِنِ  
وَطَبِيبُهُمْ مِنْ هَزَّةِ الْأَحْزَانِ  
تَبَنَّى عَلَى مَا كَانَ مِنْ عَصِيَانِ  
مَسَحَ الدُّمُوعَ بِرَاحَةِ الْإِيمَانِ  
مِعْطَارَةَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَلْوَانِ  
فِيهِ الدَّوَاءُ لِشِدَّةِ الْأَزْمَانِ  
فِيضًا مِنَ الْأَنْوَارِ وَالتَّبَيَّاتِ  
وَكَاثِنًا فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ  
فَالْأَمْرُ أَمْرُ الْوَاحِدِ الدِّيَّانِ  
رَغْمَ الْعَدَاءِ وَصَوْلَةِ الطُّغْيَانِ  
وَالْمُرْشِدِ الْمُحْفُوظِ بِالْقُرْآنِ  
يَا بَنَ الْكَرَامِ وَسَيِّدُ الْفُرْسَانِ  
وَأَشْرَحَ لَنَا آيَ الْكِتَابِ الْحَافِي  
بَلْ إِنَّهُ فَيضٌ مِنَ الرَّحْمَنِ  
لِكِتَابِ رَبِّي وَاسِعِ الرِّضْوَانِ  
إِنَّ الرِّجَالَ قَلَائِلُ بِرِمَافِي  
بِقُصُورِ رَبِّي فِي نَعِيمِ جَنَانِ  
لِلصَّالِحِينَ ، وَرَافِعُ الشَّاتِ  
قَالَ اللَّهُ يَحْيَى فِتْنَةً الْإِيمَانِ  
صَوْتُ الْحَقِيقَةِ شَاخِ الْبُنْيَانِ  
بِمَشَاعِرِي ، وَحَفَزَتَهَا بِكِيَانِي  
رَمَزَ الصُّمُودِ عَلَى مَدَى الْأَزْمَانِ  
لِيَشْدُو بِهِ وَيَتِيَهُ كُلُّ لِسَانِ

ابنكم عبد الرحمن بن محمد  
مدير مكتبة الترمذ بينو  
قسم الدعوة الفنية

الأجزاء السابقة تطلب من

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر  
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧  
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢  
فاكسيللى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

## محتويات المجلد الثامن

من الجزء الثامن والعشرون

من آخر سورة الممتحنة (١٠ - ١٣) حتى آخر سورة التحريم

الصفحة		* سورة الممتحنة
٦٧٥٠	..... - التفسير	الآيات ١٠ - ١٣
		* سورة الصف
٦٧٥٢	..... - مقدمة السورة	
٦٧٥٣	..... - أول سورة الصف	الآيات ١ - ٤
٥٧٦٤	..... - فضل سبحان الله وبحمده	
٦٧٦٩	..... - فضل القتال في سبيل الله	
٦٧٩١	..... - طرف من ذكر موسى وعيسى عليهما السلام	الآيات ٥ - ٦
٦٧٩٧	..... - الله متم نوره	الآيات ٧ - ٩
٦٧٩٩	..... - التجارة المنجية	الآيات ١٠ - ١٤
٦٨٢٣	..... - فتح مكة	
٦٨٣٢	..... - دروس من الفتح	
		* سورة الجمعة
٦٨٤١	..... - مقدمة السورة	
٦٨٤٢	..... - أول سورة الجمعة	الآيات ١ - ٢
٦٨٤٨	..... - الحديث عن اليهود	الآيات ٥ - ٨
٦٨٦٣	..... - فضل يوم الجمعة والصلاة	
٦٨٨٦	..... - الترغيب في قراءة سورة الكهف	
٦٨٨٧	..... - بحث قيم للعلامة ابن القيم	
٦٩١٨	..... - فصل في هديه ﷺ في خطبه	
٦٩٢٥	..... - عود على بدء	الآيات ٩ - ١١
		* سورة المنافقون
٦٩٢٧	..... - مقدمة السورة	
٦٩٢٧	..... - أول السورة	الآيات ١ - ٤
٦٩٣١	..... - أقسام النفاق	
٦٩٣٤	..... - النفاق رذيلة والإخلاص فضيلة	

٦٩٥٢	- نفاق المعاملة	
٦٩٦١	- الإيمان وبناء النفوس	
٦٩٧٠	- من مساوىء المنافقين	الآيات ٥ - ٨
٦٩٧٦	- تحذير وإرشاد	الآيات ٩ - ١١
٧٠٠١	- فوائد الصدقة كما أخبرنا النبي ﷺ	
٧٠٠٨	- الترغيب فى صدقة السر	
٧٠١٦	- الترغيب فى القرض وما جاء فى فضله	
٧٠٦٩	- آيات الترغيب فى التوبة من الذنوب	
٧٠٧٤	- فوائد التوبة	
٧٠٨٤	- الترغيب فى العمل الصالح عند فساد الزمان	

### \* سورة التغابن

٧١٣٠	- مقدمة السورة	
٧١٣١	- أول السورة	الآيات ١ - ١٠
٧١٣٧	- كل شىء بقضاء	الآيات ١١ - ١٨

### \* سورة الطلاق

٧١٤٥	- مقدمة السورة	
٧١٤٥	- أول السورة	الآيات ١ - ٧
٧١٥٣	- الأحكام الشرعية	
٧١٦١	- حكمة التشريع	
٧١٦٣	- بحث فى بناء الأسرة المسلمة	
٧٢٣١	- الزواج المثالى	
٧٢٦٠	- جزاء الظالمين	الآيات ٨ - ١٢

### \* سورة التحريم

٧٢٦٥	- مقدمة السورة	
٧٢٦٦	- أول السورة	الآيات ١ - ٥
٧٢٧١	- إرشاد وتوجيه	الآيات ٦ - ٨
٧٢٧٤	- أسرتك أيها المسلم	
٧٢٨٤	- بحث فى التوبة وشروطها وأركانها	
٧٢٩١	- كل مسئول عن عمله	الآيات ٩ - ١٢

## تفسير سورة الملك

## مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :  
 السورة مكية .  
 عدد آياتها ثلاثون آية .  
 وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون  
 وحروفها : ألف وثلثمائة وثلاث عشرة .  
 مجموع فواصل آياتها ( ثمر ) . على الميم اثنان : ( أليم ) ( مستقيم )  
 اسمائها :

ولها في القرآن والسنن سبعة أسماء : سورة الملك ، لمفتتحها ، والمنجية لأنها تنجي قارئها من  
 العذاب ، والمانعة ، لأنها تمنع من قارئها عذاب القبر — والدافعة ، لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب  
 الآخرة من قارئها وعذاب الآخرة من قارئها ، والشافعة ، لأنها تشفع في القيامة لقارئها ، والمجادلة ،  
 لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها ، السابع : المخلصة ، لأنها تخلص زبانية  
 جهنم ، لئلا يكون لهم يد على قارئها .

## مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة ، والنظر إلى  
 السموات للعبرة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أعد للمنكرين من العذاب ، والعقوبة وما  
 وعد به المتقون من الثواب ، والكرامة وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور  
 في الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة ، بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة ،  
 والهداية ، وتعجل الكفار بمجئ القيامة وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله تعالى : ﴿ يَأْتِيكُمْ بَمَاءٍ  
 معين ﴾ .

## المشابهات

قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر ﴾ وبعده : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أى : الكرة الأولى  
 وقيل : هى ثلاث مرات : أى : ارجع البصر — وهذه مرة — ثم ارجع البصر كرتين فمجموعها  
 ثلاث مرات . قال أبو القاسم الكرماني : ويحتمل أن يكون أربع مرات ، لأن قوله تعالى :  
 ﴿ ارجع ﴾ يدل على سابقة مرة .

قوله تعالى : ﴿ ءَأَنتُمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ﴾ ، وبعده : ﴿ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ خوفهم بالخسف أولاً ، لكونهم على الأرض ، وأنها أقرب عليهم من السماء ، ثم بالحبس من السماء ، فلذلك جاء ثانية .

### فضل السورة

فيه حديث حسن عن النبي ﷺ أنه قال : إن سورة من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل ، فأخرجته يوم القيامة من النار ، وأدخلته الجنة ، وهي سورة تبارك .

وأخرج أحمد بسنده عن أبي هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له : تبارك الذى بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث شعبة ، وقال الترمذى هذا حديث حسن<sup>(١)</sup> .

### مناسبة السورة لما قبلها

إنه لما ضرب مثلاً للكفار بتلك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانت تحت عبيدين صالحين ، ومثلاً للمؤمنين بأسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفاراً — افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه — عز وجل — وقهره وتصرفه فى ملكه على ما سبق به قضاؤه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۚ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَلُوتٍ ۚ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ ۖ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ

(١) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى — كتاب فضائل القرآن — باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه — كتاب الأدب — باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ .

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَنُفْسُ الْمَصِيرِ ﴿١﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٢﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٣﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ فَأَعْرِفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾

### معاني المفردات

﴿ تبارك ﴾ : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره . ﴿ بيده الملك ﴾ : له الأمر والنهي والسلطان .  
 ﴿ خلق الموت ﴾ : أوجده أو قدره أزلاً . ﴿ ليلوكم ﴾ أى : ليختبركم والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم . ﴿ أحسن عملاً ﴾ أى : أخلصه الله . ﴿ العزيز ﴾ أى : الغالب لا يعجزه عقاب من أساء ﴿ الغفور ﴾ أى : كثير المغفرة والستر للذنوب عباده . ﴿ طباقاً ﴾ أى : طبقة بعد طبقة .  
 ﴿ تفاوت ﴾ أى : اختلاف وعدم تناسب ، والفطور الشقوق ، واحده فطر . ﴿ كرتين ﴾ أى : رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل ، والمراد بذلك التكرير والتكثير : أى : رجعة بعد رجعة .  
 ﴿ ينقلب ﴾ أى : يرجع ، ﴿ خاسئاً ﴾ صاغراً ذليلاً ، ﴿ حسير ﴾ أى : كليل منقطع لم يدرك ما طلب . والخاسر : المعيا لنقاد قواه . ﴿ مصابيح ﴾ واحدها ( مصابيح ) وهو السراج والمراد بها الكواكب . ﴿ والرجوم ﴾ واحدها ( رجم ) ( بالفتح ) وهو ما يرمى به . ﴿ أعتدنا ﴾ أى : هيأنا . ﴿ عذاب السعير ﴾ أى : عذاب النار المسعرة الموقدة ﴿ ألقوا فيها ﴾ أى : طرحوا فيها كما يطرح الخطب فى النار . ﴿ والشهيق ﴾ تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرد : ﴿ تفور ﴾ أى : تغلى بهم كغلى الرجل قاله ابن عباس : ﴿ تميز ﴾ أى : ينفصل بعضها من بعض . ﴿ الغيظ ﴾ شدة الغضب . قاله الراغب : ﴿ فوج ﴾ أى : جماع . ﴿ خزنتها ﴾ واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، ﴿ ينذر ﴾ أى : رسول ينذركم بأس الله وشديد عقابه . ﴿ إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ أى : ما أنتم إلا فى ضلال بعيد عن الحق والصواب . ﴿ فسحقاً ﴾ أى : بعداً لهم من رحمة ربهم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذى خلق الموت والحياة ليلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أن بيده الملك أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ وهو على كل شئ قدير ﴾ قال ابن عباس : بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيى ويميت ، ويغنى ويفقر ، ويعطى ويمنع . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ، تولى الليل فى النهار وتولى النهار فى الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾<sup>(١)</sup>.

ثم شرع سبحانه يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، فقال تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾

قال ابن كثير : استدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم كما قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾<sup>(٢)</sup> فسمى الأول وهو العدم موتاً وسمى هذه النشأة حياة .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ الذى خلق الموت والحياة ﴾ قال كان رسول الله ﷺ يقول : إن الله أذل بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أى : ليعاملكم معاملة من يختبر حاله وينظر أيكم أخلص فى عمله ، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أى : أكثركم للموت ذكراً وأحسن استعداداً ، ومنه أشد خوفاً وحذراً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾<sup>(٤)</sup>.

وفى الآية ترغيب فى الطاعات وزجر عن المعاصى كما لا يخفى على ذوى الأبالب .

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢/٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .



## الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال تعالى : ﴿ لِيَلْوَظَكُمْ أَتَمُّكُمْ عَمَلًا ﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض — رحمه الله — أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً والخالص . أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة .

فالعامل الصالح : لا بد أن يراد به وجه الله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده ... وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الإسلام وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله ، وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولابد — مع ذلك — أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر وهو الخير ، وضده المعصية ، والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

وقال ابن القيم — رحمه الله — قال بعض السلف : مامن فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه ، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا من محبة الروح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟

والثاني : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التبع ، أى : هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

قوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ أى : هو سبحانه العزيز العظيم المنيع الجناز وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب بعد ماعصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز ، وإثبات العزة والغفران له سبحانه يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات ، ليجازى المحسن والمسيء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصي فلا يقع خطأ في إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثواباً كان أو عقاباً كما قال تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ (١)

ثم ذكر سبحانه دلائل قدرته فقال تعالى :

أى : هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق بعض فى جو الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بحيز معين ، ونظم ثابتة لا تتغير . قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش ﴾ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى \* يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم توفقون ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴾ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴿٢﴾ أى : لا ترى أيها الرأى تفاوتاً وعدم تناسب ولا نقص ولا عيب ولا خلل ﴿٣﴾ فارجع البصر هل ترى من فطور \* ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿٤﴾ أى : أنك إذا كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة .

قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ ﴿٥﴾ أى : من شقوق .

وبعد أن بين سبحانه خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية فى الحسن والبهاء فقال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت وهى التى يراها الناس مضيفة بالليل يبتدون بها فى ظلمات البر والبحر كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾ ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ قال ابن كثير : الضمير فى قوله وجعلناها عائد على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الآخرة كما قال تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾ وحفظاً من كل شيطان مارد \* لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب \* دحوراً ولهم عذاب واصب \* إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴿٧﴾ .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ﴿٨﴾ .

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .

(٢) سورة فى الآية : ٦ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٧ .

(٤) سورة الصافات الآيات من ٦ إلى ١٠ .

(٥) تفسير الطبرى ٣/٢٩ .

قال العلامة ابن كثير : يقول رب العزة : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ قال ابن جرير يعنى الصياح وهى تفور ﴿ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله تعالى : ﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم . ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾ يذكر تعالى عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها ففتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حققت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ (٢) وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ قال الإمام أحمد بسنده عن أبى البحتري الطائى قال أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » (٣) وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

### وعد ووعيد

قال تعالى :

إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ  
أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ يُعْلِمُ إِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ  
الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا  
مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾

(١) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١ .

(٣) مسند أحمد ٤ / ٢٦٠ .



وفي الحديث الصحيح إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك<sup>(٤)</sup>.

ثم نبه سبحانه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أى : إن عملكم وقولكم على أى سبيل وجد فالله عليم به ، فداوموا أيها الخاشعون على خشيتكم وأنبيوا أيها المغترون إلى ربكم ، وكونوا على جذر من أمركم .

وقوله : ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ كالعلة والسبب لما قبله . فهو سبحانه محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة في الصدور ، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به . قال تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾<sup>(٥)</sup>.

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال تعالى : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ أى : كيف لا يعلم السر والجهر من أوجد بحكمته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن وهو اللطيف الخبير .

قال القرطبي : قال أهل المعاني : إن شئت جعلت ( مَنْ ) اسماً للخالق — جل وعز — ويكون المعنى : ألا يعلم الخالق خلقه . وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق ، والمعنى : ألا يعلم الله من خلق . ولا بد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال سعيد بن المسيب : بينا رجل واقف بالليل في شجر كثير وقد عصفت الريح فوق في نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ أى : إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذلّلها لكم ، فجعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل . كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا في الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥ .

(٥) سورة طه الآيتان : ٧ ، ٨ .

فجاءاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴿١﴾ وكما قال سبحانه : ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ ﴿٢﴾

وقوله : ﴿فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ولهذا قال تعالى ﴿وكلوا من رزقه﴾ فالسعى في السبب لا ينافي التوكل كما قال الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطاناً ﴾ ﴿٣﴾ فأثبت لها رواحاً وغدوا لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر المسير المسبب .

وقوله تعالى : ﴿ وإليه النشور ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . وقيل : معناه أن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرض ذلولاً قادر على أن ينشركم .

### عظمة الله تعالى المطلقة

قال تعالى :

ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمْ أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنْصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَمِنَ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنِ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۖ بَلِ الْجَوَانِ فِي عَنَوٍ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٣١ .

(٢) سورة الحجر الآيات : من ١٩ حتى ٢١ .

(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .

صراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ  
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ  
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا  
الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّئَتْ وُجُوهُ  
الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن  
أَهْلَكَنِی اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾  
قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾  
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾

### معاني المفردات

﴿ أأمنتم ﴾ الأمن ضد الخوف . ﴿ من في السماء ﴾ هو ربكم الأعلى . ﴿ تقور ﴾ أى :  
تهتز وتضطرب . ﴿ حاصبا ﴾ أى : ريحاً شديدة فيها حصباء تهلككم . ﴿ نذير ﴾ أى : انذارى  
وتخويفى . ﴿ نكير ﴾ أى : انكارى عليهم بانزال العذاب بهم . ﴿ صافات ﴾ أى : باسطات  
أجنحتهن في الجو حين طيرانها تارة ، ويقبضن . أى : ويضممنها تارة أخرى . ﴿ جند ﴾ أى : عون  
﴿ ينصركم ﴾ أى : يساعدكم في دفع العذاب عنكم ﴿ من دون الرحمن ﴾ أى : من غيره . ﴿ في  
غور ﴾ أى : في خداع من الشيطان الذى يغركم بأن لا عذاب ولا حساب . ﴿ أمسك رزقه ﴾  
أى : بأمساك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ منها الرزق . ﴿ لجوا ﴾ أى : تبادوا . ﴿ في عتو ﴾  
أى : تكبر وعناد عن قبول الحق ﴿ تقور ﴾ أى : إعراض وتباعد منه ﴿ مكباً على وجهه ﴾ أى :  
واقفاً عليه . ﴿ سوياً ﴾ أى : معتدلاً منتصباً . ﴿ الأفئدة ﴾ العقول واحداها فؤاد . ﴿ ذرأكم ﴾  
أى : خلقكم . ﴿ الوعد ﴾ أى : الحشر الموعود . ﴿ إنما العلم ﴾ أى : العلم بوقته . ﴿ زلفة ﴾  
أى : مزدلفاً قريباً . ﴿ سيئت ﴾ أى : تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والفترة ، ويقال ساء  
الشيء يسوء إذا قبح . ﴿ تدعون ﴾ أى : تطلبونه وتستعجلونه استهزاء وإنكاراً . ﴿ أرايتم ﴾ أى :  
أخبرونى . ﴿ غوراً ﴾ أى : غائراً في الأرض لا تناله الدلاء . ﴿ معين ﴾ أى : جاء سهل المأخذ  
تصل إليه الأيدي .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعدّه للكافرين من نار تلتظى ، ووصف هذه النار بما تشيب من هولها الولدان — أردف ذلك بترهيبهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم في الدنيا مثل ما حل بالمكذبين بالرسول من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض موراً ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم دياراً ولا نافخ ناراً . ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منته على عباده ، فطلب منهم أن يروا الطير وهي تنبسط أجنحتها في الجو تارة وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ماهي في حاجة إليه ثم أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً ، منكراً عليهم ما اعتقدوه ، مبيناً لهم أنهم لا يصلون إلى ما أملوه ، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه . أما وقد وضع الحق لذى عينين فهم في لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة . ثم ضرب مثلاً بين حالى المشرك والموحد ، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية بذكر خلق الإنسان في الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم .

ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شيء ، وإنما هو نذير مبين وذكر حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ما كانوا ينكرون تعلق وجوههم غيرة ، ترهقها قفرة ، ويقال لهم : إن ما كنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إنا آمننا بربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غداً من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤكم في الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ قال ابن عباس : المعنى أأمنتم عذاب من في السماء إن عصيتموه أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ﴿ فإذا هي تمور ﴾ أى : تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً .

وقوله تعالى : ﴿ أم أأمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ أى : أم أأمنتم الله العلى الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أى : فستعلمون عند معاينة العذاب ، كيف يكون إنذارى وعقابي للمكذبين .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن



ربكم لرءوف رحيم ﴿١﴾ وهذا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل كما قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جا أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴾ أي : ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب ما لا مرد له ، وحل بهم من البأس ما لم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته .

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾ أي : غفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهي باسطات أجنحتهن في الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى وما يمسكهن في الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع الرحمة من براهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألهمهن حركات تساعد على الجرى في الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟

﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ أي : أنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التي هو عليم بفائدتها لعباده .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ ﴿٣﴾ .

ألمى :

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له	طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً	من فيض جودك — رنى — كيف ينساک
والله ما سعدت روحى ولا فرحت	في الدهر — ما بقيت — إلا بذكراك

قوله تعالى : ﴿ آمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن \* إن الكافرون إلا في غرور \* آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور ﴾ يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره ويتغنون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه وخيراً لهم أنه

(١) سورة النحل الآيات من ١٤٥ حتى ١٤٧ .

(٢) سورة فاطر : ٤٥ .

(٣) سورة النحل الآية : ٧٩ .

لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال تعالى : ﴿ آمَنَ هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ أي : ما الكافرون في اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا في جهل عظيم ، وضلال مبين ، حيث ظنوا الأوهام حقائق فاعتزوا بالأوثان والأصنام . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أَدَعَوْتَهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، أَلَمْ أَرْجُلْ يَمْشُونَ بها ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصْهَرُونَ بها ، أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بها قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ ، إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوها ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا ييصرون <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ آمَنَ هذا الذى يرزقكم أن أمسك رزقه ، بل لجو في عتو ونفور ﴾ أي : من هذا الذى إذا قطع عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أي : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله — عز وجل — وحده لا شريك له ، أي : وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لجو ﴾ أي : استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ في عتو ونفور ﴾ أي : في معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى من يمشى سويّاً على صراط مستقيم ﴾ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ، قل هو الذى ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى منكبا على وجهه أي : يمشى منحنيّاً لا مستويّاً على وجهه ، أي : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال ﴾ كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران <sup>(٣)</sup> أهذا أهدى ﴿ آمَنَ يمشى سويّاً ؟ ﴾ أي : منتصب القامة ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي : على طريق واضح بين وهو في نفسه مستقيم وطريقه مستقيم ؟ هذا مثلهم في الدنيا وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سويّاً على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم وبئس المصير .

أخرج أحمد بسنده عن نفيح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله : كيف

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩١ حتى ١٩٨ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧١ .

يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ؟ » . رواه أيضاً البخارى ومسلم<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ هو سبحانه ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أى : العقول والإدراك ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه كما قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾<sup>(٢)</sup>

قوله تعالى : ﴿ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ أى : هو سبحانه بشكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلائم وأشكالكم وصوركم ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم . كما قال تعالى : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، والله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾<sup>(٣)</sup>

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين \* فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون ﴿ أى : ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى ما تعدنا به من الخسف والحاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقاً فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجهم فإن علم ذلك عند بارئ النسم فقال : ﴿ قل إنما العلم عند الله \* وإنما أنا نذير مبين ﴾ أى : وإنما أنا منذر من عند ربى أئين لكم شرائعه ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أى : فلما رأوا العذاب الموعود قريباً — وكل آت قريب وإن طال زمنه — ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتهم القفرة والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله ما لم يكونوا يحتسبون قال تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾<sup>(٤)</sup> ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هذا الذى كنتم به تدعون ﴾ أى : تستعجلون . كما قال تعالى : ﴿ يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فنتنكم هذا الذى كنتم به تستعجلون ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) مسند أحمد ١٦٧/٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٨٩

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الجاثية الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

(٤) سورة الزمر الآيتين ٤٧ ، ٤٨

(٥) سورة الذاريات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمْنَا فَمَنْ يَجْعَلُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ، قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ . أى : قل لهم يا محمد — يريد به مشركى مكة ، وكانوا يتمنون موت النبى — ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبِّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ (١) : أَرَأَيْتُمْ إِنْ مَتْنَا أَوْ رَحِمْنَا فَأَخَّرْتِ أَجَالَنَا فَمَنْ يَجْعَلُكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، فلا حاجة بكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة . ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : قل لهم آمنا بالله الواحد ، وعليه عتمدنا فى جميع أمورنا ، لا على الأموال والرجال ، ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى : فسوف تعلمون عن قريب من هو فى الضلالة نحن أم أنتم ؟ وفيه تهديد للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى : ذاهباً فى الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤس الحداد ، ولا السواعد الشداد والغائر عكس النابع ولهذا قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، أى : لا يقدر على ذلك إلا الله وحده — عز وجل — فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة فله الحمد والمنة قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ ﴾ (٢) .

« اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

### سياحة مباركة فى سورة الملك

الحمد لله والصلاة على نبينا وحبيبنا محمد ﷺ .

أما بعد

فإن سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التى تعالج موضوع العقيدة فى أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهى « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة ، وإقامة الأدلة على وحدانية رب العالمين ، ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمَلِكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ . هذا هو التوحيد الخالص فلا قدرة لأحد سواه ، ولا ملك بيد غيره ، فهو سبحانه كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، قوة كل ضعيف ، ورضا كل قتلوط ، ومفزع كل ملهوف ، وأمان كل خائف ، وشفاء كل سقيم ، وغنى كل فقير » من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾

(١) سورة الطور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

وهذا دليل لقدرة الفائقة التي لا سلطان لأحد عليها ولا يد لخلق فيها . ثم يقيم الدليل على وحدانيته بأنه خالق الموت والحياة ، وهل هناك على ظهر البسيطة من يحيى أو يميت سواه . اسأل العالم من أقصاه إلى أقصاه ، هل من الجابرة أو الأكاسرة أو القياصرة أو الأباطرة أو أصحاب الصولجان من استطاع أن يدفع الموت عن نفسه ﴿ قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾<sup>(١)</sup> فسيحان من أمره قضاء وحكمه ورضاه أمان ورحمة ، وكيف يجزؤ مجترىء فيقول : أنا أحيى وأميت . إنه إن قالها فقد سفه نفسه ، وضل رشده وزلت قدمه وتعثر قلمه .

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾<sup>(٢)</sup>

لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال : ﴿ إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ فلولى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

وأراد ربك أن يقيم الأدلة الواقعية على أنه الواحد الذي يحيى ويميت فأقام لنا هذا المشهد الواقعي قال سبحانه : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمراك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾<sup>(٣)</sup>

ولما قال إبراهيم الخليل للنمرود : ﴿ ربي الذي يحيى ويميت ﴾ أحب أن يترق من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴿<sup>(٤)</sup>

وإنما كان السؤال من الله وكانت الإجابة بإثبات الإيمان من إبراهيم حتى لا يتوهم قلب مريض أن سؤال إبراهيم كان سؤال شك بل كان سؤالاً للإطمئنان كيف يكون إحياء الموتى أمام الجابرة القساة : ﴿ قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(٥)</sup>

(١) سورة آل عمران الآية ٦٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

ليك اللهم ليك ، ليك لا شريك لك ليك ، لا محيي إلا أنت ، ولا مميت سواك .  
ثم يؤكد هذه الأدلة بدليل مشاهد أمام العين نصبه الله في الآفاق الكونية ، وفي سورة تبارك قال سبحانه : ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير \* ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ .

### الجزء يوم البعث

وينتقل بنا النظم الكريم من إثبات الوجدانية لصاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، إلى ساحات الجزء يوم البعث فيقول تعالى : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير \* إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور \* تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير \* قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير \* وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ .

### وبعد نيران الوعيد يشرق علينا نور الوعد

﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ هذا وعد من الله للذين يخافون الله وهم لم يروا ذاته ، وهذا سر عظمة المؤمنين أن يخافوا بالغيب ويؤمنون بالغيب ، وإلا لما كان للإيمان فضل إذا كان حسياً يقع تحت حاسة البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو الذوق : قيل للإمام علي يا إمام . هل رأيت ربك ؟ قال : وكيف أعبد ما لا أرى . قالوا : فكيف رأيته ؟ قال الإمام : سبحانه ربي إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأبي بكر الصديق — رضي الله عنه — يا صديق بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربي برى ولولا ربي ما عرفت ربي قالوا : فكيف عرفته ؟ قال الصديق : العجز عن الإدراك إدراك والبحث في ذات الله اشراك . ما جزاء هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب . لهم مغفرة لذنوبهم ، ومكفرة لسيئاتهم ولهم أجر كبير في الآخرة .

جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ يبين أجر الذين يخشون ربهم بالغيب حيث قال ﷺ : « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق

بالمساجد ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع»<sup>(١)</sup>.  
فأنت ترى في هؤلاء السبعة نوعين ممن يخشون الله بالغيب ، هذا الذى دعت امرأه لنفسها فما  
خاف إلا الله ، وهذا الذى تصدق بالمال فلم يعلن ذلك على الناس ليحمدوه ، إنما تصدق ابتغاء مرضاة  
من لا يغفل ولا ينام .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى علم الله الذى لا حدود له ، وإلى سمع الله الذى لا نهاية له فيقول  
سبحانه : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ \* ألا يعلم من خلق وهو اللطيف  
الخبير ﴿

فسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون ،  
وسبحان من يسمع ويرى ديب أرجل التلة السمرء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وسبحان  
من أمره بالكاف والنون وكيف يغيب عن مسمع الله أو بصره شيء وهو الذى قال : ﴿ وإن تجهر  
بالقول فإنه يعلم السر واخفى ﴾<sup>(٢)</sup> وهل هناك أخفى من السر ؟

نعم إنها ذات الصدور أى النيات التى لم يتلفظ بها العبد بل عقد عليها النية وأضمرها ، وكيف  
لا يعلم ذات الصدور وهو الذى قال : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾<sup>(٣)</sup>

وكيف لا يرتبط بكل شيء علماً وهو الذى جمع الكائنات كلها تحت مفاتيح علمه وغيبه :  
﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها  
ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾<sup>(٤)</sup>

وكيف تخفى عليه خافية ؟ أو تغرب عن علمه شاردة ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم  
ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾<sup>(٥)</sup>  
وكيف يعلو صوت على كبريائه وعظمته وهو القاهر فوق عباده .

وكيف يستغشى جاهل أو غافل ثوبه ليستخفى منه وهو القائل : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم  
يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾<sup>(٦)</sup> ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى  
الأرض ما يكون من نحوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك  
ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾<sup>(٧)</sup> نعم ألا  
يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠

(٢) سورة طه الآية : ٧ .

(٣) سورة غافر الآية : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٦) سورة هود الآية : ٥ .

(٧) سورة المجادلة الآية : ٧ .

لطيف يعلم دقائق الأشياء ، وخبير يدرك حقائق الكائنات على هذا المنهج القرآني ربي الرسول أصحابه ، رباهم على مراقبة البصر العلوى لهم في تحركاتهم وسكناتهم .

أو ما سمعت إلى تلك الإجابة الشافية الكافية الوافية التي أجاب بها سيد الخلق وحبيب الحق عن سؤال جبريل . ما الإحسان ؟ فماذا كان الجواب أيكون الإحسان صدقة ؟ أيكون إتقان شيء ؟ أيكون إخلاص العمل ؟ لقد كانت إجابة الرسول ﷺ عن الإحسان أرحب أفقاً وأوسع دائرة وأصلب عوداً : لقد بين أن للإحسان مقامين أحدهما مقام المشاهدة والآخر مقام المراقبة .

فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ولذا قال أحد الناس لسفيان الثوري — رضى الله عنه : دلني على نصيحة إن عملت لا أجتريء على معصية الله ، فقال سفيان الثوري : تذكر خمسة أشياء :

- ١ - أيليق بك أن تعصى الله وهو يرزقك .
- ٢ - أتظن أنك تعصى الله وهو لا يراك .
- ٣ - أتستطيع أن تعصى الله خارج ملكه .
- ٤ - أتستطيع إن أتاك الموت أن تطلب تأجيله
- ٥ - أتقدر يوم القيامة إذا ذهب بك إلى النار أن تدفع العذاب عنك ؟ قال : لا أستطيع شيئاً من ذلك .

قال : سفيان : فكيف تجتريء بالمعصية على من رزقك ورآك وأنت في ملكه ، وكتب عليك الموت ولا تستطيع أن تدفع عذابه عنك .

قال الرجل : والله لا أعصيه مادمت حياً .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى الامتنان الإلهي فيقول سبحانه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾

ويواصل النظم الكريم مسيرته المباركة فيذكر نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده ألا وهى تذليل الأرض وتمهيدها وتسخيرها وإصلاحها للعباد يقول جل شأنه : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلاً ما تشكرون ﴾ (١)

وقال سبحانه : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ (٢)

(١) سورة الأعراف الآية : ١٠ .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٣ ، ٤ .



وقال عز من قائل : ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾<sup>(١)</sup>

وقال تبارك اسمه : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾<sup>(٢)</sup>

وقال عز وجل : ﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٣)</sup>

إلهي ، لا يسعنا إلا أن ننشئ عليك بما أنت أهله ، فلك الشكر على ما أوليت ولك الثناء الجميل ، وكيف يستطيع لسان أن يؤدي شكرك وأنت الذي قلت وقولك الحق في سورة النعم وهي سورة النحل :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرا لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾<sup>(٤)</sup>

(٤) سورة النحل من الآية : ١ - ١٨

(١) سورة الذاريات الآية : ٤٨ .

(٢) سورة فصلت الآيات : ٩ ، ١٠ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٩ .

أخا الإسلام قف عند هذه المشاهد الكريمة التي تفيض فيها يد الرحمن جوداً وكرماً وسخاءً ونعمة .

تأمل في نبات الأرض وانظر  
إلى آثار ما صنع المليـك  
عيـون من لجين شاخصات  
بأبصار هي الذهب السيـك  
على قضب من الزبرجد شاهدات  
بأن الله ليس له شريك

كيف يستطيع العبد أن يؤدي شكر نعمتك ولك في كل نفس يتردد في صدره نعمة وآلاء وفضل .

﴿ فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ومناكب الأرض جهاتها وجوانبها المختلفة . وفي القصير بالمشى ما يفيد عدم الاندفاع وراءها فإن من سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ، فإن من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا عندما يصطدم رأسه بجدار القبر بين معسكر الموتى حيث تذهب السكره ، وتحل الفكرة ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ندموا لا ينفع الندم .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

سبحانك يا صاحب الحكمة البالغة ، يا من أمرت بالمشى في الدنيا وأمرت بالسبق والاستبان والإسراع إلى الدار الآخرة . ألست أنت القائل وقولك الحق : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ﴾<sup>(١)</sup>

ألست أنت القائل ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

وأنت القائل : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ﴾  
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿٣﴾

هذا إذا كان الحديث حديث الدنيا : فانتشار ومشى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ ﴿٢﴾  
وإلقاء باللائمة على الذين يؤثرون العاجلة على الباقية : ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ ﴿٣﴾

ثم ماذا بعد المشى في مناكبها ؟ أيتمرغ أين آدم في طينها ويتقلب في حمئها المسنون ؟ لا .  
﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿٤﴾ إن هناك إشارة تنبيهية يقول فيها مولانا جل ذكره : ﴿ وإليه النشور ﴾ والنشور هو البعث والإحياء بعد الموت والخروج من القبور ، وهذا دليل قاطع على أن الحياة لا يمكن أن تدمر لأحد . فما الإنسان في جيل إلا ذرة في فضاء ، وما الجيل في الزمان إلا لبنه في بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالحياة ألم يخيفه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينبيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرئ بما فعل .

﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير ﴿  
وبعد ما بين العلى الحكيم آلاءه العظمى ونعمه التي لا تحصى حيث جبل الأرض ذلولاً كالدابة المذللة لراكبها ، وأعطانا من القوى ما نستطيع أن نمشي عليها ، ونطرق مجالاتها ومناكبها ونستعمرها ونثقب في بطنها وتستخرج منها المعادن والطاقات التي لا تعدو لا تحصى ، ونلتمس الرزق في خباياها .  
إذا به سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات على سبيل الوعيد ، فما السر في أن يقرن آية الأرض بآيات الوعيد — نعم . إن السر رهيب إذا عرف ، وخطير إذا وقفنا عند حقيقته ، فالآية السابقة تستدعي الشكر للمنع جل جلاله ، فإذا ما جحدنا شكره وأنكرنا فضله فما جزاء الجحود خسف وتدمير

(١) سورة المطففين الآيات : من ٢٤ حتى ٢٦ .

(٢) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٣) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

ورجم بالحصباء وعذاب شديد . ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد﴾<sup>(١)</sup>

إن هناك أمم كانت عاتية ولربها عاصية ملكت الأرض فلم تحسن قيادتها بل ظلمت وتجبرت ﴿وقالوا من أشد منا قوة﴾ ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيات الله يمحذون ، وعن آلائه يعرضون ، واستهزءوا بالرسل وأنكروا الرسالات ، بل وهددوهم بالنفى إلا أن يكفروا مثلهم ، وهنا حق الوعيد « ان الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا أن شئتم : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾<sup>(٢)</sup> وافرءوا : ﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون \* أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم﴾<sup>(٣)</sup>

### خسف الأرض آية من آيات الله

إننى وأنا أخط سطور هذه الآيات اطلعت على بحث نشرته إحدى المجلات المصرية عن الزلازل ، ولما كان هذا بحثاً علمياً يتعلق بخسف الأرض فإذا هى تمور وتدور وتضطرب ، رأيت من باب التمتة للفائدة أن أنقل هذا البحث فى هذا الوطن ليقول العلم كلمته :

يقول كاتب البحث : « لقد كان سكان إقليم بريتنزا بجنوب إيطاليا متجمعين حول الموائد لتناول وجبة العشاء الخفيفة التى يتناولونها عادة فى الساعة السابعة ، فى نفس الوقت الذى ينتبهون فيه جيداً لمتابعة أهم أحداث العالم التى ينقلها التلفزيون فى أهم نشراته الإخبارية وإذا بهم يتحولون إلى أهم حدث يتطلع إليه سكان العالم بالأسف والأسى ، ففى تمام الساعة السابعة و ٣٦ دقيقة تحولت ١٥٠ مدينة وقرية فى الجنوب الإيطالى إلى ما يشبه الأطلال ، وبالرغم من أن مجموع الذين اشتركوا فى عمليات الإنقاذ بلغ سبعة عشر ألف وخمسمائة رجل ، بغض النظر عن حالة الفوضى التى سادت الإنقاذ ، فإن ذلك لم يحل دون وقوع عدد كبير من الضحايا .

وتشير التقارير النهائية إلى أن عدد القتلى سوف يصل إلى ثلاثة آلاف وحوالى ألفى مفقود وثمانية آلاف جريح . أما المشكلة الكبرى فهى تشرد حوالى ربع مليون إنسان ، ولم تكف المدارس والمنازل والأكواخ الصيفيه وعربات السكك الحديدية فى توفير المأوى للآلاف المشردة .

(١) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة النحل الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

إذن فما هو الزلزال ؟

ويستطرد كاتب هذا البحث فيطرح بهذا السؤال ثم يجيب قائلاً :

الزلزال هو عبارة عن اهتزازات خاطفة سريعة تنتاب الأرض من حين لآخر وتترك وراءها في معظم الأحيان شقوقاً وتصدعات تحدث في قشرة الأرض ، وتغير معالمها الجغرافية والعمرائية تغييراً ملحوظاً وقد يحدث مع وقوع الزلازل انهيار للجبال وهياج لأمواج البحار والمحيطات والأنهار بالإضافة إلى دمار واسع للمنشآت وضياع الكثير من الأرواح .

ونحن نضيف هنا قوله تعالى : ﴿ تدمر كل شيء بأمر ربها ﴾<sup>(١)</sup> ويضيف كاتب المقال قائلاً :

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومي أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة إن هناك نوعين من الأسباب التي تؤدي إلى حدوث الزلزال ، فهناك الزلازل البركانية التي تنتج عن نشاط بركاني ، وقد تسبق ثورة البركان أو تعقبها ، وكانت هذه هي النظرية السائدة في الماضي ، وأرجع العلماء إليها سبب حدوث الزلازل حتى وقعت زلازل في مناطق ليست بها براكين ، هنا اتجه العلماء للبحث عن سبب آخر لحدوث الزلازل وهي الزلازل الحركية . أي التي تحدث نتيجة حركة صخور القشرة الأرضية وهذه هي أكثر أنواع الزلازل حدوثاً وأكثرها تأثيراً على حياة الناس والمنشآت .

والزلازل الحركية تحدث نتيجة كسر في صخور القشرة الأرضية ، وعند حدوث الكسر تتحرك الصخور بالنسبة لبعضها البعض . ومن هنا نشعر بهذه الحركة . وقد توصل العالم الجيولوجي الشهير ( ريدا ) في عام ١٩٠٦ إلى أن هذه الكسور تحدث نتيجة لضغوط تتعرض لها القشرة الأرضية سواء من باطن الأرض أو من خارجها ، وعند تعرض الصخور لهذه الضغوط الهائلة تصبح في حالة إجهاد ، وتظل على ذلك إلى أن يبلغ الضغط درجة لا يتحملها الصخر ، ويختزن الصخر تلك الضغوط بداخله عبر ملايين السنين ، وينتشر ذلك الضغط المختزن إلى الصخور وطبقات القشرة الأرضية المجاورة ، وعند نقطة الذروة لا يستطيع الصخر اختزان مزيد من الطاقة فيتصدع وتنطلق الطاقة المختزنة على هيئة موجات تسبب اهتزازا لسطح الأرض تتناسب قوته مع مقدار الطاقة المختزنة .

وهناك عدة عوامل تساعد على تولد تلك الطاقة التي تختزنها الصخور ثم ينتج عنها الزلزال . من بينها الحركة الدائمة للكرة الأرضية والمواد الإشعاعية التي تصل إليها أو تصدر منها . وكذلك انصهار أجزاء معينة داخل القشرة الأرضية مما يؤدي إلى حدوث اختلال الخواص الطبيعية للصخور .

فالصخور الذي تتعرض للحرارة في باطن الأرض يكون وزنه أو كثافته أقل من ذلك الذي لا يتعرض للحرارة فوق سطح الأرض .

وعندما تكون هناك مناطق جبلية تجاورها سهول منبسطة يحدث انتقال للضغط من المناطق المرتفعة إلى المناطق السهلة مما يسبب الزلازل والهزات الأرضية ، فعادة ما تحدث الزلازل في المناطق السهلة التي تحيطها سلاسل جبلية عظيمة مثل جبال الهيمالايا ، وسلسلة الجبال في غرب أمريكا وجبال أطلس في المغرب العربي .

وتتركز أحزمة الزلازل في المناطق المتباينة الارتفاع وقد وجد العلماء أن هناك ثلاثة أحزمة رئيسية للزلازل تحيط بالكرة الأرضية !

١ - الحزام الزلزالي الأول : يطوق المحيط الهادى . ويمتد من شيلي وبيرو في أمريكا الوسطى فالملكسيك فكاليفورنيا فكذا ثم جزر اليابان فأندونيسيا فالفلين . وهذه المناطق تتركز فيها سلاسل جبلية عظيمة وتجاورها مناطق سهلة قليلة الارتفاع .

٢ - الحزام الزلزالي الثانى : يمر بشمال أفريقيا وينحرف لحسن الحظ عند منتصف ليبيا ثم يمر بأسبانيا فإيطاليا فاليونان فتركيا فإيران ثم شمال الهند وبورما والصين .

٣ - الحزام الزلزالي الثالث : يمر بمناطق متفرقة في المحيط المتجمد الشمالى وسيبيريا ووسط وشرق أفريقيا ، ويمس مصر في طرفها الجنوبي الشرق ولكنه لا يمثل خطراً كبيراً لقلّة ارتفاع جبال تلك المنطقة .

وهناك نظرية علمية تقول : إنه حيث تلتقى وتتصادم تكثر الزلازل ومن المعروف أن قارات الأرض في حالة حركة نسبية وبطيئة وتحسب بملايين السنين .

وعند مدينة الأصنام ( بالجزائر ) تتصادم كتلة القارة الإفريقية مع كتلة القارتين الأوروبية والآسيوية فتتجه القارة الأفريقية غرباً بينما تتجه كتلة القارتين الأوروبية والآسيوية نحو الشرق ، حينئذ تحدث بعض الاضطرابات الجيولوجية التى أدت إلى حدوث ثمانى هزات أرضية شهيرة في منطقة البحر المتوسط منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن .

## هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟

هذا السؤال يشغل بال الكثير من العلماء المتخصصين في ذلك المجال وأيضاً البشر الذين يقطنون المناطق التى يكثر وقوع الزلازل بها .

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى : إنه من رابع المستحيلات التنبؤ بمكان وزمان وقوع الزلازل .

فنحن لا نعرف أين ستخزن الطاقة التى ستسبب الزلزال ، ثم أين سينكسر الصخر الذى يخزن تلك الطاقة ، وبالتالي لا يمكن تحديد مكان وزمان وقوع الزلزال . إلا أنه يمكن القول بأن هناك مناطق تحيطها أحزمة زلزالية معروفة حددها العلماء ، والمناطق التى وقعت فيها زلازل هى أكثر عرضة لوقوع مزيد من الزلازل .

وهناك محاولات لعلماء الصين واليابان والولايات المتحدة للتنبؤ بوقوع الزلازل ، فهم يلاحظون أن الثعابين تخرج من الشقوق والجبال قبل وقوع الزلزال ، كما تصدر القطط والخيول أصوات معينة تدل على الفزع والخوف ويحدث ميل بسيط في سطح الأرض كما يتغير المنسوب الطبيعى للمياه الجوفية .

وقد حدث عام ١٩٦٤ م وبعد هزة أرضية اجتاحت مدينة بكين أن خرج متحدثاً أكاديمياً يقول : إن الصين لن تشهد زلازل خلال السنوات الخمس أو الأربع القادمة على الأقل ، ولم يكدمر يوم واحد حتى وقع زلزال عنيف اجتاح مدينة بكين !! ففقد الناس الثقة في إمكانية التنبؤ بالزلازل حتى ولو كان علمياً ! وما تم التوصل إليه من أجهزة حتى الآن . ترصد الزلازل بعد وأثناء حدوثها فقط ، وليس قبل ذلك وكل الدلائل التى يتم تجميعها قبل حدوث الزلزال سواء كانت طبيعية أو بأجهزة علمية ، لا تعطى فترة كافية للاستعداد لتجنب الزلزال .

وقد نشأ في الفترة الأخيرة علم حديث عن الزلازل وعلاقتها بالمنشآت في أمريكا واليابان والصين ، وأصبحوا يبنون المنشآت ذات القيمة الاقتصادية والاستراتيجية بطريقة تقلل من الدمار الناتج عن حدوث الزلزال ، وأفضل مثل لذلك هو الكوبرى المعلق الذى يمر عبر خليج مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية لمسافة ١٥ ميلاً ، فقد تم تصميمه بطريقة هندسية تساعد على امتصاص الهزات الناتجة عن الزلزال .

ولقد زار الدكتور بيومى تلك المدينة منذ عشرين عاماً ، وقد حدث زلزال في ذلك الوقت ، وتأرجح الكوبرى يمناً ويساراً ولم يتحطم رغم أن طوله حوالى ٢٢ كم ، ويساعد ذلك العلم الجديد على ابتكار أنواع معينة من حديد التسليح والأسمنت ومواد البناء ، وأيضاً يتم تصميم المباني بطريقة هندسية تجعلها تمص الزلازل ولا تسقط ..

## مقياس الزلزال

هناك عدة مقاييس لتقدير الزلازل وأشهرها مقياس ريشر وفي مقياس ريشر يتم تفسير قوة الطاقة الناتجة عن الزلزال إلى درجات ، وكل درجة تعادل مائة « أرج » وهى وحدة لقياس الطاقة الناتجة عن الزلزال . ومقياس ريشر مقسم إلى ١٢ درجة وهناك علاقة بين تقدير قوة الزلزال وبين الدمار الذى يخلفه ، فإذا قلنا إن ذلك الزلزال قوة درجة واحدة على مقياس ريشر فمعنى هذا أن قوة الزلزال ضعيفة لا ينتج عنها أى دمار ولا يشعر به الانسان ولا تسجله المراصد . أى : أن الطاقة التى خرجت من الصخور وقت وقوع الزلزال ضئيلة جداً ولم تسبب أى اهتزاز للصخور والمنشآت والأرواح .

لقد كان زلزال شان الذى وقع فى الصين عام ١٥٥٦ هو أخطر الزلازل التى عرفها البشرية ، فقد راح ضحيته ما يزيد على ٨٣٠ ألف شخص بل إن العلماء يرجحون أن يكون ذلك الزلزال هو أسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشرية . وغالباً ما تكون زلازل الصين ذات عدد ضخم من الضحايا نظراً للكثافة السكانية بها ( حوالى ألف مليون نسمة ) كما شهدت الصين بعد ذلك فى عام ١٩٦٦ م فى مدينة هينج ناي ومدينة هابشنج عام ١٩٧٥ م فى مدينة ناتج شان عام ١٩٧٦ م زلازل رهيبه ، ففى الزلزال الأخير فقط فقد ٦٥٠ ألف نسمة أرواحهم طبقاً لإحصائية الأمم المتحدة ...

وقد أطلق عدد من علماء أمريكا واليابان والصين أخيراً نظرية جديدة تقول : إن أحزمة الزلازل يمكن أن تنهار إلى مناطق أخرى غير المناطق المعروفة حالياً .

ويرد الدكتور عبد الرحيم بيومى قائلاً : إذا اعتبرنا أن السلاسل الجبلية تقع فى نطاق أحزمة الزلازل فى العالم باعتبارها أسباب حدوث الزلازل كما أوضحنا ، فإن مصر ليست بها مثل هذه السلاسل الجبلية الشاهقة التى تؤدى إلى حدوث الزلازل ، لذا فإنه لم يثبت علمياً حتى الآن أن مصر يمكن أن تتعرض لزلزال عنيف فى المستقبل القريب . وذلك ما لم تظهر أدلة علمية أخرى تثبت عكس ما هو قائم . كما أن الزلازل التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنوفية كانت زلازل ضعيفة لم تترك أى دمار خطير ، ولم تزد قوة أى زلزال فى مصر على أربع درجات على مقياس ريشر .

## مسألة فى العقيدة

وبعد هذا الطواف فى مناكب الأرض وبيان انتقام الله تعالى وآيات وعيده وما يجرى على أهل الأرض من زلازل وخسوف ومسح لابلد لنا من وقفة هنا تتعلق بقوله تعالى : ﴿ أأمنتم من فى



السماء ﴿١﴾ كيف نفهم هذه الآية وأخواتها مثل قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿٢﴾ يد الله فوق أيديهم ﴿٣﴾ ، وبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿٤﴾ ومثل قوله ﷺ : « ان قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء » ﴿٥﴾

كيف نفهم هذه النصوص وأمثالها ونقول وبالله التوفيق : إن الراسخين في العلم يقفون من هذه الآيات موقف الإيمان الخاضق قائلين ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ ﴿٦﴾ آمنا به كل من عند ربنا ﴿٧﴾ إذ أن هذه الآيات جميعها راجعة إلى أصلها المحكم في قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ ﴿٨﴾ وفي سورة الإخلاص ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد : الله الصمد \* لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ﴿٩﴾ .

وما فتح على المسلمين أبواب الخلاف والفرقة إلا اختلافهم في عقائد كانت أولى ما تكون بالتسليم لله دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل فعلى المؤمن إذا قرأ مثل هذه الآيات أن يقول ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ ﴿١٠﴾ فالقاعدة الأصلية في هذه العقائد أن الله — تبارك اسمه — لا يحويه مكان لأنه خالق المكان ، ولا يسأل عنه بمنى كان ، لأنه لا يجرى عليه زمان ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير \* هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ ﴿١١﴾ هو الأول فلا شيء قبله ، والآخر فلا شيء بعده ، والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر فهو سبحانه ليس كمثله شيء وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ...

اعلم يا أخى أن مسائل العقيدة أحد من السيف وأدق من الشعرة لذلك يجب العلم بها ويحظر الخلاف عليها ، اعلم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وليس له كفوا أحد ، فإياك أن يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ الآيات السابقة الذكر أن الله تعالى له جارحة وأصبع تماثل أو تشابه من بعيد أو قريب الحوادث إنما القول الحق أن تؤمن بما قاله الله تعالى وتقول فيها ما قاله الإمام مالك في قوله تعالى :

(١) سورة طه الآية : ٥ .

(٢) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ٢٠٤٥/٤ رقم ٢٦٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٧) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٨) سورة الإخلاص الآيات : من ١ حتى ٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(١٠) سورة الحديد الآيات : من ١ حتى ٣ .

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ قل مثل ذلك في قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ وفي قوله : ﴿ ويقي وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ فاليد والوجه معلومان ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والايان به واجب إنك إن فعلت ذلك فعد سلمت من الزلل ، ولقيت الله بقلب سليم ويكون جزاؤك عند الله الفلاح ، لأنك آمنت وصدقت وأذعنت وأيقنت وفوضت وسلمت واعتقدت ، فحكم الله لك الفلاح قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾<sup>(١)</sup>

### عالم الطير

قال الله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير . آمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا في غرور \* آمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور \* أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم ﴾

في هذا المشهد الرباني الكريم يوجه القرآن الكريم أنظار البشرية إلى عالم من العوالم الشتى الكثيرة المختلفة التى لها نظامها وآجالها وأرزاقها وأقدارها ، إنه عالم الطير : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمّ أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾<sup>(٢)</sup> وتأمل معنى قول رسول الله ﷺ وهو يعلم البشرية القناعة والرضا فى طلب الرزق فضرب لهم مثلاً بعالم الطير فقال ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »<sup>(٣)</sup>.

ومعنى قوله تعالى : ﴿ صافات ﴾ أى : صافات أجنتها وهذا أكثر حالاتها ولذا عبر عنه بالصفة ، أما ﴿ يقبضن ﴾ فمعناه قبض الأجنحة فى بعض الحالات لا فى أكثرها ولذا عبر عنه بالفعل الذى يفيد التجدد والحدوث وبين سر العظمة الإلهية فى هذا العالم العجيب فقال : ﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن ﴾ وفى الإمساك قدرة وفى التعبير بالرحمن رحمة فليس الإمساك هنا جبروتاً أو قهراً أو قوة إنما هو رحمة فياضة لتقوم الطير برسالتها وجمع أرزاقها لأفراخها فى أعشاشها وتسبيح ربها ﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾<sup>(٤)</sup>.

فى سورة النحل يقول تعالى عن هذا العالم : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) سورة المؤمنون الآية : ١ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .

(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .

(٤) سورة النور الآية : ٤١ .

(٥) سورة النحل الآية : ٧٩ .

اعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من الحقائق والأسرار ودقائق الأخبار ما ينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته في هذه الدنيا التى تعيش فيها ويطير في أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن المقصد ، ويوضح جميل الصبغة ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلاً من الفم والشفيتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يتلغ الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة — كالبوم والحدأة — ذات منقار قوى مقوس جاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم ، بينما الأوز والبط لهما مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش . أما الدجاج والحمام وباقي الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة مثلاً طويل طويلاً ملحوظاً ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصيد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد باتقان للبحث عن الحشرات والديدان التى غالباً ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء الطير من النظرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيا لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا نخمصاصاً وتروح بطناً »<sup>(١)</sup> . هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتفاق الحكيم .

﴿ ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾

قال تعالى : ﴿ آمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾ .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات أنه تعالى بعد ما بين آيات قدرته في الأنفس والآفاق والكونيات . وهذا الكوكب الأرضي ، وجه مولانا هذا السؤال إلى كل من استعان بغيره أو طلب المدد من سواه ، فقال لهم في أسلوب إنكارى بعد أمن التي تدل على الهمزة والاستفهام وكأنه تعالى يقول : من هذا الذى هو جند لكم يوفر النصر ، ويرعى الأنفس والثمرات والأموال غير الله ، وعبر هنا بلفظ الرحمن لإفادة النعم والآلاء التي يغدقها بخالص رحمته وعيم فضله ، والجواب أنه لا أحد . فمن الذى يستطيع أن يدعى أن بيده الملك وأنه قدير على كل شيء من غير الله يستطيع ذلك .

بل من الذى يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض وزين السماء بنجومها وجعل الأرض ذلولاً ؟ هذه أدلة قاطعات يشاهدها من كان لديه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . وحيث بطل هذا الادعاء فمن زعم ذلك فهو كافر خدعه كفره ، وضال ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ وهذا أسلوب يفيد القصد فإن حرف ( إن ) هنا يفيد النفي أى ما الكافرون إلا في غرور وخداع وغش .

ثم يقول مولانا تبارك اسمه ﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور ﴾

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الذى يملك النصر وحده هو الذى يملك الرزق وحده فهو صاحب الآيات والآلاء ، آيات القدرة وآلاء الرحمة .

وقوله جل وعلا : ﴿ إن أمسك رزقه ﴾ لها معنيان فيما أن تكون ( ان ) نافية بمعنى ما أمسك رزقه أى : ما حجب الرزق عنكم ليلاً ولا نهاراً : سماء يفيض بالماء ، وأرض تفيض بالخيرات والنبات ، والمعنى الثانى أن تكون ( ان ) شرطية على اضممار جواب الشرط من ، باب الإيجاز والمعنى إن أمسك رزقه هلكتم .

﴿ بل لجوا في عتو ونفور ﴾ وهذا تعقيب على السؤال السابق أنهم يعلمون أن الله بيده مفاتيح الرزق .

قال جل شأنه : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ (١) وقال سبحانه : ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾ (٢)

فقد أقرؤا بأنه هو الرازق إذن فلماذا انصرفوا ؟ لأنهم لجوا وتمادوا في عتو وكبر ونفور ، وشروا وبطروا للحق وغمطوا للمعابر .

(١) سورة يونس الآية : ٣١

(٢) سورة العنكبوت : ٦٣

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى \* أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وقد جاءت هذه الآية الكريمة نتيجة فاصلة بين أتباع الحق والسائرين وراء الباطل ، فمن أقر واعترف بآيات الله في كونه وأن لهذا الكون إله واحد ، مشى سويًّا على صراط مستقيم ، ومن عمى ولج في باطله مشى مكبأً على وجهه ، قال تعالى : ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِظَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾<sup>(١)</sup>

قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ \* قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿

ما زال النظم الكريم يواصل زحفة المبارك في إسباغ النعم التي لا تعد ولا تحصى : ﴿ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذا أمر يخاطب الله به كل من يعقل الخطاب بقوله : ﴿ قُلْ ﴾ هو الذي أنشأكم بعد ما كنتم في عالم العدم ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

فهذه الآيات المعرفة ووسائل العلم : سمع وبصر وفؤاد مدرك ، وكان الواجب أن تقابل هذه النعم بالشكر ، ولكن بالأسف يعقب المولى على أحوال العباد بما هو واقع حالهم فيقول سبحانه : ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وذرأكم بمعنى كثركم ونشركم ، وإليه تحشرون بمعنى المصير والمآل إليه وحده لا شريك له ، وتلك قضية العقيدة التي لا شك فيها ولا ريب .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ والمقصود بالوعد هنا اليوم الموعود وهو يوم القيامة ومتى اسم استفهام يراد به على لسانهم الا ستبعاد والاستحالة والتحدى بدليل قولهم بعد ذلك : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرُودُنَّ بَعِيدًا وَنَرَاهُمْ قَرِيبًا ﴾<sup>(٥)</sup>

وقال جل شأنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنَقُرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

(٥) سورة المعارج الآيتان : ٦ ، ٧ .

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ - ١٠١

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨ .

ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها \* وأن الله يبعث من في القبور ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار رأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما هم هناك من الشر ، فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وبداهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (٢) .

وهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿ هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم \* قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ...

وهكذا قضينا هذه السياحة المباركة في سورة الملك التى تسمى المنجية والتى قال فيها رسول الله ﷺ : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك . رواه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد (٣) . ١. هـ ( من كتاب سياحة مباركة فى سورة الملك للمؤلف ) .

(١) سورة الحج الآيات : من ١ حتى ٧ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٣٣ .

(٣) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى — كتاب فضائل القرآن — باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه —

كتاب الأدب — باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ وسنن أبى داود ١١٩/٢ رقم ١٤٠٠ .

## تفسير سورة القلم

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : اثنتان وخمسون

وكلماتها : ثلاثمائة

وحروفها : ألف ومائتان وست وخمسون

فواصل آياتها : ( من )

ولها اسمان : سورة ن ، وسورة القلم . وهذا أشهر .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الذب عن النبي ﷺ ، وعذاب ما نعى الزكاة ، وتخويف الكفار بالقيامة ، وتهديد المجرمين بالاستدراج ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس — عليه السلام — في قلة الصبر ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين كما في قوله تعالى : ﴿ ليزلقونك بأبصارهم ﴾ الآية .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ حَلَّافٌ مَّهِينٌ ﴾ إلى قوله : ﴿ زَنِيمٌ ﴾ تسعة أوصاف ، ولم يدخل بينها واو العطف فيدل على ضعف القول بواو الثمانية ﴿ فَأَقْبِلْ ﴾ بالفاء سبق بيانه . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ سبق .

## مناسبة السورة لما قبلها

١ - أنه ذكر في آخر ( الملك ) تهديد المشركين بتغيير الأرض ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمر البستان الذى طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون .

أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع ، وأنه لو شاء لحسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله ، وكان المشركون ينسبونه في ذلك مرة إلى الشعر ، وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون — فبرأه الله في هذه السورة مما نسبوه إليه ، وأعظم أجره على صبره على أذاهم وأثنى على خلقه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسُبُّصِرُ وَيُبَّصْرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

### تفسير المفردات

﴿يسطرون﴾ أى : يكتبون . ﴿ممنون﴾ أى : مقطوع . ﴿المفتون﴾ : المجنون لأنه فتن : أى : ابتلى بالجنون .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ \* ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴿﴾ قال العلامة ابن القيم : الصحيح أن ( ن ) ، ( ق ) ، ( ص ) من حروف الهجاء التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهى أحادية ، وثنائية وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، أما مقسماً به ، وأما مخبراً عنه ، أما خلا سورتين سورة ( كهيعص ، ون ) كقوله تعالى : ﴿آلم ذلك الكتاب﴾ ﴿آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم﴾ . نزل عليك الكتاب ﴿﴾ ، وكقوله : ﴿المص﴾ كتاب أنزل إليك ﴿﴾ ﴿الم﴾ تلك آيات الكتاب ﴿﴾ وهكذا إلى آخره ، ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها وجلالتها . إذ هى مبانى كلامه وكتبه التى تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ونهيه ، ووعيده ، ووعدته ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقيبح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى ما فى أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله إلى المقصود ، وأدلة عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم . كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهاً لا يتكلم . وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات . فهى دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكاله وكلامه ، وصدق رسله .



وقد جمع سبحانه بين الأمرين — أعنى القرآن ونطق اللسان — وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال : ﴿ الرحمن \* علم القرآن \* خلق الإنسان علمه البيان ﴾<sup>(١)</sup> فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها في الأذهان ، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فأياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان ، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه في هؤلاء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق ، ووسطه وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفي الشفتين ، والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني ، أمراً ، ونهياً وخبراً ، واستخباراً ونهياً ، وإثباتاً ، وإقراراً وإنكاراً وتصديقاً وتكذيباً ، وإيجاباً ، واستحباباً ، وسؤالا وجواباً . إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظم ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعتته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، في مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهي دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدلت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة . فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً . وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشعأها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق .

### السر في القسم بالقلم

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ القلم وما يسطرون ﴾ فأقسم بالكتاب وآله وهو القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي . وقيد به الدين . وأثبت به

الشريعة وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد فوطدت به الممالك . وأثبتت به السبل والمسالك وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصح . وأنفعه لهم وأنصح . وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم . وطيباً يرىء بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم . ويودعها حكمة فتصير بوارد الفهوم والأقلام نظام للأفهام . وكما أن اللسان يريد القلب ، فالقلم يريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم يريد القلب ورسوله وترجماته ولسانه الصامت .

### مراتب الأقلام ، وقلم القدر

والأقلام متفاوتة في الرتب . فأعلاها وأجلها قدر أقلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق . كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة »<sup>(١)</sup> واختلف العلماء . هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين . ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت في الصحيح من حديث عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء »<sup>(٢)</sup> فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش . والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عباده هذا .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذي أقسم الله به .

### قلم الوحي :

القلم الثاني قلم الوحي ، وهو الذي يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم . والعالم خدام لهم . وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدام لأقلامهم وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدير بها أمر العلوى والسفلى .

(١) أنظر منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود — كتاب القدر ٢٥٥/٣

(٢) صحيح مسلم — ٢٠٤٤/٤ رقم ٢٦٥٣ .

## قلم الفقهاء والمفتين :

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم في الدماء والأموال والفروج والحقوق . وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أبواب الأقالام . وأقالام العالم خدماً لهذا القلم .

## قلم طب الأبدان :

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة . وترد إليها صحتها المفقودة . وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقالام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

## قلم التوقيع عن الملوك :

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك ، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقالام ، والمشاركون للملوك فى تدبير الدول . فإن صلحت أقالامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقالامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

## قلم الحساب :

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذى تضبط به المقادير ومايينها من التفاوت والتناسب . وميناه على الصدق والعدل . فإذا أكذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

## قلم الحكم :

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فتد إلى اليد الحققة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ وال لزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يشتهه ، وبالعدل فيما يميزه وينفذه .

## قلم الشهادة :

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين .

### قلم التعبير :

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى ، كاشف له ، وهو من الأقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد على طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته وتحريه الصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحسن مؤيد بالنور الإلهى ، ومعرفة بأحوال الخلق وهياتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدها تشيئاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال والمستقبل ، فتعرف هذا القلم فى المقام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطاته .

### قلم تواريخ العالم :

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذى تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحاني ، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

### قلم اللغة :

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفصيلها من شرح المعانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفية الدلالة ، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .

### القلم الجامع :

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل ، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدل . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدم لكل مخالف للرسول . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن .

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه وتعالى أقسم به فى كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم ، ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول فى وصفه :

لك القلم الأعلى الذى بشباته  
له ريقه طل ، ولكن وقعها  
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه  
له الخلسوات السلاء لولا نجحها  
فصيح إذا امتنطقته وهو راكب  
إذا ما امتطى الخمس للطف وأفرغت  
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت  
إذا استغزر الذهن الذكر وأقبلت  
وقد رفدته الخنصران وسددت  
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف  
يصاب من الأمر الكلى والمفاصل  
بآثاره فى الغرب والشرق وإبل  
وأرى الجنا اشتارته أبدا عواسل  
لما احتفلت للملك تلك المحافل  
وأعجم إن خاطبته وهو راجل  
عليه شعاب الفكر وهى حوافل  
لنجواه - تقويض الخيام - الجحافل  
أعاليه فى القرطاس وهى أسافل  
ثلاث نواجيه الثلاث الأناامل  
ضناً وسميناً خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى : ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ . أى : ولست والحمد لله بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

قال ابن القيم : وأنت إذا طبقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصادر إلا عن عقل وافر ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاثنيان بها ، ولا سيما من أمى لا يقرأ كتاباً ولا يخط يمينه مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً عن الاختلاف ، برياً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر لإلا فك .

فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق ما لا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذغنت له عقول العقلاء وخضعت له أبواب الأولياء ، وتلاشت فى جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والأذعان ، طائعة مختارة وهى ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به ، ولا كمال لها إلا بما جاء به ! فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي . ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق .

وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى . فكيف يكون

متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فغض عنه الجنون بنعمته عليه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتي نبيه ﷺ في دنياه وأخراه فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ لَكَ لِأَجْرٍ غَيْرِ مُنُونٍ ﴾ أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال تعالى ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّلَّذِينَ يَلْمِزُونَكَ بِذُنُوبِهِمْ أَلا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ الْمُعْذِرِينَ وَيُغْضِي عَنَّهُمْ سَخِرَ لَكَ فِي هَٰذَا بَاطِنٌ لَّأَنَّهُ يُدْرِكُهُ الْغَيْبُ غَيْبٌ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ ﴾ ﴿ إِنْ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازٌ ﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾

وهذه من أعظم آيات ثبوته ورسالته لمن منحه الله فهماً . ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فأجابت بما شفى وكفى فقالت : كان خلقه القرآن . فهم سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك ومن هذا قال ابن عباس وغيره . أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زكية . وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال ، والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخراقاً ، هى أزكى الأخلاق وأشرفها ، وأفضلها — فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له ، وتبييناً ، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبه لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه . والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين السيدة عائشة — رضى الله عنها — لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن »<sup>(١)</sup> وفهم هذا السائل عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى .

ويقول ابن القيم : فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإرادتهم ، وأعمالهم ، مستفادة من القلم وما يسطرون ، وكان فى خلق القلم والكتابة إناعم عليهم وإحسان إليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إناعمه وإحسانه على عبده ورسوله الذى أعطاه أعلى الأخلاق وأفضل العلوم ، والإرادات ، التى لا تهتدى للقول إلى تفصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك فى الدنيا . ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به .

قوله تعالى : ﴿ فَسَتَبْصُرُ وَيُصِرُونَ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴾ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .

أى : ستعلم با محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾<sup>(٢)</sup> . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : ( ستعلم وتعلمون يوم القيامة ) . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ بأىكم المفتون ﴾ أى : المجنون . وكذا قال مجاهد : وقال قتادة : وغيره فى قوله : ﴿ بأىكم المفتون ﴾ أى : أولى بالشيطان ومعنى المفتون ظاهر أى الذى قد افترق عن الحق وضل عنه وقوله : ﴿ فستبصر ويصرون ﴾ تقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأىكم المفتون . ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾<sup>(٣)</sup> أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ويعلم الحزب الضال عن الحق . قال تعالى : ﴿ فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾<sup>(٤)</sup>

### من أخلاق النبى ﷺ

يقول الدكتور : أحمد محمد الحوفى فى كتابه القيم « من أخلاق النبى » ما ملخصه :

( تمهيد )

ما الأخلاق؟

هذه الأخلاق التى تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتى لا يعرى إنسان من لبوسها لأن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة والفجور والشجاعة والجبن ، هل هى فى حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعاً ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها . ولعل أسهل ما تعرف به أنها عادة مقصودة مرادة ، وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أو إلى الشر . وذلك لأن العادة كثيراً ما تكون عفوية غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تسمى خلقاً .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل فى نطاق الأخلاق ، كالذى يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزمته ، والذى يرى شخصاً فى البحر

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٢٤ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٤) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

مشرفاً على العزق ، فيسارع إلى نجاته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرراً ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذى يبذل ماله مضطراً مجبراً لا يسمى اسخياً .

لهذا نقول : إن العزيمة اعتادت عملاً صار خلقاً ، فالذى تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذى تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه . والعفيف هو الذى تسيطر عليه العفة فى جميع حالاته ، والفاجر هو الذى تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها ومعنى هذا أن ميلاً من الميول طبع الشخص بطابعه زمنياً طويلاً ، فصار خلقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغلبة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شراً كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفلى درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها وينعم وهذا هو ما أرادته الغزالي بقوله : « وغاية هذا الخلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع .

ولقد سبق الإمام الغزالي إلى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ، فقال : إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر وروية .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لتحقيق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الدور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشتراطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه السخاء والحلم ...

### لمحة إلى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق فتعددت آرائهم ، ولم تسلم من النقد .



وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامى للأخلاق ، أن ألم بهذه المذاهب فى إيجاز يغنى عن التفضيل .

١ - العرف :

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التى تتوسم الخير فى اتباعها ...

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاق ، فما وافق العرف كان خيراً ، وما خالفه كان شراً ، وما سكت العرف من كان الناس فيه مخبرين بين أن يفعلوه أو يتركوه . لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لا ثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية ، فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطريق لتحرير الأرقاء .

ثم إن الاستمساك بالعرف صمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو إلى هذا كله معادة للإصلاح والمصلحين .

٢ - المنفعة المادية :

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل . فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وأنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى ، ويعدون نزعاً فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعاضد والتدابير . فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة إذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشرة ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرون خصوصاً له ، فلا تعاطف ولا تألف ، ولا محبة ولا إيثار ولا إنحاء ، ولا ثقة ولا سلام ...

٣ - السعادة الشخصية :

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ،

وهى محور الأعمال ، والعمل يكون خيراً بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شراً بقدر ما يسبب من ألم .  
وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور ( ٣٤١ - ٢٧٠ ق.م ) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .  
والحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال والأحوال ، فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيراً ما يشقون ، وكثيراً ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم ..

وإن المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون إلى شيء غير إعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب ؟

نعم إن فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأثرة ، وإنها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغير مجلبة للذة أثر يفعل خيراً لنفسه لا للناس فهو يجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شيء من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم ، إلا القدر الذى يمس سعادته أو شقاءه .  
**٤ - السعادة العامة :**

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقى على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس .  
وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت الفاعل نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام ( ١٧٤٨ - ١٨٣٢ ) وجون ستيوارت مل ( ١٨٠٦ - ١٨٧٣ ) م .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقة ومع قربيه إلى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من

الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً محدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص وباختلاف الملابسات ...

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف في العصر الواحد لمن بيئة إلى بيئة .

### ٥ - الضمير :

أقام زينون الفيلسوف اليوناني ( ٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م ) مذهبه الأخلاق على الضمير ، ثم عزز هذا الفيلسوف الألماني كانت ( ١٧٢٤ - ١٨٠٤ م ) .

وأساس هذا المذهب أن في كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملاً بأنه خير أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم ، كما يذهب مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى نتائج العمل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون في حكمهم على الأعمال اختلافاً كبيراً ، وكثيراً ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيات . فالسرقة الخفية كانت في إسبرطة عملاً ممدوحاً يُمرن عليه الشباب لتدريهم على الحيلة في الحرب ، والاسترقاق كان في العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب في الجاهلية .

وشتان ما يبين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التي ترجع إلى الإدراك ، كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير في حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيراً ما يغشيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيراً ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا رُبِّي تربية دينية كان رقيباً على النفس وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائماً الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، ولتجنب الشر ، فإن في الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهي العزيمة

التي كثيراً ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل . فلا بد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

## ٦ - الوسطية :

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً وأعظمها تأثيراً على الدارسين والباحثين منذ وضع أرسطو ( ٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م ) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

ومثل أرسطو للحد الأوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والبشاشة وسط بين السخرية والغظة ، والصدقة وسط بين الملق والشراسة .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الإسلام ويحدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط ...

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب

١ - ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة بل الشجاعة فضيلة حينما كانت وكيفما كانت ، مادامت سنداً للحق ، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

ولن تكون الشجاعة في حال من أحوالها هذه/مزعومة ، ولن تكون في مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل في التدبير ، وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبير العواقب .

فليست الشجاعة دائماً ألا يخاف المُقدم ، فإنها كما تكون في الإقدام ، تكون في الإحجام ، وكما تكون في الاستهانة بالخواف ، تكون في توق بعض المخاوف وفي تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولها فضيلة ، وعليها فضيلة بل أفضل الفضيلة وهي الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود

بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص في سبيل الخير بال عشرة أو المئة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفاً ، لأن ثرائه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه ...

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعةً أو يشتري به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة في الأريحية والسخاء .

وهذا الذى نقوله فى نقد الوسطية فى الفضائل كلها نقول مثله فى نقد الوسطية فى الرذائل

كلها ، كالجن ، والبخل ، والفجور وغيرها .

٢ - على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرف ؟ ومن الذى يحكم فإن هذه النقطة هى الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذى يعين المنتصف الذى عناه أرسطو وسواه ؟ وقد ذكر أرسطو أن إدراك الوسط فى كل شىء أمر صعب جداً ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا ييسر لجميع الناس .

٣ - ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشىء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشىء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطاً بين الفجور والخمود ، بل العفة هى العفة ...

٤ - أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً<sup>(١)</sup> فإنه موضع نظر

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً<sup>(٢)</sup> وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً<sup>(٣)</sup> .

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم فى آية سابقة بالأخذ بيد آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير وهو البعثرة فى السرف والإنفاق فى المعاصي وفى غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعن مجاهد وقتادة وابن زيد . أما الإنفاق فى الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق ما كان تبذيراً ، ولو أنفق مدداً فى باطل كان تبذيراً .

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

ثم نهى الله عن البخل بالمال في الحقوق التي أوجبها في أموال الأغنياء ، ونهى عن العطاء الذى لا يبقى عند صاحبه شيئاً ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

والذى يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هى الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يتبدل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل الكثير ، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلاً وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ وكان بين ذلك قواماً <sup>(١)</sup> لاتعنى الوسطية بين الجود والشح ، أو بين السخاء والتقتير ، بل تدم الإسراف ، وتدم الشح ، وتدعو إلى العدل ، ليس الاعتدال حداً وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شئ آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

#### ٧ - القوة :

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوى هو الذى يحتمل الشدة ، ويطبق المكره ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجرع ، لأن الجرع والتخاذل من أخلاق الضعفاء ...

وإن هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلاً لا تقره الإنسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سوراً لا ينفذ منه تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض يبطش قويمهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويمهم ، وإن أدى البطش والخنوع إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلایا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها إلى هذا المذهب البغيض .

## الأخلاق الإسلامية ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكثرة وانقطاع في الطريق وغيض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثر لا ينضب ، متدفق لا يغيض ، نقى لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف مبراً من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فما هذا ينبوع ؟

إنه الإسلام الذى لا يهدى إلى الاخلاق الفضلى والمثل العليا سواه . إنه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق — سبحانه وتعالى — الذى يعلم السر والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعاً : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾<sup>(١)</sup> وهو الذى ﴿ يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾<sup>(٢)</sup>

محورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟  
ما المحور المركز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

إنه التقوى

فماذا تعنى التقوى ؟

١ - للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .  
هى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يمد ، ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير ...

ومامن شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراعة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتجامى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى — وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها — إلا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيماً غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبراً من الجبن والبخل والفجور والعذر والكذب ومن كل رذيلة .

(١) سورة الملك الآية : ١٤ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤١ .

٢ - وقد ترددت مادة التقوى في القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومئتي مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين ...

٣ - ونستطيع أن نستنبط للتقوى — مع هذه الدلالة العامة التي تجمع كل فضيلة ، وتنفي كل رذيلة — معاني جزئية تنصل بها فضائل معينة كما نجدتها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها .  
( أ ) فالكرم متصل بها في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيسِرْهُ لِلْغَيْبِ ﴾ (١) . قوله : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ (٢) .

( ب ) والشجاعة متصلة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) وقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) .

( ج ) والعدل مرتبط بها في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ \* وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٥)

وفي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا \* اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى \* وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٦) .

( د ) والعفة ذات علاقة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ (٧)  
( هـ ) والصدق صلة بها في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٨)  
وفي قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ (٩)

( و ) والوفاء بالعهد شعبة منها في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا \* وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١٠) .

(١) سورة الليل الآيات : من ٥ حتى ٧ .

(٢) سورة الليل الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٩٤ .

(٦) سورة المائدة الآية : ٨ .

(٧) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .

(٨) سورة التوبة الآية : ١١٩ .

(٩) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .

(١٠) سورة الفتح الآية : ٢٦ .



عن الحسن : إن كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها .

وفي قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ﴾ ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون <sup>(١)</sup>

( ز ) والرحمة غصن من درجتها ، في قوله تعالى : ﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من في حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

( ح ) والعفو جزء منها في قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

( ط ) والصبر جانب من جوانبها في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون <sup>(٤)</sup> .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِي وَيَصْبِرُ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

( ي ) والأمانة فرع من التقوى في قوله تعالى : ﴿ فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله به ﴾ <sup>(٦)</sup> .

( ك ) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى في قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف ﴾ وأعرض عن الجاهلين ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون <sup>(٧)</sup> .

( ل ) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله به ﴾ .

( م ) وإصلاح ذات البين مرتبط بها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ <sup>(٨)</sup> .

( ن ) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسخاء في معاملتهن المالية وثيق الاتصال

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٦ .

(٢) سورة النساء الآية : ٩ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٤) سورة النحل الآيات : من ١٢٦ حتى ١٢٨ .

(٥) سورة يوسف الآية : ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٨٣ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٨) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

بالتقوى في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَقْتُمْوهن مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ <sup>(١)</sup> .

(س) والكسب الحلال متصل بهما في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### خصائص الأخلاق الإسلامية

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :

#### ١ - الخير المطلق :

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إثارة فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازح الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

تحقق الخير المحض للفرد والناس جميعاً ، في كل البيئات ، وفي جميع الحالات ، وفي كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها ، لأنها خير يجب أن يفعل ، ونهى عن الرذيلة ، وبغضها إلى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الإسلام بفاعلي الخير وتاركي الشر من أن يتوقعوا جزاء من الناس لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن إتخاذ الخير سلباً إلى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة و بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التي تقرر هذه الحقيقة كثيرة جداً ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغَفُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مِنْ أَمْرٍ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ <sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ وَمَا تَنْفَقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

#### ٢ - الصلاحية العامة واليسر :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس في كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٨ .

(٣) سورة الروم الآية : ٣٩ .

(٤) سورة النساء الآية : ١١٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢ .

ميسورة ، ليس فيها أرهاق ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل الإسلام سنٌّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقية ، **وتتسلى** لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة . وقد صدق المولى سبحانه في قوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾<sup>(١)</sup> وفي قوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾<sup>(٢)</sup> .

لهذا أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، وأباح للمسافر وللمريض أن يرجىء صوم رمضان إلى زمن مقبل ، وبين العقوبة لا تكون إلا على ذنب مقصود متعمد ...

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققان في الأخلاق الإسلامية ، على حين أن مذهب العرف ضيق المجال ، متغير الأحكام في البيئات والأعصار ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير ضيق ، ومقاييسه مضطرب لا حدود له ولا استقرار . أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ، لأن الإسلام دين المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، وفي الثواب والعقاب ، وفي الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة ...

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو لدائمة ، وكثيراً ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام . أما الفضائل الإسلامية فإنها صالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، فى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة سهولة التكليف الإسلامى ويسره قال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبه » رواه البخارى<sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » متفق عليه<sup>(٤)</sup> . وعن عائشة — رضى

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب البيوع ٦٦/٣ وسنن الترمذى ٦٦٨/٤ رقم ٢٥١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٣١ .

الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »<sup>(١)</sup>.

٣ - الثبات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهي إذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام . وإن النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ولهذا تعددت في العصر الواحد وفي مختلف الأعصار .

٤ - الإلزام المستجاب :

مالذي يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس ؟ وما الذي يريده العالم حين يضع مذهباً في الأخلاق ؟ إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم في السر والعلن ، وفي الوحدة والاجتماع ، وفي النعماء والبأساء .

ولكن مالذي يحدث في كثير من الأحيان ؟

ألا يتحايّل الناس على القانون ، ويتسلّلون من قيوده إذا ما واتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟ ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقي إذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟ ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسفة ؟ ذلك بأن الوازع هنا خارجي لا سلطان له على دخائل النفوس ، وأعماق الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمردت الأهواء والنزعات .

أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة ناقدة تلزم بها في العلن والخفاء ، وفي السراء والضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وإن هذا الإلزام محبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهي من الله — جل جلاله — قد ربي المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحي يمدّها بأعظم الدوافع على الاستمسك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمراً مطلقاً قائماً على الإلزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهياً مطلقاً مبنياً على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح .

اقرأ قوله تعالى في الأمر بغض البصر وصيانة الفرج : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾<sup>(١)</sup> واقرأ قوله تعالى في الدعوة إلى صلح الزوجين : ﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلِحَا بَيْنَهُمَا صَلَاحًا وَاصْلَحَ خَيْرٌ وَأَحْضَرْتِ الْأَنْفُسَ الشَّحَّ وَإِنْ تَحْسَنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ۖ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾<sup>(٣)</sup> والآيات التي تتضمن هذا كثيرة جداً .

#### ٥ - الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الإسلامية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترأ إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ثم يندم على ما اجترح وبأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عتيداً من الدين نفسه ، ورقبياً من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورباه ، ورقبياً من العقل السليم الذى صقله الدين وهداه .

### غايته

تبين أن الأخلاق الإسلامية منفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها وإنها لمتميزة أيضاً بغايتها . وماعسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشربت إليه الإنسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعله الروح الطاهر الذى يسرى فى كل نفس . وفى كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟

(١) سورة النور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات : من ٩٠ حتى ٩٢ .

مالذى يبتغيه الاتقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة ؟

إنها السعادة

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة ، لا الأوهام الملفقة .

السعادة الماثلة ، لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة

التي ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

### شغف النبى ﷺ بمكارم الأخلاق

اصطفاه الله من أكرم دوحة ، وتعهد فى طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾<sup>(١)</sup> و ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾<sup>(٢)</sup> و ﴿ واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾<sup>(٣)</sup> و ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾<sup>(٤)</sup> و ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾<sup>(٥)</sup> .

وكان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة — رضى الله عنها — فسألته عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت كان خلقه القرآن<sup>(٦)</sup> .

فيكيف لا يكون فى القمة من حلو الشوائل وحيد السجايا ؟

لقد كان ﷺ فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق ، اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت »<sup>(٧)</sup> .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٣) سورة لقمان الآية : ١٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٥) سورة فصلت الآية : ٣٤ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب صلاة المسافرين ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسنند أحمد ٢١٦/٦

(٧) مسند أحمد ٨٦/٦ .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »<sup>(١)</sup> وكان ﷺ لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة منها :

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكناًفاً ، الذين يألفون ويؤلفون »<sup>(٢)</sup>.

وقوله : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل **الظامى** بالهواجر »<sup>(٣)</sup>.

وقوله : « من سعادة المرء حسن الخلق »<sup>(٤)</sup>.

وقوله : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »<sup>(٥)</sup>.

وقوله : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »<sup>(٦)</sup>.

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن<sup>(٧)</sup>.

وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال أحسنهم خلقاً<sup>(٨)</sup>.

والذى يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أن النبى ﷺ ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق رباط ، ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يحق الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هى من أهل النار<sup>(٩)</sup>.

وبلغ من كلفه ﷺ بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى لكرم أخلاق أبيها . وقال بعد أن أطلق سراحها « فإن أباه كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق ».

كان ﷺ شغوفاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبتقواه ، فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليفاً بثناء الله تعالى عليه فى كتابه الكريم كقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٩٢/١٠ .

(٢) سند الترمذى ٣٧٠/٤ رقم ٣٠١٨ .

(٣) مسند أحمد ١٣٣/٦ والمستدرک للحاكم ٦٠/١ .

(٤) الخرائط فى مكارم الأخلاق عن جابر — باب الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها .

(٥) مسند أحمد ٣٩٢/٢ .

(٦) سند أبى داود ٦٠/٥ رقم ٤٦٨٢ وسند الترمذى ٤٥٧/٣ رقم ١١٦٢ .

(٧) مسند أحمد ٣٨٥/٤ .

(٨) الجامع الصغير للسيوطى رقم ١٢٩٢ .

(٩) السنن الكبرى للبيهقى ١٦٦/٤ .

عظيم ﴿٢﴾ وقوله : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم ﴾ ﴿٣﴾ وقوله : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ ﴿٤﴾ وقوله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ ﴿٥﴾

وحسبه من هذا التشريف الإلهي أن الله تعالى أقسم بحياته في قوله : ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ ﴿٦﴾ ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد — عليه الصلاة والسلام — وحسبنا من وصف أصحابه له قول علي بن أبي طالب : « إنه كان أجود الناس كفاً ، وأجراً الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه »

### خلق الشجاعة

« لم يكن النبي ﷺ شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى في الشجاعة ، إذ كان شجاعاً في السلم ، وشجاعاً في الحرب ، وشجاعاً في وحدته ، وفي قلة من أنصاره ، وشجاعاً في جماعته ، وفي كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً في جهره بالحق ، وفي دفاعه عن العقيدة ، مهما تكن عاقبة الشجاعة . وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل في صفحاته أسماء كثير من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله ﷺ من ضروب الشجاعة المثل في مصادرها وفي مظاهرها وفي غاياتها .

### مصادرها :

أما مصادر شجاعته فهي وراثته وفطرته وتربيته الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿٧﴾ . وقوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في

(١) سورة القلم الآية : ٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة الحاقة الآيات : من ٣٨ حتى ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٣١ .

(٦) سورة الحجر الآية : ٧٢ .

(٧) سورة التوبة الآية : ٤١ .



سبيل الله فيقتلون ويقتلون \* وعداً عليه حقاً في التوراة والأنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴿١﴾

مظاهرها :

أما مظاهر شجاعة الرسول ﷺ فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأي ، وشجاعة الحرب .

### ١ - شجاعة الرأي :

١ - فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها وعيب آلهتها فمشوا إلى عمه أبي طالب وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد استهينناك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم أبو طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال لمحمد : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله ﷺ فبكى ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب . فقال : أقبل يا ابن أخي فأقبل عليه ، فقال : أذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء<sup>(١)</sup>

٢ - وعرض عتبة بن ربيعة على قريش -- بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب أن يعرض على الرسول أموراً لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والعلاء في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً .

(١) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٨٥/١ .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .  
وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رؤياً تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ : أقدر فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال الرسول : فاسمع منى

قال : أفعل

فقال الرسول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حم ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم \* كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون \* بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون \* وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ﴿ ومضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه ، وعتبة منصت ، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نخلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش . أطيعوني واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم<sup>(١)</sup> .

## ٢ - الشجاعة فى الحرب :

وقد تجلت شجاعته ﷺ الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله ﷺ بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم . وحدث رسول الله ﷺ بقوله : كنت أثبل على أعمامى . ﴿ أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١ .

ثم بعد النبوة كان ﷺ يشارك في المواقع ، ويقدم إقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتماداً على أنه النبي ، فيتواري أو يتحصن ، أو يتخذ مكانه في مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرق إليها تريب أو ملام ، لو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم .

### الغاية من شجاعته :

وأما الغاية من شجاعته فإنها إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال الوثنية ، وإرهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازي العقائد والنظم ومفاسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة ، وأصلح نظام في السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال في سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله <sup>(١)</sup>

فلم تكن الشجاعة التي اتصف بها النبي ﷺ والتي حرص عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المدل بقوته ، المفاخر بها بين الناس ولا شجاعة الثائر المهتاج الذي أشعله الغضب لغير الحق ، بل كانت الشجاعة المثل التي لا تتوخى غير إعزاز دين الله وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التي صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » <sup>(٢)</sup>

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو في قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى وقال : لن أستعين بمشرك <sup>(٣)</sup>

### الإشادة بشجاعته ﷺ

لقد كان المسلمون يعجبون بشجاعة رسول الله ﷺ إعجاباً يصغر في عيونهم شجاعتهم ، ويهون بسالتهم .

يقول الإمام علي : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤٤ .

(٢) سنن أبي داود ١٢٨/٥ رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذی فی الديات حديث رقم ١٤٢١ وابن ماجه فی الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن الترمذی — كتاب السير ١٢٨/٤ رقم ١٥٥٨ .

ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشد بأساً .  
ويقول أنس بن مالك . كان النبي ﷺ أشجع الناس ، فرع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخير ، فإذا النبي ﷺ عائد على فرس ليس عليه سرج ، وفي عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن تُراعوا ، لن تُراعوا» (١).

وقال عمران بن حصين : ما لقي رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

### حضه على الشجاعة

كان النبي ﷺ قدوة المسلمين في شجاعته الحربية ، وغير الحربية ، وكان يحضهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقوال ، ويوضح لهم الغاية النبيلة التي يجب أن يتوخوها في جهادهم ، وله في هذا المجال أحاديث كثيرة منها :

١ - من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد (٢).

٢ - أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر (٣).

قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله (٤).

٤ - « إن في الجنة مئة درجة أعددها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » (٥).

٥ - « لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها » (٦).

٦ - « لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيأ ، ثم أقتل » (٧).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٨٩ .

(٢) سند أبي داود ١٢٨/٥ حديث رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى في الديات حديث رقم ١٤٢١ وسنن ابن ماجه في الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن أبي داود في الملاحم ٥١٤/٤ رقم ٤٣٤٤ والترمذى في الفتن حديث رقم ٢١٧٥ وابن ماجه في الفتن حديث رقم ٤٠١١ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب فضل الجهاد والسير ١٨/٤ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب فضل الجهاد والسير ١٩/٤ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣٤ .

(٧) صحيح البخارى - كتاب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام ٦٤/٤ .

٧ - قال في يوم بدر : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» (١).

## خلق الكرم كرم النبي ﷺ

لم يشغف العرب في الجاهلية والإسلام ، بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم فكان الأمراء والملوك أشد حرصاً على أن يذيع في الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ، ويختصون هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين أحياناً .  
لكن كرم النبي ﷺ كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه العرب ، ولم يألفه غيرهم .

١ - فلم يكن جوده لكسب محمدة أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستقلال ، أو لاجتلاب المادحين ، بل كان في سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

كان في حماية الدين ، وفي مؤازرة الدعوة ، وفي محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله أو عجزوا عن الكسب وكان في رعاية اليتامى والأيتامى ، وكان في تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكمهم على مال ، وكان في اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتماعهم إلى الإسلام .

٢ - وكان من كرم النبي ﷺ إثارة على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، وينذل الكثير ، وهو محتاج إلى القليل ، لأنه لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنية أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هي الدرجة العليا من الكرم التى امتدحها الله تعالى في قوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٢).

لهذا قالت السيدة عائشة : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا » (٣).

٣ - وكان ينفق في سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطى العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط فقال لا .

(٦) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢ .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٧١ .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة<sup>(١)</sup> .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

ولما قفل من حنين جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطوني ردائي ، لو كان لي عدد هذه العضية ( شجر شائك كثير في الصحراء ) نعماً لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً<sup>(٢)</sup> .

٤ - وبلغ من الكرم أنه كان يستحي أن يرد سائله خالي اليدين معتذراً بالفاقة .

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندي شيء ، ولكن اتبع علي ، فإذا جاءنا شيء قضيناه . فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيت من قبل ، فما كلفك الله ما لا تقدر عليه . فكره النبي ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أنفق ولا تخشى من ذي العرش إقلالا ، فأبتسم النبي ، وعرف البشر في وجهه ثم قال : بهذا أمرت<sup>(٣)</sup> .

وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمكك شيئاً .

قال ابن عباس : كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبي ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل — عليه السلام — كان أجود بالخير من الريح المرسلة<sup>(٤)</sup> قال الزين بن المنير : وجه التشبيه بين أجودتيه ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة أن المراد بالريح ريح الرحمة التي يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذي يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أي فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم القيم الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ .

يامن له الأخلاق ما تهوى العلاء

منها وما يتعشق الكرماء

زانتك في الخلق العظيم شمائل

يغرى بهن ويولع الكبراء

(١) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ١٨٠٦/٤ رقم ٢٣١٢ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب الجهاد والسير ٢٧/٤ ومسند أحمد ٨٢/٤ .

(٣) مختصر الشمائل الحمدي للترمذي صفحة ٣٨١ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٠ .

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى  
 وفعلت مالا تفعل الأنواء  
 وإذا عفوت فقادرًا ومقدراً  
 لا يستهين بعفوك الجهلاء  
 وإذا رحمت فانت أم أو أب  
 هذان في الدنيا هما الرحماء  
 وإذا أخذت العهد أو أعطيته  
 فجميع عهدك ذمة ووفاء  
 وإذا خطبت فللمنابر مهزلة  
 تعرو الندى وللقلوب بكاء  
 وإذا غضبت فإمما هي غضبة  
 للحق لا ضغن ولا شحنا  
 لو أن إنساناً تخير ملة  
 ما أختار إلا دينك الفقراء

### حضه على الكرم ﷺ

لاطلما حض النبي ﷺ على الكرم بمعناه الذي يرتضيه الإسلام ، من بذل في تقوية الجيش ، أو  
 في الدفاع عن الدعوة ، أو في البر بالفقراء .  
 من هذا قوله :

١ - قال رجل للنبي ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تتصدق وأنت صحيح حريص ،  
 تأمل الغني وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد  
 كان لفلان »<sup>(١)</sup>

٢ - سأل رجل النبي ﷺ : أى الاسلام خير ؟ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير —  
 فقال له : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »<sup>(٢)</sup>

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١١ .

(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان ١١٥١ .

- ٣ - عَدُّ من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم القيامة رجلاً تصدق فأخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ( متفق عليه )<sup>(١)</sup>
- ٤ - وقال لأسماء بنت أبى بكر الصديق : « أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك . ولا توعى فيوعى الله عليك » ( متفق عليه )<sup>(٢)</sup>.
- ٥ - « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »<sup>(٣)</sup>.
- ٦ - من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »<sup>(٤)</sup>.
- ٧ - « إذا طبختم اللحم فأكثرُوا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران » ( الجامع الصغير )<sup>(٥)</sup>
- ٨ - « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه »

### خلق العدل

المراد بالعدل هنا إعطاء كل ذى حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ومؤاخذه المسىء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعانات أو محاباة .

#### مظاهره :

استقى النبی ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية وكانت فطرته السليمة مهية للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك في حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف الفضول قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبي ﷺ هذا الحلف ، وقال : « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٠٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٩١ .

(٤) مسند أحمد ١٧٤/٢ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطي ٣٩٧/١ رقم ٧٤١ .



ما أحب أن لى به حُمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت»<sup>(١)</sup> ( سيرة ابن هشام )  
ثم إن النبى ﷺ هو المبلغ للشريعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها ، وهو آتاضى الأول الذى  
يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟  
أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ - لما نزل قوله تعالى : ﴿ وأندر عشيرتك الأقربين ﴾ ناداهم بطناً بعد بطن ، فقال :  
يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .  
يا بنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .  
يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .  
يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .  
يا فاطمة بنت محمد ، سلبنى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً<sup>(٢)</sup>  
٢ - كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم ، فكان يجل العباس  
اجلال الوالد والوالدة ، ولكنه لم يفضلهم فى عطاء .

٣ - شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها ، وطلبت منه خادماً من  
السبى يكفيها مئونة العمل ، فأمرها أن تستعين بالتسييح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك  
وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع<sup>(٣)</sup>

فأثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفه المسجد ، وليس لها مرتزق .  
كان يُعدلُ صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قدحٌ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزیه وهو  
نائى من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ،  
وقد بعثك الله بالحق ، فأقذن ( أى دعنى أقتص منك ) .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استقد يا سواد ، فعانقه سواد ، وقبل بطنه ،  
فقال الرسول ، ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ،  
فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير » ( سيرة ابن  
هشام ، وتاريخ الطبرى )<sup>(٤)</sup> .

٥ - سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : « ومن يكلم فيها رسول الله ؟

(١) سيرة ابن هشام ١/١٤١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣ .

(٣) الحلية لأبى نعيم ٤١/٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢/٢٧٨ .

ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء في خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ( متفق عليه )<sup>(١)</sup>.

٦ - قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن على المهاجرين ، والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فندمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى ظنوا أن الرسول حائى قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم ، لما صنعت في هذا الفىء الذى أصبت .

قال الرسول ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

قال : فاجمع لى قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتني عنكم ، وموجدة وجدتموها على في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى الله ورسوله أمن وأفضل .

ثم قال : ألا تحببوني يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، وغخدولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شيعاً وسلكت الأنصار شيعاً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً<sup>(٢)</sup>.

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب المغازى ٢٠٠/٥ .

## حضه على العدل والمساواة ﷺ

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح ، قال تعالى : ﴿ ان أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾<sup>(١)</sup>.

١ - وقال عليه الصلاة والسلام : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ولا فضل لعربي على عجمي ، ولا عجمي على عربي ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الشاهد الغائب » ( كنز العمال )<sup>(٢)</sup>.

٢ - وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »<sup>(٣)</sup>.

وقال ﷺ : « لا يقضين حكم بين اثنين وهو غضبان » ( متفق عليه )<sup>(٤)</sup>.

٤ - وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »<sup>(٥)</sup>.

وقال : « من كانت له امرأتان فمال إلى احدهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »<sup>(٦)</sup>.

٦ - وقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »<sup>(٧)</sup>.

٧ - إن الله تعالى ليحلى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته<sup>(٨)</sup>.

## خلق العفة

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته مالا يحل له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفة .

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣ .

(٢) كنز العمال ٩٥/٣ رقم ٥٦٥٥ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب المظالم ١٥٩/٣ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١١٩ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب المظالم ١٦٠/٣ .

(٦) مسند أحمد ٣٤٧/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٦٨ .

## مظاهرها :

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات في جميع ضروب العفة وأنواعها فقد كان المثل الأعلى في الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالأمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد .

١ - أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيات التي لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته ، فلم يزل قيط ، ولم يهم بفاحشة قط ، حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو محرماً أو ملك يمين .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس في عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ، أو تمر بعض نساء يبدو منهن — من غير قصد — شيء من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يغمضوا أبصارهم ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال — عليه الصلاة والسلام — لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فغمضوا الأبصار ، وردو السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف<sup>(١)</sup> .

٢ - وكان الرسول ﷺ عفيف اللسان حتى في أشد حالات الخصام ، لم يعرف البذاء والسباب سبيلاً إلى شفثيه .

لما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دوس<sup>(٢)</sup> .

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعناً ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

فلم يشأ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين في غزوة الأحزاب بقوله : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »<sup>(٣)</sup> .

لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

(١) الخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عباس

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى ٢٢٠/٥ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى ١٤٢/٥ .

## حضه على العفة ﷺ

حرص رسول الله ﷺ على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة في كثير من أحاديثه كقوله :

- ١ - أن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال<sup>(١)</sup>
- ٢ - اليد العليا خير من اليد السفلى . ( اللؤلؤ والمرجان )<sup>(٢)</sup>
- ٣ - لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه<sup>(٣)</sup> ( متفق عليه ) .
- ٤ - ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس<sup>(٤)</sup> ( متفق عليه )
- ٥ - سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوهم فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده فقال : « ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » ( متفق عليه )<sup>(٥)</sup> .
- ٦ - معاشر الشباب ، عليكم بالبلاء ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فالصوم وجاء<sup>(٦)</sup> .
- ٧ - ذكر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله<sup>(٧)</sup> .

## خلق الصدق

أجمع الذين عرفوا النبي ﷺ وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين لم يسمعوا من فمه أكذوبة قط ، ولم يشكوا في خبر من أخباره ، أو يستريبوا في قول من أقواله .

- ١ - فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدىء به روعه حين أتاها خائفاً بعد أن نزل عليه الملك يقول ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ خيراً من قولها له : أبشر ، فوالله لا يخرىك الله أبداً ، ووالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق<sup>(٨)</sup> .

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الزهد ٢/١٣٨٠ رقم ٤١٢١ .  
 (٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٢ .  
 (٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٨ .  
 (٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٤ .  
 (٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٧ .  
 (٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٨٤ .  
 (٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .  
 (٨) صحيح البخارى - كتاب التفسير ٦/٢١٤ .

٢ - وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة وصعد الصفا فقال :  
يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما  
كنتم تصدقونني ؟ قالوا : بلى ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .  
فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله  
وما كسب \* سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ (١).

٣ - على أنهم وإن كذبوه في دعوى النبوة لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب في سواها ،  
فقد قال أبو جهل للنبي ﷺ إننا لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل  
الله تعالى : ﴿ فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ (٢).

٤ - ولما سأل هرقل امبراطور الروم أبا سفيان في ركب من قريش بعد صلح الحديبية : « هل  
كنتم تتهمونهم بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال ، لا ، فقال : ما كان ليدع الكذب على الناس  
ويكذب على الله » (٣) (الحديث بقوله في البخارى)

٥ - جاء في وصف على بن أبى طالب لرسول الله ﷺ أنه كان أصدق الناس لهجة (٤)

### الرسالة

لقد صدق رسول الله ﷺ في تبليغه عن ربه ، لكن قريشا التى وثقت واطمأنت إلى صدقه في  
صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ - فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذى يصدقهم  
الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله .

ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ماران عليها من حجب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا  
وشهواتها لأيقنوا أن النبى يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أوج  
التوحيد الخالص الذى تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموا عن هذا كله ، وعموا عن البيّنات الدالة على صدق الرسول ولم يتبصروا في قوله  
تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد  
عنه حاجزين ﴾ (٥).

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٣ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب بدء الوحي ٧/١ .

(٤) سنن الترمذى — كتاب المناقب ٥٩٩/٥ رقم ٣٦٣٨ .

(٥) سورة الحاقة الآيات : من ٤٤ حتى ٤٧ .

لأنه لو كان مدعياً للنبوّة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذى لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ - على أن النبى — وهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه — قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأمور ستقع وقد وقعت فعلاً ، فمن أين جاء النبى بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾<sup>(١)</sup> .

من أين جاء النبى بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنبوّة ولا رسالة ﴿ قل لو شاء الله مآثلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله \* أفلا تعقلون ﴿<sup>(٢)</sup>

٣ - وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبى ﷺ إلى الهداية ، ويتشوف إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحي بالقضاء الحاسم .

ويكفى أن أشير هنا إلى قصة الإفك التي نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحي ، والمسلمون في قلق ، والنبى في قلق ، والنبى ﷺ نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحي بتبرئتها مما افتروا عليها .

فلو أن النبى كاذب — كما يدعون — لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرسون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهى أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار : لأن الفرية مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ، ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبى نفسه ﷺ وعرض صديقه أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد في هذا المأزق عن أن النبى ﷺ عربى من أشرف قبيلة في العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وخيانة لنسائهم لم يكن ما بين الأمم نظير ومثال .

٤ - على أن الوحي كان ينزل أحياناً بالم يكن النبى يتوقعه ، فيأذن له في شىء لا يقبل عليه ، كتحريره بعض الطعام على نفسه . أو يعاتبه في عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه في أن يتخلفوا من غزوة تبوك ، معتردين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم في الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ وسيحلفون بالله لو

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٦ .

استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين <sup>(١)</sup> .

٥ - والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدى صارخاً ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا ، عجزاً فاضحاً ، ولكنهم حاولوا أن يستردوا خزيهم فاتهموا النبي بأنه شاعر ، وبأنه كاهن ، وبأنه ساحر ، ولم يسائلوا أنفسهم لم قدر هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلمهم ساءلوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم في الغي والضلال .

وشئ آخر بأنهم بأذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام ، وتمييز بعضه من بعض كانوا يجدون فرقاً كبيراً من القرآن وكلام النبي ﷺ ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا في البلاغة ، ولكن كلام النبي على كثرة رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يدع النبي نفسه ولم يدع أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .

فأنى له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزاً ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكي هذا الكلام ؟

٦ - ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذى كانوا يظنون أنه يدفع النبي إلى الكذب ؟ لقد احتمل في دعوته أفدح المخاطر ، وأقصى الشدائد . وصبر على مالا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان ، ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يحن من وراء دعوته ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان .

فلو أنه كان كاذباً — كما يدعون — لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يؤسوا من تراجعه عن الدعوة إلى الإسلام الذى يسفه عقولهم ويلغى أديانهم ، ويبتل كثيراً من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقاً لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء .

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسوراً عليه . بل آثر أن يقضى حياته زاهداً مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان .

٧ - على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حينما من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأشربتها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم وأموالهم ، لأنهم أيقنوا أن محمداً الذى لم يكذب عليهم قط لم يكذب على الله قط ، وليس بصاحب بهتان ولا طالب مال أو جاه .



## حضه ﷺ على الصدق

للسول ﷺ كثر من الأحاديث في الأمر بالصدق وتزيينه ، وفي النهى عن الكذب وتقييحه ، منها قوله :

١ - « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »<sup>(١)</sup>.

٢ - « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »<sup>(٢)</sup>.

٣ - « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما محقت بركة بيعهما » ( متفق عليه )<sup>(٣)</sup>.

٤ - « تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة » ( كنز العمال )<sup>(٤)</sup>.

٥ - « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور فمزال يكررها حتى قلنا ليته سكت »<sup>(٥)</sup>.

« كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق ، وأنت له به كاذب »<sup>(٦)</sup>.

## خلق الأمانة

أمانة الرسول ﷺ كفضائله ، كلها شاملة كاملة متعددة المظاهر :

١ - وليس من شك في أن مظهرها العظيم هو نهوضه بتبليغ الرسالة التي ائتمنه الله عليها ، وكلفه أن يقوم بها ، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام ، واحتمل في سبيلها أشق ما يحتمله بشر .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٥ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩٨٠ .

(٤) كنز العمال ٣/٣٤٤ رقم ٦٨٥٦ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٤ .

(٦) مسند أحمد ٤/١٨٣ .

٢ - وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين ، ولهذا رحبوا بتحكيمة فيما كان يهم من نزاع ، وارتضوا ما قضى به في شأن وضع الحجر الأسود ... ( تاريخ الطبرى )

٣ - كان رسول الله ﷺ « إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى ثلاثاً في الناس فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمها ويخمسها ، فجاءه رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالاً ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال فما منعك أن تأتيني به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبي ﷺ لن أقبله منك حتى تكون أنت الذى توافيني به يوم القيامة »<sup>(١)</sup>

٤ - استعمل رسول الله ﷺ عاملاً — ابن اللثبية — على الصدقة ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أهدي إليّ ، فقال له : أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك ، فنظرت أيهدي إليك أم لا .

ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدي إليّ ؟ أفلا قعد في بيت أبيه وأمه ، فنظر هل يهدي له أم لا ؟

فوالذى نفس محمد بيده لا يغفل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيراً جاء له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار ، وإن كانت شاة جاء بها تيعر<sup>(٢)</sup> (خ)

٥ - قال جابر بن عبد الله : أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد ضحى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لى عليه دين فقضاني وزادني<sup>(٣)</sup> .

٦ - أتى رجل إلى النبي ﷺ يتقاضاه ، فأغلظ ، فهم به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، ثم قال : أعطوه سنأ مثل سنه ( أى جملاً سنه مثل الذى له ) قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال : أعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء<sup>(٤)</sup> .

### حظه عليه ﷺ على الأمانة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ - « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »<sup>(٥)</sup> ( أخرجه أبو داود والترمذى ) .

(١) سنن أبى داود — كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٧١٢ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٠٢ .

(٣) مسند أحمد ٣/٣١٩ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٢ .

(٥) سنن أبى داود — كتاب البيوع ٨٠٥/٣ رقم ٣٥٣٥ والترمذى فى البيوع حديث رقم ١٢٦٤ .

٢ - « من انتهب فليس منا »<sup>(١)</sup>.

٣ - « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين »<sup>(٢)</sup>.

٤ - « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيته ، والخدام راع في مال سيده ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع في مال أمه وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »<sup>(٣)</sup>.

٥ - ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »<sup>(٤)</sup> (خ)

٦ - « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »<sup>(٥)</sup>.

### خَلَقَ الصَّبْرَ

قضى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفت صوتها ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون في هذه الدعوة تسفيهاً لعقولهم ولآهتهم ، وتقويضاً لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها ، فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصراراً عليها ، وكلما أمعنوا في إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله في ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له في الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرضعون مناره ، ويفدون به بأعلى ما يفتدى به عزيز .

١ - لقد صبر الرسول ﷺ على جراح الألسنة ، وإنها لأليم في مجتمع يحرص على الشاء وحسن الأحذوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام في المجتمع المعاصر ، حتى كان بعض السراة يغدق على الشعراء استدراكاً لمذائهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله ﷺ في مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلى أن يسمعوا قومه ، ليرفعهم من

(١) سنن الترمذى — كتاب السير ١٥٤/٤ رقم ١٦٠١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٩ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٩٩ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الاستقراض ١٤٤/٣ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٧ .

الضلالة إلى الهدى ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلى أن يعمدوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول ﷺ بأنه حالم يهذى بما تراهى له في المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء . وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه في شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة في التأثير والاستهواء ثم يتجادون في السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء .

٢ - وكثيراً ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة يريدون أن يصدوه عن سبيل الله ، ويريدون أن يؤسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذى يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذى يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان الصبر العظيم دليلاً على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطلب ملكاً ، ولا بيتغى جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات وجعلوا يتحملون أذى المشركين في شجاعة وثبات وهم يودون أن يفتدوا رسول الله ﷺ مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء .

( أ ) قال ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ في المسجد وهو يصلى ، فقال : أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبی وهو ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبی لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً ، ولم يزل الرسول ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة - رضی الله عنها - بنت النبی ﷺ فرمت القدر بعيداً عنه<sup>(١)</sup> .

( ب ) انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة - وكانت للرسول مصدر حنان وخير معين - ووفاة عمه أبى طالب - وكان له عضداً ونصيراً - وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمنت في الأذى وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى فاعترضه سفيه من قريش ، فحنا على رأسه تراباً ، فدخل الرسول ﷺ على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وتبكي ، وهو يقول لها ، لا تبكى يا بنية فإن الله مانع أباك<sup>(٢)</sup> .

( ج ) لما مات أبو طالب واشتدت قريش في إيذاء النبی خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ ساداتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : أنزع أستار الكعبة وأرميها إن

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٢ .

(٢) سيرة هشام ٥٨/٢ .

كان الله قد أرسلك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لكن كنت رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك فقام الرسول من عندهم يائساً من ثقيف ، وقال لهم : أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكمثوا عني ، لأنه خشي أن يعلم قومه بما حدث له فيزدادو جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونهم ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان فاستظل بكرمة فيه

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل لي غضبك أو يحل لي سخطك ، لك العتيبي ولا حول ولا قوة إلا بك<sup>(١)</sup>.

٣ - ثم هاجر النبي من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابعت محاربتهم له ، وكثيراً ما جمعوا جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالي بالمدينة .

ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرصوهم على حربه تارة .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ولقد انتصر النبي ﷺ في بدر والخندق وغيرهما ولكنه فقد كثيراً من خلصائه وأحبابه فصير

٤ - وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده وأعلى ثمره وبضعاً من نفسه ، فإنه فقد قبل البعثة طفليه القاسم وعبد الله - الملقب بالطاهر والطيب - ثم فقد بعد البعثة كريماته زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن .

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضاً عما فقد ، وأمل أن يبقيه الله ، ليسعد به في شيخوخته ، وليكون له عقباً وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر حتى مرض . فلما كان في الاحتضار أخبر النبي ﷺ فاعتمد على عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم في حجر أمه ، وهو يصعد آخر أنفاسه ، فوضعه في حجره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنا يا إبراهيم لا نغني عنك من الله شيئاً ، ثم صمت وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخزنا سيلحق بأولنا لحزننا عليك أشد من هذا .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال النبي ﷺ : العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لحزونون<sup>(١)</sup>.

### حضه على الصبر ﷺ

لقد علم النبي ﷺ المسلمين الصبر عملاً ، وعلمهم الصبر إرشاداً وقولاً فحضهم على الصبر ، وحببه إليهم ، ونفّرهم من الجزع ، وبغضه لهم وله في هذا أحاديث كثيرة منها :

١ - « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أوجرنى في مصيبتى ، وأعقبني خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك »<sup>(٢)</sup>.

٢ - « ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتّ عنه خطاياها كما يحات ورق الشجر »<sup>(٣)</sup>.

٣ - « أتى بعض المسلمين رسول الله وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمراً الوجه ثم قال : إن من قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة<sup>(٤)</sup> ويحاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه »

٤ - « إن الله تعالى قال » إذا ابتليت عبدى بمصيبتيه — يريد عينيه — فصبر عوضته منهما الجنة »<sup>(٥)</sup>.

٥ - « الصبر نصف الإيمان »<sup>(٦)</sup>.

٦ - « الصبر ضياء »

٧ - ليس منا من لطم الحدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »<sup>(٧)</sup>.

٨ - « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »<sup>(٨)</sup>.

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٣٢ .

(٢) مسند أحمد ٣٠٩/٦ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الطب ١٤٩/٧ .

(٤) مسند أحمد ٣٩٥/٦ .

(٥) مسند أحمد ١٤٤/٣ .

(٦) المستدرک للحاکم ٤٤٦/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٥ .

(٨) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤ رقم ٢٩٩٩ ومسند أحمد ٣٣٢/٤ .

## خلق الحلم

كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في الحلم لأن الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : ﴿ خذ العفو ﴾ وأمر بالعرف ﴾ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وإما ينزغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله ﴾ إنه سميع عليم ﴾ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ﴾ فإذا هم مبصرون ﴾ <sup>(١)</sup> وبقوله : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

ففي الآية الأولى أمر بالحلم وبالاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام وفي الآية الثانية مساواة بين كظم الغيظ والبذل في سبيل الله والعفو عن الناس . فإذا علمنا أن كظم الغيظ أقل شأنًا من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ...

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة في سعة الصدر وسماحة النفس التي تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدل إلا اللجاج والعناد ، والحلم في كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التي لا تغنى قوة غناها .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التي جذبت إليه النفوس وألفت حوله القلوب ، وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ <sup>(٣)</sup> .

— جاءه أعرابي يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك ؟ قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابي ، وزاده شيئاً ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبي : إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابي : نعم .

فلما كان الغداة أو العشي جاء ، فقال النبي : إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

قال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال الرسول : إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني وبين ناقتي ، فإنني أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها من بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها<sup>(١)</sup> .

أرأيت إلى رسول الله ﷺ — كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه ؟ أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعائه ؟

طلب منه أصحابه في موقعة أحد أن يدعو على المشركين الذين شجوا وجهه ، وكسروا ربايته حتى سال الدم على وجهه الشريف ، فقال : « إني لم أبعث لعانا ، ولكنني بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » . ( اللؤلؤ والمرجان )<sup>(٢)</sup> .

حدث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يمشي يوماً وأنا معه ، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً ، وكان على النبي برد نجراني غليظ الحاشية فنظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جذبه .

وقال الأعرابي : يا محمد ، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أهلك .

فسكت النبي ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت لي ؟ قال الأعرابي . لا قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابي : لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم أمر أن يحمل للأعرابي على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

### غضب الحليم

لكن من الأحداث ما لا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ، فلا بد من غضب غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول ﷺ صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامي حقيقة ، فمن حقه أن يحلم على ما يصيبه هو في سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها قال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١٥٩/٣ رقم ٢٤٧٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٠ .

(٣) سورة التوبة الآية : ٧٣ .



هنا كان رسول الله ﷺ يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب لأن غضبه لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق ، وكما قالت السيدة عائشة ، ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينقم الله بها<sup>(١)</sup> . يكن غضب الرسول ﷺ لائق برسائله وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

### حظه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله ﷺ التي تحض على الحلم مظهراً قولياً من حلمه العملي . مثال ﷺ :

- ١ - « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله »<sup>(٢)</sup> .
- « ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له الولد ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافهم ويرزقهم »<sup>(٣)</sup> (خ) .
- ٣ - « قال رجل لرسول الله يا رسول الله مرني بعمل وأقلل : قال : لا تغضب ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب »<sup>(٤)</sup> (خ) .
- ٤ - قال لأصحابه : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »<sup>(٥)</sup> .
- ٥ - « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »<sup>(٦)</sup> ( الجامع الصغير ) .

### خلق الرحمة

تعددت مظاهر رحمته ﷺ وتنوعت ، فوسعت المسلمين ، وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الأحرار والأرقاء ، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسي والحيوان .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٥٠٢ .

(٢) مسند أحمد ١٢٨/٢ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٣١/٧ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٣٥/٧ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٦ .

(٦) الجامع الصغير للسيوطي رقم ٨٩٩٧ .

قدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال ما جئتك حتى أبكيك والدي فقال ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما<sup>(١)</sup>.

جاء آخر إليه ليستشير في الجهاد ، فقال : ألك والده ؟ قال : نعم قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها<sup>(٢)</sup>.

شكا إليه رجل أنه يتأخر عند صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس فغضب رسول الله ﷺ وقال إن منكم منقرين فأياكم صلى بالناس فليتجاوز — فليخفف — فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة<sup>(٣)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز — أخفف — في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمة<sup>(٤)</sup>.

ولما فتح مكة ﷺ قال : يا معشر قريش ، ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم فقال : أذهبوا فأنتم الطلقاء<sup>(٥)</sup>.

وكان ﷺ يداعب الأطفال ، ويجلسهم في حجره ، وكان يصفُّ عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق إليّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعدون على صدره ، فيقبلهم ، ويلتزمهم<sup>(٦)</sup>.

أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال رسول الله ﷺ أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لا يرحم لا يرحم<sup>(٧)</sup>.

أكل يوماً رطباً في يمينه ، فحفظ النوى في يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسري ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ وانصرفت الشاة .

رأى حمراً قد وسُم في وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان في وجهه ، وعن ضربه على وجهه<sup>(٨)</sup> ( تيسير الوصول ) .

سافر مع بعض أصحابه ، فأروا حُمرة معها فرخان لها ، فأخذوها فجاءت تفرش ، فلما رآها رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها ( والحمرة نوع من الطير كالعصفور )<sup>(٩)</sup>.

(١) سنن النسائي — كتاب البيعة ١٤٣/٧ .

(٢) سنن النسائي — كتاب الجهاد ١١/٦ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٦٧ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٧١ .

(٥) سيرة ابن هشام — فتح مك — ٥٥/٤ .

(٦) مسند أحمد ٢١٤/١ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٧ .

(٨) صحيح مسلم — كتاب اللباس والزينة حديث رقم ٢١١٧ وسنن أبي داود — كتاب الجهاد حديث رقم ٢٥٦٤ .

(٩) سنن أبي داود — كتاب الجهاد ١٢٥/٣ رقم ٢٦٧٥ .

## حضه على الرحمة

كثيراً ما أمر رسول الله ﷺ بالرحمة ، وكثيراً ما نهى عن القسوة ، وهو في أمره وفي نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

قال ﷺ :

١ - من لا يرحم لا يرحم<sup>(١)</sup> (خ).

٢ - من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا<sup>(٢)</sup>.

٣ - « إن الله يحب الرفق في الأمر كله » (خ)<sup>(٣)</sup>

٤ - من أحب أن ينسأ له في أثره ، ويوسع عليه في رزقه فليصل رحمه<sup>(٤)</sup>

٥ - « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ... »<sup>(٥)</sup>.

تجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول ﷺ أنه برسالته الخالدة ، وبأدبه الإلهي ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان الكامل والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزره في أعلى صورها ، في سلمه وحربه ، وفي بيته وبين صحبه ، وفي رضاه وغضبه ، وفي سره وجهره ، وفي وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ، ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء وفي كل شأن من شؤونه جل أو صغر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يشن به على نبي من أنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ وإنك لعل خلق عظيم ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٩/٨ .

(٢) سنن أبى داود ٢٣٢/٥ رقم ٤٩٤٣ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب الأدب ١٤/٧ .

(٤) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٦/٧ .

(٥) صحيح البخارى — كتاب الأدب ٧/٨ .

(٦) سورة القلم الآية : ٤ .

قال تعالى :

فَلَا تَطْعِ الْمَكْذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدَّهْنُوْنَ فَيُدْهِنُوْنَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بَنِيمٍ ﴿١١﴾  
مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُثْلَى عَلَيْهِ أَيْتُنَا قَالَ  
أَسْطِيراً الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾

### معاني المفردات

﴿ ودوا لو تدهن ﴾ : أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم . ﴿ فيدهنون ﴾ : فهم يلاينونك ويصانعونك . ﴿ حلاف ﴾ : كثير الحلف في الحق والباطل . ﴿ مهين ﴾ : حقير في الرأي والتميز . ﴿ هماز ﴾ غياب أو مغتاب للناس . ﴿ مشاء بنيم ﴾ : بالسعاية والإفساد بين الناس . ﴿ عتل ﴾ : فاحش لثيم ، أو غليظ جاف . ﴿ زنيم ﴾ : دعى ملصق بقومه أو الشرير . ﴿ أساطير الأولين ﴾ : أباطيلهم المسطرة في كتبهم . ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ : سنلحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الأنف .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه مقالة المشركين في الرسول — أردفه بما يقوى قلبه ويدعو إلى التشديد مع قومه ، مع قلة العدد وكثرة الكفار فنهاه عن طاعتهم عامة ، ثم أعاد النهي عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التي ذكرت في هذه الآيات خاصة ، دلالة على قبح سيرتهم ، وضعة نفوسهم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا تطع المكذبين ﴾ ودوا لو تدهن فيدهنون .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهَنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك القرآن العظيم ، والشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فَلَا تَطْعُ الْمَكْذِبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدْهَنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ قال ابن عباس : ودوا لو نرخص لهم في رخصون لك . وقال مجاهد : المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيما لثونك . وقال الحسن : ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم . قال القرطبي كل هذه الأقوال صحيحة : - أن شاء الله تعالى - على مقتضى اللغة والمعنى ، فإن الأدهان اللين والمصانعة . وقيل : مجاملة العدو مما يلته ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَيَمْسَكُمْ النَّارُ وَمَالُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَا تُخْذَلُ خَلِيلًا ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ يُكْفَرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ . مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴾ .

أى : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق والباطل ، والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على الله - ضمه ومهانتة أمام الحق ، وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله . والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف من جعله المولى فاتحة المثالب ، وأس المعاييب .

والمهين : الضعيف القلب ، قال مجاهد ، وقال ابن عباس : الكذاب . وقيل معناه : الحقير عند الله تعالى . وقال الرُّمَّانِي : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح وهو فاعيل من المهانة بمعنى القلة . وهى هنا القلة فى الرأى والتميز .

وقوله تعالى ﴿ هَمَّازٌ ﴾ قال ابن زيد : الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم . واللماز باللسان قال تعالى : ﴿ وَيَلْ لَّكُلِّ هَمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ وقال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

وقوله تعالى : ﴿ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ويحرس بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الخالقة للدين وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث . فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة غمام » (٤) . (رواه مسلم) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال :

(١) سورة هود الآية : ١١٣

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان غلظ تحريم النعمة » فقد ورد الحديث بلفظه رقم ١٠٥/١٦٨ من رواية لحذيفة .

«إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة»<sup>(١)</sup>.

وقال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن : أن الرسول ﷺ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى - عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراكم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبراء العنت »<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى : ﴿ منع للخير معتد أثيم ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير . ﴿ معتد ﴾ فى تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد لمشروع ، ﴿ أثيم ﴾ أى : ذى إثم ، أى : يتناول المحرمات .

وقوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال القرطبي رحمه الله : العتل الجافى الشديد فى كfreه ، وقال الفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : إنه الذى يعتل الناس فيجرهم إلى حبس أو عذاب . مأخوذ من العتل وهو الجر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خذوه فاعتلوه ﴾<sup>(٣)</sup> . والعتل : الغليظ الجافى وقال معمر : هو الفاحش اللثيم .

وفى صحيح مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبى - ﷺ - قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ » قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر » والجواظ : قيل هو الجموع المنوع . وقيل : الكثير اللحم المختال فى مشيته .

وأما ( الزنيم ) فقال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ( عتل بعد ذلك زنيم ) قال : « رجل من قريش له زغبة مثل زغبة الشاة »<sup>(٤)</sup> ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزغبة من بين أخواتها .

ولما الزنيم فى لغة العرب هو الدعى من القوم قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة .

وقال العوفي عن ابن عباس : الزنيم الدعى ، ويقال : الزنيم رجل كانت به زغبة يعرف بها ، ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى ، قال محمد بن اسحاق : نزلت فى الأخنس بن شريق ، لأنه حليف ملحق فى بنى زهرة ، فلذلك سمي زنياً . وقال ابن عباس : فى هذه الآية نعت ، فلم يعرف حتى قتل فعر ، وكان له زغبة فى عنقه معلقة يعرف بها .

وقوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مال وبنين . إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل - وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ

(١) انظر صحيح البخارى : ج ٢ ص ١٢٤ باب عذاب القبر من الغيبة والبول فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع تقديم وتأخير وزيادة .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٥٩ فقد ورد الحديث من رواية لأسماء بنت يزيد بن السكن .

(٣) سورة الدخان من الآية : ٤٧

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٨ تفسير ( ن والقلم ) فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

ماخوذ من أساطير الأولين كقوله تعالى : ﴿ ذُرِّي وَمِنْ خَلَقْتَ وَحِيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبينين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سارهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . ساء عليه سقراً وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لوحاً للبشر . عليها تسعة عشر ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال ابن عباس : معنى ( سنسمه ) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذي نزلت فيه يوم بدر بالسيف : فلم يزل مخطوماً إلى أن مات .

وقال أبو العالية ومجاهد : ( سنسمه على الخرطوم ) أى : على أنفه ، ونسود وجهه في الآخرة فيعرف بسوء وجهه . والخرطوم الأنف من الإنسان .  
قال القرطبي - رحمه الله - : وهذا كله نزل في الوليد بن المغيرة ولانعلم أن الله - تعالى - بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فالحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا والآخرة ، كالسم على الخرطوم .

### قصة أصحاب الجنة

قال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾  
وَلَا يَسْتَنْتُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ  
كَالْصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنْتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾  
فَانْطَلِقُوا وَهُمْ يَخْخَفُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾  
وَغَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّارُوا هَاقَالُوا إِنَّا لَصَٰلَتُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ  
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ  
رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتْلَوُمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يٰوَيْلَنَا  
إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبِّنَا أَن يُّبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾  
كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

## معاني المفردات

- ﴿ بلوناهم ﴾ امتحناهم بألوان من البلاء والآفات .
- ﴿ الجنة ﴾ : البستان .
- ﴿ ليصر منها ﴾ أى : ليقطعن ثمار نخليها .
- ﴿ مصبحين ﴾ : أى : وقت الصباح .
- ﴿ ولا يستنون ﴾ : أى : يستنون عما هموا به من منع المساكين .
- ﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أى : طرقها طارق من عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها .
- ﴿ كالصريم ﴾ أى : كالليل البهيم فى السواد بعد أن احترقت .
- ﴿ فتنادوا ﴾ أى : نادى بعضهم بعضاً .
- ﴿ أن اغدوا ﴾ أى : اخرجوا غدوة مبكرين .
- ﴿ حرثكم ﴾ أى : بستانكم .
- ﴿ صارمين ﴾ أى : قاصدين الصرم وقطع الثمار .
- ﴿ يتخافتون ﴾ أى : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافة والمناجاة حتى لا يسمعهم أحد .
- ﴿ على حرد ﴾ أى : على منع .
- ﴿ الضالون ﴾ أى : قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه هى .
- ﴿ محرومون ﴾ أى : حرمتنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا .
- ﴿ أوسطهم ﴾ أى : أرجحهم رأياً .
- ﴿ تسبحون ﴾ أى : تذكرون الله وتشكرونه على ما أنعم به عليكم .
- ﴿ يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين .
- ﴿ طاغين ﴾ أى : متجاوزين حدود الله .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرد لما آتاه الله من النعم - أردف هذا ببيان أن ما أوتيهم إنما كان ابتلاء وامتحاناً ليرى أيصرف ذلك فى طاعة الله وشكره ، أم يكفر بها ؟ كما أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصى دمر الله جنتهم ، فما بالك بمن حاد الله ورسوله ، وأصر على الكفر والمعصية .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ .



قال العلامة ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدي اليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد - ﷺ - اليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أى : اختبارناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إذا أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذون ثمرها ليلاً ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله فى إيمانهم فقال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أى : كالليل الأسود وقال السدى : مثل الزرع إذا حصد أى هشيأ يسأ . ﴿ فنادوا مصبحين ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجذاذ أى : القطع . ﴿ أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى : تريدون الصرام . ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله - سبحانه - وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وغدوا على حرث قادرين ﴾ قال مجاهد : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أى : جد ، وقال عكرمة : على غيظ ، ﴿ قادرين ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرمون . ﴿ فلما رأواها قالوا إنا لضالون ﴾ أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها وهى الحالة التى قال الله - عز وجل - قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلمة لا ينتفع بشيء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا الضالون ﴾ أى : قد سلكنا إليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فيه . وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : بل هى هذه ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب ﴾ قال أوسطهم ﴿ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أى أعد لهم وخيرهم ﴾ ألم أقل لكم لولا تسبحون ؟ ﴿ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجح ولهذا قالوا : ﴿ إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أى : اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴾ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴿ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة والله أعلم .

وقال ابن كثير : ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوههم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوههم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : كان أبونا أحق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال ، والربح ، والصدقة ، فلم يبق لهم شيء .

قال الله - تعالى - ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير ، وذوى الحاجات وبدل نعمة الله كفراً ﴿ وللعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق وأبقى ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيرهم وثابوا إلى رشدهم .

وفى هذا نعى عليهم بالغفلة ، وأنهم ليسوا من أرباب النهى والمعرفة .

### قصة حذوان شعراً ( للشيخ الصاوى شعلان ) :

الحرص قد يجعل الأحرار عبدانا  
وقد يصوغ من الأموال أوثانا !  
إذا رأيت قلوبا بالندى بخلت  
فاصنع بها فى أثاث البيت جدراننا !  
كم قصة فى كتاب الله ناطقة  
يعيدها الناس فى دنياهم الآننا !  
أصحاب جنة ضروان وقصتها  
قد أنزل الله فيها الوحي قرآننا !  
قد كان صاحبها فى الفضل ذا شيم  
أندى من الروض أزهاراً وأفناننا !  
فما بكى حوله الأيتام من سغب  
ولاشكا عنده المضعوف حرماننا !  
لايكتفى بزكاة الزرع يبذلها  
حتى يضيف إلى الإحسان إحساننا !  
وأشرق الصبح فياض الندى عبقاً  
يختال نوراً وأنداء وريحاننا !!  
وأقبل الشيخ يمشى فى مهابته  
متوجاً بوقار الشيب جذلاننا !!  
يحدو خطاه إلى البستان راعشة  
وما يزال شباب القلب رياننا !!  
رأى عجائب صنع الله قد رسمت  
مايسحر اللب أطيافاً والواننا !!  
والنورد فى الحلل الخضراء تحسبه  
زمرداً ضم ياقوتاً ومرجاناً !!

ترى الفواكه مما يشتهون بها  
 طلعاً وطلحاً وأعناباً ورمناً!!  
 والطير ترسل في تسبيح خالقها  
 ما يعجز الفصحاء اللسن تبياناً!!  
 ما صور الله لا يرقى له بشر  
 سبحانه في علاه ألف سبحاناً!!  
 وكان للشيخ أبناء قد أزهروا  
 وأورقوا في ربيع العمر عتياناً!!  
 وحين شارف قريباً من بهاتيه  
 وإن يوماً وشيك البين قد حاثاً!!  
 أوصى بنيه بأن تبقى مكارمه  
 إرثاً يقيم لهم في المجد تبيناً!!  
 لاتنبتوا الشح بعدى في مزارعكم  
 لا تجعلوا جنتى بالحرث نيراناً!!  
 فما احتجرت عن الأهلين ثروتها  
 يوم الحصاد ولا أهملت جيراناً!!  
 لا يستر الخبز في بدء ولا حضر  
 من كان من حلية المعروف عرياناً!!  
 النمل تبني قراها في تماسكها  
 والنحل تحنى رحيق الشهد أعواناً!!  
 والنهر يسقى العطاشى من مناهله  
 رياً ورزقاً ويبقى النهر ملأناً!!  
 وفارق الشيخ دنيا لا يدوم بها  
 غير الثناء لأهل الفضل عنواناً!!  
 فبدل الاخوة الأبناء سنته  
 وارتد إيمانهم بالعهد كفراناً!!  
 وأضمروا خطة نكراء غادرة  
 كانت عواقبها وئلاً وخذلاناً!!  
 وأقسموا أن يهبوا مصبحين إلى  
 جمع الثمار ولا يألون كتماناً!!  
 كى لا يراعوا بمسكين يطالعهم  
 في طمرة لاهث الأنفاس جوعاناً!!

فأرسل الملك الجبار نقيته  
 جزاء ما أضمرنا بغياً وعدواناً!!  
 ألقت بأشجارهم صرعى فما تركت  
 حتى لأغصانها الأوراق أكفاناً!!  
 غدوا على حرثهم صباحاً فما وجدوا  
 في الحقل نبثاً ولا في الأرض بستاناً!!  
 ضل الطريق بهم بل ضل مذهبهم  
 وصار مبصرهم في النور حيراناً!!  
 وقال أوسطهم إني نصحت لكم  
 فلم أجد بينكم للنصح آذاناً!!  
 الله يعلم ما تخفى الصدور وما  
 يكون سرّاً يراه الله اعلاناً!!  
 ماذا ظننتم بعلام الغيوب إذن  
 أكان جهلاً بكم أم كان نسياناً!!  
 خزائن الله ملأى لانفاد لها  
 سبحانه قال: «كن» فالأمر قد كاناً!!  
 إن الألى حرموا المسكين قد رجفوا  
 أذل مسكنة منه وحرماناً!!  
 وقد مضى قدر لم يمحه ندم  
 مكر البخیل يحيل الريح خسراناً!!  
 إن رمت جنة رضوان فكن حذراً  
 ولا تكن واحداً من أهل ضرواناً!!

### الصراع بين النفس والمال

عندما نطالع آيات الله ، ونصافح كلماته في كتابه ، ونتعبد بتلاوته ، نطالع دروساً ونفوساً . نعم :  
 ما أجل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس ، واستخلص العواقب ، واستنتج العبر ، انه الكلام  
 الوحيد الذي نلتبس فيه الحكمة البالغة ، والعبرة النافذة ، التي لا نجد لها تفسيراً أعظم من كلام  
 رسول الله - ﷺ - فاستمع اليه - ﷺ - وهو يقول في هذا المجال الذي نحن بصدده : « أرض بما قسم الله  
 لك تكن أغنى الناس » وأماننا في هذا المجال ستة مواقف في القرآن الكريم تبين منها عبرة الحياة ،  
 ونستخلص فيها نتائج الدنيا إذا اخترقت مجال اليمين إلى مجال القلب وتربعت فيه ، هنا تكون الهاوية  
 وما أدراك ما هي نار حامية .

## الدرس الأول

ما ذكره القرآن الكريم عن هذا الخبر الكبير الذى عرف فى بنى اسرائيل بعلمه الغزير ، والذى قضى أيامه ولياليه بجوار كريم الله موسى حتى جاء اليوم الذى أرسله فيه نبي الله موسى مبعوثاً ليبلغ أمر الله إلى أهل مدين ، وذهب اليهم بقلب نقى تقى ، ووعظهم واستمعوا اليه بآذانهم ولسان قلوبهم يقول : سمعنا وعصينا ، بدلا من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وواصل الخبر مواعظه وإرشاداته وواصلواهم خداعه وإغراهه بالمادة ، وعرض زينة الحياة الدنيا عليه ، حتى سألوه يوماً : كم يعطيك موسى لقاء ما تبذل من جهد فى تبليغ هذه الرسالة قال لهم : إنما أقصد الأجر من الله . قالوا : فإن أموالنا كثيرة ولن نبخل بها عنك فى سبيل ألا نسمع منك شيئاً حتى لا تفسد علينا بيعنا وشراءنا ، وفكر العالم كثيراً وتردى فى صراع عنيف حتى وصل مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه : موسى أم المال ؟ الله أم الشيطان ؟ الدنيا أم الآخرة ؟ وأخيراً هداه هواء إلى اختيار المال والشيطان والدنيا ، فزلت قدمه بعد ثبوتها ، وأصبح فى الأرض حيران استهوته الشياطين فهوى بعد أن اتبع الهوى ، تمرغ فى طين الأرض بعد ما تربع على قبة الفلك إن هذا العالم هو « بلعام بن باعوراء » عالم بنى اسرائيل الذى قص الله علينا قصته فى سورة الأعراف حيث قال الله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعنا بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصد القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ (١) .

فتأمل معى ما احتوى هذا المشهد القرآنى من أسرار وعجائب ، إنه نبأ ولا يستعمل القرآن لفظ النبأ الا إذا كان المقام خطيراً ، والخبر عظيماً جليلاً ، فما بالك برجل آتاه الله آياته وآيات الله يكفيها شرفاً أنها نسبت إلى الله وأضيفت اليه - سبحانه - تذهب النفس كل مذهب فى تفسيرها وتفصيلها وبيانها ، فقد اشتملت على الحكم الالهية ، والمواعظ والارشادات والتوجيهات الربانية ، فماذا حدث هل تركها ؟ هل ابتعد عنها ؟ كلا . لو كان الأمر كذلك لجاز أن يعود اليها بعد زمان طال أو قصر ، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن العود بالنسبة اليه محال قال تعالى : ﴿ فانسلخ منها ﴾ فما معنى الانسلاخ ؟ إن السلخ فى الأصل كشط الجلد من اللحم وهو يعطينا أنه لا عودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا ، عودته إلى آيات الله أمر محال ، لقد كانت الآيات بالنسبة اليه وقاية وعناية له من غضب الله ، كما أن الجلد وقاية وعناية باللحم فلما أنسلخ من الآيات أصبح عرضة لغضب الله . لقد كانت الآيات تزيينه وتجمله ، فلما أنسلخ منها أصبح مشوهاً دميم المنظر قميئاً فماذا كانت النهاية ؟ كانت النهاية ﴿ فكان من الغاوين ﴾ .

لماذا لم يكن من المغويين انما كان من الغاوين لأنه أصبح أستاذاً في الغواية دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ فَاتَّبِعْ الشَّيْطَانَ ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان أى : إنه أصبح بعد الضلال والانسلخ من الآيات متبوعاً فصار الشيطان له تابعاً .

وهذا يذكرنا بقول القائل :

وكننت امرءاً من جند إبليس فارتقى  
بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ثم ماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ إنما عبر القرآن بلفظ أخلد لأنه يعطينا معنيين : الميل والاطمئنان إلى ما مال إليه فهو عندما أخلد إلى الأرض مال إليها مطمئناً بها وبدلاً من أن يقول القرآن أخلد إلى الدنيا قال : أخلد إلى الأرض وهذا هو قدر الدنيا وقدر من مال إليها ، هو فى الهاوية وفى الحضيض فما الدنيا إلا أرض تدمر من مال إليها مطمئناً بها قلبه إذا حلت أو حلت ، وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أو جلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك دفعت له علامات فلما مات نعم إنه اتبع هواه وما الهوى إلا نوازع النفس إلى مسالك الشر . ما شأن هؤلاء وما صفاتهم ، وما حالهم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم ما حالهم فى الدنيا ؟ إنهم فى تعب دائم وعذاب نفس مستمر قال تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ ﴾ إن تشبيه لحالهم بالكلب فى أخس حالاته ، لا فى أمانته وحراسته ، إنما فى تبعه وشقائه ، فهو دائماً يلهث أى يخرج لسانه ، ويتنفس بصعوبة فى كل حالاته ، سواء زجرته وقسوت عليه ، أم أرحته وعطف عليه ، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى أخلدوا إلى الأرض إذا لم تعطهم الدنيا طلبوها ، وإذا أعطتهم طلبوا المزيد منها ، ولو كان لأحدهم واديان من مال لا تبغى ثالثاً ، ولا يملأ جوفه إلا التراب .

وهذا مثل ضربه الله لكل من كذب بآيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وأمرنا الله أن نقصه على الناس ليتفكروا ويتذكروا ويعملوا ثم يعقب الله بعد ذلك قائلاً : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا أَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ .

أى : أن حال هؤلاء القوم بشس الحال ، ومثلهم بشس المثل ، وما ظلمهم الله لأن الله بين وأرشد فكان منه الإيجاد والإمداد والإرشاد ، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والعتو والنفور ﴿ رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (١) .

## الدرس الثانى

ومن دروس القرآن الكريم مع النفوس الشاردة يحدثنا الكتاب العزيز عن شخصية أخرى أخلد صاحبها إلى الأرض واتبع هواه بعدما اقتحمت الدنيا قلبه فأظلم وأدلم ومال وانتكس وفى أحوال الحياة

ارتكس إنه « ثعلبة بن حاطب » الذى قال الله فيه وأمثاله : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ (١) .

يقول العلامة ابن كثير : يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قاله ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - عز وجل - يوم القيامة ، عياداً بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة ثعلبة ابن حاطب الأنصارى ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبي حاتم من حديث أبي أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله - ﷺ - : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : ثم قال مرة أخرى فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهباً وفضة لسارت . قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أرزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاعت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات الا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله - ﷺ - : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنماً فضاعت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة وأنزل الله - جل ثناؤه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (٢) ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم ، وكتب لهم كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذوا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقراه كتاب رسول الله - ﷺ - فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقاً حتى تفرغاً ثم عودا إلى فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال : بلى خذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له . فأخذها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أريانى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية ، إنطلقا حتى أرى رأى ، فانطلقا حتى أتيا النبی - ﷺ - فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فأنزل الله - عز وجل - ( ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن - الآيات ) قال : وعند رسول الله - ﷺ - رجل من أقارب

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ -

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٣

ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي - ﷺ - فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله - ﷺ - هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني ، فلما أبى رسول الله - ﷺ - أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله - ﷺ - ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر - رضي الله عنه - حين استخلف فقال قد علمت منزلتي من رسول الله - ﷺ - وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله - ﷺ - وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولى عمر - رضي الله - أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض عمر ولم يقبلها ، فلما ولى عثمان - رضي الله عنه - أتاه فقال أقبل صدقتي فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك . فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة في خلافة عثمان .

قال رسول الله - ﷺ - « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله . فيرجع اثنان : ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله » (١) متفق عليه .

### الدرس الثالث

من هذه الدروس مع النفوس التي جرفها المال فانحرفت ما جاء في سورة الكهف في قوله تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالها نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبدي هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها متقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً . لكننا هو الله ربى ولا أشرك برى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بشجرة فاصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك برى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقاباً » (٢) المعنى : واضرب للفريقين الكافر والمؤمن مثلاً : رجلين أحدهما كافر مغرور بدينه ، والثانى موحد بالله جعلنا لأحدهما وهو الكافر بستانين من الأعناب المتنوعة ، وجعلنا النخل محيطة بهما ، وجعلنا وسطها زروعاً حتى يجمعاً بين القوت والفاكهة ، وهما بهذا الوضع لهما الشكل الأنيق والموضع السليم .

كلتا الجنتين آتت أكلها كاملاً غير منقوص شيئاً ، وقد فجر الله وسط كل حديقة نهراً على حدة

(١) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرفائق جابت رقم ٢٩٦٠/٥ فقد أورده من رواية لانس بن مالك

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٤



ليسقيها بلا تعب ومشقة ، ويزيدهما بهاء وروعة ، وكان لهذا الكافر ثمر ومال من غيرهما إذ كان من الأثرياء الكبار .

فقال يوماً لصاحبه : وهو يحاوره ويجادله شأن كل غني مغرور مع مؤمن فقير صالح ، وقد روى انهما أخوان ورثا مالا ، أما الكافر فاستغله في أرض ودار وزوجة وخدم وحشم ، وأما المؤمن فأنفق نصيبه في سبيل الله .

قال الكافر : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً وأكثر خدماً وولداً ، ودخل مع صاحبه جنته الواسعة العريضة ، دخلها وهو ظالم لنفسه معجب بما أوتي ، مفتخر به كافر النعمة ، معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش أنواع الظلم .

وماذا قال :

قال لطول أمله وشدة حرصه وكثرة غروره بها ( قال ما أظن أن تبید هذه أبداً ) وما أظن الساعة قائمة فيما سيأتى وأقسم لئن رجعت إلى ربى على سبيل الفرض ، أو كما يزعم صاحبنا المؤمن لأجدن جنة خيراً من هذه الجنة مرجعاً وعافية . وما علم هذا المغرور أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة والا لما سقى الكافر منها جرعة ماء ، وإن الإنسان قد يعطى استدراكاً . قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (١) .

ماذا قال المؤمن ؟

قال وهو يحاوره : يا أيها الإنسان . أكفرت بالذى خلق أباك الأول من تراب ثم خلقك أنت من نطفة ثم سواك فعدلك رجلاً سوياً ؟ !

أبعد هذا تقول : ما أظن الساعة قائمة ، لكن هو الله ربى وحده لا شريك له ، له الحكم واليه ترجعون .

يا أخى : هلا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، الأمر ما شاء الله لا غير .

إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فى هذه الدنيا الفانية فعسى ربى أن يؤتىنى خيراً من جنتك وأبقى يوم القيامة .

وأما جنتك فيرسل عليها حسابنا من السماء فتصيب أرضاً قاحلة ملساء لا شيء فيها أو يصبح ماؤها غائراً لا تدركه الأيدي بأى شكل ولا تستطيع له طلباً فضلاً عن إدراكه ، وقد كان فأحيط بثمره وهلك كل ماله فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ويعرض بنان الندم على ما فرط منه ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة تنصره من دون الله إذ هو القادر وحده على دفع العذاب ، وما كان هو فى حد ذاته منتصراً بنفسه .

هناك : وفي هذه الحال التي يؤمن فيها البر والعاجز النصره من الله وحده ، والسلطان لله وحده ، هو الحق تبارك وتعالى خير ثواباً وخير عقبي للعباد المتقين .

### الدرس الرابع

من دروس المال والنفوس يتمثل أمامنا في صورة رجل طغى وبغى عندما كثر ماله فماذا فعل وكيف كانت عاقبته ؟ اليك ما قاله القرآن الكريم : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها الا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرون من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وبكأن الله يسطر الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ (١) .

هذه قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلها بعد قصة التملك والسلطان وكيف كانت نهايتها ؟

كان قارون من قوم موسى ، وكان ذا مال وفير ، والمقصود المهم من القصة هو ما يأتي : اذكر وقت أن قال له قومه على جهة الوعظ والإرشاد :

لا تفرح - وابتغ فما آتاك الله الدار الآخرة - ولا تنس نصيبك من الدنيا - وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد في الأرض .

وهذه خمسة أصول مهمة ، ومن تمسك بها وعمل بمقتضاها نجا من الدنيا وما فيها .

وانظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصيح - لأنه غير موفق - بل زاد عليه بقوله إنما أوتيته على علم عندي !! والمعنى : أنه أوتي على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة وإغناء المال ، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمي وتمام مجهودي وتجاري ، فليس لأحد حق له في هذا المال . وكأنه ينكر انعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حُر التصرف فيها .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الدراسات القرآنية الاستنباطية أن نذكر ما قاله نبي الله سليمان عندما وجد عرش بلقيس أمامه لم يقل إنما أوتيته على علم عندي . إنما تذكر نعمة الله وكبريائه وجلاله فقال

﴿ هذا من فضل رب ليبلون أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن رب غنى كريم ﴾ (١).

ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث قال : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

أى : أولم يعلم هذا الأحق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنأً وأكثر مالاً . ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أى : لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالم بكل بشىء .

هذا حال قارون مع ماله ، ومواقفه عن وعظه وغروره بنفسه ، واستمع إلى الناس ، وقد أنقسموا إلى فريقين .

أما الفريق الأول فيقول : وقد خرج قارون في أكمل زينته وقام أبهته : يا ليت لنا مثل ما أوق قارون ، وإنه لذو حظ عظيم ، نظر هؤلاء إلى من فوقهم فتمنوا أن يكونوا مثل قارون في غناه وأبهته ، ونسوا أن لله في خلقه شئناً ، وأن السعادة والخير ليس في المال الكثير ، والجاه العريض ، وإنما الخير والسعادة شىء وراء ذلك كله ، مادام العبد موصولاً بربه ، راضياً مرضياً ، ولقد عالج القرآن الكريم هذا الداء علاجاً حاسماً لأن الحق - تبارك وتعالى - يعلم خطره إذ من يمد عينيه إلى مال غيره ويتمناه ، يعود وقد امتلأ قلبه حسداً وحقدأً ، وناهيك بهذه الأخطار التي ينشأ عنها معظم الجرائم : اقرأ معى قوله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ (٢).

أما الفريق الثانى فيقول ناصحاً لأصحابه : ويلكم ( هذه كلمة زجر ) ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً فالسعادة فيه ، ولا يلقاها الا الصابرون ، أى : ولا يلقى هذه الحقائق ويعمل بها الا الصابرون ، ولا شك أن هذه الحقائق هى الايمان والعمل الصالح . وإدراك ما يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

### نهاية محتومة

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب اليه العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخشف الله بقارون وبداره وماله وبمجموعه الأرض . ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن ﴾ . وى هى كلمة تفيد التعجب . ﴿ الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ نعم الله وحده هو الذى يعطى ويمنع وييسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فلم يعط انساناً لعقله وعلمه ، ولم يحرم آخر لجهله وسوء رأيه ، بل الأمر كله لله .

(١) سورة النمل من الآية : ٤٠

(٢) سورة طه من الآية : ٣

وقالوا : ﴿ لولا أن من الله علينا لحسف بنا ﴾ . ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ حقيقة وما هم فيه في الدنيا فهو استدراج لهم ، وفتنة لغيرهم ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم مقيم دائم لا تعب ولا مشقة معه يجعلها ربك ﴿ للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد وتقول الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

### الدرس الخامس

نتقل بالقارئ الكريم إلى الدرس الخامس من الدروس المستفادة التي سبق أن قدمنا أربعة منها وقد بين الله هذا الدرس في سورة ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مبصحين . أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فانظر يا أخى نظرة المتأمل مدى الخطر المترتب على نطق اللسان بالسوء ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ وكيف تجاوب اللسان مع النية ؟ ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : صمموا وعزموا دون أن ينطقوا بالمشيئة المهيمنة أو يستثنوا نصيب الفقراء ، وكيف قطعوا على أنفسهم عهداً أن يقوموا في الصباح قبل أن تبرز الغزالة من خدرها ، وقبل أن يتنفس الصباح ويسفر الفجر فعاملهم الله بالعقاب من حيث لم يحتسبوا ، وكانوا وقتها نائمين والعقاب يقط ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ثم انظر وقد عزموا على أن يقطعوها هم ، فأحرقها النار فأصبحت كالصريم ، وكيف قاموا من سباتهم ﴿ فتنادوا مبصحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ هو كيف أسروا النجوى في أنفسهم وأقبل بعضهم على بعض ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ وغدوا في زعمهم قادرين على المنع فماذا كانت المفاجأة كانت رهبة ومهيبة تنخلع من هولها الأفتدة ، لقد ضلوا عن طريق جنتهم في زعمهم لأنها أصبحت أثراً بعد عين ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ ثم تابوا إلى رشدهم ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ثم قال أعقلهم : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فقالوا بعد فوات الأوان : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا طاغين ﴾ قالوا والندم يكوى النفوس ويسيل النفس مرارة ولوعة : ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أى : لعل الله يعطينا بدلاً هو خير منها ، بتوبتنا من زلاتنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ، إنا راجون عفوه ، طالبون الخير منه ، ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : وهكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : أن عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات ، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وتابوا إلى رشدهم .

## الدرس السادس

يقول فيه مولانا تبارك وتعالى : ﴿ ذرى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدودا وبينين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآيتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ . إن هذا إلا قول البشر ﴾ . سأصليه سقر ﴾ . وما أدراك ما سقر ﴾ . لا تبقى ولا تذر ﴾ . لراحة للبشر عليها تسعة عشر ﴾ .

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً . وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذرى ومن خلقت وحيداً ﴾ أى : خل بنى وبين من أخرجته من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

وفى هذا وعيد شديد على تمرده وعظيم عناده واستكباره لما أوتيته من بسطة المال والجاه ، والمراد بهذا الذى يقص الله علينا شأنه هو الوليد بن المغيرة وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير ولا لأبى نظير ، وقد تهكم الله به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى ذمه وعيبه ، فجعله وحيداً فى الشر والخبث .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أى : ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده وفى هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان فقد جاء فى الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » (١) ﴿ كلا ﴾ أى : لا أفعل ولا أزيد قال مقاتل مازال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أى : أنه كان معانداً لآيات المنعم ، آيات القرآن التى نزل بها الوحى على لسان رسوله - ﷺ - ومن ثم قال فيها ما قال ومعاندة الحق جديرة بزوال النعم .

روى أن النبى - ﷺ - قام فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ فلما فطن النبى - ﷺ - إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد أنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلو عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صباً والله الوليد ولتصبون قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال الوليد : ما لى أراك حزيناً يا ابن أخى ؟

فقال : وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنتك تدخل على ابن أبي كبشه وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم اتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر وما يقوله سحر بأثره عن مسلمة وأهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه ، فترلت هذه الآيات

### أحكام إلهية عادلة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ أَفَسَجَعُ الْمُسْلِمِينَ  
كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٢٧﴾  
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٢٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَلِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنَّ  
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٢٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ﴿٣٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ  
فَلَبَّاءُ تُوَاطَّءُ بِهَمَّ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ  
إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٣٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصُرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ وَقَدْ كَانُوا  
يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٣٣﴾ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ  
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٣٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ  
أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٣٧﴾ فَأَصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَن  
تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ  
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا  
الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

### معاني المفردات

- ﴿ تدرسون ﴾ أى : تقرأون .
- ﴿ تخيرون ﴾ أى : تختارون
- ﴿ أيمان ﴾ عهود .
- ﴿ بالغة ﴾ أى : متناهية فى التوكيد موثقة
- ﴿ أيهم بذلك زعيم ﴾ أى : أيهم بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها
- ﴿ فذرني ﴾ بقول ذرى وإياه : أى : كلُّهُ إِلَىٰ فإني أكفيكه .
- ﴿ سنستدرجهم ﴾ يقال : أستدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه .
- ﴿ وأملئ لهم ﴾ أى : أمهلهم وأطيل لهم المدة
- ﴿ المغرم ﴾ المغرم : الغرامة المالية
- ﴿ مثقلون ﴾ أى : مكلفون أحمالاً ثقالاً فهم بسببها يعرضون عنك .
- ﴿ الغيب ﴾ هو ما كتب فى اللوح المحفوظ واستأثر الله بعلمه .
- ﴿ يكتبون ﴾ أى : يحكمون على الله بما شاءوا .
- ﴿ حكم ربك ﴾ هو إمامهم وتأخير نصرتك عليهم
- ﴿ صاحب الخوت ﴾ هو سيدنا يونس عليه السلام .
- ﴿ مكظوم ﴾ أى : مملوء غيظاً
- ﴿ فاجتبه ﴾ أى : اصطفاه
- ﴿ يزلقونك ﴾ أى : يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلى نظرة كاد يصرعنى
- ﴿ والذكر ﴾ القرآن الكريم
- ﴿ ذكر ﴾ أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه .

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوه وخالفوا أمره ، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التى لا تبعد ولا تغنى فى الدار الآخرة ، ثم رد على من قال من الكفار : إن الله فضلنا عليكم فى الدنيا فلا بد أن يفضلنا عليكم فى الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين ، ثم خوف الكفار من هول يوم القيامة وخوفهم مما فى قدرته من القهر فقال لرسوله : خلّ بينى وبين من يكذب بهذا القرآن ، إنا سندنيهم من العذاب درجة فدرجة ، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعيم ، ونرزقهم من الصحة والعافية ، فتزداد معاطيهم من حيث لا يشعرون .

ثم قال لرسوله : ماذا ينقمون منك ؟ أنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ؟ أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ كلا لا هذا ولا ذاك ، إذا فالقوم معاندون ، فلم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس - عليه السلام - حين غضب على قومه ففارقهم ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ثم أخبر رسوله بأن الكافرين يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة ويقولون : إنه لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته ، وما القرآن إلا ذكر للعالمين .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تحيرون . أم لكم أيمان علينا بالغه إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون . سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

لما ذكر سبحانه وتعالى - حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النعمة حين عصوا ربهم ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم ، التى لا تبعد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها . ثم قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾ ؟ أى : أنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ؟ أى : كيف تظنون ذلك قال تعالى ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ <sup>(١)</sup>



ثم قال تعالى : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول تعالى : أفبايديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمناً حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ وقوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم إلماً تحكمون ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ثم قال تعالى : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

وقصارى هذا الحجاج - نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، فنبه أولاً إلى نفى الدليل العقلى بقوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ثم إلى نفى الدليل النقلى بقوله : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ ثم إلى نفى الوعد بذلك - ووعد الكريم دين عليه - بقوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ ثم إلى نفى التقليد الذى هو أوهم من حبال القمر بقوله : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ . قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

قال البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت النبى - ﷺ - يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » (١)

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة إذا تجلى الرب - عز وجل - فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود كما كانوا فى الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ .

هذا تهديد شديد لهم أى : دعنى وإياه منى ومنه وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمدته فى غيه وأنظره ، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أى : وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو فى نفس الأمر إهانة كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (٢) وكما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ؟ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ (٣) ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وأملى لهم إن كيدى

(١) انظر صحيح البخارى ج ٦ ص ١٩٨ تفسير صورة ( ن والقلم ) فقد ورد الحديث من رواية أبى سعيد .

(٢) المؤمنون الآيات : ٥٥ - ٥٦

(٣) الأنعام آيتان : ٤٤ - ٤٥ .

متين ﴿ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدى ومكرى بهم ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كيدى متين ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى وكذب رسلى وأجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ - أنه قال : « إن الله - تعالى - ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »<sup>(١)</sup> ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ . أى : أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيوياً ؟ فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه ، فتحاموا لذلك قبول النصيحة والمعنى أن أمرهم العجيب فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً . ﴿ أم عندهم الغيب . فهم يكتبون ﴾ أى : عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائن ، فهم يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم .

ولما بالغ فى تزييف طريق الكافرين ، وزجرهم عما هم عليه ، أمر رسوله بالصبر على أذاهم فقال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أى : فاصبر يا محمد على قومك فإن الله - سبحانه - سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ يعنى ذا النون وهو يونس - عليه السلام - حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشروء الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجينا من الغم وكذلك نجى المؤمنين ﴾<sup>(٤)</sup> وقال ههنا : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال ابن عباس وهو مغموه وقال عطاء الخراسانى مكروب .

وقوله تعالى : ﴿ فاجتبه ربه فجعله من الصالحين ﴾ وقد قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله قال :

(١) البخارى : ج-٦ ص ٩٣ ، ٩٤ تفسير سورة « هود » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .

(٢) هود الآية : ١٠٢ .

(٣) طه الآية : ١٣٠ .

(٤) الأنبياء الآيات : ٨٧ - ٨٨ .

قال رسول الله - ﷺ - « لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »<sup>(١)</sup> وهذا الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ ليزلقونك ﴾ لينفذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أى : يعيرونك بأبصارهم يعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحايته إياك منهم .

• قال ابن كثير وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابيتها وتأثيرها حق بأمر الله - عز وجل - كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق كثيرة متعددة قال مسلم فى صحيحه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا »<sup>(٢)</sup> وقال ابن ماجه بسنده عن أبى أمامة أن سعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعة بسهل من حنيف وهو يغتسل فقال لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة فما لبث أن لبط به فأتى به رسوله الله - ﷺ - فقبل له أدرك سهلاً صريعاً قال : « من تتهمون به » قالوا : عامر بن ربيعة قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ » « إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة » ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلته إزاره وأمره أن يصب عليه<sup>(٣)</sup> وقد رواه النسائي ومالك ابن انس كلاهما عن الزهرى به .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - اشتكى فأتاه جبريل فقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك من حسد كل حاسد وعين بسم الله يشفيك »<sup>(٤)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بالستهم ويقولون : إنه لمجنون أى : لمجيئه بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : يقولون ما قالوا : وما هو إلا تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، أفيكون من أنزل عليه مثل هذا وهو مطلع على أسرار ، محيط بجميع حقائقه خيراً ، ممن ينطبق عليه مثل هذا الوصف الذى قالوه ، أم يكون مثل هذا من أدل الدلائل على كمال الفضل والعقل ؟

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب - وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه وسلم - .

(١) سند الامام أحمد جـ ١ ص ٢٤٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم جـ ٤ ص ١٧١٩ باب الطب والمرض والرقى فى حديث رقم ٢١٨٨ / ٤٢ من رواية لابن عباس .

(٣) ابن ماجه جـ ٢ ص ١١٦٠ باب العين حديث رقم ٣٥٠٩ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمامة ابن سهل بن ضيف .

(٤) مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٣٢٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبادة وهى إحدى رواياته .

## تفسير سورة الحاقة

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها : مائتان وخمس وخمسون ، وحروفها : ألف وأربعمائة وثمانون .

مجموع فواصل آياتها ( نم له ) على اللام منها آية واحدة ( بعض الأقاويل ) ولها اسمان : سورة الحاقة ، لمفتتحها ، وسورة السلسلة ، لقوله تعالى : ﴿ في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الإخبار عن صعوبة القيامة ، والإشارة بإهلاك القرون الماضية ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السموات ، وحال السعداء والأشقياء وفق قراءة الكتب وذل الكفار مقهورين في أيدي الزبانية ، ووصف الكفار القرآن بأنه للكفار كهانة وشعر ، وبيان أن القرآن تذكرة للمؤمن وحسرة للكافر ، والأمر بتسبيح الركوع في قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه ﴾ بالفاء ، ويغده ( وأما ) بالواو ، لأنه الأول متصل بأحوال القيامة وأهوالها فاقضى الفاء للتعقيب ، والثاني متصل بالأول ، فأدخل الواو ، لأنه للجمع .

قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ خص ذكر الشعر بقوله : ﴿ ما تؤمنون ﴾ لأن من قال القرآن شعر ، ومحمد - ﷺ - شاعر - بعدما علم اختلاف آيات القرآن في الطول والقصر ، واختلاف حروف مقاطعه فكفره وقلة إيمانه ، فإن الشعر كلام موزون مقفى وخص ذكر الكهانة بقول : ﴿ ما تذكرون ﴾ لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة ، وأن محمداً - ﷺ - كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان ، فإنه أسجاع لا معاني تحتها ، وأوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون في كلامهم ذكر الله تعالى .

مناسبة السورة لما قبلها :

- ١ - أنه وقع في ن ذكر يوم القيامة مجملاً ، وهنا فصل نبأه وذكر شأنه العظيم .
- ٢ - إنه ذكر فيما قبلها من كذب بالقرآن وما توعد به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له - ﷺ - .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَبَتْ ثُمُودُ  
 وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثُمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا  
 بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا  
 فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ  
 مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾  
 فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ  
 حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَّاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

### معاني المفردات

﴿الحاقة﴾ من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب : أى : الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، وهى يوم القيامة .

﴿ما الحاقة﴾ أى : أى شىء هى ؟ تفخيماً لشأنها ، وتعظيماً لهولها .

﴿وما أدراك ما الحاقة﴾ أى : أى شىء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بحقيقتها إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين

﴿بالقارعة﴾ هى الحاقة التى تقرر قلوب الناس بالمخافة والأهوال

﴿بالطاغية﴾ هى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة والقوة والمراد بها الصاعقة .

﴿صرصر﴾ الصرصر : الشديد الصوت التى لها صرصرة .

﴿عاتية﴾ أى : بالغة منتهى القوة والشدة

﴿سخرها عليهم﴾ أى : سلطها عليهم

﴿حسوماً﴾ أى : متتابعة وأحدها حاسم .

﴿صرعى﴾ واحدهم صريع أى : ميت .

- ﴿ أعجاز ﴾ واحدها عجز ، وهو الأصل .
- ﴿ خاوية ﴾ أى : خالية الأجواف لاشئ فيها .
- ﴿ باقية ﴾ والباقية : البقاء .
- ﴿ المؤتفكات ﴾ أى : المتقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .
- ﴿ الخاطئة ﴾ الخطأ .
- ﴿ رابية ﴾ من ربا الشئ إذا زاد أى : الزائدة فى الشدة .
- ﴿ طغى الماء ﴾ تجاوز حده وارتفع .
- ﴿ حملناكم ﴾ أى : حملنا آباءكم وانتم فى أصلابهم .
- ﴿ الجارية ﴾ السفينة التى تجرى فى الماء .
- ﴿ تعيها ﴾ أى : تحفظها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ولهذا عظم الله أمرها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ثم ذكر - تعالى - إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال - تعالى - : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ ذكر - سبحانه - من كذب بالقيامة ، والقارعة القيامة ، سميت بذلك لأنها تفرع الناس بأهوالها وثمرود قوم صالح ، وكانت منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز قال محمد بن إسحاق : وهو وادى القرى ، وكانوا عرباً .

( وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف : الرمل بين عمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوى خلق وبسطة .

وقوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهى الصيحة التى أسكتهم ، والزلزلة التى أبادتهم كما قال - تعالى - : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ أى : بريح باردة تحرق ببردها كإحراق النار ، مأخوذ من الصر وهو البرد وقيل : إنها الشديدة الصوت وقال مجاهد : الشديدة السموم وقوله : ﴿ عاتية ﴾ أى : عتت على خزائنها فلم تطعمهم ، ولم يطبقوها من شدة هبوبها غضبت لغضب الجبار .

قوله - تعالى : ﴿ سخرها عليهم ﴾ أى : أرسلها وسلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أى : متتابعة لا تفر ولا تنقطع وقوله : ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أى : فى تلك الليالى والأيام ﴿ صرعى ﴾ جمع سريع ، يعنى موق ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى : كأنهم أصول نخل بالية كما قال - تعالى : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ قوله تعالى ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى : هل تحس من أحد من بقاياهم أو مما ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً كما قال - تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ (١)

قوله تعالى ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ . أى : وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التى أئنفكت بأهلها ، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بين هذه الخطيئة بقوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى : فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - طغا الماء كثر وذلك بسبب دعوته نوح - عليه السلام - على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ﴿ والجارية ﴾ هى السفينة الجارية والمحمول فى الجارية نوح وأولاده ، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك .

وقوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ يعنى سفينة نوح - عليه السلام - جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم .

وقيل لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم كما فى قوله - تعالى - فى ختام « قصة » نوح فى سورة هود ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ (٢)

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى : تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله .

قال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله - تعالى - وانتفعت بما سمعت من كتاب الله - عز وجل - كقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد ﴾ (٣)

(١) سورة مريم آية : ٩٨ .

(٢) سورة هود آية : ٤٩ .

(٣) سورة ق آية : ٣٧ .

## مقدمات القيامة ومشاهدها

قال - تعالى :

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً  
وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٥ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ  
وَاهِيَةٌ ۖ ۝١٦ وَالْمَلِكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ۖ ۝١٧  
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ۖ ۝١٨ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ رَبِّمَسِينَهُ فَقَبِلْهُ  
هَآؤُمُ أَقْرَأْهُ وَانْتَبِهْ ۖ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حَسَابِيَةٍ ۖ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۖ ۝٢١  
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۖ ۝٢٣ كُلُوا وَامْرَؤُونَ هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ  
الْحَالِيَةِ ۖ ۝٢٤ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ رِشْمَالَهُ فَصَبُّهُ عَلَيْهِ فَغَبُّهُ ۖ ۝٢٥ فَصَبُّهُ عَلَيْهِ فَغَبُّهُ ۖ ۝٢٦  
وَلَمْ أَذِرْ مَا حِسَابِيَةٍ ۖ ۝٢٧ يَلْبِسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ۖ ۝٢٨ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ۖ ۝٢٩  
هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَةَ ۖ ۝٣٠ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۖ ۝٣١ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۖ ۝٣٢ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ  
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ ۝٣٣ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ ۝٣٤ وَلَا يَحْضُرُ عَلَى  
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۖ ۝٣٥ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ۖ ۝٣٦ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۖ ۝٣٧  
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ ۝٣٨



## معاني المفردات

- ﴿ نفخة واحدة ﴾ : هى النفخة الأولى .
- ﴿ حملت الأرض والجبال ﴾ : أى : رفعت من أماكنها
- ﴿ فذكرنا دكة واحدة ﴾ : أى : ضرب بعضها ببعض حتى أندفعت وصارت كشيء مهيل .
- ﴿ الواقعة ﴾ : النازلة وهى يوم القيامة
- ﴿ انشقت السماء ﴾ : أى : فتحت أبوابها
- ﴿ واهية ﴾ : أى : مسترخية ضعيفة القوة
- ﴿ أرجائها ﴾ : أى : جوانبها
- ﴿ ثمانية ﴾ : أى : ثمانية أشخاص
- ﴿ خافية ﴾ : أى : سريرة .
- ﴿ هاؤم ﴾ : أى : خذوه
- ﴿ ظننت ﴾ : أى : علمت
- ﴿ ملاق ﴾ : أى : معانين
- ﴿ راضية ﴾ : أى : يرضى بها صاحبها
- ﴿ عالية ﴾ : أى : مرتفعة المكان
- ﴿ والقطوف ﴾ : ما يجتنى من التمر واحدا قطع ( بكسر القاف وسكون الطاء ) .
- ﴿ دانية ﴾ : أى : قريبة
- ﴿ هنيئاً ﴾ : أى : بلا تنغيص ولا كدر .
- ﴿ أسلفتم ﴾ : أى : قدمتم
- ﴿ الخالية ﴾ : الماضية .
- ﴿ القاضية ﴾ : أى : القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها .
- ﴿ هلك ﴾ : بطل .
- ﴿ سلطانية ﴾ : طجى أو تسلطى وقوى .
- ﴿ فغلوه ﴾ : أجعلوا الغل فى يديه وعنقه .
- ﴿ الجحيم صلوه ﴾ : أدخلوه أو أحرقوه فيها .
- ﴿ فاسلكوه ﴾ : فادخلوه فيها .

- ﴿ لا يخفى ﴾ لا يحث ولا يحرض .  
 ﴿ حميم ﴾ أى : قريب مشفق يحميه من العذاب .  
 ﴿ غسلين ﴾ صديد أهل النار .  
 ﴿ الخاطئون ﴾ الكافرون .

### المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن قصّ - سبحانه - قصص الهالكين ، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة - شرع يذكر تفاصيل أحوال اليوم وما يكون فيه من أهوال ، ثم بعد ذلك فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

### التفسير

قوله - تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبراً عن أهوال يوم القيامة - وأول ذلك نفخة الفزع ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهى هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد .

وقوله - تعالى - ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ أى : بسطتا بسطة واحدة . ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره ، كقوله - تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أى : قامت القيامة كما قال - تعالى - ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس نوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بساً . فكانت هباء منبثاً ﴾<sup>(٢)</sup>

(١) سورة إبراهيم آية : ٤٨ .

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١ - ٦ .

قوله - تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ﴾ أى : انصدعت وتفطرت كما قال - سبحانه -  
﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقيل : تنشق لنزول ما فيها من الملائكة ودليله قوله -  
تعالى : ﴿ ويوم تشق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على  
الكافرين عسيراً ﴾<sup>(١)</sup>

وقوله - تعالى : ﴿ فهي يومئذ واهية ﴾ أى : ضعيفة قال القرطبي : قيل إنها تصير بعد صلابتها  
بمنزلة الصوف في الوهى : ويكون ذلك لنزول الملائكة وقيل : الهول يوم القيامة قال - تعالى : ﴿ فإذا  
انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك يعنى الملائكة ، اسم للجنس . ومعنى على أرجائها  
أى : على اطرافها حين تشق لأن السماء مكانهم .

وقوله - تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما -  
ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك . وعن الحسن . الله  
أعلم كم هم . ثمانية أم ثمانية آلاف .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ - « أذن لى أن أحدثكم عن ملك  
حملة العرش بعد ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » قال ابن كثير وهذا اسناد جيد رجاله  
كلهم ثقات ورواه أبو داود بلفظ « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله - تعالى - من حملة العرش أن  
ما بين شحمة أذنه إلى عنقه مسيرة سبعمائة عام .

وقوله - تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى  
الذى لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ، كما قال - تعالى :  
﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾<sup>(٢)</sup> قال القرطبي : وليس ذلك  
عرضاً يعلم به مالم يكن عالماً به ، بل معناه الحساب وتقدير الأعمال عليهم للمجازاة .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله - ﷺ - « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث  
عرضات : فأما عرضتان فجداول ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدي فأخذ بيمينه  
وأخذ بشماله » .

وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن  
تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أحق عليكم فى الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ،  
وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٢٥ - ٢٦ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٨ .

ونحو الآية قوله - تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ (١) وكقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (٢)

قوله - تعالى - ﴿ فأما من أوتى كتابه يمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابية . إنى ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ أى : خذوا اقرءوا كتابية ، لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات .

وفى الصحيح عن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول « يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله - تعالى - إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين » (٣)

وقوله - تعالى - ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابية ﴾ أى : قد كنت موقناً فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال - تعالى - ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ .

قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل .

وقوله - تعالى - ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : مرضية كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً . خالدين فيها لا يغيغون عنها حولاً ﴾ (٤)

وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - « إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبون فلا يهرمون أبداً » (٥) .

وقوله - تعالى : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها نعيمة دورها ، دائم حبورها ، وقد ثبت فى الصحيح « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » (٦) .  
وقوله تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ أى : قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره .

(١) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل - حديث ٢٧٦٨/٥٢ من رواية لابن عمر .

(٤) سورة الكهف الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى دوام نعيم أهل الجنة فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة برقم

٢٨٣٧/٢٢ .

(٦) البخارى ج ٤ ص ١٩ كتب فضل الجهاد باب درجات المجاهدين فى سبيل الله فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وقوله - تعالى - ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أى : يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً ﴿ هنيئاً ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم ﴾ قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ في الأيام الخالية ﴾ أى : في الدنيا كما قال - تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ (١)

قوله - تعالى - : ﴿ وأما من أوق كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه . ولم أدر ما حسابه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشرقياء إذا أعطى أحدهم كتابه في العروض بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ﴾ أى : فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتنى لم أعط كتابي . قال المفسرون : وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله قال - تعالى - : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿ ولم أدر ما حسابه ﴾ أى : ولم أعلم أى شيء حساب الذى أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

وقوله : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ أى : ليت الموتة التى متها في الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب كقوله - تعالى - : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً ﴾ (٣) .

وقوله - تعالى - : ﴿ ما أغنى عني ماليه ﴾ أى : لم يدفع عني مالى الذى كنت أملكه في الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئاً كما في قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ (٤) .

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ - ٤٣ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٣) سورة النبأ من الآية : ٤٠ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

وقوله ﴿ هلك عنى سلطانية ﴾ قال ابن زيد : يعنى سلطانية فى الدنيا الذى هو الملك . أى : ذهب ملكى وتسلمتى على الناس وبقيت فقيراً ذليلاً .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

﴿ خذوه فغلوه . ثم الحميم صلوه ﴾ أى : يقال لربانية جهنم خذوه فضعوا الغل فى عنقه ، ثم أدخلوه فى النار الموقدة لقاء كفره بالله واقترافه عظيم الآثام .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾ أى : ثم أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انقلاباً .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذرة جبل لذاب كما يذوب الرصاص .

وقوله ﴿ فاسلكوه ﴾ قال سفيان : بلغنا أنها تدخل عنقه فيها ثم يُجر فيها .

ونحو الآيات قوله - تعالى - : ﴿ إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾ (١) .

ثم بين سبحانه سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أى : افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواء ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أى : ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة ، فضلاً عن بذل المال لهم .

وقوله : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾ أى : فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله - تعالى - كما جاء فى سورة أخرى ﴿ فكبكبوها فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى : وليس له طعام إلا ما يسيل من لحوم أهل النار من الدم والصدید الذى لا يأكله إلا من مرن على اجتراح السيئات ودسى نفسه وأحاطت به الخطايا .

(١) سورة غافر الآيتان : ٧١ - ٧٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ - ١٠١ .

## قسم صادق

قال - تعالى - :

فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تَبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

## معاني المفردات

- ﴿ ما تبصرون ﴾ : هى المشاهدات ، ﴿ وما لا تبصرون ﴾ : هى الغيبات .
- ﴿ تقول ﴾ : القول : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلف ، والأقاول : الأقوال المفتراه واحدا قول على غير قياس .
- ﴿ لأخذنا منه ﴾ أى : لأمسكناه ، ﴿ باليمين ﴾ أى : بيمينه .
- ﴿ الوتين ﴾ عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس .
- ﴿ حاجزين ﴾ أى : مانعين .
- ﴿ حق اليقين ﴾ أى : عين اليقين .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الدليل - سبحانه - على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء - أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن ، وأكد هذا بأن محمدا لا يستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عقابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لا ريب فيه . ثم أمر رسوله بأن يقدر ربه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعيم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ قال قتادة المعنى : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .  
﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ أى : إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد - ﷺ - .

﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ لأن محمداً لا يحسن قول الشعر ﴿ قليلاً ما تؤمنون ﴾ أى : تؤمنون بذلك القرآن إيماناً قليلاً ، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لا يأتينا . وقد يكون المراد بالقللة أنهم قد يؤمنون في قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ أى : وليس بقول كاهن كما تزعمون لأنه سب الشياطين وشتهم ، فلا يمكن أن يكون يلهمهم ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه - قلت : أنه من كلام الكهان .  
ثم أكد ما تقدم بقوله :

﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله - ﷺ - .

قال العلامة ابن القيم عن هذه الآيات المباركات : هذا أعم قسم وقع في القرآن ، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة كلهم والجن والانس والعرش والكرسى ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو - سبحانه - يصرف الأقسام كما يصرف الآيات : ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ولا كاهن .

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجارى الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى : ﴿ فرب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ (١) أى : إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما في الحديث « أنه لحق مثل ما أنك ههنا » فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهدونه من أحواله ظاهراً وباطناً ، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، وما لم يباشر قبله ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه .

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد - ﷺ - . وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم



بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكى فى سورة التكوير .

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبيتهم فى نسبة كلامه - تعالى إلى غيره ، وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ فمن زعم أنه قول البشر فقد كفر وسيصله الله سقر .

ثم أخبر - سبحانه - أنه تنزيل من رب العالمين وذلك يتضمن أموراً : ﴿ أحدها ﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده . ﴿ والثانى ﴾ أنه تكلم به حقيقة لقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظيره قوله تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ . ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وتأمل كيف أضافه - سبحانه - إلى رسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله ، فيقول قلت : كذا وكذا . والمرسل يقول للرسول : قل لهم : كذا وكذا كما قال تعالى : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ ونظائره . فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أى : قاله مبلغاً - وهذا قوله مبلغاً عن مرسله ، ولا يجىء فى شىء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال ليس بكلامى ولا كلام صاحبى . هذا كلام الله .

( الأمر الثالث ) ما تضمنه قوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أنه ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، وعذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به - تعالى - : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

### البرهان القاطع على صدق الرسول محمد - ﷺ -

قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

يقول ابن القيم : ثم أقام - سبحانه - البرهان القاطع على صدق رسوله . وأنه لم يتقول عليه فيما قاله : وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالأهلاك ، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه ، وافترى عليه وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق : بسفك دماهم ،

ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلاً : إن الله أمرني : بذلك وأباحه لي ؟ بل كيف يليق به أن يصدق به بأنواع التصديق كلها ، فيصدق به بإقراره ، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدق به بأنواعها كلها على اختلافها ، فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدق به بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذي هو شر الخلق على الإطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من غفل ، وحكمة ، وحجى ، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله .

وقوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ يقول سبحانه : لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه .

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة . فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدق به .

﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ والوتين : نياط القلب ، وهو عرق يجرى في الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه ثم قال - سبحانه - : ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أى : لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ﴾ (١) .

وفي معنى هذه الآية للناس قولان : أحدهما قول مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثاني قول قتادة : إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه .

( أحدها ) أن هذا خرج جواباً لهم وتكذيباً لقولهم : إن محمداً كذب على الله وافتري عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى - قادر لا يعجزه شيء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشيء منه ، بل يصير القلب كالشيء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه ، فيعود المعنى إلى أنه لو افتري على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن هذا الكلام لا يصدر من قلب محتوم عليه ، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله

فالبیان الثام ، والجزالة ، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأق به ولا بيعضه ، فلولا أن أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه - لما أمكنه أن يأتيكم بشيء منه . فأين هذا المعنى إلى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ، وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

( الوجه الثانى ) أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرد صدق المخبر .

( الثالث ) أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر كقوله : ﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى .

( الرابع ) أنه - سبحانه - حيث يحكى أقوالهم ( أنه افتراه ) لا يجيبهم عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئاً ، بل كان يأخذه ولا يقدرّون على تخلصه .

( الخامس ) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكّنه وتفسير القرآن من أبلغ التفاسير .

قوله تعالى : ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ .

أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقى ، فيصبر ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أساء الرب وصفاته وأفعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه ، وآياته فى أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزيكها ويطهرها ويعليها ، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

ثم قال - سبحانه - ﴿ وإننا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أى : لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم .

قوله - تعالى - ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعان فوز المحصلين صار تفریطه عليه حسرة كما قال - تعالى - : ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان

خذولاً ﴿١﴾ وكقوله ﴿٢﴾ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴿٣﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . أى : الحق اليقين وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الله - سبحانه - في كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة :

حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال - تعالى - : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة فقدح في تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلاً ، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

( المرتبة الثانية ) عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع . وعين اليقين للبصر ، وفى المسند للإمام أحمد مرفوعاً « ليس الخبر كالمعاينة » وهذه المرتبة هى التى سأها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموق ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين . فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه .

( المرتبة الثالثة ) مرتبة حق اليقين ، وهى مباشرة الشئ بالأحساس به . كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين تزلف ونقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين ، وإذا أدخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ فإن القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها ، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذا أعلى مراتب الايمان وهى الصديقين التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

ثم ختم السورة الكريمة بقوله - تعالى - : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ وهى جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله . وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته - تعالى - فى ارسال رسوله ، وإنزال كتابه ، وأنه - تعالى - أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو - سبحانه - مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد .

(١) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٦ .

## تفسير سورة المعارج

مقدمة :

يقول صاحب البصائر : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي

السورة : مكية .

آياتها : أربع وأربعون آية .

كلماتها : مائتان وثلاث عشرة .

وحروفها : سبعمائة وسبع وخمسون .

فواصل آياتها : ( جعلناهم ) .

أسماء السور :

للسورة ثلاثة أسماء : الأول سأل ، لمفتتحها . والثاني الواقع ، لقوله ( بعذاب واقع ) الثالث ( ذي

المعارج ) .

مقصود السورة :

بيان جرأة الكافر في استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق في ذلك اليوم المهيب ، واختلاف حال الناس في الخير والشر ومحافضة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار في غير مطمع ، وذل الكافرين في يوم القيامة في قوله ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ إلا المصلين ﴾ عد عقيب ذكرهم الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين ، وزاد فيها ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ لأنه وقع عقيب قوله ﴿ لأمانتهم وعهدهم راعون ﴾ وإقامة الشهادة أمانة ، يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها ، لآحياء حق ، فهي إذا من جملة الأمانة وقد ذكرت الأمانة في سورة المؤمنين ، وخصت هذه السورة بزيادة بيانها ، كما خصت بإعادة ذكر الصلاة حيث قال ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ بعد قوله ﴿ إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ .

مناسبتها لما قبلها : السورة نزلت بعد سورة الحاقة ، وهي كالتممة لها في وصف القيامة وعذاب

الناز .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ① لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ② مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ③  
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ④ فَأَصْبَرَ صَبْرًا  
جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ⑥ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ⑦ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَمَلِ ⑧  
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ⑨ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ⑩ يُبْصَرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ  
لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَاحِبَتُهُ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتُهُ الَّتِي  
تُؤْوِيهِ ⑬ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ⑭ كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْلَى ⑮ نَزَاعَةً لِلشَّوَى ⑯ تَدْعُوا مَنْ  
أَدْبَرُ وَتَوَلَّى ⑰ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ⑱

### معاني المفردات

﴿سأل سائل﴾ : دعا داع .

﴿ليس له دافع﴾ : أى : أنه واقع لا محالة .

﴿المعارج﴾ : واحدها معرج ، وهو المصعد . ( بكسر الميم ) .

﴿والروح﴾ : هو جبريل - عليه السلام - أمين الوحي .

﴿كالهمل﴾ : المهمل : وردى الزيت وهو ما يكون في قعر الاناء منه .

﴿كالعهن﴾ : العهن : الصوف المصبوغ ألواناً .

﴿حميم﴾ : الحميم : القريب .

﴿يبصرونهم﴾ : أى : يبصر الأحقاد الأحماء ويرونهم .

﴿يود﴾ : أى : يتمنى ، ﴿المجرم﴾ : المذنب ، ﴿وصاحبتة﴾ : زوجته ، ﴿وفصيلته﴾ : هى عشيرته ،

﴿تؤويه﴾ : أى تضمه ويأوى إليها ﴿كلا﴾ : هى كلمة تفيد الزجر عما يطلب ، ﴿لظى﴾ : هى النار

﴿للشوى﴾ : الشوى واحدها شواه ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعاً فترققها ثم تعود إلى ما كانت

عليه ، ﴿تدعو﴾ : أى : تجذب وتحضر ، ﴿تولى﴾ : أى : أعرض عن الطاعة ، ﴿جمع فأوعى﴾ : أى :

جمع المال فجعله فى وعاء .

## التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ قال ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم كقوله تعالى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ (١) .

وقوله - تعالى - : ﴿ واقع . للكافرين ﴾ أى : مرصد معد للكافرين .

وقوله - تعالى - : ﴿ ليس له دافع ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ولهذا قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ذى المعارج يعنى العلو والفواضل .

وقال مجاهد : ذى المعارج معارج السماء . وقالت قتادة : ذو الفواضل والنعمة .

وقوله - تعالى - : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ قال عبد الرازق عن معمر عن قتادة تعرج تصعد والروح قيل : هو جبريل عليه السلام - وذكر من باب عطف الخاص على العام وقيل : ﴿ الروح ﴾ اسم جنس لأرواح بنى آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله : ﴿ فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ قال منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسين ألف سنة . وقوله تعالى فى ﴿ ألم تنزل ﴾ فى ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة . وقيل : هو يوم القيامة قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار . ( رواه ابن أبى حاتم ) .

قال القرطبى : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية - إن شاء الله ، بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال النبى - ﷺ - : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى

يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلّيها في الدنيا» (١). واستدل النحاس على صحة هذا القول بما زواه سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أنه قال : « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين الناس » (٢).

قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر صبراً جميلاً . إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك . والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾ (٣) .

→ وقوله تعالى : ﴿ إنهم يرونه قريباً ﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيداً ، أى غير كائن . ﴿ ونراه قريباً ﴾ لأن ما هو آت فهو قريب .

قوله تعالى : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً ﴾ .

أى : إن العذاب واقع بالكافرين ، يوم تكون السماء كالمهل ، كأنها عكر الزيت . والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة كما قال تعالى : ﴿ فهى يومئذ واهية ﴾ .

وقوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أى : وتكون الجبال هشة غير متلاحمة فكأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح . كقوله تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً ﴾ أى : ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله ، ولا يكلمه لابتلاء كل منها بما يشغله كما قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (٥) وكقوله : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ (٦) .

وقوله : ﴿ يبصرونهم ﴾ أى : يتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . قال القرطبي : وليس في القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والانس . فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرباته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقال ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٣ ص ٧٥ فقد أورد الحديث عن رواية لأبي سعيد الخدرى .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمندرى ج ١ ص ٥٣٧ كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة . . . الخ فقد أورد الحديث رقم ٢ من رواية للنسائى .

(٣) سورة المزمل الآية : ١٠ .

(٤) سورة القارعة الآيات : ١ - ٥ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ١٠١ .

(٦) سورة عبس الآيات : ٢٤ - ٢٧ .



وقيل : يبصر المظلوم ظالمه ، والمقتول قاتله .

وقوله تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ بنيه . وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعا ثم ينجيهِ ﴾ .

أى : يتمنى الكافر لو ينفذ أعز الناس إليه فدية لينجيهِ من ذلك العذاب ، فيود لو كان أبناؤه ، أو زوجته ، أو أخوه ، أو عشيرته التي تضمه إليه ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب . هيهات .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهبا ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجته وعشيرته . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله : ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ أى : أنها النار الشديدة الحرارة التى تنزع جلدة الرأس وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر أنهم فى الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل المحشر فدرسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواه .

وقوله : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ أى : تدعو لظى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الايمان ودعاؤها أن تقول : إىّ يا مشرك إىّ يا كافر ، وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إىّ يا كافر ، إىّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب .  
وقوله : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ أى : جمع المال فجعله فى وعائه ومنع منه حق الله - تعالى - .

(١) سورة آل عمران آية : ٩١ .

(٢) سورة الرعد من الآية : ١٨ .

من طبائع النفس الانسانية  
وذكر أصحاب الجنة

قال تعالى :

\* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۖ (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۖ (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۖ (٢١)  
إِلَّا الْمَصْلِينَ ۖ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۖ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ (٢٤)  
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمَ الدِّينِ ۖ (٢٦) وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ  
مُشْفِقُونَ ۖ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ۖ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِأُفْجَاهِهِمْ حَنِيفُونَ ۖ (٢٩)  
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَا تَنْهَاهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۖ (٣٠) فَمِمَّنْ أَبْتغَىٰ وِرَاءَ ذَلِكَ  
فُتًا وَلَيْكَ هُمُ الْعَادُونَ ۖ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۖ (٣٢) الَّذِينَ هُمْ  
بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ۖ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۖ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ  
مُكْرَمُونَ ۖ (٣٥)

معاني المفردات

﴿ هُلُوعًا ﴾ : سرعة الحزن عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير . وسأل محمد ابن طاهر ثعلبا عن الهلع فقال : قد فسرهُ الله ولا يكون تفسيراً أبين من تفسيره - سبحانه - . يعني قوله : ( إذا مسه ) الآية .

﴿ جَزُوعًا ﴾ : الجزع : حزن يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه .

﴿ الْخَيْرِ ﴾ : المال والغنى .

- ﴿ حق معلوم ﴾ : نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على المحتاجين .
- ﴿ المحروم ﴾ : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى .
- ﴿ يصدقون بيوم الدين ﴾ : أى : يصدقون به تصديقا يكون له الأثر فى نفوسهم .
- ﴿ مشفقون ﴾ أى : خائفون .
- ﴿ حافظون ﴾ أى : كاثفون لها عن الحرام .
- ﴿ راعون ﴾ أى : لا يخلون بشئ من حقوقها .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبغها على عباده - أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب ، وتبعد عن ظلمة المادة التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنتزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التى تقيد بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألفها وركن إليها وهى ترجع إلى شيئين : الحرص ، والجزع .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

أى : أن الانسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا اقتصر أو مرض أخذ فى الشكاة والجزع ، وإذا صار غنيا أو سليما معافى منع معرفه وشح بماله ، وما زال إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة . كقوله تعالى : ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقد استثنى - سبحانه - من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

﴿إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قال النخعي : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر وقوله : ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أى : على مواقيتها . وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . والدائم الساكن كما وصفهم في صدر سورة «المؤمنون» ﴿قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثران فعل التطوع .

وقال القرطبي : مداومتهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخلُّون بها . ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل .

وقوله : ﴿والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم﴾ ، أى : في أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات وهو الزكاة ﴿للسائل والمحروم﴾ أى : للفقير الذى يسأل ويتكفف الناس ، والمحروم الذى يتعفف عن السؤال فيظن أنه غنى فيحرم ، كقوله تعالى : ﴿يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف﴾ (١) .

وقوله : ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾ أى : يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، ويصدقون بمجيئه تصديقا جازما لا يشوبه شك أو ارتياب ، فيستعدون له بالأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أى : خائفون وجلون كما وصفهم الله - سبحانه وتعالى - بقوله : ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (٢) ووصفهم بقوله - سبحانه - : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ولما رزقناهم ينفقون﴾ (٣) .

وبقوله : ﴿والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ (٤) .

قوله - تعالى - : ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله - تبارك وتعالى - .

قوله تعالى : ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله - تبارك وتعالى - قال تعالى : ﴿الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أى : يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقائق المملوكات .

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٧٣ .

(٢) سورة الزمر من الآية : ٩ .

(٣) سورة السجدة الآية : ١٦ .

(٤) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ - ٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ أى : فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات حلال يؤجر عليه الانسان ، لما فيه من تكثير النسل والذرية .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ أى : فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات ، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله .

قال الطبرى : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلوا ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملمومون .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى : يؤدون الأمانات ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتُمونها كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ (١) - الآية . وكما قال سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴾ .. الآية (٢) . وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (٣) .

فالْمُؤْمِنُ التَّقَى يشهد بالحق على القريب والبعيد ، ولا يكتُم الشهادة ولا يغيرها بل يؤديها على وجهها الكامل ، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم وخص سبحانه الشهادة بالذكر مع إندراجها فى الأمانات ، تنبيهاً على فضلها وخطرها لأن فى إقامتها إحياء للحقوق ، وفى تركها تضییع للحقوق .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يَحَافِظُونَ ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم ، أى : يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صورية لا يجنى العبد ثمرتها ، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم كما قال تعالى : ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (٤) وكما قال - سبحانه - ﴿ إِنَّمَا تَنْذَرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمُ الْغَيْبَ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

(١) سورة النساء من الآية : ١٣٥ .

(٢) سورة المائدة من الآية : ٨ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٤) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ .

قال ابن كثير افتتح - سبحانه - الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها كما تقدم في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ سواء ولهذا قال هناك : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وقال عنها : ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ أى : أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة ، والمناقب الرفيعة مستقرون في جنات النعيم ، التي أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات ، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتهيات ، لا تصافهم بمكارم الأخلاق . وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس : على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقبتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسه ، وأدى الأمانة » قيل : يا رسول الله ، وما أداء الأمانة ؟ قال : « الغسل من الجنابة ، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها »<sup>(١)</sup> رواه الطبراني بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « الجهاد في سبيل الله » قال : حدثني بهن رسول الله - ﷺ - ولو استزدته لزداني<sup>(٢)</sup> . ( متفق عليه ) وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « صلاة الرجل في جماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه خمسا وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وخط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام في مصلاه . يقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة »<sup>(٣)</sup> . رواه البخارى .

« فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عنك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك ، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك ، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك ، وقد جاء في الحديث عن النبي - ﷺ - أنه قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله »<sup>(٤)</sup> ألسنت تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ، فكذلك الصلاة من الإسلام فانظروا - رحمكم الله - واعقلوا وأحكموا الصلاة واتقوا الله فيها ، وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض فإن الله تعالى - قد أمركم أن : تعاونوا على البر والتقوى ، والصلاة أفضل البر . وقد جاء في الحديث : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم أى : لا نصيب لهم من الدين ولا من الخير والصلاح .

(١) انظر مجمع الزوائد ج ١ ص ٤٧ باب فيها بنى عليه الإسلام فقد ورد الحديث من رواية أبي الدرداء . وقال رواه الطبراني في الكبير وإسناده جيد .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٩٠ كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال حديث رقم ٨٥/١٣٩ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٣) البخارى انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٦٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية أبي هريرة .

(٤) أنظر البخارى في التاريخ ج ٧ ص ٤٢٦ فقد ورد الحديث برقم ١٨٦٨ باب مبارك من رواية لمعاذ بن جبل .

وجاء في الحديث : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته فإن تقبلت منه صلاته ، تقبل منه سائر عمله ، وإن ردت عليه صلاته رد سائر عمله » .  
« فصلاتنا آخر ديننا وهى أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا .. فتمكسوا رحمكم الله - بآخر دينكم » . ( رسالة الصلاة لأحمد بن حنبل ) .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - « من سره أن يلقى غداً مسلماً ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف » (١) رواه مسلم .

### من أحوال المعاندين

قال تعالى :

فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكُمْ مَهْطِعِينَ ﴿٢٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٢٧﴾ أَيُطَمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٢٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٣٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرَ مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٣١﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٣٣﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذُلُّكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٣٤﴾

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٤٥٣ كتاب المساجد باب صلاة الجماعة من سنن الهدى فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله .

## معاني المفردات

﴿ قبلك ﴾ : أى : الجهة التى تليك .  
 ﴿ مهطعين ﴾ : أى : مسرعين نحوك ، ماضى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هزوا .

﴿ عزيز ﴾ : أى : فرقاً شتى خلقاً خلقاً .  
 ﴿ بمسبوقين ﴾ : أى : بمغلوبين .  
 ﴿ الأجداث ﴾ : القبور واحدها جدث .  
 ﴿ سراعاً ﴾ : السراع واحدهم سريع .  
 ﴿ والنصب ﴾ ( بضمين ) كل شئ منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، وهو الممراد هنا .

﴿ يوفضون ﴾ : أى : يسرعون .  
 ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ : أى : ذليلة .  
 ﴿ ترهقهم ﴾ : أى : تغشاهم .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وعد الله المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال - أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول - ﷺ - : وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان - وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها - وهم فى هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة وترهق وجوههم قترة ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ : فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حوليك ، عن يمينك وعن شمالك جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ما تلقى عليهم من رحمة الله وهديه ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .



قال القرطبي : نزلت في جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه - ﷺ - ولا يؤمنون به . ونحو الآية : قوله تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرئ منهم أويؤن صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا ﴾ . أى : أيطمع هؤلاء وهم نافرون من الرسول - ﷺ - معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتي كما يدخلها المؤمنون المختبون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ؟ كلا ! لا مطمع لهم في ذلك مع ما هم فيه .

قال القرطبي : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبي - ﷺ - ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت ﴿ أيطمع .. ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أى : إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى ..

روى أن مطرف بن عبد الله رأى المهلب ، ابن أبي صُفرة يتبختر في مُطْرِف خَزْ وجبة خز فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المشية التي يبغضها الله ؟ فقال له : أتعرفني ؟ قال نعم ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته . نظم الكلام محمود الوراق فقال :

عجبت من معجب بصورته	وكان في الأصل نطفة مذرة
وهو غدا بعد حسن صورته	يصير في اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته	ما بين ثوبيه يحمل العذرة

وقال آخر :

هل في ابن آدم غير الرأس مكرمة	وهو بخمس من الأوساخ مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك	والعين مُرمصة والثغر ملهوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً	قَصْر فإنك مأكول ومشروب

والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار وما تضمنناه ، ثم قال - تعالى - : ﴿ إنا لقادرون ، على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴾ (١) أى : لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيراً منهم كما قال - تعالى - : ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ (٢).

وقوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريد فيفوت عليه ، ولهذا عُدّي بعلى دون إلى ، كما فى قوله ﴿ وما نحن بمسبوقين ، على أن نبذل أمثالكم ﴾ فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عُداه بعلى ، بخلاف سبقه إليه . فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه . فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه ، والثانى بمعنى وصلت إليه قبله .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ ، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم الحجة فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأس الله ، ولا صدقوا رسالته فى خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين .

ثم ذكر - سبحانه - حالهم عند خروجهم من القبور فقال - تعالى - : ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ (٣) أى : يسرعون والنسب : العلم والغاية التى تنصب ، فيؤمونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعى ، يؤمون الصوت ، لا يعرضون عنه يمناً ولا يسرة كما قال - تعالى - : ﴿ يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ﴾ (٤) أى : يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه . قال الزجاج : المعنى لا عوج لهم عن دعائه ، أى : لا يقدرّون إلا على اتباعه وقصده .

ثم قال - سبحانه - : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار ، وذلل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم وقريب من هذا قوله - تعالى - : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ (٥) ونظيره قوله - تعالى - : ﴿ وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ (٦) ، وضد هذا قوله تعالى ﴿ ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ (٧) فالنضرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله ومنه قوله ﴿ فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ (٨) فجمع هؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن .

(١) سورة النساء : الآية : ١٣٣ .

(٢) سورة طه من الآية : ١٠٨ .

(٣) سورة القيامة الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٢٧ .

(٥) سورة الإنسان من الآية : ١١ .

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦ والآية ١٠٧ .

قوله تعالى : فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴿١﴾ .

أى : أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثلاً منهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، ولن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

• قال العلامة ابن القيم : أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب ، وهى إما مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع وثنى فى موضع ، فقال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ ف قيل : هما مشرق الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ، فجاء فى سورة الرحمن ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس والقمر ، والنجوم والشجر ، والسماء والأرض ، والحب والثمر ، والجن والإنس ، ومادة أبى البشر وأبى الجن ، والبحرين ، والجنة والنار ، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما ، وأخبر أن فى كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين .

وأما سورة ﴿ سأل سائل ﴾ فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكما لها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم . فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته - تعالى - على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب بها فى مغرب .

وأما فى سورة ﴿ المزل ﴾ فذكر المشرق والمغرب بلفظ الأفراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده ، فليس للمشرق والمغرب رب سواه - فكذلك ينبغى أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله : ﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ فقال : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ .

وفى ربوبيته - سبحانه - للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسماوات وما حوته من الشمس والقمر

ثم ذكر سبحانه أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أُنذروا به ولم يأتهم بغتة فقال : ﴿ ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾ أى : ذلك اليوم وما فيه من أهوال كانوا قد أُنذروا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب .

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .  
اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

## تفسير سورة نوح

مقدمة

السورة مكية .

عدد آياتها : ثمان وعشرون آية .

وكلماتها : مائتان وأربع وعشرون .

وحروفها : تسعمائة وتسع وخمسون .

فواصل آياتها : ( منا ) على الميم آية أليم .

سميت سورة نوح لذكره في مفتحتها ومختمها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : أمر نوح بالدعوة ، وشكاية نوح من قومه ، والاستغفار لسعة النعمة ، وتحويل حال الخلق من حال إلى حال ، وإظهار العجائب على سقف السماء ، وظهور دلائل القدرة على بساط الأرض ، وغرق قوم نوح ، ودعاؤه عليهم بالهلاك ، وللمؤمنين بالرحمة ، وللظالمين بالتبarr والخسارة في قوله : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾ .

المتشابهات :

( قال نوح ) بغير واو ، ثم قال ( وقال نوح ) بزيادة الواو ، لأن الأول ابتداء دعاء ، والثاني عطف عليه .

قوله ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ وبعده ﴿ إلا تبارا ﴾ ، لأن الأول وقع بعد قوله : ﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ ، والثاني وقع بعد قوله : ﴿ لا تذر على الأرض ﴾ فذكر في كل مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

مناسبة السورة لما قبلها ..

(١) أنه قال في السورة السابقة : ﴿ إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ .

وذكر هنا قصة يقوم نوح المشتعلة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبداهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين في ذكر العذاب الموعود به الكفار .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ قَالَ  
يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ يَغْفِرْ لَكُمْ  
مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٤ إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ٦ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا  
فِرَارًا ٧ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِيءَ إِذَا نِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا  
ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَآسَكَبُوا آسِنَابًا ٨ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ٩ ثُمَّ إِنِّي  
أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ١٠ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ١١  
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ١٢ وَيُمْدِدْكُمْ يَأْمُنًا ١٣ وَبَيْنَ يَدَيْكُمْ جَنَّتٍ ١٤  
وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ١٥ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ١٦ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ١٧  
أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ١٨ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ  
الشَّمْسَ سِرَاجًا ١٩ وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَنْبَاءً ٢٠ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ  
إِخْرَاجًا ٢١ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ٢٢ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ٢٣

## معاني المفردات

﴿ إن أجل الله ﴾ وقت مجيء عذابه إن لم تؤمنوا .  
 ﴿ فراراً ﴾ تباعداً ونفاراً عن الإيمان .  
 ﴿ استغشوا ثيابهم ﴾ بالغوا في التغطية بها كراهة لى .

﴿ أصروا ﴾ تشددوا وانهمكوا في الكفر .  
 ﴿ يرسل السماء ﴾ المطر الذى في السحاب .  
 ﴿ مدراراً ﴾ غزيراً متتابعاً . .  
 ﴿ لا ترجون الله وقاراً ﴾ لا تعتقدون أو لا تخافون عظمة الله .  
 ﴿ خلقكم أطواراً ﴾ مدرجاً لكم في حالات مختلفة .  
 ﴿ سموات طباقاً ﴾ كل سماء مقببة على الأخرى .  
 ﴿ الشمس سراجاً ﴾ مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام .  
 ﴿ أنبتكم من الأرض ﴾ أنشأكم من طبيعتها .  
 ﴿ الأرض بساطاً ﴾ فراشاً مبسطاً للاستقرار عليها .  
 ﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ طرقاً واسعة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ .

يقول - تعالى - نوح - عليه السلام - : أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنبأوا رفع عنهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضح . ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه . ( وأطيعون ) فيما أمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أى : إذا فعلتم ما أمركم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم .

قال ابن جرير من هنا بمعنى عن والتقدير : يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبويض أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام والله أعلم .

وقوله - تعالى - : ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أى : يمد في أعماركم ويدرا عنكم العذاب الذى إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم .

قال ابن كثير : وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث « صلة الرحم تزيد في العمر » .

وقوله - تعالى - : ﴿ إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة فإنه إذا أمر - تعالى - بكون ذلك لا يرد ولا يمانع فإنه العظيم الذى قد قهر كل شىء ، والعزیز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

قوله - تعالى - : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ، وَإِنِّي كَلِمًا دَعُوهُمْ لَتُغْفَرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ .

يخبر - تعالى - عن عبده ورسوله نوح - عليه السلام - أنه اشتكى إلى ربه - عز وجل - ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة ، التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشd والسبيل الأقوم فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ أى : لم أترك دعاءهم في ليل أو نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء طاعتك ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ أى : كلما دعوتهم ليقربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه . ﴿ وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لَتُغْفَرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوههم إليه ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبیر : غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما يقول ﴿ وَأَصْرُوا ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

قوله - تعالى - : ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا . ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ أى : ثم إنى يارب دعوتهم إلى عبادتك مرة بعد أخرى بأساليب مختلفة : فحيناً أدعوهم جهراً في مجتمعاتهم ، وحيناً أنفرد ببعضهم سراً .

قوله - تعالى - : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ .

أى : قلت لهم : سلوا الله المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات وهذا منه ترغيب في التوبة ، وقد روى حذيفة بن اليمان عن النبي - ﷺ - أنه قال : « الاستغفار ممحاة للذنوب » وقال الفضيل : يقول العبد أستغفر الله ، وتفسيرها : أقلنى . وقوله : ﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ أى : يرسل ماء السماء عليكم ( مدراراً ) ذا غيث كثير . قال مقاتل : لما كذبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نساءهم أربعين سنة ، فهلك مواشيهم وزرعهم ، فصاروا إلى نوح - عليه السلام - واستغاثوا به فقال : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ أى : لم يزل كذلك لمن أناب إليه . ثم قال ترغيباً في الإيمان ﴿ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ قال قتادة : علم نبي الله - ﷺ - إنهم أهل حرص على الدنيا فقال : « هلموا إلى طاعة الله فإن في طاعة الله درك الدنيا والآخرة » . ونحو هذه الآية قول النبي هود لقومه : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مَجْرِمِينَ ﴾ .

قال القرطبي : - في هذه الآية والتي في « هود » دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار . قال الشعبي : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا :

ما رأيـناك استسقيـت ؟ فقال : لقد طلبـت المطر بمجـاديع السـماء الـتى يـستـنـزل بها المطر ثم قرأ : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ .

وقال ابن صبيح : شكـا رجل إلى الحسن الجـدوية فقال له : استغفر الله ، وشكـا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله . وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله ، وشكـا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال له : استغفر الله . فقلنا له في ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندى شيئاً ، إن الله تعالى يقول في سورة نوح : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

وقال سعيد بن جبـير عن ابن عباس : أى : ما لكم لا تخشون الله عقاباً وترجون منه ثواباً . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة . وقيل : ما لكم لا توحيدون الله ، لأن من عظمة فقد وحده . ثم دلهم على ذلك فقال :

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أى : جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحـيده قال ابن عباس : ﴿ أطواراً ﴾ يعنى نطفة ، ثم علقـة ، ثم مضغة ، أى : طوراً بعد طور إلى تمام الخلق كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقـة فخلقنا العلقـة مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (١) وكما قال جل فى علاه ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقـة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (٢) .

ألا إننا كلنا بئد	***	وأى بنى آدم خالـد
وبلؤهم كان من ربهم	***	وكل إلى ربه عائد
فواعجبا كيف يعصى الإله	***	أم كيف يجحد الجاحـد
وفى كل شىء له آية	***	تدل على أنه واحد

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١٢ - ١٤ .

(٢) سورة الحج الآيات : ٥ - ٧ .



ثم تابع نوح مخاطبة قومه لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله فوقهم ، فقد خلق الكواكب السيارة ، وجعل القمر يسير في مداراتها لينير لهم الأرض ليلاً ، وجعل الشمس سراج النهار فقال : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ ذكر لهم دليلاً آخر ، أى : ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا ! فهو الذى يجب أن يعبد ، ومعنى ( طباقاً ) بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ، قاله ابن عباس والسدى .

وقوله - تعالى - : ﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أى : وجعل القمر بروجاً ومنازل وفاوت في نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستسر ليدل ذلك على مضى الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .

كما قال - تعالى - : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ أى : والله أنبت أباكم آدم من الأرض ، وقد يكون المعنى : أنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه سبحانه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالدة من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات ، وعروقهم المتشعبة في الجسم والتي يجرى فيها الدم وينتشر في الأطراف ، تشبه ما في الشجر ، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو والمر والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات لكل أمرىء خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله : ﴿ ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴾ أى : ثم يعيدكم في الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشراً . كما قال - تعالى - : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٢) .

ثم أخذ يعدد النعم التي أعدها للإنسان في الأرض وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما في بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المتنوعة فقال :

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أى : والله بسط لكم الأرض ومهدا ، وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم يبين حكمة هذا فقال : ﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أى : لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطابها المختلفة .

وقضارى ما سلف - أن نوحاً - عليه السلام - أمر قومه بالنظر في علوم الأنفس ، والآفاق من معدن ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وسماء ، وأرض وشموس ، وأقمار .

(١) سورة يونس الآية : ٥ .

(٢) سورة طه الآية : ٥٥ .

موقف قوم نوح - عليه السلام - منه

قال تعالى :

قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾  
وَمَكْرُؤًا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا  
يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا  
خَطَبَيْنَاهُمْ أَغْرِقُوا فَاذْخُلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ  
نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَاهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ  
وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا  
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

### معاني المفردات

- ﴿ خَسَارًا ﴾ : الخسار الخسران .
- ﴿ كَبِيرًا ﴾ : أى : كبيراً عظيماً .
- ﴿ لَا تَذَرُنَّ ﴾ : أى : لا تتركن .
- ﴿ وَدَ وَسَوَاعَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ : أسماء أصنام كانوا يعبدونها .
- ﴿ مِمَّا خَطَبَيْنَاهُمْ ﴾ : أى : من أجل ذنوبهم وآثامهم .
- ﴿ أَغْرِقُوا ﴾ : أى : بالطوفان .
- ﴿ نَارًا ﴾ : أى : عذاباً فى القبر .
- ﴿ دَيَّارًا ﴾ : أى : أحداً .
- ﴿ تَبَارًا ﴾ : أى : هلاكاً .

### المناسبة وإجمال المعنى

أخبر - سبحانه - عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة ، المشتتة على الترغيب طوراً ، والترهيب طوراً آخر ، كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومتع بمال وولد وقالوا : لا نترك آلهتنا التى عبدناها نحن وآبائنا من قبل ، ونتبع بشراً مثلاً .

ويعد أن ذكر - سبحانه - مقالة نوح وشكواه إليه - أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب . ثم أخبر - سبحانه - بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبarr والهلاك .

### التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزد ماله وولده إلا خساراً ﴾ . لم تؤثر كلمات نوح فى نفوس القوم ولم يستجيبوا لنصيحته ، ولم يأبهوا لإنذار الله لهم ، وأنكروا عليه أن يكون نبياً لعدة أسباب منها : أنه إنسان مثلهم يأكل ويشرب ، فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم ، فالنبي - فى نظرهم - يجب أن يكون ملكاً لا بشراً .

وأن الذين اتبعوه هم المستضعفون ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين وأصحاب المهن الوضيعة ، وهؤلاء - فى نظرهم - قد اتبعوا دون روية ولا تفكير ، وهم ليسوا من ذوى الفضل . واتهام نوح ومن آمن معه بالكذب ، ولم يكونوا متأكدين من اتهامهم هذا بل كانوا يبنونه على الظن ...

قال - تعالى - : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلاً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادی الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ . ويصور القرآن الكريم فى آية أخرى مدى استعلاء القوم ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح ووصمهم له بالضلال ، كما يصور نوحاً الصابر الملائف الذى يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم فيقول لهم : يا قوم ليس بى ضلالة كما تزعمون ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم ما أرسلنى به من الوصايا والأحكام التى تصلح بها أمركم ، وأنى ناصح لكم بما فيه سعادتكم ومحذركم مما فيه شقاؤكم ، وقد علمنى الله ما لا تعلمون .

قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ﴾ \* قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين \* أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون \* أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴿ (١) .

## تهديد نوح

لم تترك دعوة نوح في قومه إلا أثرا ضئيلا كما صرح القرآن فقال تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ (١).

أما الأكثرون فقد تبرموا من دعوته وكذبوه ، ووصموا بالجنون وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى . قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾ (٢).

كما هددوه بالرجم ﴿ قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ﴾ (٣).

وبعد أن بذل نوح غاية جهده في سبيل هداية قومه ، وبعد أن ضاقت في وجهه كل السبل لإصلاحهم ، عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه :

﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزدده ماله وولده إلا خسارا ﴾ .

أى : قال نوح : رب إنهم عصوني فيما أمرتهم به ، وأنكروا مادعوتهم إليه ، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغتروا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة في خسارتهم وخروجاً عن محجة الصواب ، وبعداً عن رحمة الله .

﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أى : مكراً كبيراً ، فاحتالوا في الدين ، وصدوا عن سبيل الله بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح - عليه السلام - .

﴿ وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدوا رب نوح ، ولا سيعا هذه الأصنام التي هي أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال : صارت هذه الأوثان في العرب بعد فكان :

ود : لكلب .

سواع : لهديل .

يغوث : لقطيف بالجرف عند سبأ .

يعوق : لهمدان .

نسرا : لحمير آل ذى الكلاع .

(١) سورة هود من الآية : ٤٠ .

(٢) سورة القمر الآية : ٩ .

(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٦ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

اللات : لثيف بالطائف .

العزى : لسليم وغطفان وجشم .

منه : لخزاعة بقديد

أساف : لأهل مكة .

نائلة : لأهل مكة

هبل : لأهل مكة وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .<sup>(١)</sup>

وقال ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس قال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم - الذين كانوا يقتدون بهم - لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

قال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ما جاء في صحيح مسلم من حديث عائشة - رضى الله عنها - أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة بالحبيشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وقد أضلوا كثيرا ﴾ أى : وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التى استحدثت على صور هؤلاء النفر كثير من الناس فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل - عليه الصلاة والسلام - فى دعائه ﴿ واجنبنى وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس ﴾<sup>(٣)</sup> .

ثم دعا نوح على قومه لتمردهم وعنادهم فقال : ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالا ﴾ أى ولا تزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالا وطبعا على قلوبهم ، وقصارى القول بان دعا عليهم بالخدلان ، وإن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ رب انصرنى بما كذبون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ .

يقول - تعالى - ﴿ مما خطيئاتهم ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ أغرقوا فادخلوا نارا ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار الى حرارة النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله كقوله - تعالى - : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) البخارى ج٦ ص١٩٩ كتاب التفسير تفسير سورة إنا أرسلنا فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم ج١ ص٣٧٥ ، ٣٧٦ كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور . الخ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة

(٣) سورة إبراهيم من الآيتين : ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) سورة هود من الآية : ٤٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ أى : يارب لاتترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا .

قال السدى : الديار الذى يسكن الدار فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل أبيه ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال - رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة ﴾<sup>(٢)</sup> قال ابن كثير : وهذا حديث غريب رجاله ثقات .

وقوله - تعالى : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : إنك يارب إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك . أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : فاجرا فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك .

وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين . قال الكلبي : كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون وكذا قال ابن عباس . وقوله : ﴿ ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾ أى : مسجدي ومصلاى مصليا مصدقا بالله . وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة . وهذا قول ابن عباس : « بيتى » مسجدي ، وعن ابن عباس - أيضا - أى : ولمن دخل ديني ، فالبيت بمعنى الدين ، ورواية ثالثة عنه - أيضا - : يعنى صديقى الداخل الى منزلى . ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ عامة إلى يوم القيامة كدعوة النبى ابراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾<sup>(٣)</sup> .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أى : الكافرين ( إلا تبارا ) إلا هلاكا فهمى عامة فى كل كافر ومشرک . قال مجاهد ( إلا تبارا ) إلا خسارا أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

(١) : سورة هود من الآية : ٤٣ .

(٢) : انظر تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٦٤ تفسير سورة نوح ط / الشعب فقد أورد الحديث عن ابن عباس ، عن رواية لابن أبى حاتم ، وقال : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

(٣) : سورة ابراهيم الآية : ٤١ .

وبعد فراغنا من تفسير سورة نوح - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - رأينا أن نسوق هذا الموضوع القيم والذي يتعلق بأهمية الدعوة والتبليغ ، وما من شك من أنها أعظم وأشرف عمل يقوم به المسلم في رسالة الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه . يقول الشيخ عبدالله ناصح علوان في كتابه . . . .

### « وجوب تبليغ الدعوة » فضل الدعوة والداعية

إذا كان هذا - أخى الداعية - هو حال البشرية اليوم من الفساد والانحلال والشقاء حيث لم تنج بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادئ الكفر والضلال ، إذا علمت هذا فعليك أن تعلم - أيضا - ماهى أبعاد مسئوليتك فى الإصلاح والتغيير ، وما هو عظم واجبك فى التبليغ والدعوة ؟

أعلم - رحمك الله - أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت فى هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب إلى أمة الإسلام : شيبا وشبابا ، رجالا ونساء ، صغارا وكبارا ، حكاما ومحكومين خاصة وعامة . . كل يقوم بهذه المهمة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحبسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل فى هذه الوظيفة الدعوة العامة قوله - تبارك وتعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾<sup>(١)</sup>

والقاعدة فى هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله تبارك اسمه : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾<sup>(٢)</sup> .

وعبارة ﴿ كنتم خير أمة ﴾ فى الآية تشمل المسلمين جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ أخرجت للناس ﴾ فى الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير إلى اليد الخالقة المدبرة التى أخرجت أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجا ، ودفعتها إلى الظهور واثبات الذات دفعا ، لتبليغ دعوة الله فى العالمين .

ولاشك أن هناك نصوصا كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة تدل دلالة قطعية على حتمية التبليغ ، وفريضة الدعوة نفتطف باقة منها وبالله التوفيق .

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

فمن نصوص القرآن الكريم :

أ - قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

فاللام في قوله : ﴿ ولتكن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضى الوجوب ﴿ وأمة ﴾ في الآية يقصد منها - كما يدل عليه السياق - طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأي العام في كل بقعة من المجتمع الاسلامي ، وإن كان ذلك واجبا - في الأصل - على كل فرد من الأمة ، كل على حسب طاقته واستعداده وإيمانه . . يقول « ابن كثير » - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وفي رواية : « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل » (٢) .

فالذى تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأي العام . . واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة ، وإن كان ذلك واجبا في الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب - قال تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٣) .

أقسم الله - سبحانه - في هذه السورة بالعصر الذى بعث الله فيه نبيه لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكد : إن جنس الإنسان لفي ضياع وخسران إلا من تحقق :

بالايمان بالله .

والعمل الصالح .

والتواصى بالحق .

والتواصى بالصبر .

فالذى تدل عليه السورة : أن أى إنسان في هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنا بالله الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرا على المحنة والبلاء ، راضيا بما قدر الله عليه ، فإنه يكون لامحالة خاسرا ضاللا ضائعا !!  
فالدعوة الى الله إذن من أوجب الواجبات في نظر الإسلام ، بل هى واجبة على كل إنسان بحسبه .

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩ كتاب الايمان باب كون النهي عن المنكر من الايمان - فقد ورد الحديث من رواية لابي سعيد .

(٣) سورة العصر .



- قال الله تعالى : ﴿ والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ (١)  
الآية . . وقال - سبحانه وتعالى - في السورة نفسها : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ (٢) .

ومما يستفاد من النصين أن الله - سبحانه - ميز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال القرطبي في تفسيره : « فجعل الله - تعالى - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام » .

ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر !!

فهذا التميز بين المؤمنين والمنافقين في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر !

كما يبدو من الآيات - دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالإيمان والخيرية والتبليغ . . فاذا تخلت عن سمتها وخصيصةها فإنها تتسم بصفات المنافقين وتنحدر إلى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ الله هذه الأمة منهم .

د - وقال تعالى : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (٣) .

وقد سرد الإمام الغزالي هذه الآيات وعقب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » وقد نزلت هذه الآية - كما ذكر ابن كثير - فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم وأصبح معنى الآية : لا يستوى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذم والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب الله ، ويقومون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين .

هـ - وقال - تعالى - : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ﴾ (٤) .

(١) سورة التوبة من الآية : ٧١ .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١١٣ - ١١٤ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ - ٧٩ .

يخبر - تعالى - في هاتين الآيتين أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله ، وإعتدائهم على خلقه ، وكانوا أيضا لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصي ، ويجلسون معهم ويرضون بمنكرهم !!

وهذا ما بينه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث الذي رواه الامام أحمد : « لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي نهتهم علماءؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم » (١) .

ومما يدل عليه هذا النص القرآني أن أمة الاسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأي العام ، ولم تنصح الناس الى ما فيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة الله - عز وجل - ولم تأمر بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر فإن الله - سبحانه - يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبسبب تساهلها في حق دعوة الله - سبحانه - ، وحراسة الرأي العام المسلم .

- وقال - تعالى - : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور ﴾ (٢) .

يؤكد - سبحانه - في هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك في اتباع هواه ، وإعزاز دينه ، والجهاد في سبيله ، وهؤلاء الذين ينصرون الله - عز وجل - ، لهم في الحياة الدنيا مهمة ، وفي مجال العمل التبليغي رسالة ، فمهمتهم الأولى حين يمكن الله لهم في الأرض أن يعبدوا الله ويوحده ، ورسالتهم في إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هي مهمتهم ، وتلك هي رسالتهم فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ويتخلوا عنها حتى يستأهلوا نصر الله - عز وجل - ، وحتى يزيدهم الله في الأرض عزة وقوة وتمكيناً ، وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة فإن الله - سبحانه - يجعل بأسهم بينهم شديداً ، ويسلط عليهم عدوهم ، فيستنفذ بعض مافي أيديهم ، ويزيدهم في الحياة ذلة ووهنا وتمزيقا .

ومما يوجه اليه هذا النص القرآني : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسئوليتها في التزام منهج الله - عز وجل - وإذا لم تؤد رسالتها في التبليغ والدعوة ، فإن الله - سبحانه - يعرض عنها ويتخلل عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرها ، ويبدؤها من بعد أمن خوفاً ، ومن بعد عزة ذلاً ، وسوف تبقى على هذه الحالة المتردية حتى تعود إلى هدى ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن الله من ينصره إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التي تدل على وجوب تبليغ الدعوة في أرض الله .

● ومن نصوص السنة الشريفة

أ - روى الشيخان عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : « بايعنا رسول الله - ﷺ - على

(١) أنظر الامام أحمد ج ١ ص ٣٩١ فقد ورد الحديث من رواية لعبدالله .

(٢) |سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ .

السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم»<sup>(١)</sup> .

ماذا تعنى كلمة : ( بايعنا ) ؟ وماذا تعنى عبارة « أن نقول الحق أينما كنا » أليست تعنى أن كل من انضم الى جماعة المسلمين أن يعطى البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع في العسر واليسر ، وان لا ينشق عن أمير الجماعة إلا اذا أمر بالمعصية ، أو دعا الى كفر بواح وأن يقول الحق أينما كان ، وان لا يخاف في الله لومة لائم .

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين وجوب النصح العام ، وحثمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلت ووجدت ؟

ب - روى البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا ( اقترعوا ) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »<sup>(٢)</sup> .

مثل النبى - ﷺ - فى هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت فى سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تعبت بأمن السفينة وركابها ، فكل من فى السفينة إذا تركوا هذه الطائفة العابثة تفعل ماتشاء هلك كل من فى السفينة ، واذا منعوها وأخذوا على أيديها نجا كل من فى السفينة ! أليس يدل هذا التمثيل النبوى ، على أن كل مسلم فى هذا الوجود له وظيفة اجتماعية فى الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف فى وجه المارقين الظالمين .. حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وانها اذا تساهلت فى ذلك أصابها الله بالذل والهوان والتمزق . ؟

ج - روى أبو داود والترمذى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ماتصنع به فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ( وهو على حاله ) ( أى من المنكر ) فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال ﴿ لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل .. الآية ﴾ . ثم قال - عليه الصلاة والسلام : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه ( أى لتجبرنه ) على الحق أطراً ولتجبرنه على الحق قصراً »<sup>(٣)</sup> هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل فرد فى الأمة .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٩٦ .. كتاب الأحكام « باب كيف يبايع الامام الناس فقد ورد الحديث من رواية لعبادة بن الصامت مع اختلاف يسير .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٣ كتاب فى المظالم والغصب باب هل يقرع فى القسمة والاستفهام فيه فقد ورد الحديث عن رواية النعمان بن بشير .

(٣) انظر سنن ابى داود ج ٤ ص ٥٠٨ باب الأمر والنهى فقد ورد الحديث برقم ٤٣٣٦ .

## ووجه الاستدلال

استحقاق الأمة جميعاً لعنة الله إذا تقاعست في واجب التغيير والتبليغ والدعوة .  
صينغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب في قوله - عليه الصلاة والسلام - « كلا والله لتأمرن بالمعروف ..... » .

فهذه الصينغ كلها - كما هو معلوم - تدل على الوجوب .  
تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلي عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

د - روى الشيخان عن زينب بنت جحش - رضى الله عنها - ان النبي - ﷺ - دخل عليها فزعا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر اقتراب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بين أصبعيه : الإبهام والتي تليها ، فقلت : يا رسول الله ، أنهلك وفيما الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »<sup>(١)</sup> مما يدل عليه هذا الحديث ، أن الأمة بأسرها صلاحها وفجارها يعمها الدمار والهلاك لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ومسئولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالصالحون منها يشملهم الهلاك لكونهم سكتوا عن استئراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذل والمهانة !!

هـ - روى مسلم والترمذى وابن ماجه . . عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »<sup>(٢)</sup> .

« فمن » في قوله عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكرا » - لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان منكرا من العامة أو الخاصة ، إذا فقهوا الخطر الذى يترتب عليه تفشى المنكر فى المجتمع الاسلامى .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فان لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب ، وذلك أضعف الايمان .

وتغيير المنكر بالقلب معناه ان ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ، وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم وتمعر وجهه من أفعالهم .

## أ - ووجه الاستدلال الذى يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولا ، ثم اللسان ثانيا ،

(١) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٦٠ ط / الشعب كتاب الفتن باب قول النبي - ﷺ - « ويل للعرب من شر قد اقتراب مقدور والحديث عن رواية عن زينب ابنة جحش .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٦٩ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٤٩/٧١ .

ثم القلب ثالثا : فاذا لم يتم التغيير بأى مرحلة من هذه المراحل الثلاثة .. فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدل عليه الرواية الثانية التى رواها مسلم : « فمن جاهدكم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدكم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدكم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »<sup>(١)</sup> . الى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التى تدلل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

### الدليل من عمل الأمة

انطلاقا من خصيصة الإسلام الأولى : تكون الدعوة إنسانية عالمية . واستشعارا بمسئولية المسلمين فى حمل رسالة الاسلام الى الدنيا وإيمانا باعتقاد المؤمنين جميعا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد أنهم على احدى الحسينين : النصر أو الشهادة ..

بناء على هذا كله انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان فى مجاهل الأرض ، يمدون الأمم ، ويكرمون الانسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون فى العالمين صرح الحضارة ، وينبتون الأرض خيرا وعسلا ولبنا ، ويطبعون فى ضمير الزمان مبادئ التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة . انطلقوا يعلنون للدنيا انهم دعاة حق ، ومصاييح هدى ، وحملة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح .

واليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

- أرسل سعيد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - جماعة من الأشراف دعاة إلى « يزدجرد » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرار . فلما وصلوا اليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ما جاء بكم ودعاكم الى غزونا ، والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم النعمان بن مقرن . فقال :

« إن الله رحمننا ، فأرسل لنا رسولا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر أن نبتدىء بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغبت ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمر أن نبتدىء بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح ، فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فان أبيتم فالمناجزة ( أى القتال ) .

(١) انظر صحيح مسلم ج١ ص٦٩ ، ٧٠ باب كون النهى عن المنكر من الإيمان حديث رقم ٥٠/٨٠ .

فإن أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتكم الجزاء ( أى دفعتم الجزية ) قبلنا منكم ومنعناكم ( أى : دفعنا عنكم ) وإلا قاتلناكم ... » .

- ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرض القادسية أرسل الى سعيد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - أن ابعث إلينا رجلا نكلمه فأرسل اليه ربعى بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق ( السجاد ) والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل ربعى على فرسه ، وسيفه فى خرقه ، ورمحه مشدود بعصب ، فلما انتهى الى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شققها خطوة حتى أفسد مامر عليه من البسط - ثم دنا من رستم - وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لا نتباعد على زينتكم .. فقال رستم : ماجاء بكم ؟

قال ربعى : « الله جاء بنا ، وهو ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى تقضى الى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربعى : « نعم ، وإن مما سن لنا رسول الله - ﷺ - ألا تمكن الاعداء اكثر من ثلاث ، فنحن نمتنعون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

الاسلام وندعك وأرضك .

او الجزاء ( أى : الجزية ) فنقبل منك ، ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

أو المنابذة ( أى القتال ) فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا ( أى بقتال وأنا كفيل على أصحابي ) .

هذا غيظ من فيض مما ذكره التاريخ من مواقفهم الدعوية المشرفة ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم باحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا فى سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ، حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الاسلام إنتشاره .

فما هو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول - ﷺ - حتى قامت للمسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين دولة عتيدة وسلطان ، وامتد لهم فى رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين : فارس والروم ، وامتد ظلهم الى بلاد السند شرقا ، والى بلاد الخزر ، وأرمينية ، وبلاد الروس شمالا ، ودخلت فى عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقيّة إفريقيا ، وذلك كله فى خمس وثلاثين سنة .

وفى عهد بنى أمية استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقا ، ودخلوا بلاد الأندلس بأوروبة غربا ....

وما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التي تقول :

« مالا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب » .

إن بلاد الاسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، كما هو معلوم - يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمى معاهد ، وماعداهم من مرتدين ، أو ملحدين ، أو شيوعيين ، أو مستعمرين ، أو صهيونيين . . . . فلا يصح أن يقر لهم في بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لا يتحققون بصفة العزة الإسلامية في دار الاسلام ، وأرض المسلمين ، إلا أن يقوموا قومة رجل واحد في التوعية ، وتبليغ الدعوة والالتفاف تحت راية واحدة والارتباط بالجماعة المسلمة ، حتى اذا كونوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهئين لخوض معارك الجهاد ، طهروا أرض الإسلام من كل مرتد أفاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعي مجرم ، أو يهودي آثم . . عندئذ يعلم أعداء الاسلام في كل مكان أنهم لاهية لهم في أرض الاسلام إلا بإسلام أو ذمة !!

أما أن يكون في أرض الاسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالة تدعى الاسلام زورا وتقبه كالقراطة ، والقاديانية ، والاسماعيلية وغيرهم ممن على شاكلتهم .

أما أن يكون في بلاد الاسلام أحزاب كافرة ، ودعاة الى مبادئ هدامة كالشيوعية والوجودية ، والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهى إظهار العزة على الكافرين التي من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا .

ومن يوم ما فقدت الشخصية الاسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ، تفكك المجتمع الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة ( الماسونية ) في بلاد الاسلام أن يقوضوا عرش الخلافة الاسلامية ، وأن ينكسوا الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا في أرض الاسلام الفساد ، واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الاسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستطاع الشيوعيون أن يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وأن يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار . . استطاع اللادينون أن يتحكموا في أقطار ينتسب أهلها الى الاسلام ، وأن يبعدوا الاسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ، واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع في بلاد الاسلام وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ، واستطاع اليهود أن يقيموا دولة في فلسطين ، وأن يقتصبوا المسجد الأقصى وأن يفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير والكثير !!

وفي الحقيقة لاتحل مشاكل المسلمين في هذا العصر إلا اذا وجد الجيل المؤمن الواعى الداعية المجاهد الذى يحقق بإيمان وشجاعة العزة للمؤمنين والحاكمية للإسلام في كل مجتمع يؤمن أهله بـ لا إله إلا الله محمدا رسول الله .

وهذا في الواقع لا يتأتى إلا أن يستشعر الجيل المسلم في العصر الحديث معنى الواجب الذى كلفهم

الشرع به ، ومعنى المسئولية التي حملهم الاسلام إياها . إقامة حكم الله في الأرض هو من أعظم المسئوليات وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسئولته وواجبه لأنه كما ذكر علماء الأصول : « مالا يتحقق الواجب إلا به فهو واجب » وإلا فإن الحساب عند الله عسير ، وإن المسئولية يوم القيامة كبيرة .

### ( فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون )

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والاكراه ؟  
إذا كان الاسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ، وما هو الهدف ؟

إن للجهاد في الاسلام أهدافا محددة تبلغ من صميم الواقع وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق نلخصها في النقاط التالية :

(١) رد الظلم والعدوان عن أرض الاسلام :  
لقله تبارك وتعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) .

(٢) الإخلال بالعهود والمواثيق :  
لقله تبارك وتعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لأيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ (٢) .  
(٣) إزالة العقبات التي تعترض الدعوة :

لقله سبحانه : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ (٣) .

وبناء على هذا النص يجب قتال من يعترض طريق الدعوة الاسلامية ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام الى الشعوب بل النص في جملة يأمر المسلمين أن يزيحوا عن طريق الدعوة ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام إلى الشعوب أو حاكم مثاله يحول بين قومه وبين الهداية ، حتى تصل دعوة الإسلام الى الأمم والشعوب نقية صافية واضحة ، ثم بالتالي الشعوب هي التي تقرر مصيرها : إن شاءت أن تدخل في الإسلام عن طوعية واختيار ، وإن شاءت أن تبقى على دينها وتدفع الجزية الى الدولة الاسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد في الإسلام : أن الاسلام لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، وإنه لم

(١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .

(٢) سورة التوبة آية : ١٢ .

(٣) سورة الأنفال آية : ٣٩ .



ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الاسلام وإنما شرع الجهاد - كما سبق ذكره - من أجل إزاحة الطواغيت والمتألهين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون وصول الاسلام الى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الاسلام لم يكره أحدا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص : قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ (١) .

لو كان الاسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول الله - ﷺ - من صاحب « أيلة » ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد ان انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم في تبوك ، فإن طبيعة النصر تدفع المرء الى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن الرسول - ﷺ - أبى أن يحارب أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم امثالاً لقوله تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ (٢) .

والجزية التي دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم وإنما هي عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة في سبيل حمايتهم .  
وهذا التخيير الذي فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه في الدين .

### فضل الدعوة والداعية

إن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

(١) أنها خاتمة (٢) إنها عالمية (٣) أنها ذات خصائص .

أما أنها خاتمة :

فلكونها ، جمعت في طياتها دعوة الرسل جميعا ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدى المتجدد على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية :

فلكونها ذات صبغة إنسانية عامة في تشريعها ومبادئها ، فهي رحمة للعالمين ، وهي هداية للناس كافة وهي منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص :

فلكونها تختص بالمزايا التالية :

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٦١ .

- أ - الربانية : لأنها نزلت من حكيم حميد .  
 ب - الشمول : لأنها تنزلت بمنهج الحياة .  
 ج - التجدد : لكونها تحمل في طبيعتها عوامل نموها وامتدادها الى يوم الدين .  
 د - التوازن : لكونها وفقت بين المادة والروح ، وحققت مصلحة الفرد والجماعة وأعطيت لكل ذي حق حقه في الحياة .  
 هـ - اليسر : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الانسان وتنسجم مع مسؤولياته .  
 و - البساطة : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستحب لها كل ذى عقل ، وينشرح لها كل ذى فطرة .  
 ز - الخلود : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لا يتطرق اليها قصور ، ولا يعترها تحريف .  
 وإن دعوة تحمل في طياتها مزايا الربانية ، والغالية ، والشمول ، وتحمل في مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل في طبيعتها ظواهر التوازن ، والاصالة والاستمرار ، فهي دعوة تستحق البقاء وتستأهل الخلود ، وتفي بحاجات الزمن .. إلى أن يرث الله الأرض وعلوها .

### فضل الداعية إلى الله - سبحانه وتعالى -

لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة في تكميمها للدعاة وفي الرفع من منزلتهم ، وفي الإشادة بفضلهم .. لوجدناها أكثر من أن تحصى :  
 ١ - الدعاة هم خير الناس .  
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ كُتِّمَ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية .

٢ - الدعاة هم الشهداء على الناس :  
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١)

فأمة الاسلام هي الأمة الداعية الوسط التي تشهد يوم القيامة على أنها بلغت رسالة الاسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصورات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة في كل ما يتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفي كل ما يرتبط بهداية الأمم والشعوب والانسانية .  
 ٣ - الدعاة هم المفلحون في الدنيا والآخرة  
 لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيُؤْمَرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ الْمَفْلُحُونَ ﴾ .

هذه الأمة الداعية إلى الخير، والآمرة بالمعروف، والناهية عن المنكر، هي الأمة المفلحة الفائزة في الدنيا والآخرة، المفلحة في الدنيا لكونها نفذت منهج الله عز وجل - في الدعوة والجهاد، والعمل في سبيل الاسلام، فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم.

والمفلحة في الآخرة لكونها بلغت الدنيا الرسالة وأدت الأمانة، ونصحت الأمة وجاهدت في الله حق جهاده، فاستأهلت النعيم الخالد المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

فهنيئاً للدعاة الهداية ما أعد الله لهم من منزلة رفيعة ومقام كريم في الدنيا والآخرة.

٤ - الدعاة أحسن الناس حديثاً:

لقوله - تبارك وتعالى - : ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾<sup>(٢)</sup>

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام، وليسيروا في طريق الدعوة إلى الله وليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية، فإنهم في المقام الأرفع والمنزل الأكرم.

٥ - الدعاة ورثة الأنبياء:

لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم أن رسول الله - ﷺ - قال : « العلماء ورثة الأنبياء »<sup>(٣)</sup> وهل هناك شرف أعظم ممن يداني الأنبياء في المنزلة والكرامة؟ وما العلماء والدعاة إلى الله - عز وجل - إلا ممن اقتفوا أثر رسول الله - ﷺ - في دعوة الأمم إلى الخير، وهداية البشرية إلى الصراط السوي، فهم ورثة الأنبياء، وهم الواقفون على ثغرة الإسلام وهم المجاهدون لإعلاء دين الله، وهم يحيون بكتاب الله الموق، ويفتحون قلوباً غلغلا، وأعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الاسلام عن الشهود والوجود.

فهل أدرك الدعاة إلى الله فضلهم، وعرفوا في هذه الحياة منزلتهم؟

٦ - أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة:

لما روى الترمذي عن أبي امامة مرفوعاً . . أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»<sup>(٤)</sup>.

والصلاة - كما هو معلوم - من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن العبد دعاء. وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا من تصدى للدعوة وسار في طريق الهداية والإصلاح والتبليغ.

ألا فليعلم الدعاة مقامهم، ويدركوا في هذا الوجود منزلتهم؟ فهنيئاً لهم، ولن يسير على دربهم كم ينالوا من شرف؟ وكم يسطر لهم في صحفائهم من أجر ومثوبة؟ ..... أهـ.

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى ج١ ص٢٧ كتاب العلم، انظر ابن ماجة ج١ ص٨١ حديث رقم ٢٢٣ .

(٣) انظر سنن الترمذى المجلد الرابع ط/دار الفكر ص١٥٤ حديث رقم ٢٨٢٦ فقد أورد الحديث عن أبي امامة وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

## سورة الجن

## بين يدي السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية . آياتها ثمان وعشرون عند الكل إلا مكة فإنها في عددهم سبع عدوا ( لن يجيرني من الله أحد ) وأسقطوا ( ملتجدا ) في غير رواية البزى

وفي رواية البزى : لم يعد ( لن يجيرني من الله أحد ) ولم يعد ( ملتجدا ) فصار في روايته سبعا وعشرين . وفي الرواية الأخرى : ثمانيا وعشرين . وكلماتها مائتان وخمس وثمانون . وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون . فواصل آياتها على الألف . سميت سورة الجن لاشتغالها على الجن في قوله : ﴿ يعوذون برجال من الجن ﴾ وقوله : ﴿ نفر من الجن ﴾ معظم مقصود السورة : عجائب علوم القرآن وعظمة سلطان الملك الديان وتعدي الجن على الإنسان ومنعهم عن الوصول إلى السماء بالطيران والرشد والصلاح لأهل الإيمان وتهديد الكفار بالجحيم والنيران وعلم الله تعالى بالأسرار والإعلان وكيفية تبليغ الوحي من الملائكة إلى الأنبياء بالإتقان وحصر المعلومات في علم خالق الخلق في قوله : ﴿ وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

السورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

## المتشابه

قوله : ﴿ وأنه ﴾ : ( كرر مرات أن وأنه ) واختلف القراء في اثنتي عشرة منها وهي : من قوله : ( وأنه تعالى ) إلى قوله : ﴿ وأنا منا المسلمون ﴾ : ففتحها بعضهم عطا على ﴿ أوحى إلى انه ﴾ وكسرها بعضهم عطا على قوله : ﴿ فقالوا إنا سمعنا ﴾ وبعضهم فتح ( أنه ) عطا على ( أنه ) وكسر ( إنا ) عطا على ( إنا ) وهو شاذ .

## فضل السورة

عن أبي : من قرأها أعطى بعدد كل جن وشيطان صدق بمحمد وكذب به عتق رقبة وعن علي : يا علي من قرأها لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة وله بكل آية قرأها ثواب الزاهدين .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَىَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي  
إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَمْ نُشْرِكْ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً  
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ  
وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ  
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا  
السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ  
الطَّيْرِ ثُمَّ يَسْمَعُ الْآلُانُ يَجْدُلُهُ شِهَابًا بِأَرْصَادٍ ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدٍ يَمْنُنُ فِي الْأَرْضِ  
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّاهِلُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا ﴿١١﴾  
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا النَّهْدَى  
ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا  
الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ  
حَاطَبًا ﴿١٥﴾

## معاني المفردات

﴿أوحى﴾ الوحي هو ما يلقي إلى الأنبياء من عند الله وفيه معنى الخفاء والسرعة ، والإيحاء  
أن تلقى إلى غيرك ما تريده عن طريق الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة أو الإلهام ﴿نفر﴾ نفر  
العدد القليل هو من الثلاثة إلى العشرة ﴿استمع﴾ أصغى ﴿عجبا﴾ المراد يثير العجب ويدعو  
للغربة والدهشة ﴿جد ربنا﴾ يقال : جد هذا في عيني أى عظم فالمراد تعالى جلال ربنا وعظمته  
وقيل : الجد الملك والسلطان ﴿يقول سفيها على الله شططا﴾ السفيه من عنده خفة وطيش تنشأ عن  
حق وجهل والقول الشطط الذى تخطئ صاحبه فيه حد العدل والحق ﴿يعوذون﴾ يطلبون النجاة  
والعون ﴿رهقا﴾ طغيانا وإثما أو ذلة وخوفا لا يطاق ﴿لمسنا السماء﴾ طلبنا بلوغها واستماع  
أخبارها ﴿حرسا﴾ لفظ يدل على الجمع والمراد عليها حراس من الملائكة شداد ﴿شهباً﴾ جمع  
شهاب وهو شعلة من نار ساطعة ﴿رصداء﴾ يرصده ويرقبه لينقض عليه ﴿رشدا﴾ المراد خيرا

ورحمة ﴿نعجز الله﴾ لن نفوته ونفلت من قدرته ﴿بخساً﴾ أى إنتقاصاً من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له ﴿ولا رهفا﴾ لا يخاف ظلماً غير محتمل ﴿تحروا رشدا﴾ أى : طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين ﴿القاسطون﴾ قسط : ظلم وجار ، وأقسط : أزال الظلم والجور

### أضواء كاشفة

لقد ثبت فى الصحاح أن الجن استمعوا للنبي ﷺ وهو يصلى بأصحابه ويقرأ القرآن بصوت أمال الجن فصرفهم إليه فلما استمعوا وفهموا حقائق من كلام الله انطلقوا إلى أهلهم يبشرونهم ويحملون إليهم ما عرفوه ولقد أوحى الله إلى النبي بهذا ليطمئن خاطره وتستمر نفسه كما هى قوة شديدة فى دعوتها فإن أعرض عنها المشركون فهاهم أولاء الجن يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان بها نزلت هذه الآية مرة بالإجمال فى سورة الأحقاف قال تعالى : ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين﴾ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب إليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴿١﴾.

ومرة بالتفصيل كما هنا نزلت فيما نزلت تبكيها لقريش والعرب حيث تباطؤوا عن الإيمان وكانت الجن أسرع منهم فى قبول الدعوة مع أنهم من غير جنس البشر ، أما القرشيون والعرب فقد كذبوا حسداً من عند أنفسهم وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، قل لهم يا محمد : لقد أوحى الله إلى أنه استمع نفر من الجن إلى القرآن فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم : إنا سمعنا قرآناً جليل الشأن بديعاً يدعوا إلى العجب لأنه يخالف لكلام البشر بل ولكل الكتب السابقة فى نظامه وأسلوبه وأغراضه ومعانيه وهو كتاب يهدى إلى الرشد وإلى الخير والحق وإلى الصراط المستقيم فنشأ عن ذلك أننا آمننا به وبمن أنزل عليه بعد ما آمننا بالقوى القادر الذى أنزله على عبده محمد ولن نشرك بعد هذا ربنا أحداً من خلقه أيا كان ﴿وأنه تعالى جد ربنا﴾ أى : وصدقنا أن الحال والشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا أى : عظمته وتعالى سلطانه فهو صاحب الملك والسلطان تبارك اسمه وتعالى سره ما اتخذ صاحبة ولا اتخذ ولداً ، وكان الجن حينما سمعوا القرآن نبهم ذلك الى خطأ كان يعتقده الكفرة من الجن حيث شبهوا الله بالحادث المحتاج الى صاحبة والزوجة والذى يجوز عليه الانفصال ويحتاج الى الأولاد كيف يكون ذلك مع أنه المتعالى الغنى عن كل شىء .

آمنّا بالله وصدقنا بأن ما كان يقوله سفينةا فى حقد سبحانه وتعالى كان شططاً وخروجاً عن حد العقول لفرط بعده عن الحق إذ كان ينسب صاحبة والولد إليه - عز وجل -

وهم يعتذرون عن تقليدهم لسفينةهم وقائدهم فى الشر فيقولون : آمنّا بالله وصدقنا بخطئنا فى

ظننا الذى لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا فى نسبة ما لا يليق بالله لأننا كنا نظن أن المستحيل أن يقول واحد من الإنس والجن على الله قولاً كاذباً فيه كنسبة صاحبة الولد له - جل شأنه .

كان الرجل من العرب إذا أمسى فى واد مقفر وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادى - يريد رئيس الجن فيه - أعوذ بك من سفهاء قومك فلما سمع الجن ذلك أستكبروا وزادهم هذا إرهاباً وتعنتاً وعتوا ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ بمعنى آمنّا بالله وآمنّا بأنه كان رجال من الإنس يلجئون إلى الجن يستعيذون بهم فكان الجن يزدادون بذلك عتوا واستكباراً وقيل : إن معنى الآية : وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال منهم وهم الكهان والمنجمون والعرافون يستجيرون بهم من أذى الجن فيزداد الكهان والعرافون عتواً واستكباراً وهذا علاج جاء على لسان إخواننا الجن لرد البشر إلى الصواب فى اعتقادهم فى الجن وعلى ذلك فكاذب من يقول : إن بعض الناس يستخدم الجن أو إن للجن عملاً نافعا أو ضاراً فى حياتنا يقول **اللويسى** : ولعل تعلق الإيمان بهذا باعتبار ما يشعر به من كون ذلك ضللاً موجباً لزيادة الرهق

وآمنّا بأن الإنس ظنوا خطأ كما ظننتم أن الله لن يبعث أحداً من الرسل إلى أحد من العباد وقيل : المعنى أوحى إلّى أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة أن الله لن يبعث أحداً من خلقه بعد موته ونخبركم بأننا طلبنا بلوغ السماء لنسمع كلام أصحابها كما كنا فوجدناها قد ملكت حرساً قويا من الملائكة أعد لطرده من يسترق السمع وملك شهيأ رصدت لمن يريد السمع فتحرقه

ونخبركم كذلك بأننا كنا نقعد منها مقاعد كثيرة لا ستراق السمع قبل بعثة النبى ﷺ فمن يستمع الآن يجد له شهاباً خاصاً به رصد لأجله لا يخطئه وهذه الشهب لا يمنع وجودها الآن وقبل الآن وكونها ظاهرة طبيعية لا يمنع أنها أعدت بعد البعثة لذلك مع صفتها الأصلية وكثرت لهذا الغرض ويفيد ذلك قوله : ﴿ ملكت ﴾ وآمنّا بأننا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض بحراسة السماء أم أراد بهم رشدًا وخيراً وآمنّا بأننا الصالحون أى فى أنفسهم الطيبون فى المعاملات مع غيرهم المائلون للخير بطبعهم ومنا غير ذلك وهم كثير كنا طرائق مختلفة حيث وكلنا إلى أنفسنا

وآمنّا بأننا لن نعجز الله ولن نفلت منه أبداً أينما كنا فى الأرض ولن نعجزه هارين منها إلى السماء فالكل فى قبضته وتحت تصرفه

وآمنّا بأننا كما سمعنا الهدى أى : القرآن آمنّا به من غير تلغثم وتردد فمن يؤمن بربه وبما أنزله - عز وجل - فلا يخاف نقصاً ولا يخاف ظلاً إذ لا يظلم ربك مثقال ذرة وفى الواقع أن ربك لا يظلم أحداً بل الكل يأخذ جزاءه ولكن نصت الآية على أن المؤمن لا ينقص من حسناته ولا يبخص شيئاً من عمله .

وبعد سماع القرآن آمنا بأننا من المسلمون ومنا القاسطون الجاثرون على طريق الهدى ، فأما المسلمون المهديون فأولئك قوم توخوا العدل والحق وقصدوه واتبعوه وآمنوا وعملوا به وأما القاسطون الجاثرون عن سنة الحق والعدل والكرامة التي هي سنن الإسلام فأولئك قوم مأواهم جهنم بل كانوا له حطباً ووقوداً .

تلك حقائق إسلامية أوردتها القرآن على لسان الجن فكانت دواء لكثير من أمراضنا وتصحيحا لكثير من أفهامنا وهي تتلخص فيما يأتي :

- ١ - أن الجن سمعوا قرآنا يدعو إلى العجب فآمنوا به ولن يشركوا بالله أحداً .
- ٢ - أنه تعالى جده وعظمت عظمته لا يمكن أن يتخذ صاحبة ولا ولداً .
- ٣ - أنه كان يقول بذلك بعض سفهائنا وهو قول خارج عن كل الحدود
- ٤ - وأنا كنا نظن أنه لا يعقل أن يقول أحد من الخلق على الله كذبا ولكن تبين لنا ذلك فنعتذر
- ٥ - وأنه مما يدعو إلى العجب أن رجالا من الإنس كانوا يستجيرون برجال من الجن فيزدادوا تمنا وفجورا لذلك ، أو أنه كان رجال من الإنس يستجيرون بإخوانهم من الإنس ليمنعوا عنهم ضرر الجن فيزدادوا ظلما وفحشا مع أن الجن لا حول لهم ولا طول فليطمئن الإنس ولا يستعيذون إلا بالله من الإنس والجن .
- ٦ - أن الخلق كانت تظن خطأ أن الله لن يبعث أحدا من رسله ولا أحدا بعد موته
- ٧ - وأنا طلبنا بلوغ السماء لنعرف خيرا فمنعنا فليطمئن الإنس فليس الجن يعرف أى خير عن السماء .
- ٨ - وأنا كنا نقعد قبل ذلك في بعض الأماكن نسترق السمع أما الآن فلن يكون ذلك .
- ٩ - وأنا أجهل الخلق بالغيب فلسنا نعرف أشرف أريد بالناس أم أريد بهم خير ؟!
- ١٠ - وأنا منا الصالحون ومنا غير ذلك .
- ١١ - وأنا عرفنا أن الله قادر على كل شيء فلن نعجزه في الأرض ولا في السماء
- ١٢ - وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن فسيأخذ حقه كاملا غير منقوص .
- ١٣ - وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون في الخير وإلى الخير صائرون وأما القاسطون فأولئك في ضلال وإلى جهنم صائرون .



## مبحث في عالم الجن والشياطين

قال الشيخ ( عمر سليمان الأشقر ) في كتابه تحت هذا العنوان ( عالم الجن والشياطين )

## بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد

فقد يظن بعض الناس أن الكتابة في هذا الموضوع من قبيل الترف العلمي ويجذب هؤلاء أن يمر الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل وهؤلاء يظنون أن القائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة وأن الجهل به لا يضير

وأنا لن أذهب بعيداً فعالم البشر اليوم يبذلون من المال ما يبني المدن ويشيد الدول ويقضى على الفقر في بقاع شاسعة من العالم تضم ألاف الملايين في البحث عن إمكانية الحياة والأحياء في الكواكب القريبة منا وقد قام العلماء في هذا السبيل بجهود جبارة كلفتهم من الوقت والمال الكثير فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء يعيشون معنا في أرضنا ويخالطوننا في مساكننا ويأكلون ويشربون معنا وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا وقد يدفعوننا إلى أن نخطم أنفسنا بأنفسنا وأن يسفك بعضنا دم بعض وقد يعبدوننا لأنفسهم أو لأى مخلوق كى يجلبوا لنا غضب ربنا فيجلب بنا سخطه ويترك بنا غضبه ثم تكون عاقبة الشاردين عن ربهم ناراً تلظى

إن المعلومات التى جاءت بها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الموثقة في هذا الجانب لا تقدر بمال .

فهى تكشف لنا أسرار هذا العالم : عالم الجن وتمدنا بفيض من المعلومات تكشف تفاصيل حياتهم كما تخبرنا عما يمكنه بعض هؤلاء من عداء تجاه الإنسانية وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا وحسبك دليلاً يبينك عن أهمية الأمر أن تتبع الآيات التى تحدثت عن الجن والشياطين لتعلم عظم المساحة التى شغلتها هذه النصوص من كتاب الله .

ومن يطالع هذه النصوص يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان ، الشيطان يريد أن يقضى عليه بأن يوبقه ويهلكه والإنسان الذى أمده الله بنوره يجاهد كى يستقيم على صراط ربه ويقيم غيره على هذا الصراط وفى سبيل ذلك لا بد له من أن يصارع هذا العدد فى حنايا نفسه وخطرات

قلبه وآماله وأحلامه وتطلعاته لا بد له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار كي يتبين مدى قربيه وبعده من ربه ومدى تخلصه من عدوه الذى يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود الزارع حماره .

ولقد جمعت النصوص التى تحدثت عن هذا العالم وكلام الأئمة الأعلام عليها وتأملت فى ذلك كله فجاء هذا الكتاب فى ستة فصول .

الفصل الأول تعريف وبيان بهذا العالم : أصلهم وخلقهم وأسمائهم وأصنافهم وطعامهم وشرابهم وزواجهم ومساكنهم ودوابهم وقدراتهم التى وهبهم الله إياها وستجد فى غضون هذا الفصل الأدلة التى تثبت وجودهم وترد على المنكرين

والفصل الثانى بيان الغاية التى خلقوا من أجلها وطريقة تبليغهم التعاليم الربانية وعموم رسالة محمد ﷺ

أما الفصل الثالث فهو صلب هذه الرسالة وفيه عدة مباحث :

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشیطان والتدليل على قوته وعمقه وتحذير الله لنا من هذا العدو .

الثانى : الأهداف القريبة والبعيدة للشیطان .

الثالث : أساليب الشیطان فى إضلال الإنسان .

الرابع : قيادته للمعركة وجنده فيها .

الخامس : مصائد الشیطان التى يكيد بها الإنسان .

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشیطان التى هى سلاحه فى إفساد النفوس وزرع الفساد فى القلوب .

والفصل الرابع تعرضت فيه لعدة قضايا تضل بها الشياطين العباد :

الأولى : تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد وما ترتب على ذلك من الفساد

الثانية : تخضير الأرواح ومدى صحة ذلك وعلاقة هذا بالشياطين

الثالثة : مدى معرفة الجن بعالم الغيب وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من

فساد

الرابعة : الجن والأطباق الطائرة

وفى الفصل الخامس تحديد للأسلحة التى لا بد للمسلم أن يتسلح بها وهو يخوض المعركة مع

الشیطان .

وفي الفصل السادس والأخير : تحدثت عن الحكمة من خلق الشيطان  
أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤلف كاتبه وناشره وقارئه وأن يجزل للجميع المثوبة وأن يعيدنا من  
الشيطان وأن يتولانا بعونه ورعايته إنه نعم المولى والنصير وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله  
وصحبه وسلم .

## الفصل الأول

### تعريف وبيان الجن :

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث  
الاتصاف بصفة العقل والإدراك ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر ويخالفون الإنسان في  
أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان

وسموا جنًّا لاجتنانهم ، أى : استتارهم عن العيون ﴿ إنه يراكم هو وقيله من حيث لاترونهم ﴾ (١)

### أصلهم :

أخبرنا الله - جل وعلا - أن الجن قد خلقوا من النار في قوله : ﴿ والجان خلقناه من قبل من  
نار السموم ﴾ (٢) وفي سورة الرحمن ﴿ وخلق الجان من مارج من نار ﴾ (٣) وقد قال ابن عباس  
وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد في قوله : ( مارج من نار ) طرف اللهب وفي رواية من خالصه  
وأحسنه وقال النووي في شرحه على مسلم : ( المارج اللهب المختلط بسواد النار )

وفي الحديث الذى أخرجه مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال : ( خلقت الملائكة من نور وخلق  
الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم ) (٤) متى خلقوا ؟

لاشك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من  
صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (٥) فقد نص في الآية أن الجان  
مخلوق قبل الإنسان ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفى عام وهذا لا دليل عليه من  
كتاب ولا من سنة .

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٧ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٥ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق - باب في أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦

(٥) سورة الحجر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

### أسماء الجن في لغة العرب :

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب :

- ١ - فإذا ذكروا الجن خالصاً قالوا : جنى
- ٢ - فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس قالوا : عامر والجمع عمار
- ٣ - فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا : أرواح
- ٤ - فإن خبث وتعرض قالوا : شيطان
- ٥ - فإن زاد أمره على ذلك وقوى أمره قالوا : عفريت .

### أصناف الجن :

يقول الرسول ﷺ في هذا : ( الجن ثلاثة أصناف : فصنف يطير في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون )<sup>(١)</sup>

### لا مجال للتكذيب بعالم الجن :

أنكرت قلة من الناس وجود الجن إنكاراً كلياً وزعم بعض المشركين : أن المراد بالجن أرواح الكواكب .

وزعمت طائفة من الفلاسفة : أن المراد بالجن نوازع الشر في النفس الإنسانية وقواها الخبيثة كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم .

وزعم فريق من المحدثين ( بفتح الدال المخففة ) : أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التي كشف عنها العلم الحديث .

وقد ذهب الدكتور محمد البهي ( في تفسير سورة الجن ) : أن المراد بالجن الملائكة فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما ومما استدل به : أن الملائكة مستترون عن الناس إلا أنه أدخل في الجن من يتخفى من عالم الإنسان في إيمانه وكفره ونحيه وشره ( تفسير سورة الجن ص ٨ )

### عدم العلم ليس دليلاً :

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم وعدم العلم ليس دليلاً ، وقبيح بالعاقل أن ينفي الشيء لعدم علمه بوجوده وهذا مما نعه الله على الكفرة : ( بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ) سورة يونس ٢٩ .

وهذه المخترعات الحديثة التي لا يستطيع أحد أن يكابر فيها أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟

وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل عدم وجودها حتى إذا اخترعنا ( الراديو ) واستطاع التقاط ما لا نسمع صدقنا بذلك ؟!

والصحيح :

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير عالم الملائكة والبشر وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ليسوا بأعراض ولا جرائم وأنهم مكلفون بمأمورون منهيون .

الأدلة :

١ - التواتر :

يقول ابن تيمية « مجموع الفتاوى ١٠/١٩ » : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله أرسل محمداً - ﷺ - إليهم وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين وإن وجد فيهم من ينكر ذلك وكما يوجد في المسلمين من ينكر ذلك كالجهمية والمعتزلة وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة بل بمأمورون منهيون ليسوا بصفات وأعراضاً قائمة بالإنسان أو غيره ، كما يزعمه بعض الملاحدة فلما كان أمر الجن مقواتساً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم .

وقال في ص ١٣ « جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركى العرب وغيرها من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن »

٢ - النصوص القرآنية والحديثية :

كقوله تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ سورة الجن ١  
وقوله : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة

الجن ٦

وهي نصوص كثيرة سيأتى ذكر غالبها في ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله .

## ٣ - المشاهدة والرؤية :

كثير من الناس في عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك وإن كان كثير من الذين يشاهدون ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جن ، إذ يزعمون أنهم أرواح ، أو رجال الغيب أو رجال الفضاء .

وقد حدثنا الثقة في القديم والحديث عن مشاهداتهم فهذا عالم جليل يدعى الأعمش يقول : تروح إلينا حنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أذى اللقم ترفع ولا أرى أحدا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الراضة فيكم ؟ قالوا : شرنا .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذه القصة : عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أنى الحجاج المزى ، فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش . ثم قال : وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال : سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد :

قلوب براها الحب حتى تعلقت      مذهبها في كل غرب وشارق  
تيمم بحب الله والله ربهما      معلقة بالله دون الخلائق  
أهـ كلام ابن كثير .

القول : وقد حدثني كثير من الثقات عن مخاطبتهم للجن ورؤيتهم لهم . وسيأتى ذكر شيء من ذلك عند حديثنا عن قدرتهم على التشكل لعبور مختلفة ، إن شاء الله تعالى .

## ٤ - أصلهم الذى خلقوا منه :

أنخير الرسول ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار ففرق بين الأصليين وهذا يرد على الذين لا يفرقون بين الجن والملائكة .

## رؤية الحمار والكلب للجن

إذا كنا لا نرى الجن فإن بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب ففى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن جابر مرفوعاً : « إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوزوا بالله من الشيطان فإنهم يرون ما لا ترون »<sup>(١)</sup>

(١) مسند أحمد ٣/٣٠٦ وسنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما جاء في الديك والبهايم ٥/٣٣٢ رقم ٥١٠٣

وهذا ليس غريباً فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية مالا نراه فالنمل يرى الأشعة فوق البنفسجية ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم والبومة ترى الفأر في ظلمة الليل البهيم .

### الشیطان والجان

الشیطان الذى حدثنا الله عنه كثيراً فى القرآن من عالم الجن ، كان يعبد الله فى بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ثم عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم استكباراً وعلواً وحسداً ، فطرده الله من رحمته .

والشیطان فى لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعنوه وتمرده على ربه

وأطلق عليه لفظ ( الطاغوت ) ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿ ( سورة النساء ٧٦ ) وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما يذكر العقاد فى كتابه ( إبليس ) وإنما سمى طاغوتاً لتجاوزه حده وتمرده على ربه وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد .

وقد يؤس هذا المخلوق من رحمة الله ولذا أسماه الله ( إبليس ) والبس فى لغة العرب من لا خير عنده وأبلس يؤس وتحير .

ويذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل أن يعصى ( عزازيل ) والله أعلم بمدى صحة ذلك .

### الشیطان مخلوق :

الذى يطالع ما جاء فى القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك و ... ليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون : « أنه روح الشر متمثلة فى غرائز الإنسان الحيوانية التى تصدقه ، إذا تمكنت من قلبه عن المثل الروحية العليا » ( دائرة المعارف الحديثة ص ٣٥٧ ) .

### أصله :

سبق القول بأن الشيطان من الجن وقد نازع فى هذه المسألة بعض المتقدمين والمتأخرين وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ سورة البقرة ٣٤ وأمثال هذه الآية التى يستثنى فيها إبليس من الملائكة ، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة .

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال جملة من العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا وأنه كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة .. إلى آخر الأقوال ، قال ابن كثير في تفسير ( ٣٢٩٧/٤ )

( وقد روى في هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التي تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذي بأيدينا وفي القرآن غنية عن كل ما عدها من الأخبار المتقدمة لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروا وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكروه وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوي والمقام المحمدي خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس فيه » وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلاً قاطعاً لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً ، بل هو كذلك حقاً للنص على أنه من الجن في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ سورة الكهف ٥٠ .

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس فقد أخبر المصطفى ﷺ : ﴿ أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم خلق من طين ﴾ والحديث في صحيح مسلم<sup>(١)</sup>

قال الحسن البصري : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين ( البداية والنهاية ٧٩/١ ) والذي حققه ابن تيمية : أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله ( مجموع الفتاوى ٣٤٦/٤ ) .

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن أو واحد منهم وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ سورة الكهف ٥٠

وابن تيمية يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . ( راجع مجموع الفتاوى ٢٣٥/٤ ، ٣٤٦ ) .



## طعام الجن وشرابهم :

الجن والشيطان منهم ، يأكلون ويشربون ، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له : « ولا تأتيني بعظم ولا بروثة » ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سر نهيهِ عن العظم والروثة ، قال : « هما من طعام الجن وإنه أتانى وفد نصيبين - ونعم الجن - فسألونى الزاد فدعوت الله لهم : أن لا يمروا بعظم ولا روثه إلا وصبروا عليها طعاماً »<sup>(١)</sup> وفى سنن الترمذى بإسناد صحيح « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن »<sup>(٢)</sup> صحيح الجامع ( ١٥٤/٢ ) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أتانى داعى الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحمها وكل بعرة علف لدوابكم ، فقال النبى ﷺ - : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم »<sup>(٣)</sup>.

وقد أخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان يأكل بشماله وأمرنا بمخالفته فى ذلك ما روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل يمينه وإذا شرب فليشرب يمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »<sup>(٤)</sup>.

وفى المسند أيضاً « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال : أدركتم المبيت وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » وأخرجه مسلم أيضاً<sup>(٥)</sup> ، ففى هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب .

وكما أن الإنس منهيون عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه من اللحوم فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول - ﷺ - طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه فلم يبيع لهم متروك التسمية ويبقى متروك التسمية لكفرة الجن : الشياطين فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشيطان لأنه لم يذكر اسم الله عليها .

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ سورة المائدة ( ٩٠ ) أن المسكر شراب الشيطان فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره وشاركهم فى عمله فيشاركونهم فى شربه وإثمه وعقوبته .

(١) صحيح البخارى - كتاب مناقب الأنصار - باب ذكر الجن ٥٨/٥ .

(٢) سنن الترمذى - كتاب الطهارة - باب ما جاء فى كراهية ما يستنجى به ٢٩/١ رقم ١٨ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠ .

(٤) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠٢٠ .

(٥) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠١٨ ومسند أحمد ٣٤٦/٣ .

## هل يتزاوج الجن ويتكاثرون :

الذى يظهر أن الجن يقع فيهم النكاح وقد استدلل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى في لزواج أهل الجنة : ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ سورة الرحمن ٥٦ وذكر صاحب (لوامع الأنوار البهية) حديثاً نحتاج إلى نظر في إسناده ، يقول : ( إن الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً )<sup>(١)</sup> رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة وسواء أصبح هذا الحديث أم لم يصح فإن الآية صريحة في أن الجن يتأتى منهم الطمث وحسنا هذا دليلاً .

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وهذا القول تبطله الأدلة من الكتاب والسنة التى سقناها .

وبعض العلماء ذكر أن الجن أنواع منهم من يأكل ويشرب ومنهم من ليس كذلك ، يقول وهب بن منبه « الجن أجناس : فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ويتناكحون ويموتون ، قال : وهذه هى السحالي والغول وأشباه ذلك » أخرجه ابن جرير .

وهذا الذى ذكره وهب يحتاج إلى دليل ولا دليل وقد حاول بعض العلماء الخوض فى الكيفية التى يأكلون منها هل هو مضغ وبلع أو تششم واسترواح والبحث فى ذلك خطأ لا يجوز لأننا لا نعلم بالكيفية ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ .

## زواج الإنس من الجن :

لازلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنيه أو أن امرأة من الإنس خطبها حتى وقد ذكر السيوطى آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن يقول ابن تيمية : « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف » .

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحكم وإسحق والإمام مالك - رحمه الله - لا يجد دليلاً ينهى عن مناكحة الجن ، غير أنه لم يستحبه وعلل ذلك بقوله : « ولكنى أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد » .

وذهب قوم إلى المنع من ذلك واستدلوا على مذهبهم بأن الله امتن على عباده من الإنس بأنه جعل لهم أزواجاً من جنسهم : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ سورة الروم ٢١ فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس فتصبح الحكمة من الزواج لاغية إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما فى الآية الكريمة .

وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها في الحاضر والماضي فإذا حدثت فهي شذوذ — قلما — يسأل فاعلمها عن حكم الشرع فيها وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لا يمكنه أن يتخلص من ذلك .

ومما يدل على إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن أن حور الجنة قال الله فيهن ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾<sup>(١)</sup> فدللت الآية على صلاحيتين للإنس والجن على حد سواء .

### هل تموت الشياطين :

لا شك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون ، إذ هم داخلون في قوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴿ سورة الرحمن ٢٦ - ٢٨ .  
وفي صحيح البخارى عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت والجن والإنس يموتون »<sup>(٢)</sup> أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين أنه سيبقى حياً إلى أن تقوم الساعة : « قال : فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : ﴿ إنك من المنظرين ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ .

أما غيره فلا تدري مقدار أعمارهم إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس . ومما يدل على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزة ( الشجرة التى كانت تعبدها العرب ) وأن صحابياً قتل الجن الذى تمثل بأفعى .

### مساكن الجن وأماكنهم وأوقات تواجدهم :

الجن يسكنون هذه الأرض التى تعيش فوقها ويكثر تواجدهم في الخراب والفلوات ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر ولذلك — كما يقول ابن تيمية : يأوى إلى كثير من هذه الأماكن التى هى مأوى الشياطين : الشيوخ الذين تقترب بهم الشياطين وقد جاءت الأحاديث التى تنهى عن الصلاة فى الحمام لأجل ما فيها من نجاسة ولأنها مأوى الشياطين وفى المقبرة لأنها ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر قد تكون مأوى للشياطين .

ويكثر تواجدهم فى الأماكن التى يستطيعون أن يفسروا فيها كالأسواق فقد أوصى الرسول ﷺ أحد أصحابه قائلاً : ( لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته ) رواه مسلم فى صحيحه<sup>(٣)</sup> .

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الذكر والدعاء حديث رقم ١٧٣٦

(٣) صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — باب من فضائل أم سلمة ١٩٠٦/٤ رقم ٢٤٥١

والشياطين تبيت في البيوت التي يسكنها الناس وتطردها التسمية وذكر الله وقراءة القرآن خاصة سورة البقرة. وآية الكرسي منها وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر وتكثر بحلول الظلام ولذا أمرنا أن نكف صبياننا في هذه الفترة وهو حديث متفق عليه<sup>(١)</sup>.

والشياطين تهرب من الأذان ولا تطيق سماع صوته وفي رمضان تصفد الشياطين .

من مجالس الشياطين :

تحب الشياطين الجلوس بين الظل والشمس ولذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس بينهما وهو حديث صحيح مروي في السنن وغيرها .

دواب الجن<sup>(٢)</sup>.

في حديث ابن مسعود في صحيح مسلم أن الجن سألوا الرسول ﷺ : الزاد ، فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم لحماً وكل بعرة علف لرابكم<sup>(٣)</sup> فأخبر أن لهم دواب وأن علف دوابهم بعردواب الإنس .

حيوانات تصاحبها الشياطين :

من هذه الحيوانات الإبل ، يقول الرسول ﷺ : ( الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً ) رواه سعيد بن منصور في سننه بإسناد مرسل حسن ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة في مبارك الإبل ، ففي مسند أحمد ، وسنن أبي داود أن الرسول ﷺ قال : ( لاتصلوا في مبارك الإبل فإنها من الشياطين وصلوا في مرائب الغنم فإنها بركة .. )<sup>(٤)</sup> وفي سنن ابن ماجه بإسناد صحيح : ( ولاتصلوا في أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الشياطين )<sup>(٥)</sup>.

وهذه الأحاديث ترد على من قال بأن علة النهي عن الصلاة في مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٢) مسند أحمد ٤١٤/٣ ، ومسند أبي داود - كتاب الأدب - باب في الجلوس بين الظل والشمس ١٠٦٤/٥ رقم ٤٨٢١

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٤) مسند أحمد ٣٥٢/٤ وسنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب النهي عن الطلابة في مبارك الإبل ٣٣١/١ رقم ٤٩٣

(٥) سنن ابن ماجه - كتاب المساجد والجماعات - باب الصلاة في أعطان الإبل ومراح الغنم ٢٥٣/١ رقم ٧٦٩

## قبح صورة الشيطان :

الشيطان قبيح الصورة وهذا مستقر في الأذهان وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التي تثبت في أصل الجحيم برؤوس لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ﴿ إِنَّمَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ (١)

وقد كان النصارى في القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذى لحية مديبة وحواجب مرفوعة وفم ينفث لهباً وقرون وأظلاف وذيل ( دائرة المعارف الحديثة ٣٧٥ .

## الشيطان له قرنان :

ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها تطلع بين قرني شيطان » (٢) وفى البخارى ومسلم عنه : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تَحَبُّنَا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعَ الشَّمْسِ ، وَلَا غُرُوبَهَا ، فَإِنَّهَا تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ » (٣)

والمعنى أن طوائف من المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها عند طلوعها وعند غروبها ، فعند ذلك ينتصب الشيطان فى الجهة التى تكون فيها الشمس حتى تكون عبادتهم له .

وقد نهينا عن الصلاة فى هذين الوقتين ، والصحيح أن الصلاة فى هذين الوقتين جائزة إذا كان لها سبب كتحية المسجد ، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ، لقوله ﷺ ( لَا تَحْسَبُونَهَا ) أى لا تتقصدوا ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخارى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المارق ، فقال : « ها إن الفتن ههنا ، إن الفتن ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » . والمراد بقوله « حيث يطلع قرن الشيطان » أى جهة الشرق (٤)

## قدراتهم :

أعطى الله الجنَّ قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم ، فمن ذلك سرعة

## الحركة والانتقال :

فقد تعهد عفريت من الجن لنبى الله سليمان بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المقدس فى مدة لاتتجاوز قيام الرجل من جلوسه ، فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - باب الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ٥٦٧/١ رقم ٨٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٤٧٦

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٥٠/٤ طبعة الشعب

طرفك ( قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب : ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربي ... ﴾ سورة النمل ٣٩ - ٤٠ .

سبقهم الإنسان في مجالات الفضاء :

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة في السماء ، فيسترقون أخبار السماء ، ليعلموا بالحدث قبل أن يكون ، فلما بعث الرسول ﷺ زيدت الحراسة في السماء : ﴿ وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهاباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يسمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ سورة الجن ٨ - ٩ .

... وقد وضع الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع ، فعن أنى هريرة يبلغ به النبی ﷺ « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كالسلسلة على صفوان ، قال عليّ وقال غيره : ينفذهم ذلك ، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الذى قاله الحق ، وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومستمعو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فرمى أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه ، إلى الذى هو أسفل منه ، حتى يلقيوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكذا وكذا ، فوجدناه حقاً نلتى سمعت من السماء » رواه البخارى في صحيحه<sup>(١)</sup>.

خرافة جاهلية :

وهذا العلم عن السبب الذى من أجله يرمى بشهب السماء قضى على خرافة يتناقلها أهل الجاهلية ، فعن عبدالله بن عباس قال : أخبرني رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار ، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله : « ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمى بمثل هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا — تبارك وتعالى — اسمه — إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذي يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، ثم قال الذي يلون جملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال فيستخير بعض أهل السموات بعضاً » ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء

(١) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الحجر ١٠٠/٦ .

الدنيا . فتخطف الجنُ السمع ، فيقذفون إلى أوليائهم ، ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقرِفون فيه ويزيدون » رواه مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup>.

### علمهم بالأعمار والتصنيع :

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبيه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات ، ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير \* يعملون له ما يشاء من محاريب \* وتماثيل \* وجفان كالجواب \* وقدور راسيات ﴿ سورة سبأ ١٣ .

ولعلمهم قد توصلوا منذ القدم إلى إكتشاف مثل ( الراديو والتلفزيون ) . فقد ذكر ابن تيمية — ( مجموع الفتاوى ٣٠٩/١١ ) أن بعض الشيوخ الذي كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له : « إن الجن يروونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به ، قال فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بى من أصحابى ، فأجيبه فيوصلون جوابى إليه » .

### قدرتهم على التشكل :

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان ، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر في صورة سراقه بن مالك ، ووعد المشركين بالنصر ، وفيه أنزل : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ وقال لا غالب لكم اليوم من الناس \* وإني جار لكم ﴿ سورة الأفعال آية ٤٨

ولكن عندما التقى الجيشان وعابن الملائكة تنزل من السماء ولى هاربا : ﴿ فلما تراءت الفتنان نكص على عقبيه ﴾ وقال : إني برىء منكم \* إني أرى ما لا ترون \* إني أخاف الله ﴿ سورة الانفال ٤٨ . وقد جرى مع أبى هريرة قصة طريفة رواها البخارى وغيره ، قال أبو هريرة : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : إني محتاج ، وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبى ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ، قال : قلت ، يا رسول الله شكاك حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله قال أما إنه كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : الأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، ثم تعود ! قال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت ما هو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي . الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴿

حتى تختم الآية ، فأنتك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليب سبيله ، قال : ماهى ؟ قلت قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقراً آية الكرسي من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، قال النبى : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليل يا أبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان ، فقد تشكل هذا الشيطان فى صورة إنسان<sup>(١)</sup> .

وقد يتشكل فى صورة حيوان : جمل ، أو حمار ، أو بقرة ، أو كلب ، أو قط . خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر الرسول ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة ، وعلل ذلك بأن ( الكلب الأسود شيطان ) يقول ابن تيمية : « الكلب الأسود شيطان الكلاب ، والجن تتصور بصورته كثيرا » ، وكذلك بصورة القط الأسود ، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة .

### حيات البيوت :

تشكل الجن بشكل الحيات وتظهر للناس ، ولذا نهى الرسول ﷺ عن قتل حيات البيوت ، خشية أن يكون هذا المقتول جنياً قد أسلم ، ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بالمدينة نفراً من الجن قد أسلموا فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثاً ، فإن بدا له بعد فليقتله ، فإنه شيطان »<sup>(٢)</sup> .

وقد قتل أحد الصحابة حية من حيات البيوت ، فكان فى ذلك هلاكه ، روى مسلم فى صحيحه : أن أبا السائب دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته ، فوجده يصلى ، قال : فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكاً فى عراجين فى ناحية البيت ، فالتفت ، فإذا حية ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ قلت : نعم . قال : كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإنى أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثم رجع ، فإذا امرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيره ،

(١) صحيح البخارى - كتاب الوكالة - باب إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً ١٣٣/٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ٢٢٣٦ .



فقلت له : اكفف عليك رحلك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتاً : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، وقلنا ادع الله يحيه لنا ، فقال : « استغفروا لصاحبكم » ، ثم قال : « إن بالمدينة جنًا قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فأذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدالكُم بعد ذلك فأقتلوه ، فإنما هو شيطان »<sup>(١)</sup>.

### تنبيهات :

- ١ - هذا الحكم ، وهو النهى عن قتل هذه الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها .
  - ٢ - وليس كل الحيات ، بل الحيات التى نراها فى البيوت دون غيرها ، أما التى نشاهد خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها .
  - ٣ - إذا رأيت حيات البيوت فتوذنها أى تأمرها بالخروج ، كأن نقول : أقسمت عليك بالله أن تخرجى من هذا المنزل ، وأن تبعدى عنا شرك وإلا قتلناك فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .
  - ٤ - والسبب فى قتلها بعد ثلاثة أيام أننا نكون قد تأكدنا أنها ليست جناً مسلماً ، لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل ، فإن كانت أفعى حقيقية فهى تستحق القتل ، وإن كانت جناً كافراً متمرداً فهو يستحق القتل ، لأذاه وإخافته أهل المنزل .
  - ٥ - يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ، ففى صحيح البخارى عن أنى لبابة أن الرسول ﷺ - قال : ( لا تقتلوا الجنان ، إلا كلٌ أبتردى طفيتين ، فإنه يسقط الولد ، ويذهب البصر فأقتلوه )<sup>(٢)</sup>.
- وهل كل الحيات من الجن أم بعضها ؟ يقول الرسول ﷺ إن الحيات مسيخ الجن كما مسخت القردة والخنازير من بنى إسرائيل « رواه الطبرنى<sup>(٣)</sup> وأبو الشيخ فى العظمة بإسناد صحيح ، راجع الأحاديث الصحيحة ١٠٤/٣ .

### الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق :

ففى صحيح البخارى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى اندم »<sup>(٤)</sup> وفى الصحيحين عن صفية بنت حبي زوج النبى ﷺ قالت : « كان رسول

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ١٤١ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب قوله تعالى : وبث فيها من كل دابة ١٥٦/٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤١/١١ رقم ١١٨٤٦

(٤) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة الشيطان ١٥٠/٤ .

الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقبني ( يروى ) ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، قال النبي ﷺ : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقلا : سبحان الله يا رسول الله ١١ قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرأ ، أو قال : شيئاً <sup>(١)</sup> .

### ضعفهم وعجزهم :

الجن والشياطين فيهم جوانب قوة ، وجوانب ضعف ، قال تعالى : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ سورة النساء ٧٦ ، وسنعرض لبعض هذه الجوانب التي عرفنا الله ورسوله بها .

### لاسلطان لهم على عباد الله الصالحين :

لم يعط الرب سبحانه الشيطان — القدرة على إجبار الناس ، وإكراههم على الضلال والكفر ، ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ وكفى بربك وكيلًا ﴿ سورة الإسراء ٦٥ . ﴿ وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو في شك ﴾ سورة سبأ ٢١ . ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة ، والشيطان يدرك هذه الحقيقة ، قال : ﴿ رب بما أغويتني لأزيننَّ لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ .

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره ، ويتابعوه عن رضا وطواعيه : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ سورة الحجر ٤٢ . وفي يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم : ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ .

وفي الآية الأخرى : ﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ والذين هم به مشركون ﴿ سورة النحل ١٠٠ . والسلطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، ولا يدعهم يتركونه كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ سورة مريم ٨٣ ، ومعنى تؤزهم تحركهم وتبيجهم .

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس له فيه حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت أهواءهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقة ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم ، واستأسروا له سلط عليهم عقوبة لهم . فالله لا يجعل للشيطان

على العبد سلطاناً ، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسليماً وقهراً .

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم :

ففي الحديث « إن الله تعالى مع القاضى مالم يجز ، فإذا جار تبرأ منه ، وألزمه الشيطان » رواه الحاكم ، والبيهقى بإسناد حسن ( أنظر صحيح الجامع ١٣٠/٢ ) .

ويروى لنا أبو الفرج ابن الجوزى — رحمه الله — عن الحسن البصرى — رحمه الله — قصة طريفة ، وبغض النظر عن مدى صحتها إلا أنها تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله ، وكيف يصرع الشيطان الإنسان ؟ إذا ضل وزاغ ، يقول الحسن : ( كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليه رجل ، فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله فلقبه إبليس فى صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله ، قال إذا أنت لم تعبد ما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها ، فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك ؟ لا تقطعها ، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن أين لى ذلك ؟ قال أنا لك . فرجع ، فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ، ثم أصبح بعد ذلك ، فلم يجد شيئاً . فقام غضباً ليقطعها ، فتمثل له الشيطان فى صورته ، وقال : ما تريد ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى . قال : كذبت ، مالك إلى ذلك من سبيل ، فذهب ليقطعها فضرب به الأرض ، خنقه حتى كاد يقتله ، قال : أتدرى من أنا ، أنا الشيطان ، جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لى عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين ، فتركها ، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك ) ( تلييس ٤٣ ) .

وقد حدثنا الله فى كتابه عن شخص آتاه الله آياته ، فعلمها ، وعرفها ، ثم إنه ترك ذلك كله ، فسلط الله عليه الشيطان ، فأغواه ، وأضله ، وأصبح عبرة تروى ، وقصة تتناقل ، ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾ فانسلك منها ﴾ فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ ولكنّه أخلد إلى الأرض ﴾ واتبع هواه ﴾ فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ﴾ أو تتركه يلهث ﴾ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ ( سورة الأعراف ١٧٥ - ١٧٦ ) . وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه ، ثم هم يكفرون به .

أما هذا الذى عناه الله هنا ، فقال بعضهم : هو بلعام بن باعورا ، كان صالحاً ثم كفر ، وقيل : هو أمية بن أبى الصلت من المتألهين فى الجاهلية ، أدرك الرسول ﷺ — ولم يؤمن به جسداً ، وكان يرجو أن يكون هو النبى المبعوث ، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد . وهذا الصنف ( الذى يؤتى الآيات ثم يكفر ) صنف خطر به شبه من الشيطان ، لأن الشيطان كفر بعد معرفته الحق ، ولقد تخوف الرسول ﷺ هذا النوع من أمته ، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رأيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك ) قال : قلت يا رسول الله : أيهما أولى بالسيف : الرامى أم المرمى ؟ قال ( بل الرامى ) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد ( انظر تفسير ابن كثير ٢٥٢/٣ )<sup>(١)</sup>

### خوف الشيطان وهربه من بعض عباد الله :

إذا تمكن العبد فى الإسلام ، ورسخ الإيمان فى قلبه ، وكان وقافاً عند حدود الله فإن الشيطان يفرق منه ، ويفر منه ، كما قال الرسول ﷺ : لعمر بن الخطاب : ( إن الشيطان ليفرق منك يا عمر ) ، رواه أحمد ، وابن حبان بإسناد صحيح<sup>(٢)</sup> ( صحيح الجامع ٧٤/٢ ) . وقال فيه أيضاً : « إني لأنظر شياطين الجن والإنس فروا من عمر » رواه الترمذى بإسناد صحيح<sup>(٣)</sup> ( صحيح الجامع ٣٢٩/٢ ) : وليس ذلك خاصاً بعمر ، فإن من قوى إيمانه يقهر شيطانه ، ويذله ، كما فى الحديث : ( إن المؤمن لينفى شياطينه كما ينحنى أحدكم بغيره فى السفر ) ، رواه أحمد<sup>(٤)</sup> قال ابن كثير فى ( البداية ٧٣/١ ) بعد سقوه لهذا الحديث : ( ومعنى لينص شيطانه : ليأخذ بناحيته فيغلبه ، ويقهر ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه ) .

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم على قرينه الملازم له فيسلم ، أخرج الأمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : ( وإياى ، ولكن الله أعاقى عليه فلا يأمرنى إلا بخير ) وفى رواية ابن عباس عن الإمام أحمد بإسناد على شرط الصحيح : ( ولكن الله أعاقنى عليه فأسلم ) وفى رواية عائشة عن مسلم ( ولكن ربي أعاقنى عليه حتى أسلم )<sup>(٥)</sup>

(١) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٥٠٩/٣

(٢) مسند أحمد ٣٥٣/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب المناقب ٢٠/٩ رقم ٦٨٥٣

(٣) سنن الترمذى - كتاب المناقب - باب مناقب عمر ٦٢٢/٥ رقم ٣٦٩١

(٤) مسند أحمد ٣٨٠/٢

(٥) مسند أحمد ٣٨٥/١ وصحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤

## تسخير الجن لسليمان :

سخر الله لنبيه سليمان في جملة ما سخر الجن ، والشياطين يعملون له ما يشاء ، ويعذب ويسجن العصاة منهم : ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴿ سورة ص ٣٦ - ٣٨ وقال في سورة سبأ : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وقنايل وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴿ سورة سبأ ١٢ - ١٣ .

وهذا التسخير على هذا النحو إستجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه وقال : ﴿ وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ سورة ص ٣٥ . وهذه الدعوة هي التي منعت نبينا محمد ﷺ من ربط الجن الذي جاء بشهاب من نار ، يريد أن يرميه في وجهه ، ففي صحيح مسلم عن أبي الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلي ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ، ثم قال : ( ألعنك بلعنة الله ثلاثاً ) ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا ، لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت . يذك ، فقال : ( إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله المقالة ، فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة ) وقد تكرر هذا أكثر من مرة ففي صحيح مسلم أيضاً عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : ( إن عفريتاً من الجن جعل يتفلت على البارحة ليقطع على الصلاة ، وإن الله أمكنني منه ، فذعته ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ، أو كلكم ، ثم ذكرت قول أخى سليمان رب أغفر لي ، وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي فرده الله خاسئاً )

## كذب اليهود على سليمان :

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبى الله سليمان كان يستخدم الجن بها وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر وجعلتهما تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يستخدم الجن بهذه ، فقال بعضهم : لولا أن هذا حصد جائر لما فعله سليمان ، فأنزل الله قوله : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ سورة البقرة ١٠١ . ثم بين أنهم أتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان وبرأ سليمان من السحر والكفر :

﴿ واتبعوا ماتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ سورة البقرة ١٠٢ .

عجزهم عن الإتيان بالمعجزات :

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به .

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وما ينبغي لهم وما يستطيعون \* إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ سورة الشعراء ٢١٠ - ٢١٢ .

وتحذى الله بالقرآن الإنس والجن : ﴿ قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن \* لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ سورة الإسراء ٨٨ .

لا يتمثلون بالرسول ﷺ في الرؤيا :

والشياطين تعجز عن التمثيل في صورة الرسول ﷺ في الرؤيا ففي الحديث الذي يرويه الترمذى في سننه بإسناد صحيح : ( من رأى فأى أنا هو \* فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بى ) (١) وهو فى الصحيحين يلفظ : ( من رأى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتزيا بى ) (٢) ، (الجامع الصحيح ٣٩٣/٥) .

والظاهر من الأحاديث أن الشيطان لا يتزيا بى بصورة الرسول ﷺ الحقيقية ولا يمنعه هذا من التمثيل فى غير صورة الرسول ﷺ والزعم بأنه رسول الله :

ولذلك فلا يجوز أن يتيح بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول ﷺ فى المنام أن رآه حقاً ، وإلا إذا كانت صفته هى الصفة التى روتها لنا كتب الحديث ، وإلا فكثير من الناس يزعم أنه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية فى كتب الثقات .

لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدوداً معينة فى أجواز الفضاء :

قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس \* إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ فبأى آلاء ربكما تكذبان \* يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس \* فلا تتصران ﴾ سورة الرحمن ٣٣ - ٣٥ .

(١) سنن الترمذى - كتاب الرؤيا - باب فى تأويل الرؤيا ٥٣٧/٤ رقم ٢٢٨٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٦١

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم مجالات لا يستطيعون أن يتعدوها ، وإلا فإنهم هالكون .

لا يستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

أخبر بذلك الرسول ﷺ حيث يقول : ( أجيفوا الأبواب ، وأذكروا اسم الله عليها فإن الشيطان لا يفتح باباً أجيف عليه ) رواه أبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم بإسناد صحيح<sup>(١)</sup> والجامع الصحيح ٢٢٩/١ .

وفي الحديث المتفق عليه : ( فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله وخمروا آنتكم ، وأوكوا أسقيتكم ، وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يكشف غطاءً ، ولا يحل وكاء<sup>(٢)</sup> ) .

### الغاية من خلقهم

خلق الجن للغاية نفسها التي خلق الإنس من أجلها : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ سورة الذاريات الآية ٥٦ .

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهي ، فمن أطاع رضى الله عنه وأدخله الجنة ، ومن عصى وتمرد فله النار ، يدل على ذلك نصوص كثيرة .

ففى يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس موبخاً مبكتاً : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا \* وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ سورة الأنعام الآية ١٣٠ .

ففى هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن ، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم . والدليل على أنهم سيعذبون فى النار قوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أم قد خلعت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ﴾ سورة الأعراف الآية ٣٨ .

وقال : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ﴾ سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

وقال : ﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ سورة السجدة الآية ١٣ .

(١) سنن أبى داود - كتاب الأشربة ١١٧/٤ رقم ٢٧٣١ ومسند أحمد ٣/٣٠٦ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الطهارة

٢٨٤/٢ رقم ١٢٦٩ والحاكم فى المستدرک - كتاب الأدب ٤/٢٨٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٣) مسند أحمد ٣/٣٠١

والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى : ﴿ ولن خاف مقام ربّه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ سورة الرحمن الآية ٤٦ - ٤٧ .

وفي الآية السابقة امتنان من الله على مؤمن الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما أمتن عليهم به . يقول ابن مفلح في كتابه الفروع : ( الجن مكلفون في الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النار إجماعاً ، ويدخل مؤمنهم الجنة وفقاً لما لك والشافعي — رضى الله عنهما — لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم ، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبي حنيفة ، والليث بن سعد ومن وافقهما . قال : وظاهر الأول أنهم في الجنة كغيرهم بقدر ثوابهم خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهداً أو أنهم في ربض الجنة ، أى حول الجنة ( كعمر بن عبد العزيز ) ، قال ابن حامد في كتابه : ( الجن كالإنس في التكليف والعبادات ) ( لوامع الأنوار ٢/٢٢٢ - ٢٢٣ ) .

**تكليفهم بحسبهم :**

يقول ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٢٣٣/٤ ) ، ( الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا بمماثلين للإنس في الحدّ والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس في الحدّ ، لكنهم مشاركون الإنس في جنس التكليف بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين ) .

**شبهه والرد عليها :**

يورد بعض الناس شبهة فيقولون : أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار ، ثم تقولون إن كافرهم يعذب في نار جهنم ، ومستترق السمع يقذف بشهب من نار ، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

والجواب أن الأصل الذي خلقوا منه النار ، أما بعد خلقهم فليسوا كذلك ، إذا أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار ، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب ، ثم بعد إيجادهم أصبح مخالفاً للتراب ، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين فقد تقتله ولو رميته بالتراب لآذاه ، ولو دفنته فيه فإنه يحترق ، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه ، فكذلك الجن .

**لا نسب بين الجن ورب العزة :**

هذا الذى ذكرناه مع أن الجن خلق من خلق الله ، وعباد من جملة عباد خلقهم لطاعته ، وكلفهم بشرعته ، يقضى على الخرافات التى تنشأ عن الانحراف فى القصور ، وعن ضمور العلم وكثرة



الجهل ، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركي العرب ، من أن الله تعالى وتقدس خطب من سروات الجن وتزوج منهم ؟ وكان الملائكة ثمرة هذا الزواج ، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ ولقد علمت الجنة إنهم لم يحضروا \* سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين ﴾ سورة الصافات الآية ١٥٨ - ١٦٠ .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : ( قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله — تعالى عما يقولون — فقال أبو بكر — رضى الله عنه — فمن أمهاتهن ؟ قالوا بنات سروات الجن ، وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد ... وقال العوفي عن ابن عباس : « زعم أعداء الله أنه — تبارك وتعالى — هو وإبليس أخوان — تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

### كيف يبلغون وحى الله إليهم ؟

بما أنهم مكلفون فلا بد أن يبلغهم الله وحيه وقيم عليهم الحجة ، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم كما للبشر رسل منهم ، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟

إن قوله تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ... ؟ ﴾ ( سورة الأنعام الآية ١٣٠ ) يدل على أن الله أرسل إليهم رسلاً . ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجن أم من الإنس ، لأن قوله ( منكم ) يحتمل كلا الأمرين ، فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم ، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهم الإنس وقد اختلف العلماء من ذلك على قولين :

الأول : أن للجن رسلاً منهم ، ومن قال بهذا القول الضحاك ، وقال ابن الجوزي : وهو ظاهر الكلام . وقال ابن حزم لم يبعث إلى الجن بنى من الإنس البتة قبل محمد — ﷺ .

الثاني : أن رسل الجن من الإنس قال السيوطي في ( لقط المرجان ) : ( جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولا بنى كذا روى عن ابن عباس ومجاهد والكلبي وأبي عبيد ) . ( لوامع الأنوار ٢/٢٢٣ - ٢٢٤ )

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ سورة الأحقاف ٣٠ ولكنه ليس نصاً من المسألة وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل ، وليس فيها نص قاطع ، ولذلك لا ينبغي أن نطيل فيها أكثر من ذلك .

عموم رسالة محمد ﷺ للإنس والجن :

محمد ﷺ مرسل إلى الجن والإنس ، يقول ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٩/١٩ ) ( وهذا أصل

متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وسائر طوائف المسلمين : أهل السنة والجماعة ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين ) يدل على ذلك تحدى القرآن .

الجن والإنس : ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله \* ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ سورة الإسراء ٨٨ . وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن \* فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهdy إلى الرشd فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً .. ﴾ سورة الجن ١١ - ٢ .

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون في سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن \* فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين \* قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهdy إلى الحق وإلى طريق مستقيم \* يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم \* ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ﴾ سورة الأحقاف ٢٩ - ٣٢ . استمعوا للقرآن وآمنوا به ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان ويبشرونهم وينذرونهم .

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ﷺ يرويها البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : « انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شئ حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وأنظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك نفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنحلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن - قالوا : استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجبا يهdy إلى الرشd فأمنّا به ، وأنزل الله على نبيه ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ سورة الجن ١ . وإنما أوحى إليه قول الجن (١) .

وفود الجن :

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ

فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاء هداة . ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته وعلمهم مما علمه الله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم خبر السماء ... وكان ذلك في مكة قبل الهجرة ، روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود — رضى الله عنه هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان وجه الصبح — أو قال — في السحر إذا نحن به ينجىء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم<sup>(١)</sup> وفي رواية عن الطبرى عن ابن مسعود : « بثّ الليلة أقرأ على الجن واقفا

بالحجون » . ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن ، يقول ﷺ : « لقد قرأتها يعنى سورة الرحمن » على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ قالوا : ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه البزار والحاكم وابن جرير بإسناد صحيح<sup>(٢)</sup> ( الجامع الصحيح ٣٠/١ ) ولم تكن تلك الليلة هى الليلة الوحيدة بل تكرر لقاءه — ﷺ بالجن بعد ذلك ، وقد ساق ابن كثير في تفسير سورة الأحقاف — الأحاديث التى وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن وفى بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ﷺ فى إحدى تلك الليالى ، وقد ورد فى بعض الروايات فى صحيح البخارى أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحي اليمن من مكان يسمى « نصيين » ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أتانى وفد نصيين — ونعم الجن — فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا روثه إلا وجدوا عليها طعاماً »<sup>(٣)</sup>.

### دعوتهم للإنس :

وفى بعض الأحاديث الصحاح أن بعض الجن كان له دور فى هداية الإنس ، وفى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً كان كاهناً فى الجاهلية عن أعجب ما جاءته به جنيته قال : « بينا أنا يوماً فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت : »

ألم تر الجن وإبلاسها وبأسها بعد إنكاسها  
ولحقوها بالقلاص وأحلاسها

(١) صحيح مسلم — كتاب الصلاة — باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار — كتاب التفسير — سورة الرحمن ٧٤/٣ رقم ٢٢٦٩ والمستدرک للحاكم — كتاب التفسير — تفسير

سورة الرحمن ٤٧٣/٢ ، وتفسير الطبرى — سورة الرحمن آية رقم ١٦ — ٧٢/٢٧ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المناقب الأنصار — باب ذكر الجن ٥٨/٥

قال : عمر رضى الله عنه — صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل ، فذبحه ، فصرخ به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : يا جليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله ، قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم علم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله فقامت فما نشبنا أن قيل هذا بنى . قال ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث : « هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال : مظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر — رضى الله عنه — بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى ذبح ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر — رضى الله عنه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله أعلم ثم قال : وهذا الرجل ( الكاهن ) هو سواد بن قارب »<sup>(١)</sup>.

#### أمرهم بالخير وشهادتهم للمسلم :

أخبر الرسول ﷺ بأن قرينه من الجن أسلم فلا يأمره إلا بخير . وقد قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه لأبى صعصعة الأنصارى : « إني أراك تحب البادية والغنم ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شئ إلا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ ( رواه البخارى ) فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذان »<sup>(٢)</sup>.

#### مراتبهم فى الصلاح والفساد :

وهم فى هذا طوائف : فمنهم الكامل فى الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم البله المغفلون ، ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه فى حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن : ﴿ وأنا من الصالحون ومنادون ذلك كنا طرائق قدا ﴾ سورة الجن ١١ ، أى : منهم الكاملون فى الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو حال البشر .

ويقول الله عنهم : ﴿ وأنا من المسلمون ومنا القاسطون ﴾ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا \* وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ سورة الجن ١٤ - ١٥ . أى : أن منهم المسلمين والظالمين أنفسهم بالكفر فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

(١) صحيح البخارى - باب السلام عمر بن الخطاب ٦١/٥ وانظر ابن كثير طبعة الشعب ٢٨١/٧

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ١٥٤/٤٠ .

## طبيعة الشيطان :

أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر . فلما تحول إلى الكفر ورضى به أصبح محباً للشر طالباً له ، يلتذذ بفعله والدعوة إليه ، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه وإن كان موجباً لعذابه . ( قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين )<sup>(١)</sup> وهذا يكون في الإنسان ، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهي ما يضره ويلتذ به بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله ، وحسبك أن تتأمل في حال شارب الخمر والدخان ، فإن هذين تقتلان شاريهما ويفتكان بهما ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس .

## هل يسلم الشيطان ؟

يظهر من حديث رسول الله ﷺ الذى يخبر فيه أن الله أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير أن الشيطان يمكن أن يسلم بدليل أن شيطان الرسول ﷺ أسلم إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك ويقول الشيطان لا يكون مؤمناً ، منهم شارح الطحاوية ( ٤٣٩ ) ووجه قوله : ( فأسلم ) أى فانقاد واستسلم .

وبعض العلماء يرى أن الرواية ( فأسلم ) برفع الميم ، أى فأنا أسلم منه ومع أن شارح الطحاوية يرى أن رواية الرفع تحريف للفظ إلا أن في شرح النووى على مسلم قال : « هما روايتان مشهورتان » وعزى إلى الخطائى أنه رجع رواية الضم . ومن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان قال معلقاً على الحديث : ( في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى أنه لم يكن يأمره إلا بخير إلا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً ) .

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أن الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر ، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح ، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جداً ، والحديث حجة عليه .

## ما أسباب العداء بين الإنسان والشيطان ؟

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور يعود تاريخه إلى اليوم الذى شكل الله فيه آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، فأخذ الشيطان يطيف به ، ويقول : لئن سلطت عليك أهلكنك ففى صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لما صور الله آدم في الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه

فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر مما هو ، فلما رآه أجوف عرف أن خلق خلقاً لا يئالك «<sup>(١)</sup> .

فلما نفخ الله في آدم الروح ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر ، ولكنه تعاضم في نفسه واستكبر ، وأبى السجود لآدم : ( قال أنا خير منه ، خلقتني من نار ، وخلقته من طين )<sup>(٢)</sup> . لقد فتح أبونا آدم عينيه ، فإذا به يجد أعظم تكريم ، يجد الملائكة ساجدين له ، ولكنه يجد عدوا رهيباً يهدده وذريته بالهلاك والإضلال .

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره ، وحصل على وعد من الله بإبقائه حياً إلى يوم القيامة : ﴿ قال فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ . وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بنى آدم والكيد لهم : ﴿ قال فما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ سورة الأعراف ١٦ - ١٧ . وقوله هذا يصور مدى الجهد الذى يبذله لإضلال ابن آدم ، فهو يأتيه من كل طريق ممكن ، عن اليمين والشمال ، ومن الأمام ، ومن الخلف أى من جميع الجهات قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : ( ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتي منها العدو فى الغالب ، وهذا مثل لو سوسته إليهم ، وتسوياء لهم ما أمكنه وقدر عليه ) كقوله : ﴿ واستفز من استطعت منهم بصوتك ﴾ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ . سورة الإسراء ٦٤ .

### تحذير الله لنا من الشيطان :

وقد أطل القرآن في تحذيرنا من الشيطان لعظيم فتنه ، ومهارته فى الإضلال ودأبه وحرصه على ذلك ، قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم لا يفتنكم الشيطان .. ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ سورة فاطر ٦ . وقال : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ سورة النساء ١١٩ . وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول لأنه يرى أن طرده ولعنه واخراجه من الجنة كان بسبب آيينا آدم ، فلا بد أن ينتقم من آدم وذريته من بعده : ﴿ قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ سورة الإسراء ٦٢ . وأرباب السلوك وعلماء الأخلاق اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفاتنا وقصروا فى التعرف على عدوهم اللدود ، مع أن الله حذرنا منه كثيراً ، وأمرنا بالاستعاذة منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس فى موضع واحد ، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها فى خطبة النكاح فى قوله ﷺ : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا »<sup>(٣)</sup> .

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب خلق الإنسان خلقاً لا يئالك ٢٠١٦/٤ رقم ٢٦١١

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٢ .

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح ٦١٠/١ رقم ١٨٩٣

ما أهداف الشيطان ؟

الهدف البعيد :

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه في نهاية الأمر ، هو أن يلقي الإنسان في الجحيم ويحرمه من الجنة ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ سورة فاطر ٦ .

الأهداف القريبة :

١ - إيقاع العباد في الشرك والكفر :

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله والكفر بالله وشريعته : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ سورة الحشر ١٦ . وروى مسلم في صحيحة عن عياض بن حمار أن النبي ﷺ خطب ذات يوم ، فقال في خطبة : ( يا أيها الناس إن الله تعالى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومى هذا ، كل مال نخلته عبدا حلال ، وإني خلقت عبادى حنفاء كلهم ، فأنتهم الشياطين فاجتالهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً )<sup>(١)</sup>

٢ - إذا لم يستطع تكفيرهم فيوقعهم في الذنوب :

فإذا لم يستطع إيقاعهم في الشرك والكفر ، فإنه لا يئس ، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم في الذنوب والمعاصي ، وغرس العداوة والبغضاء في صفوفهم ، ففى سنن الترمذى وابن ماجه بإسناد حسن ( ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فى بعض ما تحقرون من أعمالكم ، فيرضى بها )<sup>(٢)</sup> . وفى صحيح مسلم وغيره : ( إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم )<sup>(٣)</sup> أى : بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم وإغراء بعضهم ببعض ، كما قال تعالى : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟ ﴾ . سورة المائدة ٩١ . وهو يأمر بكل شر ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء \* وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ . سورة البقرة ١٦٩ .

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نصيحها - باب الصفات التى يعرف بها الدنيا ٢١٩٧/٤ رقم ٢٨٦٥

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب المناسك - باب الخطبة يوم الغر ١٠١٥/٢ رقم ٣٠٥٥ وسنن الترمذى كتاب الفتن - باب ما جاء فى تحريم

الدماء والأموال ٣١٢/٣ رقم ٢٢٤٨

(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان ٢١٦٦/٤ رقم ٢٨١٢ وسنن الترمذى - كتاب البرو الصلة -

باب ما جاء فى التباغض ٢٢١/٣ رقم ٢٠٠٢

وخلاصة الأمر فكل عبادة محبوبة لله فهي بغیضة إلى الشیطان ، وكل معصية مكروهة للرحمن فهي محبوبة للشیطان .

### ٣ - صدّه العباد عن طاعة الله :

وهو لا یكتفی بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصی بل یصدّهم عن فعل الخیر ، فلا یترك سبیلاً من سبل الخیر یسلکة عبد من عباد الله إلا قعد فیہ ، یصدّهم ویمیل بهم ، ففی الحدیث : ( إن الشیطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطریق الإسلام فقال : تسلّم ونذر دینک ودين آبائک وآباء آبائک ؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطریق الهجرة ، فقال : ( تهاجر وتدع أرضک وسماک ؟ وإنما مثل المهاجر كمثّل الفرس فی الطول ، الطول الحبل الطویل ، یشدّ أحد طرفیه فی وتد أو غیره ، والطرف الآخر فی يد الفرس لیدور فیہ ، ویرعى ولا یذهب لوجهه ) . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطریق الجهاد ، فقال : ( تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتکح المرأة ویقسم المال ؟! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك کان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، ومن قتل کان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، وإن غرق کان حقاً على الله أن یدخله الجنة ، وإن وقصته دابة کان حقاً على الله أن یدخله الجنة )<sup>(١)</sup> . رواه أحمد والنسائی وابن حبان بإسناد صحیح ( صحیح الجامع ٧٢/٢ ) ومصدق ذلك فی کتاب الله ما حکاه الله عن الشیطان أنه قال لرب العزة : ﴿ فَمَا أَغْوَيْتَنِي لِأَقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۚ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ ۚ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ . وقوله : ﴿ لِأَقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ﴾ : أى على صراطک ، فهو منصوب بنزع الخائض أو هو منصوب بفعل مضمر ، أى لألزمَن صراطک ، أو لارصدته ، أو لأعوججه . وعبارات السلف فی تفسیر الصراط متقاربة ، فقد فسره ابن عباس بأنه الدین الواضح ، وابن مسعود بأنه کتاب الله ، وقال جابر : هو الإسلام ، وقال مجاهد : هو الحق . فالشیطان لا یدع سبیلاً من سبل الخیر إلا قعد فیہ یصد الناس عنه .

### ٤ - إفساد الطاعات :

إذا لم یستطع الشیطان أن یصدّهم عن الطاعات ، فإنه یجتهد فی إفساد العبادة والطاعة ، کى یجرّمهم الأجر والثواب ، فقد جاء أحد الصحابة إلى الرسول ﷺ یقول له : إن الشیطان قد حال بینى و بین صلاتی وقراءتی ، یلبسها علیّ . فقال رسول الله ﷺ : « ذلك شیطان یقال له : تحنّزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه : واتقل على یسارك ثلاثاً » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهب الله عنی رواه

(١) مسند أحمد ٤٨٣/٣ وسنن النسائی - کتاب الجهاد - یاب مالن أسلم وهاجر وجامد ٢١/٦ والإحسان بترتیب صحیح ابن حبان - کتاب الجهاد ٥٧/٧ رقم ٤٥٣٤ .



مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup> فإذا دخل العبد في صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له ويشغله عن طاعة الله ويذكره بأمور الدنيا ، ففي صحيح مسلم — أن الرسول — ﷺ — قال : « إن الشيطان إذا سمع النداء بالفلاة ، أحال له ضراط ، حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس » رواه مسلم<sup>(٢)</sup>.

وفي رواية : « فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى » رواه البخاري ومسلم<sup>(٣)</sup>.

كل مخالفة للشيطان فهي طاعة لله :

يقول تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا \* وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ : لِأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾ . سورة النساء ١١٧ - ١١٨ . فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن أو شمس وقمر أو هوى أو إنسان أو مبدأ فهو عابد للشيطان ، رضى أم أبى ، لأن الشيطان هو الأمر بذلك والمرغب فيه ، ولذلك فإن عباد الملائكة يعبدون الشيطان في الحقيقة ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ﴾ ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك \* أنت ولينا من دونهم \* بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ سورة سبأ ٤٠ - ٤١ . يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

الخلاصة :

والشئ الذى نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شئ ، ويحث عليه ، وينهى عن كل خير ، ويخوف منه ، كى يرتكب الأول ، ويترك الثانى . كما قال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ سورة البقرة ٢٦٨ . وتخويفه إيانا الفقر بأن يقول : إن أنفقتم أموالكم أفقرتم ، والفحشاء التى يأمرنا بها : هى كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك

(١) صحيح مسلم — كتاب السلام — باب التعوذ من شيطان الوسوسة في الصلاة ١٧٢٨/٤ رقم ٢٢٠٣

(٢) صحيح مسلم — كتاب الصلاة — باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩١/١ رقم ٣٨٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١٦

## ٥ - الإيذاء البدني والنفسي :

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب ، فإنه يهدف إلى إيذاء المسلم في بدنه ونفسه ، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء .

### ( أ ) مهاجمة الرسول ﷺ :

أخبر الرسول ﷺ بمهاجمة الشيطان له ومجيء الشيطان بشهاب من نار ليرمي به في وجه الرسول ﷺ .

### ( ب ) الحلم من الشيطان :

للشيطان القدرة أن يرى الإنسان في منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه بهدف إحزانه وإيلامه . فقد أخبر الرسول ﷺ أن الرؤى التي يراها المرء في منامه ثلاثة : رؤيا من الرحمن ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث نفسي ( صحيح الجامع ٣/ ١٨٤ ، ١٨٥ ) وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تنضره »<sup>(١)</sup>.

### ( ح ) إحراق المنازل بالنار :

وذلك بواسطة بعض الحيوانات التي يغريها بذلك ففى سنن أبى داود وصحيح ابن حبان بإسناد حسن أن الرسول ﷺ قال : « إذا نمت فأطفئوا سُرُجكم ، فإن الشيطان يدُلُّ مثل هذه ( الفأرة ) على هذا ( السراج ) فيحرقكم »<sup>(٢)</sup>.

### ( د ) تخبط الشيطان للإنسان عند الموت :

وقد كان الرسول ﷺ يستعيز من ذلك فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من التردى ، والهلم ، والغرق ، والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير - باب رؤيا الصالحين ٣٩/٩

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب في إطفاء النار بالليل ٤٠٨/٥ رقم ٥٢٤٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - باب آداب النوم ٤٢١/٧ رقم ٥٤٩٤

مديراً وأعوذ بك من الموت لديغاً» رواه النسائي والحاكم بإسناد صحيح ، ( صحيح الجامع ٤٠٥/١ )<sup>(١)</sup>.

( هـ ) إيذاؤه الوليد حين يولد :

يقول الرسول ﷺ : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » رواه مسلم<sup>(٢)</sup> ( صحيح الجامع ١٧١/٤ ) . وفي صحيح البخارى : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبه باصبغه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن فى الحجاب »<sup>(٣)</sup> . وفى البخارى أيضاً : « ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها »<sup>(٤)</sup> . والسبب فى حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ سورة آل عمران ٣٦ . فلما كانت صادقة فى طلبها استجاب الله لها فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم ، ومن أجاره الله أيضاً بن ياسر ، ففى صحيح البخارى أن أبا الدرداء قال : « أفيكم الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه ، قال المغيرة : الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه يعنى عمار »<sup>(٥)</sup>.

( و ) مرض الطاعون من الجن :

أخبر الرسول ﷺ أن « فناء أمته بالطعن والطاعون ، وخز أعدائكم من الجن وفى كل شهادة » ، رواه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح<sup>(٦)</sup> ( صحيح الجامع ٩٠/٤ ) ، وفى مستدرک الحاكم « الطاعون وخز أعداكم من الجن ، وهو لكم شهادة » . ولعل ما أصاب بنى الله أيوب كان بسبب الجن كما قال : ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ . سورة ص ٤١ .

(١) سنن النسائي - كتاب الاستعاذة - باب الاستعاذة من الردى والهرم ٢٨٣/٨ والمستدرک للحاكم - كتاب الفضائل - باب فضل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل - باب فضائل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٥١/٤ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة آل عمران ٤٢/٦ .

(٥) صحيح البخارى - كتاب مناقب المهاجرين - باب مناقب عمار ٣١/٥ .

(٦) مسند أحمد ٣٩٥/٤ ومجمع الزوائد - كتاب الجنائز - باب فى الطاعون ٣١١/٢ المستدرک للحاكم - كتاب الإيمان ٥٠/١ .

## ( ز ) بعض الأمراض الأخرى :

قال ﷺ للمرأة المستحاضة : « إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان » ، رواه الأربعة بإسناد حسن<sup>(١)</sup> ( صحيح الجامع ١٩٦/٣ ) .

## ( ح ) مشاركته لبنى آدم في طعامهم وشرابهم ومسكنهم :

ومن الأذى الذى يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدى على طعامه وشرابه فيشركه فيهما ، ويشركه في المبيت في منزله ، يكون ذلك منه إذا خالف العبد هدى الرحمن ، أو غفل عن ذكره ، أما إذا كان ملتزماً بالهدى الذى هدانا الله إليه ، لا يغفل عن ذكر الله ، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا ويوتنا . فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد دون أن يسمى ، فإذا ذكر اسم الله عليه ، فإنه يحرم على الشيطان ، روى مسلم في صحيحه عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإننا حضرنا معه مرة طعاماً . فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها في الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعراى كأنما يدفع فأخذ بيده . فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ، أن لا يذكر اسم الله عليه ، فإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الاعراى ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده إن يده في يدي مع يدها »<sup>(٢)</sup> . وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق الأبواب ، وتخمين الآنية وذكر اسم الله فإن ذلك حرز لها من الشيطان يقول ﷺ : « أغلقوا الأبواب ، وأذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قريبكم ، وأذكروا اسم الله ، وخمروا آئيتكم ، وأذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، واطفئوا مصابيحكم » رواه مسلم<sup>(٣)</sup> . ويأكل الشيطان ويشرب مع الإنسان إذا أكل وشرب بشماله ، وكذلك إذا شرب واقفاً ، ففي مسند أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان »<sup>(٤)</sup> . وفي المسند أيضاً عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبي ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً ، فقال له : « قه » ، قال : لم ؟ قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ » قال : لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شر منه الشيطان » ، وكى تطرد الشيطان من المنزل لا تنسى أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل<sup>(٥)</sup> ، وقد

(١) سنن الترمذى - كتاب الطهارة ٨٣/١ رقم ١٢٨ وقال : حديث حسن صحيح وسنن أبى داود كتاب الطهارة ١٩٩/١ رقم ٢٨٧ ومسند أحمد ٤٣٩/٦ ، ٤٦٤ .

(٢) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٧/٣ رقم ٢٠١٧ .

(٣) صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب الأمر بتغطية الإناء ١٥٩٥/٣ رقم ٩٧ .

(٤) مسند أحمد ٧٧/٦ .

(٥) مسند أحمد ٣٠١/٢ .

أرشدنا الرسول ﷺ لذلك ، حيث يقول : « إذا دخل الرجل بينه فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء هنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : « أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء »<sup>(١)</sup>.

( ط ) مس الشيطان للإنسان « الصراع » :

يقول ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٢٤/٢٧٦ ) : « دخول الجن في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ، قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ . سورة البقرة ٢٧٥ وفي الصحيح عن النبي ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »<sup>(٢)</sup>. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : « قلت لأبي : إن أقواماً يقولون : إن الجن لا يدخل في بدن المصروع فقال : ابن تيمية : « هذا الذي قاله مشهور ، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويضرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ، ولا بالكلام الذي يقوله ، وقد يجزُّ المصروع ، وغير المصروع ، ويجز البساط الذي يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجرى غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً ، بأن الناطق على لسان الإنس ، والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان . » ويقول رحمه الله : « وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن في بدن المصروع وغيره ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك ، فقد كذب على الشرع وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك » : وذكر في ( ج ١٩/١٢ ) أن ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة كالجبائي وأبي بكر الرازي .

### قائد المعركة

إبليس هو الذى يخطط للمعركة مع بنى الإنسان ويقودها ، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا في الاتجاهات المختلفة ، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعت ويثنى على الذين أحسنوا وأجادوا في الإضلال وفتنة الناس . روى الإمام مسلم في صحيحه عن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدينه

(١) مسند أحمد ٣/٣٤٦

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

ويقول : نعم أنت «<sup>(١)</sup>». وفي مسند الإمام أحمد قال الرسول ﷺ لابن صائد ( وكان يشك ﷺ أنه الدجال ) : « ماترى ؟ » قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ذاك عرش إبليس »<sup>(٢)</sup>. والشيطان له خبرة طويلة مديدة في مجال الاضلال ، ولذلك فإنه يجيد وضع خططه ، ونصب مصايده وأحاييله ، فهو لم يزل حياً يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة : ﴿ قال : رب ، فأنظرني إلى يوم يبعثون ، قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ سورة الحجر ٣٦ - ٣٨ . وهو دؤوب على القيام بالشر الذي نذر نفسه له ، لا يكل ولا يمل ، ففي الحديث : « إن الشيطان قال : وعزتك وجلالك لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني » . رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن ( صحيح الجامع ٧٢/٢ ) .

### الجنود :

وله فريقان من الجنود : فريق من الجان ، وفريق من بنى الإنسان .

### جنوده من الجن :

الشيطان له جنود وأعوان من الجن ، ففي القرآن ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك \* وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ... ﴾ سورة الاسراء ٦٤ . فله جنود يهاجمون راكبين راجلين يرسلهم على العباد يحركونهم إلى الشر تحريكاً ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾ سورة مريم ٨٢ .

### لكل إنسان قرين :

كل إنسان يلازمه شيطان لا يفارقه كما في حديث عائشة عند مسلم قالت : « خرج النبي ﷺ من عندي ليلاً ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة : أغرت ؟ قلت : ومالي لا يفار مثلي على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله ، أو معي شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان شيطان ؟ قال : نعم ، قلت ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم »<sup>(٤)</sup>. وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٦٧ ، ٦٨

(٢) مسند أحمد ٦٦/٣

(٣) مسند أحمد ٢٩/٣ والمستدرك للحاكم - كتاب التوبة والإنابة ٢٦١/٤

(٤) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٨/٤ رقم ٢٨١٥ ومسند أحمد

« ما منكم من أحد إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي لكن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »<sup>(١)</sup>

وفي القرآن ﴿ ومن يَعِشْ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ سورة الزخرف ٣٦ . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء ﴾ فزينا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴿ سورة فصلت ٢٥ .

### أولياؤه من الإنس :

الشیطان عدو الإنسان الأول الذى يسعى فى إهلاكه ، ومع ذلك فإن غالبية البشر اتخذوه ولياً ، يسيرون على خطاه ، ويرضون بفكره ، وما أقبح هذا بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه ولياً ﴿ افتخذونه وذريته أولياء من دوفى وهم لكم عدو ﴾ بشس للظالمين بدلاً ﴿ سورة الكهف ٥٠ . ولقد خسروا باتخاذهم ولياً خسراً مبيناً : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ سورة النساء ١١٩ . خسروا لأن الشيطان سيدسّ نفوسهم ويفسدها ، ويحرمهم من نعمة الهداية ، ويرمى بهم فى الضلالات والشبهات ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ سورة البقرة ٢٥٧ . وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار فى يوم القيامة ، ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ سورة فاطر ٦ . وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً ينفذ بهم مخططاته وأهدافه .

### كيد وخذلانه لأوليائه :

يتولى كثير من الناس الشيطان ، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التى فيها هلاكهم وعطيمهم ، ويتخلى عنهم ويسلمهم ويقف يشمت بهم ، ويضحك منهم ، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا ويدلّ عليهم ويفضحهم ، فعل ذلك بالمشرّكين فى معركة بدر عندما جاءهم فى صورة سراقه بن مالك ووعدهم بالنصر والغلب ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴿ سورة الأنفال ٤٨ . فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين ، ولى هارباً وأسلمهم ، كما قال حسان بن ثابت :

دَلّاهم بُغْرُورٌ ثَمَّ أَسْلَمَهُمْ      إِنْ الْخِيَاثَ لَمَنْ وَالَاهُ غَرَّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها ، وأمره بالزنا ثم يقتلها ، ثم دلّ أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فرّ عنه وتركه ، وفى يوم القيامة يقول لأوليائه بعد

(١) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحريم الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ ومسلم أحد

دخوله ودخلهم النار : ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ سورة إبراهيم ٢٢ فأوردهم شر الموارد ثم تبرأ منهم كل البراءة .

### الشیطان یجند أولیاءه لخدمته ومحاربة المؤمنین :

الناس فريقان : أولیاء للرحمن ، وأولیاء للشیطان ، وأولیاء الشیطان . هم الكفرة على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿إنا جعلنا الشیاطین أولیاء للذین لا یؤمنون﴾ سورة الأعراف ٢٧ . والشیطان یسخر هؤلاء لتضلیل المؤمنین بما یلقونه من الشبه والشكوك ﴿وإن الشیاطین لیوحون إلى أولیائهم لیجادلوك وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون﴾ سورة الأنعام ١٢٧ . وما هذه الشبهات التي یقوم بها المستشرقون والصليبيون والیهود والملاحدون إلا من هذا القلیل . ویدفعهم لإیذاء المؤمنین نفسياً ﴿إنما النجوى من الشیطان لیحزن الذین آمنوا﴾ سورة المجادلة ١٠ . فقد كان یدفع المشركین للتناجی حين وجود المسلمین على مقربة منهم فیظن المسلم أنهم یتآمرون علیه ... بل یدفعهم إلى حرب المسلمین وقتالهم ﴿الذین آمنوا یقاتلون فی سبیل الله والذین كفروا یقاتلون فی سبیل الطاغوت فقاتلوا أولیاء الشیطان إن كید الشیطان كان ضعيفاً﴾ سورة النساء ٧٦ . وهو دائماً یخوف المؤمنین أولیاءه : ﴿إنما ذلکم الشیطان یخوف أولیاءه﴾ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنین ﴿سورة آل عمران ١٧٥ . وأولیاءه جمع كبير﴾ ولقد صدق علیهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنین ﴿سورة سبأ ٢٠ .

### أساليب الشیطان فی إضلال الإنسان :

لا یأتی الشیطان إلى الإنسان ویقول له : اترك هذه الأمور الخیرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ، كى تشقى فی دنیاك وأخرأك ، لأنه لو فعل فلن یطیعه أحد ، ولكنه یسلك سبلاً كثيرة یغرر بها بعباد الله .

### ١ - تزین الباطل :

هذا هو السبیل الذی كان الشیطان ولا یزال یسلكه لإضلال العباد ، فهو یظهر الباطل فی صورة الحق ، والحق فی صورة الباطل ولا یزال بالإنسان یحسن له الباطل ، ویكرهه بالحق ، حتى یندفع إلى فعل المنكرات ویعرض عن الحق ، كما قال اللعین لرب العزة : ﴿رب بما أغویتنی لأزینن لهم فی الأرض ولأغویهم أجمعین إلا عبادك منهم المخلصین﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ . یقول ابن قیم فی هذا الصدد : « ومن مكایده أنه یسحر العقل دائماً حتى یکیده ، ولا یسلم من سحره إلا من شاء الله ، فیزین له الفعل الذی یضره حتى یخیل إليه أنه أنفع الأشياء ، وینفر من الفعل الذی هو أنفع



الأشياء له ، حتى يخيل إليه أنه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه في صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روج من الزغل على العارفين ! فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعه الأرحام ، وواد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك في أعظم صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله ﴿عليكم أنفسكم﴾ سورة المائدة ١٠٥ . والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس ( اغاثة اللفهان ١/١٣٠ ) ، وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين لآدم - عليه السلام - إذ زين له الأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فما زال به يزعم له أن هذه هى شجرة الخلد وأن الأكل منها يجعله خالداً فى الجنة أو ملكاً من الملائكة حتى أطاعه ، فخرج من الجنة . وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل فى إضلال العباد . فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .. يزعمون أنها هى المذاهب التى تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضيايق والجوع .. وهذه الدعوات التى تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذى تداس فيه الأعراض والأخلاق وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن . وتلك الأفكار المسمومة التى تدعو إلى ايداع المال فى البنوك بالربا لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير ، وتلك الدعوات التى تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجهود وتأخر ، والتى تسم دعاة الاسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب .. الخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذى كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكرهه للناس به ، ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم ﴾ ( سورة النحل ٦٣ ) .

وهو والله سبيل خطر لأن الإنسان إذا زين له الباطل حتى رآه حسناً فإنه يندفع بكل قواه لتحقيق ما يراه حقاً وإن كان فيه هلاكه ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ ( سورة الكهف ١٠٣ - ١٠٤ ) . وهؤلاء يندفعون لصد الناس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم يظنون أنفسهم على الحق والهدى ، ﴿ وإنهم ليمسدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ( سورة الزخرف ٣٧ ) وهذا هو السبب الذى من أجله اثار الكفار الدنيا وأعرضوا عن الآخرة كما قال تعالى : ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين

**أيديهم وما خلفهم** ﴿ (سورة فصلت ٢٥) . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى التكذيب بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنة والنار .

#### ١ - تسمية الأمور المحرمة بأسماء محبة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمى الأمور المحرمة التي هي معصية لله بأسماء محبة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمي الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كي يزين لآدم الأكل منها ﴿ قال يا آدم \* هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾<sup>(١)</sup> . يقول ابن القيم : « ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح وسموا أخاها بلقمة الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية .. » واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل والتماثيل فناً .

#### ٢ - الإفراط والتفريط :

يقول ابن القيم في هذه المسألة : « وما أمر الله - عز وجل - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلو ، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشاق ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذ من هذه الخطية ، فنبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتواني والفتور ، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجداً ، وتشجيراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسؤل له أن هذا لا يكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغي لك أن تزيد على العاملين ، وأن لاترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فطروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ، فاغسل أنت سبعاً ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدي ، فيحمله على الغلو والمجازة ، وتعدي الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وألا يقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعده ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربتة ولزوم الوسط والله المستعان » ( الوابل الصيب ص ١٩ ) .

## ٣ - تثبيطه العباد عن العمل ورميمهم بالتسوية والكسل :

وله في ذلك أساليب وطرق ففي صحيح البخارى عن أنى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » القافية : مؤخر الرأس « إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »<sup>(١)</sup>.

وفي البخارى ومسلم : ( إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستثر ثلاثا ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه )<sup>(٢)</sup>. وسئل الرسول ﷺ عن رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » رواه البخارى<sup>(٣)</sup>. وهذا الذى ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله ، وقد تثبط الإنسان بالوسوسة وسبيله فى ذلك أن يجب للإنسان الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزى فى هذا ، « كم قد خطر على قلب يهودى ونصرانى حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لاتعجل وتمهل فى النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصى بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهى وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجد سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد فى الليل يصلى ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يجب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل . فينبغى للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسوية ، والإعراض عن الأمل ، فإن الخوف لا يؤمن ، والفوات لا بيعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شر طول الأمل ، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير ، إلا أنه بعد نفسه بذلك ، ولا ريب أن من أمل أن يمضى بالنهار سار سيرا فائرا . ومن أمل أن يصبح عمل فى الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جئاً ... ، وقال بعض

السلف : أنذرهم ( سوف ) فإنها من أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثله قوم فى سفر فدخلوا قرية ، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهبا للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فرجاً أقمنا شهراً ، فضر بوق الرحيل فى الحال ، فاغتبط المحترز ( المتوفى الحازم ) وتحير الأسف المفرط ، فهذا مثل الناس فى الدنيا منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة ، فإذا كان في الطبع حب التواني وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى مافى الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه في صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ، فإن فتر في الظاهر بطَّن له مكيدة وأقام له كميناً » ( تلبس إبليس ٤٥٨ ) .

#### ٤ - الوعد والتمنية :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ويعللهم بالأمانى المعسولة ، كى يوقعهم في وهدة الضلال :

﴿ يعدمهم ويمنيهم وما يعدمهم الشيطان إلا غروراً ﴾ ( سورة النساء ١٢٠ ) يعد الكفرة في قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثم يتخلى عنهم ويولى هارباً : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ فلما تراءت الفتنان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم ﴾ ( سورة الأنفال ٤٨ ) . ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال في الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ ( سورة الكهف ٣٦ ) ، فيدمر الله جنته في الدنيا فيعلم أنه كان مغروراً مخدوعاً . ويشغل الإنسان بالأمانى المعسولة التي لا وجود لها في واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمنى وهو لا يفعل شيئاً .

#### ٥ - إظهار النصيح للإنسان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأينا على أنه ناصح له ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ ( سورة الأعراف ٢١ ) وقد روى وهب بن منبه هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب ( هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لاتصدق ولا تكذب ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ - « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »<sup>(١)</sup> ) . نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان في إضلاله العباد ، وكى نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه . يقول وهب : « إن عابداً كان في بنى إسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان في زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرأ ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها ، قال : فأجمع رأيهم على أن يخلقوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة في أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلقوها عنده ، فتكون في كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها في بيت حذاء صومعتي . قال : فأنزلوها في ذلك البيت ثم انطلقوا

فتركوها ، فمكثت في جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها ، فتأخذ ما وضع لها من طعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه في الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى نضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً . قال فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعها على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير والأجر وحضه عليه ، وقال لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه في بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه في بيتها ، فلبث على ذلك زماناً . ثم جاءه إبليس فرغبه في الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل به حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هي على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها . فلبثا زماناً يتحدثان . ثم جاءه إبليس فرغبه في الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من بيتها فحدثتها كان أنس لها . فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زماناً على ذلك . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله ، فإذا مضى النهار صعد صومعته . ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذهما وقبلها . فلم يزل به إبليس يحسنها في عينه ويسول له حتى وقع عليها ، فأحبها فولدت له غلاماً . فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبجه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها في الحفرة مع ابنها ، وأضبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاؤوا فسألوا عنها فنعاهوا لهم وترحموا عليها وبكاهوا . وقال : كانت خير امرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر ، فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ، ثم انصرفوا إلى أهاليهم ، فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، جاءهم الشيطان في النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاهما في حفرة احتفرها خلف باب البيت الذي

كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعاً .

وأتى الأوسط فى منامه فقال مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى . فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشئ فأمضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم : والله لا أمضى حتى آتى إلى هذا المكان فأنظروا فيه . قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبحين فى الحفرة كما قيل لهم فسألوا عنها العابد فصَدَّق قول إبليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أعطتني اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك . مما أنت فيه فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه وهذه القصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ ( سورة الحشر ١٦ ) . ويذكروا أن المعنى الإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

#### ٦ - التدرج فى الضلال :

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى الإضلال وهو أن يسير بالإنسان خطوة لا يكل ولا يمل كلما روضه على معصية ما قاده إلى معصية أكبر منها حتى يوصله إلى المعصية الكبرى فيوثقه ويهلكه . وتلك سنة الله فى عباده أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان وأزاغ قلوبهم ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ( سورة الصف ٥ )

#### ٧ - إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم فما زال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ <sup>(١)</sup> وقال صاحب موسى لموسى : ﴿ فإني نسيت الخوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ ( سورة الكهف ٦٣ ) .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه فى المجالس التى يستهزأ فيها بآيات الله ولكن الشيطان قد يئس الإنسان مراد ربه منه فيجالس هؤلاء المستهزئين ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى

آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴿ (سورة الانعام ٦٨) .

وطلب نبي الله يوسف إلى السجين الذى ظن بأنه سينجو من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر للملكه نبي الله يوسف فيمكث يوسف في السجن بضع سنين ﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴿ سورة يوسف ٤٢ .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكنا كلياً فإنه ينسيه الله بالكلية ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿ (سورة المجادلة ١٩) ، والمراد هؤلاء المنافقون ، كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴿ (سورة الكهف ٢٤) .

#### ٨ - تخويف المؤمنين أوليائه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يخافونهم ولا يأمرؤنهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان وقد أخذنا سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿ (سورة آل عمران ١٧٥) . والمعنى : يخوفكم بأوليائه قال قتادة : « يعظمهم في صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أوليائه الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم » .

#### ٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذى تحبه وعهواه :

يقول ابن القيم فى هذا الموضوع (إغاثة اللهفان ١/١٣٢) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأوليائه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مسدود » .

ومن هنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : ﴿ وقال ما نهاكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴿ (سورة الأعراف ٢٠) يقول ابن القيم « فسام عدو الله الأبوين فأحس منهما إنياساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فلمع أنه لا

يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

#### ١٠ - إلقاء الشبهات :

ومن أساليبه في إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التي يلقيها ففى حديث البخارى ومسلم : « يأقى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ ومن خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »<sup>(١)</sup> ولم يسلم الصحابة - رضوان الله عليهم من شبهاته وشكوكه وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ يشكون مابعانونه من شكوكه ووساوسه ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ إلى النبى فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوقدو صبرتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان »<sup>(٢)</sup> . ومراد الرسول ﷺ بقوله : « ذلك صريح الإيمان » أى دفع وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها .

وانظر إلى شدة ما كان يعانیه الصحابة من شكوكه . روى أبو داود فى سننه عن ابن عباس : أن النبى ﷺ جاءه رجل فقال : « إني أحدث نفسى بالشئ لأن أكون حممه أحب إلى من أتكلم به فقال : الحمد لله الذى رد أمره إلى الوسوسة »<sup>(٣)</sup> ومن جملة ما يلقيه فى النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه فى قوله : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم »<sup>(٤)</sup> .

والمراد بالتمنى هنا حديث النفس والمراد أن النبى ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون أو يتمنى إيمان الناس جميعاً فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوساوسه فى أمنية النبى ﷺ وذلك تنبيه إلى الحق وتوجيهه إلى مراد

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٢

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان الوسوسة فى الإيمان ١١٩/١ رقم ١٣٢

(٣) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب فى رد الوسوسة ٣٣٦/٥ رقم ٥١١٢

(٤) سورة الحج الآيات : ٥٢ حتى ٥٤



الله .. وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل في القرآن ما ليس منه ففيه بعد ويرده أن الرسول ﷺ معصوم في التبليغ .

يقول شقيق ( أحد العلماء الأعلام ) : مينا لبعض الشبهات التي يقذفها الشيطان في نفس الإنسان : « ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فإقرأ : ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ ( سورة طه ٨٢ ) . وأما من خلفي فيخوفني الضيقة على من أخلقه ، فإقرأ : ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ( سورة هود ٦ ) . ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء فإقرأ : . والعاقبة للمتقين ﴾ ( سورة الأعراف ١٢٨ ) .

ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات ، فإقرأ : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ( سورة سبأ ١٠٤ ) .

#### ١ - ٤ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال تعالى : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون ﴾ ( سورة المائدة ٩٠ - ٩١ ) . والخمر كل ما يسكر والميسر القمار والأنصاب كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر أو شجر أو وثن أو قبر أو علم . والأزلام : القداح كانوا يستقسمون بها الأمور أي يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وهذه قد تكون أقداماً أو سهاماً أو حصيات أو غير ذلك ، يكون مكتوباً على واحد منها أمرني ربي وعلى الآخر نهاني ربي فإذا شاء أحدهم زواجاً أو سفرأ أو نحو ذلك أدخل يده في الشيء الذي فيه هذه القداح أو السهام فإن خرج الذي فيه الأمر بالفعل فعل وإن خرج الآخر ترك .

فالشيطان يمضي الناس على هذه الأربع لأنها ضلال في نفسها وتؤدي إلى نتائج وخيمة وآثار سيئة فالخمر تفقد شاربها عقله فإذا فقد عقله فعل الموبقات وارتكب المحرمات وترك الطاعات وأذى عباد الله ذكر ابن كثير في تفسيره عن عثمان بن عفان قال : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجلاً فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فغلقتهم امرأة غويّة فأرسلت إليه جاريته أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقتة دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيعة عندها غلام وباطية خمر فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ولكني دعوتك لتقع عليّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأساً فقال : زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع

هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه . رواه البيهقى وصحح ابن كثير إسناده<sup>(١)</sup>.  
وروى أصحاب السنن أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة ثم سقاهاهم خمرًا قبل أن ينزل تحريمها فلما سكروا تفاخروا فتعاركوا وأصاب سعد بن أبى وقاص من هذا العراك أذى ، فقد ضربه أحدهم بلحى بعير فأصاب أنفه فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته وتقدم أحد الصحابة يصلى بالناس وهو سكران قبل نزول تحريم الخمر فقراً<sup>(٢)</sup>: ( قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ) فأنزل الله ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ ( سورة النساء ٤٣ ) وقد رأينا الرجل الذى بلغ من الكبر عتياً عندما يشرب الخمر سيتصرف المجانين ويضحك منه الكبار والصغار ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها .

والميسر مرض خطير كالخمر إذا تأصل فى نفس الإنسان صعب الشفاء منه ، وهو سبيل لضيايع الوقت والمال والميسر ينشئ الأحقاد ويدفع إلى الحرام .

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كى تتخذ بعد ذلك آلهة تعبد من دون الله وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديماً وحديثاً والشياطين تلازم هذه الأصنام وتخطب عبادها فى بعض الأحيان وترهبهم بعض الأمور التى يجعل عابديها يثقون بها فيقصدها بالحاجات ويدعونها فى الكربات ويستنصرون بها من الحروب ويقومون لها الذبائح والهدايا ويرقصون حولها ويطربون وقيمون لها الأعياد والاحتفالات وقد أضل بهذا الكثير كما قال إبراهيم داعياً ربه : ﴿ واجنبى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ ( سورة إبراهيم ٣٥ - ٣٦ ) . ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين يقصدونها بالدعاء والألطف والذبائح وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بنى الإنسان - تلك هى نصب الجندى المجهول يزعمون أنه رمز الجندى المقاتل ويكرمونه بالهدايا والورود والتعظيم وكلما زار البلاد زعيم جاء هذا النصب وقدم له هدية وكل هذا من عبادة الأنصاب التى هى من عمل الشيطان .

### الاستقسام بالأزلام :

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة إذا أردنا سفرًا أو زواجاً أو غير ذلك نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور .

وأبطل الاستقسام بالأزلام فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه فاستشارتها خلل فى

(١) سنن البيهقى - كتاب الأشربة - باب ما جاء فى تحريم الخمر ٢٨٧/٨

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر ٨٠/٤ رقم ٣٦٧١ وسنن الترمذى - كتاب التفسير - باب سورة النساء

العقل وقصور في العلم ومثل ذلك زجر الطير كان من يريد سفراً إذا خرج من بيته ومر بطائر زجره فإن تيامن كان سفراً ميموناً وإن مرّ عن شماله كان سفراً مشئوماً... وكل ذلك من الضلال .

### ٥ - السحر :

**وما تفضل** به الشياطين أئناء آدم السحر فهم يعلمونهم هذا العلم الذي لا يضر ولا ينفع ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه والتفريق بين الزوجين يعتبره الشيطان من أعظم الأعمال التي يقوم بها جنوده .

قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ ( سورة البقرة ١٠٢ ) .

### هل للسحر حقيقة :

اختلف العلماء في ذلك فمن قائل : إنه تخيل لا حقيقة له ، ، فإذا جباهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴿ ( سورة طه ٦٦ ) ومن قائل أن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة والصحيح أنه نوعان : نوع هو تخيل يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ونوع له حقيقة يفرق به بين المرء وزوجه ويؤذى به .

### سحر اليهود للرسول ﷺ :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ يهودى من يهود بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله . حتى إذا كان ذات يوم دعا رسول الله ﷺ ثم دعا أى دعا ربه مرات ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ ( أى أجابنى فيما طلبت ) .

جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلي فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلي أو الذى عند رجلي للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب ( أى مسحور ) .

قال : من طبه ؟

قال : ليبد بن الأعصم .

قال : في أى شيء .

قال : في مشط ومشاطة - أى شعر سقط عند التسريح - وجف طلعة ذكر ( أى غشاء الطلع )

قال : فأين هو ؟

قال : في بئر ذى أروان

قالت : فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه ثم

قال : يا عائشة والله لكأن ماءها فقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .

فقلت : يا رسول الله أفلا أحرقتة ؟

قال : « لا أما أنا فقد عافاني الله وكرهت أن أثير على الناس شراً ، فأمرت بها فدفنت » رواه البخاري

ومسلم<sup>(١)</sup>

ولا يقال : إن السحر فيه ﷺ يوجب لبساً في النبوة والرسالة لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر الجسم الشريف فلم يصل إلى القلب والعقل فهو كسائر الأمراض التي قد تعرض له والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ سورة الحجر ٩

## ٦ - ضعف الإنسان :

في الإنسان نقاط ضعف كثيرة هي في الحقيقة أمراض والشیطان يعمق هذه الأمراض في نفس الإنسان بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية ومن هذه الأمراض : الضعف واليأس والقنوط والبطر والفرح والعجب والفخر والظلم والبغى والجحود والكنود والعجلة والطيش والسفه والبخل والشح والحرص والجدل والمراء والشك والريبة والجهل والغفلة واللدد في الخصومة والغرور والإدعاء الكاذب والهلع والجزع والمنع والتمرد والطغيان وتجاوز الحدود وحب المال والافتتان بالدنيا ،... فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس والتخلص من أمراضها وهذا يحتاج إلى جهد يبذل ويحتاج إلى صبر على مشقات الطريق أما إتباع الهوى وما تمليه النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل ومثل الثاني كمن يدرج صخرة من أعلى الجبل إلى أسفله ولذلك كانت الاستجابة للشیطان كثيرة ووجد دعاة الحق صعوبة وأى صعوبة في الدعوة إلى الله تعالى :

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف في الإنسان :

- حكى المعتمد بن سليمان عن أبيه أنه قال : « ذكر لي أن الشيطان الوسواس ينبعث في قلب

ابن آدم عند الحزن والفرح فإذا ذكر الله خنس » .

وقال وهب بن منبه : « قال راهب للشيطان وقد بدا له : أى أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم ؟ قال : الحدة ( صفة تعترى الإنسان كالغضب ) إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة » ويذكر ابن الجوزى أيضاً عن ابن عمر أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التى يهلك بها الناس فقال : « الجسد والحرص » وليس بعيداً عنا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيههم وقد قال يوسف : ﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ سورة يوسف ١٠٠ .

#### ٧ - النساء وحب الدنيا :

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين وأمر الرجال بغض أبصارهم ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح ( المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان )<sup>(١)</sup>.

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج غالب النساء كما وصفهن الرسول ﷺ كاسيات عاريات وقامت مؤسسات فى الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية والقصة الخليعة والأفلام التى تحكى الفاحشة وتدعو لها .

أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض وعصبت الأموال وقطعت الأرحام ... إلا لأجل حيازة الدنيا والصراع على طعامها الفانى وحرصاً على متعتها الزائلة .

#### ٨ - الغناء والموسيقى :

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب ويخرب النفوس يقول ابن القيم : ( ومن مكاييد عدو الله ومصايده التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدي والغناء بالآلات المحرمة الذى يصد القلوب بها عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقبة اللواط والزنى ، كادبة الشيطان النفوس المبطله ، وحسنه لها مكرراً وغوراً وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه فقلبت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً .. ) إغاثة اللهفان ٢٤٢/٨ . ومن عجب أن بعض الناس الذين يدعون التبعيد يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبيد ويتركون السماع الرحمانى ويذهبون إلى السماع الشيطانى وقد عدَّ ابن القيم فى ( الإغاثة ٢٥٦/١ ) لهذا السماع بضعة عشر اسماً : اللهو واللغو والباطل والزور

والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق في القلب والصوت الأحق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود .

#### ٩ - تهاون المسلمين في تحقيق ما أمروا به :

إذا إلتزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به فإذا تهاون وتكاسل في بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصة قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ ( سورة البقرة ٢٠٨ ) . فالدخول في الإسلام في كل الأمور هو الذى يخلف من الشيطان فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين فإذا تركت فرج بين الصفوف فإن الشياطين تتراقص كأنها أولاد الحذف قيل يا رسول الله : وما أولاد الحذف ؟ قيل جُرْد « بأرض اليمن » رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح<sup>(١)</sup> ( صحيح الجامع ٣٨٤/١ ) وفى الحديث الآخر « أقيموا صفوفكم وتراصوا فوالذى نفسى بيده إنى لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عفر » رواه أبو داود الطيالسى بإسناد صحيح<sup>(٢)</sup> . ( صحيح الجامع ٣٨٤/١ )

#### كيف يصل الشيطان إلى نفس الإنسان :

##### الوسوسة :

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها يساعده على ذلك طبيعته التى خلق عليها وهذا الذى نسميه بالوسوسة وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه ﴿ الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ سورة الناس ٤ - ٥ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس .

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال : « إن الشيطان يجزى من ابن آدم مجرى الدم »<sup>(٣)</sup> .

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة : ﴿ فوسوس إليه الشيطان » قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايلل ﴾ ( سورة طه ١٢٠ ) .

وقد تتمثل الشياطين فى صورة بشر وقد يحدثون الإنسان ويسمعونه ويأمرونه وينهونه بمرادهم .

(١) مسند أحمد ٢٩٦/٤ والمستدرک للحاكم - كتاب فضائل القرآن ٥٧٣/١

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ٢٨٢/٩ رقم ٢١٠٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

### الفصل الرابع تمثل الشياطين

أحياناً تأتى الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة بل تتراءى له فى صورة إنسان وقد يسمع الصوت ولا يرى الجسم وقد تتشكل بصور غريبة .

وهى أحياناً تأتى الناس وتعرفهم بأنها من الجن وفى بعض الأحيان تكذب فى قولها فتزعم أنها من الملائكة وأحياناً تسمى نفسها برجال الغيب أو تدعى أنها من عالم الأرواح .

وهى فى كل ذلك تحدث بعض الناس وتخبّرهم بالكلام المباشر أو بواسطة شخص منهم يسمى الوسيط تتلبس وتحدث على لسانه وقد تكون الإجابة بواسطة الكتابة .

وقد تقوم بأكثر من ذلك فتحمل الإنسان وتطير به فى الهواء وتنقله من مكان إلى مكان وقد تأتى له بأشياء ويطلبها ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين الذين يكفرون بالله رب الأرض والسموات أو يفعلون المنكرات والموبقات . وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى ولكنهم فى حقيقة أمرهم من أضل الناس وأفسقهم وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً لا مجال لتكذيبه والطعن فيه لبلوغه مبلغ التواتر فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال : ( وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدّمه أحياناً كانوا معه ( بعض أتباعه ) على جبل أى قيس فطلبوا منه حلاوة فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوى باليمن حمله شيطان تلك البقعة ) .

قال : « ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطاني ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا مثل شخص هو الآن ( فى زمن ابن تيمية ) بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ونجىء بالليل إلى باب الصغير ( باب من أبواب دمشق الستة التى كانت يومئذ ) فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

وآخر كان بالشوبك ( قلعة حصينة فى أطراف الشام ) من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه وكان شيطان يحمله وكان يقطع الطريق .

وأكثرهم شيوخ الشر يقال لأحدهم ( البوشى أى الحبيب ) ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة ويصنعون خبزاً على سبيل القربان فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ثم يصعد ذلك البوشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به .

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ويأمرهم بأن يقربوا له بقرأ وخيلاً وغير ذلك وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها فإذا فعلوا قضى حاجتهم ١١.

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن « شيخ أخبره نفسه أنه كان يزني بالنساء ويتلوط الصبيان وكان يقول : يأتيني كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان ، فيقول لي : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً تأتيك به . » ما قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر » .

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال : « وكنت إذا طلب في تغيير مثل ( اللأذن ) ( صمغ يستعمل عطراً ودواءً ) أقول حتى أغيب عن عقلي وإذا باللأذن في يدي أوفى فمى وأنا لا أدري من وضعه . قال : وكنت أمشي وبين يدي عمود أسود عليه نور .

قال : فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلي ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتي بالأذن ولا غيره .

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس فيأتي أهل ذلك المصروع ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس حتى أن بعض الناس كان له تين في كؤارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرون له فيطلب أصحاب لكؤارة التين فوجدوه قد ذهب .

ويذكر عن آخر أنه كان مشغلاً بالعلم فجاءته الشياطين وأغوته وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه وأعطى أهل الخلاوة ثمن حلاوتهم التي أكلها ذلك المفتون بالشيطان » ( جامع الرسائل لابن تيمية في ١٩٤/١٩ ) وبين بعض طرق الشيطان في الإغواء فقال في ( مجموع الفتاوى ٣٠٠/١١ ) .

« أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنياً لك يا ولي الله فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول خذني حتى يأكلني الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسان ويخاطبه بذلك ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله » .



ويقول رحمه الله : « وأعرف من يخاطبه فخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ويعد بأنه المهدي الذي بشره الرسول ﷺ ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير الجراد في الهواء فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً ذهب حيث أراد وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتي به وتأتيه بأشخاص في صور جميلة وتقول له هؤلاء الملائكة المقربون جاءوا لزيارتك فيقول في نفسه : كيف تصوروا بصور المرذان ؟ فيرفع رأسه فيجدهم بلحي ويقول له : علامة أنك المهدي أنك تنبت في جسدك شامة فتثبت ويراهها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان » .

وبين رحمه الله ( ٤١/١٩ ) « أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعي ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التي نهى عن الصلاة فيها لأن الشياطين تنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل في الأصنام وتكلم عابدي الأصنام وتعينهم في بعض المطالب كما تعين السحرة وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التي يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبحور وغير ذلك فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضى بعض حوائجهم » .

### الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصي :

هؤلاء الذين يزعمون الولاية والحقيقة أن الشياطين تخدمهم - لا بد أن يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك كي يقضوا بعض أغراضه ويذكر ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ) أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة وقد يقلبون حروف كلام الله - عز وجل - إما حروف الفاتحة وإما حروف قل هو الله أحد وإما غيرهما - ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان أو يتكلمون بذلك . فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم إما تغوير ماء من المياه وإما أن يحمل في الهواء إلى بعض الأماكن وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتى به وإما غير ذلك .

### دجال الغيب :

يذكر شارح الطحاوية « أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب وأن بعض الناس يخاطبون وتحصل هؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله ، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين ويقول : إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين عصوا » .

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً : « هؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين وذكر أن الناس من أهل العلم في رجال الغيب ثلاثة أحزاب :

١ - حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عن عاينهم أو حدثه الثقات بمألوته هؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

٢ - وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن تم في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

٣ - وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا ولياً خارجاً عن دائرة الرسول ، فقالوا : يكون الرسول هو محمداً للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه .

ثم قال مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم : والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ ( سورة الجن ٦ ) . وإلا فالإنس يؤنسون أى يشهدون ويرون وإنما يحتجب الإنس أحياناً لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس ومن ظنهم من الإنس فمن غلطه وجهله .

ثم بين السبب في الاختلاف فيهم وفي افتراق هذه الأحزاب الثلاثة : هو عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن وبين أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة فما وافقهما كان صالحاً وما خالفهما كان غلطاً ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله - وإن طار في الهواء ومشى على الماء مالم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة ( شرح العقيدة الطحاوية ٥٧١/٥٧٢ ) فلا بد أن يكون عند العبد الميزان الذي يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والصالحين والطالحين وإلا ضل وزاغ وظن أعداء الله أوليائه . هذا الميزان هو الكتاب والسنة فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم وإلا فإنه ليس على شيء ولو رأيناه يحى الأموات ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة .

يقول ابن تيمية : ( ومن لم يميز بين الأموال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ومن لم ينور الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن لم يعرف طريق الحق من المبطل واللابس عليه الأمور الحال كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذابين في زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون ) جامع الرسائل ص ١٩٧ .

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً إذا عرفته تبين لك الفارق الكبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان وقد أسماه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

حكم استخدام الجن :

الذى يظهر أن الله استجاب لسليمان ووهب له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير وإنما برضى الجن وهل يحوز ذلك ؟ يقول ابن تيمية فى ( مجموع الفتاوى ٣٠٧/١١ ) :

الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى وهو فى ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن فى أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس فى أمور مباحة له وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم فى مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله فغايتة أن يكون فى عموم أولياء الله مثل النبى الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما فى الشرك وإما فى قتل معصوم الدم أو فى العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم وإما فى فاحشة كجلب لا من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصى فهو عاصى : إما فاسق وإما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تام العلم بالشرعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج أو يطيروا به عند السماع البدعى أو أن يحملون إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعى الذى أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به » .

## تحضير الأرواح

انتشر في عصرنا القول بتحضير الأرواح وصدق بهذه الفرية كثير من الذين يعدهم الناس عقلاء وعلماء .

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً فمنه ما هو كذب صراح يستعمل فيه الإيهام النفسي والمؤثرات المختلفة والحيل العلمية ومنه ما هو استخدام للجن والشياطين .

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في كتابه ( الروحية الحديثة ) كثيراً من ضراخ هؤلاء وتزويرهم للحقيقة فمنهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا في ضوء أحمر خافت هو أقرب إلى الظلام وظواهر التجسيد المباشر ونقل الأجسام وتحريكها تجري في الظلام الدامى ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين ولا مصدر الصوت ولا يستطيع كذلك أن يميز من تفاصيل المكان كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه .

وتكلم الدكتور محمد عن ( الخباء ) وهو حجرة جانبية معزولة عن الحاضرين أو جزء من الحجرة التي يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف وهذا المكان المنفصل معد لجلوس الوسيط الذى تجرى على يديه ظواهر التجسد المزعوم ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخزج الأرواح المزعومة متجسدة وإليه تعود بعد قليل ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح .

ويرى الدكتور أن الروحيين لا يعدمون في مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم .

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة يضل بها شياطين الإنس عباد الله يطلبون الوجاهة عند الناس كما يطلبون مالههم فقد ذكر ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٤٥٨/١١ ) عن فرقة في عصره كانت تسمى ( البطائحية ) . أنهم كانوا يدعون علم الغيب والمكاشفة كما يدعون أنهم يرون ويرون الناس رجال الغيب ثم يكشف شيئاً عن دجلهم فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة ثم يكشفون صاحب البيت بما علموه زاعمين أن هذا من الأمور التي اختصوا بالاطلاع عليها ووعدوا رجلاً — كانوا يمتنون به بالملك — أن يروه رجال الغيب فصنعوا خشباً طواؤوجعلوا عليها من يشى كهيئة الذى يلعب بأكر الزجاج فجعلوا يمشون على جبل المزة وذلك المخدوع ينظر من بعيد فيرى قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالا كثيراً ثم انكشف له أمرهم . ودلسوا على آخر كان يدعى ( قفجق ) إذ أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموا أن الموتى تتكلم وأتوا به إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا أنه طلب منه جملة من المال فقال

( قفجق ) : الشيخ يكتشف وهو يعلم أن خزائني ليس فيها هذا كله وتقرب قفجق وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي الصقوه على جلده من جلد الماعز . وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط وهو شخص يزعم الروحانيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجرى عن طريقها التواصل - غالباً ما يكون دجالاً كبيراً وعشاشاً مدلساً وبين كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين بل إن الروحانيين لا يشترطون في الوسيط شيئاً من ذلك وقد ذكر حادثة جرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه في الموضوع أن الوسيط كان دجالاً كاذباً .

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين وكيف يحترس في إنتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات وكيف يعللون فشلهم إذا وجد في الحضور بعض الأذكياء النباء .

#### استخدام الجن والشياطين :

أفاض الدكتور محمد محمد حسين في الكشف عن الطريق الأول الذي يزعم الروحانيون أنهم يحضرون به الأرواح وهو طريق الدجل والكذب واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية . وأشار بمجرد إشارة إلى الطريق الثاني وهو استخدام الجن والشياطين وأرى أن غالبية الدعوات التي يزعم فيها تحضير الأرواح هي من هذا القبيل .

#### تحضير الأرواح دعوة قديمة :

وبناء على ذلك فهذه الدعوى ليست جديدة بل هي قديمة وقديمة جداً وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن بل حفظت لنا كتب ثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت ، يقول ابن تيمية « ومن هؤلاء ( أى أهل الحال الشيطاني من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم ) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجيء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ورد ودائعه ويوصيهم بوصايا فإنهم تأتيهم تلك الصورة التي كانت في الحياة وهو شيطان تمثل في صورته فيظنونه إياه » ( جامع الرسائل ص ١٩٤/١٩٥ ) .

#### تجربة معاصرة :

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانوني ذكرها في كتاب الإيمان بالملائكة حرصت على نقلها بنصها يقول في هذا الموضوع .

لقد شغل « استحضار الأرواح » المزعوم أفكار الناس في الشرق والغرب فكتبت فيه مقالات

بلغات مختلفات نشرت في مجالات عربية وغير عربية وألفت فيه مؤلفات وبحث فيه باحثون وجربه مجربون اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وجهتان ودعوة إلى كفر وطغيان . إن استحضر الأرواح الذى يزعمه الزاعمون كذب ودجل وخداع وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالإنسان وتخدعه .

وليس في استطاعة أحد أن يستحضر روح أحد فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد تصير إلى عالم البرزخ .

ثم هي إما في نعيم أو في عذاب وهي في شغل شاغل عما يدعيه مستحضر الأرواح . وقد دُعيت أنا إلى ذلك من قبل هذه الأرواح وجربته بنفس تجربة طويلة وظهر لى أنه كذب ودجل وخداع على أيدي شياطين تتلاعب غرمتهم من ذلك تضليل الناس وخداعهم وموالة من يواليهم .

#### بدء التجربة :

عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً رجلاً يزعم أنه يستخدم الجن في أمور صالحة في خدمة الإنسان وذلك بواسطة وسيط من البشر . ويزعم أنه توصل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة قضى فيها زمناً طويلاً وله عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم ! جاءنى الوسيط ذات يوم يبلغنى دعوة فلان وفلانة من الجن لحديث هام لى فيه شأن عظيم .

فذهبت فى الموعد المحدد متوكلاً على الله تعالى فرحاً بذلك لأطلع فى هذه التجربة على جديد .

#### كيف بدأت الخداعة ؟

. من أول أساليب الخداع التى سلكت معى أن طريقة الاستحضار ، استغفار وتهليل وأذكار مما يجعل الإنسان لأول وهلة يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة .

دخلت بيت الوسيط واخلونا معاً فى غرفة وجلس هو على فراش وبدأنا بدلالته طبعاً نستغفر ونهلل - حتى أخذته إغفاءة فاضجعت أنا على فراشه وسجّيته بغطاء كما علمنى أن أفعل ، وإذا بصوت خافت ، يسلم صاحبه علىّ ويظهر حفاوته لى وجهه ويعرفنى أنه مخلوق يزعم أنه ليس من الملائكة ولا من الجن ولكنه خلق آخر من نوع آخر وجد بقوله تعالى « كن » فكان .

وهذا على زعمه أن الجن لا يصدرن إلا عن أمره وأن بينه وبين الله تعالى فى تلقى الأوامر أربعة وسائط فقط خامسهم جبريل - عليه السلام - وأخذ يثنى علىّ ويقول : إنهم سيقطعون كل علاقة لهم

بالبشر وسيكتفون بلقاءى لأنى على زعمهم الخصوصية فى هذا العصر وموضع العناية من الله تعالى وأن الله تعالى هو الذى اختارنى لذلك . ووعدنى بوعود رائعة فيها العجب العجائب

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة والدعوة الخادعة متوكلاً على الله عز وجل سائلاً الله تعالى أن يعصمنى من الزلل وأن يهدينى إلى الحق المبين مستضيئاً بنور العلم سالكاً سبيل الاستقامة والحمد لله تعالى ولما انقضى اللقاء الأول دعانى إلى لقاء آخر فى موعد آخر ثم **دلى** هو نفسه على تلاوة خاصة لإيقاظ الوسيط من غيبته .

وكان ذلك وجلس الوسيط **إوعرك** عينيه كأنه انتبه من نوم عميق ولا علم له بشيء مما جرى ورجعت فى الموعد المحدد أيضاً وتم بيننا لقاء بعد لقاء مدة طويلة وفى كل لقاء تتجدد الوعود الحسنة ويوصف لى المستقبل الرائع الذى ينتظرنى والنفع الذى تلقاه الأمة على يدى .

### تطور الموضوع :

وتطور الأمر فأخذ كثير من الأرواح يزورنى فى كل لقاء بمقدمات من الأذكار وبغير مقدمات فقد أكون مع الوسيط على طعام أو على تناول كأس من الشاي فتأخذه الإغفاءة المعهودة فيميل رأسه إلى الأمام وتلتصق ذقنه بصدرة ويحدثنى الزائر الذى يزعم أنه من الملائكة أو من الجن أو من الصحابة أو من الأولياء حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والإجلال والتبرك بزيارتي وتبشيري بالمستقبل الزاهر المبارك ثم ينصرف ويحىء غيره وغيره .

### من هم الزائرون :

زارنى فيما زعموا أفراد من الملائكة وأفراد من الجن وأبو هريرة - رضى الله عنه - من الصحابة وطائفة من الأولياء أمثال أبى الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - وطائفة من أهل العلم والفضل المشهود لهم بالعلم والولاية أمثال الشيخ أحمد الترماتينى - رحمه الله تعالى . وبعض من **أدركتهم** من أهل العلم والفضل ثم درجتهم الوفاة ومنهم والدى - رحمه الله تعالى - وبشرونى بزيارة والدى إياى فى وقت عينوه وانتظرت الموعد بلهف ولما كان الموعد المنتظر كلفونى أن أقرأ سورة « الواقعة » جهراً فقرأتها ولما فرغت من قراءتها قالوا : سيحضر والدك بعد لحظات فاسمع ما يقول ولا تسأله عن شيء !!

### بدء انتباهى :

وبعد دقائق جاءنى يزعم أنه أبى فسلم علىّ وأظهر سروره بلقاءى وفرحه بى على صلتى بهذه الأرواح وأوصانى أن أعتنى بالوسيط وأهله وأن أراعاه رعاية عطف وإحسان إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق .

وختم حديثه بالصلوات الإبراهيمية وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى كان شديد الولع بالصلاة على النبي ﷺ ولا سيما الإبراهيمية وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة لحد ما بلهجة الوالد . ثم سلم وانصرف .

وأخذت أتساءل في نفسي : لم أوصوني أن لا أسأله عن شيء ؟ في الأمر سر ولا شك !

السر الخفى الذى انكشف لى آنذاك أنه ليس بوالدى ولكنه قرينه من الجن الذى صاحبه مدة حياته فجاءنى يمثل لى صوته وتشبه بخصوصية من خصوصياته أوصوني أن لا أسأله عن شيء لأن القرين من الجن مهما عرف من شأن والدى وحفظ من أحواله فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه فحذرونى أن أسأله عن شيء حق ذلك فلا يجبنى فيفتضح الأمر ثم سلكوا معى فى لقائى مع الآخرين أن لا يعرفونى بأسمائهم إلا عند إنصرافهم فيقول أحدهم : أنا فلان ويسلم وينصرف على الفور .

وفى ذلك من السر ما ذكرت : فلو أخبرنى واحد منهم عن نفسه وهو مشهود له بالعلم فيحدث معه فى اشكال علمى يعجز عن الجواب وانكشف الأمر .

وقد أتانى آت مرة يناقشنى فى إباحة كشف وجه المرأة وأنه ليس بعورة فرددت عليه ورداً على رداً ليس فيه رائحة العلم واحتدم الجدل بيننا .

فقلت له : وبماذا تحيب عن أقوال الفقهاء الذين قالوا : إن وجه المرأة عورة أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وإنتهى الجدل إلى غير جدوى ثم أخبرنى أنه هو الشيخ أحمد الترماتينى وانصرف فانكشف لى أنه الكذب لاشك فيه لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية والسادة الشافعية يقولون : المرأة كلها عورة ولو عجوزاً شمطاء .

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور وانكشف له من العلم جديد وهو فى عالم البرزخ لأخبرنى بذلك وأرشدنى إلى دليله . ولكنه الكذب والخداع وإرادة التضليل وأبى الله تعالى - والحمد لله - إلا هداى وثباتى على الحق والهدى فكشف المرأة وجهها ولاسيما فى هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض أمر لا يقره ذو عقل ودين .

انكشاف الحقيقة :

ولم تزل تنكشف الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة وفى تجربة بعد تجربة حتى تحقق عندى أن الأمر كله كذب وبهتان ودجل وطغيان لا أساس له من تقوى ولا قائمة له على دين :



فالوسيط الذى يعتنون بشأنه ويوصون بحسن رعايته وإكرامه تارك صلاة ولا يأمرونه بها — وهو يخلق لحيته ولا يأمرونه بإطلاقها ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل وبالوعود الخادعة ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث .

جاءنى رجل بعد ما عرف صلتى بهذا الوسيط يشكو إلىّ أنه خدعه فأخذ منه ثلاثمائة ليرة سورية وهو فقير وفى أشد الحاجة إليها .

فألزمت الوسيط بردها إليه فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتى بهم .  
والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب فى أكثر شؤونهم .

### الخاتمة :

وقد حاولت هذه الأرواح بعدما إنكشف لى أمرها أن تسلك معى مسلك التهديد فلم يزل ذلك من قلبى شيئاً والحمد لله تعالى . وقد كنت كتبت فى هذه المدة الطويلة مما حدثونى به ما ملأ دفترين كبيرين جمعت فيهما أكثر ما حدثونى به . ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل قطعت الصلة بهم وحكمت عليهم بما حكمت وأحرقت الدفترين اللذين امتلأ بالكذب والخداع . فهذه الأرواح التى تدعى أنها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين كلها شياطين لا ينبغي لمؤمن عاقل أن ينخدع بها وجميع الصور التى اعتادها مستحضر الأرواح كذب وباطل .

سواء فى ذلك طريقة الوسيط التى ذكرتها وجربتها وطريقة المنضدة والفناجين التى ذكرها لى بعض من جربها ووصل إلى النتيجة التى وصلت إليها . ومن عجيب الأمر أنى قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفة فى هذا الموضوع فإذا بالمجدين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه وحكموا على تلك الأرواح أنها قرناء بنى آدم من الجن كما هدانى الله تعالى إلى ذلك من قبل والحمد لله .

وقد أديت بكلمتى هذه النصيح الواجب والله الهادى إلى سواء السبيل .

### خطر هذه الدعوات :

هذه الدعوات التى تزعم أن بإمكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لإفساد الدين فهذه الأرواح التى تحضر وهى فى الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه وتقر مبادئ ومثل ومناهج جديدة تعارض الحق كل المعارضة ففى واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح ( الشيطان ) على لسان الوسيطة أن جبريل قد حضر هذه الجلسة ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت : ( ألا تعرفون جبريل الذى كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ إنه يبارك هذا الاجتماع وينقل

الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة ( عالم الروح ) من مقال لها بعنوان ( حديث الروح الكبير هوايت هوك ) مايقى :

« يجب أن نتخذ في هذه الحركة . في هذا الدين الجديد . يجب أن تسودنا المحبة . ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم » . رسالتى ( الروح المتحدث هنا أى الشيطان ) أن أواشى المحروم وأساعد الإنسان على تحرره في نفسه من الله تعالى : ( وصدق فهذه رسالته أى يجعله يكفر بالله ) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض ( هكذا ينضج في الإنسان ويكذب عليه ليضله ) وهو لن يدرك مافى مقدوره هو مالم يحس بجزئه الملائكى الإلهى الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله ) . وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التى أسست لهذه الغاية لأن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحى طريقة جديدة للحياة ويعظوننا فكرة جديدة عن الله ومشيته ، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان ( هكذا ) ... إن العضوية في هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسى .

وتزعم الأرواح أنها رسل مرسلة من عند الله فالدكتور يذكر أن محمد فريد وجدى نقل عن هذه الأرواح ( أى الشياطين ) قولها « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم فالهنا هو إلههم إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل في صفات البشرية وأكثر صفات إلهية .. لا تخضع لأى عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل » .

وهم يزعمون أن الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة وأن المعجزات التى جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التى تحدث في حجرة تحضير الأرواح ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا أحداث كل ما نسب للمسيح من أرواح وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة زعمت أن أحد محضرى الأرواح في أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح فهو يعيد البصر إلى الأعمى والنطق إلى الأبكم والحركة للمشلول بقى أن تعلم أن هذا الطبيب المزعوم طفل في العاشرة من عمره يدعى ( ميشيل ) وعندما يأتى المريض يضع أنامله عليه ويتمم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة . ويقولون : إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده وهو لا يتقاضى من المال عما يقوم به عن أعمال ( راجع ملحق جريدة القبس الكويتية ١٧/١٠/١٩٧٧ ) . ووراثه هذا الطفل لهذه الأعمال من أبيه تذكرنا لقصة تروى في بعض نواحي فلسطين يقول الرواة إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى كان يفعل عجباً فقد كان - في ذلك الوقت الذى لم تظهر فيه الطائرة والسيارة - ينطلق إلى الحج في ليلة عرفة فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم ويعود في الليلة

الأخرى وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير رغم أنه ما كان يقوم بمناسك الحج ولا يمكث في منى المدة المقررة ولا يرمى الجمرات ثم شاء الله أن يكشف باطله ويظهر أمره للناس فعندما جاء الموت استدعى ابنه الأكبر وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة ويحمله إلى عرفات في كل عام ولما جاء الجمل وركبه الابن وسار مسافة وقف وتحدث إلى الأب وأخبره أنه شيطان وأن أباه كان يعبدّه ويسجد له وفي مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات ولما رفض الابن السجود له واستعاذ بالله منه تركه في الصحراء وقدر الله له الرجوع وكشف حقيقة أبيه الكافر .

وقد أشار إلى هذه القصة البيانوني في كتابه الملائكة بأخصر مما أثبتناها هنا .

### هل يمكن استحضار الأرواح :

لقد وضعت مجلة ( سنيتيك أمريكان ) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولا تزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد رغم انتشار الروحانيين ونفوذهم وبراعتهم في أمريكا وقد ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الأمريكي رنجر نفسه ولم يظفر بها أحد أيضاً .

ولكن ما موقف الإسلام من إمكان إحضار روح المتوفى ؟ إن التأمل في النصوص التي وردت في هذا تجعل الباحث يعتقد جازماً أن ذلك مستحيل فقد أخبرنا الله تعالى أن الروح من عالم الغيب الذي لا سبيل إلى إدراكه ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ سورة الإسراء ٨٥ .

وأخبر أنه يتوفى الأنفس وأنه يمسك النفوس عند الموت ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾ سورة الزمر ٤٢ . وقد وكل الله الأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة وينعمونها إن كانت صالحة تقية وقد بين لنا الرسول ﷺ كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك .

والأرواح إذ كانت مُمسكة عند ربها موكل بها حفظة أقوياء مهرة ، فلا يمكن أن تنفلت منهم وتهرب لتأتي إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد . وبعض هؤلاء يزعم أنه حضر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء ، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير المظلمة فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ سورة آل عمران ١٦٩ . وقد بين الرسول ﷺ ( أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في رياض الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها وتأوى إلى قناديل معلقة في سقف عرش الرحمن )<sup>(١)</sup> . فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ ( كبرت

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً (٢).

شبهة وجوابها :

يقولون فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذى تزعم أنها كانت تسكنه ؟ قلنا هذا الذى يزعم أنه روح شيطان ولعل هذا الشيطان هو القرين الذى كان يلزم الإنسان وقد ذكرنا النصوص التى تدل على أن لكل إنسان شيطاناً فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته ويعرف أقاربه وأصدقاءه .

فعندما يختبر ما أسهل أن يجب لأنه على علم ودراية فإن قيل : كيف تفسرون الإجابات العلمية التى قد يحصل عليها من الأرواح نقول : سبق أن بينا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التى تمكنهم من الإجابة والإفادة .

ولكنها إفادة تحمل فى طياتها الإضلال العظيم فهم لا يفيدوننا إلا بمقدار كى نثق بهم ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة التى توبقنا فى دينانا وأخرانا .

تخلى الشياطين عن أتباعها :

هؤلاء الذين يدعون ( الروحانيون ) ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون وما هذه الأرواح إلا شياطين وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتذلهم وتخذلهم . نشرت جريدة القبس الكويتية فى ملحقها بتاريخ ١٢/٦/٧٨ مقالاً جاء فيه : بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحاني ( بيتر غودوين ) الذى كان يتمتع بمواهب ( روحانية ) خارقة يستطيع بواسطتها أن يشفى المرضى من الأمراض المستعصية ويكشف الأشياء المفقودة ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان .

وكان بيتر غودوين يتمتع بمقدرة فريدة يستطيع بواسطتها التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد فقد كان يشاهده أصدقاؤه فى لندن مثلاً ، ويشاهده آخرون فى نفس اللحظة فى ليفربول وآخرون فى مانشستر بينما يؤكد فريق رابع أنه لم يكن فى هذا المكان ولا ذاك وإنما كان يجلس فى منزله بين زوجته وأولاده .

وأحياناً كانت أجساده الاثيرية المختلفة تجتمع فى مكان واحد فيكون جالساً بين أصدقائه مثلاً ، وفجأة .. تدخل عليهم جميعاً شخصيته الأخرى .. وتشاركهم الجلسة وتأتى شخصيته الثالثة والرابعة والخامسة بعدها ويصبح بيتر غودوين عبارة عن خمس شخصيات تجالس الحضور وتحدث إليهم أو

تحدث مع بعضها البعض بينما يكون الجميع مهوورين وفجأة خسر بيتر غودوين كل شيء وتحول إلى إنسان عادي ولم يعد بقادر على شفاء المرضى ولا اكتشاف الأشياء المفقودة ولا كشف المستقبل ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس .

وقد بدأت مأساة غودوين عندما حاول استغلال المواهب التي منحها الله له لتحقيق مكاسب مادية وهو قد أصبح ينظر إلى الماضي القريب ويقول : إن ما حدث لي لم يكن في الحسبان فقد غضبت الأرواح مني وسلبتني بركاتها .

### بداية القصة :

والقصة أن بيتر غودوين حاول أن يقيم مراكز للعلاج الروحي في طول بريطانيا وعرضها وأن ينشئ مركزاً في كل مدينة كبيرة في بريطانيا ولذلك نشر إعلاناً في صحيفة بونغاموت المسائية يطلب فيه من ربين للأبحاث الروحية بدوام كامل أو بنصف دوام ، المشروع يحقق دخلاً يعادل ٤٠ - ٥٠ جنيهاً في الأسبوع .

وبعد أن نشر بيتر غودوين إعلانه بدأت الطلبات تنهال عليه ومن بين الذين استجابوا للطلب كاتب في التاسعة والعشرين من عمره اسمه روبين لاسي ، وإمرأة في الخامسة والستين من عمرها اسمها جين بارتليث ورجل في الثلاثين اسمه ارتر جفري ولكن ما أن بدأ بيتر غودوين بإجراء المقابلات حتى بدأت متاعبه يقول روبين لاسي : « فوجئت عندما حضرنا للمقابلة أن بيتر غودوين نفسه غير موجود وأن التي تجرى المقابلة إمرأة خمسينية يساعدها شاب وإمرأة صغيرة السن فاتنة الجمال .. ووزعت علينا أسئلة وطلب منا الإجابة عليها ومن بين الأسئلة :

هل شاهدت أرواحاً في حياتك ؟ هل تؤمن بنتائج الأرواح ؟

هل تتناول المخدرات ؟ هل سبق أن زرت مستشفى للأمراض العصبية ؟

وقالت لنا المرأة الخمسينية : أن بيتر غودوين سيقم مركزاً روحياً في كل مدينة في بريطانيا وأنه سيدربنا على العلاج الروحي بحيث نصبح قادرين على العمل في هذه المراكز ثم يرسل الزبائن إلينا على أن نتقاضى خمسة جنيهات استرلينية عن الجلسة الواحدة ونعالج ما يعادل ٤٠ شخصاً في الأسبوع .. بشرط أن يقتطع بيتر غودوين لنفسه نصف أول خمسة آلاف جنيه استرليني والنصف الباقي لنا ... وقد أصيب معظمنا بخيبة الأمل من ذلك وتعالص صيحات الاحتجاج ضد ذلك من الأشخاص الذين تقدموا بطلبات وغادر معظمنا الغرفة دون أن يكمل تعبئة الطلبات .

## ماذا يقول شهود العيان :

ومع ذلك فقد تم إختيار البعض وسمح لهم بمقابلة بيتر غودوين في غرفة أخرى وقد دامت مقابلة الشخص الأول ٢٠ دقيقة بدأت تنقلص وعندما جاء دور الشخص الأخير استمرت المقابلة خمس دقائق وفي النهاية إختيار بضعة أشخاص على أن يتولى بيتر غودوين تدريبهم . ومن الأشخاص الذين تم إختيارهم جين بارتليث وهى مهندسة ديكور متقاعدة وزوجها ارثر بارتليث .. تقول جين : « لم أستوعب شيئاً مما علمه بيتر غودوين لى كان دائماً بادى الاضطراب أثناء التدريب وفي الآونة الأخيرة صار يلجأ إلى تسجيل محاضراته على أشرطة تسجيل ويتحدث فيها عن آفاق الإنسان في الحياة وطلب منامرة أن نصنع تماثيل من الطين تشبه الإنسان وعلما قراءة بعض التعاويذ عليها ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً .. وزودنا بيتر غودوين بملاحظات لم نفهم منها شيئاً » .

أما ارثر جفرى وزوجته انجيلا فقد كانا من ضمن الأشخاص الذين تم إختيارهم تقول انجيلا : « في البداية أحسنا بأن الجو العلمى هو السائد في الدروس والمحاضرات ولكن غودوين كان دائم الاضطراب وبدأ يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً وبعد بضعة أيام أصبح مجرد إنسان عادى ، مثلنا لا يتمتع بأية مقدرة خارقة وقد لمسنا ذلك لأنه لم يعد يمارس أعاجيبه أمامنا بل أصبح يسجل محاضراته على شريط تسجيل ونسمعها نحن من الشريط دون أن نراه ولذلك أمتعنا جميعاً عن حضور المحاضرات وتوقفنا عن دفع المصاريف التى كنا ندفعها له بمعدل عشرة جنيهات استرلينية للدرس الواحد »

ومن مكتبة في باسنكشوك في هانز ، قال بيتر غودوين الرجل الذى خسر ثقة الأرواح به : « كانت خطتى تقضى أن أنمى قوى تلاميذى الروحية ثم أمتنهم شهادة تثبت ذلك لكى يتمكنوا من ممارسة عملهم فيستفيدوا بذلك ويفيدوا وأستفيد وعلى الرغم من أننى تلقيت عدة رسائل روحية بأن لا أستغل المواهب التى منحنى الله إياها للكسب المادى إلا أننى لم استمع فكانت النتيجة أن بدأت مقدرتى تتلاشى إلى أن اختفت تماماً . أما كيف حدث ذلك فإننى لا أعرف حتى الآن » .

## تعلقنا على هذه الحادثة :

- ١ - ما زعمه هذا الرجل من أنه كان يحضر الأرواح لا دليل عليه وما يدل على أنه كان يحضر الشياطين أنه أمر أتباعه بصنع تماثيل وقراءة تعاويذ معينة وهذا ما يرضى الشيطان ويغضب الرحمن .
- ٢ - إذا قلنا إن هذه الأرواح شياطين تحل لنا ظاهرة وجود ( بيتر ) في أكثر من مكان في وقت واحد لأن الشياطين لديها القدرة على التشكل بشكل الإنسان .

وهذا كان يحدث في الماضى ولا يزال يحدث فإبليس جاء المشركين في غزوة بدر في صورة سراقه بن مالك ويحكى ابن تيمية من هذا شيئاً كثيراً ، وأنا أسوق شيئاً من كلامه ليتبين للقارئ أن هذا موجود من

قديم يقول ابن تيمية عن نفسه « إن طائفة من أصحابي ذكروا أنهم استغاثوا بي في شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن والآخر كان خائفاً من التتر فذكر كل منهم أنه لما استغاث بي لآتى في الهواء وقد دفعت عنه عدوه فأخبرتهم ( المخبر ابن تيمية ) أنى لم أشعر بهذا ولا دفعت عنكم شيئاً وإنما هذا شيطان تمثل لأحدكم فأغواه لما أشرك بالله تعالى » .

يقول : « وهكذا جرى لأكثر من واحد من أصحابنا المشايخ مع أصحابهم يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ويقول ذلك الشيخ : إني أعلم بهذا فيتين أن ذلك كان شيطناً » .

ويقول أيضاً : « وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لي أنه استغاث باثنين كان يعتقد هما وأنهما أتينا في الهواء ، وقالوا له : طيب قلبك نحن نرفع هؤلاء عنك ونفعل ونصنع .

قلت له : فهل كان من ذلك شيء ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان لقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك كما كانت الجن يخبرونه الكهان » .

٣ - إن شياطين بيتر تخلت عنه كما تتخلى الشياطين التي تتصور بصورة الشيوخ عمن وعدتهم الحماية والنصر وكما تتخلى الشيطان عن الراهب بعد أن وعده بالنصر وفي ذلك إذلال لهذا الذى كان بالأمس موضع احترام الناس وتقديرهم .

٤ - زعم ( بيتر ) أن هذه الأرواح تأييد من الله كذب لا دليل عليه .

### الجن وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ومردة الجن يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطيء عند البشر وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى عندما قبض روح نبيه سليمان — وكان قد سخر له الجن يعملون بين يديه بأمره — وأبقى جسده منتصباً وأستمر الجن يعملون وهم لا يدرون بأمر وفاته حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكئ عليها فسقط فتبين للناس كذبهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب : ﴿ فلما قضينا عليه الموت ، مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ سورة سبأ ١٤ .

وقد سبق القول كيف كانوا يسترقون خبر السماء وكيف زيد في حراسة السماء بعد بعثة الرسول ﷺ فقلما يستطيع الجن استراحة السمع بعد ذلك .

## العرافون والكهان :

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذى يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وخبايات وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم ولقد خاب السائل والمسئول فالغيب علمه عند الله لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ سورة الجن ٢٦ - ٢٨ .

والاعتقاد بأن فلاناً يعلم الغيب إعتقاد آثم ضال يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التى تجعل علم الغيب لله وحده .

أما إذا تعدى الأمر إلى إستفتاء أدعياء الغيب فإن الجرعة تصبح من العظم بمكان ، ففى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبی ﷺ عن النبی ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »<sup>(١)</sup>.

وتصديق هؤلاء كفر كما فى المسند عن أبى هريرة أن النبی - ﷺ قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »<sup>(٢)</sup>.

قال شارح العقيدة الطحاوية : ( والمنجم يدخل فى اسم ( العراف ) عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه - ثم قال - فإذا كانت هذه حال السائل فكيف المسئول ؟ ) . ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً وإذا كان الذى يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول ﷺ فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

## سؤال العرافين والكهنة على وجه الإمتحان :

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة بقصد إمتحان حالهم وإختبار باطنهم يميز صدقهم من كذبهم - جائز واستدل بحديث الصحيحين : « أن النبی ﷺ سأل ابن صياد ، فقال : ما يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . قال : ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، قال : فإنى قد خبأت لك خبيئاً ، قال الدخ ، الدخ . قال : أخساً فلن تعدو قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان »<sup>(٣)</sup>. فأنت ترى أن الرسول ﷺ سأل هذا الدعى ليكشف أمره ويبين للناس حاله .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب الطيرة والفاء ١٧٥١/٤ رقم ٢٢٣٠

(٢) مسند أحمد ٤٢٩/٢

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٥١



المنجمون :

وصناعة التنجيم التى مضمونها : الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمرج بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ طه ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ سورة النساء ٥١ قال عمر بن الخطاب : الجبت السحر . ( شرح العقيدة الطحاوية ٥٦٨ )

شبهة :

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً والجواب أن صدقهم فى كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير فإذا حدث الأمر فإنه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قيل .

وصدقهم فى الأمور الجزئية إما أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ وإما أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء . ففى الصحيحين ومسنند أحمد عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال ( ليسوا بشيء ) . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشئ يكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجن فيقرها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » (١)

وإذا كانت القضية التى صدق فيها من الأمور التى حدثت كمعرفته بالسارق أو معرفته باسم الشخص الذى يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه وأسرتة فهذا قد يكون بحيلة ما كالذى يضع شخصاً ليسأل الناس وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه أو يكون هذا من فعل الشياطين وعلم الشياطين بالأمور التى حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب .

الكهنة رسل الشيطان :

يقول ابن القيم ( الإغاثة ٢٧١/١ ) : « الكهنة رسل الشيطان ، لأن المشركين يدعون إليهم ويفزعون إليهم فى أمورهم العظام ويصدقونهم ويتحاكمون إليهم ويرضون بحكمهم كما يفعل أتباع الرسل بالرسول فإنهم يعتقدون أنهم يعلمون الغيب ويخبرون عن المغيبات التى لا يعرفها غيرهم فهم عند

(١) صحيح البخارى - كتاب الطب - باب الكهانة ١٧٦/٧ وصحيح مسلم - كتاب السلام - باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان

المشركين بهم بمنزلة الرسل فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم إلى ضربة من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين حتى إستجاب لهم حزبه ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ : « من أتى كاهناً ، فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة وأتباع الرسل فلا يجتمع في العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن الرسول ﷺ بقدر قربته من الكاهن ويكذب الرسول بقدر تصديقه للكاهن . أقول : ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسول ولكنهم رسل الشيطان فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة في أقوالهم يحلون ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأمرون بقطيعة الأرحام وانتهاك الأعراض .

### واجب الأمة نحو هؤلاء :

ما يدعيه المنجمون والعرافون والسحرة ضلال كبير ومنكر لا يستهان به وعلى الذين أعطاهم الله دينه وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان وعلى الذين في يدهم السلطة أن يأخذوا على يد هؤلاء الذين يدعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربي الرمل والحصى والناظرين في اليد ( والفنجان ) وعليهم أن يمنعوا نشر خزعبلاتهم في الصحف والمجلات وتعاقب من يتظاهر بصناعاته وضلالاته في الطرقات وقد ذم الله بنى إسرائيل لتركهم التناهي عن المنكر : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ .

وفي السنن عن النبي ﷺ برواية الصديق — رضى الله عنه — أنه قال : ( إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعتمهم الله بعقاب منه )<sup>(١)</sup>.

### الجن والأطباق الطائرة :

كثر الحديث في هذه الأيام عن الأطباق الطائرة فلا يكاد يمر أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً رأوه في الجو مخلقاً أو على الأرض جاثماً أو رأوا مخلوقات مخالفه لشكل الإنسان يخرج منه ووصل الأمر إلى الإدعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبته إلى الطبق وأجرت فحوصاً عليه .

(١) سنن الترمذى — كتاب الفتن — باب ماجاء في نزول العذاب وإذا لم يغير المنكر ٤/٤٦٧ رقم ٢١٦٨ وسنن أبى داود — كتاب

الملاحم — باب الأمر والنهى ٤/٥٠٩ رقم ٤٣٣٨

ولا يدعى هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب بل يزعم ذلك رجال بارزون أمثال رئيسى الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يعتقد أنه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته فى سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣ .

وهو يبدى إهتماماً خاصاً بال مخلوقات الأخرى التى بدأت تغزو الأرض فقد أمضى الرئيس الأمريكى ( كما نشرت الصحف ) أمسية يناقش أحد العلماء المقنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد فى الكون وكان يرافق الرئيس كارتر ( فرانك برس ) مستشاره للشئون العلمية وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومى أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التى تعيش خارج نطاق الأرض وقام بعرض هذه الأفلام ( كارل ساجان ) مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة ( كورنل ) الذى ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية فى الأمور المتعلقة بالمخلوقات التى تعيش خارج نطاق كوكب الأرض . ( راجع جريدة السياسة الكويتية العدد ٣٣٩٩ - ٧٧/١٢/٥ ) .

وينسب ملحق الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصينى الأسبق ( ماوتسى تونج ) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا فى الكواكب الأخرى .

ويذكر كاتب المقال أن حوالى ٦١٪ من الشعب الأمريكى مقتنعون بذلك وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكى شاهدوا هذه الأطباق وبعض هؤلاء استطاع أن يتصل بهم إتصلاً مباشراً .

وقد قام المخرج السينمائى الأمريكى ( ستيفن سيلبرج ) بإخراج فيلم سينمائى بعنوان ( مواجهة من النوع الثالث ) بلغت تكاليفه اثنان وعشرون مليوناً من الدولارات الأمريكية .

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أو اتصلوا بها :

وقد عرض الفيلم لأول مرة فى البيت الأبيض وأن الرئيس الأمريكى أول مشاهديه وبعد خروج هذا الفيلم إقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث فى هذا المجال وخصصت مليون دولار للأبحاث عام سنة ١٩٧٩ وقد أطلقت على المشروع السرى اسم ( سبى ) ويتلخص فى إطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجى للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى .

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتى :

١ - لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان إذ تواترت الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف وقد تابعت ما قيل فى هذا الموضوع فترة طويلة فكنت أحد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص بشيء من هذا .

٢ - أن الناس احتاروا في تفسير حقيقة هذه الأطباق وحقيقة المخلوقات التي تستخدمها خاصة وأن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أى مركبة اخترعها الإنسان .

٣ - أنا أجزم بأن هذه المخلوقات هى من عالم الجن الذى يسكن أرضنا هذه والذى تحدثنا عنه فيما سبق وبيننا ما لديه من قدرات وإمكانات تفوق قدرة البشر ولقد أعطى سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء كما أعطى القدرة على التشكل وهو يستطيع أن يتراءى للإنسان فى صور وأشكال مختلفة .

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق ، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا كى نوجهها وجهة نافعة .

وقد يتساءل بعضنا عن السر فى ظهور هذه الأطباق فى أيامنا هذه وعدم ظهورها فى العصور الخالية فالجواب أن الجن يلبسون لكل عصر لبوسه وهذا العصر عصر التقدم العلمى ولذلك فإنهم يضللون البشر بالطريقة التى تثير انتباههم وتشد نفوسهم والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شئ عن الفضاء الواسع وعن إمكانية وجود مخلوقات فيه غيرهم .

## الفصل الخامس

### أسلحة المؤمن فى حربه مع الشياطين

أولاً : الحذر والحيلة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بنى آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله فى الإضلال فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التى يصلنا بها تكون نجاة منة ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه يأسره ويوجهه الوجهة التى يريد . وقد صور ابن الجوزى هذا الصراع بين الإنسان والشیطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « وأعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور وللسور أبواب وفيه ثلم « الثلمة فى السور الموضوع المتهدم منه » وساكنه العقل والملائكة تتردد على ذلك الحصن وإلى جانبه رِبَض . « الرِبَض المكان الذى يؤوى إليه » فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الرِبَض من غير مانع والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الرِبَض والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ألا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو لا يفتر ، قال رجل للحسن البصرى : أنام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يترأى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان في الربضين إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة وكال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل مغاث وربما أقام لغفلة الحراس وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدري به وربما جرح الحارس لغفلة وأسروا متخدماً وأقيم يستنبط الحيل في موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه في الشر ( تلبس إبليس ٤٩ ) .

ثانيا : الالتزام بالكتاب والسنة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم والشيطان يجاهد كي يخرجنا من هذا الصراط قال تعالى : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ سورة الأنعام ١٥٣ . وقد شرح الرسول ﷺ هذه الآية وبينها فقد « خط ﷺ خطأ بيده ثم قال : ( هذا سبيل الله مستقيماً ) وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ « وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » رواه الأمام أحمد والحاكم وصححه<sup>(١)</sup> .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد في حرز من الشيطان ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ سورة البقرة ٢٠٨ . والسلم هو الإسلام وقيل : طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذى يدخل في الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته والذي يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ولذلك كان تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله أو الأكل من المحرمات والحبائث . كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التي نهينا عنها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ سورة البقرة ١٦٨ .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً ينظرد الشيطان ويغيظه أعظم إغاظه روى مسلم في صحيحه وأحمد في مسنده وابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قرأ ابن

آدم السجدة فسجد أعتزل الشيطان يبكى ، يقول : ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلي النار»<sup>(١)</sup>

ثالثاً : الالتجاء إلى الله والاحتواء به :

خير سبيل للاحتواء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتواء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان فإنه عليه قادر فإذا أجاز عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ سورة الأعراف ٢٠٠/١٩٩ .

وقد أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين وحضورهم ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ سورة المؤمنون ٩٨/٩٧ . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا بالاستعاذة به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغنى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير في تفسيره ( ٢٨/١ ) « والاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر .. ، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى : أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم لا يضرني في ديني ودنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحشني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه الأذى وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه » .

وقد كان ﷺ يكثر من الاستعاذة بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح في الصلاة « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »<sup>(٢)</sup> روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهى الخنق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر .

(١) صحيح مسلم - كتاب الإيمان ٨٧/١ رقم ٨١ وسنن ابن ماجه - كتاب الصلاة - باب سجود القرآن ٣٣٤/١ رقم ١٠٥٢ ومسند أحمد ٤٤٣/٢

(٢) سنن الترمذى - كتاب الصلاة - باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة ١٠/٢ رقم ٢٤٢ وسنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ٤٨٦/١ رقم ٧٦٤ وسنن ابن ماجه - كتاب إقامة الصلاة ٢٦٥/١ رقم ٨٠٧ ومسند أحمد ٤٠٣/١

## الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما في الصحيحين عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث »<sup>(١)</sup> وفي مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث »<sup>(٢)</sup>

## الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل إلى ( إلى راوى الحديث ) أن أحدهما يتمزق أنفه من شدة غضبه فقال النبي ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هي يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد<sup>(٣)</sup>

وقد علم الرسول ﷺ أحد أصحابه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذى بإسناد صحيح<sup>(٤)</sup> ( صحيح الجامع ٥٦/٦ ) .

## الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأقى الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه<sup>(٥)</sup> . وإذ

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١١

(٢) مسند أحمد ٣٦٩/٤ وسنن أبي داود - كتاب الطهارة - باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ١٦/١ رقم ٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٧ وسنن أبي داود - كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب ١٤٠/٥ رقم ٤٧٨١ ومسند أحمد

(٤) سنن الترمذى - كتاب الدعوات - ٥٤٢/٥ رقم ٣٥٢٩

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

نزل المرء وادياً أو منزلاً فعليه أن يستعيز بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيزون بالجن والشياطين فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادي من سفهاء قومه فكانت العاقبة أن أستكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك في سورة الجن ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ سورة الجن ٦ . أى : الجن زادت الإنس رهقاً أما المسلم فأنظر لإلام أرشده الرسول ﷺ حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شرٍّ ما خلق لم يضره في ذلك المنزل شيء حتى يرتحل منه ، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح <sup>(١)</sup> :

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول ﷺ : « إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبراني في معجمه الكبير بإسناد صحيح <sup>(٢)</sup> ( راجع صحيح الجامع ٢٨٦/٨ ) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم \* إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ سورة النحل ٩٨/٩٩ . وقد بين ابن القيم الحكمة في الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن ( إغاثة اللهفان ١٠٩/١ ) فقال :

١ - إن القرآن شفاء لما في الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوسوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أمره الشيطان فيها فأمر أن يطرد مادة الداء ويخل منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكننا

فيجىء هذا الدواء الشافي إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ - ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير في القلب كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى في إفساده وإحراقه فأمر أن يستعين

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الطب - باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه ١١٧٤/٢ رقم ٣٥٤٧

(٢) المعجم الكبير للطبراني ٤٥/٨ رقم ٧٣١٢



بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله أن الاستعاذه فى الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفى الوجه الثانى لأجل بقائها وحفظها .

٣ - ومنها أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته كما فى حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصاييح فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشیطان ضد الملك وعدوه<sup>(١)</sup> .

فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباحدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشیاطين .

٤ - ومنها أن الشیطان یجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهد على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارئ به فأمر عند المشروع أن يستعيذ بالله من الشیطان الرجيم .

٥ - ومنها أن القارئ يناجى الله تعالى بكلامه والله أشد أذنا للقارئ الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشیطان إنما قراءته الشعر والغناء . فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذه عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ - ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشیطان أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى : إذ تلا ألقى الشیطان فى تلاوته .. فإذا كان هذا فعلة مع الرسل عليهم الصلاة والسلام — فكيف بغيرهم ولهذا يعلوا القارئ تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعد منه القارئ هذا أو هذا وربما جمعها له

٧ - ومنها أن الشیطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

### تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول : هكذا كان أبى إبراهيم عليه السلام يعوذ إسماعيل واسحق<sup>(٢)</sup> »

(١) مسند أحمد ٨١/٣

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء ١٧٩/٤ والترمذى فى الطب حديث رقم ٢٠٦١ وابن ماجه فى الطب حديث رقم ٣٥٢٥ باب ما عوذ به

النبي ﷺ وأحمد فى مسنده ٢٣٦/١

قال أبو بكر بن الأبنارى : « الهامة واحد الهوام ويقال هي كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » ( تلبيس إبليس ٤٧ ) .  
خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال :  
« إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ رواه النسائي<sup>(١)</sup> .

فقه عظيم :

حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشیطان إذا سؤل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ، قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال هذا يطول ، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو منعك من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدى وأرده : هذا أو يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك ( تلبيس إبليس ٤٨ ) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوى الذى يطرد الشيطان ويبعده وهذا ما فعلت أم مريم إذا قالت : ﴿ وإني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ سورة آل عمران ٣٦ .

شبهة :

يقول بعض الناس إننا نستعيز بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشیطان يوسوس ويحرضنا على الشر ويشغلنا فى صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف فى يد المقاتل فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه فضلاً وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقى ورع كانت نارا تحرق الشيطان وإن كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر فى العدو تأثيراً قوياً قال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله : ( واعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فمر به كلب فقال له اخساً فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه ( طرده ) لم يرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده . الذكر والثانى مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان ( تلبيس إبليس ٤٨ ) فعلى المسلم الذى يريد النجاة من الشيطان واحييله أن يشتغل بتقوية إيمانه والاحتجاء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

## رابعاً - الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان وسيأتي ذكر الحديث الذي يأمر فيه نبي الله يحيى نبي إسرائيل بخمسة خصال ومن هذه « وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله »<sup>(١)</sup> يقول ابن القيم في ( الوابل الصيب ص ٦٠ ) : فلولم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله - تعالى - وأن لا يزال لهجاً بذكره فانه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله - تعالى - انخس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوضع ( طائر أصغر من العصفور ) وكالذباب ولهذا سمي ( الوسواس الخناس ) أى : يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله خنس . أى : كف وانقبض وقال ابن عباس : الشيطان جائم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فاذا ذكر الله - تعالى - خنس .

ويقول ابن القيم ( ص ١٤٤ ) : « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحققون عليه غيظاً وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه الا بذكر الله - عز وجل - » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وكنا في صفة بالمدينة فقام علينا وقال : إني رأيت البارحة عجباً : رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بالديه فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشه الشياطين فجاءه ذكر الله - عز وجل - فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلتهم - وفي رواية : يلهث - عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً جُلُوساً جُلُوساً كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعدته إلى جنبى ، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ورأيت رجلاً من أمتي يتقى بيده وهج النار وشره ، فجاءته صدقته ، فصارت ستره بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المسلمين ، أنه كان وصولاً لرحمه فكلّموه ، فكلّمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أحتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه ، وبينه وبين الله - عز وجل - حجاب ، فجاءه حسنُ خُلُقِهِ ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله - عز وجل -

(١) سنن الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٧/٥ رقم ٤٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح

ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله - عز وجل - فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتي خفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه ( جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال ) فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه في الله - عز وجل - فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار ، فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله - عز وجل - فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يردد كما ترعد السَّعْفَةُ في ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله - عز وجل - فسكَّن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته على فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتي أنتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة »<sup>(١)</sup> رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب « الترغيب في إحصال المنجية ، والترهيب من الخلال المروية ، وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب ، عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبله ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يعظم شأن هذا الحديث ، وبلغني عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه والمقصود منه قوله ﷺ : ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله - عز وجل - فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري ، وقوله فيه : « وأمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا في طلبه سراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه الا بذكر الله - عز وجل - وفي الترمذى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال - يعنى إذا خرج من بيته - بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كُفيت وهُديت ووُقيت ، وتنحى عنه الشيطان فيقول لشیطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى ؟ » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن<sup>(٢)</sup> .

وصح عنه - ﷺ - أنه قال : « من قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي »<sup>(٣)</sup> وذكر سفيان عن أبي الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت وإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : حفظت ، فيقول الشياطين بعضهم لبعض : أرجعوا ، ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كفى وهدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصري : من دخل في الاسلام ، دخل في حصن ، ومن دخل المسجد فقد دخل في

(١) أخرجه الترمذى في نوادر الأصول .

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب ما يقول إذا خرج من بيته ٣٢٨/٥ رقم ٥٠٩٥ ، وسنن الترمذى - كتاب الدعوات - باب ما يقوله إذا

خرج من بيته ٤٩٠/٥ رقم ٣٤٢٦

(٣) مجمع الزوائد ١٠/١٢١

حصنين ، ومن جلس في حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل في ثلاثة حصون ، وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني ، عن أنس ، عن النبي - ﷺ - قال : إذا وضع العبد جنبه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أمن من شر الجن والانس ومن كل شيء ذكره السيوطي في « الجامع الكبير » ونسبه للبخاري والديلمي ، قال الهيثمي في « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان ، وبقيّة رجاله رجال الصحيح ( محقق الوابل الصيب ) . وفي « صحيح البخاري » عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - زكاة رمضان أن احتفظ بها ، فأتاني آت ، فجعل يحثو الطعام فأخذته ، فقال : دعني فأني لا أعود . فذكر الحديث ، وقال : فقال في الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أويت إلى فراشك ، فأقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، فانه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبي - ﷺ - بقوله ، فقال : « صدقك وهو كذوب »<sup>(١)</sup> وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : أختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعني النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها ، الحمد لله الذي يمسك التي قض عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ، الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »<sup>(٢)</sup> .

وفي « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبي الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - « أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً »<sup>(٣)</sup> . وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن علي قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : آية الكرسي وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض .. ﴾ الأعراف ( ٥٤ - ٥٦ ) ، وعشراً من الصافات ( ١ - ١٠ ) ، وثلاث آيات من الرحمن ﴿ يا معشر الجن والانس .. ﴾ ( الرحمن : ٣٣ - ٣٤ ) وخاتمة سورة الحشر : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن ﴿ ( الحشر : ٢١ - ٢٤ ) . وقال محمد بن أبان : بينا رجل يصلي في المسجد ، إذا هو بشيء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك مني بأس إنما جئتكم في الله تعالى ، أئت عروة فسله : ما الذي يتعوذه ؟ - يعني من إبليس الأباليس - قال : قل آمنت بالله العظيم وحده ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمت بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم ، حسبي الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

(١) صحيح البخاري - كتاب فضائل القرآن - باب فضل البقرة ٢٣٢/٦

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي - سند جابر ٣٢٧/٣ رقم ١٧٩١ وجمع الزوائد ١٠/١٢٠ وابن السني في عمل اليوم والليلة رقم ١٢ والحاكم في

المستدرک ٥٤٨/١

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجل إلى الجبانه بعد ساعة من الليل ، قال : فسمعتُ حِسًا - أو صوتًا - شديداً ، وجيء بسريـر حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت اليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لي بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله - عز وجل - من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيـكه ، قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص اليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحت ، قلت لأهلي : جهزوني ، فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دُلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرني ، فأخبرته بما رأيـت وما سمعت ، فقال : ما أدري ، غير أني أقول إذا أصبحت : آمـنتُ بالله العظيم ، وكفرتُ بالجَنبِ والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، والله سميع عليم . إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات . وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبي ﷺ : إن عفريتاً من الجن يـكيدك فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برُّ ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن<sup>(١)</sup> . وقد ثبت في « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان . قال سهيل بن أبي صالح : أرسلني أبي إلى بني حارثه ومعى غلام - أو صاحب لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذي معي على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبي ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، لكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصٌ » وفي رواية : « إذا سمع النداء وَلَّى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . » الحديث<sup>(٢)</sup> . وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله - ﷺ - « استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب ، وأهلكوني بقول : لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيـت ذلك منهم ، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »<sup>(٣)</sup> .

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذ مرُّ برجل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع فقال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرني على أي آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : ﴿ إِنْ رِئِيسُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

(١) عمل اليوم والليلة لابن السني رقم ٦٣٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩٧/١ رقم ١٨

(٣) مسند أبي يعلى الموصلي عن أنس بن مالك .

استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴿ ( الأعراف : ٥٤ ) وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى في دارى . . ف قيل : يا أبا النضر تحوّل عن جوارنا ، قال : فاشتد ذلك علىّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ، وأبى أسامة ، فكتب إلى المحاربى : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها فنزل بهم ركب ، فشكوا ذلك إليهم ، فدعوا بدلو من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام فصبوه في البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت ثوراً من ماء ، ثم تكلمت فيها بهذا الكلام ، ثم تبعت به زوايا الدار ، فرششته ، فصاحوا بى : أحرقتنا ، نحن نتحول عنك ، وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذى ليس منه شيء ممتنع ، وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الانس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذراً وبراً ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما أستعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذى وفى ، من شر ما خلق وذراً وبراً ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغي ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والصفات صفاء ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكراً ، إن الهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملا الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ ( الصفات : ١ - ١٠ ) . فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى . وأحب أن أختتم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله فى كل أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الامام أحمد قيمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبى ﷺ حمارة ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبى ﷺ : « لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعازم ، وقال : بقوق صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير فى ( البداية ١/٦٥ ) تفرد به أحمد وإسناده جيد<sup>(١)</sup> .

### خامسا - لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع فى أحابيل الشيطان أن يعيش فى ديار الاسلام ويختار لنفسه الفئة الصالحة التى تعينه على الحق وتحضه عليه ، وتناه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن فى الاتحاد والتجمع قوة وأى قوة ، يقول الرسول ﷺ : « من أراد منكم بحبوة الجنة فليزلم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث

صحيح وله طرق ،<sup>(١)</sup> والجماعة جماعة المسلمين ، وامام المسلمين ولا قيمة للجماعة في الاسلام ما لم تلتزم الحق : الكتاب والسنة ، ففي الحديث : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، الا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما أكل الذئب من الغنم القاصية » إسناده حسن . رواه أبو داود والنسائي وغيرهما<sup>(٢)</sup> وروى أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان أنه قام فقال ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون في النار ، وواحدة في الجنة وهي الجماعة » . رواه أبو داود بإسناد جيد<sup>(٣)</sup> .

### سادسا - كشف مخططات الشيطان ومصائده :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله في الإضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول - ﷺ - خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذي أغوى الشيطان به آدم . والرسول - ﷺ - كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقى بالكلمة التي سمع في أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين لهم ذلك كي لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم في صلاتهم وعبادتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

### سابعا - مخالفة الشيطان :

يأتى الشيطان في صورة ناصح حريص على الانسان ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك في النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس : ( إذا أتاك الشيطان وأنت تصلى فقال إنك ترائي فزدها طولا ) ( تلبس إبليس ٣٨ ) وهذا فقه منه رحمه الله وإذا علمنا أن امرأ ما يحبه الشيطان ويتصف به فعلياً أن نخالفه ، فمثلاً الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول - ﷺ - ( ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فان الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطى بشماله ، ويأخذ بشماله ) رواه ابن ماجه بإسناد صحيح<sup>(٤)</sup> ( صحيح الجامع ٨٧٥ ) .

(١) سنن الترمذى - كتاب الفتن - باب ماجاء في لزوم الجماعة ٤٦٥/٤ رقم ٢١٦٥

(٢) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب التشديد في ترك الجماعة ٣٧٧/١ رقم ٥٤٧ وسنن النسائي كتاب الصلاة - باب التشديد في ترك الجماعة ١٠٧/٢

(٣) سنن أبي داود - كتاب السنة - باب شرح السنة ٥/٥ رقم ٤٥٩٧

(٤) سنن ابن ماجه كتاب الأطعمة - باب الأكل باليمين ١٠٧/٢ رقم ٣٢٦٦



والشيطان يشاركنا في الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس . ورغبنا الرسول ﷺ - في القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقبل ( قيلوا فان الشياطين لا تقبل ) رواه أبو نعيم في الطب بإسناد حسن ( صحيح الجامع ١٤٧/٤ )

وحذرنا القرآن من الاسراف وقد عدّ المبذرين اخوان الشياطين ، وما ذلك الا لأن الشياطين تحب اضاءة المال وانفاقه في غير وجهه . ومن الاسراف الاكثار من الأثاث والفراش الذي لا لزوم له ، يقول - ﷺ - ( فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان ) رواه مسلم وأبو داود والنسائي (٢) بإسناد صحيح ( صحيح الجامع ١٧/٤ ) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول ﷺ - بأن غيظ الأذى عن اللقمة التي تسقط من أحدنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول - ﷺ - « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا اسقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه ، فإنه لا يدرى في أى طعامه البركة » رواه مسلم في صحيحه ( صحيح الجامع ٧٥/٢ ) .

### مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيول والحمير في القديم ، والسيارات وأمثالها في الحديث جعلت لمنفعة بني الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه ان يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففي الحديث « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشياطين ، فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنيبات معه قد اسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح (٣) .

ولعل بيوت الشياطين المعنية في الحديث هي هذه السيارات التي يمر أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونها ، وهذه الخيول والدواب التي يقامر عليها ويраهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين ، ويقول الرسول - ﷺ - « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للإنسان ، فأما فرس الرحمن . فالذي يربط في سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله في ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذي يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الإنسان فالفرس يرتبطها الإنسان يلتمس بطنها فهي ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح (٤) ( صحيح الجامع ١٣٧/٣ ) .

(١) صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة - باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس ١٦٥٧/٣ رقم ٤١ وسنن أبو داود - كتاب اللباس - باب في الفرش ٣٧٩/٤ رقم ٢١٤٢ وسنن النسائي - كتاب النكاح - باب الفرش ١٣٥/٦  
صحيح مسلم - كتاب الأشربة - باب استحباب لعق الأصابع ١٦٠٧/٣ رقم ١٣٥  
(٢) سنن أبي داود - كتاب الجهاد - باب في الجنائب ٦٠/٣ رقم ٢٥٦٨  
(٤) مسند أحمد ٦٧/٤

## العجلة من الشيطان :

من الصفات التي يحبها الشيطان العجلة لما توقع الانسان به من أخطاء ، يقول الرسول - ﷺ -  
 « التاني من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقي في شعب الايمان بإسناد حسن ( صحيح الجامع <sup>(١)</sup> )  
 ٥٧/٣ ) فعلينا أن نخالف الشيطان في ذلك ونتبع ما يرضى الرحمن ، ولذلك قال الرسول ﷺ لأحد  
 أصحابه « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

## التأؤب :

وما يحبه الشيطان من الإنسان التأؤب ولذا أمرنا الرسول - ﷺ : بكظمه ما استطعنا ، يقول  
 - ﷺ - : « التأؤب من الشيطان ، فإذا تآؤب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ،  
 ضحك منه الشيطان » متفق عليه ، ذلك لأن التأؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من  
 الإنسان كسله وفتوره ، إذ بذلك يقل عمله وبذلك الذي يرفعه عند ربه .

## ثامنا - التوبة والاستغفار :

وما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب  
 عباد الله الصالحين ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم  
 مبصرون ﴾ ( سورة الأعراف : ٢٠١ ) وقد فسر الطائف أو اهتم بالذنب أو اصابة الذنب ، وقوله :  
 ﴿ تذكروا ﴾ أى عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعدته ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من  
 قريب . ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ قد استقاموا وصحوا بما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل  
 الانسان فى عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاة وما يغشى به القلب من الشبهات  
 والشكوك . وأخبرنا الرسول - ﷺ - أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك  
 ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب : وعزى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » رواه أحمد فى  
 مسنده والحاكم فى مستدركه ( صحيح الجامع ٧٢/٢ ) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والاناة إلى الله ولهم فى ذلك أسوة فى أبيهم آدم ، فإنه  
 لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين : ﴿ ربنا ظلمنا  
 أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ( سورة الأعراف : ٢٣ ) أما أولياء الشيطان فقد  
 قال الله فيهم : ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ ( سورة الأعراف : ٢٠٢ ) والمراد

(١) البيهقي فى شعب الايمان وأبو يعلى الموصلى من حديث أنس ، والترمذى من حديث سهل رقم ٢٠١٢ كتاب البر والصلة .  
 صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب الأمر بأن الايمان بالله ورسوله وشرائع الدين ٤٧/١ رقم ٢٥  
 اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٨٥

بإخوانهم هنا : إخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ ( سورة الاسراء : ٢٧ ) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم في الغي : أى : بالترزين والتحسين للذنوب والمعاصي بلا كلل ولا ملل . كقوله : ﴿ ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ ( سورة مريم : ٨٣ ) .

**تاسعا - أزل اللبس والغموض الذى يدخل الشيطان منه إلى النفوس :**

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة في صدور المسلمين ، ولك أسوة في رسول الله - ﷺ - في هذا ، روى البخارى ومسلم في صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبي - ﷺ - قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب ، فقام معي ليقلبنى ( ليردني إلى منزلي ) وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد - فمر رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله - ﷺ - أسرعاً ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإن خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً أو قال شيئاً<sup>(١)</sup> قال الخطابي : « وفي هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى في هذا عن الشافعى - رضى الله عنه - أنه قال : « خاف النبي - ﷺ - أن يقع في قلوبها شيء من أمر فيكفرا ، وإنما قاله - ﷺ - شفقة منه عليهما لا على نفسه » ( تلييس إبليس : ٤٦ ) وما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين أخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ ( سورة الاسراء : ٥٣ ) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذى يحتمل وجوها عدة بعضها سىء ، وقد يرمى أحدهم أخاه بالفاظ يكرهها ويناديه باللقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداة محل الوفاق والألفة .

### علاج الصرع

إن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

### أسباب الصرع :

بين ابن تيمية ( المجموع ٣٩/١٩ ) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما

يتفق للإنس مع الإنس . . . ، وقد يكون - وهو الأكثر - عن بغض ومجازاة مثل أن يؤذيهـم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون اذاهم إما ببول على بعضهم ، وإما بصب ماء حار ، وإما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفي الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشر يمثل سفهاء الإنس .

### واجبنا تجاه هؤلاء :

إن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشرعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجن الذي يصرع الإنسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجن للإنس من الباب الأول ( عن شهوة وهوى ) فهو من الفواحش التي حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فانه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ، ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذي أرسله إلى جميع الثقليـن : الإنس والجن .

وما كان من الثاني ( إيذاء بعض الإنس لهم ) فإذا كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك في داره وملكه عرفوا بان الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا في ملك الإنس بغير إذنهـم ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخرب والفلوات .

ويقول ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٤٧/١٩ ) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ، لأن الله يقول : ﴿ وما كنا معذيين حتى نبعث رسولا ﴾ ( سورة الاسراء : ١٥ ) وقال : ﴿ يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ ؟ ( سورة الانعام : ١٣٠ ) .

### النهي عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبي - ﷺ - عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثا ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص التي تبين السبب الذي من أجله نهى عن قتل حيات البيوت فقال : ( وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم في كل حال ، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ( سورة المائدة : ٨ ) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جناً فتؤذن ثلاثا ، فإن ذهبت وإلا قتلت فإنها إن كانت حية قتلت ، وإن كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس في صورة حية تفرعهم بذلك ، والعادي هو الصائل الذي يجوز دفعه بما يدفع حذره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز » .

## سب الجن وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجنى بالأمر والنهى والبيان ، فإنه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول - ﷺ - مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه في وجه الرسول - ﷺ - فقال عليه السلام : « أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله - ثلاثا » .

وذكر أنه قد يحتاج في إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جداً ، والضرب إنما يقع على الجنى ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئاً من ذلك ، ولا يؤثر في بدنه ويكون قد ضرب بعضاً قوية على رجله نحو ثلاثمائة أو أربعمئة ضربة أو أكثر أو أقل ، بحيث لو كان على الإنس لقتله ، وإنما هو على الجنى ، والجنى يصيح ويصرخ ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة ، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها .

## الاستعانة على الجن بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجنى الذى يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن ، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسي ، « فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » كما صح الحديث بذلك وهو في صحيح البخارى (١) .

يقول ابن تيمية ( مجموع الفتاوى ٥٥/١٩ ) : « ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لا ينضب من كثرته وقوته ، فإن لها تأثيراً عظيماً في دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعن تعينه الشياطين ، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب ، وأرباب سماع المكاء والتصدية ، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التي يخلها الشيطان ، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني ، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجاهل من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين » .

## طرد الرسول - ﷺ - للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول - ﷺ - أكثر من مرة ، ففى مسند أبى داود الطيالسى ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدى ، عن أبيها أن جدّها الزارع انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فانطلق معه بابن له مجنون ، أو ابن أخت له - قال جدى : فلما قدمنا على رسول الله - ﷺ - قلت : ان معى ابناً أو ابن أخت لى - مجنون ، أتيتك به تدعو الله له ، قال : ( ائتنى به ) قال : فانطلقت به اليه وهو

في الركاب ، فأطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبي - ﷺ - فقال : « أدنه مني ، أجعل ظهره مما يلي » قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض ابطيه ويقول : « اخرج عدو الله ، اخرج عدو الله » فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله - ﷺ - بين يديه ، فدعا له بماء فمسح وجهه فدعا له . فلم يكن في الوفد أحد بعد دعوة رسول الله - ﷺ - يفضل عليه<sup>(١)</sup> وفي المسند أيضا عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله - ﷺ - ثلاثا ما رأها أحد قبلى ، ولا يراها أحد بعدى ، لقد خرجت معه في سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبي لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبي أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ في اليوم لا أدرى كم مرة ، قال : « ناوليني » فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرجل ، ثم فغر « فاه » ، فنفت فيه ثلاثا ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثم ناولها إياه ، فقال : « القينا في الرجعة في هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها في ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك » فقالت : والذي بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئا حتى الساعة فاجترر هذه الغنم ، قال « أنزل خذ منها واحدة ورد البقية »<sup>(٢)</sup> .

فقد أخرج الرسول - ﷺ - الجنى بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفى وحدها ، فإن لقوة الايمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير في هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

### الإمام أحمد يأمر الجنى بالخروج فيستجيب :

روى أن الإمام أحمد كان جالسا في مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن في بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلنى إليك لتدعو الله لها بالعافية : فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ، وقال : أذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجنى : قال لك أحمد : أيما أحب إليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟ فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية وجلس عند رأسها وقال كما قال له الامام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شيء . ثم خرج من الجارية فهدأت ورزقت أولادا . فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : أخرج والا ضربتك بهذه النعل . فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

### ما ينبغي أن يكون عليه المعالج :

وينبغي للمعالج أن يكون قوى الايمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوى إيمانه وتوكله قوى تأثيره ، وربما كان أقوى من الجنى فأخرجه . وربما كان الجنى أقوى فلا يخرج ،

(١) أبوداود الطيالسي ومسنند أحمد

(٢) مسند أحمد ١٧٠/٤

وربما كان المخرج للجنى ضعيفاً فتقصد الجن ايذائه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله . وقراءة القرآن خاصة آية الكرسي .

### الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية - رحمه الله تعالى - : ( مجموع الفتاوى ٢٤/٢٧٧ ) « وأما معالجة المصروع بالرقى والتعوذات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز في دين الاسلام أن يتكلم به الرجل ، داعياً الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فإنه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي - ﷺ - « أنه أذن في الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل »<sup>(١)</sup> .

وإن كان في ذلك كلمات مجرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أو كانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وإن كان الجنى قد ينصرف عن المصروع بها ، فإن ما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ، وذكر في موضوع آخر ( مجموع الفتاوى ١٩/٤٦ ) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجنى ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجنى الصارع للإنس أو حبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أو حبسوه ويكون ذلك تخيلاً وكذباً .

### استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجن الذى يصرع الانسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله ، وزوى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوى بالحرام ، وهذا خطأ كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء فى شيء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوى بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجنى ، لأن التداوى بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أما التداوى بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء فى تحريمه ، ولا يجوز التداوى به باتفاق .

## حقيقة الصراع

في ختام هذا الفصل أحب أن أثبت فصلاً هاماً من كلام ابن القيم صور فيه رحمه الله حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه ( الوابل الصيب / ٢٧ ) : « اختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلاً للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » ثم يقول ابن القيم ما نصه : « فهو أئى الشيطان » يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطهرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقترضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمهده بممد آخر يقاوم به هذا الجند الذى يريد هلاكه ، فأرسل اليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله - عز وجل - والمحموظ من حفظه الله - تعالى - وجعل له مقابل نفسه الأمانة نفساً مطمئناً ، إذا أمرته النفس الامارة بالسوء ، نهته النفس المطمئنة ، وإذا نهته الامارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انفجرت إحداها بالكلية قهراً لا تقوم وجه إبدأ .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الامارة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق ان سرت خلف هذا الدليل . فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التى قطعت عليه ، وأخذ فيها ، وبأبى إلا سلوكها ، لأن دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربتة إذا أراد أخذه ، يتمكن منه ، ولكن هو ممكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه ، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الامارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ، وربط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المراقبة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم ، وقد أرسل اليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدو ، وأطلقت فى دار الكرامة تنقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه .



فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيسر من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتتهت نفسك ، وقرت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الشغل للرباط ، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . فان ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله - عز وجل - ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ ( سورة الأحقاف : ٣٥ ) وقوله عز وجل : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ ( سورة النازعات : ٤٦ ) وقوله عز وجل : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال : إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ ( سورة المؤمنون : ١١٢ - ١١٤ ) وقوله تعالى : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم إلا يوماً ﴾ ( سورة طه : ١٠٢ - ١٠٤ ) وخطب النبى - ﷺ - أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : ( إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه ) رواه أحمد فى المسند ، والترمذى فى سننه وقال الترمذى حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> فليتأمل العاقل للناسخ لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أى شئ حصل له من هذا ، الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه فى غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئاً ، ولو طلب الله - تعالى - والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موقوراً وأكمل منه ، كما فى بعض الآثار : ابن آدم ، يع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانظمته انتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله - عز وجل - فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقى عبد أخرجه الله - عز وجل - من رحمته التى وسعت كل شئ ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله - تعالى - واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباقي ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً راثحاً إلى الله قد قضى نجه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممدد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

والمقصود أن الله - عز وجل - قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفتك نفسه إذا أسر . وقد روى الامام أحمد - رضى الله عنه - والترمذى من حديث الحارس الأشعرى عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن الله - سبحانه وتعالى - أمر يحيى

بن زكريا - ﷺ - بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطئ بها ، فقال له عيسى - عليه السلام - / أن الله - تعالى - أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيى الناس في بيت المقدس ، فامتألاً المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله - تبارك وتعالى - أمرني بخمس كلمات أن أعملهن ، وأمركم أن تعملوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر ( وأمركم أن تذكروا الله - تعالى - فإن مثل ذلك كمثله رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله - تعالى - ) قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح (١) وما أمرهم به في الحديث الصلاة : ( وأمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت ) الالتفات المنهى عنه في الصلاة قسمان : أحدهما : التفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غير الله - تعالى - والثاني : التفات البصر . وكلاهما منهى عنه . ولا يزال الله مقبلاً على عبده مادام العبد مقبلاً على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله - تعالى - عنه . وقد سئل رسول الله - ﷺ - عن التفات الرجل في صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . وفي أثره : يقول الله - تعالى - : « إلى خير منى ، إلى خير منى » ؟ ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصل لا يستوى والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتألاً قلبه من هيئته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله - عز وجل - ، والآخر ساه غافل . فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالاً ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالاً وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيبه للشيطان ، وأشدّه عليه ، فهو يحرص ويجهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويمنيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها ويتركها . فإن عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله - تعالى - حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ،

(١) مسند أحمد ١٣٠/٤ ومسند الترمذى - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٢٨٦٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكرها إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله - عز وجل - فيقوم بها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله ، - تعالى - وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه - عز وجل - الحاضر بقلبه في صلاته ، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطايا وذنوبه ، وأثقاله لم تحف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدي الله - تعالى - بقلبه وقلبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرّة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحة في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقودتهم ونبيهم : « يا بلال أرحنا بالصلاة » ولم يقل : أرحنا منها ، وقال - ﷺ - « جعلت قرّة عيني في الصلاة » فمن جعلت قرّة عينه في الصلاة ، كيف تقرر عينه - ﷺ - بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

وقد روى أن العبد إذا قام يصلى قال الله - عز وجل - : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخواها ، وقد فسر هذا الالتفات بالفتات القلب عن الله - عز وجل - إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرأة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله - تعالى - وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله - تعالى - وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن ألفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة .

### كيف يجعل المصلّي قلبه حاضراً في الصلاة ؟

وإنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه - عز وجل - إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوسواس والأفكار ؟ والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الايمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من لقاء الوسواس إليه ، لأنه قد اتخذ بيتاً ووطناً ، وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثاني : قلب قد استنار بنور الايمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال . وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبه عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالايمان قد استنار بنور الايمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلمت عنه تلك الظلمات ، فلنوره في صدره إشراق ، ولذلك الاشراق ايقاد لودنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسما التي جرت بالنجوم ، فلودنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء بأعظم جرمة من المؤمن ، وحراسة الله - تعالى - له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ، ومستقر

الوحي ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والايمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئا الا خطفه ، وقد مثل ذلك بمثال حسن . وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شيء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيها يسرق ؟ فإن قلت : من البيت الخالي ، كان محالا ، لأن البيت الخالي ليس فيه شيء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس - رضى الله عنه - ان اليهود تزعم أنها لا توسوس في صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وان قلت يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزك « يزك ويسك » ( بالتركية ) : بمعنى المنع والخطر والزجر « مالا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للصوص إلا البيت الثالث فهو الذى يشن عليه الغارات . فليتأمل اللبيب هذا المثل حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فإنها على منواله .

فقلب خلاصة الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذ سكناً ومستقراً ، فأى شيء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه .

وقلب قد امتلأ من جلال الله - عز وجل - وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأى شيطان يجترأ على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شيء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر في الأحايين منه بخطفه ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - أنه قال : فى بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تسعنى ، وأى شيء يسعنى والسموات حشو كرسى ؟ ولكن أنا فى قلب الوارع التارك لكل شيء سواى » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتنى سموات ولا أرضى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » وقلب فيه توحيد - الله تعالى - ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله - تعالى - وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازل ووقائع ، ويعطى الله النصر من يشاء « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ( سورة آل عمران / ١٢٦ ) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد

سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هي الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة ، وهي في القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملولم فنفسك لم ولا تلم المطايا ومئت كمدا فليس لك اعتذار

الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآلام ، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوى والأخروى ، ورافع الراية في كل وقت ومكان ، يدعو الناس إلى الكفران ، ومعصية الرحمن فهل في خلقه من حكمة ؟ وما هذه الحكمة ؟ أجاب عن هذا السؤال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه (شفاء العليل ص ٣٢٢) فقال : ( في خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله )

١ - ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية :  
فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته في الله ، وإغاضته وإغاية أوليائه ، والاستعادة به منه ، واللجوء إليه أن يعيدهم من شره وكيدته ، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه ... والموقوف على الشيء لا يحصل بدونه

٢ - خوف العباد من الذنوب :

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنوبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبلسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى ، وخضوع آخر ، وخوف آخر ، كما هو حال عبيد الملك إذا رآه قد أهان أحدهم الإهانة التي بلغت منه كل مبلغ ، وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

٣ - جعله الله عبرة لمن اعتبر :

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره ، وتكبر عن طاعته ، وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبى البشر عبرة لمن ارتكب نهي ، أو عصى أمره ، ثم تاب وندم ، ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوى الجن والإنس بالذنب ، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر وأقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربه فله كم في ضمن ذلك من الحكم الباهرة ، والآيات الظاهرة .

٤ - جعله فتنة واختباراً لعباده :

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ، ليتبين به خبيثهم من طيبهم ، فإنه سبحانه خلق النوع الإنساني من الأرض ، وفيها السهل والحزن ، والطيب والخبيث ، فلا بد أن يظهر ما كان في مادتهم ، كما في الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك <sup>(١)</sup> » ، فما كان في المادة الأصلية فهو كائن في

المخلوق منها ، فاقترضت الحكمة الإلهية إخراجها وظهوره ، فلا بد إذاً من سبب يظهر ذلك ، وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز ، قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليدر المؤمنين على ما أتمم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ( سورة آل عمران / ١٧٩ ) فأرسل رسله إلى المكلفين ، وفيهم الطيب والخبيث ، فإنضاف الطيب إلى الطيب ، والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم في دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم ، وجعل لهؤلاء داراً ولهؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة وقدرة باهرة .

٥ - إظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد :

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته في خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيتته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسواء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار ، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث .

٦ - الضد يظهر حسنه الضد :

ومن هذه الحكم أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده ، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى .

٧ - والابتلاء به سبيل إلى تحقيق الشكر :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه ، يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أوليائه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده ، وامتحانهم به من أنواع شكره مالم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو في الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ، ثم اجتباؤه ربه وتاب عليه وقبله .

٨ - في خلق إبليس قيام سوق العبودية :

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها - أحب العبودية إلى الله سبحانه ، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهد وبذل النفس لله ، وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان في خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التي لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

٩ - وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن في خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجود أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كظهور آية الطوفان ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وإلقاء الخليل في النار ، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته ، وبراهين قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، فلم يكن بُدَّ من وجود الأسباب التي يترتب عليها ذلك .

١٠ - الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد ، وفيها الإشراق والإضاءة والنور ،

فأخرج منها - سبحانه - هذا وهذا ، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، والأحمر والأسود والأبيض ، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، وآية داله على أنه ﴿ ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ﴾<sup>(١)</sup>

#### ١١ - ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكيم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامها ، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولا بد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

#### ١٢ - ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك ، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال ، فلا بد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

#### ١٣ - وجود إبليس من تمام حكمته تعالى :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم ، والحكمة من صفاته - سبحانه - وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذي لا يليق به سواه ، فافتضت خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

#### ١٤ - حمده تعالى على منعه وخفضه :

ومنها أن حمده - سبحانه - تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه ورفعته وانتقامه وإهانتة ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعته وإكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأوليائوه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتماحه ، فله في خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كما له عليه الحمد التام ، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

#### ١٥ - وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره .

ومنها أنه - سبحانه - يجب أن يظهر لعباده حلمه ، وصبره ، وآفاته ، وسعة رحمته ، وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ، ويضاده في حكمه ، ويجتهد في مخالفته ، ويسعى في مساخطه ، بل يشبهه الله - سبحانه وتعالى - وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ويعافيه ، ويمكن له من أسباب ما يلتزمه من أصناف النعم ، ويحبب دعاءه ، ويكشف عنه السوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفر وشركه وإساءته فلله كم في ذلك من حكمة وحمد .

ويتجنب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته ، كما في الصحيح عنه - ﷺ - أنه قال : لا أحد أصبر

على أذى يسمعه من الله ، يجعلون له الولد وهو يرزقهم<sup>(١)</sup> وفي الصحيح عنه - ﷺ - فيما يروى عن ربه : ( شتمنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، وكذبى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، أما كذبه إياى ، فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفواً أحد ، وأما تكذيبه إياى ، فقلوه : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس بأول الخلق باهون عليه من إعادته<sup>(٢)</sup> ) ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب له يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ، ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به فى جميع الأحوال ، ويؤهله لارسال رسله ، ويأمرهم أن يلينوا له القول ، ويرفقوا به ، قال الفضيل بن عياض : ( ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جل جلاله - من أعظم منى جوداً ، الخلاق لى عاصون ، وأنا أكلوهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسىء .

من ذا الذى دعانى فلم ألبه ؟ ومن ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أنا الجواد ، ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أنى أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه ما لم يسألنى ، ومن كرمى أنى أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى يهرب الخلق ، وأين عن بابى ينتحى العاصون ؟

وفى أثر إلهى : « إنى والأنس والجن فى نأ عظيم : اخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى »<sup>(٣)</sup> وفى أثر حسن : ابن آدم ما أنصفتنى : خيرى إليك نازل ، وشرك إلى صاعد ، كم أتعجب إليك بالنعمة ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح ) وفى الحديث الصحيح ( لو لم تذبذبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذببون فيستغفرون فيغفر لهم )<sup>(٤)</sup>

خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها :

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها ، فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ومحبة للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله ، بل يكون يحب أمانه وامهاله ، ومحبة لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته .

ومحبة للجوء والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان ، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجرى على أيديهم أنواع المعاصى والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذوالحكمة البالغة والنعمة

(١) سورة الشورى آية : ١١

(٢) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله ٢١٦٠/٤ رقم ٤٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الإخلاص

(٤) الذهلى فى مستند الفردوس ١٦٦/٣ رقم ٤٤٣٩ والترمذى فى نوادر الأصول

(٥) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب والاستغفار توبة ٢١٠٦/٤ رقم ١١



السابقة الذي وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، ولى فى كل شىء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات .

وبعد : فقد ترتب على خلق هذا اللعين حكم كثيرة وحصلت محبوبات لله وافرة :  
فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه ، والحكيم الباهر الحكمة - هو الذى يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقاً إلى حصول ذلك المحبوب . ووجود الملزوم بدون لازمة محال ، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ، ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ، ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته ، وأحب شىء للحيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك قد جعلت خدى أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى ومن أثر إلهى ( بغيتى ما يتحمل المتحملون من أجل ) فله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه ، وفى مرضاته ، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحدهم لعاقبته ، وماذا ينالون به من كرامة حبيهم وقربه قرّة عيونهم به ، ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب

قل للعيون العمى للشمس أعين سواك يراها فى مغيب ومطلع وسامح بؤساً لم يؤهل لحبهم فما يحسن التخصيص فى كل موضع فإن أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبيأؤه ورسله وأوليأؤه وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب ، وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحته التى عليها طعامه وشرابه إذا وجدها فى المفاوت المهلكات ، وإن أغضبه ما جرى على أنبيأؤه ورسله من هذا العدو اللعين فقد سرّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكتبته وغيطه وهذا الرضا أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب . وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلل له بين يديه وانكساره له . وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله - ﷺ - من حرمة وبلدته ذلك الخروج ، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله إليها ذلك الدخول .

وإن أسخطه قتلهم أوليائه وأحبابه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألدّ فى قربه وجواره .

وإن أسخطه معاصى عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيأؤه ورسله وأوليأؤه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التى حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصى وفوات هذه المحبوبات .

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله ؟ فهو عقد نظام الخلق والأمر ؟ والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة في كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده . . . فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيماً ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته ، وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شيء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها ، فإن ذلك يستلزم النقص الذي يناقض كماله وكبريائه وعظمته .

لأنه يحب سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه :

وفي هذا يقول ابن القيم : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطي ويمنح ، فمنها أن يعيد وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللاتذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكما الملك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندي في ممدوحه .  
يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحافره  
لا يجير الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره  
ولو قال ذلك في ربّه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به ممالكه وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعذ به من الشيطان الرجيم في غير موضع من كتابه ، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاده وأجاره من عدوه فلم يكن إعادته وإجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم به ، فيألفها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره في أعدائه وخصمائه

ومامنها إلالة فيه حكمه يقصر عن إدراكها كل باحث  
الحكمة في بقاء إبليس إلى آخر الدهر :

أجاب ابن القيم - رحمه الله - عن ذلك في (شقاء العليل ص ٣٢٧) ووضحه

امتحان العباد :

فما ذكره - رحمه الله تعالى - أنه سبحانه جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه ، ولذا اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلق له ولو أماته لقات ذلك الغرض ، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار في الأرض إلى آخر الدهر ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة في إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبي البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به ، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه ، وينحاز إليه من وافقه وولاه .

وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق :

ومنها أنه كلمه وحكمته أنه لا نصيب له في الآخرة وقد سبق له طاعة وعبادة جزاء بها في الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها ، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته في

الدنيا وفي الآخرة ، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل في الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شيء كما ثبت هذا المعنى في الصحيح عن النبي - ﷺ - .

أملى له ليزداد إثماً :

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامه في حقه ، فإنه لو مات كان خيراً له وأخف لعذابه وأقل لشراً ، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغي التسليم لحكمه والقدر في حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصددهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى في الدنيا وأملى له ليزداد هذا إثماً على إثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التي لا تصلح لغيره ، فيكون رأس أهل الشر في العقوبة كما كان رأسهم في الشر والكفر . ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ جوزى في النار مثل فعله ، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثم يسرى منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمه بالغة .

أبقاه ليتولى المجرمين :

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنه قال في مخاصمته لربه ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ ( سورة الإسراء / ٦٢ ) وعلم الله - سبحانه - أن في الذرية من لا يصلح لمساكنته في داره ، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له ، وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس في انتظارهم وكلما مرّ بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لى ما ملكتك منه فإن أتولى الصالحين ، وهم الذين يصلحون لى وأنت ولى المجرمين من الذين غنوا عن موالق وابتغاء مرضاتى ، قال تعالى : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾ ( سورة النحل / ٩٩ - ١٠٠ ) فأما إمامة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوائهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليحى الرسل بعدهم ، يرى رسولا بعد رسول ، فإمامتهم اصلح لهم وللأمة ، أمّا هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى في أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء في الدنيا واللاحق به ، وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم في حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم في حياتهم وإن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم ، والله هو الحى الذى لا يموت ، فكم في إمامتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة ، . هذا وهم بشر ولم يخلق الله البشر في الدنيا على خلقه قابلة للدوام بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض ، فالموت كمال لكل مؤمن ولولا الموت لما طاب العيش في الدنيا ولا هناء لأهلها بها ، فالحكمة في الموت كالحكمة في الحياة .

إلى أى مدى نجح الشيطان في إهلاك بنى آدم ؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله من رحمته وجنته وغضب عليه ولعنه ، أخذ على نفسه العهد أمام ربّ العزة بأن يضلنا ويغويننا ، ويعبدنا لنفسه ﴿ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم ... ﴾ ( سورة النساء / ١١٨ - ١١٩ ) .

﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ ( سورة  
الإسراء/٦٢ )

فإلى أى مدى حقق الشيطان مراده من بنى الإنسان ؟  
إن المشرح نظره في تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس وكيف كذبوا الرسل والكتب  
وكفروا بالله ربهم وأشركوا به مخلوقاته كما قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ ( سورة  
يوسف/١٠٣ ) ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولا كذبوه  
فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ ( سورة المؤمنون/٤٤ ) وفي الحاضر  
حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة ، يرفعون رايته وينادون بمبادئه ، ويعذبون أولياء الله ،  
ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار ،  
فلما يستفسر عن مقدار هذا البعث يقول له : تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، وفي رواية تسعمائة  
وتسعة وتسعون في النار وواحد في الجنة .

وبذلك يصدق ظنه في هذه الدرية التي لم تعتبر بما جرى لأبيها ، ولا بما جرى لأسلافها ، ويبقى هذا  
اللعين يقودها إلى هلاكها ، بل أحيانا تسابقه إلى الجحيم ، وما أقبح أن يصدق ظن العدو في عدوه ﴿ ولقد  
صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ ( سورة سبأ/٢٠ ) قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه  
ظن الشيطان فيطيع هذا العدو ويعصى ربه الرحمن ، ولقد بلغ الأمر حداً لا يوصف ولا يتصور ، فهذه  
طائفة في العراق وفي جهات أخرى تطلق على نفسها : عباد الشيطان ، وبعض الكتاب نراهم يحلفون  
( بحق الشيطان ) فما أعجب أمرهم .

لا تفكر بكثرة الهالكين :  
حريٌّ بالعقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين ، فالكثرة ليس لها اعتبار في ميزان الله ، إنما الاعتبار  
بالحق ولو قل عدد متبعية .

فكن من اتباع الحق الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، الذين عرفوا الشيطان واتباع  
الشيطان فحاربوهم بالبغض القلبي ، وبالكلمة من اللسان ، وبالكتابة باليد ، وبالعمل بالحق وبمحاربتهم  
بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن والتمسك بدينه .  
﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن  
زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ ( سورة البقرة/٢٠٨ - ٢٠٩ ) نسأل الله  
أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا في السلم دخولاً كلياً وصلى وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله  
وصحبه وسلم .

## التفسير

يقول تعالى أمراً رسوله - ﷺ - أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد ﴾ أى يهدي إلى السداد والنجاح ﴿ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾ وهذا المقام شبيه لقوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ جد ربنا ﴾ أى فعله وأمره وقدرته ، وقال الضحاك عن ابن عباس : جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا ، وقال قتاده : تعالى جلالة وعظمته وأمره وقال السدى : تعالى أمر ربنا ، وعن أبى الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج : تعالى ذكره ، وقال سعيد بن جريد : ( تعالى جد ربنا ) أى : تعالى ربنا ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن زيد الكوفى حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال : الجد أب ولو علمت الجن أن فى الإنس جداً ما قالوا تعالى جد ربنا فهذا إسناد جيد وقوله تعالى : ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ صاحبة والأولاد أى قالت الجن تنزه الرب - جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ صاحبة والولد ثم قالوا : ﴿ وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً ﴾ قال مجاهد وعكرمة وقاتاده والسدى : ﴿ سفيهاً ﴾ يعنون إبليس ﴿ شططاً ﴾ قال السدى عن أبى مالك : ﴿ شططاً ﴾ أى : جوراً وقال ابن زيد : أى ظلماً كبيراً ويحتمل أن يكون المراد لقولهم سفيهاً اسم جنس لكل من زعم أن الله صاحبة أو ولداً ولهذا قالوا : ﴿ وأنه كان يقول سفيهاً ﴾ أى قبل إسلامه ﴿ على الله شططاً ﴾ أى : باطلاً وزوراً ولهذا قالوا : ﴿ وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذباً ﴾ أى ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالون على الكذب على الله تعالى فى نسبة صاحبة والولد إليه فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك وقوله تعالى : ﴿ وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجن أن يصيبهم بشئ يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة واكثر تعوذاً بهم كما قال قتاده : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أى : إثماً وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أى : إزدادت الجن عليهم جرأة وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فىأتى الأرض فينزها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضرب أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى قال قتاده : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقهم الجن الأذى عند ذلك . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادى فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون وذلك قول الله - عز وجل - ﴿ وأنه كان رجال

من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴿١﴾ أى إثماً : وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : ﴿٢﴾ رهقاً أى خوفاً وقال العوفي عن ابن عباس : ﴿٣﴾ فزادوهم رهقاً أى إثماً وكذا قال قتاده : وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن المغراء الكندي ، حدثنا القاسم ابن مالك - يعنى المزني - عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كروم بن أبي السائب الأنصاري ، قال : خرجت مع أبي من المدينة في حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله - ﷺ - بمكة فأوانا المبيت إلى راعى غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حنلاً من الغنم فوثب الراعى فقال يا عامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يقول ياسرخان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمه وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿٤﴾ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴿٥﴾ ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبي العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان حنيا حتى يهرب الأنس ويخاف منه ثم رده عليه لما أستجار به ليضله ويهيئه ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿٦﴾ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴿٧﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً . قال الكلبي وابن جرير .

ويخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً - ﷺ - وأنزل على القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرصاً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلبس الأمر ويختلط ولا يدري من الصادق وهذا من لطف الله - تعالى - بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن : ﴿٨﴾ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرصاً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴿٩﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿١٠﴾ وأنا لا ندرى أشتر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴿١١﴾ أى : ما ندرى هذا الأمر الذى قد حدث في السماء لا ندرى أشتر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وهذا من أدبهم في العبادة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله - عز وجل - وقد ورد في الصحيح « والشر ليس إليك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان كما في حديث العباس بينما نحن جلوس مع رسول الله - ﷺ - إذ رمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون في هذا ؟ فقلنا كنا نقول يولد عظيم يموت فقال « ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء وذكر تمام الحديث (١) وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب في ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله - ﷺ - يقرأ بأصحابه في الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فآمن من آمن منهم وتمرد في طغيانه من بقى . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب في السماء والرمى بها هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لحراب العالم كما قال السدى لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون في الأرض بنى أودية لله ظاهر فكانت الشياطين قبل محمد - ﷺ -

قد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - وقد اتخذت المقاعد في السماء الدنيا يستمعون ما يحدث في السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - نبياً رسولاً رجوا ليلة من الليالي ففرغ لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار في السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعنفون أرقاءهم ويسبون مواشيهم فقال لهم عن يالى بن عمرو بن عمير .

ويحكم يامعشر أهل الطائف أمسكوا عن مالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة في أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن أبي كبشة يعنى محمداً - ﷺ - وإن نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم وفزعت الشياطين في تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذي كان من أمرهم فقال أثتوني من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيين فقدموا مكة فوجدوا نبي الله ﷺ قائماً يصلى في المسجد الحرام يقرأ القرآن فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلالهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله - ﷺ .

ويقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ أى : غير ذلك ﴿ كنا طرائق قديداً ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ كنا طرائق قديداً ﴾ أى : منا المؤمن ومنا الكافر وقال أحمد بن سليمان النجار في أماليه : حدثنا الحسن بن أسلم بن سهل تحمل ، حدثنا على بن الحذاء بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمي شيخ مسلم حدثنا أبو معاوية قال : سمعت الأعمش يقول تزوج إلينا جنى فقلت له ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال الأرز قال فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال نعم ، فقلت فما الرافضة فيكم ؟ قال شراً ، عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزني فقال هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال سمعت بعض الجن وأنا في منزل لي بالليل ينشد :

قلوب يراها الحب حتى تعلقت مذهبها في كل غرب وشارق  
تهيم بحب الله والله ربه معلقة بالله دون الخلائق<sup>(١)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ أى تعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ولو أمعنا في الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا : ﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمناً به ﴾ يفتخرون بذلك وهو فخر لهم وشرف رفيع وصفه حسنه وقولهم : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ قال ابن عباس وقتاده وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته ،

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢٢٤/٧

(٢) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٦٩/٨

أى : يحمل غير سيئاته كما قال تعالى : ﴿ فَلَإِيْخَافَ ظَلَمًا وَلَا هُمْضًا ﴾ ﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أى : منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل .  
﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أى : طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ أى وقود تسريهم .

### توجيهات إلهية للرسول - ﷺ -

وَالْوِاسْتَقْلَامُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَا سَقْبَتَهُمْ مَّاءٌ غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ  
وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا  
تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ  
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا  
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾  
إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَنْ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ  
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ  
نَاصِرًا وَأَقْلَعَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي  
أَمْدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ  
رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ مَرْصَدًا ﴿٢٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا  
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾



## معاني المفردات :

على الطريقة : على ملة الإسلام

غداً : كثيراً نافعاً

لنفتنهم : لنختبرهم فيه

يسلكه : يدخله

صعدا : يعلو العذب فيه وقيل شاقاً .

المساجد : أماكن السجود والمراد المواضع المعدة للعبادة والصلاة

لبدا : جمع لبدة مأخوذ من تلبد القوم إذا تجمعوا وعليه قولهم لبدة الأسد للشعر المتراكم حول عنقه .

يجبرون : ينفعن وي دفع عني

ملتجداً : أى ملتجأ التجيء إليه أو حرزاً ومعداً .

أمدا : زمناً بعيداً

يسلك : المراد يقيم ويبيت

رصداً : حراساً وحفظه

أضواء كاشفة :

قل أوحي إلى أنه استمع نفر من الجن وأوحى إلى أن الحال والشأن لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام التي هي الطريقة المحكمة التي فيها خير الدنيا والآخرة أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء كثيراً ومباركاً فيه ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾<sup>(٢)</sup>

لو استقام الخلق لأنتهم الدنيا وكثرت أرزاقهم ثم أنت مرحلة أخرى هي مرحلة الاختبار والابتلاء ليظهر أهم من الشاكرين أم من الذين يكفرون بالنعم ؟ وهذا معنى قوله تعالى : لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه ولا يقبل على عبادته فإنه يدخله عذاباً يعلموه فيكون هو فيه ، عذاب والعياذ بالله شديد وبئس هذا المصير .

وأوحى إلى أن المساجد لله وحده لا تعبدوا فيها أحداً من خلقه وانظر إلى نظرية القرآن في الخلق وإلى علاجه المحكم لأمراض قد تظهر فيما بعد انظر إلى قوله إن المساجد لله فقط ليست لمخلوق مهما كان وإياكم ثم إياكم أن تعبدوا فيها أحداً غير الله .. ياسبحان الله !

وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله ورسوله - محمد - ﷺ - يدعو الناس إلى الخير وإلى الهدى والنور ،

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

لما قام يدعوه كادوا أى الإنسان والجن يكونون عليه متراكمين متكثلين ليطفثوا نور الله فأبى الله إلا أن ينصره ويظهر دينه ولوكره المشركون وقد كان ذلك كذلك .

قل لهم : يا محمد : مالكم ؟ وماذا فعلت ؟ إنما أدعوربى وأعبده وحده ولا أشرك به شيئاً فليس هذا بامر يضركم أو يدعوا إلى ما تفعلون :  
 قل لهم : ما لكم تقفون منى هذا الموقف ؟ إني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً والذي يملك ذلك هو الله فلم أكن مقصراً فى حقكم فى شىء .

قل لهم : وماذا أعمل لولم أدعكم إلى الخير فعاقبنى الله بالسوء إني لن يجيرنى من الله أحد ولن يدفع عني العذاب أحد ولن أجد من دونه ملجأً فأننا مكلف ومأمور بهذا العمل من الله ولو تأخرت لعاقبنى فما لكم تفعلون معى هذا ؟

قل لهم : إني لا أملك لكم شيئاً إلا أن أبلغ بلاغاً جاءنى من الله لكم ، هذا البلاغ هو القرآن الذى يهذى إلى التى هى أقوم إلا بلاغاً من الله ورسالاته التى هى أوامره ونواهيه الدينية فمن سمع البلاغ ووعاه وامتل جميع الأوامر والنواهى وتقبل الرسالات الإلهية وتدبرها كانت له الجنة خالداً فيها أبداً .  
 ومن يعص الله ورسوله فى رسالاته وبلاغه فيعرض عن سماعها وتدبرها والعمل بها فإن له نار جهنم خالداً فيها جزاءً وفاقاً لتكذيبه وإعراضه وسوء صنيعه .

لا يزال المشركون سادرين فى ضلالهم مغرورين بأنفسهم وبقوتهم يستهزئون بك وبوعيدك وبمن معك حتى يروا العذاب فإذا رأوه فسيعلمون من هو أضعف ناصراً ومن هو أقل عدداً ، وسيعلمون :  
 أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً فاحذروا يا آل مكة هكذا .

وكان المشركون حينما يسمعون هذا التهديد بالعذاب يوم القيامة ينكرونه ويستهزئون به فأمر النبى - ﷺ - أن يقول لهم : قل لهم : ما أدرى وقت هذا العذاب أما نفس العذاب فواقع لا محالة غير أنى لست أدرى إقريب هو أم بعيد ؟ قد جعل له ربى زمناً طويلاً .

هو عالم الغيب وحده لا يطلع على غيبه أحداً إلا من إرتضاه من رسول فإنه يطلعه على بعض غيوبه مما يحتاج إليه فى رسالته ويكون من الخير الاضطلاع عليه أما غير ذلك فلا يرقى إلى غيبه مخلوق من إنس أو جن أو ملك وكيف يكون ذلك ؟ « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو »

والخلاصة : أن الله عنده علم الغيب ولا يطلع عليه أحداً من خلقه إنسياً كان أو جنياً حكيماً أو كاهناً أو غيرهما إلا من ارتضى من رسله الذين هم أصحاب الشرائع السماوية فإن الله أطلعهم على بعض غيوبه فكانت التوراة والزبور والأنجيل والقرآن وما فيهم . ذلك هو الغيب الذى أطلع الله عليه بعض خلقه بواسطة الوحى به على لسان الأمين جبريل ؑ وما هو على الغيب بضنين ؑ فالمراد بالغيب القرآن أى ما هو يمتهم عليه حتى يتصور أنه غير أو بدل .

ويريد الله أن يعلمنا أن هذا الغيب وصل إلى الرسول عن طريق محكم جداً وبلغته الرسل بأمانة

ودقة وحكمة لم يكن معه نسيان أو إهمال أو خطأ في شيء ألا ترى إلى قوله ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ .

فإنه يسلك من بين يدي الرسول ومن خلفه حرساً شداداً يحفظون من الوسائس والاختلاط والذهول والنسيان حتى لا يترك بعض ما أوحى إليه أو يقعد في تبليغه ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ وهذا ما يسمى في عرف علماء التوحيد بالأمانة والعصمة ٢٣ - ٢٧

كل ذلك ليعلم ربك علم ظهور وانكشاف - أي يتحقق هذا في الخارج ويشاهد الجميع - أن قد أبلغوا أن الرسل رسالات ربهم أولي علم أن قد أبلغ جبريل زعيم الملائكة رسالات ربهم والحال أن الحق تبارك وتعالى أحاط بما لديهم كله إحاطة العليم الخبير الناقد البصير وأحصى كل شيء من هذا الكون حالة كونه معدوداً مميزاً عن غيره فهل يعقل أن يتطرق إلى الرسل شك في زيادة أو نقص ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (١)؟

وانظر إلى ختام السورة بإبراز أن الغيب الإلهي محاط بسور لا يقربه إلا المرتضى المختار من الرسل الكرام أما الجن والكهان ومن يدعى علم الغيب أولئك كذبه فجره لا يعرفون أنفسهم .

### التفسير

قوله تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ﴾ اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين « أحدهما » وأن لو استقام الفاسقون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي كثيراً والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (٣) وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي : لنختبرهم كما قال مالك عن زيد بن أسلم لنفتنهم لنبتليهم لنعلم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية .

قال العوفي عن ابن عباس : « وأن لو استقاموا على الطريقة » يعني بالاستقامة الطاعة وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة قال الإسلام وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدي ومحمد بن كعب القرظي : وقال قتاده : - ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ يقول لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

(١) سورة الحجر الآية : ٩

(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ٩٦

وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة » أى : طريقة الحق وكذا قال الضحاك وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : « لفتتهم فيه » أى : لنبليهم به .

وقال مقاتل : نزلت فى كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين ،

والقول الثانى : « وأن لو استقاموا على الطريقة » الضلالة « لأسقيناهم ماء غدقا » أى : لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا كما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ (١) وكقوله : ﴿ يحسبون أننا نمدهم به من مال وبين نساوع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ (٢) ؟ وهذا قول أبى عجلز لاحق بن حميد فإنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ أى : طريقة الضلالة رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وحكاها البغوى عن الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم والكلبى وابن كيسان وله اتجاه ويتأيد بقوله لفتتهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى : عذابا مشقا شديدا موجعا مؤلما . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد : « عذابا صعدا » أى : مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل فى جهنم وعن سعيد بن جبير بثر فيها (٣) .

﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده (٤) . وقال ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين حدثنا إسماعيل بن بنت السدى أخبرنا رجل سماه عن السدى عن ابن مالك أو أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس (٥) وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله أئذن لنا فنشهد معك الصلوات فى مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ يقول صلوا لا تخالطوا الناس (٦) وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران حدثنا سفيان عن اسماعيل بن أبى خالد عن محمود عن سعيد بن جبير ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : قالت الجن للنبي - ﷺ - كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناءون ؟ أى بعيدون عنك وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ (٧) .

وقال سفيان عن خضيف عن عكرمة نزلت فى المساجد كلها (٨) ، وقال سعيد بن جبير نزلت فى

(١) سورة الأنعام الآية : ٤٤

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٤) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٥) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٦) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٧) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٨) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

أعضاء السجود أى هى لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبد الله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة - أشار بيده إلى أنفه - واليدين والركبتين وأطراف القدمين »<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال العوفي : عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبي - ﷺ - يتلو القرآن كادوا يركبون من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروي عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه -<sup>(٢)</sup> ، وقال ابن جرير حدثني محمد بن معمر حدثنا ابن هشام عن أبي عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا ﴾ قال لما رآه يصلى وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال عجبوا من طواعيه أصحابه له قال : فقالوا لقومهم : ﴿ لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا قول ثان وهو مروي عن سعيد بن جبير أيضا ، وقال الحسن لما قام رسول الله - ﷺ - يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس إلى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا<sup>(٤)</sup> ، وقال قتادة في قوله : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ قال تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفثوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه<sup>(٥)</sup> .

وهذا قول ثالث وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا ﴾ أى : قال لهم الرسول لما أذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أى إنما أعبد ربي وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ ولا أشرك به أحدا ﴾<sup>(٦)</sup> ، وقوله تعالى : ﴿ قل إني لا ملك لكم ضراً ولا رشدا ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وعبد من عباد الله ليس إلىّ من الأمر شيئاً في هدايتكم ولا غوايتكم بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل ، ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يغيره من الله أحد أى لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدي : لا ملجأ وقال قتادة أيضاً ﴿ قل إني لن يغيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا ﴾ أى لا نصير ولا ملجأ وفي رواية لا ولي ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً .. إلا بلاغا ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ لن يغيرني من الله أحد ﴾ أى : لا يغيرني منه ومخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علىّ كما قال تعالى : ﴿ يا أيها

(١) صحيح البخارى - كتاب الصلاة - باب السجود على سبعة أعظم ١٩٥/١ - ومسلم - كتاب الصلاة - باب أعضاء السجود ٣٥٤/١ رقم

(٢) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٤/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٥/٢٩

(٥) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٦) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٢/٨

الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴿١﴾ . . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ أى : أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها أبدا أى لا يحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا رآوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ ؟ أى : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس مايوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؟ أى : بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددا من جنود الله - عز وجل - قوله تعالى : ﴿ قل إن أدري أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربي أمدا ﴾ يقول تعالى : أمرا رسوله - ﷺ - أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقرب وقتها أم بعيد ، وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه - عليه الصلاة والسلام - لا يؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره فى شيء من الكتب وقد كان - ﷺ - يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل فى صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمد فأخبرني عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الأعرابي بصوت جهورى فقال : يا محمد متى الساعة ؟ قال : « ويحك إنها كائنة فيما أعددت لها ؟ » قال أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ولكن أحب الله ورسوله قال : « فانت مع من أحببت » قال أنس فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن مضاء حدثنا محمد بن جبير حدثني أبو بكر بن أبي مريم عن عطاء بن أبي رباح عن أبي سعيد الخدري عن النبي - ﷺ - قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموت ، والذي نفسى بيده إنما توعدون لآت » وقد قال أبوداود فى آخر كتاب الملاحم : حدثنا موسى بن سهل حدثنا حجاج بن إبراهيم حدثنا وهب حدثني معاوية بن صالح عن عبدالرحمن بن جبير عن أبيه عن أبي ثعلبة الخشني قال : قال رسول الله - ﷺ - : ( لن تعجز الله هذه الأمة من نصف يوم ) انفرد به أبو داود ثم قال أبو داود حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبوالمغيرة حدثني صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبي وقاص عن النبي - ﷺ - أنه قال : « إنى لأرجو أن لاتعجز أمتي عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وكم نصف يوم ؟ قال « خمسمائة عام » انفرد به أبوداود (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ (٤) وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحدا من خلقه على شيء من علمه إلا بما أطلع تعالى عليه ولهذا قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ أى : يخصه بمزيد معقبات من

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧

(٢) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٢/٨

(٣) سنن أبي داود - كتاب الملاحم ٥١٧/٤ رقم ٤٣٥٠

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥

الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساقونهم على مامعه من وحى الله ولهذا قال : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ وقد اختلف المفسرون في الضمير الذى فى قوله ( ليعلم ) إلى من يعود ؟ فقيل إنه عائد إلى النبى - ﷺ - قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبیر فى قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ قال أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ( ليعلم ) محمد - ﷺ - ﴿ أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ <sup>(١)</sup> ورواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى به . وهكذا رواه الضحاك والسدى ويزيد بن أبى حبيب <sup>(٢)</sup> .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتاده : ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ قال ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله ، وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير ، وقيل غير ذل كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ قال هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى - ﷺ - من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم <sup>(٣)</sup> . وكذا قال ابن أبى نجیح عن مجاهد : ( ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ) قال ليعلم من كذب الرسل ان قد أبلغوا رسالات ربهم وفى هذا نظر .

وقال البغوى : قرأ يعقوب ( ليعلم ) بالضم أى ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا إلى الله - عز وجل - وهو قول حكاه ابن الجوزى فى زاد المسير ، ويكون المعنى فى ذلك انه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من اداء رسالاته ويحفظ ما ينزله إليهم من الوحي ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لاجالة ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ .

(١) تفسير الطبرى ٧٧/٢٩

(٢) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٤/٨

(٣) تفسير الطبرى ٧٧/٢٩

## سورة المزمل

قال صاحب البصائر :

« السورة مكية سوى آية واحدة من آخرها وآياتها ثمان عشرة في عَدِّ الكوفة وتسعة عشر في البصرة وعشرون في الباقيين ، وكلماتها مائتان وخمس وثمانون وحروفها ثمانمائة وست وثلاثون . والمختلف فيها ثلاث آيات : المزمل ، شيئا ، ( إليكم رسولا ) . فواصل آياتها على الألف ، إلا الآية الأولى فإنه باللام والأخيرة ، فإنها ( بالراء ) . مجموعها ( رال ) ، سميت سورة المزمل لافتتاحها .

معظم مقصود السورة : خطاب الانبساط مع سيد المرسلين والأمر بقيام الليل وبيان حجة التوحيد والأمر بالصبر على جفاء الكفار وتهديد الكافر بعذاب النار وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى والتخويف بتحويل القيامة والتسهيل والمساعدة في قيام الليل والحث على الصدقة والإحسان والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان في قوله : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ست آيات : ثلاث من أول السورة : ( إن ربك يعلم ) ، ( واهجرهم هجرا ) ، وقوله : ( وذري والمكذبين ) وقوله : ( إن هذه تذكرة ) ن آية السيف .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فاقربوا مائيسر من القرآن ﴾ ، وبعده : ﴿ مائيسر منه ﴾ ، لأن الأول في الفرض ، وقيل : في النافلة ، وقيل : خارج الصلاة ، ثم ذكر سبب التخفيف ، فقال : ﴿ سيكون منكم مرضى ﴾ ثم أعاد فقال : ﴿ مائيسر منه ﴾ والأكثرون على أنه في صلاة المغرب والعشاء .

فضل السورة :

حديث أبي المعلوم ضعفه : من قرأها ( دفع عنه العسر في الدنيا والآخرة وحديث على : يا على من قرأها ) أعطاه الله ثواب العلماء وله بكل آية قرأها سترٌ من النار .



« إرشادات إلهية لزعيم الدعوة الإسلامية »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا الْمُزْمَلُ ﴿١﴾ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفُهُ وَأَوْنَقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾  
 أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتَبِلَا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾  
 إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا  
 طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ  
 وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ  
 وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمِهْلُهُمْ  
 قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا  
 أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا  
 مَهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَهِدَ عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا  
 إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾  
 فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ  
 مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ  
 إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

## معاني المفردات :

المزمل : المتلفف بشيابه يقال : تزمّل وتذر ثم قلبت التاء زايًا في المزمل-، ودالا في المذرر .  
ورتل القرآن : المراد أقرأه بثبوت وتؤدة .

ثقيلا : شاقا

ناشئة : ما يحدث فيه ويتجدد مأخوذ من نشأ اذا حدث وتجدد .

أشد وطئا : أصعب وقعا .

وأقوم : أعدل

سبحا طويلا : عملا كثيرا سريعا ، وأصل السبح العوم على وجه الماء أو سرعة الجرى ، ثم استعمل في العمل السريع الكثير .

وتبتل : انقطع إليه إنقطاعا .

وذرنى : أتركنى

النعمة : التمتع والترفة

أنكالا : جمل نكال وهو القيد الثقيل

ذا غصة : ما أعده الله في تلك الدار من طعام منكر فظيع

ترجف الأرض : تضطرب وتزلزل

كثيبا : تلاً من رمل متناثر جمعته الريح بعد تفرق .

مهيلا : هو ما إذا حرك أسفله سال من أعلاه وتتابع .

وبيلًا : ثقيلا شديدا

منفطر : متصدع ومتشقق

تذكرة : عبرة وعظة .

أعد الله نبيه الكريم لتحمل أكبر رسالة في الوجود ، الرسالة العامة الى جميع الخلق الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكنه بشر بينه وبين الملك تنافر في الطبيعة المادية ، لذلك اضطرب ، وخاف عند أول لقاء ، وذهب الى خديجة كأنه محموم ، وقال زملوني زملوني !! وما علم أن هذا الذى لقيه في الغار هو جبريل الذى نزل على موسى وعيسى ، وكانت هذه الرسالة الى قوم وثنيين مشركين متعصبين مقلدين ، وكان النبی يعرف عنهم ذلك فكان كأنه يخشاهم ، ويشعر بخطورة هذه الدعوة في هذا المجتمع ! فناداه الله بهذا النداء وبقوله في السورة الثانية : يا أيها المذرر من باب الملاطفة والملاينة وتأنيسا له على عادة العرب في اشتقاق اسم من صفة المخاطب التى هو عليها ، وكانت هاتان السورتان - المزمل والمذرر - من أوائل القرآن نزولاً ، ويروى أن الوحي لما نزل على النبي للمرة الثانية وحده متزملا في قطيفة فقال له : يا أيها المزمل قم الليل ، وجاء مرة أخرى وكان متذررا فقال : يا أيها المذرر قم فأنذر .

## أضواء كاشفة :

ياأيها المزمل - المتلف بكساء وقد اضطجع في ركن داره - قم الليل إلا قليلا منه ، وهو نصفه ( هذا إشارة الى أن نصفه بدل من قليلا ، ووصفه بالقلة للإشارة الى أن النصف الذي أحياه بمنزلة الكل ) أو انقص منه قليلا بحيث يزيد على الثلث أو زد عليه قليلا قليلا بحيث لا يزيد على الثلثين ، فالنبي - عليه السلام - أمر بان يقوم من الليل ساعات تتراوح بين الثلث والثلثين ، وهو التهجد ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ .

ياأيها المزمل دع مآنت فيه وانشط لقيام الليل والصلاة فيه ، ولقراءة القرآن وترتيله وتدبر معناه ، هذا خطاب للنبي ويدخل معه في ذلك أمته وخاصة أصحاب الدعوات والمبادئ والافكار ، والشارع الأعظم يقصد بهذه الارشادات والتوجيهات التربية الاسلامية الكاملة ، تربية الجسم وتعويده على تحمل المشاق والمكاره ، وتربية النفس بسموها وبعدها عن شوائب المادة وقوتها بحيث تحكم على الجسم ونوازع الشر فيه ، إذ لا شك أن قيام الليل شاق على النفس لكنه يؤديها ويهديها ، ويعودها الصبر ، وهو كذلك مما يقوى الأجسام ويساعدها على العمل والثبات في معترك الحياة .

والنبي - عليه الصلاة والسلام - تنتظره في دعوته مشاق ومشاق ومتاعب وتكاليف ودرعه الواقى في ذلك هو تعويد جسمه تحمل المشاق ، وتقوية روحه بالعمل الصالح وتلاوة القرآن .

ياليت قومي يعلمون ذلك فيعملون على تحقيقه ، ويفرحون لإرادة الله ذلك لهم .

ياأيها المزمل قم الليل إلا نصفه أو قلل منه قليلا أو زد عليه قليلا ، ورتل القرآن في تهجدك ترتيلا ، واقراه بثبوت وتدبر ، وتؤدة وتأن فإن القرآن جلاء للقلوب ، وحياة النفوس . ولقد امثل النبي أمر ربه ، وتأدب بأدب القرآن ، وسهر الليل وجاهد النفس واقتدى به أصحابه حتى شجبت ألوانهم وضعفت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم حتى كأنهم تخطوا الحدود المرسومة فأنزل الله ﴿ طه : ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ .

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال مامعناه : يا محمد إنك تحمل أكبر رسالة ، وتدعو الناس الى أضخم دعوة ، دعوة الحق والحرية والكرامة ، وسيكون لك أعداء وسيكون لمن يدعو بعدك بدعوتك أعداء ، لهذا أمرناك بأعداد نفسك وجسمك الى تحمل هذه الرسالة ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقعه شديدا وطؤه على الكفار والمشركين ، ولاينفع في هذا الا تقوية الجسم والروح ، وتدبر القرآن الكريم وتفهم معناه .

وكان سائلا سأل شاكا في أن قيام الليل وتدبر القرآن مما يساعد على تحمل مشاق الدعوة فقال : أن ما يحدث في الليل من قيام وصلاة وقراءة قرآن وتدبر له هو أشد وطئا ، وأصعب على النفس الانسانية ، وهذا بلا شك مما يساعدها على تحمل المشاق ويقويها فتصبر على المكروه ، ولاشك أن الليل حيث السكون والصفاء مما يساعد على تدبر القرآن وتفهم معناه .

إن لك في النهار عملاً كثيراً متواصلاً سريعاً فلم يبق إلا الليل ، فاعتنم جزءاً منه يكن لك خير كثير ، وفضل كبير .

وأذكر اسم ربك وتوكل عليه وحده ، وانقطع عما سواه ، فلن ينفعك غيره ، وهكذا المؤمن الكامل لا يتوكل إلا عليه ، ولا يعتمد على سواه ، ولا ينقطع عنه ، كل ذلك لأنه رب المشرق والمغرب وما بينهما ، لا إله غيره ، وكيف يكون غير ذلك ! وكل مافي الكون شرقه وغربه ، شاهد عدل على وحدانية الله ، وأنه لا إله غيره ، ولا معبود سواه ، إذا كان الأمر كذلك فاتخذة وكيلاً ، واعتمد عليه وحده في دعوتك الخلق إلى الاسلام .

وسيصادفك - وكل من يدعو بدعوتك إلى يوم الدين - ماتكره من أذى الناس ، العلاج في ذلك هو الصبر إنه سلاح المؤمن وعدة المسلم ، والهجر الجميل ، وانظر إلى علاج القرآن حيث جعل دعامة الصبر والسلوان والهجر الجميل .

أما المكذبون المغرورون أولو النعمة والترف فالله يقول فيهم ذري والمكذبين أولى النعمة والترف وأمهلهم قليلاً ، فإن للكون سنة لا تختلف ، إن عاقبة هؤلاء المكذبين المغرورين سيئة ، والله يمهّل قليلاً ولا يمهّل ، هذا في الدنيا أما في الآخرة فالله يقول : ان لدينا أنكالا وقيوداً أثقالا ، وجحيماً أعدت لهم ، وطعاماً ذا غصة ، هو طعام الزقوم ، الطعام البشع الكريه التي تغص منه النفوس ، وبعد هذا كله فهناك عذاب أليم لهم للغاية .

أذكر يوم ترجف الأرض وتضطرب ، وتزلزل الجبال وتحرك ، وكانت صلدة ثابتة جامدة لا يقوى عليها شيء ، ولكنها في هذا اليوم تكون تلاً من الرمل كثيباً مهيباً ، وليس هذا الاضطراب في الأرض فقط بل فيها وفي السماء ﴿إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت﴾ (١) . ﴿إذا السماء انشقت﴾ (٢) .

ولقد أخذ القرآن يهددهم بما حل بغيرهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فقال : إنا أرسلنا إلى فرعون رسولا هو موسى ، فعصى فرعون وقومه رسولهم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وأخذهم ربك أخذ عزيز مقتدر ، أخذنا شاقا . . على نفوسهم حيث أغرقهم ونجى موسى ومن معه .

إذا كان الأمر كذلك فكيف تتقون - إن دمت على كفركم - يوما شديد الهول ، عظيم الخطر ، يوما يجعل الولدان من شدة أهواله شيباً والسماء في هذا اليوم تنفطر وتتشقق ، بعد أن كانت آية في الأحكام والدقة ﴿ماترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ (٣) كل ذلك كان وعده مفعولا .

إن هذه الإرشادات والتوجيهات التي سيق في تلك الآيات تذكرة وعبرة وعظة ، وهل هناك تذكرة أقوى من هذا ؟ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا هو الإيمان والتمسك بالقرآن ، وتعود الصبر على المكارة والسلوان .

(١) سورة التكوين الآيات : ١ ، ٢

(٢) سورة الانشقاق الآية : ١

(٣) سورة الملك الآية : ٣

## التفسير

يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يترك التزمّل وهو التغطى فى الليل وينهض الى القيام لربه - عز وجل - كما قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم يفتقون ﴾ (١) وكذلك كان - ﷺ - ممثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجباً عليه وحده كما قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتعجد به نافلة لك عسى أن يعثبك ربك مقاماً محموداً ﴾ (٢) وههنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك والسدى : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ يعنى يا أيها النائم .

وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النخعى : نزلت وهو متمزمل بقطيفة ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : يا محمد زملت القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لاجرج عليك فى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ - صلوات الله وسلامه عليه - : قالت عائشة - رضى الله عنها - كان يقرأ السورة فيرتها حتى تكون أطول من أطول منها .

وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقال كانت مداً ثم قرأ ( بسم الله الرحمن الرحيم ) بمد بسم الله ومد الرحمن ومد الرحيم (٣) ، وقال ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها سئلت عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقالت : كان يقطع قراءته آية آية ( بسم الله الرحمن الرحيم - الحمد لله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين ) رواه أحمد وأبو داود والترمذى (٤) .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال : « يقال لقارئ القرآن أقرأ وارتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبو داود والترمذى من حديث سفيان الثورى به وقال الترمذى : حسن صحيح (٥) .

(١) سورة السجدة الآية : ١٦

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن باب مد القراءة ٢٤١/٦

(٤) مسند الإمام أحمد ٣٠٢/٦ وسنن أبى داود - كتاب الحروف ٢٩٤/٤ رقم ٤٠٠١ وتحفة الأحوذى أبواب فضائل القرآن - باب ماجاء كيف

كانت قراءة النبى ٢٤٠/٨ رقم ٣٠٩١

(٥) مسند أحمد ١٩٢/٢ وسنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل ١٥٣/٢ رقم ١٤٦٤ وتحفة الأحوذى - أبواب فضائل القرآن

وجاء في الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم »<sup>(١)</sup> - وليس منا من لم يتغن بالقرآن<sup>(٢)</sup> ، ولقد أوق هذا زمزماً من زمائر آل داود<sup>(٣)</sup> ، يعني أبا موسى فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتي لحبرت لك تحبيراً ، وعن ابن مسعود أنه قال : « لا تشروه نثر الرمل ولا تهذوه هذ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولا يكن هم أحدكم آخر السورة » رواه البغوي ، وقال البخاري : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت أبا وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة في ركعة ، فقال هذا كهذا الشعر لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله - ﷺ - يقرن بينهما فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين في كل ركعة<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قال الحسن وقتادة : أي العمل به ، وقيل : ثقیل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت - رضي الله عنه - أنزل على رسول الله - ﷺ - وفخذه على فخذي فكدت ترض فخذي .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبدالله بن عمرو قال : سألت النبي - ﷺ - وآله وسلم - فقلت : يا رسول الله هل تحس بالوحي ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « أسمع صلاصلا ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسي تقبض » تفرد به أحمد<sup>(٥)</sup> .

وفي صحيح البخاري : عن عبدالله بن يوسف عن مالك عن هشام عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - ﷺ - كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : « أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » .

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي - ﷺ - في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وجبينه ليتفصد عرقاً هذا لفظه<sup>(٦)</sup> .

وقال الامام أحمد : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : إن كان ليوحى إلى رسول الله - ﷺ - وهو على راحلته فتضرب بجراها<sup>(٧)</sup> وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه عن النبي - ﷺ -

(١) سنن أبي داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل في القراءة ١٥٥/٢ رقم ٤٦٨ - والثاني - كتاب الافتتاح ١٧٩/٢ وابن ماجه رقم ٤١٣٤٢

(٢) صحيح البخاري - كتاب التفسير - باب حسن الصوت بالقراءة ٢٤١/٦ ومسلم - كتاب الصلاة ٥٤٦/١ رقم ٢٣٦

(٣) صحيح البخاري - كتاب التوحيد ٨٨/٩ أو سنن أبي داود - كتاب الصلاة ١٥٦/٢ رقم ١٤٦٩ ومسند أحمد ١٧٢/١

(٤) صحيح البخاري - كتاب الصلاة باب الجمع بين السورتين في ركعة ١٨٦/١

(٥) مسند أحمد ٢٢٢/٢

(٦) صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ٤/١

(٧) مسند أحمد ١١٨/٦

كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع ان تحرك حتى يسرى عنه<sup>(١)</sup> وهذا مرسل (الجران هو باطن العنق) ، واختار ابن جرير انه ثقیل من الوجهين معا كما قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ قال أبو اسحاق عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس : نشأ قام بالخبشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وكذا قال مجاهد وغير واحد .

يقال : نشأ إذا قام من الليل وفي رواية عن مجاهد بعد العشاء ، وكذا قال أبو محرز وقتادة وسالم وأبو حازم ومحمد بن المنكدر والغرض أن ناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهي الانات ، والمقصود ان قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : ﴿ هي أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾ أى : أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغظ الأصوات وأوقات المعاش .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا ابراهيم ابن سعيد الجوهري حدثنا ابواسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأصوب قيلا ﴾ فقال له رجل إنما نقرأها وأقوم قيلا ، فقال له إن أصوب وأقوم وأهيا وأشباه هذا واحد<sup>(٣)</sup> .

ولهذا قال تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبي مسلم : الفراغ والنوم ، وقال أبو العالية ومجاهد وأبو مالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثوري : فراغا طويلا ، وقال قتادة : فراغا وبغية ومتقلبا ، وقال السدي : ( سبحا طويلا ) تطوعا كثيرا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحا طويلا ﴾ قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم ان الله - تبارك وتعالى - من على عباده فخففها ووضعها وقرأ : ﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه - حتى بلغ - فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾ وهذا الذي قاله كما قاله . والدليل عليه ما رواه الامام أحمد في مسنده حيث قال : حدثنا يحيى حدثنا سعيد هو ابن ابى عروبة عن قتادة عن زرارة بن اوفى عن سعيد ابن هشام انه طلق امرأته ثم ارتحل الى المدينة ليبيع عقارا له بها ويجعله في الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقى رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله - ﷺ - فقال « أليس لكم في أسوة حسنة ؟ » فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها ثم رجع اليها فأخبرنا أنه اتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال ألا انبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله - ﷺ - ؟ قال : نعم : قال :

(١) تفسير الطبري ٨٠٢/٩

(٢) تفسير الطبري ٨٠/٢٩

(٣) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٨/٨

اثت عائشة فسلمها ثم ارجع الى فاخبرني بردها عليك قال فأتيت على حكيم بن أفلج فاستلحقته إليها فقال ما أنا بقاربها إني نهيته ان تقول في هاتين الشبعتين شيئاً فكانت فيهما إلا مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معي فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا معك ؟ قال سعيد بن هشام قالت من هشام ؟ قال ابن عامر قال فترحمت عليه وقالت نعم المرء كان عامراً قلت يأم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله - ﷺ - ؟ قالت أأست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فان خلق رسول الله - ﷺ - كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لي قيام رسول الله - ﷺ - قلت : يأم المؤمنين أنبئني عن قيام رسول الله - ﷺ - وآله وسلم - قالت : أأست تقرأ هذه السورة ( يا أيها المزمل ؟ ) قلت بلى قالت فان الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة فقام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمها في السماء اثني عشر شهراً ثم أنزل الله التخفيف في آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة ، فهممت أن أقوم ثم بدا لي وتر رسول الله - ﷺ - فقلت : يأم المؤمنين أنبئني عن وتر رسول الله - ﷺ - قالت : كنا نعد له سواكه وظهره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلي ثمان ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض وما يسلم ، ثم يقوم ليصلي التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعو ثم يسلم تسليماً يسمعنا ، ثم يصلي ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يابني فلما أسن رسول الله - ﷺ - وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يابني ، وكان رسول الله - ﷺ - وآله وسلم - اذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان اذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ولا أعلم نبي الله - ﷺ - قرأ القرآن كله في ليلة حتى أصبح ولا صام شهراً كاملاً غير رمضان - فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأنتيتها حتى تشافهني مشافهة هكذا . رواه الامام أحمد بتمامه<sup>(١)</sup> وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث قتادة بنحوه<sup>(٢)</sup> . « طريق اخرى عن عائشة - رضى الله عنها - في هذا المعنى » قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب وحدثنا ابن حميد حدثنا مهران قالاً جميعاً : واللفظ لابن وكيع عن موسى بن عبيدة حدثني محمد بن طحلاء عن ابى سلمة عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كنت أجعل لرسول الله - ﷺ - حصيراً يصلي عليه من الليل فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحياً فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل فقال : ( أيها الناس اكلفوا من الأعمال ما تطيقون فان الله لا يمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ما ديم عليه )<sup>(٣)</sup> ونزل القرآن : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ، أو زد عليه ﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله ما يبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم الى الفريضة وترك قيام الليل<sup>(٤)</sup> .

ورواه ابن ابى حاتم من طريق موسى بن عبيدة الزبيدي وهو ضعيف والحديث في الصحيح<sup>(٤)</sup> بدون

(١) مسند أحمد ٥٤/٦

(٢) مسلم - كتاب الصلاة - باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٥١٢/١ رقم ١٣٩

(٣) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٤) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨ ومسند أحمد ٤٠/٦ ، ٦١ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٦٧



زيادة نزول هذه السورة وهذا السياق قد يوهم ان نزول هذه السورة بالمدينة وليس كذلك وإنما هي مكية وقوله في هذا السياق : ان بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب فقد تقدم في رواية أحمد ان بينهما سنة .

وقال ابن ابي حاتم أبوسعده الأشج حدثنا ابو أسامة عن مسعر عن سماك الحنفي سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم في شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وهكذا رواه ابن جرير عن ابي كريب عن ابي أسامة به وقال الثوري ومحمد بن بشر العبدى كلاهما عن مسعر عن سماك عن ابن عباس كان بينهما سنة ، وروى ابن جرير عن ابي كريب عن وكيع عن اسراييل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله<sup>(١)</sup> .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عن ابي عبدالرحمن قال : لما نزلت ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قاموا حولاً حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ قال : فاستراح الناس وكذا قال الحسن البصري والسدي<sup>(٢)</sup> . وقال ابن ابي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عبيد الله ابن عمر القواريري حدثنا معاذ بن هشام حدثنا ابي عن قتادة عن زرار بن أوفى عن سعيد بن هشام قال : فقلت : يعنى لعائشة أخبرينا عن قيام رسول الله - ﷺ - قالت : ألتست تقرأ ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ؟ قلت بلى قالت فانها كان قيام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها في الساء ستة عشر شهراً ثم نزل ، وقال معمر عن قتادة : ( قم الليل إلا قليلاً ) قاموا حولاً أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فانزل الله تخفيفها بعد في آخر السورة .

وقال ابن جرير ، حدثنا يعقوب القمي عن جعفر عن سعيد هو ابن جرير قال : لما أنزل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ﴿ يا أيها المزمل ﴾ قال : مكث النبي - ﷺ - على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما امره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله - تعالى - عليه بعد عشر سنين ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك - الى قوله تعالى : وأقيموا الصلاة ﴾ فخفف الله - تعالى - عنهم بعد عشر سنين<sup>(٣)</sup> ، رواه ابن ابي حاتم عن ابيه عن عمرو بن رافع عن يعقوب القمي به ، وقال علي بن ابي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً ﴾ فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله - تعالى - عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله - الى قوله تعالى - وأقيموا الصلاة ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق<sup>(٤)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ أى : أكثر من ذكره وانقطع اليه وتفرغ لعبادته

(١) تفسير الطبرى ٨٠/٢٩

(٢) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٣) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٤) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

إذا فرغت من اشغالك وماتحتاج اليه من أمور دنياك كما قال تعالى : ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾ <sup>(١)</sup> أى : إذا فرغت من مهماتك فانصب فى طاعته وعبادته لتكون فارغ البال قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه ، وقال ابن عباس ومجاهد وابوصالح وعطية والضحاك والسدى : ﴿ وتبتل اليه تبتيلاً ﴾ أى : اخلص له العبادة ، وقال الحسن : اجتهد وابتل اليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعباد تبتل ومنه الحديث المروى نهى عن التبتل يعنى الانقطاع الى العبادة وترك الزوج <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، وكما افردته بالعبادة فافرده بالتوكل فاتخذه وكيلاً كما قال فى الآية الاخرى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ <sup>(٣)</sup> وكقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وآيات كثيرة فى هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه . وقوله تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً ﴾ يقول تعالى أمراً رسوله - ﷺ - بالصبر على مايقوله من كذبه من سفهاء قومه وان يهجرهم هجرًا جميلاً وهو الذى لا عتاب معه ثم قال له متهددا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شئ ﴿ وذرى المكذبين أولى النعمة ﴾ أى : دعى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق ماليس عند غيرهم ، ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أى : رويدا كما قال تعالى : ﴿ نمتهم قليلاً ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ وهى القيود قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبدالله بن بريدة وأبو عمران الجوني وأبو عجلز والضحاك وحماة بن ابى سليمان وقتادة والسدى وابن المبارك والثورى وغير واحد : ﴿ وجحيماً ﴾ وهى السعير المضطربة ﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج . ﴿ وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أى : ترتزل . ﴿ وكانت الجبال كتيها مهيلاً ﴾ أى : تصير ككتبان الرمل بعد ماكانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شئ إلا ذهب حتى تصير الأرض قائماً صفصفا لا ترى فيها عوجاً أى وادياً ولا أمناً أى رابية ومعناه لاشئ فينخفض ولا شئ يرتفع . ثم قال تعالى مخاطباً لكفار قريش : والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم ﴾ أى : بأعمالكم . ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى والثورى : ﴿ أخذاً وبيلاً ﴾ أى : شديداً ، أى : فاحذروا أنتم ان تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ماأصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن أنتم كذبتهم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران ، ويروى عن ابن عباس ومجاهد . وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ يحتمل أن يكون يوماً معمولاً لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون ايها الناس يوماً يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل ان يكون معمولاً لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفرع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثانى كيف

(١) سورة الشرح الآية : ٧

(٢) تفسير الطبرى ٨٣/٢٩

(٣) سورة هود الآية : ١٢٣

يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله تعالى لآدم : إبعث بعث النار فيقول من كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة .

قال الطبراني : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قرأ : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثاً الى النار ، قال من كم يارب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد » فاشتد ذلك على المسلمين وعرف ذلك رسول الله - ﷺ - ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم « إن بنى آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنه لايوت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » هذا حديث غريب<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال الحسن وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وروى عن ابن عباس ومجاهد : وليس بقوى لأنه لم يجر له ذكر ههنا . وقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولاً ، أى : واقعاً لا محالة وكائناتاً لا محيد عنه .

يقول تعالى : ﴿ إن هذه ﴾ أى : السورة ﴿ تذكرة ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلاً ﴾ أى : فمن شاء الله - تعالى - هدايته كما قيد فى السورة الأخرى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

### طرف من سيرة المزمّل - ﷺ -

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على خير رسله ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن سلك سبيلهم واستن بسنتهم الى يوم الدين .

وبعد فعلى فترة من الرسول ، ضاعت فيها معالم الحق ، وضل البشر سواء السبيل ، بعث الله رسوله سيدنا محمداً - ﷺ - بالهدى ودين الحق ، ففتح الله به للانسانية فتحاً جديداً ، عرفت على أضوائه طريق الرشاد ، ودخلت الحياة من مدخلها الصحيح ، فتحررت من اضرار الذل ، وحطمت اغلال العبودية ، وتقدمت باسم الله وعلى بركة الله ، وتحت راية الاسلام ، تنشئ حضارة سامقة ، وتكتب تاريخاً عبق بأطيب الشذى .

ومن كان فى ريب من ذلك فليس عليه إلا أن يتجرد من الهوى ، وينمى عوامل الجنوح ، ويقرأ

تاريخ ما قبل الإسلام وما بعده في مشرق الأرض ومغربها ، وسيجد بعد الجولات التزيية ان دعوة الاسلام وليس سواها هي التي فتحت القلوب والآذان ، والعقول والأبصار ، وإن كان كل مانراه اليوم من حركات إصلاحية أو وثبات علمية قامت على قواعد الفكر الاسلامي .

فإذا احتفل المسلمون في ذكرى مولد الرسول الكريم فليكن احتفالهم عوداً إلى المعين الذي لا ينضب ، يجددون العهد أن يكونوا حيث يرضى الله ، وتهدف إليه رسالة الإسلام ، استجابة صادقة واستلهاما أميناً ، يفتح الله بهما الطريق إلى العزة والكرامة ، ويهدي بهما الله إلى الصراط الذي لا يفضل عليه المسار .

ولنا في سوابق التجارب عبرة وعظة ، والتجارب الواعظات ينبغي أن تكون موضع تأمل وتدبر الذين يتبعون الرشاد ، ويتطلعون إلى الهدى ، فيلقون السمع ، ويفتحون القلب ، وخير التجارب تلك التجربة الرائدة التي عاشها الرسول - ﷺ - فهي حافلة بالكفاح ، حافلة بالأمل ، حافلة بالوان النصر العزيز .

## يارسول الله

ما تفقدت الانسانية فضيلة نادرة إلا وجدتها نفحة من أدبك ، أو لمحة من خلقك أو ومضة من نورك ، أو خطوة من سلوكك ، أو لفظة من هديك ، أو شعاعاً من توجيهك ، أو عبرة من تاريخك ، أو قبساً كنت تبعث به في الليالي الحالكة ، والسبل الملتوية ، والمعالم المشتبهة ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الكريمة . . .

وسيطل تاريخك خالداً خلود الأبد ، باقياً بقاء الدهر ، مُدوياً دَوَى الأذان ، مضيئاً كالصبح ، يتحدى الغناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الأيام ، ويكافح الزمن ، ويحارب الطغيان ، ويخضع الجبابرة ، ويقضي على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادي بالحب ، ويتعقب الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين في الأرض بغير الحق . . لا لأنك رسول رب السماء ، والأرض - الذي يحتمى ببطشه ، ويعتز بياسه ، ويقا تل بسيفه ، وينطق بلسانه ، ويصونه من بغى المتسلطين ، وعدوان المفسدين ، الذي لا يتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين بلطفه ، المحفوفين برضوانه ، المغمورين برحمته ، ولكن لأنك كنت المثل الأعلى الذي ترتقى اليه البشرية عند غموها ، وتتطلع له في تقدمها ، وتحاول أن تحتذيه ، كلما ثاب إليها الرشـد ، أو عاودها الحلم ، ويتعظ فيها العقل ، وتحركت أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها ربها السداد والتوفيق .

والحديث فيك يارسول الله حبيب إلى النفس ، خفيف على السمع ، لذيد رجعه كأنه الموسيقى للقلوب الظامئة ، والأفئدة الملتاعة ، والجوانح الحرى ، والأكباد المحترقة ، والأرواح المتشوقة ، لا ينتهى له مدى ، ولا ينقطع له جرس ، ولا ينضب له معين . . ينشده الأديب فيجد في حديثك الحكمة الغالية ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى ، والتصوير الدقيق ، والألفاظ الفخمة ، والمنطق الحلو ، والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والنمط الذي لا يصل إليه أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة

الحديث ، وأساتذة الأدب .. ويتصفحه المصلح الاجتماعي فلا يعثر فيه إلا على هدى نافع ، ودستور قويم ، وتهذيب صحيح وتقويم واضح وتوجيه سديد .. وهكذا كل جوانبك - يارسول الله شاذة ، وجميع جهاتك عامرة أهلة بالخصوصية ، غنية كل الغنى بالبر والمعروف ، والأمن والسلامة ، والرضا والاطمئنان ، وأنا أجد في حديثي عنك لذة لنفسى ، ومتعة لخاطري ، وغذاء لروحي ، وضياء لقلبي ، وشفاء لغللي ، وإرواء لظمئي ، وإرضاء لضميري ، فلا أسلك في الكتابة فيك سبيل التاريخ الجامد ، ولا طريق الحوادث المألوفة ولا نهج السيرة المعروفة ، ولا مآتعود الناس ان يرددوه عنك ، أو يذكروه لك ، أو ينسبوه إليك أو يذيعوه عنك ..

وليس هذا تخيلاً يتخيله شاعر ، ولا وهماً يدور بخلد فيلسوف لأن الخليفة لم تعرف رجلاً لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس وحير ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا إلى مافيه من أخلاق نبيلة وسجايا عظيمة ، وخلال طيبة ، وسلوك حميد ، وأدب جم ، قبل أن تعرف أنت ، فتعرف طبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ، ومثلها العليا .. والدراسة التي تناولتك - يارسول الله - والآداب التي أخذت عنك ، والسلوك الذي رسمته ، والمنهج الذي بينته ، والأخلاق التي رغبت فيها ، ودعوت إليها هي الدستور الذي كانت البشرية بحاجة إليه لينير لها الطريق إلى مستقبل أفضل ، وغاية أكرم ، ومجد أنبل ، وسعادة أعظم ، وأمن أشمل ، وعدالة أكمل ، وإصلاح أعمق ، وبخاصة إذا نظرنا إلى تلك البلبلة التي كان عليها العرب ، حينئذ - وإلى تلك الجهالة التي كانت تضرب بجرائها في الجزيرة ، ولا سيما في المسائل الدينية وقد كانوا فيها أشبه ببحر يموج ، أو بركان يغلي ، لا هدف يصح لهم أن يتجهوا إليه ، ولا غاية يمكن أن يقفوا عندها ، ولكنهم كانوا يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ولا يدينون للحق ، أو يفتحون قلوبهم للهداية ، أو ينظرون بعيونهم نحو النور أو يوجهون أفئدتهم إلى الصواب ، يشتغلون بالخرافة ويتعلقون بالباطل ، ويهتمون الاهتمام كله بالأخذ بالثأر ، والمعاقرة للخمر ، وإشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، وليس لهم من المعارف ما يساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم في صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتقدمة ، المتطلعة إلى العمران والإصلاح ، والانتعاش واليقظة ، والسير إلى الغايات المحمودة .. وفي الحق ! إن للدهر أن يطأطئ رأسه لك - يارسول الله - إجلالاً لما كان من تاريخك ، وإعجاباً بما كان من خلالك ، وإكباراً لما كنت عليه من خلق عظيم ، تتجاوز حدود التقدير والاحترام .. ونحن لانشك في أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادئ ، وحمة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الإصلاح - في كل زمان ومكان - لا يصلون إلى غاياتهم ، أو يبلغون أهدافهم ، بنصاعة بيانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة نهجهم ، وخلاصة منطقهم ، وروعة بلاغتهم ، بمقدار ما يساعدهم على ذلك سلطانهم المرهوب ، وقوتهم المخيفة ، وبأسهم المسلط ، أو نصرة تقف إلى جانبهم ، من قرابة قريبة ، أو ولاء مسعف ، أو عصبية تدافع ، أو مال يغري بالإقبال والرغبة ، ويعمل على تمكين النفوذ والجاه ، وإشاعة الإرهاب والخوف ، وأنت لم تنصرك عصبية ، ولم يساعذك مال كان في يدك ، ولا نفوذ أتيج لك ، غير أن سيرتك كانت قرآناً ، وحياتك كانت برهاناً ، وقد استقبلت الإنسانية حديثك الطيب استقبالها للأحداث الهامة ، والأمور الغريبة ، والمعجزات الكبرى ، وآمنت بسبب ما عرفت منك - أن الله سرّاً يخفى على الفطنة ، ويدق على الفهم ، ويتسامى على المنطق ، ويتجاوز حدود العادات ، ويأبى

أن يخضع للمالوف ، ولايسع الناس أمامه إلا أن يردوه إلى خالق السموات والأرض ، ومدير الكون الواسع ، والملك الفسيح العريض !!

وفيك - يارسول الله - تحكم الفقر ، وتمكن اليتيم ، واستبد الجوع والحرمان ، الذي جرت به العادة مع الأطفال الذين تحيط بهم تلك الحياة ، وتلعب بهم الأحداث ، وتهز كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم الزرع إلى المجد ، والرغبة في الكمال والتطلع إلى الأهداف البعيدة ، والأغراض النبيلة ، والغايات السامية ، وأنت - يارسول الله - لم يقل قائل : إن همتك كانت واهنة ، وأن عزيمتك كانت فاترة ، أو أن نهوضك كان كسيحاً أو أن نزوعك كان ضعيفاً ، أو أن طموحك كان ميتاً ، أو أن قناتك لانت لغامز ، أو أن نفسك ذلت لجبار ، أو أن عودك انحنى لمتسلط ، أو أن جهادك للإصلاح وقف في منتصف الطريق أو حولته عن القصد غايات ، أو منعتة عن نهايته موانع ..

وفي سلوكك منذ كنت ناعم الأظفار ، غض الإهاب ، صغير السن ، من سمث طيب - وخلق قويم ، وعقل بصير ، وفكر ناضج ، ورجولة مبكرة ، وعظمة لاتصنع فيها ولا احتيال - مايدل على ان مستقبلا باسمها كان ينتظرك ، ومجدا تالدا كان يترقبك وجاها عظيما كان على موعد معك ، وأن الإرهاص الذي يسبق المعجزة يسارع إليك ، ليؤذن بالنهاية الكريمة ، والمصير العزيز ، والختام الحميد ، والتاريخ الذي يرويه الآباء للأبناء !

فلما بلغت مبلغ الرجال وكنت تقرى الضيف وتحمل الكل ، وتؤازر الحق ، وتنطق بالصدق ، وتعين على المعروف وتنصر المظلوم ، وتخفف ويلات المكرويين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعاني النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الطيبة ، والنوايا الصادقة ، والغرائز المهدبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا المحببة ، هالهم امرك ، وعناهم شأنك ، وظنوا ان الأيام سوف تتمخض فيك - لاهالة - عن قبصر الروم ، أو كسرى الفرس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد قاهر ممن كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والأخبار ، إلا أنك حين جهرت بدينك الصحيح ، وبقينك السليم ، وإيمانك القوى ، وكشفت بذلك كله - عن الحق الصراح - والسلوك السوى ، والعدل المحض ، والنهج القويم ، تضاءل في أنظارهم كبرياء الظالمين ، وغطرسة أولئك المتعاليين المتكبرين ، وتهاوت تيجان الملوك والسلاطين . وآمنوا أن هذه الدنيا التي كانت لهؤلاء لاتزيد إلى جانبها ما أعطاك الله إياه جناح بعوضة ، ولاقلامه ظفر ، ولكنها غبار يتطاير ، أو سراب يخدع ، أو وهم لاينطلى إلا على الأغرار البله ...

والعجيب الغريب أن تكون - يارسول الله - مع هذه المكانة التي كنت عليها من العظمة والمجد والسؤدد والشرف ، والجاه والرفعة ، والسيادة والعزة ، والسلطان والنفوذ ، متواضعا غاية التواضع ، حليما إلى أقصى نهايات الحلم ، جامعاً للمكارم كلها ، تبذل وتعطي ، وتسخر وتجوّد ، وتنقذ من يتورط في شدة ، أو يشرف على هلكه ، أو يعاني جرحاً ، وربما نسيت إساءة المسيء وآثرت غيرك على نفسك ، وقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح والعفو ، واللؤم بالكرم .. وكم أعلنت في كل مناسبة أنك بشر تأكل الطعام وتمشى في الأسواق ، وناديت في القاصي والداني بهذا الأدب الرفيع : ( إنكم لاتسعون الناس

بأرزاقكم ، وأموالكم فسعوهم باخلاقكم<sup>(١)</sup> لتعطيهم الأمثال منك ، والقذوة بك ، والاتباع لك ، وحاشا لخلقك ألا يكون إلا كذلك ، وماعاب أحد لك صنيعا ، أو انتقد لك سلوكك ، ولم تكن جباراً في الأرض ، ولا قاسياً على الناس ، بل كانت دعايتك بالحسنى وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ، وإرشادك بالحجة وتوجيهك بالمنطق ، ونصحك باللين ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك للحق ، وانحيازك إلى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تغلو كلمة السماء ..

وهكذا تكون العظمة التي لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو ينتهبها أهلها بسطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون .

وصلى الله عليك - يارسول الله - كلما جرى ذكرك على لسانى ، أو خطر طيفك ببال إنسان ، أو ترسم أحد خطاك ، أو التمس مسلم هدايتك ، وسار على نهجك ، فإنك بحق سيد الناس وخير الخلق على الإطلاق ، ولا ينكر عليك ذلك جاحد ولا يمارى فيه مكابر ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾<sup>(١)</sup> .

### محمد صلى الله عليه وسلم

« محمد » إن هذه الكلمة - وحدها - مجردة عما يقترن بها ، أو يساق معها ، أو يجيء في إثرها من الأوصاف والنعوت ، والأحداث والجهود ، تشيع في الجو الذي تسبح فيه ، والفم الذي ينطق بها ، معنى من معانى السحر ، لا يمكن لكائن من كان من الناس ، أن يحدده التحديد الذي يكشف عن حقيقته في فن الموسيقى الخلابة ، ولا البلاغة الأخاذة ، ولا الجاه الذي لا يتناول إليه جاه ، أو يمكن أن يزاحمه كبرياء وجبروت المحكمين ، وغرور المخدوعين ، أو أحلام المتطلعين ، لأن المسطين الذي يضيء على أبناء آدم أودية المهابة ، وثياب العزة ، ومسوح الإحلال والاحترام ، خلقه هو ، خلق « محمداً » لتذوب أمامه النعوت ، وتتهاول بين يديه الأوصاف وتقتصر عن الإحاطة بكماله الألفاظ ، وتقف موقف العجز عن التنويه به ، أو الكشف عنه ، بلاغة البلغاء ، وأساليب الأدباء ، ومنطق اللسن المقاول ، ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى أو فؤاد المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارئ في ثنایا سطور ، أو في صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه - ﷺ - تأخذه المهابة من جميع جهاته ، وتصيب جسمه القشعريرة التي تصيبه إذا وجد نفسه في حضرة عظيم من العظماء الذين تملأ مجالسهم الهيبة الربانية التي لا تكون مستمدة من غطرسة مصنوعة ، ولا أبهة مكذوبة ، ولا مجد محتلق ، أو نفوذ مدعى ، أو جبروت موضوع ، وإغماهى من صنع الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وفي تاريخه - ﷺ - ما يدل على أن تيجان الملوك ، وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت للدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيامهم ، والسلطان بحوزتهم تتساقط بين يديه ، أو يصيبها الشلل ، والجمود أمامه ، فلا يجزؤ

(١) مسند ابن يعلى الموصلى - والحاكم فى المستدرک ، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابن هريرة

(٢) سورة القلم الآية ٤

قوى أن يهدده ، ولا يتناول جبار أن يخيفه ، ولا يمكن لشريد مهما كانت شرارته ، وحمقه أن يهز كيانه أو يزلزل بنيانه ، أو يملأ يقينه الذى كان عامراً بخالفه ، ولا أن يحسب حسابه ، أو يخشى بأسه ، أو ترتعد فرائضه منه ، وذلك لأن الذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه قدوة هذه الانسانية فى أخلاقه الكريمة وأدبه الجم وذكائه اللامع وعبقريته الفذة وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم وعطفه الفطرى وحبهِ للخير وميله إلى البر ، وحبهِ على الناس وتفانيه فى الإصلاح وارتباطه بربه وتعلقه بالسوء ، وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام ، ولا أسم من أسماء المعاني ولا كلمة من الكلمات فى ضخامة جرسها ودوى صوتها ونباهة شأنها وشهرة دلالتها وإيمان الخليفة بها - بعد لفظ الجلالة - ما بلغت تلك اللفظة « محمد » التى يتيمن بها المسلم ويعتز بها الموحد ويفاخر بها الإنسان ، ويشرف بالانتساب إليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ، وصح عنده دينه وارتقى إدراكه وشعوره ، وسلم بصره وذوقه ، وتردده ألسنة الملايين فى بقاع الأرض وأنحاء هذا الكون ، تلذذاً بذكرها وارتياحاً لنغمتها وسروراً بمرورها على البال وخطورها بالذهن ..

ولقد عاصرت أحداث التاريخ وصيحات المصلحين ودعوات الهداية ، والتقويم على الحجة الواضحة ، والجادة الصحيحة ، فكان منها الشعاع الكاشف والضياء المساعد والنور الذى ترى به البشرية مواضع أقدامها فى طريق الخير وسبيل الحق ودرب السداد والصواب والسلامة والنجاة والرشاد والفلاح والتقدم وال عمران والحضارة والنهوض والعلم والعرفان ..

ولا يعيننا من هذا العنوان أن نسترسل به مع الحوادث وأن نرجع بك إلى ماعسائك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه الرواة والقصاص ، ولا أن تنتهى بك إلى تاريخ أنت تعرفه وتعيه ، وإنما يعيننا أن نستشف ماتعطيه تلك النفس التى لا يتسع لها هذا الفضاء المحدود ولا تلك الأرض المرسومة ولا هذه السماء المرفوعة ولا ذلك الكون الفانى ، وهى التى حام الفلاسفة حولها بحثاً ودرساً وتحليلاً وتعليلاً فما وصلوا إلى شئ وراء كونها خلاصة هذه الخلق وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية فى هذا الإنسان الذى أرسله لتقويمها وتهذيبها ، وهدايتها وإرشادها وتكريمها وإجلالها وحريتها من ذل الأسر ورق العبودية وضراوة الإقطاع وكابوس الظلم وفوضى النظم والدساتير لتكون له السيادة فى الأرض والقيادة لما فى الدنيا من باغم وناغم : ﴿ ولقد كرمتنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ (٢).

ولعل هذه الجوانب فى حياته - ﷺ - من العظمة الخارقة وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشار العرب من وهدة التردى إلى قمة النهوض والسمو كانت موضع الدهشة عن كثير من المؤلفين القدامى فأضفوا عليه من النعوت والخلال ما يتجاوزون حدود البشرية ، وهو الذى كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعلن أن له مالبنى آدم من مزايا وخلال .



وقد كنا نحمد لهؤلاء الذين يكتبون عنه طريقتهم في الكتابة، وأساليبهم في الدراسة ومنهجهم في البحث لو أنهم كانوا يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث وأن يجعلوا معينهم في ذلك سيرته مع أصحابه وتواضعه لأهله وحبه لقومه وحبه على البائسين ورفقه بالضعفاء وإثاره لغيره ومحاولته القضاء على عناصر الفساد في الأرض .

فإن هذا كله صدى لهمته الكبيرة وشخصيته العظمى وضميره النقي ودخيلته الطاهرة ونحيزته الشريفة ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف والتمويه والكذب والرياء والنفاق ذلك لأنه غط لا غبار عليه في البحث إذ هو يجرى على طريقة علم النفس الإنساني في تحليل السجاياء والطباع وفهم الغرائز والميول ، لو خلا من تلك المبالغات التي يلتجئ إليها بعض أصحاب هذه الدراسات . وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب هذه العظمة لتأخذ منها نماذج من النبل وشواهد من المكارم وملامح من البر وأساليب من الكمال ومقاييس من الخير لا تجدها الأفكار الواعية ولا العقول الناضجة إلا في صفحاته الناصعة من تاريخه الخالد أو سيرته التي تفوح بالعطر ، وتنفتح بشذى المسك ولا يرى الناس شرفاً كهذا الذي يلتبسونه منه ، ولا قربى تشفع لهم عند الله أحسن من كونهم يجعلونه وسيلتهم إليه .

وحسب « محمد » - ﷺ - أن اسمه مأخوذ من « الحمد » الذي هو نهاية جهد كل إنسان في سعيه وآخر كدحه في عمله وقصارى إعلان الشكر لبارئه ، إذا ترادفت عليه نعمه وغمرته آلاؤه وشمله عفوه وأحاطت به وسائل رحمته .

إذ لا يجد سبيلاً إلى الاعتراف بهذا الفضل الذي أثقل كاهله وأسعفته أسبابه وراء قوله : ( الحمد لله الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ) ، وليس بعد هذا الشرف الذي حظى به والمكانة التي ارتقى إليها ، واسمه نردده في السر والنجوى والجهر والعلن مقروناً بالإجلال والاحترام : ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً ﴾ (١) .

وفي هذا كله وسام الشرف وشارة المجد وعنوان الإجلال الذي ليس بعده ولا قبله ..

### يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جلّت وجهه سحابة من الحزن أو غمامة دكناء من الشعور بالمدلة والانكسار ، إن مَرَحَ زملاؤه أو لعبوا أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا أو جرى في وجوههم دم الطفولة البريئة أو ماء الصبا الرقراق ، كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير من الزرع ، جف عنه الري وانقطع عنه الغذاء فسارع إليه الذبول وتخلت عنه الحياة إلا أنه ظل في مكانه من الحقل يحسبه الناس حياً ويظنونه مهتئاً لمستقبل حافل بالأمان والأحلام وهو هيكلا لا يحس .

إن كنت قد رأيت ففاضت عينك بالدموع وثار قلبك من الجزع وملأت الحسرة نفسك وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة يتخلى عنها المجتمع الظالم ، فلا يمسح عنها العبرات ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك والسلامة من الأذى والبغض للدنيا والنفور من الحياة فذلك هو اليتيم .

وإذا كان للنجاح في هذا الميدان الصاحب والمعتك المائج والميدان الذي يتصارع فيه على البقاء كل

كائن حتى وسائل من القوة وشائج من الحيلة فإن إنكسار النفس باليتم وهوانها على الناس لا يجعل هذا النجاح نجاحاً ولا يضيف عليه الثوب الذى يظهر فيه بمظهر البهجة أو الارتياح أو لون اللذة والاعتباط . وقد رأينا كثيراً من هؤلاء الذين فقدوا العائل وعدموا الراعى كان اليتيم هو حجر العثرة في طريقهم أو العقبة الكأداء في سبيلها .

فكيف وقد كان « محمد » - ﷺ - مع اليتيم الذى ابتلاه الله به فقيراً من المال محروماً من الغنى على أنه لولقى مع هذا الشظف الذى كان يقاسيه مجتمعاً مهذباً أو بيئة رحيمة أو إنسانية راقية لكان له منها عزاء أو وجد في جوارها الدواء .

وقد حدث التاريخ : أن أباه فارق هذه الدنيا بعد حمل أمه به شهرين اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد أربع سنوات من وضعه ، وأن أمه لما رأت أن تحمى على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم للمراضع لينشأ الناشء منهم على الخشونة والنبيل والإباء والشرف والنجابة والشمم ، لم تجد له من ترضى بضمه إليها وولت كل امرأة بوجهها عنه بعد أن عرفت أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه إنما تقترب للأوثان ، أو ترمى بجهداها الذى تبذله في وجه الشيطان ، لأن لقمة العيش لا تشتري بالمعروف والحياة لا تستقيم إلا لمن يدفع لها الثمن من المال . . . ولولا أن « حليلة السعدية » صادفها الجد العائر والقال العاطب ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه أو تعود إلى منزلها بصفقة المغبون ، اللهم إلا أن يكون رضاها به لدفع ما عساه أن يوجه إليها من تهمة الخيبة وعار شؤم الرجوع من غير شيء .

وقد ظل الطفل عند أمه « حليلة » وانتهى رضاعة وحيا ومشى وأكل وحده ولبس وحده ، وكان المفروض في أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الآباء والأمهات ليجدوا هنالك من رعاية الوالد وحنان الأم ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدهوا إلا عندهما ، وتلفت الطفل ليجد هذين فلم يجد ، فبقى في بيت « حليلة » يمرح مع ابنها ويروح ويغدو إلى أن جاء إليه الملك « جبريل » ليشق صدره الشريف ويخرج منه تلك العلقة السوداء التى يتسرب منها الشيطان إلى النفس ، وينفذ منها إبليس إلى خواطر الناس ، ليلقى فيها ما يريد من هواجس الشر .

وكان مع « محمد » - ﷺ - في هذه الحادثة ابن « حليلة » الذى كان في سنه والذى كان لفرط حبه له وتعلقه به يود ألا يفارقه ، وكانت حليلة لهذه العاطفة التى كان ابنها يكنها لمحمد لا تفكر أن يعود « محمد » إلى أهله ، وبخاصة بعد أن وجدت أن قدمه عليها كانت يماً وعيشة في بيتها كان بركة ، وأن المراعى لغنمها قد أخصبت فزاد اللبن وكثر الخير وأن اليوم الذى لا ترى فيه هذا الطفل يملأ بيتها بنور وجهه هو اليوم الذى يكثر فيه شؤمها ويزداد بؤسها .

إلا أنها لم تفسر هذا الحادث الذى حدث لمحمد بشيء سوى أنه نكايه بها أو مؤامرة عليها وهى مشكلة - إن وقعت - لا تستطيع أن تعتذر منها لأهل هذا الطفل لذلك لم تجد مخلصاً من ذلك الضيق وراء رده لهم وتسليمه إليهم وبراءة ذمتها من أمانة كانت تتحملها . وراح الطفل إلى جده الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه ، يرأه ويعطف عليه ويوفر له أسباب الهناء والسعادة ويملاً قلبه بالرضا والارتياح . ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لا يزال يشعر بالفراغ الواسع الذى

تخلف عن فقدته لأبيه وأمه . . وعلى الرغم من الانكسار الذي كان يلزمه ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائماً أبدأ يشعر أنه يعيش في دنيا غير دنيا الناس ويحيا في عالم غير هذا العالم الذي يرفع درجات أهله بالمادة الحقيرة والحطام الفاني والعرض الزائل ، وما رآه راء من زملائه وأقرانه إلا وحمله ترفعه عن السفاسف وبعده عن الدنيا على أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ويطلبون السؤدد .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذي سيقفه من تلك الخرافات وهذه الحرب التي سيعلنها شعواء على تلك الخزعبلات فكان سلوكه الذي يسلكه ومعاملته التي يعامل بها من حوله على طراز من الأدب ومثال من الكمال .  
ولقد حدث نفسه : أنه رفع ثوبه عن جسمه ليجمع فيه شيئاً من الحصى والحجارة - كما يفعل الأطفال - فوجد هاتفاً يزرجه في عنف بالغ وإزعاج مرعب وخوف انخلعت له نفسه فلم يعد بعد ذلك إلى مثلها .

وحدث أيضاً : أنه أستأذن أخاه من « حليلة السعدية » أن يترك له الغنم في المرعى ليذهب هو - وحده - إلى عرس كان فيه هو وطرب مما اعتاد الناس حينئذ أن يفعلوه ، فلما ذهب إلى هنالك أخذته سنة من النوم لم ينتبه منها إلا بعد انقضاء العرس .  
وفي هذا كله دليل على حفظ الله له ورعايته إياه وعنايته به .

أما تلك العظمة التي كانت تملأ جوانب نفسه فإنها تظهر كذلك في كثير من خلاله التي كانت تسيطر عليه والتي كانت لا ترده أبداً موارد الصغار ، أو تنزل به إلى حيز الاسفاف ، ولقد كان لجدّه « عبد المطلب » بساط لا يجلس عليه غيره ولا يعتقد سواه وهو تقليد كان عند العرب توارثوه عن الآباء والجدود ، فإن تعدى متعد ذلك التقليد ، اعتبروه متمرداً على الأوضاع ، خارجاً على الحدود .  
وقد حكوا : أن « محمداً » في طفولته كان يتمرد على تلك السنة ويتجاوز ذلك التقليد ويسارع إلى المكان قبل أن يحتله جدّه « عبد المطلب » فإن وبخه أحد أولامه لائمه قال لهم عبد المطلب : دعوه ، فإن دم السيادة يجرى في عروقه وروح المجد يملأ جوانحه والزروع إلى الرفعة يدفع به نحو المكان العالى .  
وكان الذي يملأ قلب عبد المطلب بهذا اليقين أنه رأى في منامه رؤيا فسرها له العارفون بتأويل الأحلام : أن رجلاً من صلبه تدين له العرب بالطاعة وتعرف له بالفضل وتدعن له بالشرف وتؤمن له بالسلطان .

وكذلك كان يفعل الطفل مع عمه « أبي طالب » بعد أن انتقلت كفالاته إليه بموت « عبد المطلب » وهي روح إن دلت على شيء فهي إنما تدل على أن تلك النفس العالية كانت تسبق الزمن وتستعد للمستقبل وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التي يعيش فيها . وربما خطر ببال إنسان أن يسأل : ولماذا اختارت العناية الإلهية هذا المخلوق الذي طحتته الحوادث وعركته الخطوب ولوَّعته صروف الزمن ونشأ تلك النشأة المليئة بالشدائد والأهوال ؟

وهو سؤال يعرف الاجابة عليه من يدرك أن الله - سبحانه وتعالى - لم يشأ إلا أن يشرب رسوله تلك الكأس المترعة من أول يوم لتنطبع نفسه على الرحمة ويتعود قلبه على العطف وتمتزج روحه باللين ويتسع

صدره لما عساه أن يصادفه بعد ذلك من محن وهكذا يتربى الأبطال وينشأ العظماء ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث وتخضع له الظروف وتطاعه الأيام والليالي .  
على أن الأب والأم والناس جميعاً لم تكن إلا أسباباً ظاهرة للحدب والعطف والرعاية والشفقة والصيانة والحفظ والإرشاد والنصح ولو شاء الله لجعل أسباباً غيرها تؤدي عملها ، وتقوم بوظائفها ، تباركت آلاؤه لا نحصى الثناء عليه ولا ندرك أسرارها في خلقه ولا نفقه من قضائه وقدره إلا ما يكشفه لنا النظر الكليل والفهم المحدود والعقل القاصر وننتهي بعد هذا المطاف إلى الإيمان العميق والتسليم المطلق ، ونعوذ به من شر الوسواس الخناس ..

### كان عصامياً

من أدبه الذي كان يؤدب به أمته ، وهديه الذي كان يهدي به المسلمين ، ألا يكون الرجل عالة على غيره ، وألا يقعد أحد وغيره يعمل له ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء والمرسلين ! أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم .  
لذلك لم يعرف عنه منذ طفولته أنه استراح إلى صدقة يُتَصَدَّقُ بها عليه ، أو معونة يبذلها باذل له ، وظل حياته كلها - قبل البعثة - يعمل بالأجرة في رعى الغنم تارة وفي التجارة تارة أخرى ليأكل من كده ويرزق من كدحه حتى لا يكون عنواناً سيئاً للأفراد الذين يعيشون على حساب غيرهم أو الجماعات التي تُشيعُ الكسل والنوم في الأمم .

وكان وهو في كفالة عمه « أبي طالب » بعد أن أحس من نفسه القدرة على مزاوله البيع والشراء - في التاسعة من عمره - يتعلق به ويلج عليه ليأخذه معه ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح وبخاصة بعد أن تبين له إنما يفعل هذا فراراً من التواكل وهرباً من أن ينبت لحمه من غيره .  
وأول مرة تعلق به هذا التعلق هي تلك المرة التي استقبله فيها « بحيرا الراهب » في الطريق إلى الشام وحذره من اليهود ، وأفهمه أنهم سيقتلونه إن ظفروا به ، لأن في كتبهم نعت ، وفي شرائعهم تحديد المصير الذي يترقبهم على يديه ، وهم لهذا يجدون في طلبه ليقطعوا عليه الرسالة وهم بذلك يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه أن ملكه سيزول على يد غلام يولد في هذا الوادي ، فأمر بقتل كل مولود ذكر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره ، وزال ملكه على يد « موسى » الذي تربى في بيته ونشأ في جواره . ولم يزل - ﷺ - على هذا الخلق يعمل لأصحاب رءوس الأموال بين مكة والشام ، وهو في هذه الآونة الرجل المحترم والإنسان الكريم على الناس ، يتسابقون إلى طلبه ، ويتنافسون في وده ، لأن الأمانة التي تحلّى بها والصدق الذي غلب عليه والخبرة التي حذقها والبصر الذي كان له والخلال الطيبة التي كانت العامل الأول في إعجابهم به وحديثهم عنه جعلتهم يعتبرون الظفر به مغنياً من المغانم التي يكونون حصولهم عليها عنوان الجد السعيد والحظ الموفور ..

والسيدة « خديجة » لم تكن من دهماء الناس ولا عامة الشعب لأنها من أشرف قريش وأغنياء العرب ، وكثير من وجوه أهل مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ويخطب ودها .  
وكانت هي تقابل ذلك بالدفع والامتناع والكبرياء والصلف ، إلا أنها لم تملك أمام هذا الخلق

العظيم والأدب العالى والرأى السديد والفكر الواعى والأمانة النادرة والقلب النقى والرجولة الصحيحة إلا أن تعرض نفسها على هذا الرجل الذى لم تجد له مثيلاً بين أهلها وذويها وقومها وعشيرتها ، وليس ذلك لما بينهما من فارق السن - إذ كانت فى الأربعين وكان فى الخامسة والعشرين - ولكن لهذه المعانى النبيلة والسجايى الخلية .

على أنه - ﷺ - لم يعرف عنه أنه - وقد أسلمت إليه « خديجة » هذا القياد وجعلت فى يده هذا المال - كان مستغلاً لنفوذه أو مقتصباً لحق سواه بل كانت يده فى هذا المال يد الأمين ونفوذه نفوذ الوكيل وتصرفه تصرف العامل لم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ولم يخطر - يوماً - فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولاً وفتحت له الدنيا أبوابها فلم يخدعه زخرف من زخارفها ولم يفتنه شيء منها . وهذه عائشة - رضى الله عنها - تحكى لنا هذا الخلق وتسجل عليه هذا الطبع وتصف لنا فيه ذلك الزهد إذ تقول : « ما شيع آل محمد - ﷺ - منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض » (١) .

ولعل بعد هذا السرد الذى سردناه من حياته - ﷺ - قبل أن يبعث الله به رسولاً إلى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يعيش كلاً على أحد ، أو عالة على إنسان وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » مجدين لشأنها معترزين بالإتصاف بها .

وكأنما كانت إرادته سبحانه وتعالى تقضى أن ينشأ يتيماً فقيراً لتكون هذه العصامية أبرز صفاته وأوضح خلاله ، وليكون ذلك امتحاناً لرجولته وتربية له وإعداداً لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره . وإن الذى يقرأ تاريخه الرائع ومواقفه الخالده وثباته العجيب وبطولته الفذة وجهاده الذى كان مثلاً للمجاهدين يؤمن أن ذلك لا يكون إلا لإنسان عركته الحوادث هذا العراق وامتحنته الخطوب هذا الامتحان ، وهكذا كان العصاميون من عظماء الرجال .

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق محدودة وأسباب العيش غير متنوعة وأبواب الكسب لا تكاد تتجاوز رعى الغنم والإبل وشيئاً من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك باعثاً لقصار الهمم والعزائم أن يحترفوا قطع الطريق أو اغتصاب ما لا يملكونه من متاع سواهم ، ولهذا ظهرت بينهم جماعات السلب والنهب أمثال « عروة بن الورد » و « الشنفرى » وغيرهما ممن يسمون فى الإصطلاح « بالصعاليك » فكان هؤلاء أبغض الناس إليه ، بل كان لا يقل فى بغضه لهم وكراهيته إياهم عن بغضه للذين يستجدون إحسان غيرهم .

وعلى رغم كون دينه حث على التصديق والبذل وزكاة الأموال والزروع ، كان يرى أن هذا الذى يؤخذ من أموال الأغنياء على هذا الأسلوب قدر يتعفف عنه المسلم ، ويرتفع عن أخذه كل ذى همة عالية ، وخير للرجل أن يأخذ حبله إلى الجبل فيحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ، ثم يقول :

(١) سنن الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء فى معيشة النبی وأهله ٥٧٩/٤ رقم ٢٣٥٧

(٢) سنن الترمذى - كتاب الزهد - باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٥٩٠/٤ رقم ٢٣٨٠ وسنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة ١١١١/٢ رقم

« بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »<sup>(١)</sup> ، ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه »<sup>(٢)</sup> .  
ليعلم المسلم أن الذي يعيش لشهوته لا يساوى في نظر هذا الدين أحقر الأشياء .

### اعتكافه وخلوته

في كتب السيرة كلها شبه إجماع على أنه - ﷺ - كان قبل مبعثه ميالا إلى الخلوة تواقاً إلى العزلة شديد الشغف بالانقطاع عن الناس لا يحب الصخب ولا يآلف الضوضاء ولا يميل إلى الاندماج في مجتمعات اللهو ، ولا محافل الهذر فلما تكامل وعيه ونضج عقله ودق تفكيره وقوى شعوره بالكون وخالقه والحياة ونظامها والعالم وما فيه من حيوان وإنسان ، وكان قد عرف شيئاً عن ملة أبيه « إبراهيم » - عليه السلام - صارت العبادة همة والانقطاع إلى الله - جل جلاله - شغله الشاغل .

أما حقيقة شريعة « إبراهيم » التي كان يتعبد بها ويعبد الله على نسقها فأمر يدخل في باب الحدس والتخمين والظن والاجتهاد لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها كانت شريعة تضمنت هدياً واعيأ وإرشاداً قوياً وأن القرآن تحدث عنها بكونها : ﴿ ديناً قيمياً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾<sup>(٣)</sup> واليهود يزعمون : أنها صورة مكررة من التوراة ، والنصارى كذلك يزعمون أنها صورة طبق الأصل من الإنجيل .

وبالغ هؤلاء وهؤلاء في أن « إبراهيم » كان على تلك الملة التي هم عليها ترويحاً لدينهم الذي مسخوه بالعبث وغيروه بالهوى وبدلوه بالبهتان وحرفوه بالباطل وأدخلوا فيه ما ليس فيه ، وفضح القرآن دعواهم المزورة واقتراءهم الكاذب حينما قال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾<sup>(٤)</sup> .

وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتقويم وهداية ونور ولا يمكن إلا أن تكون علاجاً للبشرية وصلاًحاً لحال الإنسانية في هذا الظلام الدامس الذي كان يخيم على الأئدة فجعلها الوسيلة بينه وبين الله الذي امتلأ قلبه به ويقينه منه .

وهناك تحول هربه من الناس وفراره من صخب المحافل وبعده عن ضوضاء الدهماء واعتزاله لكل مكان يضم أهل الشرك أو عبّاد الأوثان ، إلى تفكير عميق في إنقاذ تلك الإنسانية الضالة والبشرية المعذبة فتطلع ببصره إلى السماء أملاً في قبس ترسله أوضياء يكشف له معالم الطريق ، وساقته قدماءه إلى مكان عال يجعله مع الكواكب في ارتفاعها والنجوم في مداراتها فكان في غار حراء يغذى فكره بالعزلة وينمى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف وطابت له هذه الإقامة ولذّت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحي الذي تفتح له قلبه وانشرح به صدره وطاف فيه خياله لم تكن لتعدله لذة أو تساويه حياة ، ولذلك صار كلما فرغ زاده ذهب إلى أهله فتزود زاداً آخر ليوصل السير ويدوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر « محمد » - ﷺ - إلى جانب كونها رصيذاً روحياً ضخماً امتلأ به يقينه مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث وكانت سبباً في أن تكون صلته بالله خير ما يُمتع به فؤاده ، ولذلك يقول في بعض أحاديثه : « وجعلت قرة

(١) سنن ابن ماجه - كتاب الأطعمة - باب الاقتصاد في الأكل ١١١١/٢ رقم ٣٣٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٦١

(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٧

عيني في الصلاة»<sup>(١)</sup> لأنها صلة بينه وبين ربه حيث ينجيه بحاجته ويثبه شوقه ويطلب منه الرضا ولم تكن الصلاة وحدها هي هذه الفرصة التي أَرْضَى الله فيها خواطره وحقق بها أمانيه من ذلك الارتباط الذي يبتغيه والتعلق الذي ينشده ، بل شرع له الصوم الذي هو إمساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة وكفها بالحرمان وتهذيبها بالرياضة وتأديبها بالجوع ، وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة ، وبعد عن الناس واتصال بالله لا يقل عن ذلك الذي يكون بالخلوة ونحيى من طريق التجرد عن الدنيا .

وكانت الشريعة في جملتها عناية بالروح وتطهيراً للقلب وتزكية للنفس وتربية للجوارح وكانت النية في العبادات وهي معنى وجداني بحث شرطاً في صحتها وعاملاً من عوامل قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »<sup>(٢)</sup> . بل إن في هذه الشريعة كثيراً من المعاني التي ترضى نزوعه - ﷺ - إلى الخلوة وميله إلى التأمل في صنع الله الذي أنقن كل شيء خلقه ، وحث صارخ على النظر في النجوم والكواكب والصحارى والبحار والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة والحظوظ والأرزاق والصحة والمرض والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة في ملكوته وسفر مترام في مدى قدرته ليكون وراء ذلك كله التسليم له بالربوبية والإذعان له بالعبودية والإيمان بأنه وحده « لا شريك له ، له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد . . وفي حديث السبعة الذين يظلمهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحد هؤلاء السبعة .

الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد فهو لا يغادرها إلا على شوق العودة إليها والاعتكاف فيها ، وكان - ﷺ - إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شمر عن ثيابه واعتزل أهله ، واعتكف في المسجد . ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول الكريم - غار حراء - الذي كان يتردد عليه ويلتجئ إليه كلما حزبه أمر أو اشتد به هم ، هو الابتداء للفرج الذي أصابه وللخير الذي أغدقه الله عليه ، إذ عليه جاءه جبريل الأمين بالرسالة ويشره بالاختيار ، وبلغه عن ربه قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ \* خلق الإنسان من علق \* اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم \* علم الإنسان ما لم يعلم ﴿<sup>(٣)</sup> ثم توالى الغيث واسترسل .

### قصة القراءة

جاء في البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « أول ما بدئ به - ﷺ - الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى

(١) سنن النسائي - كتاب عشرة النساء - باب حب النساء ٦٢/٧ ومسنند أحمد ٣٧٣/٦ ، ٤١٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ١٥١٥/٣ رقم ١٥٥

(٣) سورة العلق الآيات : من ١ - ٥ .

خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، فرجع بها رسول الله - ﷺ - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروح ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - : لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى « ابن عم خديجة - وكان امرأ قد تنصّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب - وكان شيخاً كبيراً قد عمى - فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله - ﷺ - خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل على موسى ياليتنى فيها جذعاً ، ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله - ﷺ - : أوخرجني هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرأ مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي « (١) .

وفى هذه القصة دليل قاطع على أن الطابع التى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام والفقه فى الدين والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة وخيرات سخرها الله للإنسان وذلك للناس ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه - ﷺ - هو طلب القراءة : « اقرأ » ، ومتى أزال المرء عن نفسه غشاوة الجهل وقبس من نور العلم واهتدى بالمعرفة ، كان من السهل عليه إلى حد بعيد أن يتجه إلى الخير وأن يسلك سبيل الصواب وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله على سنن الحق ومنطق الصدق وشرعة الإنصاف وكأنما العلم فى هذه الدنيا هو الشعاع الهادى والمصباح النير .

وهنا لفظة جميلة لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو يخطر بها الخطور الخاطف ولكنه يتأملها تأمل الفاحص ويتروى فى أخذ العبرة منها تروى العاقل ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو الأخرى ، ليفهمه - ﷺ - وتفهم أمته معه أن الذى يطلب الأمر العظيم لا بد أن يحتال له ، ويجد فيه من غير ملالة ولا سام ، وألا يكون الإخفاق فيه ، أو عدم الحصول عليه سبيلاً إلى اليأس منه أو قطع الرجاء فيه فمن جد وجد ومن زرع حصد .

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطراً وكل إنسان يدعو إلى مكربة أو يحاول تقويم معوج أو ينادى بمبدأ من المبادئ أو يوجه جماعة من الجماعات إلى طريقة مثلى وخطة سليمة أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات وتواجهه المصاعب وتقف فى سبيله العقاقيل ، فيوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والاستهانة بالجهد المبذول والتعب الحاصل والشدائد الطارئة التى يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ولقد كان حديث « ورقة بن نوفل » للنبي - ﷺ - وقوله له : « ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ... لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت



به إلا عودى « بمثابة التأويل لهذا الضم الذى حصل من جبريل إلى حد أن بلغ منه الجهد ، فإن التاريخ الذى مر به - ﷺ - والشدائد التى لاقاها والخصومات التى قامت فى وجهه والحروب التى خاض غمارها من أعداء الدعوة كانت تطبيقاً لتلك الصورة التمثيلية الرائعة التى مثلها أمين الوحي وتصديقاً - كذلك - لقول « ورقة بن نوفل » : لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلا عودى .. ولكن محمداً - ﷺ - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل والخوف الذى اعتراه والهلع الذى أصابه وتنبؤ ورقة بإخراج قومه له وعداوتهم إياه لم يثن ذلك من عزمه أو يقتل طموحه أو يطفىء نار الشوق إلى الغاية التى كان يترقبها وظل بعد ذلك يود أن تتكرر الحادثة وكان بصره دائماً يتطلع إلى الساء وقلبه دائماً مرتبط بغار حراء رجاء أن يتجلى الله عليه وتحفه الرحمة منه فلما فتر عنه الوحي ظلت جوانحه تغل وفؤاده يخفق وعروقه تتمزق وأخذ اليأس من الدنيا يعاوده والكراهية للحياة تعتريه .. إلا أن كلمات خديجة التى وجهتها إليه فى ساعة الفزع - إذ قال لها لقد خشيت على نفسى - كانت فى أذنه فى كل وقت أشبه بالموسيقى الحلوة والنغم الحبيب يذكرها بينه وبين نفسه : « لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » ويحاول أن يطمئن إلى أن ربه أكرم من أن يخذله أو يخزيه مع ما هو عليه من خلال وما هو فيه من طاعة .

والبطولة التى تبدت فى موقف خديجة - مع أن الزوجة أجدر بالجزع وأحق من غيرها بالفزع - تدل على أن العزيمة القوية والإيمان الصادق والعقل الراجح والرأى السديد وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجل بلسم جراحه ، وراحة نفسه ، وظل له إذ اشتدت عليه حرارة الشمس ، أو تضعف عليه لفح الحياة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ (١) فإن العاقل يفهم معنى قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » تمام الفهم ، من مثل هذا الموقف الذى وقفته خديجة منه - ﷺ - والرجل تصيبه المتاعب وتعتريه الهموم وتتراكم عليه المصائب فتضيق الدنيا فى وجهه وتلتوى المسالك أمامه ، فلا يشع له بصيص النور إلا فى وجه شريكة حياته التى تمسح دموعه وتدأوى آلامه وتحمل همّه وتحفّف مصابه ، بما تكنه له من ود ، وتضمّنه من إخلاص ، وترجوه من خير ، وتحلم به من أمان وآمال .

### ما ودّعك ربك !!

على الرغم من الخوف الذى اعتراه - ﷺ - والفزع الذى أصابه والهزة العنيفة التى كادت تقصف بقواه ، لولا ما كان من أمر « ورقة » وعزاء « خديجة » فإن شعوره بالشوق الحار إلى معاودة الوحي إياه وملاقة جبريل له - كانت تقصّ عليه مضجعه ، وتملك عليه تفكيره كله ، فكان دائم الرغبة إلى تكرار ما حدث ورجوع ما كان وبلغ من حنينه إلى الملك وجهه له وظمته إلى مشاهدته أن كان يزرع الأرض بقدميه صاعداً إلى حراء أو هابطاً منه متلفئاً هاهنا ، علّ صوتاً يسمعه ، أو نداءً يقرع أذنه أو بشيراً يقابله أو هاتفاً يناجيه أو نوراً يسطع عليه ليطمئن خاطره ، ويذهب قلقه وتبدد وساوسه وينقض بأسه أو تنقشع

عن تلك السحابة من الحزن الذى كان يلزمه من جراء حالة المرجفين وحديث الشامتين الذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد تركه ربه وبغضه مولاه وانصرف عنه ذلك الملك الذى كان يزعم أنه ينقل له خبر السماء ويبلغه التحيات المباركات عن خالق الكون كله ، ولا يؤلم المرء أو يحز في نفسه أو يسىء إلى شعوره ويكدر خواطره مثل الشدة بعد الفرج والإحجام بعد الإقدام ، والنقمة بعد النعمة والشر يجيء بعد الخير .

وقد ظل هذا الحرمان الذى ابتلى به مدة يختلف المؤرخون في تحديدها على أقوال متضاربة وآراء متباينة من أربعين يوماً إلى ثلاث سنوات إلا أنهم لا يختلفون في أنها أشد أيام مرت به وأوجع شدائد صادفته وآلم فترات عاشها في الحياة .

ونحن من جانبنا إنما نتصورها أسلوباً من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية : إنه أحسن الوسائل للتعلم بالمطلوب والتلقى له والحرص عليه ووعيه وعياً لا يخامره شك ، ولا يداخله ريب وقد كانت كل خطوات جبريل معه - ﷺ - تربية وتهذيباً وتعليماً وتوجيهاً وإرشاداً ليكون منها بعد ذلك كله أحسن المواعظ والعبر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .

على أن الوحي بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه وشفى غيظه وأذهب غليله وأرضى خاطره وبدد همومه وأحزانه بما أسبغه عليه من بر وأضفاه عليه من معروف وأشاعه فيه من أمل ورجاء : ﴿ والضحى ﴾ والليل إذا سجدى \* ما ودعك ربك وما قلى \* وللآخرة خير لك من الأولى \* ولسوف يعطيك ربك فترض . \* ألم يعجذك يتيماً فأوى \* ووجدك ضالاً فهدى \* ووجدك عائلاً فأغنى \* فأما اليتيم فلا تقهر \* وأما السائل فلا تنهر \* وأما بنعمة ربك فحدث ﴿<sup>(١)</sup>﴾ ومحمد - ﷺ - بإجماع المنصفين من فحول البلاغة لا يدانيه أديب ولا يدرك شأوه فصيح ولا يجرى في حلبته إنسان وقد وجد في هذا الخطاب الذى وجه إليه والأسلوب الذى تحدث به الوحي غمطاً من القول ولوناً من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل ، سحره تصويره وخلبه بيانه ، وامتلأت منه نفسه بما له من روعة وما فيه من حسن ارتفع إلى سماء عالية فلم يسعه إلا أن يقف منه موقف الذاهل إعجاباً بتمكنه من التأثير عليه تمكناً أنساه ما كان يعانیه قبل ذلك من حرارة الحرمان ولوعة الفراق .

ولقد رأى - ﷺ - قوله سبحانه : « والضحى والليل - الآيات » خطاباً يلامس وجدانه ويشير أحاسيسه فهو يقسم له بالضحى والليل وبها يذكر محمد ليل همه وظلام حيرته وضيق صدره وجرح نفسه وتراكم هواجس وكأنا يتخيل باقترانها وجميى الضحى آخذاً بتلايب الليل : أن مع العسر يسراً ، وبعد كل ضيق فرج فيتطامن ويهدأ ويسكن ويسكت .

وفي ذلك العرض الإجمالى لتاريخه : ﴿ ألم يعجذك يتيماً فأوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ تأخذه الدهشة لأنه تصوير ناطق وتعبير صادق لم ينحرف عن الواقع وكأنا كان حاضراً معه ، فينتقل من تلك الدهشة التى تبعث الرهبة في نفسه والمهابة في قلبه إلى قوله : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ﴾ فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف ويستريح الراحة كلها

لهذه الوصية الأكيدة التي يوصيه بها ربه لأنه ذاق اليتيم ، وعرف مرارة الحرمان التي قد تحمل صاحبها على ذل السؤال وكأنما يناجيه فؤاده بأن شيئاً من ذلك كله لا يكون منه ، ثم يعود إلى ذلك الصوت الذي يهز ضميره : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فيحمد الله على هذا الوعد الحلو والبشارة الصادقة .

وهكذا جو من البهجة والرضا والسعادة والأمل والغبطة والارتياح ينسى بها كل شدة كانت وكل كرب كدّر صفوه وأتعب خاطره وهو ما بين الاحتفال بشأنه والعناية بأمره والوعد له والرعاية التي تحيط به من كل جانب في جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

لكنه - ﷺ - مع ذلك كله كان يقف في الميدان وحده إلى أن آمنت به زوجته خديجة وصارت تصلي الصلاة التي علمه إياها جبريل وتسبقها بالوضوء والطهارة وتقرأ ما يقرأ من القرآن وانحصر تفكيرها كله في الوقوف إلى جانبه بما لها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر إليه كزوج إلى مؤمنة مخلصه صادقة ، تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معاني الزوجية فترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله به عليه من الهدى والإرشاد وكان إحساسه منها بذلك كله يشد أزره ويقوى ساعده ويبعث في نفسه الإيمان بأنه منتصر لا محالة طال الأمد أو قصر . .

ثم آمن به من الغلمان « على بن أبي طالب » الذي كان يتربى في بيته والذي أراد النبي - ﷺ - بصنيعة - معه أن يرد لعمه أبي طالب بعض جميله عليه إذ كفله صغيراً بعد انتهاء كفالة عبد المطلب . . ولم يتدنس على - كذلك - بشيء من دنس الجاهلية - لذلك قيل عنه كرم الله وجهه !! وآمن به - أيضاً - مولاه « زيد بن حارثة » ، وآمن « أبو بكر » وكان وجيهاً في قريش يهابونه ويحترمونه ويكبرون رأيه وتفكيره فكان لإيمانه أثر بارز وفائدة عظيمة حيث قفى على أثره « عثمان بن عفان » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبي وقاص » وغيرهم ممن قوى بهم ظهر النبي . وصار حديث الإسلام يتهامس به العرب في كل مجلس .

### تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ

كان أبو هب اللعين عمّاً للنبي - ﷺ - يجمعه به آصرة الرحم والقربة وشيعة الحسب والنسب واللحم والدم والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم وأكثر حمية لأهلهم وذوى قرابتهم ولا يحتملون فيهم أذى ولا يقبلون أن يلحق بهم ضرر أو ينافهم مكروه معظم ما كان يقع بينهم من حروب ، تراق فيها الدماء وتزهق النفوس يرجع سببه الأصيل إلى الحمية للقربة والدفاع عن العرض أو الانحياز إلى جانب النسب .

والعقل البشري لا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا الرجل - على ما بينه وبين النبي من القربة - يحقد عليه هذا الحقد - ويبغضه هذا البغض ويشغل بعداوته والصد عنه والتنفير منه وإقامة الأشواك والعقبات في طريقه إلى هذا الحد ؟!

ولقد دفعت الحمية لمحمد - ﷺ - والغيرة عليه والعصبية له « الحمزة بن عبد المطلب » وهو أخ لأبي هب أن يعلن إيمانه بابن أخيه رداً على ما بلغه عن أبي جهل من تطاوله على محمد وسخريته منه .

فهل يدور بخلدنا أن القراية غير القراية والوشيحة غير الوشيحة والدم غير الدم ؟ أم أن الجهل هو الذى يطمس على البصائر ويحول بينها وبين أن ترى الحق وتتبع سبيل الرشاد ؟  
ويكفى أن التاريخ الذى لا يظلم أنزل كل إنسان المنزل التى تليق به والمكانة التى تناسبه وهذا هو أبو هب يكوى بميسم من نار إلى جانب ذلك التشنيع الذى أصابه والعار الذى لحق به وامرأته حمالة الخطب فى جيدها حبل من مسد وهو ازدرأ وتنكيل لم يكن محمد ليقدر عليه ولا يستطيع أن يلحقه بأبى هب ، ولو كان أحد من العرب صنع ذلك الصنيع بأبى هب لزعجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعداها ، ثم جعل الأرض ترتوى بدم القتلى ، وبخاصة لذلك الازدرأ الذى يجعل زوجته من الابتذال والمهانة بتلك المثابة ، وللمرأة عند زوجها تقدير عظيم واحترام بالغ يجعلانه وجود لها بنفسه ويبدل فى سبيلها أعلى ما يملكه ، لكن الذى فعل بأبى هب ذلك هو جبار السموات والأرض ، لهذا فإن أبا هب ذهل ودهش ، ولم يملك إلا الحقد الدفين والكيد الخفى والعداوة الكاشمة أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة وذهبت من غيظها بسلى جزور ورمت به النبى - ﷺ - وهو ساجد لربه فى إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فتر عنه الوحى وترضاه الله بعودته إليه ، وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من ذوى المكانة فى العرب ، وكانت الدعوة لا تزال فى الخفاء لا يجراً أحد على إعلانها ، ولا يستطيع إنسان أن يرفع رايثها ، واتخذ المسلمون دار « الأرقم بن أبى الأرقم » مخابهم الذى يجتمعون فيه ويتدارسون لثلا يتعرضوا للأذى أو يستهدفوا للضرر وظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى نزل عليه الوحى بقوله جل جلاله : ﴿ وأنذر عشيرتک الأقربين ﴾ (١) عسى أن يكثر بهم سواده ، أو تتمكن منزلته بينهم أو تقوى آصرته فى جوارهم فلم يسعه إلا أن يمثل أمر مولاه ، وفى هذه الآونة صعد الصفا ونادى : « يا صباحاه ! » وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة للحرب والنفير للقتال وكانوا يرون تلييتها والاجتماع بها من أوجب الواجبات وأقدس الأمور فلما سألت عليه شعاب الحى من كل ناحية وغص بهم المكان ، قال لهم : « رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقاً ؟ » وهنالك قالوا له : « نعم .. ما جربنا عليك كذباً ! » فقال - ﷺ - : « إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ! .. إنكم لتموتون كما تنامون ولتبعثون كما تستيقظون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً ، وإنها لجنة أبدأ أولنار أبدأ » وإلى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف وسلامة العاقبة وقبول الدعوى أو رفضها ، لأن محمداً - ﷺ - قد أتى البيوت من أبوابها وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد وأخذ منهم صكا على أنفسهم بأنه صادق غير كاذب فلم يكن إصرارهم على الباطل بعد ذلك كله إلا مكابرة وعناداً كان الأليق بهم أن يتحاشوها ولذلك كان هذا الرد من أبى هب على الرسول الكريم : « تبا لك : ألهذا جمعتنا ؟ » ومع كونه تصويراً للطيش ودليلاً على الحمق لا يستحق إلا هذا الردع القاسى والرد المؤلم : ﴿ تبت يدا أبى هب وتب .. ما أغنى عنه ماله

وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد ﴿١﴾ وكانت تشى بالنبي عند قریش لتؤليهم عليه وكأنها بذلك تحمل الحطب لتشعل به النار ، وكان في عنقها حبلاً من ليف لتحزم به ذلك الحطب وهو تصوير - كما ترى - يسمو على كل تصوير .

وقد كان في الشعر الجاهلي هجاء يتناول الأخلاق والأعراض ، وينال من العلية والسفلة والكبار والرؤساء والعظيم والحقير وكان العرب يثرون الثورة العارمة لهذا الهجاء إلا أنه كان في الكثير الغالب من النوع المبذل أو الأدب المكشوف ، يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه .

وهذا الهجاء الذي أصاب أبا لهب كان من طراز جديد ، لأنه لم يعد أن أظهره مع ماله وولده في هيئة الذليل الحقير أمام عقاب الله له يوم القيامة ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وأن امرأته التي هان شأنها وذهبت كرامتها وابتذل عرضها لا تعدو أن تكون في صورة ﴿ حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ وأمام هذا التهديد المقلق والهجاء المقذع والتنكيل الشديد بأبي لهب بدأت دعوة محمد - ﷺ - ترفع رأسها وابتدأ وابتدأ المسلمون - كذلك - يسفّهون معبودات المشركين ويعيبون آلهتهم الباطلة ويعلنون أن الإسلام حق لا مرية فيه ، حتى إذا ما بلغ عددهم الثلاثين ، وكان « الحمزة بن عبد المطلب » ، و « عمر بن الخطاب » وهما دعامتان قويتان للمسلمين ، قد أسلما ، نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ ﴿٢﴾ وهناك أخذت الدعوة طوراً آخر تجاوزت به مرحلة الهمس إلى مرحلة الإعلان .

### رَجُلَانِ

رجلان كانت الدعوة الإسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما إليها ، ووقوفهما إلى جانبها يدافعان عنها ويشدان من أزرها ويجعلان كفتها ترجح على كفة الشرك والمشركين كلاهما بألف رجل أويزيد لأن بطولته النادرة وشجاعته الفذة وصراحته البالغة من شأنها أن تجعل قریشاً تسكت عن « محمد » - ﷺ - وتخشى بأسه وتحسب لحربه ألف حساب ، أولهما « الحمزة بن عبد المطلب » - سيد الشهداء - وثانيهما « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه .

أما الحمزة هذا فكان سبب إسلامه غيرته على الرسول وحميته له وغضبه لأجله وكرهيته أن تنال منه يد آثمة مهما كان شأنها وقد رووا أن أبا جهل - قبحه الله وأخزاه - تلاقى بالنبي ﷺ عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ثم لطمه على وجهه وسرى ذلك الخبر في شعاب مكة وقابله الناس بالبشاعة والاستنكار والوجوم والسخط وعدم الرضا والارتياح ، وكان « الحمزة » في لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالصيد والقنص والرياضة في الصحراء بعيداً عن العمران فلما رجع من رحلته وحضر من سفره وانتهى إليه هذا الخبر المؤلم لم يستطع الصيد ولم يقدر على الأغفاء ولم يحتمل مع كفره وكونه جندياً من جنود المعارضة لابن أخيه أن يسكت على هذا الضيم الذي أصابه في أهله فذهب إلى المسجد وأخذ بتلايبب أبي جهل وضربه بالقوس

(١) سورة المسد الآيات من : ١ - ٥

(٢) سورة الحجر الآية : ٩٤

على ناصيته ولما شجت رأسه وسال دمه وأراد بعض أصحاب أبي جهل أن يثأروا له أمرهم أن يكفوا ، وقال لهم : أنا الباغي وعلى الباغي تدور الدوائر وأفهمهم أنه تطاول على ابن أخيه ظلماً وعدواناً .  
وفي هذا الوقت لم يسع « الحمزة » إلا أن يواصل سعيه لشفاء غليله من أبي جهل وفريق المشركين أجمعين فذهب إلى ابن أخيه وأعلنه أنه منذ هذا اليوم قد صار جندياً من جنود الله في ميدان الدعوة إلى دينه ، والدفاع عن شريعته ثم ظل إلى جانبه - ﷺ - وكان الرسول يحبه حباً لا مزيد عليه ولأن الذي قتله ( وحشى ) - عبد جيد بن مطعم - في غزوة أحد كان لا يحب أن يراه على الرغم من أنه أسلم بعد ذلك - والإسلام يجب ما قبله - ولذلك يحكى هذا القاتل عن نفسه : أنه كان أشد الناس ألماً لما كان من الرسول له وظل ذلك يحز في قلبه ، وكان يود مخلصاً أن يرضى عنه الرسول ، ﷺ فقيض الله له أن يقتل مسيلمه في خلافة أبي بكر فاطمأن خاطره ورجا من الله سبحانه وتعالى أن يكون ذلك إرضاءً للنبي - ﷺ -

وثاني الرجلين « عمر بن الخطاب » الذي لم يجد الزمن بمثله في تاريخ الاسلام والمسلمين عدالة وإنصافاً وصرامة على الباطل وتمسكاً بالحق ودفاعاً عن الدين ودفعاً لراية القرآن واعتزازاً لكلمة الله ، وإرهاباً للمشركين وإذلاً للمعاندين وتوطيداً لدولة محمد - ﷺ - وقد كان في كفره درعاً للشرك وسيفاً للشيطان وقوة لخصوم الدعوة وكان السبب الذي جعله يفيق من غوايته ، يشوب إلى رشدته ويشرح الله صدره للإسلام أنه أخذته الحمية لما فعل « الحمزة » بخاله أبي جهل فهام على وجهه وأخذ طريقه إلى « محمد » ليقتله وبينما هو في الطريق لقيه أحد أصحابه فقال له : إلى أين يا عمر ؟ فأخبره الخبر ، فأنكر عليه القصد وقال له : كان أولى بك أن تعمل ذلك بأهل بيتك لقد صبت أختك هي وابن عمك زوجها ! وما كان ( عمر ) يدرى من أمر هذا قليلاً ولا كثيراً فغلى دمه في عروقه وبدأ على وجهه الغيظ وحول قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما في بيتهما وحول قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما كالأسد الهصور ولما أشبعهما ضرباً نظر إلى وجه أخته الذي كان يسيل منه الدم فسكن نائره وهدأت حدته وكانت قد أخفت بعض صحائف من « القرآن » .

فقال لها : ما هذا الذي واريته عني ؟ قالت له : إنه كلام رب العالمين فطلب منها أن تواصل القراءة ليسمع هو إلى ذلك فظلت تقرأ في سورة ( طه ) إلى أن وصلت إلى قوله تباركت أسماؤه : ﴿ إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ (١)

وهناك تطامن الأمر من ( عمر ) ، وزال غضبه وتحولت غلظته إلى رقة وكراهيته إلى محبة وجحوده إلى إيمان وأحس كأن الأرض تميد به وأن السماء تنطبق عليه وأن يوم الحساب قد حضر وأنه قد كذب به في جهنم فصاح بأعلى صوته أين الطريق إلى محمد ؟ لأقتبس من نوره وأروى الظما من رحيقه وأمتع النفس بعذب بيانه وكان المسلمون يترقبون في كل وقت من « عمر » أن يفتك بهم أو يتطاول عليهم لذلك أخذ كل

منهم يقول : أنا أكفيكم شره وأرد عنكم عدوانه وقال النبي - ﷺ - « بل علىّ به فإن أقدر عليه منكم » واستقبله النبي بقوله له : « أما آن لك أن تهتدي يا عمر ؟ » .

وكان رد عمر بالاذعان والتسليم والايمان والانقياد وعلان الشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأشاع خبر انضمامه إلى معسكر المسلمين الذعر والهلع في نفوس المشركين وأخذ المسلمون يطوفون معه على مجالس قریش ومنتدياتها ليقعوا في قلوبهم الرعب ولم يرض « عمر » منذ أعلن إسلامه أن يكون المسلمون في خفية بدينهم وقال للنبي - ﷺ - : « يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ » قال له : نعم يا عمر ، فقال له : علام نرضى الدنيا في ديننا ؟ وهنالك أمر - ﷺ - بالجهر بالدعوة .

وتاريخه - رضى الله عنه - حافل بالأعجاد ، ملئ بالمكارم يعطى الصورة الرائعة عن الحاكم الاسلامى العادل ، والجندي المجهول في مؤازرة الحق ، ومعاونة الانصاف ، وفي الوقت الذي رغم أنف كثير من المؤمنين على أبي بكر لأن تكون الخلافة له من دونهم كان هو يساعده ويساعده وينصح له ويشير عليه كان « أبو بكر » لا ينسى له ذلك ولا يغمطه بل كان دائماً أبدأ كلما أثار له الطريق أوفتح في وجهه المغلق يقول له أمام الأَشْهاد : « لقد كنت أولى بها مني يا عمر » ولا يرى أن ذلك يضيع كرامته أو ينزل بقدرة ، أو يحمل الناس على أن يتمردوا عليه .

ولعمر فضل التحرر والانطلاق وعدم الجمود في الشريعة الاسلامية لأنه كان - حتى والوحى ينزل - إذا لم ينقدح في ذهنه الحكم أولم تظهر فيه حكمة التشريع يسأل ويستوضح ولا يرضى أن يأخذه قضية مسلمة بل كان هو بنفسه مدرسة للمسلمين تعلموا منها حرية الرأي والعلّة تدور مع الحكم وجوداً وعدماً وأمثال ذلك من القوانين التي تدل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

### والله يا عمي .. !!

كان لزاماً على « محمد » - ﷺ - وقد أمره ربه بإعلان الدعوة ونشر الرسالة . وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره بعض الكبار أمثال « أبي بكر » « وعمر » « وعثمان » « وحمة بن عبد المطلب » وهم قوم لهم منازلهم المرموقة ومكانتهم المحترمة ، وبعد أن صار أبو جهل واضرابه من المعاندين يشتغلون ليل نهار في مناوآته والكيد له والتنفير منه والتشويه لدعوته لذلك أخذ يبرز في المحافل ويذهب إلى الأسواق فيستجيب له من يستجيب .

وكانت تلك الحال أشبه بحرب باردة قامت بينه وبين قریش فصارت تؤمن إيماناً لا يخامره شيء من الريب أن مجد زعمائها مقضى عليه وجاههم في سبيله إلى الزوال وسلطانهم آخذ في التقلص وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لأن الدين الجديد الذي جاء به محمد - ﷺ - وإن لم يكن ملكاً سيقوم على أنقاض ملكهم ولا سلطاناً سينازعهم السيادة - إلا أنه يذيب الفوارق ، ويمزج بين الطبقات وينفر من التسلط ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب والثروة المغتصبة والغنى من غير الطريق المشروع ولا يملك للأثنية الجوفاء ولا الأثرة البغيضة .

وقد كانت السدانة على البيت الحرام والرياسة على العرب وحق الفصل في الخصومة والحكم في الديات والتقدم في المجتمعات سمات بارزة تميزهم على غيرهم وإذا استرسل ذلك الداعي في دعوته فسوف يكونون سوقة بين الناس لا يمتازون عن غيرهم بفضل ولا يتقدمون بجاه ولا يشرفون بحسب ولا نسب لأن « محمداً » يقول : « الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى »<sup>(١)</sup> وهنالك أجمعوا أمرهم على الوقوف في وجه « محمد » مهما كلفهم ذلك كله من ثمن وشرعوا يتخذون مختلف الأساليب فلما أعيتهم الحيل كلها لم يجدوا إلا الالتجاء إلى « أبي طالب » ظناً منهم أنه هو الذي يحمي ظهره ويقف بجانبه فإذا تخلى عنه صار من السهل عليهم أن يردوه أو يمنعوه من المضى في سبيله .

وكان الالتجاء إلى « أبي طالب » في لين وسياسة وترغيب وإغراء حيناً أوفى شكل تهديد ووعيد وسخط وغضب حيناً آخر فمرة يعرضون عليه أن يتبنى بعض الفتيان الذين فيهم وسامة وحسن ، وقوة وجلد على أن يسلم لهم ابن أخيه ليفعلوا به ما يريدون فيقول لهم أبو طالب :

« بش الرأي ما ترون » ومرة أخرى يمتزج الوعيد بالوعد والرغبة بالرهبة والأمن بالتخويف والرضا بالغضب ، إذ يقولون له : إن كان ابن أخيك يريد ملكاً ملكناه علينا وإن كان يريد المال أعطيناه حتى لا يرجو مزيداً وعليه بعد ذلك أن يكف عن آهتنا التي ازدراها ومعبوداتنا التي حقرها وإلا فإن لنا معك ومعه حساباً آخر وسلوكاً جديداً وأبو طالب أمام هذا القول يقف موقف الحيرة ويظل يفكر في أهله وقومه كما يفكر في ابن أخيه الذي لا يصح له أن يسلمه أو يخذله أو يخيب رجاء فيه وفي تيار هذه الوجدانات المتناقضة والعواطف المضطربة ، يذهب إلى ( محمد ) - ﷺ - ليأمره أن يكف عن إيلامه لهم وعدوانه عليهم وإحراجهم إياهم وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذي عرضه والعدة الطيبة التي وعدوه بها وفهم - ﷺ - من حديث عمه أنه ينوى أن يتخلى عنه ، فلا يقف له دونهم فأغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتذى بربه ويستعين بخالقه ويعوّل على القوى القادر ، ثم قال له في لهجة المطمئن الواثق : ( والله يا عمي ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما رجعت عن هذا الأمر أو أهلك دونه )<sup>(٢)</sup> فرق قلب « أبي طالب » وقال له يا بن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك ولا أخذلك ولا أسلمك لهم . . !

ومن حق الأديب البارع والفيلسوف الماهر والناقد البصير أن يقف أمام هذه الحملة التي نبعت من فيض إيمان « محمد » بربه وصدرت عن قلب امتلاً بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة ، ولا لدنيا الناس ولا لأكاذيب الجاه أو السلطان .

ترى هل كان يتروى في نسجها ويتأنق في صوغها ويفكر قليلاً أو كثيراً في تأليفها ، لتنتلق انطلاق السهم وتدوى دوى المدفع وتسير مسير الشمس فلا فم إلا وهو مرددها ولا لأس إلا هو واعياها ولا عقل إلا وهو مكبرها ويعجب بها أم أنها صدرت عن طبع وانحدرت عن سجية وحدثت من غير تكلف شأنها

(١) الدر المنثور للسيوطي سورة الحجرات ٥٨٠/٧

(٢) تاريخ الطبري ٣٢٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقي ١٨٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٣٠/١



شأن الشهيق والزفير ، وهي وحدها تطوى ذلك التاريخ طياً في ماضيه وحاضره وتبرز لهذه الأمة سيرة المنقذ واضحة لا غموض فيها بسيطة لا تكلف معها .

وفي الحق أن اليقين الذي عمرت به نفسه والايمان الذي أثار بصيرته والثقة التي لا حد لها في خالق الخلق وبارئ النسم ومصرف الكون تجعله يسخر من كل هذه المظاهر وما الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والسماء والجاء والسلطان والنفوذ والحكم والرياسة والملك أو ما يسوى ذلك وذلك ؟ أليست كلها من خلقه جل جلاله ؟ ونتيجة حتمية لقوله : « كن » ولو شاء لأزأها وسلبها بهجتها على أن الذي امتلأت يده بأعظم من الشمس والقمر لا يفرح بها ولا يطرب لحيازتها وقد ملأ « محمد - ﷺ - » يديه برضا ربه عنه وحب مولاه له وأفعم قلبه الكبير به وهي ثروة - كما يرى - لا يكون القمر والشمس معها إلا هباءً منثوراً وما المال والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه إلا كملاً نفسياً يطلبه المرء ليجبر به نقصاً كان به أو يغطي عواراً لحقه « محمد - ﷺ - » كما جاء في سورة الضحى - صنعته خالقه على عينه وأدبه سيده بأدبه وتعهده مولاه بعنايته ، وطهره بآرائه من رجس الشيطان فكان قلبه نقياً وفؤاده سليماً وضميره متيقظاً وروحه عالية وهمة بعيدة وعقله رشيداً وإيماناً حمياً . . وكل هذه معان إذا أضفى الله - سبحانه وتعالى - رداءها على إنسان صار بها من الأبرار المقربين لا يف في غرض ولا ينحرف في قصد ولا يلتوى في سنن ولا يقصر في واجب ولا ينأ عن مكرمة ولا يقف دون غاية .

وهذه الكلمة التي قالها ( محمد - ﷺ - ) إلى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف واحتقار لما كان لديهم من دنيا وازدراء لما كان عندهم من موازين ترسم للمصلح الاجتماعي التصميم الجازم الذي يصير عليه والعزيمة القوية التي يتحلّى بها وإلا كان جهده هزيباً وعناؤه ضائعاً وسعيه خائباً . . وذلك هو المنطق الذي وصل به الرسول الكريم إلى القمة وانتهى به إلى الغاية مع قلة عدده وكثرة خصومه .

### عنت ومكابرة . . !!

التجأت قريش مع النبي - ﷺ - إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت في كل محاولة وخابت في كل سعى وأخفقت في كل جهد ظناً منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأغرار فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ولا يكون هذا الرسول في نظرهم إلا صورة للرجل المحرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذي يقذف بالدعاوى طويلة عريضة من غير دليل يؤيدها أو برهان يصدقها ولم يدر بخلداهم أن زيفهم سينكشف وأن سحابة الصيف لا بد أن تنقشع : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ (١) كما لم يدر بخلداهم أن الخصم الذي يلتجئ إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن ضيق عطفه وسفاهة رأيه وطيش عقله وأنه لا يزيد شيئاً - في ميزان الحق - عن دموع المرأة التي تفرع إليها حينما يدركها الإعياء ويصيبها الهزيمة وهم أهل لدن ، وأرباب بيان ودهاقين منطق وأصحاب بلاغة رائعة وما كان يظن ظان أنهم سينحدرون هذا الانحدار أو يسفون ذلك الاسفاف أو يتهافون إلى هذا الحد .

والذى يتبع « القرآن الكريم » ليقف على ما كان منهم من عنت ومكابرة يجد الأعاجيب من أغاليطهم والأكاذيب فى دعاواهم ولعل ذلك كله يبرز بصورة واضحة إذ كانوا يتهمونهم فيما يقوله عن ربه وينقله إليهم من وحيه ويزعمون أنه يمليه رومى كان يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من جنس له تشريع ولقومه ثقافة ومعرفة وأن هذا الذى يجىء به - ﷺ - فيه من المنطق وله من سبيل التربية والتهذيب وعليه من مسحة الأخلاق والأدب ما يروج لتلك الشبهة المدعاة وتناسوا أن ذلك الكلام الذى يقرؤه « محمد » من معين عربى بحت وبيان لعربى محض ليست عليه سحنة الترجمة ولا فيه طابع النقل وقد كان أولى بهم وهم نقلة الكلام. وأصحاب الذوق الأدبى ودهاقين البلاغة أن يلتفتوا إلى البون الواسع بين الجنسین ﴿ لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ (١) لكن ذلك على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذونى » ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ولهذا كانت محاولاتهم مفضوحة حتى بينهم وبين أنفسهم وليس أدل على فضيحتهم من أن « القرآن » لسحر بيانه وعدوية منطق وقوة أسره ودقة تصويره كان يستهويهم جماله ويبهزمهم نسجه ويأخذهم حسنة فلا يملكون أن يتحولوا عنه أو يميلوا إلى سواء وكانوا لذلك يختلسون الخطى ويتحينون أن تسنح لهم فرصة التكرار ، ليستمعوا منه بعضاً عما يقرؤه الرسول - ﷺ - حتى إذا ما فشا عليهم ذلك وعرف عنهم وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة وأن يتحولوا جميعاً إلى مفتونين بجرسه مأخوذین بسحر ألفاظه تعاقدوا على الكف وأكدوا بينهم المواثيق على ألا يفعلوا ثم كانت النتيجة المزرية أن كان يتلاقى كبارهم متلبسين بالجريمة فإذا تعاتبوا ادعى كل منهم أنه كان يتجسس على أخيه !!

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن من أنباء السابقين ، قصصاً جاء بها للاتعاظ وهو نوع من التربية الحكيمة الذى يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم كما قال سبحانه ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ (٢).

وظنوا - هم - أن « محمداً » يؤلف ذلك كله من خياله ويخترعه من وهمه قصداً إلى التلهى ليلتف حوله الفارغون من العمل المتعطلون عن الوظائف بعثوا « النضر بن الحارث » ليطوف على أهل القصص من الروم والفرس ، ليعارض « محمداً » ويحول الناس عنه : ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ﴾ (٣) وفاتهم أن الذى يقصه « القرآن » برهان قائم على أن « محمداً » لا يدعى ما يجىء به ولا يزعم ما يحكيه :

﴿ وما كنت بجانب الغرب إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكننا أنشأنا قرونا

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١

(٣) سورة لقمان الآية : ٦

فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتتذرع قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴿١﴾ . وهو تاريخ ليس عندهم علمه ولا بأيديهم كتبه ولا بين ظهرائهم رواته : ﴿٢﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿٣﴾ .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم بل كانوا يتوهمون أنه لا يكون إلا من الملائكة ﴿٤﴾ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ونسوا أن الجنس أميل إلى جسسه وأن الإنسان يأنس للإنسان ﴿٥﴾ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴿٦﴾ . فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وهزال هذا الرأي اتجهوا اتجاهاً آخر ﴿٧﴾ وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴿٨﴾ يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة أو أبا مسعود بن عمير سيد ثقيف الطائف وقد قطع الله عليهم السبيل بقوله : ﴿٩﴾ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿١٠﴾ .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الإتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه والتسليم له ، ووصفوا بالحلاوة والطلاوة والاعداق وكثرة الثمر فإن حديثه يطول وحسبنا أن نقول : إنه تحداهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يبق بعد ذلك كله إلا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار والصراط والميزان والجزاء على الأعمال يوم القيامة وإعادة الأجسام بعد فنائها التي تعرض لها - ﷺ - في دعوته ، ليقوع الرهبة في نفوسهم والهلع في قلوبهم عسى أن يتخوفوا المصير ويحذروا سوء العاقبة وقد كانت هذه - أيضاً - محل تندر عندهم ومجال تكذيب وشك ولا سيما الشجرة التي تنبت في أصل الجحيم ليأكل منها أهل النار فيشتد بهم الظمأ ولا يجدون ماء يرتوون به مبالغة في العذاب والإيلام ﴿١١﴾ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ﴿١٢﴾ والتي جاء ذكرها في آية أخرى في قوله جل جلاله : ﴿١٣﴾ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه رؤوس الشياطين ﴿١٤﴾ ولم يعقلوا أن تعيش شجرة في النار أو تبقى على شدة اللهب وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة وقدرة المخلوق على قدرة الخالق وما علموا أنه - سبحانه - على كل شيء قدير .

وقد كان ( لخباب بن الأرت ) دين على كافر من هؤلاء المعاندين فلما طالبه به وألح في الطلب وكان ذلك الكافر يريد أن يتخلص منه قال له يا خباب سأدفع لك هذا الدين يوم البعث مع أن عقلاءهم تحدثوا به وحكماءهم ردده على ألسنتهم ولم ينكره هذا الإنكار الا الملاحدة الذين كانوا يقولون - كما حكاه عنهم القرآن ﴿١٥﴾ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴿١٦﴾ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٤

(٦) سورة الدخان الآيات : ٤٣ : ٤٦

(٧) سورة الصافات الآيتان : ٦٤ : ٦٥

(٨) سورة المؤمنون الآية : ٣٧

(١) سورة القصص الآية ٤٤ : ٤٦

(٢) سورة النجم الآية : ٤

(٣) سورة الأنعام الآية : ٩

(٤) سورة الزخرف الآية : ٣١

## المُعَذَّبُونَ

لما لم تفلح قریش فی رد « محمد » ﷺ - عن طريقه الذى سلكه ولا عن دعوته التى آلى على نفسه أن يَمْضَى فيها إلى النهاية وقد خاب ظنّها فى « أبى طالب » الذى كانت ترجو أن ينتصر لها ويضرب بسيفها أو يسلم لهم ابن أخيه إستعملت معه أقذر الأساليب فى الإيلام وأحقّر الوسائل فى الكيد ولم تكثف بالسخرية منه والاستهزاء به ولا بإلقاء الأوساخ عليه وهو مار فى الطريق أو ساجد فى الصلاة أو أن يكون ذلك كله من الصبيان والنساء لا من الكبار المرموقين كعقبة بن أبى معيط أو أبى جهل وهما من المستهزئين الذين نكل الله بهم وانتقم له منهم وأراه مصارعهم الذليلة ونهايتهم المحزنة . إستعملت أقذر الأساليب لتصرف عنه أصحابه وتفرق من حوله أتباعه ليقف هو وحده بعد ذلك أشبه بالخليع المعيل ولقد نجحت فى ذلك كله إلى حد ما وأصبحت مكة ومنها من يعرفه ولا ينكره ويحترمه ولا يحقره لا تفتح أبوابها له ولا تأهل مجالسها به ولا تقبل كفارها بحال من الأحوال أن يعلن فيها محمد دعوته أو يرفع عقيدته أو يقول : لا إله إلا الله ، كما أصبح المسلمون هنالك مهتدين بالردة أو معرضين لأقسى أنواع الإيلام والأذى ولقد ارتد فريق من هؤلاء الضعاف الذين أحسوا أنهم معرضون للموت وهكذا يكون العنت القدر والكيد الوضع والخصومات الفاجرة .

إلا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن ليشتك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان ويحتملون الضيم ويمتنحون أشد أنواع الامتحان ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾ (١) . إلا أن الأيمان الصادق والعقيدة الراسخة أو الاذعان القوى حينما يمتلئ بها القلب لا يبالى صاحبها بالعذاب ولا يأبه بالموت ، وقد بيا آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاءت بصائرهم بدينه فلما هددهم بالقتل لم يكثرثوا لتهديده .

﴿ قالوا : لن نؤثر على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمننا بربنا . ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ (١) .

وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد - ﷺ - فلم يفرطوا فى دينهم أو ينفضوا عن نبينهم على الرغم من الجوع والعطش والمشقات التى كانت تترادف .

فهذا هو « بلال الحبشى » مؤذن رسول الله وقد كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاة هنا ما لا تحتمله الجبال ولا تصبر عليه البغال ثم لا يؤثر فى عقيدته ولا يصرفه عن طيئته ولا يجعل قناته تلين لغامزه إذ يخرجّه « أمية بن خلف » إلى الرمضاء فى وهج الظهيرة ويأمره أن يلقى بجسده العارى فوقها ثم

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٤

(٢) سورة طه الآية : ٧٣

يكلفه حمل الحجر الثقيل ويقول له : « ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين » محمد فلا يكون رده عليه إلا أن يقول : « أحدٌ أحدٌ » .

والتاريخ يحدثنا أن « أبا بكر » - رضى الله عنه - أنقذ كثيراً من الموالى أمثال « بلال » هذا ، إذ كان يشتريهم ثم يعتقهم .

ولعل إسلام الموالى وتعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ويقطع الحديد ولا يغلب سلطانه جيروت الطغاة ولا إرادة المتكبرين في الأرض بغير الحق .

وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التي تحالفوا على إنجازها من غير محابة ولا استثناء ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى « عمر بن الخطاب » انحدر في ذلك قبل أن يسلم فنكل بجارية له وبالع في تعذيبها وطلب إليها أن تعود إلى عبادة اللات والعزى . ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء « أبى بكر » لها .

أما آل ياسر « عمار » وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للعداء والتضحية والثبات على المبدأ والتمسك بالحق والتفانى في ذات الله والاستهانة بكل شدة في سبيل العقيدة التي تعمر القلب وتملأ الصدر ويحييها الروح في دنيا من السعادة والبهجة والرضا استبد بهم بنو مخزوم يسومونهم الظلم ويحملونهم على الكفر وينكلون بهم التنكيل الذى تأباه الانسانية وتعافه الكرامة وتنفر منه الأخلاق والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس وحرارة الرمضاء الأمر الذى لم تقو عليه بنية الرجل المتهدم « ياسر » أبو عمار فلفظ أنفاسه في زفير الحر وظمأ الكبد وجوع البطن وإيلام الروح ونصب النفس ولا سيما وقد رأى زوجته يطعنها أبو جهل اللعين في قلبها الطعنة النجلاء التى تودى بحياتها ولبس بعد ذلك كله أسى تحيىء به نفوس ناكبة عن الرشد جانحة إلى الباطل منغمسة في الشر متناسية للأخلاق متلاعبة بأبسط قوانين الانسانية .

ولعل رسول الله - ﷺ - كان ألمه أشد وهمه أكثر وعذاب نفسه أنكى وأوجع لأنه لا يملك لهؤلاء جميعاً سوى الرثاء والإشفاق والحسرة والعناء والمضامنة واللوعة وإن كان يقول لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »<sup>(١)</sup> .

أويقول لخباب بن الأرت - الذى تضجر من قسوة تلك المحنة فطلب منه أن يدعو الله - سبحانه وتعالى - بكشف الغمة وتفرج الكربة : ( يا خباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه )<sup>(٢)</sup> الحديث .

وفى الحق إنها المحنة بلغت نهايتها في الشناعة وغايتها من البشاعة والعرب الذين كانوا يغيثون الملهوف ويتدلون المعروف ويحسنون الجوار وينكرون الظلم ويأبون القسوة ، يتلوث تاريخهم بتلك المخازى وينحدر إلى ذلك المستوى .

(١) المستدرك للحاكم ٣/٢٨٨ والبيهقى في الدلائل ٢/٢٨٧ وجمع الزوائد ٩/٢٩٣ وسيرة ابن هشام ١/٣٩٥

(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب علامات النبوة ٤/٢٤٤

أسئلة في الذهن ينال بعضها في إثر بعض وتتراحم في الرأس دون أن تظفر بالجواب ؟ .  
لكن الذى يعلم قذف النمرود لابراهيم - عليه السلام - في النار ويتصور قصة أصحاب الأخدود  
التي ورد ذكرها في القرآن ؛ ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على  
ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ (١) .

يؤمن أن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان كما يؤمن أن الفضائل التي كان العرب يتمدحون  
بها لم تكن لها من الأصالة في النفس والتمكن من القلب والرسوخ في الخاطر ما يجعلها تترج بالدم وتتغلغل  
في الروح فتصور الأفعال على مقتضاها صدورها عن العقيدة .

وذلك هو السر في أن للتربية الدينية في الأمم والجماعات جلالها واحترامها وقوتها وسلطانها وثباتها  
وتمكنها لأن الدين ينمى الوازع ويوقظ الضمير ويظهر القلب ويرتفع بالنفس عن الغرض والهوى والحاجة  
والغاية والشهرة والميل .

وهم كانوا في حاجة إلى ذلك كله لتجرى منهم تلك الأخلاق مجرى الروح من الجسم .

### هجرة إلى الحبشة

على الرغم من نكاية قريش بمحمد - ﷺ - وإيذائهم له وسخريتهم به وقطعهم الطريق عليه ، كلما  
هم بدعوة إنسان ، أو أعلن دينه في محفل من المحافل أو مجتمع من المجتمعات لم يجروا على أن يتجاوزوا  
ذلك إلى قتله لأن عمه « أبا طالب » كان واقفاً لهم بالمرصاد وبنو هاشم كلهم من ورائه والاقدام على مثل  
هذا الطيش ويعرض قريشاً لحرب لا قبل لها بها ولا طاقة لها بمثلها فكان من الضروري - عندهم - أن  
يصبوا جام غضبهم على أصحابه وأن يقضوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله .

وهناك أذن النبي - ﷺ - للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : ( إن بها ملكاً لا يظلم جاره )<sup>(٢)</sup>  
فتسللوا في ظلام الليل ولما انتهى خبر تسللهم إلى قريش أسرع لتقطع عليهم المنافذ وتردهم إلى مكة  
لتواصل الحملة عليهم وتتمدادى في تعذيبهم وتسد عليهم كل مسلك ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الوثنية  
والشرك ولكن قضاء الله كان أسرع من إرادتهم ولطفه كان أسبق من حيلتهم .

غير أنهم لم يكادوا يصلون إلى الحبشة ويستقر بها قرارهم ، حتى كان الكفار قد أرسلوا إلى النجاشي  
« عبد الله بن أبي ربيعة » المخزومي .

« وعمرو بن العاص » وحملوها من الهدايا للملك وللبطارقة ما عساه أن يساعدهما على الوصول إلى  
الغرض الذي جاءوا من أجله .

(١) سورة البروج الآيات : من ٤ - ٧

(٢) البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٨٥ وتاريخ الطبري ٢/٣٣٠ وسيرة ابن هشام ١/٣٩٧

وقد تقبل الملك والبطارقة الهدايا بالغبطة والرضا ، والسرور والارتياح فكان ذلك مشجعاً للرسولين - ابن أبي ربيعة وابن العاص - أن يقولوا له : « إنه قد فرمنا قوم ، تركوا دينهم الذي كانوا عليه واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها ويقول في عيسى وأمه مريم قولاً لا يليق بهما ) . .

اهتز الملك والبطارقة لهذا القول واعتبروه عدواناً على المسيحية وافتياناً على مقدساتهم المرعية فانتدبوا واجداً من ذلك الوفد الآبق ليناقشوه فيما نسب إليهم .

فإذا « جعفر بن أبي طالب » ينبرى لهم ويبين بياناً شافياً : أن هذين الرجلين إنما أرادا الإيقاع والدس وأن حقيقة الأمر : أن محمداً - ﷺ - جاء إليهم بعد أن طفح الكيل ، وطال الليل ، واشتد الظلم وساد البغى في الأرض بغير الحق وفشا بين الناس الربا وكثر الزنا واسترق القوى الضعيف فكف جماع الطيش وكبح لجام الظلم وسوى بين الناس في المعاملة وقضى على الرق ونهى عن الزنا وحرم الربا ودعا إلى أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

ثم قرأ « جعفر بن أبي طالب » سورة « مريم » وفيها الاشارة بعيسى وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم وتنزيه « مريم » عن الفواحش والشهادة لها بطهارة العرض ، ونقاء النفس وبراءة الساحة وشرف المحتد وحينئذ أبى « النجاشي » والبطارقة كل الإباء أن يفرطوا في المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أو ليسمحوا لأى إنسان من كان أن يناهم بسوء .

وظل هؤلاء المسلمون في الحبشة يلاقون الرعاية والكرم والعناية والاهتمام حتى كانت الهجرة إلى المدينة وتراعى إليهم إجماع الناس عليها وخروج النبی - ﷺ - وصاحبه « أبى بكر » فلهقوا بهم وشاركوهم النزوح إلى ذلك الوطن الجديد .

أما ما كان من أمر « النجاشي » والبطارقة بعد جلاء الحال لهم - هكذا - فإنهم بعثوا من قبلهم وفداً يستطلع الخبر من مكة ويدرس ذلك الحدث الذي حدث وينظر مدى تلاقيه مع المسيحية على محجة واحدة من السلوك القويم والسنن الواضح والهداية السليمة ، ثم مع هذا وذاك يشكر « محمداً » وأصحابه على ذلك التنويه العظيم بعيسى بن مريم وأمه ، وبالإنجيل الذى جاء به . وكان من هذا الوفد أن تأثر إلى حد بعيد بشريعة « محمد » - ﷺ - وأعجبه ما تأخذ به البشرية من إصلاح وما تسلكه من هدى وتعمل له من نهوض وما كاد يستمع للقرآن الكريم من النبی حتى شعر بسحره وأدرك سيطرته الغالبة على النفس وهيمته القوية على الضمير واستدراجه الغريب للدمع وسلطانه القاهر للفؤاد ولما خنقته العبرة وقاض ماء عينه أعلن إيمانه بمحمد وبدينه وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتانا فاكبتنا مع الشاهدين ﴾ (١) .

وفي هذه الأيام التي كانت قريش تعاني الهزيمة التي أصابتها من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ثم من إيمان هذا الوفد الوافد ، كذلك كان إسلام « حمزة بن عبد المطلب » ، وإسلام « عمر بن الخطاب » بعد ذلك بثلاثة أيام فطاش صوابهم أكثر وأكثر ، وأخذت منظماتهم الارهابية تزاوّل من جديد نشاطها في التنكيل بالمسلمين والاسلام .

ولحق ذلك الرجل الطيب « أبا بكر » الذي كان - على الرغم من حبه لمحمد ومبادرته إلى اعتناق دينه - محترماً لديهم ، موقراً فيهم ، لا يريدون أن ينالوا منه أو يعتدوا عليه ولم يجد بداً من الخروج هائماً على وجهه من الألم لا يدرى أهو ذاهب إلى الحبشة ليلحق هنالك بإخوانه من المسلمين أم هو ذاهب إلى مكان آخر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان وقد خشيت قريش أن يكون ذلك من أبي بكر غزواً داخلياً لها فضيقت عليه الخناق وأقامت في وجهه المتاريس وكأنه في هذه اللحظة قد تمثلت له الآية : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كُنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ (١) فأخذ طريقه إلى حيث يفارق تلك الوجوه وينأى بعرضه عن تلك الأقدار .

إلا أن رجلاً من هؤلاء الذين كانت تمتلئ نفوسهم بحبه لقيه وعز عليه أن يفارق مكة ، أو أن تخلو عرصاتها منه ، فسأله ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه وقال له : « لا تفعل يا أبا بكر فوالله مثلك لا يخرج ولا يُخرج » ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم : « ليلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل في جوار « ابن الدغنة » لا يتعرض له أحد بسوء إلا كان ذلك تعرضاً لابن الدغنة وعدواناً عليه » لكنهم اشتروا على « ابن الدغنة » أن يظل أبو بكر في قراءته للقرآن متخفياً في داخل بيته حتى لا تعود الفتنة جذعة !

وكان الرجل يقرأ القرآن في داخل بيته فيقتحم الأطفال والنساء الجدران ويدخلون إليه ليستمعوا لما يتلو وحينئذ عادت شكوى قريش منه وخوفها من الافتتان به فراحوا إلى « ابن الدغنة » الذي هدده بسحب جواره منه ولم يكن من هذا الرجل - الذي لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة مجتمعة لرجح - إلا أن يقول له : « افعل ما بدالك فإنني في جوار من هو أقوى منك ومنهم ، ينصرون ويؤيدون ويكلّون ويرعّون ولا يتخلّ عن جوارى ... »

### الحصار الاقتصادي

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ربما كان أهونها أن تكون وجهاً لوجه أو أن تكون حارة لا باردة وفي العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى في استدلال الدول الصغرى - لتنال غرضها منها



وتصل إلى غايتها التي تقصد إليها إلى ما يسمى في لغة علماء الاقتصاد السياسي « الحصار الاقتصادي ». وهي وسيلة من وسائل الحرمان والتجويع والحيلولة بين الدولة وبين تبادل السلعة أو شرائها أو الانتفاع بها بوجه من الوجوه سدا لحاجتها وقضاء لمصلحتها وإقامة للأسوار والحواجز دونها لتصبح أمام الضرورة الملحة والحاجة القائمة مضطرة للتنازل عن كرامتها وعزة نفسها وإياها فلا تعارض في سلطان يفرض عليها أو رغبة ظالمة توجه إليها كما يفعل الآن أرباب الجشع الاستعماري والعار الأجني مع الشعوب التي تريد أن تتحرر من سيطرتهم أو تتخلص من نفوذهم .

وهو بعينه الذي حدث من كفار مكة مع النبي - ﷺ - والمسلمين معه حينما وجدوا أنهم استنفذوا كل جهد في إرغامهم وبذلوا كل محاولة في إذلالهم وقطعوا كل أمل في إلجائهم وأن المطاردة والعنف والاستهزاء والتعذيب وغير ذلك وذلك .

لا يقف التيار الجارف الذي كانت تسير به دعوة « محمد بن عبد الله » إلى نفوس الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأن فيهم من يتسللون إلى بيوت المسلمين ليستمعوا إلى القرآن الذي كان يترك في نفوسهم يقض مضاجعهم ويطارده النوم عن أجفانهم ويثير الوسواس في قلوبهم والبلابل في أفئدتهم .

وقد حدث الرواة : أنهم بعد أن عقدوا المجالس للمشورة وتبادلوا الرأي لعلاج موقفهم مع « محمد » انتهوا إلى معاهدة مكتوبة تربط ما بينهم وتعيد إلى حد بعيد سلوكهم مع المسلمين وكانت تلك المعاهدة تقضى ألا يزوجهم أو يجيروهم أو يغيثوا اللهي الذي يستصرخ بهم أو يفزع إليهم وألا يتبادلوا وإياهم منفعة من المنافع على وجه من الوجوه وأن يكون حالهم معهم حال المتبذون واستتبع ذلك أن يفصل كل من الفريقين في الدار التي يعيشون فيها فكان هؤلاء المتبذون في شعب بني هاشم وبني عبد المطلب وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات كاملة .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال من الجوع والشحوب من الألم والحرمان والاصفرار من الحبس وفشت فيهم الأمراض والأوبئة ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الضغط والحصار أن يتجولوا أو ينتقلوا إلا في داخل هذا السور المضروب أو السجن المحدد ، اللهم إلا في الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت إذا أرادوا أو يحجوا إذا ما ابتغوا وكان النبي - ﷺ - لا يجد متنفسه إلا في موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت فيعرض عليهم الاسلام وكانت دعوته تجد طريقها إلى أفئدتهم بسهولة وكان ما يعانيه هو وأصحابه حينئذ سبباً في عطف القلوب عليهم وميل كثير من الناس إليهم وقد سرى ذلك كله إلى صفوف خصومهم فكاد يبدد جمعهم ويفرق كلمتهم ويشيع بينهم التفكك والتخاذل .

ووقف بعض هؤلاء ليقول لقريش : إنه ليس من المروءة ولا من الرجولة ولا من الذوق والأدب أن نتمتع نحن بحقوقنا المشروعة وأن نحس بقيمة الحياة في مرية وأن ننعم بدنيانا التي بأيدينا في الوقت الذي يشقى إخواننا في النسب وزملائونا في الوطن وشركاؤنا في حرم بيت الله .

فلما ذكره أبو جهل بما في الصحيفة أبدى تمرده عليها وعدم اعترافه بها ، وقال له لم تكن حاضرين لكتابتها ولا راضين عن قيودها ثم أمن على قوله آخر وآخر ، وهكذا ، حتى كادت الصحيفة تذوب من شدة ما وجه إليها من اعتراض ورميت به من قسوة ووصفت به من مجانبة للصواب وكان النبي - ﷺ - قد وصل إليه من العلم عن طريق الوحي أن الأرضة أكلت هذه الصحيفة الظالمة والوثيقة الغاشمة فأخبر بذلك بعض أصحابه ولم يلبث الخبر أن تطاير للمشركين أنفسهم فظنوا لأول وهلة أنها إشاعات يريد المسلمون بها بليلة الخواطر استدرااراً لعطف الناس عليهم وتمهيداً لرضا قريش بعودة المياه إلى مجاريها بينهم وبين المسلمين ولكن خبيثاً من خبائثهم تسلل إلى الصحيفة في مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر لا ريب فيه وهناك ذهلت قريش ذهولاً شنيعاً وبخاصة حينما ترامى إليها أن « محمداً » يقول : إن الأرضة لم تبق منها إلا لفظة « باسمك اللهم » وفي هذه اللحظة حاصوا حيصة حمر الوحش وأخذوا يروحون ويجيئون ويفكرون فيما عساه أن يكون . أو ما عساه أن يتميز أمام هذا الموقف الذي وقعتهم آياه الحوادث وصيرتهم إليه الأقدار على اعتبار أنه خذلان لهم وتقهر إلى الراء في حرب المسلمين والقضاء على روحهم المعنوية التي كانت تدفعهم دائماً أبداً إلى الغيرة على « محمد » والعصبية له والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه والدعوة لدينه وإعلان رايته خفاقة مدوية وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يحسون بأن الصراع بينهم وبين قريش قبل أو عصبي لا أثر للدين ولا للعقيدة فيه وصار هم « أبو طالب » الاهتمام بابن أخيه في صحوة أو نومه وليله أو نهاره حتى لا تمتد إليه يد آئمة أو تتناول عليه نفس خبيثة أو يقتله سيف ظالم ورسول الله - ﷺ - يتابع الدعوة الخافتة والجهود المكتومة وأصبح ذلك الموقف أشبه بالاعلان الصامت لذلك الدين الذي أرادوا طمس معالمه وقبره في مهده منذ أول يوم ولادته ورأت قريش أنه لا مناص من التصريح بنقض الصحيفة المكتوبة والمعاهدة المعقودة واضطرت صاغرة إلى التنازل عن كبريائها وعاد الاتصال ورفعت قيود حظر التجول وتبادلوا السلع والحاجات الا أن النفوس كانت مع ذلك كله لا تزال تشعر بالجفوة والقلوب لا تزال تحس باللوعة والعيون لا تزال تتبادل النظر الشزر والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء .

والمسلمون كانوا يشعرون أنهم في دار غربة وهوان يتمنون من صميم أفئدتهم أن يباهمهم الله قوماً خيراً من أولئك الذين يروحهم قذى في أعينهم أو شجى في حلوقهم ووطناً أحسن من هذا الوطن الذي يضيق بهم ويضيقون به حتى لقد كانت الهجرة إلى الحبشة تراودهم ليتخلصوا من ذلك العنت الذي يلاقونه .

أما محمد - ﷺ - فإنه نفّض يديه من قريش وقطع أمله من مكة وظل - كذلك - يضيق ذرعاً بتلك البيئة المريضة والأرض الجدبة وكان يغدو إذا غداً ويروح إذا راح متمنياً ما يتمناه من كل معه من المسلمين أن يستبدله الله من قريش أهلاً بأهل وخيراناً بجيران .

## عام الحزن

كان سند النبي - ﷺ - في دعوته ودرعه التي يتلقى بها الأحداث ، وساعده التي يزود بها الأذى وركنه الركين الذي يعتمد عليه في أول عهده بالرسالة حيث لم يكن حوله من سواء المسلمين من يشد أزره ويقوى ظهره إذ كان يُحسُّ من نفسه بالغربة والوحشة والضعف وقلة الحيلة اثنان من الناس كلاهما بعدد ضخّم وقوة هائلة .. امرأة هي خديجة ، ورجل هو عمه أبو طالب .

وخديجة لم تكن له زوجة ككل امرأة تكون تحت رجل لا هم لها إلا أن تتمتع به وتلوذ بكفنه وتحمي بظله وتترامى بين أحضانه وتطلب فيه دائماً الغنى والمال والصحة والعافية والمركز والجاه وأن يكون قلبه في كل آن متلهفاً عليها إن غابت أو حضرت ، فإن رأت شيئاً من ذلك كله قد تحول أو نقص أو رأت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ويشغل بالها وتفكيرها فترت شواغلها به وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التي كانت متأججة وجعلته من تحفها القديمة أو ثيابها البالية لأنه لم يعد في أحلامها الذي تحن إليه وتنجذب نحوه ، لم تكن « خديجة » تلك الزوجة بل كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته وأحب الناس إليه وكان هو عندها كل شيء تطلبه وكل حلم يدور بوهما ويخطر ببالها ويسبح بخيالها تؤمن إيماناً جازماً بأنه يكمل نقصها ويحمل نفسها ويرضى تطلعها ويشفى أوجاعها ويملاّ دنياها باليمن والبركة والسعادة والسرور لذلك كان عندها نور عينيها ونبض فؤادها وحياتها الدائبة وأملها الذي لا ينتهى فما لها في يده وثقتها في نفسه وقومها من حوله وأهلها وأطوع له من ظله وكأنه بها وحدها في ألف ساعد وساعد وألف نصير ونصير وكلما غدا أو أراح كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة والأمل والحب والصحة والعافية والشجاعة والاقدام والظفر والغنم والفراغ الذي كانت تملؤه من قلبه لم يكن حل من قبل وهي مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا « إبراهيم » الذي كان بعد ذلك من « مارية » القبطية .

وكان موتها عند النبي - ﷺ - فاجعة كبرى ، ومصيبة عظمى شعر بعده أن الأيام تنكر له والمحن تصطليح عليه والمصائب تواجهه والحوادث تحاربه وزاد من الألم في نفسه أن لم يمض على موتها هذا ثلاثة أيام حتى مات عمه « أبو طالب » كذلك ، فكان هذا العام عام الحزن - كما سماه المسلمون وسماه النبي - وأي حزن وراء هذا وأية فاجعة بعد تلك الفاجعة ولذلك روى عنه - ﷺ - أنه كان يقول : « اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري أنا بأيهما أشدّ جزعاً » (١) .

ونحن نعلم أن قريشا بعد موت « أبي طالب » ابتدأت تعامله معاملة أخرى . وتقف منه موقفاً جديداً وتحشد كل ما تملك من وسائل وما تستطيع من حيلة لفشل حركته وتعطل سيره وتعوق ركبته وإن

كانت هذه الشدائد التي كان يلاقيها والمحن التي كان يصادفها دفعت عجلة الزمن وحركت عقرب الساعة وفتت أذهان كثيرين إلى الدخول في الاسلام والإيمان لمحمد - ﷺ - وهكذا الشر يأتي بالخير والضيق يكون وراءه الفرج القريب .

وعلى الرغم من أن قريشاً انتهزت فرصة موت عمه الذي كان درعه وسيفه ومجته وترسه وبرهنت بهذا على أنها تحررت من الذوق وجف معنى الحياء فيها وأصبحت تفكر في الحد من نشاطه والقطع لأوصاله والقضاء على تحركه وانتقاله وكان هو مع هذا كتيب النفس يحاول جهده كله أن يعيش في ذلك الجو من الحزن الذي خلفه له موت خديجة وأبي طالب لا لأنه يش من الدعوة وقطع رجاءه في نصر ربه له ولكن لأنه وهو يستجيب لبشريته كان يتألم كما يتألم الناس ولذلك لم يكن أحد يراه على الحال التي كان عليها من التسلل إلى المجتمعات والتسرب للمحافل وكان دخول من يدخل في الإسلام أشبه بالعمل الآلى والتجاوب العاطفى لم يكن لأحد فيه جهد ولا فضل .

وكأنما أراد الله - جلّت قدرته - أن يبرهن للنبي - ﷺ - من طرف خفى أن هذا الصنيع الذي يصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدراً أو يدفع إرادة أو يحول دون تبليغ الرسالة .

وبينما الرسول الكريم من شدة ما ناله من الحزن وكثرة ما أصابه من عناء التفكير مستغرق في ذهوله سابح في خياله رأى نفسه متكئاً إلى جذع شجرة يقرأ « القرآن » والجن حوله يستمعون إليه في صمت وينصتون إليه في إعجاب ويتأملون قوله ويتدبرون هديه وكأنما هو كان ضالّتهم المنشودة وحاجتهم التي ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل وقد سجل القرآن قصتهم هذه وتغلغل الهدى في نفوسهم : ﴿ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً وأنا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ (١) .

وكان في الحديث الذي صدر منهم والتفكير الذي بدأ عليهم مسحة من العقل والمنطق ، نذل على أنهم يجيدون التفكير إلى حد بعيد وبخاصة في مثل قولهم : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً وأنا لما سمعنا الهدى آمناً به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحمروا رشداً ﴾ (٢) وكان هذا الحدث في نظر العرب جميعاً من الدهول والغربة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يستغلوا بالتأمل والتفكير في أشياء كانت لا تخطر عليهم ببال ولا تمر لهم بذهن وكان في مقدمة ذلك فهمهم للجن وتصورهم لهم وحديثهم عن إيمانهم بالله وبحثهم عن المعرفة وجريهم وراءها وكانوا إلى هذه اللحظة يظنون في ذلك الظنون .

وقد تناقلوا هذه القصة وأخذوا يتحدثون بأن لمحمد - ﷺ - محيطاً وراء محيطهم وأن دعوته إن لم تجد منهم انتباها ورغبة وتلقياً وقبولاً فستجد في سواهم رضوا أم سخطوا وأنه إن كان - اليوم - يتودد إليهم في

(١) سورة الجن الآيات من ٣ - ٥

(٢) سورة الجن الآيات من ١٢ - ١٤

هديه ويلطفهم في دعوته ويصفح عنهم في ايدائهم له ومطاردهم إياه فسيجيء اليوم الذي يكونون فيه مرغمين ويكون الأمر والنهي والحل والعقد له هو وحده وأنهم إن كانوا يقولون : أمر ابن أبي كبشة - أبوه من الرضاع - استهزاء به وسخرية منه فلا بد لهم أن يقولوا صدقا وحقاً .

وسترى البشرية كلها هذا النصر الذي يسعى إليه والسلطان الذي يتمكن له : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسلياً ﴾ (١) .  
وحيث يعاودهم الندم حيث لا ينفع .

### مع ثقيف بالطائف

إصغاء الجن للنبي - ﷺ - واستماعهم إليه وإعجابهم به . وتبليغ قومهم ما دعوه منه كان بالطائف وقد كانت الطائف آهلة بالوجوه والأعيان من ثقيف وكانت خيراتها من التين والعنب وسائر أنواع الفاكهة يتهادى بها الركبان ويتحدث بها الرائح والغادي وقد اختار الرسول الكريم أن تكون وجهته إليها ودعوته فيها بعد أن نقض يديه من قریش بمكة وأصبح لا يرجو عندهم خيراً ولا يترقب في جوارهم أمناً ولا يجد بينهم هدوءاً واستقراراً .

وكان المنظور - وللطائف تلك المزايا ولناخها هذا الاعتدال ولأهلها ذلك الرزق الواسع - أن يكون منهم من دماثة الأخلاق وحسن المعاملة وقوة الإدراك وسهولة القيادة ما يحقق منهم أمل النبي - ﷺ - الذي أمله منذ اللحظة الأولى لتحول وجهه إليهم إلا أن الذي أخلف الظن وجعله لا يعود من هنالك بطائل أن الطائف كانت كعبة للوثنية ومركزاً مرموقاً من مراكز الشرك لأن فيها « اللات » وهي إحدى نبات الله « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » - كما يزعمون - وعصبيتهم لها واعتقادهم فيها لا يمكن أن يفارق نفوسهم أو يغيب عن أذهانهم .

وتقص الأنباء أنه - ﷺ - حينما انتهى إلى الطائف واستقر بين ظهرائي ثقيف واستقبلوه استقبال الطاريء وأنسوا به أنسهم بالضييف واطمأنوا إليه اطمئنانهم لرجل حصيف الرأي بعيد النظر قوى الحجّة واضح الدليل متكامل البيان استمعوا إلى دعوته إلى الله وتخويفه من المآل وتحذيره من العقاب ونصحه بالطاعة ونبيه عن العصية ومجاهرته بضرورة المساواة ونبد العبودية وبغض الظلم .

ثم لم يكد يصل بهم إلى أن البشرية الضالة والإنسانية المتخبطة هي التي تنحرف عن السنن وتلتوى عن القصد إذ تعبد حجراً أو تبتهل إلى جماد لا يضر ولا ينفع ورب الناس حاضر بين يديهم يرفع الضر ويكشف البلوى ويلبى دعوة الداعي إذا دعاه حتى فهموا أنه يريد بذلك أن ينتقل بهم إلى دين يحول بينهم وبين ما كان عليه آبائهم وأجدادهم فأغروا به السفهاء منهم وسلطوا عليه الصبيان .

وما زالوا به حتى أدركه الإعياء وأنهكه الجهد وخارت قواه ووجد نفسه وقد أغمى عليه ، وهو مستند إلى حائط بستان من بساتين الطائف .

وبعد أن أخذ يضيق مما به ويصحوا من تلك الغاشية التي أصابته ابتداءً يقول مناجياريه : ( اللهم إليك أشكو ضعف قوتك وقلة حيلتي وهواني على الناس ! يا أرحم الراحمين ! .. أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو يحل على سخطك لك العتيى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك ) (١) .

وهو دعاء - وإن كان عنواناً على الجزع والهلع والهوان والضعف والشدة والعسر - إلا أنه تسجيل لذلك العنف الذى قوبل به ، والنذالة التي صنعوها معه وقد كان - ﷺ - يؤمن أن نصر الله يلاحقه وعنايته تسابقه ودفعه الأذى عنه ولا يمكن إلا أن يكون لذلك يخاطبه خطاب المطمئن إلى وعده الواثق من لطفه الطامع في رحمته حتى إذا ما خشى أن يكون قد تجاوز حدود الأدب معه ، سارع إلى مرضاته : ( إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي ) وقد كانت هذه الكلمة شعاره في أمثال هذه الشدائد .

وقد جاء إليه جبريل عقب هذه الحادثة من غير توان ، فقال له - بعد أن سلم عليه - « إن الله قد سمع الذى قلت وسمع ما ردوا به عليك وهذا أخى ملك الجبال إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل » .

ولكنه قال له : ( لا .. يا أخى جبريل فاني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً ) (٢) .

ولعمري لو أن انساناً آخر مع هذا الذى أصابه منهم أو ناله من إيلاهم لما وقف هذا الموقف الكريم أو عاملهم بهذا الظرف وتلك الرأفة ولكنه كان يعلم - منذ ضمه « جبريل » عند أول عهده به وقال له : ( اقرأ ) ومنذ قال له ( ورقه بن نوفل ) : ( لم يأت رجل بمثل ما أتيت به ألا عودى » . أنه معرض لذلك كله ولا بد له أن يلاقه .

وقد كان في البستان الذى اتكأ إلى جداره بعض أصحابه من الأطفال فرق قلبهم له وثار في النفوس منهم الشفقة عليه وبخاصة بعد أن سمعوا منه ذلك التضرع الباكي والتوسل الحزين فلم يجدوا من العزاء له إلا أن يشيروا على خادهم أن يقدم له عنقوداً من العنب وشربة من الماء فتناوله منه شاكراً له ولهم هذا الصنيع حتى إذا ما أخذ في الأكل سمى الله فملك ذلك على الخادم اعجابه وحمله هذا الإعجاب أن يسأله بعض أسئلة انتهت بإيمانه به وانقطاعه له وقد عاتبه مخدومه فلم يأبه بهم أو يلتفت إليهم أو يفكر في أن قطع لما كان بينه وبينهم من صلة الخدمة التي يتعيش منها .

ومضى رسول الله - ﷺ - ومضى معه ذلك الغلام وثالث هو مولاه ( زيد بن حارثة ) الذى كان معه . ظل الرسول يفكر في المكان الذى يتجه إليه بعد ذلك ولم يكن قد رسم الخطة التي يخطتها أو الجهة

(١) سيرة ابن هشان - باب سفر الرسول إلى ثقيف ٧١/٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢١١/١ وجمع الزوائد ٣٥/٦

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٧/٣

التي يحول إليها وجهه ولم يكن هنالك مفر من الرجوع إلى مكة التي كان يرجو ألا يعاود الرجوع إليها وهو لا يأمن على نفسه إذا رجع إلى مكة أن يضاعفوا له الأيذاء ويواصلوا له الكيد ويدبروا له الشر وهو لم يبق فيه من الاحتمال ما يواجهه له عدوانهم المنتظر ولا إيلامهم المترقب .

فكلف مولاه « زيداً » أن يسبقه إلى مكة ليبحث له عن رجل من أهل المروءة والنجدة والكرم والإباء والتفضل والأريحية . ليجيره من هؤلاء الناس فكان ذلك الرجل هو ( المطعم بن عدي ) الذي قبل أن يؤمنه ريثما ينكشف الغيم الذي يحيط به أو يبدو لمحمد وجهاً جديداً يتحول إليه .

وكان حدثاً من الأحداث أن يجير ( المطعم بن عدي ) رجلاً لا يجد في مكة كلها إلا قلوباً تغل بالحقد عليه والكراهية له والنفور منه على أن « محمدأ » - ﷺ - لم يكن ليفكر في البقاء هنالك حتى يعرض « المطعم بن عدي » نفسه لسخطهم عليه من هذا الجوار الذي منحه لمحمد بل كان يرجو أن يبد له الله خيراً من مكة ومن أهلها .

### الاسراء والمعراج

كان لتلك المعاملة القاسية التي عاملت بها قريش النبي - ﷺ - إلى درجة أن ضاق ذرعاً بمكة وأهلها فقطع الرجاء من دعوتهم ونقض يديه من جوارهم وتطلع بقواده المكدود ونفسه الكثيبة وقلبه الحزين إلى جو آخر يتنفس فيه الهواء النقي وينظر فيه إلى وجوه باسمه مشرقة لا تكفر له ولا تعبس لرؤيته وظل على ذلك زمناً طويلاً يترقب الفرج ويتنظر طلوع رحمة الله وقد كانت ذلك - مضافاً إليه موت ( خديجة ) وموت ( أبي طالب ) وتلك المقاطعة الظالمة التي حاصرتها بها قريش هو والمسلمين معه في شعب بن هاشم ثلاث سنوات - سبباً في اجتهاد عنيف ونصيب قاس هذ ركنه وتور عظيم أصابه وتعب ليس قبله ولا بعده لحق به والأجسام إذا لم تخلد إلى السكون بعد الكدح والراحة بعد العناء والنوم بعد الصحو الطويل والسهر الدائم كلت . وملت !

وقد جعل - سبحانه وتعالى - تلك الرحلة الممتعة ، ترضية لحاظه - ﷺ - ومتعة لنفسه ولذة لروحه وإظهاراً لمكانته عنده ومنزلته لديه حتى لا يتسرب إليه الشك في أنه أفضل خلقه وأكرم أنبيائه ورسله وهو عمل أشبه بما يصنعه الملك من ملوك الدنيا إذا ما وفد عليه زائر عزيز فإنه يطوف به على قصوره الفخمة وضياعه الواسعة حيث يستقبله الناس هنالك بما يدل على اغتباطهم به وفرحهم بقدومه وإذا كانت الرحلات إلى جانب ما يكون فيها من المتعة للنفس والترويح عز الخاطر تزيد في المعرفة وتطبق العلم على العمل فقد كان ما رآه - ﷺ - من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال والجزاء على أعمال الخير أو الشر وعقبي الظالم أو المتكبر والمنحرف أو المقترب تأكيداً للحقائق وتصويراً للمعاناة .

وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذي يرويه « مالك بن صعصعة » غير الذي يرويه أنس بن مالك وإن كان كلاهما يتفق على أن الإسراء تقدمه إيقاظ جبريل له وشق صدره وصب وعاء من علم وحكمة فيه كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب

السموات يستأذن عليهم « جبريل » فيقول القائل منهم : « من يطرق الباب » ؟ فيرد عليه جبريل قائلاً : « أنا جبريل » فيقول سادن الباب : « ومن معك ؟ » فيقول له : « محمد » فيقول ذلك السادن : « أوقد أرسل إليه ؟ » فيقول جبريل : « نعم » فيقول السادن « أهلاً بالأخ الصالح والنبي الصالح »<sup>(١)</sup> .

وأنت إذا تصورت هذا الاستقبال كله لم يرد في خيالك - شيئاً ما - عن هذا الذي تسمع به عن استعراض الجيوش لاستقبال الملوك وعظماء الدول احتفالاً بقدمهم وابتهاجاً بضيافتهم .

ولا تنس أنه صلى بهم في بيت المقدس وفيهم أبوه « آدم » وأبوه « ابراهيم » وأولو العزم من الرسل وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة والتكريم الواسع المدى .

ويقول رواية الحديث : ( إن جبريل - عليه السلام - لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو - ﷺ - فانه ارتفع إلى (سدره المنتهى) ورأى نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ثم تجاوزه إلى ( البيت المعمور ) وهكذا رأى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفي ذلك أيضاً دليل آخر على أن قدره وراء هؤلاء جميعاً بما فيهم « جبريل » الذي لا يستطيع أن يتجاوز قدره أو يتخطى مكانه .

والإسراء : هو السير بالليل ومثله « السرى » وزن « هدى » وهو قطعه - ﷺ - المسافة من « المسجد الحرام » إلى « بيت المقدس » على الدابة المسماة بالبراق وكان العرب لا يقطعونها إلا في شهر كامل يذهبون وآخر يجيئون ولذلك هالهم الأمر واستعظموا ذلك الحديث وطالبوه بالدليل على صدقه فأخبرهم أن بالطريق عبراً لبني فلان وأخرى لبني فلان ومن أوصافها كيت وكيت . . فطالبوه بوصف بيت المقدس فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه وهو يتحدث إليهم عن جدرانه ونوافذه وأبوابه .

وفي الحديث عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : ( لما كذبتى قريش قمت في الحجر فحلا الله لي بيت المقدس فطففت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه . . )<sup>(٢)</sup>

والقرآن الكريم تعرض لذكر الإسراء دون المعراج إذ يقول : ( سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير )<sup>(٣)</sup> والسبب في ذلك أنه تعالى كان يعلم أنه لم يكن عندهم من الكفاية والفهم ما يساعدهم على تلقى مثل هذا الخبر بالقبول وأنه مهما أتى بالأدلة على حصوله فإنهم لا يصدقونه .

على أنهم أنكروا الإسراء - كما علمت - وقالوا : لعلها رؤيا نائم أو أوهام حالم وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها : ( وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس )<sup>(٤)</sup> والمعراج : هو الصعود ومنه قوله تعالى في سورة المعارج .

(١) مستند أحمد ١٥٧/١ والبيهقى في الدلائل ٣٧٢/٢

(٢) أخرجه الشيخان من حديث الزهري وأحمد عن ابن شهاب والسيوطى عن جابر في الخصائص الكبرى ٣٩٣/١ تحقيق الدكتور المراس .

(٣) سورة الاسراء الآية : ١

(٤) سورة الاسراء الآية : ٦٠



( تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة )<sup>(١)</sup> وقد صعد به ( جبريل ) من غير سلم ولا آلة أخرى يعرج عليها بل بقوة إلهية كانت تجذبه إلى فوق كأنه كان يمتطى « مصعداً » مما صنعه العلم الحديث الآن .

وللعلماء اختلاف في حصوله للنبي - ﷺ - هل كان بجسمه وروحه أم أنه كان بروحه فقط والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط يقولون : إن نظرية الضغط الجوى هي التي تحدد ذلك لأن الإنسان إذا ارتفع إلى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات وقد ثبت أنه - ﷺ - لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط .

والذين يقولون : إنه كان بالروح والجسم يطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ، ويقولون : أنه كان معجزة من معجزاته - ﷺ - والمعجزة : هي الأمر الخارق للعادة . . ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى في تسجيل هذه الحادثة قال : ( سبحانه الذى أسرى بعبده ) والعبد : اسم للروح والجسم ولو كان بالروح فقط لما كان جديراً بالذكر ولما كان أكثر من خيال الشعراء أو أوهام الفلاسفة أو أحلام النائم ) .

وفي عروجه - ﷺ - إلى السماء فرضت الصلاة خمسين صلاة في اليوم واللييلة ومازال « محمد » يذهب إلى ربه ليسأله التخفيف - بناء على نصيحة موسى - حتى كانت خمسا لا خمسين .

ومن عجيب الأمر في حديث المعراج أنه يخص « موسى » باغرائه « محمداً » بالرجوع إلى ربه وخصه كذلك بالبكاء ، لأن رسولا بعث بعده يدخل الجنة من أمته أكثر من الذين يدخلون من أمة « موسى » .

### بيعة العقبة

لم يعرف عنه - ﷺ - أنه سكت عن الدعوة أو تهاون في أداء الرسالة ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد لا يثنيه صعب ولا يردده مستعص ولا يثنى عزيمته قاس غليظ . . وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق في وجهه سبيلاً مهد هو بجلده وكفاحه سبيلاً آخر حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد .

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له وحاولوا أن يعوقوا ركبهم وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه في كل قصد يقصده وكل طريق يبتدىء منه الخطى فإن علموا أن وافداً جاء يسأل عنه أو غريباً يسعى في طلبه أخبروه عنه الأخبار الكاذبة وحدثوه الأحاديث الملفقة حتى لا يصل إليه أو يؤمن به .

وقد حدثوا : أن الأعشى الشاعر جاء إليه ليعلن إسلامه ومعه قصيدته التي قطعها : « ألم تفيض عينك ليلة أرمداً » لينشدها بين يدي النبي - ﷺ - فاعترضه « عامر بن الطفيل » وقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا

فقال له : ما لي به من حاجة فقال له : ويحرم الخمر ، قال له : أغيب عنه إلى العام القابل حتى أرتوى منها ثم أجيء إليه وفي طريقه وهو عائذ مات .

وفي الأسواق التي يقيمونها للتجارة وللأدب كعكاظ « وذى المجنة » كان يدب في أزقتها ويندس في طرقاتها ويمشى في مسالكها ليدعو إلى دينه وينوّه برسائله ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة حتى ولو أعرض عنه الناس أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث فإنهم سيتحدثون إلى أهلهم وذوهم بما صادفوه في أسفارهم وما لاقوه في غربتهم ولذلك كانت الأبواق من كل جهة وفي كل مكان تتحدث عن حدث جديد ورسالة جديدة وكان ذلك بمثابة التهديد لما سيكون من تبليغ ومعرفة واذعان وقبول .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الاسلام ودخول دعوته في مرحلة جادة قوية في أفق أوسع ونطاق أرحب كان من « بيعة العقبة » وهي مناسك الحج حيث ترمى الجمار وهي عقبة أولى وثانية وثالثة .

وتفصيل ذلك : أنه - ﷺ - كما كان يدعو في الأسواق كان كذلك في أيام الحج فيلتقى بالناس في موسم الحج ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة في أهلهم وعشيرتهم ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من « الأوس » بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم وكان عدد هذا نفر ستة فقط .

ثم حضر في العام الذي بعده في موسم الحج - أيضا اثنا عشر رجلاً ، بايعوه عند ( العقبة الثانية ) لهم ولنسائهم الذين تركوهم في المدينة وفي العام الثالث حضر من الأوس والخزرج وفد ثالث مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلاً بايعوه عند العقبة الثالثة على كل نصرة وعلى حرب الأسود والأبيض ورغبوا إليه أن يتخذ « المدينة » موطناً له لتطلع منها شمس الدعوة رائعة وهاجة على العالم كله من غير أن يحجب نورها حجاب أو يقف في سبيلها جهول أو يصد انبساط ضيائها أحق .

ولما سرى خبر هذا العرض الطيب ذهب جماعة من قريش إلى أولئك الضيوف الحاجين إلى بيت الله الحرام واعتبوا عليهم أشد العتب أنهم يأخذون عدوهم من بينهم ليحموه في بلدهم ويصونوه من خصم يطلبه . أو غريم يبحث عنه في الوقت الذي يفكرون هم في قتله ليستريح العالم من شروره . وقد أكد الوفد لقريش أن شيئاً من ذلك لا يكون وحيثئذ تسلل هذا الوفد إلى المدينة وشاع الخبر في أثرهم أنهم خدعوا قريشاً بهذا الرد الذي ردوا به عليهم وأن الخطة التي دبروها مع ( محمد ) والعهد الذي أخذوه عليه هي أن يتخذ ( المدينة ) منارة للرسالة وموطناً للدعوة وأنه هو جاد في ذلك وأنهم هم جادون في نصرته والعمل في صفوه .

وكان النبي - ﷺ - منذ بايع الوفد الأول ، قد أرسل اليهم « مصعب بن عمير » يعلمهم القرآن وينير لهم بعض المسائل التي تشبه عليهم في الدين .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم وينتصرون عليهم بالنبي الجديد الذي سيسارعون إلى اعتناق دينه عندما يصل اليهم خبره فكان هذا عاملاً من عوامل سريان الدعوة بسرعة

إلى صفوف الأوس والخزرج حتى لا يسبقهم اليهود باتباعه والإيمان به وبذلك يتمكنون منهم ويظهرون عليهم ويكيدون لهم .

ولم يكن شيء من ذلك خافياً على قريش فأخذت تتوجس من الخوف وتضطرب من الفزع وتدرس من جديد الموقف الذي يجب عليها أن تقفه من ( محمد ) حتى لا يفلت من يدها ليستعد للوثبة عليها والنيل منها ولا يصدّم ما دام ماضياً في سبيله هذا المعنى - أن يزحف عليهم بجيش من العرب لا قبل لهم برد ولا طاقة لهم بالوقوف في طريقه .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ووقوفنا على الخطوات التي سلكوها معه من قبل - على الرغم من الكيد العنيف والأذى المتلاحق - أنهم كانوا يتهيبون قتله ويعتبرون الإقدام عليه إقداماً على عمل طائش وتصرف خاطيء أو غير سديد لذلك تجنبوه ولم يقبلوا مشورة من كل يشير عليهم به تفادياً من عداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب لكنهم أصبحوا مع ( محمد ) على حال تحتم عليهم أن يفكروا في قتله لأنه بسلوكه الذي يسلكه ونهجه الذي ينتهجه منعه إلى قتلهم من غير شك والحصانة تقضى إذا تجهز لك عدوك أن تجهز له وإذا خطا خطوة إلى حربك أن تخطو مثلها إلى حربيه : ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) وقد أيقنت قريش بذلك كله منذ أدير عنها وفد الثلاثة والسبعين وأن عليها أن تحتاط للشر قبل أن يقع إلا أن هذا الشر الذي سيقع شر شائك ودفعه بمثله أكثر شوكة والخرج الذي تتوقعه من قتل ( محمد ) قائماً لكن محمداً سيقتلها إن لم تبادر هي بقتله لذلك وضعت هذا الموقف موضع الدرس وأخذت تقلبه على وجوه كلها . لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع - كما يقولون - حتى لا يفكروا في الثأر له إذا قتل .

فقال قائل : نربطه على ظهر بعير أهوج يضل به في الصحراء ليموت من الجوع والعطش فسفهوا رأيه وقالوا له : إنه لا يعد بمنطقة الخلو ويبيانه العذب أن يجمع عليه الجموع التي تتأثر بقوله وتشفق لحاله وتعطف عليه وتفك هذا الوثاق الذي يعانيه .

وقال آخر : نجسه فردوا عليه يشبه ماردوا به على سابقه .

وكان رأى أبي جهل : أحزم هذه الآراء وأحكمها لأنه قضى أن يأخذوا من كل قبيلة فتي جلدأ قويا ثم يجمعوا هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه في قبائل العرب جميعاً فلا يستطيع قومه أن يثأروا له .

وبينما كانوا يعملون - جادين - لانجاز ما وصلوا إليه من تفكير كان المسلمون في الحبشة ، والمسلمون في مكة قد أخذوا طريقهم إلى « المدينة » وكان على - كرم الله وجهه - في المكان الذي كان ينام فيه رسول الله - ﷺ - نائماً على سريره وكان الرسول مع ( أبي بكر ) قد خرجا من مكة .

### الهجرة

لم يكن من الحتم على ( محمد ) - ﷺ - أن يبقى بمكة وقد تبين له أنها لم تعد صالحة للدعوة ولا مرجواً

من أهلها الخير وبخاصة بعد أن أوصى الله - سبحانه وتعالى - إليه هذا الشر الذى يبيتونه له والغدر الذى تنطوى نفوسهم عليه بل إن بقاءه مع هذه الاعتبارات كلها عبث لا يليق به وخطأ ليس له أن يفعله .

ولا يصح أن تؤول هذه الهجرة بأنها فرار من الميدان أو هرب من المسئولية لأن الفرار إنما يكون فراراً إذا تأكد صاحبه أن الصمود نبيل والبقاء شجاعة والمنازلة بطولة والحرب مصلحة والاستماتة فناء في الحق وكذلك المسئولية إنما تكون مسئولية إذا كانت جديرة بالتحمل .

لكن المسألة لا تعدوا أن يكون الجو غير ملائم والظروف ليست مناسبة والشأن في ذلك شأن طلب الثمرة من الأرض السبخة أو الباحث عنها في غير أوانها فإن المنطق يحكم عليه بالطيش ويصفه بالغته وهكذا كان كفار مكة كالأرض السبخة التى تلفظ الحب وتنكر البذور ولا يجدى معهم محاولة ولا جهد .

على أن الرسول الكريم لم يكن مرسلًا إليهم وحدهم مرتبطًا بعجلتهم أو تعتمد مصيره بهم أو يعيش تحت رحمتهم - كما يقولون - وإنما هو مرسل للأحمر والأسود والعرب والعجم يسافر ويقيم ويتحمل ومن حقه أن يجعل مكة مقراً له وفي هذه الهجرة ظهر أنه - ﷺ - من كبار الساسة الذين لا يغلب دهاؤهم ولا يضعف احتمالهم ولا تضعيع جهودهم ولا يخدع لأيهم ولا يطيش صوابهم وقد تبين ذلك كله في أمور : منها تركه عليا - كرم الله وجهه - مكانه متغنيا ببرده الخضراء التى كانوا يعرفون أنها تلازمه ولا تفارقه ليظنوا انه لا يزال في مكانه نائما كعادته فإن حاولوا أن يدهموا كان الأمر على غير ما يتوقعون والشأن على خلاف ما يقصدون وحيل بين ما يشتهون ولذلك ذهلبوا حينما علموا أن النائم « على » وكانت هذه أول هزيمة أصابتهم في الصميم وجعلت روحهم المعنوية هزيلة كثيبة ولم يشكوا عندها أنه قد سقط في أيديهم .

ومنها أنه لم يترك مكانه لعل الا وهم يرصدونه أمام بيته . . وقد طلع عليهم وهم في سنة من النوم فرمى التراب على وجوههم ، وفوق رؤوسهم قائلا : ( شاهت الوجوه ) إذلالاً لهم واختقاراً لشأنهم ولذلك تكامن كبرياؤهم وتضاءلت عظمتهم وبدأ على وجوههم الصغار والخزى .

ومنها أنه لم يخرج من مكة الا في النهار ليسجل عليهم فشل محاولاتهم التى حاولوها وبطلان تأمرهم الذى اجتمعوا له وفكروا فيه ودرسوه دراسة خاصة وقلبوه على وجه يحتمله وذلك لأنه نام في غار « ثور » إلى الصبح حيث عاد إلى مكة ليصحب معه « أبا بكر » وقد ظل هو وأبو بكر ثلاثة أيام في الغار حتى أحضر خادم « أبى بكر » البعيرين اللذين ركبهما « أبو بكر » وصاحبه . . وكان القصد من لقائهما في الغار - الذى لا يبعد عن مكة الا بساعة واحدة من الزمن - ألا يدركهما القوم إذا ما حدوا المسير في طلبهما « ومنها أيضا ، أن « أسماء بنت أبى بكر » التى كانت تحب إليهما بالطعام ، « وعبد الله » ابنه الذى كان يأتيهما بحديث المشركين عنها وكان يعفى على مواضع أقدامهما بغنم « أبى بكر » التى كان يرعاها له مولاه « عامر بن فهيرة » وكان هذا كله غاية التضييل وأقصى ما تكون التعمية . . وكل هذه أساليب الرجل الداهية وخطط السياسى المحنك وطرق لايتهدى إليها إلا انسان رتبته الحوادث والأيام .

أما عناية الله التى أغنت عن مضاعفة من الدروع - كما يقول البوصيرى في قصيدته البردة - فهى التى

جعلت الحمام يصنع العش ويملؤه من بيضه ويرقد فوقه للتفريخ وجعلت العنكبوت تنسج حيوطها هذا النسيج الدقيق .

وكان من تلك العناية أن أعمى الله بصيرة المشركين فلم يدركوا من أمره - ﷺ - شيئاً مع أنه كان في موقع أنظارهم وكان « أبوبكر » كلما اشتد به الخوف وزاد عليه الهلع والفرع ، قال له صاحبه ( « لا تحزن إن الله معنا » .

وقد دلت تلك المخاطرة التي أقدم عليها رسول الله - ﷺ - حينما كان لا بد له أن ينأى عن تلك الوجوه الكالحة .

وبباعد ما بينه وبين تلك النفوس الخبيثة على أنه كان مطمئناً كل الاطمئنان إلى أن أعداءه لا يستطيعون أن ينالوا منه ولا أن يظفروا به ولا أن يستعدوا عليه وإلا لكان همُّه أن يهرب وكفى أو أن ينجو فحسب ولكننا رأيناه يخرج بالليل ثم يعود بالنهار ورأيناه يحثو في وجههم التراب غير مبال بما يستهدف له من انتقامهم أو ما يتعرض له من سخطهم .

وفي كتب التاريخ : أنهم بعد أن أصابهم هذا الحادث بدوار في رؤوسهم رصدوا جائزة مغرية لمن يجيء بخبر « محمد » - حيا أو ميتا - أو من يدلهم على الطريق الذي سلكه والجهة التي انتهى إليها وكانت تلك الجائزة مائة بغير هي نصاب من المال لا يعدم أن يرفع الذي يحرضه من ذات الصدع إلى ذات الرجوع لذلك تقدم « سراقه بن مالك » المدلجى الكنانى لهذه المهمة وقال لهم : « أنا ضمين لكم بذلك » وهنالك ركب فرسه إلى حيث سار « محمد » و « أبوبكر » على الرغم من أنها سلكاً طريقاً مهجوراً لا يعرفه أحد ولا يمشى فيه انسان وكان السبب في ترك المسافرين له ، وعدم خطوره لهم ببال أنه غير ممهد ولا قريب المسافة ، وما كان لسراقه أن يعرفه لولا أنه سمع رجلاً يغنى بهذا البيت .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

فأخذ يتقصى منه خبر هذين الرفيقين وماذا عساه أن يكون لهما من نأى حمل الشاعر على أن يسجله وجعل ذلك وغيره من الناس يتناقلونه والناس إنما يتناقلون الطريف من الحوادث أو الغريب من الأخبار .

ولابد أن يكون الفضول قد دفع غير ( سراقه ) أن يسأل لكن ( سراقه ) كان أسرع من سواء وطار إلى القوم ثم ركب إلى حيث يمر بخيمة « أم معبد » وربما سألها - كما سألتها قریش بعد - وعرف أن رجلين أضناها الجوع وأنهكها المسير وأعيأها التعب قدما إلى خيمتها يسألانها طعاماً أو شراباً ولم يكن عندها شيء من الزاد أو الماء ولم يكن بخيمتها غير شاه هزيلة كان ضرعها من الهزال والجوع لم يدر قطرة واحدة من اللبن منذ زمن بعيد وأن أحد هذين الرجلين طلب الشاه فقراً على ضرعها بعض الأدعية ثم احتلبها فحلبت فشرب هو وصاحبه وأعطى بقية الذى حلبه لصاحبة الخيمة . . وارتحل الرجلان وخلفا وراءهما هذا الحديث المروى .

ولم يشك « سراقه » في أن يكون هذان الرجلان « محمداً وأبوبكر » الذى يصاحبه في كل شيء .

## في الطريق إلى المدينة

على الرغم من أن الطريق الذي سلكه رسول الله - ﷺ - لم يكن مألوفاً للمسافر إلى المدينة ولا معروفاً لقوافل التجارة التي كانت تنتقل من هنا وهناك فقد كان حادث خيمة « أم معبد » هو المفتاح الأول في أن يضع « سراقه » يده على الخيط الموصل لكنه لم يكن وصولاً ساراً ولا هداية نافعة إذ أن فرسه لم تكد تصل به إلى حيث كان « محمد وأبوبكر » حتى ساخت قوائمها في التراب وتوقفت حركتها وكأنما أصابها ذهول أو اعترها شيء لا تدري ما هو فظلت مكانها لا تحاول أن تغادره إلى الأمام ولا إلى الوراء ثم بعد غيبوبة طويلة عن الوجود انتزعت قوائمها بعنف انفجر له مكان تلك القوائم بصوت مزعج وحركة مخيفة ، ذهل لها « سراقه » ولم يسعه إلا أن يطلب الأمان من « محمد » فأمنه - ﷺ - على أن يتأخر في الرجوع إلى قريش ريثما تكون الرحلة قد انتهت أوقاربت الانتهاء حتى لا يستطيعوا أن يدركوه .

وقد طلب ( سراقه ) كتاباً يثبت وصوله إلى الضالة المنشودة وحصوله على الغرض المطلوب رجاء أن يكون شفيعاً له في استحقاق الجائزة المرصودة فرغب النبي إلى ( أبي بكر ) أن يكتب لسراقه هذا الكتاب فكتبه ومضى ( سراقه ) إلى قريش ليخبرهم خبره فظنوه يتوهم أو يتخيل إلا أنه بعد أن أطلعهم على الكتاب الذي كتبه ( أبوبكر ) بيده أطمأنوا إلى صدقه وأذعنوا لقوله ثم عاتبوه على البطء في العودة الذي حال بينهم وبين ادراكه والحيلولة بينه وبين دخول المدينة فاعتذر بوعورة الطريق والتواء المسالك والخوف الذي يكتنف المسافر ولم يخبرهم عن السبب الذي حمله على التأخير حتى لا يتهموه بمجاملة ( محمد ) أو العمل على مرضاته لأنه وهب له حياته وكان في استطاعته أن يأخذه بذنبه أو يقوده أسيراً .

وعلى كل حال فقد كان يهون المسافة التي كان طولها عملاً بغيضاً أن « أبا بكر » وهو العالم بأنساب العرب وأخبارهم كان يقص من التاريخ ويروى من حوادث الأيام ما يطردهم ويشيع المرح والأنس في نفس النبي - ﷺ - فلا يحس تعباً ولا يشعر بألم ولا يدركه إعياء ولا فتور .

ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التي ظل محمد - ﷺ - يعانيتها هو وأبوبكر فلما كانت مشقة حبيبة إلى نفسيهما سهلة الوقع عليهما لإحساسهما العميق بأن المدينة سوف تكون الدار الطيبة والبيئة الصالحة والثربة الخصبة والوطن العزيز الذي تجدد الدعوة فيه من الازدهار والكمال والثبات والاستقرار ما كانت تتوق إليه فلا تجده وتتطلع إليه فلا تكاد تقرب منه .

وقد كان من العوامل المهمة في الاستهانة بالمتعاب عامل آخر لا يصح اغفاله في تاريخ الهجرة والحديث عنها وهو أن « محمداً » - ﷺ - في كل خطوة يخطوها وفي كل مكان يمر به كانت تتفتح له قلوب الناس وتترامى بين يديه أفئدتهم وتحفه من كل جانب ضمائر تتأجج بنار الشوق وتشتعل بلهب الحب وتحف من مكانها لاستقباله والحفاوة به وتطلب منه أن يعرج عليها وينزل بين ظهرانيها .

ولم يكد يصل إلى « قباء » وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال - حتى وجد أهلها صفوفاً على الطريق يتشوقون إليه . ويتلهفون عليه ويرجون رجاء حاراً أن ينزل في رحابهم ويقيم بينهم وكان ذلك في الضحى والشمس تفتح بنارها الوجوه ولا يقوى على استقبالها والصبر على لدغها القوى إلا من يتناسى أذاها وألمها

في سبيل حاجته الملحة وهدفه النبيل وغرضه الأسمى وكان على رأس أهل « قباء » أشرافهم ، ورؤساؤهم من بني « عمر بن عوف » .

وكان في هذا الوقت نفسه ينتظر هذا الانتظار ويتربص هذا التربص ويصطف على جوانب الطرق أهل المدينة من لدن طلوع الشمس إلى غروبها إلا أنه آثر أن يستريح في « قباء » وأن يبني فيها مسجداً تقام فيه الصلوات وكان هذا المسجد أول مسجد في الاسلام أعلن فيه المسلمون عبادتهم<sup>(١)</sup> ثم اجتمعت كلمتهم على نصرة الرسول ورفع راية الاسلام والجهاد الحق في سبيل الله فهو ذلك المسجد الذي امتدحه الله إذ يذم غيره حين يقول في سورة التوبة : ( والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا نقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين )<sup>(٢)</sup> وهو هذا الذي أسس على التقوى من أول يوم . . وأهله هم هؤلاء الذين يصفهم ( القرآن ) بأنهم يحبون أن يتطهروا وإذا تحدث المؤرخون عن تبائه - ﷺ - لهذا المسجد وأنه خطب بالناس هنالك خطبة الجمعة وصلى بالناس وفهمنا نحن أنه كان بناء على الطريقة المألوفة باللبن أو الحجارة اعتماداً على أن المدة التي أقامها بقباء كانت ثلاثة أيام وهي لا تتسع للبناء بمعناه الواسع فإنه كان - على كل حال - رمزاً للانتقال بالدين من مرحلة العقيدة والايمان إلى مرحلة العمل ، وهي المرحلة التي كانت المدينة السبب الأصيل في وجودها ، ولولا الهجرة إليها لما ظفر الاسلام بهذا الغنم إلا بعد عنف عنيف وجهد شاق .

أما المسجد الثاني بعد مسجد ( قباء ) هذه فقد كان بالمدينة - وهو المسمى بالحرم المدني - ومن حديثه الرائع أن الرسول - ﷺ - لما دخل المدينة بين تهليل أهلها وفرحهم كانوا يتنازعون زمام ناقته ليأخذوها إلى حيث ينزل ضيفاً عليهم وكان كلما أنتزع أحد زمامها يقول لهم الرسول : ( خلوا زمامها فإنها مأمورة ) ثم لا يزالون - كذلك - ولا يصرفهم النبي إلا بهذه الكلمة حتى مع أخوال جده « عبد المطلب » - بني النجار - الذين مات أبوه عندهم وفي حين أن طمعهم في نزوله كان شديداً لتلك القرابة القريبة بينهم وبينه : فإنه قال لهم كذلك : ( خلوا زمامها فإنها مأمورة )<sup>(٣)</sup> .

وأنتهى أمر تلك المأمورة بأن بركت على مقربة من دار « أبي أيوب الأنصاري » ثم قامت فبركت على باب دار « أبي أيوب الأنصاري » ثم قامت وعادت ثانية إلى موضعها الأول :

كان تفسير ذلك أن المكان الأول هو مكان المسجد والمكان الثاني هو مكان ضيافته - ﷺ - فإن « أبا أيوب » حمل رحله ونزل به عنده وكان له شرف تلك الضيافة دون أهل المدينة .

وكان من طريف ما يروى عن تلك الضيافة أن دار « أبي أيوب » كانت ذات طابقين أثنين فاختر النبي الطابق الأول وألح « أبو أيوب » أن يختار - ﷺ - الطابق الثاني رفعاً لشأنه وتكريماً لأمره ولم يكف عن إلحاحه في ذلك إلا بعد أن أقنعه الرسول أن زواره كثيرون .

(١) سيرة ابن هشام ١٥٨/٢ طبعة الأردن

(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٦/١ والبيهقي في الدلائل ٥٠٣/٢ وجمع الزوائد ٦٣/٦

## في المدينة

وصل - ﷺ - إلى المدينة ومعه المسلمون وكلهم خاوى الوفاض بادی الانقاض كما يقول الحریری في المقامات وما منهم إلا من له في مكة ابن أو أب أو أخ أو زوجة أو أم أو أخت أو انسان عزيز عليه أن يفارقه أو يرى نفسه بعيداً عنه إلى جانب أنهم لا يملكون زاداً يتبلغون به ولا ماء يشربونه ولا داراً يأوون إليها .

والفقر إذا ما تناول الناس في ناحية من هذه النواحي كان هو الموت الأحمر ولكنه القدر القاسى يأبى إلا أن يضيف إلى مراوة الاغتراب وفراق الأهل والأصحاب مراوة الحاجة الشديدة والبؤس المحقق والمسلمون في المدينة إن اتسعت صدورهم ودورهم لضيافة النازلين عليهم لا تتسع أموالهم وأرزاقهم وإن كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة لهذا كان النبی - ﷺ - يهتم كل الاهتمام بأن يأخذ كل واحد من المهاجرين في عمل يكسب منه قوته حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا باباً من أبواب البر بإخوانهم إلا ولجوه عليهم وفتحوه لهم ليشعروا إنهم لم تنأ بهم الدار أو تنقطع بهم الأسباب أو توصل في وجوههم السبل أو تقتصر عليهم الأرزاق .

ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريعة التي مر بها المهاجرون حينئذ إلا وهم لا يقلون في ثرائهم وكثرة أموالهم وانتعاشهم الاقتصادى عن السكان الأصليين - في المدينة من المسلمين وغيرهم وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين في هذا الوقت تلك التي أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف وقد أخذت المؤاخاة والامتزاج والشركة بين الفريقين من المكيين والمدنيين تتحكم أو أصرها وتسود أسبابها إذ أخى النبی - ﷺ - بينه وبين ( سعيد بن الربيع ) الأنصارى وقد عرض « سعد » عليه أن يقاسمه أهله وأمواله فأبى ذلك وقال له : « بارك الله لك في أهلك وأموالك دلنى على السوق » فدلّه على السوق وكان يتجر في الأقط والسمن ثم ما لبث أن كان من الأغنياء وكان من أكثر المسلمين بذلاً في سبيل الله إلى درجة أنه ساهم في تجهيز جيش العسرة أعظم المساهمة .

وهكذا يخبر التاريخ عن المهاجرين أنهم لم يكونوا مثلاً من أمثلة البطالة والتواكل والعجز والاستجداء لكنهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وفرضوا أنفسهم في المجتمع الجديد سادة لا سوقة .

ومن المعروف في هذه الآونة أن « محمداً » - ﷺ - جعل بعد وصوله إلى المدينة بئراً اشتراها المسلمون من يهودى بأربعين ألف درهم ليكون الانتفاع بمائها لجميع المسلمين حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء لكن هذا كله لا يعنى أن النبی - ﷺ - ومن كان معه من أهل مكة اطمأنت ضمائرهم كل الأطمئنان في بلد ، هم وافدون عليه نازحون إليه تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم قد انتهت بهم المطاردة عنده وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع أو تنسيهم بلداً فيه البيت الذى جعله الله للناس مثابة وأمناً وهم في المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافرين الذى ينتظر الأوبة ويرجو لقاء أهله وعشيرته حتى رسول الله - ﷺ - الذى كان يظهر حنينه ويبدى تشوقه ولهفه وإن كان بنى المسجد وبنى بيوت زوجاته لاصقة به ليغرس في قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن الجديد والاطمئنان إليه والرضا به « وكل مكان ينبت العز طيب » .



وقد أخذت جذور الدعوة الإسلامية تمتد وتتمكن وشرع الله الآذان والصلاة والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام وكان للمؤاخاة التي ربطها النبي ﷺ - بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة التي جمعت بين اليهود والمسلمين الأثر البالغ في تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا في مكة تخشى بأس المسلمين وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم وغزوهم في عقر دارهم انتقاماً لأموالهم المسلوقة وأهلهم المعذيين ودينهم المضطهد وحریتهم المحاربة وكرامتهم المضیعة لذلك أخذت حمى الخوف والهلع والجزع والفرع تسرى في أفئدة طواغيت للشرك هناك مما عساه أن يلحق بهم أو يطرأ عليهم فلم يكن لهم شغل وراء الاستعداد للاجهاز على تلك الدولة التي يؤسسها « محمد » - في المدينة لهذا كانت لا تفتأ تتحسس أخباره وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه وتبذل لذلك كله ما تبذل لترى إلى أى مدى تبلغ قوته إذا هي حاربتة أو خرجت لملاقاته وكان رسول الله ﷺ - كذلك - يتبع أخبارهم ويعرف ما يبيتون له وكان عمه « العباس » هنالك يكتب له تحركاتهم وشرورهم التي يضررونها .

وكان التشريع السماوى والأدب النبوى يسيران جنباً إلى جنب في تكوين الوحدة الإسلامية والمبادئ الانسانية والأخلاق النبيلة لتتلاقى القلوب ويجتمع الشمل وتذوب الفوارق ، وتسود المحبة وينسى كل انسان عصبية لأهله وذويه أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر .

وليست هذه المعانى بالأمر اليسير في نظر مشركى « مكة » الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد والمسلمين معه فقد كان الصراع في أفئدتهم على أشده من جراء هذا الزحف الذى يجىء به الغد المنتظر على الرغم من علمهم الذى لا شك فيه أن عناصر أخرى تشاركهم عداوة هذا الدين الذى يدعو به « محمد » وأصحابه ، لكن قريشا كانت على يقين أن هذه العناصر لا تلبث أن تصير هباء إذا هبت عليها الرياح العاصف من غصبة أولئك الذين عاهدوا ( محمداً ) على أن يقفوا بجانبه ويدافعوا عنه ويردوا كيد المشركين إلى وجوههم إن حدثتهم نفوسهم أن ينالوا منه أو يلحقوا به شيئا من الأذى والهوان .

### عنت اليهود

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - قد طمان اليهود على مستقبلهم وحریتهم وكرامتهم وأفهمهم أنه سوف لا يتعرض لعقائدهم وعباداتهم وأنهم سيكونون - معه - في تقديرهم واحترام ملكيتهم وحق تنقلهم وتصرفاتهم في أموالهم وطقوسهم كالمسلمين والمعاهدة التي وقعها وإياهم تضمن لهم هذه المعانى كلها لا ييخس فيها ولا ينحرف عنها ولا تحدثه نفسه بنقضها أو الخروج عليها .

لكن البوادر التي كانت تبدو في المناسبة تلو المناسبة تدل دلالة لا تقبل الريب والشك على أن نفوسهم تغلى بالحق وجوانحهم تتأجج بالكراهية وأنهم يستعدون لجولة مفضوحة .

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾<sup>(١)</sup>

ويقول أساتذة التاريخ الاسلامي : أنهم كانوا يطمعون أن يسيطروا على « محمد » - صلى الله عليه وسلم - ويسخروه للدعوة اليهودية ، لا يتحرك إلا بإرادتهم ولا يدعو إلا بما يرسمونه له من المبادئ والآداب والدساتير والنظم فلما رأوا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأن حركته وسكونه وقوله وفعله وتوجيهه وإرشاده وهديه وتعاليمه وأوامره ونواهيه إنما يتلقاها من السماء ويأخذها عن رب « موسى » و « عيسى » والأنبياء من قبله وأنه ماض في خطة هو فيها مسخر لا غير ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ <sup>(١)</sup> لا تحركه شهواته ولا يدفعه طموحه أخذوا ينفضون أيديهم من الآمال التي علقوها على طيه في أيديهم ووضعوه في جيوبهم وتملكهم لزمهم وحيث بدت الأحقاد والضغائن .

على أن اليهود إلى جانب ذلك كانوا في المدينة رجال أعمال ومال يحتكرون الأسواق ويحذقون أساليب الربح ويتفننون فنون التجارة ويحولون التراب إلى ذهب والمهاجرون من مكة زاحموهم في الأسواق ونافسهم في التجارة وضيقوا عليهم مجال العمل فلم يعد لهم من الربح والاستغلال والاحتكار مثل الذي كان لهم من قبل وهم الذين يجعلون المال إلههم من دون الله لذلك ضاقوا ذرعاً بمحمد وأصحابه لأنهم عكروا صفو حياتهم ونقصوا عليهم العيش الذي كانوا يتمتعون به . . . ومن وراء هذا وهذا كان « عبد الله بن أبي بن سلول » على وشك أن يراه الناس :

يلمع الساج فوق هامته على جبين كأنه الذهب

لأن اليهود كانوا يعدون العدة لتوجيه ملكا عليهم - وإن لم يكن يهوديا فقد كان عميلاً لهم يعيش بعواطفهم ويجعل نفسه ذليلاً في مؤخرتهم فلما أشرق على المدينة نور الرسالة وسطعت شمس الهداية ذهب تلك السحب وزال هذا الضباب وخابت ظنون وأحلام أوحى بها الأمانى الكاذبة والأوهام الباطلة .

وقد حدث أنه - صلى الله عليه وسلم - كان ذاهباً لزيارة « سعد بن عباد » الخزرجي الأنصاري لمرضه وفي طريقه إلى بيت « سعد » رأى جمعاً فيهم « ابن أبي » - ويظهر أنه كان لا يزال على الكفر - ورأى النبي أن يسلم عليهم وأن يتحدث إليهم وكان في حديثه شيء من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأمر والنهي والحلال والحرام فما كان من « ابن أبي » إلا أن قال له : هذا كلام تبذله لمن يطلبه وتذيعه لمن يتشوق إليه وتجلس في بيتك لتقوله لمن يفد عليك لأنك تؤذى به الأحاسيس وتثير به العواطف وتهيج به حفاظ الناس ولما انتهى الرسول إلى بيت « سعد » وسلم عليه رأى في وجهه الألم وعدم الارتياح فقال له : أرى في وجهك يا رسول الله تغيراً ينبئ عن غضب لأمر لم يصادف منك رضا وارتياحاً فأخبره الرسول الخبر فقال له سعد : اعذر يا رسول الله لأنك جئت إلينا ونحن ننظم له الخرز لتوجه علينا وكان مجيئك تبديداً لأحلامه وخيبة لظنونه وضياعاً لما كان يرجوه ولهذا كان الدور الذي قام به « عبد الله بن أبي » - رأس المنافقين - من الكيد للإسلام واشعال نيران الفتنة في كل مناسبة وإقامة العقبات والعراقيل في وجه الدعوة لا يستهان به في رأى المنصفين معه علماء السيرة النبوية وربما كان هو وحده وراء التمرد الذي كان صلى الله عليه وسلم يقاومه في صفوف المنافقين تارة ويقاومه في صفوف اليهود مرة أخرى .

وفي هذه الآونة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس وكان هذا ذريعة لأن يُعَيَّر اليهود « محمداً » وأصحابه أنهم يستقبلون قبلتهم ولا يتبعون شريعتهم وكان لهذا القول وقعه السيء على نفس « محمد » وأصحابه فهو لذلك يترقب بفارغ الصبر أن يحول الله وجهه إلى البيت الحرام بمكة الذي تهفو إليه مشاعره ويرتبط به وجدانه وكان لشدة - طمعه في أن يحقق الله هذا الرجاء يتطلع بوجهه إلى السماء ترقباً للوحي الذي ينزل عليه وهناك نزلت الآية : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ (١) وبذلك اطمأن خاطره واستراح قلبه وانقطعت قالة اليهود وأصبحوا يفكرون في أشياء أخرى جديدة يبلبلون بها الأفتدة ويشككون بها الناس وينقصون بها الصفو على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول الدكتور « هيكلم » في كتابه ( حياة محمد ) : « وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لداً وأكبر مكرًا من حرب الجدل التي كانت بينه وبين قريش بمكة وفي هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين جمعتها اليهود صفوفًا مترامة يهاجمون به محمداً ورسالاته وأصحابه المهاجرين والأنصار ودسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه وجلس بين المسلمين بادياً في غاية الورع والتقوى ثم لم يلبث الحين بعد الحين أن يعتنى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع في نفس المسلمين عقيدتهم به ورسالة الحق التي يدعو إليها وانضم إلى اليهود - في ذلك كله - جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقاً وبلغ من تعنتهم - اليهود - أن كانوا ينكرون ما في التوراة ويسألون محمداً : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم .

والنبي - صلى الله عليه وسلم - كان في غاية الحرج مع المنافقين لأنهم - في الغالب - كانوا من أهل المدينة ولقرابتهم وأهلهم عنده حق الرعاية والاحترام وليس من الكياسة أن يغضبهم وأن يحول موقفهم معه إلى موقف العدو اللدود فيكثر بذلك خصومه الذين يناوئونه لهذا كان يعاملهم برفق ويكل أمرهم إلى ذوبهم وقد أراد « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه - أن يقتل بعبد الله بن أبي بن سلول فمنعه الرسول وقال له : ( أترضى أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ) . وكان لعبد الله بن أبي ولد من خيار صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدعى « عبد الله » أيضاً - فاستأذن الرسول أن يقتل أباه بيده حتى لا تأخذه الغيرة على قاتله فيقتله ويرتكب حراماً ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ( لا تقتله ولا يقتله سواك ) (٢)

وكان من الحزم القضاء على أصل الداء - اليهود - الذين مكثوا للنفاق في المجتمع الاسلامي .

### بعد الاستقرار

انتهى المطاف بالنبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه بالمدينة واستقبلهم أهلها بالهشاشة

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٤

(٢) الإصابة لابن حجر ٣٢٧/٢ مجمع الزوائد ٣١٨/٩ تاريخ الطبري ٦٠٨/٢

والبشاشة والسرور والرضا والارتياح والاطمئنان واتجه كل واحد من المهاجرين إلى العمل الذى يناسبه من التجارة أو الزراعة ليصل على لقمة العيش التى تمسك أوده وتقيم صلبه فلا يكون عالة على غيره ولا عبثاً على سواه إلا أن الأمر لم يكن ليتتهى إلى هذا الحد فيرضى كل منهم الرضا كله ويستريح الراحة التى لا يشكو بعدها أيناً ولا تعباً وبخاصة الرسول الكريم الذى يخطط لحياة طويلة وسياسة دائمة ودولة يستطيع بها أن يكبح جماح الظلم ويعيد طغيان الكفر ويقضى على فساد الحكم وفوضى السلوك والأخلاق .

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذى يتحين له فرصة الإيلام والإيذاء والجبروت والتعدى - والمطاردة والقهر والقضاء على دعوته والإجهاد على من يقفون معه أو يؤمنون به وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجد فيها جواً نقى وحالاً أهدأ لكنه واجه اليهود بها يضمرون الشر ويكتمون العداوة ويلهبون فى قلوب المنافقين نيران البغضاء ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان وإشاعة التفكك فى صفوف المسلمين حتى لا تقوى لمحمد شوكة ولا تقوم للإسلام دولة وينتهى الحال بهجرة أخرى عن المدينة كالهجرة التى كانت من مكة وقد راود هذا الحلم أفكار بعض اليهود فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم - لماذا لم تهجر إلى ( بيت المقدس ) كما فعل الأنبياء والمرسلون من قبل ؟ ومن أجل هذا كله فالنبي - صلى الله عليه وسلم - كان فى المدينة على حال لا يحسد عليها وقد حملة هذا على أن يلتزم المبدأ القائل : « اطلب الموت توهب لك الحياة » وطلب الموت كان ممثلاً فى تلك الخطوة التى سار عليها :

أراد أن يفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر على موقف القوة الذى تقفه منه فتعامله معاملة الضعيف الفار من وجهها الهارب من عدوانها الناجى بدينه منها فتظل على تفكيرها فى قتله أو الظفر به ولم يجد وسيلة لذلك أحسن من أن يرسل السرايا من المسلمين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام ولتشيع هنالك الفزع والخوف فلا يجرؤ أحد على اقتحامه أو السير منه إلا بقوة مدججة بالسلاح وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال أو يتحولون بتجارهم إلى طريق آخر أكثر مشقة وأبعد مدى وفى هذا تعطيل رحلاتهم وكساد تجارتهم وإيلام لنفوسهم وإثارة لحفيظتهم وأكد النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأحلاف التى ربط بها بينه وبين القبائل والأقوام المختلفة التى تستوطن هذا الطريق ذلك المعنى الذى قصد به حرب العصابات التى تشنها جماعاته على قوافل التجارة وكان الهدف الذى يرمى إليه أن تفكر قريش فى تسوية حسابها معه - كما يقولون - اعتداء يستطيع المسلمون فى مكة فى ظلها أن يعيشوا فى سلامة من شرهم وبعد عن إيذائهم ويترتب على ذلك أن المنافقين واليهود فى المدينة يكفون عن نوايا السوء التى يضمرونها والخطط الخبيثة التى يرسمونها ولم يمض عامان كاملاً على اغترابه فى المدينة حتى كان فى استطاعته أن يلتقى بهم وجهاً لوجه ملاقة الند للند وكان له جيش يستطيع به أن يتهدد لقاءهم ويشرد جموعهم ويشيع فى صفوفهم الهلع والرعب .

وبعد ثمانية أشهر من إقامته بالمدينة بعث بعمه « حمزة بن عبد المطلب » فى ثلاثين راكباً من المهاجرين فالتقوا بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة من أهل مكة كان « حمزة » هو وجماعته على استعداد لقتلهم لولا أن حجز بينهم جهنمى كان موادعاً للطرفين وسار « عبيدة بن الحارث » عقب هذه المسيرة فى

ستين راكبا ليقطعوا الطريق على « أبي سفيان » ومائتين كانوا معه وقد انسحب أبو سفيان ومن كان معه وخرج كذلك « سعد بن أبي وقاص » في ثمانية .

وهكذا خرج يتبعه آخر وآخر ، إلى أن أصبحت قريش تفكر تفكيراً جاداً في سلامة تجازتها وأمن طريقها وبخاصة وقد رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخرج بنفسه لملاقاة ( أمية بن خلف ) وملاقاة ( أبي سفيان ) .

ويقول بعض كتاب السيرة : أنه كان - صلى الله عليه وسلم - لا ينتدب لهذه العملية إلا المهاجرين بحجة أنهم هم المعتدى عليهم من أهل مكة الذين غنموا أموالهم واغتصبوا حقوقهم وخربوا ديارهم وأوقعوا الأذى بأهلهم وإلى جانب ذلك فرمى كان في هذه القوافل بعض من يربطهم بهم دم أو قرابة فيحول ذلك بين قتالهم وإزهاق أرواحهم ويثير فيهم عاطفة النسب وروح الاتصال ووشائج الارتباط وعلى كل حال فقد كان هذا الموقف ضرورياً لأنه على الأقل منع قريشاً من مواصلة عدوانها وحملها على أن تحسب للمسلمين بالمدينة - من المهاجرين وغيرهم - ألف حساب . ثم انتهت إحدى السرايا إلى نهاية تثير بعض النفوس وتوقف المسلمين موقف النقد وإن كان نقداً لا قيمة له ويرجع ذلك إلى أن « عبد الله بن جحش الأسدي » بعثه النبي - صلى الله عليه وسلم - في رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ليرصد أخبار قريش لكنه لم يكتف بهذا التخطيط الذي رسمه له الرسول وإنما إنتهى به الأمر إلى أخذ غير بما تحمله من عروض التجارة المختلفة وقتل « عمرو بن الحضرمي » الذي كان يقودها هو وجماعة معه وقد جاء إلى النبي بتلك العير وأسيرين وكان هذا الحديث الذي أحدثه « عبد الله بن جحش » مثار أحاديث ردها المشركون والمنافقون على السواء كلها كانت لمزاً جارحاً وطعناً حقيراً ورمياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه لم يحترم الأشهر الحرم التي كانت لها قدسيته عند الناس منذ الجاهلية لم يسفكوا فيها دماً ولم يعتدوا على حرمة من المحرمات وقد أخذ بعض من تعطفهم العواطف على « عبد الله » يلتمسون له العذر ويصححون له الوضع وقال فريق منهم : إن القتل كان حيث كانت اللحظات الأخيرة من رجب قد تصرمت . وأثار ذلك القول الرسول نفسه - بعد أن وصل إلى أذنيه دوى المرجفين - فأبدى غضبه من ( عبد الله بن جحش ) وقال له : ( لم آمرك بقتال ولا بسفك دم ) . ولما حى وطيس هذه الفتنة واتخذها المشركون والمنافقون ذريعة للطعن والتشويش نزل قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (١) .

يستعرض سلوكهم السيء وتاريخهم الأسود وماضيهم الملوث ومواقفهم المرذولة وكان هذا الخطأ الذي ارتكبه « عبد الله » لا يساوى شيئاً إلى جانب صدهم عن دين الله ومحاربتهم للحق وانحرافهم عن الجادة والتوائهم عن الصراط السوى وكأنما كان ذلك المنطق الذي سمعوه والأسلوب الذي جوبهوا به بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم وتنزل على رؤوسهم لأن من أحمق الحمق وأكبر الكباثر أن يرى الرجل القذى في عين أخيه ثم لا يرى الجذع في عين نفسه .

## شبهة ندفعها

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التي كان يرسلها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من جماعة المهاجرين ، الواحدة تلو الأخرى مكونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش إلى الشام أو الآيين منها من أجل تجارتهم التي كانت الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ونماء أموالهم ، ووفرة أقواتهم : إن هذه حرب عدوانية لا يصح للداعية أو المصلح الاجتماعي أن يلتجئ إليها أو يجعلها معتمدة في نشر أفكاره وبث تعاليمه والاقناع بأنها الحق الصالح والرأي والصواب . . . وقد بالغ قوم في هذه الشبهة فزعموا أن دين « محمد » - صلى الله عليه وسلم - انتشر بالسيف وتمكن بالعنف وارتفعت رايته بالقوة وأخذ به معتقوه حين لم يجدوا بدا من الدخول فيه والايمان به والوقوف إلى جانبه ليردوا عن أنفسهم طغيان القوة وجبروت السلطان ويطش الكثرة الكاثرة ممن وضعوا أرواحهم لمطامعه وانتصارا لمبادئه وتأكيدا لطموحه في السيادة والملك وهو قول إنما يقول به من يتجرد من المنطق ويجافي الحق ويجانب الصواب ويناقش مناقشة الأطفال ويحاول بلغة المجانين ويزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة من البشر يريد أن يسخرهم لمطامعه العدوانية وشهوته المسفة وكبريائه المصنوع كما كان الفراعين والقيصرية والأكاسرة الذين علوا في الأرض بغير الحق في حين أن دعوته هذه كانت : ( فطرة الله التي فطر الناس عليها ) .

لا تعاند الطبع ، ولا تخالف الذوق ولا تعارض التقدم ولا تقود الانسان إلا إلى الصلاح والفلاح ولا يمكن للبشرية أن تسعد السعادة التامة دون أن تلتبس منها الرشد وتستمد منها الهداية وتجعل منها طب نفوسها وعلاج أمراضها .

ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحد أو ألجأ إليها انسانا وكتابه الكريم ينادى بأعلى صوته يقول له لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي وهو في الوقت الذي يجعل الأخذ بهذا الدين والايمان به قائما على الاختيار لا الاضطرار يشرع للمسلم القتال دفاعاً عن عرضه أو ماله أو نفسه أو دينه . . . وإذا نحن حققنا النظر في تلك الحرب التي كانت تدير رحاها السرايا التي أشاعت الخوف في الطريق إلى الشام أو منها وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحداً من هذه الأمور الأربعة التي جعلناها أسباباً واضحة تبرر التحام الجيوش في ساحات القتال ، فأموالهم في مكة قد اغتصبت ودينهم يناله الايلام والايذاء والمطاردة والصد ونفوسهم مهددة بالقضاء فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذي لا بديل عنه ويساقون إلى حربهم بحكم الدفاع الذي لا بد منه وحيثما انتهى قرار المسلمين بالمدينة واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الإقامة الدولة التي يحمون حوزتها ويدافعون عن حدودها ويرون من يغير عليها وتلك الطريق التي كانت تسلكها قريش وتنتهك حرمتها كانت في حدود الدولة وكان عليها لتمر منها أو تستخدمها لمصلحتها - أن تستأذن عليها كما تقضى بذلك الأعراف الدولية .

على أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذى يثير الرعب ويشيع الفرع فلم يجعلها حرباً بمعنى الكلمة تتخذ لها الأهبة ويوفر لها الاستعداد من الذخيرة والسلاح والرجال لأن القصد الأول كان تعرفها أخبار قريش وتحركاتها واستعدادها لمواصلة القضاء على المسلمين وكبت نشاطهم والحد من تحركهم واتساع نطاق دعوتهم والمنصفون من المؤرخين إنما يعيرون على المصلحين أو أصحاب الدعوات التقدمية الحرب الهجومية إذ هى التى يشتم منها القسر والفهر والاكراه والالغاء والالزام الذى لا اختيار معه ولا يدع مجالاً للمنطق والتفكير والترجيح والموازنة كما يفعل الذين يذعنون للحق ويؤمنون بالصواب أما الحرب الدفاعية التى ترد العدوان وتصد الباطل وتزود شرور الاستبداد وطيش الرعونة وسفاهة الحمقى فإنها مسلمة بالدائه والفطر لا ينكرها عقل ولا باباها ذوق ولم تكن حروب الاسلام فى يوم من الأيام هجوماً ولا بطشاً وإنما كانت لدفع الظلم ورد البغى وكبح جماح الباطل ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف فى كتابه « الدولة الاسلامية » : « إن النبى لم يقيم بحرب هجومية إطلاقاً حتى فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش فإن موقعة « بدر » التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود إقليم المدينة وعلى إثر تحدى المكين للنبى وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتنين حق السيادة الثيربية ، فأبوسفيان حين مر بقافلة فى المنطقة الثيربية كان يتحدى أهل يثرب بقوته ويستتثل شأن النبى ولهذا خرج النبى إليه وأراد أن يصادر هذه القافلة أو أن يحاربها وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم والطائفة الأولى هى القافلة والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ومنع النبى من مصادرتها .

« ووقعة » أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة وعلى نحو ميلين منها وكان المكين فيها مهاجمين يطالبون بثار بدر ثم إن النبى خرج فى السنة الرابعة إلى « بدر الثانية » لوعد بالحرب كان بينه وبين المكين يوم أحد فلما كان العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة « الخندق » كان النبى مستقراً فى يثرب وعدوه هو الذى جاء إليه متحدياً متتهكاً لحقه فى السيادة كما كان الحال فى عام أحد وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكين وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام ومع ذلك فإن النبى حرص على الجهاد ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإعزاز الدولة الاسلامية بحيث يعيش فى أمن عام وإتاحة الفرصة للمبادئ أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان . دون أن تقف القوى المسلمة المادية فى طريقها فتصددها وتعطل من سيرها .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر وجبروت الظلم وتسلط الجبارين . وتشويش المرجفين وعناد الحمقى وسفه المحرومين على أن دعوى الاكراه والارغام والالغاء إذا صح فى هذه الآونة أن يرددها مدع مغرض فهل يمكن أن يرددها الآن عاقل بعد أن أثبت التقدم الحضارى والنضوج الذهنى والازدهار العلمى أنه يغزو العقول والأفئدة وبعد أن اعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الانسانية بتعاليمه لأنه الدين الذى لا تنهض بسواه ولا يصلح حالها إلا به .

ويقول الدكتور هيكل : ( وما دامت الحرب في مطرق الناس فتهذيب فكرتها في النفوس وحصرها في أدق الحدود هي غاية ما تحتل نظرة البشر وما يحقق للانسان اتصال تطورنا في سبيل الخير والكمال وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأي والدعوة إليه وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون في حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ممن يتهمون الاسلام بالعنف واراقة الدماء واشعال نيران الحروب في سبيل إعلاء كلمته وانضواء الناس تحت رايته إنهم ينسون ما جاء به من إرشاد وما أعلنه من هداية وما تضمنه من آداب وما رسمه من خطوط وما دعا إليه من خير لم يتخلف به عن تقدم وعمران ومدنية وحضارة وإصلاح ونفع وكنا نود في هذا الوقت الذي يرمونه بالقسر والقهر والعنف والتسلط والارغام والضغط واراقة الدماء وإزهاق النفوس أن يغمروا جانبه أو يلمزوا تكاليفه أو يتهموا أساليبه في الأخذ بيد الانسانية إلى البر والمعروف لتتطلى دعوى اتهامه والاختلاق عليه لكن شيئاً من ذلك لم يكن ولا يمكن أن يكون . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التي أراقها محمد - صلى الله عليه وسلم - للتمكين لدينه ونشر دعوته بما أزاقه هم باسم ( عيسى ) و ( موسى ) وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها وتلك الأموال الطائلة التي كانوا يزودون بها الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام وتحويل القلوب والأنظار عنه : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون حصرة عليهم حصرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ (١).

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الولايات التي تعابنها البشرية هنا وهناك لا تحتذى إلا باليهودية والمسيحية وهما متهم براء ما في ذلك شك . أما الاسلام فهو لا يزال سلاحاً على الانسانية والناس .

### اليهود في الطريق

كان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يعاني شدة في طريق دعوته إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التي كان يعانيها من المنافقين واليهود غير أن حال المنافقين كان شائكاً لأنهم يعلنون الاسلام وليس من حقه أن يدخل إلى قلوبهم ولا أن يهتك سرائرهم ولا أن يعاملهم الا بظاهر ما يبدو منهم ولكن اليهود كانوا يزعمون في أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل في تقديرها واحترامها عن دعوة « محمد » وهم لهذا يحب أن يجعلوه مطية طيبة لأهوائهم وأغراضهم أو يزيلوه عن الطريق ليكونوا وحدهم في الميدان لا ترتفع عليهم صيحة ولا يزاخمون منافس . وسياستهم التي يسلكونها - في كل زمان ومكان - تقوم على الكيد المشوب بالذلة والخنوع المختلط بالضعف والتواضع الذي يصل إلى حد الهوان في سبيل الوصول إلى أغراضهم فإن أمكتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف وعاملوه بالقسوة وأرغموه على أن يركب حد السيف ، يقول الدكتور هيكل :

« فقد كان يثير يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج



وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت ثم كان بها اليهود يقيم منهم « بنو قينقاع » داخلها وقيم « بنو قريظة » في « فذك » و « بنو النضير » على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خبير ، أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط وإن بقيت في نفس « محمد » بعض المخاوف أن تنور البغضاء القديمة بينهم يوماً ما مما جعله يفكر في وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيراً كان له أثره بعد ، وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافاً نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقعة بين هؤلاء وأولئك وأما اليهود فبادروا بادئ الرأي إلى حسن استقبال « محمد » ظناً منهم أن في مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله في دينهم والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف في وجه النصرانية التي أجلت اليهود - شعب الله المختار كما يزعمون عن فلسطين أرض الميعاد وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد لأسباب النجاح لبلوغه غايته .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : « كان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنهم من أهل المدينة فلا يستطيعون رد الاعتداء على من يعتدى عليه منهم فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدى وإلقاء الرعب في قلوبهم من تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الإسلامية الناشئة في يثرب .

وكان « أبو عفك » - وهو يهودي من بني عمرو بن عوف - يرسل الأشعار يطعن بها على « محمد » وعلى المسلمين ويحرض قومه على الخروج عليهم وظل كذلك إلى ما بعد بدر يغري بهم الناس فأخذ « سالم بن عمير » نفسه بالقضاء عليه وذهب إليه في داره ليلا وقتله وكذلك قتل « عمير بن عوف » امرأة من بني أمية بن زيد تسمى « عصماء بنت مروان » وكانت تعيب الاسلام وتؤذى النبي وتحرض عليه ولم يكتف « عمير » بقتلها بل تحدى قومها حين سأله في هذا ، فكان لجرأته أثر كبير إذ ظهر الاسلام في بني خطمة - وهم قوم زوج عصماء هذه - ومن ثم ظهر منهم من كان يخفى اسلامه .

كذلك كان كعب بن الأشرف اليهودي شاعراً شيطانياً أخذ نفسه بالكيد للمسلمين وإرسال الأشعار في التحريض عليهم ولقد ساءت نتيجة « بدر » وآلت نفسه حتى لقد قال حين علم بها : « هؤلاء أشراف العرب ملوك الناس - يعنى قريشا - والله لئن كان « محمد » أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ثم ذهب إلى مكة يرثي أصحاب « القليب » ويحرض قريشاً على الثأر وينشد في ذلك الأشعار وعاد إلى المدينة فأخذ يسب بنساء المسلمين حتى امتلأت النفوس بالغیظ منه وحتى أجمع المسلمون على قتله فذهب إليه جماعة استدرجوه حتى خلوا به وقتلوه وزاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ولكنه لم يسكتهم عن « محمد » ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقطاً لخليهم بصيراً بكيدهم عالماً بما تمتلئ به قلوبهم العفنة وضمايرهم الخبيثة وطواياهم الفاسدة ونواياهم الشريرة ولقد رأيناه يأخذهم بحذق ويقلم أظفارهم بحكمة ويقص أجنتهم ببراعة ويستريح من كيدهم بمهارة ويتنهي بهم إلى الإذلال الذي كتبه الله عليهم ولم تكن مانعهم حصونهم التي أحكموا بناءها . وقد كان بنو ( قينقاع ) بداخل المدينة يعملون في صياغة الذهب

والحلل وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخلاء ورؤ وسهم بالكبر وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ويطشوا بأرجلهم أشلاءهم لأن اقتصاد المدينة وتجارها وأسواقها بأيديهم هم لا يذاحمهم فى ذلك كله أحد ، وفى ذات يوم قدمت إلى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشتري شيئاً من الذهب فتناول أحدهم عليها وعبث بخبائها وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تناول على المرأة المسلمة . وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى إشعال نار حرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين على الرغم من المعاهدة القائمة بين المسلمين وسائر اليهود وقد أعلنوا عدم التزامهم بهذه المعاهدة وتحديدهم للنبي - ﷺ - والمسلمين معه وقالوا للنبي ﷺ :

( لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس ) ولم يكن هناك بد من أن يضرب - محمد صلى الله عليه وسلم - ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح القوضى التى تهددها والرعب الذى يسيطر عليها وحينئذ حاصر « بنى قينقاع » خمسة عشر يوماً لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل إليهم أحد فى بيوتهم وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى نالهم والفرع الشديد الذى أصابهم داعياً إلى أن يظهر « عبد الله بن أبى بن سلول » - رأس المنافقين - على شاشة المسرح ويقول للنبي - صلى الله عليه وسلم - : « إنهم حلفائى وأنا لا أحب أن تؤذيني فى حلفائى » وقد أعرض عنه النبي - صلى الله عليه وسلم فلم يصغ إليه ولم يابه به إلا أن « عبادة بن الصامت » رجاء أن يضيق الخرق على الواقع ويستجيب لرجاء « ابن أبى » ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع دينين لإحسانه ورحمته وكان الرأى الذى انتهى إليه النبي هو استئصال شأفتهم وإبادتهم جميعاً إلا أن الرأى الذى استقر عليه بعد ذلك كان خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وأقواتهم وديارهم وكان هذا الخروج إلى « وادى القرى » ثم إلى « أذرعات » على حدود الشام وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية والدسائس التى تحاك هنالك وإن كان يهود بنى النضير وبني قريظة على حدودها القريبة .

وكان طبعياً بعد هذا الذى حل ببني قينقاع أن ينكمش غير المسلمين وأن يصيهم الرعب لكن « أباسفيان » جمع مائتي رجل وأغاروا فى خارج المدينة على رجلين فقتلوهما وحرقوا بعض البيوت والنخيل يقصدون بذلك إلى إشاعة الفرع فى قلوب الناس وقد نذب الرسول بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام وكان أكثر الطعام سويقاً لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق وبعد ذلك بقليل قتل « كعب بن الأشرف » فكان ذلك نهاية إذلال اليهود .

أما ما كان من أمر « بنى النضير » فهو لا يعدو أن يكون صورة - كذلك - من صور الخداع واللؤم والمكيدة والغدر والذلة والضعف فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - ذهب إليهم يستعين بهم على دفع دية قتيلين قتلها أحد المسلمين بطريق الخطأ وكان القتيلان من حلفائهما وحلفائهما - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كل الاستعداد لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيلين لكنهم أخذوا يسوفون ويروحون ويجيئون ليدبروا أمر قتله بحجر يلقيه أحدهم فوق رأسه من سطح المنزل الذى يستند إلى جواره إلا أن الله أخبره بما يدبرون له فتسلل من مكانه دون أن يحس به أحد ثم أخذ سمته إلى المدينة ولما طال غيابه لحق به أصحابه

وهم لا يعرفون من أمر تسلله شيئاً وكان هذا التصرف منه محل دهش واستغراب حملهم على الايمان بنفاذ بصيرته - صلى الله عليه وسلم - وهنالك أرسل النبي « محمد بن مسلمة » يحمل إنذاره إليهم أن أخرجوا من بلادى لأنكم نقضتم عهدي وهمتم أن تغدروا بى وفى هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك وبينما هم يتهاون للرحيل جاء إليهم رسول من « ابن أبى » يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف إلى جانبهم ومعه ألفان من قومه يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل إليهم أحد من المسلمين وقد أخذوا يقلبون هذا العرض الذى يعرضه ابن أبى على وجوهه وانتهوا إلى عدم الثقة فيه لأنه قال مثل هذا القول لبني قينقاع ولم يغن عنهم شيئاً « وبنو قريظة » الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم شيئاً لأنهم يرتبطون مع « محمد » بمعاهدة تجعلهم يقفون إلى جانبه لا إلى جانبهم وقال كبيرهم « حى بن أخطب » : سأرسل إلى « محمد » إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا ما يريد ، وسنحتمي بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوماً أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا « محمد » أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم رضى النبي أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره فخرجوا ومعهم « حى بن أخطب » الذى كان يغريهم بالعصيان ونزل منهم من نزل بخير وذهب الباقيون إلى أذرعات وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى البشر التى كانت تناوى الدعوة وتكيد للإسلام وتصد عن سبيل الله وتبغى فى الأرض الفساد ولم يجد اليهود بعد ذلك - وعلى رأسهم حى بن أخطب - طريقاً يسلكونه للانتقام لأنفسهم من « محمد » ومن حوله المسلمون معه إلا أن يؤلبوا عليه قريشاً والمشركين جميعاً لتتلاقى وإياه فى حرب تكون قضاء عليه وعلى دعوته ولهذا خرج « حى بن أخطب » و « سلام بن أبى الحقيق » ومعهم من بنى وائل « هودبة بن أبى قيس » و « أبو عمار » حتى قدموا على قريش بمكة فسأل أهلها خبيئاً عن قومه فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم إليهم لتسبروا إلى « محمد » وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال :

أقاموا بالمدينة مكرًا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ولم تصدق قريشاً شيئاً من ذلك فسألته « أديتنا خير أم دينه ؟ فقال : لا بل دينكم أنتم وإلى هذا تشير الآية : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجحبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ﴾ (١) .

ولم يزل « حى بن أخطب » يسعى سعيه ويعمل عمله حتى مر غلى « كعب بن أسد » ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد والتخلى عنه إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة وكان « بنو قريظة » عاهدوا المسلمين أن يقفوا إلى جانبهم بكل أنواع المعونة والمساعدة وقد تردد كعب أن يستجيب لحى لكن حياء لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فبعث « سعد بن معاذ » سيد الأوس و « سعد بن عباد » سيد الخزرج ومعهما « عبد الله بن رواحة » و « خوت بن جبير » ليقفوا على جلية الأمر فلما رأوا منهم روح الشر وقال : « كعب بن أسد » : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه

ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة وفتحوا الطريق إلى الأحزاب ليدخلوا المدينة لم يجدوا بدا من أن يتمهلوا لهم فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة طالبا بعدما بالخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض النبي ولا المسلمون هذا العرض وعرض عليهم الرسول أن يختاروا رجلاً يحكمونه بينه وبينهم فاختاروا «سعد بن معاذ» فحكم بقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية<sup>(١)</sup>.

ويقول الدكتور هيكل تعليقاً على هذا الحكم: «ولعل» «سعد» ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لما كان أمام المسلمين لا أن يُستأصلوا وأن يقتلوا وأن يُمثل بهم فجزاهم بمثل ما عرضوا المسلمين له».

وقد كان للقضاء على بنى قريظة أثر بالغ في قوة المسلمين وخوف المشركين منهم والاهتمام كل الاهتمام بوجود جبهة متينة لصد عدوانهم وعندئذ اتجهت الأنظار إلى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول اليهود الأخرى من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وإلى جانبهم على القرب يهود تيباء ووادي القرى وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون لذلك كان الاستعداد بينهم قائماً على قدم وساق فتارة يفكرون في الدخول في حلف مع النبي - صلى الله عليه وسلم - ليزيلوا من نفوس المسلمين وبخاصة الأنصار وأغلق بها من العداوة التي غرسها «حبي بن أخطب» من جراء تأليب العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون في تكتل يهودي عام يضمهم ومعهم وادي القرى وتيباء.

وقد كان المسلمون سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما «سلام بن أبي الحقيق» و«اليسير بن زرّام» وبهذا القتل حصلت خلخللة في صفوف اليهود إلا أن كثيرين من قريش مع ذلك كله - كانوا يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين وذلك لمناعة حصون خيبر وقيامها فوق جبال صخرية وكان أبرز زعماء أهل خيبر في هذا الوقت «سلام بن مشكم» الذي أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون فيجعلوا الأموال والعيال في حصن والذخائر في حصن والمقاتلة في ثالث وهكذا وضيق المسلمون الحصار عليهم وهم يستमितون في الدفاع عن أنفسهم وقتل «سلام بن مشكم» فتولى قيادتهم «الحارث بن أبي زينب» وما زالوا صامدين مستبسلين والأيام يتابع بعضها بعضاً وقد أرسل النبي إليهم «أبا بكر» ثم رجع من غير جدوى وأرسل بعده «عمر» فرجع كذلك فأرسل «علياً» ودعا له بالنصر وقد خرج إليه رجل من اليهود فضربه فسقط ترسه فتناول بابا كان عند الحصن فترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده وهكذا توالى اقتحام الحصون كلها حتى سقطت «خيبر» وصالحهم النبي - صلى الله عليه وسلم - على البقاء في أراضيهم يزرعونها بالنصف لأنه لم يكن في المسلمين من يحسن القيام على فلاحه الأرض وزراعتها وقد قبل يهود فدك ووادي القرى هذا المبدأ فقد صالحوه - صلى الله عليه وسلم - على مثل ما حصل ليهود خيبر من غير حرب ولكن يهود تيباء قبلوا دفع الجزية وسنرى من متابعة الحوادث أن أمرها بعد الفتح سيؤول إلى الإذعان والخضوع.

## غزوة بدر الكبرى

يرى المؤرخون ممن تصدوا للكتابة عن حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومواقفه التي وقفتها في وجه الشرك أن هذه الغزوة كانت حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين كل الاختلاف عهد الاستكانة والرضا والمصافحة والاغضاء والالتجاء إلى أسلوب السياسة وعهد القوة الرادعة والبطش المزعج والبأس المخيف والموقف الذي يحس صاحبه معه بالتمكن والاعتزاز والثقة فإن المسلمين لم تنته بهم الجولة - ولم يفزعوا من تفريق شمل الكافرين الذين لا ذوا أمامهم بالفرار والهلع والخوف والجزع حتى أخذت نشوة الانتصار تدب في مفاصلهم ثم صارت بعد ذلك تشعرهم بأن هذا الرصيد من الايمان الذي يملأ جوانحهم لا يمكن أن تقف له قوى الغدر ولا جيوش البغى ولا محافل الكفر ولا وسائل الدمار والموت وأن هذه الحرارة التي تصنعها العقيدة لا تستطيع حرارة البخار ولا الكهرباء أن تغلب عليها أو تسقط حسابها من الاعتبار فلقد كان عدد المقاتلين الذين خرجوا لملاقاة أبي سفيان - أولاً - وللافاة هذا الجيش الذي دفعت به مكة كلها - ثانياً - لا يتجاوز ثلث خصومهم ومع ذلك كان النصر إلى جانبهم والفوز من نصيبهم وقضى الله بهذه الجولة أن يملأ الخوف نفوس الصناديد الأبطال ممن أرادوا أن يخفت صوت الحق وتتكسر راية القرآن و « محمد » ينفض يده من كل بارقة أمل تحته نفسه بها .

ونحن نعلم أن أسلوب حرب العصابات التي آلت على نفسها أن يعكر الصفو على أهل مكة فلا تطمئن بعض الاطمئنان أبداً على تجارتها إلى الشام ظلت حدثه تتزايد وأمره يتضاعف ثم كان ما كان من سرية « عبد الله بن جحش » التي أثارت حالة السوء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين معه أنهم لا يقدسون حرمة الأشهر التي لا يحل فيها القتال وأن الرسول بعد هذا أغرى أصحابه بالعبير التي خرج بها « أبو سفيان » إلى الشام بتجارة كان معظم أصحاب الأموال فيها ولم يكتف من جانبه بهذا الإغراء حتى خرج معهم يترقب في الطريق أبا سفيان ومن معه وهم ذاهبون إلى الشام لكن الفرصة كانت قد تفلت منه . إذ أن أبا سفيان مر قبل أن يأخذ النبي وأصحابه مكانهم من الطريق ولم يكن لهم بد بعد ذلك كله إلا ترقب أوبة العير عند رجوعها من الشام وكانت أنباء هذا التآمر على أبي سفيان وعيره تطايرت إليه فكان عليه أن يغير طريقه حتى لا يظفر به خصومه وفي الوقت نفسه كان استأجر من يسبقه إلى مكة يستنفر الناس جميعاً لحماية تجارتهم التي توشك أن تقع في قبضة « محمد » وأصحابه وعلى الرغم من أن كثيراً من رجال مكة لم يطاوعهم وجدانهم أن يخرجوا لقتال « محمد » وأصحابه لاقتناعهم بالظلم ما حققوا المطاردة التي وقعت عليه وروابط النسب التي لا تحلو من أن تكون قائمة بينهم وبين الذين كانوا معه من المسلمين وبخاصة بعد أن تبين لهم أن السبب الذي من أجله كانت الدعوة إلى الحرب والخروج لملاقاة المسلمين قد زال فإن أبا سفيان كان قد وصل إلى مكة بالتجارة لم يصبها - أويصيه - أذى إلا أن الدعوة إلى الخروج ولقاء « محمد » وأصحابه وإشعال نار الحرب والقضاء على هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا مع ركب المسافرين بالتجارة إلى الشام أسلوب العصابات قد لقيت استجابة عند بعض الذين يحبون الاصطياد في الماء العكر أمثال « أبي الجهل » الذي سفه رأى « أبي سفيان » وهو يدعو إلى عدم الخروج ما دام السبب غير قائم « وعتبة بن ربيعة الذي قال : « إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً والله لئن

أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون .

وعلى كل حال فقد رجحت كفة أبي جهل في الدعوة إلى الخروج وذهب الفريقان إلى « جبهة القتال » وفي نفوسهما من الحماسة والحمية والاستبسال والشجاعة الشيء الكثير إلا أن الفرق ما بينهما بعيد كل البعد محمد وأصحابه ثور بها عقيدة تحارب وإيمان يطارد ومبدأ يريد أن ينطلق إلى غايته لكن قريشاً وكفار مكة معها يثور بها طيش جاهلي ووثنية هوجاء وحقد ظالم وشتان ما بين اليزيديين في الندى ولما نزل المسلمون للتجمع الذي سبق الهجوم كانوا - بادية ذي بدء - بعيداً عن الماء الذي يسمى بدرًا فناقش بعض المسلمين النبي - صلى الله عليه وسلم - : أهذا النزول بعيداً عن الماء وحى أوحى به الله إليك لا تنحرف عنه ولا تستطيع أن تخالفه ، أم هي المكيدة والخدعة والسياسة والحكمة والحزم التي يتطلبها الحرب ؟ فقال الرسول : لم يكن ذلك وحياً ولكنه الاجتهاد والرأى فقال له « الحباب بن المنذر » : السياسة والحزم أن نضع أيدينا على ناصية بدر تستقى منها وتشرب دوابنا ونحول بينها وبين المشركين ويكون ذلك تضييقاً عليهم وحرباً لهم<sup>(١)</sup> ، وهنالك استراح النبي لهذا الرأى واستراح له المسلمون وبنوا حوضاً على فم البئر لتسعفهم بالماء حتى لا يعوقهم الاحتياج منها وبينما هم يمرحون ويتصفون ابتهاجاً بهذا الموقع « الاستراتيجي » الذي اتخذوه إذ اندفع « الأسود بن عبد الأسد المخزومي » من بين صفوف قريش يريد هدم الحوض الذي بناه المسلمون وهنالك يضربه « حمزة بن عبد المطلب » ضربة في ساقه فيسقط ودمه يشخب ويدعو ذلك « عتبة بن ربيعة » أن يخرج من بين الصفوف ليطلب مبارزة المسلمين ولما تقدم له بعض الشبان الذي كانت الحمية تغلى في عروقهم امتنع أن ينازله ونادى بأعلى صوته : « يا محمد أخرج لنا أكفأنا من المقاتلين » وكان « عتبة » يحيط به أخوه شيبة وابنه الوليد فتصدى « حمزة » لشيبة فقتله وتصدى « علي » للوليد فقتله ، وتصدى « عبيدة بن الحارث » لعتبة وانتهى بالاجهاز عليه وبذلك كانت قريش قد خسرت ثلاثة من أعز أبطالها وخيرة فرسانها<sup>(٢)</sup> فلم تجد بداً من أن تلقى بكل ثقلها في المعركة وتعطى للحرب حظها من الاهتمام فتزاحف الناس والتقى الجيشان صبيحة الجمعة السبعة عشر من رمضان والنبي - صلى الله عليه وسلم - على رأس المسلمين ينظم صفوفهم ويحدد مواقعهم ويملا نفوسهم إيماناً بالله وثقة بنصره وتمكيناً لدينه ورفقا لمراميه وإعزازاً لمن يقفون إلى جانب نبيه ، قائلاً : ( اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد )<sup>(٣)</sup> .

وما زال يهتف بهذا الدعاء حتى أشفق عليه « أبو بكر » أن يناله مكروه من هذا الجهد الذي يبذله والاعياء الذي يعانیه فقال له : « هوّن عليك يا رسول الله ، فإن الله منجز لك ما وعدك وكان الرسول -

(١) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ١٥/٢

(٢) تاريخ الطبري ٤٤١/٢ والبيهقي في دلائل البقرة ٣٥/٣

من هذا التعب - قد أخذته سنة من النعاس رأى فيها مصارع الصناديد من قريش واطمأن كل الاطمئنان إلى نصر الله فتقدم إلى صفوف المسلمين - من جديد - ليقول لهم : ( والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة )<sup>(١)</sup> وكان لهذا القول في نفوس المسلمين أثره البالغ . وكان « سعد بن معاذ » قد رأى أن يبنى للرسول - صلى الله عليه وسلم - عريشاً ليقوم فيه بعيداً عن مخاطر الحرب وعدوانها حتى إذا ما كان النصر في جانب قريش استطاع أن يعود إلى المدينة ليواصل كفاحه وجهاده والاستمرار في نشر دعوته إلى الناس وقد لقيت هذه الفكرة استحساناً وقبولاً ومن هذا العريش كان يخرج إلى صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليطمئن كل الاطمئنان على سير القتال وكان من اغتباطه لسير المعركة وأرتياحه لاستبسال أصحابه واعتقاده أن النصر في النهاية سيكون في جانبه ربما جرى على لسانه قول القائل :

نغلقُ هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أحقُّ وأظلماً أو قرأ قوله سبحانه ﴿ سيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونِ الدَّبِرُ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويقول الأستاذ « أحمد إبراهيم الشريف » : « سمت روح المسلمين المعنوية بتحريض الرسول ونزول القرآن ييشرهم بأن الملائكة تشد أزركم فاندفعوا يقاتلون وقد جعلوا همهم سادة قريش يريدون استئصال شأفتهم جزاء ما عذبوهم وأخرجوهم ولأنهم رأس الكفر لو قتلوا الضعف غيرهم ولوجد الإسلام طريق الدعوة ممهداً لا تقف في طريقها مطامع الزعماء وكبرياء الرؤساء . . وما لبثت قريش حين رأت كثيراً من ساداتها يسقطون قتلى بأيدي المسلمين أن ولت الأدبار لا تلوى على شيء . والمسلمون يضربون في أعناقها وأدبارها ويأسرون من رجالها من لم يسعفه حسن فراره بالنجاة وبلغ عدد القتلى من قريش سبعين قتيلاً فيهم معظم سادة قريش وعلى رأسهم أبو جهل كما استأسر سبعون . . وهكذا كانت هزيمة قريش تامة ساحقة أما المسلمون فقد اندفعت منهم فرقة تطارد الفارين وقامت أخرى بجمع الغنائم والتفت الثالثة بالعريش تحمي النبي مخافة أن يرتد إليه العدو » .

ومن الحديث في « بدر » أو عن بدر لا نسمع إلا بطولة نادرة امتلأت بها نفوس المسلمين الذين طوّحوا بالكفر وأذلوا أهله وأطاحوا بدولته .

### طرف كانت في بدر

كان في صفوف المشركين في بدر « أمية بن خلف » وقد وقع في أيدي المسلمين أسير هو وابنه وأراد « عبدالرحمن بن عوف » أن يحميها من عدوان من عدوا أن تحدّثه نفسه بالنيل منها أو التناول عليها وكان ( بلال ) رقيقاً مملوكاً لأمية ولقى منه من صنوف العنت وألوان التعذيب بسبب اعتناقه الإسلام ودخوله في دين « محمد » ما لم يلقه أحد في سبيل عقيدة أعتنقها أو مبدأ التزمه أو شريعة انضوى تحت رايته وكم تركه في الرمضاء المحرقة متجرداً من ثيابه لتلفحه نارها ويؤذيه لهيبها ثم لا يكتفى بذلك دون أن يلقي بالحجر

(١) سيرة ابن هشام ٣٢٢/٢

(٢) سورة القمر الآية : ٤٥

الثقل على بطنه رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام والبقاء على وثنية الكفر وضلالة الشرك والسجود للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ولا تحس ولا تدرك . وما إن وقعت عينا « بلال » على طلبته التي يرجوها وضالته التي كان يتربق فرصة الظفر بها حتى هجم عليها ليشفى غليله منها ويروى ظمأه إليها ويقتص لهذا الذي لقيه من جبروت المالك وعسف التسلط وجهل الضال وكبرياء الأحمق فلما زجره « عبد الرحمن بن عوف » المرة بعد المرة نادى بأعلى صوته قائلاً رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فلما ألح بلال في الهجوم عليه وألح عبد الرحمن في الزجر له قال عبد الرحمن لبلال : « يا ابن السوداء هو أسيرى ومالى » ولكن بلالاً كرر الإلحاح وقال يا أنصار الله : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا <sup>(١)</sup> وأحاط الناس بأمية وابنه في يدى ابن عوف وسبقت ضربة إلى ابن أمية وأخرى إلى أمية نفسه فكانا في خبر كان .

وكان من هؤلاء الأسرى كثيرون كانت لهم سوابق سيئة في معاملة المسلمين بمكة لم يقبل منهم المسلمون الفداء وأبو إلا أن تجز رؤسهم وتباح دماؤهم وتكون نهايتهم على أيديهم مثل « عقبة بن أبى معيط » . و « النضير بن الحارث » وذلك للإيلام والأذى الذى كان منهم وبخاصة « النضر » الذى كان يشتري كتب الأسمار والخرافات ويحكى منها للسذج وضعاف العقول ثم يقول : أليست هذه خيراً مما يزعم محمد أنه يوحى به إليه ؟ وتشير إلى قصته الآية من سورة لقمان : ﴿ ومن الناس من يشتري هو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وكان من طريف أمر الاسلام أن جاء النبى - صلى الله عليه وسلم - شاعر هو « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي » وقال : لى خمس بنات ليس هن شىء فتصدق بى عليهن ولك على ألا أقاتلك أو أعين عليك فلما أطلق سراحه نكث عهده وأخلف وعده وخرج لحربه وحرب المسلمين فى « أحد » فوقع فى أيدي المسلمين وأنتهى أمره بالقتل .

وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد أبدى رغبة شديدة فى الترفق بمن كانت لهم مواقف نبيلة سابقاً مع المسلمين قبل الهجرة وبخاصة إن كانوا من « بنى هاشم » الذى ساعده ووقفوا إلى جانبه مدى ثلاثة عشر عاماً بمكة قبل الهجرة وكان فى هؤلاء الذين أوصى - الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهم ولم يرغب فى قتلهم عمه « العباس » إلا أن حذيفة - أو أبا حذيفة - لما بلغه أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يؤكد الوصية بعمه - وكان فى القتل أبوه « عتبة بن ربيعة » وعمه ( شيبه ) وأخوه ( الوليد ) قال : أيقـتل أهلونا وينجو العباس ؟ وهنالك تغير وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - لهذا القول ولم يسعه إلا أن يشكو لعمر قوله حذيفة فقال عمر : « لقد نافق حذيفة دعنى أقتله » وكان حذيفة يقول : شككت فى نفسى ورجوت أن استشهد فى سبيل الله لأكفر عن هذه الكلمة ومات - رضى الله عنه - فى حرب اليمامة فى خلافة « أبى بكر » وحذيفة هذا هو الذى بدا عليه الغضب حين بلغه مقتل أبيه عتبة فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - : ( هل آلمك مقتل أبيك ) فقال : ( لا ولكنى كنت أرجو فيه رجاحة عقل وبعد نظر

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ٩٦/٥

(٢) سورة لقمان الآية : ٦



وحسن تفكير أن يكون له ميل إلى رسول الله وحب في دينه واستجابة لدعوته ووقوف إلى جانبه وود عن شريعته لكنه أثر سبيل الكفر وطريق الغواية ودخل جهنم من أوسع أبوابها .

ومن الصور العاطفية التي تفيض بالحنين والحب في هؤلاء الأسرى الذين ضاقت عليهم شباك الأرض تلك الصورة التي كانت بين « زينب » ابنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين زوجها فإن زوجها « العاص بن الربيع » وقع أسيراً في أيدي المسلمين ولم يكن هنالك بدا من أن يلاقى الذي يلقاه أمثاله من معسكر الكفر الذي كان كل هم الرجل منهم أن ينكل بالرسول وبالمسلمين وبدعوة الحق حتى إذا ما انتهى به المصير إلى تلك النهاية بدت عليه الكآبة وأحاطت به الذلة وشعر بأنه أحقر من لا شيء في العدد فلما رأت « زينب » ما لحق به دفعت بقلادة كانت أمها « خديجة » قد نعلتها بإياها حين بنى بها « العاص » وذلك فداءً لزوجها وكان هذا الصنيع الرقيق مثيراً لوجدان الرسول - صلى الله عليه وسلم فلم يسعه إلا أن يقول للمسلمين هل لكم أن تردوا قلاذمتها وتخلوها أسيرها بها ) وقد خلى المسلمون سبيله وعاد إلى مكة وخرج على رأس عير في تجارة لبعض أرباب الأموال من قريش وفي عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه وهنالك التجأ إلى « زينب » ليرد المسلمون إليه ما أخذوه منه وعملت « زينب » على رد أمواله إليه فقد كان أجيراً على العمل لا يملك من الأموال شيئاً - على الرغم من أن صلة الزوجين بينهما قد انقطعت لأن الرسول فرق بينهما بحكم اختلاف الدين و « مضى العاص بن الربيع » إلى مكة ولما أبرأ ذمته من الأموال التي كانت في يده عاد إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة وأعلن إسلامه وعادت إليه « زينب » واستأنف معها في ظلال الاسلام عيشاً أرغد وحياتاً أهنأ وصلة أقوى فما كانت ولعل السبب في تمسكه بها وحده عليها وترامى عاطفته نحوها إلى هذا الحد لا ترجع إلى رابطة الزوجين وكفى ولكن إلى أنها ابنة رسول الله وأنها - كذلك - ابنة خالته لأن أمه ( هالة بنت خويلد الأسدية ) أخت « خديجة » - أم المؤمنين - وكان « العاص » هذا ممن عرفوا في مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق وكان النبي يثنى عليه في صهره وكثيراً ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك « زينب » فلم يتركها وازداد تعلقاً بها .

وكان من الصور التي تفيض بالانسانية المهيبة والمروءة النادرة أن قتلى المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثتهم ويوارى في التراب أجسامهم صنع المسلمون بهن ضنيع الانسانية والمروءة إذ جمعوا أشلاءهم وأجسامهم وجعلوهم في قليب - بئر - ثم هالوا عليهم التراب وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوماً كاملاً وليلة كاملة لا يغادرون مكان المعركة وبينما المسلمون بالليل يسودهم الهدوء والسكون يستغرق في نومه منهم من أتعبه العمل وأنهكت الحركة وأعياه الكر والفر في ميدان القتال ، كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - واقفاً على القليب الذي يضم جثث الموتى مناجياً تلك الجثث قائلاً : ( يا أهل القليب ، يا عقبه بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام يا فلان يا فلان - يذكر من في القليب واحداً واحداً - : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإني وجدت

ما وعدنى ربى حقاً ؟ قال المسلمون : « يا رسول الله أتناذى قوماً حيّقوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام ( ماأنتم باسمع لما أقول منهم ) ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا<sup>(١)</sup> »

ولقد كانت هذه الجولة بين المشركين والمسلمين - على الجملة - من الأيام الخالكة السواد على دولة الكفر والجماعة المناوئة لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه معه ولقد كان « أبو لهب » الذى فضحه القرآن الكريم فى السورة التى تلعنه وتهتك عرضه : « تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب »<sup>(٢)</sup> من الذين استأجروا من ينوب عنه فى الخروج إلى قتال المسلمين فلما انتهت إليه نأ هزيمة دولة الباطل وجيش الشرك وأصحاب دعوة الشيطان دارت به الأرض الفضاء وأصابه دوار حاد مرض بعده أيام ثم مات ولم يكن هو وحده الذى تلقى كالصاعقة وقع انتصار المسلمين فى غزوة بدر فإن كثيراً منهم من كان يقول تعقياً أو تعليقاً على هذا الانتصار : « بطن الأرض أحسن من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل : « ناحت من بعد قریش على قتلاها شهراً كاملاً وجززن شعر رؤوسهن وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ولم يخالفهن فى هذا إلا « هند بنت عتبة » زوج أبى سفيان ولقد مشى نساء منهن يوماً إليها فقلن لها :

« ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بنى الخزرج . لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه والدهن على حرام حتى نغزو محمداً . . والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة ، ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش « أبى سفيان » وتحرض الناس حتى كانت موقعة ( أحد ) أما ( أبوسفيان ) فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ) وقد فعل وفعلت زوجته هند بنت عتبة .

### بعد بدر

ترك انتصار المسلمين بيد أثره السيئ فى نفوس المشركين والمنافقين واليهود على السواء : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم »<sup>(١)</sup> لكن هذا الانتصار من ناحية أخرى كان عنواناً على طور جديد من القوة والبأس والمهابة والسلطان والعنفوان والشدة إلى درجة أن الشعراء الذين كان يهجون « محمداً » - صلى الله عليه وسلم - ويحرضون عليه أعداءه ، خرسوا ألسنتهم وخفضت أصواتهم وأصبحوا يسرون فى أنفسهم ما كانوا يباهون بالجهر به . والإعلان له وقد أصبح « محمد » وأصحابه يطاولون بأعناقهم ويجاهرون بينهم وينادون بأعلى صوتهم أنهم على الحق وكلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يحجب النور الذى يحملونه بأيمانهم مهما غلت مراحل الحقد فيهم وازداد لهب الكراهية فى أفئدتهم وكان « كعب ابن الأشرف » . الشاعر اليهودى . قد وقف بمكة ليرئى قتلى القلب ليشير فى نفوسهم أهليهم وقرباتهم الغيظ الافرین والألم المكبوت والضعف المتمكر

(١) صحيح البخارى - كتاب الغزوى ٩٧/٥

(٢) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

وهو الذى قال الكلمة المشهورة : هؤلاء أشراف الناس وملوك العرب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . . لكن هذا كله من المشركين والمنافقين وخصوص « محمد » جيعاً يشبه ما يسمونه حركة المذبوح وليس من الممكن لمحمد ولأصحابه أن يرجعوا إلى الوراء أو تقف بهم عجلة المضى في الطريق إلى النهاية « جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر بالبيت الحرام - بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان « عمير » شيطاناً من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله وأصحابه ويلقون منه العناء وكان ابنه « وهب » في أسارى بدر فقال صفوان : « والله ما في العيش بعدهم خير » . فقال عمير : « والله صدقت . ولولا ديني وعيالي لركبت إلى « محمد » حتى أقتله فقال صفوان : على كل ذلك ، قال عمير : فاكتم على شأنى وشأنك » . ثم انطلق عمير إلى المدينة من غير علم صفوان ، فرآه « عمر » فأخبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : ( أدخله على ) فأقبل « عمر » حتى أخذ بحمالة سيفه وليه بهما فلما دخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ( أرسله يا عمر أدن يا عمير ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت من أجل الذى فى أيديكم - يعنى ابنه وهباً - فأحسنوا إليه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقنى بالذى جئت به ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال : بل قعدت ، أنت وصفوان بن أمية بالحجر ثم قص عليه ما دار بينهما من حديث . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقهاوا أخاكم وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا وقال عمير : يا رسول الله إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله وأنا أحب أن تأذن لى فى القدوم إلى مكة لأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام فلعل الله أن يهديهم وإلا آذيتهم فى دينهم فأذن له فلحق بمكة وأسلم على يديه ناس كثيرون <sup>(١)</sup> .

وتدل كتب السيرة من غير استثناء على أن هذا الأثر العميق الذى تركته « غزوة بدر » فى النفوس لم يكن فى مكة وحدها وإنما كان فى مكة والمدينة ولذلك فإن معسكر الكفر قد تحول كله إلى جهة حامية الوطيس لا حديث لها إلا عن الثأر والقتال وتأديب « محمد » وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا فى دار الندوة ليقرروا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الموقف الجديد ، وكانت الخطوة الأولى هى التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت هدف « محمد » وأصحابه فى أول الأمر وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت ثم أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش وغيرهم وباليهود الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية لمحمد والذين آمنوا معه وانتهى ذلك كله باللقاء المعروف فى « أحد » .

أما « محمد » وأصحابه فإنهم لا يزالون فى نشوة الظفر والنصر لم يدر بخلداهم شبح المعارك ولا معنى الكرة الأخرى التى تنتظرهم من وراء السحب والحجب وفى الطريق إلى المدينة - وهم منصرفون من ميدان المعركة - كان الذى يعينهم ويشغل تفكيرهم هو توزيع الغنائم وقسمة هذه الأسلاب التى أخذوها من عدوهم ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ولا تشريع متبع ولا عرف معمول به وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث : جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وحده وهو لائذ بالفرار وجماعة المقاتلين التى كانت تصارع الموت وتتلقى الضربات والذين كانوا فى حراسة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يدهمه

العدو أو يلحق به السوء فأى هذه الطوائف ، يأخذ الغنائم أو يظفر منها بنصيب الأسد ؟ وصحح الله - سبحانه وتعالى - هذا الخلاف ونزل قوله جل جلاله : ﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ <sup>(١)</sup> ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو إعلاء صوت الحق ويمكن راية الإسلام ثم تبع ذلك فيما بعد البيان لتوزيعها على أربابها . المستحقين لها : ﴿ واعلموا أننا غنمنا من شيء فأن الله خمسه للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير ﴾ <sup>(٢)</sup> .

فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات الاتى حددتها الآية الكريمة ثم يوزع الباقي بعد هذا الخمس كما يرى القائد العام للجيش وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس وللورثة حصّة من استشهد وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم في المعركة دون أن يحضرها ومن كُلف بأمر خاص بعيداً عن ميدانها .

أما الأسرى فإن حالهم كان موزعاً بين الفداء الذى كان يتراوح بين الألف إلى عشرة آلاف أو الترك إذا كان الأسير لا يمكن ما يفدى به : ﴿ فإمّامنا بعد وإما فداء ﴾ <sup>(٣)</sup> وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى في الأسرى فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى في الأسرى هو الفكرة الأولى فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - حينما عرض الرأى - بادية ذى بدء - على أصحابه كان رأى « عمر » القتل والإبادة ليكون في هذا الصنيع الردع والزجر وكان من رأى « أبى بكر » الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقربة وقد كان الرأى الذى انتهى إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحد الوسط وقد أخذ المسلمون الفداء عن استطاعه وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه وفي بعض الأحيان كانوا - شفاءً لغليلهم وذهاباً لغليظهم وثأراً لإحزن قديمة بينهم وبين الأسير - يرون أنه لا بديل من قتله فيقرهم النبى - صلى الله عليه وسلم - على ذلك ولا يعارض فيه وقد أخذ « عمر بن الخطاب » بوثق « العباس بن عبد المطلب » فشدد عليه فظل « العباس » يئن ليلة كاملة فتألم الرسول أشد الألم فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقه وإطلاقه من غير فدية فأبى الرسول إلا أن يسوى بينه وبين الأسرى وقال له : ( أفد نفسك وابنى أخيك . . عقيل ونوفل ) فاشتكى له أنه لا يجد ما يدفعه فقال له : ( ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة ) فقال له : ومن أخبرك به ؟ قال : ( أخبرنى الله ) <sup>(٤)</sup> قال : أشهد أنك رسول الله ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين وجرى في خاطر « العباس » أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أرقه بهذا المال الذى ألزمه بدفعه فنزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤنكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ <sup>(٥)</sup> فسر بذلك « العباس » ولم يعد بعد ذلك إلا جندياً مخلصاً من جنود

(١) سورة الأنفال الآية : ١

(٢) سورة الأنفال الآية : ٤١

(٣) سورة محمد الآية : ٤

(٤) جمع الزوائد ٨٦/٦

(٥) سورة الأنفال الآية : ٧٠

الإسلام يدافع عنه وينادى به ويرغب فيه ويذلل له ويقف إلى جنب رسوله وقوف المؤمن المخلص الذى جرى الدين فى لحمه ودمه وخالط روحه مغالطة امتزاج فلم يكن منه إلا ما يكون من المؤمن الصادق .

### حديث أحد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزاً قوياً لأن تتجمع قلوبهم وتتلاقى أهواءهم ويبدلوا كل ما يملكونه لتعادل ميزان القوى ورد الاعتبار الذى كان لهم من قبل وكان أول شىء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت الشراة الأولى فى بدر ثم يحصل ثمنها فى تجهيز جيش جرار للقضاء على شوكة المسلمين ووقف زحفهم على طريق التجارة والحّد من محاولاتهم النيل من أهل مكة أو العدوان عليهم وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم وكبار القادة منهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل القلب والذين يمكن أن يكون قتلهم إغراء لمحمد وأصحابه لغزو مكة نفسها وتطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها .

ولم يمض شهر واحد حتى كان « أبو سفيان » قد اتصل بحلفاء قريش - فى كل جهة - ليعدوا أنفسهم للقاء « محمد » والقضاء عليه وعلى من يقفون إلى جانبه من المؤمنين بدعوته المتفانين . فى السير على دربه وساعده على الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو إليه من تكوين جبهة قوية للخروج إلى القنال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال « هند بنت عتبة » وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم وكانت « هند » بالذات من العوامل القوية فى إذكاء الحماسة وإشعال نيران الحمية والغيرة وكان من ضحاياها فى « بدر » أبوها . . وأخوها وعمها وكذلك كان « جبير بن مطعم بن عدى » قد فقد عمه « طعيمة بن عدى » وكان الغلام الحبشى « وحشى » قد اشتهر بمهارة فائقة وفروسية نادرة وإقدام لا تراجع فيه وأنه لا يخطئ مقاتل فريسته فوعده بالعتق مولاه جبير بن مطعم بن عدى كذلك استأجرته « هند » واتفق معه الطرفان على أن تكون فريسته أو هدفه « حمزة بن عبد المطلب » لأنه كان حبيباً عزيزاً للرسول - صلى الله عليه وسلم - وقتله فى الميدان إيلام بالغ .

وكان « العباس بن عبد المطلب » عم النبى - صلى الله عليه وسلم - بمكة يرسل إلى ابن أخيه أخبار تلك التحركات التى تتحركها قريش خطوة خطوة حتى لا يؤخذ على غرة أو يفاجأ مفاجأة بما لم يكن فى خلده وحياته وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى دونهم ولكنه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها والأسلوب الذى يسلكه ويسير عليه ويقف به الموقف الذى يواجهه به هذا التآمر الذى يهيم له « أبو سفيان » وغيره من رؤساء الكفر وطواغيت الشرك للنيل من الدعوة التى يحمل رايتها « محمد » وأصحابه وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه قد رأوا أن الخطة المثلث التى يواجهون بها هذا الغزو المرتقب أو الزحف المنتظر هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة حتى إذا ما جاء الجيش الملكى بقيادة أبى سفيان وغيره ووجه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات وتزعم هذا الرأى « عبد الله بن أبى بن سلول » ولاقى ارتياحاً وقبولاً عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك إلا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى « بدر » من الشبان والمتطلعين إلى الاستشهاد ألحوا فى الخروج وملاقاة العدو خارج المدينة حتى

جاء بعضهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال له : « يا رسول الله إن ابني أصابته القرعة فخرج في بدر وكان من الشهداء في جوار الأنبياء والصديقين وقد رأيته في النوم ينعم في الجنة وأكان مما أوصاني به أن أسارع في اللحاق به لأكون معه في الجنة . وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت في سبيل الله لألحق بابني في الجنة » .

وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو في الميدان هي الفكرة التي انتهت إليها رأى الأغلبية فلم يسع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا أن ينزل على هذا الرأي الذي هو السواد الأعظم وما هو إلا أن دخل بيته ولبس لامته استعداداً لخوض المعركة وخرج إلى قومه ليعلن إليهم أنه جاد في أمره حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأي بما يفيد الرجوع عنه قائلين : إخلع لامتك يا رسول الله فإننا سنتحصن بالمنازل والبيوت ونرميهم من داخل حصوننا وسطوح دورنا وقد ظنوا أنهم يرضونه بهذا الرأي الذي كان يميل إليه في بادئ الأمر ولكنه قال لهم :

( ما ينبغي لنبي لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما أمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم )<sup>(١)</sup> .

ويقول صاحب كتاب الدولة الإسلامية الأولى : « تقدم النبي بالمسلمين متجهاً إلى « أحد » حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه ورفض أن ينضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي ، حذر أن توقع الاضطراب في نفوس الجيش وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذي ظهر من خيانتهم وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد وفي الطريق انخزل عنه « عبد الله بن أبي » بثلاث الناس وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استعمال الرأي . وكذلك همت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا متأثرة برأى « ابن أبي » لولا أن ذكرتا إيمانها فصبرتا وبقي الرسول ومعه سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص ! وقد جعل الرسول ظهره إلى جبل « أحد » وصف أصحابه في مواجهة العدو ووضع خمسين من الرماة على مرتفع . وقال لهم : ( احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من وراء ، وألزموا مكانكم لا تبرحوه وإن رأيتمونا نهمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل وألزموا أماكنكم حتى يأتيكم أمرى )<sup>(٢)</sup> .

وفي تشديد النبي على الرماة وفي تراجع بعض الناس عنه وفي المناقشة التي دارت قبل الخروج ما يثير التفكير والتأمل في أمر الجبهة اليسرى قبل بدء القتال فقد بدأت الجبهة اليسرى في المعركة مفككة ورأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة في الاستعداد لمقاتلة العدو لقد كانت كلمتهم موحدة في بدر وكان أمرهم جميعاً وكانوا مثال الطاعة والنظام والحرص على تنفيذ أمر القيادة كما كانوا يقدرون قوة العدو . ويدركون تفوقه عليهم ويعدون أنفسهم للصبر على الشدة وتمتلىء نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر وها هم

(١) صحيح البخارى ١٢٠/٥

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣٦٤/٥ وأحمد في الفتح الرباني ٥١/٢٢ ومجمع الزوائد ١٠٧/٩ وابن سعد في الطبقات ٣٨/٢ والبيهقي في الدلائل

أولاء اليوم تختلف كلمتهم فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصين بها ومنهم من يرى الخروج ومناصرة العدو حيث هو بظاهر المدينة وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو ويعملوا حسابه لتفوقه في العدد وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم « بدر » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعمعة حمامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل القوتين وتكافؤ الطرفين وكان. « أبودجانة » قد أخذ سيف الرسول - صلى الله عليه وسلم -<sup>(٢)</sup> - وجعل يحصد به الرؤوس وهو رجل قد اشتهر بالشجاعة والإقدام والفروسية وكان هو وحمة « يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر ولا يستطيع أحد أن يردهما أو يقف في طريقهما إذا كانت الانتصارات والهزائم في الحروب تتوقف على النظام والطاعة والإيمان والعقيدة وأن شيئاً واحداً من هذه كلها قد يكون شيئاً قوياً في نهاية محمودة أو غير محمودة فإن النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي لا ينطق عن الهوى قد رسم للمسلمين وهو لا يشك في صدق إيمانهم - الدستور الصحيح للنظام والطاعة التي يحتاجها النصر وهو يعلم مدى الفائدة التي تعود منها وفي هذه الكلمات البسيطة التي يخاطب بها الرماة الخمسين ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحربي الذي لا يعرفه إلا كبار القواد والساسة فإن المحنة لم تحل بالمسلمين في أحد إلا بسبب هذه المخالفة حيث بدأت بوادر النصر فترك هؤلاء أمكنتهم وسارعوا إلى انتهاب الغنائم وكان كشف هذه الثغرة تمهيداً لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة ( خالد بن الوليد ) حول المسلمين وإعمال السيف فيهم بعد أن انضم إليه الفارون من أهل مكة وبذلك أصبح جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - هدفاً ميسوراً للمشركين ينالون منه ويقبضون على ناصيته وبفرار المسلمين وانطلاق الصوت المغرض : « إن محمداً قد مات » كان جيش « محمد » - صلى الله عليه وسلم - على الحال التي تستحق الرثاء والأسف إذ كان كبار المسلمين من أمثال « أبي بكر » و « عمر » و « علي » قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم ولم يكن لهم تفكير إلا في النجاة من الموت أو الأسر ، ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه « محمد » - صلى الله عليه وسلم - فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله نبينا فأشار إليه الرسول أن يسكت لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ففرحوا به ، والتفوا حوله ووقفوا إلى جانبه يدافعون عنه ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ورهط من كثير غيرهم وكان أبودجانة الترس الواقى الذي وقف إلى جانبه يتلقى الرميات المصوبة إليه ويردها عنه وقد تقدم أمية ابن خلف يريد قتله - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : « لا نجوت إن نجا محمد » فطعنه الرسول بحربة « الجارث ابن الصمة » طعنة ولياً بعدها ثم مات<sup>(١)</sup> .

وانجلت هذه المعركة عن شذائد شديدة عاناها الرسول وإصابات بالغة لقيها وطارت قريش لنصرها سروراً وفرحاً حتى قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر موعدا العام القابل » . وكان قد وقر في ذهن « أبي سفيان » أن النبي - صلى الله عليه وسلم - في القتلى هو وأبو بكر وعمر وعلي وكبار الصحابة فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزناً شديداً .

ولما خلا الميدان من المشركين وأخذوا طريقهم إلى مكة خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى ساحة المعركة ليتفقد موتاه ليأمر بدفنهم وإهالة التراب عليهم فراحه عمه « الحمزة » في القتلى قد مثل به - وكانت

(٢) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ طبعة الأردن

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/٣ طبعة الأردن

هند بنت عتبة زوج أبي سفيان قد بقرت بطنه وأخذت كبده لتلوكها - فلما رآه على تلك الحال غضب غضباً شديداً وقال : ( لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم )<sup>(١)</sup> فأنزل الله عليه قوله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبروا صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ﴾<sup>(٢)</sup> فهذا - صلى الله عليه وسلم - وقال : ( أصبروا أحسب )<sup>(٣)</sup> ونهى عن المثلة .

وكان من طريف أخبار أحد أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما التقى ببعض هؤلاء الذين فروا من الميدان وعاتبهم في ذلك الفرار كان ردهم عليه أنهم قد انتهى إلى مسامعهم خبر موته فلم يجدوا بعد ذلك سبباً لصمودهم واستمرارهم في المعركة الدائرة بينهم وبين العدو وهناك نزلت الآيات : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين ، وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولم يشأ النبي إلا أن يترك لهم المدارس للحالة وأخذ العظة والعبرة رجاء ألا تتكرر المأساة فيما بعد أمام هذا العدو الذي يتربصن بهم الدوائر في كل موقف وكل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فإنه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت هذه المأساة فيما بعد مأساة الخروج على أوامر القائد ومخالفة تخطيطه الذي يرسمه للمعركة مع العدو وربما كان الذي استفادته المسلمون من هذه المحنة وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم من أحسن الدروس في تعليمهم الجرأة على عدوهم وكيفية الاستعداد للوقوف في وجهها وقوفاً يشيع في نفسه الرعب .

### قاتل حمزة

كان خروج المشركين إلى « أحد » مسبقاً بحوافز كثيرة وتصميم أكيد استعداد تام لغسل العار الذي لحق بهم من جراء الهزيمة التي حلت بهم بيد ولذل ذلك فإنهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصراً على الرجال وحدهم وإنما شاركت الرجل المرأة وكان الصراع بينها وبينه قوياً على هذا الخروج فالرجال يرون أن الميدان لهم والحرب تبعته يتحملونها ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح إلا إذا فنى الرجال ولم يبق من يزود عن العرض ويأخذ بالثأر ويذب عن الحمى ويدافع عن الحرم والمرأة تريد أن تشفى غليلها وتثار لقتلاها وترى مصارع أعدائها وبعد صراع في الرأي ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع وعواطفها المشبوبة وفؤادها الملتاع خرجت « هند بنت عتبة » ومعها عدد من النسوة لا يقل عن خمسة عشرة وحملت معهن صنماً على حمل ليبارك نواياهن ويقرن بهن التوفيق في سعيهن ويجعل النصر لهن على العدو وكان هؤلاء النسوة ومعهم هند يرددن الأناشيد الحماسية التي تلهب في قلوب

(١) الدار المشور للسيوطي - تفسير سورة النحل الآية ١٢٦

(٢) سورة النحل الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٣) رواه الترمذ في كتاب التفسير - سورة النحل ٢٩٩/٥ وأحد في مسنده الفتح الرباني ١٩٢/١٨ والحاكم في المستدرک ٣٥٩/٢

(٤) سورة آل عمران الآيات : ١٤٤ - ١٤٦



الرجال نيران الاستبسال والشجاعة حتى لا يتردد أحد في إقدامه وكره على الخصوم الكرة القاضية .  
 وإذا كان لكل واحدة منهن ثأر تطلبه فإن هند بنت عتبة كان لها أكثر من ثأر لأنها كانت تندب أباهما وأخاهما وعمها ولهذا كانت أكثر النساء إلحاحاً في الخروج إلى المعركة مع العلم بأنها لم تكن من السوق ولا النساء اللاتي ينطلن عليهن التبذل والاختلاط بالرجال في ميدان كر وفر إلا أن المصائب لا قانون لها ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها أو يوجّه خط سيرها لذلك كان خروج من خرجن إلى ميدان المعركة في «أحد» خارجاً عن القانون مغايراً للمألوف .

وقد ساعد «هند» إلى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على فتى مفتول الذراعين حديد النظر جرى القلب غير هياب ولا وجل طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ لها بالثأر الذي يشفى غليلها ويروي ظمأها ويمسح دموعها ويريح نفسها وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى «وحشى» عبد «جبير بن مطعم بن عدى» وهو فارس لا تخطئ ضربته ولا يخيب قصده ولا ينبو سيفه ولا ينجو منه منازلته وقد اطمأنت كل الاطمئنان لأنه وعدّها أن يقتل عدوها اللدود «حمزة بن عبد المطلب» وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده «جبير بن مطعم» أن يعتقه إن هو قتل «حمزة بن عبد المطلب» لأنه قاتل عمه «طعيمة بن عدى» وعلى هذا فإن وحشياً الحبشى يهزه إلى الحرب ويغريه بقتل «حمزة» عاملاً قوياً المال الذي وعدت به «هند» والعتيق الذي وعد سيده «جبير بن مطعم» .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته يجدر بنا أن نقف وقوفاً قصيراً عند «حمزة» الذي تحاك له هذه المؤامرات كلها لترى هل كان يستحق كل هذا الاهتمام من خصومه ؟  
 في الحق أن «حمزة بن عبد المطلب» لم يكن مجرد إنسان في صفوف محمد يغار على دينه ويدافع عن عقيدته ويحارب خصومه ويخيف عدوه ويرد عنه كيد الكائدين وإنما هو عمه - أولاً - وإلى جانب هذا فهو من القلوب النقية التي تحيطه بالحب وتخصه بالرعاية وتمحضه الود الصادق والاخلاص النادر وكان منذ نشأته ملازماً للرسول لا يفارقه إلا على الكره منه وكان مع هذا كله من الفرسان المغاوير الذين تعزّز ببطولتهم الجبهة الإسلامية كلها ويحدث موته فيها اهتزازاً يتصدع له جدار دعوة «محمد» - صلى الله عليه وسلم - والتركيز على اختفاء وجهه من الميدان - إلى جانب كونه إيلاماً بالغاً لمحمد - ثغرة واسعة - وفجوة فسيحة في الصف الثرى وبخاصة بعدما تبين بلاؤه في «بدر» وقتله لرجال قريش الذين كان قتلهم الجرح الذي لا يندمل وقد صدّق ذلك كله فجيرة الرسول عليه وتهديده إذا نصره الله على قريش وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً في مقابل المثلة بحمزة وحده وكذلك جاء في قصة إسلام «وحشى» من قول الرسول له : هل تستطيع أن توارى وجهك عني فأني لا أحب أن أراك ؟ في حين أنه قد جاء إليه ليعلن إسلامه أو أنه كان أعلنه حينئذ .

وقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذي يمكنه عن قتله لحمزة إذ سأله النبي - صلى الله عليه وسلم - وسأله غيره كذلك : «قال عبيد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشياً قلت جئتكم لتحدثنا عن قتل «حمزة» كيف قتلته ؟ قال وحشى : أما إني سأحدثكم كما حدثت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حين سألتني عن ذلك . . كنت غلاماً لجبير ابن مطعم وكان عمه طعيمة ابن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لي جبير إن قتلت حمزة عم «محمد» بعمى فأنت عتيق فخرجت مع

الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئاً فلما التقى الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بنسيفه هذا ما يقوم له شيء فوالله إني لأنتهياً له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو مني إذ تقدمني إليه « سباع ابن عبد العزى » فلما رآه « حمزة » قال : له هلم إلى يا بن مقطعة البظور فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه وهزرت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيت فأخذت حربتي ثم رجعت إلى المعسكر فقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليسلموا رُميت على المذاهب فقلت : ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد فوالله إني لفي ذاك من همى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه وتشهده شهادة الحق فلما قال ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة . فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثني كيف قتلت حمزة ؟ فحدثته كما حدثتكما فلما فرغت من حديثي قال : ويحك ! غيب عني وجهك فلا أرينك ! فكنت أتكب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث كان لثلا يرانى ، حتى قبضه الله فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً في يده السيف وما أعرفه فنهيات له وتهاى له رجل من الأنصار فضربه بالسيف فربك أعلم أينما قتله فإذا كنت قتلته ، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد قتلت شر الناس»<sup>(١)</sup> .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ويغلب الانحراف على طبعه لا يلبث إذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلباً فى الحق ، مستميتاً فيه مدافعاً عنه لا يتزحزح ولا يشك ولا يرتاب وفى حرص « وحشى » على أن يرضى عنه النبى - صلى الله عليه وسلم - وشغله نفسه زمناً طويلاً بهذا الرضا ، دلالة على أن عقيدته راسخة وإيمانه ثابت وربما كان أول المؤمنين بأن النبى - صلى الله عليه وسلم - حينما قال له غيب وجهك هنى لم يقلها كرها لأن يراه فى صفوف المسلمين يعلن إيمانه الذى ملأ قلبه ، وأخذ عليه هواجسه وأحلامه ولكن قالها تعبيراً عن كامن اللوعة المكبوتة فى نفسه على عمه الذى كان يحبه ويقف بجانبه ويساعده فى التمكين لكلمة السوء حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان قتله خسارة وما بعدها خسارة للإسلام والمسلمين من غير شك !!

### بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبى - صلى الله عليه وسلم - فى نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد شعورهم بأن مقاومتهم للعدو ووقوفهم فى وجهه ضرب من العبث ولون من ألوان الانتحار ، حتى لقد كاد صموده هو نفسه يكون عبثاً وانتحاراً لأنه بعد انفضاض المسلمين من الميدان كان يعرض

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى ١٢٨/٥ ورواه أحمد فى مسنده انظر الفتح الربان ٢١/٥٩ والطبرى فى تاريخه ١٦/٢ والبيهقى فى

نفسه للموت بغير ثمن وللهزيمة بدون جدوى ، وقد كان الأجدر به والهزيمة تحل بالجيش لا محالة أن يهوى لنفسه طريقاً للفرار كما فعل كثير من أصحابه حرصاً على حياته من الهلاك وإبقاء على روحه التي لم يكن ليملكها وحده ولكنها كانت ملكاً للبشرية التي يعمل لها ويكدح لانقاذها ويعيش ليأخذ بيدها ويكافح للنهوض بها وتوجيهها إلى مستقبل أفضل ، وحياة أحسن وسلوك أمثل إلا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل أعباء الرسالة ومسئولية الدعوة إلى الله لا يعنيه أن يكون إلى جانبه قوة من الناس تساعده وجيش من المحاربين وما ضده لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف ولا أن يغلب بالقوة ولا أن يظهر بالبطش ولا أن يعلو بالعدد والعدة وهو الذي يعتمد على المنطق ويدعو إلى الحق ويقود الإنسانية إلى شئ أقوم ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر في معركة أو يغلب في جولة أو يضطر خصمه معه إلى أن ينزل على حكم القوة ، أو إرادة التسلط والنفوذ لأن هذا هو أسلوب الفلاسفة من الحجة والبرهان أو الصواب والحق . على أن انصراف خصومه عنه مع هذا العنصر الساحق الذي أصابوه كان من المعجزات التي أيده الله بها والخوارق التي سخرها له ، فلقد وقفت له قلة قليلة تناوشه ونفر ضئيل يحاربه فنال منه بعض الذي يحب لا كل الذي يحب أما بقية الجيش فإنها كانت على يقين أنه قتل وليس هنالك بعد الذي كان ما يدعو إلى حرب شاملة . أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن « محمداً » لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف وحطوا رحالهم وهم في طريقهم إلى مكة دون أن يترثوا وأجمعوا الرأي على أن يأخذوا طريقهم إلى « يثرب » لتأديب « محمد » ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا في الوقوف في وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يشك في أن خمر الانتصار الذي حصلت عليه قريش - وبخاصة بعد قول « أبي سفيان » في نهاية المعركة ، يوم بيوم بدر والموعود في بدر مرة أخرى في العام المقبل - سيحملها على التمرد والطغيان الغرور وأن ذلك سيسوقها لا محالة إلى الطمع في الدخول إلى يثرب التي يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو إلى مكة بالتجارة ولهذا فإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يرد أن يظهر بمظهر المقهور الذي خرج من المعركة مشحناً بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ولكنه أقام في الطريق من غير أن يواصل السير إلى المدينة وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان هو وأصحابه بالروحاء على بعد سبعة وثلاثين ميلاً بعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على « محمد » وأصحابه ، وقد أراد - صلى الله عليه وسلم - ببقائه على الطريق أياماً أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقاءهم ودفع عداوتهم وإشاعة الرعب في قلوبهم وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان ذلك مضافاً إليه تنكيل « محمد » باليهود وإشاعته الخوف والفرع في نفوس المنافقين عاملاً قوياً حاراً في أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الإسلام واستعراض عضلاتهم جميعاً في مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » : فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن النبي في المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته على ألا يخرج إلا من حضر

الغزوة وخرج المسلمون فوق في روع أبي سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء فمر به «معد الخزاعي» وكان قد مر بمحمد ومن معه فسأله عن شأنهم فأجابه معد - وكان لا يزال على الشرك .

«إن محمداً قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكونون عليكم حنفاً ومنكم للثأر طلباً» .

على أن (أبا سفيان) فكر من جانبه فيما يكون لفراره من «محمد» ، ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه من الأثر أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود أن تقوله في محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع إلى «محمد» فهزمه المسلمون إذا ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ! فلجأ إلى الحيلة فبعث مع ركب من «بنى عبد القيس» يقصدون المدينة يبلغون «محمداً» أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليتأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعض عزمه ، ولم تن قوته ، بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشاً أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم وأخيراً فترت همّة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع (محمد) إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانته .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المسلمون مع النبي بحمراء الأسد وغيرها لإرهاب العدو وتخويفه نزل قوله سبحانه ثناء عليهم : ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ (١) ولم يمض عام واحد على «أحد» حتى كان الموعد الذي هدد «أبو سفيان» بقاء المسلمين فيه «بدر» قد حان فخرج أبو سفيان إلى بدر وخرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن هدد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك إلى أن يخرج وحده وكان لهذا التهديد أثره في حماسة المسلمين وإقدامهم البالغ بعد أن كان فيهم فتور وتردد وقد أقام ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع معتمداً على أن العام لم يكن خصباً وقال : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن وإن عامكم هذا عام جذب فارجعوا فرجع الناس أما المسلمون فلمهم اتجروا في سوق بدر وعادوا بريح عظيم لعله هو المقصود في آخر الآيات السابقة بقوله جل شأنه : ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ ويقول المؤرخون : إن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يرجع إلى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التي كانت إلى بدر الثانية والتي انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل إلا وقد صنع من التطهير العام في الطريق وإشاعة الرعب في نفوس المتمردين ولم يكن له أن يصنعه في سنوات وكان أبرز ما صنع هو جلاء بنى النضير الذي كان بعد جلاء بنى قينقاع الضربة القاصمة التي وجهت إلى اليهود جبهة المعارضة للرسول وأصحابه ثم كانت بعد ذلك غزوة الخندق أو الأحزاب التي لم تجن من ورائها بعد التجمع ومحاصرة المدينة والفشل الذي منيت به إلا القضاء على بنى قريظة وبذلك كله صار المركز القوى للإسلام والمسلمين .

## حديث الإفك

كانت غزوة « المريسيع » - أو بنى المصطلق - إحدى العمليات الحربية التي أراد بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة « أحد » لم تفت في عضده ولم تضعف شوكلته لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ويرهبون بأسه لا يزالون يعملون من طريق حرب الاشاعات على تشويه سمعته وتلفيق الأكاذيب له وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان لتكوين هذه الحرب النفسية تقويضاً لبنائه الضخم ونلويثاً لتاريخه الناصع وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة من أن يصلوا إلى غرضهم هذا من أيسر الطرق وأقربها إذا انقطعت « عائشة » - رضى الله عنها - عن الركب لداع ضرورى وقد أركبها راحلته رجل كان - أيضاً - تأخر كما تأخرت وكان هذا ذريعة للإفاضة في حديث غير كريم القصد منه تفكير الصفو وأثارة الفتنة . والقصة - كما تروىها صاحبها - « عن عائشة » - رضى الله عنها - قالت : كان - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يخرج سافراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمنا حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت التمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم وإنما يأكلن العلفه من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعدما استمر الجيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأمت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدونى فيرجعون إلىى فيينا أنا جالسة غلبتنى عيناي . فنمت وكان « صفوان بن المعطل السلمى » ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى حر الظهيرة فهلك من هلك ! وكان الذى تولى الإفك « عبد الله بن أبى سلول » فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك وبيننا فى وجعى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض وإنما يدخل فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت « فخرجت أنا و « أم مسطح » قبل « المناصع » تبرزنا - لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أوفى التنزه فأقبلت أنا و « أم مسطح بنت أبى رهم » نمشى ففثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بشما قلت ! أنسبى رجلاً شهد بدرأ ؟ فقالت : يا هتاه ! ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : إئذن لى إلى « أبوى » .

قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتقن الخبر من قبلها فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوى فقلت لأمى ما يتحدث الناس به ؟ فقالت : يا بنية هوى على نفسك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة

قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! فقلت : سبحان الله : ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى ذمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « على بن أبى طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبت الوحى يستشيرهما فى فراق أهله فأما « أسامة » فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ! ولا نعلم إلا خيراً ، وأما « على » فقال : يا رسول الله لم يضييق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ! فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « بريرة » فقال : يا بريرة ، هل رأيت فيها شيئاً يريبك ؟ فقالت : بريرة : لا والذى بعثك بالحق ! ما رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجيين فتأتى الداجن فتأكله . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من يعذرني من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ، ما علمت على أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام « سعد بن معاذ » فقال : يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقام « سعد ابن عباد » - وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام « أسيد بن الحضير » فقال : كذبت لعمر الله . لتقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكنوا وسكت وبكى يومى لا يرقأ لى ذمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالتق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشيء . قلت ، فتشهد ثم قال : يا عائشة ، لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ! وإن كنت ألمت بذنب ثم تبت تاب الله عليك ! فلما قضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ! وقلت لأبى : أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال ، قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؟ قلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : والله ، لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث الناس وقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقونى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقونى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : فمسير جميل والله المستعان على ما تصفون ! ثم تحولت على فراش وأنا أرجو أن يرثنى الله ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل فى شأنى وحياً يتلى ولأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم القرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم رؤى يا يرثنى الله بها فوالله ما دام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات فلما سرى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة ، إحمدى الله فقد برأك الله ! فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت : لا والله لا أقوم إليه

ولا أحد إلا الله ! فأنزل الله - عز وجل - ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ۚ وَلَمْ أُنَزَلْ بِهَا مِنْ أَتَىٰ عَلَىٰكَ ۚ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَىٰ «مَسْطَحِ بْنِ أَنَاثَةَ» لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ : « وَاللَّهُ لَا أَنْفَقَ عَلَىٰ مَسْطَحٍ شَيْئاً أَبَداً بَعْدَ مَا قَالَ لِعَائِشَةَ ! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا يَأْتَلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى ۚ إِلَى قَوْلِهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) ، فقال أبو بكر : بلى ، والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى «مسطح» الذي كان يجري عليه .  
وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل «زينب بنت جحش» عن أمرى ، فقال : يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت عليها إلا خيراً ! قالت : وهى التى كانت تسامينى فعصمها الله بالورع» (٢) .  
وفى هذه القصة عظات وعبر :

منها أن الشدائد كانت تلاحقه - صلى الله عليه وسلم - فى كل خطوة من خطوات دعوته إلى الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه وفى أهله وفى سبيل إعلان هذه الدعوة وإبلاغها إلى الناس ومع ذلك كله فلما لم تستطع أن تصرف جهده أو تشنى عزمه أو أن تشيع اليأس فى نفسه أو تعوق خطوه أو تنال من ثقته بربه أو تشوه تاريخه أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ما صير فيه . .  
ومنها - كذلك - أن مع العسر يسراً - كما يقول الله - سبحانه وتعالى - فإن عائشة - رضى الله عنها - لما شهدت لها السوء وبرأها الوحى ، ونوّهت بها الآيات البينات صار الإيمان بطهرها عقيدة ورميها بالزنا كفراً - والعياذ بالله - : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ، يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) . ومن أن المولى - جلا وعلا - لا يتخلى عن أوليائه فى أخرج الأوقات وأحلك الظروف مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم وعناصر الشر تحاربهم والخصوم يكيدون لهم ويتفقون عليهم وقد كان مسطح الذى أذاع هذا الفحش وعبد الله بن أبى الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنها هذه الفرية يظنون أنهم أصابوا من محمد - صلى الله عليه وسلم - مقتلاً أو كشفوا له هناة ولكن الله قد رد كيدهم فى نحركم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكَ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ (٤) . ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة - رضى الله عنها - بهذا الإفك أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب بنزاهة العرض وطهارة الجانب وشرف القدر وسمو المنزلة لما كان منهم إلا الخرس ولكنه الحق الذى جعلهم يسعون إلى حتفهم لظلفهم ويقدمون على سلوك يكون من ورائه لهم الويل والخزى والأسى والأسف والحسرة والخيبة والصغار والهوان .  
ومنها - وهى أهم من ذلك كله وأعظم - أن الذى يهتم بكشف الأستار وافتضاح الأعراض يتخبط فى

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة النور الآية : ٢٢

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - ١٤٨/٥ - ١٥٣ وكتاب التفسير - باب قوله : لولا إذ سمعتموه ٤٥٢/٨ ومسلم فى كتاب التوبة

٢١٢٩/٤ وعبد الرزاق فى مصنفه ١١٠/٥ والترمذى فى كتاب التفسير ١٣/٥

(٤) سورة النور الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة النور الآية : ١١

منطقة ويلتوى في سيره ولا يبالي أن تمشى به رجله إلى حتفه وتنتهى به إلى خاتمة لا يرضاها وغاية لا يحمدّها أم أنها ستصل به إلى شاطئ الأمان ومواطن السلامة والعافية ، فإن هذا الرجل الذى اهتم به مروجوا هذه القالة وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ظهر من مجريات الحوادث والأمور - فيما بعد - أن إسناد دور البطولة إليه في هذه الخرافة الملفقة والفرية المصنوعة لم يصادفه التوفيق ولم يقترب به الصواب والسداد لأنه رجل « غرهاء » كما تقول كتب المعاجم وقواميس اللغة ويفسرونه بأنه لا يرغب في النساء ولا يتوق إليهن ولا يخشى عليهن منه لأنه يفقد الفحولة ولا يوجد عنده الميل الجنسي ولا يمكن أن يشاق إلى المرأة أو يحن إليها أو يطلبها أو يرى أنها ترضى فيه نزوعاً أو تشفى غليلاً ولذلك فإن عبد الله بن أبي وهو المقصود بقوله سبحانه : ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾<sup>(١)</sup> لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الإفك حتى راح يؤلب النفوس ويثير القلوب ويقدم للفتنة وقوداً آخر وآخر مصوراً ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حازته ﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزان السماء والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾<sup>(٢)</sup> وكأنما كان يعتقد أنه « كقابض على الماء خائنه فروج الأصابع » .

### الخنديق أو الأحزاب

مع تلك المجاهبات الكثيرة التى كانت بين المشركين والمسلمين والذعر الذى بدأ يدب في قلوب خصوم محمد - ﷺ - من مواقف البطولة التى كانوا يرونها غير مرة من أصحابه - ( رضوان الله عليهم ) فإن العداوة التى كانت بادية في سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتتقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها أو تنتهى نتائجها المتكررة في كل يوم وكل مناسبة وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هى أبرز تلك المسرحيات التى تجلّى فيها بشكل واضح تيقظ موامرتهم بالنبي - ﷺ - ووضع وضعهم الشاذ بالنسبة له حين تيقظت خصومهم الحقيرة المتمثلة في تحركاتهم المريبة هنا وهناك لحشد الجيوش واتخاذ العدة وإشعال نار الحرب وإعلان التغير العام على هذا الذى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضرى : « لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وإرث المسلمين لها بل كان في نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ووعدوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم إرتياحاً فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدى ، وعددهم أربعة آلاف وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن جازى إحسان الرسول إليه كفوفاً فإنه أقطع أرضاً يرعى فيها سوائمة حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن ربيعة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨



عشرة آلاف محارب قائداهم العام أبو سفيان ، فلما بلغه عليه السلام أخبار التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيملك في المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق وهو عمل لم تكن العرب تعرفه فأمر - عليه السلام - المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية بعمله وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤق المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الاستاذ أحمد إبراهيم الشريف في الإعداد الذى سبق غزوة الأحزاب هذه : « اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين في يثرب في نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون مجاملة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفي سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال . . . وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حمى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق وأخوة كنانة ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش بمكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التى تحمل لواء المعارضة ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهى التى بينها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته لكن قريشا كانت قد بدأت تحمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعض وأخذ الحصار الأقتصادى يؤثر فيها تأثيراً كثيراً جعلها تفكر في إعادة النظر في موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التى نشأت في يثرب وأخذت عليها طرق تجارتها وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التى يدعو بها وليس بعيداً أن يكون على حق مادامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا . . . وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حبيبا عن قومه من بنى النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال : أقاموا ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعداً بعد أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . . بلغت أبناء هذا المسير عمداً والمسلمين معه في المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد ولم تكن في أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون المقابلة هذه القوة التى تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ؟ لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ولكن أيكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ثم إن النبى لا يريد المغامرة وليست البطولة هى التى يحرص عليها فالحرب عنده وسيلة لا غاية وهو - وإن كان سريع النهضة لضرب العدو - رقيق التنظيم ماهراً في القيادة فإنه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربى وإنما هو نبى يريد سيادة مبدأ وتحقيق رسالة ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة وقد أقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو يوماً كيوم أحد ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها في مساحة مكشوفة مثل يوم أحد وإنما ووجهت بتنظيم جديد وفاجأها الخندق فأخذها العجب إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول وكان الوقت شتاءً والجو بارداً والرياح شديدة وأدركت قريش وأحزابها أنهم مقيمون أمام الخندق طويلاً يتعرضون لهذا الجو القاسى الذى تعجز خيامهم عن حمايتهم منه ومحمد وأصحابه بخندقهم ولدتهم الحيرة ومساكنهم وراءهم فهم يستطيعون الصبر طويلاً أفليس الخير للأحزاب أن يعودوا أدراجهم لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر

الهمين ، قدر اليهود هذا كله وخاف حبي بن أخطب مغبتها فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بني قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام إليهم ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب وسرت قريش بما تعهد به حبي وسارع هو إلى تنفيذ خطته فاقنع زعيم بني قريظة كعب بن أسد بذلك وما زال حتى ثارت يهوديته وأعلن نقضه للعهد وعاد حبي يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم وعلم الرسول بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير ليقفوا على جلية الأمر ، وليحاولوا رد اليهود إن كانوا قد فكروا في الخيانة وهناك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردوا لإخوانهم من بني النضير إلى ديارهم إن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببني النضير لكنهم لم يقتنعوا وقال كعب : من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ واشتدت المناقشة وكاد الفريقان يتشاثمان . . . ورجع رسل محمد إليه ، واشتد البلاء وعظم الخوف ورأى المسلمون طريق قريظة وقد فتح للأحزاب ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو فإن الحيلة إذن خير ما يلجأ إليه القائد البصير في مثل هذا الموقف لذلك بعث النبي إلى غطفان بعدها بثلاث ثمار المدينة إن هي ارتحلت ولما لم يكن لغطفان هدف إلا المال فقد بدأت تميل إلى هذا العرض ثم إنه أرسل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثاً ولم يعلم الناس بإسلامه وكان صديقاً لقريش كما كان صديقاً لليهود ليصل بالحيلة إلى تفكيك وحدة الأحزاب وكان داهية ذكياً فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمداً وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضماناً لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير<sup>(١)</sup> وقال لقريش : إن بني قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسياخذون رجالاً باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ، فلما طلبت قريش والأحزاب من بني قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن وعندئذ تأكد لأبي سفيان أنهم سيغدرون وعرض أمر الهجوم السريع على غطفان فترددت فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصفت الرعد واشتدت العاصفة بما لم ير له مثل من قبل حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب وخيل إليهم أن محمداً سوف يستغل هذه الفرصة فيها جمعهم ويوقع بهم فقام طليحة بن خويلد الأسدي وصاح إن محمداً قد بدأكم بشر النجاة النجاة وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء ولبى داعي الفرار وصاح بقريش إني مرتحل أيها الناس فارتحلوا فقد نقضت قريظة عهدها وبدأكم محمد بشر ما تكرهون وهكذا هزم الله الأحزاب وكفى المسلمين القتال .

وفي هذه الغزوة لم يكن عدد المسلمين مشجعاً على الوقوف في وجه الأحزاب الذين جاءوا للإجهاز عليهم وإسكات صوته وتفريق شملهم وتنكيس رايتهم إلى الأبد حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة في يثرب وهناك تمر القوافل التجارية وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها وعدوا بها عليها إلا أن المسلمين مع هذه القلة كان في قلوبهم إيمان وبين جوانحهم عقيدة غماها لديهم وأكدها في نفوسهم

تلك الشقة التي لا حد لها في نصر الله لهم والتي كان الرسول - ﷺ - يعلنها إليهم ويبرهن بها ويؤكد لهم أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعده بها ولا يخلف الله وعده ونحن نستطيع أن ندرك من غير شك - أن الرسول - ﷺ - أثبت بما لا ريب فيه أنه قائد حربي محنك استطاع بهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدو الضخم الذي حشده عدوه وواجهه به خصومه وتبين ذلك واضحاً كل الوضوح في أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذي استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبني قريظة إلى درجة أن فكرت قريش ممثلة في القائد العام أبي سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذي أحرزته في أحد وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التي صادفتها من البقاء الطويل وقيام العواصف التي اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب على أن الخندق كان ضماناً إلى حد ما في صيانة جيش المسلمين من هجوم عدوهم وتطاول خصومهم وإن كان بعض الفرسان اقتحمه وأراد بهذا الاقتحام أن يمهد لغيره أن يقتحمه غير أن عملية لم تكن من اليسر بحيث يستطيعها كل أحد وثاني هذين الأمرين تلك المبارزة التي أراد مقتحموا الخندق أن يشيعوا بها الرعب والفرع في نفوس أصحاب محمد - ﷺ - إلا أنها لم تحقق غرضها ولم تصل بأصحابها إلى النتيجة المطلوبة وكان على بن أبي طالب - رضى الله عنه صاحب الفضل في أنها خيبت ظنونهم وأحبطت أعمالهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً إذ تقدم عمرو بن ودقي طلباً للمبارزة وتقدم له على فقتله وكان بعد ذلك قرار المشركين وكانت هذه هي الضربة الأولى والفضل في الحروب دائماً أبدأ للضربة الأولى وأظن أنه قد كان من الطبيعي جداً بعد هذه الغزوة أن يفهم خصوم محمد - ﷺ - أنهم سوف لا تقوم لهم قائمة بعد وأنه لم يبق إلا أن يقول قائلهم في صوت عال أو خافت إن الإسلام قد أصبح قوة ضاربة لا يمكن قهرها ولا القضاء عليها .

### قصة زينب

لم يقتصر مؤامرات المشركين ، ولا دسائس المنافقين في الكيد للرسول - ﷺ - على الحروب الميدانية التي أثاروا عجاجها ورسوموا منهاجها وأشعلوا نيرانها وأراقوا فيها دماء كريمة عزيزة ولكن هذا الكيد كان يمتد بهم إلى أقصى الغايات وأبعد المسافات فيتناول العرض والشرف والسلوك والطباع والأخلاق والعادات وأمهات المؤمنين اللاتي كن أظهر من ماء السماء وأنقى عرضاً من حبات الندى وكأنما هو مخطط قد رسمت له الحدود والأبعاد وأعدت لتنفيذه الأوقات والمناسبات والظروف الملائمة وتتناول الرسول - ﷺ - نفسه إذا دعت الضرورة إلى ذلك فيتهمه بالسحر والكهانة والشعر وأن ما ينزل به جبريل الأمين أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه حتى إذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون وخرافة ما يدعون وكذب ما يزعمون حاولوا أن يتخذوا لهم ميداناً آخر للهجوم ومناسبة أخرى للطعن واللمز والتشويه والتجريح وقد كان زواجه - ﷺ - بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث العفن والتشنيع المفضوح والانتهاش الساقط وفي كل مناسبة من المناسبات التي تأخذ فيها هذه الأحاديث طريقها إلى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى والمستشرقون في العصر الحديث ورثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به وأنقنوا التنقيص والطعن واختلاق العيوب والمساوى وقصة زينب بنت جحش واحدة من هذه القضايا التي أخذوا على عاتقهم استخدامها في الطعن على الرسول وإبرازه في صور الشخص الأثاني الذي لا يعنيه إلا نفسه هو فقط يشبع شهواتها ويلبى رغباتها ويستجيب لنزوعها وميوها أو الرجل الشهوانى الذى ينس عقله ورشده وتفكيره

وخلقه ومنطقه وأدبه وعرضه ودينه لينزل على إرادة الغريزة والطبع والهوى والميل متناسيا الأعراف والتقاليد والديساتير والنظم والقصة هكذا كما يرويها الشيخ محمد الخضرى : ( وفى هذا العام - يقصد السادس الهجرى الذى كانت فيه غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق تزوج عليه السلام زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاة زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول - ﷺ - خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانتها من الشرف العظيم فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون ألا كفاء من سواهم لبناتهم وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف فلما نزل قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ <sup>(١)</sup> لم يروا بدا من القبول فلما دخل عليها زيد أرتته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها أى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العتب أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسبا للنزاع من جهة وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه . فى زواجه بزواج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزوج من زوجة المتبنى ﴿ التلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ <sup>(٢)</sup> ومن هذا الحين صار اسم زيد ( زيد بن حارثة ) بدل زيد بن محمد ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم : فى هذه القصة أقوالا لا تجوز إلا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال : سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاء عن ذلك ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات ورسول الله هو الذى زوجها زيداً فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك ومن هنا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه : إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا ﴾ <sup>(٣)</sup> ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجته ثم يشتهى زواجها ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقاً وأبعدهم عن الدنيا حتى مدحه الله بقوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ <sup>(٤)</sup> أما الدكتور هيكل فى كتابه حياة النبي - فإنه يقول : ( يكفى لهدم كل هذه القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمه رسول الله - عليه السلام - وأنها ربيت بعيته وعناية وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أمى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيداً وأنه شهدا فى غمها تحبو من الطفولة إلى الشباب وأنه هو الذى خطبها لزيد مولاة إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦٠

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣١

(٤) سورة القلم الآية : ٤

مر بيت زيد ولم يكن هو فيه رأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فالفأها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة ولو أن شيئاً من حبها علق بقلده لخطبها لنفسه لا لزيد ويثبت التاريخ أيضاً أن محمداً خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية وهى مع ذلك ابنة عمه الرسول وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ورأى فى ذلك على زينب عاراً كبيراً وكان ذلك عاراً كبيراً عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وإن أعتقوا لكن محمد يريد أن تزول مثل هذه الاعتبار القائمة فى النفوس على العصبية وحدها وأن يدرك الناس جميعاً أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب وهذا الهدم لعاداتها مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها مما تحش سماعه وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها فيكون مستعداً للتضحية التى أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس قيادها ولا لأن إباؤها واشتكى زيد إلى النبى ذلك وطلب طلاقها وقال له النبى : أمسك عليك زوجك إلا أن زيدا لم يطق فطلقها وكان الشارع الحكيم قد اراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعى جميع حقوق الإبن ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة إن محمداً نفسه على قوة عزمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب لكن محمداً كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما طلب منه أن يبلغ رسالته فليخش ما يقول الناس فذلك لا شىء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء هذه رواية التاريخ (الصحيح) وربما كان من المستحسن أن ننقل لك صورة من تفكير بعض المستشرقين وتصورهم لهذه القصة عن كتاب حياة محمد للمستشرق (إميل درمنغم) الذى ترجمه إلى العربية (محمد عادل زعير) ل ترى إلى أى حد كان هذا الإسفاف وتلك الخرافات : « شعر محمد فى العقد الأخير من عمره بكبير ميل إلى النساء فقد أثارت عائشة الفتاة التى تزوجت به فى السنة التاسعة من عمرها عوامل الميل إلى النعيم الجنس فى زوج خديجة الطاهرة الذى ظل وفيها لها عشرين سنة مع زيادة سنها عن سنه كثيراً فلما بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب أقام لنفسه بيتاً كبيراً سادات العرب فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة عن ميل جنسى أو عن سياسة وكان له بضع سرارى جميلات عرضت عليه هدية أو نالها سبياً وقد زاد لذلك الميل الجنسى القوى الذى كان محصوراً قبل زمن أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج فكان كل باب منها خاصاً لسكن إحدى زوجاته . . . وقد دخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثه بعد الفراغ من غزوة بنى النضير وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثه كثيراً وكان قد تبناه فكان زيد بن محمد وكان يستشير فى كل أمر وكان زيد فى ذلك اليوم غائباً عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها والتى كانت زوجة لزيد وكانت زينب هذه سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها فأثر هذا الجمال الغض الفياض فى نفس النبى - ﷺ - فقال : سبحان مقلب القلوب ولم ينطق

بغير هذه الكلمة ثم انصرف وقد قصت زينب على زوجها زيد ما رأت فحار في الأمر وكان زيد المخلص لمولاه النبی مزاجه المتقد فرأى ألا يمسك عليه زوجه فأعرب عن عزمه على طلاق زينب وذكر له أنه لا يستطيع العيش معها فقال محمد : أمسك عليك زوجك بيد أن زيدا أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه - محمد في نفسه فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً بأنه أضحي كارها لزينب فطلقها بعد بضعة أيام فلما انقضت عدة زينب أرسلت إلى محمد من يقول له : إن زيدا طلقها إرضاء له وكان محمد راغباً في الزواج من زينب على استحياء .

ونحن نرى من هذا الرأي الذى يمثله « درمنغم » يتجافى مع الحقيقة كل المجافاة ويتجرد من الذوق إلى أبعد حد لأنه لا يجعل الرسول في مصاف النخبة الممتازة من البشرية التى ارتفعت بها عناية الله عن هذا المستوى البشرى السافل إلى أفق يجعل منهم القدوة الصالحة للإنسانية ولكنه ينزل بهم إلى المستوى الترابى الحقيقى الذى يعيش الناس فيه لحيوانيتهم الطائشة وآدميتهم الرعناء فلا يمنهم شيء وراء شهوة البطن والفرج على أن محمداً - ﷺ - الذى مرت به فترة الشباب وهو أكمل ما يكون قوة وأنضج ما يكون حيوية وأقصى ما يكون جنسياً وأعظم ما يكون فراغاً لم يعرف عنه الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ويبحث عنها وينسى في سبيلها كرامته وخلقه شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم وتحكم في سلوكهم وتملك عليهم كل شعورهم ولقد طلبته خديجة وهو في الخامسة والعشرين من عمره وهى في الأربعين وسعت إليه دون أن يسعى إليها . . . وفي الوقت الذى جرت حوادث قصة زينب لم يكن في فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق والميل العارم فقد كان في حريمه حفصة الشابة الجميلة في الثمان عشرة من عمرها وعائشة الصغيرة العزيزة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها فأى شيء كانت تزيد زينب التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة رهى - مع ذلك كله - ابنة عمته ، اللهم لا شيء فلم يبق يعد ذلك كله إلا أن المسألة لا تغدو أن يكون هذا منهجاً سماوياً خاصاً أردا به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ولا يكون شاقاً على الناس ولا يمثل قصته على خشبة المسرح إلا أشخاص لا يدخل في روع المجتمع أنهم من السوق أو بمن لا يصح أن تكون لهم قيادة للجماعة الإنسانية التى يعيشون معها ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالاً بالمجتمع من سلوك إلى سلوك غير الرسول - « - وزيد بن حارثه مولاه وصفيه وموضع ثقته وزينب عمته لكان لهذا الثورة على هذا الوضع البغيض شأن آخر في تقبل الناس إياها وتركهم لها وإقلاعهم عنها وعدم ارتياحهم إليها ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزماً في الأسلوب وحكمة في التشريع وصواباً لا يعدله صواب ولهذا فإنه لم يثبت أن أحداً غضب من أجل أن تنحل منه هذه النبوة المزودة أو هذا النسب اللصيق أو هذه الوشيجة التى لا تعتمد على شيء وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل الارتياح ﴿ ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) إلا أن الخصومة لا منطق لها والحقد يتجاوز معايير السدا والحكمة والذوق والأدب .

## صلح الحديبية وبيعة الرضوان

إلى هذا التاريخ كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود وبين النبي - ﷺ - والمسلمون معه وكانت قريش إلى هذه الفترة نهكتها الحرب وقلمت أظافرها الهزائم التي لحقت بها فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمداً إلا الحقد الذي تغل جوانحها ونوايا الشر التي تخفيها في ضمايرها حتى لقد جلس أبو سفيان يوماً من الأيام في نادى قومه يكاد الغيظ يفيض منه فقال ، ألا رجل يأخذ محمداً على غرة في مسيرة إلى السوق أو إلى دار بعض أصحابه أو إلى المسجد فيضربه ضربة تقضى عليه ليربحنا منه ومن خطره علينا بعد تلك الدماء التي أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا فتقدم إليه رجل وقال له أنا ذلك الذى تنشده وهنالك أعطاه أبو سفيان الأموال والزاد والراحلة ليقوم له بتلك المهمة وفى صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبي - ﷺ - ليضربه بخنجره الذى سقط منه فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروهاً ولما وجد أن قدرته قد ذهبت وأن خطره قد هوى وأن قلبه قد امتلأ بالخوف وأن رجله لا تحملاه وأن الأرض موشكة أن تنشق لتبتلعه وأن أسيد بن حضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه أعلن ندمه وأسفه على ما أقدم عليه فقال له النبي أصدقنى حديثك وخبرنى خبرك فلم يخف عنه شيئاً وأنبأه أنه موفد من قبل أبي سفيان لقتله وأنه يعترف منذ هذه اللحظة أن أبا سفيان وقومه على الباطل وأن الرسول على الحق وقد بعث النبي - ﷺ - - رجلين من أصحابه ليقتلا أبا سفيان هما عمرو بن أمية الضمري - وكان من فتاك العرب فى الجاهلية - وسلمة بن أسلم وقد عرف أبو سفيان وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه وقتل فى طريقه وهو فار زجلاً من تيمه ورجلاً من بنى الدليل ولقى آخرين من قريش بعثتهما يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيراً إلى المدينة وكان الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة يسلم حتى يديه مفاتيح مكة فيما بعد .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التي تضم اهلهم وذوى قرابتهم وإخوانهم وأخواتهم بل لم يكن النبي - ﷺ - أكثر منهم جلداً ولا أشد منهم احتمالاً أو أقل شوقاً ولهفة إلى أن يجد نفسه وقد مكثه الله من الأرض العزيزة عليه ومن البيت الحبيب إليه حتى بلغ من حنينه هذا ومن شدة تعلقه بهذا المكان الذى بزغت شمس قبل أن تطلع الشمس وتنشر ضياءها على هذه الدنيا أن رأى فى منامه - ﷺ - أنه دخل مكة ولم يكن يذيع فيهم ذلك النبأ ويشهرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم ١ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين ٢ حتى ويثبت أفئدتهم من بين أضلاعهم تطوف بالبيت وتتملى من نوره ويتيمم بغيره وتملاً خياشيمها برياً ثم ظلوا يتحينون الفرصة ويتربصون أن يحقق الله لهم ما يرجون أن يكون إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشاً لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس وطيب خاطر وسوف تصدهم صداً عنيفاً إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف وسلطان الحرب وقد

كانت قريش لا تفكر في حرب محمد - ﷺ - لأنها تعاني من حروبها الماضية وتقاسى مما خسرت فيها من عتاد ورجال وكذلك كان الرسول - ﷺ - لا يرغب في حربها ولا يميل إلى مناوشتها ولا يهوى نفسه لمواجهتها إلا أنه مع ذلك كله كان ينتظر أن يحقق الله ما وعده به ولا يشك بعض الشك في أنه منجزه إياه وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والسياسة والحزم والكياسة ويقول الدكتور هيكل : « إنهم المجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبي بما ألهم في رؤياه الصادقة ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام أن شاء الله آمين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون إلى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم وحتى تنقل نبأ هذه الرؤيات إلى سائر أنحاء المدينة في سرعة البرق الخاطف ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام أيحاربون في سبيله ؟ أيحملون قريشاً عنه عنوة أم تفتح قريش له طريقه صاغرة مدعته ؟

أذن محمد في الناس بالحج وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج في أول ذي القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء وكان عدد الذين خرجوا ألفاً ونصف وساق معه الهدى وسبعين بدنه وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً فلما بلغ ذا الحليفة قص الناس الرؤوس ولبوا بالحج وغرلوا الهدى ومن بينها بئر أبي جهل الذي أخذوه في بدر ولم يحمل أحد سلاحاً إلا ما يحمله المسافرين من سيف مغمد وبلغ قريش أمر محمد فامتلات بالخاوف وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوههم حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخول مكة ولم يثبهم ما علموا من إحرام خضوعهم بالعمرة وإذا عتتهم في أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم إلا العاصفة الدينية عن يقرروا الخيلولة دون محمد ودخول مكة بالغاً ما بلغ الثمن الذي يدفعونه كذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمه بن أبي جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بذى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . . أما محمد فإنه تابع مسيرته حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش فقال له : « لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمر يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً » فقال ﷺ - يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو دخلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافدين ولم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة<sup>(١)</sup> ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع إنه لم يخرج من المدينة غازياً وإنما خرج محرماً يريد بيت الله يؤدي عنده إلى الله فرضه وهو لم يتخذ للحرب عدتها فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش مكة تبدو على مرمى النظر فنأدى في الناس قائلاً من يخرج بنا على غير طريقهم التي هم بها وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعراً بين شعاب مضنية حتى أفضت به إلى سهل عند منقطع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المزارع مهبط الحديدية من أسفل مكة فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم مدافعين عن مكة إذا داهمها المسلمون . . ولما بلغ المسلمون الحديدية بركت ناقة النبي فقال قاتل خلأت القصواء فقال ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل لا تدعون قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم دعا الناس إلى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً فنزل به إلى بئر من الآبار المنثورة في تلك الأنحاء فغرز في الرمال



في قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا ، ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فهل يعدون لها عدة النزال .

وقف المعسكران يفكران في الخطة التي تتبع . . . أما محمد فظل على خطته في السلم والجنوح إليه إلا أن تهاجه قريش أو تغدر به وهنالك لا يبقى من انتصار السيف مفر وأما قريش فترددت ثم فكرت في أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته ويصدده عن دخول مكة وجاءه بدیل ابن ورقاء في رجال من خزاعة يسألونه ما الذي جاء به فلما اقتنعوا أن لم يأت محارباً رجعوا إلى قومهم ليلغفوه ذلك لكنهم لم يصدقوا وبعثوا رجلاً من بني عامر فعاد بمثل ما عاد به بدیل فلم يصدقوا فبعثوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة فلما رآه النبي مقبلاً أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلاً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت فأيقن الحليس أن قريشاً ظالمة وعاد إليهم ليقول لهم سبحانه الله ما ينبغي هؤلاء أن يُصدّوا أنحج لحم وخدام وحير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم . . . وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفي فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فأكدوا له أنه عندهم غير متهم وقد خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بيضته وأنه إن نالها هؤلاء الأوشاب كان ذلك العار الخالد وكان عروة يتناول - أثناء الحديث - لحية الرسول وكان المغيرة ابن شعبه يضرب يد عروة كلما تناول لحية النبي ، ورجع عروة إلى قريش فقال لهم : « يامعشر قريش إني والله ما رأيت ملكاً في قوم مثل محمد وأصحابه وإنهم لم يسلموه لشيء أبداً فروا رأيكم » .

وطالت المحادثات على النحو الذي قدمناه ففكر محمد في أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذي يرى فبعث من جانبه رسلاً يبلغهم رأيه لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعه الأحابيش فخلوا سبيله وخرج جماعة من سفهاء مكة - أربعون أو خمسون - يريدون العبث بمعسكر المسلمين فأخذوا أخذاً وجيء بهم إلى النبي فأطلق وثاقهم وعفا عنهم .

وقد أراد عليه السلام أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عداوتهم إذا أرادوا الاعتداء عليه وقال للنبي إن عثمان أعز بها مني فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره وأبلغهم رسالته فلم يأبها بها ولكنهم أذنوا له في دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة وطال إحتباس عثمان هنالك وترامى إلى المسلمين أنه قتل غيلة وغدراً. ودخل في روع النبي - ﷺ - أن قريشاً قتلت عثمان فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت وكلهم حماسة للإنتقام ممن غدر وقتل وهي بيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ (١) وهذه البيعة اهتزت السيوف في أعمادها وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد

ثم لم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان بنفسه إليهم وأبلغ محمداً ما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له انت محمد وصالحه على أن يرجع ليعود في العام المقبل « وإلى هنا ينتهي الحديث عن قصة هذا الصراع الذي تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية والجانب الآخر منها يتمثل في الموقف الذي وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمي من قبل قريش في إبرام المعاهدة بينها وبين محمد وقد كان فيه من الطرافة بالبسملة - بسم الله الرحمن الرحيم - فيأبى سهيل إلا أن يكون ذلك باسمك اللهم على ما تعود الناس قبل الإسلام عليه « هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله « فلا يرضى بذلك سهيل ثم يقول لو آمنا بك رسول الله ما كان بيننا وبينك خلاف وإنما أنت محمد بن عبد الله ويستجيب الرسول لذلك ويأمر علياً أن يكتبه وتنتهي المعاهدة بعد الاتي وأخذ ورد إلى نصوص أربعة :

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود في العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثاني : أن تعقد هدنة عدم الاعتداء بين الطرفين إلى مدى عشر سنوات أو أربع بعض الروايات - يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه

الثالث : أنه من أراد أن يدخل في حلف جانب من الجانبين دخل ويجرى على الحليف ما يجري على حليفه من صون حرمانه وعدم الاعتداء عليه .

الرابع : أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده - ولو كان مسلماً - ومن جاء إليهم لا يردونه .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : والشرط الأخير هو الذي أغضب المسلمين وأثار اعتراضهم لكن محمد أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفاً يصغر إلى جانبه كل شيء وعد هذا فتحاً مبيناً وقد كان محمد أبعد نظراً من رجاله ومن خصومه على السواء وإن بدا لأول وهلة أن قريشاً ذهبت في الصلح بالكفة الراجحة إلا أن الأيام أثبتت غير هذا فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة في العام المقبل واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام فأثر هذا تأثيراً كبيراً في موقفها الداخلي والخارجي كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول في عقد محمد صراحة وبخاصة خزاعة التي كان جزءاً كبيراً من الأحابيش في بطولها وبذلك جذب محمد إليه جزء كبيراً من هذه القوة فأضعف ذلك مركز قريش الحربي ثم إن محمداً قد أتاحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائياً على اليهود ببلاد العرب وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم وبدأت القبائل التي كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه «

والحق أن هذا الشرط الأخير في تلك المعاهدة كان مشكلة المشاكل لأن كثيراً من المسلمين الذين كانوا يُعذَّبون بمكة جاءوا إلى النبي هرباً من ذلك الجحيم الذي يعيشون فيه فردهم بحكم الوفاء « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً «<sup>(١)</sup> ولم يجف مداد هذه المعاهدة وسهيل لا يزال في موقفه بجوار النبي - ﷺ - حتى جاء - يرسف في قيده - أبو جندل بن سهيل

ابن عمرو هذا فضربه سهيل وجعل يرده ليرجع معه وجعل أبو جندل يصرخ ويقول يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين وأفتن في ديني والنبي يقول له : اصبر يا أبا جندل واحتسب فإننا لا نغدر وإن الله جاعل لك ولن معك من المستضعفين مخرجاً .

ووفد - كذلك - من مكة إلى المدينة أبو بصير فأرسل إليه سيده رجلين ليأخذه من النبي فلما سلمه إليهما قال له يا رسول الله أتردني إلى المشركين فقال له نحن لا نغدر . . وفي الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفر الآخر وذهب أبو بصير حتى نزلت العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجاري وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمناً فلما ذهب أبو بصير إلى هنالك وسمع إخوانه بمكة هربوا إليه وجعلوا وإياه يقطعون الطريق على قريش ويظفرون بكل ماير بهم من قوافل وبذلك أحست قريش بالخطر الذي يتهددها من جراء وجود هذا الشرط في معاهدة الصلح التي أبرمها مع محمد مبعوثهم سهيل بن عمرو فذهبوا إلى محمد يرجون منه أن يعتبر هذا الشرط لاغياً وأن يقبل كل من يفر إليه من أهل مكة حتى لايزداد خطر أبي بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التي تمر إلى الشام وهكذا أثبتت الأيام بعد نصر النبي ﷺ وأنه لم يكن ليأخذ بهذا الشرط الأخير الذي كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه أو عدم بعد للأمور وإدراك لعواقبها وإنما كانت سياسة رشيدة ونظراً بعيداً وكياسة حازمة مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة وأن يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء وهو مطمئن إلى أنه لا يواجه تكتل خصوم ولا احتشاد أعداء ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية وصلابة عودها وارتفاع رايتهما لأن المعاهدات إنما تكون بين قوتين متكافئتين وهذا يعني أن قريشاً قد أصبحت تحسب - من جديد - لمحمد حساباً جديداً كالحساب الذي يكون بين الند والند يكون محمد - - قد اطمأن إلى وضعه اطمئناناً يساعده على ألا يتهيّب قوة أو يخشى جيروثا أو يهرب طغياناً ولذلك فإن الخطوة التي تحرك بها صلح الحديبية في القضاء على فلول اليهود التي كانت في خيبر وفدك وتيها ووادى القرى دلت على أنه ماكان ليقدم على هذا الصنيع الذي صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة .

### بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة علامة النصر في الطريق أمام محمد - - لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤمرات والخيانات والغدر والتحرش به من هنا وهناك لأن عدواته كانت متمثلة في معسكرين قوين يخشى بأسهما ويخاف مايعدانه له من كيد وخصومة هذا المعسكران هما قريش واليهود . . أما قريش فإنها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التي حققت دماءها وأبقت على شبابها وكبار القادة منها وجعلتها آمنة على تجارتها التي هي شريان حياتها وأما اليهود فإننا نعلم كيف أن الرسول - ﷺ - قد أخذهم بالشدة وعاملهم بالعنف وأشعرهم بالذلة التي تليق بهم والتي تخالط دمائهم وتكون الجزء المهم في حقيقتهم ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا في خيبر والفلول الأخرى التي فرت إليها واختارت البقاء إلى جوارها وقد مر بنا الحديث عنهم أيضاً تحت عنوان « اليهود في الطريق » ولسنا بحاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى . . إلا أن لكل شيء إذا ماتم نقصانه - كما يقول الشاعر الأندلسي - فإن

المنافقين لايزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقيق في خذلان الدعوة وإشاعة عوامل الهزيمة ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي : « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدا المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التي عطلتها الحرب لتستعيد ما فقدته من أموال وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التي وقعت فيها باستمرار صانع الحرب تلك السنين الخمس وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام وهي أهم مواردها المالية فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ولم تعد محتاجة إلى تحسهم لها ولا إلى ما يدبرونه من فتن ومؤامرات فسكتوا » عما كانوا يدبرونه من قبل لأنهم كانوا آلات في يد قريش أيضا فلا يتحركون إلا اذا حركتهم ولا يمكنهم أن يقدموا على شيء من أنفسهم .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب فأما القوة الأولى فهي قوة قريش في مكة بما لها من نفوذ أدبي ومادى وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لها من علم وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا حتى لقد أصبح زمام المبادرة في يده وقد استطاع ببعد نظره وحسن سياسته وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله لكنه لم يأمن ناحية الشمال حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهودى وادى القرى . . . تيباء لغزو يشرب وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية واليهود أشر من قريش عدواة لمحمد لأنهم أحرص على دينهم من قريش ولأن فيهم علما ومكرا أكثر مما في قريش وليس من اليسير أن يوادعهم لصلح كصلح الحديبية ولأن يطمئن إليهم وقد سبقت منهم وبينه خصومات لم ينتصروا في إحداها فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يمددوا لهم مددا من قوى خارجية وإذن فلا بد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا حتى لا تقوم لهم من بعد بلاد العرب قائمة أبدا وكذلك فعل فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول آخر حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية وقد حرص - محمد - على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه وبعد تفكير عن الكسب المادى ومحمد لا يريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا وأعظمها دربة على القتال لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولم يتم له الغلب فيها وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال وكان المسلمون يدركون تمام الإدراك ويقدررون نتائجهم حق التقدير لذلك ذهبوا مستقتلين لا يعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم وكان النبي يدرك - كذلك - قيمة هذا الموقف ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة أعادت إلى أعدائه قوتهم وحماسهم لقتاله والهجوم عليه ثم إنه كان يدرك أنه مابقيت لليهود شوكة في شبه جزيرة

العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التي يعمل لها والتي يسعى لإقرارها حتى يتم تكوين الأمة التي يريد نواها لمجتمع إنساني فاضل تحت لواء الإسلام .. وبانتهاء سلطان اليهود خفت حدة البغضاء التي كانت في صدور المسلمين لهم وبخاصة الانصار وتغير الموقف نهائيا في جزيرة العرب لصالح المسلمين وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبي فرصة إحكام خطته وبدا بوضوح لأصحابه إنه الرجل العبقري الفذ الذي اكتملت له بصيرة القلب إلى جانب تأييد السماء ..

وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ الشريف فيها بيت القصيد لأن الرسول - ﷺ - اجتمع له الى جانب بصيرة القلب تأييد السماء ولهذا كان سلوكه حازما ونهجه حكما وتصرفه صوابا وعمله سدادا يؤيده الوحي وتوازره عناية الله وهذه هي عقيدة المسلم التي لا يتحول عنها ولا يرتاب فيها ولقد كان وقوفه - ﷺ - لهذه القوى الجبارة والخصومات الفاجرة دليلا على أنه لا يقف وحده وإنما كانت معه إرادة الله التي هي السلاح الذي لا يفشل والجيش الذي لا يغلب ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذي كان ظهره إليه واعتماده عليه لخائنته الأسباب وخفى عليه الصواب وكان له تاريخ آخر غير هذا التاريخ .

وقد كان لأصحابه في تلك الأدوار البطولية المواقف الرائعة والعمل الجاد والجهد المشكور حتى في غير ميدان الكر والفر وهو مانسميه نحن الآن بالحرب النفسية كما فعل نعيم بن مسعود في السفارة بين قريش وبنى قريظة في غزوة الأحزاب المسماة بالخنق وهي السفارة التي كانت سببا في فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز في هزيمة الأحزاب أو بعبارة أدق في خيبة التجمع الذي أرادت الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة والقضاء على محمد وأصحابه حتى لا تقوم له قائمة الى الابد .

وماكانوا يظنون على الباغي تدور الدوائر وليس أكثر من هذا الرعب الذي ملأ قلوبهم والفرع الذي تحطمت به نفوسهم الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف في كل شيء وقد حدث أن النبي - ﷺ - لما انتهى العام الذي تضمنته المعاهدة وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقتضى العمرة التي ساق لها الهدى في عامه السابق وعلمت قريش بقدمه أخذها الهلع وظنت أنه - ﷺ - سيغدر بها ويغزوها في عقر دارها وربما كان سوء الظن الذي يملأ نفوسهم سببا في أن يأمر الرسول أصحابه في طوافهم بالبيت أن يظهرها حركة ونشاطا يدلان على القوة لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، وقال : « رحم الله أمرا أراهم اليوم من نفسه قوة »<sup>(١)</sup> وكان عدد المسلمين في هذه العمرة ألفين كانوا في نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذي زلزلت له أئدة قريش وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذي يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبدالله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن صدّه عن ذلك عمر بن الخطاب وقال له رسول الله - ﷺ - مهلا يا بن رواحة ، وقل : لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وخذل الأحزاب وحده فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته وردها المسلمون بعده فتجاوبت بأصداها

جوانب مكة وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير فى نفوسهم الحقد والكراهية وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس قد قذفت أختها ميمونة التى أحبت الاسلام وأمنت به ورغبة العباس فى الزواج منها فلما تقدم اليه سهيل بن عمرو أن يخرج بعد انتهاء الأيام الثلاثة قال له الرسول ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولنا وأشركناكم معنا طعام الوليمة ؟ فقال له : لا حاجة لنا لطعامكم .. إلا أن هذه الأيام التى أقامها النبى - ﷺ - والمسلمون معه كانت غموجا طيبا للسلوك القويم والخلق الكريم والأدب الرفيع والمعاشرة الحسنة حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم فى دين محمد حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وأحد أبطالها المغاوير ينادى فى بطن مكة قائلا : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم بعد ذلك عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لإسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز فى أن كانت مكة قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك وتتهوى فيه الأصنام ويصبح من المألوف إلى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة وراء « لا إله إلا الله محمدا رسول الله » ولهذا كان المسلمون فى غاية الاطمئنان الى أن الزمن فى صالحهم - كما يقولون - لم يتعجلوه ولم يسبقوا حوادثه لفتح مكة بعد أن تهبأت الأذهان لهذا الفتح وبخاصة وهم يعلمون أن الأجل الذى نصت عليه معاهدة الحديبية لايزال بعيد المدى اللهم إلا اذا حصل جديد يحملهم حملا على أن يحملوا السلاح قبل الأوان .

### حديث أبى سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة كان همهم - ﷺ - أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة فى الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذين كتب إليهم يدعوهم بدعاية الاسلام قيصر ملك الروم وكان نص الخطاب الذى أرسله إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين - الفلاحين - يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون » (١) .

ولما وصل الكتاب إلى قيصر هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير إليه حتى اذا - ما استجاب للداعى ودخل فى هذا الدين واختط لنفسه طريقا جديدا كان قويا مستقيما أم ليس فيه من الاستقامة شئ وهذا هو شأن الرجل الذى تتفتح نفسه للحق وتتجه للصواب وترحب بالنور

الذى يضىء لها الطريق ويكشف لها مواضع أقدامها فى الدرب الذى تسلكه فكان منه أن قال « أنظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه وكان أبوسفیان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفیان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : « سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي فقال أبوسفیان : أنا - لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره - فقال قيصر : أدن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي وقد جعلكم خلفه ، كيلا تحملوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ، قال : هو فينا ذو نسب قال : هل تكلم هذا القول أحد منكم قبله ، قال : لا . . . قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم ، قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندري ما هو فاعل فيها ، قال : فهل قابلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه مرة لنا ومره علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فقال الملك : إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت انه لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فقلت ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشائسته القلوب وسألتك هل قابلتموه فقلت نعم وان الحرب بيننا وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا وكذلك الرسل لا تغدر فعلمت أنه نبي وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وإن كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك . . قال أبو سفیان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لفظهم فلا أدري ما قالوه وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبوسفیان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم أمر بأبوابها أن تغلق ثم قال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردهم على فقال لهم : إني قلت مقالتي لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها في تاريخ النبي محمد - لأنها تنطوي في حوارها وجدلها السيرة العطرة التي يعتز بها المسلمون إذا ذكرت النبوات وتحدث الناس عن الرسائل فلقد كانت الأسئلة التي وجهها قيصر في صميم الدعوة والدعاة إلى درجة أنها تصلح لأن تكون دستوراً أو بمعنى أصح ميزاناً توزن به أعمال الذين يتصدون لقيادة الجماهير وتوجيه الانسانية وإنقاذ المتورطين في سلوكهم أو المتخبطين في سيرهم ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف أن كان الداعي من هؤلاء الذين يشدون المجد ويطلبون الملك ويبغون الريادة أم إنه من أولئك الذين يحملون المصاييح ويجعلون من أنفسهم زيتاً لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير وطريق البر ويأخذوا بأيديها إلى حيث يكون النجاح والفلاح دون أن يترقبوا على ذلك أجراً إلا رحمة الله الذي له مافي السموات وما في الأرض .

ونحن ننظر إلى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين أشخاصها الذين أداروا دفعة هذا الحوار ثم الحوار نفسه ، أما الحوار فهو - كما رأينا - لم يترك شبهة تخطر بالبال وتتوارد على الذهن إلا أشبعها بحثاً وناقشها من كل ناحية وجعل الجواب عنها مسلماً لبرائة العقول لذلك كانت النتيجة المترتبة عليه ضرورية لا مفر من التزامها ولا ريب في تزييفها عليها كما تترتب النتيجة على المقدمات في قانون المنطق السليم إلا أن رجوع قيصر كان لعمى في بصيرته سببه أنه آثر الفانية على الباقية والدنيا على الدين والشيطان على الرحمن وانحرفه عن السفن والتواؤه عن القصد لا يطعن في علم المقدمات وسلامة الترتيب والترتيب .

وأما الأشخاص الذين أداروا ذمة الحوار ومثلوا هذا المنطق فهما أبوسفيان وقيصر وكلاهما لا يمكن أن يجابى محمداً ولا أن يجابى دينه لذلك كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء وقد كان أبوسفيان من أساطين الكفر وكبار المعارضين وكان يعينه - حينئذ - أن يقول كلمة مغموزه ، أو رأياً ملتوياً أو يحكم حكماً قاسياً يرسله كالصاروخ الموجه ليكيد به محمداً وأصحابه ولكنه أثر الجانب الذي يتناسب مع رجولته الضخمة وبسالته الفذة وعقله الكبير وشرفه العظيم ونسبه النبيل ومكانته في قومه والقاضى أو الشاهد إنها معا تبه لشرف مركزه وقداسته وضعه لم يذكر شيئاً في هذا الوقت إلا الصدق في القول والإنصاف في الحكم والسداد في الرأى وعدم الميل إلى جانب الهوى أو الغرض لأن ذلك يزرى بالمروءة والشرف ويدنس العرض والخلق وأبوسفيان مهما كانت خصومته لمحمد واختلافه معه في الرأى لا ينسى أنه ذلك الرجل الذي كانت له السيادة في العرب ولا يليق بمثله أن يُسَفَّ أو أن ينزل إلى مستوى السوق لذلك كله كان جديراً من النبي - ﷺ - في يوم فتح مكة أن يعطيه هذا الأمان الكبير المقرون بأن يتأدى مناديه من دخل دار أبي سفيان فهو آمن وكان هذا سبباً في الدهش البالغ الذي أصاب الناس في هذا اليوم وهم كانوا لا يزالون يزعمون أنه باق على موقف العناد والمعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه إلا الذي يبلغ به الحق غايته .



## فتح مكة

لاتزال إلى هذا التاريخ مسافة الزمن الذي تضمنته معاهدة الحديبية والذي اتفق على أن يكون إحدها هدنة قائمة بين النبي - وبين قريش ولايشعل أحدهما حربا ولايعتدى على حليفا إلا أن غزوة مؤتة التي جاءت في أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب المواليين لهم لثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ماكان يرجو محمد وأصحابه ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد - وعاد وضعهم معهم - أو كاد يعود - الى مثل ماكان عليه قبل الأحزاب وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول في حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر في حلف قريش ودخلت خزاعة في حلف رسول الله وكان بين بني بكر وخزاعة حزازات قديمة وثارات من سالف العهود أثارها وبعث كامن حقدتها ماوصل اليه معسكر محمد وأصحابه في مؤتة التي لم يكن طيشهم فيها من فضل الأفضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ولاضرر يلحقونه وأخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها وكانت قريش تساعد بني بكر بالمال والسلاح في الخفاء متناسية أن ذلك خرق لمعاهدة الحديبية زاعمة أن أحدا لايعرف هذا التحرك المستتر الذي تتحركه لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبي - ﷺ بالمدينة وأخبروه خبر هذا النكت للعهد وناشدوه أن يدرك حلفاءه ويقول الشيخ الخضرى في كتابه «نورا يتبعنى» : «إذا أراد الله أمرا هيا أسبابه وأزال موانعه وقد كان عليه السلام يعلم أنه لاتنزل العرب حتى تنزل قريش ولانتقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوق لفتحها ولكن كان يمنع من ذلك العهود التي أعطاها قريشا في الحديبية - وهو سيد من وفى - ولكن إذا أراد الله أمرا هيا أسبابه وقد علمت أن خزاعة دخلت في عهد رسول الله وبكر دخلت في عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء في الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول - ﷺ - على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا الخزاعى وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأولياهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم مايربوا على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال : «والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى» . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ماعملوه نقض للعهود التي أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين حبيبة وقد اراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يابنية أرغبت به عني أم رغبت لى عنه ؟ فقالت : ماكان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لها : لقد أصابك بعدى شر ثم خرج من عندها وأتى النبي في المسجد فعرض عليه ماجاء له . فقال عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك .

قام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش ، عليهم يساعده على مقصده ، فلم يجيره منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا في جوار رسول الله ، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئا ، فاتهموه بأنه خانهم . واتبع الاسلام ، فتسك عند الأوثان ، لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فانه تجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة ، فقال يا رسول الله أليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكنهم عندوا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينه ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش ، كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها ، فدعا مولاة جل ذكره ، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبعثها في بلادها ، فقام حاطب بن أبي بلتعة أحد الذين شهدوا بدرأ ، وكتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم بأمر رسول الله - ﷺ - وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل ، فأعلم الله رسوله بذلك ، فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن طعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقوا حتى الروضة ، فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها أخرجي الكتاب أولنلقين عنك الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل على ، إني كنت حليفاً لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ، ولارضأ بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرأ فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وفي هذا نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيل وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم في منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعوانه ودعا : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديداً ، وقال : ( لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ) وقد قابل عليه السلام في الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره بأن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة ، ولما وصل عليه السلام مر الظهران ، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغها أن محمداً زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يلتمسون الخبر عن رسول الله ، فأقبلوا يسرون حتى أتوا مر الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال

أبوسفيان ما هذه لكأنا نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو ، فقال أبوسفيان عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبوسفيان ، وقال للعباس احبس أباسفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ، وهو يسأل عنها ويقول مالى ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عباد ، فقال سعد يا أباسفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبوسفيان يا عباس حبذا يوم الزمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبوسفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال رسول الله : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدى ، ودخل هو من أعلاها من كداء ، ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الأذى ، فأهدر دمه وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى أسلم وكتب لرسول الله الوحي ثم أرتد وافتري على الله الكذب ، فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم ، فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ، ومنهم عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب ابن زهير ، ووحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عقبة زوج أبى سفيان ، وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابلته الزعر من قريش يريدون صده ، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين ، وقتل من جيشه أثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، وأما جيش رسول الله - ﷺ - فلم يصادف مانعاً ، وهو عليه السلام راكب راحلته منحني على الرحل ، تواضعا لله وشكراً على هذه النعمة ، حتى تكاد جبهته تحس الرحل وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل إلى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة ، وميمونة ، فاستراح قليلاً ، ثم سار وبجانبه أبوبكر يحادثه ، وهو يقرأ سورة الفتح : حتى أتى البيت ، وطاف سبعة على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ، ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه السلام يطعن بها يعود في يده ويقول : ( جاء الحق وزهق الباطل ) ، ( وما يبدىء الباطل وما يعيد ) ثم أمر بالآلهة التى كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وإبراهيم فى أيديهما الأزام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسموا بها قط ، وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، ويطهارة الكعبة المقدسة ، من هذه الأدناس ، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب .

وإلى هنا تكون عصابة الشرك ، فى مكة وغيرها ، قد تهاوت أعلامها ، وزالت دولتها ، ولم يعد فى مكانها أن تعامل محمداً بالأسلوب القديم ، الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة ، ولكنها الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله ، لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فإذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط ، أو خرجت على نص من نصوص المعاهدة ، بعثت كبيراً من ساستها ، أو عظيمًا من قوادها يرجوا محمداً - ﷺ - أن يتغاضى عن هفوة المسئء ، وحقاقة المعتدى ، ولقد رأينا كيف إنها مادت الأرض من تحت

أقدامها وتهدها الأخطار وأحاط بها الملح والفرع ، لأن خيانتها قد تكشف وإمدادها لبني بكر بالسلاح والمال في اشتباكها مع بني خزاعة ، قد عرف أو وصل أمره إلى النبي - ﷺ - فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تنصبر ، وراحت ترسل قائدها لعناد النبي وحره ليؤكد من جديد عهد الحديبية ، فلما لم يجدها ذلك كله نقيراً ولا قطميراً ، أسلم للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة ، فلم يقاوم دخوله ، أن تعترض طريقه ، أو تشهر في وجهه سيفاً ، باستثناء تلك المناوشة البسيطة التي قوبلت بها كتيبة خالد بن الوليد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده في هذا اليوم هو كل شيء ، ولكن الذي كان هو كل شيء وأعظم من كل شيء .

أولاً : أطلب النبي - ﷺ - سادن الكعبة عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح الكعبة ثم يدخلها دخول الظافر المنتصر .

ثانياً : تحطم على مرآى ومسمع منهم تلك الأصنام ، التي يؤلهونها ويعبدونها من دون الله لم يكن منهم إلا الرضا والاستسلام .

ثالثاً : أن يعلن إليهم أنه في موقف القوة الذي يسمح له بالعفو عنهم - والعفو عند المقدرة ، فيقول : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعاً : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء ، تباعه على الاسلام والطاعة والبذل والعطاء ، في حين أنهم لم يستطيعوا صد هذا التيار الزاحف ، وهذه كلها معان تدل على أنه - ﷺ - كان يتحدث من موطن القوة لا موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة عوضه الله بها عن كل شدة كان يلاقيها ، وكل إيذاء أصابه نصراً عزيزاً ، أرض به خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونسى الرسول احن هؤلاء وعداوتهم ، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس ، ويعلق الدكتور هيكل على هذا الموقف فيقول : ( ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التي سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد والانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النيل فوق ما يبلغ الانسان ، هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ، ومن عذبه هو وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه في بدر وفي أحد ، ومن حاصروه في غزوة الخندق ، ومن ألبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه لما ونوا عن ذلك لحظة ، هؤلاء قريش في قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ في رقابهم ، وحياتهم جميعاً معلقة بيده وفي سلطانه ، هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبديد أمة وأهلها في لمحة الطرف ، لكن رسول الله ليس بالرجل الذي يعرف العداوة ، أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا المتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه ، فصيح وعفا ، وضرب بذلك للعالم كله مثلاً في البر والوفاء بالعهد ، وفي سمو النفس سمو لا يبلغه أحد ) .

والقارىء لأبناء هذه الغزوة وأحاديثها ، يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التي تنبئ عن اخلاص المؤمنين كدينهم ، ودعوة نبهم ، إخلاصاً يفوق حدود الوصف ، وتنبيء كذلك عن العصبية للجنس ، أو الدم ، أو الجاه والحكم .

وربما كان من أروع الصور للاخلاص للدين وللرسول - ﷺ - ما صنعتته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبي سفيان ، الذى ظن أنه سيجد فى جوارها من الحنان والرحمة ، والاجلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله فوق كاهله من هموم ، وما لاقاه فى طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن آبويه لها ، لا قيمة لها ، إلى جالب ما تحتفظ به لرسول الله من قداسة ، وما ترعاه له من حرمة ، وإن الحقوق التى يملها الدين لها عندها الاعتبار الأول ، وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير ، الذى تقوم كبرياؤه على الزيف ، وتعتمد على الباطل ، وتنحاز إلى جذب الشيطان ، وتغضب جاهها وسلطانها من الغوغاء والأوباش ، ثم لا تلبث إذا ما جد الجد ، وانتصر الحق على الباطل ، أن يتضاءل حجمها ، ويتهاوى كبرياؤها ، وتبدو على حقيقتها أقل من لاشئ فى العدد .

يمر به صديقه العباسى بن عبد المطلب على نيران المسلمين ، ليدخل فى نفسه الرعب ويعلق هو على هذا المنظر المذهل فيقول : إنها كنيران عرفة ويراه عمر فيقول : عدو الله أبو سفيان ، الحمد لله الذى أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، ويهم بقتله ، ويمنعه العباس قائلا له : إنه فى جوارى ، ويدخل على النبى - ﷺ - ليعلن اسلامه ، حقنا لدمه ، وإبقاء على نفسه ، ويتدره الرسول بقوله : أما آن لك أن تعلم أنه لا إله الله فيقول بلى وأن محمدا رسول الله فيقول : أما هذه ففى النفس منها شئ ، فيعالجه صاحبه العباس بقوله : أشهد قبل أن تضرب عنقك ، فيشهد ، ويتجه العباس الى رسول الله بقوله : إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له ذكراً ، ليظفر منه فيما بعد بتلك الكلمة ( من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ) وإلى أن تزول دولة الظلم وسُلطان الباطل ( إن الباطل كان زهوقاً ) .

ويقر الهاربون من العدالة ، عكرمة ، وضمفوان ، ووحشى قاتل حمزة ، فى أحد ، وعبد الله بن الذبعرى ، وكعب بن زهير ، وهند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، ثم تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، فلا يجدون سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم إلى رسول الله - ﷺ - ليحق عليهم بالحرية ، وتقول أكلة الكبود . هند ، بعد أن وقفت بين يدى رسول الله وأعلنت اسلامها ( والله يارسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن أذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء إلى أن يعزوا من أهل خبائك ) ويتنكر كعب بن زهير ، ليقف بين يدى الرسول عقب صلاة الفجر بالمسجد ، ليقول له لوجاء اليك كعب عائداً لاإذا ، تقبل منه يارسول الله ، فيقول له : نعم أقبل منه ، فيقول له : مكان العائد بك ، كعب يارسول الله ، وينشده قصيدته المعروفة بآت أساء ، والتى يقول فيها :

أنبئت أن رسول  
والعفو عند رسول الله مأمول  
إن الرسول لنور يستضاء به  
مهند من سيف الله مسلول

### غزوة تبوك

كان رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإذلاله لطواغيت الشرك وقادة الكفر ، وتهافت القبائل والبطولة على مبايعته على الاسلام ، ودخولهم فى دين الله أفواجا ، وتحطيمه للأصنام التى كانت فى الكعبة ،

وغيرها ، قد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والاكاسرة والملوك والسلاطين ، وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم ، بحكم نشر الدين وعلان العقيدة ، وعموم الدعوة إلى الناس جميعا ، وهنالك دب الخوف إلى نفوس الروم والفرس ، وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددهما الغزو الاسلامي حينئذ ، وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف في وجهه ، والحد من تحركه ، والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والناس وراء ماتجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها في خير كان لا محالة ، طال الزمان أو قصر ، فأعلن - ﷺ - النفير العام في المسلمين ، لأنه علم أن الروم لا يناجذونه وحدهم ، ولكن ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من العرب والاعراب ، الذين كان محمد - ﷺ - قد أرغمهم - ماداموا لم يختاروا الاسلام - على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويقول المؤرخون إن النبي - ﷺ - كان مما أخذ نفسه به مع المسلمين ، إذ أراد الخروج إلى غزو ، ألا يصارحهم بالجهة التي سينتهى إليها الجيش ، حتى لا يتسرب نبا ذلك إلى العدو ، فيتأهب له ، لكنه في هذه المرة قد أثر الإعلان والمصارحة ، والسبب في هذه المخالفة أن السفر شاق ، لأنه إلى تبوك في الشام ، والجو شديد الحرارة والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاة إلى التعلل بها ، وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج ، وبهذا كان الاعتذار مفتوحا على مصراعيه ، وبدأ النفاق في أوضح صورة وأجلى مظاهره ، على الرغم من التهديد الصريح ، الذي كان يقرع أذانهم في مثل قوله سبحانه : ﴿ قل إن كان آبائكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترىبصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (١) وقوله أيضا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير ﴾ (٢) على أن هنالك من المسلمين من ابدى غاية الاخلاص في الجهاد ، ونهاية البذل في سبيل الله ، مثل عثمان ، وأبي بكر ، وعمر ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر التي يركبونها ، فجاءوا الى الرسول ليوفر لهم الظهر التي يركبونها ، فلما قال لهم : ( لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ) (٣) ويظهر من أحداث غزوة تبوك : انها كانت خر ماطفح به الكيل في نفوس المنافقين ، إذا ظهرت كراهيتهم ، لأن يتتصر ﷺ أو ليمكن نفوذه ويقوى سلطانه بشكل لا إلتواء فيه ولا خفاء فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ولا اسلوبا يعللون به تخلفهم وعدم وخروجهم ، إلا سلكوه والتجأوا إليه ، وفي سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان وتلك الأساليب ، وإن كانت كلها لم تحف عن النبي ﷺ . ولكنه علمها وأطلع الله عليها ، وكان ذلك اقتضاحا لحالهم ، وكشفا لسوءاتهم ، وقد حمل ذلك كله جماعة من المتخلفين أن يصارحوه ﷺ أن يتخلفهم ، لم يكن لعذر يلتمسونه التماسا ، أو يزورونه كذبا وبهتاناً ، وإنهم لهذا يتركون الأمر له ، ليقض فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد ، وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ، ثم نزلت فيهم الآية : ﴿ وعلى الثلاثة الذين

(١) سورة التوبة آية : ٢٤

(٢) سورة التوبة الآيةان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة التوبة الآية : ٩٢

خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿١﴾ .

ويقول الدكتور هيكل : وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فاثرت الانسحاب بجيشها ، الذي كانت وجهته إلى حدودها ، ايتحصن داخل بلاد الشام في حصونها ، فلما انتهى المسلمون إلى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونفى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلاً لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن يناله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى بعد ذلك أحد ، وكان يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود ، قد وجه إليه النبي رسالة أن يدعن أو يغزوه ، فأقبل ( يوحنا ) وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة ، وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جرياء وأذرح ، وأعطوه الجزية ، وكتب رسول الله لهم كيف آمن ، هذا نص أحدها ، وهو ما كتب به إلى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ذمة الله ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً ، فإنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يرونه من بر أو بحر » وإيذاناً بالموافقة على هذا العهد ، أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن اتفق على أن يتدفع أيلة جزية ، قدرها ثلاثمائة دينار كل عام .

لم يكن محمد بحاجة إلى القتال ، بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمانة عودة الجيش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاص أكيد بنى عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة ومعاونته جيوش الروم ، إذا جاءت من ناحيته ، لذلك بعث إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس ، وأنقلب هو بجيشه راجعاً ، إلى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة في غفلة من مليكها ، الذي خرج في ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، حتى أخذ حساناً ، وأخذ أكيدر أسيراً ، وهدده بالقتل أن لم تفتح دومة أبوابها ، وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفي بغير وثمائم شاة وأربعمئة وسق من بر وأربعمئة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي في عاصمته ، وهناك عرض على أكيدر الاسلام فأسلم وأصبح خليفاً له .

ولم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذي عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبير وزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات ، من تأمين حدود شبه الجزيرة ، وإقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذي نظروا إليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا في قطعها ما تحملوا من

الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوماً ، وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء فى شدة تبوك فى حيث كانت ثمار المدينة قد طابت وأن يستمتع الناس بها ، وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينتقل من ملاء الايمان قلوبهم نبأهم اليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حيناً وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً إلى المدينة ومحمد يحفظ النفوس ، حتى إذا انتهى إليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة من أبل وشاء وبرود روع ، وعلى اكيد رحلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها .

وهناك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطراباً ، رد المستهزئين إلى صوابهم ، وجاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم ، وأقروا بذنبهم ، هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وقد أمر محمد فأعرض عنهم المسلمون خمسين يوماً ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ محمد يشتد فى معاملة المنافقين شدة لم يألّفوها من قبل ، وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه ، وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم ، وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه ، بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلن كلمته ، كان المنافقون خطراً عظيماً ، ولقد كان له من قبل حيث كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن تشرق بنفسه على ما يجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع المنافقين ، شر نخشى مغبته ، وخطر ما اسرع ما يستشرى ، إذا لم تجتث جرثومته .

بنى جماعة مسجداً بذى أوان على بعد ساعة من المدينة ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين ، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضارراً وكفراً ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبی أن يفتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود ، فلماء عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقته ما قصد اليه من اقامته ، أمر باحراقه ، فضرب بذلك مثلاً ارتعدت له فرائض المنافقين ، فخافوا وانكمشوا ولم يعد لهم من يحميمهم الا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم ، على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين ، مرض أثرهما وتوفى ، وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفوداً عليه يقدمون الطاعة ويعلمون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبی عليه السلام .

والواقع أن سورة التوبة كانت السجل الواعى لغزوة تبوك ، وقد عرفت لكل لون من ألوان النفاق ، الذى صهر به هؤلاء ، الذين كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر ، فى حقيقته المكشوفة ، حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة ، لأنها فضحت أمرهم ، وهتكت أسرارهم ، ولقد كان النبی - ﷺ - عنيفاً فى معاملتهم ، كما ثبت ذلك مع الذين اتخذوا مسجداً ضارراً ، وكما ثبت مع الذين خلفوا الا أن ذلك كله كان فى آخر المطاف ، حيث لم يبق فى قوس الصبر منزع كما يقولون ، والا فإن الباب كان مفتوحاً لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير ، الذى عاتبه الله عليه بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنّت لهم ﴾



حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستذكرك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستذكرك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴿١﴾ . ولكن في لصق العيون والنقائض به ، ثم بالمسلمين معه كذلك ، ، وهذه آيات هذه السورة تقول : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات . . ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام ، إلا أنها كانت مجابهة والتحاماً لهؤلاء الذين كانوا مرضى القلوب والأفئدة ، إذ تبينوا للرسول - ﷺ - والمسلمين على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولا بهرج ، وفي الوقت الذي تكامل للدولة الإسلامية نفوذها ، والذي لا يمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه ، كانوا هم قد تكاملت لهم عناصر الهزال والضعف ، الذي لا يكون بعده سوى الفناء والموت ، وكذلك تكون نهاية المرضى . . وربما تغاضى رسول الله - ﷺ - عن بعض المنافقين ، فلم يأخذهم بالشدة ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم ، وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة وقد كان هذا المعنى واضحاً تمام الوضوح في عبدالله بن أبي ، الذي طالما هم بعض المسلمين بقتله ، فلم يرض الرسول من ذلك لم يشجع عليه ، وحيث وفاته صلى عليه صلاة الجنازة ، ارضاء لأبنة الذي كان من خيار الصحابة وإن كان - ﷺ - قد نهى عن مثل هذه الصلاة فيما بعد بقوله سبحانه : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ (٢) وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب في نفوس الخرج ، الذين كانوا يحبون عبدالله ، ويعترفون له بالفضل عليهم ، ومهما كان الحال من اللين أو الشدة ، في معاملة المنافقين ، فإن أحداً لا يشك في أنهم أصبحوا منذ تبوك ، يعاملون بعنف ، ويؤخذون بشدة لا تقل عن تلك التي كان يعامل بها المشركون ، وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء إلى ما قبل تبوك ، لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالعزلة والذلة ، والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم ، وقد أرسل الرسول - ﷺ - باب بكر ، في أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ، ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه ، لأنه كان غير راض عن حج المشركين إلى بيت الله الحرام ، مع أن ذلك كان مألوفاً في الجاهلية ، وقد سبق له أن استنقروهم للحج في غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة تنذ اليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾ (٣) وذهب على بن أبي طالب مثلاً رسمياً عن النبي - ﷺ - ليعلن ذلك الانذار الرسمي الذي تضمنه أوائل السورة من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : ﴿ أرى الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان ، التي وصل إليها الاسلام ، كان من الوضع الذي يسمح بأن يصدر أوامره ونواهيته من مركز القوة ، التي يحسب لها الناس ألف حساب ، فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف في وجهها ، إلا إذا تجرد من العقل أو كان مغامراً بروحه التي بين جنبيه ، وهيئات أن يكون هنالك شيء من ذلك كله إلا عند المجانين .

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٣ - ٤٥

(٢) سورة التوبة الآية : ٨٤

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨

## حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه - والذى اردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك ، ولا يطوف به عريان كان ، لابد لهؤلاء جميعاً أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا إيماناً لا شك فيه ، أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا من يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عن رايثها ، وان وجود غير المسلم معها اتسع صدر الدولة له ، واحسنت اليه ، وضمنت له البقاء الطيب والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن ، فانه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ويكتنفه الشك ، وترمى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادئ علم الاجتماع ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم ( ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم )<sup>(١)</sup> وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ، ويستعصى فيها الوثام والصلح ، ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر ، إلى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره إلى الدين والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد ، لذلك كله أدركت هذه الفلول المشركة فى اطراف الجزيرة أو فى داخلها ، أنه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين ، وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال والهوان ، إلى الأبد ، وعندئذ أخذت الوفود من نجران ، وعبد القيس ، وبنى حنيفة ، وكنده ، وأزد شنوءه ، وهمزان ، وثعلبة ، وغسان ، وبنى أسد ، وبطون وقبائل كثيرة ، تتوافد عليه ﷺ لتعصم دماءها من السفك وقومها من الازدراء ، وحياتها من الامتهان ومستقبلها من الضياع ، تعاهده على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وهنالک كان رسول الله - ﷺ - قد اطمأن الاطمئنان على الاطمئنان ، إلى أنه لا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام الحادى عشر سيخرج إلى حج بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، وشرف المرافقة إلى الافئدة المؤمنة والقلوب الممتلئة بنور اليقين ، وخرج معه تسعون ألف ، أو أربعون ألف ومائة ألف فى بعض الروايات ، ومشوا تמיד الأرض من تحتهم ، وترقص النجوم من فوقهم ، ويمتلئ الجو كله من حولهم بالبهجة والسرور ، ويتقدمهم رسول الله ﷺ - على ناقته القصواء قائلاً : « لبيك اللهم لبيك - لبيك لا شريك لك لبيك - إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

وهم بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيحون إلى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه ، التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة فى الاحياء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال : « اللهم زده تشريفا وتعظيما ، ومهابة وبراً ، وطاف به سبعا ، واستلم الحجر الأسود ، وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، وسعى بين الصفا والمروة سبعا كذلك ، وكان إذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله الا الله الله أكبر لا اله الا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » فى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها وفى التاسع توجه إلى عرفات وخطب خطبته المشهورة ، وهى خطبة الوداع هذه

الامة ، التي كافح من أجلها ، وجاهد لتحريرها ، وحارب في سبيلها وظل ثلاثا وعشرين سنة ، يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأكرم ، والعيش الاحسن ، والحياة التي تمتلئ بالسعادة ، وتطفح بالبهجة ، وتجد على الناس بالرخاء والاطمئنان ، ونصها الذي اجمعت عليه كتب التاريخ والسيرة .

( الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير .

أما بعد . . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبرأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . أيها الناس إن الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم .

أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليوطئوا عدة ما حرم الله وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهون بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجرهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكون لأنفسهن شيئا اتخذتموهن بأمارة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ألا هل بلغت اللهم فاشهد .

أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم فاشهد فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله ألا هل بلغت اللهم فاشهد . . أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله ،<sup>(١)</sup> .

وفي هذا اليوم نزل قوله تعالى جل شأنه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً ﴾ <sup>(١)</sup> وأدى - ﷺ - مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعاً إلى المدينة ، ولما بدت له من بعيد معالمها الشاغرة ، كبر ثلاثاً وقال : ( لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير أيون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ) <sup>(٢)</sup> .

والواقع الذي لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة ، حدد فيها النبي - ﷺ - المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى ، الذي يسوده التعاون والوفاء والحب والبر ، والرحمة والتعاطف والخير والسعادة ، والأمن والطمأنينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال : ( إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ) فإن الجماعات والشعوب ، والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول إلى أحراش وغيابات تسكنها الوحوش الضارية والذئاب المفترسة ، إلا إذا رخصت فيها الدماء على الناس ، إلى هذا الحد الذي لا يجد فيه القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية : ﴿ ولكم في القصص حياة ﴾ تشبه الدستور العادل والقانون الصحيح ، والنظام الذي لا بد منه لوجود البيئة المترابطة بالحق ، المتواصلة بالبر ، المتماسكة بالعدل ، المتضاربة في القلوب والأفئدة ، حتى يمكن أن تحصل على السعادة التي تنشدتها ، والاستقرار الذي تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبار ، لأن المال عصب الحياة ، فإذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيميا . والعيش لونا من ألوان التعاسة أن لم يكن هو التعاسة بذاتها .

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة ( فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وفي القرآن الكريم : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ <sup>(٣)</sup> ) والأمانة أو أداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضروري للتكتل الأسرى ، والشعب الذي لا بد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس ، والإنسان مدني بالطبع كما يقول : ابن خلدون وغيره من فلاسفة علم الاجتماع ، ولا يمكن لإنسان أن يعامل إنساناً تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط ، وتنقطع الأواصر ، وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح ، ويصيبها الشلل والموت ، وهكذا إذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة ، وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذي لا يصدر إلا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة في الفلاح والنجاح ، والسداد والرشاد لمن يوجه إليه القول ونصحه بالتقويم ، ويأخذ بيده إلى سلوك السبيل السوي ، والصراط المستقيم ، فهي تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفساد ، تهدد كيان الأمم والشعوب ،

(١) المائدة الآية : ٣

(٢) أخرجه الترمذي في صحيحه ج ٣ ص ٢٨٥ كتاب الحج باب ما جاء فيها يقول عند التقول من الحج والعمرة رقم ٩٥٠ ، وأخرجه البخاري

كتاب باب ٣٦ وسلم برقم ٤٢٨ كتاب الحج .

(٣) النساء آية : ٥٨

وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، ويبدو بالذى يتهاون في دينه حتى ولو بارتكاب الصغائر ، التي يعتادها مستهيناً لشأنها مستخفاً لها ، وهي الخطوة الأولى إلى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجراة على الله ، وسوء الآداب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومعظم النار من مستصغر الشرر « إن الشيطان قد يشس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » وطاعة الله رياضة للنفس على التزام أوامره واجتناب نواهيه ، التزاماً لا تهاون فيه ولا تغافل ، ولا تباطؤ ولا تراخي ، ولا نقص ولا زيادة ، كذلك فإن حصل خلل في دقة الامثال ودقة التطبيق ودقة الالتزام ، كان ذلك كله هو الثغرة التي ينفذ منها الشيطان إلى ضمير المؤمن ، ليقوده إلى المعصية ، ثم إلى الغضب عليه ، ثم إلى الطرد من رحمته والعياذ بالله .

وفي الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع ، وبخاصة حيث تكون زوجة ، فإن وضعها يكون شائكاً ، لأن حياتها مع الرجل ، وهي قائمة على الحب المتبادل والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما تحتاج إلى صون حرمانه ، والمحافظة على عرضه ( ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة » وهي على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإما النساء عندكم عوان لا يمكن لأنفسهم شيئاً أخذتموهن بآمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً » الا إنها مع هذا الضعف ، تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية في سعادة البيت ، كما تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية في ذلك النعيم الواسع ، الذي ينشده الرجل من البناء بها ، أو الحياة معها ، وهذه السعادة وذلك النعيم ، لا يمكن وجودها الا إذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبي ، أو الخلقى لهذا المخلوق الضعيف المسمى بالمرأة ، الوضع الذي يحتم على الرجل أن يعاشرها بالمعروف ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾<sup>(١)</sup> وليس أدل على روح الاخلاص وحب الخير والرغبة الصادقة في الاصلاح من قوله - ﷺ - في أول الخطبة :

( اسمعوا مني فإنى لا أدري لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفى هذا ) ورحمه الله وصلى وسلم عليه ، فقد كان موقفه هذا بحق موقف وداع ..

انتهى هذا البحث من كتاب ( من فيض الرسالة ) لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب خاتمة سورة المزمل ) .

## تخفيف من الله الغفور الرحيم

\* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِي  
 اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ، وَثُلَاثَهُ، وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ  
 وَالنَّهَارَ عِلْمَ اللَّزْلِ تُخْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِّنَ  
 الْقُرْآنِ إِنَّ عِلْمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي  
 الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخِرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
 فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا  
 اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ  
 هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

## معاني المفردات

- (أدنى من ثلثي الليل) : المراد أقل منه  
 (لن تحصوه) : تطيقوه .  
 (فتاب عليكم) : رجع بالتيسير عليكم .

## أضواء كاشفة

هذه الآية ترجع إلى أول السورة ، حيث كان الأمر فيها للنبي - وكذلك صحبه - بأن يقيم ساعات  
 طويلاً في الليل ، تتراوح بين الثلث والثلثين ، وقد امثل النبي لذلك بل وبلغ في هذا ، وبعد عشر سنين  
 من هذا الأمر ، نزل التخفيف على الأمة ، وانتقل الأمر من الواجب إلى المباح ، لما ستذكر الآية  
 الشريفة ، فلقد خفف الله عن الأمة الإسلامية ، حيث اتسع العدد ، وأصبح فيها المريض وذو الحاجة ،  
 والمسافر والمقاتل ، وهؤلاء بلا شك لا يطيقون القيام ، فجعله الله مندوباً ، من شاء فعله ، فاستحق  
 ثوابه ، ومن شاء ترك هذا الفضل الكبير ، والله هو العالم بكل شيء .

إن ربك يعلم أنك قمت وامتلئت أمر ربك ، أنت وطائفة من قومك ، قمتم أدنى من ثلثي الليل ، وقمتم نصفه وثلثه ، وكان معك صحبتك ، والمراد بالعلم أن الله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء .

والله وحده هو الذي يقدر الليل والنهار ، وهو الذي يعلم المصلحة وقد علم أن المدة السابقة كافية للتربية الإسلامية ، وقد جاء معكم أناس لا يستطيعون ذلك العمل . فالله علم أنكم كجماعة لن تطيقوا قيام الليل على سبيل الواجب ، أما كأفراد فمنكم من يقدر وأكثركم لا يقدر ، والأحكام الشرعية تبنى على الأعم الأغلب . فالله قد رجع عليكم بالتيسير والتخفيف ، قد رجعت إليه بالشكوى والدعاء ، فأقرءوا ما تيسر من القرآن في قيام الليل ، أوفى الصلاة في ساعة من ساعات الليل ، علم الله أن الحال والشأن صون منكم مرض ضعاف ، لا يستطيعون قيام الليل ، وآخرون منكم مسافرون يضربون في الأرض ، يبتغون من فضل الله بالتجارة ، والسعى على تحصيل الرزق من طريق الحلال ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، هؤلاء وهؤلاء لا يستطيعون قيام الليل ، فالله خفف عنكم فأقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة كاملة الأركان ، مستوفاة الشروط وآتوا الزكاة - أى الزكاة الواجبة بناء ، على أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، أو هى زكاة الفطر ، أو مطلق اتفاق على أن السورة مكية - وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، فالله غنى قادر سيجازيكم على الدرهم عشراً ، بل ربما ضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، فأقرضوه يكن خيراً لكم وأفضل ، وما تقدموا لأنفسكم من خير مطلقاً تجددوا ثوابه عند الله كاملاً ، وتجددوه عند الله هو خيراً من العمل ، مهما كان صعباً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله على ما فرط منكم ، فإن من أمراض القلوب الرياء وحب السمعة ، وكثيراً ما كان ذلك في الصدقة فاستغفروا الله مما يكون قد حصل ، إن الله غفور رحيم .

### التفسير

قوله تعالى : ( إن هذه ) أى السورة ( تذكرة ) أى يتذكر بها أولوا الألباب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أى ممن شاء الله تعالى هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ <sup>(١)</sup> ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ .

أى تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ، لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أى تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أى الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ فأقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ أى من غير تحديد بوقت ، أى ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة الاسراء ﴿ ولا تجهروا بصلاتك ﴾ <sup>(٢)</sup> أى بقراءتك ﴿ ولا تخافت بها ﴾ وقد استدلل أصحاب الامام أبى حنيفة ، - رحمه الله - بهذه الآية وهى قوله : ( فأقرءوا ما تيسر من

(١) سورة الانسان آية : ٣٠

(٢) سورة الاسراء آية : ١١٠

القرآن ﴿ على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذي في الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » <sup>(١)</sup> وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » <sup>(٢)</sup> وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج فهي خداج غير تمام » <sup>(٣)</sup> وفي صحيح ابن خزيمة عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن » <sup>(٤)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ أى علم أن سيكون من هذه الأمة ، ذوو أعذار في ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين لما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد ، فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الأخبار ، بالمغيبات المستقبلية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر منه ﴾ أى قوموا بما تيسر عليكم منه ، قال ابن جرير ، حدثنا يعقوب حدثنا ابن عليه عن أبي رجاء محمد قال قلت للحسن ابن أبا سعيد ما تقول في رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلى المكتوبة ، قال يتوسد القرآن لعن الله ذاك . قال الله تعالى للعبد الصالح : ( وإنه لذو علم لما علمناه ) <sup>(٥)</sup> وقال تعالى : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آبائكم ﴾ <sup>(٦)</sup> قلت يا أبا سعيد قال الله تعالى : ﴿ فاقراءوا ما تيسر من القرآن ﴾ قال نعم ولو خمس آيات ، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى ، أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن ، أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ - سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » <sup>(٧)</sup> فقبل معناه : نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل ( وفي السفن « أوتروا يا أهل القرآن » وفي الحديث الآخر « من لم يوتر فليس منا » <sup>(٨)</sup> وأغرب من هذا ما حكى عن أبي بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم .

وقال الطبراني حدثنا أحمد بن سعيد فرقد الحداد حدثنا أبو أحمد محمد بن يوسف الزبيدي حدثنا عبد الرحمن عن محمد بن عبد الله بن طاوس من ولد طاوس عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس عن النبي ﷺ - : « فاقراءوا ما تيسر منه » قال « مائة آية » وهذا حديث غريب موجود في معجم الطبراني - رحمه الله تعالى <sup>(٩)</sup> .

(١) أخرجه البخارى ج ١ ص ١٨٢ كتاب الصلاة باب وجوب القراءة للامام والمأموم .

(٢) أخرجه الترمذى في سننه ج ٢ ص ٢٥ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أنه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب رقم ٢٤٧

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٩٦ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة رقم ٣٩٥/٣٨

(٤) أخرجه ابن خزيمة ج ١ ص ٢٤٨ رقم ٤٩٠

(٥) سورة يوسف يه : ٦٨ (٦) سورة الانعام ايه : ٩١

(٧) أخرجه مسلم ج ١ ص ٥٣٧ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح رقم ٧٧٤/٢٠٥

(٨) أخرجه الترمذى في سننه ج ٢ ص ٣١٦ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أن الوتر ليس بختم رقم ٤٥٣ ، ٤٥٤ - وقال محققه أخرجه النسائى وصححه الحاكم .

(٩) أخرجه مجمع الزوائد عن ابن عباس ج ٧ ص ١٣٠ تفسير الزمزل وقال أخرجه الطبراني . وفيه عبد الرحمن بن طاوس ولم أعرفه .



وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أى أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا دليل لمن قال أن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين الا بالمدينة ، والله أعلم .

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واجب من السلف ، إن هذه الآية نسخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » قال هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع » (١)

وقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعنى من الصدقات فان الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير نجده عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ .

أى جميع ما تقدموه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل ، وهو خير مما ابقيتموه لأنفسكم فى الدنيا . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خثيمة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الحارث بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله : « أيكم ما له أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب إليه من مال وارثه قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما آخر » (٣) ورواه البخارى من حديث حفص ابن غياث والنسائى من طريق أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به ثم قال تعالى : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » أى أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها فانه غفور رحيم لمن استغفره .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤١ كتاب الايمان باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الاسلام رقم ١١/٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٥

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ١ ص ٣٨٢

## سورة المدثر

## بين يدي السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وياتها ست وخمسون في عدّ العراقي والبزّي وخمس وخمسون في عبد المكي ، وكلماتها مائتان وخمس وخمسون وحروفها ألف وعشر .

المختلف فيها اثنان : ( يتساءلون عن المجرمين ) فواصل آياتها ( رُدنها ) على الدال آية : ( ثم يطمع أن أزيد ) .

سميت المدثر : لمفتتحها .

مقصود السورة : - أمر النبي صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على ( الكفار ) وأهل العصيان ، وتهديد وليد بن المغيرة بنقض القرآن ، وبيان عدد زبانية النيران وأن كل أحد رهن بالاساءة والإحسان ، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان ، وذكر وعد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران في قوله : ( هو أهل التقوى وأهل المغفرة ) .  
المنسوخ فيها آية واحدة : ( ذرى ومن خلقت وحيداً ) من آية السيف .

المتشابهات :

قوله : ﴿ إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ أعاد ( كيف قدر ) مرتين وأعاد ( قدر ) ثلاث مرات ، لأن التقدير : إنه - أى الوليد - فكر في شأن محمد - صلى الله عليه وسلم - وأتى به وقدر ماذا يمكنه أن يقول فيها . فقال الله سبحانه : ( فقتل كيف قدر ) أى القول في محمد - صلى الله عليه وسلم - ( ثم قتل كيف قدر ) أى القول في القرآن .

قوله : ﴿ كلاً إنه تذكرة ﴾ أى تذكير وعدل إليها للفاصلة .

وقوله : ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ وفى عبس ( إنها تذكرة ) لأن تقدير الآية في هذه السورة : إن القرآن تذكرة وفى عبس : إن آيات القرآن تذكرة وقيل : حمل التذكرة على التذكير لأنها بمعناه .

فضل السورة :

فيه الحديث الضعيف عن أبي : من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة وحديث على : يا على من قرأها أعطاه الله ثواب المتحابين في الله وله بكل آية قرأها مائة شفاعة<sup>(١)</sup> .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾  
وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾  
عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

### معاني المفردات

- (المدثر) :- لا بلس الدثار وهو ما فوق الشعر الذى يلبس فوق الجسد مباشرة .  
(وثيابك) :- المراد قلبك ونفسك .  
(الرجز) :- هو العذاب والمراد هنا أسبابه .  
(نقر فى الناقور) :- نفخ فى الصور .  
(لا تمنن) :- المراد لا تعط ، يقال : من الأمير على فلان إذا أنعم عليه وأعطاه .

### أضواء كاشفة

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أول اتصاله بالوحى ولقائه له ، يتأثر بذلك كثيراً ، وكان يتزمل بعده ويتدثر ، حتى انقطع عنه الوحى حيناً ، ثم جاءه على شوق منه إليه ، وربما كان هذا التخلف ليهذأ روعه ، وتسكن نفسه ، ويتطلب تلك المناجاة الإلهية ، وقيل أن النبى - صلى الله عليه وسلم - : كان يصيبه من أذى قومه ما يجعله يفكر فى مصيرهم ، ويعتزل مجتمعاتهم ، ويجلس متدثراً بدثاره فى بيته ، فجاءه الوحى يخصه على ترك العزلة وعلى التشمير للدعوة .

يا أيها المدثر الذى اشتمل بدثاره لمن لا يهمه أمر ، ولا يعنيه شأن ، والمستغرق فى أفكاره ، والتمهيب للقاء الوحى ، قم نشيطاً من مضجعتك ، ولا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك ، فإن العناية الإلهية أعدت لك لرسالة سامية خالدة ، ولنشر دين عام ، هو خاتم الأديان ، قم فأنذر الناس بذلك الدين ، وخوفهم عاقبة الكفر به ، هذه الرسالة التى كلف النبى بها ، والتى جاءت لتهدى الناس إلى الطريق الحق ، وتجعلهم يعبدون الله الواحد الأحد بعد الأصنام والأوثان ، والصاحبة والولد ، ليست بالأمر الهين السهل . تصور أنك تحاول أن تقنع شخصاً بترك ما يعتقد به وورثه عن آبائه ، لذلك أرشد الله نبيه إلى طريق النجاح فى تلك الدعوة الإسلامية ، وأنها لأسلحة جبارة لو استخدمت استخداماً صحيحاً ، لكسب صاحبها المعركة بلا شك وهى :

١ - « وربك فكبر » نعم مهما يكن من شيء فكبر ربك وحده ، ولا تشرك به غيره ، واختص ربك بالكبرياء والعظمة ، وخلص عقلك من أوهام الشرك وعبادة مالا ينفع بل يضر .

٢ - « وثيابك فطهر » تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تدم به من الأفعال ، ولذلك قالت العرب : فلان طاهر الثوب ، أونقى الثياب ، أو طاهر الجيب ، يريدون بذلك وصفه نفسه بالنقاء من المعاييب وسوء الأخلاق ، ولا غرابة في ذلك ، فالثياب مما يلزم الإنسان في جميع أدوار حياته ، وقد يطلقون الثياب ويريدون ذات النفس أو القلب وعليه قول عنترة :

فشككت بالرمح الأمم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم  
وعلى ذلك فالمراد بالآية تحرير نفسه الشريفة من سوء الأخلاق ، وردى العادات ، بحيث يكون صبوراً قوياً الهمة ، عظيم النفس ، متحلياً بالمثل العليا .

٣ - « والرجز فاهجر » أى اترك كل ما يؤدى بك إلى العذاب من المعاصى والآثام ، وحرر جوارحك من كل ما يغضب ربك :

ألست معى فى أن هذه الكلمات ، جمعت أمهات الفضائل ، لتحرير العقل من ربة الشرك ، وتقويم النفس بكرم الخلق ، وإصلاح البدن بهجر المآثم والمحارم .

وهذه الأوامر للنبي ، ليس معناها أنه يفعل ضدها لا : بل هو من باب « فاستقم كما أمرت » (١) أى دُم على ما أنت عليه من عبادة الواحد الأحد ، ومن تحلى نفسك بالخلق الشريف ، ومن هجر لك كل ما يغضب الله .

٤ - أرباب الدعوات ، وأصحاب الرسالات ، لا بد فيهم من أخلاق وصفات ، منسوبة ذكر بعضها ، وهنا يشير القرآن إلى صفة مهمة ، تستحق الأفراد بالذكر وهى : الجود وعدم البخل ، واستكثار العطاء ، فإن البخل وشح النفس ، ممن ينفر الناس عن صاحب الدعوة ، حقيقة الجود مما يدخل في قوله تعالى : ( وثيابك فطهر ) ولكنه خص بالذكر ، لأثره المهم في جذب قلوب الناس فحقاً صدق الله « ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط عطاء مهما كان كثيراً وأنت تقدر في نفسك أنه كثير ، بل اعتقد أنه قليل وأعط عطاء من لا يخاف الفقر بحال .

٥ - « ولربك فاصبر » أى إذا كان الأمر كذلك ، وقد قمت بالواجب عليك ، واتبعت نصائح ربك ثم وجدت من قومك إعراضاً وتكديباً وإيذاء ، فاصبر لأجل ربك ، ولتبليغ رسالاته ، وتلقين وحبه ، فإن الصبر هو عدة المسلم ، وطريق الوصول إلى ما يريد .

قم يا محمد فأنذر وبلغ رسالة ربك كلها ، وإن لم تفعل هذا فما بلغت رسالته ، والله عاصمك من الناس ، فإذا أبوا إلا التكذيب ، فاعلم أن وراءهم يوماً ثقيلاً ، يوماً عبوساً قمطريراً ، فإذا نقر في الناقور ، ونفخ في الصور ، فذلك يومئذ إذ يحصل هذا يوم عسير جداً ، شديد على الكافرين غير يسير .

## التفسير

ثبت في صحيح البخارى من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن جابر أنه كان يقول أول شيء نزل من القرآن (يا أيها المدثر) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾<sup>(١)</sup> ، إلخ ، قال البخارى حدثنا وكيع عن على بن المبارك ، عن يحيى ابن أبى كثير قال : سألت أباً سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : ( يا أيها المدثر ) قلت يقولون : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً فرفعت رأسى ، فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على ماء بارداً - قال - فدثرونى وصبوا على ماء باردا - قال : فنزلت ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر ﴾<sup>(٢)</sup> .

هكذا ساقه من هذا الوجه وقد رواه مسلم من طريق عقيل ابن شهاب عن أبى سلمة ، قال أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحدث عن فترة الوحي فقال فى حديثه : « فبينما أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت زملونى فزملونى فأنزل ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر - إلى - فاهجر ﴾<sup>(٣)</sup> ، قال أبو سلمة والرجز الأوثان - ثم حمى الوحي وتتابع هذا لفظ البخارى وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقيض أنه قد نزل الوحي مثل هذا لقوله : ( فإذا الملك الذى كان بحراء ) وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾<sup>(٤)</sup> ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحي هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ليت حدثنا عقيل عن ابن شهاب قال سمعت أباً سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ثم فتر الوحي عنى فترة فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئت منه فرقا حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ﴾ ثم نزل الوحي وتتابع ، أخرجه من حديث الزهري<sup>(٥)</sup> وقال الطبرانى حدثنا محمد

(١) سورة العلق الآيات : ١-٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٣ ص ٢٠٩ كتاب التفسير باب تفسير المدثر أنظر توضيح مسلم ج ١ ص ١٤٤ كتاب الإيمان باب بدء

الوحي رقم ١٦١/٢٥٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٤٣ كتاب الإيمان باب بدء الوحي رقم ١٦١/٢٥٥

(٤) سورة العلق الآيات : ١-٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٠

ابن علي بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر البجلي ، حدثنا المعافى بن عمران عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبي مليكة يقول سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال ما تقولون في هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فحزن وقنع رأسه وتدنثر ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأندر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ قم فأندر ﴾ أى شمر عن ساق العزم وأندر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة ( وربك فكبر ) . أى عظم .  
وقوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال الأصلح الكندى عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية ( وثيابك فطهر ) قال لا تلبسها على معصية ولا على غدره ، ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى .

فإني بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدره أتقنع  
وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال في كلام العرب نقى الثياب وفى رواية بهذا الإسناد فطهر من الذنوب ، وكذا قال إبراهيم والشعب وعطاء وقال الثورى عن رجل عن عطاء عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال من الإثم وكذا قال إبراهيم النخعى ، وقال مجاهد : ( وثيابك فطهر ) قال نفسك ليس ثيابه ، وفى رواية عنه ( وثيابك فطهر ) أى عمالك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين وقال فى رواية أخرى ( وثيابك فطهر ) أى لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا ، وقال قتادة : ( وثيابك فطهر ) أى طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية . وقال الشاعر :

وإذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل  
وقال العوفى عن ابن عباس : ( وثيابك فطهر ) يعنى لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ويقال لا تلبس ثيابك على معصية ، وقال محمد بن سيرين : ( وثيابك فطهر ) أى اغسلها بالماء ، قال ابن زيد كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه ، وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال امرؤ القيس :

أقاطم مهللاً بعض هذا التدلل وإن تك قد ساءت منك خليقة  
وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجمل فسلى ثيابى من ثيابك تنسل  
وقال سعيد بن جبير : ( وثيابك فطهر ) وقلبك ونيتك فطهر .  
وقال محمد بن كعب القرطبى والحسن البصرى : وخلقك فحسن .

وقوله تعالى : ( والرجز فاهجر ) قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس والرجز وهو الأصنام فاهجر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة الزهوى وابن زيد : إنها الأوثان ، وقال ابراهيم والضحاك : ( والرجز فاهجر ) أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال ابن عباس لا تعط العطية تلتبس أكثر منها ، وكذا قال عكرمة ، ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وإبراهيم النخعى والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ ( ولا تمنن أن تستكثر ) وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير ، وقال خصيف عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ قال لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ، عليه عوضاً من الدنيا ، فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ، قاله مجاهد ، وقال ابراهيم النخعى اصبر عطيتك لله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد ( الناقور ) الصور ، قال مجاهد : وهو كهيئة القرن ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أسباط ابن محمد عن مطرف عن عطية العوفى عن ابن عباس ( فإذا نقر فى الناقور ) فقال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحتى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : ( قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا ) وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن ابن فضيل وأسباط كلاهما عن مطرف به .

ورواه من طريق أخرى عن العوفى عن ابن عباس به <sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ أى شديد ( على الكافرين غير يسير ) ( على الكافرين غير يسير ) أى غير سهل عليهم كما قال تعالى : ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ <sup>(٤)</sup> . وقد روى عن زرار ابن أوفى قاضى البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير ﴾ شقق شققة ثم خر ميتاً - رحمه الله تعالى -

(١) الأحزاب الآية : ١

(٢) الأعراف الآية : ١٤٢

(٣) رواه أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٢٦ مسند عبد الله بن عباس .

(٤) القمر الآية : ٨

## مصير زعماء الضلال

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ<sup>(١٢)</sup>  
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۖ<sup>(١٣)</sup> كَلَّا ۚ إِنَّهُ كَانَ لَا يَتَنَا عُنِيدًا ۖ سَأَرَّهُ قَهْرُ<sup>٤</sup>  
صَعُودًا ۖ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ<sup>(١٤)</sup> فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ<sup>(١٥)</sup> ثُمَّ قُنِيَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ<sup>(١٦)</sup> ثُمَّ  
نَظَرَ ۖ<sup>(١٧)</sup> ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ<sup>(١٨)</sup> ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ<sup>(١٩)</sup> فَقَالَ إِنَّ هَذَا آيَاتُ سِحْرٍ يُؤْتَرُ ۖ<sup>(٢٠)</sup> إِنَّ  
هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ<sup>(٢١)</sup> سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ۖ<sup>(٢٢)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ۖ<sup>(٢٣)</sup> لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۖ<sup>(٢٤)</sup>  
لَوَاحِجُهُ لِلْبَشَرِ ۖ<sup>(٢٥)</sup> عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ ۖ<sup>(٢٦)</sup> وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا  
عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيَقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدَّادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا  
وَلَا يَرْتَابَ ۖ<sup>(٢٧)</sup> الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ<sup>(٢٨)</sup> وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ  
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۖ<sup>(٢٩)</sup> كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ  
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ ۖ<sup>(٣٠)</sup>

## معاني المفردات

- (ذرنى) دعنى واتركنى .  
ممدوداً : مبسوطاً موسعاً .  
(شهوداً) : حضوراً لا يفارقونه .  
(مهدت تمهيداً) : بسطت له الدنيا بسطاً .  
(كلا) : كلمة روع وزجر .  
(عنيداً) : معانداً لها ومكابراً .



- (سأرهقه صعوداً) : سأكلفه وأحملة عذاباً شاقاً صعباً كصعوبة من يحاول صعود جبل صعب .  
 (قدر) : هيا الأمر في نفسه ودبره .  
 (عبس ويسر) : العبوس تقلص عضلات الوجه أو الحاجبين عند ألم أو حزن .  
 والبسور أشد من من العبوس .  
 (سقر) : اسم من أسماء جهنم وهو من سقرته الشمس إذا لوحته وآمته .  
 (فتنة) : ابتلاء واختباراً .  
 (ولا يرتاب) : ولا يشك .  
 (مرض) : شك ونفاق .  
 (مثلاً) : المثل هو القول السائر على ألسنة الخلق ويكون في أمر عجيب وشأن خطير والمراد أن عدة الخزنة أمر عجيب كالمثل .  
 (جنود ربك) : أنصاره وأعوانه والمراد هنا صنف من الخلق .  
 (ذكرى للبشر) : موعظة وعبرة .

### أضواء كاشفة

لقد رسم الله سبحانه وتعالى الخطوط لنجاح الدعوة المحمدية باستكمال العقل وتحرره من الشرك ، وباستكمال النفس بالخلق الكامل والمثل العليا ، وتطهير الجوارح بالبعد عن المعاصي والمحارم ، ولقد ذكر صنفين لهما وضع خاص ، هما الجود والصبر ، وبعد ذلك بين ما يلاقيه الكفار يوم القيامة ، ثم أراد أن يشجع الرسول على التبليغ ، فذكر أحد زعماء الشرك وتوعده الشعر التي هي لائحة للبشر ، هذه هي دعائم نجاح الرسول في دعوته ، وتلك سنة الله في الدعوات كلها ، لا يستقيم لها أمر إلا بهذا ، ذرى ومن خلقت وحدى بلا شريك معي ، اتركه لى وثق أنى قادر عليه ، فقد خلفته وحيداً ، لا مال له ، ولا ولد ، ولا حول له ولا قوة ، حتى إذا أنعمت عليه بالمال والولد ، قام يكفر بى ويكذب رسلى ، لقد مهدت له الدنيا ووسعتها عليه توسيعاً ، ثم بعد ذلك يطمع أن أزيده من نعمى ، أو ثم يطمع أن أزيده كلا إنه كان لآياتنا القرآنية معانداً ومكابراً ، وماذا يكون جزاؤه ؟ سأرهقه صعوداً أى سأحملة من العذاب نوعاً شاقاً عليه تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل فى طريق وعر ، وكأن سائلاً سأل كيف كانت حالته فى معاندة الآيات حتى استحق هذا العذاب ؟ فأجيب : إنه فكر فيها وقدر ، وهياً فى نفسه أمراً وأجل فيها رأياً بقوله ليرضى الباطل وأمله .

فقتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ وهذا كما يقولون : قاتله الله ما أشجعه فى معرض التعجب والاستعظام مدحاً للشخص الذى يقولون فيه هذا الكلام ، وكأنه بلغ حداً يجعل حساده يقولون له هذا ، ثم شاع هذا الاستعمال وحرّف نوعاً ما ، حتى صار يقوله كل معجب بشخص أو كل محب له ، أما العبارة فى الآية فليس المقصود منها المدح إنما هى للتعجب المشوب بالذم ، أو المدح الذى فيها للتهكم

والاستهزاء ، ثم بعد أن فكر وقدر نظر في جمهور الندى نظر المفكر الساهم ، ثم قطب وجهه وقلص عضلات حاجبيه واشتد ذلك التقطيب . متهيئاً للكلام والحكم القطعي في شأن الرسول والقرآن ، ولما كان قوله مخض افتراء ونهاية الاعراض عن الحق والإيمان ، وكان ناشئاً عن كبر وغمط للحقوق عبر عنه القرآن بقوله : « ثم أدبر واستكبر » فماذا قال ؟ قال : إن هذا الكلام الذى سمعته ما هو إلا سحر يؤثر عن السحرة من البابليين والأشوريين والمصريين ، ثم أكبر رأيه بأنه سحر معروف وليس من كلام الله بقوله : ما هذا إلا مثل قول البشر الذين عاشوا في القرون الماضية . ما جزاء هذا ؟ سأرهقه صعوداً ، سأصليه سقراً . وما أدراك ؟ ما سقر ؟ أى شئ أعلمك ؟ ما سقر ؟ وهذا استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر فيها المفكر ، لا يمكنه أن يعرف من أمرها إلا ما عرفه الوحى من أنها لا تبقى على شئ يلقى فيها إلا أهلكته ، ولا تذر أحداً من الفجار يفلت منها وهى لواحة للبشر ، تجعل أجسامهم قطعاً سوداً متغيرة ، عليها تسعة عشر ، وهم خزنتها الموكلون بخدمتها وهل هم تسعة عشر ملكاً أو صنفاً أو صفاً أو نقيباً الله أعلم بذلك كله وليس لنا أن نبحت في ذلك بل ندع الأمر إلى الله وخاصة بعد قوله تعالى : ﴿ ما أدراك ما سقر ؟ ﴾ على أن المخاطب بذلك سيد البشر وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة أى ليسوا بشراً وهذا رد على من قال : سأكفيكم أمر سبعة عشر فأكفوني أمر الاثنين وعلى قول أبى جهل لما سمع هذه الآية لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء ؟ ! فيرد الله عليهم ، ليس هؤلاء بشراً ، بل هم ملائكة ، فاسألوا عنهم عاداً وثمود وأهل قرى قوم لوط ، فإنهم يعرفون الملائكة وقوتهم . وما جعلنا عدتهم - تسعة عشر - إلا ابتلاء واختياراً للناس وكانت فتنة وضلالاً وإعراضاً ، أما المؤمنون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - من المسلمين وأهل الكتاب ، فازدادوا يقيناً على يقينهم ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، بل هم متيقنون ، وكان ذلك ليقول الذين في قلوبهم شك ونفاق كالمنافقين ، وليقول الكافرون بالوحى : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ أى ماذا أراد الله بهذا القول - عدتهم تسعة عشر - الذى يشبه المثل في الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر .

مثل ذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ممن أراد لهم بذلك ، لأنهم على استعداد للخير أو للشر ، وقد ساروا بحض اختيارهم في أحد السبيلين ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، نعم لا يعلم خلقه إلا هو وجنود ربك ، التى هى وسائط في تنفيذ إرادته وأحكامه من الأمور الغيبية التى تؤمن بها فقط . وما سقر ووصفها بهذا إلا ذكرى وموعظة للبشر ، فيخافون ربهم ويتعدون عن عقابه وعذابه ، أما حقيقتها فشىء لا يعلمه إلا الله .

يكاد المفسرون يجمعون على أن قصة التهديد السابقة نزلت في الوليد بن المغيرة ، فإنه كان كثير المال والولد ، عظيم الجاه قوى النفوذ ، فيروى أن بساتينه كانت ممتدة بين مكة ، والطائف لا ينقطع لها ثمر ، وكان له عشرة أولاد ، يحضرون مجلسه لكبر سنهم ورجاحة عقولهم ، وقيمون معه لا يغادرون مكة لغناهم وراثتهم ، ولما اشتد الأمر ورأى زعماء الشرك أن دعوة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - آخذة في الانتشار ، وأن محمداً سيجمع بوفود العرب وسيكلمهم في الإسلام ، اجتمعوا للتشاور فيما يقولون ليردوا

به العرب عن الإسلام ، فقال قائل نقول : إنه شاعر ، وقال آخر : لا إنه كاهن وقال ثالث : لا . إنه مجنون وقال رابع : لا إنه كذاب ! كل هذا والوليد يسمع ولا يتكلم فقالوا له : مالك لا تتكلم ؟ فقال لقد سمعت محمداً يقرأ كلاماً ما هو بكلام الإنس ولا الجن ، وإن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما يقول هذا بشر فكان لهذا الكلام وقع شديد على المجتمعين ، وقالوا لقد صبأ الوليد - أى ترك دين آبائه وأجداده ولتصبأن معه قريش . فخرج الوليد وتفرق الجمع وكلهم حزن أسيف . ولكن أبا جهل ذهب لدار الوليد يحتال عليه ، وأخذ يكلمه بكلام يثير فيه الحمية الجاهلية ، والنخوة المادية فقال له : لقد تركنا قريشاً تجمع لك مالاً حتى تكفيك تعرضك لمحمد وماله فقال الوليد : لقد علمت قريشاً أنى من أكثرها مالاً فهل أنا محتاج لكسر محمد اليتيم ؟! قم بنا إلى دار الندوة ولأتولن كلاماً أصحح به وضعى . اجتمع الناس فقال الوليد : إن محمداً ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب وأنتم تعلمون هذا ولا سبيل إلى إنكاره ، فقالوا له : فماذا نقول عنه إذا يا عبد شمس ؟ - ولقد وصف القرآن الوليد في تلك اللحظة الرهيبة وصفاً دقيقاً جداً - فقال : إن الوليد فكر وقلب وجوه الرأى فيما يقوله ، وقدر الرأى وقلبه على وجوهه ، ثم قاطعه الوحي بقوله « قتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » معجباً من أمره ناعياً عليه سوء فعله ثم نظر الوليد في القوم بعد تفكيره ثم عبس وبسر أى قطب حاجبيه تغطياً شديداً وقال لهم : قولوا : إنه ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، ففرحت قريش بذلك فرحاً شديداً واغتم النبي صلى الله عليه وسلم وحزن ورجع إلى بيته وتدثر بدثاره وجلس فكانت هذه السورة ، وأمره الله أن يدع الوليد ومن على شاكلته فالله يكفيكه في الدنيا ، وليعذبته عذاباً شديداً في الآخرة بنار هي سقر تسود الوجوه ، وتشوى اللحم .. إلخ ما في الآيات .

### التفسير

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث : الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرأ ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حين قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أى خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى ( مالاً ممدوداً ) أى واسعاً كثيراً ، قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضاً يشغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له بنين شهوداً ، وقال مجاهد لا يغيرون أى حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ، ويتجلى بهم ، وكانوا فيما ذكر السدى وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة ثلاثة عشر وقال بن عباس ومجاهد كانوا عشرة ، وهذا أبلغ في النعمة وهو إقامتهم عنده ( ومهدت له تمهيداً ) أى مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ( ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ) أى معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم قال الله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا حسن على أبى سعيد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

عليه وسلم - قال : ( ويل واد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل من نار يستصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به كذلك فيه أبداً )<sup>(١)</sup> .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن الحسن بن موسى الأشيب به ، ثم قال غريب لا تعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج كذا قال : وقد رواه ابن جرير عن يونس عن عبد الله ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج وفيه غرابة ونكارة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة وعلى ابن عبد الرحمن المعروف بعلان المقرئ قال حدثنا منجاب أخبرنا شريك عن عمار الدهنى عن عطية العوفى عن أبي سعيد عن النبى - صلى الله عليه وسلم - ( سأرهقه صعوداً ) قال : « هو جبل في النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت »<sup>(٢)</sup> .

ورواه البزار وابن جرير من حديث شريك به وقال قتادة عن ابن عباس صعوداً : صخرة في جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه وقال السدى صعوداً صخرة ملساء في جهنم يكلف أن يصعدها وقال مجاهد « سأرهقه صعوداً » أى مشقة من العذاب وقال قتادة عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أى إنما أرهقناه صعوداً أى قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أى تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر كيف يخلق من المقال ( وقدر ) أى تروى ( فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ) وعاد عليه ( ثم نظر ) أى أعاد النظر والتروى ( ثم عبس ) أى قبض بين عينيه وقطب ( وبسر ) أى كلع كره ومنه قول توبة ابن حمير :

وقد راينى صدود رأيت  
وإعراضها عن حاجتى ويسورها  
وقوله : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى صرف عن الحق ورجع القهقري مستكبراً عن الانقياد للقرآن ( فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ) أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى هذا ليس كلام الله ، وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش - لعنه الله - وكان من خبره في هذا ما رواه العوفى عن ابن عباس قال دخل الوليد بن المغيرة عن أبي بكر ابن أبي قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش ، فقال يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش أتمروا فقالوا والله لئن صبا الوليد لتصبثن قريش فلما سمع بذلك أبو جهل من هشام قال أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد ألم تر إلى قومك ؟ قد جمعوا لك الصدقة فقال ألسنت أكثرهم مالاً وولداً فقال له أبو جهل يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد أقدر تحدث به عشيرتى فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿ ذرى ومن خلقت وحيداً - إلى قوله - لا تبقى ولا تذر ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال والله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأنه ليعلوا وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر فأنزل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده جـ ٣ ص ٧٥ مستند أبي سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير جـ ٤ ص ٤٤٢ في تفسير سورة المدثر .

﴿ فقتل كيف قدر ﴾ الآية (ثم عبس وبسر) قبض ما بين عينيه وملح ، وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكانه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فاتاه فقال أى عن إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال لم قال يعطونك ، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أنى أكثرها مالاً ، قال فل فيه قولاً يُعلمُ قومك أنك منكر لما قال وأنت كاره له ، قال : فماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، وقال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعنى حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - تسعة عشر ﴾ وقد ذكر محمد ابن اسحاق وغير واحد نحواً من هذا وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا في دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يُقدم عليهم وفود العرب للحج يصدوهم عنه فقال قائلون : شاعر وقال آخرون ؛ ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال قائلون : شاعر ، وقال آخرون : ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ <sup>(١)</sup> كل هذا والوليد يكفر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ونظر وعبس وبسر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر .

قال الله تعالى : ﴿ سألنيه سقر ﴾ أى سأغمره فيها من جميع جهاته ثم قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم تبدل غير ذلك وهم في ذلك لا يموتون ولا يحييون ، قاله ابن بريده وأبوسفيان وغيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال مجاهد أى للجلد وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد ابن أسلم : تلوح أجسادهم عليها ، وقال قتادة (لواحة للبشر) أى حرّاقة للجلد ، وقال ابن عباس : تحرق بشدة الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى من مقدمى الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم ، وقد قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة إبراهيم بن موسى حدثنا أبي زائدة أخبرنا حارث عن عامر عن البراء في قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن خزنة جهنم فقال الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ (عليها تسعة عشر) فأخبر أصحابه وقال (أدعهم أما إني سائلهم عن تربة الجنة إن أتوني إما أنها دورمكة بيضاء) فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام في الثانية ثم قال : (أخبروني عن تربة الجنة ، فقالوا أخبرهم يا ابن سلام فقال كأنها خبزة بيضاء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : أما إن الخبز إنما يكون من الدرمل) <sup>(٢)</sup> .

هكذا وقع عند ابن أبي حاتم عن البراء والمشهور عن جابر ابن عبد الله ، قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده حدثنا منده حدثنا أحمد بن عبيدة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم حدثنا سفيان عن

(١) الإسراء آية : ٤٨

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٣ ، ٤٤٤

مجالد عن الشعبي عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال يا محمد : غلب أصحابك اليوم فقال ( بأى شيء ) قال سألتهم يهود وهل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ( أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا - صلى الله عليه وسلم - ؟ على بأعداء الله لكنهم قد سألوا نبيهم أن يرهبهم الله جهرة ) فأرسل إليهم فدعاهم قالوا يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : ( هكذا ) وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة - وقال لأصحابه ( إن سألتهم عن تربة الجنة هي الدرملك ) فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ( ما تربة الجنة ) فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : أخبره يا أبا القاسم فقال : ( الخبز من الدرملك ) وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبي عمر عن شيبان به وقال هو والبزار لا يعرف من حديث مجالد وقد رواه الإمام أحمد عن علي بن المديني عن سفيان بنقصه الدرملك فقط<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى خزنتها ( إلا ملائكة ) أى زبانية غلاظا شداداً ، وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل يا معشر قريش : أما تستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل أن أبا الأشدين واسمه كلده بن أسيد بن خلف قال يا معشر قريش : اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم خمسة عشر ، إعجاباً به بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون ، كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه .

قال الهلبلى وهو الذى دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مصارعته ، وقال إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبي - صلى الله عليه وسلم - مراراً فلم يؤمن ، قال وقد نسب ابن إسحق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وقد قيل : أنه لا منافاة بين ما ذكره الله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس ( ليستبقن الذين أوتوا الكتاب ) أى يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

وقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد - صلى الله عليه وسلم - ( ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض ) أى من المنافقين ( والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ) أى يقولون ما الحكم فى ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى من مثل هذا وأشباهه ، يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام وينزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ - أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لثلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين الذين

سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التي اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فافهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وقد ثبت في حديث الإسراء المروى في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة ( فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم )<sup>(١)</sup> وقال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورك عن أبي ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ( إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أظت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى )<sup>(٢)</sup> ، فقال أبو ذر لوددت أنى شجرة تورق ، ورواه الترمذى وابن ماجة من حديث إسرائيل وقال الترمذى حديث حسن غريب ويروى عن أبي ذر موقوفاً وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا حسين ابن عرفة المصرى حدثنا عروة بن مروان الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو وعن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راکع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »<sup>(٣)</sup> وقال محمد بن نصر المروزي فى كتاب الصلاة حدثنا عمر بن زرارۃ أخذنا عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا ما نسمع من شىء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أسمع أطيظ السماء وما تلام أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راکع أو ساجد »<sup>(٤)</sup> .

وقال أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى حدثنا عبيد بن سليمان الباهلى سمعت الضحاک بن مزاحم يحدث عن مسروق بن الأجدع عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة ( وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ) . وهذا مرفوع غريب جداً ثم رواه عن محمود بن آدم عن أبي معاوية عن الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم ثم قرأ ( وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون )<sup>(٥)</sup> .

ثم قال حدثنا أحمد بن بشار حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه حدثنا المغيرة

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٦٢/٢٥٩

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٧٣

أنظر الترمذى فى ج ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب فى قول النبى لوتعلمون - أعلم لضحكتم قليلاً رقم ١٣١٢

أنظر ابن ماجة فى كتاب الزهد باب الحزن والبكاء .

(٣) أخرجه ابن ماجة كتاب الهد باب الحزن والبكاء

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٥

ابن عمر بن عطية من بنى عمرو بن سوف حدثني سليمان بن أيوب عن سالم بن عوف حدثني عطاء بن زيد ابن مسعود من بنى الحكم حدثني سليمان بن عمرو بن الربيع من بنى سالم حدثني عبد الرحمن بن العلاء من بنى ساعدة عن أبيه العلاء بن سعد وقد شهد الفتح وما بعده أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا وما تسمع يا رسول الله ؟ قال « أظن السماء وحق لها أن تنطق إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو رাকع أو ساجد وقالت الملائكة ( وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون )<sup>(١)</sup> ثم قال حدثنا إسحق بن محمد بن اسماعيل العدوي حدثنا عبد الملك بن قدامة عن عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن عبد الله بن عمر أن عمر جاء والصلاة قائمة وتقر ثلاثة جلوس أحدهم أبو جحش الليثي فقال قوموا فصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم وقال لا أقوم حتى يأتي رجل هو أقوى مني ذراعيه وأشد مني بطشاً ، فيصرعني ثم يدس وجهي في التراب قال عمر فصرعته ودسست وجهه في التراب فأتى عثمان بن عفان فحمزني عنه فخرج عمر مغتصباً حتى انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : فقال « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » فذكر له ما كان منه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن رضى عمر رحمه الله على ذلك لوددت أنك جئتني برأس الخبيث فقام عمر فوجه نحوه فلما أبعد ناداه فقال « اجلس حتى أخبرك بغناء الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبي جحش إن الله تعالى في السماء الدنيا ملائكة خشوع لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا ربنا ما عبدناك حق عبادتك وإن الله في السماء الثانية ملائكة سجود لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت رفعوا رؤوسهم وقالوا سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر وما يقولون يا رسول الله ؟ فقال « أما أهل السماء الدنيا فيقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأما أهل السماء الثانية فيقولون سبحان ذى العزة وأما أهل السماء الثالثة فيقولون سبحان الحى الذى لا يموت فقلها يا عمر في صلاتك ، فقال عمر يا رسول الله فكيف بالذى كنت علمتني وأمرتني أن أقوله في صلاتي ؟ فقال « قل هذا مرة وهذا مرة »<sup>(٢)</sup> وكان الذى أمره به أن يقوله « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك » هذا حديث غريب جداً بل منكر نكارة شديدة وإسحاق المروزي روى عنه البخاري وذكره ابن حبان في الثقاب وضعفه أبو داود والنسائي والقصيبي والدارقطني وقال أبو حاتم الرازي كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فربما لقن وكتبه صحيحه وقال مرة هو مضطرب وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتاده الجمحي تكلم فيه أيضاً والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ولا عرف بحاله ولا تعرض لضعف بعض رجاله غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلاً بنحوه ، ومن طريق أخرى عن الحسن البصري مرسلاً قريباً منه ثم قال محمد بن نصر حدثنا محمد بن عبد الله بن مهراد أخبرنا النقد عباد بن منصور قال سمعت عدى ابن اربطة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال سمعت رجلاً من أصحاب النبي قال « إن الله تعالى ملائكة ترعد فرائضهم من خيفته ما منهم ملك تقطر منه دمة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وإن منهم ملائكة

(١) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٥

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسير سورة المدثر ج ٤ ص ٤٤٦



ركوعاً لم يرفعوا رؤوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا رفعوا رؤوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك ، وهذا إسناد لا بأس به <sup>(١)</sup> وقوله تعالى : ﴿ وما هي إلا ذكري للبشر ﴾ قال مجاهد وغير واحد ( وما هي ) أى النار التى وصفت ﴿ إلا ذكري للبشر ﴾ .

مبحث فى رحاب قوله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾

### عالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة

وكما سبق أن تناولنا عالم الجن بالتفصيل والبيان الشامل كما جاء على لسان العلماء ، وكان ذلك مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله فإننا هنا نتناول عالم الملائكة المكرمين تناولاً مفصلاً ، كما جاء فى كتاب الله تعالى ، وكما ورد فى سنة نبيه ﷺ نقول وبالله التوفيق .

يقول الشيخ « عمر سليمان الأشقر » فى كتابه « عالم الملائكة الأبرار فى ضوء القرآن والسنة » :  
إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة عالم من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .  
وقد بسطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع ، وبنيت جوانبه ، ومن طالع هذه النصوص فى هذا الجانب ، يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً ، وليس فكرة غامضة ، وهذا بما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الاجمالية ، وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح فى هذا الموضوع ، إلا لأن العقل الإنسانى لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة وتسمع أحاديثهم ، ولا شك أن هذا العجز فى صلح الإنسان ، فلو كان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به ، لما أطاق الحياة ، وحسبنا أن نتصور أن إنساناً تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات لنعلم البلاء الذى يحل بهذا المسكين ، الذى لابد أن يصاب بالذهول والجنون ولا يظن أحد أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ، فإن الحقائق التى تسوقها النصوص فى هذا الموضوع لها تأثير كبير فى نفى الخرافة والزيف عن العقول فى هذا الموضوع ، فقد انتشر منذ القديم بالوهية الملائكة أو أن الملائكة بنات الله ، ويرى بعض الفلاسفة أن الملائكة هم الأفلاك التى نراها فى الفضاء .

وهذه الحقائق التى جاءت بها النصوص تعمق فى نفوسنا الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود ، الذى وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون وعلاقة الملائكة بنا تكويناً وإيماناً

ومراقبة . . . توحى للإنسان بأهميته وقيمته وتنفي من فكرة القول بتناحية وحقارته ، وبذلك يقدر قدر نفسه ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذى عليه أن يقوم به .

ولودهبنا نعدد الآثار الطيبة التى يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة ودراسة النصوص التى تتحدث عنهم ، لطال القول فى هذه المقدمة ، إلا أننى أترك للقارىء أن يعيش مع النصوص ، فتمده - حين يتأمل فيها - بموجباتها وآثارها .

والله تعالى المسئول أن ينفع بهذا البحث وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

## الفصل الأول

### ١ - صفات الملائكة وقدراتهم

سنحاول فى هذا الفصل أن نتبنى من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخلقية والخلقية ثم نتحدث عن القدرات التى وهبهم الله إياها .

### الصفات الخلقية وما يتعلق بها

#### مادة الخلق :

عرفنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى ترويه عائشة بنت أبى بكر - رضى الله عنها وعن أبيها - أن المادة التى خلقوا منها هى النور فقال ﷺ : ( خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم ) رواه مسلم فى صحيحه<sup>(١)</sup>

ولم يبين لنا الرسول - ﷺ - أى نور هذا الذى خلقوا منه ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

وما روى عن عكرمة أنه قال : ( خلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة ) وما روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : ( خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر ) لا يجوز الأخذ به وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين ولعلمهم قد اشتقوا من الاسرائيليات . ( راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة / ١٩٧ ) وأما ما ذكره ولى الله الدهل فى الحجة البالغة ( ص ٣٣ ) من ( أن الملائكة الأعلى ) ثلاثة أقسام : قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوساً كريمة .

وقسم اتفق حدوث فراخ فى النجارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض ( أى الترك ) للألوات البهيمية . وقسم هم نفوس إنسانية المأخذ من الملائكة الأعلى مازالت تعمل أعمالاً منجية تفيد للخلق بهم حتى طرحت عنها جلايب أبدانها فانسلكت فى سلوكهم وعثرت منهم . - فلا يوجد دليل صحيح على صحة هذا التقسيم - بهذا التفضيل والتحديد .

(١) أخرجه الامام مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ / ٢٩٩٦

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ؟ ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبى البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (١) والمراد بالخليفة آدم عليه السلام ، وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٢)

عظم خلقهم :

قال تعالى فى ملائكة النار : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ (٣) وسأكتفى بسوق الأحاديث التى تتحدث عن ملكين كريمين فحسب .

عظم خلق جبريل :

روى الإمام أحمد فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق . يسقط من جناحه التهاويل ( الأشياء المختلفة الألوان ) من الدر واليواقيت (٤)

وفى سنن الترمذى بإسناد صحيح ، أن الرسول - ﷺ - قال فى جبريل : ( رأيت منبهطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض ) (٥)

وقال فى وصفه : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ﴾ (٦) والمراد بالرسول الكريم هنا : جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه .

عظم خلقه حملة العرش

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ( أذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام ) (٧)

ورواه ابن حاتم وقال : ( تحقق الطير ) قال محقق مشكاة المصابيح ، إسناده صحيح . وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : ( أذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش . رجلاه فى الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول : ( أى الملك ) : سبحانه حيث كنت ) (٨)

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) الحجر آية : ٢٩

(٣) التحريم آية : ٦

(٤) أخرجه الامام أحمد : ج ١ ص ٤٦ مستند عبد الله بن مسعود

(٥) مسلم : فى صحيحه ج ١ ص ١٥٩ كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل « لقد رآه نزلة أخرى » رقم ١٧٧ / ٢٨٧

(٦) التكويز الآيات : ١٩ - ٢١

(٧) أخرجه أبو داود فى سننه ج ٥ ص ٥٦ كتاب السنة - باب فى الجهمية رقم ٤٧٢٧

(٨) أخرجه الميثمى فى مجمع الزوائد ج ١ ص ٨٠

## للملائكة أجنحة

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ (١)  
والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة ، بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك .

## جمالهـم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى في جبريل : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ﴾ (٢)

قال ابن عباس : ﴿ ذو مرة ﴾ ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن وقيل : ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهـم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، انظر إلى ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما رأيته : ﴿ فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ (٣)

## هل بين الملائكة والبشر شبه في الشكل والصورة ؟

روى مسلم في صحيحه والترمذى في سننه عن جابر رضى الله عنه قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبهاً ( صاحبكم يعنى نفسه ) (٤) فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحية الكلبي ، أم هو بين الصورة التي يكون بها جبريل عندما يتمثل في صورة بشر ؟ الأرجح هو الأخير ، لأن جبريل كان يتمثل في صورة دحية كثيراً .

## تفاوتهم في الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة في الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ (٥) وقال في جبريل : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله .

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ، ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع : أن

(١) فاطر ١ : ١

(٢) النجم الآيتان ٦/٥

(٣) يوسف الآية : ٣١

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٥٣ كتاب الإيمان باب الإسماء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات رقم ١٦٧/٢٧١

(٥) انظر الترمذى ج ٥ ص ٥٦٤ كتاب المناقب باب في صفة النبي ﷺ رقم ٣٦٤٩

(٥) الصفات اية : ١٦٤

جبريل جاء للنبي ﷺ فقال : ما تعدون من شهد بدماً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بدماً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة (١)

### لا يوصفون بالذكر والأنثى

من أسباب ضلال بني آدم في حديثهم عن عوالم الغيب ، أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية ، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب في مقال في صحيفة سيارة ، من أن جبريل كان يأق الرسول - « - بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول يحتاج إلى جواب من الله ، فكيف يأق بهذه السرعة الخارقة ، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ، ليصل إلى بعض نجوم السماء . وما درى هذا المسكين أن مثله كمثّل بعوضة ، تحاول أن تقيس الطائرة بمقياسها الخاص ، لو تفكر في الأمر لعلم أن عالم الملائكة لها مقاييس تختلف تماماً عن مقاييس نحن البشر .

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب ، الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

وناقشهم القرآن في هاتين القضيتين ، فبين أنهم - فيما ذهبوا إليه لم يعتمدوا على دليل صحيح ، وأن هذا القول قول متهافت ، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات ، وهم يكرهون البنات ، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتاً ، يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بشر به ، وقد يتعدى هذا المأفون طوره فيدس هذه المولودة في التراب ، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد ، يزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي . استمع إلى الآيات التالية تحكى هذه الخرافة وتناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم الرب البنات وهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وانهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾ (٢)

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويسألون ﴾ (٣)

### لا يأكلون ولا يشربون

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكر والأنثى ، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢٠ ص ١٠ كتاب المغازي باب شهود الملائكة بدر - ط / دار إحياء الكتب العربية

(٢) الصافات الآيتان : ١٤٩ - ١٥٦

(٣) الزخرف آية : ١٩

وشراهم ، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاءوا إبراهيم في صورة بشر ، فقدم لهم الطعام ، فلم تمتد أيديهم إليه ، فاجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم ، فزال خوفه واستغرابه : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فاجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾<sup>(١)</sup> وفي آية أخرى قال : ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾<sup>(٢)</sup>

### لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى في وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾<sup>(٣)</sup> ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفي الآية الأخرى ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ تقول العرب : سئم الشيء أى مله .

### منازلهم

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾<sup>(٤)</sup> وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾<sup>(٥)</sup> وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطة لهم ، ووكلت إليهم : ﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك ﴾<sup>(٦)</sup> ويكثر نزولهم في مناسبات خاصة ، كليلة القدر ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾<sup>(٧)</sup>

### عددهم

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾<sup>(٨)</sup> وإذا أردت أن تعلم كثرتهم ، فاسمع ما قاله ﷺ في البيت المعمور الذى في السماء السابعة : ( فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم )<sup>(٩)</sup> رواه البخارى ومسلم وفى صحيح مسلم عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : ( يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام

(١) الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨

(٢) هود آية : ٧٠

(٣) الأنبياء آية : ٢٠

(٤) فصلت آية : ٢٨

(٥) أخرجه البخارى ومسلم : مسلم ج ١ ص ١٥٠ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة رقم ٢٦٤ /

(٦) الشورى آية : ٥

(٧) مريم آية : ٦٤

(٨) القدر الآيتان : ٣ ، ٤

(٩) المدثر آية : ٣١

سبعون ألف ملك يجرونها<sup>(١)</sup> فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك . وإذا تأملت في النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الانسان - علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكي هدايته وإرشاده .

### أسمائهم

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل وهنا بعض الآيات التي ورد فيها أسماء بعض الملائكة :

١ ، ٢ - جبريل وميكائيل :

قال تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾<sup>(٢)</sup> وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾<sup>(٣)</sup> وهو الروح المعنى في قوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾<sup>(٤)</sup> وهو الروح الذي أرسله إلى مريم : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾<sup>(٥)</sup>

٣ - إسرافيل :

ومن الملائكة إسرافيل الذي ينفخ في الصور ، وجبريل وميكائيل وإسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ في دعائه كلما استيقظ من الليل ( اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم )<sup>(٦)</sup>

٤ - مالك :

ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾<sup>(٧)</sup>

(١) أخرجه مسلم : ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب في شدة حر نار جهنم رقم ٢٨٤٢ / ٢٦

(٢) البقرة ١ : ٩٨ / ٩٧

(٣) الشعراء الآية : ١٩٤ / ١٩٣

(٤) القدر آية : ٤

(٥) مريم آية : ١٧

(٦) أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ رقم ٣٤٢٠ كتاب الدعوات باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، أبو داود في كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء النسائي ، قيام الليل وتطوع النهار باب بأى شيء تستفتح صلاة الليل ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

(٧) الزخرف آية : ٧٧

٥ - رضوان :

قال ابن كثير : ( وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به في بعض الأحاديث )

٦ ، ٧ - منكر ونكير :

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض في الأحاديث ذكرهما في سؤال القبر .

٨ ، ٩ - هاروت وماروت

ومنهم ملكان سماهما الله باسم ( هاروت وماروت ) قال تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولاً إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ <sup>(١)</sup> ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس في فترة من الفترات وقد نسجت حولهما في كتب التفسير أساطير كثيرة ، لم يثبت شيء منها في الكتاب والسنة ، فيكتفى في معرفة أمرهما مادلت عليه الآية الكريمة .

عزرائيل :

وقد جاء في بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ، ولا يوجد في القرآن ولا في الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ <sup>(٢)</sup> وما ذكره غير صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد : أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنها اسمان للملكين .

### \* هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ <sup>(٣)</sup> فالملائكة تشملهم الآية لأنهم في السماء ، يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : ( هذه هي النفخة الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهود ، ثم يقبض أرواح الباقين ، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً وهو الباقي آخر بالديمومة والبقاء ، ويقول : لمن الملك اليوم ؟

(١) البقرة آية : ١٠٢

(٢) قى الآيتان : ١٧ / ١٨

(٣) الزمر آية : ٦٨



ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ الله الواحد القهار ﴾ وما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾<sup>(١)</sup>

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا ما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

### الصفات الخلقية

- الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدي سَفَرَة ، كرام بررة ﴾<sup>(٢)</sup> أى القرآن بأيدي سفرة : أى الملائكة : لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبياؤه قال البخارى : ( سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم ) وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تعالى وتأديته كالسفر الذى يصلح بين القوم ، وقد وصف الله هؤلاء الملائكة بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .  
وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ( الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران )<sup>(٣)</sup> أخرجه الجماعة - استحياء الملائكة :

من أخبار الملائكة التى أخبرنا الرسول - ﷺ - بها : الحياء فى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن الرسول - ﷺ - كان مضجعاً فى بيتها كاشفاً عن فخذه أو ساقيه ، فاستأذن أبوبكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث . . ثم استأذن عثمان ، فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل ، فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبوبكر ، فلم تهش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : ( ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة )<sup>(٤)</sup>

### قدراتهم

- قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾<sup>(٥)</sup> وإبراهيم عليه السلام - جاءت الملائكة فى صورة بشر ، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) عيسى الآيتان : ١٥ - ١٦

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب فضائل الصحابة باب فضل عثمان رقم ٢٤٠١ / ٣٦

(٥) مريم الآيتان : ١٦ - ١٩

وجاءوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه ، وضاق لوط بهم وخشى عليهم من قومه ، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين ﴿ ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب ﴾ (١)

يقول ابن كثير : ( تبدى لهم الملائكة في صورة شباب حسان امتحاناً واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ) وقد كان جبريل يأتي الرسول - ﷺ - في صفات متعددة ، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي ( صحابي كان جميل الصورة ) وتارة في صورة اعرابي . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتي كذلك .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يا محمد أخبرني عن الاسلام ، وفي الحديث أنه سأل عن الايمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم . (٢)

ورأت عائشة الرسول واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبي يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - ذاك جبريل وهو يقرؤك السلام (٣)

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذي قتل تسعاً وتسعين نفساً ، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكاً جاءهم في صورة آدمي ، يقول عليه السلام ( فجاءهم الملك في صورة آدمي ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ) ولا بد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك في صورة آدمي (٤) .

- عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة ( ١٨٦ ) ألف ميل في الثانية الواحدة .

أما سرعة الملائكة فهي فوق ذلك ، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر .

كان السائل يأتي إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى ، واليوم لو وجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى ( مليار ) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

(١) هود آية : ٧٧

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان

أخرجه أبو داود كتاب السنة . باب في القدر . والنسائي في كتاب بالإيمان باب بعث الاسلام

أخرجه الترمذي ج ٥ ص ٨ كتاب الإيمان باب ما جاء في وصف جبريل رقم ٢٦١٠ ما جاء في المقدمة بالإيمان

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب في فضل عائشة رقم ٢٤٤٧

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثرت قتلته رقم ٢٧٦٦/٤٦

- علمهم :

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ، ولكن ليس عندهم القدرة التي أعطيت للإنسان في التعرف على الأشياء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ (١) فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشافه سنن الكون ، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذي علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الانسان ومن العلم الذي أعطوه علم الكتابة ، ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (٢) .

### اختصاص الملائكة الأعلى

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ، ففي سنن الترمذى ومسنند أحمد عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال : « أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ، فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفي ، حتى وجدت بردها بين ثديي ، فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، فقال : يا محمد : هل تدري فيم يختصم الملائكة الأعلى ؟ قلت : نعم ، في الكفارات والدرجات . »  
(والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات ، والمشي على الاقدام الى الجماعات ، واسباغ الوضوء في المكاره ) .

قال : صدقت يا محمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفرلي وترحمني وتتوب عليّ ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون .  
والدرجات : افشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام (٣) .

قال ابن كثير في هذا الحديث : ( هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعل يقظة فقد غلط ) وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصاص هو الاختصاص المذكور في القرآن في قوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملائكة الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلا أننا أنا نذير مبين ﴾ (٤) .

(١) البقرة الآيتان : ٣١ - ٣٢

(٢) التكوين الآيتان : ١٠ - ١٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ١ ص ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ج ٤ ص ٦٦ انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٣٤٢ كتاب تفسير القرآن - سورة ص رقم ٣٢٣٣

(٤) سورة ص الآيتان : ٦٩ / ٧٠

فإن الاختصاص المذكور في الحديث قد فسره الرسول ﷺ والإختصاص المذكور في القرآن فسره الآيات بعده : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . . . ﴾ (١) فالإختصاص المذكور في القرآن كان في شأن آدم - عليه السلام - وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه .

### منظمون في كل شئونهم

الملائكة منظمون في عبادتهم وقد حثنا الرسول - ﷺ - على الاقتداء بهم في ذلك فقال .  
( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ ) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قالوا : ( يكملون الصف الأول فالأول يتراصون في الصف ) رواه الجماعة « إلا البخارى » (٢)  
وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن ( جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ) الحديث في صحيح مسلم .  
وفي يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ (٣)  
ويقفون صفوفاً بين يدي الله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ (٤) والروح جبريل وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر ، في صحيح مسلم وفي مسند أحمد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ( آت باب الجنة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك ) (٥)  
ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الاسرار إذ كان جبريل يستأذن في كل سماء ولا يفتح له إلا بعد الاستفسار .

(١) سورة ص الآيات : ٧١ / ٧٤

(٢) أخرجه مسلم جـ ١ ص ٣٢٢ كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون في الصلاة رقم ٤٣٠ / ١١٩

(٣) الفجر آية : ٢٢

(٤) النبا آية : ٣٨

(٥) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١٨٨ كتاب الإيمان - باب اختباء النبي ﷺ دعوة الشفاعة لأمته رقم ١٩٨ / ٣٣٤ .

## الفصل الثاني

### ٢ - عبادة الملائكة

#### نظرة في طبيعة الملائكة

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ، ليست لديهم القدرة على العصيان ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(١)</sup>

فتركهم للمعصية ، وفعلهم للطاعة جبلة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم .  
لعل هذا هو السبب ، الذي دعا فريقاً من العلماء إلى القول بأن الملائكة ليسو بمكلفين ، وأنهم ليسوا بداخلين في الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسو بمكلفين بنفس التكليف ، التي كلف بها أبناء آدم ، أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً ، فهو قول مردود ، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة ﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾<sup>(٢)</sup> وفي الآية أنهم يخافون ربهم ، والخوف نوع من التكليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم : ﴿ وهم من خشية ربهم مشفقون ﴾<sup>(٣)</sup>

#### مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة ، أنهم عباد الله ، ولكنهم مكرمون ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين في أن الملائكة بنات الله ، دعوى باطلة ، لا نصيب لها من الصحة ، وقد أكذب الله القائلين لهذا القول ، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم في أكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إلى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾<sup>(٤)</sup> الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية ، قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط ، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون ، وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره ، فإن الله يعذبه جزاء تمرده .

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدي ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجيبون ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾<sup>(٥)</sup> وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال :

(١) التحريم آية : ٦

(٢) النحل آية : ٥٠

(٣) الأنبياء آية : ٢٨

(٤) الأنبياء الآيات : ٢٦ - ٢٩

(٥) الأنبياء آية : ٢٧

قال رسول الله ﷺ لجبريل ( ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ ) قال : فنزلت : ( وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً )<sup>(١)</sup>

### نماذج من عبادتهم

الملائكة عباد الله ، مكلفون بطاعته ، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة ونورد هنا بعض العبادات التي حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

#### التسبيح

الملائكة يذكرون الله تعالى ، وأعظم ذكرهم التسبيح ، يسبحه تعالى حملة عرشه ، ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحونه بحمد ربهم ﴾<sup>(٢)</sup> كما يسبحه عموم ملائكته : ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ﴾<sup>(٣)</sup> وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾<sup>(٤)</sup> ولكثرة تسبيحهم ، فإنهم هم المسبحون في الحقيقة ، وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ﴾<sup>(٥)</sup> وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر ، روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر ، قال سئل رسول الله ﷺ أى الذكر أفضل ؟ قال : ( ما اصطفى الله لملائكته أولعباده : سبحان الله وبحمده )<sup>(٦)</sup>

### صلاتهم

كان النبي ﷺ يحث أصحابه على الاقتداء بالملائكة في الاصطفاف للصلاة : ( ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟ ) وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال : ( يتمون الصف الأول فالأول ويتراصون في الصف ) رواه البخاري<sup>(٧)</sup>

وفي القرآن عن الملائكة : ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾<sup>(٨)</sup> وهم يقومون ويركعون ويسجدون ، ففى

(١) مريم آية : ٦٤

(٢) غافر آية : ٧

(٣) الشورى آية : ٥

(٤) الأنبياء آية : ٢٠

(٥) الصافات الآيتين : ١٦٥ / ١٦٦

(٦) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١ / ٨٤

(٧) أخرجه البخارى :

(٨) الصافات آية : ١٦٥

شكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال :  
( بينما رسول الله فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شيء ، قال :  
إنى لأسمع أطيظ السماء ، وما تلام أن تنظ ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أوقائم )<sup>(١)</sup>

حجّهم

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها ، هذه الكعبة التى أسماها الله تعالى البيت المعمور ، وأقسم به فى سورة الطور ﴿ والبيت المعمور ﴾<sup>(٢)</sup>

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : ( ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الإسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : ( ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم )<sup>(٣)</sup> ) يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزء من جنس العمل ) وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة ، أى فوقها لو وقع لوقع عليها ، وذكر أن فى كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة .

وهذا الذى ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب ، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعة أن رجلاً قال لعل : ما البيت المعمور ؟ فقال : ( بيت فى السماء يقال له الصّراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمة فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلّى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ولا يعودون فيها أبداً ) .

### خوفهم من الله وخشيتهم له

ولما كانت معرفة الملائكة برهبهم كبيرة ، كان تعظيمهم له ، وخشيتهم له عظيمة ، قال الله فيهم : ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾<sup>(٤)</sup>

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النّوّاس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :  
( إذا أراد الله أن يوصى بالأمر تكلم بالوحي أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد ) .<sup>(٥)</sup>

(١) أخرجه البخارى ج ٤ ص ١٣٢ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة

(٢) الطور آية : ٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الإيمان باب لإسراء برسول الله ﷺ رقم ١٦٢ / ٢٥٦

(٤) الأنبياء آية : ٢٨

(٥) أخرجه ابن عاصم فى السنة ج ١ ص ٢٢٧

## الفصل الثالث

### ٣ - الملائكة والإنسان

#### الملائكة وآدم

- سؤلهم عن الحكمة من خلق الانسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم ، أعلم ملائكته بمراحه ، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك ، لأنهم علموا أنه سيقع من بني آدم إفساد وسفك دماء ، وعصيان وكفر ، فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكم لا يعلمونها : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ (١)

- سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، حين يتم خلقه ، وتنفخ فيه الروح ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ (٢) وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾ (٣)

- توجيه الملائكة لآدم :

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ( خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله قال : ( فزادوه ورحمة الله ) (٤) متفق عليه

- غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفي آدم ، لم يعرف أولاده كيف يفعلون به ، فأعلمتهم الملائكة ، ففي مستدرك الحاكم ، ومعجم الطبراني الأوسط . بإسناد صحيح عن أبي رضى الله عنه عن النبي ﷺ : ( لما توفي آدم ، غسلته الملائكة بالماء وترأ وأحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم في ولده ) (٥)

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) ص الآيتان : ٧١ / ٧٢

(٣) الآيتان : ٧٣ / ٧٤

(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١٨٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب يدخل الجنة أقوام أفندتهم مثل أفندة الطير رقم ٢٨ / ٢٨٤١

(٥) أخرجه : الحاكم في مستدركه ج ٢ ص ٤٤٥ كتاب التاريخ



وقد ثبت في صحاح الحديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبي عامر الذي استشهد في معركة أحد ، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد مقتل حنظلة : ( إن صاحبكم تغسله الملائكة - يعنى حنظلة ) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائلة وهو جنب فقال رسول الله ﷺ ( لذلك غسلته الملائكة )<sup>(١)</sup> رواه الحاكم والبيهقى في السنن واسناده حسن .

### الملائكة وبنى آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة ، فهم يقومون عليه عند خلقه ، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ، ويأتونه بالوحي من الله ، ويراقبون أعماله وتصرفاته ، وينزعون روحه إذا جاء أجله . وستناول ذلك بشيء من التفصيل والبيان :

### - دورهم في تكوين الانسان :

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ( إذا مرَّ بالنطفة إثنين وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : أى رب ؟ ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك )<sup>(٢)</sup>

وفي صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق : ( إن أحدكم يجمع خلقه وهو في بطن أمه أربعون يوماً ، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد )<sup>(٣)</sup>

وفي الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : ( وكل الله تعالى بالرحم ملكاً فيقول : ( أى رب نطفة ، أى رب علقه ، أى رب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك في بطن أمه )<sup>(٤)</sup>

### - حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾<sup>(٥)</sup> وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس ، أن المعقبات من الله هم الملائكة ، جعلهم الله ليحفظوا الانسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه ، خلوا عنه .

(١) أخرجه : الحاكم في مستدركه جـ ٣ ص ٢٠٤

(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ٢٦٤٥ / ١

(٣) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ٢٦٤٣ / ١

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ٢٣٨ كتاب القدر رقم ٢٦٤٦ / ٥

(٥) الرعد الآيتان : ١١ / ١٠

وقال مجاهد : ( ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شيء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شيء أذن الله فيه فيصبيه )  
وقال رجل لعلي بن أبي طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك ، فقال علي : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة ) .  
والمعقبات المذكورة في آية الرعد هي المردة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ (١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتي أجله المقدر له .

- يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :  
وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾ (٢)  
وقال : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ (٣)

وقد يأتي بالوحي غير جبريل - وهذا قليل - كما في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال : ( بينما جبريل قاعد عند النبي - ﷺ - سمع نقيضات من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته ) (٤)

وفي التاريخ لابن عساكر باسناد صحيح عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتاني ملك فسلم علي ، نزل من السماء لم ينزل قبلها ، فبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٥) .

وفي مسند أحمد والترمذي والنسائي عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أما رأييت العارض الذي عرض لي قبيل ؟ هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، أستأذن ربه عز وجل أن يسلم علي ، ويبشرني أن الحسن والحسين سيذا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة » (٦) .

(١) الأنعام آية : ٦١

(٢) البقرة آية : ٩٧

(٣) الشعراء الآيتان : ١٩٣ / ١٩٤

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين وقصورها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٨٠٦ / ٢٥٤

(٥) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣١٧ / ٤

(٦) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥ ص ٣٩١

وفي المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبي بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : « أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقلت زدني ، فقال : اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل ، استزده فقلت : زدني ، كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف » (١) .

### ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبي :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولاً أو نبياً ، فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم ، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها .

ورأى الصحابة جبريل في صورة أعرابي ، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذي زار أخاً في الله يشره بأن الله يحبه لحبه أخيه . وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

### كيف كان يأتي الوحي الرسول ﷺ ؟

سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه ، الرسول - ﷺ - فقال : « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحي ؟

فقال الرسول ﷺ :

« أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعنى ما يقول » (٢) .

فجبريل كان يأتي الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو في حالته الملكية ، وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية ، وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التي خلقه الله عليها مرتين ، مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك في صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « بينما أنا أمشي ، إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت ، فقلت : زملوني » (٣) . والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء ، وهاتان المرتان مذكورتان في سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه

(١) أخرجه أحمد في مسنده جده ص ٤١ ، ١١٤ مشكل الآثار للطحاوى ١٨٩/٤ الأحاديث الصحيحة للالبانى ٨٤٣

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٧ كتاب الفضائل - باب عرق النبي ﷺ - في البرد وحين يأتيه الوحي - رقم ٢٣٣٣/٨٧ .

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٤٣ كتاب الايمان باب بدء الوحي رقم ١٦١/٢٥٥

نزلة أخرى عند سدره المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ﴿١﴾ .

### - لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحي من الله تعالى ، فقد كان يأتيه في كل عام في رمضان في كل ليلة من لياليه ، فيدارسه القرآن ﴿٢﴾ حديث صحيح رواه البخارى في صحيحه .

### - إمامته للرسول :

وقد أم جبريل الرسول ، كى يعلمه الصلاة ، كما يريد الله تعالى :  
ففى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « نزل جبريل فأمنى فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس مرات » ﴿٣﴾ وفى مسند أحمد وسنن النسائى وأبى داود عن ابن عباس أن الرسول - ﷺ - قال : « أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس ، وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد ، صلى بى الظهر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشيء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء إلى ثلث الليل ، وصلى بى الفجر فأسفر . ثم التفت إلى وقال : يا محمد : هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين » ﴿٤﴾ .

ولم يعلمه كيفية الصلاة عملياً وأوقاتها فحسب ، بل علمه الوضوء ، ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى ، فعلمنى الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء ففضح بها فرجه » ﴿٥﴾ .

### - رقيته للرسول ﷺ :

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكت ؟ قلت : نعم ، قال : بسم الله أرقيك ، من كل ما يؤذك ، من شر كل ذى نفس ، وعين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك » ﴿٦﴾ .

(١) النجم الآيات : ١٧-٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق - باب ذكر الملائكة .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٤ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٤) أخرجه البخارى بمعناه ج ١ ص ١٣١ باب مواقيت الصلاة .

(٥) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع بزم ٢٧٠

(٦) أخرجه الترمذى ج ٣ ص ٣٠٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٣٧٢

كما أخرجه ابن ماجه - كتاب الطب باب ما عوذ منه النبى ﷺ رقم ٣٥٢٣

## أعمال أخرى :

ومن ذلك أنه حارب مع الرسول في بدر والخندق ، وصحب الرسول ﷺ في الأسراء وغير ذلك .

## - تحريك بواعث الخير في نفوس العباد :

وكل الله لكل انسان قريناً من الملائكة ، وقريناً من الجن ، ففي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله - ﷺ - « مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياي ، ولكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني الا بخير »<sup>(١)</sup> ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله ، قيضه الله له ليهديه ويرشده .

وقرين الانسان من الملائكة ، وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم . وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإبعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإبعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : ( الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم )<sup>(٢)</sup> .

وانظر إلى الحديث التالى ، كى تعرف كيف يتسابق القرين الجنى ، والقرين الملكى على توجيه الانسان ، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : ( ختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه النوم طرد الملك الشيطان ويات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإذا قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد ما أماتها ، ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه )<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان رقم ٢٨١٤/٦٩

(٢) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٢٠٤ كتاب التفسير باب تفسير سورة البقرة رقم ٢٩٨٨

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه رقم ٢٣٦٢

الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤١٥

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الاكثار من الأعمال الخيرة ، التي تصلح نفوسنا ، وتقرب الملائكة منا ، ففي قرب الملائكة منا خير عظيم ، فقد ( كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة )<sup>(١)</sup> رواه البخارى عن ابن عباس .

- حفظ أعمال بنى آدم :

الملائكة موكولون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾<sup>(٢)</sup> وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين ، لا يفارقانه ، يحصيان عليه أعماله وأقواله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾<sup>(٣)</sup> .

ومعنى قعيد أى مترصد ، ورقيب عتيد ، أى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت ، والظاهر أن الملائكة الموكلة بالإنسان ، تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من أفعال وأقوال ، لا يتركون شيئا ، لقوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول ﴾ .

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل ما صدر منه ، ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين : ﴿ يا وليتنا ما هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ﴾<sup>(٤)</sup> .

وفى مسند أحمد عن بلال بن الحارث المزني - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : ﴿ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله - عز وجل - له بها رضاءه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ولا يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ﴾<sup>(٥)</sup> . فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعني حديث بلال بن الحارث .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن الحسن البصري أنه تلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال : يا بن آدم : بسطت لك صحيفة ، وكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن

(١) أخرجه البخارى في صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة ج ٤ ص ١٢٨ .

(٢) سورة الانفطار الآيتان : ١٠ - ١١ .

(٣) سورة ق الآيات : ١٦ - ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية : ٤٩ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب خ من تكلم بكلمة يضحك بها على الناس رقم ٢٣١٤ .

يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفةك وجعلت فى عنقك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ (١) .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ماتكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ (٢) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يثن فى مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شيء حتى الآتين ، فلم يثن أحمد حتى مات ، رحمه الله .

### - صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات

فى معجم الطبرانى باسناد حسن عن أبى أمامه أن رسول الله - ﷺ - قال : ﴿ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطيء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة ﴾ (٣) .

### هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى : ﴿ يعلمون ﴾ (٤) ماتفعلون ﴿ (٥) .

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه ، يقول رسول الله - ﷺ - : ( قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بحسنة فلم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا ) (٥) .

وفى الحديث الآخر المتفق عليه أيضا : ( قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائى ) (٦) .

(١) سورة الاسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الرعد آية : ٣٩

(٣) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٧ ، الطبرانى فى المعجم الكبير ج ٨ ص ٢١٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة

للألبان/ ١٢٠٩

(٤) سورة الانفطار آية : ١٢

(٥) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة رقم ١٢٨/٢٠٤ (٦) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٧ ، ١١٨

كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ١٢٨/٢٠٥

## شبهة

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (١) .  
 فالجواب : أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى ، فهو وإن خفى عن البشر ، فلا يعلم واحدهم ما في ضمير أخيه ، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة .  
 وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما في الصدور ، وهو الإرادة والقصد ، أما بقية الأمور كالاتقادات ، فلا دليل على كونها تعلمها .

## دعوة العباد إلى فعل الخير

في صحيح البخارى ، عن أبي هريرة ، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ( ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ) (٢) .  
 وذكر ابن حجر في شرحه للحديث رواية أخرى عن أبي الدرداء وفيها : ( ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى خير مما كثر وأهمل ، ولا غربت شمسك إلا وبجنتها ملكان يناديان ) (٣) فذكر مثل حديث أبي هريرة السابق .

## ابتلاء بنى آدم

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ، ففي البخارى ومسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أنه سمع النبى ﷺ يقول : ( إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فأرسل إليهم ملكاً فألقى الأبرص ، فقال : أى شيء أحب إليك ، فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذى قدرني الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ، قال : الابل ، أو قال البقر ، فأعطى ناقة عشراء ( أى حامل ) . فقال : بارك الله لك فيها .  
 فألقى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عني الذى قدرني الناس ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر فأعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . فألقى الأعمى فقال : أى شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والدا فأنج وولّد هذا .

(١) سورة غافر آية : ١٩

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة - باب في المتفق والمسك رقم ١٠١٠/٥٧

(٣) أخرجه المنذرى في الترغيب والترهيب ٤٩/٢



فكان لهذا واد من الأبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم أتى الأبرص في صورته وهيبته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بغيرا أتبلغ به في سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأتى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقدرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع في صورته وهيبته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد هذا . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى في صورته وهيبته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بي الحبال في سفرى ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك : شاة أتبلغ بها في سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ودع ماشئت ، فوالله لأجهدك اليوم بشيء أخذته الله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتكم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك (١) .

### الملائكة تنزع روح الانسان

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد ، عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم ، قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ (٢)

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (٣) .

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين ، نزعا شديدا عتيفا بلارفق ولا هوادة قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم ينجزون عذاب الهون ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذ توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ (٦) أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رقيقا .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ كتاب الزهد والرفائق رقم ٢٩٦٤/١٠

(٢) سورة السجدة آية : ١١

(٣) سورة الانعام الآيتان : ٦١-٦٢

(٤) سورة الانعام آية : ٩٣

(٥) سورة الانفال آية : ٥٠

(٦) سورة محمد آية : ٢٧

## تبشيرهم المؤمنين عند النزاع

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن ، فإن الملائكة تنزل عليه تبشره وتبشبه قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾<sup>(١)</sup> وهي تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم : ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾<sup>(٢)</sup> .

## موسى يفتقأ عين ملك الموت

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران ، فقال له : أجب ربك . قال : ( فلطم موسى عين ملك الموت ففقاها ) قال : ( فرجع الملك إلى الله ، فقال : إنك أرسلتنى إلى عبدك لا يريد الموت ، وقد فقا عيني ) قال : « فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة » .

وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة ( قال ثم مه ؟ قال : ثم تموت . قال : فالآن من قريب )<sup>(٣)</sup> .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهو الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخبرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله . وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية ، لأن عقولهم لا تستسيغها ، وقد نسوا أن أول صفات المؤمنين ، أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة ، فإذا صبح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾<sup>(٤)</sup> .

## سؤالهم العبد فى القبر وما يكون منهم فى المحشر والجنة والنار

سيأتى فى مبحث الايمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى ، ما يكون من الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد فى قبره ، وهذان هما منكر ونكير ، وأن منهم ملائكة يتعمون العباد فى قبورهم ، وآخرين يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين فى الجنة .

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٠ - ٣١

(٢) سورة الانعام آية : ٩٣

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام رقم ٢٣٧٢/١٥٨

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

### الملائكة والمؤمنون

تحدثنا في المبحث الماضي عن الدور الذي كلف الله الملائكة القيام به تجاه بنى آدم كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فما ذكرناه من تشكيلهم للنظفة ، وحراستهم للعباد ، وتبليغ الوحي ، ومراقبتهم للعباد وكتابة الأعمال ، ونزع الأرواح ، لا تختص بقسم من بنى آدم دون قسم ، ولا بمؤمن دون كافر .

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار ، - وستتناول دورهم وموقفهم من التريقين بالبيان والتوضيح .

### محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله تعالى اذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبه فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض ) (١) .

### تسديد المؤمن

روى الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : ( من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسده ) (٢) .

أما كيفية تسديده فالله أعلم به .

ومن هذا الباب مارواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسى ، فأطاف بهن ، ولم تلد إلا امرأة منهن نصف إنسان قال النبى ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته ) (٣) .

فالملك سدد نبى الله سليمان ، وأرشد الى الأصوب والأكمل .

### صلاتهم على المؤمنين

أخبرنا الله أن الملائكة تصلى على الرسول ﷺ : ( إن الله وملائكته يصلون على النبى ) (٤) وهم

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده رقم ٢٦٣٧/١٥٧

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه ج ٣ ص ٦١٣ ، كتاب الاجتماع باب ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى التاخى رقم ١٣٢٣

أنظر ابن ماجه كتاب الأحكام رقم ٢٣٠٩

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه ج ٣ ص ١٢٧٦ كتاب الايمان باب الاستثناء رقم ١٦٥٤/٢٥

(٤) سورة الاحزاب آية : ٥٦

يصلون على المؤمنين أيضا ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ (١)

\* والصلاة من الله تعالى : ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ، وقد يقال : لامنافة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم ، وهذا ماسنوضحه فيما يأتى .

## نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

- معلم الناس الخير :

روى الطبرانى والترمذى باسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول ﷺ قال : ( إن الله وملائكته حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير ) (٢) .

- الذين يؤمنون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم : ( إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صلّ عليه ، اللهم أرحمه ، مالم يؤذ فيه مالم يحدث فيه ) (٣) .

- الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن أبى داود وابن ماجه ومسنند أحمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : ( إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول ) . وفى سنن الترمذى ( إن الله ملائكته يصلون على الصف المقدم ) (٤) .

- الذين يكتفون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود فى سننه باسناد صحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ( الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ولم يحدث ، أو يقيم : اللهم اغفر له ، اللهم أرحمه ) (٥) .  
- الذين يسنون الفرج بين الصفوف :

فى سنن ابن ماجه ، ومسنند أحمد ، ومستدرك الحاكم باسناد حسن عن عائشة أن الرسول ﷺ قال : ( إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة ) (٦)

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٣

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٢٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٤٦٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٦٤٩/٢٧٦

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢٦٩ ، ٢٨٤ وعبد الرزاق فى مصنفه رقم ٢٤٥٠

(٥) أخرجه أبوداود فى سننه ج ١ ص ٣١٩ رقم ٤٦٩

(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه برقم ٩٩٥ ، أحمد ج ٦/٦٧ ، ٨٩ ، ١٦٠ والبيهقى فى السنن ج ٣ ص ١٠١ ، ١٠٣ والحاكم ١٢٤/١

- الذين يتسحرون :

وفي صحيح ابن حبان ومعجم الطبراني الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : ( إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين )<sup>(١)</sup>

- الذين يصلون على النبي ﷺ :

روى أحمد في مسنده ، والضياء في المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : ( مامن عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر )<sup>(٢)</sup>

- الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان في صحيحه باسناد صحيح عن علي أن رسول الله ﷺ قال : ( مامن امرئ مسلم يعود مسلماً إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك ، يصلون عليه في أى ساعات النهار كان ، حتى يمسي ، وأى ساعات الليل كان حتى يصبح )<sup>(٣)</sup> وفي رواية لأبي داود والحاكم ( مامن رجل يعود مريضاً ممسياً ، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، ومن أتاه مصباحاً خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسي )<sup>(٤)</sup> .

- هل لصلاة الملائكة علينا من أثر :

يقول تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾<sup>(٥)</sup>

الآية تفيد أن ذكر الله لنا في الملأ الأعلى ، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم له تأثير في هدايتنا وتخليصنا من الظلمات التي تعنى الكفر والشرك ، والذنوب والمعاصي ، إلى النور ، الذى يعنى وضوح المنهج والسبيل ، وبالتعرف على طريق الحق الذى هو الإسلام ، وتعريفنا بمراد الله منا ، وإعطائنا النور الذى يدلنا على الحق في الأفعال والأقوال والأشخاص .

- التأمين على دعاء المؤمنين :

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ففي سنن ابن ماجه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ( دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه ، كلما دعا له بخير قال : آمين ، ولك مثله )<sup>(٦)</sup> ولما كان الدعاء المؤمن عليه حرياً بالإجابة فإنه

(١) أخرجه أحمد في مسنده جـ ٣ ص ١٢ ، والمهشمى في مجمع الزوائد جـ ٣ ص ١٥٠ ابن حبان برقم ٨٨٠ والالب لباني سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٤

(٢) أخرجه الزبيدي في انحاف السادة المتقين ٤٨/٥ وأبونعيم في الحلية ١٨٠/١

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه ٢٦٨/٤ رقم ٢٩٤٧

(٤) أخرجه أبوداود ٤٧٥/٣ رقم ٣٠٩٨ والحاكم في المستدرک ٣٤١/١

(٥) سورة الاحزاب آية : ٤٣

(٦) أخرجه ابن ماجه في سننه جـ ٢ ص ٩٦٧ رقم ٢٨٩٥

لا ينبغي للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر ، ففي صحيح مسلم عن أم سلمة قال . قال رسول الله ﷺ :  
( لا تدعو على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يؤمنون على ما تقولون ) . (١)

استغفارهم للمؤمنين :

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن في الأرض ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ (٢) .

وأخبر في آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ، ينزهون ربهم ، ويخضعون له ، ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار ، ويدعونهم بأن ينجيهم من النار ، ويدخلهم الجنة ، ويحفظه من فعل الذنوب والمعاصي :

﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يؤمنذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٣) .

- شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

ففي صحيح البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي - ﷺ - قال : « إن الله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى نادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا » (٤) .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : ( ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ) (٥) .

وفي مسند الامام أحمد والسنن عن أبي الدرداء مرفوعاً : ( إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع ) (٦) أى تواضع له .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب في أغماض الميت والدعاء له ، إذا حضر رقم ٧/٩٢٠

(٢) سورة السورى آية : ٥

(٣) سورة غافر الآيات : ٧ - ٩

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ كتاب الذكر والدعاء - باب فضل جمالي الذكر رقم ٢٦٨٩/٢٥

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩/٣٨

(٦) أخرجه الامام أحمد في مسنده جـ ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

فالأعمال الصالحة كما ترى ، تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد في حالة عالية من السمو الروحي ، لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ، ومصافحتهم كما في الحديث الذي يرويه البخارى وغيرهما عن أنس رضى الله عنه عن النبى - ﷺ :

« لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة » (١).

« وفي سنن الترمذى عن أبى هريرة بإسناد صحيح : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحالة التى أنتم عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة بأكتفهم ، ولزارتكم فى بيوتكم ، ولولم تذنبوا ، لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم » (٢).

- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يثمنون الجُمع الأول ، فالأول . ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر » (٣).

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى وغيره عن رفاعه بن رافع قال : « كنا يوماً نصل وراء النبى - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف ، قال : من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يتبدرونها أيهم يكتبها » (٤).

فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين الذين يسجلون صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لأنهم بضعة وثلاثين ملكاً .

- تعاقب الملائكة فىنا :

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون الذكر ويشهدون الجمع والجماعات ، يتعاقبون فىنا ، فطائفة تأتى وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون فىكم ملائكة بالليل

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢١٠٦ كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة رقم ٢٧٤٩/٢١

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل ودام الذكر والفكر فى أمور الآخرة رقم ٢٧٥٠/١٢

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه ج ٢ ص ٥٨٧ كتاب الجمعة باب فضل التهجى فى يوم الجمعة رقم ٨٥٠/٢٤

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٣٣ ، ج ٢ ص ١٨ ، ١٤٧

وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون « (١) .

ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم . ففى البخارى ومسلم ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قام فينا رسول الله - ﷺ - بأربع كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار » (٢) - الحديث .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها . قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ (٣) .

- تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من ينتزل من السماء حين يقرأ القرآن فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينا هو في ليلة يقرأ في مريده ( الجرن ) إذ جالت ( وبثت ) فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ بحى فقممت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينا أنا البارحة عند جوف الليل أقرأ في مربدى إذ جالت فرسى فقال رسول الله ﷺ : ( أقرأ يا ابن حضير ) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : ( أقرأ يا ابن حضير ) قال : فأنصرفت وكان يحى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت في الجو حتى ما أراها فقال رسول الله ﷺ ( تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم ) (٤) رواه البخارى ومسلم ، ايلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ( إن لله ملائكة سياحين ييلغون عن أمتى السلام ) (٥) .

وفى معجم الطبرانى الكبير باسناد حسن عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال : ( إن لله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد فليس من أحد يصلى على إلا بلغنيها وإنى سألت ربي ألا يصلى على عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثاله ) (٦)

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر رقم ٢١٠/٢٣٧

- انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٢١٣ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٦٢ كتاب الايمان - باب في قوله عليه السلام - الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام رقم ١٧٩/٢٩٥

(٣) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب نزول السكينة لقراءة القرآن رقم ٧٩٦/٢٤٢

(٥) أخرجه الامام أحمد في مسنده ج ١ ص ٤٥٢ ، ج ٢ ص ٢٥١

انظر السنن الكبرى للنسائى ج ٣ ص ٤٣ كتاب الصلاة - باب السلام على النبي ﷺ .

(٦) أخرجه السيوطى في جمع الجوامع رقم ٦٩٤٧

أخرجه الذهبى في ميزان الاعتدال ترجمة اسماعيل بن ابراهيم رقم ٨٢٩ ج ١ ص ٢١٣



تبشيرهم المؤمنين : فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم فإنه سيرزق بذرية صالحة ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴿<sup>(١)</sup> وبشرت زكريا بيهي ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يشرك بيهي ﴿<sup>(٢)</sup> وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين بل قد تبشر المؤمنين ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : ( زار رجل أخا له فى قرى أخرى فأرصد الله له على مدرجته ( طريقة ) ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : ( لا غير انى أحبته فى الله عز وجل . قال : فأتى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه )<sup>(٣)</sup>

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ( أتانى جبريل فقال : يا رسول الله ! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه ادام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيها ولا نصب )<sup>(٤)</sup> .

الملائكة والرؤيا فى المنام : روى البخارى فى صحيحه فى باب التهجد عن عبد الله بن عمر رضى الله عنها قال : ( كان الرجل فى حياة النبى ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ وكنت غلاما شابا وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بى إلى النار فإذا هى مطوية كطى البشر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار قال : فلقينا ملك آخر فقال لى : لا ترع )<sup>(٥)</sup> أى لا تخف .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ( قال لى رسول الله ﷺ : ( أريتك فى المنام يحىء بك الملك فى سرقة من حرير فقال لى : هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فاذا أنت هى فقلت : إن يك هذا من الله يتمه )<sup>(٦)</sup> .

يقاتلون مع المؤمنين ويشتونهم فى حربهم : وقد أمد الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة فى معركة بدر قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴿<sup>(٧)</sup> وقال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنت أذلة فأتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن

(١) سورة الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨

(٢) سورة آل عمران آية : ٣٩

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة وآداب باب فضل الحب فى الله رقم ٢٥٦٦/٣٧

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة - باب فضائل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٢٤٣٢/٧١

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ٦١ كتاب الجمعة باب التهجد بالليل .

(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٨٨٩ ، كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم ٢٤٣٨/٧٩

(٧) سورة الانفال آية : ٩

يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴿١﴾ .

وقد قال الرسول ﷺ : في يوم بدر : « هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب » (٢) وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الامداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقاتل اعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم قال تعالى : ﴿ وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (٣)

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ (٤) .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائئين ﴾ (٥) . وقد رأى الرسول ﷺ - الملائكة فى يوم بدر ففى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ - لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضى الله عنه وهما يدعوان أخذت الرسول ﷺ - سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال : ( أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثنياه النقع ) (٦) .

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين ، صوت ضربة لملك يضرب أحد الكفار وصوته ، وهو يزجر فرسه ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس ( بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط ، فأحضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله ﷺ - فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة ) (٧) .

وقد حاربت الملائكة فى مواقع أخرى ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾ (٨) . والمعنى بالجنود التى لم يروها الملائكة كما ثبت فى الصحاح وفى غيرها أن جبريل جاء الرسول ﷺ - بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنياه جبريل النقع ( الغبار ) وكان الرسول ﷺ - يغتسل فقال للرسول ﷺ - ( أوضعتم سلاحكم فإننا لم نضع سلاحنا بعد فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة )

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٢٣ - ١٢٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٥ ص ١٠٣ باب شهود الملائكة بدرأ .

(٣) سورة الانفال آية : ١٠

(٤) سورة الانفال آية : ١٢

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٢٦ - ١٢٧

(٦) أخرجه ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٣ ، دلائل النبوة للبيهى ج ٣ ص ٥٤

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٣ ص ١٣٨٥ - كتاب الجهاد والسير باب الامداد بالملائكة فى غوة بدر رقم ١٧٦٣/٥٨

(٨) سورة الأحزاب آية : ٩

حمايتهم للرسول ﷺ : روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقيل نعم فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه في التراب قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليظاً على رقبته ، قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ، ويتقى بيديه قال : فقيل له : مالك ، فقال إن بنى وبينه لخنديقاً من نار وهو لا واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - ( لودنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً )<sup>(١)</sup> . ورواه البخارى في صحيحه بأخصر من رواية مسلم في كتاب التفسير .

حمايتهم ونصرتهم لصالحى العباد وتفريج كربهم : وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين ، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره ، ففى تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا ﴾ قال : ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال هذا الرجل : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت : لا خبرة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب ، فسلكناهما فانتبهنا إلى مكان وعمر ، ودار عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فنزل وتشمم وجمع عليه ثيابه ، وسل سكيناً معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه . وتبعنى ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه ، فقال هو لى ، وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة ، فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إني أريد أن تتركنى حتى اضلى ركعتين ، فقال : عجل فقممت فارتج على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيراً ، وهو يقول : هيه أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله : ( أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْشِفُ السُّوءَ ) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى ويده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعاً ، فتعلقت بالفارس ، وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء .

قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً ، ومن ذلك أرسل الله جبريل لاغاثة أم اسماعيل فى مكة ففى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قصة مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة ( وهى قصة طويلة ) أن أم اسماعيل ، سعت سعى الانسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات ، تبحث عن الماء فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتاً ، فقالت : ( صه ) تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت : قد اسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فقال لها الملك : ( لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله بينه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله )

وفي سنن النسائي بإسناد صحيح أن هذا الملك الذي جاءها هو جبريل (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل ، تجمع البطحاء رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معينا) (١) .

شهود الملائكة لجنائز الصالحين : قال الرسول ﷺ في سعد بن معاذ ( هذا الذي تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمة ، ثم فُرج عنه ) (٢) رواه النسائي عن ابن عمر بإسناد صحيح .

اظلالها للشهيد بأجنحتها : في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنها - قال : لما قتل أبي ، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي ، وينهوني ، والنبي ﷺ لا ينهاني ، فجعلت عمق فاطمة تبكي ، فقال النبي ﷺ : ( تبكين أولا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه ) (٣) .

وبهذا ينتهى المبحث الخاص بعالم الملائكة في ضوء الكتاب والسنة .

### خاتمة سورة المدثر الحديث عن أهل سقر

قال تعالى :

كَلَّا وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (٣٥)  
نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (٣٦) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨)  
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ (٤٤) وَكُنَّا نَخْوُضُ  
مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَلْنَا الْيَقِينَ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفِيعَةُ الشَّفَاعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ

(١) أخرجه السيوطي في جمع الجوامع رقم ٦٤٥٥ وكتر رقم ٣٤٧٦٧

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ج ٤ ص ١٠٠ ، ١٠١ كتاب الجنائز باب صفة الغير وضغطته .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٩١/٢ في كتاب (الجنائز) باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في كفته .

مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُمُرٌ مِّنْ دُحَانٍ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ  
 أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مِّنْثَرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يُخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرَةٌ ﴿٥٤﴾  
 فَمَن شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ  
 الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

### معاني المفردات

﴿ إذا أدبر ﴾ دبر وأدبر بمعنى ولى وانصرم ﴿ إذا أسفر ﴾ أضواء وظهر ﴿ الكبير ﴾ جمع كبرى أنثى  
 الأكبر ﴿ رهينة ﴾ يقال رهن الشيء رهناً ورهينة ، وهو الشيء المرهون وثيقة لشيء آخر ﴿ ما سلككم ﴾  
 ما أدخلكم ﴿ المصلين ﴾ الصلاة في اللغة الدعاء والدين ، وشرعاً تطلق على الصلاة المعروفة ، والمراد  
 المعنى اللغوي لا الشرعي ﴿ نخوض مع الخائضين ﴾ نكذب مع الكذابين ، وأصل الخوض الذهاب في  
 الماء ثم نقل إلى الذهاب في الكلام ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام . ﴿ اليقين ﴾ الموت  
 ﴿ التذكرة ﴾ المراد القرآن ﴿ مستنفرة ﴾ نافرة من نفسها ﴿ قسورة ﴾ أسد ﴿ صحف منشرة ﴾ الصحف  
 القراطيس التي تكتب وتتداولها أيدي الناس والمنشرة المبسوطة المفتوحة .

### أضواء كاشفة

لقد تكلم المشركون في خزنة جهنم وعددهم ، واتخذوا ذلك مادة لسخريتهم واستهزائهم ، فضلوا  
 ضللاً بعيداً ، والقرآن هنا يزعجهم عن ذلك ويردعهم بكلمة زاجرة هي ( كلا ) ثم أقسم بالقمر ، والليل  
 إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر على أن سقر هي إحدى الكبير ، أما قسمه بهذه الأشياء فإنه للفت أنظار  
 المشركين إلى تلك الآثار الباهرة ، التي تدل على قدرة الله القادرة ، على أن هذا التقلب والتغيير من حال  
 إلى حال ، ومن نور إلى ظلام ، ثم منه إلى ضياء دليل على جواز البعث والانتقال من حال الفناء إلى حال  
 الحياة .

أقسم بالقمر ونوره كيف ينشأ صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً حتى المحاق ، وهذا الليل  
 بجحافله وسكونه وهدوئه ، وموت الطبيعة فيه ، ثم يأتي الصبح بأضوائه اللامعة ووجهه المشرق وحياته  
 الحافلة ، أقسم بهذا كله على أن جهنم المعدة للكافرين ، الذين يتخذون القرآن عضيض ، هي إحدى  
 الكبير من جهة أنها نذير للبشر لمن شاء منكم أيها البشر أن يتقدم للخير ، ولن شاء أن يتأخر بفعل الشر ،  
 نعم هي نذير لهؤلاء الذين يخافون يوماً عبوساً قمطريراً .

هذا إنذار للعالمين والعصاة المذنبين ، مع العلم أن كل نفس بما كسبت مرهونة ، أى أن النفس مرهونة بعملها ، فإن كان خيراً ، فك رهنها وحبسها ، وإن كان شراً ، فستظل حتى تستوفي عقابها ، وعلى ذلك فالعصاة نفوسهم مرهونة بعملهم الشر ، والمؤمنون أصحاب اليمين ليست نفوسهم مرهونة ، لأنهم أدوا ما عليهم ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ . فإنهم في جنات مكرمون ، على سرر متقابلون ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتساءلون ، أى يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين المكذبين ، ما حالهم ؟ ولعلمهم يعرفون الجواب ، ولكن هذا يساق زيادة في تبيكيت المجرمين وإيلاهم ، وإمعاناً في سرور المؤمنين أصحاب اليمين ، يتساءلون عنهم ، فيطلون عليهم ، وهم في جهنم فيقولون لهم : ما سلككم في سقر ؟ وما الذى أدخلكم في جهنم ؟ قالوا لهم : الذين سلكنا أننا لم نك من المصلين ، ولم نك ندعو الله رب العالمين ، بل كنا ندعو غيره ونشرك به سواه ، وأنا لم نك نطعم المسكين المحتاج ؟ بل كنا ننفق للدنيا وللرياء ، وكنا نكذب مع المكذبين ، ونخوض مع الخائضين في هراء الكلام وفاسده ، وكنا نكذب بيوم القيامة ، ولا نصديق به ، وظللنا على هذا الحال ، حتى أتانا اليقين الذى لا شك فيه كالموت ، وهذا العذاب الذى نقاسيه اليوم .

إذا كان الأمر كذلك ، فما تنفع هؤلاء شفاعة الشافعين ، ومن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ وهذا رد عليهم في دعواهم أن الآلهة تشفع عند الله لهم .

عجباً هؤلاء بعد هذا البيان الساطع ، فما لهم عن القرآن معرضين ؟ أى شيء حصل هؤلاء ، حتى يعرضوا عن كلام رب العالمين ، مالك يوم الدين .

ما لهم يعرضون ويفرون ؟ كأنهم حمر - المراد حمر الوحش - نافرة من نفسها وطبعها - وقد فرت من أسد ، إن أمر هؤلاء لعجب .

بل - وهذا إضراب عن إعراضهم ونفورهم مما فيه سعادتهم وخيرهم كالحیوان - واستمع لما هو أعجب وأغرب ، بل يريد كل امرئ منهم أن تنزل عليه صحف من السماء مبسوطة ، تأمره باتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

كلا وألف كلا ، بل هم لا يخافون الآخرة ، ولا يرجونها أصلاً ، فهذا هو السبب ، وطلبهم الصحف المنشرة ضرب من العبث واللغو ، فأعرض عن هذا ولا تسمع لهم في شيء .

كلا ، إن القرآن تذكرة وعظة لمن يريد الآخرة ، ويؤمن بالغيب ، وفيه استعداد للخير ، فمن شاء ذكره واتعظ به وآمن ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ذلك بالقهر والالقاء ، لكن الله ترك الإيمان والكفر لاختيار العبد ، الذى هو مناط الثواب والعقاب ، وقيل المعنى : وما يذكرون في حال من الأحوال إلا في حال أن يشاء الله لهم ذلك ، إذ الأمر كله له ، هو الله أهل لأن يتقى ويحذر عقابه فلماذا لا تتقون ؟ وهو أهل للمغفرة فلماذا لا تصلحون أعمالكم ؟ وتتوبون لربكم وتتوبون لرشدكم ؟ !!

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ﴾ أى ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أى العظامم يعنى النار ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف ﴿ نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أى لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

ويحدثنا العلامة ابن القيم فى كتابه ﴿ التبيان فى أقسام القرآن ﴾ فيقول :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل ، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه - ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسما وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها ما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته . ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين ، وجدهما من أعظم الآيات فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع فى حركتهما إختلاط بالبطء ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ، ولا يجرى أحدهما فى فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه فى سلطانه ، ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر أمر ، وتدبير مديبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم التى فى خلقها ما لا تصل إليه عقولهم ، ولا تنتهى إلى مبادئها أو هامهم ، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا عذاب النار ﴾ (١) .

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيوط متسخرن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضواً شىء وأحسنه وأجله ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حاله الأول ، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين ، وحساب أجال العالم : من مواقيت حجهم ، وصلاتهم ، ومواقيت أجاتهم ، ومدائنتهم ، ومعاملاتهم التى لا تقوم مصالحهم إلا بهما ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهله .

وقد ذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه : أحدها قوله : ﴿ يسألونك عن الأهله قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ (٢) .

(١) آل عمران آية : ١٩١

(٢) البقرة آية : ١٨٩

والثانية قوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (١).

والثالثة قوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً ﴾ (٢). فلولاً ما يحدثه الله سبحانه فى آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانها ، لم يعلم ميقات الحج ، والصوم والعدد ، ومدة الرضاع ، ومدة الحمل ، ومدة الاجارة ، ومدة آجال الحملات .

فإن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس ، قيل : هذا وإن كان ممكناً ، إلا أنه يعسر ضبطه ، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس ، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور ، وأواسطها ، وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس ، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطراباً واختلافاً ، ولا يحتاج إلى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرف من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر وأنفع وأصح . وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس ، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته وعلمه وتدبيره ، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها ، فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغير ، ولا يمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً ، وافتقاره الى محل يقوم به ، وسيره دائباً لا يفر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئاً فشيئاً ، ثم عوده إليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة ، حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف - علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له ، كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً ، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهى إلى الانقطاع والسكون . وأن هذا الضوء والنور ، لا بد أن ينتهى إلى ضده ، وأن هذا السلطان ، لا بد أن ينتهى إلى العزل ، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التى عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتشارها ، وعباد السماء انقطارها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها فى النار ، أحقر شيء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل فى الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه فى اليم ، وكما أرى الأصنام فى الدنيا صورها مكسرة مخردة ملقاة بالأمكنة القذرة ، ومعاول الموحدين ، قد هشمت منها تلك الوجوه ، وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدي والأرجل ، التى كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام ، وهذه سنة الله التى لا تبدل ، وعادته التى لا تحول ، أنه يرى عابد غيره حال معبوده فى الدنيا والآخرة . وإن كان المعبود غير راض بعبادة

(١) يونس آية : ٥

(٢) الإسراء آية : ١٢



غيره ويريه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه : ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة ﴾ (١) ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل  
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير فى الشمس ، ولو شاء لغيرهما معاً ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يرى عباده آياته فى أنواع تصاريدها ، ليدلهم على أنه الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ (٢) .  
وأما تأثير القمر فى ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى النبات ، وجزر البحر ومده ، وبحرانات الأمراض ، وتنقلها من حال إلى حال ، وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .

وما أقسامه سبحانه بالليل إذا أدبر ، فلما فى ادباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذا أقبل من النهار داعيه وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور ، يقول قائلهم : ( الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور ) فهو معاد جديد بداه وأعاده الذى يبدى ويعيد . فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟ .

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواص الأرض بتباشيره وبشائره .  
فيألهما آيتان شاهدتان بوحداية منشئهما ، وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار . فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ؟ ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهيئهم الحياة ، مع فقد لذة النور وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدوء ، لراحة أبدانهم وجوهم حواسهم . فلولا جنوم هذا الليل عليهم بظلمته ، ما هادأوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً ، كما جعل النهار ضياء ومعاشاً ، ولولا الليل وبرده ، لاحتزقت أبدان الحيوان والنبات من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق عليها من نبات وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ، أن جعلها سراجاً يطلع على العالم فى وقت حاجتهم إليه ، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه ، فطلوعه لمصلحتهم وغييبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما ، متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، والليل سرمداً إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما في ذلك من مصالح الخلق ، ففي الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواء ، فيتولد منه السحاب وينعقد ، فيحدث المطر الذي به حياة الأرض . ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع . وفي الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجفف وجه الأرض ، فيتهيأ العمل ، وفي الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين ، تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة ، فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها ، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب إلى الضبط ، واشترك الناس في العلم به . وقدر أحكم الحاكمين تنقلها في منازلها ، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعدها ، لما وصل ضوءها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك ، فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض ، لينال نفعها وتأثيرها البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع ، التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها ، واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منها من صاحبه ، ومنتهى كل منها إذا امتد خمسة عشر ساعة ، فلوزاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً . أو أكثر ، لاختل نظام العالم وفسد أكثر النبات والحيوان ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويا دائماً ، لما اختلفت فصول السنة ، التي باختلافها مصالح العباد والحيوان ، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ، ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٢) . وقال تعالى : ﴿ فالتق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٣) . فهذه ثلاثة مواضع ، يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية ، وما ينشأ عنها ، كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغنيات .

(١) يس الآيتين : ٣٧ - ٣٨

(٢) فصلت الآيات : ٩ - ١٢

(٣) الأنعام آية : ٩٦

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهي القمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر - على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته ، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما ، وفي إبداء النور وإعادته في القمر ، وفي إبداء الزمان وإعادته ، الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة وإعادتها ، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد ، الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ومنقولة ، ومعقولة ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان ، فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ (١) .

ولما أقام الحجة وبين المحجة ، ارتهن كل نفس يكسبها ، وآخذها بذنوبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه ، واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمي المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات ، أخرجتهم من زمرة المفلحين ، وأدخلتهم في جملة الهالكين : ( الأولى ) : ترك الصلاة ، وهي عمود الإخلاص للمعبود .

( الثانية ) : ترك إطعام المسكين الذي هو مراتب الإحسان للعبيد ، فلا إخلاص للخالق ، ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ (٢) وقال : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ (٣) ، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٤) .

وقال : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٥) وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه : فأمر بها تارة ، وأثنى على فاعليها تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركها تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما .

الصفة الثالثة والرابعة : الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ، وبقينهم وكلامهم ، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين شكاً وتكديباً ، وبالكلام النافع خوضاً في الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً وجفلوا عن سماعها كما تجفل حر الوحش من الأسد أو من الرماة .

(٤) الأنفال آية : ٣

(٥) السجدة آية : ١٦

(١) الفرقان آية : ٣

(٢) الماعون الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) التوبة آية : ٥٤

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم ، بإثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالأول عدله ، والثاني فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب ، والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم . بل أشد ، والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ : يقول تعالى مخبراً أن ( كل نفس بما كسبت رهينة ) أى معتقلة بعملها يوم القيامة ، قال ابن عباس وغيره ( إلا أصحاب اليمين ) فإنهم ( فى جنات يتساءلون عن المجرمين ) أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسننا إلى خلفه من جنسنا . ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم : وقال قتادة : كلما غوى غاوى غويناً معه . ﴿ وكنا نكذب ببيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعنى الموت كقوله تعالى : ﴿ وأعبد ربك حتى يأتيتك اليقين ﴾ (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أما هو - يعنى عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه ) قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أى من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنفع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أى فما هؤلاء الكفرة الذين قبلك ، عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أى كأنهم فى نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش ، إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد . وقال حماد بن سلمة بسنده عن ابن عباس : الأسد بالعربية ويقال له بالحبشية قسورة وبالفارسية شير ، وبالنبطية أوبا .

وقوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسورة ﴾ أى بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب ، كما أنزل الله على النبی صلى الله عليه وسلم قال مجاهد وغيره كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٢) ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أى إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها . ثم قال تعالى : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أى حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أى هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

(١) الحجر آية : ٩٩

(٢) الأنعام آية : ١٢٤

وقال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ( هو أهل التقوى وأهل المغفرة ) وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له ، » (١) .

هل عرفت ما للقرآن الكريم من مكانة فى اللوح المحفوظ ؟ قال تعالى : ﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (٢) .

وهل تأملنا بقلوبنا قول الله جل جلاله عن الكتاب العزيز والقرآن العظيم : ﴿ كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ﴾ أى من شاء الوصول إلى دار السعادة والنعيم ، فليذكر ما فى هذا الكتاب من مواظب وهداية ، وقصص وعقيدة وأحكام وتشريع ووعد ووعيد ، صدقت يا ربنا ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويشرح المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ (٣) .

### فضل القرآن يوم الحشر

وليس فضل القرآن مقصوراً على الدنيا وحدها ، إنما فضله ، يتعدى إلى ما بعد الموت ، من بعث وحشر ونشر وحساب ، وميزان وصراط وجنة ونار . نعم إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، ونحن هنا بصدد الحديث عن فضل القرآن فى رحاب قوله تعالى فى ختام سورة المدثر : ﴿ كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ فتقول :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، يا خير خلق الله على الإطلاق . نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ومحوت الظلمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين .

وبعد : فإن ماديات الحياة قد تطفئ على روحانياتها ، وهنا تتمرغ النفس فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وتحاول أن تجد لها منفذاً تنفذ منه لتنشق النسيم العاطر ، نسيم الروح فتطاردها الدنيا ، وعندئذ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ومن هنا فإن الاسلام يضع معالم الهداية على طريق يؤدى إلى عالم الخلود ، فينادينا سبحانه وتعالى منها وعذراً ومذكراً : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ (٤) .

إنها أمارات كبرى ، وعلامات خطيرة ، تختل لها قوانين الكون ، ليجعلها الله تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

(١) أخرجه الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٤٢

(٢) الزخرف الآيات : ١ - ٤

(٣) الإسراء آية : ٩

(٤) الانقطار الآيات : ١ - ٥

أنظر يا أخا الاسلام إلى هذه السماء المتقنة الصنع ، التي أخبر الله عنها بقوله : ﴿ وما لها من فروج ﴾ <sup>(١)</sup> وأخبر عنها بقوله : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ <sup>(٢)</sup> وأخبر عنها بقوله : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها ﴾ <sup>(٣)</sup> هذه السماء التي تحدى بها الله البشرية جمعاء بقوله : ﴿ الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ <sup>(٤)</sup> ثم يزيد التحدى تحدياً فيقول : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ <sup>(٥)</sup> .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود عل وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً	وكل الكائنات توحدها
أنت الاله الواحد الحق الذي	كل القلوب له تقرر وتشهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى	وإلى علاك علا الجبين الساجد

هذه السماء ، التي من أخص خصائصها أن ليس لها فروج ، ولا شقوق ، ولا فطور ، أول ما تصب به عند البعث أنها تشقق ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ <sup>(٦)</sup> .

هذه حال السماء فما حال الكواكب التي تسير في أفلاكها بنظام دقيق بديع ، هذا الخلق العظيم الذي لم يستطع العلم بجبروته أن يقتحم عليه أسرارهِ المنيعه ، والذي عندما أراد العلم أن يرفع رأسه فخوراً بما اكتشفه من هذا العالم الغامض ، قال إننا لم نكتشف إلا جزءاً يسيراً ، هذا الجزء اليسير يشتمل على ألف مليون مجموعة شمسية ، كل مجموعة تحتوى على ألف مليون نجم ، أقل نجم في هذه المجموعة شمسا تلك التي تنير الكوكب الأرضي ، وباقي العالم لا يعلمه إلا من أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، وهذا الموقف يذكرني بنشيد كنا نردده في مراحل التعليم الأولى ونحن براعم لم تتفتح بعد . كان نشيد الصباح الذي نردده كما يلي :

ذات الغصون النظرة  
وكيف صارت شجرة  
يخرج منها الثمرة  
أنعمه منهمرة  
وقدرة مقتدرة  
جذوتها مستعرة

انظر لتلك الشجرة  
كيف نمت من حبة  
فانظر وقل من ذا الذي  
ذاك هو الله الذي  
ذو حكمة بالغه  
أنظر إلى الشمس التي

(١ ، ٢) سورة ق آية : ٦

(٣) سورة النازعات آية : ٢٧

(٤ ، ٥) سورة الملك آية : ٤ - ٤

(٦) سورة الفرقان الايتان : ٢٥ - ٢٦

فيها ضياء وبها	حرارة منتشرة
من ذا الذي أوجدها	في الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة
أنظر إلى المرء وقل	من شق منه بصره
من الذي جهزه	بقوة مبتكرة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرته مقتدرة
انظر إلى الليل فمن	أوجد فيه قمرة
وزانه بأنجم	كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذي	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

هذه بعض مظاهر القدرة ، وبعض مشاهد الخلق الذي أبدعته يد الله :

سل الواحة الخضراء والماء جارياً  
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا  
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى  
سل الليل والاصباح والطير شادياً  
سل هذه الأنسام والأرض والسماء  
وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا  
فلو جن هذا الليل وأمتد سرمداً  
فمن غير رب يرجع الصبح ثانياً  
ولو غاض هذا الماء في القاع هل لكم  
سوى الله يجريه كما نشاء راوياً

سبحانك يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، أرأيت إلى هذه الكواكب يا أخا الاسلام ، كيف تنثر وهي تسير في أفلاكها كما تسير السفينة في ساحات البحار ، وفي مساحات شاسعات تنثر هذه الكواكب كما تنثر حبات العقد إذا انفرط سلكه ؟ إنه إنذار شديد اللهجة بأن هناك محكمة ، وبأن هناك يوماً يجعل الولدان شيباً .

ويأتى المشهد الثالث من مشاهد القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ هذا مشهد أرضى بعد المشاهد العلوية من انشقاق السماء وانتشار الكواكب ، يلتقى المشهد الأرضى بالمشاهد العلوية إيذاناً وإعلاناً ببداية حياة جديدة ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة الغائبة الزائلة ﴿ وإذا البحار

فجرت ﴿١﴾ وما أدراك ما البحار ، خلق عظيم ، الداخِل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود .

ومعنى تفجير البحار هنا ، يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس : فجر الله بعضها في بعض ، وقال قتادة اختلط عذبا بملحها ، وقال آخرون ملكت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ ﴿٢﴾ وهذا هو الموقف المحتوم والمصير المعلوم ، فبعد انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، يأتي الدور على القبور ، وهى مساكن الموتى ، وأرحام ستدفع ما فيها للولادة الثانية ، فالولادة الأولى كانت من بطون الأمهات ، وتأتى الولادة الثانية من أرحام القبور . ومعنى ( بعثت ) كما قال ابن عباس رضى الله عنه بعثت ، وقال السدى : تحرك تبعثر ، فيخرج من فيها ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ ﴿٣﴾ ومصداق قوله جل شأنه : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾ ﴿٤﴾ ثم تأتى النتيجة المترتبة على تلك المقدمات وهى قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ ﴿٥﴾ وهذه هى الجملة الواقعة جوابا للشرط ( إذا ) أى إذا ما تقدمت من الخير ففعلته وأدته ، وما سوقت فيه من الأعمال فلم تؤده ، ومن هنا ، فإن آيات الكتاب العزيز عندما تحث على أى عمل من أعمال الدنيا ، تخاطب المسلم بأسلوب رقيق فيه طمأنينة ورحمة ، وعدم عجلة وسرعة ، قال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ﴾ ﴿٦﴾ فلم يقل تعالى : فسارعوا ولا سابقوا وقال تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ ﴿٧﴾ فالأمر هنا بالمشى لا بالمسارعة ولا بالمسابقة ، أما إذا كان الأمر أمر الآخرة ، فإن أسلوب القرآن ، يدعو الى التعجيل بفعل الخير . والمسابقة فيه والمسارعة ، قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ﴿٨﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ ﴿٩﴾ وقال جل شأنه : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ﴿١٠﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ ﴿١١﴾ .

(٧) الملك آية : ١٥

(٨) الصفات آية : ٦١

(٩) المطففين آية : ٢٦

(١٠) الحديد آية : ٢١

(١١) آل عمران آية : ١٣٣

(١) الانفطار آية : ٣

(٢) الانفطار آية : ٤

(٣) الزمر آية : ٦٨

(٤) ق الآيات : ٤١ - ٤٤

(٥) الانفطار آية : ١٠

(٦) الجمعة آية : ١٠



هذا لتعلم كل نفس أنها ميسيس الحاجة إلى ما قدمت من خير ، وأنه لا يليق بها أن تؤخر فعل الخيرات .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ (١) وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ (٢) وبعد هذه المقدمات يخاطب الله العباد خطاب تحذير وتذكير :  
﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ (٣)

قال ابن عمر : غره والله جهله ، وروى عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : ( ما غرك بربك الكريم ) شىء ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .  
وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى ما غرك بى لقلت ستورك المرحاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى ما غرك بربك الكريم لقلت غرنى كرم الكريم .  
وقال بعض أهل الإشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بباطل ؟ لأنه إنما أتى باسمه الكريم ، لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور .

وقوله تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ أى ما غرك بالرب الكريم ( الذى خلقك فسواك فعدلك ) .

أى جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال ، قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن مجاشد القرشى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ، قال مجاهد فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم .  
وقال ابن جرير بسنده عن موسى بن على ابن رباح قال حدثنى أبى عن جدى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال له : ما ولد لك ؟ قال يا رسول الله ما عسى أن يولد لى إما غلام وإما جارية ، قال فمن يشبه ؟ قال يا رسول الله من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى - صلى الله عليه وسلم -

(١) المائة آية : ٤٨

(٢) آل عمران آية : ٣٠

(٣) الانتظار الآيات : ٦ - ٨

(٤) أخرجه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

عندها : ( مه لا تقولن هكذا إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية في كتاب الله تعالى : ( في أى صورة ما شاء ربك )<sup>(١)</sup> قال : شكلك .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن إمرأتى ولدت غلاماً أسود . قال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : فهل فيها من أورك ؟ قال : نعم ، قال : فأنى أتأها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق<sup>(٢)</sup> .

قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق ، وقد قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ في أى صورة ما شاء ربك ﴾ إن شاء في صورة القرد وإن شاء في صورة خنزير .

قال قتادة : ﴿ في أى صورة ما شاء ربك ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك ، ومعنى هذا القول أن الله تعالى قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه ، وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهئية . وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾<sup>(٣)</sup> أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالميعاد والجزاء والحساب .

(١) أخرجه الألبانى في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ ويرقم ١١٤٣

(٢) أخرجه ابن كثير في تفسيره ٣٦٥/٨

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ١١٣٧ كتاب اللعان رقم ١٠٠/٢٠

(٤) الانفطار آية : ٩

## تفسير سورة القيامة

مقدمة :

قال العلامة مجد الدين يعقوب الفيروز ابادى فى «بصائر ذوى التمييز» :  
السورة مكية ، وآياتها أربعون ، وكلماتها مائة وتسع وتسعون ، وحروفها ثلاثمائة واثنان وخمسون .

فواصل آياتها ( يقرأه ) .

سميت سورة القيامة ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هول القيامة ، وهيتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أعيان العالم ، وبيان جزاء الأعمال ، وآداب سماع الوحى ، لوعده باللقاء والرؤية ، والخبر عن حال السكرة ، والرجوع إلى بيان برهان القيامة ، وتقرير القدرة على بعث الأسواق فى قوله تعالى :  
﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

## المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ لَا أَقْسِمُ بِتَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أعاد ، فقال : ﴿ وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : إنه سبحانه أقسم بهما ، والثانى : لم يقسم بهما ، والثالث : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة .

قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وكرره فى الآية الثانية ﴿ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ ، الأول عبارة عن بياض العين . بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وفيه قول ثان - وهو قول الجمهور من المفسرين - أنها بمعنى واحد . وجاز تكراره لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول . . . قوله : ﴿ أُولَى لَكَ فَأُولَى ﴾ كررها مرتين ، بل كررها أربع مرات فإن قوله : ﴿ أُولَى لَكَ ﴾ تمام الظم ، بدليل قوله : ﴿ فَأُولَى لَهُمْ ﴾ ، فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه للتهديد ، وإنما كررها لأن المعنى : أولى لك الموت ، فأولى لك العذاب فى القبر ، ثم أولى لك أهوال القيامة ، فأولى لك عذاب النار . نعوذ بالله منها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ذكر فى السورة السابقة قوله : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴾ وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم البعث ، وذكر هنا الدليل عليه بآتم وجه ، فوصف يوم القيامة وأحواله ، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ ۖ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ  
تَجْمَعَ عِظَامُهُ ۖ بَلَىٰ قَدَرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ ۖ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ  
أَمَامَهُ ۖ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ ۖ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۖ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۖ  
وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۖ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُ ۖ كَلَّا لَا وَزَرَ  
إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ۖ يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۖ بَلِ  
الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۖ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۖ لَا تُحَرِّكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ  
بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۖ فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا  
بَيَانَهُ ۖ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۖ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ۖ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ  
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ۖ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۖ

### معاني المفردات

(لَا أُقْسِمُ) يرى قوم أن (لَا) نافية ردُّ لكلام قد تقدم وجواب لهم ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم ، ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة : أن البعث حق لا شك فيه . ويرى جمع من المفسرين : إنها للنفس على معنى أنى لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك . (النَّفْسِ اللَّوَامَةِ) قال مجاهد هي التي تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لم فعلته ؟ وعلى الخير لم لم تستكثر منه ؟

(بَلَىٰ) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفيًا ، فالمراد بها هنا نعم فجمعها بعد تفرقها .

(بَنَانُهُ) البنان : واحده بنانة وهي الأصابع .

(لِيَفْجُرَ) : ليدوم على فجوره في الحاضر والمستقبل لا يترع عنه .

(بَرِقَ) : تحير فرعاً .

( خَسَفَ الْقَمَرُ ) ذهب ضوءه .  
 ( أَيْنَ الْمَفَرِ ) أى : إلى أين الفرار .  
 ( الْوَزَرَ ) : الملجأ ، وأصله الجبل المنيع .  
 ( يُنبَأُ ) أى : يخبر .  
 ( بَصِيرُهُ ) أى : حجة شاهدة على ما صدر منه .  
 ( مَعَاذِيرُهُ ) المعاذير : ما يعتذر به .  
 ( لِيَتَعَجَّلَ بِهِ ) أى : لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك .  
 ( قُرْآنَهُ ) أى : قراءته أى : إثباتها فى لسانك .  
 ( قُرْآنَاهُ ) أى : قرأه جبريل عليك .  
 ( فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ) أى : فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك .  
 ( بَيَانَهُ ) أى : تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ما أشكل معانيه .  
 ( الْعَاجِلَةَ ) دار الدنيا ، ( نَاضِرَةً ) أى : مهللة بشراً بما ترى من النعيم ، ( نَازِطَةً ) أى : تنظر إلى ربه عياناً بلا حجاب ، ( بَاسِرَةً ) أى : شديدة العبوس كالحلة متغيرة مسودة ، ( تَظُنُّ ) أى : تستيقن ، ( فَاقِرَةً ) أى : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بيوم القيامة ، وعظيم أهواله ، وبالنفس اللوامة ، التى تندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه وقسمه سبحانه وتعالى بيوم القيامة وتفخيم شأنه ، والله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جبیر . سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

وقال العلامة ابن القيم : فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررهما أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس إلى معرفتها ، والایمان بها ، وأمر رسوله أن يقسم عليها كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِي وَرَبِّ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّ لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّ لَتُعْثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّيَنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها ، يأمر نبيه أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه وتعالى من النبوة والقرآن والمعاد .

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكديباً .

واختلف في النفس المقسم بها ههنا ، هل هي خاصة أو عامة ؟  
على قولين بناء على الأقوال الثلاثة في اللوامة - فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون أزداد إحساناً ، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجوع عن إساءته .  
والقول الثاني : أنها خاصة . قال الحسن : هي النفس المؤمنة وأن المؤمن - والله - لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حاله ، لأنه يستقصيها في كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه ، وأن الفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه .

والقول الثالث : إنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل .  
وهي النفس الكافرة التي تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله .  
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والأظهر أن المراد نفس الانسان مطلقاً فإن نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم - سبحانه - بجنس النفس في قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلْ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ فهذا اللوم غير محمود . فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وعلى جزائها كقوله : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِفَّنَّ أَجْمَعِينَ ﴾ وعلى تباین عملها كقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ وكل نفس لوامة ، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر ، وترك الخير . فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

### مناسبة الجمع بين القسمين في الذكر

وجمع - سبحانه - وتعالى - في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ، ومحل الكسب ، وهو النفس اللوامة ، ومنه - سبحانه - بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرضها للخير والشر ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه ، فيجعلها مريدة للخير ، مرشدة له ، كارهة للشر محانية له ، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ، ولأنها متلومه مترددة ، لا تثبت على حال واحدة ، فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها فتؤثره ، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق ، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه .

ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وإنها لا غنى لها عن ذلك ،

ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة ، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوَّ بَنَانَهُ ﴾ أى : أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه ، فنحن قادرون على أن نسوى بنانه وأطراف يديه ورجليه ونجعلها مستوية . قال ابن القيم :

وفى ذكر البنان لطيفة ، وهى أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على دون ذلك أقدر ، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل : إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها . وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينهما ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأق لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين .

والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرقة ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته - سبحانه - على جمع العظام التى فرقها ولم يجمعها . والأول استدلال بقدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، هو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام وأطراده ، ولأن الكلام لم يسق تجمع العظام وتفريقها فى الدنيا ، وإنما سبق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثانى - ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره - وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد . وارتباطها بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء - سبحانه - لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها ، ففى هذا أعظم الأدلة على قدرته - سبحانه - على جمع عظامه بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أخبر - سبحانه - عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا ينعوى ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حياً ، بل هو مرید للفجور ما عاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع فى الحال ، ولا يعزم فى المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب .

ثم نبه - سبحانه - على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم لقيامه وليس هذا استبعادا لزمه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه ، كما حكى عنه في موضع آخر قوله : ﴿ ذَلِكْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أى : بعيد وقوعه ، وليس المراد : أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة وعكرمة : قدما قدما في معاصي الله لا ينزع من فجوره . ثم أخبر - سبحانه - عن حال الانسان إذا شاهد اليوم الذى كذب به .

فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ .

أى : إذا تحير البصر ودهش فلم يظفر من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴾

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ أى : ذَهَبَ ضَوْؤُهُ ، كما نعقله من حاله في الدنيا ، إلا أن الخسوف في الدنيا انجلاء ، وفي الآخرة لا يعود ضوءه .

وقوله : ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ أى : أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما روى عن ابن مسعود وقد كان هذا مستحيلا في الدنيا كما جاء في قوله : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حثثذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أى : هل من ملجأ أو موئل قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ قال المفسرون : أى : لا نجاة ، ليس لكم مكان تعتصمون فيه ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ، بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ .

أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمَجْرِمِينَ مَشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ وهذا قال ههنا : ( بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ) أى هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى : ﴿ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قال مجاهد ( ولو ألقى معاذيره ) ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة وابن زيد والحسن البصرى ( ولو ألقى معاذيره ) أى حجته . قال ابن كثير والصحيح قول مجاهد وأصحابه كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنَّهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ وكقوله



تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

## ( توجيه وإرشاد )

قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ .

هذا تعليم من الله - عز وجل - لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وإيضاح معناه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أى بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أى : فى صدرك ( وقرآنه ) أى : أن تقرأه ( فإذا قرأناه ) أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى : ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أى : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحي يلقي منه شدة وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وعند البخارى فكان إذا أنه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

قال العلامة ابن القيم : ومن أسرار السورة إنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقي العلم ، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التى أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي ، بل يصبر إلى أن يفرغ أمين الوحي جبريل من قراءته ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ، ثم يعيده عليه . أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادر قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها ، والثانى ( ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً ) والثالث ( سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ) فضمن لرسوله ﷺ أن لا ينسى ما أقرأه إياه . وهذا يتناول القراءة وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . وجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحي والقرآن العظيم أنهم إنما همهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لا هون متشاغلون عن الآخرة .

قال ابن القيم :

وقد ذم الله - سبحانه - في هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإثارة ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة لإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة ، وإثارة لها ، واستعجاله لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون . وكذلك تكذيبه وتولييه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبة العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه يضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء ، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال وينبه على مبدأه : من كونه نقطة من منى يمنى ، ثم علقه ، ثم خلقاً سوياً ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذا كذب خبره ، وعصى أمره ، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدرج وأناه ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله تعالى : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، وجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ .

أى فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم الساعة مضيئة مشرقة ، تشاهد عليها نضرة النعيم . ( إلى ربها ناظرة ) أى : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء : المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة .

قال ابن كثير : وهذا - بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام وهداة الأنام .

روى البخارى في صحيحه « إنكم سترون ربكم عياناً »<sup>(١)</sup> وروى الشيخان عن أبي سعيد وأبي هريرة : « أن نادياً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون في رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحب ؟ قالوا لا . قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ص ١٤٦ ، ١٤٧ كتاب الرقاق باب « الصراط جسر جهنم » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة

وفي الصحيحين أيضاً عن جرير قال : كنا عند النبي ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ولا تضارون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قال : ( فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ) وزاد مسلم « يعنى العصر والفجر » وقال ابن بطل قال المهلب : قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة » أى فى الجماعة . قال : وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد لئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم . قال الخطابي : هذا يدل على أن رؤية المولى سبحانه وتعالى قد يرجى نيلها بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

وروى مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال ، يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة » (٢) ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الكفار تكون يوم القيامة كالخة ، عابسة ، باسرة تستيقن انها هالكة وهذا المقام كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

## صورة من مشاهد الموت

قال تعالى :

كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَافِيَ ۖ (٢٦) وَقِيلَ مِنْ رَأَقٍ ۖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ۖ (٢٨)  
وَالْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۖ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ۖ (٣٠) فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١)  
وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۖ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ۖ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۖ (٣٥) أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۖ (٣٦) أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۖ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۖ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۖ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۖ (٤٠)

(١) انظر البخارى ج ١ ص ١٠٩ باب - فضل صلاة الفجر

(٢) انظر صحيح البخارى ج ١ ص ١٦٣ كتاب الايمان باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » فقد ورد الحديث من

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

### معاني المفردات

- ( التراقي ) العظام المكثفة ثغرة النحر عن يمين وشمال واحدها ترقوة .
- ( من راق ) أى من يرقيه وينجيه مما هو فيه .
- ( الفراق ) أى من الدنيا حبيته .
- ( التفت الساق بالساق ) أى التوت عليها حين هلع الموت وفلقه ، والمراد أنه اشتد عليه الخطب .
- ( المساق ) المرجع والمآب .
- ( فلا صدق ولا صلى ) أى فلا آمن بقلبه ولا عمل بيده .
- ( يتمطى ) أى يتبختر افتخاراً .
- ( أولى لك ) أى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .
- ( فأولى ) أى فهو أولى بك من غيرك .
- ( سدى ) . أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب .
- ( نطفة ) أى ماء قليلاً وجمعها نطاف ونطف .
- ( يمنى ) أى يراق ويصب فى الرحم .
- ( علقه ) أى قطعة دم جامد .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال القيامة وما يرى فيها من عظيم الأهوال ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدق بأوامر دينه ، ولا هو أدى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

- ١ - أنه لا بد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها ، وثواب كل عامل بما يستحق والا تساوى المطيع والعاصى ، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .
- ٢ - أنه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الانسان من منى يمنى ، فأهون أن يعيده خلقاً آخر .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ﴾ .

( كلا ) ردع وزجر : أى ازدجروا وتنبهوا إلى ما بين أيديكم من الموت ، فافعلوا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، فستنقطع الصلة بينكم وبينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلصين أبداً .

ثم وصف الحال التى تفارق فيها الروح الجسد فقال :

﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ أى إذا بلغت الروح أعلى الصدر ، وأشرقت النفس على الموت كقوله تعالى : ﴿ فلولاً إذا بلغت الحلقوم وأنتم حيثئذ تنظرون ﴾ .

وقوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ أى وقال أهله : من يرقيه ليشفيه مما نزل به ؟

قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئاً .

﴿ وظن أنه الفراق ﴾ أى وابقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وسمى هذا اليقين ظناً لأن المرء ما دامت روحه متعلقة بيده يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

وقوله : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أى التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال عكرمة ( والتفت الساق بالساق ) أى الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد بلاء بلاء وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ هما ساقاك إذا التفتا وفى رواية عنه ماتت رجلاه فلم تحمله وقد كان عليها جوالا . وفى رواية عن الحسن . هو لفهما فى الكفن .

وقوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى المرجع والمآب كقوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ شعراً :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا

ونحن فى غفلة عما يراد بنا

لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها

وان توشحت من أثوابها الحسنات

ابن الأبية والجيران مافعلوا

ابن الذين هم كانوا لنا سكنا

سقاهم الموت كأساً غير صافية

فصيرتهم لأطباق الشرى رُهننا

خطب عمر بن العزيز آخر خطبة خطبها فقال فيها : « إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للفصل بين عباده ، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى

وسعت كل شيء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيرتها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قضى نجه وانقضى أجله فتدعون في صدع من الأرض غير موسد ولا ممد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأجاب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، غنياً عما خلف ، فقيراً إلى ما أسلف ، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته ، وإني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، ولكن استغفر الله وأتوب إليه ، ثم رفع طرف رداءه وبكى حتى شهق ثم نزل ، فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه .

قوله : تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى .

قال ابن كثير :

هذا اخبار منه سبحانه عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه فلا خير فيه باطنياً ولا ظاهراً ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴿ أى جذلاناً أشراً بطراً كسلاناً لا همة له ولا عمل كما قال تعالى : ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ وكما قال سبحانه : ( إنه كان فى أهله مسروراً إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً ) . وقوله تعالى ﴿ أولى لك فأولى ﴾ ثم أولى لك فأولى .

أى ويل لك مرة بعد مرة ، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك . ويرى بعض المفسرين أن معنى ﴿ أولى ﴾ أخرى فىكون المراد ، النار أولى بك وأخرى . ثم كرر هذا الوعيد فقال :

﴿ ثم أولى لك فأولى ﴾ أى يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى فانت جدير بهذا .

ثم أقام سبحانه الدليل على البعث من وجهين فى قوله تعالى :

﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى . • ألم يك نطفة من منى يمنى • ثم كان علقة فخلق فسوى • فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى • أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى • .  
الدليل الأول :

﴿ أيعسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ أى لا يترك الإنسان فى الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره مهملاً لا يحاسب ، بل هو مأمور منه محشور إلى ربه ، فخالق الخلق لا يساوى الصالح المزكى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسئ نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

وإذا فلا بد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة .

والدليل الثاني :

قوله تعالى ﴿ ألم يك نطفة من منى يمى ، ثم كان علقه فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ أى أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمى يراق من الأصلاب فى الأرحام ؟ ﴿ ثم كان علقه فخلق فسوى ﴾ أى فصار علقه ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره ؟ . ولهذا قال تعالى ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ ﴾ أى أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ فتلك أهون من البدء فى قياس العقل كما قال تعالى ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

وقد جاء من طرق عدة أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلى وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ منكم : « والتين والزيتون » وانتهى إلى آخرها : أليس الله بأحكم الحاكمين فليقل : بلى وأنا على ذلكم من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فليقل بلى ، وقرأ المرسلات فبلغ فبأى حديث بعده يؤمنون « فليقل : آمنا بالله »<sup>(١)</sup>

### بحث فى خلق النطفة

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه القيم خلق الانسان بين الطب والقرآن ما ملخصه : « إن بداية خلق الانسان - إذا تجاوزنا المرحلة الطينية - هى النطفة قد ورد ذكر النطفة فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً . . كما ذكرت أحياناً باسم الماء المهين والماء الداقي . . وتذكر أحياناً باسم المنى وليست هذه الألفاظ مترادفة متطابقة المعنى - كلا - فهى تختلف فى التفاصيل فلفظ المنى مثلاً يشمل النطفة ويزيد عليها بالماء الذى يحتويها . . وهكذا .

والنطفة أنواع ثلاثة :

- ١ - النطفة المذكرة : وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى المنى والتى تفرزها الخصية .
- ٢ - النطفة المؤنثة : وهى البويضة التى يفرزها المبيض مرة فى الشهر .
- ٣ - النطفة الأمشاج : وهى النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الذى يلحق بالبويضة . أى ( البويضة الملقحة ) .

المنى :

ويطلق لفظ المنى على الإفرازات التناسلية للرجل والتى تفرزها الخصية والبروستاتا والحوصلة المنوية . . والمنى مكون من شقين !

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

الأول : هو الحيوانات المنوية التى تتكون من القنوات المنوية فى الخصية .. وهى ذاتها المسماة بالنطفة .

والثانى هو السائل المنوى الذى يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والتى تسبح فيه حتى تصل إلى الرحم ..

وقد ورد لفظ المنى فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع .. وهى

- ١ - قوله تعالى ﴿ أَيْحَسِبِ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى ؟ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى ثُمَّ كَانَ عُلْقَةً فَخُلِقَ نَسْوَ . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتِ ؟ ﴾ القيامة
  - ٢ - وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى ﴾ النجم
  - ٣ - ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الواقعة .
- ما من كل الماء يكون الولد :

والعجيب حقاً ( ولا عجب فى الواقع لأن خالق النطفة ومنشئها هو الذى يتحدث عنها ) إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة فجعل النطفة جزءاً من المنى فى قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَكْ نَظْفَةً مِنْ مَنًى يَمْنَى ﴾ وفى الحديث الشريف « ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شيئاً لم يمنعه شيئاً أخرجه مسلم . إن هذا الحديث الشريف إعجاز كامل فلم يكن أحد يعلم أن جزءاً يسيراً من المنى هو الذى يخلق منه الولد .. فلم يكن أحد يتصور أن فى القذفة الواحدة من المنى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة مليون حيوان منوى وأن حيواناً منوياً واحداً فقط هو الذى يقوم بتلقيح البويضة .

فالحديث صريح فى أنه ليس من كل الماء يخلق الولد .. وإنما من جزء يسير منه .. واق لمن عاش قبل أربع عشر قرناً أن يعلم هذه الحقيقة التى لم تعرف إلا فى القرن العشرين إذا لم يكن علمه قد جاء من لدن العلم الخبير وقد دلت على معنى هذا الحديث آية قرآنية كريمة . قال تعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴾ .. قال المفسرون السلالة هى الخلاصة وخلاصة الماء المهين هى التى يكون منها الولد .. فهناك انتقاء بعد انتقاء من مئات الملايين من الحيوانات المنوية .. فأول ما تخرج يكون عشرين بالمائة منها غير صالح للتلقيح ، ثم يموت فى المهبل عدد كبير منها .. ثم يموت على عنق الرحم عدد آخر ... ثم تذهب مجموعة منها إلى قناة الرحم اليمنى وأخرى إلى قناة الرحم اليسرى ولا تدرى فى أى منها تكون البويضة .. فتهلك تلك التى ذهبت إلى غير مكان البويضة .. ولا يصل فى النهاية إلى البويضة إلا ما يقرب من خمسمائة حيوان منوى فقط وهنا يقع اختيار وانتقاء واصطفاء آخر لحيوان منوى واحد فقط من بين هؤلاء ليتم به تلقيح البويضة وصدق الله العظيم .. وصدق رسوله الكريم الذى يقول « ما من كل الماء يكون الولد .. وإذا أراد الله خلق شيئاً لم يمنعه شيئاً » رواه مسلم (١).



وهناك اختيار واصطفاء أيضاً للبويضة . . فمبيض الطفلة وهي لاتزن جنيناً في بطن أمها يحتوى على ستة ملايين بويضة . . فإذا ما خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها . . وتستمر هذه البويضات في أندثارها حتى بلغت القناة المحيضة لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً . . وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمائة بويضة في حياة المرأة كلها . . وفي كل شهر تنمو مجموعة من البويضات ولكن يد القدرة تختار واحدة فقط لتكمل نموها وتخرج للملاقاة الحيوان المنوى السعيد في الثلث الوحشى لقناة الرحم . .

وهناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوى وهناك اختيار واصطفاء للبويضة . بل أن هناك اختياراً واصطفاءً للبويضة الملقحة والكرة الجرثومية . . فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً . . كلها فإن الأبحاث الحديثة جداً تقول : إن ٧٨ بالمائة من كل حمل يجهض ويتم اسقاطه . وأن ما يقرب من ٥٠ بالمائة تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل مصداقاً لحديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : « إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكاً فقال يارب مخلقة أو غير مخلقة . فإن قال غير مخلقة مجتهد الأرحام دماً » أخرجه ابن أبي حاتم .

ولم تعرف الحيوانات المنوية ومكونات المنى إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث علم دور الحيوانات المنوية في ايجاد الانسان على ضوء المعلومات الطبية الحديثة وهذا وحده أحد المعجزات العديدة بل التي لا حصر لها بين دفتي الكتاب المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولم تكتف الآية الكريمة بذلك بل إنها قالت أن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التي تمنى . . حيث يقول سبحانه في نفس الآية الكريمة فجعل منه ﴿ أى المنى ﴾ الزوجين الذكر والأنثى كما يقول في الآية الكريمة التي في سورة النجم ﴿ وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ . فالذكورة والأنوثة في الجنين يحددها الحيوان المنوى الذى تختاره القدرة الألهية المبدعة فإذا أرادت المشيئة الطليقة ايجاد ولد ذكر لفتح حيوان منوى يحمل شارة الذكورة البويضة وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة هو الذى يلقح ببويضة المرأة . قال تعالى ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾ .

الذكورة والأنوثة من الذى سيحدد نوع الجنين وجنسه ذكراً أم أنثى ؟ سؤال قديم اختلفت الأجابات حوله . . وجاء القرآن الكريم بفضل الخطاب ولا غرابة فإن الذى خلق أعلم بخلقه ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾

يقول المولى - عز وجل - في سورة القيامة !

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقه فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ ؟  
ويكون الجواب الوحيد على هذا السؤال بلى إنه على كل شىء قدير .

كما يقول تعالى في سورة النجم : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى \* من نطفة إذا تمنى ﴾ والنطفة التي تمنى هي نطفة الرجل - هي الحيوان المنوى كما نسميه اليوم باصطلاح العلم الحديث . وقد رأينا فيما سبق كيف أن كل خلية في جسم الانسان تحتوى على ثلاثة وعشرين زوجاً من الجسيمات الملونة . وأن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن جنسه الشخصى وجنسه ذكر أم أنثى كل خلية من خلايا الجسم تبتك بذلك . . فخلايا الرجل تحتوى على الجسيمات الملونة XY بينما خلايا الخصية انقساما اختزالياً فإن ناتج هذا الانقسام هو خلايا أو حيوانات منوية تحتوى على X فقط أو Y فقط أن هذه الحيوانات المنوية مذكرة أو حيوانات منوية مؤنثة ، فالحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة X . . وقد استطاع العلماء أن يفرقوا بينهما في الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما في الحقيقة والمخبر فللحيوان المنوى المذكر وميضاً ولعناً في رأسه بينما الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة يفقد ذلك اللمعان والنور ليس هذا فحسب ولكن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أسرع حركة وأقوى شكيمة في الغالب من زميله الذى يحمل شارة الأنوثة .

وبما أن الأم ( البويضة ) تعطى دائماً شارة الأنوثة فإن الحيوان المنوى هو الوحيد الذى يحدد بإرادة الله نوع الجنين ذكر أم أنثى . . إذ أنه يحمل شارة الذكورة أو يحمل شارة الأنوثة . . فإذا لقح الحيوان المنوى المذكر البويضة كان الجنين ذكراً بإذن الله . أما إذا لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة فإن نتيجة الحمل هي أنثى بإذن الله وتبقى الآية بعد ذلك كله إعجازاً علمياً كاملاً .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ .

فالنطفة التي تمنى زوجان : حيوان منوى مذكر وحيوان منوى مؤنث والنطفة التي تمنى تقرر نوعية الجنين وجنسه وصدق الله العظيم .

### هل للمرأة دور في تحديد الذكورة والأنوثة ؟

لقد قررت الآيات الكريمة السابقة أن الذى يحدد ذكورة الجنين أو أنوثته هو الله سبحانه وتعالى بواسطة النطفة التي تمنى ويبدو أن ليس للمرأة من دور واضح في تحديد الذكورة والأنوثة . . ولكن الحديث الشريف الذى أخرجه مسلم في صحيحه يقول أن للمرأة دور في ذلك حيث يقول ﷺ لليهودى الذى سأل عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتماعاً فعلاً منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنثى بإذن الله <sup>(١)</sup> . . قال اليهودى صدقت وإنك لنبى .

وتضمن الحديث عدة قضايا : أولها صفة ماء الرجل وهو أبيض وصفة ماء المرأة وأنه أصفر . . والقضية الثانية : هي إذا علا ماء الرجل أذكر بإذن الله وإذا علا ماء المرأة أنثى بإذن الله . ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية بينما إفرازات عنق الرحم قلوية . كما نعلم أن إفرازات عنق

(١) المرجع السابق

(١) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديث رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورم برواية لأبي سعيد

الرحم تكون ثخينة ولزجة في غير وقت الإيباض . . أما عند خروج البويضة من المبيض فإن هذه الإفرازات ترف وتخف لزوجتها لتسمح للحيوانات المنوية بالولوج بسهولة .

ونحن إلى الآن لا نعلم دور هذه الإفرازات في تشجيع الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أو الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة . . ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث لتحديد دور هذه الإفرازات في تحديد الذكورة أو الأنوثة . وذلك بواسطة تأثيرها على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة . .

ونحن نقول مع ابن القيم ( التبيان في أقسام القرآن ) : « ومع هذا كله فهذا جزء سبب وليس بموجب . . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب . وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون في ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعجيزاً لقدرته . . وقد أشار في الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وأنت بإذن الله » وقد قال تعالى : ﴿ الله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير ﴾ .

فأخبر سبحانه وتعالى أن ذلك عائد إلى مشيئته . وأنه قد يهب الذكور فقط والإناث فقط وقد يجمع للوالدين بين النوعين معاً . وقد يخليهما عنهما معاً . وأن ذلك راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته » .

الشبه :

وأما الشبه فموضوع آخر تحدثت عنه الأحاديث النبوية أيضاً فقد يشبه الولد أباه وقد يشبه أمه أو أخواله . . وقد يشبه أحد أجداده . . وقد لا يشبه أياً من آبائه . . فقد جاء في صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ عن الشبه فقال النبي ﷺ « وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال عبد الله بن سلام رئيس أحبار اليهود آنذاك أشهد أنك رسول الله فآمن رضى الله عنه .

فالسبق في الحديث يحدد الشبه فإذا سبق ماء الرجل كان الشبه له وإذا سبق ماء المرأة كان الشبه لها . وهذا لا ينفي أن الولد قد لا يشبه أياً من الوالدين . . كما جاء في حديث الفزارى الذى أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد والدارقطنى وفيه أن رجلاً من بنى فزارة جاء إلى النبي ﷺ يعرض نفى ولده لأن امرأته ولدت غلاماً أسود فقال النبي ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال فما ألوانها ؟ قال أحمر فقال رسول الله ﷺ : هل فيها من أوراق ( أى أسمر ) قال إن فيها لورقاً . قال فأنى أتاها ذلك ؟ قال عسى أن يكون نزع عرق<sup>(١)</sup> ولم يرخص له في الانتفاء منه .

وقد دل هنا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التى لا تدان في الحوار والاقناع بحيث أرجع

(١) انظر صحيح البخارى ج ٧ ص ٦٨ ، ٦٩ بكتاب الطلاق « باب إذا عرض بنفس الولد » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

السائل إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . وتزِيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القائمة في زوجته التي لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود ..

وقد قال أغلب العلماء والأئمة على أنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لا يشبه أحد أبويه .

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود والديه قد يكون غير ظاهر بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين . كما حدث للفزارى الذى جاءت امرأته بغلام أسود ..

والخلاصة أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو للأسلاف أو بظهور صفات جديدة - كما حدث للفزارى أمر بالغ التعقيد .. وتعمل فيه الجينات بصورة خفية ومعقدة .. وبعضها يتبع قوانين مندل حسب الصفة السائدة أو متنحية وبعضها لا يتبعها وحتى تلك التى تعتبر خاضعة لقوانين الوراثة قد تتخلف عن تلك القوانين ويعتبر الجنين عندئذ كامل التعبير أو ناقص التعبير ولا يزال العلم الحديث يجهل الكثير الكثير من الحقائق التى تحدد الشبه فى الولد .

ولا ندرى إلى الآن ما هو دور السبق فى ماء الرجل أو ماء المرأة فى الشبه من الناحية العلمية - وحتى يتسع مدى العلم فى هذا الباب فإننا نقبل الحديث الشريف بقلوب مطمئنة واثقة بصدق المصطفى صلوات الله عليه الذى لا ينطق عن الهوى والذى لا يقول إلا حقاً .. وينبغى أن يحفز ذلك العلماء المختصين فى هذا الباب لدراسته فقد تفتحت لهم أبواب وتكشف لهم كشوفات .. وهذا معلم من معالم البحث التى ينبغى أن يدرسها العلماء المسلمون المختصون فى هذا الفرع من العلم . أ. هـ .

## تفسير سورة الإنسان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية . وآياتها إحدى وثلاثون . وكلماتها مائتان وأربعون وحروفها : ألف وخمسون .  
ونواصل آياتها : على الألف .  
ولها ثلاثة أسماء .

سورة ( هل أتى ) لمفتتحها ، وسورة الإنسان لقوله ( على الإنسان ) وسورة الدهر ، لقوله : ( حين من الدهر ) .

مقصود السورة :

بيان مدة خلقة آدم ، وهداية الخلق بمصالحهم ، وذكر ثواب الأبرار ، في دار القرار ، وذكر المنة على الرسول - ﷺ - وأمره بالصبر وقيام الليل ، والمنة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله في قوله ( يدخل من يشاء في رحمته ) .

مناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر في السورة السابقة الأحوال التي يلقاها الفجار يوم القيامة وذكر في هذه ما يلقيه الأبرار من النعيم المقيم في تلك الدار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا  
الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ  
إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾  
إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ  
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَمًا عَلَىٰ  
حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً  
وَلَا شُكْرًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غِيًوسًا قَمَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ  
الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَكِينِينَ  
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شُمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا  
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِثَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ  
كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِّنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا  
كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ  
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنشُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا  
وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خَضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِّنْ  
فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ  
مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾

## معاني المفردات

(هل) أى : قد ، (حين) أى : طائفة محدودة من الزمان .  
(الدهر) الزمان غير المحدود ، (أمشاج) أى : أخلاط واحدها مشج (بفتحتين) .

( نبتليه ) أى : نخبثه ، ( السبيل ) الطريق أى : بنصب الدلائل وإنزال الآيات .  
 اعتدنا : أى هيأنا وأعدنا .  
 الأغلال : واحدها غُل ( بالضم ) وهو القيد .  
 السعير : النار الموقدة .  
 الأبرار : واحدهم بر وجمع البار البررة الأبرار وهم أهل الطاعة والإخلاص والصدق .  
 والكأس : هى الإناء الذى فيه الشراب وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها .  
 والمزاج : ما يمزج به ، أى يكون شوبها وخلطها بماء الكافور ، وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة . ( يوفون بالنذر ) أى يؤدون ما أوجبه على أنفسهم من الطاعات .  
 شره : أى : شدائده .  
 مستطيراً : أى : قاشياً منتشراً فى الأقطار .  
 عبوساً : أى : تعبس فيه الوجوه .  
 قمطيراً : أى : شديد العبوس .  
 وقاهم : أى : دفع عنهم .  
 لقاهم : أى : أعطاهم .  
 نضرة : أى : حسناً وبهاء .  
 سروراً : أى : حبوراً .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أى كان فى العدم - لم يكن له ذكر ولا وجود كقوله تعالى ﴿ أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ قال المفسرون ( هل أتى ) بمعنى قد أتى كما تقول : هل أكرمك ، هل وعظمتك ؟ ومقصودك بأنك قد أكرمته ووعظته ، والمراد بالإنسان الجنس ، وبالحين مدة لبثه فى بطن أمه . والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان منسياً لا يفطن له ، وكان فى العدم جرثومة فى صلب أبيه ، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومر عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله ، وأبدع تكوينه وإنشاؤه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد .

وبعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن موجوداً ، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود ، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متعه بنعمة العقل والحواس فقال تعالى :

﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ .

قال ابن جرير الطبري في تفسيره : ( إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج ) . إنا خلقنا ذرية آدم من نطفة يعنى من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل في وعاء كان ذلك ركية أو قرية أو غير ذلك . وقوله تعالى ﴿ أمشاج ﴾ واحدها مشج ومشيج يقال منه إذا مشجت هذا بهذا خلطته وهو مشوج به ، ومشيج أى مخلوط . . وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وروى بسنده عن عكرمة قوله : أمشاج نبتليه قال : ماء الرجل وماء المرأة يشمج أحدهما بالآخر وروى أيضاً قوله ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وكذا قال ابن عباس والربيع بن أنس والحسن البصري ومجاهد وكثير من المفسرين القدماء والمحدثين .

وقال تعالى ﴿ نبتليه ﴾ أى لنختبره بالتكاليف الشرعية ، والأوامر الإلهية لننظر أيشكر أم يكفر ؟ وهل يستقيم في سيره أم ينحرف ويزيغ ؟ وقوله ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أى فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً ذا سمع وبصر ، ليسمع الآيات التنزيلية ، ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم .

### النطفة الأمشاج في علم الأجنة

يقول الدكتور محمد على البار في كتابه ( خلق الإنسان بين الطب والقرآن ) :

وتخرج البويضة من المبيض مرة واحدة في الشهر - وعليها التاج المشع كأنها عروس تتهادى وتبعث شيئاً من أريجها لتلك الحيوانات المنوية الضارية أذيالها بقوة والسابحة عبر الإفرازات . . وتقطع المفاوز والمخاطر لعلها تلمى ولو بنظرة إلى هذه العروس الفتانة الجميلة وتسير تلك الحيوانات المنوية ( نطفة الرجل ) باحثة عن البويضة ( نطفة المرأة ) لا تدري أين هي : عن يمين أو يسار فتخترق مجموعة منها القناة الرحمية اليمنى وتسير مجموعة أخرى عبر القناة الرحمية اليسرى ( تدعى أيضاً قناة فالوب ) وهي تمنى النفس بقاء المحبوب . . فيهلك من يهلك في تلك المفاوز وعبر تلك المخاطر دون أن يحظى ولو بنظرة من تلك المحبوبة وتشاء القدرة الإلهية المبدعة أن يقترب من البويضة مئات الحيوانات المنوية بينما تحتوى الدفعة الواحدة من المنى لمئات الملايين تهلك معظمها قبل الوصول إلى البويضة وتختار القدرة المبدعة واحداً من ملايين الحيوانات المنوية لتوصله سالماً إلى البويضة فتعش له مرحبة وتفتح له كوة في صدارها حتى يلج من خلال ذلك الجدار المصمت المحاط بالتاج المشع - فإذا ما ولج أوصدت الباب وأحكمت الرتاح وأضافت إلى الجدار جداراً آخر حتى تمنع عنها أى راغب وتصد بابها دون كل لامس إن هذا الوصف يبدو خيالياً ولكنى سأنقل لك عبارة أستاذ علم الأجنة والتشريح في جامعة عين شمس القاهرة الأستاذ الدكتور شفيق عبد الملك بنصها حيث يقول في كتابه علم تكوين الأجنة . . « تبدأ عملية الإخصاب خطواتها بدور الحيوان المنوى الذى إذا أحس بقرب البويضة سرعان ما يفرز مادة خاصة لها قدرة على إذابة جزء من المنطقة



الدائرية بدورها إجابة لذلك مادة أخرى لزجة القوام على سطحها في منطقة اقتراب الحيوان المنوى تحية وترحيباً به من جهة ، ومساعدة وتسهيلاً لإمكان تعلقه والتصاقه بسطحها من جهة أخرى - رجاء إمكان الحيوان المنوى إذابة ما بقى في المنطقة الدائرية المشعة وكذا المنطقة التي تليها وتحيط بالبويضة . وهي المنطقة الشفافة تمهيداً لوصول الحيوان المنوى إلى غشاء البويضة ونقلها ليدخل البويضة وإذا ما ثقبها ودخلها يغلق الثقب حالاً ولن يسمح لحيوان منوى آخر بالدخول في البويضة ولذلك يكون نصيب العدد الكثير من الحيوانات المنوية التي حاولت ثقب البويضة والدخول فيها ولم تفلح أن تظل ملتصقة ومعلقة بمنطقة البويضة الشفافة حتى تتلاشى ، وإذا ما دخل الحيوان المنوى إلى البويضة هشت له نواتها ومكمن السر فيها لتكون النواة الأولية للأنثى أو الطليعة للأنثى كما أن نواة الحيوان المنوى المتجمعة في رأسه تفعل الشيء ذاته وتكون الأولية للذكر .

وعند دخول الحيوان المنوى تكمل نواة الأنثى إنقسامها الاختزالي الذي بدأته منذ كانت جنيناً في رحم أمها . . أى منذ عشرات السنين - وتتقابل النوتان المذكرة والمؤنثة وجهاً لوجه ويقوم مريكيز الحيوان المنوى بتكوين أشعة مغزلية في قطبي الخلية الأمشاج وعندئذ يحصل أول انقسام عادى في الخلية الأمشاج . . وتنتقل نصف الكروموسومات ( الجسيمات الملونة ) في كل من الذكر والأنثى إلى جهة كما ينتقل النصف الآخر إلى الجهة المقابلة . . وسرعان ما ينزل بينهما جدار يفصل بينهما ليكون أول خليتين تامتين من هذه النطفة الأمشاج .

### مرحلة الانشقاق والانقسام في النطفة الأمشاج

حالما يتم التخصيب وتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوى والبويضة . . تصنع يد القدرة للبويضة الملقحة جداراً سميكاً مصمماً لا يمكن لأى حيوان منوى آخر اختراقه كما أنها تخلع عنها تاجها المشع الذى كان يغرى الحيوانات المنوية بالاقتراب منها ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالعمل الجاد وتبدأ بالانشطار : الخلية تصبح خليتان والخليتان أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت عندئذ تسمى التوتة فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومى أو البلاستولا .

وفي هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة ( تتحرك النطفة الأمشاج بواسطة شعيرات قناة الرحم وتقلصات جداره . وليست لها وسيلة للحركة الذاتية ) .

وإن كانت حركة بطيئة فهي تنتقل من الثلث الوحشى لقناة الرحم ( قناة فالوب ) حيث يتم التلقيح وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم وفي خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنظر أين تتوسد وتتغرز .

وتوجهها يد العناية الإلهية إلى أن خير مكان لها هو النصف العلوى من الرحم وخاصة جداره الخلفى - وهناك تنشب وتعلق في جدار الرحم الذى قد استعد لاستقبالها بفرش الطنف والوسائد وجعل جداره مليئاً بالأوعية الدموية حتى يغذيها وينميها .  
وعندما تنغرز الكرة الجرثومية تكون قد تحولت من نقطة الأمشاج إلى علقه وتبدأ عندئذ مرحلة جديدة في حياة الجنين .. وهى مرحلة العلقه :- أ . ه .

قوله تعالى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾  
ثم ذكر أنه بعد أن ركب وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال فقال ( إنا هديناه السبيل ) أى بيناه ووضحناه وبصرناه به كقوله تعالى ﴿ ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين ﴾ أى بينا له طريق الخير وطريق الشر .

وقوله : ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ أى فهو في ذلك إما شقى وإما سعيد كما جاء في مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن النبى - ﷺ - قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » قال وما إمارة السفهاء ؟ قال « أمراء يكونون من بعدى لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصلاة قربان - أوقال برهان - يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به ، يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها » (١) ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » .

وقوله تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً ﴾ ، أى إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا وخالفوا أمرنا وسلوكوا سبيل الضلال - سلاسل بها يقادون إلى الجحيم ، وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين في الدنيا ، وناراً بها يحرقون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

ويعد أن ذكر - سبحانه - ما أعدّه للكافرين بين ما أعدّه للشاكرين من شراب شهى ولباس بهى فقال

تعالى :

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ .

أى : إن الذين بروا بطاعتهم ربهم ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه - يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبرداً وبياضاً .  
وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم في غرف الجنات ، يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً إلى حيث يريدون ، ويتنفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه .  
قال مجاهد : يقدونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا . ثم ذكر ما لأجله استحقوا الكرامة قال تعالى :

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ .

أى : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر :

قال الإمام مالك بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه »<sup>(١)</sup> ورواه أيضاً البخارى من حديث مالك . وقوله تعالى : ﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أى ويتركون المجرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدعرون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ أى ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم كقوله تعالى ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ .

وفى الحديث الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تحشى الفقر وتأمل الغنى »<sup>(٢)</sup> ، أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ﴾ المسكين هو العاجز عن الاكتساب واليتيم : الذى مات كاسبه ، والأسير : المأخوذ من قومه ، المملوكة رقبته ، الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٥٩ باب النذر فى الطاعة فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة

(٢) انظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٧١٦ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح حديث ١٠٣٢/٩٢ فقد ورد هذا الجزء من

والمراد من إطعام الطعام ، الإحسان إلى المحتاجين ، ومواساتهم بأى وجه كان وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع .  
ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقة ، أو إطعام في يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أى نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه ( لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ) أى لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس قال مجاهد وسعيد بن جبیر أما والله ما قالوه بألستهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

قال تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً ﴾ أى إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه فى اليوم العبوس القمطير . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما عبوساً أى ضيقاً ، قمطيراً أى طويلاً ، قال ابن جرير والقمطير هو الشديد ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء .

قال الله تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ .

أى آمنهم الله سبحانه بما خافوا منه ( ولقاهم نضرة ) أى وأعطاهم نضرة فى وجوههم كما قال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ( وسروراً ) أى فى قلوبهم فقد جمع لأولوياته بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه سبحانه فلا أجل لبواطنهم . ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر إليه ، ولا أجل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهى إشراقه وتحسينه وبهجته .

وقوله تعالى : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً ﴾ أى بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريراً أى منزلاً رجباً وعيشاً رغداً ، ولباساً حسناً . وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة يصبرهم كما قال ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديراً ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال تعالى : ﴿ متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً ﴾ أى متكئين فى الجنة على السرر فى الحجال ، ليس لديهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل جو واحد معتدل دائم سرمدى ، فهم لا يبغون عنها

حولاً . وقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أى أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار ، مظلة عليهم زيادة في نعيمهم . كقوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ وكقوله ﴿ وظل ممدود ﴾ وكقوله ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك مُتَكئون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وذلت قطوفها تذليلاً ﴾ أى سخرت للقائم والقاعد والمتكىء . قال مجاهد : إن قام ارتفعت منه بقدر ، وإن قعد تدلت له حتى ينالها ، وكذلك إذا اضطجع ، لا يرد اليد عنها بُعد ولا شوك . وعن البراء بن عازب قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا .

وبعد أن وصف - سبحانه - طعامهم ولباسهم ومسكنهم - وصف شراهم وأوانيهم فقال تعالى : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديراً ﴾ أى يدبر عليهم خدمهم كزوس الشراب والأكواب من الفضة . وقد تكونت وهى جامعة لصفاء الزجاج وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها كفاتهم وريهم . وذلك ألذ لهم وأخف عليهم ، فهى ليست بالملأى التى تفيض ، ولا بالناقصة التى تغيض .

وقوله تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ أى ( كان مزاجها زنجبيل ) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهو لاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منها حرفاً . كما قاله قتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ عينا فيها تسمى سلسيلاً ﴾ أى الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسيلاً . وسميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريانها ، وكذلك لسلاستها في الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

أى : ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ( مخلدون ) أى على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . وقوله : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أى إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء جوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وقد وصفهم سبحانه أيضاً بقوله : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ أى وإذا رأيت يا محمد ( ثم ) أى هناك يعنى في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحيرة والسرور ( رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ) أى مملكة الله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً .

وثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها» (١).

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَدَسٌ خَضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان وهو مما يلي أبدانهم ، والاستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلي الظاهر كما هو المعهود في اللباس ( وحلوا أساور من فضة ) وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى : ﴿ يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ . ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : ( وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ) أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمَنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير . وكما حكى سبحانه عن أهل الجنة : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

## توجيهات ربانية

قال تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ إِن تَزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذْرَوْنَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ آخِذًا إِلَىٰ رَبِّهِ

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٣٩ باب صفة الجنة والنار فقد ورد هذا الجزء من الحديث من حديث طويل لعبد الله

سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا نَشَاءُ وَنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾  
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

### معاني المفردات

تنزيلاً : أى أنزلناه عليك مفرقاً منجماً .  
حكم ربك : هو تأخير نصرتك على الكفار إلى حين .  
والآثم : هو الفاجر المجاهر بالمعاصي .  
والكفور : هو المشرك المجاهر بكفره .  
( بكرة وأصيل ) أى : أول النهار وآخره . والمراد بذلك جميع الأوقات .  
( اسجد ) أى : صل .  
( سجد ) أى : تهجد .  
( وراءهم ) أى : أمامهم .  
( شددنا أسرهم ) أى : أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .  
( بدلنا أمثالهم ) أى : أهلكناهم ، وبدلنا أمثالهم في شدة الخلق .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الآخرة ، وبين عذاب الكفار على سبيل الاختصار ، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء أردف ذلك ذكر أحوال الدنيا ، وقدم أحوال المطيعين ، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على أحوال المتمردين والمشركين .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ .

يقول تعالى ممتناً على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزله عليه من القرآن العظيم ﴿ تنزيلاً ﴾ أى : أنزلناه مفرقاً منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تجدد فى الكون ، فتكون تثبيتاً لآيمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين قال تعالى ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾ .

وقد يكون المعنى : نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره ، وأن الذى أنزل عليه وحى لا كهانة ولا سحر وبذا نزول الوحشة من قول الكفار : إنه كهانة أو سحر . وقوله تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أى كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره . ﴿ ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً ﴾ أى لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

قوله تعالى ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أى أول النهار وآخره والمراد بذلك جميع الأوقات كما قال تعالى ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصيل ولا تكن من الغافلين ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ .

### أذكار الصباح والمساء

قال ابن القيم فى كتابه « الوابل الصيب من الكلم الطيب » ( فى ذكر طرفى النهار ) « وهما ما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب . قال سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ والأصيل : قال الجوهري هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وقال تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار ﴾ فالابكار أول النهار والعشى آخره ، وقال تعالى ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وهذا تفسير ما جاء فى الأحاديث : من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي ، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أوزاد عليه » (١) .

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٦٩٢/٢٩ فقد ورد الحديث

برواية عن أبى خزيمة



وفي صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله ... »<sup>(١)</sup> .

وفي السنن عن عبد الله بن حبيب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « قل » قلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال ( قل هو الله أحد ) والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء قال الترمذی : حديث حسن صحيح . ( وهذا اللفظ لأبي داود ) . وفي الترمذی أيضاً عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه يقول : إذا أصبح أحدكم فليقل : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا وبك نحيا ، وبك نموت واليك النشور وإذا أمسى فليقل : اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » قال الترمذی حديث حسن صحيح .

وفي صحيح البخاري عن شداد بن أوس عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال « سيد الاستغفار : اللهم أنت رب لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يمسي فمات من ليلته دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة »<sup>(٢)</sup> .

وفي سنن الترمذی عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرفى بشيء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسي سوءاً أو أجره إلى مسلم . قلّه إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعتك<sup>(٣)</sup> قال الترمذی : حديث حسن صحيح .

وفي الترمذی أيضاً عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول في صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم - ثلاث مرات - فيضره شيء » قال الترمذی : حديث حسن صحيح<sup>(٤)</sup>

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يمسي وإذا أصبح : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً كان حقاً على الله أن يرضيه »

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح - رقم ٢٧٢٣/٧٥ فقد ورد الحديث برواية

لعبد الله

(٢) انظر صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٨ « كتاب الدعوات » باب أفضل الاستغفار فقد ورد الحديث من رواية لشداد بن أوس

(٣) انظر سنن الترمذی كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥٢

(٤) انظر سنن الترمذی كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٢ رقم ٣٤٤٨

وقال : حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> .

وفي الترمذى أيضاً عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال حين يصبح أو يمسي : اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين اعتق نصفه من النار ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار»<sup>(٢)</sup> .

وفي سنن أبي داود عن عبد الله بن غنم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه . ومن قال مثل ذلك . حين يمسي فقد أدى شكر ليلته»<sup>(٣)</sup> .  
وفي السنن وصحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسي وحين يصبح « اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم أستر عوراتي وآمن روعاتي ، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي »<sup>(٤)</sup> قال وكيع يعنى الخسف . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وكقوله ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً ، نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له في جميع الأوقات ، في الليل والنهار ، والصباح والمساء ، بقلبه ولسانه ، ليتقوى على مجابهة أعدائه كما قال تعالى : ﴿ ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين وأعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

هديه - صلى الله عليه وسلم -

في قيام الليل

قال ابن القيم في الزاد :

وقد اختلف السلف والخلف في أنه هل كان فرضاً عليه أم لا ، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قالوا فهذا صريح من عدم الوجوب ، قال الآخرون أمره بالتهجد في هذه السورة كما أمره في قوله تعالى ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلاً ﴾ ولم يجيء ما ينسخه عنه ، وأما قوله تعالى ﴿ نافلة لك ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم ينصه بكونه نافلة لك وإنما المراد بالنافلة الزيادة

(١) انظر سنن الترمذى كتاب الدعوات ج ٥ ص ١٣٣ رقم ٣٤٤٩

(٢) المرجع السابق

(٣) انظر سنن أبي داود ج ٥ ص ٣١٤ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح وإذا أمس

(٤) انظر المستدرک للحاكم ج ١ ص ٣١٣ كتاب باب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر

ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى ﴿ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة﴾ أى زيادة على الولد . وكذلك النافلة في تهجد النبي صلى الله عليه وسلم زيادة في درجاته وفي أجره ، ولهذا خصه بها فإن قيام الليل في حق غيره مباح ومكفر للسيئات وأما النبي صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل في زيادة الدرجات وعلو المراتب وغيره يعمل في التكفير . قال مجاهد : إنما كان نافلة للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة أى زيادة في الثواب ولغيره كفارة لذنوبه . قال ابن المنذر في تفسيره بسنده عن مجاهد قال ما سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل في كفارة الذنوب وليست للناس نوافل إنما هي للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة والناس جميعاً ما سوى المكتوبة لذنوبهم في كفارتها .

قال ابن القيم : والمقصود أن النافلة في الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه كالمتحجب والمندوب وإنما المراد بها الزيادة في الدرجات وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب فلا يكون قوله ( نافلة لك ) نافياً لما دل عليه الأمر من الوجوب .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سافراً وكان إذا غلبه النوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول في هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله فهو كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستقاء ونحوها لأن المقصود أن يكون آخر صلاة الليل وترّاً كما أن المغرب آخر صلاة النهار فإذا انقضى الليل وصليت الصبح لم يبلغ الوتر موقعه هذا معنى كلامه .

وكان قيامه ﷺ بالليل إحدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة كما قاله ابن عباس وعائشة فإنه ثبت عنهما هذا وهذا ففي الصحيحين عنها ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة .

وفي الصحيحين أيضاً كان رسول الله ﷺ يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر من ذلك بخمس لا يجلس في شيء إلا في آخرهن . والصحيح عن عائشة الأولى والركعتان فوق الأولى عشرهما ركعتا الفجر جاء ذلك مبيناً في هذا الحديث بعينه وكان رسول الله ﷺ يصلي ثلاث عشرة ركعة بركعتي الفجر ذكره مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup> . وقال البخاري في هذا الحديث كان رسول الله ﷺ يصلي بالليل ثلاث عشرة ركعة ثم يصلي إذا سمع النداء بالفجر ركعتين خفيفتين ..

( فصل في سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل ) .

قالت عائشة - رضى الله عنها - : ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل على إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوى إلى فراشه . وقال ابن عباس لما بات عنده صلى العشاء ثم جاء ثم صلى ثم نام . ذكرهما - أى الحديثين - أبو داود وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك ثم يذكر الله تعالى ( يقول : لا إله

إلا أنت سبحانك اللهم استغفرُكَ لذنبِي وأسألكَ رحمتك ، اللهم زدني علماً ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وكان يقول إذا انتبه من نومه « الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ثم يقول وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله تعالى ﴿ إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إلى آخرها وقال اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك لا يفلوئك حق والجنة حق والنار حق والنبون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت . . . ) ثم بعد ذلك يتطهر ثم يصلي ركعتين خفيفتين كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح بركعتين خفيفتين وأمر بذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين رواه مسلم . وكان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو انما يصيح في النصف الثاني وكان يقطع ورده تارة ويصليه تارة وهو الأكثر . كما قال ابن عباس في حديث مبيته عنده أنه ﷺ استيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول ( إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولي الألباب فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين أطال فيها القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصري نوراً واجعل من خلفي نوراً ومن أمامي نوراً واجعل لي من فوقي نوراً ومن تحتي نوراً اللهم أعطني نوراً » رواه مسلم ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة فأما أنه كان يفعل هذا تارة وهذا تارة وأما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس وهو الأظهر لمواظبتها له ولمراعاتها ذلك ولكونها أعلم الخلق بقيامه الليل وابن عباس انما شاهده ليلة المبيت عند خالته وإذا اختلف ابن عباس وعائشة في شيء من أمر قيامه بالليل فالقول ما قالت عائشة .

وكان قيامه بالليل ووتره أنواعاً فمنها هذا الذي ذكره ابن عباس .

والنوع الثاني الذي ذكرته عائشة أنه يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ويوتر بركة .

النوع الثالث : ثلاث عشرة ركعة كذلك . النوع الرابع يصلي ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متوالية لا يجلس في شيء إلا في آخرهن . النوع الخامس : تسع ركعات يرد منهن ثمانية لا يجلس في شيء منهن إلا في الثامنة يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلي التاسعة ثم يقعد ويشهد ويسلم ثم يصلي ركعتين جالساً بعد ما يسلم . النوع السادس : يصلي سبعاً كالسبع المذكورة ثم يصلي بعدها ركعتين جالساً . النوع السابع : أنه كان يصلي مثني مثني ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهما فهذا رواه الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنه كان يوتر بثلاث .

النوع الرابع : ما رواه النسائي عن حذيفة أنه صلى مع النبي ﷺ في رمضان فركع فقال في ركوعه سبحان رب العظيم مثل ما كان قائماً ثم جلس يقول رب اغفر لي ، رب اغفر لي مثل ما كان قائماً فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعو إلى الغداة . وأوتر أول الليل ووسطه وآخره وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهي قوله تعالى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١) وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع . أحدها وهو أكثرها صلاته قائماً . الثاني أنه كان يصلي قاعداً ويركع قاعداً . الثالث أنه كان يقرأ قاعداً فإذا بقي يسير من قراءته قام فركع قائماً . والانوع الثلاثة صحت عنه ﷺ . ا.هـ .

قوله تعالى : ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ أى إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها وينهمكون في لذاتها الفانية ، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده .

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد في قوله تعالى ﴿ وشددنا أسرهم ﴾ أى وشددنا خلفهم ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أى وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداء على المرجعة كما قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعنى هذه السورة تذكرة وقد كان ﷺ يقرأ يوم الجمعة في صلاة الصبح ﴿ ألم تنزل ﴾ السجدة ، ﴿ وهل أتى على الإنسان ؟ ﴾ رواه مسلم . قال ابن تيمية رحمه الله كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين في فجر الجمعة لأنها تضمنتا ما كان ويكون في يومها فإنهما اشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة وكان في قراءتهما في هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلي قراءتها حيث اتفقت .

وقوله تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أى فمن شاء الخير لنفسه في الدنيا والآخرة ، فليتقرب إلى ربه بالطاعة ، ويتبع ما أمر به ، ويتنزه عما نهى عنه ، ليحظى بثوابه ، ويتبعد عن عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ أى وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لئليها فلا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل في الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقبض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ ثم قال جل في علاه ﴿ يدخل من يشاء في رحمته

والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ أى يهدى من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له - ومن يضل فلا هادى له .

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت سبحانه وبحمده ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعاً إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، أنا بك وإليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .

## تفسير سورة المرسلات

مقدمة

قال صاحب البصائر عن هذه السورة الكريمة :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمسون .

وكلماتها : مائة وإحدى وثمانون .

وحروفها : ثمانمائة وستة عشر .

مجموع فواصل آياتها : ( عبرتم لنا ) على اللام الفصل فى الموضعين ، وعلى الراء ( القصر ) ( صفر ) ، وعلى الباء ( شعب ) ( واللهب ) .

وسميت سورة المرسلات ، لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

القسم بوقوع القيامة ، والخبر عن إهلاك القرون الماضية ، والمنة على الخلائق بإيجادهم فى الابتداء ، وإدخال الأجانب فى النار ، وصعوبة الحق إياهم ، وأنواع كرامة المؤمنين فى الجنة والشكاية عن الكفار بإعراضهم عن القرآن فى قوله ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

المتشابهات :

قوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ مكرر عشر مرات : لأنه كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكرارها مستهجنًا . ولولم يكرر كان متوعداً على بعض دون بعض . وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ، كما من عادتهم الاقتصار والإيجاز وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز .

قال البخارى بسنده عن ابن مسعود - رضى الله عنه قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بنى  
إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها . . . الحديث « (١) .  
ومناسبتها لما قبلها : أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجار ، ووعد  
المؤمنين الأبرار .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ  
فَرَقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا  
النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ  
أُتِقَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾  
وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ  
نَفْعِلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾  
فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ  
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا  
فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

### معاني المفردات

﴿ والمرسلات عُرْفًا فالعاصفات عصفًا والناشرات نشرا ﴾ المراد الرياح .  
﴿ فالفارقات فرقا ، فالمُلقيات ذكرا ﴾ المراد الملائكة .

﴿ عذراً أو نذراً ﴾ أى : فالملائكة الملقيات الى الرسل وحياً فيه إعدار إلى الخلق ، وانذار لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره .  
 ﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ أى : أقسم بهذه الأقسام إن ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة .

﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أى : ذهبت ضوءها .  
 ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى : انفطرت وتشققت .  
 ﴿ أقتت ﴾ أى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أمها .  
 ﴿ أجلت ﴾ أى : أخرت وأمهلت .  
 ﴿ الفصل ﴾ أى : الفصل بين الخلائق .  
 ﴿ ويل ﴾ عذاب وخزى .  
 ﴿ من ماء مهين ﴾ أى : من نقطة قدرة حقيرة .  
 ﴿ فى قرار مكين ﴾ أى : فى الرحم .  
 ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أى : إلى مقدار معين من الوقت عند الله .  
 ﴿ فقدرنا ﴾ أى : على خلقه وتصويره كيف شئنا .  
 ﴿ كفات ﴾ ما يكفت ، أى يضم ويجمع .  
 ﴿ رواسى ﴾ أى : جبلاً ثوابت .  
 ﴿ شامخات ﴾ أى : مرتفعات .  
 ﴿ فراتا ﴾ أى : عذاباً .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالمرسلات وهى الرياح كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ وقيل ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ . أى أقسم بالرياح حين تهب متتابعة يقفوا بعضها إثر بعض ، ﴿ فالعاصفات عصفا ﴾ هى الرياح كما يقال عصفت الرياح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب تبارك وتعالى .

وأقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووجدانيته ، وعظم قدرته ، ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها



وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها . فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحى بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها ، وتارة عقيبا ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوبا ، وتارة دبوراً ، وتارة صبا ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شىء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثير والتأثير لطيفة المسارِق بين السموات والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه الأرض هلك ، كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يجسها الله سبحانه إذا شاء ويرسلها إذا شاء ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب وهى أقوى خلق الله . . كما رواه الترمذى فى جامعهم من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد . فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يا رب ، هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد قال النار قالوا يا رب فهل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم : الماء قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال نعم . الريح . قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقه بيمينه يخفيها عن شماله » ورواه أحمد فى سنده (١) .

قوله تعالى : ﴿ فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا ﴾ يعنى الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه ، إعذار إلى الخلق وإنذار لهم عقاب الله أن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا هو جواب القسم أى أن ما توعدون به من أمر القيامة كأمر الحساب والجزاء ، كائن لا محالة . قال المفسرون : أقسم تعالى بخمسة أشياء : تنبيها على جلالة قدر المقسم به ، وتعظيما لشأن المقسم عليه ، فأقسم بالرياح التى تحمل الرحمة والعذاب ، وتسوق للعباد الخير أو الشر ، وبالملائكة الأبرار ، الذين يتنزل بالوحي للإعذار والإنذار ، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه ، وأن ما وعد الله تعالى به المكذبين ، من مجىء الساعة والثواب والعقاب ، كائن لا محالة فلا ينبغى الشك والامتراء .

وقال ابن القيم رحمه الله « ويظهر - والله أعلم بما أراد من كلامه - أن القسم فى هذه الآيات وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من

روح الله ، وقد جعلها الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين . ﴾

﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ أى : فإذا ذهب ضوء النجوم . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ كقوله ﴿ وإذا الكواكب انتشرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى وإذا السماء انفطرت وتشققت ، كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ وكقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وقوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أى وإذا الجبال فرقتها الرياح ، فلم يبق لها عين ولا أثر كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فيذرها قاعا صفصفا ﴾ وكقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شيء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ الآية وكقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لأى يوم أجلت ﴾ أى : ويقال حينئذ : لأى يوم أخرت الأمور المتعلقة من تعذيب الكفار واهانتهم ، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفضاعة أهوالها .

والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذى أجل اجتماع المرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم . ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى ﴿ ليوم الفصل ﴾ أى ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، وهو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له . وقوله ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته وعظيم أهواله ؟

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والويل حينئذ فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبكل ما ورد على السنة أنبيائه وأخبروا به . قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

يقول تعالى ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعنى من المكذبين للرسل أى : ألم نهلك من كذب الرسل قبلكم ، ونعذبهم فى الدنيا بشتى أنواع العذاب فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح وقوم فرعون ، وأخرى

بالزلازل كما كان لقوم لوط إلى أشباه ذلك من المثلاث التي حلت بالاسم قبلكم ، جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسىء أفعالهم ، وأن سننا في المكذبين لا تبديل فيها ولا تغير ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم وتندموا ، ولات ساعة مندم .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نتبعهم الآخريين ﴾ أى : ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخريين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم فعلوا مثل أفعالهم كقوله تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها ﴾ .

﴿ كذلك نفعل بالمجرمين ﴾ أى : إن سننا في جميع المجرمين واحدة ، فكما أهلكنا المتقدمين لاجرامهم وتكذيبهم - نفعل بالمتأخرين الذين حذوا حذوهم واستنوا سنتهم .

وقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هؤلاء وإن عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب ، فالطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة ، والتكرير للتوكيد شائع في كلام العرب كما تقدم في سورة الرحمن .

وقال القرطبي : كرر الويل في هذه السورة عند كل آية لمن كذب بشيء لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فجعل لكل مكذب شيء عذاباً سوى عذابه بتكذيب شيء آخر ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومحتجا على الاعادة بالبداء ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ أى ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل .

أخرج الامام أحمد بسنده عن بشر بن حجاج قال إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة » (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعنى جمعناه في الرحم وهو قرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ يعنى إلى مدة معينة من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ولذا قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾ أى ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرين ، إذ خلقناكم في أحسن الصور والهيئات - أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكر لا الكفران والاعتراف بوجدانيته وارساله للرسول والاقرار بالبعث ؟ لكنكم كفرتم أنعمه ، ونكلتم عن الاعتراف بوجدانيته وعبدتم الأصنام والأوثان ، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء ، فسترون في هذا اليوم عاقبة ما أجترحتم ولذا قال سبحانه ﴿ ويل

يومئذ للمكذبين ﴿ أى خزى وعذاب لمن كذب بهذه المنن العوالى .

ألا إننا كلنا بائد وأى بنى آدم خالد  
ويدؤهم كان من رهم وكل إلى ربه عائد  
فيا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحد الجاحد  
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

### من آيات الله الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته (القرار المكين)

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » تحت هذا العنوان  
« القرار المكين » .

قال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم  
القادرون ﴾ . وقال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفه فى قرار مكين ﴾ لقد  
سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج حتى تصير جنينا ثم حملا ثم تخرج  
طفلا كامل الخلقة سوى التكوين . . لذا فلا بد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين كما  
أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة . .

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من  
كل عدوان خارجى ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم . . . ومع ذلك تسمح له  
بالحركة والنمو حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم  
الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من ميليلترين ونصف بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف  
ميليلتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض والعجان  
وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض كالمثانة والمستقيم والقناة  
الشرجية . . . ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة  
والقناة الشرجية ولبرزت إلى الخارج . . . وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزيق عضلات العجان فى حالة  
الولادة المتعسرة أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى الى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم وبالجذء العلوى من المهبل ويربط  
أجزاءه بالمثانة من الأمام . . . وبالمستقيم من الخلف يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو  
النطفة الانسانية فى أدوارها المختلفة كما أننا نلاحظ توازناً عجيباً بين الضغط المودى فى تجويف البطن وتجويف

الحوض بحيث يمسك بالأعضاء في أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضاً . . واتصال الرحم بالعنق اتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل لما يساعد مساعدة فعالة في ثبات الرحم في مكانه .

ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات : خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم . . وبينهما الطبقة العضلية الشخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات . . وهذه العضلات أهمية خاصة في منع النزيف من الرحم وخاصة بعد الولادة . . إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية الدموية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم . . ولكن الله هياً هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة افراز هرمون الحمل البرجستون إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتتدة عكس هرمون الأنوثة الأيستروجين الذي يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : « إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريباً وكان خالياً من الفضول المانعة له عن فعله أشد شوقه إلى المنى حتى أن الانسان يحس في وقت الجماع وكان الرحم يجذب أحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم . . ولا يمكن أن يحصل ذلك أثناء الحمل مثلاً . . لأن هرمون البروجسترون ( هرمون الحمل ) يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار . . فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقفدها إلى الخارج .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ويقول لها أرخى من قبضتك قليلاً فتسمع له وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعاً حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات .

فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتحاء فيقول للحوض اتسع فيتسع وعند ذاك يمر الطفل في ذلك الطريق الضيق الذي احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر به دون أن ينحشر أنحشاراً مميتاً فيه . .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك في كل طور من أطوار حياتك منذ كنت نقطة مغلقة فعظماً فلحمياً يكسو العظام . . فخلقاً من بعد خلق . . والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء . . وتدفع عنك الأذى فإذا حان موعد خروجك إلى الدنيا . . هيأ لك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طليعة لينة . . وأمر الرحم بالانقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى إلى الضغط عليك ضغطاً يؤدى إلى وفاتك . . وهياً الطريق لخروجك في ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن تخرج منه لولا رحمته . . ثم تخرج لتجد غذائك جاهزاً في ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك إياه من

ثديها مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم ثم يرعاك طفلاً ويافعا .. فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقنتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن .. وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكراً لله على عظيم منته وآلائه .. وما أحراك أن تطيع فلا تعص أبداً .. ولكنها النفس الأمارة بالسوء .. ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار .. ولا بد من أوبة .. ولا بد من توبة .. قبل فوات الأوان .. فإن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار .. وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل .. أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : ألم نجعل الأرض مهاداً لكم ، فتكفتم وتجمعكم فيها أحياء على ظهرها وأمواتاً فى بطنها ، فالأحياء يسكنون فى منازلهم ، والأموات يدفنون فى قبورهم .

قال مجاهد وقتادة والشعبي فى هذه الآية : « ألم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً » بطنها لأمواتكم وظهرها لأحيائكم .

( وجعلنا فيها رواسى شامخات ) أى : وجعلنا جبالاً ثوابت عالياً على ظهرها لئلا تميد بكم .

وهذه الجبال بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة التى فى باطنها ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أى : وأسقيناكم ماء عذباً تشربون منه ، إما آتياً من السحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، وأما من العيون النابتة منها ويمدها الثلج الذى يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض منتزلاً إلى بطنها ، متجهاً إلى عيونها الجارية .

( ويل يومئذ للمكذبين ) أى : عذاب عظيم فى الآخرة لمن كفر بهذه النعم .

## من صور الوعيد والوعد

قال تعالى :

أَنْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شَعْبٍ ﴿٣٠﴾  
 لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ رَكَالٍ قَصِيرٍ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ  
 صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ  
 لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ  
 وَالْأُولَىٰ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾  
 إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَةٍ مِمَّا يَسْتَنْهَوْنَ ﴿٤٢﴾ كُلُّوا وَاشْرَبُوا  
 هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ  
 لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُّوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾  
 وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ  
 حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

## معاني المفردات

لا ظليل : أى : لا يلقى من حر الشمس .  
 الشرر : ما يتطاير من النار .  
 كالقصر : أى : كالدار الكبيرة المشيدة .  
 جمالة : واحدها جبل .  
 فكيدون : أى : فاختالوا على .  
 ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الفء ، فإنه يقال ظل الليل ، ظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فء الا لما زالت عنه الشمس ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة .  
 عيون : أى : أنهار .  
 اركعوا : أى : صلوا .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر - سبحانه - أن للمكذبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب في يوم الفصل والجزاء - بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب ، ويخر من هوله كل غبت أواب ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم ، يوم لا ينطقون من شدة الدهشة والحيرة ، ولا يؤذن لهم في الاعتذار فيعتذرون ثم أعقبه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذ ، ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال : ( كلوا وتمتعوا قليلاً ) ولا نصيب لكم في الآخرة ، لأنكم كافرون .

ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا وأصروا واستكبروا استكباراً ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبى الذى جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه ، فبأى كلام بعده يصدقون ؟

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾  
 يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » كقوله تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم في خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾<sup>(١)</sup>



وقوله : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ يعنى : لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن شمالهم ، وشعبة من فوقهم ، والمراد أنه محيط بهم من كل جانب كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾ أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب يعنى ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهيها كالقصر قال ابن مسعود كالحصون .

وقوله : « كأنه جمالة صفر » قال مجاهد وقتادة والحسن كالابل السود وقال سعيد بن جبير : ( جمالة صفر ) يعنى حبال السفن .

فهذه النار يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة كانه القصر عظماً وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصفر لوناً وكثرة وتتابعاً وسرعة حركة .

( ويل يومئذ للمكذبين ) بهذا اليوم الذى لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيص .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار لأن ليس لديهم عذر صحيح ، ولا جواب مستقيم كقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً ﴾ وقوله : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ ، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم اليه الرسل ، فأندرتهم غاقبته .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : هذا يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب ، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض ، فيقتص من الظالم للمظلوم ، وترد له حقوقه .

وقوله : ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ أى : جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم فى صعيد واحد ليتمكن الفصل بينكم ، فيقضى بهذا على هذا ، ولولا ذلك ما أمكن ، إذ لا يقضى على غائب .

وقوله : ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ أى : فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا ، لتخلصوا أنفسكم من العذاب .

وفى هذا تقرير لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه في الدنيا .  
قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات : إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليعحوم وهو الدخان الأسود المتن ، وقوله : ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا كقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ وكقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ .

وقوله : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الاحسان اليهم . كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ .

وقوله : ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ الذين عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعل بهم .

ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال تعالى :

﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ أى : كلوا بقية آجالكم ، وتمتعوا بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى ، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمى الأمم الخالية التى تمتعت إلى حين ، ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأى كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ .

قال ابن حاتم بسنده عن اسماعيل بن أمية قال سمعت رجلاً أعرابياً بدوياً يقول سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفاً - فقراً (فبأى حديث بعده يؤمنون) فليقل آمنت بالله وبما أنزل .

« اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

« رضينا بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، اللهم أسلمت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، والجات ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت » .

عبد الحميد كشك

في

رَحَابِ التَّفْسِيرِ

الجزء الثلاثون

من سورة النبأ  
إلى سورة الناس

المكتبة المصرية الحديث

## تفسير سورة النبا

مقدمة عن السورة الكريمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : أربعون آية .

وكلماتها : مائة وثلاثة وسبعون .

وحروفها : ثمانمائة وست عشرة .

فواصل آياتها : ( منا ) وعلى الميم ( العظيم ) .

ولها اسمان : عم يتساءلون لقوله ( يتساءلون ) ، والنبأ ، لقوله ( عن النبأ العظيم ) .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : ذكر القيامة ، وخلق الأرض والسماء ، وبيان نفع الغيث ، وكيفية النشر والبعث ، وعذاب العاصين وتواب المطيعين من المؤمنين ، وقيام الملائكة في القيامة مع المؤمنين ، وتمنى الكافر المحال في قوله ( ياليتنى كنت تراباً ) .

### المتشابهات :

قوله : ﴿ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ قيل : التكرار للتأكيد .

وقيل الأول عند النزاع ، والثاني في القيامة .

قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ وبعده ( جزاء من ربك عطاء حساباً ) لأن الأول للكفار ، وقد قال الله تعالى :

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فيكون جزاؤهم على وفق أعمالهم . والثاني للمؤمنين وجزاؤهم وافياً كافياً .  
فلهذا قال ( حساباً ) أى وافياً .

مناسبة السورة لما قبلها من وجوه :

١ - اشتغالها على إثبات القدرة على البعث الذى ذكر في السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

٢ - أن في هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعاً للمكذبين ، فهناك قال ( ألم نخلقكم من ماء مهين ) وهنا قال ( ألم نجعل الأرض مهداً ) .

٣ - أن في كل منها وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

٤ - أن في هذه تفصيل ما أجمل في تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال ( لأى يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل ) وهنا قال ( إن يوم الفصل كان ميقاتاً ) إلى آخر السورة .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاهُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَنَآبًا ﴿٢٢﴾ لَتَبِثْنَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

### معاني المفردات

- (عم يتساءلون) أى : عن أى شىء يتساءلون .  
 (النبا) الخبر الذى يعنى به نهتم بشأنه ، والمراد خبر البعث من القبور والجزاء يوم الحساب .  
 (كلا) كلمة تعيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه .  
 (المهاد) (بكسر الميم) والمهد : المكان المهدى المذل .  
 (الأوتاد) وأحدها وتد ؟ وهو ما يندق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذى تشد به الخيمة .

- (الأزواج) واحدها زوج ، ويطلق على الذكر والأنثى .  
 (السبات) (بضم السين) قطع الحركة لتحصيل الراحة .  
 (اللباس) : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه .  
 (معاشاً) : أى : وقتاً لتحصيل أسباب المعاش والحياة .  
 (سبعاً شداداً) : أى : سبع سموات قوية محكمة لا فطور فيها ولا تصدع .  
 (السراج) : ما يضيء وينير .  
 (الوهاب) : المتأللئ والمراد به الشمس .  
 (المعصرات) : السحاب والغيوم إذا أعصرت أى حان وقت أن تعصر الماء فيسقط منها .  
 (الثجاج) كثير الإنصباب عظيم السيالان ، والمراد به المطر .  
 (الحب) ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير .  
 (النبات) ما تقتات به الدواب من التين والحشيش .  
 (الجنات) واحدها جنة ، وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخيل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخفاف .  
 (يوم الفصل) هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق .  
 (ميقاتا) أى : حدّاً تنتهى عنده الدنيا .  
 (الصور) فى الأصل البوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتاً ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجتمعوا عند النافخ .  
 (الأفواج) واحدها فوج وهو الجماعة .  
 (وفتحت السماء) أى : انشقت وتصدعت .  
 (وسيرت الجبال) أى : زالت من أماكنها وتفتت صخورها .  
 (سراباً) أى : كالسراب ، فحصى بعد تفتحها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غباراً متراكماً .  
 (المرصاد) موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها .  
 (للطاغين) أى : للذين طغوا فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره .  
 (والمآب) المرجع .  
 (لايئين) أى : مقيمين .  
 (أحقاباً) واحدها حقبة ، وواحد الحقب حقبة : وهى مدة من الزمان .  
 (والبرد) برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم « منع البردُ البردَ » أى أصابه من شدة البرد ما منعه النوم .  
 (الحميم) المار الحار المغلى .  
 (غساقاً) أى : قيحاً وصديداً .  
 (وفاقاً) أى : وفق أعمالهم السيئة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون . عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ﴾ .

يقول تعالى منكراً على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة انكاراً لوقوعها ( عم يتساءلون عن النبأ العظيم ) أى : عن أى شىء يتساءلون من أمر القيامة وهو النبأ العظيم يعنى الخبر الهائل المقطع الباهر . قال قتادة : ( النبأ العظيم ) البعث بعد الموت وقال مجاهد هو القرآن قال ابن كثير والأظهر الأول لقوله تعالى : ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾ اختلفوا فى أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم ( هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ) . ومن شاك فيه بقوله : ﴿ ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كلا سيعلمون ﴾ أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذى يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون . قال تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ ثم أكد هذا الوعيد .

بقوله تعالى : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيهاء إلى غاية التهديد . ثم شرع سبحانه يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون . فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتاداً ، وخلقناكم أزواجاً ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً ﴾ .

﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾ أى فكيف تنكرون أو تشكون أيها الجاحدون فى البعث والنشور وقد رأيتم ما يدل عليه من قدرة الله التامة وعلمه المحيط بكل شىء وحكمته الباهرة التى تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثاً ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ من ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ، ويتركها سدى ، أنظروا إلى الأرض التى جعلها الله لكم ممهدة ، وموطأة الأكناف للناس والدواب ، يقيمون عليها ، ويفترشونها ، ويتنفعون بها وبخيراتها ﴿ قل أأنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

ألا ينظرون إلى عظمة هذه الأرض ، التى منها خلقوا ، وفيها سيعودون ومنها سيخرجون تارة أخرى شاءوا أم أبوا ؟ ألا ينظرون إلى أسرار التربة التى فى هذه الأرض ، وما فيها من عجائب صنع الله جعل



لكم الأرض مهدياً ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .  
 قوله تعالى : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ أى جعلنا الجبال للأرض كالأوتاد كى لا تميل بأهلها أو تميد وتضطرب بسكانها ، ولولا الجبال التى خلقها الله بحكمته لكانت الأرض دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، والمعادن المختلفة الأشكال والألوان  
 قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجا ﴾ أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ليعتد كل منكم بالآخر وليتم الانتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ الحياة بالإنسان والتوليد وتكملها بالتربية والتعليم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .  
 ثم قال تعالى :

﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ السبات الموت والمسبوت الميت ، من النسب وهى القطع ، والنوم أحد الموتين ، وهو من نعم الله الكبرى على الناس قال تعالى ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ فإن نوم بضع ساعات فى اليوم يريح القوى من تعبها وينشطها من كسلها ويعيد إلى الجسم ما فقد منه من حيوية ونشاط ، ولولم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد لقوى الإنسان بل لفقد الإنسان الطاقة على العمل . فالمراد قد يعين على الزاد والشراب أياماً ولكنه لا يطيق الصبر على السهر . والسهر ينضى الجسم ويبلية فالله تبارك وتعالى جعل نومنا فى الليل قطعاً للحركة وإيقافاً للعمل لتحصل الراحة فى فترة النوم من كثرة التردد والسعى فى المعاش فى سحابة النهار .  
 ولقد شبه الرسول ﷺ الموت بالنوم واليقظة بالبعث والنشور فكما أننا ننام ولا ندرى كيف نموت ونستيقظ ولا ندرى كيف انقضت تلك الساعات الطوال فإننا كذلك سنموت ولا ندرى كيف نموت ونبعث وكأننا استيقظنا بعد غفوة طويلة قال النبى الكريم فى هذا التشبيه البليغ « والله إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولتجزون بالإحسان وإحسانا وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبدأ أونا ر أبدأ » .

سبحان الله الذى جعل النوم سباتا وجعل الليل سكنا ولباسا وجعل النهار نشورا ، وله الحمد فى السموات والأرض وهو بكل شىء عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أى غطاءً وسترة يستر كل شىء بظلمته وسواده ، ويغشى الناس بظلامه ، وسواده كما قال تعالى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ .

قال قتادة ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أى سكناً .

والليل ساتر للناس والأجسام يغطيها كما يغطى اللباس الجسم ويستره وللناس ساتر للناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما أن اللباس يقي الجسم من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر ، فكذلك

الليل يستر الانسان فيه عن الناس ، ويبعده عن الأعمال الشاقة المجهدة وبالظلام ينام نوماً عميقاً هادئاً يحفظ جسمه من التعب والنصب ولولا هذا اللباس من الظلام لما نام الإنسان هذا المنام ، ولما أصابه هذا الهدوء ، ففي الظلام تستريح الأعصاب . ويستريح النظر ، ويتجدد الفكر ، وينمو العقل ويتعمق المرء في التفكير الرقيق والنهار ﴿ إن في ذلك لعلبة لأولى الأبصار ﴾ . ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون فالى الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ قوله تعالى ﴿ وجعلنا النهار معاشاً ﴾ إن الله تبارك وتعالى كما جعل النوم فى الليل موتاً أصغر وقطعا للحياة جعل النهار يقظة ، وحياة ، وقت معاش ، وحركة ، يستيقظ الناس فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، والله سبحانه جعل النهار مشرقاً نيراً مضيئاً تنبعث منه الحياة وتدب فيه أصولها ، ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجئ للمعاش والتكسب والتجارات والصناعات والزراعة وغيرها فله الفضل والمنة .

فلو جعل علينا الليل سرمداً إلى يوم القيامة فمن يأتينا بنهار غيره عز وجل ومن من الناس يستطيع أن يحرك هذه الشمس الجبارة من مكانها أو ينقلها فى سمائها وعليائها لتقل لنا الدفء والضياء وتبعث فى الكون الحياة والنشاط قال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتىكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعالمكم تشكرون ﴾ والشمس آية النهار ، كما أن القمر آية الليل ﴿ ومن آياته الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ وبينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حياً ونباتاً ، وجنات ألفافاً ﴾ وقوله : ﴿ وبينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ وهذه آية كبرى من آيات الله البينات أو براهينه الساطعات ، النيرات ، وهى السموات السبع التى بناها الله جل فى علاه فوقنا ، وهى فى عظمتها واتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب المختلفة الثابتة منها والسيارة . وهذه السموات السبع محكمة النسيج قوية البنيان لا يؤثر فيها كثر الغداة ولا مر العشى ، ليس فيها تصدع ولا فطور فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .

قال تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقاً ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ، وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ .

ولولا هذا البناء المحكم الشديد لهذه السموات السبع وأن الله جعلها سقفا محفوظاً ، وظلا ممدوداً ، فلولا لطف الله لهلك من فى الأرض كلهم أجمعون بسقوط نجم واحد من أنجمها الزاهرة وهبوط كوكب

واحد من كواكبها الباهرة وأصغر كوكب من كواكبها يفوق الأرض حجماً ووزناً واتساعاً فله الفضل والمنة أن بنى فوقنا السموات السبع بناءً محكماً شديداً سبحانه إذ أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . قال تعالى ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ أى الشمس ، فالله تبارك وتعالى خلق هذه الشمس العظيمة ، وجعلها منيرة مشرقة على جميع العالم وضوءها يتوهج لأهل الأرض كلهم أجمعين ويقال توهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها ، ومعنى الوهاج المتألىء الوقاد ، وقد جعل الله سبحانه وجلت قدرته الشمس سراجاً للعالم ، وقادا متألئاً بالنور يستضيئون به ، وينعمون بنوره ، والنعمة فيه عامة لجميع الخلق قال مقاتل : جعل فيه نوراً وحرّاً ، والوهج يجمع النور والحر ، والنور والحر سران من أسرار الحياة الإنسانية ، ونعمتان من نعم الله العظمى . أودعها الله فى هذا الكوكب ليطرد بهما الأمراض ، وينقى بهما الأرض ويطهرها ومن عليها من الناس والدواب ، وينبت بهما النبات ، ويخرج بهما الحب ، والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ولعظمة هذا الكوكب الذى يجرى بحسبان ويسجد تحت عرش الرحمن فقد أقسم الله به ليلفت إلى عظمته الأنظار فقال تعالى ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾ وقال تعالى : ﴿ الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ وقال تعالى الخالق العظيم : ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض آيات لقوم يتقون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾ .

وهذه نعمة أخرى من نعم المولى سبحانه وتعالى التى لا تعد ولا تحصى إذا أنزل عز وجل بقدرته وبفضله من السحب والغيوم المتكاثفة كالجبال التى تتحلب بالمطر أنزل منها ماء كثير الانصباب عظيم السيول تجري به السيول والوديان ، وحيث يرسله الله إلى البلد الميت فيحييه ويحيى به أهله . وألثج شدة الانصباب قال قتادة : الثجاج هنا المتدفق المنصب . والمراد هنا تتابع القطر من المطر حتى يكثر الماء فيعظم به النفع لسائر المخلوقات فى الأرض .

ومن معنى المعصرات الرياح التى تعصر السحاب فيتزل المطر وهى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تعالى ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً ﴾ . ثم بين سبحانه عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال تعالى :

﴿ لنخرج به حبا ونباتاً ، وجنات ألفافا ﴾ أى لنبدل بوساطته جذب الأرض خصباً ، فتخرج من الأرض حبا يقتات به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تقتات به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله سبحانه في هذه الآية جميع أنواع ما تنبت الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذا ساق أولاً ، والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ، والثاني إما أن يكون له أكمام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحداثق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ . قال تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ، يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ، وفتحت السماء فكانت أبواباً وسيرت الجبال فكانت سراباً إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً لابئين فيها أحقاباً لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً جزاء وفاقاً إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى للناس بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة وعظمته القاهرة ليلزمهم الحجة ، في أمر البعث والنشور ، حتى لا يجدوا سبيلاً إلى نكرانه وجحوده ، هدهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لا محالة ولا ريب فيها ، وفيها فصل الخطاب بين الحق والباطل والحساب والجزاء لكل عامل فقال تعالى : ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتاً ﴾ أى أن يوم القيامة كان في تقدير الله عز وجل وحكمته حداً فاصلاً به في الدنيا أو حداً للخلائق ينتهون إليه ، وكان ميقاتاً لما وعد الله من الثواب والعقاب وهو ميقات لكل الخلائق يجتمعون فيه في فصل الحكومات وقطع الخصومات وهو يوم القيامة مؤقت بأجل محدود لا يزداد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التبيين إلا الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿ وما تؤخره إلا لأجل معدود ﴾ والحاكم المطلق فيه رب الأرض والسموات وعالم السر والنجوى من لا تغيب عنه غائبة في الأرض ولا في السماء ﴿ إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ ثم بين سبحانه هذا اليوم وزاد في تقطيعه وتهويله فقال تعالى : ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا ﴾ أى يوم ينفخ في الصور فتأتون زمراً زمراً كل أمة مع رسولها بدليل قوله تعالى ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ ونحو الآية قوله تعالى ﴿ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ وقوله ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ والنفخ في الصور في هذه الآية هو النفخة الأخيرة التي عندها يكون النشور والحشر . وقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أى طرقاً ومسالك لنزول الملائكة كما قال تعالى ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وسيرت الجبال فكانت سراباً ﴾ أى أن الجبال لا تكون في ذلك اليوم على ثباتها المعروف بل يذهب ما كان لها من قرار ، وتعود كأنها سراب يرى من بعد فإذا قربت منه لم تجد شيئاً لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

## أحوال الجبال يوم القيامة

وقد ذكر الإمام الرازي رحمه الله في تفسيره أحوال الجبال فقال : اعلم أن الله تعالى ذكر في مواضع من كتابه أحوال الجبال على وجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها على الوجه الذي نقوله وهو :

١ - أن أول أحوالها الاندكاك وهو قوله ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ .

٢ - الحالة الثانية لها أن تكون ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ وهو قوله ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ﴾ .

٣ - الحالة الثالثة : أن تصير كالمهل وذلك أن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله ﴿ إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً ﴾ .

٤ - الحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة تفارق مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد بقوله ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ .

٥ - والحالة الخامسة : أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتصيرها شعاعاً في الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاتفها أجساماً جامدة وهي بالحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب الرياح بها صيرها مندكة متفتتة وهي قوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

٦ - الحالة السادسة : أن تصير سراياً بمعنى لا شيء فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً . كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذي كان يراه فيه لم يجد شيئاً والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً لابئين فيها أحقاباً ﴾ .

أى : إن دار العذاب وهي جهنم مكان يرتقب فيه خزانتها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وأفعاله .

روى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

وقوله ﴿ للطاغين مآباً ﴾ أى إنها مرجع للذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد . ﴿ لابئين فيها أحقاباً ﴾ أى أنهم سيمكثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضاً فكلما انقضى زمن لهم تجدد لهم زمن آخر كما قال تعالى ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ .

ثم بين سبحانه أحوالهم فيها فقال :

﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ، إلا حميماً وغساقاً . جزاء وفاقاً ﴾ أى : لا يذوقون في جهنم برداً يبرد السعير عنهم . إلا الغساق ولا شراباً يرويههم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة

الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقه من بواطنهم ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستقذرة قال الربيع بن أنس : الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم وقال ابن جرير ومثل المراد بقوله ﴿ لا يذوفون فيها برداً ﴾ يعنى النوم .

وقوله تعالى : ﴿ جزاء وفاقاً ﴾

أى : أن هذا الحال الذى صاروا إليه ، وهذه العقوبة التى نزلت بهم ما هى إلا نتيجة أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا وقال مقاتل : وافق عذاب النار الشرك لأنها عظيمان فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار .

والوفاق الجارى على المقدار ، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقدار الأعمال فى الاستحقاق ، والعقاب من جنس العمل فلم ينزل الله بهم أليم عذابه وشديد عقابه إلا لأنهم أتوا بخسيس المعاصى ، وارتكبوا عظيم الآثام وكبير الذنوب والإجرام .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بآياتنا كذاباً وكل شيء أحصيناه كتاباً فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾

بعد أن بين - سبحانه - على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعده لهؤلاء الآثمين . وأنه تعالى جعله وفق إجرامهم وكفاء أعمالهم المنكرة شرع هنا جل وعلا بتفصيل أنواع جرائمهم فقال تعالى ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ .

لقد فعلوا ما فعلوا من المنكرات ، وارتكبوا ما ارتكبوا من الموبقات وأتوا ما أتوا من المعاصى . واجترحوا ما اجترحوا من السيئات لأنهم كذبوا بيوم الحساب ، وما كانوا يتوقعون أن يقفوا ذلك الموقف الرهيب بين يدى رب العالمين فيجازيهم بأعمالهم ، وقد أمضى كل شئ عليهم ولو آمنوا بهذا الحساب لحافوا الله وحسبوا لهذا اليوم حسابه ، وأعدوا له عدته . ولكنهم كذبوا به فرتعوا فى الباطل ، وغاصوا فى الغى والضلال . ومن أمن العقوبة أساء الأدب وانتهى إلى سوء المنقلب .

وقوله : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أى أنهم مع تكذيبهم بيوم الحساب فقد كذبوا بجميع حجج الله ودلائله على عظيم خلقه التى أنزلها على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام . وكذبوا بكل البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد . وأنكروا ما جاء به القرآن الكريم فهم كفرة فجرة ، لذا عقابهم شديداً موافقاً لما أتوا به من الكفر والضلال وعظيم الآثام .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ أى إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً لا يعتره تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئاً مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأننا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شيء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال تعالى ﴿ أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات - رتب عليه هذا الجزاء فقال تعالى ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ أى فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال تعالى ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ روى قتادة عن عبد الله بن عمر وأنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ قال تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكيا وصبا ماواههم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٣٥﴾ بَآءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ يَوْمَ الْحَقِّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَعَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

### معاني المفردات

- (مفازا) : أى : فوزا بالنعيم والثواب  
 (حدائق) : أى : بساتين فيها أنواع الثمر والشجر .  
 (أعنابا) : واحدها عنب .  
 (كواعب) : واحدها كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعبا .  
 (الأترا ب) إحداهن ترب ، وهى التى سنها من سن صاحبها .  
 (والكأس) : أناء من بلور للشراب .  
 (دهاقا) : ممتلئة .  
 (اللغو) : الباطل من الكلام  
 (حسابا) : أى : كافيا لهم .  
 (الخطاب) : المخلصة والمكاملة .  
 (الروح) : جبريل عليه الصلاة والسلام .  
 (المآب) المرجع .

(الانذار) : الاخبار بالمكروه قبل وقوعه .

(المرء) : الإنسان ذكراً كان أو أنثى .

(ما قدمت يداه) : ما عمله في حياته الأولى .

## المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التي وصفها ووصف ما فيها ، وذكر إنها عطاء من الله تعالى ، وفي هذا استنهاض لعوالى الهمم بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وأزديادهم من القربان والطاعات ، كما أن فيها إيلا ما لأنفس الضالين المكذبين ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غداً ما قدمته أيديهم وحيثئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، وبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا تراباً لم نصب حظاً من الحياة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إِنِّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا . حَدَاقًا وَعَنَابًا . وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا . وَكَأْسًا دِهَاقًا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا . جِزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنِّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ .

فالفوز بالكرامة في دار المقامة ، ونيل الثواب في جنة النعيم ، جعله الله عز وجل جزاء من صدق مع الله واستحيا من الله حق الحياء واتقى محارم الله وخاف عقابه ، وتزود بالتقوى ، وخير الزاد التقوى ، وقد لبسوا فيها جلبابا سابغا أنجاهم الله من النار . وكتب لهم الفوز بالجنة .

وقد بين الله تبارك وتعالى صفات المتقين في كتابه العزيز لتعليم من لم يكن يعلم من هم المتقون الذي يعينهم القرآن في العديد من آياته البينات والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

قال تعالى من سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْبَنَاتُ عَلَى الْمَرْءِ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُخْتَارُ الذَّكَرَ عَلَى الْأُنثَىٰ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا ذَكِيًّا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوی القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل والسائلین وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزکاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرین فى البأساء والضراء وحين البأس أولئک الذین صدقوا وأولئک هم المتقون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على



ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴿

وقال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدنيا مزيد ﴿

وقال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴿

فالمثقون هم الفائزون بروضات الجنات المستحقون هذا الفوز بفضل من الله وبرحة منه فوهبهم ومنحهم هذا الفوز جزاء تقواهم لله عز وجل .  
ثم فصل الله تعالى هذا الفوز وبين طرفاً مما سيصيب هؤلاء الأطهار الأبرار من النعيم المقيم فقال تعالى :

﴿ حدائق وأعناباً ﴾ أى : بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقر به العيون .  
ثم وصف سبحانه ما في الحدائق والجنات فقال تعالى :

﴿ وكواعب أتراباً ﴾ أى : وهورا كواعب لم تتدل ثديهم ، وهن أبكار عرب أتراب .  
والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء في الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لا نعلم كنهه في الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به وأنه متمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشاكل أحوال العالم الأخرى .

وقوله : ﴿ وكأسا دهاقاً ﴾ أى : وكأساً من الخمر مترعة ملاءى متتابعة على شاربها لا يصدعون عنها ولا ينزفون فهي لذة للشاربين .  
وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذاباً ﴾ أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، وليس فيها كذب وبهتان ولا زور وعصيان .

قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً الا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ بل هي جنة الرحمن برئت من كل عيب ونقصان .

أن هؤلاء السعداء الذين أكرمهم الله بجنة الخلد سوف لا يسمعون كلاماً فاسداً باطلاً أو مشوشاً مخلوطاً بالزور والبهتان وستكون النعم الواصلة اليهم صافية خالية من زحمة أعدائهم أيضاً . وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة وسيبعثون في الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، لا لغو ولا رفث ولا حقد ولا ضغينة ولا حسد قال تعالى : ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾

الكل يرتفع في جنة الله والكل سعيد بفضل الله والكل يجد ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ، وليس هناك ما يكدر صفة المحبة ولا يعكر نقاء القلوب الطاهرة التي تعلقت بالله واتقت الله فحظيت بالنعيم المقيم في الجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جعلنا الله منهم والمسلمين أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهم به بفضلِهِ ومنه وإِحسانه ورحمته عطاء حساباً أى : كافياً وافياً سالماً كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً ﴿ يخبر تعالى عن عظمتِهِ وجلالهِ وأنه رب السموات والأرض وما فيها وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شيء الملك الحق المبين .

وقوله ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وكقوله تعالى ﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ .  
اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا ما هو ؟

على أقوال ( أحدها ) أنهم بنوا آدم ، الثانى : أنهم خلق من خلق الله على صور بنى آدم وليسوا بملائكة ولا بشر وهم يأكلون ويشربون ( والثالث ) هو جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل ( نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ) قال ابن كثير والأشبه عندى والله أعلم أنهم بنو آدم .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من أذن له الرحمن ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكما ثبت فى الحديث الصحيح « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله تعالى : ﴿ وقال صواباً ﴾ أى : قال حقاً وصواباً وعدلاً ، من الحق لا إله إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أى : الكائن لا محالة « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » أى : من شاء من العباد تاب وأتاب ورجع إلى ربه ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه وأليم عذابه فإذا اتخذ المرء عند ربه مرجعاً ومآباً فقد فاز ونجا وتعلق بأسباب الرجاء .

وقال ابن عباس المراد : فمن شاء الله به خيراً هداه حتى يتخذ إلى ربه مآباً .

قوله تعالى : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت

تراياً ﴾

لقد أنذرهم الله عز وجل فى هذه الآية من عذاب يوم القيامة . إن هم مضوا فى كفرهم وضلالهم ، ولم يثوبوا إلى رشدهم ، ولم يعودوا إلى ربهم ، تائبين خائفين من عذاب هذا اليوم الذى سيقع حتماً ، ولتحقق وقوعه صار قريباً وكل ما هو آت آت كقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

وإنما سمى الله هذا التخويف انذاراً لأنه تعالى بهذا الوصف قد خوف، منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار . وإنهم سيجدون مقدمات هذا العذاب إذا فارقت الروح الجسد ووسد المرء في صدع من الأرض بقبر غير موسد ولا ممهد ، وقد خلع الأسباب وفارق الأصحاب وواجه الحساب ، عندها ينكشف له ما كان ينتظره ، ويرى نعيم القبر أو عذابه ، ولا يزال منه في ألم إلى أن يلاقى ربه عز وجل .  
وقوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أى : سيرى ويتنظر جزاء ما قدمت يداه ، فإن قدم الطاعة انتظر الثواب ، وأن قدم المعصية انتظر العقاب ، وطوبى له إن قدم عمل الأبرار ، وويل له إن قدم عمل الفجار .

غداً توفي النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
فإن احسنوا أحسنوا لأنفسهم وأن أساءوا فبش ما صنعوا

قال ابن كثير : ( يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ) أى يعرض عليه جميع أعماله خيراً وشرها وقديماً وحديثها ، وكقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ .  
قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً ﴾ .

إن شدة ما يلقاه الكافر في ذلك اليوم العسير عليه وهو ما سيراه حين يرى عذاب الله ونقمته وبطشه وينظر إلى أعماله الفاسدة وإلى سيئاته وقد سطرت عليه بأيدي السفرة ، الكرام البررة ، بحيث لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة إلا سجلوها وسطروها في كتاب أعماله الذى سيعرض عليه ويقال له ( اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ) ويقول : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً » .

إن كل هذا وغيره من الأهوال التى سيرها الكافر ستجعله يقول : ﴿ يا ليتنى كنت تراباً ﴾ فيود أنه لو كان تراباً في الدار الدنيا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، ويقول : ليتنى لم أبعث للحساب وبقيت كما كنت تراباً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ قال ابن كثير : وقيل بينها بحكمة العدل الذى لا يجور حتى أنه ليقصص للشاة الجاهل من القرناء . فإذا فرغ من الحكم فيها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ( يا ليتنى كنت تراباً ) أى : كنت حيواناً فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا في حديث الصور المشهور وورد فيه آثار عن أبي هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما .

اللهم يا رحيم يا ودود ، يا حميد ، يا مجيد ، يا حى ، يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمالنا وآخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم في موقف العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، وبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

## عقيدة المؤمن في الإيمان باليوم الآخر

يقول الشيخ أبو بكر الجزائري في كتاب عقيدة المؤمن تحت هذا العنوان « الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر » .

تعريف :

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء العالم وانتهاء هذه الحياة بكاملها . والثاني : إقبال الحياة الآخرة وابتدائها . فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثاني فيها البتة فالإيمان باليوم الآخر مقتضى للتصديق بإخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال واختلاف أحوال ، كما هو مقتضى كذلك لتصديق الله تعالى في أخباره عن الحياة الآخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجرى فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا .

إمكان الفناء ممكن ؟

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، وما لم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التي لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحوادث مشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل . إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجارى ، والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة وهي نظرية علمية في غاية الصحة وقد أثبت حدوث العالم وبالتالي قد أثبت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبت حدوث العالم أثبت إمكان فنائها أيضاً إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هي أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائياً ، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللابتدائى ، لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد ، وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضاً إمكان فنائها اللازم له ، والذي هو في طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافتها مستمرة ولا بد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أبنائه ، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة وذلك لخراب العالم وفنائه .  
إمكان المعاد .

هل المعاد ممكن ؟  
ولم لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً فهو من قبيل الجائز بالامكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً ؟ وإذا كان الجواب ، لا ، أبداً . فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشىء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب قصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وقوع الشىء موجوداً غير موجود .

والواجب ما أوجب عدم قصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علة ، فهو أى المعاد إذاً ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى إمكان البعث وجواز وقوعه .

### أدلة البعث :

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها :

- إن الشىء إذا لم يكن ، ثم كان وأعدم كانت إعاداته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه ، فالذى بنى داراً ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذى صنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرهما بإرادته واختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل ورود هذا المسلك من الاستدلال فى سورة الروم إذ قال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ . كما ورد فى سورة يس فى قوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ .

والاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما ، جاء هذا الاستدلال فى قول الله تعالى من سورة الانعام ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقتضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

- الاستدلال بالأرض الميته بسبب المحل ، والجذب ، والقحط ، حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت ثماء وازدهارا . قال تعالى من سورة فصلت : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي للموت . إنه على كل شيء قدير ﴾ .

- الاستدلال بالقدرة الكافية التي بها خلق آدم من تراب ، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعهما . قال تعالى من سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخافة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

- والاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم ، وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وقال عز من قائل من سورة النازعات : ﴿ أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاهما ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ .

وقال تعالى من سورة يس ، رداً على من قال :

من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

- الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر والصالح والفساد على وجود حياة أخرى يجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقال تعالى من سورة الليل : ﴿ إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ .

- الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف ،

وعلى تركها وإهمالها ، إذ لم يتوافر جزاء كاف في هذه الحياة الدنيا على تلك التكليف ، قال تعالى من سورة الملك : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ وقال تعالى من سورة المؤمنون : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

### أدلة أخرى :

١ - شعور كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقي الإنسان جزاء عمله الذى قام به في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد ، هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة في نفس الأمر ، ولا صورة له في الخارج ، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذى دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

٢ - ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح ، ومخاطبتها ، ورؤيتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية .

٣ - رؤى الناس المتعددة التى واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان هذه الرؤية لأموات الناس في المنام والحديث معهم ومعرفة أحوالهم وسؤالهم ، وأخبار الأموات من رآهم في منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية .

### آخر الأدلة :

وآخر الأدلة ؟ وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة إخبار الله تعالى ، وإخبار رسوله ﷺ أن من آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله لا يجد داعياً للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع في ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ إخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية وعن كل ما يجرى من بعث ، وحساب وجزاء ، ثم لا يصح شىء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصلح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره في كل كتبه ، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلى ، والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

## الحكمة في المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخرى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، قال تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ . فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً فى أرزاقهم ، وآجالهم وأعمالهم ، وفى سعادتهم ، وشقائهم فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء ، إلى غير هذا التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يعيشون لكان ذلك منافياً للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة . ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بها فهما كائنات لا محالة . فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما فى قوله من سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى ورنى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ . وقال تعالى من سورة النحل : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ .

## وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بأكملها ، وابتداء حياة أخرى وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مذهشة ، من بعث الخلق وحشرهم ، وحسابهم ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا نتم إذا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين ﴾ الآية . ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن ، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره فى عشرات السور منه ، وفى مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابه إني ظننت أنى ملاق حسابه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوتى كتابه ولم أدر ما حسابه ياليتها كانت القاضية



ما أغنى عنى ماله هلك عنى سلطانية ، خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام الا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴿١﴾ .

ومرة بتقريره ، وتأكيده مجيئه ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى ورى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ (٢) ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٣) .

ومرة بإتيان الهداية والفلاح للموقنين به ، وذلك كقوله تعالى ، ﴿ وبالأخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ (٤) .

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير ، هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٥) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (٦) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ (٧) وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ (٨) فى عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت العناية الالهية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما يدار استقامة المرء فى هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً ، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير ، وأن من افتقدتهما ، فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه وبدونه ، فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره ، وهو شر كله لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن اليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال .. اهـ .

(١) الحج الآيتان : ٦ - ٧

(٢) التغابن آية : ٧

(٣) الطلاق آية : ٢

(٤) البقرة الآيتان : ٤ - ٥

(٥) البقرة آية : ٦٢

(٦) البقرة آية : ٦٢٢

(٧) النساء آية : ٣٨

(٨) النساء آية : ٥٩

## تفسير سورة النازعات

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وأربعون آية .

وكلماتها : مائة وتسع وسبعون .

وحروفها : سبعمائة وثلاث وخمسون .

فواصل آياتها : ( هم ) على الميم آية واحدة ( ولأنعامكم ) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : القسم على نفخة الصور ، وكيفية البعث والنشور ، وإرسال موسى إلى فرعون ، والمنة بخلق السماء والأرض ، وتحقيق هول القيامة ، وبيان حال من آثر الدنيا ، والخبر عن حال أهل الخوف ، واستعجال الكافرين بالقيامة ، وتعجبهم منها في حال البعث في قوله تعالى : ﴿ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ ، وفي عبس ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ لأن الطامة مشتقة من طممت البئر إذا كبستها ( أى ردمتها بالتراب ) وسميت القيامة طامة ، لأنها تكنس كل شيء وتكسره . وسميت الصاخة - والصاخة : الصوت الشديد - لأن من شدة صوتها يحيا الناس ، كما ينتبه النائم بالصوت الشديد ، وخصت النازعات بالطامة : لأن الطم قبل الصخ ، والفرع قبل الصوت ، فكانت هى السابقة ، وخصت ( عبس ) بالصاخة ، لأنها بعدهما وهى اللاحقة .

مناسبتها لما قبلها .

ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة - وهنا أقسم على أن البعث حق لا ريب

فيه .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ① وَالنَّشِيطَاتِ نَشْطًا ② وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ③  
فَالسَّيِّقَاتِ سَبْقًا ④ فَاَلْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ⑤ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ⑥  
تَتَّبِعُهَا الرَّاادِفَةُ ⑦ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ⑧ أَبْصُرُهَا خَشِيعَةٌ ⑨  
يَقُولُونَ أَيْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ⑩ أَهَذَا كُنَّا عِظَمًا تَحْرَهُ ⑪ قَالُوا  
تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ⑫ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ⑬ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ⑭  
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ⑮ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ⑯  
أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ⑰ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَنِي ⑱ وَاهْدِيكَ  
إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ⑲ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ⑳ فَكَذَّبَ وَعَصَى ㉑ ثُمَّ  
أُدْبِرَ يَسْعَى ㉒ فَحَشَرَ فَنَادَى ㉓ فَقَالَ أَنَارُبُكُمْ الْأَعْلَى ㉔ فَأَخَذَهُ اللَّهُ  
نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ㉕ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ㉖

### معاني المفردات

- (والنازعات غرقا) أى (أقسم) الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم ، نزعا شديدا مؤلما بالغ الغاية .
- (والناشطات نشطا) الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق .
- (والسابحات سبحا) الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .
- (فالسابقات سبقا) الملائكة تسبق بالأرواح الى مستقرها نارا أوجنة .
- (فالمدبرات أمرا) الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به .
- (يوم ترجف الراجفة) لتبعث (جواب القسم) يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة (نفخة الموت) .
- (تتبعها الرادفة) نفخة البعث التى تردف الأولى .
- (واجفة) مضطربة أو خائفة وجلة .
- (أبصارها خاشعة) ذليلة منكسرة من الفزع .

فى الحافرة : إلى الحالة الأولى ( الحياة ) .  
 كنا عظاما نخرة : بالية متفتتة .  
 كرة خاسرة : رجعة غابنة .  
 زجرة واحدة : صيحة واحدة ( نفخة البعث ) .  
 هم بالساهرة : هم أحياء على وجه الأرض .  
 طوى : اسم الوادى المقدس .  
 طغى : عتا وتجبر وكفر بالله العظيم .  
 تزكى : تطهر من الكفر والطغيان .  
 الآية الكبرى : معجزة العصا واليد البيضاء .  
 يسعى : يجتد فى الافساد والمعارضة .  
 فحشر : جمع السحرة أو الجند .  
 نكال : عقوبة ... أو بعقوبة .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سباحاً ، فالسابقات سبقاً ،  
 فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ .

أقسم المولى سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة وأصنافهم ، فهم النازعات التى تنزع الأرواح من  
 الأجساد ، والناشطات التى تنشطها أى تخرجها بسرعة وخفة ، والسابحات التى تسبح فى الهواء فى  
 طريق ممرها إلى ما أمرت به ، كما تسبح الطير فى الهواء فالسابقات التى تسبق وتسرع إلى ما أمرت  
 به ، لا تبطئ عنه ولا تتأخر فالمدبرات أمور العباد التى أمرها ربها بتدبيرها .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ﴿ النازعات ﴾ الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة  
 وعنف وقوله : ﴿ غرقاً ﴾ الاغراق فى النزاع ، هو أن يجتذبه إلى آخره ، ومنه إغراق النزاع فى جذب  
 القوة ، بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق فى النزاع ، ثم صار مثلاً لكل من بالغ فى فعل حتى  
 وصل إلى آخره .

﴿ والناشطات نشطاً ﴾ الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة ، فالنزاع الجذب  
 بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين .

قال تعالى فى شأن المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة  
 بما كنتم تعملون ﴾ (١) وقال سبحانه : ( فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ (٢) .

وقال عز من قائل فى شأن الكافرين : ﴿ ولوترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ ولوترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ والسابحات سبّحاً ﴾ قال ابن مسعود : هى الملائكة ، وروى عن على ومجاهد وسعيد بن جبير مثل ذلك ، وقال قتادة : هى النجوم ، وقال عطاء : هى السفن .

قال ابن القيم رحمه الله : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه ، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجوارى ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ الجوار الكنس ﴾ (٤) ولم يسمها سابحات ، وإن أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله تعالى : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ (٥) ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول بالواو ، لأن السبق والتدبير ، مسبب عن المذكور قبله ، فإنها نزعته ونشطت وسبحت ، فسبقت الى ما أمرت به فدبرته .

وقوله تعالى : ﴿ فالسابقات سبّحاً ﴾ روى عن على ومسروق ومجاهد وأبى صالح والحسن البصرى يعنى الملائكة ، قال الحسن سبقت الى الايمان والتصديق به ، وفسرت ﴿ السابقات سبّحاً ﴾ بالأنفس السابقات الى طاعة الله ومرضاته .

وأما ﴿ المدبرات أمراً ﴾ فأجمع المفسرون على أنها الملائكة ، قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر الله تعالى فى الأرض ، وهم ﴿ المقسمات أمراً ﴾ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هم الملائكة ، وكلفهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون ، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات ، والخسف والمسح ، والرياح والسحاب .

قال ابن القيم رحمه الله : فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ - وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء من ذلك ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذى لا يتم الإيمان إلا به .

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق - وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من القسم الذى أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه

بعينه ، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه ، وإن لم يذكر لفظاً ، ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلماً ، فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً ، استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه فتأمل .

والخلاصة : أن الله تبارك وتعالى أقسم فى الآيات الخمس ، بطوائف من الملائكة ، موكلين بأعمال جسام من أمور سائر المخلوقات فى هذا الكون ، على أن الخلق لا بد يبعثون ، ويحاسبون ، فى اليوم الآخر ، والله سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً ، ولم يتركه سدى ، فهو عز وجل الخالق المطلق ، وهو العظيم والمدير ، وهو المحاسب ، وهو المقدر ، وهو على كل شيء قدير ، بيده الأمر وله الحكم واليه ترجعون .

فإن إقسامه سبحانه وتعالى بهذه الأشياء ، لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه ، وقدرته وحكمته ، فالأقسام بها فى الحقيقة أقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمل .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ أى تتحرك الأرض ، وتضطرب الجبال ، ويسمع لها دوى عظيم وسميت راجفة من الرجف ، وهو الاضطراب الشديد ، لأن بها يضطرب الأمر ويختل النظام ، وينتهى العالم إلى نهايته ، التى حددها له خالقه - عز وجل - .

والراجفة صيحة عظيمة ، فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض وتكون يوم النفخة الأولى من صور اسرافيل ، كقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً . . . . . السماء منفطر به كان وعده مفعولاً ﴾<sup>(١)</sup> . ثم تتبعها الرادفة أى النفخة الثانية التى تعقب النفخة الأولى ، وهى التى يبعث الله معها الخلق ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقد قال الامام أحمد بسنده عن الطفيل بن أبى كعب عن أبيه ، قال : قال رسول الله ( ﷺ ) : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »<sup>(٣)</sup> وقد روى الترمذى وابن جرير وابن حاتم من حديث سفيان الثورى بإسناده مثله ، ولفظ الترمذى : كان رسول الله ( ﷺ ) : إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه »<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ﴾ .

(١) المزمّل الآيات : ١٤ - ١٨

(٢) الزمر آية : ٦٨

(٣) أخرجه فى الفتح الربان للساعات ج ٢٤ حديث رقم ٦

(٤) أخرجه الترمذى فى (كتاب صفة القيامة) باب ٢٣ رقم ٢٤٥٧ ج ٤ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه ، ووردت به العبادات مكررة مرتين . . . وهو حديث طويل ، والمردى هنا جزؤه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

أى فى هذا اليوم ، ستكون قلوب الكفار مضطربة قلقه خائفة ، لأنهم أبصروا ما كانوا ينكرون ، ورأوا ما كانوا يوعدون ، فالقلوب الواجفة ، هى القلقه المضطربة اضطرابا شديدا ، والخائفة خوفا عظيما ، فلا تهدأ ولا تسكن ، لما ترى من هول يوم القيامة ، وعذاب الآخرة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أى ذليلة كثيية كاسفة من هول ذلك المشهد العظيم .

والويل ثم الويل لأولئك المكذبين بيوم الدين ، وقد حكى الله عنهم أقوالا استبعدوا بها أمر البعث والنشور ، واستهزءوا فيها بالرسول ( ﷺ ) وبالمؤمنين معه فقال :

﴿ يقولون أننا لمرودودون فى الحافرة ، أنذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴾ .

أى يقول هؤلاء المنكرون للبعث من مشركى قريش ، ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور وبعد تمزق أجسادهم ، وتفتت عظامهم ونخورها ، ولهذا قالوا ﴿ أنذا كنا عظاما نخرة ﴾ وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه ، فهم يتعجبون كيف أنهم سيعودون بعد أن أصبحوا عظاما بالية متفتتة ، ليس فيها حرارة ولا حياة ، إن هذا لغريب وعجيب ؟ فى نظرة هؤلاء الكفار ، الذين ليس لهم نظرة يقين .

﴿ قالوا تلك إذا كرة خاسرة ﴾ هذا هو القول الثالث الذى حكاه الله عز وجل عن الكفار ، فقد قالوا مستهزئين بالنبي وبوعده وبالبعث والنشور ، تلك إذا كرة خاسرة : على معنى ، إن صح ما يقوله محمد لنا وأن هناك حساباً وثواباً وعقاباً وحياة ، بعد أن صرنا ترابا ، فنحن إذا خاسرون ، وتلك رجعة خاسرة أصحابها . حيث لم نعمل لها ولم نصدق بها .

وقوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾ أى لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، ما هى إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء على وجه الأرض ، بعد ما كانوا أمواتاً فى جوفها ، وما هو إلا أمر من رب العزة ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل ، فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون مجموعون لميقات يوم معلوم ، كما قال سبحانه : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير ﴾ <sup>(١)</sup> .

<sup>(٢)</sup>

وكقوله تعالى : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ .

## قصة موسى وفرعون

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن في ذلك لعلبة لمن يخشى ﴾ بعد أن حكى الله عز وجل حال كفار مكة ، وإصرارهم على إنكار البعث وتماديهم في النفي والفضلال واستهزائهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد شق ذلك على النبي - عليه الصلاة والسلام - وآلمه كفرهم وعنادهم ، بعد هذا ساق له قصة موسى مع طاغية مصر فرعون اللعين ، لتكون كالتسليية ، للنبي - صلى الله عليه وسلم - وفي نفس الوقت تهديداً للمشركين ، فليس هم أقوى وأشد من فرعون وجنوده .

فقد أخبر تعالى رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - عن عبده ورسوله موسى - عليه السلام - أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، ولهذا قال جل في علاه في آخر القصة : ( إن في ذلك لعلبة لمن يخشى ) .

فقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أى هل سمعت بخبره ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أى كلمه نداء ﴿ بالواد المقدس ﴾ أى المطهر ﴿ طوى ﴾ وهو اسم الوادى ، فقال له رب العزة : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى تجرد وتمرد وعنى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أى قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك ، تزكى به وتسلم وتطيع ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أى أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فتخشى ﴾ أى فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعاً بعد ما كان قاسياً خبيثاً بعيداً عن الخير .

قال ابن القيم : ففي هذا من لطف الخطاب وليته من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : اخراج الكلام مخرج العرض ، ولم يخرج مخرج الأمر والالزام وهو اللفظ .  
﴿ الثانى ﴾ : قوله : ﴿ إلى أن تزكى ﴾ والتزكى النماء والطهارة ، والبركة والزيادة ، فعرض عليه أمراً ، يقبله كل عاقل ، ولا يردّه إلا كل أحمق جاهل .

( الثالث ) : قوله : ﴿ تزكى ﴾ ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك .

( الرابع ) قوله : ﴿ وأهديك ﴾ أى أكون دليلاً لك . وهادياً فتزكى أنت كما تقول للرجل . هل لك أن أدلك على كثر تأخذ منه ما شئت ؟ وهذا أحسن من قولك له أعطيك .

( الخامس ) قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه ، وهو أنه يدعوه



ويوصله إلى ربه وفاطره ، وخالقه الذى أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا وصغيرا وكبيرا وآتاه الملك ، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام ، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك ؟ وتقول للولد : ألا تطيع أباك الذى ربك .

( السادس ) قوله ﴿ فتخشى ﴾ أى إذا اعتديت إليه وعرفت خشيته ، لأن من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه . فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية .

( السابع ) أن فى قوله : ﴿ هل لك ﴾ فائدة لطيفة . وهى أن المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك ، لأن الداعى إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكانه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك ، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد ، وادعى أنه رب العالمين ، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر ، فحشر جنوده ، فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فاطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذ نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر من خشى ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين اهـ .

قوله تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ يعنى ف أظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق ، حجة قوية ودليلا واضحا على صدق ما جاء به من عند الله . ﴿ فكذب وعصى ﴾ أى فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أى فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات . ﴿ فحشر فنادى ﴾ أى فى قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ما علمت لكم من إله غيرى بأربعين سنة قال الله تعالى : ﴿ فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أى انتقم الله منه انتقاما ، جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ﴿ ويوم القيامة يشس الرفد المرفود ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ <sup>(١)</sup> قال ابن كثير وهذا هو الصحيح فى معنى الآية أن المراد بقوله تعالى : ﴿ نكال الآخرة والأولى ﴾ أى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

أى إن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون ، وما أحله الله بفرعون من الخزي ، ورزق موسى من العلو لعبرة لمن يخشى ، وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه ، خوفا من أن ينزل به ما أنزل بفرعون ، وعلماً بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه ، أى أعلموا أنكم إن شاركتموهم فى هذا المعنى الجالب للعقاب شاركتموهم فى حلول العقاب بكم .

قال تعالى :

أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ<sup>٢٧</sup> بَنَيْنَاهَا<sup>٢٨</sup> رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّيْنَاهَا<sup>٢٩</sup>  
 وَأَغَطَّشَ لَيْلَهَا<sup>٣٠</sup> وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا<sup>٣١</sup> وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلْنَاهَا<sup>٣٢</sup>  
 أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا<sup>٣٣</sup> وَالْجِبَالَ أَرْسَلْنَا<sup>٣٤</sup> مَتَاعًا لَكُمْ<sup>٣٥</sup>  
 وَلِأَنْعَمِ عَلَيْكُمْ<sup>٣٦</sup> فَلِذَا جَاءَتْ الطَّامَةُ الْكُبْرَى<sup>٣٧</sup> يَوْمَ يَنْذَكُرُ الْإِنْسَانُ  
 مَا سَعَى<sup>٣٨</sup> وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى<sup>٣٩</sup> فَأَمَّا مَنْ طَغَى<sup>٤٠</sup> وَءَاثَرَ  
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا<sup>٤١</sup> فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى<sup>٤٢</sup> وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ  
 وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى<sup>٤٣</sup> فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى<sup>٤٤</sup> يَسْأَلُونَكَ عَنِ  
 السَّاعَةِ أَيَّاتٍ مُرْسَلًا<sup>٤٥</sup> فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا<sup>٤٦</sup> إِلَى رَبِّكَ  
 مُنْتَهَاهَا<sup>٤٧</sup> إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَنْ يُخَشِلُهَا<sup>٤٨</sup> كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ  
 يَلْبِثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا<sup>٤٩</sup>

## معاني المفردات

- ﴿أشد خلقا﴾ : أى أصعب إنشاء .
- ﴿والبناء﴾ : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة .
- ﴿والسما﴾ : قامة كل شيء .
- ﴿فسواها﴾ : أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه .
- ﴿أغطش ليلها﴾ : أى أظلمه .
- ﴿ضحاهها﴾ : أى نورها وضياء شمسها .
- ﴿دحاهها﴾ : أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى .

- ﴿مرعاها﴾ أى نباتها .  
 ﴿متاعا لكم﴾ أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .  
 ﴿الطامة الكبرى﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على الدواهى أى تغلب وتعلو .  
 ﴿وبرزت الجحيم﴾ أى كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان .  
 ﴿طنى﴾ أى تكبر وتجاوز الحد .  
 ﴿آثر﴾ أى قدم وفضل .  
 ﴿المأوى﴾ المستقر .  
 ﴿مقام ربه﴾ أى جلاله وعظمته .

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون ، وأوماً بهذا القصص إلى أنهم لا يعجزون الله ، أخذ يخاطب منكرى البعث ، وينهمم إلى أنه لا ينبغي لهم أن يجحدوه ، فإن بعثهم حين إذا أضيف إلى خلق السموات ، التى تدل بحسن نظامها وجلالها على حكمة مبدعها ، وعظيم قدراته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض ، ومدها وبسطهما ، وتهيئتها لما يراد منها ، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ، وأرسى الجبال فجعلها رواسى للأرض ، لثلا تميد بأهلها ، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم ، فمن قدر على ذلك كله ، كيف يعجز عن إعادتك خلقاً جديداً ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور فى أول السورة على المعاد والتوحيد ، وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور ، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجاً إلى جواب .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ .

أى أنتم أيها الناس ، وقد خلقتكم من ماء مهين ضعافا عاجزين ، لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، أصعب ابداعا وإنشاء ، أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ إنكم لا تنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتك بعد موتكم ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿لخلق السموات والأرض

أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ ﴿٢﴾ وكقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فإلى الظالمون إلا كفورا ﴾ ﴿٣﴾ .

وبعد أن أشار الله - عز وجل - إلى عظم خلق السموات إجمالا شرع يبين ذلك تفصيلا فقال ﴿ بناها ، رفع سمكها فسواها ﴾ أى ضم أجزاءها المتفرقة ، وربطها بما يمسكها حتى حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع فى خلق الكواكب ، وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه فى مداره ، حتى كان من مجموعها ما يشبه البناء ، وهو ما نسميه بالسماء . وقد جعلها سبحانه ذاهبة فى العلو صعوداً ، وعدلها فوضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾ ﴿٤﴾ وقال تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ ﴿٥﴾ وقال تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ ﴿٦﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أى وجعل ليلها مظلماً بمغيب كواكبها ، وأبرز نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتعاش الأرواح بما ليس فى سائرهما .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات ، يهيئ الأرض للسكنى ومن ثم قال تعالى :

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ ﴿٧﴾ .

أى ومهد الأرض بعد ذلك ، وبسطها للسكنى ، وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوة قبل ذلك ، فلا تخالف هذه الآية ما جاء فى سورة فصلت من قوله : ﴿ قل أأنتم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

(١) سورة غافر آية : ٥٧

(٢) سورة يس آية : ٨١

(٣) سورة الاسراء آية : ٩٩

(٤) سورة ق آية : ٦

(٥) الذاريات آية : ٤٧

(٦) الشمس آية : ٥

(٧) النازعات آية : ٣٠

وللأرض أتينا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ﴿١﴾ .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات ، كان بعد خلق الأرض ، والآية التى نحن بصددتها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدا لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالآيتان ترشدان إلى أن الله تعالى ، خلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدا ودحاها ، فآية فصلت حكاية للخلق الأول، ومبدئه وهذه حكاية للإصلاح الذى كان بعد الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ أى فجر منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات ، سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والتمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالعشب والحشيش .  
وقوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ أى وثبت الجبال فى أماكنها ، وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين سبحانه الحكمة فى ذلك فقال :

﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليتمتع به الناس والأنعام من الإبل والبقر والغنم .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون ﴾ ﴿٢﴾ .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهد الأرض تحتكم - قادر على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى ، بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفر لكم هذا الخير الكثير . .

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حى يا قيوم أنت المرتجى      وإلى علاك عنى الجبين الساجد

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ .

أى فإذا وقعت الواقعة وجاءت الداهية الكبرى التى يصغر أمامها كل حدث ، وينسى صاحبها كل شئ إلا هى وأهوالها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل

(١) سورة فصلت الآيات : ٩ : ١٢

(٢) النحل آية : ١٠

مرضعة عما أَرْضَعَتْ وتَضَعُ كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴿١﴾ تلك هي الطامة الكبرى ، يكون يوم القيامة ويوم بعث الناس ونشورهم ووقوفهم بين يدي رب العزة والجبروت للحساب ﴿٢﴾ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴿٣﴾ يوم يتذكر الإنسان أعماله حيث يراها مكتوبة أمامه في كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿٤﴾ وجرى يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴿٥﴾ . ﴿٦﴾ ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴿٧﴾ فقوله تعالى : ﴿٨﴾ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴿٩﴾ أى حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره .

قوله تعالى : ﴿١٠﴾ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴿١١﴾ .

أى ظهرت للناظرين ، فرآها الناس عيانا بيانا ، وتضطرب النفوس ، ويستغيث الجميع من هولها . قال تعالى : ﴿١٢﴾ وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو يتصرون ، فككبوا فيها هم والغاوين وجنود إبليس أجمعون ﴿١٣﴾ .

قوله تعالى : ﴿١٤﴾ فأما من ظنى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ﴿١٥﴾ أى فمن تكبر وتجبّر ، وتجاوز الحدود ، وعتا وتمرد وآثر لذات الدنيا الفانية ، وشهواتها الزائلة ، وقدمها وفضلها على أمر دينه وآخريته ، فإن الجحيم هى المأوى ، أى فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم ، بشس الشراب وساءت مرتقفا .

وقوله تعالى : ﴿١٦﴾ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴿١٧﴾ أى فمن خاف القيام بين يدي رب العزة ، وخاف حكم الله تعالى فيه ، ونهى نفسه عن هواها ردها إلى طاعة مولاه .

قال بعض المفسرين : ﴿١٨﴾ ونهى النفس عن الهوى ﴿١٩﴾ هو نهى عما حرم الله عليها وقال مقاتل : هو الرجل يهم فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

(١) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢

(٢) الجاثية آية : ٢٨

(٣) الفجر الآيتان : ٢٣ - ٢٤

(٤) الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩

(٥) الشعراء الآيات : ٩٠ - ٩٥

وقوله تعالى : ( فإن الجنة هي المأوى ) أى منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء ، كما قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ الآيات (١) .

### منزلة الخوف

قال الامام ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين بين منازل ( إياك نعبد وإياك نستعين ) » ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الخوف » .

وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب ، وهى فرض على كل أحد . قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ إياى فارهبون ﴾ (٣) وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ (٤) ومدح أهله فى كتابه وأثنى عليهم فقال : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - إلى قوله - أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾ (٥) .

وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت « يا رسول الله ، قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ (٦) أهو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

قال الحسن : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا « والوجل » و « الخوف » و « الخشية » و « الرهبة » ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

قال أبو القاسم الجنيد : الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس .

وقيل الخوف : اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل الخوف : قوة العلم بمجارى الأحكام . وهذا سبب الخوف . لأنه نفسه .

وقيل الخوف : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره . « والخشية » أخص من

(١) الرحمن آية : ٤٦ - ٧٨

(٢) آل عمران آية : ١٧٥

(٣) النحل آية : ٥١

(٤) المائدة آية : ٤٤

(٥) المؤمنون الآيات : ٥٧ - ٦١

(٦) المؤمنون آية : ٦٠ والحديث رواه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) ج ٦ ص ٢٠٥ ورواه الترمذى فى (كتاب التفسير) :

تفسير سورة المؤمنون ج ٥ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ رقم ٣١٧٥

الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾<sup>(١)</sup> فهي خوف مقرون بمعرفة وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية »<sup>(٢)</sup> فالخوف حركة ، والخشية انجماع وانقباض وسكون ، فإن الذي يرى العدو والسييل ونحو ذلك : له حالتان .

إحدهما : حركة للهرب منه ، وهي حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه ، وهي الخشية .

وأما « الرهبة » فهي الإمعان في الهرب من المكروه ، وهي ضد « الرغبة » التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه .

وأما « الوجل » فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .

وأما « الهيبة » فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة ، والإجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والحبية للمحبين ، والإجلال للمقربين . وعلى قدر العلم والمعرفة ، يكون الخوف والخشية ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إني لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية » . وفي رواية « خوفا » وقال « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفراش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى »<sup>(٣)</sup> .

قال أبو حفص : الخوف سوط الله : يُقَوِّم به الشاردين عن بابه . وقال : الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر ، وكل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه .

فالمخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

وقال إبراهيم بن سفيان : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها . وطرده الدنيا عنها .

وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق .

والخوف ليس مقصوداً لذاته ، بل هو مقصود لغيره ، ولهذا يزول بزوال الخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ١ . هـ .

(١) فاطر آية : ٢٨

(٢) رواه البخاري جزء حديث الثلاثة الذين سألو عن عبادة رسول الله ﷺ في ( كتاب النكاح ) جلب الترغيب في النكاح ج ٧ ص ٢ بلفظ : « أما والله إن لأخشاكم لله وأتقاكم له » ورواه مسلم في الفضائل وأبوالجود ف المقدمة

(٣) أخرجه الترمذي في ( كتاب الزهد ) باب قول النبي ﷺ - لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلا . ج ٤ ص ٥٥٦ رقم ، ٢٣١ من رواية أبي ذر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - ضمن حديث طويل .



## علم الساعة

بعد أن يبين الله سبحانه وتعالى بالبرهان العقلي إمكان القيامة ، ثم أخبر عن وقوعها ، ثم ذكر أحوالها العامة ، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها بعد هذا كله قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فم أن أنت من ذكرها ، إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة عناداً وعتواً واستهزاء ، ويطلبون إليه أن يعجل بها ، كأن الأمر فيها إليه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى في آية أخرى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾ (١) .

فقالوا على سبيل الاستهزاء ( أيان مرساها ) أى متى قيامها وظهورها ؟ وقوله تعالى : ﴿ فم أنت من ذكرها إلى ربك منتهاها ﴾ أى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين : ﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ﴾ (٢) وقال ههنا ( إلى ربك منتهاها ) ولهذا لما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أى إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، أتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك ، وخالفك ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أى إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر ، يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم ، أو ضحى من يوم ، قال قتادة : هذا وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقتناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ (٥) .

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك ، سبحانه لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجند منك الجد .

(١) الأعراف آية : ١٨٧

(١) الشورى آية : ١٨

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى ( كتاب الإيمان ) باب الإيمان والإسلام والإحسان ... الخ ج ١ ص ١٥٧ - ١٦٠ وانظر

البخارى ( كتاب الإيمان ) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ - عن الإيمان ... الخ ج ١ ص ٢٠ ، ٢١

(٥) المؤمنون الآيات : ١١٢ - ١١٦

(٤) سبا آية : ٤٦

## تفسير سورة عبس

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وأربعون آية .

وكلماتها : مائتان وثلاث وثلاثون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

وفواصل آياتها : ( هما ) وعلى الميم آية ( ولأنعامكم ) .

وسميت عبس لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حال الأعمى ، وذكر شرف القرآن ، والشكاية من أبى جهل ، وإنكاره البعث والقيامة ، وإقامة البرهان من حال النبات على البعث ، وإحياء الموتى ، وشغل الخلق فى العرصات ، وتفاوت خال أهل الدرجات ، والدركات فى قوله : ( وجوه ) إلى آخرها .

### المتشابه

قوله ( الصاخة ) سبق فى النازعات .

مناسبة السورة لما قبلها .

إنه سبحانه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها - وذكرنا من ينفعه إلا نذار .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أُنْجَاءُهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى (٣) أَوْ  
يَذْكُرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى (٤) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (٥) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (٦) وَمَا عَلَيْكَ  
أَلَّا يَزَكَّى (٧) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (١٠) كَلَّا  
إِنهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤)  
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) قَبِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ  
خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١)  
ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣)

### معاني المفردات

- عبس : قطب وجهه الشريف - صلى الله عليه وسلم - .
- تولى : أعرض بوجهه الشريف - صلى الله عليه وسلم - .
- لعله يزكى : يتطهر بتعليمك من دنس الجهل .
- يذكر : يتعظ .
- له تصدى : تتعرض له بالاقبال عليه .
- جاءك يسعى : وصل إليك مسرعا ليتعلم .
- عنه تلهى : تتشاغل .
- كلا : حقا أو إرشاد بليغ لترك المعاودة .
- إنها تذكرة : إن آيات القرآن موعظة وتذكير .
- في صحف : متنسخه من اللوح المحفوظ .

مرفوعة : رفيعة القدر والمنزلة عند الله تعالى .  
 بأيدي سفرة : ملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ .  
 بررة : مطيعين له تعالى أو صادقين .  
 قتل الإنسان : لعن الكافر أو عذب .  
 فقره : أطوارا أو هياها لما يصلح له .  
 السبيل يسره : سهل له طريقى الهدى والضلال .  
 فأقبره : أمر بدفنه فى قبر تكرمه له .  
 أنشره : أحياه بعد موته .  
 لما يقض ما أمر : لم يفعل ما أمره الله به بل قصر .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة ﴿ .

يكاد يجمع المفسرون على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى الصحابى الجليل عبد الله ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان أعمى ، وهو من الصفوة المختارة من المهاجرين الأولين .

وتتلخص قصته هنا : فى أنه رضى الله عنه أتى النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو بمكة المكرمة يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع فى إسلامهم ، فبينما هو يخاطبهم إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديما ، فجعل يسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن شىء ويلح عليه ، وود النبى صلى الله عليه وسلم أن لو كف ساعته تلك لتمكن من مخاطبة القوم ، طمعا ورغبة فى هدايتهم ، وعبس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾ أن جاءه الأعمى ﴿ .

قال العلماء : إنما أتى بضمائر الغيبة ( عبس وتولى ) تلفظاً به - صلى الله عليه وسلم - وإجلالا له ، لما فى المشافهة بقاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة ، وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ، ويبسط له رداءه . وقوله

تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أى وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة ! ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أى أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ، وقوله : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أى أما من استغنى عن كلام الله وعن الإيمان ، بما له من الثروة والمال ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى فأنت تتعرض له وتصغى لكلامه ، وتهتم بتبليغه دعوتك . وقوله : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ولست بمطالب بهدايته إنما عليك البلاغ .

وقوله تعالى : ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ أى وأما من يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، فأنت عنه تتشاغل .

قال ابن كثير : ومن هنا أمر الله رسوله ، أن لا يخص بالانذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

قوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ .

أى هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة فى قوله : ( كلا إنها تذكرة ) يعنى : القرآن ( فمن شاء ذكره ) أى فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته ، فهذا القرآن قد بلغ فى العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه ، فلا تلتفت إليهم ، قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة كرام بررة ﴾ .

هذا إخبار من المولى عز وجل عن جلالة قدر القرآن ، وعظيم شأنه بقوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ﴾ أى هو فى صحف مكرمة عند الله كما قال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ (٢) فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هى البهى ، الكثير الخير ، العظيم النفع ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات وغيره .

وقوله : ﴿ مرفوعة مطهرة ﴾ أى عالية القدر والمكانة ، منزهة عن أيدي الشياطين ، وعن كل دنس ونقص ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ بأيدي سفرة ﴾ هم الملائكة والسفرة يعنى بين الله تعالى وبين خلقه من المرسلين .  
 ﴿ كرام بررة ﴾ أى مكرمين معظمين عند الله تعالى ، اتقياء صلحاء كما وصفهم بقوله :  
 ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ <sup>(١)</sup> وبقوله : ﴿ عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم  
 بأمره يعملون ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغى لحامل القرآن ، أن يكون فى أفعاله على السداد والرشاد .  
 قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
 « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » أخرجه  
 الجماعة من طريق قتادة به <sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره  
 ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ، كلا ، لما يقضى ما أمره ﴾ .

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ قال ابن عباس :  
 ﴿ قتل الإنسان ﴾ أى لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد  
 الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج : ﴿ ما أكفره ﴾ أى ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن  
 يكون المراد أى شيء جعله كافراً ، أى ما حمّله على التكذيب بالمعاد ، قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون  
 بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ <sup>(٤)</sup> .

ألا إننا كلنا بآئد وأى بنى آدم خالد  
 وبلوهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد  
 فيأعجبا كيف يعصى إلا له أم كيف يجحد الجاحد  
 وفى كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فقوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب بكفرهم ،  
 وعنادهم ، واستكبارهم . وقوله ﴿ ما أكفره ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، وهو تعبير عن  
 إفراطهم فى كفران نعمة الله عليهم ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، ولا أجمع

(١) التحريم آية : ٦

(٢) الأنبياء الآيات : ٢٦ - ٢٧

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) ج ٦ ص ١١٠ ورواه البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير) : سورة عبس ج ٦

ص ٢٠٦

وانظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب : فضل الماهر بالقرآن والذى يتوقع فيه ج ١

ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ رقم ٢٤٤ / ٧٩٨

(٤) البقرة آية : ٢٨

للأئمة على قصر متنه ، وقلة لفظه ، وتقارب طرفيه .

و معنى ( ما أكفره ) أى ما أشد كفرانه للنعم ، ونكرانه للمنن التى يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مسديها ومعطيها ومن غمره بها ، من حين ايجاده ، إلى ساعة معاده ، حتى أنه إذا ذكر لا يذكر ، وإذا طلب منه الشكر ، لا يشكر ، فهو يعرض عن الذكرى ، فما أشد كفره بالاحسان ، وفضل صاحب الاحسان ، والفضل الأكبر عليه وعلى جميع الخلق برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ (١) .

- ثم شرع الله عز وجل يفصل ما أجمله ويبين بعض ما أفاضه عليه من النعم التى لا تحصى ، وهى هنا فى ثلاث مراتب : المبدأ ، والوسط ، والمنتهى ، وأشار إلى الأولى وهو المبدأ بقوله تعالى : ﴿ من أى شئ خلقه ؟ ﴾ .

أى من شئ حقير مهين خلقه ، فلا ينبغي له التجبر ولا التكبر على أحد ، وخاصة على خالقه الكبير المتعال ، وقد أجاب الله سبحانه عن هذا الاستفهام بقوله :

﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أى خلقه الله عز وجل من ماء مهين حقير بدأ خلقه ، فقدره فى بطن أمه أطواراً من نطفة ، ثم من علقه إلى أن يتم خلقه . قال ابن كثير : قدر رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد .

قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾ (٢) .

ولقد قدر الله هذا الانسان أطواراً وأحوالاً ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، وأتم خلقه ، بأعضاء ثلاثم حاجاته مدة بقاءه ، وأودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة ، ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء ، وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود ، وحكمة عالية ، وخلقة سامية ، وقد أثر عن بعض السلف أنه قال : كيف يتكبر الإنسان ، وقد خرج من موضع البول مرتين ، ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه ، فقال له مالك : يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك ، فقال أو ما تعرفنى ، قال : أعرفك معرفة جيدة ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قدرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة ، فأرخى الفتى رأسه ، وكف عما كان عليه .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته	انظر خلاك ، فإن التنب تثریب
لو فكر الناس ما فى بطونهم	ما استشعر الكبر شبان ولا شیب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا	أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

ثم أشار سبحانه وتعالى الى المرتبة الوسطى :

بقوله تعالى : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ .

قال بعض المفسرين : المراد تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه ، وقالوا أن رأسه كان إلى رأس أمه وكذلك رجلاه الى رجلها فإذا جاء وقت الولادة قلبه الله ليسهل خروجه عند الولادة ، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروج الطفل حياً من ذلك المنفذ الضيق ، من أعجب العجائب وأشد الغرائب ، ولكن كثيرا من الناس فى غفلة من عجائب خلق الله فى الإنسان وغير الإنسان قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (١) .

وذكر لهذه الآية معنى آخر جميل وهو :

إن الله سبحانه ، جعل هذا الانسان ، متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فآتاه القدرة على العمل ، ووهبه العقل ، الذى يميز به بين الأعمال طيبها وخبيثها ، حسنها وقبيحها ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته ، كما قال تعالى : ﴿ وهديناهم للتجدين ﴾ (٢) وكما قال سبحانه : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (٣) وأرسل الله إلى الانسان الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل عليهم الكتب المشتملة على أعظم الحكم ، وأعلى المواعظ والحاوية لما فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم . ثم أشار الله سبحانه وتعالى إلى المرتبة الأخيرة ، وهى المنتهى بقوله : ﴿ ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ .

وهذه المرتبة مشتملة على ثلاث مراتب ، وهى الإمامة والإقبار ، والإنشار .

فالله تعالى عز وجل يقبض روح الإنسان ، ولم يتركه مطروحا على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل فى غريزة نوعه أن يوارى ميتة تكرمه له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب ، والجزاء فى الوقت الذى قدره تبارك اسمه فى علمه ، ولا يعلمه أحد سواه .

وفى قوله : ﴿ إذا شاء ﴾ إشعار بأنه وقت الساعة ، لا يعلمه إلا هو سبحانه ، والبعث والنشور لا بد منه ، وهو أمر مفروغ منه ، فمتى شاء الله بعث العباد ليوم النشور والحساب .

قال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ (٤) .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال « يأكل

(٣) الإنسان آية : ٣

(٤) غافر الآيات : ٦٧ - ٦٨

(١) الذاريات الآيات : ٢٠ - ٢١

(٢) البلد آية : ١٠



التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه « قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال « مثل حبة خردل ، منه تنشأون » وهذه الزيادة مذكورة من رواية ابن أبي حاتم <sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ كلا . لما يقضى ما أمره ﴾ أى ليرتدع وينجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره ، فإنه لم يؤد ما فرض عليه ، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة .

### الكرم الالهى الواسع

قال تعالى :

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۚ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَلَكِهَةً وَأَبًا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ ۖ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَابِرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ ﴿٤٢﴾

### معانى المفردات

﴿ القضب ﴾ : الرطبة ، وهى ما يؤكل من النبات غضاً طرياً ، وسمى قضبا لأنه يقضب ، أى يقطع مرة بعد أخرى .

﴿ غلبا ﴾ : واحدها غلباء ، أى ضخمة عظيمة .

﴿ أبا ﴾ : الأب : المرعى ، لأنه يؤيب . أى يؤم ويتجمع .

﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ : أى أنبتناه لكم ، لتتمتعوا به وتتفكروا وتتفكروا أنعامكم .

﴿ الصاخة ﴾ : المراد هنا بالصاخة ، هو المراد بالقارعة فى سورتها ، وهى الطامة الكبرى ،

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب التفسير) سورة النبأ جـ ٦ ص ٢٠٥

وأخرجه مسلم فى (كتاب الفتن) باب : ما بين الفتحين جـ ٤ ص ٢٢٧٠ ، ٢٢٧١ بعده روايات تحت رقم ٢٩٥٥

ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ، ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثم سميت صاخة وقارعة .

﴿ شأن ﴾ : أى شغل .

﴿ يغنيه ﴾ : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته .

﴿ سفرة ﴾ : أى مضيئة مشرقة ، يقال أسفر الصبح إذا أضاء .

﴿ مستبشرة ﴾ : أى فرحة بما نالت .

﴿ والغبرة ﴾ : ما يصيب الإنسان من الغبار .

﴿ ترهقها ﴾ : أى تغشاها .

﴿ والفترة ﴾ : سواد كالدخان .

﴿ والفجرة ﴾ : واحدهم فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرماته .

### المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال القرآن ، وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة ، ثم ذكر الدلائل على قدرته تعالى ، وهى كامة فى نفسه ، يراها فى يومه وأمه ، أردفها ذكر الآيات المنبئة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه وباهر حكمته ثم أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى توجب الفزع والخوف منه ليدعوه ذلك الى التأمل فيما مضى من الدلائل ، التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة ، التى جاءت على السنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال ، التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ .

أى فلينظر إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه ، وليتذكر شأن نفسه ، ولينظر فى أمر طعامه ، ماذا صنعنا فى إحداثه وتهيته ، حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيته ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، وشوقه له ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة ، التى قدرت له حسب أجل الله عز وجل الذى قدره لكل مخلوق حى ، ولا يعلمه إلا هو جل وعلا قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به

نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿١﴾ .

قال العلامة ابن كثير : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ فيه امتنان وفيه استدلال ، بإحياء النبات من الأرض الهامدة ، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية ، وتراباً متمزقاً .

قوله تعالى : ﴿ أنا صبينا الماء صبا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا ﴾ (٢) أى إنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالاً عجيباً ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أى أسكناه فيها فيدخل في تخومها ، وتخلل في أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع ، وظهر على وجه الأرض . وقوله : ﴿ فأنبثنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة ، قال ذلك ابن عباس وغيره . ﴿ وزيتوناً ﴾ وهو معروف ، وهو أدم وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ ونخللاً ﴾ يؤكل بلحاً بساً ورطباً وتمراً ونيثاً ومطبوخاً ويعتصر منه .

﴿ وحدائق غلباً ﴾ أى بساتين ﴿ غلباً ﴾ قال ابن عباس : طوال ، وقال مجاهد : كل ما التف واجتمع .

وقوله تعالى : ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ أما الفاكهة ، فكل ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس . الفاكهة : كل ما أكل رطباً ، والأب : ما أنبت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس . وعن مجاهد والحسن وقتادة : الآب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم ، وعن عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب .

وقوله تعالى : ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أى عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة . والله تبارك وتعالى أنبت كل تلك الأصناف الثمانية لنتمتع بها نحن ونتفع بها لدوابنا وأنعامنا . وهى كذلك متاعاً لنا يسرها وسخرها لهذا الإنسان الجحود لنعم الله .

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده .

(١) الأنعام آية : ٩٩

(٢) النبأ آية : ١٤

وقال البغوى رحمه الله : الصاخة يعنى صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ، لأنها تصخ الأسماع أي تبالغ فى اسماعها ، حتى تكاد تصمها .

والصاخة هنا ، كالقارعة فى سورة القارعة ، وهى الحادثة العظمى ، التى تزلزل لها الأرض ، وتطوى لها السموات ، وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت المفزع الهائل ، الذى يحدث نتيجة لتخريب الكون ، ووقوع بعض أجرامه على بعض حيث تكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، وتسجر البحار وتكشط السماء ، وتسعر الجحيم ، وتنفطر السماء ، وتنشطر الكواكب ، وتبعثر القبور ، وتزوج النفوس ، وتحشر الوحوش وتزلف الجنة للمتقين غير بعيد .

وفى هذا اليوم العظيم ، ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فى هذا اليوم ينكشف للناس مشهد الجبروت الأعظم فيشغل كل نفس ما يصيبها ويعترها ، من هيبة الجلال الالهى ، ويطلب معونتها ، على ما هو فيه ، ويتوارى كل امرئ من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من صاحبه ، التى هى ألصق الناس به ، وقد يبدل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ، ويفر من بنيه ، وكان فى الدنيا يفديهم بما له وروحه ، ذلك كله ، لأن لكل واحد مما يجد من الرعب ، وما يهرب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب ، شأن يغنيه ، أى يكفى لصرف جميع قواه ، فليس عنده فضل فكر وقوة ، يمد بها غيره .

فقال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحبه وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

أى فى ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه ، من أخيه وأمّه ، وأبيه ، وزوجته وبنيه لاشتغاله بنفسه ، قال صاحب التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ، ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر . قال تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أى لكل انسان منهم فى ذلك اليوم العصيب ، شأن يشغله عن شأن غيره ، فإنه لا يفكر فى سوى نفسه ، حتى أن الأنبياء - صلوات الله عليهم - ليقول الواحد منهم يومئذ « نفسى نفسى » .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا » قال فقالت زوجته يا رسول الله نظروا ويرى بعضنا عورة بعض ؟ قال صلى الله عليه

(١) المنتحة آية : ٣

(٢) المؤمنون آية : ١٠١

وسلم ، « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ، أو قال - ما أشغله عن النظر »<sup>(١)</sup> . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقال النسائى بسنده عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه »<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

أى يكون الناس هنالك فريقين ، وجوه مسفرة ، أى مستنيرة ( ضاحكة مستبشرة ) أى مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة . ( ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة ) أى يعلوها وتغشاها فترة أى سواد ، فهم سود الوجوه ( أولئك هم الكفرة الفجرة ) وهؤلاء هم أهل النار . أى الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾<sup>(٣)</sup> .

وكقوله : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾<sup>(٤)</sup> .

« اللهم يارحيم ، يا ودود ، يا حى يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمارنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقاك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم فى موقف العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، ويبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه ، ونسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ونسألك النظر الى وجهك الكريم فى غير خيلاء مضرة ولا فتنة مضلة . يا أرحم الراحمين » .

(١) أخرجه : انظر تفسير ابن كثير طبع الشعب ج ١ ص ٣٤٩ فقد رواه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وأخرجه الترمذى من رواية ابن عباس أيضا فى (كتاب التفسير) : سورة عبس ج ٥ ص ١٠٤ رقم ٣٣٨٨ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح

(٢) أخرجه النسائى فى سنته (كتاب الجنائز) باب البعث ج ٤ ص ١١٤

(٣) آل عمران الآيتان : ١٠٦ - ١٠٧

(٤) القيلة الآيات : ٢٢ - ٢٥

## تفسير سورة التكوير

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع وعشرون آية . وكلماتها : مائة وأربعون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : ( تسليم ) .

تسمى سورة كورت ، وسورة التكوير ، لمقتتها .

مقصود السورة :

بيان أحوال القيامة ، وأهوالها ، وذكر القسم على أن جبريل أمين الوحي ، مكين عند ربه وأن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لأمتهم ولا بخيل بقول الحق ، وبيان حقيقة المشيئة والإرادة في قوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ، وفي الانفطار : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ ، لأن معنى ( سجرت ) عند أكثر المفسرين : أوقدت فصارت ناراً ، من قولهم سجرت التنورة . وقيل بحار جهنم تملأ حمياً ، فيعذب بها أهل النار ، فخصت هذه السورة بسجرت بموافقة قوله تعالى : ( سعرت ) ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار ، وفي الانفطار وافق قوله : ( وإذا الكواكب انتشرت ) أى تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أى سالت مياهها ففاضت على وجه الأرض ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قلبت وأثيرت . وهذه أشياء كلها زالت عن أماكنها ، فلاقت كل واحدة قرائنها .

- قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وفي الانفطار : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ لأن ما في السورة متصل بقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ فقرأها أربابها ، فعلمت ما أحضرت ، وفي الانفطار متصل بقوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ والقبور كانت في الدنيا فتذكر ما قدمت في الدنيا ، وما أخرت في العقبى ، فكل خاتمة لائقة بمكانها ، وهذه السورة من أولها إلى آخرها شرط وجزاء ، وقسم وجواب .

مناسبة السورة لما قبلها .

أن كليهما تشرح أحوال القيامة وأهوالها .

أخرج الإمام أحمد والترمذى والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴾ <sup>(١)</sup> .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ② وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ⑤ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ⑥ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ⑦ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّلَتْ ⑧ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ ⑨ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ⑩ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ⑪ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ⑫ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ⑬ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ ⑭

### معاني المفردات

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة ، والمراد منه اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها .  
إنكدار النجوم : انتشارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى ضوؤها .  
وتسير الجبال : يكون حين الرجفة ، التي تزلزل الأرض ، فتقطع أوصالها وتنفصل منها أجيالها ، وتقذفها في الفضاء .  
العشار : واحدها عشاء ( بضم العين وفتح الشين ) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى المخاطبين وقت التنزيل ، وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم الهول ، وشدة الكرب .  
( حشرت ) أى جمعت .  
( وتسجير البحار ) تفجير الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحرراً واحداً .  
( زوجت ) أى قرنت الأرواح بأجسادها .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ( مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ) ج ٢ ص ٢٧ وزاد : « وأحياه قال : سورة هود » وانظر ص ٣٦

( الموءودة ) هى التى دفنت وهى صغيرة وقد كان ذلك عادة فاشية منهم فى الجاهلية ، ، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا .

( كشطت ) كسفت وأزيلت عما فوقها .

( سمرت ) أى أوقدت إيقاداً شديداً .

( أزلت ) أى أدنيت من أهلها وقربت منهم .

( ما أحضرت ) أى ما أعد لها من خير أو شر .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ .

قال ابن جرير : التكوير جمع الشيء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى : ( كورت ) جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوءها ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنها : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحاً دُبوراً فتضرمها ناراً<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى انثرت كما قال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وأصل الانكدار الانصباب .

قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : « ست آيات قبل يوم القيامة : بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك ، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت ، واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطيور والوحوش فماجوا بعضهم فى بعض .

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال اختلطت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتىكم بالخير ، قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : بينما هم كذلك إذ جاءتهم الرياح فأماتتهم . رواه ابن جرير وهذا لفظه ، وابن أبى حاتم ببعضه . وهكذا قال مجاهد والربيع والحسن البصرى وغيرهم فى قوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى : تناثرت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أى زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال قتادة : عشار الإبل ( عطلت ) تركت وسييت وأهملها

أهلها . والمقصود أن العشار من الإبل ، وهى خيارها والحوامل منها ، التى قد وصلت فى حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشرا قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شئ فيها ،

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ( تفسير سورة التكوير ) - ٨ ص ٣٥٢ طبع الشعب .



بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع المائل ، وهو أمر يوم القيامة ، وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل في العشار أنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا ، وقيل : إنها الأرض التي تعشر ، وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن ، تعطلت لذهاب أهلها ، حكى هذه الأقوال كلها الإمام عبد الله القرطبي في كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قال ابن كثير : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ أى جمعت ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> قال ابن عباس يحشر كل شيء حتى الذباب . وقال عكرمة حشرها موتها . وكذا قال ابن عباس : حشر إليها موتها ، وحشر كل شيء الموت غير الجن والإنس ، فإنها يوقفان يوم القيامة . قال ابن كثير والأولى قول من قال حشرت أى جمعت .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ ﴾ أى أوقدت . قال ابن عباس . وغير واحد : يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها ونقيده ناراً تأجج . وقال الضحاك : ( سجرت ) أى فجرت . وقال الربيع بن خيثم : ( سجرت ) أى فاضت . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله تعالى ﴿ احشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقد سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار ، فتلك تزويج الأنفس .

قال ابن كثير واختار ابن جرير هذا القول وهو الصحيح . وهناك قول آخر في تفسير الآية الكريمة : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة .

قال عكرمة والضحاك والشعبي .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ . أى وإذا سُئِلَتِ الموءودة بين يدي وائدها عن السبب ، الذى لأجله قُتِلَتْ ، ليكون جوابها أشد واقعاً على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته . قال ابن عباس ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ أى سألت . طالبت بدمها وكذا قال السدى وقتادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴾ قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله ، وقال قتادة : يا ابن آدم تمل فيهما ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يمل في صحيفته .  
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾ قال الضحاك : تنكشط فتذهب . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (١) .  
 وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ أى قربت إلى أهلها كما قال تعالى ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ ﴾ أى أحميت ، وإنما يسعها غضب الله وخطايا البشر .  
 وقوله تعالى : ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا أَحْضَرْتَ ﴾ .  
 هذا هو الجواب أى إذا وقعت هذه الأمور حينئذ ، تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ (٢) وكقوله تعالى : ﴿ يَنْبَأُ الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾ (٣) وكقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٤) .

### قسم كريم

قال تعالى :

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ ۝١٥ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ۝١٦ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝٢٥ فَإِنْ تَذَهَّبُونَ ۝٢٦ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩

## معاني المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخص .  
الكنس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظبي إذا دخل كناسة ، وهو بيته ، الذي يتخذه من أغصان الشجر ، والمراد بالخنس الجوار .  
الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها غيبيتها عن البصر نهاراً .  
وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهي تظهر في أفلاكها ، كما تظهر الطباء في كنسها .  
وعسعس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر فوره .  
والرسول : هو جبريل عليه السلام .  
كريم : أى عزيز على الله .  
ذى قوة : كقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ .  
مكين : أى ذى مكانة وجاء عند ربه يعطيه ما سأل .  
ثم : أى هناك .  
أمين : على وحيه ورسالاته .  
صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم .  
الأفق المبين : أى الأفق الواضح .  
ضنين : أى بخيل .  
رجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله .  
فأين تذهبون : أى أن مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة .  
أن يستقيم : أى على الطريق الواضح .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه من أحوال القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ يقفون على حقائق أعمالهم ، فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو مردود عليهم - أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، الذى أنزل عليه ، وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتوه به من المعاييب ما هو إلا محض افتراء ، وأن لجاحكم فى عداوته ما هو إلا عناداً واستكباراً ، وإنكم فى قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالنجوم في أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها . هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين ، وهو الصواب .

قال ابن القيم : ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء وحال جريان ، وحال غروب أقسم سبحانه وتعالى بها في أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما يزال مختفياً : إنه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها غروبها صريحاً ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها ، فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

وقوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ .

اختلف المفسرون في عسعة الليل ، هل هي إقباله أم إدباره ؟ فالأكثر على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هنا قول على وابن عباس وأصحابه ، وقال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد .

فمن رجع الإقبال قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل وإقبال النهار ، فقوله : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ مقابل الليل إذا عسعس قالوا : ولهذا أقسم الله بـ ( الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ) ومن رجع إنه إدباره ، احتج بقوله تعالى ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ﴾ فأقسم سبحانه بإدبار الليل وإسفار الصبح ، وذلك نظير عسعة الليل ، وتنفس الصبح .

قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار ، فإنه عقيقه من غير فصل ، فهذا أعظم في الدلالة ، والعبرة بخلاف إقبال الليل ، وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما ، ولأن بينهما زمناً طويلاً ، فالآية في انصرام هذا وبجيء الآخر عقيقه بغير فصل أبلغ .

فذكر سبحانه وتعالى ضعف هذا وإدباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه ، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه ، وهذا هو القول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل أمين الوحي قطعاً ، لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعنيه به ، وأما الرسول الكريم في « الحاقة » فهو محمد صلى الله عليه وسلم . فأضافه سبحانه إلى الرسول الملكى تارة ، وإلى الرسول البشرى تارة ، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان ، ولفظ الرسول يدل على ذلك . فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله

الذى تكلم به حقاً . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً . فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله سبحانه ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل .

قوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ . وصف سبحانه وتعالى رسوله الملكى فى هذه السورة ، بأنه كريم ، قوى ، مكين ، عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات ، تتضمن تزكية سند القرآن وأنه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين ، فناهيك بهذا السند علواً وجلالة : قول الله سبحانه وتعالى بنفسه تزكيته .

#### الصفة الأولى :

كون الرسول الذى جاء به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريماً ، ليس كما يقول أعداؤه : إن الذى جاء به شيطان ، فإن الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير ، فهو أبعد شئ عن الكرم ، والرسول الذى ألقى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهى الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب معلم الطيبين ، وكل خير فى الأرض من هدى وعلم ومعرفه ، وإيمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده ، وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى .

#### الوصف الثانى :

إنه ذو قوة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ <sup>(١)</sup> وفى ذلك تنبيه على أمور : (أحدها) أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه ، وأن ينالوا منه شيئاً ، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه .

( الثانى ) أنه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، ومواد له وناصر ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ <sup>(٢)</sup> ومن كان هذا القوى وليه ، ومن أنصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ، فهو المدى المنصور ، والله هاديه ، وناصره . ( الثالث ) أن من عادى هذا الرسول ، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة ، فهو عرضة للهلاك .

( الرابع ) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مؤد له كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم إذا انتدب غيره فى أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة ، أو غيرها ، فإنما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظمها ذا مكانة عنده ، مطاعاً فى الناس ، كما وصف الله سبحانه عبده جبريل بهذه الصفات ، وهذا يدل

على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل إليه ، حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده ، المطاع في الملأ الأعلى الأمين حق الأمين ، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف ذوى الأقدار والرتب العالية .

وقوله تعالى : ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ أى له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفى قوله : ﴿ عند ذى العرش ﴾ إشارة ، إلى علو منزلة جبريل ، إذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه . وفى قوله تعالى : ﴿ مطاع ﴾ ثم ﴿ إشارة ﴾ إلى أن جنوده وأعوانه ، يطيعونه إذا ندهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم . وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه ، سيصير مطاعاً فى الأرض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء ، وأن كلاً من الرسولين انطاعين فى قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع .

وقوله تعالى : ﴿ أمين ﴾ فى وصفه بالأمانة ، إشارة إلى حفظه ما حمله ، وأدائه على وجهه . قوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

ثم نزه سبحانه وتعالى البشري ، وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بالسنتهم خلافه ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين . وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أخبر سبحانه وتعالى عن رؤيته - صلى الله عليه وسلم - لجبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له له ستمائة جناح . ومعنى : ﴿ بالأفق المبين ﴾ أى العين وهى الرؤية المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ﴾ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى <sup>(١)</sup> والمذكورة أيضاً فى قوله : ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أى وما محمد على ما أنزله الله سبحانه ببخيل ، ومنهم من قرأ ذلك بالظاء ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أى بمتهم والظنين المتهم ، والضنين البخيل ، واختار ابن جرير قراءة الضاد ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح . قال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على الناس ، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أَراده .

وقال ابن القيم :

فى قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ثم نزه رسوله كليهما - أحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق اللزوم - عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة والبخل ، والتبديل والتغيير

الذى يوجب التهمة ، فقال تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين : أدائها من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان . والقراءتين كالآيتين ، فتضمنت إحداهما - وهى قراءة الضاد - تنزيهه عن البخل فإن الضنين هو البخيل . وأجمع المفسرين على أن الغيب ههنا القرآن والوحي .

أما قراءة من قرأ ( بظنين ) بالطاء ، فمعناه المتهم والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص ، وهذا يدل على أن الضمير ، يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكى بالأمانة . ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ثم قال : ( وما هو ) أى وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل .

واختار أبو عبيدة قراءة الطاء لمعنيين : أحدهما أن الكفار لم يخلوه . وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل . الثانى أنه قال ( على الغيب ) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

قلت : ويرجح أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الأمانة ، فنفى عنه التهمة ، كما وصف جبريل بأنه أمين ، ويرجح أيضاً أنه سبحانه ، نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب ، فإن ذلك لو كان كذباً ، فإما أن يكون منه ، أو من علمه ، وإن كان منه ، فإما أن يكون تعمد أو لم يتعمده ، فإن كان من معمله فليس هو بشيطان رجيم ، وإن كان منه مع التعمد ، فهو المتهم ، ضد الأمين ، وإن كان من غير تعمد ، فهو المجنون ، فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن العظيم أعظم تزكية ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون ﴾<sup>(١)</sup> فنفى فعله وابتغاه منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يمارى فيه ولا يشك ، بل علماً ضرورياً ، كسائر الضروريات . منافاة أحدهما للآخر ، ومضاداته له ، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين ، بين دعوة الرسل ، ودعوة الشياطين ، فقال سبحانه : ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال أبو إسحاق : فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

والمعنى فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾<sup>(٢)</sup> فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فإذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب . قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أى من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له ، وهداية ولا هداية فيما سواه ، وقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أى ليست المشيئة

موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل كل ذلك تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .  
قال العلامة ابن القيم في هذه الآيات :

أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ذكر للعالمين ، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين ، وفي موضع آخر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه ، وفي موضع آخر ذكر مطلق ، وفي موضع آخر ذكر مبارك ، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر .

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً ، وكونه ذا ذكر ، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم . ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عبادته ، ويذكرهم بالخير ليقصده ، وبالشر ليجنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفات ، وما تكمل به ، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيده ومن أى الأبواب والطرق يأتى إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه ، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً ، ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه ، وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله ويذكرهم بشوابه وعقابه .

ولهذا يأمر سبحانه عبادته أن يذكروا ما فى كتابه كما قال : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ <sup>(١)</sup> وإذا كان كذلك ، فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه ، ثم لقومه . ثم لجميع العالمين ، وحيث خص به المتقين لأنهم الذين انتفعوا بذكره . وأما وصفه بأنه ذو الذكر ، فلا أنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر ، فهو ذكر وفيه الذكر ، كما أنه هدى وفيه الهدى ، وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ . هاتان الآيتان متضمنتان لإثبات الشرح والقدر ، والأسباب والمسببات ، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ، ولكل منهما عبودية مختص بها ، فعبودية الآية الأولى الاجتهاد ، واستفراغ الوسع والاختيار والسعى ، وعبودية الثانية الاستعانة بالله ، والتوكل عليه واللجوء إليه ، واستئزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه ، فمن عطل أحد الأمرين ، فقد جحد كمان الربوبية ، وعطلها ، وبالله التوفيق . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسى ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .



## تفسير سورة الانفطار

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية

وكلماتها : مائة

وحروفها : ثلاثمائة وتسع عشرة

فواصل آياتها ( مكنة ) وسورة ( الانفطار ) لفتحتها .

مقصود السورة :

الخبر عن حال السماء ونجومها في آخر الزمان ، وبيان غفلة الإنسان وذكر الملائكة الموكلين بما يصدر عن اللسان ، والأركان ، وبيان إيجاد الحق - تعالى - الحكم يوم يحشر الإنس والجان .

المتشابهات :

سبق ما فيها من التشابه ، وقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴿ تكرار أفاد التعظيم ليوم الدين . وقيل أحدهما للمؤمنين ، والثاني للكافرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

هي كسابقتها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ① وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ② وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ③  
وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ④ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ⑤ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ  
مَآ غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ⑥ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ⑦ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ  
رَكَّبَكَ ⑧

معاني المفردات

انفطرت : أى أنشقت .

انتثرت : أى تساقطت متفرقة .

فجرت : أى فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز وأختلط عذبا بملحها .  
 بعثرت : أى قلب تراها الذى حشى على موتاهها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها .  
 ما قدمت : أى من أعمال الخير .  
 وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويق .  
 ما غرك : أى أى شىء خدعك وجراك على العصيان ؟ .  
 الكريم : أى العلى العظيم .  
 فسواك : أى جعل أعضائك سوية سليمة معدة لمنافعها .  
 فعدلك : أى جعلك معتدلاً متناسب الخلق .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير البحار وبعثرة القبور .

فقوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وقوله : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انثرت ﴾ أى سقطت وتفرقت . وهذا يجيء غالباً لما قبله إذ متى انشقت السماء وانتفض تركيبها واختل نظامها - أنثرت كواكبها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال قتادة اختلط عذبا بملحها ، وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض فذهب ماؤها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى وإذا القبور قلبت ، ونبش ما فيها من الموق ، وصار ما فى باطنها ظاهراً على وجهها .

قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ هذا هو الجواب أى علمت عندئذ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر ، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبرى : ما قدمت من عمل صالح ، وما أخرت من شىء سئنه ففعل به بعده .

ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها ، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال ، وشدائد فقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ أى أى شىء خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيته وتجرات على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك ؟ وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (١) ؟ وأتى سبحانه باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغي أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة . وتلا ابن عمر هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ فقال : غره والله جهله .

ثم عدد نعمه عليه فقال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَىْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَكَ ﴾ أى الذى أوجدك من العدم ، فجعلك سوياً سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر ( فعذلك ) أى وجعلك معتدل القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال وقوله : ﴿ فِي أَىْ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكِبَكَ ﴾ أى ركبك فى أى صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ، ولم يجعلك فى الشكل كالبهيمة كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٣) .

قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أنصديق وأنى أوأن الصدقة ؟ » (٤) .

### تقرير صادق من الله تعالى

قال تعالى :

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)  
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)  
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٧)  
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ  
لِلَّهِ (١٩)

(٣) غافرة آية : ٦٤

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢١٠

(١) الرحمن آية : ٦٠

(٢) التين آية : ٤

## معاني المفردات

كلا : تفيد نفى شيء قد تقدم وتحقيق غيره .  
والدين : الجزاء .  
حافظين : أى يحصون أعمالكم خيراً كانت أو شراً .  
الأبرار : واحدكم بر ، وهو من يفعل البر ( بكسر الباء ) ويتقى الله فى كل أفعاله .  
الفجار : واحدكم فاجر ، وهو التارك لما شرعه الله ، المتعدى لحدوده .  
يصلونها : أى يقاسون حرها .  
ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

## المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة . وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شيء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد والتكذيب ، والله لم يترك عملاً لعباده إلا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل بره ، فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .  
ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه . فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (١) .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ .  
أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .  
قوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ أى وإن عليكم ملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .  
وقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ .  
يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصى ، وروى . إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء .  
وقوله تعالى : ﴿ وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ﴾ أى وإن الكفرة الفجار ، الذين عصوا ربهم فى الدنيا واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، لفى نار محرقة ، وعذاب دائم

مقيم في دار الجحيم يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذي كانوا يكذبون به .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ تعظيم له وتهويل أى ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شيء هو في شدته وهوله ؟ ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ كرر ذكره تعظيماً لشأنه ، وتهويلاً لأمره كقوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾<sup>(١)</sup> وكقوله : ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾<sup>(٢)</sup> كأنه يقول سبحانه : أى يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدرى أحد مقدار هوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ أى هو ذلك اليوم الرهيب ، الذى لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشيء من الأشياء ، ولا أن يدفع عنه ضرراً ولا خلاصاً مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريش فعمّ وخص فقال : « يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً إلا أن لكم رحماً سألها ببلالها » ورواه أيضاً مسلم والترمذى<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ أى والأمر في ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد كقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾<sup>(٤)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ، الله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾<sup>(٥)</sup> ، وقوله : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾<sup>(٦)</sup> .

« دعاء »

« اللهم أنت الملك لا اله إلا أنت ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبي ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، وأهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهذى لأحسنها إلا أنت ، وأصرف عني سيئها ، لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك ، أنا بك وإليك ، تباركت وربنا وتعاليت استغفرك وأتوب إليك . . »

(١) الحاقة الآيتان : ١ ، ٢

(٢) القارعة الآيتان : ١ ، ٢

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ٣٦٠/٢

(٤) الحج الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

(٥) غافر الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٦) الأعراف : ٥٤

## تفسير سورة المطففين

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : ست وثلاثون آية

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثلاثون .

وفواصل آياتها : ( من ) .

وسميت ( المطففين ) لمفتتحها .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : تمام الكيل والميزان ، والاحتراز عن البخس والنقصان ، وذكر السجين لأهل العصيان ، وذكر العليين لأهل الإيمان ، ودلال المؤمنين والمطيعين في نعيم الجنان ، وذل العصاة في عذاب النيران ، ومكافأتهم على وفق الجرم والكفران في قوله تعالى : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ .

المتشابهات :

فيها من التشابه قوله تعالى : ﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ﴾ وبعده ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم ﴾ التقدير فيها : إن كتاب الفجار لكتاب مرقوم في سجين ، وإن كتاب الأبرار لكتاب مرقوم في عليين . ثم ختم الأول بقوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ لأنه في حق الكفار ، وختم الثاني بقوله : ﴿ يشهده المقربون ﴾ فختم كل واحد بما لا يصلح سواء مكانه .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه قال هناك « وإن عليكم لحافظين » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون « كتاب مرقوم » يجعل في عليين أوفى سجين .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ  
أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾  
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا  
أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ  
يَكْذِبُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ  
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾  
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ  
هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

### معاني المفردات

- ويل : أى هلاك عظيم .  
والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن ، وسمى بذلك لأن ما يبخس شيء حقير طفيف .  
اكتالوا على الناس : أى اکتالوا من الناس حقوقهم .  
يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة .  
كالوهم : أى كالواهم .  
يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان .  
سجين : اسم للكتاب الذى دونت فيه أعمال الفجرة من الثقلين .  
مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقماً .  
معتد : أى متجاوز منهج الحق .  
أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام ، وهى المعاصى .  
أساطير الأولين : أى أخبار الأولين .

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدأ يغشى القلب كالنعيم الرقيق . وقال الغراء : كثرت منهم المعاصي والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها .

لمحجوبون : أى لطرودون من أبواب الكرامة .

لصالوا الجحيم : أى لداخلوا النار وملازموها .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ .

المطفف : هو الذى ينقص الكيل والوزن مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق إلا الشيء الطفيف ، وذلك ضرب من السرقة والخيانة وأكل الحرام ثم وعد الله من فعل ذلك بويل ، وهو شدة العذاب ، وقيل : واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره .

وكان بعض السلف يقول : ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السموات والأرض ، وويل لمن يشتري الويل بحبة يأخذها زائدة » .

قال النسائي وابن ماجه بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم النبى - ﷺ - المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ يعنى : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم ، وكذلك إذا اتزنوا ولم يذكر ( إذا اتزنوا ) لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن ، فأحدهما يدل على الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى ينقصون فى الكيل والوزن . وقال السدى . لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبوجهينة له مكىالان ، يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر . فأنزل الله هذه الآية .

وقد أمر الله تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ <sup>(٣)</sup> وقال جل وعلا : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ <sup>(٤)</sup> ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يخسرون الناس وأخرج الطبراني عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب التجارات) باب : التوفى فى الكيل والوزن ج ٢ ص ٧٤٨ رقم ٢٢٢٣ .

(٤) الرحمن الآية : ٩

(٢) الإسراء الآية : ٣٥

(٣) الأنعام الآية : ١٥٢



رسول الله - ﷺ - : « خمس بخمس ، قالوا : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا أنزل الله بهم الطاعون - يعنى الموت - ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » .

قال المحققون هذا حديث سنده حسن وله شاهد صحيح عند ابن ماجه وغيره<sup>(١)</sup> .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما : يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله ، وأوف الكيل والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون ، حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم .

ثم قال سبحانه متوعداً لهؤلاء : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نار حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أى يوم يقومون حفاة عراة غرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجزه القوى والحواس عنه .

قال الامام مالك : عن نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه » ورواه البخارى ومسلم أيضا كلاهما عن نافع<sup>(٢)</sup> .

ورواه الامام أحمد في سنده عن نافع عن ابن عمر سمعت رسول الله يقول : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى أن العرق ليلجم الرجل إلى أنصاف آذانهم<sup>(٣)</sup> .

وقال الامام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد في حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » تفرد به أحمد<sup>(٤)</sup> .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان يفتح قيام الليل يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويسبح عشراً ، ويستغفر عشراً ويقول « اللهم اغفر لى وأهدنى ، وارزقنى وعافنى ويتعوذ من ضيق

(١) أخرجه الهيثمى في مجمع الزوائد في (كتاب الزكاة) باب : فرض الزكاة جـ ٣ ص ٦٥ وقال رواه الطبرانى في الكبير ، وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزي : لينة الحاكم ، وبقيّة رجاله موثقون وفيهم كلام

(٢) أخرجه البخارى في كتاب التفسير جـ ٦ ص ١٠٧ ط الشعب

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ١٣/٢ ، ١٩ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٤/٥

المقام يوم القيامة»<sup>(١)</sup> .

لقد أقام الإسلام في النفس البشرية مملكة هي مملكة المراقبة ، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وفي المعاملات الإسلامية ما يشهد بذلك قال أبو هريرة لرجل يغش اللبن بالماء ما تقول لربك يوم القيامة إذا قال لك خلص اللبن من الماء وخلص الماء من اللبن وهكذا انتظم السلوك في المجتمع الإسلامي الآن كل إنسان كان يعتقد أن رقابة الله مهيمنة عليه وكفى بالله حسيباً .

### آداب السوق في الإسلام

يقول فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الحفيظ فرغلي في كتابه « آداب السوق في الإسلام » :  
تحت عنوان : السوق في الإسلام .

الإسلام والتجارة .

لم يحرم الإسلام البيع ، ولكنه حرم ألواناً من المعاملة ، تتنافى مع إنسانية هذا الدين وسماحته ورحمته ، كالغضب ، والظلم ، والاختلاس ، والاستغلال ، والربا ، وغير ذلك من وسائل اكتساب المال عن طريق غير مشروع .

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ، وَتَدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَثَمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

ويقول تعالى : ﴿ وَأَحْلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾<sup>(٤)</sup> . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، التي تعززها أحاديث شريفة .

وما دام هناك بيع ، فهناك سوق .

والسوق في الإسلام تحكمها قوانين منظمة ، وآداب سامية ، فالإسلام لم يحارب الاستثمار ، ولكنه دعا إليه بطرقه الشريفة الطاهرة ، ومن أقوال الإسلام في ذلك :

ثمروا أموال اليتامى ، لا تأكلوها الصدقة .

ولم يحرم الإسلام التجارة ، ولكنه دعا التاجر إلى التحلي بالصدق والعفة والأمانة ، ونهاه عن الغش وسوء الاستغلال ، وغير ذلك من الصفات السيئة ، التي تحول الإنسان إلى صورة شوهاء ، لاهم لها الاكسب المال واكتنازه .

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه في (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل ج ١ ص ٤٣١ رقم

(٢) النساء آية : ٢٩

١٣٥٦ برواه النسائي في قيام الليل ج ٤ ص ١٧٠ ط المجلسي

(٤) البقرة آية : ٢٥

(٣) البقرة آية : ١٨٨

جاء الاسلام ليقيم مجتمع التعاون والحب والايثار ، فكما دعا إلى حسن الاستثمار ، دعا - كذلك - إلى البذل والعطاء .

والنبي ﷺ خير قدوة لأمته في ذلك . روى أبوذر الغفاري رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد ، فقال : « يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه ، وقليل ما هم ، ثم قال : يا أبا ذر قلت : نعم يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي . قال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ، أنفق في سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراط ، قلت : أو قنطارين يا رسول الله ، قال : بل قيراطين . يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » صحيح مسلم<sup>(١)</sup> .

ويشير الحديث الشريف إلى أن خير ما يستفيد به الإنسان من ماله هو ما ينفقه في سبيل الله ووجوه البر المختلفة ، لا ذلك الذى يكثره ويكنزه .

والإسلام لم يحارب الملكية الخاصة ، ولكنه حرك في المالك دافع البذل والإيثار والتضحية ، وحث الأغنياء على مواساة الفقراء ، ودعا القادرين إلى البر بالضعفاء والعاجزين . قال تعالى : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون الذى هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

فتلك السورة الكريمة ، تندد بالقادرين ، الذين لا يرحمون العاجزين ، كما أن الله وعد الباذلين بمضاعفة الأجر وحسن الثواب ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾<sup>(٢)</sup> .

وكانت الزكاة قاعدة من قواعد الإسلام الخمس ، وتعطيها يوجب على الحاكم قتال المعطل ، وهذا يدل على أن الإسلام دين اجتماعى متكافل ، تهمة مصلحة الجماعة ، كما تهمة مصلحة الفرد . إن الإسلام هو دين الإنسانية والمروءة ، وائتلاف القلوب والمشاعر ، وقد اهتم بأن تكون المعاملات بين الأفراد والجماعات ، تنزع من مودة كريمة وثقة رحيبة ، ولذلك اهتم بعملية البيع والشراء اهتماماً بالغاً . ولا يعرف الناس على حقيقتهم إلا بالاحتكاك عن طريق المعاملة في الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، وهذه أمور تمتحن دين المرء وتقواه ، ويظهر فيها إمساكه من جوده ، وورعه من طمعه ، وزهده من جشعه .

ولا يهم ثناء الإنسان على الإنسان ، ما لم يكن ذلك الثناء نتيجة تجربة وامتحان .

والسلوك الطيب - كما يقول الحكماء - مظهر العقيدة السليمة والإيمان العميق ، والعكس صحيح .

(١) انظر مسلم في باب تغليظ عقوبة من لم يؤد الزكاة والترغيب في الصدقة جـ ١ ص ٦٨٦ ، ٦٨٧ .

(٢) البقرة آية : ٢٦٠

ومهما كان الإنسان حراً في تشمير أمواله ، فليست الحرية مطلقة ، الحبل على الغارب ، ولكنها محدودة بحدود ، ومقيدة بتعاليم هذا الدين الحنيف ، الذي جاء ليرفع من قدر الإنسان ويعلمه المثالية في الحياة ، وليوقفه على مضمون حكم القرآن ، حين يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾<sup>(١)</sup> . والتقوى إذا تحلى بها الرجل ، عصمته في السوق - إن كان تاجراً - من الغش والاحتكار والظلم ، والفجور وسوء الاستغلال والجشع .

وعصمته - إن كان مشترياً - من الاختلاس والسرقة والخيانة والغدر والمطل .

والاسلام يدعو إلى الانعاش الاقتصادي ، ولكنه - في دعوته إلى ذلك - لم ينس العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، ومن التعبيرات الرائجة - الآن أن التجارة لا قلب لها ، وإن كان لها عقل .

ومعنى ذلك إنها بعيدة عن العاطفة ، لا شأن لها بالمبادئ الإنسانية والخلقية ، لأنها لا تهدف إلا إلى الربح ، ولو من أى طريق ولو على حساب الآخرين ، وهذا منطق يتنافى - تماماً - مع مفهوم الإسلام للتجارة ومبادئه الكريمة في التنمية الاقتصادية .

فالاسلام لا يفصل بين مكان الرجل في دكانه ، وبين مكانه في مسجده هو في كليهما ابن الإسلام ، الذى جاء ليرفع من شأن المثل العليا ، ويعلم الناس الأخلاق العالية الرفيعة . يحكى عن أبى الحسن السرى السقطى ، وكان من كبار التجار ، أنه قال : منذ ثلاثين سنة ، وأنا فى الاستغفار من قولى : الحمد لله مرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : وقع ببغداد حريق فى السوق ، التهم حوانيت التجار ، فاستقبلنى رجل ، وقال : نجا حانوتك ، فقلت الحمد لله ، ثم أدركت أننى بهذا قد فرحت بسلامة دكانى واحترق غيره مما يملكه الناس ، وكان حق الدين والمروءة ، ألا أفرح بذلك فأنا فى الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولى فى مصائب الناس ونجاتى « الحمد لله » .

هذا مقام صعب المرتقى ، ولكنه يصور إرهاف الشعور الدينى والعمل على أن يفنى المؤمن نفسه لخير المجتمع ، بل هو مثال عال لما يصل إليه ايمان المؤمن من كمال ، مصداقاً لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(٢)</sup> .

لقد كانت خطوات الإسلام فى بنائه لدولته متكاملة ، لا يقدم جانباً على حساب جانب آخر ، فكما يهيمه تقدم الدولة اقتصادياً ، يهيمه - أيضاً - تقدمها دينياً وخلقياً وإنسانياً ، وقد استعار الشعراء حكمة النبى ﷺ فى قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »<sup>(٣)</sup> فصاغوها شعراً فهذا شوقى أمير الشعراء يقول :

فلنمّا الأمم الأخلاق ما بقيت      فإن هو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) الحجرات آية : ١٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ج ١ ص ٦٧ رقم ٤٥ / ٧١ ط الجلى

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٢٧٣ ج ١ ص ٢٧١

وهذا حافظ شاعر النيل يقول :

على الأخلاق خطوا الملك وابنو فليس وراءها للعز ركن  
ومن الأسس التي راعاها الإسلام في دعوته إلى التنمية الاقتصادية ، وجوب العمل الجاد المثمر على  
هدى وبصيرة من التقدم العلمى وهو في دعوته إلى العمل ، يحيطه بضمانات قوية تحيله - دائماً - لخير  
الأمة ، وتجعله مسعداً لأبنائها منعشاً لرخائها ، وباعثاً في أفرادها عوامل الخير والطموح والإنسانية ،  
وخلصاً لها من شوائب الأنانية والأثرة .

وقد زكى الإسلام موقف الأنصار المؤثرين في قوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم  
خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (١) .

فأين ما تدعو إليه الدول الغنية - الآن - التي تدل بثرائها ، وتته بغناها ، وتعدو بقوتها ، وتعربد  
بتفوقها ، من هذا الدين السمع الذى قلم أظفار البغى ، وقضى على دوافع الطمع ، وعلم الإنسان كيف  
يحب أخاه الإنسان ؟

إن التنمية الاقتصادية في الدول ، التي لا تدين بالإسلام ، هي مجرد زيادة في الدخل ، وكثرة في  
الأموال ، وتكديس للثروات ، وناهيك بما يجره ذلك من صراع عنيف ، في الأفراد والمجتمعات ،  
وما يؤدي إليه هذا الصراع من محن وثورات وقاتل وتطاحن وحروب ، وما يؤدي إليه من تصرفات حمقاء ،  
تزيد من غنى الغنى ، وفقر الفقير ، وتدفع إلى مزيد من الجوع والفقير بين أبناء الشعوب النامية والمتخلفة .

والدليل على ذلك أن الفائض من الغلات والثمار والمنتجات ، قد يلقي في البحر ، أو يتخلص  
منه بالاحراق والإبادة ، حتى لا يؤدي وجوده وتسويقه إلى رخص الأسعار ، الذى يؤدي إلى نقص في  
دخول هؤلاء الطامعين .

الكسب الحلال وعلاقته بالتجارة :

حرص الإسلام على أن يكون كسب المسلم لمعاشه من طريق الحلال ، ووسائل الكسب الحلال  
كثيرة ، ولها مجالات متعددة ، وقد دعا الإسلام أهله إلى الطيب من الرزق ، قال تعالى : ﴿ يا أيها  
الناس ، كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم  
بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله ، إن كنتم إياه  
تعبدون ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض  
ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بأخذيهِ إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ (٤) .

(٣) البقرة آية : ١٧٢

(٤) البقرة آية : ٢٦٧

(١) الحشر آية : ٩

(٢) البقرة الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الرسل ، كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ <sup>(١)</sup> .  
والخطاب للرسل ، خطاب لأئمتهم أيضاً .

وقال تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون  
سعيراً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ : « من سعى على عيال من حله ، فهو كالمجاهد في سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالاً في  
عفاف ، كان في درجة الشهداء » أخرجه الطبراني في الأوسط ، من حديث أبي هريرة <sup>(٤)</sup> .

وسأل سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه النبي ﷺ كيف يجعله الله مجاب الدعوة ؟ فقال له : « أظب  
مطعمك ، تستجب دعوتك » أخرجه الطبراني في الأوسط ، من حديث ابن عباس <sup>(٥)</sup> . وكان يوصي أبناءه  
قائلاً : « إذا طلبت الغنى ، فاطلبه في القناعة ، فإنها مال لا ينفذ ، وإياك والطمع ، فإنه فقر حاضر » .

وسئل سفيان الثوري عن الحلال ، فقال : تجارة برة ، أو عطاء من إمام عادل ، أو صلة من أخ  
مؤمن ، أو ميراث لم يخالطه شيء » .

« هناك آثار لا تحصى ، تدعو إلى أن يتحرى المسلم الحلال الطيب في كسبه ، وتحذره من الحرام  
والشبهات ، وذلك أن الله طيب ولا يقبل من عباده الا طيباً ، ويطلب من عباده أن يكونوا على غاية تامة  
من الورع ، وصحة الدين ، والقناعة ، وحسن الخلق ، ولكي يطمئنهم على حسن كفالاته لهم ضمن لهم  
رزقهم ، وقال النبي ﷺ مرشداً لهم « اتقوا الله ، وأجملوا في الطلب » <sup>(٦)</sup> يعني أن الله ضمن لكم الرزق ،  
فاطلبوه من وجوهه الطيبة ، وبأسلوب شريف لا تهالك فيه ولا تكالب عليه .

وليعلم المسلم أن المعصية في سلوك طريق الكسب مرفوضة - تماماً - في منطق الاسلام ، لأنه يسير في  
نظامه الاقتصادي وفق عقيدته ، وأوامره صريحة في ذلك ، والحلال بين والحرام بين .

وأن العبد لمستول يوم القيامة عن كسبه . فعن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ قال : « لا تزول  
قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وعن ماله من  
أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه فيم فعل » <sup>(٧)</sup> .

(٣) النساء آية : ١٠

(٤) أخرجه الطبراني

(١) المؤمنون آية : ٥١

(٢) البقرة آية ١٨٨

(٥) مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٩٥

(٦) أخرجه في الصحيحين .

(٧) أخرجه الترمذی فی صفة القيامة ج ٤ ص ٣٦ ٢٥٣٢ ط : دار الفكر وقال حسن صحيح

فعلى المسلم - إذن - أن يسلك وسائل الكسب المشروعة ، التى أحلها الله تعالى فى طلب المعاش واكتساب الرزق ، ومن بين ذلك التجارة التى مارسها رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وكانت مهنة كثير من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم .

ومن الأئمة الفضلاء ، الذين كانوا يتاجرون ، أبو حنيفة النعمان أمام المذهب الحنفى ، وقد ضرب المثل الكامل فى الورع والتقوى وله فى ذلك قصص مشهورة وأخبار مذكورة .

ومن القصص التى يروىها عنه الأستاذ/ عبد الحليم الجندى فى كتابه عنه : « جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً ، وتوسلت إليه - بسنها - أن يرفق بها ، قال : دونك يا أماء هذا الثوب . قالت بكم ؟ قال : بأربعة دراهم . قالت لا تسخر منى ، أنا عجوز لا حيلة لى . قال إنه لكذلك ، لقد اشترت ثوبين ، فبعت أحدهما بالثمن كله ، إلا أربعة دراهم ، وهذه الدراهم هى ما أطلبه منك للثوب الباقى . وإنه ليذهب إلى أبعد من ذلك ، فكان ينصف المشتري من نفسه ، ولا يفكر فى أن ينصف نفسه من المشتري .

جاء رجل بثوب يبيعه ، قال : بكم ؟ قال الرجل : بكذا قال : فإنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف .

بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة ، فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة مائة ، حتى قالت أربع مائة قال : هو خير من ذلك ، قالت : أتهزأ بى ؟ قال : هاى رجلا فجاءته برجل ، فاشتراه بخمس مائة .

وصدقت المرأة إنه لم يتخذها سخريا ، وصدقت كذلك أنه لم يكن يريد الإحسان إليها ، ولكنه يهدف إلى إنصافها من نفسه ، قبل أن يفكر فى إنصاف نفسه كما يفعل التجار ، بل يعتمدون إلى التزييف لأكل أموال الناس بالباطل .

لقد كان أبو حنيفة ( رضى الله عنه ) على نهج صحابة أجلاء انتفعوا بصحبة رسول الله ﷺ وسيرته الزكية ، وسلوكه العمل القيم فى تجارته ، فقد كان ﷺ نعم الصادق الأمين وصاحب الكلمة الواحدة ، وهو الذى شهد له شريكه فى التجارة فى الجاهلية حيث قال له : كنت نعم الشريك لا تشارى ولا تمارى . وأوصى النبى ﷺ هذا الشريك ، وهو السائب بن عبد الله ، حين جاء يعلن إسلامه بقوله : « يا سائب أنظر إلى أخلاقك التى كنت تصنعها فى الجاهلية ، فاصنعها فى الاسلام : اقر الضيف ، وأكرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك ( أسد الغابة ) ..

## قضايا تجارية في السوق وموقف الإسلام منها

١ - التسعير :

قال اللغويون : السعر ، الذى يقوم عليه الثمن ، وجمعه أسعار ، وقد أسعروا وسعروا بمعنى واحد : اتفقوا على سعر .

وفى الحديث ، قيل للنبي ﷺ : سعر لنا ، فقال : « إن الله هو المسعر »<sup>(١)</sup> أى أنه هو الذى يرخص الأشياء ويغليها ، فلا اعتراض لأجد عليه ، ولذلك لا يجوز التسعير ، والتسعير هو تقدير السعر ، بين ابن منظور فى عبارته تلك سبب رفض النبي ﷺ أسلوب التسعير .

وكان النبي ﷺ يحب أن يترك التجار لضمايرهم ، ويريد أن يرتفعوا بأنفسهم عن شهوة المغالاة فى الأسعار ، واستغلال حاجة الجماهير ، وأن يطلبوا السعر من واقع شعورهم الأخوى ، واحساسهم بالآلام الناس ، ورفض التسعير لهذه المعانى .

روى القاسم بن غيمر عن أبى فضلة ، إنهم قالوا للنبي ﷺ فى عام سنة - قحط وجذب - سعر لنا يا رسول الله ، فقال : « لا يسألنى الله عن سنة أحدثتها فيكم ، لم يأمرنى بها ، ولكن سلوا الله من فضله » .

والبيئة التى قال النبي ﷺ فيها ذلك بيئة إسلامية صحيحة ، يسودها التعاطف والتراحم والرضا والأخوة الصادقة ، وتتقبل كلام النبي ﷺ بايمان وإذعان وتسليم ، فهو تشريع لا يمكن مناقضته ، وقد انتفع المسلمون بهذه التوجيهات السامية ، التى لا تهدف إلا إلى خير المسلمين ، ورفع مستواهم الإيمانى والخلقى ، مثلما تهدف إلى رفع مستواهم الاقتصادى تماماً .

فالكسب المعقول ، الذى لا يمليه الطمع والجشع ، يبارك الله فيه ، ويحرسه وينميه .

فإذا ما رفض النبي ﷺ التسعير ، فذلك لأنه يريد أن يعلم البائع والمشتري دروساً كاملة فى حسن الثقة بالله ، وحسن التوكل عليه ، إنه يريد أن يعلم البائع يقظة الضمير ، حتى لا يسىء استغلال غيره ، ويريد أن يعلم المشتري القناعة واللجوء إلى الله ودعائه ، وعدم التطلع إلى غيره ، وصرف النفس عن رغباتها والرضا بما يعطيه الله لغيره ، من المنافع والمزايا والمكاسب ، وقدوة المسلمين فى ذلك الأنصار ، الذين رضوا بما أعطى الله المهاجرين دونهم ، بل فرحوا بذلك ، وقد زكاهم الله بقوله : ﴿ ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجه ج ٢ كتاب التجارات ص ٧٤١ ، ٧٤٢ برقم ٢٢٠٠ وأخرجه الترمذى برقم ١٣٢٨ ج ٢ ص ٣٨٨ وقال حديث حسن صحيح

(٢) الحشر آية : ٩



وذلك أنه حينما غنم المسلمون بنى النضير ، قال ﷺ للأَنْصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ، ودياركم ، وشاركتموهم في هذا المال ، وإن شئتم كانت لكم دياركم ، وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا ، وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها ، فنقلها الله المهاجرين ، سوى رجلين فقيرين من الأنصار هما : أبودجانة ، وسهل بن حنيف .

هذا درس من التاريخ ، يعلم الأجيال المتعاقبة : كيف تكون الفناعة والإيثار ، والرضا بما قسم الله .

ولكن الحكومات الحديثة ، في ظل تطورات الصناعة والزراعة والتجارة أدخلت نظماً متعددة ، كان من بينها التسعير ، دعت إليه ظروف مختلفة ، من بينها تنافس المنظمات التجارية في الدولة الواحدة وفي الدول المنتجة الأخرى ، وظهور ألوان متعددة من سلعة واحدة ، تنتجها شركات كثيرة ، وظهور وسطاء كثيرين يروجون للسلعة ، وظهور فن الدعاية والإعلان المتطور ، الذي يغرى بالإقبال ويدفع إلى الشراء ، إلى غير ذلك من العوامل التي أدت إلى فرض نظام التسعير .

يقول الدكتور صديق محمد عفيفي ، في كتاب له من التسويق كما تتنافس المنظمات على أساس الجودة ، واستخدامات السلعة ، وخصائصها فانها تتنافس - أيضاً - على أساس سعري ، وعليه فإنه يجب على إدارة السوق انتقاء تلك السياسة السعريه ، التي تتناسب مع الأسواق ، التي يتعاملون معها ، والتي تحقق أهدافهم .

إن عدم الدقة في التوصل إلى السياسة السعريه المناسبة ، قد يؤدي إلى تحديد أسعار ، قد تكون أعلى أو أقل مما يجب ، ويؤدي ذلك إلى تحقيق الخسارة .

وعادة ما تتحدد الأسعار ، وفقاً للموقف التنافسي ، والظروف الاقتصادية ، والظروف الصناعية الخاصة بالصناعة المعنية ، فقد تخلق الظروف الاقتصادية السيئة الكساد ما يسمى بسوق المشترين ، أما الظروف المواتية « الرواج » فإنها تخلق ما يسمى بسوق « البائعين » وغالباً ما تنخفض الأسعار في سوق المشترين ، وترتفع في سوق البائعين .

ويرتبط - كذلك - تحديد الأسعار بمقدار التكلفة ، التي ينطوي إنتاج السلعة ، حتى يتم حساب التكلفة مع إضافة هامش ربح معقول إليها ، ويكون الأساس في التسعير - كذلك - مبنياً على ضرورة الحصول على عائد معين من رأس المال المستثمر .

وكثيراً ما يتأثر التسعير بنوع العلاقة بين الكميات المنتجة والمبيعة في السوق من ناحية ، وبين الأسعار السائدة من ناحية أخرى ، وعليه فإن الأسعار السائدة تفرض نفسها على الأسعار الخاصة ، وخاصة إذا وجد بين المنتجين من يتمتع بمركز نسبي قوى في السوق .

وقد تلجأ المنظمات التجارية إلى منطق التجربة في تسعير منتجاتها وذلك بتغيير الأسعار في مناطق جغرافية معينة ، وقياس أثرها على الكميات المباعة ، حتى يمكن التوصل إلى أنسب سياسة سعريه .

من ذلك ندرك أن التسعير سياسة ، تلجأ إليها الدول والحكومات أو المنظمات التجارية الآن ، ولها آراؤها ووجهات نظرها ، التي ألمحت إلى طرف منها تلك العبارات المتقدمة .  
ومن خلالها ندرك أن الهدف الأساسي من ورائه هو تحقيق الربح الوفير والاستكثار منه ، فقد أصبحت التجارة - الآن - تمارسها شركات كبيرة ، بل والحكومات نفسها ، التي تخصص للتجارة وزارة لها وزيرها ، وإداراتها المختلفة ، واختصاصاتها المتعددة ، واتصالاتها البعيدة المدى ، والشركات - الآن - أصبحت تدير تجارتها برأس مال خطير ، له تأثيره في توجيه سياسة الدولة أحياناً .

وعلى الرغم من ذلك ، فرجال الاقتصاد يدركون أن التسعير عملية صعبة وليست سهلة ، يقول الدكتور مصطفى زهير في كتابه : « إن من أكثر المشكلات التسويقية صعوبة في حلها : مشكلة تحديد السعر المناسب ، الذي يبيع به المنتج سلعته .

ولعل منشأ هذه الصعوبة يرجع - في الأصل - إلى كثرة المتغيرات ، التي تؤثر في تحديد أفضل الاسعار ، التي ينبغي البيع بها . وهناك اعتبارات متنوعة ، تحكم القرار العملي ، الذي يتخذه المنتج بشأن تحديد السعر ، الذي ينبغي أن يبيع به السلعة ، وثمة طريقتان شائع استخدامهما تسعير السلعة :  
١ - تحديد سعر التجزئة ، على أساس ما ينفقه المنتج من مصروفات مضافاً إليها مقدار الربح .

٢ - تحديد السعر على أساس ظروف السوق ، ومعرفة السعر الذي يراه العملاء مناسباً لشراء السلعة . أ. هـ .

نلاحظ أنه لم يصبح الهدف من وراء التجارة الاستغناء ، كما كان يدعو الإسلام بل أصبح الهدف هو الغنى والجمع والاستكثار .

إن الاسلام الذي يقول : ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، يهيمه - في المقام الأول - الاستقرار النفسى للمسلم ، وتوفير جزء من وقته لعبادة ربه ، فإن كثرة المال مدعاة للنسيان ، واغراق للمرء في مشاغل لا تفرغ ، من تبعات التثمير ، وخلافه وربما أدى ذلك إلى الجحود والنكران . . والمثل في أن فتنة المال طاغية لاهية ، وقارون الذي كان من قوم موسى ، وقص القرآن قصته ، فحينما ذكر بحق الفقراء في ماله ججد وقال : ( إنما أوتيته على علم عندى .. )<sup>(١)</sup> . وثعلبة بن حاطب ، الذي تحدثت سورة التوبة بقصته ، حين يقول الله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله ، لئن أتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا ، وهم معرضون ﴾<sup>(٢)</sup> .

إن من مسوغات التسعير - الآن - ما نراه من جشع شديد في نفوس التجار ، الذين يغالون في أسعار السلع ، التي يتجرون فيها ، دون نظر إلى حاجة أغلب الناس ، وحالتهم ، وضعف مستواهم المالى ، وقلة دخولهم ، حتى أصبحت أنفاس هؤلاء تتلاحق ، وهم يرقبون غول الأسعار يفترسهم ، ولا يستطيعون الدفع عن أنفسهم .

فمن حق الدولة أن تتدخل ، لتضرب - بيد قادرة باطشة - على أيدي هؤلاء العابثين بأقوات وأقدار الكادحين من الناس ، ولعل من الطرق التي تقضى على جشع التجار : الكف عن شراء ما يعرضون ، وقديماً قيل لعل بن أبي طالب (رضى الله عنه) : لقد غلا اللحم . فقال : أرخصوه ، ويقصد بذلك الكف عن شرائه ، فيضطر العارضون - حينئذ - إلى تخفيض سعره ، ولكن هذه الطريقة تحتاج إلى رأى عام منظم .

## ٢ - الاحتكار :

ومفهومه اللغوى مأخوذ من الحُكْر ، وهو ادخار الطعام للتربص ، وصاحبه محتكر . قال ابن سيده : الاحتكار : جمع الطعام ، ونحوه مما يؤكل ، واحتباسه انتظار وقت الغلاء لبيعه . وأصل الحكر الجمع والإمساك ، وحكره يحكره حكراً : ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته ، ففى الاحتكار - على هذا - ظلم وتنقص وإساءة عشرة ، كما قال الأزهري . هذه هى المعانى اللغوية ، التى يتقلب فى ظلها هذا اللفظ ، ومنها يمكن إدراك موقف الإسلام من الاحتكار .

لقد حرمه ، لما فيه من كل هذه المعانى : الاستغلال ، والظلم ، والتنقص وسوء المعاشرة ، والانتهازية ، والمضرة بالغير ، واللجاجة .

أن المحتكر مناع للخير ، معتد أثيم ، مضيق لفضل الله على الناس . روى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون »<sup>(١)</sup> .

والجالب : هو الذى يشتري الطعام للبيع ، فيجلبه إلى بلده فيبيعه فهو مرزوق ، لأن الناس ينتفعون به ، فينال بركة دعاء المسلمين .

والمحتكر : الذى يشتري الطعام للمنع ، ويضر الناس .

فالاحتكار لا يعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب ، وتنمية المال .

قال رسول الله ﷺ : « من احتكر حكرة ، يريد أن يغلب بها على المسلمين فهو خاطيء »<sup>(٢)</sup> . والإحتكار فيه إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجلبه ، أو يصنع ما يصنعه ، لأنه يريد أن يتحكم فى السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، فيكلفهم العنت والضرر ، ويحملهم المشقة والغرر ، ويرهقهم من أمرهم عسراً .

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات جـ ٢ ص ٧٢٨ برقم ٢١٥٣

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣٥١/٢

ولقد ألح النبي ﷺ كثيراً على تحريم الاحتكار ، وتنمية المال عن طريقه ، وقال في ذلك : « من احتكر طعاماً أربعين يوماً ، فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه ، وأبىأ أهل عرصه « حى » أصبح فيهم امرءاً جائعاً ، فقد برئت منهم ذمة الله » أخرجه أحمد والحاكم<sup>(١)</sup>

وقال : « بشس العبد المحتكر ، إن سمع برخص ساءه ، وإن سمع بغلاء فرح » .

وهل هناك أسوأ ممن يفرح من مصائب الآخرين ؟ !

وكيف يستسيغ المؤمن التقى النقى فائدة نفسه عن طريق مصيبة غيره ؟ ! وهو الذى يفرض عليه الإسلام أن يفرج كربة المكروب ، وييسر ضيق المعسر ، ويكفكف دمة المحزون ، ويقيم عثرة أخيه ؟ ! ولذلك كان التاجر الذى لا يحتكر ، كالمجاهد فى سبيل الله ، سواء بسواء ، مصداقاً للأثر الكريم : « الجالب إلى سوقنا ، كالمجاهد فى سبيل الله » .

وقد زكى النبي ﷺ التاجر الذى لا يطمع ولا يشتره وقال فى حقه :

« من جلب طعاماً ، فباعه بسعر يومه ، فكأنما تصدق به »<sup>(٢)</sup> أخرجه الحاكم من حديث اليسع بن المغيرة .

وهناك بعض القصص ، التى يمكن أن يتعظ بها المحتكرون ، فيوفرون على أنفسهم عذاب الضمير فى الدنيا - إن كان هناك ضمير - وعذاب الجحيم فى الآخرة ، يوم يحاسبهم الله على ما اقترفوا من ذنوب فى حق اخوانهم المسلمين .

عن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى الغد . فوافق سعة من السعر ، فقال له التجار : لو أخرته جمعة ، ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة ، فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك : فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قد قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا على ولا لى .

أى مثالية تلك ؟ ! إنه الدين الذى تخالط بشاشته القلوب ، فيهون كل شيء فى نظر صاحبه ، بجانب رضوان الله .

وان التاجر المحتكر يغتنم فرصة ضائقة المسلمين ، ليغنم كما شاء ، والأمثلة فى واقعنا كثيرة لا حصر لها ، بل إنهم لا يكتفون بالاحتكار فقط ، بل هم يعمدون إلى اخفاء السلع ، فيجتمع على الناس حربان

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٣٣/٢ والحاكم فى المستدرک ١١٢/٢

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرک ١٢/٢ إنفا هو بلفظ : مر رسول الله - ﷺ - وآله وسلم - برجل بالسوق يبيع طعاما بسعر هو أرخص من سعر

السوق ..... إلى أن قال رسول الله - ﷺ - « أبشر فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، والمحتكر فى سوقنا كاللحد فى كتاب الله »

حرب الضيق وحرب الفقر ، ويكون المال في يد بعض الناس ، ولكنهم لا يجدون السلعة التي يريدون .

ووصل التفنن بهم في مضايقة الناس جداً إلى اصطناع الضوائق إن لم تكن موجودة فعلاً ، ولهم في إثارة الشائعات سلاح وأى سلاح ! أين هذا الخراب الديني لتعمير دنيا زائلة ، لا بقاء لها ، من تلك المثل الشياء ، التي رأينا صورة منها في تاجر واسط ، والذي وجد في عثمان بن عفان (رضى الله عنه) مثله الأعلى . فقد روى ابن عباس (رضى الله عنه) أن الناس قحطوا على عهد أبي بكر الصديق ، فقال أبو بكر لا تمسون ، حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان الغد جاء البشير إليه فقال : قدمت لعثمان ألف راحلة تحمل برأ وطعاما ، فغدا التجار على عثمان ، ففرعوا بابه ، فخرج إليهم فقال لهم عثمان : ادخلوا فدخلوا ، فإذا ألف وقر قد صب في دار عثمان ، فقال لهم : كم تربحونني على شرائي من الشام ؟ قالوا : العشرة اثني عشر .

قال : لقد زادوني ، قالوا : العشرة أربعة عشر .

قال : لقد زادوني ، قالوا : العشرة خمسة عشر .

قال : لقد زادوني ، قالوا : من زادك ، ونحن تجار المدينة .

قال : لقد زادني الله لكل درهم عشرة (من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها) .

قالوا : لا تقدر على ذلك .

قال : فأشهدكم معشر التجار ، إنها صدقة على فقراء المسلمين .

رأى الفقهاء في الاحتكار .

يقول الدكتور محمد سلام مذكور في كتابه الاحتكار وموقف التشريع الإسلامي منه ، بعد أن تتبع

آراء الفقهاء حوله :

منه ، بعد أن تتبع آراء الفقهاء حوله !

إن الاحتكار المحظور في الشريعة الإسلامية هو حبس أى شيء ، تشتد حاجة الناس إليه ، ويستعملونه في حياتهم ، ويتضررون من حبسه عنهم ، ويستوى في ذلك أن يكون الحبس نتيجة شراء أو اختزان ، أو أن يكون الشراء من مصر أو من غير مصر ، وأن يكون الشيء طعاما أو غير طعام ، ويشمل ذلك ما اشتراه في وقت الغلاء ، أو في وقت الرخص ، ليرفع سعره ، ويغليه على الناس عند الضيق والاحتياج .

قال : وهكذا قال أبو يوسف ، صاحب أبي حنيفة كل ما أضر بالناس حبسه ، فهو احتكار ، وإن كان ذهباً أو ثياباً . اهـ ولست أحسب الرأي العام يختلف على ذلك ، بل هو يؤيده ، ويؤيد حجة الإسلام في قوله : إن المعول عليه ثبوت الإضرار بالناس ، فإن كانت هناك مضارة حرم الاحتكار ،

ولا فلا يخلو احتكار الأقوات من كراهية ، فإن المحتكر ينتظر مبادئ الضرر ، وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادئ الضرر محذور ، كانتظار عين الضرر ولكنه دونه .

وللى الراغبين فى الفضل أذكر هذه القصة ، التى ذكرها القشيري فى رسالته عن السرى السقطى ، قال :

« كان السرى السقطى تاجراً ، واشترى لوزاً ، المكىال بستين ديناراً وكتب عن ربحه ثلاثة دنانير ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار . فأتاه الدلال وطلب اللوز ، فقال خذه ، قال بكم ؟ قال : بثلاثة وستين ديناراً ، فقال الدلال : وكان صالحاً - صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعهُ إلا بثلاث وستين ، فقال الدلال وأنا عقدت بينى وبين الله عقداً ألا أغش مسلماً ، فلا السرى باع ، ولا الدلال اشترى .

#### الأضرار المترتبة على الاحتكار

الاحتكار يهدر حرية التجارة بتحكمه فى السوق ، حتى أن المحتكر يفرض على الناس ما يريد من سكر قد لا يتناسب معهم فيكلفهم ما يطيقون والاحتكار - فضلاً عن ذلك - يقضى على التنافس الشريف ، الذى يؤدى إلى تجويد العمل ، والتفوق فى الإنتاج .

ويترتب على الاحتكار انتشار كثير من الأمراض النفسية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية ، فعنه ينشأ الحقد ، الذى يعمى صاحبه عن الصواب ، ويؤدى إلى الاضطراب والفساد والاعتداء كما يزيد من انتشار الربا والفقر والخراب .

وبوجوده تنعدم المروءة والتعاون ، ويحل محلها التسابق المحموم فى الأثراء الفاحش بالطرق غير المشروعة ، التى تستغل حاجة الناس ، فقد يلجأ بعضهم إلى احتكار الأدوية بإخفائها وعدم بيعها للمرضى الذين يعانون من المرض ، وقد يتوقف على بعضها حياتهم أو شفاؤهم . هذا وقد أصبح الاحتكار وسيلة سيئة فى يد الدول الغنية ، تلهب به ظهور الشعوب الفقيرة ، وهذه بعض أمثلة للاحتكار الدولى الذى شاع أمره فى العصر الحديث ، نستمدّها من كتاب الدكتور مذكور

١ - احتكار مصادر السلاح ، وما يتعلق بصناعته من تكنولوجيا متطورة ، وبذلك أصبحت الدول الصغيرة النامية فى قبضة تلك الدول الكبرى ، التى تمتلك مصانع الأسلحة ، وتحتكر إنتاجها وتصديرها وتطويرها .

٢ - نظام الشركة القابضة ، وهى التى تسيطر على الشركات الأخرى ، عن طريق شراء الأعضاء فى تلك الشركات ، وبذلك تستطيع فرض ما تريده من أسعار ، لما ينتج فى هذه الشركات

٣ - اتحاد الثمن وهو اتفاق المنتجين لسلعة ما فيما بينهم على تحديد الثمن أو كمية الإنتاج رغبة فى الحصول على أعلى سعر ممكن .

٤ - التجويع ، وذلك بأن تقوم الدول الاستعمارية ، التى تنتج السلع الغذائية ، كالقمح ، والذرة ، والأرز ، وغيرها ، باحتكار تلك المحصولات لصالحها اقتصادياً وسياسياً .

وهناك صور أخرى للاحتكار العالمى ، وكلها يتنافى مع المبادئ الإنسانية ، التى تزعم تلك الدول أنها أنشأت هيئة الأمم المتحدة من أجلها .

ولا نجاة للدول الفقيرة والنامية من براثن الوحوش المفترسة إلا بأن تدبر أمرها ، وتتخلص فيما بينها من خلافات ، وتفكر الأمم الإسلامية فى مبادئ دينها جيداً ، لتعود إليه ، وتتجه فى نية خالصة إلى الله ، حتى يلهمها الطريق السليم ، الذى تسير فيه نحو مستقبل واضح وإلى غد مشرق ، بالعمل الدائب ، والتعاون الصادق ، والإخلاص الكريم ﴿ ولينصرون الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ﴾<sup>(١)</sup>

٣ - الغش

أخرج مسلم فى صحيحه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبى ﷺ برجل يبيع طعاماً فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللاً ، فقال ما هذا ؟ ! قال أصابته الساء فقال ، فهلا جعلته فوق الطعام ، حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا<sup>(٢)</sup> »

وروى ابن الأثير ، عن عمير بن سعيد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى البقيع ، فقال من غشنا فليس منا ( أسد الغابة )

النهى فى الحديث الثانى منصرف إلى مطلق الغش ، فى التجارة وغيرها وحديث أبى هريرة قيده بالغش فى التجارة ولكن الغش محرم مطلقاً ، والعبرة فى حديث أبى هريرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه قاعدة أصولية .

لا يرضى الإسلام عن الغش فى أى وجه من وجوه الحياة ، وبصفة أخص فى السوق الإسلامية ، التى يجب أن يكون التعامل فيها مبنياً على الصدق والمصارحة .

فمن الآداب التى يجب أن يتحلّى بها التجار فى أسواقهم عدم الغش ، وذلك بأن يبينوا للمشتري ما ظهر وما خفى من بضائعهم ، وعلى التاجر ألا يكتم منها شيئاً ، فإن أخفى أقل عيب منها كان غاشاً ، وكان تاركاً للنصح فى المعاملة .

والنصح واجب ، بل الدين هو النصيحة كما قال المصطفى ﷺ فى حديثه الشريف .

يقول الغزالى : مهما أظهر التاجر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشاً ، وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف .

(١) الحج الآية : ٤٠

(٢) أخرجه مسلم ج ١ ص ٩٩ برقم ١٦٤ / ١٠٢ وأخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٢٥ ج ١ ص ٧٤٦

ويقول : وما يدل على وجوب المناصحة بإظهار العيوب ما روى أن النبي ﷺ لما بايع جريراً على الاسلام . ذهب لينصرف ف جذب ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ، ثم خيره ، وقال : إن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم .

لقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ أن من حق المسلم على المسلم أن يحب له ما يحبه لنفسه ، ويرضى له ما يرضاه لنفسه ، وهذا من علامات الإيمان ، فإن رضى لنفسه شيئاً لا يرضاه لغيره ، فهو منافق ، وكذلك البائع إذا رضى لنفسه أن يكسب من أخيه كسباً زائداً ، عن طريق إخفاء عيب من عيوب سلعته ، فهو خائن للأمانة ، مناقض لصفة الإيمان التي بينها النبي ﷺ قال الغزالي : ولن يتيسر فعل ذلك على العبد ، إلا إذا كان يعتقد أمرين :

أحدهما : أن تلبية العيوب ، وترويج السلعة ، لا يزيد في رزقه بل يمحقه ، ويذهب بركته ، وما يجعله من مفرقات التلبسات ، يهلكه الله .

وفي لسان العرب من كسب مالاً من مهاوش ، أنفق في نهابر والمهاوش : مكاسب السوء ، والمهاوش : النهش من كل مكان ، والنهابر : الحرام . يقول : من اكتسب مالاً من غير حله ، أنفق في غير طريق الحق .

وحكى أبو حامد الغزالي قصة رجل ، كانت له بقرة يحلبها ، ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سبيل ، فأغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة ، التي صبينها في اللبن أجمعت دفعة واحدة ، وأخذت البقرة .

وكما أن البائع مطالب بعدم الغش ، فإن المشتري - كذلك - مطالب بالصدق في معاملته مع البائع ، فعليه ألا ينتهز غفلة البائع أو انشغاله وسهوه وخطأه ، والنبي ﷺ يقول فيما يرويه عنه حكيم بن حزام : « البيعان إذا صدقا ونصحا ، بورك لهما في بيعهما ، وإذا كتما وكذبا ، نزع بركة بيعهما »<sup>(١)</sup>

والأمر الثاني : وجوب العلم أن ربح الآخرة خير من ربح الدنيا ، مهما كثر وأزهر . قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾<sup>(٢)</sup> ويقول : ( ما عندكم ينفد وما عند الله باق )<sup>(٣)</sup>

غش العلامات التجارية !

نتيجة لتقدم الصناعة وتطورها تميزت بعض المصانع والشركات بخصائص في إنتاجها ، وجدت إقبالاً من الناس ، وحرصاً على اقتناء ما تنتجه ؟ لجودته أو نقائه ، أو مناسبته ، أو غير ذلك من أسباب التفضيل .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٤/٣ كتاب البدع بال (هل يبيع حاضر لباد بغير أجر ، وهل يعينه أو ينصحه)

(٢) الأعل الآيات : ١٦ ، ١٧

(٣) النحل الآية ٩٦



والمشتري - عادة - يبحث عن العلامة التجارية ، التي تميز هذا الإنتاج عن غيره ، فإذا لم يجدها أعرض . لذلك تلجأ الشركات المقلدة إلى وضع العلامة ، التي تدل على إنتاج تلك المصانع لتروج . وهذا نوع من الغش ، لا شك فيه ، ويدخل في حظيرة الممنوعات لأنه يبيع نوعاً غير جيد على أنه جيد ، ويكون شأنه كشأن من خلط اللبن بالماء ، أو خلط اللحم الميت بالمذبوح ، أو باع القديم على أنه جديد .

## ٤ - التطفيف

وهو نوع من الغش ، وقد توعد الله سبحانه وتعالى أصحابه بسوء المصير قال تعالى : ﴿ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾

جاء في لسان العرب لابن منظور : التطفيف : البخس في الكيل والميزان ونقص المكيال هو ألا تملأه إلى أحباره - أى نهايته - ومعناه في الآية الكريمة التطفيف : نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن ، وإنما سمى الفاعل منه مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان ، إلا الشيء الخفيف الطفيف .

وقد فسر القرآن الكريم المطففين : أنهم يوفون لأنفسهم ، ولا يوفون لغيرهم ، وفي ذلك من الأنانية والظلم ما فيه . وقال ابن كثير المراد بالتطفيف - هنا - البخس في المكيال والميزان إما بالازدياد ، إن اقتضى من الناس ، أو بالنقصان ، إن قضاهم واستشهد القرطبي في تفسيره على تحريم التطفيف ، بما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي ﷺ حيث قال خمس بخمس : ما نقض قوم العهد ، إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون ، وما طففوا الكيل ، إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة ، إلا حبس الله عنهم المطر<sup>(١)</sup> أخرجه البزار ومالك .

وحكى القرطبي ما رواه مالك بن دينار قال : دخلت على جاري ، وقد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ، فقلت : ما تقول ؟ أتتهجر ؟ ( أى أنهذى ) قال : يا أبا يحيى ، كان لى مكيالان ، أكيل بأحدهما ، واكتال بالآخر ، قال : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، حتى كسرتهما ، فقال يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما بالآخر ازداد عظمي ، قال ! فمات من وجعه .

وهذا تعجيل بالعقوبة في الدنيا قبل الآخرة ، ليعاين الناس صدق الوعيد فيتعظوا وكان ابن عمر رضى الله عنهما يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله وأوف الكيل بالقسط ؟ فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى أن العرق ليلجمهم إلى انصاف آذانهم .

(١) أخرجه : الطبراني ٤٤/١١ والبيهقي في مجمع في مجمع الزوائد ٦٥/٣ والمنذوي في الترغيب والترهيب ٥٤٤/١

وكان الخلفاء الراشدون ، ومن سار على نهجهم من الحكام المصلحين ، يعتبرون هذه مسئوليتهم الخاصة ، فكانوا يَمرون بالأسواق ينصحون الباعة ، ويحذرونهم من الغش والتطفيف . جاء في الطبقات الكبرى لابن سعد أن علياً رضي الله عنه أمير المؤمنين كان يخرج إلى الأسواق ، ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ، ويقول : أوفوا الكيل والوزن ، ويقول لا تنفخوا اللحم . ومن مبالغة علي في الورع ، كان يشتري ممن لا يعرفه ، خشية المجاملة ، وكان النبي ﷺ يوصي - دائماً - بحسن المعاملة في البيع والشراء ومن نصائحه الشريفة في ذلك : « رحم الله امرأً سمحاً إذا باع ، وإذا اقتضى »<sup>(١)</sup>

وقال صاحب كتاب أسد الغابة وروى سيمويه البلقاوى ، قال : رأيت النبي ﷺ وسمعت من فيه إلى أذني ، وحمّلنا القمح من البلقاء إلى المدينة ، فبعنا ، وأردنا أن نشترى تمرًا من تمر المدينة ، فمنعونا ، فأتينا النبي ﷺ فأخبرناه ، فقال للذين منعونا : « أما يكفيكم لأخص هذا الطعام بغلاء هذا التمر الذي يحملونه ؟ ! ذرهم يحملوه »<sup>(٢)</sup> .

وكان سيمويه هذا من أهل البلقاء نصرانيا شماساً ، فأسلم وحسن إسلامه ، وعاش مائة وعشرين عاماً .

فانظر إلى حسن المعاملة ، كيف هدت الشماس إلى الإسلام ، وفي القصة دلائل على الإيفاء ، يدعوا إليه هذا الأسلوب الاستفهامي الذي ينكر على أهل المدينة عدم المقابلة بالمثل ! قال الغزالي في إحيائه : وللتطفيف صور أخرى - غير ما مر - فكل من خلط بالطعام تراباً ، أو غيره ، ثم كاله ، فهو من المطففين في الكيل .

وكل قصاب وزن مع اللحم عظمًا أو دهناً ، لم تجر العادة بمثله ، فهو من المطففين في الوزن . ويقاس على هذا إضافة اللبن إلى الماء ، وهو تعبير مناسب لما يحدث في هذه الأيام ، وكان المطففون - قديماً - يضيفون الماء إلى اللبن ، هذا إلى جانب كونه غشاً ، ففيه تطفيف في الكيل ، فقد جمع البائع بين نقيصتين .

ونفخ اللحم تطفيف ، لأنه يغري المشتري بسمن الذبيحة ، وهي عجفاء وعدم تصفية اللحم من الماء جيداً ، عند وزنه للمشتري تطفيف ووضع الورق السميك مع اللحم وغيره من السلع تطفيف ، وفيه بيع الماء والورق بسعر اللحم . والتقتير في القياس عند بيع القماش تطفيف في المقاس ، وكل ذلك يدخل في دائرة المنهى عنه ، المتوعد عليه بسوء العقوبة .

##### ٥ - التزييف :

ويلتحق - بذلك - التزييف ، وهو من الزيف ، يقال : زافت عليه دراهمه ، أى صارت مردودة

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٠٣ ج ٢ ص ٧٤٢

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٧ / ٢٠١ وانظر الجوامع رقم ٤٢٩٩

لغش فيها والتزييف : نوع من الغش ، قد يقع من البائع ومن المشتري أما كونه من البائع ، فإنه يخفى عيوب سلعته ، ويروج لها ، ويبيعها على أنها جيدة وهي رديئة ، أو أنه يبيع سلعة على أنها من صنع معين ، وهي ليست من ذلك الصنع ، أو أنه يخفى سعر الوقت ، الذي يباع به من صنف من الأصناف ، ويظهر سعراً لا يباع به في مثل ذلك الوقت ؟ أو أنه يقبل المناجشة ، وهي أن يتقدم رجل إلى البائع بين يدي الراغب في الشراء ، ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريد لها وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها .

وفسر النصر بن شميل النجشى بأنه مدح سلعة الغير لبيعها ، أو ذمها لئلا تنفق عنده . وهو من قبيل التزييف وقد نهى النبي ﷺ بقوله : « ولا تناجشوا » . وأما كونه من المشتري ، فقد يجهل البائع السعر الحقيقي ، الذي يعرف المشتري قيمته ، فيخفيه عن البائع انتهازاً لغفلته ، فيشتري بسعر أقل من السعر الحقيقي وقد يكون بإعطاء البائع نقداً زائفاً وقد نهى الإسلام عن ترويج النقود الزائفة والزعم بأنها صحيحة .

وترويج النقد الزائف ظلم يعم ضرره بوقوعه في يد الناس ، وتداوله بينهم ووزر ذلك واقع على من فتح باباه أولاً .

روى الغزالي في احيائه عن بعض الصالحين : اتفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم ؟ لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها في الدين . وقد تعدى الزيف حدود المال ، إلى تزييف الأوراق الرسمية المختلفة ، وهناك عصابات خصصت وقتها ، ووقفت جهودها على ذلك ، وفي ذلك من الفساد ما فيه ، وما أعظم الضرر ، حين نضع الثقة في عالم ، أو طبيب ، أو صيدلي ، ثم يتضح بعد فوات الأوان أن شهادته ، التي سوغت له عمله الذي يقوم به زائفة . ولا عصمة من ذلك إلا الضمير الخلقى ، الذي يثبته الدين الصحيح والتمسك بعروته والاعتصام بحبله .

وانظر الى الضمير الخلقى ، حين يحيا في نفس صاحبه ، كيف يفعل ؟! اقرأ هذه القصة :

« كان بعض التابعين بالبصرة ، وله غلام بالسوس ، يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة في هذه السنة ، فاشتر السكر ، فاشترى سكراً كثيراً ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً . فانصرف إلى منزله ، وفكر ليلته ، وقال : ربحت ثلاثين ألفاً ، وخسرت نصح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غداً إلى بائع السكر ، فدفع إليه ثلاثين ألفاً ، وقال له : بارك الله لك فيها . فقال بائع السكر : ومن أين صارت لي ؟ فقال : إني كنتك حقيقة الحال ، وكان السكر قد غلا في ذلك الوقت ، الذي اشتريت منك فيه ، فقال البائع : رحمك الله ، وقد أعلمتني الآن ، وأنا قد طيبتها لك . فرجع الرجل إلى منزله ، وتفكر أيضاً وبات ساهراً ، وقال : ما نصحتني ، فلعله استحيا مني ، فتركها لي ، فبكر إليه من الغد وقال : عافاك الله . خذ مالك اليك ، فهو أطيب لقلبي ، وأصر على ذلك . فأخذها .

## ٦ - الوساطة والسمسرة :

من الوساطة والسمسرة ما هو مقبول ومردود .

والسمسار : معناه الذى يبيع للناس ، هو الوسيط بين البائع والمشتري . وهو لفظ عربى . جاء فى كتاب شرح ثلاثيات مسند أحمد تفسير لقول النبى - ﷺ - « لا يبيع حاضر لباد » نذكر منه ما جاء عن السمسرة والوساطة .

قال : قد يقدم على البلد انسان من غير أهلها ، لبيع سلعة بسعر يومها ، وهو جاهل بالسعر ، ويكون الناس إلى هذه السلعة فى حاجة ، فيقصده إنسان مقيم بالبلد ، عارف بالسعر ، لبيع له ، أو يبيصره بالسعر ، فالنهي منصرف إلى ذلك والبيع ، الذى يتم على ذلك ، باطل .

إلا أنه لا بد أن تتوافر هذه الشروط :

أن يكون البادى قادماً للبيع ، وهو جاهل بالسعر .

أن يكون الحاضر متوجهاً إليه ، لبيع له أو يبيصره بالسعر .

أن يكون للناس حاجة إلى هذه السلعة .

فإن فقد شرط مما ذكر .

بأن قدم لا لبيع سلعته ، أو لبيعها ، ولكنه لا يجهل السعر . أو جهله ولكن الحاضر لم يقصده أو قصده وكان غير عارف بالسعر ، أو كان كذلك ، ولم يكن الناس فى حاجة إلى السلعة ، صح البيع ، كشراء الحاضر للبادى .

أما إذا وجدت الشروط ، فالبيع باطل على الأصح فى أغلب المذاهب .

نص عليه الإمام أحمد فى رواية اسماعيل بن سعيد .

وكذلك الإمام مالك على إحدى روايتين له ، أما الرواية الأخرى عنه : يفسخ العقد عقوبة ، وروى عنه لا يفسخ .

وهو مكروه عند أبى حنيفة والشافعى مع صحته .

ولا يخفى القول ببطلان البيع لظاهر الحديث .

والعلة فى هذا النهى أن البادى إذا ترك بيع سلعته ، ربما باعها برخص - وهو الغالب - فتحصل التوسعة على الناس ، وبخاصة هم فى حاجة إلى السلعة بخلاف ما لو باعها الحاضر ، فإنه لا يبيع إلا بسعر البلد .

وقد أشار إلى ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله : «دعوا الناس يرزق بعضهم من بعض»<sup>(١)</sup>.

أى اتركوا الناس على حالهم ، فى بيعهم وشرائهم ، يرزق الله بعضهم من بعض ، بسبب التساهل من البعض ، وسماحة البعض .

وروى البخارى والنسائى عن أنس ، قال : « نهينا أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه »<sup>(٢)</sup>.

وروى أبوداود والنسائى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم : « نهى أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أباه أو أخاه »<sup>(٣)</sup>.

فهذه الأحاديث وغيرها ، مع تنوع مخرجها ، وتباين طرقها مع اتحاد معناها ، تدل دلالة قاطعة على ما ذهب إليه الإمام أحمد ، لأن النهى ورد عن نفس البيع .

أما إذا أشار الحاضر على البادى ، ولم يباشر البيع ، لم يكره ، خلافاً لمالك .

ويتوجه إن استشاره ، وهو جاهل بالسعر ، لزمه بيانه لوجوب النصح كما فى حديث السائب الذى رواه الطبرانى بإسناد صحيح «دعوا الناس يصيب بعضهم من بعض ، فإذا استنصح أحدكم أخاه ، فلينصحه ، وفى الحديث «فلا تشعروا ولا تقلقوا الركبان ، ولا يبيع حاضر لباد»<sup>(٤)</sup>.

المقصود بعبارة : مَلَقَى الركبان ؟ هو أن يستقبل الرفقة ، ويتلقى المتاع ، ويكذب فى سعر البلد .

وهذه هى الوساطة المنهى عنها ، أما إذا كانت الوساطة من أجل تقريب وجهات النظر بين البائع والمشتري ، وتيسير مهمة التبايع بينهما ، دون غش لأحدهما أو ممالأة لأحدهما على الآخر ، فلا بأس بذلك ، فإنه من قبيل الدلالة على الخير .

وقد اتسعت وظيفة الدلال فى الوقت الحاضر ، وتعقدت مهمته ، وأصبحت للدلالة مكاتب خاصة معترف بها رسمياً ، تمارس كافة التسهيلات بين المتبايعين ، وهناك فى الأسواق ما يسمى بآدارة البيع تختص بالمجهودات الشخصية ، أو غير الشخصية ، التى تبذل لحث العميل المرتقب على شراء

(١) أخرجه الميثقى فى مجمع الزوائد ٨٣/٤ وانظر صحيح مسلم البيوع رقم ٢٠ والترمذى رقم ١٢٢٣ والنسائى فى البيوع باب ١٧ ، وابن ماجه ٢١٧٦ ومسند أحمد ٣٠٧/٣ ، ٣٨٦ والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٤٧ ٣٤٦/٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب البيوع) باب : هل يبيع حاضر لباد ؟ ٩٤/٣ باختار

(٣) أخرجه أبوداود فى سننه (كتاب البيوع والإجازات) باب أفى النهى أن يبيع حاضر لباد ٧٢٠/٣ رقم ٣٤٤٠ وأخرجه النسائى فى البيوع ،

باب (بيع الحاضر للبادى) بإسناد ثقات

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢٥٩/٤ وأخرجه الأسبانى فى الصحيحة رقم ١٨٥٥

سلعة ، أو تقديم خدمة له ، ومساعدته على الشراء ، أو على تقبل فكرة لها أهمية تسويقية عند البائع .  
والإسلام لا يمنع إلا ما يتنافى مع الصدق فى المعاملة ، فالوسيط مقبول عمله إن راعى جانب الإخلاص ، ودل على الخير ، وهو مردود إن روج الفاسد وتستتر على الزائف ، ودعا إلى الخبيث ، وغش أحد الطرفين .

أما أجرة الدلال ، فقد قال الغزالى عن قتادة : إنها مكروهة ، ولعل السبب فى الكراهة قلة استغناء الدلال عن الكذب ، والإفراط فى الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر ، فقد يقل ولا يكثر ، ولا ينظر فى مقدار الأجرة إلى عمله ، بل إلى قدرة قيمة البيع . . . هذه هى العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغى أن ينظر إلى قدر التعب . ( الاحياء ٧٩٤/٥ ) .

وعلى هذا فلو صدق الدلال ، واقتصد فى ثنائه ، ولو اتفق على أن يكون الأجر مناسباً للعمل ، فقد خرج الأجر عن دائرة الكراهة .

#### ٧ - الدعاية والإعلان :

أصبحت التجارة فناً وعلماً ، يقوم على مدارسة السوق ، ومعرفة حاجة الجماهير ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وطرق معيشتهم ، وما يرضى أذواقهم ، ويجذب اهتماماتهم .

ولذلك تطورت وسائل البيع وترويج السلع ، ونشأ ما يسمى بفن الاعلان والدعاية ، وأصبح ذلك من أهم أدوات التسويق ، التى تقوم على المنافسة .

وربما كان هناك فرق بين الدعاية والإعلان . فالإعلان هو إيدان وإعلام بالسعة ، أما الدعاية فهى الاغراق فى وصفها ، والترويج لها ، عن طريق التفنن فى إبراز محاسنها ، وربما ترتب على ذلك الغرض من شأن غيرها ، أو التستر على العيوب الموجود فى السلعة المدعو لها .

وهى بهذه الصورة تدخل فى نطاق المحظور ، لأن الإسلام لا يرضى فى التجارة إلا المناصحة والمصارحة والصدق .

وكان الإعلان قديماً يتم بطرق بدائية لا تتعدى الضرب بالطبول ، أو إطلاق المنادين . الذين يؤذنون فى الناس بقدوم التجارة ، وقد يلجأ البائع نفسه إلى الإعلان عن بضاعته بصوته ، كما يحدث من البائعين الجائلين .

أصبح النشاط الإعلاني يتناول وجوها متعددة ، وتبذل فيه جهود مختلفة ، تشمل دراسة السوق ، وتعميم الحملات الدعائية ، واختيار الوسائل الملائمة ، وتخصيص الأموال اللازمة لتغطية نفقات النشاط ، وقد تكثر هذه الأموال ، حتى إنها لتوازى رأس المال . وقد يدخل فى باب الإعلان والدعاية ما يقوم به التاجر من تنسيق دكانه وتجميله ، حتى يصبح آية من آيات الفن ، تسترعى الاهتمام وتجذب

الانتباه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل للكسب ، فيقع العبء كله على عاتق المشتري الذى لا حول له ولا قوة .

والذى يهمننا - هنا - موقف الدين بالنسبة لهذا النشاط الإعلاني الكبير الذى يقع تحت كل سمع وبصر .

الدين يهمنه أولا وأخيرا عدم التزييف ، وعدم الإسراف ، وعدم الإضرار بالغير . وهو لا يقف فى طريق الإعلان ، ما كان الإعلان لا يتنافى مع الصدق والمصارحة والمناصحة ، أما إذا كان الهدف من ورائه التضليل ، فهو نوع من الغش يأباه .

والإعلان المقتصد ، الذى يعلن عن سلعة - فى هدوء - لا يقع عبثها على المستهلك مقبول ، أما الإسراف الذى يجر إلى تحميل السلعة زيادة فى السعر لتغطية النفقات ، وتحقيق الربح المطلوب ، فهو أمر مردود .

إن الإسلام لا ينهى أن الإعلان - الآن - ضرورة اقتصادية ، ولكنه ينهى أن تتخذ الصور العارية ، والعبارات النابية ، والملصقات الرخيصة المبتذلة وسيلة للإعلان .

لا بأس أن يكون الإعلان عن السلعة بطريقة عملية ، تلفت إليها الأنظار تلقائيا ، كان تكون « العبوة » من مادة تقى السلعة الفساد ، وأن يكون تصميمها جذابا فيه طرافة وابتكار ، وأن يحسن عرض السلع فى واجهة المحل ونوافذه ورفوفه ، بصورة منظمة أنيقة ، وأن تكون الصور التى تصاحب السلعة مناسبة لتقاليدنا العريقة ، وأخلاقنا الفاضلة ، ومجتمعنا الإسلامى .

فإن صاحب ذلك إعلان إذاعى أو مرئى فليكن فى حدود الكلمة المؤدبة ، والعبارة المهذبة ، والصورة الواضحة الجلية ، فى غير غلو أو إسراف أو إسفاف .

إلى هنا - فالإعلان - فى حد ذاته - أمر مباح تدعو إليه الرغبة فى الربح والزيادة فى الكسب . أما المثل العليا ، فلها نظرة أخرى فى حساب أهل الورع ، والمتطلعين إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ربح لا يعدله مال الدنيا كلها من أولها إلى آخرها .

قال الغزالي فى إحيائه : أول ما يجب على المسلم التاجر ، إن أراد ألا يضر بأخيه المسلم أن يترك الشاء على السلعة .

وكان السلف الصالح يطبقون ذلك عمليا إلى درجة أنهم كانوا لا يشيرون بأى كلمة توحى بالشاء ، ولو كانت ذكراً لله .

يروى الأستاذ عبد الحلیم الجندى فى كتابه عن أبى حنيفة ، قائلا : « كان لا يهتبل غفلة الزمان ،

بل إنه ليقطع أبعد الأشواط في مضمار النصفة ، فلا إعلان ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون الإعلان من إيهام . كان الناس في ذلك العصر حديثي عهد بالنبوة ، تأسروهم الكلمة ، إذا سبقت ، ولو في السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو سمعه أو في ذكائه ، طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد ، أخرج ثوبا فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . قال أبوه : مه ، قد مدحته ، ورفض أن يبيعه ..

ويلتحق بالثناء الكاذب على السلعة ، الحلف .

روى مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عائل مستكبر ، ومنان بعطيته ومنفق سلعته بيمينه<sup>(١)</sup> .

ولقد كان عمر رضى الله عنه يدخل السوق ، فيقول : اللهم ، إنى أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاط به السوق .. اللهم ، إنى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة .

#### ٨ - المساومة :

السوم عرضى السلعة على البيع ، يقال ساومته سيّوما ومساومة مثل جادلته جدالاً ومجادلة .

ويقال : اسنام علىّ وتساومنا ، وساومت واستمت بالسلعة وعليها ، أى : غالبت .

وذكر لسان العرب حديثاً هو « نهى أن يسوم الرجل على سوم أخيه » وفسره بأنه : يتساوم المتبايعان في السلعة ، ويتقارب الانعقاد فيجىء رجل آخر ، يريد أن يشتري تلك السلعة ، ويخرجها من يد المشتري الأول ، بزيادة على ما استقر الأمر عليه بين المتساومين ، ورضيا به قبل الانعقاد . فذلك ممنوع عند المقاربة لما فيه من الإفساد ، ومباح في أول العرض .

وقد ورد هذا الحديث ، وهو النهى عن السوم ، بلفظ البيع في حديث أبي بكر السابق ذكره . فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه : « لا يبيع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه »<sup>(٢)</sup> .

والمساومة بمعنى المحادثة في الثمن بين البائع والمشتري ، ليست ممنوعة ، فهي من طبائع

(١) أخرجه الإمام مسلم بوابتين عن أبي هريرة - رضى الله عنه - في كتاب (الإيمان) باب : بيان غلط تحريم إسبال الإزاراة لمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف ١٠٣/١ .

الأول : برقم ١٧٢/١٠٧ بلفظ ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ( قال ابو معاوية : ولا ينظر إليهم ) ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، ومملك كذاب ، وعائل مستكبر »

والثانية برقم ١٧٣/١٠٨ بلفظ : ( ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالغلاء يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لاخذها بكذا وكذا فصدقه ، وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لدينا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يف »

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣٤٥/٥



النفوس ، ولكن البائع حين يلتزم بالكلمة الواحدة يريح ويستريح ، وذلك مجرب به فالمتاجر التي تلتزم بأسعارها ، يشعر روادها بالراحة النفسية ، فهم يتخلصون من الشعور بأنهم غلبوا في الثمن ، أو خدعوا في السلعة<sup>(١)</sup>

أما أن تأخذ المساومة طابع الشدة والمشاحة ، فليس ذلك من أخلاق الإسلام في شيء بل الإسلام يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى »<sup>(٢)</sup> .

وقد كان كثير من السلف الصالح لا يقبل المساومة - أصلا - راضيا بالقليل الذي يصيبه ، معتقدا أن فيه بركة ، ومن وصايا الإمام على ( كرم الله وجهه ) للتجار : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، ولا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

وقيل لعبد الرحمن بن عوف : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، ما رددت ربحا قط ، ولا طلب مني حيوان ، فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

### آداب السوق :

وللسوق آدابها ، التي يجب مراعاتها ، ويمكن الإشارة إليها فيما يأتي :

١ - لزوم التقوى ، في الذهاب إلى السوق والإياب منها ، والجلوس فيها للمبايعة ، من حيث عدم الايذاء باليد ، أو اللسان ، أو العين .

يقاس كل هذا على حديث الجلوس في الطرقات ، الذي رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إياكم والجلوس بالطرقات » قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ؟ قال : إذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقها قالوا : وما حقها ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر<sup>(٣)</sup> .

وما يلزم البائع من ذلك ألا يعنف المشتري ، وألا يضيق الطريق على المارة ببضائعه ومعرضاته - كما نرى في هذه الأيام من شغل الرصيف المعد للمارة - وألا يتطلع إلى المشتريات ، وينظر إليهن نظرات مريبة ، أو يطمع في مغازلتهم .

٢ - حسن المعاملة ، فالدين المعاملة ، ويقتضى حسن المعاملة ، العدل وعدم الظلم والإحسان .

(١) أخرجه مسلم في البيوع ( الباب الرابع ) رقم ٨ والحميدى في مسنده برقم ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ويصف الراية للريلى ٢١/٤ وجمع الزوائد ٨١/٤ وحلية الأولياء ١٥٨/٩

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٧٥/٣ وهو في فتح البارى ٣٥٦/٤ والمشكاة برقم ٢٧٩

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ٦٣/٨ ومسلم في كتاب ( السلام ) وأبو داود في الأدب ، وأحمد ٤٧/٣

والمقصود بالعدل أن يحرص التاجر على أخذ الحق ، وإعطاء الحق . أما الإحسان فهو الفضل والتسامح ، ويتأتى بإنظار المعسر ، وعدم التشديد فى المطالبة تصديقا لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۖ ﴾<sup>(١)</sup> .

وأخرج مسلم عن أبى اليسر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسرا ، أوترك له ، حاسبه الله حسابا يسيرا »<sup>(٢)</sup> .  
ويقتضى حسن المعاملة الوفاء بالوعد ، وعدم المطل .

ويقتضى الإحسان فى المعاملة بين البائع والمشتري ، احتمال الغبن المعتدل إن حدث من أحدهما للآخر ، ويدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء »<sup>(٣)</sup> فالغبن من البائع أن يربح فوق المعتاد ، ومن المشتري أن يعطى أقل من المعتاد .

والكمال ألا يغبن أحدهما الآخر ، ولكن إذا حدث شئ من ذلك فلا يقيم المغبون الدنيا ويقعدها ، بل عليه أن يحتسب ، وقد ورد عن العلماء وقولهم : الصدقة المخفية فى البيع والشراء .  
فإن أبى رجع إلى صاحبه فى رفق ويسر ، ولن يضيع حق متى توفر حسن النية فى رده .

٣ - مراقبة الله : لا ينسى التاجر أن معاملته مع الله أولا وقبل كل شئ . ويجب أن يكون وهو فى السوق ، قلبه مع الله ، مراقبا له فى معاملاته مع الناس وهذا هو الذى يتحقق فيه قوله تعالى : ﴿ رَجُلًا لَا تَلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ، لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴾<sup>(٤)</sup> .

ومثل هذا التاجر قد عقد نيته مع الله ، على أن يكون هدفه من سعيه فى تجارته الاستعفاف لا الاستكثار ، وأن قيامه بتجارته إنما هى خدمة للمجتمع الذى يعيش فيه ، معتقدا أن الحياة قائمة على التعاون والحياة مبنية على تبادل المنافع دون استغلال .

فالناس للناس ، من بدو وحاضرة . بعض لبعض ، وأن لم يشعروا خدم

٤ - حسن اختيار نوع التجارة : ومن أجل شعوره بأنه يخدم مجتمعه فعليه أن يختار فى تجارته ما هو ألزم للناس ، وألصق بحاجات الجماهير ، وكلما شرف التاجر ، وارتفعت همته ، أحسن اختيار ما يتاجر فيه .

(١) البقرة آية : ٢٨٠

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ٢٣٠٢/٤ رقم ٣٠٠٦/٧٤ من طريق أبى اليسر ، بلفظ : « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وأما الحديث المذكور هنا فقد أوردته فى إتحاف السادة المتقين ١٠٠/٥

(٣) أخرجه فى مجمع فى مجمع الزوائد ٧٤/٤ ، ١٨/٩ وقال الهيثمى : رواه أبويعل ، وفيه راو لم يسم وبقيته رجاله وثقوا .

(٤) النور الآيتان : ٣٧ ، ٣٨

٥ - المحافظة على الشعائر : وعلى التاجر ألا يشغله البيع عن الصلاة فإذا ما سمع النداء فعليه أن يغلق دكانه ، متوجها إلى المسجد هو والعاملون معه ، ليفرض على الرواد من المسلمين الاقتداء به ، والالتزام بالسلوك الإسلامى الصحيح .

بل لا يقف عند حد إقامة الصلاة ، بل عليه المداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من دخل السوق فقال لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة »<sup>(١)</sup> .

وإلى جانب محافظة التاجر على الصلاة ومداومته الذكر ، فعليه أن يقوم بنوافل الإسلام المختلفة ، فضلا عن فرائضه ، فعليه الإكثار من الصدقة ، فإنها كفارة لما يحدث من أخطاء ، والصوم فإنه جنة ، والزكاة وهى مهمة بالنسبة للتاجر .

وزكاة عروض التجارة ، اعتنى ببيانها الفقهاء ، وفصلها العلماء ولها فى كتب الفقه قسم خاص يدل على أهميتها .

ويهمنا هنا الإشارة الى أن الواجب على التاجر فى تجارته ، متى استوفت النصاب والشروط ، ربع العشر ، فى قيمتها لا فى غيبتها ، ويضم عند التقويم بعضها إلى بعض ، ولو اختلفت أجناسها كما يضم الربح إلى رأس المال .

ونظام الزكاة الإسلامى ، أفضل نظام اقتصادى عرفه الناس ، لأنه لا يوجد فيه الظلم ، الذى يوجد فى النظم البديلة ، التى حلت محله .

٦ - اجتناب الشبهات : ولا بد للتاجر المسلم من أن يجتنب الشبهات ويحذر منها ، ويغلق أبوابها فكثيرا ما يتعرض التجار لبضائع ، لا يعرفون مصدرها ، من أمثال الذبائح ، التى لا يعرف نوعها ، ولا طريقة ذبحها ، وغير ذلك من السلع المشابهة . فعلى التاجر أن يتحرى عن المصدر والطريقة ، فإن رابه شىء تركه ، فإنه مسئول أمام الله عن ترويج ذلك .

والمشتري لا شىء عليه ، فإنه أخذ من مكان معلوم ، وليس هو مكلفا أن يبحث عن أصل الأشياء ، لأنه وكل أمره الى من اشتري منه ، وهو عنده محل ثقة . فأصبح التاجر فى هذه الحالة راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا الشبهات ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه »<sup>(٢)</sup> الحديث .

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٨ ، ٣٤ ، ٢٩ ، ٣٤ ، والحاكم المستدرک ١/٥٣٨ والدارمى ٢/٢٩٣ وإتحاف السادة المتقين ٥/١١١ والترغيب والترهيب ٢/٥٣١ وأبونعيم فى الخلية ٢/٣٥٥

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب ( المسافات ) رقم ١٥٩٩/١٠٧ ، ١٠٨ ، والترمذى رقم ١٢٠٥ ، والبخارى ٧/٣٠ وجمع الزوائد ٧٣/٤ ، ٧٤ وابن ماجه رقم ٣٩٨٤ والدارمى ٢/٢٤٥ والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٢٦٤ والخطيب فى تاريخ بغداد ٩/٧٠

ونحن - الآن فى زمن تعددت فيه منافذ التوريد ، وتشابكت فيه مصادر الأخذ والعطاء ، وفيها وجوه كثيرة تستدعى البحث والدراسة ، حتى لا يختلط الحلال بالحرام والطيب بالخبيث .

٧ - توثيق البيع : ومن الآداب الإسلامية التى يدعو إليها الإسلام توثيق البيع ، إما بالشهادة أو الكتابة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يوثق - أحيانا - ما يبيعه أو يشتريه كتابة ، روى ابن الأثير عن رواته ، قال : حدثنا عبد المجيد بن وهب قال : قال لى المعداء بن خالد : ألا أقرئك كتابا كتبه لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قلت بلى . فأخرج لى كتابا : « هذا ما اشترى المعداء بن خالد بن هوزة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أو أمة ، لاداء ولا غائلة ولا خبثة ، بيع المسلم المسلم .

ويحل محل التوثيق بالكتابة الشهادة أو المماسحة .

والمماسحة : هى التصافق باليدين ، يقال متماسح القوم إذا تبايعوا ، فتصافقوا بأن ضرب كل منهم بيده على يد الآخر .

إن هذا التوثيق - ومن صورة الفاتورة الآن - يفيد كثيرا ، ويمنع المشاحة والجحود فيما بعد . وفى الأمر بتوثيق البيع بالشهادة ، أو الكتابة ، جاء قوله تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله ﴾ (١) . ا . هـ . وصلى اللهم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ا . هـ .

### أصحاب الجحيم

قوله تعالى : ﴿ كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

﴿ كلا ﴾ أى ازدجروا عما أنبتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب . ثم علل هذا بقوله : ﴿ إن كتاب الفجار لفى سجين ﴾ أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن الفجار سيحاسبون على

أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتاباً أحصى فيه أعمالهم وهذا الكتاب فى أسفل سافلين .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أى هل تعلم ما هو سجين ؟ ( كتاب مرقوم ) أى هو كتاب مكتوب كالرقم فى الثوب ، لا ينسى ولا يمحي ، أثبتت فيه أعمالهم الشريرة . قال ابن كثير ( سجين ) مأخوذ من السجن وهو الضيق ، ولما كان معيد الفجار إلى جهنم وهى أسفل سافلين ، وهى تجمع الضيق والسفول ، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أى مكتوب مفروغ منه ، لا يزداد فيه أحد ولا ينقص منه أحد .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى هلاك ودمار للمكذبين .

﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أى يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أى وما يكذب بيوم الحساب والجزاء إلا كل متجاوز الحد فى الكفر والضلال ، مبالغ فى العصيان والطغيان كثير الآثام . ثم وضع من إجرامه فقال تعالى : ﴿ إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ أى إذا تلى عليه آيات القرآن الناطقة بحصول البعث والجزاء ، قال عنها : هذه حكايات وخرافات الأوائل ، سطورها وزخرفوها فى كتبهم .

قوله تعالى : ﴿ كلا . بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل ، فليس القرآن أساطير الأولين ، بل غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي . قال المفسرون : الران هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال ابن القيم وأصل هذا إن القلب يصدأ عند المعصية ، فإذا زادت غلب عليه الصدأ حتى يعيد راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبقة وقفاً وختماً . فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ، ويسوقه حيث أراد والمعافى من عافاه الله .

( وفى سنن الترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا أخطأ ... ) .

وفى سنن ابن ماجه والترمذى من حديث أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة تكتب نكته سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه . وهو الران الذى ذكره الله تعالى بقوله ﴿ كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ . قال الترمذى : هذا حديث صحيح فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التى اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم ، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم . فهو خلق السبب ومسببه ، لكن السبب باختيار العبد ، والمسبب خارج عن قدرته واختياره اهـ

وقوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام الشافعى - رحمه الله - هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ قال ابن كثير : وهذا الذى قاله الشافعى فى غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم الآية كما دل عليه منطوق الآية الكريمة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (١) وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم - عز وجل - فى الدار الآخرة رؤية الأبصار فى عرصات القيامة وفى روضات الجنان الفاخرة .

وقد قال ابن جرير بهذه عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ قال يكشف فينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلاماً هذا معناه ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان العظيم عن رؤية الرحمن من أهل النيران . ﴿ ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ هَذَا الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقرير والتوبيخ والتحقيق :

قال تعالى :

كَلَّا إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا بَرَّارٌ لِّفَىٰ عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾  
يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾  
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَمُهُ  
مِسْكٌَ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ  
بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا  
مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا  
رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ  
الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ  
تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

## معاني المفردات

عليين : أى فى مكان عال  
الأرائك : هى الأسرة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة)  
نضرة النعيم : بهجته ورونقه  
رحيق : أى : شراب خالص لا غش فيه  
مختم : أى ختمت أوانيه وسدت  
ختامه مسك : أى : ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين  
فليتنافس المتنافسون : المراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين .  
مزاجه : المزج خلط أحد الشيئين بالآخر  
والتسليم : عين من ماء تجرى من أعلى إلى أسفل وهو أشرف شراب فى الجنة ، ويكون صرفاً للمقربين ،  
مزوجاً لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكرهم .  
الغمز : الإشارة بالجنف والحاجب استهزاء وسخرية  
فكهين : أى : معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان  
حافظين : أى : رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم  
والتثويب والإنبابة : المجازاة يقال : ثوبة وأثابة إذا جازاه .

## المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات : فذكر أن الله أحصى أعمالهم فى كتاب مرقوم اسمه عليون يشهده المقربون من الملائكة . وبعدئذ عدد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان وفى ذلك ترغيب فى الطاعة ، وحقر لعزائم المحسنين ، ثم بين سبحانه ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما يتقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى ليشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ كلا إن الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾  
يقول تعالى : حقاً إن كتاب الأبرار لفى عليين ، أى : مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف الفجار فكتابهم ومصيرهم إلى سجين .

قال الأعمش : عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين قال : هى الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار وسأله عن عليين فقال هى السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين وقال العوضى : عن ابن عباس فى رواية أخرى أن أعمالهم فى السماء عند الله - سبحانه وتعالى - وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : ( عليون ) ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : ( عليون ) عند

سدرة المنتهى قال ابن كثير : والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظماً أمره ومقحماً شأنه : ( وما أدراك ما عليون ) ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم : ( كتاب مرقوم يشهده المقربون ) فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم ، تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الأبرار أنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين سادات المؤمنين ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار ، تنوياً بكتاب الأبرار وما وقع لهم به ، وإشهاراً له وإظهاراً لمكانتهم بين خواص خلقه .

قوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾  
أبى : إن المطيعين لله في الجنان الواردة ، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أى : هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ينظرون إلى ما أعد الله لهم من أنواع الكرام والنعيم في الجنة .

قال ابن كثير : وقيل معناه : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ إلى الله - عز وجل - وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله - عز وجل - وهم على سررهم وفرشهم كما تقدم في حديث ابن عمر « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفى سنة يرى أقصاه كما ترى أدناه ينظرون في أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر في وجه الله - عز وجل - في اليوم مرتين .

وقوله تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ما هم فيه من النعيم العظيم .

قوله تعالى : ﴿ يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

أبى : يسقون من خمر في الجنة ، بيضاء طيبة صافية ، لم تكدرها الأيدي ، قد ختم على تلك الأوان فلا يفك ختمها إلا الأبرار والرحيق من أسماء الخمر قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن قال أحمد بسنده : عن أبى سعيد الخدرى - قال - أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ قال : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله - تعالى - من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » ؟

وقوله تعالى ﴿ ختامه مسك ﴾ قال ابن مسعود أى خلطة مسك وقال مجاهد ( ختامه مسك ) أى طيبة مسك . والمعنى : إن آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك .

قوله تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أى : وفي هذا النعيم والشراب الهنىء ، فليحرص بالمبادرة إلى طاعة الله ، وليتسابق المتسابقون قال الطبرى : التنافس مأخوذ من الشيء النفيس الذى يحرص عليه الناس ، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى : فليستبقوا في طلب هذا النعيم ، لو تفرص عليه نفوسهم .



عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رجل للنبي - ﷺ - يوم أحد أرايت إن قتلت فأين أنا ؟ قال « في الجنة » فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل « متفق عليه »

قوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أى : عين في الجنة يشرب منها المقربون فوق درجة الأبرار .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أى وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة الدنيا . قال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أى : وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم يحفظ أعمال عبادي المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعينهم ؟ ( قاله صاحب صفوة التفاسير الشيخ الصابوني ) .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾

أى : ففى هذا اليوم - يوم القيامة - يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا جزاء وفاقاً : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أى : والمؤمنون على أسرة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم وقيل : ينظرون إلى ربهم في دار كرامته سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

ونحو الآيات الكريمة قوله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال أخسثوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادي يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ، قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ (١)

## تفسير سورة الانشقاق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب بصائر ذوى التمييز :

السورة مكية

عدد آياتها : خمس وعشرون آية :

وكلماتها : أربعمئة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : ( قهرمان ) على الرء ( يحور ) وعلى الميم ( أليم ) وتسمى سورة ( أنشقت ) ، وسورة ( الانشقاق ) لافتتاحها .

مقصود السورة :

بيان حال الأرض والسماء فى طاعة الخالق تعالى ، وإخراج الأموات للبعث ، والاشتغال بالبر والإحسان ، وبيان سهولة الحساب للمطيعين ، والإخبار عن فرحهم وسرورهم بنعيم الجنان وبكاء العاصين والكافرين ، وويلهم بالثبور فى دركات النيران ، والقسم بتشقق القمر ، وإطلاع الحق على الأسرار والإعلان ، وجزاء المطيعين من غير امتنان ، فى قوله : ﴿ لهم أجر غير ممنون ﴾

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ مرتين ؟ لأن الأول يتصل بالسماء وحق لها أن تسمع وتطيع ، وإذا اتصل واحد بغير ما اتصل به الآخر لا يكون تكرارا .

قوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ وفى سورة البروج ﴿ فى تكذيب ﴾ راعى فواصل آى ، مع صحة اللفظ وجودة المعنى .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه فى السورة السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۝  
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ يَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ  
يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ  
كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ  
فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

### معاني المفردات

﴿انشقت﴾ أى : تشققت بالغمام كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾  
﴿وأذنت لربها وحقت﴾ أى : استمعت له ، وحق لها أن تتمثل ذلك .  
﴿مدت﴾ أى : بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً  
ولا أمتاً .

﴿وألقت ما فيها﴾ أى : ألقت ما فى جوفها من الموق والكنوز  
﴿وتخلت﴾ أى : خلت عما فيها فلم يبق فيها شىء . ( كادح ) جاهد مجتهد  
﴿فملاقية﴾ أى : فملاق له عقب ذلك  
﴿ينقلب﴾ يرجع ، ﴿أهله﴾ أى : عشيرته المؤمنين  
﴿وراء ظهره﴾ أى : يؤتاه بشماله من وراء ظهره  
﴿والثبور﴾ الهلاك أى : ينادى ويقول : واثبوراه  
﴿يصلى﴾ أى : يقاسى  
﴿سعيراً﴾ أى : ناراً مستعرة  
﴿مسروراً﴾ أى : فرحاً  
﴿يحور﴾ أى : يرجع

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها  
وتخلت ﴾

هذه الآيات بيان لأهوال القيامة ، وتصوير لما يحدث بين يدى الساعة من كوارث وأهوال .

يقول تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أى : إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب الكون .  
قال الآلوسى : تشق لهول يوم القيامة : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أى : واستمعت لأمر الله وانقادت  
لحكمه وحق لها أن تسمع وتطيع أمره لأنه العظيم الذى لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء وذلل له كل

شيء وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّت ﴾ أى : وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها ، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّت ﴾ أى : أخرجت أمواتها وتخلت عنهم ، وألقت ما فى بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما فى بطنها من الحمل وذلك يؤذن بعظم الهول ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زَلَزَاهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَاطًا ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّت ﴾ أى : واستمعت لأمر ربها وأطاعت وحق لها أن تسمع وتطيع .. وجواب (إذا) محذوف ليكون أبلغ فى التهويل أى : إذا حذف كل ما تقدم ، لقى الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الخيال

ثم أخبر سبحانه عن كد الإنسان وتعبه فى هذا الحياة ، وأنه يلقى جزاءه عند الله - سبحانه - فقال :

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَاqِہ ﴾ أى : يا ابن آدم إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ فَمَلَاqِہ ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيہ سَوْفَ يَرِى ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ، وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ .

وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمَلَاqِہ ﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله .

أخرج أبو داود الطيالسى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ - « قال جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاqِہ <sup>(١)</sup> والناس حينئذ صنفان ! سعيد وشقى قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابِهِ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحْسَابُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾

أى : فأما من عرض عليه سجل أعماله وتناوله بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته وبمعاصيه ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية ومن حوسب هذا الحساب اليسير يرجع إلى أهله المؤمنين مسروراً مبتهجاً قائلاً : ﴿ هَاؤُمَ اقْرَؤُوا كِتَابِيہ إِنْى ظَنَنْتُ أَنْى مَلَاقَ حِسَابِيہ فَهُوَ فى عِشَّة رَاضِيَةٍ فى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ، قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ .

قال الإمام أحمد بسند : عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حساباً يسيراً » فلما انصرف قلت : يا رسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك <sup>(٢)</sup> » قال ابن كثير والحديث صحيح على شرط مسلم وقال أحمد أيضاً : عن عائشة - رضى الله عنها -

(١) مسند أبوداود الطيالسى ٢٤٢/٧ رقم ١٧٥٥

(٢) مسند أحمد ٤٨/٦

قالت : قال رسول الله ﷺ - « من نوقش الحساب عذب » قالت : فقلت : أليس قال الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيرا ﴾ قال : ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير من حديث أيوب السخيتانى به <sup>(١)</sup> قوله تعالى ﴿ وأما من أوق كتابه وراء ظهره فسوف يدعو ثبورا ويصلى سعيرا ﴾

أى : وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجتراح المعاصى ، فيؤتون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم ، وهذه علامة الشقاوة ﴿ فسوف يدعو ثبورا ﴾ أى : يصيح بالويل والثبور ، ويتمنى الهلاك والموت قال تعالى : ﴿ وأما من أوق كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعاها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾ <sup>(٢)</sup> وهنا قال تعالى : ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ أى : ويدخل ناراً مستعرة يقاسى عذابها وحرها .

وقوله تعالى : ﴿ إنه كان في أهله مسرورا ﴾ أى : لأنه كان في الدنيا مسروراً مع أهله ، غافلاً لاهياً ، لا يفكر في العواقب ، ولا تخطر بباله الآخرة .

قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء في الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور في الآخرة ، وهذا في قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ <sup>(٣)</sup> وقوله تعالى : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أى : إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ولن يحيه الله بعد موته ، ويجازيه على أعماله كلها خيرا وشرها قال تعالى : ﴿ بلى إنه كان به بصيرا ﴾ أى : بلى ليحورون وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً فإنه تعالى مطلع على عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

### قسم عظيم

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ <sup>(١٦)</sup> وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ <sup>(١٧)</sup> وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ <sup>(١٨)</sup> لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ <sup>(١٩)</sup> فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ <sup>(٢٠)</sup> وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ <sup>(٢١)</sup> بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ <sup>(٢٢)</sup> وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ <sup>(٢٣)</sup> فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ <sup>(٢٤)</sup> إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ <sup>(٢٥)</sup>

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٢٧ وسنه الترمذى ٤٣٥/٥ رقم ٣٣٣٧ وسنه أحمد ٤٧/٦ وتفسير الطبرى ٧٤/٣٠

(٢) سورة الحاقة الآيات من ٢٥ إلى ٣٢

(٣) سورة الطور الآيات ٢٥ - ٢٨

## معاني المفردات

﴿ الشفق ﴾ هو الحمرة التي تشاهد في الأفق الغربي بعد الغروب  
 ﴿ وسق ﴾ أى : ضم وحوى وجمع  
 ﴿ اتسق ﴾ أى : اجتمع نوره وصار بديراً  
 ﴿ لتركين ﴾ أى : لتلاقن ، والطبق ! الحال المطابقة لغيرها  
 والمراد لتركين أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت  
 وما بعده .

﴿ لا يسجدون ﴾ أى : لا يخضعون ويسجدون لعظمة القرآن  
 ﴿ يوعون ﴾ أى : يجمعون فى صدورهم من الأعراض والجحود والحسد والبغى  
 ﴿ ممنون ﴾ أى : مقطوع من قولهم من فلان الجبل إذ قطعة

## المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الانسان راجع إلى ربه فملاقيه ومحاسبه إما حساباً يسيراً أو حساباً عسيراً ،  
 أقسم سبحانه بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، أن البعث كائن لا محالة له ، وأن الناس يلقون  
 من الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ما أعد له من جنة أو نار .

## التفسير

قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالشفق والليل وماوسق والقمر إذا اتسق ﴾ ﴿ فلا أقسم ﴾ تقدم أن قلنا :  
 أن العرب اعتادت أن تأتى بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمراً ظاهراً لا يحتاج إلى التوكيد ، ويرى  
 بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لا يكفى القسم  
 لاثباته .

وفى هذه الآيات الكريمة أقسم سبحانه بثلاثة أشياء متعلقة بالليل ( أحدها ) الشفق ، وهو فى اللغة  
 الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو فى الشرع قال ابن عمر رضى الله  
 عنهما - الشفق الحمرة وكذلك قال الكلبي وقائل : الشفق الحمرة التى تكون بعد المغرب .

( الثانى ) قسمه بالليل وماوسق ، أى وماضم وحوى وجمع والليل وماضمه وحواه آية أخرى ،  
 والقمر آية ، واتساقه آية أخرى . والشفق يتضمن إدبار النهار وهو آية وإقبال الليل وهو آية أخرى . فان  
 هذا إذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر  
 آية والشفق الذى هو متضمن الأمرين آية والليل آية وماحواه آية والهلل آية وتزايد كل ليلة آية ، واتساقه  
 وهو امتلاؤه نورا - آية - ثم أخذه فى النقص آية .

وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته سبحانه وتعالى مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند  
 إقبال الليل وإدبار النهار - ذكر الرب - تعالى - بصلاة المغرب . . وفى الحديث اللهم هذا إقبال النهار ذكر

الرب - تعالى - بصلاة المغرب . وفي الحديث « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعائك فاغفر لي »<sup>(١)</sup> (رواه أبو داود) كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار . . ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله تعالى : ( والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر )<sup>(٢)</sup> وهو يقابل إقسامه بالشفق ونظيره إقسامه بـ ( والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس )<sup>(٣)</sup> .

وقال ابن القيم : ولما كان الرب - تبارك وتعالى - يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه ، ويثبت من خلقه ما شاء ينتشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار ، فيحدث هذا الإنتشار في العالم أثره - شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام أحدهما واتصال الأخرى بها ، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال ، ومن حكم إلى حكم ، وذلك مبدأ ومعاد يومي ، شهود للخلقة كل يوم وليلة فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد وزمان العالم في مبدأ ومعاد . قال تعالى : ( أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير )<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ( لتركن طبقاً عن طبق ) هذا جواب القسم أى : لتلاقن يامعشر الناس أهوالاً وشدائد في الآخرة عصبية .

قال الألوسي : يعنى لتركن أحوالاً بعد أحوال وهى طبقات فى الشدة وبعضها أرفع من بعض ، وهى الموت وما بعده من مواطن القيامة وأهوالها قال ابن القيم : رحمه الله - وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا .

وقال ابن عباس : رضى الله عنهما - لتصبرن الأمور حالاً بعد حال . وقيل : لتركن أيها الإنسان حالاً بعد حال من النظفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى كونه حياً ، وإلى خروجه إلى هذه الدار ، يتم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر ، وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الأشد ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت فى البرزخ وركوبه فى أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة ، لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار . . فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ، ثم بفعل الله - سبحانه - بعد ذلك - ما يشاء .

قال ابن القيم : وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه وتعالى للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ونقله إياه من حال إلى حال وهذا محال أن

(١) سنن أبى داود ٣٦٢/١ رقم ٥٣٠

(٢) سورة المدثر الآيتان : ٣٣ ، ٣٤

(٣) سورة التكويد الآيتان : ١٧ ، ١٨

(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٩

يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولا حي ، ولا مريد ، ولا حكيمة ولا عليم .. وكلاهما في الامتناع سواء .

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ، وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب بقوله : ( فما لهم لا يؤمنون ) إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لدلولها أتم استلزام ، وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزأها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة :

فقوله تعالى : ( فما لهم لا يؤمنون ) استفهام يقصد به التوبيخ أى فما لهؤلاء المشركين لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون بالبعث بعد الموت ، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على قوله ؟ وقوله تعالى : ﴿ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ أى وإذا سمعوا آيات القرآن ، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن ؟

قال البخارى : بسنده عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقراً ( إذا السماء انشقت ) فسجد فقال ماهذه السجدة فقال : سجدت بها خلف أبي القاسم صلى الله عليه وسلم - فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه وأخرجه أيضاً الإمام مالك ومسلم وأبو داود والنسائي في كتبهم<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ( والله أعلم بما يوعون ) قال مجاهد وقتادة : المعنى : والله أعلم بما يكتُمون في صدورهم . قال ابن القيم في قوله تعالى : ( والله أعلم بما يوعون ) أى بما يضمرون في صدورهم ويكتُمونه وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله .

وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذا استثناء منقطع فالمعنى ولكن الذين آمنوا أى : بقلوبهم وعملوا الصالحات أى بجوارحهم لهم أجر غير مقطوع ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، في جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، يبيضاء لذة للشاربين ، لافيهما غول ولاهم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) صحيح البخارى - كتاب مواقيت الصلاة ١٨٤/١ ومسلم ٤٠٧/١ رقم ١١٠ وموطأ مالك ٢٠٥/١ رقم ١٢ وسنن أبى داود ١٢٣/٢ رقم ١٤٠٨ وسنن النسائي ١٦٢/٢

(٢) سورة الصافات الآيات : من ٤٠ إلى ٤٩



## تفسير سورة البروج

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وعشرون

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثمان وخمسون .

سمت سورة البروج ، لذكرها في أولها .

معظم مقصود السورة .

القسم على أصحاب الأخدود ، وكمال ملكه الملك المعبود ، وثواب المؤمنين في جوار المقام المحمود ، وعذاب الكافرين في الجحيم المورود ، وما للمطيع والعاصي من كرم الغفور الودود ، والإشارة إلى هلاك فرعون وثمود .

المتشابهات

وقوله تعالى : ( ذلك الفوز الكبير ) ( ذلك ) مبتدأ ، ( والفوز ) خبره ( والكبير ) صفة وليس في القرآن نظيره .

مناسبة السورة لما قبلها

(١) اشتغالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته .  
(٢) أنه ذكر في السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والالقاء في حمارة القبط ، وذكرنا أن هذه شنشبة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝ وَشَهِيدٍ ۝ وَمَشْهُودٍ ۝  
قُنِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝ إِذْهُمْ عَلَيْهَا قُوعِدٌ ۝ وَهُمْ  
عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ

الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ  
 عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ  
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾

## معاني المفردات

(البروج) واحدها برج ، ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء الاثنى عشر ،  
 وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ، فيسير القمر فى كل برج منها يومين وثلاث يوم فذلك ثمانية  
 وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ، وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا ، ستة منها فى شمال خط الاستواء ،  
 وستة فى جنوبه . . وتقطع الثلاثة الأولى فى ثلاثة أشهر ، أولها اليوم العشرون من شهر مارس ، وهذه المدة  
 هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه  
 المدة هى فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثانى  
 والعشرون من شهر سبتمبر وهذه المدة هى فصل الخريف ، وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية فى ثلاثة أشهر  
 أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء .  
 (اليوم الموعود) هو يوم القيامة .

(الأخدود) الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه

(وشاهد ومشهود) الشاهد جميع ماخلق الله تعالى فى هذا العالم ، فإِنَّ كل ماخلقه شاهد على قدرته وهو  
 شىء أيضا ذى عينين (والأخدود) الشق فى الأرض  
 (أصحاب الأخدود) قوم كافرون ذوبأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فخلوهم على الكفر  
 فأبوا فشقوا لهم شقا فى الارض وحشوه بالنار والقوهم فيه وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق  
 يشهدون الإحراق .

(ومانقموا منهم) أى : ماعابوا عليهم

(العزیز) أى : الذى لا تغلب قوته

(الحميد : أى الذى يحمد على كل حال

(فتنوا) أى ابتلوا وامتحانوا

(عذاب الحريق) هو عذاب جهنم ذكر تفسيرنا وبياننا له .

(الفوز الكبير) أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لا تنفى .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسما ذات البروج ﴾ أى : قسماً بالسما ذات الكواكب العظيمة التى لم يستطع لها إحصاء ولا عد ، منها ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فى ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية وثلاث ثانية ، ولوجرى حول الكرة الأرضية لدار حولها فى الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة . . سبحان القادر العزيز الحكيم .

فما أبعد الكواكب التى يصل ضوءها إلينا بعد مليون ونصف المليون ، وإلى أى حد هى عظيمة بالنسبة إلى شمسنا وقد أقسم الله - سبحانه وتعالى - بهذه الكواكب لما فيها من عجب الصبغة وباهر الحكمة ، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس فى هذه الحياة تدل على أن لها صانعا حكيماً مدبراً ، إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لتستدل بذلك على عظيم قدرته وجليل حكمته .

فبروج السما هى منازلها ، أو منازل السيارة التى فيها من أعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السما . قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ثم أقسم سبحانه باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه فقال تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ودل على وقوع اليوم الموعود بإتقان جميع الرسل عليه . . . وبما عرفه عباده من حكمته وعزته . التى تأبى أن يتركهم سدى ، ويخلقهم عبثاً وبغير ذلك من الآيات والبراهين التى يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتى تارة . فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسما وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان . . قوله تعالى : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ .

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود وقد اختلف المفسرون فى ذلك قال الإمام أحمد : بسنده عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الآية : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ <sup>(١)</sup> قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه ، والموعود يوم القيامة وكذلك قال الحسن وقتاده وابن زيد وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : الشاهد هو - محمد ﷺ - والمشهود يوم القيامة <sup>(٢)</sup> ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ <sup>(٣)</sup> وهكذا قال الحسن البصرى وسفيان الثورى وقال مجاهد وعكرمة والضحاك الشاهد ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة <sup>(٤)</sup> وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - الشاهد هو الله - جل جلاله - والمشهود يوم القيامة <sup>(٥)</sup> وفى رواية له أيضا عند ابن أبى حاتم أن الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة قال ابن كثير : وأكثر المفسرين على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه

(١) سند أحمد ٢/٢٩٨

(٢) الطبرى - سورة البروج الآية رقم ٣ جزء ٣٠ صفحة ١٣٠

(٣) سورة هود الآية : ١٠٣

(٤) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة البروج - طبعة الشعب

(٥) تفسير ابن كثير طبعة الشعب - سورة البروج

وقال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية الكريمة ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم والرائي والمرئي ، وهذا البق المعاني به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قبل : هي بحمد الله في غاية الارتباط ، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ، فأقسم بالعالم العلوي وهي السماء وما فيها من البروج التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، الذي هو مظهر ملكه ، وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وبجميع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود ، والذين عذبوا أوليائه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم وأيضاً فالشاهد هو المطلع والرقيب . والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد .

فمن نوع الخليفة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين كما نوعها إلى مرثى لنا وغير مرثى كما قال : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون ﴾ <sup>(١)</sup> كما نوعها إلى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأنثى ، وهذا التنوع والاختلاف من آياته سبحانه - كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر وهو أن المخلوقات ما هو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره ، ولا يكون الخالق - تبارك وتعالى - شاهداً على عباده مطلقاً عليهم رقيباً ؟

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله فإنهم شاهدون على العباد ، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم سبحانه باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضاً فيوم القيامة شهود كما قال تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ <sup>(٢)</sup> يشهده الله وملائكته والإنس والجن والوحش فالشاهد من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضاً فكلامه مشهود كما قال تعالى : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ <sup>(٣)</sup> تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا حجة لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل .

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون . فالكتاب مشهود ، والمقربون شاهدون .

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصة التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة . ويبعد أن يكون الجواب ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ الذين فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار ذات الوقود .

## قصة أصحاب الأخدود

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ؟ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهى الحفر فى الأرض وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله - عز وجل - فقهرهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ثم أرادوهم أن يكفوا عن دينهم وإيمانهم بالله - عز وجل - فأبوا عليهم ولم يقبلوا منهم فقتلهم فى النيران وهم ينظرون .

قال تعالى : ﴿ النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ فلهم اللعنة ولهم الطرد من رحمة الله إذ حرقوا المؤمنين وعذبوهم بالنار الموقدة ذات اللهب الشديد وهم قاعدون حولها - يشرفون عليهم وهم يتقلبون فى العذاب كأنهم ينظرون مشهد سلوى وتسليه لأنفسهم فهذه الآيات تصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود شاهدين ما يجرى على عباد الله وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم بهم ، رافة ولا رحمة .

وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجانبه المنيع ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم كثير من الناس ونحن لا نعرف السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق هؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق هؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة لهم إذا اختارهم الله إليه شهداء وخفف عنهم عذاب النار وأبدلهم بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ثم قال تعالى : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد ﴾ من تمام جنات الكمال أنه تبارك وتعالى المالك لجميع السموات والأرض ، وما فيها وما بينها فله وحده الملك والمملوك والعزة والجبروت وهو يشهد على كل شيء وكفى بالله شهيداً .

والله - تبارك وتعالى - لا تغيب عليه غائبة فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله بكل شيء عليم وعلى كل شيء شهيد وكفى بالله شهيداً .

قال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض . . . وهذا

الوصف يقتضى إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن يعاملوا به ولهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه ما ينبغى أن يحبوا ويكتموا لأجله كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ (١) وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم الإشراك ينقمون من الموجودين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديهم من قدمه رسول الله - الله - منهم وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك أهل الرأى المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من أصحاب الأخدود وبينهم نسب قريب أو بعيد .

### حديث أصحاب الأخدود

ففى صحيح مسلم عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان فى طريقه إذا سلك مر بالراهب فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بُنى أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرى ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرىء الأكهم والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأثابه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فقال : إني لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك فآمن بالله - تعالى - فشفاه الله - تعالى - فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك ! من رد عليك بصرى ؟ قال : ربي . قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربي وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجاء بالراهب فقبل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ثم جىء بجليس الملك فقبل له : ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جىء بالغلام فقبل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم

ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف به الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال اكفانيهم الله - تعالى - فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاخذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك . ما فعل أصحابك ؟ قال اكفانيهم الله تعالى - فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به قال وما هو ؟ قال تجمع الناس في صعيد واحد ، وتصلبني على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتي ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوق السهم في صدغه فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام فأق الملك فقيل له : رأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذر . قد آمن الناس فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخذت وأضرم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموا فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة معها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبري فإنك على الحق ، رواه مسلم<sup>(١)</sup>

#### مفردات الحديث

ذروة الجبل أعلاه وهي بكسر الهمزة وضمها  
و «القرقور» بضم القافين : نوع من السفن  
و «الصعيد» هنا : الأرض البارزة  
«الأخدود» الشقوق في الأرض  
«أضرم» أوقد  
«انكفأت» أى : انقلبت ..  
«تقاعست» توقفت وجبت

#### العبر من القصة

قال العلماء : أعلم الله - عز وجل المؤمنين - من هذه الأمة في هذه الآية الكريمة ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك وذكر لهم - ﷺ - قصة الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التي كانوا عليها ، ليأنسوا بمثل الغلام في صبره وتصلبه في الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه في حق إظهار دعوته ودخول الناس في الدين مع صغره وعظيم صبره وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله - تعالى - ورسخ الإيمان في قلوبهم صبروا على الطرح في النار ولم يرجعوا عن دينهم قال الله - تبارك وتعالى - مخبراً عن

لقمان : ﴿ يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾<sup>(١)</sup> وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ - قال : إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر<sup>(٢)</sup> أخرجه الترمذى وروى ابن سنجر عن أميمة مولاة النبي - ﷺ - قالت : كنت أوصىء النبي - ﷺ - فأتاه رجل فقال : أوصنى ! فقال ! لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أوحرقته بالنار . الحديث<sup>(٣)</sup>

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبي - ﷺ - بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شيء من ذلك ولا تزال المعركة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ، وبين انصار الله وأعوان الشيطان لا تزال قائمة وستبقى إلى يوم الدين ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وما يضير المسلم إن قتل في سبيل الله وهو يعلم أنه سيذهب إلى رب عظيم ، وإله كريم ، أعد لأحبابه وأوليائه جنة عرضها كعرض السموات والأرض وفيها النعيم المقيم ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وكل مسلم يتقدم بنفسه راضية إلى ميدان الشهادة وهو يردد قوله تعالى : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾<sup>(٤)</sup> كما يرد قول الصحابي الشهيد حبيب بن عدى - رضى الله عنه وأرضاه حيث قال : ولست أبالي حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال جسم ممزغ<sup>(٥)</sup>

وهذه مجاهدة فلسطينية .. تروى قصيدتها فى بيروت

شعر : يوسف العظيم

ذبحوني من وريد الوريد	وسقوني المر فى كل صعيد
مزقوا زوجى فلم أعبأ بهم	ومضوا نحو صغيرى ووحيدي
غرسوا الحرية فى أحشائه	فغدا « التكبير » أصداء نشيدي
دمروا بيتى وهل بيتى هنا؟	إن بيتى خلف هاتيك الهدوء !
وتلفئت فلم أعثر على	غير أبناء الأفاعى والقرود
أين بأس العرب ؟ مذخور لمن ؟	أين أبناء الحمى درع « الصمود » ؟

.....

ودمى سال على تلك الرملة	ينثر العطر على حجر الورد
ولغ الغاصب فى أشلائنا	غير أنا لم نزل سمر الزنود
ولوائى فوق هامات الورى	يتحدى فى العلى كل البنود

(٣) المستدرك للحاكم ٤١/٤

(٤) سورة طه الآية : ٨٤

(٥) صحيح البخارى ١٣٣/٥ طبعة الشعب :

(١) سورة لقمان الآية : ١٧

(٢) سنن الترمذى ٤٧١/٤ رقم ٢١٧٤



قل لمن يلهث في « غفلته » ينشد الأمن تمتع بالصديد  
 إن في يافا مواعيد لنا وربّ القدس لنا بيت القصيد  
 وعلى شطآن حيفا موعد كيف ننسى في الحمى خضر الوعود  
 ذبحوني من وريد لوريد ودمى يجتاح أحقاد اليهود

.....

قل لمن يحسب أنا أمة أنكرت أجداد سعد والوليد  
 نحن شعب لم يعد يخشى الردى أويالى برصاص وحديد  
 قطع العهد وفي أعماقه دعوة التوحيد والدين الرشيد  
 كلما أطفئ منا قيس أشرق القرآن بالفجر الجديد  
 قد رجعنا راية زاحفة بعد أيام ضياع وشروء  
 ومضيئا نحو آفاق العلى يسلم الراية جذ لحفيد  
 إنها الجنة تبغى ثمناً عزّ إلا من شرايين الشهيد

قوله تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب

الحريق ﴾

أخبر سبحانه وتعالى أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أوليائه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم ، وهذا غاية الكرم والجود .

قال الحسن ، انظروا إلى هذا الكرم والجود ، يقتلون أوليائه ، ويفتنونهم وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . انظروا إلى كرم الرب - تعالى - يدعوهم إلى التوبة والمغفرة وقد فتنوا أوليائه فحرقوهم بالنار ، فلا ييأس من هذه العداوة ، ولا كفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده ، وعبدته وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم . وألحقهم بأوليائه كما قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن يتنخوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين ﴾ (١)

ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾ (٢) يخبر تعالى عن عبادته المؤمنين أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال جل وعلا ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ وذلك هو الفوز الكبير العظيم والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف إذا ارتقت درجات الفائزين حتى يدخلوا جنات تجري من تحتها الأنهار من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ذلك

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٨

(٢) سورة البروج الآية ( ١١ )

الفوز الذى لا فوز بعده والنعيم المقيم الذى لا نعيم بعده إلا النظر إلى وجه ذى الجلال والإكرام وهناك السعادة الكبرى جعلنا الله وإياكم من أهلها آمين يارب العالمين .

( وعيد وتهديد )

قال تعالى :

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ۝ وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ۝  
ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝  
فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ ۝ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝  
بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝

### معاني المفردات

البطش : الأخذ بالعنف والشدة

يبدى ويعيد : يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى

الغفور : أى : الذى يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته

الودود : أى : الذى يحب أوليائه ويتودد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم

المجيد : العظيم الجليل المتعالى

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ، والمراد بهم هنا الجماعات الذين

تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم

فرعون : هو طاغية مصر

ثمود : قبيلة بائدة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا

محيط : أى : هم فى قبضته وحوزته

### المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد .

### التفسير

قوله تعالى : ( إن بطش ربك لشديد ) أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد قوى فإنه سبحانه ذو القوة المتين الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر أو هو أقرب ولهذا قال تعالى : ( إنه هو يبدى ويعيد ) أى : من قوته وقدرته التامة يبدى الخلق ويعيده كما بدأه

بلا تمناع ولا مدافع فهو سبحانه وتعالى لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ والمعيد ، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود .

قال تعالى : ( وهو الغفور الودود ) يغفر لمن تاب إليه وليوده ويحبه فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتوود إلى عباده بنعمه الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب . أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : الودود الحبيب<sup>(١)</sup> والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً لأوليائه ومودوداً لهم ، فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزم ، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه قال شعيب عليه السلام : ( إن ربى رحيم ودود )<sup>(٢)</sup> . وقال تعالى : ( نبيء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم )<sup>(٣)</sup> .

وما ألفت اقتران اسم الودود بالرحيم وبالفور ، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه ، وكذلك قد يرحم من لا يحب والرب - تعالى - يغفر لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ماكان .

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾<sup>(٤)</sup> قوله تعالى : ( ذو العرش المجيد ) .

قال ابن القيم : أضاف سبحانه العرش إلى نفسه ، كما تضاف إليه الأنبياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما يضيف إلى نفسه « يذو » صفاته القائمة به . كقوله : ( ذو القوة ) وكقوله : ( ذو الجلال والإكرام ) ويقال : ذو العزة . وذو الملك ، وذو الرحمة ، ونظائر ذلك . فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال : ذو العرش وذو الأرض .

والمعلوم عند كل من قرأ شيئاً في عقائد السلف أن العرش مخلوق حسن وأنه أعظم من السموات والأرض كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح : والذي فيه « والعرش لا يقدر قدره إلا الله - عز وجل - وأن هذا العرش الذى وصفه الله بأنه عرش كريم كما فى قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾<sup>(٥)</sup> وقال : ( وهو رب العرش العظيم )<sup>(٦)</sup> وقال : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ﴾ فعلى جر ، المجيد ، يكون صفة للعرش ، وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى ( المجيد ) وصف نفسه سبحانه بالمجيد . . . وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعته ، وعدم إحصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء .

(١) انظر الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطى ٤٧١ / ٨

(٤) سورة يونس الآية : ٥٨

(٥) سورة المؤمنون الآية : ١١٦

(٦) سورة التوبة الآية : ١٢٩

(٢) سورة هود الآية : ٩٠

(٣) سورة الحجر الآية : ٥٠

وقال ابن القيم : والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة أفعال الخير . وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد ، كما قالت الملائكة البيت الخليل عليه السلام : ( رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد )<sup>(١)</sup> وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال ، أن نقول « ربنا ولك الحمد أهل الثناء والمجد ، فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال ، والمجيد العظيم الواسع القادر الغني ، ذو الجلال والإكرام .

ومن قرأ ( المجيد ) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، وإذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس ، وقال : لم يسمع في صفات الخلق مجيد ثم خرجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فإن الله - سبحانه وتعالى - وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجيد ، ووصفه بالعظمة ، فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ، ولا يقدر قد عظمت وحسنه وبهاء منظره إلا الله - سبحانه وتعالى - ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه ، والسموات السبع والأرضون السبع في الكرسي - الذين بين يديه - كحلقة ملقاة في أرض فلاة ، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة . قال ابن عباس : السموات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس ، فكيف لا يكون مجيدا وهذا شأنه ، فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هنا المتكلف جره إلى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف في اللغة في غير حاجة إلى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ أي : مهما أراد فعله لامعقب لحكمه ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله .

قال الإمام الطحاوي : وكل شئ يجري بتقديره ومشيته ، ومشيته تنفذ لامشيئة العباد ، إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان وما لم يشأ لم يكن ، يهدي من يشاء ، ويعصم ويعافي فضلا ، ويصل من يشاء ، ويخذل ويبتلى عدلا . وكلهم يتقلبون في مشيته ، بين فضله وعدله ، ولأراد لقضائه ، ومعقب لحكمه ، ولاغالب لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلا من عنده .

وقال ابن القيم : اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدر والقدرة والقوة ، وعدم النظر ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتزويه عن أضدادها مع محبته والهيته ، وملكة السموات والأرض ، المتضمن الكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شئ المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها ، وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتا وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفردة بالابداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته ، فلايستعصى عليه منها شئ ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته ، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا إلى

عباده ومجا لهم ، ووصفه بأنه ذو العرش الذى لا يقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم ، وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيتته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين ، تكفى من فهمها فالحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده .

وقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ﴾ .

ختم سبحانه وتعالى السورة الكريمة بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به وكذب رسله ، تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر سبحانه عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم فى قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار ، فقال تعالى : ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾ فهذا أعجب عجب بمن كفر بمن هو محيط به ، وأخذ بناصيته قادر عليه قال تعالى : ﴿ إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾ <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾

ثم وصف سبحانه وتعالى كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل الأمر ، كما أن المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قرآن مجيد ، كريم . لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر وقد تقدم أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به .

وقوله تعالى : ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ أكثر القراء على الجر ، صفة للوح وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه ، وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ووصف محله بالحفظ فى هذه السورة . فالله - سبحانه وتعالى - حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف ، كما حفظ ألفاظه من التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه من التحريف والتغيير .

واللوح المحفوظ شئ أخبرنا الله - عز وجل - به وأنه أودعه كتابه ولكنه لم يعرفنا حقيقته وكنهه أن نؤمن به كما جاء به كتاب الله وليس علينا البحث عن دقائقه وتفصيله وما وراء ذلك مما لم يأت به خير عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

آمننا به كل من عند ربنا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

## تفسير سورة الطارق

## مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية :  
 عدد آياتها : سبع عشرة آية .  
 وكلماتها : إحدى وستون .  
 وحروفها : مائتان وتسع وثلاثون .  
 فواصل آياتها : ( ظل بق عار ) .  
 سميت سورة الطارق لفتحها .

## مقصود السورة :

القسم على حفظ أحوال الانسان ، والخير عن حاله في الابتداء والانتهاه وكشف الأسرار في يوم  
 الجزاء ، والقسم على أن كلمات القرآن جزل ، غير هزل ، من غير امتراء ، وشفاعة الكبرياء إلى  
 سيد الأنبياء بإمهال الكافرين ، في العذاب والبلاء ، في قوله ﴿ أمهلهم رويدا ﴾ .

## المتشابهات :

﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ وهذا تكرار ، وتقديره : مهّل مهّل مهّل ؛ لكنه عدل في الثاني  
 الى ( أمهل ) ؛ لأنه من أصله ، وبمعناه ، كراهة التكرار ، وعدل في الثالث إلى قوله : ( رويدا ) ؛ لأنه  
 بمعناه ، أى : أرودهم أرودا ، ثم صغر ( ارودا ) تصغير الترخيم ، فصار : رويدا . وقيل : ( رويدا )  
 صيغة مصدر محذوف ، أى : امهالاً رويدا ، فيكون التكرار مرتين . وهذه أعجوبة .

## مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه ابتداء هذه بالخلف بالسوء كالسورة قبلها .  
 (٢) انه ذكر في السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه القول الفصل ، وفيه رد  
 على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾  
 إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضَ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴿١٣﴾ وَمَاهُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلِ الْكَافِرِينَ أَهْمِلْهُمْ رَوَيْدًا ﴿١٧﴾

### معاني المفردات

- والطارق : ( قسم ) بالنجم الثاقب يطلع ليلاً .  
 النجم الثاقب : المضيء المتوهج أو المرتفع على .  
 إن كل نفس : ماكل نفس ( جواب القسم ) .  
 لما عليها حافظ : إلا عليها مهيمن ورفيق وهو الله - جل جلاله -  
 ماء دافق : ماء ممتزج من مائى الرجل والمرأة مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم .  
 الصلب : الظهر .  
 الترائب : عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة .  
 وقال الحسن وروى عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما اثبتته العلم حديثا .  
 رجعه : أى إعادته .  
 بلى : أى تختبر وتمتحن والمراد تظهر .  
 السرائر : مايسر فى القلوب من العقائد والنيات واحدها سريرة .  
 ذات الرجع : المطر لرجوعه الى الأرض مرارا .  
 ذات الصدع : النبات الذى تنشق عنه .  
 لقول فضل : فاصل بين الحق والباطل .  
 أكيد كيدا : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج .  
 فمهل الكافرين : فلا تستعجل بالانتقام منهم .  
 أمهلهم رويدا : إمهالا قريبا ، أو قليلا حتى يأتيتهم العذاب .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسَّاءَ والطَّارِقَ ، وما أدراك ما الطَّارِقَ ، النجم الثَّاقِبَ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ .

يقسم تبارك وتعالى بالسَّاءَ ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ولهذا قال سبحانه ( ﴿ والسَّاءَ والطَّارِقَ ﴾ ) ثم قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما الطَّارِقَ ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ النجم الثَّاقِبَ ﴾ .

قال قتادة : وغيره : إنما سمي النجم طارقاً لأنه إنما يرى بالليل ويختص بالنهار فشبه بالطارق الذي يطرق الناس ، أو أهله ليلاً ، قال الفراء : ما أتاك ليلاً فهو طارق .

قوله تعالى : ﴿ النجم الثَّاقِبَ ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : المضيء وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضيء ومعدق للشياطين .

قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾ (١) .

قال العلامة ابن القيم : والمراد به الجنس لانجم معين . ومن عينه الثريا ، أو زحل ، فإن أراد التمثيل فصحيح ، وإن أراد التخصيص دليل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ والمقسم عليه هنا حال النفس الإنسانية ، والاعتناء بها ، وإقامة الحفظة عليها ، وأنها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصى بها ، فأقسم سبحانه أنه مامن نفس إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ويحصى ما تكتسب من خير أو شر قال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ (٢) وقال تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾ (٣) وقال سبحانه : ﴿ أقمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - الآية ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ أى : فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه من نقطة قادر على إعادته . قال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ﴾ (٥) وقال سبحانه : ﴿ ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ﴾ (٦) الآية . فبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ .

قوله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾

أخبر سبحانه أنه خلق الإنسان من ماء دافق . والدفق صب الماء . وسبب تدفقه كما قال علماء

(٤) سورة الرعد الآية : ٣٣

(٥) سورة الروم الآية : ٨

(٦) سورة الكهف الآية : ٥١

(١) سورة الملك الآية : ٥

(٢) سورة الانفطار الآيات : من ١٠ إلى ١٢

(٣) سورة الرعد الآية : ١١



الطب : تقلصات في جدار الحويصلة المنوية مع تقلصات القناة القاذفة للمني وتقلصات عضلات العجان مما يسبب الرعشة عند الإنزال .

وبه سبحانه بكونه دافقا على أنه ضعيف غير متماسك كما قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ (١) .

ثم ذكر سبحانه محله الذي يخرج منه ، وهو بين الصلب والثرائب .

قال ابن القيم : قيل صلب الرجل وثرائبه وهى صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراج اللبن الخالص من الفرت والدم . أهـ .  
وقفة علمية مع هذه الآية الكريمة : ﴿ يخرج من بين الصلب والثرائب ﴾

قال الدكتور محمد على البار في كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » مانصه :  
« ولنبق قليلا مع الآية الكريمة التى تتحدث عن الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والثرائب تتملى معانيها المعجزة الباهرة .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والثرائب ، إنه على رجعته لقادر يوم تبلى السرائر ﴾

والآية الكريمة تحثنا على النظر فى الانسان الذى خلق .. من هذا الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والثرائب .. وسبب تدفقه كما أشرنا الى ذلك هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمني مع تقلصات عضلات العجان .. فتدفع بالسائل المنوى بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل وهذا هو سبب الرعشة عند الإنزال .. وذلك كله متعلق بالجهاز العصبى اللاإرادى والمسمى بالجهاز التعاطفى ، أما الانتشار والانتصاب نسبة أيضا أعصاب خاصة من الجهاز العصبى اللاإرادى وتدعى بنظير التعاطفى وبواسطتها تمتلئ الأوردة الدموية الكثيفة فى القضيب فتسبب الانتشار . وهذه الأعصاب تأتى من منطقة بين الصلب والثرائب .

وأنت ترى أن ذلك كله موكول إلى جهاز غير إرادى ولا تتحكم فيه الإرادة حتى يخرج أمر الخلقة من كل شبهة للإرادة الإنسانية . ولابد من النظر والتدبر فى كيفية خلق الإنسان لأن فيه من دلائل القدرة الإلهية العظيمة ما يبهى العقول ويملأ القلوب إيمانا وخشوعا وتبتلا .. ويجعلها تقترب من ذلك النور الإلهى فترى الذى أنشأ وأبدع وخلق الإنسان من هذا الماء الدافق ... هذا الماء المهين .. يتطور فى نشأته وخلقته طورا بعد طور ومرحلة بعد مرحلة وخلقاً من بعد خلق حتى يخرج طِفْلاً ثم ليلبغ أشده ثم يعود أدراجه إلى الشيخوخة وإلى الوهن والضعف ثم إلى حفرة ضيقة لأنيس فيها ولا صديق .. ثم إلى بعث ونشور فتمتلئ نفسه بهذه الصور المتلاحقة الباهرة والنشور عند رؤيته لبداية الخلق فإن الذى أخرجه من ماء دافق هو سبحانه على رجعته لقادر .

تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب . ونحن قد قلنا إن هذا الماء ( المنى ) إنما يتكون في الخصية وملحقاتها كما تتكون البويضة في المبيض لدى المرأة .. فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية .

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحذبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه .. والصلب هو العمود الفقري .. والترائب هي الأضلاع ... وتتكون الخصية والمبيض في هذه المنطقة بالضبط أى : بين الصلب والترائب . ثم تنزل الخصية تدريجياً حتى تصل إلى كيس الصفن ( خارج الجسم ) في أواخر الشهر السابع من الحمل .. وبينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولا ينزل أسفل من ذلك .

ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها .. أى : من بين الصلب والترائب .. فشريان الخصية أو المبيض يأتي من الشريان الأهر ( الأورطى البطنى ) من بين الصلب والترائب كما أن وريد الخصية يصب في نفس المنطقة .. يصب في الوريد الأيسر في الوريد الكلوى الأيسر بينما يصب وريد الخصية الأيمن في الوريد الأجوف السفلى .. وكذلك أوردة المبيض وشريانها تصب في نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب .. كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتي من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب .. وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب في نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب .

فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب ؟ .. فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقى مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب . والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول من بين الصلب والترائب ولم تقل من الصلب والترائب ... فكلمة « بين » ليست بلاغية فحسب وإنما تعطى الدقة العلمية المتناهية ..

وقد أخطأ كثير من المفسرين القدامى حيث لم يهتموا بهذه اللفظة بين .. وقالوا إن المنى يخرج من صلب الرجل .. وماء المرأة يتكون من ترائبها .. وهذا خطأ علمي وخطأ منهجي حيث لم يعطوا الآية حقها فحذفوا كلمة « بين » ولذا وقعوا في الخطأ .

والعجيب أن الإمام ابن القيم قد تنبه إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه أغلب المفسرين فقال في إعلام الموقعين : ( الجزء الأول ص ١٥٨ ) .. « ولا خلاف أن المراد بالصلب صلب الرجل . واختلف في الترائب فقيل : المراد بها ترائبه أيضاً . وهى عظام الصدر ما بين الترقوة إلى التندوة .. وقيل المراد بها ترائب المرأة والأول أظهر لأنه سبحانه قال : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب فلا بد أن يكون ماء الرجل خارجاً من بين هذين الملتقين كما قال فى اللبن : يخرج من بين فرث ودم .

وأيضاً فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نقطة فى غير موضع . والنطقة هى ماء الرجل ، كما قال أهل اللغة قال الجوهري . والنطقة الماء الصافي قل أو كثر والنطقة ماء الرجل والجمع نطف .

وأيضاً فإن الذى يوصف بالدفق والنضح انما هو ماء الرجل ولا يقال نضحت المرأة ولا دفقته . والذى أوجب الأصحاب القول الآخر إنهم رأوا أهل اللغة قالوا الترائب : موضع القلادة من الصدر . قال الزجاج : أهل اللغة مجموعون على ذلك .

وهذا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة بل يطلق على الرجل والمرأة قال الجوهري : الترائب عظام الصدر ما بين الترقوة إلى التندوة . ومع هذا فقد ذكر القرطبي في تفسيره عن الحسن البصرى وغيره بانه يخرج من صلب الرجل وترائب . . . وصلب المرأة وترائبها . . . وكذا ذكر الألوسى في تفسيره . . . وهو قريب مما ذكرناه . . .

قوله تعالى : ﴿ إنه على رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴾ أى : على رَجْعِهِ إليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن بشر بن حجاج القرشى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ولالأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقة<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أى يوم القيامة تبلى فيه السرائر أى تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهوراً .

قوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أخبر سبحانه عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله . لا بقوة منه ولا بقوة من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع في شدة ، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره ، وكلاهما معدوم في حقه . ونظيره قوله تعالى : ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ .

هذا قسم ثان في السورة الكريمة أقسم سبحانه بالسماء ورجعها بالمطر والأرض وصدعها بالنبات . قال ابواسحاق : الرجع المطر ؛ لأنه يجيئ ويرجع ويتكرر . ورجع السماء هو إعطاء الخير الذى يكون من جهتها جالاً بعد حال ، على مرور الأزمان ترجعه رجعا ، أى تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجيئ . ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها ، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والأرض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته .

وأقسم على كون القرآن حقاً وصدقا فقال : ﴿ إنه لقول فصل وما هو بالهزل ﴾ كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره

(١) مستند أحمد ٢١٠/٤

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٤٣

ومنه فصل الخطاب وأيضا فالقول ببيان المعنى ضد الإجمال . فكون القرآن فصلا يتضمن هذه المعاني كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل ، وجداً ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذى لاحقيقة له . . وهو الباطل واللعب - قال بين الفصل والهزل .

قوله تعالى : ﴿ إِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ وإنما يكيد المكذبون ويحيلون ويخادعون لرده ، ولا يردونه بحجة ، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون ، والإملاء لهم حتى يأخذهم على كما قال تعالى : ﴿ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ <sup>(١)</sup> فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه كما يفعل الملوك ، فإذا فعل ذلك أعداء الله فأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لا تبج فيه ، فيعطيه ويغافيه وهو يستدرجهم ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون .

قوله تعالى : ﴿ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رَوْيَا ﴾ أى : أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم . وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا وسترى فإذا أحل بهم من العذاب أو النكال والعقوبة والهلاك كما قال تعالى : ﴿ نَمْتَنَّهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ <sup>(٢)</sup>

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣

(٢) سورة لقمان الآية : ٢٤

## تفسير سورة الأعلى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية .

كلماتها : ثمان وسبعون

وحروفها : مائتان وإحدى وسبعون .

فواصل آياته : ل الألف .

سبب التسمية : سميت سورة الأعلى ، لمفتتحها وكذلك سورة « سبح » .

مقصود السورة :

بيان علو الذات المقدسة ، وذكر الخلقة وتربية الحيوانات ، والإشادة بالثمار ، والنبات ، والأمن من نسخ الآيات ، وبيان سهولة الطاعات ، وذل الكفار في قعر الدركات ، والتخفيض على الصلاة والزكاة ، وفي الدنيا بقاء الخيرات ، وفي الآخرة بقاء الدرجات في قوله : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ .  
المتشابهات في السورة :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق ﴾ وفي العلق : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ زاد في هذه السورة ﴿ الأعلى ﴾ مراعاته للفواصل وفي هذه السورة : ﴿ خلق فسوى ﴾ ، وفي العلق ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ .

فضل السورة :

أخرج ابوداود وغيره من أصحاب السنن مارواه عقبه : لما نزل ( فسبح باسم ربك العظيم ) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في ركوعكم ، ولما نزل ( سبح اسم ربك الأعلى ) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها في سجودكم<sup>(١)</sup> .

وأخرج الامام أحمد ومسلم وأبوداود والترمذي عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة ( سبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية »

وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً<sup>(١)</sup> .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر في تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق النبات بقوله : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ وذكر هنا خلق الإنسان في قوله : ﴿ خلق فسوى ﴾ . وخلق النبات في قوله : ﴿ أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ .

وقصة النبات هنا أوضح وبسط أكثر ، وخلق الإنسان أكثر تفصيلاً .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۝ (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ۝ (٣)  
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ۝ (٦) إِلَّا  
مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ۝ (٨) فَذَكَرْ إِن نَّفَعْتَ  
الذِّكْرَى ۝ (٩) سَيَذَكِّرُ مَنْ يَخْشَى ۝ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝ (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ  
الْكُبْرَى ۝ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ (١٣) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ۝ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ  
فَصَلَّى ۝ (١٥) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ (١٧) إِنَّ هَذَا لَفِي  
الصُّحُفِ الْأُولَى ۝ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ۝ (١٩)

### معاني المفردات

التسبيح : التنزيه

فسوى : أى فسواها ووضع خلقها على نظام كامل .

قدر : أى : قدر لكى حتى ما يصلحه مدة بقاءه .

فهدى : أى : هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له .

والمرعى : كل ما تخرجه الأرض من النبات والثمار والزررع المختلفة .  
والغناء : ما يقذف به السيل إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات .  
والأحوى : الذى يضرب لونه إلى السواد .  
فلاتنسى : أى فلاتنساه بل تحفظه .  
واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .  
الأسقى : هو المعاند المصر على الجحد والإنكار ، المتمكن من نفسه الكفر .  
يصلى النار أى : يذوق حرها .  
النار الكبرى : هى أسفل دركات الجحيم .  
لايموت فيها ولا يحيى : لايموت أى : فيستريح ، ولايحيا أى : حياة طيبة فيسعد .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾

أى : نزه اسم ربك عن كل ما لا يليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .  
أى : منزّه اسم ربك من كل ما لا يليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

قال القرطبى : قال ابن عباس والسدى : معنى ( سبح اسم ربك الأعلى ) أى : عظم ربك الأعلى . وقبل : نزه ربك عن السوء وعما يقول فيه الملحدون . وذكر الطبرى : أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمى به أحدا سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره وأنت خاشع معظم .

قال الامام أحمد بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ : ( سبح اسم ربك الأعلى ) قال : « سبحان ربى الأعلى »<sup>(١)</sup> .

قال القرطبى : وروى عن على وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى موسى وعبدالله بن مسعود - رضى الله عنهم - أنهم كانوا إذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربى الأعلى ، امتثالاً لأمره فى ابتدائها ، فيختار الاقتداء بهم فى قراءتهم .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عقبه بن عامر الجهنى لما نزلت ( فسبح باسم ربك العظيم ) قال لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اجعلوها فى ركوعكم « فلما نزلت ( سبح اسم ربك الأعلى ) قال « اجعلوها فى سجودكم »<sup>(٢)</sup> .

(١) مسند أحمد ٢٣٢/١ وسنن أبى داود ٥٤٩/١ رقم ٨٨٣

(٢) مسند أحمد ٢٧١/٤

## « العلى الأعلى »

قال الشيخ عبدالرحمن عبدالحالق :  
جاء الكتاب والسنة والآثار عن السلف مما يثبت إثباتا لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى هو العلى ،  
وهو الأعلى بكل ما يوحيه هذان الاسمان من معان .

فقد سمي الله نفسه بـ (الأعلى) فى قوله تعالى : ( سبح اسم ربك الأعلى )  
وقال جل وعلا : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ . وسمى نفسه  
بـ ( العلى ) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ .  
وغير ذلك من الآيات .

وهذا الوصف ( العلو ) يتضمن معنيين كلاهما ثابت لله سبحانه وتعالى - وهما : علو المكان وعلو  
المكانة .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد  
الأحد الذى ليس له شبيه من خلقه ولاند له ، ولا مثيل له ، ولا كفء له ، الخلق عبيده ، وفى قبضته وقهره  
وتحت سلطانه ، ولا خروج لأحد من قهره وسلطانه أبدا ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء ولا رحمة إلا  
ما يرسلها ولا ممسك لرحمته عن من يشاء بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ، ومن خالف فى شيء من  
ذلك فهو مشرك جاحد .

وأما المعنى الثانى من معانى العلو فهو علو ذاته إذ هو سبحانه وتعالى فوق خلقه مستو على عرشه ، اليه  
يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، وينزل الأمر من عنده والقرآن والسنة كلها شواهد  
بإثبات هذا المعنى ...

ثم ذكر سبحانه من أوصافه الجليلة ، ومظاهر قدرته الباهرة ودلائل وحدانية وكماله فقال تعالى :  
﴿ الذى خلق فسوى ﴾ أى : خلق المخلوقات جميعها فأتقن خلقها ، وأبدع صنعها ، فى أجمل الأشكال ،  
وأحسن الهيئات . كما قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شيء خلقه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذى قدر فهدى ﴾ أى : قدر فى كل شيء خواصه ومزاياه بما تجل عنه العقول  
والأفهام ، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها ، وهدى الأنعام إلى مراعيها ، ولوتأملت مافى  
النبات من الخواص ، ومافى المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير  
النافعة من النباتات واستخدام المعادن فى صنع المدافع والطائرات . لعلمت حكمة العلى القدير ، الذى  
لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم فى دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون : إنما حذف المفعول لافادة



العموم أى قدر لكل مخلوق وحيوان مايصلحه فهداه إليه وعرفه وجه الانتفاع به .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾ (١) أى قدر قدرا وهدى الخلائق اليه كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء » (٢)

قوله تعالى : ﴿ والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾

أى : والذى أنبت النبات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية ، ( فجعله غثاء أحوى ) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشيا باليا كالغثاء يميل لونه إلى السواد فهو القادر سبحانه على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله .

قال عبدالرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما ييس أسود من احتراقه فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول . وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

- قوله تعالى : ﴿ ستقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله ﴾ أى : ( ستقرئك ) يا محمد القرآن ( فلا تنسى ) وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها وقوله تعالى : ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أى : لكن ما أراد الله نسخته فانك تنساه .

وفى هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام ، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولا تكرار ولا ينساه أبدا ، من أعظم البراهين على صدق بنوته - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله تعالى : ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أى : هو تعالى عالم بما يجهر به العباد وما يخفونه من الأقوال والأفعال ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء كما قال تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن نجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ (٣)

وفى قوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أى : ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر التى هى أيسر وأسهل الشرائع السماوية وهى شريعة الإسلام .

قوله تعالى : ( فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ قال ابن كثير : أى ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم فلا يرضعه عند غير أهله .

وقوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أى : سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى - كما قال جل وعلا : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (٤) . وكما قال

(٣) سورة طه الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨

(٤) سورة ق الآية : ٣٧

(١) سورة طه الآية : ٥٠

(٢) صحيح مسلم - كتاب القدر ٢٠٤٤/٤ رقم ١٦

سبحانه : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾<sup>(١)</sup>

وقال القرطبي : قد يذكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى ؟ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء .

قوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ . أى : ويرفضها ويتبعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ فى الشقاوة ( الذى يصلى النار الكبرى ) أى : الذى يدخل نار جهنم المستعرة العظيمة الفظيعة قال الحسن : النار الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا ( ثم لا يموت فيها ولا يحيى ) أى لا يموت فيستريح ، ولا يحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم فى العذاب والشقاء . كما قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا من عمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾<sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أى : قد فاز من طهر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن ، ( وذكر اسم ربه فصلى ) أى : وذكر عظمة ربه وجلاله ، فصلى خشوعا وامتنالا لأمره .

قال ابن كثير : قال أبو بكر البزار بسنده : عن جابر بن عبد الله عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : ( قد أفلح من تزكى ) قال : من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد وشهد أن رسول الله ، ( وذكر اسم ربه فصلى ) قال هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها<sup>(٣)</sup> .

والآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾<sup>(٤)</sup> .

قال القرطبي : وعن عطاء وأبى العالية وقتادة : أنها نزلت فى صدقة الفطر . وعن ابن سيرين : ( قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ) قال خرج فصلى بعد ما أدى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدم زكأتى بين يدي صلاتى . فقال سفيان قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ . وقال قتادة فى هذه الآية : ( قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ) زكى ماله وأرضى خالقه . قوله تعالى : ﴿ بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : والحال أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقي خير من الفانى ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ؟ وكيف يهتم بدار الغرور ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟

(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

(١) سورة ق الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣

(٢) سورة فاطر الآيات : ٣٦ ، ٣٧

(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب - سورة سبج

قرأ ابن مسعود - رضى الله عنه - هذه الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها ، وشرابها ونسائها ولذاتها ، وبهجتها وأن الآخرة غيبت وزويت عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل .

وقوله تعالى : ﴿ إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾ أى : إن هذه المواعظ المذكورة فى هذه السورة الكريمة مثبتة فى الصحف القديمة المنزلة على إبراهيم وموسى - عليهما السلام - فهى مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد قال تعالى : ﴿ أم لم يتبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أमत وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ (١) .

قال القرطبى : وروى الآجرى من حديث أبى ذر قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المتسلط المبتلى المغرور ، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتردعنى دعوة المظلوم فإني لأردّها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها فى صنع الله عز وجل - وساعة يخلو فيها لحاجته من الطعام والمشرّب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا فى ثلاث : تزود لمعاد ، ومرمة لمعاش ، ولذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شأنه ، حافظا للسانته ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالحق كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لا يعمل » قال قلت يارسول الله ، فهل فى أيدينا شيء مما كان فى يدى إبراهيم وموسى مما أنزل الله عليك ؟ قال نعم اقرأ ياأبا ذر « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرن الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى »

قال القرطبى : لم يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ، أى : إن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . والله أعلم (٢) .

(١) سورة النجم الآيات : من ٣٦ إلى ٤٧

(٢) تفسير القرطبى - الغاشية الآية رقم ١٩ جزء ٣٠ صفحة ٢٤ .

## تفسير سورة الغاشية

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وعشرون آية .

وكلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

وحروفها : ثلاثمائة وأحد وثمانون .

فواصل آياتها ( عمرته ) .

سميت سورة الغاشية لذكرها .

معظم مقصود السورة :

التخويف بظهور القيامة ، وبيان حال المستوجبين للعقوبة وذكر حال المستحقين للمثوبة وإقامة الحجة على وجود الحق ووعظ الرسول - صلى الله عليه وسلم - للأمة على سبيل الشفقة ، وأن المرجع إلى الله تعالى في العاقبة في قوله تعالى : ﴿ إِن إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ثُمَّ إِنَّا عِلِينَا حسابهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ وبعده : ( وجوه يومئذ ) ليس بتكرار ؛ لأن الأول هم الكفار ، والثاني المؤمنون . وكان القياس أن يكون الثاني بالواو للعطف ؛ لكنه جاء على وفاق الجمل قبلها وبعدها . وليس معهن واو العطف البتة .

( وإلى الساء ) ( وإلى الجبال ) ليس من الجمل ، بل هي إلتباع لما قبلها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه أشير في السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ۝ (١) وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ (٢) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝ (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ۝ (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ۝ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ۝ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ۝ (٧) وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ۝ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ (٩)

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۖ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ۖ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۖ فِيهَا  
 سُرٌّ مَّرْفُوعَةٌ ۖ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ۖ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۖ وَزُرَابِي  
 مَبْثُوثَةٌ ۖ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۖ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ  
 رُفِعَتْ ۖ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۖ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۖ  
 فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۖ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ۖ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ۖ  
 فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ۖ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ۖ

### معاني المفردات

- الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها .  
 خاشعة : أى ذليلة .  
 عاملة : أى : وقع منها عمل في الدنيا .  
 ناصية : أى : تعبة .  
 (عين آنية) العين : ينبوع الماء والآنية الشديدة الحر .  
 الضريع : شجر دوشوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطباً سمي بالشريق .  
 ناعمة : أى : ذات بهجة وحسن .  
 عالية : أى : في المكان ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض .  
 واللاغية : اللغو والكذب .  
 عين جارية : أى ينبوع ماء جار .  
 والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض .  
 والأكواب : واحدها كوب وهو مالا عروة له ، من الكيزان .  
 موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب .  
 والنمارق : واحدها ثمرقه (بضم النون وكسرهما) وهى الوسادة .  
 والزرابي : واحدها زربي (بكسر الزاي) وزربية وهو البساط .  
 مَبْثُوثَةٌ : أى مفركة في المجال بحيث يرى في كل مجلس شيء منها كما يرى في بيوت ذوى الشراء .  
 سطحت : سطح الأرض : تمهيداً وتوطئتها للإقامة عليها والمشي فوقها .  
 بمسيطر : أى بمسلط تجبرهم على ما تريد .  
 إِيَابَهُمْ : أى : رجوعهم .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ .  
 أى : هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه أو إننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التى من حقها أن تتناولها الرواة ، ويحفظها الوعاظ .

ثم فصل شأن أهل الموقف فى ذلك اليوم الرهيب ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة ، وفريق المؤمنين البررة وقد أشار إلى الأولين بقوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾ أى : وجوه يومئذ يظهر عليها الحزى والهوان مما ترى وتشاهد من الهول ، كما قال تعالى : ﴿ ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾ <sup>(١)</sup> وكقوله : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾ <sup>(٢)</sup> وقوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ورضيت فيه وصليت يوم القيامة ناراً حامية .

قال الحافظ أبو بكر البرقاز بسنده عن جعفر قال : سمعت أبا عمران الجوني يقول مر عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - بدار راهب قال : فناداه ياراهب فأشرف قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله - عز وجل - فى كتابه ﴿ عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذى أبكاني . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وكقوله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وقوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ أى : حارة شديدة الحر . ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى : قد انتهى حرها وغلبانها كما قال سبحانه : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتقفا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٤٥

(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣

(٤) سورة الكهف الآية : ١٠٤

(٥) سورة الكهف الآية : ٢٩

وقوله تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال سعيد بن جبير : هو الزقوم . قال عكرمة وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال البخاري : قال مجاهد الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا ييس وهو سم .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه . وقوله : ﴿ لا يسمن ولا يغمى من جوع ﴾ أى : إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ، ولا يفيد سمناً ، فليس له فائدة الطعام التي لأجلها يؤكل في الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيهاً له به . وقد جاء في سورة الحاقة في وصف طعام الكافرين قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾ (١) وفي سورة الواقعة ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ﴾ (٢) وفي سورة الدخان ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ (٣) . وفي سورة النبا ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً إلا حميماً وغساقاً ﴾ (٤) .

قال القرطبي : ووجه الجمع أن النار دركات ، فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من شربه الحميم ، ومنهم من شربه الصديد .

قال القتيبي : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار وأغلاها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعاني مختلفة . وكذلك ما في الجنة من شجرها وفرشها . وأمثلة من قول القتيبي أن يقول ( إن الذي يبقى الكافرين في النار ليدوم عليهم العذاب يبقى النبات وشجرة الزقوم في النار ليعذب بها الكفار !

### جزاء المؤمنين

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعياها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة وغمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ﴾ .

لما ذكر سبحانه حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء فقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أى : يعرف النعيم فيها كما قال تعالى : ﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن طير الجنة كأمثال البخت

(١) سورة الحاقة الآية : ٣٦

(٢) سورة الواقعة الآيتان : ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة الدخان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

(٤) سورة النبا الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

يرعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال - « : أكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أى : لعملها الذى عملته في الدنيا وطاعتها لله راضية ، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين .

وقوله : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ أى : في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدرأ ، وهم في الغرفات آمنون كما قال تعالى : ﴿ لَكِن الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِاَغْيَةٍ ﴾ أى : لا تسمع في الجنة شتاً ، أو سباً أو فحشاً قال ابن عباس ( لا تسمع أذى ولا باطلاً كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال الفراء : لا يسمع في كلامهم كلمة بلغو ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ أى : فيها عيون تجري بالماء السلسيل لا تنقطع أبداً قال الزمخشري : التنوين في ( عين ) للتكثير أى : عيون كثيرة تجري مياهها .

وقوله : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش .

مرتفعة السمك عليها الحور العين قالوا : فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ أى : وأقداح موضوعة على حافات العيون ، معدة لشربهم لا تحتاج إلى من يملأها .

وقوله تعالى : ﴿ وَغَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴾ أى : ووسائد صُفِّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وَزُرَابٌ مَبْثُوثَةٌ ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - الزرابى البسط وكذا قال غير واحد ، ومعنى مَبْثُوثَةٌ أى ههنا وههنا نلن أراد الجلوس عليها .

أخرج أبو بكر بن أبى داود بسنده عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا هل من نور يتلأأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مُطَرَّد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، في مقام أبداً دور عالية سليمة بهية وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ،

(١) مسند أحمد ٢٢١/٣

(٢) سورة الزمر الآية : ٢٠

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ ، ٢٦



في محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قولوا : إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله ، ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقي به<sup>(١)</sup> .

## آيات باهرة

قوله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ ﴾ فإنها خلقت عجيب وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة ، والشدة وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ويتنفع بوبرها ويشرب لبنها ، إنما خص تعالى الإبل بالذكر لأنها أفضل دواب العرب وأكثرها نفعاً ، ولهذا تسمى « سفينة الصحراء » فهى مراكب البر ولذلك قرنها الله - تعالى - بالسفن في قوله تعالى : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾<sup>(٢)</sup> .

## عجائب خلق الجمل

قال العلماء :

« لهذا الحيوان قدرة عجيبة على تحمل المعيشة في مناطق تختلف بين الصحراء القاسية بحرورها اللافت ، وشمسها المحرقة ومائها النادر ، وبين مناطق جبلية شديدة البرودة . والجمل من أقدم الحيوانات التى استأنسها الإنسان وسخرها لمنفعته ، فاتخذ منها مطية يقطع بها الفيافي والقفار ، ودابة للحمل لا تضجر ولا تكل .

ومن قدرة الله - عز وجل - أن جعل جسم هذا المخلوق ملائماً للبيئة التى يعيش فيها ، إذ نرى أذن الجمل صغيرة غزيرة الشعر ، حتى لا تتعرض لأقل ضرر من الرمال ، وكذلك المنخر جاء على شكل شق يغلق عند هبوب الزوابع الرملية . والعين مزودة بصفين من الرموش الطويلة لوقايتها من الحصى المتطاير .

(١) مسند ابن ماجة ١٤٤٨/٢ رقم ٤٣٣٢

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٢٢

وأبرز تكيفات الجمل أرجله الطويلة التي ينتهي كل منها بخف أسفنجي لين ، زوده الله بها ليسير فوق الرمال الناعمة بكل يسر وسهولة .  
ومن طريف ، وعلى غير ما نألف في الحيوانات الأخرى ، نرى الجمل حين يسير يتمايل يمناً ويسرة ، لأنه حين يخطو إلى الأمام ينقل الرجلين الأمامية والخلفية في جانب واحد معاً ، وينتج من هذه الحركة تمايل محسوس يشبه تمايل السفينة وهي تمخر عباب الماء .  
ولهذا عرف الجمل باسم « سفينة الصحراء » .

### سر صبر الجمل على العطش

معروف أن الجمل من الحيوانات المجترة ، والمعدة عنده مركبة من ثلاث غرف ، وتحتوى إحدى هذه الغرف على أكياس تسمى الأكياس المائية ، كان يعتقد أن الحيوان يخزن فيها الماء ليستهلكه في أوقات العطش .

ولكن التجارب التي أجرتها بعثة اليونسكو التي عهدت إليها بهذا البحث انتهت إلى نتائج نشرتها اللجنة في عام ١٩٥٥ م بمجلة « كورير » وملخص النتائج التي وصلت إليها اللجنة أن قدرة الجمل على أن يعيش دون ماء تفوق قدرة الحيوانات الثديية الأخرى .

أما القول بأن الجمل يخزن ماء في معدته فقد أدت أبحاث نلسن وزملائه إلى دحض هذا الرأي ، لأن الجمل لا يشرب من الماء إلا ما يكفي لتعويض ما سبق أن فقدته في فترة حرم خلاها الشرب ، ولم يثبت أن الحيوان يشرب كمية فائضة من الماء يمكن أن تعتبر ماء مخزوناً .

أما عن الأكياس المائية الموجودة في جدار المعدة ، فلا يمكن أن تتسع لاختزان الماء بالكمية التي تكفى لسد حاجة الحيوان في حجم الجمل .

وتحتوى المعدة الجمل على كمية من السوائل مثلها في ذلك مثل المعدة في كافة المجترات الأخرى . وهذا السائل عبارة عن مزيج أخضر ، كريه الرائحة ، لا شبه له بالماء ، وإنما هو قريب الشبه بالعصارات المعدنية في الحيوانات الأخرى ، ولا تحتوى هذه الأكياس إلا على كمية ضئيلة من السائل ، كما تحتوى أساساً على غذاء ممضوغ لم يتم هضمه .

هل السر يكمن في السنام ؟

ومقابل الصدفة التي نتجت من عدم وجود ماء في جوف الجمل مالت الأفكار إلى أن تخزن الجمل للماء يكمن في سنامه ، وذلك أن الجمل يمكنه استغلال ما بالسنام من دهن مخزن يحرقه خلال عملية التنفس ، حيث تتحول بعض هذه الدهون إلى طاقة ، ويتكون نتيجة ذلك الماء الذي يسد احتياجات الجسم .

فما مدى صدق هذا الرأي ؟

إن الجمل بالفعل يستفيد من دهن السنام ، ولكن عند الجوع وعدم توفر الغذاء ، حيث يتأكسد بعض ما يحتويه دهن السنام من عنصر الهيدروجين بالأكسجين لتوليد الطاقة اللازمة للجسم . ويتنتج مع هذا التأكسد بعض الماء .

ولكن عملية التأكسد هذه تستلزم كمية كبيرة من الأكسجين ، وهذا يتطلب ارتفاعاً كبيراً في معدل عملية التنفس .

ويصحب هذه الزيادة في معدل عملية التنفس زيادة في بخار الماء التي تخرج مع هواء الزفير . ومن هنا فإن الماء الناتج من الأكسدة لدهون السنام لا يمكن أن تفي باحتياجات الجسم ، كما لا يمكن القول بأن الجمل يسير في الصحراء وهو يحمل على ظهره خزاناً من الماء ، متمثلاً في سنامه ، ولكن يمكن القول في أنه يحمل خزاناً من الطاقة ممثلاً في ذلك السنام .

إذن ماذا يفعل الجمل ليتحمل العطش ؟

لقد زود الله - سبحانه - هذا الحيوان الأعجوبة ، بوسائل تمكنه من تحمل العطش أياماً عديدة . إنها وسائل لم تكن معروفة حتى وقت ليس ببعيد . من ذلك أن للجمل قدرة عجيبة على تحمل العطش من واقع قدرته على تحمل النقص الشديد في الماء الموجود بأنسجة الجسم ، وأنه في خلال ذلك لا يفقد الماء من سائله الدموي إلا بنسبة ضئيلة جداً .

وهو يختلف في هذا الشأن عن معظم الحيوانات الثديية الأخرى ! والتي تفقد نسبة كبيرة من الماء الموجود في دماها إذا تعرضت للظروف نفسها مما يؤدي إلى الموت السريع إذا لم يبادر الحيوان إلى تجرع الماء .

والنتيجة : أن الجمل يحتاج إلى كميات من الماء تقل كثيراً عن تلك التي يحتاجها معظم الثدييات الأخرى ، إلا أنه لا بد له أن يشرب الماء إذا كان ما يغتذى به من نباتات صحراوية خلواً منه .  
● ومن ذلك أيضاً أنفه العجيب !!

فقد دلت الدراسات أن سر الجمل في أنفه ، وأنه يحفظ الماء بطريقة تنفسه العجيبة ، وأن العامل الأكبر في ذلك هو أنف الجمل الكبير .

إن بطانة أنفه الداخلية مجمدة ، أي : أن مساحتها واسعة ، وفي الليل تمتص البطانة رطوبة النفس الخارج حائلة بذلك دون خروج الماء .

وبذلك يكون الجمل هو الحيوان الوحيد المعروف عنه حتى الآن أنه يستعيد الماء الموجود في هواء تنفسه .

وبوسع تجعدات الأنف أن تخفض حرارة أنفاس الجمل في الليل بما يقرب من ٨ درجات مئوية تحت مستوى حرارة جسمه . وبهذه الطريقة يحتفظ الجمل بالماء ، لأن الهواء البارد أقل رطوبة من الهواء الدافئ .

أما نسبة الماء التي يحتفظ بها الجمل بهذه الطريقة فهي ٧٠٪ مما تحمله أنفاسه من ماء .

وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها الجمل للمحافظة على الماء ، وهي أن يعمل على رفع درجة حرارة جسمه إلى نحو ٤٠ ، ٧ أو ٤٠ درجة مئوية في الجو الحار نهاراً ، وبذلك يقل الفارق بين حرارة الجو وحرارة الجسم .

وعندما يحل الليل فإنه يسرّب هذه الحرارة الزائدة في الجو ، وهو الشيء الذي يدركه البدو الذين ينامون بجوار الجمال ليلاً للاستفادة من دفء أجسامها ، ومن الحرارة التي تشع منها ، ثم تنخفض حرارة الجسم ليلاً إلى دون درجة ٣٤ مئوية بحيث ينقضى وقت طويل من النهار قبل أن تعود درجة الجسم للارتفاع ، وبذلك لا يشعر الجمل بوطأة الحر .

فأى إعجاز هذا الذي نراه ؟

هل يعرق الجمل ؟

تتميز الثدييات بين سائر المخلوقات بوسيلة ابتعاد ، وهي العرق ، وذلك أنها لا تملك القدرة على رفع درجة حرارة جسمها بصنع درجات كما هي الحال مع الجمل ، ولكنها تدفع عن نفسها زيادة الحرارة بتكوين العرق الذي يخرج إلى سطح الجلد ، ويؤدي تبخره إلى تلطيف وتبريد الجسم .

ولكن الجمل معروف بجفاف جسمه ، وأنه حيوان لا يعرق ، وأن جلده بلا غدد عرقية ، وهي الغدد التي لا يحتاج التعرف على وجودها إلى جهد علمي كبير .

وظل الجمل معروفا بعدم وجود غدد عرقية له حتى عام ١٩٥٦ م حين تبين أن له غدداً عرقية ، توجد على السطح البطني ، وعند التقاء الأطراف بالجسم .

ولكن متى وكيف يعرف ؟

عندما لا يفيد ارتفاع درجة حرارة الجسم إلى فوق الأربعين درجة مئوية في حماية الجمل من حرارة الجو فإن الغدد عنده تبدأ في إفراز العرق إلى سطح الجلد .

ومن المفروض أن يعمل العرق على ترطيب الشعر ، وأن يعمل تبخر العرق من الشعر المبلل على تلطيف حرارة جسم الجمل ، وهذا بالطبع يتسبب في أن يفقد الجمل ماء كثيراً .

وهنا تبرز حكمة الله - عز وجل - والإعجاز في الخلق ، فكل شيء عند الجمل يحدث بما يحفظ له الحياة في يسر وهناء .

فمجرد خروج العرق يحدث أن ينتصب عادة عند الثدييات في الجو البارد ليحجز الهواء الدافئ حول الجلد والإقلال من تسربه إلى الجو .

فحكمة الله - العلي القدير - اقتضت أن يحدث العكس عند الجمل . إن الشعر ينتصب عنده في الجو الحار فيسمح بتبخر العرق من الجلد إلى الجو مباشرة دون أن يحدث تبلل للشعر .

أى : إن الجمل يوفر على نفسه حتى القدر القليل من الماء الذي يمكن أن يبيلل الشعر فيه . الجمل يشرب من ماء البحر .

وإعجاز آخر يتميز به الجمل دون غيره من الثدييات ، إذ أنه الحيوان الوحيد الذي يمكن عند الضرورة أن يشرب من ماء البحر .

ويمكن الإعجاز الإلهي في طبيعة الكلى لدى هذا المخلوق إذ تتميز بقدرة عجيبة على تخلص الجسم من الأملاح الزائدة بكثرة .

والجمل فوق ذلك يبقى البول في مثانته ولا يتخلص منه طالما هو بحاجة للماء ، ويمتص الدم من الماء شيئاً فشيئاً ، وعندما يصل تركيز البول حداً كبيراً يعود الدم فيمتصه ويدفع به إلى المعدة . وفي المعدة تقوم بعض البكتريا والكائنات الحية الدقيقة التي تعيش فيها على تحويل البولينا إلى أحماض أمينية من جديد أى : إلى مواد بروتينية وماء .

## الخف مخزن عجيب للماء عند الجمل

وقمة الإعجاز عند الجمل تكمن في الخف .

إنه إعجاز إلهي لا يكاد يصدق ، فكيف يمكن أن يعمل الخف مخزناً للماء ؟! لقد تبين أن الخف عند الجمل عبارة عن وسادة مائية كاملة مميزة ومذهلة وأن الجمل عندما يشرب الماء الوفير تعمل أنسجة الخف على حفظ جزيئات الماء في صورة سلاسل . إنها جزيئات تنتظم في صورة ثلاث سلاسل تلتف حول بعضها كالجديلة ، وكلما زاد الماء المختزن كلما كانت الجديلة أقل التفاتاً .

وعندما يحتاج الجمل للماء فإنه يستفيد من هذا المخزون ، ويمتص دمه منه احتياجه ، ويعمل نقص الماء على انجذاب السلسلة حول نفسها أكثر فأكثر ، وهكذا تنفك الجديلة عند الشرب وتنجدل أكثر عند العطش .

سبحانك اللهم في هذا الإعجاز وما أصدقك إذ تقول :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ .

إنه مخلوق عجيب يمثل إعجازاً متحركاً يسعى في الصحراء كدليل على قدرة الله - عز وجل - وهو بيان لكل ذى لب ليدرك عظمة الله الخالق في خلقه .

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾ <sup>(١)</sup> . أ. هـ . قوله تعالى : ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ .

أى : ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعاً سحيق المدى بغير عمد ؟ قال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وقال جلا وعلا : ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(١) سورة الأنعام الآية : ١٠٢

(٢) سورة لقمان الآية : ١٠

(٣) سورة ق الآية : ٦

(٤) سورة الرعد الآية : ٢

## عجائب خلق السماء

يقول ابن القيم رحمه الله :

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

﴿ هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أى : ألا يشاهدون الجبال كيف وضعت وضعا ثابتا لا ميدان فيه ولا اضطراب فيتسنى ارتقاؤها في كل حين ، وتجعل أماراة للسالكين في تلك الفيافي والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها في سقى النبات ورى الحيوان .

## الحكمة العجيبة في الجبال

قال ابن القيم رحمه الله : ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلا في الأرض لا حاجة إليها . وفيها من المنافع مالا يحصى إلا خالقها وناصبها .

فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى في قللها حاصلا لشرب الناس إلى حين نفاذه وجعل فيها ليزوب أولا فاولا ، فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والرُّبَا ضروب النبات والفواكه والأودية التى لا يكون مثلها في السهل والرمل .

ومن منافعها : ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع وهى أيضا أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها .

ومن منافعها : ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزربرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة .

وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حذتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن .

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال ﴿ ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ﴾ (١) فالجوارى هي السفن وأعلام الجبال واحداً علم . مسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منافعها ما ذكره سبحانه في كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن أعظم بها من منفعة .

وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة ؟ فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه ولقد دعانا الله - سبحانه - في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقه فقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها ، وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخضع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها .

ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه .

ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتذكك .

ومنها الجبل الذي حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله - ﷺ - وأصحابه .

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر

وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم .

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فله كم به من ذنب مغفور وعشرة مقالة وزلة معفو

عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين

لعظمته ، خاشعين لعزته شعناً غيراً حاسرين عن رؤسهم يستقبلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنونهم ثم يباهي بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله - ﷺ - يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو غار فى الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبلاً هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهى تهوى إليها كلما ذكرت وتنفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الأرض .

هذا وأنا لتعلم لما موعداً ويوماً تنسف فيها نفساً وتصير كالعهن من هوله وعظمته فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيدورها قاعاً صافصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾ (١) فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتذكدها من جلال ربه وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فيا عجباً من مضغة لحم أقى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر على الله - عز وجل - ولا يخالف حكمته أن تخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجه ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليمتنع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم . هـ .

وقوله تعالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

أى : ألا يشاهدون الأرض وقد بسطت ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها وانتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن . قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهداً ومستقراً للحيوان والنبات والامتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعى من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قراراً ولا هدواً ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميم بكم ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ (٤) .

(١) سورة طه الآيات : من ١٠٥ إلى ١٠٧

(٢) سورة النحل الآية : ١٥

(٣) سورة غافر الآية : ٦٤

(٤) سورة طه الآية : ٥٣



إلهى .....

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له طوى لمن عاش بين الناس يهواك  
إني لأعجب ممن قد رأى طرفاً من فيض جودك - ربى - كيف ينساك  
والله ما سعدت روحى ولا فرحت فى الدهر - ما بقيت - إلا بذكراك .

قوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ .

أى : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، ( لست عليهم بمسيطر ) قال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .. وقيل فى قوله تعالى : ( لست عليهم بمسيطر ) أى : بمسلط عليهم فقتلهم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فلإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ <sup>(١)</sup> ، وكقوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ أى : إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على ما فى نفوسهم فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم فمن تولى وأعرض عن الذكرى وجحد الحق المعروض عليه فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ، وقد يضم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أوسى الذرية أو غنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم . فقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع ، أى : لكن من تولى عن الوعظ والتذكير ( فيعذبه الله العذاب الأكبر ) وهى جهنم الدائم عذابها ، وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل . وقيل : هو استثناء متصل ، والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر ، فأنت مسلط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر . ( حكاة القرطبي ) .  
قوله تعالى : ﴿ إنا إنا إنا إياهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾ .

أى لا مفر للمعرضين ، ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ، فإنهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته .  
غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا  
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

(١) سورة الرعد الآية : ٤٠

(٢) سورة ق الآية : ٤٥

## تفسير سورة الفجر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ..

عدد آياتها : ثلاثون آية .

وكلماتها : مائة وسبع وعشرون .

وحروفها : خمسمائة وتسع وتسعون .

فواصل آياتها : ( هاروت ندم ) .

سميت سورة الفجر : لفتحها .

معظم مقصود السورة :

تشريف العيد ، وعرفة ، وعشر المحرم ، والإشارة إلى هلاك عاد ، وتمود ، وأحزابهم ، وتفاوت حال الإنسان في النعمة ، وحرصه على جمع الدنيا ، والمال الكثير ، وبين حال الأرض في القيامة ، وعجىء الملائكة ، وتأسف الإنسان يومئذ على التقصير .. والعصيان ، وأن مرجع المؤمن عند الموت إلى الرحمة ، والرضوان ، ونعيم الجنان في قوله تعالى : ﴿ وادخلني جنتي ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ وبعده ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ لأن التقدير في التالى أيضا : وأما الإنسان ، فاكتمى بذكره في الأول ، والفاء لازم بعده ، لأن المعنى مهما يكن من شيء فالإنسان بهذه الصفة لكن الفاء آخر ليكون على لفظ الشرط والجزاء .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ - أن ذكر في تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر في هذه طوائف من المكذبين المتجربين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

٢ - أن القسم الذى في أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ  
لِّذِي حَجَرٍ ۝ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ  
يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۝ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي  
الْأَوْتَادِ ۝ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ  
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لِبَاسِرٍ صَادٍ ۝ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ  
فَأَكْرَمَهُ، وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ  
فَيَقُولُ رَبِّي أَهْلَنِ ۝ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ  
الْمِسْكِينِ ۝ وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ كَلَّا إِذَا  
دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكَّادًا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ  
يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝ يَقُولُ يَلْبِثَنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي ۝  
فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَهُ أَحَدٌ ۝ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ  
الْمُطْمَئِنَّةُ ۝ أَرْجِعْنِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۝ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝ وَأَدْخُلِي  
جَنَّتِي ۝

## معاني المفردات

- والفجر : ( أقسم تعالى ) بالوقت المعروف . أو بفجر يوم النحر .  
 وليال عشر : العشر الأول من ذى الحجة .  
 والشفع والوتر : أى : الزوج والفرد وقيل : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .  
 والليل إذا يسر : أى : والليل إذا يمضى ويذهب .  
 قسم لذى حجر : مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء .  
 بعاد : قوم هود ، سموا باسم أبيهم .  
 إرم : هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة .  
 ذات العمداد : الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد .  
 جابوا الصخر : قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم .  
 ذى الأوتاد : الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه .  
 سوط عذاب : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً .  
 إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها .  
 ابتلاه ربه : امتحنه واختبره بالنعم أو النقم .  
 فقدر عليه رزقه : أى : ضيقه عليه .  
 كلا : ردع للإنسان عما قاله فى الحالين .  
 لا تحاضون : لا يحث بعضكم بعضاً .  
 تأكلون التراث : ميراث النساء والصغار .  
 أكلاً لما : جمعاً بين الحلال والحرام .  
 حباً جماً : كثيراً ، مع حرص وشدة .  
 دكت الأرض : دقت وكسرت بالزلازل .  
 دكاً دكاً : دكاً متتابعاً حتى صارت هباء .  
 والملك : ملائكة كل سماء .  
 أنى له الذكرى : من أين له منفعتها ؟ هيهات .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ .

تضمن هذا القسم خمسة أشياء ، وهى مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته .

قال تعالى : ﴿ والفجر ﴾ الفجر هو الوقت الذى ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع وهو كقوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ وقوله : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ .

قال ابن كثير : أما الفجر فمعروف وهو الصبح قاله على وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدى : وعن مسروق ومحمد بن كعب القرطبي : المراد به فجر يوم النحر وهو رواية عن ابن عباس . وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله - تعالى - قرن الأيام به فى قوله : « وليال عشر » أى : ليال عشر من ذى الحجة .

ثم أقسم سبحانه بالليالى العشر فى قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : المراد بها عشر ذى الحجة . وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله فهين من هذه الأيام ، يعنى عشر ذى الحجة ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء » (١) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه ابن جرير ولم يعزه إلى أحد وقيل : المراد العشر الأول من رمضان قال ابن كثير : والصحيح القول الأول .

ثم أقسم سبحانه بالشفع والوتر فى قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ .

قال ابن عباس : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة ..

وقال الحسن البصرى وزيد بن أسلم فى قوله : ( والشفع والوتر ) قالوا : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد .

وأخرج بن أبى حاتم مسنده من مجاهد : ( والشفع والوتر ) قال : الشفع الزوج ، والوتر ، الله - عز وجل - وقال أبو عبد الله عن مجاهد ؛ الله - سبحانه - الوتر ، وخلقه الشفع الذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وهذا قسم خامس وبعد ما أقسم سبحانه بالليالى العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . قال القرطبي : أكثر المفسرين : معنى « يسر » سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل . قال ابن كثير : وقد يقال إن هذا أنسب لأنه فى مقابلة قوله : ( والفجر )

(١) صحيح البخارى - كتاب العيدين ٢٤/٢ وسنن أبى داود ٨١٥/٢ رقم ٢٤٣٨ والترمذى كتاب الصوم ١٢١/٣ رقم ٧٥٧ وابن ماجه رقم

فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا عمل قوله : ( والليل إذا يسر ) على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس كقوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أى : لذى عقل ولب ودين وحجى ، وإنما سمي العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى مالا يليق من الأفعال والأقوال . وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ، الآية وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذب الكفار .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في هذه الآيات المباركة :

( والفجر ) ، إن أريد به جنس الفجر ، كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التى هى أول الصلوات . فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات وختمه بقوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ المتضمن لآخر الصلوات ، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته ، التى هى ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالى العام . وما روى الشيطان فى ليلة أدر ولا أحقر ولا أغلظ منه فيها<sup>(١)</sup> ، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذى هو أعظم الأيام عند الله - سبحانه - كما ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر » رواه أبو داود بإسناد صحيح<sup>(٢)</sup> ، وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره<sup>(٣)</sup> .

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات ، وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته ولهذا قال الخليل - عليه السلام - : ﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾<sup>(٤)</sup> وقيل لخاتم الرسل - ﷺ - : ( فصل لربك وانحر ) بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته ، كحال من ذكر فى هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون . وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام ( الشفع والوتر ) إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، فى الأمكنة والأزمنة والأعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وتر ، والجمرات وتر ومنى ومزدلفة شفع ، وعرفة وتر ، وأما الأعمال فالطواف وتر ، وركعتاه شفع ، والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمى الجمار وتر ، كل ذلك سبع سبع ، وهو الأصل فإن الله وتر ، يحب الوتر ، والصلاة منها شفع ومنها وتر ، والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وتر ، كما قال النبى - ﷺ - : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت » رواه أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر<sup>(٥)</sup> .

وأما الزمان فإن عرفة وتر ، ويوم النحر شفع وهذا قول أكثر المفسرين فى الآية ، وعن ابن عباس : الشفع آدم وحواء ، والوتر الله وحده ، وقال عمران بن حصين وقتادة : الشفع والوتر هى الصلاة وروى

(١) موطأ مالك - كتاب الحج رقم ٢٤٥ وشرح السنة للبغوى ١٥٨/٧ رقم ١٩٣٠ ووصف عبد الرزاق ٣٧٨/٤ وشعب الإيمان للبيهقى ١١/٨

رقم ٣٧٧٥ والترغيب والترهيب ١٢٦/٢

(٢) سنن أبى داود ٣٦٩/٢ رقم ١٧٦٥

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة التوبة ٨٢/٦

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٦٢

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٤٣٢ ومسنند أحمد ١٠٢/٢

فيه حديثاً مرفوعاً ، وقال عطية العوفي الشفع الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ والوتر هو الله وهذا قول الحكم . وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر ، وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالي ، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال أخرى ، هذه أصولها ، ومدارها كلها على قولين : ( أحدهما ) أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأسورات . ( والثاني ) أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق .

وقال ابن النعيم : فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد - ﷺ - كان في ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى : ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ؟ ﴾ فإن عظمة هذا القسم به يعرف بالنبوة . وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه من الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لثلاث يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد فأوقع بهم شديد العذاب ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ليكون في ذلك زجر لهؤلاء المكذبين ، وثبت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه . قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ . أى : ألم يهلكك يا محمد ويصل إلى علمك ، ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ ( إرم ذات العماد ) أى : عاداً الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع ، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضر موت ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أى : تلك القبيلة التي لم يخلق الله مثلهم في قوتهم ، وشدتهم ، وضخامة أجسامهم .

قال العلامة ابن كثير : وهم الذين بعث الله فيهم رسولاً هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه فانجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى : ﴿ ذات العماد ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس بطشاً ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم فقال : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وذاكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال ههنا : ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أى : القبيلة

(١) سورة الأعراف الآية : ٦٩

(٢) سورة فصلت الآية : ١٥

التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبيهم ، وأعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها في البلاد ، وأما قتادة وابن جرير : فأعاد الضمير على القبيلة أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة في البلاد يعنى في زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التي لم يعمل مثلها في البلاد . وإنما قال : ( لم يخلق مثلها في البلاد ) أ. هـ .

والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع الله بعاد ، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعماراً ، وأشد قوة من كفار مكة ؟!

قوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ أى : ثمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال تعالى في آية أخرى : ﴿ وتنتحون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ (١) وقوله : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى : وفرعون ذى المباني العظيمة التي شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر في قديم الزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجمل التعبير عما تركه القدماء المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يتبدى البناء عريضاً وينتهى بأدق مما بدأ .

وهناك قول آخر : قال العوفي عن ابن عباس - رضى الله عنهما - الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، وقيل : كان يربط الرجل في كل قائمة من قوائمه في وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه .

وقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا في البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ أى : هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم في هضم حقوق الناس واغتروا بعظيم قدرتهم ، فكانوا سبباً في إفساد البلاد . ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أى : أنزل عليهم رجلاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين .

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب ، وما صبه عليهم من ضروب الهلاك - بالسوط ، من قبل أن السوط يضرب به في العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط في أوامر دينه .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أى : إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده نكير ولا قطمير ولا يهمل أمة تعدت في أعمالها حدود شرائع القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رصد له .

وقد أجمل الله سبحانه في هذه الآيات الكريمة ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله في غير موضع من كتابه الكريم فقال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فاما ثمود فاهلكوا بالطاغية واما عاد فاهلكوا بريح



صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية<sup>(١)</sup>

والحكمة في تكرار القصص في القرآن الكريم وفي ذكر بعضها على طريق الإشارة في بعض المواضع ، وبالتفصيل في بعض آخر - أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده في ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطيب قلب الرسول - ﷺ - وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الإشارة إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى - كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر .

قوله تعالى : ﴿ فإما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول رب أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول رب أهانن . كلا . بل لا تكرمون اليقيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جمّاً ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حل بالطغاة المتجبرين ، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر ، الذي يبطر عند الرخاء ، ويقتط عند الضراء فقال تعالى : ﴿ فإما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى : إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أى : فأكرمه بالغنى واليسار ، وجعله منعماً في الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿ فيقول رب أكرمن ﴾ أى : فيقول رب أحسن إلى بما أعطاني من النعم التي أستحقها ، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ؟

وقوله : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ أى : وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر ، وتضييق الرزق ﴿ فيقول رب أهانن ﴾ أى : فيقول غافلاً عن الحكمة : إن رب أهاننى بتضييقه الرزق على . قال القرطبي : وهذه صفة الكافر الذي لا يؤمن بالبعث وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ في الدنيا وقلته ، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة . وإن وسع عليه في الدنيا حمده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر . وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطينه الله . وكذا إن فتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله . قال تعالى : ﴿ يحسبون أننا نغدهم به من مال وبنيين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ، إن الذين هم من

خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون ﴿١﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : ليس الأمر كما يظن ، فليس الغنى لفضله ، ولا الفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديرى وقضائى .

وقال الفراء : ( كلا ) فى هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن بحمد الله - عز وجل - على الغنى والفقر . وفى الاثر : « يقول الله - عز وجل » إني لأكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ولاهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتي وأهين من أهنت بمعصيتي » (٢) .

قوله تعالى : ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ إخبار عن ما كانوا يصفونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسرافا وبدارا أن يكبروا .

قال ابن كثير : فيه أمر بالإكرام له كما جاء فى الحديث الذى رواه عبدالله بن المبارك بسنده عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه - ثم قال بأصبعه - أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » (٣) وأخرج أبوداود بسنده عن سهل - يعنى ابن سعد - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وقرن بين أصبعيه الوسطى والى تلى الإبهام » (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ أى : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ولا يحض بعضهم بعضا على اطعام المحتاج وعون المساكين . ﴿ وتأكلون التراث أكلا لما ﴾ أى : وتأكلون الميراث أى ميراث اليتامى . وأصله الوارث من ورثت : فأبدلوا الواو تاء . لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيرا بل ينفرد به الرجال - ومعنى ( أكلا لما ) أى : شديدا ..

وقوله تعالى : ﴿ وتحبون المال حبا جما ﴾ أى : وتحبون المال حبا كثيرا مع الحرص والشره ، وهذا ذم لهم لتكالبهم على المال ، وبخلهم بانفاقه .

قوله تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا وجاء يومئذ بجهم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ، يألئها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٥٥ - ٦١

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٥٠٩/٨

(٣) الزهد لابن المبارك صفحة ٢٣٠ حديث رقم ٦٥٤

(٤) سنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ١٥٠ وصحيح البخارى ١٠/٨ باب فضل من يعول يتيمًا وسنن الترمذى ٣٢١/٤ رقم ١٩١٨ باب ما جاء فى رحمة اليتيم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : ما هكذا ينبغي أن يكون الأمر ، فهو رد لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم ترك الأرض ولا ينفع الندم . ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ أى : زلزلت الأرض وحركت تحريكا شديدا قال الزجاج : أى : زلزلت فذك بعضها بعضا .

ومعنى ﴿ دكا دكا ﴾ أى : مرة بعد مرة ، زلزلت فكسر بعضها بعضا ، فتكسر كل شيء على ظهرها . وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمد الأرض مد الأديم .

وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ أى : وجاء ربك يا محمد لفصل القضاء بين العباد ، وجاءت الملائكة صفوفا متتابعة صفا بعد صف . وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكيف ولا تمثيل . وقال ابن كثير : قام الخلائق من قبورهم لربهم ، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وجرى يومئذ بجهنم ﴾ أى : وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كما قال تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾<sup>(٣)</sup> . وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يؤق بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »<sup>(٤)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ﴿ وأن له الذكرى ﴾ أى : ابن له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها فى الدنيا و ﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياى ﴾ أى : يقول ياليتنى قدمت عملا صالحا لحياى ، أى : لحياة لاموت فيها وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لاحياة لهم ، فالمعنى ياليتنى قدمت من الخير لنجاة من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أى : ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه ﴿ ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أى : وليس أحد أشد أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربه - عز وجل - وهذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فقد قال الله فى شأنها :

﴿ يأليتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

قال القرطبي : النفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربه فأخبت لذلك ، قاله مجاهد

وغيره :

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٠

(٢) سورة النازعات الآية : ٣٦

(٣) سورة الشعراء الآية : ٩١

(٤) صحيح مسلم ٢١٧٥/٤ رقم ٢٨٤٢

وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التي علمت أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ما أصابها لم يكن ليخطئها . وقيل : التي عملت على يقين بما وعد الله في كتابه .

وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا المخلصة .

وقال ابن عطاء : العارفة التي لاتصبر عنه طرفة عين .

وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ، بيانه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ (١) .

وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع : وقال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا توفي المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معها تحفة من الجنة ، فيقولان لها : « أخرجي أيتها النفس المطمئنة راضية ومرضية عنك ، أخرجي إلى روح وريحان ورب راض غير غضبان » فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض (٢) . وذكر الحديث .

وقول تعالى : ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ راضية ﴾ أى : في نفسها ( مرضية ) أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها كما قال تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

وقوله : ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أى : في جملتهم . ﴿ وادخلي جنتي ﴾ قال ابن كثير : وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضا كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره وكذلك هنا .

ومصدق ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهون أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾ (٤) .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقاك برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) سورة الرعد الآية : ٢٨

(٢) سنن ابن ماجه - كتاب الزهد ١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٢ وسنن النسائي - كتاب الجنائز ٩/٤

(٣) سورة القمر الآيتان : ٥٤ ، ٥٥

(٤) سورة فصلت الآيات : من ٣٠ إلى ٣٢

## تفسير سورة « البلد »

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وآياتها : عشرون

وكلماتها : اثنتان وثمانون .

وحروفها : ثلاثمائة واحد وخمسون .

فواصل آياتها : (هدنا) .

سميت سورة البلد ، لمفتتحها ، وسورة العقبة ، لقوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ .

معظم مقصود السورة : تشريف مكة المكرمة بحكم القسم بها ، وشدة حال الأدنى ، والخير عن سره وعلايته ، والمنة عليه بالنعم المختلفة ، وتهويل عقبة الصراط وبيان النجاة منها ومدح المؤمنين وصبرهم على البلاء ، ورحمة بعضهم بعضا وخلود الكفار في النار في قوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ .

### المتشابهات :

قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ثم قال : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ كرر البلد وجعله فاصله بين الآيتين ، فالبلد الأول قصد به وصف لم يحصل في الثاني وهو مكة ، لأن معنى أقسم بالبلد الحرام الذي جبلت على تعظيمه قلوب العرب فلا يحل فيه لأحد ما أحل للنبي - ﷺ - فقوله : ﴿ وأنت حل ﴾ أى : محل أحل لك منه ما حرم على غيرك ، فصار المعنى أقسم بالبلد المحرم تعظيما له ، وهو مع أنه محرم على غيرك محل إكراما لمنزلتك ، فالبلد في الأول محرم وفي الثاني محلل ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام - أحل له قتل من رأى قتله حين أذن في قتال المشركين ، فأمر بقتل ابن خطل صبرا . وهو متعلق بأستار الكعبة ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا يحل لأحد بعده ما أحل له ، وإذا كان كذلك صار الثاني معينا به غير ما عني بالأول فكأنه ذكر وصفاً غير وصفه المتقدم فجمع فوائد من تعظيم البلد وتعظيم النبي - ﷺ - حين أبيح له ما حظر منه على سواء ، وقيل : أحلت له ساعة من نهار ولم تحل لغيره - ﷺ .

## مناسبة السورة لما قبلها :

- ١ - إنه ذم في الأولى من أحب المال ، وأكل التراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التي تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام في يوم المسغبة .
- ٢ - ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الأطمئنان .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ❶ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ❷ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ❸ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ❹ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ❺ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ❻ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ❼ أَلَمْ نجعل لَهُ عَيْنَيْنِ ❽ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ❾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ❿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❶١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ❶٢ فَكُرْبَةُ ❶٣ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❶٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ❶٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ❶٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ❶٧ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ❶٨ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعَايَلِنَاهُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ❶٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ❷٠

## معاني المفردات

البلد : مكة المكرمة

حل : أى : حال مقيم فيه .

ووالد وما ولد : المراد آدم وذريته .

أيحسب : أى : أيعظن .

أهلك : أى : أنفقت .

لبداً : أى : كثيراً .

النجدين : المراد طريقا الخير والشر .

اقتحم الشيء : دخل فيه بشدة .

والعقبة : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ، والمراد مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسول

له فعل الشر من شياطين الإنس والجن .

وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه .

والمسغبة : الجوع يقال : سغب الرجل يسغب إذا جاع .

والمقربة : القرابة فى النسب ، تقول : فلان من ذوى قرابتي ومن أهل مقربتي إذا كان قريبك نسباً .

والمتربة : الفقر ، تقول : ترب الرجل إذا افتقر وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب .

تواصوا بالصبر : أى : نصح بعضهم بعضاً به .

والميمنة : طريق النجاة والسعادة .

والمشامة : طريق الشقاء .

مؤصدة : أى : مطبقة عليهم من أصدت الباب ، أى : أغلقته .

### التفسير

قوله تعالى: ﴿ لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى

كبد ﴾ .

هذا قسم من الله - عز وجل - بمكة أم القرى التى شرفها الله - تعالى - بالبيت العتيق - قبله أهل الشرق والغرب - وجعلها الله مهبط الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شئ ، وجعلها حراماً آمناً ، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض وأقسم سبحانه به فى كتابه العزيز فى موضع آخر فقال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ (١) ، وليس على وجه الأرض بقعة يجب على قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها وثبت عن النبى - ﷺ - أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ففى النسائي والمسنند بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى - ﷺ - أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى هذا » (٢) .

(١) سورة التين الآية : ٣

(٢) مسند أحمد ٥/٤ ومسنن النسائي ٢١٣/٥

وفي المسند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى أنه سمع رسول الله - ﷺ - وهو واقف على راحلته بالخزورة من مكة .

يقول : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت<sup>(١)</sup> ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم فليس على وجه الأرض قبلة غيرها ، ومن خواصها أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض . ومن خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع في الأرض كما في الصحيحين عن أبي ذر قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن أول مسجد وضع في الأرض قال المسجد الحرام<sup>(٢)</sup> الحديث .

ومما يدل على تفضيلها أن الله - تعالى - أخبر أنها أم القرى فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها وهى أصل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عدل .

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أى : يتوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل فله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ورضى المحب بمفارقة فلذات الأكباد والأهل والأحباب والأوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المحلية وترفعهم ولذاتهم . وهذا كله سر اضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وطهر بيتى ﴾ فاقترضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الاجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضت من ذلك .. أ. هـ ( قاله ابن القيم فى الزاد )

قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

فيه قولان : أحدهما أنه من الإحلال ، وهو ضد الإحرام قال قتادة : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا اثم ، وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار وهذا المعنى الذى قالوه قد ورد به الحديث المتفق عليه « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام يحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعصده شجره ولا يختل خلاه ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس الا فليبلغ الشاهد الغائب<sup>(٣)</sup> وفى لفظ آخر ، فإن أخذ ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم<sup>(٤)</sup> »

(١) سنن الترمذى ٧٢٢/٥ ٣٩٢٥ ومسند أحمد ٣٠٥/٤

(٢) اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٢٩٨

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٥٩

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٦٠



(والثاني) إن قوله تعالى : ﴿ وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ أنه من الحلول وهو ضد الظعن قال البيضاوي : أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلولة عليه الصلاة والسلام فيه - أى : إقامته فيه - إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان يشرف أهله .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته هدى للناس ، ونبية إماماً وهادياً لهم ، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه ، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال نبية وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ وَوَالِدٌ وَمَوْلَدٌ ﴾ قال مجاهد وأصحابه : الوالد آدم وما ولد ولده قال ابن كثير : وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوى لأن الله - تعالى - لما أقسم بأمر القرى وهى أم المساكن أقسم بعده بالمساكن وهو آدم أبو البشر وولده . واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده وهو محتمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ هذا هو المقسم عليه أى : لقد خلقنا الإنسان فى تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسى أنواع الشدائد ، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه ، قال ابن عباس : ( فى كبد ) أى : فى مشقة وشدة ، من حمله ، وولادته ورضاعته ، وطفامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته وأصل الكبد : الشدة ، وقيل : لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك اضعف الخلق قال أبو السعود فى الآية تسلية لرسول الله - ﷺ - عما كان يكابده من كفار مكة .

وقال ابن القيم : وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهى معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبد اللين إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق فى شدة ، بكونه فى الرحم ، ثم فى القمط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، ومكابدة العيش ، والأمر والنهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ولا راحة له إلا فى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبَ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَأَبَدًا ، أَيْحَسِبَ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ، أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أى : أيعظن هذا الشقى الفاجر ، المغتر بقوته ، أن الله - تعالى - لا يقدر عليه لشدته وقوته ؟ قال بعض المفسرين : نزلت فى أبى الأشد بن كلدة « كان شديداً مغترّاً بقوته ، وكان ييسط له الأديم - الجلد - فيوضع تحت قدميه ، ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تزل قدماه .

وقوله : ﴿ يَقُولُ أَهْلَكَ مَا لَأَبَدًا ﴾ أى : يقول هذا الكافر : أنفقت مالا كثيراً فى عداوة محمد - ﷺ - قال الألوسى : أى : يقول فخرأ ومباهاة على المؤمنين : أنفقت مالا كثيراً ، وأراد بذلك ما أنفقه

« رياء وسمعة » وعبر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، فكانه جعل المال الكثير ضائعاً .

وقوله تعالى : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ أى : أيعظن أن الله - تعالى - لم يره حين كان ينفق ، ويعظن أن أعماله تخفى على رب العباد ؟ ليس الأمر كما يعظن ، بل إن الله - تعالى - رقيب مطلع عليه ، سيسأله يوم القيامة ويجازيه عليه .

ثم ذكره سبحانه بنعمه عليه ليعتبر وينعظ فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ أى : ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ ( ولساناً ) ينطق به فيعبر عما في ضميره ؟ ( وشفقتين ) أى : وشفقتين يطبقهما على فمه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أى : وبيننا له طريقى الخير والشر ، والهدى والضلال ، ليسلك طريق السعادة ، ويتجنب طريق الشقاوة كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (١) .

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآيات المباركة :

« أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسيانه أن لن يقدر عليه من خلقه فى هذا الكبد والشدة والقوة التى يكابد بها الأمور . فإن الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً فى نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى مناطه القدرة والعلم . فنبه على ذلك بقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ويقول : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لِبَدًا ﴾ وهو الكثير الذى يلبد بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه فى غير وجهه إذ لو أنفق فى وجهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضع مواضعه ، لم يكن ذلك إهلاكاً له ، بل تقريباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال فى شهواته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له .

ثم وبخه بقوله : ﴿ أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ وأتى ههنا بلم ، الدالة على المضى ، فى مقابلة قوله : ﴿ أَهْلَكْتُ مَالًا لِبَدًا ﴾ فإن ذلك فى الماضى ، أفحصب أن لم يره أحد فيما أنفق وفيما أهلكه ؟ ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤية وأولى من هذا العبد الذى له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ويبين عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لم يتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ، ولا يأمر ولا ينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه ؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدى الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه إلى

هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدى ، ولا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده ؟ وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعدده . وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها . فتكفى الإنسان فكرته في نفسه وخلقه . . أ . هـ

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقة أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيا ، ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ﴾  
قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ﴾ .

قال القرطبي : قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار ، تقديره : أفلا اقتحم العقبة ؟ أو : هلاً اقتحم العقبة ؟ !

يقول : هلاً أنفق ماله في فك الرقاب وإطعام المساكين ليجاوز به العقبة ، فيكون خيراً له من إنفاقه في عداوة محمد - ﷺ - . ثم قيل : اقتحام العقبة هاهنا : ضرب مثل ، أى : هلاً تحمل عظام الأمور في إنفاق ماله في طاعة ربه والإيمان به ؟ ! وهذا إنما يليق بقول من حمل ( فلا اقتحم العقبة ) على الدعاء ، أى : فلا نجا ولا سلم من لم يُنْفِق ماله في كذا وكذا .

وقيل : شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة ، فإذا أعتق رقة وعمل صالحاً كان مثله مثل من اقتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله .

وقال ابن عمر : هذه العقبة جبل في جهنم . رواه ابن جرير .

وكذا قال الحسن ، وقال قتادة : إنها عقبة ضخمة شديدة ، فاقْتَحِمُوها بطاعة الله تعالى .

وقال مجاهد ، والضحاك ، والكلبي : هى الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلاً وصعوداً وهبوطاً ، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلى المكتوبة . وقيل : النار نفسها هى العقبة . وقيل : العقبة : خلاصة من هول العرض . وقال الحسن : هى - والله - عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه ، وهواه ، وعدوه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إني بليت بأربع يرمينى بالنبل قد نصبوا على شراكا  
إبليس والدنيا ونفسى والهوى من أين أرجو بينهم فكأكا  
يا رب ساعدنى بعفو إننى أصبحت لا أرجو لمن سواكا

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أى : ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ ! وهذا تعظيم للالتزام أمر الدين .

قال القشيري : وحمل العقبة على عقبة جهنم بعيد ، إذ أحد في الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم ، إلا أن يحمل على أن المراد ، فلا صير نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً . واختار البخاري قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة في الدنيا . قال ابن العربي : « وإنما اختار ذلك لأجل أن قال بعد ذلك في الآية الثانية : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ ثم قال في الآية الثالثة : ﴿ فك ربة ﴾ وفي الآية الرابعة : ﴿ أو إطعام في يوم ذى مسغبة ﴾ ثم قال في الآية الخامسة : ﴿ يتبها ذا مقربة ﴾ ثم قال في الآية السادسة : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ فهذه الأعمال إنما تكون في الدنيا . المعنى : فلم يأت في الدنيا بما يسهل عليه سلوك العقبة في الآخرة .

وقال ابن القيم - رحمه الله - في هذه الآية : واختلف في هذه العقبة ، هل هي في الدنيا أو في الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة ههنا : مثل ضربه الله - تعالى - لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر ، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة - والله - شديدة : مجاهدة النفس ، وهواه ، وعدوه ، والشيطان . وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق ربة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاوم نفسه وشيطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة . . . وقالت طائفة : بل هي عقبة حقيقة يصعدها الناس . قال عطاء : هي عقبة جهنم . وقال مجاهد : هي الصراط بضرب على جهنم . وهذا لعله قول الكلبي . وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة . قال قتادة : فإنها عقبة شديدة ، فاقترحوها بطاعة الله . وفي أثر معروف : « إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها إلا المخفون » أونحو هذا . . . وأن الله سمي الإيمان به ، وفعل ما أمر ، وترك ما نهى عقبة . فكثيراً ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضرع لاقتحام العقبة . وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت ، فجعل يبكي ، ويقول : مالي لا أبكى وبين يدي عقبة كؤود ، أهبط منها إما إلى جنة ، وإما إلى نار . فهذا القول أقرب إلى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن في استعماله ( وما أدراك ) في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ فك ربة ﴾ فكها : خلاصها من الأسر . والفك : هو حل القيد ، والرق قيد . وسمى المرقوق ربة ، لأنه بالرق كالأسير المربوط في رقبته وسمى عتقها فكاً كإخلاصها من الأسر .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه - قال : « من أعتق ربة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار ، حتى فرجه بفرجه » (١) .

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي في (كتاب العتق) باب : فضل العتق حـ ١٠ ص ١٥١ بلفظه وانظره في سنن الترمذي في (كتاب الايمان والنذور) باب : ما جاء في ثواب من أعتق ربة حـ ٤ ص ١١٤ رقم ١٥٤١ وزاد : « مؤمنة » .

وفي الترمذى عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي - ﷺ - قال : « أيما امرئ مسلم أعتق امرأ مسلماً كان فكاكه من النار ، يجزىء كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزىء كل عضو منها عضواً منها » (١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، علمني عملاً يدخلني الجنة فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد عرضت المسألة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال : يا رسول الله أوليسنا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تنفرد لعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفيء على ذى الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير » (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أو إطعام في يوم ذى مسغبة ﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف : أى : في يوم ذى مجاعة ، والسغب : هو الجوع . وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعام فيه عزيز . وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السغب - الذى هو الجوع - أفضل .

وروى : « من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص « أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - : أى الإسلام خير ؟ » قال : « تطعم الطعام . وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » متفق عليه (٣) .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظماً ما كانوا قط ، وأنضب ما كانوا قط ، فمن كسا الله - عز وجل - كساه الله ، ومن أطعم الله - عز وجل - أطعمه الله ، ومن يسقى الله - عز وجل - سقاه الله ، ومن عمل لله - عز وجل - أغناه الله ، ومن عفا لله أعفاه الله » .

رواه ابن الدنيا موقوفاً ، وروى مرفوعاً بهذا اللفظ أيضاً .

وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « سئل رسول الله - ﷺ - أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته ، أو كسوت عورته ، أو قضيت

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب النذور والايمان) باب : ما جاء في فضل من أعتق حـ ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ رقم ١٥٤٧ فقد رواه الترمذى عن أبي أمامة وغيره من أصحاب النبي - صل الله عليه وسلم - وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) انظر الفتح الربانى للساعات حـ ٩ ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٣) الحديث في اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان في (كتاب الايمان) باب تفاضل الاسلام وأى أموره أفضل حـ ١ ص ٩ رقم ٢٤ .

حاجته» (١).

رواه الطبراني في الأوسط

وقوله تعالى : ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ .

اعلم أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذي لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذي يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سمي يتيماً لضعفه ، وذكروا أن اليتيم في الناس من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأمهات .

وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذي يموت أبواه .

عن سلمان بن عامر ، عن النبي - ﷺ - قال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة وصلة » (٢) .

رواه النسائي ، والترمذي وحسنه .

وعن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : « قلت يا رسول الله . من أبر ؟ » قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب » (٣) الحديث أخرجه أبو داود ، والترمذي وحسنه . وأخرج أبو داود بسنده عن سهل أن رسول الله - ﷺ - قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » (٤) وقرن بين أصابعه الوسطى والتي تلى الإبهام .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي : لا شيء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب .

قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذي لا بيت له .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة ، أو أطعم في يوم ذي مسغبة حتى يكون من الذين آمنوا ، أي : صدقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله .

وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله - عز وجل - كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَمِعَ لَهَا

(١) رواه كثر العمال في (كتاب الصدقات) فصل في أنواع الصدقة ح ٦ ص ٥٩٢ رقم ١٧٠٣٥ وعزاه إلى الطبراني في الأوسط .

(٢) أخرجه النسائي في سننه في (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على الأقارب ح ٥ ص ٩٢ ورواه الترمذي في جامعه الصحيح في (كتاب الزكاة) باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة ح ٣ ص ٣ رقم ٦٥٨ وهو عنده جزء حديث .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه في (كتاب الأدب) باب : في بر الوالدين ح ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٣٩ وأخرجه الترمذي في (كتاب البر والصلة) باب ما جاء في بر الوالدين ح ٤ ص ٣٠٩ رقم ١٨٩٧ .

(٤) أخرجه أبو داود في سننه في (كتاب الأدب) باب : في من ضم اليتيم ح ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠ وأخرجه الترمذي في (كتاب البر والصلة) باب ما جاء في حكم اليتيم وكفاله ح ٤ ص ٣٢١ رقم ١٩١٨ - وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴿١﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ قال ابن كثير : أى : كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم . كما جاء في الحديث : « الراحون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » (٢) .

وفي الحديث الآخر : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

وقال القرطبي : ( وتواصوا ) أى : أوصى بعضهم بعضاً ( بالصبر ) على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . ( وتواصوا بالمرحمة ) أى : بالرحمة على الخلق ، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين .

وقوله تعالى ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم .

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أى : أصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم .

فأصحاب الميمنة : أصحاب الجنة ، وأصحاب المشأمة : أصحاب النار ، قال الله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود ﴾ (٣) الآيات . وقال تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . في سموم وحميم . وظل من يحموم ﴾ الآيات (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى : مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

قال ابن القيم : الناس قسمان : ناج ، وهو من قطع العقبة وصار وراءها . وهالك وهو من دون العقبة . وهم أكثر الخلق ، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمَّرون ، فإنها عقبة كؤود شاقة ، لا يقطعها إلا خفيف الظهر ، وهم أصحاب الميمنة . والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخير ، ولم يطيعوا الأمر ، منهم ( أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة ) قد أطبقت عليهم ، فلا يستطيعون الخروج منها ، كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة ، المنافية لما أخبرت به رسله ، فلم تخرج قلوبهم منها . كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها . ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فماً للظالمين من

(١) الآية : ١٩ من سورة الاسراء .

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذى ( كتاب البر والصلة ) باب ما جاء في رحمة المسلمين ح ٤ ص ٣٢٣ رقم ١٩٢٢ . ورواه الامام أحمد بن طريق

أبي إسحاق : انظر الفتح الرباني للساعات ح ١٩ ص ٨٨

(٤) الآيات : ٢٧ - ٣٠ من سورة الواقعة .

(٥) الآيات : ٤١ - ٤٣ من سورة الواقعة .

نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور<sup>(١)</sup> .

### بحث في : مكة المكرمة

مكة : مدينة قديمة ، وقد فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوية وغير لغوية استنبطوها من مكانة الكعبة وقديسيتها في نفوس العرب .

قال ياقوت الحموى في معجمه :

« إنما سميت مكة لأن العرب في الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه ، أى : نصفر فيه صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها ، والمكاء بتشديد الكاف : طائر يأوى الرياض » .

وقال الأصمعى :

« ... إنما من تمككت المخ : إذا استخرجته ، لأنها تمك الفاجر عنها ، أو أنها « بكة » لأن الناس يبك بعضهم بعضاً فيها ، أى : يتدافعون ويتزاحمون .

وقيل في اسم مكة : إن أصله ( امتك ) الفصيل ما فى ضرع أمه إذا لم يبق فيها شيئاً ، فسميت القرية مكة لقله مائها ، كما سميت المعطشة ، وسميت فى القرآن ( بكة ) لأنها تبك أعناق الجبارة ، أى : تدقها » ( قاله القلقشندى ) .

ومن أسمائها أيضاً : ( أم القرى ) - و ( البلد الأمين ) - و ( أم رحم ) لأن الناس يتزاحمون فيها ويتوادعون ، و ( الباسة ) ، لأنها تبس الظالم ، أى : تحطمه ، و ( القدس ) و ( القادس ) و ( المقدسة ) و ( فاران ) و ( الوادى ) و ( الحرم ) و ( العرش ) و ( معاد ) و ( طيبة ) .

قال النووى : « لا يعرف فى البلاد بلدة أكثر أسماء من مكة والمدينة » وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ولا عجب فإن الاسلام جعل لمكة والمدينة من الشهرة ما جعل المؤرخين يتبارون فى التدليل عليها بكثرة الأسماء .

وقد ورد اسم مكة فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، فذكرها بطليموس الاسكندرى باسم ماكورابا .

ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من سكن هذا الوادى فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب مستندا إلى البيت الحرام ، فمكة أو « مكرب » كما ذكرها بطليموس كلمة يمنية مكونة من « مك » و « رب »



ومك : بمعنى بيت ، فتكون مكرب : بمعنى « بيت الرب » ومن هذه الكلمة أخذت مكة ، أوبكة ، يقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب .

ومن المعروف أن القرآن الكريم ذكرها بعدة أسماء فهي :

بكة ، قال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ﴾ (١)

وهى مكة ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم ﴾ (٢) .

وهى أم القرى ، قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾ (٣) .

وهى البلد الأمين ، قال تعالى : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين ﴾ (٤) .

وهى البلد ، قال تعالى : ﴿ لا أقسم بهذا البلد . وأنت حلٌ بهذا البلد ﴾ (٥) .

موقع مكة :

فى منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام ، تقوم مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع ولا ضرع فيه ، تكتنفها من كل جهاتها جبال صخرية جرداء متباينة الارتفاع : وهى تقع عند تقاطع خط عرض ٢٢° ٢١' شمالاً ، بخط الطول ٣٩° ١٢' شرقاً ، وتمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة ثلاثة كيلومترات طولاً ، وما يقرب من نصف ذلك عرضاً ، فى واد مائل من الشمال إلى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها إلا وهو على أبوابها ، والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غرباً ، ثم جبل قعيقعان ، ثم جبل الهندى ، ثم جبل لعلع ، ثم جبل كداء وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل الرسول - ﷺ - البلد حين الفتح .

أما الجنوبية فإنها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً ، ثم يتلوه جبلا كدى وكذى بانحراف إلى الجنوب ، ثم جبل أبى قبيس إلى شرقيها ، ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها إلى قلب الوادى . وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة ، فهناك دار ابن عباس - رضى الله عنها - فى المسعى على عين السالك إلى المروة ، وفى الشرق الشمالى للحرم آثار

(١) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الفتح .

(٣) من الآية : ٧ من سورة الشورى .

(٤) الآيات : ١ - ٣ من سورة التين .

(٥) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة البلد .

دار أبي سفيان المشهورة في الجاهلية والاسلام ، وقد جعل لها الرسول - ﷺ - يوم الفتح شأنًا عظيمًا حيث جعلها حرماً محترماً ، كل من دخلها من المشركين كان آمناً .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً إلى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبي قبيس ، وفي هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقاً شِعْبُ بنى هاشم ، ويسمونه شعب على ، ثم شعب المولد ، ثم شعب بنى عامر ، وفي هذه الجهة الأخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ومن دونهم باقى أهل مكة .

وجو مكة شديد الحرارة قليل الأمطار ، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التي تنزل بكثرة في الجبال العالية المحيطة بالطائف ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد أقام في شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرافها إلى الجهة الشرقية نحو المسفلة ، ومنها تسير إلى خزان كبير في الجهة الجنوبية يسمونه ( بركة ماجن ) وتستعمل هناك للأعمال الزراعية ، وكثيراً ما كانت لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

ويشرب أهل مكة من ماء الآبار التي فيها مثل زمزم ، أو التي في ضواحيها مثل الزاهر والعسقلاني وغيرهما ، أو من الصهاريج التي تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع ، أو من عين زبيدة التي يجري ماؤها إلى المدينة في قنوات تحت الأرض لها خزانات في شوارعها تسمى البازان ، وهذه العين لها أهمية عظيمة ، وهى من أجل الآثار التي تنسب إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد . وكان السبب في إنشائها أن هذه السيدة رأت في حجبها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد لقلة الماء في تلك الأنحاء ، فأمرت بإجراء الماء إلى أم القرى من عين حنين التي توجد فيما وراء عرفة إلى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة ، وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير في وادى حنين .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماماً كبيراً ، وأرسلت إليه العمال من جميع أنحاء البلاد الإسلامية فبنوا لهذا الماء مجرى عظيماً وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعمان من الماء الذي ينزل إليه من جبال كدى التي تبعد عن عرفات شرقاً إلى الجنوب بنحو عشرة كيلومترات ، وسيروا إليه سبع قنوات أخرى من الجهات التي تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلي الذي وصل إلى جنوب منى وحفر له هناك بئر كبير في الصخر يصب فيه يسمى بئر زبيدة .

ومن هذا المجرى امتد فرعان : واحد إلى عرفات ، والآخر إلى مسجد غمرة ، يسير الماء فيهما زمن الحج .

وقد وصف ياقوت في معجمه مكة المكرمة فقال :

« هي مدينة في واد ، والجبال المشرفة عليها من جميع النواحي محيطة حول الكعبة وبنائها من حجارة سود وبيض ملس ، وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات لطيفة بيضة حارة في الصيف ، إلا أن ليلها لطيف . وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء .

وما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة وعرضها سعة الوادي .  
والمسجد في ثلثي البلد إلى المسفلة ، والكعبة في وسط المسجد . وليس بمكة ماء جار . « إلا ماء زبيدة »  
ومياها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، هكذا !!

وأطيبها بثر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية ، فإذا جزت الحرم ، فهناك عيون  
وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ونخيل ، وأما الحرم فليس به شجر مثمر إلا نخيل يسيرة متفرقة .  
ووصف ابن جبير مكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتها وثمارها ، وما قاله في ثرواتها الاقتصادية :  
« وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، وقد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق ،  
وضرب نواحي الأقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا ، وماذا لك - والله أعلم - إلا لبركة مراعيها .  
وقال في وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جَنِيّ حتى طار صيته في الآفاق :

« ومن أغرب ما ألفيناه ، فاستمتعنا بأكله ، وأجرينا الحديث باستطابته - ولا سيما لكوننا لم نعهده -  
الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره ، يجنى ويؤكل .

وهي في نهاية من الطيب واللذاعة ، لا يُسَامُ التَّفَكُّهُ به ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة ،  
أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه ييسط على  
الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع » .

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التي نزلت فيها الآية  
الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ (١) .  
وكان على بن أبي طالب - رضى الله عنه - ينادى في الموسم الذي أعقب نزول هذه الآية الكريمة :  
« ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

## تاريخ مكة

يرجع تاريخ مكة إلى إبراهيم - صلوات الله عليه - فقد أوحى الله إليه وهو في حبرون بفلسطين : أن  
خذ هاجر وإسماعيل وأخرج حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الجنوب : إلى  
الأرض التي أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

ونظر إبراهيم فإذا بربرة ، إنها بيت الله المحرم قد أتى عليها الطوفان ، فأنزل هاجر وإسماعيل فوق البربرة وراح يصنع لهما مسكناً .

ومكث إبراهيم معهما ما شاء الله أن يمكث ، ثم وضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاة فيها ماء ، وذهب منطلقاً ، فتبعته هاجر وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ ... وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها ، حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت : آله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

فقلت في ثقة : فإذا لا يضيعنا .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يريانه استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرو ﴾ (١) .

راحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها ، ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست بآلم عميقي ، وكاد عقلها يطيش ، وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشاً ، وما دار بخلدتها في تلك اللحظة التي استولى عليها فيها الجزع والهلع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخلّداً لذكرى ما كان في ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه ! - تريد نفسها - ثم أصاحت السمع فسمعت الصوت أيضاً فانطلقت إلى حيث كان ابنها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تحوضه في فرح وتغرف الماء في سقاتها .

وشربت وأرضعت ولدها ، وإذا بالملك عند زمزم فقال لها : لا تخافي الضيعة ، فإن هذا بيت الله الحرام ، بينه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أمله .

ونزلت رفقة من جرهم في طريق أسفل مكة فرأوا الطير على الجبل . فقالوا : إن هذا الطير لحائِمٌ على ماء ، فأشرفوا فإذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر : إن شئتِ كنا معك فأنسناك والماء ماؤك . فأذنت لهم ،

فنزّلوا معها ، وهم أول سكان مكة ، فلذلك كانت العرب تقول في تليبيتها :

لَا هُمْ إِنْ جَرَّهَا عِبَادُكَ النَّاسُ طَارَفٌ وَهُمْ تِلَادُكُ وَهُمْ قَدِيمًا عَمَرُوا بِلَادَكَ

قال ابن كثير في تفسيره :

قال ابن عباس : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : « فآلفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس : فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجته امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ؟ فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، وطلقها ، وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ؟ فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف أنتم وسألتها عن عيشهم وهيتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأنت على الله - عز وجل - قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شربكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء » قال النبي صلى الله عليه وسلم - : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ، ولو كان لهم لدعاهم فيه - قال - ﷺ فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام وأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ <sup>(١)</sup> قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ( ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ) .

ورجع إبراهيم إلى قومه ، وبقي إسماعيل في خدمة البيت حتى مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن في المسجد الحرام ، في الحجر حيال الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر ، وبعد وفاة إسماعيل ، قام بالإشراف على الكعبة ابنه ثابت ، ثم انفرد بالإشراف عليه بعض زعماء جرهم الذين نجحوا في التغلب على أولاد إسماعيل .

يروى ابن هشام ما حدث لأولاد إسماعيل بعد ازدياد عددهم :

فيقول :

« ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوانهم من جرهم ولاية البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لختولتهم وقربتهم ، وإعظاما للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا في البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم . ولما قدمت خزاعة من اليمن بعد تهم سد مأرب ، احتكت بجرهم فتقاتلت القبيلتان ، وانتصرت خزاعة ووليت أمر البيت ، وخرجت عن هذا الوادي جرهم كما خرج أولاد إسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفي تهامة .

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة ، فقد عمل زعيم خزاعة « عمرو بن لحي » على تنشيط الحج إلى مكة ، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور ، والحج إليها قد قل بسبب بغى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون إليها للتجارة والحج ، وبعد إهمال بثر زمزم التي يسرت المقام في هذا الوادي القفر ، فأخذ عمرو بن لحي يطعم الفقراء من الحجيج ، ويجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة .

ويروى المؤرخون أن « عمرو بن لحي » هو الذي أدخل عبادة الأصنام في مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه في مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة رحل إلى مدينة البلقاء بالشام في بعض أموره ، وبها يومئذ العماليق ، فرآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونني منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل . فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ويبدو أن الحنيفية : دين إبراهيم كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء إسماعيل أنفسهم ، فقد ذكر اليعقوبي أن « إلياس بن مضر - وقد شرف وبان فضله - كان أول من أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم » ..

استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش وتغلبت عليها في القرن الخامس الميلادي ، وكانت على درجة كبيرة من الرقي ، فاستولى قضى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت ونزلت في بطن مر « وادي فاطمة » ومن ثم عظم

نفوذه ، واجتمعت له السقاية والحجابه والرفادة واللواء ، ولم تجتمع في رجل قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصي بن كلاب ، الجد الرابع للرسول - صلى الله عليه وسلم - هم من ولد كنانة ، الذي يرجع نسبه إلى عدنان ، وينتهي إلى إسماعيل - عليه السلام - .  
وإلى ذلك يشير الحديث الذي أثر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - « اختار الله من بني إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بني هاشم من قريش ، واختارني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » (١) .

فلما تم الأمر لقصي جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبار أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا في أمور بلدهم ، فقد كان من عاداتهم ألا يتم أمر إلا باتفاقهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا في هذه الدار ، وبنت قريش بأمر قصي حول الكعبة دُورَها وتركوا مكانا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف .

كان عبد الدار أكبر أبناء قصي ، لكن أخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم ، فلما كبر قصي وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولى أمور مكة جعل الحجابه لعبد الدار وسلم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة . وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصي يصنع منه في موسم الحج طعاما ينال منه من الحاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصي أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم :

« يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحاج ضيفان الله وزوار بيته ، وهم أحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » اهـ .  
نكتفي بهذا القدر ، ونكمل البحث - إن شاء الله تعالى - عند تفسير سورة « الفيل » .

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد عن واثلة بن الأسقع ، انظر الفتح الرباني - ٢٠ ص ١٧٤ ، ورواه الترمذي في ( كتاب المناقب ) باب : في فضل النبي - صلى الله عليه وسلم - عن واثلة من طريقين برقمي ٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦ - ٥ ص ٥٨٣

## تفسير سورة الشمس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : خمس عشرة آية .

وكلماتها : أربع وخمسون .

وحروفها : مائتان وأربعون .

فواصل آياتها . على الألف .

سميت يسورة ( والشمس ) لفتحها .

مقصود السورة :

أنواع القسم المترادفة على إلهام الخلق في الطاعة والمعصية ، والفلاح والخيبة ، والخبر عن إهلاك  
ثمود ، وتخويف لأهل مكة .

ومناسبتها لما قبلها :

- ١ - أنه - سبحانه - ختم السورة السابقة بذكر أصحاب اليمين وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر  
الفريقين في هذه السورة بقوله : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَاها . وقد خاب من دساها ﴾ .
- ٢ - ختم السورة السالفة بشيء من أحوال الكفار في الآخرة ، وختم هذه بشيء من أحوالهم في  
الدنيا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ① وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ② وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ③  
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ④ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَدَهَا ⑤ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا ⑥  
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ⑦ فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ⑧ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ



زَكَّيْنَهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّيْنَهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ يَذِنبُهُمْ فَسَوَّيْنَهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

### معاني المفردات

- ﴿ضحى الشمس﴾ : ضوؤها .
- ﴿تلاها﴾ : أى : تبعها .
- ﴿جلاها﴾ : أى : كشف الشمس وأتم وضوحها .
- ﴿يفشاها﴾ : أى : يزيل ضوءها ويحجبه فتظلم الآفاق .
- ﴿والسواء﴾ : كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك ، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها .
- ﴿وما بناها﴾ : أى : والذى خلقها هو الله تعالى .
- ﴿وما طحاها﴾ : والذى بسطها ووطأها .
- ﴿وما سواها﴾ : والذى عدل أعضائها ومنحها قواها .
- ﴿فجورها وتقواها﴾ : معصيتها وطاعتها ، وخيرها وشرها .
- ﴿قد أفلح﴾ : قد فاز .
- ﴿من زكاه﴾ : طهرها وأغماها بالتقوى .
- ﴿قد خاب﴾ : خسر .
- ﴿من دساها﴾ : نقصها وأخفاها وأخلها بالفجور .
- ﴿بطغواها﴾ : بسبب طغيانها وعدوانها .
- ﴿انبعث أشقاها﴾ : قام مسرعاً يعقر الناقة .
- ﴿ناقة الله وسقياها﴾ : احذروا عَصْرَهَا ونصييها من الماء .
- ﴿فدمدم عليهم﴾ : أهلكهم وأطبق عليهم سواء .
- ﴿فسواها﴾ : فجعل الدمدمة عليهم سواء .
- ﴿عقباها﴾ : عاقبة هذه العقوبة .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فأنهها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ .

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله - عز وجل - : فأقسم - تعالى - بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضياته ، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذى أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض التى بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التى كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات .  
أقسم - سبحانه - بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

قال الزجاج وغيره : جواب القسم : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .

ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - : وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق ، والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .

وقد قيل : إن ( ما ) مصدرية ، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه ، وبصنعتة الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته ، وتوحيده ، ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً ، فلم يذكر الفاعل فى الأقسام الأربعة .

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع ، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ (١) .

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنها قديمتان ذكر مع أقسام بهما بانيهما ومبدعهما ، وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهور ، حتى ظن بعضهم قديمها ، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها ، مع ما فى ذكر بناء السماء وطحو الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفاً لهذا العالم . والطحو : هو مدُّ الأرض وبسطها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس ، والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة

الماء ، فيروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونه هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب في الشكل الكرى يقتضى تخصيصاً . فلم يجدوا بداً أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : فنعم إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له ، ولا إرادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلاً ، كما تقولونه ، فيه محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد ، أ. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ الضمير المرفوع في ( زكاها ) عائد على ( من ) والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى : غناها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ ، وذكر اسم ربه فصلى ﴿ <sup>(١)</sup> وهو - سبحانه - إذا ذكر الفلاح علقه بفعل الفلح ، كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ <sup>(٢)</sup> إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أى : وقد خاب من أهلك نفسه وحملها على معصية الله . قال ابن قتيبة : ( وقد خاب من دساها ) أى : نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصي . قال ابن القيم : والفاجر أبداً خفى المكان زمن المروءة ، غامض الشخص ناكس الرأس . فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لشهر أنفسهم للمعتفين ، وتوقد النيران في الليل للطارقين . وكانت اللثام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخض أماكنها على الطلبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكّوها ، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها .

وقال ابن القيم :

قالت طائفة أخرى من المفسرين : الضمير يرجع إلى الله تعالى . قال ابن عباس - في رواية عطاء - : قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس أصلحها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها .

قال أرباب هذا القول : قد أقسم - سبحانه - بهذه الأشياء التي ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قدر سابق ، وقضاء متقدم .

قالوا : وهذا أبلغ في التوحيد الذى سبقت له هذه السورة .

قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ فآلمها فجورها وتقواها ﴾ .

(١) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .

(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

قالوا : ويشهد له حديث نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبي مليكة ، عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : انتبعت نفسى ليلة فوجدت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول : « رب أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها »<sup>(١)</sup> قالوا : فهذا الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر : « إن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ ( قد أفلح من زكاها ) وقف ثم قال : اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها أنت خير من زكاها »<sup>(٢)</sup> .

قالوا : وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له - سبحانه - فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى ، وهو مزيكها ومدسيها ، فليس للعبد فى الأمر شيء ، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً .

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وإن كان جائزاً فى العربية ، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من ، وإن كان لفظها مذكراً ، كما فى قوله : ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾<sup>(٣)</sup> جمع الضمير وإن كان كاذب لفظ ( مَنْ ) مفرداً حملاً على نظمها ، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس فى مفسر الضمائر ، وهنا قد تقدم لفظ ( من ) والضمير المرفوع فى ( زكاها ) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به لفظاً ومعنى ، فهذا هو النظم الطبيعى الذى يقتضيه سياق الكلام ووضعه .

قالوا : والقول الذى ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجه :  
( أحدها ) أن منه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هى طريقتة القرآن .

( الثانى ) أن فيه زيادة فائدة وهى إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه . وفى قوله : ﴿ فآلهما فجورها وتقواها ﴾ ، إثبات القضاء والقدر السابق .

فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقتزمان فى القرآن الكريم كقوله : ﴿ إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾<sup>(٤)</sup> وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾<sup>(٥)</sup> .

فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية .

( الثالث ) أن قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانتة ، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلى بينه وبين نفسه ، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد وهنا ذكر البتة . أ. هـ .  
وقوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ أنبعت أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعمروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ﴾ .

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ( مسند عائشة - رضى الله عنها - ) انظر الفتح الربانى للساعات ٢٩٢/٣ ، وأخرجه الميثمى فى مجمع الزوائد ج ٦ ص ٢١ .

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ( تفسير سورة الشمس ) ج ٤ ص ٥١٦ وغزاه إلى الطبرانى .

(٣) من الآية : ٤٢ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ وجزء الآية : ٥٦ من سورة المدثر . (٥) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة التكاوير .

يخبر - تعالى - عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بما جاءهم به رسولهم صالح - عليه الصلاة والسلام - من الهدى واليقين .

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْبَعَثْ أَشْقَاهَا ﴾ أى : أشقى القبيلة ، وقيل : اسمه قدار بن سالف ، عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذى قال الله - تعالى - فيه : ﴿ فَنَادُوا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴾<sup>(١)</sup> .

وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريعاً في قومه ، نسياً رئيساً مطاعاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ يعنى صالحاً - عليه السلام - ( ناقة الله ) أى : احذروا ناقة الله . أن تمسوها بسوء ، ( وسقياها ) . أى : لا تعتدوا عليها في سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، قال الله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أى : غضب عليهم فدمر عليهم . ( فسواها ) أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء فلم يفلت منهم أحد .

لا يخاف الله من أحد تبعه ، وكذا قال مجاهد والحسن ويكر بن عبد الله المزنى وغيرهم . وهذه الآية معنى قوله - تعالى - في الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر ، والذى فيه : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » الحديث<sup>(٢)</sup> .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وذكر فى هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة لأنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاخترأوا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾<sup>(٣)</sup> وقال تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً ﴾<sup>(٤)</sup> أى : موجبة لهم التبصر واليقين ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم ، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة لمزيد ، ولهذا لما قرئهم يقوم عاد قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنْ قُوَّةِ ؟ ﴾<sup>(٥)</sup> ثم قال : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا لنبيهم : ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾<sup>(٦)</sup> ولم يمكن ذلك ثمود ، وقد رأوا البينة عياناً .

وصارت لهم بمنزلة الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة ، فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض ، والله أعلم . أ . ه .

(١) الآية : ٢٩ من سورة القمر .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه بسرح النوى فى ( كتاب البر والصلة والآداب ) باب تحريم الظلم جـ ١٦ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) من الآية : ١٧ من سورة فصلت .

(٤) من الآية : ١٥ من سورة فصلت .

(٥) من الآية : ٥٣ من سورة هود .

(٦) من الآية : ٥٩ من سورة الإسراء .

## تفسير سورة الليل

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى وعشرون آية .

وكلماتها : إحدى وسبعون .

وحروفها : ثلاثمائة وعشر .

فواصل آياتها : على الألف .

سميت سورة الليل لمفتتحها .

### مقصود السورة :

القسم على تفاوت حال الخلق في الإساءة والإحسان ، وهدايتهم إلى شأن القرآن ، وترهيب بعض بالنار ، وترغيب بعض بالجنة ، والبدار إلى الصدقة كفارة للذنوب والعصيان ، ووعد بالرضا من الرحمن المنان في قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

### المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فَسَيُسِرُّهُ لِّلْيسْرِ ﴾ وبعده ﴿ فَسَيُسِرُّهُ لِّلْعُسْرِ ﴾ أى : سنيهته للحالة اليسرى ، والحالة العسرى ، وقيل : الأولى الجنة ، والثانية : النار .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم وخيبة المدسّين لها ، وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح ، وما تحصل فيه الخيبة ، فهي كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ

لِّلْبُسْرِى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنِيْسِرُهُ  
لِّلْعُسْرِى ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ۝١١ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝١٢ وَإِنَّ  
لَنَا لَآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝١٣ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝١٤ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝١٥  
الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝١٧ الَّذِى يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۝١٨  
وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ۝٢٠ وَلَسَوْفَ  
يَرْضَى ۝٢١

### معانى المفردات

- ( يغشى ) : أى يغطى كل شىء فيواريه بظلامه .
- ( تجلّى ) أى : ظهر وانكشف بظهوره كل شىء .
- ( وما خلق ) أى : والذي خلق .
- ( شتى ) واحدها : شتيت ، وهو المتباعد بعضه من بعض .
- ( تلظى ) أصله : تتلظى ، أى : تتوقد وتلتهب .
- ( يصلها ) أى : يحترق بها .
- ( كذّب ) أى : كذب .
- ( وسيجنبها ) أى : سيبعد عنها .
- ( يتزكى ) : يتطهر من الذنوب .
- ( تجزى ) : تكافأ .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ واللّيل إذا يغشى ، والنّهار إذا تجلّى ، وما خلق الذّكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ﴾ .  
أقسم - سبحانه وتعالى - بالليل إذا غشى ، والنّهار إذا تجلّى ، وما خلق الذّكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى .  
المضارع : لأنّه يغشى شيئاً بعد شىء .

وأقسم - سبحانه - بآية النهار فقال تعالى : ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أى : إذا أنكشف ووضح وظهر وبان ضوءه عن ظلمة الليل ، وكلاهما من آيات ربوبيته ، ثم أقسم - سبحانه - بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه : ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من العلوية لإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية ، فأخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها ، وأقسم - سبحانه - بزمان السعى - وهو الليل والنهار - وبالسعى وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعى ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه - سبحانه - لا يسوى بين من اختلف سعيه في الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم .  
والمعنى : إن عملكم لمختلف . قال عكرمة وسائر المفسرين : السعى : العمل ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها ، يدل عليه قوله - عليه الصلاة والسلام - : « الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها وبائع نفسه فموبقها »<sup>(١)</sup> ، وفي رواية مسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »<sup>(٢)</sup> وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ، أى : إن عملكم لمتباعد بعضه عن بعض ، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى ، أى : فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاص . وقيل : ( لشتى ) أى : لمختلف الأجزاء ، فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار .

قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ) .

ثم أخبر - سبحانه - عن تفريقه بين عاقبة سعى المحسن ، وعاقبة سعى المسيء فقال : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله في أموره . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : بالخلف من الله - تعالى - على عطائه . ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »<sup>(٣)</sup> وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى الصدق من قلبه ( وصدق بالحسنى ) أى : بلا إله إلا الله ( فسنيسره لليسرى ) .

(١) الحديث أخرجه : أحمد في مسنده (مسند جابر بن عبد الله) جـ ٣ ص ٣٩٩ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم في (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء جـ ١ ص ٢٠٣ رقم ٢٢٣/١ تبويب محمد فؤاد عبد الباقي .

(٣) أخرجه مسلم في (كتاب الزكاة) باب : في المنفق والممسك ، والحديث متفق عليه أخرجه في اللؤلؤ والمرجان في (كتاب الزكاة) باب ، في المنفق والممسك صـ ٢٠٨ رقم ٥٩١ .



وقال مجاهد : ( وصدق بالحسنى ) أى : بالجنة ، ودليله قوله - تعالى - : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ الآية (١) ، وقال قتادة : ( وصدق بالحسنى ) أى : وعد الله الذى وعده أن يشبهه ، وكله متقارب المعنى ، إذ كله يرجع إلى الثواب الذى هو الجنة .  
وقوله تعالى : ﴿ فسيسره لليسرى ﴾ أى : نرشده لأسباب الخير والصالح حتى يسهل عليه فعلها .  
وقال زيد بن أسلم : ( لليسرى ) : الجنة .

قال البخارى بسنده عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : « كنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى بقيق الغرقد فى جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسيسره لليسرى ، إلى قوله - : لليسرى ﴾ (٢) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : قال : يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أرأيت ما نعمل ؟ ما نعمل فيه : أفى أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : فيما قد فرغ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كلا ميسر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء » (٣) ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ أى : ضنَّ بما عنده فلم يبذل خيراً ، واستغنى عن ربه ( وكذب بالحسنى ) أى بالخلف . وقال مجاهد : بالجنة . وفى رواية أخرى له قال : كذب بالحسنى ، أى : بلا إله إلا الله ( فسيسره لليسرى ) أى : للشر . وعن ابن مسعود : للنار . وقيل : أى : فسنعسر عليه أسباب الخير والصالح حتى يصعب عليه فعلها ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً ﴾ (٤) .

### أسباب التيسير

قال ابن القيم - رحمه الله - :

« تضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر فى تيسير هذا لليسرى ، وهذا لليسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب :

(١) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٢) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب القدر ) باب : كيفية خلق آدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته ص ٧١٧ ، ٧١٨ ، ورواه البخارى فى ( كتاب الجنائز ) باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله .

ورواه الترمذى فى ( كتاب التفسير ) تفسير سورة : واللبل إذا يغشى ج ٥ ص ٤٤١ رقم ٣٣٤٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد فى مسنده ج ١ ص ٢٧ ، ٢٩ وانظر الفتح الربانى للساعات ١/١٣٨ وأخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح فى ( كتاب القدر ) باب ما جاء فى الشتاء والسعادة ج ٤ ص ٤٤٥ رقم ٢١٣٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٧٥ من سورة مريم .

(أحدها) : إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أى : أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والإخلاص والتوبة والشكر ، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ، ولسانه وبدنه ، ونيته وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لا لثيمة مانعة ، فالنفس المطيعة هى النافعة المحسنة ، التى طبعها الإحسان ، وإعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها ، فهى بمنزلة العين التى ينتفع الناس بشرهم منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهى ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل ، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسر كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

(السبب الثانى) : التقوى ، وهى : اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى ، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسرها عليه إثم ، ولو قدر أنها لم تيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى . فإن طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾<sup>(١)</sup> فأخبر أنه يسر على المتقى ما لا يسر على غيره ، وقال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾<sup>(٢)</sup> وهذا أيضاً يسر عليه بتقواه . وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾<sup>(٣)</sup> وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه ، وإعطاءه ما يحبه ويرضاه . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ﴾<sup>(٤)</sup> . وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور غاية التيسير ، وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾<sup>(٥)</sup> والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشفاء غاية العسر ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ﴾<sup>(٦)</sup> فضمن لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثة أمور :

(أحدها) : أعطاهم نصيبين من رحمته : نصيباً فى الدنيا ، ونصيباً فى الآخرة ، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين ..

(والثانى) : أعطاهم نوراً يمشون به فى الظلمات .

(الثالث) : مغفرة ذنوبهم ، وهذا غاية التيسير فقد جعل - سبحانه - التقوى سبباً لكل يسر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر .

(٤) من الآية : ٢٩ من سورة الأنفال .

(٥) من الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .

(٦) من الآية : ٢٨ من سورة الحديد .

(١) من الآية : ٤ من سورة الطلاق .

(٢) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٣) من الآية : ٥ من سورة الطلاق .

(السبب الثالث) : التصديق بالحسنى ، وفسرت بلا إله إلا الله ، وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخلف ، وهى أقوال السلف ، واليسرى : صفة لموصوف محذوف ، أى : الحالة والخلة اليسرى ، وهى (فُعِلَ) من اليسر ، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال ، وأفضل الجزاء ، فمن فسرهما بلا إله إلا الله فقد فسرهما بمفرد يأتى بكل جمع ، فإن التصديق الحقيقى بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بشُعْبَيْهَا وفروعها كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا يكون العبد مصداقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هى منفية فى الحقيقة والخارج ، ولا يكون مصداقاً بها من نفى الصفات العليا ، ولا من نفى كلامه وتكليمه ، ولا من نفى استواءه على عرشه وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصداقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شىء ، وقدرته ليوم النشور ، ولا يكون مصداقاً بها من زعم أنه يترك خلفه سدى ، لم يأمرهم ولم ينههم على السنة رسوله ، وكذلك التصديق بها يقتضى الإذعان ، والإقرار ، بحقوقها : وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره ، وامتنال أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله .

فالمصدق بها على الحقيقة يأتى ذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها ، فالعقوبة فى الدنيا والآخرة على تركها ، أو ترك حقها .

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرهما بأعلى أنواع الجزاء وكمالهما ، ومن فسرهما بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء ، فهذا جزاء دنيوى ، والجنة جزاء أخروى ، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه ، والتحقيق أنها تتناول الأمرين .

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث - وهى : الإعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ودين الحق . فإن النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والإعطاء وقوة الكف والامتناع ، وقوة الإدراك والفهم ، ففيها قوة العلم والشعور ، ويتبعها قوة الحب والإرادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها ، ويفسدها يكون فسادها وشقاوتها ،

فساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء ، وفساد قوة البغض والنصرة<sup>الذرية</sup> يوجب له ترك الاتقاء ، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به ، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه ، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها . فقد زكى نفسه ، وأعدّها لكل حالة يُسرى ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى .

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد ، فعل المأمور ، وترك المحذور ، وتصديق الخبر . وإن شئت قلت : الدين طلب وخبر ، والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك ، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالإعطاء : فعل المأمور ، والتقوى : ترك المحذور ، والتصديق بالحسنى : تصديق الخبر . فانتظم ذلك الدين كله .

وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفائه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس ، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى ، قال ابن عباس : ( فسنيسره لليسرى ) أى : نهيته لعمل الخير : نيسر عليه أعمال الخير ، وقال مقاتل والكلبي والفراء : نيسر للعود إلى العمل الصالح .

﴿ وأما من بخل ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿ واستغنى ﴾ بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ، ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ ، قال عطاء : سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بـ وبرسولى ، وقال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيراً ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول ، لأن الشر يؤدى إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى ، والخير يؤدى إلى اليسر ، والراحة فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى .

والتيسير للعسرى يكون بأمرين :

( أحدهما ) : أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه .

( والثانى ) : أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه .

فإن قيل : كيف قابل ؛ اتقى ) بـ ( استغنى ) ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فإن المتقى لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه أنقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه ، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص ، فإنه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الإتقاء ، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره ، فقابل التقوى بالاستغناء تشبيهاً لحال تارك التقوى ، ومبالغة فى ذمه ، بأن فَعَلَ فَعَلَ المستغنى عن ربه ، لا فَعَلَ الفقير المضطر إليه ، الذى لا ملجأ له إلا إليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة

عين ، فله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشور كلها وأسبابها ، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه ، وتجلى لهم فيه . فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالبين . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ أى : وإذا يسرناه للعسرى فأى شىء يغنى عنه ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفعه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة ، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ؟ كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ (١) وكما قال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب أن ماله أخذه ، فلا ينبذ فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، فى عمد ممددة ﴾ (٢) .

قوله تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ . قيل معناه : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال . قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . وهذا المعنى حق ، ولكن مراد الآية شىء آخر .

وقيل : المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (٣) وهذا قول مجاهد حكاه ابن جرير .

قال ابن القيم - رحمه الله - : وهو أصح الأقوال فى الآية . قال الواحدي : علينا الهدى ، أى : إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله ، وإلى ثوابه وجنته ، وهذا المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ وفى الحجر : ﴿ هذا صراط على مستقيم ﴾ (٤) وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد ، والهدى : هو الصراط المستقيم ، فمن سلكه أوصله إلى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق ، الهدى ، والغاية : الوصول إلى الله . فهذه أشرف الوسائل وغايتها أعلى الغايات . وقوله تعالى : ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

لما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه - سبحانه - أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً . وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده ، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان

(١) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .

(٢) سورة الهمة .

(٣) من الآية : ٩ من سورة النحل .

(٤) الآية : ٤١ من سورة الحجر .

أربعة أمور ، هي المطالب العالية . ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول إلى الله - سبحانه وتعالى - وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهي طريق الهدى . وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها . وتوحيد المطلوب . وهو الحق . فلا يعدل عنه إلى غيره . فاقتبس هذه أمور من مشكاة هذه الكلمات فإن هذه غاية العلم والفهم ، وبالله التوفيق .

ولما أقام - سبحانه - الدليل ، وأثار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أندر عباده عذابه الذى أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته ، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص ، فهذا الصنف هو الذى يجنب عذابه . قال تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتَكُمْ نَاراً تَلْظَى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ .

قال القرطبي : ( فَأَنْذَرْتَكُمْ ) أى : حذرتكم وخوفتكم ( نَاراً تَلْظَى ) أى : تلهب وتتوقد ، وأصله : تلتظى . ( لَا يَصْلَاهَا ) أى : لا يجد صلاها وهي حرها ( إِلَّا الْأَشْقَى ) أى : الشقى ( الَّذِي كَذَّبَ ) نبي الله محمداً - صلى الله عليه وسلم - ( وَتَوَلَّى ) أى : أعرض عن الإيمان . قال الإمام مالك : صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقراً : ( والليل إذا يغشى ) فلما بلغ ( فَأَنْذَرْتَكُمْ نَاراً تَلْظَى ) وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعدها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى . قال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لَا يَدْخُلُ النَّارَ إِلَّا شَقِيٌّ » قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِطَاعَةِ ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ مَعْصِيَةً »<sup>(١)</sup> .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة أيضاً قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كُلُّ أُمَّتٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مِنْ أَبِي » قالوا : من أبى يا رسول الله ؟ قال : « مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي »<sup>(٢)</sup> . ورواه البخارى عن محمد بن سنان عن فليح به . وقوله تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ﴾ أى : وسيزحزح عن النار التقي النقي الآتقى ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثَا ﴾<sup>(٣)</sup> وكما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ فِي سِوَاهِهَا سُوءٌ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>

وقوله : ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أى : يصرف ماله في طاعة مولاه ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾<sup>(٥)</sup> وقال - صلى الله عليه وسلم - : « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ كَمَا يَطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ »<sup>(٦)</sup>

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند أبي هريرة) ج ٢ ص ٣٤٩ ، وانظر الفتح الرباني للساعات ج ١٩ ص ٢١٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده (مسند أبي هريرة) ج ٢ ص ٣٦١ ، وانظر الفتح الرباني للساعات ج ٢٣ ص ٢٠٢ ورواه البخارى في صحيحه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) ج ٤ ص ٢٥٧ طبع دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة مريم . (٤) الآية : ٦١ من سورة الزمر . (٥) من الآية : ١٠٣ من سورة التوبة .

(٦) للحديث أخرجه ابن حبان مع اختلاف في اللفظ ، وهو عنده : « الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتُدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ » . وهذا اللفظ جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند جابر بن عبد الله) ج ٣ ص ٣٩٩ في وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لكتب بن هجرة - رضى الله عنه -

وقوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ( ابتغاء وجه ربه الأعلى ) أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات الجليلة .

قال ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ الذى يؤق ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴿ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فكم من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ، ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - يوم صلح الحديبية : « أما والله لولا يدك لك عندي لم أجرك بها لأجبتك » وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟ ! ولهذا قال تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى .

وفى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعت خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير .. » فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم <sup>(١)</sup> .

ولفظ البخارى : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة » فقال أبو بكر - رضى الله عنه - : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » <sup>(٢)</sup> .

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى ( كتاب الزكاة ) باب من جمع الصدقة وأبواب البر ص ٢١٤ رقم ٦٠٦ رواه عن أبى هريرة بأطول من هذا ولفظه يقارب ما ذكره بعده على أنه لفظ البخارى .

(٢) أخرجه البخارى فى ( كتاب الصيام ) باب : الريان للصائمين ج ١ ص ٣٢٥ طبع دار إحياء الكتب العربية .

## تفسير سورة الضحى

مقدمة عن السورة :

السورة مكية .

عدد آياتها : أربعون .

وحروفها : مائة واثنان وسبعون .

وفواصل آياتها : على الألف .

سميت ( والضحى ) لمفتتحها .

مقاصد السورة :

معظم مقصود السورة : بيان ما للرسول - صلى الله عليه وسلم - من الشرف والمنقبة له ، والمنة وصيانة الفقر واليتم من بين الحرمان والمذلة ، والأمر بشكر النعمة في قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

المتشابهات :

قوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ كرر ثلاث مرات ، لأنها وقعت في مقابلة ثلاث آيات أيضاً . وهي ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ واذكر يتمك ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ واذكر ففرك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ : النبوة والإسلام .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر في السابقة ﴿ وَسَيَجْزِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ ولما كان سيد الأتقين رسول الله - ﷺ - عقب ذلك - سبحانه - بذكر نعمه - عز وجل - عليه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى ١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ ٤  
مِنَ الْأُولَى ٥ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ٦ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ٧  
وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ٨ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ٩ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ١٠  
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ١١ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ١٢



## معاني المفردات

- ﴿ الضحى ﴾ : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون .  
 ﴿ سبى ﴾ أى : سكن ، والمراد : سكن الأحياء فيه وانفقطعوا عن الحركة .  
 ﴿ ما ودعك ربك ﴾ أى : ما تركك .  
 ﴿ وما قلى ﴾ أى : وما قلاك وما أبغضك .  
 ﴿ ضالاً فهدى ﴾ أى : غافلاً عن الشرائع فهذاك إلى مناهجها .  
 ﴿ عائلاً ﴾ أى : فقيراً .  
 ﴿ فلا تقهر ﴾ أى : فلا تستذل .  
 ﴿ فلا تنهر ﴾ أى : فلا تزجر .  
 ﴿ فحدث ﴾ أى : فأد الشكر لمولياها .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والضحى ﴾ . والليل إذا سبى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴿ .  
 سبب نزول هذه الآيات المباركة :

اشتكى رسول الله - ﷺ - فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً ، فجاءت امرأة - وهى أم جميل امرأة أبى لهب - فقالت يا محمد : إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك !! لم أره قربك ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله - عز وجل : ﴿ والضحى ﴾ . والليل إذا سبى . ما ودعك ربك وما قلى ﴿ . ( الحديث رواه البخارى ومسلم وأحمد فى سننه بدون ذكر اسم المرأة )<sup>(١)</sup>

قوله : ﴿ والضحى ﴾ . والليل إذا سبى ﴿ : أقسم - تعالى - بوقت الضحى - وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس - وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه .

قال ابن كثير : هذا قسم منه - تعالى - بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن وأظلم وأذهم ، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أى : ما تركك ربك يا محمد منذ اختيارك ، ولا أبغضك منذ أحبك ، وهذا رد على المشركين حين قالوا : هجره ربه ، وهو جواب القسم .

قال العونى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .  
 قوله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أى : وللدار

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى ( كتاب التفسير ) تفسير : والضحى جـ ٣ ص ٢١٧ طبع دار احياء الكتب العربية .

الآخرة خير لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ، لأن الآخرة باقية ، والدنيا فانية ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» (١) ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ أى : سوف يعطيك ربك فى الآخرة من الثواب ، والكرامة ، والشفاعة ، وغير ذلك إلى أن ترضى . قال ابن عباس فى هذه الآية : هى الشفاعة فى أمته حتى يرضى ، لما روى أن النبى - ﷺ - ذكر أمته فقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك - وهو أعلم - فأق جبريل رسول الله - ﷺ - فأخبره رسول الله - ﷺ - فقال الله : يا جبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك» (٢) الحديث أخرجه مسلم .

وقال الخازن : والأولى حمل الآية على ظاهرها ليشمل خيرى الدنيا والآخرة معاً ، فقد أعطاه الله - تعالى - فى الدنيا النصر والظفر على الأعداء ، وكثرة الاتباع والفتوح ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه - فى الآخرة الشفاعة العامة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

قال ابن القيم - رحمه الله - : فتأمل هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافق بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربّه .

فتأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمه احتباسه واحتجابه . وأيضاً فإن فائق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل ، وأيضاً فإن الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعاشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها .

ونفى - سبحانه - أن يكون ودع نبه أوقلاه ، فالتوديه : الترك ، والقلى : البغض ، فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه :

وأطلق - سبحانه - أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى ، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الاتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه فى موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما ما يغتر به الجهل ، من أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النهار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الجهاد) باب : غزوة الأحزاب ، وهى الخندق ص ٤٧١ رقم ١١٨٣ وانظر رقم ١١٨٥ .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه (صحيح مسلم بشرح النووى) فى (كتاب الايمان) باب بشارة الأمة ج ٣ ص ٧٨

النار ! فهذا من عزور الشيطان لهم به ربه - تبارك وتعالى - وهو - سبحانه - يُدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحد لرسوله حدّاً يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أرضى أن يُدخل أحداً من أمّتي النار على أن يدعه فيها ، بل ربه - تبارك وتعالى : يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه . أ . هـ

قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ .

عدد - سبحانه وتعالى - مننه على نبيه محمد - ﷺ - فقال : ﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ لا أب لك ، قد مات أبوك ( فآوى ) أى : جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمك أبى طالب فكفلك . قال ابن كثير : إن أباه - ﷺ - توفى وهو حمل فى بطن أمه ، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين ، ثم كان فى كفالة جده « عبد المطلب » إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه « أبو طالب » ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين ، وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ، ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله - ﷺ - وكل هذا من حفظ الله له ، وكلايته وعنايته به .

وقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ أى : غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله - جل ثناؤه : ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ <sup>(١)</sup> أى : لا يغفل . وقال فى حق نبيه : ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ <sup>(٢)</sup> وقال قوم : ( ضالاً ) : لم تكن تدرى القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الاسلام ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ <sup>(٣)</sup> حكاه القرطبى .

وقوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أى : ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق ، بما يسر لك من أسباب التجارة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - نعمه عليه من ايوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد الضلالة ، وإغنائه بعد الفقر ، أمره أن يقابل هذه النعم الثلاث مما يليق بها من الشكر ، فنهاه أن يقهر اليتيم ، وأن ينهر السائل ، وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها . فأوصاه - سبحانه - باليتامى من الفقراء والمتعلمين فقال : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً . وقوله : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ قال أكثر المفسرين : هو سائل المعروف والصدقة ، ولا تنهره إذا سألك ، فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً . قال الحسن : أما إنه ليس بالسائل الذى يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحيى بن آدم قال : إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره .

قال ابن القيم . والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وقوله تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال مجاهد : بالقرآن .

(١) من الآية : ٥٢ من سورة طه . (٢) من الآية : ٣ من سورة يوسف . (٣) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

وقال الكلبي : بمعنى أظْهَرَهَا ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرئه ويعلمه .  
وروى أبو البشر ، عن مجاهد : حَدَّثَ بالنبوة التي أعطاك وهي من أجل النعم . وقال مقاتل :  
أشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة .

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم ، وأن يحدث بنعم الله  
عليه في الدين والدنيا .

## تفسير سورة الشرح

مقدمة :

قال صاحب البضائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : ( بكا ) .

وسميت الشرح لمفتحتها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرح صدر المصطفى - ﷺ - ورفع قدره وذكره ، وتبديل العسر من  
أمره ببسره ، وأمره بالطاعة في انتظار أجره ، والرغبة إلى الله تعالى ، والإقبال على ذكره في قوله تعالى :  
﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى : إن مع  
العسر الذي أنت فيه من مقاساة الكفار يسراً عاجلاً ، إن مع العسر الذي أنت فيه من الكفار يسراً آجلاً .  
والعسر واحد واليسر اثنان ، وعن عمر - رضى الله عنه - لن يغلب عسر يسرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

وهي شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنها كانا يقولان : هما  
سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة ، وما كانا يتصلان بينهما بالبسملة ، ولكن المتواتر كونهما  
سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ في كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾  
الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾  
إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

### تفسير المفردات

- ﴿١﴾ ألم نشرح : ألمنفّح بالحكمة والنبوة .
- ﴿٢﴾ ووضعنا عنك : خففنا عنك وسهلنا عليك .
- ﴿٣﴾ وزرك : حملك « أعباء النبوة والرسالة »
- ﴿٤﴾ الذي أنقض ظهرك : أثقله حتى سُمع له نقيض « صوت »
- ﴿٥﴾ فإذا فرغت : من عبادة أديتها .
- ﴿٦﴾ فانصب : فاجتهد وأتبعها بعبادة أخرى .
- ﴿٧﴾ فارغب : فاجعل رغبتك في جميع شؤونك .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿١﴾ ألم نشرح لك صدرك ﴿٢﴾

شرح الصدر : فتحه ، أى : ألم نفتح صدرك للإسلام ؟ وروى أبو صالح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ألم نُلَيِّنْ لك قلبك .

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالوا : يا رسول الله أينشرح الصدر ؟ قال : « نعم وينفسح » قالوا : يا رسول الله وهل لذلك علامة ؟ قال : « نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت أخرجه الترمذى فى جامعه .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿٣﴾ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴿١﴾ وكقوله تعالى : ﴿٢﴾ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴿٢﴾

(١) من الآية : ٢٢ من سورة الزمر .

(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة الأنعام .

وروى عن الحسن قال : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قال : ملئ حكما وعلماً .

روى الترمذى فى جامعه عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة أن النبى - ﷺ - قال : « فينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول : أحد الثلاثة ، فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم ، فشرح صدرى إلى كذا وكذا » قال قتادة : قلت : ما يعنى ؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : فاستخرج قلبى ، فغسل قلبى بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ثم حشى إيماناً وحكمة » الحديث (١) .

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ (٢) فالمعنى : خططنا عنك حملك الثقيل .

وقوله تعالى : ﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ أى : الذى أثقل وأوهن ظهرك .

قال المفسرون : المراد بالوزر : الأمور التى فعلها الرسول - ﷺ - عن اجتهاد وعوتب عليه ، كإذنه للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخذه الفداء من أسرى بدر ، ونحو ذلك ، وليس المراد بالذنوب المعاصى والآثام ، فإن الرسل معصومون من مقارفة الآثام .

والنقيض : هو العسوت الذى يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل .

وقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ أى : رفعنا شأنك ، وأعلينا مقامك فى الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقروناً باسمى . قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ومن شعر حسان بن ثابت :

أَغْرُ عَلَيْهِ لِلنَّبِوةِ خَاتَمٍ مِنْ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيَشْهَدُ  
وَضُمَ إِلَيْهِ اسْمُ النَّبِىِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذَّنُ أَشْهَدُ  
وَشَقُّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ فِذْوُ الْعَرْشِ مُحَمَّدٌ ، وَهَذَا مُحَمَّدُ  
قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

وقال الفقيه القاضى أبو الفضل : هذا تقرير من الله - جل اسمه - لنبهه ﷺ - على عظيم نعمه لديه ، وشريف منزلته عنده ، وكرامته عليه بأن شرح قلبه للإيمان والهداية ، ووسعه لوعى العلم وحمل

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الإيمان) باب الاسراء بوسول الله - ﷺ - ... الخ ص ٣٦ رقم ١٠٣ ورواه البخارى فى (كتاب بدء الخلق) باب ذكر الملائكة .

(٢) من الآية : ٢ من سورة الفتح .

الحكمة ، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه وبغضه لسيرها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله ، وحط عنه عهده أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعته ذكره وقرانه مع اسمه اسمه ، قال قتادة : رفع الله - تعالى - ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومن ذكره معه - تعالى - أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ <sup>(١)</sup> وقال : ﴿ فَأَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

قال القاضي عياض في كتابه « الشفا » بسنده عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص فقلت : أخبرني عن صفة رسول الله - ﷺ - قال : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأُميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء : بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا ، وأذانا صما ، وقلوباً غلفاً <sup>(٣)</sup> .

وفي حديث آخر : أخذنا رسول الله - ﷺ - عن صفته في التوراة : « عبدى أحمد المختار ، مولده بمكة ، ومهاجره بالمدينة - أوقال : طيبة - أمتة الحمادون لله على كل حال » <sup>(٤)</sup> . أهـ  
سيدى يارسول الله

يا من له الأخلاق ماتهوى العلا  
منها وما ينعشق الكرماء  
زانتك في الخلق العظيم شمائل  
يغرى بهن ويولع الكبراء  
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى  
وفعلت ما لاتفعل الأنواء  
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً  
لا يستهين بعفوك الجهلاء  
وإذا رحمت فأنت أم أو أب  
هذان في الدنيا هما الرحماء

(١) من الآية : ١٣٢ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٨ كم سورة التغابن .

(٣) الحديث في الشفا للقاضي عياض ج ١ ص ٢٤١ طبع دار الفكر - بيروت ، ولكن بمعناه . وله أصل في الصحاح .

(٤) أنظر ما قبله .

وإذا أخذت العهد أو أعطيته  
 فجميع عهدك ذمة ووفاء  
 وإذا خطبت فللمنابر هزة  
 تغرؤ الندي وللقلوب بكاء  
 وإذا غضبت فإنما هي غصبة  
 للحق لا ضغن ولا شحناء  
 لو أن إنساناً تخير ملة  
 ما أختار إلا دينك الفقراء  
 المصلحون أصابع جمعت يداً  
 هي أنت، بل أنت اليد البيضاء  
 يا من له عز الشفاعة وحده  
 وهو المنزه ماله شفعاء  
 عرش القيامة أنت تحت لوائه  
 والحوض أنت حباله السقاء

قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾  
 أى : إن مع الضيقة والشدة يسراً ، أى : سعة وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ قال قوم :  
 هذا التكرير تأكيد للكلام . وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرفاً ثم كرروه فهو هو . وإذا  
 نكروه ثم كرروه فهو غيره . وهما أثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب .

وجاء في الحديث عن النبي - ﷺ - في هذه السورة أنه قال : « لن يغلب عسر يسرين »<sup>(١)</sup> أخرجه  
 ابن جرير .

وقال ابن مسعود : والذي نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن  
 يغلب عسر يسرين .

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكره له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب  
 إليه عمر - رضى الله عنهما - أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً ،  
 ولن يغلب عسر يسرين ، وإن الله - تعالى - يقول فى كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا  
 وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه فى كثر العمال جـ ٢ ص ١٤ رقم ٢٩٤٦ وعزاه إلى الحاكم عن الحسن مرسلًا .

(٢) الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .



وقال الحسن بن سفيان بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « نزل المعونة من السماء على قدر المؤنة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة » ومما يروى عن الشافعي أنه قال :

صبراً جيلاً ما أقرب الفرجا من راقب الله في الأمور نجا  
من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجا  
وقال ابن دريد : أنشدني أبوحاتم السجستاني :

إذا أشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب  
وأوطأت المكارة واطمأنت وأرست في أماكنها الخطوب  
ولم تر لانكشاف الضر وجهها ولا أغنى بحيلته الأريب  
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب  
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج  
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قوله تعالى ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَب . وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ أي : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة ، وقال ابن عباس وقتاده : فإذا فرغت من صلاتك ( فانصب ) أي : بالغ في الدعاء وسله حاجتك وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وقال الكلبي : إذا فرغت من تبليغ الرسالة ( فانصب ) أي : استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وعن مجاهد : إذا فرغت من دنياك ( فانصب ) في صلاتك . ونحوه عن الحسن .

وقال الجنيد : إذا فرغت من أمر الخلق فاجتهد في عبادة الحق .

وقال زيد بن أسلم ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي : من الجهاد ﴿ انصب ﴾ أي : في العبادة ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ قال الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله .

## تفسير سورة والتين والزيتون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز » :

السورة : مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : أربع وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : ( من )

سميت بـ « التين » لفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة القسم على حسن خلقه الإنسان ، ورجوع الكافر إلى النيران ، وإكرام المؤمنين بأعظم المثوبات الحسان ، ويبان أن الله حكيم وأحكم في قوله تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ وقال في البلد : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾ لا مناقضة بينهما ، لأن معناه عند كثير من المفسرين : منتصب القامة معتدلاً ، فيكون في معنى : أحسن تقويم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه - سبحانه - ذكر في السورة السابقة حال أكمل خلق الله - ﷺ - وذكر هنا حال النوع الإنساني وما ينتهي إليه أمره ، وما أعد - سبحانه - لمن آمن برسوله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾

## معاني المفردات

- ﴿ والتين والزيتون ﴾ : ( قَسَمُ ) بمنبتيهما من الأرض المباركة .  
 ﴿ وطور سينين ﴾ : جبل المناجاة للكليم عليه السلام .  
 ﴿ والبلد الأمين ﴾ : مكة المكرمة .  
 ﴿ أحسن تقويم ﴾ : أكمل تعديل ، وأحسن صورة .  
 ﴿ رددناه ﴾ : أى : رددنا الكافر ، أو جنس الإنسان .  
 ﴿ أسفل سافلين ﴾ : إلى النار . قال الإمام على : هى النار بعضها أسفل من بعض .  
 ﴿ غير ممنون ﴾ : غير مقطوع عنهم .  
 ﴿ بالدين ﴾ : بالخبراء بعد البعث والحساب .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

قال ابن القيم : أقسم - سبحانه - بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التى هى مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة ، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتيهما : هو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا ، وقد قال جماعة من المفسرين : إنه - سبحانه - أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما ، فإن التين فاكهة مخلص من شوائب التنغيص ، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل فى الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة ، وشكله من أحسن الأشكال ، ويدخل أكله والنظر إليه من باب المفرحات ، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد فى القوة ، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطباً وباساً .

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر ، فإن عوده يخرج ثمرأ ، يعصر منه هذا الدهن الذى هو مادة النور ، وصيغ للأكليين ، وطيب ودواء ، ومنه من مصالح الخلق ما لا يخفى ، وشجره باق على مر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط ، وهذا الذى قالوه حق ، ولا ينافى أن يكون منبته مرادأ ، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتيهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فإنه الجبل الذى كلمه عليه ونجاه وأرسله إلى فرعون وقومه .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ :

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم . وترقى فى هذا القسم

من الفاضل إلى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من صاعير ، واستعلن من فاران » فمجيئه من طور سينين بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ، ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد - ﷺ - ( وساعير : جبل بيت المقدس - وفاران : جبال مكة ) . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد - ﷺ - بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بنى إسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقاً للواقع . ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلي ، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته فقال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

أى : في أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الحلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى في قبضة من تراب ، وخلقته بالمشاهدة من نقطة من ماء ، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله ، ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لمكان العبرة فيها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى :

﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ (١) كما قال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ (٢) وكقوله : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾ (٣) .

وتضمن أقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة - الدالة عليه وعلى علمه وحكمته - عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه ، يعرفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه .

قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ .

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار : قاله مجاهد ، والحسن . قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - هى النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء وإبراهيم : إنه أرذل العمر ، وهو مروى عن ابن عباس .

قال ابن القيم : والصواب القول الأول لوجوه :

﴿ أحدها ) : أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لا فى لغة ولا عرف ، وإنما أسفل سافلين :

هو سجين الذى هو مكان الفجار ، كما أن عليين مكان الأبرار .

( الثانى ) : أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أذل العمر .

( الثالث ) : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم فى رد من طال عمره منهم إلى أذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى يستثنى منهم المؤمنين .

( الرابع ) : وهو - سبحانه - قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الايمان ، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون . .

( الخامس ) : أنه - سبحانه - ذكر نعمته على الإنسان بخلقه فى أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين ، فإذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبدله - بعد هذه الصورة التى هى فى أحسن تقويم - صورة من أقبح الصور فى أسفل سافلين . فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته .

( السادس ) : أن نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ <sup>(١)</sup> فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا . والله أعلم . قلت : ونظيره أيضاً قوله تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ <sup>(٢)</sup> . قوله تعالى : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أى : غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكرر عليهم ، وكما قال تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ ( فما يكذبك ) أى : يا ابن آدم ( بعد بالدين ؟ ) أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البداءة ، وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شئ يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ !  
وقوله تعالى : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ هذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة ، والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده فى الدنيا بشرعه وأمره ، وحكمه بينهم فى الآخرة بثوابه وعقابه ، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ونقله فى أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، إلى أكمل الأحوال ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ !

وهل ذلك إلا قذح فى حكمته وحكمه ؟ ! فله ما أخصر لفظ هذه السورة . وأعظم شأنها ، وأتم معناها .

﴿ فله الحمد رب السموات ، ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ <sup>(٤)</sup> .

(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة العصر ، وبعض الآية : ٣

(١) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الانشقاق .

(٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الجاثية .

(٣) من الآية : ١٠٨ من سورة هود .

## تفسير سورة العلق

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة : مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة .

وكلماتها : اثنتان وتسعون .

وحروفها : مائتان وثمانون .

وفواصل آياتها : ( ق ، م ، ي ، هـ ، ب ) وسميت بـ ( العلق ) لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ابتداء في جميع الأمور باسم الخالق الرب - تعالى - جلّت عظمته ، والمنة على الخلق بتعليم أهل الكفر والمعصية ، وتخويف الأجانب بالعقوبة ، وبشارة الساجدين بالقربة في قوله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر هناك خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذكر هنا خلق الإنسان من علق ، إلا أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما سلف .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ

الْإِنْسَانَ لَبِيطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ

الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ

بِالنَّفْقَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ

لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾

سَدِّعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تَطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾

## معاني المفردات

- ﴿ علق ﴾ : دم جامد استحال اليه المنى .  
 ﴿ عَلم ﴾ : علم الانسان الكتابة بالقلم .  
 ﴿ كلا ﴾ : حقاً .  
 ﴿ ليطفى ﴾ : ليجاوز الحد في العصيان .  
 ﴿ الرجعى ﴾ : الرجوع في الآخرة للجزاء .  
 ﴿ أرأيت ﴾ : أخبرنى .  
 ﴿ لَنَسْفَعَنَ بالنَّاصية ﴾ : لنسحقه بناصيته إلى النار .  
 ﴿ فَلْيَدْعُ نادية ﴾ : أهل مجلسه من قومه وعشيرته .  
 ﴿ سَدْعَ الزبانية ﴾ : ملائكة العذاب لجره إلى النار .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ \* خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴿

هذه السورة الكريمة أول منازل من القرآن الكريم ، فى قول معظم المفسرين نزل بها الروح الأمين على قلب سيد المرسلين : سيدنا محمد ﷺ - وهو قائم على حراء ؛ فعلمه خمس آيات من هذه السورة .

أخرج البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول ما بدئ به رسول الله ﷺ - من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعب - الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ : قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطى الثالثة ثم أرسلنى فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى - ابن عم خديجة - وكان أمراً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : يابن عم : اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله - ﷺ - خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله - ﷺ - أومر جى هم ؟؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحى .

ومعنى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أى : اقرأ يا محمد القرآن مبتدئا ومستعينا باسم ربك الجليل ، الذى خلق جميع المخلوقات ، وأوجد جميع العوالم . وقال السهيلي : أى لاتقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك لكن بحول ربك وإعانتة ، فهو يعلمك كما خلقك .

ثم فسر الخلق تفخيما لشأن الإنسان فقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ أى : خلق هذا الإنسان البديع الشكل الذى هو أشرف المخلوقات من العلق - وهى الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطب الحديث أن المنى الذى خلق منه الإنسان محتو على حيوانات منوية لاترى بالعين ، وإنما ترى بالمجهر الدقيق وأن لها رأسا وذنبًا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال القرطبي : خص الإنسان بالذكر تشريفا له ، والعلق : قطعة من دم رطب ، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه .

وقوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى : اقرأ يا محمد وربك العظيم الكريم ، الذى لا يساويه ولا يدانيه كريم ، وقد دل على كمال كرمه أنه ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ (١) فهو - سبحانه - علّم العباد مالم يعلموا ، لذا قال - سبحانه : ﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ أى : الذى علم الخط والكتابة بالقلم ، وعلم البشر مالم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف ، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما علم - سبحانه - بواسطة الكتابة بالقلم ، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب .

قال القرطبي : نبه - تعالى - على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التى لا يحيط بها إنسان ، ومادونت العلوم ولا قيدت الحكم ، ولا ضببت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ماستقامت أمور الدنيا والدين .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« تتأمل كيف جمع - سبحانه وتعالى - فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الموجدات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى ، ثم ذكر ثانيا خصوصا خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلق ، وفى سائر المواضع بذكر ماهو سابق عليها ، أما مادة الأصل



وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن ، وذكر فى هذا الموضع أول مبادئ تعليق التخليق وهو العلقه ؛ فإنه كان قبلها نقطة فأول انتقالها إنما هو الى العلقه ، ثم ذكر ثالثا : التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمة على عباده ؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الرصايا وتحفظ الشهادات وتضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضيين للباقيين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنين ، وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلق مذاهب السلف ، وكان معظم الخلل الداخلى على الناس فى دينهم ودنياهم إنما يعترهم من النسيان الذى يحو صور العلم من قلوبهم ، فجعل لهم الكتاب وعاء حفاظا للعلم من الضياع كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ، فنعمة الله - عز وجل - بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص اليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله فهو الذى علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم فإنه علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم ، هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخط به ، ومن هيا ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ؟! ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ؟! ومن الذى دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد ؟! فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم ، فقف وقفة فى حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل ، فمن الذى أجرى تلك المعانى على قلبك ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ، ويترجم عنك ، ويتكلم على لسانك ، ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله سوى من ﴿ علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى فقد دل التعليم بالقلم على أنه - سبحانه - هو المعطى لهذه المراتب ، ودل قوله : ( خلق ) على أنه يعطى الوجود العينى ، فدلّت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، دلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه - تعالى - خلقا وتعلما ، وذكر خلقين وتعلمين : خلقا عاما وخصا ، وتعلما خاصا ، وتعلما عاما ، وذكر من صفاته ها هنا اسم الأكرم الذى فيه كل خير وكل كمال ، فله كل كمال وصفا ، ومنه كل خير فعلا ، فهو الأكرم فى ذاته وأوصافه وأفعاله ، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لامن حاجة دعتة إلى ذلك وهو الغنى الحميد . أه .

فوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ﴾  
 يخبر - تعالى - عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيه صرفته .

أخرج الإمام أحمد في مسنده عن بشر بن جحاش قال : كنا جلوسا عند رسول الله ﷺ - فبصق في كفه بصقة ثم وضع أصبعه فقال : يقول الله - تعالى - يابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟! (١) .

وقال ابن أبي حاتم بسنده : عن عون قال : قال عبدالله منهومان لايشبعان : صاحب القلم ، وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ؛ فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ، قال : ثم قرأ عبدالله : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ . وقال للآخر : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (٢) وقد روى هذا الحديث مرفوعا إلى رسول الله ﷺ - : « منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا » (٣) .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فلئذ نادى ، سندع الزبانة ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ .

نزلت هذه الآيات في أبي جحاش - له - الله - توعده النبي ﷺ - على الصلاة عند البيت ، قال تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ﴾ تعجب من حال ذلك الشقى الفاجر ، أى : أخبرنى يا محمد عن حال ذلك المجرم الأثيم ، الذى ينهى عبداً من عباد الله عن الصلاة ، مأسخف عقله ، وما أشنع فعله !! وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلى هو محمد - ﷺ - وأن الذى نهاه هو اللعين « أبو جهل » حيث قال : « لئن رأيت محمدا يصلى لأطأن على عنقه ، ولأعقرن وجهه فى التراب ، فجاء يوماً فوجد رسول الله - ﷺ - يصلى ، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، فقيل له . مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقا من نار ، وهولا وأجنحة . فقال رسول الله - ﷺ : « لودنا منى لاخطفتة الملائكة عضوا عضوا » فأنزل الله : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ﴾ إلى آخر السورة .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ أى : أخبرنى إن كان هذا العبد المصلى - وهو النبي - ﷺ - الذى نهاه عن الصلاة صالحا مهتديا ، على الطريقة المستقيمة فى قوله وفعله !! ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أى : أو كان آمرا بالإخلاص والتوحيد ، داعيا إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه ؟!

ثم عاد لخطاب الرسول الكريم - ﷺ - فقال تعالى : ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ أى : أخبرنى يا محمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أى : ألم يعلم ذلك الشقى بأن الله مطلع على أحواله مراقب لأفعاله ، وسيجازيه عليها .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده في (مسند بشر بن جحاش رضى الله عنه - ج٤ ص ٢١٠ .

(٢) انظره في تفسير ابن كثير : في تفسير سورة العلق ج٤ ص ٥٦٥ .

(٣) أخرجه في كنز العمال في الآداب : آداب : متفرقة ج١٠ ص ٢٤٨ رقم ٩٣٢٨ وعزاه إلى ابن عدى عن أنس ، والبخاري عن ابن عباس .

ثم ردعه وزجره فقال : ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ أى : ليرتدع هذا الفاجر « أبوجهل » عن غيه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول ويكف عما هو عليه من الكفر والضلال ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ أى : لنأخذنه بناصرته - مقدم شعر الرأس - فلنجرنه إلى النار بعنف وشدة ونقذفه فيها . ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أى : صاحب هذه الناصية كاذب فاجر ، كثير الذنوب والإجرام .

وقوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى : فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ أى : سندعو خزنة جهنم ، الملائكة الغلاظ الشداد حتى يعلم من يغلب : أحزبنا أو حزبه ؟

قال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال أبوجهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى - ﷺ - فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة » (١) . وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما .

وروى أحمد والترمذى وابن جرير - وهذا لفظه - من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول الله - ﷺ - يصلى عند المقام ، فمر به أبوجهل بن هشام فقال : يا محمد : ألم أنك عن هذا ؟ وتوعده ، فأغلظ له رسول الله - ﷺ - وانتهره . فقال : يا محمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادى ناديا . فأنزل الله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ سندع الزبانية ﴿ وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذى : حسن صحيح (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ يعنى : يا محمد لاتطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصل حيث شئت ولا تباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس : ﴿ واسجد واقترب ﴾ أى : وواظب على سجودك وصلاتك ، وتقرب بذلك إلى ربك . وفى الحديث الذى رواه مسلم : قال رسول الله - ﷺ - : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (٣) .

(١) رواه البخارى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة العلق ح ٦ ص ٢١٦ طبع الشعب

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما - ٢ ح ١ ص ٢٥٦ وأخرجه الترمذى

(٣) رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب : ما يقال فى الرجوع والسجود ح ١ ص ٣٥٠ رقم ٤٨٦/٢١٥ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى

## تفسير سورة القدر

مقدمة من السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية عند بعض المفسرين ، مدنية عند الأكثرين :

آياتها : خمس

وكلماتها : ثلاثون .

وحروفها : مائة واثنا عشر

فواصل آياتها : على الرء .

سميت سورة القدر : لمفتحتها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف ليلة القدر في نص القرآن ، ونزول الملائكة المقربين من عند الرحمن . ، واتصال سلامهم طوال الليل على أهل الإيمان في قوله : ﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها :

إن في تلك أمر الرسول - ﷺ - بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق ، واسم الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وفي هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذي العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم في دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله في ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ  
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾  
سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

## معاني المفردات

( أنزلناه ) أى : ابتدأناه أى ابتدأنا إنزال القرآن العظيم  
 ( القدر ) العظمة والشرف ، من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : منزلة وشرف .  
 ( الروح ) : جبريل - عليه السلام .  
 ( من كل أمر ) : بكل أمر من الخير والبركة .  
 ( سلام هى ) : على أولياء الله وأهل طاعته .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أن أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله - عز وجل - : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ <sup>(١)</sup> وهى ليلة القدر وهى من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ <sup>(٢)</sup>

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله - ﷺ - ثم قال معظماً لشأن ليلة القدر التى اختصها - سبحانه - بانزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

قال ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد أن النبى - ﷺ - ذكر رجلاً من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر قال : فعجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ . أى : قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل . <sup>(٣)</sup>

وقال ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس في تلك الشهور ليلة القدر ، وهكذا قال قتادة والشافعى وغير واحد ، وقال عمرو بن قيس : عمل فيها خير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وهو اختيار ابن جرير ، قال ابن

(١) من الآية : ٣ من سورة الدخان

(٢) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة

(٣) أخرجه ابن كثير في تفسيره : تفسير سورة القدر

كثير : وهو الصواب لا ماعده ، وهو كقوله - ﷺ - : « رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » (١) رواه أحمد .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : لما حضر رمضان قال رسول الله - أ : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم » (٢) رواه النسائي من حديث أيوب به .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر : ثبت في الصحيح عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣) .

وقوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أى : يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له ، وأما الروح فقيل : المراد به ههنا جبريل - عليه السلام - فيكون من باب عطف الخاص على العام ، وقيل : هم حزب من الملائكة ، جعلوا حفظه على سائرهم ، وأن الملائكة لا يرونهم كما لا نرى نحن الملائكة ، والصحيح الأول . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى : بأمره ﴿ من كل أمر ﴾ أى : بكل أمر قدره الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل ، قال ابن عباس . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ونقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ (٤) .

وقوله تعالى : ﴿ سلام هي ﴾ أى : ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أى : إلى طلوع الفجر . وقيل : أى : هى سلام ؛ أى : ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة ، وكذا قال مجاهد : وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يرون على كل مؤمن ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن .

(١) رواه الامام أحمد في مسنده (مسند عثمان بن عفان - رضى الله عنه) جـ ١ ص ٦٢ ولفظه : « رباط يوم في سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه ، فليرابط امرؤ كيف شاء ، هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم أشهد »

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده جـ ٢ ص ٣٨٥

ورواه النسائي في سنته عن أبي هريرة بلفظ : « أناكم شهر رمضان .... الحديث » جـ ٤ ص ١٠٤

(٣) الحديث أخرجه البخارى في صحيحه في (كتاب الايمان) باب : قيام ليلة القدر من الايمان جـ ١ ص ١٦ بلفظ « من يتم ..... الحديث » ورواه النسائي في سنته في (كتاب الايمان) ايضاً .. ورواه مسلم جزء حديث .

(٤) الآية ٤ من سورة الدخان

## ليلة القدر

أى الليالى هى ؟

قال الإمام القرطبى : اختلف العلماء فى ذلك ، والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زر بن حبیش قال : قلت لأبى بن كعب : إن أخاك عبدالله بن مسعود يقول : من يقيم الحول يصيب ليلة القدر . فقال : يغفر الله لأبى عبدالرحمن ، لقد علم أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس ؛ ثم حلف لا يستثنى - أى : جزم فى حلفه بلا إستثناء - أنها ليلة سبع وعشرين . قال : قلت : بأى شىء تقول ذلك يا أبا المنذر ؟ قال : الآية التى أخبرنا بها رسول الله - ﷺ - أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها<sup>(١)</sup> . قال الترمذى حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم .

وقيل فى ليالى السنة كلها . وقال ابن مسعود : من يقيم الحول يصيبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن ! أما إنه علم أنها فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هذا القول ذهب أبوحنيفة أنها فى جميع السنة .

وقيل عنه : إنها رفعت - يعنى ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقية .

وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت فى يوم من هذه السنة كانت فى العام المقبل فى يوم

آخر .

قال القرطبى : والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان .. ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ، قاله أبوورزين العقيلي .

وقال الحسن وابن إسحاق وعبدالله بن الزبير : هى ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهى الليلة التى كانت صبيحتها وقعة بدر : كأنهم فزعوا بقوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾<sup>(٢)</sup> وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هى ليلة التاسع عشر .

والصحيح المشهور أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وهو قول مالك والشافعى والأوزاعى وأبى

ثور وأحمد .

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى ( كتاب الصوم ) فى باب ما جاء فى ليلة القدر ج ٢ من ١٥٥ رقم ٧٩٠ وأخرجه مسلم فى صحيحه فى ( كتاب الصيام ) باب فضل ليلة القدر .... الخ ح ١ ص ٨٢٨ رقم ٧٦٢/٢٢٠ .

(٢) من الآية : ٤١ من سورة الأنفال .

ثم قال قوم : هي ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعى - رضى الله عنه - وذلك للحديث الذى رواه مالك فى الموطأ : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاما حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : « من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، وقد أريت هذه الليلة ثم أنسيتها ، وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر »<sup>(١)</sup>

قال أبوسعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد ( قطر ) . قال أبوسعيد : فأبصرت عيناي رسول الله - ﷺ - . إنصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين .

وقيل : ليلة الثالث والعشرين ، ففى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « إني رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين »<sup>(٢)</sup> قال عبدالله بن أنيس : فرأيت فى صبيحته ليلة ثلاث وعشرين فى الماء والطين ، كما أخبر رسول الله - ﷺ - ..

وقيل ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أن سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » رواه مسلم<sup>(٣)</sup> .

قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين .

وقيل : ليلة سبع وعشرين ، وقد مضى دليله ، وهو قول على - رضى الله عنه - وعائشة ومعاوية وأبى بن كعب .

وروى ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كان متحريرا ليلة القدر فليتحرها ليلة سبع وعشرين »<sup>(٤)</sup> .

وقال أبوبكر الوراق : إن الله - تعالى - قسم ليالى هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : ( هي ) .

(١) أخرجه الامام مالك فى الموطأ فى ( كتاب الاعتكاف ) باب ما جاء فى ليلة القدر حـ ١ ص ٣١٩ رقم ٩ وقال محمد فؤاد عبدالباقى : وأخرجه البخارى فى ( كتاب الاعتكاف ) باب الاعتكاف فى العشر الأواخر . ومسلم فى ( كتاب الصيام ) باب فصل ليلة القدر ، حديث رقم ٢١٣

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٨٢٦ رقم ٢١٦

(٣) أخرجه مسلم بمعناه فى ( كتاب الصيام ) باب فضل ليلة القدر .... الخ

وأخرجه بلفظه أحمد ، والبخارى ، وأبو داود : انظر كثر العمل فى ( كتاب الصوم ) جـ ٨ ص ٥٣ رقم ٢٤٠٣٧ وانظر مسند الامام أحمد ٢٣٤/٣ والبخارى جـ ٣ ص ٦١

(٤) أخرجه البيهقى ١١/٤ السنن الكبرى ، وهو فى مجمع الزوائد ١٧٦/٣ وقال البيهقى : قلت : لابن عمر حديث فى الصحيح غير هذا ، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .



وأيضاً : فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهى تسعة أحرف ، فتجىء سبعا وعشرين .  
 وقيل : هى ليلة تسع وعشرين : فعن أنس قال : أخبرنى عبادة بن الصامت أن النبى خرج ليخبرنا  
 بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « إني خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان  
 وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم ؛ فالتمسوها فى التسع والسبع والخمس »<sup>(١)</sup> رواه البخارى .  
 وقيل : أخفأها فى جميع شهر رمضان ليجتهدوا فى العمل والعبادة ليلالى شهر رمضان طمعا فى  
 إدراكها ، كما أخص الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، واسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى ، وساعة  
 الإجابة فى ساعات الجمعة وساعات الليل .. رحمة منه وحكمة .

وعن عائشة - رضى الله عنها - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يجاور فى العشر الأواخر من  
 رمضان ، ويقول : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان »<sup>(٢)</sup>  
 متفق عليه

وعن عائشة أيضاً أن النبى - ﷺ - قال : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من عشر الأواخر من شهر  
 رمضان »<sup>(٣)</sup> أخرجه البخارى .

قال اليعقوبى فى شرح السنة :

قال أبو عيسى : روى عن النبى - ﷺ - فى ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين ، وليلة ثلاث  
 وعشرين ، وخمس وعشرين ، وسبع وعشرين ، وتسع وعشرين ، وآخر ليلة من رمضان .. قال  
 الشافعى : كان هذا عندى - والله أعلم - أن النبى - ﷺ - كان يجيب على نحو مايسأل عنه يقال له :  
 ألتمسها فى ليلة كذا ؟ فيقول : التمسوها فى ليلة كذا ، قال الشافعى : وأقوى الروايات عندى فيها ليلة  
 إحدى وعشرين . أ . هـ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه جـ ٣ ص ٦١ طبع الشعب .  
 (٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر جـ ١ ص ٢٩٠ رقم ٧٢٦ طبع عيسى الحليمى .  
 (٣) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه حـ ٣ ص ٦٠ طبع الشعب .

## الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان

قال الإمام الحافظ زين الدين ابن رجب الحنبلي في كتابه «لطائف المعارف» : ماملخصه :  
 في الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مثثره ،  
 وأحيا ليله ، وأيقظ أهله<sup>(١)</sup> هذا لفظ البخارى ، ولفظ مسلم ، وأحيا اللين وأيقظ أهله وشد المثثر<sup>(٢)</sup>  
 وفي رواية لمسلم عنها قالت : كان رسول الله - ﷺ - يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره<sup>(٣)</sup> .  
 كان النبى - ﷺ - يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها في بقية الشهر .  
 فمنها : إحياء الليل

فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله ، ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه ، ويؤيده ما في صحيح  
 مسلم عن عائشة قالت : ما علمه - ﷺ - قام ليلة حتى الصباح .

ومنها : أن النبى - ﷺ - كان يوقظ أهله للصلاة في ليالى العشر دون غيرها من الليالى ، وفي حديث  
 أبى ذر أن النبى - ﷺ - لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين ذكر أنه دعا أهله  
 ونساءه ليلة سبع وعشرين خاصة وهذا يدل على أنه يتأكد بإيقاظهم في أكد الأوقات التى ترجى فيها ليلة  
 القدر .

وأخرج الطبرانى من حديث على أن النبى - ﷺ - كان يوقظ أهله في العشر الأواخر من رمضان ،  
 وكل صغير وكبير يطبق الصلاة<sup>(٤)</sup> . قال سفيان الثورى : أحب إلى إذا دخل العشر الأواخر أن يتجهد  
 بالليل ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبى - ﷺ - أنه كان يطرق فاطمة وعلياً ليلاً فيقول لهما : ألا تقومان فتصليان ؟!  
 وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر .

وكانت امرأة حبيب أبى محمد تقول له بالليل : قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل ،  
 وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامَنَا ونحن قد بقينا .

يانائم الليل كم ترقد      قم يا حبيبى قد دنا الموعد  
 وخذ من الليل وأوقاته      وردا إذا ما هجع الرُّقْد

(١) الحديث في اللؤلؤ والمرجان في (كتاب الصيام) باب الاجتهاد وفي العشر الأواخر من رمضان حـ ١ ص ٢٩٢ رقم ٧٣٠

(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد في العشر الأواخر من رمضان جـ ٢ ص ٨٣٢ رقم ١١٧٤/٧

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه جـ ٢ ص ٨٣٢ رقم ١١٧٥/٨ في (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد في العشر الأواخر .

(٤) أخرجه البيهقى في جمع الزوائد في (كتاب الصوم) باب في العشر الأواخر حـ ٣ ص ١٧٤ وقال البيهقى : قلت : رواه الترمذى باختصار ،  
 ورواه الطبرانى في الأوسط وأبو يعلى باختصار عنه .

من نام حتى ينقضى ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد  
قل لذوى الأبواب أهل التقى قنطرة العرض لكم موعد

ومنها : أن النبي - ﷺ - كان يشد المئزر واختلفوا في تفسيره ، فمنهم من قال : هو كناية عن شدة جده واجتهاده في العبادة ، وهذا فيه نظر ؛ فانها قالت : جد وشد المئزر ، فعطفن شد المئزر على جده ، والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء ، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون منهم سفيان الثوري . وقد كان النبي - ﷺ - غالبا يعتكف العشر الأواخر ، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنصر بالإجماع .

ومنها اغتساله بين العشاءين ، وروى من حديث على أن النبي - ﷺ - كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفي إسناده كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفي إسناده ضعيف .

وقال ابن جرير : كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالى العشر الأواخر ، وكان إبراهيم النخعي يغتسل في العشر كل ليلة ، ومنهم من كان يغتسل في الليالى التى تكون أرجى لليلة القدر .

وقال حماد بن سلمة : كان ثابت البناني وحيد الطويل يلبسان أحسن قياهما ويتطيبان ويطييون المسجد بالنضوح والدخنة في الليالى التى تحي فيها ليلة القدر .

فتبين بهذا انه يستحب في الليالى التى ترجى فيها ليلة القدر التنظيف والتزين والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن كما يشرع ذلك في الجمع والأعياد ، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب في سائر الصلوات ، كما قال تعالى : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ <sup>(١)</sup> وقال ابن عمر : الله أحق أن يتزين له ولا يكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى ، وتطهيره من أدران الذنوب وأوضارها ؛ فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لاتغنى شيئا ، قال تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ﴾ <sup>(٢)</sup>

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى

تقلب عريانا وإن كان كاسيا

ومنها : الاعتكاف ، ففي الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبي - ﷺ - كان يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله تعالى . . وفي صحيح البخارى عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين ، وإنما كان يعتكف النبي - ﷺ - أ - في هذا العشر التى يطلب فيها ليلة القدر قطعا لأشغاله ، وتفريغا لباله ، وتخليا لمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيرا يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم ولا يشتغل بهم .

(١) من الآية : ٣١ من سورة الاعراف

(٢) من الآية : ٢٩ من سورة الاعراف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمنجاة ربه وذكره ودعائه ، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية ، وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ؛ فان الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهي عنها .

فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الاعتكاف في المساجد خصوصا في شهر رمضان في العشر الأواخر منه كما كان النبي - ﷺ - يفعله .

فمعنى الاعتكاف وحقيقته : قطع العلائق عن الخلائق بخدمة الخالق ، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع الى الله تعالى بالكلية ، على كل حال كان بعضهم لا يزال منفردا في بيته خاليا بربه فقيل له : أما تستوحش ؟ قال : كيف استوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرى .  
ياليلة القدر للعابدين اشهدى ، ياأقدام القانتين اركعى لربك وأسجدى ، ياألسنة السائلين جدى في المسألة واجتهدى .

يا رجال الليل جدوا ربَّ داع لا يرد  
لا يقوم الليل إلا من له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الخطوة بأنس مولاهم وقربه ، وإنما يفرون من ليالى البعد والهجر .  
قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾  
فاذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالتزول إلى الأرض لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات : بالصوم والصلاة في ليالى رمضان ، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح ، فيقول الرب - تبارك اسمه - أنتم طعنتم في بنى آدم وقتلتم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فقلت لكم : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾<sup>(١)</sup> اذهبوا اليهم في هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أنى اخترتهم على علم على العالمين .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه »<sup>(٢)</sup> وفي المسند عن عبادة بن الصامت ، وعن النبي - ﷺ - قال : « من قامها ابتغاءها ثم وقعت له غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر »<sup>(٣)</sup> .

قال جوير : قلت للضحاك : أرايت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم في ليلة القدر نصيب ؟ قال : نعم ، كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر .

## الأعمال المستحبة في هذه الليلة المباركة .:

قال ابن رجب : وأما العمل في ليلة القدر فقد ثبت عن النبي - ﷺ - أنه قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وقيامها إنما هو إحيائها بالتهجد فيها والصلاة ، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها وقال سفيان الثوري الدعاء في تلك الليلة أحب إلى من الصلاة ، قال : وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله في الدعاء والمسألة لعله يوافق . ومراده أن كثرة الدعاء وأفضل من الصلاة التي لا يكثر فيها الدعاء وإن قرأ ودعا كان حسناً ، وقد كان النبي - ﷺ - يتهجد في ليالي رمضان ويقرأ قراءة مرتلة ، لا يمر بأية فيها رحمة إلا سأل ، ولا بأية فيها عذاب إلا تعوذ ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكير ، وهذا أفضل الأعمال وأكملها في ليالي العشر وغيرها والله أعلم

وقد قال الشعبي في ليلة القدر : ليلها كنهارها . وقال الشافعي في القديم : استحَب أن يكون اجتهاده في نهارها كاجتهاده في ليلها ، وهذا يقتضي استحباب الاجتهاد في جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره والله أعلم .

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين ، وأنفاس المحبين ، وقصص التائبين ، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب .

لوقام المذنبون في هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا قصص الاعتذار ومضمونها : ﴿ يا أيها العزيز مَسَّنَا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا <sup>(١)</sup> ﴾ لبرز لهم التوقيع عليها ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ <sup>(٢)</sup>

## أفضل الدعاء في ليلة القدر

قالت عائشة - رضي الله عنها - للنبي ﷺ : أرأيت أن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولي : اللهم إنك عفوٌ تحب العفو فاعف عني » والحديث في مسند أحمد والعُفُو : من أساء الله تعالى - وهو يتجاوز عن سيئات عباده وهو يحب العفو ، فيحب أن يعفو عن عباده ، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض ، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه ، وعفوه أحب إليه من عقوبته ، وكان النبي - ﷺ - يقول : « أعوذُ برضائك من سخطك ، وبِعفوك من عقوبتك »

إذا أوجعتك الذنوب فداوها : برفع يد بالليل والليل مظلم ولا تقنطن من رحمة الله إنما : قنوطك منها من ذنوبك أعظم فرحمته للمحسنين كرامة : ورحمته للمذنبين تكرم

(١) من الآية : ٨٨ من سورة يوسف

(٢) من الآية : ٩٢ من سورة يوسف .

## تفسير سورة البينة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : أربع وسبعون

وحروفها : ثلاثمائة وتسع وتسعون

فواصل آياتها : على الهاء

ولها اسمان : سورة المنفكين لقوله : ﴿ والمشركين منفكين ﴾ وسورة القيمة لقوله : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان تمرد أهل الكتاب ، والخبر عن صحة أحكام القرآن ، وذكر وظيفة الخلق في خدمة الرحمن ، والإشادة بخير البرية من الإنسان وجزاء كل أحد منهم بحسب الطاعة والعصيان ، وبيان أن موعود الخائفين من الله الرضا والرضوان في قوله ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾

فضل السورة :

صح عن النبي - ﷺ - أنه قال لأبي بن كعب : « يا أبا : إن الله أمرني أن أقرأ عليك : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ قال أبي : وسماني ؟ قال : نعم ، فبكى أبي من الفرح »<sup>(١)</sup> والحديث رواه البخاري .

مناسبة السورة لما قبلها :

« إن قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ .. الآيات كالعلة لإنزال القرآن كأنه قيل : إنا أنزلناه ، لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى  
تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مَطْهُرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ

قِيمَةً ﴿٢﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ  
 الْبَيِّنَةُ ﴿٣﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا  
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ  
 شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ  
 الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ جَزَاءُؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

### معاني المفردات

- (أهل الكتاب) اليهود والنصارى  
 (المشركون) عبدة الأوثان والأصنام من العرب  
 (منفكين) أى : مفارقين ما هم عليه  
 ﴿البينة﴾ : الحجة الواضحة ، والمراد بها النبى - ﷺ -  
 ﴿صحفا﴾ واحدة صحيفة وهو ما يكتب فيه  
 ﴿القيمة﴾ : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتغالها على الحق .  
 ﴿البينة﴾ : الثابتة الدليل .  
 الإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصاً له تعالى  
 ﴿حنفاء﴾ واحدهم : حنيف ، وهو فى الأصل : المائل المنحرف ؟ والمراد به المنحرف عن الزيغ إلى  
 الإسلام لوجه الله تعالى .  
 ﴿البرية﴾ : الخليقة  
 ﴿خشى ربه﴾ أى : خاف الله .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

قال القرطبي : قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمشركين ﴿ الذين كانوا بمكة وحوها ، والمدينة والذين حوها ، وهم مشركو قريش . ﴾ منفكين ﴿ أى : منتهين عن كفرهم مائلين عنه . ﴾ حتى تأتيهم البينة ﴿ أى : أتتهم البينة ، أى : محمد - ﷺ - . وقيل : ﴿ منفكين ﴾ : زائلين ، أى : لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول .

وقيل : ﴿ منفكين ﴾ بارحين ، أى : لم يكونوا ليبرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : أى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد - ﷺ - فى كتابهم حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه . وهو كقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ (١)

وقال بعض اللغويين : ﴿ منفكين ﴾ أى : هالكين ، من قولهم : انشك صلا المرأة عند الولادة ، والصلا : وسط الظهر من الإنسان ، وهو أن يفصل فلا يتم حتى يهلك .

المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بارسال الرسل وإنزال الكتب .

وقوله تعالى ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ أى : هذه البينة هى رسالة محمد - ﷺ - المرسل من عند الله تعالى ﴿ يتلوا صحفاً مطهرة ﴾ أى : يقرأ عليهم ما تتضمن الصحف من المكتوب ، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ .

قال ابن عباس : ﴿ مطهرة ﴾ من الزور والشك والنفاق ، والضلالة . وقال قتاده : ﴿ مطهرة ﴾ من الباطل ، والمعنى واحد ، ومطهرة من نعت الصحف ، وهو كقوله تعالى ﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾ (٢) وقيل ﴿ مطهرة ﴾ أى ينبغى ألا يمسها إلا المطهرون .

وقوله تعالى : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ قال ابن جرير : أى : فى الصحف المطهرة كتب من كتب الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ : لأنها من عند الله - عز وجل - قال قتادة فى هذه الآية : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويشئى عليه بأحسن الثناء .

وقوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

أى : وما اختلف اليهود والنصارى فى شأن محمد - ﷺ - إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على صدق رسالته وأنه الرسول الموعد به فى كتبهم .



قال أبو السعود : والآية مسوقة لغاية التشنج على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جنايتهم ، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، كقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ... ﴾ (١)

قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق . يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾

أى : وما أمر الكفار في التوراة والإنجيل ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أى : ليوحده مخلصين العبادة لله - جل وعلا - ﴿ حنفاء ﴾ أى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على دين إبراهيم ، دين الحنيفة السمحة ، الذى جاء به خاتم المرسلين ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى : وأمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل . في أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، ويعطوا الزكاة لمستحقها عن طيب نفس ، قال الصاوى : وخص الصلاة والزكاة لشرفهما ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى : وذلك المذكور من العبادة والإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الملة المستقيمة - دين الإسلام - دين المرسلين والنبیین معاً جميعاً من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها نختتم الله الرسالات ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (٣)

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ (٤)

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾

(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيات : ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

(١) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة المائدة .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسله . أى : إن الذين كذبوا بالقرآن وبنبيه محمد - ﷺ - من اليهود والنصارى وعبدوا الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة فى نار جهنم ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ أى : أولئك هم شر الخلق على الإطلاق .

أخرج الإمام مسلم : قال - ﷺ - والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار<sup>(١)</sup> .

ولما ذكر مقر الأشقياء ، ذكر بعده مقر السعداء فقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ أى : إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أى هم خير الخليقة التى خلقها الله وبرأها كما قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله : ﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أى : ثوابهم فى الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أى : جنات إقامة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ خالدون فيها أبداً ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وهم فى نعيم دائم لا ينقطع . ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أى : رضى الله عنهم بما قدموا فى الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات .

وقوله ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ أى : ذلك الجزاء والثواب لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن معصية مولاه كما قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأى ﴾<sup>(٣)</sup> وكقوله تعالى : ﴿ ولن خاف مقام ربه جنتان ﴾<sup>(٤)</sup> .

اللهم إنا نسألك خشيتك فى السر والعلن ، ونسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيماً لا ينفد ، ونسألك قرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد - ﷺ - - ح ١ ص ١٣٤ .

(٢) الآية رقم ٦٩ من سورة النساء

(٣) الأبتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة الذازعات

(٤) الآية : ٤٦ من سورة الرحمن .

## تفسير سورة الزلزلة

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : خمس وثلاثون

وحروفها : مائة وتسعة عشر

فواصل آياتها : ﴿ هما ﴾ على الميم : آية ﴿ أعمالهم ﴾

سميت سورة الزلزلة ، لمفتتحها

## مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان أحوال القيامة وأموالها وذكر جزاء الطاعة ، وعقوبة المعصية ، وذكر

وزن الأعمال في ميزان العدل في قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ إلى آخر السورة

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه - لما ذكر سلف جزاء المؤمنين والكافرين بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ (٢) وَقَالَ

الْإِنْسَانُ مَالَهَا ۝ (٣) يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ (٥)

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ (٨)

## معاني المفردات:

﴿الزلزلة﴾ : الحركة الشديدة مع اضطراب  
 ﴿والأنقال﴾ واحدها : ثقل ، وهو في الأصل متاع البيت والمراد هنا : ما في جوف الأرض من الدفائن كالموق والكثوز .  
 ﴿أوحى لها﴾ تقول : أوحيت له ، وأوحيت إليه ، ووحى له ، ووحى إليه أى كلمة خفية ، أو ألهمه ، كما جاء في قوله : ﴿وأوحى ربك إلى النحل ...﴾<sup>(١)</sup>  
 ﴿يصدر﴾ أى : يرجع ، فالوارد : هو الآتى للماء ليشرب ، أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه .  
 ﴿أشتاتا﴾ واحدهم : شتيت ، أى : متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم في طريق واحدة .  
 ( الذرة ) : النملة الصغيرة ، أو هي الهباء الذى يرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مثل في الصغر .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾ أى : إذا حركت الأرض تحريكاً عنيفاً اضطراباً شديداً ، واهتزت بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب ويفزع الألباب كما قال تعالى : ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى : ﴿وأخرجت الأرض أنقالها﴾ : يعنى ألقت ما فيها من الموق ، قاله غير واحد من السلف ، وهذه كقوله تعالى : ﴿وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتمحلت . وأذنت لربها وحقت﴾<sup>(٣)</sup>  
 وقال مسلم في صحيحه : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - - - تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قتلت ، وجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً<sup>(٤)</sup>

(١) من الآية : ٦٨ من سورة النحل .

(٢) الأيتان : ١ ، ٢ من سورة الحج .

(٣) الايات : ٣ - ٥ من سورة الانشقاق .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب الزكاة) باب الترغيب في الصدقة قبل الايوجد من يقبلها ح ٢ ص ٧٠١ رقم ١٠١٣/٦٢

وقوله - عز وجل - ﴿ وقال الإنسان ما لها ؟ ﴾ أى : أستنكر أمرها بعد ما كانت قارة ثابتة وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعدّه لها من الزلزال الذى لا يحيد لها عنه ، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات الأولين والآخرين ، وحينئذ أستنكر الناس أمرها ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾

أخرج أحمد والترمذى والنسائى - واللفظ له - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قرأ رسول الله - ﷺ - هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا وكذا ، فهذه أخبارها » (١) (حديث حسن صحيح)

وفى معجم الطبرانى من حديث ابن هليعة : حدثنى الحارث بن يزيد : سمع ربيعة الجرشى أن رسول الله - ﷺ - قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهى غبرة » (٢)

قال القرطبى : قال الماوردى : قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل : أحدها : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بأعمال العباد على ظهرها ، قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثانى : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بما أخرجت من أثقالها ، قاله يحيى بن سلام ، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة الثالث : أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ، قاله ابن مسعود فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر ، وإنذاراً للمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال البخارى : أوحى لها ، وأوحى إليها ، ووحى لها ، ووحى إليها واحد . قال ابن كثير : والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال مجاهد : أوحى لها ، أى : أمرها ، وقال القرطبى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب أشتاتاً ، أى : أنواعاً وأصنافاً ما بين شقى وسعيد ، وأمور به إلى الجنة ، وأمور إلى النار وكان ابن عباس يقول : ﴿ أشتاتاً ﴾ متفرقين على قدر أعمالهم : أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

(١) أخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة - رضى الله عنه) - ح ٢ ص ٣٧٤

(٢) أخرجه فى مجمع الزوائد فى (كتاب الطهارة) باب المحافظة على الأخذ ، ح ٢٤١ وقال الهنئى : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن هليعة وهو ضعيف .

وقيل : هذا الصدق إنما هو عند النشور ، يصدرون أشتاتا من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ في كتبهم ، أوليروا جزاء أعمالهم .

وقوله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

سمى رسول الله - ﷺ - الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحمر فقال : ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ( أخرجه البخارى ) وقال ابن مسعود : هذه أحكم آية في القرآن ، وصدق وروى عن كعب الأحبار أنه قال : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾

وقال الإمام أحمد : عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي - ﷺ - فقرأ عليه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها وهكذا رواه النسائي .

وفي صحيح البخارى عن عدى مرفوعاً « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ولو بكلمة طيبة <sup>(١)</sup> وله أيضاً في الصحيح : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المستسقى ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط » <sup>(٢)</sup>

وأخرج مسلم عن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال لى النبي - ﷺ - « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » <sup>(٣)</sup>

وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « يانسئ المسلمات : لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه » <sup>(٤)</sup> متفق عليه .

وعنه أيضاً أن رسول الله - ﷺ - قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث عطشاً يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه ، حتى رقى

(١) أخرجه البخارى في صحيحه في (كتاب المسافاة) ح ٣ ص ١٤٩ طبع الشعب .

(٢) رواه البخارى في صحيحه في (كتاب الزكاة) باب : اتقوا الله ولو بشق تمرة ... الخ ، وليس فيه : « ولو بكلمة طيبة » رواه .

(٣) أخرجه الامام أحمد في مسند في (أبى قيمة الهجيني) ح ٣ ص ٤٨٣ بمعناه .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب) باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء ح ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٦/١١٤

فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له « قالوا : يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : « في كل كبد رطبة أجر »<sup>(١)</sup> متفق عليه .

وعنه أيضاً عن النبي - ﷺ - قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين »<sup>(٢)</sup> رواه مسلم .

وفي رواية له : « بينا رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له ، فغفر له »<sup>(٣)</sup>

وعن أبي موسى - رضى الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيت إن لم يستطع . قال : « يأمر بالمعروف ، أو الخير » قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة »<sup>(٤)</sup>

فقوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ أى : فمن يفعل من الخير ذرة من التراب يجده في صحيفته يوم القيامة ، ويلق جزاءه عليه ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ أى : ومن يفعل من الشر ذرة من التراب يجده كذلك ويلق جزاءه عليه .

قال القرطبي : وهذا مثل ضرب به الله - تعالى - للدلالة على أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾<sup>(٥)</sup>

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - « قال إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » فإن رسول الله - ﷺ - ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها .

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ولولبالليل ص ٢١٥ رقم ٦٠٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب السلام) باب فصل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ص ٥٨٢ رقم ١٤٤٧

(٣) أنظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ح ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٢٩

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ح ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٥٧

(٥) الحديث في اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ص ٢٠٧ رقم ٥٨٩

## تفسير سورة العاديات

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى عشر

وكلماتها : أربعون

وحروفها : مائة وستون

فواصل آياتها : على ( دار )

سميت سورة العاديات لفتحها مقصود السورة :

بيان شرف الغزاة في سبيل الله ، وذكر كفران الإنسان الخير عن اطلاع الملك الديان ، على الإسرار والإعلان ، وذم محبة ما هو فان ، والخبر عن إحياء الأموات بالأجساد والأبدان ، وأنه - تعالى - خير بما للخلق من الطاعة والعصيان .

### المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ والعاديات ﴾ أقسم بثلاثة أشياء : العاديات ، والموريات ، والمغيرات ، وجعل جواب القسم أيضاً ثلاثة أشياء : إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد .

مناسبة السورة لما قبلها .

أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستعدون لحياتهم الثانية بتعويد أنفسهم فعل الخير . .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ \* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

### معاني المفردات :

- ﴿العاديات﴾ : واحدها عادية من العدو وهو الجرى .
- ﴿ضبحاً﴾ : الضبح : صوت أنفاس الخيل حين الجرى .
- قال عنترة :
- والخيل تكدح حين تضح في حياض الموت ضبحاً .
- ﴿والموريات﴾ : واحدها مورية من الإبراء وهو إخراج النار ، تقول : أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه .
- ﴿قدحاً﴾ : القدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر .
- ﴿المغيرات﴾ : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقنتله أو يأسره ..
- ﴿فأثرن﴾ : الإثارة التهييج وتحريك الغبار .
- ﴿نقعاً﴾ : النقع الغبار .
- ﴿وسطن﴾ : أى : توسطن . تقول وسطت القوم أوسطهم .
- ﴿وسطاً﴾ : إذا صرت في وسطهم .
- ﴿لكنود﴾ : الكفور : الجحود .

وأصل الكنود الأرض التي لا تنبت شيئاً ، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات .

- ﴿ الشهيد ﴾ : أى : لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه .
- ﴿ الخير ﴾ : هنا المال كما جاء فى قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ .
- ﴿ لشديد ﴾ : أى : لبخيل .
- ﴿ بعثر ﴾ : أى : بعثت وأثيرت .
- ﴿ حصل ﴾ : أى : أظهر محصلاً مجموعاً .
- ﴿ مافى الصدور ﴾ : أى : مافى القلوب من العزائم والنوايا .

### التفسير

قوله تعالى :

﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فآثرن به نفعاً ، فوسطن به جمعاً ﴾ .  
 أقسم سبحانه وتعالى بالخيّل التي لها هذه الصفات والتي تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجّد والعمل ، وليعنوا بتربيتها وتعويدها الكر والفر قال تعالى : ﴿ وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ <sup>(١)</sup> . الآية .  
 فقوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال القرطبي : قال عامة المفسرين وأهل اللغة ، أى : تعدو فى سبيل الله فتضبح .

قال قتادة : تضبح إذا عدت ، أى : تحمحم .  
 ومن قال : إن المراد بالعاديات الخيل : ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هى الخيل حين تورى النار بحوافرها ، وهى سناكبها ، وروى عن ابن عباس : وأصل القدح الاستخراج ومنه اقتدحت بالزند ، والمقدحة ما تقدح به النار .

والقداح الحجر الذى يورى النار .

وقيل : إنها نيران المجاهدين إذا كثرت نازها إرهاباً . وكل من قرب من العدو يوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدو كثيراً . فهذا إقسام بذلك . قال القرطبي : وهذا مجاز والقول الأول حقيقة وأن الخيل من شدة عددها تقدح النار بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ .

أقسم بالخيـل تغير على العدو عند الصبح ، وكانوا إذا أرادوا الغارة سـروا ليلاً ويأتون العدو صباحاً ، لأن ذلك وقت غفلة الناس . ومنه قوله تعالى : ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ فاثـرن به نـقـعاً ﴾ .

ألاً : غباراً ، يعنى الخيل تثير الغبار بشدة العدو في المكان الذي أغارت به .  
قال حسان بن ثابت :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وقوله تعالى : ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أى : فوسطن بركبائهن العدو أى : الجمع الذي أغاروا عليهم .

قال القرطبي :

قال ابن العربى : أقسم الله بمحمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : ﴿ يس : والقرآن الحكيم ﴾ (٢) وأقسم بالخيـل وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ الآيات الخمس .

فأقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين في سبيل الله ، التى تسرع على أعداء الله ، وتقذح النار بحوافرها ، وتغير على الأعداء وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفرع ، أما الأمور التى أقسم عليها فهى قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ﴾ .

أى : إن الإنسان لجاحد لنعيم ربه ، شديد الكفران كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ (٣) . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : الكنود : هو الكفور ، وقيل : هو البخيل الذى يمنع رفته ويبيع عبده ولا يعطى فى النائة ، وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب وينسى النعم . وفى هذا يقول الشاعر :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وقال أبو بكر الواسطى : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معاصى الله . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم .

قال القرطبي : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى : وإن الإنسان لشاهد على كنوده ، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه .

(١) سورة الصافات من الآية : ١٧٧

(٣) سورة ابراهيم من الآية : ٣٤

(٢) سورة يس الآيتان : ١ ، ٢

وقوله تعالى : ﴿ وإِنَّ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أى : وإِنَّه لشديد الحب للمال حريص على جمعه ، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير ، فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن إلى خلقه ، بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم فإنه مخلص لربه ، محسن إلى خلقه ، فالؤمن له الإخلاص والإحسان ، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله - تعالى - هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم براءون ويمنعون الماعون ﴾ (١) ، فالبراء ضد الإخلاص ، ومنع الماعون ضد الإحسان . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ مَنْ كَانَ مَغْتَالًا فَخُورًا ، الَّذِينَ يَخْلَوْنَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٢) فاغتياه وفخره من كفره وكنوده ونظيره أيضاً ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغنى البخيل ، ومدح المعطى المصدق بالحسن .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا يَعْثُرُ مَا فِي الْقُبُورِ ، وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ ، إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ﴾ .

ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغباً ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأحوال : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا يَعْثُرُ مَا فِي الْقُبُورِ ؟ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ﴿ وَحَصَلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : ( حصل ) أى : أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجاز بهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (٣) .

قال الإمام ابن القيم في هذه الآية الكريمة : « خوف سبحانه وتعالى الإنسان الذي هذا وصفه حين يعثر ما في القبور ، ويحصل ما في الصدور أى ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك وجمع سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبي ﷺ صلى الله عليه وسلم - في قوله : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم » (٤) فإن الإنسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر ويوارى قبره جسمه ، فيخرج الرب جسمه من قبره ، وسره من صدره ، فيصير جسمه بارزاً على الأرض ، وسره بادياً على وجهه كما قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بَسِيمَاهُمْ ﴾ (٥) . وقال : ﴿ سَنَسْمُهُ عَلَى الْخُرطوم ﴾ (٦)

(١) سورة الماعون من الآية : ٤ حتى ٧

(٢) سورة النساء الآيتان : ٣٦ - ٣٧

(٣) سورة الانقطار الآيتان : ٤ ، ٥

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٣٦٥

(٥) سورة الرحمن الآية : ٤١

(٦) سورة القلم الآية : ١٦

## تفسير سورة القارعة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى عشرة .

وكلماتها : ست وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : ( ستة ) .

سميت سورة القارعة لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هيبة العرصات ، وتأثيرها في الجمادات والحيوانات وذكر وزن الحسنات ، والسيئات ، وشرح عيش أهل الدرجات وبيان حال أصحاب الدرجات في قوله : ﴿ نار حامية ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ ثم ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ جمع ميزان . وله كفتان وعمود ولسان . وإنما جمع لاختلاف الموزونات ، وتحدد الوزن ، وكثرة الموزون ، أو جمع على أن كل جزء منه بمنزلة ميزان والله أعلم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إن آخر السابقة كان في وصف يوم القيامة ، وهذه السورة الكريمة ، بأسرها في وصف ذلك اليوم وما يكون فيه من الأحوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ  
كَالْفَرَّاشِ الْمَبْتُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ  
ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨  
فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ١٠ نَارُ حَامِيَةٍ ١١

## معاني المفردات

(القارعة) من أسماء القيامة كالحاقة والواقعة والصاخة والطامة والغاشية ، وسميت بذلك لأنها تقرر القلوب بهولها .

- ﴿ كالفراش ﴾ : هو طير كالبعوض يتهاافت في النار .
- ﴿ المبثوث ﴾ : المتفرق المنتشر .
- ﴿ كالمهن ﴾ : كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة .
- ﴿ المنفوش ﴾ : المفرق بالأصابع ونحوها .
- ﴿ ثقلت موازينه ﴾ : رجحت مقادير حسناته .
- ﴿ خفت موازينه ﴾ : رجحت مقادير سيئاته .
- ﴿ فأمه هاوية ﴾ : فمأواه جهنم يهوى فيها .
- ﴿ ماهية ﴾ : ما هي - والهاء للسكت .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ .  
 أى : القيامة وأى شيء هى القيامة ؟ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ، كما قال تعالى : ﴿ الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ﴾ (١) .  
 وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ أى : أى شيء وأعلمك ما شأن القارعة فى هولها على النفوس ؟

قال أبو السعود : سميت القيامة قارعة لأنها تقرر القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع . وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شيء من أحوالها جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أى ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين ، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك ، يموج بعضهم فى بعض من شدة الفزع والحيرة . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ (٢) .

(١) سورة الحاقة الآيات : من ١ إلى ٣

(٢) سورة القمر الآيات : من ٦ إلى ٨

قال الرازي : شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر ، أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا : وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة ، يصبحون كغواء الجراد يركب بعضه بعضاً فكذلك الناس إذا بُعثوا يَمُوج بعضهم في بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى : ﴿ وتتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً ﴾<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ هذا هو الوصف الثاني من صفات ذلك اليوم المهول ، أي : وتصير الجبال كالصوف المنتثر المتطاير ، تتفرق أجزاؤها وتتطاير في الجو ، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف قال الصاوي : وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال ، تنبيهاً على أن تلك القارة أثرت في الجبال العظيمة الصلبة ، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غير مكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب !!

ثم ذكر تعالى حالة الناس في ذلك اليوم ، وإنقسامهم إلى شقى وسعيد فقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ أي : رجحت موازين حسناته ، وزادت حسناته على سيئاته ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي : فهو في عيش هنيء رغيد سعيد في جنات الخلد والنعيم . ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أي : نقصت حسناته عن سيئاته ، أو لم يكن له حسنات يعتد بها . ﴿ فأما هاوية ﴾ أي : فمسكرته ومصيره نار جهنم يهوى في قعرها ، سماها أمأ لأن الأم مأوى الولد ومفرعه ، فنار جهنم تؤوى هؤلاء المجرمين كما يأوى الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد . قال أبو السعود : ( هاوية ) اسم من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها قال ابن زيد وقال قتادة : معنى ( فأما هاوية ) فمصيره إلى النار وقال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه .

قال القرطبي : والمعنى متقارب ..

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ الأصل « ما هي » فدخلت الهاء للسكت . استفهام للتفخيم والتهويل أي : وما أعلمك ما الهاوية ؟ ثم فسرهما بقوله تعالى : ﴿ نار حامية ﴾ أي : هي نار شديدة الحرارة ، قد خرجت عن الحد المعهود ، فإن حرارة أي نار إذا سمرت وألقى فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم ، أجارنا الله منها بفضلها وكرمه .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : « ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها »<sup>(٢)</sup> . وروى عن أبي بكر الصديق أنه قال : وإنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه لأنه وضع فيه الحق ، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خف ميزان من خف ميزانه لأنه وضع فيه الباطل ، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٣/٤

## تفسير سورة التكاثر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

قال :

السورة : مكية .

وآياتها : ثمان .

وكلماتها : ثمان وعشرون .

وحروفها : مائة وعشرون .

فواصل آياتها : ( ثمر ) .

سميت سورة التكاثر لفتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : دُمّ المقبلين على الدنيا والمفتخرين بالمال ، وبيان أن عاقبة الكل الموت والزوال وأن نصيب الغافلين العقوبة والنكال ، وأعد للمتمولين المذلة والسؤال ، والحساب والوبال في قوله : ﴿ لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ .

المتشابهات :

( كلا ) في المواضع الثلاثة فيه قولان : أحدهما أن معناه ، الردع والزجر عن التكاثر ، فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، والثاني يجرى مجرى القسم ومعناه : حقاً  
قوله تعالى : ﴿ سوف تعلمون ﴾ وبعده ﴿ سوف تعلمون ﴾ تكرار للتأكيد عند بعضهم وعند بعضهم : هما في وقتين في القبر والقيامة . فلا يكون تكراراً .  
وقوله : ﴿ لترون الجحيم ثم لترونها ﴾ تأكيد أيضاً . وقيل : الأول قبل الدخول . والثاني بعد الدخول ، ولهذا قال بعده : ﴿ عين اليقين ﴾ أى : عياناً ، لستم عنها بغائبين وقيل : الأول من رؤية العين ، والثاني من رؤية القلب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه في الأول وصف القيامة ، وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن في هذه ذكر الجحيم وهي الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة ، وذكر السؤال ، عما قدم المرء من الأعمال في الحياة الدنيا ، وهنا بعض أحوال الآخرة .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنُكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾  
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ  
الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَنُنْصَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾

### معاني المفردات

- ﴿أهاكم﴾ : شغلكم عن طاعة ربكم .
- ﴿التكاثر﴾ : التباهى بكثرة متاع الدنيا .
- ﴿زرتم المقابر﴾ : متم ودفنتم في القبور .
- ﴿لوتعلمون علم اليقين﴾ : لوتعلمون مآلكم علماً يقيناً لما أهاكم من التكاثر .
- ﴿لترون الجحيم﴾ : والله لترون الجحيم .
- ﴿عين اليقين﴾ : نفس اليقين وهو المشاهدة .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿أهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر﴾ .  
أخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وأهالهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ، ولم يفيقوا من رقدة إلهاء التكاثر .  
قال ابن القيم رحمه الله : ولم يعين سبحانه المتكاثر به ، بل ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشئ ، لا المتكاثر به كما يقال ؛ شغلك اللعب واللهو ، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به ، وإما إرادة الإطلاق ، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا ، من مال أو جاه أو عبيد ، أو إماء أو أبناء

أو غراس أو علم لا يتغنى به وجه الله ، أو عمل لا يقربه إلى الله . فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة .

وفي صحيح مسلم من حديث قتادة عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ : ( أهلكم التكاثر ) قال : « يقول ابن آدم ! مالى . مالى ( قال ) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت . أولبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت »<sup>(١)</sup>

وفي رواية أخرى « وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »<sup>(٢)</sup> وروى البخارى عن ابن شهاب أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب »<sup>(٣)</sup> .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾<sup>(٤)</sup> وفي الحديث الذى رواه أبو هريرة قال سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « سيصيب أمتى داء الأمم ، قالوا : يا رسول الله وما داء الأمم ؟ قال : الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون التغنى » قوله تعالى : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أى : حتى أناكم الموت فصرتم في المقابر زواراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره .

وقيل : هذا وعيد . أى : اشتغلتم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله - عز وجل - قال ابن القيم في هذه الآية :

توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً ، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباءً منثوراً ، وعلم أن دنياه التى كثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً ، فوجد عاقبة تكاثره عليه لاله ، وخسر هنالك تكاثره ، كما خسره أمثاله وبداله من الله ما لم يكن فى حسابه ، وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه ، فعذب بتكاثره فى دنياه ، ثم عذب به فى البرزخ ، ثم يعذب به يوم القيامة . فكان أشقى الناس بتكاثره إذ أفاد منه العطب ، دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ، ولم يحظ من علوه به فى الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين .

(١) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٨/٤

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٩/٤

(٣) صحيح البخارى - كتاب الرقائق ١١٥/٨ وسنن الترمذى - أبواب الزهد ٣٨٩/٣ رقم ٢٤٤

(٤) سورة الحديد الآية : ٢٠

فياله تكاثرا ما أثقله وزراً ، وما أجلبه من غنى جالباً لكل فقر ، وخيراً توصل به إلى كل شر ، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه : ﴿ ياليتني قدمت لحياتي ﴾ <sup>(١)</sup> وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي . ويقول : ﴿ رب ارجعون لعلی أعمل صالحاً فيما تركت فقيل له : كلا إنها كلمة هو قائلها تلك كلمته يقولها ، فلا يعول عليها ورجعته يسألها ، فلا يجاب إليها .

أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها ، لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً ، لو أجيب وإنما ذلك شيء يقول بلسانه ، وإنه لورد لعاد لما نهى عنه ، وإنه من الكاذبين .

أخى :

تزود من التقوى فإنك لا تدري	إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة	وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من صبي يرتجى طول عمره	وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من عروس زينوها لزوجها	وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

### عذاب القبر ونعيمه

روى الإمام أحمد وابن داود عن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى جنازة رجل من الأنصار فانتبهينا إلى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى القبر ثم قال « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم قال : « إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت بجلس عند رأسه فيقول : أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه تسيل كما يسيل قطر السماء ، ثم تنزل ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من الجنة وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها في يده طرفة عين . قال : فذلك قول الله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ <sup>(٢)</sup> ، قال : فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح فيقال فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به إلى أبواب السماء الدنيا فيفتح له ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهي إلى السماء السابعة فيقال اكتبوا له كتابه في عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون . . فيكتب

(١) سورة الفجر الآية : ٢٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ٦١

كتابه في عليين ثم يقال رده إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فيأتيه ملكان شديداً الانتهاز فينهرانه ويجلسانه فيقولان من ربك وما دينك فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولون ما بيديه ؟ فيقول جاء بالبينات من ربنا فأمنت به وصدقت ، قال : وذلك قول الله تعالى ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ (١) قال : فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فألبسوه من الجنة ، وأروه منزلته منها ، فيفسخ له مد البصر ثم قال : ويمثل له عمله فى صورة رجل حسن الوجه ، طيب الريح ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان الله وجنات النعيم . فيقول : بشرك الله بخير من أنت فوجهك الذى جاء بالخير ، فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله ، بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، ثم يفتح له باب الجنة وياب من النار فيقال : هذا كان منزلك لو عصيت الله ! بذلك الله به هذا فإذا رأى ما فى الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى . قال فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الآخرة . وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فقال أخرجى أيتها النفس الخبيثة أخرجى بسخط الله وغضبه فتنزى ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من النار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، تتفرق فيستخرجها وقد تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبلول . فتأخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فلا تفتح لها فيقولون ردها إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فيرمى به من السماء وتلا هذه الآية ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ (٢) . قال : فيعاد فيه الروح ويأتيه ملكان شديداً الانتهاز فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه . فيقال : محمد فيقول : لا أدرى : فيقال له : لا دريت . فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول من أنت ؟ فوجهك الذى جاء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا بطيئاً فى طاعة الله سريعاً إلى المعصية ، قال : فيقيض الله له أصم أبكم ومعه مرزبة لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيضربه ضربة فيسمعها الخلائق إلا الثقلين ، ثم يقال أفرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار (٣) .

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧

(٢) سورة الحج الآية : ٣١

(٣) مسند أحمد ٢٩٥/٤ ومسند أبى داود - كتاب الجنائز ٥٤٦/٣ رقم ٣٢١٢

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »<sup>(١)</sup> . وقال هانئ مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان - رضى الله عنه - إذا وقف على قبر يبكى حتى تبطل لحيته فقليل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى فقال : إني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه ، قال : وسمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أظفع منه » . رواه الترمذى<sup>(٢)</sup> .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول قولوا : « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »<sup>(٣)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ، لَتَرُونَ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرُونَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتَسْأَلُنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .  
( كلا ) قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر ( سوف تعلمون ) أى : سوف تعلمون عاقبة هذا . ( ثم كلا سوف تعلمون ) هذا وعيد بعد وعيد قاله مجاهد قال ابن عباس : ( كلا سوف تعلمون ) ما ينزل بكم من العذاب فى القبر ، ( ثم كلا سوف تعلمون ) فى الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول فى القبر والثانى فى الآخرة .

وقيل : ( كلا سوف تعلمون ) إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل لنزع أرواحكم . ( ثم كلا سوف تعلمون ) إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير ، وحاط بكم هول السؤال وانقطع منكم الجواب . قال القرطبى : ويحتمل أن يكون التكرار على وجه التأكيد والتغليظ وهو قول الفراء : وقال ابن القيم فى تفسير هذه الآية : ( كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ) . قيل : تأكيد لحصول العلم كقوله : ( كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ) .

وقيل : ليس تأكيداً ، بل العلم الأول عند المعاناة ونزول الموت . والعلم الثانى فى القبر . وهذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس . ويدل على صحة هذا القول : عدة أرجه .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ١٢٢٢

(٢) سنن الترمذى - أبواب الزهد ٣/٣٧٩ رقم ٢١٠ وقال : حسن غريب

(٣) صحيح مسلم - كتاب المساجد ٤١٣/١ رقم ٥٩٠

أحدها : أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل . وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته ، وعدم الإخلال بالفصاحة .

الثاني : توسط « ثم » بين العلمين ، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبين زماناً وخطراً .

الثالث : أن هذا القول مطابق للواقع . فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ، ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً ، هو فوق العلم الأول .

الرابع : أن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وغيره - من السلف فهموا من الآية عذاب القبر . قال الترمذى بسنده عن على - رضى الله عنه - قال : « ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت أهاكم التكاثر »<sup>(١)</sup> قال الواجدى . يعنى أن معنى قوله ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ فى القبر .

الخامس : أن هذا مطابق لما بعده من قوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ ، ثم لترونها عين اليقين ﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين . إطلاق الأولى ، وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ جوابه محذوف ، دل عليه ما تقدم ، أى : لما أهاكم التكاثر ، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين ، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها . ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شىء عن موجهه ، ولترتب أثره عليه . فإن مجرد العلم بقبح الشىء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه . فإذا صار علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد . فإذا صار عين اليقين . كجملة المشاهدات ، كان تخف موجهه عنه أندر شىء .

قوله تعالى : ﴿ لترون الجحيم ﴾ ، ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ، أى : لترون الجحيم فى الآخرة . ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى : مشاهدة وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم فى النار ، أى : هى رؤية دائمة متصلة .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ .

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد ، والنون الثقيلة ، عن سؤال النعيم فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا . هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟ فإذا تخلص من هذا السؤال ، سئل سؤالاً آخر . هل شكر الله تعالى ، فاستعان به على طاعته أم لا ؟ كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن مسعود عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال :

« لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن شبابه : فيما أبلاه ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه ، وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم ؟ »<sup>(١)</sup> .

وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن علمه : فيما فعل ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ وقال : هذا حديث صحيح »<sup>(٢)</sup> .

وفيه أيضاً : من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة - يعنى من النعيم - أن يقال له : ألم نصح جسمك ؟ ونرويك من الماء البارد »<sup>(٣)</sup> .

وفيه أيضاً : من حديث الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : « لما نزلت ﴿ لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير : يا رسول الله : فأى النعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان : التمر والماء قال : أما إنه سيكون » وقال هذا حديث حسن »<sup>(٤)</sup> .

قال ابن القيم : وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن ذلك سيكون » إما أن يكون المراد به : أن النعيم سيكون ويحدث لكم ، وإما أن يرجع إلى السؤال ، أى : إن السؤال يقع عن ذلك ، وإن كان تمراً وماء ، فإنه من النعيم .

ويدل عليه : قوله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديث الصحيح :

« وقد أكلوا معه رطباً ولحماً ، وشربوا من الماء البارد - قال « هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة »<sup>(٥)</sup> فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه .

وأخرج الترمذى من حديث أبي سعيد وأبي هريرة - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله - عز وجل - ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس ، وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال : فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى » قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب<sup>(٥)</sup> .

وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله تعالى ليعدد على العبد يوم القيامة حتى يعد عليه سألتنى فلانة أن أزوجهها فيسميها باسمها فزوجتها » .

(١) سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦١٢/٤ رقم ٢٤١٦

(٢) سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦١٢/٤ رقم ٤١٧

(٣) سنن التلامذى - كتاب تفسير القرآن ٤٤٨/٥ رقم ٣٣٥٨

(٤) سنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن ٤٤٨/٥ رقم ٣٣٥٦

(٥) مسند أحمد ٣/٣٥١

سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٩/٤ رقم ٢٤٢٨

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة » ؟ قالوا : الجوع يا رسول الله . قال : « وأنا والذي نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . قوما » فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته ، فلما رآته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً . فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أين فلان » ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيقاً منى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه . وأخذ المديفة فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إياك والخلوب » فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر وعمر : « والذي نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم »<sup>(١)</sup> .

قال ابن القيم رحمه الله : زعم طائفة من المفسرين : أن هذا الخطاب خاص بالكفار ، وأنهم هم المسئولون عن النعيم وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك . وقال : والظاهر يشهد بهذا القول . لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم . والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم ، حيث أشركوا بربهم وعبدوا غيره ، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم ، توبيخاً لهم ، هل قاموا بالواجب فيه ، أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم .

قال : وهذا معنى قول مقاتل ، وهو قول الحسن . قال : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار .

قلت : ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة ولا في أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ، بل ظاهر اللفظ ، وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بأنه ألهاه التكاثر فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك . ويدل على ذلك : قول النبى - صلى الله عليه وسلم - عند قراءة هذه السورة « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت ؟ أو لبست فأبليت . . الحديث » وهو في صحيح مسلم<sup>(٢)</sup> . وقائل ذلك قد يكون مسلماً وقد يكون كافراً .

ويدل عليه أيضاً . الأحاديث التى تقدمت ، وسؤال الصحابة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وفهمهم العموم ، حتى قالوا له : « وأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان » فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك .

ويدل عليه أيضاً : قوله - صلى الله عليه وسلم - في الحديث الصحيح : وقد أكلوا معه رطباً ولحماً ،

(١) صحيح مسلم - كتاب الأشربة ١٦١٠/٣ رقم ٢٠٣٨

(٢) صحيح مسلم - كتاب الزهد والرفائق ٢٢٧٣/٤ رقم ٢٩٥٨



وشربوا من الماء البارد - قال هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة » والحديث بتمامه فى صحيح مسلم<sup>(١)</sup> وهذا الحديث صريح فى نعيم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار .

وأيضاً : فالواقع يشهد بعدم اختصاصه ، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع بين المسلمين كثيراً ، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر . وخطاب القرآن عام لمن بلغه ، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهو تناول لمن بعدهم . وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

فقوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف . وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله .

فإن قيل : فالمؤمنون لم يلهمهم التكاثر . ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد ، فخصوهم به .

وجواب هذا : أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان ، على طريقة القرآن فى تناول الزم له من حيث هو إنسان كقوله : ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾<sup>(٣)</sup> ونظائره كثيرة .

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح . وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ، ويعطيه إياه . وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم ، والظلم المضاد للعدل وكل عليم وعدل وخير فيه فمن ربه ، لا من نفسه . فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته ، التى هى له من نفسه ، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له ، وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا . فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد .

أما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال :

الوعيد المذكور مشترك : وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد ، لم يكن حاصلًا له فى الدنيا وليس فى قوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾ ما يقتضى دخول النار فضلاً عن التخليد فيها ، وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها . فإن أهل الموقف يرونها ، ويشاهدونها عياناً . وقد أقسم الرب - تبارك وتعالى - أن لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وبرهم وفاجرهم .

قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) صحيح مسلم - كتاب الأشربة ١٦٠٩/٣ رقم ٢٠٣٨

(٢) سورة الاسراء الآية : ٢٧

(٣) سورة العاديات الآية : ٦

(٤) سورة مريم الآية : ٧١

فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها . وأما ما ذكروه عن الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . فباطل قطعاً إما عليه وإمامته . والأحاديث الصحيحة الصريحة تردده وبالله التوفيق .

ثم قال ابن القيم : ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها . وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهى ، وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ، ولا يليق ذلك بها . ويكفى في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم .

ثم يقول : وتأمل ما في هذا العتاب الراجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها ، إلى أن زار القبور ، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفك منه إلا وهو في عسكر الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتعين لك أن العموم مقصود .

فله ما أعظمها من سورة ، وأجلها وأعظمها فائدة ، وأبلغها موعظة وتحذيراً ، وأشدّها ترغيباً في الآخرة وتزهيداً في الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها وحسن نظمها ، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً اهـ .

## تفسير سورة

## العصر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : أربع عشرة .

وحروفها ثمان وستون .

فواصل آياتها : على الرء .

وسميت سورة العصر لفتتحها .

## مقصود السورة :

بيان خسران الكفار والفجار ، وذكر سعادة المؤمنين الأبرار ، وشرح حال المسلم الشكور الصبار ،

في قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .

## المتشابهات :

قوله : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ كرر لاختلاف المفعولين ، وهما ( بالحق )

و ( بالصبر ) .

## مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر في السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهي عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعه له في الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكان هذا تعليل لما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

## معاني المفردات

﴿العصر﴾ الدهر .

﴿الإنسان﴾ هو هذا النوع من المخلوقات .

﴿خسر﴾ الخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة .

﴿الحق﴾ هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم .

﴿الصبر﴾ قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل الطيب وتهون عليها احتمال المكروه في سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة .

﴿وتواصوا بالصبر﴾ التواصى بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمل المرء نفسه به .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿والعصر﴾ .

أكثر المفسرين على أنه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصرأ أمر معروف في لغة العرب . فأقسم سبحانه وتعالى بالعصر لمكان العبرة والآية فيه . فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة ، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما في الضوء ، والظلام ، والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون ، والسنين ، والأشهر ، والأيام ، والساعة وما دونها . آية من آيات الرب - تعالى - وبرهان من براهين قدرته وحكمته . قال تعالى : ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾<sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار خلقاً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾<sup>(٢)</sup> .

فأقسم سبحانه بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقتصر عن المبدأ ، لم تقتصر عن المعاد وأن حكمه التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشرأ تأبى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين ،

(١) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢

بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمة الله ، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه ، وأمر غيره به . ( قاله ابن القيم في البيان . )

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ هذا جواب القسم والمعنى إن الإنسان في خسران ، لأنه يفضل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات .

وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ استثنى - سبحانه - من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم .

قال البخارى بسنده : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص<sup>(١)</sup> .

وأخرج أبو نعيم في الحلية بسنده من طريق عمرو بن عثمان الرقى قال : قيل لابن عيينه : إن قوماً يقولون الإيمان كلام فقال : كان هذا قبل أن تنزل الأحكام ، فأمر الناس أن يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم . فلما علم الله صدقهم أمرهم بالصلاة ففعلوا ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار . فذكر الأركان إلى أن قال : فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم قال سبحانه ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾<sup>(٢)</sup> الآية . فمن ترك شيئاً من ذلك كسلاً أو مجوناً أدينه عليه وكان ناقص الإيمان ، ومن تركها جاحداً كان كافراً . ( انتهى ملخصاً ( من كتاب فتح البارى . كتاب الإيمان ) .

قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

أى : أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، وهو الخير كله ، من الإيمان والتصديق وعبادة الرحمن ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أى : وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب ، وعلى فعل الطاعات وترك المحرمات - حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهى : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، وكمل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد ، وهذا هو السر في تخصيص هذه الأمور الأربعة .

فهذه السورة الكريمة على غاية اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعى - رحمه الله - : لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم .

(١) صحيح البخارى - كتاب الإيمان ١٠/١

(٢) سورة المائدة الآية : ٣

## تفسير سورة الهمزة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : تسع .

وكلماتها : ثلاث وثلاثون .

وحروفها : مائة وثلاثون .

فواصل آياتها : على الهاء .

سميت سورة الهمزة ، لفتحها ، وسورة الخطمة ، لذكرها فيها .

مقصود السورة :

عقوبة العياب المغتاب ، وذم جمع الدنيا ومنعه وبيان صعوبة العقوبة في قوله : ﴿ في عمد ممددة ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه لما ذكر في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون في الضلال إلا من عصم الله - ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ① الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْعَدَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ⑨

## معاني المفردات

- ﴿ ويل ﴾ أى : خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتوبيخ .
- ﴿ همزة لمزة ﴾ والهمزة اللزمة : الذى يطعن فى أعراض الناس ويظهر عيوبهم ويحقر أعمالهم ، تلذذاً بالخط منهم وترفعاً عنهم ، وأصل الهمز : الكسر يقال همز كذا : أى كسره وأصل اللمز الطعن ، يقال : لمزة بالرمح : أى : طعنه ثم شاع استعمالها فيما ذكرنا .
- ﴿ عدده ﴾ : أى : عدة مرة بعد أخرى شغفاً به .
- ﴿ أخلده ﴾ أى : ضمن له الخلود فى الدنيا .
- ﴿ لينبذن ﴾ : النبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير .
- ﴿ الحطمة ﴾ : سميت بذلك لأنها تحطم العظام وتاكل اللحوم حتى تهجم على القلوب .
- ﴿ تطلع على الأثدة ﴾ أى : تعلق أوساط القلوب وتغشاها .
- ﴿ مؤصدة ﴾ : أى : مطبقة من أوصدت الباب : أى : أغلقته .
- ﴿ والعمد ﴾ : واحدها عمود .
- ﴿ ممددة ﴾ أى : مطولة من أول الباب إلى آخره .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن فى أعراضهم ، أو يلزمهم سراً بعينه أو حاجبه قال الطبرى : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ <sup>(١)</sup> أى لا يعيب بعضكم بعضاً .

وفى الحديث الشريف « أتدرون ما الغيبة ؟ ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبتة ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » <sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الحجرات الآية : ١١

(٢) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة والآداب ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩ وسنن أبى داود - كتاب الأدب ١٩١/٥ رقم ٤٨٧٤ وسنن الترمذى - كتاب البر باب ما جاء فى الغيبة ٢٢٠/٣ رقم ١ ح ٩

وتكون بالكتابة والإشارة باليد والعين ، والهمزة واللمزة من هذين الجنسيتين ، ولا ريب أنها مغضبة لعلام الغيوب ، مذهبة للحسنات ، مسودة للقلوب وهى من أعظم الآثام ، لأنها لا تغفر الا بغفران من قيل فيه الكلام . والكلمة منها لومزجت بماء البحر لأنتته لنتنها .

من عذابهم خمس الوجوه بأظفار كالنحاس ، قال جبريل « هؤلاء الذين يغتابون الناس » وخطابهم باستقذار أكل لحوم الميتين ، يدل على ورود الجزاء من جنس عمل العاملين . وما النار في اليابس القديد ، بأسرع من الغيبة في حسنات العبيد .

أخرج الترمذى عن ابن عمر قال : صعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفيض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله<sup>(١)</sup> .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

وقال جابر بن عبد الله الأنصارى « مثل من صار مغتاباً ، كمن نصب منجنيقاً ، يرمى حسناته به شرقاً وغرباً » فالملوفق من احترز من مكاييد الشيطان ، وكف لسانه وسمعه عن غيبة الإخوان ، ويصده عن الناس ما يراه من عيب نفسه ، وليشتغل بما يعنيه قبل حلول رمسه .

وللشافعى رضى الله عنه :

إذا شئت أن تحيا سليماً من الردى	ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة	فكلك سوءات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً	لقوم ، فقل : يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	ودافع ، ولكن بالتي هي أحسن

قوله تعالى : ﴿ الذى جمع مالا وعدده ﴾ أى : إن الذى دعاه للحط من أقدار الناس هو جمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى ، شغفاً به وتلذذاً بإحصائه ، لأنه يرى أن لا عز إلا به ، ولا شرف بعده ، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه قارعة بهمهز ولزّه وتمزيقه أعراض الناس لأن غروره أنساه الموت ، وأعمى بصيرته عن النظر في ماله والتأمل في أحواله .



قال محمد بن كعب في هذه الآية : ﴿ الذي جمع مالا وعدده ﴾ ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

قال أبو حاتم محمد بن حبان البستي رحمه الله : الواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رزق ذلك وضمن بإنفاقه في إقامة مروءته فهو الذي خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهاً ، وتودعه قبراً وحيداً ، ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمدّه وينفقه ولا يشكره ، فأى ندامة تشبه هذه ؟ وأى حسرة تزيد عليها ؟

يا جامع المال في الدنيا لوارثه هل أنت بالمال قبل الموت منتفع ؟  
قديم لنفسك قبل الموت في مهل فإن حظك بعد الموت منقطع

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن ماله أخذه ﴾ : أى : يظن هذا الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود في الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيا أبد الدهر ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سوء الأعمال .

يا جامع المال ، كم تضمن به تطمع بالله في الخلود معه ؟  
هل حمل المال ميت معه ؟ أما تراه لغيره جمعه ؟

قوله تعالى :

﴿ كلا لينبذن في الحطمة ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالا فعدده في الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار تحطم من فيها . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكتزون ﴾ (١) .

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما من أحد لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق به عنقه ، ثم قرأ علينا النبي - صلى الله عليه وسلم - مصداقه من كتاب الله : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة - الآية ﴾ (٢) (رواه النسائي بإسناد صحيح) (وصححه ابن خزيمة) (٣) .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٤ ، ٣٥

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨٠

(٣) سنن النسائي - كتاب الزكاة ٨/٥ باب التغليظ في حبس الزكاة وابن خزيمة في صحيحه ١١ رقم ٢٢٥٦

وأخرج البزار . . وقال : إسناده حسن . وصححه ابن خزيمة من حديث ثوبان بلفظ « من ترك بعده كترًا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول : من أنت ؟ فيقول : « أنا كنتك الذي خلفت - فلا يزال يتبعه حتى يلقيه يده فيقضهما ثم يتبعه سائر جسده » <sup>(١)</sup> .

( والزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ) وقال علي - رضي الله عنه - : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما يصنع أغنيائهم ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » رواه الطبراني في الأوسط والصغير <sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ على التعظيم من شأنها والتفخيم لأمرها : ثم فسرهما ما هي : بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أى : التى أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام ، فهى غير خامدة أعدها الله للعصاة .

وقوله تعالى : ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ أى : التى يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبي : وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فإنهم في حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ <sup>(٣)</sup> فهم إذاً أحياء في معنى الأموات .

وقوله : ﴿ فى عمد ممددة ﴾ أى : وهم موثقون فى سلاسل وأغلال ، تشد بها أيديهم وأرجلهم بعد إطباق جهنم عليهم ، فقد يشسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمد إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة بمنه وكرمه .

(١) أخرجه البزار فى كشف الاستار عن زوائد البزار ط/٤١٨ رقم ٨٨٢ وابن خزيمة فى صحيحه ١١/٤ رقم ٥٥

(٢) مجمع الزوائد - كتاب الزكاة ٦٢/٣

(٣) سورة طه الآية : ٧٤

## تفسير سورة الفيل

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : ثلاث وتسعون .

فواصل آياتها : على اللام .

سميت سورة الفيل . لقوله : (بأصحاب الفيل) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان جزاء الأجانب ، ومكرهم ورد كيدهم في نحرم ، وتسليط أنواع العقوبة على العصاة والمجرمين . وسوء عاقبتهم بعد حين في قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه بين في السورة السابقة أن المال لا يغني من الله شيئاً ، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾  
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ  
كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٥﴾

## معاني المفردات

الكيد : إرادة وقوع ضرر بغيرك على وجه الخفاء .

والتضليل : التضييع والابذال .

الأبائيل : الجماعات .

السجيل : الطين الذي تحجر .

والمعصف : ورق الزرع أى : الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ويعصفه الرياح لتأكله الماشية أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ .

حدث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل . وحدث كذا لستين بعد عام الفيل ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم - أن قائداً حبشياً - واسمه أبرهة الأشرم - ممن كانوا قد غلبوا على اليمن ، بنى كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف : إليها الحجيج ، فتوجه بجيش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلاً أو فيلة كثيرة زيادة فى الإرهاب والتخويف ولم يزل سائراً يغلب من يلاقه ، حتى وصل إلى « المغمس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ أى : ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله - تعالى - وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير ما يعرف من الأسباب والعلل ، إذ لم يعهد أن يجيء طير فى جهة فيقصد قوماً دون قوم ، وهم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمانة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنقاذ مقصد معين .

وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للإيحاء ، إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو فى قوة الثبوت مع الوضوح - للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة .

ثم بين سبحانه الحال التى وقع عليها فعله فقال ﴿ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ﴾ أى : إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم .

ثم فصل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة

من سجيل ﴿ أى : أنه تعالى أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل الى أحد إلا قتلتها ﴾ فجعلهم كعصف مأكول ﴿ أى : فجعلهم كورق الشجر الذى عصفت به الريح ، وأكلته الدواب ثم رائته ، فأهلكهم عن بكرة أبيهم .

وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعيدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

قال صاحب « البحر المحيط » : كان صرف ذلك العدو عام مولده السعيد عليه الصلاة والسلام ، إرهاباً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول ، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدي الأنبياء - عليهم السلام - ، وقد أهلكهم الله - تعالى - بأضعف جنوده وهى الطير التى ليست من عادتها أنها تقتل .

### ( تابع بحث ) تاريخ مكة المكرمة

الكعبة بعد إسماعيل ( عليه السلام ) .

كان العرب يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام ، وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الأراضى الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أو حيوان .

وامتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهند وفارس وكانت الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدان يعبدها أحد البيوت السبعة المقدسة وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم . كما أن النصارى من العرب كانوا يحترمونها كذلك .

بعد وفاة إسماعيل ، تولى الإشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرين . وكان ملك العماليق يدعى السמידع بن هوبر ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته وثار النزاع بين المكيين . ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة ، وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم وظلوا يشرفون على الكعبة ثلاثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورقعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم - عليه السلام - .

ونجح أولاد إسماعيل فى أن يلموا شملهم ويوحدوا صفوفهم وتمكنوا من التغلب على قبيلة جرهم ، فلاحقوا بجهينة .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت ، وتهاونت فى المهمة السامية الموكولة إليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذروها وأساءوا إلى الحجاج .

ثم صارت ولاية الكعبة في ولد اياد بن نزار بن معد ونشبت حروب طاحنة بين مضر وايداد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل ايداد عن مكة إلى العراق .

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش وتمكنت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها وقريش ولد النضر بن كنانة ، وقد سمو قريشاً حين جمعهم قصي بن كلاب إلى الحرم بعد أن في خزاعة ، من القرش وهو التجمع .

وقد اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة جرمأ أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل ، وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما رفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية ، وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التي تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها في مكة . وأن الكعبة في مكة .

تباينة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

كان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة وهي طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان وأمع أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس فقالوا له :

- أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال وأثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟  
قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبد أهله ويصلون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراد من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحيرين فسألها عن ذلك فقالا له :  
- ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذ في الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت مادعوك إليه ليهلكن من معك جميعاً .

قال :

- فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟  
قالا :

تصنع عنده ما يصنع أهله وتطوف به ، وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟  
قالا :

- أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها

حوله ، وبالدماء التي يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك فعرف نصحبها وصدق حديثها وعاقب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ينحربها للناس ويطعم أهلها . وأرى في المنام أن يكسر البيت فكساه . وكان تبع أول من كسا البيت .

ثم خرج تبع من مكة متوجها إلى اليمن بمن معه من جنود وبالحبرين ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم إلى دينه ، وقال إنه خير من دينكم

فقالوا : فحاكمنا إلى النار

قال : نعم

وكانت باليمن - فيما يزعم أهل اليمن - نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه : تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به في دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما لتقلد بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فحضرهم من أناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما في أعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما ، فأجمعت عند ذلك حمير على دينه .

الأحباش والكعبة : ( قصة أصحاب الفيل )

دخلت جيوش الحبشة إلى اليمن نحو ٦٠ فيل الهجرة انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذي كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها وتفرد أبرهة الأشرم بالحكم فيها وبنى في صنعاء كنيسة فخمة أراد أن يحول إليها حج العرب فسار بجيوشه إلى هدم الكعبة ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه ، وفضعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم - يقال له ذو نفر - فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر :

- أيها الملك ، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى .

فتركه ، وحبسه عنده في وثاق . ومضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي من قبيلة خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً ، فأتى به ، فلما هم بقتله قال له نفيل .

- أيها الملك ، لا تقتلني فأنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم شهران وناغس

بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله ، وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك ، في رجال ثقيف ، فقالوا له .

- أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم وبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهه ومعه أبورغال حتى أنزله المغمس ، فلما أنزله به مات أبورغال هنالك ، فرجعت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس .

فلما نزل أبرهه المغمس بعث رجلاً من الحبشة - يقال له الأسود بن مقصود - على خيل له حتى انتهى إلى مكة - فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهه حناطة الحميري إلى مكة ، وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول : إني لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم ، فإن هو لم يرد حربي فأتني به فلما دخل حناطة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهه : فقال له عبد المطلب : - والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام - فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فقال أبرهه : وسأله أبرهه عن حاجته فقال عبد المطلب :

- حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي فقال أبرهه :

- قد كنت أعجبتي حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه

قال له عبد المطلب :

- إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه

قال : ما كان ليمنع مني .

قال : أنت وذاك

ورد أبرهه على عبد المطلب الإبل التي أصابها له

انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من شدة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ، وقل عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :



لا هم إن العبد يم      منع رحله فامنع رحالك  
لا يغلبن صليبهم      ومحالمهم أبداً محالك  
إن كنت تاركهم وقبل      تنأ فأمراً مابدالك

ثم بدأ غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل الذى كان يمتطيه أبرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه فكان ينهض ، حتى إذا وجهوه نحو مكة برك مرة أخرى ، وإذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو .

كانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، ولليبت رب يحميه ، وانتهى الغزو بأساة رهيبة ، فروى ابن هشام

إن الله عز وجل أرسل عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجله ، أمثال الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش .

ذكر القرآن الكريم هذا الحديث التاريخى فى سورة الفيل ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد إخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم »

وقد سجل شعراء العرب هذا الحدث فى قصائد ذكروا فيها ما صنع الله بالجيش الحبشى ، وما رد عن قريش من كيد ، فقال عبد الله بن البعري :

تنكلوا عن بطن مكة إنها	كانت قديماً لابرام حريمها
لم تخلق الشعرى لبالى حرمت	إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها مارأى	ولسوف ينبنى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم	بل لم يعش بعد الإياب مقيمها
دانت بها عاد وجرهم قبلهم	والله من فوق العباد قبلهم

وقال أبو الصلت بن أب ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ويذكر الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام .

إن آيات ربنا ثاقبات	لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل	مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم	بهاء شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى	ظل يحبو كأنه معفور
لازماً حلقة الجران كما قطر	من صخر كبكت محدود
حوله من ملوك كفره أبطال	ملاويث فى الحروب صقور

خلفوه ثم ابدا عروا جميعا كلهم عظم ساقه مكسور  
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية بور

أدت الهزيمة التي لحقت بالأحباش في مكة إلى نهاية احتلالهم لليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذي يزن الحميري ، ونجح سيف بمعاونة الفرس في إجلاء الأحباش عن اليمن . أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر بن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد في هذه السنة محمد - ﷺ - .

### الرسول والكعبة

حينما كان الرسول في الخامسة والثلاثين من عمره ، أشترك في حادث جليل أثار اهتمام العرب في الجزيرة العربية وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة في أمر الكعبة ، فقد كانت بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهباً للصصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التي كان القرشيون يحتفظون بها في جوفها تعرضت مكة لعدة سيول في أوقات مختلفة ، حدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها ، وأصبحت قريش مضطرة إلى الاقدام على إصلاح ما أفسدته السيول وقد اشترك سادة قريش ورجالها الكبار في أعمال التجديد ونقل الأحجار بعد ما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناء رفعه إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم محمد - - وأعمامه

روى البخارى في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : لما بنيت الكعبة ، ذهب النبي - - والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباسى للنبي - ﷺ - اجعل إزارك على رقبك فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال : أرني إزارى فشده عليه<sup>(١)</sup>

ولقد كان له - - أثر كبير في حل المشكلة التي تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانة ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذي أبداه حلاً للمشكلة علماً منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

روى ابن هشام في السيرة أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي اقترح على المتطاحنين أن يحكموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا ، وشاء الله أن يكون ذلك محمداً - ﷺ - فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكماً<sup>(٢)</sup> .

(١) صحيح البخارى ٥١/٥

(٢) سيرة ابن هشام ٢٥٤/١ ومصنف عبد الرزاق ١٠٠/٥ والحاكم في المستدرک ٤٥٨/١ والبيهقى في دلائل النبوة ٥٦/٢ .

وطلب محمد - ﷺ - ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين فأمسكوا جميعاً بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحملة محمد - ﷺ - ثم وضعه في مكانه العتيق .

والى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن دهب المخزومي

تساجرت الأحياء في فضل خطة	جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة	وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده	ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع	يجيء من البطحاء من غير موعد
فجاءنا هذا الأمين محمد	فقلنا : رضينا بالأمين محمد
بخير قریش كلها أمسى شيمة	وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله	أعم وأرضى في العواطف والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا	له حصّة في رفعها قبضة اليد
فقال : ارفعوا ، حتى إذا ما علت به	أكفّتهم وافي به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه	فأعظم به من رأى هاد ومهتدى
وتلك يد منه علينا عظيمة	بروح لها هذا الزمان ويغتدى

أعادت قریش الصور والأصنام إلى الكعبة كما كانت ، قال المسعودي :

« كان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزام ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير أولادهم إلى قصي ابن كلاب وغيرهم . في نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله .

وقد ظلت هذه الأصنام قائمة في الكعبة ، حتى فتح مكة فقام المسلمون بتحطيم هذه الأصنام ، وتطهير الكعبة من الأوثان .

أخرج البخاري بسنده عن عبد الله - رضي الله عنه - قال : دخل النبي - ﷺ - مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعن بها يعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء ، الباطل وما يعيد<sup>(١)</sup>

وروي أيضاً عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزام ، فقال النبي - ﷺ - قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط فدخل البيت فكبر في نواحيه ولم يصل فيه<sup>(٢)</sup>

(١) صحيح البخاري - كتاب المغازي - باب ابن ركن النبي الراية يوم الفتح ١١٨/٥ .

(٢) صحيح البخاري - كتاب الحج - باب من كبر في نواحي الكعبة ١٨٤/٢ .

ووقع في حديث جابر عند أبي سعد وأبي داود « أن النبي - ﷺ - أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتي الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذي أخرجها قال ابن حجر : والذي يظهر أنه محاً ما كان من الصور مدهوناً مثلاً وأخرج ما كان مخروطاً وأما حديث أسامة « أن النبي - ﷺ - دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها » وقد تقدم فهو محمول على أنه بقيت بفيه خفى على من محأها أولاً .

وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال لي النبي - ﷺ - « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » قالت فقلت : يا رسول الله ، أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت . قال ابن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ما أرى أن رسول الله - ﷺ - ترك استلام الركنتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم<sup>(١)</sup> قال العلماء : والمراد بقول الرسول - ﷺ - الآنف ، قرب العهد بالجاهلية وضعف استمكان الإيمان مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله - ﷺ - ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله شكلا عويصة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

وبقى البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن غنيم السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط الذي رموا به على ابن الزبير

وأراد ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة ، فدار حوار بينه وبين أصحابه ، أيهدم الكعبة ثم يعيد البناء من جديد أم يحاول إصلاحها وترميمها ؟ قال العمري : فشاور ابن الزبير من حضره في هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم .

فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها . فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فبنوا على القواعد وتم بناؤها وألصق بابها إلى الأرض ، وعمل لها خلفاً أى باباً من ورائها وأدخل الحجر فيها .

وبذل ابن الزبير غاية جهده في تجميل الكعبة حتى تبدو في أبهى صورة وأجل مظهر ، وعدد المسعودي جهود ابن الزبير فقال : وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التي كان بناها أبرهة الحبشي في كنيسة التي اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها شيء منقوش ، قد حشى النقش السندسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهباً .

أحدث ابن الزبير تغييرات في بناء الكعبة ، فقد زاد في ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة

وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بايين بعد أن كان لها باب واحد وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر ، وكان أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والافطاع وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم .

وقد أبرز المسعودي زيادات ابن الزبير في الكعبة فقال : « وشرع ابن الزبير في بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذي أسسه هو وإسماعيل - عليهما السلام - فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بايين باباً يدخل منه ، وباباً يخرج منه .

ويقول العمري : إن الرسول - ﷺ - كان يريد أن يزيد في بناء الكعبة ما زاده ابن الزبير ، وذلك لأن خالته عائشة - رضي الله عنها - حدثته أن رسول الله - ﷺ - قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد إبراهيم ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفاً وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة فبناها على مقتضى حديث عائشة (١)

ولما قتل ابن الزبير ، كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يأمره بإعادة الكعبة على ما كانت عليه في زمن الرسول - ﷺ - من بناء قريش فهدم جانب الحجر وأعاده إلى ذلك ، وسد الباب الغربي ورفع الشرقي عن الأرض إلى حده الذي هو عليه الآن ، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : « وددت أن كنت حملت ابن الزبير من بناء الكعبة ما تحمل » .

ثم جدد المتوكل رخام الكعبة فأزرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب وهو على ذلك إلى الآن . وهو مبنى بالحجر الأسود مستطيل البناء على الترييع ، في ارتفاع خمسة وعشرين ذراعاً .

### القرامطة والكعبة

في أيام المقتدر العباسي ظهرت في العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية ويكفرون من لم يكن على مذهبهم ، وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطي ، وقد بنى داراً في هجر سماها دار الهجرة وأراد أن ينقل الحج إليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج في أيامه خشية منه وسار القرمطي إلى مكة في جيش كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله إلى الحرم ووضع السيف في الطائفين والركع السجود على بقلته منهم ، وقتل في مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفاً واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما في خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة واقتلع الحجر الأسود من مكانه ، وانصرف إلى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم وبقي مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله .

غير أن القدر وقف بالمرصاد لزعيم القرامطة الذي قاد هذا الهجوم الغادر على بيت الله الحرام ، فلم يكذب يستقر في هجر حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه وتقطع أوصاله وأطرافه ، وهو ينظر إليها ،

وتناثر الدود من لحمه ، ذلك إن بطش ربك لشديد ، وانتهت حياته بالموت في العام نفسه الذي انتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة وبعد موت أبي طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم ، فقام سنبر بن الحسين القرمطي بالحجر إلى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التي تكسرت منه حين خلعه ، ووضع في مكانه على الحالة التي تراه عليها الآن .

### إعادة بناء الكعبة في العصر العثماني

في سنة ٩٦٠ هـ غير السلطان سليمان العثماني سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١) هـ بترميم الكعبة . وفي سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها إلى المسجد الحرام والكعبة ، وكان بناؤها قد وهن ، لذلك سقطت جدرانها واحداً بعد الآخر ، وترامى ما أصاب البيت الحرام إلى الأقطار الإسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة إلى عمارتها .

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون إليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير وأنفق القوم في البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ وأنفقوا في سبيل الله أموالاً طائلة .

ولم يعيدوا من الأحجار التي بنى بها عبد الله بن الزبير الكعبة إلا ما وجدوه صلباً قوياً . . . . أما ما وهن فاستبدلوا به غيره .

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم . . . . فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه ، وللحجر الأسود من القدسية حظ ، جعل المعمارين يلجأون إلى كل أساليب الفن ليعيدوا إلى أجزائه صلابتها ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه بإطار الفضة الذي ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه .

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم إلى يومنا الحاضر . . . . وهو الذي يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

### وصف الكعبة الشريفة

الكعبة على شكل مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذي فيه الميزاب والذي قبلته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثني عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلا من المنابر . وسلمها الحالي من الخشب المصنوع بالفضة أهدها إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع في مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفي الاحتفالات الكبرى وهي لا تزيد عن خمس عشرة مرة في السنة .

وفي الركن الذي على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمتراً من أرض المطاف . وتسمى زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها : فيسمى الشمالي بالركن العراقي ، والغربي بالشامي والقبلي باليماني ، والشرقي بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير

منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا يحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها وكان من نحاس ، فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة وتجدد فى سنة ١٠٢٤ فى عهد السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية ، وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب ثم تغير فى عهد السلطان عبد العزيز آل سعود بآخر من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها بمترين وخمسة وثلاثين سنتيمترا ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه متراً ونصف متر ، وهو مغلف بالرخام المنقوش ، وفى محيطه كتابة فى أعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته ومساحة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمترا والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء إبراهيم ، وهى الزيادة التى كان ابن الزبير أدخلها فى بنائه ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به ودخل البيت الواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

ولغسل الكعبة احتفال رائع ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة ، فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ثم يغسلها بماء الورد ، وبعد ذلك تضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاعها الأبدى بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك وفى أثناء ذلك يكون البخور بالدند والعود صاعداً من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى كانت تغسل بها الكعبة ، فيتزاحمون عليها ، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أئمن شىء فى العالم .

### المسجد الحرام

كان هذا المسجد فى عهد الرسول - ﷺ - عرضه فسيحة لا جدار لها ، وقد شاء عمر بن الخطاب توسيعه لأن الناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها .  
فقال :

- إن الكعبة بيت الله ولا بد للبيت من فناء وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم ، فاشتري تلك الدور وهدمها وزادها فيه وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان فى بيت المال حتى أخذوها بعد واتخذ للمسجد جداراً دون القامة فكانت المصاييح توضع عليه ثم زاد فى توسيعه عثمان

بن عفان وقيل : إنه أول من بنى أروقتة ، وفي عهد ابن الزبير وضعت له أعمدة من الرخام ويبلغ في تزيينه وتحسينه ثم كساه الحجاج بن يوسف الديباج ولما ولي الوليد بن عبد الملك زاد في التحسين والتزيين بالذهب والفضة وكانت دار الندوة وسط المسجد تجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان بها الخلفاء والأمراء في حجبهم في صدر الإسلام فلما أهمل أمرها في منتصف القرن الثالث الهجري أخذ بناؤها يتهدم فكتب في ذلك إلى الخليفة المعتضد العباسي فأمر بهدمها في سنة إحدى وثمانين ومائتين ، ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبة إلى الكعبة ثم غير شكلها بعد ذلك واستمرت مقاماً يصل في الإمام الحنفى إلى أن أتى أمير كلدى أمير جدة في سنة تسعمائة وسبع وأربعين فهدمها وبني المقام مربعاً ذا طابقين : الأولى للإمام والمصلين ، والثانية للوُذنين والمبلغين وهو على الشكل الآن وفي سنة ثمانمائة واثنين احترق الرواق الشرقي فأمر الملك الناصر بن بروق ملك مصر بتعمير ما خرب منه ، ووضع بدل الأعمدة الرخام التي احترقت أعمدة من الحجر الشمسي . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لا سيما العمارة التي قام بها السلطان قايتباي في سنة ست وثمانين وثمانمائة .

وفي سنة تسع وسبعين وتسعمائة مال الرواق الشرقي في الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثاني بعمارته فأُنزل المعمارون سقفه جميعه وأساطينه وهدموا محيطه وبنوه على الترتيب الباقي للآن وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قباً بدلاً من السقوف . ومات السلطان سليم أثناء إجراء البناء ، فأمر السلطان مراد خان بإتمام العمارة فتمت على أحسن صورة بالشكل الذي نراه الآن .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفي وسطه يميل إلى الزاوية الجنوبية للكعبة المكرمة وطول ضلعه المقابل للحطيم مائة وأربعة وستون متراً وطول الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصفا مائة وستة وستون متراً ، وضلعه الذي فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذي يقابله وهو الذي فيه باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر ألفاً وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة . أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً .

ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشمسي الأحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد .

أما أبواب الحرم فهي ثمانية في الجهة الشمالية وهي : باب درية ، وباب المدرسة ، وباب الكعبة ، وباب الزيادة ، ويجواره إلى الغرب باب القطبي ثم باب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص . ويليهِ من الجانب الغربي ثلاثة أولها باب العمدة - ويقال له باب بنى سهم ، ثم باب إبراهيم - وإلى جوار باب إبراهيم باب الخزوة يليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب أولها باب أم هانئ ، ثم باب العجلة ثم باب الرحمة أو « المجاهدين » ثم باب أجياد ، ثم باب الصفا ، ثم باب مخزوم ، ثم باب السنبلة ثم باب بازان ، ويلي ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهي : باب بنى هاشم (أوباب على) ، ثم



باب السلام وهي الذى يدخل منه إلى الحرم عند طواف القدوم . ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً ولكل منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلاً .

وفي المسجد ست منارات الأولى منارة باب العمرة ثم منارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحزورة ، ثم منارة باب للزيارة ثم منارة السلطان قايتباى وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الأوقات الخمسة . وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه ممشى محجورة وما بينها أرض بها حصباء ، وأول من حصب أرضية الحرم هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . والكعبة فى وسط صحن المسجد يميل إلى الجنوب ويلىها من الشرق مقام إبراهيم وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها أبو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمس وأربعين وفرش أرضها بالرخام المأمون ، وشرقى زمزم إلى الشمال باب شبيه وهو باب من الرخام قام فى وسط الحرم فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته - ﷺ - وفى شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية فى دقة الصناعة أهداه إلى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبى الجميل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدمه مكة للحج وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحجر . ثم أهدى إليه سنة مائة وسبعين منبراً من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج هارون الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى عهد الواثق أمر بعمل له ثلاثة منابر : واحد فى الحرم ، والثانى فى عرفه ، والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعاً . وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليمانى فإذا أراد الخطيب أن يصعد المنبر استلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخام بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة إلى اليوم

اهـ ( نقل البحث من كتاب مكة المكرمة للأستاذ محمود الشرقاوى بتصرف )

## تفسير سورة قريش

مقدمة عن السورة  
قال صاحب الينائر :

السورة مكية

عدد آياتها : أربع

وكلماتها : تسع عشرة

وحروفها : ثلاث وسبعون

فواصل آياتها : ( شفت )

سميت سورة قريش ، لذكر ألفتهم فيها

معظم مقصود السورة

ذكر المنة على قريش ، وتحضيضهم على العبادة وشكر الإحسان ، ومعرفة قدر النعمة والعاقبة والأمان في قوله ﴿ وَأَمْنُهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ كرر ، لأن الثاني بدل من الأول أفاد بيان المفعول وهو ﴿ رحلة الشتاء ﴾

مناسبة السورة لما قبلها :

إن كلا منها تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ، فالأول تضمنت إهلاك عدوهم الذي جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزهم ، والثانية ذكرت نعمة أخرى هي اجتماع أمرهم ، والثالث شملهم ، ليتكفروا من الارتحال صيفا وشتاء في تجارتهم وجلب الميرة لهم .  
ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبي بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما ببسمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④

## معاني المفردات

﴿ لِإِيلَافٍ ﴾ : تقول ألفت الشيء إلفاً وإلفاً ، ولفته إلفاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه .

﴿ قريش ﴾ : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة .

﴿ الرحلة ﴾ : ارتحال القوم . أى : شدهم الرحال للمسير .  
 ﴿ أطعمهم ﴾ أى : وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله  
 ﴿ آمنهم ﴾ أى : جعلهم فى أمن من التعدى عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت ﴾  
 أى : فلتعبد قريش ربها شكراً له على أن جعلهم قوماً تجاراً ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع  
 ولا ضرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفاديه التى تأتى من بلاد الهند والخليج  
 الفارسى إلى تلك البلاد ، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم  
 المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاية الكعبة ،  
 فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب  
 والغارات التى لا تنقطع .

فكان احترامهم البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتّمى بها قريش فى الأسفار ولهذا ألفتها  
 نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراراً للرزق .

وهذا الإحلال الذى ملك نفوس العرب من البيت الحرام إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ،  
 وقد حفظ حرمة ، وزادها فى نفوس العرب رد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا  
 منه حجراً بل قبل أن يدنوا منه .

ولونزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمة عندهم ، واستطالت الأيدى على  
 أسفارهم ليفروا من تلك الرحلات ، فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع  
 ولا ضرع . وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم فى عقر ديارهم ، ليأخذوا  
 منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

وقال القرطبى رحمه الله : ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لإيلاف  
 قريش ﴾ أى : فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش وذلك أن قريشاً كانت تخرج فى تجارتها ،  
 فلا يغار عليها ولا تقرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله - عز وجل - حتى جاء صاحب الفيل  
 لهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتاً فى اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله - عز وجل - فذكرهم  
 نعمته أى : فجعل الله ذلك لإيلاف قريش ، أى : ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم وهو معنى قول مجاهد  
 وابن عباس فى رواية سعيد بن جبير عنه .

وروى ابن أبى نجيج عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال : لا يشق  
 عليهم رحلة شتاء ولا صيف منةً منه على قريش .

وقوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾

أمرهم الله - تعالى - بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين ودخلت الفاء لأجل ما فى الكلام من

معنى الشرط ، لأن المعنى إِمَّا لَا فليعبده لإيلافهم ، على معنى أن نعم الله - تعالى - عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبده لشأن هذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . والبيت . الكعبة . وفي تعريف ذاته المقدسة لهم بأنه رب هذا البيت وجهان :

أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها والثاني لأنهم بالبيت شُرُفُوا على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمه .

وقيل : ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ أى : إنه هو سبحانه الذى أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله ، ولولاه لكانوا فى جوع وضنك عيش ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التعدى والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فعاشوا فى ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواء عنده ؟

مع أنه لا فضل لأحد ممن يوسطونه فى شيء من النعمة التي هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق وكفاية الحاجة .

قال ابن عباس - رضى الله عنها - عندما تلا قوله تعالى : ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ قال : وذلك بدعوة ابراهيم - عليه السلام - حيث قال : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

وقال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقرأ قوله تعالى : ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجئى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله ، ألبالابل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أى : فليوحده بالعبادة كما جعل لهم حرماً آمناً وبيتاً محرماً كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرماً وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ أى : هو رب البيت وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا ندا ولا وثناً ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ومن عصاه سلبها منه كما قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾ .

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك وجميع سخطك

## تفسير سورة الماعون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : سبع

وكلماتها : خمس وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسة وعشرون .

وفواصل آياتها : على النون .

وسميت سورة الماعون ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

### مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الجافين على الأيتام والمساكين وذم المقصرين والمرائين ومانعي نفع المعونة عن الخيرات والمساكين في قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه لما قال سبحانه في السورة السابقة : ﴿ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ ﴾ ذم في هذه السورة من لم يحض على إطعام المساكين .

(٢) أنه قال في السورة السابقة : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ وهنا ذم من سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويحسدون الجزاء وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَى

طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ

سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾

## معاني المفردات

﴿أرأيت﴾ : أى : هل عرفت وعلمت ، والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرّف ما يذكر بعده مع تضمنه التعجب منه .

﴿الدين﴾ : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشئون الإلهية التى لا يمكن للإنسان أن يعرف حقيقتها وإنما يجد آثارها فى الكون باعثة على الإذعان والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء .

﴿يدع اليتيم﴾ أى : يدفعه ويزجره

﴿يحض﴾ أى : يحث ويدعو الناس إلى ذلك .

﴿يرءون﴾ أى : يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ، وحقيقة الرياء طلب مافى الدنيا بالعبادة وطلب المتزلة فى قلوب الناس .

﴿الماعون﴾ : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والدلو والفأس .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿أرأيت الذى يكذب بالدين﴾ ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام

﴿المسكين﴾ أى : هل عرفت يا محمد ذلك الذى يكذب بالبعث والحساب فاعرفه بصفاته وهى :

﴿فذلك الذى يدع اليتيم﴾ أى : فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا

إن جاء يطلب منه حاجة اختقارا لشأنه وتكبيرا عليه .

واليتيم : هو من مات أبوه وتركه صغيرا ، وهو ضعيف يحتاج إلى رعاية وكفالة .

والإسلام اهتم بشأن اليتيم الاهتمام البالغ من ناحية تربيته ، ومعاملته ، وضمان معيشته حتى ينشأ

عضوا فى المجتمع ينهض بواجباته ، ويقوم بمسئوليته ، ويؤدى ماله وماعليه على أحسن وجه ، وأنبل معنى .

فمن اهتمام القرآن الكريم بشأن اليتيم عدم قهره ، والغض من شأنه ، والخط من كرامته قال

تعالى : ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾<sup>(١)</sup> وقال : ﴿أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم﴾ .

ومن اهتمامه باليتيم أمره سبحانه بالمحافظة على أموال اليتامى ، وعدم قربانها إلا بالتي هى أحسن .

قال تعالى : ﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن﴾<sup>(٢)</sup> واعتبر أن من يأكل أموال اليتامى ظلما إنما

يأكل فى بطنه نارا ، قال تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا

وسيصلون سعيرا﴾<sup>(٣)</sup>

(١) سورة الضحى الآية : ٩

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٢

(٣) سورة النساء الآية : ١٠

وأمر القرآن الكريم الأوصياء أن يردوا الى اليتامى أموالهم إن رأوهم قادرين على تنميتها وحفظها ، قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ (١)

ومن اهتمام الرسول - ﷺ - بشأن اليتيم حضه على كفالته ، وأمره بوجوب رعايته ، وبشر الأوصياء أنهم - إن احسنوا إلى اليتامى - سيكونون معه في الجنة .

روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين . . وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . . ( رواه البخارى ومسلم ومالك وأبو داود ) (٢) وروى أحمد فى مسنده عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من وضع يده على رأس يتيم رحمة ، كتب الله له بكل شعرة مرت على يده حسنة » . (٣)

قوله تعالى : ﴿ ولا يمحض على طعام المسكين ﴾ أى : ولا يبحث على طعام المسكين . قال أبو حيان : وفى قوله : ( ولا يمحض ) إشارة إلى أنه هو لا يطعم إذا قدر ، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يمحض غيره فلأن يترك هو ذلك فعلا أولى وأحرى .

وقال الرازى : فإن قيل : لم قال : ﴿ ولا يمحض على طعام المسكين ﴾ ولم يقل : ولا يطعم المسكين ؟ فالجواب أنه اذا منع اليتيم حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ؟ بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية فى الخسة ، ويدل على نهاية بخله ، وقساوة قلبه وخساسة طبعه .

والحاصل أنه لا يطعم المسكين ولا يأمر بإطعامه ، لأنه يكذب بالقيامة ، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

﴿ فويل ﴾ أى : عذاب وهلاك . ﴿ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما - هو المصلى الذى إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا . وعنه أيضا : هم الذين يؤخرونها عن أوقاتها وكذا روى المغيرة عن ابراهيم قال : ساهون باضاعة الوقت . وعن أبى العالية : لا يصلونها لمواقيتها ، ولا يتمون ركوعها ولا سجودها .

قال القرطبى : ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ (٤) .

(١) سورة النساء الآية : ٦

(٢) سنن الترمذى - كتاب البر والصلة ٣٢٠/٤ رقم ١٩١٦ وصحيح مسلم كتاب الزهد والرفائق ٢٢٨٧/٤ رقم ٢٩٨٣ وصحيح البخارى - كتاب الأدب ١٠/٨ وسنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ٥١٥٠ ومالك فى الموطأ - كتاب الشعر ٩٤٨/٢ رقم ٥

(٣) مسند أحمد ٢٦٥/٥

(٤) سورة مريم الآية : ٥٩

وعن ابن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سرا ويصلونها علانية ﴿ وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾<sup>(١)</sup> ويدل على أنها في المنافقين قوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ .

قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذى قال ﴿ عن صلاتهم ﴾ ولم يقل في صلاتهم .

قال الزخشرى : فان قلت : أى فرق بين قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ وبين قولك : ( في صلاتهم ) ، قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفلاسفة من المسلمين . ومعنى « في » أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أى : يرى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تقية ، كالفاسق يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى .

وحقيقة الرياء طلب مافى الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس ، وأولها تحسين السمات وهو من أجزاء النبوة ، ويريد بذلك الجاه والثناء . وثانيها ، الرياء بالثياب القصار والخشن ، ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا .

وثالثها : الرياء بالقول باظهار التسخط على أهل الدنيا وإظهار الوعظ والتأسف على مايفوت من الخير والطاعة ورابعها - الرياء باظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس .

أخرج مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ! فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتىلقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ! وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ! فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتىلقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها وقال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثملقى فى النار »<sup>(٢)</sup> .

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمامة ١٥١٣/٣ رقم ١٩٠٥



قال القرطبي ، ولا يكون الرجل مرثيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إمطة التهمة بالإظهار . وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه لا يلام بتركه ولا تهمه فيه ، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جيلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتشنى عليه بالصلاح .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال ابن كثير : أى : لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا باعادة ماينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى .

وقد قال ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ الزكاة وكذا روى الضحاك عن ابن عباس .

وقد روى عن عمر بن عبدالعزيز عن مالك قال : بلغني أن قول الله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قال : إن المنافق إذا صلى صلى رياء ، وإن فاتته لم يندم عليها ( وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ) الزكاة التي فرض الله عليهم ، قال زيد بن أسلم : لو خفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ماصلوا .

وقال الأعمش وشعبة : عن الحكم عن يحيى بن الخراز أن أبا العبيد سأل عبدالله بن مسعود عن الماعون فقال : هو مايتعاوره الناس بينهم بين الفأس والقدر والدلو والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير .

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ يعنى متاع البيت وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير وأبومالك وغير واحد : أنها العارية للأمتعة .

وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون . قال القرطبي . كونها في المنافقين أشبه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة . ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) وقال : ﴿ وَلَا يَنْفَقُونَ إِلَّا هُمْ كَارْهُونَ ﴾ (٢) وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك في منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا في المروءة في غير حال الضرورة . والله أعلم .

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٥٤

## تفسير سورة الكوثر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : عشر .

وحروفها : ثنتان وأربعون .

فواصل آياتها : على الرء .

سميت سورة الكوثر : لذكره فيها .

معظم مقصود السورة :

بيان المنة على سيد المرسلين ، وأمره بالصلاة والقربان ، وإخباره بإهلاك أعدائه أهل الخيبة والخذلان .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه وصف في الأولى الذي يكذب بالدين بأمور أربع : البخل ، الإعراض عن الصلاة ، الرياء . منع المعونة - وهنا وصف مأمّنه رسوله - ﷺ - من الخير والبركة ، فذكر أنه أعطاه الكوثر والحرص على الصلاة ، ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

### معاني المفردات

﴿ أعطيتك الكوثر ﴾ : نهرا في الجنة .

﴿ وانحر ﴾ : المراد : الأضاحي نسكا شكرا لله تعالى .

﴿ شانتك ﴾ : مبغضك [ أحد مشركي قريش ]

﴿ هو الأبر ﴾ : المقطوع الأثر أو الخير .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

قال الامام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً إما قال لهم وإما قالوا له . لم ضحكت فقال رسول الله - ﷺ - « إنه أنزلت على آنفا سورة ، فقرأ ( بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر ) من الآيات . حتى ختمها فقال صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « هو نهر أعطانيه ربى - عز وجل - فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة آتيته عدد الكواكب ، يخلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك » (١) .

وأخرج البخارى بسنده عن أنس - رضى الله عنه - قال : « لما عرج بالنبي - ﷺ - إلى السماء قال : أتيت على نهر حافته قباب اللؤلؤ مجوفاً ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر (٢) .

وأخرج أيضاً بسنده عن أبى عبيدة - رضى الله عنه - أنه سأل عائشة - رضى الله عنها - عن قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قالت : هو نهر أعطاه نبيكم - ﷺ - شاطئاه عليه در مجوف آتيته كعدد النجوم (٣) وأخرج أيضاً بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى اعطاه الله إياه . قال أبوبشر قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه (٤) .

قال ابن حجر : الكوثر فوعل من الكثرة ، سمي بها النهر لكثرة مائه وآتيته وعظم قدره وخيره .

وقال القرطبي : والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد والقدر والخضرا كوثرًا .

وقال أيضاً : اختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطاه النبي - ﷺ - على ستة عشر قولاً . :

الأول - أنه نهر فى الجنة ، رواه البخارى عن أنس والترمذى أيضاً . وروى الترمذى أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الكوثر نهر فى الجنة حافته من ذهب ومجره على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » هذا حديث حسن صحيح (٥)

(١) مسند أحمد ١٠٧/٣

(٢) صحيح البخارى ٢١٧/٦

(٣) صحيح البخارى ٢١٧/٦

(٤) صحيح البخارى ٢١٧/٦

(٥) صحيح البخارى ٢١٧/٦

الثاني - أنه حوض النبي - ﷺ - في الموقف قال عطاء وفي صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا : أضحكك الله يا رسول الله ؟ قال : « نزلت عليّ أنفا سورة - فقرأ - بسم الله الرحمن الرحيم » إنا أعطيناك الكوثر فصلى لربك وانحر إن شأنك هو الأبر - ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم : قال : « فإنه نهر وعدنيه رب - عز وجل - عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آتيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمي فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثت بعدك (١)

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة .. وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة : رضوان الله عليهم .. ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر ، أو الحوض كوثرًا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير .

والقول الثالث : أن الكوثر النبوة والكتاب : قاله عكرمة .

والرابع : القرآن ، قاله الحسن .

والخامس : الإسلام : حكاه المغيرة .

السادس : تيسر القرآن وتخفيف الشرائع ، قاله الحسن بن الفضل .

السابع : هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياء ، قاله أبو بكر بن عياش .

الثامن : إنه الإيثار ، قاله ابن كيسان .

التاسع : إنه رفعة الذكر ، حكاه الماوردي

العاشر : أنه نور في قلبك ذلك على وقطعك عما سواي . وعنه هو الشفاعة وهو القول الحادي عشر .

وقيل : معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك ؛ حكاه الثعلبي وهو الثاني عشر .

الثالث عشر : قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمدا رسول الله . وقيل : الفقه في الدين .

وقيل : الصلوات الخمس : وهما الرابع عشر والخامس عشر ، وقال ابن اسحاق : هو العظيم من الأمر .

قلت : أصح هذه الأقوال الأولى : لأنه ثابت عن النبي - ﷺ - نص في الكوثر .

وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ماكنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في

الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ماتصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبي -

ﷺ - .

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسير الكوثر قد أعطيه رسول الله - ﷺ - زيادة على حوضه - ﷺ - تسليماً كثيراً - أ . هـ .

قال علماء السلف :

الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضعة وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمدته الله برحمته . . في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها : مارواه البخاري - رحمه الله تعالى - عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه الأباريق كعدد نجوم السماء <sup>(١)</sup> » .

رواه مسلم <sup>(٢)</sup> .

وروى الإمام أحمد أن أنس بن مالك ، قال : أغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكك ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه أنزلت علي أنفا سورة فقرأ » بسم الله الرحمن الرحيم إنا اعطيناك الكوثر ، وحتى ختمها ، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر اعطانيه ربى - عز وجل - في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آتيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب ، إنه من أمتي ، فيقال لى : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك <sup>(٣)</sup> .

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ، والحوض في العرضات قبل الصراط ، لأنه يختلج عنه ، ويمنع منه ، أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ، وقيل هؤلاء لا يجاوزون الصراط .

وروى البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أنا فرطكم على الحوض <sup>(٤)</sup> » والفرط : الذى سبق إلى الماء .

وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إني فرطكم على الحوض ، من مر على شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبداً ، ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفوني ، ثم يحال بيني وبينهم » قال أبو حازم : فسمعتي النعمان بن أبي عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ،

(١) صحيح البخاري ١٤٧/٨

- وعنه أيضاً عن النبي - ﷺ - قال : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبتى حتى إذا رأيتهم ورفعوا إلى اختلجوا دوني . فلاقولن : أى رب أصحابي أصبحي . فليقالن لى : إنك لاتدرى ما أحدثوا بعدك »

(٢) صحيح مسلم - كتاب الفضائل ٨٠٠/٤ رقم ٢٣٠٤

(٣) مسند أحمد ١٠٧/٣

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٧٥

فقال : أشهد على أبي سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها . « فأقول . إنهم منى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن غير بعدى <sup>(١)</sup> سحقا : أى بعدا .

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض : إنه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هو أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفى بعض الأحاديث أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع وأنه ينبت فى خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ، ويشمر ألوان الجواهر ، فسبحان الخالق الذى لايعجزه شيء ، وقد ورد فى أحاديث أن لكل نبي حوضا ، وأن حوض نبينا - ﷺ - أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضلهم وكرمهم . أ . هـ ( من كتاب شرح الطحاوية ) .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾

قوله : ( فصل ) أى أقم الصلاة المفروضة عليك كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : ( فصل لربك ) صلاة العيد يوم النحر ( وانحر ) نسكك .

قال ابن العربى : « أما من قال إن المراد بقوله تعالى : ( فصل ) الصلوات الخمس فلائها ركن العبادات وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين وأما من قال : ( إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ، فلائها مقرونة بالنحر ، وهو فى ذلك اليوم ، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرها ، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترائها بالنحر » .

قال العلامة ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذى تقدم صفته فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك فاعبده وحده لا شريك له وانحر على اسمه وحده لا شريك له كما قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . . . ولجئذا كان رسول الله - ﷺ - يصلى العيد ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك . . ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » <sup>(٢)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ إن شأنتك هو الأبر ﴾ أى : إن مبغضك يا محمد ومبغض ماجئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبر الأقل الأذل المنقطع ذكره قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٨

(٢) صحيح البخارى - كتاب العيدين ٢٨/٢ وانظر مسند أحمد ٣٠٣/٤

جبر : نزلت في العاصي بن وائل وقال محمد بن اسحاق ( كان العاص بن وائل اذا ذكر رسول الله - ﷺ - يقول : دعوه فانه رجل أبتر لاعقب له فاذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة . . وقال ابن عباس ايضا وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش قال البزار بسند عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصبي المنبر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيح وأهل السدانة وأهل السقاية فقال : أنتم خير منه قال فنزلت ﴿ شانتك هو الأبر ﴾ هكذا رواه البزار وهو اسناد صحيح <sup>(١)</sup> .

وعن ابن عباس نزلت في أبي جهل وعنه إن شانتك يعني عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم .

وقال السدي كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بتر فلما مات أبناء رسول الله - ﷺ - قالوا : بتر فانزل الله : ﴿ إن شانتك هو الأبر ﴾ وهذا يرجع إلى ما قلناه من أن الأبر الذي اذا مات انقطع ذكره فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره وحاشا وكلا بل قد أبقي الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد مستمرا على دوام الآباد إلى يوم المحشر والمعاد فاللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد في الأولين وصلى الله وبارك على سيدنا محمد في الآخرين وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد في الملائ الأعلى إلى يوم الدين ، اللهم أوردنا حوضه ولا تفتنا بعده ، واسقنا من يده الشريفة شربة ماء هنيئة لا يظما بعدها أبدا ، واجمع بيننا وبينه كما آمنا به ولم نره ، ولا تفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله .

اللهم أجزى نبينا خير ماجازيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته .

## تفسير سورة « قل يا أيها الكافرون »

قال صاحب البصائر

السورة مكية

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : ثمان وعشرون

وحروفها : أربع وتسعون .

وفواصل آياتها .. على النون .

سميت سورة ( الكافرون ) لمفتتحها ، وسورة الدين ، لقوله : ﴿ ولى دين ﴾ . والمقشقة قاله ابو عبيده : سورتان من القرآن يقال لها المقشقتان : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ نقششان الذنوب كما يقشش الهناء الجرب ( والهناء : القطران يطلى به ) .

وقال ابن حجر : وقيل لها المقشقة أى المبرئة من النفاق .

معظم مقصود السورة : يأس الكافرون من موافقة النبى - ﷺ - بالاسلام والاعمال فى الماضى ، والمستقبل والحال .. وبيان أن كل أحد مأخوذ بماله عليه إقبال ، وعليه اشتغال .

من التشابهات

قوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فى تكراره خمسة ، ومعان كثيرة ، ذكرت فى التفاسير ، وقال محمود ابن حمزة الكرماني : هذا التكرار اختصار وإيجاز ، هو إعجاز لأنه نفى عن نبيه عبادة الأصنام فى الماضى ، والحال ، والاستقبال ، ونص عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأزمنة الثلاثة أيضا . فاقضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات فذكر لفظ الحال لأن الحال هو الزمان الموجود واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمة . واقتصر من الماضى على المسند اليهم .

فقال : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ولأن اسم الفاعل بمعنى الماضى فعل على مذهب الكونين . واقتصر من المستقبل على المسند اليه فقال : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل . وهذا معجزة للقرآن وبرهان .

ماورد فى فضل السورة .



ففى الترمذى من حديث أنس « أنها تعدل ربع القرآن »<sup>(١)</sup> وعن حبله بن خلدية قال : قلت :  
يا رسول الله علمنى شيئاً أقوله عند منامى قال : « إذا أخذت مضجعتك من الليل فاقرأ قل ياأيها الكافرون  
فإنها براءة من الشرك »<sup>(٢)</sup> .

وروى الطبرانى بسنده : أن رسول الله - ﷺ - كان إذا أخذ مضجعه قرأ : ( قل ياأيها الكافرون )  
حتى يختمها<sup>(٣)</sup>

وثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله - ﷺ - قرأ بهذه السورة ، وبسورة قل هو الله أحد فى  
ركعتى الطواف<sup>(٤)</sup> وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قرأ بهما فى ركعتى  
الفجر<sup>(٥)</sup> ..

وقال أحمد بسنده عن ابن عمر قال رمقت رسول الله - ﷺ - أربعاً وعشرين أو خمسا وعشرين مرة  
يقرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد<sup>(٦)</sup>

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه فى السورة السابقة أمر رسوله - ﷺ - بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة باخلاص  
العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير اليه فيما سلف .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ  
مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ  
دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

(١) سنن الترمذى - كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فى اذا زلزلت ١٦٥/٥ رقم ٢٨٩٣

(٢) مجمع الزوائد - كتاب الأذكار - باب مايقوله اذا اوى الى فراشه ١٢٧/١٠

(٣) مجمع الزوائد - كتاب الأذكار - باب مايقوله اذا اوى الى فراشه ١٢٧/١٠

(٤) صحيح مسلم - كتاب الحج - باب حجة النبی - ﷺ - ٨٨٨/٢ رقم ١٢١٨

(٥) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٥٠٧/١ رقم ٧٢٦

(٦) مسند أحمد ٩٤/٢

## معاني المفردات

لكم دينكم : أى شرككم وكفركم أو جزاؤه .

لى دين : إخلاصى وتوحيدي أو جزاؤه .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل ياأيها الكافرون ، لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ماعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ماعبد لكم دينكم ولى دين ﴾

هذه السورة الكريمة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون وهى أمرة بالاخلاص فيه فقوله تعالى : ﴿ قل ياأيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله - ﷺ - إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله - ﷺ - فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : ( لا أعبد ماتعبدون ) يعنى من الاصنام والانداد . ﴿ ولا أنتم عابدون ماعبد ﴾ أى : ولا أنتم تعبدون معبودى . ومعبوده هو كان صلى الله عليه وسلم عارفا به دونهم وهم جاهلون به .

قال ابن القيم : المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها ، فأق بـ « ما » الدالة على هذا المعنى . كأنه قيل : ولا أنتم عابدون معبودى الموصوف بأنه المعبود الحق . ولو أقى بلفظة « من » لكانت إنما تدل على الذات فقط ، ويكون ذكر الصلة تعريفا ، لا إنه هو جهة العبادة . ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهل لأن يعبد ، وبين أن يكون تعريفا محضا أو صفا مقتضيا لعبادته فتأمل فانه بدیع جدا . وهذا معنى قوله النحاة إن « ما » تأق لصفات من يعلم . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماعبد ﴾ أى : ولا أعبد عبادتكم أى : لا أسلكها ولا أقتدى بها وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ولهذا قال : ﴿ ولا أنتم عابدون ماعبد ﴾ أى : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم كما قال : ﴿ ان يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ <sup>(١)</sup> فتبرأ منهم فى جميع ما هم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها اليه فالرسول - ﷺ - وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ولهذا إن كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمدا رسول الله ، أى : لا معبود بحق إلا الله ولا طريق إليه إلا ما جاء به الرسول - ﷺ - والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ولهذا قال لهم الرسول - ﷺ - : ( لكم

دينكم ولى دين ) كقوله تعالى : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ (١) .

وقال البخارى فى معنى هذه الآية : ( لكم دينكم ) : الكفر ( ولى دين ) الاسلام (٢) .

فوائد وأسرار بذيعه فى هذه السورة الكريمة

قال الامام ابن القيم - يرحمه الله - فى كتابه بدائع الفوائد ح ٣

الفائدة الاولى : فائدة تكرار الأفعال ففيل فيها وجوه :

أحداها : أن قوله : ﴿ لا أعبد ماتعبدون ﴾ نفى للحال والمستقبل .

وقوله : ﴿ ولأنتم عابدون ما أعبد ﴾ مقابلة ، أى لاتفعلون ذلك .

وقوله : ﴿ ولأنا عابد ما عبدتم ﴾ أى : لم يكن منى ذلك قط قبل نزول الوحي ، ولهذا أتى فى

عبادتهم بلفظ الماضى ، فقال : ( ما عبدتم ) فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم

وقوله : ﴿ ولأنتم عابدون ما أعبد ﴾ مقابلة ، أى لم تعبدوا قط فى الماضى ما أعبد أنا دائما .

وعلى هذا فلا تكرار أصلا . وقد استوفيت الآيات أقسام النفى ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادة

وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها ، فلنقتصر عليه ولا نتعدها إلى

غيره ، فإن الوجوه التى قيلت فى مواضعها فعليك بها .

الفائدة الثانية :

وأما المسألة الثانية ، وهى تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه ولفظ الماضى حين

أخبر عنهم نص ذلك سر ، وهو الإشارة والاياء إلى عصمة الله لنبىه عن الزيغ والانحراف عن عبادة

معبوده والاستبدال به غيره ، وأن معبوده الحق واحد فى الحال والمآل على الدوام ، ولا يرضى به بدلا ،

ولا ينبغى عنه حولا ، بخلاف الكافرين فأنهم يعبدون أهواءهم ويتبعون اليوم معبودا وغدا غيره . فقال :

( لا أعبد ماتعبدون ) يعنى الآن ، ( ولأنتم عابدون ما أعبد ) أى الآن أيضا ثم قال : ( ولأنا عابد

ما عبدتم ) يعنى ولا أنا فيما يستقبل يصدر منى عبادة لما عبدتم أيها الكافرون ، واشبهت « ما » هنا رائحة

الشرط ، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضى ، وهو مستقبل فى المعنى ، كما يجىء ذلك بعد حرف

الشرط ، كأنه يقول : مهما عبدتم من شىء فلا أعبده أنا .

فان قيل : وكيف يكون فيها الشرط ، وقد عمل فيها الفعل ، ولا جواب لها وهى موصولة ، فما

أبعد الشرط منها ؟

(١) سورة يونس الآية : ٤١

(٢) صحيح البخارى ٢٢٠/٦

قلنا : لم نقل : أنها نفسها شرط ، ولكن فيها رائحة منه ، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وإيهامها في المعبودات وعمومها وأنت إذا دقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديا على صفحاته .

فإذا قلت لرجل ما - تخالفه في كل مايفعل - أنا لأفعل ما تفعل . أأست ترى معنى الشرط قائما في كلامك وقصدك وإن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإنى لأفعله ؟ ...

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله : ( ولأنا عابد ما عبدتم ) بخلاف قوله : ( ولأنتم عابدون ما أعبد ) لبعد «ما» فيها عن معنى الشرط تنبيهها من الله تعالى على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه وأن ينتقل في المعبودات تنقل الكافرين .

### الفائدة الثالثة

وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل : وفي جهته جاء بالفعل تارة ، وباسم الفاعل أخرى .

فذلك - والله أعلم - لحكمة بديعة وهي : أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت . فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل في الثاني . أن هذا ليس وصفى ولا شأني ، فكأنه قال : عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وضعاً لي . فأتى بنفيين مقصودين بالنفي : وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل . أي : أن الوصف الثابت اللازم للعائد لله منتف عنكم ، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، ولم يشرك معه فيها أحداً ، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه . وإن عبوده في بعض الأحيان . فإن المشرك يعبدك يعبد الله ويعبد معه غيره ، كما قال أهل الكهف : ﴿ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ (١) أي : اعتزلتم معبوديهم إلا الله ، فإنكم لم تعتزلوه . وكذا قال المشركون عن معبوديهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ (٢) منهم كانوا يعبدون معه غيره ، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها .

فتأمل هذه النكتة البديعة ، كيد تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله ، وأنه عبده المستقيم على عبادته . إلا من انقطع إليه بكلية ، وتبتل إليه بتبتيلا ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحداً في عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره ، فليس عابداً لله ، ولا عبداً له وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة

(١) سورة الكهف الآية : ١٦

(٢) الزمر الآية : ٣

الجليلة ، التى هى احدى سورق الاخلاص ، التى تعدل ربع القرآن ، كما جاء فى بعض السنن . وهذا لا يفهمه كل أحد ، ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده . فله الحمد والمنة .

#### الفائدة الرابعة :

وهى أن النفى فى هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن» فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفى بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأنها أدل على دوام النفى وطوله من «لن» وأنها للطول والمد الذى فى لفظها طال النفى بها واشتد ، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفى المستقبل ولا تنفى الحال المستمر النفى فى الاستقبال ، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده فى غير هذا التعليق ، فالإتيان بـ «لا» متعين هنا . . والله أعلم .

#### الفائدة الخامسة

وهى : اشتمال هذه السورة على النفى المحض ، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة ، فأنها سورة البراءة من الشرك ، كما جاء فى وصفها : أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة من الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين ، تحقيقا للبراءة المطلوبة . وهذا مع أنها متحفة للإثبات صريحا . فقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ براءة محضة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ اثبات أن له معبودا يعبده وحده وأنتم بريئون من عبادته . فتضمنت النفى والإثبات وطابقت قول إبراهيم إمام الحنفاء : ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرني ﴾<sup>(١)</sup> وطابقت قول الفئة الموحدة : ﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾<sup>(٢)</sup> فانتظمت حقيقة « لا إله إلا الله » ولهذا كان النبى - ﷺ - يقرنها بسورة ( قل هو الله أحد ) فى سنة الفجر وسنة المغرب .

فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص ، وقد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لا نجاه للعبد ولا فلاح له إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد ، وأنه إله ( أحد صمد لم يلد ) فيكون له فرع ، ( ولم يولد ) فيكون له أصل ( ولم يكن له كفوا أحد ) فيكون له نظير . ومع هذا فهو الصمد الذى اجتمعت له صفات الكمال كلها .

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال ونفى ما يليق به من الشريك أصلا وفزعا ونظيرا فهذا توحيد العلم والاعتقاد .

والثانى : توحيد القصد والإرادة وهو : ألا يعبد إلا إياه فلا يشرك به فى عبادته سواء ، بل يكون وحده هو المعبود .

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) الكهف الآية : ١٦

وسورة ( قل يا أيها الكافرون ) شتملة على هذا التوحيد ، فانتظمت السورتان نوعى الوحيد واخلصنا له ، فكان - ﷺ - يفتح بهما النهار فى سنة الفجر ، ويختتم بهما فى سنة المغرب ، وفى السنن أنه - ﷺ - كان يوتر بهما « فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار .

#### الفائدة السادسة

ومن هنا تخريج جواب المسألة السادسة وهى . تقديم براءته من معبودهم ، ثم اتباعها ببراءتهم من معبوده فتأمله .

#### الفائدة السابعة

وهى : اثباته هذا بلفظ : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ دون يا أيها الذين كفروا فسرهم - والله أعلم - ارادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا له لازما لايفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريئا من الله ، فحقيق بالموحد البراءة منه ، فكان فى معرض البراءة التى هى غاية البعد والمجانبة بحقيقة حالة ، التى هى غاية الكفر ، وهو الكفر الثابت اللازم ، فى غاية المناسبة ، فكأنه يقول : كما أن الكفر لازم ، لكم ثابت لا تتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لى دائما ابدا ، ولهذا اتى فيها بالنفى الدال على الاستمرار فى مقابلة الكفر الثابت المستمر . وهذا واضح .

#### الفائدة الثامنة :

وهى : ماهى الفائدة فى قوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ وهل أفاد هذا معنى زائد على ماتقدم ؟ فيقال . فى ذلك من الحكمة - والله أعلم - أن النفى الأول أفاد البراءة وأنه لايتصور منه ، ولاينبغى له : أن يعبد معبوديهم ، وهم أيضا لا يكونون عابدين لمعبوده ، وأفاد آخر السورة اثبات ماتضمنته النفى من جهتهم من الشرك والكفر الذى هو حظهم وقسيمهم ونصيبيهم ، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له : لا تدخل فى حدى ، ولا أدخل فى حدك ، لك أرضك ، ولى أرضى .

فضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا ، فأصابنا التوحيد والإيمان ، فهو نصيبنا وقسمنا الذى نختص به لا تشركونا فيه ، وأصابكم الشرك بالله والكفر به ، فهو نصيبكم وقسمكم الذى تحتصون به لا تشرككم فيه ، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه .

( وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة فى حالها ، فإنها تسبى القلوب ) .

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب ، رافلة في حللها ، فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها ، ومن لم يصادف من قلبه حياة ، فهي خود تزف إلى ضرير مقعد ، فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي لها ، ونسأله اتمام نعمته .

#### الفائدة التاسعة .

وهي : تقديم قسمهم ونصيبيهم على قسمه ونصيبي ، وفي أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم .

فهذا من أسرار الكلام ، وبديع الخطاب ، الذي لا يدركه الا فحول البلاغة وفرسانها ، فإن السورة ما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان المحق هو صاحب القسمة ، وقد أبرز النصيين وميز القسمين ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون ، الذي لا أردأ منه ولا أدون ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف ، والحظ الأعظم ، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاء ، فرضى مقاسمه بالسلم ، فإنه يقول له : لا تشاركني في قسمي ، ولا أشاركك في قسمك ، لك قسمك ، ولي قسمي .

فتقدم ذكر قسمة هنا أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا هو قسمك الذي أثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين ، وأحقها بالتقديم ، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم ، والنداء على سوء اختيارهم ، وقبح ما رضوه لأنفسهم من الحسن والبيان ، مالا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه ، والحاكم في هذا هو الذوق ، والفظن يكتفي بأدنى إشارة ، وأما غليظ الفهم فلا ينجح فيه كثرة البيان .

ووجه ثان . وهو : أن مقصود السورة براءته - صلى الله عليه وسلم - من دينهم ومعبودهم ، هذا هو لبها ومغزاها ، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني ، مكملًا لبراءته وتحقيقًا لها ، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ، ثم جاء قوله : ﴿ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ مطابقاً لهذا المعنى ، أي لا أشارككم في دينكم ، ولا أوافقكم عليه ، بل هو دين باطل ، تختصون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً ، فطابق آخر السورة أولها ، فتأمل . هـ .

## تفسير سورة النصر

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

فواصل آياتها : على الحاء والألف وليس في القرآن آية على الحاء غير الفتح .

سميت سورة النصر ، لقوله ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ، وسورة التوديع ، لما فيه من بيان نعى المصطفى - صلى الله عليه وسلم - .

معظم مقصود السورة :

بيان نعيه صلى الله عليه وسلم ، وذكر تمام نصرته أهل الإسلام ، ورغبة الخلق في الإقبال على دين الهدى وبيان وظيفة التسييح والاستغفار ، والأمر بالتوبة في آخر الحال بقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه لما ذكر في السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ، ودين الكفار الذي يعكفون عليه ، أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذي يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾  
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾



## معاني المفردات

﴿ النصر ﴾ العون . يقال نصر الأخ أخاه ، أعانه على أمره فالنصر الإعانة على إدراك المطلوب .  
 ﴿ والفتح ﴾ هو إدراك المطلوب ، فكأنما النصر سبب للفتح ، فكان البدء به ثم التعقيب بالفتح .  
 ومن معاني الفتح - الفصل والحكم بين المتنازعين يقول تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ (١) .

﴿ أفواجا ﴾ وأحدهم فوج ، وهو الجماعة والطائفة .  
 ﴿ واستغفره ﴾ أى اسأله أن يغفر الذنوب لقومك الذين اتبعوك .  
 (توابا) أى كثير القبول لتوبة عباده .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وسائر المؤمنين ، والمعنى : إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك ، وفتح عليك مكة أم القرى ، قال المفسرون : الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخبار بالغيب ، فهو من أعلام النبوة .  
 قال القرطبي : قيل : المراد بهذا النصر ، نصر الرسول على قريش ، قاله الطبرى . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ، فإن عاقبة النصر كانت له ، وأما الفتح فهو فتح مكة ، عن الحسن ومجاهد وغيرهما وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل فتح سائر البلاد . « وإذا » بمعنى « قد » أى قد جاء نصر الله ، لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ﴾ أى رأيت العرب وغيرهم يدخلون في دين الله - الاسلام . جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال ، وذلك لما فتحت مكة ، قالت العرب : أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان - أى طاعة ، فكانوا يسلمون أفواجا أمة أمة ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن ، وبعضهم يهللون ، فسّر النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك وبكى عمر وابن عباس .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة ، الفقه يمان والحكمة يمانية »<sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ أى إذا صليت فأكثر من ذلك وقيل : معنى سبح : صل ، عن ابن عباس . ( بحمد ربك ) أى حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح ( واستغفره ) أى سل الله الغفران .

روى الأئمة واللفظ للبخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول : « سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى »<sup>(٢)</sup> . يتأول القرآن .

وقال عكرمة رضى الله عنه : لم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم - قط أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها .

وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبى - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه : ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرحوا واستبشروا وبكى العباس ، فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم - « ما يبكيك يا عم ؟ » قال : نعت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » فعاش بعدها ستين يوماً ما رأى فيها ضاحكاً مستبشراً . وقيل : نزلت فى منى بعد أيام التشريق فى حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : أن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - « صدقتما نعت إلى نفسى » .

وفى البخارى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال فوجد بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، فسألهم عن هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ فقالوا : أمر الله عز وجل نبيه - صلى الله عليه وسلم - إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه ، فقال : ما تقول يا بنى عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - حضور أجله ، فقال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة موتك . ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول<sup>(٣)</sup> وروى الترمذى قال : كان عمر يسألنى مع أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٧٢ كتاب الايمان باب تفاضل أهل الايمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه رقم ٥٢/٨٤

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٦ ص ٢٢٠ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث نعلم . فسأله عن هذه الآية ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقلت : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ، وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ إنه كان تواباً ﴾ أى على المسبحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .

وإذا كان عليه الصلاة والسلام يؤمر بالاستغفار وهو المعصوم فما الظن بغيره .

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » ؟ فقال : « خبرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى ؟ فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها »<sup>(٢)</sup> ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ - فتح مكة - ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ . وصلى وسلم ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا وربطوا فى سبيل الله . « لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

اللهم يا حى ، يا قيوم ، يا مالك الملك ، تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، نسألك أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يعز فيه أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ونسألك أن تطهر بالتوبة النصوح فساد قلوبنا ، وأن تجمع قلوبنا على خشيتك ، وأن تهدينا إلى أقرب الطرق إليك برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٤١٦ ، ٤٢٠ كتاب تفسير القرآن باب من سورة النصر رقم ٣٣٦٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٣٥١

كتاب الصلاة . باب ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٤٨٤/٢٢٠

## تفسير سورة ( المسد )

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : سبع وسبعون .

فواصل آياتها : ( تب ) .

وتسمى سورة تبت ، وسورة المسد لذكرها فيها .

مقصود السورة :

تهديد أبى لهب على الجفاء والإعراض ، وضياح كسبه وأمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذم زوجه فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان ما هو مدخر لها من سوء العاقبة .

ومن المتشابه :

قوله تعالى : ﴿ تبت ﴾ وبعده ﴿ وتب ﴾ هذا ليس بتكرار ، لأن الأول جرى مجرى الدعاء ، والثانى خبر ، أى وقد تب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة ، أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى العقبى ، وهنا ذكر أن عاقبة العاصى الخسارة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، والاتساق بين هذه السورة وسورة ( النصر ) التى قبلها اتساق تام كامل ، فسورة « النصر » ختمت بذكر المهتدين الذين أحياهم أنفسهم ، ودخلوا فى دين الحق أفواجا ، فبقى الفريق الذى جحد الحق ، وعادى دعوته ، فخسر نفسه وأهلك إنسانيته .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا  
ذَاتَ لَهَبٍ ۝ (٣) وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ۝ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝ (٥)

### معاني المفردات

- ﴿ التباب ﴾ الهلاك والخسران . قال تعالى : ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ (١) .
- ﴿ وأبو لهب ﴾ أحد أعمام النبي - صلى الله عليه وسلم - واسمه عبد العزى بن عبد المطلب .
- ﴿ وتب ﴾ أى قد تب وخسر .
- ﴿ يصلى نارا ﴾ أى يجد حرها ويدوقه .
- ﴿ ذات لهب ﴾ لهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها وتوقدها .
- ﴿ الجيد ﴾ العنق .
- ﴿ المسد ﴾ الليف .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ دعاء بهلاك اليمين ، لأنها آلة البطش والعدوان ، ثم دعاء بعد ذلك بهلاك شامل لصاحب اليمين ، أو الأولى دعاء ، الثانية إخبار بأن الدعاء قد أجيب فعلاً ، وأن الهلاك قد تحقق . ( وأبو لهب ) كنية لهذا الطاغية الجبار واسمه ( عبد العزى ) بن عبد المطلب فهو عم النبي - صلى الله عليه وسلم - وقد امتازت عداوته الشديدة لابن أخيه ، بتكالب واستماتة لفشل الدعوة المحمدية والصد عن سبيل الله .

وهذه الكنية ، إما كانت لهذا الطاغية في الجاهلية ، لأن في وجهه التماعاً و سطوعاً ، فذكرها الكتاب الحكيم لا تكرمه له ، ولا تعظيماً لشأنه ، بل تهكماً به ، وسخرية منه . فما تنفع وسامة الطلعة في سواد القلب ، يوم تقلب وجوههم في النار .

وأما كناهها القرآن ، لأول مرة ، ولم يكن له بذلك الكنية عهد في الجاهلية ، فنسبه إلى اللهب الذى سيتعذب به ، وذلك أسلوب عربى سائع ، فكما تقول للرجل الخير أبا الخير ، وللبار أبا البر ، وللمحسن أبا الإحسان كذلك ، تقول للشرير أبا الشر ، وللمسئء أبا السوء ، فهذه التكنية حددت مصيره ، فجعلته

رجلاً جهنمياً ملازماً لجهنم ، ملازماً للهب ، لهذا السعير المتأجج . فالكنية ، هنا تهكم وتشهير ، والتوافق بين مصير عبد العزى وبين كنيته القرآنية توافق قد احكم وضعه ، وسمت بلاغته .

ثم يروينا في تلك السورة ، أسلوب فريد في الإرهاب والتشهير ، فالسورة تصب الوعيد صباً ، وتصور العذاب تصويراً ، وتسم الأثيم بوصمة وسبة ، تبقى أبد الأبدين ، عبرة للمعتبرين ، ثم هي تذكر امرأة جاعحة آثمة ، جمعت إلى عدواتها للحق ، استشراءها في تقطيع المودات ، وفصم الوشائج والصلات ، وإشاعة السوء في المجتمع ، كى يصبح شعلة من نيران العداوة والبغضاء ، بما تبثه من النمائم بين الناس . ذكرت السورة ، في الأسلوب اللاذع الرهيب ، هاتين الشخصيتين ، عبد العزى - أباهب - وامراته - أم جميل - حمالة الخطب ، لا لأنها عدوان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأنها أمعنا في الإساءة الى شخصه الكريم ، فكثير سواهما قد أمعن في الإيذاء ، وبالغ في العدوان من أمثال ، أبي جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبي معيط ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة . فكل هؤلاء عادى محمد صلى الله عليه وسلم وكل هؤلاء آذاه وحسده ، وجحد بنوته ، ومع هذا ، لم يذكر واحد منهم في الآيات البينات بوضوح وجلاء ، كما ذكر أبوهب وامراته موسومان بالسببة الأبدية الرادعة .

فما سر هذا التمييز بين المجرمين والتخصيص بين الأثمين ؟

لعل تخصيص هاتين الشخصيتين - أبي هب وامراته - بهذا الأسلوب الحار المتأجج من الوعيد ، راجع إلى ما انفرد به أبوهب من العدوان والبغضاء للدعوة الإسلامية ولدين التوحيد في أصوله ، فلقد تجاوز أبوهب كراهة محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى كراهة دعوته ، كراهة محرمة آثمة طاغية ، فكان جدد حريص على تعويق الدعوة ، وعلى صد الناس عنها ، لا يهدأ ولا يستقر ، أويفسد أمر هذا الدين الحنيف ، ويتبدد ضياء الحق المبين .

كان من دأب أبي هب أنه لا يقتصر عن تكذيب - محمد صلى الله عليه وسلم - بل لقد كان يتعقبه في غدوه ورواحه ، في ليله ونهاره ، منفرداً ومجتمعاً . ثم لا يألوا في صد الناس عن سبيل الحق ، وكلما رأى النور يقتحم اغلاق الصدور ، وينفذ في ظلمات الشرك ، ذهب يتردى في سواته حريصاً جاهداً أن تنطفئ جذوة التوحيد ، وهاكم ما قاله رجل جاهلي ، حضر سوقاً من الأسواق الجاهلية ، وهذا الرجل هو طارق المحارب ، قال : بينما أنا بسوق ذي المجاز إذ برجل حديث السن يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وإذا خلفه رجل يرميه بالحجارة حتى أدمى ساقيه ، وهو يصيح : أيها الناس : إنه كذاب فلا تصدقوه . فقلت من هذا ، فقالوا : هو محمد ، يقول : إنه نبي ، وهذا عمه ، عبد العزى يزعم أنه كذاب .

هكذا كان يتبع أبوهب محمداً - صلى الله عليه وسلم - أينما سار ، وحيثما رحل ، وكلما شاهده ينذر الناس ، ويحذرهم من عذاب الله ، هاج هائج ، واضطرم غيظه وراح يعقب على أحسن الحديث ، بحديث الحاقد الآفك . إذن لم تكن عدواته لشخص الرسول ، بل لدعوة الرسول ، ولعقيدة الرسول ،

وهو في حرصه على خذلان الدعوة كالنمر والكلب لا يهدأ ولا يسكن ، لا يستقر ولا يستريح ولا يندع سبيلاً لهدى محمد إلى قلوب الناس .

روى أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يكتُم أمره في أول المبعث ، ويصلى في شعاب مكة ثلاث سنين . إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ وأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ فصعد الصفا ونادى : « يا آل غالب . يا آل لؤى . يا آل مره ، يا آل كلاب . يا آل قصي . فخرجوا إليه » وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر . وخرج معهم ( أبو لهب ) .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عنكم . أكنتم مصدقي ؟؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فبادر أبو لهب . وقال : تباً لك سائر الأيام . ألهذا جمعتنا ؟ ثم تناول حجراً بيده ليرمى به محمداً - صلى الله عليه وسلم - فنزلت السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ <sup>(١)</sup> . قوله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ .

وقد وقع هذا فعلاً ، فإن ( أبا لهب ) بعد دعوة القرآن عليه - قد ناله الهلاك والتباب على صورة ذليلة حقيرة ، فلا المال أجدى عليه ، ولا أبقى له حنان الأبناء والأقرباء ، ( وما كسب ) أى شيء وكان كسبه بهذا المال ؟ لقد كسب به آثاماً وعقوباً وكفراً وجحوداً ، ثم مات حليف الهموم والأحزان ، طريداً من عشيرته ، قد أذله الوباء ، وأعوزه من أهله الوفاء .

ويروى ( أبو رافع ) مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - حادثة هلاكه فيقول : « لقد تخلف ( أبو لهب ) عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام ، وكان الرجل منهم إذا تخلف ، بعث مكانه رجلاً آخر ، فبينما نحن جلوس بجوار زمزم ، إذ أقبل أبو سفيان راجعاً من بدر ، فسأله ( أبو لهب ) عن أنباء الحرب ، ففطق يذكر أنباء الهزيمة التي حلت بالمشركين في بدر ، وأنه شاهد في صفوف محمد رجلاً لا عهد له بهم ، فوق ظهور خيل مسومة ، فقال أبو رافع : هؤلاء والله الملائكة ، فغضب ( أبو لهب ) وشج رأس أبي رافع ، فقامت أم الفضل بنت العباس عم محمد - صلى الله عليه وسلم - وهي فتاة ناشئة قد أسلمت ، قامت فقذفت بعمود من أعمدة الخيام رأس ( أبي لهب ) فشجته ، وهي تقول : « والله لقد صدق فيما قال » .

فانصرف ( أبو لهب ) ذليلاً حزيناً ، وما عاش الا سبع ليال بعد بدر إذ رماه الله بالعدسة ، فأودت به ، والعدسة ( بثرة ) خبيثة ، ترى في ظاهر الجسم ، وهي وباء يتقى منه ، ولهذا تركه أبناؤه وأتباعه وهو

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ كتاب الايمان باب قوله تعالى « وأُنذِرَ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » . رقم ٨/٣٥٥ . انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٤٢٠ كتاب التفسير باب ومن سورة تبت يدا . رقم ٣٣٦٣ .

ميت فراراً من العدوى ، فجاء بعض العبيد وحملوه وقذفوا به في حفرة نائية ، وهالوا عليه الحجارة والتراب ، فحقاً لقد مات ميتة البائسين الأذلاء ، ما أغنى عنه ماله وما كسب .

وقوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ السين هنا - لتأكيد الوعيد ، والتنوين في ( ناراً ) لتعظيم أمرها ، وأنها نار فوق مدارك العقول ( ذات لهب ) تصوير لما فيها من آلام وعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وامراته حمالة الحطب ﴾ ستصلى معه ذلك العذاب المهين ، وامراته هي ( أم جميل ) بنت حرب ، أخت أبي سفيان ، وعمة معاوية ، وكانت امرأة جاحمة في عدائها ، فكانت تجمع الشوك والحطب ، وتلقى به في طريق محمد - صلى الله عليه وسلم - ليتأذى ويتألم ، ثم هي أيضاً كانت تمشي بالنميمة ، وتعمل جاهدة على بذر الشقاق ، وبث الكراهية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والعرب تقول لمن ديدنه النمام والافساد بين الناس : أنه يحمل الحطب ، أى يوقد بينهم النار ، ويورث الشر ، فالحطب شعار للنميمة ، والمقصود أنها تشعل الفتنة ، وتثير النفوس ضد محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله تعالى : ﴿ في جيدها جبل من مسد ﴾ أى في عنقها جبل مما مُسد من الحبال ، أى أحكم فتله ، وقد صورها الله تعالى بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها في جيدها ، كبعض الخطابات المستهנות احتقاراً لها ، واحتقاراً لبعليها . حين اختارت ذلك لنفسها .

ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها ، وهي في نار جهنم ، إذ تكون على الصورة ، التي كانت عليها في الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك ايذاء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهي لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال في جيدها جبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤها من جنس عملها ، فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت لأنفصنها في عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلاً في جيدها من مسد النار .

ما أعظم هذا الوعيد ، الذي سجل الله له الخلود ، وعيد الذين يعادون الحق ويجانبون الخير ، ووعيد الذين يمشون بالنمام ، فيمزقون الأعراض ، ويهدمون الأخلاق ، فكل من وقف في سبيل الحق ، وكل من عوق عن طريق الخير ، وكل قاطع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة ، ومن مودة ، فله مثل هذا الوعيد ، وهو شريك لأبي لهب ، شريك لحمالة الحطب .

نعوذ بالله من أمثال أبي لهب ، ومن أمثال حمالة الحطب .

قال العلماء :

في هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ ، وامراته حمالة الحطب في جيدها جبل من مسد ﴿ فأخبر عنها بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقص لها أن يؤمنوا ولا واحد منها لا باطناً ولا ظاهراً ، لا سراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الطاهرة .



## تفسير سورة الإخلاص

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر .

السورة مكية .

عدد آياتها : أربع .

وكلماتها : احدى عشرة .

وحروفها : سبع وأربعون .

فواصل آياتها : على الدال .

ولها عشرون اسماً :

سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة التجريد ، وسورة الإخلاص ، وسورة النجاة ، وسورة الولاية ، والسابع سورة المعرفة ، الثامن سورة الجمال ، التاسع المقشقة وقد سبق في ( قل يا أيها الكافرون ) العاشر الأمان ، لأنه روى « إذا قال العبد بقلبه لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمن عذابي »<sup>(١)</sup> الحادي عشر : المعوذة لما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها الثاني عشر سورة الصمد ، الثالث عشر : الأساس ، الرابع عشر : المانعة كما يروى ابن عباس : إذ هي مانعة العذاب عما ينزه الله . الخامس عشر : المحضرة ، لأن الملائكة تحضر لاستماعها الحق ، وموقظة الضمائر الغافلة ولا مجال للشيطان الا عند غفلة الضمائر . السابع عشر : البراءة أى المنافق . الثامن عشر : المذكرة التاسع عشر الشافية ، العشرون سورة النور ، لما في الخبر إن لكل شيء نورا ونور القرآن ( قل هو الله أحد ) .

### معظم مقصود السورة :

بيان الوحدةانية ، وذكر الصمد ، وتنزيه الحق عن الولد والوالد والولادة ، والبراءة من الشراكة والشريك في المملكة .

ومن المتشابه : قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ كرر ليكون كل جملة بها مستقلة بذاتها غير محتاجة إلى ما قبلها ، ثم نفى عنه سبحانه الولد بقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ والصاحبة بقوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ  
كُفُوًا أَحَدٌ ④

فضل السورة الكريمة :

- ثبت في صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ( قل هو الله أحد ) .  
فلما أصبح جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقناها ، فقال رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » (١) .  
- وعنه قال قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة » فشق  
ذلك عليهم وقالوا : أينما يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .  
وخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء بمعناه (٢) .

- وخرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال - رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احشدوا فإنى  
سأقرأ عليكم ثلث القرآن » فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله - صلى الله عليه وسلم - فقرأ « قل هو الله  
أحد » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خيراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج  
فقاله : « إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن » (٣) قال القرطبى : قال بعض  
العلماء إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد فى غيرها من السور  
وكذلك « أحد » . وقيل : إن القرآن أنزل ثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام وثلثاً منه وعد ووعد ، وثلثاً منه أسماء  
وصفات ، وقد جمعت ( قل هو الله أحد ) أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات ، ودل على هذا التأويل  
ما فى صحيح مسلم من حديث أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل جزأ القرآن  
ثلاثة أجزاء فجعل ( قل هو الله أحد ) جزءاً من أجزاء ( القرآن ) » (٤) .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن فضل سورة قل هو الله أحد .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٢/٢٦١

(٤) أخرجه مسلم حـ ١ ص ٥٥٦ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١١/٢٦٠

- وروى الامام مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم به ( قل هو الله أحد ) ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك » ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « أخبروه أن الله عز وجل يحبه » (١) .

وعند الترمذى . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن حبها أدخلك الجنة » .

- وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : أقبلت مع النبى صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ ( قل هو الله أحد ) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وجبت » قلت « وما وجبت » قال : « الجنة » قال الترمذى حديث حسن صحيح (٢) .

- وأخرج النسائى والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سمع رجلاً يقول : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقال - صلى الله عليه وسلم - : « لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب » (٣) .

- وقال الامام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصرأ فى الجنة » فقال عمر : إذا نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : « الله أكثر وأطيب » . تفرد به أحمد (٤) ورواه الدارمى فى مسنده عن سعيد بن المسيب يقول أن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - قال : من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصرأ فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ، ومن

(١) أخرجه مسلم حد ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٣/٢٦٣

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه حد ٥ ص ١٥٤ كتاب فضائل القرآن . باب ماجاء فى سورة الاخلاص . رقم : ٩٧

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حد ٥ ص ٤٨١ كتاب الدعوات . باب جامع الدعوات عند النبى - صلى الله عليه وسلم - رقم ٤٧٥ انظر النسائى فى الكبرى والنعوت ، وابن ماجه فى الدعاء . باب اسم الله الأعظم .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده حد ٣ ص ٤٣٧

قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة « فقال عمر بن الخطاب : إذا تكثرت قصورنا ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « الله أوسع من ذلك » قال ابن كثير وهذا مرسل جيد » (١) .

- وقال البخارى عن عائشة رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بها على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات (٢) .

مناسبة السورة لما قبلها .

قال السيوطى : قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فى اللفظ بين فواصلها .

ومقطع سورة تبت .

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان فى اللفظ ، أن هذه السورة متصلة بـ ( قل يا أيها الكافرون ) فى المعنى ، ولهذا قيل : من أسمائها أيضا الأخلاص . وقد قالوا : أنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضا مشتملة عليه ، ولهذا قرن بينهما القراءة فى الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

وأما فصل بين النظيرتين بالسورتين ( أى النصر وتبت ) لما تقدم من الحكمة وكان إيلاؤها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

### التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

قال الامام أحمد عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (٣) . وكذا رواه الترمذى . وقال عكرمة لما قالت اليهود : نحن نعبد عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركين : نحن نعبد الأوثان ، أنزل الله على رسوله - صلى الله عليه وسلم - ( قل هو الله أحد ) يعنى هو الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عدیل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

(١) أخرجه الدارمى فى سننه جـ ٢ ص ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٦ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ كتاب فضائل القرآن . باب « فضل المعوذات » .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٥ ص ١٢١ كتاب تفسير القرآن باب سورة الاخلاص رقم ٣٤٢٣ .

فهذا الأمر من الله تعالى في مفتتح السورة ، منه للنفس ، مفتح للقلوب ، حتى يتفرغ الانسان لما سيتقرر من اثبات الأحدية والصمدية ، ونفى الولادة والتولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد كانت ضروب الشرك متباينة ، ومذاهب المشركين متعددة ، فهناك عبدة الأصنام ، وعبدة الكواكب والنجوم ، وهناك عبدة النيران ، وهناك من يزعم الها للخير والها للشر ، وللريح إله ، وللجمال إله ، فلجميع هؤلاء الذين يرتدون في ظلمات الاشراك ، وبذلوا انسانياتهم ، لمن لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - لجميع هؤلاء يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن ( قل ) لهم ( هو ) أى الأمر والشأن ، والحال ، والواقع ( الله أحد ) . فهذا أسلوب عربى بليغ وضمير ( هو ) يسمى ضمير الشأن ، أو القصة ، ويأتى دائماً عندما يراد تقرير حقيقة تختلف فيه الناس ، فهم منها فى أمر مريج ، فيكون فصل الخطاب فى هذا الشأن الخطير ، والأمر العظيم مبدوءاً بـ ( هو ) فلا مؤثر فى الأكوان سواه ، وكل من فى الوجود يفنى ويتغير وينعدم :

( كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون ) (١) .

وإنك لتنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شيء ، فتجد نظام الأفلاك ، ودوران الكواكب ، واختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وكل ما يقع عليه الحس ، ويدركه العقل ، كل هذا يوحى بأن هذه العوالم المحكمة البناء ، المؤتلفة الحركات ، الموحدة النظام ، تبعث فى الفكر أنها ذات نظام موحد متسق ، وأن حياة كل جزء متمم لحياة الأجزاء الأخرى ، ومرتبطة ببعضها ببعض كل الارتباط .

قال تعالى : ﴿ والهكم إله واحد ، لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حياً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) البقرة آية : ١٦٤

أعصاب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابهه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴿١﴾ .

وقال جل وعلا :

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ (٢) .

وقال تعالى :

﴿ قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفألتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾ (٣) .

سبحانك اللهم أنت الواحد      كل الوجود على وجودك شاهد  
يا حي يا قيوم أنت المرتجي      وإلى علاك عنى الجبين الساجد

أنخا الاسلام :

تأمل في نبات الأرض وانظر      إلى آثار ما صنع المليك  
عيون من لجين شاخصات      بأبصار هي الذهب السبيك  
على قضيب الزبرجد شاهدات      بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ نفى لكل معبود سوى الله ، إذ هو سبحانه وحده المقصود في العالم ، ومنه وحده المدد والعون ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ الله الصمد ﴾ أى الذى يصمد إليه في الحاجات ، كما قال عز وجل : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (٤) وقال القرطبي : قال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يصمد إليه في النوازل والحوائج .

وقال قوم : الصمد الدائم الباقي ، الذى لم يزل ولا يزال ، وقيل تفسيره ما بعده ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وهو تفسير جيد .

(١) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩

(٢) الزمر الآيتان : ٥ ، ٦

(٣) الرعد آية : ١٦

(٤) النحل آية : ٥٣

وقال أبوهريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج اليه كل أحد .

إلهى

يا من تُحل بذكره	عقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى	وإليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا	صمد تنزه عن مضاد
أنت الرقيب على العبا	د وأنت فى الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطا	عك والمذل لكل جاحد
إنى دعوتك وأله	وم جيوشها نحوى تطارد
فاخرج بحولك كرى	يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعا	ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسب	ب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قر	يأ يا إلهى لا تباعد
كن راحى فلقد يثت	من الأقارب والأبعاد
ثم الصلاة على النبى	وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم	ما خر للرحمن ساجد

قوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ﴾ قوله ﴿ لم يلد ﴾ أى لم يتخذ ولداً ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، منزّه عن النقائص .

قال المفسرون فى الآية : رد على كل من جعل لله ولداً ، كاليهود فى قولهم ﴿ عزيز ابن الله ﴾ والنصارى فى قولهم ﴿ المسيح ابن الله ﴾ وكمشركى العرب فى زعمهم أن الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى على الجميع فى أنه ليس له ولد ، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده ، والله تعالى أزلى قديم ، ليس كمثله شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأنه الولد لا يكون إلا من زوجة وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ ؟ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ ولم يولد ﴾ أى ولم يولد من أب ولا أم ، لأن كل مولود حادث ، وكل من كان كذلك فنهايتة إلى الانحلال والفناء ، والله دائم حى سرمدى ، ليس كمثله شيء .

وبعد أن قررت الآية أنه - تعالى - وحده المقصود من جميع خلقه ، وأنه هو الملجأ ، وهو المستعان ، فلا ينبغي لذى عقل ولا لذى عقيدة ، أن يلجأ فى شؤونه لغير الله ، ولا أن يعول على سواه بعد ذلك ، تقرر الآية الأخيرة من السورة أنه ليس له فى الوجود مائل ولا مكافئ ، لا فى القدرة ولا فى العمل . قوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ : أى لم يكن له مائل ولا مكافئ ، وليس شيء من الموجودات يساويه فى صفاته

وعظمته ، ولا في ذاته ووجوده ، فقدرته تعالى سرمدية ووجوده سرمدى ، وعدله سرمدى ، وفضله سرمدى وإحسانه أبدي سرمدى .

وصياغة الآية ، قدمت كلمة ( له ) فجاءت ( ولم يكن له كفواً أحد ) ولم تحيء : ولم يكن أحد كفواً له لأن « له » راجعة إلى الله تعالى ، وأن هذه اللفظة التي كان حقها التأخير ، قد شرفها وعظمها ضمير الجلالة ، فصار حقها التقدم والتصدير .

قال ابن كثير : في هذه الآية الكريمة : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه ، وفي الحديث القدسي : « يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقلوه ، لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقلوه : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد<sup>(١)</sup> .

### عيسى ابن مريم

« لم تصادف خرافة من الرواج في العالم مثل الخرافة التي تعد عيسى إلهاً لهذا العالم - أو شريكاً فيه مع الله - !!

وهذه الخرافة تتسع وتضيّق ، حسب اختلاف الأهواء والآراء . فتارة تعتبر هذا العالم خاضعاً لإشراف شركة مساهمة من الله - تعالى - ثم من عيسى ، وأمه والروح القدس .

وتارة تضيق فتعتبر هؤلاء الشركاء شعباً شتى لحقيقة واحدة ، أو مظاهر متعددة لإله واحد ، على نحو يعجز العقل عن تصوره ..

وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير .

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾<sup>(٢)</sup> ..

وقال سبحانه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد .. ﴾<sup>(٣)</sup> . وعيسى عليه السلام بشر ، يأكل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تنفى عنه صفة الإنسانية ، أو يزعم له ما هو فوقها .

قال سبحانه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون ﴾<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه البخارى ج ٦ ص ٢٢٣ كتاب التفسير . باب تفسير سورة « قل هو الله أحد » .

(٢) سورة المائدة آية : ١٧

(٣) سورة المائدة آية : ٧٣

(٤) سورة المائدة آية : ٧٥



ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ، ويدل في ساحته ، ويسمع - في صمت وإقرار - هذا التقرير الخطير .

﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ (١) .  
وعيسى نفسه يعرف أنه وأمه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستكران غلو الغالين فيهما .

قال تعالى : ﴿ أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ، قال سبحانه ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾ (٢) .

والواقع الذى يعلوبه صوت البديهة : أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء والأرض .. إلخ لأنه فى حياته عبد ضعيف ، وبعد مماته رفات موارى فى حفرة من التراب ..  
ومؤهلوا عيسى يشعرون بذلك جيداً .

ومن ثم فهم يلتمسون له القوة - التى تجعل منه إلهاً - من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كإنسان ، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله - سبحانه وتعالى - هى نسبة البنوة - كأنه ولى عهد !! وزين لهم هذا التخيّل أن عيسى ولد من أم فقط .

والحق أن النسبة بين الله وبين خلقه كافة ، هى نسبة الموجد المتفضل بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار ، على عالم لا يملك لنفسه خيراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .. وإن كل صامت وناطق فى هذا العالم يدين لله بكيونته ، وهو طوعاً أو كرهاً ، يسبح بحمده ، ويدل لربوبيته .  
والله سبحانه وتعالى ، قد جعل بعض مخلوقاته أرضاً وبعضها سماء ، بعضها تراباً ، وبعضها ذهباً ، وبعضها نباتاً ، وبعضها حيواناً ، وبعضها إنساً ، وبعضها جنّاً ..

فما أعلى شأنه من خلقه ، فهو محض فضله ، وما حدد له وضعه فهو محض حكمته .  
وقد يمنح بعض البشر والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ، ثم يختارون رسلاً لعباده .  
وأياً ما يفعل ربك بخلقهم ، فإن ذلك لا يمس أصل النسبة المقررة بين العالم وموجده الأعظم .  
إذا جعل المهندس بعض أحجار البيت دعائم مخفية فى الطين ، وبعضها الآخر شرفات تعلو فى الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندساً أو شبه مهندس ؟  
أى سخف هذا الذى يجعل بعض الخلق شركاء فى الألوهية ، لأية منح فضل احترام ؟

(١) سورة المائدة آية : ١٧

(٢) سورة المائدة آية : ١١٧

وكيف يتصور في بديع السموات والأرض أن يكون والداً لتلك الأجساد التي ذراها؟ وما عيسى في جانب الملكوت الضخم؟ ﴿قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه، هو الغنى، له ما في السموات وما في الأرض، إن عندكم من سلطان بهذا، أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾<sup>(١)</sup>.  
 ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾<sup>(٢)</sup>.

وشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة، من ولاية ونبوة واتصال انسال (!).  
 ﴿لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار﴾<sup>(٣)</sup>.  
 ولو كانت ولادة عيسى من أم فقط، ترشحه للألوهية - بصفة النبوة - لكان آدم أولى منه بها، بل لكان الملائكة المقربون أولى بذلك، فهم من الملأ الأعلى وليس من الحمأ المسنون!!  
 ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾<sup>(٤)</sup>.

(مستفاد من كتاب عقيدة المسلم / الشيخ محمد الغزالي)

عن عبادة بن الصامت، رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق، أدخله الجنة على ما كان من العمل»<sup>(٥)</sup> متفق عليه.  
 اللهم إني أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر برحمتك يا أرحم الراحمين.

(١) سورة يونس آية : ٦٨

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٣) سورة الزمر آية : ٤

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٥٨ ، ٥٩

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه ج ٤ ص ٢٠١ ، كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى « إذ قالت الملائكة يا مريم ... »

## تفسير سورة الفلق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

وفواصل آياتها : (دبق) .

سميت سورة الفلق ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

الاستعاذة من الشرور ، ومن مخافة الليل الديجور ، ومن آفات الماكرين والحاسدين في قوله ﴿ إذا

حسد ﴾ .

ومن التشابهات :

قوله تعالى : ﴿ قل ﴾ نزلت في ابتداء خمس سور ، وصار متلوًا بها ، لأنها نزلت جواباً ، وكرر قوله :

(من شر) أربع مرات ، لأن شر كل واحد منها غير شر الآخر .

فضل السورة :

فيه حديث عقبه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « ألا أخبرك بأفضل ما تتعوذ به

المتعوذون ؟ قال : قلت : بلى قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ <sup>(١)</sup> .

مناسبة السورة لما قبلها :

قال السيوطي رحمه الله : « سورة الفلق ، والناس » : نزلتا معاً ، كما في الدلائل للبيهقي ، فلذلك

قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقب بهما سورة الإخلاص ،

لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات وبالقوافل .

وقدمت الفلق على الناس - وإن كانت أقصر منها - لمناسبة مقطعها في الوزن لفواصل الإخلاص مع

مقطع تبت .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

## معانی المفردات

أعوذ : . أى ألتجأ .

الفلق : شق الشيء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشيء فانفلق كما قال تعالى : ﴿ فالفلق الحب والنوى ﴾ <sup>(١)</sup> والشيء المفلوق يسمى فلماً ، والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التي تنفلق عن النبات ، والجبال التي تنفلق من عيون الماء ، والسحاب تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التي تنفلق عن الأولاد .

غاسق : الغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه .

وقب : دخل ظلامه في كل شيء .

النفاثات : من النفث وهو النفخ من ريق يخرج من الفم .

العقد : واحدھا عقدہ .

والحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

روى مسلم في صحيحه عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ﴾ (٢) .

وروى النسائي عن عقبه بن عامر قال : كنت أمشي مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم قال :

« يا عقبه » « قل » قلت ماذا أقول ؟ فسكت عني ثم قال « قل » قلت ماذا أقول يا رسول الله ؟ قال : « قل أعوذ برب الفلق » فقرأتها حتى أتيت على آخرها ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك : « ما سأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيز بمثلها »<sup>(٣)</sup>

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أَيُّ قُلِّ يَا مُحَمَّدُ الْتَجَىءَ وَاعْتَصِمَ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِنْ أَيِّ شَرِّ فِي الْكَوْنِ كَائِنًا مَا كَانَ . ( وَالْفَلَقُ ) فَعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٌ ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ فَلَقٌ بِمَعْنَى شَقٍّ وَفَرَقٍ ، فَالْأَرْضُ تَنْفَلِقُ عَنِ النَّبَاتِ ، وَالنَّبَاتُ ( فَلَقٌ ) وَالْحَبُّ وَالنَّوَى يَنْفَلِقَانِ عَنِ السَّنَابِلِ وَالنَّخِيلِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ اللَّهَ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ <sup>(٤)</sup> وَظُلْمَةُ اللَّيْلِ الْحَالِكَةُ تَنْفَلِقُ عَنِ الصَّبْحِ وَالضِّيَاءِ ، فَالصَّبْحُ وَالضِّيَاءُ ( فَلَقٌ ) قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ﴾ <sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الأنعام آية : ٩٥

١٦٨ (٢) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١ ص ٥٥٨ . كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة العوذتين رقم ٨١٤ / ٢٦٤ .

(٣) أخرجه النسائي في سننه ج ٨ ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ كتاب الاستعاذة .

(٤) الأنعام آية : ٩٥

(٥). الأنعام آية : ٩٦

والجبال تنفلق عن العيون الدفاقة ، فالعيون ( فلق ) والأحجار والصخور ينفلقان عن الأنهار ، فالأنهار ( فلق ) قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما ينفجر منه الأنهار ﴾ .

والأرحام تنفلق عن الأجنة قال تعالى : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ <sup>(١)</sup>

قال العلماء : « إن ظلمة العدم قد انفلقت بنور الوجود ، فظهرت الممكنات وظهرت الكائنات ، ومن قول العلماء يظهر أن كل الموجودات ، وكل الممكنات ( فلق ) ورب هذا الفلق خالقه ومربيه وراعيه ، فهو الذى جلى ظلام العدم عن الممكنات ، فوجدت بعد أن لم تكن ، ولا يزال يرعاها ، ويحوطها ويمدها ومن كان كذلك فهو حقيق وجدير وحتم أن يتعوذ به ويقصد إليه دون سواه .

وقوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ أى من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام ، ومن شر كل مؤذ خلقه الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ أى ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن . قال الرازى : وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابد ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ثم قال : « يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما أستفتيه فيه . أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال ( الذى جلس عند رأسى للذى عند رجلى ) ما شأن الرجل قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مشط ومشاطه وجف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذى أوران فجاء البئر واستخرجه . انتهى <sup>(٢)</sup> .

وقال ابن عباس : فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبى - صلى الله عليه وسلم - خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقول : « باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر حاسد وعين والله يشفيك » ، فقالوا يا رسول الله : ألا تقتل الخبيث . فقال : « أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شراً . . . ( والمشط الآلة التى يمشط بها الشعر ، والجف ( بضم الجيم وتشديد الفاء ) الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى ، فلذا قيده بقوله : « وجف طلعة ذكر » . ( والراعوفة ) حجر ناعم على رأس البئر ، يقوم عليه المتقى ، وقيل : فى أسفلها . ( وبئر ذى أوران ) وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق .

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه » <sup>(٣)</sup> .

(١) آل عمران آية : ٦

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٧١٩ ، ١٧٢٠ . كتاب السلام ، باب السحر . رقم ٢١٨٩ / ٤٣

(٣) أخرجه النسائى فى سننه ج ٧ ص ١١٢ باب الحكم فى السحرة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أى ونستعيز بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعى والجد فى إزالة نعمة من يحسده .. قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر ، فالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . والحاسد عدو نعمة الله قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها - إنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها : إنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها - أنه ضاد فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتبه من يشاء وهو يبخل بفضل الله . ورابعها - أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها : أنه أعان عدوه إبليس .

وقيل : الحاسد لا ينال فى المجال إلا ندامة ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال فى الآخرة إلا حزناً واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً . وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى رحمه الله تعالى : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود . أولاها غم لا ينقطع الثانية مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة : سحق الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق .

وقال عمر رضى الله عنه : يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . وعن أنس رضى الله عنه : قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »<sup>(١)</sup>. قال الشاعر

أيا حاسداً لى على نعمتى أتدرى على من أسأت الأدب  
أسأت على الله فى حكمه لأنك لم ترض لى ما وهب  
فأخزأك ربى بأن زادنى وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى : رأيت اعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، فقلت له ما أطول عمرك ، فقال : تركت الحسد فبقيت .. وقالوا : لا يخلوا السعيد من ودود يمدح وحسود يقده . وقال ابن مسعود - رضى الله عنه - : ألا لا تعادوا نعم الله ، قيل : ومن يعادى نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله .

يا طالب العيش فى أمن وفى دعة  
رغداً بلا قتر صفوا بلا رنق

خلص فؤادك من غل ومن حسد  
فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

وقال آخر : أصبر على حسد الحسد - - - - -  
كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسده .

## تفسير سورة الناس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : عشرون .

وحروفها : تسع وسبعون .

وفواصل آياتها : على السين .

وسميت سورة الناس لتكراره فيها خمس مرات .

معظم مقصود السورة :

الاعتصام بحفظ الحق تعالى وحياطته والحذر والاحتراز من وسواس الشيطان ، ومن تعدى الجن والإنسان ، في قوله ( من الجنة والناس ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ  
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ  
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

## معاني المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنمليهم ومراعى شؤونهم .

الوسواس : أى الموسوس الذى يلقي حديث السوء فى النفس .

الخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء .

والجنة : واحدهم جنى ، كنس وإنس .

## التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ﴾ . سورة الناس ثانية المعوذتين ، أما المعوذة الأولى ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ فقد اشتملت على التعوذ من شرور ظاهرة ماثلة ، يحسها الإنسان ويدركها ويلمسها ، وهي شرور المخلوقات جميعاً وأما هذه المعوذة ( قل أعوذ برب الناس ) فإنها قد انفردت بتعليم عباد الله أن يتعوذوا بالله من شرور أخرى خطيرة ، شرور باطنة خافية ، شرور عظيمة الضرر ، بعيدة الأثر ، تتسرب إلى النفوس في دقة وحيلة ومهارة ، لا يفظن لها ولا يدركها إلا العالمون ، تلك الشرور هي في وسوسة الأبالسة ، وفي نزاع الأرواح الشريرة ، من شياطين الإنس والجن ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾<sup>(١)</sup> وإنما جعلت سورة مخصصة للاستعانة بالله على هذا النوع من الشرور ، لأن تلك الشرور ( وسوسة الشياطين ) تذلل الإنسانية ، وتحطم الكرامة البشرية ، وماهى إلا أن تخضع لها إرادة المرء فيصبح الإنسان ، وقد استهوته الشياطين في الأرض حيران ، يعيش في جو من الشكوك والأوهام والخرافات ، ويتنكب سبل السلام ، فكان من رحمة الله بعباده ، أن جعل لهم من هذه السورة ، ومن التعوذ بآياتها ، منبهاً عن الغفلة ، وحصناً من الشيطان ، وسياجاً من التردى في هوة الطغيان .

﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ قل يا محمد وعلم أمتك أن يقولوا قولاً مصحوباً بيقظة الحنان وحضور القلب ، وخشوع الجوارح ( أعوذ ) الجأ واستعين وأحتمى من مطاردات الهواجس ﴿ برب الناس ملك الناس إله الناس ﴾ وهذه صفات ثلاثة ، وصفت بها الذات العلية ، وهي أنه - تعالى - رب وملك ، وإله . ولكل من هذه الصفات معناه ودلالته ، وإن كانت الذات القدسية واحدة ، هو الله الذي لا إله إلا هو .

فمعنى ( الرب ) الذي يربى مربوبه ، من رب الأمر أصلحه وتعهدده ، ورب الصبى رباه حتى أدرك ، ورب الناس يربهم وينبئهم بفيض من النعمة . ويقول أكابر الأطباء : « إن الأجهزة التي يتهيا الكائن الجلى والمراحل التي يربى فيها حتى يتهيا للوجود ، لتحير الألباب ، وتدهش العقول . فهذه العلة الواحدة التي يقل قطرها عن ( عشر الملى ) تجتمع فيها ملايين الصفات ، وملايين الخصائص ، التي شاء الله أن تكون للمخلوق من هذه العلة ، وأن الفروق المتنوعة بين الإنسان والإنسان والتي تملأ مجلدات ، قد اختزلت وتركزت في حجم هذه العلة ، ثم لا تزال تربية الرب تتعهد العلة حتى تصير مضغرة وحتى تشكل فيها العظام ، وحتى تكسى العظام لحماً ، وحتى يصير الكائن خلقاً آخر ، بشراً سوياً ، ثم يأتي دور تربية أخرى ، هي تنمية الجسم ، وتكميل المدارك وفي كل دور تكتنف الإنسان رعاية الله ، بل في كل نفس من أنفاسه يتقلب الإنسان في أنعم الله ( إن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾<sup>(٢)</sup> هذا معنى الرب .



﴿ ملك الناس ، إله الناس ﴾ أما معنى الملك ، فهو صاحب السلطان والعظمة ، وهو الذى يحكم رعاياه ، ويضبط أعمالهم ، ويحدد الحدود ، ويبين العقوبات ، ويشرع الشرائع ، ويقنن القوانين . ( وملك الناس ) الذى يحمى وجودهم وحقوقهم ، ويحل لهم الحلال ، ويحرم الحرام ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ <sup>(١)</sup> ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وأما الإله ، فهو الذى أفاض على الكون الوجود ، وهو الحق المعبود ، تعنو الوجوه لجلاله ، وتحشع النفوس لعظمته ، والأرض والسموات فى قبضته .

بدل

وهناك حكمة بيانية أوصى بها إظهار كلمة ( الناس ) مرة بعد أخرى ، بدل إضمارها ، فلم يجيء الأسلوب ( برب الناس ، وملكهم وآلههم ) ، بل جاء ( برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ) . إنه لإظهار فى مقام الإضمار ، يرينا كيف يبلغ الأسلوب القرآنى أقصى مراتب الإعجاز ، فلقد نرى الكلمة إذا ما تكررت ظاهرة غير مضمرة ، فى كلام الفصحاء والبلغاء تسبح ، وتقبح ، لكنها هنا فى البيان السماوى ، قد كرمت ولطفت ومجّدت .

إن هذا الإظهار لكلمة الناس ، قد أفاد تشريف الناس ، وتكريم الناس ، وتعجيد الناس ، بانتسابهم إلى ربهم ، ملكهم ، وإلههم ، وهى تهيب بالناس ، أن يرتفعوا بإنسانيتهم كما رفعهم الله بالانتساب إليه ، وأن يكرموا أنفسهم ، كما كرمهم الله وفضلهم على خلق كثير ممن خلق تفضيلاً . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ <sup>(٣)</sup> .

إلى هنا ، وصلنا فى التفسير إلى الاقتراب من خلال المستعاذ به ، وهو الله - تعالى - وبقي أن نفسير معانى المستعاذ منه ، وهو مردة الجن ، وشياطين الإنس ، ولقد استبان لنا الآن ، أن التلفظ ، بالاستعاذة بالله ، والتعوذ بربوبيته وألوهيته لا تستأهل عون الله ، إلا إذا صاحب النطق بها عرفان المرء جلال ربه ، ثم عرفانه إكرام نفسه وكثير من الناس ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون .

قوله تعالى : ﴿ من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ﴾ .

أهل الوسوسة - الصوت أو الهمس الخفى ، وأطلق الوسواس فى هذه السورة على إبليس ذاته ، لأنه لما دأب بوسوسته ، ونزعه ، على إثارة الشر ، وإهاجة الفساد ، صارت ذاته وكأنما هى وسوسة ليس غير ، ( والخناس ) كثير الخنوس ، من خنس يخنس ، إذا انقبض وتراجع وتقهقر ، وإنما سمي ( إبليس ) خناساً لأنه كثير ما ينقبض وينقطع عن وسوسته ، ويتوارى أمام الحق ، إذا ما سلط الإنسان عليه الاستعاذة بالله ، وأحضر وسوسته الخوف من الله .

(١) سورة التين آية : ٨

(٢) آل عمران آية : ٢٦

(٣) البقرة آية : ٢١

والتعبير بالفعل المضارع (الذى يوسوس) لإثبات ما تفيد صيغة هذا الفعل من التجدد والاستمرار والحدوث ، وإنها لاشارة بليغة تدل على تجدد الوسوسة واستمرارها ، وأن إبليس لا يكف عنها ، ولا يقف دونها إلا ريثما يذكر الإنسان ربه ، فإذا ما عرته غفلة عن ذكر الله ، وثب عليه الشيطان واقتحم نوافذ فكره ، ومسالك رأيه .

روى عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسى الله التقم قلبه فوسوس » (١) .

وقال ابن عباس : إذا ذكر الله العبد خنس من قلبه فذهب ، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومناه .  
وقوله تعالى : ﴿الذى يوسوس فى صدور الناس﴾ فجعل الوسوسة فى الصدور ، أوفى القلوب التى فى الصدور ، مع أن الوسوسة إنما تكون همساً فى الفكر ، ونزغاً فى العقل ، ذلك على ما جاء فى اللسان العرب من إطلاق القلب ، وإرادة العقل ، يقول تعالى : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور﴾ (٢) .

هذا ، وإن بين الإحساس والإدراك العقلى ، وبين حركة القلب ، وما ينبض به القلب وما يرسله إلى أجزاء الجسم لارتباطاً بل امتزاجاً وثيقاً كاملاً ، فإذا ما طرأت على فكر الإنسان إلمامة أو هاجسه ثم زينت له هفوة أو زلّة ، فهو واحد عقب الوسوسة حالة من حالتين لا معدى عنها ، أما انفعال أعصابه واضطراب معايير وموازينه ، فلا يروى فى الأمر ، بل يندفع ، وحينئذ يشتد لذلك خفقان صدره ، وتتوالى دقات قلبه ، ثم تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا يجد له مخرجاً إلا أن يذهب فى عنان إبليس ، هذه حالة . . والحالة الثانية أن تنفعل أعصابه وتضطرب أفكاره ، فيلوح له برهان ربه ثم يسرى أثر ذلك إلى قلبه ، وإلى صدره ، فإذا هو وقد شرح الله صدره ، ويسر أمره ، وتفتحت أمامه آفاق ، ووجد برد اليقين وحلاوة العصمة . قال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون﴾ (٣) .

قوله تعالى : ﴿من الجنة والناس﴾ لقد بين لنا سبحانه أن هذا الوسواس الذى يخنس كلما ذكر الله ، هو إما أن يكون من الجنة ، أو من الناس ، فمن بين الجنة أو الجن توجد الأبالسة والشياطين ، ومن بين الإنس توجد أيضاً شياطين . يقول تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾ (٤) .

وكما أن شياطين الجن ، هم فساق الجن ، كذلك شياطين الإنس هم فساقهم وخبثاؤهم ، يقول

(١) أخرجه الغزالي فى أتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ٧ ص ٢٩٨ . باب بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع عند الذكر أم لا .

(٢) سورة الحج : ٤٦

(٣) سورة الأعراف آية : ٢٠١

(٤) الأنعام آية : ١١٢

تعالى في الذين مردوا على النفاق ، وأشاعوه بين الناس : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ <sup>(١)</sup> فالشياطين هنا هم أئمة النفاق وهم شر البرية .

لقد شاء الله لهذا الشيطان ، أن يتسلط على الإنسان بوسوسته وإن يدأب على معارضة الحق ، والصد عن فعل الخير ، وإنها لمحنة واختبار من الله لعباده ، لا يعلم سر الحكمة فيها إلا الله وحده ، الذي أراد أن تكون الحياة مزيجاً من خير وشر وأن تكون دار ابتلاء واختبار ، ومن رحمته تعالى بعباده أن علمهم علاج أنفسهم إذا مسهم طائف من الشيطان ، أو غشيتهم غاشية من الغفلة والنسيان ، ووصف لهم الدواء الناجع - رحمة منه وفضلاً - فيراقبوا دائماً خواطرهم ، وليميزوا بين راعى الخير وراعى الشر ، فليبادر إذن إلى العلاج إلى الاستعاذة بالله العظيم ، إلى استحضار عظمة الله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، وليمثل ذل المعصية ، وعزة الطاعة ، يصرف الله عنه سوء ، وتبرأ نفسه مما خالطها وغشيتها ، فالوسوسة لا تأخذ غير الغافلين ، الذين لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يراقبون خواطرهم .

لقد وصف لسان الشرع تلك الحالة ، فبين أن للنفس الإنسانية المامتين : المامة من ملك والمامة من شيطان ، الأول يدعوها إلى الحق والخير ، والثاني يدعوها إلى الباطل وإلى الشر .

روى الترمذى والنسائى أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فيعاذ بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فيعاذ بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾ <sup>(٢)</sup> .

« فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا آدمى ، واختاره من بين سائر البرية ، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص ، والمحبة والحياء ، والتعظيم والمراقبة ، وجعل ثوابه إذ قدم عليه أكمل الثواب وأفضله ، وهو النظر إلى وجهه الكريم ، والفوز برضوانه ومجاورته في جنته ، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتقر عنه ، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد ، ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح في قضاء وطهرهم ، والجوارح آلة منقاد ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح في طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا ، هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمهده بمدد آخر ، يقاوم به هذا الجند ، الذي يرد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم مقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلزم به مرة وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل والمحموظ من حفظه الله تعالى .

(١) البقرة آية : ١٤

(٢) أخرجه الترمذى في سننه ج ٥ ص ٢٠٤ كتاب تفسير القرآن و باب ٣ من سورة البقرة : ٢٩٨٨ .

أخرجه النسائى في الكبرى - كتاب التفسير - سورة البقرة .

وجعل له مقابل نفسه الأمانة بالسوء ، نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمانة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ، وإذا نهته الأمانة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة ، فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انقهرت إحداها بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان ، والنفس الأمانة ، نوراً وبصيرة وعقلاً يرده على الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر . فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل ، فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، ويسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين قطعت عليه وأخذ منها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليلها قد تمكن منه وتحكم فيه وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه لم يتمكن منه ، ولكن هو ممكن من نفسه وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه فيأشبهه ، ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأثر للشيطان والهوى ولنفسه الأمانة ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه . فلما أن بلى العبد بما بلى به أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها وربط إلى الموت ، فالأمر قريب ومدة المراقبة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك في أصعب الحبوس وأنت تراه ، فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما أشتت نفسك وقرت عينك ، جزاء على صبرك في تلك المدة اليسيرة ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ، ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . . . والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد في هذه المدة اليسيرة بالجنود والعدد والإمداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفك نفسه إذا أسر .

لماذا ختم القرآن الكريم بهاتين السورتين الكريمتين ؟

فالجواب : من ثلاثة أوجه :

الأول : قال الشيخ أبو جعفر بن الزبير : لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده ، والنعم مظنة الحسد ، فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذه بالله .

الثاني : قال ابن جرير الأندلسي : يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فيهما أنزلت على آيات لم ير مثلهن قط ، كما قال في فاتحة الكتاب لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها ، فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين لم ير مثلها ، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام ، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام ، إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها .

الوجه الثالث : أنه لما أمر القارئ أن يفتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن

بالمعوذتين ، ليحصل الاستعاذه بالله عند أول القراءة ، وعند آخر ما يقرأ من القراءة ، فتكون الاستعاذه قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره .

ولما كنا بصدد أن نختم تفسير القرآن العظيم ، ونعيش في رحابه الطاهرة ، رأينا لكى يكون الختام مسكاً أن نذكر ما قاله العلامة ابن قيم الجوزية ، مما أفاض الله تعالى عليه من العلم النافع في تفسير هاتين السورتين الكريمتين ، قال رحمه الله : « قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول : وهى أصول الاستعاذه . .

أحدها : نفس الاستعاذه .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه .

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين .

فنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : فى الاستعاذه ، والثانى : فى المستعاذ به . والثالث : فى

المستعاذ منه .

### الفصل الأول ( فى الاستعاذه )

أعلم أن لفظة « عاذ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروب من شىء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذاً ، كما يسمى : ملجأ ووزراً . فمعنى « أعوذ » ألتجىء ، وأعتصم ، وأتحرز .

وفى أصله قولان . أحدهما : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال : إنه من الستر فقال : العرب تقول للبيت فى أصل الشجرة ، التى قد استتر بها

« عُوذٌ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها ، وسموه عُوذاً .

فكذلك العائد قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه .

ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه « عُوذٌ »

لأنه اعتصم به ، واستمسك به . فكذلك العائد قد استمسك بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه والقولان

حق : والاستعاذه تنتظمها معاً ، فإن المستعيز مستتر بمعاذه مستمسك به ، معتصم به ، قد استمسك قلبه

به ولزمه ، كما يلزم أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به ، فهرب منه . فعرض له أبوه فى طريق

هربه ، فإنه يلقي نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائد قد هرب من عدوه ، الذى

يغنى هلاكه ، إلى ربه ومالكة ، وفر إليه ، والقى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، والتجأ إليه .

وبعد . فمعنى الاستعاذه القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هى تمثيل وإشارة وتفهم ،

والا فما يقوم القلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتدليل بين يديه أمر لا يحيط به العبارة .

وأصل هذا الفعل «أعوذ» بتسكين العين وضم الواو ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو ، فقالوا أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله ، فقالوا في إسم الفاعل عاذ ، وأصله عاوذ . فوقعت الواو بعد ألف فاعل ، فقلبوا همزة كما قالوا : قائم ، وخائف . وقالوا في المصدر : عياداً بالله وأصله : عواذاً ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ، ولم تحصنها حركتها لأنها قد صنعت بإعلالها في الفعل ، وقالوا : مستعيز . وأصله مستعوذ ، كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ، فلما كسرت العين قلبت قبلها كسرة ، فقلبت ياء على أصل الباب .

فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ <sup>(١)</sup> ولم تدخل في الماضي والمضارع ، بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله ، وتعوذت ، دون أستعيز واستعذت ؟

قلت : السين والتاء دالة على الطلب ، فقوله أستعيز بالله ، أى أطلب العياذ به . كما إذا قلت : أستخير الله : أى أطلب خيرته ، وأستغفره . أى أطلب مغفرته . فدخلت في الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ ، فإذا قال المأمور : أعوذ بالله ، فقد امثل ما طلب منه ، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام . وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين طلب ذلك ، فلما كان المستعيز هارباً ملتجئاً معتصماً بالله ، أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ، فتأمله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : أستغفر الله . فقال أستغفر الله . فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله . فإذا قال : أستغفر الله ، كان ممثلاً . لأن المعنى أطلب من الله أن يغفر لي . وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا خير أن يأتي بالسين والتاء ، فيقول : أستعيز بالله . أى أطلب منه أن يعيذني . ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه . فالأول : مخبر عن حاله وعياده بربه وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه .

والثاني : طالب سائل من ربه أن يعيذه . كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذني . فحال الأول أكمل . ولهذا جاء عن النبي - صلى الله عليه وسلم - في امثال هذا الأمر « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » و « أعوذ بكلمات الله التامات » و « أعوذ بعزة الله وقدرته » دون « أستعيز » بل الذي علمه الله إياه أن يقول : ( أعوذ برب الفلق ) ( أعوذ برب الناس ) دون أستعيز . فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فإن قلت : فكيف جاء امثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله ، وقل : سبحان الله فإن امثاله أن يقول : الحمد لله ، وسبحان الله ولا يقول : قل سبحان الله .

قلت : هذا هو السؤال الذى أورده أبى بن كعب على النبى - ﷺ - بعينه ، وأجابه عنه رسول الله - ﷺ - فقد قال البخارى فى صحيحه : حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عاصم وعبد بن زر بن حبيش قال : « سألت أبى بن كعب عن المعوذتين ؟ فقال : سألت رسول الله - ﷺ - فقال ، قيل لى ، فقلت . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - : « ثم قال . حدثنا على بن عبد الله حدثنا سفيان حدثنا عبده من أبى لبابة عن زر بن حبيش . وحدثنا عاصم عن زر قال : سألت أبى بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إني سألت رسول الله - ﷺ - فقال : وقيل لى ، فقلت قل . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - . (١) »

قلت : مفعول القول محذوف ، وتقديره ، قيل لى قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى . وتحت هذا من السر : أن النبى - ﷺ - ليس له فى القرآن إلا إبلاغه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله ، وقد قال الله له : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ كما قال الله .

وهذا هو المعنى الذى أشار النبى - ﷺ - إليه بقوله : « قيل لى ، فقلت » أى أنى لست مبتدئا ، بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، كلام ربى كما انزله إلى .

فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له ، فكفانا من المعتزلة والجهمية واخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربى ، وهذا النظم كلامه ابتداء هو به .

ففى هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه - ﷺ - بلغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى أنه لما قيل له : « قل » قال هو « قل » لأنه مبلغ محض . وماعلى الرسول إلا البلاغ .

### الفصل الثانى ( فى المستعاذ به )

فى المستعاذ به وهو الله وحده ، رب الفلق . ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . الذى لا ينبغي الاستعاذة إلا به ، ولا يستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يعيد المستعيزين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره ، وقد أخبر تعالى فى كتابه عن استعاذ بخلقه : ان إستعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾ (٢) جاء فى التفسير أنه « كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر ، قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه . فبييت فى أمن وجوار منهم ، حتى يصبح ، أى فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أى طغيانا وإثما وشرا ، ويقولون : سُدنا الإنس والجن

(١) أخرجه البخارى ج ٣ ص ٢٢٣ كتاب تفسير القرآن باب قل أعوذ برب الفلق .

(٢) سورة الجن آية : ٦

« والرهب » في كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم . فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعظيم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزلة ، في أن كلمات الله غير مخلوقة . بأن النبي - ﷺ - استعاذ بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامات » وهو - ﷺ - لا يستعيز بمخلوق أبدا .

ونظير ذلك قوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق . وكذلك قوله « أعوذ بعزة الله وقدرته » وقوله « أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات » وما استعاذ به النبي - ﷺ - غير مخلوق ، فإنه لا يستعيز إلا بالله ، أو بصفة من صفاته .

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب ، والملك والإله ، وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفلق ، وإلى الناس ، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين ، يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه ، أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا في مواضع متعددة : أن الله سبحانه وتعالى يدعى بأسمائه الحسنى ، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبي - ﷺ - في هاتين السورتين : « إنه ماتعوذ المستعوذون بمثلها »<sup>(١)</sup> فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه . وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث ، وهو الشيء المستعاذ منه ، فتبين المناسبة المذكورة ، فنقول :

### الفصل الثالث ( المستعاذ منه )

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين .

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين :

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأشدهما اتصالا بصاحبه .

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، أو ليس نظيره ، وهو الجنى . وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمة وغيرها .

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه ، وأدله على المراد ، وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور الا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما .

(١) أخرجه الدرهمي في سنته جـ ٢ ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن . باب فضل قل أعوذ برب الفلق .



فان سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

أحدهما : شر المخلوقات التى لها شر عموما .

الثانى : شر الغاسق إذا وقب .

الثالث : شر النفاثات فى العقد ..

الرابع : شر الحاسد إذا حسد .

فتتكلّم - بإذن الله - على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد ، والتحرز منها قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها ؟

وقبل الكلام فى ذلك لابد من بيان الشر : ماهو ؟ وماحقيقته ؟

فنعول : الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى مايفضى اليه . وليس مسمى سوى ذلك . فالشرور هى الآلام وأسبابها . فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم : هى شرور ، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، ولكنها شرور ، لأنها أسباب للآلام ، ومفضيه اليها كافضاء سائر الأسباب على مسبباتها فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبيح والإحراق بالنار ، والخنق بالحبل ، وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها ، ولابد ، ما لم يمنع من السببه مانع ، أو يعارض السبب ماهو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ، كما يعارض سبب المعاصى قوة الإيمان ، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب . فيدفع الأقوى الأضعف . وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة ، كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود : أن هذه الأسباب التى فيها لذة ماهى شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة . وهى بمنزلة طعام لذيذ شهى لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لأكله وطاب له مساعه ، وبعد قليل به مايفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولابد ، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الدافع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده .

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولايغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير مايقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وماهم من دونه من وال ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ (٢) .

(١) سورة الرعد آية : ١١

(٢) سورة الأنفال آية : ٥٣

ومن تأمل ماقص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمة عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه :  
إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله ، وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وماأزال الله عنهم من نعمة :  
وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل :

إذا كنت في نعمة فارعها . فإن المعاصي تزيل النعم .

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ، ولاحصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولازالت عن  
العبد نعمة بمثل معصيته لربه ، فانها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس ، ومن  
سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود : إن هذه الأسباب شرور ولا بد .

وأما كون مسبباتها شرورا : فلأنها آلام نفسية وبدنية ، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسى  
ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسائر ، ولو تفتن العاقل اللبيب لهذا حق التفتن ، لأعطاه حقه  
من الحذر والجهد في الهرب ، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا : فلو  
تيقظ حق التيقظ ، لتقطعت نفسه في الدنيا ، حسرات على مفاته من حظه العاجل والآجل من الله .

وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والإطلاع على عالم البقاء  
فحينئذ يقول : ﴿ ياليتنى قدمت لحياى ﴾ (١) ويقول : ﴿ يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ (٢) .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى - ﷺ - جميعها مدارها على هذين الأصلين ،  
فكل ماأستعاذ منه أوأمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضى اليه ، فكان يتعوذ في آخر الصلاة  
من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهى : عذاب القبر ، وعذاب النار فهذان أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا  
والممات ، وفتنة المسيح الدجال » وهذان سبب العذاب المؤلم .

فالفتنه سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصا ، وذكر نوعى الفتنة ، لأنها إما فى الحياة ، وإما بعد  
الموت ، ففتنة الحياة : قد يتراخى عنها العذاب مرة ، وأما فتنة بعد الموت ، فيتصل بها للعذاب من غير  
تراخ .

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها ، وهذا من أكد أدعية الصلاة ، حتى  
أوجب بعض السلف والخلف الاعادة على من لم يدع به فى التشهد الأخير . وأوجب بن حزم فى كل تشهد  
فان لم يأت به فيه بطلت صلاته .

(١) سورة الفجر آية : ٢٤

(٢) سورة الزمر آية : ٥٦

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ »<sup>(١)</sup>

فاستعاذ - ﷺ - من ثمانية أشياء : كل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما : أن الهم : توقع الشر في المستقبل ، والحزن : وهو التألم على حصول المكروه في الماضي ، أو فوات المحبوب ، فكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح . فان تعلق بالماضي سمي حزنا ، وإن تعلق بالمستقبل سمي هما .

والعجز والكسل قرينان ، وهما من أسباب الألم ، لأنها يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم ارادته فتتالم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بادراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ، لأنها عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الألم ، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذ وذات عظيمة ، لاتنال إلا بالبذل والشجاعة . والبخل يحول بينه وبينها ، فهذان الخلقان من اعظم أسباب الآلام .

وضلع الدين ، وقهر الرجال . قرينان . وهما مؤلمان للنفس ومعذبان لها .

أحدهما : قهر بحق ، وهو ضلع الدين . والثاني : قهر بباطل وهو غلبة الرجال .

وايضا ؛ ضلع الدين قهر يسبب من العبد في الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوده - ﷺ - : « من المأثم والمغرم »<sup>(٢)</sup> فانها يسببان الألم العاجل .

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك »<sup>(٣)</sup> فالسخط : سبب الألم ، والعقوبة : هي الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى اسبابها .

## فصل

والشر المستعاذ منه نوعان :

أحدهما : موجود ، يطلب رفعه .

والثاني : معدوم ، يطلب بقاؤه على العدم ، وأن لا يوجد .

(١) أخرجه الترمذی فی سننه ج ٥ ص ٤٨٦ كتاب الدعوات باب جامع الدعوات عن النبی - ﷺ - رقم ٣٤٨٤

(٢) أخرجه الترمذی فی سننه ج ٥ ص ٤٩١ كتاب الدعوات باب ٧٧ رقم ٣٤٩٥

(٣) أخرجه الترمذی فی سننه ج ٥ ص ٤ ، ٥ كتاب الدعوات باب في دعاء الوتر رقم ٣٥٦٦ .

كما أن الخير المطلق نوعان . أحدهما : موجود فيطلب دوامه . وثباته وأن لا يسلبه ، والثاني معدوم فيطلب وجوده وحصوله ، فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين ، وعليها مدار طلباتهم .

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم : ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فاعفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود ، فإن الذنوب والسيئات شر ، كما تقدم بيانه . ثم قال : ( وتوفنا مع الأبرار ) فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه . فهذان قسمان .

ثم قال ﴿ ربنا وآتانا ما وعدتنا على رسلك ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ، ثم قال : ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ <sup>(١)</sup> فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة .

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن ترتيب ، قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ، ثم اتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على السنة رسله ، وأن لا يخزيهم يوم القيامة .

### فصل

ولما كان الشر له سبب . هو مصدره ، وله مورد ومنتهى . وكان السبب إما من ذات العبد ، وإما من خارج ، ومورده ومنهائه أما نفسه وأما غيره : كان هنا أربعة أمور : شر مصدره من نفسه ، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى .

وشر مصدره من غيره ، وهو السبب فيه ويعود على نفسه تارة ، وعلى غيره أخرى - جمع النبي - ﷺ - هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق رضي الله عنه : أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن اقذف على نفسي سوءا ، أو أجره إلى مسلم » <sup>(٢)</sup>

فذكر مصدرى الشر ، وهما النفس والشيطان ، وذكر مورد به ونهايته ، وهما عودة على النفس ، أو على أخيه المسلم ، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه . وأبينه .

(١) سورة آل عمران : ١٩٣ - ١٩٤

(٢) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .

## فصل

فاذا عرف هذا فلتتكلم عن الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين :

الشر الاول : العام في قوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ (وما) هنا موصولة ليس الا ، والشر مسند في الآية الى المخلوق المفعول لا الى خلق الرب تعالى الذى هو فعله وتكوينه فانه لا شر فيه بوجه ما ، فإن الشر لا يدخل في شىء من صفاته ولا في افعاله ، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ، لا شر فيها أصلا ، ولا فعل الشر سبحانه لا شئت له منه اسم ولم تكن اسماءه كلها حسنى ، ولعاد اليه منه حكم ، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك . وما يفعله من العدل بعباده ، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم ، هو خير محض ، أو هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم ، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا في فعله القائم به تعالى ، ونحن لاننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر .

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال .

أحدهما : إن ماهو شر ، أو يتضمن للشر ، فانه لا يكون إلا مفعولا منفصلا ، لا يكون وصفا له ولا فعلا من أفعاله .

الثانى : إن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسب إلى من هو شر في حقه ، فله وجهان : هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشئته ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ماشاء منها ، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها ، فضلا عن حقيقتها ، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد ، وفاعل الشر لا يفعله إلا حاجته المنافية لفناءه ، أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده . فيستحيل صدور الشر من الغنى الحميد فعلا . وإن كان هو الخالق للخير والشر .

فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافي ، وهو في نفسه خير من جهة نسبه إلى خالقه ومبدعه . فلا تغفل عن هذا الموضع ، فانه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبه ، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول اكثر الفضلاء .

وقد بسطت هذا في كتاب « التحفة المكية » وكتاب « الفتح القدسى » وغيرهما واذا اشكل عليك هذا ، فانا أوضحه لك بأمثلة .

أحدهما : إن السارق إذا قطعت يده ، فقطعها شر بالنسبة له ، وخير محض بالنسبة الى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى مثولى القطع أمرا وحكما لما في ذلك من

الإحسان إلى عبيده عموماً باتلاف هذا العضو المؤذى لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه بذلك ، وأمره به مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له .

وكذلك الحكم بقتل من يصلو عليهم في دمائهم وحرماهم ، وجلد من يصلو عليهم في أعراضهم ، فإذا كان هذا عقوبة من يصلو على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذى بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطه به أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل ، وإحسان إلى العبيد ، وهى شر بالنسبة إلى الصائل الباغى .

فالشر : ما قام به من تلك العقوبة . وأما مانسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة .

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذى يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق إلى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه ، وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، فلاتناقض حكمته ورحمته . بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته ، وهو العزيز الحكيم ، فلا يلبق بحكمته أن يضع برضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته ...

## فصل

إذا عرفت هذا ، عرفت معنى قوله - ﷺ - في الحديث الصحيح : « لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، والشر ليس إليك »<sup>(١)</sup> وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال ، والشر لا يتقرب به إليك ، وقول من قال : والشر لا يصعد إليك ، وإن هذا الذى قالوه - وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه ، والتقرب به إليه - فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر . بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدوق فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما ، لا في صفاته ولا في أفعاله ، ولا في أسمائه . وإن دخل في مخلوقاته كقوله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ .

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به ، كقوله تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾<sup>(٢)</sup> وقوله : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ فيظلم من الذين هادوا ﴾<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه إبوداود في سننه ح ٢ ص ٤٠٤ كتاب المناسك باب كيفية التلبية رقم ١٨١٢ .

وأنظر البخارى ح ٢ ص ١٧٠ كتاب الحج باب التلبية ، مسلم في الحج باب التلبية رقم ٢٧٤٨ / ٥٤ .

(٢) البقرة آية : ٢٥٤

(٣) المائدة آية : ١٠٨

(٤) النساء آية : ١٦٠

وقوله : ﴿ ذلك جزيناهم بيغيهم ﴾ <sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ <sup>(٢)</sup> وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره . وإنما المقصود التمثيل .

وتارة يحذف فاعله . . كقوله تعالى حكاية من مؤمنى الجن ﴿ وأنا لاندري أشعر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ <sup>(٣)</sup> فحذفوا فاعل الشر ومريده ، وصرحوا بمريد الشر .

ونظيره في الفاتحة : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه ، والضلal منسوباً إلى من قام به ، والغضب محذوفاً فاعله .

ومثله قول الخضر في السفينة : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وفي الغلامين ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾ <sup>(٤)</sup> ومثله قوله : ﴿ ولكن الله حبيب اليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ <sup>(٥)</sup> فنسب هذا التزين المحبوب إليه ، وقال : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ <sup>(٦)</sup> فحذف الفاعل المزين ، ومثله قول ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطمعنى ويسقن ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾ <sup>(٧)</sup> فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ، ونسب إلى نفسه التقصى منها ، وهو المرض والخطيئة . . وبالجمله فالذى يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ، ومصلحة وعدل ، والشر ليس اليه .

## فصل

وقد دخل في قوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ الاستعاذة من كل شر في أى مخلوق قام به الشر . من حيوان ، أو غيره ، إنسيا كان أو جنيا ، أو هامة أو دابة أو ريحا ، أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء .

فان قلت : فهل في « ما » ههنا عموم ؟

قلت : فيها عموم تقييدى وضعى ، لاعموم إطلاقى ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر . فعمومها من هذا الوجه . وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله . فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر ، وكذلك الملائكة والأنبياء فانهم خير محض ، والخير كله حصل على أيديهم ، فالاستعاذة من شر

(٥) الحجرات الآية : ٧

(٦) آل عمران آية : ١٤

(٧) الشعراء : ٧٨ - ٨٢

(١) الأنعام آية : ١٤٦

(٢) الزخرف آية : ٧٦

(٣) الجن آية : ١٠

(٤) الكهف الآيتان : ٧٩ ، ٨١

ماخلق ، تعم شر كل مخلوق فيه شر ، وكل شر في الدنيا والآخرة ، وشر شياطين الإنس والجن ، وشر السباع والهوام وشر النار والهواء ، وغير ذلك .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ - أنه قال : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل منه » رواه مسلم<sup>(١)</sup>

## فصل

الشر. الثاني : شر الغاسق إذا وقب

فهذا خاص بعد عام ، وقد قال أكثر المفسرين : إنه الليل .

قال ابن عباس : الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، ودخل في كل شيء وأظلم ، والغسق : الظلمة ، يقال غسق الليل ، وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾<sup>(٢)</sup> وكذلك قال الحسن . ومجاهد : الغاسق إذا وقب : الليل إذا أقبل ودخل .

وفي تسمية الليل غاسقا قول آخر : إنه من البرد ، والليل أبرد من النهار ، والغسق : البرد وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى : ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا ﴾<sup>(٣)</sup> فقال : هو الزمهرير يحرقهم ببرده ، كما تحرقهم النار بحرهما ، وكذلك قال مجاهد ومقاتل : هو الذي انتهى برده .

ولاتنافي بين القولين ، فإن الليل بارد مظلم ، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط : اقتصر على أحد وصفيه .

والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة ، فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل ، ولهذا استعاذ برب الفلق ، الذي هو الصبح والنور : من شر الغاسق ، الذي هو الظلمة ، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة ، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله .

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت : « أخذ النبي ﷺ - بيدي ، فنظر إلى القمر ، فقال : ( يا عائشة استعيذ بالله

(١) أخرجه مسلم : في صحيحه ج ٤ ص ٢٠٨٠ ، ٢٠٨١ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب في التعوذ من سوء القضاء رقم ٢٧٨٠/٥٤

(٢) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٣) سورة النبأ الآيتان : ٢٤ ، ٢٥



من شر هذا ، فان هذا هو الغاسق إذا وقب<sup>(١)</sup> قال الترمذى فى هذا حسن صحيح ، وهذا اولى من كل تفسير فيتعين المصير اليه ؟

قيل : هذا التفسير حق ، ولا يناقض التفسير الأول ، بل يوافقه ويشهدك لصحته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾<sup>(٢)</sup> فالقمر هو آية الليل وسلطانه فيه ، فهو أيضا غاسق إذا وقب ، كما أن الليل غاسق إذا وقب ، والنبي - ﷺ - أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب ، وهذا خبر صدق ، وهو أصدق الخبر ، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب ، وتخصيص النبي - ﷺ - له بالذكر لا ينفى شمول الاسم لغيره .

ونظير هذا : قوله - ﷺ - فى المسجد الذى أسس على التقوى - وقد سئل عنه - فقال : « هو مسجدى هذا » ومعلوم أن هذا لا ينفى كون مسجد قباء مؤسسا على التقوى مثل ذاك .  
ونظير هذا ، قوله : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »<sup>(٣)</sup> ، ولكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عند الغضب أولى ، فكذلك قوله فى القمر « هذا هو الغاسق إذا وقب » لا ينفى أن يكون الليل غاسقا ، بل كلاهما غاسق .

## فصل

والشر الذى لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو : أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين وفى الصحيح أن النبي - ﷺ - أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال : « فاكفوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب نجمة العشاء » وفى حديث آخر « فإن الله يبت من خلقه ما يشاء »<sup>(٤)</sup> .

والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن مالا تتسلط بالنهار ، فإن النهار نور ، والشياطين إنما سلطاتهم فى الظلمات ، والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة .

وروى أن سائلا سأل مسليمة الكذاب : كيف يأتيك الذى يأتيك ؟ فقال : فى ظلماء حندس . وسئل النبي - ﷺ - « كيف يأتيك ؟ فقال : فى ضوء النهار » فاستدل بهذا على نبوته ، وأن الذى يأتيه ملك من عند الله ، وأن الذى يأتي مسليمة شيطان .

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره ، إنما هو بالليل دون النهار ، فالسحر الليلي عندهم : هو

(١) أخرجه الترمذى فى سننه ح ٥ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب التفسير باب الموعودتين رقم ٣٣٦٦

(٢) الاسراء آية : ١٢

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٠١٤ كتاب البر والصلة باب من يملك نفسه عند الغضب رقم ٢٦٠٩

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ح ٤ ص ١٥٧ كتاب بدء الخلق باب خمس من الدواب مواسعة يقتلن فى الحرم .

السحر القوى التأثير ، ولهذا كانت القلوب المظلمة هى محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم ، والشياطين تجول فيها ، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه ، وكلما كان القلب أظلم ، كان للشيطان أطوع ، وهو فيه اثبت وأمكن .

### فصل ( الحكمة من الاستفادة برب الفلق )

ومن هنا : تعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع .

فإن الفلق هو الصبح الذى هو يبدأ ظهور النور ، وهو الذى يطرد جيش الظلام ، وعسكر المفسدين فى الليل ، فيأوى كل خبيث ، وكل مفسد ، وكل لص ، وكل قاطع إلى سرب أو كن أو غار ، وتأوى الهوام إلى اجحرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل الى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور ، الذى يقهر الظلمة ويزيلها ، ويقهر عسكرها وجيشها ، ولهذا ذكر سبحانه فى كل كتاب : أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفار فى ظلمات كفرهم ، قال الله تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور الى الظلمات ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾ (٢)

وقال فى أعمال الكفار : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور ﴾ (٣) . وقد قال قبل ذلك فى صفات أهل الأعيان ونورهم : ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسه نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾ (٤) .

فالإيمان كله نور ، ومآله إلى نور ، ومستقره فى القلب المضىء المستنير ، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة ، والكفر والشرك كله ظلمات ، ومآله إلى الظلمات ، ومستقره فى القلوب المظلمة ، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة .

فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ، ومن شر ما يحدث فيها ، ونزل هذا المعنى على الواقع

(١) البقرة آية : ٢٥٧

(٢) الأنعام آية : ١٢٢

(٣) النور آية : ٤٠

(٤) النور آية : ٣٥

يشهد بأن القرآن ، بل هاتان السورتان من أعظم إعلام النبوة ، وبراهين صدق رسالة محمد - ﷺ - ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه ، وأن مجاء به ماتزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون فما فعلوه . ولا يليق بهم ، ولا يتأتى منهم ، ولا يقدرّون عليه .

وفي هذا آيين جواب وأشفاء لما يورده أعداء الرسول ﷺ عليه من الأسئلة الباطلة ، التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شقوا في جوانبها ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذي شفى وكفى في جوانبها ، فلم يحوجنا إلى متكلم ، ولا إلى أصولي ، ولا إلى نظار ، فله الحمد والمثبة ، لا نحصى ثناء عليه .

## فصل

واعلم أن الخلق كله خلق ، وذلك أن « فلقا » فعل بمعنى مفعول ، كقبض وسلب ، وقنض بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل يقول فالتق الإصباح<sup>(١)</sup> وكما يقول سبحانه « فالتق الحب والنوى<sup>(٢)</sup> » وفالتق الأرض عن النبات والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنة والظلام عن الإصباح ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة ، فلقا وفرقا ، يقال ؛ هو أبيض من فرق الصبح وفلقه . وكما أن في خلقه فلقا وفرقا ، فكذلك أمره كله فرقان ، يفرق بين الحق والباطل ، فيفرق ظلام الباطل بالحق ، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ، ولهذا سمي كتابه « الفرقان » ونصره فرقانا ، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقه البحر لموسى وسماه فلقا ظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع ، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته ، وأن العباد لا يقدرّون قدره وإنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

## فصل

( قوله تعالى : من شر النفاثات في العقد )

الشر الثالث : شر النفاثات في العقد .

وهذا الشر هو شر السحر ، فإن النفاثات في العقد : هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط ، وينفثن على عقده ، حتى ينعقد ما يرون من السحر ، والنفث : هو النفخ مع ريق . وهو دون الثقل . وهو مرتبة بينهما .

والنفث : فعل الساحر ، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ، ويستعين عليه

(١) الأنعام آية : ٩٦

(٢) الأنعام آية : ٩٥

بالأرواح الخبيثة ، نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممزوج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور . فيقع فيه السحر باذن الله الكون القدرى ، لا الأمرى الشرعى .

فان قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟  
قيل في جوابه : إن هذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبدين الأعصم سحرن النبي صلى الله عليه وسلم .

هذا جواب أبى عبيده وغيره ، وليس هذا بسديد ، فإن الذى سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم لابناته كما جاء فى الصحيح .

والجواب المحقق : أن النفاثات هنا : هن الأرواح والأنفس . النفاثات لا النساء النفاثات ، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة ، والأرواح الشريرة ، وسلطانها إنما يظهر منها ، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث ، دون التذكير . والله أعلم .

ففى الصحيح : عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ - طُبَّ ، حتى أنه ليخيل إليه أنه صنع شيئا وماصنعه ، وأنه دعا ربه ، ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ فقالت عائشة وماذاك يارسول الله ؟ قال : جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه . ماوجع الرجل ؟ قال الآخر مطبوب قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط مشاطه ، وجف طلع ذكر . قال فأين هو ؟ قال : فى ذروان ، بثر فى بنى زريق ، قالت عائشة رضى الله عنها : فأتاها رسول الله ﷺ - ، ثم رجع إلى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قال : فقلت له : يارسول الله ، هلا أخرجه ، قال : أما أنا فقد شفانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شرا . فأمر بها فدفنت <sup>(١)</sup> قال البخارى : وقال الليث وابن عيينة عن هشام فى مشط ومشاطه .

ويقال : إن المشاطة : مايجرح من الشعر إذا مشط ، والمشافة من كشافة الكتان .

قلت : هكذا فى هذه الرواية ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج به ، اكتفاء بمعافة الله له وشفائه . إياه .

وقد روى البخارى من حديث ابن عيينة قال : « ومن حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة . فسألت هشاما عنه ؟ فحدثنا عن أبيه عن عائشة . كان رسول الله ﷺ - سحر ، حتى كان يرى انه يأتى النساء ولاياتيهن . قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا ، فقال :

يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للآخر : مabal الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زريق حليف ليهود : وكان منافقا قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاطة . قال : وأين ؟ قال فى جف طلع ذكر ، تحت راعونة فى بثر ذروان . قال : فأنى البثر فاستخرجه . فقال : هذه البثر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . قال : فاستخرج قالت : أفلا - أى تنشرت - قال : أما الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا<sup>(١)</sup> .

ففى هذا الحديث : أنه - ﷺ - استخرجه . وترجم البخارى عليه بأن هل يستخرج السحر . وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسبب : رجل به طب ، ويؤخذ عن امرأته ابجل عنه وينشر ، ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فاما ماينفع الناس فلم ينه عنه .

فهذان الحديثان قد يظن فى الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه . الأول فيه : أنه لم يستخرجه . وحديث ابن جريح عن هشام فيه أنه استخرجه لاتناني بينها . فإنه استخرجه من البثر حتى رآه وعلمه ، ثم دفنه بعد أن شفى . وقول عائشة « هلا استخرجته » أى هلا اخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك ، وهو المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك ، فيقع الانكار ، ويغضب للساحر قومه ، فيحدث الشر وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافة . فأمر بها فدفنت ، ولم يستخرجها للناس ، بالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها .

والذى يدل عليه : أنه - ﷺ - إنما جاء إلى البثر ليستخرجها ولم يحىء لينظر إليها ثم ينصرف ، إذ لاغرض له فى ذلك . والله أعلم .

### الرد على من أنكر أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقى بالقبول بينهم ، لا يختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروا أشد الانكار ، وقابلوه بالتكذيب ، وصنف بعضهم منه مصنفًا مفردًا ، حمل فيه على هشام ، وكان غاية ما أحسن القول فيه : أن قال : غلط ، واشتبه عليه الأمر ، ولم يكن من هذا شىء ، قال : لأن النبى - ﷺ - لا يجوز أن يسحر . فإنه يكون تصديقًا لقول الكفار : ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾<sup>(٢)</sup> قالوا : وهذا كما قال فرعون لموسى : ﴿ وإنى لأظنك ياموسى مسحورا ﴾<sup>(٣)</sup> وكما قال قوم صالح له : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾<sup>(٤)</sup> وكما قال قوم شعيب له : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ج٤ ص١٤٨ كتاب بدء الخلق باب . صفة ابليس وجنوده .

(٢) الاسراء آية : ٤٧

(٣) الاسراء آية : ١٠١

(٤) الشعراء آية : ١٥٣

(٥) الشعراء آية : ١٨٥

قالوا : فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا ، فإن ذلك ينافى بحماية الله لهم وعصمتهم من الشيطان . وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله - ﷺ - من المتكلمين .

قال أبو بكر بن أبي شبة : حدثنا معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى - ﷺ - رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لك عقدا ، فارسل رسول الله - ﷺ - عليا فاستخرجها ، فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله - ﷺ - كأنما نشط من عقال . فما ذكر ذلك اليهودى ، ولارآه فى وجهه قط » وقال ابن عباس وعائشة « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله - ﷺ - فدنّت إليه اليهود . فلم يزلوا حتى أخذ مشاطة رأس النبى - ﷺ - وعدة أسنان من مشطه فأعطاهم اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود<sup>(١)</sup> فنزلت هاتان السورتان .

قال البغوى : وقيل : « كانت مغرورة بالابر ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين ، وهما احد عشر آية : سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات ، فكلما قرأ آية ، انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبى - ﷺ - كأنما نشط من عقال » . قال : وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان .

وقالوا :

والسحر الذى أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ولا نقص فى ذلك ، ولا عيب بوجه ما فإن المرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء ، فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه ، وهذا من البلاء الذى يزيده الله به رفعه فى درجاته ، ونيل كرامته . وأشد الناس بلاء الأنبياء . فابتلوا بمن أمهم مما ابتلوا به . من القتل والضرب والشتم ، فليس يبدع أن يبتلى النبى - ﷺ - من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى والذى القى على ظهره السلا وهو ساجد ، وغير ذلك ، فلا نقص عليهم ولا عار فى ذلك بل هذا من كمالهم ، وعلو درجاتهم عند الله تعالى .

قالوا : وقد ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل أتى النبى - ﷺ - فقال : يا محمد اشتكت ؟ فقال : نعم . فقال باسم الله ارقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين

(١) أخرجه ابن ابى شبة فى مصنفه ج ٧ ص ٣٨٨ كتاب الطب باقى الرجل يسحر ويسم ويعالج . رقم ٣٥٦٩

حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أريقك»<sup>(١)</sup> فعوذ جبريل من شر كل نفس وعين حاسد ، لما اشتكى .  
فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ - وإلا فلا يعوذ من شيء وشكايته من غيره .

وقالوا : وأما الآيات التي استدللتم بها فلا حجة لكم فيها .

أما قوله تعالى عن الكفار ، إنهم قالوا : ﴿ إن تبيعون إلا رجلا مسحورا ﴾ وقول قوم صالح وشعيب لهما : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ فقليل المراد به من له سحر ، وهى الرثة ، أى أنه بشر مثلهم ، يأكل ويشرب ليس بملك ، وليس المراد به السحر .

وهذا جواب غير مرضى ، وهو فى غاية البعد ، فإن الكفار لم يكونوا يصيرون عن البشر بمسحور ، ولا يعرف هذا فى لغة من اللغات ، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر ، فقالوا : ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾<sup>(٢)</sup> وقالوا : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾<sup>(٣)</sup> وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر ، وهى الرثة ، وأى مناسبة لذكر الرثة فى هذا الموضع ؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى : ﴿ انى لأظنك ياموسى مسحورا ﴾<sup>(٤)</sup> افتراء ما علم أن له سحرا ، وأنه بشر ؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله : ﴿ انى لأظنك يافرعون مشورا ﴾<sup>(٥)</sup> ولو أراد بالمسحور : أنه بشر لصدقه موسى ، وقال : نعم ، أنا بشر أرسلنى الله إليك ، فهذا الجواب غاية الضعف .

والصواب هو جواب صاحب الكشف وغيره : أن « المسحور » على بابه وهو من سحر حتى جن ، فقالوا : مسحور ، مثل مجنون أى زائل العقل ، لا يعقل ما يقول ، فإن المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله ، بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون . ولهذا قالوا فيه : ﴿ معلم مجنون ﴾<sup>(٦)</sup> فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الامراض يصاب به الناس ، فانه لا يمنع ذلك من اتباعه .

وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وإنما قذفوهم بما يحذرون سفهائهم من أتباعهم ، وهو أنهم قد سحروا ، حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون ، بمنزلة المجانين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾<sup>(٧)</sup> مثلك بالشاعر مرة ، والساحر أخرى ، والمجنون مرة ، والمسحور أخرى . فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه ، فلا يقدر

(١) أخرجه الترمذى وسننه ح ٣ ص ٣٠٣ كتاب الجنائز باب ماجاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢ . وابن ماجه فى كتاب الطب باب ما يعوذ به النبى  
رقم ٣٥٢٣ .

(٢) يس آية : ١٥

(٣) المؤمنون آية : ٤٧

(٤) الإسراء آية : ١٠١

(٥) الاسراء آية : ١٠٢

(٦) الدخان آية : ١٤

(٧) الإسراء آية : ٤٨

عليه ، فإنه أى طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة ، فهو متحير فى أمره ، لا يهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها .

فهكذا حال أعداء رسول الله - ﷺ - معه ، حتى ضربوا له أمثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها ، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان .

وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم ، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم يحفظهم ويتولاهم ، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ، ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أودوا من الناس فرأوا ماجرى على الرسل والأنبياء ، صبروا ورضوا ، وتأسوا بهم ، وليمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم ، فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

## فصل

وقد دل قوله تعالى : ﴿ من شر النفاثات فى العقد ﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر ، وأن له حقيقة .

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم .

وقالوا : إنه لا تأثير للسحر ألبة لا فى مرض ، ولا قتل ، ولا حل ، ولا عقد .

قالوا : وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين ، لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث ، وما يعرفه عامة العقلاء ، والسحر الذى يؤثر مرضا وثقلا وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار موجود ، تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه ، وقوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ دليل على هذا النفث يضر المسحور فى حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً ، كما يقوله هؤلاء ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه . . . . . وبالجمل فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود .

فصل قوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد

وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المحسود فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ فحقق الشر منه صدور الحسد . والقرآن ليس فيه لفظه مهملة .



ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد ، ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود ، لاه عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه ، انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله ، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ، ويكون له أورد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه ، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله ، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد .

فقوله تعالى : ﴿ إذا حسد ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل .

وقد تقدم في حديث أبي سعيد الصحيح : رقية جبريل النبي - ﷺ - وفيها « بسم الله أريقك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أوعين حاسد ، الله يشفيك » فهذا فيه الاستفادة من شر عين الحاسد .

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجرد ما ، إذ لو نظر إلى نظر لاه « ساه » عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره ، لم يؤثر فيه شيئا ، وإنما إذا نظر إليه نظرة قد تكيفت نفسه الخبيثة واتسمت ، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة ، أثرت بها تلك النظرة ، فاثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه ، بمنزلة من صوب سهما نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً ، وربما صرعه وأمراضه ، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر ، وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهى في ذلك بمنزلة الحية التى إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت ، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث ، فتحت فيها تلك الكيفية السم ، فتؤثر في اللدغ ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها ، حتى تؤثر بمجرد نظرة ، فتطمس البصر ، وتسقط الجبل ، كما ذكره النبي - ﷺ - في الأثر ، وذى الطفيتين منها فقال : « اقلوهما فإنها يطمسان البصر ، ويسقطان الجبل » فإذا كان هذا في الحيات ، فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة ، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية ، واتسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها ، فالله كم من قتل ؟ وكم من سلب ؟ وكم من معاق عاد مضى على فراشه ، يقول طبيبه لا أعلم داءه ، ما هو ؟ فصدق : ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع ، وانفعال الأجسام عنها . وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس ، والمحجوبون منكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه ، إلا من له نصيب من ذوقه ، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى ؟ وهل الانفعال والتأثر وحدث ما يحدث منها من الأفعال العجيبة ، والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع ؟ فالصنعة في الحقيقة له ، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها ، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم ، خالق الأسباب والمسببات - رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمة ربوبيته ، وأن تتم علماً آخر تجرى عليه أحكام آخر ، تشهد آثارها ، وأسبابها غيب عن الأبصار .

فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، الذى أتقن ما صنع ، وأحسن كل شىء خلقه .  
ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، بل هو أعظم وأوسع ، وعجائبه أبهر ، وآياته أعجب .  
وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقت الروح ، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ؟ فأين  
ذهبت تلك العلوم والمعارف والفعل ؟ وتلك الصنائع الغريبة ، وتلك الأفعال العجيبة ، وتلك الأفكار  
والتدابير ؟ كيف ذهبت كلها مع الروح وبقي الهيكل سواء هو والتراب وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك  
أو يحبك أو يواليك أو يفاديك ، ويخف عليك أو يثقل ، ويؤنسك أو يوحشك ، إلا ذلك الأمر الذى هو  
وراء الهيكل المشاهد بالبصر ؟

فرب رجل عظيم الحيولى كبير الجثة . خفيف على قلبك ، حلو عندك وآخر لطيف الخلقة ، صغير  
الجثة ، أثقل على قلبك من جبل ، وما ذاك إلا للطاقة روح ذاك وخفتها وحلاوتها ، وكثافة هذا وغلط  
روحه ومرارتها .

وبالجملة : فالعلق والوصل التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد ، إنما هى للأرواح أصلاً  
والأشباح تبعاً

### الفرق بين العائسن والحاسد

والعائس والحاسد يشتركان فى شىء ، ويفترقان فى شىء فيشتركان فى أن كل واحد منها تتكيف  
نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائس : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً ويفترقان فى أن العائس قد يصيب من  
لا يحسده ، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من جسد صاحبه ، وربما أصابت  
عينه نفسه ، فإن رؤيته للشىء رؤية تعجب وتحديق ، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين .  
وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم  
لما سمعوا الذكر ﴾ إنه الأصابة بالعين ، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله - ﷺ - فنظر إليه قوم من  
العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حجته .

وقال الكلبي : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر  
الأبل ، فيقول : لم أر كالיום إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة .  
فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله - ﷺ - بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره : فعصم الله  
رسوله وحفظه . وأنزل عليه ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ هذا قول طائفة .  
وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ، كما يصيب العائس بعينه  
ما يعجبه ، وإنما المراد . أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعدوان والبغضاء يكاد

يسقطك . قال الزجاج : يعنى من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظرا البغضاء أن يصدعوك . وهذا مستعمل في الكلام : يقول القائل : نظر إلى نظرا كاد يصرعى .

قال : ويدل على صحة هذا المعنى : أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية ، فيحدو إليه النظر بالبغضاء . . . . .

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ، فهو نظر يكاد يزلقه ، لولا حفظ الله وعصمته ، فهذا أشد من نظر العائن ، بل هو جنس من نظر العائن ، فمن قال : أنه من الإصابة بالعين أراد : هذا المعنى . ومن قال : ليس به . أراد : أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب ، فالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبي سعيد « أن النبي ﷺ - كان يتعوذ من عين الإنسان » فلولاً أن العين شر لم يتعوذ منها .

وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله - ﷺ - يقول : لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » وفي الباب عن عبد الله ابن عمرو . وهذا حديث صحيح .<sup>(١)</sup>

والمقصود : أن العائن حاسد خاص . وهو أضر من الحاسد ، ولهذا - والله أعلم - أنما جاء في السورة ذكر الحاسدون العائن ، لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد . وليس كل حاسد عائن ، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن ، وهذا شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

### أصل الحسد

وأصل الحسد : هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها .  
فالحاسد عدو النعم ، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها ، بل هو من خبثها وشرها بخلاف السحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية فلهذا - والله أعلم - قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شيء يأتى من شياطين الأنس والجن ، فالحسد من شياطين الإنس والجن والسحر من النوعين .  
وبقى قسم يتفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة في القلب فذكره في السورة الأخرى ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله ، فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه ، بل هو أذى من أمر خارج عنه ، ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق  
والوسواس إنما يؤذى العبد من داخل بواسطة مساكنته له ، وقبوله منه ، ولهذا يعاقب العبد على

(١) أخرجه الترمذى في سننه ج ٤ ص ٣٤٧ كتاب الطب . باب ما جاء أن العين حق والغسل لها . رقم ٢٠٦٢ أنظر مسلم في كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى والنسائي في الكبرى - الطب باب العين .

الشيء ، الذى يؤذيه به الشيطان من الوسوس ، التى تقترن بها الأفعال ، والعزم الجازم ، لأنه ذلك بسعيه وإرادته ، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته ، فلهذا أفرد شر الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة وكثيرا ما يجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة ، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسداهم ، فإنهم لشدة خبثهم : فمنهم من السحر والحسد ما ليس فى غيرهم ، وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا فقال تعالى ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾<sup>(١)</sup>

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنه من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما - فى موضع غير هذا . إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾<sup>(٢)</sup> وفى قوله ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾<sup>(٣)</sup>

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ، ويحادثهما ويصاحبهما ، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان ، لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو فى الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوال نعم الله عنهم ، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله ، وأبى أن يسجد له حسداً ، فالحاسد من جند إبليس ، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه .

وربما يعبد من دون الله ، حتى يقضى له حاجته ، وربما يسجد له ، وهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ، كان سحره أقوى وأنفذ وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسول الله - ﷺ -

وفى الموطأ عن كعب قال « كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى يهود حماراً : أعوذ بوجه الله

(١) البقرة آية : ١٠٢

(٢) النساء آية : ٥٥

(٣) البقرة آية : ١٠٩

العظيم ، الذى لا شىء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها وما لم أعلم : من شر ما خلق وذراً ، وبراً .

والمقصود : أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ، ويزين له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحر بعلمه ، وكسبه ، وشركه ، واستعانه بالشياطين .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حاسد ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه ، يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ <sup>(١)</sup> ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس . والوسواس يعميها ، كما سيأتى بيانها - إن شاء الله - والحسد يعميها أيضاً ، فكلا الشياطين حاسد موسوس ، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً .

فقد أشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم .

وتضمنت شرورا أربعة يستعاذ منها : شراً عاماً ، وهو شر ما خلق . وشر الغاسق إذا وقب . فهذان نوعان ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً لأنها من شر النفس الشريرة ، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده ، وهو الساحر وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : أما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق .

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان ، فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به . فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه ، ممن سجد لمخلوق وقال : ليس هذا بسجود له ، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم ، أه هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله ، فليسمه بما يشاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يجب ، فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عبادة ، بل يسميه استخداماً وصدق . هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده ، كما فعل هو به .

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان ، وإنما سماه استخداماً قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن

لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿١﴾ وقال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ ﴿٢﴾

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين ، وهم في الدنيا والآخرة ، ولبس المولى ، ولبس العشير ، فهذا أحد النوعين

والنوع الثاني من عينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به وهو الحاسد ، لأنه نائبه وخليفته ، لأن كليهما عدو نعم الله ، ومنغصها على عباده .

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله : ﴿ إذا حسد ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ، ولكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما ، لا يقلبه ولا بلسانه ولا بيده ، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى ، أبحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها ، بل يعصمها طاعة الله وخوفاً وحياءً منه ، وإجلالاً له إن يكره نعمة على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده ، وربت على جسده مقتضاه : من الأذى بالقلب ، واللسان والجوارح ، فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسد تمنى الزوال .

### مراتب الحسد

وللحسد ثلاثة مراتب : إحداها هذه

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحسد الله لعبده نعمة ، بل يجب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شيء مقدر ، والأول حسد على شيء محقق ، وكلاهما حاسد ، عدو نعمة الله ، وعدو عباده ، وعمقوت عند الله ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ولا يوالى ، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدو نعمة الله عليهم ، فلا يسودونه باختيار أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها ، فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه . فهذا لا بأس به ، ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة . وقد قال تعالى ﴿ وفي ذلك

(١) يس آية ٦٠

(٢) سبأ الآيتان : ٤٠ ، ٤١

فليتنافس المتنافسون ﴿١﴾ وفي الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه قال : لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، وسلطه علىهلكته في الحق . ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها الناس ﴿٢﴾ فهذا الحسد بمعنى الغبطة الحامل عليه حب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول في جملتهم ، وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصليتهم لا من فساقهم بتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتغنى دوام نعمة الله عليه ، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد ، فإنها تتضمن من التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيز بولي النعم وموليها . كأنه يقول : يامن أولانى نعمته وأسداها إلى ، أنا عائد بك من شر من يريد أن يستلها منى ، ويزيلها عني ، وهو سبحانه حسب من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولاه واستنصر به ، وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿٣﴾ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴿٤﴾ فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغ أمره وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومن لم يخفه اخافه من كل شىء ، قال تعالى ﴿٥﴾ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴿٦﴾ . وقال : ﴿٧﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿٨﴾ أى يخوفكم بأوليائه ، ويعظمهم في صدوركم . فلا تخافوهم ، وأفردوني بالمخافة أكفكم أياهم .

### فصل

### في الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن والباغى

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب !

أحدها : التعوذ بالله من شره ، والتحصن به واللجوء إليه وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيز منه ، والسمع هنا المراد به . سمع الإجابة ، لا السمع العام . فهو

(١) المطففين آية ٢٦

(٢) أخرجه الترمذى في سننه ج ٤ ص ٢٩١ كتاب البر والصلة باب ما جاء في الحسد رقم ١٩٣٦ البخارى كتاب التوحيد في قول النبي ﷺ رجل آتاه الله قرآنا فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار . مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

(٣) الطلاق آية ٢ ، ٣

(٤) النحل الآيات : ٩٨ - ١٠٠

(٥) آل عمران الآية : ١٧٥

مثل قوله «سمع الله لمن حمده» وقول الخليل : ﷺ - (إن ربي لسميع الدعاء)<sup>(١)</sup> ومرة يقرئه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيز ذلك ، فإنه يستعيز به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيدته وشده ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيز أنه سميع لاستعاذته ، أى عجيب ، عليكم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيز ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ (السميع العليم) في ﴿حم السجدة﴾ ولفظ ﴿إنه سميع عليم﴾ في الأعراف وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ ﴿السميع البصير﴾ في سورة حم المؤمن فقال تعالى : ﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثامهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير﴾<sup>(٢)</sup> لأن أفعال هؤلاء معانية ترى بالبصر وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب ، يتعلق بها العلم ، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم .

السبب الثانى : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ، ولم يكله إلى غيره .. قال تعالى : ﴿وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾<sup>(٣)</sup>

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك»<sup>(٤)</sup> فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ومن كان الله حافظه وأمامه فمن يخاف ؟ ومن يحذر ؟ السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذى أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيرته وبغيه ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود ، يقاتل به الباغى نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى ، دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله﴾<sup>(٥)</sup> فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له النصر مع أنه قد أستوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سنة الله : أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منها دكاً .

السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك ، فإن الله

(١) ابراهيم آية ٣٩

(٢) غافر آية ٥٦

(٣) آل عمران : ١٢٠

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٤ ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ كتاب صفة القيامة والرقائق والجورج . باب ما جاء فى وصفه الخوض رقم ٢٥١٦

(٥) الحج آية : ٦٠



حسبه ، أى كافيهِ ، ومن كان الله كافيهِ وواقِيهِ ، فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده ، فلا يكون أبداً .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشقى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ (١) ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك ، وكفاه ونصره .

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه ، وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره فإن هذا بمنزلة من يطالبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لك يعرض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه ، حصل الشر وهكذا الأرواح متعلقة به يقظة ومناما ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبها ، فإذا تعلق كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ، ودوام الشر ، حتى يهلك أحدهما . فإذا جذب روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضاً ، فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً .

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً ألم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها فوثقت بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعدته صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلاً ، فعلمت أن نصره أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلاً لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

#### السبب السادس

وهو الاقبال على الله تعالى ، والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى كل خواطر نفسه ، وأمانيتها تدب فيها ديب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب إليه وتعلقه وترضيته ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب

التام المحبة محبوبه المحسن إليه ، الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافا عن ذكره ، ولا روحه انصرافا عن محبته ، فإذا صار كذلك ، فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر فى حاسده والباغى عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه ؟ وهذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته ، بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : إياك وحى الملك ، اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حل فيها وترك بها ما لك وليت السلطان الذى أقام عليه اليك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى عن عدوه ابليس أنه قال : ﴿ فبِعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾<sup>(١)</sup> وقال ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾<sup>(٢)</sup> وقال فى حق الصديق يوسف - عليه السلام - ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾<sup>(٣)</sup> فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

#### السبب السابع :

تجريد التوبة إلى الله تعالى من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه ، فإن الله تعالى يقول ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾<sup>(٤)</sup> وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه - عليه السلام - ﴿ أولا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾<sup>(٥)</sup> فما سلط على العبد من يؤذيه ، إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها ، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره .

وفى الدعاء المشهور « اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما أعلم » فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه ، أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب . ولقى بعض السلف رجلا فأغلظ له ونال منه ، فقال له قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب ، وأناب إلى ربه . ثم خرج إليه فقال له ما صنعت فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علىّ ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، فإذا عوفى وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء انقاع له من التوبة النصوح .

(١) (ص) الآيتان : ٨٢ - ٨٣

(٢) النحل الآيتان : ٩٩ - ١٠٠

(٣) يوسف آية : ٢٤

(٤) الشورى آية : ٣٠

(٥) آل عمران : ١٦٥

وعلاوة سعادته ، أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها ، وبإصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولا بد ، فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق الرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيراً عجبياً في دفع البلاء ، ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به ، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن يتصدق ، وإن أصابه شيء من ذلك ، كان معاملاته باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة ، والمحسن المتصدق في خفارة أحسانه وصدقته ، عليه من الله جنة واقية ، وحصن حصين .

وبالجملـة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها ، ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا يئى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فحينئذ يبرد أذنيه وتنطفئ ناره لا أطفأها الله ، فما خرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى كفران النعم فالمحسن المتصدق ، يستخدم جنداً وعسكراً ، يقاتلون عنه ، وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر ، والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس ، وأشقها عليه ، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله - وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالاحسان إليه ، فكلما ازداد اذى وشرّاً وبغياً وحسداً ، ازدادت إليه إحساناً وله نصيحة ، وعليه شفقة ، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعظاه ، فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ <sup>(٢)</sup>

وتأمل حال النبى - ﷺ - إذ ضرب به قومه حتى أدموه ، فجعل يسلى الدم عنه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الاحسان ، قابل بها اساءتهم العظيمة إليه .

أحدها : عفوه عنهم ، والثانى استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع :

(١) فصلت الآيات : ٣٤ - ٣٦

(٢) القصص آية : ٥٤

استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال « اغفر لقومي » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به هذا ولدى : هذا غلامى ، هذا صاحبى . فبه لى .

واسمع الآن ما الذى يسهل هذا على النفس ويطيبه اليها وينعمها به اعلم أن لك ذنباً بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفر لك ويهبها لك . ومع هذا لا يقتصر على مجرد الغفو والمساحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب اليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله ، فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به أساءتهم ؟ ليعاملك الله تلك المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تعمل مع الناس فى أساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك ، جزاء وفاقاً ، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك ، فكما تدبى تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره . هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه .

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى - ﷺ - للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن اليهم وهم يسيئون إليه . فقال « لا يزال معك من الله ظهير ، ما دمت على ذلك »<sup>(١)</sup> هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويعبرون كلهم معه على خصمه ، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسيء إليه ، وجد قلبه ودعائه وهمته مع المحسن على المسىء ، وذلك أمر فطرى ، فطر الله عليه عباده ، فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً .

هذا مع أنه لا بد له من عدوه وحاسده من إحدى حالتين إما أن يملكه بإحسانه فينقاد له ، ويذل له ، ويبقى الناس إليه ، وإما أن يفتت كبده ، ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته اليه ، فإنه يزيفه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله هو الموفق والمعين .

بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للتعبد عاجله وآجله سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مرار هذه الاسباب ، وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الاسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محرکها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه . قال تعالى ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٨٢ كتاب . والصلة والاداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٢/٢٥٥٨

بخير فلا راد لفضله ﴿١﴾ وقال النبي - ﷺ - لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» ﴿٢﴾

فإذا جرد العبد التوحيد ، فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكرة في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه ، والدفاع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولا بد ، وإن مزج ، مزج له ، وإن كان مرة ومرة قاله له مرة ومرة ، كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكلية ، أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكلية ، أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة ، فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم ، الذى من دخله كان من الأمنين قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

هذه عشرة أسباب فيدفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه . ومعنى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه ، وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئاً غير الله سلط عليه ، ومن رجا شيئاً سوى الله ، خذل من جهته ، وحرم خيره ، هذه سنة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

### فصل

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من القواعد النافعة المهمة ، التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العالم فى هذا المقام أربع فرق .

فرقة : أنكرت تأثير هذا وهذا وهم فرقتان :

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما ألبته . وهذا قول طائفة من المتكلمين

من أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات .

وفرقة : أنكرت وجودهما بالكلية ، وقالت : لا وجود لنفس آدمى سوى هذا الهيكل المحسوس ،

(١) يونس آية ١٠٧

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به ، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعين وغيرهم من الملاحدة المتسبين إلى الاسلام ، وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الانسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

الفرقة الثالثة : بالعكس ، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها ، وهذا قول كثير من الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم .

وهؤلاء يقولون إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة ، فهو من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها ، بغير واسطة شيطان منفصل ، وابن سينا وأتباعه على هذا القول ، حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب . ويقولون : إنما هي تأثيرات النفس في هيولى العالم .

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملة ، ليسوا من أتباع الرسل جملة

الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل ، وأهل الحق : أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبتته الله تعالى من صفاتها وشرهما ، واستعاذة بالله منه ، وعلموا أنه لا يعيدهم منه ، ولا يجبرهم ، فهؤلاء أهل الحق ومن عداهم مفرط في الباطل ، أو معه باطل وحق ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال ابن القيم : فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق ثم قال :

قول الله تعالى ذكره :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ .

قد تضمنت أيضا استعاذة ، ومستعاذاً به ، ومستعاذاً منه فلاستعاذة تقدمت . وأما المستعاذ به : فهو الله ﴿ رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ فذكر ربوبيته للناس ، وملكه إياهم ، وإلهيته لهم ، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان كما تقدم فذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة فنقول .. وبالله التوفيق .

الإضافة الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لحقهم وتدبيرهم ، وتربيتهم وإصلاحهم ، وجلب

مصلحتهم ، وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسدهم هذا معنى ربوبيته لهم ، وذلك فيتضمن قدرته التامة . ورحمته الواسعة ، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحواله ، وإجابة دعواتهم ، وكشف كرباتهم .

الإضافة الثانية : إضافة الملك : فهو ملكهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده وماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر كما يشاء النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم . فهو ملكهم الحق ، الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم ، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به ويتدبيره ، فليس لهم ملك غيره ويهربون إليه إذا دهمهم العدو ، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم .

الإضافة الثالثة : إضافة الإلهية ، فهو إلههم الحق ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ، ولا معبود لهم غيره ، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكنهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً فى الهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه . وهو طريقه القرآن يحتج عليهم ما فرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة . وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ، فلا ينبغي أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ، ولا يجب سواه ، ولا يذل غيره ، ولا يخضع لسواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه : إما أن يكون مربك والقيم بأمورك ومتولى شأنك وهو ربك ، فلا رب سواه ، أو تكون مملوكة وعبيده الحق ، فهو ملك الناس حقاً ، وكلهم عبيده وماليكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفه عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه . فمن كان ربهم وملكهم وإلههم ، فهم جديرون أن لا يستعبدوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حماه ، فهو كافيتهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإهيته لهم ، فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكة وإلهه ؟ فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة : من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة ، وأشدهم ضرراً ، وابلغهم كيداً .

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ، ولم يوقع المضمير موقعه فيقول : رب الناس وملكهم وإلههم ، تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمعايرة .

والمقصود : الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة ، وقدم الربوبية لغومها وشمولها لكل مربوب ، وآخر الإلهية لخصوصها ، لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذ دون غيره إلهاً ، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه ، وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن المشرك ترك إلهه الحق ، واتخذ إلهاً غيره باطلاً .

ووسط صفة الملك من الربوبية والإلهية ، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره ، فهو المطاع إذا أمر ، وملكه له تابع لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم وملكه يستلزم إلهيته ويغصبها ، فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ، وخلقهم بربوبيته ، وقهرهم بملكه ، واستعبدهم بإلهيته . فتأمل هذه الجلالة ، وهذه العظمة ، التي تضمنتها الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق ﴿ رب الناس ملك الناس ، إله الناس ﴾ .

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى . أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى . فإن الرب هو القادر الخالق ، الباريء والمصور ، الحي ، القيوم ، العليم السميع البصير ، المحسن المنعم الجواد المعطي المانع ، الضار ، النافع ، المقدم ، المؤخر ، الذي يضل من يشاء ويعز من يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى يصرف أمور عباده كما يحب ، ويقلبهم كما يشاء وله من معاني الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى ، كالعزيز ، الجبار ، المتكبر ، الحكم العدل ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، العظيم الجليل الكبير ، الحسيب المجيد ، الوالي المتعالي ، مالك الملك المقسط الجامع وإلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك .

وأما الإله : فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى . ولهذا كان القول الصحيح . أن « الله » أصله الإله . كما هو قول سيويه وجمهور العلماء ، إلا من شذ منهم ، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى ، فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى ، فكان المستعبد بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن يدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن نسبة باديه إلى الخافي يسير .

### فصل ( في الاستعاذة )

وهذه السورة الكريمة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها ، وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق : تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد . وهو شر خارج عنه .

وسورة الناس : تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل . فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه .

والشر الثاني في سورة الناس : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق بالنهي ، فهذا شر المعائب ، والأول شر المصائب ، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لها .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها الوسوسة



## فصل المستعاذ منه

إذا عرف هذا ، فالوسواس : فعلال : من وسوس وأصل الوسوسة ، الحركة أو الصوت الخفى ، إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من القى إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد . ومن هذا : وسوسة المحل ، وهو حركته الخفية فى الأذن والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها ، وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة شياطين الإنس . وهو الأذن الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوسه له .

ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ، ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ليفهم منه تكرير مسماه . ونظير هذا : ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كال دوران ، والغليان ، وبابه .

ونظير ذلك : زلزل ، ودكوك ، وككب ، لأن الزلزلة حركة متكررة ، وكذلك الدكدكة ، والقلقلة . وكذلك ككب الشئ : إذا كبه فى مكان بعيد ، فهو يكب فيه كباً بعد كب كقوله تعالى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاؤون ﴾<sup>(١)</sup>

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضاعف لم يصب ، لأن الثلاثى لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعى المكرر ، فإذا قلت ذر الشئ ، وصر الباب ، وكف الثوب ، ورضى الحب ، لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذذر ، وصرصر ، ورضرض ونحوه . فتأمل : فإنه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها ، قبل وسوس .

## فصل

## فى « الخناس »

وأما الخناس : فهو فعّال ، من خنس يخنس : إذا توارى واختفى ، ومن قول أبى هريرة « لقينى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه »<sup>(٢)</sup> . وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور ، فليست لمجرد الاختفاء ، ولهذا وصفت بها النجوم فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾<sup>(٣)</sup> قال قتادة : هى النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى . وقالت طائفة الخنس : هى الراجعة التى ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ، وهى السبعة السيارة .

(١) الشعراء آية ٩٤

(٢) رواه البخارى ( كتاب الفل ) باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ٩٧/١ طبع دار احياء الكتب العربية ، وأخرجه مسلم فى كتاب ( الحيف ) باب الدليل على أن الزمن لا يتجسس وأخرجه النسائى فى سننه ( كتاب الطهارة ) باب حماسة الجنب ومجالسته ١٤٥/١ وابن ماجه فى ( كتاب الطهارة وستنها ) باب مصافحة الجنب ١٧٨/١ رقم ٥٣٤ ، والترمذى فى سننه برقم ١٢١ تحقيق الشيخ شاكى ، واللفظ له . والامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/٢ ، ٢٨٢

سورة التكويد ، الآية : ١٥

قالوا : وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء ، والخناس هو مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر ، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله ، جثم على قلبه الشيطان ، وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوسواس ، التي هي أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما ينخنس الشيء ليتوارى ، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضاً تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج ، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء ، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً . قال قتادة : الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا ذكر العبد ربه خنس . ويقال : رأسه كرأس حية ، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمينه ويحدثه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه ، وجيء من هذا الفعل يوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيداناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه وديدنه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً ، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر ، فإن ذكر الله هو مقمعه التي يقمع بها ، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصى ونحوها . فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذى من يضرب بها ، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيراً ضئيلاً مضئاً ، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته .

وفي أثر عن بعض السلف : أن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى الرجل بعيره في السفر ، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوحيد والاستغفار والطاعة ، فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً .

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته ، عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار ، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه .

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً ، حتى يعزم عليها العبد ، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس ، ثم إذا عقل العبد عاوده بالوسوسة ، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما .

### فصل

وقوله تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ صفة ثالثة للشيطان ، فذكر وسوسته أولاً ثم ذكر محلها ثانياً وأنها في صدور الناس .

وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد ونفوداً إلى قلبه وصدره ، فهو يجري منه مجرى الدم ، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات .

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفاً فأتته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليقبلني ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلاً من الأنصار فلما رآيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعاً فقال

النبي صلى الله عليه وسلم على رسلكما إنها صفية بنت حى ، فقالا سبحانه الله يا رسول الله ، فقال إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً - أو قال شيئاً» (١) .

وفي الصحيح أيضاً عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب بها أدبر ، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول : اذكر كذا اذكر كذا ، حتى لا يدرك أثلاثاً صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدرك أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجد السهو» (٢) .

ومن وسوسته ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وليتته» (٣) .  
وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به . قال ( الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة )» (٤) .

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه اضافته إلى سببه ، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال : ﴿ إني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾ (٥) وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله : ﴿ من شر الوسواس ﴾ يعم كل شره ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدّها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى الوسوسة التى هى مبادئ الإرادة ، فإن القلب يكون فارغاً عن الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فتصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة ، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتناذره بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا حركهم ، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ (٦) أى تزعجهم إلى

(١) رواه فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ( كتاب السلام ) باب بيان أنه يستحب لمن رأى خالياً بامرأة . . . الخ ص ٥٦٣ رقم ١٤٠٤ طبع الكويت .

(٢) رواه فى اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الصلاة ) باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ص ٧٩ رقم ٢١٦ .

(٣) رواه فى اللؤلؤ والمرجان ( كتاب الايمان ) باب الوسوسة فى الايمان وما يقوله من وجدها ص ٢٦ رقم ٨٢ .

(٤) رواه الامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/١

(٥) من الآية : ٦٣ من سورة الكهف .

(٦) سورة مريم آية : ٨٣

المعاصي إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم . فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بالطف حيلة وأتم مكيدة ، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم ، فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواذاً لكل من عصى الله ، فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة ، فلهذا وصفه بها ، لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه ، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً ، فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس ، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقه والخطف ، وكذلك بيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعام الإنس بغير إذنه ، ويبعث في بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً ، ويدل على عوراتهم ، فيأمر العبد بالمعصية ، ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به ، وما زال إلا أن الشيطان زين له وألقاه في قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم ، فأوقعه في الذنب ثم فضحه به . فالرب تعالى يستره ، والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته ، فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته ، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة ، كما في صحيح البخارى عن سعيد ابن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نائم ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

ومن شره أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح قال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنه » رواه البخارى (٢) .

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها ، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهد أن يسلكه ، فإن خالفه وسلكه ثبته فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع ، فإن عمله وفرغ منه قبض له ما يبطل أثره ويرده على حافرتة .

ويكفى من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم ، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم .

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه في اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ص ١٤٨ رقم ٤٤٤

(٢) متفق عليه ، أخرجه في اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ص ١٤٨ رقم ٤٤٢ من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالع في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يعبد من دون الله ، فهو ساع بأقصى جهده على اطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

ويكفى من شره أنه تصدى لابراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار ، فرد الله كيده عليه ، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً .

وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه ، فرد الله كيده ، وصان المسيح ورفعته إليه . وتصدى لذكريا ويحيى حتى قتلا .

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى .

وتصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده ، والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً .

وتفلت على النبي صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في الصلاة ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ألعنك بلعنة الله »

وأعان اليهود على سحرهم للنبي صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاضته .

## شرور الشيطان

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلاً عن آحاديها ، إذ كل شر في العالم ، فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس ، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبته معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه ، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دعاة إبليس ونوابه . فإن يش منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه ، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر وهي البدعة ، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي ، لأن ضررها في نفس الدين ، وهو ضرر متعدد ، وهي ذنب لا يتاب منه ، وهي مخالفة لدعوة الرسل ، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به ، وهي باب الكفر والشرك ، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضاً نائباً وداعياً من دعائه .

فإن أعجزه من هذه المرتبة ، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة البسنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر ، وهي الكبائر على اختلاف أنواعها ، فهو أشد حرصاً على أن

يوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً ، فهو حريص على ذلك ، لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ، ويستتبع منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة إبليس ونيابة عنه ، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به . وذنوب هذا ولوبلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء ، فإنها ظلم منه لنفسه ، إذا استغفر الله وتاب إليه ، قبل الله توبته وبذل سيئاته حسنات ، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعورتهم ، وقصد لفضيحتهم ، والله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، لا تخفى عليه كرائم الصدور ودسائس النفوس ، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الرابعة ، وهي الصغائر التي إذا اجتمعت ربما أهلك صاحبها .

كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض »<sup>(١)</sup> وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتوا ، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيره الخائف منها أحسن حالاً منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الخامسة ، وهي اشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظاً لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى المرتبة السادسة ، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ، ويحضه عليه ويحسنه له ، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقل من يتنبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعي من الله ، وهو معذور ، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وأما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل ، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر بقلوبهم والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست ، وأعنى عليه سلط عليه حربه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد اخلاله واطفائه ، ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا يئى ، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أسر أو أصيب ، فلا يزال في جهاد حتى يلقي الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته ، واجعله ميزانك تزن به الناس ، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن في هذا التعليق الا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

## فصل

وتأمل السر في قوله تعالى : ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾ ولم يقل في قلوبهم ، والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب ، فهو بمنزلة الدهليز له ، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود .

ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ وليبلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ <sup>(١)</sup> فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته ، فيلقى ما يريد القاءه إلى القلب ، فهو موسوس في الصدر ، ووسوسته واصله إلى القلب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ <sup>(٢)</sup> ولم يقل فيه ، لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه .

وقوله تعالى : ﴿ من الجنة والناس ﴾ بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجنى يوسوس في صدور الناس ، والإنسى أيضا يوسوس إلى الإنسى ، فالموسوس نوعان : إنسى وجنى ، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفى في القلب ، وهذا مشترك بين الجن والإنس ، وإن كان إلقاء الإنس ووسوسته إنما هي بواسطة الإذن والجنى لا يحتاج إلى تلك الوسطة ، لأنه يدخل في ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم .

على أن الجن قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسى ، كما في البخارى عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض ، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ، فهذه وسوسة والقاء من الشيطان بواسطة الأذن .

(١) آل عمران آية : ١٥٤

(٢) طه - آية : ١٢٠

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ فالشيطان يوحي الإنس باطله . ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله . فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ، ويشتركان في الوسوسة . وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين ، شياطين الإنس والجن .

### قاعدة نافعة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه .  
قال ابن القيم : ونختم الكلام على السورتين بذكر قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ويحترز به منه .

وذلك عشرة أسباب :

( الحرز الأول ) :

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم ﴾<sup>(١)</sup> .

وفي موضع آخر : ﴿ إنه سميع عليم ﴾<sup>(٢)</sup> وقد تقدم أن السمع المراد به هنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام .

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة ( هو ) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالالف واللام في سورة ( حم ) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه ، فإن الأمر بالاستعاذة في سورة : ( حم ) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس ، وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال تعالى في الآية السابقة لها : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن ... الخ الآية ﴾ والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا ، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له ، فإن عجز عنه دعاه إلى الإغراض عنه وأن لا يسئ إليه ولا يحسن ، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل ، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) فصلت آية : ٣٦

(٢) الأعراف آية : ٢٠

(٣) فصلت آية : ٣٦



وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير مستعص عليها ، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المنة بالإحسان فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ <sup>(١)</sup> وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في ( حم ) المؤمن ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ <sup>(٢)</sup> .

وفي صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : « كنت جالسا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانفتحت أوداجه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد » <sup>(٣)</sup> .

الخرز الثانى : قراءة هاتين السورتين ، فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » .

وقد تقدم أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من قرأهما مع سورة الأخلاص ثلاثا حين يمسي وثلاثا حين يصبح كفته من كل شيء » <sup>(٤)</sup> .

الخرز الثالث : قراءة آية الكرسي .

ففى الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكر الحديث . فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرا آية الكرسي ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان » <sup>(٥)</sup> .

الخرز الرابع : قراءة سورة البقرة .

(١) الأعراف آية : ٢٠٠

(٢) غافر آية : ٥٦

(٣) أخرجه أبوداود في سننه برقم ٤٧٨٠ والحاكم في المستدرک ٤٤٧/٢ والطبرانی في المعجم الكبير ١١٦٧ ، والبخارى في الأدب المفرد برقم ٤٣٤ وابن السنى في عمل اليوم والليلة برقم ٤٤٨

وأخرجه البخارى في صحيحه طبع الشعب ١٥٧/٤ ، ١٩/٨ ، ٣٥

(٤) أخرجه ابن كثير في تفسيره من رواية صدى بن عجلان ٥٧٢/٤ طبع دار الفكر

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه ١٤٩/٤ وانظر الفتح ٥٥٩ وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى رقم ١٥٥٩

ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان »<sup>(١)</sup> .

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة .

فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »<sup>(٢)</sup> . وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال .. فيقربها شيطان »<sup>(٣)</sup>

الحرز السادس : أول سورة ( حم ) المؤمن ، إلى قوله : ( إله المصير ) مع آية الكرسي . ففى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ ( حم ) المؤمن إلى ( إله المصير ) وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأها حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح »<sup>(٤)</sup> قال ابن القيم وعبد الرحمن المليكى - أحد رواة الحديث - وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك »<sup>(٥)</sup> فهذا حرز عظيم النفع ، جليل الفائدة ، يسير سهل على من يسره الله عليه .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل .

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير من سننه باب ما جاء فى سورة البقرة وآية الكرسي جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير باب ما جاء فى آخر سورة البقرة جـ ٤ ص ٢٣٤ برقم ٣٠٤٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٥ برقم ٣٠٤٤ وقال : هذا حديث غريب .

وانظر الكامل لابن عدى جـ ٧ ص ٢٤٩٩

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٩

وقال : هذا حديث غريب .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيح كتاب الذكر والدعاء جـ ٤ ص ٢٠٧١ برقم ٢٦٩١/٢٨

والبخارى فى كتاب الدعوات جـ ٨ ص ١٠٦

ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعري أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها وإن كاد أن يبطىء بها ، فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات فتعمل بها وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها فيما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب ، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلاً وقعدوا على الشرف فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وإن مثل من أشرك بالله كمثلى رجل اشتري عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه دارى وهذا عملى فاعمل وأد إلى ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثلى رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثلى رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أنا افتدى منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثلى رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أقى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . قال النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع والطاعة ، والجهاد والهجرة والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ قال وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله<sup>(١)</sup> .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى :

الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث .

فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس من شر الوسواس الخناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس ، والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوسواس التى هى مبادئ الشرك كله . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان يمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم كما فى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى

(١) أخرجه أحمد فى سنده ج ٤ ص ١٣

وأخرجه الترمذى فى سنده برقم ٢٨٦٣ والحاكم ج ١ ص ١١٧ ، ص ١١٨ وابن حبان برقم ١٢٢٢ ، ١٥٥٠ والطبرانى ج ٣ ص ٣٢٤

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإن الغضب جمة في قلب ابن آدم . أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليصق بالأرض<sup>(١)</sup> »

وفي أثر آخر « إن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء » .

فما أطفأ العبد جمة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار والوضوء يطفئها . والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله . وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، ومخالطة الناس ، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب ، والاشتغال به ، والفكرة في الظفر به ، فمبتدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غص بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه »<sup>(٢)</sup> . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر :

وكنتم متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر  
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعض أنت صابر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان . فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم »<sup>(٣)</sup> .

(١) أخرجه أحمد في سننه ج ٣ ص ١٩ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه المهيمن في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٦٣ والترغيب والترهيب ج ٣ ص ٣٤ والعراق في تخريج أحاديث الأحياء ج ٢٣٩/١ وينحوه الحاكم

ج ٤ ص ٣١٤

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ج ٤ ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ برقم ٢٧٤٩ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وفي الترمذى « أن رجلاً من الأنصار توفى ، فقال بعض الصحابة طوي له ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فما يدريك فعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه » (١) .

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر ، وهما أوسع مداخل الشيطان ، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفتر من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب عظيمة الآفات .

وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : ما شئ أعوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام فهو دأب إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها . فمن وقى شر بطنه فقد وقى شراً عظيماً ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ، ولهذا جاء في بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن » (٢) .

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة ، جثم عليه الشيطان ووعدته ومناه وشهاه وهام به في كل واد ، فإن النفس إذا شبت تحركت وجات وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عداوة ، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام ، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينها دخل عليه الشر .

أحدهما : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه ، هكذا على الدوام .

وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه ، فهذا الضرب في مخالطتهم الريح كله .

(١) أخرجه الهيثمى في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٠٣ عن أبي هريرة .

قال الهيثمى : رواه أبو يعلى وفيه عصام بن طليق وهو ضعيف وأورده رواية أنس ثم قال : قلت روى الترمذى بعضه ، رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن يعلى الإسلامى وهو ضعيف .

(٢) أخرجه الترمذى في جامعة الصحيح برقم ٢٣٨٠ والحاكم في المستدرک ٣٣٧/٤ وابن حبان في صحيحه برقم ١٣٤٨

القسم الثاني : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرضى ، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب فلا حاجة لك به .

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه ، وقوته وضعفه . فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تريح عليه في دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلا بد من أن نخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت ، فهي مرض الموت المخوف . ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم . ومنهم من مخالطته هي الروح ، وهو الثقل البغيض العقل ، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأنقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرّها على الأرض ..

وبالجملة فمخالطة كل مخالف هي للروح فعرضية ولازمة ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته ، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته اهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب في الناس لأكثرهم الله وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكراً ، والمنكر معروفاً . إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير ، قالوا أنت من المشبهين ، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا أنت من المفتنين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها ، قالوا أنت من أهل البدع المضلين ، وأن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين حيفة الدنيا ، قالوا أنت من الملبسين ، وإن تركت ما أنت عليه ، واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل باعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالي بذيهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأن فاضل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة ، التي هي أصل بلاء العالم ، وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة ، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان ، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يحمد القوم التقى ، وفي الصباح يحمد القوم السرى .

والله الموفق ، لأرب غيره ، ولا إله سواه .

١. هـ ( من كتاب بدائع الفوائد ج ٢ )

لما فرغت بحول من الله وقوته من تفسير القرآن الكريم وختمت ذلك بتفسير المعوذتين ، لما كان ذلك كذلك ، رأيت من باب تتمه الفائدة أن أبين هنا الآداب التي لا بد منها لحملة القرآن الكريم ، فهداني الله تعالى إلى بيان ذلك من كتاب الامام الحجة الامام النووي عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة ، وقد ذكر ذلك مفصلاً في كتابه ( التبيان في آداب حملة القرآن ) سائلاً المولى تبارك وتعالى أن ينفع به حملة القرآن الكريم .

## آداب حملة القرآن

الباب الأول ( في أطراف من فضيلة تلاوة القرآن وحملته )

قال الامام النووي رحمه الله في كتابه « التبيان في آداب حملة القرآن » .

قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ، لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (١) .

وروينا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » (٢) رواه أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى في صحيحه الذى هو أصح الكتب بعد القرآن ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن وهو يتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران » (٣) رواه البخارى وأبو الحسن مسلم بن مسلم القشيرى النيسابورى في صحيحهما ، وعن

(١) سورة فاطر الايتان : ٢٨ ، ٢٩

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٣٦٦ وأبو داود وفي سننه برقم ١٤٥٢ والترمذى في جامعه الصحيح برقم ٢٩٠٧ ، ٢٩٠٨ ، ٢٩٩ والامام أحمد في المسند ٥٨١ ، ٦٩

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة في مصنفه ٤٩١٠

وبلفظ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ... الخ » أخرجه مسلم في صحيحه ( كتاب صلاة المسافرين وقصرها ) باب فضل الماهر بالقرآن والذى يتتبع فيه ٥٥٠/١ رقم ٧٩٨/٢٤٤

وأورده البخارى باختصار في ( كتاب التوحيد ) في ترجمة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة » و« زينو القرآن بأصواتكم ١٩٣٨ ولم يذكر الحديث . وأخرجه بلفظ قريب ٢٠٦/٦

أبى موسى الأشعري رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنثلة ليس لها ريح وطعمها مر » رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup> .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواما ويضع به آخرين » رواه مسلم<sup>(٢)</sup> .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » رواه مسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » رواه البخارى ومسلم<sup>(٤)</sup> .

وروينا أيضا من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بلفظ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها »<sup>(٥)</sup> .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله سبحانه وتعالى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفصل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه » رواه الترمذى وقال حديث حسن<sup>(٦)</sup> .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (باب فضل القرآن على سائر الكلام) ٢٣٥/٨ مع اختلاف يسير فى اللفظ .

وأخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١ رقم ٧٩٧/٢٤٣ واللفظ له .

(٢) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٩/١ رقم ٨١٧/٢٦٩ .

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٢/١ رقم ٨٠٤/٢٥٢ وهو جزء حديث .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب فضائل القرآن) باب اغتباط صاحب القرآن ٢٣٦/١ ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٨/١ رقم ٨١٥/٢٦٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب العلم) باب الاغتباط فى العلم والحكمة ٢٢٨/١ وانظر نفس المرجع ١٣٤/٢ ، ٧٨٨ ، ١٢٦ .

ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٩/١ رقم ٨١٦/٢٦٨ وابن ماجه برقم ٤٢٠٨ .

(٦) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب فضائل القرآن) باب ما جاء من قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر ٢٤٨/٤ رقم ٣٠٧٥ طبع دار الفكر .

قال الترمذى : هذا حديث حسم صحيح غريب من هذا الوجه .



وعن ابن عباس رضى الله عنها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح<sup>(١)</sup> .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح<sup>(٢)</sup> .

وعن معاذ بن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة ضوءه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟ » رواه أبو داود<sup>(٣)</sup> .

وروى الدارمى بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اقرأوا القرآن فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن ، وإن هذا القرآن مآدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن ، ومن أحب القرآن فليشر<sup>(٤)</sup> » وعن الحميدى الجمالى قال : سألت سفيان الثورى عن الرجل يغزو أحب اليك أويقرأ القرآن ؟ فقال يقرأ القرآن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »<sup>(٥)</sup> .

## الباب الثانى فى ترجيح القراءة والقارىء على غيرهما

ثبت عن أبى مسعود الأنصارى البدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله تعالى » رواه مسلم<sup>(٦)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنها قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر رضى الله عنه ومشاورته كهولاً وشباباً » رواه البخارى فى صحيحه وسيأتى فى الباب بعد هذا أحاديث تدخل فى هذا الباب ، واعلم

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح ( أبواب فضائل القرآن ) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨٠ طبع دار الفكر وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .  
(٢) أخرجه أبو داود فى سننه ( كتاب الصلاة ) باب استحباب الترتيل فى القراءة ١٥٣٢ رقم ١٤٦٤ والترمذى فى جامعه ( كتاب فضائل القرآن ) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨١ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه برقم ٣٧٨٠ ( كتاب الأدب ) .  
(٣) أخرجه أبو داود فى سننه ( كتاب الصلاة ) باب فى ثواب قراءة القرآن ١٤٨٢ رقم ١٤٥٣ قال المنذرى : سهل بن معاذ ، وزيان بن فائد كلاهما ضعيف .

(٤) أخرجه الدارمى فى سننه فى ( كتاب فضائل القرآن ) باب فضل من قرأ القرآن ٣١٧٢ وهو مركب من أربعة أحاديث بأرقام ٣٣٢٢ ، ٣٣٢٥ ، ٣٣٢٧ ، ٣٣٢٦ .

(٥) أخرجه الدارمى فى سننه ( كتاب فضائل القرآن ) باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه ٣١٤/٢ رقم ٣٣٤٠ عن على رضى الله عنه . وأخرجه الامام أحمد فى مسنده ( مسند على بن أبى طالب رضى الله عنه ) ٥٨١ ، ٦٩ .

(٦) أخرجه أبو داود فى سننه ( كتاب الصلاة ) باب من أحق الامامة ٣٩٠/١ رقم ٥٨٢ بأطول مما معنا . والنسائى ٧٦٢ واحد ١٦٣/٣ ، ١١٨/٤ .

أن المذهب الصحيح المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك والله أعلم .

### الباب الثالث

### فى إكرام أهل القرآن والنهى عن أذاهم

قال الله عز وجل : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ (١) .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ (٤) .

وفى الباب حديث أبى مسعود الأنصارى وحديث ابن عباس المتقدمان فى الباب الثانى ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من إجلال الله تعالى إكرام ذى الشبهة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، وإكرام ذى السلطان المقسط » رواه أبوداود ، وهو حديث حسن (٥) . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم » رواه أبوداود فى سننه والبخارى فى مسنده . قال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : هو حديث صحيح (٦) .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول : أيهما أكثر للقرآن فإن أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد » رواه البخارى (٧) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال : من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب » رواه البخارى (٨) .

(١) الحج آية : ٣٢

(٢) الحج آية : ٣٠

(٣) الشعراء آية : ٢١٥

(٤) الأحزاب : ٥٨

(٥) أخرجه أبوداود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٤/٥ رقم ٤٨٤٣

(٦) أخرجه أبوداود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٣/٥ رقم ٤٨٤٢ بلفظ : « أنزلوا الناس منازلهم »

(٧) أخرجه ابن ماجه فى سننه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى الصلاة على الشهداء ودفنهم ٤٨٥/٨ رقم ١٥١٤ والنسائى فى سننه ٦٧/٤ والبخارى فى صحيحه ١١٤/٢ ، ١١٥ ، ١١٧

(٨) أخرجه الزبيدى فى تحاف السادة المتقين شرح أحياء علوم الدين ٢٩٥/٥ ، ٤٧٧/٨ ، ٦١٠/٨

وثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله بشيء من ذمته <sup>(١)</sup> وعن الامامين الجليلين أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما قالا : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولي . قال الامام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله : اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق ثقافته ، أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ <sup>(٢)</sup> .

### الباب الرابع في آداب معلم القرآن ومتعلمه

قال النووي رحمه الله : هذا الباب مع البابين بعده هو مقصور الكتاب ، وهو طويل منتشر جداً فإن أشير إلى مقاصده مختصرة في فصول ليسهل حفظه وضبطه إن شاء الله تعالى .

#### (فصل)

أول ما ينبغى للمقرئ والقارئ أن يقصدا بذلك رضي الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ <sup>(٣)</sup> . أى الملة المستقيمة .

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » <sup>(٤)</sup> وهذا الحديث من أصول الإسلام ، وروينا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما يعطى الرجل على قدر نيته ، وعن غيره إنما يعطى الناس على قدر نياتهم .

وروينا عن الأستاذ أبي القاسم القشيري رحمه الله تعالى قال : الإخلاص وإفراد الحق في الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس أو عجة أو مدح من الخلق ، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى .

قال ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة ٤٥٤/١ رقم ٦٥٦/٢٦٢ ، ٦٥٦/٢٦١ ، والترمذي في الصلاة باب ما جاء في فضل العشاء والفجر في جماعة ١٤٦/١ رقم ٢٢٢ وابن ماجه في سننه (كتاب الفتن) باب المسلمون في ذمة الله عز وجل ١٣٠/٧٢ رقم ٣٩٤٦ وانظر رقم ٣٩٤٥

(٢) النور آية : ٦٣

(٣) البينة آية : ٥

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٧/١ ، ١٧٥/٨ ، ٢٩٩ ، ومسلم في صحيحه (كتاب الامارة) باب قوله - صلى الله عليه وسلم - : إنما الأعمال

بالنية ... الخ ١٥١٥/٣ رقم ١٩٠٧/١٥٥

والترمذي برقم ١٦٤٧ وابن ماجه برقم ٤٢٢٧ وأبوداود برقم ٢٢٠١

وعن حذيفة المرعشى رحمه الله تعالى قال : « الإخلاص استواء أفعال العبد في الظاهر والباطن .

وعن ذى النون رحمه الله تعالى . قال : ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية العمل في الأعمال ، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة وعن الفضل ابن عياض رحمه الله عنه قال : ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منها .

وعن سهل التستري رحمه الله تعالى قال : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركته وسكوته في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا ينازعه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا .

وعن القشيري قال : أفضل الصدق استواء السر والعلانية وعن الحارث المحاسبى رحمه الله قال : الصادق هو الذى لا يبالي ، ولو خرج عن كل قدر له في قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره اطلاع الناس على السوء من عمله ، فإن كراهيته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين ، وعن غيره ، إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك الله مرآة تبصر فيها كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة ، وأقاويل السلف في هذا كثيرة أشرنا إلى هذه الأحرف منها تنبيهاً على المطلوب ، وقد ذكرت جملاً من ذلك مع شرحها في أول شرح المذهب وضمت إليها من آداب العالم والمتعلم والفقيه والمتفقه ما لا يستغنى عنه طالب العلم ، والله أعلم .

### ( فصل )

وينبغى أن لا يقصد به توصلاً إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجهة ، أو ارتفاع على أقرانه ، أو ثناء عند الناس ، أو صرف وجوه الناس إليه ، أو نحو ذلك ، ولا يشوب المقرئ اقراءه بطمع في رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء كان الرفق مالا أو خدمة ، وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التى لولا قراءته عليه لما أهداها إليه ، قال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ﴾ (٢) الآية .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من تعلم علماً مما يتنقى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة . رواه أبو داود باسناد صحيح (٣) ومثله أحاديث كثيرة ، وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « من

(١) الشورى آية : ٢٠

(٢) الاسراء آية : ١٨

(٣) أخرجه : أبو داود في سننه (كتاب العلم) باب في طلب العلم لغير الله تعالى ٧١/٤ رقم ٣٦٦٤ .

طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يكثر به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس اليه ، فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذى من رواية كعب بن مالك ، وقال : « أدخله النار »<sup>(١)</sup> .

### ( فصل )

ويحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين اليه ، وليحذر من كراهة قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به ، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين ، وهى دلالة بنية من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته ، بل هى حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم ، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك ، بل قال لنفسه أنا أردت غيرى زيادة علم ، فلا عتب عليه ، وقد روينا فى مسند الامام المجمع على حفظه وإمامته إلى محمد الدارمى أنه قال عن على : « يا حملة القرآن - أوقال : يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقاً يباهى بعضهم بعضاً حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه . أولئك لا تصعد أعمارهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى : »<sup>(٢)</sup> .

وقد صح عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم - يعنى علمه وكتبه - أن لا ينسب إلى حرف منه .

### ( فصل )

وينبغى للمعلم أن يتخلق بالمحاسن ، التى ورد الشرع بها ، والخصال الحميدة والشميم المرضية ، التى أرشده الله إليها من الزهادة فى الدنيا والتقلل منها ، وعدم المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود ، ومكارم الاخلاق ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، والحلم والصبر والتزهد عن دواء المكاسب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع ، واجتناب الضحك ، والإكثار من المزاح ، وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف بازالة الأوساخ والشعور التى ورد الشرع بازالتها ، كقص الشارب ، وتقليم الظفر ، وتسريح اللحية ، وازالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة ، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره ، وإن كان دونه ، وينبغى أن يستعمل الأحاديث الواردة فى التسيب والتهيل ، ونحوهما من الأذكار والدعوات وأن يراقب الله تعالى فى سره وعلانيته ، ويحافظ على ذلك ، وأن يكون تعويله فى جميع أموره على الله تعالى .

(١) أخرجه : الترمذى فى جامعه الصحيح ( أبواب العلم ) باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا ١٤٠/٤ ، ١٤١ رقم ٢٧٩٢ طبع دار الفكر قال الترمذى : هذا حديث غريب .

(٢) أخرجه فى سننه ( كتاب العلم ) باب التوبخ لمن يطلب العلم لغير الله ٨٩/١ رقم ٣٨٨

## (فصل)

وينبغي له أن يرفق بمن يقرأ عليه ، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله ، فقد روينا عن أبي هارون . العبدى قال : كنا نأتى إلى سعيد فيقول : بوصية رسول الله ﷺ أن النبى - ﷺ - قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وغيرهما<sup>(١)</sup> ، وروينا نحوه فى سند الدارسى عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

## (فصل)

وينبغي أن يبذل لهم النصيحة ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم<sup>(٢)</sup> ومن النصيحة لله تعالى وكتابه لإكرام قارئه وطالبه ، وارشاده إلى مصلحته ، والرفق به ومساعدته على طلبه بما أمكن ، وتأليف قلب الطالب ، وأن يكون سمحاً بتعليمه فى رفق ، متلطفاً به ومحرضاً له على التعلم ، وينبغي أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سبباً فى نشاطه وزيادة فى رغبته ، ويزهده فى الدنيا ، ويصرفه عن الركون إليها ، والاعتراى بها ، ويذكره فضيلة الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية ، وهو طريق العارفين وعباد الله الصالحين ، وأن ذلك رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وينبغي أن يشفق على الطالب ، ويعتنى بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه ، ويجرى المتعلم مجرى ولده فى الشفقة عليه ، والصبر على جفائه وسوء أدبه ويعذره فى قلة أدبه فى بعض الأحيان ، فإن الإنسان معرض للنقائص ، لا سيما إن كان صغير السن . وينبغي أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير ، وأن يكره ما يكره نفسه من النقص مطلقاً ، فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »<sup>(٣)</sup> وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أكرم الناس على جليسى الذى يتخطى الناس حتى يجلس إلى ، لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت ، وفى رواية : إن الذباب ليقع عليه فيؤذنى .

وينبغي أن لا يتعاطم على المتعلمين ، بل يلين لهم ويتواضع معهم فقد جاء فى التواضع لأحاد الناس أشياء كثيرة معروفة ، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (كتاب العلم) باب ما جاء فى الاستيضاء بمن يطلب العلم ١٣٨/٤ رقم ٢٧٨٨ طبع دار الفكر . وكذلك برقم ٢٧٨٩ بنحوه .

وقال الترمذى : وهذا حديث لا نعرفه الا من حديث أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخورى - وأخرجه ابن ماجه فى سننه (المقدمة) باب الوصاة بطلبة العلم ٩١/١ رقم ٢٤٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب الايمان) باب أن الدين النصيحة ٧٤/١ رقم ٥٥/٩٥

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الايمان) ١٠/١ طبع الشعب . ومسلم فى صحيحه برقم ٧١ والترمذى بتحقيق الشيخ شاكى رقم ٢٥١٥ ، والنسائى ١١٥/٨ ، والامام أحمد فى سننه ١٧٦/٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ وغيرهم .

ومع ما لهم عليه من حق الصحبة وترددهم اليه ، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال : « لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه » (١) وعن أبي أيوب السخيتاني رحمه الله ، قال ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عز وجل .

وينبغي أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية ، والشيم المرضية ، ورياضة نفسه بالدقائق الخفية ، ويعوده الصيانة في جميع أموره الباطنة والجلية ، ويحرضه بأقواله وأفعاله ، المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ، ومراقبة الله تعالى في جميع اللحظات ، ويعرفه أن لذلك تنفتح عليه أنوار المعارف ، وينشرح صدره ، ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف ، ويبارك له في علمه وحاله ويوفق في أفعاله وأقواله .

### ( فصل )

تعليم المتعلمين فرض كفاية ، فإن لم يكن من يصلح إلا واحد فعين ، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم سقط الحرج عن الباقين ، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم لكن يكره له ذلك إن لم يكن عذر .

### ( فصل )

يستحب للمعلم أن يكون حريص على تعليمهم مؤثراً ذلك على مصالح نفسه الدنيوية التي ليست بضرورية ، وأن يفرغ قلبه في حال جلوسه لأقرائهم من الأسباب الشاغلة كلها ، وهي كثيرة معروفة ، وأن يكون حريصاً على تفهيمهم وأن يعطى كل إنسان منهم ما يليق به ، فلا يكثر على من لا يحتمل الاكثار ، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة ، ويأخذهم باعادة محفوظاتهم ، ويشئى على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة باعجاب أو غيره ، ومن قصر عنقه تعنيفاً لطيفاً ما لم يخش عليه تنفيره ، ولا يحسد أحداً منهم لبراعة تظهر منه ، ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه ، فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم ، فكيف للمتعلم الذى هو بمنزلة الولد ويعود من فضيلته إلى معلمه في الآخرة الثواب الجزيل ، وفي الدنيا الشاء الجميل ، والله الموفق .

### ( فصل )

ويقوم في تعليمهم إذا ازدحموا الأول فالأول ، فإن رضى الأول بتقديم غيره قدمه . وينبغي أن يظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويتفقد أحوالهم ، ويسأل عن غاب عنهم .

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في ( الفقيه والمتفقه ) ١١٣/٢ والتريدي في ( إتحاف السادة المتقين : شرح احياء علوم الدين ) ٢٧/٨ .

## (فصل)

قال العلماء رضى الله عنهم : ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية . فقد قال سفيان وغيره طلبهم للعلم نية . وقالوا : طلبنا العلم لغير الله فإبى أن يكون إلا الله ، معناه كانت غايته أن صار لله تعالى .

## (فصل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى به أن يصون يديه في حال الاقراء عن العبث وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة ويقعد على طهارة مستقبل القبلة ويجلس بوقار وتكون ثيابه بيضاء نظيفة ، وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين قبل الجلوس ، سواء كان الموضع مسجداً أو غيره ، فإن كان مسجداً كان أكد فإنه يكره الجلوس فيه قبل أن يصلى ركعتين ، ويجلس متربعا إن شاء أو غير متربع ، روى أبو بكر بن أبي داود السجستاني بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يقرئ الناس في المسجد جاثيا على ركبتيه .

## (فصل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى بحفظه أن لا يذل العلم فيذهب إلى مكان ينسب إلى من يتعلم منه ليتعلم منه فيه وأن كان المتعلم خليفة فمن دونه بل يصون العلم عن ذلك كما صانه عنه السلف رضى الله عنهم ، وحكاياتهم في هذا كثيرة مشهورة .

## (فصل)

وينبغي أن يكون مجلسه واسعاً ليتمكن جلساؤه فيه ، ففي الحديث عن النبي ﷺ : « خير المجالس أوسعها » . رواه أبو داود في سننه في أوائل كتاب الآداب بإسناد صحيح من رواية أبي سعيد الخدري رضى الله عنه (١) .

## فصل

في آداب المتعلم . جميع ما ذكرناه من آداب المعلم في نفسه آداب للمتعلم ، ومن آدابه أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سبباً لا بد منه للحاجة ، وينبغي أن يظهر قلبه من الأدناس ليصلح الأدناس لقبول القرآن وحفظه واستثماره ، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » (٢) ، وقد أحسن القائل

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الأدب) باب في سنة المجلس ١٦٧/٥ رقم ٤٨٢٠

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ٢٠/١ ومسلم في المساقاة ١٢١٩/٣ ، ١٢٢٠ رقم ١٥٩٩/١٠٧ وهو جزء حديث طويل عن النعمان بن بشير ، أوله : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين » الحديث .



بقوله : يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وإن كان أصغر منه سناً وأقل شهرة ونسباً وصلاًحاً وغير ذلك ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه وقد قالوا نظماً .

العلم حرب للفتى المتعالى . كالسيل حرب للمكان العالى . وينبغي أن ينقاد لمعلمه ويشاوره في أموره ويقبل قوله كالمرضى العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أولى .

### فصل

ولا يتعلم الا ممن تكملت أهليته ، وظهرت ديانتة ، وتحققت معرفته ، واشتهرت صيانتة ، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف : هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحاته على طبقة فإنه أقرب إلى انتفاعه به ، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء وقال : اللهم استر عيب معلمى عني ولا تذهب بركة علمه مني . وقال الربيع صاحب الشافعي رحمهما الله : ما أجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلى هبة له ، وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم بتحية ، ولا تقولن قال فلان خلاف ما تقول ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تشاور جليستك في مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه إذا قام ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تعرض أى تشيع من طول صحبته ، وينبغي أن يتأدب بهذه الخصال التي أرشد إليها على كرم الله وجهه وأن يرد غيبة شيخه إن قدر . فإن تعذر عليه ردها فارق ذلك المجلس .

### فصل

ويدخل على الشيخ كامل الخصال متصفاً بما ذكرناه في العلم متطهراً مستعملاً للسواك فارغ القلب من الأمور الشاغلة وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ في مكان يحتاج فيه إلى استئذان ، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بالتحية ، وأن يسلم عليه وعليهم إذا أنصرف كما جاء في الحديث ، فليست الأولى أحق من الثانية ، ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهي به المجلس إلا أن يأذن له الشيخ في التقدم أو يعلم من حالهم إثارة ذلك ، ولا يقيم أحداً من موضعه . فإن أثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر رضى الله عنهما إلا أن يكون في تقديمه مصلحة للحاضرين أو أمره الشيخ بذلك ، ولا يجلس في وسط الحلقة إلا لضرورة ولا يجلس بين صاحبين بغير أذنها ، وإن فسحا له قعد وضم نفسه .

### فصل

وينبغي أيضاً أن يتأدب مع رفقة وحاضري مجلس الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه ، ويقعد بين يدي الشيخ قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير

حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام من غير حاجة ، ولا يعيث بيده ولا بغيرها ، ولا يلتفت يمينا ولا شمالا من غير حاجة بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغيا إلى كلامه .

### ( فصل )

ومما يتأكد الاعتناء به أن لا يقرأ على الشيخ حال شغل قلب الشيخ وملله واستيفازه وروعه وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه نحو ذلك بما يشق عليه أن يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط ، وإن يقتنم أوقات نشاطه ، ومن آدابه أن يتحمل جفوة الشيخ وسوء خلقه ولا يصدده ذلك عن ملازمته واعتقاده كماله ، ويتأول لأفعاله وأقواله التي ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق وعديمه ، وإن جفاه الشيخ ابتداء هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر له الذيف له والعتب عليه فذلك أنفع له في الدنيا والآخرة وأنقى لقلب الشيخ ، وقد قالوا : من لم يصبر على ذل التعليم ، بقى عمره في عمية الجهالة ، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضى الله عنهما : ذلت طالبا فعززت مطلوبا .

وقد أحسن من قال :

من لم يذق طعم المذلة ساعة قطع الزمان بأسره مذلولاً

### فصل

ومن آدابه المتأكدة أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه في جميع الأوقات التي يتمكن منه فيها ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من الكثير ، ولا يحمل نفسه ما لا يطيق مخافة الملل وضياح ما حصل . وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال ، وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر ولازم بابه ، ولا يفوت وظيفته إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بأن يعلم من حاله الاقراء في وقت بعينه ، وأنه لا يقرىء في غيره ، وإذا وجد الشيخ نائماً أو مشغلاً بمهم لم يستأذن عليه بل يصبر إلى استيقاظه أو فراغه أو ينصرف ، والصبر أولى كما كان ابن عباس رضى الله عنهما وغيره يفعلون ، وينبغي ألا يأخذ نفسه بالاجتهاد في التحصيل في وقت الفراغ والنشاط وقوة اليدين ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزل ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا : معناه اجتهدوا في كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة ، فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم وهذا معنى قول الشافعي رضى الله عنه : تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه .

## فصل

وينبغي أن يكرر بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبي ﷺ « اللهم بارك لأمتي في بكورها »<sup>(١)</sup> وينبغي أن يحافظ على قراءة محفوظه وينبغي أن لا يؤثر بنوبته غيره فإن الإيثار مكروه في القرب بخلاف الإيثار بحفظ النفس فإنه محبوب . فإن رأى الشيخ المصلحة في الإيثار في بعض الأوقات لمعنى شرعى فأشار عليه بذلك امثل أمره ، ومما يجب عليه ويتأكد الوصية به أن لا يحسد أحداً من رفقته أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إياها ، وإن لا يعجب بنفسه بما خصه الله ، وقد قدمنا ايضاح هذا في آداب الشيخ ، وطريقه في نفى العجب أن يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته ، وإنما هو فضل من الله ؟ ولا ينبغي أن يعجب بشيء لم يخترعه بل أودعه الله تعالى فيه ، وطريقه في نفى الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة في هذا ، فينبغي أن لا يعترض عليها ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى ولم يكرها .

## الباب الخامس في آداب حامل القرآن

قد تقدم جل منه في الباب الذي قبل هذا ، ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشماثل ، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه اجلالا للقرآن ، وأن يكون مصوناً عن دنىء الاكتساب شريف النفس مرتفعاً على الجبابة والجفافة عن أهل الدنيا ، متواضعاً للصالحين وأهل الخير والمساكين ، وأن يكون متخشعاً ذا سكينه ووقار ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه قال : « يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضع لكم الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على الناس ، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وينهاره إذا الناس منطرون ، ويحزنه إذا الناس يفرحون ، ويبكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، ويخشوعه إذا الناس يختالون . وعن الحسن بن على رضى الله عنه قال : إن من كان قبلكم رأوا القرآن وسائل ربهم فكانوا يتدربونها بالليل ويتفقدونها في النهار . وعن الفضيل بن عياض قال : ينبغي لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم ، وعنه أيضا قال حامل القرآن حامل راية الاسلام لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغوم مع من يلغوم تعظيماً لحق القرآن .

(١) أخرجه الترمذى في جامعه الصحيح ( أبواب البيوع ) باب ماجاء في التكبير بالتجارة ، من زواية صخر الغامدى ٣٤٣/٢ رقم ١٢٣٠ طبع دار الفكر

وقال الترمذى : حديث صخر الغامدى حديث حسن .

وأبو داود برقم ٢٦٠٦ وابن ماجه ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٢٣٨ وأحمد ٤١٦/٣ ، ٤١٧ وغيرهم .

## (فصل)

ومن أهم ما يؤثر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشته ليكتسب بها ، فقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تحفوا عنه ، ولا تغلوا فيه »<sup>(١)</sup> .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : اقرؤوا القرآن من قبل أن يأتي قوم يقيمونه اقامة لقدح يتعجلونه ولا يتأجلونه<sup>(٢)</sup> رواه بمعناه من رواية سهل بن سعد : معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها ، وعن فضيل بن عمرو رضى الله عنه قال : دخل رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ مسجداً فلما سلم الامام قام رجل فتلا آيات من القرآن ثم سأل فقال أحدهما : إنا لله وإنا اليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيجيء قوم يسألون بالقرآن فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه »<sup>(٣)</sup> وهذا الاسناد منقطع ، فإن الفضيل بن عمرو لم يسمع الصحابة .

وأما أخذه الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه ، فحكى الامام أبو سليمان الخطابي منع أخذ الأجرة عليه من جماعة من العلماء منهم الزهري وأبو حنيفة ، وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه ، وهو قول الحسن البصري والشعبي وابن سيرين ، وذهب عطاء ومالك والشافعي وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة ، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة ، واحتج من منعها بحديث عبادة ابن الصامت « انه علم رجلاً من أهل الصفة قرأ القرآن فأهدى له قوساً . فقال النبي ﷺ : « إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فأقبلها »<sup>(٤)</sup> وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره وبآثار كثيرة من السلف .

وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بحوايين : أحدهما أن في اسناده مقالا . والثاني أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئاً . ثم أهدى اليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ بخلاف من يعقد معه اجارة قبل التعليم والله اعلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (زيادة في حديث عبد الرحمن بن شبيب رضى الله عنه) ٤٢٨/٣ - وانظر مجمع الزوائد ٦٦٧/٧ وقال الميثمي : رواه أحمد والبخاري بنحوه ، ورجال أحمد ثقات وزادا : « ولا تستأثروا به » .

(٢) أخرجه البيهقي في شرح السنة (باب ما يجزه الأمي والمعجمي من القراءة) ٨٨/٣ رقم ٦٠٩ وقال محققه : اسناده حسن ، وهو في سنن أبي داود برقم ٨٣٠ في الصلاة ، وله شاهد من رواية سهل بن سعد الشاعدي .

(٣) أخرجه الامام أحمد في مسنده (مسند عمران بن حصين رضى الله عنه) ٤٣٢/٤ ، ٤٣٩ بنحوه .

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب التجارات) باب الأجر على تعليم القرآن ٧٣٠/٢ رقم ٢١٥٧ قال السيوطي : الأولى أن يدعى أن الحديث منسوخ بحديث الرقية الذي فعله وحديث : « إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله » وأيضا في سننه الأسود بن ثعلبة وهو لا نعرفه . قال ابن المديني كما في الميزان للذهبي .

وأخرجه أحمد في مسنده ٣١٥/٥

## فصل

ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها ، وكان السلف رضى الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما يخطمون فيه ، فروى ابن أبي داود عن بعض السلف رضى الله عنهم أنهم كانوا يخطمون في كل شهرين ختمة واحدة ، وعن بعضهم في كل شهر ختمة ، وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة ، وعن بعضهم في كل ثمان ليال ، وعن الأكثرين في كل سبع ليال ، وعن بعضهم في كل ست ، وعن بعضهم في كل خمس ، وعن بعضهم في كل أربع ، وعن كثيرين في كل ثلاث ، وعن بعضهم في كل ليلتين ، وخطم بعضهم في كل يوم وليلة ختمة ، ومنهم من كان يخطم في كل يوم وليلة ختمتين ، ومنهم من كان يخطم ثلاثاً ، وخطم بعضهم ثمان ختمات أربعاً بالليل وأربعاً بالنهار ، فمن الذين كانوا يخطمون ختمة في الليل واليوم عثمان بن عفان رضى الله عنه وقيم الدار وسعيد بن جبير ومجاهد والشافعي وآخرون . ومن الذين كانوا يخطمون ثلاث ختمات سليم بن عمر رضى الله عنه وقاضى مصر في خلافة معاوية رضى الله عنه . وروى أبو بكر بن أبي داود أنه كان يخطم في الليلة أربع ختمات ... وروى أبو داود وبأسناده الصحيح أن مجاهداً كان يخطم القرآن من المغرب والعشاء وأما الذى يخطم في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفان وقيم الدار وسعيد بن جبير رضى الله عنهم ختمة في كل ركعة في الكعبة

وأما الذين ختموا في الأسبوع مرة فكثيرون نقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب رضى الله عنهم ، وعن جماعة من التابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وإبراهيم رضى الله عنهم ، والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، من كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه ، وكذا من كان مشغولاً بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه اختلال بما هو مرصد له وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين ، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهدرمة ، وقد كره جماعة من المتقدمين الختم في يوم وليله ، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ « لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . قال الترمذى حديث حسن صحيح والله أعلم (١) .

وأما وقت الابتداء والختم لمن يخطم في الأسبوع ، فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يفتح القرآن ليلة الجمعة ويخطمه ليلة الخميس . وقال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء : الأفضل أن يخطم ختمة بالليل وأخرى بالنهار ، ويجعل ختمة النهار يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وآخره .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الصلاة) باب تخريب القرآن ١١٧٢ رقم ١٣٩٤ وأخرجه الترمذى في (أبواب القراءات) ضمن الحديث رقم ٤٠١٦ وابن ماجه رقم ١٣٤٧

وروى ابن أبي داود عن عمر بن مرة التابعي : قال : كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار ، وعن طلحة بن مصرف التابعي الجليل . قال : من ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي وأية ساعة كانت من الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وعن مجاهد مثله .

### فصل : في المحافظة على القراءة بالليل

ينبغي أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن في الليل أكثر ، قال الله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ (١) وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نعم عبد الله لو كان يصلي من الليل » (٢) وفي الحديث الآخر من الصحيح أنه ﷺ قال : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه » (٣) .

وروى القطاعي وغيره عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « شرف المؤمن قيام الليل » (٤) .

والأحاديث والآثار في هذا كثيرة ، وقد جاء عن أبي الأحوص الحبشي قال : إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً : أى يأتيه ليلاً فسمع لأهله دوياء كدوى النحل ، قال فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون ؟

وعن إبراهيم النخعي كان يقول : اقرأوا من الليل ولو حلب شاة . وعن يزيد الرقاشي قال : إذا أنا نمت ، ثم استيقظت ثم نمت فلا نامت عيناى . قلت : وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب ، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف والحاجات ، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من إيجاد الخيرات في الليل . . فإن الإسراء برسول الله ﷺ كان ليلاً ، وحديث « ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يمضي شطر الليل فيقول : هل من داع فاستجيب له » الحديث (٥) .

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « في الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة » (٦) .

(١) آل عمران الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ( فضل قيام الليل ) ٦١/٢ طبع الشعب بلفظ : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصل من الليل » فكان بعد لا يتم من الليل الا قليلا .

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه ( فضل باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه ) ٦٨/١

(٤) أخرجه الفضاعي في مسند الشهاب برقم ١٥١ عن سهل بن سعد ١٢١/١

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه ( كتاب الجنة ) باب الدعاء ٦٦/٢ بنحوه .

ومسلم في صحيحه ( كتاب صلاة المسافرين وقصرها ) ٥٢١/١ رقم ٧٥٨/١٦٨ وأبو داود برقم ١٣١٥

(٦) أخرجه الشجرى في أماليه ٢٠٨/١

وروى صاحب بهجة الأسراء باسناده عن سليمان الأغمطى قال رأيت على بن أبي طالب رضى الله عنه فى المنام يقول :

لولا الذين لهم ورد يقومونا وآخرون لهم سرد يصومونا  
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً لأنكم قوم سوء لا تطيعونا  
وأعلم أن فضيلة القيام بالليل : والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير ، وكلما كثر كان أفضل ، إلا أن يستوعب الليل كله فإنه يكره الدوام عليه والا أن يضر بنفسه ، ومما يدل على حصوله بالقليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » رواه أبوداود وغيره<sup>(١)</sup> وحكى الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من صلى بالليل ركعتين فقد بات لله ساجداً وقائماً » .

### فصل : فى الأمر بتعهد القرآن

#### والتحذير من تعريضه للنسيان

ثبت عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذى نفسى بيده هو أشد ثقلنا من الإبل فى عقلها »<sup>(٢)</sup> رواه البخارى ومسلم .  
وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثلى الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم والبخارى .  
وعن سعد بن عباد عن النبى ﷺ قال : « ما من امرئ يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقي الله عز وجل يوم القيامة أجزم » رواه أبوداود<sup>(٤)</sup> .

### فصل : فىمن نام عن ورده

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم<sup>(٥)</sup> .

(١) أخرجه أبوداود فى كتاب الصلاة - باب - تخريب القرآن ص ١١٨ برقم ١٣٩٨

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٣٨/٦ ومسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ١ ص ٥٤٥ برقم ٧٩١/٢٣١

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ١ ص ٥٤٣ برقم ٧٨٩/٢٢٦

(٤) أخرجه أبوداود فى كتاب الصلاة ج ٢ ص ١٥٨ برقم ١٤٧٤ قال المنذرى : فى إسناده يزيد بن أبى زياد ولا يحتج بحديثه .

(٥) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ١ ص ٥١٥ برقم ٧٤٧/١٤٢

وعن سليمان بن يسار قال : قال أبو أسيد رضى الله عنه ، ثمت البارحة عن وردى حتى أصبحت ، فلما أصبحت استرجعت وكان وردى سورة البقرة فرأيت فى المنام كأن بقرة تنطحنى رواه ابن أبى داود . وروى ابن أبى الدنيا عن بعض حفاظ القرآن : انه نام ليلة عن حربة فأرى فى منامه كأن قائلاً يقول له :

عجبت من جسم ومن صحة ومن فنى نام إلى الفجر  
والموت لا يؤمن خطفاته فى ظلم الليل إذا يسرى

## الباب السادس فى آداب القرآن

هذا الباب هو مقصود الكتاب وهو منتشر جداً ، وأنا أسير إلى أطراف من مقاصده كراهة الإطالة وخوفاً على قارئه من الملالة ، فأول ذلك يجب على القارئ الإخلاص كما قدمناه ومراعاة الأدب مع القرآن ، فينبغى أن يستحضر فى نفسه أنه يناجى الله تعالى ويقرأ على حال من يرى الله تعالى ، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه .

### (فصل)

وينبغى إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره ، والاختيار فى السواك أن يكون يعود من أراك ، ويجوز بسائر العيدان وبكل ما ينظف كالخرقة الخشنة والأشتان وغير ذلك ، وفى حصوله بالأصبع الخشنة ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعى رحمهم الله تعالى : أشهرها أنه لا يحصل ، والثانى يحصل إن لم يجد غيرها ، ولا يحصل إن وجد ، ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فمه وينوى به الإتيان بالسنة قال بعض العلماء : يقول عند الاستياك ، اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين . قال الماوردى من أصحاب الشافعى ويستحب أن يستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمر السواك على أطراف أسنانه وكراسى أضراسه وسقف حلقه امرأراً رقيقاً . قالوا وينبغى أن يستاك يعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد الرطوبة . قال فإن اشتد ييسه لينه بالماء ، ولا بأس باستعمال سواك غيره بإذنه ، وأما إذا كان فمه نجساً بدم أو غيره فإنه يكره له قراءة القرآن قبل غسله ، وهل يحرم ؟

قال الرويانى من أصحاب الشافعى عن والده يحتمل وجهين والأصح لا يحرم .

### (فصل)

يستحب أن يقرأ وهو على طهارة فإن قرأ محدثاً جاز باجماع المسلمين ، والأحاديث فيه كثيرة معروفة .



قال امام الحرمين : ولا يقال ارتكب مكروها بل هو تارك للأفضل ، فإن لم يجد الماء تيمم ، والمستحاضة في الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم المحدث ، وأما الجنب والحائض فإنه يحرم عليها قراءة القرآن ، سواء كان آية أو أقل منها ، ويجوز لها اجراء القرآن على قلبها من غير تلفظ به ، ويجوز لها النظر في المصحف وامراره على القلب ، وأجمع المسلمون على جواز التسيب والتهيل والتحميد والتكبير والصلاة على النبي ﷺ وغير ذلك من الأذكار للجنب والحائض . قال أصحابنا : وكذا إن قال الإنسان خذ الكتاب بقوة ، وقصدا به غير القرآن فهو جائز ، وكذا ما أشبهه ، ويجوز لها أن تقولاً عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذا لم يقصد القرآن . قال أصحابنا الخراسانيون : ويجوز أن يقولاً عند ركوب الدابة : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وعند الدعاء : ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، إذا لم يقصد القرآن قال امام الحرمين : فإذا قال الجنب بسم الله والحمد لله فإن قصد القرآن عصى ، وإن قصد الذكر أم لم يقصد شيئاً لم يأتى ، ويجوز لها قراءة ما نسخت تلاوته : كالشيخ والشيخة إذا زينا فارجهما البتة .

### (فصل)

إذا لم يجد الجنب أو الحائض ماء تيمم ، ويباح له القراءة والصلاة وغيرهما ، فإن أحدث حرمت عليه الصلاة ولم تحرم القراءة والجلوس في المسجد وغيرهما مما لا يحرم على المحدث كما لو اغتسل ثم أحدث ، وهذا مما يسأل عنه ويستغرب . فيقال : جنب يمنع من الصلاة ولا يمنع من قراءة القرآن والجلوس في المسجد من غير ضرورة كيف صورته ؟ فهذا صورته ، ثم الأقرب لا فرق مما ذكرناه بين تيمم الجنب في الحضر والسفر . وذكر بعض أصحاب الشافعي أنه إذا تيمم في الحضر استباح الصلاة ، ويقرأ بعدها ، ولا يجلس في المسجد ، والصحيح جواز ذلك كما قدمناه ، ولو تيمم ثم صلى وقرأ ثم رأى ماء يلزمه استعماله ، فإنه يحرم عليه القراءة وجميع ما يحرم على الجنب حتى يغتسل ، ولو تيمم وصلى وقرأ ثم أراد التيمم لحديث أولفريضة أخرى أو لغير ذلك ، فإنه لا يحرم عليه القراءة على المذهب الصحيح المختار ، وفي وجه لبعض أصحاب الشافعي أنه لا يجوز والمعروف الأول ، أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا تراباً فإنه لا يصلي لحزمة الوقت على حسب حاله ، ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة ، ويحرم عليه أن يقرأ في الصلاة ما زاد على فاتحة الكتاب ، ويحرم عليه قراءة الفاتحة ؟ فيه وجهان : الصحيح المختار أنه لا يحرم بل يجب فإن الصلاة لا تصح إلا بها ، وكلما جازت الصلاة لضرورة مع الجنابة يجوز القراءة . والثاني لا يجوز ، بل يأتي بالأذكار التي يأتي بها العاجز الذي لا يحفظ شيئاً من القرآن لأن هذا عاجز شرعاً فصار كالعاجز حساً ، والصواب الأول ، وهذه الفروع التي ذكرناها يحتاج إليها فلماذا أشرت إليها بأوجز العبارات ، وإلا فلها أدلة وتتمات كثيرة معروفة في كتب الفقه ، والله أعلم .

## (فصل)

ويستحب أن تكون القراءة في مكان نظيف مختار ، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة في المسجد ، لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة ومحضاً لفضيلة أخرى وهي الاعتكاف ، فإنه ينبغي لكل جالس في المسجد الاعتكاف سواء أكثر في جلوسه أو أقل ، بل ينبغي أول دخوله المسجد أن ينوي الاعتكاف ، وهذا الأدب فينبغي أن يعتنى به ويشاع ذكره ويعرفه الصغار والعمام ، فإنه مما يغفل عنه .

وأما القراءة في الحمام ، فقد اختلف السلف في كراهيتها : فقال أصحابنا : لا يكره ، ونقله الامام المجمع على جلالة أبو بكر بن المنذر في الاشراف عن ابراهيم النخعي ومالك . وهو قول عطاء ، وذهب إلى كراهته جماعات منهم على بن أبي طالب رضي الله عنه ، رواه عنه ابن أبي داود ، وحكى ابن المنذر عن جماعة من التابعين منهم أبو وائل شقيق بن سلمه والشعبي والحسن البصري ومكحول ورويناه أيضا عن ابراهيم النخعي ، وحكا أصحابنا عن أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين قال الشعبي : تكره القراءة في ثلاثة مواضع : في الحمامات ، والحشوش ، وبيوت الرحي وهي تدور وعن أبي ميسرة قال : لا يذكر الله الا في مكان طيب ، وأما القراءة في الطريق ، فالمختار أنها جائزة غير مكروهة إذا لم يثله صاحبها ، فإن التهي عنها كرهت ، كما كره النبي ﷺ القراءة للناس مخافة من الخلط .

وروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه أذن فيها .

قال ابن أبي داود : حدثني أبو الربيع قال : أخبرنا ابن وهب قال : سألت مالكا عن الرجل يصلي من آخر الليل فيخرج إلى المسجد وقد بقي من السورة التي كان يقرأ فيها شيء ، قال ما أعلم القراءة تكون في الطريق ، وكره ذلك ، وهذا إسناد صحيح عن مالك رحمه الله .

## (فصل)

يستحب للقارئ في غير الصلاة أن يستقبل القبلة ، فقد جاء في الحديث « خير المجالس ما استقبل به القبلة »<sup>(١)</sup> ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار ، مطرقاً رأسه ويكون جلوسه وحده في تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدي معلمه فهذا هو الأكمل ، ولو قرأ قائماً ، أو مضطجعا ، أو في فراشه ، أو على غير ذلك من الأحوال جاز ، وله أجر ، ولكن دون الأول . قال الله عز وجل : ﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وثبت في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجرى وأنا حائض وقرأ القرآن »<sup>(٣)</sup> رواه مسلم وأحمد .

(١) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان ٢١٧/١ وأنظر انحاف السادة المتقين ج ٤ ص ٣٧١

(٢) آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١

(٣) أخرجه أحمد ٨٢/١ ، ١٩٧/٦ ، ١٩٧/٦ ، ٢٠٢/١٥ ، ٢٤٦

وعن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : إن أقرأ القرآن في صلاتي وأقرأ على فراشي ، وعن عائشة رضى الله عنها : قالت : إنى لأقرأ حزبي وأنا مضجعة على السرير .

### (فصل)

فإن أراد الشروع في القراءة استعاذ فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا قال جمهور من العلماء .

وقال بعض العلماء : يتعوذ بعد القراءة ، لقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ ، وتقدير الآية عند الجمهور : إذا أردت القراءة فاستعذ ، ثم صيغة التعوذ كما ذكرناه ، وكان جماعة من السلف يقولون أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ولا بأس بهذا ، ولكن الاختيار هو الأول ، ثم أن التعوذ مستحب وليس بواجب وهو مستحب لكل قارئ ، سواء كان في الصلاة أو في غيرها ، ويستحب في الصلاة في كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا ، وعلى الوجه الثاني إنما يستحب في الركعة الأولى فإن تركه في الأولى أتى به في الثانية ، ويستحب التعوذ في التكبيرة الأولى في صلاة الجنائز على أصح الوجهين قال : وينبغي أن يحافظ على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم في أول كل سورة سوى براءة ، فإن أكثر العلماء قالوا إنها آية ، حيث تكتب في المصحف وقد كتبت في أوائل السور سوى براءة فإذا قرأها كان متيقناً قراءة الختمة أو السورة ، فإذا أخل بالبسملة كان تاركاً لبعض القرآن عند الأكثرين ، فإذا كانت القراءة في وظيفة عليها جعل كالأسباع والأجزاء التي عليها أوقاف وأزاق كان الاعتناء بالبسملة أكثر لتيقن قراءة الختمة ، فإنه إذا تركها لم يستحق شيئاً من الوقف عند من يقول البسملة آية من أول السورة ، وهذه دقيقة نفيسة يتأكد الاعتناء بها واشاعتها .

### (فصل)

فإذا شرع في القراءة ، فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة ، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر ، وأشهر وأظهر من أن تذكر ، فهو المقصود المطلوب ، وبه تنشرح الصدور وتستنفر القلوب ، قال الله عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ <sup>(١)</sup> وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ <sup>(٢)</sup> والأحاديث فيه كثيرة ، وأقاويل السلف فيه مشهورة .

وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح ، وقد حقق جماعة من السلف عند القراءة ، ومات جماعات حال القراءة ، ورويناه عن بهز بن حكيم أن زراراً بن أوفى التابعي الجليل - رضى الله عنه - أهمهم في صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ : ﴿ فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم

(١) النساء آية : ٨٢ ، محمد آية : ٢٤

(٢) سورة (ص) آية : ٢٩

عسير ﴿١﴾ خر منّا . قال بهز : وكنت فيمن حملة . وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف ابراهيم الخواص رضى الله عنه ، دواء القلب خمسة اشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

### فصل : في استحباب ترديد الآية للتدبر

وقد قدمنا في الفصل قبله الحث على التدبر ، وبيان موقعه وتأثير السلف ، وروينا عن أبي ذر رضى الله عنه قال : « قام النبي ﷺ بآية حتى أصبح ، يردها والآية : ( إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ) رواه النسائي وابن ماجه (٢) .

وعن تميم الدارى رضى الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ (٣) وعن عبادة بن حمزة قال : دخلت على أسماء رضى الله عنها - وهى تقرأ : ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ (٤) فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو ، فطال على ذلك ، فذهبت إلى السوق ، فقضيت حاجتى ثم رجعت وهى تعيدها وتدعو . ورويت هذه القصة عن عائشة رضى الله عنها ، ورد ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ رب زدنى علماً ﴾ (٥) ورد سعيد بن جبير ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ (٦) الآية ورد أيضاً ﴿ فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ (٧) ورد أيضاً ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ (٨) وكان الضحّاك إذا تلا قوله تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾ (٩) . ردها إلى السحر .

### ( فصل )

### في البكاء عند قراءة القرآن

قد تقدم في الفصلين المتقدمين بيان ما يحمل على البكاء في حال القراءة وهو صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين . قال الله تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان ويكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ (١٠) وقد وردت فيه

(١) المدثر الآيتان : ٨ ، ٩

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها ج ١ ص ٤٢٩ برقم ١٣٥٠ في الزوائد أسناده صحيح ورجاله ثقات . ثم قال رواه النسائي في الكبرى وأحمد في المسند وابن خزيمة في صحيحه والحاكم وقال : صحيح .

(٣) الجاثية آية : ٢١

(٤) الطور آية : ٢٧

(٨) الانفطار آية : ٦

(٩) الزمر آية : ١٦

(١٠) الاسراء آية : ١٠٩

(٥) طه آية : ١١٤

(٦) البقرة آية : ٢٨١

(٧) غافر الآيتان : ٧٠ ، ٧١

أحاديث كثيرة وآثار السلف . فمن ذلك عن النبي ﷺ « اقرؤوا القرآن وأبكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته . وفي رواية : أنه كان في صلاة العشاء فتدل على تكريره منه ، وفي رواية : أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف ، وعن أبي رجاء قال : رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وعن هشام قال : ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين في الليل وهو في الصلاة والآثار في هذا كثيرة لا يمكن حصرها ، وفيما أشرنا اليه ونبهنا عليه كفاية ، والله أعلم .

قال الامام أبو حامد الغزالي : البكاء مستحب مع القراءة وعندها . وطريقه في تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره في ذلك ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليكن على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب .  
(فصل)

وينبغي أن يرتل قراءته . وقد اتفق العلماء رضى الله عنهم على استحباب الترتيل قال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾<sup>(١)</sup> وثبت عن أم سلمة رضى الله عنها : « إنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً » رواه أبو داود والنسائي والترمذى . قال الترمذى حديث حسن صحيح<sup>(٢)</sup>

وعن معاوية بن قرة رضى الله عنه عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع في قراءته » رواه البخارى ومسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله .

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وجزء منها وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء ؟ فقال : الذى قرأ البقرة وحدها أفضل ، وقد نهى عن الإفراط في الأسراع ، ويسمى الهندمة . فثبت عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له إني أقرأ المفصل في ركعة واحدة ، فقال عبد الله بن مسعود هذا كهذا الشعر ، إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع ، رواه البخارى ومسلم ، وهذا لفظ مسلم في إحدى رواياته<sup>(٤)</sup> .

(١) المزملة آية : ٤

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة عن أم سلمة ج ٢ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٦ والترمذى في أبواب فضائل القرآن باب ما جاء كيف كانت قراءة النبي ﷺ - ج ٤ ص ٢٥٤ رقم ٣٠٩١ ط دار الفكر وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة ج ١ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٧ ومسلم في كتاب صلاة المسافرين باب ذكر قراءة النبي ﷺ - سورة الفتح يوم فتح مكة ج ١ ص ٥٤٧ رقم ٧٩٤/٢٣٨ والبخارى في صحيحه ج ٦ ص ٢٣٨ باب القراءة على الدابة ويلفظه ج ٦ ص ٢٤٦

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ١ ص ٥٦٣ برقم ٧٢٢/٢٧٥

والبخارى ج ٦ ص ٢٤٠ باب الترتيل في القراءة

قال العلماء : والترتيل مستحب للتدبر ولغيره . قالوا : يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام ، وأشد تأثيراً في القلب .

### (فصل)

ويستحب إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله ، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيز بالله من الشر ومن العذاب ، أو يقول : اللهم إني أسألك العافية ، أو أسألك المعافاة من كل مكروه ، أو نحو ذلك ، وإذا مر بآية تنزيه لله تعالى نزهه فيقول : تبارك وتعالى ، أو جلّت عظمة ربنا ، فقد صح عن حذيفة ابن اليمان - رضي الله عنهما - قال : « صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلي بها في ركعة فمضى ، فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » رواه مسلم في صحيحه<sup>(١)</sup> ، وكانت سورة النساء مقدمة على آل عمران . قال أصحابنا رحمهم الله تعالى : ويستحب هذا السؤال والاستعانة والتسبيح لكل قارئ سواء كان في الصلاة أو خارجاً منها قالوا : ويستحب ذلك في صلاة الإمام والمنفرد والمأموم لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب الفاتحة ، وهذا الذي ذكرناه من استحباب السؤال والاستعانة ، هو مذهب الشافعي - رضي الله عنه - وجهاهير العلماء - رحمهم الله - قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : ولا يستحب ذلك بل يكره في الصلاة ، والصواب قول الجماهير لما قدمناه .

### (فصل)

ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئین مجتمعين .

فمن ذلك اجتناب الضحك واللغو والحديث في خلال القراءة إلا كلاماً يضطر إليه ، وليتمثل قول الله تعالى : ﴿ وإذا قرأ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾<sup>(٢)</sup> وليقتد بما رواه ابن أبي داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه .

ومن ذلك العبث باليد وغيرها فإنه يناجي ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه ، ومن ذلك النظر إلى ما يليه ويبدد الذهن ، وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لا يجوز النظر إليه كالأمرد وغيره ، فإن النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجة حرام ، سواء كان بشهوة أو بغيرها ، سواء أمن الفتنة أو لم يأمنها ، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء ، وقد نص على تحريمه الإمام الشافعي ومن لا يحصى من العلماء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ج ١ ص ٥٣٦ رقم ٧٧٢/٢٠٣  
(٢) الاعراف آية : ٢٠٤

ودليله قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾ <sup>(١)</sup> ولأنه في معنى المرأة ، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء ، ويتمكن من أسباب الريبة فيه ، ويتسهل من طرق الشر في حقه ما لا يتسهل في حق المرأة فكان تحريمه أولى ، وأقاويل السلف في التنفير منهم أكثر من أن تحصى ، وقد سموهم الأثنان ، لكونهم مستقذرين شرعا . وأما النظر إليه في حال البيع والشراء والأخذ والعطاء ، والتطيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة ، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة ، ولا يديم النظر من غير ضرورة ، وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذي يحتاج إليه ، ويحرم عليهم كلهم في كل الأحوال النظرة بشهوة ولا يختص هذا بالأمر ، بل يحرم على كل مكلف النظر بشهوة إلى كل أحد رجلاً كان أو امرأة ، محرماً كانت المرأة أو غيرها إلا الزوجة أو المملوكة التي يملك الاستمتاع بها حتى قال أصحابنا : يحرم النظر بشهوة إلى محارمه كأخته وأمه والله أعلم .

وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئاً من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها أن ينهوا عنه حسب الامكان باليد لمن قدر ، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان ، والا فليذكر بقلبه ، والله أعلم .

### ( فصل )

قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ في الركعة الأولى سورة قل أعوذ برب الناس يقرأ في الثانية بعد الفاتحة من البقرة . قال بعض أصحابنا : ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة ، فينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة تقرأ في الأولى سورة السجدة ، وفي الثانية ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ وصلاة العيد في الأولى قاف ، وفي الثانية ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وركعتي سنة الفجر في الأولى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وركعات الوتر في الأولى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وفي الثانية : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين ، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلى الأولى وخالف الترتيب فقرأ سورة ، ثم قرأ سورة قبلها جاز ، فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفي الثانية بيوسف ، وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف ، وروى ابن أبي داود عن الحسن : أنه كان يكره أن يقرأ القرآن لا على تأليفه في المصحف ، وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً ؟ فقال ذلك منكوس القلب . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً مؤكداً فإنه يذهب بعض ضروب الإعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات ، وقد روى ابن أبي داود عن إبراهيم التخمي الامام التابعي الجليل والامام مالك بن أنس

أنها كرها ذلك ، وأن مالكا كان يعيبه ، ويقول هذا عظيم . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ليس هذا من هذا الباب فإن ذلك قراءة متفاضلة في أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم .

## (فصل)

قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب ، لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة فتجتمع القراءة والنظر هكذا . قاله القاضي حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالي وجماعات من السلف ، ونقل الغزالي في الاحياء أن كثيرين من الصحابة رضى الله عنهم كانوا يقرءون من المصحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف ، وروى ابن أبي داود القراءة في المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافاً ، ولو قيل أنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة في المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره في حالتي القراءة في المصحف وعن ظهر القلب ، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولاً حسناً ، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل .

فصل : في استحباب قراءة الجماعة مجتمعين ، وفضل القارئ من الجماعة والسامعين وبيان فضيلة من جمعهم عليها وحرصهم وندبهم إليها

أعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة . فقد صح عن النبي ﷺ من رواية أبي هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد الخدري رضى الله عنهما أنه قال : « ما من قوم يذكرون الله ألا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١) .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم وأبو داود بإسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم (٢) .

وروى الدارمى بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً » .

(١) أخرجه الترمذى في سننه أبواب الدعوات باب ما جاء في القوم يجلسون فيذكرون الله ما لهم من الفضل ج ٥ ص ١٢٨ رقم ٣٤٣٨ ط دار الفكر

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ج ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٢٧٠٠/٣٩

وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب في ثواب قراءة القرآن ج ٢ ص ١٤٨ رقم ١٤٥٥



وروى ابن أبي داود : أن أبا الدرداء رضى الله عنه كان يدرس القرآن معه نفر يقرءون جميعاً .  
وروى ابن أبي داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين . . لكن  
القراءة في حال الاجتماع لها شروط قدمناها ينبغي أن يعتنى بها ، والله أعلم .  
وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة ففيها نصوص كثيرة كقوله ﷺ « الدال على الخير كفاعله »<sup>(١)</sup>  
وقوله ﷺ « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »<sup>(٢)</sup> .  
والأحاديث فيه كثيرة مشهورة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾<sup>(٣)</sup> ولاشك في  
عظم أجر الساعى في ذلك .

### ( فصل : في الإدارة بالقرآن )

وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشراً أو جزءاً أو غير ذلك ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى  
الأول ، ثم يقرأ الآخر وهذا جائز حسن ، وقد سئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال : لا بأس به .

### ( فصل : في رفع الصوت بالقراءة )

هذا فصل مهم ينبغي أن يعتنى به . اعلم أنه جاءت أحاديث كثيرة في الصحيح وغيره دالة على  
استحباب رفع الصوت بالقراءة . وجاءت آثار كثيرة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت وسنذكر منها  
طرفاً يسيراً إشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى .  
قال الامام أبو حامد الغزالي وغيره من العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة في هذا  
إن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت  
أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى غيره ، والمتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ  
قلب القارىء ، ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف سمعه إليه ويتردد النوم ويزيد في النشاط ويوقظ غيره  
من نائم وغافل وينشطه . قالوا : فمهما حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل ، فإن اجتمعت هذه  
النيات تضاعف الأجر .

قال الغزالي : ولهذا قلنا القراءة في المصحف أفضل ، فهذا حكم المسألة ، وأما الآثار المنقولة  
فكثيرة ، وأنا أشير إلى أطراف من بعضها . ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : سمعت

(١) أخرجه الترمذى في سننه أبواب العلم ج ٤ ص ١٤٧ رقم ٢٨٠٩ عن أنس بن مالك .

وقال الترمذى وفي الباب عن أبي مسعود وبريدة . هذا حديث غريب من هذا الوجه وانظر رق ٢٨١١/٢٨١٠ .

(٢) أخرجه أحمدى مستنده : ٣٣٣/٥ البخارى ٥٨/٤ ، ٢٣/٥

ومسلم في فضائل الصحابة رقم ٣٤

(٣) المائدة آية : ٢

رسول الله ﷺ يقول : « مأذن الله لشيء مأذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن يجهر به » رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup> . ومعنى أذن أستمع ، وهو إشارة إلى الرضا والقول .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أوتيت زممارا من زمائر آل داود » رواه مسلم والبخارى<sup>(٢)</sup> . . . .

وعن أبى موسى أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » رواه البخارى ومسلم<sup>(٣)</sup> .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه أبو داود والنسائي وغيرهما<sup>(٤)</sup> .

وزوى ابن أبى داود عن على رضى الله عنه : أنه سمع ضجة في المسجد يقرءون القرآن ، فقال : طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس لرسول الله ﷺ .

وفي إثبات الجهر أحاديث كثيرة : وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من اقوالهم وأفعالهم فأكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، وهذا كله فيمن لا يخاف رياء ولا إعجابا ، ولا نحوهما من النتائج ، ولا يؤذى جماعة يلبس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم . وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الاخفاء لخوفهم مما ذكرناه . فعن الأعمش قال دخلت على ابراهيم وهو يقرأ بالمصحف فاستأذن عليه رجل فغطاه ، وقال : كنت جالسا مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم ، فقال رجل منهم قرأت الليلة كذا ، فقالوا هذا حظك منه ، ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » رواه أبو داود والترمذى والنسائي وقال الترمذى حديث حسن قال<sup>(٥)</sup> : ومعناه ان الذى يسر بقراءة القرآن أفضل من الذى يجهر بها . لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية قال : وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم لكى يأمن الرجل من العجب ، لأن الذى يسر بالعمل لا يخاف عليه من العجب كما يخاف عليه من علانيته . قلت : وكل هذا

(١) أخرجه البخارى في صحيحه باب من لم يتغن بالقرآن ج ٦ ص ٢٣٦ ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ج ١ ص ٥٤٥ رقم ٩٢/٢٣٣ ن

(٢) أخرجه : البخارى في صحيحه ج ٦ ص ٢٤١ باب حسن الصوت بالقراءة وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ج ١ ص ٥٤٦ باب استحباب تحسين الصوت برقم ٧٩٣/٢٣٦ وانظر أحاديث الباب

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل الأشعرين ج ٤ ص ١٩٤٤ رقم ٢٤٩٩/١٦٦ ، والبخارى ١٧٥/٥ ط الشعب

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح باب تزين القرآن بالصوت ج ٢ ص ١٧٩ ص ١٨٠ - وأبو داود في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة ج ٤ ص ١٥٥ رقم ١٤٦٨ وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها باب حسن الصوت بالقرآن حديث رقم ١٣٤٢

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل ج ٢ ص ٨٣ ، ص ٨٤ رقم ١٣٣٣ والترمذى في سننه في أبواب فضائل القرآن ج ٤ ص ٢٥٢ رقم ٣٠٨٦ وقال هذا حديث حسن غريب .

موافق لما تقدم تقريره في أول الفصل من التفصيل ، وأنه إن خاف بسبب الجهر شيئا مما يكره لم يجهر ، وإن لم يخف استخف الجهر ، فإن كانت القراءة من جماعة مجتمعين فأكد استحباب الجهر لما قدمناه ، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم والله أعلم .

### ( فصل في استحباب تحسين الصوت بالقراءة )

أجمع العلماء رضي الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة فنحن مستغنون عن نقل شيء من أفرادها ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة كحديث « زينوا القرآن بأصواتكم » وحديث « لقد أوق هذا زممارا » وحديث « ما أذن » وحديث « لله أشد أذنا » وقد تقدمت كلها في الفصل السابق ، وتقدم في فصل الترتيل حديث عبدالله بن مغفل في ترجيع النبي ﷺ القراءة ،

وكحديث سعد بن أبي وقاص ، وحديث أسامة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » رواه أبو داود بإسنادين جيدين وفي إسناد سعد اختلاف لا يضر . قال جمهور العلماء : معنى لم يتغن لم يحسن صوته .

وحديث البراء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قرأ في العشاء باليتين والزيتون ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه » رواه البخاري ومسلم (٢) .

قال العلماء رحمهم الله يستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها ما لم يخرج عن حد القراءة بالتخطيط ، فإن أفرط حتى زاد حرفا أو أخفاه فهو حرام . وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعي رحمه الله في موضع : أكرهها . قال أصحابنا لست على قولين بل فيه تفصيل . إن أفرط في التمثيط فجاوز الحد فهو الذي كرهه ، وإن لم يجاوز فهو الذي لم يكرهه .

وقال أفضى القضاة المارودي في كتاب الحاوي . القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو إخراج حركات منه أو قصر ممدود أو مقصور أو تمطيط يخفى به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام يفسق به القارئ ، ويأتى به المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم إلى الإعوجاج ، والله تعالى يقول : ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلمهم يتقون ﴾ (٣) قال : وإن لم يخرج اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحا لأنه زاد على ألحانه في تحسينه هذا كلام أفضى القضاة ، وهذا

(١) الزمر آية : ٢٨

(٢) أخرجه : أبو داود في سننه كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة حـ ص ١٥٧ رقم ١٤٧١

القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبة ابتلى بها بعض الجهلة الطغاة الغشمة الذين يقرءون على الجنائز وبعض المحافل ، وهذه بدعة محرمة ظاهرة يَأْثُمُ كل مستمع لها كما قاله أفضى القضاة الماوردي ، ويَأْثُمُ كل قادر على ازالته أو على النهي عنها إذا لم يفعل ذلك ، وقد بذلت فيها بعض قدرق وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لازالتها من هو أهل لذلك ، وأن يجعله في عافية .

قال الشافعي في مختصر المزني : ويحسن صوته بأى وجه كان . قال وأحب ما يقرأ حدرا وتخزيناً قال أهل اللغة : يقال حذرت بالقراءة إذا أدرجتها ولم تمططها ، ويقال فلان يقرأ بالتحزين إذا رقق صوته ، وقد روى ابن ابى داود بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يحزنها شبه الرثاء ، وفى سنن أبى داود قبل لابن ابى مليكة : رأيت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ فقال يحسنه ما استطاع .

### ( فصل : فى استحباب طلب القراءة الطيبة من حسن الصوت )

اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون ، وهذا متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدین وعباد الله الصالحين ، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، فقد صح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « اقرأ على القرآن ، فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إني أحب أن أسمع من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئناك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال حسبك الآن فالتفت إليه فاذا عيناه تذرفان » رواه البخارى ومسلم<sup>(١)</sup> .

والآثار فى هذا كثيرة معروفة ، وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة ، والله أعلم ، وقد استحَب العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبى ﷺ ويختم بقراءة قارئ حسن الصوت ماتي سر من القرآن .

ثم إنه ينبغى للقارئ فى هذه المواطن أن يقرأ ما يلىق بالمجلس ويناسبه ، وأن تكون قراءته فى آيات الرجاء والخوف والمواعظ والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة والتأهب لها وقصر الأمل ومكارم الأخلاق .

### ( فصل )

ينبغى للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يتبتدىء من أول الكلام المرتبط

(١) أخرجه : البخارى فى صحيحه ج٦ ص ٢٤١ ، ص ٢٤٢ ومسلم فى صحيحه ج١ ص ٥٥١ رقم ٢٤٧ / ٨٠٠ كتاب صلاة المسافرين وقصرها

بعضه ببعض وأن يقف على الكلام المرتبط ولا يتقيد بالاعشار والاجزاء فانها قد تكون في وسط الكلام المرتبط كالجزء الذى فى قوله تعالى : ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ وفى قوله : ﴿ وما أنزلنا على قومه من بعده من جند ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ وبدا لهم سينات ﴾ وفى قوله : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وكذلك الأحزاب كقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بخير من ذلكم ﴾ فكل هذا وشبيهه ينبغى ان يبتدأ به ولا يوقف عليه فإنه متعلق بما قبله ولا يقترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لا يراعون هذه الآداب ولا يفكرون فى هذه المعانى ، وامثل ما روى الحاكم ابو عبدالله باسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض رضى الله عنه . قال : لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها . ولا تقترن بكثرة الهالكين ولا يضرك قلة السالكين ، ولهذا المعنى قالت العلماء : قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة ، فانه قد يخفى الارتباط على بعض الناس فى بعض الأحوال .

### ( فصل : فى أحوال تكره فيها القراءة )

اعلم أن قراءة القرآن على الإطلاق مطلوبة إلا فى أحوال مخصوصة ، جاء الشرع بالنهى عن القراءة فيها ، وأنا أذكر الآن ما حضرنى منها مختصره بحذف الأدلة فانها مشهورة ، منكرة القراءة فى حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام ، وتكره القراءة بما زاد على الفائحة للمأموم فى الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام وتكره على الخلاء وفى مسألة النعاس ، وكذا إذا استعجم عليه القرآن ، وكذا فى حالة الخطبة لمن يسمعها ، ولا تكره لمن لم يسمعها بل تستحب ، هذا هو المختار الصحيح ، وجاء عن طاووس كراهيتها ، وعن ابراهيم عدم الكراهة ، ويجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلنا كما ذكره أصحابنا ، ولا تكره القراءة فى الطواف ، هذا مذهبنا وبه قال اكثر العلماء ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء ومجاهد وابن المبارك وأبى ثور وأصحاب الرأى ، وحكى عن الحسن البصرى وعروة بن الزبير ومالك كراهتها فى الطواف والصحيح الأول ، وقد تقدم بيان الاختلاف فى القراءة فى الحمام ، وفى الطريق ، وفيمن فيه نجس .

### ( فصل )

من البدع المنكرة فى القراءة ما يفعله جهلة المصلين بالناس فى التراويح من قراءة سورة الأنعام فى الركعة الأخيرة من الليلة السابعة معتقدون أنها مستحبة ، فيجمعون أموراً منكراً منها اعتقادها مستحبة ومنها إيهام العوام ذلك ومنها تطويل الركعة الثانية على الأولى ، وإنما السنة تطويل الأولى ومنها التطويل على المأمومين ، ومنها هندمة القراءة ، ومن البدع المشابهة لهذا قراءة بعض جهلتهم فى الصبح الجمعة بسجدة غير سجدة ألم تنزىل ، قاصداً ذلك ، وأما السنة قراءة ( ألم تنزىل ) فى الركعة الأولى ( وهل أتى ) فى الثانية .

## ( فصل : في مسائل غريبة تدعو الحاجة إليها )

منها اذا كان يقرأ فعرض له ريح فينبغي أن يمسك عن القراءة ، حين يتكامل خروجها ، ثم يعود الى القراءة ، كما رواه ابن أبي داود وغيره عن عطاء ، وهو أدب حسن ، ومنها أنه إذا ثأب أمسك عن القراءة حتى ينقضى الثأب ثم يقرأ ، قال مجاهد وهو حسن ، ويدل عليه ما ثبت عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا ثأب أحدكم فليمسك يده على فيه فإن الشيطان يدخل » رواه مسلم<sup>(١)</sup>

ومنها أنه إذا قرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيرَ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ ﴾<sup>(٢)</sup> ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾<sup>(٤)</sup> ونحو ذلك من الآيات ينبغي أن يخفض بها صوته ، كذا كان إبراهيم النخعي رضي الله عنه يفعل ، ومنها ما رواه ابن أبي داود باسناد ضعيف عن الشعبي أنه قيل له : إذا قرأ الإنسان ﴿ إِنْ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ يَصْلُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾<sup>(٥)</sup> يصلي على النبي ﷺ قال نعم ، ومنها أنه يستحب له أن يقول ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من قرأ التين والزيتون فقال : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » رواه أبو داود<sup>(٦)</sup> والترمذي باسناد ضعيف عن رجل عن أعرابي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال الترمذي : هذا الحديث إنما يروى بهذا الاسناد عن الاعرابي « من قرأ آخر ، لا أقسم بيوم القيامة ، ( أليس ذلك بقادر على أن يحیی الموت ) فليقل ، بلى ، ومن قرأ فبأى آلاء ربكما تكذبان ، أو فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل آمنت بالله » وعن ابن عباس رضي الله عنهما وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم أنهم كانوا إذا قرأ أحدهم ، سبح اسم ربك الأعلى ، قال سبحان ربى الأعلى ، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول فيها سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه صلى فقرأ : آخر سورة بنى اسرائيل ، ثم قال : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، وقد نص أصحابنا على أنه يستحب أن يقال فى الصلاة ما قدمناه ، وفى حديث أبي هريرة فى السور الثلاث ، وكذلك يستحب أن يقال باقى ما ذكرناه وما كان فى معناه والله أعلم .

(١) أخرجه : مسلم فى صحيحه كتاب الزهد والرفاق باب تسمت العاطس وكراهة الثأب ح ٤ ص ٢٢٩٣ رقم ٢٩٩٥/٥٧ وانظر حديث ٥٨ ، ٥٩

(٢) التوبة آية : ٣٠

(٣) المائدة آية : ٦٤

(٤) مريم آية : ٨٨

(٥) الاحزاب آية : ٥٦

(٦) أخرجه الترمذي فى سننه فى تفسير سورة التين والزيتون ح ٥ ص ١١٣ ، ص ١١٤ رقم ٣٤٠٥

## ( فصل )

وإذا ورد على القارئ من فيه فضيلة من علم أو شرف أو سن مع صبيانة ، أوله حرمة بولاية أو ولادة أو غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والاكرام لا للرياء والإعظام بل ذلك مستحب وقد ثبت القيام للاكرام من فعل النبي ﷺ وفعل أصحابه رضى الله عنهم بحضرته وبأمرة ، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين ، وقد جمعت جزءا في القيام وذكرته في الأحاديث والآثار الواردة باستحبابه وبالنهي عنه وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح والجواب عما يتوهم منه النهي وليس فيه نهى ، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى ، فمن تشكك في شيء من أحاديثه فليطالعه يجد مايزول من شكه إن شاء الله تعالى .

## ( فصل )

إذا كان يقرأ ماشيا فمر على قوم ، يستحب أن يقطع القراءة ويسلم عليهم ، ثم يرجع إلى القراءة ولو أعاد التعوذ كان حسنا ولو كان يقرأ جالسا فمر عليه غيره ، فقد قال الامام أبو الحسن الواحدى : الأولى ترك السلام على القارئ لاشتغاله بالتلاوة قال : فإن سلم عليه إنسان كفاه الرد بالإشارة ، قال : فإن أراد الرد باللفظ رده ، ثم استأنف الاستعاذة وعاود التلاوة ، وهذا الذى قاله ضعيف ، والظاهر وجوب الرد باللفظ . . وأما إذا عطس في حال القراءة فإنه يستحب أن يقول : الحمد لله ، وكذا لو كان في الصلاة ، ولو عطس غيره وهو يقرأ في غير الصلاة ، وقال الحمد لله يستحب للقارئ أن يشتمه فيقول : يرحمك الله ، ولو سمع المؤذن قطع القراءة ، وأجابه بمتابعته في ألفاظ الأذان والإقامة ، ثم يعود إلى قراءته . وهذا متفق عليه عند أصحابنا ، وأما إذا طلبت منه حاجة في حال القراءة وأسكنه جواب السائل بالإشارة المفهمة ، وعلم أنه لا ينكسر قلبه ، ولا يحصل عليه شيء من الأذى للأنس الذى بينها ونحوه ، فالأولى أن يجبه بالإشارة ولا يقطع القراءة ، فإن قطعها جاز والله أعلم .

## ( فصل )

( في أحكام نفيسة تتعلق بالقراءة في الصلاة أبا لغ فى اختصارها فإنها مشهورة فى كتب الفقه )

منها أنه يحب القراءة فى الصلاة المفروضة باجماع العلماء ، قال مالك والشافعى وأحمد وجاهير العلماء : تتعين قراءة الفاتحة فى كل ركعة . وقال أبو حنيفة وجماعة : لا تتعين الفاتحة أبدا قال ولا تجب قراءة الفاتحة فى الركعتين الأخيرتين والصواب الأول ، فقد تظاهرت عليها الأدلة من السنة ، وكيف من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من الحديث الصحيح « ولا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن » (١) .

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى بلفظ « لا تجزئ صلاة إلا بفاتحة الكتاب » ٢٨٠ ص ٣٨٠ وفى مجمع الزوائد للبيهقى عن عائشة رضى الله عنها ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهو خراج ، فهو خراج ، رواه الطبرانى فى الصغير ومنه لابن الميعه ، وفيه كلام ١١/١ »

وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة في ركعتي الصبح ، والأوليتين من باقى الصلوات وهل تطول الأولى على الثانية ؟ منها وجهان : أصحابهما عند جمهور أصحابنا أنها لاتطول ، والثانى وهو الصحيح عند المحققين أنها تطول ، وهو المختار للحديث الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطول فى الأولى مالا يطول فى الثانية »<sup>(١)</sup> وفائدته أن يدرك المتأخر الركعة الأولى ، والله أعلم

قال الشافعى رحمه الله : وإذا أدرك المسبوق مع الإمام الركعتين الأخيرتين من الظهر وغيرها ثم قام إلى الأتيان بما بقى عليه استحباب أن يقرأ السورة . قال الجماهير من أصحابنا : هذا على القولين . وقال بعضهم : هذا على قوله يقرأ السورة فى الأخيرتين ، أما على الآخر فلا ، والصواب الأول لثلاث تحلو صلاته من سورة والله أعلم . هذا حكم الإمام والمنفرد ، أما المأموم فإن كانت صلاته سرية وجبت عليه الفاتحة واستحب له السورة ، وإن كانت جهرية فإن كان يسمع قراءة الإمام كره له قراءة السورة ، فى وجوب الفاتحة قولان : أصحابهما تحب ، والثانى لاتحب . وإن كان لا يسمع القراءة فالصحيح وجوب الفاتحة واستحباب السورة ، وقيل تحب ، ولاتحب ولاتستحب السورة ، والله أعلم .

وقراءة الفاتحة فى صلاة النافلة فلا بد منها .

والعاجز عن الفاتحة فى هذا كله يأتى بيدها فيقرأ بقدرها من غيرها من القرآن ، فإن لم يحسن أتى بقدرها من الأذكار كالنسيح والتهليل ونحوهما ، فإن لم يحسن شيئا وقف بقدر القراءة والله اعلم .

## (فصل)

لا بأس بالجمع بين سورتين فى ركعة واحدة ، فقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرب بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين فى ركعة ، وقد قدمنا عن جماعة من السلف قراءة الختمة فى ركعة واحدة .

## (فصل)

أجمع المسلمون على استحباب الجهر بالقراءة فى الصبح والجمعة والعيدىن ، والأوليتين من المغرب والعشاء ، وفى صلاة التراويح والوتر عقبها ، وهذا مستحب للإمام والمنفرد بما يتفرد به منها ، وأما المأموم فلا يجهر بالاجماع ، ويسن الجهر فى صلاة كسوف القمر ، ولا يجهر فى كسوف الشمس ، ويجهر فى الاستسقاء ، ولا يجهر فى الجنائزة إذا صليت بالنهار ، وكذا فى الليل على المذهب الصحيح المختار ، ولا يجهر فى نوافل النهار غير ما ذكرناه من العيد والاستسقاء ، واختلف أصحابنا فى نوافل الليل ، فالأظهر أنه

(١) أخرجه البيهقى فى سننه بلفظ « كان يطول فى الركعة الأولى ، ويقصر فى الثانية » ح ٢ ص ٩٥ .

وفى البخارى بمعناه فى صلاة الظهر ١٩٨/١ وفى مسلم فى الصلاة رقم ١٥٤



لا يجهر ، والثاني أنه يجهر ، والثالث وهو الأصح وبه قطع القاضى حسين والنبغوى يقرأ بين الجهر والإسرار ، ولو فاتته صلاة بالليل فقضاها بالنهار ، أو بالنهار فقضاها بالليل ، فهل يعتبر في الجهر والإسرار وقت القوات أم وقت القضاء ؟ فيه وجهان لأصحابنا : أظهرها الاعتبار بوقت القضاء ولو جهر في موضع الأسرار أو أسر في موضع الجهر ، فصلاته صحيحة ، ولكنه ارتكب المكروه ولا يسجد للسهو .

واعلم أن الإسرار في القراءة والتكبيرات وغيرها من الأذكار ، هو أن يقوله بحيث يسمع نفسه ، ولا بد من نطقه بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ولا عارض له ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح قراءته ، ولا غيرها من الأذكار بلا خلاف .

### ( فصل )

قال أصحابنا : يستحب للإمام في الصلاة الجهرية أن يسكت أربع سكتات في حال القيام ، أحداها أن يسكت بعد تكبيرة الإحرام ليقرأ دعاء التوجه ، وليحرم المأمومون ، والثانية سكتة لطيفة جدا بين آخر الفاتحة وبين آمين ، لثلاث يتوهم أن آمين من الفاتحة ، والثالثة بعد آمين سكتة طويلة بحيث يقرأ المأمومون الفاتحة ، والرابعة بعد الفراغ من السورة يفصل بها بين القراءة وتكبير الهوى إلى الركوع .

### ( فصل )

يستحب لكل قارئ كان في الصلاة أو في غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول آمين ، والأحاديث بذلك مشهورة ، وقد قدمنا في الفصل قبله أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة وآمين بسكتة لطيفة ، ومعناها اللهم استجب .

وفي آمين لغات ، قال العلماء : أنصحها آمين بالمد وتخفيف الميم ، والثانية بالقصر ، وهاتان مشهورتان ، والثالثة آمين بالامالة مع المد حكاهما الواحدى عن حمزة والكسائى ، والرابعة بتشديد الميم مع المد ، حكاهما عن الحسن والحسين بن الفضيل قال : ويحقق ذلك ماروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، قال : معناه قاصدين نحوك ، وأنت أكرم من أن تخيب قاصدا ، هذا كلام الواحدى ، وهذه الرابعة غريبة جدا ، فقد عدها أكثر أهل اللغة من لحن العوام ، وقال جماعة من أصحابنا : من قالها في الصلاة بطلت صلاته ، قال أهل العربية : حقها في العربية الوقف ، لأنها بمنزلة الأصوات فاذا وصلها فتح النون لالتقاء الساكنين كما فتحت في ابن وكيف فلم تكسر لثقل الكسرة بعد الياء فهذا مختصر مما يتعلق بلفظ آمين .

قال العلماء : ويستحب التأمين في الصلاة للإمام والمأموم والمنفرد ، ويجهر الإمام والمنفرد بلفظ آمين في الصلاة الجهرية . . . واختلفوا في جهر المأموم والصحيح أنه يجهر ، والثاني : لا يجهر والثالث يجهر إن كان جمعا كثيرا وإلا فلا ، ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام ، لا قبله ولا بعده ، لقول النبى ﷺ في الصحيح

« إذا قال الإمام ولا الضالين فقولوا : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ماتقدم من ذنبه »<sup>(١)</sup> وأما قوله ﷺ في الصحيح « إذا أمن الإمام فأمنوا »<sup>(٢)</sup> فمعناه إذا أراد التأمين قال أصحابنا وليس في الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا في قوله آمين ، وأما في الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم .

### ( فصل في سجود التلاوة )

وهو مما يتأكد الاعتناء به ، فقد أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة ، واختلفوا في أنه أمر استحباب أم إيجاب فقال الجماهير ليس بواجب بل مستحب وهذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن عباس وعمران بن حصين ومالك والأوزاعي والشافعي وأحمد واسحق وأبي ثور وداد وغيرهم ، وقال أبو حنيفة رحمه الله هو واجب واحتج بقوله تعالى : ﴿ فمالم لا يؤمنون وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ﴾<sup>(٣)</sup> واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى إذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى جاء السجدة قال : يا أيها الناس انما أمرنا بالسجود فمن سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلا إثم عليه . ولم يسجد عمر » رواه البخارى<sup>(٤)</sup> وهذا بالفعل والقول عن عمر رضى الله عنه في هذا المجمع دليل ظاهر ، وأما الجواب عن الآية التي احتج بها أبو حنيفة رضى الله عنه فظاهر ، لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبا كما قال تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ وثبت في الصحيحين أنه قرأ على النبي ﷺ والنجم فلم يسجد » وثبت في الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم سجد في النجم » فدل على أنه ليس بواجب<sup>(٥)</sup> .

### ( فصل : في بيان عدد السجودات ومحلها )

أما عددها المختار الذي قاله الشافعي رحمه الله والجماهير أنها أربع عشر سجدة ، في الأعراف ، والرعد ، والنحل ، وسبحان ، ومريم ، وفي الحج سجدتان ، وفي الفرقان والنمل وألم تنزيل ، وحمل

(١) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٨/١ وأبو داود رقم ٩٣٥ والنسائي ١٤٤/٢ وأحمد ٢٧٠/٢ والدرامى ٢٨٤/١ وغيرهم عن ابن هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه ١٨٧/١ ومسلم في صحيحه ( كتاب الصلاة ) رقم ٧٢ وأبو داود في سننه رقم ٩٣٦ والترمذى في جامعه الصحيح برقم ٢٥٠ والنسائي في سننه ١٤٤/٢ وابن ماجه في سننه برقم ٨٥٢ .

(٣) الانشقاق الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

(٤) أخرجه البخارى في صحيحه في ( كتاب الجمعة ) باب ما جاء في سجود القرآن وستنها : باب من رأى أن الله عز وجل لم يوجب السجود ٥٢/٢ .

(٥) أخرجه البخارى في صحيحه ( ما جاء في سجود القرآن وستنها ) باب من قرأ السجدة ولم يسجد ٥١/٢ . وأما سجوده صلى الله عليه وسلم - في النجم فقد رواه البخارى في نفس المصدر عن عبدالله بن عمر رضى الله عنها ٥١ ، ٥٠/٢ .

السجدة ، والنجم ( وإذا السماء انشقت ) ، وقرأ باسم ربك ، وأما سجدة ص فمستحبة ، فليست من عزائم السجود : أى متأكد أنه ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : هى ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت النبى ﷺ سجد فيها « هذا مذهب الشافعى ومن قال مثله ، وقال أبوحنيفة . هى أربع عشرة أيضا ، لكن سقط الثانية من الحج واثبت سجدة ص وجعلها من العزائم ، وعن أحمد روايتان : إحداهما كالشافعى . . والثانية خمس عشرة زاد ص ، وهو قول أبى العباس ابن شريح وابى اسحق المروزى من أصحاب الشافعى ، وعن مالك روايتان : إحداهما كالشافعى وأشهرها إحدى عشرة ، - أسقط النجم ، وإذا السماء انشقت ، وقرأ ، وهو قول قديم للشافعى ، والصحيح ماقدمناه .

وأما محلها فسجدة الأعراف فى آخرها ، والرعد عقيب قوله عزوجل ﴿ بالغدو والآصال ﴾ والنحل ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ وفى سبحانه ﴿ ويزيدهم خشوعا ﴾ وفى مريم ﴿ خروا سجدا وبكيا ﴾ والأولى من سجدت الحج ﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ ، والثانية ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ ، والفرقان ﴿ وزادهم نفورا ﴾ ، والنمل ﴿ رب العرش العظيم ﴾ ، وآلم تنزيل ﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ وحج ﴿ لا يسأمون ﴾ ، والنجم فى آخرها ، وإذا السماء انشقت ﴿ لا يسجدون ﴾ وقرأ فى آخرها . .

## ( فصل )

حكم سجود التلاوة حكم صلاة النافلة فى اشتراط الطهارة من الحدث ، ومن النجاسة ، وفى استقباله القبلة ، وستر العورة ، فتحرم على من بيده أو ثوبه نجاسة غير معفو عنها ، وعلى المحدث إلا إذا يتيمم فى موضع يجوز فيه التيمم ، وتحرم إلى غير القبلة إلا فى السفر حيث تجوز النافلة إلى غير القبلة ، وهذا كله متفق عليه .

## ( فصل : فيمن يسن له السجود )

أعلم أنه يسن للقارئ المطهر بالماء أو التراب حيث يجوز سواء كان فى الصلاة أو خارجا عنها ، ويسن للمستمع ويسن أيضا للسامع غير المستمع ، ولكن قال الشافعى : لا يؤكد فى حقه كما يؤكد فى حق المستمع ، وهذا هو الصحيح .

وقال إمام الحرمين من أصحابنا : لا يسجد السامع والمشهور الأول وسواء كان القارئ فى الصلاة أو خارجا عنها يسن للسامع والمستمع السجود ، وسواء سجد القارئ أم لا هذا هو الصحيح المشهور عند أصحاب الشافعى لا يسجد المستمع لقراءة من فى الصلاة ، وقال الصيدلانى من أصحاب الشافعى : لا يسن السجود إلا أن يسجد القارئ والصواب الأول .

## ( فصل )

إن كان مصليا منفردا سجد لقراءة نفسه ، فلو ترك سجود التلاوة وركع ، ثم أراد أن يسجد للتلاوة لم يجوز ، فإن فعل مع العلم بطلت صلاته ، وإن كان قد هوى لسجود التلاوة ثم بدأ له ورجع الى القيام جاز ، اما اذا اصغى المنفرد بالصلاة لقراءة قارىء في الصلاة أو غيرها فلا يجوز له أن يسجد ، ولو سجد مع العلم بطلت صلاته . أما المصلى في جماعة ، فإن كان إماما فهو كالمنفرد ، وإذا سجد الإمام لتلاوة نفسه وجب على المأموم أن يسجد معه فإن لم يفعل بطلت صلاته ، فإن لم يسجد الإمام لم يجوز للمأموم السجود فإن سجد بطلت صلاته ، ولكن يستحب أن يسجد إذا فرغ من الصلاة ولا يتأكد ولو سجد الإمام ولم يعلم المأموم حتى رفع الإمام رأسه من السجود ، فهو معذور في تخلفه ، ولا يجوز أن يسجد ، ولو علم والإمام بعد في السجود وجب السجود ، فلو هوى إلى السجود فرفع الإمام رأسه وهو في الهوى ، يرفع معه ولم يجوز السجود وكذا الضعيف الذى هوى مع الإمام إذا رفع الإمام قبل بلوغ الضعيف إلى السجود الامام وبطء المأموم يرجع معه ولا يسجد ، وأما إن كان المصلى مأموما فلا يجوز ان يسجد لقراءة نفسه ولا لقراءة غير إمامه فان سجد بطلت صلاته ، وتكره له قراءة غير إمامه .

## ( فصل : في وقت السجود للتلاوة )

قال العلماء : ينبغي أن يقع عقيب آية السجود التى قرأها أو سمعها ، فان أخر ولم يطل الفصل سجد ، وإن طال فقد فات السجود ، فلا يقضى على المذهب الصحيح المشهور ، كما لا تقضى صلاة الكسوف ، أما إذا كان القارىء أو المستمع محدثا عند تلاوة السجدة ، فإن تطهر عن قرب سجد وإن تأخر طهارته حتى طال الفصل ، فالصحيح المختار الذى قطع به الأكثرون أنه لا يسجد ، وقيل يسجد ، وهو اختيار البقوى من أصحابنا ، كما يجب المؤذن بعد الفراغ من الصلاة ، والاعتبار في طول الفصل في هذا بالعرف على المختار ، والله أعلم .

## ( فصل )

إذا قرأ السجديات كلها أو سجديات منها في مجلس واحد سجد لكل سجدة بلاخلاف ، فان كرر الآية الواحدة في مجالس سجد لكل مرة بلاخلاف ، فان كررها في المجلس الواحد نظر فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع ، وإن سجد للأولى ففيه ثلاثة أوجه . أصحها يسجد لكل مرة سجدة ، لتجدد السبب بعد توفيه حكم الأول والثاني : يكفيه سجدة الأولى عن الجميع ، وهو قول ابن سريج ، وهو مذهب أبي حنيفة رحمه الله .

قال صال صاحب العدة من أصحابنا ، وعليه الفتوى ، واختاره الشيخ نصر المقدسى الزاهد من

أصحابنا ، والثالث إن طال الفصل سجد ، والا فتكفيه الأولى ، أما إذا كرر السجدة الواحدة في الصلاة ، فإن كان في ركعة فهي كالمجلس الواحد ، فيكون فيه الأوجه الثلاثة ، وإن كان في ركعتين فكالمجلسين فيعيد السجود بلا خلاف .

## ( فصل )

إذا قرأ آية السجدة في الصلاة قبل الفاتحة ، سجد بخلاف ما إذا قرأ في الركوع أو السجود ، فإنه لا يجوز أن يسجد ، لأن القيام محل القراءة ، ولو قرأ السجدة فهو ليسجد ، فشك هل قرأ الفاتحة ، فإنه يسجد للتلاوة ، ثم يعود إلى القيام فيقرأ الفاتحة ، لأن سجود التلاوة لا يؤخر .

## ( فصل )

لا يكره قراءة آية السجدة للإمام عندنا ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد إذا قرأها ، وقال مالك يكره ذلك مطلقا ، وقال أبو حنيفة يكره في السرية دون الجهرية .

## ( فصل )

لا يكره عندنا سجود التلاوة في الأوقات التي نهى عن الصلاة فيها ، وبه قال الشعبي والحسن البصري وسالم بن عبدالله والقاسم وعطاء وعكرمة وأبو حنيفة وأصحاب الرأي ومالك في إحدى الروايتين ، وكرهت ذلك طائفة من العلماء منهم عبدالله بن عمرو سعيد بن المسيب ومالك في الرواية الأخرى واسحق ابن راهويه وأبو ثور

## ( فصل )

لا يقوم الركوع مقام سجدة التلاوة في حال الاختيار ، وهذا مذهبنا ومذهب جماهير العلماء من السلف والخلف ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : يقوم مقامه ، ودليل الجمهور القياس على سجود الصلاة ، العاجز عن السجود فيوميء إليه كما يوميء لسجود الصلاة .

## ( فصل : في صفة السجود )

أعلم أن الساجد للتلاوة له حالان : أحدهما أن يكون خارج الصلاة ، والثاني أن يكون فيها ، أما الأول فإن أراد السجود نوى سجود التلاوة وكبر للأحرام ورفع يديه حذو منكبيه ، كما يفعل في تكبيرة الاحرام للصلاة ، ثم يكبر تكبيرة أخرى للهوى إلى السجود ، ولا يرفع فيها اليد ، وهذه التكبيرة الثانية

مستحبة ليست بشرط كتكبيرة الصلاة ، وأما التكبيرة الأولى تكبيرة الأحرام ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا : أظهرها وهو قول الأكثرية منهم أنها ركن ولا يصح السجود إلا بها ، والثاني أنها مستحبة ، ولو تركت صح السجود ، وهذا قول الشيخ أبي محمد الجويني ، والثالث ليست مستحبة ، والله أعلم . ثم إن كان الذي يريد السجود قائما كبر للأحرام في حال قيامه ، ثم يكبر للسجود في انحطاطه إلى السجود ، وإن كان جالسا فقد قال جماعات من أصحابنا : يستحب له أن يقوم ، فيكبر للأحرام قائما ، ثم يهوى للسجود ، كما إذا كان في الابتداء قائما ، ودليل هذا القياس على الإحرام والسجود في الصلاة ، ومن نص على هذا وجزم به من أئمة أصحابنا الشيخ أبو محمد الجويني والقاضي حسين وصاحباه (النقمة والتهديب) والإمام المحقق أبو القاسم الرافعي وحكاه إمام الحرمين عن والده الشيخ أبي محمد ، ثم أنكره وقال لم أر لهذا أصلا ولا ذكر ، وهذا الذي قاله إمام الحرمين ظاهر فلم يثبت فيه شيء من النبي ﷺ ولا عمن يقتدى به من السلف ولا تعرض له الجمهور من أصحابنا ، والله أعلم .

إذا سجد فينبغي أن يراعى آداب السجود في الهيئة والتسبيح ، أما الهيئة فينبغي أن يضع يديه حذو منكبيه على الأرض ، ويضم أصابعه وينشرها إلى جهة القبلة ، ويخرجها من كفه ، ويباشر المصلى بها ، ويحافى مرفقيه عن جنبه ، ويرفع بطنه عن فخذه إن كان رجلا ، فإن كانت امرأة أوختى لم يجاف ، ويرفع الساجد أسافله على رأسه ، ويمكن جبهته وأنفه من المصلى ، ويطمئن في سجوده ، وأما التسبيح في السجود ، فقال أصحابنا يسبح بما يسبح به في سجود الصلاة ، فيقول ثلاث مرات سبحان رب الأعلى ، ثم يقول : اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته تبارك الله أحسن الخالقين ، ويقول : سبح قدوس رب الملائكة والروح ، فهذا كله مما يقوله المصلى في سجود الصلاة ، قالوا : ويستحب أن يقول : اللهم اكتب لي بها عندك أجرا واجعلها لي عندك ذخرا وضع عني وزرا واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود ﷺ ، وهذا الدعاء خصيص بهذا السجود ، فينبغي أن يحافظ عليه ، وذكر الاستاذ اسماعيل الضرير في كتابه (التفسير) أن اختيار الشافعي رضي الله عنه في دعاء سجود التلاوة أن يقول (سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا النقل عن الشافعي غريب جدا ، وهو حسن ، فإن ظاهر القرآن ، يقتضي مدح قائله في السجود ، فيستحب أن يجمع بين هذه الأذكار كلها ، ويدعو بما يريد من أمور الآخرة والدنيا ، وإن اقتصر على بعضها ، حصل أصل التسبيح ، ولو لم يسبح بشيء أصلا وحصل السجود كسجود الصلاة ، ثم إذا فرغ من التسبيح والدعاء رفع رأسه مكبرا وهل يفتقر إلى السلام ؟ فيه قولان منصوصان للشافعي مشهوران : أصحهما عند جماهير أصحابنا أنه يفتقر لافتقاره إلى الأحرام ، ويصير كصلاة الجنائز ، ويؤيد هذا مارواه ابن أبي داود بإسناده الصحيح عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان إذا قرأ السورة سجد ثم سلم ، والثاني لا يفتقر كسجود التلاوة في الصلاة ولأنه لم ينقل عن النبي ﷺ ذلك ، فعلى الأول هل يفتقر إلى التشهد ؟ فيه وجهان : أصحهما لا يفتقر كما لا يفتقر إلى القيام وبعض أصحابنا يجمع بين المسألتين ويقول في التشهد والسلام ثلاثة أوجه ، أصحهما أنه لا بد من السلام دون التشهد ، والثاني لا يحتاج إلى واحد منهما ، والثالث

لا بد منها ، ومن قال من السلف يسلم محمد بن سيرين وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو الأخص وأبو قلابه وإسحاق ابن راهوية ، ومن قال لا يسلم الحسن البصري وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي ويحيى بن وثاب وأحمد ، وهذا كله في الحال الأول وهو السجود خارج الصلاة ، والحال الثاني أن يسجد للتلاوة في الصلاة ، فلا يكبر للآحرام ، ويستحب أن يكبر للسجود ، ولا يرفع يديه ، ويكبر للرفع من السجود ، هذا هو الصحيح المشهور الذي قاله الجمهور .

وأما الآداب في هيئة السجود والتسبيح فعلى ما تقدم في السجود خارج الصلاة ، إلا أنه إذا كان الساجد إماماً ، فينبغي أن لا يطول التسبيح ، إلا أن يعلم من حال المأمومين أنهم يؤثرون التطويل ، ثم إذا رفع من السجود قام ولا يجلس للاستراحة بلا خلاف ، وهذه مسألة غريبة قل من نص عليها ، ومن نص عليها القاضي حسين واليغوى والرافعي .

هذا بخلاف سجود الصلاة ، فإن القول الصحيح المنصوص للشافعي المختار وغيره ، استحباب جلسته للاستراحة عقب السجدة الثانية من الركعة الأولى في كل الصلوات ، ومن الثالثة في الرباعيات ، ثم إذا رفع من سجدة التلاوة ، فلا بد من الانتصاب قائماً ، والمستحب إذا انتصب أن يقرأ شيئاً ، ثم يركع ، فإن انتصب ثم ركع من غير قراءة جاز .

### ( فصل : في الأوقات المختارة للقراءة )

اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة ، ومذهب الشافعي وغيره ، أن تطويل القيام في الصلاة أفضل من تطويل السجود وغيره ، وأما القراءة في غير الصلاة ، فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير من الليل أفضلها من النصف الأول ، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأما القراءة في النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهية في القراءة في وقت من الأوقات لمعنى فيه ، وأما ما رواه ابن أبي داود عن معاذ بن رفاعه عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا هي دراسة اليهود ، فغير مقبول ولا أصل له ، ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة ، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة . ومن الشهور رمضان .

### ( فصل )

إذا ارتج على القارئ ولم يدر ما بعد الموضع الذي انتهى إليه ، فسأل عنه غيره ، فينبغي أن يتأدب بما جاء عن عبد الله بن مسعود وإبراهيم النخعي وبشير بن أبي سعود رضى الله عنهم . قالوا : إذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرأ ما قبلها ثم يسكت ولا يقول كيف كذا وكذا فإنه يلبس عليه .

## ( فصل )

واذا أراد أن يستدل بآية فله أن يقول : قال الله تعالى كذا ، وله أن يقول : الله تعالى يقول كذا ، ولا كراهة في شيء من هذا ، ، هذا هو الصحيح المختار الذى عليه عمل السلف والخلف .

## ( فصل فى آداب الختم وما يتعلق به )

فيه مسائل : الأولى فى وقفه ، قد تقدم أن الختم للقارىء وحده يستحب أن يكون فى ركعتى سنة الفجر وركعتى سنة المغرب ، وفى ركعتى الفجر أفضل ، وأنه يستحب أن يختم ختمه فى أول النهار فى دور ، ويختم ختمه أخرى فى آخر النهار فى دور آخر ، وأما من يختم فى غير الصلاة والجماعة الذين يختمون مجتمعين ، فيستحب أن تكون ختمتهم أول النهار أو فى أول الليل كما تقدم ، وأول النهار أفضل عند بعض العلماء .

المسألة الثانية : يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه ، وقد روى ابن ابى داود باسناده الصحيح : أن طلحة بن مطرف وحبيب بن أبى ثابت والمسيب بن رافع التابعين الكوفيين رضى الله عنهم أجمعين كانوا يصبحون فى اليوم الذى يختمون فيه القرآن صياما .

المسألة الثالثة : يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابا متأكدا ، فقد ثبت فى الصحيحين « أن رسول الله ﷺ أمر الخيضر بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين »<sup>(١)</sup> وروى الدارمى وابن أبى داود باسنادهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه كان يجعل رجلا يراقب رجلا يقرأ القرآن . فإذا أراد أن يختم أعلم ابن عباس فيشهد ذلك . وروى ابن ابى داود باسنادين صحيحين عن قتادة التابعى الجليل صاحب أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال كان أنس بن مالك رضى الله عنه إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وروى باسانيده الصحيحة عن الحكم بن عيينة التابعى الجليل . قال : أرسل إلى مجاهد وعتبة بن لبابة فقالا إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وفى بعض الروايات الصحيحة وأنه كان يقال : إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن .

وروى باسناده الصحيح عن مجاهد قال : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون تنزل الرحمة .

المسألة الرابعة : الدعاء مستحب عقب الختم استحبابا متأكدا ، لما ذكرناه فى المسألة التى قبلها ، وروى الدارمى باسناده عن حميد الأعرج من قرأ القرآن ثم دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك ، وينبغى أن يلح فى الدعاء ، وأن يدعو بالأمر المهمة ، وأن يكثر فى ذلك فى صلاح المسلمين وصلاح سلطانهم وسائر ولاية أمورهم ، وقد روى الحاكم أبو عبد الله النيسابورى باسناده أن عبد الله بن المبارك رضى الله عنه

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى ( صلاة العيدين والتجمل فيها ) ٢/٢٨ عن أم عطية وأخرجه مسلم فى صحيحه ( كتاب صلاة العيدين ) باب ذكر اباحة خروج النساء فى العيدين الى المصل وشهود الخطبة .. الخ ١/٦٥٥ رقم ٨٩٠/١٠



كان إذا ختم القرآن ، كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وقد قال نحو ذلك غيره فيختاره الداعي الدعوات الجامعة كقوله : اللهم اصلح قلوبنا ، وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنى ، وزينا بالتقوى ، وأجمع لنا خير الآخرة والأولى ، وارزقنا طاعتك ما أبقيتنا ، اللهم يسرنا لليسرى ، وجنبنا العسرى ، وأعدنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأعدنا من عذاب النار وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، اللهم انا نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى ، اللهم إنا نستودعك ديننا وأبداننا وخواتيم أعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين ، وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في دار كرامتك بفضلك ورحمتك ، اللهم أصلح ولاية المسلمين ، ووقفهم للعدل في رعاياهم ، والإحسان إليهم ، والشفقة عليهم ، والرفق بهم والاعتناء بمصالحهم ، وحببهم إلى الرعية ، وحبب الرعية إليهم ، ووقفهم لصراطك المستقيم ، والعمل بوظائف دينك القويم ، اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم ، وأمنهم في أوطانهم واقض ديونهم ، وعاف مرضاهم وانصر جيوشهم ، وسلم غياهم ، وفك أسرهم ، واشف صدورهم ، واذهب غيظ قلوبهم ، وألف بينهم واجعل في قلوبهم الإيمان والحكمة الذي عاهدتم عليه ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، إله الحق ، واجعلنا منهم ، اللهم اجعلهم آمرين بالمعروف ، فاعلين له ، ناهين عن المنكر مجتنبين له ، محافظين على حدودك ، قائمين على طاعتك متناصفين متناصحين ، اللهم صفهم في أقوالهم وأفعالهم ، وبارك لهم في جميع أحوالهم ويفتح دعاءه ويختمه بقوله : الحمد لله رب العالمين حمدا يوافي نعمه ، ويكافي مزيده ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين انك حميد مجيد .

المسألة الخامسة : يستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب الختمة فقد استحبه السلف ، واحتجوا فيه بحديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خير الأعمال الحل والرحلة ، قيل : وماهما ؟ قال : افتتاح القرآن وختمه » (١) .

## الباب السابع في آداب الناس كلهم مع القرآن

ثبت في صحيح مسلم رضي الله عنه عن تميم الداري رضي الله عنه قال : « إن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » <sup>(١)</sup> قال العلماء رحمهم الله : النصيحة لكتاب الله تعالى هي : الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله الخلق بأسرهم ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها ، والخشوع عندها ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاغين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وامثاله ، والاعتناء بمواعظه ، والتفكير في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم بمتشابهه والبحث عن عموميه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرناه من نصيحته .

### ( فصل )

أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته وأجمعوا على أن من جحد منه حرفاً مما أجمع عليه أو زاد حرفاً لم يقرأ به أحد ، وهو عالم بذلك ، فهو كافر . قال الإمام الحافظ أبو الفضل القاضي عياض رحمه الله : اعلم أن من استخف بالقرآن ، أو بالمصحف ، أو بشيء منه ، أو سبها ، أو جحد حرفاً منه أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت مانعاً ، أو نفى ما أثبت ، وهو عالم بذلك ، أو يشك في شيء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين ، وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل ، أو كتب الله المنزلة ، أو كفر بها ، أو سبها ، أو استخف بها ، فهو كافر .

قال : وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو في الأقطار المكتوب في المصحف ، الذي بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول الحمد لله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس ، كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد - ﷺ - وأن جميع ما فيه حق ، وأن من نقص منه حرفاً قاصداً لذلك ، أو بدله زاد فيه حرفاً قاصداً لذلك ، أو بدله بحرف آخر مكانه ، أو زاد فيه حرفاً مما لم يشتمل عليه المصحف ، الذي وقع فيه الإجماع وأجمع على أنه ليس بقرآن عامداً لكل هذا ، فهو كافر . قال أبو عثمان بن الحذاء ، جميع أهل التوحيد متفقون على أن الجحد بحرف من القرآن كفر ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرء أحد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءته وإقرانه بشواذ من الحروف مما ليس في المصحف ، وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة سجلاً شهدوا فيه على نفسه في مجلس الوزير أبي بن مقله سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وأفتى محمد بن أبي زيد فيمن قال لصبي : لعن الله معلمك وما علمك ، قال : أردت سوى الأدب ولم أرد القرآن قال يؤدب القائل .

قال : وأما من لعن المصحف فإنه يقتل هذا آخر كلام القاضى عياض رحمه الله .

## ( فصل )

ويحرم تفسيره بغير علم ، والكلام فى معانيه لمن ليس من أهلها ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والإجماع منعقد عليه ، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن والإجماع منعقد عليه ، فمن كان أهلاً للتفسير ، جامعاً للأدوات التى يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد ، فسرهُ إن كان مما يدرك بالاجتهاد ، كالمعانى والأحكام الجلية والخفية ، والعموم والخصوص ، والإعراب ، وغير ذلك ، وإن كان مما لا يدرك بالاجتهاد ، كالأمور التى طريقها النقل ، وتفسير الألفاظ اللغوية ، فلا يجوز الكلام فيه ، إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله ، وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته ، فحرام عليه التفسير ، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله .

ثم المفسونون برأيهم من غير دليل صحيح أقسام ، منهم من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خطره مع أنه لا يغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية ، وإنما يقصد الظهور على خصمه ، ومنهم من يقصد الدعاء إلى خير ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله ، ومنهم من يفسر الفاظه العربية ، من غير وقوف على معانيها عند أهلها ، وهى مما لا يؤخذ إلا بالسماع من أهل العربية وأهل التفسير ، كبيان معنى اللفظ وإعرابها ومافيها من الحذف والاختصار ، والإضمار والحقيقة والمجاز ، والعموم والخصوص ، والتقديم والتأخير ، والإجمال والبيان وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر ، ولا يكفى مع ذلك معرفة العربية وحدها ، بل لابد معها من معرفة ما قاله أهل التفسير فيها ، فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر ، أو على إرادة الخصوص ، أو الاخبار وغير ذلك ، مما هو خلاف الظاهر ، وكما إذا كان اللفظ مشتركاً فى معان ، فعلم فى موضع أن المراد أحد المعانى ، ثم فسر كل ما جاء به ، فهذا كله تفسير بالرأى ، وهو حرام ، والله اعلم ..

## ( فصل )

يحرم المراءى فى القرآن والجدال فيه بغير حق ، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شيء ، يخالف مذهبه ، ويحتمل احتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه ، فيجملها على مذهبه ، وينظر على ذلك مع ظهورها فى خلاف ما يقول . وأما من لا يظهر له ذلك فهو معذور ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « المراءى فى القرآن كفر »<sup>(١)</sup> قال الخطايبى المراد بالمراءى الشك . وقيل : الجدال المشكك فيه ، وقيل وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء فى آيات القدر ونحوها .

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب السنة) باب النهى عن الجدال فى القرآن ٩/٥ رقم ٤٦٠٣

وأحمد فى مسنده ٣٠٠/٢ والبيهقى فى مجمع الزوائد ١٥٧/١

## (فصل)

وينبغي لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية في المصحف ، أو مناسبة هذه الآية في هذا الموضع ، ونحو ذلك ، أن يقول : مالحكمة في كذا .

## (فصل)

يكراه أن يقول نسيت آية كذا ، بل يقول أنسيته أو أسقطتها ، فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا ، بل هو شيء » وفي رواية في الصحيحين أيضا « بشما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسي » وثبت في الصحيحين أيضا عن عائشة رضي الله عنها « أن النبي ﷺ سمع رجلا يقرأ فقال : « رحمه الله لقد ذكرني آية كنت أسقطتها » وفي رواية في الصحيح « كنت أنسيته »<sup>(١)</sup> .

## (فصل)

ومجوز أن يقال سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام ، وكذا الباقي ولا كراهية في ذلك ، وكراهية بعض المتقدمين هذا وقال : يقال السورة التي يذكر فيها آل عمران ، والسورة التي يذكر فيها النساء ، وكذا البواقي ، والصواب الأول ، فقد ثبت في الصحيحين عند رسول الله ﷺ قوله سورة البقرة وسورة الكهف وغيرها مما لا يحصى ، وكذلك من الصحابة رضي الله تعالى عنهم . قال ابن مسعود ، هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة وعنه في الصحيحين « قرأنا على رسول الله ﷺ سورة النساء » والأحاديث وأقوال السلف في هذا أكثر من أن تحصر .

## (فصل)

ولا يكره أن يقال هذا ، قراءة أبي عمرو أو قراءة نافع أو حمزة أو الكسائي أو غيرهم ، هذا هو المختار الذي عليه السلف والخلف من غير إنكار .

## (فصل)

لا يمنع الكافر من سماع القرآن لقول الله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾<sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٩١/٨ بنحوه ومسلم في صحيحه في ( صلاة المسافرين وقصرها ) ح ١ ص ٥٤٣ رقم ٧٨٨/٢٢٥

(٢) سورة التوبة آية : ٦

ويمنع من مس المصحف ، وهل يجوز تعليمه القرآن ، قال أصحابنا : إن كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه وإن رجي إسلامه فوجهان : أحدهما يجوز رجاء إسلامه ، والثاني لا يجوز ، كما لا يجوز بيع المصحف منه وإن رجي إسلامه ، وأما إذا رأيناه يتعلم فهل يمنع فيه وجهان .

### ( فصل )

اختلف العلماء في كتابة القرآن في إناء ثم يغسل ويسقى المريض ، فقال الحسن ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعي لا بأس به ، وكرهه النخعي . قال القاضي حسين والبنغوي وغيرهما من أصحابنا ولو كتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة فلا بأس بأكلها قال العاصي ولو كان خشبة كره إحراقها .

### ( فصل )

فذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن وبأساء الله تعالى قال عطاء : لا بأس بكتب القرآن في قبلة المسجد ، وأما كتابة الحروف من القرآن ، فقال مالك لا بأس به إذا كان في قصبة أو جلد وخرز عليه وقال أصحابنا : إذا كتب في الخرز قرآنا مع غيره فليس بحرام . ولكن الأولى تركه ، لكونه يحمل في حال الحدث ، وإذا كتب يصان بما قاله الامام مالك رحمه الله ، وبهذا أفنى الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله

### ( فصل : في النفث مع القرآن للرقبة )

روى ابن أبي داود عن أبي جحيفة الصحابي رضي الله عنه واسمه ذهب بن عبد الله وقيل غير ذلك وعن الحسن البصري وإبراهيم النخعي أنهم كرهوا ذلك ، والمختار أن ذلك غير مكروه بل هو سنة مستحبة ، فقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها « أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيها قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات » رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما وفي روايات في الصحيحين زيادة على هذا ، ففي بعضها قالت عائشة رضي الله عنها « فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به » وفي بعضها « كان النبي ﷺ ينث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات قالت عائشة رضي الله عنها فلما ثقل كنت أنث عليه بهن وامسح بيد نفسه لبركتها »<sup>(١)</sup> قال أهل اللغة : النفث عليه بهن لطيف بلاريق ، والله أعلم .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٧٠/٧ ، ١٧٤ وأحمد ١٦٦/٦ والنووي في الأذكار برقم ١٢٢

## الباب الثامن في الآيات والسور المستحبة في أوقات وأحوال مخصوصة

اعلم أن هذا الباب واسع جدا ، لا يمكن حصره ، لكثرة ما جاء فيه ، ولكن نشير إلى أكثره ، أو كثير منه بعبارات أوجيزة فإن أكثر الذي نذكره فيه معروف للخاصة والعامة ، ولهذا لا أذكر الأدلة في أكثره ، فمن ذلك كثرة الاعتناء بتلاوة القرآن في شهور رمضان ، وفي العشر الأخير أكد ، وليالي الوتر منه أكد ، ومن ذلك العشر الأولى من ذى الحجة ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وبعد الصبح ، وفي الليل ، وينبغي أن يحافظ على قراءة يس والواقعة وتبارك ( الملك ) .

### ( فصل )

السنة أن يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة في الركعة الأولى سورة ألم تنزيل بكمالها ، وفي الثانية هل أتى على الإنسان بكمالها ، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل منها ، ويخرج واحدة منها مع تمطيط القراءة ، بل ينبغي أن يقرأها بكمالها ، ويخرج قراءته مع ترتيل ، والسنة أن يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى سورة الجمعة بكمالها ، وإن شاء ( سبح اسم ربك الأعلى ) ، وفي الثانية ( هل أتاك حديث الغاشية ) ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليجتنب الاقتصار على البعض ، وليفعل ما قدمناه ، والسنة في صلاة العيد في الركعة الأولى سورة ق ، وفي الثانية سورة اقتربت الساعة بكمالها ، وإن شاء سبح ، وهل أتاك ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ وليجتنب الاقتصار على البعض .

### ( فصل )

ويقرأ في ركعتي سنة الفجر بعد الفاتحة ، قل يا أيها الكافرون وفي الثانية قل هو الله أحد ، وإن شاء قرأ في الأولى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ الآية ، وفي الثانية : ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية فكلاهما صحيح من فعل رسول الله ﷺ ويقرأ في سنة المغرب ( قل يا أيها الكافرون ) ( قل هو الله أحد ) ويقرأ بهما في ركعتي الطواف ، وركعتي الاستخارة ، ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات في الركعة الأولى ( سبح اسم ربك الأعلى ) وفي الثانية ( قل يا أيها الكافرون ) وفي الثالثة ( قل هو الله أحد ) والمعوذتين .

### ( فصل )

ويستحب أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة لحديث أبي سعيد الخدري رضى الله عنه وغيره فيه . قال الإمام الشافعى في الأم ويستحب أن يقرأها أيضا ليلة الجمعة ، ودليل هذا ما رواه أبو محمد الدارمي بإسناده عند أبي سعيد الخدري رضى الله عنه قال « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له النور فيما بينه

وبين البيت العتيق ، وذكر الدارمي حديثاً في استحباب قراءة سورة هود يوم الجمعة ، وعن مكحول التابعي الجليل استحباب قراءة آل عمران يوم الجمعة .

### ( فصل )

ويستحب الاكثار من تلاوة آية الكرسي في جميع المواطن ، وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه ، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة ، فقد صح عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال « أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كل صلاة » رواه أبو داود والترمذي والنسائي قال الترمذي : حديث صحيح<sup>(١)</sup> يستحب أن يقرأ عند النوم آية الكرسي ، وقل هو الله أحد ، ، والغسق وآخر سورة البقرة ، فهذا مما يهتم له ، ويتأكد الاعتناء به ، فقد ثبت فيه أحاديث صحيحة عن أبي سعيد البدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما في ليلة كفتاه » قال جماعة من أهل العلم كفتاه عن قيام الليل وقال آخرون : كفتاه المكروه في ليلته وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبي ﷺ كان كل ليلة يقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين<sup>(٢)</sup> »

وعن إبراهيم النخعي قال « كانوا يستحبون أن يقرءوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات قل هو الله أحد ، والمعوذتين » اسناد صحيح على شرط مسلم عن عائشة رضى الله عنها « كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل » رواه الترمذي ، وقال حسن . ويستحب أن يقرأ إذا استيقظ من النوم كل ليلة آخر آل عمران من قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات ﴾ إلى آخرها ، فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ خواتيم آل عمران إذا استيقظ<sup>(٣)</sup> »

### ( فصل : فيما يقرأ عند المريض )

يستحب أن يقرأ عند المريض بالفاتحة لقوله ﷺ في الحديث الصحيح فيها « وما أدراك أنها رقية » ويستحب أن يقرأ عنده قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس مع النفث في اليدين ، فقد ثبت في الصحيحين من فعل رسول الله ﷺ وقد تقدم بيانه في فصل النفث في آخر الباب الذى قبل هذا ، وعن طلحة بن مطرف قال : كان المريض إذا قرئ عنده القرآن وجد لذلك خفة ، فدخلت على خثيمة وهو مريض فقلت إني أراك اليوم صالحاً ، فقال إني قرئ عندي القرآن ، وروى الخطيب أبو بكر البغدادى رحمه الله بإسناده : أن الرمادى رضى الله عنه كان إذا اشتكى شيئاً قال هاتوا أصحاب الحديث فإذا حضروا قال : اقرءوا على الحديث ، فهذا الحديث فالقرآن أولى .

(١) أخرجه أبو داود في سننه ( كتاب الصلاة ) باب في الاستغفار ١٨١/٢ رقم ١٥٢٣ والنسائي في سننه ( الافتتاح ) باب الأمر بقراءة المعوذات والترمذي في سننه في ( ثواب القرآن وفوائده ) برقم ٢٩٠٥ وقال : حسن قريب

(٢) سبق تخرجه

(٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس ( فضائل القرآن ) كتاب التفسير : تفسير سورة آل عمران ٥١/٦ بخوه

## (فصل : فيما يقرأ عند الميت)

قال العلماء من أصحابنا وغيرهم : يستحب أن تقرأ عنده يس لحديث معقل بن يسار رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « اقرأوا يس على موتاكم » رواه أبو داود والنسائي<sup>(١)</sup> في عمل اليوم والليلة وابن ماجه بإسناد ضعيف ، وروى مجالد عن الشعبي قال : كانت الأنصار إذا حضروا عند الميت أقرءوا سورة البقرة ، ومجالد ضعيف ، والله أعلم .

### الباب التاسع في كتابة القرآن وإكرام المصحف

اعلم أن القرآن العزيز كان مرتباً في زمن النبي ﷺ على ما هو في المصاحف اليوم ، ولكن لم يكن مجموعاً في مصاحف بل كان محفوظاً في صدور الرجال ، فكان طوائف من الصحابة يحفظونه كله وطوائف يحفظونه أبعاضاً منه ، فلما كان زمن أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقتل كثير من حملة قرآن خاف موتهم واختلاف من بعدهم فيه فاستشار الصحابة رضى الله عنهم في جمعه في مصحف فأشاروا بذلك فكتبه في مصحف وجعله في بيت حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فلما كان زمن عثمان رضى الله عنه ، وانتشر الاسلام خاف عثمان وقوع الاختلاف المؤدى إلى ترك شيء من القرآن أو الزيادة فيه فنسخ من ذلك المجموع الذى عند حفصة الذى أجمعت الصحابة عليه مصاحف وبعث بها إلى البلدان وأمر بإتلاف ما خالفها ، وكان فعله هذا باتفاق منه ومن على بن أبى طالب وسائر الصحابة وغيرهم رضى الله عنهم : وإنما لم يجعله النبي ﷺ في مصحف واحد لما كان يتوقع من زيادته ونسخ بعض المتلو ، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ فلما أمن أبو بكر وسائر الصحابة ذلك التوقع ، واقتضت المصلحة جمعه فعلموه رضى الله عنهم ، واختلفوا في عدد المصاحف التى بعث بها عثمان فقال الإمام أبو عمر الدانى أكثر العلماء على أن عثمان كتب أربع نسخ فبعث إلى البصرة إحداهن ، وإلى الكوفة أخرى ، وإلى الشام أخرى ، وحبس عنده أخرى ، وقال أبو حاتم السجستاني . كتب عثمان سبعة مصاحف بعث واحداً إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، وهذا مختصر ما يتعلق بأول جمع المصحف وفيه أحاديث كثيرة في الصحيح وفي المصحف ثلاث لغات ضم الميم وكسرها وفتحها ، فالضم والكسر مشهوران ، والفتح ذكرها أبو جعفر النحاس وغيره .

(١) أخرجه أبو داود في سننه (كتاب الجنائز) باب القراءة عند الميت ٤٨٩/٣ رقم ٣١٢١ . والنسائي في عمل اليوم والليلة برقم ١٠٨٢ وابن ماجه في سننه (كتاب الجنائز) برقم ١٤٤٨



## ( فصل )

اتفق العلماء على استحباب كتابة المصحف وتحسين كتابتها وتبينها وإيضاحها ، وتحقيق الخط دون مشقة ، وتعليقه قال العلماء ويستحب نقط المصحف وشكله فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيحه ، وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كراهاه ، في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم فلا منع ، ولا يتمتع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة ، فلم يمنع منه كفظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك والله اعلم .

## ( فصل )

لا تجوز كتابة القرآن بشيء بخس ، وتكره كتابته على الجدران عندنا ، وبقية مذهب عطاء الذي قدمناه ، وقد قدمنا أنه إذا كتب على الأطعمة ، فلا بأس بأكلها وأنه إذا كتب على خشبة كره احراقها .

## ( فصل )

أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه قال أصحابنا وغيرهم : ولو ألقاه مسلم في القاذورات والعياذ بالله صار الملقى كافراً ، قالوا ويحرم توسده ، بل توسد آحاد كتب العلم حرام ، ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه ، لأن القيام مستحب للفضلاء من العلماء والأخبار ، فالمصحف أولى ، وقد قررت دلائل استحباب القيام في الجزء الذي جمعه فيه ، وروينا في مسند الدارمي بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة « أن عكرمة بن أبي جهل رضى الله عنه كان يضع المصحف على وجهه ، ويقول : كتاب ربى كتاب ربى » .

## ( فصل )

تحرم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو إذا خيف وقوعه في أيديهم للحديث المشهور في الصحيحين « أن رسول الله نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » ويحرم بيع المصحف إلى الذمى ، فإن باعه ففى صحة البيع قولان للشافعى : أصحهما لا يصح ، والثاني يصح ويؤمر في الحال بإزالة ملكه عنه ، ويمنع المجنون والصبي الذي لا يميز من مس المصحف مخافة انتهاك حرمة ، وهذا المنع واجب على الولي وغيره ممن رآه يتعرض لحمله .

## ( فصل )

يحرم على المحدث مس المصحف وحمله ، سواء حمله بعلاقته أو بغيرها ، سواء مس نفس الكتابة أو الحواشى أو الجلد ويحرم مس الخريطة والغلاف والصندوق إذا كان فيهما المصحف هذا هو المذهب المختار ، وقيل لا تحرم هذه الثلاثة وهو ضعيف ولو كتب القرآن في لوح فحكمه حكم المصحف سواء قل المكتوب أو أكثر حتى لو كان بعض آية كتب للدراسة حرم مس اللوح .

## ( فصل )

إذا تصفح المحدث أو الجنب أو الحائض أوراق المصحف بعود أو شبهه ، ففى جوازه وجهان لأصحابنا : أظهرهما جوازه ، وبه قطع العراقيون من أصحابنا ، لأنه غير ماس ولا حامل ، والثاني تحريمه لأنه يعد حاملاً للورقة والورقة كالجميع وأما إذا لف كمه على يده وقلب الورقة فحرام بلا خلاف وغلط بعض أصحابنا فحكى فيه وجهين ، والصواب القطع بالتحريم لأن القلب يقع باليد لا بالكم .

## ( فصل )

إذا مس المحدث أو الجنب أو الحائض أو حمل كتاباً من كتب الفقه أو غيره من العلوم وفيه آيات من القرآن أو ثوباً مطرزاً بالقرآن ، أو دراهم أو دنائير منقوشة به ، أو حمل متاعاً في جملته مصحف ، أو لمس الجدار أو الحلوى أو الخبز المنقوش به ، فالذهب الصحيح جواز هذا كله لأنه ليس بمصحف . . . . . وأما كتب تفسير القرآن ، فإن كان القرآن فيها أكثر من غيره حرم مسها وحملها ، وإن كان غيره أكثر كما هو الغالب ففيها ثلاثة أوجه : أصحها لا يحرم ، والثاني يحرم والثالث أن كان القرآن بخط متميز بغلظ أو حمرة أو غيرها حرم ، وإن لم يتميز لم يحرم قلت : ويحرم المس إذا استويا قال صاحب التتمة وإذا قلنا لا يحرم فهو مكروه ، وأما كتب حديث رسول الله ﷺ فإن لم يكن فيها آيات من القرآن لم يحرم مسها ، والأولى ألا تمس إلا على طهارة وإن كان فيها آيات من القرآن لم يحرم على المذهب وفيه وجه أنه يحرم وهو الذى فى كتب الفقه .

## ( فصل )

إذا كان فى موضع من بدن المتطهر نجاسة غير معفو عنها ، حرم عليه مس المصحف بموضع النجاسة بلا خلاف ، ولا يحرم بغيره على المذهب الصحيح المشهور الذى قاله جماهير أصحابنا وغيرهم من العلماء .

## ( فصل )

من لم يجد ماء فتيمم حيث يجوز التيمم له مس المصحف ، سواء كان تيممه للصلاة ، أو لغيرها مما يجوز التيمم له ، وأما من لم يجد ماء ولا تراباً ، فإنه يصلى على حسب حاله ، ولا يجوز له مس المصحف لأنه محدث جوزنا له الصلاة للضرورة ، ولو كان معه مصحف ولم يجد من يودعه عنده وعجز عن الوضوء جاز له حمله للضرورة .  
أما إذا خاف على المصحف من حرق ، أو غرق ، أو وقوع فى نجاسة ، أو حصوله فى يد كافر ، فإنه يأخذه ولو كان محدثاً للضرورة .

## ( فصل )

يصح بيع المصحف وشراؤه ، ولا كراهة في شرائه ، وفي كراهة بيعه وجهان لأصحابنا أصحابهما وهو نص الشافعي أنه يكره ، ومن قال لا يكره بيعه وشراؤه الحسن البصري وعكرمة والحكم بن عيينه ، وهو مروى عن ابن عباس وكرهت طائفة من العلماء بيعه وشراؤه ، وحكاه ابن المنذر عن علقمة وابن سيرين والنخعي وشريح ومسروق وعبد الله بن زيد . وروى عن عمرو بن موسى الأشعري التغلبي في بيعه ، وذهبت طائفة إلى الترخيص في الشراء وكراهة البيع ، حكاه ابن المنذر عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأحمد بن حنبل واسحق بن راهوية والله اعلم . ا . هـ

## القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم

يقول الاستاذ/ عبد الرحمن بن عبد الخالق :  
القرآن الكريم كتاب الله الخالد المعجز المنزل على عبده ورسوله وخاتم رسله محمد ﷺ والذي أذن الله بحفظه من أن يغير أو يبدل ، أو يزاد فيه ، أو ينقص منه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

وهو الكتاب الذي بين أيدينا في مشارق الأرض ومغاربها : الكتاب الذي تلقاه الرسول من جبريل ، وجبريل من رب العزة تبارك وتعالى ، والذي بلغه رسول الله ﷺ إلى أصحابه الأطهار ، وحمله الدين السفرة الكرام والذي جمعه الصديق بإشارة الفاروق ، ودونه ذو النورين عثمان ، وأجمعت الأمة المسلمة عليه ، هذا الكتاب هو دستور المسلمين وشريعتهم ، وصراطهم المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهدايته الدائمة ، وموعظته إلى عباده ، آية صدق رسوله الباقية إلى آخر الدنيا ، وهو سبيل عز المسلمين في كل العصور والدهور .

ولما كان القرآن كذلك تعبدنا الله بتلاوته ، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه ، وأخبر النبي ﷺ أن من قرأ حرفاً واحداً منه كان له به عشر حسنات وأن من قرأه وهو يتعتع فيه فله أجران ، ومن كان ماهراً به كان من السفرة الكرام البررة من الملائكة يوم القيامة ، وأن قارئ القرآن الحافظ له يقال له يوم القيامة : اقرأ ورتل وارق كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها . فلا يزال يرقى في منازل الجنة حتى ينتهي آخر حفظة وهذه منزلة عظيمة ليست لأحد إلا لحافظ القرآن .

ولما كان هذا فضل حفظ القرآن ، فإن أحببت أن أضع بين يدي إخواني بعض القواعد العامة التي تساعدكم في حفظ القرآن ، ولينالوا هذه المنزلة العظيمة ، أو بعضاً منها ، وما لا يدرك كله فلا بأس بادراك بعضه أو جلّه وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .

### القاعدة الأولى

الإخلاص : وجوب إخلاص النية ، وإصلاح القصد ، وجعل حفظ القرآن والعناية به من أجل الله سبحانه وتعالى ، والفوز بجنته ، وحصول مرضاته ، ونيل تلك الجوائز العظيمة لمن قرأ القرآن وحفظه ، قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا الله الدين الخالص ﴾ (١) وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيرى تركته وشكره » متفق عليه (٢).

فلا أجر ولا ثواب لمن قرأ القرآن وحفظه رياء ، أو سمعه ولا شك أن من قرأ القرآن ، مريداً الدنيا ، طالباً به الأجر الدنيوى فهو آثم .

### القاعدة الثانية

تصحيح النطق والقراءة :

أول خطوة في طريق الحفظ بعد الإصلاح ، هى وجوب تصحيح النطق بالقرآن ، ولا يكون ذلك إلا بالسماع من قارئ مجيد ، أو حافظ متقن ، والقرآن لا يؤخذ إلا بالتلقى ، فقد أخذته الرسول ﷺ وهو أفصح العرب لساناً من جبريل شفاهما ، وكان الرسول نفسه يعرض القرآن على جبريل كل سنة مرة واحدة في رمضان ، وعرضه ﷺ في العام الذى توفى فيه عرضتين ( البخارى ) ، وكذلك علمه الرسول ﷺ لأصحابه شفاهما ، وسمعه منهم بعد أن أخذوه جيلاً بعد جيل ، وهذا هو الواجب الآن أخذ القرآن مشافهة من قارئ مجيد ، وتصحيح القراءة أولاً بأول ، وعدم الاعتماد على النفس في قراءة القرآن ، حتى ولو كان الشخص ملماً بالعربية وعليها بقواعدها ، وذلك أن في القرآن آيات كثيرة قد تآتى على خلاف المشهور من قواعد العربية

### القاعدة الثالثة

تحديد نسبة الحفظ كل يوم .

يجب على مريد حفظ القرآن أن يحدد ما يستطيع حفظه في اليوم عدداً من الآيات مثلاً ، أو صفحة أو صفحتين من المصحف ، أو ثمناً للجزء وهكذا . فيبدأ بعد تحديد مقدار حفظه وتصحيح قراءته بالتكرار والترداد ، ويجب أن يكون هذا التكرار مع التغنى ، وذلك لدفع السآمة أولاً ، وليثبت الحفظ ثانياً ، وذلك أن التغنى بإيقاع محبب إلى السمع يساعد على الحفظ ، ويعود اللسان على نغمة معينة فيتعرف بذلك على الخطأ رأساً عندما يختل وزن القراءة والنغمة المعتادة للآية ، فيشعر القارئ أن لسانه لا يطاوعه عند

(١) سورة الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

(٢) أخرجه الزبيدي في تحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ٢٦٣/٨

الخطأ ، وإن اختلت النعمة فيعاود التذكر ، هذا إلى جانب أن التغنى بالقرآن لا يجوز مخالفته ، لقوله ﷺ : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا »<sup>(١)</sup>

### القاعدة الرابعة

لا تجاوز مقررك اليومي حتى تحيد حفظه تماماً :

لا يجوز للحافظ أن ينتقل إلى مقرر جديد في الحفظ إلا إذا أتم تماماً حفظ المقرر القديم ، وذلك ليثبت ما حفظه تماماً في الذهن ، ولا شك أن مما يعين على حفظ المقرر ، أن يجعله الحافظ شغله طيلة ساعات النهار والليل ، وذلك بقراءته في الصلاة السرية ، وإن كان إماماً ففي الجهرية ، وكذلك في النوافل ، وكذلك في أوقات انتظار الصلوات ، وفي ختام الصلاة ، وبهذه الطريقة يسهل الحفظ جداً ، ويستطيع كل أحد أن يمارسه ولو كان مشغولاً بأشغال كثيرة ، لأنه لن يجلس وقتاً مخصوصاً لحفظ الآيات ، وإنما يكفي فقط تصحيح القراءة على قارئ ثم مزاولة الحفظ في أوقات الصلوات وفي القراءة في النوافل والفرائض ، وبذلك لا يأتي الليل إلا وتكون الآيات المقرر حفظها ، قد ثبتت تماماً في الذهن وإن جاء ما يشغل في هذا اليوم ، فعلى الحافظ ألا يأخذ مقرراً جديداً ، بل عليه أن يستمر يومه الثاني مع مقرره القديم حتى يتم حفظه تماماً .

### القاعدة الخامسة

حافظ على رسم واحد لمصحف حفظك :

مما يعين تماماً على الحفظ أن يجعل الحافظ لنفسه مصحفاً خاصاً لا يغيره مطلقاً ، وذلك أن الانسان يحفظ بالنظر ، كما يحفظ بالسمع ، وذلك أن صور الآيات ومواضعها في المصحف تنطبع في الذهن مع كثرة القراءة والنظر في المصحف ، فإذا غير الحافظ مصحفه الذي يحفظ فيه ، أو حفظ من مصاحف شتى متغيرة المواضع فإن حفظه يتشتت ويصعب عليه الحفظ جداً ، ولذلك فالواجب أن يحافظ حافظ القرآن على رسم واحد للآيات لا يغيره

### القاعدة السادسة

الفهم طريق الحفظ :

من أعظم ما يعين على الحفظ ، فهم الآيات المحفوظة ، ومعرفة وجه ارتباط بعضها ببعض ، ولذلك يجب على الحافظ أن يقرأ تفسيراً للآيات التي يريد حفظها ، وأن يعلم وجه ارتباط بعضها ببعض وأن يكون حاضر الذهن في القراءة وذلك ليسهل عليه استذكار الآيات ، ومع ذلك فيجب أيضاً عدم الاعتماد في الحفظ على الفهم وحده للآيات ، بل يجب أن يكون التزويد للآيات هو الأساس ، وذلك

(١) أخرجه الميثمي في جمع الزوائد ٢٦٧/٢ والبيهقي في سننه ٢٣٦/١٠

حتى ينطبق اللسان بالقراءة ، وان تشتت الذهن احيانا عن المعنى ، واما من اعتمد على الفهم وحده فإنه ينسى كثيرا وينقطع في القراءة بمجرد شتات ذهنه ، وهذا يحدث كثيرا وبخاصة عند القراءة الطويلة .

### القاعدة السابعة

لا تجاوز سورة حتى تربط أولها بآخرها :

بعد إتمام سورة ما من سور القرآن ، لا ينبغي للحافظ أن ينتقل إلى سورة أخرى ، إلا بعد إتمام حفظها تماماً ، وربط أولها بآخرها ، وأن يجرى لسانه بها بسهولة ويسر ، ودون إعنائات فكر وكد في تذكر الآيات ، ومتابعة القراءة ، بل يجب أن يكون الحافظ كالماء ، وقرأ الحافظ السورة دون تلكؤ حتى ولو شت ذهنه عن متابعة المعاني أحيانا كما يقرأ القارئ منا الفاتحة دون عناء واستحضار ، وذلك من كثرة ترادها وقراءتها ، ومع أن الحفظ لكل سور القرآن لن يكون كالفاتحة إلا نادراً ، ولكن القصد هو التمثيل ، والتذكير بأن السورة ينبغي أن تكتب في الذهن وحدة مترابطة متماسكة ، وألا يجاوزها الحافظ إلى غيرها إلا بعد إتقان حفظها .

### القاعدة الثامنة

التسميع الدائم : يجب على الحافظ ألا يعتمد على حفظه بمفرده ، بل يجب أن يعرض ما حفظه دائماً على حافظ آخر ، أو متابع في المصحف ، وحذا لو كان هذا مع حافظ متقن ، وذلك حتى ينبه الحافظ عما يمكن أن يدخل في القراءة ، من خطأ وما يمكن أن يكون مريد الحفظ قد نسيه من القراءة وردده دون وعي ، فكثيراً ما يحفظ الفرد منا السورة خطأ ، ولا ينتبه لذلك حتى مع النظر في المصحف لأن القراءة كثيراً ما تسبق النظر فينظر مريد الحفظ في المصحف ولا يرى بنفسه موضع الخطأ من قراءته ولذلك فيكون تسميعه القرآن لغيره وسيلة لاستدراك هذه الأخطاء وتنبهها لذهنه وحفظه

### القاعدة التاسعة

المتابعة الدائمة :

يختلف القرآن في الحفظ عن أى محفوظ آخر من الشعر أو النثر ، وذلك أن القرآن سريع الهروب من الذهن ، بل قال رسول الله ﷺ « والذي نفسى بيده هو أشد ثقلًا من الأبل في عقلها (متفق عليه) »<sup>(١)</sup> فلا يكاد حافظ القرآن يتركه قليلاً حتى يهرب منه القرآن وينساه سريعاً ، ولذلك فلا بد من المتابعة الدائمة والسهر الدائم على المحفوظ من القرآن ، وفي ذلك يقول الرسوا ﷺ « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت »<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤١٧/١ والطبراني في الكبير ٢٩١/١٧ ويعنه أخرجه البخارى ٢٣٨/٦ ومسلم برقم ٧٩١/٢٣١

(٢) أخرجه البخارى في صحيحه (كتاب التفسير) باب استذكار القرآن وتعاهد ٢٣٧/٦٥ ومسلم في صحيحه ٥٤٣/١ رقم ٧٨٩/٢٢٦

وقال أيضا « تعهدوا القرآن ، والذي نفسى بيده هو أشد تفصيلاً من الأبل في عقلها » ( أخرجهما البخارى ومسلم )<sup>(١)</sup> وهذا يعنى أنه يجب على حافظ القرآن أن يكون له ورد دائم أقله جزء من الثلاثين جزءاً من القرآن كل يوم ، وأكثر قراءة عشرة أجزاء لقوله ﷺ « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه »<sup>(٢)</sup>

وبهذه المتابعة الدائمة ، والرعاية المستمرة يستمر الحفظ ويبقى وبدونه يتفلت القرآن .

### القاعدة العاشرة

العناية بالمتشابهات : القرآن متشابه في معانيه والفاظه وآياته قال تعالى : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاقيقشعمر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾<sup>(٣)</sup> وإذا كان القرآن فيه نحو من ستة آلاف آية ونيف - فإن هناك نحو من ألفى آية فيها تشابه بوجه ما ، قد يصل أحيانا حد التطابق ، أو الاختلاف في حرف واحد ، أو كلمة واحدة أو اثنين أو أكثر . لذلك يجب على قارئ القرآن المجيد ، أن يعتنى عناية خاصة بالمتشابهات من الآيات ، ونعنى بالتشابه هنا التشابه اللفظى وعلى مدى العناية بهذا التشابه ، تكون إجادة الحفظ ، ويمكن الاستعانة على ذلك بكثرة الاطلاع فى الكتب ، التى اهتمت بهذا النوع من الآيات المتشابهة ومن أشهرها :

- ١ - درة التزليل وغرة التأويل ، فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز - للخطيب الاسكافى
- ٢ - أسرار التكرار فى القرآن - لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني

### القاعدة الحادية عشرة

اغتنم سنى الحفظ الذهبية :

الموفق حتماً من اغتنم سنوات الحفظ الذهبية وهى من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين تقريبا فالإنسان فى هذه السن ، تكون حافظته جيدة جدا ، بل هى سنوات الحفظ الذهبية ، فدور الخامسة يكون الإنسان دون ذلك ، وبعد الثالثة والعشرين تقريبا يبدأ الخط البيانى للحفظ بالهبوط ، ويبدأ خط الفهم والاستيعاب فى الصعود ، وعلى الإنسان أن يستغل سنوات الحفظ الذهبية فى حفظ كتاب الله أو ما استطاع من ذلك ، والحفظ فى هذه السن يكون سريعا جدا ، والنسيان يكون بطيئا جداً بعكس ما وراء ذلك ، حيث يحفظ الإنسان ببطء وصعوبة ، وينسى بسرعة كبيرة ولذلك صدق من قال « الحفظ فى الصغر ، كالنقش على الحجر ، والحفظ فى الكبر كالنقش على الماء ، فعلينا أن نغتنم سنوات الحفظ الذهبية ، إن لم يكن فى أنفسنا ففى أبنائنا وبناتنا تمت القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ( كتاب صلاة المسافرين وقصرها ) باب فضائل القرآن وما يتعلق به : تعاهد القرآن . . . . ٥٤٥/١ رقم ٧٩١/٢٣١ والبخارى فى صحيحه ( باب استذكار القرآن وتعاهده ) ٢٣٨/٦

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ٥٠١/٢ وأحمد فى مسنده ١٦٤/٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٦٩/٢

(٣) سورة الزمر آية : ٢٣

## دعاء ختم القرآن

صدق الله العظيم الذى لا إله إلا هو ، المتوحد فى الجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً . المتفرد بتعريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديراً وتديباً المتعالى بعظمته ومجده ﴿ الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾

وصدق رسوله الذى أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيراً ونذيراً ﴿ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾

صدق الله العظيم ، وصدق رسوله النبى الكريم .

صدق الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾

ونحن على ما قال ربنا وخالقنا ورازقنا من الشاهدين ، ولما أوجب وألزم غير جاحدين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على خاتم النبيين ، وعلى أبويه آدم وإبراهيم ، وعلى أخوته من النبيين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وعنا معهم بفضلِكَ وكرمِكَ يا أكرم الأكرمين

اللهم انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم ، الذى رفعت مكانه ، وأيدت سلطانه ، وقلت يا أعز من قائل

سبحانه ﴿ فإذا قرناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾

● أحسن كتبكَ نظاماً ، وأفصحها كلاماً ، وأبينها حلالاً وحراماً . محكم البيان ، ظاهر البرهان ، محروس من الزيادة والنقصان . فيه وعد ووعد ، وتقويف وتهديد ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾<sup>(١)</sup>

اللهم إنا عبيدكَ ، بنو عبيدكَ ، بنوا أمانك ، نواصينا بيدك ، ماضى فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك ، نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا وغمومنا وسائقنا ودليلنا إليك وإلى جناتك النعيم .

اللهم ألبسنا به الحلل ، وأسكننا به الظلل ، وادفع به عنا النقم ، واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين ، وعند النعماء من الشاكرين ، وعند البلاء من الصابرين ، ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين ، فشغلته فى الدنيا عن الدين ، فأصبح من النادمين ، وفى الآخرة من الخاسرين .

اللهم انفعنا بالقرآن العظيم ، وبارك لنا فى الآيات والذكر الحكيم .



● اللهم ذكرنا منه ما نسينا ، وعلمنا منه ما جهلنا ، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا .

● اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويتلوه حق تلاوته .

● اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن مقاده إلى رضوانك والجنة ، ولا تجعلنا ممن تبعه القرآن فزج في قفاه إلى النار .

● اللهم اجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده ، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده .

● واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا أرحم الراحمين .

● اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، واهدهم سبل السلام ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبارك لهم في أسماعهم وأبصارهم وذرياتهم وأزواجهم أبداً ما أبقيتهم واجعلهم شاكرين لنعمتك ، مشنين بها عليك ، وأتمها عليهم برحمتك يا أرحم الراحمين

● اللهم اغفر لجميع المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك .

● اللهم اغفر لهم وارحمهم ، وعافهم واعف عنهم ، وأكرم نزهم وأوسع مدخلهم وأغسلهم بالماء والثلج والبرد ، ونقهم من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس برحمتك يا أرحم الراحمين .  
اللهم ارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه تحت الجنادل والتراب وحدنا .

اللهم آنس وحشتنا ، وارحم غربتنا ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

لا إله إلا أنت ، يامن بيده مفاتيح الفرج ، إذا أغلقت الأبواب ، يارحمانا إذا انقطعت الأسباب ، وحيل بيننا وبين الأهل والأصحاب .

● اللهم إنا نسألك الإيمان ، والعفو عما سلف وكان من الذنوب والعصيان .

● اللهم لا تجعل بيننا وبينك في رزقنا أحداً سواك ، واجعلنا أغنى خلقك بك ، وأفقر عبادك إليك ، وهب لنا غنى لا يطفئنا ، وصحة لا تلهينا ، واغننا عن أغنيته عنا ، واجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتوفنا وأنت راض عنا غير غضبان ، واحشرنا في زمرة المساكين يا أرحم الراحمين .

● ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ (١)

● اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله ما علمنا منه وما لم نعلم . ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون .

● اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ونسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار .

● اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا همّاً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا مريضاً إلا شفيته ، ولا ضالاً إلا هديته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هي لك رضا ولنا فيها صلاح ، إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

● اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ، ونفس لا تشبع ، ودعوة لا يستجاب لها .

● اللهم إنا نسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب العمل الذي يقربنا إلى حبك .

● اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم والغفران بالجنة والنجاة من النار .

● اللهم اهدنا لصالح الأعمال والأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت وأصرف عنا سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت .

● اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

● اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وصفاتك العلى ، يا واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يكن له كفواً أحد ، أن تطهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب وأعينا من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

● اللهم إنا نسألك خشيتك في السر والعلن ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضى ، ونسألك القصد في الفقر والغنى ، ونسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك والنظر إلى وجهك الكريم ، في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

اللهم يا بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، والعزة التي لا ترام ، يا رحيم ، يا رحمن ، إنك قلت وقولك الحق ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ وإنك لا تخلف الميعاد ، وقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا ، فهذا الدعاء ومنك الاجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان . ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾  
﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾  
﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾

﴿ سبحان ربك ، رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾  
خاتمة نسال الله حسننها .

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاماً على أشرف انبيائه ورسله مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، صلى الله عليه ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

## وبعد

فلا يسعني إلا أن أشكر المولى تبارك وتعالى على نعمة توفيقه ومزيد فضله حيث وفقني لتفسير الكتاب العزيز ، أسأله سبحانه أن ينفع به ، وأن يقبله ، فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صواباً خالصاً ، فإن أحسنت فذلك من فضل ربي ، وإن كانت الآخرة فمن نفسي وما أبرئ نفسي ، كما أسأله تعالى أن يجعل كتابه الكريم شاهداً لنا لا علينا ، وأن يجعله شفيعاً لنا إلى الجنة ، وما استطعت أن اقتحم هذه الأسوار المنيعة وأنزل تلك البحار الطاهرة ، إلا بعد أن صحبت هذا الكتاب ثلاثين عاماً وكأني أقول له حياتي منك يميني وحيي فيك يدفعني ، وألقى الله السكينة في قلبي فتوكلت عليه واستعنت به واستخرته فكان ذلك التفسير قال الشاطبي رحمه الله في القرآن الكريم .

شعر :

وترداده تزداد فيه نجماً  
من القبر يلقاه سنأ مهلاً  
ومن أجله في ذروة العز يجتل  
وأجدر به سؤلاً إليه موصلاً  
مجلاً له في كل حال مجلاً  
ملابس أنوار من التاج والحل

وخير جلس لا يمل حديثه  
وحيث الفتى يرتاع في ظلماته  
هنالك يهنيه مقبلاً وروضة  
يناشد في إرضائه لحبيبته  
فيأبها القاريء به متمسكا  
هنيئاً مريثاً والبدال عليهما

تم بحمد الله طبع الجزء الثلاثون  
من رحاب التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

مدني - امريه البري

ت ١٩٩٥ / ١٤ / ١٥

الاستاذ المحترم احمد يحيى . مدير مكتب القصر لمدني - البعثة

سلام اليك عبيد ورحمة وبركاته . وبعد

والله انسال الله ببارك الله في رزقك ووليك وعلوك ايضا . تطير ما تقدره  
سبحه جبار . وعمد عزيز في افراج "رحاب بغير" لفضيله مولانا البصر  
الشيخ عبدالحيد كشد .

فما وعندك تبارك تماما عند الاستاذ وارفاق كالف ايضا

مع هذا فقد طرح هذا "الرحاب" في رحاب الدنيا وسيدنا الحيا .

وسيدنا ابي محسن وميرزا شيخنا الفاضل الشيخ عبدالحيد كشد .

مجزا لم اليه ههنا تطير ما تقدره في سبيل الله والاسلام والقرآن .

اما شيخنا العظيم :

فاتقا سحر صغيره من رزق آتاه المزاغة الى المولى تعالى انه يحفظه

وبارك لنا فيه . فقد قورح حياته بافراج "رحاب بغير" استطاع

مخاله انه يفرح في معالجة مواضع شتى . وعلم مختلف .

الفقه الاسلامي بفرعه ومذره وخطه المعرفه والديقه

الدعوى النبويه . المصنفات العلميه . المقائمه التاريخيه

الفقه البصري واليه في بفرع في بلاد العرب شرا وبرا .

التوحيد بمذاهبه وطرقه .

حتى اعلم القوي . والمطلوب للمدينه . - - -

لقد فرح في رحاب بغير عالم يزاويه بسبقه في غابر الاعداد . وسابع

الشيخ عبدالقادر الحافظ . بارك له فيه واحفظه وصحة وعافيه

الاستاذ الكريم / احمد يحيى

وصلة في اقتضاء "رحاب بغير" من الجهد بساع ليعتبر عند سورة الحقة

لذلك . اسوانه قد علم منسلا بافراج عن شبه الجهد باق ارباب العلم

بما في من جوده . ما تمحوا . وما كالف ايسارها . حتى يتبين من كل

والله ما نرا لو تفرقة باردا . ولفقه تحيا في لفضيله شيخنا البصر واستاذ

العلم الحافظ . بسم الله العظيم ورحمة له وبركاته )

عبدالعزیز عبدالحید البصری

مدير مكتب القصر

مدني - البعثة

## من الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك وسورة القلم وسورة الحاقة وسورة نوح وسورة الجن حتى الآية (١٥)

### \* سورة الملك

٧٢٩٧	..... مقدمة السورة	
٧٢٩٨	..... أول سورة الملك	الآيات ١ - ١١
٧٣٠٣	..... وعد ووعد	الآيات ١٢ - ١٥
٧٣٠٦	..... عظمة الله تعالى المطلقة	الآيات ١٦ - ٣٠
٧٣١٢	..... سياحة مباركة في سورة الملك	
٧٣٢٠	..... خسف الأرض آية من آيات الله	
٧٣٢٦	..... عالم الطير	

### \* سورة القلم

٧٣٣١	..... مقدمة السورة	
٧٣٣٢	..... أول سورة القلم	الآيات ١ - ٧
٧٣٣٩	..... من أخلاق النبي ﷺ	
٧٣٨٤	..... تفسير الآيات	الآيات ٨ - ١٦
٧٣٨٧	..... قصة أصحاب الجنة	الآيات ١٧ - ٣٣
٧٣٩٢	..... الصراع بين النفس والمال	
٧٤٠٢	..... أحكام إلهية عادلة	الآيات ٣٤ - ٥٢

### \* سورة الحاقة

٧٤٠٨	..... مقدمة السورة	
٧٤٠٩	..... أول السورة	الآيات ١ - ١٢
٧٤١٢	..... مقدمات القيامة وشواهدا	الآيات ١٣ - ٣٧
٧٤١٩	..... قسم صادق	الآيات ٣٨ - ٥٢

### \* سورة المعارج

٧٤٢٥	..... مقدمة السورة	
٧٤٢٦	..... أول السورة	الآيات ١ - ١٨
٧٤٣٠	..... من طبائع النفس الإنسانية وذكر أصحاب الجنة	الآيات ١٩ - ٣٥
٧٤٣٥	..... من أحوال المعاندين	الآيات ٣٦ - ٤٤

\* سورة نوح

- ٧٤٤٠ ..... - مقدمة السورة
- ٧٤٤١ ..... - أول سورة نوح      الآيات ١ - ٢٠
- ٧٤٤٦ ..... - موقف قوم نوح - عليه السلام - منه      الآيات ٢١ - ٢٨

\* سورة الجن

- ٧٤٦٤ ..... - مقدمة السورة
- ٧٤٦٥ ..... - أول سورة الجن      الآيات ١ - ١٥

إنتهى المجلد الثامن ويليه المجلد التاسع إن شاء الله

# محتويات المجلد التاسع

## الجزء التاسع والعشرون

باقى سورة الجن حتى آخر سورة الناس  
مع آداب قراءة وتعلم وحفظ ودعاء ختم القرآن

الصفحة

### \* سورة الجن

٧٤٧٣	.....	تابع الآيات ١ - ١٥
٧٥٧٧	التفكير	
٧٥٨٠	.....	الآيات ١٦ - ٢٨
٧٥٨١	معاني المفردات	
٧٥٨٣	التفكير	

### \* سورة المزمل

٧٥٨٩	.....	أول سورة المزمل
٧٥٩٠	.....	معاني المفردات
٧٥٩٣	التفكير	
٧٧٠٦	.....	الآية ٢٠
٧٧٠٧	التفكير	

### \* سورة المدثر

٧٧١٠	بين يدي السورة	
٧٧١١	أول السورة	الآيات ١ - ١٠
٧٧١٣	التفكير	
٧٧١٦	مصير زعماء الضلال	الآيات ١١ - ٣١
٧٧١٩	التفكير	
٧٧٦٠	آخر سورة المدثر، الحديث عن أهل سقر	الآيات ٣٢ - ٥٦
٧٧٦٣	التفكير	

### \* سورة القيامة

٧٧٧٥	مقدمة	
٧٧٧٦	أول سورة القيامة	الآيات ١ - ٢٥
٧٧٧٧	التفكير	
٧٧٨٣	صورة من مشاهد الموت	الآيات ٢٦ - ٤٠
٧٧٨٤	التفكير	

\* سورة الإنسان

٧٧٩٤	- أول سورة الإنسان	آيات ١ - ٢٢
٧٧٩٥	- النفس	
٧٨٠٢	- توجيهات ربانية	آيات ٢٣ - ٣١
٧٨٠٣	- النفس	

\* سورة المرسلات

٧٨١٠	- مقدمة	
٧٨١١		آيات ١ - ٢٨
٧٨١٢	- النفس	
٧٨١٩	- من صور الوعيد والوعد	آيات ٢٩ - ٥٠
٧٨٢٠	- النفس	

\* سورة النبأ

٧٨٢٥	- مقدمة	
٧٨٢٦		آيات ١ - ٣٠
٧٨٢٨	- النفس	
٧٨٣٥		آيات ٣١ - ٤٠
٧٨٣٦	- النفس	

\* سورة النازعات

٧٨٤٦	- مقدمة	
٧٨٤٧		آيات ١ - ٢٦
٧٨٤٨	- النفس	
٧٨٥٤		آيات ٢٧ - ٤٦
٧٨٥٥	- النفس	

\* سورة عبس

٧٨٦٢	- مقدمة	
٧٨٦٣		آيات ١ - ٢٣
٧٨٦٤	- النفس	
٧٨٦٩	- الكرم الإلهي الواسع	آيات ٢٤ - ٤٢
٧٨٧٠	- النفس	



\* سورة التكويد

٧٨٧٤	- مقدمة
٧٨٧٥	الآيات ١ - ١٤
٧٨٧٩	الآيات ١٥ - ٢٩

\* سورة الإنفطار

٧٨٨٥	- مقدمة
٧٨٨٥	الآيات ١ - ٨
٧٨٨٧	الآيات ٩ - ١٩

\* سورة المطففين

٧٨٩٠	- مقدمة
٧٨٩١	الآيات ١ - ١٧
٧٩٢٢	الآيات ١٨ - ٣٦

\* سورة الإنشقاق

٧٩٢٦	- مقدمة
٧٩٢٧	الآيات ١ - ١٥
٧٩٢٩	الآيات ١٦ - ٢٥

\* سورة البروج

٧٩٣٣	- مقدمة
٧٩٣٣	الآيات ١ - ١١
٧٩٤٢	الآيات ١٢ - ٢٢

\* سورة الطارق

٧٩٤٦	.....
------	-------

\* سورة الأعلى

٧٩٥٣	.....
------	-------

\* سورة الفاشية

٧٩٦٠	.....
------	-------

\* سورة الفجر

٧٩٧٤	.....
------	-------

\* سورة البالد

٧٩٨٥	.....
------	-------

٨٠٠٤	.....	* سورة الشمس
٨٠١٠	.....	* سورة الليل
٨٠٢٠	.....	* سورة الضحى
٨٠٢٤	.....	* سورة الشرح
٨٠٣٠	.....	* سورة التين
٨٠٣٤	.....	* سورة العلق
٨٠٤٠	.....	* سورة القدر
٨٠٥٠	.....	* سورة البينة
٨٠٥٥	.....	* سورة الزلزلة
٨٠٦١	.....	* سورة العاديات
٨٠٦٥	.....	* سورة القارعة
٨٠٦٩	.....	* سورة التكاثر
٨٠٧٩	.....	* سورة العصر
٨٠٨٢	.....	* سورة الهمزة
٨٠٨٧	.....	* سورة الفيل
٨١٠٢	.....	* سورة قريش
٨١٠٥	.....	* سورة الماعون
٨١١٠	.....	* سورة الكوثر
٨١١٧	.....	* سورة الكافرون
٨١٢٤	.....	* سورة النصر
٨١٢٨	.....	* سورة المسد
٨١٣٣	.....	* سورة الإخلاص
٨١٤٣	.....	* سورة الفلق
٨١٤٧	.....	* سورة الناس
٨٢٠٣	.....	- آداب حملة القرآن
٨٢٥٥	.....	- القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم
٨٢٦٠	.....	- دعاء ختم القرآن